الحاوي في التفسير

الشيخ

عبدالرحمن بن محمد القماش

المجلد السادس والثلاثون

الاجزاء من ٧٠٢ الى ٧٢٣

ٱلْحَاوِي فِي ٱلتَّقْسِيمِ

الشيخ عبدالرحمن بن محمد القماش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ اللَّهُ

الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞

وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۞

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

كتاب الحاوي في التفسير أكبر موسوعة في تفسير القرءان

الكريم حيث تحتوي على ٨٤٠ جزءا" موزعة على ٤١ مجلدا"

بذل فيه الشيخ الجليل " عبدالرحمن بن محمد القماش" جهدا"

كبيرا" و أسطوريا" في سبيل تأليف هذه الموسوعة العملاقة

وتم إكمال الموسوعة من قبل المكتبة الشاملة

في ١٤ حزيران ٢٠٠٩ وتم إكمال ملفات PDF

في آذار- نيسان ٢٠١٢ *

محتويات الكتاب

الجزء	الموضوع	الموضوع الفرعي	الصفحة
702	سورة الاحقاف	الآية 1 الى الآية 16	2
703	=	الآية 17 الى الآية 20	346
704	=	الآية 21 الى الآية 32	675
705	=	الآية 33 الى الآية 35	865
706	سورة محمد "صلى الله عليه وسلم"	فصول مهمة	1297
707	=	الآية 1 الى الآية 11	1486
708	=	الآية 12 الى الآية 19	1775
709	=	الآية 20 الى الآية 30	2244
710	=	الآية 31 الى الآية 38	2626
711	سورة الفتح	فصول مهمة	3138
712	=	الآية 1 الى الآية 10	3365
713	=	الآية 11 الى الآية 17	3614
714	=	الآية 18 الى الآية 28	3966
715	=	الآية 29	4244
716	سورة الحجرات	فصول مهمة	4807
717	=	الآية 1 الى الآية 8	5015
718	=	الآية 9 الى الآية 14	5296
719	=	الآية 15 الى الآية 18	5648
720	سورة ق	فصول مهمة	6357
721	=	الآية 1 الى الآية 22	6515
722	=	الآية 23 الى الآية 40	6808
723	=	الآية 41 الى الآية 45	7088

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثانى بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة الأحقاف

وحتى الآية ﴿ 16 ﴾ من السورة

(4/702)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(5/702)

قوله تعالى ﴿ حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (3) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

سورة الأحقاف

(بسم الله) الذي لا يذل من والى ولا يعز من عادى (الرحمن) الذي سبقت رحمته غضبه

بزواجر الإنذار (الرحيم) الذي يخص حزبه بعمل الأبرار للفوز في دار القرار بدخول الجنة والنجاة من النار .

﴿ حم ﴾ حكمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ التي هي النهاية في الصواب والسداد أحكمها الذي أحاطت قدرته فهو لا يخلف الميعاد .

(6/702)

ولما بنيت الجاثية على النظر في آيات الخافقين خطاباً لأهل الإيمان استدلالاً على يوم الفصل المدلول عليه في الدخان بآية ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ﴾ [الأنبياء : 16] والتي بعدها ، فأنتجت العلم بأن الكبرياء لخالقهما بما يشاهد من قهره للملوك فمن سواهم بالموت وما دونه من غير مبالاة بأحد وبينت – بما أفهمه الملك والكبرياء والحكمة لأن عادة من كان بهذا الوصف ألا يكون كلامه إلا بحسب الحاجة – أن الكتاب منزل نجوماً لبيان ما يحاولون به مدحض لحجتهم هادم لعزتهم بحكمته وعزته ، فثبت الحشر وحق النشر ، وختم بصفتي العزة والحكمة ، ذكر بما ثبت من ذلك كله تأكيداً لأمر البعث وتحقيقاً لليوم الآخر على وجه مبين أن الخلق كله آيات وحكم واعتبارات لأنه أثبت أنه كله حق ، ونفى عنه كل باطل ، فقال خطاباً لأهل الأوثان من سائر الأديان

الصابية والمجوس وغيرهم الذين افتتحت السورة بهم وختمت بالفسق الجامع لهم الموجب لكفرهم : ﴿ تنزيل الكتاب ﴾ أي الجامع لجميع الخيرات بالتدريج على حسب المصالح ﴿ من الله ﴾ أي الجبار المتكبر المختص بصفات الكمال الذي هو الحمد بما دلت عليه ربوبيته ، وختم بقوله : ﴿ العزيز الحكيم ﴾ تقريراً لأنه لم يضع شيئاً إلا في أوفق محاله ، وأنه الخالق للشر كما أنه الخالق للخير ولجميع الأفعال وأنه يعز أولياءه ويذل أعداءه ويحكم أمر دينه فيظهره على الدين كله من غير أن يقدر أحد على معارضته في شيء منه فصارت آية الجاثية مقدمة لهذه وهذه نتيجة .

ولما ثبت في الجاثية مضمون قوله تعالى في الدخان ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ﴾ بما ذكر فيهما من الآيات والمنافع والحكم ، أثبت هنا مضمون ما بعد ذلك بزيادة الأجل فقال دالاً على عزته وحكمته : ﴿ ما خلقنا ﴾ أي على ما لنا من العظمة الموجبة للتفرد بالكبرياء ﴿ السماوات والأرض ﴾ على ما فيهما من الآيات التي فصل بعضها في الجاثية .

(7/702)

ولما كان من المقاصد هنا الرد على المجوس وغيرهم ممن ثبت خلقاً لغير الله قال : ﴿ وما بينهما ﴾ أي من الهواء المشحون بالمنافع وكل خير وكل شر من أفعال العباد وغيرهم ، وقال ابن برجان في تفسيره : جميع الوجود أوله وآخره نسخة لأم الكتاب والسماوات والأرض إشارة إلى بعض الوجود ، وبعضه يعطي من الدلالة على المطلوب ما يعطيه الكل بوجه ما ، غير أن علا أصح دلالة وأقرب شهادة وأبين إشارة ، وما صغر من الموجودات دلالته مجملة يحتاج المستعرض فيه إلى التثبت وتدقيق النظر والبحث – انتهى .

﴿ إلا بالحق ﴾ أي الأمر الثابت من القدرة التامة والتصرف المطلق ، فخلق الباطل بالحق لأنه تصرف في ملكه الذي لا شائبة لغيره فيه للابتلاء والاختبار للمجازاة بالعدل والمن بالفضل إلى غير ذلك من الحكم التي لا يعلمها سواه ، وفي خلق ذلك على هذا الوجه أعظم دلالة على وجود الحق سبحانه ، وأنه واحد لا شريك له ، ودل على قهره بقوله : ﴿ وأجل مسمى ﴾ أي لبعث الناس إلى دار القرار لفصل أهل الجنة من أهل النار ، وفناء الخافقين وما نشأ عنهما من الليل والنهار .

ولما كان التقدير : وأمرنا الناس بالعمل في ذلك الأجل بطاعتنا ووعدناهم عليها جنان النعيم ، فالذين آمنوا على ما أنذروا مقبلون ، ومن غوائله مشفقون ، فهم بطاعتنا عاملون ، عطف عليه من السياق له من قوله : ﴿ والذين كفروا ﴾ أي ستروا من أعلام الدلائل ما لو خلوا أنفسهم وما فطرناها عليه لعلموه فهم لذلك ﴿ عما أنذروا ﴾ ممن هم عارفون بأن

إنذاره لا يتخلف ﴿ معرضون ﴾ ومن غوائله آمنون ، فهم بما يغضبنا فاعلون ، شهدت عندهم شواهد الوجود فما سمعوا لها ولا أصغوا إليها وأنذرتهم الرسل والكتب من عند الله فأعرضوا عنها واشمأزوا منها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 114 .

﴿ 116

(8/702)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ لتنذر ﴾ على الخطاب : أبو جعفر ونافع وابن كثير وابن عامر وسهل ويعقوب . الباقون : على الغيبة . والضمير للكتاب ﴿ إحساناً ﴾ : حمزة وعلي وخلف وعاصم . الباقون : ﴿ حسناً ﴾ ﴿ كرهاً ﴾ في الموضعين بالفتح : أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو وجبلة وهشام . الباقون : بالضم وفصله يعقوب . الآخرون ﴿ وفصاله ﴾ ﴿ أوزعني أن ﴾ بالفتح : إبن كثير غير القوّاس والنجاري عن ورش وقالون غير الحلواني ﴿ نتقبل ﴾ بالنون ﴿ أحسن ﴾ بالنصب ﴿ ونتجاوز ﴾ بالنون : حمزة وعلي وخلف وحفص . الآخرون بياء الغيبة مبنياً للمفعول في الفعلين ﴿ أحسن ﴾

بالرفع ﴿ أف ﴾ بالكسر والتنوين : أبو جعفر ونافع وحفص والمفضل . وقرأ ابن كثير بالفتح من غير تنوين . الباقون : بالكسر ولا تنوين ﴿ أتعدانني أن ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وقرأ هشام مدغمة النون ﴿ وليوفيهم ﴾ بالياء : ابن كثير وأبو عمرو وسهل ويعقوب وعاصم . الباقون : بالنون ﴿ أءذهبتم ﴾ بتحقيق الهمزتين : ابن ذكوان ﴿ آذهبتم ﴾ بالمدّ : ابن كثير ويزيد وسهل ويعقوب وهشام . الباقون : بهمزة واحدة .

(9/702)

الوقوف : ﴿ حم ﴾ ه كوفي ﴿ الحكيم ﴾ ه ﴿ مسمى ﴾ ط ﴿ معرضون ﴾ ه ﴿ السموات ﴾ ه لانتهاء الاستفهام إلى الخطاب ﴿ صادقين ﴾ ه ﴿ غافلون ﴾ ه ﴿ كافرين ﴾ ه ﴿ مبين ﴾ ه لأن "أم" تتضمن استفهام إنكار ﴿ افتراه ﴾ ط ﴿ شيئاً ﴾ ط ﴿ فيه ﴾ ط ﴿ وبينكم ﴾ ط ﴿ الرحيم ﴾ ه ﴿ بكم ﴾ ط ﴿ مبين ﴾ 5 ط ﴿ واستكبرتم ﴾ ط ﴿ الظالمين ﴾ 5 ﴿ إليه ﴾ ط ﴿ قديم ﴾ 5 ﴿ ورحمة ﴾ ط ﴿ للمحسنين ﴾ ه ﴿ يحزنون ﴾ ه ﴿ فيها ﴾ ج لأن ﴿ جزاء ﴾ يصلح مفعولاً له ومفعول فعل محذوف أي يجزون جزاء ﴿ يعملون ﴾ ه ﴿ إحساناً ﴾ ط ﴿ ووضعته كرهاً ﴾ ط ﴿ شهراً ﴾ ط ﴿ سنة ﴾ لا لأن ما بعده جواب "إذا" ﴿ ذرّيتي ﴾ ط

للابتداء بإن مع اتحاد الكلام ﴿ المسلمين ﴾ ه ﴿ الجنة ﴾ ط لأن التقدير وعد لله وعداً صدقاً وهو مصدر مؤكد لأن قوله ﴿ نتقبل ﴾ في معنى الوعد ﴿ يوعدون ﴾ ه ﴿ الأوّلين ﴾ ه ﴿ والإنس ﴾ ط ﴿ خاسرين ﴾ ه ﴿ عملوا ﴾ ج لأن الواو تكون مقحمة ويتصل اللام بما قبله وقد يكون المعلل محذوفاً كأنه قيل : وليوفيهم أعمالهم قدّر جزاءهم على مقادير أعمالهم ﴿ لا يظلمون ﴾ ه ط لتقدير القول وهو العامل في يوم ﴿ بها ﴾ ج لابتداء التهديد مع الفاء ﴿ تفسقون ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 117.116 ﴾

(10/702)

فصل

قال الفخر :

﴿ حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) ﴾

اعلم أن نظم أول هذه السورة كنظم أول سورة الجاثية ، وقد ذكرنا ما فيه .

وأما قوله ﴿ مَا خَلَقْنَا السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بالحق ﴾ فهذا يدل على إثبات الإله بهذا العالم ، ويدل على أن ذلك الإله يجب أن يكون عادلاً رحيماً بعباده ، ناظراً لهم محسناً

إليهم ، ويدل على أن القيامة حق .

أما المطلب الأول : وهو إثبات الإله بهذا العالم ، وذلك لأن الخلق عبارة عن التقدير ، وآثار التقدير ظاهرة في السموات والأرض من الوجوه العشرة المذكورة في سورة الأنعام ، وقد بينا أن تلك الوجوه تدل على وجود الإله القادر المختار .

(11/702)

وأما المطلب الثاني : وهو إثبات أن إله العالم عادل رحيم فيدل عليه قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ لأن قوله ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ معناه إلا لأجل الفضل والرحمة والإحسان ، وأن الإله يجب أن يكون فضله زائداً وأن يكون إحسانه راجحاً ، وأن يكون وصول المنافع منه إلى المحتاجين أكثر من وصول المضار إليهم ، قال الجبائي هذا يدل على أن كل ما بين السموات والأرض من القبائح فهو ليس من خلقه بل هو من أفعال عباده ، وإلا لزم أن يكون خالقاً لكل باطل ، وذلك ينافي قوله ﴿ مَا خلقناهما إِلاَّ بالحق ﴾ [الدخان : 39] أجاب أصحابنا وقالوا : خلق الباطل غير ، والخلق بالباطل غير ، فنحن نقول إنه هو الذي خلق الباطل إلا أنه خلق ذلك الباطل بالحق لأن ذلك تصرف من الله تعالى في ملك نفسه وتصرف المالك في ملك نفسه يكون بالحق لا بالباطل ، قالوا والذي يقرر ما ذكرناه أن قوله تعالى : ﴿ مَا خَلَقْنَا

السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ يدل على كونه تعالى خالقاً لكل أعمال العباد ، لأن أعمال العباد من جملة ما بين السموات والأرض ، فوجب كونها مخلوقة لله تعالى ووقوع التعارض في الآية الواحدة محال فلم يبق إلا أن يكون المراد ما ذكرناه فإن قالوا أفعال العباد أعراض ، والأعراض لا توصف بأنها حاصلة بين السماوات والأرض ، فنقول فعلى هذا التقدير سقط ما ذكرتموه من الاستدلال والله أعلم .

وأما المطلب الثالث : فهو دلالة الآية على صحة القول بالبعث والقيامة ، وتقريره أنه لو لم توجد القيامة لتعطل استيفاء حقوق المظلومين من الظالمين ، ولتعطل توفية الثواب على المطيعين وتوفية العقاب على الكافرين وذلك يمنع من القول بأنه تعالى خلق السموات والأرض وما بينها لا بالحق .

(12/702)

وأما قوله تعالى : ﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فالمراد أنه ما خلق هذه الأشياء إلا بالحق وإلا لأجل مسمى وهذا يدل على أن إله العالم ما خلق هذا العالم ليبقى مخلداً سرمداً ، بل إنما خلقه ليكون داراً للعمل ، ثم إنه سبحانه يفنيه ثم يعيده ، فيقع الجزاء في الدار الآخرة ، فعلى هذا الأجل المسمى هو الوقت الذي عينه الله تعالى لإفناء الدنيا .

ثم قال تعالى : ﴿ والذين كَفَرُواْ عَمَّا أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ﴾ والمراد أن مع نصب الله تعالى هذه الدلائل ومع إرسال الرسل وإنزال الكتب ومع مواظبة الرسل على الترغيب والترهيب والإعذار والإنذار ، بقي هؤلاء الكفار معرضين عن هذه الدلائل غير ملتفتين إليها ، وهذا يدل على وجوب النظر والاستدلال ، وعلى أن الإعراض عن الدليل مذموم في الدين والدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 3 . 4 ﴾

(13/702)

وقال الآلوسى :

﴿ حم تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله العزيز الحكيم ﴾

الكلام فيه كالذي تقدم في مطلع السورة السابقة .

مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (3)

﴿ مَا خَلَقْنَا السموات والأرض ﴾ بما فيهما من حيث الجزئية منهما ومن حيث الاستقرار فيهما ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من المخلوقات ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ استثناء مفرغ من أعم المفاعيل أي إلا خلقاً ملتبساً بالحق الذي تقتضيه الحكمة التكوينية والتشريعية ، وفيه من

الدلالة على وجود الصانع وصفات كماله وابتناء أفعاله على حكم بالغة وانتهائها إلى غايات جليلة ما لا يخفى ، وجوز كونه مفرغاً من أعم الأحوال من فاعل ﴿ خَلَقْنَا ﴾ أو من مفعوله أي ما خلقناها في حال من الأحوال إلا حال ملابستنا بالحق أو حال ملابستها به ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ عطف على ﴿ الحق ﴾ بتقدير مضاف أي وبتقدير أجل مسمى ، وقدر لأن الخلق إنما يلتبس به لا بالأجل نفسه والمراد بهذا الأجل كما قال ابن عباس يوم القيامة فإنه ينتهي إليه أمور الكل وتبدل فيه الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ، وقيل : مدة البقاء المقدر لكل واحد ، ويؤيد الأول قوله تعالى : ﴿ والذين كَفَرُواْ عَمَّا أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ﴾ فإن ما أنذروه يوم القيامة وما فيه من الطامة التامة والأهوال العامة لا آخر أعمارهم .

وجوز كون ﴿ مَا ﴾ مصدرية أي عن إنذارهم بذلك الوقت على إضافة المصدر إلى مفعوله الأول القائم مقام الفاعل ، والجملة حالية أي ما خلقنا الخلق إلا بالحق وتقدير الأجل الذي يجازون عنده والحال أنهم غير مؤمنين به معرضون عنه غير مستعدين لحلوله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(14/702)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ حم تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله العزيز الحكيم ﴾ .

قد قدمنا الكلام على الحروف المقطعة . فى أول سورة هود ، وقدمنا الكلام على قوله تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم فى أول سورة الزمر .

قوله تعالى : ﴿ مَا خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بالحق وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ .

صيغة الجمع فى قوله : خلقنا للتعظيم .

وقوله : إلا بالحق أي خلقا ملتبساً بالحق .

والحق ضد الباطل ، ومعنى كون خلقه للسماوات والأرض متلبساً بالحق أنه خلقهما لحكم باهر ، ولم يخلقهما باطلاً ، ولا عبثاً ، ولا لعباً ، فمن الحق الذى كان خلقهما متلبساً به ، إقامة البرهان ، على أنه هو الواحد المعبود وحده جل وعلا ، كما أوضح ذلك في آيات كثيرة لا تكاد تحصيها فى المصحف الكريم كقوله تعالى في البقرة ﴿ وإلهكم إله وَاحِدٌ لاَّ إله إِلاَّ هُوَ الرحمن الرحيم ﴾ [البقرة : 163] ثم أقام البرهان على أنه هو الإله الواحد بقوله بعده : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تَجْرِي فِي البحر بِمَا يَنفَعُ الناس وَمَآ أَنزَلَ الله مِنَ السمآء مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرياح والسحاب المسخر بَيْنَ السمآء والأرض لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : 164] .

فتلبس خلقه للسماوات والأرض بالحق واضح جداً ، من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض ﴾ [البقرة : 164] إلى قوله ﴿ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : 164] بعد قوله ﴿ وإلهكم إله وَاحِدٌ لاَّ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ [البقرة : 163] لأن إقامة البرهان القاطع على صحة معنى لا إله إلا الله هو أعظم الحق .

(15/702)

وكقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الناس اعبدوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ والذين مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : 21] ﴿ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض فِرَاشاً والسماء بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثمرات رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ للَّهِ أَندَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 22] ، لأن قوله ﴿ اعبدوا رَبَّكُم ﴾ فيه معنى الإثبات من لا إله إلا الله .

وقوله ﴿ فَلاَ تَجْعَلُواْ للَّهِ أَندَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ يتضمن معنى النفي منها على أكمل وجه وأتمه .

وقد أقام الله جل وعلا البرهان القاطع ، على صحة معنى لا إله إلا الله ، نفياً وإثباتاً ، بخلقه للسماوات والأرض ، وما بينهما في قوله ﴿ الذي خَلَقَكُمْ والذين مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض فِرَاشاً والسماء بِنَآء ﴾ [البقرة : 21 - 22] ﴿ الآية .

وبذلك تعلم أنه ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا خلقاً متلبساً بأعظم الحق ، الذي هو إقامة البرهان القاطع ، على توحيده جل وعلا ، ومن كثرة الآيات القرآنية ، الدالة على إقامة هذا البرهان ، القاطع المذكور ، على توحيده جل وعلا ، علم من استقراء القرآن ، أن العلامة الفارقة من يستحق العبادة ، وبين من لا يستحقها ، هى كونه خالقاً لغيره ، فمن كان خالقاً لغيره ، فهو المعبود بحق ، ومن كان لا يقدر على خلق شئ ، فهو مخلوق محتاج ، لا يصح أن يعبد بحال .

فالآيات الدالة على ذلك كثيرة جداً كقوله تعالى فى آية البقرة المذكورة آنفاً : ﴿ يَاأَيُّهَا الناس اعبدوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ والذين مِن قَبْلِكُمْ ﴾ الآية .

(16/702)

فقوله ﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ يدل على أن المعبود هو الخالق وحده ، وقوله تعالى : ﴿ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخلق عَلَيْهِمْ قُلِ الله خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الرعد : 16] الآية . يعني وخالق كل شيء هو المعبود وحده .

وقد أوضح تعالى هذا فى سورة النحل ، لأنه تعالى لما ذكر فيها البراهين القاطعة ، على توحيده جل وعلا ، فى قوله ﴿ خَلَقَ السماوات والأرض بالحق تعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [

النحل : 3] إلى قوله ﴿ وَعَلامَاتٍ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : 17] .

وذلك واضح جداً فى أن من يخلق غيره هو المعبود وأن من لا يخلق شيئاً لا يصح أن يعبد .

ولهذا قال تعالى بعده قريباً منه ﴿ والذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [النحل : 20] . وقال تعالى فى الأعراف ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الأعراف : 191] . وقال تعالى فى الحج ﴿ يا أيها الناس ضُرِبَ مَثَلٌ فاستمعوا لَهُ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجتمعوا لَهُ ﴾ [الحج : 73] أي ومن لم يقدر أن يخلق شيئاً لا يصح أن يكون معبوداً بحال وقال تعالى : ﴿ سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى لذي خَلَقَ فسوى ﴾ [الأعلى : 1 - 2] الآية .

ولما بين تعالى فى أول سورة الفرقان ، صفات من يستحق أن يعبد ، ومن لا يستحق ذلك . قال فى صفات من يستحق العبادة : ﴿ الذي لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ [الفرقان : 2] .

(17/702)

وقال فى صفات من لا يصح أن يعبد ﴿ واتخذوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الفرقان : 3] . الآية والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً وكل تلك الآيات تدل دلالة واضحة على أنه تعالى ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا خلقاً متلبساً بالحق .

وقد بين جل وعلا أن من الحق الذي خلق السماوات والأرض وبينهما ، خلقاً متلبساً به ، تعليمه خلقه أنه تعالى على كل شئ قدير ، وأنه قد أحاط بكل شئ علماً ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ اللهُ الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأرض مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأمر بَيْنَهُنَّ لتعلموا أَنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَا ﴾ [الطلاق : 12] .

فلام التعليل فى قوله : لتعلموا متعلقة بقوله ﴿ اللهُ الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ﴾ الآية وبه تعلم أنه ما خلق السماوات السبع ، والأرضين السبع ، وجعل الأمر يتنزل بينهن ، إلا خلقاً متلبساً بالحق .

ومن الحق الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما خلقاً متلبساً به ، هو تكليف الخلق ، وابتلاؤهم أيهم أحسن عملاً ، ثم جزاؤهم على أعمالهم ، كما قال تعالى فى أول سورة هود : ﴿ وَهُوَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [هود : 7] .

فلام التعليل فى قوله : ليبلوكم متعلقة بقوله ﴿ خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ﴾ وبه تعلم أنه ما خلقهما غلا خلقاً متلبساً بالحق .

ونظير ذلك قوله تعالى فى أول الكهف ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الكهف : 7] . وقوله تعالى في أول الملك : ﴿ الذي خَلَقَ الموت والحياة لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك : 2] .

(18/702)

ومما يوضح أنه ما خلق السماوات والأرض إلا خلقاً متلبساً بالحق ، قوله تعالى فى آخر الذاريات ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات : 56 - 57] .

سواء قلنا : إن معنى إلا ليعبدون أي لآمرهم بعبادتى فيعبدني السعداء منهم ، لأن عبادتهم يحصل بهم تعظيم الله وطاعته ، والخضوع له كما قال تعالى : ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هؤلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ [الأنعام : 89] .

وقال تعالى : ﴿ فَإِنِ استكبروا فالذين عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بالليل والنهار وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ ﴾ [فصلت : 38] .

أو قلنا : إن معنى إلا ليعبدون أي إلا ليقروا لي بالعبودية ، ويخضعوا ويذعنون لعظمتي ، لأن المؤمنين يفعلون ذلك طوعاً ، والكفار يذعنون لقهره وسلطانه تعالى كرهاً .

ومعلوم أن حكمة الابتلاء والتكليف لا تتم إلا بالجزاء على الأعمال .

وقد بين تعالى أن من الحق الذي خلق السماوات والارض خلقا متلبساً به ، جزاء الناس بأعمالهم ، كقوله تعالى فى النجم ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض لِيَجْزِيَ الذين أَسَاءُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ الذين أَحْسَنُواْ بالحسنى ﴾ [النجم : 31] .

فقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السماوات ﴾ أي هو خالقها ومن فيهما ﴿ لِيَجْزِيَ الذين أَسَاءُواْ بِمَا عَمِلُوا ﴾ .

فقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾ أي هو خالقها ومن فيها ﴿ لِيَجْزِيَ الذين أَسَاءُواْ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ الآية .

ويوضح ذلك قوله تعالى فى يونس ﴿ إِنَّهُ يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات بالقسط والذين كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس : 4] .

(19/702)

ولما ظن الكفار أن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً ، لا لحكمة تكليف وحساب وجزاء ، هددهم بالويل من النار ، بسبب ذلك الظن السيئ ، فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الذين كَفَرُواْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ النار ﴾ [ص : 27] .

وقد نزه تعالى نفسه عن كونه خلق الخلق عبثاً ، لا لتكليف وحساب وجزاء ، وأنكر ذلك على من ظنه ، في قوله تعالى ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى الله الملك الحق لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ العرش الكريم ﴾ [المؤمنون : 115 - 16] .

فقوله (فتعالى الله) أي تنزه وتعاظم ، وتقدس ، عن أن يكون خلقهم لا لحكمة تكليف وبعث ، وحساب وجزاء .

وهذا الذي نزه تعالى عنه نفسه ، نزهه عنه أولو الألباب ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيَاتٍ لأُوْلِي الألباب الذين يَذْكُرُونَ الله قِيَاماً وَقُعُوداً وعلى جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران : 190] ، إلى قوله : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾

[آل عمران : 191] ، فقوله تعالى ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أي تنزيهاً لك ، عن أن تكون خلقت هذا الخلق ، باطلاً لا لحكمة تكليف ، وبعث وحساب وجزاء .

وقوله جل وعلا في آية الأحقاف هذه : ﴿ مَا خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بالحق ﴾ ، يفهم منه أنه لم يخلق ذلك باطلاً ، ولا لعباً ولا عبثاً .

وهذا المفهوم جاء موضحاً في آيات من كتاب الله كقوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السمآء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَآ إِلاَّ بالحق ﴾ [الدخان : 38 – 39] .

وقوله تعالى في آية الأحقاف هذه ﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ معطوف على قوله : ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أي ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بخلقاً متلبساً بالحق ، وبتقدير أجل مسمى ، أي وقت معين محدد ينتهي إليه أمد السماوات والأرض ، وهو يوم القيامة كما صرح الله بذلك في أخريات الحجر في قوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بالحق وَإِنَّ الساعة لآتِيَةٌ ﴾ [الحجر : 85] الآية .

فقوله في الحجر : ﴿ وَإِنَّ الساعة لآتِيَة ﴾ بعد قوله ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ يوضح معنى قوله في الأحقاف ﴿ إِلاَّ بالحق وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ .

وقد بين تعالى في آيات من كتابه أن للسماوات والأرض أمداً ينتهي إليه أمرهما . كما قال تعالى : ﴿ والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامة والسماوات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر : 67] . وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السمآء كَطَيِّ السجل لِلْكُتُبِ ﴾ [الأنبياء : 104] وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض والسماوات ﴾ [إبراهيم : 48] وقوله ﴿

وَإِذَا السماء كُشِطَتْ ﴾ [التكوير : 11] وقوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأرض والجبال ﴾ [المزمل : 14] الآية . إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ والذين كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ﴾ .

(21/702)

ما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من أن الكفار معرضون عما أنذرتهم به الرسل جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى في البقرة : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة : 6] وقوله في يس ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يس : 10] . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ [الأنعام : 4 - يس : 46] . والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

والإعراض عن الشيء الصدود عنه . وعدم الإقبال إليه .

قال بعض العلماء : وأصله من العرض بالضم . وهو الجانب . لأن المعرض عن الشي يوليه بجانب عنقه . صداً عنه .

والإنذار : الإعلام المقترن بتهديد . فكل إنذار إعلام وليس كل إعلام إنذار .

وقد أوضحنا معاني الإنذار فى أول سورة الأعراف .

﴿ وما ﴾ فى قوله ﴿ عَمَّآ أُنذِرُواْ ﴾ قال بعض العلماء هي موصولة . والعائد محذوف ، أي الذين كفروا معرضون عن الذي أنذروه . أي خوفوه من عذاب يوم القيامة . وحذف العائد المنصوب بفعل أو وصف مضطرد كما هو معلوم .

وقال بعض العلماء : هي مصدرية . أي والذين كفروا معرضون عن الإنذار ، ولكليهما وجه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(22/702)

وقال ابن عاشور :

﴿ حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) ﴾

تقدم القول في نظيره في أول الجاثية .

مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (3)

لما كان من أهم ما جاء به القرآن إثباتُ وحدانية الله تعالى ، وإثباتُ البعث والجزاء ، لتوقف حصول فائدة الإنذار على إثباتهما ، جُعِل قوله : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز

الحكيم ﴾ [الأحقاف : 2] تمهيداً للاستدلال على إثبات الوحدانية والبعث والجزاء ، فجُعل خلق السماوات والأرض محل اتفاق ، ورتب عليه أنه ما كان ذلك الخَلق إلا ملابساً للحق ، وتقتضي ملابسته للحق أنه لا يكون خلْقاً عبثاً بل هو دال على أنه يعقبه جزاء على ما يفعله المخلوقون .

واستثناءُ ﴿ بالحق ﴾ من أحوال عامة ، أي ما خلقناهما إلا في حالة المصاحبة للحق .

وقوله : ﴿ والذين كفروا عما أنذروا معرضون ﴾ في موضع الحال من الضمير المقدر في متعلّق الجار والمجرور من قوله : ﴿ بالحق ﴾ ، فيكون المقصود من الحال التعجيب منهم وليس ذلك عطفاً لأن الإخبار عن الذين كفروا بالإعراض مستغنى عنه إذ هو معلوم ، والتقدير : إلا خلقاً كائناً بملابسة الحق في حال إعراض الذين كفروا عما أنذروا به مما دل عليه الخلق بالحق .

وصاحب الحال هو ﴿ السماوات والأرض ﴾ ، والمعنى : ما خلقناهما إلا في حالة ملابسة الحق لهما وتعيين أجل لهما .

وإعراض الذين كفروا عما أنذروا به من آيات القرآن التي تذكرهم بما في خلق السماوات والأرض من ملابسة الحق .

وعطف ﴿ وأجل مسمى ﴾ على ﴿ بالحق ﴾ ، عطفُ الخاص على العام للاهتمام به كعطف جبريل وميكائيل على ملائكته في قوله تعالى : ﴿ وملائِكتِهِ ورسله وجبريل وميكائيل ﴾ في سورة البقرة (98) لأن دلالة الحدوث على قبول الفناء دلالة عقلية فهي ممّا يقتضيه الحق ، وأن تعرض السماوات والأرض للفناء دليل على وقوع البعث لأن انعدام هذا العالم يقتضي بمقتضى الحكمة أن يخلفه عالم آخر أعظم منه ، على سنة تدرج المخلوقات في الكمال ، وقد كان ظن الدهريين قدمَ هذا العالم وبقاءَه أكبر شبهة لهم في إنكارهم البعث ﴿ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيَا وما يُهلكنا إلا الدهر ﴾ [الجاثية : 24] .

فالدهر عندهم متصرف وهو باق غير فان ، فلو جوزوا فناء هذا العالم لأمكن نزولهم إلى النظر في الأدلة التي تقتضي حياة ثانية .

فجملة ﴿ والذين كفروا عما أنذروا معرضون ﴾ مرتبطة بالاستثناء في قوله : ﴿ إلا بالحق ﴾ ، أي هم معرضون عما أنذروا به من وعيد يوم البعث .

وحذف العائد من الصلة لأنه ضمير منصوب بـ ﴿ أنذروا ﴾ .

والتقدير : عما أنذروه معرضون .

ويجوز أن تكون ﴿ ما ﴾ مصدرية فلا يقدر بعدها ضمير .

والتقدير عن إنذارهم معرضون فشمل كل إنذار أنذروه .

وتقديم ﴿ عما أنذروا ﴾ على متعلقه وهو ﴿ معرضون ﴾ للاهتمام بما أنذروا ويتبع ذلك رعاية الفاصلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(24/702)

قوله تعالى ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (4) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (5) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (6) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير رحمه الله تعالى : لما قدم ذكر الكتاب وعظيم الرحمة به وجليل بيانه ، وأردف ذلك بما تضمنته سورة الشريعة من توبيخ من كذب به وقطع تعلقهم وأنه سبحانه قد نصب من دلائل السماوات والأرض إلى ما ذكر في صدر السورة ما كل قسم منها كاف في الدلالة وقائم بالحجة ، ومع ذلك فلم يجر عليهم التمادي على ضلالهم

والانهماك في سوء حالهم وسيىء محالهم ، أردفت بسورة الأحقاف تسجيلاً بسوء مرتكبهم وإعلاماً باليم منقلبهم فقال تعالى ﴿ ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى ﴾ ولو اعتبروا بعظيم ارتباط ذلك الحق وإحكامه وإتقانه لعلموا أنه لم يوجد عبثاً ، ولكنهم عموا عن الآيات وتنكبوا عن انتهاج الدلالات ﴿ والذين كفروا عما أنذروا معرضون ﴾ ثم أخذ سبحانه وتعالى في تعنيفهم وتقريعهم في عبادة ما لا يضر ولا ينفع فقال ﴿ أفرأيتم ما تدعون من دون الله ﴾ - إلى قوله : ﴿ وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ ثم ذكر عنادهم عن سماع الآيات فقال : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ﴾ الآيات ، ثم التحم الكلام وتناسج إلى آخر السورة - انتهى .

(25/702)

ولما قرر سبحانه الأصل الدال على التوحيد وإثبات العدل والحرمة بالبعث للفصل ، وكانوا يقولون : إنهم أعقل الناس ، وكان العاقل لا يأمن غوائل الإنذار إلا أن أعد لها ما يتحقق دفعه لها وكان لا يقدر على دفع المتوعد إلا من يساويه أو يزيد عليه بشركة أو غيرها ، وكانوا يدعون في أصنامهم أنها شركاء ، بنى على ذلك الأصل تفاريعه ، وبدأ بإبطال متمسكهم فقال سبحانه وتعالى آمراً له - صلى الله عليه وسلم - بأن ينبههم على سفههم بأنهم أعرضوا

عما قد يضرهم من غير احتراز منه دالاً على عدم إلهية ما دعوه آلهة بعدم الدليل على إلهيتها من عقل أو نقل ، لأن منصب الإلهية لا يمكن أن يثبت وله من الشرف ما هو معلوم بغير دليل قاطع : ﴿ قل ﴾ أي لهؤلاء المعرضين أنفسهم لغاية الخطر منكراً عليهم تبكيتاً وتوبيخاً : ﴿ أرءيتم ﴾ أي أخبروني بعد تأمل ورؤية باطنة ﴿ ما تدعون ﴾ أي دعاء عبادة ، ونبه على سفولهم بقوله تعالى : ﴿ من دون الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي كل شيء دونه ، فلا كفوء له .

ولما كان من المعلوم أن الاستفهام عن رؤية ما مشاهدتهم له معلومة لا يصح إلى بتأويل أنه عن بعض الأحوال ، وكان التقدير : أهم شركاء في الأرض ، استأنف قوله : ﴿ أروني ما ﴾ وأكد الكلام بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ماذا خلقوا ﴾ أي اخترعوه ﴿ من الأرض ﴾ ليصح ادعاء أنهم شركاء فيها باختراع ذلك الجزء .

ولما كان معنى الكلام وترجمته : أروني أهم شركاء في الأرض ؟ عادله بقوله : ﴿ أم لهم ﴾ أي الذين تدعونهم ﴿ شرك في السماوات ﴾ أي نوع من أنواع الشركة : تدبير – كما يقول أهل الطبائع ، أو خلق أو غيره ، أروني ذلك الذي خلقوه منها ليصح ادعاؤكم فيهم واعتمادكم عليهم بسببه .

فالآية من الاحتباك : ذكر الخلق أولاً دليلاً على حذفه ثانياً ، والشركة ثانيةً دليلاً على حذفها أولاً .

ولما كان الدليل أحد شيئين : سمع وعقل ، قال تعالى : ﴿ ائتوني ﴾ أي حجة على دعواكم في هذه الأصنام أنها خلقت شيئاً ، أو أنها تستحق أن تعبد ﴿ بكتاب ﴾ أي واحد يصح التمسك به ، لا أكلفكم إلى الإتيان بأكثر من كتاب واحد .

ولما كانت الكتب متعددة ولم يكن كتاب قبل القرآن عاماً لجميع ما سلف من الزمان ، أدخل الجار فقال تعالى : ﴿ من قبل هذا ﴾ أي الذي نزل عليّ كالتوراة والإنجيل والزبور ، وهذا من أعلام النبوة فإنها كلها شاهدة بالوحدانية ، لو أتى بها آت لشهدت عليه .

ولما ذكر الأعلى الذي لا يجب التكليف إلا به ، وهو النقل القاطع ، سهل عليهم فنزل إلى ما دونه الذي منه العقل ، وأقنع منه ببقية واحدة ولو كانت أثراً لا عيناً فقال : ﴿ أو أثارة ﴾ أي بقية رسم صالح للاحتجاج ، قال ابن برجان : وهي البقية من أثر كل شيء يرى بعد ذهابه وحال رؤيته بأثرها خلف عن سلف يتحدثون بها في آثارهم ، قال البغوي : وأصل الكلمة من الأثر وهو الرواية .

﴿ من علم ﴾ أي قطعي بضرورة أو تجربة أو مشاهدة أو غيره ولو ظناً يدل على ما ادعيتم فيهم من الشركة .

ولما كان لهم من النفرة من الكذب واستشناعه واستبشاعه واستفظاظه ما ليس لأمة من الأمم ، أشار إلى تقريعهم بالكذب إن لم يقيموا دليلاً على دعواهم بقوله تعالى : ﴿ إن كنتم ﴾ أي بما هو لكم كالجبلة ﴿ صادقين ﴾ أي عريقين في الصدق على ما تدعون لأنفسكم .

(27/702)

ولما أبطل سبحانه وتعالى قولهم في الأصنام بعدم قدرتها على إتيان شيء من ذلك لأنها من جملة مخلوقات في الأصل ، أتبعه إبطاله بعدم علمها ليعلم قطعاً أنهم أضل الناس حيث ارتبطوا في أجل الأشياء – وهو أصول الدين – بما لا دليل عليه أصلاً ، فقال تعالى منكراً أن يكون أحد أضل منهم ، عاطفاً على ما هدى السياق حتماً إلى تقديره وهو : فمن أضل ممن يدعي شيئاً من الأشياء وإن قل بلا دليل : ﴿ ومن أضل ممن ﴾ يدعي أعظم الأشياء بغير دليل ما عقلي ولا نقلي ، فهو ﴿ يدعوا ﴾ ما لا قدرة له ولا علم ، وما انتفت قدرته وعلمه لم تصح عبادته ببديهة العقل ، وأرشد إلى سفولها بقوله تعالى : ﴿ من دون الله ﴾ أي من أدنى رتبة من رتب الذي له جميع صفات الجلال والجمال والكمال ، فهو سبحانه يعلم كل شيء ويقدر على كل شيء بحيث يجيب الدعاء ويكشف البلاء ويحقق الرجاء

إذا شاء ، ويدبر عبده لما يعلم من سره وعلنه بما لا يقدر هو على تدبير نفسه به ، ويريد العبد في كثير من الأشياء ما لو وكل العبد فيه إلى نفسه وأجيب إلى طلبته كان فيه حتفه ، فيدبره سبحانه بما تشتد كراهيته له فيكشف الحال عن أنه لم يكن له فرج إلا فيه ﴿ من لا يستجيب له ﴾ أي لا يوجد الإجابة ولا يطلب إيجادها من الأصنام وغيرها لأنه لا أهلية له لذلك .

ولما كان أقل الاستجابة مطلق الكلام ، وكانوا في الآخرة يكلمونهم في الجملة وإن كان بما يضرهم ، غيى هذا النفي بوقت لا ينفع فيه استجابة أصلاً ولا يغني أحد عن أحد أبداً فقال تعالى : ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ أي الذي صرفنا لهم من أدلته ما هو أوضح من الشمس ولا يزيدهم لك إلا إنكاراً وركوناً إلى ما لا دليل عليه أصلاً وهم يدعون الهداية ويعيبون أشد عيب الغواية .

(28/702)

ولما كان من لا يستجيب قد يكون له علم بطاعة الإنسان له ترجى معه إجابته يوماً ما ، نفى ذلك بقوله زيادة في عيبهم في دعاء ما لا رجاء في نفعه : ﴿ وهم عن دعائهم ﴾ أي دعاء المشركين إياهم ﴿ غافلون ﴾ أي لهم هذا الوصف ثابت لا ينفكون عنه ، لا يعلمون من

يدعوهم ولا من لا يدعوهم ، وعبر بالغفلة التي هي من أوصاف العقلاء للجماد تغليباً إن كان المراد أعم من الأصنام وغيرها ممن عبدوه من عقلاء الإنس والجن وغيرهم واتصافاً إن كان المراد الأصنام خاصة ، أو تهكماً كأنه قيل : هم علماء فإنكم أجل مقاماً من أن تعبدوا ما لا يعقل ، وإنما عدم استجابتهم لكم دائماً غفلة دائمة كما تقول لمن كتب كتاباً كله فاسد : أنت عالم لكنك كنت ناعساً - ونحو هذا .

ولما غيى سبحانه بيوم القيامة فأفهم أنهم يستجيبون لهم فيه ، بين ما يحاورونهم به إذ ذاك فقال : ﴿ وإذا حشر ﴾ أي جمع بكره على أيسر وجه وأسهل أمر ﴿ الناس ﴾ أي كل من يصح منه النّوس - أي التحرك - يوم القيامة ﴿ كانوا ﴾ أي المدعوون ﴿ لهم ﴾ أي للداعين ﴿ أعداء ﴾ ويعطيهم الله قوة الكلام فيخاطبونهم بكل ما يخاطب به العدو عدوه ﴿ وكانوا ﴾ أي المعبودون ﴿ بعبادتهم ﴾ أي الداعين ، وهم المشركون - إياهم ﴿ كافرين ﴾ لأنهم كانوا عنها غافلين كما قال سبحانه وتعالى في سورة يونس عليه الصلاة والسلام ﴿ وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون ﴾ [يونس : 28] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 116.119 ﴾

(29/702)

فصل

قال الفخر :

واعلم أنه تعالى لما قرر هذا الأصل الدال على إثبات الإله ، وعلى إثبات كونه عادلاً رحيماً ، وعلى إثبات البعث والقيامة بنى عليه التفاريع .

(30/702)

فالفرع الأول : الرد على عبدة الأصنام فقال : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ وهي الأصنام ﴿ أَرُونِىَ ﴾ أي أخبروني ﴿ مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأرض أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السموات ﴾ والمراد أن هذه الأصنام ، هل يعقل أن يضاف إليها خلق جزء من أجزاء هذا العالم ؟ فإن لم يصح ذلك فهل يجوز أن يقال إنها أعانت إله العالم في خلق جزء من أجزاء هذا العالم ، ولما كان صريح العقل حاكماً بأنه لا يجوز إسناد خلق جزء من أجزاء هذا العالم إليها ، وإن كان ذلك الجزء أقل الأجزاء ، ولا يجوز أيضاً إسناد الإعانة إليها في أقل الأفعال وأذلها ، فحينئذ صح أن الخالق الحقيقي لهذا العالم هو الله سبحانه ، وأن المنعم الحقيقي بجميع أقسام النعم هو الله سبحانه ، والعبادة عبارة عن الإتيان بأكمل وجوه التعظيم ، وذلك لا يليق إلا بمن صدر عنه أكمل وجوه الإنعام ، فلما كان الخالق الحق والمنعم الحقيقي هو الله سبحانه

وتعالى ، وجب أن لا يجوز الإتيان بالعبادة والعبودية إلا له ولأجله ، بقي أن يقال إنا لا نعبدها لأنها تستحق هذه العبادة ، بل إنما نعبدها لأجل أن الإله الخالق المنعم أمرنا بعبادتها ، فعند هذا ذكر الله تعالى ما يجري مجرى الجواب عن هذا السؤال ، فقال : ﴿ ائتوني بكتاب مّن قَبْلِ هذا أَوْ أثارة مّنْ عِلْمٍ ﴾ وتقرير هذا الجواب أن ورود هذا الأمر لا سبيل إلى معرفته إلا بالوحي والرسالة ، فنقول هذا الوحي الدال على الأمر بعبادة هذه الأوثان ، إما أن يكون على محمد أو في سائر الكتب الإلهية المنزلة على سائر الأنبياء ، وإن لم يوجد ذلك في الكتب الإلهية لكنه من تقابل العلوم المنقولة عنهم والكل باطل ، أما إثبات ذلك بالوحي إلى محمد صلى الله عليه وسلم فهو معلوم البطلان ، وأما إثباته بسبب اشتمال الكتب الإلهية المنزلة على الأنبياء المتقدمين عليه ، فهو أيضاً باطل ، لأنه علم بالتواتر الضروري إطباق جميع الكتب الإلهية على المنع من

(31/702)

عبادة الأصنام ، وهذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿ ائتوني بكتاب مّن قَبْلِ هذا ﴾ ، وأما إثبات ذلك بالعلوم المنقولة عن الأنبياء سوى ما جاء في الكتب فهذا أيضاً باطل ، لأن العلم الضروري حاصل بأن أحداً من الأنبياء ما دعا إلى عبادة الأصنام ، وهذا هو المراد من

قوله ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ ولما بطل الكل ثبت أن الاشتغال بعبادة الأصنام عمل باطل وقول فاسد وبقي في قوله تعالى : ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ نوعان من البحث .

(32/702)

النوع الأول : البحث اللغوي قال أبو عبيدة والفراء والزجاج ﴿ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ أي بقية وقال المبرد ﴿ أثارة ﴾ ما يؤثر من علم أي بقية ، وقال المبرد ﴿ أثارة ﴾ تؤثر ﴿ مِنْ عِلْمٍ ﴾ كقولك هذا الحديث يؤثر عن فلان ، ومن هذا المعنى سميت الأخبار بالآثار يقال جاء في الأثر كذا وكذا ، قال الواحدي : وكلام أهل اللغة في تفسير هذا الحرف يدور على ثلاثة أقوال : الأول : البقية واشتقاقها من أثرت الشيء أثيره إثارة كأنها بقية تستخرج فتثار الثاني : من الأثر الذي هو الرواية والثالث : هو الأثر بمعنى العلامة ، قال صاحب "الكشاف" وقرىء ﴿ أثارة ﴾ أي من شيء أوثرتم به وخصصتم من علم لا إحاطة به لغيركم وقرىء ﴿ أثارة ﴾ بالحركات الثلاث مع سكون الثاء فالإثرة بالكسر بمعنى الأثر ، وأما الإثر فالمرأة من مصدر أثر الحديث إذا رواه ، وأما الأثرة بالضم فاسم ما يؤثر كالخطبة اسم لما يخطب به ، وها هنا قول آخر في تفسير قوله تعالى : ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ وهو ما روي عن ابن عباس أنه قال : ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ هو علم الخط الذي يخط في الرمل

والعرب كانوا يخطونه وهو علم مشهور ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه خطه علم علمه " وعلى هذا الوجه فمعنى الآية ائتوني بعلم من قبل هذا الخط الذي تخطونه في الرمل يدل على صحة مذهبكم في عبادة الأصنام ، فإن صح تفسير الآية بهذا الوجه كان ذلك من باب التهكم بهم وبأقوالهم ودلائلهم والله تعالى أعلم .

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (5)

(33/702)

اعلم أنه تعالى بيّن فيما سبق أن القول بعبادة الأصنام قول باطل ، من حيث إنها لا قدرة لها ألبتة على الخلق والفعل والإيجاد والإعدام والنفع والضر ، فأردفه بدليل آخر يدل على بطلان ذلك المذهب ، وهي أنها جمادات فلا تسمع دعاء الداعين ، ولا تعم حاجات المحتاجين ، وبالجملة فالدليل الأول كان إشارة إلى نفي العلم من كل الوجوه ، وإذا انتفى العلم والقدرة من كل الوجوه لم تبق عبادة معلومة ببديهة العقل فقوله ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُواْ مِن دُونِ الله ﴾ استفهام على سبيل الإنكار والمعنى أنه لا أمراً أبعد عن الحق ، وأقرب إلى

الجهل ممن يدعوا من دون الله الأصنام ، فيتخذها آلهة ويعبدها وهي إذا دعيت لا تسمع ، ولا تصح منها الإجابة لا في الحال ولا بعد ذلك اليوم إلى يوم القيامة ، وإنما جعل ذلك غاية لأن يوم القيامة قد قيل إنه تعالى يحييها وتقع بينها وبين من يعبدها مخاطبة فلذلك جعله تعالى حداً ، وإذا قامت القيامة وحشر الناس فهذه الأصنام تعادي هؤلاء العابدين ، واختلفوا فيه فالأكثرون على أنه تعالى يحيي هذه الأصنام يوم القيامة وهي تظهر عداوة هؤلاء العابدين وتتبرأ منهم ، وقال بعضهم بل المراد عبدة الملائكة وعيسى فإنهم في يوم القيامة يظهرون عداوة هؤلاء العابدين فإن قيل ما المراد بقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غافلون ﴾ وكيف يعقل وصف الأصنام وهي جمادات بالغفلة ؟ وأيضاً كيف جاز وصف الأصنام بما لا يليق إلا بالعقلاء ؟ وهي لفظة من وقوله ﴿ هُمْ غافلون ﴾ قلنا إنهم لما عبدوها ونزلوها منزلة من يضر وينفع صح أن يقال فيها إنها بمنزلة الغافل الذي لا يسمع ولا يجيب .

وهذا هو الجواب أيضاً عن قوله إن لفظة من ولفظة ﴿ هُمْ ﴾ كيف يليق بها ، وأيضاً يجوز أن يريد كل معبود من دون الله من الملائكة وعيسى وعزير والأصنام إلا أنه غلب غير الأوثان على الأوثان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 6.4 ﴾

(34/702)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) ﴾

تقدم القول في الحروف المقطعة التي في أوائل السور . و﴿ تنزيل ﴾ رفع بالابتداء أو خبر ابتداء مضمر . و: ﴿ الكتاب ﴾ القرآن . والعزة والإحكام : صفتان مقتضيتان أن من هي له غالب كل من حادّه .

وقوله : ﴿ ما خلقنا السماوات ﴾ الآية موعظة وزجر ، أي فانتبهوا أيها الناس وانظروا ما يراد بكم ولم خلقتم . وقوله تعالى : ﴿ إلا بالحق ﴾ معناه بالواجب الحسن الذي قد حق أن يكون ، وب ﴿ أجل مسمى ﴾ : وقتناه وجعلناه موعداً لفساد هذه البنية وذلك هو يوم القيامة . وقوله تعالى : ﴿ عما أُنذروا ﴾ " ما " مصدرية ، والمعنى عن الإنذار ، ويحتمل أن تكون " ما " بمعنى الذي ، والتقدير : عن ذكر الذي أنذروا به والتحفظ منه أو نحو هذا .

وقوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم ﴾ يحتمل ﴿ أرأيتم ﴾ وجهين : أحدهما أن تكون متعدية ، و﴿ ما ﴾ مفعولة بها ، ويحتمل أن تكون منبهة لا تتعدى ، وتكون ﴿ ما ﴾ استفهاماً على معنى التوبيخ . و﴿ تدعون ﴾ معناه : تعبدون . قال الفراء : وفي قراءة عبد الله بن مسعود : " قل أرأيتكم من تدعون " . وقوله : ﴿ من الأرض ﴾ ، ﴿ من ﴾ ، للتبعيض ،

لأن كل ما على وجه الأرض من حيوان ونحوه فهو من الأرض .

ثم وقفهم على السماوات هل لهم فيها شرك ، ثم استدعى منهم كتاباً منزلاً قبل القرآن يتضمن عبادة صنم .

وقوله : ﴿ أو أثارة ﴾ معناه : أو بقية قديمة من علم أحد العلماء يقتضي عبادة الأصنام .

وقرأ جمهور الناس : " أو أثارة " على المصدر ، كالشجاعة والسماحة ، وهي البقية من الشيء كأنها أثره .

وقال الحسن بن أبي الحسن : المعنى من علم تستخرجونه فتثيرونه . وقال مجاهد : المعنى هل من أحد يأثر علماً في ذلك . وقال القرظي : هو الإسناد ، ومن هذا المعنى قول الأعشى : [السريع]

إن الذي فيه تماريتما . . . بَيِّنٌ للسامع والآثِر

(35/702)

آثراً أي للسند عن غيره ، ومنه قول عمر رضي الله عنه : فما خلفنا بها ذاكراً ولا آثراً .

وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن وقتادة : المعنى وخاصة من علم ، فاشتقاقها من الأثرة ، كأنها قد آثر الله بها من هي عنده ، وقال عبد الله بن العباس : المراد ب " الأثارة " : الخط

في التراب ، وذلك شيء كانت العرب تفعله وتتكهن به وتزجر ، وهذا من البقية والأثر ، وروي أن النبي عليه السلام سئل عن ذلك فقال : "كان نبي من الأنبياء يخطه ، فمن وافق خطه فذاك " وظاهر الحديث تقوية أمر الخط في التراب ، وأنه شيء له وجه إذا وفق أحد إليه ، وهكذا تأوله كثير من العلماء . وقالت فرقة : بل معناه الإنكار ، أي أنه كان من فعل نبي قد ذهب ، وذهب الوحي إليه والإلهام في ذلك ، ثم قال : فمن وافق خطه على جهة الإبعاد ، أي أن ذلك لا يمكن ممن ليس بنبي ميسر لذلك ، وهذا كما يسألك أحد فيقول : أيطير الإنسان ؟ فتقول : إنما يطير الطائر ، فمن كان له من الناس جناحان طار ، أي أن ذلك لا يكون .

والأثارة تستعمل في بقية الشرف فيقال : لبني فلان أثارة من شرف ، إذا كانت عندهم شواهد قديمة ، وتستعمل في غير ذلك ، ومنه قول الراعي : [الوافر]

وذات أثارة أكلت عليه . . . نباتاً في أكمتها قصارى

يريد : الأثارة من الشحم ، أي البقية وقرأ عبد الرحمن السلمي فيما حكى الطبري : " أو أَثَرَة " بفتح الهمزة والثاء والراء دون ألف ، وحكاها أبو الفتح عن ابن عباس وقتادة وعكرمة وعمرو بن ميمون والأعمش ، وهي واحدة جمعها : أثر كفترة وقتر . وحكى الثعلبي أن عكرمة قرأ : " أو ميراث من علم " . وقرأ علي بن أبي طالب والسلمي فيما حكى أبو الفتح بسكون الثاء وهي الفعلة الواحدة مما يؤثر ، أي قد قنعت لكم الحجة بخبر

واحد أو أثر واحد يشهد بصحة قولكم . وقرأت فرقة : " أُثْرة " بضم الهمزة وسكون الثاء ، وهذه كلها بمعنى : هل عندكم شيء خصكم الله به من علم وآثركم به .

(36/702)

وقوله تعالى : ﴿ ومن أضل ﴾ الآية توبيخ لعبدة الأصنام ، أي لا أحد أضل ممن هذه صبغته ، وجاءت الكنايات في هذه الآية عن الأصنام كما تجيء عمن يعقل ، وذلك أن الكفار قد أنزلوها منزلة الآلهة وبالمحل الذي دونه البشر ، فخوطبوا على نحو معتقدهم فيها ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود : " ما لا يستجيب " . والضمير في قوله : ﴿ ومن هم عن دعائهم غافلون ﴾ هو للأصنام في قول جماعة ، ووصف الأصنام بالغفلة من حيث عاملهم معاملة من يعقل ، ويحتمل أن يكون الضمير في قوله : ﴿ وهم ﴾ وفي : ﴿ غافلون ﴾ للكفار ، أي ضلالهم بأنهم يدعون من لا يستجيب فلا يتأملون ما عليهم في دعاء من هذه صفته .

وقوله تعالى : ﴿ كانوا لهم أعداء ﴾ وصف لما يكون يوم القيامة بين الكفار وأصنامهم من التبري والمناكرة ، وقد بين ذلك في غير هذه الآية . وذلك قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿

تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ [القصص : 63] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(37/702)

وقال القرطبى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ حم* تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله العزيز الحكيم ﴾ تقدّم .

﴿ مَا خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بالحق ﴾ تقدّم أيضاً .

﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ يعني القيامة ؛ في قول ابن عباس وغيره .

وهو الأجل الذي تنتهي إليه السموات والأرض .

وقيل : إنه هو الأجل المقدور لكل مخلوق .

﴿ والذين كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ ﴾ خُوِّفُوه ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾ مُوَلُّون لاهون غير مستعدّين له .

ويجوز أن تكون "ما" مصدرية ؛ أي عن إنذارهم ذلك اليوم .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (4)

فيه خمس مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ أي ما تعبدون من الأصنام والأنداد من دون الله .

﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأَرْضِ ﴾ أي هل خلقوا شيئاً من الأرض ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ ﴾ أي نصيب ﴿ فِي السماوات ﴾ أي في خلق السموات مع الله .

﴿ ائتوني بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هاذآ ﴾ أي من قبل هذا القرآن .

الثانية قوله تعالى : ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ قراءة العامة "أَوْ أثارةٍ" بألف بعد الثاء .

قال ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم : " هو خط كانت تخطه العرب في الأرض " ؛ ذكره المهدوي والثعلبي .

وقال ابن العربي : ولم يصح .

وفي مشهور الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك " ولم يصح أيضاً .

قلت : هو ثابت من حديث معاوية بن الحكم السلمي ؛ خرجه مسلم .

(38/702)

وأسند النحاس : حدّثنا محمد بن أحمد (يعرف بالجرايجي) قال حدثنا محمد بن بندار قال حدّثنا يحيى بن سعيد عن سفيان الثوري عن صفوان بن سليم عن أبي سلمة عن ابن عباس " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله عز وجل : ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ قال : "الخط" " وهذا صحيح أيضاً .

قال ابن العربي : واختلفوا في تأويله ؛ فمنهم من قال : جاء لإباحة الضرب ؛ لأن بعض الأنبياء كان يفعله .

ومنهم من قال جاء للنهي عنه ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم قال : " فمن وافق خطه فذاك " ولا سبيل إلى معرفة طريق النبيّ المتقدّم فيه ؛ فإذاً لا سبيل إلى العمل به .

قال :

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصا . . .

ولا زاجراتُ الطير ما الله صانع

وحقيقته عند أربابه ترجع إلى صور الكواكب ، فيدل ما يخرج منها على ما تدل عليه تلك الكواكب من سعد أو نحس يحلّ بهم ، فصار ظنّاً مبنيًّا على ظن ، وتعلقاً بأمر غائب قد درست طريقه وفات تحقيقه ؛ وقد نهت الشريعة عنه ، وأخبرت أن ذلك مما اختص الله به ، وقطعه عن الخلق ، وإن كانت لهم قبل ذلك أسباب يتعلقون بها في درك الأشياء المغيبة ؛ فإن الله قد رفع تلك الأسباب وطمس تيك الأبواب وأفرد نفسه بعلم الغيب ؛ فلا يجوز

مزاحمته في ذلك ، ولا يحل لأحد دعواه .

وطلبه عناء لو لم يكن فيه نهي ؛ فإذ وقد ورد النهي فطلبه معصية أو كفر بحسب قصد الطالب .

قلت : ما اختاره هو قول الخطابي .

" قال الخطابي : (قوله عليه السلام) : "فمن وافق خطه فذاك" " هذا يحتمل الزجر إذ كان ذلك علماً لنبوته وقد انقطعت ، فنهينا عن التعاطي لذلك .

قال القاضي عياض : الأظهر من اللفظ خلاف هذا ، وتصويب خط من يوافق خطه ؛ لكن من أين تعلم الموافقة والشرع منع من التخرّص وادعاء الغيب جملة فإنما معناه أن من وافق خطه فذاك الذي يجدون إصابته ؛ لا أنه يريد إباحة ذلك لفاعله على ما تأوّله بعضهم .

(39/702)

وحكى مكي في تفسير قوله : "كان نبي من الأنبياء يخط" (أنه كان يخط) بأصبعه السبابة والوسطى في الرمل ثم يزجر .

وقال ابن عباس في تفسير قوله "ومنا رجال يخطون" : هو الخط الذي يخطه الحازي فيعطى حُلواناً فيقول : اقعد حتى أخط لك ؛ وبين يدي الحازي غلام معه مِيل ثم يأتي إلى أرض

رِخوة فيخط الأستاذ خطوطاً معجلة لئلا يلحقها العدد ، ثم يرجع فيمحو على مهل خطين خطين ، فإن بقي خطان فهو علامة النجح ، وإن بقي خط فهو علامة الخيبة .

والعرب تسميه الأسحم وهو مشؤوم عندهم .

الثالثة قال ابن العربي : إن الله تعالى لم يُبْق من الأسباب الدالة على الغيب التي أذن في التعلق بها والاستدلال منها إلا الرؤيا ؛ فإنه أذن فيها ، وأخبر أنها جزء من النبوة وكذلك الفأل ؛ وأما الطِّيَرة والزجر فإنه نهى عنهما .

والفأل : هو الاستدلال بما يسمع من الكلام على ما يريد من الأمر إذا كان حسناً ؛ فإذا سمع مكروهاً فهو تطيّر ؛ أمره الشرع بأن يفرح بالفأل ويمضي على أمره مسروراً .

وإذا سمع المكروه أعرض عنه ولم يرجع لأجْله ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : " اللهم لا طَيْرَ إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك " وقد روى بعض الأدباء :

الفأل والزجر والكهان كلهم . . .

مضلّلون ودون الغيب أقفال

وهذا كلام صحيح ، إلا في الفأل فإن الشرع استثناه وأمر به ، فلا يقبل من هذا الشاعر ما نظمه فيه ؛ فإنه تكلم بجهل ، وصاحب الشرع أصدق وأعلم وأحكم .

قلت : قد مضى في الطِّيَرة والفأل وفي الفرق بينهما ما يكفي في "المائدة" وغيرها .

ومضى في "الأنعام" أن الله سبحانه منفرد بعلم الغيب ، وأن أحداً لا يعلم ذلك إلا ما أعلمه

الله ، أو يجعل على ذلك دلالة عادية يعلم بها ما يكون على جري العادة ، وقد يختلف .

مثاله إذا رأى نخلة قد أطلعت فإنه يعلم أنها ستثمر ، وإذا رآها قد تناثر طلعها علم أنها لا تثمر .

(40/702)

وقد يجوز أن يأتي عليها آفة تهلك ثمرها فلا تثمر ؛ كما أنه جائز أن تكون النخلة التي تناثر طلعها يطلع الله فيها طلعاً ثانياً فتثمر .

وكما أنه جائز أيضاً ألا يلي شهرَه شهرٌ ولا يومَه يوم إذا أراد الله إفناء العالم ذلك الوقت .

إلى غير ذلك مما تقدّم في "الأنعام" بيانه .

الرابعة قال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد : قوله تعالى : ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ يريد الخط .

وقد كان مالك رحمه الله يحكم بالخط إذا عرف الشاهد خطه .

وإذا عرف الحاكم خطه أو خط من كتب إليه حكم به ، ثم رجع عن ذلك حين ظهر في الناس ما ظهر من الحِيل والتزوير .

وقد روي عنه أنه قال : يحدِث الناس فجور فتحدث لهم أقضية .

فأما إذا شهد الشهود على الخط المحكوم به ؛ مثل أن يشهدوا أن هذا خط الحاكم وكتابُه ،

أشهدنا على ما فيه وإن لم يعلموا ما في الكتاب .

وكذلك الوصية أو خط الرجل باعترافه بمال لغيره يشهدون أنه خطه ونحو ذلك فلا يختلف مذهبه أنه يحكم به .

وقيل : "أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ" أو بقية من علم ؛ قاله ابن عباس والكلبي وأبو بكر بن عياش وغيرهم .

وفي الصحاح "أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ" بقية منه .

وكذلك الأَثَرة (بالتحريك) .

ويقال : سمِنت الإبل على أثارة ؛ أي بقية شحم كان قبل ذلك .

وأنشد الماوردي والثعلبي قول الراعي :

وذاتِ أثارة أكلتْ عليها . . .

نباتاً في أكِمَّته ففارا

وقال الهَرَوي : والأثارة والأثر : البقية ؛ يقال : ما ثَمّ عين ولا أثر .

وقال ميمون بن مهران وأبو سلمة بن عبد الرحمن وقتادة : "أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عَلْمٍ" خاصة من علم .

وقال مجاهد : روايَةٍ تأثرونها عمن كان قبلكم .

وقال عكرمة ومقاتل : رواية عن الأنبياء .

وقال القُرَظِي : هو الإسناد .

الحسن : المعنى شيء يثار أو يستخرج .

وقال الزجاج : "أَوْ أَثَارَةٍ" أي علامة .

والأثارة مصدر كالسماحة والشجاعة .

(41/702)

وأصل الكلمة من الأَثَر ، وهي الرواية ؛ يقال : أثرت الحديث آثُرُه أَثْراً وأَثَارَةً وأُثْرة فأنا آثر ؛ إذا ذكرته عن غيرك .

ومنه قيل : حديث مأثور ؛ أي نقله خَلَف عن سَلَف .

قال الأعشى :

إن الذي فيه تَمَارَيْتُمَا . . .

بُيِّن للسامع والآثر

ويروى "بَيّن" وقرىء "أَوْ أُثْرَة" بضم الهمزة وسكون الثاء .

ويجوز أن يكون معناه بقية من علم .

ويجوز أن يكون معناه شيئاً مأثوراً من كتب الأوّلين .

والمأثور : ما يتحدّث به مما صح سنده عمن تحدّث به عنه .

وقرأ السُّلَمِي والحسن وأبو رجاء بفتح الهمزة والثاء من غير ألف ؛ أي خاصة من علم أوتيتموها أو أوثرتم بها على غيركم .

وروي عن الحسن أيضاً وطائفة "أَثْرةٍ" مفتوحة الألف ساكنة الثاء ؛ ذكر الأولى الثعلبي والثانيةَ الماوردي .

وحكى الثعلبي عن عكرمة : أو ميراث من علم .

﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

الخامسة قوله تعالى : ﴿ ائتوني بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هاذا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ فيه بيان مسالك الأدلة بأسرها ؛ فأوّلها المعقول ، وهو قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأرض أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السماوات ﴾ وهو احتجاج بدليل العقل في أن الجماد لا يصح أن يدعى من دون الله فإنه لا يضر ولا ينفع .

ثم قال : "ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا" فيه بيان أدلة السمع "أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ" .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ ﴾ أي لا أحد أضل وأجهل ﴿ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ الله مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ القيامة ﴾ وهي الأوثان .

﴿ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ يعني لا يسمعون ولا يفهمون ؛ فأخرجها وهي جماد مخرج

ذكور بني آدم ؛ إذ قد مثّلتها عبدتها بالملوك والأمراء التي تُخدم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ ﴾ يريد يوم القيامة .

(42/702)

﴿ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً ﴾ أي هؤلاء المعبودون أعداء الكفار يوم القيامة .

فالملائكة أعداء الكفار ، والجنّ والشياطين يتبرءون غداً من عبدتهم ، ويلعن بعضهم بعضاً .

ويجوز أن تكون الأصنام للكفار الذين عبدوها أعداء ؛ على تقدير خلق الحياة لها ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ [القصص : 63] .

وقيل : عادوا معبوداتهم لأنهم كانوا سبب هلاكهم ، وجحد المعبودون عبادتهم ؛ وهو قوله : ﴿ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(43/702)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ توبيخاً لهم وتبكيتاً ﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أخبروني وقرىء ﴿ أَرَأَيْتُكُم ﴾ ﴿ مَا تَدَّعُونَ ﴾ ما تعبدون ﴿ مِن دُونِ الله ﴾ من الأصنام أو جميع المعبودات الباطلة ولعله الأظهر ، والموصول مفعول أول لأرأيتم وقوله تعالى : ﴿ أَرُونِىَ ﴾ تأكيد له فإنه بمعنى أخبروني أيضاً ، وقوله تعالى : ﴿ مَاذَا خَلَقُواْ ﴾ جوز فيه أن تكون ﴿ مَا ﴾ اسم استفهام مفعولاً مقدماً لخلقوا و ﴿ ذَا ﴾ زائدة وأن تكون ﴿ مَاذَا ﴾ اسماً واحداً مفعولاً مقدماً أي أي شيء خلقوا وأن تكون اسم استفهام مبتدأ أو خبراً مقدماً و ﴿ ذَا ﴾ اسم موصول خبراً أو مبتدأ مؤخراً وجملة ﴿ خَلَقُواْ ﴾ صلة الموصول أي ما الذي خلقوه ، وعلى الأولين جملة ﴿ خَلَقُواْ ﴾ مفعول ثان لأرأيتم وعلى ما بعدهما جملة ﴿ مَاذَا خَلَقُواْ ﴾ وجوز أن يكون الكلام من باب الأعمال وقد أعمل الثاني وحذف مفعول الأول واختاره أبو حيان ، وقيل : يحتمل أن يكون ﴿ أَرُونِىَ ﴾ بدل اشتمال من ﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ وقال ابن عطية : يحتمل ﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ وجهين .

كونها متعدية و ﴿ مَا ﴾ مفعولاً لها .

وكونها منبهة لا تتعدى و ﴿ مَا ﴾ استفهامية على معنى التوبيخ ، وهذا الثاني قاله الأخفش في ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصخرة ﴾ [الكهف : 63] .

وقوله تعالى : ﴿ مِّنَ الأرض ﴾ تفسير للمبهم في ﴿ مَاذَا خَلَقُواْ ﴾ قيل : والظاهر أن المراد من أجزاء الأرض وبقعها ، وجوز أن يكون المراد ما على وجهها من حيوان وغيره بتقدير مضاف يؤدي ذلك ، ويجوز أن يراد بالأرض السفليات مطلقاً ولعله أولى ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ ﴾ أي شركة مع الله سبحانه ﴿ فِي السموات ﴾ أي في خلقها ، ولعل الأولى فيها أيضاً أن تفسر بالعلويات .

(44/702)

و ﴿ أَمْ ﴾ جوز أن تكون منقطعة وأن تكون متصلة ، والمراد نفي استحقاق آلهتهم للمعبودية على أتم وجه ، فقد نفى أولاً : مدخليتها في خلق شيء من أجزاء العالم السفلي حقيقة واستقلالاً ، وثانياً : مدخليتها على سبيل الشركة في خلق شيء من أجزاء العالم العلوي ، ومن المعلوم أن نفي ذلك يستلزم نفي استحقاق المعبودية ؛ وتخصيص الشركة في "النظم الجليل" بقوله سبحانه : ﴿ فِي السموات ﴾ مع أنه لا شركة فيها وفي الأرض أيضاً لأن القصد إلزامهم بما هو مسلم لهم ظاهر لكل أحد والشركة في الحوادث السفلية ليست كذلك لتملكهم وإيجادهم لبعضها بحسب الصورة الظاهرة .

وقيل : الأظهر أن تجعل الآية من حذف معادل ﴿ أَمْ ﴾ المتصلة لوجود دليله والتقدير الهم

شرك في الأرض أم لهم شرك في السموات وهو كما ترى ، وقوله تعالى : ﴿ ائتونى بكتاب ﴾ إلى آخره تبكيت لهم بتعجيزهم عن الإتيان بسند نقلي بعد تبكيتهم بالتعجيز عن الإتيان بسند عقلي فهو من جملة القول أي ائتوني بكتاب الهي كائن ﴿ مّن قَبْلِ هذا ﴾ الكتاب أي القرآن الناطق بالتوحيد وإبطال الشرك دال على صحة دينكم ﴿ أَوْ أثارة مّنْ عِلْمٍ ﴾ أي بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأولين شاهدة باستحقاقهم العبادة ، فالإثارة مصدر كالضلالة بمعنى البقية من قولهم : سمنت الناقة على أثارة من لحم أي بقية منه .

وقال القرطبي : هي بمعنى الإسناد والرواية ، ومنه قول الأعشى :

إن الذي فيه تماريتما . . .

بين للسامع والآثِر

وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن .

وقتادة : المعنى أو خاصة من علم فاشتقاقها من الأثرة فكأنها قد آثر الله تعالى بها من هي عنده ، وقيل : هي العلامة .

وأخرج أحمد .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

والطبراني .

(45/702)

وابن مردويه من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم : " أو أثارة من علم " قال : الخط ، وروي ذلك أيضاً موقوفاً على ابن عباس ، وفسر بعلم الرمل كما في حديث أبي هريرة مرفوعاً " كان نبي من الأنبياء يخط فمن صادف مثل خطه علم " وفي رواية عن الحبر أنه قال : أن أثارة من علم ﴿ خط ﴾ كان يخطه العرب في الأرض ، وهذا ظاهر في تقوية أمر علم الرمل وأنه شيء له وجه ويرشد إلى بعض الأمور ، وفي ذلك كلام يطلب من محله .

وفي "البحر" قيل : إن صح تفسير ابن عباس الأثارة بالخط في التراب كان ذلك من باب التهكم بهم وبأقوالهم ودلائلهم ، والتنوين للتقليل و ﴿ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ صفة أي أو ائتوني بأثارة قليلة كائنة من علم ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ في دعواكم فإنها لا تكاد تصح ما لم يقم عليها برهان عقلي أو دليل نقلي وحيث لم يقم عليها شيء منهما وقد قاما على خلافها تبين بطلانها .

وقرىء ﴿ أثارة ﴾ بكسر الهمز وفسرت بالمناظرة فإنها تثير المعاني ، قيل : وذلك من باب الاستعارة على تشبيه ما يبرز ويتحقق بالمناظرة بما يثور من الغبار الثائر من حركات الفرسان .

وقرأ علي .

وابن عباس رضي الله تعالى عنهم بخلاف عنهما .

وزيد بن علي .

وعكرمة .

وقتادة .

والحسن .

والسلمي .

والأعمش .

وعمرو بن ميمون ﴿ أثارة ﴾ بغير ألف وهي واحدة جمعها أثر كفترة وقتر ، وعلي كرم الله تعالى وجهه .

والسلمي .

وقتادة أيضاً بإسكان الثاء وهي الفعلة الواحدة مما يؤثر أي قد قنعت منكم بخبر واحد أو أثر واحد يشهد بصحة قولكم ؛ وعن الكسائي ضم الهمزة وإسكان الثاء فهي اسم

للمقدار كالغرفة لما يغرف باليد أي ائتوني بشيء ما يؤثر من علم ، وروي عنه أيضاً أنه قرأ ﴿ أثارة ﴾ بكسر الهمزة وسكون الثاء وهي بمعنى الأثرة بفتحتين .

(46/702)

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُواْ مِن دُونِ اللهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ ﴾ إنكار لأن يكون أضل من المشركين ، وذكر بعض الفضلاء أن المراد نفي أن يكون أحد يساويهم في الضلالة وإن كان سبك التركيب لنفي الأضل ، وقد مر ما يتعلق بذلك فتذكر أي هو أضل من كل ضال حيث ترك دعاء المجيب القادر المستجمع لجميع صفات الكل كما يشعر بذلك الاسم الجليل ودعا من ليس شأنه الاستجابة له وإسعافه بمطلوبه ﴿ إِلَى يَوْمِ القيامة ﴾ أي ما دامت الدنيا ، وظاهره أنه بعدها تقع الاستجابة وليس بمراد لتحقق ما يدل على خلافه ، فهذه الغاية على ما في الانتصاف من الغايات المشعرة بأن ما بعدها وإن وافق ما قبلها إلا أنه أزيد منه زيادة بينة تلحقه بالمباين حتى كأن الحالتين وإن كانتا نوعاً واحداً لتفاوت ما بينهما كالشيء وضده ، وذلك أن الحالة الأولى التي جعلت غايتها القيامة لا تزيد على عدم الاستجابة ، والحالة الثانية التي في القيامة زادت على عدم الاستجابة بالعداوة وبالكفر بعبادتهم إياهم كما ينطق به ما بعد فهو من وادي قوله تعالى : في سورة [الزخرف : 29]

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ ﴾ الآية ، ونحوه قوله سبحانه في إبليس : ﴿ إِنْ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدين ﴾ [ص : 78] وقد يقال : المراد بهذه الغاية التأبيد كما قيل في قوله تعالى : ﴿ خالدين فِيهَا مَا دَامَتِ السموات ﴾ [هود : 107] وقولهم : ما دام ثبير ، وقال بعضهم : لا إشكال في الآية لأن الغاية مفهوم فلا تعارض المنطوق ، وفيه بحث ، ففي "الدرر" و"الينبوع" عن البديع أن الغاية عندنا من قبيل إشارة النص لا المفهوم .

(47/702)

وقال الزركشي في شرح جمع الجوامع : ذهب القاضي أبو بكر إلى أن الحكم في الغاية منطوق وادعى أن أهل اللغة صرحوا بأن تعليق الحكم بالغاية موضوع على أن ما بعدها خلاف ما قبلها لأنهم اتفقوا على أنها ليست كلاماً مستقلاً فإن قوله تعالى : ﴿ حتى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ (البقرة ؛ 230) وقوله سبحانه : ﴿ حتى يَطْهُرْنَ ﴾ [البقرة : 222] لا بد فيه من إضمار لضرورة تتميم الكلام ؛ وذلك أن المضمر إما ضد ما قبله أولاً والثاني باطل لأنه ليس في الكلام ما يدل عليه فيقدر حتى يطهرن فاقربوهن ، حتى تنكح زوجاً غيره فتحل ، قال : والمضمر بمنزلة الملفوظ فإنه إنما يضمر لسبقه إلى ذهن العارف باللسان ، وعليه جرى صاحب البديع من الحنفية فقال : هو عندنا من دلالة الإشارة لا من المفهوم ،

لكن الجمهور على أنه مفهوم ومنعوا وضع اللغة لذلك انتهى ، ويعلم من هذا أن قوله في التلويح : إن مفهوم الغاية متفق عليه لا يخلو من الخلل ﴿ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ ﴾ الضمير الأول : لمفعول ﴿ يَدْعُواْ ﴾ أعني ﴿ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ ﴾ والثاني : لفاعله ، والجمع فيهما باعتبار معنى ﴿ مِنْ ﴾ كما أن الإفراد فيما سبق باعتبار لفظها أي والذين يدعون من لا يستجيبون لهم عن دعائهم إياهم ﴿ غافلون ﴾ لا يسمعون ولا يدرون ، أما إن كان المدعو جماداً فظاهر ، وأما إن كان من ذوي العقول فإن كان من المقبولين المقربين عند الله تعالى فلاشتغاله عن ذلك بما هو فيه من الخير أو كونه في محل ليس من شأن الذي فيه أن يسمع دعاء الداعي للبعد كعيسى عليه الصلاة والسلام اليوم أو لأن الله تعالى يصون سمعه عن سماع ذلك لأنه لكونه مما لا يرضي الله تعالى يؤلمه لو سمعه ، وإن كان من أعداء الله تعالى كشياطين الجن والإنس الذين عبدوا من دون الله تعالى فإن كان ميتاً فلاشتغاله بما هو فيه من الشر ، وقيل : لأن الميت ليس من شأنه السماع ولا يتحقق منه سماع إلا معجزة كسماع أهل القليب ، وفي هذا

كلام تقدم بعضه ؛ وإن كان حياً فإن كان بعيداً مثلاً فالأمر ظاهر ، وإن كان قريباً سليم الحاسة فقيل : الكلام بالنسبة إليه بعد تأويل الغفلة بعدم السماع وعلى التغليب لندرة هذا الصنف .

ومن الناس من أول الغفلة بعدم الفائدة وتعقب بأنه حينئذٍ لا يكون لوصفهم بالغفلة بعد وصفهم بعدم الاستجابة كثير فائدة ، واعتبر بعضهم التغليب من غير تأويل بمعنى أنه غلب من يتصور منه الغفلة حقيقة على غيره ، وهذا كالتغليب في التعبير عن تلك الآلهة بما هو موضوع لأن يستعمل في العقلاء ، وإن كانت الآية في عبدة الأصنام ونحوها مما لا يعقل تجوز في الغفلة وكان التعبير بما هو للعاقل لإجراء العبدة إياها مجرى العقلاء .

وقال بعضهم : على جعلها في عبدة الأصنام .

إن وصفها بما ذكر من ترك الاستجابة والغفلة مع ظهور حالها للتهكم بها فتدبر ولا تغفل .

﴿ وَإِذَا حُشِرَ الناس ﴾ عند قيام القيامة ﴿ كَانُواْ ﴾ أي المعبودون ﴿ لَهُمْ ﴾ أي العابدين ﴿ أَعْدَاء ﴾ شديدي العداوة ﴿ وَكَانُواْ ﴾ أي المعبودون أيضاً ﴿ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ أي بعبادة الكفرة إياهم ﴿ كافرين ﴾ مكذبين ، والأمر ظاهر في ذوي العقول .

وأما في الأصنام فقد روي أن الله تعالى يخلق لها إدراكاً وينطقها فتتبرأ عن عبادتهم وكذا تكون أعداء لهم ، وجوز كون تكذيب الأصنام بلسان الحال لظهور أنهم لا يصلحون للعبادة

وأنهم لا نفع لهم كما توهموه أولاً حيث قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ ﴾ [الزمر : 3] ورجوا الشفاعة منهم .

(49/702)

وفسرت العداوة بالضر على أنها مجاز مرسل عنه فمعنى ﴿ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَاء ﴾ كانوا لهم ضارين ، وما ذكرناه في بيان الضمائر هو الظاهر ، وقيل : ضمير ﴿ هُمْ ﴾ المرفوع البارز والمستتر في قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غافلون ﴾ [الأحقاف : 5] للكفرة الداعين وضمير ﴿ دُعَائِهِمْ ﴾ لهم أو للمعبودين ، والمعنى أن الكفار عن ضلالهم بأنهم يدعون من لا يستجيب لهم غافلون لا يتأملون ما عليهم في ذلك ، وفيه من ارتكاب خلاف الظاهر ما فيه ، وفي الضمائر بعد نحو ذلك ، والمعنى إذا حشر الناس كان الكفار أعداء لآلهتهم الباطلة لما يرون من ترتب العذاب على عبادتهم إياها وكانوا لذلك منكرين أنهم عبدوا غير الله تعالى كما حكى الله تعالى عنهم أنهم يقولون : ﴿ والله ربّنا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] وتعقب بأن السياق لبيان حال الآلهة معهم لا عكسه ، ولأن كفرهم حينئذٍ إنكار لعبادتهم وتسميته كفراً خلاف الظاهر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(50/702)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السماوات ائتوني بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هاذا آ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

قد ذكرنا قريباً أن قوله : ﴿ مَا خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بالحق ﴾ يتضمن البرهان القاطع على صحة معنى لا إله إلا الله . وأن العلامة الفارقة بين المعبود بحق . وبين غيره هى كونه خالقاً . وأول سورة الأحقاف هذه يزيد ذلك إيضاحاً . لأنه ذكر من صفات المعبود بحق أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق . وذكر من المعبودات الأخرى التى عبادتها كفر . مخلد فى النار أنها لا تخلق شيئاً .

فقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ أي هذه المعبودات التي تعبدونها من دون الله . أروني ماذا خلقوا من الأرض .

فقوله : أروني . يراد بها التعجيز والمبالغة فى عدم خلقهم شيئاً . وعلى أن ﴿ ما ﴾ استفهامية . ﴿ وذا ﴾ موصولة .

فالمعنى أروني ما الذي خلقوه من الأرض . وعلى أن ﴿ ما ﴾ و ﴿ ذا ﴾ بمنزلة كلمة واحدة يراد بها الاستفهام .

فالمعنى : أروني أي شيء خلقوه من الأرض ؟

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن من لم يخلق شيئاً فى الأرض ولم يكن له شرك فى السماوات . لا يصح أن يكون معبوداً بحال جاء موضحاً فى آيات كثيرة . كقوله تعالى فى فاطر ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأرض أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السماوات أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً ﴾ [فاطر : 40] الآية . وقوله فى لقمان : ﴿ هذا خَلْقُ الله فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الذين مِن دُونِهِ ﴾ [لقمان : 11] وقوله في سبأ ﴿ قُلِ ادعوا الذين زَعَمْتُمْ مِّن دُونِ الله لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السماوات وَلاَ فِي الأرض وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّن ظَهِيرٍ ﴾ [سبأ : 22] والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

وقد قدمنا طرفاً منها قريباً .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة ﴿ ائتوني بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هاذآ ﴾ ، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الزخرف فى الكلام على قوله تعالى : ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ [الزخرف : 21] .

قوله : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ الله مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إلى يَوْمِ القيامة وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَافِلُون وَإِذَا حُشِرَ الناس كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الجاثية فى الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْئاً وَلاَ مَا اتخذوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَآءَ ﴾ [الجاثية : 10] الآية . وفى سورة مريم فى الكلام على قوله تعالى : ﴿ واتخذوا مِن دُونِ الله آلِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزّاً ﴾ [مريم : 81] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(52/702)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ﴾

انتقل إلى الاستدلال على بطلان نفي صفة الإلهية عن أصنامهم .

فجملة ﴿ قل أرأيتم ما تدعون ﴾ أمر بإلقاء الدليل على إبطال الإشراك وهو أصل ضلالهم .

وجَاء هذا الاستدلال بأسلوب المناظرة فجُعل النبي صلى الله عليه وسلم مواجهاً لهم بالاحتجاج ليكون إلجاءً لهم إلى الاعتراف بالعجز عن معارضة حجته ، وكذلك جرى الاحتجاج بعده ثلاث مرات بطريقة أمر التعجيز بقوله : ﴿ أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات أيتوني بكتاب ﴾ الآية .

و﴿ أرأيتم ﴾ استفهام تقريري فهو كناية عن معنى : أخبروني ، وقد تقدم في سورة الأنعام (40) قوله : ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون ﴾ وقوله : أروني ﴾ تصريح بما كنى عنه طريق التقرير لقوله : ﴿ أرأيتم ما تدعون ﴾ وموقع جملة ﴿ أروني ﴾ في موقع المفعول الثاني لفعل ﴿ أرأيتم ﴾ .

والأمر في ﴿ أروني ماذا خلقوا من الأرض ﴾ مستعمل في التسخير والتعجيز كناية عن النفي إن لم يخلقوا من الأرض شيئاً فلا تستطيعوا أن تُروني شيئاً خلقوه في الأرض ، وهذا من رؤوس مسائل المناظرة ، وهو مطالبة المدّعي بالدليل على إثبات دعواه .

و﴿ ماذا ﴾ بمعنى ما الذي خلقوه ، ف (ما) استفهامية ، و (ذا) بمعنى الذي .

وأصله اسم إشارة ناب عن الموصول .

وأصل التركيب : ماذا الذي خلقوا ، فاقتصر على اسم الإشارة وحذف اسم الموصول غالباً في الكلام وقد يظهر كما في قوله تعالى : ﴿ من ذَا الذي يشفع عنده ﴾ [البقرة : 255] .

ولهذا قال النحاة : إن (ذا) بعد (ما) أو (مَن) الاستفهاميتين بمنزلة (مَا) الموصولة .

والاستفهامُ في ﴿ ماذا خلقوا ﴾ إنكاري .

وجملة ﴿ ماذا خلقوا ﴾ بدل من جملة ﴿ أروني ﴾ وفعل الرؤية معلق عن العمل بورود ﴿ ما ﴾ الاستفهامية بعده ، وإذا لم يكن شيء من الأرض مخلوقاً لهم بطل أن يكونوا آلهة لِخروج المخلوقات عن خَلقهم ، وإذا بطل أن يكون لها خلق بطل أن يكون لها تصرف في المخلوقات كما قال تعالى : ﴿ أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يُخلقون ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسَهم ينصرون ﴾ في سورة الأعراف (191 ، 192) .

وأم ﴾ حرف إضراب انتقالي .

والاستفهام المقدر بعد ﴿ أم ﴾ المنقطعة استفهام إنكاري أي ليس لهم شرك مع الله في السماوات .

وإنما أوثر انتفاء الشِركة بالنسبة للشركة في السماوات دون انتفاء الخلق كما أوثر انتفاء الخلق بالنسبة إلى الأرض لأن مخلوقات الأرض مشاهدة للناس ظاهر تطورها وحدوثها وأن ليس لما يدعونهم دون الله أدنى عمل في إيجادها ، وأما الموجودات السماوية فهي محجوبة عن العيون لا عهد للناس بظهور وجودها ولا تطورها فلا يحسن الاستدلال بعدم تأثير الأصنام في إيجاد شيء منها ولكن لمّا لم يدّع المشركون تصرفاً للأصنام إلا في أحوال الناس في الأرض من جلب نفع أو دفع ضر اقتصر في نفي تصرفهم في السماوات على الاستدلال بنفي أن يكون للأصنام شركة في أمور السماوات لأن انتفاء ذلك لا ينازعون

فيه .

وتقدم نظير هذه الآية في سورة فاطر (40) ﴿ قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ﴾ الآية فانظر ذلك .

ثم انتقل من الاستدلال بالمشاهدة وبالإقرار إلى الاستدلال بالأخبار الصادقة بقوله : ائتوني بكتاب من قبل هذا ﴾ فجملة ﴿ ائتوني بكتاب ﴾ في موقع مفعول ثان لفعل ﴿ أرأيتم ﴾ ، كرر كما يتعدد خبر المبتدأ .

ومناط الاستدلال أنه استدلال على إبطال دعوى المدعي بانعدام الحجة على دعواه ويسمى الإفحام كما تقدم .

(54/702)

والمعنى : نفي أن يكون لهم حجة على إلهية الأصنام لا بتأثيرها في المخلوقات ، ولا بأقوال الكتب ، فهذا قريب من قوله في سورة فاطر (40) ﴿ أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه ﴾ والمراد بـ (كتاب) أيّ كتاب من الكتب المقروءة .

وهذا قاطع لهم فإنهم لا يستطيعون ادعاء أن لأصنامهم في الكتب السابقة ذِكراً غير الإبطال والتحذير من عبادتها ، فلا يوجد في الكتب إلا أحد أمرين : إمّا إبطال عبادة

الأصنام كما في الكتب السماوية ، وإمّا عدم ذكرها البتة ويدل على أن المراد ذلك قوله بعده : أو أثارة من علم ﴾ .

والإتيان مستعار للإحضار ولو كان في مجلسهم على ما تقدم في قوله تعالى : ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ في سورة البقرة (23) .

والإشارة في قوله : من قبل هذا ﴾ إلى القرآن لأنه حاضر في أذهان أصحاب المحاجة فإنه يُقرأ عليهم معاودة .

ووجه تخصيص الكتاب بوصف أن يكون من قبل القرآن ليسد عليهم باب المعارضة بأن يأتوا بكتاب يُصنع لهم ، كمَا قالوا : ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلاّ أساطير الأولين ﴾ [الأنفال : 31] .

و ﴿ أثارة ﴾ بفتح الهمزة : البقية من الشيء .

والمعنى : أو بقية بقيت عندكم ترووونها عن أهل العلم السابقين غير مسطورة في الكتب .

وهذا توسيع عليهم في أنواع الحجة ليكون عجزهم عن الإتيان بشيء من ذلك أقطع لدعواهم .

وفي قوله : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ إلهاب وإفحام لهم بأنهم غير آتين بحجة لا من جانب العقل ولا من جانب النقل المسطور أو المأثور ، وقد قال تعالى في سورة القصص (50) ﴿ فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم .

﴿

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (5)

(55/702)

اعتراض في أثناء تلقين الاحتجاج ، فلما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يحاجّهم بالدليل وجّه الخطاب إليه تعجيباً من حالهم وضلالهم لأن قوله : ﴿ وإذا حُشر الناس كانوا لهم أعداء ﴾ الخ لا يناسب إلا أن يكون من جانب الله .

و﴿ مَن ﴾ استفهامية ، والاستفهام إنكار وتعجيب .

والمعنى : لا أحد أشدّ ضلالاً وأعجب حالاً ممن يدعون من دون الله من لا يستجيب له دعاءه فهو أقصى حد من الضلالة .

ووجه ذلك أنهم ضلوا عن دلائل الوحدانية وادّعوا لله شركاء بلا دليل واختاروا الشركاء من حجارة وهي أبعد الموجودات عن قبول صفات الخلق والتكوين والتصرف ثم يدعونها في نوائبهم وهم يشاهدون أنها لا تسمع ولا تبصر ولا تجيب ثم سمعوا آيات القرآن توضح لهم الذكرى بنقائص آلهتهم ، فلم يعتبروا بها وزعموا أنها سحر ظاهر فكان ضلالهم أقصى

حد في الضلال .

و﴿ من لا يستجيب ﴾ الأصنام عُبّر عن الأصنام باسم الموصول المختص بالعقلاء معاملة للجماد معاملة العقلاء إذْ أسند إليها ما يسند إلى أولي العلم من الغفلة ، ولأنه شاع في كلام العرب إجراؤها مجرى العقلاء فكثرت في القرآن مجاراة استعمالهم في ذلك ، ومثلُ هذا جعل ضمائر جمع العقلاء في قوله : ﴿ وهم ﴾ وقوله : ﴿ غافلون ﴾ وهي عائدة إلى ﴿ من لا يستجيب ﴾ .

وجَعْلُ يوم القيامة غايةً لانتفاء الاستجابة .

كنايةٌ عن استغراق مدة بقاء الدنيا .

وعبر عن نهاية الحياة الدنيا بـ ﴿ يوم القيامة ﴾ لأن المواَجه بالخبر هو الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون كما علمت وهم يثبتون يوم القيامة .

وضميرا ﴿ كانوا ﴾ في الموضعين يجوز أن يَعودا إلى ﴿ ممن يدعو من دون الله ﴾ فإن المشركين يعادُون أصنامهم يوم القيامة إذ يجدونها من أسباب شقائهم .

(56/702)

ويجوز أن يعودا إلى ﴿ من لا يستجيب له ﴾ فإن الأصنام يجوز أن تعطى حياة يومئذٍ فتنطق بالتبرّي عن عُبادها ومن عبادتهم إياها ، قال تعالى : ﴿ ويوم القيامة يكفرون بشرككم ﴾ [فاطر : 14] وقال : ﴿ ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلّوا السبيل قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نَسُوا الذكر وكانوا قوماً بُوراً فقد كذبوكم بما تقولون ﴾ [الفرقان : 17 19] .

ويجوز أن يكون قوله : ﴿ كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ جارياً على التشبيه البليغ لمشابهتها للأعداء والمنكرين للعبادة في دلالتها على ما يفضي إلى شقائهم وكذبهم كقوله تعالى : ﴿ وما زادوهم غير تتبيب ﴾ [هود : 101] .

وعطف جملة ﴿ وإذا حشر الناس ﴾ الخ على ما قبلها لمناسبة ذكر يوم القيامة .

ومن بديع تفنن القرآن توزيع معاد الضمائر في هذه الآية مع تماثلها في اللفظ وهذا يتدرج في محسِّن الجمع مع التفريق وأدق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(57/702)

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (7) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (8) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بين أنهم في غاية السفه في عبادة ما لا دليل بوجه على عبادته ، أتبعه بيان أنهم في غاية الغباوة بإنكار ما لا شيء أبين منه ، فقال عاطفاً على ﴿ والذين كفروا عما أنذروا معرضون ﴾ : ﴿ وإذا تتلى ﴾ أي تقرأ من أي قارئ كان على وجه المتابعة ﴿ عليهم آياتنا ﴾ أي التي لا أعظم منها في أنفسها وبإضافتها إلينا ﴿ بينات ﴾ لا شيء أبين منها قالوا – هكذا كان الأصل ولكنه بين الوصف الحامل لهم على القول فقال : ﴿ قال الذين كفروا ﴾ أي ستروا تلك الأنوار التي أبرزتها تلك التلاوة لها – هكذا كان الأصل ولكنه قال : ﴿ للحق ﴾ أي لأجله ﴿ لما ﴾ أي حين ﴿ جاءهم ﴾ بيانها لأنها مع بيانها لا شيء أثبت منها وأنهم بادروا أول سماعهم لها إلى إنكارها دون تفكر : ﴿ هذا ﴾ أي الذي تلي ﴿ سحر ﴾ أي خيال لا حقيقة له ﴿ مبين ﴾ أي ظاهر في أنه خيال ، فدل قولهم هذا – بمبادرتهم إليه من غير تأمل أصلاً ، وبكونه أبعد الأشياء عن حقيقة ما قيل فيه – على أنهم أكثر الناس عناداً وأجرؤهم على الكذب وهم يدعون أنهم أعرق الناس في الإنصاف

وألزمهم للصدق .

ولما دلت هذه الآيات بعظيم حججها وزخار ما أغرق من لججها ، على أن ما يدينون به أوهى من الخيال ، وأن هذا الكتاب في صدقه وكل شيء من أمره أثبت من الجبال ، فكانوا أجدر الخلق بأن يقولوا : رجعنا عما كنا فيه وآمنا ، كان موضع أن يقال : هل أقروا بأنك صادق في نسبة هذا الكتاب إلى الله ، فعادله بقوله دليلاً عليه : ﴿ أم يقولون ﴾ مجددين لذلك متابعين له ﴿ افتراه ﴾ أي تعمد كذبه ، فيكون ذلك من قولهم عجباً لأنه قول مقرون بما يكذبه ويبطله كما يأتي في تقريره .

ولما كان كأنه قيل : إنهم ليقولون ذلك ، وقد قرحوا القلوب به فماذا يردهم عنه ؟ قيل : ﴿ قل ﴾ ما هو أشد عليهم من وقع النبل ، وهو ما يرد ما رموك به عليهم بحجة هي أجلى من الشمس في الظهيرة صحواً ليس دونها سحاب .

(58/702)

ولما كان من عادة الملوك أنه متى كذب عليهم أحد عاجلوه بالعقوبة قال : ﴿ إن افتريته ﴾ أي تعمدت كذبه على زعمكم وأنا إنما أريد به نصيحتكم ، فالذي أفتريه عليه وأنسبه إليه يعاقبني على ذلك ولا يتركني أصلاً ، وذلك هو معنى قوله : ﴿ فلا تملكون ﴾ أي أيها

المنصوحون في وقت من الأوقات بوجه من الوجوه ﴿ لي من الله ﴾ أي الملك الأعظم العزيز المتكبر الحكيم ﴿ شيئاً ﴾ مما يرد عني انتقامه مني لأن الملك لا يترك من كذب عليه مطلق كذب ، فكيف بمن يتعمد الكذب عليه في الرسالة بأمور عظيمة ويلازمه مساء وصباحاً غدواً ورواحاً ، فأي حامل لي حينئذ على افترائه ، والمقصود به لا ينفعني ، والمكذوب عليه لا يتركني ؛ ثم علل ما أفاده الكلام من وجوب الانتقام بقوله : ﴿ هو أعلم ﴾ أي منكم ومن كل أحد ﴿ بما تفيضون فيه ﴾ من نسبتي إلى الكذب ، فلو أنه كما تقولون ما ناظرني فضلاً عن أنه يؤيدني وينصرني ، وفيه على ذلك تهديد لهم وتسلية له وتفريج عنه .

(59/702)

ولما كان الإملاء وحده ليس قاطعاً في ذلك وإن كان ظاهراً فيه ، فكان لا بد في دعوى الصدق من دليل قاطع وبرهان ساطع ، وكانت شهادة الملك الذي الكلام فيه أعظم الأدلة لأنه الأعلم ، ومدار الشهادة العلم ، فأنتج الكلام قطعاً قوله : ﴿ كفى ﴾ وأكد الكلام بما قرن بالفاعل من حرف الجر تحقيقاً للفعل ونفياً للمجاز فقال : ﴿ به شهيداً ﴾ أي شاهداً بليغ الشهادة لأنه الأعلم بجميع أحوالنا ﴿ بيني وبينكم ﴾ يشهد بنفسه الأقدس للصادق منا وعلى الكاذب ، وقد شهد بصدقي بعجزكم عن معارضة شيء من هذا الكتاب

الذي أتيت به فثبت بذلك أنه كلامه لأني لا أقدر وحدي على ما لا تقدرون عليه فرادى ولا مجتمعين وأنتم عرب مثلي ، بل وأنا أمي وفيكم أنتم الكتبة والذين خالطوا العلماء وسمعوا أحاديث الأمم وضربوا – بعد بلاد العجم – في بلاد العرب ، فظهر بذلك ظهور الشمس أنكم كاذبون ﴿ وهو الغفور ﴾ الذي من شأنه أن يمحو الذنوب كلها أعيانها وآثارها فلا يعاقب عليها ولا يعاتب ﴿ الرحيم ﴾ الذي يكرم بعد المغفرة ويفضل بالتوفيق لما يرضيه ، ففي هذا الختام ترغيب للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الصفح عنهم فيما نسبوه إليه في افتتاحها من الافتراء ، وندب إلى الإحسان إليهم ، وترغيب لهم في التوبة ، ومنع من أن يقولوا : فلم لا يعاجلنا بالعقوبة على نسبتنا لك إلى الكذب إن كنت صادقاً بأنه يجوز أن يمهل الكاذب ، وأما أنه يؤيده بما يشد به كذبه اللازم منه أنه يزيد فيه فلا يجوز ، لأن ذلك قادح في الحكمة وفي الكبرياء وفي الملك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 120.119 ﴾

(60/702)

فصل

قال الفخر :

واعلم أنه تعالى لما تكلم في تقرير التوحيد ونفي الأضداد والأنداد تكلم في النبوة وبيّن أن محمداً صلى الله عليه وسلم كلما عرض عليهم نوعاً من أنواع المعجزات زعموا أنه سحر فقال وإذا تتلى عليهم الآيات البينة وعرضت عليهم المعجزات الظاهرة سموها بالسحر ، ولما بيّن أنهم يسمون المعجزة بالسحر بيّن أنهم متى سمعوا القرآن قالوا إن محمداً افتراه واختلقه من عند نفسه ، ومعنى الهمزة في أم للإنكار والتعجب كأنه قيل دع هذا واسمع القول المنكر العجيب ، ثم إنه تعالى بيّن بطلان شبهتهم فقال إن افتريته على سبيل الفرض ، فإن الله تعالى يعاجلني بعقوبة بطلان ذلك الافتراء وأنتم لا تقدرون على دفعه عن معاجلتي بالعقوبة فكيف أقدم على هذه الفرية ، وأعرض نفسي لعقابه ؟ يقال فلان لا يملك نفسه إذا غضب ولا يملك عنانه إذا صمم ، ومثله

﴿ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ المسيح ابن مَرْيَمَ ﴾ [المائدة : 17] ، ﴿ وَمَن يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً ﴾ [المائدة : 41] ومن قوله صلى الله عليه وسلم : " لا أملك لكم من الله شيئاً "

ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أي تندفعون فيه من القدح في وحي الله تعالى والطعن في آياته وتسميته سحراً تارة وفرية أخرى ﴿ كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ يشهد لي بالصدق ويشهد عليكم بالكذب والجحود ، ومعنى ذكر العلم والشهادة وعيد لهم على إقامتهم في الطعن والشتم .

ثم قال : ﴿ وَهُوَ الغفور الرحيم ﴾ بمن رجع عن الكفر وتاب واستعان بحكم الله عليهم مع عظم ما ارتكبوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 6.7 ﴾

(61/702)

وقال ابن عطية :

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (7) ﴾

الآيات المذكورة هي آيات القرآن ، بدليل قوله : ﴿ تتلى ﴾ وبقول الكفار : ﴿ هذا سحر ﴾ وإنما قالوا ذلك عن القرآن من حيث قالوا : هو يفرق بين المرء وبين ولده ، وبينه وبين زوجه ، إلى نحو هذا مما يوجد مثله للسحر بالوجه الأخس .

وقوله تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ ، ﴿ أم ﴾ مقطوعة مقدرة ب ﴿ بل ﴾ وألف الاستفهام . و: ﴿ افتراه ﴾ معناه : اشتقه واختلقه ، فأمره الله تعالى أن يقول : ﴿ إن افتريته ﴾ فالله حسبي في ذلك ، وهو كان يعاقبني ولا يمهلني . ثم رجع القول إلى الاستسلام إلى الله تعالى والاستنصار به عليهم وانتظار ما يقتضيه علمه ﴿ بما يفيضون فيه ﴾ من الباطل ومرادة الحق ، وذلك يقتضي معاقبتهم ، ففي اللفظة تهديد . والضمير في قوله : ﴿

فيه ﴾ يحتمل أن يعود على القرآن ، ويحتمل العودة على ﴿ بما ﴾ . والضمير في : ﴿ به ﴾ عائد على الله تعالى . و: ﴿ به ﴾ في موضع رفع ، وأفاض الرجل في الحديث والسب ونحوه : إذا خاض فيه واستمر .

وقوله : ﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ ترجية واستدعاء إلى التوبة ، لأنه في خلال تهديده إياهم بالله تعالى جاءت هاتان الصفتان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(62/702)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ يعني القرآن .

﴿ قَالَ الذين كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هذا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ الميم صلة ؛ التقدير : أيقولون افتراه ؛ أي تقوّله محمد .

وهو إضراب عن ذكر تسميتهم الآيات سحراً .

ومعنى الهمزة في "أم" الإنكار والتعجب ؛ كأنه قال : دع هذا واسمع قولهم المستنكر المقضيّ منه العجب .

وذلك أن محمداً كان لا يقدر عليه حتى يقوله ويفترِيَه على الله ، ولو قدر عليه دون أمة

العرب لكانت قدرته عليه معجزة لخرقها العادة ، وإذا كانت معجزة كانت تصديقاً من الله له ، والحكيم لا يصدّق الكاذب فلا يكون مفترياً ؛ والضمير للحق ، والمراد به الآيات .

﴿ قُلْ إِنِ افتريته ﴾ على سبيل الفرض .

﴿ فَلاَ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئاً ﴾ أي لا تقدرون على أن تردُّوا عني عذاب الله ؛ فكيف أفتري على الله لأجلكم .

﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أي تقولونه ؛ عن مجاهد .

وقيل : تخوضون فيه من التكذيب .

والإفاضة في الشيء : الخوض فيه والاندفاع .

أفاضوا في الحديث أي اندفعوا فيه .

وأفاض البعير أي دفع جِرّته من كرِشِه فأخرجها ؛ ومنه قول الشاعر :

وأفضن بعد كُظُومِهِنّ بجِرّة . . .

وأفاض الناس من عرفات إلى مِنًى أي دفعوا ، وكل دفعة إفاضة .

﴿ كَفَى بِهِ شَهِيداً ﴾ نصب على التمييز .

﴿ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ أي هو يعلم صدقي وأنكم مبطلون .

﴿ وَهُوَ الغفور ﴾ لمن تاب ﴿ الرحيم ﴾ بعباده المؤمنين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ حم تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله العزيز الحكيم ﴾

الكلامُ فيه كالذي مرَّ في مطلعِ السورةِ السابقةِ . ﴿ مَا خَلَقْنَا السموات والأرض ﴾ بما فيهما من حيثُ الجزئيةُ منهما ومن حيثُ الاستقرارُ فيهما . ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من المخلوقاتِ ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ استثناءٌ مفرغٌ من أعمِّ المفاعيلِ . أي إلاَّ خلقاً مُلتبساً بالحقِّ الذي تقتضيهِ الحكمةُ التكوينيةُ والتشريعيةُ ، أو من أعمِّ الأحوالِ من فاعلِ خلقنا أو من مفعولِه أي ما خلقناها في حالٍ من الأحوالِ إلا حالَ ملابستِنا بالحقِّ أو حالَ ملابستِها به . وفيهِ من الدلالةِ على وجودِ الصَّانعِ تعالى وصفاتِ كمالِه وابتناءِ أفعالِه على حِكمٍ بالغةٍ وانتهائِها إلى غاياتٍ جليلةٍ ما لا يَخْفى . ﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ عطفٌ على الحقِّ بتقديرِ مضافٍ أي وبتقديرِ أجلٍ مُسمًّى ينتهي إليهِ أمرُ الكلِّ وهو يومُ القيامةِ يومَ تُبدلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسمواتُ وبرزوا لله الواحدِ القهارِ ، وقيلَ : هُو آخرُ مُدةِ البقاءِ المقدرِ لكلِّ واحدٍ ، ويأباهُ قولُه تعالى ﴿ والذين كَفَرُواْ عَمَّا أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ﴾ فإنَّ ما أُنذروه يومُ القيامةِ وما فيهِ من الطامَّةِ التَّامَّةِ والأهوالِ العامةِ لا آخرُ أعمارِهم وقد جُوِّزَ كونُ ما مصدريةً ، والجملةُ

حاليةٌ. أي ما خلقنا الخلقَ إلا بالحقِّ وتقديرِ الأجلِ الذي يُجازونَ عندَهُ، والحالُ أنَّهم غيرُ مؤمنينَ به معرضونَ عنه وعن الاستعدادِ له. ﴿ قُلْ ﴾ توبيخاً لهم وتبكيتاً ﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أخبرُوني، وقُرِىءَ أرأيتكُم. ﴿ مَا تَدْعُونَ ﴾ ما تعبدونَ ﴿ مِن دُونِ الله ﴾ منَ الأصنامِ ﴿ أَرُونِىَ ﴾ تأكيدٌ لأرأيتُم. ﴿ مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأرض ﴾ بيانٌ للإبهامِ في ماذا ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ ﴾ أي شركةٌ معَ الله تعالَى. ﴿ فِى السموات ﴾ أي في خلقِها أو مُلكِها وتدبيرِها حتَّى يُتوهم أن يكونَ لهم شائبةُ استحقاقٍ للمعبوديةِ فإنَّ ما لا مدخلَ له في وجودِ شيءٍ من الأشياءِ

(64/702)

بوجهٍ من الوجوهِ فهُو بمعزلٍ منْ ذلكَ الاستحقاقِ بالمرَّةِ وإنْ كانَ منَ الأحياءِ العُقلاءِ فما ظنُّكم بالجمادِ. وقولُه تعالَى ﴿ ائتونى بكتاب ﴾ الخ. تبكيتٌ لهم بتعجيزِهم عن الإتيانِ بسندٍ نقليَ بعد تبكيتِهم بالتعجيزِ عن الإتيانِ بسندٍ عقليَ أي ائتونِي بكتابٍ إلهيَ كائنٍ ﴿ مِّن قَبْلِ هذا ﴾ الكتابِ أي القُرآنِ الناطقِ بالتَّوحيدِ وإبطالِ الشركِ دالٍ على صحةِ دينِكم ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ أو بقيةٍ من علمٍ بقيتْ عليكُم من علومِ الأولينَ شاهدةٍ باستحقاقِهم للعبادةِ ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ في دَعْواكُم فإنَّها لا تكادُ تَصحُّ ما لم يقُم عليها برهانٌ عقليٌّ

أو سلطانٌ نقليٌّ ، وحيثُ لَم يقُمْ عليها شيءٌ منهُمَا وقد قامتْ على خلافِها أدلةُ العقلِ والنقلِ تبينَ بطلانُها . وقُرِيءَ إِثَارَةٍ بكسرِ الهمزةِ أي مناظرةٍ فإنها تُثيرُ المعانيَ ، وأَثَرةٍ أيْ شيءٍ أُوثرتُم بهِ وخُصِصتُم منْ علمٍ مطويَ من غيرِكم ، وإثرة بالحركات الثلاث مع سكون الثاء ، إما المكسورةُ فبمعنى الأَثَرةِ ، وأمَّا المفتوحةُ فهي المرةُ من أثرَ الحديثَ أي رَواه ، وأمَّا المضمومةُ فاسمُ ما يُؤثرُ كالخُطبةِ التي هي اسمُ ما يُخطبُ بهِ .

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ ﴾

(65/702)

إنكارٌ ونفيٌ لأنْ يكونَ أحدٌ يُساوي المُشركينَ في الضَّلالِ . وإنْ كانَ سبكُ التركيبِ لنفي الأضلِ منهم من غيرِ تعرضٍ لنفي المُساوِي كما مرَّ غيرَ مرةٍ أي هُم أضلُّ من كلِّ ضالَ ، حيثُ تركُوا عبادةَ خالقِهم السميعِ القادرِ المجيبِ الخبيرِ إلى عبادةِ مصنُوعِهم العاري عن السمعِ والقدرةِ والاستجابةِ ﴿ إلى يَوْمِ القيامة ﴾ غايةٌ لنفي الاستجابةِ ﴿ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ ﴾ الضميرُ الأولُ لمفعولِ يدعُو والثانِي لفاعِله والجمعُ فيهما باعتبارِ مَعْنى مَنْ كما أنَّ الإفرادَ فيما سبقَ باعتبارِ لفظِها ﴿ غافلون ﴾ لكونِهم جماداتٍ ، وضمائرُ العقلاءِ لإجرائِهم إيَّاها مُجرى العُقلاءِ ، ووصفُها بما ذُكِرَ منْ تركِ الاستجابةِ والغفلةِ مع ظهورِ حالِها

للتهكم بها وبعبدتها كقوله تعالى : ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُواْ دُعَاءكُمْ ﴾ الآية . ﴿ وَإِذَا حُشِرَ الناس ﴾ عند قيامِ القيامةِ ﴿ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كافرين ﴾ أي مُكذبينَ بلسانِ الحالِ أو المقالِ ، علَى ما يُروى أنَّه تعالَى يُحيي الأصنامَ فتتبرأُ عن عبادِتهم . وقد جُوِّزَ أنْ يرادَ بهم كلُّ من يُعبد من دونِ الله من الملائكةِ والجنِّ الإنسِ وغيرِهم ، ويبنَى إرجاعُ الضمائرِ وإسنادُ العداوةِ والكفرِ إليهم على التغليبِ ، ويرادُ بذلكَ تبرؤُهم عنهُم وعنْ عبادِتهم ، وقيلَ : ضميرُ كانُوا للعبدةِ وذلكَ قولُهم : ﴿ والله ربِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءاياتنا بَيِّنَاتٍ ﴾ واضحاتٍ أو مبيناتٍ ﴿ قَالَ الذين كَفَرُواْ لِلْحَقّ ﴾ أي لأجلِه وفي شأنِه وهو عبارةٌ عن الآياتِ المتلوةِ وضعَ موضعَ ضميرِها تنصيصاً على حقِّيتِها ووجوبِ الإيمانِ بها كما وضعَ الموصولُ موضعَ ضميرِ المتلوِّ عليهم تسجيلاً عليهم بكمالِ الكفرِ والضلالةِ . ﴿ لَمَّا جَاءهُمْ ﴾ أي في أول ما جاءَهُم من غيرِ تدبرٍ وتأملٍ ﴿ هذا سِحْرٌ

(66/702)

مُّبِينٌ ﴾ أي ظاهرٌ كونُه سحراً .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾

إضرابٌ وانتقالٌ من حكايةِ شناعتِهم السابقةِ إلى حكايةِ ما هو أشنعُ منها . وما في أمْ من الهمزةِ للإنكارِ التوبيخيّ المتضمنِ للتعجيبِ أي بل أيقولونَ افترى القرآنَ ﴿ قُلْ إنِ افتريته ﴾ على الفرضِ ﴿ فَلاَ تَمْلِكُونَ لِى مِنَ الله شَيْئاً ﴾ إذْ لا ريبَ في أنَّه تعالى يُعاجلني حينئذٍ بالعقوبةِ فكيفَ أجترىءُ على أنْ أفتريَ عليهِ تعالى كذباً فأُعرّضَ نفسيَ للعقوبةِ التي لا مناصَ عنها ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أي تندفعونَ فيهِ من القدحِ في وَحي الله والطعنِ في آياتِه وتسميتِه سحراً تارةً وفريةً أُخرى ﴿ كفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ حيثُ يشهدُ لي بالصدقِ والبلاغِ وعليكم بالكذبِ والجحودِ وهو وعيدٌ بجراءِ إفاضتِهم . وقولُه تعالى : ﴿ وَهُوَ الغفور الرحيم ﴾ وعدٌ بالغُفرانِ والرحمةِ لمن تابَ وآمنَ ، وإشعارٌ بحلمِ الله تعالى عنْهم مع عظمِ جرائمِهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(67/702)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءاياتنا بَيّنَاتٍ ﴾

أي واضحات أو مبينات ما يلزم بيانه ﴿ قَالَ الذين كَفَرُواْ لِلْحَقّ ﴾ أي الآيات المتلوة ،

ووضع موضع ضميرها تنصيصاً على حقيتها ووجوب الإيمان بها كما وضع الموصول موضع ضمير المتلو عليهم تسجيلاً عليهم بكمال الكفر والضلالة .

وجوز كون المراد بالحق النبوة أو الإسلام فليس فيه موضوعاً موضع الضمير ، والأول : أظهر ، واللام متعلقة بقال على أنها لام العلة أي قالوا لأجل الحق وفي شأنه وما يقال في شأن شيء مسوق لأجله ، وجوز تعلقه بكفروا على أنه بمعنى الباء أو حمل الكفر على نقيضه وهو الإيمان فإنه يتعدى باللام نحو ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ ﴾ [الشعراء : 111] وهو خلاف الظاهر كما لا يخفى ﴿ لَمَّا جَاءهُمْ ﴾ أي في وقت مجيئه إياهم ، ويفهم منه في العرف المبادرة وتستلزم عدم التأمل والتدبر فكأنه قيل : بادروا أول سماع الحق من غير تأمل إلى أن قالوا : ﴿ هذا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ أي ظاهر كونه سحراً ، وحكمهم بذلك على الآيات لعجزهم عن الإتيان بمثلها ، وعلى النبوة لما معها من الخارق للعادة ، وعلى الإسلام لتفريقه بين المرء وزوجه وولده .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ إضراب وانتقال من حكاية شناعتهم السابقة إلى حكاية ما هو أشنع منها وهو الكذب عمداً على الله تعالى فإن الكذب خصوصاً عليه عز وجل متفق على قبحه حتى ترى كل أحد يشمئز من نسبته إليه بخلاف السحر فإنه وإن قبح فليس بهذه المرتبة حتى تكاد تعد معرفته من الأمور المرغوبة ، وما في ﴿ أَمْ ﴾ المنقطعة من الهمزة معنى للإنكار التوبيخي المتضمن للتعجب من نسبته إلى الافتراء مع قولهم : هو

سحر لعجزهم عنه ، والضمير المنصوب في ﴿ افتراه ﴾ كما قال أبو حيان ﴿ لِلْحَقّ ﴾ [الأحقاف : 7] الذي هو الآيات المتلوة ، وقال بعضهم : للقرآن الدال عليه ما تقدم أي بل أيقولون افتراه .

(68/702)

﴿ قُلْ إِنِ افتريته ﴾ على الفرض ﴿ فَلاَ تَمْلِكُونَ لِى مِنَ الله شَيْئاً ﴾ أي عاجلني الله تعالى بعقوبة الافتراء عليه سبحانه فلا تقدرون على كفه عز وجل عن معالجتي ولا تطيقون دفع شيء من عقابه سبحانه عني فكيف أفتريه وأتعرض لعقابه ، فجواب ﴿ إن ﴾ في الحقيقة محذوف وهو عاجلني وما ذكر مسبب عنه أقيم مقامه أو تجوز به عنه ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ بالذي تأخذون فيه من القدح في وحي الله تعالى والطعن في آياته وتسميته سحراً تارة وافتراءً أخرى ، واستعمال الإفاضة في الأخذ في الشيء والشروع فيه قولاً كان أو فعلاً مجاز مشهور ، وأصلها إسالة الماء يقال : أفاض الماء إذا أساله ، وما أشرنا إليه من كون ﴿ مَا ﴾ موصولة وضمير فيه عائد عليه هو الظاهر وجوز كون ﴿ مَا ﴾ مصدرية وضمير ﴿ فِيهِ ﴾ للحق أو للقرآن ﴿ كفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ حيث يشهد لي سبحانه بالصدق والبلاغ وعليكم بالكذب والجحود ، وهو وعيد بجزاء

إفاضتهم في الطعن في الآيات ، واستؤنف لأنه في جواب سؤال مقدر ، و﴿ بِهِ ﴾ في موضع الفاعل بكفى على أصح الأقوال ، و﴿ شَهِيداً ﴾ حال و﴿ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ متعلق به أو بكفى ﴿ وَهُوَ الغفور الرحيم ﴾ وعد بالغفران والرحمة لمن تاب وآمن وإشعار بحلم الله تعالى عليهم إذ لم يعاجلهم سبحانه بالعقوبة وأمهلهم ليتداركوا أمورهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(69/702)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (7) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن الكفار إذا قرئت عليهم آيات هذا القرآن العظيم الذي هو الحق ادعوا أنها سحر مبين واضح .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من افترائهم على القرآن أنه سحر وعلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه ساحر جاء موضحاً في آيات كثيرة . كقوله تعالى فى سبأ ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هاذآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [سبأ : 43] . وقوله تعالى فى الزخرف ﴿

وَلَمَّا جَآءَهُمُ الحق قَالُواْ هذا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [الزخرف : 30] وقوله تعالى ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحْدَثٍ إِلاَّ استمعوه وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الانبياء : 2] إلى قوله ﴿ لاَهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ النجوى الذين ظَلَمُواْ هَلْ هاذا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السحر وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ [الأنبياء : 3] وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الموت لَيَقُولَنَّ الذين كفروا إِنْ هاذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [هود : 7] .

والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه قُلْ إِنِ افتريته فَلاَ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ الله شَيْئاً ﴾ .

أم هذه هي المنقطعة وقد قدمنا أنها تأتي بمعنى الإضراب .

وتأتي بمعنى همزة الإنكار .

وتأي بمعناهما معاً وهو الظاهر فى هذه الآية الكريمة .

(70/702)

فأم فيها على ذلك تفيد معنى الإضراب والإنكار معاً ، فهو بمعنى دع هذا ، واسمع قولهم المستنكر لظهور كذبهم فيه ، أن محمداً افترى هذا القرآن ، وقد كذبهم الله فى هذه الدعوى في آيات كثيرة كقوله تعالى ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ [يونس :

38] الآية . وقوله ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ [هود : 13] ﴿ قُلْ إِنِ افتريته فَلاَ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ الله شَيْئاً ﴾ أي إن كنت افتريت هذا القرآن على سبيل الفرض .

والتقدير : عاجلني الله بعقوبته الشديدة ، وأنتم لا تملكون لي منه شيئاً ، أي لا تقدرون أن تدفعوا عني عذابه إن أراد أن يعذبني على الافتراء .

فكيف أفتريه لكم ، وأنتم لا تقدرون على دفع عذاب الله عني ؟

وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في غير هذا الموضع ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين فَمَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة : 44 - 47] .

فقوله تعالى فى آية الحاقة هذه : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل ﴾ كقوله فى آية الأحقاف ﴿ قُلْ إِنِ افتريته ﴾ .

وقوله فى الحاقة : ﴿ فَمَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ يوضح معنى قوله : ﴿ فَلاَ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ الله شَيْئاً ﴾ . لأن معنى قوله : ﴿ فَمَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة : 47] ، أنهم لا يقدرون على أن يحجزوا عنه أي يدفعوا عنه عقاب الله له بالقتل ، لو تقول عليه بعض الأقاويل .

وذلك هو معنى قوله : ﴿ فَلاَ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئاً ﴾ أي لا تقدرون على دفع عذابه عني .

(71/702)

ونظير ذلك في المعنى قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ المسيح ابن مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأرض جَمِيعاً ﴾ [المائدة : 17] وقوله تعالى ﴿ وَمَن يُرِدِ الله فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً ﴾ [المائدة : 41] .

وما تضمنته آية الأحقاف هذه وآية الحاقة المبينة لها من أنه لو افترى على الله أو تقول عيه عاجله بالعذاب ، وأنه لا يقدر أحد على دفعه عنه . جاء معناه في بعض الآيات . كقوله تعالى في يونس : ﴿ قَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ائت بِقُرْآنٍ غَيْرِ هاذا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآءِ نفسي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ إِني أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس : 15] أي إني أخاف إن عصيت ربي بالافتراء عليه بتبديل قرآنه أو الإتيان بقرآن غيره . عذاب يوم عظيم .

وذكر الله تعالى مثل هذا عن بعض الرسل في آيات أخر كقوله عن صالح ﴿ قَالَ يا قوم أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ﴾ [

هود : 63] الآية . وقوله تعالى عن نوح : ﴿ ويا قوم مَن يَنصُرُني مِنَ الله إِن طَرَدتُّهُمْ ﴾ [هود : 30] الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(72/702)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (7) ﴾

عطف على جملة ﴿ ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له ﴾ [الأحقاف : 5] ، وقد علمت أن هذا مسوق مساق العَد لوجوه فرط ضلالهم فإن آيات القرآن تتلى عليهم صباحَ مساءَ تبين لهم دلائل خلوّ الأصنام عن مقومات الإلهية فلا يتدبرونها وتحدُو بهم إلى الحق فيغالطون أنفسهم بأن ما فهموه منها تأثر سحري ، وأنها سحر ، ولم يكتفوا بذلك بل زادوا بهتاناً فزعموا أنه مبين ، أي واضح كونه سحراً .

وهذا انتقال إلى إبطال ضلال آخر من ضلالهم وهو ضلال التكذيب بالقرآن فهو مرتبط بقوله : ﴿ حم تنزيل الكتاب من الله ﴾ [الأحقاف : 1 ، 2] الخ .

وقوله : ﴿ الذين كفروا ﴾ إظهار في مقام الإضمار للتسجيل عليهم بالكفر وبأنه سبب

قولهم ذلك .

واللام في قوله : ﴿ للحق ﴾ لام العلة وليست لام تعدية فعل القول إلى المقول له أي قال بعض الكافرين لبعض في شأن الذين آمنوا ومن أجل إيمانهم .

والحق : هو الآيات ، فعدل عن ضمير الآيات إلى إظهار لفظ الحق للتنبيه على أنها حق وأن رميها بالسحر بهتان عظيم .

و﴿ لما جاءهم ﴾ توقيت لمقالتهم ، أي يقولون ذلك بفور سماع الآيات وكلما جاءتهم ، أي دون تدبر ولا إجالة فكر .

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ

إضراب انتقال إلى نوع آخر من ضلال أقوالهم .

وسلك في الانتقال مسلك الإضراب دون أن يكون بالعطف بالواو لأن الاضراب يفيد أن الغرض الذي سينتقل إليه له مزيد اتصال بما قبله ، وأن المعنى : دَعْ قولهم : ﴿ هذا سحر مبين ﴾ [الأحقاف : 7] ، واستمع لما هو أعجب وهو قولهم : ﴿ افتَراه ﴾ ، أي افترى نسبته إلى الله ولم يرد به السحر .

والاستفهام الذي يقدر بعد ﴿ أم ﴾ للإنكار على مقالتهم .

والنفي الذي يقتضيه الاستفهام الانكاري يتسلط على سبب الانكار ، أي كون القرآن مفترى وليس متسلطاً على نسبة القول إليهم لأنه صادر منهم وإنما المنفي الافتراء المزعوم .

والضمير المنصوب في ﴿ افتراه ﴾ عائد إلى الحق في قوله : ﴿ قال الذين كفروا للحق ﴾ [الأحقاف : 7] ، أو إلى القرآن لعلمه من المقام ، أي افترى القرآن فزعم أنه وحي من عند الله .

وقد أمِر الرسول صلى الله عليه وسلم بجواب مقالتهم بما يقلعها من جذرها ، فكان قوله تعالى : ﴿ قل ﴾ جملة جارية مجرى جواب المقاولة لوقوعها في مقابلة حكاية قولهم .

وقد تقدم ذلك في قوله : ﴿ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ في أوائل سورة البقرة (30) .

وجعل الافتراء مفروضاً بحرف إن ﴾ الذي شأنه أن يكون شرطه نادر الوقوع إشارة إلى أنه مفروض في مقام مشتمل على دلائل تقلع الشرط من أصله .

وانتصب ﴿ شيئاً ﴾ على المفعولية لفعل ﴿ تملكون ﴾ ، أي شيئاً يملك ، أي يستطاع ، والمراد : شيء من الدّفع فلا تقدرون على أن تردوا عني شيئاً يَرد علي من الله .

وتقدم معنى (لا أملك شيئاً) عند قوله تعالى : ﴿ قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم ﴾ في سورة العقود (17) .

والتقدير : إن افتريته عاقبني الله معاقبة لا تملكون ردها .

فقوله : فلا تملكون لي من الله شيئاً ﴾ دليل على الجواب المقدر في الكلام بطريق الالتزام ، لأن معنى ﴿ لا تملكون لي ﴾ لا تقدرون على دفع ضر الله عني ، فاقتضى أن المعنى : إن افتريته عاقبني الله ولا تستطيعون دفع عقابه .

(74/702)

واعلم أن الشائع في استعمال (لا أملك لك شيئاً) ونحوه أن يسند فعل الملك إلى الذي هو مظنة للدفع عن مدخول اللام المتعلقة بفعل الملك كقوله تعالى : ﴿ قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً ﴾ [الأعراف : 188] وقوله ﴿ وما أملك لك من الله من شيء ﴾ [الممتحنة : 4] ، أو أن يسند إلى عامّ نحو ﴿ قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم ﴾ ، فإسناد فعل الملك في هذه الآية إلى المخاطبين وهم أعداء النبي صلى الله عليه وسلم وليسوا بمظنة أن يدفعوا عنه ، لأنهم نصبوا أنفسهم في منصب الحُكم على النبي صلى الله عليه وسلم فجزموا بأنه افترى القرآن فحالهم حال من يزعم أنه يستطيع أن يرد مراد الله تعالى على طريقة التهكم .

واعلم أن وجه الملازمة بين الشرط وجوابه في قوله : ﴿ إن افتريته فلا تملكون لي من الله

شيئاً ﴾ أن الله لا يقرّ أحداً على أن يبلّغ إلى الناس شيئاً عن الله لَمْ يأمره بتبليغه ، وقد دلّ القرآن على هذا في قوله تعالى : ﴿ ولو تَقَوَّلَ علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ [الحاقة : 44 47] .

ولعل حكمة ذلك أن التقول على الله يفضي إلى فساد عظيم يختل به نظام الخلق ، والله يَغار على مخلوقاته وليس ذلك كغيره من المعاصي التي تجلبها المظالمُ والعبث في الأرض لأن ذلك إقدام على ما هو معلوم الفساد لا يخفى على الناس فهم يدفعونه بما يستطيعون من حول وقوة ، أو حيلة ومصانعة .

وأما التقول على الله فيوقع الناس في حيرة بماذَا يتلقَّوْنه فلذلك لا يُقره الله ويزيله .

وجملة ﴿ هم أعلم بما تفيضون فيه ﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿ فلا تملكون لي من الله شيئاً ﴾ لأن جملة ﴿ فلا تملكون لي ﴾ تشتمل على معنى أن الله لا يرضى أن يفتري عليه أحد ، وذلك يقتضي أنه أعلم منهم بحال من يُخبر عن الله بأنه أرسله وما يبلغه عن الله .

(75/702)

وذلك هو ما يخوضون فيه من الطعن والقدح والوصف بالسحر أو بالافتراء أو بالجنون ، فمَا صْدَقُ (ما) الموصولة القرآن الذي دلّ عليه الضمير الظاهر في ﴿ افتراه ﴾ أو

الرسول صلى الله عليه وسلم الذي دل عليه الضمير المستتر في ﴿ افتراه ﴾ أو مجموع أحوال الرسول صلى الله عليه وسلم التي دل عليها مختلف خوضهم .

ومتعلق اسم التفضيل محذوف ، أي هو أعلم منكم .

والإفاضة في الحديث : الخوض فيه والإكثار منه وهي منقولة من : فاض الماء ؛ إذا سال .

ومنه حديث مستفيض مشتهر شائع ، والمعنى : هو أعلم بحال ما تفيضون فيه .

وجملة ﴿ كفى به شهيداً بيني وبينكم ﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿ هو أعلم بما تفيضون فيه ﴾ لأن الاخبار بكونه أعلم منهم بكنه ما يفيضون فيه يشتمل على معنى تفويض الحكم بينه وبينهم إلى الله تعالى .

وهذا تهديد لهم وتحذير من الخوض الباطل ووعيد .

والشهيد : الشاهد ، أي المخبر بالواقع .

والمراد به هنا الحَاكم بما يعلمه من حالنا كما دلّ عليه قوله : ﴿ بيني وبينكم ﴾ لأن الحكم يكون بين خصمين ولا تكون الشهادة بينهما بل لأحدهما قال تعالى : ﴿ وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ [النساء : 41] .

وإجراء وصفي ﴿ الغفور الرحيم ﴾ عليه تعالى اقتضاه ما تضمنه قوله : ﴿ كفى به شهيداً بيني وبينكم ﴾ من التهديد والوعيد ، وهو تعريض بطلب الإقلاع عما هم فيه من الخوض بالباطل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (9) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (11) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ (12) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان من أعظم الضلال أن ينسب الإنسان إلى الكذب من غير دليل في شيء لم يبتدعه ، بل تقدمه بمثله ناس قد ثبت صدقهم في مثل ذلك ومضت عليه الأزمان وتقرر غاية التقرر في القلوب والأذهان ، قال تعالى : ﴿ قل ﴾ أي لهؤلاء الذين نسبوك إلى الافتراء : ﴿ ما كنت ﴾ أي كوناً ما ﴿ بدعاً ﴾ أي منشئاً مبتدعاً محدثاً مخترعاً بحيث أكون أجنبياً منقطعاً ﴿ من الرسل ﴾ لم يتقدم لي منهم مثال في أصل ما جئت به ، وهو الحرف الذي

طال النزاع بيني وبينكم فيه وعظم الخطب وهو التوحيد ومحاسن الأخلاق بل قد تقدمني رسل كثيرون أتوا بمثل ما أتيت به ودعوا إليه كما دعوت وصدقهم الله بمثل ما صدقني به ، فثبتت بذلك رسالاتهم وسعد بهم من صدقهم من قومهم ، وشقي بهم من كذبهم ، فانظروا إلى آثارهم ، واسألوا عن سيرهم من أتباعهم وأنصارهم وأشياعهم ، قال الإمام أبو عبد الله القزاز في ديوانه : والبدعة الاسم لما ابتدع وضد البدعة السنة ، لأن السنة ما تقدم له إمام ، والبدعة ما اخترع على غير مثال ، وفي الحديث

(77/702)

"كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار " معناه – والله أعلم – أن يبتدع ما يخالف السنة إذ كانت البدعة ضد السنة ، فإذا أحدث ما يخالفها كان بإحداثه لها ضالاً مشركاً ، وكان من أحدث في النار ، ولم يدخل تحت هذا ما يخترع الإنسان من أفعال البر يسمى بدعة لعدم فعله قبل ذلك فيخرج عما ذكرنا إن كان له نظير في الأصول ، وهو الحض على كل أفعال البر ما علم منها وما لم يعلم ، فإن أحدث محدث من ذلك شيئاً فكأنه زيادة فيما تقدم من البر وليس بضد لما تقدمه من السنة ، بل هو باب من أبوابها ، ويقولون : ما فلان يبدع في هذا الأمر أي ليس هو بأول من أصابه ذلك ولكن سبقه غيره أيضاً ، قال الشاعر :

ولست ببدع من النائبات . . .

ونقض الخطوب وإمرارها

ويقال : أبدع بالرجل – إذا كلت راحلته ، وأبدعت الركاب إذا كلت وعطبت ، وقيل : كل من عطبت ركابه فانقطع به فقد أبدع به ، وقال في القاموس : والبدعة الحدث في الدين بعد الإكمال أو ما استحدث بعده ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الأهواء والأعمال ، وأبدع بالرجل : عطبت ركابه ، وبقي منقطعاً به ، وأبدع فلان بفلان : قطع به وخذله ، ولم يقم بحاجته ، وحجته بطلت ، وقال الصغاني في مجمع البحرين : وشيء بدع – بالكسر أي مبتدع ، وفلان بدع في هذا الأمر أي بديع ، وقوم أبداع ، عن الأخفش : والبديع المبتدع والبديع المبتدع أيضاً ، وأبدعت حجة فلان – إذا بطلت وأبدعت : أبطلت – يتعدى ولا يتعدى .

(78/702)

ولما أثبت بموافقته ـ صلى الله عليه وسلم ـ للرسل أصل الكلام وبقي أن يقال : إن التكذيب في أن الله أرسله به ، قام الدليل على صدقه في دعواه ، وذلك بأنه مماثل لهم في أصل الخلقة ليس له من ذاته من العلم إلا ما لهم ، وليس منهم أحد يصح له حكم على المغيبات ، فلولا

أن الله أرسله لما صح كل شيء حكم به على المستقبلات ولم يتخلف من ذلك شيء فقال : ﴿ وما أدري ﴾ أي في هذا الحال بنوع حيلة وعمل واجتهاد ﴿ ما ﴾ أي الذي ﴿ يفعل ﴾ أي من أيّ فاعل كان سواء كان هو الله تعالى بلا واسطة أو بواسطة غيره ﴿ بي ﴾ وأكد النفي ليكون ظاهراً في الاجتماع وكذلك في الانفراد أيضاً فقال : ﴿ ولا ﴾ أي ولا أدري الذي يفعل ﴿ بكم ﴾ هذا في أصل الخلقة وأنتم ترونني أحكم على نفسي بأشياء لا يختل شيء منها مثل أن أقول : إني آتيكم من القرآن بما يعجزكم ، فلا تقدرون كلكم على معارضة شيء منه فيضح ذلك على سبيل التكرار لا يتخلف أصلاً ، فلولا أن الله أرسلني به لم أقدر وحدي على ما لا تقدرون عليه كلكم ، وإن قدرت على شيء كنتم أنتم أقدر مني عليه ، وفي الآية بعمومها دليل على أن لله أن يفعل ما يشاء ، فله أن يعذب الطائع وينعم العاصي ، ولو فعل ذلك لكان عدلاً وحقاً وإن كنا نعتقد أنه لا يفعله .

ولما سوى نفسه الشريفة بهم في أصل الخلقة ، وكان قد ميزه الله عنهم بما خصه من النبوة والرسالة ، أبرز له ذلك – سبحانه وتعالى على وجه النتيجة فقال : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ أتبع ﴾ أي – بغاية جهدي وجدي ﴿ إلا ما ﴾ أي الذي ﴿ يوحى ﴾ أي يجدد إلقاؤه ممن لا يوحي بحق إلا هو ﴿ إليّ ﴾ على سبيل التدريج سراً ، لا يطلع عليه حق اطلاعه غيري ، ومنه ما أخبر فيه عن المغيبات فيكون كما قلت ، فلا يرتاب في أني لا أقدر على ذلك بنفسي فعلم أنه من الله .

ولما نسبوه إلى الافتراء تارة والجنون أخرى ، وكان السبب الأعظم في نسبتهم له إلى ذلك صدعهم بما يسوءهم على غير عادته السالفة وعادة أمثاله ، قال على سبيل القصر القلبي : ﴿ وما أنا ﴾ أي بإخباري لكم عما يوحى إليّ ﴿ إلا نذير ﴾ أي لكم ولكل من بلغه القرآن ﴿ مبين ﴾ أي ظاهر أني كذلك في نفسه مظهر له – أي كوني نذيراً – ولجميع الجزئيات التي أنذر منها بالأدلة القطعية .

ولما أثبت أنه من عند الله بشهادة الله نفسه بعجزهم عن المعارضة ، قبح عليهم إصرارهم على التكذيب على تقدير شهادة أحد ممن يثقون بهم يسألونهم عنه من أهل الكتاب فقال تعالى : ﴿ قل أرءيتم ﴾ أي أخبروني وبينوا لي وأقيموا ولو ببعض حجة أو برهان ﴿ إن كان ﴾ أي هذا الذي يوحى إليّ وآتيكم به وأنذركم وأعلمكم أنه من الله فإنه ﴿ من عند الله ﴾ أي الملك الأعظم .

ولما كان مقصود السورة إنذار الكافرين الذين لا ينظرون في علم ، بل شأنهم تغطية المعارف والعلوم ، عطف بالواو الدالة على مطلق الجمع الشامل لمقارنة الأمرين المجموعين من غير مهلة فيدل على الإسراع في الكفر من غير تأمل قال : ﴿ وكفرتم به ﴾ أي على هذا التقدير

﴿ وشهد شاهد ﴾ أي واحد وأكثر ﴿ من بني إسرائيل ﴾ الذين جرت عادتكم أن تستفتوهم وتثقوا بهم ﴿ على مثله ﴾ أي مثل ما في القرآن من أن من وحد فقد آمن ، ومن أشرك فقد كفر ، وأن الله أنزل ذلك في التوراة والإنجيل وجميع أسفارهم ، فطابقت عليه كتبهم ، وتظافرت به رسلهم ، وتواترت على الدعاء إليه والأمر به أنبياؤهم عليهم الصلاة والسلام ، ثم سبب عن شهادته وعقب وفصل فقال : ﴿ فآمن ﴾ أي هذا الذي شهد هذه الشهادة بهذا القرآن عندما رآه مصدقاً لما ذكر وعلم أنه الكتاب الذي بشرت به كتبهم ، فاهتدى إلى وضع الشيء في محله فوضعه ولم يستكبر .

(80/702)

ولما كان الحامل لهم بعد هذه الأدلة على التمادي على الكفر إنما هو الشماخة والأنفة قال : ﴿ واستكبرتم ﴾ أي أوجدتم الكبر بالإعراض عنه طالبين بذلك الرئاسة والفخر والنفاسة ، فكنتم بعد شهادة هذا الشاهد معاندين من غير شبهة أصلاً فضللتم فكفرتم فوضعتم الشيء في غير موضعه فانسد عليكم باب الهداية .

ولما كانوا يدعون أنهم أهدى الناس وأعدلهم ، وكان من رد شهادة الخالق والخلق ظالماً شديد الظلم ، فكان ضالاً على علم ، قال الله تعالى مستأنفاً دالاً على أن تقدير الجواب :

أفلم تكونوا بتخلفكم عن الإيمان بعد العلم قد ظلمتم ظلماً عظيماً بوضع الكفران موضع الإيمان ، فتكونوا ضالين تاركين للطريق الموصل على عمد ﴿ إن الله ﴾ أي الملك الأعظم ذا العزة والحكمة ﴿ لا يهدي القوم ﴾ أي الذين لهم قدرة على القيام بما يريدون محاولته ﴿ الظالمين ﴾ أي الذين من شأنهم وضع الأمور غير مواضعها ، فلأجل ذلك لا يهديكم لأنه لا أحد أرسخ منكم في الظلم الذي تسبب عنه ضلالكم ، أما من كان منكم عالماً فالأمر فيه واضح ، وأما من كان منكم جاهلاً فهو كالعالم لعدم تدبره مثل هذه الأدلة التي ما بين العالم بلسان العرب وبين انكشافها له إلا تدبها مع ترك الهوى ، وقال الحسن – كما نقله البغوي – الجواب : فمن أضل منكم كما قال في " فصلت "

﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد ﴾ [فصلت : 52] فالآية من الاحتباك : ذكر الإيمان أولاً دليلاً على ضده ثانياً ، والاستكبار والظلم وعدم الهداية ثانياً دليلاً على أضدادها أولاً ، وسره أنه شكر سببي السعادة ترغيباً وترهيباً .

(81/702)

ولما دل على أن تركهم للإيمان إنما هو تعمد للظلم استكباراً ، عطف على قولهم ﴿ إنه سحر ﴾ ما دل على الاستكبار فقال تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ أي تعمدوا تغطية الحق ﴿ للذين ﴾ أي لأجل إيمان الذين ﴿ آمنوا ﴾ إذ سبقوهم إلى الإيمان : ﴿ لو كان ﴾ إيمانهم بالقرآن وبهذا الرسول ﴿ خيراً ﴾ أي من جملة الخيور ﴿ ما سبقونا إليه ﴾ ونحن أشرف منهم وأكثر أموالاً وأولاداً وأعلم بتحصيل العز والسؤدد الذي هو مناط الخير فكأن لم يسبقونا إلى شيء من هذه الخيرات التي نحن فائزون بها وهم صفر منها ، لكنه ليس بخير ، فلذلك سبقوا إليه فكان حالهم فيه حالهم فيما هو محسوس من أمورهم في المال والجاه .

ولما أخبر عما قالوا حين سبقهم غيرهم ، أخبر عما يقولون عند تعمد الإعراض عنه فقال : ﴿ وإذ ﴾ أي وحين ﴿ لم يهتدوا به ﴾ يقولون عناداً وتكبراً وكفراً : لو كان هدى لأبصرناه ولم يعلموا أنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور .

ولما كان التقدير : فإن قيل لهم : فما هو ؟ أجابه بقوله مسبباً عن هذا المقدر علماً من أعلام النبوة : ﴿ فسيقولون ﴾ بوعد لا خلف فيه لأن الناس أعداء ما جهلوا ولأنهم لم يجدوا على ما يدعونه من أنه لو كان خيراً لسبقوا غيرهم إليه دليلاً : ﴿ هذا ﴾ أي الذي سبقتم إليه ﴿ إفك ﴾ أي شيء مصروف عن وجهه إلى قفاه ﴿ قديم ﴾ أفكه غيره وعثر هو عليه فأتى به ونسبه إلى الله .

ولما كان هذا الكلام ساقطاً في نفسه لما قام من الأدلة الباهرة على صدق القرآن وكان الوقوف مع المحسوسات غالباً عليهم لعدم نفوذهم في المعقولات ، دل على بطلانه لموافقة القرآن لأعظم الكتب القديمة التوراة التي اشتهر أنها من عند الله وأن الآتي بها كلم وقد صدقه الله في الإتيان بها بما لم يأت به قبله من المعجزات والآيات البينات وهم يستفتون أهلها ، فقال على وجه التبكيت لهم والتوبيخ : ﴿ ومن ﴾ أي قالوا ذلك والحال أنه كان في بعض الزمن الذي من ﴿ قبله ﴾ أي القرآن العظيم الذي حرموا تدبر آياته وحل مشكلاته وأعجزهم فصاحته ﴿ كتاب موسى ﴾ كلم الله وصفوته عليه الصلاة والسلام وهو التوراة التي كلمه الله بها تكليماً حال كون كتابه ﴿ إماماً ﴾ أي يستحق أن يؤمه كل من سمع به في أصول الدين مطلقاً وفي جميع ما فيه قبل تحريفه ونسخه وتبديله ﴿ ورحمة ﴾ لما فيه من نعمة الدلالة على الله والبيان الشافي فهبهم طعنوا في هذا القرآن وهم لا يقدرون على الطعن في كتاب موسى الذي قد سلموا لأهله أنهم أهل العلم وجعلوهم حكماء يرضون بقولهم في هذا النبي الكريم ، وكتابهم مصادق لكتابهم فقد صاروا بذلك مصدقين بما كذبوا به ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ وهذا ﴾ أي القرآن المبين المبيّن ﴿ كتاب ﴾ أي جامع لجميع الخيرات .

ولما أريد تعميم التصديق بجميع الكتب الإلهية والحقوق الشرعية ، حذف المتعلق فقال :

﴿ مصدق ﴾ أي لكتاب موسى عليه الصلاة والسلام وغيره من الكتب التي تصح نسبتها إلى الله تعالى فإن جميع الكتب التي جاءت به الرسل ناطقة بتوحد الله وأن هذا الكتاب لم يخرج عن هذا فأنّى يصح فيما هذا شأنه أن يكون إفكاً ، إنما الإفك ما كذب كتب الله التي أتت بها أنبياؤه وتوارثها أولياؤه .

(83/702)

ولما كان الكتاب قد تقوم الأدلة على مصادقته لكتب الله ويكون بغير لسان المكذب به فيكون في التكذيب أقل ملامة ، احترز عن ذلك بقوله : ﴿ لساناً ﴾ أي أشير إلى هذا المصدق القريب منكم زماناً ومكاناً وفهماً حال كونه ﴿ عربياً ﴾ في أعلى طبقات اللسان العربي مع كونه أسهل الكتب تناولاً وأبعدها عن التكليف ، ليس هو بحيث يمنعه علوه بفخامة الألفاظ وجلالة المعاني وعلو النظم ورصافة السبك ووجازة العبارة ، وظهور المهاني ودقة الإشارة مع سهولة الفهم وقرب المتناول بعد بعد المغزى .

ولما دل على أن الكتاب حق ، بين ثمرته فقال : ﴿ لينذر ﴾ أي أشير إلى الكتاب في هذا الحال لينذر الكتاب بحسن بيانه وعظيم شأنه ﴿ الذين ظلموا ﴾ سواء كانوا عريقين في الظلم أم لا ، فأما العريقون فهو لهم نذري كاملة ، فإنهم لا يهتدون كما تقدم ، وأما غيرهم

فيهتدي بنذارته ويسعد بعبارته وإشارته ، وليبشر الذين أحسنوا في وقت ما ﴿ ما ﴾ هو ﴿ بشرى ﴾ كاملة ﴿ للمحسنين ﴾ لا نذارة لهم لا في الدنيا ولا في الآخرة ، فالآية من الاحتباك : أثبت أولاً ﴿ ينذر ﴾ و ﴿ الذين ظلموا ﴾ دلالة على حذف نحوه ثانياً ، ﴿ وبشرى ﴾ و ﴿ للمحسنين ﴾ ثانياً دلالة على ﴿ نذري ﴾ ﴿ وللظالمين ﴾ أولاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 120 . 125 ﴾

(84/702)

فصل

قال الفخر :

﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم في كون القرآن معجزاً ، بأن قالوا إنه يختلقه من عند نفسه ثم ينسبه إلى أنه كلام الله على سبيل الفرية ، حكى عنهم نوعاً آخر من الشبهات ، وهو أنهم كانوا يقترحون منه معجزات عجيبة قاهرة ، ويطالبونه بأن يخبرهم عن المغيبات ، فأجاب الله تعالى عنه بأن قال : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرسل ﴾ والبدع والبديع من كل شيء المبدأ والبدعة ما اخترع مما لم يكن موجوداً قبله بحكم السنة ، وفيه وجوه الأول : ﴿ مَا

كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرسل ﴾ أي ما كنت أولهم ، فلا ينبغي أن تنكروا إخباري بأني رسول الله إليكم ، ولا تنكروا دعائي لكم إلى التوحيد ، ونهيي عن عبادة الأصنام ، فإن كل الرسل إنما بعثوا بهذا الطريق الوجه الثاني : أنهم طلبوا منه معجزات عظيمة وأخباراً عن الغيوب فقال : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرسل ﴾ والمعنى أن الإتيان بهذه المعجزات القاهرة والإخبار عن هذه الغيوب ليس في وسع البشر ، وأنا من جنس الرسل واحد منهم لم يقدر على ما تريدونه فكيف أقدر عليه ؟ الوجه الثالث : أنهم كانوا يعيبونه أنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق وبأن أتباعه فقراء فقال : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرسل ﴾ وكلهم كانوا على هذه الصفة وبهذه المثابة فهذه الأشياء لا تقدح في نبوتي كما لا تقدح في نبوتهم .

ثم قال : ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في تفسير الآية وجهان أحدهما : أن يحمل ذلك على أحوال الدنيا والثاني : أن يحمل على أحوال الآخرة أما الأول : ففيه وجوه الأول : لا أدري ما يصير إليه أمري وأمركم ، ومن الغالب منا والمغلوب والثاني : قال ابن عباس في رواية الكلبي : لما اشتد البلاء بأصحاب

النبي صلى الله عليه وسلم بمكة رأى في المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء ، فقصها على أصحابه فاستبشروا بذلك ورأوا أن ذلك فرج مما هم فيه من أذى المشركين ، ثم إنهم مكثوا برهة من الدهر لا يرون أثر ذلك ، ، فقالوا يا رسول الله ما رأينا الذي قلت ومتى نهاجر إلى الأرض التي رأيتها في المنام ؟ فسكت النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى : ﴿ مَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ ﴾ وهو شيء رأيته في المنام ، وأنا لا أتبع إلا ما أوحاه الله إليّ الثالث : قال الضحاك لا أدري ما تؤمرون به ولا أؤمر به في باب التكاليف والشرائع والجهاد ولا في الابتلاء والامتحان وإنما أنذركم بما أعلمني الله به من أحوال الآخرة في الثواب والعقاب والرابع : المراد أنه يقول لا أدري ما يفعل بي في الدنيا أأموت أم أقتل كما قتل الأنبياء قبلي ولا أدري ما يفعل بكم أيها المكذبون ، أترمون بالحجارة من السماء ، أم يخسف بكم أم يفعل بكم ما فعل بسائر الأمم ، أما الذين حملوا هذه الآية على أحوال الآخرة ، فروي عن ابن عباس أنه قال : لما نزلت هذه الآية فرح المشركون والمنافقون واليهود وقالوا كيف نتبع نبياً لا يدري ما يفعل به وبنا ؟ فأنزل الله تعالى :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً * لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ ﴾ [الفتح : 1_ 2] إلى قوله ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللهِ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ [الفتح : 5] فبيّن تعالى ما يفعل به وبمن أتبعه ونسخت هذه الآية ، وأرغم الله أنف المنافقين والمشركين .

وأكثر المحققين استبعدوا هذا القول واحتجوا عليه بوجوه الأول : أن النبي صلى الله عليه وسلم لا بد وأن يعلم من نفسه كونه نبياً ومتى علم كونه نبياً علم أنه لا تصدر عنه الكبائر وأنه مغفور له ، وإذا كان كذلك امتنع كونه شاكاً في أنه هل هو مغفور له أم لا الثاني : لا شك أن الأنبياء أرفع حالاً من الأولياء ، فلما قل في هذا ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأحقاف : 13] فكيف يعقل أن يبقى الرسول الذي هو رئيس الأتقياء وقدوة الأنبياء والأولياء شاكاً في أنه هل هو من المغفورين أو من المعذبين ؟ الثالث : أنه تعالى قال : ﴿ الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : 124] والمراد منه كمال حاله ونهاية قربه من حضرة الله تعالى ، ومن هذا حاله كيف يليق به أن يبقى شاكاً في أنه من المعذبين أو من المغفورين ؟ فثبت أن هذا القول ضعيف .

المسألة الثانية :

قال صاحب "الكشاف" قرىء ﴿ مَّا يُفْعَلُ ﴾ بفتح الياء أي يفعل الله عزّ وجلّ فإن قالوا ﴿ مَّا يَفْعَلُ ﴾ مثبت وغير منفي وكان وجه الكلام أن يقال : ما يفعل بي وبكم ؟ قلنا التقدير ما أدري ما يفعل بي وما أدري ما يفعل بكم .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ ﴾ يعني إني لا أقول قولاً ولا أعمل عملاً إلا بمقتضى الوحي واحتج نفاة القياس بهذه الآية فقالوا النبي صلى الله عليه وسلم ما قال قولاً

ولا عمل عملاً إلا بالنص الذي أوحاه الله إليه ، فوجب أن يكون حالنا كذلك بيان الأول : قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ ﴾ بيان الثاني : قوله تعالى : ﴿ واتبعوه ﴾ [الأعراف : 158] وقوله تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذين يخالفون عَنْ أَمْرِهِ ﴾ [النور : 63] .

(87/702)

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ كانوا يطالبونه بالمعجزات العجيبة وبالإخبار عن الغيوب فقال قل : ﴿ وَمَا أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ والقادر على تلك الأعمال الخارجة عن قدرة البشر والعالم بتلك الغيوب ليس إلا الله سبحانه .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ الله وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِى إسرائيل على مِثْلِهِ فَئَامَنَ واستكبرتم إِنَّ الله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

جواب الشرط محذوف والتقدير أن يقال إن كان هذا الكتاب من عند الله ثم كفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على صحته ثم استكبرتم لكنتم من الخاسرين ثم حذف هذا الجواب ، ونظيره قولك إن أحسنت إليك وأسأت إليّ وأقبلت عليك وأعرضت عني فقد ظلمتني ، فكذا ههنا التقدير أخبروني إن ثبت أن القرآن من عند الله بسبب عجز

الخلق عن معارضته ثم كفرتم به وحصل أيضاً شهادة أعلم بني إسرائيل بكونه معجزاً من عند الله فلو استكبرتم وكفرتم ألستم أضل الناس وأظلمهم ، واعلم أن جواب الشرط قد يحذف في بعض الآيات وقد يذكر ، أما الحذف فكما في هذه الآية ، وكما في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الجبال أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأرض أَوْ كُلِّمَ بِهِ الموتى ﴾ [الرعد : 31] وأما المذكور ، فكما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ الله ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ ﴾ [فصلت : 52] وقوله ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ الليل سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِضِيَاء ﴾ [القصص : 71] .

المسألة الثانية :

اختلفوا في المراد بقوله تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إسرائيل ﴾ على قولين الأول : وهو الذي قال به الأكثرون أن هذا الشاهد عبد الله بن سلاّم ، روى صاحب "الكشاف" أنه لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة نظر إلى وجهه فعلم أنه ليس بوجه كذاب وتأمله وتحقق أنه هو النبي صلى الله عليه وسلم المنتظر ، فقال له إني سائلك عن ثلاث ما يعلمهن إلا نبي ما أول أشراط الساعات ، وما أول طعام يأكله أهل الجنة ، والولد ينزع إلى

أبيه أو إلى أمه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : " أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت ، وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل نزع له وإن سبق ماء المرأة نزع لها " فقال أشهد أنك لرسول الله حقاً ، ثم قال يا رسول الله إن اليهود قوم بهت وإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني عندك ، فجاءت اليهود فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم أي رجل عبد الله فيكم ؟ فقالوا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا فقال أرأيتم إن أسلم عبد الله ؟ فقالوا أعاذه الله من ذلك فخرج عبد الله فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فقالوا شرنا وابن شرنا وانتقصوه فقال هذا ما كنت أخاف يا رسول الله فقال سعد بن أبي وقاص ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشي على الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلاّم ، وفيه نزل ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسرائيل على مِثْلِهِ ﴾ .

(89/702)

واعلم أن الشعبي ومسروقاً وجماعة آخرين أنكروا أن يكون الشاهد المذكور في هذه الآية هو عبد الله بن سلاّم قالوا لأن إسلامه كان بالمدينة قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه

وسلم بعامين وهذه السورة مكية فكيف يمكن حمل هذه الآية المكية على واقعة حدثت في آخر عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وأجاب الكلبي بأن السورة مكية إلا هذه الآية فإنها مدنية وكانت الآية تنزل فيؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يضعها في سورة كذا فهذا الآية نزلت بالمدينة وإن الله تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يضعها في هذه السورة المكية في هذا الموضع المعين ، ولقائل أن يقول إن الحديث الذي رويتم عن عبد الله بن سلاّم مشكل ، وذلك لأن ظاهر الحديث يوهم أنه لما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن المسائل الثلاثة ، وأجاب النبي صلى الله عليه وسلم بتلك الجوابات من عبد الله بن سلاّم لأجل أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر تلك الجوابات وهذا بعيد جداً لوجهين الأول : أن الإخبار عن أول أشراط الساعة وعن أول طعام يأكله أهل الجنة إخبار عن وقوع شيء من الممكنات ، وما هذا سبيله فإنه لا يعرف كون ذلك الخبر صدقاً إلا إذا عرف أولاً كون المخبر صادقاً فلو أنا عرفنا صدق المخبر بكون ذلك الخبر صدقاً لزم الدور وإنه محال والثاني : أنا نعلم بالضرورة أن الجوابات المذكورة عن هذه المسائل لا يبلغ العلم بها إلى حد الإعجاز ألبتة ، بل نقول الجوابات القاهرة عن المسائل الصعبة لما لم تبلغ إلى حد الإعجاز فأمثال هذه الجوابات عن هذه السؤالات كيف يمكن أن يقال إنها بلغت إلى حد الإعجاز والجواب : يحتمل أنه جاء في بعض كتب الأنبياء المتقدمين أن رسول آخر الزمان يسأل عن هذه المسائل وهو يجيب عنها بهذه الجوابات وكان عبد الله بن سلام عالماً بهذا

المعنى فلما سأل النبي صلى الله عليه وسلم وأجاب بتلك الأجوبة عرف بهذا الطريق كونه رسولاً حقاً من عند الله ، وعلى

(90/702)

هذا الوجه فلا حاجة بنا إلى أن نقول العلم بهذه الجوابات معجز ، والله أعلم .

القول الثاني : في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسرائيل ﴾ أنه ليس المراد منه شخصاً معيناً بل المراد منه أن ذكر محمد صلى الله عليه وسلم موجود في التوراة والبشارة بمقدمه حاصلة فيها فتقدير الكلام لو أن رجلاً منصفاً عارفاً بالتوراة أقر بذلك واعترف به ، ثم إنه آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وأنكرتم ألستم كنتم ظالمين لأنفسكم ضالين عن الحق ؟ فهذا الكلام مقرر سواء كان المراد بذلك الشاهد شخصاً معيناً أو لم يكن كذلك لأن المقصود الأصلي من هذا الكلام أنه ثبت بالمعجزات القاهرة أن هذا الكتاب من عند الله وثبت أن التوراة مشتملة على البشارة بمقدم محمد صلى الله عليه وسلم ومع هذين الأمرين كيف يليق بالعقل إنكار نبوته .

المسألة الثالثة :

قوله تعالى : ﴿ على مِثْلِهِ ﴾ ذكروا فيه وجوهاً ، والأقرب أن نقول إنه صلى الله عليه وسلم

قال لهم أرأيتم إن كان هذا القرآن من عند الله كما أقول وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثل ما قلت فآمن واستكبرتم ألستم كنتم ظالمين أنفسكم .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ الله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

أنه تهديد وهو قائم مقام الجواب المحذوف والتقدير قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به فإنكم لا تكونون مهتدين بل تكونون ضالين .

المسألة الثانية :

قالت المعتزلة هذه الآية تدل على أنه تعالى إنما منعهم الهداية بناء على الفعل القبيح الذي صدر منهم أولاً ، فإن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين ﴾ صريح في أنه تعالى لا يهديهم لكونهم ظالمين أنفسهم فوجب أن يعتقدوا في جميع الآيات الواردة في المنع من الإيمان والهداية أن يكون الحال فيها كما ههنا ، والله أعلم .

(91/702)

ثم قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

هذه شبهة أخرى للقوم في إنكار نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي سبب نزوله وجوه :

الأول : أن هذا كلام كفار مكة قالوا إن عامة من يتبع محمداً الفقراء والأراذل مثل عمار وصهيب وابن مسعود ، ولو كان هذا الدين خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء الثاني : قيل لما أسلمت جهينة ومزينة وأسلم وغفار ، قالت بنو عامر وغطفان وأسد وأشجع لو كان هذا خيراً ما سبقنا إليه رعاء البهم الثالث : قيل إن أمة لعمر أسلمت وكان عمر يضربها حتى يفتر ، ويقول لولا أني فترت لزدتك ضرباً ، فكان كفار قريش يقولون لو كان ما يدعو محمد إليه حقاً ما سبقتنا إليه فلانة .

الرابع : قيل كان اليهود يقولون هذا الكلام عند إسلام عبد الله بن سلاّم .

المسألة الثانية :

اللام في قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ذكروا فيه وجهين : الأول : أن يكون المعنى : وقال الذين كفروا للذين آمنوا ، على وجه الخطاب كما تقول قال زيد لعمرو ، ثم تترك الخطاب وتنتقل إلى الغيبة كقوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا كُنتُمْ فِى الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ [يونس : 22] الثاني : قال صاحب "الكشاف" ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ لأجلهم يعني أن الكفار قالوا لأجل إيمان الذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه ، وعندي فيه وجه الثالث : وهو أن الكفار لما

سمعوا أن جماعة آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم خاطبوا جماعة من المؤمنين الحاضرين ، وقالوا لهم لو كان هذا الدين خيراً لما سبقنا إليه أولئك الغائبون الذين أسلموا .

(92/702)

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم هذا الكلام أجاب عنه بقوله ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ والمعنى أنهم لما لم يقفوا على وجه كونه معجزاً ، فلا بد من عامل في الظرف في قوله ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ ﴾ ومن متعلق لقوله ﴿ فَسَيَقُولُونَ ﴾ وغير مستقيم أن يكون ﴿ فَسَيَقُولُونَ ﴾ هو العامل في الظرف لتدافع دلالتي المضي والاستقبال ، فما وجه هذا الكلام ؟ وأجاب عنه بأن العامل في إذ محذوف لدلالة الكلام عليه ، والتقدير ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ ﴾ ظهر عنادهم ﴿ فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ موسى إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ كتاب موسى مبتدأ ، ومن قبله ظرف واقع خبراً مقدماً عليه ، وقوله ﴿ إِمَاماً ﴾ نصب على الحال كقولك في الدار زيد قائماً ، وقرىء ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ موسى ﴾ والتقدير : وآتينا الذي قبله التوراة ، ومعنى ﴿ إِمَاماً ﴾ أي قدوة ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ يؤتم به في دين الله وشرائعه ، كما يؤتم بالإمام ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ لمن آمن به وعمل بما فيه ، ووجه تعلق هذا الكلام بما قبله أن القوم طعنوا في

صحة القرآن ، وقالوا لو كان خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء الصعاليك ، وكأنه تعالى قال : الذي يدل على صحة القرآن أنكم لا تنازعون في أن الله تعالى أنزل التوراة على موسى عليه السلام ، وجعل هذا الكتاب إماماً يقتدى به ، ثم إن التوراة مشتملة على البشارة بمقدم محمد صلى الله عليه وسلم فإذا سلمتم كون التوراة إماماً يقتدى به ، فاقبلوا حكمه في كون محمد صلى الله عليه وسلم حقاً من الله .

(93/702)

ثم قال تعالى : ﴿ وهذا كتاب مُّصَدّقٌ لّسَاناً عَرَبِيّاً ﴾ أي هذا القرآن مصدق لكتاب موسى في أن محمداً رسول حقاً من عند الله وقوله تعالى : ﴿ لّسَاناً عَرَبِيّاً ﴾ نصب على الحال ، ثم قال : ﴿ لّيُنذِرَ الذين ظَلَمُواْ ﴾ قال ابن عباس مشركي مكة ، وفي قوله ﴿ لّتُنذِرَ ﴾ قراءتان التاء لكثرة ما ورد من هذا المعنى بالمخاطبة كقوله تعالى : ﴿ لِتُنذِرَ بِهِ وذكرى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : 2] والياء لتقدم ذكر الكتاب فأسند الإنذار إلى الكتاب كما أسند إلى الرسول ، وقوله تعالى : ﴿ الحمد لِلَّهِ الذي أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب ﴾ إلى قوله ﴿ لِّيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مّن لَّدُنْهُ ﴾ [الكهف : 1 ، 2] .

ثم قال تعالى : ﴿ وبشرى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ قال الزجاج الأجود أن يكون قوله ﴿ وبشرى ﴾

في موضع رفع ، والمعنى وهو بشرى للمحسنين ، قال ويجوز أن يكون في موضع نصب على معنى ﴿ لِّيُنذِرَ الذين ظَلَمُواْ وبشرى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ وحاصل الكلام أن المقصود من إنزال هذا الكتاب إنذار المعرضين وبشارة المطيعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 12.7 ﴾

(94/702)

وقال ابن عطية :

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرسل ﴾

ثم أمره تعالى أن يحتج عليهم بأنه لم يكن ﴿ بدعاً من الرسل ﴾ ، أي قد جاء غيري قبلي ، قاله ابن عباس والحسن وقتادة . والبدع والبديع من الأشياء ما لم ير مثله ، ومنه قول ترجمة عدي بن زيد : [الطويل]

فما أنا بدع من حوادث تعتري . . . رجالاً عرت من بعد بؤسى وأسعد

وقرأ عكرمة وابن أبي عبلة وأبو حيوة : " بدَعاً " بفتح الدال . قال أبو الفتح ، التقدير : ذا بدع فحذف المضاف كما قال [النابغة الجعدي] : [المقارب]

وكيف تواصل من أصبحت . . . خلالته كأبي مرحب

واختلف الناس في قوله : ﴿ ما أدري ما يفعل بي ولا بكم ﴾ ، فقال ابن عباس وأنس بن مالك والحسن وقتادة وعكرمة : معناه : في الآخرة ، وكان هذا في صدر الإسلام ، ثم بعد ذلك عرفه الله تعالى بأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وبأن المؤمنين لهم من الله فضل كبير وهو الجنة ، وبأن الكافرين في نار جهنم ، والحديث الذي وقع في جنازة عثمان بن مظعون يؤيده هذا وهو قوله : " فوالله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي " ، وفي بعض الرواية : " به " ، ولا حجة في الحديث على رواية " به " ، والمعنى عندي في هذا القول أنه لم تكشف له الخاتمة فقال لا أدري ؟ وأما ان من وافى على الإيمان فقد أعلم بنجاته من أول الرسالة وإلا فكان للكفار أن يقولوا : وكيف تدعونا إلى ما لا تدري له عاقبة ، وقال الحسن أيضاً وجماعة . معنى الآية : ﴿ ما أدري ما يفعل بي ولا بكم ﴾ في الدنيا من أن أنصر عليكم أو من أن تمكنوا مني ، ونحو هذا من المعنى .

(95/702)

وقالت فرقة : معنى الآية : ﴿ ما يفعل بي ولا بكم ﴾ من الأوامر والنواهي وما تلزم الشريعة من أعراضها . وحكى الطبري عن بعضهم أنه قال : نزلت الآية في أمر كان النبي صلى الله عليه وسلم ينتظره من الله في غير الثواب والعقاب ، وروي عن ابن عباس أنه لما

تأخر خروج النبي عليه السلام من مكة حين رأى في النوم أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وسبخة ، قلق المسلمون لتأخر ذلك ، فنزلت هذه الآية .

وقوله : ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إليَّ ﴾ معناه : الاستسلام والتبري من علم المغيبات والوقوف مع النذارة من عذاب الله عز وجل .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10)

هذه الآية توقيف على الخطر العظيم الذي هم بسبيله في أن يكذبوا بأمر نافع لهم منج من العذاب دون حجة ولا دليل لهم على التكذيب ، فالمعنى كيف حالكم مع الله ، وماذا تنتظرون منه وأنتم قد كفرتم بما جاء من عنده ، وجواب هذا التوقيف محذوف تقديره : أليس قد ظلمتم ، ودل على هذا المقدار قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ و: ﴿ أرأيتم ﴾ في هذه الآية يحتمل أن تكون منبهة ، فهي لفظ موضوع للسؤال لا يقتضي مفعولاً ، ويحتمل أن تكون الجملة ﴿ كان ﴾ وما عملت فيه تسد مسد مفعوليها .

واختلف الناس في المراد ب ﴿ الشاهد ﴾ فقال الحسن ومجاهد وابن سيرين : هذه الآية مدنية ، والشاهد عبد الله بن سلام . وقوله : ﴿ على مثله ﴾ الضمير فيه عائد على قول محمد عليه السلام في القرآن أنه من عند الله . وقال الشعبي : الشاهد رجل من بني إسرائيل غير عبد الله بن سلام كان بمكة ، والآية مكية وقال سعد بن أبي وقاص ومجاهد وفرقة : الآية مكية ، والشاهد عبد الله بن سلام ، وهي من الآيات التي تضمنت غيباً أبرزه الوجود ، وقد روي عن عبد الله بن سلام أنه قال : فيَّ نزلت . وقال مسروق بن الأجدع والجمهور : الشاهد موسى بن عمران عليه السلام ، والآية مكية ، ورجحه الطبري .

وقوله : ﴿ على مثله ﴾ يريد بالمثل : التوراة ، والضمير عائد في هذا التأويل على القرآن ، أي جاء شاهد من بني إسرائيل بمثله وشهد أنه من عند الله تعالى .

وقوله : ﴿ فآمن ﴾ على هذا التأويل ، يعني به تصديق موسى بأمر محمد وتبشيره به ، فذلك إيمان به ، وأما من قال : الشاهد عبد الله بن سلام ، فإيمانه بين ، وكذلك إيمان الإسرائيلي الذي كان بمكة في قول من قاله ، وحكى بعضهم أن الفاعل ب " آمن " ، هو محمد عليه السلام ، وهذا من القائلين بأن الشاهد هو موسى بن عمران عليه السلام ، وإنما اضطر إلى هذا لأنه لم ير وجه إيمان موسى عليه السلام ، ثم قرر تعالى استكبارهم وكفرهم بإيمان هذا المذكور ، فبان ذنبهم وخطؤهم .

وقوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه ﴾ قال قتادة : هي مقالة قريش ، يريدون عماراً وصهيباً وبلالاً ونحوهم ممن أسلم وآمن بالنبي عليه السلام . وقال الزجاج والكلبي وغيره : هي مقالة كنانة وعامر وسائر قبائل العرب المجاورة ، قالت ذلك حين أسلمت غفار ومزينة وجهينة . وقال الثعلبي : هي مقالة اليهود حين أسلم ابن سلام وغيره منهم . والإفك : الكذب ، ووصفوه بالقدم ، بمعنى أنه في أمور متقادمة ، وهذا كما تقول لرجل حدثك عن أخبار كسرى وقيصر ، هذا حديث قديم ، ويحتمل أن يريدوا أنه إفك قيل قديماً .

وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ (12)

الضمير في قوله : ﴿ ومن قبله ﴾ للقرآن ، و: ﴿ كتاب موسى ﴾ هو التوراة . وقرأ الكلبي : "كتابَ موسى " بنصب الباء على إضمار أنزل الله أو نحو ذلك . والإمام : خيط البناء ، وكل ما يهتدي ويقتدى به فهو إمام . ونصب ﴿ إماماً ﴾ على الحال ، ﴿ ورحمة ﴾ عطف على إمام ، والإشارة بقوله : ﴿ وهذا كتاب ﴾ إلى القرآن . و: ﴿ مصدق ﴾ معناه للتوراة التي تضمنت خبره وأمر محمد ، فجاء هو مصدقاً لذلك الإخبار ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود : " مصدق لما بين يديه لساناً " ، واختلف الناس في نصب

قوله : ﴿ لساناً ﴾ فقالت فرقة من النحاة ، هو منصوب على الحال ، وقالت فرقة : ﴿ لساناً ﴾ توطئة مؤكدة . و: ﴿ عربياً ﴾ حال ، وقالت فرقة : ﴿ لساناً ﴾ مفعول ب ﴿ مصدق ﴾ ، والمراد على هذا القول باللسان : محمد رسول الله ولسانه ، فكان القرآن بإعجازه وأحواله البارعة يصدق الذي جاء به ، وهذا قول صحيح المعنى جيد وغيره مما قدمناه متجه .

(98/702)

وقرأ نافع وابن عامر وابن كثير فيما روي عنه ، وأبو جعفر والأعرج وشيبة وأبو رجاء والناس : " لتنذر " بالتاء ، أي أنت يا محمد ، ورجحها أبو حاتم ، وقرأ الباقون والأعمش " لينذر " أي القرآن و: ﴿ الذين ظلموا ﴾ هم الكفار الذين جعلوا العبادة في غير موضعها في جهة الأصنام والأوثان .

وقوله : ﴿ وبشرى ﴾ يجوز أن تكون في موضع رفع عطفاً على قوله : ﴿ مصدق ﴾ ، ويجوز أن تكون في موضع نصب ، واقعة موقع فعل عطفاً على ﴿ لتنذر ﴾ أي وتبشر المحسنين ، ولما عبر عن الكفار ب ﴿ الذين ظلموا ﴾ ، عبر عن المؤمنين ب " المحسنين "

لتناسب لفظ الإحسان في مقابلة الظلم . ثم أخبر تعالى عن حسن حال المسلمين المستقيمين ورفع الظلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(99/702)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرسل ﴾

أي أوّل من أرسل ، قد كان قبلي رسل ؛ عن ابن عباس وغيره .

والبِدْعُ : الأوّل .

وقرأ عكرمة وغيره "بِدَعاً" بفتح الدال ، على تقدير حذف المضاف ؛ والمعنى : ما كنت صاحب بدَع .

وقيل : بِدْع وبديع بمعنًى ؛ مثل نُصف ونصيف .

وأبدع الشاعر : جاء بالبديع .

وشيء بِدْع (بالكسر) أي مبتدَع .

وفلان بِدْعٌ في هذا الأمر أي بديع .

وقوم أبداع ؛ عن الأخفش .

وأنشد قُطْرُب قولَ عديّ بن زيد :

فلا أنا بدع من حوادث تعتري . . .

رجالاً غدت من بعد بؤسي بأسعد

﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾ يريد يوم القيامة .

ولما نزلت فرح المشركون واليهود والمنافقون وقالوا : كيف نتبع نبياً لا يدري ما يُفعل به ولا بنا ، وأنه لا فضل له علينا ، ولولا أنه ابتدع الذي يقوله من تلقاء نفسه لأخبره الذي بعثه بما يفعل به ؛ فنزلت : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : 2] فنسخت هذه الآية ، وأرغم الله أنف الكفار .

وقالت الصحابة : هنيئاً لك يا رسول الله ، لقد بيّن الله لك ما يفعل بك يا رسول الله ، فليت شعرنا ما هو فاعل بنا ؟ فنزلت : ﴿ لِّيُدْخِلَ المؤمنين والمؤمنات جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ [الفتح : 5] الآية .

ونزلت : ﴿ وَبَشِّرِ المؤمنين بِأَنَّ لَهُمْ مِّنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً ﴾ [الأحزاب : 47] .

قاله أنس وابن عباس وقتادة والحسن وعكرمة والضحاك .

وقالت أم العلاء امرأةٌ من الأنصار : اقتسمنا المهاجرين فطار لنا عثمان بن مَظْعُون بن حُذافة بن جُمَح ، فأنزلناه أبياتنا فَتُوفِّيَ ، فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب ! إن الله أكرمك .

فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " وما يدريك أن الله أكرمه " ؟ فقلت : بأبي وأمي يا رسول الله ! فمن ؟! قال : " أمّا هو فقد جاءه اليقين وما رأينا إلا خيراً فوالله إني لأرجو له الجنة ووالله إني لرسول الله وما أدري ما يفعل بي ولا بكم " قالت : فوالله لا أزكّي بعده أحداً أبداً .

ذكره الثعلبي ، وقال : وإنما قال هذا حين لم يعلم بغفران ذنبه ، وإنما غفر الله له ذنبه في غَزْوَة الحُدَيْبِيَةِ قبل موته بأربع سنين .

قلت : حديثُ أمِّ العلاء خرّجه البخاري ، وروايتي فيه : "وما أدري ما يُفعل به" ليس فيه "بي ولا بكم" وهو الصحيح إن شاء الله ، على ما يأتي بيانه .

والآية ليست بمنسوخة ؛ لأنها خبر .

قال النحاس : محال أن يكون في هذا ناسخ ولا منسوخ من جهتين : أحدهما أنه خبر ، والآخر أنه من أوّل السورة إلى هذا الموضع خطاب للمشركين واحتجاج عليهم وتوبيخ لهم ؛ فوجب أن يكون هذا أيضاً خطاباً للمشركين كما كان قبله وما بعده ، ومحال أن يقول النبيّ صلى الله عليه وسلم للمشركين : "ما أدري ما يفعل بي ولا بكم" في الآخرة ؛ ولم يزل صلى

الله عليه وسلم من أوّل مبعثه إلى مماته يخبر أن من مات على الكفر مخلّد في النار ، ومن مات على الإيمان واتبعه وأطاعه فهو في الجنة ؛ فقد رأى صلى الله عليه وسلم ما يفعل به وبهم في الآخرة .

وليس يجوز أن يقول لهم ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الآخرة ؛ فيقولون كيف نتبعك وأنت لا تدري أتصير إلى خفض ودَعة أم إلى عذاب وعقاب .

والصحيح في الآية قول الحسن ، كما قرأ علي بن محمد بن جعفر بن حفص عن يوسف بن موسى قال حدّثنا وكيع قال حدّثنا أبو بكر الهذلي عن الحسن : "وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ فِي الدُّنْيَا" قال أبو جعفر : وهذا أصح قولٍ وأحسنه ، لا يدري صلى الله عليه وسلم ما يلحقه وإياهم من مرض وصحة ورخص وغلاء وغنى وفقر .

(101/702)

ومثله : ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الغيب لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخير وَمَا مَسَّنِيَ السواء إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ [الأعراف : 188] .

وذكر الواحدي وغيره عن الكلبي عن أبي صالح أن ابن عباس " لما اشتدّ البلاء بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء ؛

فقصّها على أصحابه فاستبشروا بذلك ، ورأوا فيها فرجاً مما هم فيه من أذى المشركين ، ثم إنهم مكثوا برهة لا يرون ذلك فقالوا : يا رسول الله ، متى نهاجر إلى الأرض التي رأيت ؟ فسكت النبيّ صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ ﴾ أي لا أدري أأخرج إلى الموضع الذي رأيته في منامي أم لا .

ثم قال : "إنما هو شيء رأيته في منامي ما أتبع إلا ما يُوحَى إلي" " أي لم يوح إليّ ما أخبرتكم به .

قال القُشَيري : فعلى هذا لا نسخ في الآية .

وقيل : المعنى لا أدري ما يفرض عليّ وعليكم من الفرائض .

واختار الطبري أن يكون المعنى : ما أدري ما يصير إليه أمري وأمركم في الدنيا ، أتؤمنون أم تكفرون ، أم تعاجلون بالعذاب أم تؤخّرون .

قلت : وهو معنى قول الحسن والسُّدّي وغيرهما .

قال الحسن : ما أدري ما يفعل بي ولا بكم (في الدنيا ، أما في الآخرة فمعاذ الله ! قد علم أنه في الجنة حين أخذ ميثاقه في الرسل ، ولكن قال) ما أدري ما يفعل بي في الدنيا أأخرج كما أخرجت الأنبياء قبلي ، أو أقتل كما قُتلت الأنبياء قبلي ؛ ولا أدري ما يفعل بكم ؛ أأمّتي المصدّقة أم المكذّبة ، أم أمتي المرمية بالحجارة من السماء قَذْفاً ، أو مخسوفٌ بها خَسْفاً ؛ ثم نزلت : ﴿ هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهدى وَدِينِ الحق لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ ﴾ [

الصف : 9] .

يقول : سيظهر دينه على الأديان .

(102/702)

ثم قال في أمته : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال : 33] فأخبره تعالى بما يصنع به وبأمته ؛ ولا نسخ على هذا كله ، والحمد لله .

وقال الضحاك أيضاً : "ما أدري ما يفعل بي ولا بكم" أي ما تؤمرون به وتنهون عنه .

وقيل : أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول للمؤمنين ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في القيامة ؛ ثم بين الله تعالى ذلك في قوله : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ وبيّن فيما بعد ذلك حال المؤمنين ثم بيّن حال الكافرين .

قلت : وهذا معنى القول الأوّل ؛ إلا أنه أطلق فيه النسخ بمعنى البيان ، وأنه أمر أن يقول ذلك للمؤمنين ؛ والصحيح ما ذكرناه عن الحسن وغيره .

و "ما" في "ما يفعل" يجوز أن تكون موصولة ، وأن تكون استفهامية مرفوعة .

﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ وَمَا أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ وقرىء "يُوحِي" أي الله عز وجل . تقدّم في غير موضع .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ ﴾ يعني القرآن .

﴿ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ وقال الشعبي : المراد محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ قال ابن عباس والحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد : هو عبد الله بن سَلاَم ، شهد على اليهود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مذكور في التوراة ، وأنه نبيّ من عند الله .

وفي الترمذي عنه : ونزلت فيّ آيات من كتاب الله ، نزلت فِيّ : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ على مِثْلِهِ فَآمَنَ واستكبرتم إِنَّ الله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين ﴾ .

وقد تقدّم في آخر سورة "الرعد" .

وقال مسروق : هو موسى والتوراة ، لا ابن سَلاَم ؛ لأنه أسلم بالمدينة والسورة مكية .

وقال : وقوله : ﴿ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ مخاطبة لقريش .

(103/702)

الشعبي : هو من آمن من بني إسرائيل بموسى والتوراة ، لأن ابن سَلاَم إنما أسلم قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بعامين ، (والسورة مكية .

قال القُشَيْرِيّ : ومن قال الشاهد موسى قال السورة مكية ، وأسلم ابن سَلاَم قبل موت

النبيّ صلى الله عليه وسلم بعامين) .

ويجوز أن تكون الآية نزلت بالمدينة وتوضع في سورة مكية ؛ فإن الآية كانت تنزل فيقول النبيّ صلى الله عليه وسلم ضعوها في سورة كذا .

والآية في محاجة المشركين ، ووجه الحجة أنهم كانوا يراجعون اليهود في أشياء ؛ أي شهادتهم لهم وشهادة نبيّهم لي من أوضح الحجج .

ولا يبعد أن تكون السورة في محاجة اليهود ، " ولما جاء ابن سَلاَم مُسْلِماً من قبل أن تعلم اليهود بإسلامه قال : يا رسول الله ، اجعلني حَكَماً بينك وبين اليهود ؛ فسألهم عنه : "أيّ رجلٍ هو فيكم" قالوا : سَيِّدُنا وعالمنا .

فقال : "إنه قد آمن بي" فأساءوا القول فيه . . .

" الحديث ، وقد تقدّم .

قال ابن عباس : رضيت اليهود بحكم ابن سلام ، وقالت للنبي صلى الله عليه وسلم : إن يشهد لك آمنا بك ؛ فسئل فشهد ثم أسلم .

﴿ على مِثْلِهِ ﴾ أي على مثل ما جئتكم به ؛ فشهد موسى على التوراة ومحمد على القرآن .

وقال الجُرْجَاني .

"مِثْل" صلة ، أي وشهد شاهد عليه أنه من عند الله .

﴿ فَآمَنَ ﴾ أي هذا الشاهد .

﴿ واستكبرتم ﴾ أنتم عن الإيمان .

وجواب "إِنْ كَانَ" محذوف تقديره : فآمن أتؤمنون ؛ قاله الزجاج .

وقيل : "فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ" أَليس قد ظلمتم ؛ يبيّنه ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي القوم الظالمين ﴾

وقيل : "فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ" أفتأمنون عذاب الله .

و"أَرَأَيْتُم" لفظ موضوع للسؤال والاستفهام ؛ ولذلك لا يقتضي مفعولاً .

وحكى النقاش وغيره : أن في الآية تقديماً وتأخيراً ، وتقديره : قل أرأيتم إن كان من عند الله وشهد شاهد من بني إسرائيل فآمن هو وكفرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين .

(104/702)

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾ اختلف في سبب نزولها على ستة أقوال :

الأوّل أن أبا ذَرّ الغفاري دعاه النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام بمكة فأجاب ، واستجار به قومه فأتاه زعيمهم فأسلم ، ثم دعاهم الزعيم فأسلموا ؛ فبلغ ذلك قريشاً فقالوا : غفارٌ الحلفاء لو كان هذا خيراً ما سبقونا إليه ؛ فنزلت هذه الآية ، قاله أبو المتوكل .

الثاني أن زِنّيرة أسلمت فأصيب بصرها فقالوا لها : أصابك اللات والعزى ؛ فردّ الله عليها بصرها .

فقال عظماء قريش : لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقتنا إليه زِنّيرة ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية ؛ قاله عروة بن الزبير .

الثالث أن الذين كفروا هم بنو عامر وغَطَفان وتميم وأسَد وحَنْظَلة وأشْجَع ، قالوا لمن أسلم من غِفار وأسلم وجُهينة ومُزينة وخزاعة : لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقتنا إليه رُعاة الْبَهْم إذ نحن أعزّ منهم ؛ قاله الكلبي والزّجاج ، وحكاه القُشَيْري عن ابن عباس .

وقال قتادة : نزلت في مشركي قريش ، قالوا : لو كان ما يدعونا إليه محمد خيراً ما سبقنا إليه بِلال وصُهيب وعَمّار وفلان وفلان .

وهو القول الرابع .

القول الخامس أن الذين كفروا من اليهود قالوا للذين آمنوا يعني عبد الله بن سلام وأصحابه : لو كان دين محمد حقاً ما سبقونا إليه ؛ قاله أكثر المفسرين ، حكاه الثعلبي .

وقال مسروق : إن الكفار قالوا لو كان خيراً ما سبقتنا إليه اليهود ؛ فنزلت هذه الآية .

وهذه المعارضة من الكفار في قولهم : لو كان خيراً ما سبقونا إليه من أكبر المعارضات بانقلابها عليهم لكل من خالفهم ؛ حتى يقال لهم : لو كان ما أنتم عليه خيراً ما عدلنا عنه ، ولو كان تكذيبكم للرسول خيراً ما سبقتمونا إليه ؛ ذكره الماوردي .

ثم قيل : قوله : ﴿ مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾ يجوز أن يكون من قول الكفار لبعض المؤمنين ، ويجوز أن يكون على الخروج من الخطاب إلى الغيبة ؛ كقوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ [يونس : 22] .

﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ ﴾ يعني الإيمان .

وقيل القرآن .

وقيل محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ فَسَيَقُولُونَ هاذآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ أي لما لم يصيبوا الهدى بالقرآن ولا بمن جاء به عادَوْه ونسبُوه إلى الكذب ، وقالوا هذا إفك قديم ؛ كما قالوا : أساطير الأوّلين .

وقيل لبعضهم : هل في القرآن : من جهل شيئاً عاداه ؟ فقال نعم ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ فَسَيَقُولُونَ هاذآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ ومثله : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ ﴾ [يونس : 39] .

قوله تعالى : ﴿ وَمِن قَبْلِهِ ﴾ أي ومن قبل القرآن ﴿ كِتَابُ موسى ﴾ أي التوراة ﴿ إِمَاماً ﴾ يقتدى بما فيه ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ من الله .

وفي الكلام حذف ؛ أي فلم تهتدوا به .

وذلك أنه كان في التوراة نعت النبيّ صلى الله عليه وسلم والإيمانُ به فتركوا ذلك .

و"إِمَاماً" نصب على الحال ؛ لأن المعنى : وتقدّمه كتاب موسى إماماً .

"وَرَحْمَةً" معطوف عليه .

وقيل : انتصب بإضمار فعل ؛ أي أنزلناه إماماً ورحمة .

وقال الأخفش : على القطع ؛ لأن كتاب موسى معرفة بالإضافة ، لأن النكرة إذا أعيدت أو أضيفت أو أدخل عليها ألف ولام صارت معرفة .

﴿ وهذا كِتَابٌ ﴾ يعني القرآن ﴿ مُّصَدِّقٌ ﴾ يعني للتوراة ولما قبله من الكتب .

وقيل : مصدّق للنبيّ صلى الله عليه وسلم .

﴿ لِّسَاناً عَرَبِيّاً ﴾ منصوب على الحال ؛ أي مصدّق لما قبله عربياً ، و "لِسَاناً" توطئة للحال أي تأكيد ؛ كقولهم : جاءني زيد رجلاً صالحاً ؛ فتذكر رجلاً توكيداً .

وقيل : نصب بإضمار فعل تقديره : وهذا كتاب مصدّق أعني لساناً عربياً .

وقيل : نصب بإسقاط حرف الخفض تقديره : بلسان عربي .

(106/702)

وقيل : إن لساناً مفعول والمراد به النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أي وهذا كتاب مصدّق للنبيّ صلى الله عليه وسلم لأنه معجزته ؛ والتقدير : مصدّق ذا لسان عربي .

فاللسان منصوب بمصدّق ، وهو النبي صلى الله عليه وسلم .

ويبعد أن يكون اللسان القرآن ؛ لأن المعنى يكون يصدّق نفسه .

﴿ لِّيُنذِرَ الذين ظَلَمُواْ ﴾ قراءة العامة "لِيُنْذِرَ" بالياء خبر عن الكتاب ؛ أي لينذر الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية .

وقيل : هو خبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقرأ نافع وابن عامر والبَزّي بالتاء ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ على خطاب النبي صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ [الرعد : 7] .

﴿ وبشرى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ "بُشْرَى" في موضع رفع ؛ أي وهو بشرى .

وقيل : عطفاً على الكتاب ؛ أي وهذا كتاب مصدّق وبشرى .

ويجوز أن يكون منصوباً بإسقاط حرف الخفض ؛ أي لينذر الذين ظلموا وللبشرى ؛ فلما حذف الخافض نصب .

وقيل : على المصدر ؛ أي وتبشر المحسنين بشرى ؛ فلما جعل مكان وتبشر بشرى أو بشارة نصب ؛ كما تقول : أتيتك لأزورك ، وكرامة لك وقضاء لحقك ؛ يعني لأزورك

وأكرمك وأقضي حقك ؛ فنصب الكرامة بفعل مضمر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(107/702)

وقال ابن كثير :

وقوله : ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ ﴾

أي : لست بأول رسول طرق العالم ، بل قد جاءت الرسل من قبلي ، فما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتى تستنكروني وتستبعدوا بعثتي إليكم ، فإنه قد أرسل الله قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ ﴾ ما أنا بأول رسول . ولم يحك ابن جرير ولا ابن أبي حاتم غير ذلك .

وقوله : ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾ قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في هذه الآية : نزل بعدها ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : 2] .

وهكذا قال عكرمة ، والحسن ، وقتادة : إنها منسوخة بقوله : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ ، قالوا : ولما نزلت هذه الآية قال رجل من المسلمين : هذا قد بين

الله ما هو فاعل بك يا رسول الله ، فما هو فاعل بنا ؟ فأنزل الله : ﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ ﴾ [الفتح : 5] .

هكذا قال ، والذي هو ثابت في الصحيح أن المؤمنين قالوا : هنيئًا لك يا رسول الله ، فما لنا ؟ فأنزل الله هذه الآية .

وقال الضحاك : ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾ : ما أدري بماذا أومر ، وبماذا أنهى بعد هذا ؟

وقال أبو بكر الهذِليّ ، عن الحسن البصري في قوله : ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾ قال : أما في الآخرة فمعاذ الله ، قد علم أنه في الجنة ، ولكن قال : لا أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا ، أخرج كما أخرجت الأنبياء [من] قبلي ؟ أم أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلي ؟ ولا أدري أيخسف بكم أو تُرمون بالحجارة ؟

(108/702)

وهذا القول هو الذي عَوّل عليه ابن جرير ، وأنه لا يجوز غيره ، ولا شك أن هذا هو اللائق به ، صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه

، وأما في الدنيا فلم يدر ما كان يئُول إليه أمره وأمر مشركي قريش إلى ماذا : أيؤمنون أم يكفرون ، فيعذبون

(109/702)

فيستأصلون بكفرهم ؟

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد :

حدثنا يعقوب ، حدثنا أبي ، عن ابن شهاب عن خارجة بن زيد بن ثابت ، عن أم العلاء – وهي امرأة من نسائهم – أخبرته – وكانت بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم – قالت : طار لهم في السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين عثمانُ بن مظعون . فاشتكى عثمان عندنا فَمرَّضناه ، حتى إذا توفي أدْرَجناه في أثوابه ، فدخل علينا رسول الله فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب ، شهادتي عليك ، لقد أكرمك الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وما يدريك أن الله أكرمه ؟" فقلت : لا أدري بأبي أنت وأمي ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أما هو فقد جاءه اليقين من ربه ، وإني لأرجو له الخير ، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي !" قالت : فقلت : والله لا أزكي أحدا بعده أبدا . وأحزنني ذلك ، فنمت فرأيت لعثمان عينا تجري ، فجئت إلى رسول الله

صلى الله عليه وسلم فأخبرته بذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ذاك عمله" .

فقد انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم (1) ، وفي لفظ له : "ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل به" (2) . وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ ، بدليل قولها : "فأحزنني ذلك" . وفي هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة إلا الذي نص الشارع على تعيينهم ، كالعشرة ، وابن سلام ، والغُميصاء ، وبلال ، وسراقة ، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر ، والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة ، وزيد بن حارثة ، وجعفر ، وابن رواحة ، وما أشبه هؤلاء .

وقوله : ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ أي : إنما أتبع ما ينزله الله عليَّ من الوحي ، ﴿ وَمَا أَنَا إِلا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ أي : بين النّذارة ، وأمري ظاهر لكل ذي لب وعقل .

---

(1) المسند (436/6) وصحيح البخاري برقم (1243) .

(2) صحيح البخاري برقم (2687) .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن : ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ ﴾ هذا القرآن ﴿ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ أي : ما ظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذي جئتكم به قد أنزله

(111/702)

عليَّ لأبلغكموه ، وقد كَفَرتم به وكذبتموه ، ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ ﴾ أي : وقد شهدت بصدقه وصحته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء قبلي ، بشرت به وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به .

وقوله : ﴿ فَآمَنَ ﴾ أي : هذا الذي شهد بصدقه من بني إسرائيل لمعرفته بحقيته ﴿ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ أنتم : عن اتباعه .

وقال مسروق : فآمن هذا الشاهد بنبيه وكتابه ، وكفرتم أنتم بنبيكم وكتابكم ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

وهذا الشاهد اسم جنس يعم عبد الله بن سلام وغيره ، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل

إسلام عبد الله بن سلام . وهذه كقوله : ﴿ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ [القصص : 53] ، وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولا ﴾ [الإسراء : 107 ، 108] .

قال مسروق ، والشعبي : ليس بعبد الله بن سلام ، هذه الآية مكية ، وإسلام عبد الله بن سلام كان بالمدينة . رواه عنهما ابن جرير وابن أبي حاتم ، واختاره ابن جرير .

وقال مالك ، عن أبي النَّضْر ، عن عامر بن سعد ، عن أبيه قال : ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشي على وجه الأرض : "إنه من أهل الجنة" ، إلا لعبد الله بن سلام ، قال : وفيه نزلت : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ ﴾ رواه البخاري ومسلم والنسائي ، من حديث مالك ، به (1) .

وكذا قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وعكرمة ، ويوسف بن عبد الله بن سلام ، وهلال بن يَسَاف ، والسُّدِّي ، والثوري ، ومالك بن أنس ، وابن زيد ؛ أنهم كلهم قالوا : إنه عبد الله بن سلام .

---

(1) صحيح البخاري برقم (3812) وصحيح مسلم برقم (2483) والنسائي في السنن الكبرى برقم (8252) .

(112/702)

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ أي : قالوا عن المؤمنين بالقرآن : لو كان القرآن خيرا ما سبقنا هؤلاء إليه . يعنون بلالا وعمارا وصُهَيبا وخبابا وأشباههم وأقرانهم من المستضعفين والعبيد والإماء ، وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة وله بهم عناية . وقد غلطوا في ذلك غلطا فاحشا ، وأخطئوا خطأ بينا ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ [الأنعام : 53] أي : يتعجبون : كيف اهتدى هؤلاء دوننا ؛ ولهذا قالوا : ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ وأما أهل السنة والجماعة فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة : هو بدعة ؛ لأنه لو كان خيرا لسبقونا إليه ، لأنهم

(113/702)

لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها .

وقوله : ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ﴾ أي : بالقرآن ﴿ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ ﴾ أي : كذب ﴿

قَدِيمٌ ﴾ أي : مأثور عن الأقدمين ، فينتقصون القرآن وأهله ، وهذا هو الكبر الذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بطر الحق ، وغَمْط الناس" (1) .

ثم قال : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى ﴾ وهو التوراة ﴿ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ ﴾ يعني : القرآن ﴿ مُصَدِّقٌ ﴾ أي : لما قبله من الكتب ﴿ لِسَانًا عَرَبِيًّا ﴾ أي : فصيحا بينا واضحا ، ﴿ لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي : مشتمل على النّذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 7 صـ 276 . 279 ﴾

---

(1) رواه مسلم في صحيحه برقم (91) من حديث عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه .

(114/702)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) ﴾

هذه السورة مكية .

وعن ابن عباس وقتادة ، أن : ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله ﴾ .

و﴿ فاصبر كما صبر ﴾ ، الآيتين مدنيتان .

ومناسبة أولها لما قبلها ، أن في آخر ما قبلها : ﴿ ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً ﴾ وقلتم : إنه عليه الصلاة والسلام اختلقها ، فقال تعالى : ﴿ حم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ .

وهاتان الصفتان هما آخر تلك ، وهما أول هذه .

﴿ وأجل مسمى ﴾ : أي موعد لفساد هذه البنية .

قال ابن عباس : هو القيامة ؛ وقال غيره : أي أجل كل مخلوق .

﴿ عن ما أنذروا ﴾ : يحتمل أن تكون ما مصدرية ، وأن تكون بمعنى الذي .

﴿ قل أرأيتم ما تدعون ﴾ : معناه أخبروني عن الذين تدعون من دون الله ، وهي الأصنام .

﴿ أروني ماذا خلقوا من الأرض ﴾ : استفهام توبيخ ، ومفعول أرأيتم الأول هو ما تدعون .

وماذا خلقوا : جملة استفهامية يطلبها أرأيتم ، لأن مفعولها الثاني يكون استفهاماً ، ويطلبها أروني على سبيل التعليق ، فهذا من باب الإعمال ، أعمل الثاني وحذف مفعول أرأيتم الثاني .

ويمكن أن يكون أروني توكيداً لأرأيتم ، بمعنى أخبروني ، وأروني : أخبروني ، كأنهما بمعنى

واحد .

وقال ابن عطية : يحتمل أرأيتم وجهين : أحدهما : أن تكون متعدية ، وما مفعولة بها ؛ ويحتمل أن تكون أرأيتم منبهة لا تتعدى ، وتكون ما استفهاماً على معنى التوبيخ ، وتدعون معناه : تعبدون . انتهى .

وكون أرأيتم لا تتعدى ، وأنها منبهة ، فيه شيء ؛ قاله الأخفش في قوله : ﴿ قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة ﴾ والذي يظهر أن ما تدعون مفعول أرأيتم ، كما هو في قوله : ﴿ قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون ﴾ في سورة فاطر ؛ وتقدم الكلام على نظير هذه الجملة فيها .

وقد أمضى الكلام في أرأيتم في سورة الأنعام ، فيطالع هناك : و ﴿ من الأرض ﴾ ، تفسير للمبهم في : ﴿ ماذا خلقوا ﴾ .

(115/702)

والظاهر أنه يريد من أجزاء الأرض ، أي خلق ذلك إنما هو لله ، أو يكون على حذف مضاف ، أي من العالي على الأرض ، أي على وجهها من حيوان أو غيره .

ثم وقفهم على عبارتهم فقال : ﴿ أم لهم ﴾ : أي : بل .

﴿ أم لهم شرك في السموات ائتوني بكتاب من قبل هذا ﴾ : أي من قبل هذا الكتاب ، وهو القرآن ، يعني أن هذا القرآن ناطق بالتوحيد وبإبطال الشرك ، وكل كتب الله المنزلة ناطقة بذلك ؛ فطلب منهم أن يأتوا بكتاب واحد يشهد بصحة ما هم عليه من عبادة غير الله .

﴿ أو أثارة من علم ﴾ ، أي بقية من علم ، أي من علوم الأولين ، من قولهم : سمنت الناقة على أثارة من شحم ، أو على بقية شحم كانت بها من شحم ذاهب .

والأثارة تستعمل في بقية الشرف ؛ يقال : لبني فلان أثارة من شرف ، إذا كانت عندهم شواهد قديمة ، وفي غير ذلك قال الراعي :

وذات أثارة أكلت علينا . . .

نباتاً في أكمته قفارا

أي : بقية من شحم .

وقرأ الجمهور : أو أثارة ، وهو مصدر ، كالشجاعة والسماحة ، وهي البقية من الشيء ، كأنها أثرة .

وقال الحسن : المعنى : من علم استخرجتموه فتثيرونه .

وقال مجاهد : المعنى : هل من أحد يأثر علماً في ذلك ؟ وقال القرطبي : هو الإسناد ، ومنه قول الأعشى :

إن الذي فيه تماريتما . . .

بين للسامع والآثر

أي : وللمستدعين غيره ؛ ومنه قول عمر رضي الله عنه : فما خلفت به ذاكراً ولا آثراً .

وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن ، وقتادة : المعنى : أو خاصة من علم ، فاشتقاقها من الأثرة ، فكأنها قد آثر الله بها من هي عنده .

وقال ابن عباس : المراد بالأثارة : الخط في التراب ، وذلك شيء كانت العرب تفعله وتتكهن به وتزجر تفسيره .

الأثارة بالخط يقتضي تقوية أمر الخط في التراب ، وأنه شيء ليس له وجه إذاية وقف أحد إليه .

وقيل : إن صح تفسير ابن عباس الإثارة بالخط في التراب ، كان ذلك من باب التهكم بهم وبأقوالهم ودلائلهم .

(116/702)

وقرأ علي ، وابن عباس : بخلاف عنهما ، وزيد بن علي ، وعكرمة ، وقتادة ، والحسن ، والسلمي ، والأعمش ، وعمرو بن ميمون : أو أثرة بغير ألف ، وهي واحدة ، جمعها أثر ؛

كفترة وقتر ؛ وعلي ، والسلمي ، وقتادة أيضاً : بإسكان الثاء ، وهي الفعلة الواحدة مما يؤثر ، أي قد قنعت لكم بخبر واحد وأثر واحد يشهد بصحة قولكم .

وعن الكسائي : ضم الهمزة وإسكان الثاء .

وقال ابن خالويه ، وقال الكسائي على لغة أخرى : إثرة وأثرة يعني بكسر الهمزة وضمها .

﴿ ومن أضل ممن ﴾ يعبد الأصنام ، وهي جماد لا قدرة لها على استجابة دعائهم ما دامت الدنيا ، أي لا يستجيبون لهم أبداً ، ولذلك غياً انتفاء استجابتهم بقوله : ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ ، ومع ذلك لا شعور لهم بعبادتهم إياهم ، وهم في الآخرة أعداء لهم ، فليس لهم في الدنيا بهم نفع ، وهم عليهم في الآخرة ضرر ، كما قال تعالى : ﴿ سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ﴾ وجاء ﴿ من لا يستجيب ﴾ ، لأنهم يسندون إليهم ما يسند لأولي العلم من الاستجابة والغفلة ؛ أو كأن ﴿ من لا يستجيب ﴾ يراد به من عبد من دون الله من إنس وجن وغيرهما ، وغلب من يعقل ، وحمل أولاً على لفظ ﴿ من لا يستجيب ﴾ ، ثم على المعنى في : وهم من ما بعده .

والظاهر عود الضمير أولاً على لفظ ﴿ من لا يستجيب ﴾ ، ثم على المعنى في : وهم على معنى من في : ﴿ من لا يستجيب ﴾ ، كما فسرناه .

وقيل : يعود على معنى من في : ﴿ ومن أضل ﴾ ، أي والكفار عن ضلالهم بأنهم يدعون من لا يستجيب .

﴿ غافلون ﴾ : لا يتأملون ما عليهم في دعائهم من هذه صفته .

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ﴾ : جمع بينة ، وهي الحجة الواضحة .

واللام في ﴿ للحق ﴾ ، لام العلة ، أي لأجل الحق .

(117/702)

وأتى بالظاهرين بدل المضمرين في ﴿ قال الذين كفروا للحق ﴾ ، ولم يأت التركيب : قالوا لها ، تنبيهاً على الوصفين : وصف المتلو عليهم بالكفر ، ووصف المتلو عليهم بالحق ، ولو جاء بهما الوصفين ، لم يكن في ذلك دليل على الوصفين من حيث اللفظ ، وإن كان من سمى الآيات سحراً هو كافر ، والآيات في نفسها حق ، ففي ذكرهما ظاهرين ، يستحيل على القائلين بالكفر ، وعلى المتلو بالحق .

وفي قوله : ﴿ لما جاءهم ﴾ تنبيه على أنهم لم يتأملوا ما يتلى عليهم ، بل بادروا أول سماعه إلى نسبته إلى السحر عناداً وظلماً ، ووصفوه بمبين ، أي ظاهر ، إنه سحر لا شبهة فيه .

﴿ أم يقولون افتراه ﴾ : أي بل يقولون افتراه ، أي بل أيقولون اختلقه ؟ انتقلوا من قولهم : ﴿ هذا سحر ﴾ إلى هذه المقالة الأخرى .

والضمير في افتراه عائد إلى الحق ، والمراد به الآيات .

﴿ قل إن افتريته ﴾ ، على سبيل الفرض ، فالله حسبي في ذلك ، وهو الذي يعاقبني على الافتراء عليه ، ولا يمهلني ؛ ﴿ فلا تملكون لي ﴾ عقوبة الله بي شيئاً .

فكيف أفتريه وأتعرض لعقابه ؟ يقال : فلان لا يملك إذا غضب ، ولا يملك عنانه إذا صم ؛ ومثله : ﴿ فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم ﴾ ﴿ ومن يريد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً ﴾ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : " لا أملك لكم من الله شيئاً " ثم استسلم إلى الله واستنصر به فقال : ﴿ هو أعلم بما تفيضون فيه ﴾ : أي تندفعون فيه من الباطل ، ومراده الحق ، وتسميته تارة سحراً وتارة فرية .

والضمير في فيه يحتمل أن يعود على ما ، أو على القرآن ، وبه في موضع الفاعل يكفي على أصح الأقوال .

﴿ شهيداً بيني وبينكم ﴾ : شهيد إليّ بالتبليغ والدعاء إليه ، وشهيد عليكم بالتكذيب .

﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ : عدة لهم بالغفران والرحمة إن رجعوا عن الكفر ، وإشعار بحلمه تعالى عليهم ، إذ لم يعاجلهم بالعقاب ، إذ كان ما تقدم تهديداً لهم في أن يعاجلهم على كفرهم .

﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل ﴾ : أي جاء قبلي غيري ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والبدع والبديع : من الأشياء ما لم ير مثله ، ومنه قول عدي بن زيد ، أنشده قطرب :

فما أنا بدع من حوادث تعتري . . .

رجالاً عرت من بعد بؤسي فأسعد

والبدع والبديع : كالخف والخفيف ، والبدعة : ما اخترع مما لم يكن موجوداً ، وأبدع الشاعر : جاء بالبديع ، وشيء بدع ، بالكسر : أي مبتدع ، وفلان بدع في هذا الأمر : أي بديع ، وقوم إبداع ، عن الأخفش .

وقرأ عكرمة ، وأبو حيوة ، وابن أبي عبلة : بفتح الدال ، جمع بدعة ، وهو على حذف مضاف ، أي ذا بدع .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون صفة على فعل ، كقولهم : دين قيم ولحم زيم . انتهى .

وهذا الذي أجازه ، إن لم ينقل استعماله عن العرب ، لم نجزه ، لأن فعل في الصفات لم يحفظ منه سيبويه إلا عدى .

قال سيبويه : ولا نعلمه جاء صفة إلا في حرف معتل يوصف به الجمع ، وهو قوم عدي ، وقد استدرك ، واستدراكه صحيح .

وأما قيم ، فأصله قيام وقيم ، مقصور منه ، ولذلك اعتلت الواو فيه ، إذ لو لم يكن مقصوراً لصحت ، كما صحت في حول وعوض .

وأما قول العرب : مكان سوى ، وماء روى ، ورجل رضى ، وماء صرى ، وسبى طيبه ، فمتأولة عند البصريين لا يثبتون بها فعلاً في الصفات .

وعن مجاهد ، وأبي حيوة : بدعا ، بفتح الباء وكسر الدال ، كحذر .

﴿ وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ﴾ : أي فيما يستقبل من الزمان ، أي لا أعلم ما لي بالغيب ، فأفعاله تعالى ، وما يقدره لي ولكم من قضاياه ، لا أعلمها .

(119/702)

وعن الحسن وجماعة : وما أدري ما يصير إليه أمري وأمركم في الدنيا ، ومن الغالب منا والمغلوب ؟ وعن الكلبي ، قال له أصحابه ، وقد ضجروا من أذى المشركين : حتى متى نكون على هذا ؟ فقال : ما أدري ما يفعل بي ولا بكم أأنزل بمكة ؟ أم أومر بالخروج إلى أرض قد رفعت ورأيتها ، يعني في منامه ، ذات نخل وشجر ؟ وقال ابن عباس ، وأنس بن مالك ، وقتادة ، والحسن ، وعكرمة : معناه في الآخرة ، وكان هذا في صدر الإسلام ، ثم بعد ذلك عرفه الله تعالى أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وأن المؤمنين لهم من الله

فضل كبير وهو الجنة ، وبأن الكافرين في نار جهنم ؛ وهذا القول ليس بظاهر ، بل قد أعلم سبحانه من أول الرسالة حال الكافر وحال المؤمن .

وقيل : ﴿ ما يفعل بي ولا بكم ﴾ من الأوامر والنواهي ، وما يلزم الشريعة .

وقيل : نزلت في أمر كان النبي (صلى الله عليه وسلم) ينتظره من الله في غير الثواب والعقاب .

﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إليّ ﴾ : استسلام وتبرؤ من علم المغيبات ، ووقوف مع النذارة إلا من عذاب الله .

وقرأ الجمهور : ما يفعل بضم الياء مبنياً للمفعول ؛ وزيد بن عليّ ، وابن أبي عبلة : بفتحها .

والظاهر أن ما استفهامية ، وأدري معلقة ؛ فجملة الاستفهام موصولة منصوبة . انتهى .

والفصيح المشهور أن دَرَى يتعدى بالباء ، ولذلك حين عدي بهمزة النقل يتعدى بالباء ، نحو قوله : ﴿ ولا أدراكم به ﴾ فجعل ما استفهامية هو الأولى والأجود ، وكثيراً ما علقت في القرآن نحو : ﴿ وإن أدري أقريب ﴾ ، ويفعل مثبت غير منفي ، لكنه قد انسحب عليه النفي ، لاشتماله على ما ويفعل ؛ فلذلك قال : ﴿ ولا بكم ﴾ .

ولولا اعتبار النفي ، لكان التركيب ﴿ ما يفعل بي ولا بكم ﴾ .

ألا ترى زيادة من في قوله : ﴿ أن ينزل عليكم من خير ﴾ لانسحاب قوله : ﴿ ما يود الذين

كفروا ﴾ على يود وعلى متعلق يود ، وهو أن ينزل ، فاذا انتفت ودادة التنزيل انتفى التنزيل .

(120/702)

وقرأ ابن عمير : ما يوحي ، بكسر الحاء ، أي الله عز وجل .

﴿ قل أرأيتم ﴾ : مفعولاً أرأيتم محذوفان لدلالة المعنى عليهما ، والتقدير : أرأيتم حالكم إن كان كذا ؟ ألستم ظالمين ؟ فالأول حالكم ، والثاني ألستم ظالمين ، وجواب الشرط محذوف ؛ أي فقد ظلمتم ، ولذلك جاء فعل الشرط ماضياً .

وقال الزمخشري : جواب الشرط محذوف تقديره : إن كان هذا القرآن من عند الله وكفرتم به ، ألستم ظالمين ؟ ويدل على هذا المحذوف قوله : ﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ . انتهى .

وجملة الاستفهام لا تكون جواباً للشرط إلا بالفاء .

فإن كانت الأداة الهمزة ، تقدمت الفاء نحو : إن تزرنا ، أفما نحسن إليك ؟ أو غيرها تقدمت الفاء نحو : إن تزرنا ، فهل ترى إلا خيراً ؟ فقول الزمخشري : ألستم ظالمين ؟ بغير فاء ، لا يجوز أن يكون جواب الشرط .

وقال ابن عطية : وأرأيتم يحتمل أن تكون منبهة ، فهي لفظ موضوع للسؤال لا يقتضي مفعولاً .

ويحتمل أن تكون الجملة : كان وما عملت فيه ، تسد مسد مفعوليها . انتهى .

وهذا خلاف ما قرره محققو النحاة في أرأيتم .

وقيل : جواب الشرط .

﴿ فآمن واستكبرتم ﴾ : أي فقد آمن محمد به ، أو الشاهد ، واستكبرتم أنتم عن الإيمان .

وقال الحسن : تقديره فمن أضل منكم .

وقيل : فمن المحق منا ومنكم ، ومن المبطل ؟ وقيل : إنما تهلكون ، والضمير في به عائد على ما عاد عليه اسم كان ، وهو القرآن .

وقال الشعبي : يعود على الرسول ، والشاهد عبد الله بن سلام ، قاله الجمهور ، وابن عباس ، والحسن ، وعكرمة ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن سيرين ؛ والآية مدنية .

وعن عبد الله بن سلام : نزلت في آيات من كتاب الله ، نزلت في ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ﴾ .

وقال مسروق : الشاهد موسى عليه السلام ، لا ابن سلام ، لأنه أسلم بالمدينة ، والسورة مكية ، والخطاب في ﴿ وكفرتم به ﴾ لقريش .

وقال الشعبي : الشاهد من آمن من بني إسرائيل بموسى والتوارة ، لأن ابن سلام أسلم قبل وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم) بعامين ، والسورة مكية .

وقال سعد بن أبي وقاص ، ومجاهد ، وفرقة : الآية مكية ، والشاهد عبد الله بن سلام ، وهي من الآيات التي تضمنت غيباً أبرزه الوجود ، وعبد الله بن سلام مذكور في الصحيح ، وفيه بهت لليهود لعنهم الله .

ومن كذب اليهود وجهلهم بالتاريخ ، ما يعتقدونه في عبد الله بن سلام ، أنه (صلى الله عليه وسلم) حين سافر إلى الشام في تجارة لخديجة رضي الله عنها ، اجتمع بأحبار اليهود وقص عليهم أحلامه ، فعلموا أنه صاحب دولة ، وعموا ، فأصحبوه عبد الله بن سلام ، فقرأ علوم التوراة وفقهها مدة ، زعموا وأفرطوا في كذبهم ، إلى أن نسبوا الفصاحة المعجزة التي في القرآن إلى تأليف عبد الله بن سلام ، وعبد الله هذا لم تعلم له إقامة بمكة ولا تردد إليها .

فما أكذب اليهود وأبهتهم لعنهم الله .

وناهيك من طائفة ، ما ذم في القرآن طائفة مثلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرسل ﴾

البدعُ بمعنى البديعِ كالخِلِّ بمعنى الخليلِ وهو ما لا مثلَ له . وقُرِىءَ بفتحِ الدالِ على أنه صفةٌ كفِيَمٍ وزِيَمٍ ، أو جمعٌ مقدرٌ بمضافٍ أيْ ذا بِدَعٍ ، وقد جُوِّزَ ذلكَ في القراءةِ الأُولى أيضاً على أنه مصدرٌ . كانُوا يقترحونَ عليهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ آياتٍ عجيبةً ويسألونَهُ عن المُغيباتِ عِناداً ومُكابرةً فأُمِرَ عليهِ السَّلامُ بأنْ يقولَ لهم ما كنتُ بديعاً من الرسلِ قادراً على ما لم يقدرُوا عليهِ حَتَّى آتيَكُم بكلِّ ما تقترحونَهُ وأخبركم بكلِّ ما تسألونَ عنْهُ من الغيُوبِ فإنَّ مَنْ قبلي من الرُّسلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ ما كانُوا يأتونَ إلا بما آتاهُم اللهُ تعالى من الآياتِ ولا يُخبرونَهم إلا بما أُوحيَ إليهم ﴿ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ﴾ أيُ أيُّ شيءٍ يُصيبنَا فيما يُستقبلُ من الزمانِ من أفعالِهِ تعالى وماذا يُقدَّرُ لنا من قضاياهُ . وعن الحسنِ رضيَ اللهُ عنْهُ ما أَدري ما يصيرُ إليه أَمري وأمرُكم في الدُّنيا . وعن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُمَا : ما يفعلُ بي ولا بكُم في الآخرةِ وقال : هيَ منسوخةٌ بقولِه تعالى : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ وقيل : يجوزُ أن يكونَ المنفيُّ هي الدرايةَ المفصَّلةَ ، والأظهرُ الأوفقُ لما

ذُكِرَ من سببِ النزولِ أنَّ مَا عبارةٌ عمَّا ليسَ علمُه منْ وظائفِ النبوةِ من الحوادثِ والواقعاتِ الدنيويةِ دونَ ما سيقعُ في الآخرةِ فإنَّ العلمَ بذلكَ من وظائفِ النبوةِ ، وقد وردَ به الوحيُ الناطق بتفاصيلِ ما يُفعلُ بالجانبينِ . هذا وقد رُويَ عن الكلبيِّ أنَّ أصحابَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم قالُوا له عليه السَّلامُ وقد ضجِروا من أذيةِ المشركينَ حتَّى متى نكونُ على هَذا فقالَ ما أدري ما يُفعلُ بي ولا بكُم أأُتركُ بمكةَ أم أُومرُ بالخروجِ إلى أرضٍ ذاتِ نخيلٍ وشجرٍ قد رُفعتْ لي ورأيتُها يعني

(123/702)

في منامِه ، وجُوِّزَ أنْ تكونَ ما موصولةً ، والاستفهاميةُ أُقضى لحقِّ مقامِ التبرؤِ عن الدرايةِ . وتكريرُ لا لتذكيرِ النفيِّ المنسحبِ إليهِ وتأكيدِه . وقُرِئَ ما يُفعلُ على إسنادِ الفعلِ على ضميرِه تعالَى . ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحِى إِلَىَّ ﴾ أيْ ما أفعلُ إلا اتباعَ ما يُوحَى إليَّ ، على مَعْنى قصرِ أفعالِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على اتباعِ الوَحي لا قصرِ اتباعِه على الوَحي كما هو المتسارعُ إلى الأفهامِ وقد مرَّ تحقيقُه في سورةِ الأنعامِ . وقُرِئَ يُوحِي على البناءِ للفاعلِ ، وهو جوابٌ عن اقتراحِهم الأخبارَ عمَّا لم يُوحَ إليه عليه السَّلامُ من الغيوبِ ، وقيلَ : عن استعجالِ المسلمينَ أنْ يتخلصُوا عن أذيةِ المشركينَ والأولُ هو الأوفقُ لقولِه تعالى : ﴿ وَمَا

أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ ﴾ أُنذركم عقابَ الله تعالى حسبمَا يُوحى إليَّ ﴿ مُّبِينٌ ﴾ بينُ الإنذارِ بالمعجزاتِ الباهرةِ.

(124/702)

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ ﴾ أي ما يُوحَى إليَّ من القُرآنِ ﴿ مِنْ عِندِ الله ﴾ لاَ سحراً ولا مُفترى كما تزعمونَ. وقولُه تعالى ﴿ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ حالٌ بإضمارِ قَدْ من الضميرِ في الخبرِ وُسّطتْ بين أجزاءِ الشرطِ مسارعةً إلى التسجيلِ عليهم بالكفرِ، أو عطفٌ على كانَ كمَا في قولِه تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ الله ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ لكنْ لا على أنَّ نظمَهُ في سلكِ الشرطِ المتردد بينَ الوقوعِ وعدمِه عندهُم باعتبارِ حالِه في نفسِه بل باعتبارِ حالِ المعطوفِ عليه عندَهُم فإنَّ كفرَهُم به أمرٌ محققٌ عندهم أيضاً وإنَّما ترددُهم في أنَّ ذلكَ كفرٌ بَما من عندِ الله تعالى أم لا وكذا الحالُ في قولِه تعالى: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِى إِسرائيل ﴾ وما بعدَهُ من الفعلينِ فإنَّ الكُلَّ أمورٌ محققةٌ عندَهُم وإنَّما ترددُهم في أنَّها شهادةٌ وإيمانٌ بما مِن عندِ الله تعالى واستكبار عنه أولاً والمعنى أخبروني إن كان ذلك في الحقيقة من عند الله تعالى وكفرتُم به وشهدَ شاهدٌ عظيمُ الشأنِ منْ بني إسرائيلَ الواقفينَ على شؤونِ الله تعالى وأسرارِ الوحي بما أُوتوا من التوراةِ. ﴿ على مِثْلِهِ ﴾ أي مثلِ القرآنِ من المَعَاني

المنطويةِ في التوراةِ المطابقةِ لما في القرآنِ من التوحيدِ والوعدِ والوعيدِ وغيرِ ذلكَ فإنَّها عينُ ما فيه في الحقيقةِ كما يعربُ عنه قولُه تعالَى : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأولين ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ إِنَّ هذا لَفِي الصحف الأولى ﴾ والمثليةُ باعتبارِ تأديتِها بعباراتٍ أُخرَ أو على مثلِ ما ذُكرَ من دونِه من عندِ الله تعالى والمثليةُ لما ذُكِرَ وقيل : المثلُ صلةٌ والفاء في قولِه تعالى : ﴿ فَآمَنَ ﴾ للدلالةِ على أنَّه سارعَ إلى الإيمانِ بالقرآنِ لما علمَ أنَّه من جنسِ الوحي الناطقِ بالحقِّ وهو عبدُ الله بن سَلاَمٍ لمَّا سمعَ بمقدمِ رسولِ الله صلى الله عليه

(125/702)

وسلم المدينةَ أتاهُ فنظرَ إلى وجهِهِ الكريمِ فعلمَ أنَّه ليسَ بوجهِ كذَّابٍ وتأملَهُ فتحققَ أنَّه النبيُّ المنتظرُ فقالَ له إنِّي سائلكَ عن ثلاثٍ لا يعلمُهنَّ إلا نبيٌّ ما أولُ أشراطِ الساعةِ ، وما أولُ طعامٍ يأكلُه أهلُ الجنةِ ، والولدُ ينزعُ إلى أبيهِ أو إلى أمِّهِ فقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : " أمَّا أولُ أشراطِ الساعةِ فنارٌ تحشرُهم منَ المشرقِ إلى المغربِ ، وأمَّا أولُ طعامِ أهلِ الجنَّةِ فزيادةُ كبدِ حوتٍ ، وأما الولدُ فإنْ سبقَ ماءُ الرجلِ نزعَهُ وإنْ سبقَ ماءُ المرأةِ نزعتْهُ " فقال أشهدُ أنَّكَ رسولُ اللهِ حقًّا فقامَ ثمَّ قالَ يا رسولَ اللهِ إنَّ اليهودَ قومُ بُهتٌ فإن علمُوا بإسلامِي قبلَ أنْ

تسألَهم عنّي بهتوني عندكَ فجاءتِ اليهود فقالَ لهم النبيُّ عليه السَّلامُ : " أيُّ رجلٍ عبدُ اللَّهِ فيكم "

(126/702)

فقالُوا خيرُنا وابنُ خيرِنا وسيدُنا وابنُ سيدِنا وأعلمُنَا وابنُ أعلمِنا قال : " أرأيتُم إنْ أسلمَ عبدُ اللَّهِ " قالُوا : أعاذَهُ اللهُ من ذلكَ فخرجَ إليهم عبدُ اللَّهِ فقالَ : أشهدُ أنَّ لا إلَه إلا الله وأشهدُ أنَّ محمداً رسولُ الله . فقالُوا شرُّنا وابنُ شرِّنا وانتقصُوه ، قالَ : هذا ما كنتُ أخافُ يا رسولُ الله وأحذرُ . قالَ سعدُ بنُ أبي وقاصٍ رضيَ الله عنْهُ : " ما سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ لأحدٍ يمشِي على الأرضِ إنَّه من أهلِ الجنَّةِ إلا لعبدِ اللَّه بنِ سَلامٍ ، وفيهِ نزلَ ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ ﴾ الآيةَ " . وقيلَ : الشاهدُ مُوسى عليه السَّلامُ وشهادتُه بما في التوراةِ من بعثةِ النبيِّ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ وبهِ قال الشعبيُّ . وقالَ مسروقٌ : واللهِ ما نزلتْ في عبدِ اللَّهِ بنِ سَلامٍ فإنَّ آلَ حم نزلتْ بمكةَ وإنَّما أسلمَ عبدُ الله بالمدينةِ ، وأجابَ الكلبيُّ : بأنَّ الآيةَ مدنية وإنْ كانتْ السورةُ مكيةً . ﴿ واستكبرتم ﴾ عطفٌ على شهدَ شاهدٌ . وجوابُ الشرطِ محذوفٌ ، والمَعْنى أخبرونِي إنْ كانَ من عندِ الله تعالَى وشهدَ على ذلكَ أعلمُ بني إسرائيلَ فآمنَ به من غيرِ تلعثمٍ واستكبرتُم عن الإيمانِ به بعد هذه

المرتبةِ مَنْ أضلُّ منكم بقرينةِ قولِه تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ وقولِه تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى القوم الظالمين ﴾ فإنَّ عدمَ الهدايةِ مِّما ينبىءُ عن الضَّلالِ قطعاً ، ووصفُهم بالظلمِ للإشعارِ بعلَّةِ الحُكمِ ، فإنَّ تركَهُ تعالَى لهدايتِهم لظلمِهم .

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾

(127/702)

حكايةٌ لبعضٍ آخرَ من أقاويلِهم الباطلةِ في حقِّ القرآنِ العظيمِ والمؤمنينَ بِهِ ، أي قالَ كُفَّارُ مكةَ . ﴿ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ أي لإجلِهم ﴿ لَّوْ كَانَ ﴾ أي ما جاءَ به عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ منَ القرآنِ والدينِ ﴿ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ فإنَّ معاليَ الأمورِ لا ينالُها أَيدِي الأراذلِ ، وهُم سُقَّاطُ ، عامَّتُهم فقراءُ ومَوالٍ ورعاةٌ قالُوه زعماً منهم أنَّ الرياسةَ الدينيةَ مما يُنالُ بأسبابٍ دنيويةٍ كما قالُوا لولا نُزِّلَ هذا القرآنُ على رجلٍ من القريتينِ عظيمٍ ، وزلَّ عنْهم أنَّها منوطةٌ بكمالاتٍ نفسانيةٍ وملكاتٍ رُوحانيةٍ مبناهَا الإعراضُ عن زخارفِ الدُّنيا الدنيةِ والإقبالُ على الآخرةِ بالكليةِ وأنَّ من فازَ بها فقد جازَها بحذافيرِها ومنْ حُرمها فَما لَهُ منها من خَلاقٍ ، وقيلَ : قالَه بنُو عامرٍ وغطفانُ وأسدٌ وأشجعُ لما أسلمَ جهينةُ ومزينةُ

وأسلمُ وغفارُ ، وقيلَ : قالتْهُ اليهودُ حين أسلمَ عبدُ اللَّهِ بنُ سَلاَمٍ وأصحابُه ، ويأباهُ أنَّ السورةَ مكيةٌ ولا بُدَّ حينئذٍ من الالتجاءِ إلى ادعاءِ أنَّ الآيةَ نزلتْ بالمدينةِ .

(128/702)

﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ ﴾ ظرفٌ لمحذوفٍ يدلُّ عليهِ ما قبلَهُ ويترتبُ عليهِ ما بعدَهُ أيْ وإذ لم يهتدُوا بالقُرآنِ قالُوا ما قالُوا ﴿ فَسَيَقُولُونَ ﴾ غيرَ مكتفينَ بنفي خيريّتِهِ ﴿ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ كما قالُوا أساطيرُ الأولينَ ، وقيلَ المحذوفُ ظهرَ عنادُهم وليسَ بذاكَ . ﴿ وَمِن قَبْلِهِ ﴾ أي منْ قبلِ القُرآنِ وهو خبرٌ لقولِه تعالى ﴿ كِتَابُ موسى ﴾ قيلَ : والجملةُ حاليةٌ أو مستأنفةٌ ، وأيًا ما كانَ فهو لردّ قولِهم هذا إفكٌ قديمٌ وإبطالِه ، فإنّ كونَهُ مُصدقاً لكتابِ مُوسى مقرر لحقّيتِهِ قطعاً . ﴿ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ حالانِ من كتابِ مُوسى أي إماماً يُقتدَى به في دينِ اللهِ تعالى وشرائعِه كما يُقتدى بالإمامِ ورحمةً من اللهِ تعالى لمن آمنَ به وعملَ بموجبِهِ ﴿ وهذا ﴾ الذي يقولونَ في حقّه ما يقولونَ ﴿ كِتَابٌ ﴾ عظيمُ الشأنِ ﴿ مُّصَدِّقٌ ﴾ أي لكتابِ مُوسى الذي هو إمامٌ ورحمةٌ أو لما من بينِ يديهِ من جميعِ الكتبِ الإلهيةِ . وقد قُرِئَ كذلكَ ﴿ لِّسَاناً عَرَبِيّاً ﴾ حالٌ من ضميرِ الكتابِ في مصدقٌ أو من نفسِه لتخصصِهِ بالصفةِ وعاملُها معنى الإشارةِ ، وعلى الأولِ مصدقٌ وقيلَ : مفعولٌ

لمصدقٌ أي يصدقُ ذا لسانٍ عربيَ . ﴿ لِّيُنذِرَ الذين ظَلَمُواْ ﴾ متعلقٌ بمصدقٌ وفيه ضميرُ الكتابِ أو الله تعالى أو الرسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ويؤيدُ الأخيرَ القراءةُ بتاءِ الخطاب ﴿ وبشرى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ في حيزِ النصبِ عطفاً على محل لينذرَ وقيل : في محلِ الرفعِ على أنَّه خبرُ مبتدأٍ مضمرٍ أي وهو بُشرى وقيلَ : على أنَّه عطفٌ على مصدقٌ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(129/702)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرسل ﴾

أي بديعاً منهم يعني لست مبتدعاً لأمر يخالف أمورهم بل جئت بما جاؤا به من الدعوة إلى التوحيد أو فعلت نحو ما فعلوا من إظهار ما آتاني الله تعالى من المعجزات دون الإتيان بالمقترحات كلها ، فقد قيل : إنهم كانوا يقترحون عليه عليه الصلاة والسلام آيات عجيبة ويسألونه عن المغيبات عناداً ومكابرة فأمر صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم ذلك ، ونظير ﴿ بدع ﴾ الخف بمعنى الخفيف والخل بمعنى الخليل فهو صفة مشبهة أو مصدر مؤول بها ، وجوز إبقاؤه على أصله .

وقرأ عكرمة .

وأبو حيوة .

وابن أبي عبلة ﴿ كُنتُ بِدْعاً ﴾ بفتح الدال ، وخرج على أنه جمع بدعة كسدرة وسدر ، والكلام بتقدير مضاف أي ذا بدع أو مصدر والاخبار به مبالغة أو بتقدير المضاف أيضاً .

وقال الزمخشري : يجوز أن يكون صفة على فعل كقولهم .

دين قيم ولحم زيم أي متفرق ، قال في "البحر" : ولم يثبت سيبويه صفة على هذا الوزن إلا عدي حيث قال : ولا نعلمه جاء صفة إلا في حرف معتل يوصف به الجمع وهو قوم عدي ، واستدرك عليه زيم وهو استدراك صحيح ، وأما قيم فمقصور من قيام ولولا ذلك لصحت عينه كما صحت في حول وعوض ، وأما قول العرب : مكان سوى وماء روى ورجل رضا وماء صرى فمتأولة عند التصريفيين إما بالمصدر أو بالقصر ، وعن مجاهد .

وأبي حيوة ﴿ بِدْعاً ﴾ بفتح الباء وكسر الدار وهو صفة كحذر .

﴿ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلاَ بِكُمْ ﴾ أي في الدارين على التفصيل كما قيل .

وأخرج ابن جرير عن الحسن أنه قال في الآية : أما في الآخرة فمعاذ الله تعالى قد علم صلى الله عليه وسلم أنه في الجنة حين أخذ ميثاقه في الرسل ولكن ما أدري ما يفعل بي في الدنيا أأخرج كما أخرجت الأنبياء عليهم السلام من قبلي أم أقتل كما قتلت الأنبياء عليهم السلام من قبلي ولا بكم أأمتي المكذبة أم أمتي المصدقة أم أمتي المرمية بالحجارة من السماء قذفاً أم المخسوف بها خسفاً ثم أوحى إليه ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بالناس ﴾ [الإسراء : 60] يقول سبحانه : أحطت لك بالعرب أن لا يقتلوك فعرف عليه الصلاة والسلام أنه لا يقتل ثم أنزل الله تعالى ﴿ هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهدى وَدِينِ الحق لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ وكفى بالله شَهِيداً ﴾ [الفتح : 28] يقول : أشهد لك على نفسه أنه سيظهر دينك على الأديان ثم قال سبحانه له عليه الصلاة والسلام في أمته : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ الله مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال : 33] فأخبره الله تعالى بما صنع به وما يصنع بأمته ، وعن الكلبي أنه صلى الله عليه وسلم قال له أصحابه وقد ضجروا من أذى المشركين : حتى متى نكون على هذا ؟ فقال : وما أدري ما يفعل بي ولا بكم أأترك بمكة أم أومر بالخروج إلى أرض قد رفعت لي ورأيتها يعني في منامه ذات نخل وشجر .

وحكى في "البحر" عن مالك بن أنس .

وقتادة .

وعكرمة .

والحسن أيضاً .

(131/702)

وابن عباس أن المعنى ما يفعل بي ولا بكم في الآخرة ، وأخرج أبو داود في ناسخه من طريق عكرمة عن ابن عباس أنه قال في الآية : نسختها الآية التي في الفتح يعني ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : 2] فخرج صلى الله عليه وسلم إلى الناس فبشرهم بأنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فقال رجل من المؤمنين : هنيئاً لك يا نبي الله قد علمنا الآن ما يفعل بك فماذا يفعل بنا ؟ فأنزل الله تعالى في سورة الأحزاب (47) ﴿ وَبَشِّرِ المؤمنين بِأَنَّ لَهُمْ مِّنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً ﴾ وقال سبحانه : ﴿ لِّيُدْخِلَ المؤمنين والمؤمنات جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سيئاتهم ﴾ [الفتح : 5] فبين الله تعالى ما يفعل به وبهم .

واستشكل على تقدير صحته بأن النسخ لا يجري في الخبر فلعل المنسوخ الأمر بقوله تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ إن قلنا : إنه هنا للتكرار أو المراد بالنسخ مطلق التغيير .

(132/702)

وقال أبو حيان : هذا القول ليس بظاهر بل قد أعلم الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام من أول الرسالة بحاله وحال المؤمن وحال الكافر في الآخرة ، وقال الإمام : أكثر المحققين استبعدوا هذا القول واحتجوا بأن النبي لا بد أن يعلم من نفسه كونه نبياً ومتى علم ذلك علم أنه لا يصدر عنه الكبائر وأنه مغفور وإذا كان كذلك امتنع كونه شاكاً في أنه هل هو مغفور له أم لا ، وبأنه لا شك أن الأنبياء أرفع حالاً من الأولياء ، وقد قال الله تعالى فيهم : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس : 62] فكيف يعتقد بقاء الرسول وهو رئيس الأنبياء وقدوة الأولياء شاكاً في أنه هل هو من المغفورين أم لا ، وقد يقال : المراد أيضاً أنه عليه الصلاة والسلام ما يدري ذلك على التفصيل ، وما ذكر لا يتعين فيه حصول العلم التفصيلي لجواز أن يكون عليه الصلاة والسلام قد أعلم بذلك في مبدأ الأمر إجمالاً بل في إعلامه صلى الله عليه وسلم بعد بحال كل شخص شخص على سبيل التفصيل بأن يكون قد أعلم عليه الصلاة والسلام بأحوال زيد مثلاً في الآخرة على التفصيل وبأحوال عمرو وكذلك وهكذا توقف .

وفي "صحيح البخاري" وأخرجه الإمام أحمد .

والنسائي .

وابن مردويه عن أم العلاء ، وكانت بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها قالت لما

مات عثمان بن مظعون : رحمة الله تعالى عليك يا أبا السائب شهادتي عليك لقد أكرمك الله تعالى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وما يدريك أن الله تعالى أكرمه ؟ أما هو فقد جاءه اليقين من ربه وإني لأرجو له الخير والله ما أدري وأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يفعل بي ولا بكم قالت أم العلاء : فوالله ما أزكي بعده أحداً ، وفي رواية ابن حبان .

والطبراني عن زيد بن ثابت أنها قالت لما قبض طب : أبا السائب نفسك إنك في الجنة فقال النبي صلى الله عليه وسلم .

(133/702)

وما يدريك ؟ قالت : يا رسول الله عثمان بن مظعون قال : أجل وما رأينا إلا خيراً والله ما أدري ما يصنع بي ، وفي رواية الطبراني .

(134/702)

وابن مردويه عن ابن عباس أنه لما مات قالت امرأته أو امرأة : هنيئاً لك ابن مظعون الجنة فنظر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر مغضب وقال : وما يدريك ؟ والله إني لرسول الله وما أدري ما يفعل الله بي فقالت : يا رسول الله صاحبك وفارسك وأنت أعلم فقال : أرجو له رحمة ربه تعالى وأخاف عليه ذنبه ، لكن في هذه الرواية أن ابن عباس قال : وذلك قبل أن ينزل ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : 2] وعن الضحاك المراد لا أدري ما أومر به ولا ما تؤمرون به في باب التكاليف والشرائع والجهاد ولا في الابتلاء والامتحان ، والذي اختاره أن المعنى على نفي الدراية من غير جهة الوحي سواء كانت الدراية تفصيلية أو إجمالية وسواء كان ذلك في الأمور الدنيوية أو الأخروية وأعتقد أنه صلى الله عليه وسلم لم ينتقل من الدنيا حتى أوتي من العلم بالله تعالى وصفاته وشؤنه والعلم بأشياء يعد العلم بها كمالاً ما لم يؤته أحد غيره من العالمين ، ولا أعتقد فوات كمال بعدم العلم بحوادث دنيوية جزئية كعدم العلم بما يصنع زيد مثلاً في بيته وما يجري عليه في يومه أو غده ، ولا أرى حسناً قول القائل : إنه عليه الصلاة والسلام يعلم الغيب واستحسن أن يقال بدله : إنه صلى الله عليه وسلم أطلعه الله تعالى على الغيب أو علمه سبحانه إياه أو نحو ذلك ، وفي الآية رد على من ينسب لبعض الأولياء علم كل شيء من الكليات والجزئيات ، وقد سمعت خطيباً على منبر المسجد الجامع المنسوب للشيخ عبد القادر الكيلاني قدس سره يوم الجمعة قال بأعلى صوت : يا باز أنت أعلم بي من نفسي ،

وقال لي بعض : إني لأعتقد أن الشيخ قدس سره يعلم كل شيء مني حتى منابت شعري ، ومثل ذلك مما لا ينبغي أن ينسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف ينسب إلى من سواه ؟ فليتق العبد مولاه ، وفيما تقدم من الأخبار في شأن عثمان بن مظعون رد أيضاً على من يقول فيمن دونه في

(135/702)

الفضل أو من لم يبشره الصادق بالجنة والكرامة نحو ما قيل فيه .

نعم ينبغي الظن الحسن في المؤمنين أحياء وأمواتاً ورجاء الخير لكل منهم فالله تعالى أرحم الراحمين ، هذا والظاهر أن ﴿ مَا ﴾ استفهامية مرفوعة المحل بالابتداء والجملة بعدها خبر وجملة المبتدأ والخبر معلق عنها الفعل القلبي وهو إما متعد لواحد أو اثنين ، وجوز أن تكون ﴿ مَا ﴾ موصولة في محل نصب على المفعولية لفعل الدراية وهو حينئذ متعد لواحد والجملة بعدها صلة ، وأن تكون حرفاً مصدرياً فالمصدر مفعول ﴿ أَدْرِى ﴾ والاستفهامية أقضي لحق مقام التبري عن الدراية ، و ﴿ لا ﴾ لتذكير النفي المنسحب على ﴿ مَّا يَفْعَلُ ﴾ الخ وتأكيده ، ولولا اعتبار الانسحاب لكان التركيب ما يفعل بي وبكم دون ﴿ لا ﴾ لأنه ليس محلاً للنفي ولا لزيادة لا ونظير ذلك زيادة ﴿ مِنْ ﴾ في قوله تعالى :

﴿ مَّا يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ أَنَّ يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ ﴾ [البقرة : 105] لانسحاب النفي فإنه إذا انتفت ودادة التنزيل انتفى التنزيل ، وزيادة الباء في قوله سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ الله الذى خَلَقَ السموات والأرض وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ ﴾ [الأحقاف : 33] لانسحاب النفي ، على أن مع ما في حيزها ولولاه ما زيدت الباء في الخبر ، وقيل : الأصل ولا ما يفعل بكم فاختصر ، وقيل : ولا بكم ، وقرأ زيد بن علي وابن أبي عبلة ﴿ يَفْعَلُ ﴾ بالبناء للفاعل وهو ضمير الله عز وجل : ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَىَّ ﴾ أي ما أفعل إلا اتباع ما يوحى إلي على معنى قصر أفعاله صلى الله عليه وسلم على اتباع الوحي ، والمراد بالفعل ما يشمل القول وغيره .

وهذا جواب عن اقتراحهم الاخبار عما لو يوح إليه عليه الصلاة والسلام من الغيوب ، والخطاب السابق للمشركين .

(136/702)

وقيل : عن استعجال المسلمين أن يتخلصوا عن أذية المشركين والخطاب السابق لهم ، والأول أوفق لقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ ﴾ أنذركم عقاب الله تعالى حسبما يوحى إلى ﴿ مُّبِينٌ ﴾ بين الإنذار بالمعجزات الباهرة ، والحصر إضافي .

وقرأ ابن عمير ﴿ يُوحَى ﴾ على البناء للفاعل .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ ﴾ أي ما يوحى إلي من القرآن ، وقيل : الضمير للرسول ، وفيه أن الظاهرة لو كان المعنى عليه كنت ﴿ مِنْ عِندِ اللهِ ﴾ لا سحراً ولا مفتري كما تزعمون ﴿ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ الواو للحال والجملة حال بتقدير قد على المشهور من الضمير في الخبر وسطت بين أجزاء الشرط اهتماماً بالتسجيل عليهم بالكفر أو للعطف على ﴿ كَانَ ﴾ كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ [فصلت : 52] وكذا الواو في قوله تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِى إسرائيل ﴾ إلا أنها تعطفه بما عطف عليه على جملة ما قبله ، فالجمل المذكورات بعد الواوات ليست متعاطفة على نسق واحد بل مجموع ﴿ شَهِدَ ﴾ ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ ﴾ معطوف على مجموع ﴿ كَانَ ﴾ وما معه ، مثله في المفردات ﴿ هُوَ الأول والاخر والظاهر والباطن ﴾ [الحديد : 3] والمعنى أن اجتمع كونه من عند الله تعالى مع كفركم واجتمع شهادة الشاده فإيمانه مع استكباركم عن الايمان ، وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلام في جواب الشرط وفي مفعولي ﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ وضمير ﴿ بِهِ ﴾ عائد على ما عاد عليه اسم كان وهو ما يوحي من القرآن أو الرسول ، وعن الشعبي أنه للرسول ، ولعله يقول في ضمير ﴿ كَانَ ﴾ أيضاً كذلك وكذا في ضمير ﴿ على مِثْلِهِ ﴾ لئلا يلزم التفكيك .

وأنت تعلم أن الظاهر رجوع الضمائر كلها للقرآن ، وتنوين ﴿ شَاهِدٌ ﴾ للتفخيم ، وكذا وصفه بالجار والمجرور أي وشهد شاهد عظيم الشأن من بني إسرائيل الواقفين على شؤن الله تعالى وأسرار الوحي بما أوتوا من التوراة على مثل القرآن من المعاني المنطوية في التوراة من التوحيد والوعد والوعيد وغير ذلك فإنها في الحقيقة عين ما فيه كما يعرب عنه قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ الاولين ﴾ [الشعراء : 196] على وجه ، وكذا قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ هذا لَفِى الصحف الاولى ﴾ [الأعلى : 18] والمثلية باعتبار تأديتها بعبارات أخرى أو على مثل ما ذكر من كونه من عند الله تعالى والمثلية لما ذكر ، وقيل : على مثل شهادته أي لنفسه بأنه من عند الله تعالى كأنه لإعجازه يشهد لنفسه بذلك ، وقيل مثل كناية عن القرآن نفسه للمبالغة ، وعلى تقدير كون الضمير للرسول صلى الله عليه وسلم فسر المثل بموسى عليه السلام .

(138/702)

والفاء في قوله تعالى : ﴿ فَئَامَنَ ﴾ أي بالقرآن للسببية فيكون إيمانه مترتباً على شهادته له بمطابقته للوحي ، ويجوز أن تكون تفصيلية فيكون إيمانه به هو الشهادة له ، والمعنى على

تقدير أن يراد فآمن بالرسول صلى الله عليه وسلم ظاهر بأدنى التفاوت ، وقوله تعالى : ﴿ واستكبرتم ﴾ أي عن الايمان معطوف على ما أشرنا إلليه ﴿ شَهِدَ شَاهِدٌ ﴾ وجوز كونه معطوفاً على ﴿ مِن ﴾ لأنه قسيمه ويجعل الكل معطوفاً على الشرط ، ولا تكرار في ﴿ استكبرتم ﴾ لأن الاستكبار بعد الشهادة والكفر قبلها ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله لاَ يَهْدِى القوم الظالمين ﴾ أي الموسومين بهذا الوصف ، استئناف بياني في مقام التعليل للاستكبار عن الايمان ، ووصفهم بالظلم للاشعار بعلة الحكم فتشعر هذه الجملة بأن كفرهم به لضلالهم المسبب عن ظلمهم وهو دليل جواب الشرط ولذا حذف ومفعولاً ﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ محذوفان أيضاً لدلالة المعنى عليهما ، والتقدير أرأيتم حالكم إن كان كذا فقد ظلمتم ألستم ظالمين ، فالمفعول الأول حالكم والثاني ألستم ظالمين ، والجواب فقد ظلمتم ، وقال ابن عطية : في ﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ يحتمل أن تكون منبهة فهي لفظ موضوع للسؤال لا تقتضي مفعولاً ، ويحتمل أن تكون جملة ﴿ إِن كَانَ ﴾ الخ سادة مسد مفعوليها ، وهو خلاف ما قرره محققو النحاة في ذلك .

وقدر الزمخشري الجواب ألستم ظالمين بغير فاء .

(139/702)

ورده أبو حيان بأن الجملة الاستفهامية إذا وقعت جواباً للشرط لزمها الفاء فإن كانت الأداة الهمزة تقدمت على الفاء وإلا تأخرت ، ولعله تقدير معنى لا تقدير إعراب ، وقدره بعضهم أفتؤمنون لدلالة ﴿ فَئَامَنَ ﴾ وقدره الحسن فمن أضل منكم لقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت : 52] وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى القوم الظالمين ﴾ وقيل : التقدير فمن المحقق منا ومنكم ومن المبطل ؟ وقيل : تهلكون ، وقيل : هو ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أي فقد آمن محمد صلى الله عليه وسلم به أو الشاهد واستكبرتم أنتم عن الايمان ، وأكثرها كما ترى .

والشاهد عبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه عند الجمهور .

وابن عباس .

والحسن .

ومجاهد .

وقتادة .

وابن سيرين .

والضحاك .

وعكرمة في رواية ابن سعد .

وابن عساكر عنه .

وفي "الكشف" في جعله شاهداً والسورة مكية بحث ولهذا استثنيت هذه الآية ، وتحقيقه أنه نزل ما سيكون منزلة الواقع ولهذا عطف ﴿ شَهِدَ ﴾ وما بعده على قوله تعالى : ﴿ كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ ﴾ ليعلم أنه مثله في التحقيق فيكون على أسلوب قوله سبحانه : ﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى المقتسمين ﴾ [الحجر : 90] أي أنذر قريشاً مثل ما أنزلناه على يهود بني قريظة وقد أنزل عليهم بعد سبع سنين من نزول الآية ، ومصب الإلزام في قوله تعالى : ﴿ فَآمَنَ ﴾ كأنه قيل : أخبروني إن يؤمن به عالم من بني إسرائيل أي عالم لما تحقق عنده أنه مثل التوراة ألستم تكونون أضل الناس ، ففي الدلالة على أنه مثل التوراة يجب الايمان به شهد ذلك الشاهد أو لم يشهد لأن تلك الشهادة يعقبها الايمان من غير مهلة فلو لم يؤمن لم يكن عالماً بما في التوراة ؛ وهذا يصلح جواباً مستقلاً من غير نظر إلى الأول فافهم ، وقول من قال : الشاهد عبد الله على هذا بيان للواقع وأنه كان ممن شهد وآمن لا أن المراد بلفظ الآية عبد الله خصوصاً ، وعلى الوجهين لا بد من تأويل من قول سعد ، وقد تقدم في حديث الشيخين وغيرهما وفيه نزل ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ ﴾ بأن المراد في شأنه الذي سيحدث على الأول أو فيه وفيمن هو على حاله كأنه قيل : هو النازلين فيه لأنه كان من الشاهدين انتهى .

وتعقب قوله : إنه نزل ما سيكون منزلة الواقع بأنه لا حاجة إلى ذلك التنزيل على تقدير مكيتها ، وكون الشاهد ابن سلام المكان العطف على الشرط الذي يصير به الماضي مستقبلاً وحينئذ لا ضير في شهادة الشاهد بعد نزولها ، ومع هذا فالظاهر من الأخبار أن النزول كان في المدينة وأنه بعد شهادة ابن سلام .

أخرج أبو يعلى .

(141/702)

والطبراني والحاكم بسند صحيح عن عوف بن مالك الأشجعي قال : انطلق النبي صلى الله عليه وسلم وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم فكرهوا دخولنا عليهم فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أروني اثني عشر رجلاً منكم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يحبط الله تعالى عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي عليه فسكتوا فما أجابه منهم أحد ثم رد عليهم عليه الصلاة والسلام فلم يجبه أحد فثلث فلم يجبه أحد فقال : أبيتم فوالله لأنا الحاشر وأنا العاقب وأنا المقفى آمنتم أو كذبتم ثم انصرف صلى الله عليه وسلم وأنا معه حتى كدنا أن نخرج فإذا رجل من خلفه فقال : كما أنت يا محمد فأقبل فقال ذلك الرجل : أي رجل تعلموني فيكم يا معشر اليهود ؟ قالوا : والله

ما نعلم فينا رجلاً أعلم بكتاب الله تعالى ولا أفقه منك ولا من أبيك ولا من جدك قال : فإني أشهد بالله أنه النبي الذي تجدونه في التوراة والإنجيل فقالوا : كذبت ثم ردوا عليه وقالوا شراً فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا وابن سلام فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِى إِسرائيل ﴾ الآية ، وروى حديث شهادته وإيمانه على وجه آخر ، ولا يظهر لي الجمع بينه وبين ما ذكر ، وهو أيضاً ظاهر في كون النزول بعد الشهادة .

(142/702)

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير قال : جاء ميمون بن يامين إلى النبي صلى الله عليه وسلم وكان رأس اليهود بالمدينة فأسلم وقال : يا رسول الله ابعث إليهم يعني اليهود فاجعل بينك وبينهم حكماً من أنفسهم فإنهم سيرضوني فبعث عليه الصلاة والسلام إليهم وأدخله الداخل فأتوه فخاطبوه ملياً فقال لهم : اختاروا رجلاً من أنفسكم يكون حكماً بيني وبينكم قالوا : فإنا قد رضينا بميمون بن يامين فأخرجه إليهم فقال لهم ميمون : لنشهد أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه على الحق فأبوا أن يصدقوه فأنزل الله تعالى فيه ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ ﴾ الآية ، وهو ظاهر في مدنية الآية وأن نزولها قبل شهادة الشاهد لكنه ظاهر

في أن الشاهد غير عبد الله بن سلام ، وكونه كان يسمى بذلك قبل لم أره ، ولا يظهر لي وجه التعبير به دون المشهود إن كان ، والذي رأيته في الاستيعاب في ترجمة عبد الله ابن سلام بن الحرث الإسرائيلي الأنصاري يكنى أبا يوسف وكان اسمه في الجاهلية الحصين فلما أسلم سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله والله تعالى أعلم .

ومن كذب اليهود وجهلهم بالتاريخ ما يعتقدونه في عبد الله بن أنه صلى الله عليه وسلم حين سافر إلى الشام في تجارة لخديجة رضي الله تعالى عنها اجتمع بأحبار اليهود وقص عليهم أحلامه فعلموا أنه صابح دولة فأصحبوه عليه السلام سلام وبقي معه مدة فتعلم منه علم الشرائع والأمم السالفة وأفرطوا في الكذب إلى أن نسبوا القرآن المعجز إلى تأليف عبد الله بن سلام وعبد الله هذا مما ليس له إقامة بمكة ولا تردد إليها ، ولم ير النبي صلى الله عليه وسلم إلا في المدينة وأسلم إذ قدمها عليه الصلاة والسلام أو قبل وفاته صلى الله عليه وسلم بعامين على ما حكاه في "البحر" عن الشعبي ، فما أكذب اليهود وأبهتهم لعنهم الله تعالى ، وناهيك من طائفة ما ذم في القرآن طائفة مثلها .

وأخرج سعيد بن منصور .

وابن جرير .

وابن المنذر عن مسروق أن الشاهد هو موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ، وقد تقدم أنه كان يدعي مكية الآية وينكر نزولها في ابن سلام ويقول : إنما كانت خصومة خاصم بها محمد صلى الله عليه وسلم ، وكأنه على هذا لا يحتاج إلى القول بأنها نزلت بخصوص شاهد ، وأيد عدم إرادة الخصوص بأن ﴿ شَاهِدٌ ﴾ في الآية نكرة والنكرة في سياق الشرط تعم ، وأنا أقول : بكون التنوين في ﴿ شَاهِدٌ ﴾ للتعظيم وبمدنية الآية ونزولها في ابن سلام ، والخطابات فيها مطلقاً لكفار مكة ، وربما يظن على بعض الروايات أنها لليهود وليس كذلك ، وهم المعنيون أيضاً بالذين كفروا في قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾ إلى آخره ،

وهو حكاية لبعض آخر من أقاويلهم الباطلة في حق القرآن العظيم والمؤمنين به .

وفيه تحقيق لاستكبارهم أي وقال كفار مكة : ﴿ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ أي لأجلهم وفي شأنهم فاللام للتعليل كما سمعت في ﴿ قَالَ الذين كَفَرُواْ لِلْحَقّ ﴾ [الأحقاف : 7] .

وقيل : هي لام المشافهة والتبليغ والتفتوا في قولهم : ﴿ لَّوْ كَانَ ﴾ أي ما جاء به صلى الله عليه وسلم من القرآن ، وقيل : الايمان ﴿ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ ولولاه لقالوا : سبقتمونا بالخطاب أو لما سمعوا أن جماعة آمنوا لو كان خيراً ما سبقنا إليه أولئك الذين بلغنا إيمانهم .

وتعقب بأن هذا ليس من مواطن الالتفات ، وكونهم قصدوا تحقير المؤمنين بالغيبة لا وجه له

، وكون المشافهين طائفة من المؤمنين والمخبر عنهم طائفة أخرى خلاف الظاهر ، فالأولى كونها للتعليل وقالوا ذلك لما رأوا أن أكثر المؤمنين كانوا فقراء ضعفاء كعمار .

وصهيب .

وبلال .

وكانوا يزعمون أن الخير الديني يتبع الخير الدنيوي وأنه لا يتأهل للأول إلا من كان له القدح المعلى من الثاني ، ولذا قالوا : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] وخطؤهم في ذلك مما لا يخفى .

(144/702)

وأخرج ابن المنذر عن عون بن أبي شداد قال : كانت لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أمة أسلمت قبله يقاله لها زنيرة فكان رضي الله تعالى عنه عنه يضربها على إسلامها وكان كفار قريش يقولون : لو كان خيراً ما سبقتنا إليه زنيرة فأنزل الله تعالى في شأنها ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾ الآية ، ولعلهم لم يريدوا زنيرة بخصوصها بل من شابهها أيضاً .

وفي الآية تغليب المذكر على المؤنث ، وقال أبو المتوكل : أسلم أبو ذر ثم أسلمت غفار فقالت قريش ذلك ، وقال الكلبي .

والزجاج.

قال ذلك بنو عامر بن صعصعة.

وغطفان.

وأسد.

وأشجع لما أسلم.

أسلم.

وجهينة.

ومزينة.

وغفار.

وقال الثعلبي: هي مقالة اليهود حين أسلم ابن سلام وأصحابه منهم، ويلزم عليه القول بأن الآية مدنية وعدها في المستثنيات أو كون ﴿ قَالَ ﴾ فيها كنادي في قوله تعالى: ﴿ ونادى أصحاب الاعراف ﴾ [الأعراف: 48] وهذا كما ترى والمعول عليه ما تقدم ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ ﴾ أي بالقرآن، وقيل: بالرسول صلى الله عليه وسلم، و﴿ إِذْ ﴾ على ما اختاره جار الله ظرف لمقدر دل عليه السابق واللاحق أي وإذ لم يهتدوا به ظهر عنادهم واستكبارهم، وقوله تعالى: ﴿ فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ أي يتحقق منهم هذا القول والطعن حيناً فحيناً كما يؤذن بذلك صيغة المضارع مسبب عن العناد والاستكبار، وإذا

جاز مثل حينئذ الآن أي كان ذلك حينئذ واسمع الآن بدليل قرينة الحال فهذا أجوز ، والإشارة ءلى القرآن العظيم ، وقولهم : ذلك فيه كقولهم :

(145/702)

﴿ أساطير الاولين ﴾ [الأنعام : 25] ولم يجوز أن يكون ﴿ فَسَيَقُولُونَ ﴾ عاملاً في الظرف لتدافع دلالتي المضي والاستقبال ، وإنما لم يجعله من قبيل ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ الاغلال ﴾ [غافر : 70 ، 71] نظماً للمستقبل في سلك المقطوع كما اختاره ابن الحاجب في الأمالي لأن المعنى ههنا كما في "الكشف" على أن عدم الهداية محقق واقع لا أنه سيقع البتة ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ بعد ما بين استكبارهم وعنادهم كيف ينص على أنهم مجادلون معرضون عن القرآن وتدبره غير مهتدين ببشائره ونذره .

وقال بعضهم : الظرف معمول لسيقولون والفاء لا تمنع عن عمل ما بعدها فيما قبلها كما ذكره الرضي ، والتسبب المشعرة به عن كفرهم ، و ﴿ سَيَقُولُونَ ﴾ بمعنى قالوا ، والعدول إليه للإشعار بالاستمرار .

وتعقب بأن ذلك مع السين بعيد ، وقيل : إذ تعليلية للقول .

وتعقب بأنه معلل كما آذنت به الفاء ، وقدر بعضهم العامل المحذوف قالوا ما قالوا ، ورجحه على التقدير السابق وليس براجح عليه كما لا يخفى على راجح .

﴿ وَمِن قَبْلِهِ ﴾ أي من قبل القرآن وهو خبر مقدم لقوله تعالى : ﴿ كِتَابُ موسى ﴾ قدم للاهتمام ، وجوز الطبرسي كون ﴿ كِتَابٌ ﴾ معطوفاً على ﴿ شَاهِدٌ ﴾ [الأحقاف : 10] والظرف فاصل بين العاطف والمعطوف ، والمعنى وشهد كتاب موسى من قبله ، وجعل ضمير ﴿ قَبْلِهِ ﴾ للقرآن أيضاً وليس بشيء أصلاً ، وقوله سبحانه : ﴿ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ حال من الضمير في الخبر أو من ﴿ كِتَابٌ ﴾ عند من جوز الحال من المبتدأ ، وقيل : حال من محذوف والعامل كذلك أي أنزلناه إماماً وهو كما ترى .

(146/702)

والمعنى وكائن من قبله كتاب موسى يقتصي به في دين الله تعالى وشرائعه كما يقتدي بالإمام ورحمة من الله سبحانه لمن آمن به وعمل بموجبه ، وقوله تعالى : ﴿ وهذا ﴾ أي القرآن الذي يقولون في شأنه ما يقولون ﴿ كِتَابٌ ﴾ مبتدأ خبر ، وقوله عز وجل : ﴿ مُّصَدِّقٌ ﴾ نعت ﴿ كِتَابٌ ﴾ وهو مصب الفائدة أي مصدق لكتاب موسى الذي هو إمام ورحمة أو لما بين يديه من جميع الكتب الإلهية ، وقد قرىء ﴿ مُّصَدِّقٌ لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ والجملة

عطف على الجملة قبلها وهي حالية أو مستأنفة ، وأياً ما كان فالكلام رد لقولهم : ﴿ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ [الأحقاف : 11] وإبطال له ، والمعنى كيف يصح كونه إفكاً قديماً وقد سلموا كتاب موسى والقرآن مصدق له متحد معه في المعنى أو لجميع الكتب الإلهية ، وقوله تعالى : ﴿ لّسَاناً عَرَبِيّاً ﴾ حال من ضمير ﴿ كِتَابٌ ﴾ المستتر في ﴿ مُّصَدّقُ ﴾ أو منه نفسه لتخصيصه بالصفة ، وعامله على الأول ﴿ مُّصَدّقُ ﴾ وعلى الثاني ما في هذا من معنى الفعل ، وفائدة هذه الحال مع أن عربيته أمر معلوم لكل أحد الأشعار بالدلالة على أن كونه مصدقاً كما دل على أن حق دل على أنه وحي وتوقيف من الله تعالى .

هذا على القول بأن الكلام مع اليهود ظاهر ، وأما على القول بأنه مع كفار مكة فلأنهم قد يسلمون التوراة ونحوها من الكتب الإلهية السابقة وإن كانوا أحياناً ينكرون انزال الكتب وإرسال الرسل عليهم السلام مطلقاً .

(147/702)

وفي "الكشف" وجه تقديم الخبر في قوله تعالى : ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ موسى ﴾ أن إرسال الرسل وإنزال الكتب أمر مستمر كائن من عند الله تعالى فمن قبل إنزال القرآن إماماً ورحمة كان إنزال التوراة كذلك ، وليس من تقديم الاختصاص بل لأن العناية والاهتمام بذكره ، ولما

ألزم الكفار بنزول مثله وشهادة أعلم بني إسرائيل ذكر على سبيل الاعتراض من حال كتاب موسى عليه السلام ما يؤكد كونه من عند الله تعالى وأن ما يطابقه يكون من عنده سبحانه لا محالة وتوصل منه إلى أن القرآن لما كان مصدقه بل مصدق سائر الكتب السماوية وجب أن يؤمن به ويتلقى بالقبول ؛ وهو بالحقيقة إعادة للدعوى الأولى على وجه أخصر وأشمل إذ دل فيه على أن كونه مصدقاً كانف شهد شاهد بني إسرائيل أو لا ، وإن قلي : نزلوا لعنادهم منزلة من لا يعرف أن كتاب موسى قبله إذ لو عرفوا وقد تبين أنه مثله لأذعنوا فقيل : ﴿ وَمِن قَبْلِهِ ﴾ لا من بعده لكان وجهاً موفى فيه حق الاختصاص كما آثره السكاكي من أنه لازم التقديم انتهى .

وهو ظاهر في أن الجملة ليست حالية .

وجوز كون ﴿ لّسَاناً ﴾ مفعولاً لمصدق والكلام بتقدير مضاف أي ذا لسان عربي وهو النبي عليه الصلاة والسلام وتصديقه إياه بموافقته كتاب موسى أو الكتب السماوية مطلقاً وإعجازه ، وجوز على المفعولية كون ﴿ هذا ﴾ إشارة إلى كتاب موسى فلا يحتاج إلى تقدير مضاف ، ويراد بلساناً عربياً القرآن ، ووضعت الإشارة موضع الضمير للتعظيم ، والأصل وهو مصدق لساناً عربياً ، وقيل : هو منصوب بنزع الخافض أي مصدق بلسان عربي والكل كما ترى .

وقرأ الكلبي ﴿ وَمِن قَبْلِهِ ﴾ بفتح الميم ﴿ كِتَابُ موسى ﴾ بالنصب ، وخرجت على أن

من موصولة معمولة لفعل مقدر وكذا ﴿ كِتَابٌ ﴾ أي وآتينا الذين كانوا قبل نزول القرآن من بني إسرائيل كتاب موسى .

(148/702)

﴿ لِّيُنذِرَ الذين ظَلَمُواْ ﴾ متعلق بمصدق وفيه ضمير لكتاب أو لله تعالى أو للرسول عليه الصلاة والسلام ، ويؤيد الأخير قراءة أبي رجاء .

وشيبة .

والأعرج .

وأبي جعفر .

وابن عامر .

ونافع .

وابن كثير في رواية ﴿ لّتُنذِرَ ﴾ بتاء الخطاب فإنه لا يصح بدون تكلف لغير الرسول ، والتعليل صحيح على الكل ، ولا يتوهم لزوم حذف اللام على أن الضمير للكتاب لوجود شرط النصب لأنه شرط الجواز ﴿ وبشرى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ عطف على المصدر الحاصل من أن والفعل ، وقال الزمخشري : وتبعه أبو البقاء هو في محل النصب معطوف على محل ﴿

لِّيُنذِرَ ﴾ لأنه مفعول له ، وزعم أبو حيان أن ذلك لا يجوز على الصحيح من مذهب النحويين لأن المحل ليس بحق الأصالة وهم يشترطون في الحمل عليه ذلك إذ الأصل في المفعول له الجر ، والنصب ناشيء من نزع الخافض لكنه كثر بشرطه ، وحكى في إعرابه أوجهاً فقال : قيل معطوف على ﴿ مُّصَدّقُ ﴾ وقيل : خبر مبتدأ محذوف أي هو بشرى ، وقيل : منصوب بفعل محذوف معطوف على ﴿ ينذر ﴾ أي ويبشر بشرى ، وقيل : منصوب بنزع الخافض أي ولبشرى ، والظاهر أن ﴿ وَسَنَزِيدُ المحسنين ﴾ في مقابلة ﴿ الذين ظَلَمُواْ ﴾ والمراد بالأول الكفرة وبالثاني المؤمنين .

وفي "شرح الطيبي" إنما عدل عن العادلين إلى ﴿ المحسنين ﴾ ليكون ذريعة إلى البشارة بنفي الخوف والحزن لمن قالوا : ربنا الله ثم استقاموا ، وقيل : ﴿ المحسنين ﴾ دون الذين أحسنوا بعد قوله تعالى : ﴿ الذين ظَلَمُواْ ﴾ ليكون المعنى لينذر الذين وجد منهم الظلم ويبشر الذين ثبتوا واستقاموا على الصراط السوي فيناسب تعليل البشارة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (13) ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(149/702)

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

قوله : ﴿ حم تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله العزيز الحكيم ﴾

قد تقدّم الكلام على هذا في سورة غافر وما بعدها مستوفى ، وذكرنا وجه الإعراب ، وبيان ما هو الحقّ من أن فواتح السور من المتشابه الذي يجب أن يوكل علمه إلى من أنزله ﴿ مَا خَلَقْنَا السموات والارض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من المخلوقات بأسرها ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ هو استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال ، أي : إلاّ خلقاً ملتبساً بالحقّ الذي تقتضيه المشيئة الإلهية ، وقوله : ﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ معطوف على الحقّ ، أي : إلاّ بالحقّ ، وبأجل مسمى ، على تقدير مضاف محذوف ، أي : وبتقدير أجل مسمى ، وهذا الأجل هو يوم القيامة ، فإنها تنتهي فيه السموات والأرض وما بينهما ، وتبدّل الأرض غير الأرض والسموات .

وقيل : المراد بالأجل المسمى : هو انتهاء أجل كلّ فرد من أفراد المخلوقات ، والأوّل أولى ، وهذا إشارة إلى قيام الساعة ، وانقضاء مدّة الدنيا ، وأن الله لم يخلق خلقه باطلاً وعبثاً لغير شيء ، بل خلقه للثواب والعقاب .

﴿ والذين كَفَرُواْ عَمَّا أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ﴾ أي : عما أنذروا وخوّفوا به في القرآن من البعث والحساب والجزاء معرضون مولون غير مستعدّين له ، والجملة في محل نصب على الحال ، أي : والحال أنهم معرضون عنه غير مؤمنين به ، و"ما" في قوله : ﴿ مَا أُنذِرُواْ ﴾ يجوز أن تكون الموصولة ، ويجوز أن تكون المصدرية .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ أي : أخبروني ما تعبدون من دون الله من الأصنام ﴿ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأرض ﴾ أي : أيّ شيء خلقوا منها ، وقوله : ﴿ أَرُونِىَ ﴾ يحتمل أن يكون تأكيداً لقوله : ﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ ، أي : أخبروني أروني ، والمفعول الثاني لأرأيتم ﴿ ماذا خلقوا ﴾ ، ويحتمل أن لا يكون تأكيداً ، بل يكون هذا من باب التنازع ؛ لأن أرأيتم يطلب مفعولاً ثانياً ، وأروني كذلك ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السموات ﴾ أم هذه هي المنقطعة المقدّرة ببل والهمزة ، والمعنى : بل ألهم شركة مع الله فيها ؟ والاستفهام للتوبيخ والتقريع ﴿ ائتونى بكتاب مّن قَبْلِ هذا ﴾ هذا تبكيت لهم ، وإظهار لعجزهم ، وقصورهم عن الإتيان بذلك ، والإشارة بقوله ﴿ هذا ﴾ إلى القرآن ، فإنه قد صرّح ببطلان الشرك ، وأن الله واحد لا شريك له ، وأن الساعة حقّ لا ريب فيها ، فهل للمشركين من كتاب يخالف هذا الكتاب ، أو حجة تنافي هذه الحجة .

﴿ أَوْ أثارة مّنْ عِلْمٍ ﴾ .

قال في الصحاح : ﴿ أو أثارة من علم ﴾ : بقية منه ، وكذا الأثرة بالتحريك .

قال ابن قتيبة : أي : بقية من علم الأوّلين .

وقال الفراء ، والمبرد : يعني : ما يؤثر عن كتب الأوّلين .

قال الواحدي : وهو معنى قول المفسرين .

قال عطاء : أو شيء تأثرونه عن نبيّ كان قبل محمد صلى الله عليه وسلم .

قال مقاتل : أو رواية من علم عن الأنبياء .

وقال الزجاج : أو أثارة أي : علامة ، والأثارة مصدر كالسماحة والشجاعة ، وأصل الكلمة من الأثر ، وهي الرواية يقال : أثرت الحديث آثره أثرة وأثارة وأثراً : إذا ذكرته عن غيرك .

قرأ الجمهور ﴿ أثارة ﴾ على المصدر كالسماحة والغواية .

وقرأ ابن عباس ، وزيد بن علي ، وعكرمة ، والسلمي ، والحسن ، وأبو رجاء بفتح الهمزة والثاء من غير ألف .

(151/702)

وقرأ الكسائي : (أثرة) بضم الهمزة وسكون الثاء ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ في دعواكم التي تدّعونها ، وهي قولكم إن لله شريكاً ، ولم تأتوا بشيء من ذلك ، فتبين بطلان قولهم لقيام البرهان العقلي ، والنقلي على خلافه .

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُواْ مِن دُونِ اللهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ ﴾ أي : لا أحد أضل منه ولا أجهل ، فإنه دعا من لا يسمع ، فكيف يطمع في الإجابة فضلاً عن جلب نفع ، أو دفع ضرّ ؟ فتبين بهذا أنه أجهل الجاهلين وأضلّ الضالين ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ ، وقوله : ﴿ إلى يَوْمِ القيامة ﴾ غاية لعدم الاستجابة ﴿ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غافلون ﴾ الضمير الأوّل للأصنام ، والثاني لعابديها ، والمعنى : والأصنام التي يدعونها عن دعائهم إياها غافلون عن ذلك ، لا يسمعون ولا يعقلون لكونهم جمادات ، والجمع في الضميرين باعتبار معنى " من " ، وأجري على الأصنام ما هو للعقلاء لاعتقاد المشركين فيها أنها تعقل .

﴿ وَإِذَا حُشِرَ الناس كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَاء ﴾ أي : إذا حشر الناس العابدين للأصنام كان الأصنام لهم أعداء يتبرأ بعضهم من بعض ، ويلعن بعضهم بعضاً ، وقد قيل : إن الله يخلق الحياة في الأصنام ، فتكذبهم .

وقيل المراد : أنها تكذبهم وتعاديهم بلسان الحال لا بلسان المقال .

وأما الملائكة ، والمسيح ، وعزير ، والشياطين ، فإنهم يتبرّءون ممن عبدهم يوم القيامة ، كما في قوله تعالى : ﴿ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُواْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ [القصص : 63] ﴿ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كافرين ﴾ أي : كان المعبودون بعبادة المشركين إياهم كافرين ، أي : جاحدين مكذبين ، وقيل : الضمير في ﴿ كانوا ﴾ للعابدين ، كما في قوله : ﴿ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] ، والأوّل أولى .

﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءاياتنا ﴾ أي : آيات القرآن حال كونها ﴿ بينات ﴾ واضحات المعاني ظاهرات الدلالات ﴿ قَالَ الذين كَفَرُواْ لِلْحَقّ ﴾ أي : لأجله وفي شأنه ، وهو عبارة عن الآيات ﴿ لَمَّا جَاءهُمْ ﴾ أي : وقت أن جاءهم ﴿ هذا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : ظاهر السحرية ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ أم هي المنقطعة ، أي : بل أيقولون افتراه ؟ والاستفهام للإنكار والتعجب من صنيعهم ، وبل للانتقال عن تسميتهم الآيات سحراً إلى قولهم : إن رسول الله افترى ما جاء به ، وفي ذلك من التوبيخ والتقريع ما لا يخفى ، ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عنهم فقال : ﴿ قُلْ إِنِ افتريته فَلاَ تَمْلِكُونَ لِى مِنَ الله شَيْئاً ﴾ أي : قل إن افتريته على سبيل الفرض والتقدير ، كما تدّعون ، فلا تقدرون على أن تردّوا عني عقاب الله ، فكيف أفتري عل الله لأجلكم ، وأنتم لا تقدرون على دفع عقابه عني ؟ ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أي : تخوضون فيه من التكذيب ، والإفاضة في الشيء : الخوض فيه ، والاندفاع فيه ، يقال : أفاضوا في الحديث ، أي : اندفعوا فيه ، وأفاض البعير : إذا دفع جرّته من كرشه ، والمعنى : الله أعلم بما تقولون في القرآن ، وتخوضون فيه من التكذيب له ، والقول بأنه سحر وكهانة ﴿ كفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ فإنه يشهد لي

بأن القرآن من عنده ، وأني قد بلغتكم ، ويشهد عليكم بالتكذيب والجحود ، وفي هذا وعيد شديد ﴿ وَهُوَ الغفور الرحيم ﴾ لمن تاب وآمن ، وصدّق بالقرآن وعمل بما فيه ، أي : كثير المغفرة والرحمة بليغهما .

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرسل ﴾ البدع من كلّ شيء المبدأ ، أي : ما أنا بأوّل رسول ، قد بعث الله قبلي كثيراً من الرسل .

(153/702)

قيل : البدع بمعنى : البديع كالخفّ والخفيف ، والبديع : ما لم ير له مثل ، من الابتداع وهو الاختراع ، وشيء بدع بالكسر ، أي : مبتدع ، وفلان بدع في هذا الأمر ، أي : بديع كذا قال الأخفش ، وأنشد قطرب :

فما أنا بدع من حوادث تعتري . . . رجالاً غدت من بعد بؤسي وأسعدا

وقرأ عكرمة ، وأبو حيوة ، وابن أبي عبلة : (بدعاً) بفتح الدال على تقدير حذف المضاف ، أي : ما كنت ذا بدع ، وقرأ مجاهد بفتح الباء ، وكسر الدال على الوصف ﴿ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلاَ بِكُمْ ﴾ أي : ما يفعل بي فيما يستقبل من الزمان هل أبقى في مكة ، أو أخرج منها ؟ وهل أموت أو أقتل ؟ وهل تعجل لكم العقوبة أم تمهلون ؟ وهذا إنما هو في

الدنيا .

وأما في الآخرة ، فقد علم أنه وأمته في الجنة ، وأن الكافرين في النار .

وقيل : إن المعنى : ما أدري ما يفعل بي ولا بكم يوم القيامة ، وإنها لما نزلت فرح المشركون ، وقالوا : كيف نتبع نبياً لا يدري ما يفعل به ولا بنا ، وأنه لا فضل له علينا ؟ فنزل قوله تعالى : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : 2] والأوّل أولى ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ ﴾ قرأ الجمهور ﴿ يوحى ﴾ مبنياً للمفعول ، أي : ما أتبع إلاّ القرآن ، ولا أبتدع من عندي شيئًا ، والمعنى : قصر أفعاله صلى الله عليه وسلم على الوحي لا قصر اتباعه على الوحي ﴿ وَمَا أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : أنذركم عقاب الله ، وأخوّفكم عذابه على وجه الإيضاح .

وقد أخرج أحمد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن ابن عباس ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ قال : الخط .

قال سفيان : لا أعلم إلاّ عن النبي صلى الله عليه وسلم ، يعني : أن الحديث مرفوع لا موقوف على ابن عباس .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

"كان نبيّ من الأنبياء يخط ، فمن صادف مثل خطه علم " ومعنى هذا ثابت في الصحيح ، ولأهل العلم فيه تفاسير مختلفة .

ومن أين لنا أن هذه الخطوط الرملية موافقة لذلك الخط ؟ وأين السند الصحيح إلى ذلك النبيّ ؟ أو إلى نبينا صلى الله عليه وسلم أن هذا الخط هو على صورة كذا ، فليس ما يفعله أهل الرمل إلاّ جهالات وضلالات .

وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ قال : حسن الخط " وأخرج الطبراني في الأوسط ، والحاكم من طريق الشعبي ، عن ابن عباس ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ قال : خط كان يخطه العرب في الأرض .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ يقول : بينة من الأمر .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عنه في قوله : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرسل ﴾ يقول : لست بأوّل الرسل ﴿ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلاَ بِكُمْ ﴾ فأنزل الله بعد هذا ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ الله مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : 2] وقوله : ﴿ لِّيُدْخِلَ المؤمنين والمؤمنات جنات ﴾ الآية [الفتح : 5] ، فأعلم سبحانه نبيه ما يفعل به ، وبالمؤمنين جميعاً .

وأخرج أبو داود في ناسخه عنه أيضاً أن هذه الآية منسوخة بقوله : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ﴾

وقد ثبت في صحيح البخاري وغيره من حديث أمّ العلاء قالت : لما مات عثمان بن مظعون قلت : رحمك الله أبا السائب شهادتي عليك لقد أكرمك الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وما يدريك أن الله أكرمه ؟ أما هو فقد جاءه اليقين من ربه ، وإني لأرجو له الخير ، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي ولا بكم " ، قالت أمّ العلاء : فوالله لا أزكي بعده أحداً " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 13 . 15 ﴾

(155/702)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرسل ﴾ .

الأظهر فى قوله ﴿ بدعا ﴾ أنه فعل بمعنى المفعول فهو بمعنى مبتدع ، والمبتدع هو الذي أبدع على غير مثال سابق .

ومعنى الآية قل لهم يا نبي الله : ما كنت اول رسول أرسل إلي البشر ، بل قد أرسل الله قبلي جميع الرسل إلى البشر ، فلا وجه لاستبعادكم رسالتي ، واستنكاركم إياها ، لأن الله أرسل قبلي رسلاً كثيرة .

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة ، جاء موضحاً في آيات كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد : 38] وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إلى قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بالبينات ﴾ [الروم : 47] الآية . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إلى نُوحٍ والنبيين مِن بَعْدِهِ ﴾ [النساء : 163] الآية . وقوله تعالى ﴿ حمعاساقا كَذَلِكَ يوحي إِلَيْكَ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ الله العزيز الحكيم ﴾ [الشورى : 1 – 3] وقوله تعالى : ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ [فصلت : 43] الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرسل ﴾ [آل عمران : 144] الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ على مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حتى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾ [الأنعام : 34] الآية ، الآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

قوله تعالى : ﴿ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ ﴾ .

التحقيق إن شاء الله ، أن معنى الآية الكريمة ، ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في دار الدنيا ، فما أدري أأخرج من مسقط رأسي أو أقتل كما فعل ببعض الأنبياء .

وما أدري ما ينالني من الحوادث والأمور في تحمل أعباء الرسالة .

وما أدري ما يفعل بكم أيخسف بكم ، أو تنزل عليكم حجارة من السماء ، ونحو ذلك .

وهذا هو اختيار ابن جرير وغير واحد من المحققين .

وهذا المعنى فى هذه الآية دلت عليه آيات من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الغيب لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخير وَمَا مَسَّنِيَ السواء ﴾ [الأعراف : 188] الآية . قوله تعالى آمراً له صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ الله ولا أَعْلَمُ الغيب ﴾ [الأنعام : 50] الآية .

وبهذا تعلم أن ما يروى عن ابن عباس وأنس وغيرهما من أن المراد ، ﴿ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ ﴾ أي في الآخرة فهو خلاف التحقيق ، كما سترى إيضاحه إن شاء الله .

فقد روي عن ابن عباس وأنس وقتادة والضحاك وعكرمة والحسن فى أحد قوليه أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ ﴾ أي في الآخرة فهو خلاف التحقيق ، كما سترى إيضاحه إن شاء الله .

فقد روي عن ابن عباس وأنس وقتادة والضحاك وعكرمة والحسن فى أحد قوليه أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ ﴾ فرح المشركون واليهود والمنافقون ، وقالوا : كيف نتبع نبياً لا يدري ما يفعل به ولا بنا وأنه لا فضل له علينا ، ولولا أنه ابتدع الذي يقوله ، من عند نفسه ، لأخبره الذي بعثه بما يفعل به .

فنزلت ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : 2] فنسخت هذه الآية .

وقالت الصحابة : هنيئاً لك يا رسول الله ، لقد بين لك الله ما يفعل بك فليت شعرنا ما هو فاعل بنا .

فنزلت ﴿ لِّيُدْخِلَ المؤمنين والمؤمنات جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ [الفتح : 5] الآية . ونزلت : ﴿ وَبَشِّرِ المؤمنين بِأَنَّ لَهُمْ مِّنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً ﴾ [الأحزاب : 47] .

(157/702)

فالظاهر أن هذا كله خلاف التحقيق ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يجهل مصيره يوم القيامة لعصمته صلوات الله وسلامه عليه : وقد قال له الله تعالى ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولى وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ [الضحى : 4 - 5] وأن قوله : ﴿ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ ﴾ في أمور الدنيا كما قدمنا . فإن قيل : قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أم العلاء الأنصاريه ما يدل على أن قوله : ﴿ يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ ﴾ أي فى الآخرة فإن حديثها فى قصة وفاة عثمان بن مظعون رضي الله عنه عندهم ، ودخول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ، أنها قالت : رحمة الله عليك ، أبا السائب

شهادتي عليك لقد أكرمك الله عز وجل تعنى عثمان بن مظعون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وما يدريك أن الله أكرمه ؟ " فقلت : لا أدري بأي أنت وأمي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أما هو فقد جاءه اليقين من ربه وإني لأرجو له الخير ، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي " الحديث .

فالجواب هو ما ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله ، فقد قال فى تفسير هذه الآية الكريمة ، بعد أن ساق حديث أم العلاء المذكور بالسند الذي رواه به أحمد رحمه الله انفرد به البخاري دون مسلم ، وفى لفظ له " ما أدري وأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يفعل به " ، وهذا أبه أن يكون هو المحفوظ بدليل قولها فأحزنني ذلك اه محل الغرض منه وهو الصواب إن شاء الله ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ .

جواب الشرط فى هذه الآية محذوف .

(158/702)

وأظهر الأقوال فى تقديره إن كان هذا القرآن من عند الله وكفرتم به ، وجحدتموه فأنتم ضلال ظالمون . وكون جزاء الشرط فى هذه الآية كونهم ضالين ظالمين بينه قوله تعالى فى

آخر فصلت : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت 52] ، وقوله فى آية الأحقاف هذه ﴿ فَآمَنَ واستكبرتم إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي القوم الظالمين ﴾ .

وقال أبو حيان فى البحر : مفعولاً أرأيتم محذوفان لدلالة المعنى عليهما .

والتقدير : أرأيتم حالكم ، إن كان كذا ألستم ظالمين .

فالأول حالكم ، والثاني ألستم ظالمين ، وجواب الشرط محذوف أي فقد ظلمتم .

ولذلك جاء فعل الشرط ماضياً .

وبعض العلماء يقول : إن ﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ بمعنى أخبرني ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بني إِسْرَائِيلَ على مِثْلِهِ ﴾ .

التحقيق : إن شاء الله ، أن هذه الآية الكريمة جارية على أسلوب عرب معروف ، وهو إطلاق المثل ، على الذات نفسها ، كقولهم : مثلك ، لا يفعل هذا ، يعنون لا ينبغي لك أنت أن تفعله .

وعلى هذا فالمعنى ، وشهد شاهد من بني إسرائيل على أن هذا القرآن ، وحي منزل حقاً من عند الله ، لا أنه شهد على شئ آخر مماثل له .

ولذا قال تعالى ﴿ فَآمَنَ واستكبرتم ﴾ .

ومما يوضح هذا ، تكرر إطلاق المثل فى القرآن مراداً به الذات كقوله تعالى ﴿ أَوَمَن كَانَ

مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي الناس كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظلمات ﴾ [الأنعام : 122] الآية .

فقوله : كمن مثله فى الظلمات ، أي كمن هو نفسه فى الظلمات ، وقوله تعالى ﴿ فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهتدوا ﴾ [البقرة : 137] أي فإن آمنوا بما آمنتم به لا بشىء آخر مماثل له على التحقيق .

(159/702)

ويستأنس له بالقرءة المروية عن ابن عباس وابن مسعود ﴿ فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ ﴾ الآية .

والقول بأن لفظة ما فى الآية مصدرية ، وأن المراد تشبيه الإيمان بالإيمان ، أي فإن آمنوا بإيمان مثل إيمانكم فقد اهتدوا لا يخفى بعده .

والشاهد فى الآية هو عبد الله بن سلام رضي الله عنه كما قال الجمهور ، وعليه فهذه الآية مدنية فى سورة مكية .

وقيل : إن الشاهد موسى بن عمران عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وقيل غير ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾ .

أظهر أقوال العلماء فى هذه الآية الكريمة ، أن الكافرين الذين قالوا للمؤمنين لو كان خيراً ما سبقونا إليه ، أنهم كفار مكة ، وأن مرادهم أن فقراء المسلمين ، وضعفاءهم كبلال وعمار وصهيب وخباب ونحوهم ، أحق عند الله من أن يختار لهم الطريق التي فيها الخير .

وأنهم هم الذين لهم عند الله عظمة وجاه واستحقاق السبق لكل خير لزعمهم أن الله أكرمهم فى الدنا بالمال والجاه ، وأن أولئك الفقراء لا مال لهم ولا جاه ، وأن ذلك التفضيل فى الدنيا يستلزم التفضيل فى الآخرة .

وهذا المعنى الذي استظهرناه فى هذه الآية الكرمية تدل له آيات كثيرة من كتاب الله ، وخير ما يفسر به القرآن القرآن .

(160/702)

أما ادعاؤهم أن ما أعطوا من المال ، والأولاد والجاه ، فى الدنيا دليل على أنهم سيعطون مثله فى الآخرة ، ةتكذيب الله لهم فى ذلك ، فقد جاء موضحاً فى آيات كثيرة كقوله تعالى ﴿ أَيحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الخيرات بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : 55 – 56] وقوله تعالى ﴿ أَفَرَأَيْتَ الذي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً أَطَّلَعَ الغيب أَمِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العذاب مَدّاً ﴾ [

مريم : 77 - 79] الآية .

وقوله تعالى ﴿ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبأ : 35] مع قوله ﴿ وَمَآ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى ﴾ [سبأ : 37] الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [فصلت : 50] .

وقد أوضحنا الآيات الدالة على هذا فى سورة الكهف فى الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً ﴾ [الكهف : 36] .

وأما احتقار الكفار لضعفاء المؤمنين وفقرائهم ، وزعمهم أنهم أحقر عند الله ، من أن يصيبهم بخير ، وأنما هم عليه لو كان خيراً لسبقهم إليه أصحاب الغنى ، والجاه والولد ، من الكفار فقد دلت عليه آيات أخر كقوله تعالى في الأنعام ﴿ وكذلك فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاء مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَآ ﴾ [الأنعام : 53] .

فهمزة الإنكار فى قوله : أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ، تدل على إنكارهم أن الله يمن على أولئك الضعفاء بخير .

وقد رد الله عليهم بقوله : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بالشاكرين وَإِذَا جَآءَكَ الذين يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ [الأنعام : 53 – 54] الآية . وقوله تعالى في الأعراف : ﴿ ونادى أَصْحَابُ الأعراف رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُواْ مَآ أغنى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أهؤلاء الذين أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ الله بِرَحْمَةٍ ادخلوا الجنة لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾

[الأعراف : 48 – 49] وقوله تعالى في ص ﴿ وَقَالُواْ مَا لَنَا لاَ نرى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الأشرار أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأبصر ﴾ [ص : 62 – 63] .

فقد قال غير واحد : إن الرجال الذين كانوا يعدونهم من الأشرار هم ضعفاء المسلمين الذين كانوا يسخرون منهم في دار الدنيا ويزعمون أنهم أحقر من أن ينالهم اله بخير ويدل له قوله ﴿ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًا ﴾ [ص : 63] وسيسخر ضعفاء المسلمين فى الجنة من الكفار الذين كانوا يسخرون منهم في الدنيا وهم في النار ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ الذين آمَنُواْ يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ [المطففين : 29 – 30] إلى قوله تعالى ﴿ فاليوم الذين آمَنُواْ مِنَ الكفار يَضْحَكُونَ عَلَى الأرآئك يَنظُرُونَ هَلْ ثُوِّبَ الكفار مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [المطففين : 34 – 36] . وقوله تعالى ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ

كَفَرُواْ الحياة الدنيا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الذين آمَنُواْ والذين اتقوا فَوْقَهُمْ يَوْمَ القيامة ﴾ [البقرة : 212] .

قوله تعالى : ﴿ لِّيُنذِرَ الذين ظَلَمُواْ وبشرى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

(162/702)

قد قدمنا الآيات الموضحة له مع بيان أنواع الإنذار فى القرآن فى أول سورة الأعراف فى الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وذكرى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : 2] الآية . وفي أول سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى ﴿ لِّيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ المؤمنين ﴾ [الكهف : 2] الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(163/702)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾

أعيد الأمر بأن يقول ما هو حجة عليهم لما علمت آنفاً في تفسير قوله : ﴿ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله ﴾ [الأحقاف : 4] الآيات .

وهذا جواب عما تضمنه قولهم : ﴿ افتراه ﴾ [الأحقاف : 8] من إحالتهم صدقه فيما جاء به من الرسالة عن الله إحالة دعتهم إلى نسبة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الافتراء على الله .

وإنما لم يعطف على جملة ﴿ قل إن افتريته ﴾ [الأحقاف : 8] لأن المقصود الارتقاء في الرد عليهم من ردّ إلى أقوى منه فكان هذا كالتعدد والتكرير ، وسيأتي بعده قوله : ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به ﴾ [الأحقاف : 10] .

ونظير ذلك ما في سورة المؤمنين (81 84) ﴿ بل قالوا مثل ما قال الأولون إلى قل لمن الأرضُ ومَن فيها إن كنتم تعلمون وقوله قل من رب السماوات السبع ﴾ [المؤمنون : 86] وقوله : ﴿ قل من بيده ملكوت كل شيء ﴾ [المؤمنون : 88] الخ .

والبِدع بكسر الباء وسكون الدال ، معناه البَديع مثل : الخِفّ يعني الخفيف قال امرؤ القيس:

يزل الغلام الخف عن صواته . . .

ومنه : الخِلّ بمعنى الخليل .

فالبِدْع : صفة مشبهة بمعنى البَادع ، ومن أسمائه تعالى : "البديع" خالق الأشياء

ومخترعها .

فالمعنى : ما كنت محدثاً شيئاً لم يكن بين الرسل .

و﴿ مِن ﴾ ابتدائية ، أي ما كنت آتياً منهم بديعاً غير مماثل لهم فكما سمعتم بالرسل الأولين أخبروا عن رسالة الله إياهم فكذلك أنا فلماذا يعجبون من دعوتي .

وهذه الآية صالحة للرد على نصارى زماننا الذين طعنوا في نبوته بمطاعن لا منشأ لها إلا تضليلٌ وتمويه على عامتهم لأن الطاعنين ليسوا من الغباوة بالذين يخفى عليهم بهتانهم كقولهم إنه تزوج النساء ، أو أنه قاتل الذين كفروا ، أو أنه أحبّ زينب بنت جحش .

(164/702)

وقوله : ﴿ وما أدري ما يُفعل بي ولا بكم ﴾ تتميم لقوله : ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل ﴾ وهو بمنزلة الاعتراض فإن المشركين كانوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عن مغيبات استهزاء فيقول أحدهم إذا ضلَّت ناقته : أين ناقتي ؟ ويقول أحدهم : مَن أبي ، أو نحو ذلك فأمر الله الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعلمهم بأنه لا يدري ما يفعل به ولا بهم ، أي في الدنيا ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنتُ أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسّني السوء ﴾ [الأعراف : 188] .

ولذلك كان قوله : ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى ﴾ استئنافاً بيانياً وإتماماً لما في قوله : ﴿ وما أدرى ما يفعل بي ولا بكم ﴾ بأن قصارى ما يدريه هو اتباع ما يُعلمه الله به فهو تخصيص لعمومه ، ومثل علمه بأنه رسول من الله وأن المشركين في النار وأن وراء الموت بعثا .

ومثل أنه سيهاجر إلى أرض ذات نخل بين حرتين ، ومثل قوله تعالى:

﴿ إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ [الفتح : 1] ، ونحو ذلك مما يرجع إلى ما أطلعه الله عليه ، فدع ما أطال به بعض المفسرين هنا من المراد بقوله : ﴿ وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ﴾ ومن كونها منسوخة أو محكمة ومن حُكم نسخ الخبر .

(165/702)

ووجه عطف ﴿ ولا بكم ﴾ على ﴿ بي ﴾ بإقحام (لا) النافية مع أنهما متعلقان بفعل صلة ﴿ ما ﴾ الموصولة وليس في الصلة نفي ، فلماذا لم يقل : ما يفعل بي وبكم لأن الموصول وصلته لما وقعا مفعولاً للمنفي في قوله : ﴿ وما أدري ﴾ تناول النفي ما هو في حيّز ذلك الفعل المنفي فصار النفي شاملاً للجميع فحسّن إدخال حرف النفي على المعطوف ، كما حسُن دخول الباء التي شأنها أن تزاد فيجرَّ بها الاسم المنفي المعطوف على اسم (إن) وهو مُثبت في قوله تعالى : ﴿ أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات

والأرض ولم يَعْيَ بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ [الأحقاف : 33] لوقوع ﴿ أنّ ﴾ العاملة فيه في خبر النفي وهو ﴿ أو لم يروا ﴾ وكذلك زيادة (مِن) في قوله تعالى : ﴿ ما يَودّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن يُنزّل عليكم من خير ﴾ [البقرة : 105] فإن ﴿ خيرٍ ﴾ وقع معمولاً لفعل ﴿ يُنزَّل ﴾ وهو فعل مثبت ولكنه لما انتفت ودادتهم التنزيلَ صار التنزيل كالمنفي لديهم .

وعطف ﴿ وما أنا إلا نذير مبين ﴾ على جملة ﴿ ما كنت بدعا من الرسل ﴾ لأنه الغرض المسوق له الكلام بخلاف قوله : ﴿ وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ﴾ .

والمعنى : وما أنا نذير مبين لا مُفْتَرٍ ، فالقصر قصر إضافي ، وهو قصر قلب لردّ قولهم ﴿ افتراه ﴾ .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10)

أعيد الأمر بأن يقول لهم حجة أخرى لعلها تردهم إلى الحق بعد ما تقدم من قوله : ﴿ قل أرأيتم ما تَدعون من دون الله ﴾ [الأحقاف : 4] الآية وقوله : ﴿ قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً ﴾ [الأحقاف : 8] وقوله : ﴿ قل ما كنت بدعا من الرسل ﴾ [الأحقاف : 9] الآية .

وهذا استدراج لهم للوصول إلى الحق في درجات النظر فقد بادأهم بأن ما أحالوه من أن يكون رسولاً من عند الله ليس بمحال إذ لم يكن أولَ الناس جاء برسالة من الله .

ثم أعقبه بأن القرآن إذا فرضنا أنه من عند الله وقد كفرتم بذلك كيف يكون حالكم عند الله تعالى .

وأقحم في هذا أنه لو شهد شاهد من أهل الكتاب بوقوع الرسالات ونزول الكتب على الرسل ، وآمن برسالتي كيف يكون انحطاطكم عن درجته ، وقد جاءكم كتاب فأعرضتم عنه ، فهذا كقوله : ﴿ أو تقولوا لوْ أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدَى منهم ﴾ [الأنعام : 157] ، وهذا تحريك للهمم .

ونظير هذه الآية آية سورة فصّلت (52) ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد ﴾ سوى أن هذه أقحم فيها قوله : ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل ﴾ فإن المشركين كانت لهم مخالطة مع بعض اليهود في مكة ولهم صلة بكثير منهم في التجارة بالمدينة وخيبر فلما ظهرت دعوة النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يسألون من لَقوه من اليهود عن أمر الأديان والرسل فكان اليهود لا محالة يخبرون المشركين ببعض الأخبار عن رسالة موسى وكتابه وكيف أظهره الله على فرعون .

فاليهود وإن كانوا لا يقرّون برسالة محمد صلى الله عليه وسلم فهم يتحدثون عن رسالة

موسى عليه السلام بما هو مماثل لحال النبي صلى الله عليه وسلم مع قومه وفيه ما يكفي لدفع إنكارهم رسالته .

فالاستفهام في ﴿ أرأيتم ﴾ تقريري للتوبيخ ومفعولاً ﴿ أرأيتم ﴾ محذوفان .

والتقدير : أرأيتم أنفسكم ظالمين .

والضمير المستتر في ﴿ إن كان ﴾ عائد إلى القرآن المعلوم من السياق أو إلى ما يُوحَى إليّ في قوله آنفاً ﴿ إن أتبع إلا ما يُوحَى إليّ ﴾ [الأحقاف : 9] .

وجملة ﴿ وكفرتم به ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ أرأيتم ﴾ .

ويجوز أن يكون عطفاً على فعل الشرط .

(167/702)

وكذلك جملة ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل ﴾ لأن مضمون كلتا الجملتين واقع فلا يدخل في حيز الشرط ، وجواب الشرط محذوف دل عليه سياق الجدل .

والتقدير : أفترون أنفسكم في ضلال .

وجملة ﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ تذييل لجملة جواب الشرط المقدرة وهي تعليل أيضاً .

والمعنى : أتظنون إن تبين أن القرآن وحي من الله وقد كفرتم بذلك فشهد شاهد على حَقّية ذلك تُوقنوا أن الله لم يهدكم لأنكم ظالمون وأن الله لا يهدي الظالمين .

وضميرا ﴿ كان ﴾ و ﴿ مثله ﴾ عائدان إلى القرآن الذي سبق ذكره مرّات من قوله : ﴿ تنزيل الكتاب من الله ﴾ [الأحقاف : 2] وقوله : ﴿ ائتوني بكتاب من قبل هذا ﴾ [الأحقاف : 4] .

وجملة ﴿ واستكبرتم ﴾ عطف على جملة ﴿ وشهد شاهد ﴾ الخ وجملة ﴿ وشهد شاهد ﴾ عطف على جملة ﴿ إن كان من عند اللَّه ﴾ .

والمِثل : المماثل والمشابه في صفة أو فعل ، وضمير ﴿ مثله ﴾ للقرآن فلفظ ﴿ مثله ﴾ هنا يجوز أن يحمل على صريح الوصف ، أي على مماثل للقرآن فيما أنكروه مما تضمنه القرآن من نحو توحيد الله وإثبات البعث وذلك المثل هو كتاب التوراة أو الزبور من كتب بني إسرائيل يومئذٍ .

ويجوز أن يحمل المِثل على أنه كناية عما أضيف إليه لفظ (مثل) ، فيكون لفظ (مثل) بمنزلة المقحم على طريقة قول العرب : "مثلك لا يبخل" ، وكما هو أحد محملين في قوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ [الشورى : 11] .

فالمعنى : وشهد شاهد على صدق القرآن فيما حواه .

ويجوز يكون ضمير ﴿ مثله ﴾ عائداً على الكلام المتقدم بتأويل المذكور ، أي على مثل ما

ذكر في أنه ﴿ من عند الله ﴾ وأنه ليس بدعا من كتب الرسل .

فالمراد بـ ﴿ شاهد من بني إسرائيل ﴾ شاهدٌ غيرُ معين ، أي أيَّ شاهد ، لأن الكلام إنباء لهم بما كانوا يتساءلون به مع اليهود .

(168/702)

وبهذا فسر الشعبي ومسروق واختاره ابن عبد البر في "الاستيعاب" في ترجمة عبد الله بن سلام فالخطاب في قوله : ﴿ أرأيتم ﴾ وما بعده موجه إلى المشركين من أهل مكة ، وقال ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد وعكرمة : المراد بـ ﴿ شاهد من بني إسرائيل ﴾ عبدُ الله بن سلاَم .

وروى الترمذي عن عبد الله بن سلام أنه قال : فيَّ نزلت آيات من كتاب الله ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل ﴾ الآية .

ومثل قول قتادة ومجاهد وعكرمة روي عن ابن زيد ومالك بن أنس وسفيان الثوري ووقع في "صحيح البخاري" في باب فضل عبد الله بن سلام حديث عبد الله بن يوسف عن مالك عن سعد بن أبي وقاص قال : وفيه نزلت هذه الآية ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله ﴾ الآية ، قال عبد الله بن يوسف : لا أدري قال مالك : الآية أو في

الحديث .

قال مسروق : ليس هو ابن سلام لأنه أسلم بالمدينة والسورة مكية ، وقال الشعبي مثلَه .

ويجوز أن تكون الآية نزلت بالمدينة وأمر بوضعها في سورة الأحقاف ، وعلى هذا يكون الخطاب في قوله : ﴿ أرأيتم ﴾ وما بعده لأهل الكتاب بالمدينة وما حولها .

وعندي أنه يجوز أن يكون هذا إخباراً من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بما سيقع من إيمان عبد الله بن سَلام فيكون هو المراد بـ ﴿ شاهد من بني إسرائيل ﴾ وإن كانت الآية مكية .

والظاهر أن مثل هذه الآية هو الذي جرّأ المشركين على إنكار نزول الوحي على موسى وغيره من الرسل فقالوا : ﴿ لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ﴾ [سبأ : 31] وقالوا : ﴿ ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ [الأنعام : 91] حين علموا أن قد لزمتهم الحجة بنزول ما سلف من الكتب قبل القرآن .

وجملة ﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ تعليل للكلام المحذوف الدال عليه ما قبله ما علمته آنفاً ، أي ضللتم ضلالاً لا يرجى له زوال لأنكم ظالمون والله لا يهدي القوم الظالمين .

وهذا تسجيل عليهم بظلمهم أنفسهم .

وجيء في الشرط بحرف ﴿ إن ﴾ الذي شأنه أن يكون في الشرط غير المجزوم بوقوعه مجاراة لحال المخاطبين استنزالاً لطائر جماحهم لينزلوا للتأمل والمحاورة .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (11)

هذا حكاية خطأ آخر من أخطاء حجج المشركين الباطلة وهو خطأ منشؤه الإعجاب بأنفسهم وغرورهم بدينهم فاستدلوا على أن لا خير في الإسلام بأن الذين ابتدروا الأخذ به ضعفاء القوم وهم يعدونهم منحطين عنهم ، فهم الذين قالوا ﴿ أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا ﴾ كما تقدم في الأنعام (53) ، وهو نظير قول قوم نوح ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذِلُنا بادي الرأي ﴾ (هود 27) ، ومناسبته لما قبله أنه من آثار استكبارهم فناسب قوله : ﴿ واستكبرتم ﴾ [الأحقاف : 10] .

واللام في قوله : ﴿ للذين آمنوا ﴾ لام التعليل متعلقة بمحذوف ، هو حال من الذين كفروا تقديره : مخصصين أو مريدين كاللام في قوله تعالى : ﴿ وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غُزًّى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ﴾ [آل عمران : 156] ، وقوله في الآية السابقة ﴿ قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين ﴾ [الأحقاف : 7] .

وليست هي لام تعدية فعل القول إلى المخاطب بالقول نحو ﴿ ألمْ أقل لك إنك لن تستطيع

معي صبراً ﴾ [الكهف : 72] المسمّاة لام التبليغ .

والضمير المستتر في ﴿ كان ﴾ عائد إلى ما عد إليه ضمير ﴿ إن كان من عند الله ﴾ [الأحقاف : 10] وهو القرآن المفهوم من السياق أو ﴿ ما يوحى إليّ ﴾ [الأحقاف : 9] .

والسبق أطلق على تحصيل شيء قبل أن يحصله آخر ، شبّه بأسرع الوصول بين المتجارين ، والمراد : الأخذ بما جاء به القرآن من العقائد والأعمال .

(170/702)

وضمير الغيبة في قوله : ﴿ سبقونا ﴾ عائد إلى غير مذكور في الآية ولكنه مذكور في كلام الذين كفروا الذي حكته الآية أرادوا به المؤمنين الأولين من المستضعفين مثل بلال وعمار بن ياسر ، وعبد الله بن مسعود ، وسمية ، وزنّيرة (بزاي معجمة مكسورة ونون مكسورة مشددة مشبعة وراء مهملة) أمة رومية كانت من السابقات إلى الإسلام وممن عذبهنّ المشركون ومن أعتقهن أبو بكر الصديق .

وعن عروة بن الزبير قال : عظماء قريش : لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقتنا إليه زنّيرة ، أي من جملة أقوالهم التي جمعها القرآن في ضمير سبقونا .

﴿ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَاذَآ إِفْكٌ ﴾ .

عطف على جملة ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا ﴾ الآية ، أي فقد استوفوا بمزاعمهم وجوه الطعن في القرآن فقالوا : ﴿ سحر مبين ﴾ [الأحقاف : 7] وقالوا ﴿ افتراه ﴾ [الأحقاف : 8] ، وقالوا ﴿ لو كان خيراً ما سبقونا إليه ﴾ ، وبقي أن يقولوا هو ﴿ إفك قديم ﴾ .

وقد نبه الله على أن مزاعمهم كلها ناشئة عن كفرهم واستكبارهم بقوله : ﴿ قال الذين كفروا ﴾ وقوله : ﴿ وكفرتم به ﴾ [الأحقاف : 10] وقوله : ﴿ واستكبرتم ﴾ [الأحقاف : 10] وقوله : ﴿ وإذ لم يهتدوا به ﴾ الآية .

وإذ قد كانت مقالاتهم رامية إلى غرض واحد وهو تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم كان توزيع أسبابها على مختلف المقالات مشعراً بأن جميعها أسبابٌ لجميعها .

وضمير ﴿ به ﴾ عائد إلى القرآن واسم الإشارة راجع إليه .

ومعنى الآية : وإذ لم تحصل هدايتهم بالقرآن فيما مضى فسيستمرون على أن يقولوا هو ﴿ إفك قديم ﴾ إذ لا مطمع في إقلاعهم عن ضلالهم في المستقبل .

ولمّا كانت ﴿ إذ ﴾ ظرفاً للزمن الماضي وأضيفت هنا إلى جملة واقعة في الزمن الماضي كما يقتضيه النفي بحرف ﴿ لَم ﴾ تعين أن الإخبار عنه بأنهم سيقولون ﴿ هذا إفك ﴾ أنهم يقولونه في المستقبل ، وهو مؤذن بأنهم كانوا يقولون ذلك فيما مضى أيضاً لأن قولهم ذلك من تصاريف أقوالهم الضالة المحكية عنهم في سور أخرى نَزلت قبل هذه السورة ، فمعنى ﴿ فسيقولون ﴾ سيدومون على مقالتهم هذه في المستقبل .

فالاستقبال زمن للدوام على هذه المقالة وتكريرها مثله في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم ﴿ وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين ﴾ [الزخرف : 27] فإنه قد هداه من قبل وإنما أراد سيديم هدايته إياي .

فليس المقصود إخبار الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأنهم ﴿ سيقولون هذا ﴾ ولم يقولوه في الماضي إذ ليس لهذا الإخبار طائل .

وإذ قد حكي أنهم قالوا ما يرادف هذا في آيات كثيرة سابقة على هذه الآية وأنهم لا يقلعون عنه ولا حاجة إلى تقدير فعل محذوف تتعلق به ﴿ إذ ﴾ .

وحيث قدم الظرف في الكلام على عامله أشرب معنى الشرط وهو إشراب وارد في الكلام ، وكثير في ﴿ إذ ﴾ ، ولذلك دخلت الفاء في جوابه هنا في قوله : ﴿ فسيقولون ﴾ .

ويجوز أن تكون ﴿ إذْ ﴾ للتعليل ، وتتعلق ﴿ إذ ﴾ بـ (يقولون) ولا تمنع الفاء من عمل ما

بعدها فيما قبلها على التحقيق .

وإنما انتظمت الجملة هكذا لإفادة هذه الخصوصيات البلاغية ، فالواو للعطف والمعطوف في معنى شرط والفاء لجواب الشرط .

وأصل الكلام : وسيقولون هذا إفك قديم إذ لم يهتدوا به

وهذا التفسير جار على ما اختاره ابن الحاجب في "الأمالي" دون ما ذهب إليه صاحب "الكشاف" ، فإنه تكلف له تكلفاً غير شاف .

وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ (12)

(172/702)

أتبع إبطال ترّهاتِهِمْ الطاعنة في القرآن بهذا الكلام المفيد زيادة الإبطال لمزاعمهم بالتذكير بنظير القرآن ومثيل له من كتب الله تعالى هو مشهور عندهم وهو "التوراة" مع التنويه بالقرآن ومزيته والنعي عليهم إذ حرموا أنفسهم الانتفاع بها ، فعطفت هذه الآية على التي قبلها لارتباطها بها في إبطال مزاعمهم وفي أنها ناظرة إلى قوله : ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله ﴾ [الأحقاف : 10] كما تقدم .

ففي قوله : ﴿ ومن قبله كتاب موسى ﴾ إبطال لإحالتهم أن يُوحي الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم بأن الوحي سُنّة إلهاية سابقة معلومة أشهره "كتاب موسى" ، أي "التوراة" وهم قد بلغتهم نبوءته من اليهود .

وضمير ﴿ من قبله ﴾ عائد إلى القرآن .

وتقديم ﴿ من قبله ﴾ للاهتمام بهذا الخبر لأنه محل القصد من الجملة .

وعبر عن "التّوراة" بـ ﴿ كتاب موسى ﴾ بطريق الإضافة دون الاسم العلم وهو "التوراة" لما تؤذن به الإضافة إلى اسم موسى من التذكير بأنه كتاب أنزل على بشر كما أنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم تلميحاً إلى مثار نتيجة قياس القرآن على "كتاب موسى" بالمشابهة في جميع الأحوال .

و ﴿ إماماً ورحمة ﴾ حالان من ﴿ كتاب موسى ﴾ ، ويجوز كونهما حالين من ﴿ موسى ﴾ والمعنيان متلازمان .

والإمام : حقيقته الشيء الذي يجعله العامل مقياساً لعمل شيء آخر ويطلق إطلاقاً شائعاً على القدوة قال تعالى : ﴿ واجعلنا للمتقين إماماً ﴾ [الفرقان : 74] .

وأصل هذا الإطلاق استعارة صارت بمنزلة الحقيقة ، واستعير الإمام لكتاب موسى لأنه يرشد إلى ما يجب عمله فهو كمن يرشد ويعظ ، وموسى إمام أيضاً بمعنى القدوة .

والرحمة : اسم مصدر لصفة الراحم وهي من صفات الإنسان فهي ، رقة في النفس تبعث

على سَوق الخير لمن تتعدى إليه .

ووصف الكتاب بها استعارة لكونه سبباً في نفع المتبعين لما تضمنه من أسباب الخير في الدنيا والآخرة .

(173/702)

ووصف الكتاب بالمصدر مبالغة في الاستعارة ، وموسى أيضاً رحمة لرسالته كما وصف محمد صلى الله عليه وسلم بذلك في قوله : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ [الأنبياء : 107] .

وقوله : ﴿ وهذا كتاب مصدق ﴾ الخ هو المقيس على ﴿ كتاب موسى ﴾ .

والإشارة إلى القرآن لأنه حَاضر بالذِكر فهو كالحاضر بالذات .

والمصدِّق : المخبر بصدق غيره .

وحذف مفعول المصدِّق ليشمل جميع الكتب السماوية ، قال تعالى : ﴿ مصدقا لما بين يديه ﴾ ، أي مخبر بأحقيّة كل المقاصد التي جاءت بها الكتب السماوية السالفة .

وهذا ثناء عظيم على القرآن بأنه احتوى على كل ما في الكتب السماوية وجاء مغنياً عنها ومبيناً لما فيها .

والتصديق يشعر بأنه حاكم على ما اختُلف فيه منها .

وما حُرّف فهمه بها قال تعالى : ﴿ مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ﴾ [المائدة : 48] .

وزاده ثناء بكونه ﴿ لساناً عربياً ﴾ ، أي لغة عربيّة فإنها أفصح اللغات وأنفذها في نفوس السامعين وأحب اللغات للناس ، فإنها أشرف وأبلغ وأفصح من اللغة التي جاء بها كتاب موسى ، ومن اللغة التي تكلّم بها عيسى ودوّنها أتباعُه أصحاب الأناجيل .

وأدمج لفظ ﴿ لسانا ﴾ للدلالة على أن المراد بعربيته عربية ألفاظه لا عربيّة أخلاقه وتعاليمه لأن أخلاق العرب يومئذٍ مختلطة من محاسن ومساو فلما جاء الإسلام نفَى عنها المساوي ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم " إنما بعثتُ لأتمّم مكارم الأخلاق "

وغلب إطلاق اللسان على اللغة لأن أشرف ما يستعمل فيه اللسان هو الكلام قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾ [إبراهيم : 4] ، وقال : ﴿ فإنما يسرناه بلسانك ﴾ [مريم : 97] .

وقوله : ﴿ لتنذر الذين ظلموا ﴾ يجوز أن يتعلق بـ ﴿ مصدقا لما بين يديه ﴾ لأن ما سبقه مشتمل على الإنذار والبشارة والأحسن أن يتعلق بما في ﴿ كتاب ﴾ من معنى الإرشاد المشتمل على الإنذار والبشارة .

وهذا أحسن ليكون ﴿ لتنذر ﴾ علة للكتاب باعتبار صفته وحاله .

والذين ظلموا هم المشركون ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [لقمان : 13] ويلحق بهم الذين ظلموا أنفسهم من المؤمنين ولذلك قوبل بالمحسنين وهم المؤمنون الأتقياء لأن المراد ظلم النفس ويقابله الإحسان .

والنّذارة مراتب والبشارة مثلها .

و ﴿ بشرى ﴾ عطف على ﴿ مصدق ﴾ ، والتقدير : وهو بشرى للمحسنين ، أي الكتاب ، وهذا النظم يجعل الجملة بمنزلة الاحتراس والتتميم .

وقرأ نافع وابن عامر والبزّي عن ابن كثير ويعقوبُ ﴿ لتنذر ﴾ بالمثناة الفوقية خطاباً للرسول صلى الله عليه وسلم فيحصل وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه منذر ووصفُ كتابه بأنه ﴿ بشرى ﴾ وفيه احتباك .

وقرأه الجمهور بالمثناة التحتية على أنه خبر عن الكتاب فإسناد الإنذار إلى الكتاب مجاز عقلي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(175/702)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ ﴾ الآية ،

هذه الآية الكريمة تدل على أنه صلى الله عليه وسلم لا يعلم مصير أمره وقد جاءت آية أخرى تدل أنه عالم بأن مصيره إلى الخير وهي قوله تعالى: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ فإن قوله وما تأخر تنصيص على حسن العاقبة والخاتمة والجواب ظاهر وهو أن الله تعالى علمه ذلك بعد أن كان لا يعلمه .

ويستأنس له بقوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾ الآية وقوله: ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً ﴾ الآية ، وقوله: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى ﴾ ، وقوله: ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ الآية .

وهذا الجواب هو معنى قول ابن عباس وهو مراد عكرمة والحسن وقتادة بأنها منسوخة بقوله: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ ﴾ الآية .

ويدل له أن الأحقاف مكية وسورة الفتح نزلت عام ست في رجوعه صلى الله عليه وسلم من الحديبية ، وأجاب بعض العلماء بأن المراد ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا من الحوادث والوقائع وعليه فلا إشكال والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 262 . 263 ﴾

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (13) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (14) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15) أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (16) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بين حالة المحسنين شرح أمرهم فقال مستأنفاً في جواب من سأل عنهم وعن بشراهم :

﴿ إن الذين قالوا ربنا ﴾ أي خالقنا ومولانا والمحسن إلينا ﴿ الله ﴾ سبحانه وتعالى لا غيره .

ولما كانت الاستقامة – وهي الثبات على كل ما يرضي الله مع ترتبها على التوحيد –

عزيزة المنال عليه الرتبة ، وكانت في الغالب لا تنال إلا بعد منازلات طويلة ومجاهدات شديدة ، أشار إلى كل من بعدها وعلو رتبتها بأداة التراخي فقال : ﴿ ثم ﴾ أي بعد قولهم ذلك الذي وحدوا به ﴿ استقاموا ﴾ أي طلبوا القوم طلباً عظيماً وأوجدوه .

(177/702)

ولما كان الوصف لرؤوس المؤمنين ، عد أعمالهم أسباباً فأخبر عنهم بقوله : ﴿ فلا خوف عليهم ﴾ أي يعلوهم بغلبة الضرر ، ولعله يعبر في مثل هذا بالاسم إشارة إلى أن هيبته بالنظر إلى جلاله وقهره وجبروته وكبره وكماله لا تنتفي ، ويحصل للأنسان باستحضارها إخبات وطمأنينة ووقار وسكينة يزيده في نفسه جلالاً ورفعة وكمالاً ، فالمنفي خوف يقلق النفس ﴿ ولا هم ﴾ في ضمائرهم ولا في ظواهرهم ﴿ يحزنون ﴾ أي يتجدد لهم شيء من حزن أصلاً .

ولما نفى عنهم المحذور ، مدهم بإيثار السرور ، فقال تعالى : ﴿ أولئك ﴾ أي العالو الدرجات ﴿ أصحاب الجنة ﴾ ولما دلت الصحبة على الملازمة ، صرح بها بقوله تعالى : ﴿ خالدين فيها ﴾ خلوداً لا آخر له ، جوزوا بذلك ﴿ جزاء ﴾ ولما كانوا محسنين فكانت أعمالهم في غاية الخلوص جعلها تعالى أسباباً أولاً وثانياً ، فقال مشيراً إلى دوامها

لأنها في جبلاتهم ﴿ بما كانوا ﴾ أي طبعاً وخلقاً ﴿ يعملون ﴾ على سبيل التجديد المستمر .

(178/702)

ولما تفضل سبحانه وتعالى على الإنسان بعد الأعمال التي هيأه لها وأقدره عليها ووفقه لها أسباباً قرن بالوصية بطاعته - لكونه المبدع - الوصية بالوالدين لكونه تعالى جعله سبب الإيجاد ، فقال في هذا السياق الذي عد فيه الأعمال لكونه سياق الإحسان التي أفضلها الصلاة على ميقاتها ، وثانيها في الرتبة بر الوالدين كما في الصحيح ، وفي الترمذي : " رضى الله في رضى الوالدين وسخطه في سخطهما " وعلى هذا المنوال جرت عادة القرآن يوصي بطاعة الوالدين بعد الأمر بعبادته ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً ﴾ [البقرة : 83] ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ﴾ [النساء : 36] وكذا ما بعدهما عاطفاً على ما قدرته أو السورة من نحو أن يقال : وأمرنا الناس أجمعين أن يكونوا بطاعتنا في مهلة الأجل عاملين ولمعصيتنا مجتنبين : ﴿ ووصينا الإنسان ﴾ أي هذا النوع الذي أنس بنفسه ﴿ بوالديه ﴾ ولما استوفى

﴿ وصى ﴾ مفعوليه كان التقدير : ليأتي إليهما حسناً ، وقرأ الكوفيون : ﴿ إحساناً ﴾ وهو أوفق للسياق .

(179/702)

ولما كان حق الأب ظاهراً لا له من الكسب والإنفاق والذب والتأديب لم يذكره ، وذكر ما للأم لأن أمده يسير ، فربما استهين به فقال مستأنفاً أو معللاً : ﴿ حملته أمه ﴾ أي بعد أن وضعه أبوه بمشاركتها في أحشائها ، حملاً ﴿ كرهاً ﴾ بثقل الحبل وأمراضه وأوصابه وأعراضه ﴿ ووضعته ﴾ أي بعد تمام مدة حمله ﴿ كرهاً ﴾ فدل هذا - مع دلالته على وجوب حق الأم - على أن الأمر في تكوينه لله وحده ، وذكر أوسط ما للأم من مدة التعب بذكر أقل مدة الحمل وأنهى مدة الرضاع لانضباطها فقال تعالى : ﴿ وحمله وفصاله ﴾ أي ومدة حمله وغاية فطامه من الرضاع ، وعبر بالفصال لإرادة النهاية لأن الفطام قد يكون قبل النهاية لغرض ثم تظهر الحاجة فتعاد الرضاعة ﴿ ثلاثون شهراً ﴾ فانصرف الفصال إلى الكامل الذي تقدم في البقرة فعرف أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، وبه قال الأطباء ، وربما أشعر بأن أقل مدة الرضاع سنة وتسعة أشهر لأن أغلب الحمل تسعة أشهر .

(180/702)

ولما كان ما بعد ذلك تارة يشترك في مؤنته الأبوان وتارة ينفرد أحدهما ، طوي ذكرهما ، وذكر حرف الغاية مقسماً للموصي إلى قسمين : مطيع وعاصي ، ذاكراً ما لكل من الجزاء بشارة ونذارة ، إرشاداً إلى أن المعنى : واستمر كلاًّ على أبويه أو أحدهما ﴿حتى إذا بلغ أشده﴾ قال في القاموس : قوته ، وهو ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين ، واحد جاء على بناء الجمع كأنك ولا نظير لهما ، أو جمع لا واحد له من لفظه ، أو واحده شدة بالكسر مع أن فعلة لا تجمع على أفعل ، أو شد ككلب وأكلب أو شد كذئب وأذؤب ، وما هما بمسموعين بل قياس – انتهى ، وقد مضى في سورة يوسف ما ينفع هنا جداً ، وروى الطبراني في ترجمة ابن أحمد بن لبيد البيروتي عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال : الأشد ثلاث وثلاثون سنة ، وهو الذي رفع عليه عيسى ابن مريم – قال الهيثمي : وفيه صدقة بن يزيد وثقه أبو زرعة وأبو حاتم وضعفه أحمد وجماعة وبقية رجاله ثقات ، قال الزمخشري : وهو أول الأشد وغايته الأربعون .

(181/702)

ولما كانت أيام الصبى والشباب وإن كانت صفوة عمر الإنسان وأوقات لذاذته ومجتمع شمله وراحاته فيها يظهِر له سر عمره في الغالب لغلبة الأنفس الخبيثة عليه البهيمية والسبعية لما يحملانه عليه من نتائج الشهوات ونوازع الغضب والبطالات ، عبر بما يدل على القحط والشؤم والضيق تنبيهاً على ذلك ، فقال شارحاً للاستواء ومعبراً عنه : ﴿ وبلغ أربعين سنة ﴾ فاجتمع أشده وتم حزمه وجده ، وزالت عنه شرة الشباب وطيش الصبا ورعونة الجهل ، ولذلك كان هذا السن وقت بعثة الأنبياء ، وهو يشعر بأن أوقات الصبى أخف في المؤاخذة مما بعدها وكذا ما بين أول الأشد والأربعين ﴿ قال ﴾ إن كان محسناً قابلاً لوصية ربه : ﴿ رب ﴾ أي أيها المحسن إليّ بالإيجاد وتيسير الأبوين وغيرهما وتسخيره ﴿ أوزعني ﴾ أي اجعلني أطيق ﴿ أن أشكر نعمتك ﴾ أي وازعاً للشكر أي كافاً مرتبطاً حتى لا يغلبني في وقت من الأوقات ، وذلك الشكر بالتوحيد في العبادة كما أنه يوحد بنعمة الإيجاد والترزيق ، ووحدها تعظيماً للأمر بالإشارة إلى أن النعمة الواحدة لا يبلغ شكرها إلا بمعونة الله مع أن ذكر الأبوين يعرف أن المراد بها الجنس .

ولما كان ربما ظن ظان أن المراد بنعمته قدرته على الإنعام ليكون المعنى : أن أشكر لك لكونك قادراً على الإنعام ، قال : ﴿ التي أنعمت عليّ ﴾ أي بالفعل لوجوب ذلك عليّ لخصوصه بي ﴿ وعلى والديّ ﴾ ولو بمطلق الإيجاد والعافية في البدن ، لأن النعمة عليهما نعمة عليّ ، وقد مضى في النمل ما يتعين استحضاره هنا .

ولما كان المقصود الأعظم من النعمة الماضية نعمة الإيجاد المراد من شكرها التوحيد ، أتبعها تمام الشكر فقال : ﴿ وأن أعمل ﴾ أي أنا في خاصة نفسي ﴿ صالحاً ﴾ .

ولما كان الصالح في نفسه قد يقع الموقع لعدم الإذن فيه قال : ﴿ ترضاه ﴾ والتنكير إشارة إلى العجز عن بلوغ الغاية فإنه لن يقدّر الله حق قدره أحد .

(182/702)

ولما دعا لنفسه بعد أن أوصى برعاية حق أبيه ، لقنه سبحانه الدعاء لمن يتفرع منه ، حثاً على رعاية حقوقهم لئلا يسلطهم على عقوقه فقال : ﴿ وأصلح ﴾ أي أوقع الإصلاح ، وقال : ﴿ لي في ذريتي ﴾ لأن صلاحهم يلحقه نفعه ، والمراد بقصر الفعل وجعلهم ظرفاً له أن يكون ثابتاً راسخاً سارياً فيهم وهم محيطون به فيكونوا صالحين .

ولما استحضر عند كمال العقل في الأربعين أن ما مضى من العمر كان أغلبه ضائعاً فدعا ، وكان من شرط قبول الدعاء التوبة ، علله بقوله : ﴿ إني تبت ﴾ أي رجعت ﴿ إليك ﴾ أي عن كل ما يقدح في الإقبال عليك ، وأكده إعلاماً بأن حاله في الإقبال على الشهوات حال من يبعد منه الإقلاع فينكر إخباره به ، وكذا قوله : ﴿ وإني من المسلمين ﴾ أي الذين أسلموا ظواهرهم وبواطنهم لك فانقادوا أتم انقياد وأحسنه .

ولما وصف هذا المؤمن بادئاً به لكونه في سياق الإحسان ، وكان المراد بالإنسان الجنس ، قال مادحاً له بصيغة الجمع منبهاً على أن قبول الطاعات مشروط ببر الوالدين لأن ما ظهر دليل ما بطن ، ومن لا يشكر من كان من جنسه لا سيما وهو أقرب الناس إليه لا سيما وهو السبب في إيجاده لم يشكر الله كما في الحديث " لا يشكر الله من لا يشكر الناس " ومن صلح ما بينه وبين الله صلح ما بينه وبين الناس عامة لا سيما الأقارب نسباً أو مكاناً لا سيما الوالدين : ﴿ أولئك ﴾ أي العالو الرتبة ﴿ الذين نتقبل ﴾ بأسهل وجه ﴿ عنهم ﴾ وأشار سبحانه بصيغة التفعل إلى أنه عمل في قبوله عمل المعتني ، وقرأ حمزة والكسائي وحفص بالنون فيه وفي الذي بعده ، ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ أحسن ﴾ ويجوز أن يراد به مطلق الدعاء أو الطاعات ويكون ما دون الأحسن مقبولاً ، قبولاً مطلقاً على مقدار النية فيه ، وتكون التعدية بعن إشارة إلى أن جبلاتهم مبنية على الترقي في معارج الكمال في كل وقت إلى غير نهاية ، فتكون هذه المحاسن ليست منهم بمعنى أنهم مجبولون على أعلى منها في نهاياتهم والعبرة بالنهايات ولذلك قال تعالى : ﴿ ما عملوا ﴾ ولم يقل : أعمالهم .

ولما كان الإنسان محل النقصان وإن كان محسناً ، نبه على ذلك وعلى أن شرط تكفير السيئات التوبة بقوله تعالى : ﴿ ونتجاوز ﴾ أي بوعد مقبول لا بد من كونه ، وهو معنى قراءة حمزة والكسائي بالنون في الفعلين ﴿ عن سيئاتهم ﴾ أي فلا يعابهم عليها .

ولما كان هذا مفهماً لأنهم من أهل الجنة ، صرح به زيادة في مدحهم بقوله : ﴿ في أصحاب الجنة ﴾ أي أنه فعل بهم ذلك وهم في عدادهم لأنهم لم يزالوا فيه لأنهم ما برحوا بعين الرضا .

ولما كان هذا وعداً ، أكد مضمونه بقوله : ﴿ وعد الصدق ﴾ لكونه مطابقاً للواقع ﴿ الذي كانوا ﴾ بكون ثابت جداً ﴿ يوعدون ﴾ أي يقطع لهم الوعد به في الدنيا ممن لا أصدق منهم ، وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 125.129 ﴾

(184/702)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (13) ﴾)

اعلم أنه تعالى لما قرر دلائل التوحيد والنبوّة وذكر شبهات المنكرين وأجاب عنها ، ذكر بعد ذلك طريقة المحقين والمحققين فقال : ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا ﴾ وقد ذكرنا تفسير هذه الكلمة في سورة السجدة والفرق بين الموضعين أن في سورة السجدة ذكر أن الملائكة ينزلون ويقولون ﴿ أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ ﴾ [فصلت : 30] وها هنا رفع الواسطة من البين وذكر أنه ﴿ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ فإذا جمعنا بين الآيتين حصل من مجموعهما أن الملائكة يبلغون إليهم هذه البشارة ، وأن الحق سبحانه يسمعهم هذه البشارة أيضاً من غير واسطة .

واعلم أن هذه الآيات دالة على أن من آمن بالله وعمل صالحاً فإنهم بعد الحشر لا ينالهم خوف ولا حزن ، ولهذا قال أهل التحقيق إنهم يوم القيامة آمنون من الأهوال ، وقال بعضهم خوف العقاب زائل عنهم ، أما خوف الجلال والهيبة فلا يزول ألبتة عن العبد ، ألا ترى أن الملائكة مع علو درجاتهم وكمال عصمتهم لا يزول الخوف عنهم فقال تعالى : ﴿ يخافون رَبَّهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل : 50] وهذه المسألة سبقت بالاستقصاء في آيات كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر ﴾ [الأنبياء : 103] .

ثم قال تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ أصحاب الجنة خالدين فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ قالت المعتزلة : هذه الآية تدل على مسائل أولها : قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ أصحاب الجنة ﴾ وهذا يفيد الحصر ، وهذا يدل على أن أصحاب الجنة ليسوا إلا الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، وهذا يدل على أن صاحب الكبيرة قبل التوبة لا يدخل الجنة وثانيها : قوله تعالى : ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ وهذا يدل على فساد قول من يقول : الثواب فضل لا جزاء وثالثها : أن قوله تعالى : ﴿ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ يدل على إثبات العمل للعبد ورابعها : أن هذا يدل على أنه يجوز أن يحصل الأثر في حال المؤثر ، أو أي أثر كان موجوداً قبل ذلك بدليل أن العمل المتقدم أوجب الثواب المتأخر وخامسها : كون العبد مستحقاً على الله تعالى ، وأعظم أنواع هذا النوع الإحسان إلى الوالدين ، لا جرم أردفه بهذا المعنى ، فقال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حُسْناً ﴾ وقد تقدم الكلام في نظير هذه الآية في سورة العنكبوت ، وفي سورة لقمان ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿ بوالديه إحسانا ﴾ والباقون ﴿ حَسَنًا ﴾ .

واعلم أن الإحسان خلاف الإساءة والحسن خلاف القبيح ، فمن قرأ ﴿ إحسانا ﴾ فحجته قوله تعالى في سورة بني إسرائيل ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ [الإسراء : 43] والمعنى أمرناه بأن يوصل إليهما إحساناً ، وحجة القراءة الثانية قوله تعالى في العنكبوت

﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حُسْناً ﴾ [العنكبوت : 8] ولم يختلفوا فيه ، والمراد أيضاً أنا أمرناه بأن يوصل إليهما فعلاً حسناً ، إلا أنه سمى ذلك الفعل الحسن بالحسن على سبيل المبالغة ، كما يقال : هذا الرجل علم وكرم ، وانتصب حسناً على المصدر ، لأن معنى ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بوالديه ﴾ أمرناه أن يحسن إليهما إحساناً .

(186/702)

ثم قال تعالى : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي ﴿ كُرْهاً ﴾ بضم الكاف ، والباقون بفتحها ، قيل هما لغتان : مثل الضعف والضعف ، والفقر والفقر ، ومن غير المصادر : الدف والدف ، والشهد والشهد ، قال الواحدي : الكره مصدر من كرهت الشيء أكرهه ، والكره الاسم كأنه الشيء المكروه قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القتال وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : 216] فهذا بالضم ، وقال : ﴿ أَن تَرِثُواْ النساء كَرْهاً ﴾ [النساء : 19] فهذا في موضع الحال ، ولم يقرأ الثانية بغير الفتح ، فما كان مصدراً أو في موضع الحال فالفتح فيه أحسن ، وما كان اسماً نحو ذهبت به على كره كان الضم فيه أحسن .

المسألة الثانية :

قال المفسرون .

حملته أمه على مشقة ووضعته في مشقة ، وليس يريد ابتداء الحمل ، فإن ذلك لا يكون مشقة ، وقد قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً ﴾ [الأعراف : 189] يريد ابتداء الحمل ، فإن ذلك لا يكون مشقة ، فالحمل نطفة وعلقة ومضغة ، فإذا أثقلت فحينئذ ﴿ حَمَلَتْهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً ﴾ يريد شدة الطلق .

المسألة الثالثة :

دلت الآية على أن حق الأم أعظم ، لأنه تعالى قال أولاً : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حُسْناً ﴾ فذكرهما معاً ، ثم خص الأم بالذكر ، فقال : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً ﴾ وذلك يدل على أن حقها أعظم ، وأن وصول المشاق إليها بسبب الولد أكثر ، والأخبار مذكورة في هذا الباب .

ثم قال تعالى : ﴿ وَحَمْلُهُ وفصاله ثَلاَثُونَ شَهْراً ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

هذا من باب حذف المضاف ، والتقدير ومدة حمله وفصاله ثلاثون شهراً والفصال الفطام وهو فصله عن اللبن ، فإن قيل المراد بيان مدة الرضاعة لا الفطام ، فكيف عبّر عنه بالفصال ؟ قلنا : لما كان الرضاع يليه الفصال ويلائمه ، لأنه ينتهي ويتم به سمي فصالاً .

المسألة الثانية :

دلت الآية على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، لأنه لما كان مجموع مدة الحمل والرضاع ثلاثون شهراً ، قال : ﴿ والوالدات يُرْضِعْنَ أولادهن حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة : 233] فإذا أسقطت الحولين الكاملين وهي أربعة وعشرون شهراً من الثلاثين ، بقي أقل مدة الحمل ستة أشهر .

روي عن عمر أن امرأة رفعت إليه ، وكانت قد ولدت لستة أشهر ، فأمر برجمها ، فقال علي : لا رجم عليها ، وذكر الطريق الذي ذكرناه ، وعن عثمان أنه هم بذلك ، فقرأ ابن عباس عليه ذلك .

واعلم أن العقل والتجربة يدلان أيضاً على أن الأمر كذلك ، قال أصحاب التجارب : إن لتكوين الجنين زماناً مقدراً ، فإذا تضاعف ذلك الزمان تحرك الجنين ، فإذا انضاف إلى ذلك المجموع مثلاه انفصل الجنين عن الأم ، فلنفرض أنه يتم خلقه في ثلاثين يوماً ، فإذا تضاعف ذلك الزمان حتى صار ستين تحرك الجنين ، فإذا تضاعف إلى هذا المجموع مثلاه وهو مائة وعشرون حتى صار المجموع مائة وثمانين وهو ستة أشهر ، فحينئذ ينفصل الجنين ،

فلنفرض أنه يتم خلقه في خمسة وثلاثين يوماً فيتحرك في سبعين يوماً ، فإذا انضاف إليه مثلاه وهو مائة وأربعون يوماً صار المجموع مائة وثمانين وعشرة أيام ، وهو سبعة أشهر انفصل الولد ، ولنفرض أنه يتم خلقه في أربعين يوماً ، فيتحرك في ثمانين يوماً ، فينفصل عند مائتين وأربعين يوماً ، وهو ثمانية أشهر ، ولنفرض أنه تمت الخلقة في خمسة وأربعين يوماً ، فيتحرك في تسعين يوماً ، فينفصل عند مائتين وسبعين يوماً ، وهو تسعة أشهر ، فهذا هو الضبط الذي ذكره أصحاب التجارب .

(188/702)

قال جالينوس : إن كنت شديد التفحص عن مقادير أزمنة الحمل ، فرأيت امرأة ولدت في المائة والأربع والثمانين ليلة ، وزعم أو علي بن سينا أنه شاهد ذلك ، فقد صار أقل مدة الحمل بحسب نص القرآن ، وبحسب التجارب الطيبة شيئاً واحداً ، وهو ستة أشهر ، وأما أكثر مدة الحمل ، فليس في القرآن ما يدل عليه ، قال أبو علي بن سينا : في الفصل السادس من المقالة التاسعة من عنوان الشفاء ، بلغني من حيث وثقت به كل الثقة ، أن امرأة وضعت بعد الرابع من سني الحمل ولداً قد نبتت أسنانه وعاش .

وحكي عن أرسطاطاليس أنه قال : أزمنة الولادة ، وحبل الحيوان مضبوطة سوى الإنسان

، فربما وضعت الحبلى لسبعة أشهر ، وربما وضعت في الثامن ، وقلما يعيش المولود في الثامن إلا في بلاد معينة مثل مصر ، والغالب هو الولادة بعد التاسع .

قال أهل التجارب : والذي قلناه من أنه إذا تضاعف زمان التكوين تحرك الجنين ، وإذا انضم إلى المجموع مثلاه انفصل الجنين ، إنما قلناه بحسب التقريب لا بحسب التحديد ، فإنه ربما زاد أو نقص بحسب الأيام ، لأنه لم يقم على هذا الضبط برهان ، إنما هو تقريب ذكروه بحسب التجربة ، والله أعلم .

(189/702)

ثم قال المدة التي فيها تتم خلقة الجنين تنقسم إلى أقسام فأولها : أن الرحم إذا اشتملت على المني ولم تقذفه إلى الخارج استدار المني على نفسه منحصراً إلى ذاته وصار كالكرة ، ولما كان من شأن المني أن يفسده الحركات ، لا جرم يثخن في هذا الوقت وبالحري أن خلق المني من مادة تجف بالحر إذا كان الغرض منه تكون الحيوان واستحصاف أجزائه ويصير المني زبداً في اليوم السادس وثانيها : ظهور النقط الثلاثة الدموية فيه إحداها : في الوسط وهو الموضع الذي إذا تمت خلقته كان قلباً والثاني : فوق وهو الدماغ والثالث : على اليمين وهو الكبد ، ثم إن تلك النقط تتباعد ويظهر فيما بينها خيوط حمر ، وذلك يحصل بعد ثلاثة أيام

أخرى فيكون المجموع تسعة أيام وثالثها : أن تنفذ الدموية في الجميع فيصير علقة وذلك بعد ستة أيام أخرى حتى يصير المجموع خمسة عشر يوماً ورابعها : أن يصير لحماً وقد تميزت الأعضاء الثلاثة ، وامتدت رطوبة النخاع ، وذلك إنما يتم باثني عشر يوماً فيكون المجموع سبعة وعشرين يوماً وخامسها : أن ينفصل الرأس عن المنكبين والأطراف عن الضلوع والبطن يميز الحس في بعض ويخفى في بعض وذلك يتم في تسعة أيام أخرى فيكون المجموع ستة وثلاثين يوماً وسادسها : أن يتم انفصال هذه الأعضاء بعضها عن بعض ويصير بحيث يظهر ذلك الحس ظهوراً بيناً ، وذلك يتم في أربعة أيام أخرى فيكون المجموع أربعين يوماً وقد يتأخر إلى خمسة وأربعين يوماً قال والأقل هو الثلاثون ، فصارت هذه التجارب الطبية مطابقة لما أخبر عنه الصادق المصدوق في قوله صلى الله عليه وسلم :

" يجمع خلق أحدكم في بطن أمه أربعين يوماً " قال أصحاب التجارب إن السقط بعد الأربعين إذا شق عنه السلالة ووضع في الماء البارد ظهر شيء صغير متميز الأطراف .

المسألة الثالثة :

(190/702)

هذه الآية دلّت على أقل الحمل وعلى أكثر مدة الرضاع ، أما أنها تدل على أقل مدة الحمل فقد بيناه ، وأما أنها تدل على أكثر مدة الرضاع فلقوله تعالى : ﴿ والوالدات يُرْضِعْنَ أولادهن حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرضاعة ﴾ [البقرة : 233] والفقهاء ربطوا بهذين الضابطين أحكاماً كثيرة في الفقه ، وأيضاً فإذا ثبت أن أقل مدة الحمل هو الأشهر الستة ، فبتقدير أن تأتي المرأة بالولد في هذه الأشهر يبقى جانبها مصوناً عن تهمة الزنا والفاحشة وبتقدير أن يكون أكثر مدة الرضاع ما ذكرناه ، فإذا حصل الرضاع بعد هذه المدة لا يترتب عليها أحكام الرضاع فتبقى المرأة مستورة عن الأجانب ، وعند هذا يظهر أن المقصود من تقدير أقل الحمل ستة أشهر وتقدير أكثر الرضاع حولين كاملين السعي في دفع المضار والفواحش وأنواع التهمة عن المرأة ، فسبحان من له تحت كل كلمة من هذا الكتاب الكريم أسرار عجيبة ونفائس لطيفة ، تعجز العقول عن الإحاطة بكمالها .

وروى الواحدي في "البسيط" عن عكرمة أنه قال إذا حملت تسعة أشهر أرضعته أحداً وعشرين شهراً ، وإذا حملت ستة أشهر أرضعته أربعة وعشرين شهراً ، والصحيح ما قدمناه .

ثم قال تعالى : ﴿ حتى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعلى والِدَيَّ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اختلف المفسرون في تفسير الأشد ، قال ابن عباس في رواية عطاء يريد ثماني عشرة سنة والأكثرون من المفسرين على أنه ثلاثة وثلاثون سنة ، واحتج الفراء عليه بأن قال أن الأربعين أقرب في النسق إلى ثلاث وثلاثين منها إلى ثمانية عشر ، ألا ترى أنك تقول أخذت عامة المال أو كله ، فيكون أحسن من قولك أخذت أقل المال أو كله ، ومثله قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدنى مِن ثُلُثَيِ الليل وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ ﴾

(191/702)

[المزمل : 20] فبعض هذه الأقسام قريب من بعض فكذا هاهنا ، وقال الزجاج الأولى حمله على ثلاث وثلاثين سنة لأن هذا الوقت الذي يكمل فيه بدن الإنسان ، وأقول تحقيق الكلام في هذا الباب أن يقال إن مراتب سن الحيوان ثلاثة ، وذلك لأن بدن الحيوان لا يتكون إلا برطوبة غريزية وحرارة غريزية ، ولا شك أن الرطوبة الغريزية غالبة في أول العمر وناقصة في آخر العمر ، والانتقال من الزيادة إلى النقصان لا يعقل حصوله إلا إذا حصل الاستواء في وسط هاتين المدتين ، فثبت أن مدة العمر منقسمة إلى ثلاثة أقسام أولها : أن تكون الرطوبة الغريزية زائدة على الحرارة الغريزية وحينئذ تكون الأعضاء قابلة للتمدد في ذواتها وللزيادة بحسب الطول والعرض والعمق وهذا هو سن النشوء والنماء .

والمرتبة الثانية : وهي المرتبة المتوسطة أن تكون الرطوبة الغريزية وافية بحفظ الحرارة الغريزية من غير زيادة ولا نقصان وهذا هو سن الوقوف وهو سن الشباب .

والمرتبة الثالثة : وهي المرتبة الأخيرة أن تكون الرطوبة الغريزية ناقصة عن الوفاء بحفظ الحرارة الغريزية ثم هذا النقصان على قسمين فالأول : هو النقصان الخفي وهو سن الكهولة والثاني : هو النقصان الظاهر وهو سن الشيخوخة ، فهذا ضبط معلوم .

(192/702)

ثم ههنا مقدمة أخرى وهي أن دور القمر إنما يكمل في مدة ثمانية وعشرين يوماً وشيء ، فإذا قسمنا هذه المدة بأربعة أقسام كان كل قسم منها سبعة فلهذا السبب قدروا الشهر بالأسابيع الأربعة ، ولهذه الأسابيع تأثيرات عظيمة في اختلاف أحوال هذا العالم ، إذا عرفت هذا فنقول إن المحققين من أصحاب التجارب قسموا مدة سن النماء والنشوء إلى أربعة أسابيع ويحصل للآدمي بحسب انتهاء كل سابوع من هذه السوابيع الأربعة نوع من التغير يؤدي إلى كماله أما عند تمام السوابيع الأول من العمر فتصلب أعضاءه بعض الصلابة ، وتقوى أفعاله أيضاً بعض القوة ، وتتبدل أسنانه الضعيفة الواهية بأسنان قوية وتكون قوة الشهوة في هذا السابوع أقوى في الهضم مما كان قبل ذلك ، وأما في نهاية السابوع الثاني فتقوى

الحرارة وتقل الرطوبات وتتسع المجاري وتقوى قوة الهضم وتقوى الأعضاء وتصلب قوة وصلابة كافية ويتولد فيه مادة الزرع ، وعند هذا يحكم الشرع عليه بالبلوغ على قول الشافعي رضي الله عنه ، وهذا هو الحق الذي لا محيد عنه ، لأن هذا الوقت لما قويت الحرارة الغريزية قلت الرطوبات واعتدل الدماغ فتكمل القوى النفسانية التي هي الفكر والذكر ، فلا جرم يحكم عليه بكمال العقل ، فلا جرم حكمت الشريعة بالبلوغ وتوجه التكاليف الشرعية فما أحسن قول من ضبط البلوغ الشرعي بخمس عشرة سنة .

(193/702)

واعلم أنه يتفرع على حصول هذه الحالة أحوال في ظاهر البدن أحدها : انفراق طرف الأرنبة لأن الرطوبة الغريزية التي هناك تنتقص فيظهر الانفراق وثانيها : نتوء الحنجرة وغلظ الصوت لأن الحرارة التي تنهض في ذلك الوقت توسع الحنجرة فتنتوء ويغلظ الصوت وثالثها : تغير ريح الإبط وهي الفضلة العفينة التي يدفعها القلب إلى ذلك الموضع وذلك لأن القلب لما قويت حرارته ، لا جرم قويت على إنضاج المادة ، ودفعها إلى اللحم الغددي الرخو الذي في الإبط ورابعها : نبات الشعر وحصول الاحتلام ، وكل ذلك لأن الحرارة قويت فقدرت على توليد الأبخرة المولدة للشعر وعلى توليد مادة الزرع ، وفي هذا الوقت تتحرك الشهوة في

الصبايا وينهد ثديهن وينزل حيضهن وكل ذلك بسبب أن الحرارة الغريزية التي فيهن قويت في آخر هذا السابوع ، وأما في السابوع الثالث فيدخل في حد الكمال وينبت للذكر اللحية ويزداد حسنه وكماله ، وأما في السابوع الرابع فلا تزال هذه الأحوال فيه متكاملة متزايدة ، وعند انتهاء السابوع الرابع نهاية أن لا يظهر الازدياد ، أما مدة سن الشباب وهي مدة الوقوف السابوع واحد فيكون المجموع خمسة وثلاثين سنة .

ولما كانت هذه المدة إما قد تزداد ، وإما قد تنقص بحسب الأمزجة جعل الغاية فيه مدة أربعين سنة .

(194/702)

وهذا هو السن الذي يحصل فيه الكمال اللائق بالإنسان شرعاً وطباً ، فإن في هذا الوقت تسكن أفعال القوى الطبيعية بعض السكون وتنتهي له أفعال القوة الحيوانية غايتها ، وتبتدىء أفعال القوة النفسانية بالقوة والكمال ، وإذا عرفت هذه المقدمة ظهر لك أن بلوغ الإنسان وقت الأشد شيء وبلوغه إلى الأربعين شيء آخر ، فإن بلوغه إلى وقت الأشد عبارة عن الوصول إلى آخر سن النشوء والنماء ، وأن بلوغه إلى الأربعين عبارة عن الوصول إلى آخر مدة الشباب ، ومن ذلك الوقت تأخذ القوى الطبيعية والحيوانية في الانتقاص ،

وتأخذ القوة العقلية والنطقية في الاستكمال وهذا أحد ما يدل على أن النفس غير البدن ، فإن البدن عند الأربعين يأخذ في الانتقاص ، والنفس من وقت الأربعين تأخذ في الاستكمال ، ولو كانت النفس عين البدن لحصل للشيء الواحد في الوقت الواحد الكمال والنقصان وذلك محال ، وهذا الكلام الذي ذكرناه ولخصناه مذكور في صريح لفظ القرآن ، لأنا بينا أن عند الأربعين تنتهي الكمالات الحاصلة بسبب القوى الطبيعية والحيوانية ، وأما الكمالات الحاصلة بحسب القوى النطقية والعقلية فإنها تبتدىء بالاستكمال ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعلى والدي ﴾ فهذا يدل على أن توجه الإنسان إلى عالم العبودية والاشتغال بطاعة الله إنما يحصل من هذا الوقت ، وهذا تصريح بأن القوة النفسانية العقلية النطقية إنما تبتدىء بالاستكمال من هذا الوقت فسبحان من أودع في هذا الكتاب الكريم هذه الأسرار الشريفة المقدسة ، قال المفسرون لم يبعث نبي قط إلا بعد أربعين سنة ، وأقول هذا مشكل بعيسى عليه السلام فإن الله جعله نبياً من أول عمره إلا أنه يجب أن يقال الأغلب أنه ما جاءه الوحي إلا بعد الأربعين ، وهكذا كان الأمر في حق رسولنا صلى الله عليه وسلم ويروى أن عمر

بن عبد العزيز لما بلغ أربعين سنة كان يقول : اللّهم أوزعني أن أشكر نعمتك إليّ تمام الدعاء ، وروي أنه جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال :

" يؤمر الحافظان أن أرفقا بعبدي من حداثة سنه ، حتى إذا بلغ الأربعين قيل احفظا وحققا " فكان راوي هذا الحديث إذا ذكر هذا الحديث بكى حتى تبتل لحيته رواه القاضي في "التفسير" .

المسألة الثانية :

اعلم أن قوله ﴿ حتى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ يدل على أن الإنسان كالمحتاج إلى مراعاة الوالدين له إلى قريب من هذه المدة ، وذلك لأن العقل كالناقص ، فلا بد له من رعاية الأبوين على رعاية المصالح ودفع الآفات ، وفيه تنبيه على أن نعم الوالدين على الولد بعد دخوله في الوجود تمتد إلى هذه المدة الطويلة ، وذلك يدل على أن نعم الوالدين كأنه يخرج عن وسع الإنسان مكافأتهما إلا بالدعاء والذكر الجميل .

المسألة الثالثة :

حكى الواحدي عن ابن عباس وقوم كثير من متأخري المفسرين ومتقدميهم أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، قالوا والدليل عليه أن الله تعالى قد وقت الحمل والفصال ههنا بمقدار يعلم أنه قد ينقص وقد يزيد عنه بسبب اختلاف الناس في هذه

الأحوال فوجب أن يكون المقصود منه شخصاً واحداً حتى يقال إن هذا التقدير اخبار عن حاله فيمكن أن يكون أبو بكر كان حمله وفصاله هذا القدر .

(196/702)

ثم قال تعالى في صفة ذلك الإنسان ﴿ حتى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعلى والدي ﴾ ومعلوم أنه ليس كل إنسان يقول هذا القول ، فوجب أن يكون المراد من هذه الآية إنساناً معيناً قال هذا القول ، وأما أبو بكر فقد قال هذا القول في قريب من هذا السن ، لأنه كان أقل سناً من النبي صلى الله عليه وسلم بسنتين وشيء ، والنبي صلى الله عليه وسلم بعث عند الأربعين وكان أبو بكر قريباً من الأربعين وهو قد صدق النبي صلى الله عليه وسلم وآمن به ، فثبت بما ذكرناه أن هذه الآيات صالحة لأن يكون المراد منها أبو بكر ، وإذا ثبت القول بهذه الصلاحية فنقول : ندعي أنه هو المراد من هذه الآية ، ويدل عليه أنه تعالى قال في آخر هذه الآية ﴿ أولئك الذين نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سيئاتهم فِي أصحاب الجنة ﴾ وهذا يدل على أن المراد من هذه الآية أفضل الخلق لأن الذي يتقبل الله عنه أحسن أعماله ويتجاوز عن كل سيئاته يجب أن يكون من أفاضل الخلق وأكابرهم ، وأجمعت الأمة على أن أفضل

الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إما أبو بكر وإما علي ، ولا يجوز أن يكون المراد من هذه الآية علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأن هذه الآية إنما تليق بمن أتى بهذه الكلمة عند بلوغ الأشد وعند القرب من الأربعين ، وعلي بن أبي طالب ما كان كذلك لأنه إنما آمن في زمان الصبا أو عند القرب من الصبا ، فثبت أن المراد من هذه الآية هو أبو بكر ، والله أعلم .

المسألة الرابعة :

قوله تعالى : ﴿ أَوْزِعْنِي ﴾ قال ابن عباس معناه ألهمني ، قال صاحب "الصحاح" أوزعته بالشيء أغريته به فأوزع به فهو موزع به أي مغرى به ، واستوزعت الله شكره ، فأوزعني أي استلهمته فألهمني .

المسألة الخامسة :

(197/702)

اعلم أنه تعالى حكى عن هذا الداعي أنه طلب من الله تعالى ثلاثة أشياء : أحدها : أن يوفقه الله للشكر على نعمه والثاني : أن يوفقه للإتيان بالطاعة المرضية عند الله الثالث : أن يصلح له في ذريته ، وفي ترتيب هذه الأشياء الثلاثة على الوجه المذكور وجهان : الأول :

أنا بينا أن مراتب السعادات ثلاثة أكملها النفسانية وأوسطها البدنية وأدونها الخارجية والسعادات النفسانية هي اشتغال القلب بشكر آلاء الله ونعمائه ، والسعادات البدنية هي اشتغال البدن بالطاعة والخدمة ، والسعادات الخارجية هي سعادة الأهل والولد ، فلما كانت المراتب محصورة في هذه الثلاثة لا جرم رتبها الله تعالى على هذا الوجه .

والسبب الثاني : لرعاية هذا الترتيب أنه تعالى قدم الشكر على العمل ، لأن الشكر من أعمال القلوب ، والعمل من أعمال الجوارح ، وعمل القلب أشرف من عمل الجارحة ، وأيضاً المقصود من الأعمال الظاهرة أحوال القلب قال تعالى : ﴿ وأقم الصلاة لذكري ﴾ [طه : 14] بين أن الصلاة مطلوبة لأجل أنها تفيد الذكر ، فثبت أن أعمال القلوب أشرف من أعمال الجوارح ، والأشرف يجب تقديمه في الذكر ، وأيضاً الاشتغال بالشكر اشتغال بقضاء حقوق النعم الماضية ، والاشتغال بالطاعة الظاهرة اشتغال بطلب النعم المستقبلة ، وقضاء الحقوق الماضية يجري مجرى قضاء الدين ، وطلب المنافع المستقبلة طلب للزوائد .

ومعلوم أن قضاء الدين مقدم على سائر المهمات ، فلهذا السبب قدم الشكر على سائر الطاعات ، وأيضاً أنه قدم طلب التوفيق على الشكر ، وطلب التوفيق على الطاعة على طلب أن يصلح له ذريته ، وذلك لأن المطلوبين الأولين اشتغال بالتعظيم لأمر الله ، والمطلوب الثالث اشتغال بالشفقة على خلق الله ، ومعلوم أن التعظيم لأمر الله يجب تقديمه على

الشفقة على خلق الله .

المسألة السادسة :

(198/702)

قال أصحابنا إن العبد طلب من الله تعالى أن يلهمه الشكر على نعم الله ، وهذا يدل على أنه لا يتم شيء من الطاعات والأعمال إلا بإعانة الله تعالى ، ولو كان العبد مستقلاً بأفعاله لكان هذا الطلب عبثاً ، وأيضاً المفسرون قالوا المراد من قوله ﴿ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ هو الإيمان أو الإيمان يكون داخلاً فيه ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم * صِرَاطَ الذين أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة : 6 ، 7] والمراد صراط الذين أنعمت عليهم بنعمة الإيمان وإذا ثبت هذا فنقول العبد يشكر الله على نعمة الإيمان ، فلو كان الإيمان من العبد لا من الله لكان ذلك شكراً لله تعالى على فعله لا على فعل غيره ، وذلك قبيح لقوله تعالى : ﴿ وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ ﴾ [آل عمران : 188] فإن قيل : فهب أن يشكر الله على ما أنعم به عليه فكيف يشكره على النعم التي أنعم بها على والديه ؟ وإنما يجب على الرجل أن يشكر ربه على ما يصل إليه من النعم ، قلنا كل نعمة وصلت من الله تعالى إلى والديه ، فقد وصل منها أثر إليه فلذلك وصاه الله

تعالى على أن يشكر ربه على الأمرين .

وأما المطلوب الثاني : من المطالب المذكورة في هذا الدعاء ، فهو قوله ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صالحا ترضاه ﴾ .

واعلم أن الشيء الذي يعتقد أن الإنسان فيه كونه صالحاً على قسمين : أحدهما : الذي يكون صالحاً عنده ويكون صالحاً أيضاً عند الله تعالى والثاني : الذي يظنه صالحاً ولكنه لا يكون صالحاً عند الله تعالى ، فلما قسم الصالح في ظنه إلى هذين القسمين طلب من الله أن يوفقه لأن يأتي بعمل صالح يكون صالحاً عند الله ويكون مرضياً عند الله .

(199/702)

والمطلوب الثالث : من المطالب المذكورة في هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِى ﴾ لأن ذلك من أجل نعم الله على الوالد ، كما قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ واجنبني وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأصنام ﴾ [إبراهيم : 35] فإن قيل ما معنى ﴿ فِي ﴾ في قوله ﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ﴾ ؟ قلنا تقدير الكلام هب لي الصلاح في ذريتي وأوقعه فيهم .

واعلم أنه تعالى لما حكى عن ذلك الداعي ، أنه طلب هذه الأشياء الثلاثة ، قال بعد ذلك

﴿ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ المسلمين ﴾ والمراد أن الدعاء لا يصح إلا مع التوبة ، وإلا مع كونه من المسلمين فتبين أني إنما أقدمت على هذا الدعاء بعد أن تبت إليك من الكفر ومن كل قبيح ، وبعد أن دخلت في الإسلام والانقياد لأمر الله تعالى ولقضائه .

واعلم أن الذين قالوا إن هذه الآية نزلت في أبي بكر ، قالوا إن أبا بكر أسلم والداه ، ولم يتفق لأحد من الصحابة والمهاجرين إسلام الأبوين إلا له ، فأبوه أبو قحافة عثمان بن عمرو وأمه أم الخير بنت صخر بن عمرو ، وقوله ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صالحا ترضاه ﴾ قال ابن عباس فأجابه الله إليه فأعتق تسعة من المؤمنين يعذبون في الله منهم بلال وعامر بن فهيرة ولم يترك شيئاً من الخير إلا أعانه الله عليه ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ﴾ قال ابن عباس لم يبق لأبي بكر ولد من الذكور والإناث إلا وقد آمنوا ، ولم يتفق لأحد من الصحابة أن أسلم أبواه وجميع أولاده الذكور والإناث إلا لأبي بكر .

(200/702)

ثم قال تعالى : ﴿ أولئك ﴾ أي أهل هذا القول ﴿ الذين نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ ﴾ قرىء بضم الياء على بناء الفعل للمفعول وقرىء بالنون المفتوحة ، وكذلك نتجاوز وكلاهما في المعنى واحد ، لأن الفعل وإن كان مبنياً للمفعول فمعلوم أنه لله سبحانه وتعالى ، فهو كقوله ﴿ يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا

قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال : 38] فبيّن تعالى بقوله ﴿ أولئك الذين نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ ﴾ أن من تقدم ذكره ممن يدعو بهذا الدعاء ، ويسلك هذه الطريقة التي تقدم ذكرها ﴿ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ ﴾ والتقبل من الله هو إيجاب الثواب له على عمله ، فإن قيل ولم قال تعالى : ﴿ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ ﴾ والله يتقبل الأحسن وما دونه ؟ قلنا الجواب من وجوه الأول : المراد بالأحسن الحسن كقوله تعالى : ﴿ واتبعوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الزمر : 55] كقولهم : الناقص والأشج أعدلا بني مروان ، أي عادلا بني مروان الثاني : أن الحسن من الأعمال هو المباح الذي لا يتعلق به ثواب ولا عقاب والأحسن ما يغاير ذلك ، وهو وكل ما كان مندوباً واجباً .

ثم قال تعالى : ﴿ وَنَتَجَاوَزُ عَن سيئاتهم ﴾ والمعنى أنه تعالى يتقبل طاعاتهم ويتجاوز عن سيئاتهم .

ثم قال : ﴿ فِي أصحاب الجنة ﴾ قال صاحب "الكشاف" ومعنى هذا الكلام مثل قولك : أكرمني الأمير في مائتين من أصحابه ، يريد أكرمني في جملة من أكرم منهم وضمني في عدادهم ، ومحله النصب على الحال على معنى كائنين في أصحاب الجنة ومعدودين منهم ، وقوله ﴿ وَعْدَ الصدق ﴾ مصدر مؤكد ، لأن قوله ﴿ نتقبل ، نتجاوز ﴾ وعد من الله لهم بالتقبل والتجاوز ، والمقصود بيان أنه تعالى يعامل من صفته ما قدمناه بهذا الجزاء ، وذلك

وعد من الله تعالى فبيّن أنه صدق ولا شك فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 20.12 ﴾

(201/702)

وقال ابن عطية :

ثم أخبر تعالى عن حسن حال المسلمين المستقيمين ورفع عنهم الخوف والحزن ، وذهب كثير من الناس إلى أن معنى الآية : ﴿ ثم استقاموا ﴾ بالطاعات والأعمال الصالحات .

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه المعنى : ﴿ ثم استقاموا ﴾ بالدوام على الإيمان وترك الانحراف عنه .

قال القاضي أبو محمد : وهذا القول أعم رجاء وأوسع ، وإن كان في الجملة المؤمنة من يعذب وينفذ عليه الوعيد ، فهو ممن يخلد في الجنة وينتفي عنه الخوف والحزن الحال بالكفرة ، والخوف هو الهم لما يستقبل ، والحزن هو الهم بما مضى ، وقد يستعمل فيما يستقبل استعارة ، لأنه حزن لخوف أمر ما .

وقرأ ابن السميفع : " فلا خوفُ " دون تنوين .

وقوله : ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ ، " ما " واقعة على الجزء الذي هو اكتساب العبد ،

وقد جعل الله الأعمال أمارات على صبور العبد ، لا أنها توجب على الله شيئاً .

وقوله تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه ﴾ يريد النوع ، أي هكذا مضت شرائعي وكتبي لأنبيائي ، فهي وصية من الله في عباده .

وقرأ جمهور القراء : " حُسْناً " بضم الحاء وسكون السين ، ونصبه على تقدير وصيناه ليفعل أمراً ذا حسن ، فكأن الفعل تسلط عليه مفعولاً ثانياً . وقرأ علي بن أبي طالب وأبو عبد الرحمن وعيسى : " حَسَناً " بفتح الحاء والسين ، وهذا كالأول ومحتمل كونهما مصدرين كالبخل والبخل ، ومحتمل ، أن يكون هذا الثاني اسماً لا مصدراً ، أي ألزمناه بهما فعلاً حسناً . وقرأ عاصم وحمزة والكسائي " إحساناً " ، ونصب هذا على المصدر الصريح والمفعول الثاني في المجرور ، والباء متعلقة ب ﴿ وصينا ﴾ أو بقوله : " إحساناً " .

وبر الوالدين واجب بهذه الآية وغيرها ، وعقوقهما كبيرة ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : كل شيء بينه وبين الله حجاب إلا شهادة أن لا إله إلا الله ودعوة الوالدين .

(202/702)

قال القاضي أبو محمد : : ولن يدعوا إلا إذا ظلمهما الولد ، فهذا الحديث في عموم قوله عليه السلام : " اتقوا دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب " .

ثم عدد تعالى على الأبناء منن الأمهات وذكر الأم في هذه الآيات في أربع مراتب ، والأب في واحدة ، جمعهما الذكر في قوله : ﴿ بوالديه ﴾ ، ثم ذكر الحمل للأم ثم الوضع لها ثم الرضاع الذي عبر عنه بالفصال ، فهذا يناسب ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جعل للأم ثلاثة أرباع البر ، والربع للأب ، وذلك إذ قال له رجل : يا رسول الله من أبر ؟ " قال : أمك ، قال ثم من ؟ قال : ثم أمك ، قال ثم من ؟ قال : ثم أمك ، قال ثم من ؟ قال : أباك "

وقوله : ﴿ كرهاً ﴾ معناه في ثاني استمرار الحمل حين تتوقع حوادثه ، ويحتمل أن يريد في وقت الحمل ، إذ لا تدبير لها في حمله ولا تركه ، وقال مجاهد والحسن وقتادة : المعنى حملته مشقة ووضعته مشقة .

وقرأ أكثر القراء : "كُرهاً " بضم الكاف . وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وأبو جعفر وشيبة والأعرج : "كَرهاً " بفتح الكاف ، وقرأ بهما معاً مجاهد وأبو رجاء وعيسى . قال أبو علي وغيره : هما بمعنى ، الضم الاسم ، والفتح المصدر . وقالت فرقة : الكره بالضم : المشقة ، والكره بالفتح هو الغلبة والقهر ، وضعفوا على هذا قراءة الفتح . قال بعضهم : لو كان " كَرهاً " لرمت به عن نفسها ، إذ الكره القهر والغلبة ، والقول الذي قدمناه أصوب .

وقرأ جمهور الناس : " وفصاله " وذلك أنها مفاعلة من اثنين ، كأنه فاصل أمه وفاصلته .

وقرأ الحسن بن أبي الحسن وأبو رجاء وقتادة والجحدري : " وفصله " ، كأن الأم هي التي فصلته .

(203/702)

وقوله : ﴿ ثلاثون شهراً ﴾ يقتضي أن مدة الحمل والرضاع هذه المدة ، لأن في القول حذف مضاف تقديره : ومدة حمله وفصاله ، وهذا لا يكون إلا بأن يكون أحد الطرفين ناقصاً ، وذلك إما بأن تلد المرأة لستة أشهر وترضع عامين ، وإما بأن تلد لتسعة على العرف وترضع عامين غير ربع العام ، فإن زادت مدة الحمل نقصت مدة الرضاع ، وبالعكس فيترتب من هذا أن أقل مدة الحمل ستة أشهر .

وأقل ما يرضع الطفل عام وتسعة أشهر ، وإكمال العامين هو لمن أراد أن يتم الرضاعة ، وهذا في أمر الحمل هو مذهب علي بن أبي طالب رضي الله عنه وجماعة من الصحابة ومذهب مالك رحمه الله .

واختلف الناس في الأشد : فقال الشعبي وزيد بن أسلم : البلوغ إذا كتبت عليه السيئات وله الحسنات . وقال ابن إسحاق : ثمانية عشر عاماً ، وقيل عشرون عاماً ، وقال ابن عباس وقتادة : ثلاثة وثلاثون عاماً ، وقال الجمهور من النظار : ثلاثة وثلاثون . وقال هلال

بن يساف وغيره : أربعون ، وأقوى الأقوال ستة وثلاثون ، ومن قال بالأربعين قال في الآية إنه أكد وفسر الأشد بقوله : ﴿ وبلغ أربعين سنة ﴾ .

قال القاضي أبو محمد : وإنما ذكر تعالى الأربعين ، لأنها حد للإنسان في فلاحه ونجابته ، وفي الحديث : " إن الشيطان يجريده على وجه من زاد على الأربعين ولم يتب فيقول : بأبي وجه لا يفلح " وقال أيمن بن خريم الأسدي : [الطويل]

إذا المرء وفّى الأربعين ولم يكنْ . . . له دون ما يأتي حياء ولا ستر

فدعه ولا تنفس عليه الذي ارتأى . . . وإن جر أسباب الحياة له العمر

(204/702)

وفي مصحف ابن مسعود : " حتى إذا استوى أشده وبلغ أربعين سنة " وقوله : ﴿ أوزعني ﴾ معناه : ادفعني عن الموانع وازجرني عن القواطع لأجل أن أشكر نعمتك ، ويحتمل أن يكون ﴿ أوزعني ﴾ بمعنى اجعل حظي ونصيبي ، وهذا من التوزيع والقوم الأوزاع ، ومن قوله توزعوا المال ، ف " أن " على هذا مفعول صريح . وقال ابن عباس ﴿ نعمتك ﴾ في التوحيد . و: ﴿ صالحاً ترضاه ﴾ الصلوات . والإصلاح في الذرية كونهم أهل طاعة وخيرية ، وهذه الآية معناها أن هكذا ينبغي للإنسان أن يفعل ، وهذه وصية الله للإنسان

في كل الشرائع .

وقال الطبري : وذكر أن هذه الآية من أولها نزلت في شأن أبي بكر الصديق ، ثم هي تتناول من بعده ، وكان رضي الله عنه قد أسلم أبواه ، فلذلك قال : ﴿ وعلى والدي ﴾ ، وفي هذا القول اعتراض بأن هذه الآية نزلت بمكة لا خلاف في ذلك ، وأبو قحافة أسلم عام الفتح فإنما يتجه هذا التأويل على أن أبا بكر كان يطمع بإيمان أبويه ويرى مخايل ذلك فيهما ، فكانت هذه نعمة عليهما أن ليسا ممن عسا في الكفر ولج وحتم عليه ثم ظهر إيمانهما بعد ، والقول بأنها عامة في نوع الإنسان لم يقصد بها أبو بكر ولا غيره أصح ، وباقي الآية بين إلى قوله : ﴿ من المسلمين ﴾ .

أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (16)

قوله تعالى : ﴿ أولئك ﴾ دليل على أن الإشارة بقوله : ﴿ ووصينا الإنسان ﴾ [الأحقاف : 15] إنما أراد الجنس .

وقرأ جمهور القراء : "يُتَقبَّل " بالياء على بناء الفعل للمفعول وكذلك "يُتجاوز " . وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم فيهما بالنون التي للعظمة " نتقبل " " أحسنَ " بالنصب " ونتجاوز " وهي قراءة طلحة وابن وثاب وابن جبير والأعمش بخلاف عنه . وقرأ الحسن "يَتقبل " بياء مفتوحة " ويَتجاوز " كذلك ، أي الله تعالى وقوله : ﴿ في أصحاب الجنة ﴾ يريد الذين سبقت لهم رحمة الله . وقوله : ﴿ وعدَ الصدق ﴾ نصب على المصدر المؤكد لما قبله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(206/702)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا ﴾ الآية تقدّم معناها .

وقال ابن عباس : نزلت في أبي بكر الصدّيق .

والآية تعم .

﴿ جَزَآءً ﴾ نصب على المصدر .

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا

فيه سبع مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً ﴾ بيّن اختلاف حال الإنسان مع أبويه ، فقد يطيعهما وقد يخالفهما ؛ أي فلا يبعد مثل هذا في حق النبيّ صلى الله عليه وسلم وقومه حتى يستجيب له البعض ويكفر البعض .

فهذا وجه اتصال الكلام بعضه ببعض ؛ قاله القشيريّ .

الثانية قوله تعالى : "حُسْناً" قراءة العامة "حُسْناً" وكذا هو في مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام .

وقرأ ابن عباس والكوفيون "إِحْسَاناً" وحجتهم قوله تعالى في سورة (الأنعام وبني إسرائيل) : ﴿ وبالوالدين إِحْسَاناً ﴾ [الإسراء : 23] وكذا هو في مصاحف الكوفة .

وحجة القراءة الأولى قوله تعالى في سورة العنكبوت : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حُسْناً ﴾ [العنكبوت : 8] ولم يختلفوا فيها .

والحُسْن خلاف القُبْح .

والإحسان خلاف الإساءة .

والتوصية الأمر .

وقد مضى القول في هذا وفيمن نزلت .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً ﴾ أي بكره ومشقة .

وقراءة العامة بفتح الكاف .

واختاره أبو عبيد ، قال : وكذلك لفظ الكره في كل القرآن بالفتح إلا التي في سورة البقرة : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : 216] لأن ذلك اسم وهذه كلها مصادر .

وقرأ الكوفيون "كُرْهاً" بالضم .

قيل : هما لغتان مثل الضُّعْف والضَّعْف والشُّهْد والشَّهْد ؛ قاله الكسائي ، وكذلك هو عند جميع البصريين .

(207/702)

وقال الكسائيّ أيضاً والفرّاء في الفرق بينهما : إن الكره (بالضم) ما حمل الإنسان على نفسه ، وبالفتح ما حمل على غيره ؛ أي قهراً وغضباً ؛ ولهذا قال بعض أهل العربية إن كرهاً (بفتح الكاف) لحن .

الرابعة قوله تعالى : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً ﴾ قال ابن عباس : إذا حملت تسعة أشهر أرضعت إحدى وعشرين شهراً ، وإن حملت ستة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهراً .

وروي أن عثمان قد أُتي بامرأة قد ولدت لستة أشهر ؛ فأراد أن يقضي عليها بالحدّ ؛ فقال

له عليّ رضي الله عنه : ليس ذلك عليها ، قال الله تعالى : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً ﴾ وقال تعالى : ﴿ والوالدات يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة : 233] فالرضاع أربعة وعشرون شهراً والحمل ستة أشهر ، فرجع عثمان عن قوله ولم يحدّها .

وقد مضى في "البقرة" .

وقيل : لم يعدّ ثلاثة أشهر في ابتداء الحمل ؛ لأن الولد فيها نطفة وعلقة ومضغة فلا يكون له ثقل يحس به ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ [الأعراف : 189] .

والفِصال الفطام .

وقد تقدّم في "لقمان" الكلام فيه .

وقرأ الحسن ويعقوب وغيرهما "وفَصْله" بفتح الفاء وسكون الصاد .

وروي أن الآية نزلت في أبي بكر الصدّيق ، وكان حمله وفصاله في ثلاثين شهراً ، حملته أمه تسعة أشهر وأرضعته إحدى وعشرين شهراً .

وفي الكلام إضمار ؛ أي ومدّة حمله ومدّة فصاله ثلاثون شهراً ؛ ولولا هذا الإضمار لنصب ثلاثون على الظرف وتغيّر المعنى .

الخامسة قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ قال ابن عباس : ثماني عشرة سنة .

وقال في رواية عطاء عنه : إن أبا بكر صحب النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثماني عشرة سنة والنبيّ صلى الله عليه وسلم ابن عشرين سنة ، وهم يريدون الشام للتجارة ، فنزلوا منزلاً فيه سدرة ، فقعد النبيّ صلى الله عليه وسلم في ظلها ، ومضى أبو بكر إلى راهب هناك فسأله عن الدِّين .

فقال الراهب : مَن الرجل الذي في ظل الشجرة ؟ فقال : ذاك محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

فقال : هذا والله نبيّ ، وما استظل أحد تحتها بعد عيسى .

فوقع في قلب أبي بكر اليقين والتصديق ؛ وكان لا يكاد يفارق رسول الله صلى الله عليه وسلم في أسفاره وحضرِه .

فلما نُبِّئَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن أربعين سنة ، صدّق أبو بكر رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثماني وثلاثين سنة .

فلما بلغ أربعين سنة قال : "رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ" الآية .

وقال الشعبيّ وابن زيد : الأشدّ الحلم .

وقال الحسن : هو بلوغ الأربعين .

وعنه قيام الحجة عليه .

وقد مضى في "الأنعام" الكلام في الآية .

وقال السّدّي والضحاك : نزلت في سعد بن أبي وقاص .

وقد تقدّم .

وقال الحسن : هي مرسلة نزلت على العموم .

والله أعلم .

السادسة قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَوزِعني ﴾ أي ألهمني .

﴿ أَنْ أَشكُرَ ﴾ في موضع نصب على المصدر ؛ أي شكر نعمتك ﴿ عَلَيَّ ﴾ أي ما أنعمت به عليّ من الهداية ﴿ وعلى وَالِدَيَّ ﴾ بالتحنن والشفقة حتى ربّياني صغيراً .

وقيل : أنعمت عليّ بالصحة والعافية وعلى والديّ بالغنى والثروة .

وقال عليّ رضي الله عنه : هذه الآية نزلت في أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه ؛ أسلم أبواه جميعاً ولم يجتمع لأحد من المهاجرين أن أسلم أبواه غيره ، فأوصاه الله بهما ولزم ذلك من بعده .

ووالده هو أبو قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تَيْم .

وأمّه أمّ الخير ، واسمها سَلْمَى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد .

وأم أبيه أبي قحافة "قَيْلة" بالياء المعجمة باثنتين من تحتها .

وامرأة أبي بكر الصدّيق اسمها "قُتيلة" بالتاء المعجمة باثنتين من فوقها بنت عبد العزى .

﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ ﴾ قال ابن عباس : فأجابه الله فأعتق تسعة من المؤمنين يعذَّبون في الله منهن بلال وعامر بن فُهيرة ؛ ولم يدَع شيئاً من الخير إلا أعانه الله عليه .

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أصبح منكم اليوم صائماً " ؟ قال أبو بكر أنا .

قال : "فمن تبع منكم اليوم جنازة" ؟ قال أبو بكر أنا .

قال : "فمن أطعم منكم اليوم مسكيناً" ؟ قال أبو بكر أنا .

قال : "فمن عاد منكم اليوم مريضاً" ؟ قال أبو بكر أنا .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما اجتمعن في امرىء إلا دخل الجنة" " .

السابعة قوله تعالى : ﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذريتي ﴾ أي اجعل ذرّيتي صالحين .

قال ابن عباس : فلم يبق له ولد ولا والد ولا والدة إلا آمنوا بالله وحده .

ولم يكن أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وأبواه وأولاده وبناته كلهم إلا أبو بكر .

وقال سهل بن عبد الله : المعنى اجعلهم لي خَلَف صِدق ، ولك عبيدَ حق .

وقال أبو عثمان : اجعلهم أبراراً لي مطيعين لك .

وقال ابن عطاء : وفقهم لصالح أعمال ترضى بها عنهم .

وقال محمد بن علي : لا تجعل للشيطان والنفس والهوى عليهم سبيلاً .

وقال مالك بن مِقول : اشتكى أبو معشر ابنه إلى طلحة بن مُصَرِّف ؛ فقال : استعن عليه بهذه الآية ؛ وتلا : ﴿ رَبِّ أوزعني أَنْ أَشكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعلى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذريتي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ المسلمين ﴾ .

﴿ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ قال ابن عباس : رجعت عن الأمر الذي كنت عليه .

﴿ وَإِنِّي مِنَ المسلمين ﴾ أي المخلصين بالتوحيد .

(210/702)

قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ ﴾

قراءة العامة بضم الياء فيهما .

وقرىء "يَتَقَبَّلُ ، وَيَتَجَاوَزُ" بفتح الياء ؛ والضمير فيهما يرجع لله عز وجل .

وقرأ حفص وحمزة والكسائي "نَتَقَبَّلُ ، وَنَتَجَاوَزُ" بالنون فيهما ؛ أي نغفرها ونصفح عنها .

والتجاوز أصله من جزت الشيء إذا لم تقف عليه .

وهذه الآية تدلّ على أن الآية التي قبلها ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان ﴾ إلى آخرها مرسلة نزلت على العموم.

وهو قول الحسن.

ومعنى "نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ" أي نتقبل منهم الحسنات ونتجاوز عن السيئات.

قال زيد بن أسلم ويحكيه مرفوعاً: إنهم إذا أسلموا قُبلت حسناتهم وغُفرت سيئاتهم.

وقيل: الأحسن ما يقتضي الثواب من الطاعات، وليس في الحسن المباح ثواب ولا عقاب؛ حكاه ابن عيسى.

﴿ فِي أَصْحَابِ الجنة ﴾ "في" بمعنى مع، أي مع أصحاب الجنة، تقول: أكرمك وأحسن إليك في جميع أهل البلد، أي مع جميعهم.

﴿ وَعْدَ الصدق ﴾ نصب لأنه مصدر مؤكد لما قبله؛ أي وعد الله أهل الإيمان أن يتقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم وعد الصدق.

وهو من باب إضافة الشيء إلى نفسه؛ لأن الصدق هو ذلك الوعد الذي وعده الله؛ وهو كقوله تعالى: ﴿ حَقُّ اليقين ﴾ [الواقعة: 95].

وهذا عند الكوفيين، فأما عند البصريين فتقديره: وَعْد الكلامِ الصدق أو الكتابِ الصدق، فحذف الموصوف.

وقد مضى هذا في غير موضع.

﴿ الذي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ في الدنيا على ألسنة الرسل ؛ وذلك الجنة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(211/702)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا ﴾

أي جمعُوا بينَ التوحيدِ الذي هُو خلاصةُ العلمِ ، والاستقامةِ في أمورِ الدينِ التي هيَ مُنتهى العملِ وثُمَّ للدلالةِ على تَراخِي رتبةِ العملِ وتوقفِ الاعتدادِ به على التوحيدِ ﴿ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ من لحوقِ مكروهٍ ﴿ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ من فواتِ محبوبٍ . والفاءُ لتضمنِ الاسمِ معنى الشرطِ والمرادُ بيانُ دوامِ نفي الحزنِ لا بيانُ نفي دوامِ الحزنِ كما يُوهمه كونُ الخبرِ مضارعاً وقد مرَّ بيانُه مراراً ﴿ أولئك ﴾ الموصوفونَ بما ذُكِرَ من الوصفينِ الجليلينِ ﴿ أصحاب الجنة خالدين فِيهَا ﴾ حالٌ من المستكنِّ في أصحابُ . وقولُه تعالَى : ﴿ جَزَاء ﴾ منصوبٌ إمَّا بعاملٍ مُقدرٍ أي يُجزون جزاءً أو بمَعْنى ما تقدمَ فإنَّ قولَه تعالى أولئكَ أصحابُ الجنَّةِ في معنى جازيناهُم . ﴿ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ من الحسناتِ العلميةِ والعمليةِ .

﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان ﴾ بأنْ يُحسنَ ﴿ بوالديه إحسانا ﴾ وقُرِىءَ حُسْناً أي بأنْ يفعلَ بهمَا حُسْناً أي فعلاً ذا حُسنٍ أو كأنَّه في ذاتِه نفسُ الحسنِ لفرطِ حُسنهِ. وقُرِىءَ بضمِّ السينِ أيضاً، وبفتحِهما أيْ بأنْ يفعلَ بهما فعلاً حَسَناً أو وصينَاهُ إيصاءً حسناً. ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً ﴾ أي ذاتَ كُرهٍ أو حملاً ذا كُرهٍ وهو المشقةُ. وقُرِىءَ بالفتحِ وهما لغتانِ كالفُقرِ، وقيلَ: المضمومُ اسمٌ والمفتوحُ مصدرٌ. ﴿ وَحَمْلُهُ وفصاله ﴾ أيْ مدةُ حمِلِه وفصالِه، وهو الفطامُ، وقُرِىءَ وفَصلُه. والفصالُ كالفطمِ والفِطامِ بناءً ومَعْنى، والمرادُ بهِ الرَّضاعُ التامُّ المُنتهِي بهِ. كمَا أرادَ بالأمدِ المدةَ من قالَ

(212/702)

كُلُّ حَيَ مُستكمِلٌ مُدَّةَ العمرِ ومُودٍ إذا انتهى أمدُهُ. . . ﴿ ثَلاَثُونَ شَهْراً ﴾ تمضي عليَها بمعاناةِ المشاقِّ ومقاساةِ الشدائدِ لأجلِه وهذا دليلٌ على أن أقلَّ مدةِ الحملِ ستةُ أشهرٍ لما أنَّه إذا حُطَّ عنْهُ للفصالِ حولانِ لقولِه تعالى: ﴿ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرضاعة ﴾ يبقي للحملِ ذلكَ، قيلَ: ولعل تعيينَ أقلِ مدةِ الحملِ وأكثرِ مدةِ الرَّضاعِ لانضباطِهما وتحققِ ارتباطِ النسبِ والرضاعِ بهما ﴿ حتى إذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ أي اكتملَ واستحكمَ قوتُه وعقلُه ﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ قيلَ: لم يبعثْ نبيٌّ قبلَ أربعينَ. وقُرِىءَ حتَّى إذَا استوى وبلغَ

أشدَّهُ . ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى ﴾ أي ألهمني ، وأصلُه أَوْلِعني من أوزعتُه بكذا ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وعلى وَالِدَىَّ ﴾ أي نعمةَ الدِّينِ أو ما يعمُّها وغيرَها . ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صالحا ترضاه ﴾ التنكيرُ للتفخيمِ والتكثيرِ ﴿ وَأَصْلِحْ لى فِى ذُرِّيَّتى ﴾ أيْ واجعلِ الصلاحَ ساريًا في ذُريتي راسخاً فيهم كما في قولِه

(213/702)

يجرحُ في عَراقيبِها نَصْلِي . . . قالَ ابنُ عبَّاس : أجابَ اللهُ تعالَى دعاءَ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنُهم فأعتقَ تسعةً من المؤمنينَ منهم عامرُ بنُ فُهيرةَ ولم يُردْ شيئاً من الخيرِ إلاَّ أعانَهُ اللهُ تعالى عليهِ ودَعَا أيضاً فقالَ وأصلحْ لي في ذُريتي فأجابَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ فلم يكُن لهُ ولدٌ إلا آمنُوا جميعاً فاجتمعَ له إسلامُ أبويهِ وأولادِه جميعاً فأدركَ أبُوه أبُو قحافةَ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وابنُه عبدُ الرحمنِ بنُ أبي بكرٍ وابنُ عبدِ الرَّحمنِ أبُو عتيقٍ كلُّهم أدركُوا النبيَّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ولم يكُنْ ذلكَ لأحدٍ من الصَّحابةِ رضوانُ اللهِ تعالَى عليهم أجمعينَ . ﴿ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ عمَّا لا ترضاهُ أو عمَّا يشغلُني عن ذكرِك ﴿ وَإِنِّى مِنَ المسلمين ﴾ الذينَ أخلصُوا لكَ أنفسَهُم .

﴿ أولئك ﴾ إشارةٌ إلى الإنسانِ ، والجمعُ لأنَّ المرادَ به الجنسُ المتصفُ بالوصفِ المَحكِيِّ

عنْهُ ، وما فيهِ من مَعْنى البُعدِ للإشعارِ بعُلوّ رُتبتِهِ وبُعدِ منزلتِه ، أي أولئكَ المنعوتونَ بما ذُكِرَ من النعوتِ الجليلةِ . ﴿ الذين نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ ﴾ من الطاعاتِ ، فإنَّ المباحَ حسنٌ ولا يثابُ عليهِ . ﴿ وَنَتَجَاوَزُ عَن سيئاتهم ﴾ وقُرِىءَ الفعلانِ بالياءِ على إسنادِهما إلى الله تعالى ، وعلى بنائِهما للمفعولِ ، ورفعِ أحسنَ على أنَّه قائمٌ مقامَ الفاعلِ ، وكذا الجارُّ والمجرور . ﴿ فِى أصحاب الجنة ﴾ أي كائنينَ في عدادِهم منتظمينَ في سلكِهم ﴿ وَعْدَ الصدق ﴾ مصدرٌ مؤكدٌ لما أنَّ قولَه تعالَى نتقبلُ ونتجاوزُ وعدٌ من الله تعالى لهُم بالتقبلِ والتجاوزِ . ﴿ الذى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ عَلَى ألسنةِ الرُّسلِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(214/702)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا ﴾ إلى آخره

أي إن الذين جمعوا بين التوحيد الذي هو خلاصة العلم والاستقامة في الدين التي هي منتهى العمل ، و ﴿ ثُمَّ ﴾ للتراخي الرتبي فالعمل متراخى الرتبة عن التوحيد ، وقد نصوا على أنه لا يعتد به بدونه ﴿ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ من لحوق مكروه ﴿ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ من فوات

محبوب ، والمراد استمرار النفي ، والفاء لتضمن الاسم معنى الشرط مع بقاء معنى الابتداء فلا تدخل في خبر ليت ولعل وكان وإن كان كانت أسماؤها موصولات ، وتقدم في سورة السجدة نظير هذه الآية وذكرنا في تفسيره ما ذكرنا فليراجع .

﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بما ذكر من الوصفين الجليلين ﴿ أصحاب الجنة خالدين فِيهَا ﴾ حال من المستكن في ﴿ أصحاب ﴾ وقوله تعالى : ﴿ جَزَاء ﴾ منصوب إما بعامل مقدر أي يجزون جزاء ، والجملة استئناف أو حال وإما بمعنى ما تقدم على ما قيل فإن قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ أصحاب الجنة ﴾ في معنى جزيناهم ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ من الحسنات القلبية والقالبية .

﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بوالديه إحسانا ﴾

نزلت كما أخرج ابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه إلى قوله تعالى : ﴿ وَعْدَ الصدق الذى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ [الأحقاف : 16] .

(215/702)

﴿ وإحساناً ﴾ قيل : مفعول ثان لوصينا على تضمينه معنى الزمنا ، وقيل : منصوب على المصدر على تضمين ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ﴾ معنى أحسنا أي أحسنا بالوصية للإنسان بوالديه إحساناً ، وقيل : صفة لمصدر محذوف بتقدير مضاف أي إيصاء ذا إحسان ، وقيل : مفعول له أي وصيناه بهما لإحساننا إليهما ، وقال ابن عطية : إنه منصوب على المصدر الصريح و﴿ بوالديه ﴾ متعلق بوصينا ، أو به وكأنه عنى يحسن إحساناً وهو حسن ، لكن تعقب أبو حيان تجويزه تعلق الجار بإحساناً بأنه لا يصح لأنه مصدر مقدر بحرف مصدري والفعل فلا يتقدم معموله عليه ولأن أحسن لا يتعدى بالباء وإنما يتعدى باللام تقول : أحسنت لزيد ولا تقول : أحسنت بزيد على معنى أن الإحسان يصل إليه ، وفيه أنا لا نسلم أن المقدر بشيء يشارك ما قدر به في جميع الأحكام لجواز أن يكون بعض أحكامه مختصاً بصريح لفظه مع أن الظرف يكفيه رائحة الفعل ولذا يعمل الاسم الجامد فيه باعتبار لمح المعنى المصدري ، وقد قالوا : إنه يتصرف فيه ما لا يتصرف في غيره لاحتياج معظم الأشياء إليه .

(216/702)

والجار والمجرور محمول عليه ، وقد كثر ما ظاهره التعلق بالمصدر المتأخر نكرة ك ﴿ لا تأخذكم بهما رأفة ﴾ [النور : 2] ومعرفة نحو ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السعى ﴾ [الصافات : 102] وتأويل كل ذلك تكلف ، وأيضاً قوله : لأن أحسن لا يتعدى بالباء الخ فيه منع ظاهر ، وقدر بعضهم الفعل قبل الجار فقال : وصينا الإنسان بأن يحسن بوالديه إحساناً ، ولعل التنوين للتفخيم أي إحساناً عظيماً ، والإيصاء والوصية التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظ من قولهم : أرض واصية متصلة النبات ، ففي الآية إشعار بأن الإحسان بهما أمر معتنى به ، وقد عد في الحديث ثاني أفضل الأعمال وهو الصلاة لأول وقتها ، وعد عقوقهما ثاني أكبر الكبائر وهو الإشراك بالله عز وجل ، والأحاديث في الترغيب في الأول والترهيب عن الثاني كثيرة جداً ، وفي الآيات ما فيه كفاية لمن ألقى السمع وهو شهيد .

وقرأ الجمهور ﴿ حَسَنًا ﴾ بضم الحاء وإسكان السين أي فعلاً ذا حسن أو كأنه في ذاته نفس الحسن لفرط حسنه ، وجوز أبو حيان فيه أن يكون بمعنى ﴿ إحسانا ﴾ فالأقوال السابقة تجري فيه .

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه .

والسلمي .

وعيسى ﴿ حَسَنًا ﴾ بفتح الحاء والسين ، وعن عيسى ﴿ حَسَنًا ﴾ بضمهما .

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً ﴾ أي ذات كره أو حملاً ذا كره وهو المشقة كما قال

مجاهد .

والحسن .

وقتادة ، وليس الكره في أول علوقها بل بعد ذلك حين تحد له ثقلاً .

وقرأ شيبة .

وأبو جعفر .

والحرميان ﴿ كَرْهاً ﴾ بفتح الكاف وهما لغتان بمعنى واحد كالفقر والفقر والضعف والضعف ، وقيل : المضموم اسم والمفتوح مصدر .

وقال الراغب : قيل الكره أي بالفتح المشقة التي تنال الإنسان من خارج مما يحمل عليه بإكراه والكره ما يناله من ذاته وهو ما يعافه من حيث الطبع أو من حيث العقل أو الشرع .

وطعن أبو حاتم في هذه القراءة فقال : لا تحسن هذه القراءة لأن الكره بالفتح الغصب والغلبة .

(217/702)

وأنت تعلم أنها في السبعة المتواترة فلا معنى للطعن فيها ، وقد كان هذا الرجل يطعن في بعض القراآت بما لا علم له به جسارة منه عفا الله تعالى عنه ﴿ وَحَمْلُهُ وفصاله ﴾ أي

مدة حمله وفصاله ، وبتقدير المضاف يصح حمل قوله تعالى : ﴿ ثَلاَثُونَ شَهْراً ﴾ على المبتدأ من غير كره .

والفصال الفطام وهو مصدر فاصل فكأن الولد فاصل أمه وأمه فاصلته .

وقرأ أبو رجاء .

والحسن .

وقتادة .

ويعقوب .

والجحدري ﴿ وفصاله ﴾ أي فطمه فالفصل والفصال كالفطم والفطام بناءً ومعنى ؛

وقيل : الفصال بمعنى وقت الفصل أي الفطم فهو معطوف على مدة الحمل ، والمراد بالفصال الرضاع التام المنتهى بالفطام ولذلك عبر بالفصال عنه أو عن وقته دون الرضاع المطلق فإنه لا يفيد ذلك ، وفي الوصف تطويل ، والآية بيان لما تكابده الأم وتقاسيه في تربية الولد مبالغة في التوصية لها ، ولذا اعتنى الشارع ببرها فوق الاعتناء ببر الأب ، فقد روي " أن رجلاً قال : يا رسول الله من أبر ؟ قال : أمك قال : ثم من ؟ قال : أمك قال : ثم من ؟ قال : أمك قال : ثم من ؟ قال : أباك " وقد أشير في الآية إلى ما يقتضي البر بها على الخصوص في ثلاث مراتب فتكون الأوامر في الخبر كالمأخوذة من ذلك .

واستدل بها علي كرم الله تعالى وجهه .

وابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

وجماعة من العلماء على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر لما أنه إذا حط عن الثلاثين للفصال حولان لقوله تعالى : ﴿ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرضاعة ﴾ [البقرة : 233] يبقى للحمل ذلك وبه قال الأطباء ، قال جالينوس : كنت شديد الفحص عن مقدار زمن الحمل فرأيت امرأة ولدت لمائة وأربع وثمانين ليلة .

وادعى ابن سينا أنه شاهد ذلك .

(218/702)

وأما أكثر مدة الحمل فليس في القرآن العظيم ما يدل عليه ؛ وقال ابن سينا في الشفا : بلغني من جهة من أثق به كل الثقة أن امرأة وضعت بعد الرابع من سني الحمل ولداً نبتت أسنانه ، وحكي عن أرسطو أنه قال : أزمنة الحمل لكل حيوان مضبوطة سوى الإنسان فربما وضعت المرأة لسبعة أشهر وربما وضعت لثمانية وقلما يعيش الولد في الثامن إلا في بلاد معينة مثل مصر ، ولعل تخصيص أقل الحمل وأكثر الرضاع بالبيان في القرآن الكريم بطريق الصراحة والدلالة دون أكثر الحمل وأقل الرضاع وأوسطهما لانضباطهما بعدم النقص والزيادة بخلاف ما ذكر ؛ وتحقق ارتباط حكم النسب بأقل مدة الحمل حتى لو وضعته

فيما دونه لما يثبت نسبه منه وبعده يثبت وتبرأ من الزنا ، ولو أرضعت مرضعة بعد حولين لم يثبت به أحكام الرضاع في التناكح وغيره وفي هذا خلاف لا يعبأ به ﴿ حتى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ غاية لمقدر أي فعاش أو استمرت حياته حتى إذا اكتهل واستحكم قوته وعقله ﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ الظاهر أنه غير بلوغ الأشد ، وقال بعضهم : إنه بلوغ الأشد والعطف للتأكيد .

وقد ذكر غير واحد أن الإنسان إذا بلغ هذا القدر يتقوى جداً خلقه الذي هو عليه فلا يكاد يزايله بعد ، وفي الحديث " إن الشيطان يجريده على وجه من زاد على الأربعين ولم يتب ويقول بأبي وجه لا يفلح " وأخرج أبو الفتح الأزدي من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعاً " من أتى عليه الأربعون سنة فلم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار "

وعلى ذلك قول الشاعر :

إذا المرء وافى الأربعين ولم يكن . . .

له دون ما يهوى حياءً ولا ستر فدعه

ولا تنفس عليه الذي مضى . . .

وإن جر أسباب الحياة له العمر

وقيل : لم يبعث نبي إلا بعد الأربعين ، وذهب الفخر إلى خلافه مستدلاً بأن عيسى ويحيى عليهما السلام أرسلا صبيين لظواهر ما حكي في الكتاب الجليل عنهما ، وهو ظاهر كلام السعد حيث قال : من شروط النبوة الذكورة وكمال العقل والذكاء والفطنة وقوة الرأي ولو في الصبا كعيسى ويحيى عليهما السلام إلى آخر ما قال .

وذهب ابن العربي في آخرين إلى أنه يجوز على الله سبحانه بعث الصبي إلا أنه لم يقع وتأولوا آيتي عيسى ويحيى ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ اللهِ ءاتَانِىَ الكتاب وَجَعَلَنِى نَبِيّاً ﴾ [مريم : 30] ، ﴿ وَاتَيْنَاهُ الحكم صَبِيّاً ﴾ [مريم : 12] بأنهما أخبار عما سيحصل لهما لا عما حصل بالفعل ، ومثله كثير في الآيات وغيرها ، والواقع عند هؤلاء البعث بعد البلوغ .

وحكى اللقاني عن بعض اشتراطه فيه ويترجح عندي اشتراطه فيه دون أصل النبوة لما أن النفوس في الأغلب تأنف عن اتباع الصغير وإن كبر فضلاً كالرقيق والأنثى ، وصرح جمع بأن الأعم الأغلب كون البعثة على رأس الأربعين كما وقع لنبينا صلى الله عليه وسلم : ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى ﴾ أي رغبني ووفقني من أوزعته بكذا أي جعلته مولعاً به راغباً في تحصيله . وقرأ البزي ﴿ أَوْزِعْنِى ﴾ بفتح الياء ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وعلى وَالِدَىَّ ﴾ أي نعمة الدين أو ما يعمها وغيرها ، وذلك يؤيد ما روي أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه لأنه لم يكن أحد أسلم هو وأبواه من المهاجرين والأنصار سواه كذا قيل

، وإسلام أبيه بعد الفتح وحينئذٍ يلزم أن تكون الآية مدنية وإليه ذهب بعضهم ، وقيل : إن هذا الدعاء بالنسبة إلى أبويه دعاء بتوفيقهما للإيمان وهو كما ترى .

واعترض على التعليل بابن عمر .

وأسامة بن زيد .

(220/702)

وغيرهما ، ونقل عن الواحدي أنه قد صحب النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثمان عشرة سنة ورسول الله صلى الله عليه وسلم ابن عشرين سنة في سفر للشام في التجارة فنزل تحت شجرة سمرة وقال له الراهب : إنه لم يستظل بها أحد بعد عيسى غيره صلى الله عليه وسلم فوقع في قلبه تصديقه فلم يكن يفارقه في سفر ولا حضر فلما نبىء وهو ابن أربعين آمن به وهو ابن ثمانية وثلاثين فلما بلغ الأربعين قال : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِى ﴾ الخ ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صالحا ترضاه ﴾ التنوين للتفخيم والتكثير ، والمراد بكونه مرضياً له تعالى مع أن الرضا على ما عليه جمهور أهل الحق الإرادة مع ترك الاعتراض وكل عمل صالح كذلك أن يكون سالماً من غوائل عدم القبول كالرياء والعجب وغيرهما ، فحاصله اجعل عملي على وفق رضاك : وقيل المراد بالرضا هنا ثمرته على طريق الكناية ﴿ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِى

﴿ أي اجعل الصلاح سارياً في ذريتي راسخاً فيهم كما في قوله :

فإن تعتذر في المحل من ذي ضروعها . . .

لدى المحل يجرح في عراقيبها نصلي

على أن ﴿ إصلاح ﴾ نزل منزلة اللازم ثم عدي بفي ليفيد ما أشرنا إليه من سريان الصلاح فيهم وكونهم كالظرف له لتمكنه فيهم وإلا فكان الظاهر وأصلح لي ذريتي ، وقيل : عدي بفي لتضمنه معنى اللطف أي ألطف بي في ذريتين ، والأول أحسن ، قال ابن عباس : أجاب الله تعالى دعاء أبي بكر فأعتق تسعة من المؤمنين منهم بلال .

وعامر بن فهيرة ولم يرد شيئاً من الخير إلا أعانه الله تعالى عليه ، ودعا أيضاً فقال : ﴿ إصلاحِ لِى فِى ذُرِّيَّتِى ﴾ فأجابه الله تعالى فلم يكن له ولد إلا آمنوا جميعاً فاجتمع له إسلام أبويه وأولاده جميعاً ، وقد أدرك أبوه وولده عبد الرحمن وولده أبو عتيق النبي صلى الله عليه وسلم وآمنوا به ولم يكن ذلك لأحد من الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين ﴿ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ عما لا ترضاه أو يشغل عنك ﴿ وَإِنِّى مِنَ المسلمين ﴾ الذين أخلصوا أنفسهم لك .

(221/702)

﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى ﴿ الإنسان ﴾ [الأحقاف : 15] ، والجمع لأن المراد به الجنس المتصف بالمعنى المحكي عنه ، وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد منزلته وعلو درجته أي أولئك المنعوتون بما ذكر من النعوت الجليلة .

﴿ الذين نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَلِمُواْ ﴾ من الطاعات فإن المباح حسن لا يثاب عليه ﴿ وَنَتَجَاوَزُ عَن ﴾ لتوبتهم المشار إليها بأني تبت وإلا فعند أهل الحق أن مغفرة الذنب مطلقاً لا تتوقف على توبة ﴿ سيئاتهم فِى أصحاب الجنة ﴾ كائنين في عدادهم منتظمين في سلكهم ، وقيل : ﴿ فِى ﴾ بمعنى مع وليس بذاك ﴿ وَعْدَ الصدق ﴾ مصدر لفعل مقدر وهو مؤكد لمضمون الجملة قبله ، فإن قوله سبحانه : ﴿ نَتَقَبَّلُ وَنَتَجَاوَزُ ﴾ وعد منه عز وجل بالتقبل والتجاوز .

﴿ الذى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ على ألسنة الرسل عليهم السلام .

وقرىء ﴿ يُتَقَبَّلْ ﴾ بالياء والبناء للمفعول و ﴿ أَحْسَنُ ﴾ بالرفع على النيابة مناب الفاعل وكذا ﴿ يتجاوز عن سيآتهم ﴾ .

وقرأ الحسن .

والأعمش .

وعيسى بالياء فيهما مبنيين للفاعل وهو ضميره تعالى شأنه و ﴿ مّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ ﴾ بالنصب على المفعولية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾

قوله : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أي : أخبروني ﴿ إِن كَانَ مِنْ عِندِ الله ﴾ يعني : ما يوحى إليه من القرآن ، وقيل المراد : محمد صلى الله عليه وسلم ، والمعنى : إن كان مرسلاً من عند غير الله ، وقوله : ﴿ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ في محل نصب على الحال بتقدير قد ، وكذلك قوله : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مّن بَنِى إسراءيل على مِثْلِهِ ﴾ والمعنى : أخبروني إن كان ذلك في الحقيقة من عند الله والحال أنكم قد كفرتم به ، وشهد شاهد من بني إسرائيل العالمين بما أنزل الله في التوراة على مثله ، أي : القرآن من المعاني الموجودة في التوراة ، المطابقة له من إثبات التوحيد ، والبعث والنشور وغير ذلك ، وهذه المثلية هي باعتبار تطابق المعاني ، وإن اختلفت الألفاظ .

وقال الجرجاني : مثل صلة ، والمعنى : وشهد شاهد عليه أنه من عند الله ، وكذا قال الواحدي ، ﴿ فَئَامَنَ ﴾ الشاهد بالقرآن لما تبين له أنه من كلام الله ، ومن جنس ما ينزله

على رسله ، وهذا الشاهد من بني إسرائيل هو عبد الله بن سلام ، كما قال الحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، وعكرمة وغيرهم ، وفي هذا نظر فإن السورة مكية بالإجماع ، وعبد الله بن سلام كان إسلامه بعد الهجرة ، فيكون المراد بالشاهد : رجلاً من أهل الكتاب قد آمن بالقرآن في مكة وصدقه ، واختار هذا ابن جرير ، وسيأتي في آخر البحث ما يترجح به أنه عبد الله بن سلام ، وأن هذه الآية مدنية لا مكية .

(223/702)

وروي عن مسروق أن المراد بالرجل : موسى عليه السلام ، وقوله : ﴿ واستكبرتم ﴾ معطوف على شهد ، أي : آمن الشاهد ، واستكبرتم أنتم عن الإيمان ﴿ إِنَّ الله لاَ يَهْدِى القوم الظالمين ﴾ فحرمهم الله سبحانه الهداية ؛ لظلمهم لأنفسهم بالكفر بعد قيام الحجة الظاهرة على وجوب الإيمان ، ومن فقد هداية الله له ضلّ .

وقد اختلف في جواب الشرط ماذا هو ؟ فقال الزجاج : محذوف ، تقديره : أتؤمنون ، وقيل : قوله : ﴿ فآمن واستكبرتم ﴾ وقيل : محذوف ، تقديره : فقد ظلمتم لدلالة ﴿ إِنَّ الله لاَ يَهْدِى القوم الظالمين ﴾ عليه ، وقيل تقديره : فمن أضلّ منكم ، كما في قوله : ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ الله ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أضل ﴾ الآية [فصلت : 52] .

وقال أبو علي الفارسي تقديره : أتأمنون عقوبة الله ؟ وقيل : التقدير : ألستم ظالمين ؟ ثم ذكر سبحانه نوعاً آخر من أقاويلهم الباطلة فقال : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ أي : لأجلهم ، ويجوز أن تكون هذه اللام هي لام التبليغ ﴿ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ أي : لو كان ما جاء به محمد من القرآن والنبوّة خيراً ما سبقونا إليه ؛ لأنهم عند أنفسهم المستحقون للسبق إلى كل مكرمة ، ولم يعلموا أن الله سبحانه يختصّ برحمته من يشاء ، ويعزّ من يشاء ، ويذلّ من يشاء ، ويصطفي لدينه من يشاء ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ ﴾ أي : بالقرآن ، وقيل : بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل : بالإيمان ﴿ فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ ، فجاوزوا نفي خيرية القرآن إلى دعوى أنه كذب قديم ، كما قالوا أساطير الأوّلين ، والعامل في "إذ" مقدّر ، أي : ظهر عنادهم ، ولا يجوز أن يعمل فيه ﴿ فَسَيَقُولُونَ ﴾ لتضادّ الزمانين ، أعني : المضيّ والاستقبال ولأجل الفاء أيضاً ، وقيل : إن العامل فيه فعل مقدّر من جنس المذكور ، أي : لم يهتدوا به ، وإذ لم يهتدوا به فسيقولون : ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ موسى ﴾ قرأ الجمهور بكسر الميم من (من) على أنها حرف جرّ ، وهي مع مجرورها خبر مقدّم ، وكتاب موسى مبتدأ مؤخر ، والجملة في محل نصب على الحال ، أو هي مستأنفة ،

والكلام مسوق لردّ قولهم : ﴿ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ فإن كونه قد تقدّم القرآن كتاب موسى ، وهو التوراة وتوافقا في أصول الشرائع يدلّ على أنه حقّ ، وأنه من عند الله ، ويقتضي بطلان قولهم .

وقرىء بفتح ميم " من " على أنها موصولة ونصب كتاب ، أي : وآتينا من قبله كتاب موسى ، ورويت هذه القراءة عن الكلبي ﴿ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ أي : يقتدى به في الدين ، ورحمة من الله لمن آمن به ، وهما منتصبان على الحال ، قاله الزجاج وغيره .

(225/702)

وقال الأخفش على القطع ، وقال أبو عبيدة : أي : جعلناه إماماً ورحمة ﴿ وهذا كتاب مُّصَدّقٌ ﴾ يعني : القرآن فإنه مصدّق لكتاب موسى الذي هو إمام ورحمة ، ولغيره من كتب الله ، وقيل : مصدّق للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وانتصاب ﴿ لّسَاناً عَرَبِيّاً ﴾ على الحال الموطئة ، وصاحبها الضمير في مصدّق العائد إلى كتاب ، وجوّز أبو البقاء أن يكون مفعولاً لمصدّق ، والأوّل أولى ، وقيل : هو على حذف مضاف أي : ذا لسان عربيّ ، وهو النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ لّيُنذِرَ الذين ظَلَمُواْ ﴾ قرأ الجمهور ﴿ لينذر ﴾ بالتحتية على أن فاعله ضمير يرجع إلى الكتاب أي : لينذر الكتاب ، الذين ظلموا ، وقيل : الضمير

راجع إلى الله ، وقيل : إلى الرسول ، والأوّل أولى .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، والبزي بالفوقية على أن فاعله النبي صلى الله عليه وسلم ، واختار هذه القراءة أبو حاتم ، وأبو عبيد ، وقوله : ﴿ وبشرى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ في محل نصب عطفاً على محل ﴿ لينذر ﴾ .

وقال الزجاج : الأجود أن يكون في محل رفع أي : وهو بشرى ، وقيل : على المصدرية لفعل محذوف ، أي : وتبشر بشرى ، وقوله : ﴿ لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ متعلق ببشرى ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا ﴾ أي : جمعوا بين التوحيد والاستقامة على الشريعة ، وقد تقدّم تفسير هذا في سورة السجدة ﴿ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ الفاء زائدة في خبر الموصول لما فيه من معنى الشرط ﴿ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ المعنى : أنهم لا يخافون من وقوع مكروه بهم ، ولا يحزنون من فوات محبوب ، وأن ذلك مستمر دائم .

(226/702)

﴿ أُوْلَئِكَ أصحاب الجنة ﴾ أي : أولئك الموصوفون بما ذكر أصحاب الجنة التي هي دار المؤمنين حال كونهم ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ ، وفي هذه الآية من الترغيب أمر عظيم ، فإن نفي الخوف والحزن على الدوام ، والاستقرار في الجنة على الأبد ، مما لا تطلب الأنفس سواه ،

ولا تتشوّف إلى ما عداه ﴿ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي : يجزون جزاء بسبب أعمالهم التي عملوها من الطاعات لله ، وترك معاصيه .

﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حُسْناً ﴾ قرأ الجمهور ﴿ حسناً ﴾ بضم الحاء ، وسكون السين .

وقرأ عليّ ، والسلمي بفتحهما ، وقرأ ابن عباس ، والكوفيون ﴿ إحساناً ﴾ وقد تقدّم في سورة العنكبوت : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حُسْناً ﴾ [العنكبوت : 8] من غير اختلاف بين القراء ، وتقدّم في سورة الأنعام ، وسورة بني إسرائيل ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ [الإسراء : 23 ، الأنعام : 151] فلعل هذا هو وجه اختلاف القراء في هذه الآية ، وعلى جميع هذه القراءات ، فانتصابه على المصدرية ، أي : وصيناه أن يحسن إليهما حسناً ، أو إحساناً ، وقيل : على أنه مفعول به بتضمين وصينا معنى : ألزمنا ، وقيل : على أنه مفعول له ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً ﴾ قرأ الجمهور ﴿ كرها ﴾ في الموضعين بضم الكاف .

وقرأ أبو عمرو ، وأهل الحجاز بفتحهما .

قال الكسائي : وهما لغتان بمعنى واحد .

قال أبو حاتم : الكره بالفتح لا يحسن ؛ لأنه الغضب والغلبة ، واختار أبو عبيد قراءة الفتح قال : لأن لفظ الكره في القرآن كله بالفتح إلاّ التي في سورة البقرة : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القتال

وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : 216] وقيل : إن الكره بالضم ما حمل الإنسان على نفسه ، وبالفتح ما حمل على غيره .

(227/702)

وإنما ذكر سبحانه حمل الأمّ ووضعها تأكيداً لوجوب الإحسان إليها الذي وصى الله به ، والمعنى : أنها حملته ذات كره ، ووضعته ذات كره ، ثم بيّن سبحانه مدّة حمله وفصاله فقال : ﴿ وَحَمْلُهُ وفصاله ثَلاَثُونَ شَهْراً ﴾ أي : مدتهما هذه المدّة من عند ابتداء حمله إلى أن يفصل من الرضاع ، أي : يفطم عنه .

وقد استدلّ بهذه الآية على أن أقلّ الحمل ستة أشهر ؛ لأن مدّة الرضاع سنتان ، أي : مدّة الرضاع الكامل ، كما في قوله : ﴿ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرضاعة ﴾ [البقرة : 233] فذكر سبحانه في هذه الآية أقل مدّة الحمل ، وأكثر مدّة الرضاع .

وفي هذه الآية إشارة إلى أن حق الأم آكد من حق الأب ؛ لأنها حملته بمشقة ، ووضعته بمشقة ، وأرضعته هذه المدّة بتعب ونصب ، ولم يشاركها الأب في شيء من ذلك .

قرأ الجمهور ﴿ وفصاله ﴾ بالألف ، وقرأ الحسن ، ويعقوب ، وقتادة ، والجحدري (وفصله) بفتح الفاء ، وسكون الصاد بغير ألف ، والفصل والفصال بمعنى : كالفطم

والفطام ، والقطف والقطاف ﴿ حتى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ أي : بلغ استحكام قوّته وعقله ، وقد مضى تحقيق الأشد مستوفى ، ولا بدّ من تقدير جملة تكون حتى غاية لها ، أي : عاش واستمرّت حياته حتى بلغ أشدّه ، قيل : بلغ عمره ثماني عشرة سنة ، وقيل : الأشد : الحلم قاله الشعبي ، وابن زيد .

وقال الحسن : هو بلوغ الأربعين ، والأوّل أولى لقوله : ﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ ، فإن هذا يفيد أن بلوغ الأربعين هو شيء وراء بلوغ الأشد .

قال المفسرون : لم يبعث الله نبياً قط إلاّ بعد أربعين سنة ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى ﴾ أي : ألهمني .

قال الجوهري : استوزعت الله فأوزعني ، أي : استلهمته فألهمني ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وعلى وَالِدَىَّ ﴾ أي : ألهمني شكر ما أنعمت به عليّ من الهداية ، وعلى والديّ من التحنن عليّ منهما حين ربياني صغيراً .

(228/702)

وقيل : أنعمت عليّ بالصحة والعافية ، وعلى والديّ بالغنى والثروة ، والأولى عدم تقييد النعمة عليه ، وعلى أبويه بنعمة مخصوصة ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صالحا ترضاه ﴾ أي : وألهمني

أن أعمل عملاً صالحاً ترضاه مني ﴿ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِى ﴾ أي : اجعل ذرّيتي صالحين راسخين في الصلاح متمكنين منه .

وفي هذه الآية دليل على أنه ينبغي لمن بلغ عمره أربعين سنة أن يستكثر من هذه الدعوات ، وقد روي أنها نزلت في أبي بكر ، كما سيأتي في آخر البحث ﴿ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ من ذنوبي ﴿ وَإِنِّى مِنَ المسلمين ﴾ أي : المستسلمين لك المنقادين لطاعتك المخلصين لتوحيدك .

والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى الإنسان المذكور ، والجمع لأنه يراد به الجنس ، وهو مبتدأ ، وخبره : ﴿ الذين نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ ﴾ من أعمال الخير في الدنيا ، والمراد بالأحسن : الحسن ، كقوله : ﴿ واتبعوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم ﴾ [الزمر : 55] وقيل : إن اسم التفضيل على معناه ، ويراد به : ما يثاب العبد عليه من الأعمال ، لاما لا يثاب عليه كالمباح فإنه حسن ، وليس بأحسن ﴿ وَنَتَجَاوَزُ عَن سيئاتهم ﴾ فلا نعاقبهم عليها .

(229/702)

قرأ الجمهور (يتقبل ، ويتجاوز) على بناء الفعلين للمفعول ، وقرأ حمزة ، والكسائي بالنون فيهما على إسنادهما إلى الله سبحانه ، والتجاوز الغفران ، وأصله من جزت الشئ : إذا لم تقف عليه ، ومعنى ﴿ فِى أصحاب الجنة ﴾ : أنهم كائنون في عدادهم منتظمون في سلكهم ، فالجارّ والمجرور في محل النصب على الحال كقولك : أكرمني الأمير في أصحابه أي : كائناً في جملتهم ، وقيل : إن " في " بمعنى " مع " أي : مع أصحاب الجنة ، وقيل : إنهما خبر مبتدأ محذوف أي : هم في أصحاب الجنة ﴿ وَعْدَ الصدق الذى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ وعد الصدق مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة ؛ لأن قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ الذين نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ ﴾ إلخ في معنى الوعد بالتقبل والتجاوز ، ويجوز أن يكون مصدراً لفعل محذوف ، أي : وعدهم الله وعد الصدق الذي كانوا يوعدون به على ألسن الرسل في الدنيا .

وقد أخرج أبو يعلى ، وابن جرير ، والطبراني ، والحاكم وصححه عن عوف بن مالك الأشجعي : انطلق النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم ، فكرهوا دخولنا عليهم ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" يا معشر اليهود ، أروني اثني عشر رجلاً منكم يشهدون أن لا إله إلاّ الله ، وأن محمداً رسول الله ، يحطّ الله تعالى عن كل يهوديّ تحت أديم السماء الغضب الذي عليه " ، فسكتوا ، فما أجابه منهم أحد ، ثم ردّ عليهم فلم يجبه أحد ثلاثاً ، فقال : " أبيتم فوالله لأنا الحاشر ، وأنا العاقب ، وأنا المقفى آمنتم أو كذبتم " ، ثم انصرف وأنا معه حتى كدنا أن نخرج ، فإذا رجل من خلفه ، فقال : كما أنت يا محمد فأقبل ، فقال ذلك الرجل : أيّ رجل تعلموني فيكم يا معشر اليهود ، فقالوا : والله ما نعلم فينا رجلاً أعلم بكتاب الله ، ولا أفقه منك ولا من أبيك ولا من جدّك ، قال : فإني أشهد بالله أنه النبيّ الذي تجدونه مكتوباً في التوراة والإنجيل ، قالوا : كذبت ، ثم ردّوا عليه وقالوا شراً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كذبتم لن يقبل منكم قولكم " ، فخرجنا ونحن ثلاثة : رسول الله وأنا وابن سلام ، فأنزل الله ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ لاَ يَهْدِى القوم الظالمين ﴾ وصححه السيوطي .

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن سعد بن أبي وقاص قال : ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشي على وجه الأرض : " إنه من أهل الجنة " إلاّ لعبد الله بن سلام ، وفيه نزلت : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مّن بَنِى إسراءيل على مِثْلِهِ ﴾ وأخرج الترمذي وابن جرير وابن مردويه عن عبد الله بن سلام قال : نزل فيّ آيات من كتاب الله نزلت فيّ : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مّن بَنِى إسراءيل ﴾ ، ونزل فيّ ﴿ قُلْ كفى بالله شَهِيداً بَيْنِي

وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب ﴾ [الرعد : 43] .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِى إسراءيل ﴾ قال : عبد الله بن سلام .

وقد روي نحو هذا عن جماعة من التابعين .

(231/702)

وفيه دليل على أن هذه الآية مدنية ، فيخصص بها عموم قولهم إن سورة الأحقاف كلها مكية .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : قال ناس من المشركين : نحن أعزّ ونحن ونحن ، فلو كان خيراً ما سبقنا إليه فلان وفلان ، فنزل : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن عون بن أبي شداد قال : كانت لعمر بن الخطاب أمة أسلمت قبله : يقال لها : زنيرة ، وكان عمر يضربها على الإسلام ، وكان كفار قريش يقولون : لو كان خيراً ما سبقتنا إليه زنيرة ، فأنزل الله في شأنها : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾ الآية .

وأخرج الطبراني عن سمرة بن جندب ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" بنو غفار وأسلم كانوا لكثير من الناس فتنة ، يقولون : لو كان خيراً ما جعلهم الله أوّل الناس فيه " .

وأخرج ابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح ، عن ابن عباس قال : نزل قوله : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بوالديه ﴾ الآية إلى قوله : ﴿ وَعْدَ الصدق الذى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ في أبي بكر الصديق .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن نافع بن جبير أن ابن عباس أخبره قال : إني لصاحب المرأة التي أتى بها عمر وضعت لستة أشهر فأنكر الناس ذلك ، فقلت لعمر : لم تظلم ؟ قال : كيف ؟ قلت اقرأ : ﴿ وَحَمْلُهُ وفصاله ثَلاَثُونَ شَهْراً ﴾ ﴿ والوالدات يُرْضِعْنَ أولادهن حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة : 233] كم الحول ؟ قال : سنة ، قلت : كم السنة ؟ قال : اثنا عشر شهراً ، قلت : فأربعة وعشرون شهراً حولان كاملان ؛ ويؤخر الله من الحمل ما شاء ، ويقدّم ما شاء ، فاستراح عمر إلى قولي .

(232/702)

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عنه أنه كان يقول : إذا ولدت المرأة لتسعة أشهر كفاها من الرضاع أحد وعشرون شهراً ، وإذا ولدت لسبعة أشهر كفاها من

الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً ، وإذا وضعت لستة أشهر ، فحولان كاملان ، لأن الله يقول :

﴿ وَحَمْلُهُ وفصاله ثَلاَثُونَ شَهْراً ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً قال : أنزلت هذه الآية في أبي بكر الصدّيق ﴿ حتى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى ﴾ الآية ، فاستجاب الله له ، فأسلم والداه جميعاً وإخوته ، وولده كلهم ، ونزلت فيه أيضاً ﴿ فَأَمَّا مَنْ أعطى واتقى ﴾ إلى آخر السورة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 16.20 ﴾

(233/702)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (13) ﴾

قد قدمنا الكلام عليه فى سورة فصلت فى الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة ﴾ [فصلت : 30] .

قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ ﴾ .

قرأ هذا الحرف ، نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ﴿ حُسْنا ﴾ بضم الحاء وسكون السين ، وكذلك فى مصاحفهم .

وقرأه عاصم وحمزة والكسائي : إحساناً بهمزة مكسورة وإسكان الحاء وألف بعد السين .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذه الآية في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وقضى ربُّكَ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ إِيَّاهُ وبالوالدين إِحْسَاناً ﴾ [الإسراء : 23] وقال أبو حيان فى البحر :

قيل ضمن ﴿ ووصينا ﴾ معنى ألزمنا فيتدى لاثنين فانتصب حسناً وإحساناً على المفعول الثاني لوصينا .

وقيل : التقدير إيصاء ذا حسن أو ذا إحسان ويجوز أن يكون حسناً بمعنى إحسان فيكون مفعولاً له ، أي ووصيناه بها لإحساننا إليهما فيكون الإحسان من الله تعالى .

وقيل : النصب على المصدر على تضمين معنى أحسنا بالوصية للإنسان بوالديه إحساناً ا ه منه ، وكلها له وجه .

قوله تعالى : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً ﴾ .

قرأ هذا الحرف نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام عن ابن عامر : ﴿ كَرها ﴾ بفتح الكاف في الموضعين .

وقرأه عاصم وحمزة والكسائي ، وابن ذكوان ، عن ابن عامر : ﴿ كُرهاً ﴾ بضم الكاف فى الموضعين .

وهما لغتان كالضُّعف والضَّعف .

ومعنى حملته ﴿ كرها ﴾ أنها فى حال حملها به تلاقي مشقة شديدة .

ومن المعلوم ما تلاقيه الحامل ، من المشقة والضعف ، إذا أثقلت وكبر الجنين فى بطنها .

ومعنى وضعته كرهاً : أنها في حالة وضع الولد ، تلاقي من ألم الطلق ، وكربه مشقة شديدة ، كما هو معلوم .

(234/702)

وهذه المشاق العظيمة التي تلاقيها الأم فى حمل الولد ووضعه ، لا شك أنها يعظم حقها بها ، ويتحتم برها ، والإحسان إليها كما لا يخفى .

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من المشقة التي تعانيها الحامل ، ودلت عليه آية أخرى ، وهى قوله تعالى في لقمان : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً على وَهْنٍ ﴾ [لقمان : 14] أي تهن به وهناً على وهن أي ضعفاً على ضعف ، لأن الحمل كلما تزايد وعظم فى بطنها ، ازدادت ضعفاً على ضعف .

وقوله فى آية الأحقاف هذه كرهاً فى الموضعين مصدر منكر وهو حال أي حملته ذات كره ووضعته ذات كره ، وإتيان المصدر المنكر حالاً كثير كما أشار له فى الخلاصة بقوله :

ومصدر منكر حالا يقع . . . بكثرة كبغتة زيد طلع

وقال بعضهم : كرهاً فى الموضعين نعت لمصدر ، أي حملته حملاً ذاكره ، ووضعته وضعاً ذاكره ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً ﴾ .

هذه الآية الكريمة ، ليس فيها بانفرادها تعرض لبيان أقر من مدة الحمل ، ولكنها بضميمة بعض الآيات الأخرى إليها يعلم أقل أمد الحمل ، لأن هذه الآية الكريمة ، من سورة الأحقاف ، صرحت بأن أمد الهحمل والفصال معاً ، ثلاثون شهراً .

وقوله تعالى فى لقمان : ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾

[لقمان : 14] وقوله في البقرة ﴿ والوالدات يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة : 223] يبين أن أمد الفصال عامان وهما أربعة وعشرون شهراً ، فإذا طرحتها من الثلاثين بقيت ستة أشهر ، فتعين كونها أمداً للحمل ، وهي أقله ، ولا خلاف فى ذلك بين العلماء .

ودلالة هذه الآيات على أن ستة أشهر أمد للحمل هي المعروفة عند علماء الأصول بدلالة الإشارة .

وقد أوضحنا الكلام عليها ، فى مباحث الحج ، في سورة الحج ، في مبحث أقوال أهل العلم ، في حكم المبيت بمزدلفة ، وأشرنا لهذا النوع ، من البيان في ترجمة هذا الكتاب المبارك .

(235/702)

قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه فى سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ ، في ترجمة هذا الكتاب المبارك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(236/702)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (13) ﴾

استئناف بياني أوثر بصريحه جانب المؤمنين من المستمعين للقرآن لأنهم لما سمعوا البشرى تطلعوا إلى صفة البشرى وتعيينِ المحسنين ليضعوا أنفسهم في حق مواضعها ، فأجيبوا بأن البشرى هي نَفي الخوف والحزن عنهم ، وأنهم أصحاب الجنة وأن المحسنين هم الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا في أعمالهم .

وأشير بمفهومه إلى التعريض بالذين ظلموا فإن فيه مفهوم القصر من قوله : ﴿ أولئك

أصحاب الجنة ﴾ .

وتعريفُهم بطريق الموصولية لما تؤذن به الصلة من تعليل كرامتهم عند الله لأنهم جمعوا حسنَ معاملتهم لربهم بتوحيده وخوفه وعبادته ، وهو ما دل عليه ﴿ قالوا ربنا الله ﴾ إلى حسن معاملتهم أنفسهم وهو معنى ﴿ ثم استقاموا ﴾ .

وجيء في صلة الموصول بفعل ﴿ قالوا ﴾ لإيجاز المقول وغنيته عن أن يقال : اعترفوا بالله وحده وأطاعوه .

والمراد : أنهم قالوا ذلك واعتقدوا معناه إذ الشأن في الكلام الصدق وعملوا به لأن الشأن مطابقة العمل للاعتقاد .

﴿ ثمَّ ﴾ للتراخي الرتبي : وهو الارتقاء والتدرج ، فإن مراعاة الاستقامة أشق من حصول الإيمان لاحتياجها إلى تكرر مراقبة النفس ، فأما الإيمان فالنظر يقتضيه واعتقاده يحصل دفعة لا يحتاج إلى تجديد ملاحظة .

فهذا وجه التراخي الرتبي من جهة ، وإن كان الإيمان أرقى درجة من العمل من حيث إنه شرط في الاعتداد بالعمل ولذلك عطف بـ ﴿ ثم ﴾ التي للتراخي في قوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما العَقبة فَكّ رقبة إلى قوله : ﴿ ثمّ كان من الذين آمنوا ﴾ [البلد : 12 17] ، فالاعتباران مختلفان باختلاف المقام المسوق فيه الكلام كما يظهر بالتأمل هنا وهناك ، وتقدم نظيره في سورة فصّلت .

ودخول الفاء على خبر الموصول وهو ﴿ فلا خوف عليهم ﴾ لمعاملة الموصول معاملة الشرط كأنه قيل : إن قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ، ومثله كثير في القرآن ، فأفاد تسبب ذلك في أمنهم من الخوف والحزن .

و ﴿ عليهم ﴾ خبر عن خوف ، أي لا خوف يتمكن منهم ويصيبهم ويلحقهم .

وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي في قوله : ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ لتخصيص المسند إليه بالخبر نحو : ما أنا قلتُ هذا ، أي أن الحزن منتف عنهم لا عن غيرهم ، والمراد بالغير : من لم يتصف بالإيمان والاستقامة في مراتب الكفر والعصيان ، فجنس الخوف ثابت لمن عداهم على مراتب توقع العقاب حتى في حالة الوجل من عدم قبول الشفاعة فيهم ومن توقع حرمانهم من نفحَات الله تعالى .

واستحضارهم بطريق اسم الإشارة في قوله : ﴿ أولئك أصحاب الجنة ﴾ للتنبيه على أنهم أحرياء بما يَرد من الإخبار عنهم بما بعد الإشارة لأجل الأوصاف المذكورة قبل اسم الإشارة ، كما تقدم في قوله : ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ في أول سورة البقرة (5) .

وأصحاب الجنة ﴾ أدل على الاختصاص بالجنة من أن يقال : أولئك في الجنة وأولئك لهم

الجنة لما في ﴿ أصحاب ﴾ من معنى الاختصاص وما في الإضافة أيضاً .

وقوله : ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ تصريح بما استفيد من تعليل الصلة في الخبر ومن اقتضاء اسم الإشارة جدارتهم بما بعده وما أفاده وصف أصحاب وما أفادته الإضافة ، وهذا من تمام العناية بالتنويه بهم .

﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بوالديه إحسانا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً ﴾

تطلب بعض المفسرين وجه مناسبة وقوع هذه الآية عقب التي قبلها ، وذكر القرطبي عن القشيري أن وجه اتصال الكلام بعضه ببعض أن المقصود بيان أنه لا يبعد أن يستجيب بعض الناس للنبيء صلى الله عليه وسلم ويكفر به بعضهم كما اختلف حال الناس مع الوالدين .

(238/702)

وقال ابن عساكر : لما ذكر الله التوحيد والاستقامة عطف الوصية بالوالدين كما هو مقرون في غير ما آية من القرآن .

وكلا هذين القولين غير مقنع في وجه الاتصال .

ووجه الاتصال عندي أن هذا انتقال إلى قول آخر من أقوال المشركين وهو كلامهم في إنكار

البعث وجدالهم فيه فإن ذلك من أصول كفرهم بمحل القصد من هذه الآيات قوله : ﴿ والذي قال لوالديه أفٍ لكما إلى قوله : ﴿ خاسرين ﴾ [الأحقاف : 17 ، 18] .

وصيغ هذا في أسلوب قصة جدال بين والدين مؤمنين وولد كافر ، وقصة جدال بين ولد مؤمن ووالدين كافرين لأن لذلك الأسلوب وقعا في أنفس السامعين مع ما روي أن ذلك إشارة إلى جدال جرى بين عبد الرحمان بن أبي بكر الصديق قبل إسلامه وبين وَالديه كما سيأتي .

ولذلك تعيّن أن يكون ما قبله توطئة وتمهيداً لذكر هذا الجدال .

وقد روى الواحدي عن ابن عبّاس أن قوله : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً إلى قوله : ﴿ يوعدون ﴾ [الأحقاف : 15 ، 16] نزل في أبي بكر الصديق .

وقال ابن عطية وغير واحد : نزلت في أبي بكر وأبيه (أبي قحافة) وأمه (أم الخير) أسلم أبواه جميعاً .

وقد تكررت الوصاية ببر الوالدين في القرآن وحرض عليها النبي صلى الله عليه وسلم في مواطن عديدة فكان البر بالوالدين أجلى مظهراً في هذه الأمة منه في غيرها وكان من بركات أهلها بحيث لم يبلغ بر الوالدين مبلغاً في أمة مبلغه في المسلمين .

وتقدم ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسنا ﴾ في سورة العنكبوت (8) .

والمراد بالإنسان الجنس ، أي وصينا الناس وهو مراد به خصوص الناس الذين جاءتهم

الرسل بوصايا الله والذين آمنوا وعملوا الصالحات وذلك هو المناسب لقوله في آخرها ﴿ أولئك الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ﴾ [الأحقاف : 16] الآية .

وكذلك هو فيما ورد من الآيات في هذا الغرض كما في سورة العنكبوت وفي سورة لقمان بصيغة واحدة .

والحُسن : مصدر حَسُن ، أي وصيناه بحُسن المعاملة .

وقرأه الجمهور كذلك .

(239/702)

وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلف ﴿ إحسانا ﴾ .

والنصب على القراءتين إما بنزع الخافض وهو الباء وإما بتضمين ﴿ وصيْنَا ﴾ معنى : ألزمنا .

والكره : بفتح الكاف وبضمها مصدر أكره ، إذا امتعض من شيء ، أي كان حمله مكروهاً لها ، أي حالة حمله وولادته لذلك .

وقرأ الجمهور ﴿ كَرها ﴾ في الموضعين بفتح الكاف .

وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وابن ذكوان عن ابن عامر ويعقوب بضم الكاف في

الموضعين .

وانتصب ﴿ كرها ﴾ على الحال ، أي كارهة أو ذات كَره .

والمعنى : أنها حملته في بطنها متعبَة من حمله تعباً يجعلها كارهة لأحوال ذلك الحمل .

ووضعته بأوجاع وآلام جعلتها كارهة لوضعه .

وفي ذلك الحمل والوضع فائدة له هي فائدة وجوده الذي هو كمال حال الممكن وما ترتب على وجوده من الإيمان والعمل الصالح الذي به حصول النعم الخالدة .

وأشير إلى ما بعد الحمل من إرضاعه الذي به علاج حياته ودفع ألم الجوع عنه وهو عمل شاق لأمه فذُكرت مدة الحمل والإرضاع لأنها لطولها تستدعي صبرَ الأم على تحمل كلفة الجنين والرضيع .

والفصال : الفطام ، وذكر الفصال لأنه انتهاء مدة الرضاع فذكر مبدأ مدة الحمل بقوله : ﴿ وحملُه ﴾ وانتهاءُ الرضاع بقوله : ﴿ وفصالُه ﴾ .

والمعنى : وحمله وفصاله بينهما ثلاثون شهراً .

وقرأ يعقوب ﴿ وفصْله ﴾ بسكون الصاد ، أي فصله عن الرضاعة بقرينة المقام .

ومن بديع معنى الآية جمع مدة الحمل إلى الفصال في ثلاثين شهراً لتُطابق مختلف مدد الحمل إذ قد يكون الحمل ستة أشهر وسبعة أشهر وثمانية أشهر وتسعة وهو الغالب ، قيل : كانوا إذا كان حمل المرأة تسعة أشهر وهو الغالب أرضعتْ المولود أحد وعشرين شهراً ، وإذا كان الحمل ثمانية أشهر أرضعت اثنين وعشرين شهراً ، وإذا كان الحمل سبعة أشهر أرضعت ثلاثة وعشرين شهراً ، وإذا كان الحمل ستة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهراً ، وذلك أقصى أمد الإرضاع فعوضوا عن نقص كل شهر من مدة الحمل شهراً زائداً في الإرضاع لأن نقصان مدة الحمل يؤثر في الطفل هزالاً .

ومن بديع هذا الطيّ في الآية أنها صالحة للدلالة على أن مدة الحمل قد تكون دون تسعة أشهر ولولا أنها تكون دون تسعة أشهر لحددته بتسعة أشهر لأن الغرض إظهار حق الأم في البر بما تحملته من مشقة الحمل فإن مشقة مدة الحمل أشدّ من مشقة الإرضاع فلولا قصد الإيماء إلى هذه الدلالة لكان التحديد بتسعة أشهر أجدرَ بالمقام .

وقد جعل علي بن أبي طالب رضي الله عنه هذه الآية مع آية سورة البقرة (233) ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ﴾ دليلاً على أن الوضع قد يكون لستة أشهر ، ونسب مثله إلى ابن عباس .

ورووا عن معمر بن عبد الله الجهني قال : تزوج رجل منا امرأة من جهينة فولدت لتمام ستة أشهر فانطلق زوجها إلى عثمان بن عفان فذكر له فبعث إليها عثمان ، فلما أتي بها أمر

برجمها فبلغ ذلك عَليّاً فأتاه فقال : أما تقرأ القرآن قال : بلى .

قال : أما سمعت قوله : وحملهُ وفصاله ثلاثون شهراً ﴾ ، وقال : ﴿ حولين كامِلين ﴾ فلم نجده بَقي إلا ستة أشهر .

فرجع عثمان إلى ذلك وهو استدلال بني على اعتبار أن شمول الصور النادرة التي يحتملها لفظ القرآن هو اللائق بكلام علاّم الغيوب الذي أنزله تبياناً لكل شيء من مثل هذا .

وتقدم الكلام على أحكام الحمل في سورة البقرة .

(241/702)

﴿ شَهْراً حتى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوزعنى أَنْ أَشكُرَ نِعْمَتَكَ التى أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعلى والدى وَأَنْ أَعْمَلَ صالحا ترضاه وَأَصْلِحْ لى فِى ذريتى إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ﴾ .

﴿ حتى ﴾ ابتدائية ومعناها معنى فاء التفريع على الكلام المتقدم ، وإذ كانت ﴿ حتى ﴾ لا يفارقها معنى الغاية كانت مؤذنة هنا بأن الإنسان تدرج في أطواره من وقت فصاله إلى أن بلغ أشده ، أي هو موصًى بوالديه حسناً في الأطوار الموالية لفصاله ، أي يوصيه وليّه في أطوار طفولته ثم عليه مراعاة وصية الله في وقت تكليفه .

ووقوع ﴿ إذا ﴾ بعد ﴿ حتى ﴾ ليرتب عليها توقيت ما بعد الغاية من الخبر ، أي كانت الغاية وقت بلوغه الأشدّ ، وقد تقدمت نظائر ذلك قريباً وبعيداً منها قوله تعالى : ﴿ حتى إذا فشلتم ﴾ في سورة آل عمران (152) .

ولما كان إذا ﴾ ظرفاً لزمن مستقبل كان الفعل الماضي بعدها منقلباً إلى الاستقبال ، وإنما صيغ بصيغة الماضي تشبيهاً للمؤكد تحصيله بالواقع ، فهو استعارة .

و ﴿ إذا ﴾ تجريد للاستعارة ، والمعنى : حتى يبلغ أشده ، أي يستمر على الإحسان إليهما إلى أن يبلغ أشده فإذا بلغه ﴿ قال رب أوزِعْني ﴾ ، أي طلب العون من الله على زيادة الإحسان إليهما بأن يلهمه الشكر على نعمه عليه وعلى والديه .

ومن جملة النعم عليه أن ألهمه الإحسانِ لوالديه .

ومن جملة نعمه على والديه أن سخر لهما هذا الولد ليحسن إليهما ، فهاتان النعمتان أول ما يتبادر عن عموم نعْمة الله عليه وعلى والديه لأن المقام للحديث عنهما .

وهذا إشارة إلى أن الفعل المؤقت ببلوغ الأشد وهو فعل ﴿ قال ربّ أوزعني ﴾ من جملة ما وُصِي به الإنسان ، أي أن يحسن إلى والديه في وقت بلوغه الأشد .

فالمعنى : ووصينا الإنسان حُسناً بوالديه حتى في زمن بلوغه الأشد ، أي أن لا يفتر عن الإحسان إليهما بكل وجه حتى بالدعاء لهما .

وإنما خص زمان بلوغه الأشد لأنه زمن يكثر فيه الكلف بالسعي للرزق إذ يكون له فيه زوجة وأبناء وتكثر تكاليف المرأة فيكون لها فيه زوج وبيت وأبناء فيكونان مظنة أن تشغلهما التكاليف عن تعهد والديهما والإحسان إليهما فنبها بأن لا يفتُرا عن الإحسان إلى الوالدين .

ومعنى ﴿ قال ربّ أوزعني ﴾ أنه دعا ربه بذلك ، ومعناه : أنه مأمور بالدعاء إليهما بأنه لا يشغله الدعاء لنفسه عن الدعاء لهما وبأنه يحسن إليهما بظهر الغيب منهما حين مناجاته ربه ، فلا جرم أن إحسانه إليهما في المواجهة حاصل بفحوى الخطاب كما في طريقة الفحوى في النهي عن أذاهما بقوله تعالى : ﴿ فلا تقل لهما أف ﴾ [الإسراء : 23] .

وحاصل المعنى : أن الله أمر بالإحسان إلى الوالدين في المشاهدة والغيبة وبجميع وسائل الإحسان الذي غايته حصول النفع لهما ، وهو معنى قوله تعالى:

﴿ وقل رب ارحمهما كما ربَّياني صغيرا ﴾ [الإسراء : 24] وأن الله لمّا أمر بالدعاء للأبوين وعد بإجابته على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم لقوله : " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، وعلم بثه في صدور الرجال ، وولد صالح يدعو له بخير " وما شُكر الولد ربه على النعمة التي أنعمها الله على والديه إلا من باب نيابته عنهما في هذا الشكر ، وهو من جملة العمل الذي يؤديه الولد عن والديه .

وفي حديث الفضل بن عباس أن المرأة الخثعمية قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حجة الوداع "إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يثبت على الراحلة أفيجزِىءُ أن أحُجّ عنه ، قال : " نعم حُجِّي عنه " ، وهو حج غير واجب على أبيها لعجزه .

والأشُدّ : حالة اشتداد القوى العقلية والجسدية وهو جمع لم يسمع له بمفرد .

وقيل مفرده : شِدّة بكسر الشين وهاء التأنيث مثل نعمة جمعها أنْعُم ، وليس الأشد اسماً لعدد من سني العمر وإنما سِنُو العمر مظنة للأشُدّ .

(243/702)

ووقتُه ما بعد الثلاثين سنة وتمامه عند الأربعين سنة ولذلك عطف على ﴿ بلَغ أشده ﴾ قوله : ﴿ وبلغ أربعين سنة ﴾ أي بلغ الأشد ووصل إلى أكمله فهو كقوله تعالى : ﴿ ولما بلغ أشده واستوى ﴾ [القصص : 14] ، وتقدم في سورة يوسف ، وليس قوله : ﴿ وبلغ أربعين سنة ﴾ تأكيداً لقوله ﴿ بلغ أشده ﴾ لأن إعادة فعل بلغ تبعد احتمال التأكيد وحرف العطف أيضاً يبعد ذلك الاحتمال .

و﴿ أوزعني ﴾ : ألهمني .

وأصل فعل أوزع الدلالة على إزالة الوَزْع ، أي الانكفاف عن عمل ما ، فالهمزة فيه للإزالة ، وتقدم في سورة النمل .

و﴿ نعمتك ﴾ اسم مصدر مضاف يعمّ ، أي ألهمني شكر النعم التي أنعمت بها علي وعلى والدي من جميع النعم الدينية كالإيمان والتوفيق ومن النعم الدنيوية كالصحة والجِدة .

وما ذكر من الدعاء لذريته بقوله : ﴿ وأصلح لي في ذريتي ﴾ استطراد في أثناء الوصاية بالدعاء للوالدين بأن لا يغفل الإنسان عن التفكر في مستقبله بأن يصرف عنايته إلى ذريته كما صرفها إلى أبويه ليكون له من إحسان ذريته إليه مثل ما كان منه لأبويه وإصلاح الذرية يشمل إلهامهم الدعاء إلى الوالد .

وفي إدماج تلقين الدعاء بإصلاح ذريته مع أن سياق الكلام في الإحسان إلى الوالدين إيماء إلى أن المرء يلقى من إحسان أبنائه إليه مثل ما لقي أبواه من إحسانه إليهما ، ولأن دعوة الأب لابنه مرجوة الإجابة .

وفي حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم " ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن : دعوة الوالد على ولده ، ودعوة المسافر ، ودعوة المظلوم " ، وفي رواية "لولده" وهو حديث حسن متعددة طرقه .

واللام في ﴿ وأصلح لي ﴾ لام العلة ، أي أصلح في ذريتي لأجلي ومنفعتي كقوله تعالى: ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ [الشرح : 1] .

ونكتة زيادة هذا في الدعاء أنه بعد أن أشار إلى نعم الله عليه وعلى والديه تعرض إلى نفحات الله فسأله إصلاح ذريته وعرَّض بأن إصلاحهم لفائدته ، وهذ تمهيد لبساط الإجابة كأنه يقول : كما ابتدأتني بنعمتك وابتدأت والديّ بنعمتك ومتعتهما بتوفيقي إلى برهما ، كَمِّلْ إنعامك بإصلاح ذريتي فإن إصلاحهم لي .

وهذه ترقيات بديعة في درجات القرب .

ومعنى ظرفية ﴿ في ذريتي ﴾ أن ذريته نزلت منزلة الظرف يَستقر فيه ما هو به الإصلاح ويحتوي عليه ، وهو يفيد تمكن الإصلاح من الذرية وتغلغله فيهم .

ونظيره في الظرفية قوله تعالى : ﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴾ [الزخرف : 28] .

وجملة ﴿ إني تبت إليك ﴾ كالتعليل للمطلوب بالدعاء تعليل توسل بصلة الإيمان والإقرار بالنعمة والعبودية .

وحرف (إنَّ) للاهتمام بالخبر كما هو ظاهر ، وبذلك يستعمل حرف (إنَّ) في مقام التعليل ويغني غناء الفاء .

والمراد بالتوبة : الإيمان لأنه توبة من الشرك ، وبكونه من المسلمين أنه تبع شرائع الإسلام وهي

الأعمال .

وقال : ﴿ من المسلمين ﴾ دون أن يقول : وأسلمت كما قال : ﴿ تُبت إليك ﴾ لما يؤذن به اسم الفاعل من التلبس بمعنى الفعل في الحال وهو التجدد لأن الأعمال متجددة متكررة ، وأما الإيمان فإنما يحصل دفعة فيستقر لأنه اعتقاد ، وفيه الرعي على الفاصلة .

هذا وجه تفسير الآية بما تعطيه تراكيبها ونظمها دون تكلف ولا تحمّل ، وهي عامة لكل مسلم أهل لوصاية الله تعالى بوالديه والدعاء لهما إن كانا مؤمنين .

أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (16)

جيء باسم الإشارة للغرض الذي ذكرناه آنفاً عند قوله : ﴿ أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها ﴾ [الأحقاف : 14] .

(245/702)

وكونه إشارة جمع ومخبرة عنه بألفاظ الجمع ظاهر في أن المراد بالإنسان من قوله : ﴿ ووصينا الإنسان ﴾ [الأحقاف : 15] غير معيّن بل المراد الجنس المستعمل في الاستغراق كما قدمناه .

والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً لأن ما قبلها من الوصف والحثّ يُحدث ترقب السامع لمعرفة فائدة ذلك فكان قوله : ﴿ أولئك الذين يتقبل عنهم ﴾ إلى آخره جواباً لترقية .

وعموم ﴿ أحسنُ ما عملوا ﴾ يكسب الجملة فائدة التذييل ، أي الإحسان بالوالدين والدعاء لهما وللذرية من أفضل الأعمال فهو من أحسن ما عملوا .

وقد تُقبل منهم كل ما هو أحسن ما عملوا .

والتقبل : ترتب آثار العمل من ثواب على العمل واستجابة للدعاء .

وفي هذا إيماء إلى أن هذا الدعاء مرجوّ الإجابة لأن الله تولى تلقينه مثل الدعاء الذي في سورة الفاتحة ودعاء آخر سورة البقرة .

وعدّي فعل ﴿ يتقبل ﴾ بحرف (عَن) ، وحقه أن يعدّى بحرف (مِن) تغليباً لجانب المدعو لهم وهم الوالدان والذرّية ، لأن دعاء الوَلد والوالد لأولئك بمنزلة النيابة عنهم في عبادة الدعاء وإذا كان العمل بالنيابة متقبلاً علم أن عمل المرء لنفسه متقبل أيضاً ففي الكلام اختصار كأنه قيل : أولئك يتقبل منهم ويتقبل عن والديْهم وذريتهم أحسن ما عملوا .

وقرأ الجمهور ﴿ يتقبل ﴾ و ﴿ يتجاوز ﴾ بالياء التحتية مضمومة مَبْنيين للنائب و ﴿ أحسن ﴾ مرفوع على النيابة عن الفاعل ولم يذكر الفاعل لظهور أن المتقبل هو الله وقرأهما حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف بنونين مفتوحتين ونصب ﴿ أحسنَ ﴾ .

وقوله : ﴿ في أصحاب الجنة ﴾ في موضع الحال من اسم الإشارة ، أي كائنين في أصحاب

الجنة حين يتقبل أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم لأن أصحاب الجنة متقبل أحسن أعمالهم ويتجاوز عن سيئاتهم ، وذكر هذا للتنويه بهم بأنهم من الفريق المشَّرفين كما يقال : أكرمه في أهل العلم .

(246/702)

وانتصب ﴿ وعْدَ الصدق ﴾ على الحال من التقبل والتجاوز المفهوم من معاني ﴿ يتقبل ﴾ و ﴿ يتجاوز ﴾ ، فجاء الحال من المصدر المفهوم من الفعل كما أعيد عليه الضمير في قوله تعالى : ﴿ اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ [المائدة : 8] ، أي العدل أقرب للتقوى .

والوعد : مصدر بمعنى المفعول ، أي ذلك موعدهم الذي كانوا يوعدونه .

وإضافة ﴿ وعد ﴾ إلى ﴿ الصدق ﴾ إضافةٌ على معنى (من) ، أي وعدٌ من الصدق إذ لا يتخلف .

و ﴿ الذي كانوا يوعدون ﴾ صفة وعْد الصدق ، أي ذلك هو الذي كانوا يوعدونه في الدنيا بالقرآن في الآيات الحاثة على بِرّ الوالدين وعلى الشكر وعلى إصلاح الذرية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(247/702)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ حتى إذا بلغ أشده ﴾

قال الزجاج الأشد من نحو سبع عشرة سنة الى نحو الأربعين وقال ابن عباس في رواية عطاء عنه الأشد الحلم وهو اختيار يحيى بن يعمر والسدي وروى مجاهد عنه ستا وثلاثين سنة وروى عنه أيضا ثلاثين وقال الضحاك عشرين سنة وقال مقاتل ثمان عشرة وقد أحكم الزهري تحكيم اللفظة فقال بلوغ الأشد يكون من وقت بلوغ الإنسان مبلغ الرجال الى أربعين سنة قال فبلوغ الأشد محصور الأول محصور النهاية غير محصور ما بين ذلك فبلوغ الأشد مرتبة بين البلوغ وبين الأربعين ومعنى اللفظة من الشدة وهي القوة والجلادة والشديد الرجل القوي فالأشد القوي قال الفراء واحدها شدة في القياس ولم أسمع لها بواحد

وقال أبو الهيثم واحدها شدة كنعمة وأنعم وقال بعض أهل اللغة واحدها شدة بضم الشين وقال آخرون منهم هو اسم مفرد كالآنك وليس بجمع حكاهما ابن الأنباري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تحفة المودود صـ 211 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) ﴾

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت بمكة سورة ﴿ حم ﴾ الأحقاف .

وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

وأخرج أحمد بسند جيد عن ابن مسعود قال : أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة من آل ﴿ حم ﴾ وهي الأحقاف ، قال : وكانت السورة إذا كانت أكثر من ثلاثين آية سميت ثلاثين .

وأخرج ابن الضريس ، والحاكم وصححه ابن مسعود قال : أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة الأحقاف ، وأقرأها آخر فخالف قراءته ، فقلت : من أقرأكها ؟ قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت : والله لقد أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم غير ذا . فأتينا رسول الله صلى الله ، فقلت يا رسول الله : ألم تقرئني كذا وكذا ؟ قال : بلى ، فقال الآخر : ألم تقرئني كذا وكذا قال : بلى . فتمعّر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ليقرأ كل واحدٍ منكما ما سمع فإنما هلك من كان قبلكم بالاختلاف .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ

ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (4)

أخرج أحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ أو أثارة من علم ﴾ قال : " الخط " .

وأخرج الفريابي ، وعبد بن حميد ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والخطيب من طريق أبي سلمة عن ابن عباس ﴿ أو أثارة من علم ﴾ قال : هذا الخط .

وأخرج سعيد بن منصور من طريق صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار قال : " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخط فقال : علمه نبي ومن كان وافقه علم . قال : صفوان : فحدثت به أبا سلمة بن عبد الرحمن فقال : سألت ابن عباس فقال : ﴿ أو أثارة من علم ﴾ " .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن مردويه عن أبي هريرة قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كان نبي من الأنبياء يخط فمن صادف مثل خطه علم " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ أو أثارة من

علم ﴾ قال : حسن خط .

وأخرج الطبراني في الأوسط ، والحاكم من طريق الشعبي عن ابن عباس ﴿ أو أثارة من علم ﴾ قال : جودة الخط .

وأخرج ابن جرير من طريق أبي سلمة عن ابن عباس في قوله ﴿ أو أثارة من علم ﴾ قال : خط كان تخطه العرب في الأرض .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ أو أثارة من علم ﴾ قال : أو خاصة من علم .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ أو أثارة من علم ﴾ يقول : بينة من الأمر .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ أو أثارة من علم ﴾ قال : أحد يأثر علماً وفي قوله ﴿ هو أعلم بما تفيضون فيه ﴾ قال : تقولون .

قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (9)

أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل ﴾ يقول لست بأوّل الرسل ﴿ وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ﴾ فأنزل الله بعد هذا ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ [الفتح : 2] وقوله ﴿

ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات ﴾ [الفتح : 3] الآية فأعلم الله سبحانه نبيه ما يفعل به وبالمؤمنين جميعاً .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل ﴾ قال : ما كنت بأوّلهم .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل ﴾ قال : يقول : قد كانت الرسل قبله .

وأخرج ابن المنذر عن عطية رضي الله عنه في قوله ﴿ وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ﴾ قال : هل يترك بمكة أو يخرج منها ؟

(250/702)

وأخرج أبو داود في ناسخه من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ﴾ قال : نسختها هذه الآية التي في الفتح ، فخرج إلى الناس فبشرهم بالذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . فقال رجل من المؤمنين : هنيئاً لك يا نبي الله قد علمنا الآن ما يفعل بك ، فماذا يفعل بنا ؟ فأنزل الله في سورة الأحزاب ﴿ وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً ﴾ [الأحزاب : 47] وقال ﴿ ليدخل المؤمنين

والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً ﴾ [الفتح : 5] فبين الله ما به يفعل وبهم .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة والحسن مثله .

وأخرج أحمد ، والبخاري ، والنسائي ، وابن مردويه عن أم العلاء رضي الله عنها وكانت بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها قالت " لما مات عثمان بن مظعون رضي الله عنه قلت : رحمة الله عليك أبا السائب شهادتي عليك لقد أكرمك الله . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما يدريك أن الله أكرمه ؟ أما هو فقد جاءه اليقين من ربه وإني لأرجو له الخير ، والله ما أدري ، وأنا رسول الله ، ما يفعل بي ولا بكم . قالت أم العلاء : فوالله ما أُزَكّي بعد أحداً " .

وأخرج الطبراني ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " لما مات عثمان بن مظعون رضي الله عنه قالت امرأته ، أو امرأة : هنيئاً لك ابن مظعون الجنة . فنظر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر مغضب وقال : " وما يدريك والله إني لرسول الله وما أدري ما يفعل الله بي " . قال : وذلك قبل أن ينزل ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ فقالت يا رسول الله صاحبك وفارسك وأنت أعلم ، فقال : " أرجو له رحمة ربه ، وأخاف عليه ذنبه " " .

وأخرج ابن حبان والطبراني عن زيد بن ثابت رضي الله عنه " أن عثمان بن مظعون رضي الله عنه لما قبض قالت أم العلاء : طبت أبا السائب نفساً إنك في الجنة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " وما يدريك ؟ " قالت : يا رسول الله عثمان بن مظعون قال : " أجل ما رأينا إلا خيراً والله ما أدري ما يصنع بي " " .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه قال " لما نزلت هذه الآية ﴿ وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ﴾ عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخوف زماناً ، فلما نزلت ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ [الفتح : 1 - 2] اجتهد ، فقيل له : تجهد نفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر . قال : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ " .

وأخرج ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ﴾ قال : ثم درى نبي الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك ما يفعل به يقول ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن الحسن في قوله ﴿ وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ﴾ قال : أما في الآخرة فمعاذ الله قد علم أنه في الجنة حين أخذ ميثاقه في الرسل ، ولكن ﴿ ما أدري ما يفعل بي ولا بكم ﴾ في الدنيا ، أخرج كما أخرجت الأنبياء من قبلي ، أم أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلي ﴿ ولا بكم ﴾ أمتي المكذبة أم أمتي المصدقة أم أمتي المرمية بالحجارة من السماء قذفاً أم يخسف بها خسفاً ثم أوحي إليه ﴿ وإذا قلنا لك أن ربك أحاط بالناس ﴾ [الاسراء : 60] يقول : أحطت لك بالعرب لا يقتلوك ، فعرف أنه لا يقتل ، ثم أنزل ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً ﴾ [التوبة : 33] يقول : أشهد لك على نفسه أنه سيظهر دينك على الأديان ثم قال له في أمته ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ [الرعد : 43] فأخبر الله ما صنع به وما يصنع بأمته .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10)

(253/702)

أخرج أبو يعلى ، وابن جرير ، والطبراني ، والحاكم وصححه بسند صحيح عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال : " انطلق النبي صلى الله عليه وسلم وأنا معه حتى دخلنا على كنيسة اليهود يوم عيدهم ، فكرهوا دخولنا عليهم ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أروني اثني عشر رجلاً منكم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يحبط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي عليه . فسكتوا فما أجابه منهم أحد ، ثم رد عليه فلم يجبه أحد ، فثلث فلم يجبه أحد ، فقال : أبيتم فوالله لأنا الحاشر وأنا العاقب وأنا المقفي آمنتم أم كذبتم . ثم انصرف وأنا معه حتى كدنا أن نخرج فإذا رجل من خلفه ، فقال : كما أنت يا محمد فأقبل فقال ذلك الرجل أي رجل تعلموني فيكم يا معشر اليهود ؟ فقالوا : والله ما نعلم فينا رجلاً أعلم بكتاب الله ولا أفقه منك ولا من أبيك ولا من جدك . قال : فإني أشهد بالله أنه النبي الذي تجدونه في التوراة والإنجيل . قالوا : كذبت ، ثم ردوا عليه ، وقالوا : شراً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كذبتم لن يقبل منكم قولكم . فخرجنا ونحن ثلاث : رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا وابن سلام . فأنزل الله ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ " .

وأخرج البخاري ومسلم والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشي

على وجه الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام ، وفيه نزلت ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله ﴾ .

(254/702)

وأخرج الترمذي وابن جرير وابن مردويه عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال : نزلت فيّ آيات في كتاب الله ، نزلت فيّ ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ ونزل فيَّ ﴿ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ [الأحقاف : 16] .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل ﴾ قال : عبد الله بن سلام .

وأخرج ابن سعد وعبد حميد وابن جرير عن مجاهد والضحاك مثله .

وأخرج ابن عساكر عن زيد بن أسلم وقتادة مثله .

وأخرج ابن سعد وابن عساكر عن مجاهد وعطاء وعكرمة ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل ﴾ قال : عبد الله بن سلام .

وأخرج الحسن بن مسلم رضي الله عنه ، نزلت هذه الآية بمكة وعبد الله بن سلام

بالمدينة .

وأخرج ابن سعد وبان عساكر عن الحسن رضي الله عنه قال : نزلت ﴿ حم ﴾ وعبد الله بالمدينة مسلم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن محمد بن سيرين رضي الله عنه قال : كانوا يرون أن هذه الآية نزلت في عبد الله بن سلام ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله ﴾ قال : والسورة مكية ، والآية مدنية . قال : وكانت الآية تنزل فيؤمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يضعها بين آيتي كذا وكذا في سورة كذا ، يرون أن هذه منهن .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله ﴾ قال : ليس بعبد الله بن سلام ، هذه الآية مكية ، فيقول : من آمن من بني إسرائيل فهو كمن آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن المنذر عن الشعبي رضي الله عنه قال : ما نزل في عبد الله بن سلام رضي الله عنه شيء من القرآن .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مسروق رضي الله عنه في قوله ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله ﴾ قال : والله ما نزلت في عبد الله بن سلام ، ما نزلت إلا بمكة ، وإنما كان إسلام ابن سلام بالمدينة ، وإنما كانت خصومة خاصم بها محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن سعد وعبد بن حميد وابن جرير وابن عساكر عن الحسن رضي الله عنه قال : لما أراد عبد الله بن سلام الإِسلام دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : أشهد أنك رسول الله أرسلك بالهدى ودين الحق وإن اليهود تجد ذلك عندهم في التوراة منعوتاً . ثم قال له : أرسل إلى نفر من اليهود فسلهم عني وعن والدي فإنهم سيخبرونك وإني سأخرج عليهم ، فأشهد أنك رسول الله لعلهم يسلمون . فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النفر فدعاهم وخبأه في بيته ، فقال لهم ما عبد الله بن سلام فيكم ، وما كان والده ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا وعالمنا وابن عالمنا . قال : أرأيتم إن أسلم أتسلمون ؟ قالوا : إنه لا يسلم . فخرج عليهم فقال : أشهد أنك رسول الله وإنهم ليعلمون منك مثل ما أعلم . فخرجوا من عنده وأنزل الله في ذلك ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله ﴾ الآية .

وأخرج ابن مردوية عن جندب قال : جاء عبد الله بن سلام حتى أخذ بعضادتي الباب ثم قال : أنشدكم بالله أي قوم أتعلمون أني الذي أنزلت فيه ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله ﴾ الآية ؟ قالوا : اللهم نعم .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير قال : جاء ميمون بن يامين إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان رأس اليهود بالمدينة قد أسلم وقال : يا رسول الله ابعث إليهم فاجعل بينك وبينهم حكماً من أنفسهم فإنهم سيرضوني فبعث إليهم ، وأدخله الداخل فأتوه فخاطبوه مليّاً فقال لهم : اختاروا رجلاً من أنفسكم يكون حكماً بيني وبينكم قالوا : فإنا قد رأينا بميمون بن يامين فأخرجه إليهم ، فقال لهم ميمون أشهد أنه رسول الله وأنه على الحق ، فأبوا أن يصدقوه ، فأنزل الله فيه ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله ﴾ الآية .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر عن مسروق رضي الله عنه في قوله ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله ﴾ قال : موسى مثل محمد والتوراة مثل القرآن فآمن هذا بكتابه ونبيه وكفرتم أنتم يا أهل مكة .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (11)

أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه قال : قال ناس من المشركين : نحن أعز ونحن ونحن فلو كان خيراً ما سبقنا إليه فلان وفلان ، فنزل ﴿ وقال الذين كفروا للذين

آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن عون بن أبي شداد قال : كانت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه أمة أسلمت قبله يقال لها زنيرة ، فكان عمر رضي الله عنه يضربها على اسلامها . وكان كفار قريش يقولون : لو كان خيراً ما سبقتنا إليه زنيرة ، فأنزل الله في شأنها ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ﴾ الآية .

وأخرج الطبراني عن سمرة بن جندب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " بنو غفار وأسلم كانوا الكثير من الناس فتنة يقولون لو كان خيراً ما جعلهم الله أول الناس فيه يقولون لو كان خيراً ما جعلهم الله أول الناس فيه " .

(257/702)

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا

أخرج ابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً ﴾ إلى قوله : ﴿ وعد الصدق الذي كانوا يوعدون ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ حملته أمه كرهاً ﴾ قال : مشقة عليها .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن أنه قال : " وحمله وفصله " بغير ألف .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن بعجة بن عبد الله الجهني قال : تزوّج رجل منا امرأة من جهينة فولدت له تماماً لستة أشهر ، فانطلق زوجها إلى عثمان بن عفان فأمر برجمها ، فبلغ ذلك علياً رضي الله عنه ، فأتاه فقال : ما تصنع ؟ قال : ولدت تماماً لستة أشهر وهل يكون ذلك ؟ قال : علي رضي الله عنه : أما سمعت الله تعالى يقول : ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ﴾ وقال : ﴿ حولين كاملين ﴾ [البقرة : 233] فكم تجده بقي إلا ستة أشهر ؟ فقال عثمان رضي الله عنه . والله ما فطنت لهذا ، علي بالمرأة فوجدوها قد فرغ منها . وكان من قولها لاختها : يا أخيه لا تحزني فوالله ما كشف فرجي أحد قط غيره . قال : فشب الغلام بعدُ فاعترف الرجل به وكان أشبه الناس به . قال : فرأيت الرجل يتساقط عضواً عضواً على فراشه .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر من طريق قتادة عن أبي حرب بن أبي الأسود الدؤلي قال : رفع إلى عمر رضي الله عنه امرأة ولدت لستة أشهر فسأل عنها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال علي رضي الله عنه : لا رجم عليها ألا ترى أنه يقول ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ﴾ وقال : ﴿ وفصاله في عامين ﴾ [لقمان : 14]

وكان الحمل ههنا ستة أشهر . فتركها عمر رضي الله عنه . قال : ثم بلغنا أنها ولدت آخر لستة أشهر .

(258/702)

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن نافع بن جبير أن ابن عباس أخبره قال : إني لصاحب المرأة التي أتي بها عمر وضعت لستة أشهر فأنكر الناس ذلك ، فقلت لعمر : لا تظلم . قال : كيف ؟ قلت : اقرأ ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ﴾ ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ﴾ [البقرة : 233] كم الحول ؟ قال : سنة . قلت : كم السنة ؟ قال : اثنا عشر شهراً . قلت : فأربعة وعشرون شهراً حولان كاملان ويؤخر الله من الحمل ما شاء ويقدم . قال : فاستراح عمر رضي الله عنه إلى قولي .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن أبي عبيدة مولى عبد الرحمن بن عوف قال : رفعت امرأة إلى عثمان رضي الله عنه ولدت لستة أشهر ، فقال عثمان : إنها قد رفعت إلي امرأة ما أراها إلا جاءت بشرّ فقال ابن عباس : إذا كملت الرضاعة كان الحمل ستة أشهر ؟ وقرأ ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ﴾ .

فدرأ عثمان عنها .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقول : إذا ولدت المرأة لتسعة أشهر كفاها من الرضاع إحدى وعشرون شهراً ، وإذا ولدت لسبعة أشهر كفاها من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً ؛ وإذا وضعت لستة أشهر فحولين كاملين ، لأن الله تعالى يقول ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن القاسم بن عبد الرحمن قال : قلت لمسروق رضي الله عنه : متى يؤخذ الرجل بذنوبه ؟ قال : إذا بلغت الأربعين فخذ حذرك .

وأخرج ابن الجوزي في كتاب الحدائق بسند ضعيف عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : جاء جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال " إن الله أمر الحافظين فقال لهما رفقاً بعبدي في حداثته فإذا بلغ الأربعين فاحفظا وحققا " .

وأخرج أبو الفتح الأزدي من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً " من أتى عليه الأربعون سنة فلم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار " .

(259/702)

وأخرج ابن حاتم عن مالك بن مغول قال شكا أبو معشر ابنه إلى طلحة بن مصرف فقال طلحة رضي الله عنه : استعن عليه بهذه الآية ﴿ رب أوزعني أن أشكر نعمتك ﴾

الآية .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أنزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ﴿ حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني ﴾ الآية فاستجاب الله له فأسلم والداه جميعاً وإخوانه وولده كلهم ، ونزلت فيه أيضاً ﴿ فأما من أعطى واتقى ﴾ الآية [الليل : 5] ، إلى آخر السورة .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ وأصلح لي في ذريتي ﴾ قال : اجعلهم لي صالحين .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن الروح الأمين قال : " يؤتى بحسنات العبد وسيئاته فيقتص بعضها من بعض ، فإن بقيت له حسنة وسع الله له بها إلى الجنة " قال : فدخلت على يزدان فحدثت مثل هذا الحديث ، قلت : فإن ذهبت الحسنة . قال ﴿ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال دعا أبو بكر عمر رضي الله عنهما ، فقال له : إني موصيك بوصية أن تحفظها ، إن لله حقاً لا يقبله بالنهار وحقاً بالنهار لا يقبله بالليل ، إنّه ليس لأحد نافلة حتى يؤدي الفريضة ، إنه إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقل ذلك عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يثقل وخفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة لاتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يخف . ألم تر أن الله ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم فيقول : أين يبلغ عملك من عمل هؤلاء ، وذكر أهل النار بأسوأ أعمالهم حتى يقول القائل أنا خير من عمل هؤلاء ، وذلك بأن الله تعالى رد عليهم أحسن أعمالهم ألم تر أن الله أنزل آية الشدة عند آية الرخاء وآية الرخاء عند آية الشدة ليكون المؤمن راغباً لئلا يلقي بيده على التهلكة ولا يتمنى على الله أمنية يتمنى على الله فيها غير الحق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ 434.434 ﴾

(261/702)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الاستقامة)

وقد ورد فى التنزيل والسنَّة على أَربعة أَوجهٍ :

الأَوّل : بمعنى تبليغ الرّسالة : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ وكذلك ﴿ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ ﴾ .

الثَّانى : بمعنى الدّعاءِ ، والدّعوة : ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا ﴾ .

الثالث : بمعنى الإِقبال على الطَّاعة : "اسْتَقِيمُوا ولَنْ تُحْصُوا" .

الرّابع : بمعنى الثبات على التوحيد والشهادة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُواْ ﴾ .

والاستقامة يقال فى الطَّريق الَّذى يكون على خَطٍّ مستقيم وبه شُبِّه طريق الحقّ ؛ نحو ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ واستقامة الإِنسان لزومُه للمنهج المستقيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 146 ﴾

(262/702)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/703)

الجزء الثالث بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 17 ﴾ من سورة الأحقاف

وحتى الآية ﴿ 20 ﴾ من السورة

(4/703)

قوله تعالى ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (18) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر سبحانه هذا المحسن بادئاً به لكون المقام للإحسان ، أتبعه المسيء المناسب لمقصود السورة المذكور صريحاً في مطلعها فقال تعالى : ﴿ والذي قال لوالديه ﴾ مع اجتماعهما كافراً لنعمهما نابذاً لوصيتنا بهما فكان كافراً بنعمة أعظم منعم محسوس بعد الكفر بنعم أعظم منعم مطلقاً ، والتثنية مشيرة إلى أنه أغلظ الناس كبداً ، لأن العادة جرت بقبول الإنسان كلام أصله ولو كان واحداً ، وأن الاجتماع مطلقاً له تأثير فكيف إذا كان والداً : ﴿ أف ﴾ أي تضجر وتقذر واسترذال وتكره مني ولغاتها أربعون - حكاها في القاموس ، المتواتر منها عن القراء ثلاث : الكسر بغير تنوين وهو قراءة الجمهور ، والمراد به أن المعنى الذي قصده مقترن بسفول ثابت ، ومع التنوين وهو قراءة المدنيين وحفص والمراد به أنه سفول عظيم سائر مع الدهر بالغلبة والقهر ، والفتح من غير تنوين وهو قراءة ابن كثير وابن عامر ويعقوب ، والمراد به اقتران المعنى المقصود بالاشتهار بالعلو والانتشار مع الدوام

، وقد تقدم في الإسراء عن الحرالي – وهو الحق – أن التأفيف أنهى الأذى وأشده ، فإن معناه أن المؤفف به لا خطر له ولا وزن أصلاً ، ولا يصلح لشيء بل هو عدم بل العدم خير منه مع أنهى القذر .

(5/703)

ولما كان كأنه قيل : لمن هذا التأفيف ؟ قال : ﴿ لكما ﴾ ولما كانا كأنهما قالا له : لم هذا التقذير العظيم بعد الإحسان لا تقدر على جزائنا به ، قال مبكتاً موبخاً منكراً على تقدير كونه وعداً : ﴿ أتعدانني ﴾ أي على سبيل الاستمرار بالتجديد في كل وقت ﴿ أن أخرج ﴾ أي من مخرج ما يخرجني من الأرض بعد أن غبت فيها وصرت تراباً أحيى كما كنت أول مرة ﴿ وقد ﴾ أي والحال أنه قد ﴿ خلت ﴾ أي تقدمت وسبقت ومضت على سنن الموت ﴿ القرون ﴾ أي الأجيال الكثيرة من صلابتهم ، وأثبت الجار لأن القرن لا ينخرم إلا بعد مدة طويلة ، فالانخرام في ذلك غير مستغرق للزمان فقال : ﴿ من قبلي ﴾ أي قرناً بعد قرن وأمة بعد أمة وتطاولت الأزمان وأغلبهم يكذب بهذا الحديث فأنا مع الأغلب ، وتأيد ذلك بأنه لم يرجع أحد منهم ﴿ وهما ﴾ أي والحال أنهما كلما قال لهما ذلك ﴿ يستغيثان الله ﴾ أي يطلبان بدعائهما من له جميع الكمال أن يعينهما بإلهامة قبول

كلامهما ، قائلين لولدهما مجتهدين بالنصيحة له بعد الاجتهاد بالدعاء : ﴿ ويلك ﴾ كما يقول المشفق إذا زاد به الكرب وبلغ منه الغم ، إشارة إلى أنه لم يبق له إن أعرض إلا الويل وهو الهلاك ﴿ آمن ﴾ أي أوقع الإيمان الذي لا إيمان غيره ، وهو الذي ينقذ من كل هلكة ، ويوجب كل فوز بالتصديق بالعبث وبكل ما جاء عن الله ، ثم عللا أمرهما على هذا الوجه مؤكدين في مقابلة إنكاره فقالا : ﴿ إن وعد الله ﴾ أي الملك الأعظم المحيط بجميع صفات المهابة والكمال الموصوف بالعزة والحكمة ﴿ حق ﴾ أي ثابت أعظم ثبات لانه لو لم يكن حقاً لكان نقصاً من جهة الإخلاف الذي لا يرضاه لنفسه أقل العرب فكيف وهو يلزم منه منافاة الحكمة بكون الخلق حينئذ على وجه العبث لأنهم عباد ورعايا لا يعرضون على ملكهم الذي أبدعهم مع علمه بما هم عليه من ظلم بعضهم لبعض وبغي بعضهم على بعض ﴿ فيقول ﴾ مسبباً عن قولهما ومعقباً له : ﴿ ما هذا ﴾ أي الذي ذكرتماه لي من البعث ﴿ إلا أساطير الأولين ﴾ أي خرافات كتبها على

(6/703)

وجه الكذب الأولائل وتناقلها منهم الأعمار جيلاً بعد جيل فصارت بحيث يظن الضعفاء أنها صحيحة – هذا والعجب كل العجب أنه بتصديقه لا يلزمه فساد على تقدير من

التقادير الممكنة ، بل يحمله التصديق على محاسن الأعمال ومعالي الأخلاق التي هو مقر بأنها محاسن من لزوم طريق الخير وترك طريق الشر ، وتكذيبه يجره إلى المرح والأشر ، والطبر وأفعال الشر ، ودنايا الأخلاق مع احتمال الهلاك الذي يخوفانه به وهو لا ينفي أنه محتمل وإن استبعده فما دعوه إليه كما ترى لا يأباه عاقل ولكنها عقول كادها باريها .

ولما كان هذا الكلام ، ومع بلوغ النهاية في حسن الانتظام ، وقد حصر الإنسان هذين القسمين مثلاً بليغاً لكفار العرب ومؤمنيهم ، فالأول للمؤمنين التابعين لملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، الآتي بها أعظم أنبيائه الكرام محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، والثاني للكفار المنابذين لأعظم آبائهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي يعرفونه منه نقلاً يتوارثونه من آبائهم ، وقرآناً معجزاً كأنهم سمعوه من خالقهم أنه موحد لله مقر بالبعث محذر من غوائله ، وكان قد ابتدأ سبحانه الحديث عنهم بما ذكر مما كفروا فيه المنعمين واستحقوا كلتا السوءتين ، خزي الدنيا وعذاب الآخرة ، أخبر عنهم بما أنتجه تكذيبهم بموعود ربهم وعقوقهم لوالديهم حقيقة أو تعليماً بقوله : ﴿ أولئك ﴾ أي البعداء من العقل والمروءة وكل خير ﴿ الذين حق ﴾ أي ثبت ووجب .

ولما كان هذا وعيداً ، دل عليه بأداة الاستعلاء فقال : ﴿ عليهم القول ﴾ أي الكامل في بابه بأنهم أسفل السافلين ، وهذا يكذب من قال : إنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر ـ رضى الله عنهما ـ ، فإنه أسلم وصار من أكابر الصحابة ـ رضى الله عنه ـ م أجمعين ،

فحقت له الجنة .

ولما أثبت لهم هذه الشنيعة ، عرف بكثرة من شاركهم فيها فقال : ﴿ في ﴾ أي كائنين في ﴿ أمم ﴾ أي خلائق كانوا بحيث يقصدهم الناس ويتبع بعضهم بعضاً ﴿ قد خلت ﴾ تلك الأمم .

(7/703)

ولما كان المحكوم عليه بعض السالفين ، أدخل الجار فقال : ﴿ من قبلهم ﴾ فكانوا قدوتهم ﴿ من الجن ﴾ بدأ بهم لأن العرب تستعظمهم وتستجير بهم ، وذلك لأنهم يتظاهرون لهم يؤذونهم ولم يقطع أذاهم لهم وتسلطهم عليهم ظاهراً وباطناً إلا القرآن ، فإنه أحرقهم بأنواره وجلاهم عن تلك البلاد بجلي آثاره ﴿ والإنس ﴾ وما نفعتهم كثرتهم ولا أغنت عنهم قوتهم ، ثم علل حقوق الأمر عليهم أو استأنف بقوله مؤكداً تكذيباً لظن هذا القسم الذي الكلام فيه أن الصواب مع الأكثر : ﴿ إنهم ﴾ أي كلهم ﴿ كانوا ﴾ أي جبلة وطبعاً وخلقاً لا يقدرون على الانفكاك عنه ﴿ خاسرين ﴾ أي عريقين في هذا الوصف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 129 . 131 ﴾

(8/703)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ﴾

اعلم أنه تعالى لما وصف الولد البار بوالديه في الآية المتقدمة ، وصف الولد العاق لوالديه في هذه الآية ، فقال : ﴿ والذي قَالَ لوالديه أُفٍّ لَّكُمَا ﴾ وفي هذه الآية قولان الأول : أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر ، قالوا كان أبواه يدعوانه إلى الإسلام فيأبى ، وهو ﴿ أُفٍّ لَّكُمَا ﴾ واحتج القائلون بهذا القول على صحته ، بأنه لما كتب معاوية إلى مروان يبايع الناس ليزيد ، قال عبد الرحمن بن أبي بكر : لقد جئتم بها هرقلية ، أتبايعون لأبنائكم ؟ فقال مروان : يا أيها الناس هو الذي قال الله فيه ﴿ والذي قَالَ لوالديه أُفٍّ لَّكُمَا ﴾ .

(9/703)

والقول الثاني : أنه ليس المراد من شخص معين ، بل المراد منه كل من كان موصوفاً بهذه الصفة ، وهو كل من دعاه أبواه إلى الدين الحق فأباه وأنكره ، وهذا القول هو الصحيح عندنا ، ويدل عليه وجوه الأول : أنه تعالى وصف هذا الذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني بقوله

﴿ أولئك الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ الجن والإنس إِنَّهُمْ كَانُواْ خاسرين ﴾ ولا شك أن عبد الرحمن آمن وحسن إسلامه ، وكان من سادات المسلمين ، فبطل حمل الآية عليه ، فإن قالوا : روي أنه لما دعاه أبواه إلى الإسلام وأخبراه بالبعث بعد الموت ، قال : ﴿ أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ ﴾ من القبر ، يعني أبعث بعد الموت ﴿ وَقَدْ خَلَتِ القرون مِن قَبْلِي ﴾ يعني الأمم الخالية ، فلم أر أحداً منهم بعث فأين عبد الله بن جدعان ، وأين فلان وفلان ؟ إذا عرفت هذا فنقول قوله ﴿ أولئك الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ المراد هؤلاء الذين ذكرهم عبد الرحمن من المشركين الذين ماتوا قبله ، وهم الذين حق عليهم القول ، وبالجملة فهو عائد إلى المشار إليهم بقوله ﴿ وَقَدْ خَلَتِ القرون مِن قَبْلِي ﴾ لا إلى المشار إليه بقوله ﴿ والذي قَالَ لوالديه أُفٍّ لَّكُمَا ﴾ هذا ما ذكره الكلبي في دفع ذلك الدليل ، وهو حسن والوجه الثاني : في إبطال ذلك القول ، ما روي أن مروان لما خاطب عبد الرحمن بن أبي بكر بذلك الكلام سمعت عائشة ذلك فغضبت وقالت : والله ما هو به ، ولكن الله لعن أباك وأنت في صلبه الوجه الثالث : وهو الأقوى ، أن يقال إنه تعالى وصف الولد البار بأبويه في الآية المتقدمة ، ووصف الولد العاق لأبويه في هذه الآية ، وذكر من صفات ذلك الولد أنه بلغ في العقوق إلى حيث لما دعاه أبواه إلى الدين الحق ، وهو الإقرار بالبعث والقيامة أصر على الإنكار وأبى واستكبر ، وعول في ذلك الإنكار على شبهات خسيسة وكلمات واهية ، وإذا كان كذلك كان المراد كل ولد اتصف بالصفات

المذكورة ولا حاجة ألبتة إلى تخصيص اللفظ المطلق بشخص معين ، قال صاحب "الكشاف" : قرىء ﴿ أُفّ ﴾ بالفتح والكسر بغير تنوين ، وبالحركات الثلاث مع التنوين ، وهو صوت إذا صوت به الإنسان علم أنه متضجر ، كما إذا قال حس ، علم أنه متوجع ، واللام للبيان معناه هذا التأفيف لكما خاصة ، ولأجلكما دون غيركما ، وقرىء ﴿ أَتَعِدَانِنِي ﴾ بنونين ، وأتعداني بأحدهما وأتعداني بالإدغام ، وقرأ بعضهم : أتعدانني بفتح النون كأنه استثقل اجتماع النونين والكسرين والياء ، ففتح الأولى تحرياً للتخفيف كما تحراه من أدغم ومن طرح أحدهما .

ثم قال : ﴿ أَنْ أُخْرِجَ ﴾ أي أن أبعث وأخرج من الأرض ، وقرىء ﴿ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ القرون مِن قَبْلِي ﴾ يعني ولم يبعث منهم أحد .

ثم قال : ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ الله ﴾ أي الوالدان يستغيثان الله ، فإن قالوا : كان الواجب أن يقال يستغيثان بالله ؟ قلنا الجواب : من وجهين الأول : أن المعنى أنهما يستغيثان الله من كفره وإنكاره ، فلما حذف الجار وصل الفعل الثاني : يجوز أن يقال الباء حذف ، لأنه أريد بالاستغاثة ههنا الدعاء على ما قاله المفسرون ﴿ يدعون الله ﴾ فلما أريد بالاستغاثة

الدعاء حذف الجار ، لأن الدعاء لا يقتضيه ، وقوله ﴿ وَيْلَكَ ﴾ أي يقولان له ويلك ﴿ آمِنْ ﴾ وصدق بالبعث وهو دعاء عليه بالثبور ، والمراد به الحث ، والتحريض على الإيمان لا حقيقة الهلاك .

ثم قال : ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللهِ ﴾ بالبعث ﴿ حق فيقول ﴾ لهما ﴿ ما هذا ﴾ الذي تقولان من أمر البعث وتدعواني إليه ﴿ إِلاَّ أساطير الأولين ﴾ .

(11/703)

ثم قال تعالى : ﴿ أولئك الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ أي حقت عليهم كلمة العذاب ، ثم ههنا قولان : فالذين يقولون المراد بنزول الآية عبد الرحمن بن أبي بكر ، قالوا المراد بهؤلاء الذين حقت عليهم كلمة العذاب هم القرون الذين خلوا من قبله ، والذين قالوا المراد به ليس عبد الرحمن ، بل كل ولد كان موصوفاً بالصفة المذكورة ؛ قالوا هذا الوعيد مختص بهم ، وقوله ﴿ فِي أُمَمٍ ﴾ نظير لقوله ﴿ فِي أصحاب الجنة ﴾ وقد ذكرنا أنه نظير لقوله : أكرمني الأمير في أناس من أصحابه ، يريد أكرمني في جملة من أكرم منهم .

ثم قال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ خاسرين ﴾ وقرىء أن بالفتح على معنى آمن بأن وعد الله حق .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 20 ـ 22 ﴾

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى : ﴿ والذي قال لوالديه أف لكما ﴾ الآية ، ﴿ الذي ﴾ يعنى به الجنس على حد العموم الذي في الآية التي قبلها في قوله : ﴿ ووصينا الإنسان ﴾ [الأحقاف : 15] وهذا قول الحسن وجماعة ، ويشبه أن لها سبباً من رجل قال ذلك لأبويه . فلما فرغ من ذكر الموفق عقب بذكر هذا العاق . وقال ابن عباس في كتاب الطبري : هذه الآية نزلت في ابن لأبي بكر ولم يسمّه .

وقال مروان بن الحكم : نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وقاله قتادة ، وذلك أنه كان أكبر ولد أبي بكر وشهد بدراً وأحداً مع الكفار ، وقال لأبيه في الحرب :

لم يبق إلا شكة ويعبوب . . . وصارم يقتل ضلال الشيب

ودعاه إلى المبارزة فكان بمكة على نحو هذه الخلق ، فقيل إن هذه الآية نزلت فيه . وروي أن مروان بن الحكم خطب وهو أمير المدينة فدعا الناس إلى بيعة يزيد ، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر : جعلتموها هرقلية ، كلما مات هرقل ولي هرقل ، وكلما مات قيصر ولي قيصر

، فقال مروان بن الحكم : خذوه ، فدخل عبد الرحمن بيت عائشة أخته أم المؤمنين ، فقال مروان : إن هذا هو الذي قال الله فيه : ﴿ والذي قال لوالديه أف لكما ﴾ فسمعته عائشة ، فأنكرت ذلك عليه ، وسبت مروان ، وقالت له : والله ما نزل في آل أبي بكر من القرآن غير براءتي ، وإني لأعرف فيمن نزلت هذه الآية . وذكر ابن عبد البر أن الذي خطب هو معاوية ، وذلك وهم ، والأصوب أن تكون عامة في أهل هذه الصفات ولم يقصد بها عبد الرحمن ولا غيره من المؤمنين والدليل القاطع على ذلك قوله : ﴿ أولئك الذين حق عليهم القول في أمم ﴾ وكان عبد الرحمن رحمه الله من أفضل الصحابة ومن الأبطال ، وممن له في الإسلام غناء يوم اليمامة وغيره .

(13/703)

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وطلحة بن مصرف : " أفِّ " بكسر الفاء بغير تنوين ، وذلك فيها علامة تعريف . وقرأ ابن كثير وابن عامر وابن محيصن وشبل وعمرو بن عبيد : " أفَّ " بالفتح ، وهي لغة الكسر والفتح .

وقرأ نافع وحفص عن عاصم وأبو جعفر وشيبة والحسن والأعرج : " أفٍّ " بالكسر والتنوين ، وذلك علامة تنكير ، وهي كصه وغاق ، وكما تستطعم رجلاً حديثاً غير معين

فتقول " إيه " منونة ، فإن كان حديثاً مشاراً إليه قلت " إيهِ " بغير تنوين . و﴿ أف ﴾ : أصلها في الأقذار ، كانت العرب إذا رأت قذراً قالت : " أف " ثم صيره الاستعمال يقال في كل ما يكره من الأفعال والأقوال .

وقرأ هشام عن ابن عامر وعاصم وأبو عمرو : " أتعداني " ، وقرأ أبو عمرو ونافع وشيبة والأعرج والحسن وأبو جعفر وقتادة وجمهور القراء " أتعدانني " بنونين ، والقراءة الأولى هي بإدغام النون في النون . وقرأ نافع أيضاً وجماعة : " أتعدانيَ " بنون واحدة وإظهار الياء . وقرأ نافع وأبو عمرو وعاصم وأبو جعفر والأعرج وشيبة وقتادة وأبو رجاء وابن وثاب وجمهور الناس " أن أُخرَج " بضم الهمزة وفتح الراء . وقرأ الحسن وابن يعمر والأعمش وابن مصرف والضحاك . " أَن أَخرُج " بفتح الهمزة وضم الراء . والمعنى أن أخرج من القبر للحشر والمعاد ، وهذا القول منه استفهام بمعنى الهزء والاستبعاد .

وقوله : ﴿ وقد خلت القرون من قبلي ﴾ معناه : هلكت ومضت ولم يخرج منهم أحد .

وقوله : ﴿ وهما ﴾ يعني الوالدين ، ويقال استغثت الله واسغثت بالله بمعنى واحد . و: ﴿ ويلك ﴾ دعاء يقال هنا لمن يحفز ويحرك لأمر ما يستعجل إليه .

وقرأ الأعرج " أن وعد الله " بفتح الهمزة ، والناس على كسرها .

وقوله : ﴿ ما هذا إلا أساطير ﴾ أي ما هذا القول الذي يتضمن البعث من القبور إلا شيء قد سطره الأولون في كتبهم ، يعني الشرائع ، وظاهر ألفاظ هذه الآية أنها نزلت في مشار إليه قال وقيل له ، فنعى الله أقواله تحذيراً من الوقوع في مثلها .

وقوله : ﴿ أولئك ﴾ ظاهره أنها إشارة إلى جنس يتضمنه قوله : ﴿ والذي قال ﴾ ، ويحتمل إن كانت الآية في مشار إليه أن يكون قوله : ﴿ أولئك ﴾ بمعنى صنف هذا المذكور وجنسهم ﴿ الذين حق عليهم القول ﴾ ، أي قول الله إنه يعذبهم .

وقوله : ﴿ قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ﴾ يقتضي أن ﴿ الجن ﴾ يموتون كما يموت البشر قرناً بعد قرن ، وقد جاء حديث يقتضي ذلك . وقال الحسن بن أبي الحسن في بعض مجالسه : إن الجن لا يموتون ، فاعترضه قتادة بهذه الآية فسكت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(15/703)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ والذي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتعدانني أَنْ أُخْرَجَ ﴾

أي أن أبعث .

﴿ وَقَدْ خَلَتِ القرون مِن قَبْلِي ﴾ قراءة نافع وحفص وغيرِهما "أُفٍّ" مكسور منوّن .

وقرأ ابن كثير وابن محيصن وابن عامر والمفضل عن عاصم "أفَّ" بالفتح من غير تنوين .

الباقون بالكسر غير منوّن ؛ وكلها لغات ، وقد مضى في "بني إسرائيل" .

وقراءة العامة "أَتَعِدَانِنِي" بنونين مخففتين .

وفتح ياءه أهل المدينة ومكة .

وأسكن الباقون .

وقرأ أبو حيوة والمغيرة وهشام "أَتَعِدَانِّي" بنون واحدة مشدّدة ؛ وكذلك هي في مصاحف أهل الشام .

والعامة على ضم الألف وفتح الراء من "أَنْ أُخْرَجَ" .

وقرأ الحسن ونصر وأبو العالية والأعمش وأبو معمر بفتح الألف وضم الراء .

قال ابن عباس والسُّدّي وأبو العالية ومجاهد : نزلت في عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما ، وكان يدعوه أبواه إلى الإسلام فيجيبهما بما أخبر الله عز وجل .

وقال قتادة والسدي أيضاً : هو عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه ، وكان أبوه وأمه أم رومان يدعوانه إلى الإسلام ويعدانه بالبعث ؛ فيردّ عليهما بما حكاه الله عز وجل عنه ؛ وكان هذا منه قبل إسلامه .

وروي أن عائشة رضي الله عنها أنكرت أن تكون نزلت في عبد الرحمن .

وقال الحسن وقتادة أيضاً : هي نعت عبدٍ كافرٍ عاقٍّ لوالديه .

وقال الزجاج : كيف يقال نزلت في عبد الرحمن قبل إسلامه والله عز وجل يقول : ﴿ أولئك الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول في أُمَمٍ ﴾ [الأحقاف : 18] أي العذاب ، ومن ضرورته عدم الإيمان ، وعبد الرحمن من أفاضل المؤمنين ؛ فالصحيح أنها نزلت في عبدٍ كافر عاقٍّ لوالديه .

وقال محمد بن زياد : كتب معاوية إلى مروان بن الحكم حتى يبايع الناس ليزيد ؛ فقال عبد الرحمن بن أبي بكر : لقد جئتم بها هِرَقْلِيّة ، أتبايعون لأبنائكم ! فقال مروان : هو الذي يقول الله فيه : ﴿ والذي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾ الآية .

(16/703)

فقال : والله ما هو به ، ولو شئت لسمّيت ، ولكن الله لعن أباك وأنت في صلبه ، فأنت فَضَض من لعنة الله .

قال المهدوي : ومن جعل الآية في عبد الرحمن كان قوله بعد ذلك ﴿ أولئك الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ يراد به من اعتقد ما تقدم ذكره ؛ فأول الآية خاص وآخرها عام .

وقيل إن عبد الرحمن لما قال : "وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي" قال مع ذلك : فأين عبد الله بن جُدْعان ، وأين عثمان بن عمرو ، وأين عامر بن كعب ومشايخ قريش حتى أسألهم عما يقولون .

فقوله : ﴿ أولئك الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ يرجع إلى أولئك الأقوام .

قلت : قد مضى من خبر عبد الرحمن بن أبي بكر في سورة "الأنعام" عند قوله : ﴿ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الهدى ﴾ [الأنعام : 17] ما يدلّ على نزول هذه الآية فيه ؛ إذ كان كافراً وعند إسلامه وفضله تعيّن أنه ليس المراد بقوله : ﴿ أولئك الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ .

﴿ وَهُمَا ﴾ يعني والديه .

﴿ يَسْتَغِيثَانِ الله ﴾ أي يدعوان الله له بالهداية .

أو يستغيثان بالله من كفره ؛ فلما حذف الجار وصل الفعل فنصب .

وقيل : الاْستغاثة الدعاء ؛ فلا حاجة إلى الباء .

قال الفرّاء : أجاب الله دعاءه وغواثه .

﴿ وَيْلَكَ آمِنْ ﴾ أي صدّق بالبعث .

﴿ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ﴾ أي صدْق لا خلف فيه .

﴿ فَيَقُولُ مَا هاذآ ﴾ أي ما يقوله والداه .

﴿ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأولين ﴾ أي أحاديثهم وما سطروه مما لا أصل له .

﴿ أولئك الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ يعني الذين أشار إليهم ابن أبي بكر في قوله أحْيُوا لي مشايخ قريش ، وهم المعنيّون بقوله : ﴿ وَقَدْ خَلَتِ القرون مِن قَبْلِي ﴾ .

فأما ابن أبي بكر عبد الله أو عبد الرحمن فقد أجاب الله فيه دعاء أبيه في قوله : ﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذريتي ﴾ على ما تقدم .

(17/703)

ومعنى : "حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ" أي وجب عليهم العذاب ، وهي كلمة الله : "هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي" .

﴿ فِي أُمَمٍ ﴾ أي مع أمم .

﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ تقدّمت ومضت .

﴿ مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ الجن والإنس ﴾ الكافرين ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ أي تلك الأمم الكافرة ﴿ كَانُواْ خَاسِرِينَ ﴾ لأعمالهم ؛ أي ضاع سعيهم وخسِروا الجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(18/703)

وقال الآلوسى :

﴿ والذى قَالَ لوالديه ﴾

عند دعوتهما إياه للإيمان ﴿ أُفٍّ لَّكُمَا ﴾ صوت يصدر عن المرء عند تضجره وفيه قرآآت ولغات نحو الأربعين ، وقد نبهنا على ذلك في سورة الإسراء ، واللام لبيان المؤفف له كما في ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ [يوسف : 23] والموصول مبتدأ خبره ﴿ أُوْلَئِكَ الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ [الأحقاف : 18] والمراد به الجنس فهو في معنى الجمع ، ولذا قيل : ﴿ أولئك ﴾ وإلى ذلك أشار الحسن بقوله : هو الكافر العلق لوالديه المنكر للبعث ، ونزول الآية في شخص لا ينافي العموم كما قرر غير مرة ، وزعم مروان عليه ما يستحق أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما وردت عليه عائشة رضي الله تعالى عنها .

أخرج ابن أبي حاتم .

وابن مردويه عن عبد الله قال : إني لفي المسجد حين خطب مروان فقال : إن الله تعالى قد أرى لأمير المؤمنين يعني معاوية في يزيد رأياً حسناً أن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر . وعمر فقال عبد الرحمن بن أبي بكر : أهرقلية إن أبا بكر رضي الله تعالى عنه والله ما جعلها في أحد من ولده ولا أحد من أهل بيته ولا جعلها معاوية إلا رحمة وكرامة لولده ،

فقال مروان : ألست الذي قال لوالديه أف لكما فقال عبد الرحمن : ألست ابن اللعين الذي لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أباك فسمعت عائشة فقالت : مروان أنت القائل لعبد الرحمن كذا وكذا كذبت والله ما فيه نزلت نزلت في فلان بن فلان .

وفي رواية تقدمت رواها جماعة وصححها الحاكم عن محمد بن زياد أنها كذبته ثلاثاً ثم قالت : والله ما هو به تعني أخاها ولو شئت أن اسمي الذي أنزلت فيه لسميته إلى آخر ما مر ، وكان ذلك من فضض اللعنة إغاظة لعبد الرحمن وتنفيراً للناس عنه لئلا يلتفتوا إلى ما قاله وما قال إلا حقاً فأين يزيد الذي تجل اللعنة عنه وأين الخلافة .

(19/703)

ووافق بعضهم كالسهيلي في الإعلام مروان في زعم نزولها في عبد الرحمن ، وعلى تسليم ذلك لا معنى للتعيير لا سيما من مروان فإن الرجل أسلم وكان من أفاضل الصحابة وأبطالهم وكان له في الإسلام غناء يوم اليمامة وغيره والإسلام يجب ما قبله فالكافر إذا أسلم لا ينبغي أن يعير بما كان يقول ﴿ أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ ﴾ ابعث من القبر بعد الموت .

وقرأ الحسن .

وعاصم .

وأبو عمرو في رواية وهشام ﴿ أتعداني ﴾ بإدغام نون الرفع في نون الوقاية ، وقرأ نافع في رواية .

وجماعة بنون واحدة ، وقرأ الحسن .

وشيبة .

وأبو جعفر بخلاف عنه ، وعبد الوارث عن أبي عمرو .

وهارون بن موسى عن الجحدري ، وبسام عن هشام ﴿ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِى ﴾ بنونين من غير إدغام ومع فتح الأولى كأنهم فروا من اجتماع الكسرتين والياء ففتحوا للتخفيف ، وقال أبو حاتم : فتح النون باطل غلط ، وقال بعضهم : فتح نون التثنية لغة رديئة وهون الأمر هنا الاجتماع ، وقرأ الحسن .

وابن يعمر .

والأعمش .

وابن مصرف .

والضحاك ﴿ أَخْرَجَ ﴾ مبنياً للفاعل من الخروج ﴿ وَقَدْ خَلَتِ القرون مِن قَبْلِى ﴾ أي مضت ولم يخرج منها أحد ولا بعث فالمراد إنكار البعث كما قيل :

ما جاءنا أحد يخبر أنه . . .

في جنة لما مضى أو نار

وقال أبو سليمان الدمشقي : أراد وقد خلت القرون من قبلي مكذبة بالبعث ، فالكلام كالاستدلال على نفي البعث .

(20/703)

﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللهَ ﴾ أي يقولان : الغياث بالله تعالى منك ، والمراد إنكار قوله واستعظامه كأنهما لجآ إلى الله سبحانه في دفعه كما يقال : العياذ بالله تعالى من كذا أو يطلبان من الله عز وجل أن يغيثه بالتوفيق حتى يرجع عما هو عليه من إنكار البعث ﴿ وَيْلَكَ ءَامِنْ ﴾ أي قائلين أو يقولون له ذلك ، وأصل ﴿ وَيْلٌ ﴾ دعاء بالثبور يقام مقام الحث على الفعل أو تركه إشعاراً بأن ما هو مرتكب له حقيق بأن يهلك مرتكبه وأن يطلب له الهلاك فإذا أسمع ذلك كان باعثاً على ترك ما هو فيه والأخذ بما ينجيه ، وقيل : إن ذلك لأن فيه إشعاراً بأن الفعل الذي أمر به مما يحسد عليه فيدعى عليه بالثبور فإذا سمع ذلك رغب فيه ، وأياً ما كان فالمراد هنا الحث والتحريض على الإيمان لا حقيقة الدعاء بالهلاك ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾ أي البعث ، وأضاف الوعد إليه تعالى تحقيقاً للحق وتنبيهاً على خطئه في إسناد الوعد إليهما .

وقرأ الأعرج.

وعمرو بن فائد ﴿ إن ﴾ بفتح الهمزة على تقدير لأن أو آمن بأن وعد الله حق ، ورجح الأول بأن فيه توافق القراءتين ﴿ فَيَقُولُ ﴾ مكذباً لهما ﴿ مَا هذا ﴾ الذي تسميانه وعد الله تعالى ﴿ إِلاَّ أساطير الاولين ﴾ أباطيلهم التي سطروها في الكتب من غير أن يكون لها حقيقة .

﴿ أولئك ﴾ القائلون ذلك ، وقيل : أي صنف هذا المذكور بناءً على زعم خصوص ﴿ الذى ﴾ [الأحقاف : 17] وليس بشيء .

﴿ الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ وهو قوله تعالى لإبليس : ﴿ لاَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : 85] وقد مر تمام الكلام في ذلك .

ورد بهذا على من زعم أن الآية في عبد الرحمن بن أبي بكر لأنه رضي الله تعالى عنه أسلم وجب عنه ما قبل وكان من أفاضل الصحابة ، ومن حق عليه القول هو من علم الله تعالى أنه لا يسلم أبداً .

(21/703)

وقيل : الحكم هنا على الجنس فلا ينافي خروج البعض من أحكامه الأخروية ، وقيل : غير ذلك مما لا يلتفت إليه .

﴿ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ في مقابلة ﴿ فِى أصحاب الجنة ﴾ [الأحقاف : 16] فهو مثله إعراباً ومبالغة ومعنى ، وقوله تعالى : ﴿ مّنَ الجن والإنس ﴾ بيان للأمم ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ جميعاً ﴿ كَانُواْ خاسرين ﴾ قد ضيعوا فطرتهم الأصلية الجارية مجرى رؤوس أموالهم باتباع الشيطان ، والجملة تعليل للحكم بطريق الاستئناف .

وقرأ العباس عن أبي عمرو ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ بفتح الهمزة على تقدير لأنهم .

واستدل بقوله عز وجل : ﴿ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ ﴾ الخ على أن الجن يموتون قرناً بعد قرن كالإنس .

وفي "البحر" قال الحسن في بعض مجالسه : الجن لا يموتون فاعترضه قتادة بهذه الآية فسكت . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(22/703)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ﴾

هذا الفريق المقصود من هذه الآيات المبدوءة بقوله تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان ﴾ [الأحقاف : 15] .

وهذا الفريق الذي كفر بربه وأساء إلى والديه ، وقد عُلم أن والديه كانا مؤمنين من قوله : ﴿ أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي ﴾ الآية .

فجملة ﴿ والذي قال لوالديه ﴾ الأحسن أن تكون معطوفة على جملة ﴿ وإذا تُتْلى عليهم آياتنا بينات ﴾ [الأحقاف : 7] الخ انتقال إلى مقالة أخرى من أصول شركهم وهي مقالة إنكار البعث .

وأما قوله : ﴿ الذي قال لوالديه ﴾ فالوجه جعله مفعولاً لفعل مقدر تقديره : واذكر الذي قال لوالديه ، لأن هذا الوجه يلائم كل الوجوه .

ويجوز جعله مبتدأ وجملة ﴿ أولئك الذين حق عليهم القول في أمم ﴾ [الأحقاف : 18] خبراً عنه على أحد الوجهين الاثنين في مرجع اسم الإشارة من قوله : ﴿ أولئك الذين حق عليهم القول ﴾ .

و ﴿ الذي ﴾ هنا اسم صادق على الفريق المتصف بصلته .

وهذا وصف لفئة من أبناء من المشركين أسلم آباؤهم ودعوهم إلى الإسلام فلم يستجيبوا لهم وأغلظوا لهم القول فضمّوا إلى الكفر بشنيع عقوق الوالدين وهو قبيح لمنافاته الفطرة التي فطر الله الناس عليها لأن حال الوالدين مع أبنائهما يقتضي معاملتهما بالحسنى ، ويدل لعدم اختصاص قوله في آخرها ﴿ أولئك الذين حق عليهم القول ﴾ إلى آخره .

والذي عليه جمهور المفسرين : أن الآية لا تعْني شخصاً معينا وأن المراد منها فريق أسلم آباؤهم ولم يسلموا حينئذٍ .

(23/703)

وعن ابن عباس ومروانَ بن الحكم ومجاهد والسدّي وابن جريج أنّها نزلت في ابنٍ لأبي بكر الصديق واسمه عبد الكعبة الذي سماه النبي صلى الله عليه وسلم عبدَ الرحمان بعد أن أسلم عبد الرحمان قالوا : كان قبل الهجرة مُشركاً وكان يدعوه أبوه أبو بكر وأمه أم رُومان إلى الإسلام ويذكّرانه بالبعث ، فيردّ عليهما بكلام مثل ما ذكره في هذه الآية .

ويقول : فأين عبد الله بن جُدعان ، وأين عثمان بن عمرو ، وأينَ عامر بن كعب ، ومشايخُ قريش حتى أسألهم عمّا يقول محمد .

لكن ليست الآية خاصة به حتى تكون نازلة فيه ، وبهذا يؤول قول عائشة رضي الله عنها لما قال مروان بن الحكم لعبد الرحمان هو الذي يقول الله فيه : ﴿ والذي قال لوالِدَيْه أفّ لكما ﴾ .

وذلك في قصة إشارة عبد الرحمان على مروان أخذه البيعة ليزيد بن معاوية بالعهد له بالخلافة .

ففي "صحيح البخاري" في كتاب التفسير عن يوسف بن ماهك أنه قال : "كان مروان ابن الحكم على الحجاز استعمله معاوية فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايَع له بعد أبيه أي بولاية العهد فقال له عبد الرحمان بن أبي بكر أهِرَقْلِيَّة أي اجعلتموها وراثة مثل سلطنة هرقل فقال : خذوه فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه ، فقال مروان : إن هذا الذي أنزل الله فيه ﴿ والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني ﴾ ، فقالت عائشة من وراء الحجاب : ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله أنزل عذري أي براءتي .

وكيف يكون المراد بـ ﴿ الذي قال لوالديه أف لكما ﴾ عبد الرحمان بن أبي بكر وآخر الآية يقول : ﴿ أولئك الذين حق عليهم القول إلى خاسرين ﴾ [الأحقاف : 18] فذكَر اسم الإشارة للجَمع ، وقضى على المتحدَّث عنهم بالخسران ، ولم أقف على من كان مشركاً وكان أبواه مؤمنين .

(24/703)

وأيّاماً كان فقد أسلم عبد الرحمان قبل الفتح فلما أسلم جبّ إسلامُه ما قبله وخرج من الوعيد الذي في قوله : ﴿ أولئك الذين حق عليهم القول ﴾ الآية ، لأن ذلك وعيد وكل وعيد فإنما هو مقيد تحققه بأن يموت المتوعَّد به غير مؤمن وهذا معلوم بالضرورة من

الشريعة .

وتلقب عند الأشاعرة بمسألة الموافاة ، على أنه قيل إن الإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ عائدة إلى ﴿ الأولين ﴾ من قوله : ﴿ ما هذا إلا أساطير الأولين ﴾ كما سيأتي .

وأفَ : اسم فعل بمعنى : أتضجَّر ، وتقدم الكلام عليه في سورة الإسراء وفي سورة الأنبياء ، وهو هنا مستعمل كناية عن أقل الأذى فيكون الذين يؤذون والديهم بأكثر من هذا أوغلُ في العقوق الشنيع وأحرى بالحكم بدلالة فحوى الخطاب على ما تقرر في قوله تعالى : ﴿ فلا تقل لهما أُفّ ﴾ في سورة الإسراء (23) .

وقرأ نافع وحفص عن عاصم أفَ ﴾ بكسر الفاء منوناً .

وقرأه ابن كثير وابن عامر ويعقوب ﴿ أفَّ ﴾ بفتح الفاء غير منون .

وقرأه الباقون أفِّ بكسر الفاء غير منون ، وهي لغات ثلاث فيه .

واعلم أن في قوله تعالى : ﴿ والذي قال لوالديه أفّ لكما ﴾ مُحَسّنَ الاتزان فإنه بوزن مصراع من الرمل عَروضه محذوفة ، وضَربه محذوف ، وفيه الخبن والقبض ، ويزاد فيه الكف على قراءة غير نافع وحفص .

والاستفهام في ﴿ أتعدانِني أن أخرج ﴾ إنكار وتعجب .

والإخراج : البعث بعد الموت .

وجعلت جملة الحال وهي ﴿ وقد خلت القرون من قبلي ﴾ قيداً لمنتهى الإنكار ، أي

كيف يكون ذلك في حال مُضيّ القرون .

والقرون : جمع قرن وهو الأمة التي تَقاربَ زمان حياتها ، وفي الحديث " خير القرون قرني ثم الذين يلونهم " الحديث ، وقال تعالى : ﴿ أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القُرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ﴾ [القصص : 78] .

والمعنى : أنه أحال أن يخرج هو من الأرض بعد الموت ، وقد مضت أمم كثيرة وطال عليها الزمن فلم يخرج منهم أحد .

(25/703)

وهذا من سوء فهمه في معنى البعث أو من المغالطة في الاحتجاج لأن وعد البعث لم يوقت بزمن معين ولا أنه يقع في هذا العالم .

وقرأ الجمهور ﴿ أتعدانِني ﴾ بنونين مفكّكين وقرأه هشام عن ابن عامر بإدغام النونين .

ومعنى ﴿ يستغيثان الله ﴾ يطلبان الغوث من الله ، أي يطلبان من الله الغوث بأن يهديه ، فالمعنى : يستغيثان الله له .

وليست جملة ﴿ ويلك آمِنْ ﴾ بياناً لمعنى استغاثتهما ولكنها مقول قول محذوف يدل عليه معنى الجملة .

وكلمة ﴿ ويلك ﴾ كلمة تهديد وتخويف .

والويل : الشر .

وأصل ويلك : ويْل لك كما في قوله تعالى : ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ﴾ [البقرة : 79] ، فلما كثر استعماله وأرادوا اختصاره حذفوا اللام ووصلوا كاف الخطاب بكلمة (ويل) ونصبوه على نزع الخافض .

وفعل ﴿ آمِن ﴾ منزل منزلة اللازم ، أي اتصف بالإيمان وهو دعوة الإسلام ، وجملة ﴿ إن وعد الله حق ﴾ تعليل للأمر بالإيمان وتعريض له بالتهديد من أن يحق عليه وعد الله .

والأساطير : جمع أسطورة وهي القصة وغلب إطلاقها على القصة الباطلة أو المكذوبة كما يقال : خرافة ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ﴾ في سورة النحل (24) وفي قوله : ﴿ وقالوا أساطير الأولين ﴾ اكتتبها في سورة الفرقان (5) .

أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (18)

يجوز أن يكون اسم الإشارة مشيراً إلى الذي قال لديه هذه المقالة لما علمت أن المراد به فريق ، فجاءت الإشارة إليه باسم إشارة الجماعة بتأويل الفريق .

ويجوز أن يكون ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى ﴿ الأوّلين ﴾ من قوله : ﴿ فيقول ما هذا إلا

أساطير الأولين ﴾ [الأحقاف : 17] ، وهم الذين روي أن ابنَ أبي بكر ذكرَهم حين قال : فأين عبد الله بن جُدعان ، وأينَ عثمان بن عمرو ، ومشائخ قريش كما تقدم آنفاً .

(26/703)

واستحضار هذا الفريق بطريق اسم الإشارة لزيادة تمييز حالهم العجيبة .

وتعريف ﴿ القول ﴾ تعريف العهد وهو قول معهود عند المسلمين لما تكرر في القرآن من التعبير عنه بالقول في نحو آية ﴿ قال فالحق والحق أقول لأملان جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ [ص : 84 ، 85] ، ونحو قوله : ﴿ أفمن حقّ عليه كلمة العذاب ﴾ [الزمر : 19] ، فإن الكلمة قول ، ونحو قوله : ﴿ لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ﴾ [يس : 7] الآية .

وإطلاقه في هذه الآية رشيق لصلوحية .

وإقحام ﴿ كانوا خاسرين ﴾ دون أن يقال : إنهم خاسرون ، للإشارة إلى أن خسرانهم محقق فكني عن ذلك بجعلهم كائنين فيه .

وتأكيد الكلام بحرف (إنَّ) لأنهم يظنون أن ما حصل لهم في الدنيا من التمتع بالطيبات فوزاً ليس بعده نكد لأنهم لا يؤمنون بالبعث والجزاء ، فشبهت حالة ظنهم هذا بحال التاجر

الذي قل ربحه من تجارته فكان أمره خسراً ، وقد تقدم غير مرة منها قوله تعالى : ﴿ فما ربحت تجارتهم ﴾ في البقرة (16) .

وإيراد فعل الكون بقوله : كانوا خاسرين ﴾ دون الاقتصار على ﴿ خاسرين ﴾ لأن (كان) تدل على أن الخسارة متمكنة منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(27/703)

قوله تعالى ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (19) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (20) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قسمهم في الأعمال ، جمعهم في العدل والإفضال فقال : ﴿ ولكل ﴾ أي من فريقي السعداء والبعداء من القبيلتين : الجن والإنس ، في الدنيا والآخرة ﴿ درجات ﴾ أي

دركات أي منازل ومراتب متفاضلين فيها ﴿ من ﴾ أجل ﴿ ما عملوا ﴾ أو من جوهره ونوعه من الأعمال الصالحة والطالحة .

ولما كان التقدير : ليظهر ظهوراً بيناً أنه سبحانه فاعل بالاختيار بالمفاوتة بين العقلاء ويظهر بيناً لا وقفة فيه أن الحقائق على غير ما كان يتراءى لهم في الدنيا ، فإن حجب المكاره والشهوات كانت ترى الأمور على خلاف ما هي عليه ، عطف عليه قوله في قراءة البصريين وعاصم وهشام عن ابن عامر بخلاف عنه : ﴿ وليوفيهم ﴾ أي ربهم الذي تقدم إقبال المحسن عليه ودعاؤه له ، وقراءة الباقين بالنون أنسب لمطلع السورة ولما يشير إليه من كشف حجب الكبرياء في يوم الفصل .

(28/703)

ولما كان سبحانه يعلم مثاقيل الذر وما دونها وما فوقها ويجعل الجزاء على حسبها في المقدار والشبه والجنس والنوع والشخص حتى يكاد يظن العامل أن الجزاء هو العمل قال : ﴿ أعمالهم ﴾ أي جزاءها من خير وشر وجنة ونار – وهذا ظاهر ، أو نص في أن الجن يثابون بالإحسان كما يعاقبون بالعصيان ، وسورة الرحمن كلها خطاب للثقلين بالثواب لأهل الطاعة ، والعقاب لأهل المعصية من كل من القبيلتين ؛ كما سيأتي إن شاء الله تعالى بيانه ،

ويجزى مطيعهم بالثواب كما يجازى عاصيهم بالعقاب – قاله مالك وابن أبي ليلى والضحاك وغيرهم كما نقله البغوي ﴿ وهم ﴾ أي والحال أنهم ﴿ لا يظلمون ﴾ أي لا يتجدد لهم شيء من ظالم ما من ظلم في جزاء أعمالهم بزيادة في عقاب أو نقص من ثواب ، بل الرحمانية كما كانت لهم في الدنيا فهي لهم في الآخرة فلا يظلم ربك أحداً بأن يعذبه فوق ما يستحقه من العقاب ، أو ينقصه عما يستأهل من الثواب .

(29/703)

ولما كان الظاهر في هذه السورة الإنذار كما يشهد به مطلعها ، قال ذاكراً بعض ما يبكت به المجرمون يوم البعث الذي كانوا به يكذبون ويكون فيه توفية جزاء الأعمال ، عاطفاً على ما تقديره : اذكر لهم هذا لعلهم يأنفون أن يكونوا المسيئين فيكونوا من المحسنين : ﴿ ويوم ﴾ أي واذكر لهم يوم يعرضون – هكذا كان الأصل ولكنه أظهر الوصف الذي أوجب لهم الجزاء إشارة إلى أن الأمر كان ظاهراً لهم ولكنهم ستروا ، أنوار عقولهم فقال : ﴿ يعرض الذين كفروا ﴾ أي من الفريقين المذكورين ﴿ على النار ﴾ أي يصلون لهبها ويقلبون فيها كما يعرض اللحم الذي يشوى ، مقولاً لهم على سبيل التنديم والتقريع والتوبيخ والتشنيع لأنهم لم يذكروا الله حق ذكره عند شهواتهم بل نالوها مع مخالفة أمره سبحانه ونهيه : ﴿ أذهبتم ﴾

في قراءة نافع وأبي عمرو والكوفيين بالإخبار ، وقراءة الباقين بالاستفهام لزيادة الإنكار والتوبيخ ﴿ طيباتكم ﴾ أي لذاتكم باتباعكم الشهوات ﴿ في حياتكم ﴾ ونفر منها بقوله تعالى : ﴿ الدنيا ﴾ أي القريبة الدنية المؤذن وصفها لمن يعقل بحياة أخرى بعدها ، فكان سعيكم في حركاتكم وسكناتكم لأجلها حتى نلتموها ﴿ واستمتعتم ﴾ أي طلبتم وأوجدتم انتفاعكم ﴿ بها ﴾ وجعلتموها غاية حظكم في رفعتكم ونعمتكم .

ولما كان ذلك استهانة بالأوامر والنواهي للاستهانة بيوم الجزاء ، سبب عنه قوله تعالى : ﴿ فاليوم تجزون ﴾ أي على إعراضكم عنا بجزاء من لا تقدرون التقصي من جزائه بأيسر أمر منه ﴿ عذاب الهون ﴾ أي الهوان العظيم المجتمع الشديد الذي فيه ذلك وخزي ﴿ بما كنتم ﴾ جبلة وطبعاً ﴿ تستكبرون ﴾ أي تطلبون الترفع وتوجدونه على الاستمرار ﴿ في الأرض ﴾ التي هي لكونها تراباً وموضوعة على الزوال والخراب ، أحق شيء بالتواضع والذل والهوان .

(30/703)

ولما كان الاستكبار يكون بالحق لكونه على الظالمين فيكون ممدوحاً ، قيده بقوله : ﴿ بغير الحق ﴾ أي الأمر الذي يطابقه الواقع وهو أوامرنا ونواهينا ، ودل بأداة الكمال على أنه لا

يعاقب على الاستكبار مع الشبهة ﴿ وبما كنتم ﴾ على الاستمرار ﴿ تفسقون ﴾ أي تجددون الخروج عن محيط الطاعة الذي تدعو إليه الفطرة الأولى العقل إلى نوازع المعاصي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 132 . 133 ﴾

(31/703)

فصل

قال الفخر :

ثم قال : ﴿ وَلِكُلٍّ درجات مّمَّا عَمِلُواْ ﴾

وفيه قولان الأول : أن الله تعالى ذكر الولد البار ، ثم أردفه بذكر الولد العاق ، فقوله ﴿ وَلِكُلٍّ درجات مّمَّا عَمِلُواْ ﴾ خاص بالمؤمنين ، وذلك لأن المؤمن البار بوالديه له درجات متفاوتة ، ومراتب مختلفة في هذا الباب والقول الثاني : أن قوله ﴿ لِكُلٍّ درجات مّمَّا عَمِلُواْ ﴾ عائد إلى الفريقين ، والمعنى ولكل واحد من الفريقين درجات في الإيمان والكفر والطاعة والمعصية ، فإن قالوا كيف يجوز ذكر لفظ الدرجات في أهل النار ، وقد جاء في الأثر الجنة الدرجات ، والنار دركات ؟ قلنا فيه وجوه الأول : يجوز أن يقال ذلك على جهة التغليب الثاني : قال ابن زيد : درج أهل الجنة يذهب علواً ، ودرج أهل النار ينزلوا هبوطاً .

الثالث : أن المراد بالدرجات المراتب المتزايدة ، إلا أن زيادات أهل الجنة في الخيرات والطاعات ، وزيادات أهل النار في المعاصي والسيئات .

(32/703)

ثم قال تعالى : ﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ ﴾ وقرىء بالنون وهذا تعليل معلله محذوف لدلالة الكلام عليه كأنه وليوفيهم أعمالهم ولا يظلمهم حقوقهم ، قدر جزاءهم على مقادير أعمالهم فجعل الثواب درجات والعقاب دركات ، ولما بيّن الله تعالى أنه يوصل حق كل أحد إليه بين أحوال أهل العقاب أولاً ، فقال : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الذين كَفَرُواْ عَلَى النار ﴾ قيل يدخلون النار ، وقيل تعرض عليهم النار ليروا أهوالها ﴿ أَذْهَبْتُمْ طيباتكم فِى حياتكم الدنيا ﴾ قرأ ابن كثير ﴿ أَذْهَبْتُمْ ﴾ استفهام بهمزة ومدة ، وابن عامر استفهام بهمزتين بلا مدة والباقون ﴿ أَذْهَبْتُمْ ﴾ بلفظ الخبر والمعنى أن كل ما قدر لكم من الطيبات والراحات فقد استوفيتموه في الدنيا وأخذتموه ، فلم يبق لكم بعد استيفاء حظكم شيء منها ، وعن عمر لو شئت لكنت أطيبكم طعاماً وأحسنكم لباساً ، ولكني أستبقي طيباتي ، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه دخل على أهل الصفة وهم يرقعون ثيابهم بالأدم ما يجدون لها رقاعاً فقال : " أنتم اليوم خير أم يوم يغدو أحدكم في حلة ويروح في أخرى ، ويغدى عليه

بجفنة ويراح عليه بأخرى ويستر بيته كما تستر الكعبة ، قالوا نحن يومئذ خير قال بل أنتم اليوم خير ؟ " ، رواه صاحب "الكشاف" قال الواحدي : إن الصالحين يؤثرون التقشف والزهد في الدنيا رجاء أن يكون ثوابهم في الآخرة أكمل ، إلا أن هذه الآية لا تدل على المنع من التنعم ، لأن هذه الآية وردت في حق الكافر ، وإنما وبخ الله الكافر لأنه يتمتع بالدنيا ولم يؤد شكر المنعم بطاعته والإيمان به ، وأما المؤمن فإنه يؤدي بإيمانه شكر المنعم فلا يوبخ بتمتعه ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ [الأعراف : 32] نعم لا ينكر أن الاحتراز عن التنعم أولى ، لأن النفس إذا اعتادت التنعم صعب عليها الاحتراز والإنقباض ، وحينئذ فربما حمله الميل إلى تلك

(33/703)

الطيبات على فعل ما لا ينبغي ، وذلك مما يجر بعضه إلى بعض ويقع في البعد عن الله تعالى بسببه .

ثم قال تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ أي الهوان ، وقرىء عذاب الهوان ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ فعلل تعالى ذلك العذاب بأمرين : أولهما : الاستكبار والترفع وهو ذنب القلب الثاني : الفسق وهو ذنب الجوارح ،

وقدم الأول على الثاني لأن أحوال القلوب أعظم وقعاً من أعمال الجوارح ، ويمكن أن يكون المراد من الاستكبار أنهم يتكبرون عن قبول الدين الحق ، ويستنكفون عن الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام ، وأما الفسق فهو المعاصي واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع ، قالوا لأنه تعالى علل عذابهم بأمرين : أولهما : الكفر وثانيهما : الفسق ، وهذا الفسق لا بد وأن يكون مغايراً لذلك الكفر ، لأن العطف يوجب المغايرة ، فثبت أن فسق الكفار يوجب العقاب في حقهم ، ولا معنى للفسق إلا ترك المأمورات وفعل المنهيات ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 23.22 ﴾

(34/703)

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى : ﴿ ولكل درجات ﴾

يعني المحسنين والمسيئين . قال ابن زيد : ودرجات المحسنين تذهب علواً ، ودرجات المسيئين تذهب سفلاً .

وقرأ أبو عبد الرحمن : " ولتوفيهم " بالتاء من فوق ، أي الدرجات . وقرأ جمهور الناس : "

وليوفيهم " بالياء . وقرأ نافع بخلاف عنه ، وأبو جعفر وشيبة والأعرج وطلحة والأعمش : " ولنوفيهم " بالنون : قال اللؤلؤي في حرف أبي بن كعب وابن مسعود : " ولنوفينّهم " بنون أولى ونون ثانية مشددة ، وكل امرئ يجني ثمرة عمله من خير أو شر ولا يظلم في مجازاته ، بل يوضع كل أمر موضعه من ثواب أو عقاب .

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا

المعنى : واذكر يوم يعرض ، وهذا العرض هو بالمباشرة ، كما تقول عرضت العود على النار والجاني على السوط ، والمعنى : يقال لهم ﴿ أذهبتم طيباتكم ﴾ .

وقرأ جمهور القراء : " أذهبتم " على الخبر ، حسنت الفاء بعد ذلك . وقرأ ابن كثير والحسن والأعرج وأبو جعفر ومجاهد وابن وثاب . " آذهبتم " بهمزة مطولة على التوبيخ والتقرير الذي هو في لفظ الاستفهام . وقرأ ابن عامر " أأذهبتم " بهمزتين تقريراً .

والتقرير والتوبيخ إخبار بالمعنى ، ولذلك حسنت الفاء وإلا فهي لا تحسن في جواب على حد هذه مع الاستفهام المحض .

(35/703)

والطيبات : الملاذ ، وهذه الآية وإن كانت في الكفار فهي رادعة لأولي النهى من المؤمنين عن الشهوات واستعمال الطيبات ، ومن ذلك قول عمر رضي الله عنه : أتظنون أنا لا نعرف طيب الطعام ، ذلك لباب البر بصغار المعزى ، ولكني رأيت الله تعالى نعى على قوم أنهم أذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا ، ذكر هذا في كلامه مع الربيع بن زياد . وقال أيضاً نحو هذا لخالد بن الوليد حين دخل الشام فقدم إليه طعام طيب ، فقال عمر : هذا لنا ، فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا ولم يشبعوا من خبز الشعير ؟ فقال خالد : لهم الجنة ، فبكى عمر وقال : لئن كان حظنا في الحطام وذهبوا بالجنة لقد باينونا بوناً بعيداً . وقال جابر بن عبد الله : اشتريت لحماً بدرهم فرآني عمر ، فقال : أو كلما اشتهى أحدكم شيئاً اشتراه فأكله ؟ أما تخشى أن تكون من أهل هذه الآية ، وتلا : ﴿ أذهبتم ﴾ الآية .

و﴿ عذاب الهون ﴾ : العذاب الذي اقترن به هوان ، وهذا هو عذاب العصاة المواقعين ما قد نهوا عنه ، وهذا بين في عذاب الدنيا ، فعذاب المحدود في معصية كالحرابة ونحوها مقترن بهون ، وعذاب المقتول في حرب لا هون معه ، فالهون والهوان بمعنى ؟ ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(36/703)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ ﴾

أي ولكل واحد من الفريقين المؤمنين والكافرين من الجنّ والإنس مراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم .

قال ابن زيد : درجات أهل النار في هذه الآية تذهب سِفالاً ، ودرج أهل الجنة عُلوًّا .

﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ قرأ ابن كثير وابن مُحَيْصن وعاصم وأبو عمرو ويعقوب بالياء لذكر الله قبله ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾ [يونس : 55] واختاره أبو حاتم .

الباقون بالنون ردًّا على قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ ﴾ [العنكبوت : 8] وهو اختيار أبي عبيد .

﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ أي لا يزاد على مسيء ولا ينقص من محسن .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ﴾ أي ذكّرهم يا محمد يوم يعرض .

﴿ الذين كَفَرُواْ عَلَى النار ﴾ أي يكشف الغطاء فيقرّبون من النار وينظرون إليها .

﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ ﴾ أي يقال لهم أذهبتم ؛ فالقول مضمر .

وقرأ الحسن ونصر وأبو العالية ويعقوب وابن كثير "أَأَذْهَبْتُمْ" بهمزتين مخففتين ، واختاره أبو حاتم .

وقرأ أبو حيوة وهشام "آذهبتم" بهمزة واحدة مطولة على الاْستفهام.

الباقون بهمزة واحدة من غير مدّ على الخبر، وكلها لغات فصيحة ومعناها التوبيخ، والعرب توبخ بالاْستفهام وبغير الاْستفهام؛ وقد تقدّم.

واختار أبو عبيد ترك الاْستفهام لأنه قراءة أكثر أئمة السبعة نافع وعاصم وأبي عمرو وحمزة والسكائي، مع من وافقهم شيبة والزهري وابن مُحَيْصن والمغيرة بن أبي شهاب ويحيى بن الحارث والأعمش ويحيى بن وثّاب وغيرهم؛ فهذه عليها جِلّة الناس.

وترك الاْستفهام أحسن؛ لأن إثباته يوهم أنهم لم يفعلوا ذلك، كما تقول: أنا ظلمتك؟ تريد أنا لم أظلمك.

وإثباته حسن أيضاً؛ يقول القائل: ذهبت فعلت كذا؛ يُوبّخ ويقول: أذهبت فعلت! كل ذلك جائز.

(37/703)

ومعنى "أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ" أي تمتَّعتم بالطيبات في الدنيا واتبعتم الشهوات واللذات؛ يعني المعاصي.

﴿ فاليوم تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهون ﴾ أي عذاب الخزي والفضيحة.

قال مجاهد : الهون الهوان .

قتادة : بلغة قريش .

﴿ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحق ﴾ أي تستعلون على أهلها بغير استحقاق .

﴿ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ في أفعالكم بَغْياً وظلماً .

وقيل : "أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ" أي أفنيتم شبابكم في الكفر والمعاصي .

قال ابن بحر : الطيبات الشباب والقوّة ؛ مأخوذ من قولهم : ذهب أطيباه ؛ أي شبابه وقوّته .

قال الماوردِيّ : ووجدت الضحاك قاله أيضاً .

قلت : القول الأوّل أظهر ، روى الحسن عن الأحنف بن قيس أنه سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : لأنا أعلم بخفض العيش ، ولو شئت لجعلت أكباداً وصلاء وصِناباً وصَلائِقَ ، ولكني أستبقي حسناتي ؛ فإن الله عز وجل وصف أقواماً فقال : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدنيا واستمتعتم بِهَا ﴾ وقال أبو عبيد في حديث عمر : لو شئت لدعوت بصلائق وصناب وكَرَاكِرَ وأسنمة .

وفي بعض الحديث : وأفلاذٍ .

قال أبو عمرو وغيره : الصلاء (بالمدّ والكسر) : الشواء ؛ سُمِّي بذلك لأنه يُصْلَى بالنار .

والصِّلاء أيضاً : صلاء النار ؛ فإن فتحت الصاد قصرت وقلت : صَلَى النارِ .

والصِّناب : الأصبغة المتخذة من الخردل والزبيب .

قال أبو عمرو : ولهذا قيل للبِرذَوْن : صِنابِيّ ؛ وإنما شُبِّه لونه بذلك .

قال : والسلائق (بالسين) وهو ما يسلق من البقول وغيرها .

وقال غيره : هي الصلائق بالصاد ؛ قال جرير :

تُكَلِّفِني معيشةَ آلِ زيدٍ . . .

ومَن لي بالصّلائق والصِّناب

والصلائق : الخبز الرقاق العريض .

وقد مضى هذا المعنى في "الأعراف" .

وأما الكراكر فكراكر الإبل ، واحدتها كِرْكِرة وهي معروفة ؛ هذا قول أبي عبيد .

(38/703)

وفي الصحاح : والكِرْكِرة رَحَى زَوْر البعير ، وهي إحدى النفثات الخمس .

والكِرْكِرة أيضاً الجماعة من الناس .

وأبو مالك عمرو بن كِرْكِرة رجل من علماء اللغة .

قال أبو عبيد : وأما الأفلاذ فإن واحدها فِلذ ، وهي القطعة من الكَبِد .

قال أعشَىْ باهلة :

تَكْفِيهِ حُزَّةُ فِلْذٍ إن أَلَمّ بها . . .

من الشِّواء ويُرْوِي شُرْبُه الغُمَرُ

وقال قتادة : ذكر لنا أن عمر رضي الله عنه قال : لو شئت كنت أطيبكم طعاماً ، وألينكم لباساً ، ولكني أستبقي طيباتي للآخرة .

ولما قدم عمر الشام صنع له طعام لم ير قط مثله قال : هذا لنا فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وما شبعوا من خبز الشعير ! فقال خالد بن الوليد : لهم الجنة ؛ فَاغْرَوْرَقت عَيْنَا عمرَ بالدموع وقال : لئن كان حظنا من الدنيا هذا الحطام ، وذهبوا هم في حظهم بالجنة فلقد باينونا بَوْناً بعيداً .

وفي صحيح مسلم وغيره : " أن عمر رضي الله عنه دخل على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو في مَشْرُبته حين هجر نساءه قال : فالتفت فلم أرَ شيئاً يردّ البصر إلا أهباً جلوداً معطونة قد سطع ريحها ؛ فقلت : يا رسول الله ، أنت رسول الله وخِيرته ، وهذا كِسْرى وقَيْصر في الديباج والحرير ؟ قال : فاستوى جالساً وقال : "أفِي شَكٍّ أنت يا بن الخطاب . أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا" فقلت : استغفر لي ! فقال : "اللهم اغفر له" " وقال حفص بن أبي العاص : كنت أتغدّى عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخبز والزيت ، والخبز والخل ، والخبز واللبن ، والخبز والقَدِيد ، وأقلّ ذلك اللحم الغَريض .

وكان يقول : لا تنخلوا الدقيق فإنه طعام كلّه ؛ فجيء بخبز متقلع غليظ ؛ فجعل يأكل ويقول : كلوا ؛ فجعلنا لا نأكل ؛ فقال : ما لكم لا تأكلون ؟ فقلنا : والله يا أمير المؤمنين نرجع إلى طعام ألين من طعامك هذا ؛ فقال : يا بن أبي العاص أما ترى بأني عالم أن لو أمرتُ بعَناق سمينة فيلقى عنها شعرها ثم تُخرج مَصْلِيّة كأنها كذا وكذا ، أمَا ترى بأني عالم أن لو أمرت بصاع أو صاعين من زبيب فأجعله في سقاء ثم أشنّ عليه من الماء فيصبح كأنه دم غزال ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ، أجل ! ما تنعت العيش ؛ قال : أجل ! والله الذي لا إله إلا هو لولا أني أخاف أن تنقص حسناتي يوم القيامة لشاركناكم في العيش ! ولكني سمعت الله تعالى يقول لأقوام : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدنيا واستمتعتم بِهَا ﴾ .

﴿ فاليوم تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهون ﴾ أي الهوان .

﴿ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأرض بِغَيْرِ الحق ﴾ أي تتعظمون عن طاعة الله وعلى عباد الله .

﴿ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ تخرجون عن طاعة الله .

وقال جابر : اشتهى أهلي لحماً فاشتريته لهم فمررت بعمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال

: ما هذا يا جابر ؟ فأخبرته ؛ فقال : أوكلما اشتهى أحدكم شيئاً جعله في بطنها أما يخشى أن يكون من أهل هذه الآية : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ ﴾ الآية .

قال ابن العربي : وهذا عتاب منه له على التوسع بابتياع اللحم والخروج عن جِلْف الخبز والماء ؛ فإن تعاطي الطيبات من الحلال تستشره لها الطباع وتستمرئها العادة فإذا فقدتها استسهلت في تحصيلها بالشبهات حتى تقع في الحرام المحض بغلبة العادة واستشراه الهوى على النفس الأمارة بالسوء ؛ فأخذ عمر الأمر من أوّله وحماه من ابتدائه كما يفعله مثله .

(40/703)

والذي يضبط هذا الباب ويحفظ قانونه : على المرء أن يأكل ما وجد ، طيباً كان أو قَفاراً ، ولا يتكلف الطيّب ويتخذه عادة ؛ وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يشبع إذا وجد ، ويصبِر إذا عدِم ، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها ، ويشرب العسل إذا اتفق له ، ويأكل اللحم إذا تيسر ؛ ولا يعتمد أصلاً ، ولا يجعله دَيْدَناً .

ومعيشة النبيّ صلى الله عليه وسلم معلومة ، وطريقة الصحابة منقولة ؛ فأما اليوم عند استيلاء الحرام وفساد الحطام فالخلاص عسير ، والله يَهَب الإخلاص ، ويُعين على الخلاص برحمته .

وقيل : إن التوبيخ واقع على ترك الشكر لا على تناول الطيّبات المحللة ، وهو حسن ؛ فإن تناول الطيب الحلال مأذون فيه ، فإذا ترك الشكر عليه واستعان به على ما لا يحل له فقد أذهبه .

والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(41/703)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (11) ﴾

قال قتادة : هي مقالة كفار قريش للذين آمنوا : أي لأجل الذين آمنوا : واللام للتبليغ .

ثم انتقلوا إلى الغيبة في قولهم : ﴿ ما سبقونا ﴾ ، ولو لم ينتقلوا لكان الكلام ما سبقتم إليه .

ولما سمعوا أن جماعة آمنوا خاطبوا جماعة من المؤمنين ، أي قالوا : ﴿ للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه ﴾ : أولئك الذين بلغنا إيمانهم يريدون عماراً وصهيباً وبلالاً ونحوهم ممن أسلم وآمن بالنبي (صلى الله عليه وسلم) .

وقال الكلبي والزجاج : هي مقالة كنانة وعامر وسائر قبائل العرب المجاورة .

قالت ذلك حين أسلمت غفار ومزينة وجهينة ، أي لو كان هذا الدين خيراً ، ما سبقنا إليه الرعاة .

وقال الثعلبي : هي مقالة اليهود حين أسلم ابن سلام وغيره منهم .

وقال أبو المتوكل : أسلم أبو ذر ، ثم أسلمت غفار ، فقالت قريش ذلك .

وقيل : أسلمت أمة لعمر ، فكان يضربها ، حتى يفتر ويقول : لولا أني فترت لزدتك ضرباً

فقال كفار قريش : لو كان ما يدعو إليه محمد حقاً ، ما سبقتنا إليه فلانة .

والظاهر أن اسم كان هو القرآن ، وعليه يعود به ويؤيده ، ومن قبله كتاب موسى .

وقيل : به عائد على الرسول ، والعامل في إذ محذوف ، أي ﴿ وإذ لم يهتدوا به ﴾ ، ظهر عنادهم .

وقوله : ﴿ فسيقولون ﴾ ، مسبب عن ذلك الجواب المحذوف ، لأن هذا القول هو ناشىء عن العناد ، ويمتنع أن يعمل في : إذ فسيقولون ، لحيلولة الفاء ، وليعاند زمان إذ وزمان سيقولون .

﴿ إفك قديم ﴾ ، كما قالوا : ﴿ أساطير الأولين ﴾ ، وقدمه بمرور الأعصار عليه .

ولما طعنوا في صحة القرآن ، قيل لهم : إنه أنزل الله من قبله التوراة على موسى ، وأنتم لا تنازعون في ذلك ، فلا ينازع في إنزال القرآن .

﴿ إماماً ﴾ أي يهتدى به ، إن فيه البشارة بمبعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وإرساله ، فيلزم اتباعه والإيمان به ؛ وانتصب إماماً على الحال ، والعامل فيه العامل في : ﴿ ومن قبله ﴾ ، أي وكتاب موسى كان من قبل القرآن في حال كونه إماماً .

وقرأ الكلبي : كتاب موسى ، نصب وفتح ميم من على أنها موصولة ، تقديره : وآتينا الذي قبله كتاب موسى .

وقيل : انتصب إماماً بمحذوف ، أي أنزلناه إماماً ، أي قدوة يؤتم به ، ﴿ ورحمة ﴾ لمن عمل به ؛ وهذا إشارة إلى القرآن .

﴿ كتاب مصدق ﴾ له ، أي لكتاب موسى ، وهي التوراة التي تضمنت خبره وخبر من جاء به ، وهو الرسول .

فجاء هو مصدقاً لتلك الأخبار ، أو مصدقاً للكتب الإلهية .

ولساناً : حال من الضمير في مصدق ، والعامل فيه مصدق ، أو من كتاب ، إذ قد وصف العامل فيه اسم الإشارة .

أو لساناً : حال موطئة ، والحال في الحقيقة هو عربياً ، أو على حذف ، أي ذا الشأن عربي ، فيكون مفعولاً بمصدق ؛ أي هذا القرآن مصدق من جاء به وهو الرسول ، وذلك بإعجازه وأحواله البارعة .

وقيل : انتصب على إسقاط الخافض ، أي بلسان عربي .

وقرأ أبو رجاء ، وشيبة ، والأعرج ، وأبو جعفر ، وابن عامر ، ونافع ، وابن كثير : لتنذر ، بتاء الخطاب للرسول ؛ والأعمش ، وابن كثيراً أيضاً ، وباقي السبعة : بياء الغيبة ، أي لينذرنا القرآن والذين ظلموا الكفار عباد الأصنام ، حيث وضعوا العبادة في غير من يستحقه .

﴿ وبشرى ﴾ ، قيل : معطوف على مصدق ، فهو في موضع رفع ، أو على إضمار هو .

وقيل : منصوب بفعل محذوف معطوف على لينذر ، أي ويبشر بشرى .

وقيل : منصوب على إسقاط الخافض ، أي ولبشرى .

وقال الزمخشري ، وتبعه أبو البقاء : وبشرى في محل النصب ، معطوف على محل لينذر ، لأنه مفعول له . انتهى .

وهذا لا يجوز على الصحيح من مذهب النحويين ، لأنهم يشترطون في الحمل على المحل أن يكون المحل بحق الأصالة ، وأن يكون للموضع محرز .

(43/703)

والمحل هنا ليس بحق الأصالة ، لأن الأصل هو الجر في المفعول له ، وإنما النصب ناشىء عن إسقاط الخافض ، لكنه لما كثر بالشروط المذكورة في النحو ، وصل إليه الفعل فنصبه .

ولما عبر عن الكفار بالذين ظلموا ، عبر عن المؤمنين بالمحسنين ، ليقابل بلفظ الإحسان لفظ الظلم .

﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ : تقدم الكلام على نظير هذه الآية في سورة فصلت .

ولما ذكر : ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ ، قال : ﴿ ووصينا ﴾ ، إذ كان بر الوالدين ثانياً أفضل الأعمال ، إذ في الصحيح : أي الأعمال أفضل ؟ فقال الصلاة على ميقاتها قال : ثم أي ؟ قال : ثم بر الوالدين ، وإن كان عقوقهما ثاني أكبر الكبائر ، إذ قال عليه الصلاة والسلام : " ألا أنبئكم ؟ بأكبر الكبائر ؟ الإشراك بالله وعقوق الوالدين " ، والوارد في برهما كثير .

وقرأ الجمهور : حسناً ، بضم الحاء وإسكان السين ؛ وعلي ، والسلمي ، وعيسى : بفتحهما ؛ وعن عيسى : بضمهما ؛ والكوفيون : إحساناً ، فقيل : ضمن ووصينا معنى ألزمنا ، فيتعدى لاثنين ، فانتصب حسناً وإحساناً على المفعول الثاني لوصينا .

وقيل : التقدير : إيصاء ذا حسن ، أو ذا إحسان .

ويجوز أن يكون حسناً بمعنى إحسان ، فيكون مفعولاً له ، أي ووصيناه بهما لإحساننا

إليهما ، فيكون الإحسان من الله تعالى .

وقيل : النصب على المصدر على تضمين وصينا معنى أحسنا بالوصية للإنسان بوالديه إحساناً .

وقال ابن عطية : ونصب هذا يعني إحساناً على المصدر الصريح والمفعول الثاني في المجرور ؛ والباء متعلقة بوصينا ، أو بقوله : إحساناً . انتهى .

ولا يصح أن يتعلق بإحساناً ، لأنه مصدر بحرف مصدري والفعل ، فلا يتقدم معموله عليه ، ولأن أحسن لا يتعدى بالباء ، إنما يتعدى باللام ؛ تقول : أحسنت لزيد ، ولا تقول : أحسنت بزيد ، على معنى أن الإحسان يصل إليه .

وتقدم الكلام على ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسناً ﴾ في سورة العنكبوت ، وانجر هنا بالكلام على ذلك مزيداً للفائدة .

(44/703)

﴿ حملته أمه كرهاً ﴾ : لبس الكره في أول علوقها ، بل في ثاني استمرار الحمل ، إذ لا تدبير لها في حمله ولا تركه .

انتهى .

ولا يلحقها كره إذ ذاك ، فهذا احتمال بعيد .

وقال مجاهد ، والحسن ، وقتادة : المعنى حملته مشقة ، ووضعته مشقة .

وقرأ الجمهور : بضم الكاف ؛ وشيبة ، وأبو جعفر ، والأعرج ، والحرميان ، وأبو عمرو : بالفتح ؛ وبهما معاً : أبو رجاء ، ومجاهد ، وعيسى ؛ والضم والفتح لغتان بمعنى واحد ، كالعقر والعقر .

وقالت فرقة : بالضم المشقة ، وبالفتح الغلبة والقهر ، وضعفوا قراءة الفتح .

وقال بعضهم : لو كان بالفتح ، لرمت به عن نفسها إذ معناه : القهر والغلبة . انتهى .

وهذا ليس بشيء ، إذ قراءة الفتح في السبعة المتواترة .

وقال أبو حاتم : القراءة بفتح الكاف لا تحسن ، لأن الكره بالفتح ، النصب والغلبة . انتهى .

وكان أبو حاتم يطعن في بعض القرآن بما لا علم له به جسارة منه ، عفا الله عنه ، وانتصابهما على الحال من ضمير الفاعل ، أي حملته ذات كره ، أو على أنه نعت لمصدر محذوف ، أي حملاً ذا كره .

﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ﴾ : أي ومدة حمله وفصاله ، وهذا لا يكون إلا بأن يكون أحد الطرفين ناقصاً ؛ إما بأن تلد المرأة لستة أشهر وترضع عامين ، وإما أن تلد لتسعة أشهر على العرف وترضع عامين غير ربع عام .

فإن زادت مدة الحمل ، نقصت مدة الرضاع .

فمدة الرضاع عام وتسعة أشهر ، وإكمال العامين لمن أراد أن يتم الرضاعة .

وقد كشفت التجربة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، كنص القرآن .

وقال جالينوس : كنت شديد الفحص عن مقدر زمن الحمل ، فرأيت امرأة ولدت لمائة وأربع وثمانين ليلة .

وزعم ابن سينا أنه شاهد ذلك ؛ وأما أكثر الحمل فليس في القرآن ما يدل عليه .

قال ابن سينا في الشفاء : بلغني من جهة من أثق به كل الثقة ، أن امرأة وضعت بعد الرابع من سني الحمل ، ولدت ولداً نبتت أسنانه .

(45/703)

وحكي عن أرسطا طاليس أنه قال : إن مدة الحمل لكل الحيوان مضبوطة سوى الإنسان ، فربما وضعت لسبعة أشهر ، ولثمانية ، وقل ما يعيش الولد في الثامن ، إلا في بلاد معينة مثل مصر . انتهى .

وعبر عن الرضاع بالفصال ، لما كان الرضاع يلي الفصال ويلابسه ، لأنه ينتهي به ويتم ، سمي به .

وقرأ الجمهور : وفصاله ، وهو مصدر فاصل ، كأنه من اثنين : فاصل أمه وفاصلته .

وقرأ أبو رجاء ، والحسن ، وقتادة ، والجحدري : وفصله ، قيل : والفصل والفصال مصدران ، كالفطم والفطام .

وهنا لطيفة : ذكر تعالى الأم في ثلاثة مراتب في قوله : بوالديه وحمله وإرضاعه المعبر عنه بالفصال ، وذكر الولد في واحدة في قوله : بوالديه ؛ فناسب ما قال الرسول من جعل ثلاثة أرباع البر للأم والربع للأب في قول الرجل : " يا رسول الله ، من أبر ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أباك "

﴿ حتى إذا بلغ أشده ﴾ في الكلام حذف تكون حتى غاية له ، تقديره : فعاش بعد ذلك ، أو استمرت حياته ؛ وتقدم الكلام في

﴿ بلغ أشده ﴾ في سورة يوسف .

والظاهر ضعف قول من قال : بلوغ الأشد أربعون ، لعطف ﴿ وبلغ أربعين سنة ﴾ .

والعطف يقتضي التغاير ، إلا إن ادعى أن ذلك توكيد لبلوغ الأشد فيمكن ؛ والتأسيس أولى من التأكيد ؛ وبلوغ الأربعين اكتمال العقل لظهور الفلاح .

قيل : ولم يبعث نبي إلا بعد الأربعين .

وفي الحديث : أن الشيطان يجر يده على وجه من زاد على الأربعين ولم يتب ويقول : بأبي وجه لا يفلح .

﴿ قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه ﴾ : وتقدم الكلام على هذا في سورة النمل .

(46/703)

﴿ وأصلح لي في ذريتي ﴾ : سأل أن يجعل ذريته موقعاً للصلاح ومظنة له ، كأنه قال : هب لي الصلاح في ذريتي ، فأوقعه فيهم ، أو ضمن : وأصلح لي معنى : وألطف بي في ذريتي ، لأن أصلح يقتدي بنفسه لقوله : ﴿ وأصلحنا له زوجه ﴾ فلذلك احتج قوله : ﴿ في ذريتي ﴾ إلى التأويل .

قيل : نزلت في أبي بكر رضي الله عنه ، وتتناول من بعده ، وهو مشكل ، لأنها نزلت بمكة ، وأبوه أسلم عام الفتح .

ولقوله : ﴿ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما علموا ﴾ : فلم يقصد بذلك أبو بكر ولا غيره .

والمراد بالإنسان الجنس ، ولذلك أشار بقوله : ﴿ أولئك ﴾ جمعاً .

وقرأ الجمهور : يتقبل مبنياً للمفعول ، أحسن رفعاً ، وكذا ويتجاوز ؛ وزيد بن علي ، وابن وثاب ، وطلحة ، وأبو جعفر ، والأعمش : بخلاف عنه .

وحمزة ، والكسائي ، وحفص : نتقبل أحسن نصباً ، ونتجاوز بالنون فيهما ؛ والحسن ، والأعمش ، وعيسى : بالياء فيهما مفتوحة ونصب أحسن .

﴿ في أصحاب الجنة ﴾ ، قيل : في بمعنى مع ؛ وقيل : هو نحو قولك : أكرمني الأمير في ناس من أصحابه ، يريد في جملة من أكرم منهم ، ومحله النصب على الحال على معنى كائنين في أصحاب الجنة .

وانتصب ﴿ وعد الصدق ﴾ على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة ، لأن قوله : ﴿ أولئك الذين نتقبل ﴾ ، وعد منه تعالى بالتقبل والتجاوز ، لما ذكر الإنسان البار بوالديه وما آل إليه من الخير ، ذكر العاق بوالديه وما آل إليه من الشر .

والمراد بالذي : الجنس ، ولذلك جاء الخبر مجموعاً في قوله : ﴿ أولئك الذين حق عليهم القول ﴾ .

وقال الحسن : هو الكافر العاق بوالديه المنكر البعث .

(47/703)

وقول مروان بن الحكم ، واتبعه قتادة : أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ، قول خطأ ناشىء عن جور ، حين دعا مروان ، وهو أمير المدينة ، إلى مبايعة يزيد ، فقال عبد

الرحمن : جعلتموها هرقلية ؟ كلما مات هرقل ولى ابنه ، وكلما مات قيصر ولى ابنه ؟ فقال مروان : خذوه ، فدخل بيت أخته عائشة رضي الله عنها ، وقد أنكرت ذلك عائشة فقالت ، وهي المصدوقة : لم ينزل في آل أبي بكر من القرآن غير براءتي ؛ وقالت : والله ما هو به ، ولو شئت أن أسميه لسميته .

وصدت مروان وقالت : ولكن الله لعن أباك وأنت في صلبه ، فأنت فضض من لعنة الله .

ويدل على فساد هذا القول أنه قال تعالى : ﴿ أولئك الذين حق عليهم القول ﴾ ، وهذه صفات الكفار أهل النار ، وكان عبد الرحمن من أفاضل الصحابة وسراتهم وأبطالهم ، وممن له في الإسلام غناء يوم اليمامة وغيره .

﴿ أف لكما ﴾ : تقدم الكلام على أف مدلولاً ولغات وقراءة في سورة الإسراء ، واللام في لكما للبيان ، أي لكما ، أعني : التأفيف .

وقرأ الجمهور : ﴿ أتعدانني ﴾ ، بنونين ، الأولى مكسورة ؛ والحسن ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وفي رواية ؛ وهشام : بإدغام نون الرفع في نون الوقاية .

وقرأ نافع في رواية ، وجماعة : بنون واحدة .

وقرأ الحسن ، .

وشيبة ، وأبو جعفر : بخلاف عنه ؛ وعبد الوارث ، عن أبي عمرو ، وهارون بن موسى ، عن الجحدري ، وسام ، عن هشام : بفتح النون الأولى ، كأنهم فروا من الكسرتين ، والياء

إلى الفتح طلباً للتخفيف ففتحوا ، كما فر من أدغم ومن حذف .

وقال أبو حاتم : فتح النون باطل غلط .

﴿ أن أخرج ﴾ : أي أخرج من قبري للبعث والحساب .

وقرأ الجمهور : أن أخرج ، مبنياً للمفعول ؛ والحسن ، وابن يعمر ، والأعمش ، وابن مصرف ، والضحاك : مبنياً للفاعل .

﴿ وقد خلت القرون من قبلي ﴾ : أي مضت ، ولم يخرج منهم أحد ولا بعث .

وقال أبو سليمان الدمشقي : ﴿ وقد خلت القرون من قبلي ﴾ مكذبة بالبعث .

(48/703)

﴿ وهما يستغيثان الله ﴾ ، يقال : استغثت الله واستغثت بالله ، والاستعمالان في لسان العرب .

وقد رددنا على ابن مالك إنكار تعديته بالباء ، وذكرنا شواهد على ذلك في الأنفال ، أي يقولان : الغياث بالله منك ومن قولك ، وهو استعظام لقوله : ﴿ ويلك ﴾ ، دعاء عليه بالثبور ؛ والمراد به الحث والتحريض على الإيمان لا حقيقة الهلاك .

وقيل : ويلك لمن يحقر ويحرك لأمر يستعجل إليه .

وقرأ الأعرج، وعمرو بن فائدة: ﴿ إن وعد الله ﴾، بفتح الهمزة، أي: آمن بأن وعد الله حق، والجمهور بكسرها، ﴿ فيقول ما هذا ﴾: أي ما هذا الذي يقول؟ أي من الوعد بالبعث من القبور، إلا شيء سطره الأولون في كتبهم، ولا حقيقة له.

قال ابن عطية: وظاهر الفاظ هذه الآية أنها نزلت في مشار إليه قال وقيل له، فنفى الله أقواله تحذيراً من الوقوع في مثلها.

وقوله: ﴿ أولئك ﴾، ظاهره أنه إشارة إلى جنس يتضمنه قوله: ﴿ والذي قال ﴾، ويحتمل أن تكون الآية في مشار إليه، ويكون قوله في أولئك بمعنى صنف هذا المذكور وجنسه هم: ﴿ الذين حق عليهم القول ﴾ أي قول الله أنه يعذبهم ﴿ في أمم ﴾، أي جملة: ﴿ أمم قد خلقت من قبلهم من الجن والإنس ﴾، يقتضي أن الجن يموتون قرناً بعد قرن كالإنس.

وقال الحسن في بعض مجالسه: الجن لا يموتون، فاعترضه قتادة بهذه الآية فسكت.

وقرأ العباس، عن أبي عمرو: أنهم كانوا، بفتح الهمزة، والجمهور بالكسر.

﴿ ولكل ﴾: أي من المحسن والمسيء، ﴿ درجات ﴾ غلب درجات، إذ الجنة درجات والنار دركات، والمعنى: منازل ومراتب من جزاء ما عملوا من الخير والشر، ومن أجل ما عملوا منها.

قال ابن زيد: درجات المحسنين تذهب علواً، ودرجات المسيئين تذهب سفلاً. انتهى.

والمعلل محذوف تقديره : وليوفيهم أعمالهم قدر جزائهم ، فجعل الثواب درجات والعقاب دركات .

(49/703)

وقرأ الجمهور : وليوفيهم بالياء ، أي الله تعالى ؛ والأعمش ، والأعرج ، وشيبة ، وأبو جعفر ، والإخوان ، وابن ذكوان ، ونافع : بخلاف عنه بالنون ؛ والسلمي : بالتاء من فوق ، أي ولنوفيهم الدرجات ، أسند التوفية إليها مجازاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(50/703)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ والذى قَالَ لوالديه ﴾

عندَ دعوتِهما لهُ إلى الإيمانِ ﴿ أُفٍّ لَّكُمَا ﴾ هو صوتٌ يصدرُ عنِ المرءِ عندَ تضجرِه ، واللامُ لبيانِ المؤفَّفِ له كمَا في هَيْتَ لكَ . وقُرِىءَ أُفِّ بالفتحِ والكسرِ بغيرِ تنوينٍ وبالحركاتِ

الثلاثِ معَ التنوينِ . والموصولُ عبارةٌ عن الجنسِ القائلِ ذلكَ القولَ ولذلكَ أُخبرَ عنه بالمجموعِ كما سبقَ . قيلَ : هُو في الكافرِ العاقِّ لوالديهِ المكذبِ بالبعثِ . وعن قَتَادةَ : هُو نعتُ عبدِ سوءٍ عاقٍّ لوالديهِ فاجرٍ لربّه . وما رُويَ من أنَّها نزلتْ في عبدِ الرَّحمنِ بن أبي بكرٍ رضيَ الله عنهُمَا قبلَ إسلامِه يردُّه ما سيأتي من قولِه تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ الآيةَ . فإنَّه كانَ من أفاضلِ المسلمينَ وسَرواتِهم ، وقد كذَّبتِ الصدّيقةُ رضيَ الله عنها مَنْ قالَ ذلكَ . ﴿ أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ ﴾ أُبعثَ من القبرِ بعدَ الموتِ . وقُرِىءَ أَخْرُجَ ، من الخُروجِ . ﴿ وَقَدْ خَلَتِ القرون مِن قَبْلِى ﴾ ولمْ يُبعثْ منهم أحدٌ ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ الله ﴾ يسألانِه أنْ يغيثَهُ ويوفقَهُ للإيمانِ . ﴿ وَيْلَكَ ﴾ أي قائلينَ له ويلكَ ، وهو في الأصلِ دعاءٌ عليه بالثبورِ أُريدَ به الحثَّ والتحريضَ على الإيمانِ لا حقيقةَ الهلاكِ . ﴿ ءَامَنَ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ﴾ أي البعثَ أضافاهُ إليهِ تعالى تحقيقاً للحقِّ وتنبيهاً على خطئِه في إسنادِ الوعدِ إليهما . وقُرِىءَ أَنَّ وعدَ الله أي آمِنْ بأنَّ وعدَ الله حقٌّ ﴿ فَيَقُولُ ﴾ مكذباً لهُما ﴿ مَا هذا ﴾ الذي تسميانِه وعدَ الله ﴿ إِلاَّ أساطير الأولين ﴾ أباطيلُهم التي سَطرُوها في الكتبِ من غيرِ أنْ يكونَ لها حقيقةٌ .

(51/703)

﴿ أولئك ﴾ القائلون هذه المقالاتِ الباطلةَ ﴿ الذين حقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ وهو قولُه تعالى لإبليسَ : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ كما ينبىءُ عنهُ قولُه تعالى : ﴿ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ الجن والإنس ﴾ وقدْ مرَّ تفسيرُه في سورةِ الم السجدةُ ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ جميعاً ﴿ كَانُواْ خاسرين ﴾ قد ضيَّعُوا فطرتَهُم الأصليةَ الجاريةَ مجرى رؤوسِ أموالِهم باتِّباعِهم الشيطانَ ، والجملةُ تعليلٌ للحُكمِ بطريقِ الاستئنافِ التحقيقيِّ . ﴿ وَلِكُلٍّ ﴾ من الفريقينِ المذكورينِ ﴿ درجات مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾ مراتبُ من أجزيةِ ما عملوا من الخيرِ والشرِّ . والدرجاتُ غالبةٌ في مراتبِ المَثوبة ، وإيرادُها هَهُنا بطريقِ التغليبِ . ﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أعمالهم ﴾ أي أجزيةَ أعمالِهم . وقُرِىءَ بنونِ العظمةِ . ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ بنقصِ ثوابِ الأولينَ وزيادةِ عقابِ الآخرينَ . والجملةُ إمَّا حالٌ مؤكدةٌ للتوفية ، أو استئنافٌ مقررٌ لها ، واللامُ متعلقةٌ بمحذوفٍ مُؤخرٍ كأنَّه قيلَ وليُوفِّيهم أعمالَهُم ولا يظلمَهُم حقوقَهم ، فعلَ ما فعل من تقديرِ الأجزيةِ على مقاديرِ أعمالِهم فجعلَ الثوابَ درجاتٍ والعقابَ دركاتٍ . ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الذين كَفَرُواْ عَلَى النار ﴾ أي يُعذَّبُونَ بها منْ قولِهم عُرِضَ الأسارَى على السيفِ أي قُتلوا ، وقيل : يُعرضُ النارُ عليهم بطريقِ القلبِ مبالغةً . ﴿ أَذْهَبْتُمْ طيباتكم ﴾ أي يقالُ لهم ذلكَ وهو الناصبُ للظرفِ . وقُرِىءَ أأذهبتُم بهمزتينِ وبألفٍ بينَهمَا على الاستفهامِ التوبيخيِّ أي أصبتُم وأخذتُم ما كُتب لكُم من حُظوظِ الدُّنيا ولذائذها . ﴿ فِى حياتكم الدنيا واستمتعتم بِهَا ﴾ فلم يبقَ لكُم بعد ذلكَ شيءٌ منها . ﴿ فاليوم تُجْزَوْنَ

عَذَابَ الهون ﴾ أيْ الهوانِ . وقد قُرِىءَ كذلكَ . ﴿ بِمَا كُنتُمْ ﴾ في الدُّنيا ﴿ تَسْتَكْبِرُونَ فِى

(52/703)

الأرض بِغَيْرِ الحق ﴾ بغيرِ استحقاقٍ لذلكَ ﴿ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ أي تخرجونَ عن طاعةِ الله عزَّ وجلَّ أي بسببِ استكبارِكم وفسقِكم المستمرين . وقُرِىءَ تَفْسِقونَ بكسرِ السِّينِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(53/703)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ﴾

﴿ وَلِكُلٍّ ﴾ من الفريقين المذكورين في قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ الذين نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ ﴾ [الأحقاف : 16] وفي قوله سبحانه : ﴿ أُوْلَئِكَ الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ [الأحقاف : 18] وإن شئت فقل في ﴿ الذين قالوا ربنا الله ﴾ [الأحقاف : 13] و ﴿ الذي قال

لوالديه أف ﴾ [الأحقاف : 17] ﴿ درجات مّمَّا عَمِلُواْ ﴾ أي من جزاء ما عملوا ، فالكلام بتقدير مضاف ، والجار والمجرور صفة ﴿ درجات ﴾ و ﴿ مِنْ ﴾ بيانية أو ابتدائية و ﴿ مَا ﴾ موصولة أي من الذي عملوه من الخير والشر أو مصدرية أي من عملهم الخير والشر ، ويجوز أن تكون ﴿ مِنْ ﴾ تعليلية بدون تقدير مضاف والجار والمجرور كما تقدم .

والدرجات جمع درجة وهي نحو المنزلة لكن يقال للمنزلة درجة إذا اعتبرت بالصعود ودركاً إذا اعتبرت بالحدور ، ولهذا قيل : درجات الجنة ودركات النار .

والتعبير بالدرجات كما قال غير واحد على وجه التغليب لاشتمال ﴿ كُلٌّ ﴾ على الفريقين أي لكل منازل ومراتب سواء كانت درجات أو دركات ، وإنما غلب أصحاب الدرجات لأنهم الأحقاء به لا سيما ، وقد ذكر جزاؤهم مراراً وجزاء المقابل مرة ﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أعمالهم ﴾ أي جزاء أعمالهم والفاعل ضميره تعالى .

وقرأ الأعمش .

والأعرج .

وشيبة .

وأبو جعفر .

والأخوان .

وابن ذكوان .

ونافع بخلاف عنه ﴿ لنوفيهم ﴾ بنون العظمة ، وقرأ السلمي بتاء فوقية على الإسناد للدرجات مجازاً ﴿ كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ بنقص ثواب وزيادة عقاب ، وقد مر الكلام في مثله غير مرة ، والجملة حال مؤكدة للتوفية أو استئناف مقرر لها ، واللام متعلقة بمحذوف مؤخر كأنه قيل : وليوفيهم أعمالهم ولا يظلمهم فعل ما فعل من تقدير إلا جزية على مقادير أعمالهم فجعل الثواب درجات والعقاب دركات .

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الذين كَفَرُواْ عَلَى النار ﴾

(54/703)

أي يعذبون بها من قولهم : عرض بنو فلان على السيف إذا قتلوا به وهو مجاز شائع ، وذهب غير واحد إلى أنه من باب القلب المعنوي والمعنى يوم تعرض النار على الذين كفروا نحو عرضت الناقة على الحوض فإن معناه أيضاً كما قالوا : عرضت الحوض على الناقة لأن المعروض عليه يجب أن يكون له إدراك ليميل به إلى المعروض أو يرغب عنه لكن لما كان المناسب هو أن يؤتى بالمعروض عند المعروض عليه ويحرك نحو وههنا الأمر بالعكس لأن الحوض لم يؤت به وكذا النار قلب الكلام رعاية لهذا الاعتبار ، وفي الانتصاف أن كل قولهم :

عرضت الناقة على الحوض مقلوباً فليس قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الذين كَفَرُواْ عَلَى النار ﴾ كذلك لأن الملجىء ثم إلى اعتقاد القلب أن الحوض جماد لا إدراك له والناقة هي المدركة فهي التي يعرض عليها الحوض حقيقة ، وأما النار فقد وردت النصوص بأنها حينئذٍ مدركة إدراك الحيوانات بل إدراك أولي العلم فالأمر في الآية على ظاهره كقولك : عرضت الأسرى على الأمير ، وربما يقال : لا مانع من تنزيلها منزلة المدرك إن لم تكن حينئذٍ مدركة وكذا تنزيل الحوض منزلته حتى كأنه يستعرض الناقة كما قال أبو العلاء المعري :

إذا اشتاقت الخيل المناهل أعرضت . . .

عن الماء فاشتاقت إليها المناهل

وبعد ذلك قد لا يحتاج إلى اعتبار القلب ، وقال أبو حيان : لا ينبغي حمل القرآن على القرآن إذ الصحيح فيه أنه مما يضطر إليه في الشعر ، وإذا كان المعنى صحيحاً واضحاً بدونه فأي ضرورة تدعو إليه ؟ والمثال المذكور لا قلب فيه أيضاً ، فإن عرض الناقة على الحوض وعرض الحوض على الناقة كل منهما صحيح إذ العرض أمر نسبي يصح إسناده لكل واحد من الناقة والحوض .

وابن السكيت في كتاب التوسعة ذهب إلى أن عرضت الحوض على الناقة مقلوب والأصل إنما هو عرضت الناقة على الحوض وهو مخالف للمشهور .

وأنت تعلم مما ذكرنا أولاً أن سبب اعتبارهم القلب في المثال كون المناسب في العرض أن يؤتي بالمعروض عند المعروض عليه وأن الأمر في عرضت الحوض على الناقة بالعكس ، وتفصيل الكلام في ذلك على وجه يعرف منه منشأ الخلاف أن العرض مطلقاً لا يقتضي ذلك وإنما المقتضى له المعنى المقصود من العرض في المثال وهو الميل إلى المعروض ، ومن لم ينظر إلى هذا المعنى ونظر إلى أن المعروض يتحرك إلى المعروض عليه قال إنه الأصل ، ومن لم ينظر إلى الاعتبارين وقال العرض إظهار شيء لشيء قال إن كلاً من القولين على الأصل ، وهو كما قال العلامة السالكوتي الحق لأن كلا الاعتبارين خارج عن مفهوم العرض فاحفظه فإنه نفيس .

والظرف منصوب بقول محذوف مقوله قوله تعالى : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طيباتكم ﴾ إلى آخره أي فيقال لهم يوم يعرضون أذهبتم لذاتكم ﴿ فِى حياتكم الدنيا ﴾ باستيفائها ﴿ واستمتعتم بِهَا ﴾ فلم يبق لكل بعد شيء منها ، وهو عطف تفسير لأذهبتم ، وقرأ قتادة .

ومجاهد .

وابن وثاب .

وأبو جعفر .

والحسن .

والأعرج.

وابن كثير ﴿ أَذْهَبْتُمْ ﴾ بهمزة بعدها مدة مطولة ، وابن عامر بهمزتين حققهما ابن ذكوان ولين الثانية ابن هشام .

(56/703)

وابن كثير في رواية ، وعن هشام الفصل بين المحققة والملينة بألف ، والاستفهام على معنى التوبيخ فهو خبر في المعنى ولو كان استفهاماً محضاً لم تدخل الفاء في قوله سبحانه : ﴿ فاليوم تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهون ﴾ أي الهوان وكذلك قرىء ﴿ بِمَا كُنتُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ تَسْتَكْبِرُونَ فِى الأرض بغَيْرِ الحق ﴾ بغير استحقاق لذلك ، وقد مر بيان سر ﴿ فِى الأرض ﴾ ﴿ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ أي تخرجون من طاعة الله عز وجل أي بسبب استكباركم وفسقكم المستمرين ، وفي "البحر" أريد بالاستكبار الترفع عن الإيمان وبالفسق معاصي الجوارح وقدم ذنب القلب على ذنب الجوارح إذ أعمال الجوارح ناشئة عن مراد القلب ، وقرىء ﴿ تَفْسُقُونَ ﴾ بكسر السين وهذه الآية محرضة على التقلل من الدنيا وترك التنعم فيها والأخذ بالتقشف ، أخرج سعيد بن منصور .

وعبد بن حميد .

وابن المنذر .

والحاكم .

والبيهقي في "شعب الإيمان" عن ابن عمر أن عمر رضي الله تعالى عنه في يد جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه درهماً فقال ما هذا الدرهم ؟ قال : أريد أن أشتري به لأهلي لحماً قرموا إليه فقال أكلما اشتهيتم شيئاً اشتريتموه أين تذهب عنكم هذه الآية ﴿ أَذْهَبْتُمْ طيباتكم حياتكم الدنيا واستمتعتم بِهَا ﴾ .

وأخرج ابن المبارك .

وابن سعد .

وأحمد في الزهد .

وعبد بن حميد .

(57/703)

وأبو نعيم في "الحلية" عن الحسن قال قدم وفد أهل البصرة على عمر رضي الله تعالى عنه مع أبي موسى الأشعري فكان له في كل يوم خبز يلت فربما وافقناه مأدوماً بزيت وربما وافقناه مأدوماً بسمن وربما وافقناه مأدوماً بلبن وربما وافقنا القدائد اليابسة قد دقت ثم

أغلي عليها وربما وافقنا اللحم الغريض أي الطري وهو قليل قال وقال لنا عمر رضي الله تعالى عنه : إني والله ما أجهل عن كراكر واسنمة وعن صلاء وصناب وسلائق ولكن وجدت الله تعالى عير قوماً بأمر فعلوه فقال عز وجل : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طيباتكم فِى حياتكم الدنيا واستمتعتم بِهَا ﴾ ، والكراكر جمع كركرة بالكسرة زور البعير الذي إذا برك أصاب الأرض وهو من أطيب ما يؤكل منه والأسنمة جمع سنام معروف والصلاء بالكسر والمد الشواء ، والصناب ككتاب صباغ يتخذ من الخردل والزبيب ، والسلائق جمع سليقة كسفينة ما سلق من البقول وغيرها ويروى بالصاد الخبز الرقاق واحدتها صليقة كسفينة أيضاً ، وقيل : هي الحملان المشوية ، وقيل : اللحم المشوي المنضج وأنشدوا لجرير :

يكلفني معيشة آل زيد . . .

ومن لي بالصلائق والصناب

وأخرج أحمد .

(58/703)

والبيهقي في "شعب الإيمان" عن ثوبان رضي الله تعالى عنه قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر آخر عهده من أهله بفاطمة وأول من يدخل عليه منهم فاطمة

رضي الله تعالى عنها فقدم من غزاة له فأتاها فإذا بمسح على بابها ورأى على الحسن والحسين قلبين من فضلة فرجع ولم يدخل عليها فلما رأت ذلك ظنت أنه لم يدخل من أجل ما رأى فهتكت الستر ونزعت القلبين من الصبيين فقطعتهما فبكيا فقسمت ذلك بينهما فانطلقا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما يبكيان فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم منهما فقال يا ثوبان اذهب بهذا إلى بني فلان أهل بيت بالمدينة واشتر لفاطمة قلادة من عصب وسوارين من عاج فإن هؤلاء أهل بيتي ولا أحب أن يأكلوا طيباتهم في حياتهم الدنيا " والمسح بكسر فسكون ثوب من عشر غليظ ، والقلبين تثنية قلب بضم فسكون السوار ، والعصب بفتح فسكون قال الخطابي إن لم يكن الثياب فما أدري ما هو وما أدري أن القلائد تكون منها ، ويحتمل أن الرواية بفتح الصاد وهو إطناب مفاصل الحيوان فلعلهم كانوا يتخذون من طاهره مثل الخرز .

قال ثم ذكر بعض أهل اليمن أن العصب سن دابة بحرية تسمى فرس فرعون يتخذ منها الخرز البيض وغيرها ، وأحاديث الزهد في طيبات الحياة الدنيا كثيرة وحال رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك معروفة بين الأمة .

وفي "البحر" بعد حكاية حال عمر رضي الله تعالى عنه على نحو مما ذكرنا ، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : وهذا من باب الزهد وإلا فالآية نزلت في كفار قريش ، والمعنى أنه كانت لكم طيبات الآخرة لو آمنتم لكنكم لم تؤمنوا فاستعجلتم طيباتكم في الحياة الدنيا .

فهذه كناية عن عدم الإيمان ولذلك ترتب عليه ﴿ فاليوم تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهون ﴾ ولو أريد الظاهر ولم يكن كناية عما ذكرنا لم يترتب عليه الجزاء بالعذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(59/703)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ﴾

لما ذكر سبحانه من شكر نعمة الله سبحانه عليه ، وعلى والديه ذكر من قال لهما قولاً يدلّ على التضجر منهما عند دعوتهما له إلى الإيمان ، فقال : ﴿ والذى قَالَ لوالديه أُفٍّ لَّكُمَا ﴾ الموصول عبارة عن الجنس القائل ذلك القول ، ولهذا أخبر عنه بالجمع ، وأفٍّ كلمة تصدر عن قائلها عند تضجره من شيء يرد عليه .

قرأ نافع وحفص و ﴿ أفٍّ ﴾ بكسر الفاء مع التنوين .

وقرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وابن محيصن بفتحها من غير تنوين ، وقرأ الباقون بكسر من غير تنوين وهي لغات .

وقد مضى بيان الكلام في هذا في سورة بني إسرائيل .

[أي : سورة الإِسراء] ، واللام في قوله : ﴿ لَّكُمَا ﴾ لبيان التأفيف ، أي : التأفيف لكما ، كما في قوله : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ [يوسف : 23] قرأ الجمهور ﴿ أتعدانني ﴾ بنونين مخففتين ، وفتح ياءه أهل المدينة ومكة ، وأسكنها الباقون .

وقرأ أبو حيوة ، والمغيرة ، وهشام بإدغام إحدى النونين في الأخرى ، ورويت هذه القراءة عن نافع .

وقرأ الحسن ، وشيبة ، وأبو جعفر ، وعبد الوارث عن أبي عمرو بفتح النون الأولى ، كأنهم فرّوا من توالي مثلين مكسورين .

وقرأ الجمهور : ﴿ أن أخرج ﴾ بضم الهمزة وفتح الراء مبنياً للمفعول .

وقرأ الحسن ، ونصر ، وأبو العالية ، والأعمش ، وأبو معمر بفتح الهمزة وضم الراء مبنياً للفاعل .

والمعنى : أتعدانني أن أبعث بعد الموت ، وجملة ﴿ وَقَدْ خَلَتِ القرون مِن قَبْلِى ﴾ في محل نصب على الحال ، أي : والحال أن قد مضت القرون من قبلي فماتوا ، ولم يبعث منهم أحد ، وهكذا جملة : ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ الله ﴾ في محل نصب على الحال ، أي : والحال أنهما يستغيثان الله له ، ويطلبان منه التوفيق إلى الإيمان ، واستغاث يتعدّى بنفسه وبالباء يقال : استغاث الله ، واستغاث به .

وقال الرازي : معناه يستغيثان بالله من كفره ، فلما حذف الجار وصل الفعل ، وقيل : الاستغاثة : الدعاء ، فلا حاجة إلى الباء .

قال الفراء : يقال : أجاب الله دعاءه وغواثه ، وقوله : ﴿ وَيْلَكَ ﴾ هو بتقدير القول ، أي : يقولان له : ويلك ، وليس المراد به : الدعاء عليه ، بل الحثّ له على الإيمان ، ولهذا قالا له : ﴿ آمن إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ﴾ أي : آمن بالبعث إن وعد الله حقّ لا خلف فيه ﴿ فَيَقُولُ ﴾ عند ذلك مكذباً لما قالاه : ﴿ مَا هذا إِلاَّ أساطير الأولين ﴾ أي : ما هذا الذي تقولانه من البعث إلاّ أحاديث الأوّلين ، وأباطيلهم التي سطّروها في الكتب .

قرأ الجمهور : ﴿ إن وعد الله ﴾ بكسر إن على الاستئناف ، أو التعليل ، وقرأ عمر بن فايد والأعرج بفتحها ، على أنها معمولة لآمن بتقدير الباء ، أي : آمن بأن وعد الله بالبعث حقّ ﴿ أُوْلَئِكَ الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ أي : أولئك القائلون هذه المقالات هم الذين حقّ عليهم القول ، أي : وجب عليهم العذاب بقوله سبحانه لإبليس :

﴿ لاَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : 85] كما يفيده قوله : ﴿ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ الجن والإنس ﴾ ، وجملة : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ خاسرين ﴾ تعليل لما قبله ، وهذا يدفع كون سبب نزول الآية عبد الرحمن بن أبي بكر ، وأنه الذي قال لوالديه ما قال ، فإنه من أفاضل المؤمنين ، وليس ممن حقت عليه كلمة العذاب ، وسيأتي بيان سبب

النزول في آخر البحث إن شاء الله .

﴿ وَلِكُلٍّ درجات مّمَّا عَمِلُواْ ﴾ أي : لكلّ فريق من الفريقين المؤمنين ، والكافرين من الجنّ والإنس مراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم .

قال ابن زيد : درجات أهل النار في هذه الآية تذهب سفلاً ، ودرجات أهل الجنة تذهب علوًّا ﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أعمالهم ﴾ أي : جزاء أعمالهم .

قرأ الجمهور : (لنوفيهم) بالنون .

(61/703)

وقرأ ابن كثير ، وابن محيصن ، وعاصم ، وأبو عمرو ، ويعقوب بالياء التحتية .

واختار أبو عبيد القراءة الأولى ، واختار الثانية أبو حاتم ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ أي : لا يزاد مسيء ، ولا ينقص محسن ، بل يوفّى كل فريق ما يستحقه من خير وشرّ ، والجملة في محلّ نصب على الحال ، أو مستأنفة مقررة لما قبلها ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الذين كَفَرُواْ عَلَى النار ﴾ الظرف متعلق بمحذوف ، أي : اذكر لهم يا محمد يوم ينكشف الغطاء ، فينظرون إلى النار ويقربون منها ، وقيل : معنى ﴿ يعرضون ﴾ : يعذبون ، من قولهم : عرضه على السيف ، وقيل : في الكلام قلب .

والمعنى : تعرض النار عليهم ﴿ أَذْهَبْتُمْ طيباتكم فِى حياتكم الدنيا ﴾ أي : يقال لهم ذلك ، قيل : وهذا المقدّر هو الناصب للظرف ، والأوّل أولى .

قرأ الجمهور ﴿ أذهبتم ﴾ بهمزة واحدة ، وقرأ الحسن ، ونصر ، وأبو العالية ، ويعقوب ، وابن كثير بهمزتين مخففتين .

ومعنى الاستفهام : التقريع والتوبيخ .

قال الفراء ، والزجاج : العرب توبخ بالاستفهام وبغيره ، فالتوبيخ كائن على القراءتين .

قال الكلبي : المراد بالطيبات : اللذات ، وما كانوا فيه من المعايش ﴿ واستمتعتم بِهَا ﴾ أي : بالطيبات ، والمعنى : أنهم اتبعوا الشهوات واللذات التي في معاصي الله سبحانه ، ولم يبالوا بالذنب تكذيباً منهم لما جاءت به الرّسل من الوعد بالحساب والعقاب والثواب ﴿ فاليوم تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهون ﴾ أي : العذاب الذي فيه ذلّ لكم ، وخزي عليكم .

قال مجاهد ، وقتادة : الهون : الهوان بلغة قريش ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى الأرض بِغَيْرِ الحق ﴾ أي : بسبب تكبركم عن عبادة الله ، والإيمان به وتوحيده ﴿ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ أي : تخرجون عن طاعة الله ، وتعملون بمعاصيه ، فجعل السبب في عذابهم أمرين : التكبر عن اتباع الحق ، والعمل بمعاصي الله سبحانه وتعالى ، وهذا شأن الكفرة ، فإنهم قد جمعوا بينهما .

وقد أخرج البخاري عن يوسف بن ماهك قال : كان مروان على الحجاز استعمله معاوية بن أبي سفيان ، فخطب ، فجعل يذكر يزيد بن معاوية ؛ لكي يبايع له بعد أبيه ، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر شيئًا ، فقال : خذوه ، فدخل بيت عائشة ، فلم يقدروا عليه ، فقال مروان : إن هذا أنزل فيه : ﴿ والذى قَالَ لوالديه أُفٍّ لَّكُمَا ﴾ فقالت عائشة : ما أنزل الله فينا شيئًا من القرآن إلاّ أن الله أنزل عُذري .

وأخرج عبد بن حميد ، والنسائي ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، عن محمد بن زياد قال : لما بايع معاوية لابنه ، قال مروان : سنة أبي بكر ، وعمر ، فقال عبد الرحمن : سنة هرقل ، وقيصر ، فقال مروان : هذا الذي قال الله فيه : ﴿ والذى قَالَ لوالديه أُفٍّ لَّكُمَا ﴾ الآية ، فبلغ ذلك عائشة فقالت : كذب مروان ، والله ما هو به ، ولو شئت أن أسمي الذي نزلت فيه لسميته ، ولكنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن أبا مروان ، ومروان في صلبه ، فمروان من لعنه الله .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس في الآية قال : هذا ابن لأبي بكر .

وأخرج نحوه أبو حاتم عن السديّ ، ولا يصح هذا كما قدّمنا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 20 . 21 ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ والذي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي ﴾ الآية .

التحقيق إن شاء الله أن ، ﴿ الذي ﴾ فى قوله : ﴿ والذي قَالَ لِوَالِدَيْهِ ﴾ بمعنى الذين ، وأن الآية عامة في كل عاق لوالديه مكذب بالبحث .

والدليل من القرآن على أن الذي ، بمعنى الذين ، وأن المراد به العموم ، أن ﴿ الذي ﴾ فى قوله : ﴿ والذي قَالَ لِوَالِدَيْهِ ﴾ مبتدأ خبره قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ الآية .

والإخبار عن لفظة الذين فى قوله ﴿ أولئك الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ ﴾ القول بصيغة الجمع ، صريح في أن المراد بالذي ، العموم لا الإفراد . وخير ما يفسر به القرآن القرآن .

وبهذا الدليل القرآني تعلم أن قول من قال في هذه الآية الكريمة أنها نازلة في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، ليس بصحيح ، كما جزمت عائشة رضي الله عنها ببطلانه .

وفي نفس آية الأحقاف هذه دليل آخر واضح على بطلانه ، وهو أن الله صرح بأن الذين قالوا تلك المقالة حق عليهم القول ، وهو قوله ﴿ ولكن حَقَّ القول مِنّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة : 13] .

ومعلوم أن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما أسلم وحسن إسلامه ، وهو من خيار المسلمين وأفاضل الصحابة ، رضي الله عنهم .

وغاية ما في هذه الآية الكريمة هو إطلاق الذي وإرادة الذين ، وهو كثير في القرآن وفي كلام العرب ، لأن لفظ الذي مفرد ومعناها عام لكل ما تشمله صلتها ، وقد تقرر في علم الأصول أن الموصلات كالذي والتي وفروعهما من صيغ العموم ، كما أشار له في مراقي السعود بقوله :

صيغة كل أو الجميع . . . وقد تلا الذي التي الفروع

(64/703)

فمن إطلاق الذي وإرادة الذين في القرآن ، هذه الآية الكريمة من سورة الأحقاف ، وقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذي استوقد نَاراً ﴾ [البقرة : 17] الآية . أي كمثل الذين استوقدوا بدليل قوله ﴿ ذَهَبَ الله بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ ﴾

[البقرة : 17] بصيغة الجمع فى الضمائر الثلاثة التي هي ﴿ بِنُورِهِمْ ﴾ ﴿ وَتَرَكَهُمْ ﴾ ، والواو في ﴿ لاَّ يُبْصِرُونَ ﴾ وقوله تعالى فى البقرة أيضاً ﴿ لاَّ يَقْدِرُونَ على شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ﴾ [البقرة : 264] . وقوله فى الزمر : ﴿ والذي جَآءَ بالصدق وَصَدَّقَ بِهِ أولئك هُمُ المتقون ﴾ [الزمر : 33] وقوله فى التوبة ﴿ وَخُضْتُمْ كالذي خاضوا ﴾ [التوبة : 69] أي كالذين خاضوا بناء على أنها موصولة لا مصدرية ، ونظير ذلك من كلام العرب قول أشهب بن رميلة :

فإن الذي حانت بفلج دماؤهم . . . هم القوم كل القوم يا أم خالد

وقول عديل بن الفرخ العجلي :

وبت أساقي القوم إخوتي الذي . . . غوايتهم غيي ورشدهم رشدي

وقول الراجز :

يا رب عبس لا تبارك في أحد . . . في قائم منهم ولا في من قعد

إلا الذي قاموا بإطراف المسد . . .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾ كلمة تضجر . وقائل ذلك عاق لوالديه غير مجتنب نهى الله في قوله : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكبر أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ [الإسراء : 23] . وقوله ﴿ أتعدانني ﴾ : فعل مضارع وعد ، وحذف واوه فى يا لمضارع مطردن كما ذكره في الخلاصة بقوله :

فا أمر أو مضارع من كوعد . . . احذف وفي كعدة ذاك اطرد

والنون الأولى نون الرفع ، والثانية نون الوقاية كما لا يخفى .

وقرأ هذا الحرف أبو عمرو وابن عامر فى رواية ابن ذكوان وعاصم وحمزة والكسائي :

أتعدانني بنونين مكسورتين مخففتين وياء ساكنة .

وقرأه هشام عن ابن عامر بنون مشددة مكسورة وبياء ساكنة .

(65/703)

وقرأه نافع وابن كثير بنونين مكسورتين مخففتين وياء مفتوحة ، والهمزة للإنكار .

وقوله ﴿ أَنْ أُخْرَجَ ﴾ أي أبعث من قبري حياً بعد الموت .

والمصدر المنسبك من أن وصلتها هو المفعول الثاني لتعدانني يعني أتعدانني الخروج من قبري حياً بعد الموت ، والحال قد مضت القرون أي هلكت الأمم الأولى ، ولم يحيي منهم أحد ، ولم يرجع بعد أن مات .

وهما أي والداه يستغيثان الله أي يطلبانه أن يغيثهما بأن يهدي ولدهما إلى الحق والإقرار بالبعث ، يوقولان لولدهما : ويلك آمن . أي بالله وبالبعث بعد الموت .

والمراد بقولهما ويلك : حثة على الإيمان إن وعد الله حق ، أي وعده بالبعث بعد الموت

حق لا شك فيه ، فيقول ذلك الولد العاق المنكر للبعث : ﴿ مَا هاذآ ﴾ إن الذي تعدانني إياه من البعث بعد الموت ، ﴿ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأولين ﴾ .

والأصاطير جمع أسطورة . وقيل جمع إسطارة ، ومراده بها ما سطره الأولون ، أي كتبوه من الأشياء التي لا حقيقة لها .

وقوله ﴿ أُوْلَئِكَ ﴾ ترجع الإشارة فيه ، إلى العقاين المكذبين ، بالبعث المذكورين فى قوله : ﴿ والذي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾ الآية .

وقوله : ﴿ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ أي وجبت عليهم كلمة العذاب .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لذلك فى سورة يس فى الكلام على قوله تعالى ﴿ لَقَدْ حَقَّ القول على أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ يس : 7] .

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن منكري البعث يحق عليهم القول لكفرهم ، قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الفرقان فى الكلام على قوله تعالى ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بالساعة سَعِيراً ﴾ [الفرقان : 11] .

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا

معنى الآية الكريمة أنه يقال للكفار يوم يعرضون على النار : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ ﴾ .

فقوله يعرضون على النار : قال بعض العلماء : معناه يباشرون حرها كقول العرب : عرضهم على السيف إذا قتلهم به ، وهو معنى معروف في كلام العرب .

وقد ذكر تعالى مثل ما ذكر هنا في قوله : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الذين كَفَرُواْ على النار أَلَيْسَ هذا بالحق ﴾ [الأحقاف : 34] وهذا يدل على أن المراد بالعرض مباشرة العذاب لقوله : ﴿ قَالُواْ بلى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ العذاب بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الأحقاف : 34] . وقوله تعالى : ﴿ فَوَقَاهُ الله سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سواء العذاب النار يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً ﴾ [غافر : 45 - 46] لأنه عرض عذاب .

وقال بعض العلماء : معنى عرضهم على النار هو تقريبهم منها ، والكشف لهم عنها ، حتى يروها كما قال تعالى : ﴿ وَرَأَى المجرمون النار ﴾ [الكهف : 53] الآية . وقال تعالى : ﴿ وجيء يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ [الفجر : 23] .

وقال بعض العلماء : في الكلام قلب ، وهو مروي عن ابن عباس وغيره .

قالوا : والمعنى ويوم تعرض النار على الذين كفروا قالوا وهو كقول العرب : عرضت الناقة على الحوض . يعنون عرضت الحوض على الناقة ، ويدل لهذا قوله تعالى : ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضاً ﴾ [الكهف : 100] .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له .

هذا النوع الذي ذكروه من القلب فى الآية ، كقلب الفاعل مفعولاً ، والمفعول فاعلاً ، ونحو ذلك اختلف فيه علماء العربية ، فمنعه البلاغيون إلا في التشبي ، فأجازوا قلب المشبه مشبهاً به والمشبه به مشبهاً بشرط أن يتضمن ذلك نكتة وسراً لطيفاً كما هو المعروف عندهم فى مبحث التشبية المقلوب .

وأجازه كثير من علماء العربية .

والذي يظهر لنا أنه أسلوب عربي نطقت به العرب فى لغتها ، إلا أنه يحفظ ما سمع منه ، ولا يقاس عليه ومن أمثلته في التشبيه قول الراجز :

ومنهل مغبرة أرجاؤه . . . كأن لو أرضه سماؤه

(67/703)

أي كأن سماءه لون أرضه ، وقول الآخر :

وبدا الصباح كأن غرته . . . وجه الخليفة حين يمتدح

لأن أصل المراد تشبيه وجه الخليفة بغرة الصباح فقلب التشبية ليوهم أن الفرع أقوى من الأصر فى وجه الشبه .

وقالوا ومن أمثلته فى القرآن ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الكنوز مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بالعصبة أُوْلِي القوة

﴾ [القصص : 76] ، لأن العصبة من الرجال هي التي تنوء بالمفاتيح أي تنهض بها بمشقة وجهد لكثرتها وثقلها ، وقوله تعالى : ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنبَآءُ ﴾ [القصص : 66] أي عموا عنها . ومن أمثلته فى كلام العرب قول كعب بن زهير :

كأن أوب ذراعيها إذا عرقت . . . وقد تلفع بالقور العساقيل

لأن معنى قوله : تلفع لبس اللفاع وهو اللحاف ، والقور الحجارة العظام ، والعساقيل : السراب .

والكلام مقلوب ، لأن القور هي التي تلتحف بالعساقيل لا العكس كما أوضحه لبيد فى معلقته بقوله :

فبتلك إذ رقص اللوامع بالضحى . . . واجتاب أردية السراب إكامها

فصرح بأن الإكام التي هي الحجارة اجتابت أي لبست أردية السراب .

والأردية جمع رداء ، وهذا النوع من القلب وإن أجازه بعضهم فلا ينبغي حمل الآية عليه ، لأنه خلاف الظاهر ، ولا دليل عليه يجب الرجوع إليه .

وظاهر الآية جار على الأسلوب العرب الفصيح ، كما أوضحه أبو حيان فى البحر المحيط .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدنيا واستمتعتم بِهَا ﴾ قرأه ابن كثير وابن عامر ﴿ أأذهبتم ﴾ بهمزتين وهما على أصولهما في ذلك .

فابن كثير يسهل الثانية بدون ألف إدخال بين الهمزتين .

وهشام يحققها ويسهلها مع ألف الإدخال ، وابن ذكوان يحققها من غير إدخال .

وقرأه نافع وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ ﴾ بهمزة واحدة على الخبر من غير استفهام .

(68/703)

واعلم أن للعلماء كلاماً كثيراً في هذه الآية قائلين إنها تدل على أنه ينبغي التقشف والإقلال من التمتع بالمآكل والمشارب والملابس ونحو ذلك .

وأن مر بن الخطاب رضي الله عنه كان يفعل ذلك خوفاً منه ، أن يدخل فى عموم من يقال لهم يوم القيامة : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدنيا ﴾ الآية . والمفسرون يذكرون هنا آثاراً كثيرة فى ذلك ، وأحوال أهل الصفة وما لاقوه من شدة العيش .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له :

التحقيق : إن شاء الله في معنى هذه الآية هو أنها في الكفار وليست في المؤمنين الذين يتمتعون باللذات التي أباحها الله لهم ، لأنه تعالى ما أباحها لهم ليذهب بها حسناتهم .

وأنما قلنا : إن هذا هو التحقيق ، لأن الكتاب والسنة الصحيحة دالان عليه والله تعالى

يقوله : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ والرسول ﴾ [النساء : 59] الآية .

أما كون الآية فى الكفار فقد صرح الله تعالى به فى قوله ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الذين كَفَرُواْ عَلَى النار أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُم ﴾ الآية .

والقرآن والسنة الصحيحة ، قد دلا على أن الكافر إن عمل عملاً صالحاً مطابقاً للشرع ، مخلصاً فيه لله ، كالكافر الذي يبر والديه ، ويصل الرحم ويقري الضيف ، وينفس عن المكروب ، ويعين المظلوم يبتغي بذلك وجه الله يثاب بعمله في دار الدنيا خاصة بالرزق والعافية ، ونحو ذلك ولا نصيب له في الآخرة .

(69/703)

فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الحياة الدنيا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ أولئك الذين لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخرة إِلاَّ النار وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود : 15 – 16] وقوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى : 20] .

وقد قيد تعالى هذا الثواب الدنيوي المذكور في اليات بمشيئته وإرادته ، في قوله تعالى : ﴿

مَّن كَانَ يُرِيدُ العاجلة عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً ﴾ [الإسراء : 18] .

وقد ثبت فى صحيح مسلم من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

" إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة يعطي بها في الدنيا ويجزي بها في الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسناته ما عمل بها لله في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزي بها "

هذا لفظ مسلم في صحيحه .

وفي لفظ له عن سول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الكافر إذا عمل حسنة أطعم بها طعمة في الدنيا ، وأما المؤمن فإن الله يدخر له حسناته في الآخرة ويعقبه رزقاً في الدنيا على طاعته "

فهذا الحديث الثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم فيه التصريح ، بأن الكافر يجازى بحسناته في الدنيا فقط ، وأن المؤمن يجازى بحسناته في الدنيا والآخرة معاً ، وبمقتضى ذلك . يتعين تعييناً لا محيص عنه ، أن الذي أذهب طيباته في الدنيا واستمتع بها فو الكافر ، لأنه لا يجزي بحسناته غإا في الدنيا خاصة .

(70/703)

وأما المؤمن الذي يجزي بحسناته في الدنيا والآخرة معاً ، فلم يذهب طيباته في الدنيا ، لأن حسناته مدخرة له في الآخرة ، مع أن الله تعالى يثيبه بها في الدنيا كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : 2 – 3] فجعل المخرج من الضيق له ورزقه من حيث لا يحتسب ثواباً في الدنيا وليس ينقص أجر تقواه في الآخرة .

والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة ، وعلى كل حال فالله جل وعلا أباح لعباده على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم الطيبات في الحياة الدنيا ، وأجاز لهم التمتع بها ، ومع ذلك جعلها خاصة بهم في الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ التي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرزق قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الحياة الدنيا خَالِصَةً يَوْمَ القيامة ﴾ [الأعراف : 32] .

فدل هذا النص القرآني أن تمتع المؤمنين بالزينة والطيبات من الزرق في الحياة الدنيا لم مينعهم من اختصاصهم بالتنعم بذلك يوم القيامة ، وهو صريح فى أنهم لم يذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا .

ولا ينافي هذا أن من كان يعاني شدة الفقر في الدنيا كأصحاب الصفة ، يكون لهم أجر زائد على ذلك ، لأن المؤمنين يؤجرون ، بما يصيبهم في الدنيا من المصائب والشدائد ، كما هو معلوم .

والنصوص الدالة على أن الكافر هو الذي يذهب طيباته في الحياة الدنيا ، لأنه يجزي فى

الدنيا فقط كالآيات المذكورة ، وحديث أنس المذكور عند مسلم ، قد قدمناها موضحة في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخرة وسعى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً ﴾ [الإسراء : 19] وذكرنا هناك أسانيد الحديث المذكور وألفاظه .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ فاليوم تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهون ﴾ أي عذاب الهوان وهو الذل والصغار .

(71/703)

وقوله تعالى : ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأرض بِغَيْرِ الحق وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ ، الباء في قوله : بما كنتم سببية ، وما مصدرية أي تجزون عذاب الهون بسبب كونكم مستكبرين في الأرض ، وكونكم فاسقين .

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من كون الاستكبار في الأرض والفسق من أسباب عذاب الهون ، وهو عذاب النار ، جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر : 60] وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الذين فَسَقُواْ فَمَأْوَاهُمُ النار ﴾ [السجدة : 20] الآية .

وقد قدمنا النتائج الوخيمة الناشئة عن التكبر في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فاخرج إِنَّكَ مِنَ الصاغرين ﴾ [الأعراف : 13] الآية .

وقوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ الحق ﴾ مع أنه من المعلوم أنهم لا يستكبرون في الأرض إلا استكباراً متلبساً بغير الحق كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ [الأنعام : 38] ومعلوم أنه لا يطير إلا بجناحيه ، وقوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكتاب بِأَيْدِيهِمْ ﴾ [البقرة : 79] ، ومعلوم أنهم لا يكتبونه إلا بأيديهم ، ونحو ذلك من الآيات ، وهو أسلوب عرب نزل به القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(72/703)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ﴾

عطف على الكلام السابق من قوله : ﴿ أولئك الذين يتقبل عنهم ﴾ [الأحقاف : 16] ثم قوله : ﴿ أولئك الذين حق عليهم القول ﴾ [الأحقاف : 18] الخ .

وتنوين (كلَ) تنوين عوض عما تضاف إليه ﴿ كل ﴾ وهو مقدر يعلم من السياق ، أي ولكل الفريقين المؤمن البار بوالديه والكافر الجامع بين الكفر والعقوق درجات ، أي مراتب

من التفاوت في الخبر بالنسبة لأهل جزاء الخير وهم المؤمنون ، ودركات في الشر لأهل الكفر .

والتعبير عن تلك المراتب بالدرجات تغليب لأن الدرجة مَرتَبَة في العلو وهو علوّ اعتباري إنما يناسب مراتب الخير وأما المرتبة السفلى فهي الدركة قال تعالى : ﴿ إن المنافقين في الدَّرَك الأسفل من النار ﴾ [النساء : 145] .

ووجه التغليظ التنويه بشأن أهل الخير .

و(من) في قوله : ﴿ مما عملوا ﴾ تبعيضية .

والمراد بـ ﴿ ما عملوا ﴾ جَزاء ما عملوا فيقدر مضاف .

والدرجات : مراتب الأعمال في الخير وضده التي يكون الجزاء على وفقها .

ويجوز كون (من) ابتدائية ، وما عملوا نفس العمل فلا يقدر مضاف والدرجات هي مراتب الجزاء التي تكون على حسب الأعمال ، ومقادير ذلك لا يعلمها إلا الله وهي تتفاوت بالكثرة وبالسبق وبالخصوص ، فالذي قال لوالديه أف لكما وأنكر البعث ثم أسلم بعد ذلك قد يكون هو دون درجة الذي بادر بالإسلام وبِرّ والديه وما يعقب إسلامَه من العمل الصالح .

وكل ذلك على حسب الدرجات .

وأشار إلى أن جزاء تلك الدرجات كلها بقدر يعلمه الله ، وقوله بعده : ﴿ ولنوفيهم

أعمالهم ﴾ هو علة لمحذوف دل عليه الكلام وتقديره : قدرنا جزاءهم على مقادير درجاتهم لنوفيهم جزاء أعمالهم ، أي نجازيهم تاماً وافياً لا غبن فيه .

وقرأ الجمهور ﴿ ولنوفيهم ﴾ بنون العظمة .

وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وهشام عن ابن عَامر ويعقوب بالتحتية مراداً به العَود إلى الله تعالى لأنه معلوم من المقام .

(73/703)

وجملة ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ احتراس منظور فيه إلى توفية أحد الفريقين وهو الفريق المستحق للعقوبة لئلا يُحسب أن التوفية بالنسبة إليهم أن يكون الجزاء أشد مما تقتضيه أعمالهم .

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا

انتقال إلى وعيد الكافرين على الكفر بجذافره ، وذلك زائد على الوعيد المتقدم المتعلق بإنكارهم البعث مع عقوقهم الوالدين المسلمين .

فالجملة معطوفة على جملة ﴿ والذي قال لوالديه أفّ لكما ﴾ [الأحقاف : 17] الآيات .

والكلام مقول قول محذوف تقديره : ويقال للذين كفروا يومَ يعرضون على النار ﴿ أذهبتم طيباتكم ﴾ ، ومناسبة ذكره هنا أنه تقرير لمعنى ﴿ لا يظلمون ﴾ [الأحقاف : 19] ، أي لا يظلمون في جزاء الآخرة مع أننا أنعمنا عليهم في الدنيا ولو شئنا لعجلنا لهم الجزاء على كفرهم من الحياة الدنيا ، ولكن الله لم يحرمهم من النعمة في الحياة الدنيا فإن نعمة الكافر في الدنيا نعمة عند المحققين من المتكلمين .

وعن الأشعري : أن الكافر غير منعم عليه في الدنيا ، وتُؤُوِّل بأنه خلاف لفظي ، أي باعتبار أن عاقبتها سيئة .

ونعمة الله في الدنيا معاملة بفضل الرّبوبية وجزاؤهم على أعمالهم في الآخرة معاملةِ بعدل الإلهية والحكمة .

وانتصب ﴿ يوم يعرض ﴾ على الظرفية لفعل القول المحذوف .

والعرض تقدم في قوله : ﴿ أولئك يعرضون على ربهم ﴾ في سورة هود (18) وقوله : ﴿ النار يُعرضون عليها ﴾ في سورة غافر (46) وفي قوله : ﴿ وتراهم يعرضون عليها ﴾ في سورة الشورى (45) .

وإذهاب الطيبات مستعار لمفارقتها كما أن إذهاب المرء إبعادٌ له عن مكان له .

والذهاب : المبارحة .

والمعنى : استوفيتم ما لكم من الطيبات بما حصل لكم من نعيم الدنيا ومتعتها فلم تبق لكم طيبات بعدها لأنكم لم تعملوا لنوال طيبات الآخرة ، وهو إعذار لهم وتقرير لكونهم لا يظلمون فرتب عليه قوله : فاليوم تجزون عذاب الهون ﴾ .

فالفاء فصيحة .

والتقدير : إن كان كذلك فاليوم لم يبق لكم إلا جزاء سيّىء أعمالكم ، وليست الفاء للتفريع ولا للتسبب .

وليس في الآية ما يقتضي منع المسلم من تناول الطيبات في الدنيا إذا توخّى حلالها وعمل بواجبه الديني فيما عدا ذلك وإن كان الزهد في الاعتناء بذلك أرفع درجة وهي درجة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخاصة من أصحابه .

وروى الحسن عن الأحنف بن قيْس أنه سمع عمر بن الخطاب يقول : لأنا أعلم بخفض العيش ولو شئت لجعلت أكباداً ، وصلائق وصِنَاباً وكَراكر وأسْنِمَة ولكني رأيت الله نعى على قوم فقال : ﴿ أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴾ .

وإنما أراد عمر بذلك الخشيةَ من أن يشغله ذلك عن واجبه من تدبير أمور الأمة فيقع في التفريط ويؤاخذ عليه .

وذكر ابن عطية : أن عمر حين دخل الشام قدّم إليه خالد بن الوليد طعاماً طيباً .

فقال عمر : هذا لنا فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا ولم يشبعوا من خبز الشعير ؟ فقال خالد : لهم الجنة ، فبكى عمر .

وقال : لئن كان حظنا في المقام وذهبوا بالجنة لقد باينونا بونا بعيداً .

والهُون : الهوان وهو الذلّ وإضافة ﴿ عذاب ﴾ إلى ﴿ الهون ﴾ مع إضافة الموصوف إلى الصفة .

والباء في قوله : ﴿ بما كنتم تستكبرون ﴾ للسببية وهي متعلقة بفعل ﴿ تجزون ﴾ .

والمراد بالاستكبار ، الاستكبار على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى قبول التوحيد .

والفسوق : الخروج عن الدين وعن الحق ، وقد يأخذ المسلم بحظ من هذين الجرمين فيكون له حظ من جزائهما الذي لقيه الكافرون ، وذلك مبين في أحكام الدين .

والفسوق : هنا الشرك .

وقرأ الجمهور ﴿ أذهبتم ﴾ بهمزة واحدة على أنه خبر مستعمل في التوبيخ .

وقرأه ابن كثير ﴿ أأذهبتم ﴾ بهمزتين على الاستفهام التوبيخي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(75/703)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ﴾

أخرج البخاري عن يوسف بن ماهك ، قال : كان مروان على الحجاز استعمله معاوية بن أبي سفيان ، فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه ، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه شيئاً ، فقال : خذوه ، فدخل بيت عائشة رضي الله عنها ، فلم يقدروا عليه ، فقال مروان : إن هذا أنزل فيه ﴿ والذي قال لوالديه أف لكما ﴾ فقالت عائشة رضي الله عنها من وراء الحجاب : ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله أنزل عذري .

وأخرج عبد بن حميد والنسائي وابن المنذر والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن محمد بن زياد قال : لما بايع معاوية لابنه قال مروان : سنة أبي بكر وعمر فقال عبد الرحمن : سنة هرقل وقيصر . فقال مروان : هذا الذي أنزل الله فيه ﴿ والذي قال لوالديه أف لكما ﴾ الآية فبلغ ذلك عائشة رضي الله عنها فقالت : كذب مروان كذب مروان والله ما هو به ولو شئت أن أسمي الذي أنزلت فيه لسميته ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن أبا مروان في صلبه فمروان فضفض من لعنة الله .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن عبد الله قال : إني لفي المسجد حين خطب مروان

فقال إن الله قد أرى أمير المؤمنين في يزيد رأياً حسناً وإن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر وعمر . فقال عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه : أهرقلية ؟ إن أبا بكر رضي الله عنه والله ما جعلها في أحد من ولده ولا أحد من أهل بيته ولا جعلها معاوية إلا رحمة وكرامة لولده ، فقال مروان : ألست الذي قال لوالديه أفّ لكما ؟ فقال عبد الرحمن : ألست ابن اللعين الذي لعن أباك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : وسمعتها عائشة فقالت : يا مروان أنت القائل لعبد الرحمن كذا وكذا ؟ كذبت والله ما فيه نزلت ، نزلت في فلان ابن فلان .

(76/703)

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في ﴿ والذي قال لوالديه أفّ لكما ﴾ الآية قال : هذا ابن لأبي بكر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : نزلت هذه الآية ﴿ والذي قال لوالديه أفّ لكما ﴾ في عبد الرحمن بن أبي بكر قال لوالديه وكانا قد أسلما وأبى هو أن يسلم فكانا يأمرانه بالإِسلام ويرد عليهما ويكذبهما فيقول فأين فلان ؟ وأين فلان ؟ يعني مشايخ قريش ممن قد مات . ثم أسلم بعد فحسن إسلامه فنزلت توبته في هذه الآية ﴿ ولكل درجات ما عملوا

﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وابن مردويه من طريق ميناء أنه سمع عائشة رضي الله عنها تنكر أن تكون الآية نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه ، وقالت : إنما نزلت في فلان ابن فلان ، سمت رجلاً .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه ﴿ أتعدانني أن أخرج ﴾ قال : يعني البعث بعد الموت .

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا

أخرج ابن مردويه عن حفص بن أبي العاصي قال : كنا نتغدى مع عمر رضي الله عنه فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله في كتابه ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم ﴾ الآية .

وأخرج سعيب بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر رضي الله عنهما أن عمر رضي الله عنه رأى في يد جابر بن عبد الله درهماً فقال : ما هذا الدرهم ؟ قال : أريد أن أشتري به لحماً لأهلي قرموا إليه فقال : أفكلما اشتهيتم شيئاً اشتريتموه أين تذهب عنكم هذه الآية ﴿ أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴾ .

وأخرج أحمد في الزهد عن الأعمش قال : مر جابر بن عبد الله وهو متعلق لحماً على عمر رضي الله عنه فقال ما هذا يا جابر ؟ قال : هذا لحم اشتهيته اشتريته . قال : وكلما اشتهيت شيئاً اشتريته ؟ أما تخشى أن تكون من أهل هذه الآية ﴿ أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا ﴾ .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن سالم بن عبد الله بن عمر أن عمر كان يقول : والله ما يعني بلذات العيش أن نأمر بصغار المعزى فتسمط لنا ، ونأمر بلباب الحنطة فتخبز لنا ، ونأمر بالزبيب فينبذ لنا في الاسعان حتى إذا صار مثل عين اليعقوب أكلنا هذا وشربنا هذا ، ولكنا نريد أن نستبقي طيباتنا لأنا سمعنا الله يقول ﴿ أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا ﴾ الآية .

وأخرج أبو نعيم عن عبد الرحمن بن أبي ليلى رضي الله عنه قال : قدم على عمر رضي الله عنه ناسٌ من العراق فرأى كأنهم يأكلون هديراً فقال يا أهل العراق لو شئت أن يدهمق لي كما يدهمق لكم لفعلت ولكنا نستبقي من ربنا ما نجده في آخرتنا أما سمعتم الله يقول لقوم ﴿ أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا ﴾ الآية .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴾ قال : تعلموا أن أقواماً يسترطون حسناتهم في الدنيا استبقى

رجل طيباته إن استطاع ولا قوّة إلا بالله . قال : وذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول : لو شئت لكنت أطيبكم طعاماً وألينكم لباساً ولكني أستبقي طيباتي ، وذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما قدم الشام صنع له طعاماً لم ير قبله مثله قال : هذا لنا فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير ؟ فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه : لهم الجنة . فاغرورقت عينا عمر رضي الله عنه فقال : لئن كان حظنا من هذا الحطام وذهبوا بالجنة لقد باينونا بوناً بعيداً .

(78/703)

وأخرج عبد بن حميد عن أبي مجلز رضي الله عنه قال : ليطلبن ناس حسنات عملوها فيقال لهم ﴿ أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴾ الآية .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه قال : أتي عمر رضي الله عنه بشربة عسل فقال : والله لا أتحمل فضلها اسقوها فلاناً .

وأخرج عبد بن حميد عن وهب بن كيسان عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : رآني عمر رضي الله عنه وأنا متعلق لحماً فقال يا جابر ما هذا ؟ قلت : لحم اشتريته بدرهم لنسوة عندي قرمن إليه فقال أما يشتهي أحدكم شيئاً إلا صنعه أما يجد أحدكم أن

يطوي بطنه لجاره وابن عمه ؟ أين تذهب هذه الآية ﴿ أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا ﴾ قال فما انفلتّ منه حتى كدت أن لا أنفلت .

وأخرج ابن سعد وعبد بن حميد عن حميد بن هلال قال : كان حفص رضي الله عنه يكثر غشيان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، وكان إذا قرب طعامه اتقاه ، فقال له عمر رضي الله عنه : ما لك ولطعامنا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن أهلي يصنعون لي طعاماً هو ألين من طعامك فاختار طعامهم على طعامك ، فقال : ثكلتك أمك أما تراني لو شئت أمرت بشاة فتية سمينة فألقي عنها شعرها ثم أمرت بدقيق فنخل في خرقة فجعل خبزاً مرققاً ، وأمرت بصاع من زبيب فجعل في سمن حتى يكون كدم الغزال ؟ فقال حفص : إني أراك تعرف لين الطعام . فقال عمر رضي الله عنه : ثكلتك أمك والذي نفسي بيده لولا كراهية أن ينقص من حسناتي يوم القيامة لأشركتكم في لين طعامكم .

(79/703)

وأخرج ابن المبارك وابن سعد وأحمد في الزهد ، وعبد بن حميد وأبو نعيم في الحلية عن الحسن قال : قدم وفد أهل البصرة على عمر مع أبي موسى الأشعري فكان له في كل يوم خبز فربما وافقناها مأدومة بزيت ، وربما وافقناها مأدومة بسمن ، وربما وافقناها مأدومة

بلبن ، وربما وافقنا القدائد اليابسة قد دقت ثم أغلي لها ، وربما وافقنا اللحم الغريض وهو قليل . قال وقال لنا عمر رضي الله عنه : إني والله لقد أرى تقديركم وكراهيتكم طعامي ، أما والله لو شئت لكنت أطيبكم طعاماً وأرقكم عيشاً أما والله ما أجهل عن كراكر وأسنمة وعن صلى وصناب وسلائق ، ولكني وجدت الله عير قوماً بأمر فعلوه فقال ﴿ أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴾ .

وأخرج أحمد والبيهقي في شعب الإيمان عن ثوبان رضي الله عنه قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر كان آخر عهده بإنسان من أهله فاطمة ، وأوّل من يدخل عليه إذا قدم فاطمة . فقدم غزاة فأتاها فإذا بمسح على بابها ، ورأى على الحسن والحسين قلبين من فضة فرجع ولم يدخل عليها ، فلما رأت ذلك فاطمة ظنت أنه لم يدخل من أجل ما رأى فهتكت الستر ونزعت القلبين من الصبيين فقطعتهما فبكى الصبيان فقسمته بينهما فانطلقا إلى رسوله الله صلى الله عليه وسلم وهما يبكيان فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم منهما ، فقال : " يا ثوبان اذهب بهذا إلى بني فلان أهل بيت بالمدينة واشتر لفاطمة قلادة من عصب وسوارين من عاج فإن هؤلاء أهل بيتي ولا أحب أن يأكلوا طيباتهم في حياتهم الدنيا والله تعالى أعلم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ 448.444 ﴾

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تبارك وتعالى : ﴿ حم تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله العزيز الحكيم ﴾

وقد ذكرناه ﴿ مَا خَلَقْنَا السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والرياح ، والخلق ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ يعني : إلا ببيان الحق ، لأمر عظيم هو كائن ، ولم يخلقهن عبثاً ﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ يعني : خلقهن لأجل أمر عظيم ، ينتهي إليه وهو يوم القيامة ، وهو الأجل المعلوم ﴿ والذين كَفَرُواْ ﴾ يعني : مشركي مكة ﴿ عَمَّا أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ﴾ يعني : عما خوفوا به تاركون ، فلا يؤمنون به ، ولا يتفكرون فيه .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ يعني : ما تعبدون من الأصنام .

قال القتبي : ما هاهنا في موضع الجمع ، يعني : الذين يدعون من الآلهة ﴿ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأرض ﴾ يعني : أخبروني ما الذي خلقوا من الأرض ، كالذي خلق الله تعالى ، إن كانوا آلهة ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السموات ﴾ يعني : أم لهم نصيب ودعوة في السموات .

يعني : في خلق السموات .

ثم قال ﴿ ائتونى بكتاب مّن قَبْلِ هذا ﴾ أي : بحجة لعبادتكم الأصنام في كتاب الله .

ويقال ائتوني بحجة من الله ومن الأنبياء من قبل هذا يعني : من قبل هذا القرآن ، الذي

أتيتكم به ، فيه بيان ما تقولون ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ يعني : رواية ترووونها من الأنبياء ، والعلماء ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ أن الله تعالى ، أمركم بعبادة الأوثان .

قرأ الحسن ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ .

قال القتبي : هو اسم مبني على فعلة من ذلك ، والأول فعالة ، والأثرة التذكرة ، ومنه يقال : فلان يأثر الحديث أي : يرويه .

وقال قتادة : أَوْ أَثَارَةٍ ، يعني : خاصة من علم ، ويقال : أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ يؤثر عن الأنبياء والعلماء .

فلما قال لهم ذلك سكتوا .

(81/703)

قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ الله ﴾ يعني : من أشد كفراً ممن يعبد من دون الله آلهة ﴿ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ القيامة ﴾ يعني لا يجيبه وإن دعاه إلى يوم القيامة ﴿ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غافلون ﴾ يعني : عن عبادتهم .

ثم بين إجابتهم وحالهم يوم القيامة ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا حُشِرَ الناس ﴾ يعني : إلى البعث ﴿ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَاء ﴾ يعني : صارت الآلهة أعداء لمن عبدهم ﴿ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كافرين

﴿ يعني : جاحدين ، ويتبرؤون منهم ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءاياتنا بَيّنَاتٍ ﴾ يعني : تقرأ عليهم آياتنا واضحات ، فيها الحلال والحرام .

ويقال : بينات فيها دلائل واضحات ﴿ قَالَ الذين كَفَرُواْ لِلْحَقّ ﴾ يعني : للقرآن ﴿ لَمَّا جَاءهُمْ هذا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : حين جاءهم هذا سحر بين .

قوله عز وجل : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ يعني : اختلقه من ذات نفسه ﴿ قُلْ إِنِ افتريته ﴾ يعني : اختلقته من تلقاء نفسي ، يعذبني الله تعالى عليه .

﴿ فَلاَ تَمْلِكُونَ لِى مِنَ الله شَيْئاً ﴾ يعني : لا تقدرون أن تمنعوا عذاب الله عني ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ يعني : تخوضون فيه من الكذب في القرآن ﴿ كفى بِهِ شَهِيداً ﴾ يعني : كفى بالله عالماً ﴿ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ ويقال تفيضون أي تقولون ثم قال ﴿ وَهُوَ الغفور الرحيم ﴾ يعني : الغفور لمن تاب ، الرحيم بهم .

قوله تعالى ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مّنَ الرسل ﴾ يعني : ما أنا أول رسول بعث ﴿ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلاَ بِكُمْ ﴾ يعني : يرحمني وإياكم ، أو يعذبني وإياكم .

وقال الحسن في قوله : وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ ، يعني : في الدنيا .

وقال الكلبي : وذلك أنه رأى في المنام ، أنه أخرج إلى أرض ، ذات نخل وشجر ، فأخبر أصحابه ، فظنوا أنه وحي أوحي إليه ، فاستبشروا ، فمكثوا بذلك ما شاء ، فلم يروا شيئاً مما قال لهم ، فقالوا يا رسول الله ، ما رأينا الذي قلت لنا .

فقال : " إِنَّمَا كَانَ رُؤْيَا رَأَيْتُهَا ، وَلَمْ يَأْتِ وَحْيٌ مِنَ السَّمَاءِ ، وَمَا أَدْرِي أَيَكُونُ ذلك أَوْ لا يَكُونُ " .

فنزل قوله ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرسل ﴾ يعني : ما كنت أولهم ، وقد بعث قبلي رسل كثير ، ﴿ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلاَ بِكُمْ ﴾ ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَىَّ ﴾ ويقال : ما أدري ما يفعل بي ولا بكم ، يرحمني وإياكم ، أو يعذبني وإياكم .

فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : إذاً لا فرق بيننا وبينك ، كما نحن لا ندري ما يفعل بنا ، ولا تدري ما يفعل بك .

وقد عير المشركون المسلمين فقالوا : ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نجوى إِذْ يَقُولُ الظالمون إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ﴾ [الإسراء : 47] لا يدري ما يفعل به ، فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ تَبَارَكَ الذى إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذلك جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً ﴾ [الفرقان : 10] فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ، نزل عليه ﴿ وَعَدَكُمُ الله مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هذه وَكَفَّ أَيْدِىَ الناس عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صراطا مُّسْتَقِيماً ﴾ [الفتح : 20]

وقد نسخت هذه الآية ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نجوى إِذْ يَقُولُ الظالمون إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ﴾ [الأسراء : 47] .

(83/703)

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ يعني : مخوف ، مفقه لكم بلغة تعرفونها .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ الله ﴾ يعني : إن كان القرآن من عند الله تعالى ﴿ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ يعني : جحدتم بالقرآن ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مّن بَنِى إسراءيل ﴾ قال مجاهد ، وعكرمة ، وقتادة هو عبد الله بن سلام .

وروى عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لاَ يُشْهَدُ لأَحَدٍ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ إلاّ لِعَبْدِ الله بْنِ سَلامٍ " وفيه نزلت ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مّن بَنِى إسراءيل ﴾ ﴿ على مِثْلِهِ ﴾ أي : على مثل شهادة عبد الله بن سلام .

يعني : بنيامين على مثله .

يعني : على مثل شهادة عبد الله بن سلام ، وكان ابن أخ عبد الله بن سلام ، شهد على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

وروى وكيع ، عن ابن عون قال : ذكر عند الشعبي ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِى إِسرَاءِيل ﴾ أنه عبد الله بن سلام .

فقال الشعبي : وكيف يكون عبد الله بن سلام هو الشاهد ، وهذه السورة مكية ، وكان ابن سلام بالمدينة .

قال ابن عون : صدق الشعبي إن تلك السورة نزلت بمكة ، ولكن هذه الآية نزلت بالمدينة ، فوضعت في هذه السورة .

وروى داود بن أبي هند ، عن الشعبي ، عن مسروق قال : والله ما هو عبد الله بن سلام ، ولقد أنزلت بمكة ، فخاصم به النبي صلى الله عليه وسلم الذين كفرُوا من أهل مكة ، أن التوراة مثل القرآن ، ومُوسَى مثل محمد صلى الله عليه وسلم ، وكُل مؤمن بالتوراة فهو شاهد من بني إسرائيل .

ثم قال : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ ﴾ يعني : تكبرتم وتعاظمتم عن الإيمان ﴿ إِنَّ الله لاَ يَهْدِى القوم الظالمين ﴾ يعني : الكافرين .

(84/703)

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ يعني : قال رؤساء المشركين لضعفاء المسلمين ﴿ لَوْ كَانَ خَيْراً ﴾ يعني : لو كان هذا الدين حقاً ﴿ مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ وقال قتادة : قال أناس من المشركين : نحن أعز ، ونحن أغنى ، ونحن أكرم ، فلو كان خيراً ، ما سبقنا إليه فلان وفلان .

قال الله تعالى : ﴿ مَّا يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب وَلاَ المشركين أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ والله يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ والله ذُو الفضل العظيم ﴾ [البقرة : 105] و ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ والله ذُو الفضل العظيم ﴾ [آل عمران : 74] يعني : يختار لدينه ، من كان أهلاً لذلك ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ ﴾ يعني : لم يؤمنوا بهذا .

أي : القرآن كما اهتدى به أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ يعني : القرآن كذب قديم ، أي : تقادم من محمد صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ موسى ﴾ يعني : قد أنزل قبل هذا القرآن ، الكتاب على موسى ، يعني : التوراة ﴿ إِمَاماً ﴾ يقتدى به ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ من العذاب ، لمن آمن به ﴿ وهذا كتاب مُّصَدِّقٌ ﴾ يعني : وأنزل إليك هذا الكتاب ، مصدق للكتب التي قبله ﴿ لِّسَاناً عَرَبِيّاً ﴾ بلغتكم ، لتفهموا ما فيه ﴿ لِّيُنذِرَ الذين ظَلَمُواْ ﴾ يعني : مشركي مكة .

قرأ نافع ، وابن عامر لِتُنْذِرَ ، بالتاء على معنى المخاطبة يعني : لتنذر أنت يا محمد .

والباقون بالياء ، على معنى الخبر عنه ، يعني : ليخوف محمد صلى الله عليه وسلم بالقرآن

﴿ وبشرى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ يعني : بشارة بالجنة للموحدين ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون أُوْلَئِكَ أصحاب الجنة خالدين فِيهَا جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ وقد ذكرناه .

(85/703)

ثم قال الله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بوالديه إحسانا ﴾ يعني : أمرنا الإنسان بالإحسان إلى والديه .

قال مقاتل والكلبي : نزلت الآية ، في شأن أبي بكر الصديق ، رضي الله عنه ، ويقال : هذا أمر عام لجميع الناس .

قرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم إِحْسَاناً بالألف ، ومعناه : أمرناه بأن يحسن إليهما إحساناً .

والباقون حُسْناً بغير ألف ، فجعلوه اسماً ، وأقاموه مقام الإحسان .

ثم ذكر حق الوالدين ، فقال : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً ﴾ يعني : في مشقة ﴿ وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً ﴾ يعني : في مشقة ﴿ وَحَمْلُهُ وفصاله ﴾ يعني : حمله في بطن أمه ، وفصاله ورضاعه ﴿ ثَلاَثُونَ شَهْراً ﴾ وروى وكيع بإسناده ، عن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه قال :

إن رجلاً قال له : إني تزوجت جارية سليمة بكراً ، لم أر منها ريبة ، وإنها ولدت لستة أشهر .

فقرأ علي ﴿ والوالدات يُرْضِعْنَ أولادهن حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرضاعة وَعلَى المولود لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بالمعروف لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لاَ تُضَآرَّ والدة بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الوارث مِثْلُ ذلك فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تسترضعوا أولادكم فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بالمعروف واتقوا الله واعلموا أَنَّ الله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة : 233] وقرأ ﴿ وَحَمْلُهُ وفصاله ثَلاَثُونَ شَهْراً ﴾ فالحمل ستة أشهر ، والرضاع سنتين ، والولد ولدك .

وقال وكيع : هذا أصل ، إذا جاءت بولد لأقل من ستة أشهر ، لم يلزمه فيفرق بينهما .

(86/703)

ثم قال ﴿ حتى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ يعني : بلغ ثلاثاً وثلاثين ﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ صدق بالنبي صلى الله عليه وسلم ، يعني : أبا بكر ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ﴾ يعني : ألهمني ما أؤدي به شكر نعمتك ، وما أوزعت به نفسي ، أن أكفها عن كفران نعمتك ، وأصله من وزعته .

أي : دفعته قال : رب أوزعني أن أشكر .

يعني : أن أؤدي شكر نعمتك ﴿ التى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وعلى وَالِدَىَّ ﴾ بالإسلام ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صالحا ترضاه ﴾ يعني : تقبله ﴿ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِى ﴾ يعني : أكرمهم بالتوحيد .

ويقال : اجعلهم أولاداً صالحين مسلمين ، فأسلموا كلهم ﴿ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ يعني : أقبلت إليك بالتوبة ﴿ وَإِنِّى مِنَ المسلمين ﴾ يعني : المخلصين ، الموحدين على دينهم .

قوله تعالى ﴿ أولئك ﴾ يعني : أهل هذه الصفة .

يعني : أبا بكر ووالديه ، وذريته ، ومن كان في مثل حالهم ﴿ الذين نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ ﴾ يعني : ستجزيهم بإحسانهم .

قرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم في رواية حفص ، نَتَقَبَّل بالنون ﴿ وَنَتَجَاوَزُ ﴾ بالنون .

وقرأ الباقون بالياء والضم .

فمن قرأ بالنون ، فهو على معنى الإضافة إلى نفسه ، يعني : نتقبل نحن ، ونصب أحسن لوقوع الفعل عليه ، ومن قرأ بالياء والضم ، فهو على معنى فعل ، ما لم يسم فاعله .

ولهذا رفع قوله : "أَحْسَنُ" لأنه مفعول ما لم يسم فاعله .

ثم قال ﴿ وَنَتَجَاوَزُ عَن سيئاتهم ﴾ يعني : ما فعلوا قبل التوبة ، فلا يعاقبون عليها ﴿ فِى أصحاب الجنة ﴾ يعني : هم مع أصحاب الجنة .

وروى أبو معاوية ، عن عاصم الأحول ، عن الحسن قال : مَنْ يَعْمَل سُوءاً يُجْزَ بِهِ ، إنما ذلك لمن أراد الله هوانه ، وأما من أراد الله كرامته ، فإنه يتجاوز عن سيئاته فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ .

ثم قال : ﴿ وَعْدَ الصدق ﴾ يعني : وعد الصدق في الجنة .

قوله تعالى ﴿ الذى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ .

(87/703)

﴿ والذى قَالَ لوالديه أُفٍّ لَّكُمَا ﴾ يعني : عبد الرحمن بن أبي بكر قال لوالديه : أف لكما يعني : قدراً لكما ، وهو الرديء من الكلام ، وقد ذكرنا الاختلاف في موضع آخر ، وقد قرىء على سبع قراءات : بالنصب والضم والكسر ، وكل قراءة تكون بالتنوين وبغير تنوين ، فتلك ست قراءات ، والسابع أفْ بالسكون ﴿ أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ ﴾ يعني : أن أبعث بعد الموت ، وذلك قبل أن يسلم ﴿ وَقَدْ خَلَتِ القرون مِن قَبْلِى ﴾ أي : مضت الأمم ، ولم يبعث أحدهم ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ الله ﴾ يعني : أبويه يدعوان الله تعالى له بالهدى . اللهم اهده ، وارزقه الإيمان ويقولان له : ﴿ وَيْلَكَ ءامِنْ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ﴾ يعني : ويحك أسلم وصدق بالبعث ، فإن البعث كائن ﴿ فَيَقُولُ ﴾ لهما ﴿ مَا هذا إِلاَّ أساطير الاولين

﴿ يعني : كذبهم فقال عبد الرحمن : إن كنتما صادقين ، فأخرجا فلاناً وفلاناً من قبورهما فنزل ﴿ أولئك ﴾ يعني : القرون التي ذكر ﴿ الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ أي : وجب عليهم العذاب .

﴿ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني : في أمم قد مضت من قبلهم ، من كفار ﴿ مّنَ الجن والإنس إِنَّهُمْ كَانُواْ خاسرين ﴾ في الآخرة بالعقوبة ، فأسلم عبد الرحمن وحسن إسلامه ، وذكر في الخبر ، أن مروان بن الحكم قال : نزلت هذه الآية في شأن عبد الرحمن ، أخ عائشة ، فبلغ ذلك عائشة فقالت : بل نزلت في أبيك وأخيك .

قوله عز وجل ﴿ وَلِكُلّ درجات مّمَّا عَمِلُواْ ﴾ يعني : فضائل في الثواب مما عملوا ﴿ وَلِيُوَفّيَهُمْ أعمالهم ﴾ أي أجورهم ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ يعني : لا ينقصون من ثواب أعمالهم شيئاً ، ولا يزادون على سيئات أعمالهم .

(88/703)

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الذين كَفَرُواْ عَلَى النار ﴾ يعني : يكشف الغطاء عنها ، فينظرون إليها ، فيقال لهم : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طيباتكم ﴾ يعني : أكلتم حسناتكم ﴿ فِى حياتكم الدنيا واستمتعتم بِهَا ﴾ يعني : انتفعتم بها في الدنيا .

وقرأ ابن عامر أَأَذْهَبْتُمْ بهمزتين ، وقرأ ابن كثير آذْهَبْتُمْ بالمد ، ومعناهما واحد ، ويكون استفهاماً على وجه التوبيخ .

والباقون أَذْهَبْتُمْ بهمزة واحدة ، بغير مد ، على معنى الخبر .

وروي عن عمر : أنه اشتهى شراباً ، فأتي بقدح فيه عسل ، فأدار القدح في يده قال : أشربها فتذهب حلاوتها ، أو تبقى نقمتها .

ثم ناول القدح رجلاً ، فسئل عن ذلك فقال : خشيت أن أكون من أهل هذه الآية ﴿ أَذْهَبْتُمْ طيباتكم فِى حياتكم الدنيا ﴾ .

وروي عن عمر ، أنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على حصير ، وقد أثر بجنبه الشريط ، فبكى عمر فقال : ما يبكيك يا عمر ؟ فقال : ذكرت كسرى وقيصر ، وما كانا فيه من الدنيا ، وأنت رسول رب العالمين قد أثر بجنبك الشريط .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أُوْلَئِكَ قَوْمٌ ، عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي حَيَاتِهِم الدُّنْيا ، وَنَحْنُ قَوْمٌ ، أُخِّرَتْ لَنَا طَيِّبَاتُنَا فِي الآخِرَةِ " .

قوله : ﴿ فاليوم تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهون ﴾ يعني : العذاب الشديد ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى الأرض بِغَيْرِ الحق ﴾ يعني : تستكبرون عن الإيمان ﴿ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ يعني : تعصون الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 270 . 275 ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ حم* تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله العزيز الحكيم * مَا خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بالحق وَأَجَلٍ مُّسَمًّى والذين كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ ﴾ في مصحف عبدالله (أرأيتكم) . ﴿ مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأرض أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السماوات ائتوني بِكِتَابٍ ﴾ من عند الله جاءكم .

﴿ مِّن قَبْلِ هذآ ﴾ القرآن فيه بيان ما تقولون . ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ قرأه العامّة بالألف واختلف العلماء في تأويلها ، أخبرنا عبدالله بن حامد الوزّان ، أخبرنا مكي بن عبدان ، حدّثنا عبدالله بن هاشم ، حدّثنا يحيى بن سعيد ، عن صفوان بن سليم ، عن أبي سلمة ، عن ابن عبّاس وأظنّه عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ قال : [الخط] ، وقال ميمون بن مهران وأبو سلمة بن عبد الرحمن وقتادة : خاصّة من علم .

الحسن : أثارة من علم يستخرجوه فيثير .

مجاهد : رواية تأثرونها عمّن كان قبلهم . عكرمة ومقاتل : رواية عن الأنبياء (عليهم السلام) .

محمّد بن كعب القرضي : الإسناد وأصل الكلمة من الأثر وهي الرواية . يقال : نموت الحديث أثره ، أثراً وأثارة ، كالشجاعة ، والجلادة ، والصلابة ، فما آثروا ، ومنه قيل للخبر

: أثر .

قال الأعشى :

إنّ الّذي فيه تماريتما . . . بيّن للسامع والآثر

وقال الكلبي : بقية من علم . قال الأخفش : تقول العرب : لهذه الناقة أثارة من سمن ، أي بقيّة . قال الراعي :

وذات أثارة أكلت عليها . . . بناتاً في أكمّتها قصارا

وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه (أو أثارة) بفتح (الألف) وسكون (الثاء) من غير (ألف) . وقرأ السلمي (أو أثارة) بفتح (الهمزة) و (الثاء) من غير (ألف) ، أي خاصة من علم أوتيتموه وأوثرتم بها على غيركم . وقول عكرمة : أو ميراث من علم .

(90/703)

﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَمَنْ أَضَلُّ ﴾ أجهل . ﴿ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ اللّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ القيامة وَهُمْ ﴾ يعني الأوثان . ﴿ عَن دُعَآئِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ لا يسمعون ولا يفهمون . فأخرجها وهي جماد مخرج ذكور بني آدم إذ كانت قد مثّلتها عبدتها بالملوك والأمراء التي تخدم .

﴿ وَإِذَا حُشِرَ الناس كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ جاحدين وعنهم متبرّئين . بيانه قوله : ﴿ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كانوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ [القصص : 63] .

﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الذين كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هذا سِحْرٌ مُّبِينٌ * أَمْ يَقُولُونَ افتراه قُلْ إِنِ افتريته فَلاَ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ الله شَيْئاً ﴾ إن عذّبني على افترائي .

﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ ﴾ تخوضون . ﴿ فِيهِ كفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الغفور الرحيم ﴾ .

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرسل ﴾ بديعاً مثل نصف ونصيف ، من الرسل ، لست بأوّل مرسل ، فَلِمَ تنكرون نبوّتي ؟ هل أنا إلاّ كالأنبياء قبلي ؟ وجمع البدع : أبداع ، قال عدي بن زيد :

فلا أنا بدعٌ من حوادث تعتري . . . رجالاً عرت من بعد بؤسي وأسعدي

﴿ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ ﴾ اختلف العلماء في معنى هذه الآية وحكمها ، فقال بعضهم : معناها وما أدري ما يفعل بي ولا بكم يوم القيامة . فلمّا نزلت هذه الآية فرح المشركون فرحاً شديداً ، وقالوا : واللات والعُزّى ما أمرنا وأمر محمّد صلى الله عليه وسلم عند الله إلاّ واحد ، وما له علينا من مزية وفضل ، ولولا إنّه ابتدع ما يقوله من ذات نفسه لأخبره الذي بعثه بما يفعل به . فأنزل الله تعالى ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ الله مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : 2] .

فبيّن له أمره ونسخت هذه الآية ، فقالت الصحابة : هنيئاً لك يا نبيّ الله ، قد علمنا ما يفعل بك ، فماذا يفعل بنا ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ لِّيُدْخِلَ المؤمنين والمؤمنات جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ [الفتح : 5] الآية . وأنزل ﴿ وَبَشِّرِ المؤمنين بِأَنَّ لَهُمْ مِّنَ الله فَضْلاً كَبِيراً ﴾ [الأحزاب : 47] فبيّن الله تعالى ما يفعل به وبهم . وهذا قول أنس وقتادة والحسن وعكرمة .

أخبرني الحسين بن محمّد بن الحسين الدينوري ، حدّثنا أحمد بن محمّد بن إسحاق السني ، حدّثنا إسماعيل بن داود ، حدّثنا هارون بن سعيد ، حدّثنا ابن وهب ، أخبرني يونس بن يزيد ، " عن أبي شهاب إنّ خارجة بن زيد بن ثابت أخبره أنّ أُمّ العلاء امرأة من الأنصار قد بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرته أنّهم اقتسموا والمهاجرين سكناهم قُرعة . قالت : فطار لنا عثمان بن مظعون فأنزلناه أبياتنا موضعه الّذي توفي فيه ، فلمّا توفي غسّل وكفّن في أثوابه ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت لعثمان بن مظعون : رحمة الله عليك أبا السائب ، لقد أكرمك الله ، فقال رسول الله : " وما يدريك إنّ الله تعالى أكرمه " . قالت : فقلت : بأبي أنت وأمي لا أدري . قال : " أما هو فقد جاءه اليقين وما رأينا إلاّ

خيراً . فوالله إنّي لأرجو له الجنّة ، فوالله ما أدري وأنا رسول الله ماذا يفعل بي " . قالت : فوالله لا أزكّي بعده أحداً " .

قالوا : وإنّما قال هذا حين لم يخبر بغفران ذنبه ، وإنّما غفر الله له ذنبه في غزوة الحديبية قبل موته بسنتين وشيء ، وقال ابن عبّاس : " لمّا اشتدّ البلاء بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رسول الله فيما يرى النائم وهو بمكّة أرضاً ذات سباخ ونخل رُفعت له ، يهاجر إليها .

فقال له أصحابه وهم بمكّة : إلى متى نكون في هذا البلاء الّذي نحن فيه ؟ ومتى نهاجر إلى الأرض التي أُريت . فسكت .

(92/703)

فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾ "

أُترك في مكاني أو أخرج إلى الأرض التي رفعت لي ، وقال بعضهم : معناها : ولا أدري ما يفعل بي ولا بكم ، إلى ماذا يصير أمري وأمركم في الدُّنيا ؟

أنبأني عقيل بن محمّد ، أخبرنا المعافى بن زكريا ، أخبرنا محمّد بن جرير ، أخبرنا ابن حميد ، حدّثنا يحيى بن واضح ، حدّثنا أبو بكر الهذل ، عن الحسن . في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ

أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ ﴾ ، فقال : أمّا في الآخرة فمعاذ الله قد علم إنّه في الجنّة حين أخذ ميثاقه في الرسل ، ولكن قال : ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ ﴾ في الدُّنيا ، أُخرج كما أخرجت الأنبياء من قبلي ولا أدري ما يفعل بكم ، أُمّتي المكذِّبة أم المصدّقة ، أم أُمّتي المرميّة بالحجارة من السّماء قذفاً أم مخسوف بها خسفاً .

ثمّ أنزل الله تعالى : ﴿ هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهدى وَدِينِ الحق لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ وكفى بالله شَهِيداً ﴾ [الفتح : 28] . يقول : سيظهر دينكم على الأديان . ثمّ قال في أُمّته : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال : 33] فأخبره الله تعالى ما يصنع به وبأُمّته . وهذا قول السدي واليماني ، وقال الضحّاك : ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ ﴾ أي ما تؤمرون وما تنهون عنه .

﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ وَمَا أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بني إِسْرَائِيلَ على مِثْلِهِ ﴾ .

قال قتادة والضحاك وابن زيد : هو عبد الله بن سلام شهد على نبوّة المصطفى صلى الله عليه وسلم ﴿ فَآمَنَ واستكبرتم ﴾ اليهود ، فلم يؤمنوا .

أخبرنا عبد الرّحمن بن إبراهيم بن محمّد بن يحيى ، أخبرنا عبدوس بن الحسين بن منصور ، حدّثنا محمّد بن إدريس يعني الحنظلي ، وأخبرنا عبدالله بن حامد ، حدّثنا أبو جعفر محمّد بن محمّد بن عبدالله البغدادي ، حدّثنا إسماعيل بن محمّد بن إسحاق ، حدّثنا عمر بن محمّد بن عبد الله الأنصاري .

حدّثني حميد الطويل ، عن أنس ، قال : " جاء عبد الله بن سلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدمه المدينة ، فقال : إنّي سائلك عن ثلاث لا يعلمهنّ إلاّ نبي ، ما أوّل أشراط السّاعة ؟

وما أوّل طعام يأكله أهل الجنّة ؟ ، والولد ينزع إلى أبيه أو إلى أُمّه ؟ . قال : " أخبرني جبريل بهنّ آنفاً " قال عبد الله : ذاك عدوّ اليهود من الملائكة . قال : "أمّا أوّل أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب ، وأمّا أوّل طعام يأكله أهل الجنّة مرارة كبد حوت ، فأمّا الولد ، فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولدَ ، وإذا سبق ماء المرأة نزعت الولدَ" . فقال : أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أنّك رسول الله . ثمّ قال : يا رسول الله إنّ اليهود قوم بهت ، وإن علموا بإسلامي قبل أن تسائلهم عنّي بهتوا عليَّ عندك ، فجاءت اليهود فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم " أي رجل عبد الله فيكم ؟ " قالوا : خيرنا وابن خيرنا ، وسيّدنا وابن سيّدنا ، وأعلمنا وابن أعلمنا . قال : " أرأيتم إن أسلم عبد الله " . قالوا : أعاذه الله من ذلك ، فخرج إليهم عبد الله . فقال : أشهد أن لا إله إلاّ الله ، وأشهد أنَّ

محمّداً رسول الله . قالوا : شرّنا وابن شرّنا . وانتقصوه ، قال : هذا ما كنت أخاف يا رسول الله وأحذر " .

(94/703)

ودليل هذا التأويل أنبأني عقيل بن محمّد أنّ المعافى بن زكريا أخبرهم ، عن محمّد بن جرير ، أخبرنا يونس ، أخبرنا عبد الله بن يوسف السبكي قال : سمعت مالك بن أنس يحدّث ، عن أبي النضر ، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص ، عن أبيه ، قال : ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشي على الأرض : إنّه من أهل الجنّة ، إلاّ لعبد الله بن سلام .

قال : وفيه نزلت ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ ﴾ .

وقال آخرون : هو موسى بن عمران (عليه السلام) .

وروى الشعبي ، عن مسروق في هذه الآية ، قال : والله ما نزلت في عبد الله بن سلام لأنّ ل ﴿ حم ﴾ نزلت بمكّة ، وإنّما أسلم عبد الله بالمدينة ، وإنّما كانت محاجّة من رسول الله لقومه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ومثل القرآن التوراة ، فشهد موسى على التوراة ، ومحمّد على القرآن ، وكلاهما مُصدّق أحدهما الآخر ، وقيل : هو ابن يامين .

وقيل : هو نبي من بني إسرائيل ﴿ فآمَنَ واستكبرتم ﴾ فلم يؤمنوا .

﴿ إِنَّ الله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين ﴾ لدينه وحجّته ، وقال أهل المعاني : هذه الآية محذوفة الجواب مجازها ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ الله وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بني إِسْرَائِيلَ على مِثْلِهِ ﴾ من الحقّ منّا ومنكم ، ومن المبطل ؟

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾ من اليهود . ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُواْ لَوْ كَانَ ﴾ دين محمّد ﴿ خَيْراً مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾ يعني عبد الله بن سلام وأصحابه ، قاله أكثر المفسّرين ، وقال قتادة : نزلت هذه الآية في ناس من مشركي قريش ، قالوا : لو كان ما يدعونا إليه محمّد خيراً ما سبقنا إليه فلان ، وفلان ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة : 105] .

(95/703)

وقال الكلبي : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾ يعني أسداً وغطفان ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ يعني جهينة ومزينة . ﴿ لَوْ كَانَ ﴾ ما جاء به محمّد ﴿ خَيْراً ﴾ ما سبقنا إليه رعاء البهم ورذال الناس .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ ﴾ أي بالقرآن كما اهتدى به أهل الإيمان . ﴿ فَسَيَقُولُونَ هذا آفِكٌ قَدِيمٌ ﴾ كما قالوا : أساطير الأوّلين . ﴿ وَمِن قَبْلِهِ ﴾ أي ومن قبل

القرآن .

﴿ كِتَابُ موسى إِمَاماً ﴾ يؤتم به .

﴿ وَرَحْمَةً ﴾ لمن آمن وعمل به ، ونصبا على الحال ، عن الكسائي ، وقال أبو عبيدة : فيه إضمار أي أنزلناه أو جعلناه إماماً ورحمةً . الأخفش على القطع لأنّ قوله : ﴿ كِتَابُ موسى ﴾ معرفة بالإضافة ، والنكرة إذا أعيدت وأضيفت أو أدخلت عليها الألف واللام ، صارت معرفة .

﴿ وهذا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيّاً ﴾ نصب على الحال ، وقيل : أعني لسَاناً . وقيل : بلسان . ﴿ لِّيُنذِرَ ﴾ (بالتاء) مدني وشامي ويعقوب وأيوب ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم على خطاب النبي (عليه السلام) ، وقرأ الباقون (بالياء) على الخبر عنه . وقيل : عن الكتاب .

﴿ الذين ظَلَمُواْ ﴾ أنفسهم بالكفر والمعصية . ﴿ وبشرى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ وجهان من الإعراب : الرفع على العطف على الكتاب مجازه ﴿ وهذا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ ﴾ وبشرى ، والنصب على معنى ﴿ لِّيُنذِرَ الذين ظَلَمُواْ ﴾ أو تبشّر . فلمّا جعل مكان وتبشر وبشرى أو وبشارة نصب كما يقال : أتيتك لأزورك وكرامة لك ، وقضاء حقّك يعني لِازورك وأكرمك وأقضي حقّك ، فنصبت الكرامة والقضاء بفعل مضمر .

﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * أولئك أَصْحَابُ الجنة خَالِدِينَ فِيهَا جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً ﴾ قرأ العامّة : " حسناً " بدون ألف ، وقرأ أهل الكوفة : (إحساناً) وهي قراءة ابن عبّاس .

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً ﴾ بكُره ومشقّة . ﴿ وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ﴾ وفِطامه ، وقرأ الحسن ويعقوب : "وفصله" بغير ألف . ﴿ ثَلاَثُونَ شَهْراً ﴾ قال المفسّرون : حَمَلَهُ ستّة أشهر ورضاعه أربعة وعشرون شهراً .

وقال ابن إسحاق : حمله تسعة أشهر وفصاله من اللبن لأحد وعشرين شهراً .

﴿ حتى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ نهاية قوّته وقامته وغاية شبابه واستوائه وهو ما بين ثماني عشرة سنة إلى أربعين سنة ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ قال السدي والضحاك : نزلت هذه الآية في سعد بن أبي وقّاص . وقد مضت القصة ، وقال الآخرون : نزلت في أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه وأبيه أبي قحافة عثمان بن عمرة ، وأُمّه أُمّ الخير بنت صخر بن عمرو بن عامر ، فلمّا بلغ أبو بكر أربعين سنة آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم وقال لربّه : إنّي تبت إليك وإنّي من المسلمين .

أخبرنا ابن منجويه ، حدّثنا عبيد الله بن محمّد بن شنبه ، حدّثنا إسحاق بن صدقة ، حدّثنا عبد الله بن هاشم ، عن سيف بن عمر ، عن عطية ، عن أبي أيّوب ، عن علي

رضي الله عنه في قوله : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً ﴾ نزلت في أبي بكر ، أسلم أبواه جميعاً ولم يجتمع لأحد من أصحاب رسول الله [من] المهاجرين [أسلم] أبواه غيره ، أوصاه الله بهما ولزم ذلك مَن بعده .

(97/703)

﴿ قَالَ رَبِّ أوزعني ﴾ ألهمني وأوسعني . ﴿ أَنْ أَشكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعلى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذريتي ﴾ أن تجعلهم مؤمنين صالحين . قالوا : فأجاب الله تعالى أبا بكر في أولاده فأسلموا ، ولم يكن أحد من الصحابة أسلم هو ووالداه وبنوه وبناته إلاّ أبو بكر رضي الله عنه .

﴿ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ المسلمين * أولئك الذين نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ ﴾ يعني أعمالهم الصالحة فيثيبهم عليها .

﴿ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ فلا يعاقبهم بها . ﴿ فِي أَصْحَابِ الجنة ﴾ أي مع أصحاب الجنّة ، و (في) بمعنى مع ﴿ وَعْدَ الصدق الذي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ وهو قوله : ﴿ وَعَدَ الله المؤمنين والمؤمنات جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ [التوبة : 72] ﴿ والذي قَالَ لِوَالِدَيْهِ ﴾ إذا دعوه إلى الإيمان بالله والإقرار بالبعث والجزاء . ﴿ أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾ وهي

كلمة كراهية .

﴿ أتعدانني ﴾ قراءة العامة (بنونين) حقيقيتين ، وروى أهل الشام (بنون) واحدة مشدّدة ﴿ أَنْ أُخْرَجَ ﴾ من قبري حيّاً بعد فنائي وبلائي . ﴿ وَقَدْ خَلَتِ ﴾ مضت ﴿ القرون مِن قَبْلِي ﴾ فلم يبعث منهم أحد . وقرأ الحسن والأعمش وأبو معمر أن أَخْرُج بفتح وضم (الراء) .

﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ الله ﴾ يستصرخان الله ويستغيثانه عليه ويقولان له : ﴿ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هذآ ﴾ الذي تعدانني وتدعوانني إليه . ﴿ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأولين ﴾ قال ابن عبّاس وأبو العالية والسدي ومجاهد : نزلت هذه الآية في عبد الله . وقيل : في عبد الرّحمن بن أبي بكر الصدّيق . قال له أبواه : أسلم وألحّا عليه في دعائه إلى الإيمان . فقال : أحيوا لي عبد الله بن جدعان وعامر بن كعب ومشايخ قريش حتّى أسألهم عمّا يقولون .

(98/703)

قال محمّد بن زياد : كتب معاوية إلى مروان حتّى يبايع الناس ليزيد ، فقال عبد الرّحمن بن أبي بكر : لقد جئتم بها هرقلية ، أتبايعون لأبنائكم ؟

فقال مروان : هذا الذي يقول الله تعالى فيه : ﴿ والذي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتعدانني ﴾ . . . الآية . فسمعت عائشة رضي الله عنه بذلك فغضبت ، وقالت : والله ما هي به ، ولو شئت لسمّيته ولكنّ الله لعن أباك وأنت في صلبه فأنت نضض من لعنة الله .

﴿ أولئك الذين حق عليهم القول ﴾ وجب عليهم العذاب . قالوا : يعني الّذين أشار عليهم ابن أبي بكر ، وقال أحيوهم إليّ ، هم الّذين حقّ عليهم القول ، وهم الماضون بقوله : ﴿ وقد خلت القرون من قبلي ﴾ ، فإمّا ابن أبي بكر فقد أجاب الله تعالى فيه دعاء أبيه بقوله : ﴿ وأصلح لي في ذريتي ﴾ فأسلم وحسن إسلامه .

وقال الحسن وقتادة : هذه الآية مرسلة عامة ، وهي نعت عبد كافر فاجر عاق لوالديه .

﴿ أولئك الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ وجب عليهم العذاب . قالوا : يعني الّذين أشار عليهم ابن أبي بكر ، وقال أحيوهم إليّ ، هم الّذين حقّ عليهم القول ، وهم الماضون بقوله : ﴿ فِي أُمَمٍ ﴾ مع أُمم . ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ الجن والإنس إِنَّهُمْ كَانُواْ خَاسِرِينَ * وَلِكُلٍّ ﴾ واحد من الفريقين المؤمنين والكافرين .

﴿ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾ منازل ومراتب عند الله يوم القيامة بإعمالهم فيجازيهم عليها ، وقال ابن زيد : في هذه الآية دُرج أهل النار تذهب سفالاً ، ودُرج أهل الجنّة تذهب علوّاً .

﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ ﴾ أجورهم (بالياء) مكي وبصري وهشام ، والباقون (بالنون) .

﴿ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ * وَيَوْمَ يُعْرَضُ الذين كَفَرُواْ عَلَى النار ﴾ فيقال لهم : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدنيا واستمتعتم بِهَا ﴾ قرأ أبو جعفر وابن كثير ويعقوب (أذهبتم طيباتكم) بالاستفهام ، واختلف فيه عن أهل الشام ، وغيرهم بالخبر ، وهما صحيحتان فصيحتان لأنّ العرب تستفهم بالتوبيخ وتترك الاستفهام فيه . فتقول : أذهبت ففعلت كذا وكذا ؟ ، وذهبت ففعلت وفعلت ؟

﴿ فاليوم تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهون بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأرض بِغَيْرِ الحق وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ أخبرنا ابن محمّد بن الحسين بن منجويه ، حدّثنا عبد الله بن إبراهيم بن علي بن عبدالله ، حدّثنا محمّد بن أحمد بن إبراهيم الكرابيسي ، حدّثنا حميد بن الربيع ، حدّثنا أبو معمر ، حدّثنا عبد الوارث ، حدّثنا محمّد بن حجارة ، عن حميد الشامي ، عن سليمان ، عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

"كان رسول الله إذا سافر كان آخر عهده بإنسان من أهله وأوّل من يدخل عليه إذا قدم فاطمة عليها السلام .

فلمّا قدم من غزوة فأتاها فإذا لمحَ وقيل : لمح على بابها ورأى على الحسن والحسين قلبين من فضّة ، فرجع ولم يدخل عليها ، فلمّا رأت ذلك فاطمة ظنّت إنّه لم يدخل عليها من أجل ما رأى ، فهتكت الستر ونزعت القلبين من الصّبيين ، فقطعتهما ، فبكى الصبيّان ،

فقسمته بينهما نصفين ، فانطلقا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما يبكيان ، فأخذه رسول الله منهما ، وقال : " يا ثوبان إذهب بهذا إلى بني فلان أهل بيت بالمدينة واشتر لفاطمة قلادة من عصب وسوارين من عاج " قال : " فإنّ هؤلاء أهل بيتي ولا أحبّ أن يأكلوا طيّباتهم في الحياة الدُّنيا " " .

(100/703)

أنبأني عقيل بن محمّد ، قال : أخبرنا المعافى بن زكريا ، أخبرنا محمّد بن جرير ، حدّثنا كثير ، حدّثنا يزيد ، حدّثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : حدّثنا صاحب لنا ، عن أبي هريرة ، قال : إنّما كان طعامنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسودان : الماء ، والتمر ، والله ما كنا نرى سمراكم هذه ولا ندري ما هي . وبه عن قتادة ، عن أبي بردة بن عبد الله بن قيس الأشعري ، عن أبيه ، قال : أي بُني لو شهدتنا ونحن مع نبيّنا صلى الله عليه وسلم إذا أصابتنا السماء حسبت إنّ ريحنا ريح الضأن ، إنّما كان لباسنا الصوف .

وبه عن قتادة ، قال : ذُكر لنا أنّ عمر بن الخطّاب ح كان يقول : لو شئت كنت أطيبكم طعاماً وألينكم لباساً ، ولكنّي أستبقي طيباتي . وذكر لنا أنّه لما قدم الشام صُنع له طعام لم ير قبله مثله . قال : هذا لنا فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز

الشعير؟ قال خالد ابن الوليد : لهم الجنّة . فاغرورقت عينا عمر ، وقال : لئن كان حظّنا في الحطام وذهبوا فيما أرى أنا بالجنّة لقد باينونا بوناً بعيداً . وذُكر لنا أنّ النبي صلى الله عليه وسلم دخل على أهل الصفة ، مكاناً يجتمع فيه فقراء المسلمين وهم يرقعون ثيابهم بالأدم ما يجدون لها رقاعاً .

قال : أنتم اليوم خير أم يوم يغدو أحدكم في حلة ويروح في أُخرى ، ويغدى عليه بجفنة ويُراح عليه بأُخرى ، ويستر بيته كما يستر الكعبة؟ قالوا : نحن يومئذ خير .

(101/703)

أخبرنا الحسين بن منجويه ، حدّثنا محمّد بن أحمد بن نصرويه ، حدّثنا أبو العبّاس أحمد ابن موسى الجوهري ، حدّثنا علي بن سهل الرملي ، حدّثنا الوليد بن مسلم ، حدّثني رزق أبو الهذيل ، حدّثني عبيد الله بن عبد الله ، عن ابن عبّاس ، " عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أنّه حدّثه أنّه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هجر نساءه فوافاه على سرير رميل ، يعني مرمُولاً مشدوداً ، قد أثّر الحصيرُ في جنبه ، متوسّدِ وسادة من أدم محشوة ليف .

فقال عمر : والتفتُّ في البيت فوالله ما رأيت شيئاً يردّ البصر إلاّ أهب يعني جلداً معطوبة

قد سطع ريحها ، فبكيت ، فقلت : يا رسول الله أنت رسول الله وخيرته ، فيما أرى وهذا كسرى وقيصر في الديباج والحرير ؟ فاستوى رسول الله جالساً ، وقال : " أَوَفي شك أنت يا بن الخطّاب ؟ " " أولئك قوم عجلت لهم طيّباتهم في حياتهم الدُّنيا " " .

أخبرنا ابن منجويه الدينوري ، حدّثنا عبيد الله بن محمّد بن عتبة ، حدّثنا الفرماني ، حدّثنا أبو أمية الواسطي ، حدّثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا مبارك بن فضالة ، حدّثنا حفص بن أبي العاص ، قال : "كنت أتغدى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتغدينا الخبز والزيت والخل ، والخبز واللبن ، والخبز والقديد ، وأقلّ ذلك اللحم العريض ، وكان يقول : " لا تنخلوا الدقيق فإنّه كلّه طعام " فيجيء بخبز منقلع غليظ ، فجعل يأكل ويقول لنا : كلوا . فجعلنا نعتذر ، فقال : ما لكم لا تأكلون ؟ فقلت : لا نأكله والله يا أمير المؤمنين ، نرجع إلى طعام ألين من طعامك .

(102/703)

قال : بخ يا بن أبي العاص ، ألا ترى أنّي عالم بأن آمر بدقيق أن ينخل بخرقة فيَخبز في كذا ، وكذا ؟ أما ترى أنّي عالم إنّ آمر إلى عناق سمينة فيُلقى عنها شعرها ، ثمّ تخرج صلاء كأنّه كذا وكذا ؟ أما ترى أنّي عالم أن أعمل إليَّ صاع أو صاعين من زبيب فاجعله في سقاء ثمّ

أرش عليه من الماء فيطبخ كإنّه دم غزال ؟ قال : قلت : والله يا أمير المؤمنين إني لأراك عالماً بطيب العيش ، فقال عمر : أجل ، والله الذي لا إله إلاّ هو لولا إنّي أخاف أن ينقص من حسناتي يوم القيامة لشاركتكم في العيش ، ولكنّي سمعت الله يقول لقوم : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدنيا واستمتعتم بِهَا ﴾ .

أخبرنا ابن منجويه ، حدّثنا عبد الله بن يوسف ، حدّثنا عبد الله بن محمّد بن عبد العزيز ، حدّثنا محمّد بن بكار الريان ، حدّثنا أبو معشر ، عن محمّد بن قيس ، عن جابر بن عبد الله . قال : اشتهى أهلي لحماً ، فمررت بعمر بن الخطّاب رضي الله عنه ، فقال : ما هذا يا جابر ؟ فقلت : أشتهى أهلي لحماً ، فاشتريت لحماً بدرهم . فقال : أوكلّما اشتهى أحدكم شيئاً جعله في بطنه ؟ أما تخشى أن تكون من أهل هذه الآية ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدنيا ﴾ ؟

أخبرنا ابن منجويه ، حدّثنا محمّد بن الحسين ، حدّثنا بشر ، حدّثنا ابن أبي الخصيب ، أخبرني أحمد بن محمّد بن أبي موسى ، حدّثنا أحمد بن أبي الحواري ، حدّثنا أبي ، قال : قال وهب بن الورد : خلق ابن آدم والخبز معه ، فما زاد على الخبز ينمو شهوة .

قال : فحدّثت به أبا سليمان . فقال : صدق ، الملح مع الخبز شهوة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 9 صـ 5.15 ﴾

وقال الزمخشرى :

سورة الأحقاف

مكية [إلا الآيات 10 و15 و35 فمدنية] وآياتها 34 وقيل 35 آية [نزلت بعد الجاثية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (3)

إِلَّا بِالْحَقِّ إلا خلقا ملتبسا بالحكمة والغرض الصحيح وبتقدير أَجَلٍ مُسَمًّى ينتهى إليه وهو يوم القيامة وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا من هول ذلك اليوم الذي لا بد لكل خلق من انتهائه إليه مُعْرِضُونَ لا يؤمنون به ولا يهتمون بالاستعداد له . ويجوز أن تكون ما مصدرية ، أى : عن إنذارهم ذلك اليوم .

[سورة الأحقاف (46) : آية 4]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ ائْتُونِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (4)

بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا أى من قبل هذا الكتاب وهو القرآن ، يعنى : أنّ هذا الكتاب ناطق بالتوحيد وإبطال الشرك . وما من كتاب أنزل من قبله من كتب اللّه إلا وهو ناطق بمثل ذلك ، فأتوا بكتاب واحد منزل من قبله شاهد بصحة ما أنتم عليه من عبادة غير اللّه أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ أو بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأوّلين ، من قولهم : سمنت الناقة على أثارة من شحم ، أى : على بقية شحم كانت بها من شحم ذاهب . وقرئ : أثرة ، أى : من شيء أوثرتم به وخصصتم من علم لا إحاطة به لغيركم . وقرئ : أثرة بالحركات الثلاث في الهمزة مع سكون الثاء ، فالإثرة بالكسر بمعنى الأثرة . وأما الأثرة فالمرّة من مصدر : أثر الحديث إذا رواه . وأما الأثرة بالضم فاسم ما يؤثر ، كالخطبة : اسم ما يخطب به

[سورة الأحقاف (46) : آية 5]

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ (5)

وَمَنْ أَضَلُّ معنى الاستفهام فيه إنكار أن يكون في الضلال كلهم أبلغ ضلالا من عبدة الأصنام ، «1» حيث يتركون دعاء السميع المجيب القادر على تحصيل كلّ بغية ومرام ، ويدعون

من دونه جمادا لا يستجيب لهم ولا قدرة به على استجابة أحد منهم ما دامت الدنيا وإلى أن تقوم القيامة ، وإذا قامت القيامة وحشر الناس : كانوا لهم أعداء ، وكانوا عليهم ضدا ، فليسوا في الدارين إلا على نكد ومضرّة ، لا تتولاهم في الدنيا بالاستجابة ، وفي الآخرة تعاديهم وتجحد عبادتهم . وإنما قيل مَنْ وهُمْ لأنه أسند إليهم ما يسند إلى أولى العلم من الاستجابة والغفلة ، ولأنهم كانوا يصفونهم بالتمييز جهلا وغباوة . ويجوز أن يريد : كلّ معبود من دون اللّه من الجن

---

(1) . قال محمود : «استفهام معناه إنكار أن يكون في الضلال كلهم أبلغ ضلالا من عبدة الأصنام . . . الخ» قال أحمد : وفي قوله إلى يوم القيامة : نكتة حسنة ، وذلك أنه جعل يوم القيامة غاية لعدم الاستجابة ، ومن شأن الغاية انتهاء المغيا عندها ، لكن عدم الاستجابة مستمر بعد هذه الغاية ، لأنهم في القيامة أيضا لا يستجيبون لهم ، فالوجه واللّه أعلم : أنها من الغايات المشعرة بأن ما بعدها وإن وافق ما قبلها إلا أنه أزيد منه زيادة بينة تلحقه بالثاني ، حتى كأن الحالتين وإن كانتا نوعا واحدا لتفاوت ما بينهما كالشيء وضده ، وذلك أن الحالة الأولى التي جعلت غايتها القيامة لا تزيد على عدم الاستجابة ، والحالة الثانية التي في القيامة زادت على عدم الاستجابة بالعداوة بالكفر بعبادتهم إياهم ، فهو من وادى ما تقدم آنفا في سورة الزخرف في قوله بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ وَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ قالُوا هذا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كافِرُونَ .

والإنس والأوثان ، فغلب غير الأوثان عليها . وقرئ : ما لا يستجيب . وقرئ : يدعو غير اللّه من لا يستجيب ، ووصفهم بترك الاستجابة والغفلة طريقه طريق التهكم بها وبعبدتها . ونحوه قوله تعالى إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْككُمْ .

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 6 إلى 7]

وَإِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً وَكانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ (6) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (7)

بَيِّناتٍ جمع بينة : وهي الحجة والشاهد . أو واضحات مبينات . واللام في لِلْحَقِّ مثلها في قوله وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً أى لأجل الحق ولأجل الذين آمنوا «1» . والمراد بالحق : الآيات ، وبالذين كفروا : المتلو عليهم ، فوضع الظاهران موضع الضميرين ، للتسجيل عليهم بالكفر ، وللمتلوّ بالحق لَمَّا جاءَهُمْ أى : بادوه بالجحود ساعة أتاهم ، وأوّل ما سمعوه من غير إجالة فكر ولا إعادة نظر . ومن عنادهم وظلمهم : أنهم سموه سحرا مبينا ظاهرا أمره في البطلان لا شبهة فيه .

[سورة الأحقاف (46) : آية 8]

أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ كَفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (8)

أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ إضراب عن ذكر تسميتهم الآيات سحرا إلى ذكر قولهم : إن محمدا افتراه . ومعنى الهمزة في أم : الإنكار والتعجيب ، كأنه قيل : دع هذا واسمع قولهم المستنكر المقضى منه العجب ، وذلك أن محمدا كان لا يقدر عليه حتى يقوله ويفتريه على اللّه ، ولو قدر عليه دون أمّة العرب لكانت قدرته عليه معجزة لخرقها العادة ، وإذا كانت معجزة كانت تصديقا من اللّه له ، والحكيم لا يصدّق الكاذب فلا يكون مفتريا . والضمير للحق ، والمراد به الآيات قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ على سبيل الفرض عاجلني اللّه تعالى لا محالة بعقوبة الافتراء عليه . فلا تقدرون

---

(1) . قال محمود : «اللام في قوله تعالى للحق نحو اللام في قوله وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ أى لأجل الحق ولأجل الذين آمنوا . . . الخ» قال أحمد : هذا الاضراب في بابه مثل الغاية التي قدمتها آنفا في بابها فانه انتقال إلى موافق ، لكنه أزيد من الأول ، فنزل بزيادته عليه مع ما تقدمه مما ينقص عنه منزلة المتنافيين ، كالنفى والإثبات اللذين يضرب عن أحدهما للآخر ، وذلك أن نسبتهم للآيات إلى أنها مفتريات أشد وأبعد من نسبتها إلى أنها سحر ، فأضرب عن ذلك الأول إلى ذكر ما هو أغرب منه .

على كفه عن معاجلتى ولا تطيقون دفع شيء من عقابه عنى ، فكيف أفتريه وأتعرّض لعقابه .

يقال : فلان لا يملك إذا غضب ، ولا يملك عنانه إذا صمم ، ومثله فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ، وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ومنه قوله عليه السلام «لا أملك لكم من اللّه شيئا» «1» ثم قال هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ أى تندفعون فيه من القدح في وحى اللّه تعالى ، والطعن في آياته ، وتسميته سحرا تارة وفرية أخرى كَفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ يشهد لي بالصدق والبلاغ ، ويشهد عليكم بالكذب والجحود . ومعنى ذكر العلم والشهادة وعيد بجزاء إفاضتهم وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ موعدة بالغفران والرحمة إن رجعوا عن الكفر وتابوا وآمنوا ، وإشعار بحلم اللّه عنهم مع عظم ما ارتكبوا . فإن قلت : فما معنى إسناد الفعل إليهم «2» في قوله تعالى فلا تملكون لي ؟ قلت : كان فيما أتاهم به النصيحة لهم والإشفاق عليهم من سوء العاقبة وإرادة الخير بهم ، فكأنه قال لهم : إن افتريته وأنا أريد بذلك التنصح لكم وصدكم عن عبادة الآلهة إلى عبادة اللّه ، فما تغنون عنى أيها المنصوحون إن أخذنى اللّه بعقوبة الافتراء عليه .

[سورة الأحقاف (46) : آية 9]

قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى إِلَيَّ وَما أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (9)

البدع، بمعنى: البديع، كالخف بمعنى الخفيف. وقرئ: بدعا، بفتح الدال، أى: ذا بدع

---

(1). متفق عليه من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه، ولما نزلت وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ دعا النبي صلى اللّه عليه وسلم قريشا فاجتمعوا. فعم وخص. فقال: يا بنى كعب بن لؤي يا بنى مرة بن كعب: يا بنى عبد شمس يا بنى عبد مناف، يا بنى هاشم، يا بنى عبد المطلب، إنى لا أملك لكم من اللّه شيئا - الحديث»

(2). قال محمود: فان قلت: ما معنى إسناد الفعل إليهم... الخ» قال أحمد: فيه نظر من قبيل أن الكلام جرى فرضا وتقديرا. ومتى فرض الافتراء لا يتصور على تقديره نصح، فان النصح عبارة عن الدعاء إلى ما فيه نفع، ولا ينفع المكلف في عمل ظاهر أو باطن إلا أن يكون مأمورا به من اللّه تعالى، ولا سبيل إلى الاطلاع على ذلك إلا من الوحي الحق لا غير، فإذا لا يتصور نصح مع الافتراء، وإنما يتم هذا الذي قرره على قاعدة المعتزلة القائلين بأن العقل طريق يوصل إلى معرفة حكم اللّه تعالى، لأنه إذا أمر بطاعة من الطاعات كالتوحيد مثلا وقال: إن اللّه حتم عليكم وجوب التوحيد، وأنا رسول اللّه إليكم. ولم يكن متعوقا: فانه محق في الأمر بالتوحيد، لأن العقل دل على وجوبه عندهم، وإن كان مفتريا في دعوى

كونه رسولا من اللّه عز وجل . وهذه قاعدة قد أفسدتها الأدلة القاطعة ، فيحتمل في إجراء الآية على مذهب أهل السنة : أن يكون إسناد الفعل لهم على معنى التنبيه بالشيء على مقابله بطريق المفهوم ، فالمعنى إذا إن كنت مفتريا فالعقوبة واقعة بي لا تدفعونها عني ، فمفهومه ، وإن كنت محقا وأنتم مفترون فالعقوبة واقعة بكم لا أقدر على دفعها عنكم . ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ وأمثاله كثيرة واللّه أعلم .

(107/703)

ويجوز أن يكون صفة على فعل ، كقولهم : دين قيم ، ولحم زيم «1» : كانوا يقترحون عليه الآيات ويسألونه عما لم يوح به إليه من الغيوب ، فقيل له : قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ فآتيكم بكل ما تقترحونه ، وأخبركم بكل ما تسألون عنه من المغيبات ، فإنّ الرسل لم يكونوا يأتون إلا بما آتاهم اللّه من آياته ، ولا يخبرون إلا بما أوحى إليهم . ولقد أجاب موسى صلوات اللّه عليه عن قول فرعون : فما بال القرون الأولى ؟ بقوله : علمها عند ربي وَما أَدْرِي لأنه لا علم لي بالغيب - ما يفعل اللّه بي وبكم فيما يستقبل من الزمان من أفعاله ، ويقدر لي ولكم من قضاياه إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ وعن الحسن : وما أدري ما يصير إليه أمري وأمركم في

الدنيا ، ومن الغالب منا والمغلوب . وعن الكلبي : قال له أصحابه - وقد ضجروا من أذى المشركين - : حتى متى نكون على هذا ؟ فقال : ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم ، أأترك بمكة أم أومر بالخروج إلى أرض قد رفعت لي ورأيتها - يعنى في منامه - ذات نخيل وشجر ؟ وعن ابن عباس : ما يفعل بى ولا بكم في الآخرة ، وقال : هي منسوخة بقوله لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ ويجوز أن يكون نفيا للدراية المفصلة «2» . وقرئ : ما يفعل ، بفتح الياء ، أى : يفعل اللّه عز وجل . فإن قلت : إنّ يُفْعَلُ مثبت غير منفي ، فكان وجه الكلام : ما يفعل بى وبكم . قلت : أجل ، ولكن النفي في ما أدرى لما كان مشتملا عليه لتناوله ما وما في حيزه : صح ذلك وحسن .

ألا ترى إلى قوله أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ كيف دخلت الياء في حيز أنّ وذلك لتناول النفي إياها مع ما في حيزها . وما في ما يُفْعَلُ يجوز أن تكون موصولة منصوبة ، وأن تكون استفهامية مرفوعة . وقرئ : يوحى ، أى اللّه عز وجل .

[سورة الأحقاف (46) : آية 10]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10)

---

(1) . قوله «ولحم زيم» في الصحاح «اللحم الزيم» المتفرق ليس بمجتمع في مكان فيبدن .

وفيه أيضا : بدن الرجل يبدن ، إذا ضخم وسمن . (ع)

(2) . قال محمود : «أجود ما ذكر فيه حمله على الدراية المفصلة ، يريد بذلك أن تفصيل ما يصير إليه من خير ويصيرون إليه من شر . . . الخ» قال أحمد : «بنى على أن المجرور معطوف على مثله ، وأنهما جميعا في صلة موصول واحد ، ولو قيل : إن المجرور الثاني من صلة موصول محذوف معطوف على مثله ، حتى يكون التقدير : وما أدرى ما يفعل بى ولا ما يفعل بكم : لكانت لا واقعة بمكانة غير مفتقرة إلى تأويل ، وحذف الموصول المعطوف وتفاصيله كثيرة . ومنه

فمن يهجو رسول اللّه منكم ويمدحه وينصره سواء

يريد حسان رضى اللّه عنه : فمن يهجو رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ومن يمدحه سواء .

(108/703)

جواب الشرط محذوف تقديره : إن كان القرآن من عند اللّه وكفرتم به ألستم ظالمين . ويدل على هذا المحذوف قوله تعالى إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ والشاهد من بنى إسرائيل :

عبد اللّه بن سلام ، لما قدم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم المدينة نظر إلى وجهه ، فعلم أنه ليس بوجه كذاب . وتأمله فتحقق أنه هو النبي المنتظر وقال له : إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبىّ : ما أوّل أشراط الساعة ؟ وما أوّل طعام يأكله أهل الجنة ؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمّه ؟ فقال عليه الصلاة والسلام «1» . أمّا أوّل أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب . وأمّا أوّل طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت . وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل نزعه ، وإن سبق ماء المرأة نزعته . فقال : أشهد أنك رسول اللّه حقا ، ثم قال : يا رسول اللّه ، إن اليهود قوم بهت وإن علموا بإسلامى قبل أن تسألهم عنى بهتوني «2» عندك . فجاءت اليهود فقال لهم النبي صلى اللّه عليه وسلم : أى رجل عبد اللّه فيكم ؟ فقالوا : خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا ، وأعلمنا وابن أعلمنا . قال : أرأيتم إن أسلم عبد اللّه ؟ قالوا : أعاذه اللّه من ذلك ، فخرج إليهم عبد اللّه فقال : أشهد أن لا إله إلا اللّه وأشهد أنّ محمدا رسول اللّه ، فقالوا : شرنا وابن شرنا وانتقصوه ، قال : هذا ما كنت أخاف يا رسول اللّه وأحذر . قال سعد بن أبى وقاص ما سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول لأحد يمشى على وجه الأرض أنه من أهل الجنة إلا لعبد اللّه بن سلام «3» ، وفيه نزل وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ «4» الضمير للقرآن ، أى : على مثله في المعنى ، وهو ما في التوراة من المعاني المطابقة لمعانى القرآن من التوحيد والوعد والوعيد وغير ذلك . ويدل عليه قوله تعالى وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ، إِنَّ هذا لَفِي

الصُّحُفِ الْأُولى ، كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ ويجوز أن يكون المعنى : إن كان من عند اللّه وكفرتم به وشهد شاهد على نحو ذلك ، يعنى كونه من عند اللّه . فإن قلت : أخبرنى عن نظم هذا الكلام لأقف على معناه من جهة «5» النظم . قلت : الواو الأولى عاطفة

---

(1) . أخرجه البخاري من رواية حميد عن أنس ، وأتم منه» .

(2) . قوله «بهتوني» أى : رموني بما ليس فىّ . (ع)

(3) . متفق عليه .

(4) . عند البخاري وشك في إدراجها . وروى الطبري من رواية محمد بن يوسف بن عبد اللّه بن سلام قال قال عبد اللّه بن سلام «فىّ نزلت هذه الآية . ثم روى عن الشعبي أنه أنكر ذلك لكون السورة مكية . كذا أخرجه ابن أبى شيبة عن الشعبي .

(5) . قال محمود : «إن قلت : أخبرنى عن نظم هذا الكلام لأقف عليه من جهة النظم . . . الخ» قال أحمد :

إنما لم يوجه المعطوف إلى جهة واحدة ، لأن التفصيل قد يكون عطف مجموع مفردات على مجموع مفردات كل منهما والآية من هذا النمط ، ومثلها قوله تعالى وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُماتُ وَلَا النُّورُ وقوله إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ الآية ، وقد تقدم تقرير ذلك في الآيتين فجدد به عهدا .

لكفرتم على فعل الشرط ، كما عطفته ثُمَّ في قوله تعالى قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ وكذلك الواو الآخرة عاطفة لاستكبرتم على شهد شاهد ، وأما الواو في وَشَهِدَ شاهِدٌ فقد عطفت جملة قوله . شهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم : على جملة قوله كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ونظيره قولك : إن أحسنت إليك وأسأت ، وأقبلت عليك وأعرضت عنى ، لم تتفق في أنك أخذت ضميمتين فعطفتهما على مثليهما ، والمعنى : قل أخبرونى إن اجتمع كون القرآن من عند اللّه مع كفركم به ، واجتمع شهادة أعلم بنى إسرائيل على نزول مثله وإيمانه به ، مع استكباركم عنه وعن الإيمان به ، ألستم أضل الناس وأظلمهم ؟ وقد جعل الإيمان في قوله فآمَنَ مسببا عن الشهادة على مثله ، لأنه لما علم أنّ مثله أنزل على موسى صلوات اللّه عليه ، وأنه من جنس الوحى وليس من كلام البشر ، وأنصف من نفسه فشهد عليه واعترف كان الإيمان نتيجة ذلك .

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 11 إلى 14]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ (11) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً وَهذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ لِساناً عَرَبِيًّا

لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرى لِلْمُحْسِنِينَ (12) إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (13) أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (14)

لِلَّذِينَ آمَنُوا لأجلهم وهو كلام كفار مكة ، قالوا : عامّة من يتبع محمدا السقاط ، يعنون الفقراء مثل عمار وصهيب وابن مسعود ، فلو كان ما جاء به خيرا ما سبقنا إليه هؤلاء .

وقيل :

لما أسلمت جهينة ومزينة وأسلم وغفار : قالت بنو عامر وغطفان وأسد وأشجع : لو كان خيرا ما سبقنا إليه رعاء البهم . وقيل : إن أمة لعمر أسلمت ، فكان عمر يضربها حتى يفتر ثم يقول لولا أنى فترت لزدتك ضربا ، وكان كفار قريش يقولون : لو كان ما يدعو إليه محمد حقا ما سبقتنا إليه فلانة . وقيل : كان اليهود يقولونه عند إسلام عبد اللّه بن سلام وأصحابه . فإن قلت : لا بدّ من عامل في الظرف « 1 » في قوله وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ومن متعلق لقوله فَسَيَقُولُونَ وغير

---

(1) . قال محمود : «لا بد من عامل الظرف وغير مستقيم أن يعمل فيه . . . الخ» قال أحمد : إن لم يكن مانع من عمل فسيقولون في الظرف ألا تنافى دلالتى المضي والاستقبال ، فهذا غير مانع ، فان الاستقبال هاهنا إنما خرج مخرج الاشعار بدوام ما وقع ومضى ، لأن القوم قد حرموا الهداية وقالوا : هذا إفك قديم ، وأساطير الأولين وغير ذلك ، فمعنى الآية

إذا : وقالوا إذ لم يهتدوا به هذا إفك قديم وداموا على ذلك وأصروا عليه ، فعبر عن وقوعه ثم دوامه بصيغة الاستقبال ، كما قال إبراهيم إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وقد كانت الهداية واقعة وماضية ولكن أخبر عن وقوعها ، ثم دوامها فعبر بصيغة الاستقبال ، وهذا طريق الجمع بين قوله سَيَهْدِينِ وقوله في الأخرى فَهُوَ يَهْدِينِ ولولا دخول الفاء على الفعل لكان هذا الذي ذكرته هو الوجه ، ولكن الفاء المسببة دلت بدخولها على محذوف هو السبب ، وقطعت الفعل عن الظرف المتقدم ، فوجب تقدير المحذوف عاملا فيه لينتظم بتقديره عاملا أمران : مصادفة الظرف للعامل والفعل المعلل لعلته ، فتعين ما ذكره الزمخشري لأجل الفاء لا لتنافي الدلالتين .

والله أعلم .

(110/703)

مستقيم أن يكون فَسَيَقُولُونَ هو العامل في الظرف ، لتدافع دلالتي المضي والاستقبال ، فما وجه هذا الكلام ؟ قلت : العامل في إذ محذوف ، لدلالة الكلام عليه ، كما حذف من قوله فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وقولهم : حينئذ الآن ، وتقديره : وإذ لم يهتدوا به ظهر عنادهم ، فسيقولون هذا إفك قديم ، فهذا المضمر صحّ به الكلام ، حيث انتصب به الظرف وكان قوله

فَسَيَقُولُونَ مسببا عنه كما صحّ بإضمار أنّ قوله حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ لمصادفة حَتَّى مجرورها ، والمضارع ناصبه . وقولهم إِفْكٌ قَدِيمٌ كقولهم : أساطير الأوّلين كِتابُ مُوسى مبتدأ ومن قبله ظرف واقع خبرا مقدما عليه ، وهو ناصب إِماماً على الحال ، كقولك : في الدار زيد قائما .

وقرئ : ومن قبله كتاب موسى ، على : وآتينا الذين قبله التوراة . ومعنى إِماماً : قدوة يؤتم به في دين اللّه وشرائعه ، كما يؤتم بالإمام وَرَحْمَةً لمن آمن به وعمل بما فيه وَهذا القرآن كِتابٌ مُصَدِّقٌ لكتاب موسى . أو لما بين يديه وتقدّمه من جميع الكتب . وقرئ : مصدق لما بين يديه . وِلساناً عَرَبِيًّا حال من ضمير الكتاب في مصدق ، والعامل فيه مُصَدِّقٌ ويجوز أن ينتصب حالا عن كتاب «1» لتخصصه بالصفة ، ويعمل فيه معنى الإشارة . وجوّز أن يكون مفعولا لمصدق ، أى : يصدق ذا لسان عربى وهو الرسول . وقرئ : لينذر بالياء والتاء ، ولينذر : من نذر ينذر إذا حذر وبُشْرى في محل النصب معطوف على محل لينذر ، لأنه مفعول له .

---

(1) . أجاز محمود في نصبه أن يكون حالا عن كتاب لتخصصه بالصفة . . . الخ . قال أحمد : وجهان حسنان أعززهما بثالث : وهو النصب على الاختصاص ، وهذه الوجوه في قوله تعالى فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْراً مِنْ عِنْدِنا ، واللّه أعلم .

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 15 إلى 16]

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إِحْساناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15) أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ فِي أَصْحابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ (16)

قرئ : حسنا ، بضم الحاء وسكون السين . وبضمهما . وبفتحهما . وإحسانا . وكرها ، بالفتح والضم ، وهما لغتان في معنى المشقة ، كالفقر والفقر . وانتصابه على الحال : أى : ذات كره .

أو على أنه صفة للمصدر ، أى : حملا ذا كره وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ومدّة حمله وفصاله ثَلاثُونَ شَهْراً وهذا دليل على أن أقل الحمل ستة أشهر ، لأن مدّة الرضاع إذا كانت حولين لقوله عز وجل حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ بقيت للحمل ستة أشهر . وقرئ : وفصله . والفصل والفصال : كالفطم والفطام ، بناء ومعنى . فإن قلت : المراد بيان مدّة الرضاع لا

الفطام ، فكيف عبر عنه بالفصال ؟ قلت : لما كان الرضاع يليه الفصال ويلابسه لأنه ينتهى به ويتم :

سمى فصالا ، كما سمى المدّة بالأمد من قال :

كل حى مستكمل مدّة العمر ومود إذا انتهى أمده «1»

وفيه فائدة وهي الدلالة على الرضاع التام المنتهى بالفصال ووقته . وقرئ : حتى إذا استوى وبلغ أشدّه . وبلوغ الأشد : أن يكتهل ويستوفى السنّ التي تستحكم فيها قوّته وعقله وتمييزه ، وذلك إذا أناف على الثلاثين وناطح الأربعين . وعن قتادة : ثلاث وثلاثون سنة ، ووجهه أن يكون ذلك أوّل الأشد ، وغايته الأربعين . وقيل : لم يبعث نبىّ قط إلا بعد أربعين سنة .

والمراد بالنعمة التي استوزع الشكر عليها : نعمة التوحيد والإسلام ، وجمع بين شكرى النعمة عليه وعلى والديه ، لأن النعمة عليهما نعمة عليه . وقيل في العمل المرضى : هو الصلوات الخمس .

فإن قلت : ما معنى فِي في قوله وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ؟ قلت : معناه : أن يجعل ذرّيته موقعا للصلاح «2» ومظنة له كأنه قال : هب لي الصلاح في ذرّيتى وأوقعه فيهم ونحوه :

يجرح في عراقيبها نصلى «3»

مِنَ الْمُسْلِمِينَ من المخلصين . وقرئ : يتقبل ، ويتجاوز ، بفتح الياء ، والضمير فيهما للّه عز

---

(1) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 277 فراجعه إن شئت اه مصححه . [. . . . .]

(2) . قال محمود : «فان قلت : ما معنى في ها هنا ، وأجاب بأن المراد جعل ذريته . . . الخ» قال أحمد : ومثله قوله تعالى إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى عدولا عن قوله : إلا مودة القربى . أو المودة للقربى ، والله أعلم .

(3) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة 578 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(112/703)

وجل . وقرئا بالنون . فإن قلت : ما معنى قوله فِي أَصْحابِ الْجَنَّةِ ؟ قلت : هو نحو قولك : أكرمني الأمير في ناس من أصحابه ، تريد : أكرمني في جملة من أكرم منهم ، ونظمني في عدادهم ، ومحله النصب على الحال ، على معنى : كائنين في أصحاب الجنة ومعدودين فيهم وَعْدَ الصِّدْقِ مصدر مؤكد ، لأن قوله : يتقبل ، ويتجاوز : وعد من الله لهم بالتقبل والتجاوز . وقيل :

نزلت في أبي بكر رضي الله عنه وفي أبيه أبي قحافة وأمّه أم الخير وفي أولاده ، واستجابة

دعائه فيهم . وقيل : لم يكن أحد من الصحابة من المهاجرين منهم والأنصار أسلم هو ووالداه وبنوه وبناته غير أبى بكر .

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 17 إلى 18]

وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما أَتَعِدانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُما يَسْتَغِيثانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ ما هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17) أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ (18)

وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ مبتدأ خبره : أولئك الذين حق عليهم القول . والمراد بالذي قال : الجنس القائل ذلك القول ، ولذلك وقع الخبر مجموعا . وعن الحسن : هو في الكافر العاق لوالديه المكذب بالبعث . وعن قتادة : هو نعت عبد سوء عاق لوالديه فاجر لربه . وقيل : نزلت في عبد الرحمن بن أبى بكر «1» قبل إسلامه وقد دعاه أبوه أبو بكر وأمّه أمّ رومان إلى الإسلام ، فأفف بهما وقال : ابعثوا لي جدعان بن عمرو وعثمان بن عمرو ، وهما من أجداده حتى أسألهما

---

(1) . قال محمود : «زعم بعضهم أن المعنى بالآية عبد الرحمن بن أبى بكر . . . الخ» قال أحمد : ونحن نختار أن المراد الجنس لا عبد الرحمن بن أبى بكر ، ولكنا لا نختار الرد على قائل ذلك بهذا الوجه ، فان له أن يقول : أراد عبد الرحمن وأمته ، ومثل ذلك قول اللّه تعالى حكاية عن العزيز يخاطب زليخا إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ فخاطبها وخاطب أمتها

، والمقصودة هي ، وقد عاد إلى خطابها خصوصا بقوله وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ولكن وجه الرد على من زعم أن المراد عبد الرحمن : ما ذكره الزمخشري ثانيا فقال قال الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ هم المخلدون في النار في علم اللّه تعالى ، وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم . ونقل أن معاوية كتب إلى مروان بأن يبايع الناس ليزيد فقال عبد الرحمن : لقد جئتم بها هرقلية أتبايعون لأبنائكم فقال مروان أيها الناس : إن هذا هو الذي قال اللّه فيه وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ . . . الآية فسمعت عائشة فغضبت وقالت : واللّه ما هو به ، ولو شئت أن أسميه لسميته ، ولكن اللّه لعن أباك وأنت في صلبه فأنت فضض من لعنة اللّه» قال أحمد : وفي هذه الآية رد على من زعم أن المفرد الجنسي لا يعمم ، لأنه لا يعامل معاملة الجمع لا في الصفة ولا في الخبر ، فلا يجوز أن تقول : الدينار الصفر خير من الدرهم البيض ، وهذا مردود بأن خبر الذي الواقع جنسا جاء على نعت خبر المجموع كما رأيت ، واللّه أعلم .

(113/703)

عما يقول محمد ، ويشهدوا لبطلانه أن المراد بالذي قال : جنس القائلين ذلك ، وأنّ قوله الذين حق عليهم القول : هم أصحاب النار ، وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين

وسرواتهم . وعن عائشة رضى اللّه عنها إنكار نزولها فيه ، وحين كتب معاوية إلى مروان بأن يبايع الناس ليزيد قال عبد الرحمن :

لقد جئتم بها هرقلية : تبايعون لأبنائكم ، فقال مروان : يا أيها الناس ، هو الذي قال اللّه فيه وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما فسمعت عائشة فغضبت وقالت : واللّه ما هو به ، ولو شئت أن أسميه لسميته « 1 » ولكن اللّه لعن أباك وأنت في صلبه ، فأنت فضض من لعنة اللّه « 2 » . وقرئ : أف ، بالكسر والفتح بغير تنوين ، وبالحركات الثلاث مع التنوين ، وهو صوت إذا صوت به الإنسان علم أنه متضجر ، كما إذا قال : حس ، علم منه أنه متوجع ، واللام للبيان ، معناه : هذا التأفيف لكما خاصة ، ولأجلكما دون غيركما . وقرئ : أتعدانني : بنونين . وأ تعداني : بأحدهما . وأ تعداني :

بالإدغام . وقد قرأ بعضهم : أتعدانني بفتح النون ، كأنه استثقل اجتماع النونين والكسرتين والياء ، ففتح الأولى تحريا للتخفيف ، كما تحراه من أدغم ومن أطرح أحدهما أَنْ أُخْرَجَ أن ابعث وأخرج من الأرض . وقرئ : أخرج وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي يعنى : ولم يبعث منهم أحد يَسْتَغِيثانِ اللَّهَ يقولان : الغياث باللّه منك ومن قولك ، وهو استعظام لقوله وَيْلَكَ دعاء عليه بالثبور : والمراد به الحث والتحريض على الإيمان لا حقيقة الهلاك فِي أُمَمٍ نحو قوله فِي أَصْحابِ الْجَنَّةِ وقرئ : أن ، بالفتح ، على معنى : آمن بأن وعد اللّه حق .

[سورة الأحقاف (46) : آية 19]

وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (19)

وَلِكُلٍّ من الجنسين المذكورين دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا أى منازل ومراتب من جزاء ما عملوا من الخير والشر ، ومن أجل ما عملوا منهما «3» . فإن قلت : كيف قيل : درجات ، وقد جاء :

الجنة درجات والنار دركات ؟ قلت : يجوز أن يقال ذلك على وجه التغليب ، لاشتمال كل على الفريقين وَلِيُوَفِّيَهُمْ وقرئ : بالنون تعليل معلله محذوف لدلالة الكلام عليه ، كأنه قيل :

---

(1) . أخرجه النسائي ، واللفظ له وابن أبى خيثمة والحاكم وابن مردويه من رواية محمد بن زياد – وقال «لما بايع معاوية لابنه قال مروان : سنة أبى بكر وعمر . فقال عبد الرحمن بن أبى بكر : سنة هرقل وقيصر قال مروان :

هذا الذي أنزل – فذكر الآية فبلغ ذلك عائشة فقالت : كذب والله . ما هو به . فذكره . ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن أبا مروان ومروان في صلبه إلى آخره . ولفظ ابن أبى خيثمة «إن معاوية كتب إلى مروان بن الحكم أن يبايع الناس ليزيد بن معاوية . فقال عبد الرحمن لقد جئتم بها هرقلية – إلى آخر لفظ المصنف .

قلت : أصله في البخاري من رواية يوسف بن ماهك عن عائشة دون ما في آخره .

(2) . قوله «فأنت فضض من لعنة الله» في الصحاح كل شيء تفرق فهو فضض . وفي

الحديث : أنت فضض من لعنة اللّه ، يعنى : ما انفض من نطفة الرجل وتردد في صلبه . (ع)

(3) . قوله «و من أجل ما عملوا منهما» لعله : أو من أجل . (ع)

(114/703)

وليوفيهم أعمالهم ولا يظلمهم حقوقهم : قدر جزاءهم على مقادير أعمالهم ، فجعل الثواب درجات والعقاب دركات .

[سورة الأحقاف (46) : آية 20]

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِها فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (20)

ناصب الظرف هو القول المضمر قبل أَذْهَبْتُمْ وعرضهم على النار : تعذيبهم بها ، من قولهم : عرض بنو فلان على السيف «1» إذا قتلوا به . ومنه قوله تعالى النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها ويجوز أن يراد : عرض النار عليهم من قولهم : عرضت الناقة على الحوض ، يريدون : عرض الحوض عليها فقلبوا . ويدل عليه تفسير ابن عباس رضى اللّه عنه : يجاء بهم إليها فيكشف لهم عنها أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ أى : ما كتب لكم حظ من الطيبات إلا ما قد أصبتموه في دنياكم ، وقد ذهبتم به وأخذتموه ، فلم يبق لكم بعد استيفاء حظكم شيء

منها . وعن عمر رضى اللّه عنه :

لو شئت لدعوت بصلائق وصناب «2» وكراكر وأسنمة ، ولكنى رأيت اللّه تعالى نعى على قوم طيباتهم فقال : أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا «3» . وعنه : لو شئت لكنت أطيبكم طعاما وأحسنكم لباسا ، ولكنى أستبقى طيباتى : «4» وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه دخل على أهل الصفة وهم يرقعون ثيابهم بالأدم ما يجدون لها رقاعا ، فقال : أأنتم اليوم خير أم يوم

---

(1) . قال محمود : «عرضهم على النار إما من قولهم عرض بنو فلان على السيف . . . الخ» قال أحمد : وإن كان قولهم : عرضت الناقة على الحوض مقلوبا ، فليس قوله : يعرض الذين كفروا على النار مقلوبا ، لأن الملجئ ثم إلى اعتقاد القلب أن الحوض جماد لا إدراك له ، والناقة هي المدركة ، فهي التي يعرض عليها الحوض حقيقة . وأما النار فقد وردت النصوص بأنها حينئذ مدركة إدراك الحيوانات بل إدراك أولى العلم ، فالأمر في الآية على ظاهره ، كقولك : عرضت الأسرى على الأمير ، واللّه أعلم .

(2) . قوله «بصلائق وصناب» في الصحاح : الصلائق : الخبز الرقاق . والصناب : صباغ يتخذ من الخردل والزبيب . والكركرة : رحى زور البعير : والزور : أعلى الصدر اه أخذا من مواضع . (ع)

(3) . أخرجه ابن المبارك في الزهد أخبرنا جرير بن حازم أنه سمع الحسن يقول «قدم على

أمير المؤمنين عمر وقد أهل البصرة مع أبي موسى الأشعري قال لو كنا ندخل وأنه كل يوم خبز بيت. فذكر الحديث. وفيه «أما والله ما أجهل من كراكر وأسنمة وصلا وصناب وقال جرير: الصلا هو الشواء والصناب الخردل، والصلائق الخبز الرقاق. ولكن سمعت الله عير أقواما بأمر فعلوه. فقال: أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ الآية. وأخرجه أبو عبيدة في الغريب. وابن سعد وأحمد في الزهد. وأبو نعيم في الحلية كلهم من طريق جرير به.

(4). أخرجه الطبري من رواية سعيد عن قتادة قال ذكر لنا عمر قال: فذكره.

(115/703)

يغدو أحدكم في حلة ويروح في أخرى، ويغدى عليه بجفنة ويراح عليه بأخرى، ويستر بيته كما تستر الكعبة. قالوا: نحن يومئذ خير. قال. بل أنتم اليوم خير «1» وقرئ: أذهبتم بهمزة الاستفهام. وآأذهبتم بألف بين همزتين، الهون. والهوان: وقرئ عذاب الهوان، وقرئ يفسقون بضم السين وكسرها. انتهى انتهى. اهـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 294. 306﴾

---

(1). أخرجه الطبري من رواية سعد عن قتادة قال: ذكر لنا. فذكره. ومن طريقه الشعبي. ورواه أبو نعيم في الحلية في ترجمة أهل الصفة من طريق الحسن قال «حسب

أضعاف المسلمين» فذكر نحوه مطولا وفي الترمذي من طريق محمد بن كعب القرظي :

حدثني من سمع على بن أبى طالب رضى اللّه عنه قال : بينا نحن جلوس في المسجد إذ طلع علينا مصعب بن عمير ما عليه إلا بردة له مرقوعة بفرو . فلما رآه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بكى للذي كان فيه من النعمة . ثم قال : كيف بكم . . . الحديث نحوه» .

(116/703)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ حم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : معناه قُضِي نزول الكتاب من الله العزيز الحكيم ، قاله النقاش .

الثاني : هذا الكتاب يعني القرآن تنزيل من الله العزيز الحكيم ، قاله الحسن .

قوله عز وجل : ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَينَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : إلا بالصدق ، قاله ابن إسحاق .

الثاني : إلا بالعدل ، وهو مأثور .

الثالث : إلا للحق ، قاله الكلبي .

الرابع : إلا للبعث ، قاله يحيى .

﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه أجل القيامة ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه الأجل المقدور لكل مخلوق ، وهو محتمل .

قوله عز وجل : ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ قرأ الحسن وطائفة معه ﴿ أَوْ أَثَرَةٍ ﴾ وفي تأويل ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ ﴾ وهي قراءة الجمهور ثلاثة أوجه :

أحدها : رواية من علم ، قاله يحيى .

الثاني : بقية ، قاله أبو بكر بن عياش ، ومنه قول الشاعر :

وذات أثارة أكلت عليها . . . نباتاً في أكمته قفارا

أي بقية من شحم .

الثالث : أو علم تأثرونه عن غيركم ، قاله مجاهد .

ويحتمل رابعاً : أو اجتهاد بعلم ، لأن أثارة العلم الاجتهاد .

ويحتمل خامساً : أو مناظرة بعلم لأن المناظر في العلم مثير لمعانيه .

ومن قرأ ﴿ أَوْ أَثَرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ ففي تأويله خمسة أوجه :

أحدها : أنه الخط ، وقد رواه ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم .

الثاني : ميراث من علم ، قاله عكرمة .

الثالث : خاصة من علم ، قاله قتادة .

الرابع : أو بقية من علم ، قاله عطية .

الخامس : أثرة يستخرجه فيثيره ، قاله الحسن .

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ قال ابن عباس : معناه لست بأول الرسل . والبدع الأول . والبديع من كل شيء المبتدع ، وأنشد قطرب لعدي بن زيد :

فلا أنا بدع من حوادث تعتري . . . رجالاً غدت من بعد بؤسي بأسعد

(117/703)

﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : يعني لا أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا لا في الآخرة ، فلا أدري ما يفعل بي أخرج كما أخرجت الأنبياء من قبلي ، أو أُقتل كما قتل الأنبياء من قبلي ولا أدري ما يفعل بكم ، إنكم مصدقون أو مكذبون ، أو معذبون أو مؤخرون ، قاله الحسن :

الثاني : لا أدري ما يفعل بي ولا بكم في الآخرة . وهذا قبل نزول ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ الآية . فلما نزل عليه ذلك عام الحديبية علم ما يفعل به في الآخرة

وقال لأصحابه : " لَقَدْ أُنْزِلَ عَلَيَّ آيَةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعِهَا " فلما تلاها قال رجل من القوم : هنيئاً يا رسول الله ، قد بين الله ما يفعل بك ، فماذا يفعل بنا ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ الآية . قاله قتادة .

الثالث : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال قبل الهجرة " لَقَدْ رَأَيْتُ فِي مَنَامِي أَرْضاً أَخْرُجُ إِلَيْهَا مِن مَكَّةَ " فلما اشتد البلاء على أصحابه بمكة قالوا : يا رسول الله حتى متى نلقى هذا البلاء ؟ ومتى تخرج إلى الأرض التي رأيت ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : " مَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُم ، أَنَمُوتُ بِمَكَّةَ أَمْ نَخْرُجُ مِنهَا " قال الكلبي .

الرابع : معناه قل لا أدري ما أؤمر به ولا ما تؤمرون به ، قاله الضحاك .

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به ، قاله يحيى .

الثاني : إن كان محمد صلى الله عليه وسلم نبياً من عند الله وكفرتم به ، قاله الشعبي .

﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ عَلَى مِثْلِهِ ﴾ فيه خمسة أقاويل :

أحدها : أنه عبد الله بن سلام شهد على اليهود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مذكور في التوراة ، قاله ابن عباس ، وعكرمة ، وقتادة ، ومجاهد .

الثاني : أنه آمين بن يامين ، قال لما أسلم عبد الله بن سلام : أنا شاهد مثل شهادته ومؤمن كإيمانه ، قاله السدي .

الثالث : أن موسى مثل محمد صلى الله عليه وسلم يشهد بنبوته ، والتوراة مثل القرآن يشهد بصحته ، قاله مسروق . ولم يكن في عبد الله بن سلام لأنه أسلم بالمدينة والآية مكية .

الرابع : هو من آمن من بني إسرائيل بموسى والتوراة ، قاله الشعبي .

الخامس : أنه موسى الذي هو مثل محمد صلى الله عليهما شهد على التوراة . التي هي مثل القرآن ، حكاه ابن عيسى .

﴿ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ أنتم عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، قاله مسروق .

وفي قولان :

أحدهما : فآمن عبد الله بن سلام برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالقرآن واستكبر الباقون عن الإيمان ، قاله ابن عباس .

الثاني : فآمَن مَن آمن بموسى وبالتوراة واستكبرتم أنتم عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ، قاله مسروق . وحكى النقاش أن في الآية تقديماً وتأخيراً تقديره : قل أرأيتم

إن كان من عند الله وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن هو وكفرتم .

وقال ابن عيسى : الكلام على سياقه ولكن حذف منه جواب إن كان من عند الله وفي المحذوف ثلاثة أوجه :

أحدها : تقديره : وشهد شاهد من بني إسرائيل فآمن ، أتؤمنون ؟ قاله الزجاج .

الثاني : تقدير المحذوف : فآمن واستكبرتم أفما تهلكون ، قاله مذكور .

الثالث : تقدير المحذوف من جوابه : فمن أضل منكم إن الله لا يهدي القوم الظالمين .

قوله عز وجل : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ وفي سبب نزول هذه الآية أربعة أقاويل :

(119/703)

أحدها : أن أبا ذر الغفاري دعاه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام بمكة فأجاب واستجاب به قومه فأتاه زعيمهم فأسلم ، ثم دعاهم الزعيم فأسلموا فبلغ ذلك قريشاً فقالوا : غفار الخلفاء لو كان خيراً ما سبقونا إليه . فنزلت ، قاله أبو المتوكل .

الثاني : أن زنيرة أسلمت فأصيب بصرها ، فقالوا لها : أصابك اللات والعزى ، فرد الله عليها بصرها ، فقال عظماء قريش : لو كان ما جاء به محمد خير ما سبقتنا إليه زنيرة

فنزلت ، قاله عروة بن الزبير .

الثالث : أن الذين كفروا هم عامر وغطفان وأسد وحنظلة قالوا لمن أسلم من غفار وأسلم وغطفان وجهينة ومزينة وأشجع : لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقتنا إليه رعاة البهم . فنزلت ، قاله الكلبي .

الرابع : أن الكفار قالوا : لو كان خيراً ما سبقتنا إليه اليهود فنزلت هذه الآية ، قاله مسروق .

وهذه المعارضة من الكفار في قولهم لو كان خيراً ما سبقونا إليه من أقبح المعارضات لانقلابها عليهم لكل من من خالفهم حتى يقال لهم : لو كان ما أنتم عليه خيراً ما عدنا عنه ، ولو كان تكذيبكم للرسول خيراً ما سبقتمونا إليه .

﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ ﴾ يعني إلى الإيمان . وفيه وجهان :

أحدهما : وإذا لم يهتدوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، قاله مقاتل .

الثاني : بالقرآن .

﴿ فَسَيَقُولُونَ هَذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : فسيقولون هذا القرآن كذب قديم ، تشبيهاً بدين موسى القديم ، تكذيباً بهما جيمعاً .

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُواْ ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : ثم استقاموا على أن الله ربهم ، قاله أَبو بكر الصديق رضي الله عنه .

الثاني : ثم استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله ، قاله ابن عباس .

الثالث : على أداء فرائض الله ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

الرابع : على أن أخلصوا له الدين والعمل ، قاله أبو العالية .

(120/703)

الخامس : ثم استقاموا عليه فلم يرجعوا عنه إلى موتهم ، رواه أنس مرفوعاً .

﴿ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيهِم ﴾ يعني في الآخرة .

﴿ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ يعني عند الموت ، قاله سعيد بن جبير .

قوله عز وجل : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْه إِحْسَاناً ﴾ في قراءة أهل الكوفة وقرأ الباقون حسناً . قال السدي : يعني براً .

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً ﴾ أي حملته بمشقة ووضعته بمشقة . وقرىء كرهاً بالضم والفتح . قال الكسائي والفراء في الفرق بينهما أن الكره بالضم ما حمل الإنسان على نفسه ، وبالفتح ما حمل على غيره .

﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً ﴾ الفصال مدة الرضاع ، فقدر مدة الحمل والرضاع

ثلاثون شهراً ، وكان في هذا التقدير قولان :

أحدهما : أنها مدة قدرت لأقل الحمل وأكثر الرضاع ، فلما كان أكثر الرضاع أربعة وعشرين شهراً لقوله تعالى : ﴿ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ [البقرة : 233] دل ذلك على أن مدة أقل الحمل ما بقي وهو ستة أشهر ، فإن ولدته لتسعة أشهر لم يوجب ذلك نقصان الحولين في الرضاع ، قاله الشافعي وجمهور الفقهاء .

الثاني : أنها مدة جمعت زمان الحمل ومدة الرضاع ، فإن كانت حملته تسعة أشهر ؛ أرضعته أحداً وعشرين شهراً ، وإن كانت حملته عشرة أشهر أرضعته شهراً لئلا تزيد المدة فيهما عن ثلاثين شهراً ، قاله ابن عباس .

﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ وفي الأشد تسعة أقاويل :

أحدها : أنه البلوغ ، قاله ابن مالك والشعبي وزيد بن أسلم .

الثاني : خمسة عشر سنة ، قاله محمد بن أويس .

الثالث : ثماني عشرة سنة ، قاله ابن جبير .

الرابع : عشرون سنة ، قاله سنان .

الخامس : خمسة وعشرون سنة ، قاله عكرمة .

السادس : ثلاثون سنة ، قاله السدي .

السابع : ثلاثة وثلاثون سنة ، قاله ابن عباس .

الثامن : أربعة وثلاثون سنة ، قاله سفيان الثوري .

(121/703)

التاسع : أربعون سنة ، وهو قول عائشة ، والحسن .

﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : لأنها زمان الأشد ، وهو قول من ذكرنا .

الثاني : لأنها زمان الاستواء ، قال زيد بن أسلم : لم يبعث الله نبياً حتى يبلغ الأربعين .

وقال ابن زيد : وقوله تعالى لموسى ﴿ وَاسْتَوَى ﴾ قال بلغ أربعين سنة . وقال الشعبي : يثغر الغلام لسبع ويحتلم لأربع عشرة ، وينتهي طوله لإحدى وعشرين سنة ، وينتهي عقله لثمان وعشرين ، فما زاد بعد ذلك فهو تجربة ويبلغ أشده لثلاث وثلاثين .

الثالث : لأنها أول عمر بعد تمام عمر ، قال ابن قيس .

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي ﴾ قال سفيان معناه ألهمني .

قال ابن قتيبة : والأصل في الإيزاع هو الإغراء بالشيء ، ويقال فلان موزع بكذا أي مولع به .

﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أنعمت علي بالبر والطاعة ، وأنعمت على والدي بالتحنن والشفقة .

الثاني : أنعمت عليَّ بالعافية والصحة ، وعلى والديَّ بالغنى والثروة ، وفي النعمة على كل واحد منهما نعمة على الآخر لما بينهما من الممازجة والحقوق الملتزمة .

وحكى أبو زهير عن الأعمش قال : سمعتهم يقولون إن الولد يأتيه رزقه من أربع خلال : يأتيه رزقه وهو في بطن أمه ، ثم يولد فيكون رزقه في ثدي أمه ، فإذا تحرك كان رزقه على أبويه ، فإذا اجتمع وبلغ أشده جلس يهتم للرزق ويقول من أين يأتيني رزقي ، فاختصت الأم بخلتين من خلال رزقه ، واشترك أبوه في الثالثة ، وتفرد هو بالرابعة ، فذهب عنه الهم لما كان موكلاً إلى غيره ، واهتم لما صار موكلاً إلى نفسه ليتنبه بذلك على التوكل على خالقه ليكون نقى لهمته وأقل لحيرته وأدرّ لرزقه ، وليعلم أن لأمه عليه حقاً يعجز عن أدائه لما عانت من موارد رزقه ما عجز الخلق عن معاناته .

﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : في بر الوالدين .

الثاني : في ديني .

(122/703)

﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يدعو بإصلاحهم لبره وطاعته لإضافته ذلك إلى نفسه .

الثاني : أن يدعو بإصلاحهم لطاعة الله وعبادته وهو الأشبه ، لأن طاعتهم لله من بره ، ولأنه قد دعا بصلاح ذرية قد تكون من بعده .

وفيه لأصحاب الخواطر أربعة أوجه :

أحدها : قاله سهل : اجعلهم لي خلف صدق ولك عبيد حق .

الثاني : قاله أبو عثمان : اجعلهم أبراراً ، أي مطيعين لك .

الثالث : قاله ابن عطاء وفقهم لصالح أعمال ترضى بها عنهم .

الرابع : قاله محمد الباقر رضي الله عنه : لا تجعل للشيطان والنفس والهوى عليهم سبيلاً .

﴿ إِنِّي تُبْتُ إِلَيكَ ﴾ قال ابن عباس : رجعت عن الأمر الذي كنت عليه .

وفي هذه الآية قولان :

أحدهما : أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، قاله مقاتل والكلبي .

الثاني : مرسلة نزلت على العموم ، قاله الحسن .

قوله عز وجل : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنهم إذا أسلموا قبلت حسناتهم وغفرت سيئاتهم ، قاله زيد بن أسلم يحكيه مرفوعاً .

الثاني : هو إعطاؤهم بالحسنة عشراً رواه أبو هلال .

الثالث : هي الطاعات لأنها الأحسن من أعماله التي يثاب عليها وليس في المباح ثواب ولا عقاب ، حكاه ابن عيسى .

﴿ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : نتجاوز عن سيئاتهم بالرحمة .

الثاني : نتجاوز عن صغائرهم بالمغفرة .

الثالث : نتجاوز عن كبائرهم بالتوبة .

﴿ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ وعد الصدق الجنة ، الذي كانوا يوعدون في الدنيا على ألسنة الرسل .

قوله عز وجل : ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ ﴾ : أي أبعث .

﴿ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي ﴾ فلم يبعثوا . وفيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وأمه أم رومان . يدعوانه إلى الإسلام ويعدانه بالبعث فيرد عليهما بما حكاه الله عنه ، وكان هذا منه قبل إسلامه ، قاله

السدي .

قال السدي : فلقد رأيت عبد الرحمن بن أبي بكر بالمدينة ، وما بالمدينة أَعْبَدُ منه ، ولقد استجاب الله فيه دعوة أبي بكر رضي الله عنه ، ولما أسلم وحسن إسلامه ، نزلت توبته في هذه الآية ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُواْ ﴾ .

الثاني : أنها نزلت في عبد الله بن أبي بكر ، وكان يدعوه أبواه إلى الإسلام فيجيبهما بما أخبر الله تعالى ، قاله مجاهد .

الثالث : أنها نزلت في جماعة من الكفار قالوا ذلك لآبائهم ولذلك قال : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيهِمُ الْقَوْلُ ﴾ والعرب قد تذكر الواحد وتريد به الجمع وهذا معنى قول الحسن .

فأما ال ﴿ أُفٍّ ﴾ فهي كلمة تبرم يقصد بها إظهار السخط وقبح الرد . قال الشاعر :

ما يذكر الدهر إلا قلت أف له . . . إذا لقيتك لولا قال لي لاقي

وفي أصل الأف والتف ثلاثة أوجه :

أحدها : أن الأف وسخ الأذن ، والتف وسخ الأنف .

الثاني : الأف وسخ الأظفار ، والتف الذي يكون في أصول الأظافر .

الثالث : أن الأف العليل الأنف ، والتف الإبعاد .

﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ ﴾ أي يدعوان الله : اللهم اهده ، اللهم اقبل بقلبه ، اللهم اغفر له .

﴿ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ في الثواب على الإيمان ، والعقاب على الكفر .

قوله عز وجل : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ يحتمل أربعة أوجه :

أحدها : معناه أذهبتم طيباتكم في الآخرة بمعاصيكم في الدنيا .

الثاني : ألهتكم الشهوات عن الأعمال الصالحة .

الثالث : أذهبتم لذة طيباتكم في الدنيا بما استوجبتموه من عقاب معاصيكم في الآخرة .

الرابع : معناه اقتنعتم بعاجل الطيبات في الدنيا بدلاً من آجل الطيبات في الآخرة .

(124/703)

وروى الحسن عن الأحنف بن قيس أنه سمع عمر بن الخطاب يقول : لأنا أعلم بخفض العيش ، ولو شئت لجعلت أكباداً وأسنمة وصلاء وصناباً وسلائق ، ولكن أستبقي حسناتي ، فإن الله تعالى وصف قوماً فقال : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ والصلاء ، والشواء ، والصناب الأصبغة والسلائق الرقاق العريض .

وقال ابن بحر فيه تأويل خامس : أن الطيبات : الشباب والقوة ، مأخوذ من قولهم : ذهب أطيباه أي شبابه وقوته . ووجدت الضحاك قاله أيضاً .

﴿ وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : بالدنيا .

الثاني : بالطيبات .

﴿ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ قال مجاهد : الهون الهوان . قال قتادة بلغة قريش .

﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه :

أحدها : تستعلون على أهلها بغير استحقاق .

الثاني : تتغلبون على أهلها بغير دين .

الثالث : تعصون الله فيها بغير طاعة .

﴿ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : تفسقون في أعمالكم بغياً وظلماً .

الثاني : في اعتقادكم كفراً وشركاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 5 صـ 270 . 281 ﴾

(125/703)

وقال ابن الجوزى :

سورة الأحقاف

فصل في نزولها

روى العوفي وابن أبي طلحة عن ابن عباس أنها مكِّيَّة .

وبه قال الحسن ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والجمهور .

وروي عن ابن عباس وقتادة أنهما قالا : فيها آية مدنيَّة ، وهي قوله : ﴿ قُلْ أرأيتم إن كان مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴾ [الأحقاف : 10] وقال مقاتل : نزلت بمكة غير آيتين : قوله ﴿ قُلْ أرأيتم إن كان مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴾ [الأحقاف : 10] وقوله : ﴿ فاصْبِرْ كما صَبَرَ أُولُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف : 35] نزلتا بالمدينة .

وقد تقدم تفسير فاتحتها [المؤمن] [الحجر : 85] إلى قوله : ﴿ وأجَلٍ مُسَمًّى ﴾ وهو أجَل فَناء السموات والأرض ، وهو يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم ﴾ مفسَّر في [فاطر : 40] إلى قوله : ﴿ إيتوني بكتاب ﴾ ، وفي الآية اختصار ، تقديره : فإن ادَّعَوا أن شيئاً من المخلوقات صنعة آلهتهم ، فقل لهم : إيتوني بكتاب ﴿ مِنْ قَبْلِ هذا ﴾ أي : مِنْ قَبْلِ القرآن فيه برهانُ ما تدَّعون من أن الأصنام شركاءُ الله ، ﴿ أو أثارةٍ مِنْ عِلْمٍ ﴾ وفيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه الشيء يثيره مستخرجه ، قاله الحسن .

والثاني : بقيَّة مِنْ عِلْمٍ تُؤثَر عن الأوَّلين ، قاله ابن قتيبة .

وإلى نحوه ذهب الفراء ، وأبو عبيدة .

والثالث : علامة مِنْ عِلْم ، قاله الزجاج .

وقرأ ابن مسعود ، وأبو رزين ، وأيوب السختياني ، ويعقوب : " أَثَرَةٍ " بفتح الثاء ، مثل شجرة .

ثم ذكروا في معناها ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه الخَطُّ ، قاله ابن عباس ؛ وقال هو خَط كانت العرب تخُطُّه في الأرض ، قال أبو بكر بن عيّاش : الخَطُّ هو العِيافة .

والثاني : أو عِلْم تأثُرونه عن غيركم ، قاله مجاهد .

والثالث : خاصَّة مِنْ عِلْم ، قاله قتادة .

وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، وابن يعمر : ﴿ أَثْرَةٍ ﴾ بسكون الثاء من غير ألف بوزن نَظْرَةٍ .

(126/703)

وقال الفراء : قرئت " أثارةٍ " و " أَثَرَةٍ " ، وهي لغات ، ومعنى الكل : بقيَّة مِنْ عِلْم ، ويقال : أو شيء مأثور من كتب الأولين ، فمن قرأ " أثارةٍ " فهو المصدر ، مثل قولك : السماحة والشجاعة ، ومن قرأ " أَثَرَةٍ " فإنه بناه على الأَثَر ، كما قيل : قَتَرة ، ومن قرأ " أَثْرَةٍ " فكأنه

أراد مثل قوله : الخَطْفَة " [الصافات : 10] و " الرَّجْفَة " [الأعراف : 78] .

وقال اليزيدي : الأثارة : البقيَّة ؛ والأَثَرَة ، مصدر أَثَرَه يأْثُرُه ، أي : يذكُره ويَرويه ، ومنه حديثٌ مأثور .

قوله تعالى : ﴿ مَنْ لاَ يستجيبُ له ﴾ يعني الأصنام ﴿ وهم عن دعائهم غافلون ﴾ لأنها جماد لا تَسمع ، فإذا قامت القيامة صارت الآلهة أعداءً لعابديها في الدنيا .

ثم ذكر [بما] بعد هذا أنهم يسمُّون القرآن سِحْراً وأن محمداً افتراه .

قوله تعالى : ﴿ فلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئاً ﴾ أي : لا تقدِرون على أن تَرُدُّوا عني عذابَه ، أي : فكيف أفتري مِنْ أجلِكم وأنتم لا تقدرون على دفع عذابه عنّي ؟ ! ﴿ هو أعلمُ بما تُفيضونَ فيه ﴾ أي : بما تقولون في القرآن وتخوضون فيه من التكذيب والقول بأنه سِحْر ﴿ كفى به شهيداً بيني وبينَكم ﴾ أن القرآن جاء مِنْ عندِ الله ﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ في تأخير العذاب عنكم .

وقال الزجاج : إنما ذكر هاهنا الغُفران والرَّحمة ليُعْلِمَهم أنَّ من أتى ما أَتَيْتُم ثم تاب فإن الله تعالى غفور له رحيم به .

قوله تعالى : ﴿ قل ما كنتُ بِدْعاً من الرُّسُل ﴾ أي : ما أنا بأوَّل رسول .

والبِدْع والبديع من كل شيء : المبتدأ ﴿ وما أَدري ما يُفْعَلُ بِي ولا بِكُم ﴾ وقرأ ابن يعمر ، وابن أبي عبلة : " ما يَفْعَلُ " بفتح الياء ثم فيه قولان :

أحدهما : أنه أراد بذلك ما يكون في الدنيا .

ثم فيه قولان :

(127/703)

أحدهما : [أنه] لمّا اشتد البلاء بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رأى في المنام أنه هاجر إلى أرضٍ ذاتِ نخلٍ وشجرٍ وماءٍ ، فقصّها على أصحابه ، فاستبشَروا بذلك لما يلقَون من أذى المشركين .

ثم إنهم مكثوا بُرهة لا يرَوْن ذلك ، فقالوا : يا رسول الله متى تُهاجِر إلى الأرض التي رأيتَ ؟ فسكت رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وما أدري ما يُفْعَلُ بِي ولا بِكُم ﴾ يعني : لا أدري ، أخرُجُ إلى الموضع الذي رأيتُه في منامي أم لا ؟ ثم قال : إنما هو شيء رأيتُه في منامي ، وما ﴿ أتَّبِعُ إلاّ ما يوحَى إليَّ ﴾ ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

وكذلك قال عطية : ما أدري هل يتركني بمكة أو يُخرجني منها .

والثاني : ما أدري هل أُخْرَج كما أُخْرِج الأنبياءُ قَبْلي ، أو أُقْتَل كما قُتِلوا ، ولا أدري ما يُفْعَل بكم ، أتعذَّبونَ أم تؤخَّرونَ ؟ أتُصدَّقونَ أم تُكذَّبونَ ؟ قاله الحسن .

والقول الثاني : أنه أراد ما يكون في الآخرة .

روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال : لمّا نزلتْ هذه الآية ، نزل بعدها ﴿ لِيَغْفِرَ لكَ اللهُ ما تقدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وما تأخَّرَ ﴾ [الفتح : 2] وقال : ﴿ ليدْخِلَ المؤمنينَ والمؤمناتِ جنّات ﴾ الآية [الفتح : 5] فأُعلم ما يُفْعَل به وبالمؤمنين .

وقيل : إن المشركين فرحوا عند نزول هذه الآية وقالوا : ما أمْرُنا وأمْرُ محمد إلاّ واحد ، ولولا أنه ابتدع ما يقوله لأخبره الذي بعثه بما يفعل به ، فنزل قوله : ﴿ لِيَغْفِرَ لكَ اللهُ . . . ﴾ الآية [الفتح : 2] ، فقال الصحابة : هنيئاً لك يا رسول الله ، فماذا يُفْعَل بنا ؟ فنزلت ﴿ لِيُدْخِلَ المؤمنين والمؤمناتِ جنّاتٍ ﴾ الآية [الفتح : 5] ؛ وممن ذهب إلى هذا القول أنس ، وعكرمة ، وقتادة .

وروي عن الحسن ذلك .

(128/703)

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أرأيتُم إنْ كان مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴾ يعني القرآن ﴿ وكَفَرْتُم به وشَهِدَ شاهدٌ مِنْ بني إسرائيل ﴾ وفيه قولان :

أحدهما : أنه عبد الله بن سلام ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد .

والثاني : أنه موسى بن عمران عليه السلام ، قاله الشعبي ، ومسروق .

فعلى القول الأول يكون ذكر المثل صلة ، فيكون المعنى : وشهد شاهد من بني إسرائيل عليه ، أي : على أنه من عند الله ، ﴿ فآمن ﴾ الشاهد ، وهو ابن سلام ﴿ واستَكْبرتُم ﴾ يا معشر اليهود .

وعلى الثاني : يكون المعنى : وشَهِد موسى على التوراة التي هي مِثْل القرآن أنها من عند الله ، كما شهد محمد على القرآن أنه كلام الله ، " فآمن " مَنْ آمن بموسى والتوراة " واستَكْبرتُم " أنتم يا معشر العرب أن تؤمِنوا بمحمد والقرآن .

فإن قيل : أين جواب " إنْ " ؟ قيل : هو مُضْمَر ؛ وفي تقديره ستة أقوال :

أحدها : أن جوابه : فَمنْ أَضَلُّ منكم ، قاله الحسن .

والثاني : أن تقدير الكلام : وشَهِدَ شاهدٌ من بني إسرائيل على مثله فآمن ، أتؤمِنون ؟ قاله الزجاج .

والثالث : أن تقديره : أتأمنون عقوبة الله ؟ قاله أبو علي الفارسي .

والرابع : أن تقديره : أفما تهلكون ؟ ذكره الماوردي .

والخامس : مَن المُحِقُّ مِنّا ومِنكم ومَن المُبْطِل ؟ ذكره الثعلبي .

والسادس : أن تقديره : أليس قد ظَلَمْتُمْ ؟ ويدُلُّ على هذا المحذوف قوله : ﴿ إِنَّ الله لا يَهْدِي القومَ الظالمين ﴾ ، ذكره الواحدي .

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كَفَروا للذين آمَنوا . . . ﴾ الآية ، في سبب نزولها خمسة أقوال :

أحدها : أن الكفار قالوا : لو كان دين محمد خيراً ما سبقَنا إليه اليهودُ ، فنزلت هذه الآية ، قاله مسروق .

(129/703)

والثاني : أن امرأة ضعيفة البَصر أسلمتْ ، وكان الأشراف من قريش يهزؤون بها ويقولون : واللهِ لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقتْنا هذه إليه ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو الزناد .

والثالث : أن أبا ذر الغفاري أسلم واستجاب به قومه إلى الإسلام ، فقالت قريش : لو كان خيراً ما سبقونا إليه ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو المتوكل .

والرابع : أنه لمّا اهتدت مُزَيْنَةَ وجُهَيْنَةُ وأسلمتْ ، قالت أسَد وغَطَفان : لو كان خيراً ما سبقنا إليه رِعاءُ الشّاء ، يعنون مُزَيْنَةَ وجُهَيْنَةَ ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن السائب .

والخامس : أن اليهود قالوا : لو كان دين محمد خيراً ما سبقتْمونا إليه ، لأنه لا عِلْمَ لكم بذلك ، ولو كان حَقّاً لدخَلْنا فيه ، ذكره أبو سليمان الدمشقي .

وقال : [هو قول مَنْ يقول : إن الآية نزلت بالمدينة ؛ ومن قال : هي مكية ، قال] : هو قول

المشركين .

فقد خرج في " الذين كفروا " قولان :

أحدهما : أنهم المشركون .

والثاني : اليهود .

وقوله : ﴿ لو كان خيراً ﴾ أي : لو كان دين محمد خيراً ﴿ ما سَبَقونا إليه ﴾ فمن قال : هم المشركون ، قال : أرادوا : إنّا أعَزُّ وأفضل ؛ ومن قال : هم اليهود ، [قال] : أرادوا لأنّا أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وإذْ لَمْ يَهْتَدُوا به ﴾ أي : بالقرآن ﴿ فسيقولون هذا إفْكٌ قديم ﴾ أي : كذب متقدّم ، يعنون أساطير الأولين .

﴿ ومِنْ قَبْلِهِ كتابُ موسى ﴾ أي : من قَبْلِ القرآن التوراةُ .

وفي الكلام محذوف ، تقديره : فلَمْ يهتدوا ، لأن المشركين لم يهتدوا بالتوراة .

﴿ إماماً ﴾ قال الزجاج : هو منصوب على الحال ﴿ ورحمةً ﴾ عطف عليه ﴿ وهذا كتابٌ مُصدّقٌ ﴾ المعنى : مصدّقُ للتوراة ﴿ لساناً عربياً ﴾ منصوب على الحال ؛ المعنى : مصدّقُ لما بين يديه عربيّاً وذكر " لساناً " توكيداً ، كما تقول : جاءني زيد رجلاً صالحاً ، تريد : جاءني زيدٌ صالحاً .

قوله تعالى : ﴿ لِيُنْذِرَ الذين ظَلَمُوا ﴾ قرأ عاصم ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : " لِيُنْذِرَ " بالياء .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، ويعقوب : ﴿ لِتُنْذِرَ ﴾ بالتاء .

وعن ابن كثير كالقراءتين .

و " الذين ظلموا " المشركين ﴿ وبُشرى ﴾ أي : وهو بُشرى ﴿ للمُحْسِنِينَ ﴾ وهم الموحّدون يبشّرهم بالجنة .

وما بعد هذا قد تقدم تفسيره [فصلت : 30] إلى قوله : ﴿ بوالدَيْه حُسْناً ﴾ وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : ﴿ إحساناً ﴾ بألف .

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : ﴿ كَرْهاً ﴾ بفتح الكاف ؛ وقرأ الباقون : بضمها .

قال الفراء : والنحويُّون يستحبُّون الضَّمَّ ها هنا ، ويكرهون الفتح ، للعلَّة التي بيَّنّاها عند قوله : ﴿ وهُوَ كُرْهٌ لكم ﴾ [البقرة : 216] .

قال الزجاج : والمعنى حملته على مشقَّة ﴿ ووضعتْه ﴾ على مشقَّة .

﴿ وفِصالُه ﴾ أي : فِطامُه .

وقرأ يعقوب ﴿ وفَصْلُهُ ﴾ بفتح الفاء وسكون الصاد من غير ألف ﴿ ثلاثون شهراً ﴾

قال ابن عباس : " ووضعتْه كُرْهاً " يريد به شِدّةَ الطَّلْق .

واعلم أن هذه المُدّةَ قُدِّرتْ لأقلِّ الحَمْل وأكثرِ الرَّضاع ؛ فأمّا الأشُدّ ، ففيه أقوال قد تقدَّمت ؛ واختار الزجاج أنه بلوغ ثلاث وثلاثين سنة ، لأنه وقت كمال الإِنسان في بدنه وقوّته واستحكام شأنه وتمييزه .

وقال ابن قتيبة : أشُدُّ الرجُل غير أشُدِّ اليتيم ، لأن أشُدَّ الرجُل : الاكتهال والحُنْكَةُ وأن يشتدَّ رأيه وعقلُه ، وذلك ثلاثون سنة ، ويقال : ثمان وثلاثون سنة ، وأشُدُّ الغُلام : أن يشتدَّ خَلْقُه ويتناهى نَبَاتُه .

وقد ذكرنا بيان الأَشُد في [الانعام : 153] وفي [يوسف : 22] وهذا تحقيقه .

واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية على ثلاثة أقوال :

(131/703)

أحدها : [أنها] نزلتْ في أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه ، وذلك أنه صَحِبَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثمان عشرة سنة ورسول الله صلى الله عليه وسلم ابن عشرين سنة وهم يريدون الشام في تجارة ، فنزلوا منزلاً فيه سِدْرَة ، فقعد رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في ظِلِّها ، ومضى أبو بكر إلى راهب هناك يسأله عن الدين ، فقال [له] :

مَن الرَّجُل الذي في ظِلِّ السِّدْرة ؟ فقال : ذاك محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، فقال : هذا واللهِ نبيٌّ وما استَظَلَّ تحتَها أحدٌ بعد عيسى إلاّ محمدٌ نبيُّ الله ، فوقع في قلب أبي بكر اليقين والتصديق ، فكان لا يفارِق رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في أسفاره وحضره ، فلمّا نُبِّىء رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن أربعين سنة وأبو بكر ابن ثمان وثلاثين سنة صدَّق رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فلمّا بلغ أربعين سنة ، قال : رب أَوْزِعْني أن أشكُرَ نعمتَكَ التي أنعمت عليَّ .

رواه عطاء عن ابن عباس ، وبه قال الأكثرون ؛ قالوا : فلما بلغ أبو بكر أربعين سنة ، دعا الله عز وجل بما ذكره في هذه الآية ، فأجابه الله ، فأسلم والداه وأولادُه ذكورُهم وإناثُهم ، ولم يجتمع ذلك لغيره من الصحابة .

والقول الثاني : أنها نزلت في سعد بن أبي وقاص ، وقد شرحنا قصته في سورة [العنكبوت : 8] ، وهذا مذهب الضحاك ، والسدي .

والثالث : أنها نزلت على العموم ، قاله الحسن .

وقد شرحنا في سورة [النمل : 19] معنى قوله : ﴿ أوزعني ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وأن أعمل صالحاً ترضاه ﴾ قال ابن عباس : أجابه الله يعني أبا بكر فأعتق تسعةً من المؤمنين كانوا يُعذَّبون في الله عز وجل ، ولم يُرِدْ شيئاً من الخير إلاّ أعانه اللهُ عليه ، واستجاب له في ذُرِّيته فآمنوا ، ﴿ إنِّي تُبْتُ إليك ﴾ أي : رَجَعْتَ إلى كل ما تُحِبُّ .

قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين نَتقبَّل عنهم أحسنَ ما عَمِلوا ونتجاوز عن سيِّئاتهم ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : "يُتَقَبَّلُ" "ويُتَجَاوَزُ" بالياء المضمومة فيهما .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ، وخلف : ﴿ نَتَقَبَّلُ ﴾ و ﴿ نَتَجَاوَزُ ﴾ بالنون فيهما .

وقرأ أبو المتوكل ، وأبو رجاء ، وأبو عمران الجوني : "يَتَقَبَّلُ" و "يَتَجَاوَزُ" بياء مفتوحة فيهما ، يعني أهل هذا القول والأحسن بمعنى الحَسَن .

﴿ في أصحاب الجنة ﴾ أي : في جملة من يُتجاوز عنهم ، وهم أصحاب الجنة .

وقيل : "في" بمعنى "مع" .

﴿ وَعْدَ الصِّدْقِ ﴾ قال الزجاج : هو منصوب ، لأنه مصدر مؤكِّد لِمَا قَبْله ، لأن قوله : " أولئك الذين نَتَقَبَّلُ عنهم " بمعنى الوعد ، لأنه وعدهم القبول بقوله : ﴿ وَعْدَ الصِّدْقِ ﴾ ، يؤكِّد ذلك قولُه : ﴿ الذين كانوا يُوعَدون ﴾ أي : على ألسنة الرُّسل في الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ والذي قال لوالديْه أُفٍّ لكما ﴾ قرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي .

وأبو بكر عن عاصم : ﴿ أُفٍّ لكما ﴾ بالخفض من غير تنوين .

وقرأ ابن كثير ، وابن عامر : بفتح الفاء .

وقرأ نافع ، وحفص عن عاصم : ﴿ أُفٍّ ﴾ بالخفض والتنوين .

وقرأ ابن يعمر : ﴿ أُفٌّ ﴾ بتشديد الفاء مرفوعة منوَّنة .

وقرأ حميد ، والجحدري : " أُفّاً " بتشديد الفاء وبالنصب والتنوين .

وقرأ عمرو بن دينار : " أُفٌّ " بتشديد الفاء وبالرفع من غير تنوين .

وقرأ أبو المتوكل ، [وعكرمة] ، وأبو رجاء : ﴿ أُفْ لكما ﴾ باسكان الفاء خفيفة .

وقرأ أبو العالية ، وأبو عمران : ﴿ أُفِّيْ ﴾ بتشديد الفاء وياءٍ ساكنة مُمالة .

وروي عن ابن عباس أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قَبْلَ إِسلامه ، كان أبواه يدعُوانه إِلى الإِسلام ، وهو يأبى ، وعلى هذا جمهور المفسرين .

(133/703)

وقد روي عن عائشة أنها كانت تُنْكِر أن تكون الآية نزلت في عبد الرحمن ، وتَحْلِفُ على ذلك وتقول : لو شئتُ لسمَّيتُ الذي نزلتْ فيه .

قال الزجاج : وقول من قال : إِنها نزلت في عبد الرحمن ، باطل بقوله : ﴿ أولئك الذين حَقَّ

عليهم القَوْلُ ﴾ فأعلَمَ اللهُ أن هؤلاء لا يؤمِنون ، وعبد الرحمن مؤمِن ؛ والتفسير الصحيح أنا نزلت في الكافر العاقِّ .

وروي [عن] مجاهد أنها نزلت في عبد الله بن أبي بكر ، وعن الحسن : [أنها] نزلت في جماعة من كفار قريش قالوا ذلك لآبائهم .

قوله تعالى : ﴿ وقد خَلَتِ القُرونُ مِنْ قَبْلِي ﴾ فيه قولان :

أحدهما : مضت القُرون فلم يرجع منهم أحد ، قاله مقاتل .

والثاني : مضت القُرون مكذِّبة بهذا ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : ﴿ وهما يستغيثان اللهَ ﴾ أي : يَدعُوَان اللهَ له بالهدى ، ويقولان له : (ويلك آمِن) أي : صدِّق بالبعث ، ﴿ فيقول ما هذا ﴾ الذي تقولان ﴿ إلاّ أساطيرُ الأوَّلين ﴾ وقد سبق شرحها [الأنعام : 25] .

قوله تعالى : ﴿ أولئك ﴾ يعني الكفار ﴿ الذين حَقَّ عليهم القولُ ﴾ أي : وجب عليهم قضاء الله أنهم من أهل النار ﴿ في أُمم ﴾ أي : مع أُمم .

فذكر الله تعالى في الآيتين قَبْلَ هذه مَنْ بَرَّ والديْه وعَمِل بوصيَّة الله عز وجل ، ثم ذكر مَنْ لم يَعْمَل بالوصيَّة ولم يُطِعْ ربَّه ولا والديْه ﴿ إنهم كانوا خاسرِين ﴾ وقرأ ابن السميفع ، وأبو عمران : ﴿ أنَّهم ﴾ بفتح الهمزة .

ثم قال : ﴿ ولكلٍّ دَرَجاتٌ مِمّا عَمِلوا ﴾ أي : منازل ومراتب بحسب ما اكتسبوه من إيمان

وكفر ، فيتفاضل أهلُ الجنة في الكرامة ، وأهل النار في العذاب ﴿ وِلِيُوَفِّيَهُمْ أعمالَهم ﴾ قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وأبو عمرو : " وِلِيُوَفِّيَهُمْ " بالياء ، وقرأ الباقون : بالنون ؛ أي : جزاء أعمالهم .

(134/703)

قوله تعالى : ﴿ ويومَ يُعْرَضُ ﴾ المعنى : واذكُرْ لهم يومَ يُعْرَض ﴿ الذين كَفَروا على النّار أذْهَبْتُمْ ﴾ أي : ويقال لهم : أذهبتم ، قرأ ابن كثير : [﴿ آذْهَبْتُمْ ﴾ بهمزة مطوّلة .

وقرأ] ابن عامر : " أأذْهَبْتُمْ " بهمزتين .

وقرأ نافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : " أذْهَبْتُمْ " على الخبر ، وهو توبيخ لهم .

قال الفراء ، والزجاج : [العرب] توبِّخ بالألف وبغير الألف ، فتقول : أذَهَبْتَ وفعلت كذا ؟ ! وذهبتَ ففعلت ؟ ! قال المفسرون : والمراد بطيِّباتهم ما كانوا فيه من اللذَّات مشتغلين بها عن الآخرة مُعرِضين عن شُكرها .

ولمّا وبَّخهم اللهُ بذلك ، آثر النبيُّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه والصالحون بعدهم اجتنابَ نعيم العيش ولذَّته ليتكامل أجرُهم ولئلا يُلهيَهم عن مَعادهم .

وقد روي عن عمر بن الخطاب أنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مضطجع على خَصَفَة وبعضُه على التراب وتحت رأسه وسادة محشوَّة ليفاً ، فقال : يا رسول الله : أنتَ نبيُّ الله وصفوتُه ، وكسرى وقيصر على سُرُر الذَّهب وفُرُش الدِّيباج والحرير ؟ ! فقال صلى الله عليه وسلم : " يا عمر ، إن أولئك قوم عُجِّلت لهم طيِّباتُهم ، وهي وشيكة الانقطاع ، وإنّا أُخِّرتْ لنا طيِّباتُنا " وروى جابر بن عبد الله قال : رأى عمر بن الخطاب لحماً معلَّقاً في يدي ، فقال : ما هذا يا جابر ؟ فقلت : اشتهيت لحماً فاشتريتُه ، فقال : أوَكلَّما اشتهيت اشتريت يا جابر ؟ ! أما تخاف هذه الآية ﴿ أذْهَبْتُم طيِّباتكم في حياتكم الدُّنيا ﴾ .

وروي عن عمر أنه قيل له : لو أمرتَ أن نصنع لك طعاما ألين من هذا ، فقال : إني سمعت الله عيَّر أقواما فقال : ﴿ أذْهَبْتُمْ طيِّباتكم في حياتكم الدُّنيا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ تَسْتَكْبِرونَ في الأرض ﴾ أي : تتكبَّرون عن عبادة الله والإيمان به . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 7 صـ 368 . 383 ﴾

(135/703)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾

أي بالعدل ﴿ وأجل مسمى ﴾ يعني يوم القيامة وهو الأجل الذي ينتهي إليه فناء السموات والأرض ﴿ والذين كفروا عما أنذروا ﴾ أي خوفوا به في القرآن من البعث والحساب ﴿ معرضون ﴾ أي لا يؤمنون به ﴿ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله ﴾ يعني الأصنام ﴿ أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات ائتوني بكتاب من قبل هذا ﴾ أي بكتاب جاءكم من الله قبل القرآن فيه بيان ما تقولون ﴿ أو أثارة من علم ﴾ أي بقية من علم يؤثر عن الأولين ويسند إليهم وقيل برواية عن علم الأنبياء وقيل علامة من علم وقيل هو الخط وهو خط كانت العرب تخطه في الأرض ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أي في أن لله شريكاً ﴿ ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له ﴾ يعني الأصنام لا تجيب عابد بها إلى شيء يسألونها ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ يعني لا تجيب أبداً ما دامت الدنيا ﴿ وهم من دعائهم غافلون ﴾ يعني لأنها جمادات لا تسمع ولا تفهم ﴿ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ أي جاحدين ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين ﴾ سموا القرآن سحراً ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ أي اختلق القرآن محمد من قبل نفسه قال الله ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ إن افتريته فلا تملكون لي

من الله شيئاً ﴾ أي لا تقدرون أن تردوا عني عذابه إن عذبني على افترائي فكيف أفتري على الله من أجلكم ﴿ هو أعلم ﴾ أي الله أعلم ﴿ بما تفيضون فيه ﴾ أي تخوضون فيه من التكذيب بالقرآن والقول فيه أنه سحر ﴿ كفى به شهيداً بيني وبينكم ﴾ أي إن القرآن جاء من عنده ﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ أي في تأخير العذاب عنكم وقيل هو دعاء لهم إلى التوبة ومعناه أنه غفور لمن تاب منكم رحيم به .

(136/703)

قوله تعالى : ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ ما كنت بدعاً ﴾ أي بديعاً ﴿ من الرسل ﴾ أي لست بأول مرسل قد بعث قبلي كثير من الأنبياء فكيف تنكرون نبوتي ﴿ وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ﴾ اختلف العلماء في معنى هذه الآية فقيل معناه ما أدري ما يفعل بي ولا بكم يوم القيامة ولما نزلت هذه الآية فرح المشركون وقالوا واللات والعزى ما أمرنا وأمر محمد عند الله إلا واحد وما له علينا من مزية وفضل ولولا أنه ابتدع ما يقوله من ذات نفسه لأخبره الذي بعثه بما يفعل به فأنزل الله : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ فقالت الصحابة هنيئاً لك يا نبي الله قد علمت ما يفعل بك فماذا يفعل بنا فأنزل الله : ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ الآية وأنزل ﴿ وبشر المؤمنين بأن لهم

من الله فضلاً كبيراً ﴾ فبين الله ما يفعل به وبهم وهذا قول أنس وقتادة والحسن وعكرمة قالوا : إنما قال هذا قبل أن يخبر بغفران ذنبه وإنما أخبر بغفران ذنبه عام الحديبية فنسخ ذلك (خ) " عن خارجة بن زيد بن ثابت أن أم العلاء امرأة من الأنصار وكانت بايعت النبي (صلى الله عليه وسلم) أخبرته أنه اقتسم المهاجرون قرعة قالت فطار لنا عثمان بن مظعون فأنزلناه في أبياتنا فوجع وجعه الذي توفي فيه فلما توفي وغسل وكفن في أثوابه دخل عليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : وما يدريك أن الله أكرمه ، فقلت : بأبي أنت يا رسول الله فمن يكرمه الله فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : أما هو فقد جاءه اليقين والله إني لأرجو له الخير والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي قالت فوالله لا أزكي بعده أحد يا رسول قالت ورأيت لعثمان في النوم عيناً تجري فجئت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فذكرت ذلك له فقال ذاك عمله " وفي رواية غير البخاري قالت " لما قدم المهاجرون

المدينة اقترعت الأنصار على سكناهم قالت فطار لنا عثمان بن مظعون وفيه والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي ولا بكم وقيل في معنى قوله ما أدري ما يفعل بي ولا بكم هذا في الدنيا أما في الآخرة فقد علم أنه في الجنة وأن من كذبه في النار " فعلى هذا الوجه فقد اختلفوا فيه فقال ابن عباس لما اشتد البلاء بأصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " رأى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في المنام وهو بمكة أرض ذات سباخ ونخل رفعت له يهاجر إليها فقال له أصحابه متى تهاجر إلى الأرض التي أريت فسكت فأنزل الله هذه الآية وما أدري ما يفعل بي ولا بكم أأترك في مكاني أم أخرج وأنا وأنتم إلى الأرض التي رفعت لي وقيل " لا أرى إلى ماذا يصير أمري وأمركم في الدنيا أما أنا فلا أدري أخرج كما أخرجت الأنبياء من قبلي أم أقتل كما قتل بعض الأنبياء من قبلي وأما أنتم أيها المصدقون فلا أدري أتخرجون معي أم تتركون أم ماذا يفعل بكم ولا أدري ما يفعل بكم أيها المكذبون أترمون بالحجارة من السماء أم يخسف بكم أم أي شيء يفعل بكم مما فعل بالأمم المكذبة ثم أخبره الله أن يظهر دينه على الأديان كلها فقال تعالى

(138/703)

﴿ قل أرأيتم ﴾ أي أخبروني ماذا تقولون ﴿ إن كان من عند الله ﴾ يعني القرآن ﴿ وكفرتم به ﴾ أيها المشركون ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله ﴾ أي أنه من عند الله ﴿ فآمن ﴾ يعني الشاهد ﴿ واستكبرتم ﴾ أي عن الإيمان به والمعنى إذا كان الأمر كذلك أليس قد ظلمتم وتعديتم ﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ واختلفوا في هذا الشاهد فقيل هو عبد الله بن سلام آمن بالنبي (صلى الله عليه وسلم) وشهد بصحة نبوته واستكبر اليهود فلم يؤمنوا يدل عليه ما روى عن أنس بن مالك قال : " بلغ عبد الله بن سلام مقدم النبي (صلى الله عليه وسلم) المدينة وهو في أرض يخترف النخل فأتاه وقال إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي ما أول أشراط الساعة وما أول طعام يأكله أهل الجنة ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه ومن أي شيء ينزع إلى أخواله ؟ فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أخبرني بهن آنفاً جبريل قال فقال عبد الله ذاك عدو اليهود من الملائكة فقرأ هذه الآية ﴿ من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك ﴾ فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت ، وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له وإذا سبقت كان الشبه لها قال أشهد أنك رسول الله ثم قال يا رسول الله إن اليهود قوم بهت إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني عندك فجاءت اليهود ودخل عبد الله البيت ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : أي رجل فيكم

عبد الله بن سلام فقالوا أعلمنا وابن أعلمنا وخيرنا وابن خيرنا ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : أفرأيتم إن أسلم عبد الله قالوا أعاذه الله من ذلك زاد في رواية فأعاد عليهم فقالوا مثل ذلك فخرج عبد الله إليهم فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فقالوا شرنا وابن شرنا ووقعوا فيه "

(139/703)

زاد في رواية " فقال يعني عبد الله بن سلام هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله " أخرجه البخاري في صحيحه (ق) .

" عن سعد بن أبي وقاص قال ما سمعت النبي (صلى الله عليه وسلم) يقول لحي يمشي على الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام قال وفيه نزلت وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله " قال الراوي لا أدري قال مالك الآية أو في الحديث وقيل الشاهد هو موسى بن عمران عليه السلام قال مسروق في هذه الآية والله ما نزلت في عبد الله بن سلام لأن آل حم نزلت بمكة وإنما أسلم عبد الله بن سلام بالمدينة ونزلت الآية في محاجة كانت من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لقومه ومثل القرآن التوراة فشهد موسى على التوراة ومحمد على القرآن وكل يصدق الآخر فيكون المعنى وشهد موسى على التوراة التي هي

مثل القرآن إنها من عند الله كما شهد محمد صلى الله على القرآن أنه كلام الله فآمن من آمن بموسى والتوراة واستكبرتم أنتم يا معشر العرب أن تؤمنوا بمحمد والقرآن إن لا يهدي القوم الظالمين .

(140/703)

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ يعني من اليهود ﴿ للذين آمنوا لو كان خيراً ﴾ يعني دين محمد (صلى الله عليه وسلم) ﴿ ما سبقونا إليه ﴾ يعنون عبد الله بن سلام وأصحابه ، وقيل نزلت في مشركي مكة قالوا لو كان ما يدعونا إليه محمد خيراً ما سبقنا إليه فلان وقيل الذين كفروا أسد وغطفان قالوا للذين آمنوا يعني جهينة ومزينة لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا إليه رعاء البهم قال الله تعالى ﴿ وإذ لم يهتدوا به ﴾ يعني بالقرآن كما اهتدى به أهل الإيمان ﴿ فسيقولون هذا إفك قديم ﴾ يعني كذب متقدم ﴿ ومن قبله ﴾ يعني من قبل القرآن ﴿ كتاب موسى ﴾ يعني التوراة ﴿ إماماً ﴾ يعني جعلناه إماماً يقتدى به ﴿ ورحمة ﴾ يعني من الله لمن آمن به ﴿ وهذا كتاب ﴾ يعني القرآن ﴿ مصدق ﴾ يعني للكتب التي قبله ﴿ لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا ﴾ يعني مشركي مكة ﴿ وبشرى للمحسنين إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم

ولا هم يحزنون أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون ﴾ تقدم تفسيره .

قوله : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسناً ﴾ أي يوصل إليهما إحساناً وهو ضد الإساءة ﴿ حملته أمه كرهاً ﴾ يعني حين أثقلت وثقل عليها الولد ﴿ ووضعته كرهاً ﴾ يريد شدة الطلق ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ﴾ يعني ومدة حمله إلى أن ينفصل من الرضاع وهو الفطام ثلاثون شهراً .

فأقل مدة الحمل ستة أشهر وأكثر مدة الرضاع أربعة وعشرون شهراً .

قال ابن عباس : إذا حملت المرأة تسعة أشهر أرضعت إحدى وعشرين شهراً وإذا حملت ستة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهراً ﴿ حتى إذا بلغ أشده ﴾ أي نهاية قوته وغاية شبابه واستوائه وهو ما بين ثمان عشرة سنة إلى أربعين سنة وهو قوله تعالى : ﴿ وبلغ أربعين سنة ﴾ قيل : نزلت هذه الآية في سعد بن أبي وقاص وقد تقدمت القصة .

(141/703)

وقيل إنها على العموم والأصح أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وذلك أنه صحب النبي (صلى الله عليه وسلم) وهو ابن ثمان عشرة سنة والنبي (صلى الله عليه وسلم) ابن عشرين سنة في تجارة إلى الشام فنزلوا منزلاً فيه سدرة فقعد النبي (صلى الله

عليه وسلم) في ظلها ومضى أبو بكر إلى راهب هناك يسأله عن الدين فقال له الراهب من الرجل الذي في ظل السدرة فقال هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب فقال الراهب : هذا والله نبي وما استظل تحتها بعد عيسى أحد إلا هذا وهو نبي آخر الزمان ، فوقع في قلب أبي بكر اليقين والتصديق ، فكان لا يفارق النبي (صلى الله عليه وسلم) في سفر ولا حضر ، فلما بلغ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أربعين سنة أكرمه الله تعالى بنبوته واختصه برسالته فآمن به أبو بكر وصدقه وهو ابن ثمان وثلاثين سنة فلما بلغ أربعين سنة دعا ربه : ﴿ قال رب أوزعني ﴾ أي ألهمني ﴿ أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي ﴾ أي بالإيمان والهداية .

﴿ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ﴾ يعني أعمالهم الصالحة التي عملوها في الدنيا وكلها حسن فالأحسن بمعنى الحسن فيثيبهم عليها ويتجاوز عن سيئاتهم فلا يؤاخذهم بها ﴿ في أصحاب الجنة ﴾ أي مع أصحاب الجنة ﴿ وعد الصدق ﴾ يعني الذي وعدهم بأن يتقبل حسناتهم ويتجاوز عن سيئاتهم ووعده صدق وقيل : وعدهم بأن يدخلهم الجنة ﴿ الذي كانوا يوعدون ﴾ يعني في الدنيا على لسان الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

قوله تعالى : ﴿ والذي قال لوالديه ﴾ يعني إذ دعواه إلى الإيمان بالله والإقرار بالبعث بعد الموت ﴿ أفٍّ لكما ﴾ وهي كلمة كراهية ﴿ أتعدانني أن أخرج ﴾ يعني من قبري حياً ﴿ وقد خلت القرون من قبلي ﴾ يعني فلم يبعث منهم أحد ﴿ وهما يستغيثان الله ﴾ يعني يستصرخان بالله عليه ويقولان له ﴿ ويلك آمن إن وعد الله حق ﴾ يعني بالبعث ﴿ فيقول ما هذا ﴾ يعني الذي تدعونني إليه ﴿ إلا أساطير الأولين ﴾ قال ابن عباس نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق قبل إسلامه وكان أبواه يدعوانه إلى الإسلام وهو يأبى ويقول أحيوا لي عبد الله بن جدعان وعامر بن كعب ومشايخ قريش حتى أسألهم عما تقولون .

وأنكرت عائشة أن يكون قد نزل هذا في عبد الرحمن بن أبي بكر (خ) .

عن يوسف بن ماهك قال : كان مروان على الحجاز استعمله معاوية فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له ، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئاً ، فقال : خذوه فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه ، فقال له مروان : هذا الذي أنزل الله فيه والذي قال لوالديه أف لكما فقالت عائشة من وراء الحجاب : ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا ما أنزل الله في سورة النور من براءتي والقول الصحيح أنه ليس المراد من الآية شخص معين بل المراد كل شخص كان موصوفاً بهذه الصفة وهو كل من دعاه أبواه إلى الدين الصحيح والإيمان

بالبعث فأبى وأنكر .

وقيل نزلت في كل كافر عاقٍّ لوالديه قال الزجاج : قول من قال إنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه

(143/703)

﴿ أولئك الذين حق عليهم القول ﴾ أعلم الله أن هؤلاء قد حقت عليهم كلمة العذاب وعبد الرحمن مؤمن من أفاضل المؤمنين فلا يكون ممن حقت عليه كلمة العذاب أي وجب عليهم العذاب ﴿ في أمم ﴾ أي مع أمم ﴿ قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين ولكل درجات مما عملوا ﴾ قال ابن عباس : يريد من سبق إلى الإسلام فهو أفضل ممن تخلف عنه ولو ساعة وقيل لكل واحد من الفريقين المؤمنين والكافرين والبار والعاق درجات يعني منازل ومراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم فيجازيهم عليها قيل درجات الجنة تذهب إلى علو ودرجات النار تذهب إلى أسفل ﴿ وليوفيهم أعمالهم ﴾ يعني جزاء أعمالهم ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ قوله : ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار ﴾ يعني يجاء بهم فيكشف لهم عنها ويقال لهم ﴿ أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴾ يعني أن كل ما قدر لكم من الطيبات واللذات فقد أفنيتموه في الدنيا

وتمتعتم به فلم يبق لكم بعد استيفاء حظكم منها شيء ﴿ فاليوم تجزون عذاب الهون ﴾ أي الذي فيه ذل وخزي ﴿ بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون ﴾ علق هذا العذاب بأمرين ، أحدهما : الاستكبار وهو الترفع ، ويحتمل أن يكون عن الإيمان ، والثاني : الفسق وهو المعاصي ، والأول من عمل القلوب ، والثاني من عمل الجوارح .

(فصل)

لما وبخ الله تعالى الكافرين بالتمتع بالطيبات ، آثر النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه والصالحون بعدهم اجتناب اللذات في الدنيا رجاء ثواب الآخرة (ق) " عن عمر بن الخطاب قال : دخلت على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فإذا هو متكئ على رمال حصير قد أثر في جنبه ، فقلت : أستأنس يا رسول الله .

(144/703)

قال : نعم فجلست ، فرفعت رأسي في البيت ، فوالله ما رأيت فيه شيئاً يرد البصر إلا أهبة ثلاثة ، فقلت : ادع الله أن يوسع على أمتك فقد وسع على فارس والروم ولا يعبدون الله فاستوى جالساً ثم قال : أفي شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا فقلت استغفر لي يا رسول الله " (ق) .

" عن عائشة قالت : ما شبع آل محمد من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " (ق) " عنها قالت : كان يأتي علينا الشهر ما نوقد فيه ناراً إنما هو الأسودان التمر والماء إلا أن نؤتى باللحيم " وفي رواية أخرى قالت : " إنا كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في أبيات رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نار .

قال عروة : قلت : يا خالة فما كان يعيشكم ؟ قالت : الأسودان التمر والماء إلا أنه قد كان لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) جيران من الأنصار وكانت لهم منائح فكانوا يرسلون إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من ألبانها فيسقينا " عن ابن عباس قال : " كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يبيت الليالي المتتابعة طاوياً وأهله لا يجدون عشاء وكان أكثر خبزهم خبز الشعير " أخرجه الترمذي وله

عن أنس قال : قال رسول الله لقد أخفت في الله ما لم يخف أحد وأوذيت في الله ما لم يؤذ أحد ولقد أتى على ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال طعام إلا شيء يواري إبط بلال

(خ) " عن أبي هريرة قال لقد رأيت سبعين من أصحاب الصفة ما منهم رجل عليه رداء إما إزار وإما كساء قد ربطوا في أ " ناقهم فمنها ما يبلغ نصف الساقين ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته "

(خ) " عن إبراهيم بن عبد الرحمن أن عبد الرحمن بن عو أتى بطعام وكان صائما فقال قتل

مصعب ابن عمير وهو خير مني فكفن في بردة إن غطى رأسه بدت رجلاه وإن غطى رجلاه بدا رأسه قال وأراه قال قتل حمزة وهو خير مني فلم يوجد ما يكفن فيه بردة ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط وقد خشيت أن تكون عجلت لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام " وقال جابر بن عبد الله " رأى عمر بن الخطاب لحما معلفقا في يدي فقال ما هذا يا جابر قلت اشتهيت لحما فاشتريته فقال عمر كلما اشتهيت يا جابر اشتريت أما تخاف هذه الآية أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 6 صـ 155.163 ﴾

(145/703)

وقال النسفى :

﴿ حم تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله العزيز الحكيم مَا خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بالحق ﴾

ملتبساً بالحق ﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وبتقدير أجل مسمى ينتهي إليه وهو يوم القيامة ﴿ والذين كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ ﴾ عما أنذروه من هول ذلك اليوم الذي لا بد لكل مخلوق من انتهائه إليه ﴿ مُّعْرِضُونَ ﴾ لا يؤمنون به ولا يهتمون بالاستعداد له ، ويجوز أن تكون "ما"

مصدرية أي عن إنذارهم ذلك اليوم ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أخبروني ﴿ مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ تعبدونه من الأصنام ﴿ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأرض ﴾ أي شيء خلقوا مما في الأرض إن كانوا آلهة ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السماوات ﴾ شركة مع الله في خلق السماوات والأرض ﴿ ائتونى بكتاب مِّن قَبْلِ هذا ﴾ أي من قبل هذا الكتاب وهو القرآن يعني أن هذا الكتاب ناطق بالتوحيد وإبطال الشرك ، وما من كتاب أنزل من قبله من كتب الله إلا وهو ناطق بمثل ذلك ، فأتوا بكتاب واحد منزل من قبله شاهد بصحة ما أنتم عليه من عبادة غير الله ﴿ أَوْ أثارة مِّنْ عِلْمٍ ﴾ أو بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأولين ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ أن الله أمركم بعبادة الأوثان .

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ الله مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إلى يَوْمِ القيامة وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غافلون ﴾ أي أبداً ﴿ وَإِذَا حُشِرَ الناس كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً ﴾ أي الأصنام لعبدتها ﴿ وَكَانُواْ ﴾ أي الأصنام ﴿ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ بعبادة عبدتهم ﴿ كافرين ﴾ يقولون ما دعوناهم إلى عبادتنا .

(146/703)

ومعنى الاستفهام في ﴿ مَنْ أَضَلَّ ﴾ إنكار أن يكون في الضلال كلهم أبلغ ضلالاً من عبدة الأوثان حيث يتركون دعاء السميع المجيب القادر على كل شيء ويدعون من دونه جماداً لا يستجيب لهم ولا قدرة له على استجابة أحد منهم ما دامت الدنيا وإلى أن تقوم القيامة ، وإذا قامت القيامة وحشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا عليهم ضداً فليسوا في الدارين إلا على نكد ومضرة لا تتولاهم في الدنيا بالاستجابة ، وفي الآخرة تعاديهم وتجحد عبادتهم . ولما أسند إليهم ما يسند إلى أولي العلم من الاستجابة والغفلة قيل "من" و "هم" ، ووصفهم بترك الاستجابة والغفلة ، طريقه طريق التهكم بها وبعبدتها ونحوه قوله تعالى : ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُواْ دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا استجابوا لَكُمْ وَيَوْمَ القيامة يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ [فاطر : 14] .

﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءاياتنا بَيِّنَاتٍ ﴾ جمع بينة وهي الحجة والشاهد أو واضحات مبينات ﴿ قَالَ الذين كَفَرُواْ لِلْحَقِّ ﴾ المراد بالحق الآيات وبالذين كفروا المتلو عليهم فوضع الظاهر ان موضع الضميرين للتسجيل عليهم بالكفر وللمتلو بالحق ﴿ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ أي بادهوه بالجحود ساعة أتاهم وأول ما سمعوه من غير إجالة فكر ولا إعادة نظر ﴿ هذا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر أمره في البطلان لا شبهة فيه ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ إضراب عن ذكر تسميتهم الآيات سحراً إلى ذكر قولهم إن محمداً عليه السلام افتراه أي اختلقه وأضافه إلى الله كذباً ، والضمير للحق والمراد به الآيات ﴿ قُلْ إِنِ افتريته فَلاَ تَمْلِكُونَ لِى مِنَ الله شَيْئاً

﴿ أي إن افتريته على سبيل الفرض عاجلني الله بعقوبة الافتراء عليه فلا تقدرون على كفه عن معاجلتي ، ولا تطيقون دفع شيء من عقابه فكيف أفتريه وأتعرض لعقابه ؟ .

(147/703)

﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أي تندفعون فيه من القدح في وحي الله والطعن في آياته وتسميته سحراً تارة وفرية أخرى ﴿ كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ يشهد لي بالصدق والبلاغ ويشهد عليكم بالجحود والإنكار ، ومعنى ذكر العلم والشهادة وعيد بجزاء إفاضتهم ﴿ وَهُوَ الغفور الرحيم ﴾ موعدة بالغفران والرحمة إن تابوا عن الكفر وآمنوا .

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرسل ﴾ أي بديعاً كالخف بمعنى الخفيف ، والمعنى إني لست بأول مرسل فتنكروا نبوّتي ﴿ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلاَ بِكُمْ ﴾ أي ما يفعل الله بي وبكم فيما يستقبل من الزمان .

وعن الكلبي قال له أصحابه وقد ضجروا من أذى المشركين : حتى متى تكون على هذا ؟ فقال : ما أدري ما يفعل بي ولا بكم ، أأترك بمكة أم أو أومر بالخروج إلى أرض قد رفعت لي ورأيتها يعني في منامه ذات نخيل وشجره و "ما" في ﴿ مَّا يَفْعَلُ ﴾ يجوز أن يكون موصولة منصوبة ، وأن تكون استفهامية مرفوعة .

وإنما دخل "لا" في قوله ﴿ وَلاَ بِكُمْ ﴾ مع أن ﴿ بفعل ﴾ مثبت غير منفي لتناول النفي في ﴿ مَا أَدْرِى ﴾ "ما" وما في حيزه ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَىَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ ﴾ القرآن ﴿ مِنْ عِندِ الله وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مّن بَنِى إسراءيل ﴾ هو عبد الله بن سلام عند الجمهور ولهذا قيل : إن هذه الآية مدنية لأن إسلام بن سلام بالمدينة .

رُوي أنه لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة نظر إلى وجهه فعلم أنه ليس بوجه كذاب .

(148/703)

قال له : إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي : ما أول أشراط الساعة ، وما أول طعام يأكله أهل الجنة ، وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت ، وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل نزعه وإن سبق ماء المرأة نزعته " فقال : أشهد أنك رسول الله حقاً .

﴿ على مِثْلِهِ ﴾ الضمير للقرآن أي مثله في المعنى وهو ما في التوراة من المعاني المطابقة

لمعاني القرآن من التوحيد والوعد والوعيد وغير ذلك ، ويجوز أن يكون المعنى إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد على نحو ذلك يعني كونه من عند الله ﴿ فَآمَنَ ﴾ الشاهد ﴿ واستكبرتم ﴾ عن الإيمان به .

وجواب الشرط محذوف تقديره إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به ألستم ظالمين ، ويدل على هذا المحذوف .

﴿ إِنَّ الله لاَ يَهْدِى القوم الظالمين ﴾ والواو الأولى عاطفة ل ﴿ كَفَرْتُمْ ﴾ على فعل الشرط ، وكذلك الواو الأخيرة عاطفة ل ﴿ استكبرتم ﴾ على ﴿ شَهِدَ شَاهِدٌ ﴾ ، وأما الواو في ﴿ وَشَهِدَ ﴾ فقد عطفت جملة قوله ﴿ شَهِدَ شَاهِدٌ مّن بَنِى إسراءيل على مِثْلِهِ فَآمَنَ واستكبرتم ﴾ على جملة قوله ﴿ كَانَ مِنْ عِندِ الله وَكَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ والمعنى قل أخبروني إن اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفركم به ، واجتمع شهادة أعلم بني إسرائيل على نزول مثله ، فإيمانه به مع استكباركم عنه وعن الإيمان به ، ألستم أضل الناس وأظلمهم ؟ .

(149/703)

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي لأجلهم وهو كلام كفار مكة قالوا : إن عامة من يتبع محمداً السقاط يعنون الفقراء مثل عمار وصهيب وابن مسعود ﴿ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ ﴾ العامل في "إذ" محذوف لدلالة الكلام عليه تقديره وإذ لم يهتدوا به ظهر عنادهم وقوله ﴿ فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ مسبب عنه وقولهم ﴿ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ أي كذب متقادم كقولهم ﴿ أساطير الأولين ﴾ [الأنعام : 25] ﴿ وَمِن قَبْلِهِ ﴾ أي القرآن ﴿ كِتَابُ موسى ﴾ أي التوراة وهو مبتدأ و ﴿ مِن قَبْلِهِ ﴾ ظرف واقع خبراً مقدماً عليه وهو ناصب ﴿ إِمَاماً ﴾ على الحال نحو : في الدار زيد قائماً .

ومعنى ﴿ إِمَاماً ﴾ قدوة يؤتم به في دين الله وشرائعه كما يؤتم بالإمام ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ لمن آمن به وعمل بما فيه ﴿ وهذا ﴾ القرآن ﴿ كتاب مُّصَدِّقٌ ﴾ لكتاب موسى أو لما بين يديه وتقدمه من جميع الكتب ﴿ لِّسَاناً عَرَبِيّاً ﴾ حال من ضمير الكتاب في ﴿ مُّصَدِّق ﴾ والعامل فيه ﴿ مُّصَدِّق ﴾ أو من كتاب لتخصصه بالصفة ويعمل فيه معنى الإشارة ، وجوز أن يكون مفعولاً ل ﴿ مُّصَدِّق ﴾ أي يصدق ذا لسان عربي وهو الرسول ﴿ لِّيُنذِرَ ﴾ أي الكتاب ، ﴿ لِّتُنذِرَ ﴾ حجازي وشامي .

﴿ الذين ظَلَمُواْ ﴾ كفروا ﴿ وبشرى ﴾ في محل النصب معطوف على محل ﴿ لِّيُنذِرَ ﴾ لأنه مفعول له ﴿ لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ للمؤمنين المطيعين .

﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا ﴾ على توحيد الله وشريعة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ في القيامة ﴿ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ عند الموت ﴿ أُوْلَئِكَ أصحاب الجنة خالدين فِيهَا ﴾ حال من ﴿ أصحاب الجنة ﴾ والعامل فيه معنى الإشارة الذي دل عليه ﴿ أولئك ﴾ ﴿ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ جزاء مصدر لفعل دل عليه الكلام أي جوزوا جزاء .

﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بوالديه إحسانا ﴾ كوفي أي وصيناه بأن يحسن بوالديه إحساناً ، ﴿ حُسْنًا ﴾ غيرهم أي وصيناه بوالديه أمراً ذا حسن أو بأمر ذي حسن ، فهو في موضع البدل من قوله ﴿ بوالديه ﴾ وهو من بدل الاشتمال ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً ﴾ وبفتح الكافين : حجازي وأبو عمرو وهما لغتان في معنى المشقة ، وانتصابه على الحال أي ذات كره ، أو على أنه صفة للمصدر أي حملاً ذا كره ﴿ وَحَمْلُهُ وفصاله ﴾ ومدة حمله وفطامه ﴿ ثَلاَثُونَ شَهْراً ﴾ وفيه دليل على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر لأن مدة الرضاع إذا كانت حولين لقوله تعالى : ﴿ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة : 233] بقيت للحمل ستة أشهر ، وبه قال أبو يوسف ومحمد رحمهما الله ، وقال أبو حنيفة رضي الله عنه : المراد به

الحمل بالأكف .

﴿ وَفِصْلُهُ ﴾ يعقوب .

والفصل والفصال كالفطم والفطام بناء ومعنى ﴿ حتى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ هو جمع لا واحد له من لفظه ، وكان سيبويه يقول : واحده شدة ، وبلوغ الأشد أن يكتهل ويستوفي السن التي تستحكم فيها قوته وعقله وذلك إذا أناف على الثلاثين وناطح الأربعين .

وعن قتادة : ثلاث وثلاثون سنة ووجهه أن يكون ذلك أول الأشد وغايته الأربعون .

(151/703)

﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى ﴾ ألهمني ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وعلى وَالِدَىَّ ﴾ المراد به نعمة التوحيد والإسلام ، وجمع بين شكري النعمة عليه وعلى والديه لأن النعمة عليهما نعمة عليه ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صالحا ترضاه ﴾ قيل : هي الصلوات الخمس ﴿ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِى ﴾ أي اجعل ذريتي موقعاً للصلاح ومظنة له ﴿ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ من كل ذنب ﴿ وَإِنِّى مِنَ المسلمين ﴾ من المخلصين ﴿ أُوْلَئِكَ الذين نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سيئاتهم ﴾ حمزة وعلي وحفص .

﴿ يُتَقَبَّل ﴾ ﴿ ويُتَجاوز ﴾ ﴿ أَحْسَنُ ﴾ غيرهم ﴿ فِى أصحاب الجنة ﴾ هو

كقولك : أكرمني الأمير في ناس من أصحابه تريد أكرمني في جملة من أكرم منهم ونظمني في عدادهم ، ومحله النصب على الحال على معنى كائنين في أصحاب الجنة ومعدودين فيهم ﴿ وَعْدَ الصدق ﴾ مصدر مؤكد لأن قوله ﴿ يُتَقَبَّل ﴾ ﴿ ويتجاوز ﴾ وعد من الله لهم بالتقبل والتجاوز .

قيل : نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه وفي أبيه أبي قحافة وأمه أم الخير وفي أولاده واستجابة دعائه فيهم ، فإنه آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثمان وثلاثين سنة ودعا لهما وهو ابن أربعين سنة ولم يكن أحد من الصحابة من المهاجرين منهم والأنصار أسلم هو ووالداه وبنوه وبناته غير أبي بكر رضي الله عنه ﴿ الذى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ في الدنيا .

﴿ والذى قَالَ لوالديه ﴾ مبتدأ خبره ﴿ أُوْلَئِكَ الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ والمراد بالذي قال ، الجنس القائل ذلك القول ولذلك وقع الخبر مجموعاً .

وعن الحسن : هو في الكافر العاق لوالديه المكذب بالبعث .

(152/703)

وقيل : نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه قبل إسلامه ، ويشهد لبطلانه كتاب معاوية إلى مروان ليأمر الناس بالبيعة ليزيد فقال عبد الرحمن بن أبي بكر : لقد جئتم بها هرقلية أتبايعون لأبنائكم ؟ فقال مروان : يا أيها الناس هذا الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ والذى قَالَ لوالديه أُفٍّ لَّكُمَا ﴾ .

فسمعت عائشة رضي الله عنها فغضبت وقالت : والله ما هو به ولو شئت أن أسميه لسميته ، ولكن الله تعالى لعن أباك وأنت في صلبه فأنت فضض من لعنة الله أي قطعة ﴿ أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾ مدني وحفص ، ﴿ أُفَّ ﴾ مكي وشامي ، ﴿ أُفِّ ﴾ غيرهم وهو صوت إذا صوت به الإنسان علم أنه متضجر كما إذا قال "حس" علم أنه متوجع .

واللام للبيان أي هذا التأفيف لكما خاصة ولأجلكما دون غيركما .

(153/703)

﴿ أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ ﴾ أن أبعث وأخرج من الأرض ﴿ وَقَدْ خَلَتِ القرون مِن قَبْلِى ﴾ ولم يبعث منهم أحد ﴿ وَهُمَا ﴾ أبواه ﴿ يَسْتَغِيثَانِ الله ﴾ يقولان الغياث بالله منك ومن قولك وهو استعظام لقوله ويقولان له ﴿ وَيْلَكَ ﴾ دعاء عليه بالثبور والمراد به الحث والتحريض على الإيمان لا حقيقة الهلاك ﴿ ءَامِنْ ﴾ بالله وبالبعث ﴿ إِنَّ وَعْدَ الله ﴾

بالبعث ﴿ حَقٌّ ﴾ صدق ﴿ فَيَقُولُ ﴾ لهما ﴿ مَا هذا ﴾ القول ﴿ إِلاَّ أساطير الأولين أُوْلَئِكَ الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ أي لأملأن جهنم ﴿ فِى أُمَمٍ ﴾ في جملة أمم ﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ قد مضت ﴿ مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ الجن والإنس إِنَّهُمْ كَانُواْ خاسرين وَلِكُلٍّ ﴾ من الجنسين المذكورين الأبرار والفجار ﴿ درجات مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾ أي منازل ومراتب من جزاء ما عملوا من الخير والشر ، أو من أجل ما عملوا منهما ، وإنما قال ﴿ درجات ﴾ وقد جاء "الجنة درجات والنار دركات" على وجه التغليب ﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أعمالهم ﴾ بالياء : مكي وبصري وعاصم ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ أي وليوفيهم أعمالهم ولا يظلمهم حقوقهم ، قدّر جزاءهم على مقادير أعمالهم فجعل الثواب درجات والعقاب دركات فاللام متعلقة بمحذوف ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الذين كَفَرُواْ عَلَى النار ﴾ عرضهم على النار تعذيبهم بها من قولهم : عرض بنو فلان على السيف إذا قتلوا به .

وقيل : المراد عرض النار عليهم من قولهم : عرضت الناقة على الحوض يريدون عرض الحوض عليها فقلبوا ﴿ أَذْهَبْتُمْ ﴾ أي يقال لهم أذهبتم وهو ناصب الظرف ﴿ طيباتكم فِى حياتكم الدنيا ﴾ أي ما كتب لكم حظ من الطيبات إلا ما قد أصبتموه في دنياكم وقد ذهبتم به وأخذتموه فلم يبق لكم بعد استيفاء حظكم شيء منها .

وعن عمر رضي الله عنه : لو شئت لكنت أطيبكم طعاماً وأحسنكم لباساً ولكني أستبقي طيباتي ﴿ واستمتعتم بِهَا ﴾ بالطيبات ﴿ فاليوم تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهون ﴾ أي الهوان وقرىء به ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ تتكبرون ﴿ فِى الأرض بِغَيْرِ الحق وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ أي باستكباركم وفسقكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 144.139 ﴾

(155/703)

وقال ابن جزى :

سورة الأحقاف

﴿ تَنزِيلُ ﴾ ذكر في الزمر ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ ذكرا مراراً ﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ ﴾ ﴿ ائتوني بِكِتَابٍ ﴾ تعجيز لأنهم ليس لهم كتاب يدل على الإشراك بالله ، بل الكتب كلها ناطقة بالتوحيد احتجاج على التوحيد وردّ على المشركين ، فالأمر بمعنى التعجيز ﴿ شِرْكٌ فِي السماوات ﴾ أي نصيب ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ أي بقية من علم قديم يدل على ما يقولون ، وقيل : معناه من علم تثيرونه أي

تستخرجونه ، وقيل : هو الإسناد ، وقيل : هو الخط في الرمل ، وكانت العرب تتكهن به ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كان نبي من الأنبياء يخط في الرمل فمن وافق خطه فذاك" .

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ ﴾ الآية . معناه لا أحد أضل ممن يدعو إلهاً لا يستجيب له ، وهي الأصنام فإنها لا تسمع ولا تعقل ، ولذلك وصفها بالغفلة عن دعائهم ، لأنها تسمعه .

﴿ وَإِذَا حُشِرَ الناس كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً ﴾ أي كان الأصنام أعداء للذين عبدوها ﴿ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ الضمير في كانوا للأصنام : أي تتبرأ الأصنام من الذين عبدوها ، وإنما ذكر الأصنام بضمائر مثل ضمائر العقلاء لأنه أسند إليهم ما يسند إلى العقلاء ، من الاستجابة والغفلة والعداوة .

﴿ قُلْ إِنِ افتريته فَلاَ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ الله شَيْئاً ﴾ أي : لو افتريته لعاقبني الله على الافتراء عقوبة لا تقدرون على دفعها ، ولا تملكون شيئاً من ردّها عليه ، فكيف أفتريه وأتعرض لعقاب الله ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أي بما تتكلمون به ، يقال : أفاض الرجل في الحديث إذا خاض فيه واستمر .

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرسل ﴾ البدع والبديع من الأشياء : ما لم يُرَ مثله أي ما كنت أول رسول ، ولا جئت بأمر لم يجيء به أحد قبلي ، بل جئت بما جاء به ناس كثيرون قبلي ، فلأي شيء تنكرون ذلك ﴿ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ ﴾ فيها أربعة أقوال : الأوّل أنها في أمر الآخرة وكان ذلك قبل أن يعلم أنه في الجنة ، وقبل أن يعلم أن المؤمنين في الجنة وأن الكفار في النار ، وهذا بعيد ، لأنه لم يزل يعلم ذلك من أول ما بعثه الله والثاني أنها في أمر الدنيا : أي لا أدري بما يقضي الله عليّ وعليكم ، فإن مقادير الله مغيبة وهذا هو الأظهر . والثالث ما أدري ما يفعل بي ولا بكم من الأوامر والنواهي وما تلزمه الشريعة . الرابع أن هذا كان في الهجرة إذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رأى في المنام أنه يهاجر إلى أرض بها نخل ، فقلق المسلمون لتأخير ذلك فنزلت هذه الآية .

(157/703)

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ الله وَكَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ معنى الآية : أرأيتم إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به ألستم ظالمين ؟ ثم حذف قوله ألستم ظالمين وهو الجواب ، لأنه دل على أن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بني إِسْرَائِيلَ على مِثْلِهِ ﴾ هذه الجملة معطوفة على الجلمة التي قبلها ، فالمعنى : أرأيتم إن اجتمع كون القرآن من عند الله ، مع شهادة

شاهد من بني إسرائيل على مثله ، ثم آمن به هذا الشاهد وكفرتم أنتم ، ألستم أضل الناس وأظلم الناس ؟ واختلف في الشاهد المذكور على ثلاثة أقوال : أحدها أنه عبد الله بن سلام ، فقيل على هذا إن الآية مدنية ، لأنه إنما أسلم بالمدينة ، وقيل إنها مكية وأخبر بشهادته قبل وقوعها ثم وقعت على حسب ما أخبر ، وكان عبد الله بن سلام يقول فيّ نزلت الآية ، الثاني أنه رجل من بني إسرائيل كان بمكة : الثالث أنه موسى عليه السلام ورجّح ذلك الطبري . والضمير في مثله للقرآن أي شهد على مثله فيما جاء به من التوحيد والوعد والوعيد ، والضمير في آمن للشاهد فإن كان عبد الله بن سلام أو الرجل الآخر فإيمانه بيّن ، وإن كان موسى عليه السلام ، فإيمانه هو تصديقه بأمر محد صلى الله عليه وسلم وتبشيره به .

(158/703)

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾ أي لو كان الإسلام خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء ، والقائلون لهذه المقالة هم أكابر قريش لما أسلم الضعفاء ؛ كبلال وعمار وصهيب وقيل بل قالها كنانة وقبائل من العرب لما أسلمت غفار ومزينة وجهينة ، وقيل : بل قالها اليهود لما أسلم عبد الله بن سلام ، والأول أرجح لأن الآية مكية ، وكانت مقالة

قريش بمكة . وأما مقالة الآخرين فإنما كانت بعد الهجرة ، ومعنى الذين آمنوا من أجل الذين آمنوا : أي قالوا ذلك عنهم في غيبتهم ، وليس المعنى أنهم خاطبوهم بهذا الكلام ، لأنه لو كان خطاباً لقالوا ما سبقتمونا ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَاذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ أي لما لم يهتدوا قالوا هذا إفك قديم ونحو هذا ما جاء في المثل : مَنْ جَهِل شيئاً عاداه ، ووصفه بالقدم لأنه قد قيل قديماً ، فإن قيل : كيف تعمل فسيقولون في إذ وهي للماضي و العامل مستقبل ؟ فالجواب : أن العامل في إذ محذوف تقديره إذ لم يهتدوا به ظهر عنادهم فسيقولون ، قال ذلك الزمخشري ، ويظهر لي أن إذ هنا بمعنى التعليل لا ظرفية بمعنى الماضي فلا يلزم السؤال ، والمعنى أنهم قالوا : هذا إفك بسبب أنهم لم يهتدوا به ، وقد جاءت إذ بمعنى التعليل في القرآن وفي كلام العرب ، ومنه ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ اليوم إِذ ظَّلَمْتُمْ ﴾ [الزخرف : 39] أي بسبب ظلمكم .

(159/703)

﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ موسى إِمَاماً وَرَحْمَةً ﴾ الضمير في قبله للقرآن وكتاب موسى هو التوراة ، وإماماً حال ، ومعناه : يقتدي به ﴿ وهذا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيّاً ﴾ الإشارة بهذا إلى القرآن ، ومعنى مصدق مصدق بما قبله من الكتب ، وقد ذكرنا ذلك في [البقرة :

89] ولسان حال من الضمير في مصدق ، وقيل : مفعول بمصدق أي صدق ذا لسان عربي وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، واختار هذا ابن عطية ﴿ استقاموا ﴾ ذكر في حم [السجدة : 30] .

﴿ إِحْسَاناً ﴾ ذكر في العنكبوت : 8] .

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً ﴾ أي حملته بمشقة ، ويقال كره بفتح الكاف وضمها بمعنى واحد ﴿ وَحَمْلُهُ وفصاله ثلاثون شَهْراً ﴾ أي مدة حمله ورضاعه ثلاثون شهراً ، وهذا لا يكون إلا بأن ينقص من أحد الطرفين ، وذلك إما أن يكون مدة الحمل ستة أشهر ومدة الرضاع حولين كاملين ، أو تكون مدة الحمل تسعة أشهر ومدة الرضاع حولين غير ثلاثة أشهر ، ومن هذا أخذ علي بن أبي طالب رضي الله عنه والعلماء أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، وإنما عبرّ عن مدة الرضاع بالفصال وهو الفطام لأنه منتهى الرضاع ﴿ بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ ذكر في [يوسف : 22] ﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ هذا حدّ كمال العقل والقوة ، ويقال : إن الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وقيل : إنها عامة ﴿ في أَصْحَابِ الجنة ﴾ أي في جملة أصحاب الجنة كما تقول : رأيت فلاناً في الناس ، أي مع الناس .

﴿ والذي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾ هي على الاطلاق فيمن كان على هذه الصفة من الكفر والعقوق لوالديه ، ويدل على أنها عامة قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ بصيغة الجمع ، ولو أراد واحداً بعينه لقال ذلك الذي حق عليه القول ، وقد ذكرنا معنى أف في [الإسراء : 23] ﴿ أتعدانني أَنْ أُخْرَجَ ﴾ أي أتعدانني أنا أن أخرج من القبر إلى البعث ﴿ وَقَدْ خَلَتِ القرون مِن قَبْلِي ﴾ أي وقد مضت قرون من الناس ولم يبعث منهم أحد ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ الله ﴾ الضمير لوالديه أي يستغيثان بالله من كراهتهما لما يقول منهما ثم يقولان له : ويلك ثم يأمرانه بالإيمان : فيقول : ﴿ مَا هاذآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأولين ﴾ : أي قد سطره الأولون في كتبهم ، وذلك تكذيب بالبعث والشريعة .

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾ أي للمحسنين والمسيئين درجات في الآخرة بسبب أعمالهم ، فدرجات أهل الجنة إلى علو ، ودرجات أهل النار إلى سفل ، وليوفيهم تعليل بفعل محذوف وبه يتعلق تقديره : جعل جزاءهم درجات ليوفيهم أعمالهم ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ﴾ العامل في محذوف تقديره اذكر ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ ﴾ تقديره يقال لهم : أذهبتم طيباتكم ، والطيبات هنا الملاذ من المآكل وغيرها ؛ وقرأ أكثر القراء أذهبتم بهمزة واحدة على الخبر ، وابن عامر بهمزتين على التوبيخ ، والآية في الكفار بدليل قوله : ﴿ يُعْرَضُ الذين كَفَرُواْ ﴾ وهي مع ذلك واعظة لأهل التقوى من المؤمنين ، ولذلك قال عمر لجابر بن عبد

الله وقد رآه اشترى لحماً أما تخشى أن تكون من أهل هذه الآية ﴿ عَذَابَ الهون ﴾ أي العذاب الذي يقترن به هوان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 41.44 ﴾

(161/703)

وقال البيضاوى :

سورة الأحقاف

مكية وآيها أربع أو خمس وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ حم تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله العزيز الحكيم مَا خَلَقْنَا السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بالحق ﴾ إلا خلقاً ملتبساً بالحق وهو ما تقتضيه الحكمة والمعدلة ، وفيه دلالة على وجود الصانع الحكيم ، والبعث للمجازاة على ما قررناه مراراً . ﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وبتقدير أجل مسمى ينتهي إليه الكل وهو يوم القيامة ، أو كل واحد وهو آخر مدة بقائه المقدرة له .

﴿ والذين كَفَرُواْ عَمَّا أُنذِرُواْ ﴾ من هول ذلك الوقت ، ويجوز أن تكون "ما" مصدرية .

﴿ مُّعْرِضُونَ ﴾ لا يتفكرون فيه ولا يستعدون لحلوله .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأرض أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السموات

﴿ أي أخبروني عن حال آلهتكم بعد تأمل فيها ، هل يعقل أن يكون لها في أنفسها مدخل في خلق شيء من أجزاء العالم فتستحق به العبادة . وتخصيص الشرك بالسموات احتراز عما يتوهم أن للوسائط شركة في إيجاد الحوادث السفلية . ﴿ ائتونى بكتاب مّن قَبْلِ هذا ﴾ من قبل هذا الكتاب يعني القرآن فإنه ناطق بالتوحيد . ﴿ أَوْ أثارة مّنْ عِلْمٍ ﴾ أو بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأولين هل فيها ما يدل على استحقاقهم للعبادة أو الأمر به . ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ في دعواكم ، وهو إلزام بعدم ما يدل على ألوهيتهم بوجه ما نقلاً بعد إلزامهم بعدم ما يقتضيها عقلاً ، وقرىء "إثارة" بالكسر أي مناظرة فإن المناظرة تثير المعاني ، و"أثرة" أي شيء أوثرتم به وأثرة بالحركات الثلاث في الهمزة وسكون الثاء فالمفتوحة للمرة من مصدر أثر الحديث إذا رواه والمكسورة بمعنى الأثرة والمضمومة اسم ما يؤثر .

(162/703)

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُواْ مِن دُونِ الله مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ ﴾ إنكار أن يكون أحد أضل من المشركين حيث تركوا عبادة السميع البصير المجيب القادر الخبير إلى عبادة من لا يستجيب لهم لو سمع دعاءهم ، فضلاً أن يعلم سرائرهم ويراعي مصالحهم . ﴿ إلى يَوْمِ القيامة ﴾ ما دامت الدنيا . ﴿ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غافلون ﴾ لأنهم إما جمادات وإما عباد مسخرون

مشتغلون بأحوالهم .

﴿ وَإِذَا حُشِرَ الناس كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَاءً ﴾ يضرونهم ولا ينفعونهم . ﴿ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كافرين ﴾ مكذبين بلسان الحال أو المقال . وقيل الضمير للعابدين وهو كقوله تعالى : ﴿ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءاياتنا بَيِّنَاتٍ ﴾ واضحات أو مبينات . ﴿ قَالَ الذين كَفَرُواْ لِلْحَقّ ﴾ لأجله وفي شأنه ، والمراد به الآيات ووضعه موضع ضميرها ووضع ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ موضع ضمير المتلو عليهم للتسجيل عليها بالحق وعليهم بالكفر والانهماك في الضلالة . ﴿ لَمَّا جَاءهُمْ ﴾ حينما جاءهم من غير نظر وتأمل . ﴿ هذا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر بطلانه .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ إضراب عن ذكر تسميتهم إياه سحراً إلى ذكر ما هو أشنع منه وإنكار له وتعجيب .

﴿ قُلْ إِنِ افتريته ﴾ على الفرض . ﴿ فَلاَ تَمْلِكُونَ لِى مِنَ الله شَيْئاً ﴾ أي إن عاجلني الله بالعقوبة فلا تقدرون على دفع شيء منها فكيف أجترىء عليه وأعرض نفسي للعقاب من غير توقع نفع ولا دفع ضر من قبلكم . ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ تندفعون فيه من القدح في آياته . ﴿ كفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ يشهد لي بالصدق والبلاغ وعليكم بالكذب والإنكار ، وهو وعيد بجزاء إفاضتهم ، ﴿ وَهُوَ الغفور الرحيم ﴾ وعد بالمغفرة والرحمة لمن تاب وآمن وإشعار بحلم الله عنهم مع عظم جرمهم .

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرسل ﴾ بديعاً منهم أدعوكم إلى ما لا يدعون إليه ، أو أقدر على ما لم يقدروا عليه ، وهو الإتيان بالمقترحات كلها ونظيره الخف بمعنى الخفيف . وقرىء بفتح الدال على أنه كقيم أو مقدر بمضاف أي ذا بدع . ﴿ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلاَ بِكُمْ ﴾ في الدارين على التفضيل إذ لا علم لي بالغيب ، و﴿ لا ﴾ لتأكيد النفي المشتمل على إما يفعل بي ﴿ وَمَا ﴾ إما موصولة منصوبة أو استفهامية مرفوعة . وقرىء ﴿ يَفْعَلُ ﴾ أي يفعل الله . ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَىَّ ﴾ لا أتجاوزه ، وهو جواب عن اقتراحهم الإخبار عما لم يوح إليه من الغيوب ، أو استعجال المسلمين أن يتخلصوا من أذى المشركين . ﴿ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ ﴾ من عقاب الله . ﴿ مُّبِينٌ ﴾ بين الإنذار بالشواهد المبينة والمعجزات المصدقة .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ الله ﴾ أي القرآن . ﴿ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ وقد كفرتم به ، ويجوز أن تكون الواو عاطفة على الشرط وكذا الواو في قوله : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِى إسراءيل ﴾ إلا أنها تعطفه بما عطف عليه على جملة ما قبله ، والشاهد هو عبد الله بن سلام وقيل موسى عليه الصلاة والسلام وشهادته ما في التوراة من نعت الرسول عليه الصلاة والسلام .

﴿ على مِثْلِهِ ﴾ مثل القرآن وهو ما في التوراة من المعاني المصدقة للقرآن المطابقة له ، أو مثل ذلك وهو كونه من عند الله . ﴿ فَئَامَنَ ﴾ أي بالقرآن لما رآه من جنس الوحي مطابقاً للحق . ﴿ واستكبرتم ﴾ عن الإيمان . ﴿ إِنَّ الله لاَ يَهْدِى القوم الظالمين ﴾ استئناف مشعر بأن كفرهم به لضلالهم المسبب عن ظلمهم ، ودليل على الجواب المحذوف مثل ألستم ظالمين .

(164/703)

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ لأجلهم . ﴿ لَّوْ كَانَ ﴾ الإيمان أو ما أتى به محمد عليه الصلاة والسلام . ﴿ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ وهم سقاط إذ عامتهم فقراء وموال ورعاة ، وإنما قاله قريش وقيل بنو عامر وغطفان وأسد وأشجع لما أسلم جهينة ومزينة وأسلم وغفار ، أو اليهود حين أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه . ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ ﴾ ظرف لمحذوف مثل ظهر عنادهم وقوله : ﴿ فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ مسبب عنه وهو كقولهم : أساطير الأولين . ﴿ وَمِن قَبْلِهِ ﴾ وَمَن قَبل القرآن وهو خبر لقوله : ﴿ كِتَابُ موسى ﴾ ناصب لقوله : ﴿ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ على الحال . ﴿ وهذا كتاب مُّصَدّقٌ ﴾ لكتاب موسى أو لما بين يديه وقد قرىء به . ﴿ لّسَاناً عَرَبِيّاً ﴾ حال من

ضمير ﴿ كِتَابٌ ﴾ في ﴿ مُّصَدّقُ ﴾ أو منه لتخصصه بالصفة ، وعاملها معنى الإشارة وفائدتها الإشعار بالدلالة على أن كونه مصدقاً للتوراة كما دل على أنه حق دل على أنه وحي وتوقيف من الله سبحانه وتعالى . وقيل مفعول ﴿ مُّصَدّقُ ﴾ أي يصدق ذا لسان عربي بإعجازه . ﴿ لّيُنذِرَ الذين ظَلَمُواْ ﴾ علة ﴿ مُّصَدّقُ ﴾ ، وفيه ضمير الكتاب أو الله أو الرسول ، ويؤيد الأخير قراءة نافع وابن عامر والبزي بخلاف عنه ويعقوب بالتاء ﴿ وبشرى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ عطف على محله .

﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا ﴾ جَمعوا بين التوحيد الذي هو خلاصة العلم والإستقامة في الأمور التي هي منتهى العمل ، وثم للدلالة على تأخر رتبة العمل وتوقف اعتباره على التوحيد . ﴿ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ من لحوق مكروه . ﴿ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على فوات محبوب ، والفاء لتضمن الاسم معنى الشرط .

(165/703)

﴿ أُوْلَئِكَ أصحاب الجنة خالدين فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ من اكتساب الفضائل العلمية والعملية ، وخالدين حال من المستكن في أصحاب وجزاء مصدر لفعل دل عليه الكلام أي جوزوا جزاء .

﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حُسْناً ﴾ وقرأ الكوفيون "إحساناً" ، وقرىء ﴿ حَسَنًا ﴾ أي إيصاء ﴿ حَسَنًا ﴾ . ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً ﴾ ذات كره أو حملاً ذا كره وهو المشقة ، وقرأ الحجازيان وأبو عمرو وهشام بالفتح وهما لغتان كالفُقُر والفَقْر . وقيل المضموم اسم والمفتوح مصدر . ﴿ وَحَمْلُهُ وفصاله ﴾ ومدة ﴿ حَمْلُهُ وفصاله ﴾ ، والفصال الفطام ويدل عليه قراءة يعقوب "وفصله" أو وقته والمراد به الرضاع التام المنتهى به ولذلك عبر به كما يعبر بالأمد عن المدة ، قال :

كُلُّ حَيٍّ مُسْتَكْمِل عِدَّةَ العُم . . . رِ وَمَود إِذَا انْتَهَى أَمَدُهُ

(166/703)

﴿ ثَلاَثُونَ شَهْراً ﴾ كل ذلك بيان لما تكابده الأم في تربية الولد مبالغة في التوصية بها ، وفيه دليل على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر لأنه إذا حط منه الفصال حولان لقوله تعالى : ﴿ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرضاعة ﴾ بقي ذلك وبه قال الأطباء ولعل تخصيص أقل الحمل وأكثر الرضاع لانضباطهما وتحقق ارتباط حكم النسب والرضاع بهما . ﴿ حتى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ إذا اكتهل واستحكم قوته وعقله . ﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ قيل لم يبعث نبي إلا بعد الأربعين . ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى ﴾ ألهمني وأصله أولعني من أوزعته بكذا .

﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وعلى وَالِدَىَّ ﴾ يعني نعمة الدين أو ما يعمها وغيرها ، وذلك يؤيد ما روي أنها نزلت في أبي بكر رضي الله تعالى عنه لأنه لم يكن أحد أسلم هو وأبواه من المهاجرين والأنصار سواه . ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صالحا ترضاه ﴾ نكرة للتعظيم أو لأنه أراد نوعاً من الجنس يستجلب رضا الله عز وجل . ﴿ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِى ﴾ واجعل لي الصلاح سارياً في ذريتي راسخاً فيهم ونحوه قوله :

وَإِنْ تَعْتَذِرْ بالمَحل عَنْ ذِي ضُرُوعِهَا . . . إِلَى الضَيْفِ يَجْرَحْ فِي عَرَاقِيبهَا نَصْلي

﴿ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ عما لا ترضاه أو يشغل عنك . ﴿ وَإِنِّى مِنَ المسلمين ﴾ المخلصين لك .

﴿ أُوْلَئِكَ الذين نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ ﴾ يعني طاعاتهم فإن المباح حسن ولا يثاب عليه . ﴿ وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ لتوبتهم ، وقرأ حمزة والكسائي وحفص بالنون فيهما . ﴿ فِى أصحاب الجنة ﴾ كائنين في عدادهم أو مثابين أو معدودين فيهم . ﴿ وَعْدَ الصدق ﴾ مصدر مؤكد لنفسه فإن يتقبل ويتجاوز وعد ﴿ الذى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ أي في الدنيا .

﴿ والذى قَالَ لوالديه أُفٍّ لَّكُمَا ﴾ مبتدأ خبره ﴿ أولئك ﴾ ، والمراد به الجنس وإن صح نزولها في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه ، فإن خصوص السبب لا يوجب التخصيص . وفي ﴿ أُفٍّ ﴾ قراءات ذكرت في سورة "بني إسرائيل" . ﴿ أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ ﴾ أبعث ، وقرأ هشام "أتعداني" بنون واحدة مشددة . ﴿ وَقَدْ خَلَتِ القرون مِن قَبْلِى ﴾ فلم يرجع أحد منهم . ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ الله ﴾ يقولان الغياث بالله منك ، أو يسألانه أن يغيثه بالتوفيق للإيمان . ﴿ وَيْلَكَ ءامِنْ ﴾ أي يقولان له ﴿ وَيْلَكَ ﴾ ، وهو الدعاء بالثبور بالحث على ما يخاف على تركه . ﴿ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هذا إِلاَّ أساطير الأولين ﴾ أباطيلهم التي كتبوها .

﴿ أُوْلَئِكَ الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ بأنهم أهل النار وهو يرد النزول في عبد الرحمن لأنه يدل على أنه من أهلها لذلك وقد جب عنه إن كان لإسلامه . ﴿ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ كقوله في أصحاب الجنة . ﴿ مّنَ الجن والإنس ﴾ بيان للأمم . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ خاسرين ﴾ تعليل للحكم على الاستئناف .

﴿ وَلِكُلّ ﴾ من الفريقين . ﴿ درجات مّمَّا عَمِلُواْ ﴾ مراتب من جزاء ما عملوا من الخير والشر ، أو من أجل ما عملوا وال ﴿ درجات ﴾ غالبة في المثوبة وها هنا جاءت على التغليب . ﴿ وَلِيُوَفّيَهُمْ أعمالهم ﴾ جزاءها ، وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي وابن ذكوان بالنون . ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ بنقص ثواب وزيادة عقاب .

(168/703)

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الذين كَفَرُواْ عَلَى النار ﴾ يعذبون بها . وقيل تعرض النار عليهم فقلب مبالغة كقولهم : عرضت الناقة على الحوض . ﴿ أَذْهَبْتُمْ ﴾ أي يقال لهم أذهبتم ، وهو ناصب اليوم وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بالاستفهام غير أن ابن كثير يقرؤه بهمزة ممدودة وهما يقرآن بها وبهمزتين محققتين . ﴿ طيباتكم ﴾ لذاتكم . ﴿ فِى حياتكم الدنيا ﴾ باستيفائها . ﴿ واستمتعتم بِهَا ﴾ فما بقي لكم منها شيء . ﴿ فاليوم تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهون ﴾ الهوان وقد قرىء به . ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى الأرض بِغَيْرِ الحق وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ بسبب الاستكبار الباطل والفسوق عن طاعة الله ، وقرىء ﴿ تَفْسِقُونَ ﴾ بالكسر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 176.182 ﴾

(169/703)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) ﴾

التفسير : إنما كرر تنزيل الكتاب لأنه بمنزلة عنوان الكتب ثم ذكر ما أنزل فقال ﴿ ما خلقنا ﴾ إلى قوله ﴿ وأجل مسمى ﴾ وقد مر في أوّل " الروم " أنه الوقت الذي عينه لإفناء الدنيا . وحين بين الدليل على وجود الإله ووقوع الحشر فرع عليه الردّ على عبدة الأوثان بقوله ﴿ قل أرأيتم ﴾ وقد مر في " فاطر " . والمراد أنهم لا يستحقون العبادة أصلاً لأنهم ما خلقوا شيئاً في هذا العالم لا في الأرض ولا في السماء ، ولم يدل وحي من الله على عبادتهم لأن هذا القرآن ناطق بالتوحيد وإبطال الشرك وما من كتاب قبله إلا هو ناطق بمثل ذلك .

(170/703)

فقوله ﴿ ائتوني ﴾ من باب إرخاء العنان وتوسيع المجال على الخصم أي إن كنتم في شك مما قلت فقد أمهلتكم حتى تأتوني بعد الاستقراء ﴿ بكتاب ﴾ فيه شيء من ذلك ﴿ أو أثارة من علم ﴾ قال الواحدي : كلام أهل اللغة في تفسير هذا الحرف يدور على ثلاثة أوجه : أحدها البقية من قولهم " سمنت الناقة على إثارة من شحم " أي على بقية شحم كانت بها من شحم ذاهب . والثاني أنه من الأثر بمعن الرواية . والثالث من الأثر بمعنى العلامة والمراد ما بقي أو روي عن أسلافهم ويعدّونه علماً . عن ابن عباس مرفوعاً أنه

الخط . قال : كان نبي من الأنبياء يخط فمن صادف مثل خطه علم علمه . ثم زاد في تبكيتهم وتوبيخهم بقوله ﴿ ومن أضل ﴾ الآية . وبالجملة فالدليل الأوّل دل على نفي القدرة عنهم من كل الوجوه ، وهذا الدليل دل على نفي العلم عنهم من كل الوجوه ، فإذا انتفى العلم والقدرة عن الجسم لم يكن إلا جماداً وعبادة الجماد محض الضلال . وقوله ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ تأبيد على عادة العرب ، ويحتمل أن يكون توقيتاً بدليل قوله ﴿ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء ﴾ وهذا التبري والتخاطب نوع من الاستجابة . ثم قرر غاية عنادهم بقوله ﴿ وإذا تتلى ﴾ ثم عجب من حالهم بقوله ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ الآية أي إن كذبت على الله كما زعمتم عاجلني بالعقوبة فلا تقدرون على دفع عذابه عني فأي فائدة لي في الافتراء . ثم فوّض أمرهم إلى الله قائلاً ﴿ هو أعلم بما تفيضون ﴾ أي تندفعون فيه من القدح في الوحي ، وتسميته سحراً تارة وافتراء أخرى وفي قوله ﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ إشارة إلى أنهم لو رجعوا إلى الحق وتابوا عن الشرك قبل الله توبتهم ، وفيه إشعار بحلم الله عنهم مع عظم ما ارتكبوه . ثم أراد أن يزيل شبهتهم بنوع آخر من البيان فقال ﴿ قل ما كنت بدعاً ﴾ هو بمعنى البديع كالخف بمعنى الخفيف أي لست بأوّل رسول أرسله الله ولا جئتكم بأمر بديع لم يكن إلى مثله سابق . وفيه إن اقتراح الآيات الغريبة فيه غير موجه

لأنه لا يتبع إلا الوحي وما هو إلا نذير وليس إليه أن يأتي بكل ما يقترح عليه ، وفيه أنه غير عالم بالمغيبات إلا بطريق الوحي فلا وجه لاستدعاء الغيوب عنه سواء تتعلق بأحوال الدنيا أو بأحوال الآخرة من الأحكام والتكاليف وما يؤل أمر المكلفين إليه ، وفيه أنه لا وجه لتعييره بالفقر وبأكل الطعام والمشي في الأسواق والرسل كلهم أو جلهم كانوا كذلك . قال ابن عباس في رواية الكلبي : لما أشتدّ البلاء على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر فقصها على أصحابه فاستبشروا بذلك ، ثم إنهم مكثوا برهة من الدهر لا يرون أثر ذلك فقالوا : يا رسول الله ما رأينا الذي قلت ومتى تهاجر ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنزل الله الآية .

وعنه في رواية أخرى أنه لما نزلت هذه الآية فرح المشركون والمنافقون واليهود وقالوا : كيف نتبع نبياً لا يدري ما يفعل به ولا بأمته ، فأنزل الله تعالى ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ [الفتح : 1] إلى قوله ﴿ فوزاً عظيماً ﴾ [الفتح : 5] فبين الله تعالى ما يفعل به وبأمته ونسخت هذه الآية . والأصح عند العلماء أنه لا حاجة إلى التزام النسخ ، فإن الدراية المفصلة غير حاصلة ، وعلى تقدير حصولها فإنه لم ينف إلا الدراية من قبل نفسه ، وما نفي الدراية من جهة الوحي . وقوله ﴿ ولا بكم ﴾ في حيز النفي ولا أدري ما يفعل بكم . و " ما " موصولة أو استفهامية ، ومحل الأولى نصب ، والثانية رفع .

ثم قرر أنه لا أظلم منهم فقال ﴿ قل أرأيتم ﴾ الآية . وقد مر نظيره في آخر " حم السجدة " إلا أنه زاد ههنا حديث الشاهد وفيه أقوال : أحدها أنه عبد الله بن سلام لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة نظر إلى وجهه وتأمله فتحقق أنه النبي المنتظر فآمن به . وعن سعد بن أبي وقاص : ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشي على الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام وفيه نزل ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله ﴾ على مثل القرآن . والمعنى وهو ما في التوراة من المعاني المطابقة للقرآن من التوحيد والمعاد . وعلى هذا فقوله ﴿ على مثله ﴾ يتعلق بشاهد أي ويشهد على صحة القرآن . ويجوز أن يعود الضمير في ﴿ مثله ﴾ إلى المذكور وهو كونه من عند الله ، فيكون الجار متعلقاً ب ﴿ شهد ﴾ قال جار الله : الواو الأخيرة عاطفة ﴿ لاستكبرتم ﴾ على ﴿ شهد ﴾ وأما الواو في ﴿ وشهد ﴾ فقد عطفت جملة قوله ﴿ وشهد ﴾ إلى آخره على جملة قوله ﴿ كان من عند الله وكفرتم به ﴾ والمعنى أخبروني إن اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفركم به واجتمع شهادة أعلم بني إسرائيل على نزول مثله وإيمانه به مع استكباركم عنه ، ألستم أضل الناس وأظلمهم ؟ يدل على هذا الجواب

المحذوف قوله ﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ قلت : هذا كلام حسن . ويجوز أن يكون قوله ﴿ واستكبرتم ﴾ معطوفاً على قوله ﴿ فآمن ﴾ . ويجوز أن يكون الواو في ﴿ وشهد ﴾ للحال بإضمار " قد " . قال : وقد جعل الإيمان في قوله ﴿ فآمن ﴾ مسبباً عن الشهادة لأنه لما علم أن مثله أنزل على موسى وأنصف من نفسه اعترف بصحته وآمن .

القول الثاني ما ذكر الشعبي في جماعة أن السورة مكية وقد أسلم ابن سلام بالمدينة ، فالشاهد هو موسى وشهادته هو ما في التوراة من بعث محمد صلى الله عليه وسلم وإيمانه تصديقه ذلك .

(173/703)

القول الثالث أن الشاهد ليس شخصياً معيناً وتقدير الكلام لو أن رجلاً منصفاً عارفاً بالتوراة أقر بذلك واعترف به ثم آمن بمحمد واستكبرتم أنتم ، ألم تكونوا ظالمين ضالين ؟ والمقصود أنه ثبت بالمعجزات القاهرة أن هذا الكتاب هو من عند الله ، وثبت بشهادة الثقات أن التوراة مشتملة على البشارة بمقدم النبي صلى الله عليه وسلم ، ومع ثبوت هذين الأمرين كيف يليق بالعاقل إنكار نبوته ؟ ثم ذكر شبهة أخرى لهم وهي أنهم قالوا ﴿ للذين آمنوا ﴾ أي لأجلهم وفي حقهم ﴿ لو كان ﴾ ما أتى به محمد ﴿ خيراً ما سبقونا إليه ﴾

وقيل : اللام كما في قولك " قلت له " . وضعف بأنه لو كان كذلك لقيل ما سبقتمونا إليه . وأجيب بأنه وارد على طريقة الالتفات ، أو المراد أن الكفار لما سمعوا أن جماعة آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم خاطبوا جماعة من المؤمنين الحاضرين بأنه لو كان هذا الدين خيراً لما سبقنا إليه أولئك الغائبون . قال المفسرون : لما أسلمت جهينة ومزينة وأسلم وغفار قالت بنو عامر وغطفان وأسد وأشجع : لو كان ما دخل فيه هؤلاء من الدين خيراً ما سبقونا إليه ، ونحن أرفع منهم حالاً وأكثر مالاً وهؤلاء رعاة الغنم . وقيل : قاله أغنياء قريش للفقراء المؤمنين كعمار وصهيب وابن مسعود . وقيل : هم اليهود قالوه عند إسلام عبد الله بن سلام وأصحابه . والعامل في قوله ﴿ وإذ لم يهتدوا به ﴾ محذوف وهو ظهر عنادهم وذلك أن " إذ " للمضي ، والسين للاستقبال وبينهما تدافع . والإفك القديم كقولهم أساطير الأوّلين . وقيل : كذب ككذب عيسى عليه السلام قوله ﴿ ومن قبله كتاب موسى ﴾ خبر ومبتدأ وقوله ﴿ إماماً ﴾ أي قدوة يؤتم به في أصول شرائع الله ، نصب على الحال كقولك " في الدار زيد قائماً " . وقوله ﴿ لساناً عربياً ﴾ حال من ضمير الكتاب في ﴿ مصدّق ﴾ أي لما بين يديه وهو العامل فيه ويجوز أن يكون حالاً من ﴿ كتاب ﴾ لأنه موصوف والعامل معنى الإشارة . وجوز أن يكون مفعولاً ﴿ لصدّق ﴾ على

حذف المضاف أي يصدّق ذا لسان عربي هو الرسول . قوله ﴿ وبشرى ﴾ معطوف على محل ﴿ لتنذر ﴾ لأنه مفعول له . وحين قرر دلائل التوحيد والنبوة وذكر شبه المنكرين مع أجوبتها ، أراد أن يذكر طريقة المحقين فقال ﴿ إن الذين قالوا ﴾ الآية . وقد مر في " حم السجدة " إلا أنه رفع واسطة الملائكة ههنا من البين . ثم إن أعظم أنواع الاستقامة كان هو الشفقة على خلق الله ولا سيما على الوالدين فلذلك قال ﴿ ووصينا ﴾ الآية . وقد مرّ في " الروم " و " لقمان " .

(175/703)

والكره بالضم ، والفتح المشقة أي ذات كره أو حملاً ذا كره . والفصل والفصال كالفطم والفطام بناء ومعنى ، والمقصود بيان مدّة الرضاع . ولما كان منتهياً بالفصال صح التعبير عن آخر الرضاع بالفصال ، والفائدة فيه الدلالة على الرضاع التام المنتهي بالفصال . وقد يستدل من هذه الآية ومن قوله ﴿ والوالدت يرضعن أولادهن حولين كاملين ﴾ [البقرة : 233] أن مدة الحمل ستة أشهر . وعن عمر أن امرأة ولدت لستة أشهر فرفعت إليه فأمر برجمها ، فأخبر علياً رضى الله عنه بذلك فمنعه محتجاً بالآية فصدّقه عمر وقال : لولا

عليّ لهلك عمر . قال جالينوس : إني كنت شديد الفحص عن مقادير أزمنة الحمل فرأيت امرأة ولدت في المائة والأربع والثمانين ليلة . وزعم أبو علي بن سينا أنه شاهد ذلك . وذكر أهل التجارب قاعدة كلية قالوا : إن لتكوّن الجنين زماناً مقدّراً ، فإذا تضاعف ذلك الزمان تحرك الجنين ، ثم إذا انضاف إلى المجموع مثلاه انفصل الجنين . وعلى هذا فلو تمت خلقة الجنين في ثلاثين يوماً فإذا أتى عليه مثل ذلك أي تصير مدة علوقه ستين تحرك ، فإذا انضاف إلى هذا المقدار مثلاه وهو مائة وعشرون وصار المبلغ مائة وثمانين انفصل ، ولو تمت خلقته في خمسة وثلاثين يوماً تحرك في سبعين وانفصل في مائتين وعشرة وهو سبعة أشهر ، ولو تمت خلقته في أربعين تحرك في ثمانين وانفصل في مائتين وأربعين وهو ثمانية أشهر ، وقلما يعيش هذا المولود إلا في بلاد معينة مثل مصر ، وقد مرّ هذا المعنى في هذا الكتاب . ولو تمت في خمسة وأربعين تحرك في تسعين وأنفصل في مائتين وسبعين وهي تسعة أشهر وهو الأكثر ، أما أكثر مدّة الحمل فليس يعرف له دليل من القرآن . وذكر أبو علي بن سينا في كتاب الحيوان من الشفاء في الفصل السادس من المقالة التاسعة ، أن امرأة ولدت بعد الرابع من سني الحمل ولداً قد نبتت أسنانه وعاش . وعن أرسطا طاليس أن زمان الولادة لكل الحيوان مضبوط سوى الإنسان . هذا وقد روى الواحدي في

البسيط عن عكرمة أنه قال : إذا حملت تسعة أشهر أرضعته أحداً وعشرين شهراً .

وعلى هذا قوله ﴿ حتى إذا بلغ أشدّه ﴾ أكثر المفسرين كما مر في آخر " الأنعام " وأوّل " يوسف " و " القصص " . على أن وقت الأشد هو زمان الوصول إلى آخر سن النشوء والنماء وهو ثلاث وثلاثون سنة تقريباً ، وإن في الأربعين يتم الشباب وتأخذ القوى الطبيعية والحيوانية في الانتقاص ، والقوّة العقلية والنطقية في الاستكمال ، وهذا أحد ما يدل على أن النفس غير البدن ومن جملة الكمال أنه حينئذ يقول ﴿ رب أوزعني ﴾ أي ألهمني ووفقني كما مر في " النمل " .

قال علماء المعاني : قوله ﴿ في ذرّيتي ﴾ كقوله " يجرح في عراقيبها نصلي " فكأنه سأل أن يجعل ذرّيته موقعاً للصلاح ومظنة له .

(177/703)

وقوله ﴿ أحسن ما عملوا ﴾ إما بمعنى الحسن أو المراد الواجب والندب دون المباح .

وقوله ﴿ في أصحاب الجنة ﴾ في موضع الحال أي معدودين فيهم . عن ابن عباس وجم غفير من المفسرين أن الآية نزلت في أبي بكر الصدّيق ، وفيه أبيه أبي قحافة وأمه أم الخير ،

وفي أولاده واستجابة دعائه فيهم ، ولم يكن أحد من الصحابة المهاجرين والأنصار أسلم هو ووالداه وبنوه وبناته غير أبي بكر . قالوا : ومما يؤيد هذا القول أنه سبحانه حكى عن ذلك الإنسان أنه قال بعد أربعين سنة رب أوزعني الخ . ومعلوم أنه ليس كل إنسان قد يقول هذا القول . والأظهر أن هذا عام لهذا الجنس ، وأن الإنسان قد يقول هذا القول ولا أقل من أن يكون وارداً على طريقة الإرشاد والتعليم . سلمنا ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . قوله ﴿ والذي قال ﴾ مبتدأ خبره ﴿ أولئك ﴾ والمراد بالذي جنس القائل فلذلك أورد الخبر مجموعاً . ويجوز أن يكون الخبر عاماً في القائل وفي أمثاله فيندرج فيه القائل . وقيل : تقديره واذكر الذي ومن القائل . عن الحسن وقتادة : هو الكافر العاق لوالديه المكذب بالبعث . وذهب السدّي إلى أن الآية نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه وأنه كان يقول ﴿ لوالديه أف لكما ﴾ وهي كلمة تضجر وتبرم كما مر في " سبحان " و " الأنبياء " ﴿ أتعدانني أن أخرج ﴾ من القبر ﴿ وقد خلت القرون من قبلي ﴾ فلم يرجع أحدهم ﴿ وهما ﴾ يعني أبويه ﴿ يستغيثان الله ﴾ أي بالله فحذف الجار وأوصل الفعل والمراد يسألانه أن يوفقه للإيمان ويقولان له ﴿ ويلك آمن ﴾ بالله وبالبعث . والمراد بالدعاء عليه الحث والتحريض على الإيمان لا حقيقة الهلاك . قال السدّي : فاستجاب الله دعوة أبي بكر فيه فأسلم وحسن إسلامه ولما أسلم نزل فيه ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾ وأكثر المفسرين ينكرون هذا القول لأنه سبحانه قال فيه ﴿ أولئك الذين حق

عليهم القول ﴿ كائنين ﴿ في أمم ﴾ إلى آخره . وأن عبد الرحمن لم يبق كافراً بل كان من سادات

(178/703)

المسلمين . وروي عن عائشة إنكاره إيضاً . وذلك أنه حين كتب معاوية إلى مروان بن الحكم ابن أبي العاص بأن يبايع الناس ليزيد ، ردّ عليه عبد الرحمن وقال مروان : يا أيها الناس هو الذي قال الله فيه ﴿ والذي قال لوالديه ﴾ فسمعت عائشة فغضبت وقالت : والله ما هو به ولكن الله لعن أباك وأنت في صلبه . ثم ميز حال المؤمن من حال الكافر بقوله ﴿ ولكل ﴾ أي من الجنسين ﴿ درجات ﴾ من جزاء ما عملوا فغلب أهل الدرجات على أهل الدركات ، أو الدرجات هي المراتب متصاعدة أو متنازلة ، والباقي واضح مما مرّ . والاستكبار عن قبول الحق ذنب القلب ، والفسق عمل الجوارح ، والأوّل أولى بالتقديم لعظم موقعه .

(179/703)

وقد يحتج بالآية على أن الكفار مخاطبون بالفروع . قال مؤلف الكتاب : والأشياء الطيبة اللذيذة غير منهي عنها لقوله تعالى ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ [الأعراف : 32] ولكن التقشف وترك التكلف دأب الصالحين لئلا يشتغل بغير المهم عن المهم ، ولأن ما عدا الضروري لا حصر له وقد يجر بعضه بعضاً إلى أن يقع المرء في حدّ البعد عن الله . وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على أهل الصفة وهم يرقعون ثيابهم بالأدم ما يجدون لها رقاعاً فقال : " أنتم اليوم خير أم يوم يغدو أحدكم في حلة ويروح في أخرى ويغدى عليه بجفنة ويراح عليه بأخرى ويستر البيت كما تستر الكعبة ؟ قالوا : نحن يومئذ خير . قال : بل أنتم اليوم خير . " وعن عمر لو شئت لكنت أطيبكم طعاماً وأحسنكم لباساً ولكنني أستبقي طيباتي لأن الله وصف قوماً فقال ﴿ أذهبتم طيباتكم ﴾ وعنه أن رجلاً دعاه إلى طعام فأكل ثم قدّم شيئاً حلوا فامتنع وقال : رأيت الله نعى على قوم شهواتهم فقال ﴿ أذهبتم ﴾ الآية . فقال الرجل : اقرأ يا أمير المؤمنين ما قبلها ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا ﴾ ولست منهم فأكل وسرّه ما سمع . والتحقيق أن المراد هو أنه ما كتب للكافر حظ من الطيبات إلا الذي أصابه في دنياه ، وليس في الآية إن كل من أصاب الطيبات في الدنيا فإنه لا يكون له منها حظ في الآخرة والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 117 . 122 ﴾

وقال الخطيب الشربيني :

سورة الأحقاف

مكية إلا قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله ﴾ الآية وإلا ﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ﴾ الآية وإلا ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه ﴾ الثلاث آيات ، وهي خمس وثلاثون آية وستمائة وأربع وأربعون كلمة ، وألفان وخمسمائة وخمسة وتسعون حرفاً .

﴿ بسم الله ﴾ الذي لا يذل من والى ولا يعز من عادى . ﴿ الرحمن ﴾ الذي سبقت رحمته غضبه ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص حزبه بعمل الأبرار للفوز في دار القرار ، وتقدّم الكلام على قوله تعالى:

﴿ حم ﴾ مراراً ، وقرأ ابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي بإمالة الحاء محضة ، وقرأ ورش وأبو عمرو بإمالتها بين بين وفتحها الباقون . وقيل : المراد بحم حكمة محمد صلى الله عليه وسلم التي هي النهاية في الصواب والسداد أحكمها الذي أحاطت قدرته فهو لا يخلف الميعاد .

وقوله تعالى:

﴿ تنزيل الكتاب ﴾ أي الجامع لجميع الخيرات بالتدريج على حسب المصالح ﴿ من الله ﴾

أي الجبار المتكبر المختص بصفات الكمال ﴿ العزيز ﴾ في ملكه ﴿ الحكيم ﴾ في صنعه لأنه لم يفعل شيئاً إلا في أوفق محاله وأنه الخالق للخير والشرّ وأنه يعز أولياءه ويذل أعداءه .

﴿ ما خلقنا ﴾ أي ؛ على مالنا من العظمة الموجبة للتفرّد بالكبرياء ﴿ السموات والأرض ﴾ على ما فيهما من الآيات ﴿ وما بينهما إلا ﴾ خلقاً ملتبساً ﴿ بالحق ﴾ أي : الأمر الثابت من القدرة التامة والتصرّف المطلق ليدل على قدرتنا ووحدانيتنا

﴿ وأجل ﴾ أي وبتقدير أجل ﴿ مسمى ﴾ ينتهي إليه وهو يوم القيامة .

﴿ والذين كفروا عما أنذروا ﴾ أي : خوفوا به من القرآن من هول ذلك اليوم الذي لا بدّ لكل خلق من انتهائه إليه ﴿ معرضون ﴾ أي لا يؤمنون به ولا يهتمون للاستعداد له .

ثم قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم

﴿ قل ﴾ أي : لهؤلاء المعرّضين أنفسهم لغاية الخطوب منكراً عليهم تبكيتاً وتوبيخاً

﴿ أرأيتم ﴾ أي : أخبروني عن حال آلهتكم بعد تأمّل وروية باطنة . ﴿ ما تدعون ﴾ أي : تعبدون ثم نبه على سفولهم بقوله تعالى:

﴿ من دون الله ﴾ أي : المالك الأعظم الذي كل شيء دونه فلا كفء له مفعول أوّل وقوله تعالى : ﴿ أروني ﴾ أي : أخبروني تأكيد وقوله : ﴿ ماذا خلقوا ﴾ مفعول ثان وقوله تعالى : ﴿ من الأرض ﴾ بيان لما أي : ليصح ادّعاء أنهم شركاء فيها باختراع ذلك الجزء .

﴿ أم لهم ﴾ أي : الذين تدعونهم ﴿ شرك ﴾ أي مشاركة ﴿ في ﴾ خلق .

﴿ السموات ﴾ أي : بنوع من أنواع الشركة مع الله تعالى و ﴿ أم ﴾ بمعنى همزة الإنكار ولما كان الدليل أحد شيئين سمع وعقل قال تعالى : ﴿ ائتوني بكتاب ﴾ أي : منزل على دعواكم في هذه الأصنام : أنها خلقت شيئاً أو أنها تستحق أن تعبد .

تنبيه أبدل ورش والسوسيّ الهمزة من ﴿ ائتوني ﴾ في الوصل ﴿ ياء ﴾ وحققها الباقون . وأما الابتداء بها ، فجميع القرّاء أبدلوها ياء بعد الابتداء بهمزة الوصل مكسورة .

(182/703)

﴿ من قبل هذا ﴾ أي : القرآن الذي أنزل علي كالتوراة والإنجيل والزبور ، وهذا من أعلام النبوّة ، فإنها كلها شاهدة بالوحدانية لو أتى بها آت لشهدت عليه . ولما ذكر تعالى الأعلى الذي لا يجب التكليف إلا به وهو : النقل القاطع ، سهل عليهم فنزل إلى ما دونه فقال : ﴿ أو أثارة ﴾ أي : بقية ﴿ من علم ﴾ يؤثر عن الأولين بصحة دعواكم في عبادة الأصنام :

أنها تقرّبكم إلى الله تعالى : وقال المبرد : ﴿ أثارة ﴾ ما يؤثر من علم كقولك هذا الحديث يؤثر عن فلان . ومن هذا المعنى سميت الأخبار بالآثار . يقال : جاء في الأثر كذا وكذا . وقال الواحدي : وكلام أهل اللغة في هذا الحرف يدور على ثلاثة أقوال ؛ الأوّل : الأثارة واشتقاقها من : أثرت الشيء أثيره إثارة كأنها بقية تستخرج فتثار . والثاني : من الأثر الذي هو الرواية . والثالث : من الأثر بمعنى العلامة . وقال الكلبي في تفسير الأثارة : أي بقية من علم يؤثر عن الأوّلين أي : يسند إليهم وقال مجاهد وعكرمة ومقاتل : رواية عن الأنبياء قال الرازي : وههنا قول آخر : أو أثارة من علم هو علم الخط الذي يخط في الرمل ، والعرب كانوا يخطونه وهو علم مشهور روي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "كان نبيّ من الأنبياء يخط فمن وافق خطه خطه علم علمه" فعلى هذا الوجه معنى الآية ﴿ أئتوني بعلم من قبل هذا ﴾ الخط الذي تخطونه في الرمل يدل على صحة مذهبكم في عبادة الأصنام فإن صح تفسير الآية بهذا الوجه كان ذلك من باب التهكم بهم وأقوالهم ودلائلهم . ثم أشار إلى تقريعهم بالكذب إذ لم يقيموا دليلاً على دعواهم بقوله : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أي : عريقين في الصدق على ما تدّعون لأنفسكم . ولما أبطل سبحانه قولهم في الأصنام بعدم قدرتها أتبعه إبطاله بعدم علمها بقوله تعالى:

﴿ ومن أضلّ ﴾ وهو استفهام بمعنى النفي أي : لا أحد أضل ﴿ ممن يدعو ﴾ أي : يعبد ما لا قدرة له ولا علم . ومن انتفت قدرته وعلمه لم تصح عبادته ببديهة العقل . وأرشد إلى سفولها بقوله عز وجل . ﴿ من دون الله ﴾ أي : من أدنى رتبة من رتب الذي له صفات الكمال فهو يعلم كل شيء . ويقدر على كل شيء فهو بحيث يجيب الدعاء ، ويكشف البلاء ويحقق الرجاء إذا شاء ، ويدبر عبده لما يعلم من سرّه وعلنه بما لا يقدر هو على تدبير نفسه به ، ويريد العبد في كثير من الأشياء ما لو وكل فيه إلى نفسه ، وأجيب إلى طلبته ، كان فيه حتفه فيدبره سبحانه بما تشتدّ كراهته له ، فيكشف الحال على أنه لم يكن له فرج إلا فيه . ﴿ من لا يستجيب له ﴾ أي : لا توجد الإجابة ، ولا يطلب إيجادها من الأصنام وغيرها ، لأنه لا أهلية له لذلك . والمعنى : أنه لا أحد أبعد عن الحق وأقرب إلى الجدل ، ممن يدعو من دون الله الأصنام ، فيتخذها آلهة ويعبدها وهي إذا دعيت لا تسمع ولا تجيب لا في الحال ، ولا في المآل ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ وإنما جعل ذلك غاية ؛ لأنّ يوم القيامة قد قيل : إن الله تعالى يحييها ويخاطب من يعبدها . فلذلك جعله الله تعالى حدّاً وقيل المراد عبدة الملائكة وعيسى وأنهم يوم القيامة يظهرون عبادة هؤلاء العابدين . ﴿ وهم عن دعائهم ﴾ أي : دعاء المشركين إياهم . ﴿ غافلون ﴾ أي : لهم هذا الوصف لا ينفكون عنه لا يعلمون من يدعوهم ومن لا يدعوهم وعبر بالغفلة التي هي من أوصاف العقلاء للجماد تغليباً إن

كان المراد أعمّ من الأصنام وغيرها مما عبدوه من عقلاء الإنس وغيرهم ولما غيّا سبحانه بيوم القيامة فأفهم أنهم يستجيبون لهم فيه ، بيّن ما يحاورونهم به إذ ذاك . فقال تعالى:

(184/703)

﴿ وإذا حشر ﴾ أي : جمع بكره على أيسر وجه وأسهل أمر . ﴿ الناس ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ كانوا ﴾ أي : المدعوّون ﴿ لهم ﴾ أي : الداعين ﴿ أعداء ﴾ ويعطيهم الله تعالى قوّة الكلام فيخاطبونهم بكل ما يخاطب به العدوّ عدوّه ﴿ وكانوا ﴾ أي : المعبودون ﴿ بعبادتهم ﴾ أي : الداعين وهم المشركون إياهم .

﴿ كافرين ﴾ أي : جاحدين لأنهم كانوا عنها غافلين ، كما قال تعالى في سورة يونس عليه السلام ﴿ وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون ﴾ (يونس :) ثم بين تعالى أنهم في نهاية الغباوة بإنكار ما لا شيء أبين منه . بقوله سبحانه:

﴿ وإذا تتلى ﴾ أي : تقرأ من أي قارئ كان على وجه المتابعة ﴿ عليهم ﴾ أي : هؤلاء البعداء البغضاء ﴿ آياتنا ﴾ التي لا أعظم منها في أنفسها بإضافتها إلينا وهي القرآن وقوله تعالى : ﴿ بينات ﴾ أي : ظاهرات حال قالوا هكذا كان الأصل . ولكنه تعالى بين الوصف الحامل لهم على القول فقال عز وجل : ﴿ قال الذين كفروا ﴾ أي : ستروا تلك

الأنوار التي أبرزتها تلك التلاوة لها هكذا كان الأصل ولكن قال تعالى ﴿ للحق ﴾ أي : لأجله ﴿ لما ﴾ أي : حين ﴿ جاءهم ﴾ أي : من غير نظر وتأمّل ﴿ هذا ﴾ أي : الذي يتلى ﴿ سحر ﴾ أي : خيال لا حقيقة له ﴿ مبين ﴾ أي : ظاهر في أنه خيال باطل .

(185/703)

وقوله تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ إضراب عن ذكر تسميتهم إياه سحراً إلى ذكر ما هو أشنع وإنكار له وتعجب ، ثم بين تعالى بطلان شبهتهم بقوله تعالى : ﴿ قل ﴾ أي : يا أشرف الخلق ﴿ إن افتريته ﴾ أي : تعمدت كذبه على زعمكم وأنا إنما أريد به نصيحتكم فالذي أفتريه عليه وأنسبه إليه يعاقبني على ذلك ولا يتركني أصلاً وذلك هو معنى قوله : ﴿ فلا تملكون ﴾ أي : أيها المنصوحون بوجه من الوجوه ولا في وقت من الأوقات . ﴿ لي من الله ﴾ أي : المتكبر الحليم ﴿ شيئاً ﴾ من الأشياء لما يردّ عني انتقامه لأنّ الملك لا يترك من كذب عليه مطلق كذب فكيف من يتعمد الكذب عليه في الرسالة بأمور عظيمة وملازمته مساءً وصباحاً فأيّ حامل لي حينئذ على افترائه ؟ ثم علل ما أفاده الكلام من وجوب الانتقام بقوله : ﴿ هو ﴾ أي : الله سبحانه ﴿ أعلم ﴾ أي : منكم ومن كل أحد

﴿ بما تفيضون فيه ﴾ أي : بما تخوضون فيه من التكذيب بالقرآن والقول فيه بأنه سحر .

﴿ كفى به شهيداً ﴾ أي : شاهداً بليغ الشهادة لأنه أعلم بجميع أحوالنا .

(186/703)

﴿ بيني وبينكم ﴾ أي أن القرآن جاء من عنده فيشهد لي بالصدق ولكم بالكذب ، وقد شهد بصدقي بعجزكم عن معارضة شيء من هذا الكتاب الذي أتيت به فثبت بذلك أنه كلامه لأني لا أقدر على ما تقدرون عليه فرادى ولا مجتمعين ، وأنتم عرب مثلي ، بل وأنا أمّي وفيكم أنتم الكتبة ، والذين خالطوا العلماء ، وسمعوا أحاديث الأمم ، وضربوا بعد بلاد العرب في بلاد العجم ، فظهر بذلك ظهور الشمس أنكم كاذبون ﴿ وهو ﴾ أي : وحده ﴿ الغفور ﴾ أي : الذي من شأنه أن يمحو الذنوب أعيانها وآثارها فلا يعاقب عليها ولا يعاتب ﴿ الرحيم ﴾ أي الذي يكرم بعد المغفرة ويتفضل بالتوفيق لما يرضيه قال الزجاج : هذا دعاء إلى التوبة ومعناه غفور لمن تاب منكم رحيم به ولما حكى تعالى طعنهم في كون القرآن معجزاً بقولهم : إنه يختلقه من عند نفسه ثم ينسبه إلى أنه كلام الله تعالى على سبيل الفرية حكى عنهم شبهة أخرى وهو أنهم كانوا يقترحون عليه معجزات عجيبة ، ويطالبونه بأن يخبرهم عن المغيبات ، فأجاب الله تعالى عن ذلك . بقوله عز وجل:

﴿ قل ﴾ أي : لهؤلاء الذين نسبوك إلى الافتراء ﴿ ما كنت ﴾ أي : كونا مّا ﴿ بدعاً ﴾ أي : منشأ مبتدعاً محدثاً مخترعاً ، بحيث أكون أجنبياً منقطعاً ﴿ من الرسل ﴾ أي : لم يتقدّم لي منهم مثال في أصل ما جئت به وهو التوحيد ومحاسن الأخلاق بل قد تقدّمني رسل كثيرون أتوا بمثل ما أتيت به ، ودعوا إليه كما دعوت إليه ، وصدّقهم الله تعالى بمثل ما صدّقني به . فثبت بذلك رسالتهم وسعد بهم من صدّقهم من قومهم وشقي من كذبهم فانظروا إلى آثارهم واسألوا عن سيرهم من أتباعهم وأنصارهم وأشياعهم .

(187/703)

﴿ تنبيه ﴾ البدع والبديع من كل شيء : المبدأ والبدعة ؛ ما اخترع مما لم يكن موجوداً قبله . وفي الحديث "كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار" قال البقاعي معناه والله أعلم : أنه يبتدع ما يخالف السنة إذا كانت البدعة ضدّ السنة فإذا أحدث ما يخالفها كان بإحداثه ضالاً مشركاً وكان وما أحدث في النار . ولم يدخل تحت هذا ما يخترعه الإنسان من أفعال البّر يسمى بدعة لعدم فعله قبل ذلك فيخرج عما ذكر . ا . هـ . وقال ابن عبد السلام : البدعة منقسمة إلى واجبة ومحرّمة ومندوبة ومكروهة ومباحة : قال والطريق في ذلك أن تعرض البدعة على قواعد الشريعة ؛ فإن دخلت في قواعد الإيجاب فهي واجبة

، كالاشتغال بعلم النحو ، أو في قواعد التحريم فمحرّمة ، كمذهب القدرية والمجسمة والرافضة ، قال : والردّ على هؤلاء من البدع الواجبة ، أوفى قواعد المندوب ، فمندوبة كبناء الربط والمدارس ، وكل إحسان لم يحدث في العصر الأوّل كصلاة التراويح ، أو في قواعد المكروه فمكروهة كزخرفة المساجد وتزويق المصاحف أو في قواعد المباح فمباحة ، كالمصافحة عقب الصبح والعصر والتوسع في المآكل والملابس . وروى البيهقي بإسناده في مناقب الشافعيّ رضى الله تعالى عنه أنه قال : المحدثات ضربان ؛ أحدهما : ما خالف كتاباً أو سنة أو إجماعاً فهو بدعة وضلالة ، والثاني : ما أحدث من الخير فهو غير مذموم .

(188/703)

واختلف في تفسير قوله تعالى عن قوله عليه الصلاة والسلام : ﴿ وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ﴾ على وجهين ؛ أحدهما : أن يحمل ذلك على أحوال الدنيا والثاني : أن يحمل على أحوال الآخرة . أما الأوّل ؛ ففيه وجوه . أحدها : أنّ معناه لا أدري ما يصير إليه أمري وأمركم ، ومن الغالب منا ومن المغلوب . ثانيها : قال ابن عباس في رواية الكلبي : لما اشتد البلاء بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بمكة : رأى في المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات

نخل وشجر وماء فقصها على أصحابه فاستبشرّوا بذلك ورأوا أن ذلك فرج ما بهم من أذى المشركين. ثم إنهم مكثوا برهة من الدهر لا يرون أثر ذلك فقالوا يا رسول الله ما رأينا الذي قلت متى تهاجر إلى الأرض التي رأيتها في المنام؟ فسكت النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى:

﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ﴾ هو شيء رأيته في المنام.

﴿ إن ﴾ أي: ما ﴿ أتبع ﴾ أي: بغاية جهدي وجدّي ﴿ إلا ما ﴾ أي: الذي

﴿ يوحى ﴾ أي: يجدّد لقاؤه ممن لا يوحى بحق سواه ﴿ إلي ﴾ على سبيل التدريج لا يطلع عليه حق اطلاعه غيري. ثالثها: قال الضحاك: لا أدري ما تؤمرون به ولا ما أومر به من التكاليف والشرائع، ولا من الابتلاء والامتحان.

﴿ وما أنا ﴾ أي: بإخباري لكم عما يوحى إليّ ﴿ إلا نذير مبين ﴾ أي: بيّن الإنذار رابعها: كأنه يقول: ما أدري ما يفعل بي في الدنيا؛ أموت، أو أقتل كما قتل الأنبياء قبلي؟ ولا أدري ما يفعل بكم أيها المكذبون؛ أترمون بالحجارة من السماء، أو يخسف بكم، أو يفعل بكم ما يفعل بسائر الأمم؟ قال السدّي: ثم أخبره الله تعالى أنه يظهر دينه على الأديان بقوله تعالى: ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ﴾ (التوبة:) وقال في أمّته ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾

(الأنفال :)

فأخبره الله تعالى بما يصنع به وبأمّته .

(189/703)

وأما من حمل الآية على أحوال الآخرة ، فروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لما نزلت هذه الآية ، فرح المشركون والمنافقون واليهود . وقالوا : كيف نتبع نبياً لا يدري ما يفعل به ولا بنا ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً ﴾ (الفتح :)

فقالت الصحابة : هنيئاً لك يا رسول الله قد علمنا ما يفعل بك فما يفعل بنا ؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ (سورة الفتح ، آية :)

الآية وأنزل : ﴿ وبشر المؤمنين بأنّ لهم من الله فضلاً كبيراً ﴾ (الأحزاب :)

فبين لهم ما يفعل به وبهم وبهذا قال أنس والحسن وعكرمة . وقالوا إنما قال هذا قبل أن يخبر بغفران ذنبه ، لأنه إنما أخبر به عام الحديبية فنسخ ذلك .

قال الرازي : وأكثر المحققين استبعدوا هذا القول من وجهين ؛ أحدهما : أن النبي صلى الله

عليه وسلم لا بدّ وأن يعلم من نفسه ومتى علم كونه نبياً علم أنه لا تصدر عنه الكبائر ، وأنه مغفور له وإذا كان كذلك امتنع كونه شاكاً في أنه هل هو مغفور له أو لا ثانيهما : أن الأنبياء أرفع حالاً من الأولياء وقد قال تعالى في حقهم ﴿ إنّ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (الأحقاف :)

فكيف يعقل أن يبقى الرسول الذي هو رئيس الأنبياء وقدوة الأولياء شاكاً في أنه هل هو من المغفور لهم ؟ فثبت ضعف هذا القول .

(190/703)

﴿ قل ﴾ يا أفضل الخلق لهؤلاء المصرّين على التكذيب ﴿ أرأيتم ﴾ أي : أخبروني ﴿ إن كان ﴾ أي : هذا الذي أتيتكم به وهو القرآن ﴿ من عند الله ﴾ أي : الملك الأعظم .

﴿ وكفرتم به ﴾ أي : أيها المشركون ﴿ وشهد شاهد ﴾ واحد أو أكثر ﴿ من بني إسرائيل ﴾ أي : الذي جرت عادتكم أن تستفتوهم وتثقوا بهم ﴿ على مثله ﴾ أي : مثل ما في القرآن من أنّ من وحد فقد آمن ومن أشرك فقد كفر وأن الله تعالى أنزل ذلك في التوراة والإنجيل وجميع أسفارهم فتطابقت عليه كتبهم وتضافرت به رسلهم ، وتواترت على الدعاء إليه والأمر به أنبياؤهم عليهم الصلاة والسلام ﴿ فآمن ﴾ أي : هذا الذي شهد

هذه الشهادة ﴿ واستكبرتم ﴾ أي : أوجدتم الكبر بالإعراض عنه طالبين بذلك الرياسة والفخر ، فكنتم بعد شهادة هذا الشاهد معاندين من غير شبهة فضللتم ، فوضعتم الشيء في غير موضعه ، فانسدّ عليكم باب الهداية .

واختلف في هذا الشاهد فقال قتادة والضحاك وأكثر المفسرين : هو عبد الله بن سلام شهد بنبوّة المصطفى صلى الله عليه وسلم وآمن به ، واستكبرت اليهود فلم يؤمنوا به . كما روى أنس قال : سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاه فنظر إلى وجهه ، فعلم أنه ليس وجه كذاب ، وتأمّله فتحقق أنه النبيّ المنتظر ، فقال له : إنّي سائلك عن ثلاث لا يعلمهنّ إلا نبي : "ما أوّل أشراط الساعة ؟ وما أوّل طعام أهل الجنة ؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمّه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم أخبرني بهنّ جبريل آنفاً قال : جبريل ؟ قال : نعم قال : ذاك عدوّ اليهود من الملائكة فقرأ ﴿ من كان عدوّاً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله ﴾ (سورة البقرة ، آية :)

(191/703)

ثم قال : أما أول أشراط الساعة ، فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب . وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت . وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل نزعه ، وإذا سبق

ماء المرأة نزعته . فقال : أشهد أنك لرسول الله حقاً . ثم قال : يا رسول الله إن اليهود قوم بهت وإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني عندك فجاءت اليهود ، فقال لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم أيّ رجل عبد الله فيكم ؟ فقالوا : خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا ، وأعلمنا وابن أعلمنا ، قال أفرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام ؟ فقالوا : أعاذه اللّه من ذلك فخرج إليهم عبد اللّه فقال : أشهد أن لا إله إلا اللّه وأشهد أن محمداً رسول اللّه ، فقالوا : شرّنا وابن شرّنا ، وانتقصوه فقال : هذا ما كنت أخاف منه يا رسول الله . قال سعد بن أبي وقاص : "ما سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشي على الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام ؟ وفيه نزلت هذه الآية ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل ﴾ (الأحقاف :)

(192/703)

وقيل : الشاهد هو موسى بن عمران قال الشعبي : قال مسروق في هذه الآية : والله ما نزلت في عبد الله بن سلام لأنّ ال ﴿ حم ﴾ نزلت بمكة وإنما أسلم عبد الله بن سلام بالمدينة قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعامين فكيف يمكن حمل هذه الآية المكية على واقعة حدثت في عهد الرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ؟ وإنما نزلت

الآية في محاجة كانت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت بالمدينة وأجاب الكلبي : بأنّ السورة مكية إلا هذه الآية فإنها مدنية ، وأن الله تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يضعها في هذه السورة المكية في هذا الموضع المعين . وقيل المراد بالشاهد موسى ، ومثل القرآن هو التوراة . فشهد موسى على التوراة ، ومحمد على الفرقان فكل واحد يصدّق الآخر : لأن التوراة مشتملة على البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن مصدّق للتوراة . وجواب الشرط : ألستم ظالمين دل عليه قوله تعالى:

﴿ إن الله ﴾ أي : الملك الأعظم ذا العزة والحكمة ﴿ لا يهدي القوم ﴾ أي : الذين لهم قوّة على القيام بما يريدون ﴿ الظالمين ﴾ أي : الذين من شأنهم وضع الأمور في غير مواضعها فلأجل ذلك لا يهديكم ، إذ لا أحد أرسخ منكم في الظلم الذي تسبب عنه هلاككم .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَاذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ * وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَاذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ * إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولَائِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ وقال الذين كفروا ﴾ أي : تعمدوا تغطية الحق ﴿ للذين ﴾ أي : لأجل إيمان الذين ﴿ آمنوا ﴾ أي سبقوهم إلى الإيمان ﴿ لو كان ﴾ أي : إيمانهم بالقرآن ﴿ خيراً ﴾ أي : من جملة الخيور ﴿ ما سبقونا إليه ﴾ ونحن أشرف منهم ، وأكثر أموالاً وأولاداً ، وأعلم بتحصيل العز والسؤدد الذي هو مناط الخير . كما لم يسبقونا إلى شيء من هذه الخيرات التي نحن فائزون بها وهم صفر منها لكن ليس بخير ، فلهذا سبقونا إليه ﴿ وإذ ﴾ أي : فحين ﴿ لم يهتدوا به ﴾ أي : بالقرآن كما اهتدى به أهل الإيمان ﴿ فسيقولون هذا ﴾ أي : القرآن الذي سبقتم إليه ﴿ إفك ﴾ أي : شيء مصروف عن وجهه إلى قفاه ﴿ قديم ﴾ أي : أفك غيره وعثر هو عليه فأتى به ونسبه إلى الله تعالى كما قالوا أساطير الأولين

﴿ ومن ﴾ أي : قالوا ذلك ، والحال أنه كان في بعض الزمن الذي من ﴿ قبله ﴾ أي : القرآن ﴿ كتاب موسى ﴾ كليم الله تعالى ، حال كون كتابه وهو التوراة ﴿ إماما ﴾ أي : يستحق أن يؤمّه كل من سمع به ﴿ ورحمة ﴾ لما فيه من نعم الدلائل على الله تعالى ، والبيان الشافي ، وفي الكلام محذوف ، تقديره : وتقدّمه كتاب موسى إماماً ورحمة ولم يهتدوا به كما قال تعالى في الآية الأولى ﴿ وإذ لم يهتدوا به ﴾ .

﴿ وهذا ﴾ أي : القرآن ﴿ كتاب ﴾ أي : جامع لجميع الخيرات ﴿ مصدّق ﴾ أي : لكتاب موسى عليه السلام ، وغيره من الكتب التي تصح نسبتها إلى الله تعالى في أنّ محمداً

صلى الله عليه وسلم رسول من عند الله تعالى وقوله تعالى : ﴿ لساناً ﴾ حال من الضمير في مصدّق . وقوله:

(194/703)

﴿ عربياً ﴾ صفة ل ﴿ لساناً ﴾ وهو المسوّغ لوقوع هذا الجامد حالاً أي : في أعلى طبقات اللسان العربي ، مع كونه أسهل الكتب تناولاً ، وأبعدها عن التكلف ، ليس هو بحيث يمنعه علوّه بفخامة الألفاظ ، وجلالة المعاني ، ودقة الإشارة عن سهولة الفهم ، وقرب التناول . وقوله تعالى : ﴿ لينذر ﴾ أي : الكتاب بحسن بيانه ، وعظم شأنه ﴿ الذي ظلموا ﴾ أي : سواء كانوا عريقين في الظلم ، أم لا وقرأ نافع وابن عامر : بالتاء خطاباً أي : أيها الرسول . والباقون : بالياء غيبة بخلاف عن البزي . ﴿ وبشرى ﴾ أي : كاملة ﴿ للمحسنين ﴾ أي : المؤمنين ، بأنّ لهم الجنة ولما قرّر دلائل التوحيد والنبوّة ، وذكر شبهات المتكبرين وأجاب عنها ذكر بعد ذلك طريقة المحقين . فقال تعالى:

﴿ إن الذين قالوا ربنا ﴾ أي : خالقنا ومولانا والمحسن إلينا ﴿ الله ﴾ وحده ﴿ ثم استقاموا ﴾ أي : جمعوا بين التوحيد الذي هو خلاصة العلم والاستقامة في الأمور التي هي منتهى العلم ، و ﴿ ثم ﴾ للدلالة على تأخر رتبة العمل وتوقف اعتباره على التوحيد

﴿ فلا خوف عليهم ﴾ أي : من لحوق مكروه ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ أي : على فوات محبوب ، والفاء لتضمن الاسم معنى الشرط . ﴿ أولئك ﴾ أي : العالون الدرجات ﴿ أصحاب الجنة خالدين فيها ﴾ خلوداً لا آخر له جوزوا بذلك ﴿ جزاءً بما ﴾ أي : بسبب ما ﴿ كانوا ﴾ طبعاً وخلقاً ﴿ يعملون ﴾ أي : على سبيل التجديد المستمر .

ولما كان رضا الله تعالى في رضا الوالدين وسخطه في سخطهما كما ورد به الحديث حث عليه بقوله تعالى:

﴿ ووصينا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ الإنسان ﴾ أي : هذا النوع الذي أنس بنفسه ﴿ بوالديه ﴾ وقرأ : ﴿ حسناً ﴾ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بضم الحاء وسكون السين . وقرأ الكوفيون بسكون الحاء وقبلها همزة مكسورة وفتح السين وبعدها ألف ، فهو منصوب على المصدر بفعل مقدّر ، أي : وصيناه أن يحسن إليهما إحساناً ، ومثله حسناً . وقرأ:

﴿ حملته أمّه كرهاً ﴾ أي : على مشقة ﴿ ووضعته كرهاً ﴾ أي : بمشقة الكوفيون وابن ذكوان بضم الكاف فيهما ، والباقون بالفتح ، وهما لغتان بمعنى واحد . مثل الضعف

والضعف ، وقيل : المضموم اسم ، والمفتوح مصدر . وليس المراد ابتداء الحمل . فإنّ ذلك لا يكون بمشقة لقوله تعالى : ﴿ فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمّرت به فلما أثقلت ﴾ (سورة الأعراف ، آية :)

فحينئذ حملته كرهاً ووضعته كرهاً .

تنبيه : دلت الآية على أنّ حق الأم أعظم لأنه تعالى قال : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسناً ﴾ فذكرهما معاً ثم خص الأم بالذكر فقال : ﴿ حملته أمّه كرهاً ووضعته كرهاً ﴾ وذلك يدل على أن حقها أعظم ، وأنّ وصول المشاق إليها بسبب الولد كثيرة والأخبار كثيرة . في هذا الباب . ﴿ وحمله وفصاله ﴾ أي : من الرضاع ﴿ ثلاثون شهراً ﴾ كل ذلك بيان لما تكابده الأم في تربية الولد ، ومبالغة في الوصية بها . وفي ذلك دلالة على أنّ أقل مدّة الحمل ستة أشهر ، لأنه لما كان مجموع مدة الحمل والرضاع ثلاثين شهراً ، وقال تعالى :

﴿ والوالدات يرضعن أولادهنّ حولين كاملين ﴾ (البقرة :)

فإذا أسقطنا الحولين الكاملين ، وهي أربعة وعشرون شهراً من ثلاثين بقي مدة الحمل ستة أشهر .

روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إذا حملت المرأة تسعة أشهر ، أرضعت أحد وعشرين شهراً . وإذا حملت ستة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهراً

وروي عن أبي بكر أنّ امرأة دفعت إليه وقد ولدت لستة أشهر فأمر برجمها ، فقال عمر : لا

رجم عليها ، وذكر الطريق المتقدمة وعن عثمان نحوه ، وأنه همّ بذلك ، فقرأ ابن عباس رضي الله عنهما عليه الآية . وأما مدة أكثر الحمل فليس في القرآن ما يدل عليه ، واختلف الأئمة في ذلك : فعند الشافعي أربع سنين . وقوله تعالى:

(196/703)

﴿ حتى إذا بلغ أشده ﴾ لا بد فيه من جملة محذوفة . تكون حتى غاية لها ، أي : عاش واستمّرت حياته حتى إذا بلغ أشده قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء : الأشد ثماني عشرة سنة ، وقيل : نهاية قوّته وغاية شبابه واستوائه ، وهو ما بين ثماني عشرة سنة إلى أربعين سنة فذلك قوله تعالى : ﴿ وبلغ أربعين سنة ﴾ وقال السدي والضحاك : نزلت في سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، وقيل : نزلت في أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه : وأبيه أبي قحافة عثمان بن عمرو وأمّه أم الخير بنت صخر بن عمرو وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه الآية في أبي بكر الصدّيق أسلم أبواه جميعاً ولم يجتمع لأحد من المهاجرين أبواه غيره ، أوصاه الله تعالى بهما ولزم ذلك من بعده ، وكان أبو بكر يصحب النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثماني عشرة سنة والنبيّ صلى الله عليه وسلم ابن عشرين سنة في تجارته إلى الشام ، فلما بلغ أربعين سنة ، وتنبأ النبيّ صلى الله

عليه وسلم آمن به ثم آمن أبواه ، ثم ابنه عبد الرحمن ، وابن عبد الرحمن أبو عتيق ثم إنّ أبا بكر دعا ربه بأن ﴿ قال رب أوزعني ﴾ أي : ألهمني ، وقرأ ورش والبزي : بفتح الياء في الوصل ، والباقون بسكونها ﴿ أن أشكر نعمتك التي أنعمت ﴾ أي : بها ﴿ علي ﴾ أي : وعلى أولادي ﴿ وعلى والديّ ﴾ وهي : التوحيد .

(197/703)

وأكثر المفسرين : على أنّ الأشد ثلاث وثلاثون . قال الرازي : مراتب الحيوان ثلاثة ؛ لأنّ بدن الحيوان لا يكون إلا برطوبة غريزية وحرارة غريزية والرطوبة الغريزية زائدة في أوّل العمر ناقصة في آخره . والانتقال من الزيادة إلى النقصان لا يعقل حصوله إلا إذا حصل الاستواء في وسط هاتين المدّتين ، فثبت أنّ مدّة العمر منقسمة إلى ثلاثة أقسام فأوّلها : أن تكون الرطوبة الغريزية زائدة على الحرارة الغريزية . وحينئذ تكون الأعضاء عظيمة التمدد في ذواتها وزيادتها في الطول والعرض والعمق وهذا هو سن النشء والثانية وهي المرتبة المتوسطة أن تكون الرطوبة الغريزية وافية بحفظ الحرارة الغريزية من غير زيادة ولا نقصان . وهذا هو سن الوقوف ، وهو حين الشباب .

والمرتبة الثالثة : أن تكون الرطوبة الغريزية ناقصة عن الوفاء بحفظ الحرارة الغريزية ثم هذا

النقصان على قسمين فالأول : هو النقصان الخفي ، وهو سن الكهولة . والثاني : هو النقصان الظاهر ، وهو سن الشيخوخة .

قال المفسرون : لم يبعث نبيّ قط إلا بعد الأربعين سنة . قال الرازي : وهذا يشكل بعيسى عليه السلام فإنه تعالى جعله نبياً من أوّل عمره ، إلا أنه يجب أن يقال : الأغلب أنه ما جاء الوحي إلا بعد الأربعين ، وهكذا كان الأمر في حق نبينا صلى الله عليه وسلم ثم إنّ أبا بكر دعا أيضاً فقال : ﴿ وأن أعمل صالحاً ترضاه ﴾ قال ابن عباس : أجاب الله تعالى دعاء أبي بكر ، فأعتق تسعة من المؤمنين يعذبون في الله تعالى ، منهم بلال ولم يرد شيئاً من الخير إلا أعانه الله عليه ودعا أيضاً فقال : ﴿ وأصلح لي في ذرّيتي ﴾ فأجاب الله تعالى دعاءه ، فلم يكن له ولد إلا آمن فاجتمع له إسلام أبويه وأولاده جميعاً وأدرك أبواه وابنه عبد الرحمن وابن ابنه أبو عتيق النبيّ صلى الله عليه وسلم وهم مؤمنون . ولم يكن ذلك لأحد من الصحابة .

تنبيه أصلح يتعدى بنفسه لقوله تعالى : ﴿ وأصلحنا له زوجه ﴾ (الأنبياء :)

(198/703)

وإنما تعدى بفي لتضمنه معنى ألطف بي في ذرّيتي ، أو لأنه جعل الذرّية ظرفاً للإصلاح والمعنى : هب لي الصلاح في ذرّيتي وأوقعه فيهم .

﴿ إني تبت ﴾ أي : رجعت ﴿ إليك ﴾ عن كل ما يقدح في الإقبال عليك . وأكده إعلاماً بأنّ حاله في الإقبال على الشهوات حال من يبعد منه الإقلاع : فينكر إخباره به وكذا قوله : ﴿ وإني من المسلمين ﴾ أي : الذين أسلموا بظواهرهم وبواطنهم فانقادوا أتمّ انقياد .

﴿ أولئك ﴾ أي : العالون الرتبة ، القائلون هذا القول أبو بكر ، وغيره .

﴿ الذين يتقبل ﴾ بأسهل وجه ﴿ عنهم ﴾ وأشار بصيغة التفعل إلى أنه يعمل في قبوله عمل المعتني ، والتقبل من الله هو إيجاب الثواب له على عمله وقوله تعالى : ﴿ أحسن ما عملوا ﴾ أي : أعمالهم الصالحة التي عملوها في الدنيا .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى ﴿ أحسن ﴾ والله تعالى يتقبل الأحسن وما دونه ؟ .

أجيب بوجهين أحدهما : أنّ المراد بالأحسن الحسن ، كقوله تعالى : ﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ (الزمر :)

وكقوله : الناقص والأشج أعدلا بني مروان . أي : عادلا بني مروان .

ثانيهما : أنّ الحسن من الأعمال هو المباح الذي لا يتعلق به ثواب ولا عقاب . والأحسن ما يغاير ذلك ، وهو المندوب ، أو الواجب .

ولما كان الإنسان محل النقصان وإن كان محسناً ، نبه على ذلك بقوله تعالى:

﴿ ويتجاوز ﴾ أي بوعد لا خلف فيه ﴿ عن سيئاتهم ﴾ أي : فلا يعاقبهم عليها . وقرأ حفص وحمزة والكسائي : بنون مفتوحة قبل الفوقية من ﴿ يتقبل ﴾ ونصب ﴿ أحسن ﴾

، ونون مفتوحة قبل الفوقية من ﴿ يتجاوز ﴾ والباقون بياء مضمومة قبل الفوقية من ﴿ يتقبل ﴾ ، و ﴿ يتجاوز ﴾ ورفع ﴿ أحسن ﴾ وقوله تعالى:

(199/703)

﴿ في أصحاب الجنة ﴾ في محل الحال أي : كائنين في جملة أصحاب الجنة . كقولك أكرمني الأمير في أصحابه أي : في جملتهم . وقيل : خبر مبتدأ مضمر أي : هم في أصحاب الجنة وقوله تعالى : ﴿ وعد الصدق ﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة لأنّ قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين يتقبل عنهم ﴾ في معنى الوعد . فيكون قوله تعالى : ﴿ يتقبل ﴾ ، و ﴿ يتجاوز ﴾ وعداً من الله تعالى لهم بالتقبل والتجاوز . والمعنى يعامل من صفته ما قدّمنا بهذا الجزاء . وذلك وعد من الله تعالى صدق ، لكونه مطابقاً للواقع ﴿ الذي كانوا يوعدون ﴾ أي : يقع لهم الوعد به في الدنيا ممن لا أصدق منهم ، وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام حين أخبروا بقوله تعالى : ﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات ﴾ (التوبة :) ولما وصف تعالى الولد البار بوالديه وصف الولد العاق لهما . بقوله تعالى:

(200/703)

والمراد به الجنس . وقال ابن عباس والسدي : نزلت في عبد الله بن أبيّ . وقيل : في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه ؛ كان أبواه يدعوانه إلى الإسلام ، وهو يأبى ، وهو ﴿ قوله أف لكما ﴾ وقال الحسن وقتادة : إنها نزلت في كل كافر عاق لوالديه وعلى ثبوت أنها نزلت فيمن تقدم ، لا ينافي أن المراد الجنس ، فإنّ خصوص السبب لا يوجب التخصيص وفي ﴿ أف ﴾ قراءات ذكرت في سورة بني إسرائيل ﴿ أتعدانني ﴾ أي : على سبيل الاستمرار والتجديد في كل وقت وقرأ هشام بإدغام النون الأولى في الثانية وفتح الياء نافع وابن كثير وسكنها الباقون . ﴿ أن أخرج ﴾ أي : من مخرج يخرجني من الأرض بعد أن غبت فيها وصرت تراباً يحييني كما كنت أوّل مرّة ﴿ وقد ﴾ أي : والحال أنه قد ﴿ خلت ﴾ أي : مضت على سنن الموتى ﴿ القرون ﴾ أي : الأمم الكثيرة مع صلابتهم ﴿ من قبلي ﴾ أي : قرناً بعد قرن ، وتطاولت الأزمان ، ولم يخرج منهم أحد من القبور ﴿ وهما ﴾ أي : والحال أنهما كلما قال لهما ذلك ﴿ يستغيثان الله ﴾ أي : يطلبان بدعائهما من له جميع صفات الكمال أن يغيثهما بإلهامه قبول كلامهما ويقولان إن لم ترجع ﴿ ويلك ﴾ أي : هلاكك بمعنى : هلكت ﴿ آمن ﴾ أي : أوقع الإيمان الذي لا إيمان غيره ، وهو الذي ينقذ من كل هلكة ، ويوجب كل فوز ، بالتصديق بالبعث وبكل ما جاء عن الله تعالى . ثم علّلا أمرهما على هذا الوجه مؤكدين في مقابلة إنكاره بقولهما : ﴿ إنّ وعد الله ﴾ أي : الملك المحيط بجميع

صفات الكمال حق أي : ثابت أعظم ثبات ؛ لأنه لو لم يكن حقاً لكان نقصاً من جهة الأخلاق الذي لا يرضاه لنفسه أقل الملوك . فكيف بملك الملوك ؟ ﴿ فيقول ﴾ مسبباً عن قولهما ومعقباً له ﴿ ما هذا ﴾ أي : الذي تذكرانه من البعث ﴿ إلا أساطير ﴾ أي : أكاذيب ﴿ الأوّلين ﴾ التي كتبوها .

﴿ أولئك ﴾ أي البعداء من العقل والمروءة وكل خير .

(201/703)

﴿ الذين حق ﴾ أي : ثبت ووجب ﴿ عليهم القول ﴾ أي : الكامل في بابه ، بأنهم أسفل السافلين . وهذا كما قال البيضاوي يردّ على من قال : إنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر ؛ لأنه يدل على أنه من أهلها لذلك وقد جبّ عنه إن كان لإسلامه وقال البقاعي : وهذا يكذب من قال : إنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر فإنه أسلم وصار من أكابر الصحابة فحقت له الجنة ، ولما أثبت لهم هذه الشنعة بين كثرة من شاركهم فيها بقوله تعالى : ﴿ في ﴾ أي : كائنين في ﴿ أمم ﴾ أي : خلائق كانوا بحيث يقصدهم الناس ، ويتبع بعضهم بعضاً ﴿ قد خلت ﴾ أي : تلك الأمم ﴿ من قبلهم ﴾ وكانوا قدوتهم وأدخل الجار ؛ لأنّ المحكوم عليه بعض السالفين ﴿ من الجنّ ﴾ لأنّ العرب كانت تستعظمهم ، وتستجير

بهم وذلك لأنهم يتظاهرون لهم ، ويؤذونهم ولم يقطع أذاهم لهم ، وتسلطهم عليهم ظاهراً وباطناً إلا القرآن : فإنه أحرقهم بأنواره ، وجلاهم عن تلك البلاد بتجلي آثاره

﴿ والإنس ﴾ ولا نفعتهم كثرتهم ولا أغنت عنهم قوتهم وقوله تعالى ﴿ إنهم ﴾ أي : كلهم ﴿ كانوا ﴾ أي : جبلة وطبعاً وخلقاً لا يقدرون على الانفكاك عنه ﴿ خاسرين ﴾ أي عريقين في هذا الوصف تعليل للحكم على الاستئناف . ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾ قال ابن عباس : يريد من سبق إلى الإسلام فهو أفضل ممن تخلف عنه ولو ساعة وقال مقاتل : ولكل واحد من الفريقين يعنى البارّ بوالديه والعاق لهما درجات في الإيمان والكفر والطاعة والمعصية .

فإن قيل كيف يجوز إطلاق لفظ الدرجات على أهل النار وقد روي "الجنة درجات والنار دركات" أجيب من وجوه أحدها : أنّ ذلك على جهة التغليب وثانيها : قال ابن زيد : درج أهل الجنة تذهب علواً ، ودرج أهل النار تذهب هبوطاً وثالثها : المراد بالدرجات المراتب المتزايدة ، فدرجات أهل الجنة في الخيرات والطاعات ، ودرجات أهل النار في المعاصي والسيئات .

(202/703)

وقوله تعالى : ﴿ وليوفيهم أعمالهم ﴾ أي : جزاءها معلله محذوف ، تقديره : جازاهم بذلك . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو وهشام ، وعاصم : بالياء التحتية أي : الله والباقون بالنون أي نحن وقوله تعالى : ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ أي : شيئاً بنقص للمؤمنين ولا بزيادة للكافرين (والواو) إمّا استئناف وإمّا حال مؤكدة .

(203/703)

﴿ ويوم ﴾ أي : واذكر يا أفضل الخلق لهؤلاء يوم يعرضون هكذا كان الأصل . ولكنه تعالى أظهر الوصف الذي أوجب لهم الخزي بقوله تعالى : ﴿ يعرض الذين كفروا على النار ﴾ أي : يصلون لهيبها ويقلبون فيها ، كما يعرض اللحم الذي يشوى وقيل : تعرض عليهم النار ليروا أهوالها ، مقولاً لهم على سبيل التنديم والتقريع والتوبيخ والتشنيع ؛ لأنهم لم يذكروه تعالى حق ذكره عند شهواتهم بل نالوها عند مخالفة أمره سبحانه وتعالى . ﴿ أذهبتم طيباتكم ﴾ أي : لذاتكم باتباعكم الشهوات . وقرأ ابن كثير وابن عامر قبل الدال : بهمزتين مفتوحتين الأولى : محققة بلا خلاف . والثانية : مسهلة بخلاف عن هشام وأدخل هشام بينهما ألفاً ولم يدخل ابن كثير وابن ذكوان والباقون بهمزة واحدة محققة . ﴿ في حياتكم الدنيا ﴾ أي : القريبة الدنية المؤذن وصفها لمن يعقل بحياة أخرى بعدها ، فكان

سعيكم في حركاتكم وسكناتكم لأجلها حتى نلتموها ﴿ واستمتعتم ﴾ أي : طلبتم وأوجدتم انتفاعكم ﴿ بها ﴾ وجعلتموها غاية حظكم في رفعتكم ونعمتكم . والمعنى : أن ما قدّر لكم من الطيبات والدرجات فقد استوفيتموه في الدنيا فلم يبق لكم بعد استيفاء حظكم شيء منها وعن عمر رضي الله عنه "لو شئت لكنت أطيبكم طعاماً وأحسنكم لباساً ولكني أستبقي طيباتي" قال الواحدي : إنّ الصالحين يؤثرون التقشف والزهد في الدنيا رجاء أن يكون ثوابهم في الآخرة أكمل لأنّ هذه الآية لا تدل على المنع من التمتع لأنها وردت في حق الكافر وإنما وبخ الله تعالى الكافر لأنه تمتع بالدنيا ولم يؤدّ شكر المنعم فلا يوبخ بتمتعه ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ (الأعراف :)

نعم لا ينكر أنّ الاحتراز عن التنعم أولى لأنّ النفس إذا اعتادت التنعم صعب عليها الاحتراز والانقياد وحينئذ ربما حمل الميل إلى تلك الطيبات على فعل ما لا ينبغي .

(204/703)

روى عمر قال : "دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو على رمال حصير ، قد أثر الرمال بجنبه فقلت : يا رسول الله ، ادع الله تعالى أن يوسع على أمتك ، فإنّ فارس

والروم قد وسع عليهم وهم يعبدون غير الله تعالى . فقال صلى الله عليه وسلم أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا" وعن عائشة رضي الله عنها قالت : ما شبع آل رسول الله صلى الله عليه وسلم من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنها أنها قالت : "كان يأتي علينا الشهر ما نوقد فيه ناراً وما هو إلا الماء والتمر" "وعن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيت الليالي المتتابعة طاوياً وأهله لا يجدون عشاء وكان أكثر خبزهم الشعير" والأحاديث في هذا كثيرة ولما كانت الاستهانة بالأوامر والنواهي استهانة بيوم الجزاء سبب عنه قوله تعالى: ﴿ فاليوم تجزون ﴾ أي : على إعراضكم عنا ﴿ عذاب الهون ﴾ أي : الهوان العظيم المجتمع الشديد الذي فيه ذلّ وخزي ﴿ بما كنتم ﴾ أي : جبلة وطبعاً ﴿ تستكبرون ﴾ أي : تطلبون الترفع وتوجدونه على الاستمرار ﴿ في الأرض ﴾ التي هي لكونها تراباً وموضوعة على الزوال والخراب أحق شيء بالتواضع والذل والهوان ﴿ بغير الحق ﴾ أي : الأمر الذي يطابقه الواقع ، وهو أوامرنا ونواهينا ﴿ وبما كنتم ﴾ أي : على الاستمرار ﴿ تفسقون ﴾ أي : بسبب الاستكبار الباطل ، والفسوق عن طاعة الله تعالى .

تنبيه : دلت الآية على أنّ الكفار مخاطبون بفروع الشريعة لأنّ الله تعالى علل عذابهم بأمرين ؛ أولهما : الكفر . وثانيهما : الفسق وهذا الفسق لا بدّ وأن يكون مغايراً لذلك الكفر ، لأنّ

العطف يوجب المغايرة فثبت أنّ فسق الكفار يوجب العقاب في حقهم ولا معنى للفسق إلا ترك المأمورات وفعل المنهيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 7 صـ 5 . 21 ﴾

(205/703)

وقال القاسمى :

سورة الأحقاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴾ [1 - 3] .

﴿ حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أي : الحكمة ولإقامة العدل في الخلق ﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي : وبتقدير أجل معين لكل منها ، يفنيه إذا هو بلغه ، وهو يوم القيامة ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا ﴾ أي : من هول ذلك اليوم : ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾ أي : لا يؤمنون .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [4] .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي : من الأوثان التي تعبدونها ﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ أي : أروني ما تأثير ما تعبدونه في شيء أرضيّ بالاستقلال ، أو شيء سماوي بالشركة ، حتى تستحق العبادة ﴿ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا ﴾ تبكيت لهم بتعجيزهم عن الإتيان بسند نقلي ، بعد تبكيتهم بالتعجيز عن الإتيان بسند عقلي . أي : ائتوني بكتاب إلهي من قبل هذا القرآن الناطق بالتوحيد ، وإبطال الشرك ، دالّ على صحة دينكم ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ أي : أو بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأولين ، شاهدة باستحقاقهم للعبادة ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي : في دعواكم ، فإنها لا تكاد تصح ، ما لم يقم عليها برهان عقلي ، أو سلطان نقلي . وحيث لم يقم عليها شيء منهما ، وقد قامت على خلافها أدلة العقل والنقل ، تبين بطلانها .

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ [5] .

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ ﴾ أي : دعاءه لعجزه عنها : ﴿ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ أي : لأنهم إما جمادات ، وإما مسخّرون

مشغولون بأحوالهم . والغفلة : مجاز عن عدم الفائدة فيها ، أو هو تغليب لمن يتصور منه الغفلة على غيره .

لطيفة :

(207/703)

قال الناصر : في قوله : ﴿ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ نكتة حسنة . وذلك أنه جعل يوم القيامة غاية لعدم الاستجابة ، ومن شأن الغاية انتهاء المغيّا عندها ، لكن عدم الاستجابة مستمر بعد هذه الغاية ؛ لأنهم في القيامة أيضاً لا يستجيبون لهم . فالوجه – والله أعلم – أنها من الغايات المشعرة بأن ما بعدها ، وإن وافق ما قبلها ، إلا أنه أزيد منه زيادة بينة تلحقه بالثاني ، حتى كأن الحالتين ، وإن كانتا نوعاً واحداً لتفاوت ما بينهما ، كالشيء وضده ، وذلك أن الحالة الأولى التي جعلت غايتها القيامة ، لا تزيد على عدم الاستجابة . والحالة الثانية التي في القيامة ، زادت على عدم الاستجابة بالعداوة ، وبالكفر بعبادتهم إياهم . فهو من وادي ما تقدم آنفاً في سورة الزخرف في قوله : ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [الزخرف : 29 –

30] انتهى .

﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [6] .

(208/703)

﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ ﴾ أي : جمعوا يوم القيامة لموقف الحساب : ﴿ كَانُوا ﴾ أي : آلهتهم : ﴿ لَهُمْ أَعْدَاء ﴾ أي : لتبرئهم منهم . قال الشهاب : أعداء استعارة ، أو مجاز مرسل للضارّ ﴿ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ قال ابن جرير : أي : وكانت آلهتهم التي يعبدونها في الدنيا ، بعبادتهم جاحدين ؛ لأنهم يقولون يوم القيامة : ما أمرناهم بعبادتنا ، ولا شعرنا بعبادتهم إيانا ، تبرّأنا إليك منهم ، يا ربنا ! أي : فالتكذيب بلسان المقال ، قصداً إلى بيان أن معبودهم في الحقيقة الشياطين ، وأهواؤهم . وقال القاشاني : كانوا أعداء ، لأن عبادة أهل الدنيا لسادتهم وخدمتهم إياهم ، لا تكون إلا لغرض نفسانيّ . وكذا استعباد الموالي لخدمهم ، فإذا ارتفعت الأغراض ، وزالت العلل والأسباب ، كانوا لهم أعداء ، وأنكروا عبادتهم ، ويقولن : ما خدمتمونا ، ولكن خدمتم أنفسكم . كما قيل في تفسير قوله : ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [الزخرف : 67] انتهى .

وقيل : الضمير في : ﴿ كَانُوا ﴾ في الموضعين ، للعابدين ، لئلا يلزم التفكيك . وفيه نظر :

لأنه اختلاف المتبادر من السياق ؛ إذ هو لبيان حال الآلهة معهم ، لا عكسه ، ولأن كفرهم حينئذ إنكار لعبادتهم . وتسميته كفراً ، خلاف الظاهر أيضاً . وقد أوضح ذلك آية :

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم : 82] . والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [7] .

(209/703)

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ أي : بادهوه بالجحود أول ما سمعوه , من غير إجالة فكر , ولا إعمال رؤية . واللام في : ﴿ لِلْحَقِّ ﴾ لام الأجل متعلقة بـ : ﴿ قَالَ ﴾ وقيل : بمعنى الباء متعلقة بـ : ﴿ كَفَرُوا ﴾ وعُدّي الكفر باللام حملاً على نقيضه ، وهو الإيمان ؛ فإنه يُعدى بها نحو : ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ ﴾ [الشعراء : 111]

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [8] .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ﴾ أي : لا تقدرون أن تدفعوا عني سوءاً ، إن أصابني به . وأم – على ما قالوا – منقطعة مقدرة بـ : بل ، الإضرابية وهمزة الاستفهام ، المتجوز به عن الإنكار والتعجيب ، ووجه كون الافتراء أشنع من السحر ، حتى أضرب عنه ، أن الكذب خصوصاً على الله متفق على قبحه ، حتى ترى كل أحد يشمئز من نسبته إليه بخلاف السحر ، فإنه ، وإن قبح ، فليس بهذه المرتبة ، حتى تكاد تعد معرفته من السمات المرغوبة . وقال الناصر : هذا الإضراب في بابه مثل الغاية التي قدمتها آنفاً في بابها ، فإنه انتقال إلى موافق ، لكنه أزيد من الأول ، فنزل لزيادته عليه ، مع ما تقدمه مما ينقص عنه ، منزلة المتنافيين ، كالنفي والإثبات اللذين يضرب عن أحدهما للآخر ، وذلك أن نسبتهم للآيات إلى أنها مفتريات ، أشدّ وأبعد من نسبتها إلى أنها سحر . فأضرب عن ذلك الأول إلى ما ذكر ما هو أغرب منه . انتهى .

(210/703)

﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أي : تخوضون في حقه من أنه سحر أو أفك : ﴿ كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ أي : يشهد لي بالصدق بما يؤيدني به من آياته ، وصدق مواعيده : ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ أي : لمن راجع منكم الكفر ، وتاب ، وآمن .

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [9] .

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنْ الرُّسُلِ ﴾ أي : ما كنت أول رسل الله التي أرسلها إلى خلقه . قد كان من قبلي له رسل كثيرة أرسلت إلى أمم قبلكم ، فلم تستنكرون بعثتي ، وتستبعدون رسالتي ، كقوله : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ [آل عِمْرَان : 144] ، والبدع : كالبديع ، بمعنى الجديد المبتدأ . قال ابن جرير : ومن البدع قول عديّ بن زيد :

~فَلَا أَنَا بِدْعٌ مِنْ حَوَادِثَ تَعْتَرِي رِجَالاً عَرَتْ مِنْ بَعْدِ بُؤْسَى وَأَسْعُدِ

ومن البديع قول الأحوص :

~فَخَرَتْ فَانْتَمَتْ فَقُلْتُ : ذَرِينِي لَيْسَ جَهْلٌ أُتِيتِهِ بِبَدِيعِ

﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾ قال أبو السعود : أي : أي : شيء يصيبنا فيما يستقبل من الزمان ، من أفعاله تعالى ، وماذا يقدّر لنا من قضاياه . وعن الحسن رضي الله عنه : ما أدري ما يصير إليه أمري ، وأمركم في الدنيا . وقيل : يجوز أن يكون المنفي هو الدراية المفصلة . والأظهر أن ما عبارة عما ليس علمه من وظائف النبوة من الحوادث والواقعات الدنيوية ، دون ما سيقع في الآخرة ، فإن العلم بذلك من وظائف النبوة ، وقد ورد به الوحي الناطق بتفاصيل ما يفعل بالجانبين . انتهى .

وهذا الأظهر يقرب من قول الحسن . وهو ما عول عليه ابن جرير . قال ابن كثير : بل لا يجوز غيره . كيف ؟ وهو صلى الله عليه وسلم جازم بأنه صائر إلى الجنة ، هو ومن اتبعه بإحسان . وأما في الدنيا ، فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره ، وأمر مشركي قريش ، أيؤمنون ، أم يكفرون فيعذبون فيستأصلون بكفرهم . فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أم العلاء ، وكانت بايعت النبي صلى الله عليه وسلم ، قالت : طار لنا في السكنى ، حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين ، عثمان بن مظعون رضي الله عنه ، فاشتكى عثمان عندنا ، فمرضناه . حتى إذا توفي أدرجناه في أثوابه ، فدخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت : رحمة الله عليك ، أبا السائب ! شهادتي عليك لقد أكرمك الله عز وجل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < أما هو فقد جاءه اليقين من ربه ، وإني لأرجو له الخير . والله ! ما أدري – وأنا رسول الله – ما يفعل بي ! > قالت : فقلت : والله ! لا أزكي أحداً بعده أبداً وأحزنني ذلك . فنمت ، فرأيت لعثمان رضي الله عنه عيناً تجري ، فجئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < ذاك عمله > فقد انفرد بإخراجه البخاري دون

مسلم ، وفي لفظ له : < ما أدري – وأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم – ما يفعل به > . وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ ، بدليل قولها : فأحزنني ذلك . وفي هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعيّن بالجنة ، إلا الذي نص الشارع على تعيينهم ، كالعشرة ، وابن سلام ، والعميصاء ، وبلال ، وسراقة ، وعبد الله بن عَمْرو بن حرام ، والدجابر ، والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة ، وزيد بن حارثة ، وجعفر ، وابن رواحة ، وما أشبه هؤلاء رضي الله عنهم . انتهى كلام ابن كثير .

(212/703)

وقال المهايمي : ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾ أي : فيما لو يوح إليّ . والوحي ببعض الأمور لا يستلزم العلم بالباقي . ولم يكن لي أن أضم إلى الوحي كذباً من عندي .

﴿ إِنْ أَتَّبِعُ ﴾ أي : في تقرير الأمور الغيبية : ﴿ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : منذر عقاب الله على كفركم به ، أَبَان لكم إنذاره ، وأبان لكم دعاءه إلى ما فيه صلاحكم ، وسعادتكم .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [10] .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ أي : القرآن منزلاً من لدنه ، عليّ . لا سحراً ، ولا مفترى كما تزعمون : ﴿ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي : من الواقفين على أسرار الوحي بما أوتوا من التوراة : ﴿ عَلَى مِثْلِهِ ﴾ أي : مثل القرآن ، وهو ما في التوراة من الأحكام المصدقة للقرآن من الإيمان بالله وحده ، وهو ما يتبعه ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء : 196] ، وقوله : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ [الأعلى : 18 - 19] ، أو على مثل ما ذكر من كونه من عند الله تعالى . أو على مثل شهادة القرآن ، فجعل شهادته على أنه من عند الله ، شهادة على مثل شهادة القرآن ؛ لأنه بإعجازه كأنه يشهد لنفسه بأنه من عند الله ، أو المثل صلة والفاء ، في قوله تعالى : ﴿ فَآمَنَ ﴾ للدلالة على أنه سارع إلى الإيمان بالقرآن ، لما علم أنه من جنس الوحي الناطق بالحق : ﴿ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ أي : عن الإيمان به بعد هذه الشهادة .

(213/703)

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ استئناف مشعر بأن كفرهم ، لضلالهم المسبب عن ظلمهم ، ودليل على الجواب المحذوف . مثل : أَلَسْتُمْ ظَالِمِينَ . أو فَمَنَ

أَضَلُّ مِنْكُمْ . وذلك عدم الهداية مما ينبئ عن الضلال قطعاً ، فيكون كقوله في الآية الأخرى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت : 52] .

قال أبو السعود : ووصفهم بالظلم للإشعار بعلة الحكم ، فإن تركه تعالى لهدايتهم ، لظلمهم

.

تنبيه :

روي أن الشاهد هو عبد الله بن سلام ، فتكون الآية مدنية مستثناة من السورة ، كما ذكره الكواشي ؛ لأن إسلامه كان بالمدينة . وأجيب : بأن لا حاجة للاستثناء ، وأن الآية من باب الإخبار قبل الوقوع ، كقوله : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ ﴾ [الأعراف : 48] . ويرشحه أن : ﴿ شَهِدَ ﴾ معطوف على الشرط الذي يصير به الماضي مستقبلاً ، فلا ضير في شهادة الشاهد بعد نزولها ، ويكون تفسيره به بياناً للواقع ، لا على أنه مراد بخصوصه منها . هذا ما حققوه . ويقرب مما نذكره كثيراً من المراد من سبب النزول في مثل هذا ، وأنه استشهاد على ما يتناوله اللفظ الكريم .

ثم أشار إلى حكاية نوع من أباطيلهم في التنزيل والمؤمنين به ، فقال سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ [11] .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ ﴾ أي : الإيمان ، أو ما أتى به الرسول : ﴿ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ أي : لو كان من عند الله لكنا أولى به ، كسائر الخيرات من المال ، والجاه .

(214/703)

قال ابن كثير : يعنون بلالاً ، وعماراً ، وصهيباً ، وخباباً رضي الله عنهم ، وأشباههم ، وأضرابهم من المستضعفين ، والعبيد ، والإماء ، وما ذاك إلّا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة ، وله بهم عناية . وقد غلطوا في ذلك غلطاً فاحشاً ، وأخطأوا خطأً بيّناً ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ [الأنعام : 53] أي : يتعجبون كيف اهتدى هؤلاء دوننا ، ولهذا قالوا : ﴿ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ ، وأما أهل السنة والجماعة فيقولون في كل فعل ، وقول لم يثبت عن الصحابة رضي الله عنهم : هو بدعة ؛ لأنه لو كان خيراً لسبقونا إليه ؛ لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها . انتهى ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ﴾ أي : بالقرآن : ﴿ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ أي : كذب قديم ، كما قالوا : ﴿ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ .

قال ابن كثير : فيتنقصون القرآن وأهله ، وهذا هو الكبر الذي قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : < بطر الحق وغمط الناس > .

﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيّاً لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ [12] .

(215/703)

﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً ﴾ أي : قدوة يؤتم به في دين الله ، وشرائعه ، ورحمة لمن آمن به ، وعمل بما فيه ﴿ وَهَذَا ﴾ أي : الذي يقولون فيه ما يقولون : ﴿ كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ ﴾ أي : لكتاب موسى من غير تعلم من أنزل عليه إياه : ﴿ لِّسَاناً عَرَبِيّاً ﴾ أي : بيّناً واضحاً , وفي تقييد الكتاب بذلك ، مع أن عربيته أمر معلوم الدلالة ، على أن تصديقه لها باتحاد معناه معها ، وهي غير عربية . ومثله لا يكون ممن يعرف ذلك اللسان بغير وحي من الله تعالى ﴿ لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [13 - 14] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ أي : لا غيره ﴿ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ أي : على العمل الصالح .

قال القاضي : أي : جمعوا بين التوحيد الذي هو خلاصة العلم ، والاستقامة في الأمور ، التي

هي منتهى العمل . و : ﴿ ثُمَّ ﴾ للدلالة على تأخير رتبة العمل ، وتوقف اعتباره على التوحيد : ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : من هول يوم القيامة : ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أي : لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴿ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

(216/703)

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [15] .

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً ﴾ وقرئ : ﴿ حُسْناً ﴾ ، وهذا تمهيد لمن عقهما وعصاهما في الإيمان المذكور ، في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ ﴾ [الأحقاف : 17] الآية .

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً ﴾ أي : ذات كره ، أو حملاً ذا كره ، وهو المشقة ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ﴾ أي : حمله جنيناً في بطنها ، وفطامه من الرضاع : ﴿ ثَلَاثُونَ شَهْراً ﴾ أي : تمضي عليها بمعاناة المشاق ، ومقاساة الشدائد لأجله ، مما يوجب للأم مزيد العناية ،

وأكيد الرعاية ، لا يقال : بقي ثلاثة أشهر ، لأن أمد الرضاع حولان ، لأنا نقول : إن الحولين أمد من أراد تمام الأجل ، وإلا فأصله أقل منهما ، كما ينبئ عنه قوله تعالى : ﴿ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ [البقرة : 233] ، ولئن سلم أنهما أمدها ، فيكون في الآية الاكتفاء بالعقود ، وحذف الكسور ، جرياً على عرفهم في ذلك ، كما ذكروه في حديث أنس في وفاته صلى الله عليه وسلم على رأس ستين سنة ، مع أن الصحيح أنه توفي عن ثلاث وستين ، كما بين في شرح الشمائل . قالوا : إن الراوي للأولى اقتصر فيها على العقود , وترك الكسور ، وسرّ ذلك هو القصد إلى ذكر المهم ، وما يكتفي به فيما سيق له الكلام ، لا ضبط الحساب ، وتدقيق الأعداد .

(217/703)

قال ابن كثير : وقد استدل علي رضي الله عنه بهذه الآية مع التي في لقمان : ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ [لقمان : 14] ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ [البقرة : 233] ، على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، وهو استنباط قوي صحيح ، ووافقه عليه عثمان ، وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم .

﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ أي : استحكم قوته ، وعقله : ﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي ﴾ أي : ألهمني : ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ﴾ أي : بالهداية للتوحيد ، والعمل بطاعتك ، وغير ذلك ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ﴾ أي : واجعل الصلاح سارياً في ذريتي ، راسخاً فيهم : ﴿ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ أي : من ذنوبي التي سلفت مني : ﴿ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أي : المستسلمين لأمرك ونهيك ، المنقادين لحكمك .

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ [16] .

﴿ أُوْلَئِكَ ﴾ أي : الموصوفون بالتوبة والاستقامة : ﴿ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ﴾ أي : من الصالحات فنجازيهم عليها : ﴿ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أي : فلا نعاقبهم عليها لتوبتهم : ﴿ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ﴾ أي : معدودين في زمرتهم ثواباً ومقاماً .

قال الشهاب : والظاهر أنه من قبيل : ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ [يوسف : 20] ليدل على المبالغة بعلوّ منزلتهم فيها ؛ إذ قولك : فلان من العلماء . أبلغ من قولك : عالم . ولم يبينوه ههنا ، ومن لم يتبنه لهذا قال في بمعنى مع . انتهى .

﴿ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ أي : وعدهم تعالى هذا الوعد ، وعدَ الحق في الدنيا ، وهو موفيه لهم في الآخرة ، كما قال : ﴿ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الطور : 21] .

ثم بين تعالى نعت من عصى ما وصى به من الإحسان لوالديه ، من كل ولد عاق كافر ، وما له في مآله ، بقوله سبحانه :

﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [17] .

﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ ﴾ أي : حين دعواه إلى الإيمان والاستقامة : ﴿ أُفٍّ لَكُمَا ﴾ أي : من هذه الدعوة : ﴿ أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ ﴾ أي : أبعث من قبري بعد فنائي : ﴿ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي ﴾ أي : هلكت ولم يرجع أحد منهم : ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ ﴾ أي : يطلبان الغياث بالله منه . والمراد إنكار قوله ، واستعظامه ، كأنهما لجأا إلى الله في دفعه ، كما يقال : العياذ بالله ! أو المعنى : يطلبان أن يغيثه الله بالتوفيق ، حتى يرجع عما هو عليه : ﴿ وَيْلَكَ آمِنْ ﴾ أي : صدق بوعد الله ، وأقرّ أنك مبعوث بعد موتك . و : ﴿ وَيْلَكَ ﴾ في الأصل معناه الدعاء بالهلاك ، فأقيم مقام الحث على فعلٍ أو تركٍ ، للإيماء إلى أن مرتكبه حقيق بأن يطلب له الهلاك ، فإذا سمع ذلك ترك ما هو فيه ، وأخذ ما ينجعه :

﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي : إن وعده تعالى لخلقه ، بأنه يبعثهم من قبورهم إلى موقف الحساب ، لمجازاتهم بأعمالهم ، حق لا شك فيه : ﴿ فَيَقُولُ ﴾ أي : مجيباً لوالديه ، ورادّاً عليهما نصيحتهما ، وتكذيباً بوعد الله : ﴿ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي : أباطيلهم التي كتبوها .

(219/703)

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ [18] .

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ أي : الإلهي ، وهو العذاب : ﴿ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ﴾ أي : الذين كذبوا رسل الله ، وعتوا عن أمره : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ أي : ببيعهم الهدى بالضلال ، والباقي بالفاني .

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [19] .

﴿ وَلِكُلٍّ ﴾ أي : من الفريقين : ﴿ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾ أي : مراتب من جزاء ما عملوا من صالح وسيء : ﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي : جزاءها : ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أي : ينقص ثواب ، ولا زيادة عقاب .

تنبيه :

روى ابن جرير عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في ابن لأبي بكر الصديق . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر ، قال لأبويه – وهما أبو بكر وأم رومان ، وكانا قد أسلما ، وأبى هو أن يسلم ، فكانا يأمرانه بالإسلام ، فكان يرد عليهما ويكذبهما ويقول : فأين فلان ، وأين فلان ؟ يعني مشايخ قريش ممن قد مات . فأسلم بعد ، فحسن إسلامه – فنزلت توبته في هذه الآية : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾ .

(220/703)

قال الحافظ ابن حجر : لكن نفي عائشة أن تكون نزلت في عبد الرحمن وآل بيته ، أصح إسناداً وأولى بالقبول ؛ وذلك ما رواه البخاري ، والإسماعيلي ، والنسائي ، وأبو يعلى أن مروان كان عاملاً على المدينة ، فأراد معاوية أن يستخلف يزيد ، فكتب إلى مروان بذلك ، فجمع مروان الناس فخطبهم ، فذكر يزيد ، ودعا إلى بيعته وقال : إن الله أرى أمير المؤمنين في يزيد رأياً حسناً ، وإن يستخلفه ، فقد استخلف أبو بكر وعمر . فقال عبد الرحمن : ما هي إلا هرقلية ! فقال مروان : سنة أبي بكر وعمر . فقال عبد الرحمن : هرقلية ! إن أبا بكر ، والله ! ما جعلها في أحد من ولده ، ولا في أهل بيته ، وما جعلها

معاوية إلا كرامة لولده ! فقال مروان : خذوه . فدخل بيت عائشة ، فلم يقدروا عليه . فقال مروان : إن هذا الذي أنزل الله فيه : ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي ﴾ فقالت عائشة من وراء الحجاب : ما أنزل الله فينا سيئاً من القرآن ، إلا أن الله أنزل عذري . ولو شئت أن أسمي من نزلت فيه لسميته ، ولكن رسول الله لعن أبا مروان ، ومروانُ في صلبه .

(221/703)

ومما يؤيده أن : ﴿ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ هم المخلدون في النار في علم الله تعالى ، وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين ، وسرواتهم ، وحاول بعضهم عدم التنافي بأن يقع منه ذلك قبل إسلامه ، ثم يسلم بعد ذلك . ومعلوم أن الإسلام يجبّ ما قبله ، وأن معنى الوعيد في الآية إنما هو للمصرّين عليه الذين لم يقلعوا ، لكثرة ما ورد في العفو عن التائبين ، وقد نزل من الوعيد الشديد في أول البعثة آيات لا تحصى ، وكلها تنعى على من كان مشركاً آنئذٍ ، ولم يقل أحد بشمولها لهم بعد إيمانهم ، أو أن فيها ما يحط من أقدارهم ، ويجعلها مغمزاً لهم ، إلا أن مروان لم يجد لمقاومة ما ألقمه إلا الشغب ، وشغل الناس عن باطله بنغمة يطرب لها الجهلة ، وقالةٍ يلوكها الرعاع ، وهم الذين يهمه أمرهم . ويرحم الله عبد الرحمن !

فقد شفى الغلة ، وصدع بالحق ، في حين أن لا ظهير له ، ولا نُصَيْر – والله أعلم – .

قال ابن قتيبة في " المعارف " : أربعة رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في نسق : أبو قحافة ، وابنه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وابنه عبد الرحمن بن أبي بكر ، وابنه محمد بن عبد الرحمن .

وقال أيضاً : قيل : كان عبد الرحمن من أفضل قريش ، ويكنى أبا محمد ، وله عقب بالمدينة ، وليسوا بالكثير ، مات فجأة سنة ثلاث وخمسين بحبلٍ يقرب من مكة ، فأدخلته عائشة الحرم ودفنته وأعتقت عنه . انتهى .

وفي دمشق في مقبرة باب الفراديس ، المسماة بالدحداح ، مزار يقال إنه عبد الرحمن بن أبي بكر ، نسب إليه زوراً . وما أكثر المزوّرات في المزارات ، كما يعلمه من دقّق في الوفيات .

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ [20] .

(222/703)

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ ﴾ أي : يقال لهم أذهبتم : ﴿ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ عطف تفسير لقوله : ﴿ أَذْهَبْتُمْ ﴾ أي : فما بقي لكم من اللذائذ شيء لاستيفائكم إياها : ﴿ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ أي : الهوان : ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أي : بغير ما أباح لكم وأذن : ﴿ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ أي : عن طاعته ، فأبعدكم عن كرامته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 15 صـ 331.344 ﴾

(223/703)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) ﴾

هذا هو الإيقاع الأول في مطلع السورة ؛ وهو يلمس العلاقة بين الأحرف العربية التي يتداولها كلامهم ، والكتاب المصوغ من جنس هذه الأحرف على غير مثال من كلام البشر ، وشهادة هذه الظاهرة بأنه تنزيل من الله العزيز الحكيم . كما يلمس العلاقة بين كتاب الله المتلو المنزل من عنده ، وكتاب الله المنظور المصنوع بيده . كتاب هذا الكون الذي تراه العيون ، وتقرؤه القلوب .

وكلا الكتابين قائم على الحق وعلى التدبير. فتنزيل الكتاب ﴿ من الله العزيز الحكيم ﴾ هو مظهر للقدرة وموضع للحكمة.

وخلق السماوات والأرض وما بينهما متلبس بالحق: ﴿ ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾.. وبالتقدير الدقيق: ﴿ وأجل مسمى ﴾ تتحقق فيه حكمة الله من خلقه، ويتم فيه ما قدره له من غاية.

وكلا الكتابين مفتوح، معروض على الأسماع والأنظار، ينطق بقدرة الله، ويشهد بحكمته، ويشي بتدبيره وتقديره، ويدل كتاب الكون على صدق الكتاب المتلو، وما فيه من إنذار وتبشير.. ﴿ والذين كفروا عما أنذروا معرضون ﴾.. وهذا هو العجب المستنكر في ظل تلك الإشارة إلى الكتاب المنزل والكتاب المنظور!

والكتاب المنزل المتلو يقرر أن الله واحد لا يتعدد، وأنه رب كل شيء، بما أنه خالق كل شيء، ومدبر كل شيء، ومقدر كل شيء. وكتاب الكون الحي ينطق بهذه الحقيقة ذاتها؛ فنظامه وتنسيقه وتناسقه كلها تشهد بوحدانية الصانع المقدر المدبر، الذي يصنع على علم، ويبدع على معرفة، وطابع الصنعة واحد في كل ما يصنع وما يبدع. فأنى يتخذ الناس آلهة من دونه؟ وماذا صنع هؤلاء الآلهة وماذا أبدعوا؟ وهذا هو الكون قائماً معروضاً على الأنظار والقلوب؛ فماذا لهم فيه؟ وأي قسم من أقسامه أنشأوه؟

﴿ قل : أرأيتم ما تدعون من دون الله ؟ أروني ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك في السماوات ؟ ائتوني بكتاب من قبل هذا ، أو أثارة من علم ، إن كنتم صادقين ﴾ . .

وهذا تلقين من الله سبحانه لرسوله ، صلى الله عليه وسلم ، ليواجه القوم بشهادة كتاب الكون المفتوح . الكتاب الذي لا يقبل الجدل والمغالطة – إلا مراء ومحالاً – والذي يخاطب الفطرة بمنطقها ، بما بينه وبين الفطرة من صلة ذاتية خفية ، يصعب التغلب عليها ومغالطتها .

﴿ أروني ماذا خلقوا من الأرض ؟ ﴾ . .

ولن يملك إنسان أن يزعم أن تلك المعبودات – سواء كانت حجراً أم شجراً أم جناً أم ملائكة أم غيرها – قد خلقت من الأرض شيئاً ، أو خلقت في الأرض شيئاً . إن منطق الفطرة . منطق الواقع . يصيح في وجه أي ادعاء من هذا القبيل .

﴿ أم لهم شرك في السماوات ؟ ﴾ . .

ولن يملك إنسان كذلك أن يزعم أن لتلك المعبودات شركة في خلق السماوات أو في ملكيتها . ونظرة إلى السماوات توقع في القلب الإحساس بعظمة الخالق ، والشعور بوحدانيته ؛ وتنفض عنه الانحرافات والترهات . . والله منزل هذا القرآن يعلم أثر النظر في الكون على قلوب البشر ؛ ومن يوجههم إلى كتاب الكون ليتدبروه ويستشهدوه ويستمعوا إلى

إيقاعاته المباشرة في القلوب .

ثم يأخذ الطريق على ما قد يطرأ على بعض النفوس من انحراف بعيد . فقد يصل بها هذا الانحراف إلى أن تزعم هذا الزعم أو ذاك بلا حجة ولا دليل . يأخذ عليها الطريق ، فيطالبها الحجة والدليل ؛ ويعلمها في الوقت ذاته طريقة الاستدلال الصحيح ؛ ويأخذها بالمنهج السليم في النظر والحكم والتقدير :

﴿ ائتوني بكتاب من قبل هذا ، أو أثارة من علم ، إن كنتم صادقين ﴾ .

.

(225/703)

فإما كتاب من عند الله صادق . وإما بقية من علم مستيقن ثابت . وكل الكتب المنزلة قبل القرآن تشهد بوحدانية الخالق المبدع المدبر المقدر ؛ وليس فيها من كتاب يقر خرافة الآلهة المتعددة ، أو يقول بأن لها في الأرض خلقاً أو في السماوات شركاً ! وليس هنالك من علم ، ثابت يؤيد مثل ذلك الزعم المتهافت .

وهكذا يواجههم القرآن بشهادة هذا الكون . وهي شهادة حاسمة جازمة . ويأخذ عليهم طريق الادعاء بلا بينة . ويعلمهم منهج البحث الصحيح . في آية واحدة قليلة الكلمات ،

واسعة المدى ، قوية الإيقاع ، حاسمة الدليل .

ثم يأخذ بهم إلى نظرة موضوعية في حقيقة هذه الآلهة المدعاة ، منددا بضلالهم في اتخاذها ، وهي لا تستجيب لهم ، ولا تشعر بدعائهم في الدنيا ؛ ثم هي تخاصمهم يوم القيامة ، وتنكر دعواهم في عبادتها :

﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون ؟ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ . .

(226/703)

وقد كان بعضهم يتخذ الأصنام آلهة . إما لذاتها وإما باعتبارها تماثيل للملائكة . وبعضهم يتخذ الأشجار ، وبعضهم يتخذ الملائكة مباشرة أو الشيطان . . وكلها لا تستجيب لداعيها أصلاً . أو لا تستجيب له استجابة نافعة . فالأحجار والأشجار لا تستجيب . والملائكة لا يستجيبون للمشركين . والشياطين لا تستجيب إلا بالوسوسة والإضلال . ثم إذا كان يوم القيامة وحشر الناس إلى ربهم ، تبرأ هؤلاء وهؤلاء من عبادهم الضالين . حتى الشيطان كما جاء في سورة أخرى : ﴿ وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لي عليكم من سلطان ، إلا أن دعوتكم فاستجبتم

لي . فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيّ . إني كفرت بما أشركتمون من قبل . إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ وهكذا يقفهم القرآن وجهاً لوجه أمام حقيقة دعواهم ومآلها في الدنيا والآخرة . بعدما وقفهم أمام الحقيقة الكونية التي تنكر هذه الدعوى وترفضها . وفي كلتا الحالتين تبرز الحقيقة الثابتة . حقيقة الوحدانية التي ينطق بها كتاب الوجود ، وتوجبها مصلحة المشركين أنفسهم ، ويلزمهم بها النظر إلى مآلهم في الدنيا والآخرة .

وإذا كان القرآن يندد بضلال من يدعون من دون الله آلهة لا يستجيبون لهم إلى يوم القيامة ؛ وكان هذا يعني المعبودات التاريخية التي عرفتها الجماعات البشرية عند نزول هذا القرآن ، فإن النص أوسع مدلولاً وأطول أمداً من ذلك الواقع التاريخي . فمن أضل ممن يدعو من دون الله أحداً في أي زمان وفي أي مكان ؟ وكل أحد – كائنا من كان – لا يستجيب بشيء لمن يدعوه ، ولا يملك أن يستجيب . وليس هناك إلا الله فعال لما يريد . . إن الشرك ليس مقصوراً على صوره الساذجة التي عرفها المشركون القدامى .

(227/703)

فكم من مشركين يشركون مع الله ذوي سلطان ، أو ذوي جاه ، أو ذوي مال ، ويرجون فيهم ، ويتوجهون إليهم بالدعاء . وكلهم أعجز من أن يستجيبوا لدعاتهم استجابة حقيقية . وكلهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً . ودعاؤهم شرك . والرجاء فيهم شرك . . والخوف منهم شرك . ولكنه شرك خفي يزاوله الكثيرون ، وهم لا يشعرون .

ثم يمضي السياق يتحدث عن موقفهم من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وما جاءهم به من الحق . بعدما تحدث عن واقعهم وتهافت عقيدة الشرك . ويقرر قضية الوحي كما قرر قضية التوحيد :

﴿ وإذ تتلى عليم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم : هذا سحر مبين . أم يقولون : افتراه ؟ قل : إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً . هو أعلم بما تفيضون فيه . . كفى به شهيداً بيني وبينكم ، وهو الغفور الرحيم . قل : ما كنت بدعاً من الرسل ، وما أدري ما يفعل بي ولا بكم . إن أتبع إلا ما يوحى إليَّ ، وما أنا إلا نذير مبين . قل : أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به ، وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله ، فآمن واستكبرتم ؟ إن الله لا يهدي القوم الظالمين . وقال الذين كفروا للذين آمنوا : لو كان خيراً ما سبقونا إليه . وإذ لم يهتدوا به فسيقولون : هذا إفك قديم . ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة ، وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً ، لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين ﴾ . .

يبدأ الحديث عن قضية الوحي بترذيل مقولتهم عنه ، واستنكار استقبالهم له ، وهو آيات

﴿ بينات ﴾ لا لبس فيها ولا غموض ، ولا شبهة فيها ولا ريبة . ثم إنه ﴿ الحق ﴾ الذي لا مرية فيه . وهم يقولون لتلك الآيات ولهذا الحق ﴿ هذا سحر مبين ﴾ . . وشتان بين الحق والسحر . وهما لا يختلطان ولا يشتبهان .

وهكذا يبدأ الهجوم منذ البدء على تقولهم الظالم وادعائهم القبيح ، الذي لا يستند إلى شبهة ولا ظل من دليل .

(228/703)

ثم يرتقي في إنكار مقولتهم الأخرى . . ﴿ افتراه ﴾ . . فلا يسوقها في صيغة الخبر بل في صيغة الاستفهام . كأن هذا القول لا يمكن أن يقال ، وبعيد أن يقال :

﴿ أم يقولون افتراه ؟ ﴾ . .

فيبلغ بهم التطاول أن يقولوا هذه المقولة التي لا تخطر على بال ؟ !

ويلقن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يرد عليهم بأدب النبوة ، الذي ينم عن حقيقة شعوره بربه ، وشعوره بوظيفته ، وشعوره بحقيقة القوى والقيم في هذا الوجود كله :

﴿ قل : إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً . هو أعلم بما تفيضون فيه . كفى به شهيداً بيني وبينكم ، وهو الغفور الرحيم ﴾ . .

قل لهم : كيف أفتريه ؟ ولحساب من أفتريه ؟ ولأي هدف أفتريه ؟ أأفتريه لتؤمنوا بي وتتبعوني ؟ ولكن : ﴿ إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً ﴾ . . وهو آخذني بما افتريت . فماذا يجديني أن تكونوا معي وأن تتبعوني .

وأنتم أعجز من أن تحموني من الله حين يأخذني بافترائي ، وأضعف من أن تنصروني ؟ !

وهو الرد اللائق بنبي ، يتلقى من ربه ، ولا يرى في الوجود غيره ، ولا يعرف قوة غير قوته ، وهو رد كذلك منطقي يدركه المخاطبون به لو حكموا عقولهم فيه . يجيبهم به ، ثم يترك أمرهم لله : ﴿ هو أعلم بما تفيضون فيه ﴾ . . من القول والفعل . وهو يجزيكم بما يعلمه من أمركم . ﴿ كفى به شهيداً بيني وبينكم ﴾ . . يشهد ويقضي ، وفي شهادته الكفاية وفي قضائه . ﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ . . وقد يرأف بكم ، فيهديكم رحمة منه ، ويغفر لكم ما كان من ضلالكم قبل الهدى والإيمان . .

رد فيه تحذير وترهيب . وفيه إطماع وتحضيض . يأخذ على القلب مسالكه ، ويلمس أوتاره . ويشعر السامعين أن الأمر أجل من مقولاتهم الهازلة ، وادعاءاتهم العابثة . وأنه في ضمير الداعية أكبر وأعمق مما يشعرون .

ويمضي معهم في مناقشة القضية – قضية الوحي – من زاوية أخرى واقعية مشهودة .

فماذا ينكرون من أمر الوحي والرسالة ؛ ولم يعجلون بتهمة السحر أو تهمة الافتراء ؟ وليس في الأمر غريب ولا عجيب :

﴿ قل : ما كنتم بدعاً من الرسل . وما أدري ما يفعل بي ولا بكم . إن أتبع إلا ما يوحى إليَّ ، وما أنا إلا نذير مبين ﴾ . .

إنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليس أول رسول . فقد سبقته الرسل . وأمره كأمرهم . وما كان بدعاً من الرسل . بشر يعلم الله أنه أهل للرسالة فيوحي إليه ، فيصدع بما يؤمر . هذا هو جوهر الرسالة وطبيعتها . . والرسول حين يتصل قلبه لا يسأل ربه دليلاً ، ولا يطلب لنفسه اختصاصاً . إنما يمضي في سبيله ، يبلغ رسالة ربه ، حسبما أوحى بها إليه : ﴿ وما أدري ما يفعل بي ولا بكم . إن أتبع إلا ما يوحى إليَّ ﴾ . . فهو لا يمضي في رسالته لأنه يعلم الغيب ؛ أو لأنه يطلع على ما يكون من شأنه وشأن قومه وشأن الرسالة التي يبشر بها . إنما هو يمضي وفق الإشارة وحسب التوجيه . واثقاً بربه ، مستسلماً لإرادته ، مطيعاً لتوجيهه ، يضع خطاه حيث قادها الله . والغيب أمامه مجهول ، سره عند ربه . وهو لا يتطلع إلى السر من وراء الستر لأن قلبه مطمئن ، ولأن أدبه مع ربه ينهاه عن التطلع لغير ما فتح له . فهو واقف أبداً عند حدوده وحدود وظيفته : ﴿ وما أنا إلا نذير مبين ﴾ . .

وإنه لأدب الواصلين ، وإنها لطمأنينة العارفين ، يتأسون فيها برسول الله ـ صلى الله عليه

وسلم - فيمضون في دعوتهم لله . لا لأنهم يعرفون مآلها ، أو يعلمون مستقبلها . أو يملكون فيها قليلاً أو كثيراً . ولكن لأن هذا واجبهم وكفى . وما يطلبون من ربهم برهاناً فبرهانهم في قلوبهم . وما يطلبون لأنفسهم خصوصية فخصوصيتهم أنه اختارهم . وما يتجاوزون الخط الدقيق الذي خطه لهم ، ورسم لهم فيه مواقع أقدامهم على طول الطريق .

ثم يواجههم بشاهد قريب ، لشهادته قيمتها ، لأنه من أهل الكتاب الذين يعرفون طبيعة التنزيل :

﴿ قل : أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به ، وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله ، فآمن واستكبرتم ؟ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ . .

(230/703)

وقد تكون هذه واقعة حال ، ويكون واحد أو أكثر من بني إسرائيل ، عرف أن طبيعة هذا القرآن هي طبيعة الكتب المنزلة من عند الله ، بحكم معرفته لطبيعة التوراة . فآمن . وقد وردت روايات أنها نزلت في عبد الله ابن سلام . لولا أن هذه السورة مكية وعبد الله بن سلام إنما أسلم في المدينة . وقد ورد كذلك أن هذه الآية مدنية توكيداً لنزولها في شأن عبد الله - رضي الله عنه - . كما ورد أنها مكية وأنها لم تنزل فيه .

وقد تكون إشارة إلى واقعة أخرى في مكة نفسها . فقد آمن بعض أهل الكتاب على قلة في العهد المكي . وكان لإيمانهم ، وهم أهل كتاب ، قيمته وحجيته في وسط المشركين الأميين . ومن ثم نوه به القرآن في مواضع متعددة ، وواجه به المشركين الذين كانوا يكذبون بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

وهذا الأسلوب في الجدل : ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله . . . الخ ﴾ يراد به زعزعة الإصرار والعناد في نفوس أهل مكة ، وإثارة التخوف في نفوسهم والتحرج من المضي في التكذيب . ما دام أن هذا القرآن يحتمل أن يكون من عند الله حقاً كما يقول محمد . وفي هذه الحالة تكون العاقبة وخيمة . فأولى لهم أن يحتاطوا لهذا الفرض ، الذي قد يصح ، فيحل بهم كل ما ينذرهم به . ومن الأحوط إذن أن يتريثوا في التكذيب ، وأن يتدبروا الأمر في حرص وفي حذر ، قبل التعرض لتلك العاقبة الوخيمة . وبخاصة إذا أضيف إلى ذلك الاحتمال أن واحداً أو أكثر من أهل الكتاب يشهد بأن من طبيعة الكتاب قبله ؛ ويتبع هذا التذوق بالإيمان . بينما هم الذين جاء القرآن لهم ، وبلغتهم ، وعلى لسان رجل منهم ، يستكبرون ويكفرون . . وهو ظلم بين وتجاوز للحق صارخ ، يستحق النقمة من الله وإحباط الأعمال : ﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ . .

ولقد سلك القرآن شتى السبل ، واتبع شتى الأساليب ، ليواجه شكوك القلب البشري ، وانحرافاته وآفاته ؛ ويأخذ عليها المسالك ؛ ويعالجها بكل أسلوب . وفي أساليب القرآن المتنوعة زاد للدعوة والدعاة إلى هذا الدين . . ومع اليقين الجازم بأن هذا القرآن من عند الله فقد استخدم أسلوب التشكيك لا أسلوب الجزم للغرض الذي أسلفنا . وهو واحد من أساليب الإقناع في بعض الأحوال . .

وبعد ذلك يمضي في استعراض مقولات المشركين عن هذا القرآن وعن هذا الدين ؛ فيحكي اعتذارهم عن التكذيب به والإعراض عنه ، اعتذار المستكبر المتعالي على المؤمنين :

﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا : لو كان خيراً ما سبقونا إليه .

وإذ لم يهتدوا به فسيقولون : هذا إفك قديم ﴾ . .

ولقد سارع إلى الإسلام وسبق إليه نفر من الفقراء والموالي في أول الأمر . فكان هذا مغمزاً في نظر الكبراء المستكبرين . وراحوا يقولون : لو كان هذا الدين خيراً ما كان هؤلاء أعرف منا به ، ولا أسبق منا إليه فنحن ، في مكانتنا وسعة إدراكنا وحسن تقديرنا ، أعرف بالخير من هؤلاء !

والأمر ليس كذلك . فما كان يمنعهم عنه أنهم يشكون فيه أو يجهلون الحق الذي يقوم عليه .

والخير الذي يحتويه ، إنما كان هو الكبر عن الإذعان لمحمد – كما كانوا يقولون – وفقدان المراكز الاجتماعية ، والمنافع الاقتصادية ، كما كان هو الاعتزاز الأجوف بالآباء والأجداد وما كان عليه الآباء والأجداد . فأما الذين سارعوا إلى الإسلام وسبقوا إليه فلم تكن في نفوسهم تلك الحواجز التي منعت الكبراء والأشراف .

إنه الهوى يتعاظم أهل الكبر أن يذعنوا للحق ، وأن يستمعوا لصوت الفطرة ، وأن يسلموا بالحجة . وهو الذي يملي عليهم العناد والإعراض ، واختلاق المعاذير ، والادعاء بالباطل على الحق وأهله . فهم لا يسلمون أبداً أنهم مخطئون ؛ وهم يجعلون من ذواتهم محوراً للحياة كلها يدورون حوله ويريدون أن يديروا حوله الحياة :

﴿ وإذ لم يهتدوا به فسيقولون : هذا إفك قديم ﴾ . .

(232/703)

طبعاً ! فلا بد من عيب في الحق ما داموا لم يهتدوا به ، ولم يذعنوا له . لا بد من عيب في الحق لأنهم هم لا يجوز أن يخطئوا . وهم في نظر أنفسهم ، أو فيما يريدون أن يوحوا به للجماهير ، مقدسون معصومون لا يخطئون !

ويختم هذه الجولة في قضية الوحي والرسالة بالإشارة إلى كتاب موسى ، وتصديق هذا

القرآن له – كما سبقت الإشارة في شهادة الشاهد من بني إسرائيل :

﴿ ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة ، وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً ، لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين ﴾ .

وقد كرر القرآن الإشارة إلى الصلة بين القرآن والكتب قبله ، وبخاصة كتاب موسى ، باعتبار أن كتاب عيسى تكملة وامتداد له . وأصل التشريع والعقيدة في التوراة . ومن ثم سمى كتاب موسى ﴿ إماماً ﴾ ووصفه بأنه رحمة . وكل رسالة السماء رحمة للأرض ومن في الأرض ، بكل معاني الرحمة في الدنيا والآخرة . . ﴿ وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً ﴾ . . مصدق للأصل الأول الذي تقوم عليه الديانات كلها ؛ وللمنهج الإلهي الذي تسلكه الديانات جميعها ؛ وللاتجاه الأصيل الذي توجه البشرية إليه ، لتتصل بربها الواحد الكريم .

والإشارة إلى عروبته للامتنان على العرب ، وتذكيرهم بنعمة الله عليهم ، ورعايته لهم ، وعنايته بهم ؛ ومظهرها اختيارهم لهذه الرسالة ، واختيار لغتهم لتتضمن هذا القرآن العظيم .

ثم بيان لطبيعة الرسالة ، ووظيفتها :

﴿ لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين ﴾ . .

وفي نهاية هذا الشوط الأول يصور له جزاء المحسنين ، ويفسر لهم هذه البشرى التي يحملها

إليهم القرآن الكريم ، بشرطها ، وهو الاعتراف بربوبية الله وحده والاستقامة على هذا الاعتقاد ومقتضياته :

﴿ إن الذين قالوا : ربنا الله .

(233/703)

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾

هذا الشوط يسير مع الفطرة في استقامتها وفي انحرافها ، وفيما تنتهي إليه حين تستقيم وما تنتهي إليه حين تنحرف . ويبدأ بالوصية بالوالدين . وكثيراً ما ترد هذه الوصية لاحقة للكلام عن العقيدة في الله أو مصاحبة لهذا الحديث . ذلك أن وشيجة الأبوة والبنوة هي أول وشيجة بعد وشيجة الإيمان في القوة والأهمية ، وأولاها بالرعاية والتشريف . وفي هذا الاقتران دلالتان : أولاهما هي هذه . والثانية أن آصرة الإيمان هي الأولى وهي المقدمة ، ثم تليها آصره الدم في أوثق صورها .

وفي هذا الشوط نموذجان من الفطرة : في النموذج الأول تلتقي آصرة الإيمان وآصرة الوالدين في طريقهما المستقيم المهتدي الواصل إلى الله . وفي الثاني تفترق آصرة النسب عن آصرة

الإيمان ، فلا تلتقيان . والنموذج الأول مصيره الجنة ونصيبه البشرى . والنموذج الثاني مصيره النار ونصيبه استحقاق العذاب . وبهذه المناسبة يعرض صورة العذاب في مشهد من مشاهد القيامة ، يصور عاقبة الفسوق والاستكبار .

﴿ ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً ﴾ . .

فهي وصية لجنس الإنسان كله ، قائم على أساس إنسانيته ، بدون حاجة إلى أية صفة أخرى وراء كونه إنساناً . وهي وصية بالإحسان مطلقة من كل شرط ومن كل قيد . فصفة الوالدية تقتضي هذا الإحسان بذاتها ، بدون حاجة إلى أية صفة أخرى كذلك . وهي وصية صادرة من خالق الإنسان ، وربما كانت خاصة بهذا الجنس أيضاً . فما يعرف في عالم الطير أو الحيوان أو الحشرات وما إليها أن صغارها مكلفة برعاية كبارها . والمشاهد الملحوظ هو فقط تكليف فطرة هذه الخلائق أن ترعى كبارها صغارها في بعض الأجناس . فهي وصية ربما كانت خاصة بجنس الإنسان .

(234/703)

وتتكرر في القرآن الكريم وفي حديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - الوصية بالإحسان إلى الوالدين . ولا ترد وصية الوالدين بالأولاد إلا نادرة ، ولمناسبة حالات معينة . ذلك أن

الفطرة وحدها تتكفل برعاية الوالدين للأولاد ، رعاية تلقائية مندفعة بذاتها لا تحتاج إلى مثير . وبالتضحية النبيلة الكاملة العجيبة التي كثيراً ما تصل إلى حد الموت – فضلاً على الألم – بدون تردد ، ودون انتظار عوض ، ودون منّ ولا رغبة حتى في الشكران ! أما الجيل الناشئ فقلما يتلفت إلى الخلف . قلما يتلفت إلى الجيل المضحي الواهب الفاني . لأنه بدوره مندفع إلى الأمام ، يطلب جيلاً ناشئاً منه يضحي له بدوره ويرعاه ! وهكذا تمضي الحياة !

والإسلام يجعل الأسرة هي اللبنة الأولى في بنائه ؛ والمحضن الذي تدرج فيه الفراخ الخضر وتكبر ؛ وتتلقى رصيدها من الحب والتعاون والتكافل والبناء . والطفل الذي يحرم من محضن الأسرة ينشأ شاذاً غير طبيعي في كثير من جوانب حياته – مهما توافرت له وسائل الراحة والتربية في غير محيط الأسرة – وأول ما يفقده في أي محضن آخر غير محضن الأسرة ، هو شعور الحب .

(235/703)

فقد ثبت أن الطفل بفطرته يحب أن يستأثر وحده بأمه فترة العامين الأولين من حياته . ولا يطيق أن يشاركه فيها أحد . وفي المحاضن الصناعية لا يمكن أن يتوفر هذا . إذ تقوم

الحاضنة بحضانة عدة أطفال ، يتحاقدون فيما بينهم ، على الأم الصناعية المشتركة ، وتبذر في قلوبهم بذرة الحقد فلا تنمو بذرة الحب أبداً . كذلك يحتاج الطفل إلى سلطة واحدة ثابتة تشرف عليه فترة من حياته كي يتحقق له ثبات الشخصية . وهذا ما لا يتيسر إلا في محضن الأسرة الطبيعي . فأما في المحاضن الصناعية فلا تتوفر السلطة الشخصية الثابتة لتغير الحاضنات بالمناوبة على الأطفال . فتنشأ شخصياتهم مخلخلة ، ويحرمون ثبات الشخصية . . والتجارب في المحاضن تكشف في كل يوم عن حكمة أصيلة في جعل الأسرة هي اللبنة الأولى في بناء المجتمع السليم ، الذي يستهدف الإسلام إنشاءه على أساس الفطرة السليم .

ويصور القرآن هنا تلك التضحية النبيلة الكريمة الواهبة التي تتقدم بها الأمومة ، والتي لا يجزيها أبداً إحسان من الأولاد مهما أحسنوا القيام بوصية الله في الوالدين :

﴿ حملته أمه كرهاً ، ووضعته كرهاً ، وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ﴾ . .

وتركيب الألفاظ وجرسها يكاد يجسم العناء والجهد والضنى والكلال : ﴿ حملته أمه كرهاً ، ووضعته كرهاً ﴾ . . لكأنها آهة مجهد مكروب ينوء بعبء ويتنفس بجهد ، ويلهث بالأنفاس ! إنها صورة الحمل وبخاصة في أواخر أيامه ، وصورة الوضع وطلقه وآلامه !

ويتقدم علم الأجنة فإذا به يكشف لنا في عملية الحمل عن جسامة التضحية ونبلها في صورة حسية مؤثرة . .

(236/703)

إن البويضة بمجرد تلقيحها بالخلية المنوية تسعى للالتصاق بجدار الرحم . وهي مزودة بخاصية أكالة . تمزق جدار الرحم الذي تلتصق به وتأكله ؛ فيتوارد دم الأم إلى موضعها ، حيث تسبح هذه البويضة الملقحة دائماً في بركة من دم الأم الغني بكل ما في جسمها من خلاصات ؛ وتمتصه لتحيا به وتنمو . وهي دائمة الأكلان لجدار الرحم . دائمة الامتصاص لمادة الحياة . والأم المسكينة تأكل وتشرب وتهضم وتمتص ، لتصب هذا كله دماً نقياً غنياً لهذه البويضة الشرهة النهمة الأكول ! وفي فترة تكوين عظام الجنين يشتد امتصاصه للجير من دم الأم فتفتقر إلى الجير . ذلك أنها تعطي محلول عظامها في الدم ليقوم به هيكل هذا الصغير ! وهذا كله قليل من كثير !

ثم الوضع ، وهو عملية شاقة ، ممزقة ، ولكن آلامها الهائلة كلها لا تقف في وجه الفطرة ولا تنسي الأم حلاوة الثمرة . ثمرة التلبية للفطرة ، ومنح الحياة نبتة جديدة تعيش ، وتمتد . . بينما هي تذوي وتموت !

ثم الرضاع والرعاية . حيث تعطي الأم عصارة لحمها وعظمها في اللبن ، وعصارة قلبها وأعصابها في الرعاية . وهي مع هذا وذلك فرحة سعيدة رحيمة ودود . لا تمل أبداً ولا تكره تعب هذا الوليد . وأكبر ما تتطلع إليه من جزاء أن تراه يسلم وينمو .

فهذا هو جزاؤها الحبيب الوحيد !

فأنى يبلغ الإنسان في جزاء هذه التضحية ، مهما يفعل . وهو لا يفعل إلا القليل الزهيد ؟

وصدق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد جاءه رجل كان في الطواف حاملاً أمه يطوف بها ، فسأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هل أديتُ حقها ؟ فأجابه : " لا ، ولا بزفرة واحدة " .

ويخلص من هذه الوقفة أمام الوصية بالوالدين ، واستجاشة الضمائر بصورة التضحية النبيلة ممثلة في الأم ، إلى مرحلة النضج والرشد ، ومع استقامة الفطرة ، واهتداء القلب :

(237/703)

﴿ حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال : رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديَّ ، وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأصلح لي في ذريتي ، إني تبت إليك ، وإني من المسلمين ﴾ . .

وبلوغ الأشد يتراوح بين الثلاثين والأربعين . والأربعون في غاية النضج والرشد ، وفيها تكتمل جميع القوى والطاقات ، ويتهيأ الإنسان للتدبر والتفكر في اكتمال وهدوء . وفي هذه السن تتجه الفطرة المستقيمة السليمة إلى ما وراء الحياة وما بعد الحياة . وتتدبر المصير والمآل .

ويصور القرآن هنا خوالج النفس المستقيمة ، وهي في مفرق الطريق ، بين شطر من العمر ولى ، وشطر يكاد آخره يتبدى . وهي تتوجه إلى الله :

﴿ رب أوزعني أن أشكرك نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديّ ﴾ . .

دعوة القلب الشاعر بنعمة ربه ، المستعظم المستكثر لهذه النعمة التي تغمره وتغمر والديه قبله فهي قديمة العهد به ، المستقل المستصغر لجهده في شكرها . يدعو ربه أن يعينه بأن يجمعه كله : ﴿ أوزعني ﴾ . . لينهض بواجب الشكر ؛ فلا يفرق طاقته ولا اهتمامه في مشاغل أخرى غير هذا الواجب الضخم الكبير .

﴿ وأن أعمل صالحاً ترضاه ﴾ . .

وهذه أخرى . فهو يطلب العون للتوفيق إلى عمل صالح ، يبلغ من كماله وإحسانه أن يرضاه ربه . فرضى ربه هو الغاية التي يتطلع إليها . وهو وحده الرجاء الذي يأمل فيه .

﴿ وأصلح لي في ذريتي ﴾ . .

وهذه ثالثة . وهي رغبة القلب المؤمن في أن يتصل عمله الصالح في ذريته . وأن يؤنس قلبه

شعوره بأن في عقبه من يعبد الله ويطلب رضاه . والذرية الصالحة أمل العبد الصالح . وهي آثر عنده من الكنوز والذخائر . وأروح لقلبه من كل زينة الحياة . والدعاء يمتد من الوالدين إلى الذرية ليصل الأجيال المتعاقبة في طاعة الله .

وشفاعته إلى ربه . شفاعته التي يتقدم بها بين يدي هذا الدعاء الخالص لله ، هي التوبة والإسلام :

﴿ إني تبت إليك وإني من المسلمين ﴾ . .

(238/703)

ذلك شأن العبد الصالح ، صاحب الفطرة السليمة المستقيمة مع ربه . فأما شأن ربه معه ، فقد أفصح عنه هذا القرآن :

﴿ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ، ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة . وعد الصدق الذي كانوا يوعدون ﴾ . .

فالجزاء بحساب أحسن الأعمال . والسيئات مغفورة متجاوزة عنها . والمآل إلى الجنة مع أصحابها الأصلاء .

ذلك وفاء بوعد الصدق الذي وعدوه في الدنيا . ولن يخلف الله وعده . . وهو جزاء

الفيض والوفر والإنعام .

فأما النموذج الآخر فهو نموذج الانحراف والفسوق والضلال :

﴿ والذي قال لوالديه : أف لكما ! أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي ؟ ﴾ . .

فالوالدان مؤمنان . والولد العاق يجحد برهما أول ما يجحد ؛ فيخاطبهما بالتأفف الجارح الخشن الوقح : ﴿ أف لكما ! ﴾ . . ثم يجحد الآخرة بالحجة الواهية : ﴿ أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي ؟ ﴾ . . أي ذهبوا ولم يعد منهم أحد . . والساعة مقدرة إلى أجلها . والبعث جملة بعد انتهاء أجل الحياة الدنيا . ولم يقل أحد إنه تجزئة . يبعث جيل مضى في عهد جيل يأتي . فليست لعبة وليست عبثاً . إنما هو الحساب الختامي للرحلة كلها بعد انتهائها !

والوالدان يريان الجحود ويسمعان الكفر ، ويفزعان مما يقوله الولد العاق لربه ولهما ؛ ويرتعش حسهما لهذا التهجم والتطاول ؛ ويهتفان به : ﴿ وهما يستغيثان الله . ويلك آمن . إن وعد الله حق ﴾ . . ويبدو في حكاية قولهما الفزع من هول ما يسمعان . بينما هو يصر على كفره ، ويلج في جحوده : ﴿ فيقول : ما هذا إلا أساطير الأولين ﴾ . .

هنا يعاجله الله بمصيره المحتوم :

﴿ أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ؛ إنهم كانوا خاسرين ﴾ . .

(239/703)

والقول الذي حق على هذا وأمثاله هو العقاب الذي ينال الجاحدين المكذبين . وهم كثير . خلت بهم القرون . من الجن والإنس . حسب وعيد الله الصادق الذي لا يخلف ولا يتخلف . ﴿ إنهم كانوا خاسرين ﴾ . . وأية خسارة أكبر من خسارة الإيمان واليقين في الدنيا . ثم خسارة الرضوان والنعيم في الآخرة . ثم العذاب الذي يحق على الجاحدين المنحرفين ؟

وبعد بيان العاقبة والجزاء إجمالاً للمهتدين والضالين ، يصور دقة الحساب والتقدير لكل فرد من هؤلاء وهؤلاء على حدة :

﴿ ولكل درجات مما عملوا ، وليوفيهم أعمالهم ، وهم لا يظلمون ﴾ . .

فلكل فرد درجته ، ولكل فرد عمله ، في حدود ذلك الإجمال في جزاء كل فريق .

وبعد ، فهذان النموذجان عامان في الناس ، ولكن مجيئهما في هذا الأسلوب ، الذي يكاد يحدد شخصين بذواتهما أوقع وأشد إحياء للمثل كأنه واقع .

ولقد وردت روايات أن كلاً منهما يعني إنساناً بعينه . ولكن لم يصح شيء من هذه الروايات . والأولى اعتبارهما واردين مورد المثل والنموذج . يدل على هذا الاعتبار صيغة التعقيب على كل نموذج . فالتعقيب على الأول : ﴿ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة . وعد الصدق الذي كانوا يوعدون ﴾ . . والتعقيب على الثاني : ﴿ أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين ﴾ . . ثم التعقيب العام : ﴿ ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم ، وهم لا يظلمون ﴾ . . وكلها توحي بأن المقصود هو النموذج المكرر من هؤلاء وهؤلاء .

ثم يقفهم وجهاً لوجه أمام مشهد شاخص لهم في يوم الحساب الذي كانوا يجحدون :

(ويوم يعرض الذين كفروا على النار . أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها . فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق , وبما كنتم تفسقون) .

.

والمشهد سريع حاسم , ولكنه يتضمن لفتة عميقة عريضة . إنه مشهد العرض على النار

. وفي مواجهتها وقبيل سوقهم إليها , يقال لهم عن سبب عرضهم عليها وسوقهم إليها :

(أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها) . . فقد كانوا يملكون الطيبات إذن , ولكنهم استنفدوها في الحياة الدنيا , فلم يدخروا للآخرة منها شيئا ; واستمتعوا بها غير حاسبين فيها للآخرة حسابا . استمتعوا بها استمتاع الأنعام للحصول على اللذة بالمتاع , غير ناظرين فيها للآخرة , ولا شاكرين لله نعمته , ولا متورعين فيها عن فاحش أو حرام . ومن ثم كانت لهم دنيا ولم تكن لهم آخرة . واشتروا تلك اللمحة الخاطفة على الأرض بذلك الأمد الهائل الذي لا يعلم حدوده إلا الله !

(فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق , وبما كنتم تفسقون) .

. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3254 . 3264 ﴾

(241/703)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/704)

الجزء الرابع بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 21 ﴾ من سورة الأحقاف

وحتى الآية ﴿ 32 ﴾ من السورة

(4/704)

قوله تعالى ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (23) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما هددهم سبحانه بالأمور الأخروية ، وستر الأمر بالتذكير بها لكونها مستورة وهم بها يكذبون في قوله " ويوم " ، وختم بالعذاب على الاستكبار المذموم والفسق ، عطف عليه تهديهم بالأمور المحسوسة لأنهم متقيدون بها مصرحاً بالأمر بالذكر فقال تعالى :

﴿ واذكر ﴾ أي لهؤلاء الذين لا يتعظون بمحط الحكمة الذي لا يخفى على ذي لب ، وهو البعث .

(5/704)

ولما كان أقعد ما يهددون به في هذه السورة وأنسبه لمقصودها عاد لكونهم أقوى الناس أبداناً وأعتاهم رقاباً وأشدهم قلوباً وأوسعهم ملكاً وأعظمهم استكباراً بحيث كانوا

يقولون ﴿ من أشد منا قوة ﴾ وبنوا البنيان الذي يفني الدهر ولا يفنى ، فلا يعمله إلا من نسي الموت أو رجا الخلود واصطنعوا جنة على وجه الأرض لأن ملكهم عمها كلها مع قرب بلادهم لكونها في بلاد العرب من قريش ومعرفتهم بأخبارهم ورؤيتهم لديارهم وكون عذابهم نشأ من بلدهم بدعاء من دعا منهم ، ذكر أمرهم على وجه دل على مقصود السورة ، وعبر بالأخوة تسلية لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن فظيعة القوم لمن هو منهم ويعلمون مناقبه ومفاخره أنكأ فقال : ﴿ أخا عاد ﴾ وهو أخو هود عليه الصلاة والسلام الذي كان بين قوم لا يعشرهم قومك في قوة ولا مكنة ، وصدعهم مع ذلك بمر الحق وبادأهم بأمر الله ، لم يخف عاقبتهم ونجيته منهم ، فهو لك قدوة وفيه أسوة ، ولقومك في قصدهم إياك بالأذى من أمره موعظة .

ولما ذكره عليه الصلاة والسلام لمثل هذه المقاصد الجليلة ، أبدل منه قصته زيادة في البيان ، فقال مبيناً أن الإنذار هو المقصد الأعظم من الرسالة : ﴿ إذ ﴾ أي حين ﴿ أنذر قومه ﴾ أي الذين لهم قوة زائدة على القيام فيما يحاولونه ﴿ بالأحقاف ﴾ قال الأصبهاني : قال ابن عباس : واد بين عمان ومهرة ، قال : وقال مقاتل : كانت منازل عاد باليمن في حضرموت بموضع يقال له مهرة ، إليه ينسب الإبل المهرية ، وكانوا أهل عمد سيارة في الربيع ، فإذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم ، وكانوا من قبيلة إرم .

وقال قتادة : كانوا مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشجر ، والأحقاف جمع حقف

بالكسر ، وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء ، وقال ابن زيد : هو ما استطال من الرمل كهيئة الجبل ولم يبلغ أن يكون جبلاً ، وقال في القاموس : وهو الرمل العظيم المستدير ، وأصل الرمل ، واحقوقف الرمل والظهر والهلال : طال واعوج .

(6/704)

ومن الأمر الجلي أن هذه الهيئة لا تكون في بلاد الريح بها غالبة شديدة لأنه لو كان ذلك انسف الجبل نسفاً بخلاف بلاد الجبال كمكة المشرفة ، فإن الريح تكون بها غاية في الشدة لأنها إما أن تصك الجبل فتنعكس راجعة بقوة شديدة ، أو يكون هناك جبال فتراد بينها أو تنضغط فتخرج مما تجد من الفروج على هيئة مزعجة فينبغي أن يكون أهل الجبال أشد من ذلك حذراً .

ولما ذكر النذير والمنذرين ومكانهم لما ذكر من المقاصد ، ذكر أنهم أعرضوا عنه ولم يكن بدعاً من الرسل ولا كان قومه جاهلين بأحوالهم ، فاستحقوا العذاب تحذيراً من مثل حالهم ، فقال : ﴿ وقد ﴾ أي والحال أنه قد ﴿ خلت ﴾ أي مرت ومضت وماتت ﴿ النذر ﴾ أي الرسل الكثيرون الذين محط أمرهم الإنذار .

ولما لم يكن إرسالهم بالفعل مستغرقاً لجميع الأزمنة ، أدخل الجار فقال : ﴿ من بين يديه ﴾

أي قبله كنوح وشيث وآدم عليه الصلاة والسلام فما كان بدعاً منها ﴿ ومن خلفه ﴾ أي الذين أتوا من بعده فما كنت أنت بدعاً منهم .

ولما أشار إلى كثرة الرسل ، ذكر وحدتهم في أصل الدعاء ، فقال مفسراً للإنذار معبراً بالنهي : ﴿ ألا تعبدوا ﴾ أي أيها العباد المنذرون ، بوجه من الوجوه ، شيئاً من الأشياء ﴿ إلا الله ﴾ الملك الذي لا ملك غيره ولا خالق سواه ولا منعم إلا هو ، فإني أراكم تشركون به من لم يشركه في شيء من تدبيركم ، والملك لا يقر على مثل هذا .

ولما أمرهم ونهاهم ، علل ذلك فقال محذراً لهم من العذاب مؤكداً لما لهم من الإنكار لاعتمادهم على قوة أبدانهم وعظيم شأنهم : ﴿ إني أخاف عليكم ﴾ لكونكم قومي وأعز الناس علي ﴿ عذاب يوم عظيم ﴾ لا يدع جهة إلا ملأها عذابه ، إن أصررتم على ما أنتم فيه من الشرك .

ولما تشوف السامع إلى جوابهم عن هذه الحكمة ، أجيب بقوله تعالى : ﴿ قالوا ﴾ أي منكرين عليه : ﴿ أجئتنا ﴾ أي يا هود ﴿ لتأفكنا ﴾ أي تصرفنا عن وجه أمرنا إلى قفاه ﴿ عن آلهتنا ﴾ فلا نعبدها ولا نعتد بها .

(7/704)

ولما كان معنى الإنكار النفي ، فكان المعنى : إنا لا ننصرف عنها ، سببوا عنه قولهم ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ سموا الوعيد وعداً استهزاء به .

ولما كان ذلك معناه تكذيبه ، زادوه وضوحاً بقولهم معبرين بأداة الشك إشارة إلى أن صدقه في ذلك من فرض المحال : ﴿ إن كنت ﴾ أي كما يقال عنك .

كوناً ثابتاً ﴿ من الصادقين ﴾ في أنك رسول من الله وأنه يأتينا بما تخافه علينا من العذاب إن أصررنا .

ولما تضمن قولهم هذا نسبة داعيهم عليه الصلاة والسلام إلى ما لا دلالة لكلامه عليه بوجه ، وهو ادعاء العلم بعذابهم والقدرة عليه وتكذيبه في كل منهما اللازم منه أمنهم اللازم منه ادعاؤهم العلم بأنهم لا يعذبون ، وكانوا كاذبين في جميع ذلك كان كأنه قيل : بم أجابهم ؟ فقيل : ﴿ قال ﴾ مصدقاً لهم في سلب علمه بذلك وقدرته عليه ، مكذباً لهم في نسبتهم إليه ادعاء شيء منهما وإلى أنفسهم بأنه لا يقع : ﴿ إنما العلم ﴾ أي المحيط بكل شيء عذابكم وغيره ﴿ عند الله ﴾ أي المحيط بجميع صفات الكمال ، فهو ينزل علم ما توعدون على من يشاء إن شاء ولا علم لي الآن ولا لكم بشيء من ذلك ولا قدرة .

ولما كان العلم المحيط يستلزم القدرة ، فكان التقدير : فليست القدرة على الإتيان بعذابكم إلا له سبحانه وتعالى لا لي ولا لغيري ، وليس عليّ إلا البلاغ كما أوحى إليّ ربي بقوله سبحانه ﴿ إن عليك إلا البلاغ ﴾ [الشورى : 48] وقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم من

الوعظ بأن أعمالكم أعمال من قد أعرض عن سيده وعرض نفسه للهلاك والعذاب بإشراكه بالمحسن المطلق من لا يكافئه بوجه فهو بحيث يخشى عليه الأخذ ، عطف عليه قوله : ﴿ وأبلغكم ﴾ أي أيضاً في الحال والاستقبال ﴿ ما أرسلت ﴾ أي ممن لا مرسل في الحقيقة غيره ، فإنه يقدر على نصر رسوله ﴿ به ﴾ أي من التوحيد وغيره ، سواء كان وعداً أو وعيداً أو غيرهما لو لم يذكر الغاية لأن ما أرسل به صالح لهم ولغيرهم .

(8/704)

ولما كان معنى الإخبار بالإبلاغ أنه ليس عليّ إلا ذلك ، وكان معنى قصر العلم المطلق على الله تصديقهم في نفي علمه عليه الصلاة والسلام بذلك ، حسن قوله مستدركاً علمه بجهلهم : ﴿ ولكني أراكم ﴾ أي أعلمكم علماً هو كالرؤية ﴿ قوماً ﴾ غلاظاً شداداً عاسين ﴿ تجهلون ﴾ أي بكم مع ذلك صفة الجهل ، وهو الغلظة في غير موضعها مع قلة العلم ، تجددون لك على سبيل الاستمرار بسبب أنكم تفعلون بإشراككم بالمحسن المطلق وهو الملك الأعظم من لا إحسان له بوجه أفعال من يستحق العذاب ثم لا تجوزون وقوعه وتكذبون من ينبهكم على أن ذلك أمر يحق أن يحترز منه ، وتنسبونه إلى غير ما أرسل له من

الإنذار من ادعاء القدرة على العذاب ونحوه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 136.133 ﴾

(9/704)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ إني أخاف ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو وخلف. ﴿ لا يرى ﴾ بالياء التحتانية مبنياً للمفعول ﴿ إلا مساكنهم ﴾ بالرفع : عاصم وحمزة وخلف وسهل ويعقوب. والباقون ﴿ لا ترى ﴾ على خطاب كل راء ﴿ مساكنهم ﴾ بالنصب ﴿ بل ضلوا ﴾ بإدغام اللام في الضاد : عليّ. ﴿ وإذا صرفنا ﴾ بإدغام الذال في الصاد وكذا ما يشبهه : أبو عمرو وعليّ وهشام وحمزة في رواية خلاد وابن سعدان وأبي عمرو ﴿ يقدر ﴾ فعلاً مضارعاً من القدرة : سهل ويعقوب.

الوقوف : ﴿ عاد ﴾ ط لأن " إذ " يتعلق بأذكر محذوفاً وهو مفعول به. هذا قول السجاوندي، وعندي أن لا وقف. وقوله " إذ " بدل الاشتمال من ﴿ أخا عاد ﴾. ﴿ إلا الله ﴾ ط ﴿ عظيم ﴾ ه ﴿ آلهتنا ﴾ ج لتناهي الاستفهام مع تقيب الفاء ﴿

الصادقين ﴾ ه ﴿ عند الله ﴾ ز لاختلاف الجملتين لفظاً ولكن التقدير وأنا أبلغكم ﴿ تجهلون ﴾ 5 ﴿ ممطرنا ﴾ ط لتقدير القول ﴿ به ﴾ ط لأن التقدير هذه ريح ﴿ أليم ﴾ ه لا لأن ما بعده صفة ﴿ مساكنهم ﴾ ط ﴿ المجرمين ﴾ ه ﴿ وأفئدة ﴾ ز لعطف الجملتين المختلفتين والوصل أولى للفاء واتحاد الكلام ﴿ يستهزؤون ﴾ ه ﴿ يرجعون ﴾ ه ﴿ آلهة ﴾ ج لتمام الاستفهام ﴿ عنهم ﴾ ج لعطف الجملتين ﴿ يفترون ﴾ ه ﴿ القرآن ﴾ ج لكلمة المجازاة مع الفاء ﴿ أنصتوا ﴾ ج لذلك ﴿ منذرين ﴾ ه ﴿ مستقيم ﴾ ه ﴿ أليم ﴾ ه ﴿ أولياء ﴾ ط ﴿ مبين ﴾ ه ﴿ الموتى ﴾ ط ﴿ قدير ﴾ ه ﴿ النار ﴾ ط لتقدير القول ﴿ بالحق ﴾ ط ﴿ وربنا ﴾ ط ﴿ تكفرون ﴾ ه ﴿ لهم ﴾ ط ﴿ يوعدون ﴾ ه لا لأن ما بعده خبر "كأن" ﴿ نهار ﴾ ط ﴿ بلاغ ﴾ ج للاستفهام مع الفاء ﴿ الفاسقون ﴾ ه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 123 ﴾

(10/704)

فصل

قال الفخر:

﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا

تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾

اعلم أنه تعالى لما أورد أنواع الدلائل في إثبات التوحيد والنبوّة ، وكان أهل مكة بسبب استغراقهم في لذات الدنيا واشتغالهم بطلبها أعرضوا عنها ، ولم يلتفتوا إليها ، ولهذا السبب قال تعالى في حقهم ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الذين كَفَرُواْ عَلَى النار أَذْهَبْتُمْ طيباتكم فِى حياتكم الدنيا ﴾ فلما كان الأمر كذلك بين أن قوم عاد كانوا أكثر أموالاً وقوة وجاهاً منهم ، ثم إن الله تعالى سلّط العذاب عليهم بسبب شؤم كفرهم فذكر هذه القصة ههنا ليعتبر بها أهل مكة ، فيتركوا الاغترار بما وجدوه من الدنيا ويقبلوا على طلب الدين ، فلهذا المعنى ذكر الله تعالى هذه القصة في هذا الموضع ، وهو مناسب لما تقدم لأن من أراد تقبيح طريقة عند قوم كان الطريق فيه ضرب الأمثال ، وتقديره أن من واظب على تلك الطريقة نزل به من البلاء كذا وكذا ، وقوله تعالى : ﴿ واذكر أَخَا عَادٍ ﴾ أي واذكر يا محمد لقومك أهل مكة هوداً عليه السلام ﴿ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ ﴾ أي حذرهم عذاب الله إن لم يؤمنوا ، وقوله ﴿ بالأحقاف ﴾ قال أبو عبيدة الحقف الرمل المعوج ، ومنه قيل للمعوج محقوف وقال الفراء الأحقاف واحدها حقف وهو الكثيب المكسر غير العظيم وفيه اعوجاج ، قال ابن عباس الأحقاف وادٍ بين عمان ومهرة والنذر جمع نذير بمعنى المنذر ﴿ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ من قبله ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ من بعده والمعنى أن هوداً عليه السلام قد أنذرهم وقال لهم أن لا

تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم العذاب .

واعلم أن الرسل الذين بعثوا قبله والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو إنذاره .

(11/704)

ثم حكى تعالى عن الكفار أنهم قالوا ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا ﴾ الإفك الصرف ، يقال أفكه عن رأيه أي صرفه ، وقيل بل المراد لتزيلنا بضرب من الكذب ﴿ عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾ وعن عبادتها ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ معاجلة العذاب على الشرك ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ في وعدك ، فعند هذا قال هود ﴿ إِنَّمَا العلم عِندَ الله ﴾ وإنما صلح هذا الكلام جواباً لقولهم ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ لأن قولهم ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ استعجال منهم لذلك العذاب فقال لهم هود لا علم عندي بالوقت الذي يحصل فيه ذلك العذاب ، إنما علم ذلك عند الله تعالى ﴿ وَأُبَلِّغُكُمْ مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ ﴾ وهو التحذير عن العذاب ، وأما العلم بوقته فما أوحاه الله إليّ ﴿ ولكنى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ وهذا يحتمل وجوهاً الأول : المراد أنكم لا تعلمون أن الرسل لم يبعثوا سائلين عن غير ما أذن لهم فيه وإنما بعثوا مبلغين الثاني : أراكم قوماً تجهلون من حيث إنكم بقيتم مصرين على كفركم وجهلكم فيغلب على ظني أنه قرب الوقت الذي ينزل عليكم العذاب بسبب هذ الجهل المفرط والوقاحة التامة الثالث : ﴿ إِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا

تَجْهَلُونَ ﴾ حيث تصرون على طلب العذاب وهب أنه لم يظهر لكم كوني صادقاً ، ولكن لم يظهر أيضاً لكم كوني كاذباً فالإقدام على الطلب الشديد لهذا العذاب جهل عظيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 23.24 ﴾

(12/704)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ واذكر أَخَا عَادٍ ﴾

هو هود بن عبد الله بن رباح عليه السلام ، كان أخاهم في النسب لا في الدِّين .

﴿ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بالأحقاف ﴾ أي اذكر لهؤلاء المشركين قصة عادٍ ليعتبروا بها .

وقيل : أمره بأن يتذكر في نفسه قصة هود ليقتدي به ، ويهون عليه تكذيب قومه له .

والأحقاف : ديار عاد .

وهي الرمال العظام ؛ في قول الخليل وغيره .

وكانوا قهروا أهل الأرض بفضل قوّتهم .

والأحقاف جمع حِقف ، وهو ما استطال من الرمل العظيم واعوج ولم يبلغ أن يكون جبلاً ، والجمع حِقاف وأحقاف (وحقوف) .

واحقوقف الرمل والهلال أي اعوج .

وقيل : الحِقف جمع حِقاف .

والأحقاف جمع الجمع .

ويقال : حِقْفٌ أحقف .

قال الأعشى :

بات إلى أرطاة حِقف أحْقَفَا . . .

أي رمل مستطيل مشرف .

والفعل منه احقوقف .

قال العجاج :

طيّ الليالي زُلَفاً فزلفا . . .

سَمَاوَةَ الهلال حتى احقوقفا

أي انحنى واستدار .

وقال امرؤ القيس :

كحِقف النقا يمشي الوِليدَانِ فوقه . . .

بما احتسبا من لِين مَسٍّ وتَسْهَالِ

وفيما أريد بالأحقاف ها هنا مختلف فيه .

فقال ابن زيد : هي رمال مشرفة مستطيلة كهيئة الجبال ، ولم تبلغ أن تكون جبالاً ؛ وشاهده ما ذكرناه .

وقال قتادة : هي جبال مشرفة بالشِّحْر ، والشِّحْرُ قريب من عدن ؛ يقال : شِحْرُ عُمَان وشَحْرُ عمان ، وهو ساحل البحر بين عُمان وعدن .

وعنه أيضاً : ذكر لنا أن عاداً كانوا أحياء باليمن ، أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها : الشّحْر .

وقال مجاهد : هي أرض من حِسْمَى تسمى بالأحقاف .

وحِسْمَى (بكسر الحاء) اسم أرض بالبادية فيها جبال شواهق ملس الجوانب لا يكاد القتام يفارقها .

قال النابغة :

فأصبحَ عاقِلاً بجبال حِسْمى . . .

دُقاقَ التُّرْب مُحْتَزِمَ القَتَامِ

قاله الجوهري .

وقال ابن عباس والضحاك : الأحقاف جبل بالشام .

وعن ابن عباس أيضاً : وادٍ بين عُمان ومهرة .

وقال مقاتل : كانت منازل عاد باليمن في حضرموت بواد يقال له مهرة ، وإليه تنسب الإبل المَهْرِيّة ؛ فيقال : إبل مَهْرِيّة ومَهارِي .

وكانوا أهل عَمَد سيّارة في الربيع فإذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم ؛ وكانوا من قبيلة إرم .

وقال الكلبي : أحقاف الجبل ما نضب عنه الماء زمان الغرق ، كان يَنْضُب الماء من الأرض ويبقى أثره .

وروى الطُّفيل عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : خيرُ وادِيَيْن في الناس وادٍ بمكة ووادٍ نزل به آدم بأرض الهند .

وشر وادِيَيْن في الناس وادٍ بالأحقاف ووادٍ بحضرمَوْت يدعى بَرَهُوت تلقى فيه أرواح الكفار .

وخير بئر في الناس بئر زمزم .

وشر بئر في الناس بئر بَرَهُوت ، وهو في ذلك الوادي الذي بحضرموت .

﴿ وَقَدْ خَلَتِ النذر ﴾ أي مضت الرسل .

﴿ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ أي من قبل هود .

﴿ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ أي ومن بعده ؛ قاله الفرّاء .

وفي قراءة ابن مسعود "من بين يديه ومن بعده" .

﴿ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ الله ﴾ هذا من قول المرسِل ، فهو كلام معترض .

ثم قال هود : ﴿ إِنِي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وقيل : "أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ" من كلام هود ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قالوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا ﴾

فيه وجهان : أحدهما لتزيلنا عن عبادتها بالإفك .

الثاني لتصرفنا عن آلِهتنا بالمنع ؛ قاله الضحاك .

قال عُرْوة بن أُذَيْنة :

إن تك عن أحسن الصنيعة مأ . . .

فُوكاً ففي آخرين قد أفِكوا

يقول : إن لم توفَّق للإحسان فأنت في قوم قد صرفوا .

﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ هذا يدل على أن الوعد قد يوضع موضع الوعيد .

﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ أنك نبيّ ﴿ قَالَ إِنَّمَا العلم ﴾ بوقت مجيء العذاب .

﴿ عِندَ الله ﴾ لا عندي ﴿ وَأُبَلِّغُكُمْ مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِ ﴾ عن ربكم .

﴿ ولكني أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ ﴾ في سؤالكم استعجال العذاب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ﴾

هذا ولما كان أهل مكة مستغرقين في لذات الدنيا معرضين عن الإيمان وما جاء بهم الرسول صلى الله عليه وسلم ناسب تذكيرهم بما جرى للعرب الأولى ممن كانوا أكثر أموالاً وأشد قوة وأعظم جاهاً منهم فسلط عليهم العذاب بسبب كفرهم وبضرب الأمثال وقصص من تقدم يعرف قبح الشيء وحسنه فقال سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ واذكر ﴾ لكفار مكة ﴿ أَخَا عَادٍ ﴾ هوداً عليه السلام ﴿ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ ﴾ بدل اشتمال منه أي وقت إنذاره إياهم ﴿ بالاحقاف ﴾ جمع حقف رمل مستطيل فيه اعوجاج وانحناء ويقال احقوقف الشيء اعوج وكانوا بدويين أصحاب خباء وعمد يسكنون بين رمال مشرفين على البحر بأرض يقال لها السحر من بلاد اليمن قاله ابن زيد ، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما بين عمان ومهرة ، وفي رواية أخرى عنه الأحقاف جبل بالشام ، وقال ابن إسحاق : مساكنهم من عمان إلى حضرموت ؛ وقال ابن عطية الصحيح أن بلاد عاد كانت باليمن ولهم كانت ارم ذات العماد وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلام في إرم وبيان الحق فيها .

﴿ وَقَدْ خَلَتِ النذر ﴾ أي الرسل كما هو المشهور ، وقيل من يعمهم والنواب عنهم جمع

نذير بمعنى منذر .

وجوز كون ﴿ النذر ﴾ جمع نذير بمعنى الإنذار فيكون مصدراً وجمع لأنه يختلف باختلاف المنذر به .

وتعقب بأن جمعه على خلاف القياس ولا حاجة تدعو إليه ﴿ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ أي من قبله عليه السلام ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ أي من بعده وقرىء به ولولا ذلك لجاز العكس ، والظاهر أن المراد النذر المتقدمون عليه والمتأخرون عنه .

وعن ابن عباس يعني الرسل الذين بعثوا قبله والذين بعثوا في زمانه ، فمعنى ﴿ مِنْ خَلْفِهِ ﴾ من بعد إنذاره ، وعطف ﴿ مِنْ خَلْفِهِ ﴾ أي من بعده على ما قبله إما من باب : علفتها تبناً وماءً بارداً . . .

(15/704)

وفيه أقوال فقيل عامل الثاني مقدر أي وسقيتها ماء ويقال في الآية أي خلت النذر من بين يديه وتأتي من خلفه ؛ وقيل إنه مشاكلة ، وقيل : إنه من قبيل الاستعارة بالكناية ، وإما لإدخال الآتي في سلك الماضي قطعاً بالوقوع وفيه شائبة الجمع بين الحقيقة والمجاز ، وجوز أن يقال : المضي باعتبار الثبوت في علم الله تعالى أي وقد خلت النذر في علم الله تعالى يعني

ثبت في علمه سبحانه خلو الماضين منهم والآتين ، والجملة إما حال من فاعل ﴿ أُنذِرَ ﴾ أي إذ أنذر معلماً إياهم بخلو النذر أو مفعوله أي وهم عالمون بإعلامه إياهم ، وهو قريب من أسلوب قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا ﴾ [البقرة : 28] الآية ، ويجوز أن يكون المعنى أنذرهم على فترة من الرسل ، وهي حال أيضاً على تفسير ابن عباس ، وعلم القوم يجوز أن يكون من إعلامه ومن مشاهدتهم أحوال من كانوا في زمانه وسماعهم أحوال من قبله ، وإما اعتراض بين المفسر أعني ﴿ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ وبين المفسر أعني قوله تعالى : ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللهَ ﴾ فإن النهي عن الشيء إنذار عن مضرته كأنه قيل : واذكر زمان إنذار هود قومه بما أنذر به الرسل قبله وبعده وهو أن لا تعبدوا إلا الله تنبيهاً على أنه إنذار ثابت قديماً وحديثاً اتفقت عليه الرسل عليهم السلام عن آخرهم فهو يؤكد قوله تعالى : ﴿ واذكر ﴾ ويؤكد قوله سبحانه : ﴿ أَنذَرَ قَوْمَهُ ﴾ ولذلك توسط ، وهو أيضاً مقصود بالذكر بخلاف ما إذا جعل حالاً فإنه حينئذ قيد تابع ، وهذا الوجه أولى مما قبله على ما قرره في "الكشف" ، وجوز بعضهم العطف على ﴿ أُنذِرَ ﴾ أي واعلمهم بذلك وهو كما ترى ، وجعلت ﴿ إن ﴾ مفسرة لتقدم معنى القول دون حروفه وهو الإنذار والمفسر معموله المقدر ، وجوز كونها مصدرية وكونها مخففة من الثقيلة فقبلها حرف جر مقدر متعلق بأنذر أي أنذرهم بأن لا تعبدوا إلا الله .

﴿ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ صفة ﴿ يَوْمٍ ﴾ وعظمه مجاز عن كونه مهولاً لأنه لازم له ، وكون اليوم مهولاً باعتبار هول ما فيه من العذاب فالإسناد فيه مجازي ، ولا حاجة إلى جعله صفة للعذاب والجر للجوار والجملة استئناف تعليل للنهي ، ويفهم إني أخاف عليكم ذلك بسبب شرككم .

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22)

صفة ﴿ يَوْمٍ ﴾ وعظمه مجاز عن كونه مهولاً لأنه لازم له ، وكون اليوم مهولاً باعتبار هول ما فيه من العذاب فالإسناد فيه مجازي ، ولا حاجة إلى جعله صفة للعذاب والجر للجوار والجملة استئناف تعليل للنهي ، ويفهم إني أخاف عليكم ذلك بسبب شرككم ﴿ قَالُواْ أَجِئْتَنَا ﴾ استفهام توبيخي ﴿ لِتَأْفِكَنَا ﴾ أي لتصرفنا كما قال الضحاك من الإفك بمعنى الصرف ، وقيل : أي لتويلنا بالإفك وهو الكذب ﴿ عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾ أي عن عبادتها ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ من معاجلة العذاب على الشرك في الدنيا ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ في وعدك بنزوله بنا .

﴿ قَالَ إِنَّمَا العلم ﴾ أي بوقت نزوله أو العلم بجميع الأشياء التي من جملتها ذلك ﴿ عَندَ الله ﴾ وحده لا علم لي بوقت نزوله ، والكلام كناية عن أنه لا يقدر عليه ولا على تعجيله لأنه لو قدر عليه وأراده كان له علم به في الجملة فنفى علمه به المدلول عليه بالحصر نفي

لمدخليته فيه حتى يطلب تعجيله من الله عز وجل ويدعو به .

وبهذا التقرير علم مطابقة جوابه عليه السلام لقولهم : ﴿ ائتنا ﴾ [الأحقاف : 22] فيأتيكم به في وقته المقدر له ﴿ وَأُبَلِّغُكُمْ مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ ﴾ من مواجب الرسالة التي من جملتها بيان نزول العذاب إذ لم تنتهوا عن الشرك ، وقرأ أبو عمرو ﴿ أُبَلِّغُكُمْ ﴾ من الإبلاغ .

(17/704)

﴿ ولكنى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ شأنكم الجهل ومن آثار ذلك أنكم تقترحون على ما ليس من وظائف الرسل من الإتيان بالعذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(18/704)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ﴾

سيقت قصة هود وقومه مساق الموعظة للمشركين الذين كذبوا بالقرآن كما أخبر الله عنهم من أول هذه السورة في قوله : ﴿ والذين كفروا عما أنذروا معرضون ﴾ [الأحقاف : 3]

مع ما أعقبت به من الحجج المتقدمة من قوله : ﴿ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله ﴾ [الأحقاف : 4] الذي يقابله قول هود ﴿ أن لا تعبدوا إلا الله ﴾ ثم قوله : ﴿ قل ما كنت بِدْعا من الرسل ﴾ [الأحقاف : 9] الذي يقابله قوله : ﴿ وقد خَلَت النذُر من بين يديه ومن خلفه ﴾ ، ذلك كله بالموعظة بحال هود مع قومه .

وسيقت أيضاً مساق الحجة على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى عناد قومه بذكر مثال لحالهم مع رسولهم بحال عاد مع رسولهم .

ولها أيضاً موقع التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم على ما تلقاه به قومه من العناد والبهتان لتكون موعظة وتسلية معا يأخذ كل منها ما يليق به .

ولا تجد كلمة أجمع للمعنيين مع كلمة ﴿ اذكر ﴾ لأنها تصلح لمعنى الذكر اللساني بأن يراد أن يذكر ذلك لقومه ، ولمعنى الذُكر بالضم بأن يتذكر تلك الحالة في نفسه وإن كانت تقدمت له وأمثالها لأن في التذكر مسلاة وإسوة كقوله تعالى : ﴿ اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد ﴾ في سورة ص (17) .

وكلا المعنيين ناظر إلى قوله آنفاً قل ما كنت بدعاً من الرسل ﴾ فإنه إذا قال لهم ذلك تذكروا ما يعرفون من قصص الرسل مما قصّه عليهم القرآن من قبل وتذكر هو لا محالة أحوال رسل كثيرين ثم جاءت قصة هود مثالاً لذلك .

ومشركو مكة إذا تذكروا في حالهم وحال عاد وجدوا الحالين متماثلين فيجدر بهم أن يخافوا من أن يصيبهم مثل ما أصابهم .

(19/704)

والاقتصار على ذكر عاد لأنهم أول الأمم العربية الذين جاءهم رسول بعد رسالة نوح العامة وقد كانت رسالة هود ورسالة صالح قبل رسالة إبراهيم عليهم السلام ، وتأتي بعد ذكر قصتهم إشارة إجمالية إلى أمم أخرى من العرب كذبوا الرسل في قوله تعالى : ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى ﴾ [الأحقاف : 27] الآية .

وأخو عاد هو هود وتقدمت ترجمته في سورة الأعراف .

وعبّر عنه هنا بوصفه دون اسمه العلَم لأن المراد بالذكر هنا ذكر التمثيل والموعظة لقريش بأنهم أمثال عاد في الإعراض عن دعوة رسول من أمتهم .

والأخ يراد به المشارك في نسب القبيلة ، يقولون : يا أخا بني فلان ، ويا أخا العرب ، وهو المراد هنا وقد يراد بها الملازم والمصاحب ، يقال : أخو الحرب وأخو عزمات .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة " أنت أخونا ومولانا " وهو المراد في قوله تعالى : ﴿ كذبت قوم لوط المرسلين إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون ﴾ [الشعراء :

160 ، 161] .

ولم يكن لوط من نسب قومه أهل سَدُوم .

و﴿ إذْ أنذر ﴾ اسم للزمن الماضي ، وهي هنا نصب على البدل من أخا عاد ، أي اذكر زمن إنذاره قومه فهي بدل اشتمال .

وذكر الإنذار هنا دون الدعوة أو الارسال لمناسبة تمثيل حال قوم هود بحال قوم محمد صلى الله عليه وسلم فهو ناظر إلى قوله تعالى في أول السورة ﴿ والذين كفروا عما أنذروا معرضون ﴾ [الأحقاف : 3] .

والأحقاف : جمع حِقْف بكسر فسكون ، وهو الرمل العظيم المستطيل وكانت هذه البلاد المسماة بالأحقاف منازل عاد وكانت مشرفة على البحر بين عمان وعدن .

وفي منتهى الأحقاف أرض حضرموت ، وتقدم ذكر عاد عند قوله تعالى : ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا ﴾ في سورة الأعراف (65) .

وجملة وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ﴾ معترضة بين جملة ﴿ أنذر ﴾ وجملة ﴿ أن لا تعبدوا إلا الله ﴾ المفسرة بها .

وقد فسرت جملة ﴿ أنذر ﴾ بجملة ﴿ لا تعبدوا إلا الله ﴾ الخ .

و (أن) تفسيرية لأن ﴿ أنذر ﴾ فيه معنى القول دون حروفه .

ومعنى ﴿ خلت النذر ﴾ سبقت النذر أي نذر رسل آخرين .

والنذر : جمع نذارة بكسر النون .

و ﴿ من بين يديه ومن خلفه ﴾ بمعنى قريباً من زمانه وبعيداً عنه ، ف ﴿ مِن بين يديه ﴾ معناه القرب كما في قوله تعالى : ﴿ إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾ [سبأ : 46] ، أي قبل العذاب قريباً منه قال تعالى : ﴿ وقروناً بين ذلك كثيراً ﴾ [الفرقان : 38] ، وقال ﴿ ورسلاً لم نقصصهم عليك ﴾ [النساء : 164] .

وأما الذي من خلفه فنوح فقد قال هود لقومه ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ [الأعراف : 69] ، وهذا مراعاة للحالة المقصود تمثيلها فهو ناظر إلى قوله تعالى : ﴿ قل ما كنت بِدْعا من الرسل ﴾ [الأحقاف : 9] أي قد خلت من قبله رسل مثل ما خلت بتلك .

وجملة ﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ تعليل للنهي في قوله : ﴿ أن لا تعبدوا إلا الله ﴾ ، أي إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم بسبب شرككم .

وعذاب اليوم العظيم يحتمل الوعيد بعذاب يوم القيامة وبعذاب يوم الاستئصال في الدنيا ، وهو الذي عجّل لهم .

ووصف اليوم بالعظم باعتبار ما يحدث فيه من الأحداث العظيمة ، فالوصف مجاز عقلي .

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22)

جواب عن قوله : ﴿ أن لا تعبدوا إلا الله ﴾ [الأحقاف : 21] ، ولذلك جاء فعل ﴿ قالوا ﴾ مفصولاً على طريق المحاورة .

والاستفهام إنكار .

والمجيء مستعار للقصد بطلب أمر عظيم ، شبه طروّ الدعوة بعد أن لم يكن يدعو بها بمجيء جاء لم يكن في ذلك المكان .

والأفك بفتح الهمزة : الصرَف ، وأرادوا به معنى الترك ، أي لنترك عبادة آلهتنا .

وهذا الإنكار تعريض بالتكذيب فلذلك فرع عليه ﴿ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ فصرحوا بتكذيبه بطريق المفهوم .

(21/704)

والمعنى : ائتنا بالعذاب الذي تَعِدنا به ، أي عذاب اليوم العظيم ، وإنما صرَفوا مراد هود بالعذاب إلى خصوص عذاب الدنيا لأنهم لا يؤمنون بالبعث وبهذا يؤذن قوله بعده ﴿ فلما

رأوه عارضاً ﴾ [الأحقاف : 24] وقوله : ﴿ بل هو ما استعجلتم به ﴾ [الأحقاف : 24] .

وأرادوا : ائتنا به الآن لأن المقام مقام تكذيب بأن عبادة آلهتهم تجر لهم العذاب .

و ﴿ من الصادقين ﴾ أبلغ في الوصف بالصدق من أن يقال : إن كنت صادقاً ، كما تقرر في قوله تعالى : ﴿ وكان من الكافرين ﴾ في سورة البقرة (34) ، أي إن كنت في قولك هذا من الذين صدَقوا ، أي فإن لم تأت به فما أنت بصادق فيه .

قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (23)

لما جعلوا قولهم : ﴿ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ [الأحقاف : 22] فصْلا بينهم وبينه فيما أنذرهم من كون عبادة غير الله توجب عذاب يوم عظيم ، كان الأمر في قولهم ﴿ فأتنا ﴾ مقتضياً الفور ، أي طلب تعجيله ليدل على صدقه إذ الشأن أن لا يتأخر عن إظهار صدقه لهم .

وإسناد الإتيان بالعذاب إليه مجاز لأنه الواسطة في إتيان العذاب أن يدعو الله أن يعجّله ، أو جعلوا العذاب في مكنته يأتي به متى أراد ، تهكما به إذ قال لهم إنه مرسل من الله فجعلوا ذلك مقتضياً أن بينه وبين الله تعاوناً وتطاوعاً ، أي فلا تتأخر عن الإتيان به .

وقد دل على هذا الاقتضاء قوله لهم حين نزول العذاب ﴿ بل هو ما استعجلتم به ﴾ [الأحقاف : 24] فلذلك كان جوابه أنْ قال : ﴿ إنما العلم عند الله ﴾ أي علم وقت

إتيان العذاب محفوظ عند الله لا يطلع عليه أحد ، فالتعريف في ﴿ العلم ﴾ للاستغراق العرفي ، أي علم المغيبات ، أو التعريف عوض عن المضاف إليه ، أي وقت العذاب .

(22/704)

صلى الله عليه وسلم وهذا الجواب يجري على جميع الاحتمالات في معنى قولهم : ﴿ فأتِنا بما تَعِدُنا ﴾ لأن جميعها يقتضي أنه عالم بوقته .

والحصر هنا حقيقي كقوله : ﴿ لا يُجَلِّيها لوقتها إلا هو ﴾ [الأعراف : 187]

والمقصود من هذا الحصر شموله نفي العلم بوقت العذاب عن المتكلم رداً على قولهم : ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ .

و﴿ عند ﴾ هنا مجاز في الانفراد بالعلم ، أي فالله هو العالم بالوقت الذي يرسل فيه العذاب لحكمة في تأخيره .

ومعنى ﴿ وأبلغكم ما أرسلت به ﴾ أنه بُعث مبلغاً أمر الله وإنذاره ولم يُبعث للإعلام بوقت حلول العذاب كقوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها فِيمَ أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها إنما أنت منذر من يخشاها ﴾ [النازعات : 42 45] ، فقوله : ﴿ أبلغكم ما أرسلت به ﴾ جملة معترضة بين جملة ﴿ إنما العلم عند الله ﴾ وجملة ﴿

ولكني أراكم قوماً تجهلون ﴾ .

وموقع الاستدراك بقوله : ﴿ ولكني أراكم قوماً تجهلون ﴾ أنه عن قوله : ﴿ إنما العلم عند الله ﴾ ، أي ولكنكم تجهلون صفات الله وحِكمة إرساله الرسل ، فتحسبون أن الرسل وسائط لإنهاء اقتراح الخلق على الله أن يريهم العجائب ويساجلهم في الرغائب ، فمناط الاستدراك هو معمول خبر (لكنّ) وهو ﴿ قوماً تجهلون ﴾ ، والتقدير : ولكنكم قوم يَجهلون ، فإدخال حرف الاستدراك على ضمير المتكلم عدول عن الظاهر لئلا يبادرهم بالتجهيل استنزالاً لطائرهم ، فجعل جهلهم مظنوناً له لينظروا في صحة ما ظنه من عدمها . وإنما زيد ﴿ قوماً ﴾ ولم يقتصر على ﴿ تجهلون ﴾ للدلالة على تمكن الجهالة منهم حتى صارت من مقوّمات قوميتهم وللدلالة على أنها عمت جميع القبيلة كما قال لوط لقومه ﴿ أليس منكم رجل رشيد ﴾ [هود : 78] .

وقرأ الجمهور ﴿ وأبلّغكم ﴾ بتشديد اللام .

وقرأه أبو عمرو بتخفيف اللام .

يقال : بلّغ الخبر بالتضعيف وأبلغه بالهمز ، إذا جعله بالغاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (24) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (25) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تسبب عن قولهم هذا إتيان العذاب فأتاهم في سحاب أسود ، استمروا على جهلهم وعادتهم في الأمن وعدم تجويز الانتقام ، وكأن إتيانه كان قريباً من استعجالهم به ، فلذلك أتى بالفاء في قوله مسبباً عن تكذيبهم مبيناً لعظيم جهلهم بجهلهم في المحسوسات ، مفصلاً لما كان من حالهم عند رؤية البأس : ﴿ فلما رأوه ﴾ أي العذاب الذي يعدهم به ﴿ عارضاً ﴾ أي سحاباً أسود بارزاً في الأفق ظاهر الأمر عند من له أهلية النظر ، حال كونه قاصداً إليهم ﴿ مستقبل أوديتهم ﴾ أي طالباً لأن يكون مقابلاً لها وموجداً لذلك ، وهو وصف لعارضاً فهو نكرة إضافته لفظية وإن كان مضافاً إلى معرفة ، وكذا "ممطرنا " ﴿ قالوا ﴾ على عادة جهلهم مشيرين إليه بأداة القرب الدالة على أنهم في غاية الجهل ، لأن جهلهم به استمر حتى كاد أن يواقعهم : ﴿ هذا عارض ﴾ أي سحاب معترض في عرض السماء أي ناحيتها ﴿ ممطرنا ﴾ لكونهم رأوه أسود مرتاداً فظنوه ممتلئاً ماء يغاثون به بعد

طول القحط وإرسال رسلهم إلى مكة المشرفة ليدعوا لهم هنالك الله الذي استخفوا به بالقدح في ملكه بأن أشركوا به من هو دونهم ، علماً منهم بأن شركاءهم لا تغني عنهم في الإمطار شيئاً ، غافلين عن ذنوبهم الموجبة لعذابهم ، فلذلك قال الله تعالى مضرباً عن كلامهم ، والظاهر أنه حكاية لقول هود عليه الصلاة والسلام في جواب كلامهم : ﴿ بل هو ﴾ أي هذا العارض الذي ترونه ﴿ ما استعجلتم به ﴾ أي طلتم العجلة في إتيانه إليكم من العذاب .

(24/704)

ولما اشتد تشوف السامع إلى معرفته قال : ﴿ ريح ﴾ أي ركمت هذا السحاب الذي رأيتموه ﴿ فيها عذاب أليم ﴾ أي شديد الإيلام ، كانت تحمل الظعينة في الجو تحملها وهودجها حتى ترى كأنها جرادة ، وكانوا يرون ما كان خارجاً عن منازلهم من الناس والمواشي تطير بهم الريح بين السماء والأرض ثم تقذف بهم ﴿ تدمر ﴾ أي تهلك إهلاكاً عظيماً شديداً سريعاً تأتي بغتة على طريق الهجوم ﴿ كل شيء ﴾ أي أتت عليه ، هذا شأنها فمن سلم منها كهود عليه الصلاة والسلام ومن آمن به ـ رضي الله عنه ـ م فسلامته أمر خارق للعادة كما أن أمرها في إهلاك كل ما مرت عليه أمر خارق للعادة ، والجملتان

يحتمل أن تكونا وصفاً لريح ويحتمل وهو أعذب وأهز للنفس وأعجب أن تكونا استئنافاً ، ولما كان ربما ظن ظان أنها مؤثرة بنفسها قال : ﴿ بأمر ربها ﴾ أي المبدع لها والمربي والمحسن بالانتقام بها من أعدائه .

ولما ذكرها بهذا الذكر الهائل ، وكان التقدير : جاءتهم فدمرتهم لم تترك منهم أحداً ، سبب عن ذلك زيادة في التهويل قوله : ﴿ فأصبحوا ﴾ ولما اشتد إصغاء السامع إلى كيفية إصباحهم ، قال مترجماً لهلاكهم : ﴿ لا ترى ﴾ أي أيها الرائي ، فلما عظمت روعة القلب وهول النفس قال تعالى : ﴿ إلا مساكنهم ﴾ أي جزاء على إجرامهم ، فانطبقت العبارة على المعنى ، وعلم أن المراد بالإصباح مطلق الكون ، ولكنه عبر به لأن المصيبة فيه أعظم ، وعلم أنه لم يبق من المكذبين ديار ولا نافخ نار ، وهذا كناية عن عموم الهلاك لهم سواء كان الرمل دفنهم أو على وجه الأرض مرتبين كما في الآية الأخرى

(25/704)

﴿ فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾ [الحاقة : 7] وروي أن هوداً عليه الصلاة والسلام لما أحس بالريح اعتزل بمن آمن معه في حظيرة فأمالت الريح على الكفرة الأحقاف التي كانت مجتمعهم إذا تحدثوا ومحل بسطهم إذا لعبوا ، فكانوا تحتها سبع

ليال وثمانية أيام ، ثم كشفت عنهم فاحتملتهم فقذفتهم في البحر وكذا أهلكت مواشيهم وكل شيء لهم فيه روح ولم يصب هوداً عليه الصلاة والسلام ومن معه ـ رضى الله عنه ـ م منها إلا ما لين أبشارهم ونعش أرواحهم ، والآية على هذا على حقيقتها في أنه لم يصبح الصباح ومنهم أحد يرى .

ولما طارت لهذا الهول الأفئدة واندهشت الألباب ، قال تعالى منبهاً على زبدة المراد بطريق الاستئناف : ﴿ كذلك ﴾ أي مثل هذا الجزاء الهائل في أصله أو جنسه أو نوعه أو شخصه من الإهلاك ﴿ نجزي ﴾ بعظمتنا دائماً إذا شئنا ﴿ القوم ﴾ وإن كانوا أقوى ما يكون ﴿ المجرمين ﴾ أي العريقين في الإجرام الذين يقطعون ما حقه الوصل فيصلون ما حقه القطع ، وذلك الجزاء هو الإهلاك على هذا الوجه الشنيع ، فاحذروا أيها العرب مثل ذلك إن لم ترجعوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 136 . 137 ﴾

(26/704)

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ ﴾

ذكر المبرّد في الضمير في رأوه قولين أحدهما : أنه عائد إلى غير مذكور وبينه قوله ﴿ عَارِضاً ﴾ كما قال : ﴿ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ﴾ [فاطر : 45] ولم يذكر الأرض لكونها معلومة فكذا هاهنا الضمير عائد إلى السحاب ، كأنه قيل : فلما رأوا السحاب عارضاً وهذا اختيار الزجاج ويكون من باب الإضمار لا على شريطة التفسير والقول الثاني : أن يكون الضمير عائداً إلى ما في قوله ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ أي فلما رأوا ما يوعدون به عارضاً ، قال أبو زيد العارض السحابة التي ترى في ناحية السماء ثم تطبق ، وقوله ﴿ مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾ قال المفسرون كانت عاد قد حبس عنهم المطر أياماً فساق الله إليهم سحابة سوداء فخرجت عليهم من وادٍ يقال له المغيث ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾ استبشروا و ﴿ قَالُواْ هذا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ والمعنى ممطر إيانا ، قيل كان هود قاعداً في قومه فجاء سحاب مكثر فقالوا ﴿ هذا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ فقال : ﴿ بَلْ هُوَ مَا استعجلتم بِهِ ﴾ من العذاب ثم بيّن ماهيته فقال : ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

ثم وصف تلك الريح فقال : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أي تهلك كل شيء من الناس والحيوان والنبات ﴿ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ والمعنى أن هذا ليس من باب تأثيرات الكواكب والقرانات ، بل هو أمر حدث ابتداء بقدرة الله تعالى لأجل تعذيبكم ﴿ فَأَصْبَحُواْ ﴾ يعني عاداً ﴿ لاَ يرى إِلاَّ مساكنهم ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

روي أن الريح كانت تحمل الفسطاط فترفعها في الجو حتى يرى كأنها جرادة ، وقيل أول من أبصر العذاب امرأة منهم قالت رأيت ريحاً فيها كشهب النار ، وروي أن أول ما عرفوا به أنه عذاب أليم ، أنهم رأوا ما كان في الصحراء من رجالهم ومواشيهم يطير به الريح بين السماء والأرض فدخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم فعلقت الريح الأبواب وصرعتهم ، وأحال الله عليهم الأحقاف ، فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام لهم أنين ، ثم كشفت الريح عنهم فاحتملتهم فطرحتهم في البحر ، وروي أن هوداً لما أحس بالريح خط على نفسه وعلى المؤمنين خطاً إلى جنب عين تنبع فكانت الريح التي تصيبهم ريحاً لينة هادئة طيبة ، والريح التي تصيب قوم عاد ترفعهم من الأرض وتطيرهم إلى السماء وتضربهم على الأرض ، وأثر المعجزة إنما ظهر في تلك الريح من هذا الوجه ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما أمر الله خازن الرياح أن يرسل على عاد إلا مثل مقدار الخاتم "

ثم إن ذلك القدر أهلكهم بكليتهم ، والمقصود من هذا الكلام إظهار كمال قدرة الله تعالى ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا رأى الريح فزع وقال : " اللّهم إني أسألك خيرها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها ومن شر ما أرسلت به "

المسألة الثالثة :

قرأ عاصم وحمزة ﴿ لاَ يرى ﴾ بالياء وضمها ﴿ مساكنهم ﴾ بضم النون ، قال الكسائي معناه لا يرى شيء إلا مساكنهم ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر والكسائي ﴿ لاَّ ترى ﴾ على الخطاب أي لا ترى أنت أيها المخاطب ، وفي بعض الروايات عن عاصم ﴿ لاَّ ترى ﴾ بالتاء ﴿ مساكنهم ﴾ بضم النون وهي قراءة الحسن والتأويل لا ترى من بقايا عاد أشياء إلا مساكنهم .

وقال الجمهور هذه القراءة ليست بالقوية .

(28/704)

ثم قال تعالى : ﴿ كذلك نَجْزِي القوم المجرمين ﴾ والمقصود منه تخويف كفار مكة ، فإن قيل لما قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللهِ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال : 33] فكيف يبقى التخويف حاصلاً ؟ قلنا : قوله ﴿ وَمَا كَانَ اللهِ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ إنما أنزل في آخر الأمر فكان التخويف حاصلاً قبل نزوله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 25.24 ﴾

(29/704)

وقال القرطبى :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً ﴾

قال المبرد : الضمير في "رَأَوْهُ" يعود إلى غير مذكور ؛ وبيّنه قولُه : "عَارِضاً" فالضمير يعود إلى السحاب ؛ أي فلما رأوا السحاب عارضاً .

ف "عارضاً" نصب على التكرير ؛ سُمِّي بذلك لأنه يبدو في عرض السماء .

وقيل : نصب على الحال .

وقيل : يرجع الضمير إلى قوله : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ فلما رأوه حسبوه سحاباً يمطرهم ، وكان المطر قد أبطأ عنهم ، فلما رأوه "مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ" استبشروا .

وكان قد جاءهم من وادٍ جرت العادة أن ما جاء منه يكون غَيْثاً ؛ قاله ابن عباس وغيره .

قال الجوهري : والعارض السحاب يعترض في الأفق ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ هذا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ أي ممطر لنا ؛ لأنه معرفة لا يجوز أن يكون صفة لعارض وهو نكرة .

والعرب إنما تفعل مثل هذا في الأسماء المشتقة من الأفعال دون غيرها .

قال جرير :

يا رُبَّ غابِطِنا لو كان يطلبكم . . .

لاقى مباعدةً منكم وحِرْمَانَا

ولا يجوز أن يقال : هذا رجل غلامنا .

وقال أعرابي بعد الفطر : رُبَّ صائمة لن تصومه ، وقائمة لن تقومه ؛ فجعله نعتاً للنكرة وأضافه إلى المعرفة .

قلت : قوله : "لا يجوز أن يكون صفة لعارض" خلاف قول النحويين ، والإضافة في تقدير الانْفصال ، فهي إضافة لفظية لا حقيقية ؛ لأنها لم تفد الأوّل تعريفاً ، بل الاْسم نكرة على حاله ؛ فلذلك جرى نعتاً على النكرة .

هذا قول النحويين في الآية والبيت .

ونعت النكرة نكرة .

و "رُبّ" لا تدخل إلا على النكرة .

﴿ بَلْ هُوَ ﴾ أي قال هود لهم .

(30/704)

والدليل عليه قراءة من قرأ "قال هود بل هو" وقرىء "قُلْ بَلْ مَا استعجلتم بِهِ هِيَ رِيحٌ" أي قال الله : قل بل هو ما استعجلتم به ؛ يعني قولهم : "فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا" ثم بين ما هو فقال : ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ والريح التي عذبوا بها نشأت من ذلك السحاب الذي رأوه ، وخرج

هود من بين أظهرهم ، فجعلت تحمل الفساطيط وتحمل الظَّعِينة فترفعها كأنها جرادة ، ثم تضرب بها الصخور .

قال ابن عباس : أوّل ما رأوا العارض قاموا فمدّوا أيديهم ، فأوّل ما عرفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجاً من ديارهم من الرجال والمواشي تطير بهم الريح ما بين السماء والأرض مثل الريش ، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم ، فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم ، وأمر الله الريح فأمالت عليهم الرمال ، فكانوا تحت الرمال سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ، ولهم أنين ؛ ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمال واحتملتهم فرمتهم في البحر ؛ فهي التي قال الله تعالى فيها : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ أي كل شيء مرت عليه من رجال عادٍ وأموالها .

قال ابن عباس : أي كل شيء بُعثت إليه ، والتدمير : الهلاك .

وكذلك الدمار .

وقرىء "يَدْمُرُ كُلَّ شَيْءٍ" من دَمَر دماراً .

يقال : دَمره تدميراً ودماراً ودَمّر عليه بمعنًى .

ودَمَر يَدْمُر دُموراً دخل بغير إذن .

وفي الحديث : " من سبق طَرْفُه استئذانه فقد دَمَر " مخفف الميم .

وتَدْمُر : بلد بالشام .

ويَرْبُوع تَدْمُرِيّ إذا كان صغيراً قصيراً .

﴿ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ بإذن ربها .

وفي البخاري " عن عائشة رضي الله عنها زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم قالت : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضاحكاً حتى أرى منه لَهَواتِه إنما كان يتبسم .

قالت : وكان إذا رأى غَيْماً أو رِيحاً عُرف في وجهه .

(31/704)

قالت : يا رسول الله ، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية ؟ فقال : "يا عائشة ما يُؤَمِّنُنِي أن يكون فيه عذاب عُذِّب قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب فقالوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا" " خرجه مسلم والترمذيّ ، وقال فيه : حديث حسن .

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " نُصِرت بالصَّبا وأهلِكت عادٌ بالدبور " وذكر الماورديّ أن القائل "هَذَا عَارِض مُمْطِرُنَا" من قوم عاد : بكر بن معاوية ؛ ولما رأى السحاب قال : إني لأرى سحاباً مرمداً ، لا تدع من عاد أحداً .

فذكر عمرو بن ميمون أنها كانت تأتيهم بالرجل الغائب حتى تقذفه في ناديهم .

قال ابن إسحاق : واعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة ، ما يصيبه ومن معه منها إلا

ما يُلين أعلى ثيابهم .

وتلتذ الأنفس به ؛ وإنها لتمرّ من عاد بالظعن بين السماء والأرض وتدْمَغُهُم بالحجارة حتى هلكوا .

وحكى الكلبيّ أن شاعرهم قال في ذلك :

فدعا هود عليهم . . .

دعوةً أضحَوْا همودا

عصفت ريح عليهم . . .

تركت عاداً خمودا

سخّرت سبع ليال . . .

لم تدع في الأرض عودا

وعَمَّر هود في قومه بعدهم مائة وخمسين سنة .

﴿ فَأَصْبَحُواْ لاَ يرى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ ﴾ قرأ عاصم وحمزة "لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ" بالياء غير مسمى الفاعل .

وكذلك روى حماد بن سلمة عن ابن كثِير إلا أنه قرأ "ترى" بالتاء .

وقد روي ذلك عن أبي بكر عن عاصم .

الباقون "ترى" بتاء مفتوحة .

"مَسَاكِنَهُم" بالنصب ؛ أي لا ترى يا محمد إلا مساكنهم .

قال المهدوِيّ : ومن قرأ بالتاء غير مسمى الفاعل فعلى لفظ الظاهر الذي هو المساكن المؤنثة ؛ وهو قليل لا يستعمل إلا في الشعر .

وقال أبو حاتم : لا يستقيم هذا في اللغة إلا أن يكون فيها إضمار ؛ كما تقول في الكلام ألا تُرى النساء إلا زينب .

ولا يجوز لا ترى إلا زينب .

وقال سيبويه : معناه لا ترى أشخاصهم إلا مساكنهم .

(32/704)

واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة عاصم وحمزة .

قال الكسائي : معناه لا يرى شيء إلا مساكنهم ، فهو محمول على المعنى ؛ كما تقول : ما قام إلا هند ، والمعنى ما قام أحد إلا هند .

وقال الفرّاء : لا يرى الناس لأنهم كانوا تحت الرمل ، وإنما ترى مساكنهم لأنها قائمة .

﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي القوم المجرمين ﴾ أي مثل هذه العقوبة نعاقب بها المشركين . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

والفاء في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً ﴾

فصيحة أي فأتاهم فلما رأوه ، وضمير النصب قيل راجع إلى ﴿ مَا ﴾ في ﴿ بِمَا تَعِدُنَا ﴾ [الأحقاف : 22] وكون المرئي هو الموعود باعتبار المآل والسببية له وإلا فليس هو المرئي حقيقة ، وجوز الزمخشري أن يكون مبهماً يفسره ﴿ عَارِضاً ﴾ وهو إما تمييز وإما حال ، ثم قال : وهذا الوجه أعرب أي أبين وأظهر لما أشرنا إليه في الوجه الأول من الخفاء وأفصح لما فيه من البيان بعد الإبهام والإيضاح غب التعمية .

وتعقبه أبو حيان بأن المبهم الذي يفسره ويوضحه التمييز لا يكون في باب رب نحو ربه رجلاً لقيته وفي باب نعم وبئس على مذهب البصريين نحو نعم رجلاً زيد وبئس غلاماً عمرو ، وأما أن الحال توضح المبهم وتفسره فلا نعلم أحداً ذهب إليه ، وقد حصر النحاة المضمر الذي يفسره ما بعده فلم يذكروا فيه مفعول رأى إذا كان ضميراً ولا أن الحال يفسر الضمير ويوضحه ، وأنت تعلم جلالة جار الله وإمامته في العربية ، والعارض السحاب الذي يعرض في أفق السماء ، ومنه قول الشاعر :

يا من رأى عارضاً أرقت له . . .

بين ذراعي وجبهة الأسد

وقول الأعشى :

يا من رأى عارضاً قد بت أرمقه . . .

كأنما البرق في حافاته الشعل

﴿ مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾ أي متوجه أوديتهم وفي مقابلتها وهي جمع واد ، وأفعلة في جمع فاعل الاسم شاذ نحو ناد وأندية وجائز للخشبة الممتدة في أعلى السقف وأجوزة والإضافة لفظية كما في قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ هذا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ ولذلك وقعاً صفتين للنكرة وأطلق عليها الزمخشري مجازية ووجه التجوز أن هذه الإضافة للتوسع والتخفيف حيث لم تفد فائدة زائدة على ما كان قبل فكما أن إجراء الظرف مجرى المفعول به مجاز كذلك إجراء المفعول أو الفاعل مجرى المضاف إليه في الاختصاص ولم يرد أنها من باب الإضافة لأدنى ملابسة .

(34/704)

﴿ بَلْ هُوَ مَا استعجلتم بِهِ ﴾ أي من العذاب والكلام على إضمار القول قبله أي قال هود بل هو الخ لأن الخطاب بينه وبينهم فيما سبق ويؤيده أنه قرىء كذلك وقدره بعضهم قل بل هو الخ للقراءة به أيضاً والاحتياج إلى ذلك لأنه إضراب ولا يصلح أن يكون من مقول من قال هذا عارض ممطرنا وقدر البغوي قال الله بل هو الخ وينفك النظم الجليل عليه كما لا يخفى .

وقرىء ﴿ بَلِ مَا استعجلتم ﴾ أي بل هو ، وقرأ قوم ﴿ مَا استعجلتم ﴾ بضم التاء وكسر الجيم .

﴿ رِيحٌ ﴾ بدل من ﴿ مَا ﴾ أو من ﴿ هُوَ ﴾ أو خبر لمبتدأ محذوف أي هي أو هو ريح ﴿ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ صفة ﴿ رِيحٌ ﴾ لكونه جملة بعد نكرة وكذا قوله تعالى :

(35/704)

﴿ تُدَمِّرُ ﴾ أي تهلك ﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ من نفوسهم وأموالهم أو مما أمرت بتدميره ﴿ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ ويجوز أن يكون مستأنفاً ، وقرأ زيد بن علي ﴿ تُدَمِّرُ ﴾ بفتح التاء وسكون الدال وضم الميم ، وقرىء كذلك أيضاً إلا أنه بالياء ورفع ﴿ كُلٌّ ﴾ على أنه فاعل ﴿ يدمر ﴾ وهو من دمر دماراً أي هلك ، والجملة صفة أيضاً والعائد محذوف أي بها أو الضمير من ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا ﴾ ويجوز أن يكون استئنافاً كما في قراءة الجمهور وأراد البيان أن لكل

ممكن وقتاً مقتضياً منوطاً بأمر بارئه لا يتقدم ولا يتأخر ويكون الضمير من ﴿ رَبُّهَا ﴾ لكل شيء فإنه بمعنى الأشياء وفي ذكر الأمر والرب والإضافة إلى الريح من الدلالة على عظمة شأنه عز وجل ما لا يخفى والفاء في قوله تعالى : ﴿ فَأُصْبَحُواْ لاَ يرى إِلاَّ مساكنهم ﴾ فصيحة أي فجأتهم الريح فدمرتهم فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم وجعلها بعضهم فاء التعقيب على القول بإضمار القول مسنداً إليه تعالى وادعى أنه ليس هناك قول حقيقة بل هو عبارة عن سرعة استئصالهم وحصول دمارهم من غير ريث وهو كما ترى ، وقرأ الجمهور ﴿ لاَّ ترى ﴾ بتاء الخطاب ﴿ إِلاَّ مساكنهم ﴾ بالنصب ، والخطاب لكل أحد تتأتى منه الرؤية تنبيهاً على أن حالهم بحيث لو حضر كل أحد بلادهم لا يرى إلا مساكنهم أو لسيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم ، وقرأ أبو رجاء .

ومالك بن دينار بخلاف عنهما .

والجحدري .

والأعمش .

وابن أبي إسحق .

والسلمي ﴿ لاَّ ترى ﴾ بالتاء من فوق مضمومة ﴿ إِلاَّ مساكنهم ﴾ بالرفع وجمهور النحاة على أنه لا يجوز التأنيث مع الفصل بالا إلا في الشعر كقول ذي الرمة :

كأن جمل هم وما بقيت . . .

إلا النحيزة والألواح والعصب

وقول الآخر وعزاه ابن جني لذي الرمة أيضاً :

برى النحز والاجرال ما في غروضها . . .

وما بقيت إلا الضلوع الجراشع

(36/704)

وبعضهم يجيزه مطلقاً وتمام الكلام فيه في محله ، وقرأ عيسى الهمداني ﴿ لاَ يرى ﴾ بضم الياء التحتية ﴿ إِلاَّ مساكنهم ﴾ بالتوحيد والرفع وروى هذا عن الأعمش .

ونصر بن عاصم ، وقرىء ﴿ لاَّ ترى ﴾ بتاء فوقية مفتوحة ﴿ إِلاَّ مساكنهم ﴾ مفرداً منصوباً وهو الواحد الذي أريد به الجمع أو مصدر حذف مضافه أي آثار سكونهم ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الفظيع ﴿ نَجْزِي القوم المجرمين ﴾ أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب السحاب .

وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ ﴾ [الأحقاف : 24] الآية أول ما عرفوا أنه عذاب ما رأوا ما كان خارجاً من رحالهم ومواشيهم يطير بين السماء والأرض مثل الريش فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم

فجاءت الريح ففتحت أبوابهم ومالت عليهم بالرمل فكانوا تحت الرمل سبع ليال وثمانية أيام حسوماً لهم أنين فأمر الله تعالى الريح فكشفت عنهم الرمل وطرحتهم في البحر فهو قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحُواْ لاَ يرى إِلاَّ مساكنهم ﴾ .

وروى أن أول من أبصر العذاب امرأة منهم رأت ريحاً فيها كشهب النار ، وروى أن هوداً عليه السلام لما أحس بالريح خط على نفسه وعلى المؤمنين خطا إلى جنب عين تنبع ، وعن ابن عباس أنه عليه السلام اعتزل وم معه في حظيرة ما يصيبهم من الريح إلا ما يلين به الجلود وتلذه الأنفس ، وأنها لتمر من عاد بالظعن بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة ، وكانت كما أخرج ابن أبي شيبة .

وابن جرير عن عمرو بن ميمون تجيء بالرجل الغائب ، ومر في سورة الأعراف مما يتعلق بهم ما مر فارجع إليهم إن أردته ، ولما أصابهم من الريح ما أصابهم كان صلى الله عليه وسلم يدعو إذا عصفت الريح .

أخرج مسلم .

والترمذي .

والنسائي .

وابن ماجه .

وعبد بن حميد عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عصفت الريح قال : اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به فإذا أخيلت السماء تغير لونه صلى الله عليه وسلم وخرج ودخل وأقبل وأدبر فإذا مطرت سرى عنه فسألته فقال عليه الصلاة والسلام : لا أدري لعله كما قال قوم عاد ﴿ هذا عارض ممطرنا ﴾ [الأحقاف : 24] " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(38/704)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا ﴾

الفاء لتفريع بقية القصة على ما ذكر منها ، أي فلما أراد الله إصابتهم بالعذاب ورأوهُ عارض قالوا : ﴿ هذا عارض ﴾ إلى آخره ، ففي الكلام تقدير يدل عليه السياق ، ويسمى التفريع فيه فصيحة ، وقد طوي ذكر ما حدث بين تكذيبهم هوداً وبين نزول العذاب بهم ، وذكر في كتب تاريخ العرب أنهم أصابهم قحط شديد سنين ، وأن هوداً فارقهم فخرج إلى مكة

ومات بها ، وقد قيل إنه دفن في الحِجر حول الكعبة ، وتقدم في سورة الحجر .

وقولهم : ﴿ هذا عارض ممطرنا ﴾ يشير إلى أنهم كانوا في حاجة إلى المطر .

وورد في سورة هود (52) قول هود لهم : ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يُرسِل السماء عليكم مدراراً ﴾ وقصتهم مبسوطة في تفسيرنا لسورة هود .

وضمير رأوه ﴾ عائد إلى ﴿ ما تعَدِنا ﴾ [الأحقاف : 22] ، وهو العذاب .

وأطلق على المرئي ضمير العذاب لأن المَرئي سبب العذاب وهو ما حملته الريح .

و ﴿ عارضاً ﴾ حال منه ، والعارض : السحاب الذي يعترض جو السماء أي رأوه كالعارض .

وليس المراد عارض المطر لأنه ليس كذلك وكيف قد أبطل قولهم : ﴿ هذا عارض ممطرنا ﴾ بقوله : ﴿ بل هو ما استعجلتم به ريح ﴾ .

و ﴿ مستقبل أوديتهم ﴾ نعت ل ﴿ عارضاً ﴾ .

والاستقبال : التوجه قبالة الشيء ، أي سائراً نحو أوديتهم .

وأودية : جمع وادٍ جمعاً نادراً مثل نادٍ وأندية .

ويطلق الواد على محلة القوم ونزلهم إطلاقاً أغلبياً لأنّ غالب منازلهم في السهول ومقارّ المياه .

وفي حديث سعد بن معاذ بمكة بعد الهجرة وما جرى بينه وبين أبي جهل من تحاور ورفع

صوته على أبي جهل فقال له أمية : لا ترفع صوتك على أبي الحكم سَيِّد أهل الوادي .

وجمع الأودية باعتبار كثرة منازلهم وانتشارها .

والعارض في قولهم : ﴿ هذا عارض ممطرنا ﴾ : السحاب العظيم الذي يعرض في الأفق كالجبل ، و ﴿ ممطرنا ﴾ نعت ل ﴿ عارض ﴾ .

(39/704)

وقوله : ﴿ بل هو ما استعجلتم به ﴾ مقول لقول محذوف ، يجوز أن يكون من قول هود إن كان هود بين ظَهرانيهم ولم يكن خرج قبل ذلك إلى مكة أو هو من قول بعض رجالهم رأى مخائل الشرّ في ذلك السحاب .

قيل : القائل هو بكر بن معاوية من قوم عاد .

قال لما رآه : "إني لأَرى سحاباً مرمداً لا تدع من عاد أحداً" لعله تبين له الحق من إنذار هود حين رأى عارضاً غير مألوف ولم ينفعه ذلك بعد أن حلّ العذاب بهم ، أو كان قد آمن من قبل فنجّاه الله من العذاب بخارق عادة .

وإنّما حذف فعل القول لتمثيل قائل القول كالحاضر وقت نزول هذه الآية ، وقد سمع كلامهم وعلم غرورهم فنطق بهذا الكلام ترويعاً لهم .

وهذا من استحضار الحالة العجيبة كقول مالك بن الريب:

دعاني الهوى من أهل وُدّي وجِيرتي . . .

بذي الشَّيطَيْن فالتفتُّ ورائيا

فتخيل داعياً يدعوه فالتفت ، وهذا من التخيّل في الكلام البليغ .

وجعل العذاب مظروفاً في الريح مبالغة في التسبب لأن الظرفيّة أشدّ ملابسة بين الظرف والمظروف من ملابسة السبب والمسبب .

والتدمير : الإهلاك ، وقد تقدم .

و﴿ كل شيء ﴾ مستعمل في كثرة الأشياء فإن (كُلاَّ) تأتي كثيراً في كلامهم بمعنى الكثرة .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ولو جاءتهم كل آية ﴾ في سورة يونس (97) .

والمعنى : تدمر ما من شأنه أن تُدمره الريح من الإنسان والحيوان والديار .

وقوله : بأمر ربها ﴾ حال من ضمير ﴿ تدمر ﴾ .

وفائدة هذه الحال تقريب كيفية تدميرها كلَّ شيء ، أي تدميراً عجيباً بسبب أمر ربها ، أي تسخيره الأشياء لها فالباء للسببية .

وأضيف الرب إلى ضمير الريح لأنها مسخرّة لأمر التكوين الإلهي فالأمر هنا هو أمر التكوين .

﴿ فأصبحوا ﴾ أي صاروا ، وأصبح هنا من أخوات صار .

وليس المراد : أن تدميرهم كان ليلاً فإنهم دمّروا أياماً وليالي ، فبعضهم هلك في الصباح وبعضهم هلك مساء وليلاً .

(40/704)

والخطاب في قوله : ﴿ لا ترى ﴾ لمن تتأتّى منه الرؤية حينئذٍ إتماماً لاستحضار حالة دمارهم العجيبة حتى كأن الآية نازلة في وقت حدوث هذه الحادثة .

والمراد بالمساكن : آثارها وبقاياها وأنقاضها بعد قلع الريح معظمها .

والمعنى : أن الريح أتت على جميعهم ولم يبق منهم أحد من ساكني مساكنهم .

وقوله : ﴿ كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾ أي مثل جزاء عاد نجزي القوم المجرمين ، وهو تهديد لمشركي قريش وإنذار لهم وتوطئة لقوله : ﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكَّنَّاكم فيه ﴾ [الأحقاف : 26] .

وقرأ الجمهور ﴿ لا ترى ﴾ بالمثناة الفوقية مبنياً للفاعل وبنصب ﴿ مساكنهم ﴾ وقرأه عاصم وحمزة وخلف بياء تحتية مبنياً للمجهول وبرفع ﴿ مساكنُهم ﴾ وأجرى على

الجمع صيغة الغائب المفرد لأن الجمع مستثنى بـ ﴿ إلاّ ﴾ وهي فاصلة بينه وبين الفعل .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(41/704)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (26) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (27) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (28) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان هذا محلاً يتوقع فيه الإخبار عن حال مكنتهم ليعلم هل تركوا الدفع لمانع فيهم أو لأن ما أتاهم بحيث لا يمكن لأحد دفاعه ، قال ذاكراً حرف التوقع مخوفاً للعرب مقسماً لأن قريشاً قد قال قائلهم : إنهم يدفعون العذاب بدفع الزبانية ، ونحوها : ﴿ ولقد ﴾ أي فعل بهم ذلك والحال أنا وعزتنا قد ﴿ مكناهم ﴾ تمكيناً تظهر به عظمتنا ﴿ فيما إن ﴾ أي

الذي ما ﴿ مكناكم فيه ﴾ من قوة الأبدان وكثرة الأموال وغيرها ، وجعل النافي " أن " لأنها أبلغ من " ما " لأن " ما " تنفي تمام الفوت لتركبها من الميم والألف التي حقيقة إدراكها فوت تمام الإدراك و " أن " تنفي أدنى مظاهر مدخولها فكيف بما وراءه من تمامه لأن الهمزة أول مظهر لفوت الألف والنون لمطلق الإظهار - هذا إلى ما في ذلك من عذوبة اللفظ وصونه عن ثقل التكرار إلى غير ذلك من بدائع الأسرار .

(42/704)

ولما كانت قريش تفتخر بعقولها فربما ظنت أنها في العقل ومقدماته من الحواس أمكن منهم ، وأنهم ما أتى عليهم إلا من عدم فهمهم ، قال تعالى : ﴿ وجعلنا ﴾ أي جعلاً يليق بما " زدناهم عليكم " من المكنة على ما اقتضته عظمتنا ﴿ لهم سمعاً ﴾ بدأ به لأن المقام للإنذار المنبه بحاسة السمع على ما في الآيات المرئيات من المواعظ ، فهو أنفع لأنه أوضح ، ووحده لقلة التفاوت فيه ﴿ وأبصاراً ﴾ أي منبهة على ما في الآيات المرئيات من مطابقة واقعها لأخبار السمع ، وجمع لكثرة التفاوت في أنوار الأبصار ، وكذا في قوله :

﴿ وأفئدة ﴾ أي قلوباً ليعرفوا بها الحق فيتبعوه والباطل فيجتنبوه ويشكروا من وهبها لهم ، وختم بها لأنها الغاية التي ليس بعد الإدراك منتهى ولا وراءها مرمى ، وعبر بما هو من

التفود وهو التجرد إشارة إلى أنها في غاية الذكاء ﴿ فما أغنى عنهم ﴾ في حال إرسالنا إليهم الرحمة على لسان نبينا هود عليه الصلاة والسلام ثم النقمة بيد الريح ﴿ سمعهم ﴾ وأكد النفي بتكرير النافي فقال : ﴿ ولا أبصارهم ﴾ وكذا في قوله : ﴿ ولا أفئدتهم ﴾ أي لما أردنا إهلاكهم ، وأكد بإثبات الجار فقال : ﴿ من شيء ﴾ أي من الإغناء ، وإن قلّ لا في دفع العذاب ، ولا في معرفة الصواب ، بل صرفوا ما وهبنا لهم من القوى فيما لا ينبغي تعليق الهمم به من أمور الدنيا حتى فاقوا في ذلك الأمم وعملوا أعمال من تخلد كما قيل :

والخلد قد حاولت . . .

عاد فما خلدوا

(43/704)

ولما ذكر نفي الإغناء ، ذكر ظرفه على وجه يفهم التعليل ، فإنه إذا ذكر الانتقام في وقت فعل الشيء علم أن علته فعل ذلك الشيء فقال : ﴿ إذ كانوا ﴾ أي طبعاً لهم وخلقاً ﴿ يجحدون ﴾ أي يكررون على مر الزمان الجحد ﴿ بآيات الله ﴾ أي الإنكار لما يعرف من دلائل الملك الأعظم ﴿ وحاق ﴾ أي أحاط على جهة الإحراق والعظم بأمور لا يدري وجه المخلص منها ﴿ بهم ما ﴾ أي عقاب الذي ﴿ كانوا ﴾ على جهة الدوام لكونه خلقاً

لهم ﴿ به يستهزءون ﴾ أي يوجدونه على سبيل الاستمرار إيجاد من هو طالب له عاشق فيه .

ولما تم المراد من الإخبار بهلاكهم على ما لهم من المكنة العظيمة ليتعظ بهم من سمع أمرهم ، أتبعهم من كان مشاركاً لهم في التكذيب فشاركهم في الهلاك ، فقال مكرراً لتخويفهم دالاً على إحاطة قدرته بإحاطة علمه : ﴿ ولقد أهلكنا ﴾ بما لنا من العظمة والقدرة المحيطتين الماضيتين بكل ما نريد ﴿ ما حولكم ﴾ أي يا أهل مكة ﴿ من القرى ﴾ كأهل الحجر وسبا ومدين والأيكة وقوم لوط وفرعون وأصحاب الرس وثمود وغيرهم ممن فيهم معتبر .

ولما كان الموعوظ به الإهلاك ذكر مقدماً ، فتشوف السامع إلى السؤال عن حالهم في الآيات ، فقال عاطفاً بالواو التي لا يمنع معطوفها التقدم على ما عطف عليه : ﴿ وصرفنا الآيات ﴾ أي حولنا الحجج البينات وكررناها موصلة مفصلة مزينة محسنة على وجوه شتى من الدلالات ، خالصة عن كل شبهة .

ولما كان تصريف الآيات لا يخص أحداً بعينه ، بل هو لكل من رآه أو سمع به لم يقيدها بهم وذكر العلة الشاملة لغيرهم فقال : ﴿ لعلهم ﴾ أي الكفار ﴿ يرجعون ﴾ أي ليكونوا عند من يعرف حالهم في رؤية الآيات حال من يرجع عن الغي الذي كان يركبه لتقليد أو شبهة كشفته الآيات وفضحته الدلالات فلم يرجعوا ، فكان عدم رجوعهم سبب إهلاكنا لهم .

ولما كانوا قد جعلوا محط حالهم في الشركاء أنهم سبب التواصل بينهم والتفاوت ، وادعوا أنهم يشفعون فيهم فيقربونهم إلى الله زلفى ويمنعونهم من العذاب في الآخرة ، وكان أدنى الأمور التسوية بينه وبين عذاب الدنيا ، سبب عن أخباره عن إهلاك الأمم الماضية قوله مقدماً للعلة التي جعلها محط نظرهم منكراً عليهم موبخاً لهم : ﴿ فلولا ﴾ أي فهل لا ولم لا ﴿ نصرهم ﴾ أي هؤلاء المهلكين ﴿ الذين اتخذوا ﴾ أي اجتهدوا في صرف أنفسهم عن دواعي العقل والفطر الأولى حتى أخذوا ، وأشار إلى قلة عقولهم ببيان سفولهم فقال : ﴿ من دون الله ﴾ أي الملك الذي هو أعظم من كل عظيم ﴿ قرباناً ﴾ أي لأجل القربة التقريب العظيم يتقربون إليها ويزعمون أنها تقربهم إلى الله ﴿ آلهة ﴾ أشركوهم مع الملك الأعظم لأجل ذلك – قاتلهم الله وأخزاهم .

ولما كان التخصيص يفهم أنهم ما نصروهم ، أضرب عنه فقال : ﴿ بل ضلوا ﴾ أي غابوا وعموا عن الطريق الأقوم وبعدوا ﴿ عنهم ﴾ وقت بروك النقمة وقروع المثلة حساً ومعنى .

ولما كان التقدير : فذلك الاتخاذ الذي أدتهم إليه عقولهم السافل جداً البعيد من الصواب

كان الموصل إلى مآلهم هذا ، عطف عليه قوله : ﴿ وذلك ﴾ أي الضلال البعيد من السداد الذي تحصل من هذه القصة من إخلاف ما كانوا يقولون : إن أوثانهم آلهة ، وإنها تضر وتنفع وتقربهم إلى الله وتشفع لهم عنده ﴿ إفكهم ﴾ أي صرفهم الأمور عن وجهها إلى أقفائها ، ويجوز أن تكون الإشارة إلى العذاب ، أي وهذا العذاب جزاؤهم في مقابلة إفكهم ﴿ وما كانوا ﴾ أي على وجه الدوام لكونه في طباعهم ﴿ يفترون ﴾ أي يتعمدون كذبه لأن إصرارهم عليه بعد مجيء الآيات لا يكون إلا لذلك لأن من نظر فيها مجرداً نفسه عن الهوى اهتدى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 138.140 ﴾

(45/704)

فصل

قال الفخر :

ثم إنه تعالى خوف كفار مكة ، وذكر فضل عاد بالقوة والجسم عليهم فقال : ﴿ وَلَقَدْ مكناهم فِيمَا إِن مكناكم فِيهِ ﴾ قال المبرّد ما في قوله ﴿ فِيمَا ﴾ بمنزلة الذي .

و ﴿ إن ﴾ بمنزلة ما والتقدير : ولقد مكناهم في الذي ما مكناكم فيه ، والمعنى أنهم كانوا أشد منكم قوة وأكثر منكم أموالاً ، وقال ابن قتيبة كلمة إن زائدة .

والتقدير ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ، وهذا غلط لوجوه الأول : أن الحكم بأن حرفاً من كتاب الله عبث لا يقول به عاقل والثاني : أن المقصود من هذا الكلام أنهم كانوا أقوى منكم قوة ، ثم إنهم مع زيادة القوة ما نجوا من عقاب الله فكيف يكون حالكم ، وهذا المقصود إنما يتم لو دلّت الآية على أنهم كانوا أقوى قوة من قوم مكة الثالث : أن سائر الآيات تفيد هذا المعنى ، قال تعالى : ﴿ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً ورئيا ﴾ [مريم : 74] وقال : ﴿ كَانُواْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأرض ﴾ [غافر : 82] .

ثم قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وأبصارا وَأَفْئِدَةً ﴾ والمعنى أنا فتحنا عليهم أبواب النعم وأعطيناهم سمعاً فما استعملوه في سماع الدلائل ، وأعطيناهم أبصاراً فما استعملوها في تأمل العبر ، وأعطيناهم أفئدة فما استعملوها في طلب معرفة الله تعالى ، بل صرفوا كل هذه القوى إلى طلب الدنيا ولذاتها ، فلا جرم ما أغنى سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من عذاب الله شيئاً .

(46/704)

ثم بيّن تعالى أنه إنما لم يغن عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم لأجل أنهم كانوا يجحدون بآيات الله ، وقوله ﴿ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ ﴾ بمنزلة التعليل ، ولفظ إذ قد يذكر لإفادة التعليل

تقول : ضربته إذ أساء ، والمعنى ضربته لأنه أساء ، وفي هذه الآية تخويف لأهل مكة فإن قوم عاد لما اغتروا بدنياهم وأعرضوا عن قبول الدليل والحجة نزل بهم عذاب الله ، ولم تغن عنهم قوتهم ولا كثرتهم ، فأهل مكة مع عجزهم وضعفهم أولى بأن يحذروا من عذاب الله تعالى ويخافوا .

ثم قال تعالى : ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ يعني أنهم كانوا يطلبون نزول العذاب وإنما كانوا يطلبونه على سبيل الاستهزاء ، والله أعلم .

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (27)

اعلم أن المراد ولقد أهلكنا ما حولكم يا كفار مكة من القرى ، وهي قرى عاد وثمود باليمن والشام ﴿ وَصَرَّفْنَا الأيات ﴾ بيناها لهم ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ أي لعلّ أهل القرى يرجعون ، فالمراد بالتصريف الأحوال الهائلة التي وجدت قبل الإهلاك .

قال الجبائي : قوله ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ معناه لكي يرجعوا عن كفرهم ، دل بذلك على أنه تعالى أراد رجوعهم ولم يرد إصرارهم والجواب : أنه فعل ما لو فعله غيره لكان ذلك لأجل الإرادة المذكورة ، وإنما ذهبنا إلى هذا التأويل للدلائل الدالة على أنه سبحانه مريد لجميع الكائنات .

ثم قال تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ نَصَرَهُمُ الذين اتخذوا مِن دُونِ الله قُرْبَاناً ءالِهَةَ ﴾ القربان ما يتقرب به إلى الله تعالى ، أي اتخذوهم شفعاء متقرباً بهم إلى الله حيث قالوا ﴿ هَؤُلاء شفعاؤنا عِندَ الله ﴾ [يونس : 18] وقالوا ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى الله زُلْفَى ﴾ [الزمر : 3] وفي إعراب الآية وجوه الأول : قال صاحب "الكشاف" : أحد مفعولي اتخذ الراجع إلى الذين هو محذوف والثاني : آلهة وقرباناً حال ، وقيل عليه إن الفعل المتعدي إلى مفعولين لا يتم إلا بذكرهما لفظاً ، والحال مشعر بتمام الكلام ، ولا شك أن إتيان الحال بين المفعولين على خلاف الأصل الثاني : قال بعضهم ﴿ قُرْبَاناً ﴾ مفعول ثان قدم على المفعول الأول وهو آلهة ، فقيل عليه إنه يؤدي إلى خلو الكلام عن الراجع إلى الذين والثالث : قال بعض المحققين : يضمر أحد مفعولي اتخذوا وهو الراجع إلى الذين ، ويجعل قرباناً مفعولاً ثانياً ، وآلهة عطف بيان ، إذا عرفت الكلام في الإعراب ، فنقول المقصود أن يقال إن أولئك الذين أهلكهم الله هلا نصرهم الذين عبدوهم ، وزعموا أنهم متقربون بعبادتهم إلى الله ليشفعوا لهم ﴿ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ ﴾ أي غابوا عن نصرتهم ، وذلك إشارة إلى أن كون آلهتهم ناصرين لهم أمر ممتنع .

ثم قال تعالى : ﴿ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ ﴾ أي وذلك الامتناع أثر إفكهم الذي هو اتخاذهم إياها آلهة ، وثمرة شركهم وافترائهم على الله الكذب في إثبات الشركاء له ، قال صاحب "الكشاف"

: وقرىء ﴿ إِفكهم ﴾ والإفك والأفك كالحذر والحذر ، وقرىء ﴿ وَذَلِكَ إِفكهم ﴾ بفتح الفاء والكاف ، أي ذلك الاتخاذ الذي هذا أثره وثمرته صرفهم عن الحق ، وقرىء ﴿ إِفكهم ﴾ على التشديد للمبالغة أفكهم جعلهم آفكين وآفكهم ، أي قولهم الإفك ، أي ذو الإفك كما تقول قول كاذب .

ثم قال : ﴿ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ والتقدير وذلك إفكهم وافتراؤهم في إثبات الشركاء لله تعالى ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 25 . 27 ﴾

(48/704)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

ثم أمر تعالى نبيه بذكر هود وقومه عاد على جهة المثال لقريش ، وهذه الأخوة هي أخوة القرابة ، لأن هوداً كان من أشراف القبيلة التي هي عاد .

واختلف الناس في هذه " الأحقاف " أين كانت ؟ فقال ابن عباس والضحاك : هي جبل بالشام ، وقيل كانت بلاد نخيل ، وقيل هي الرمال بين مهرة وعدن . وقال ابن عباس أيضاً : بين عمان ومهرة . وقال قتادة : هي بلاد الشحر المواصلة للبحر اليماني وقال ابن إسحاق هي بين حضرموت وعمان ، والصحيح من الأقوال : أن بلاد عاد كانت باليمن ولهم كانت

إرم ذات العماد . و" الأحقاف " : جمع حقف ، وهو الجبل المستطيل والمعوجّ من الرمل . (قال الخليل : هي الرمال الأحقاف) وكثيراً ما تحدث هذه الأحقاف في بلاد الرمل في الصحارى ، لأن الريح تصنع ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ﴾ اعتراض مؤكد مقيم للحجة أثناء قصة هود ، لأن قوله : ﴿ ألا تعبدوا إلا الله ﴾ هو من نذارة هود . و: ﴿ خلت ﴾ معناه : مضت إلى الخلاء ومرت أزمانها . وفي مصحف عبد الله : " وقد خلت النذر من قبله وبعده " . وروي أن فيه : " وقد خلت النذر من بين يديه ومن بعده " . و﴿ النذر ﴾ : جمع نذير بناء اسم فاعل . وقولهم : ﴿ لتأفكنا ﴾ معناه : لتصرفنا . وقولهم : ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ تصميم على التكذيب وتعجيز منهم له في زعمهم .

قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (23)

المعنى قال لهم هود : إن هذا الوعيد ليس من قبلي ، وإنما الأمر إلى الله وعلم وقته عنده ، وإنما عليّ أن أبلغ فقط .

وقرأ جمهور الناس : " وأبَلّغكم " بفتح الباء وشد اللام . قال أبو حاتم : وقرأ أبو عمرو في كل القرآن بسكون الباء وتخفيف اللام .

و : ﴿ أراكم تجهلون ﴾ أي مثل هذا من أمر الله تعالى وتجهلون خلق أنفسكم . والضمير في : ﴿ رأوه ﴾ يحتمل أن يعود على العذاب ، ويحتمل أن يعود على الشيء المرئي الطارئ عليهم ، وهو الذي فسره قوله : ﴿ عارضاً ﴾ ، والعارض ما يعرض في الجو من السحاب الممطر ، ومنه قول الأعشى :

يا من رأى عارضاً قد بتُّ أرمقه . . . كأنما البرق في حافاته الشعل

وقال ابو عبيدة : العارض الذي في أقطار السماء عشياً ثم يصبح من الغد قد استوى .

وروي في معنى قوله : ﴿ مستقبل أوديتهم ﴾ أن هؤلاء القوم كانوا قد قحطوا مدة فطلع هذا العارض على الهيئة والجهة التي يمطرون بها أبداً ، جاءهم من قبل واد لهم يسمونه المغيث . قال ابن عباس : ففرحوا به و ﴿ قالوا هذا عارض ممطرنا ﴾ ، وقد كذب هود فيما أوعد به ، فقال لهم هود عليه السلام : ليس الأمر كما رأيتم ، ﴿ بل هو ما استعجلتم به ﴾ في قولكم : ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ [الأحقاف : 22] ثم قال : ﴿ ريح فيها عذاب أليم ﴾ .

وفي قراءة ابن مسعود : " قال هود بل هو " بإظهار المقدر ، لأن قراءة الجمهور هي كقوله تعالى ﴿ يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم ﴾ [الرعد : 23] أي يقولون سلام . قال الزجاج وقرأ قوم : " ما استُعجِلتم " بضم التاء الأولى وكسر الجيم . و : ﴿ ريح ﴾ بدل

من المبتدأ في قوله : ﴿ هو ما ﴾ . و: ﴿ ممطرنا ﴾ هو نعت ل ﴿ عارض ﴾ وهو نكرة إضافته غير محضة ، لأن التقدير ممطر لنا في المستقبل ، فهو في حكم الانفصال .

وقد مضى في غير هذه السورة قصص الريح التي هبت عليهم ، وأنها كانت تحمل الظعينة كجرادة . و: ﴿ تدمر ﴾ معناه : تهلك . والدمار : الهلاك ، ومنه قول جرير : [الوافر]

وكان لهم كبكر ثمود لمّا . . . رغا دهراً فدمرهم دمارا

وقوله : ﴿ كل شيء ﴾ ظاهره العموم ومعناه الخصوص في كل ما أمرت بتدميره ، وروي أن هذه الريح رمتهم أجمعين في البحر .

(50/704)

وقرأ جمهور القراء : " لا ترى " أيها المخاطب . وقرأ عاصم وحمزة : " لا يُرى " بالياء على بناء الفعل للمفعول " مساكنُهم " رفعاً . التقدير : لا يرى شيء منهم ، وهذه قراءة ابن مسعود وعمرو بن ميمون والحسن بخلاف عنه ، ومجاهد وعيسى وطلحة . وقرأ الحسن بن أبي الحسن والجحدري وقتادة وعمرو بن ميمون والأعمش وابن أبي إسحاق وأبو رجاء ومالك بن دينار بغير خلاف عنهما خاصة ممن ذكر : " لا تُرى " بالتاء منقوطة من فوق مضمومة " مساكنُهم " رفعاً ، ورويت عن ابن عامر ، وهذا نحو قول ذي الرمة : [

البسيط]

كأنه جمل وهم وما بقيت . . . إلا النجيزة والألواح والعصب

ونحو قوله : [الطويل]

فما بقيت إلا الضلوع الجراشع . . . وفي هذه القراءة استكراه . وقرأ الأعمش وعيسى الهمداني : إلا مسكنهم " على الإفراد الذي هو اسم الجنس ، والجمهور على الجمع في اللفظة ، ووجه الإفراد تصغير الشأن وتقريبه كما قال تعالى : ﴿ ثم يخرجكم طفلاً ﴾ [غافر : 67] .

ثم خاطب تعالى قريشاً على جهة الموعظة بقوله : ﴿ ولقد مكناهم في ما إن مكناهم فيه ﴾ ف ﴿ ما ﴾ ، بمعنى الذي ، و ﴿ إن ﴾ نافية وقعت مكان ﴿ ما ﴾ ليختلف اللفظ ، ولا تتصل ﴿ ما ﴾ ب ﴿ ما ﴾ ، لأن الكلام كأنه قال : في الذي ما مكناكم فيه . ومعنى الآية : ولقد أعطيناهم من القوة والغنى والبسط في الأموال والأجسام ما لم نعطكم ، ونالهم بسبب كفرهم هذا العذاب ، فأنتم أحرى بذلك إذا كفرتم . وقالت فرقة : ﴿ إن ﴾ شرطية ، والجواب محذوف تقديره : في الذي إن مكناكم فيه طغيتم ، وهذا تنطع في التأويل .

ثم عدد تعالى عليهم نعم الحواس والإدراك ، وأخبر أنها لم تغن حين لم تستعمل على ما

يجب . و" ما " : نافية في قوله : ﴿ فما أغنى عنهم ﴾ ويقوي ذلك دخول ﴿ من ﴾ في قوله : ﴿ من شيء ﴾ .

(51/704)

وقالت فرقة : " ما " في قوله : ﴿ فما أغنى عنهم ﴾ استفهام بمعنى التقرير ، و" ﴿ من شيء ﴾ على هذا تأكيد ، وهذا على غير مذهب سيبويه في دخول من في الواجب . ﴿ وحاق ﴾ معناه : وجب ولزم ، وهو مستعمل في المكاره ، والمعنى جزاء ﴿ ما كانوا به يستهزئون ﴾ .

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (27)

وقوله : ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم ﴾ مخاطبة لقريش على جهة التمثيل لهم بمأرب وسدوم وحجر ثمود . وقوله : ﴿ وصرفنا الآيات ﴾ يعني لهذه القرى المهلكة .

وقوله : ﴿ فلولا نصرهم ﴾ الآية يعني هلا نصرتهم أصنامهم التي اتخذوها . و: ﴿ قرباناً ﴾ إما أن يكون المفعول الثاني ب ﴿ اتخذوا ﴾ و: ﴿ آلهة ﴾ بدل منه ، وإما أن يكون حالاً . و: ﴿ آلهة ﴾ المفعول الثاني ، والمفعول الأول هو الضمير العائد على : ﴿ الذين

﴿ التقدير : اتخذوهم . وقوله تعالى : ﴿ بل ضلوا عنهم ﴾ معناه : انتلفوا لهم حتى لم يجدوهم في وقت حاجة .

(52/704)

وقوله : ﴿ وذلك ﴾ الإشارة به تختلف بحسب اختلاف القراءات في قوله : ﴿ إفكهم ﴾ فقرأ جمهور القراء " إفْكُهم " بكسر الهمزة وسكون الفاء وضم الكاف ، فالإشارة ب ﴿ ذلك ﴾ على هذه القراءة إلى قولهم في الأصنام إنها آلهة ، وذلك هو اتخاذهم إياها ، وكذلك هي الإشارة في قراءة من قرأ : " أفَكهم " بفتح الهمزة ، وهي لغة في الإفك ، وهما بمعنى الكذب ، وكذلك هي الإشارة في قراءة من قرأ : " أفَكهم " بفتح الهمزة : والفاء على الفعل الماضي ، بمعنى صرفهم ، وهي قراءة ابن عباس وأبي عياض وعكرمة وحنظلة بن النعمان . وقرأ أبو عياض أيضاً وعكرمة فيما حتى الثعلبي : " أفّكَهم " بشد الفاء وفتح الهمزة والكاف ، وذلك على تعدية الفعل بالتضعيف . وقرأ عبد الله بن الزبير : " آفَكَهم " بالمد وفتح الفاء والكاف على التعدية بالهمزة . قال الزجاج : معناه جعلهم يأفكون كما يقال أكفرهم . وقرأ ابن عباس فيما روى قطرب : " آفِكُهم " بفتح الهمزة والمد وكسر الفاء وضم الكاف على وزن فاعل ، بمعنى : صارفهم .

وحكى الفراء أنه يقرأ : " أفَكُهم " بفتح الهمزة والفاء وضم الكاف ، وهي لغة في الإفك ، والإشارة ب ﴿ ذلك ﴾ على هذه القراءة التي ليست مصدراً يحتمل أن تكون إلى الأصنام . وقوله : ﴿ وما كانوا يفترون ﴾ ، ويحتمل أن تكون ﴿ ما ﴾ مصدرية فلا يحتاج إلى عائد ، ويحتمل أن تكون بمعنى الذي ، فهناك عائد محذوف تقديره : يفترونه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(53/704)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَاهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾

قيل : إن "إنْ" زائدة ؛ تقديره ولقد مكناكم فيما مكناكم فيه .

وهذا قول القتبيّ .

وأنشد الأخفش :

يُرَجِّي المرءُ ما إن لا يراه . . .

وتعرِض دون أدناه الخطوب

وقال آخر :

فما إنْ طِبُّنَا جُبْنَ ولكن . . .

منايانا ودَوْلَةُ آخرينا

وقيل : إن "ما" بمعنى الذي .

و"إن" بمعنى ما ؛ والتقدير ولقد مكناهم في الذي ما مكناكم فيه ؛ قاله المبرّد .

وقيل : شرطية وجوابها مضمر محذوف ؛ والتقدير ولقد مكناهم في ما إن مكناكم فيه كان بغيكم أكثر وعنادكم أشدّ ؛ وتم الكلام ، ثم ابتدأ فقال : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً ﴾ يعني قلوباً يفقهون بها .

﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفْئِدَتُهُمْ مِّن شَيْءٍ ﴾ من عذاب الله .

﴿ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ ﴾ يكفرون .

﴿ بِآيَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِ ﴾ أحاط بهم .

﴿ مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ القرى ﴾ يريد حِجر ثمود وقُرى لوط ونحوهما مما كان يجاور بلاد الحجاز ، وكانت أخبارهم متواترة عندهم .

﴿ وَصَرَّفْنَا الآيات ﴾ يعني الحجج والدلالات وأنواع البيّنات والعِظات ؛ أي بيّناها لأهل تلك القرى .

﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ فلم يرجعوا .

وقيل : أي صرفنا آيات القرآن في الوعد والوعيد والقصص والإعجاز لعل هؤلاء المشركين يرجعون .

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ نَصَرَهُمُ ﴾

"لَوْلاَ" بمعنى هلاّ ؛ أي هلاّ نصرهم آلهتهم التي تقرّبوا بها بزعمهم إلى الله لتشفع لهم حيث قالوا : ﴿ هؤلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ الله ﴾ [يونس : 18] ومنعتهم من الهلاك الواقع بهم .

قال الكِسائيّ : القُرْبان كل ما يُتقرّب به إلى الله تعالى من طاعة ونَسيكة ؛ والجمع قرابين ؛ كالرهبان والرهابين .

(54/704)

وأحد مفعولي اتخذ الراجع إلى الذين المحذوف ، والثاني "آلِهةً" .

و"قُرْبَاناً" حال ، ولا يصح أن يكون "قُرْبَاناً" مفعولاً ثانياً .

و"آلِهَةً" بدل منه لفساد المعنى ؛ قاله الزمخشريّ .

وقرىء "قُرُبَاناً" بضم الراء .

﴿ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ ﴾ أي هلكوا عنهم .

وقيل : "بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ" أي ضلت عنهم آلهتهم لأنها لم يصبها ما أصابهم ؛ إذ هي جماد .

وقيل : "ضَلُّوا عَنْهُمْ" ؛ أي تركوا الأصنام وتبرءوا منها .

﴿ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ ﴾ أي والآلهة التي ضلّت عنهم هي إفكهم في قولهم : إنها تقرّبهم إلى الله زلفى .

وقراءة العامة "إِفْكُهُمْ" بكسر الهمزة وسكون الفاء ؛ أي كذبهم .

والإفك : الكذب ، وكذلك الأفِيكة ، والجمع الأفائك .

ورجل أفّاك أي كذاب .

وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن الزبير "وَذَلِكَ أَفَكَهُمْ" بفتح الهمزة والفاء والكاف ، على الفعل ؛ أي ذلك القول صرفهم عن التوحيد .

والأَفْكُ (بالفتح) مصدر قولك : أَفكَه يَأفِكه أَفْكاً ؛ أي قلبه وصرفه عن الشيء .

وقرأ عكرمة "أَفَّكهم" بتشديد الفاء على التأكيد والتكثير .

قال أبو حاتم : يعني قلبهم عما كانوا عليه من النعيم .

وذكر المهدوِيّ عن ابن عباس أيضاً "آفِكهم" بالمد وكسر الفاء ؛ بمعنى صارفهم .

وعن عبد الله بن الزبير باختلاف عنه "آفكهم" بالمدّ ؛ فجاز أن يكون أفعلهم ، أي أصارهم إلى الإفك .

وجاز أن يكون فاعلهم كخَادعهم .

ودليل قراءة العامة "إِفْكُهُمْ" قوله : ﴿ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي يكذبون .

وقيل "أفْكُهم" مثلُ "أفَكَهُم" .

الإفْك والأَفَك كالحِذْر والحذَرَ ؛ قاله المهدويّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(55/704)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ﴾

﴿ ويوم يعرض ﴾ : أي يعذب بالنار ، كما يقال : عرض على السيف ، إذا قتل به .

والعرض : المباشرة ، كما تقول : عرضت العود على النار : أي باشرت به النار .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يراد عرض النار عليهم من قولهم : عرضت الناقة على الحوض ، يريدون عرض الحوض عليها ، فقلبوا .

ويدل عليه تفسير ابن عباس : يجاء بهم إليها فيكشف لهم عنها . انتهى .

ولا ينبغي حمل القرآن على القلب ، إذ الصحيح في القلب أنه مما يضطر إليه في الشعر .

وإذا كان المعنى صحيحاً واضحاً مع عدم القلب ، فأي ضرورة ندعو إليه ؟ وليس في

قولهم : عرضت الناقة على الحوض ، ولا في تفسير ابن عباس ما يدل على القلب ، لأن عرض الناقة على الحوض ، وعرض الحوض على الناقة ، كل منهما صحيح ؛ إذ العرض أمر نسبي يصح إسناده لكل واحد من الناقة والحوض .

وقرأ الجمهور : أذهبتم على الخبر ، أي فيقال لهم : أذهبتم ، ولذلك حسنت الفاء في قوله : ﴿ فاليوم تجزون ﴾ .

وقرأ قتادة ، ومجاهد ، وابن وثاب ، وأبو جعفر ، والأعرج ، وابن كثير : بهمزة بعدها مدة مطولة ، وابن عامر ، بهمزتين حققهما ابن ذكوان ، ولين الثانية هشام ، وابن كثير في رواية .

وعن هشام : الفصل بين المحققة والملينة بألف ، وهذا الاستفهام هو على معنى التوبيخ والتقرير ، فهو خبر في المعنى ، فلذلك حسنت الفاء ، ولو كان استفهاماً محضاً لم تدخل الفاء .

والطيبات هنا : المستلذات من المآكل والمشارب والملابس والمفارش والمراكب والمواطىء ، وغير ذلك مما يتنعم به أهل الرفاهية .

وهذه الآية محرضة على التقلل من الدنيا ، وترك التنعم فيها ، والأخذ بالتقشف ، وما يجتزي به رمق الحياة عن رسول الله في ذلك ما يقتضي التأسي به .

وعن عمر في ذلك أخبار تدل على معرفته بأنواع الملاذ ، وعزة نفسه الفاضلة عنها .

أتظنون أنا لا نعرف خفض العيش ؟ ولو شئت لجعلت أكباداً وصلاء وصلائق ، ولكن استبقي حسناني ؛ فإن الله عز وجل وصف أقواماً فقال : ﴿ أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم ﴾ .

والصلاء الشواء والصفار المتخذ من الخردل والزبيب ، والصلائق : الخبز الرقاق العريض .

قال ابن عباس : وهذا من باب الزهد ، وإلا فالآية نزلت في كفار قريش ؛ والمعنى : أنه كانت تكون لكم طيبات الآخرة لو آمنتم ، لكنكم لم تؤمنوا ، فاستعجلتم طيباتكم في الحياة الدنيا .

فهذه كناية عن عدم الإيمان ، ولذلك نزلت عليه : ﴿ فاليوم تجزون عذاب الهون ﴾ ؛ ولو أريد الظاهر ، ولم يكن كناية عن ما ذكرنا ، لم يترتب عليه الجزاء بالعذاب .

وقرىء : الهوان ، وهو والهون بمعنى واحد ثم بين تلك الكناية بقوله : ﴿ بما كنتم تستكبرون ﴾ : أي تترفعون عن الإيمان ؛ ﴿ وبما كنتم تفسقون ﴾ : أي بمعاصي الجوارح وقدم ذنب القلب ، وهو الاستكبار على ذنب الجوارح ؛ إذ أعمال الجوارح ناشئة عن مراد القلب .

ولما كان أهل مكة مستغرقين في لذات الدنيا ، معرضين عن الإيمان وما جاء به الرسول ،

ذكرهم بما جرى للعرب الأولى ، وهم قوم عاد ، وكانوا أكثر أموالاً وأشد قوة وأعظم جاهاً فيهم ، فسلط عليهم العذاب بسبب كفرهم ، وضرب الأمثال .

وقصص من تقدم تعرف بقبح الشيء وتحسينه ، فقال لرسوله : واذكر لقومك ، أهل مكة ، هوداً عليه السلام ، ﴿ إذ أنذر قومه ﴾ عاداً عذبهم الله ﴿ بالأحقاف ﴾ .

قال ابن عباس : واد بين عمان ومهرة .

وقال ابن إسحاق : من عمان إلى حضرموت .

وقال ابن زيد : رمال مشرقة بالشحر من اليمن .

وقيل : بين مهرة وعدن .

وقال قتادة : هي بلاد الشحر المواصلة للبحر اليماني .

وقال ابن عباس : هي جبل بالشام .

(57/704)

قال ابن عطية : والصحيح أن بلاد عاد كانت باليمن ، ولهم كانت ﴿ إرم ذات العماد ﴾ وفي ذكر هذه القصة اعتبار لقريش وتسلية للرسول ، إذ كذبه قومه ، كما كذبت عاد هوداً عليه السلام .

والجملة من قوله : ﴿ وقد خلت النذر ﴾ : وهو جمع نذير ، ﴿ من بين يديه ومن خلفه ﴾ ، يحتمل أن تكون حالاً من الفاعل في : ﴿ النذر من بين يديه ﴾ ، وهم الرسل الذين تقدموا زمانه ، ومن خلفه الرسل الذين كانوا في زمانه ، ويكون على هذا معنى ﴿ ومن خلفه ﴾ : أي من بعد إنذاره ؛ ويحتمل أن يكون اعتراضاً بين إنذار قومه وأن لا تعبدوا .

والمعنى : وقد أنذر من تقدمه من الرسل ، ومن تأخر عنه مثل ذلك ، فاذكرهم .

﴿ قالوا أجئتنا ﴾ : استفهام تقرير ، وتوبيخ وتعجيز له فيما أنذره إياهم من العذاب العظيم على ترك إفراد الله بالعبادة .

﴿ لتأفكنا ﴾ : لتصرفنا ، قاله الضحاك ؛ أو لتزيلنا عن آلهتنا بالإفك ، وهو الكذب ، أي عن عبادة آلهتنا ، ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ : استعجال منهم بحلول ما وعدهم به من العذاب .

ألا ترى إلى قوله : ﴿ بل هو ما استعجلتم به ﴾ ؟ ﴿ قال إنما العلم عند الله ﴾ : أي علم وقت حلوله ، وليس تعيين وقته إليّ ، وإنما أنا مبلغ ما أرسلني به الله إليكم .

ولما تحقق عنده وعد الله ، وأنه حال بهم وهم في غفلة من ذلك وتكذيب ، قال : ﴿ ولكني أراكم قوماً تجهلون ﴾ : أي عاقبة أمركم لا شعور لكم بها ، وذلك واقع لا محالة .

وكانت عاد قد حبس الله عنها المطر أياماً ، فساق الله إليهم سحابة سوداء خرجت عليهم من واد يقال له المغيث ، فاستبشروا .

والضمير في ﴿ رأوه ﴾ الظاهر أنه عائد على ما في قوله : ﴿ بما تعدنا ﴾ ، وهو العذاب ، وانتصب عارضاً على الحال من المفعول .

وقال ابن عطية ، ويحتمل أن يعود على الشيء المرئي الطالع عليهم ، الذي فسره قوله : ﴿ عارضاً ﴾ .

(58/704)

وقال الزمخشري : ﴿ فلما رأوه ﴾ ، في الضمير وجهان : أن يرجع إلى ما تعدنا ، وأن يكون مبهماً ، قد وضح أمره بقوله : ﴿ عارضاً ﴾ ، إما تمييز وإما حال ، وهذا الوجه أعرب وأفصح . انتهى .

وهذا الذي ذكر أنه أعرب وأفصح ليس جارياً على ما ذكره النحاة ، لأن المبهم الذي يفسره ويوضحه التمييز لا يكون إلا في باب رب ، نحو : رب رجلاً لقيته ، وفي باب نعم وبئس على مذهب البصريين ، نحو : نعم رجلاً زيد ، وبئس غلاماً عمرو .

وأما أن الحال يوضح المبهم ويفسره ، فلا نعلم أحداً ذهب إليه ، وقد حضر النحاة المضمر الذي يفسره ما بعده ، فلم يذكروا فيه مفعول رأي إذا كان ضميراً ، ولا أن الحال يفسر الضمير ويوضحه .

والعارض : المعترض في الجو من السحاب الممطر ، ومنه قول الشاعر :

يا من رأى عارضاً أرقت له . . .

بين ذراعي وجبهة الأسد

وقال الأعشى :

يا من رأى عارضاً قد بث أرمقه . . .

كأنها البرق في حافاتها الشعل

﴿ مستقبل أوديتهم ﴾ : هو جمع واد ، وأفعلة في جمع فاعل .

الاسم شاذ نحو : ناد وأندية ، وجائز وأجوزة .

والجائز : الخشبة الممتدة في أعلى السقف ، وإضافة مستقبل وممطر إضافة لا تعرف ، فلذلك نعت بهما النكرة .

﴿ بل هو ما استعجلتم ﴾ : أي قال لهم هو ذلك ، أي بل هو العذاب الذي استعجلتم به ، أضرب عن قولهم : ﴿ عارض ممطرنا ﴾ ، وأخبر بأن العذاب فاجأهم ، ثم قال : ﴿ ريح ﴾ : أي هي ريح بدل من هو .

وقرأ : ما استعجلتم ، بضم التاء وكسر الجيم ، وتقدمت قصص في الريح ، فأغنى عن ذكرها هنا .

﴿ تدمر ﴾ : أي تهلك ، والدمار : الهلاك ، وتقدم ذكره .

وقرأ زيد بن عليّ : تدمر ، بفتح التاء وسكون الدال وضم الميم .

وقرىء كذلك إلا أنه بالياء ورفع كل ، أي يهلك كل شيء ، وكل شيء عام مخصوص ، أي من نفوسهم وأموالهم ، أو من أمرت بتدميره .

وإضافة الرب إلى الريح دلالة على أنها وتصريفها مما يشهد بباهر قدرته تعالى ، لأنها من أعاجيب خلقه وأكابر جنوده .

(59/704)

وذكر الأمر لكونها مأمورة من جهته تعالى .

وقرأ الجمهور : لا ترى بتاء الخطاب ، إلا مساكنهم ، بالنصب ؛ وعبد الله ، ومجاهد ، وزيد بن علي ، وقتادة ، وأبو حيوة ، وطلحة ، وعيسى ، والحسن ، وعمرو بن ميمون : بخلاف عنهما ؛ وعاصم ، وحمزة : لا يرى بالياء من تحت مضمومة إلا مساكنهم بالرفع .

وأبو رجاء ، ومالك بن دينار : بخلاف عنهما .

والجحدري ، والأعمش ، وابن أبي إسحاق ، والسلمي : بالتاء من فوق مضمومة مساكنهم بالرفع ، وهذا لا يجيزه أصحابنا إلا في الشعر ، وبعضهم يجيزه في الكلام .

وقال ذو الرمة :

كأنه جمل همّ وما بقيت . . .

إلا النخيرة والألواح والعصب

وقال آخر :

فما بقيت إلا الضلوع الجراشع . . .

_@_وقرأ عيسى الهمداني : لا يرى بضم الياء إلا مسكنهم بالتوحيد .

وروي هذا عن الأعمش ، ونصر بن عاصم .

وقرىء : لا ترى ، بتاء مفتوحة للخطاب ، إلا مسكنهم بالتوحيد مفرداً منصوباً ، واجتزىء بالمفرد عن الجمع تصغيراً لشأنهم ، وأنهم لما هلكوا في وقت واحد ، فكأنهم كانوا في مسكن واحد .

ولما أخبر بهلاك قوم عاد ، خاطب قريشاً على سبيل الموعظة فقال : ﴿ ولقد مكانهم ﴾ ، وإن نافية ، أي في الذي ما مكناهم فيه من القوة والغنى والبسط في الأجسام والأموال ؛ ولم يكن النفي بلفظ ما ، كراهة لتكرير اللفظ ، وإن اختلف المعنى .

وقيل : إن شرطية محذوفة الجواب ، والتقدير : إن مكناكما فيه طغيتم .

وقيل : إن زائدة بعد ما الموصولة تشبيهاً بما النافية وما التوقيتية ، فهي في الآية كهي في قوله :

. . .

يرجى المرء ما إن لا يراه

وتعرض دون أدناه الخطوب . . .

أي مكناهم في مثل الذي مكناكم ، فيه ، وكونها نافية هو الوجه ، لأن القرآن يدل عليه في مواضع كقوله : ﴿ كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً ﴾ وقوله : ﴿ هم أحسن أثاثاً ورئياً ﴾ وهو أبلغ في التوبيخ وأدخل في الحث في الاعتبار .

(60/704)

ثم عدد نعمه عليهم ، وأنها لم تغن عنهم شيئاً ، حيث لم يستعملوا السمع والأبصار والأفئدة فيما يجب أن يستعمل .

وقيل : ما استفهام بمعنى التقرير ، وهو بعيد كقوله : ﴿ من شيء ﴾ ، إذ يصير التقدير : أي شيء مما ذكر أغنى عنهم من شيء ، فتكون من زيدت في الموجب ، وهو لا يجوز على الصحيح ، والعامل في إذ أغنى .

ويظهر فيها معنى التعليل لو قلت : أكرمت زيداً لإحسانه إليّ ، أو إذ أحسن إليّ .

استويا في الوقت ، وفهم من إذ ما فهم من لام التعليل ، وإن إكرامك إياه في وقت إحسانه إليك ، إنما كان لوجود إحسانه لك فيه .

﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى ﴾ : خطاب لقريش على جهة التمثيل لهم ، والذي

حولهم من القرى : مأرب ، وحجر ، ثمود ، وسدوم .

ويريد من أهل القرى : ﴿ وصرفنا الآيات ﴾ ، أي الحجج والدلائل والعظاة لأهل تلك القرى ، ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ عن ما هم فيه من الكفر إلى الإيمان ، فلم يرجعوا .

﴿ فلولا نصرهم ﴾ : أي فهلا نصرهم حين جاءهم الهلاك ؟ ﴿ الذين اتخذوا ﴾ : أي اتخذوهم ، ﴿ من دون الله قرباناً ﴾ : أي في حال التقرب وجعلتهم شفعاء .

﴿ آلهة ﴾ : وهو المفعول الثاني لاتخذوا ، والأول الضمير المحذوف العائد على الموصول .

وأجاز الحوفي وابن عطية وأبو البقاء أن يكون قرباناً مفعولاً ثانياً لاتخذوا آلهة بدل منه .

وقال الزمخشري : وقرباناً حال ، ولا يصح أن يكون قرباناً مفعولاً ثانياً وآلهة بدل منه ، لفساد المعنى . انتهى .

ولم يبين الزمخشري كيف يفسد المعنى ، ويظهر أن المعنى صحيح على ذلك الإعراب .

وأجاز الحوفي أيضاً أن يكون قرباناً مفعولاً من أجله .

﴿ بل ضلوا عنهم ﴾ : أي غابوا عن نصرتهم .

وقرأ الجمهور : إفكهم ، بكسر الهمزة وإسكان الهاء وضم الكاف ؛ وابن عباس في رواية : بفتح الهمزة .

والإفك مصدر إن .

وقرأ ابن عباس أيضاً ، وابن الزبير ، والصباح بن العلاء الأنصاري ، وأبو عياض ، وعكرمة ، وحنظلة بن النعمان ابن مرة ، ومجاهد : إفكهم ، بثلاث فتحات : أي صرفهم ؛ وأبو عياض ، وعكرمة أيضاً : كذلك ، إلا أنهما شددا الفاء للتكثير ؛ وابن الزبير أيضاً ، وابن عباس ، فيما ذكر ابن خالويه : آفكهم بالمد ، فاحتمل أن يكون فاعل .

فالهمزة أصلية ، وأن يكون أفعل ، فالهمزة للتعدية ، أي جعلهم يأفكون ، ويكون أفعل بمعنى المجرد .

وعن الفراء أنه قرىء : أفكهم بفتح الهمزة والفاء وضم الكاف ، وهي لغة في الأفك ؛ وابن عباس ، فيما روى قطرب ، وأبو الفضل الرازي : آفكهم اسم فاعل من آفك ، أي صارفهم ، والإشارة بذلك على من قرأ : إفكهم مصدراً إلى اتخاذ الأصنام آلهة ، أي ذلك كذبهم وافتراؤهم .

وقال الزمخشري : وذلك إشارة إلى امتناع نصرة آلهتهم لهم وضلالهم عنهم ، أي وذلك إثر إفكهم الذي هو اتخاذهم إياها آلهة ، وثمرة شركهم وافترائهم على الله الكذب من كونه ذا شركاء . انتهى .

وعلى قراءة من جعله فعلاً معناه : وذلك الاتخاذ صرفهم عن الحق ، وكذلك قراءة اسم الفاعل ، أي صارفهم عن الحق .

ويحتمل أن تكون ما مصدرية ، أي وافتراؤهم ، وأن تكون بمعنى الذي والعائد محذوف ، أي يفترونه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(62/704)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ واذكر ﴾

أيْ لكُفَّارِ مكةَ ﴿ أَخَا عَادٍ ﴾ أيْ هوداً عليهِ السلامُ ، ﴿ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ ﴾ بدلُ اشتمالٍ منْهُ أي وقتَ إنذارِهِ إيَّاهُم . ﴿ بالاحقاف ﴾ جمعُ حِقْفٍ ، وهُو رملٌ مستطيلٌ مرتفعٌ فيهِ انحناءٌ من احقوقفَ الشيءُ إذا اعوجَّ . وكانتْ عادٌ أصحابَ عَمدٍ يسكنونَ بين رمالٍ مشرفةٍ على البحرِ بأرضٍ يُقالُ لها الشّحْرُ من بلادِ اليمنِ ، وقيلَ : بينَ عُمَانَ ومَهرَةَ . ﴿ وَقَدْ خَلَتِ النذر ﴾ أي الرُّسلُ جمعُ نذيرٍ بمعنى المنذرِ . ﴿ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ أي من قبلِهِ ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ أي منْ بعدِهِ . والجملةُ اعتراضٌ مقررٌ لما قبلَهُ مؤكدٌ لوجوبِ العملِ بموجبِ الإنذارِ ، وُسِّط بينَ أنذرَ قومَهُ وبينَ قولِه ﴿ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللهَ ﴾ مسارعةً إلى ما

ذُكِرَ من التقريرِ والتأكيدِ وإيذاناً باشتراكِهم في العبارةِ المحكيةِ ، والمَعْنى واذكُرْ لقومِكَ إنذارَ هودٍ قومَهُ عاقبةَ الشركِ والعذابِ العظيمِ ، وقد أنذرَ مَنْ تقدمَهُ من الرسلِ ، ومن تأخرَ عنْهُ قومَهُم مثلَ ذلكَ فاذكُرهم . وأَما جعلُها حالاً من فاعلِ أنذرَ على مَعْنى أَنَّه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أنذرَهُم ، وقالَ لَهُم لا تعبدُوا إلا الله ﴿ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وقد أعلمهم أنَّ الرسلَ الذين بُعثوا قبلَه والذينَ سيُبعثونَ بعدَهُ كلَّهم منذرونَ نحوَ إنذارِه ، فمعَ ما فيهِ من تكلفِ تقديرِ الإعلامِ لا بُدَّ في نسبةِ الخلوِّ إلى مَن بعدَهُ من الرسلِ من تنزيلِ الآتي منزلةَ الخالِي . ﴿ قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا ﴾ أيْ تصرِفَنَا ﴿ عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾ عن عبادتِها ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ منَ العذابِ العظيمِ ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ في وعدِك بنزولِهِ بنَا .

(63/704)

﴿ قَالَ إِنَّمَا العلم ﴾ أي بوقتِ نزولِه أو العلمُ بجميعِ الأشياءِ التي من جُمْلتِها ذلكَ ﴿ عَندَ الله ﴾ وحدَهُ لا علمَ لي بوقتِ نزولِه ولا مدخلَ لي في إتيانِه وحلولِه وإنَّما علمُه عندَ الله تعالَى فيأتيكُم بِهِ في وقتِهِ المقدرِ لهُ . ﴿ وَأُبَلِّغُكُمْ مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ ﴾ من مواجبِ الرسالةِ التي من جُملتِها بيانُ نزولِ العذابِ إنْ لم تنتهُوا عن الشركِ من غيرِ وقوفٍ على وقتِ نزولِه .

وقُرِىءَ أُبْلِغُكُم من الإبلاغِ. ﴿ ولكنى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ حيثُ تقترحُون عليَّ ما ليسَ من وظائفِ الرسلِ من الإتيانِ بالعذابِ وتعيينِ وقتِهِ. والفاءُ في قولِه تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ ﴾ فصحيةٌ، والضميرُ إما مُبهمٌ يوضحه قولُه تعالى ﴿ عَارِضاً ﴾ تمييزٌ أو حالٌ أو راجعٌ إلى ما استعجلُوه بقولِهم فائتنا بما تَعدُنا أي فأتاهُم فلمَّا رأَوهُ سحاباً يعرضُ في أفق السماءِ ﴿ مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾ ي متوجّه أوديتِهم. والإضافةُ فيه لفظيةٌ كما في قولِه تعالى ﴿ قَالُواْ هذا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ ولذلكَ وَقَعا وصفينِ للنكرةِ ﴿ بَلْ هُوَ ﴾ أي قالَ هُودٌ وقد قُرِىءَ كذلكَ، وقُرِىءَ قُلْ، وهُو ردٌّ عليهم، أيْ ليسِ الأمرُ كذلكَ بلْ هُو ﴿ مَا استعجلتم بِهِ ﴾ من العذابِ ﴿ رِيحٌ ﴾ بدلٌ منْ ما أو خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ. ﴿ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ صفةٌ لريحٌ.

(64/704)

كذَا قولُه تعالى: ﴿ تُدَمِّرُ ﴾ أي تهلكُ ﴿ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ من نفوسهم وأموالهم ﴿ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ وقرىء يدمر كلَّ شيءٍ من دمَّر دماراً إذا هلكَ فالعائدُ إلى الموصوفِ محذوفٌ أو هو الهاءُ في ربِّها ويجوزُ أن يكونَ استئنافاً وارداً لبيانِ أنَّ لكلِّ ممكنٍ فناءً مقضياً منوطاً بأمرِ بارئِه، وتكونُ الهاءُ لكلِّ شيءٍ لكونِه بمعنى الأشياءِ وفي ذكرِ الأمرِ والربِّ والإضافةِ إلى

الريحِ من الدلالة على عظمةِ شأنِه عزَّ وجلَّ ما لا يَخْفى . والفاءُ في قولِه تعالى : ﴿ فَأَصْبَحُواْ لاَ يرى إِلاَّ مساكنهم ﴾ فصيحةٌ أي فجاءتْهم الريحُ فدمرتْهم فأصبحُوا بحيثُ لا يُرى إلا مساكنُهم . وقُرِئَ تَرَى بالتاءِ ونصبِ مساكنُهم . خطاباً لكلِّ أحدٍ يتأتَّى منه الرؤيةُ تنبيهاً على أنَّ حالَهم بحيثُ لو حضرَ كلُّ أحدٍ بلادَهُم لا يَرَى فيها إلا مساكنَهُم . ﴿ كذلك ﴾ أي مثلَ ذلكَ الجزاء الفظيعِ . ﴿ نَجْزِي القوم المجرمين ﴾ وقد مرَّ تفصيلُ القصةِ في سورةِ الأعرافِ . وقد رُوِيَ أنَّ الريحَ كانتْ تحملُ الفُسطاطَ والظَّعينةَ فترفعُها في الجوِّ حتى تُرى كأنَّها جرادةٌ . قيلَ : أولُ من أبصرَ العذابَ امرأةٌ منهم قالتْ رأيتُ ريحاً فيها كشهبِ النَّارِ ، ورُوِيَ أنَّ أولَ ما عرفُوا به أنَّه عذابٌ ما رأوا ما كانَ في الصحراءِ من رحالِهم ومواشيهم تطيرُ بها الريحُ بينَ السماءِ والأرضِ فدخلُوا بيوتَهم وغلَّقوا أبوابَهم فقلعتِ الريحُ الأبوابَ وصرعَتْهم فأمالَ اللهُ تعالى الأحقافَ فكانُوا تحتَها سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيامٍ لهم أنينٌ ثم كشفتِ الريحُ عنهُم فاحتملتهم فطرحتْهُم في البحرِ . ورُوِيَ أنَّ هُوداً عليهِ السَّلامُ لمَّا أحسَّ بالريحِ خطَّ على نفسِه وعلى المؤمنينَ حظاً إلى جنبِ عينٍ تنبعُ . وعن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُمَا اعتزلَ هودٌ ومن معَهُ في حظيرةٍ ما يصيبُهم من الريحِ إلا ما يلينُ على الجُلودِ وتلذه الأنفسُ وإنَّها

لتمرُّ من عادٍ بالظعنِ بينَ السماءِ والأرضِ وتدمغُهم بالحجارةِ .

﴿ وَلَقَدْ مكناهم ﴾ أي قررنَا عاداً أو أقدرنَاهُم ، وما في قولِه تعالى : ﴿ فِيمَا إِن مكناكم فِيهِ ﴾ موصولةٌ أو موصوفةٌ ، وأنْ نافيةٌ ، أيْ في الذِي أو في شيءٍ ما مكنَّاكُم فيهِ من السَّعةِ والبسطةِ وطولِ الأعمار وسائرِ مبادِي التصرفاتِ كَما في قولِه تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مّن قَرْنٍ مكناهم فِى الأرض مَا لَمْ نُمَكّن لَّكُمْ ﴾ ومِمَّا يُحسّنُ موقعَ إنْ هَهُنا التَّفَصّي عن تكررِ لفظةِ مَا ، وهُو الدَّاعِي إلى قلبِ ألفها هاءً في مَهْمَا ، وجعلُها شرطيةً أو زائدةً مِمَّا لا يليقُ بالمقامِ . ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وأبصارا وَأَفْئِدَةً ﴾ ليستعملُوهَا فيمَا خُلقتْ لهُ ويعرفُوا بكلِ منَها ما نِيطتْ بهِ معرفتُه من فنونِ النعمِ ويستدلُّوا بها على شؤونِ منعمِها عزَّ وجلَّ ويداومُوا على شُكرِه . ﴿ فَمَا أغنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ ﴾ حيثُ لم يستعملُوه في استماعِ الوَحي ومواعظِ الرسلِ .

﴿ وَلاَ أبصارهم ﴾ حيثُ لم يجتلُوا بها الآياتِ التكوينيةَ المنصوبةَ في صحائفِ العالمِ . ﴿ وَلاَ أَفْئِدَتُهُمْ ﴾ حيثُ لم يستعملُوها في معرفةِ اللهِ تعالَى . ﴿ مِن شَىْءٍ ﴾ أي شيئاً من الإغناءِ . ومِنْ مزيدةٌ للتأكيدِ . وقولُه تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مكناهم فِيمَا إِن مكناكم ﴾ متعلقٌ بما أَغْنَى وهو ظرفٌ جرَى مجرى التعليلِ من حيثُ أنَّ الحكمَ مرتبٌ على ما أضيفَ إليهِ فإنَّ قولَكَ أكرمتُه إذْ أكرمنِي ، في قوةِ قولِك أكرمتُه لإكرامِه لأنَّك أذا أكرمتَهُ وقتَ إكرامِه

فإنَّما أكرمْتَه فيه لوجودِ إكرامِه فيهِ وكذا الحالُ في حيثُ ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ من العذابِ الذي كانُوا يستعجلونَهُ بطريقِ الاستهزاءِ ويقولونَ فائْتِنا بما تعدُنا إن كنتَ من الصادقينَ .

(66/704)

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ ﴾ يا أهلَ مكةَ ﴿ مِّنَ القرى ﴾ كحِجْرِ ثمودٍ ، وقُرى قومِ لوطٍ . ﴿ وَصَرَّفْنَا الأيات ﴾ كررنَاها لَهُم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ لكي يرجعُوا عمَّا هُم فيهِ من الكُفرِ والمَعَاصِي . ﴿ فَلَوْلاَ نَصَرَهُمُ الذين اتخذوا مِن دُونِ الله قُرْبَاناً ءالِهَةَ ﴾ القُربانُ : ما يُتقربُ بهِ إلى الله تعالَى . وأحدُ مفعولَيْ اتخذُوا ضميرُ الموصولِ المحذوفِ ، والثانِي آلهةً ، وقرباناً حالٌ ، والتقديرُ فهلاَّ نصرهُم وخلَّصُهم من العذابِ الذين اتخذُوهم آلهةً حالَ كونِها متقرَّباً بَها إلى الله تعالَى ، حيثُ كانُوا يقولونَ ما نعبدُهم إلا ليقربونَا إلى الله زُلفى ، وهؤلاءِ شفعاؤُنا عندَ الله . وفيه تهكمٌ بهم ، ولا مساغَ لجعلِ قرباناً مفعولاً ثانياً ، وآلهةً بدلاً منه لفسادِ المَعْنى ؛ فإنَّ البدلَ وإنْ كانَ هو المقصودَ لكنَّه لا بُدَّ في غيرِ بدلِ الغلطِ من صحةِ المَعْنى بدونِه ، ولا ريبَ في أنَّ قولَنا اتخذوهُم من دونِ الله قُرباناً ، أي متقرباً به مما لا صحةَ له قطعاً ؛ لأنَّه تعالَى متقرَّبٌ إليهِ لا متقرَّبٌ بِهِ فلا يصحُّ أنَّهم اتخذُوهم قرباناً متجاوزينَ الله

في ذلكَ وقُرِىءَ قُرُباناً بضمِّ الراءِ ﴿ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ ﴾ أي غابُوا عنْهم وفيه تهكمٌ آخرُ بهم كأنَّ عدمَ نصرِهم لغيبتِهم أو ضاعُوا عنُهم أي ظهرَ ضياعُهم عنهم بالكُليَّةِ ، وقيل : امتنعَ نصرُهم امتناعَ نصرِ الغائبِ عن المنصورِ ﴿ وَذَلِكَ ﴾ أي ضياعُ آلهتِهم عنُهم وامتناعُ نصرِهم ﴿ إِفْكِهِمْ ﴾ أيْ أثرُ إفكِهم الذي هُو اتّخاذُهم إيَّاهَا آلهةً ونتيجةُ شركِهم . وقُرِىءَ أفَكُهم ، وكلاهُما مصدرٌ كالحِذْرِ والحَذَرِ ، وقُرِىءَ أَفَكَهُم على صيغةِ الماضِي ، فذلكَ إشارةٌ حينئذٍ إلى الاتخاذِ أيْ وذلكَ الاتخاذُ الذي هذه ثمرتُه وعاقبتُه صرفَهُم عن الحقِّ ، وقُرِىءَ أَفَّكَهُم بالتشديدِ للمبالغةِ ،

(67/704)

وآفَكَهُم من الأفعالِ أي جعلهم آفكين ، وقُرِىءَ آفِكُهُم على صيغةِ اسمِ الفاعلِ مضافاً إلى ضميرِهم أي قولُهم الإفكُ أي ذُو الإفكِ ، كما يقالُ قولٌ كاذبٌ . ﴿ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ عطفٌ على إفكُهم أي وأثرُ افترائِهم على اللهِ تعالى ، أو أثرُ ما كانُوا يفترونه عليه تعالى ، وقرىء وذلك إفكٌ مما كانوا يفترون أي بعض ما كانوا يفترونَ من الإفكِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(68/704)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ مكناهم ﴾

أي قررنا عاداً وأقدرناهم ، و﴿ مَا ﴾ في قوله تعالى : ﴿ فِيمَا إِن مكناهم فِيهِ ﴾ موصولة أو موصوفة و﴿ إن ﴾ نافية أي في الذي أوفى شيء ما مكنا فيه من السعة والبسطة وطول الأعمار وسائر مبادي التصرفات كما في قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ قَبْلِهِم مّن قَرْنٍ مكناهم فِى الأرض مَا لَمْ نُمَكّن لَّكُمْ ﴾ [الأنعام : 6] ولم يكن النفي بلفظ ﴿ مَا ﴾ كراهة لتكرير اللفظ وإن اختلف المعنى ، ولذا قال من ذهب إلى أن أصل مهما ماما على أن ما الشرطية مكررة للتأكيد قلبت الألف الأولى هاء فراراً من كراهة التكرار ، وعابوا على المتنبي قوله :

لعمرك ماما بان لضارب . . .

بأقتل مما بان منك لعائب

أي ما الذي بان الخ ، يريد لسانه لا يتقاعد عن سنانه هذا للعائب وذلك للضارب ، وكان يسعه أن يقول : إن ما بان ، وادخال الباء للنفي لا للعمل على أن اعمال إن قد جاء عن المبرد ، قيل : ﴿ إن ﴾ شرطية محذوفة الجواب والتقدير إن مكناكم فيه طغيتم ، وقيل : إنها صلة بعد ما الموصولة تشبيهاً بما النافية وما التوقيتية ، فهي في الآية مثلها في قوله :

يرجى المرىء ما أن لا يراه . . .

وتعرض دون أدناه الخطوب

(69/704)

أي مكناهم في مثل الذي مكناكم فيه ، وكونها نافية هو الوجه لأن القرآن العظيم يدل عليه في مواضع وهو أبلغ في التوبيخ وأدخل في الحث على الاعتبار ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وأبصارا وَأَفْئِدَةً ﴾ ليستعملوها فيما خلقت له ويعرفوا بكل منها ما نيطت به معرفته من فنون النعم ويستدلوا بها على شؤون منعمها عز وجل ويداوموا على شكره جل شأنه ﴿ فَمَا أغنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ ﴾ حيث لم يستعملوه في استماع الوحي ومواعظ الرسل ﴿ وَلاَ أبصارهم ﴾ حيث لم يجتلوا بها الآيات التكوينية المرسومة في صحائف العالم ﴿ وَلاَ أَفْئِدَتُهُمْ ﴾ حيث لم يستعملوها في معرفة الله تعالى ﴿ مِن شَىْء ﴾ أي شيئاً من الإغناء ، و ﴿ مِنْ ﴾ مزيدة للتوكيد والتنوين للتقليل .

وجوز أن تكون تبعيضية أي ما أغنى بعض الإغناء وهو القليل ، و ﴿ مَا ﴾ في ﴿ مَا أغنى ﴾ نافية وجوز كونها استفهامية .

وتعقبه أبو حيان بأنه يلزم عليه زيادة ﴿ مِنْ ﴾ في الواجب وهو لا يجوز على الصحيح .

ورد بأنهم قالوا : تزاد في غير الموجب وفسروه بالنفي والنهي والاستفهام ، وإفراد السمع في النظم الجليل وجمع غيره لاتحاد المدرك به وهو الأصوات وتعدد مدركات غيره أو لأنه في الأصل مصدر ، وأيضاً مسموعهم من الرسل متحد .

﴿ وَلَقَدْ مكناهم فِيمَا إِن مكناكم ﴾ ظرف متعلق بالنفي الصريح أو الضمني في قوله تعالى : ﴿ مَا أغنى ﴾ وهو ظرف أريد به التعليل كناية أو مجازاً لاستواء مئدى الظرف والتعليل في قولك : ضربته لإساءته وضربته إذ أساء لأنك إنما ضربته في ذلك الوقت لوجود الإساءة فيه ، وهذا مما غلب في إذ وحيث من بين سائر الظروف حتى كاد يلحق بمعانيهما الوضعية ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ من العذاب الذي كانوا يستعجلونه بطريق الاستهزاء ويقولون : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِن الصادقين ﴾ [الأحقاف : 22] .

(70/704)

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ﴾ مَا حَوْلَكُمْ يا أهل مكة ﴿ مّنَ القرى ﴾ كحجر ثمود وقرى قوم صالح ، والكلام بتقدير مضاف أو تجوز بالقرى عن أهلها لقوله تعالى : ﴿ وَصَرَّفْنَا الآيات ﴾ أي كررناها ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ وأمر ﴿ مَا ﴾ سهل ، والترجي مصروف لغيره تعالى أو ﴿ لَعَلَّ ﴾ للتعليل أي لكي يرجعوا عما هم فيه من الكفر والمعاصي إلى الايمان والطاعة .

﴿ فَلَوْلاَ نَصَرَهُمُ ﴾ فهلا منعهم من الهلاك الذي وقعوا فيه ﴿ الذين اتخذوا ﴾ أي آلهتهم الذين اتخذوهم .

﴿ مِن دُونِ الله قُرْبَاناً ءَالِهَةَ ﴾ والضمير الذي قدرناه عائداً هو المفعول الأول لاتخذوا و﴿ ءَالِهَةً ﴾ هو المفعول الثاني و﴿ قُرْبَاناً ﴾ بمعنى متقرباً بها حال أي اتخذوهم آلهة من دون الله حال كونها متقرباً بها إلى الله عز وجل حيث كانوا يقولون : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى الله زُلْفَى ﴾ [الزمر : 3] و﴿ هَؤُلاء شفعاؤنا عِندَ الله ﴾ [يونس : 18] وفي الكلام تهكم بهم .

وأجاز الحوفي كون ﴿ قُرْبَاناً ﴾ مفعولاً من أجله ، وأجاز هو أيضاً .

وابن عطية .

ومكي .

وأبو البقاء كونه المفعول الثاني لاتخذوا وجعل ﴿ ءَالِهَةً ﴾ بدلاً منه ، وقال في "الكشاف" : لا يصح ذلك لفساد المعنى ، ونقل عنه في بيانه أنه لا يصح أن يقال : تقربوا بها من دون الله لأن الله تعالى لا يتقرب به ، وأراد كما في "الكشف" أنه إذا جعل مفعولاً ثانياً يكون المعنى فلولا نصرهم الذين اتخذوهم قرباناً بدل الله تعالى أو متجاوزين عن أخذه تعالى قرباناً إليهم وهو معنى فاسد .

واعترض عليه بجعل ﴿ دُونِ ﴾ بمعنى قدام كما قيل به في قوله تعالى : ﴿ وادعوا

شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللهِ ﴾ [البقرة : 23] وبأنه قد قيل : إن قرباناً مفعول له فهو غير مختص بالمتقرب به ، وجاز أن يطلق على المتقرب إليه وحينئذ يلتئم الكلام .

(71/704)

وأجيب عن الأول بأنه غير قادح لأنه مع نزارة استعمال دون بمعنى قدام لا يصلح ظرف الاتخاذ لأنه ليس بين يدي الله تعالى وإنما التقرب بين يديه تعالى ولأجله سبحانه ، واتخاذهم قرباناً ليس التقرب به لأن معناه تعظيمهم بالعبادة ليشفعوا بين يدي الله عز وجل ويقربوهم إليه سبحانه ، فزمان الاتخاذ ليس زمان التقرب البتة ، وحينئذ إن كان مستقراً حالاً لزم ما لزم في الأول .

ولا يجوز أن يكون معمول ﴿ قُرْبَاناً ﴾ لأنه اسم جامد بمعنى ما يتقرب به فلا يصلح عاملاً كالقارورة وإن كان فيها معنى القراء ، وفيه نظر .

وأجيب عن الثاني بأن الزمخشري بعد أن فسر القربان بما يتقرب به ذكر هذا الامتناع على أن قوله تعالى بعد .

﴿ بَلْ ضَلُّواْ ﴾ الخ ينادي على فساد ذلك أرفع النداء ، وقال بعضهم في امتناع كون ﴿ قُرْبَاناً ﴾ مفعولاً ثانياً و ﴿ ءَالِهَةً ﴾ بدلاً منه : إن البدل وإن كان هو المقصود لكن لا بد في

غير بدل الغلط من صحة المعنى بدونه ولا صحة لقولهم : اتخذوهم من دون الله قرباناً أي ما يتقرب به لأن الله تعالى لا يتقرب به بل يتقرب إليه فلا يصح أنهم اتخذوهم قرباناً متجاوزين الله تعالى في ذلك ، وجنح بعضهم إلى أنه يصح أن يقال : الله تعالى يتقرب به أي برضاه تعالى والتوسل به جل وعلا .

وقال الطيبي .

إن الزمخشري لم يرد بفساد المعنى إلا خلاف المعنى المقصود إذ لم يكن قصدهم في اتخاذهم الأصنام آلهة على زعمهم إلا أن يتقربوا بها إلى الله تعالى كما نطقت به الآيات فتأمل .

(72/704)

وقرىء ﴿ قُرْبَاناً ﴾ بضم الراء ﴿ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ ﴾ أي غابوا عنهم ، وفيه تهكم بهم أيضاً كأن عدم نصرهم لغيبتهم أو ضاعوا عنهم أي ظهر ضياعهم عنهم بالكلية وقد امتنع نصرهم الذي كانوا يؤملونه امتناع نصر الغائب عن المنصور ﴿ وَذَلِكَ ﴾ أي ضلال آلهتهم عنهم ﴿ إِفْكِهِمْ ﴾ أي أثر إفكهم أي صرفهم عن الحق واتخاذهم إياها آلهة ونتيجة شركهم ﴿ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ أي وأثر افترائهم وكذبهم على الله تعالى أو أثر ما كانوا يفترونه على الله عز وجل ، وقيل : ذلك إشارة إلى اتخاذ الأصنام آلهة أي ذلك الاتخاذ

الذي أثره ضلال آلهتهم عنهم كذبهم وافتراؤهم أو والذي كانوا يفترونه وليس بذاك وإن لم يحوج إلى تقدير مضاف .

وقرأ ابن عباس في رواية ﴿ إِفْكِهِمْ ﴾ بفتح الهمزة والإفك والأفك مصدران كالحذر والحذر .

وقرأ ابن الزبير والصباح بن العلاء الأنصاري .

وأبو عياض .

وعكرمة .

وحنظلة بن النعمان بن مرة .

ومجاهد وهي رواية عن ابن عباس أيضاً ﴿ إِفْكِهِمْ ﴾ بثلاث فتحات على أن إفك فعل ماض وحينئذ الإشارة إلى الاتخاذ أي ذلك الاتخاذ صرفهم عن الحق ، ﴿ وَمَا كَانُواْ ﴾ قيل عطف على ذلك أو على الضمير المستتر وحسن للفصل أو هو مبتدأ والخبر محذوف أي كذلك ، والجملة حينئذ معطوفة على الجملة قبلها .

وأبو عياض .

وعكرمة أيضاً كذلك إلا أنهما شددا الفاء للتكثير ، وابن الزبير أيضاً .

وابن عباس فيما ذكر ابن خالويه ﴿ إِفْكِهِمْ ﴾ بالمد فاحتمل أن يكون فاعل فالهمزة أصلية وأن يكون أفعل والهمزة للتعدية أي جعلهم يأفكون ؛ وجوز أن تكون للوجدان

كأحمد ته وأن يكون أفعل بمعنى فعل ، وحكى في "البحر" أنه قرىء ﴿ إِفْكِهِمْ ﴾ بفتح الهمزة والفاء وضم الكاف وهي لغة في الإفك .

وقرأ ابن عباس فيما روى قطرب .

وأبو الفضل الرازي ﴿ إِفْكِهِمْ ﴾ اسم فاعل من إفك أي وذلك الاتخاذ صارفهم عن الحق .

(73/704)

وقرىء ﴿ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ مَّمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ والمعنى ذلك بعض ما يفترون من الإفك أي بعض أكاذيبهم المفتريات فالافك بمعنى الاختلاق فلا تغفل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(74/704)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ واذكر أَخَا عَادٍ ﴾

أي : واذكر يا محمد لقومك أخا عاد ، وهو هود بن عبد الله بن رباح ، كان أخاهم في النسب ، لا في الدين ، وقوله : ﴿ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ ﴾ بدل اشتمال منه ، أي : وقت إنذاره إياهم ﴿ بالأحقاف ﴾ وهي ديار عاد ، جمع حقف ، وهو الرمل العظيم المستطيل المعوج قاله الخليل وغيره ، وكانوا قهروا أهل الأرض بقوّتهم ، والمعنى : أن الله سبحانه أمره أن يذكر لقومه قصتهم ؛ ليتعظوا ويخافوا ، وقيل : أمره بأن يتذكر في نفسه قصتهم مع هود ؛ ليقتدي به ويهون عليه تكذيب قومه .

قال عطاء : الأحقاف : رمال بلاد الشحر .

وقال مقاتل : هي باليمن في حضرموت ، وقال ابن زيد : هي رمال مبسوطة مستطيلة كهيئة الجبال ، ولم تبلغ أن تكون جبالاً ﴿ وَقَدْ خَلَتِ النذر مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ أي : وقد مضت الرسل من قبله ومن بعده ، كذا قال الفراء وغيره .

وفي قراءة ابن مسعود : (من بين يديه ومن بعده) والجملة في محل نصب على الحال ، ويجوز أن تكون معترضة بين إنذار هود ، وبين قوله لقومه : ﴿ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ والأوّل أولى .

والمعنى : أعلمهم أن الرسل الذين بعثوا قبله ، والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو إنذاره ، ثم رجع إلى كلام هود لقومه ، فقال حاكياً عنه : ﴿ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وقيل : إن جعل تلك الجملة اعتراضية أولى بالمقام ، وأوفق بالمعنى ﴿ قَالُواْ

أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾ أي : لتصرفنا عن عبادتها ، وقيل : لتزيلنا ، وقيل : لتمنعنا ، والمعنى متقارب ، ومنه قول عروة بن أذينة :

إن تك عن حسن الصنيعة مأفو . . . كاً ففي آخرين قد أفكوا

يقول : إن لم توفق للإحسان ، فأنت في قوم قد صرفوا عن ذلك .

﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ من العذاب العظيم ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ في وعدك لنا به .

(75/704)

﴿ قَالَ إِنَّمَا العلم عِندَ الله ﴾ أي : إنما العلم بوقت مجيئه عند الله لا عندي ﴿ وَأُبَلِّغُكُمْ مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ ﴾ إليكم من ربكم من الإنذار والإعذار ، فأما العلم بوقت مجيء العذاب ، فما أوحاه إليّ ﴿ ولكنى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ حيث بقيتم مصرّين على كفركم ، ولم تهتدوا بما جئتكم به ، بل اقترحتم عليّ ما ليس من وظائف الرسل .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً ﴾ الضمير يرجع إلى "ما" في قوله : ﴿ بِمَا تَعِدُنَا ﴾ .

وقال المبرد ، والزجاج : الضمير في ﴿ رَأَوْهُ ﴾ يعود إلى غير مذكور ، وبينه قوله : ﴿ عَارِضاً ﴾ ، فالضمير يعود إلى السحاب ، أي : فلما رأوا السحاب عارضاً ، ف ﴿ عارضاً ﴾ نصب على التكرير ، يعني : التفسير ، وسمي السحاب عارضاً لأنه يبدو في

عرض السماء .

قال الجوهري : العارض : السحاب يعترض في الأفق ، ومنه قوله : ﴿ هذا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ وانتصاب ﴿ عارضاً ﴾ على الحال ، أو التمييز ﴿ مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾ أي : متوجهاً نحو أوديتهم .

قال المفسرون : كانت عاد قد حبس عنهم المطر أياماً ، فساق الله إليهم سحابة سوداء ، فخرجت عليهم من واد لهم يقال له : المعتب ، فلما رأوه مستقبل أوديتهم استبشروا ، و ﴿ قَالُواْ هذا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ أي : غيم فيه مطر ، وقوله : ﴿ مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾ صفة لعارض ؛ لأن إضافته لفظية لا معنوية ، فصح وصف النكرة به ، وهكذا ممطرنا ، فلما قالوا ذلك أجاب عليهم هود ، فقال : ﴿ بَلْ هُوَ مَا استعجلتم بِهِ ﴾ يعني : من العذاب حيث قالوا : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ وقوله : ﴿ رِيحٌ ﴾ بدل من ما ، أو خبر مبتدأ محذوف ، وجملة : ﴿ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ صفة لريح ، والريح التي عذبوا بها نشأت من ذلك السحاب الذي رأوه .

(76/704)

﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ هذه الجملة صفة ثانية لريح ، أي : تهلك كل شيء مرّت به من نفوس عاد وأموالها ، والتدمير : الإهلاك ، وكذا الدمار ، وقرىء (يدمر) بالتحتية مفتوحة وسكون الدال وضم الميم ، ورفع (كلّ) على الفاعلية من دمر دماراً ، ومعنى ﴿ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ : أن ذلك بقضائه وقدره ﴿ فَأَصْبَحُواْ لاَ تَرَىٰ إلا مساكنهم ﴾ أي : لا ترى أنت يا محمد ، أو كل من يصلح للرؤية إلاّ مساكنهم بعد ذهاب أنفسهم وأموالهم .

قرأ الجمهور ﴿ لا ترى ﴾ بالفوقية على الخطاب ، ونصب مساكنهم .

وقرأ حمزة ، وعاصم بالتحتية مضمومة مبنياً للمفعول ، ورفع مساكنهم .

قال سيبويه : معناه لا يرى أشخاصهم إلاّ مساكنهم ، واختار أبو عبيد ، وأبو حاتم القراءة الثانية .

قال الكسائي ، والزجاج : معناها لا يرى شيء إلاّ مساكنهم ، فهي محمولة على المعنى كما تقول : ما قام إلاّ هند ، والمعنى : ما قام أحد إلاّ هند ، وفي الكلام حذف ، والتقدير : فجاءتهم الريح فدمرتهم ، فأصبحوا لا يرى إلاّ مساكنهم ﴿ كذلك نَجْزِي القوم المجرمين ﴾ أي : مثل ذلك الجزاء نجزي هؤلاء ، وقد مرّ بيان هذه القصة في سورة الأعراف .

﴿ وَلَقَدْ مكناهم فِيمَا إِن مكناكم فِيهِ ﴾ قال المبرد : ما في قوله : ﴿ فيما ﴾ بمنزلة " الذي " ، و " إن " بمنزلة " ما " ، يعني : النافية ، وتقديره : ولقد مكناهم في الذي ما مكناكم فيه من المال وطول العمر وقوّة الأبدان ، وقيل : "إن" زائدة ، وتقديره : ولقد مكناهم فيما

مكناكم فيه ، وبه قال القتيبي ، ومثله قول الشاعر :

فما إن طبنا جبن ولكن . . . منايانا ودولة آخرينا

(77/704)

والأوّل أولى ؛ لأنه أبلغ في التوبيخ لكفار قريش ، وأمثالهم ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وأبصارا وَأَفْئِدَةً ﴾ أي : إنهم أعرضوا عن قبول الحجة ، والتذكر مع ما أعطاهم الله من الحواسّ التي بها تدرك الأدلة ، ولهذا قال : ﴿ فَمَا أغنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أبصارهم وَلاَ أَفْئِدَتُهُمْ مّن شَيْء ﴾ أي : فما نفعهم ما أعطاهم الله من ذلك حيث لم يتوصلوا به إلى التوحيد ، وصحة الوعد والوعيد ، وقد قدّمنا من الكلام على وجه إفراد السمع ، وجمع البصر ما يغني عن الإعادة ، و"من" في ﴿ مِن شَيْء ﴾ زائدة ، والتقدير : فما أغنى عنهم شيء من الإغناء ، ولا نفعهم بوجه من وجوه النفع ﴿ إذ كانوا يجحدون بآيات الله ﴾ الظرف متعلق ب ﴿ أغنى ﴾ ، وفيها معنى التعليل أي : لأنهم كانوا يجحدون ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يستهزئون ﴾ أي : أحاط بهم العذاب الذي كانوا يستعجلونه بطريق الاستهزاء حيث قالوا : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مّنَ القرى ﴾ الخطاب لأهل مكة ، والمراد بما حولهم من القرى

: قرى ثمود ، وقرى لوط ، ونحوهما مما كان مجاوراً لبلاد الحجاز ، وكانت أخبارهم متواترة عندهم ﴿ وَصَرَّفْنَا الآيات لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي : بينا الحجج ونوّعناها ؛ لكي يرجعوا عن كفرهم فلم يرجعوا .

ثم ذكر سبحانه أنه لم ينصرهم من عذاب الله ناصر ، فقال : ﴿ فَلَوْلاَ نَصَرَهُمُ الذين اتخذوا مِن دُونِ الله قُرْبَاناً ءالِهَةَ ﴾ أي : فهلا نصرهم آلهتهم التي تقرّبوا بها بزعمهم إلى الله لتشفع لهم حيث قالوا : ﴿ هَؤُلاء شفعاؤنا عِندَ الله ﴾ [يونس : 18] ومنعتهم من الهلاك الواقع بهم .

(78/704)

قال الكسائي : القربان : كل ما يتقرّب به إلى الله من طاعة ونسيكة ، والجمع قرابين ، كالرهبان والرهابين ، وأحد مفعولي ﴿ اتخذوا ﴾ ضمير راجع إلى الموصول ، والثاني آلهة ، و ﴿ قرباناً ﴾ حال ، ولا يصح أن يكون قرباناً مفعولاً ثانياً ، و ﴿ آلهةً ﴾ بدلاً منه لفساد المعنى ، وقيل : يصح ذلك ولا يفسد المعنى ، ورجحه ابن عطية ، وأبو البقاء ، وأبو حيان ، وأنكر أن يكون في المعنى فساد على هذا الوجه ﴿ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ ﴾ أي : غابوا عن نصرهم ، ولم يحضروا عند الحاجة إليهم ، وقيل : بل هلكوا ، وقيل : الضمير في ضلوا

راجع إلى الكفار ، أي : تركوا الأصنام وتبرءوا منها ، والأوّل أولى .

والإشارة بقوله : ﴿ وَذَٰلِكَ ﴾ إلى ضلال آلهتهم .

والمعنى : وذلك الضلال والضياع أثر ﴿ إِفْكِهِمْ ﴾ الذي هو اتخاذهم إياها آلهةً وزعمهم أنها تقرّبهم إلى الله .

قرأ الجمهور ﴿ إفكهم ﴾ بكسر الهمزة ، وسكون الفاء مصدر أفك يأفك إفكاً ، أي : كذبهم .

وقرأ ابن عباس ، وابن الزبير ، ومجاهد بفتح الهمزة والفاء والكاف على أنه فعل أي : ذلك القول صرفهم عن التوحيد .

وقرأ عكرمة بفتح الهمزة وتشديد الفاء ، أي : صيرهم آفكين .

قال أبو حاتم : يعني قلبهم عما كانوا عليه من النعيم ، وروي عن ابن عباس أنه قرأ بالمدّ ، وكسر الفاء بمعنى : صارفهم ﴿ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ معطوف على ﴿ إفكهم ﴾ أي : وأثر افترائهم ، أو أثر الذي كانوا يفترونه .

والمعنى : وذلك إفكهم أي : كذبهم الذي كانوا يقولون إنها تقرّبهم إلى الله ، وتشفع لهم ﴿ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ أي : يكذبون أنها آلهة .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الأحقاف : جبل بالشام .

وأخرج البخاريّ ، ومسلم ، وغيرهما عن عائشة قالت : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لهواته ، إنما كان يتبسم ، وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه ، قلت : يا رسول الله ، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا أن يكون فيه المطر .

وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية ، قال : " يا عائشة : وما يؤمنني أن يكون فيه عذاب ، قد عذب قوم بالريح ، وقد رأى قوم العذاب ، فقالوا : ﴿ هذا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ " وأخرج مسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عصفت الريح قال : " اللَّهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها ، وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرّها وشرّ ما فيها وشرّ ما أرسلت به " ، فإذا تخيلت السماء تغير لونه ، وخرج ودخل وأقبل وأدبر ، فإذا مطرت سرّي عنه ، فسألته فقال : " لا أدري ، لعله كما قال قوم عاد : ﴿ هذا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ " وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب السحاب ، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾ قالوا : غيم فيه مطر ، فأوّل ما عرفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجاً من رجالهم ، ومواشيهم تطير بين السماء والأرض مثل الريش دخلوا بيوتهم ، وغلقوا أبوابهم ، فجاءت الريح ففتحت أبوابهم ، ومالت عليهم بالرمل ، فكانوا تحت الرمل

سبع ليال ، وثمانية أيام حسوماً لهم أنين ، ثم أمر الله الريح ، فكشفت عنهم الرمل وطرحتهم في البحر ، فهو قوله : ﴿ فَأَصْبَحُواْ لاَ يرى إِلاَّ مساكنهم ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : ما أرسل الله على عاد من الريح إلاّ قدر خاتمي هذا .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ وَلَقَدْ مكناهم فِيمَا إِن مكناكم فِيهِ ﴾ يقول : لم نمكنكم .

(80/704)

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال : عاد مكنوا في الأرض أفضل مما مكنت فيه هذه الأمة ، وكانوا أشدّ قوة وأكثر أموالاً وأطول أعماراً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 22 . 25 ﴾

(81/704)

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ واذكر أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بالأحقاف ﴾ .

أبهم جل وعلا في هذه الآية الكريمة أخا عاد ولم يعينه ولكنه بين في آيات أخرى ، أنه هود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام كقوله تعالى : ﴿ وإلى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً ﴾ [الأعراف : 65 وهود 11 - 50] في سورة الأعراف وسورة هود وغير ذلك من المواضع .

قوله تعالى : ﴿ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ الله إني أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن النبي هوداً نهى قومه أن يعبدوا غير الله ، وأمرهم بعبادته تعالى وحده ، وأنه خوفهم من عذاب الله ، إن تمادوا فى شركهم به .

وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية جاءا موضحين في آيات أخر .

أما الأول منهما ففي قوله تعالى : ﴿ وإلى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَاقَوْمِ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله ﴾ [الأعراف : 65 وهو : 50] في سورة الأعراف وسورة هود ونحو ذلك من الآيات .

وأما خوفه عليهم العذاب العظيم فقد ذكره في الشعراء في قوله تعالى : ﴿ واتقوا الذي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ إني أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء : 132 - 135] وهو يوم القيامة .

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22)

معنى قوله تعالى : ﴿ لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ ، أي لتصرفنا عن عبادتها إلى عبادة الله وحده .

وقد تضمنت هذه الآية الكريمة أمرين .

أحدهما : إنكار عاد على هود أنه جاءهم ، ليتركوا عبادة الأوثان ، ويعبدوا الله وحده .

والثاني : أنهم قالوا له : ائتنا بما تعدنا من العذاب وعجلة لنا إن كنت صادقاً فيما تقول ، عناداً منهم وعتوا .

(82/704)

وهذان الأمران جاءا موضحين في غير هذا الموضع ، كقوله تعالى في الأعراف ﴿ قالوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ الله وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ [الأعراف : 70] .

قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (23)

قوله تعالى : ﴿ وَأُبَلِّغُكُمْ مَّآ أُرْسِلْتُ بِه ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن نبي الله هوداً قال لقومه ، إنه يبلغهم ما أرسل به إليهم ، لأنه ليس عليه إلا البلاغ ، وهذا المعنى جاء مذكوراً في غير هذا الموضع ، كقوله تعالى في

الأعراف : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [الأعراف : 67 – 68] وقوله تعالى في سورة هود ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ﴾ [هود : 57] الآية .

فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (24)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة فصلت في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ [فصلت : 16] .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾ .

لفظه ﴿ إن ﴾ في هذه الآية الكريمة فيها للمفسرين ثلاثة أوجه ، يدل استقراء القرآن ، على أن واحداً منها هو الحق ، دون الاثنين الآخرين .

قال بعض العلماء : إن شرطية وجزاء الشرط محذوف ، والتقدير إن مكناكم فيه طغيتم وبغيتم .

وقال بعضهم : إن زائدة بعد ما الموصولة حملا لما الموصولة على ما النافية لأن ما النافية تزاد بعدها لفظة إن كما هو معلوم .

كقول نقيلة بنت الحرث والنضر العبدرية :

أبلغ بها ميتاً بأن تحية . . . ما إن نزل بها النجائب تخفق

وقول دريد بن الصمة فى الخنساء :

ما إن رأيت ولا سمعت به . . . كاليوم طالى أينق جرب

فإن زائدة بعد ما النافية فى البيتين وهو كثير ، وقد حملوا على ذلك ما الموصولة فقالوا :

تزاد بعدها إن كآية الأحقاف هذه . وأنشد لذلك الأخفش :

يرجى المرء ما إن لا يراه . . . وتعرض دون أدناه الخطوب

أي يرجى المرء الشيء الذي لا يراه ، وإن زائدة ، وهذان هما الوجهان اللذان لا تظهر

صحة واحد منهما .

لأن الأول منها فيه حذف وتقدير .

والثاني منهما فيه زيادة كلمة .

وكل ذلك لا يصار إليه إلا بدليل يجب الرجوع إليه .

أما الوجه الثالث الذي هو الصواب إن شاء الله ، فهو أن لفظة إن نافية بعد ما الموصولة أي

وقد مكناهم في الذي ما مكناكم فيه من القوة في الأجسام ، وكثرة الأموال والأولاد ،

والعدد .

وإنما قلنا : إن القرآن يشهد لهذا القول لكثرة الآيات الدالة عليه ، فإن الله جل وعلا في آيات كثيرة من كتابه يهدد كفار مكة بأن الأمم الماضية كانت أشد منهم بطشاً وقوة ، وأكثر منهم عدداً ، وأموالاً ، وأولاداً ، فلما كذبوا الرسل ، أهلكهم الله ليخافوا من تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم أن يهلكهم الله بسببه ، كما أهلك الأمم التي هى أقوى منهم ، كقوله تعالى فى المؤمن ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ كانوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأَرضِ فَمَآ أغنى عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [غافر : 82] .

وقوله فيها أيضاً : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأَرضِ فَأَخَذَهُمُ الله بِذُنُوبِهِمْ ﴾ [غافر : 21] الآية .

(84/704)

وقوله تعالى في الروم : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ كانوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ الأَرضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ [الروم : 9] الآية .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة الزخرف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً ومضى مَثَلُ الأولين ﴾ [الزخرف : 8] .

فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (28)

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الجاثية فى الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتخذوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الجاثية : 10] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(85/704)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾

هذا استخلاص لموعظة المشركين بمَثَل عاد ، ليعلموا أن الذي قدَر على إهلاك عاد قادر على إهلاك مَن هم دونهم في القوة والعدد ، وليعلموا أن القوم كانوا مثلهم مستجمعين قوى العقل والحسّ وأنهم أهملوا الانتفاع بقواهم فجحدوا بآيات الله واستهزؤوا بها وبوعيده فحاق بهم ما كانوا يستهزئون به ، وقريش يعلمون أن حالهم مثل الحال المحكيّة عن أولئك فليتهيّأوا لما سيحلّ بهم .

ولإفادة هذا الاستخلاص غُيِّر أسلوب الكلام إلى خطاب المشركين من أهل مكة ، فالجملة

في موضع الحال من واو الجماعة في ﴿ قالوا أجئتنا ﴾ [الأحقاف : 22] والخبر مستعمل في التعجيب من عدم انتفاعهم بمواهب عقولهم .

وتأكيد هذا الخبر بلام القسم مع أن مفاده لا شك فيه مصروف إلى المبالغة في التعجيب .

والتمكين : إعطاء المَكِنة (بفتح الميم وكسر الكاف) وهي القدرة والقوة .

يقال : مكُن من كذا وتمكن منه ، إذا قدر عليه .

ويقال : مكَّنه في كذا ، إذا جعل له القدرة على مدخول حرف الظرفية فيفسر بما يليق بذلك الظرف قال تعالى : ﴿ مكنّاهم في الأرض ما لم نمكن لهم ﴾ في سورة الأنعام (6) .

فالمعنى : جعلنا لهم القدرة في الذي لم نمكنكم فيه ، أي من كل ما يمكّن فيه الأقوام والأمم ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكَّنَّاهم في الأرض ﴾ في أول الأنعام (6) فضمّ إليه ما هنا .

و(ما) من قوله فيما ﴾ موصولة .

و﴿ إن ﴾ نافية ، أي في الذي ما مَكَّناكم فيه .

ومعنى مكناكم فيه : مكناكم في مثله أو في نوعه فإن الأجناس والأنواع من الذوات حقائق معنوية لا تتغير مواهبها وإنما تختلف بوجودها في الجزئيات ، فلذلك حسن تعدية فعل ﴿ مكناكم ﴾ بحرف الظرفية إلى ضمير اسم الموصول الصادق على الأمور التي مُكنت منها عاد .

ومن بديع النظم أن جاء النفي هنا بحرف ﴿ إنْ ﴾ النافية مع أنَّ النفي بها أقل استعمالا من النفي بـ (ما) النافية قصداً هنا لدفع الكراهة من توالي مثلين في النطق وهما (ما) الموصولة و (ما) النافية وإن كان معناهما مختلفاً ، ألا ترى أن العرب عوضوا الهاء عن الألف في (مهما) ، فإن أصلها : (ما ما) مركبة من (ما) الظرفية و (ما) الزائدة لإفادة الشرط مثل (أينما) .

قال في "الكشاف" : ولقد أغَثَّ أبو الطيب في قوله:

لعمرك مَا مَا بَان منك لِضَارب . . .

وأقول ولم يتعقب ابن جنّي ولا غيره ممّن شرح الديوان من قبل على المتنبي وقد وقع مثله في ضرورات شعر المتقدمين كقول خطام المجاشعي:

وَصَاليات كَكَمَا يُؤثفَيْنْ . . .

ولا يغتفر مثله للمولدين .

فأما إذا كانت (ما) نافية وأراد المتكلم تأكيدها تأكيداً لفظياً ، فالإتيان بحرف (إنْ) بعد (ما) أحرى كما في قول النابغة:

رماد ككحل العين ما إنْ أبينُه . . .

ونؤيٌ كجذم الحوض أثلم خاشع

وفائدة قوله : ﴿ وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة ﴾ أنهم لم ينقصهم شيء من شأنه أي يخلّ بإدراكهم الحق لولا العناد ، وهذا تعريض بمشركي قريش ، أي أنكم حرمتم أنفسكم الانتفاع بسمعكم وأبصاركم وعقولكم كما حُرموه ، والحالة متحدة والسبب متّحد فيوشك أن يكون الجزاء كذلك .

وإفراد السمع دون الأبصار والأفئدة للوجه الذي تقدم في قوله : ﴿ قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم ﴾ في سورة الأنعام (46) وقوله : ﴿ أم مَن يملك السمع والأبصار ﴾ في سورة يونس (31) .

ومِن ﴾ في قوله : ﴿ من شيء ﴾ زائدة للتنصيص على انتفاء الجنس فلذلك يكون ﴿ شيء ﴾ المجرور بـ ﴿ من ﴾ الزائدة نائباً عن المفعول المطلق لأن المراد بشيء من الإغناء ، وحق ﴿ شيء ﴾ النصب وإنما جُرّ بدخول حرف الجر الزائد .

(87/704)

و ﴿ إذْ ﴾ ظرف ، أي مدة جحودهم وهو مستعمل في التعليل لاستواء مؤدى الظرف ومؤدى التعليل لأنه لما جعل الشيء من الإغناء معلقاً نفيُه بزمان جحدهم بآيات الله كما يستفاد من إضافة ﴿ إذْ ﴾ إلى الجملة بعدها ، عُلم أن لذلك الزمان تأثيراً في نفي الإغناء .

وآيات الله دلائل إرادته من معجزات رسولهم ومن البراهين الدالة على صدق ما دعاهم إليه .

وقد انطبق مثالهم على حال المشركين فإنهم جحدوا بآيات الله وهي آيات القرآن لأنها جَمَعت حقيقة الآيات بالمعنيين .

وحاق بهم : أحاط بهم ﴿ وما كانوا به يستهزئون ﴾ العذاب ، عدل عن اسمه الصريح إلى الموصول للتنبيه على ضلالهم وسوء نظرهم .

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (27)

أتبع ضرب المثل بحال عاد مع رسولهم بأن ذلك المثل ليس وحيداً في بابه فقد أهلك الله أقواماً آخرين من مجاوريهم تُماثل أحوالهم أحوال المشركين ، وذكَّرهم بأن قراهم قريبة منهم يعرفها من يعرفونها ويسمع عنها الذين لم يروها ، وهي قرى ثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وسبأ وقوم تبع ، والجملة معطوفة على جملة ﴿ واذكر أخا عاد ﴾ [الأحقاف : 21] الخ .

وكنّي عن إهلاك الأقوام بإهلاك قراهم مبالغة في استئصالهم لأنه إذا أهلكت القرية لم يبق أحد من أهلها كما كنّى عنترة بشك الثياب عن شك الجسد في قوله:

فشككت بالرمح الأصم ثيابه . . .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وثيابك فطهّر ﴾ [المدثر : 4] .

وتصريف الآيات تنويعها باعتبار ما تدّل عليه من الغرض المقصود منها وهو الإقلاع عن الشرك وتكذيب الرسل ، وأصل معنى التصريف التغيير والتبديل لأنه مشتق من الصرف وهو الإبعاد .

وكنّي به هنا عن التبيين والتوضيح لأن تعدد أنواع الأدلة يزيد المقصود وضوحاً .

ومعنى تنويع الآيات أنها تارة تكون بالحجة والمجادلة النظرية ، وتارة بالتهديد على الفعل ، وأخرى بالوعيد ، ومرة بالتذكير بالنعم وشكرها .

(88/704)

وجملة ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ مستأنفة لإنشاء الترجّي وموقعها موقع المفعول لأجله ، أي رجاء رجوعهم .

والرجوع هنا مجاز عن الإقلاع عمّا هم فيه من الشرك والعناد ، والرجاء من الله تعالى

يستعمل مجازاً في الطلب ، أي توسعة لهم وإمهالاً ليتدبروا ويتّعظوا .

وهذا تعريض بمشركي أهل مكة فهم سواء في تكوين ضروب تصريف الآيات زيادة على ما صرف لهم من آيات إعجاز القرآن والكلام على (لعل) في كلام الله تقدم في أوائل البقرة .

فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (28)

تفريع على ما تقدم من الموعظة بعذاب عاد المفصَّل ، وبعذاب أهل القرى المُجمل ، فرع عليه توبيخ موجه إلى آلهتهم إذ قعدوا عن نصرهم وتخليصهم قدرة الله عليهم ، والمقصود توجيه التوبيخ إلى الأمم المهلكة على طريقة توجيه النهي ونحوه لغير المنهي ليجتنب المنهيُّ أسبابَ المنهيِّ عنه كقولهم لا أعرفنك تفعل كذا ، ولا أرينَّك هنا .

والمقصود بهذا التوبيخ تخطئة الأمم الذين اتخذوا الأصنام للِنصرِ والدفع وذلك مستعمل تعريضاً بالسامعين المماثلين لهم في عبادة آلهة من دون الله استتماماً للموعظة والتوبيخِ بطريق التنظير وقياس التمثيل ، ولذلك عقب بقوله : ﴿ بل ضلّوا عنهم ﴾ لأن التوبيخ آل إلى معنى نفي النصر .

وحرف ﴿ لولا ﴾ إذا دخل على جملة فعلية كان أصله الدلالة على التحْضيض ، أي تحْضيض فاعل الفعل الذي بعد ﴿ لولا ﴾ على تحصيل ذلك الفعل ، فإذا كان الفاعل غير المخاطب بالكلام كانت ﴿ لولا ﴾ دالة على التوبيخ ونحو إذ لا طائل في تحضيض

المخاطب على فعل غيره .

والإتيان بالموصول لما في الصلة من التنبيه على الخطأ والغلط في عبادتهم الأصنام فلم تغن عنهم شيئاً ، كقول عبدة بن الطّبيب:

إنَّ الذين تَرَوْنَهُم إخوانكم . . .

يَشفِي غَليل صدورهم أن تُصْرَعوا

(89/704)

وعوملت الأصنام معاملة العقلاء بإطلاق جمع العقلاء عليهم جرياً على الغالب في استعمال العرب كما تقدم غير مرة .

و﴿ قُرباناً ﴾ مصدر بوزن غُفران ، منصوبٌ على المفعول لأجله حكاية لزعمهم المعروف المحكي في قوله تعالى : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليُقربونا إلى الله زُلفَى ﴾ [الزمر : 3] .

وهذا المصدر معترض بين ﴿ اتخذوا ﴾ ومفعوله ، و ﴿ من دون الله ﴾ يتعلق بـ ﴿ اتخذوا ﴾ .

و﴿ دون ﴾ بمعنى المباعدة ، أي متجاوزين الله في اتخاذ الأصنام آلهة وهو حكاية لحالهم

لزيادة تشويهها وتشبيعها .

و﴿ بل ﴾ بمعنى لكن إضراباً واستدراكاً بعد التوبيخ لأنه في معنى النفي ، أي ما نصرهم الذين اتخذوهم آلهة ولا قَربوهم إلى الله ليدفع عنهم العذاب ، بل ضلُّوا عنهم ، أي بل غابوا عنهم وقت حلول العذاب بهم .

والضلال أصله : عدم الاهتداء للطريق واستعير لعدم النفع بالحضور استعارة تهكمية ، أي غابوا عنهم ولو حضروا لنصروهم ، وهذا نظير التهكم في قوله تعالى : ﴿ وقيل ادعوا شركاءَكم فدَعوْهُم فلم يستجيبوا لهم ﴾ في سورة القصص (64) .

وأما قوله : وذلك إفكهم ﴾ فهو فذلكة لجملة ﴿ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله ﴾ الخ وقرينة على الاستعارة التهكمية في قوله : ﴿ ضلوا عنهم ﴾ .

والإشارة بـ ﴿ ذلك ﴾ إلى ما تضمنه قوله : ﴿ الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة ﴾ من زعم الأصنام آلهة وأنها تقربهم إلى الله ، والإفك بكسر الهمزة .

والافتراء : نوع من الكذب وهو ابتكار الأخبار الكاذبة ويرادف الاختلاق لأنه مشتق من فَرِي الجلد ، فالافتراء الكذب الذي يقوله ، فعطف ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ على ﴿ إفكهم ﴾ عطف الأخص على الأعم ، فإن زعمهم الأصنام شركاء لله كذب مروي من قبل فهو إفك .

وأما زعمهم أنها تقرِّبهم إلى الله فذلك افتراء اخترعوه .

وإقحام فعل ﴿ كانوا ﴾ للدلالة على أن افتراءهم راسخ فيهم .

ومجيء ﴿ يفترون ﴾ بصيغة المضارع للدلالة على أن افتراءهم متكرر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(90/704)

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (29) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (30) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (31) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (32) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان ما ذكر من البعد من الإيمان مع تصريف العظات والعبر والآيات يكاد أن يؤنس السامع من إيمان هؤلاء المدعوين ، قربه دلالة على عزته وحكمته بالتذكير بالإيمان من هم أعلى منهم عتواً وأشد نفرة وأبعد إجابة وأخفى شخصاً ، فقال جواباً عما وقع له ـ صلى

الله عليه وسلم ـ في عرض نفسه الشريفة على القبائل وإبعادهم عنه لا سيما أهل الطائف ، دالاً على تمام القدرة بشارة للمنزل عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتوبيخاً لما تأخر عن إجابته من قومه عاطفاً على ما تقديره : اذكر هذه الأخبار : ﴿ وإذ ﴾ أي واذكر حين ﴿ صرفنا إليك ﴾ أي وجهنا توجيهاً خالصاً حسناً متقناً فيه ميل إليك وإقبال عليك ، وإعراض عن غيرك ، بوادي نخلة عند انصرافك من الطائف حين عرضت نفسك الشريفة عليهم بعد موت النصيرين فردوك رداً تكاد تنشق منه المرائر ، وتسل من تذكاره النواظر .

(91/704)

ولما كان استعطاف من جبل على النفرة وإظهار من بني على الاجتنان أعظم في النعمة ، عبر بما يدل على ذلك فقال : ﴿ نفراً ﴾ وهو اسم يطلق على ما دون العشرة ، وهو المراد هنا ، ويطلق على الناس كلهم ، وحسن التعبير به أن هؤلاء لما خصوا بشرف السبق وحسن المتابعة كانوا كأنهم هم النفر لا غيرهم ﴿ من الجن ﴾ من أهل نصيبين من الناحية التي منها عداس الذي جبرناك به في الطائف بما شهد به لسيديه عتبة وشيبة ابني ربيعة أنك خير أهل الأرض مع أنه ليس لهؤلاء النفر من جبلاتهم إلا النفرة والاجتنان وهو الاختفاء

والستر فجعلناهم ألفين لك ظاهرين عندك لتبلغهم ما أرسلناك به فإنا أرسلناك إلى جميع الخلائق ، وهذا جبر لك وبشارة بإيمان النافرين من الإنس كما أيدناك منهم بعد نفرة أهل الطائف بعداس ، ثم وصفهم بقوله : ﴿ يستمعون القرآن ﴾ أي يطلبون سماع الذكر الجامع لكل خير ، الفارق بين كل ملبس وأنت في صلاة الفجر في نخلة تصلي بأصحابك ، ودل على قرب زمن الصرف من زمن الحضور بتعبيره سبحانه بالفاء في قوله تعالى مفصلاً لحالهم : ﴿ فلما حضروه ﴾ أي صاروا بحيث يسمعونه ﴿ قالوا ﴾ أي قال بعضهم ورضي الآخرون : ﴿ أنصتوا ﴾ أي اسكتوا وميلوا بكلياتكم واستمعوا حفظاً للأدب على بساط الخدمة ، وفيه تأدب مع العلم في تعلمه وأيضاً مع معلمه ، قال القشيري : فأهل الحضور صفتهم الذبول والسكون والهيبة والوقار ، والثوران والانزعاج يدل على غيبة أو قلة تيقظ ونقصان من الاطلاع ، ودل على أن ما استمعوه كان يسيراً وزمنه قصيراً ، وعلى تفصيل حالهم بعد انقضائه بالفاء في قوله تعالى : ﴿ فلما ﴾ أي فأنصتوا فحين ﴿ قضي ﴾ أي حصل الفراغ من قراءته الدالة على عظمته من أيّ قارئ كان ﴿ ولوا ﴾ أي أوقعوا التولية – أي القرب – بتوجيه الوجوه والهمم والعزائم ﴿ إلى قومهم ﴾ الذين فيهم قوة القيام بما يحاولونه ، ودل على حسن تقبلهم لما سمعوه ورسوخهم في اعتقاده بقوله تعالى : ﴿ منذرين ﴾ أي مخوفين لهم ومحذرين عواقب

الضلال بأمر من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : جعلهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رسلاً إلى قومهم .

ولما كان كأنه قيل : ما قالوا لهم في إنذارهم ؟ قيل : ﴿ قالوا ﴾ أي لقومهم حين أقبلوا عليهم : ﴿ يا قومنا ﴾ مترققين لهم ومشفقين بهم بذكر ما يدل على أنهم منهم يهمهم ما يهمهم ويكربهم ما يكربهم كما قيل :

وإن أخاك الحق من كان معك . . .

ومن يضر نفسه لينفعك

ولما كانوا – بنزول ما في أسفار الأنبياء من بني إسرائيل والزبور والإنجيل خالية من الأحكام والحدود إلا يسيراً من ذلك في الإنجيل – قاطعين أو كالقاطعين بأنه لا ينزل كتاب يناظر التوراة في الأحكام والحدود وغيرها ، فكان قومهم ربما توقفوا في الإخبار بإنزال ما هو أشرف من ذلك ، أكدوا قولهم : ﴿ إنا سمعنا ﴾ أي بيننا وبين القارئ واسطة ، وأشاروا إلى أنه لم ينزل بعد التوراة شيء جامع لجميع ما يراد منه ، مغن عن جميع الكتب غير هذا ، وبذلك عرفوا أنه ناسخ لجميع الشرائع فقالوا على سبيل التبيين لما سمعوا : ﴿ كتاباً ﴾ أي ذكراً جامعاً ، لا كما نزل بعد التوراة على بني إسرائيل ﴿ أنزل ﴾ أي ممن لا منزل في الحقيقة غيره ، وهو مالك الملك وملك الملوك لأن عليه من رونق الكتب الإلهية ما يوجب القطع

لسامعه بأنه منها فكيف إذا انضم إلى ذلك الإعجاز ، وعلموا قطعاً بعربيته أنه عربي وبأنهم كانوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها ويسمعون قراءة الناس لما يحدثونه من الحكم والخطب والكهانة والرسائل والأشعار ، وبأنه مباين لجميع ذلك أنه قريب العهد بالنزول من محل العظمة ، فقالوا مثبتين للجار : ﴿ من بعد موسى ﴾ عليه الصلاة والسلام ، فلم يعتدوا بما أنزل بين هذا الكتاب وبين التوراة من الإنجيل وما قبله ، لأنه لا يساوي التوراة في الجمع ، ولا يعشر هذا الكتاب في الأحكام والحكم واللطائف والمواعظ مع ما زاد به من الإعجاز وغيره .

(93/704)

ولما أخبروا بأنه منزل ، أتبعوه ما يشهد له بالصحة فقالوا : ﴿ مصدقاً لم بين يديه ﴾ أي من جميع كتب بني إسرائيل الإنجيل وما قبله ؛ ثم بينوا تصديقه بقولهم : ﴿ يهدي إلى الحق ﴾ أي الأمر الثابت الذي يطابقه الواقع فلا يقدر أحد على إزالة شيء مما يخبر به ، الكامل في جميع ذلك ﴿ وإلى طريق ﴾ موصل إلى المقصود الأعظم وهو الإيمان بمنزله ﴿ مستقيم ﴾ فهو يوصل بغاية ما يمكن من السرعة ، لا يمكن أن يكون فيه عوج ، فيقدر السالك فيه على أن يختصر طريقاً يكون وتراً لما تقوس منه .

ولما أخبروهم بالكتاب وبينوا أنه من عند الله وأنه أقرب موصل إليه ، فكان قومهم جديرين بأن يقولوا : فما الذي ينبغي أن نفعل ؟ أجابوهم بقوله : ﴿ يا قومنا ﴾ الذين لهم قوة العلم والعمل ﴿ أجيبوا داعي الله ﴾ أي الملك الأعظم المحيط بصفات الجلال والجمال والكمال ، فإن دعوة هذا الداعي عامة لجميع الخلق ، فالإجابة واجبة على كل من بلغه أمره .

(94/704)

ولما كنا المجيب قد يجيب في شيء دون شيء كما كان أبو طالب عم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، عطفوا في خطابهم لهم في الدعوة أن قالوا : ﴿ وآمنوا به ﴾ أي أوقعوا التصديق بسبب الداعي لا بسبب آخر ، فإن المفعول معه مفعول مع من أرسله وهو الله الذي جلت قدرته وآمنوه من كل تكذيب ، أو الضمير للمضاف إليه وهو الله بدليل قولهم : ﴿ يغفر لكم ﴾ : فإنه يستر ويسامح ﴿ من ذنوبكم ﴾ أي الشرك وما شابهه مما هو حق لله تعالى أي وذلك الستر لا يكون إلا إذا حصل منكم الإجابة التامة والتصديق التام وأدخلوا " من " إعلاماً بأن مظالم العباد لا تغفر إلا بإرضاء أهلها وكذا ما يجازى به صاحبه في الدنيا بالعقوبات والنكبات والهموم ونحوها مما أشار إيه قوله تعالى ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ [الشورى : 30] ﴿ ويجركم ﴾ أي يمنعكم " إذا

أجبتم " منع الجار لجاره لكونكم بالتحيز إلى داعيه صرتم من حزبه ﴿ من عذاب أليم ﴾ واقتصارهم على المغفرة تذكير بذنوبهم لأن مقصودهم الإنذار لا ينافي صريح قوله ي هذه السورة ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾ [الأنعام : 132] في إثبات الثواب ، ونقله أبو حيان عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : لهم ثواب وعليهم عقاب يلتقون في الجنة ويزدحمون على أبوابها .

ولما فرغوا من التعريف بالحق والدلالة عليه والدعاء إليه والإنذار بالرفق بما أفهم كلامهم من أنهم إن لم يجيبوا انتقم منهم بالعذاب الأليم ، أتبعوه ما هو أغلظ إنذاراً منه فقالوا : ﴿ ومن لا يجب ﴾ أي لا يتجدد منه أن يجيب ﴿ داعي الله ﴾ أي الملك الأعظم المحيط بكل شيء الذي لا كفوء له ولا طاقة لأحد بسخطه فعم بدعوة هذا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ جميع الخلق .

(95/704)

ولما دل الكتاب والسنة كما قدمته في سورتي الأنعام والفرقان على عموم الرسالة ، وكان التارك لإجابة من عمت رسالته عاصياً مستحقاً للعذاب ، عبر عن عذابه ، بما دل على تحتمه فقال تعالى : ﴿ فليس بمعجز ﴾ أي لما يقضي به عليه ﴿ في الأرض ﴾ فإنه آية سلك

فيها فهو في ملكه وملكه وقدرته محيطة به ﴿ وليس له من دونه ﴾ أي الله الذي لا يجير إلا هو ﴿ أولياء ﴾ يفعلون لأجله ما يفعل القريب مع قريبه من الذب عنه والاستشفاع له والافتداء والمناصبة لأجله .

ولما انتفى عنه الخلاص من كل وجه ، وكان ذلك لا يختلف سواء كان العاصي واحداً أو أكثر ، أنتج قوله سبحانه وتعالى معبراً بالجمع لأنه أدل على القدرة ودلالة على أن العصاة كثيرة لملاءمة المعاصي لأكثر الطبائع : ﴿ أولئك ﴾ أي البعيدون من كل خير ﴿ في ضلال مبين ﴾ أي ظاهر في نفسه أنه ضلال ، مظهر لكل أحد قبح إحاطتهم به ، قال القشيري : ويقال : الإجابة على ضربين : إجابة الله ، وإجابة الداعي ، فإجابة الداعي بشهود الواسطة وهو الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وإجابة الله بالجهر إذا بلغت المدعو رسالته ـ صلى الله عليه وسلم ـ على لسان السفير ، وبالسر إذا حصلت التعريفات من الواردات على القلب ، فمستجيب بنفسه ، ومستجيب بقلبه ، و مستجيب بروحه ، ومستجيب بسره ، ومن توقف عن دعاء الداعي إياه هجر فما كان يخاطب به . انتهى انتهى . اهـ

﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 140 . 143 ﴾

(96/704)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى لما بيّن أن في الإنس من آمن وفيهم من كفر ، بيّن أيضاً أن الجن فيهم من آمن وفيهم من كفر ، وأن مؤمنهم معرض للثواب ، وكافرهم معرض للعقاب ، وفي كيفية هذه الواقعة قولان الأول : قال سعيد بن جبير : كانت الجن تستمع فلما رجموا قالوا : هذا الذي حدث في السماء إنما حدث لشيء في الأرض فذهبوا يطلبون السبب ، وكان قد اتفق أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أيس من أهل مكة أن يجيبوه خرج إلى الطائف ليدعوهم إلى الإسلام ، فلما انصرف إلى مكة ، وكان ببطن نخل قام يقرأ القرآن في صلاة الفجر ، فمرّ به نفر من أشراف جن نصيبين ، لأن إبليس بعثهم ليعرفوا السبب الذي أوجب حراسة السماء بالرجم ، فسمعوا القرآن وعرفوا أن ذلك هو السبب والقول الثاني : أن الله تعالى أمر رسوله أن ينذر الجن ويدعوهم إلى الله تعالى ويقرأ عليهم القرآن ، فصرف الله إليه نفراً من الجن ليستمعوا منه القرآن وينذروا قومهم .

ويتفرع على ما ذكرناه فروع الأول : نقل عن القاضي في تفسيره الجن أنه قال : إنهم كانوا يهوداً ، لأن في الجن مللاً كما في الإنس من اليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأصنام ، وأطبق المحققون على أن الجن مكلفون ، سئل ابن عباس : هل للجن ثواب ؟ فقال نعم لهم ثواب وعليهم عقاب ، يلتقون في الجنة ويزدحمون على أبوابها الفرع الثاني : قال صاحب "الكشاف" : النفر دون العشرة ويجمع على أنفار ، ثم روى محمد بن جرير الطبري عن ابن عباس : أن أولئك الجن كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين ، فجعلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم رسلاً إلى قومهم ، وعن زر ابن حبيش كانوا تسعة أحدهم ذوبعة ، وعن قتادة ذكر لنا أنهم صرفوا إليه من ساوة الفرع الثالث : اختلفوا في أنه هل كان عبد الله بن مسعود مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجن ؟ والروايات فيه مختلفة ومشهورة الفرع الرابع : روى القاضي في "تفسيره" عن أنس قال : "كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جبال مكة إذ أقبل شيخ متوكىء على عكازة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم " مشية جني ونغمته " فقال أجل ، فقال " من أي الجن أنت ؟ " فقال أنا هامة بن هيم بن لاقيس بن إبليس ، فقال " لا أرى بينك وبين إبليس إلا أبوين فكم أتى عليك ؟ " فقال أكلت عمر الدنيا إلا أقلها ، وكنت وقت قتل قابيل هابيل أمشي بين الآكام ، وذكر كثيراً مما مرّ به ، وذكر في جملته أن قال : قال لي عيسى بن مريم إن لقيت محمداً فأقرئه مني السلام ، وقد بلغت

سلامه وآمنت بك ، فقال عليه السلام ،

" وعلى عيسى السلام ، وعليك يا هامة ما حاجتك ؟ " فقال إن موسى عليه السلام علمني التوراة ، وعيسى علمني الإنجيل ، فعلمني القرآن ، فعلمه عشر سور ، وقبض صلى الله عليه وسلم ولم ينعه" قال عمر بن الخطاب ولا أراه إلا حياً واعلم أن تمام الكلام في قصة الجن مذكور في سورة الجن .

المسألة الثانية :

(98/704)

اختلفوا في تفسير قوله ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الجن ﴾ فقال بعضهم : لما لم يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم قراءة القرآن عليهم ، فهو تعالى ألقى في قلوبهم ميلا وداعية إلى استماع القرآن ، فلهذا السبب قال : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الجن ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ ﴾ الضمير للقرآن أو لرسول الله ﴿ قَالُواْ ﴾ أي قال بعضهم لبعض ﴿ أَنصِتُواْ ﴾ أي اسكتوا مستمعين ، يقال أنصت لكذا واستنصت له ، فلما فرغ من القراءة ﴿ وَلَّوْاْ إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ ينذرونهم ، وذلك لا يكون إلا بعد إيمانهم ، لأنهم لا يدعون غيرهم إلى استماع القرآن والتصديق به إلا وقد آمنوا ، فعنده ﴿ قَالُواْ يا قَوْمَنَا إِنَّا

سَمِعْنَا كتابا أُنزِلَ مِن بَعْدِ موسى ﴾ ووصفوه بوصفين الأول : كونه ﴿ مُصَدّقاً لّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي مصدقاً لكتب الأنبياء ، والمعنى أن كتب سائر الأنبياء كانت مشتملة على الدعوة إلى التوحيد والنبوّة والمعاد والأمر بتطهير الأخلاق فكذلك هذا الكتاب مشتمل على هذه المعاني الثاني : قوله ﴿ يَهْدِي إِلَى الحق وإلى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

(99/704)

واعلم أن الوصف الأول يفيد أن هذا الكتاب يماثل سائر الكتب الإلهية في الدعوة إلى هذه المطالب العالية الشريفة ، والوصف الثاني يفيد أن هذه المطالب التي اشتمل القرآن عليها مطلب حقة صدق في أنفسها ، يعلم كل أحد بصريح عقله كونها كذلك ، سواء وردت الكتب الإلهية قبل ذلك بها أو لم ترد ، فإن قالوا كيف قالوا ﴿ مِن بَعْدِ موسى ﴾ ؟ قلنا قد نقلنا عن الحسن إنه قال إنهم كانوا على اليهودية ، وعن ابن عباس أن الجن ما سمعت أمر عيسى فلذلك قالوا من بعد موسى ، ثم إن الجن لما وصفوا القرآن بهذه الصفات الفاضلة قالوا ﴿ ياقومنا أَجِيبُواْ دَاعِيَ الله ﴾ واختلفوا في أنه هل المراد بداعي الله الرسول أو الواسطة التي تبلغ عنه ؟ والأقرب أنه هو الرسول لأنه هو الذي يطلق عليه هذا الوصف .

واعلم أن قوله ﴿ أَجِيبُواْ دَاعِيَ الله ﴾ فيه مسألتان :

المسألة الأولى :

هذه الآية تدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان مبعوثاً إلى الجن كما كان مبعوثاً إلى الإنس قال مقاتل ، ولم يبعث الله نبياً إلى الإنس والجن قبله .

المسألة الثانية :

قوله ﴿ أَجِيبُواْ دَاعِيَ اللّهِ ﴾ أمر بإجابته في كل ما أمر به ، فيدخل فيه الأمر بالإيمان إلا أنه أعاد ذكر الإيمان على التعيين ، لأجل أنه أهم الأقسام وأشرفها ، وقد جرت عادة القرآن بأنه يذكر اللفظ العام ، ثم يعطف عليه أشرف أنواعه كقوله

﴿ وملائكته وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ ﴾ [البقرة : 98] وقوله ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النبيين مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُّوحٍ ﴾ [الأحزاب : 7] ولما أمر بالإيمان به ذكر فائدة ذلك الإيمان وهي قوله ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قال بعضهم كلمة ﴿ مِنْ ﴾ ههنا زائدة والتقدير : يغفر لكم ذنوبكم ، وقيل بل الفائدة فيه أن كلمة ﴿ مِنْ ﴾ ههنا لابتداء الغاية ، فكان المعنى أنه يقع ابتداء الغفران بالذنوب ، ثم ينتهي إلى غفران ما صدر عنكم من ترك الأولى والأكمل .

المسألة الثانية :

اختلفوا في أن الجن هل لهم ثواب أم لا ؟ فقيل لا ثواب لهم إلا النجاة من النار ، ثم يقال لهم كونوا تراباً مثل البهائم ، واحتجوا على صحة هذا المذهب بقوله تعالى : ﴿ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأحقاف : 31] وهو قول أبي حنيفة ، والصحيح أنهم في حكم بني آدم فيستحقون الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية ، وهذا القول قول ابن أبي ليلى ومالك ، وجرت بينه وبين أبي حنيفة في هذا الباب مناظرة ، قال الضحاك يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون ، والدليل على صحة هذا القول أن كل دليل على أن البشر يستحقون الثواب على الطاعة فهو بعينه قائم في حق الجن ، والفرق بين البابين بعيد جداً .

واعلم أن ذلك الجني لما أمر قومه بإجابة الرسول والإيمان به حذرهم من تلك الإجابة فقال : ﴿ وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ ﴾ أي لا ينجي منه مهرب ولا يسبق قضاءه سابق ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللهَ فِي الأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً ﴾ [الجن : 12] ولا نجد له أيضاً ولياً ولا نصيراً ، ولا دافعاً من دون الله ثم بيّن أنهم في ضلال مبين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 27 . 29 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الجن ﴾

هذا توبيخ لمشركي قريش ؛ أي إن الجنّ سمعوا القرآن فآمنوا به وعلموا أنه من عند الله وأنتم معرضون مصرون على الكفر .

ومعنى : "صَرَفْنَا" وجهنا إليك وبعثنا .

وذلك أنهم صُرفوا عن استراق السمع من السماء برجوم الشُّهُب على ما يأتي ولم يكونوا بعد عيسى قد صُرِفوا عنه إلا عند مبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم .

قال المفسرون ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وغيرهم : " لما مات أبو طالب خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم وحده إلى الطائف يلتمس من ثَقيف النصرة فقصد عبْدَ يَالِيل ومسعوداً وحبيباً وهم إخوة بنو عمرو بن عمير وعندهم امرأة من قريش من بني جُمَح ؛ فدعاهم إلى الإيمان وسألهم أن ينصروه على قومه فقال أحدهم : هو يَمْرُط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك ! وقال الآخر : ما وجد الله أحداً يرسله غيرك ! وقال الثالث : والله لا أكلمك كلمة أبداً ؛ إن كان الله أرسلك كما تقول فأنت أعظم خطراً من أن أردّ عليك الكلام ، وإن كنت تكذب فما ينبغي لي أن أكلمك .

ثم أغرَوْا به سفهاءهم وعبيدهم يسبُّونه ويضحكون به ، حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه

إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة .

فقال لِلْجُمَحِيّة : "ماذا لقِينا من أحمائك" ؟ ثم قال : "اللهم إني أشكو إليك ضَعْف قوّتي وقِلّة حِيلتي وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ؛ لِمن تَكِلُني ! إلى عبد يَتَجَهَّمُني ، أو إلى عدوّ ملكته أمري ! إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك من أن ينزل بي غضبك ، أو يحلّ عليّ سخطك ، لك العُتْبَى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوّة إلا بك" .

(102/704)

فرحمه ابنا ربيعة وقالا لغلام لهما نصرانيّ يقال له عدّاس : خذ قِطْفاً من العنب وضعْه في هذا الطبق ثم ضعْه بين يدي هذا الرجل ؛ فلما وضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم قال النبيّ صلى الله عليه وسلم "باسم الله" ثم أكل ؛ فنظر عدّاس إلى وجهه ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "مِن أيّ البلاد أنت يا عدّاس وما دينك" ؟ قال : أنا نصراني من أهل نِينَوَى .

فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أَمِن قرية الرجل الصالح يونس بن مَتَّى" ؟ فقال : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ قال : "ذاك أخي كان نبيًّا وأنا نبيّ" " فانكبّ عدّاس حتى قبّل

رأس النبي صلى الله عليه وسلم ويديه ورجليه .

فقال له ابنا ربيعة : لِمَ فعلت هكذا ؟ فقال : يا سَيِّدِي ما في الأرض خير من هذا ، أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبيّ .

ثم انصرف النبيّ صلى الله عليه وسلم حين يئس من خير ثَقيف ، حتى إذا كان ببطن نَخْلة قام من الليل يصلّي فمرّ به نفر من جنّ أهل نَصِيبِين .

وكان سبب ذلك أن الجنّ كانوا يسترِقون السمع ، فلما حُرست السماء ورُمُوا بالشّهب قال إبليس : إن هذا الذي حدث في السماء لِشيء حدث في الأرض ؛ فبعث سراياه ليعرف الخبر ، أوّلهم رَكْب نَصِيبين وهم أشراف الجنّ إلى تِهامة ، فلما بلغوا بَطْن نخلة سمعوا النبيّ صلى الله عليه وسلم يصلّي صلاة الغداة ببطن نخلة ويتلو القرآن ، فاستمعوا له وقالوا : أنصتوا .

(103/704)

وقالت طائفة : بل أمِر النبي صلى الله عليه وسلم أن ينذر الجنّ ويدعوهم إلى الله تعالى ويقرأ عليهم القرآن ؛ فصرف الله عز وجل إليه نفراً من الجنّ من نِينَوى وجمعهم له ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " "إني أريد أن أقرأ القرآن على الجنّ الليلة فأيكم يتبعني " ؟

فأطرقوا ، ثم قال الثانية فأطرقوا ، ثم قال الثالثة فأطرقوا ؛ فقال ابن مسعود : أنا يا رسول الله ؛ قال ابن مسعود : ولم يحضر معه أحد غيري ؛ فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة دخل النبيّ صلى الله عليه وسلم شِعْباً يقال له "شِعْب الْحَجُون" وخطَّ لي خطًّا وأمرني أن أجلس فيه وقال : "لا تخرج منه حتى أعود إليك" .

ثم انطلق حتى قام فافتتح القرآن ، فجعلت أرى أمثال النسور تهوي وتمشي في رفرفها ، وسمعت لَغَطاً وغَمْغَمَةً حتى خِفْت على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وغَشِيته أسْوِدة كثيرة حالت بيني وبينه حتى ما أسمع صوته ، ثم طفِقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين ، ففرغ النبيّ صلى الله عليه وسلم مع الفجر فقال : "أنمت" ؟ قلت : لا والله ، ولقد هممت مراراً أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك تقول اجلسوا ؛ فقال : "لو خرجت لم آمن عليك أن يخطفك بعضهم" ثم قال : "هل رأيت شيئاً" ؟ قلت : نعم يا رسول الله ، رأيت رجالاً سوداً مُستَثْفِري ثيابا بيضاً ؛ فقال : "أولئك جِنّ نَصِيبين سألوني المتاع والزاد فمتَّعتهم بكل عظم حائل ورَوْثة وبعرة" .

فقالوا : يا رسول الله يَقْذَرها الناس علينا .

فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُسْتَنْجى بالعظم والرَّوْث .

قلت : يا نبيّ الله ، وما يُغني ذلك عنهما قال : "إنهم لا يجدون عظماً إلا وجدوا عليه لحمه

يوم أَكِل ، ولا رَوْثة إلا وجدوا فيها حَبَّها يوم أَكِل "فقلت : يا رسول الله ، لقد سمعت لغطاً شديداً ؟ فقال : "إن الجِنّ تدارأت في قتيل بينهم فتحاكموا إليّ فقضيت بينهم بالحق" .

(104/704)

ثم تبرَّز النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم أتاني فقال : "هل معك ماء" ؟ فقلت يا نبيّ الله ، معي إداوة فيها شيء من نبيذ التمر فصببت على يديه فتوضأ فقال : "تمرة طيّبة وماء طهور" "

روى معناه معمر عن قتادة وشُعبة أيضاً عن ابن مسعود .

وليس في حديث معمر ذكر نبيذ التمر .

روي عن أبي عثمان النَّهْدِيّ أن ابن مسعود أبصر زُطًّا فقال : ما هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الزُّطّ .

قال : ما رأيت شبههم إلا الجنّ ليلة الجنّ فكانوا مستفزّين يتبع بعضهم بعضاً .

وذكر الدَّرَاقُطْنِيّ عن عبد الله بن لَهِيعة حدّثني قيس بن الحجاج عن حنش عن ابن عباس " عن ابن مسعود أنه وضّأ النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ بنبيذ فتوضأ به وقال : "شراب وطهور" " ابن لَهِيعة لا يحتج به .

وبهذا السند " عن ابن مسعود : أنه خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ ، فقال له

رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أمعك ماء يا بن مسعود" ؟ فقال : معي نبيذ في إداوة ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صُبّ عليّ منه" .

فتوضأ وقال : "هو شراب وطهور" " تفرّد به ابن لَهِيعة وهو ضعيف الحديث .

قال الدَّرَاقُطْنِي : وقيل إن ابن مسعود لم يشهد مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ .

كذلك رواه علقمة بن قيس وأبو عبيدة بن عبد الله وغيرهما عنه أنه قال : ما شهدت ليلة الجنّ .

حدّثنا أبو محمد بن صاعد حدّثنا أبو الأشعث حدّثنا بشر بن الفضل حدثنا داود بن أبي هند عن عامر عن علقمة بن قيس قال : قلت لعبد الله بن مسعود : أشهد رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أحد منكم ليلة أتاه داعي الجنّ ؟ قال لا .

قال الدَّرَاقُطْنِيّ : هذا إسناد صحيح لا يختلف في عدالة راويه .

وعن عمرو بن مُرّة قال قلت لأبي عبيدة : حضر عبد الله بن مسعود ليلة الجنّ ؟ فقال لا .

قال ابن عباس : كان الجنّ سبعة نفر من جنّ نَصِيبين فجعلهم النبيّ صلى الله عليه وسلم رسلاً إلى قومهم .

وقال زِرّ بن حُبيش : كانوا تسعة أحدهم زَوْبعة .

وقال قتادة : إنهم من أهل نِينَوَى .

وقال مجاهد : من أهل حران .

وقال عكرمة : من جزيرة الموصل .

وقيل : إنهم كانوا سبعة ، ثلاثة من أهل نجران وأربعة من أهل نَصِيبِين .

" وروى ابن أبي الدنيا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال في هذا الحديث وذكر فيه نَصِيبين فقال : "رفعت إليّ حتى رأيتها فدعوت الله أن يكثر مطرها وينضر شجرها وأن يُغْزر نهرها" " وقال السهيلي : ويقال كانوا سبعة ، وكانوا يهوداً فأسلموا ؛ ولذلك قالوا : "أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى" .

وقيل في أسمائهم : شاصر وماصر ومنشى وماشى والأحقب ؛ ذكر هؤلاء الخمسة ابن دريد .

ومنهم عمرو بن جابر ؛ ذكره ابن سلام من طريق أبي إسحاق السَّبِيعي عن أشياخه عن ابن مسعود أنه كان في نفر من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم يمشون فرفع لهم إعصار ثم جاء إعصار أعظم منه فإذا حَيّة قتيل ، فعمد رجل منا إلى ردائه فشقّه وكفن الحية ببعضه ودفنها ، فلما جنّ الليل إذا امرأتان تسألان : أيكم دفن عمرو بن جابر ؟ فقلنا : ما ندري من عمرو بن جابر ! فقالتا : إن كنتم ابتغيتم الأجر فقد وجدتموه ، إن فَسَقَة الجنّ

اقتتلوا مع المؤمنين فقُتل عمرو ؛ وهو الحيّة التي رأيتم ، وهو من النفر الذين استمعوا القرآن من محمد صلى الله عليه وسلم ثم ولّوْا إلى قومهم منذرين .

وذكر ابن سلام رواية أخرى : أن الذي كفّنه هو صفوان بن المُعَطَّل .

قلت : وذكر هذا الخبر الثعلبي بنحوه فقال : وقال ثابت بن قُطْبة جاء أناس إلى ابن مسعود فقالوا : إنا كنا في سفر فرأينا حيّة متشحّطة في دمائها ، فأخذها رجل منا فوارينا ها ؛ فجاء أناس فقالوا : أيكم دفن عَمْراً ؟ قلنا وما عمرو ! قالوا الحية التي دفنتم في مكان كذا ؛ أمَا إنه كان من النفر الذين سمعوا القرآن من النبيّ صلى الله عليه وسلم وكان بين حَيّيْن من الجنّ مسلمين وكافرين قتال فقُتل .

ففي هذا الخبر أن ابن مسعود لم يكن في سفر ولا حَضَرَ الدفن ؛ والله أعلم .

(106/704)

وذكر ابن أبي الدنيا عن رجل من التابعين سَمّاه : أن حية دخلت عليه في خِبائه تلهث عطشاً فسقاها ثم أنها ماتت فدفنها ، فأُتي من الليل فسلم عليه وشكر ؛ وأخبر أن تلك الحيّة كانت رجلاً من جنّ نَصِيبِين اسمه زوبعة .

قال السُّهَيْليّ : وبلغنا في فضائل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه مما حدّثنا به أبو بكر بن

طاهر الأشبيلي " أن عمر بن عبد العزيز كان يمشي بأرض فلاة ، فإذا حية ميّتة فكفنها بفضلة من ردائه ودفنها ؛ فإذا قائل يقول : يا سرق ، أشهد لسمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : "ستموت بأرض فلاة فيكفنك رجل صالح" .

فقال : ومن أنت يرحمك اللها فقال : رجل من الجنّ الذين استمعوا القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبقَ منهم إلا أنا وسرق ؛ وهذا سرق قد مات " وقد قتلت عائشة رضي الله عنها حية رأتها في حجرتها تستمع وعائشة تقرأ ؛ فأتيت في المنام فقيل لها : إنك قتلت رجلاً مؤمناً من الجنّ الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقالت : لو كان مؤمناً ما دخل على حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقيل لها : ما دخل عليك إلا وأنت متقنعة ، وما جاء إلا ليستمع الذكر .

فأصبحت عائشة فزعة ، واشترت رقاباً فأعتقتهم .

قال السهيلي : وقد ذكرنا من أسماء هؤلاء الجنّ ما حضرنا ؛ فإن كانوا سبعة فالأحقب منهم وَصْفٌ لأحدهم ، وليس باسم علم ؛ فإن الأسماء التي ذكرناها آنفاً ثمانية بالأحقب . والله أعلم .

قلت : وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخه : هامة بن الْهَيْم بن الأقيس بن إبليس ؛ قيل : إنه من مؤمني الجنّ وممن لقي النبيّ صلى الله عليه وسلم وعلمه سورة ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الواقعة

﴿ و ﴿ المُرْسَلاَتِ ﴾ و ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ و ﴿ إِذَا الشمس كُوِّرَتْ ﴾ و ﴿ الحمد ﴾ و "الْمُعَوِّذَتَيْنِ" .

(107/704)

وذكر أنه حضر قتل هابيل وشَرِك في دمه وهو غلام ابن أعوام ، وأنه لقي نُوحاً وتاب على يديه ، وهوداً وصالحاً ويعقوب ويوسف وإلياس وموسى بن عمران وعيسى ابن مريم عليهم السلام .

وقد ذكر الماورديّ أسماءهم عن مجاهد فقال : حسى ومسى ومنشى وشاصر وماصر والأرد وأنيان والأحقم .

وذكرها أبو عمرو عثمان بن أحمد المعروف بابن السماك قال : حدّثنا محمد بن البراء قال حدّثنا الزبير بن بكار قال : كان حمزة بن عتبة بن أبي لهب يُسَمِّي جِنّ نَصِيبِين الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : حسى ومسى وشاصر وماصر والأفخر والأرد وأنيال .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ ﴾ أي حضروا النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وهو من باب تلوين الخطاب .

وقيل : لما حضروا القرآن واستماعه .

﴿ قالوا أَنصِتُواْ ﴾ أي قال بعضهم لبعض اسكتوا لاْستماع القرآن .

قال ابن مسعود : هبطوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ القرآن ببطن نَخْلة ، فلما سمعوه "قَالُوا أَنْصِتُوا" قالوا صه .

وكانوا سبعة : أحدهم زوبعة ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الجن يَسْتَمِعُونَ القرآن فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالوا أَنصِتُواْ ﴾ الآية إلى قوله : ﴿ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ .

وقيل : "أَنْصِتُوا" لسماع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ والمعنى متقارب .

﴿ فَلَمَّا قُضِيَ ﴾ وقرأ لاحق بن حُميد وخُبيب بن عبد الله بن الزبير "فَلَمَّا قَضَى" بفتح القاف والضاد ؛ يعني النبيّ صلى الله عليه وسلم قبل الصلاة .

وذلك أنهم خرجوا حين حُرست السماء من استراق السمع ليستخبروا ما أوجب ذلك ؟ فجاءوا وادي نخلة والنبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ في صلاة الفجر ، وكانوا سبعة ، فسمعوه وانصرفوا إلى قومهم منذرين ، ولم يعلم بهم النبيّ صلى الله عليه وسلم .

(108/704)

وقيل : بل أمِر النبيّ صلى الله عليه وسلم أن ينذر الجنّ ويقرأ عليهم القرآن ، فصرف الله إليه نفراً من الجنّ ليستمعوا منه وينذروا قومهم ؛ فلما تلا عليهم القرآن وفرغ انصرفوا بأمره قاصدين مَن وراءهم من قومهم من الجنّ ، منذرين لهم مخالفة القرآن ومحذِّرين إياهم بأس الله إن لم يؤمنوا .

وهذا يدلّ على أنهم آمنوا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأنه أرسلهم .

ويدل على هذا قولهم : "يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ" ولولا ذلك لما أنذَروا قومهم .

وقد تقدّم عن ابن عباس أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم جعلهم رسلاً إلى قومهم ؛ فعلى هذا ليلةُ الجنّ ليلتان ، وقد تقدّم هذا المعنى مستوفًى .

وفي صحيح مسلم ما يدل على ذلك على ما يأتي بيانه في ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ [الجن : 1] .

وفي صحيح مسلم عن مَعْن قال : سمعت أبي قال سألت مسروقاً : من آذن النبيّ صلى الله عليه وسلم بالجنّ ليلة استمعوا القرآن ؟ فقال : حدّثني أبوك يعني ابن مسعود أنه آذنته بهم شجرة .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يا قومنا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابا أُنزِلَ مِن بَعْدِ موسى ﴾

أي القرآن ؛ وكانوا مؤمنين بموسى .

قال عطاء : كانوا يهوداً فأسلموا ؛ ولذلك قالوا : "أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى" .

وعن ابن عباس : أن الجنّ لم تكن سمعت بأمر عيسى ، فلذلك قالت : "أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى" .

﴿ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ يعني ما قبله من التوراة .

﴿ يهدي إِلَى الحق ﴾ دين الحق .

﴿ وإلى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ دين الله القويم .

﴿ ياقومنا أَجِيبُواْ دَاعِيَ الله ﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ؛ وهذا يدلّ على أنه كان مبعوثاً إلى الجنّ والإنس .

قال مقاتل : ولم يبعث الله نبيًّا إلى الجنّ والإنس قبل محمد صلى الله عليه وسلم .

(109/704)

قلت : يدلّ على قوله ما في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أعطِيت خمساً لم يُعْطَهُنّ أحدٌ قبلي كان كلّ نبيّ يُبعث إلى قومه خاصّةً وبُعثت إلى كلّ أحمرَ وأسْوَدَ وأحِلّت لِيَ الغنائم ولم تُحَلّ لأحد قبلي وجُعلت لِيَ الأرض طيّبةً طهوراً ومسجداً فأيُّمَا رجلٍ أدركته الصلاة صلّى حيث كان ونُصِرْتُ بالرُّعْب بين يَدَيْ مسِيرةِ شَهْرٍ وأُعطِيتُ الشفاعةَ " قال مجاهد : الأحمر والأسود : الجنّ

والإنس .

وفي رواية من حديث أبي هريرة : " وبُعثت إلى الخلق كافة وخُتم بِيَ النَّبيّون " ﴿ وَآمِنُواْ بِهِ ﴾ أي بالداعي ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

وقيل : "به" أي بالله ؛ لقوله : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ .

قال ابن عباس : فاستجاب لهم من قومهم سبعون رجلاً ؛ فرجعوا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فوافقوه بالبطحاء ؛ فقرأ عليهم القرآن وأمرهم ونهاهم .

مسألة هذه الآية تدلّ على أن الجنّ كالإنس في الأمر والنهي والثواب والعقاب .

وقال الحسن : ليس لمؤمني الجنّ ثواب غير نجاتهم من النار ؛ يدلّ عليه قوله تعالى : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

وبه قال أبو حنيفة قال : ليس ثواب الجنّ إلا أن يجاروا من النار ، ثم يقال لهم : كونوا تراباً مثل البهائم .

وقال آخرون : إنهم كما يعاقبون في الإساءة يجازَوْن في الإحسان مثل الإنس .

وإليه ذهب مالك والشافعيّ وابن أبي ليلى .

وقد قال الضحاك : الجنّ يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون .

قال القشيريّ : والصحيح أن هذا مما لم يُقطع فيه بشيء ، والعلم عند الله .

قلت : قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾ [الأحقاف : 19] يدلّ على أنهم يثابون ويدخلون الجنة ؛ لأنه قال في آية أخرى : ﴿ يَامَعْشَرَ الجن والإنس أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي إلى أن قال وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾ [الأنعام : 130- 132] .

والله أعلم ؛ وسيأتي لهذا في سورة "الرحمن" مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ الله فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأرض ﴾ أي لا يفوت الله ولا يسبقه ﴿ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءُ ﴾ أي أنصار يمنعونه من عذاب الله .

﴿ أولئك فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(111/704)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الجن ﴾

أي أملناهم إليك ووجهناهم لك ، والنفر على المشهور ما بين الثلاثة والعشرة من الرجال لأنه من النفير والرجال هم الذين إذ حزبهم أمر نفروا لكفايته ، والحق أن هذا باعتبار

الأغلب فإنه يطلق على ما فوق العشرة في الفصيح ، وقد ذكر ذلك جمع من أهل اللغة ، وفي المجمل الرهط والنفر يستعمل إلى الأربعين ، وفي كلام الشعبي حدثني بضعة عشر نفراً ، وسيأتي إن شاء الله تعالى تفسيره هنا بما زاد على العشرة ولا يختص بالرجال ، والأخذ من النفير لا يدل على الاختصاص بهم بل ولا بالناس لإطلاقه على الجن هنا .

والجار والمجرور صفة ﴿ نَفَراً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يَسْتَمِعُونَ القرءان ﴾ حال مقدرة منه لتخصصه بالصفة أو صفة له أخرى وضمير الجمع لأنه اسم جمع فهو في المعنى جمع ، ولذا قرئ .

(112/704)

﴿ صَرَفْنَا ﴾ بالتشديد للتكثير ، و ﴿ إِذْ ﴾ معمولة لمقدر لا عطف على ﴿ أَخَا عَادٍ ﴾ [الأحقاف : 21] أي واذكر لقومك وقت صرفنا إليك نفراً من الجن مقدراً استماعهم القرآن لعلهم يتنبهون لجهلهم وغلطهم وقبح ما هم عليه من الكفر بالقرآن والإعراض عنه حيث أنهم كفروا به وجهلوا أنه من عند الله تعالى وهم أهل اللسان الذي نزل به ومن جنس الرسول الذي جاء به وأولئك استمعوه وعلموا أنه من عنده تعالى وآمنوا به وليسوا من أهل لسانه ولا من جنس رسوله ففي ذكر هذه القصة توبيخ لكفار قريش

والعرب ، ووقعوعها إثر قصة هود وقومه وإهلاك من أهلك من أهل القرى لأن أولئك كانوا ذوي شدة وقوة كما حكى عنهم في غير آية والجن توصف بذلك أيضاً كما قال تعالى : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ [النمل : 39] ووصفهم بذلك معروف بين العرب فناسبت ما قبلها لذلك مع ما قيل إن قصة عاد متضمنة ذكر الريح وهذه متضمنة ذكر الجن وكلاهما من العالم الذي لا يشاهد ، وسيأتي الكلام في حقيقتهم .

﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ ﴾ أي القرآن عند تلاوته ، وهو الظاهر وإن كان فيه تجوز ، وقيل : الرسول صلى الله عليه وسلم عند تلاوته له ففيه التفات ﴿ قَالُوا ﴾ أي قال بعضهم لبعض ﴿ أَنصِتُوا ﴾ اسكتوا لنسمعه ، وفيه تأدب مع العلم وكيف يتعلم ﴿ فَلَمَّا قضى ﴾ أتم وفرغ عن تلاوته .

وقرأ أبو مجلز .

وحبيب بن عبد الله ﴿ قَضَى ﴾ بالبناء للفاعل وهو ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأيد بذلك عود ضمير ﴿ حَضَرُوهُ ﴾ إليه عليه الصلاة والسلام .

(113/704)

﴿ وَلَّوْاْ إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ مقدرين إنذارهم عند وصولهم إليهم ، قيل : أنهم تفرقوا في البلاد فأنذروا من رأوه من الجن ، وكان هؤلاء كما جاء في عدة روايات من جن نصيبين وهي من ديار بكر قريبة من الشام ، وقيل : من نينوى وهي أيضاً من ديار بكر لكنها قريبة من الموصل ، وذكر أنهم كانوا من الشيصبان وهم أكثر الجن عدداً وعامة جنود إبليس منهم ، وكان الحضور بوادي نخلة على نحو ليلة مكة المكرمة .

فقد أخرج أحمد وعبد بن حميد .

والشيخان .

والترمذي .

والنسائي .

وجماعة عن ابن عباس قال : انطلق النبي صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا ما لكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب قالوا ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو أصحابه بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو عليه الصلاة والسلام يصلي بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن استمعوا

له فقالوا : هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء فهناك حين رجعوا إلى قومهم .

وفي رواية ابن المنذر عن عبد الملك أنهم لما حضروه قالوا : أنصتوا فلما قضى وفرغ صلى الله عليه وسلم من صلاة الصبح ولوا إلى قومهم منذرين مؤمنين لم يشعر بهم حتى نزل ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ استمع نَفَرٌ مِّنَ الجن ﴾ [الجن : 1] .

وفي "الصحيحين" عن مسروق عن ابن مسعود أنه آذنته صلى الله عليه وسلم بهم شجرة وكانوا على ما روى عن ابن عباس سبعة وكذا قال زر وذكر منهم زوبعة ، وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد أنهم كانوا سبعة .

ثلاثة أمن أهل حران .

وأربعة من نصيبين وكانت أسماؤهم حسي .

ومسي .

وشاصر .

وماصر .

والاردوانيان .

وسرق .

والأحقم .

بميم آخره ، وفي رواية عن كعب الأحقب بالباء ، وذكر صاحب الروض بدل حسي .

ومسي .

منشيء .

وناشيء .

وأخرج ابن جرير ، والطبراني .

وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال في هؤلاء النفر : كانوا تسعة عشر من أهل تصيبين فجعلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم رسلاً إلى قومهم ، والخبر السابق يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان حين حضر الجن مع طائفة من أصحابه ، وأخرج عبد بن حميد .

وأحمد .

ومسلم .

والترمذي .

وأبو داود عن علقمة قال "قلت لابن مسعود : هل صحب النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجن منكم أحد ؟ قال : ما صحبه منا أحد ولكنا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب فقلنا : استطير أو اغتيل فبتنا بشر ليلة بات بها قوم فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء فأخبرناه فقال أتاني داعي الجن فأتيتهم

فقرأت عليهم القرآن فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم" فهذا يدل على أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن معه أحد من أصحابه ولم يشعر به أحد منهم .

وأخرج أحمد عن ابن مسعود أنه قال : " قمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن وأخذت إداوة ولا أحسبها إلا ماء حتى إذا كنا بأعلى مكة رأيت أسودة مجتمعة قال : فخط لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : قم ههنا حتى آتيك ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فرأيتهم يتثورون إليه فسمر معهم ليلاً طويلاً حتى جاءني مع الفجر فقال لي : هل معك من وضوء قلت : نعم ففتحت الإداوة فإذا هو نبيذ فقلت : ما كنت أحسبها إلا ماء فإذا هو نبيذ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثمرة طيبة وماء طهور فتوضأ منها ثم قال يصلي فأدركه شخصان منهم فصفهما خلفه ثم صلى بنا فقلت : من هؤلاء يا رسول الله ؟ قال : جن نصيبين " فهذا يدل على خلاف ما تقدم والجمع بتعدد واقعة الجن ، وقد أخرج الطبراني في "الأوسط" .

(115/704)

وابن مردويه عن الحبر أنه قال : صرفت الجن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين ، وذكر الخفاجي أنه قد دلت الأحاديث على أن وفادة الجن كانت ست مرات ويجمع بذلك

اختلاف الروايات في عددهم وفي غير ذلك ، فقد أخرج أبو نعيم .

والواقدي عن كعب الأحبار قال : انصرف النفر التسعة من أهل نصيبين من بطن نخلة وهم فلان وفلان وفلان والاردوانيان .

والأحقب جاء واقومهم منذرين فخرجوا بعد وافدين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم ثلاثمائة فانتهوا إلى الحجون فجاء الأحق فسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن قومنا قد حضروا الحجون يلقونك فواعده رسول الله صلى الله عليه وسلم لساعة من الليل بالحجون .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة أنه قال في الآية : هم اثنا عشر ألفاً من جزيرة الموصل ، وفي "الكشاف" حكاية هذا العدد أيضاً وأن السورة التي قرأها صلى الله عليه وسلم عليهم ﴿ اقرأ باسم ربّكَ ﴾ [العلق : 1] ، ونقل في "البحر" عن ابن عمر .

وجابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهم أنه عليه الصلاة والسلام قرأ عليهم سورة الرحمن فكان إذا قال : ﴿ فَبِأَيّ ءالاء ربّكُمَا تُكَذّبَانِ ﴾ [الرحمن : 13] قالوا : لا بشيء من آيات ربنا نكذب ربنا لك الحمد ، وأخرج أبو نعيم في "الدلائل" .

والواقدي عن أبي جعفر قال : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم الجن في ربيع الأول سنة إحدى عشرة من النبوة وفي معناه ما قيل : كانت القصة قبل الهجرة بثلاث سنين بناء على ما صح عن ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم مكث بمكة يوحى إليه ثلاث عشرة

سنة وفي المسألة خلاف والمشهور ما ذكر .

وقيل : كان استماع الجن في ابتداء الإيحاء .

قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (30)

(116/704)

﴿ قَالُواْ ﴾ أي عند رجوعهم إلى قومهم ﴿ ياقومنا إِنَّا سَمِعْنَا كتابا ﴾ جليل الشأن ﴿ أُنزِلَ مِن بَعْدِ موسى ﴾ ذكروه دون عيسى عليه السلام مأموراً بالعمل بمعظم ما فيه أو بكله ، وقال عطاء : لأنهم كانوا على اليهودية ويحتاج إلى نقل صحيح ، وعن ابن عباس أن الجن لم تكن سمعت بأمر عيسى عليه السلام فلذا قالوا ذلك ، وفيه بعد فإن اشتهار أمر عيسى عليه السلام وانتشاراً أمر دينه أظهر من أن يخفى لا سيما على الجن ، ومن هنا قال أبو حيان : إن هذا لا يصح عن ابن عباس ﴿ مُصَدّقاً لّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من التوراة أو جميع الكتب الإلهية السابقة ﴿ يَهْدِى إِلَى الحق ﴾ من العقائد الصحيحة ﴿ وإلى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ من الأحكام الفرعية أو ما يعمها وغيرها من العقائد على أنه من ذكر العام بعد الخاص .

﴿ يا قومنا أَجِيبُواْ دَاعِيَ الله ﴾

أرادوا به ما سمعوه من الكتاب ووضفوه بالدعوة إلى الله تعالى بعد ما وصفوه بالهداية إلى الحق والطريق المستقيم لتلازمهما ، وفي الجمع بينهما ترغيب لهم في الإجابة أي ترغيب ، وجوز أن يكون أرادوا به الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ وَءامِنُواْ بِهِ ﴾ أي بداعي الله تعالى أو بالله عز وجل ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ أي بعض ذنوبكم قيل : وهو ما كان خالص حقه عز وجل فإن حقوق العباد لا تغفر بالايمان .

(117/704)

وتعقبه ابن المنير بأن الحربي إذا نهب الأموال وسفك الدماء ثم حسن إسلامه جب إسلامه إثم ما تقدم بلا إشكال ثم قال ويقال : إنه لم يرد وعد المغفرة للكافرين على تقدير الايمان في كتاب الله تعالى إلا مبعضة وذا منه فإن لم يكن لإطراده كذلك سر فما هو إلا أن مقام الكافرين قبض لا بسط فلذلك لم يبسط رجاؤه في مغفرة جملة الذنوب ، وقد ورد في حق المؤمنين كثيراً ، ورده صاحب الانصاف بأن مقام ترغيب الكافر في الإسلام بسط لا قبض وقد أمر الله تعالى أن يقول لفرعون : ﴿ قَوْلاً لَّيِّناً ﴾ وقد قال تعالى : ﴿ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال : 38] وهي غير مبعضة و ﴿ مَا ﴾ للعموم لا سيما

وقد وقعت في الشرط .

وقال بعض أجلة المحققين : إن الحربي وإنكان إذا أسلم لا تبقى عليه تبعة أصلاً لكن الذمي إذا أسلم تبقى عليه حقوق الآدميين ، والقوم كما نقل عن عطاء كانوا يهوداً فتبقى عليهم تبعاتهم فيما بينهم إذا أسلموا جميعاً من غير حرب فلما كان الخطاب معهم جيء بما يدل على التبعيض ، وقيل : جيء به لعدم علم الجن بعد بأن الإسلام يجب اثم ما قبله مطلقاً وفيه توقف ، وقد يقال : أرادوا بالبعض الذنوب السالفة ولو لم يقولوا ذلك لتوهم المخاطبون أنهم إن أجابوا داعي الله تعالى وآمنوا به يغفر لهم ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر ، وقيل : من زائدة أي يغفر لكم ذنوبكم ﴿ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ معد للكفرة ، وهذا ونحوه يدل على أن الجن مكلفون ، ولم ينص ههنا على ثوابهم إذا أطاعوا وعمومات الآيات تدل على الثواب ، وعن ابن عباس لهم ثواب وعليهم عقاب يلتقون في الجنة ويزدحمون على أبوابها ، ولعل الاقتصار هنا على ما ذكر لما فيه من التذكير بالذنوب والمقام الإنذار فلذا لم يذكر فيه شيء من الثواب ، وقيل : لا ثواب لمطيعيهم إلا النجاة من النار فيقال لهم : كونوا تراباً فيكونون تراباً ، وهذا مذهب ليث بن أبي سليم .

(118/704)

وجماعة ونسب إلى الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه ، وقال النسفي في "التيسير" : توقف أبو حنيفة في ثواب الجن في الجنة ونعيمهم لأنه لا استحقاق للعبد على الله تعالى ولم يقل بطريق الوعد في حقهم إلا المغفرة والإجارة من العذاب ، وأما نعيم الجنة فموقوف على الدليل .

وقال عمر بن عبد العزيز إن مؤمني الجن حول الجنة في ربض وليسوا فيها ، وقيل : يدخلون الجنة ويلهمون التسبيح والذكر فيصيبون من لذة ذلك ما يصيبه بنو آدم من لذائذهم ، قال النووي في شرح "صحيح مسلم" : والصحيح أنهم يدخلونها ويتنعمون فيها بالأكل والشرب وغيرهما ، وهذا مذهب الحسن البصري .

ومالك بن أنس .

والضحاك .

وابن أبي ليلى .

وغيرهم .

﴿ وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ ﴾

إيجاب للإجابة بطريق الترهيب أثر إيجابها بطريق الترغيب وتحقيق لكونهم منذرين واظهار داعي الله من غير اكتفاء بأحد الضميرين بأن يقال : يجبه أو يجب داعيه للمبالغة في الايجاب بزيادة التقرير وتربية المهابة وادخال الروعة .

وتقييد الإعجاز بكونه في الأرض لتوسيع الدائرة أي فليس بمعجز له تعالى بالهرب وان هرب كل مهرب من أقطارها أو دخل في أعماقها ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ بيان لاستحالة نجاته بواسطة الغير إثر بيان استحالة نجاته بنفسه وجمع الأولياء باعتبار معنى ﴿ مِنْ ﴾ فيكون من باب مقابلة الجمع بالجمع لانقسام الآحاد على الآحاد ، ويؤيد ذلك ما روي عن ابن عامر أنه قرأ ﴿ وَلَيْسَ لَهُمْ ﴾ بضمير الجمع فإنه لمن باعتبار معناها ، وكذا الجمع في قوله سبحانه : ﴿ أولئك ﴾ بذلك الاعتبار أي أولئك الموصوفون بعدم إجابة داعي الله ﴿ فِي ضلال مُّبِينٍ ﴾ أي ظاهر كونه ضلالاً بحيث لا يخفى على أحد حيث أعرضوا عن إجابة من هذا شأنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(119/704)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ﴾

ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة من سورة الأحقاف ، أنه صرف إلى النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ ﴾ والنفر دون العشرة ﴿ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ ﴾ وأنهم لما

حضروه ، قال بعضهم لبعض ﴿ أَنصِتُواْ ﴾ أي اسكتوا مستمعين ، وأنه لما قضى . أي انتهى النبى صلى الله عليه وسلم من قراءته ﴿ وَلَّوْاْ ﴾ أي رجعوا إلى قومهم من الجن في حال كونهم منذرين أي مخوفين لهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا بالله ، ويجيبوا داعيه محمداً صلى الله عليه وسلم . وأخبروا قومهم ، أن هذا الكتاب الذي سمعوه يتلى ، المنزل من بعد موسى يهدي إلى الحق ، وهو ضد الباطل ، وإلى طريق مستقيم ، أي لا اعوجاج فيه .

وقد دل القرآن العظيم أن استماع هؤلاء النفر من الجن ، وقولهم ما قالوا عن القرآن كله وقع ولم يعلم به النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى أوحى الله ذلك إليه ، كما قال تعالى في القصة بعينها ، مع بيانها وبسطها ، بتفصيل الأقوال التي قالتها الجن ، بعد استماعهم القرآن العظيم : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ استمع نَفَرٌ مِّنَ الجن فقالوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً يهدي إِلَى الرشد فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً ﴾ [الجن : 1 – 2] إلى آخر الآيات .

يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (31)

(120/704)

منطوق هذه الآية أن من أجاب داعي الله محمداً صلى الله عليه وسلم وآمن به ، وبما جاء به ، من الحق غفر الله له ذنوبه . وأجاره من العذاب الأليم ، ومفهومها ، أعني مفهوم مخالفتها

، والمعروف بدليل الخطاب ، أن من لم يجب داعي الله من الجن ، ولم يؤمن به لم يغفر له ، ولم يرجه ، من عذاب أليم ، بل يعذبه ويدخله النار ، وهذا المفهوم جاء مصرحاً به مبيناً فى آيات أخر ، كقوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ [هود : 19] وقوله تعالى : ﴿ ولكن حَقَّ القول مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة : 13] وقوله تعالى : ﴿ قَالَ ادخلوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ مِّن الجن والإنس فِي النار ﴾ [الأعراف : 38] : وقوله تعالى ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ والغاوون وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ [الشعراء : 94 - 95] إلى غير ذلك من الآيات .

أما دخول المؤمنين ، المجيبين داعي الله من الجن ، الجنة فلم تتعرض له الآية الكريمة بإثبات ولا نفي ، وقد دلت آية أخرى على أن المؤمنين من الجن يدخلون الجنة ، وهي قوله تعالى فى سورة الرحمن : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : 46 - 47 ﴾ وبه تعلم أن ما ذهب إليه بعض أهل العلم ، قائلين إنه يفهم من هذه الآية ، من أن المؤمنين من الجن لا يدخلون الجنة ، وأن جزاء إيمانهم وإجابتهم داعي الله ، هو الغفران وإجارتهم من العذاب الأليم فقط ، كما هو نص الآية ، كله خلاف التحقيق .

وقد أوضحنا ذلك فى كتابنا " دفع إيهام الاضطراب ، عن آيات الكتاب " في الكلام على هذه الآية ، من سورة الأحقاف فقلنا فيه ما نصه :

هذه الآية ، يفهم من ظاهرها ، أن جزاء المطيع من الجن غفران ذنوبه ، وإجارته من عذاب أليم ، لا دخوله الجنة .

(121/704)

وقد تمسك جماعة من العلماء منهم الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى ، بظاهر هذه الآية ، فقالوا إن المؤمنين المطيعين من الجن لا يدخلون الجنة ، مع أنه جاء في آية أخرى ، ما يدل على أن مؤمنيهم في الجنة وهي قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 46] ، لأنه تعالى بين شموله للجن والإنس ، بقوله ﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : 47] .

ويستأنس لهذا بقوله تعالى : ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطرف لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ ﴾ [الرحمن : 56] فإنه يشير إلى أن في الجنة جناً يطمثون النساء كالإنس .

والجواب عن هذا ، أن آية الأحقاف ، نص فيها على الغفران ، والإجارة من العذاب ، ولم يتعرض فيها لدخول الجنة ، بنفي ولا إثبات ، وآية الرحمن نص فيها على دخولهم الجنة ، لأنه تعالى قال فيها : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 46] .

وقد تقرر في الأصول أن الموصلات من صيغ العموم ، فقوله : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ ﴾ ، يعم كل

خائف مقام ربه ، ثم صرح بشمول ذلك الجن والإنس معاً بقوله :

﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : 13 - 16 - 18 - 21 - 23] .

فبين أن الوعد بالجنتين لمن خاف مقام ربه من آلائه ، أي نعمه على الإنس والجن ، فلا تعارض بين الآيتين ، لأن إحداهما بينت ما لم تعرض له الأخرى .

ولو سلمنا أن قوله : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ، يفهم منه عدم دخولهم الجنة ، فإنه إنما يدل عليه بالمفهوم ، وقوله : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 46] ﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : 13] يدل على دخولهم الجنة بعموم المنطوق .

والمنطوق مقدم على المفهوم كما تقرر فى الأصول .

(122/704)

ولا يخفى أنا غذا أردنا تحقيق هذا المفهوم المدعي وجدناه معدوماً من أصله للإجماع على أن قسمة المفهوم ثنائية ، إما أن يكون موافقة أو مخالفة ولا ثالث .

ولا يدخل هذا المفهوم المدعي فى شيء من أقسام المفهومين .

أما عدم دخوله فى مفهوم الموافقة بقسميه فواضح .

وأما عدم دخوله فى شيء من أنواع مفهوم المخالفة ، فلأن عدم دخوله فى مفهوم الحصر أو الغاية أو العدد أو الصفة أو الظرف واضح .

فلم يبق من أنواع مفهوم المخالفة يتوهم دخوله فيه إلا مفهوم الشرط أو اللقب ، وليس داخلاً فى واحد منهما .

فظهر عدم دخوله فيه أصلاً .

أما وجه توهم دخوله فى مفهوم الشرط ، فلأن قوله : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمٍ ﴾ فعل مضارع مجزوم بكونه جزاء الطلب .

وجمهور علماء العربية على أن الفعل إذا كان كذلك فهو مجزوم بشرط مقدر ، لا بالجملة قبله ، كما قيل به .

وعلى الصحيح الذي هو مذهب الجمهور ، فتقرير المعنى : ﴿ أَجِيبُواْ دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُواْ بِهِ ﴾ إن تفلوا ذلك يغفر لكم ، فيتوهم في الآية مفهوم هذا الشرط المقدر .

والجواب عن هذا : ان مفهوم الشرط عند القائل به ، إنما هو فى فعل الشرط لا في جزائه ، وهو معتبر هنا في فعل الشرط على عادته ، فمفهوم أن تجيبوا داعي الله وتؤمنوا به يغفر لكم ، أنهم إن لم يجيبوا داعي الله ولم يؤمنوا به لم يغفر لهم ، وهو كذلك .

أما جزاء الشرط فلا مفهوم له لاحتمال أن تترتب على الشرط الواحد مشروطات كثيرة ، فيذكر بعضها جزآء له فلا يدل على نفي غيره .

كما لو قلت لشخص مثلاً : إن تسرق يجب عليك غرم ما سرقت .

فهذا الكلام حق ولا يدل على نفي غير الغرم كالقطع ، لأن قطع اليد مرتب أيضاً على السرقة كالغرم .

وكذلك الغفران ، والإجارة من العذاب ودخول الجنة كلها مرتبة على إجابة داعي الله والإيمان به .

فذكر فى الآية بعضها وسكت فيها عن بعض ، ثم بين فى موضع آخر ، وهذا لا إشكال فيه .

(123/704)

وأما وجه توهم دخوله فى مفهوم اللقب ، فلأن اللقب فى اصطلاح الأصوليين هو ما لم يمكن انتظام الكلام العربي دونه ، أعني المسند إليه سواء كان لقباً أو كنية أو اسماً او اسم جنس أو غير ذلك .

وقد أوضحنا اللقب غاية في المائدة .

والجواب عن عدم دخوله في مفهوم اللقب ، أن الغفران والإجارة من العذاب المدعي بالفرض أنهما لقبان لجنس مصدريهما ، وأن تخصيصهما بالذكر يدل على نفي غيرهما في

الآية سندان لا مسند إليهما بدليل أن المصدر فيهما كامن فى الفعل ولا يستند إلى الفعل إجماعاً ما لم يرد مجرد لفظه على سبيل الحكاية .

ومفهوم اللقب عند القائل به إنما هو فيما إذا كان اللقب مسنداً إليه ، لأن تخصيصه بالذكر عند القائل به يدل على اختصاص الحكم به دون غيره ، وإلا لام كان للتخصيص بالذكر فائدة كما عللوا به مفهوم الصفة .

وأجيب من جهة الجمهور : بأن اللقب ذكر ليمكن الحكم لا لتخصيصه بالحكم ، إذ لا يمكن الإسناد بدون مسند إليه .

ومما يوضح ذلك أن مفهوم الصفة الذي حمل عليه اللقب عند القائل به إنما هو المسند إليه لا فى المسند ، لأن المسند إليه هو الذي تراعى أفراده وصفاتها ، فيقصد بعضها بالذكر دون بعض فيختص الحكم بالمذكور .

أما المسند فإنه لا يراعى فيه شيء من الأفراد والأوصاف أصلاً ، وإنما يراعى فيه مجرد الماهية التي هي الحقيقة الذهنية .

ولو حكمت مثلاً على الإنسان بأنه حيوان ، فإن المسند إليه الذي هو الإنسان في هذا المثال يقصد به جميع أفراده ، لأن كل فرد منها حيوان بخلاف المسند الذي هو الحيوان في هذا المثال فلا يقصد به إلا مطلق ماهيته ، وحقيقته الذهنية من غير مراعاة الأفراد ، لأنه لو روعيت أفراده لاستلزم الحكم على الإنسان بأنه فرد آخر من أفراد الحيوان كالفرس

مثلاً .

والحكم بالمباين على المباين باطل ، إذا كان إيجابياً باتفاق العقلاء .

(124/704)

وعامة النظار على أن موضع القضية إذا كانت غير طبيعية يراعى فيه ما يصدق عليه عنوانها من الأفراد باعتبار الوجود الخارجي ، إن كانت خارجية أو الذهني إن كانت حقيقية .

وأما المحمول فيه مطلق الماهية ، ولو سلمنا تسليماً جدلياً أن مثل هذه الآية يدخل في مفهوم اللقب ، فجماهير العلماء على أن مفهوم اللقب لا عبرة به ، وربما كان اعتباره كفراً كما لو اعتبر معتبر مفهوم اللقلب في قوله تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ ﴾ [الفتح : 29] فقال : يفهم من مفهوم لقبه أن غير محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن رسول الله ، فهذا كفر بإجماع المسلمين .

فالتحقيق أن اعتبار مفهوم اللقلب لا دليل عليه شرعاً ولا لغة ولا عقلاً ، سواء كان اسم جنس ، أو اسم عين ، أو اسم جمع أو غير ذلك .

فقولك جاء زيد لا يفهم منه عدم مجيء عمرو .

وقولك : رأيت أسداً ، لا يفهم منه عدم رؤيتك لغير الأسد .

والقول بالفرق ، بين اسم الجنس ، فيعتبر ، واسم العين فلا يعتبر ، لا يظهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(125/704)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ﴾

هذا تأييد للنبيء صلى الله عليه وسلم بأن سخر الله الجن للإيمان به وبالقرآن فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مصدّقاً عند الثقلين ومعظَّماً في العالَمَيْن وذلك ما لم يحصل لرسول قبله .

والمقصود من نزول القرآن بخبر الجن توبيخ المشركين بأن الجن وهم من عالم آخر عَلِموا القرآن وأيقنوا بأنه من عند الله والمشركون وهم من عالم الإنس ومن جنس الرسول صلى الله عليه وسلم المبعوث بالقرآن وممن يتكلم بلغة القرآن لم يزالوا في ريب منه وتكذيب وإصرار ، فهذا موعظة للمشركين بطريق المضادة لأحوالهم بعد أن جرت موعظتهم بحال مماثليهم في الكفر من جنسهم .

ومناسبة ذكر إيمان الجن ما تقدم من قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين ﴾ [الأحقاف : 18] .

فالجملة معطوفة على جملة ﴿ واذكر أخا عاد ﴾ [الأحقاف : 21] عطف القصة على القصة ويتعلق قوله هنا ﴿ إذْ صرفنا ﴾ بفعل يدل عليه قوله : ﴿ واذكر أخا عاد ﴾ والتقدير : واذكر إذ صرفنا إليك نفراً من الجن .

وأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بذكر هذا للمشركين وإن كانوا لا يصدقونه لتسجيل بلوغ ذلك إليهم لينتفع به من يهتدي ولتكتب تبعته على الذين لا يهتدون .

وليس في هذه الآية ما يقتضي أن الله أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم إلى الجن واختلف المفسرون لهذه الآية في أن الجن حضروا بعلم من النبي صلى الله عليه وسلم أو بدون علمه .

ففي "جامع الترمذي" عن ابن عباس قال : "ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن ولا رآهم ، انطلق رسول الله في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ فلما كانوا بنخْلة ، اسم موضع وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر وكان نفر من الجن فيه فلما سمعوا القرآن رجعوا إلى قومهم ، فقالوا : إنا سمعنا قرآناً عجباً" .

(126/704)

وفي "الصحيح" عن ابن مسعود "افتقدْنا النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة وهو بمكة فقلنا ما فَعل به اغتيل أو واستطيرَ فبتنا بشرِّ ليلة حتى إذا أصبحنا إذا نحن به من قِبَل حِراء فقال " أتاني دَاعي الجن فأتيتهم فقرأت عليهم القرآن "

وأيًّا مَا كان فهذا الحادث خارق عادة وهو معجزة للنبيء صلى الله عليه وسلم وقد تقدم قوله تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي ﴾ في سورة الأنعام (130) .

والصرف : البعث .

والنفر : عدد من الناس دون العشرين .

وإطلاقه على الجن لتنزيلهم منزلة الإنس وبيانه بقوله : من الجن ﴾ .

وجملة ﴿ يستمعون القرآن ﴾ في موضع الحال من الجن وحيث كانت الحال قيداً لعاملها وهو ﴿ صرفنا ﴾ كان التقدير : يستمعون منك إذا حضروا لديك فصار ذلك مؤديا مؤدَّى المفعول لأجله .

فالمعنى : صرفناهم إليك ليستمعوا القرآن .

وضمير ﴿ حضروه ﴾ عائد إلى القرآن ، وتعدية فعل حضروا إلى ضمير القرآن تعدية مجازية لأنهم إنما حضروا قارىء القرآن وهو الرسول صلى الله عليه وسلم و ﴿ أنصتوا ﴾ أمر بتوجيه الأسماع إلى الكلام اهتماماً به لئلا يفوت منه شيء .

وفي حديث جابر بن عبد الله في حجة الوداع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له :

"استنصت الناس" ، أي قبل أن يبدأ في خطبته .

وفي الحديث : " إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أَنْصِت والإمام يخطب فقد لغوت " ، أي قالوا كلُّهم : أنصتوا ، كل واحد يقولها للبقية حرصاً على الوعي فنطق بها جميعهم .

و﴿ قُضِي ﴾ مِبني للنائب .

(127/704)

والضمير للقرآن بتقدير مضاف ، أي قضيت قراءته ، أي انتهى النبي صلى الله عليه وسلم من القراءة حين حضروا وبانتهائه من القراءة تمّ مراد الله من صرف الجن ليستمعوا القرآن ف (ولَّوا) ، أي انصرفوا من مكان الاستماع ورجعوا إلى حيث يكون جنسهم وهو المعبر عنه بـ ﴿ قومهم ﴾ على طريقة المجاز ، نزل منزلة الإنس لأجل هذه الحالة الشبيهة بحالة الناس ، فإطلاق القوم على أمة الجن نظير إطلاق النفر على الفريق من الجن المصروف إلى سماع القرآن .

والمنذر : المخبر بخبر مخيف .

ومعنى ﴿ ولوا إلى قومهم منذرين ﴾ رجعوا إلى بني جنسهم بعد أن كانوا في حضرة النبي

صلى الله عليه وسلم يتسمعون القرآن فأبلغوهم ما سمعوا من القرآن مما فيه التخويف من بأس الله تعالى لمن لا يؤمن بالقرآن .

والتبشير لمن عمِل بما جاء به القرآن .

ولا شك أن الله يسّر لهم حضورهم لقراءة سورة جامعة لما جاء به القرآن كفاتحة الكتاب وسورة الإخلاص .

وجملة ﴿ قالوا يا قومنا ﴾ إلى آخرها مبينة لقوله : ﴿ منذرين ﴾ .

وحكاية تخاطب الجن بهذا الكلام الذي هو من كلام عربي حكاية بالمعنى إذ لا يعرف أن للجن معرفة بكلام الإنس ، وكذلك فعل ﴿ قالوا ﴾ مجاز عن الإفادة ، أي أفادوا جنسهم بما فهموا منه بطرق الاستفادة عندهم معانيَ ما حكي بالقول في هذه الآية كما في قوله تعالى : ﴿ قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ﴾ [النمل : 18] .

وابتدأوا إفادتهم بأنهم سمعوا كتاباً تمهيداً للغرض من الموعظة بذكر الكتاب ووصفه ليستشرفَ المخاطبون لما بعد ذلك .

(128/704)

ووصْف الكتاب بأنه ﴿ أنزل من بعد موسى ﴾ دون : أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم لأن "التوراة" آخر كتاب من كتب الشرائع نزل قبل القرآن ، وأما ما جاء بعده فكتب مكملة للتوراة ومبينة لها مثل "زبور داود" و"إنجيل عيسى" ، فكأنه لم ينزل شيء جديد بعد "التوراة" فلما نَزل القرآن جاء بهدي مستقل غير مقصود منه بيان التوراة ولكنه مصدق للتوراة وهادٍ إلى أزيد مما هدت إليه "التوراة" .

و﴿ ما بين يديه ﴾ : ما سبقه من الأديان الحق .

ومعنى ﴿ يهدي إلى الحق ﴾ : يهدي إلى الاعتقاد الحق ضد الباطل من التوحيد وما يجب لله تعالى من الصفات وما يستحيل وصفه به .

والمراد بالطريق المستقيم : ما يسلك من الأعمال والمعاملة .

وما يترتب على ذلك من الجزاء ، شبه ذلك بالطريق المستقيم الذي لا يضل سالكه عن القصد من سيره .

ويجوز أن يراد بـ ﴿ الحق ﴾ ما يشمل الاعتقاد والأعمال الصالحة ويراد بالطريق المستقيم الدلائل الدالة على الحق وتزييف الباطل فإنها كالصراط المستقيم في إبلاغ متبعها إلى معرفة الحق .

وإعادتهم نداءَ قومهم للاهتمام بما بعد النداء وهو ﴿ أجيبوا داعي الله ﴾ إلى آخره لأنه المقصود من توجيه الخطاب إلى قومهم وليس المقصود إعلام قومهم بما لقوا من عجيب

الحوادث وإنما كان ذلك توطئة لهذا ، ولأن اختلاف الأغراض وتجدّد الغرض مما يقتضي إعادة مثل هذا النداء كما يعيد الخطيب قوله : "أيها الناس" كما وقع في خطبة حجة الوداع .

واستعير ﴿ أجيبوا ﴾ لمعنى : اعملوا وتقلدوا تشبيهاً للعمل بما في كلام المتكلم بإجابة نداء المنادي كما في الآية : ﴿ إلا أن دعوتُكم فاستَجَبْتُم لي ﴾ [إبراهيم : 22] أي إلا أن أمرتكم فأطعتموني لأن قومهم لم يدعهم داع إلى شيء ، أي أطيعوا ما طلب منكم أن تعملوه .

وداعي الله يجوز أن يكون القرآن لأنه سبق في قولهم : ﴿ إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى ﴾ .

(129/704)

وأطلق على القرآن ﴿ داعي الله ﴾ مجازاً لأنه يشتمل على طلب الاهتداء بهدي الله ، فشبه ذلك بدعاء إلى الله واشتق منه وصف للقرآن بأنه ﴿ داعي الله ﴾ على طريقة التّبعيّة وهي تابعة لاستعارة الإجابة لمعنى العمل .

ويجوز أن يكون ﴿ داعي الله ﴾ محمداً صلى الله عليه وسلم لأنه يدعو إلى الله بالقرآن .

وعطف ﴿ وآمنوا به ﴾ على ﴿ أجيبوا داعي الله ﴾ عطف خاص على عام.

وضمير ﴿ به ﴾ عائد إلى ﴿ الله ﴾ ، أي وآمنوا بالله ، وهو المناسب لتناسق الضمائر مع ﴿ يغفر لكم ﴾ و ﴿ يُجرْكم من عذاب أليم ﴾ أو عائد إلى داعي الله ، أي آمنوا بما فيه أو آمنوا بما جاء به ، وعلى الاحتمالين الأخيرين يقتضي أن هؤلاء الجن مأمورون بالإسلام.

و ﴿ مِن ﴾ في قوله : ﴿ من ذنوبكم ﴾ الأظهر أنها للتعليل فتتعلق بفعل ﴿ أجيبوا ﴾ باعتبار أنه مجاب بفعل ﴿ يغفر ﴾ ، ويجوز أن تكون تبعيضية ، أي يغفر لكم بعض ذنوبكم فيكون ذلك احترازاً في الوعد لأنهم لم يتحققوا تفصيل ما يغفر من الذنوب وما لا يغفر إذ كانوا قد سمعوا بعض القرآن ولم يحيطوا بما فيه.

ويجوز أن تكون زائدة للتوكيد على رأي جماعة ممن يرون زيادة ﴿ من ﴾ في الإثبات كما تزاد في النفي.

وأما ﴿ مِن ﴾ التي في قوله : ﴿ ويُجِرْكُم من عذاب أليم ﴾ فهي لتعدية فعل ﴿ يجركم ﴾ لأنه يقال : أجاره من ظلم فلان ، بمعنى منعه وأبعده.

وحكاية الله هذا عن الجن تقرير لما قالوه فيدل على أن للجن إدراكاً للمعاني وعلى أن ما تدل عليه أدلة العقل من الإلهيات واجب على الجن اعتقاده لأن مناط التكليف بالإلهيات

العقلية هو الإدراك ، وأنه يجب اعتقاد المدركات إذا توجهت مداركهم إليها أو إذا نبهوا إليها كما دلت عليه قصة إبليس .

(130/704)

وهؤلاء قد نبهوا إليها بصَرْفهم إلى استماع القرآن وهم قد نبَّهوا قومهم إليها بإبلاغ ما سمعوه من القرآن وعلى حسب هذا المعنى يترتب الجزاء بالعقاب كما قال تعالى : ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ [السجدة : 13] ، وقال في خطاب الشيطان ﴿ لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ [ص : 85] ، فأما فروع الشريعة فغير لائقة بجنس الجنّ .

وظاهر الآية أن هؤلاء الذين بلغتهم دعوة القرآن مؤاخذون إذا لم يعملوا بها وأنهم يعذبون .

واختلفوا في جزاء الجن على الإحسان فقال أبو حنيفة : ليس للجن ثواب إلا أن يُجَاروا من عذاب النار ثم يقال لهم كونوا تراباً مثل البهائم ، وقال مالك والشافعي وابن أبي ليلى والضحاك : كما يجازَون على الإساءة يجازون على الإحسان فيدخلون الجنة .

وحكى الفخر أن مناظرة جرت في هذه المسألة بين أبي حنيفة ومالك ولم أرَه لغيره .

وهذه مسألة لا جدوى لها ولا يجب على المسلم اعتقاد شيء منها سوى أن العالِم إذا

مرّت بها الآيات يتعيّن عليه فهمها .

ومعنى ﴿ فليس بمُعْجِزٍ في الأرض ﴾ أنه لا ينجو من عقاب الله على عدم إجابته داعيه ، فمفعول ﴿ معجز ﴾ مقدر دلّ عليه المضاف إليه في قوله : ﴿ داعي الله ﴾ أي فليس بمعجز الله ، وقال في سورة الجن (12) ﴿ أن لن نُعْجِز الله في الأرض ولن نُعْجِزه هرباً ﴾ وهو نفي لأن يكون يعجز طالبه ، أي ناجياً من قدرة الله عليه .

والكلام كناية عن المؤاخذة بالعقاب .

والمقصود من قوله : في الأرض ﴾ تعميم الجهات فجرى على أسلوب استعمال الكلام العربي وإلا فإن مكان الجن غير معيّن .

و ﴿ ليس له من دونه أولياء ﴾ ، أي لا نَصير ينصره على الله ويحميه منه ، فهو نفي أن يكون له سبيل إلى النجاة بالاستعصام بمكان لا تبلغ إليه قدرة الله ، ولا بالاحتماء بمن يستطيع حمايته من عقاب الله .

وذكر هذا تعريض للمشركين .

(131/704)

واسم الإشارة في ﴿ أولئك في ضلال مبين ﴾ للتنبيه على أن مَن هذه حالهم جديرون بما يرد بعد اسم الإشارة من الحكم لتسبب ما قبل اسم الإشارة فيه كما في قوله : ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ [لقمان : 5] .

والظرفية المستفادة من ﴿ في ضلال مبين ﴾ مجازية لإفادة قوة تلبسهم بالضلال حتى كأنهم في وعاء هو الضلال .

والمبين : الواضح ، لأنه ضلال قامت الحجج والأدلة على أنه باطل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(132/704)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

(133/704)

هذه الآية يفهم من ظاهرها أن جزاء المطيع من الجن غفران ذنوبه وإجارته من عذاب أليم لا دخوله الجنة ، وقد تمسك جماعة من العلماء منهم الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى بظاهر هذه الآية فقالوا إن المؤمنين المطيعين من الجن لا يدخلون الجنة مع أنه جاء في آية أخرى ما يدل على أن مؤمنيهم في الجنة وهي قوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ لأنه تعالى بين شموله للجن والإنس بقوله: ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ويستأنس لهذا بقوله تعالى: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ لأنه يشير إلى أن في الجنة جنا يطمثون النساء كالإنس والجواب عن هذا أن آية الأحقاف نص فيها على الغفران والإجارة من العذاب ولم يتعرض فيها لدخول الجنة بنفي ولا إثبات ، وآية الرحمن نص فيها على دخولهم الجنة لأنه تعالى قال فيها : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ وقد تقرر في الأصول أن الموصولات من صيغ العموم فقوله لمن خاف يعم كل خائف مقام ربه ثم صرح بشمول ذلك للجن والإنس معا بقوله: ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبين أن الوعد بالجنتين لمن خاف مقام ربه من آلائه أي نعمه على الإنس والجن فلا تعارض بين الآيتين لأن إحداهما بينت ما لم تتعرض له الأخرى ولو سلمنا أن قوله: ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ يفهم منه عدم دخولهم الجنة فإنه إنما يدل عليه بالمفهوم وقوله ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ يدل على دخولهم الجنة بعموم المنطوق والمنطوق مقدم على المفهوم

كما تقرر في الأصول ولا يخفى أنا إذا أردنا تحقيق هذا المفهوم المدعى وجدناه معدوما من أصله للإجماع على أن قسمة المفهوم ثنائية ، إما أن يكون مفهوم موافقة أو مخالفة ولا ثالث ، ولا يدخل هذا المفهوم المدعى في شيء من أقسام المفهومين أما عدم دخوله في مفهوم الموافقة بقسميه فواضح

(134/704)

وأما عدم دخوله في شيء من أنواع مفهوم المخالفة فلأن عدم دخوله في مفهوم الحصر أو العلة أو الغاية أو العدد أو الصفة أو الظرف واضح فلم يبق من أنواع مفهوم المخالفة يتوهم دخوله فيه إلا مفهوم الشرط أو اللقب وليس داخلا في واحد منهما فظهر عدم دخوله فيه أصلا ، أما وجه توهم دخوله في مفهوم الشرط فلأن قوله ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ فعل مضارع مجزوم بكونه جزاء الطلب وجمهور علماء العربية على أن الفعل إذا كان كذلك فهو مجزوم بشرط مقدر لا بالجملة قبله كما قيل به وعلى الصحيح الذي هو مذهب الجمهور فتقرير المعنى أجيبوا داعي الله وآمنوا به أن تفعلوا ذلك يغفر لكم فيتوهم في الآية مفهوم هذا الشرط المقدر ، والجواب عن هذا أن مفهوم الشرط عند القائل به إنما هو في فعل الشرط لا في جزائه وهو معتبر هنا في فعل الشرط على عادته فمفهوم أن تجيبوا داعي الله وتؤمنوا به

يغفر لكم أنهم إن لم يجيبوا داعي الله ولم يؤمنوا به لم يغفر لهم وهو كذلك ، أما جزاء الشرط فلا مفهوم له لاحتمال أن تترتب على الشرط الواحد مشروطات كثيرة فيذكر بعضها جزاء له فلا يدل على نفي غيره كما لو قلت لشخص مثلا إن تسرق يجب عليك غرم ما سرقت فهذا الكلام حق ولا يدل على نفي غير الغرم كالقطع ، لأن قطع اليد مرتب أيضا على السرقة كالغرم فكذلك الغفران والإجارة من العذاب ودخول الجنة كلها مرتبة على إجابة داعي الله والإيمان به فذكر في الآية بعضها وسكت فيها عن بعض ثم بين في موضع آخر وهذا لا إشكال فيه ، وأما وجه توهم دخوله في مفهوم اللقب فلأن اللقب في اصطلاح الأصوليين هو ما لم يكن انتظام الكلام العربي دونه أعني المسند إليه سواء كان لقبا أو كنية أو اسما أو اسم جنس أو غير ذلك وقد أوضحنا اللقب غاية في المائدة .

(135/704)

والجواب عن عدم دخوله في مفهوم اللقب أن الغفران والإجارة من العذاب المدعى بالفرض أنهما لقبان لجنس مصدريهما وأن تخصيصهما في الآية مسندان لا مسند إليهما بدليل أن المصدر فيهما كامن في الفعل ولا يسند إلى الفعل إجماعا ما لم يرد مجرد لفظه على سبيل الحكاية ، ومفهوم اللقب عند القائل به إنما هو فيما إذا كان اللقب مسندا إليه لأن تخصيصه

بالذكر عند القائل به يدل على اختصاص الحكم به دون غيره وإلا لما كان للتخصيص بالذكر فائدة كما عللوا به مفهوم الصفة ، وأجيب من جهة الجمهور بأن اللقب ذكر ليمكن الحكم لا لتخصيصه بالحكم إذ لا يمكن الإسناد بدون مسند إليه ومما يوضح ذلك أن مفهوم الصفة الذي حمل عليه اللقب عند القائل به إنما هو في المسند إليه لا في المسند لأن المسند إليه هو الذي تراعى أفراده وصفاتها فيقصد بعضها بالذكر دون بعض فيختص الحكم بالمذكور .

أما المسند فإنه لا يراعى فيه شيء من الأفراد ولا الأوصاف أصلا وإنما يراعى فيه مجرد الماهية التي هي الحقيقة الذهنية فلو حكمت مثلا على الإنسان بأنه حيوان فإن المسند إليه الذي هو الإنسان في هذا المثال يقصد به جميع أفراده لأن كل فرد منها حيوان بخلاف المسند الذي هو الحيوان في هذا المثال فلا يقصد به إلا مطلق ماهيته وحقيقته الذهنية من غير مراعاة الأفراد ، لأنه لو روعيت أفراده لاستلزم الحكم على الإنسان بأنه فرد آخر من أفراد الحيوان كالفرس مثلا والحكم بالمباين على المباين باطل إذا كان إيجابيا باتفاق العقلاء وعامة النظار على أن موضوع القضية إذا كانت غير طبيعية يراعى فيه ما يصدق عليه عنوانها من الأفراد باعتبار الوجود الخارجي إن كانت خارجية أو الذهني إن كانت حقيقية .

وأما المحمول من حيث هو فلا تراعى فيه الأفراد البتة وإنما يراعى فيه مطلق الماهية ولو سلمنا تسليما جدليا أن مثل هذه الآية يدخل في مفهوم اللقب فجماهير العلماء على أن مفهوم اللقب لا عبرة به وربما كان اعتباره كفرا كما لو اعتبر معتبر مفهوم اللقب في قوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ فقال يفهم من مفهوم لقبه أن غير محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن رسول الله فهذا كفر بإجماع المسلمين فالتحقيق أن اعتبار مفهوم اللقب لا دليل عليه شرعا ولا لغة ولا عقلا سواء كان اسم جنس أو اسم عين أو اسم جمع أو غير ذلك ، فقولك جاء زيد لا يفهم منه عدم مجيء عمرو ، وقولك رأيت أسدا لا يفهم منه عدم رؤيتك غير الأسد والقول بالفرق بين اسم الجنس فيعتبر واسم العين فلا يعتبر لا يظهر فلا عبرة بقول الصيرفي وأبي بكر الدقاق وغيرهما من الشافعية ، ولا بقول ابن خويز منداد وابن القصار من المالكية ولا بقول بعض الحنابلة باعتبار مفهوم اللقب لأنه لا دليل على اعتباره عند القائل به إلا أنه يقول لو لم يكن اللقب مختصا بالحكم لما كان لتخصيصه بالذكر فائدة كما علل به مفهوم الصفة لأن الجمهور يقولون ذكر اللقب ليسند إليه وهو واضح لا إشكال فيه ، وأشار صاحب مراقي السعود إلى تعريف اللقب بالاصطلاح الأصولي وأنه أضعف المفاهيم بقوله:

أضعفها اللقب وهو ما أبي

من دونه نظم الكلام العربي

(137/704)

وحاصل فقه هذه المسألة أن الجن مكلفون على لسان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بدلالة الكتاب والسنة وإجماع المسلمين وأن كافرهم في النار بإجماع المسلمين وهو صريح ، قوله تعالى: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات ، وأن مؤمنيهم اختلف في دخولهم الجنة ومنشأ الخلاف الاختلاف في فهم الآيتين المذكورتين والظاهر دخولهم الجنة كما بينا والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 263 . 268 ﴾

(138/704)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الخامس بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 33 ﴾ من سورة الأحقاف

وحتى الآية ﴿ 35 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/705)

قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (33) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (34) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (35) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أتم سبحانه وتعالى ما اقتضاه مقصود هذه السورة من أصول الدين وفروعه والتحذير من سطواته بذكر بعض مثلاته ، وختم بضلال من لم يجب الداعي ، نبه على أن أوضح الأدلة على إحاطته بالجلال والجمال وقدرته على الأجل المسمى الذي خلق الخلق لأجله

ما جلى به مطلع السورة من إبداع الخافقين وما فيهما من الآيات الظاهرة للأذن والعين ، فقال مبكتاً لهم على ضلالهم عن إجابة الداعي ومنكراً عليهم وموبخاً لهم مرشداً بالعطف على غير مذكور إلى أن التقدير : ألم ير هؤلاء الضلال ما نصبنا في هذه السورة من أعلام الدلائل وواضح الرسائل في المقاصد والوسائل ، عاطفاً عليه قوله تعالى رداً لمقطع السورة بتقرير المعاد على مطلعها المقرر للبدء بخلق الكونين بالحق : ﴿ أو لم يروا ﴾ أي يعلموا علماً هو في الوضوح كالرؤية ﴿ أن الله ﴾ ودل على هذا الاسم الأعظم بقوله : ﴿ الذي خلق السماوات ﴾ على ما احتوت عليه مما يعجز الوصف من العبر ﴿ والأرض ﴾ على ما اشتملت عليه من الآيات المدركة بالعيان والخبر ﴿ ولم يعي ﴾ أي يعجز ، يقال : عيي بالأمر - إذ لم يهتد لوجه مراده أو عجز عنه ولم يطق إحكامه ، قال الزجاج : يقال : عييت بالأمر - إذ لم تعرف وجهه ، وأعييت : تعبت ، وفي القاموس : وأعيى بالأمر : كل ﴿ بخلقهن ﴾ أي بسببه فإنه لو حصل له شيء من ذلك لأدى إلى نقصان فيهما أو في إحدهما ، وأكد الإنكار المتضمن للنفي بزيادة الجار في حيز " أن " فقال تعالى : ﴿ بقادر ﴾ أي قدرة عظيمة تامة بليغة ﴿ على أن يحيي ﴾ أي على سبيل التجديد مستمراً ﴿ الموتى ﴾ والأمر فيهم لكونه إعادة ولكونهم جزاء يسيراً منها ذكر اختراعه أصغر شأناً وأسهل صنعاً .

ولما كان هذا الاستفهام الإنكاري في معنى النفي ، أجابه بقوله تعالى ﴿ بلى ﴾ قد علموا أنه قادر على ذلك علماً هو في إتقانه كالرؤية بالبصر لأنهم يعلمون أنه المخترع لذلك ، وأن الإعادة أهون من الابتداء في مجاري عاداتهم ، ولكنهم عن ذلك ، غافلون لأنهم عنه معرضون ، ولما كانوا مع هذه الأدلة الواضحة التي هي أعظم من المشاهدة بالبصر ينكرون ما دلت عليه هذه الصنعة من إحاطة القدرة ، علل ذلك مؤكداً له بقوله مقرراً للقدرة على وجه عام يدخل فيه البعث الذي ذكر أول السورة أنه ما خلق هذا الخلق إلا لأجله ليختم بما بدأ به ﴿ إنه على كل شيء ﴾ أي هو أهل لأن تتعلق القدرة به ﴿ قدير ﴾ .

ولما ثبت البعث بما قام من الدلائل ذكر ببعض ما يحصل في يومه من الأهوال تحذيراً منه ، فقال عاطفاً على ما تقديره : اذكر لهم هذا القياس الناطق بالمراد وما مضى في هذه السورة من الزواجر ﴿ ويوم ﴾ أي واذكر يوم ﴿ يعرض ﴾ بأيسر أمر من أوامرنا ﴿ الذين كفروا ﴾ أي ستروا بغفلتهم وتماديهم عليه هذه الأدلة الظاهرة ﴿ على النار ﴾ عرض الجند على الملك فيسمعوا من تغيظها وزفيرها ويروا من لهيبها واضطرامها وسعيرها ما لو قدر أن أحداً يموت من ذلك لماتوا من معاينته وهائل رؤيته .

ولما كان كأنه قيل : ماذا يصنع بهم في حال عرضهم ؟ قيل : يقال على سبيل التبكيت والتقريع والتوبيخ : ﴿ أليس هذا ﴾ أي الأمر العظيم الذي كنتم به توعدون ولرسلنا في

أخبارهم تكذبون ﴿ بالحق ﴾ أي الأمر الثابت الذي يطابقه الواقع ، فلا قدرة لكم على صليه أمر هو خيال وسحر ، فلا تبالون بوروده .

(6/705)

ولما اشتد تشوف السامع العالم بما كانوا يبدون من الشماخة والعتو إلى جوابهم ، قال في جوابه مستأنفاً : ﴿ قالوا ﴾ أي مصدقين حيث لا ينفع التصديق : ﴿ بلى ﴾ وما كفاهم البدار إلى تكذيب أنفسهم حتى أقسموا عليه لأن حالهم كان مباعداً للإقرار ، وذكروا صفة الإحسان زيادة في الخضوع والإذعان ﴿ وربنا ﴾ أي إنه لحق هو من أثبت الأشياء ، وليس فيه شيء مما يقارب السحر ، ثم استأنف جواب من سأل عن جوابه لهم بقوله تعالى : ﴿ قال ﴾ مبكتاً لهم بياناً لذلهم موضع كبرهم الذي كان في الدنيا مسبباً عن تصديقهم هذا الذي أوقعوه في غير موضعه وجعلوه في دار العمل التي مبناها على الإيمان بالغيب تكذيباً معبراً بما يفهم غاية الاستهانة لهم : ﴿ فذوقوا العذاب ﴾ أي باشروه مباشرة الذائق باللسان ، ثم صرح بالسبب فقال : ﴿ بما كنتم ﴾ أي خلقاً وخلقاً مستمراً دائماً أبداً ﴿ تكفرون ﴾ في دار العمل .

ولما علم بما قام من الأدلة وانتصب من القواطع أن هذا مآلهم ، سبب عنه قوله رداً على ما

بعد خلق الخافقين في مطلعها من أمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونسبتهم له إلى الافتراء وما بعده : ﴿ فاصبر ﴾ أي على مشاق ما ترى في تبليغ الرسالة ، قال القشيري : والصبر هو الوقوف بحكمِ الله والثبات من غير بث ولا استكراه .

﴿ كما صبر أولوا العزم ﴾ أي الجد في الأمر والحزم في الجد والإرادة المقطوع بها والثبات الذي لا محيد عنه ، الذين مضوا في أمر الله مضياً كأنهم أقسموا عليه فصاروا كالأسد في جبلته والرجل الشديد الشجاع المحفوف بقبيلته ، قال الرازي في اللوامع : فارقت نفوسهم الشهوات والمنى فبذلوا نفوسهم لله صدقاً لاتفاق النفس القلب على البذل .

(7/705)

ولما تشوف السامع إلى بيانهم قال : ﴿ من الرسل ﴾ عليهم الصلاة والسلام ، وقيل وهو ظاهر جداً : أن " من " للتبعيض ، والمراد بهم أصحاب الشرائع الذين اجتهدوا في تأسيس قواعدها وتثبيت معاقدها ، ومشاهيرهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وقد نظمهم بعضهم في قوله :

أولو العزم نوح والخليل بن آزر . . .

وموسى وعيسى والحبيب محمد

والخلاف في تعيينهم كثير منتشر هذا القول أشهر ما فيه ، وكله مبني على أن " من " للتبعيض وهو الظاهر ، والقول بأنهم جميع الرسل – قال ابن الجوزي – قاله ابن زيد واختاره ابن الأنباري وقال : " من " للتجنيس لا للتبعيض ، وفي قول أنهم جميع الأنبياء إلا يونس عليه الصلاة والسلام – قال ابن الجوزي : حكاه الثعلبي .

ولما أمره بالصبر الذي من أعلى الفضائل ، نهاه عن العجلة التي هي من أمهات الرذائل ، ليصح التحلي بفضيلة الصبر الضامنة للفوز والنصر فقال : ﴿ ولا تستعجل لهم ﴾ أي تطلب العجلة وتوجدها بأن تفعل شيئاً مما يسوءهم في غير حينه الأليق به .

ولما كان ما أمر به ونهى عنه في غاية الصعوبة ، سهله بقوله مستأنفاً : ﴿ كأنهم يوم يرون ﴾ أي في الدنيا عند الموت مثلاً أو في الآخرة وقت العرض والحساب والهول الأعظم الأكبر الذي تقدمت الإشارة إليه جداً والتحذير منه لأهل المعاصي والبشارة فيه لأهل الطاعة ، فأما هذه الطائفة فإذا رأوا ﴿ ما يوعدون ﴾ من ظهور الدين في الدنيا والبعث في الآخرة ، وبناه للمفعول لأن المنكىء هو الإيعاد لا كونه من معين ﴿ لم يلبثوا ﴾ أي في الدنيا حيث كانوا عالين ﴿ إلا ساعة ﴾ .

(8/705)

ولما كانت الساعة قد يراد بها الجنس وقد تطلق على الزمن الطويل ، حقق أمرها وحقرها بقوله : ﴿ من نهار ﴾ ولما تكفل ما ذكر في هذه السورة من الحجج الظاهرة والبراهين الباهرة ببيان ما هو مقصودها بحيث لم يبق فيه لبس ، وكان مقصودها آئلاً إلى سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وهو التوحيد اللازم منه إحاطة العلم بكل شيء وشمول القدرة لكل شيء ختمت بما ختمت به إبراهيم إلا أن لحواميم لباباً ، حذف المبتدأ ومتعلق الخبر وقيل : ﴿ بلاغ ﴾ أي هذا الذي ذكر هنا هو من الظهور وانتشار النور بحيث يرد المنذرين ويوصلهم إلى رضى العزيز الحكيم الكافل بالنور الدائم والنعيم المقيم ، ومن لم يوصله فذلك الذي حكم العزيز بشقائه فلا حيلة لغيره في شفائه من عظيم دائه ، ولذلك سبب عن كونه بلاغاً قوله زيادة على ختام إبراهيم ما يناسب مطلعها : ﴿ فهل يهلك ﴾ بني للمفعول من أهلك ، لأن المحذور الهلاك وإن لم يعين المهلك ، وللدلالة على أن إهلاكهم عليه سبحانه وتعالى يسير جداً ﴿ إلا القوم ﴾ الذين فيهم أهلية القيام بما يحاولونه من اللدد ﴿ الفاسقون ﴾ أي العريقون في إدامة الخروج من محيط ما يدعو إليه هادي العقل والفطرة الأولى من الطاعة الآتي بها النقل إلى مضل المعصية الناهي عنها والعقل ، وأما الذين فسقوا والذين يفسقون فإن هادي هذه السورة يردهم ويوصلهم إلى المقصود ، فهذا الآخر نتيجة قوله أولها ﴿ والذين كفروا عما أنذروا معرضون ﴾ وذكر اليوم الموعود هو الأجل الذي أوجد الخافقان لأجله وبسببه والدلالة على القدرة بخلقهما من غير إعياء هو ذكره أولهما

أنهما ما خلقا إلا بالحق ، وذكر البلاغ هو تنزيل الكتاب من الله وحكمه على العريق بالفسق بالهلاك مع الهادي الشفيق ولغيره بالنجاة بعد انسيابه في الفسق مع التكرر هو من ثمرات العزة والحكمة ، فقد التحم هذا الآخر بذاك الأول أيّ التحام ، واتصل بمعناه اتصال الجوهر النفيس في متين النظام ، والتأم بأول التي تليها أحسن

(9/705)

التئام فسبحان من جعله أشرف الكلام ، لكونه صفة الملك العلام ، منزلاً على خاتم الرسل الكرام ، ورسول – الملك العلام – صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأهل بيته الكرام وسلم تسليماً كثيراً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 144 . 147 ﴾

(10/705)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ

الْمَوْتَى ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى ذكر في أول السورة ما يدل على وجود الإله القادر الحكيم المختار ، ثم فرع عليه فرعين : الأول : إبطال قول عبدة الأصنام والثاني : إثبات النبوّة وذكر شبهاتهم في الطعن في النبوة ، وأجاب عنها ، ولما كان أكثر إعراض كفار مكة عن قبول الدلائل بسبب اغترارهم بالدنيا واستغراقهم في استيفاء طيباتهم وشهواتها ، وبسبب أنه كان يثقل عليهم الانقياد لمحمد والاعتراف بتقدمه عليهم ضرب لذلك مثلاً وهم قوم عاد فإنهم كانوا أكمل في منافع الدنيا من قوم محمد فلما أصروا على الكفر أبادهم الله وأهلكهم ، فكان ذلك تخويفاً لأهل مكة بإصرارهم على إنكار نبوّة محمد عليه الصلاة والسلام ، ثم لما قرر نبوته على الإنس أردفه بإثبات نبوته في الجن ، وإلى ههنا قد تم الكلام في التوحيد وفي النبوة ، ثم ذكر عقيبهما تقرير مسألة المعاد ومن تأمل في هذا البيان الذي ذكرناه علم أن المقصود من كل القرآن تقرير التوحيد والنبوّة والمعاد ، وأما القصص فالمراد من ذكرها ما يجري مجرى ضرب الأمثال في تقرير هذه الأصول .

المسألة الثانية :

المقصود من هذه الآية إقامة الدلالة على كونه تعالى قادراً على البعث ، والدليل عليه أنه تعالى أقام الدلائل في أول هذه السورة على أنه ﴿ هُوَ الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ ولا شك أن خلقها أعظم وأفخم من إعادة هذا الشخص حياً بعد أن صار ميتاً ، والقادر على الأقوى الأكمل لا بد وأن يكون قادراً على الأقل والأضعف ، ثم ختم الآية بقوله ﴿ إِنَّهُ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ والمقصود منه أن تعلق الروح بالجسد أمر ممكن إذ لو لم يكن ممكناً في نفسه لما وقع أولاً ، والله تعالى قادر على كل الممكنات ، فوجب كونه قادراً على تلك الإعادة ، وهذه الدلائل يقينية ظاهرة .

المسألة الثالثة :

في قوله تعالى : ﴿ بِقَادِرٍ ﴾ إدخاله الباء على خبر إن ، وإنما جاز ذلك لدخول حرف النفي على أن وما يتعلق بها ، فكأنه قيل أليس الله بقادر ، قال الزجاج لو قلت ما ظننت أن زيداً بقائم جاز ، ولا يجوز ظننت أن زيداً بقائم ، والله أعلم .

المسألة الرابعة :

يقال عييت بالأمر إذا لم تعرف وجهه ومنه ﴿ أَفَعَيِينَا بالخلق الأول ﴾ [ق : 15] .

واعلم أنه تعالى لما أقام الدلالة على صحة القول بالحشر والنشر ذكر بعض أحوال الكفار فقال : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الذين كَفَرُواْ على النار أَلَيْسَ هذا بالحق قَالُواْ بلى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ

العذاب بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ فقوله ﴿ أَلَيْسَ هذا بالحق ﴾ التقدير يقال لهم أليس هذا بالحق والمقصود التهكم بهم والتوبيخ على استهزائهم بوعد الله ووعيده ، وقولهم ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [الصافات : 59] .

فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (35)

(12/705)

واعلم أنه تعالى لما قرر المطالب الثلاثة وهي التوحيد والنبوة والمعاد ، وأجاب عن الشبهات أردفه بما يجري مجرى الوعظ والنصيحة للرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأن الكفار كانوا يؤذونه ويوجسون صدره ، فقال تعالى : ﴿ فاصبر كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ العزم مِنَ الرسل ﴾ أي أولوا الجد والصبر والثبات ، وفي الآية قولان .

الأول : أن تكون كلمة ﴿ مِنَ ﴾ للتبعيض ويراد بأولو العزم بعض الأنبياء قيل هم نوح صبر على أذى قومه وكانوا يضربونه حتى يغشى عليه ، وإبراهيم على النار وذبح الولد ، وإسحاق على الذبح ، ويعقوب على فقدان الولد وذهاب البصر ، ويوسف على الجب والسجن ، وأيوب على الضر وموسى قال له قومه ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قال كَلاَّ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى

سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 61 ، 62] وداود بكى على زلته أربعين سنة ، وعيسى لم يضع لبنة على لبنة وقال : إنها معبرة فاعبروها ولا تعمروها ، وقال الله تعالى في آدم ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ [طه : 115] وفي يونس ﴿ وَلاَ تَكُن كصاحب الحوت ﴾ [القلم : 48] .

والقول الثاني : أن كل الرسل أولو عزم ولم يبعث الله رسولاً إلا كان ذا عزم وحزم ، ورأي وكمال وعقل ، ولفظة من في قوله ﴿ مِّنَ الرسل ﴾ تبيين لا تبعيض كما يقال كسيته من الخز وكأنه قيل اصبر كما صبر الرسل من قبلك على أذى قومهم ، ووصفهم بالعزم لصبرهم وثباتهم .

(13/705)

ثم قال : ﴿ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ ومفعول الاستعجال محذوف ، والتقدير لا تستعجل لهم بالعذاب ، قيل إن النبي صلى الله عليه وسلم ضجر من قومه بعض الضجر ، وأحب أن ينزل الله العذاب بمن أبى من قومه فأمر بالصبر وترك الاستعجال ، ثم أخبر أن ذلك العذاب منهم قريب ، وأنه نازل بهم لا محالة وإن تأخر ، وعند نزول ذلك العذاب بهم يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا ، حتى يحسبونها ساعة من نهار ، والمعنى أنهم إذا عاينوا العذاب صار طول لبثهم في الدنيا والبرزخ ، كأنه ساعة من النهار ، أو كأن لم يكن لهول ما عاينوا ، أو لأن

الشيء إذا مضى صار كأنه لم يكن ، وإن كان طويلاً قال الشاعر :

كأن شيئاً لم يكن إذا مضى . . كأن شيئاً لم يزل إذا أنى

واعلم أنه تم الكلام ههنا ، ثم قال تعالى : ﴿ بلاغ ﴾ أي هذا بلاغ ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ هذا بلاغٌ للنَّاسِ ﴾ [إبراهيم : 52] أي هذا الذي وعظتم به فيه كفاية في الموعظة أو هذا تبليغ من الرسل ، فهل يهلك إلا الخارجون عن الاتعاظ به والعمل بموجبه ، والله أعلم .

قال المصنف رحمه الله تعالى : تم تفسير هذه السورة يوم الأربعاء العشرين من ذي الحجة سنة ثلاث وستمائة والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وأصحابه وأزواجه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 29 . 31 ﴾

(14/705)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

وقوله تعالى : ﴿ وإذا صرفنا إليك نفراً من الجن ﴾

ابتداء قصة الجن ووفادتهم على النبي صلى الله عليه وسلم . و : ﴿ صرفنا ﴾ معناه : رددناهم عن حال ما ، يحتمل أنها الاستماع في السماء ، ويحتمل أن يكون كفرهم قبل

الوفادة وهذا بحسب الاختلاف هنا هل هم الوفد أو المتجسسون ، وروي أن الجن كانت قبل مبعث النبي عليه السلام تسترق السمع من السماء ، فلما بعث محمد عليه السلام حرست بالشهب الراجمة ، فضاقت الجن ذرعاً بذلك ، فاجتمعت وأتى رأي ملئهم على الافتراق في أقطار الأرض وطلب السبب الموجب لهذا الرجم والمنع من استراق السمع ففعلوا ذلك . واختلف الرواة بعد فقالت فرقة : جاءت طائفة من الجن إلى النبي عليه السلام وهو لا يشعر ، فسمعوا القرآن وولوا إلى قومهم منذرين ، ولم يعرف النبي بشيء من ذلك حتى عرفه الله بذلك كله ، وكان سماعهم لقرآنه وهو بنخلة عند سوق عكاظ ، وهو يقرأ في صلاة الفجر .

وقالت فرقة : بل أشعره الله بوفادة الجن عليه واستعد لذلك ، ووفد عليه أهل نصيبين منهم .

قال القاضي أبو محمد : والتحرير في هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم جاءه جن دون أن يعرف بهم ، وهم المتفرقون من أجل الرجم ، وهذا هو قوله تعالى : ﴿ قل أوحي إلي ﴾ [الجن : 1] ثم بعد ذلك وفد عليه وفد ، وهو المذكور صرفه في هذه الآية . قال قتادة : صرفوا إليه من نينوى ، أشعر به قبل وروده . وقال الحسن : لم يشعر .

واختلف في عددهم اختلافاً متباعداً فاختصرته لعدم الصحة في ذلك ، أما أن ابن عباس رضي الله عنه قال : كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين وقال زر كانوا تسعة : فيهم زوبعة ، وروي في ذلك أحاديث عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إني خارج إلى وفد الجن ، فمن شاء يتبعني " ، فسكت أصحابه ، فقالها ثانية ، فسكتوا ، فقال عبد الله أنا أتبعك ، قال فخرجت معه حتى جاء شعب الحجون ، فأدار لي دائرة وقال لي : لا تخرج منها ، ثم ذهب عني ، فسمعت لغطاً ودوياً كدوي النسور الكاسرة . ثم في آخر الليل جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن قرأ عليهم القرآن وعلمهم وأعطاهم زاداً في كل عظم وروثة ، فقال : يا عبد الله ، ما رأيت ؟ فأخبرته ، فقال : لقد كنت أخشى أن تخرج فيتخطفك بعضهم ، قلت يا رسول الله ، سمعت لهم لغطاً ، فقال : إنهم تدارأوا في قتيل لهم ، فحكمت بالحق . واضطربت الروايات عن عبد الله بن مسعود ، وروي عنه ما ذكرنا . وذكر عنه أنه رأى رجالاً من الجن وبهم شبه رجال الزط السود الطوال حين رآهم بالكوفة . وروي عنه أنه قال : ما شاهد أحد منا ليلة الجن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاختصرت هذه الروايات وتطويلها لعدم صحتها .

وقوله : ﴿ نفراً ﴾ يقتضي أن المصروفين رجالاً لا أنثى فيهم ، والنفر والرهط : القوم الذين لا أنثى فيهم .

وقوله تعالى : ﴿ فلما حضروه قالوا أنصتوا ﴾ فيه تأدب مع العلم وتعليم كيف يتعلم وقرأ جمهور الناس : " قُضِي " على بناء الفعل للمفعول . . وقرأ حبيب بن عبد الله بن الزبير وأبو مجلز : " قضى " على بناء الفعل للفاعل ، أي قضى محمد القراءة .

وقال ابن عمر وجابر بن عبد الله : قرأ عليهم سورة [الرحمن] فكان إذا قال : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ [الرحمن : 13] قالوا : لا بشيء من آلائك نكذب ، ربنا لك الحمد ، ولما ولت هذه الجملة تفرقت على البلاد منذرة للجن . قال قتادة : ما أسرع ما عقل القوم .

(16/705)

قال القاضي أبو محمد : فهنالك وقعت قصة سواد وشصار وخنافر وأشباههم صلى الله على محمد عبده ورسوله .

قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

المعنى : قال هؤلاء المنذرون لما بلغوا قومهم ﴿ يا قومنا إنا سمعنا كتاباً ﴾ وهو القرآن العظيم ، وخصصوا ﴿ موسى ﴾ عليه السلام لأحد أمرين : إما لأن هذه الطائفة كانت تدين بدين اليهود ، وإما لأنهم كانوا يعرفون أن موسى قد ذكر محمداً وبشر به ، فأشاروا إلى

موسى من حيث كان هذا الأمر مذكوراً في توراته . قال ابن عباس في كتاب الثعلبي : لم يكونوا علموا أمر عيسى عليه السلام ، فلذلك قالوا ﴿ من بعد موسى ﴾ . وقولهم : ﴿ مصدقاً لما بين يديه ﴾ يؤيد هذا . و: ﴿ ما بين يديه ﴾ هي التوراة والإنجيل . و﴿ الحق ﴾ و" الطريق المستقيم " هنا بمعنى يتقارب لكن من حيث اختلف اللفظ ، وربما كان ﴿ الحق ﴾ أعم ، وكأن أحدهما قد يقع في مواضع لا يقع فيها الآخر حسن التكرار . و: ﴿ داعي الله ﴾ هو محمد عليه السلام ، والضمير في : ﴿ به ﴾ عائد على الله تعالى .

وقوله : ﴿ يغفر ﴾ معناه : يغفر الله . ﴿ ويجركم ﴾ معناه : يمنعكم ويجعل دونكم جوار حفظه حتى لا ينالكم عذاب .

وقوله تعالى : ﴿ ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز ﴾ الآية ، يحتمل أن يكون من كلام المنذرين ، ويحتمل أن يكون من كلام الله تعالى لمحمد عليه السلام ، والمراد بها إسماع الكفار وتعلق اللفظ إلى هذا المعنى من قول الجن : ﴿ أجيبوا داعي الله ﴾ فلما حكى ذلك قيل ومن لا يفعل هذا فهو بحال كذا ، والمعجز الذاهب في الأرض الذي يبدي عجز طالبه ولا يقدر عليه ، وروي عن ابن عامر : " وليس لهم من دونه " بزيادة ميم .

(17/705)

وقوله تعالى : ﴿ أو لم يروا ﴾ الضمير لقريش ، وهذه آية مثل واحتجاج ، لأنهم قالوا إن الأجساد لا يمكن أن تبعث ولا تعاد ، وهم مع ذلك معترفون بأن الله تعالى خلق السماوات والأرض فأقيمت عليهم الحجة من أقوالهم . والرؤية في قوله : ﴿ أو لم يروا ﴾ رؤية القلب .

وقرأ جمهور الناس : " ولم يعْيَ " بسكون العين وفتح الياء الأخيرة . وقرأ الحسن بن أبي الحسن " يعِ " بكسر العين وسكون الياء وذلك على حذف .

والباء في قوله : ﴿ بقادر ﴾ زائدة مؤكدة ، ومن حيث تقدم نفي في صدر الكلام حسن التأكيد بالباء وإن لم يكن المنفي ما دخلت على عليه كما هي في قولك : ما زيد بقائم كان بدل ﴿ أو لم يروا ﴾ أوليس الذي خلق .

وقرأ ابن عباس وجمهور الناس : " بقادر " وقرأ الجحدري والأعرج وعيسى وعمرو بن عبيد : " يقدر " بالياء على فعل مستقبل ، ورجحها أبو حاتم وغلط قراءة الجمهور لقلق الباء عنده . وفي مصحف عبد الله بن مسعود " بخلقهن قادر " .

و: ﴿ بلى ﴾ جواب بعد النفي المتقدم ، فهي إيجاب لما نفي ، والمعنى : بلى رأوا ذلك أن لو نفعهم ووقع في قلوبهم ، ثم استأنف اللفظ الإخبار المؤكد بقوله : ﴿ إنه على كل شيء قدير ﴾ .

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا

المعنى : واذكر يوم ، وهذا وعيد للكفار من قريش وسواهم . والعرض في هذه الآية ، عرض مباشرة ، كما تقولون عرضت الجاني على السوط . والمعنى يقال لهم أليس هذا العذاب حقاً وقد كنتم تكذبون به ؟ فيجيبون : ﴿ بلى وربنا ﴾ ، وذلك تصديق حيث لا ينفع ، وروي عن الحسن أنه قال : إنهم ليعذبون في النار وهم راضون بذلك لأنفسهم يعترفون أنه العدل ، فيقول لهم المحاور من الملائكة عند ذلك ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ أي بسبب كفركم .

(18/705)

وقوله تعالى : ﴿ فاصبر ﴾ الفاء عاطفة هذه الجملة من الوصاة على هذه الجملة من الإخبار عن حال الكفرة في الآخرة ، والمعنى بينهما مرتبط ، أي هذه حالهم مع الله ، فلا تستعجل أنت فيما حملته واصبر له ولا تخف في الله أحداً .

وقوله : ﴿ من الرسل ﴾ ﴿ من ﴾ للتبعيض ، والمراد من حفظت له مع قومه شدة ومجاهدة كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم صلى الله عليهم ، هذا قول عطاء الخراساني وغيره . وقال ابن زيد ما معناه : إن ﴿ من ﴾ لبيان الجنس . قال : والرسل كلهم ﴿ أولو العزم ﴾ ، ولكن قوله : ﴿ كما صبر أولو العزم ﴾ يتضمن رسلاً وغيرهم ،

فبين بعد ذلك جنس الرسل خاصة تعظيماً لهم ، ولتكون القدوة المضروبة لمحمد عليه السلام أشرف ، وذكر الثعلبي هذا القول عن علي بن مهدي الطبري . وحكي عن أبي القاسم الحكيم أنه قال : الرسل كلهم أولو عزم إلا يونس عليه السلام وقال الحسن بن الفضل : هم الثمانية عشر المذكورين في سورة الأنعام ، لأنه قال بعقب ذكرهم ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ [الأنعام : 90] . وقال مقاتل هم ستة : نوح صبر على أذى قومه طويلاً ، وإبراهيم صبر للناس ، وإسحاق صبر نفسه للذبح ، ويعقوب صبر على الفقد لولده وعمي بصره وقال : ﴿ فصبر جميل ﴾ [يوسف : 83] ، ويوسف على السجن وفي البئر ، وأيوب صبر على البلاء .

قال القاضي أبو محمد : وانظر أن النبي عليه السلام قال في موسى : " يرحم الله موسى ، أوذي بأكثر من هذا فصبر " ولا محالة أن لكل نبي ورسول عزماً وصبراً .

وقوله : ﴿ ولا تستعجل لهم ﴾ معناه لا تستعجل لهم عذاباً ، فإنهم إليه صائرون ، ولا تستطل تعميرهم في هذه النعمة ، فإنهم يوم يرون العذاب كأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة لاحتقارهم ذلك ، لأن المنقضي من الزمان إنما يصير عدماً ، فكثيره الذي ساءت عاقبته كالقليل .

وقرأ أبي بن كعب " ساعة من النهار " . وقرأ جمهور القراء والناس : " بلاغٌ " وذلك يحتمل معاني ، أحدها : أن يكون خبر ابتداء ، المعنى : هذا بلاغ ، وتكون الإشارة بهذا إلى القرآن والشرع ، أي هذا إنذار وتبليغ ، وإما إلى المدة التي تكون كساعة كأنه قال : ﴿ لم يلبثوا إلا ساعة ﴾ كانت بلاغهم ، وهذا كما تقول : متاع قليل ونحوه من المعنى .

والثاني : أن يكون ابتداء والخبر محذوف . والثالث : ما قاله أبو مجلز فإنه كان يقف على قوله : ﴿ ولا تستعجل ﴾ ويقول : " بلاغٌ " ابتداء وخبره متقدم في قوله : ﴿ لهم ﴾ وقدح الناس في هذا القول بكثرة الحائل . وقرأ الحسن بن أبي الحسن ، وعيسى : " بلاغاً " ، وهي قراءة تحتمل المعنيين اللذين في قراءة الرفع ، وليس يدخلها قول أبي مجلز ونصبها بفعل مضمر . وقرأ أبو مجلز وأبو سراج الهذلي : " بلِّغ " ، على الأمر . وقرأ الحسن بن أبي الحسن : " بلاغٍ " بالخفض نعتاً ل ﴿ نهار ﴾ .

وقرأ جمهور الناس :

" فهل يُهلَك " على بناء الفعل للمفعول . وقرأ بعضهم فيما حكى هارون : " فهل يَهلِك " ببناء الفعل للفاعل وكسر اللام ، وحكاها أبو عمرو عن الحسن وابن محيصن : " يَهلَك " بفتح الياء واللام . قال أبو الفتح : وهي مرغوب عنها . وروى زيد بن ثابت عن النبي عليه السلام : " فهل يُهلِك " بضم الياء وكسر اللام " إلا القوم الفاسقين " بالنصب .

وفي هذه الألفاظ وعيد محض وإنذار بين ، وذلك أن الله تعالى جعل الحسنة بعشر امثالها والسيئة بمثلها ، وأمر بالطاعة ووعد عليها بالجنة ، ونهى عن الكفر وأوعد عليه بالنار ، فلن يهلك على الله إلا هالك كما قال صلى الله عليه وسلم . قال الثعلبي : يقال إن قوله : ﴿ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ﴾ أرجى آية في كتاب الله تعالى للمؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(20/705)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ الله الذي خَلَقَ السماوات والأرض ﴾

الرؤية هنا بمعنى العلم .

و"أنّ" واسمها وخبرها سدّت مسدّ مفعولي الرؤية .

﴿ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ على أَن يُحْيِيَ الموتى ﴾ احتجاج على منكري البعث .

ومعنى "لَمْ يَعْيَ" يَعْجِز ويَضْعُف عن إبداعهنّ .

يقال : عَيَّ بأمره وعَيِيَ إذا لم يهتد لوجهه ؛ والإدغام أكثر .

وتقول في الجمع عَيُوا ، مخففاً ، وعَيّوا أيضاً بالتشديد .

قال :

عَيُّوا بِأمرهمُ كما . . .

عَيّتْ ببيضتها الحمامهْ

وعيِيت بأمري إذا لم تهتد لوجهه .

وأعياني هو .

وقرأ الحسن "وَلَمْ يَعِي" بكسر العين وإسكان الياء ؛ وهو قليل شاذّ ، لم يأت إعلال العين وتصحيح اللام إلا في أسماء قليلة ؛ نحو غاية وآية .

ولم يأت في الفعل سوى بيت أنشده الفرّاء ؛ وهو قول الشاعر :

فكأنها بين النساء سَبِيكَةٌ . . .

تمشِي بِسُدّة بَيْتها فتُعِيّ

﴿ بِقَادِرٍ ﴾ قال أبو عبيدة والأخفش : الباء زائدة للتوكيد كالباء في قوله : ﴿ وكفى بالله شَهِيداً ﴾ ، وقوله : ﴿ تَنبُتُ بالدهن ﴾ [المؤمنون : 20] .

وقال الكسائيّ والفرّاء والزجاج : الباء فيه خَلَف الاستفهام والجحد في أوّل الكلام .

قال الزجاج : والعرب تدخلها مع الجحد تقول : ما ظننت أن زيداً بقائم .

ولا تقول : ظننت أن زيداً بقائم .

وهو لدخول "ما" ودخول "أنّ" للتوكيد .

والتقدير : أليس الله بقادر ، كقوله تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض بِقَادِرٍ ﴾ [ياس : 81] .

وقرأ ابن مسعود والأعرج والجحدريّ وابن أبي إسحاق ويعقوب "يَقدر" واختاره أبو حاتم ؛ لأن دخول الباء في خبر "أنّ" قبيح .

واختار أبو عبيد قراءة العامة ؛ لأنها في قراءة عبد الله "خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ" بغير باء .

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الذين كَفَرُواْ على النار ﴾

(21/705)

أي ذكّرهم يوم يعرضون فيقال لهم : ﴿ أَلَيْسَ هذا بالحق قَالُواْ بلى وَرَبِّنَا ﴾ فيقول لهم المقرّر : ﴿ فَذُوقُواْ العذاب بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي بكفركم .

قوله تعالى : ﴿ فاصبر كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ العزم مِنَ الرسل ﴾

قال ابن عباس : ذوو الحزم والصبر ؛ قال مجاهد : هم خمسة : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد عليهم الصلاة والسلام .

وهم أصحاب الشرائع .

وقال أبو العالية : إن أولي العزم : نوح ، وهود ، وإبراهيم .

فأمر الله عز وجل نبيّه عليه الصلاة والسلام أن يكون رابعهم .

وقال السدّي : هم ستة : إبراهيم ، وموسى ، وداود ، وسليمان ، وعيسى ، ومحمد ؛ صلوات الله عليهم أجمعين .

وقيل : نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، ولوط ، وموسى ؛ وهم المذكورون على النسق في سورة "الأعراف والشعراء" .

وقال مقاتل : هم ستة : نوح صبر على أذى قومه مدّة .

وإبراهيم صبر على النار .

وإسحاق صبر على الذبح .

ويعقوب صبر على فقد الولد وذهاب البصر .

ويوسف صبر على البئر والسجن .

وأيوب صبر على الضرّ .

وقال ابن جُريج : إن منهم إسماعيل ويعقوب وأيوب ، وليس منهم يونس ولا سليمان ولا آدم .

وقال الشعبيّ والكلبيّ ومجاهد أيضاً : هم الذين أُمِروا بالقتال فأظهروا المكاشفة وجاهدوا

الكفرة.

وقيل: هم نجباء الرسل المذكورون في سورة "الأنعام" وهم ثمانية عشر: إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ونوح، وداود، وسليمان، وأيوب، ويوسف، وموسى، وهارون، وزكرياء، ويحيى، وعيسى، وإلياس؛ وإسماعيل، واليسع، ويونس، ولوط.

واختاره الحسن بن الفضل لقوله في عقبه: ﴿ أولئك الذين هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ [الأنعام: 90].

وقال ابن عباس أيضاً: كل الرسل كانوا أولي عزم.

واختاره عليّ بن مهدي الطبريّ، قال: وإنما دخلت "من" للتجنيس لا للتبعيض؛ كما تقول: اشتريت أردية من البَزّ وأكسية من الخز.

أي اصبر كما صبر الرسل.

(22/705)

وقيل: كل الأنبياء أولو عَزْم إلا يونس بن متى؛ ألا ترى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم نهى أن يكون مثله؛ لخفة وعجلة ظهرت منه حين ولّى مُغاضِباً لقومه، فابتلاه الله بثلاث: سلّط عليه العمالقة حتى أغاروا على أهله وماله، وسلّط الذئب على ولده فأكله، وسلط عليه

الحوت فابتلعه ؛ قاله أبو القاسم الحكيم .

وقال بعض العلماء : أولو العزم اثنا عشر نبيّاً أرسلوا إلى بني إسرائيل بالشام فعصوهم ، فأوحى الله إلى الأنبياء أني مرسل عذابي إلى عصاة بني إسرائيل ؛ فشق ذلك على المرسلين فأوحى الله إليهم اختاروا لأنفسكم ، إن شئتم أنزلت بكم العذاب وأنجيت بني إسرائيل ، وإن شئتم نجيتكم وأنزلت العذاب ببني إسرائيل ؛ فتشاوروا بينهم فاجتمع رأيهم على أن ينزل بهم العذاب وينجي الله بني إسرائيل ؛ فأنجى الله بني إسرائيل وأنزل بأولئك العذاب .

وذلك أنه سلط عليهم ملوك الأرض ؛ فمنهم من نُشر بالمناشير ، ومنهم من سلخ جلدة رأسه ووجهه ، ومنهم من صُلب على الخشب حتى مات ، ومنهم من حُرّق بالنار .

والله أعلم .

وقال الحسن : أولو العزم أربعة : إبراهيم ، وموسى ، وداود ، وعيسى ؛ فأما إبراهيم فقيل له :

﴿ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة : 131] ثم ابتلي في ماله وولده ووطنه ونفسه ، فوجد صادقاً وافياً في جميع ما ابتلي به .

وأما موسى فعزمه حين قال له قومه : ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء : 26] .

وأما داود فأخطأ خطيئته فنُبّه عليها ، فأقام يبكي أربعين سنة حتى نبتت من دموعه شجرة ، فقعد تحت ظلها .

وأما عيسى فعزمه أنه لم يضع لَبِنة على لَبِنة وقال : إنها مَعْبرة فاعبروها ولا تعمروها .

فكأن الله تعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : اصبر ؛ أي كن صادقاً فيما ابتليت به مثل صدق إبراهيم ؛ واثقاً بنُصرة مولاك مثل ثقة موسى ، مهتمًّا بما سلف من هفواتك مثل اهتمام داود ، زاهداً في الدنيا مثل زهد عيسى .

(23/705)

ثم قيل هي : منسوخة بآية السيف .

وقيل : محكمة ؛ والأظهر أنها منسوخة ؛ لأن السورة مكية .

وذكر مقاتل : أن هذه الآية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحُد ؛ فأمره الله عز وجل أن يصبر على ما أصابه كما صبر أولو العزم من الرسل ، تسهيلاً عليه وتثبيتاً له .

والله أعلم .

﴿ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ قال مقاتل : بالدعاء عليهم .

وقيل : في إحلال العذاب بهم ، فإن أبعد غاياتهم يوم القيامة .

ومفعول الاستعجال محذوف ، وهو العذاب .

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ ﴾ قال يحيى : من العذاب .

النقاش : من الآخرة .

﴿ لَمْ يلبثوا ﴾ أي في الدنيا حتى جاءهم العذاب ، وهو مقتضى قول يحيى .

وقال النقاش : في قبورهم حتى بعثوا للحساب .

﴿ إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾ يعني في جنب يوم القيامة .

وقيل : نسَّاهم هَوْل ما عاينوا من العذاب طول لبثهم في الدنيا .

ثم قال : ﴿ بَلاَغٌ ﴾ أي هذا القرآن بلاغ ؛ قاله الحسن .

ف "بلاغ" رفع على إضمار مبتدأ ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ هذا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ ﴾ [إبراهيم : 52] ، وقوله : ﴿ إِنَّ فِي هذا لَبَلاَغاً لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء : 106] .

والبلاغ بمعنى التبليغ .

وقيل : أي إن ذلك اللبث بلاغ ؛ قاله ابن عيسى ، فيوقف على هذا على "بلاغ" وعلى "نَهَارٍ" .

وذكر أبو حاتم أن بعضهم وقف على "وَلاَ تَسْتَعْجِلْ" ثم ابتدأ "لَهُمْ" على معنى لهم بلاغ .

قال ابن الأنباريّ : وهذا خطأ ؛ لأنك قد فصلت بين البلاغ وبين اللام ، وهي رافعة بشيء ليس منهما .

ويجوز في العربية : بلاغاً وبلاغٍ ؛ النصب على معنى إلا ساعة بلاغاً ؛ على المصدر أو على النعت للساعة .

والخفض على معنى من نهارٍ بلاغ .

وبالنصب قرأ عيسى بن عمر والحسن .

وروي عن بعض القرّاء "بَلِّغ" على الأمر ؛ فعلى هذه القراءة يكون الوقف على "مِنْ نَهَارٍ" ثم يبتدىء "بلغ" .

(24/705)

﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ القوم الفاسقون ﴾ أي الخارجون عن أمر الله ؛ قاله ابن عباس وغيره .

وقرأ ابن محيصن "فَهَلْ يَهْلِكُ إِلاَّ الْقَوْمُ" على إسناد الفعل إلى القوم .

وقال ابن عباس : إذا عسر على المرأة وَلَدُها تكتب هاتين الآيتين والكلمتين في صحيفة ثم تغسل وتسقى منها ؛ وهي : بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله العظيم الحليم الكريم ، سبحان الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يلبثوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ [النازعات : 46] .

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يلبثوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاَغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ القوم الفاسقون

﴾ .

صدق الله العظيم .

وعن قتادة : لا يهلك إلا هالك ومشرك .

وقيل : هذه أقوى آية في الرجاء .

والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(25/705)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وإذ صرفنا إليكم نفراً من الجن يستمعون القرآن ﴾ :

ومناسبة هذه الآية لما قبلها : أنه لما بين أن الإنسي مؤمن وكافر ، وذكر أن الجن فيهم مؤمن وكافر ؛ وكان ذلك بأثر قصة هود وقومه ، لما كان عليه قومه من الشدة والقوة .

والجن توصف أيضاً بذلك ، كما قال تعالى : ﴿ قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين ﴾

وإن ما أهلك به قوم هود هو الريح ، وهو من العالم الذي لا يشاهد ، وإنما يحس بهبوبه .

والجن أيضاً من العالم الذي لا يشاهد .

وإن هوداً عليه السلام كان من العرب ، ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) من العرب ، فهذه تجوز أن تكون مناسبة لهذه الآية بما قبلها .

وفيها أيضاً توبيخ لقريش وكفار العرب ، حيث أنزل عليهم هذا الكتاب المعجز ، فكفروا به ، وهم من أهل اللسان الذي أنزل به القرآن ، ومن جنس الرسول الذي أرسل إليهم .

وهؤلاء جن ، فليسوا من جنسه ، وقد أثر فيهم سماع القرآن وآمنوا به وبمن أنزل عليه ، وعلموا أنه من عند الله ، بخلاف قريش وأمثالها ، فهم مصرون على الكفر به .

﴿ وإذ صرفنا ﴾ : وجّهنا إليك .

وقرأ : صرفنا ، بتشديد الراء ، لأنهم كانوا جماعة ، فالتكثير بحسب الحال .

﴿ نفراً من الجن ﴾ ، والنفر دون العشرة ، ويجمع على أنفار .

قال ابن عباس : كانوا سبعة ، منهم زوبعة .

والذي يجمع اختلاف الروايات ، أن قصة الجن كانت مرتين .

إحداهما : حين انصرف من الطائف ، وكان خرج إليهم يستنصرهم في قصة ذكرها أصحاب السير .

فروى أن الجن كانت تسترق السمع ؛ فلما بعث الرسول ، حرست السماء ، ورمي الجن بالشهب ، قالوا : ما هذا إلا أمر حدث .

وطافوا الأرض ، فوافوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بوادي نخلة ، وهو قائم يصلي ؛ فاستمعوا لقراءته ، وهو لا يشعر ؛ فأنبأه الله باستماعهم .

(26/705)

﴿ والمرة الأخرى ﴾ : " أن الله أمره أن ينذر الجن ويقرأ عليهم فقال : "إني أمرت أن أقرأ على الجن فمن يتبعني" ، قالها ثلاثاً ، فأطرقوا إلا عبد الله بن مسعود ، قال : لم يحضره أحد ليلة الجن غيري .

فانطلقنا حتى إذا كنا في شعب الحجون ، خط لي خطاً وقال : "لا تخرج منه حتى أعود إليك" ، ثم افتتح القرآن .

وسمعت لغطاً شديداً حتى خفت على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه حتى ما أسمع صوته ، ثم تقطعوا تقطع السحاب ، فقال لي : "هل رأيت شيئاً" ؟ قلت : نعم ، رجالاً سوداً مستثفري ثياب بيض ، فقال : "أولئك جن نصيبين" .

وكانوا اثني عشر ألفاً ، والسورة التي قرأها عليهم : اقرأ باسم ربك " وفي آخر هذا الحديث قلت : " يا رسول الله ، سمعت لهم لغطاً ، فقال : "إنهم تداروا في قتيل لهم فحكمت بالحق

" وقد روي عن ابن مسعود أنه لم يحضر أحد ليلة الجن ، والله أعلم بصحة ذلك .

﴿ فلما حضروه ﴾ : أي القرآن ، أي كانوا بمسمع منه ، وقيل : حضروا الرسول ، وهو التفات من إليك إلى ضمير الغيب .

﴿ قالوا انصتوا ﴾ : أي اسكتوا للاستماع ، وفيه تأديب مع العلم وكيف يتعلم .

وقرأ الجمهور : ﴿ فلما قضى ﴾ : مبنياً للمفعول ؛ وأبو مجلز ، وحبيب بن عبد الله بن الزبير : قضى ، مبنياً للفاعل ، أي قضى محمد ما قرأ ، أي أتمه وفرغ منه .

وقال ابن عمر ، وجابر بن عبد الله : قرأ عليهم سورة الرحمن ، فكان إذا قال : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ ، قالوا : لا شيء من آيات ربنا نكذب ربنا لك الحمد .

﴿ ولوا إلى قومهم منذرين ﴾ : تفرقوا على البلاد ينذرون الجن .

قال قتادة : ما أسرع ما عقل القوم . انتهى .

وعند ذلك وقعت قصة سواد بن قارب ، وخنافر وأمثالهما ، حين جاءهما رياهما من الجن ، وكان سبب إسلامهما .

﴿ من بعد موسى ﴾ : أي من بعد كتاب موسى .

قال عطاء : كانوا على ملة اليهود ، وعن ابن عباس : لم تسمع الجن بأمر عيسى ، وهذا لا يصح عن ابن عباس .

كيف لا تسمع بأمر عيسى وله أمة عظيمة لا تنحصر على ملته ؟ فيبعد عن الجن كونهم لم يسمعوا به .

ويجوز أن يكونوا قالوا : ﴿ من بعد موسى ﴾ تنبيهاً لقومهم على اتباع الرسول ، إذ كان عليه الصلاة والسلام قد بشر به موسى ، فقالوا : ذلك من حيث أن هذا الأمر مذكور في التوراة ، ﴿ مصدقاً لما بين يديه ﴾ من التوراة والإنجيل والكتب الإلهية ، إذ كانت كلها مشتملة على التوحيد والنبوة والمعاد ، والأمر بتطهير الأخلاق .

﴿ يهدي إلى الحق ﴾ : أي إلى ما هو حق في نفسه صدق ، يعلم ذلك بصريح العقل .

﴿ وإلى صراط مستقيم ﴾ : غاير بين اللفظين ، والمعنى متقارب ، وربما استعمل أحدهما في موضع لا يستعمل الآخر فيه ، فجمع هنا بينهما وحسن التكرار .

﴿ أجيبوا داعي الله ﴾ : هو الرسول ، والواسطة المبلغة عنه ، ﴿ وآمنوا به ﴾ : يعود على الله .

﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ : من للتبعيض ، لأنه لا يغفر بالإيمان ذنوب المظالم ، قال معناه الزمخشري .

وقيل : من زائدة ، لأن الإسلام يجب ما قبله ، فلا يبقى معه تبعة .

﴿ ويجركم من عذاب أليم ﴾ : وهذا كله وظواهر القرآن تدل على الثواب ، وكذا قال ابن

عباس : لهم ثواب وعليهم عقاب ، يلتقون في الجنة ويزدحمون على أبوابها .

وقيل : لا ثواب لها إلا النجاة من النار ، وإليه كان يذهب أبو حنيفة .

﴿ فليس بمعجز في الأرض ﴾ : أي بفائت من عقابه ، إذ لا منجا منه ، ولا مهرب ، كقوله : ﴿ وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً ﴾ وروي عن ابن عامر : وليس لهم بزيادة ميم .

وقرأ الجمهور : ﴿ ولم يعي ﴾ ، مضارع عيي ، على وزن فعل ، بكسر العين ؛ والحسن : ولم يعي ، بكسر العين وسكون الياء ، ووجهه أنه في الماضي فتح عين الكلمة ، كما قالوا في بقي : بقا ، وهي لغة لطيىء .

ولما بنى الماضي على فعل بفتح العين ، بنى مضارعه على يفعل بكسر العين ، فجاء يعني . فلما دخل الجازم ، حذف الياء ، فبقي يعي بنقل حركة الياء إلى العين ، فسكنت الياء وبقي يعي .

(28/705)

وقرأ الجمهور : ﴿ بقادر ﴾ : اسم فاعل ، والباء زائدة في خبر أن ، وحسن زيادتها كون ما قبلها في حيز النفي .

وقد أجاز الزجاج : ما ظننت أن أحداً بقائم ، قياساً على هذا ، والصحيح قصر ذلك على السماع ، فكأنه في الآية قال : أليس الله بقادر ؟ ألا ترى كيف جاء ببلى مقرراً لإحياء الموتى لا لرؤيتهم ؟ وقرأ الجحدري ، وزيد بن علي ، وعمرو بن عبيد ، وعيسى ، والأعرج : بخلاف عنه ؛ ويعقوب : يقدر مضارعاً .

﴿ أليس هذا بالحق ﴾ : أي يقال لهم ، والإشارة بهذا إلى العذاب .

أي كنتم تكذبون بأنكم تعذبون ، والمعنى : توبيخهم على استهزائهم بوعد الله ووعيده وقولهم : ﴿ وما نحن بمعذبين ﴾ ﴿ قالوا بلى وربنا ﴾ ، تصديق حيث لا ينفع .

وقال الحسن : إنهم ليعذبون في النار وهم راضون بذلك لأنفسهم ، يعترفون أنه العدل ، فيقول لهم المجاوب من الملائكة عند ذلك : ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون .

فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ﴾ : الفاء عاطفة هذه الجملة على الجملة من أخبار الكفار في الآخرة ، والمعنى بينهما مرتبط : أي هذه حالهم مع الله .

فلا تستعجل أنت واصبر ، ولا تخف إلا الله .

وأولو العزم : أي أولو الجد من الرسل ، وهم من حفظ له شدة مع قومه ومجاهدة .

فتكون من للتبعيض ، وقيل : يجوز أن تكون للبيان ، أي الذين هم الرسل ، ويكون الرسل كلهم أولي العزم ؛ وأولو العزم على التبعيض يقتضي أنهم رسل وغير رسل ؛ وعلى البيان يقتضي أنهم الرسل ، وكونها للتبعيض قول عطاء الخراساني والكلبي ، وللبيان قول ابن

زيد .

وقال الحسن بن الفضل : هم الثمانية عشر المذكورة في سورة الأنعام ، لأنه قال عقب ذكرهم : ﴿ فبهادهم اقتده ﴾ وقال مقاتل : هم ستة : نوح صبر على أذى قومه طويلاً ، وإبراهيم صبر على النار ، وإسحاق صبر نفسه على الذبح ، ويعقوب صبر على الفقد لولده وعمي بصره وقال فصبر جميل ، ويوسف صبر على السجن والبئر ، وأيوب على البلاء .

(29/705)

وزاد غيره : وموسى قال قومه : ﴿ إنا لمدركون ، قال كلا إن معي ربي سيهدين ﴾ وداود بكى على خطيئته أربعين سنة ، وعيسى لم يضع لبنة على لبنة وقال : إنها معبر ، فاعبروها ولا تعمروها .

﴿ ولا تستعجل لهم ﴾ : أي لكفار قريش بالعذاب ، أي لا تدع لهم بتعجيله ، فإنه نازل بهم لا محالة وإن تأخر ، وإنهم مستقصرن حينئذ مدة لبثهم في الدنيا ، كأنهم ﴿ لم يلبثوا إلا ساعة ﴾ .

وقرأ أبي : من النهار ؛ وقرأ الجمهور : من نهار .

وقرأ الجمهور : بلاغ ، بالرفع ، والظاهر رجوعه إلى المدة التي لبثوا فيها ، كأنه قيل : تلك

الساعة بلاغهم ، كما قال تعالى : ﴿ متاع قليل ﴾ فبلاغ خبر مبتدأ محذوف .

قيل : ويحتمل أن يكون بلاغ يعني به القرآن والشرع ، أي هذا بلاغ ، أي تبليغ وإنذار .

وقال أبو مجلز : بلاغ مبتدأ وخبره لهم ؛ ويقف على فلا تستعجل ، وهذا ليس بجيد ، لأن فيه تفكيك الكلام بعضه من بعض ، إذ ظاهر قوله : لهم ، أنه متعلق بقوله : فلا تستعجل لهم ، والحيلولة الجملة التشبيهية بين الخبر والمبتدأ .

وقرأ الحسن ، وزيد بن علي ، وعيسى : بلاغاً بالنصب ، فاحتمل أن يراد : بلاغاً في القرآن ، أي بلغوا بلاغاً ، أو بلغنا بلاغاً .

وقرأ الحسن أيضاً : بلاغ بالجر ، نعتاً لنهار .

وقرأ أبو مجلز ، وأبو سراح الهذلي : بلغ علي الأمر ، للنبي (صلى الله عليه وسلم) ، وهذا يؤيد حمل بلاغ رفعاً ونصباً على أنه يعني به تبليغ القرآن والشرع .

وعن أبي مجلز أيضاً : بلغ فعلاً ماضياً .

وقرأ الجمهور : يهلك ، بضم الياء وفتح اللام ، وابن محيصن ، فيما حكى عنه ابن خالويه : بفتح الياء وكسر اللام ؛ وعنه أيضاً : بفتح الياء واللام ، وماضيه هلك بكسر اللام ، وهي لغة .

وقال أبو الفتح : هي مرغوب عنها .

وقرأ زيد بن ثابت : يهلك ، بضم الياء وكسر اللام .

﴿ إلا القوم الفاسقون ﴾ : بالنصب ، وفي هذه الآية وعيد وإنذار . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(30/705)

وقال الثعالبى :

وقوله سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ الضمير لقريش ؛ وذلك أَنَّهم أنكروا البعث وعَوْدَ الأجساد ، وهُمْ مع ذلك معترِفُونَ بأَنَّ اللَّه تعالى خَلَقَ السموات والأَرْضَ ، فَأُقِيمَتْ عليهم الحُجَّةُ مِنْ أقوالهم * ص * : قال أبو حَيَّان : والباء في قوله : ﴿ بِقَادِرٍ ﴾ زائدةٌ ، ، انتهى .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الذين كَفَرُواْ عَلَى النار ﴾ المعنى : واذكرْ يومَ ، وهذا وعيدٌ لكفَّار قريشٍ وغيرهم ، وهذا عَرْضُ مباشرةٍ .

وقوله : ﴿ أَلَيْسَ هذا بالحق ﴾ أي : يقال لهم : أليس هذا بالحق ؟ ﴿ قَالُواْ بلى وَرَبِّنَا ﴾ فصدَّقوا بذلك حيث لا ينفعهم التصديقُ ، فَرُوِيَ عن الحَسَنِ ؛ أنه قال : إنَّهم لَيُعَذَّبُونَ في النارِ ، وهم راضون بذلك لأنفسهم يعترفون أَنَّهُ العَدْل .

واخْتُلِفَ في تعيين أُولى الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ، ولا محالةَ أَنَّ لكل نبيٍّ ورسولٍ عَزْماً وصَبْراً .

وقوله : ﴿ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ معناه : ولا تستعجلْ لهم عذاباً ؛ فإنَّهم إليه صائرون ، ولا تَسْتَطِلْ تعميرَهُمْ في هذه النّعْمَةِ ؛ فَإنَّهم يوم يَرَوْنَ العذاب كأنهم لَم يَلْبَثُوا في الدنيا إلاَّ ساعةً لِاحتقارهم ذلك ؛ لأَنَّ المنقضيَ من الزمان يصير عَدَماً .

* ت * : وإذا علمتَ أَيُّها الأخُ أَنَّ الدنيا أَضغاثُ أَحْلاَم ، كان من الحزم اشتغالُكَ الآنَ بتَحْصِيلِ الزادِ لِلْمَعَاد ، وحِفْظِ الحَواسِّ ، ومراعاةِ الأنفاس ، ومراقبة مَوْلاَك ، فَاتَّخِذْهُ صاحباً ، وذَرِ الناس جانباً ؛

قال أبو حامد الغَزَّالِيُّ رحمه اللَّه :

(31/705)

اعلم أَنَّ صاحبك الذي لا تفارقُهُ في حَضَرِكَ وسَفَرِكَ ، ونَوْمِكَ ويَقَظَتِكَ ، بل في حياتك ، وموتك هو ربُّك ، ومولاك ، وسَيِّدُك ، وخالقك ، ومهما ذكرتَهُ فهو جَلِيسُكَ ؛ إذ قال تعالى : " أَنَا جَلِيسُ مَنْ ذَكَرَنِي " ، ومهما انكسر قلبُكَ حُزْناً على تَقْصِيرِكَ في حق دِينِكَ ، فهو صَاحِبُكَ ومُلاَزِمُكَ ؛ إذْ قال : «أَنَا عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبهمْ مِنْ أَجْلِي» فلو عرفته يا أخي حَقَّ معرفتِهِ لاَتَّخذْتَهُ صَاحِباً ، وتركْتَ النَّاسَ جانباً ، فإنْ لم تَقْدِرْ على ذلك في جميع أوقاتك ، فَإِيَّاكَ أَنْ تُخْلِيَ ليلَكَ ونهارَكَ عَنْ وَقْتٍ تخلُو فيه بمَوْلاَكَ ، وتَلَذَّذُ بمناجاتِهِ ، وعند

ذلك فعليكَ بآدَابِ الصُّحْبَةِ مع اللَّه تعالى ، وآدابُهَا : إطراقُ الطَّرْفِ ، وجَمْعُ الهَمّ ، ودَوَامُ الصَّمْتِ ، وسُكُونُ الجَوَارِحِ ، ومُبَادَرَةُ الأَمْرِ ، واجتنابُ النَّهْي ، وقِلَّةُ الاِعتراضِ عَلَى الْقَدَرِ ، ودَوَامُ الذِّكْرِ باللسان ، ومُلاَزَمَةُ الفِكْر ، وإيثارُ الحَقّ ، واليَأْسُ من الخَلْق ، والخضوعُ تحْتَ الهيبَةِ ، والانْكِسَارُ تحت الحياء ، والسُّكُونُ عن حِيَلِ الكَسْبِ ثِقَةً بالضَّمَان ، والتَوَكُّلُ على فَضْلِ اللَّه معرفةً بحسن اختياره ؛ وهذا كله ينبغي أنْ يكون شعارَكَ ، في جميع لَيْلِكَ ونَهَارِك ، فإنَّهُ آداب الصحبة مع صاحب لا يفارقك ، والخلق كُلُّهم يفارقُونَكَ في بَعْضِ أوقاتك ، ، انتهى من «بداية الهداية» .

وقوله : ﴿ بَلاَغٌ ﴾ يحتمل معانيَ :

أحدُهَا : أَنْ يكون خبر مبتدإ محذوفٍ ، أي : هذا إنذارٌ وتبليغٌ .

ويحتمل أنْ يريد : كأنْ لم يلبثوا إلاَّ ساعةً كانَتْ بلاغَهُمْ ، وهذا كما تَقُولُ : متاعٌ قليلٌ ، وقيل غَيْرُ هذا ، وقرأ أبو مِجْلَزٍ وغَيره : ﴿ بَلَغٌ ﴾ على الأمر ، وقرأ الحسنُ بْنُ أبي الحَسَنِ : ﴿ بَلاَغٌ ﴾ بالخفْضِ نعتاً ل ﴿ نَّهَارٍ ﴾ .

(32/705)

وقوله سبحانه : ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ القوم الفاسقون ﴾ وقُرِىءَ شَاذاً : ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ ﴾ ببناء الفعل للفاعل ، وفي هذه الآية وعيدٌ مَحْضٌ ، وإنذارٌ بَيِّنٌ ؛ وذلك أَنَّ اللَّه عز وجل جعل الحسنة بعشر أمثالها والسيئةَ بمثلها ، وغفر الصغائر باجتنابِ الكبائرِ ، ووعد الغفرانَ على التوبة ، فلن يهلك على اللَّه إلاَّ هالَكَ ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم قال الثعلبيُّ : يقال : إن قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ القوم الفاسقون ﴾ أرجى آية في كتاب اللَّه عزَّ وجلَّ للمؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 4 صـ ﴾

(33/705)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الجن ﴾

أَمَلْناهم إليكَ وأقبلنا بهم نحوكَ . وقُرِىءَ صرَّفنا بالتشديدِ للتكثيرِ ، لأَنَّهم جماعةٌ ، وهُو السرُّ في جمعِ الضميرِ في قولِه تعالى ﴿ يَسْتَمِعُونَ القرءان ﴾ وما بعدَهُ ، وهو حالٌ مقدرةٌ من نفراً لتخصصِه بالصفةِ ، أو صفةٌ أُخرى لَه أي واذكُرْ لقومِكَ وقتَ صَرَفنا إليكَ نفراً كائناً من الجنِّ مقدَّراً استماعَهم القُرانَ . ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ ﴾ أي القرآنَ عند تلاوتِه أو الرسولَ عند تلاوتِه له على الالتفاتِ والأولُ هو الأظهرُ . ﴿ قَالُواْ ﴾ أي قالَ بعضُهم لبعضٍ ﴿

أَنصِتُواْ ﴾ أي اسكتُوا لنسمعهُ ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ ﴾ أُتمَّ وفُرِغَ عن تلاوتِه ، وقُرِىءَ على البناءِ للفاعلِ وهو ضميرُ الرسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وهذا يؤيدُ عودَ ضميرِ حضروه إليهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامِ . ﴿ وَلَّوْاْ إلى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ مقدّرينَ إنذارَهُم عند رجوعِهم إليهم . رُوِيَ أنَّ الجنّ كانتْ تسترقُ السمعَ فلما حُرِستِ السماءُ ورُجموا بالشهبِ قالُوا ما هَذا إلا لنبأٍ حدثَ فنهضَ سبعةُ نفرٍ أو ستةُ نفرٍ من أشرافِ جنّ نصيبينَ أو نينَوى ، منُهم زوبعةُ فضربُوا حتى بلغوا تِهامةَ ثم اندفعُوا إلى وادِي نخلةَ فوافَوا رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وهو قائمٌ في جوفِ الليلِ يُصلّي أو في صلاةِ الفجرِ فاستمعُوا لقراءتِه وذلكَ عند منصرفِه من الطائفِ . وعن سعيدِ بنِ جُبيرٍ : ما قرأَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم على الجنّ ولا رآهُم وإنَّما كان يتلُو في صلاتِه فمرُّوا به فوقفُوا مستمعينَ وهو لا يشعرُ بهم فأنبأهُ اللهُ تعالَى باستماعِهم . وقيلَ : بلْ أمرَهُ اللهُ تعالى أنْ ينذرَ الجنَّ ويقرأَ عليهم فصرفَ إليه نَفَراً منهم جمعَهُم له فقالَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : " إنِّي أُمرتُ أنْ أقرأَ على الجنّ الليلةَ فمن يتبعُني قالَها ثلاثاً " فأطرقُوا إلا عبدَ اللَّهِ بنَ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنْهُ قالَ فانطلقنَا حتَّى

إذَا كُنَّا بأعلى مكةَ في شِعب الجحونِ خطَّ لي خطًّا ، فقالَ : " لا تخرجْ منه حتَّى أعودَ إليكَ " . ثم افتتحَ القرآنَ وسمعتُ لغطاً شديداً حتَّى خفتُ على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وغشيْتُه أسودةٌ كثيرة حالتْ بيني وبينَهُ حتى ما أسمعُ صوتَهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ثم انقطعُوا كقطعِ السحابِ فقالَ لي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : " هلْ رأيتَ شيئاً " قلتُ نعم رجالاً سُوداً مستشعرِي ثيابٍ بيضٍ فقالَ : " أولئكَ جنُّ نَصيبينَ وكانُوا اثني عشرَ ألفاً " والسورةُ التي قرأَها عليهم اقرأْ باسمِ ربّك .

﴿ قَالُواْ ﴾ أي عندَ رجوعِهم إلى قومِهم ﴿ ياقومنا إِنَّا سَمِعْنَا كتابا أُنزِلَ مِن بَعْدِ موسى ﴾ قيلَ : قالُوه لأَنَّهم كانُوا على اليهوديةِ . وعنِ ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهُمَا : إنَّ الجنَّ لم تكُن سمعت بأمرِ عِيْسَى عليه السَّلامُ . ﴿ مُصَدّقاً لّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أرادُوا به التوراةَ ﴿ يَهْدِى إِلَى الحق ﴾ من العقائدِ الصحيحةِ ﴿ وإلى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ مُوصلٍ إليهِ وهُو الشَّرائعُ والأعمالُ الصالحةُ .

(35/705)

﴿ ياقومنا أَجِيبُواْ دَاعِىَ الله وَءامِنُواْ بِهِ ﴾ أرادُوا به ما سمعُوه من الكتابِ وصفُوه بالدَّعوةِ إلى الله تعالى بعدَ ما وصفُوه بالهدايةِ إلى الحقِّ والصراطِ المستقيمِ لتلازمِهما ، دَعَوهم إلى

ذلكَ بعدَ بيانِ حقّيتِه واستقامتِه ترغيباً لهم في الإجابةِ ثم أكَّدُوه بقولِهم ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ أي بعضَ ذنوبكم وهو ما كانَ في خالصِ حقّ الله تعالى فإنَّ حقوقَ العبادِ لا تُغفرُ بالإيمانِ. ﴿ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ معدَ للكفرةِ. واختُلفَ في أنَّ لهم أجراً غيرَ هذا أو لاَ والأظهرُ أنَّهم في حُكمِ بني آدمَ ثواباً وعقاباً. وقولُه تعالى: ﴿ وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِىَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى الأَرْضِ ﴾ إيجابٌ للإجابةِ بطريقِ الترهيبِ إثرَ إيجابِها بطريقِ الترغيبِ، وتحقيقٌ لكونهم منذرينَ. وإظهارُ داعي الله من غيرِ اكتفاءٍ بأحدِ الضميرينِ للمبالغةِ في الإيجابِ بزيادةِ التقريرِ وتربيةِ المهابةِ وإدخالِ الرَّوعةِ، وتقييدُ الإعجازِ بكونِه في الأرضِ لتوسيعِ الدائرةِ أي فليسَ بمعجزٍ له تعالى بالهربِ وإن هربَ كلَّ مهربٍ من أقطارِها أو دخلَ في أعماقِها. وقولُه تعالى ﴿ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ﴾ بيانٌ لاستحالةِ نجاتِه بواسطةِ الغيرِ إثرَ بيانِ استحالةِ نجاتِه بنفسِه. وجمعُ الأولياءِ باعتبارِ مَعْنى مَنْ فيكونُ من بابِ مقابلةِ الجمعِ بالجمعِ لانقسامِ الآحادِ إلى الآحادِ كما أنَّ الجمعَ في قولِه تعالى ﴿ أُولَئِكَ ﴾ بذلكَ الاعتبارِ، أي أولئكَ الموصوفونَ بعدِ إجابةِ داعِي الله. ﴿ فِى ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ أي ظاهرٌ كونُهُ ضلالاً بحيثُ لا يَخْفى على أحدٍ حيثُ أعرضُوا عن إجابةِ مَنْ هَذا شأنُه.

(36/705)

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ الهمزةُ للإنكارِ ، والواو للعطفِ على مقدرٍ يستدعيهِ المقامُ . والرؤيةُ قلبيةٌ أيْ ألم يتفكَّروا ولم يعلمُوا علماً جازماً مُتاخِماً للمشاهدةِ والعيانِ ﴿ أَنَّ الله الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ ابتداءً من غيرِ مثالٍ يحتذيهِ ولا قانونٍ ينتحيهِ . ﴿ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ أي لم يتعبْ ولم ينصَبْ بذلك أصلاً أو لم يعجزْ عنهُ . يقالُ عييتُ بالأمرِ إذا لم يُعرفْ وجَهُهُ . وقولُه تعالى : ﴿ بِقَادِرٍ ﴾ في حيزِ الرفعِ لأنَّه خبرُ أنَّ كما ينبىءُ عنْهُ القراءةُ بغيرِ باءٍ ، ووجهُ دخولِها في القراءةِ الأُولى اشتمالُ النفيِّ الواردِ في صدرِ الآيةِ على أنَّ ومَا في حيزِها كأنَّه قيلَ : أو ليسَ الله بقادرٍ . ﴿ على أَن يُحْيِىَ الموتى ﴾ ولذلكَ أجيبَ عنه بقولِه تعالى : ﴿ بلى إِنَّهُ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تقريراً للقدرةِ على وجهٍ عامٍ يكونُ كالبرهانِ على المقصودِ .

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الذين كَفَرُواْ عَلَى النار ﴾

(37/705)

ظرفٌ عاملُه قولٌ مضمرٌ ، مقولُه ﴿ أَلَيْسَ هذا بالحق ﴾ على أنَّ الإشارةَ إلى ما يشاهدونَهُ حينئذٍ من حيثُ هو من غيرِ أنْ يخطرَ بالبالِ لفظٌ يدلُّ عليهِ فضلاً عن تذكيرِه وتأنيثِه إذ هُو اللائق بتهويلِه وتفخيمِه وقد مرَّ في سورةِ الأحزابِ ، وقيل : هيَ إلى العذابِ

وفيه تهكمٌ بهم وتوبيخٌ لهم على استهزائهم بوعدِ الله ووعيدِه وقولِهم وما نحنُ بمعذبينَ ﴿ قَالُواْ بلى وَرَبّنَا ﴾ أكَّدُوا جوابَهُم بالقسمِ كأنَّهم يطمعونَ في الخلاصِ بالاعترافِ بحقّيتها كما في الدُّنيا وأنَّى لهُم ذلكَ. ﴿ قَالَ فَذُوقُواْ العذاب بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ بها في الدُّنيا ومَعْنى الأمرِ الإهانةُ بهم والتوبيخُ لهم. والفاءُ في قولِه تعالى: ﴿ فاصبر كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ العزم مِنَ الرسل ﴾ جوابُ شرطٍ محذوفٍ أيْ إذا كان عاقبةُ أمرِ الكفرةِ ما ذُكِرَ فاصبرْ على ما يصيبكَ من جهتِهم كما صبرَ أولُو الثباتِ والحزمِ من الرسلِ فإنكَ من جُمْلتِهم بل من علْيتِهم ومِنْ للتبيينِ، وقيل: للتبعيضِ، والمرادُ بأُولي العزمِ أصحابُ الشرائعِ الذينَ اجتهدُوا في تأسيسِها وتقريرِها وصبرُوا على تحملِ مشاقّها ومعاداةِ الطاعنينَ فيها، ومشاهيرُهُم نوحٌ وإبراهيمُ وموسى وعِيْسَى عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، وقيلَ: هم الصابرونَ على بلاءِ الله كنوحٍ صبرَ على أذيةِ قومِه، كانُوا يضربونَهُ حتى يُغشَى عليهِ، وإبراهيمُ صبرَ على النَّارِ وعلى ذبحِ ولدِه، والذبيحُ على الذبحِ، ويعقوبُ على فقدِ الولدِ والبصرِ، ويوسفُ على الجُبِّ والسجنِ، وأيوبُ على الضُرِّ، ومُوسى قال له قومُه: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبّى سَيَهْدِينِ ﴾ وداودُ بكى على خطيئتِه أربعينَ سنةً، وعيْسَى لم يضع لبنةً على لبنةٍ صلواتُ الله تعالَى وسلامُه عليهم أجمعينَ.

(38/705)

﴿ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ أي لكُفَّارِ مكةَ بالعذابِ فإنَّه على شرفِ النزولِ بهم ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ ﴾ من العذابِ ﴿ لَّمْ يَلْبَثُواْ ﴾ في الدُّنيا ﴿ إِلاَّ سَاعَةً ﴾ يسيرةً ﴿ مّن نَّهَارٍ ﴾ لما يشاهدونَ من شدةِ العذابِ وطولِ مدتهِ . وقولُه تعالى ﴿ بَلاَغٌ ﴾ خبرٌ مبتدأٍ محذوفٍ ، أي هَذا الذي وُعظتم بهِ كفايةٌ في الموعظةِ أو تبليغٌ من الرسولِ ويُؤيدُه أنَّه قُرِىءَ بلغ ، وقُرِىءَ بلاغاً أي بلغُوا بلاغاً ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ القوم الفاسقون ﴾ أي الخارجونَ عن الاتِّعاظِ أو عن الطاعةِ . وقُرِىءَ بفتحِ الياءِ وكسرِ اللامِ ، وبفتحِهما ، منْ هَلِكَ وهَلَكَ ، وبنونِ العظيمةِ من الإهلاكِ ونصبِ القومِ ووصفِه .

عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم : " مَنْ قرأَ سورةَ الأحقافِ كُتبَ له عشرُ حسناتٍ بعددِ كلِّ رملةٍ في الدُّنيا " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(39/705)

وقال الآلوسى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾

الهمزة للإنكار والواو على أحد القولين عطف على مقدر دخله الاستفهام يستدعيه

المقام.

والرئية قلبية أي ألم يتفكروا ولم يعلموا ﴿ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السموات والأرض وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ أي لم يتعب بذلك أصلا من عيى كفعل بكسر العين ، ويجوز فيه الادعام بمعنى تعب كأعيا ، وقال الكسائي : أعييت من التعب وعييت من انقطاع الحيلة والعجز والتحير في الأمر ؛ وأنشدوا :

عيوا بأمرهم كما . . .

عيت ببيضتها الحمامة

أي لم يعجز عن خلقهن ولم يتحير فيه ، واختار بعضهم عدم الفرق ، وقرأ الحسن ﴿ وَلَمْ يَعْيَ ﴾ بكسر العين وسكون الياء ، ووجهه أنه في الماضي فتح عين الكلمة كما قالوا في بقي بقي بفتح القاف وألف بعدها وهي لغة طيء ، ولما بنى الماضي على فعل مفتوح العين بني مضارعه على يفعل مكسورها فجاء يعيي فلما دخل الجازم حذف الياء فبقي يعي بنقل حركة الياء إلى العين فسكنت الياء ، وقوله تعالى :

﴿ بِقَادِرٍ ﴾ في حيز الرفع لأنه خبر أن والباء زائدة فيه ، وحسن زيادتها كون ما قبلها في حيز النفي ، وقد أجاز الزجاج ما ظننت أن أحداً بقائم قياساً على هذا ، قال أبو حيان : والصحيح قصر ذلك على السماع فكأنه قيل هنا : أو ليس الله بقادر ﴿ على أَن يُحْيِيَ الموتى ﴾ ولذلك أجيب عنه بقوله تعالى : ﴿ بلى إِنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تقريراً

للقدرة على وجه عام يكون كالبرهان على المقصود ، ولذا قيل : إن هذا مشير إلى كبرى لصغرى سهلة الحصول فكأنه قيل : إحياء الموتى شيء وكل شيء مقدور له فينتج إن أحياء الموتء مقدور له ، ويلزمه أنه تعالى : ﴿ قَادِرٌ على أَن يُحْيِيَ الموتى ﴾ .

وقرأ الجحدري .

وزيد بن علي .

وعمرو بن عبيد .

وعيسى .

والأعرج بخلاف عنه ويعقوب ﴿ يُقَدّرُ ﴾ بدل ﴿ بِقَادِرٍ ﴾ بصيغة المضارع الدال على الاستمرار وهذه القراءة على ما قيل موافقة أيضاً للرسم العثماني .

(40/705)

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الذين كَفَرُواْ عَلَى النار ﴾

ظرف عامله قول مضمر بقوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ هذا بالحق ﴾ أي ويقال : ﴿ يَوْمٍ يُعْرَضُ ﴾ الخ ، والظاهر أن الجملة معترضة ، وقيل : هي حال ، والتقدير وقد قيل ، وفيه نظر ، وقد مر آنفاً الكلام في العرض بطوله ، والإشارة إلى ما يشاهدونه حين العرض من حيث هو

من غير أن يخطر بالبال لفظ يدل عليه فضلاً عن تذكيره وتأنيثه إذ هو اللائق بتهويله وتفخيمه ، وقيل : هي إلى العذاب بقرينة التصريح به بعد ، وفيه تهكم بهم وتوبيخ لهم على استهزائهم بوعد الله تعالى ووعيده ، وقولهم : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء : 138] .

﴿ قَالُواْ بلى وَرَبِّنَا ﴾ تصديق بحقيته ؛ وأكدوا بالقسم كأنهم يطمعون في الخلاص بالاعتراف بحقية ذلك كما في الدنيا وأني لهم .

وعن الحسن أنهم ليعذبون في النار وهم راضون بذلك لأنفسهم يعترفون أنه العدل .

﴿ قَالَ فَذُوقُواْ العذاب بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ بسبب استمراركم على الكفر في الدنيا ، ومعنى الأمر الإهانة بهم فهو تهكم وتوبيخ وإلا لكان تحصيلاً للحاصل ، وقيل : هو أمر تكويني ؛ والمراد إيجاب عذاب غير ما هم فيه وليس بذاك .

(41/705)

والفاء في قوله تعالى : ﴿ فاصبر كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ العزم مِنَ الرسل ﴾ واقعة في جواب شرط مقدر أي إذا كان عاقبة أمر الكفرة ما ذكر فاصبر على ما يصيبك من جهتهم أو إذا كان الأمر على ما تحققته من قدرته تعالى الباهرة ﴿ فاصبر ﴾ وجوز غير واحد كونها

عاطفة لهذه الجملة على ما تقدم ، والسببية فيها ظاهرة واقتصر في البحر على كونها لعطف هذه الجملة على اخبار الكفار في الآخرة ؛ وقال : المعنى بينهما مرتبط كأنه قيل : هذه حالهم فلا تستعجل أنت واصبر ولا تخف إلا الله عز وجل ، والعزم يطلق على الجد والاجتهاد في الشيء وعلى الصبر عليه ، ﴿ مِنْ ﴾ بيانية كما في ﴿ فاجتنبوا الرجس مِنَ الاوثان ﴾ [الحج : 30] والجار والمجرور في موضع الحال من ﴿ الرسل ﴾ فيكون أولوا العزم صفة جميعهم ، وإليه ذهب ابن زيد .

والجبائي .

وجماعة أي ﴿ فاصبر كَمَا صَبَرَ ﴾ الرسل المجدون المجتهدون في تبليغ الوحي الذين لا يصرفهم عنه صارف ولا يعطفهم عنه عاطف والصابرون على أمر الله تعالى فيما عهده سبحانه إليهم أو قضاه وقدره عز وجل عليهم بواسطة أو بدونها .

وعن عطاء الخراساني .

والحسن بن الفضل .

والكلبي .

ومقاتل .

وقتادة .

وأبي العالية .

وابن جريج ، وإليه ذهب أكثر المفسرين أن ﴿ مِنْ ﴾ للتبعيض فأولوا العزم بعض الرسل عليهم السلام ، واختلف في عدتهم وتعيينهم على أقوال ، فقال الحسن بن الفضل : ثمانية عشر وهم المذكورون في سورة الأنعام (90) لأنه سبحانه قال بعد ذكرهم : ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ وقيل : تسعة نوح عليه السلام صبر على أذى قومه طويلاً .

وإبراهيم عليه السلام صبر على الإلقاء في النار .

والذبيح عليه السلام صبر على ما أريد به من الذبح .

ويعقوب عليه السلام صبر على فقد ولده .

ويوسف عليه السلام صبر على البئر والسجن وأيوب عليه السلام صبر على البلاء .

(42/705)

وموسى عليه السلام قال له قومه : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء : 61] فقال : ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 62] وداود عليه السلام بكى على خطيئته أربعين سنة وعيسى عليه السلام لم يضع لبنة على لبنة وقال : إنها يعني الدنيا معبرة فاعبروها ولا تعمروها ، وقيل : سبعة آدم .

ونوح .

وإبراهيم .

وموسى .

وداود .

وسليمان .

وعيسى عليهم السلام ، وقيل : ستة وهم الذين أمروا بالقتال وهم نوح .

وهود .

وصالح .

وموسى .

وداود .

وسليمان ، وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس ، وعن مقاتل أنهم ستة ولم يذكر حديث الأمر بالقتال وقال : هم نوح .

وإبراهيم .

وإسحق .

ويعقوب .

ويوسف .

وأيوب .

وأخرج ابن عساكر عن قتادة أنهم نوح .

وهود .

وإبراهيم .

وشعيب .

وموسى عليهم السلام .

وظاهره القول بأنهم خمسة وأخرج عبد الرزاق .

وعبد بن حميد .

وابن المنذر عنه أنهم نوح .

وإبراهيم .

وموسى .

وعيسى وظاهره القول بأنهم أربعة وهذا أصح الأقوال .

وقول الجلال السيوطي : إن أصحها القول بأنهم خمسة هؤلاء الأربعة ونبينا صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين وأخرج ذلك ابن أبي حاتم .

وابن مردويه عن ابن عباس وهو المروى عن أبي جعفر .

وأبي عبد الله من أئمة أهل البيت رضي الله تعالى عنهم ونظمهم بعض الأجلة فقال :

أولو العزم نوح والخليل الممجد . . .

وموسى وعيسى والحبيب محمد

مبني على أنهم كذلك بعد نزول الآية وتأسى نبينا عليه الصلاة والسلام بمن أمر بالتأسي به ولم يرد أن أصح الأقوال أن المراد بهم في الآية أولئك الخمسة صلى الله تعالى عليهم وسلم إذ يلزم عليه أمره عليه الصلاة والسلام أن يصبر كصبره نفسه ولا يكاد يصح ذلك ، وعلى هذا قول أبي العالية فيما أخرجه عبد بن حميد .

وأبو الشيخ .

والبيهقي في شعب الإيمان .

وابن عساكر عنه أنهم ثلاثة نوح .

وإبراهيم .

(43/705)

وهود ورسول الله صلى الله عليه وسلم رابع لهم ، ولعل الأولى في الآية القول الأول وإن صار أولوا العزم بعد مختصاً بأولئك الخمسة عليهم الصلاة والسلام عند الاطلاق لاشتهارهم بذلك كما في الأعلام الغالبة فكأنه قيل : فاصبر على الدعوة إلى الحق ومكابدة الشدائد مطلقاً كما صبر إخوانك الرسل قبلك ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ أي لكفار مكة بالعذاب أي

لا تدع بتعجيله فإنه على شرف النزول بهم ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ ﴾ من العذاب ﴿ لَّمْ يَلْبَثُواْ ﴾ في الدنيا ﴿ إِلاَّ سَاعَةً ﴾ يسيرة ﴿ مّن نَّهَارٍ ﴾ لما يشاهدون من شدة العذاب وطول مدته .

وقرأ أبي ﴿ مّنَ النهار ﴾ وقوله تعالى : ﴿ بَلاَغٌ ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هذا الذي وعظته به كفاية في الموعظة أو تبليغ من الرسول ، وجعل بعضهم الإشارة إلى القرآن أو ما ذكر من السورة .

وأيد تفسير ﴿ بَلاَغٌ ﴾ بتبليغ بقراءة أبي مجاز .

وأبي سراج الهذلي ﴿ بَلَغَ ﴾ بصيغة الأمر له صلى الله عليه وسلم ، وبقراءة أبي مجاز أيضاً في رواية ﴿ بَلَغَ ﴾ بصيغة الماضي من التفعيل ، واستظهر أبو حيان كون الإشارة إلى ما ذكر من المدة التي لبثوا فيها كأنه قيل : تلك الساعة بلاغهم كما قال تعالى : ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ﴾ [آل عمران : 197] وقال أبو مجاز : ﴿ بَلاَغٌ ﴾ مبتدأ خبره قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ ﴾ السابق فيوقف على ﴿ وَلاَ تَسْتَعْجِل ﴾ ويبتدأ بقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ ﴾ وتكون الجملة التشبيهية معترضة بين المبتدأ والخبر ؛ والمعنى لهم انتهاء وبلوغ إلى وقت فينزل بهم العذاب ؛ وهو ضعيف جداً لما فيه من الفصل ومخالفة الظاهر إذ الظاهر تعلق ﴿ لَهُمْ ﴾ بتستعجل .

وقرأ الحسن .

وزيد بن علي .

وعيسى ﴿ بَلاَغاً ﴾ بالنصب بتقدير بلغ بلاغاً أو بلغنا بلاغاً أو نحو ذلك .

وقرأ الحسن أيضاً ﴿ بَلاَغٌ ﴾ بالجر على أنه نعت لنهار .

(44/705)

﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ القوم الفاسقون ﴾ الخارجون عن الاتعاظ أو عن الطاعة ، وفي الآية من الوعيد والإنذار ما فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(45/705)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ﴾

لما بيّن سبحانه أن في الإنس من آمن ، وفيهم من كفر ، بيّن أيضاً أن في الجنّ كذلك ، فقال : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مّنَ الجن ﴾ العامل في الظرف مقدّر ، أي : واذكر إذ صرفنا . أي : وجهنا إليك نفراً من الجنّ ، وبعثناهم إليك ، وقوله : ﴿ يَسْتَمِعُونَ القرءان ﴾ في محل

نصب صفة ثانية ل ﴿ نفراً ﴾ أو حال ؛ لأن النكرة قد تخصصت بالصفة الأولى ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ ﴾ أي : حضروا القرآن عند تلاوته ، وقيل : حضروا النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ويكون في الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة ، والأول أولى ﴿ قَالُواْ أَنصِتُواْ ﴾ أي : قال بعضهم لبعض : اسكتوا ، أمروا بعضهم بعضاً بذلك ؛ لأجل أن يسمعوا ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ ﴾ قرأ الجمهور ﴿ قضي ﴾ مبنياً للمفعول ، أي : فرغ من تلاوته .

وقرأ حبيب بن عبيد الله بن الزبير ، ولاحق بن حميد ، وأبو مجلز على البناء للفاعل ، أي : فرغ النبيّ صلى الله عليه وسلم من تلاوته ، والقراءة الأولى تؤيد أن الضمير في ﴿ حَضَرُوهُ ﴾ للقرآن ، والقراءة الثانية تؤيد أنه للنبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَّوْاْ إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ أي : انصرفوا قاصدين إلى من وراءهم من قومهم منذرين لهم عن مخالفة القرآن ، ومحذرين لهم ، وانتصاب : ﴿ منذرين ﴾ على الحال المقدّرة ، أي : مقدّرين الإنذار ، وهذا يدل على أنهم آمنوا بالنبيّ ، وسيأتي في آخر البحث بيان ذلك .

﴿ قَالُواْ يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ موسى ﴾ يعنون : القرآن ؛ وفي الكلام حذف ، والتقدير : فوصلوا إلى قومهم فقالوا : يا قومنا .

قال عطاء : كانوا يهوداً فأسلموا ﴿ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي : لما قبله من الكتب المنزّلة ﴿ يَهْدِي إِلَى الحق ﴾ أي : إلى الدين الحقّ ﴿ وإلى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي : إلى طريق الله القويم .

قال مقاتل : لم يبعث الله نبياً إلى الجنّ والإنس قبل محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ ياقومنا أَجِيبُواْ دَاعِيَ الله وَءامِنُواْ به ﴾ يعنون : محمداً صلى الله عليه وسلم ، أو القرآن ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ أي : بعضها ، وهو ما عدا حقّ العباد ، وقيل : " إن " من هنا لابتداء الغاية .

والمعنى : أنه يقع ابتداء الغفران من الذنوب ، ثم ينتهي إلى غفران ترك ما هو الأولى ، وقيل : هي زائدة ﴿ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وهو عذاب النار ، وفي هذه الآية دليل على أن حكم الجنّ حكم الإنس في الثواب والعقاب ، والتعبد بالأوامر والنواهي .

وقال الحسن : ليس لمؤمني الجنّ ثواب غير نجاتهم من النار ، وبه قال أبو حنيفة .

والأوّل أولى ، وبه قال مالك ، والشافعي ، وابن أبي ليلى .

وعلى القول الأوّل ، فقال القائلون به : أنهم بعد نجاتهم من النار يقال لهم : كونوا تراباً ، كما يقال للبهائم والثاني أرجح .

وقد قال الله سبحانه في مخاطبة الجنّ والإنس : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : 46 ، 47] فامتنّ سبحانه على الثقلين بأن جعل

جزاء محسنهم الجنة ، ولا ينافي هذا الاقتصار ها هنا على ذكر إجارتهم من عذاب أليم ، ومما يؤيد هذا أن الله سبحانه قد جازى كافرهم بالنار ، وهو مقام عدل ، فكيف لا يجازي محسنهم بالجنة ، وهو مقام فضل ، ومما يؤيد هذا أيضاً ما في القرآن الكريم في غير موضع أن جزاء المؤمنين الجنة ، وجزاء من عمل الصالحات الجنة ، وجزاء من قال لا إله إلاّ الله الجنة ، وغير ذلك مما هو كثير في الكتاب والسنة .

(47/705)

وقد اختلف أهل العلم هل أرسل الله إلى الجن رسلاً منهم أم لا ؟ وظاهر الآيات القرآنية أن الرسل من الإنس فقط ، كما في قوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ القرى ﴾ [يوسف : 109] .

وقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المرسلين إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطعام وَيَمْشُونَ فِى الأسواق ﴾ [الفرقان : 20] وقال سبحانه في إبراهيم الخليل : ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ النبوة والكتاب ﴾ [العنكبوت : 27] ، فكل نبيّ بعثه الله بعد إبراهيم ، فهو من ذرّيته ، وأما قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ يامعشر الجن والإنس أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ ﴾ [الأنعام : 130] فقيل : المراد من مجموع الجنسين ، وصدق على أحدهما ، وهم الإنس : كقوله : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا

اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن : 22] أي : من أحدهما .

﴿ وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ ﴾ أي : لا يفوت الله ، ولا يسبقه ، ولا يقدر على الهرب منه ؛ لأنه وإن هرب كل مهرب ، فهو في الأرض لا سبيل له إلى الخروج منها ، وفي هذا ترهيب شديد ﴿ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ أي : أنصار يمنعونه من عذاب الله .

(48/705)

بيّن سبحانه بعد استحالة نجاته بنفسه استحالة نجاته بواسطة غيره ، والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى من لا يجب داعي الله ، وأخبر أنهم ﴿ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : ظاهر واضح ، ثم ذكر سبحانه دليلاً على البعث ، فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللهَ الذي خَلَقَ السموات والارض ﴾ الرؤية هنا هي القلبية التي بمعنى العلم ، والهمزة للإنكار ، والواو للعطف على مقدّر ، أي : ألم يتفكروا ، ولم يعلموا أن الذي خلق هذه الأجرام العظام من السموات والأرض ابتداءً ﴿ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ أي : لم يعجز عن ذلك ولا ضعف عنه ، يقال عيّ بالأمر وعيي : إذا لم يهتد لوجهه ، ومنه قول الشاعر :

عيوا بأمرهم كما . . . عيت ببيضها الحمامه

قرأ الجمهور ﴿ ولم يعي ﴾ بسكون العين ، وفتح الياء مضارع عيي .

وقرأ الحسن بكسر العين وسكون الياء .

﴿ بِقَادِرٍ على أَن يُحْيِ الموتى ﴾ .

قال أبو عبيدة ، والأخفش : الباء زائدة للتوكيد ، كما في قوله : ﴿ وكفى بالله شَهِيداً ﴾ [النساء : 166] .

قال الكسائي ، والفراء ، والزجاج : العرب تدخل الباء مع الجحد والاستفهام ، فتقول : ما أظنك بقائم ، والجار والمجرور في محل رفع على أنهما خبر لأن ، وقرأ ابن مسعود ، وعيسى بن عمر ، والأعرج ، والجحدري ، وابن أبي إسحاق ، ويعقوب ، وزيد بن عليّ : (يقدر) على صيغة المضارع ، واختار أبو عبيد القراءة الأولى ، واختار أبو حاتم القراءة الثانية قال : لأن دخول الباء في خبر أنّ قبيح ﴿ بلى إِنَّهُ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لا يعجزه شيء .

(49/705)

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الذين كَفَرُواْ عَلَى النار ﴾ الظرف متعلق بقول مقدّر ، أي : يقال ذلك اليوم للذين كفروا ﴿ أَلَيْسَ هذا بالحق ﴾ وهذه الجملة هي المحكية بالقول ، والإشارة بهذا إلى ما هو مشاهد لهم يوم عرضهم على النار ، وفي الاكتفاء بمجرّد الإشارة من التهويل للمشار

إليه ، والتفخيم لشأنه ما لا يخفى ؛ كأنه أمر لا يمكن التعبير عنه بلفظ يدلّ عليه ﴿ قَالُواْ بلى وَرَبّنَا ﴾ اعترفوا حين لا ينفعهم الاعتراف ، وأكدوا هذا الاعتراف بالقسم ؛ لأن المشاهدة هي حق اليقين الذي لا يمكن جحده ولا إنكاره ﴿ قَالَ فَذُوقُواْ العذاب بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي : بسبب كفركم بهذا في الدنيا ، وإنكاركم له ، وفي هذا الأمر لهم بذوق العذاب توبيخ بالغ ، وتهكم عظيم .

لما قرّر سبحانه الأدلة على النبوّة والتوحيد والمعاد أمر رسوله بالصبر فقال : ﴿ فاصبر كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ العزم مِنَ الرسل ﴾ والفاء جواب شرط محذوف ، أي : إذا عرفت ذلك ، وقامت عليه البراهين ، ولم ينجع في الكافرين ، فاصبر كما صبر أولوا العزم ، أي : أرباب الثبات والحزم ، فإنك منهم .

قال مجاهد : أولوا العزم من الرسل خمسة : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، وهم أصحاب الشرائع .

وقال أبو العالية : هم نوح ، وهود ، وإبراهيم ، فأمر الله رسوله أن يكون رابعهم .

وقال السديّ : هم ستة إبراهيم ، وموسى ، وداود ، وسليمان ، وعيسى ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل : نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، ولوط ، وموسى .

وقال ابن جريج : إن منهم إسماعيل ، ويعقوب ، وأيوب ، وليس منهم يونس .

وقال الشعبي ، والكلبي : هم الذين أمروا بالقتال ، فأظهروا المكاشفة وجاهدوا الكفرة ، وقيل : هم نجباء الرّسل المذكورون في سورة الأنعام وهم ثمانية عشر : إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، ونوح ، وداود ، وسليمان ، وأيوب ، ويوسف ، وموسى ، وهارون ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، وإلياس ، وإسماعيل ، واليسع ، ويونس ، ولوط .

واختار هذا الحسين بن الفضل لقوله بعد ذكرهم : ﴿ أُوْلَئِكَ الذين هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ [الأنعام : 90] وقيل : إن الرسل كلهم أولوا عزم ، وقيل : هم اثنا عشر نبياً أرسلوا إلى بني إسرائيل .

وقال الحسن : هم أربعة : إبراهيم ، وموسى ، وداود ، وعيسى ﴿ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ أي : لا تستعجل العذاب يا محمد للكفار .

لما أمره سبحانه بالصبر ، ونهاه عن استعجال العذاب لقومه رجاء أن يؤمنوا قال : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ ﴾ من العذاب ﴿ لَمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾ أي : كأنهم يوم يشاهدونه في الآخرة لم يلبثوا في الدنيا إلاّ قدر ساعة من ساعات الأيام لما يشاهدونه من الهول العظيم والبلاء المقيم .

قرأ الجمهور : ﴿ بلاغ ﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي : هذا الذي وعظتهم به بلاغ ، أو تلك الساعة بلاغ ، أو هذا القرآن بلاغ ، أو هو مبتدأ ، والخبر لهم الواقع بعد قوله :

﴿ وَلاَ تَسْتَعْجِل ﴾ أي : لهم بلاغ .

وقرأ الحسن ، وعيسى بن عمر ، وزيد بن عليّ " بلاغاً " بالنصب على المصدر ، أي : بلغ بلاغاً .

وقرأ أبو مجلز : (بلغ) بصيغة الأمر .

وقرىء (بلغ) بصيغة الماضي ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ القوم الفاسقون ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ فهل يهلك ﴾ على البناء للمفعول .

وقرأ ابن محيصن على البناء للفاعل ، والمعنى : أنه لا يهلك بعذاب الله إلاّ القوم الخارجون عن الطاعة ، الواقعون في معاصي الله .

قال قتادة : لا يهلك على الله إلاّ هالك مشرك .

قيل : وهذه الآية أقوى آية في الرجاء .

(51/705)

قال الزجاج : تأويله لا يهلك مع رحمة الله وفضله إلاّ القوم الفاسقون .

وقد أخرج ابن أبي شيبة ، وابن منيع ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، والبيهقي كلاهما في الدلائل عن ابن مسعود قال : هبطوا ، يعني : الجن على النبيّ صلى الله

عليه وسلم وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة ، فلما سمعوه قالوا : أنصتوا ، قالوا : صه ، وكانوا تسعة أحدهم زوبعة ، فأنزل الله : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الجن ﴾ إلى قوله : ﴿ ضلال مُّبِينٍ ﴾ .

وأخرج أحمد ، وابن جرير ، وابن مردويه عن الزبير ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الجن يَسْتَمِعُونَ القرءان ﴾ قال : بنخلة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي العشاء الآخرة ﴿ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ﴾ [الجن : 17] .

وأخرج ابن جرير ، والطبراني ، وابن مردويه ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الجن ﴾ الآية ، قال : كانوا تسعة نفر من أهل نصيبين ، فجعلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم رسلاً إلى قومهم .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، وأبو نعيم عنه نحوه وقال : أتوه ببطن نخلة .

وأخرج الطبراني في الأوسط ، وابن مردويه عنه أيضاً قال : صرفت الجنّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّتين ، وكانوا أشراف الجنّ بنصيبين .

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن مسروق قال : سألت ابن مسعود من آذن النبيّ بالجنّ ليلة استمعوا القرآن ؟ قال : آذنته بهم شجرة .

وأخرج عبد بن حميد ، وأحمد ، ومسلم ، والترمذي عن علقمة قال : قلت لابن مسعود : هل صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم منكم أحداً ليلة الجنّ ؟ قال : ما صحبه منا أحد ، ولكنا فقدناه ذات ليلة ، فقلنا : اغتيل ، استطير ما فعل ؟ قال : فبتنا بشرّ ليلة بات بها قوم ، فلما كان في وجه الصبح إذا نحن به يجيء من قبل حراء ، فأخبرناه فقال : " إنه أتاني داعي الجنّ ، فأتيتهم فقرأت عليهم القرآن ، فانطلق ، فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم " .

وأخرج أحمد عن ابن مسعود قال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ .

وقد روي نحو هذا من طرق .

والجمع بين الروايات بالحمل على قصتين وقعت منه صلى الله عليه وسلم مع الجنّ حضر إحداهما ابن مسعود ، ولم يحضر في الأخرى .

وقد وردت أحاديث كثيرة أن الجنّ بعد هذا وفدت على رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّة بعد مرّة ، وأخذوا عنه الشرائع .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : أُوْلُواْ العزمِ مِنَ الرسل : النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ونوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى .

وأخرج ابن مردويه عنه قال : هم الذين أمروا بالقتال حتى مضوا على ذلك نوح ، وهود ، وصالح ، وموسى ، وداود ، وسليمان .

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : بلغني أن أولي العزم من الرسل كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر .

وأخرج ابن أبي حاتم ، والديلمي عن عائشة قالت : ظلّ رسول الله صلى الله عليه وسلم صائماً ثم طوى ، ثم ظلّ صائماً ثم طوى ، ثم ظلّ صائماً ، قال : " يا عائشة ، إن الدين لا ينبغي لمحمد ، ولا لآل محمد ، يا عائشة إن الله لم يرض من أولي العزم من الرسل إلاّ بالصبر على مكروهها ، والصبر عن محبوبها ، ثم لم يرض مني إلاّ أن يكلفني ما كلفهم ، فقال : ﴿ اصبر كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ العزم مِنَ الرسل ﴾ وإني والله لأصبرنّ كما صبروا جهدي ، ولا قوّة إلاّ بالله " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 25 . 28 ﴾

(53/705)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة لهذه الآية ، وانها من الآيات الدالة على البعث في البقرة والنحل والجاثية ، وغير ذلك من المواضع وأحلنا على ذلك مراراً ، والباء في قوله ﴿ بقادر ﴾ يسوغه أن النفي متناول لأن فما بعدها ، فهو في معنى ألي الله بقادر ؟

ويوضح ذلك قوله بعد : بلى . مقرراً لقدرته على البعث وغيره .

فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (35)

قوله تعالى : ﴿ فاصبر كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ العزم مِنَ الرسل ﴾ .

اختلف العلماء في المراد بأولي العزم من الرسل في هذه الآية الكريمة اختلافاً كثيراً .

وأشهر الأقوال في ذلك أنهم خمسة ، وهم الذين قدمنا ذكرهم في الأحزاب والشورى ، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليه الصلاة والسلام .

وعلى هذا القول فالرسل الذين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصبر كما صبروا أربعة فصار هو صلى الله عليه وسلم خامسهم .

(54/705)

واعلم أن اقول بأن المراد بأولي العزم جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وأن لفظة من ، في قوله : من الرسل بيانية يظهر أنه خلاف التحقيق ، كما دل على ذلك بعض الآيات القرآنية كقوله تعالى : ﴿ فاصبرِ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الحوت ﴾ [القلم : 48] الآية ، فأمر الله جل وعلا نبيه في آية القلم هذه بالصبر ، ونهاه عن أن يكون مثل يونس ، لأنه هو

صاحب الحوت وكقوله : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ [طه : 115] فآية القلم ، وآية طه المذكورتان كلتاهما تدل على أن أولي العزم من الرسل الذين أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يصبر كصبرهم ليسوا جميع الرسل والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ .

نهى الله نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة ، أن يستعجل لقومه ، أي يدعو الله عليهم بتعجيله لهم ، فمفعول تستعجل محذوف تقديره العذاب ، كما قاله القرطبي ، وهو الظاهر .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من النهي عن طلب تعجيل العذاب لهم جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى : ﴿ وَذَرْنِي والمكذبين أُوْلِي النعمة وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ [المزمل : 11] . وقوله تعالى ﴿ فَمَهِّلِ الكافرين أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً ﴾ [الطارق : 17] .

فإن قوله ﴿ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ ، وقوله : ﴿ فَمَهِّلِ الكافرين أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً ﴾ [الطارق : 17] موضح لمعنى قوله ﴿ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ .

والمراد بالآيات ، نهيه صلى الله عليه وسلم عن طلب تعجيل العذاب لهم ، لأنهم معذبون ، لا محالة عند انتها المدة المحددة للإمهال ، كما يوضحه قوله تعالى ﴿ فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً ﴾ [مريم : 84] وقوله تعالى ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان : 14] وقوله تعالى ﴿ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النار ﴾ [البقرة : 126] الآية . وقوله تعالى : ﴿ لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الذين كَفَرُواْ فِي البلاد مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المهاد ﴾ [آل عمران : 196 - 197] وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الذين يَفْتَرُونَ عَلَى الله الكذب لاَ يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ فِي الدنيا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ العذاب الشديد بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس : 69 - 70] إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يلبثوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يونس في الكلام على قوله تعالى

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يلبثوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النهار يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس : 45] وفي سورة قد أفلح المؤمنون في الكلام على قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ العآدين ﴾ [المؤمنون : 113] .

وبينا في الكلام على آية قد أفلح المؤمنون وجه إزالة إشكال معروف في الآيات المذكورة .

قوله تعالى : ﴿ بَلاَغٌ ﴾ .

التحقيق إن شاء الله أن أصوب القولين في قوله : ﴿ بَلاَغٌ ﴾ أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره ، هذا بلاغ ، أي هذا الرآن بلاغ من الله إلى خلقه .

(56/705)

ويدل لهذا قوله تعالى في سورة إبراهيم ﴿ هذا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ ﴾ [إبراهيم : 52] ، وقوله في الأنبياء ﴿ إِنَّ فِي هذا لَبَلاَغاً لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء : 106] ، وخير ما يفسر به القرآن القرآن .

والبلاغ اسم مصدر ، بمعنى التبليغ ، وقد علم باستقراء اللغة العربية ، أن الفعال يأتي كثيراً ، بمعنى التفعيل ، كبلغه بلاغاً : أي تبليغاً ، وكلمه كلاماً ، أي تكليماً ، وطلقها طلاقاً ، وسرحها سراحاً ، وبينه بياناً .

كل ذلك بمعنى التفعيل ، لأن فعل مضعفة العين ، غير معتلة اللام ولا مهموزته قياس مصدرها التفيل .

وما جاء منه على خلاف ذلك ، يحفظ ولا يقاس عليه ، كما هو معلوم في محله .

أما القول بأن المعنى وذلك اللبث بلاغ ، فهو خلاف الظاهر كما ترى ، والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ ﴾

عود إلى الاستدلال على إمكان البعث فهو متصل بقوله : ﴿ والذي قال لوالديه أفٍ لكما أَتَعِدَانِنِي أن أُخرج وقد خلت القرون من قبلي إلى قوله : ﴿ أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين ﴾ [الأحقاف : 17 ، 18] فهو انتقال من الموعظة بمصير أمثالهم من الأمم إلى الاستدلال على إبطال ضلالهم في شركهم وهو الضلال الذي جرّأهم على إحالة البعث ، بعد أن أطيل في إبطال تعدد الآلهة وفي إبطال تكذيبهم بالقرآن وتكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم وهذا عود على بدء فقد ابتدئت السورة بالاحتجاج على البعث بقوله تعالى : ﴿ ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ [الأحقاف : 3] الآية ويتصل بقوله : ﴿ والذي قال لوالديه أفٍ لكما أَتَعِدَانِنِي أن أخرج إلى قوله : أساطير الأولين ﴾ [الأحقاف : 17] .

والواو عاطفة جملة الاستفهام ، وهو استفهام إنكاري ، والرؤية عِلمية .

واختير هذا الفعل من بين أفعال العلم هنا لأن هذا العلم عليه حجة بينة مشاهدة ، وهي

دلالة خلق السماوات والأرض من عدم ، وذلك من شأنه أن يفرض بالعقل إلى أن الله كامل القدرة على ما هو دون ذلك من إحياء الأموات .

ووقعت ﴿ أنّ ﴾ مع اسمها وخبرها سادّة مسدّ مفعولي ﴿ يروا ﴾ .

ودخلت الباء الزائدة على خبر ﴿ أنّ ﴾ وهو مثبت وموكَّد ، وشأن الباء الزائدة أن تدخل على الخبر المنفي ، لأن ﴿ أن ﴾ وقعت في خبر المنفي وهو ﴿ أولم يروا ﴾ .

ووقع ﴿ بلى ﴾ جواباً عن الاستفهام الإنكاري .

(58/705)

ولا يريبك في هذا ما شاع على ألسنة المعربين أن الاستفهام الإنكاري في تأويل النفي ، وهو هنا اتصل بفعل منفي بـ (لم) فيصير نفي النفي إثباتاً ، فكان الشأن أن يكون جوابه بحرف (نعم) دون ﴿ بلى ﴾ ، لأن كلام المعربين أرادوا به أنه في قوة منفي عند المستفهم به ، ولم يريدوا أنه يعامل معاملة النفي في الأحكام .

وكون الشيء بمعنى شيء لا يقتضي أن يعطَى جميع أحكامه .

ومحل التعجيب هو خبر ﴿ أنّ ﴾ وأما ما قبله فالمشركون لا ينكرونه فلا تعجيب في شأنه .

ووقوع الباء في خبر ﴿ أنّ ﴾ وهو ﴿ بقادر ﴾ باعتبار أنه في حيّز النفي لأن العامل فيه وهو حرف ﴿ أنّ ﴾ وقع في موضع مفعولي فِعل ﴿ يروا ﴾ الذي هو منفي فسرى النفي للعامل ومعموله ، فقرن بالباء لأجل ذلك ، وفي "الكشاف" "قال الزجاج لو قلت : ما ظننت أن زيداً بقائم جاز ، كأنه قيل : أليس الله بقادر" أ هـ .

وقال أبو عبيدة والأخفش : الباء زائدة للتوكيد كالباء في قوله : ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ [النساء : 79] يريدان أنها زائدة في الإثبات على وجه الندور .

وأما موقع الجواب بحرف ﴿ بلى ﴾ فهو جواب لمحذوف دل عليه التعجيب من ظنهم أن الله غيرُ قادر على أن يحيي الموتى ، فإن ذلك يتضمن حكاية عنهم أن الله لا يحيي الموتى ، فأجيب بقوله : ﴿ بلى ﴾ تعليماً للمسلمين وتلقيناً لما يجيبونهم به .

وحرف ﴿ بلى ﴾ لما كان جواباً كان قائماً مقام جملة تقديرها : هو قادر على أن يحيي الموتى .

وجملة ﴿ ولم يَعْيَ بخلقهن ﴾ عطف على جملة ﴿ الذي خلق السماوات والأرض ﴾ .

وقوله : ﴿ لم يعييَ ﴾ مضارع عَيِيَ من باب رضي ، ومصدره العِيّ بكسر العين وهو العجز عن العمل أو عن الكلام ، ومنه العيّ في الكلام ، أي عسر الإبَانة .

وتعديته بالباء هنا بلاغة ليفيد انتفاء عجزه عن صنعها وانتفاء عجزه في تدبير مقاديرها ومناسباتها ، فكانت باء الملابسة صالحة لتعليق الخلق بالعي بمعنييه .

وكثير من أئمة اللغة يرون أن العِيّ يطلق على التعب وعن عجز الرأي وعجز الحيلة .

وعن الكسائي والأصمعي : العِيُّ خاص بالعجز في الحيلة والرأي .

وأما الإعياء فهو التعب من المشي ونحوه ، وفعله أعيا ، وهذا ما درج عليه الراغب وصاحب "القاموس" .

وظاهر الأساس : أن أعيا لا يكون إلا متعدياً ، أي همزته همزة تعدية فهذا قول ثالث .

وزعم أبو حيان أن مثله مقصور على السماع .

قلت : وهو راجع إلى تنازع العاملين .

وعلى هذا الرأي يكون قوله تعالى هنا ﴿ ولم يَعْيَ ﴾ دالاً على سَعة علمه تعالى بدقائق ما يقتضيه نظام السماوات والأرض ليوجدهما وافيين به .

وتكون دلالته على أنه قدير على إيجادهما بدلالة الفحوى أو يكون إيكال أمر قدرته على خلقهما إلى علم المخاطبين ، لأنهم لم ينكروا ذلك ، وإنما قصد تنبيههم إلى ما في نظام خلقهما من الدقائق والحِكم ومن جملتها لزوم الجزاء على عمل الصالحات والسيئات .

وعليه أيضاً تكون تعدية فعل ﴿ يَعْيَ ﴾ بالباء متعينة .

وقرأ الجمهور ﴿ بقادر ﴾ بالموحدة بصيغة اسم الفاعل .

وقرأه يعقوب ﴿ يقدر ﴾ بتحتية في أوله على أنه مضارع من القدرة ، وتكون جملة ﴿ يقدر ﴾ في محل خبر ﴿ أنَّ ﴾ .

وجملة ﴿ إنه على كل شيء قدير ﴾ تذييل لجملة ﴿ بلى ﴾ لأن هذه تفيد القدرة على خلق السماوات والأرض وإحياء الموتى وغير ذلك من الموجودات الخارجة عن السماوات والأرض .

وتأكيد الكلام بحرف (أنَّ) لرد إنكارهم أن يمكن إحياء الله الموتى ، لأنهم لما أحالوا ذلك فقد أنكروا عموم قدرته تعالى على كل شيء .

ولهذه النكتة جيء في القدرة على إحياء الموتى بوصف ﴿ قادر ﴾ ، وفي القدرة على كل شيء بوصف ﴿ قدير ﴾ الذي هو أكثر دلالة على القدرة من وصف ﴿ قادر ﴾ .

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (34)

(60/705)

موقع هذا الكلام أن عرض المشركين على النار من آثار الجزاء الواقع بعد البعث ، فلما ذكر في الآية التي قبلها الاستدلال على إمكان البعث أعقب بما يحصل لهم يوم البعث جمعاً بين الاستدلال والإنذار ، وذكر من ذلك ما يقال لهم مما لا ممندوحة لهم عن الاعتراف بخطئهم جمعاً بين ما رُدّ به في الدنيا من قوله : ﴿ بلى ﴾ [الأحقاف : 33] وما يُردون في علم أنفسهم يوم الجزاء بقولهم : ﴿ بلى وربنا ﴾ .

والجملة عطف على جملة ﴿ أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ﴾ [الأحقاف : 33] الخ .

وأول الجملة المعطوفة قوله : ﴿ أليسَ هذا بالحق ﴾ لأنه مقول فعل قول محذوف تقديره : ويُقال للذين كفروا يوم يعرضون على النار .

وتقديم الظرف على عامله للاهتمام بذكر ذلك اليومِ لزيادة تقريره في الأذهان .

وذِكر ﴿ الذين كفروا ﴾ إظهار في مقام الإضمار للإيماء بالموصول إلى علة بناء الخبر ، أي يقال لهم ذلك لأنهم كفروا .

والإشارة إلى عذاب النار بدليل قوله بعده ﴿ قال فذوقوا العذاب ﴾ .

والحق : الثابت .

والاستفهام تقريري وتنديمٌ على ما كانوا يزعمون أن الجزاء باطل وكَذب ، وقالوا ﴿ وما نحن بمعذبين ﴾ [الصافات : 59] ، وإنما أقسموا على كلامهم بقسم ﴿ وربّنا ﴾ قسماً

مستعملاً في الندامة والتغليظ لأنفسهم وجعلوا المقسم به بعنوان الرب تَحَنُّناً وتخضُّعاً .

وفرع على إقرارهم ﴿ فذوقوا العذاب ﴾ .

والذوق مجاز في الإحساس .

والأمر مستعمل في الإهانة .

فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (35)

(61/705)

تفريع على ما سبق في هذه السورة من تكذيب المشركين رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بجعلهم القرآن مفترى واستهزائهم به وبما جاء به من البعث ابتداء من قوله : ﴿ وإذا تُتْلَى عليهم آياتنا بيّنات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين ﴾ [الأحقاف : 7] ، وما اتصل به من ضَرْب المَثَل لهم بعاد .

فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما لقيه منهم من أذى ، وضرب له المثل بالرسل أولي العزم .

ويجوز أن تكون الفاء فصيحة .

والتقدير : فإذا علمت ما كان من الأمم السابقة وعلمت كيف انتقمنا منهم وانتصرنا برسلنا فاصبر كما صبروا .

وأولوا العزم : أصحاب العزم ، أي المتصفون به .

والعزم : نية محققة على عمل أو قول دون تردد .

قال تعالى : ﴿ فإذا عزمت فتوكّل على الله ﴾ [آل عمران : 159] وقال : ﴿ ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله ﴾ [البقرة : 235] .

وقال سعد بن ناشب من شعراء الحماسة يعني نفسه:

إذا هَمَّ ألقَى بين عينيه عزمه . . .

ونكَّب عن ذكر العواقب جانباً

والعزم المحمود في الدين : العزم على ما فيه تزكية النفس وصلاح الأمة ، وقوامه الصبر على المكروه وباعث التقوى ، وقوته شدة المراقبة بأن لا يتهاون المؤمن عن محاسبته نفسه قال تعالى : ﴿ وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾ [آل عمران : 186] وقال : ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً ﴾ [طه : 115] .

وهذا قبل هبوط آدم إلى عالم التكليف ، وعلى هذا تكون ﴿ مِن ﴾ في قوله : ﴿ من الرسل ﴾ تبعيضية .

وعن ابن عباس أنه قال : كل الرسل أولو عزم ، وعليه تكون ﴿ مِن ﴾ بيانية .

وهذه الآية اقتضت أن محمداً صلى الله عليه وسلم من أولي العزم لأن تشبيه الصبر الذي أمر به بصبر أولي العزم من الرسل يقتضي أنه مثلهم لأنه ممتثل أمر ربه ، فصبره مثيل لصبرهم ، ومَن صَبَرَ صَبْرَهم كان منهم لا محالة .

(62/705)

وأعقبَ أمره بالصبر بنهيه عن الاستعجال للمشركين ، أي الاستعجال لهم بالعذاب ، أي لا تطلب منا تعجيله لهم وذلك لأن الاستعجال ينافي العزم ولأن في تأخير العذاب تطويلاً لمدة صبر الرسول صلى الله عليه وسلم بكسب عزمه قوة .

ومفعول ﴿ تستعجل ﴾ محذوف دل عليه المقام ، تقديره : العذاب أو الهلاك .

واللام في ﴿ لهم ﴾ لام تعدية فعل الاستعجال إلى المفعول لأجله ، أي لا تستعجل لأجلهم ، والكلام على حذف مضاف إذ التقدير : لا تستعجل لهلاكهم .

وجملة ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ﴾ تعليل للنهي عن الاستعجال لهم بالعذاب بأن العذاب واقع بهم فلا يؤثر في وقوعه تطويل أجله ولا تعجيله ، قال مرة بن عداء الفقعسي ، ولعله أخذ قولَه من هذه الآية:

كأنك لم تُسبق من الدّهر ليلةً . . .

إذا أنت أدركت الذي كنت تطلب

وهم عند حلوله منذ طول المدة يشبه حالهم حال عدم المهلة إلا ساعة قليلة .

و﴿ من نهار ﴾ وصف الساعة ، وتخصيصها بهذا الوصف لأن ساعة النهار تبدو للناس قصيرة لما للناس في النهار من الشواغل بخلاف ساعة الليل تطول إذ لا يجد الساهر شيئاً يشغله .

فالتنكير للتقليل كما في حديث الجمعة قوله صلى الله عليه وسلم " وفيه ساعة يُستجاب فيها الدعاء " ، وأشار بيده يقللها ، والساعة جزء من الزمن .

﴿ نَّهَارٍ ﴾ .

فذلكة لما تقدم بأنه بلاغ للناس مؤمِنهم وكافِرهم ليعلم كلٌّ حَظّه من ذلك ، فقوله : ﴿ بلاغ ﴾ خبر مبتدإ محذوف تقديره : هذا بلاغ ، على طريقة العنوان والطالع نحوَ ما يُكتب في أعلى الظهير : "ظهير من أمير المؤمنين" ، أو ما يكتب في أعلى الصكوك نحو : "إيداع وصية" ، أو ما يكتب في التآليف نحو ما في "الموطأ" "وقوت الصلاة" .

ومنه ما يكتب في أعالي المنشورات القضائية والتجارية كلمة : "إعلان" .

(63/705)

وقد يظهر اسم الإشارة كما في قوله تعالى : ﴿ هذا بلاغ للناس ﴾ [إبراهيم : 52] ، وقول سيبويه : "هذا باب علم ما الكلم من العربية" ، وقال تعالى : ﴿ إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين ﴾ [الأنبياء : 106] .

والجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً على طريقة الفذلكة والتحصيل مثل جملة ﴿ تلك عشرة كاملة ﴾ [البقرة : 196] ، ﴿ تلك أمة قد خلت ﴾ [البقرة : 134] .

﴿ بَلاَغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ القوم ﴾ .

فرع على جملة ﴿ كأنهم يوم يرون ما يُوعدون ﴾ إلى ﴿ من نهار ﴾ ، أي فلا يصيبُ العذاب إلا المشركين أمثالهم .

والاستفهام مستعمل في النفي ، ولذلك صحّ الاستثناء منه كقوله تعالى : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلاّ من سفه نفسه ﴾ [البقرة : 130] .

ومعنى التفريع أنه قد اتضح مما سمعت أنه لا يهلك إلا القوم الفاسقون ، وذلك من قوله : ﴿ قل ما كنتُ بِدْعاً من الرسل ﴾ [الأحقاف : 9] ، وقوله : ﴿ لتنذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين إلى قوله : ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ [الأحقاف : 12 ، 13] ، وقوله : ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى ﴾ [الأحقاف : 27] الآية .

والإهلاك مستعمل في معنييه الحقيقي والمجازي ، فإن ما حكي فيما مضى بعضه إهلاك حقيقي مثل ما في قصة عاد ، وما في قوله : ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى ﴾ ،

وبعضه مجازي وهو سوء الحال ، أي عذاب الآخرة : وذلك فيما حكي من عذاب الفاسقين .

وتعريف ﴿ القوم ﴾ تعريف الجنس ، وهو مفيد العموم ، أي كل القوم الفاسقين فيعم مشركي مكة الذين عناهم القرآن فكان لهذا التفريع معنى التذييل .

والتعبير بالمضارع في قوله : ﴿ فهل يُهلَك ﴾ على هذا الوجه لتغليب إهلاك المشركين الذي لمّا يقَعْ على إهلاك الأمم الذين قبلهم .

ولك أن تجعل التعريف تعريف العهد ، أي القوم المتحدث عنهم في قوله : ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون ﴾ الآية ، فيكون إظهاراً في مقام الإضمار للإيماء إلى سبب إهلاكهم أنه الإشراك .

(64/705)

والمراد بالفسق هنا الفسق عن الإيمان وهو فسق الإشراك .

وأفاد الاستثناء أن غيرهم لا يهلكون هذا الهلاك ، أو هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(65/705)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ﴾

أخرج ابن ماجه وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يرحمنا الله وأخا عاد "

وأخرج ابن أبي حاتم عن علي رضي الله عنه قال : " خير واديين في الناس وادي مكة ووادي أرم بأرض الهند ، وشرّ واديين في الناس وادي الأحقاف وواد بحضرموت يدعى برهوت يلقى فيه أرواح الكفار ، وخير بئر في الناس زمزم ، وشر بئر في الناس برهوت ، وهي في ذاك الوادي الذي بحضرموت .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الأحقاف جبل بالشام .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : الأحقاف جبل بالشام يسمى الأحقاف .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه قال : الأحقاف الأرض .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه قال : الأحقاف جساق من جسمي .

وأخرج ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه قال : ذكر لنا أن عاداً كانوا أحياء باليمن أهل

رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشحر .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله بالأحقاف قال : تلال من أرض اليمن .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله ﴾ قال : لم يبعث الله رسولاً ألا بأن يعبد الله .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ لتأفكنا ﴾ قال لتزيلنا ، وقرأ " إن كاد ليضلنا عن آلهتنا " قال : يضلنا ويزيلنا ويأفكنا واحد .

فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (24)

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ هذا عارض ممطرنا ﴾ قال : هو السحاب .

(66/705)

وأخرج سعبد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود وابن المنذر وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت : " ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لهواته ، إنما كان يتبسم ، وكان إذا رأى غيماً أو

ريحاً عرف ذلك في وجهه . قلت يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وإذا رأيته عرف في وجهك الكراهية . قال يا عائشة وما يؤمنني أن يكون فيه عذاب ، قد عذب قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب فقالوا ﴿ هذا عارض ممطرنا ﴾ ".

وأخرج عبد بن حميد ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة عن عائشة رضي الله عنها قالت : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عصفت الريح قال : اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به ، فإذا تخيلت السماء تغير لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر فإذا أمطرت سري عنه ، فسألته فقال لا أدري لعله كما قال قوم عاد ﴿ هذا عارض ممطرنا ﴾ " .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب السحاب وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم ﴾ قال غيم فيه مطر ، فأول ما عرفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجاً من رحالهم ومواشيهم يطير بين السماء والأرض مثل الريش دخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم فجاءت الريح ففتحت أبوابهم ، ومالت عليهم بالرمل ، فكانوا تحت الرمل سبع ليال وثمانية أيام حسوماً لهم أنين ، ثم أمر الريح فكشف عنهم الرمل وطرحتهم في البحر فهو قوله ﴿ فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ﴾ .

وأخرج ابن أبي الدنيا وأبو يعلى والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما فتح الله على عاد من الريح التي هلكوا فيها إلا مثل الخاتم فمرت بأهل البادية فحملتهم وأموالهم فجعلتهم بين السماء والأرض ، فلما رأى ذلك أهل الحاضرة من عاد الريح وما فيها ﴿ قالوا هذا عارض ممطرنا ﴾ فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضره " .

وأخرج الطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما فتح الله على عاد من الريح إلا موضع الخاتم أرسلت عليهم فحملت البدو إلى الحضر فلما رآها أهل الحضر ﴿ قالوا هذا عارض ممطرنا ﴾ مستقبل أوديتنا وكان أهل البوادي فيها فألقي أهل البادية على أهل الحاضرة حتى هلكوا ، قال : عتت على خزَّانِها حتى خرجت من خلال الأبواب " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن عمرو بن ميمون رضي الله عنه قال : كان هود قاعداً في قومه فجاء سحاب مكفهر فقالوا ﴿ هذا عارض ممطرنا ﴾ فقال هود ﴿ بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ﴾ فجعلت تلقي الفسطاط وتجيء بالرجل الغائب .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير والحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ما أرسل الله على عاد من الريح إلا قدر خاتمي هذا .

وأخرج عبد بن حميد عن ميمون رضي الله عنه أنه قرأ " لا ترى إلا مساكنهم " بالتاء والنصب .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم رضي الله عنه أنه قرأ ﴿ لا يرى إلا مساكنهم ﴾ بالياء ورفع النون .

وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ﴾ يقول : لم نمكنكم فيه .

(68/705)

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ولقد مكناهم ﴾ الآية قال : عاد مكنوا في الأرض أفضل ما مكنت فيه هذه الأمة وكانوا أشد قوة وأكثر أولاداً وأطول أعماراً .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى ﴾ ههنا وههنا شيئاً باليمن واليمامة والشام .

وأخرج سعيد بن منصور عن ابن الزبير رضي الله عنه أنه قرأ " وتلك إفكهم " .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه كان يقرأها " وذلك أفكهم " يعني بفتح الألف والكاف .

وقال : أصلهم .

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (29)

أخرج أحمد وابن أبي حاتم وابن مردويه عن الزبير ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ﴾ قال : بنخلة ، قال : ورسوله صلى الله عليه وسلم يصلي العشاء الآخرة كادوا يكونون عليه لبداً .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن منيع والحاكم وصححه ، وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : هبطوا على النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة ، فلما سمعوه قالوا : أنصتوا قالوا : صه ، وكانوا تسعة أحدهم زوبعة ، فأنزل الله ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن ﴾ إلى قوله ﴿ ضلال مبين ﴾ .

وأخرج ابن جرير والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ﴾ الآية قال : كانوا تسعة عشر من أهل نصيبين فجعلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم رسلاً إلى قومهم .

وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : صُرِفَتِ الجن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين ، وكان أشراف الجن بنصيبين .

(69/705)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن ﴾ قال : كانوا من أهل نصيبين أتوه ببطن نخلة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ في العظمة عن ابن مسعود رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بت الليلة أقرأ على الجن رفقاً بالحجون " .

وأخرج البخاري ومسلم وابن مردويه عن مسروق قال : سألت ابن مسعود من آذن النبي صلى الله عليه وسلم بالجن ليلة استمعوا القرآن قال : آذنته بهم شجرة .

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه سئل أين قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن فقال : قرأ عليهم بشعب يقال له الحجون .

وأخرج عبد بن حميد وأحمد ومسلم والترمذي عن علقمة قال : قلت لابن مسعود رضي الله عنه : هل صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن منكم أحد ؟ قال : ما صحبه منا أحد ، ولكنا فقدناه ذات ليلة فقلنا اغتيل استطير ما فعل ، قال : فبتنا بشر ليلة

بات بها قوم فلما كان في وجه الصبح إذا نحن به يجيء من قبل حرا ، فأخبرناه فقال : إنه أتاني داعي الجن فأتيتهم فقرأت عليهم القرآن فانطلق فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن ﴾ قال : هم اثنا عشر ألفاً من جزيرة الموصل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن ﴾ قال : كانوا سبعة ثلاثة من أهل حران وأربعة من نصيبين ، وكانت أسماؤهم حسى ومسى وشاصر وماصر والارد واينان والأقحم وسرق .

(70/705)

وأخرج الطبراني والحاكم وابن مردويه عن صفوان بن المعطل قال : خرجنا حجاجاً فلما كنا بالعرج إذا نحن بحية تضطرب فما لبث أن ماتت فلفها رجل في خرقة ودفنها ، ثم قدمنا مكة فإنا لبالمسجد الحرام إذ وقف علينا شخص فقال : أيكم صاحب عمرو ؟ قلنا : ما نعرف عمراً . قال : أيكم صاحب الجان ؟ قالوا : هذا . قال : أما أنه آخر التسعة موتاً الذين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمعون القرآن .

وأخرج أبو نعيم في الدلائل والواقدي عن أبي جعفر رضي الله عنه قال : قدم على رسول

الله صلى الله عليه وسلم الجن في ربيع الأول سنة إحدى عشر من النبوة .

وأخرج الواقدي وأبو نعيم عن كعب الأحبار رضي الله عنه قال : لما انصرف النفر التسعة من أهل نصيبين من بطن نخلة وهم فلان وفلان وفلان والأرد واينان والأحقب جاؤوا قومهم منذرين فخرجوا بعد وافدين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم ثلثمائة فانتهوا إلى الحجون ، فجاء الأحقب فسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إن قومنا قد حضروا الحجون يلقونك فواعده رسول الله صلى الله عليه وسلم لساعة من الليل بالحجون والله أعلم .

فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ

أخرج ابن أبي حاتم والديلمي عن عائشة رضي الله عنها قالت : " ظل رسول الله صلى الله عليه وسلم صائماً ، ثم طوى ، ثم ظل صائماً ثم طوى ، ثم ظل صائماً ، قال : " يا عائشة إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد . يا عائشة إن الله لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهها والصبر عن محبوبها ، ثم لم يرض مني إلا أن يكلفني ما كلفهم ، فقال : ﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ﴾ ، وإني والله لأصبرنّ كما صبروا جهدي ولا قوة إلا بالله " .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : أولوا العزم من الرسل النبي صلى الله عليه وسلم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ والبيهقي في شعب الإِيمان وابن عساكر عن أبي العالية ﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ﴾ قال : نوح وهود وإبراهيم فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصبر كما صبروا وكانوا ثلاثة ورسول الله صلى الله عليه وسلم رابعهم قال نوح : ﴿ يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله ﴾ [يونس : 71] إلى آخرها فظهر لهم المفارقة وقال هود حين ﴿ قالوا : إن نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه ﴾ [هود : 53] فأظهر لهم المفارقة قال لإِبراهيم ﴿ لقد كان لكم أسوة حسنة في إبراهيم ﴾ [الممتحنة : 4] إلى آخر الآية فأظهر لهم المفارقة وقال يا محمد : ﴿ قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ﴾ [الأنعام : 56] فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الكعبة فقرأها على المشركين فأظهر لهم المفارقة .

وأخرج ابن عساكر عن قتادة في قوله ﴿ أولوا العزم ﴾ قال : هم نوح وهود وإبراهيم وشعيب وموسى .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : ﴿ أولوا العزم ﴾ إسماعيل ويعقوب وأيوب ، وليس

آدم منهم ولا يونس ولا سليمان .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة قال : ﴿ أولوا العزم ﴾ نوح وإبراهيم وموسى وعيسى .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ﴾ قال : هم الذين أمروا بالقتال حتى مضوا على ذلك نوح وهود وصالح وموسى وداود وسليمان .

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : بلغني أن أولي العزم من الرسل كانوا ثلثمائة وثلاثة عشر .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ﴾ قال : تعلموا والله ما يهلك على الله إلا هالك مشرك ولى الإِسلام ظهره أو منافق صدق بلسانه وخالف بقلبه .

وأخرج الطبراني في الدعاء عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(72/705)

" إذا طلبت وأحببت أن تنجح فقل : لا إله إلا إله وحده لا شريك له العلي العظيم لا إله إلا الله وحده لا شريك له رب السموات والأرض ، ورب العرش العظيم الحمد لله ، رب

العالمين كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عيشة أو ضحاها كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ، اللهم إني أسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك والسلامة من كل إثم والغنيمة من كل بر ، والفوز بالجنة والنجاة من النار اللهم لا تدع لي ذنباً إلا غفرته ولا همّاً إلا فرجته ولا حاجة هي لك رضاً إلا قضيتها يا أرحم الراحمين والحمد لله رب العالمين " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ 448 . 455 ﴾

(73/705)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ واذكر أَخَا عَادٍ ﴾

يعني : واذكر لأهل مكة .

ويقال : معناه واصبر على ما يقولون ، واذكر هود ﴿ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بالاحقاف ﴾ يعني : خوف قومه بموضع .

يقال له : الأحقاف .

روى منصور ، عن مجاهد قال : الأحقاف الأرض .

ويقال : جبل بالشام ، ويسمى الأحقاف .

وقال القتبي : الأحقاف جمع حقف ، وهو من الرمل ما أشرف من كثبانه ، واستطال وانحنى ﴿ وَقَدْ خَلَتِ النذر مِن بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ يعني : مضت من قبل هود ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ يعني : ومن بعده .

﴿ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ الله ﴾ يعني : خوفهم ألا تعبدوا إلا الله ، ووحدوه ﴿ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ يعني : أعلم أنكم ، إن لم تؤمنوا ، يصبكم عذاب يوم كبير ﴿ قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءالِهَتِنَا ﴾ يعني : لتصرفنا عن عبادة آلهتنا ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ من العذاب ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ أن العذاب نازل بنا ﴿ قَالَ ﴾ هود ﴿ إِنَّمَا العلم عِندَ الله ﴾ يعني : علم العذاب عند الله ، يجيء بأمر الله ، وإنَّما عليَّ تبليغ الرسالة ، وليس بيدي إتيان العذاب .

فذلك قوله : ﴿ وَأُبَلِّغُكُمْ مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ ﴾ يعني : ما يوحي الله إليَّ لأدعوكم إلى التوحيد ﴿ ولكنى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ لما قيل لكم ، ولما يراد بكم من العذاب .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾ يعني : لما رأوا العذاب مقبلاً ، وكانت السحابة إذا جاءت من قبل ذلك الوادي ، أمطروا .

وقال القتبي : العارض : السحاب ﴿ قَالُواْ هذا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ يعني : هذه سحابة ،

وغيم ممطرنا .

أي : تمطر به حروثنا ، لأن المطر كان حبس عنهم .

فقال هود : ليس هذا عارض ﴿ بَلْ هُوَ مَا استعجلتم بِهِ ﴾ يعني : الريح والعذاب ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : متلف .

(74/705)

وروى عطاء ، عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا رأى رياحاً مختلفة تلون وجهه ، وتغير وخرج ، ودخل وأقبل ، وأدبر فذكرت ذلك له فقال : وما يدريك لعله كما قال الله : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هذا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا استعجلتم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فإذا أمطرت سري عنه ويقول ﴿ وَهُوَ الذى يُرْسِلُ الرياح بُشْرىً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حتى إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سقناه لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ المآء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثمرات كذلك نُخْرِجُ الموتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : 57] .

ثم قال تعالى : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ يعني : تهلك الريح كل شيء بأمر ربها ، أي : بإذنه تعالى ﴿ فَأَصْبَحُواْ ﴾ أي : فصاروا من العذاب بحال ﴿ لاَ يرى مساكنهم ﴾ وقد

ذكرناه في سورة الأعراف .

قرأ حمزة ، وعاصم لا يُرَى بضم الياء ، مَسَاكِنُهُمْ بضم النون على معنى فعل ، ما لم يسم فاعله ، يعني : لا يرى شيء ، وقد هلكوا كلهم .

وقرأ الباقون ﴿ لاَّ ترى ﴾ بالتاء على معنى المخاطبة .

ومعناه لا ترى شيئاً أيها المخاطب ، لو كنت حاضراً ، ما رأيت إلا مساكنهم .

ثم قال ﴿ كذلك نَجْزِي القوم المجرمين ﴾ يعني : هكذا نعاقب القوم المشركين عند التكذيب ﴿ وَلَقَدْ مكناهم ﴾ يعني : أعطيناهم الملك والتمكين ﴿ فِيمَا إِن مكناكم فِيهِ ﴾ يعني : ما لم نمكن لكم ، ولم نعطكم يا أهل مكة .

وقال القتبي : إن الخفيفة قد تزاد في الكلام ، كقول الشاعر : ما إن رأيت ولا سمعت به ، يعني : ما رأيت ولا سمعت به ، يعني : ما لم نمكن لكم ومعنى الآية ﴿ وَلَقَدْ مكناهم فِيمَا إِن مكناكم فِيهِ ﴾ وقال الزجاج : إنْ ها هنا مكان ما ، يعني : فيما مكناكم فيه .

ويقال معناه : ولقد مكناهم في الذي مكناكم فيه .

﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وأبصارا وَأَفْئِدَةً ﴾ يعني : جعلنا لهم سمعاً ليسمعوا المواعظ ، وأبصاراً لينظروا في الدلائل ، وأفئدة ليتفكروا في خلق الله تعالى .

﴿ فَمَا أغنى عَنْهُمْ ﴾ يعني : لم ينفعهم من العذاب ﴿ سَمْعُهُمْ وَلاَ أبصارهم وَلاَ أَفْئِدَتُهُمْ مّن شَىْءٍ ﴾ إذ لم يسمعوا الهدى ، ولم ينظروا في الدلائل ، ولم يتفكروا في خلقه ﴿ وَلَقَدْ مكناهم فِيمَا إِن مكناكم ﴾ يعني : بدلائله ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ يعني : نزل بهم من العذاب ﴿ مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ يعني : العذاب الذي كانوا يجحدون به ، ويستهزئون .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مّنَ القرى ﴾ يعني : أهلكنا قبلكم يا أهل مكة بالعذاب ، ما حولكم من القرى ﴿ وَصَرَّفْنَا الآيات ﴾ أي : بينا لهم الدلائل ، والحجج ، والعلامات ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي : يرجعون عن كفرهم ، قبل أن يهلكوا .

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ نَصَرَهُمُ ﴾ يعني : فهلا نصرهم .

يعني : كيف لم يمنعهم من العذاب ﴿ الذين اتخذوا مِن دُونِ الله قُرْبَاناً ﴾ يعني : عبدوا من دون الله ، ما يتقربون بها إلى الله ﴿ ءالِهَةً ﴾ يعني : أصناماً ، كما قال في آية أخرى ﴿ أَلاَ لِلَّهِ الدين الخالص والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى الله زلفى إِنَّ الله يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ الله لاَ يَهْدِى مَنْ هُوَ كاذب كَفَّارٌ ﴾ [الزمر : 3] ﴿ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ ﴾ يعني : الآلهة لم تنفعهم شيئاً .

ويقال : اشتغلوا بأنفسهم .

ويقال : بطلت عنهم .

﴿ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ ﴾ يعني : كذبهم ﴿ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ يعني : يختلفون .

وذكر أبو عبيدة بإسناده ، عن عبد الله بن عباس ، أنه قرأ أَفَكَهُمْ بنصب الألف والفاء والكاف .

(76/705)

يعني : ذلك الفعل أضلهم ، وأهلكهم وصرفهم عن الحق ، وقراءة العامة بضده .

وَذَلِكَ إِفْكهم يعني : ذلك الفعل ، وهو عبادتهم .

وقولهم : وكذبهم ويقال : وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ اليوم ، كما كان إفك من كان قبلهم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الجن ﴾ وذلك ، أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بعث ، خرت الأصنام على وجوهها في تلك الليلة .

فصاح إبليس صيحة ، فاجتمع إليه جنوده ، فقال لهم : قد عرض أمر عظيم ، امضوا فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها .

يعني : امشوا وانظروا ماذا حدث من الأمر .

وروى ابن عباس : أنه لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم حيل بين الشياطين وبين السماء ،

وأرسل عليهم الشهب ، فجاؤوا إلى إبليس ، فأخبروه بذلك ، قال : هذا الأمر حادث ، اضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فجاء نفر منهم ، فوجدوا النبي صلى الله عليه وسلم يصلي تحت نخلة في سوق عكاظ ، ومعه ابن مسعود وأصحابه ، وكان يقرأ سورة طه في الصلاة .

وروى وكيع ، عن سفيان ، عن عاصم ، عن رجل ، عن زر بن حبيش ، في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الجن ﴾ قال : كانوا تسعة أحدهم : زوبعة أتوه ببطن نخلة ﴿ يَسْتَمِعُونَ القرءان فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُواْ أَنصِتُواْ ﴾ وروى عكرمة ، عن الزبير قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في العشاء الأخيرة ، فلما حضروا النبي صلى الله عليه وسلم ، قال بعضهم ، لبعض أنصتوا للقرآن واستمعوا ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ ﴾ يعني : فرغ النبي صلى الله عليه وسلم من القراءة والصلاة ﴿ وَلَّوْاْ ﴾ يعني : رجعوا ﴿ إلى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ قال مقاتل : يعني : المؤمنين .

وقال الكلبي : يعني : مخوفين .

وقال مجاهد : ليس في الجن رسل ، وإنما الرسل في الإنس ، والنذارة في الجن .

(77/705)

ثم قرأ ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إلى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ يعني : أنذروا قومهم من الجن ﴿ قَالُوا يا قومنا إِنَّا سَمِعْنَا ﴾ من محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ كتابا ﴾ يعني : قراءة القرآن ﴿ أُنزِلَ مِن بَعْدِ موسى ﴾ يعني أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ يعني موافقاً لما قبله من الكتب ﴿ يَهْدِي إِلَى الحق ﴾ يعني : يدعو إلى توحيد الله تعالى من الشرك ، كما هو في سائر الكتب ﴿ وإلى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ لا عوج فيه ، يعني : دين الله تعالى ، وهو الإسلام ﴿ مُّسْتَقِيمٍ ياقومنا أَجِيبُواْ دَاعِيَ الله ﴾ يعني : النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ ياقومنا أَجِيبُواْ ﴾ يعني : صدقوا به وبكتابه ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ وَمِنْ صلة في الكلام .

يعني : يغفر لكم ذنوبكم إن صدقتم .

وآمنتم ﴿ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ يعني : يؤمنكم من عذاب النار ﴿ وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ الله ﴾ يعني : من لم يجب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بما يدعو إليه من الإيمان ﴿ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأرض ﴾ يعني : لا يستطيع أن يهرب في الأرض ، من عذاب الله تعالى .

ويقال : معناه فلن يجد الله عاجزاً عن طلبه ﴿ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ يعني : ليس له أنصار يمنعونه ، مما نزل به من العذاب ﴿ أُوْلَئِكَ فِي ضلال ﴾ يعني : في خطأ ﴿ مُّبِينٌ ﴾ وذكر في الخبر ، أنهم لما أنذرهم وخوفهم ، جاء جماعة منهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم

بمكة ، فلقيهم بالبطحاء فقرأ عليهم القرآن ، فأمرهم ونهاهم ، وكان معه عبد الله بن مسعود ، وَخَطَّ لَهُ النبي صلى الله عليه وسلم خطاً ، وقال له :

(78/705)

" لاَ تَخْرُجْ مِنْ هَذَا الخَطِّ ، فَإِنَّكَ إِنْ خَرَجْتَ لَنْ تَرَانِي إِلَى يَوْمِ القِيَامَة ، فلما رجع إليه قال : يا نبي الله سمعت هَدَّتين أي : صوتين فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أَمَّا إِحْدَاهُمَا : فَإِنِّي سَلَّمْتُ عَلَيْهِمْ فَرَدُّوا عَلَيَّ السَّلاَم ، وأمّا الثَّانِيَة : فَإِنَّهُمْ سَأَلُوا الرِّزْقَ فَأَعْطَيْتُهُمْ عَظْماً رِزْقاً لهم ، وَأَعْطَيْتَهُم رَوْثاً رِزْقاً لِدَوَابِّهِمْ " .

ثم قال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ يعني : أو لم يعتبروا ويتفكروا .

ويقال : أو لم يخبروا ﴿ أَنَّ الله الذى خَلَقَ السموات والأرض وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ ﴾ يعني : لم يعجز عن خلق السموات والأرض ، فكيف يعجز عن بعث الموتى .

ويقال : ﴿ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ يعني : لم يعيه خلقهن ، ولم يعي بخلقهن بقادر ﴿ على أَن يُحْيِ الموتى بلى ﴾ لأنهم كانوا مقرين بأن الله ، هو الذي خلق السموات والأرض ، وكانوا منكرين للبعث بعد مماتهم ، فأخبرهم الله تعالى ، بأن الذي كان قادراً على خلق السموات والأرض ، يكون قادراً على إحيائهم بعد الموت .

ثم قال ﴿ بلى ﴾ يعني : هو قادر على البعث ﴿ إِنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ من الإحياء والبعث .

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الذين كَفَرُواْ عَلَى النار ﴾ يعني : يكشف الغطاء عنها .

ويقال : يساق الذين كفروا إلى النار .

ويقال لهم : ﴿ أَلَيْسَ هذا بالحق ﴾ يعني : أليس هذا العذاب الذي ترون حقاً ، وكنتم تكذبون به ﴿ قَالُواْ بلى وَرَبِّنَا ﴾ إنه الحق ، وَرَبِّنَا هو الله .

ويقال : والله إنه لحق ، فيقرون حين لا ينفعهم إقرارهم .

قال : فيقال لهم : ﴿ قَالَ فَذُوقُواْ العذاب بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي : تجحدون ﴿ فاصبر ﴾ يا محمد ، يعني : اصبر على أذى أهل مكة ، وتكذيبهم .

(79/705)

﴿ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ العزم مِنَ الرسل ﴾ يعني : أولو الحزم ، وهو أن يصبر في الأمور ، ويثبت عليها ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم ، أراد أن يدعو عليهم ، فأمره الله تعالى بالصبر ، كما صبر نوح ، وكما صبر إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ويوسف وغيرهم من الأنبياء ، صلوات الله عليهم أجمعين .

وقال السدي : أولو العزم ، الذين أمروا بالقتال من الرسل .

وقال أبو العالية : أولو العزم من الرسل ، كانوا ثلاثة والنبي صلى الله عليه وسلم رابعهم ، إبراهيم وهود ونوح ، فأمره الله تعالى أن يصبر كما صبروا .

وقال مقاتل : أولو العزم من الرسل اثني عشر نبياً في بيت المقدس ، فأوحى الله إليهم ثلاث مرات ، أن اخرجوا من بين أقوامكم ، فلم يخرجوا .

فقال الله تعالى : يمضي العذاب عليكم مع قومكم فتشاوروا فاختاروا هلاك أنفسهم بينهم ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ يعني : لا تستعجل لهم بالعذاب ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ ﴾ يعني : العذاب قد أتاهم من قريب في الآخرة ، فلقربه كأنهم يرونه في الحال .

ويقال : في الآية تقديم وتأخير ، كأنهم لم يلبثوا إلا ساعة في الدنيا يعني : إذا أتاهم ذلك اليوم ، يرون أنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا القليل .

فذلك قوله : ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾ يعني : من نهار الدنيا .

ويقال : يعني : في القبور .

وقال أبو العالية : معناه كأنهم يرون ، حين يظنون أنهم لم يلبثوا إلا ساعة من نهار .

ثم قال ﴿ بَلَاغٌ ﴾ يعني : ذلك بلاغ وبلغه وأجل ، فإذا بلغوا أجلهم ذلك ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا القوم الفاسقون ﴾ يعني : هل يهلك في العذاب ، إذا جاء العذاب إلا القوم العاصون .

ويقال : معناه لا يهلك مع رحمة الله وفضله ، إلا القوم الفاسقون .

ويقال : بلاغ يعني : هذا الذي ذكر بلاغ .

أي : تمام العظة .

(80/705)

ويقال : هو من الإبلاغ ، أي : هذا إرسال وبيان لهم كقوله ﴿ هذا بلاغٌ للنَّاسِ ﴾ والله أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وآله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 275.280 ﴾

(81/705)

وقال الثعلبى :

﴿ واذكر أَخَا عَادٍ ﴾ يعني هود (عليه السلام) .

﴿ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بالأحقاف ﴾ قال ابن عبّاس : الأحقاف واد بين عمان ومهرة . مقاتل : كانت منازل عاد باليمن في حضرموت بموضع يقال له : مهرة إليها تنسب الجمال ، فيقال : إبل مهرية ومهاري ، وكانوا أهل عمد سيارة في الربيع ، فإذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم ،

وكانوا من قبيلة إرم .

وقال الضحّاك : الأحقاف جبل بالشام . مجاهد : هي أرض جساق من جسمي . قتادة : ذكر لنا أنّ عاداً كانوا حيّاً باليمن أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها : الشحر . ابن زيد : هي ما استطال من الرمل كهيئة الجبل ولم يبلغ أن يكون جبلاً .

الكلبي : الأحقاف ما نضب عنه الماء زمان الغرق ، كان ينضب الماء من الأرض ويبقى أثره . الخليل : هي الرمال العظام . الكسائي : هي ما استدار من الرمل ، وواحدها حقف وحقاف ، مثل دبغ ودباغ ، ولبس ولباس . وقيل : الحقاف جمع الحقف ، والأحقاف جمع الجمع .

ونظير حقف أحقاف شبر وأشبار . قال الأعشى :

فبات إلى أرطاة حقف تلفّه . . . حريق شمال يترك الوجه أقتما

وقال : بنا بطن حرّى ذي حقاف عقنقل . ويقال : حقفٌ أحقف أي رمل متناه في الاستدار . قال العجاج : بات إلى إرطاة حقف أحقفا ، والفعل منه أحقف . قال الراجز : سماوة الهلال حتّى احقوقفا . أي انحنى واستدار .

﴿ وَقَدْ خَلَتِ النذر ﴾ مضت الرسل . ﴿ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ أي قبل هود . ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ وهي في قراءة عبد الله و ﴿ مِن بَعْدِهِ ﴾ . ﴿ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ الله إِنِي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قالوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا ﴾ لتصرفنا . ﴿ عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا

تَعِدُنَآ ﴾ من العذاب . ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين * قَالَ إِنَّمَا العلم ﴾ بوقت مجيء العذاب .

(82/705)

﴿ عِندَ الله ﴾ لا عندي وإنّما أنا مبلّغ . ﴿ وَأُبَلِّغُكُمْ مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِ ولكني أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ * فَلَمَّا رَأَوْهُ ﴾ يعني العذاب . ﴿ عَارِضاً ﴾ نُصب على الحال ، وإن شئت بالتكرير أي رأوهُ عارضا وهو السحاب ، سمّي بذلك لأنّه يعرض أي يبدو في عرض السماء .

قال مجاهد : استعرض بهم الوادي . قال الأعشى :

يا من يرى عارضاً قد بتُّ أرمقه . . . كأنّما البرق في حافاته الشعل

قال المفسّرون : ساق الله تعالى السحابة السوداء التي اختار قيل بن عنز رأسه وقد عاد بما فيها من النقمة إلى عاد فخرجت عليهم من واد لهم يقال له : المغيث . وكانوا قد حبس عنهم المطر أياماً ، فلمّا رأوها .

[قالوا : هذا عارض ممطرنا حتى عرفت أنها ريح امرأة منهم يقال لها مهدر فصاحت وصعقت ، فلمّا أفاقت قيل لها : ما رأيت ؟ قالت : ريحاً فيها كشهب النار] .

﴿ مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾ استبشروا بها .

﴿ قَالُواْ هذا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ يقول الله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ مَا استعجلتم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فجعلت تحمل الفسطاط ، وتحمل الظعينة ، فترفعها حتّى ترى كأنّها جرادة .

(83/705)

أخبرنا ابن منجويه ، حدّثنا عبيد الله بن محمّد بن شنبه ، حدّثنا عبيد الله بن أحمد بن منصور الكسائي ، حدّثنا الحارث بن عبد الله ، حدّثنا هشيم ، عن جويبر ، حدّثنا أبو داود الأعمى ، عن ابن عبّاس في قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾ الآية ، قال : لمّا دنا العارض قاموا فمدّوا أيديهم ، فأوّل ما عرفوا أنّها عذاب رأوا ما كان خارجاً من ديارهم ، من رحالهم ، ومواشيهم تطير بهم الريح بين السماء والأرض ، مثل الرشا ، قالوا : فدخلوا بيوتهم ، وأغلقوا أبوابهم ، فجاءت الريح فغلّقت أبوابهم وصرعتهم ، وأمر الله تعالى الريح فأهالت عليهم الرمال فكانوا تحت الرمل سبع ليال ، وثمانية أياماً حسوماً لهم أنين ، ثمّ أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمال ثمّ أمرها فاحتملتهم ، فرمت بهم في البحر .

فهم الذين يقول الله تعالى : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ مرّت به من رجال عاد وأموالها بأذن ربّها . أخبرنا ابن منجويه ، حدّثنا عمر بن الخطّاب ، حدّثنا عبد الله بن الفضل ، حدّثنا أبو هشام ، حدّثنا حفص ، عن ابن جريج ، عن عطاء ، عن عائشة رضي الله عنه قالت : "كان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا رأى الريح فزع ، وقال : " اللّهم إنّي أسألك خيرها وخير ما فيها ، وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرّها وشر ما فيها ، وشرّ ما أرسلت به " .

فإذا رأى مخيلة قام ، وقعد ، وجاء ، وذهب ، وتغيّر لونه ، فنقول : يا رسول الله ، فيقول : " إنّي أخاف أن يكون مثل قوم عاد ، حيث قالوا هذا عارض ممطرنا " " .

(84/705)

﴿ فَأَصْبَحُواْ لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ ﴾ قرأ الحسن (لا تُرى) بتاء مضمومة ﴿ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ ﴾ برفع (النون) . ومثله روى شعيب بن أيّوب ، عن يحيى بن آدم ، عن أبي بكر بن عيّاش ، عن عاصم . قال أبو حاتم : هذا لا يستقيم في اللغة إلاّ إنْ أُوّل فيه إضمار كما تقول في الكلام : لا تُرى النساء إلاّ زينب ، ولا يجوز لا تُرى إلاّ زينب ، وقال سيبويه : معناه (لا ترى) أشخاصهم . ﴿ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ ﴾ وأجرى الفرّاء هذه الآية على الاستكراه ، وذكر أنّ

المفضل أنشده :

نارنا لم تر ناراً مثلها . . . قد علمتْ ذاك معدّ كرما

فأنّث فعل مثل لأنّه للنّار ، قال : وأجود الكلام أن يقول : لم تر مثلها نار .

وقرأ الأعمش وعاصم وحمزة ويعقوب وخلف (بياء) مضمومة ﴿ مَسَاكِنُهُمْ ﴾ رفعاً واختاره أبو عبيدة رفعاً وأبو حاتم . قال الكسائي : معناه لا يُرى شيء إلاّ مساكنهم . وقال الفرّاء : لا يُرى الناس لأنّهم كانوا تحت الرمل ، فإنّما يرى مساكنهم لأنّها قائمة . وقرأ الباقون (تَرى) (بتاء) مفتوحة (مساكنهم) نصباً على معنى (لا ترى) يا محمّد (إلاّ مساكنهم) .

﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي القوم المجرمين ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَاهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾ أي فيما لا يمكنكم فيه من بسطة الأجسام ، وقوّة الأبدان ، وطول العمر ، وكثرة المال .

﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَآ أغنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ الله وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ ﴾ يا أهل مكّة .

﴿ مِّنَ القرى ﴾ كحجر ثمود ، وأرض سدوم ونحوهما .

﴿ وَصَرَّفْنَا الآيات ﴾ الحجج والبيّنات وأنواع العبر والعظات ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عن كفرهم ، فلم يرجعوا ، فأهلكناهم ، يخوّف مشركي قريش . ﴿ فَلَوْلاَ نَصَرَهُمُ الذين اتخذوا مِن دُونِ الله قُرْبَاناً آلِهَةَ ﴾ يعني الأوثان ، قال الكسائي : القربان كلّ ما يُتقرّب به إلى الله تعالى من طاعة ، ونسكة ، والجمع قرابين ، كالرهبان والرهابين .

﴿ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ ﴾ أي كذبهم الذي كانوا يقولون : إنّها تقرّبهم إلى الله تعالى ، وتشفع لهم عنده . وقرأ ابن عبّاس وابن الزبير ﴿ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ ﴾ بفتح (الألف) و (الفاء) على الفعل ، أي ذلك القول صرفهم عن التوحيد . وقرأ عكرمة ﴿ إِفْكُهُمْ ﴾ بتشديد (الفاء) على التأكيد والتفسير . قال أبو حاتم : يعني قلبهم عمّا كانوا عليه من النعيم . ودليل قراءة العامّة قوله : ﴿ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ .

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الجن ﴾ الآية . قال المفسّرون : لمّا مات أبو طالب خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده إلى الطائف يلتمس ثقيف النصرة ، والمنعة له من قومه ، فروى محمّد بن أحمد عن يزيد بن زياد عن محمّد بن كعب القرظي ، قال : " لمّا انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده إلى الطائف ، عمد إلى نفر من ثقيف ، هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم وهم اخوة ثلاثة : عبد ياليل ، ومسعود ، وحبيب ، بنو عمر بن عمير ، عندهم امرأة من قريش من بني جمح ، فجلس إليهم ، فدعاهم إلى الله تعالى وكلّمهم

بما جاءهم له من نصرته على الإسلام ، والقيام معه على من خالفه من قومه .

فقال أحدهم ، هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله تعالى أرسلك ، وقال الآخر : أما وجد الله أحد يرسله غيرك ؟ وقال الثالث : والله لا أُكلّمك كلمة أبداً لئن كنت رسولاً من الله كما تقول ، لأنت أعظم خطراً من أن أردّ عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أُكلّمك .

(86/705)

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم وقد يئس من خير ثقيف ، وقال لهم : " إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموه " .

وكره رسول الله أن يبلغ قومه عنه فيديرهم عليه ذلك ، فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم ، وعبيدهم يسبّونه ، ويصيحون به ، حتّى اجتمع عليه الناس وألجؤوه إلى حائط لعتبة ، وشيبة ابني ربيعة ، هما فيه ، ورجع عنه سفهاء ثقيف .

ولقد لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك المرأة من بني جمح ، فقال لها : " ماذا لقينا من أحمائك ؟ " . فلمّا اطمئن رسول الله ، قال : " اللَّهم إنّي أشكو إليك ضعف قوّتي ، وقلّة حيلتي ، وهواني على النّاس ، يا أرحم الراحمين أنت ربّ المستضعفين ، وأنت ربّي ،

إلى من تكلني ، إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدوَ ملّكته أمري . إن لم يكن بك عليَّ غضب ، فلا أُبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع ، وأعوذ بنور وجهك من أن ينزل بي غضبك ، ويحلّ عليَّ سخطك ، لك العتبى حتّى ترضى ، لا حول ، ولا قوّة إلاّ بك " .

فلمّا رأى أبناء ربيعة ما لقي تحرّكت له رحمهما ، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً ، يقال له : عداس . فقالا له : خذ قطفاً من هذا العنب وضعه في ذلك الطبق ، ثمّ اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه ، ففعل عداس ثمّ أقبل به حتّى وضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فلمّا وضع رسول الله يده ، قال : " بسم الله " .

ثمّ أكل ، فنظر عداس إلى وجهه ، ثمّ قال : والله إنّ هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة . قال له رسول الله : " ومن أي أهل البلاد أنت يا عداس ؟ وما دينك ؟ " . قال : أنا نصراني وأنا رجل من أهل نينوى .

(87/705)

فقال له رسول الله : " من قرية الرجل الصالح يونس بن متّى " . قال له : وما يدريك ما يونس بن متّى ؟ قال له رسول الله : " ذاك أخي ، كان نبيّاً وأنا نبيّ " . فأكبّ عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبّل رأسه ، ويديه ، ورجليه . قال : فيقول أبناء ربيعة أحدهما

لصاحبه ، أما غلامك فقد أفسده عليك . فلمّا جاءهم عداس ، قالا له : ويلك يا عداس ما لكَ تقبّل رأس هذا الرجل ، ويديه ، ورجليه ؟ قال : يا سيّدي ما في الأرض خيرٌ من هذا ، لقد خبّرني بأمر ما يعلمه إلاّ نبي . فقال : ويحك يا عداس لا يصرفنّك عن دينك ، فإنّ دينك خيرٌ من دينه .

(88/705)

ثمّ إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف من الطائف راجعاً إلى مكّة حتّى يئس من خير ثقيف ، حتّى إذا كان بنخلة ، قام من جوف الليل يصلّي ، فمرّ به نفر من جنّ أهل نصيبين اليمن ، وكان سبب ذلك أنّ الجنّ كانت تسترق السمع ، فلمّا حرست السماء ورجموا بالشهب . قال إبليس : إنّ هذا الذي حدث في السماء لشيء في الأرض ، فبعث سراياه لتعرف الخبر ، فكان أوّل بعث بُعث ركب من أهل نصيبين وهم أشراف الجنّ وساداتهم ، فبعثهم إلى تهامة ، فاندفعوا حتّى بلغوا وادي نخلة ، فوجدوا رسول الله صلّى الله عليه يصلّي صلاة الغداة ، ببطن نخلة ويتلو القرآن ، فاستمعوا إليه ، وقالوا : أنصتوا . هذا معنى قول سعيد بن جبير وجماعة من أئمّة الخبر ، ورواية العوفي عن ابن عباس ، وقال آخرون : بل أُمر رسول الله أن ينذر الجنّ ويدعوهم إلى الله تعالى ، ويقرأ عليهم القرآن ،

فصرف الله إليه نفراً من الجنّ من نينوى وجمعهم له ، فقال رسول الله : " إنّي أُمرت أن أقرأ على الجنّ الليلة فأيّكم يتبعني ؟ " فأطرقوا ثمّ استتبعهم فأطرقوا ، ثمّ استتبعهم الثالثة ، فاتبعه عبد الله بن مسعود ، قال عبد الله : ولم يحضر معه أحد غيري ، فانطلقنا حتّى إذا كنّا بأعلى مكّة دخل نبيّ الله صلى الله عليه وسلم شعباً يقال له : شعب الحجون وخط إليَّ خطّاً ، ثمّ أمرني أن أجلس فيه .

قال : " لا تخرج منه حتّى أعود إليك " . ثمّ انطلق حتّى قام وافتتح القرآن فجعلت أرى أمثال النسور تهوي تمشي في رفوفها ، وسمعت لغطاً شديداً ، حتّى خفت على نبي الله ، وغشيته أسورة كثيرة حالت بيني وبينه ، حتّى ما أسمع صوته ، ثمّ طفقوا ينقطعون مثل قطع السحاب داهنين ، ففزغ رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الفجر ، ثمّ انطلق إليَّ ، وقال : " أنمت ؟ " فقلت : لا والله لقد هممت مراراً أن أستغيث بالناس حتّى سمعتك تقرعهم بعصاك . تقول : " اجلسوا " .

(89/705)

قال : " لو خرجت لم آمن أن يتخطّفك بعضهم " . ثمّ قال : " هل رأيت شيئاً ؟ " . قلت : نعم رأيت رجالاً سوداً مسفري ثياب بيض . فقال : " أولئك جنّ نصيبين سألوني المتاع "

والمتاع الزاد " فمتعتهم بكلّ عظم حائل وبعرة وروثة " . فقالوا : يا رسول الله يقذرها الناس علينا . فنهى النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يُستنجى بالعظم والروث . قال : فقلت : يا رسول الله وما يعني ذلك عنهم ؟ قال : " إنّهم لا يجدون عظماً إلاّ وجدوا عليه لحمة يوم أُكل ، ولا روثة إلاّ وجدوا فيها حبّها يوم أُكلت " .

فقلت : يا رسول الله ، لغطاً شديداً . فقال : " إنّ الجنّ يدارك في قتيل قتل بينهم " وقيل : قتل " فتحاكموا إليَّ ، فقضيت بينهم بالحقّ " . قال : ثمّ تبرّز رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمّ أتاني فقال : " هل معك ماء ؟ " . قلت : يا رسول الله معي أداوة فيها شيء من نبيذ التمر ، فاستدعاه فصببت على يديه فتوضّأ . وقال : " تمرة طيبة وماء طهور "

قال قتادة : فذكر لنا ابن مسعود لمّا قدم الكوفة رأى شيوخاً شُمُطاً من الزط ، فأفزعوه حين رآهم . وقال : اظهروا . فقيل له : إنّ هؤلاء قوم من الزط ، فقال : ما أشبههم بالنفر الذين صرفوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الجنّ .

قال : أخبرنيه ابن منجويه ، حدّثنا ابن حنش المقري ، حدّثنا ابن زنجويه ، حدّثنا سلمة ، حدّثنا عبد الرزاق ، حدّثنا معمر ، عن قتادة بمثل معناه إلاّ أنّه لم يذكر قصة نبيذ التمر .

أخبرنا الحسين بن محمّد الحديثي ، حدّثنا محمّد بن الحسن الصوفي ، حدّثنا أبو جعفر محمّد بن صالح بن ذريح ، حدّثنا مسروق بن المرزبان ، حدّثنا ابن أبي زائدة ، حدّثنا داود بن

أبي هند ، " عن علقمة ، قال : سألت عبد الله بن مسعود ، هل كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد من الجنّ ؟ .

(90/705)

فقال : لا لم يصحبه منّا أحدٌ . ولكنّا فقدناهُ ذات ليلة ، فقلنا استطير أو اغتيل ، فتفرّقنا في الشعاب والأودية نلتمسه ، فلمّا أصبحنا رأيناه مقبلاً من نحو حراء .

فقلنا : يا رسول الله ، بتنا بشرِّ ليلة بات بها قوم ، نقول : استطير أو اغتيل .

فقال : " إنّه أتاني داع من الجنّ ، فذهبت أُقرئهم القرآن " . قال : وأراني آثارهم وآثار نيرانهم . قال : " فسألوه ليلتيئذ الزاد " .

فقال : " فكلّ عظم لم يذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما كان لحماً ، والبعر لدوابكم " .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تستنجوا بالعظام ولا بالبعر فإنّه زاد إخوانكم من الجنّ " " .

أخبرنا أبو عبد الله بن منجويه ، حدّثنا أبو بكر بن خرجه ، حدّثنا محمّد بن أيّوب ، أخبرنا سلمان بن داود الشاذكوي ، عن خالد بن عبد الله الواسطي ، عن خالد الحذّاء ، عن أبي

معشر ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله ، قال : لم أكن مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ وودت أنّي كنت معه .

أخبرنا ابن منجويه ، حدّثنا موسى بن محمّد بن علي ، حدّثنا يوسف بن يعقوب القاضي ، حدّثنا سليمان بن حرب ، حدّثنا شعبة ، عن عمرو بن مرة ، قال : سألت أبا عبيدة بن عبد الله ، أكان عبد الله مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ ؟ قال : لا . قال : وسألت إبراهيم . فقال : ليت صاحبنا كان ذاك .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الجن يَسْتَمِعُونَ القرآن ﴾ اختلفوا في مبلغ عددهم ، فقال ابن عبّاس : كانوا سبعة نفر من جنّ نصيبين فجعلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم رُسلاً إلى قومهم .

(91/705)

أخبرنا ابن منجويه ، حدّثنا طلحة بن محمّد بن جعفر ، وعبيد الله بن أحمد بن يعقوب ، قالا : أخبرنا أبو بكر بن مجاهد ، حدّثني أحمد بن حرب ، حدّثنا سنيد ، حدّثنا حجاج ، قال : قال ابن جريج : أخبرني وهب بن سلَمان ، عن شعيب الحماني . إنّ أسماء الجنّ الّذين صرفهم الله تعالى إلى رسوله شاصر ، وماصر ، ومنشي ، وماشي ، والأحقب وقال

آخرون : كانوا تسعة .

أخبرني أبو علي السراج ، أخبرنا أبو بكر القطان ، حدّثنا أحمد بن يوسف السّلمي ، حدّثنا محمّد بن يوسف الفريابي ، قال : ذكر سفيان ، عن عاصم ، عن زر بن حبيش ، قال : كان زوبعة من التسعة الّذين استمعوا القرآن من النبي صلّى الله عليه وسلّم .

﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالوا أَنصِتُواْ ﴾ قالوا : صه . وبإسناده عن سفيان ، عن أبي إسحاق ، عن ثابت بن قطبة الثقفي ، قال : جاء أُناسٌ إلى عبد الله بن مسعود ، قالوا : كنّا في سفر فرأينا حيّة متشحّطة في دمها مقتولة ، فأخذها رجل منّا ، فوارياها ، فلمّا ولّوا جاءهم ناس ، فقالوا : إنّكم دفنتم عمراً ، فقالوا ومَنْ عمر ؟ قالوا : الحيّة التي دفنتم في مكان كذا وكذا . أمّا إنّه كان من النفر الّذين استمعوا القرآن من النبي (عليه السلام) وكان بين حيّتين من الجنّ من المسلمين وغيرهم ، فزال ، فقتل .

أخبرنا ابن منجويه ، حدّثنا عمر بن الخطّاب ، حدّثنا عبد الله بن الفضل ، حدّثنا سهل بن حمزة ، حدّثنا عبد الله بن صالح ، حدّثني معاوية بن صالح ، عن أبي الزاهرية ، عن جبير بن نفير ، عن أبي ثعلبة الحشي إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الجنّ على ثلاثة أصناف : صنف لهم أجنحة يطيرون في الهواء وصنف حيات وكلاب ، وصنف يحلّون ويظعنون " .

فلمّا حضروه ، قالوا : قال : بعضهم لبعض أنصتوا ، فأنصتوا واستمعوا القرآن ، حتّى كاد يقع بعضهم على بعض من شدّة حرصهم ، نظيرما في سورة الجنّ .

(92/705)

﴿ فَلَمَّا قُضِيَ ﴾ فرغ من تلاوة القرآن واستماع الجان . وقرأ لاحق بن حميد (قَضَى) بفتح (القاف) و (الضاد) ، يعني النبيّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَلَّوْا إلى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ مخوّفين داعين بأمر النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ قَالُوا يا قومنا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ موسى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يهدي إِلَى الحق وإلى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ * يا قومنا أَجِيبُوا دَاعِيَ الله ﴾ يعني محمّد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ قال ابن عبّاس : فاستجاب لهم من فوقهم نحو من سبعين رجلاً من الجنّ فرجعوا إلى رسول الله فوافقوه بالبطحاء . فقرأ عليهم القرآن وأمرهم ونهاهم . واختلف العلماء في حكم مؤمني الجنّ ، فقال قوم : ليس لمؤمني الجنّ ثواب إلاّ نجاتهم من النار ، وتأوّلوا قوله تعالى : ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وإلى هذا القول ذهب أبو حنيفة .

أخبرنا الحسين بن محمّد بن منجويه ، حدّثنا عبد الله بن يوسف ، حدّثنا الحسن بن نجيويه

، حدّثنا عمرو بن ثور ، وإبراهيم بن أبي سفيان ، قالا : حدّثنا محمّد بن يوسف الفرياني ، حدّثنا سفيان ، عن ليث ، قال : الجنّ ثوابهم أن يجاروا من النار ، ثمّ يقال لهم : كونوا تراباً مثل البهائم .

وقال آخرون : إن كان عليهم العقاب في الإساءة وجب أن يكون لهم الثواب في الإحسان مثل الإنس . وإليه ذهب مالك وابن أبي ليلى .

أخبرنا أبو عبد الله الثقفي الدينوري ، حدّثنا أبو علي بن حبش المقري ، حدّثنا محمّد بن عمران ، حدّثنا ابن المقري وأبو عبيد الله . قالا : حدّثنا العبدي ، عن سفيان ، عن جويبر ، عن الضحّاك ، قال : الجنّ يدخلون الجنّة ويأكلون ويشربون .

(93/705)

﴿ وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءُ أُولَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللهَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ لم يضعف عن إبداعهن ، ولم يعجز عن اختراعهن . ﴿ بِقَادِرٍ ﴾ قراءة العامة (بالباء) و (الألف) على الاسم واختلفوا في وجه دخول (الباء) فيه ، فقال أبو عبيدة والأخفش : هي صلة ، كقوله

: ﴿ تَنبُتُ بالدهن ﴾ [المؤمنون : 20] وقال الحارث بن حلزة :

قيل ما اليوم بيّضت بعيون . . . النّاس فيها تغيّظ وإباء

أراد بيضت عيون النّاس . وقال الكسائي والفراء : (الباء) فيه جلبت الاستفهام والجحد في أوّل الكلام ، كقوله : ﴿ أَوَلَيْسَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض بِقَادِرٍ ﴾ [يس : 81] . والعرب تدخلها في الجحود ، إذا كانت رافعة لما قبلها ، كقول الشاعر :

فما رجعتْ بخائبة ركاب . . . حكيم بن المسيّب منتهاها

وقرأ الأعرج وعاصم الجحدري وابن أبي إسحاق ويعقوب بن إسحاق ﴿ يقدر ﴾ (بالياء) من غير (ألف) على الفعل ، واختار أبو عبيد قراءة العامّة لأنّها في قراءة عبد الله ﴿ خَلَقَ السماوات والأرض وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ ﴾ بغير (باء) .

﴿ على أَن يُحْيِيَ الموتى بلى إِنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَيَوْمَ يُعْرَضُ الذين كَفَرُواْ على النار ﴾ فيقال لهم : ﴿ أَلَيْسَ هذا بالحق قَالُواْ بلى وَرَبِّنَا قَالَ ﴾ لهم المقرّر بذلك ﴿ فَذُوقُواْ العذاب بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * فاصبر كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ العزم مِنَ الرسل ﴾

(94/705)

قال ابن عبّاس : ذوو الحزم . ضحّاك : ذوو الجدّ والصّبر . القرظي : ذوو الرأي والصواب . واختلفوا فيهم ، فقال ابن زيد : كلّ الرسل كانوا أُولي عزم ، ولم يتّخذ الله رسولاً ، إلاّ كان ذا عزم ، وهو اختيار علي بن مهدي الطبري ، قال : وإنّما دخلت ﴿ مِنَ ﴾ للتجنيس لا للتبعيض ، كما يقال : اشتريت أكسية من الخزّ ، وأردية من البز . حكاها شيخنا أبو القاسم بن حبيب عنه .

وقال بعضهم : كلّ الأنبياء (عليهم السلام) أُولوا عزم ، إلاّ يونس ، ألا ترى إنّ نبيّنا صلى الله عليه وسلم نهى عن أن يكون مثله ، لخفّة وعجلة ظهرت منه حين ولّى من قومه مغاضباً ، فابتلاه الله بثلاث : سلّط عليه العمالقة حتى أغاروا على أهله وماله ، وسلّط الذئب على ولْدِهِ فأكلهم ، وسلّط الحوت عليه حتّى ابتلعه .

سمعت أبا منصور الجمشاذي يحكيها ، عن أبي بكر الرازي ، عن أبي القاسم الحكيم .

وقيل : هم نجباء الرّسل المذكورون في سورة الأنعام وهم ثمانية عشر ، وهو اختيار الحسين بن الفضل ، قال : لقوله في عقبه : ﴿ أولئك الذين هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ [الأنعام : 90] .

وقال الكلبي : هم الّذين أُمروا بالقتال ، فأظهروا المكاشفة ، وجاهدوا الكفرة بالبراءة ، وجاهدوهم . أخبرنا ابن منجويه الدينوري ، عن أبي علي حبش المقري ، قال : قال بعض أهل العلم : أولو العزم اثنا عشر نبيّاً أُرسلوا إلى بني إسرائيل بالشام فعصوهم ، فأوحى الله

تعالى إلى الأنبياء (عليهم السلام) : "إنّي مرسل عذابي على عصاة بني إسرائيل" ، فشقّ ذلك عليهم ، فأوحى الله تعالى إليهم أن اختاروا لأنفسكم ، إن شئتم أنزلت بكم العذاب وأنجيت بني إسرائيل ، وإن شئتم أنجيتكم وأنزلت ببني إسرائيل .

(95/705)

فتشاوروا بينهم ، فاجتمع رأيهم على أن ينزل بهم العذاب وينجي بني إسرائيل ، فأنجى الله بني إسرائيل وأنزل بأولئك العذاب ، وذلك إنّه سلّط عليهم ملوك الأرض ، فمنهم من نشر بالمناشير ، ومنهم من سُلخ جلد رأسه ووجهه ، ومنهم من رُفع على الخشب ، ومنهم من أُحرق بالنّار ، وقيل هم ستّة : نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، وموسى .

وهم المذكورون على النسق في سورة الأعراب والشعراء . وقيل أصحاب الشرائع ، وهم خمسة : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمّد صلى الله عليه وسلم .

وقال مقاتل : أولو العزم ستّة : نوح صبر على أذى قومه فكانوا يضربونه حتّى يغشى عليه ، وإبراهيم صبر على النّار ، وإسحاق صبر على الذبح ، ويعقوب صبر على فقد ولده وذهاب بصره ، ويوسف صبر في البئر وفي السجن ، وأيّوب صبر على ضرّه .

وقال الحسن البصري : هم أربعة : إبراهيم ، وموسى ، وداود ، وعيسى . فقال : إبراهيم

فعزمه قيل له : أسلم ، قال : أسلمت لربّ العالمين . ثمّ ابتلي في ماله ، وولده ، ووطنه ، ونفسه ، فَوجدَ صادقاً وافياً في جميع ما أُبتلي به ، وأمّا موسى ، فعزمه قوله حين قال له قومه : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء : 61] قال : ﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 62] .

وأمّا داود ، فعزمه أنّه أخطأ خطيئة ، فنُبّه عليها ، فبلي أربعين سنة على خطيئته حتّى نبتت من دموعه شجرة ، وقعد تحت ظلّها ، وأمّا عيسى فعزمه أنّه لم يضع في الدُّنيا لبنة على لبنة ، وقال : إنّها معبر فاعبروها ، ولا تعمروها . فكان الله تعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ فاصبر كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ العزم مِنَ الرسل ﴾ أي كن صادقاً فيما ابتليت به مثل صدق إبراهيم ، واثقاً بنصرة مولاك مثل ثقة موسى ، مهتمّاً لما سلف من هفواتك مثل اهتمام داود ، زاهداً في الدنيا مثل زهد عيسى (عليه السلام) .

(96/705)

حدّثنا الإمام أبو منصور محمّد بن عبد الله الجمشاذي لفظاً ، أخبرنا أبو عمرو محمد بن محمّد بن أحمد القاضي ، أخبرنا أبو عبد الرحمن ، أخبرنا ابن أبي الربيع ، أخبرنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن قتادة في قوله تعالى : ﴿ فاصبر كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ العزم مِنَ الرسل

﴾ ، قال : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى (عليهم السلام) .

أخبرنا أبو منصور الجمشاذي ، أخبرنا أبو عبد الله محمّد بن يوسف الدقّاق ، أخبرنا الحسن ابن محمّد بن جابر ، حدّثنا عبد الله بن هاشم ، حدّثنا وكيع ، عن أبي جعفر الرازي ، عن الربيع ابن أنس ، عن أبي العالية في قوله : ﴿ فاصبر كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ العزم مِنَ الرسل ﴾ ، قال : كانوا ثلاثة : نوح ، وإبراهيم ، وهود ، ومحمّد رابعهم ، أُمر أن يصبر كما صبروا .

أخبرني أبو عبد الله بن منجويه ، حدّثنا محمّد بن عبد الله بن برزة ، حدّثنا الحارث بن أبي أُسامة ، حدّثنا داود بن المخبر ، حدّثنا سليمان بن الحكم ، عن الأحوص بن حكيم بن كعب الحبر ، قال : في جنّة عدن مدينة من لؤلؤ بيضاء ، تكلّ عنها الأبصار ، لم يرها نبي مرسل ولا ملك مُقرَّب ، أعدّها الله سبحانه وتعالى لأُولي العزم من الرُّسل والشهداء والمجاهدين ، لأنّهم فضّلوا الناس عقلاً وحلماً وإنابة ولبّاً .

﴿ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ العذاب . ﴿ لَهُمْ ﴾ فإنّه نازل بهم لا محالة . ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ ﴾ من العذاب في الآخرة ﴿ لَمْ يلبثوا ﴾ في الدُّنيا ﴿ إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾ يعني في جنب يوم القيامة ، وقيل : لأنّه ينسيهم هول ما عاينوا قدر مكثهم في الدُّنيا . ثمّ قال : ﴿ بَلاَغٌ ﴾ أي هذا القرآن وما ذكر فيه من البيان بلاغ بلغكم محمّد صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى ، دليله ونظيره في سورة إبراهيم .

(عليه السلام) ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ ﴾ بالعذاب إذا نزل ﴿ إِلاَّ القوم الفاسقون ﴾ الخارجون عن أمر الله تعالى.

(97/705)

أخبرنا الحسين بن محمّد الحديثي، حدّثنا سعد بن محمّد بن إسحاق الصيرفي، حدّثنا محمّد بن عثمان بن أبي شنبه، حدّثنا منجاب بن الحارث، حدّثنا علي بن مهير، حدّثنا ابن أبي ليلى، عن الحكيم عن سعيد بن جبير، عن ابن عبّاس، قال: إذا عسر على المرأة ولدها، فلتكتب هاتين الآيتين والكلمتين في صحيفة، ثمّ تُغسّل، ثمّ تسقى منها: بسم الله الرّحمن الرّحيم لا إله إلاّ الله الحليم الكريم سبحان الله ﴿ مَن رَّبُّ السماوات السبع وَرَبُّ العرش العظيم ﴾ [المؤمنون: 86]. ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يلبثوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاَغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ القوم الفاسقون ﴾. انتهى انتهى. اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 9 صـ 27.15 ﴾

(98/705)

وقال الزمخشرى :

﴿ وَاذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾

الأحقاف : جمع حقف وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء ، من احقوقف الشيء إذا اعوج ، وكانت عاد أصحاب عمد يسكنون بين رمال مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشحر من بلاد اليمن . وقيل : بين عمان ومهرة . والنُّذُرُ جمع نذير بمعنى المنذر أو الإنذار مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ من قبله وَمِنْ خَلْفِهِ ومن بعده . وقرئ : من بين يديه ومن بعده . والمعنى : أنّ هودا عليه السلام قد أنذرهم فقال لهم : لا تعبدوا إلا اللّه إنى أخاف عليكم العذاب ، وأعلمهم أنّ الرسل الذين بعثوا قبله والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو إنذاره وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : يعنى الرسل الذين بعثوا قبله والذين بعثوا في زمانه . ومعنى وَمِنْ خَلْفِهِ على هذا التفسير ومن بعد إنذاره ، هذا إذا علقت ، وقد خلت النذر بقوله : أنذر قومه ، ولك أن تجعل قوله تعالى وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ اعتراضا بين أنذر قومه وبين أَلَّا تَعْبُدُوا ويكون المعنى : واذكر إنذار هود قومه عاقبة الشرك والعذاب العظيم وقد أنذر من تقدمه من الرسل ومن تأخر عنه مثل ذلك ، فاذكرهم .

[سورة الأحقاف (46) : آية 22]

قالُوا أَجِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22)

الإفك : الصرف . يقال أفكه عن رأيه عَنْ آلِهَتِنا عن عبادتها بِما تَعِدُنا من معاجلة العذاب على الشرك إِنْ كُنْتَ صادقا في وعدك .

[سورة الأحقاف (46) : آية 23]

قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ وَلكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (23)

فإن قلت : من أين طابق قوله تعالى إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ جوابا لقولهم فَأْتِنا بِما تَعِدُنا ؟

(99/705)

قلت : من حيث إنّ قولهم هذا استعجال منهم بالعذاب . ألا ترى إلى قوله تعالى بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ فقال لهم : لا علم عندي بالوقت الذي يكون فيه تعذيبكم حكمة وصوابا ، إنما علم ذلك عند اللّه ، فكيف أدعوه بأن يأتيكم بعذابه في وقت عاجل تقترحونه أنتم ؟

ومعنى :

وَأُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ وقرئ بالتخفيف : أن الذي هو شأني وشرطي : أن أبلغكم ما أرسلت به من الإنذار والتخويف والصرف عما يعرّضكم لسخط اللّه بجهدي ، ولكنكم جاهلون لا تعلمون أنّ الرسل لم يبعثوا إلا منذرين لا مقترحين ، ولا سائلين غير ما أذن لهم فيه .

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 24 إلى 25]

فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ (24) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلَّا مَساكِنُهُمْ كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (25)

فَلَمَّا رَأَوْهُ في الضمير وجهان : أن يرجع إلى ما تعدنا ، وأن يكون مبهما قد وضح أمره بقوله عارِضاً إما تمييزا وإما حالا . وهذا الوجه أعرب وأفصح . والعارض : السحاب الذي يعرض في أفق السماء . ومثله : الحبى والعنان ، من حبا وعنّ : إذا عرض . وإضافة مستقبل وممطر مجازية غير معرفة بدليل وقوعهما وهما مضافان إلى معرفتين وصفا للنكرة بَلْ هُوَ القول قبله مضمر ، والقائل : هود عليه السلام ، والدليل عليه قراءة من قرأ : قال هود ، بل هو . وقرئ : قل بل ما استعجلتم به هي ريح ، أى قال اللّه تعالى : قل تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ تهلك من نفوس عاد وأموالهم الجم الكثير ، فعبر عن الكثرة بالكلية . وقرئ يدمر كل شيء من دمر دمارا إذا هلك لا تَرى الخطاب للرائى من كان . وقرئ : لا يرى ، على البناء للمفعول بالياء والتاء ، وتأويل القراءة بالتاء وهي عن الحسن رضى اللّه عنه : لا ترى بقايا ولا أشياء منهم إلا مساكنهم . ومنه بيت ذى الرمّة :

وما بقيت إلّا الضلوع الجراشع»

وليست بالقوية . وقرئ : لا ترى إلا مسكنهم ، ولا يرى إلا مسكنهم . وروى أنّ الريح كانت

تحمل الفسطاط والظعينة فترفعها في الجوّ حتى ترى كأنها جرادة . وقيل :

أوّل من أبصر العذاب امرأة منهم قالت : رأيت ريحا فيها كشهب النار . وروى :

أوّل ما عرفوا به أنه عذاب : أنهم رأوا ما كان في الصحراء من رحالهم ومواشيهم تطير به الريح السماء والأرض ، فدخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم ، فقلعت الريح

---

(1) . تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة 12 فراجعه إن شئت اه مصححه .

الأبواب وصرعتهم ، وأما اللّه عليهم الأحقاف فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام لهم أنين ، ثم كشفت الريح عنهم ، فاحتملتهم فطرحتهم في البحر . وروى أنّ هودا لما أحس بالريح خط على نفسه وعلى المؤمنين خطا إلى جنب عين تنبع . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : اعتزل هود ومن معه في حظيرة ما يصيبهم من الريح إلا ما يلين على الجلود وتلذه الأنفس ، وإنها لتمر من عاد بالظعن بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه كان إذا رأى الريح فزع وقال : اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما أرسلت «1» به ، وإذا رأى مخيلة : قام وقعد ، وجاء وذهب ، وتغير لونه ، فيقال له : يا رسول اللّه ما تخاف ؟ فيقول : إنى أخاف أن

يكون مثل قوم عاد حيث قالوا : «هذا عارض ممطرنا» . فإن قلت : ما فائدة إضافة الرب إلى الريح ؟ قلت : الدلالة على أن الريح وتصريف أعنتها مما يشهد لعظم قدرته ، لأنها من أعاجيب خلقه وأكابر جنوده . وذكر الأمر وكونها مأمورة من جهته عز وجل : يعضد ذلك ويقوّيه ،

[سورة الأحقاف (46) : آية 26]

وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصاراً وَأَفْئِدَةً فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (26)

إِنْ نافية ، أى : فيما ما مكناكم فيه ، إلا أنّ إِنْ أحسن في اللفظ ، لما فيه مجامعة ما مثلها من التكرير المستبشع . ومثله مجتنب ، ألا ترى أن الأصل في «مهما» :

«ماماز» لبشاعة التكرير : قلبوا الألف هاء . ولقد أغث «2» أبو الطيب في قوله :

لعمرك ماما بان منك لضارب «3»

وما ضره لو اقتدى بعذوبة لفظ التنزيل فقال :

لعمرك ما إن بان منك لضارب «4»

---

(1) . أخرجه مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة والبزار وأبو يعلى والبخاري في الأدب المفرد ، كلهم من رواية عطاء عن عائشة ، ولفظ مسلم قريب من لفظ الكتاب .

(2) . قوله «ولقد أغث أبو الطيب» في الصحاح «أغث» : أى ردؤ وفسد ، تقول :

أغث الرجل في منطقه . (ع) [. . . . .]

(3) لعمرك ما ما بان منك لضارب بأقتل مما بان منك لعائب

لأبى الطيب . يقول : وحياتك ليس الذي ظهر منك للضارب يعنى السنان ، أقتل : أى

أسرع قتلا من الذي ظهر منك للعائب ، يعنى : اللسان ، بل هما سواء في الحدة . ويجوز أنه

استعار القتل للضرب تصريحا .

(4) . قال أحمد : بيت المتنبي ليس كما أنشده ، وإنما هو كما يروى :

لعمرك إن ما بان منك لضارب بأقتل مما بان منك لعائب

ولا يستقيم إلا كذلك لأن قبله :

هو ابن رسول اللّه وابن صفيه وشبههما شبهت بعد التجارب

من قصيدة يمدح بها طاهر بن الحسين العلوي ، ولو أنى أبو الطيب عوض «ما» ب «إن»

لجاء البيت :

يرى أن إن ما بان منك لضارب

وهذا التكرار أثقل من تكرار «ما» بلا مراء . وإنما فنده الزمخشري وألزمه استعمال «إن»

عوض «ما» لاعتقاده أن البيت كما أنشده :

لعمرك ما ما بان منك لضارب بأقتل مما بان منك لعائب

ولو عوض «إن» عوض «ما» كما أصلحه الزمخشري : لزم دخول الباء في خبر «ما» وإنما تدخل الباء في خبر «ما» الحجازية العاملة ، و«إن» لا تعمل عمل «ما» على الصحيح ، فلا يستقيم دخول الباء في خبرها ، فما عدل المتنبي عن ذلك إلا لتعذره عليه من كل وجه . على أني لا أبرئ المتنبي من التعجرف ، فانه كان مغرى به ، مغرما بالغريب من النظم . ونقل الزمخشري في الآية وجها آخر : وهو جعلها صلة مثلها في قوله :

يرجى المرء ما إن لا يراه وتعرض دون أدناه الخطوب

قال : ويكون معناه على هذا مكناهم في مثل ما مكناكم . . . الخ» قلت : واختص بهذه الطائفة قوله تعالى وَقالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وقوله مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ .

(101/705)

وقد جعلت إن صلة ، مثلها فيما أنشده الأخفش :

يرجّى المرء ما إن لا يراه وتعرض دون أدناه الخطوب «1»

وتؤوّل بإنا مكناهم في مثل ما مكناكم فيه : والوجه هو الأوّل ، ولقد جاء عليه غير آية في القرآن هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَرِءْياً ، كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثاراً وهو أبلغ في التوبيخ ، وأدخل

في الحث على الاعتبار مِنْ شَيْءٍ أى من شيء من الإغناء ، وهو القليل منه . فإن قلت بم انتصب إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ ؟ قلت : بقوله تعالى فَما أَغْنى . فإن قلت : لم جرى مجرى التعليل ؟ قلت : لاستواء مؤدى التعليل والظرف في قولك : ضربته لإساءته وضربته إذا أساء ، لأنك إذا ضربته في وقت إساءته ، فإنما ضربته فيه لوجود إساءته فيه ، إلا أن «إذ ، وحيث ، غلبتا دون سائر الظروف في ذلك .

---

(1) فان أمسك فان العيش حلو إلى كأنه عسل مشوب

يرجي المرء ما إن لا يراه وتعرض دون أدناه الخطوب

وما يدرى الحريص علام يلقى شراشره أيخطئ أم يصيب

لجابر بن رالان الطائي . وقيل : لاياس بن الأرت . والشراشر : جمع شرشر ، وهي أطراف الشيء المشرشرة ، أى : المفرقة المنشورة ، وتطلق على الجسد وعلى الثقل ويكنى بها عن النفس كما هنا . وقيل : هي حبال الصيد .

يقول : إن أبخل فالعيش حلو عنده كحلاوة العسل الممزوج بالماء لتزول حرارته وضمن «حلو» معنى محبوب ، فعداه بإلى . ثم قال : ولكن لا خير في الإمساك ، فان المرء يرتجى الأمر الغائب عنه . وتحول أهوال الموت أو شدائد الدهر بينه وبين أدنى شيء منه . وإن : زائدة بعد ما الموصولة حملا على ما النافية ، وما يدرى الذي وجه نفسه بكليتها للدنيا عواقب أمره ، أربح أم خسر ، وعلى أنها حبال الصيد ففي الكلام استعارة تمثيلية حيث

شبه حال من أخذ في أسباب الأمر جاهلا عاقبته : بحال من نصب الحبال للصيد ، فقد وقد .

(102/705)

[سورة الأحقاف (46) : آية 27]

وَلَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى وَصَرَّفْنَا الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (27)

ما حَوْلَكُمْ يا أهل مكة مِنَ الْقُرى من نحو حجر ثمود وقرية سدوم وغيرهما . والمراد : أهل القرى . ولذلك قال لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

[سورة الأحقاف (46) : آية 28]

فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْباناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذلِكَ إِفْكُهُمْ وَما كانُوا يَفْتَرُونَ (28)

القربان : ما تقرب به إلى اللّه تعالى ، أى : اتخذوهم شفعاء متقربا بهم إلى اللّه ، حيث قالوا :

هؤلاء شفعاؤنا عند اللّه . وأحد مفعولي اتخذ الراجع إلى الذين «1» المحذوف «2» ، والثاني :

آلهة. وقربانا : حال ولا يصح أن يكون قربانا مفعولا ثانيا وآلهة بدلا منه لفساد المعنى.

وقرئ قربانا بضم الراء. والمعنى : فهلا منعهم من الهلاك آلهتهم بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ أى غابوا عن نصرتهم وَذلِكَ إشارة إلى امتناع نصرة آلهتهم لهم وضلالهم عنهم، أى : وذلك أثر إفكهم الذي هو اتخاذهم إياها آلهة، وثمرة شركهم وافترائهم على اللّه الكذب من كونه ذا شركاء.

وقرئ :

إفكهم : والأفك والإفك : كالحذر والحذر. وقرئ : وذلك إفكهم، أى : وذلك الاتخاذ الذي هذا أثره وثمرته صرفهم عن الحق. وقرئ : أفكهم على التشديد للمبالغة. وآفكهم : جعلهم آفكين. وآفكهم، أى : قولهم الآفك ذو الإفك، كما تقول قول كاذب، وذلك إفك مما كانوا يفترون، أى : بعض ما كانوا يفترون من الإفك.

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 29 إلى 32]

وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (29) قالُوا يا قَوْمَنا إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (30) يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (31) وَمَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (32)

---

(1). قال محمود : «أحد مفعولي اتخذ الراجع إلى الموصول محذوف . . . الخ» قال أحمد

: لم يتبين وجه فساد المعنى على هذا الإعراب . ونحن نبينه فنقول : لو كان قربانا مفعولا ثانيا ومعناه متقربا بهم : لصار المعنى إلى أنهم وبخوا على ترك اتخاذ اللّه متقربا به ، لأن السيد إذا ونخ عبده وقال : اتخذت فلانا سيدا دوني ، فإنما معناه اللوم على نسبة السيادة إلى غيره ، وليس هذا المقصد ، فان اللّه تعالى يتقرب إليه ولا يتقرب به لغيره ، فإنما وقع التوبيخ على نسبة الالهية إلى غير اللّه تعالى ، فكان حق الكلام أن يكون آلهة هو المفعول الثاني لا غير .

(2) . قوله «اتخذ الراجع إلى الذين المحذوف» هو الذي أبرزه في قوله : أى اتخذوهم . (ع)

(103/705)

صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً أملناهم إليك وأقبلنا بهم نحوك . وقرئ : صرفنا بالتشديد ، لأنهم جماعة . والنفر : دون العشرة . ويجمع أنفارا . وفي حديث أبى ذر رضى اللّه عنه : لو كان هاهنا أحد من أنفارنا « 1 » فَلَمَّا حَضَرُوهُ الضمير للقرآن . أى : فلما كان بمسمع منهم . أو لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . وتعضده قراءة من قرأ فَلَمَّا قُضِيَ أى أتمّ قراءته وفرغ منها قالُوا قال بعضهم لبعض أَنْصِتُوا اسكتوا مستمعين . يقال : أنصت لكذا واستنصت له . روى أنّ الجنّ كانت تسترق السمع ، فلما حرست السماء ورجموا بالشهب قالوا : ما

هذا إلا لنبإ حدث ، فنهض سبعة نفر أو تسعة من أشراف جنّ نصيبين أو نينوى : منهم زوبعة ، فضربوا حتى بلغوا تهامة ، ثم اندفعوا إلى وادى نخلة ، فوافقوا «2» رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهو قائم في جوف الليل يصلى أو في صلاة الفجر ، فاستمعوا لقراءته ، وذلك عند منصرفه من الطائف حين خرج إليهم يستنصرهم فلم يجيبوه إلى طلبته وأغروا به سفهاء ثقيف «3» . وعن سعيد بن جبير رضى اللّه عنه : ما قرأ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على الجن ولا رآهم ، وإنما كان يتلو في صلاته فمروا به فوقفوا مستمعين وهو لا يشعر ، فأنبأه اللّه باستماعهم «4» . وقيل : بل أمر اللّه رسوله أن ينذر الجنّ ويقرأ عليهم فصرف إليه نفرا منهم جمعهم له فقال : إنى أمرت أن أقرأ على الجنّ الليلة فمن يتبعني : قالها ثلاثا ، فأطرقوا إلا عبد اللّه بن مسعود رضى اللّه عنه قال : لم يحضره ليلة الجنّ أحد غيرى ، فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة في شعب الحجون فخط لي خطا وقال : لا تخرج منه حتى أعود إليك ، ثم افتتح القرآن وسمعت لغطا شديدا حتى خفت

---

(1) . هذا طرف من قصة إسلام أبى ذر رضى اللّه عنه من رواية عبد اللّه بن الصامت عن أبى ذر ذكره مطولا .

وفيه : فبينا أنا في ليلة قمراء ختموانية وقد ضرب اللّه على أهل مكة فما يطوف غير امرأتين ، فأتيا على فذكر القصة .

وفيه ثم انطلقتا يولولان . ويقولان لو كان ها هنا أحد من أنصارنا » أخرجه مسلم مطولا .

(2) . قوله «فوافقوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم» لعله : فوافوا . (ع)

(3) . متفق عليه بمعناه من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس دون أوله . ودون قوله «و كانوا تسعة نفر أحدهم زوبعة» ودون قوله «في جوف الليل يصلى» ودون قوله «من نينوى» ودون قوله «عند منصرفه إلى آخره» وأما زوبعة فأخرجه الحاكم من رواية ذر عن ابن مسعود قال «هبطوا - يعنى الجن - على النبي صلى اللّه عليه وسلم وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة . فلما سمعوه قالوا أنصتوا . وكانوا تسعة أحدهم زوبعة . فأنزل اللّه وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ - الآية وقوله «نينوى» أخرجه الطبري من رواية قتادة في هذه الآية قال : ذكر لنا أنهم صرفوا إليه من نينوى الحديث» .

(4) . متفق عليه من رواية سعيد بن جبير ، وهو في الذي قبله .

(104/705)

على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه حتى ما أسمع صوته ثم انقطعوا كقطع السحاب فقال لي رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : هل رأيت شيئا ؟ قلت : نعم رجالا سودا مستثفري ثياب بيض «1» ، فقال : أولئك جنّ نصيبين» «2» وكانوا اثنى عشر ألفا ، والسورة التي قرأها عليهم اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ . فإن

قلت : كيف قالوا مِنْ بَعْدِ مُوسى ؟ قلت : عن عطاء رضى اللّه عنه : أنهم كانوا على اليهودية . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : إنّ الجنّ لم تكن سمعت بأمر عيسى عليه السلام ، فلذلك قالت : من بعد موسى . فإن قلت : لم بعّض في قوله مِنْ ذُنُوبِكُمْ ؟ قلت : لأن من الذنوب ما لا يغفر بالإيمان كذنوب المظالم «3» ونحوها .

ونحوه قوله عزّ وجل أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ . فإن قلت : هل للجنّ ثواب كما للإنس ؟ قلت : اختلف فيه فقيل : لا ثواب لهم إلا النجاة من النار ، لقوله تعالى وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ وإليه كان يذهب أبو حنيفة رحمه اللّه . والصحيح أنهم في حكم بنى آدم ، لأنهم مكلفون مثلهم فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ أى : لا ينجى منه مهرب ، ولا يسبق قضاءه سابق . ونحوه قوله تعالى وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً .

---

(1) . قوله «مستثفري ثياب بيض» في القاموس «الاستثفار» : أن يدخل إزاره بين فخذيه ملويا وإدخال الكلب ذنبه بين فخذيه حتى يلزقه ببطنه اه (ع)

(2) . لم أجده بتمامه في سياق واحد . بل وجدته مفرقا . فروى الطبري من رواية قتادة ذكر لنا النبي صلى اللّه عليه وسلم قال «إنى أمرت أن أقرأ على الجن . فأيكم يتبعني فأطرقوا ثلاثا إلا ابن مسعود فاتبعه حتى دخل شعبا يقال له شعب الحجون قال : وخط على ابن مسعود خطا . فذكر أى قوله حتى خفت عليه – وزاد فيه : فقلت ما هذا

اللغط ؟ فقال : اختصموا إلى في جبل قضيت بينهم بالحق» وروى الحاكم والطبراني والدارقطني من طريق أبى عثمان ابن شيبة الخزاعي وكان رجلا من أهل الشام أنه سمع عبد اللّه بن مسعود يقول «إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال لأصحابه وهو بمكة : من أحب منكم أن يحضر الليلة أمر الجن فليفعل . فلم يحضر منهم أحد غيرى . قال : فانطلقت حتى إذا كنا بأعلى مكة خط لي برجله خطا ثم أمرنى أن أجلس فيه ، ثم انطلق حتى قام . فافتتح القرآن – الحديث» ولم يذكر قوله «رجالا سودا إلى آخره» وروى الطبري من رواية عمرو بن غيلان الثقفي أنه سأل ابن مسعود فذكر القصة . وفيها فقال «رأيت شيئا ؟ قلت : نعم . قد رأيت رجالا سودا مستشعرين بثياب بيض . فقال : أولئك جن نصيبين سألونى المتاع – فذكر الحديث» وليس فيه عددهم ولا اسم السورة . وروى ابن أبى حاتم من رواية عكرمة في هذه الآية قال «كانوا من جن نصيبين جاءوا من جزيرة الموصل . وكانوا اثنى عشر ألفا» فهذه الأحاديث من مجموعها ما ذكر إلا اسم السورة .

(3) . قال محمود : «إنما بعض المغفرة لأن من الذنوب ما لا يغفره الايمان كذنوب المظالم» قال أحمد : ليس ما أطلقه من أن الايمان لا يغفر المظالم بصحيح ، لأن الحربي لو نهب الأموال المصونة وسفك الدماء المحقونة ثم حسن إسلامه : جب الإسلام عنه إثم ما تقدم بلا إشكال . ويقال : إنه ما وعد المغفرة الكافر على تقدير الايمان في كتاب اللّه تعالى إلا مبعضة

، وهذا منه ، فان لم يكن لاطراده بذلك سر فما هو إلا أن مقام الكافر قبض لا بسط ، فلذلك لم يبسط رجاءه في مغفرة جملة الذنوب . وقد ورد في حق المؤمنين مثله كثيرا ، والله أعلم .

(105/705)

[سورة الأحقاف (46) : آية 33]

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى بَلى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (33)

بِقادِرٍ محله الرفع ، لأنه خبر أن ، يدل عليه قراءة عبد اللّه : قادر ، وإنما دخلت الباء لاشتمال النفي في أوّل الآية على أن وما في حيزها . وقال الزجاج : لو قلت : ما ظننت أنّ زيدا بقائم : جاز ، كأنه قيل : أليس اللّه بقادر . ألا ترى إلى وقوع بلى مقرّرة للقدرة على كل شيء من البعث وغيره ، لا لرؤيتهم . وقرئ : يقدر . ويقال : عييت بالأمر ، إذا لم تعرف وجهه .

ومنه أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ .

[سورة الأحقاف (46) : آية 34]

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى وَرَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (34)

أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِّ محكي بعد قول مضمر ، وهذا المضمر هو ناصب الظرف . وهذا إشارة إلى العذاب ، بدليل قوله تعالى فَذُوقُوا الْعَذابَ والمعنى : التهكم بهم ، والتوبيخ لهم على استهزائهم بوعد اللّه ووعيده ، وقولهم وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ .

[سورة الأحقاف (46) : آية 35]

فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ (35)

أُولُوا الْعَزْمِ أولوا الجد والثبات والصبر . ومِنَ يجوز أن تكون للتبعيض ، ويراد بأولى العزم : بعض الأنبياء . قيل : هم نوح ، صبر على أذى قومه : كانوا يضربونه حتى يغشى عليه ، وإبراهيم على النار وذبح ولده ، وإسحاق على الذبح ، ويعقوب على فقد ولده وذهاب بصره ، ويوسف على الجب والسجن ، وأيوب على الضرّ ، وموسى قال له قومه : إنا لمدركون ، قال : كلا إنّ معى ربى سيهدين ، وداود بكى على خطيئته أربعين سنة ، وعيسى لم يضع لبنة على لبنة وقال : إنها معبرة فاعبروها ولا تعمروها . وقال اللّه تعالى في آدم وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً وفي يونس وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ ويجوز أن تكون للبيان ، فيكون أولو العزم صفة الرسل كلهم وَلا تَسْتَعْجِلْ لكفار قريش بالعذاب ، أى : لا تدع لهم بتعجيله ،

فإنه نازل بهم لا محالة ، وإن تأخر ، وأنهم مستقصرون حينئذ مدّة لبثهم في الدنيا حتى يحسبوها ساعَةً مِنْ نَهارٍ بَلاغٌ

(106/705)

أى هذا الذي وعظتم به كفاية في الموعظة . أو هذا تبليغ من الرسول عليه السلام فَهَلْ يُهْلَكُ إلا الخارجون عن الاتعاظ به ، والعمل بموجبه . ويدل على معنى التبليغ قراءة من قرأ : بلغ فهل يهلك : وقرئ : بلاغا ، أى بلغوا بلاغا : وقرئ : يهلك ، بفتح الياء وكسر اللام وفتحها ، من هلك وهلك . ونهلك بالنون إِلَّا الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة الأحقاف كتب له عشر حسنات بعدد كل رملة في الدنيا» «1» . انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 306.

314﴾

---

(1) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبى بن كعب رضى اللّه عنه .

(107/705)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ ﴾

وهو هود بعث إلى عاد ، وكان أخاهم في النسب لا في الدين لأنه مناسب وإن لم يكن أخا أحد منهم .

﴿ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ ﴾ وهي جمع حقف ، وهو ما استطال واعوج من الرمل العظيم ، ولا يبلغ أن يكون جبلاً . ومنه قول العجاج :

بات إلى أرطاة حقف أحقفا . . . . . .

أي رمل مستطيل مشرق .

وفيما أريد بالأحقاف هنا خمسة أقاويل :

أحدها : أن الأحقاف رمال مشرقة كالجبال ، قاله ابن زيد ، وشاهده ما تقدم ، وقال هي رمال مشرقة على البحر بالسحر في اليمن .

الثاني : أن الأحقاف أرض من حسمي تسمى الأحقاف ، قاله مجاهد .

الثالث : أنه جبل بالشام يسمى الأحقاف ، قاله الضحاك .

الرابع : هو ما بين عمان وحضرموت ، قاله ابن إسحاق .

الخامس : هو واد بين عُمان ومهرة ، قاله ابن عباس .

وروى أبو الطفيل عن علي كرم الله وجهه أنه قال : خير واد بين في الناس واد بمكة ، وواد نزل به آدم بأرض الهند ، وشر واديين في الناس وادي الأحقاف ، ووادٍ بحضرموت يدعى برهوت تلقى فيه أرواح الكفار ، وخير بئر في الناس بئر زمزم ، وشر بئر في الناس بئر برهوت وهي ذلك الوادي حضرموت .

﴿ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ أي قد بعث الرسل من قبل هود ومن بعده ، قال الفراء ، من بين يديه من قبله ، ومن خلفه من بعده وهي في قراءة ابن مسعود : ﴿ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ بَعدِهِ ﴾ .

قوله عز وجل : ﴿ قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لتزيلنا عن عبادتها بالإفك .

الثاني : لتصدنا عن آلهتنا بالمنع ، قاله الضحاك .

قوله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾ يعني السحاب . وأنشد الأخفش لأبي كبير الهذلي :

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه . . . برقت كبرق العارض المنهال

وفي تسميته عارضاً ثلاثة أقاويل :

أحدها : لأنه أخذ في عرض السماء ، قال ابن عيسى .

الثاني : لأنه يملأ آفاق السماء ، قال النقاش .

الثالث : لأنه مار من السماء . والعارض هو المار الذي لا يلبث وهذا أشبه .

﴿ قَالُواْ هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ حسبوه سحاباً يمطرهم ، وكان المطر قد أبطأ عليهم .

﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ كانوا حين أوعدهم هود استعجلوه استهزاء منهم بوعيده ، فلما رأوا السحاب بعد طول الجدب أكذبوا هوداً وقالوا : هذا عارض ممطرنا .

ذكر أن القائل ذلك من قوم عاد ، بكر بن معاوية . فلما نظر هود إلى السحاب قال : بل هو ما استعجلتم به ، أي الذي طلبتم تعجيله ريح فيها عذاب أليم وهي الدبور .

وروي عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " نُصِرْتُ بِالصبَا وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ "

فنظر بكر بن معاوية إلى السحاب فقال : إني لأرى سحاباً مُرْمِداً ، لا يدع من عَادٍ أحداً .

فذكر عمرو بن ميمون أنها كانت تأتيهم بالرجل الغائب حتى تقذفه في ناديهم .

قال ابن اسحاق : واعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة ما يصيبه هو ومن معه فيها إلا ما يلين على الجلود وتلتذ الأنفس به ، وإنها لتمر من عاد بالظعن بين السماء والأرض .

وحكى الكلبي أن شاعرهم قال في ذلك :

فدعا هود عليهم . . . دعوة أضحوا همودا

عصفت ريح عليهم . . . تركت عاداً خمودا

سخرت سبع ليال . . . لم تدع في الأرض عودا

وعمَّر هود في قومه بعدهم مائة وخمسين سنة

.

قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ مَّكَّنَّاهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فيما لم نمكنكم فيه ، قاله ابن عباس .

الثاني : فيما مكناكم فيه وإن هنا صلة زائدة .

ويحتمل ثالثاً : وهو أن تكون ثابتة غير زائدة ويكون جوابها مضمراً محذوفاً ويكون تقديره : ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه كان بغيكم أكثر وعنادكم أشد .

(109/705)

ثم ابتدأ فقال : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً ﴾ الآية . يحتمل وجهين :

أحدهما : أننا جعلنا لهم من حواس الهداية ما لم يهتدوا به .

الثاني : معناه جعلنا لهم أسباب الدفع ما لم يدفعوا به عن أنفسهم .

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنهم صرفوا عن استراق سمع السماء برجوم الشهب ولم يكونوا بعد عيسى صرفوا عنه إلا عند مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : ما هذا الذي حدث في الأرض ؟ فضربوا في الأَرض حتى وقفوا على النبي صلى الله عليه وسلم ببطن نخلة عائداً إلى عكاظ وهو يصلي الفجر ، فاستمعوا القرآن ونظروا كيف يصلي ويقتدي به أصحابه ، فرجعوا إلى قومهم فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً ، قاله ابن عباس .

وحكى عكرم أن السورة التي كان يقرأها ببطن نخلة ﴿ اقرأْ بِاسمِ رَبِّكَ ﴾ [العلق : 1]

وحكى ابن عباس كان يقرأ في العشاء ﴿ كَادوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ﴾ .

الثاني : أنهم صرفوا عن بلادهم بالتوفيق هداية من الله لهم حتى أتوا نبي الله ببطن نخلة .

وفيهم أربعة أقاويل :

أحدها : أنهم جن من أهل نصيبين ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنهم من أهل نينوى ، قاله قتادة .

الثالث : أنهم من جزيرة الموصل ، قاله عكرمة .

الرابع : من أهل نجران ، قاله مجاهد .

واختلف في عددهم على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنهم كانوا اثني عشر ألفاً من جزيرة الموصل ، قاله عكرمة .

الثاني : أنهم كانوا تسعة أحدهم زوبعة ، قاله زر بن حبيش .

الثالث : أنهم كانوا سبعة : ثلاثة من أهل نجران وأربعة من أهل نصيبين ، وكانت أسماؤهم حسى ومسى وشاصر وناصر والأردن وأنيان الأحقم ، قاله مجاهد .

واختلف في علم النبي صلى الله عليه وسلم على قولين :

أحدهما : أنه ما شعر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أوحى الله إليه فيهم وأخبره عنهم ، قاله ابن عباس ، والحسن .

(110/705)

الثاني : أن الله قد كان أعلمه بهم قبل مجيئهم . روى شعبة عن قتادة أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : " إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَقْرَأَ عَلَى الْجِنِّ فَأَيُّكُمْ يَتْبَعُنِي " ؟ فأطرقوا فاتبعه ابن مسعود فدخل نبي الله صلى الله عليه وسلم شعباً يقال له شعب الحجون وخط عليه وخط على ابن مسعود ليثبته بذلك ، قال عكرمة : وقال لابن مسعود : " لاَ تَبْرَحْ حَتَّى آتِيكَ " فلما خشيهم ابن مسعود كاد أن يذهب فذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم فلم يبرح ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " لَوْ ذَهَبْتَ مَا التَقَيْنَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ "

ولما توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم تلا عليهم القرآن وقضى بينهم في قتيل منهم . وروى قتادة عن ابن مسعود أنهم سألوه الزاد فقال : "كُلُّ عَظْمٍ لَكُم عِرْقٌ ، وَكُلُّ رَوَثَةٍ لَكُم خَضِرَةٌ" فقالوا يا رسول الله يقذرها الناس علينا ، فنهى سول الله صلى الله عليه وسلم أن يستنجى بأحدهما .

روى عبد الله بن عمرو بن غيلان عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

"إِنَّ وَفْدَ الجِنِّ سَأَلُونِي المَتَاعَ ، - وَالمَتَاعُ : الزَّادُ - فَمَتَّعْتُهُم بِكُلِّ عَظْمٍ حَائِلٍ وَبَعْرَةٍ أَوْ رَوَثَةٍ" فقلت : يا رسول الله وما يغني عن ذلك عنهم ؟ فقال : "إنهم لا يجدون عظماً إلا وجدوا عليه لحمه يوم أكل ، ولا روثة ولا بعرة إلا وجدوا فيها حبها يوم أكلت ، فلا يستنجين أحدكم إذا خرج من الخلاء بعظم ولا بعرة ولا روثة" .

﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : فلما حضروا قراءة القرآن قال بعضهم لبعض أنصتوا لسماع القرآن .

الثاني : لما حضروا رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا أنصتوا لسماع قوله .

﴿ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فلما فرغ من الصلاة ولوا إلى قومهم منذرين برسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الكلبي : مخوفين : قاله الضحاك .

الثاني : فلما فرغ من قرءاة القرآن ولوا إلى قومهم منذرين ، حكاه عبد الرحمن بن أبي حاتم .

قوله عز وجل : ﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُواْ دَاعِيَ اللَّهِ ﴾ أي نبي الله يعني محمداً صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ ﴾ أي نبي الله يعني محمداً صلى الله عليه وسلم . ﴿ فَلَيسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ ﴾ أي سابق لله فيفوته هرباً .

قوله عز وجل : ﴿ فَاصْبِر كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِن الرُّسُلِ ﴾ فيهم ستة أوجه :

أحدها : أن أولي العزم من الرسل الذين أمروا بالقتال من الأنبياء ، قاله السدي والكلبي .

الثاني : أنهم العرب من الأنبياء ، قاله مجاهد والشعبي .

الثالث : من لم تصبه فتنة من الأنبياء ، قاله الحسن .

الرابع : من أصابه منهم بلاء بغير ذنب ، قاله ابن جريج .

الخامس : أنهم أولوا العزم ، حكاه يحيى .

السادس : أنهم أولوا الصبر الذين صبروا على أذى قومهم فلم يجزعوا .

وروت عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله عز وجل لم يرض عن أولي العزم

من الرسل إلا بالصبر على مكروهها والصبر على محبوبها " .

وفي أولي العزم منهم ستة أقاويل :

أحدها : أن جميع الأنبياء أولوا العزم ، ولم يبعث الله رسولاً إلا كان من أولي العزم . فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصبر كما صبروا ، قاله ابن زيد .

الثاني : أن أولي العزم منهم نوح وهود وإبراهيم ، فأمر الله رسوله أن يكون رابعهم ، قاله أبو العالية .

الثالث : أنهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، قاله ابن عباس .

الرابع : أنهم نوح وهود وإبراهيم وشعيب وموسى ، قاله عبد العزيز .

الخامس : أنهم إبراهيم وموسى وداود وسليمان وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم ، قاله السدي .

(112/705)

السادس : أن منهم إسماعيل ويعقوب وأيوب ، وليس منهم يونس ولا سليمان ولا آدم ، قاله ابن جريج .

﴿ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بالدعاء عليهم ، قاله مقاتل .

الثاني : بالعذاب وهذا وعيد .

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : من العذاب ، قاله يحيى .

الثاني : من الآخرة ، قاله النقاش .

﴿ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : في الدنيا حتى جاءهم العذاب ، وهو مقتضى قول يحيى .

الثاني : في قبورهم حتى بعثوا للحساب ، وهو مقتضى قول النقاش .

﴿ بَلَاغٌ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن ذلك اللبث بلاغ ، قاله ابن عيسى .

الثاني : أن هذا القرآن بلاغ ، قاله الحسن .

الثالث : أن هذا الذي وصفه الله بلاغ ، وهو حلول ما وعده إما من الهلاك في الدنيا أو العذاب في الآخرة على ما تقدم من الوجهين :

﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ ﴾ يعني بعد هذا البلاغ .

﴿ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ قال يحيى : المشركون .

وذكر مقاتل أن هذه الآية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، فأمره الله أن

يصبر على ما أصابه كما صبر أولوا العزم من الرسل تسهيلاً عليه وتثبيتاً له ، والله أعلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 5 صـ 282 . 289 ﴾

(113/705)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ واذْكُرْ أخا عادٍ ﴾

يعني هوداً ﴿ إذ أنذرَ قومَه بالأحقاف ﴾ قال الخليل : الأحقاف : الرِّمال العِظام .

وقال ابن قتيبة : واحد الأحقاف : حِقْف ، وهو من الرَّمْل : ما أشرَفَ من كُثبانه واستطال وانحنى .

وقال ابن جرير : هو ما استطال من الرَّمْل ولم يبلُغ أن يكون جَبَلاً .

واختلفوا في المكان الذي سمِّي بهذا الاسم على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه جبل بالشام ، قاله ابن عباس ، والضحاك .

والثاني : أنه وادٍ ، ذكره عطية .

وقال مجاهد : هي أرض .

وحكى ابن جرير أنه وادٍ بين عُمان ومَهْرة .

وقال ابن إسحاق : كانوا ينزلون ما بين عُمان وحَضْرَمَوْت واليمن كلُّه .

والثالث : أن الأحقاف : رمال مشرفة على البحر بأرض يقال لها الشّحْر ، قاله قتادة .

قوله تعالى : ﴿ وقد خَلَتِ النُّذُرُ ﴾ أي : قد مضت الرُّسل مِنْ قَبْلِ هود ومِنْ بَعده بإنذار أُممها ﴿ ألاّ تعبُدوا إلاّ اللهَ ﴾ ؛ والمعنى لم يُبعَث رسولٌ قَبْلَ هود ولا بعده إلاّ بالأمر بعبادة الله وحده .

وهذا كلام اعترض بين إنذار هود وكلامه لقومه .

ثم عاد إلى كلام هود فقال : ﴿ إنّي أخافُ عليكم ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لِتأفِكَنا ﴾ أي : لِتَصْرِفَنا عن عبادة آلهتنا بالإفك .

قوله تعالى : ﴿ إنَّما العِلْمُ عِنْدَ اللهِ ﴾ أي : هو يَعْلَم متى يأتيكم العذاب .

﴿ فلمّا رأَوْه ﴾ يعني ما يوعَدون في قوله : "بما تَعِدُنا " ﴿ عارِضاً ﴾ أي : سحاب يعرُض من ناحية السماء .

قال ابن قتيبة : العارض : السحاب .

قال المفسرون : كان المطر قد حُبِس عن عاد ، فساق اللهُ إليهم سحابةً سوداءَ فلمّا رأوها فرحوا و ﴿ قالوا هذا عارضٌ مُمْطِرُنا ﴾ ، فقال لهم هود : ﴿ بل هو ما استَعْجَلْتم به ﴾ ، ثم بيَّن ما هو فقال : ﴿ ريح فيها عذابٌ أليمٌ ﴾ ، فنشأت الرِّيح من تلك السحابة ، ﴿ تُدمِّر كُلَّ شيء ﴾ أي : تُهلِك كلَّ شيءٍ مَرَّت به من الناس والدوابّ والأموال .

قال عمرو بن ميمون : لقد كانت الرِّيح تحتمل الظّعينة فترفعُها حتى تُرى كأنها جرادة ، ﴿ فأصبحوا ﴾ يعني عاداً ﴿ لا يُرَى إلا مَساكنُهم ﴾ قرأ عاصم ، وحمزة : " لا يُرَى " برفع الياء " إلاَّ مَسَاكِنُهم " برفع النون .

وقرأ علي ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، والحسن ، وقتادة ، والجحدري : " لا تُرَى " بتاء مضمومة .

وقرأ أبو عمران ، وابن السميفع : " لا تَرَى " بتاء مفتوحة " إلاّ مسكنهم " على التوحيد وهذا لأن السُّكّان هلكوا فقيل أصبحوا وقد غطَّتهم الرِّيح بالرَّمْل فلا يُرَوْن .

ثم خوف كفار مكة فقال عز وجل ﴿ ولقد مكَّنّاهم فيما إنْ مكَّنّاكم فيه ﴾ في " إنْ " قولان :

أحدهما : أنها بمعنى " لَمْ " ، فتقديره : فيما لم نمكِّنْكم فيه ، [قاله ابن عباس ، وابن قتيبة .

وقال الفراء : هي بمنزلة " ما " في الجحد ، فتقديره : الكلام : في الذي لم نمكِّنْكم فيه] .

والثاني : أنها زائدة ؛ والمعنى فيما مكَّنّاكم فيه ، وحكاه ابن قتيبة أيضاً .

ثم أخبر أنه جعل لهم آلات الفهم ، فلم يتدبَّروا بها ، ولم يتفكّروا فيما يدلُّهم على التوحيد .

قال المفسرون : والمراد بالأفئدة : القلوب ؛ وهذه الآلات لم تُرُدَّ عنهم عذابَ الله .

ثم زاد كفَّارَ مكة في التخويف فقال : ﴿ ولقد أهْلَكْنا ما حولَكم من القُرى ﴾ كديار عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم من الأُمم المُهْلَكة ﴿ وصرَّفْنا الآياتِ ﴾ أي : بيَّنّاها ﴿ لعلَّهم ﴾ يعني أهل القُرى ﴿ يَرجِعونَ ﴾ عن كفرهم .

وها هنا محذوف ، تقديره : فما رَجَعوا عن كفرهم .

﴿ فلولا ﴾ أي : فهلاّ ﴿ نَصَرَهم ﴾ أي : منعهم من عذاب الله ﴿ الذين اتَّخَذوا مِنْ دون اللهُ قرباناً آلهةً ﴾ ؟ ! يعني الأصنام التي تقرَّبوا بعبادتها إلى الله على زعمهم ؛ وهذا استفهام إنكار معناه : لم ينصروهم ﴿ بل ضَلُّوا عنهم ﴾ أي : لم ينفعوهم عند نزول العذاب ﴿ وذلك ﴾ يعني دعاءَهم الآلهةَ ﴿ إفكُهم ﴾ أي : كذبهم .

(115/705)

وقرأ سعد بن أبي وقاص ، وابن يعمر ، وأبو عمران : ﴿ وذلك أفَّكَهم ﴾ بفتح الهمزة وقصرها وفتح الفاء وتشديدها ونصب الكاف .

وقرأ أُبَيُّ بن كعب ، وابن عباس ، وأبو رزين ، والشعبي ، وأبو العالية ، والجحدري : " أفَكَهم " بفتح الهمزة وقصرها ونصب الكاف والفاء [وتخفيفها] .

قال ابن جرير : أي أضلَّهم .

وقال الزجاج : معناها : صَرَفهم عن الحق فجعلهم ضُلاّلاً .

وقرأ ابن مسعود ، وأبو المتوكل : ﴿ آفِكُهم ﴾ بفتح الهمزة ومدّها وكسر الفاء وتخفيفها ورفع الكاف ، أي مُضِلُّهم .

قوله تعالى : ﴿ وإذ صَرَفْنا إليك نَفَراً من الجِنّ ﴾ وبّخ اللهُ عز وجل بهذه الآية كُفّارَ قريش بما آمنتْ به الجِنُّ .

وفي سبب صرفهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة أقوال :

أحدها : أنهم صُرِفوا إليه بسبب ما حدث من رجمهم بالشُّهُب .

روى البخاري ومسلم في " الصحيحين " من حديث ابن عباس قال : انطلَق رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأُرسلتْ عليهم الشُّهُب ، فرجعت الشياطين فقالوا : ما لكم ؟ قالوا : حِيل بيننا وبين خبر السماء ، وأُرسلْت علينا الشُّهُب ، قالوا : ما ذاك إلاّ من شيءٍ حدث ، فاضرِبوا مشارق الأرض ومغاربَها فانظروا ما هذا الأمر .

فمرَّ النَّفرُ الذين توجَّهوا نحو تهامة بالنبيّ صلى الله عليه وسلم وهو ب " نَخْلَة " وهو يصلِّي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن تسمَّعوا له ، فقالوا : هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك رجَعوا إلى قومهم فقالوا : ﴿ إنّا سَمِعْنا قرآناً عَجَباً يَهدي إلى الرُّشْد ﴾ [الجن : 21] فأنزل اللهُ على نبيّه ﴿ قُلْ أُوحِيَ إليَّ أنه استَمَعَ نَفَرٌ من الجِنّ ﴾ [الجن : 1] وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : ما قرأ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على الجن ، ولا رآهم ، وإنما أَتَوْه وهو ب " نخلة " فسمعوا القرآن .

والثاني : أنهم صُرِفوا إليه لِيُنْذِرهم ، وأمر أن يقرأ عليهم القرآن ، هذا مذهب جماعة ، منهم قتادة .

وفي أفراد مسلم " من حديث علقمة قال : قلت لعبد الله : من كان منكم مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم ليلةَ الجن ؟ فقال : ما كان منَّا معه أحد .

(117/705)

فقدْناه ذاتَ ليلة ونحن بمكة ، فقلنا : اغتيل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أو استُطير ، فانطلقْنا نطلبه في الشِّعاب ، فلقِيناهُ مُقْبلاً من نحو حِراء ، فقلنا : يا رسول الله ، أين كنتَ ؟ لقد أشفقنا عليك ، وقلنا له : بِتْنا الليلةَ بِشَرِّ ليلةٍ بات بها قوم حين فَقَدْناكَ ، فقال : " إنه

أتاني داعي الجن ، فذهبت أُقْرِئهم القرآن " فذهبَ بنا ، فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم " وقال قتادة : " ذُكِر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنِّي أُمِرْتُ أن أقرأ على الجن ، فأيُّكم يَتبعُني " ؟ فاطرقوا ، ثم استتبعهم فأطرقوا ، ثم استتبعهم الثالثةَ فأطرقوا ، فأتبعه عبد الله بن مسعود ، فدخل نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم شِعْباً يقال له : " شِعْبُ الحَجون " ، وخطَّ على عبد الله خطّاً ليُثبته به ، قال : فسمعت لغطاً شديداً حتى خِفْتُ على نبيِّ الله صلى الله عليه وسلم فلمّا رجَع قلت : يا نبي الله ما اللغط الذي سمعتُ ، قال : " اجتَمعوا إليَّ في قتيل كان بينهم ، فقضيت بينهم بالحق "

والثالث : أنهم مَرُّوا به وهو يقرأ ، فسمعوا القرآن .

فذكر بعض المفسرين أنه لمّا يئس من أهل مكة أن يجيبوه ، خرج إلى الطائف ليدعوَهم إلى الإسلام وقيل : ليلتمس نصرهم وذلك بعد موت أبي طالب ، فلمّا كان ببطن نخلة قام يقرأ القرآن في صلاة الفجر ، فمرَّ به نفرٌ من أشراف جنِّ نصيبين فاستمعوا القرآن .

فعلى هذا القول والقول الأول ، لم يعلم بحضورهم حتى أخبره الله تعالى ؛ وعلى القول الثاني ، عَلِمَ بهم حين جاءوا .

وفي المكان الذي سمِعوا فيه تلاوةَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم قولان :

أحدهما : الحَجون ، وقد ذكرناه عن ابن مسعود ، وبه قال قتادة .

والثاني : بطن نخلة ، وقد ذكرناه عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد .

وأما النَّفَر ، فقال ابن قتيبة : يقال : إنَّ النَّفَر ما بين الثلاثة إلى العشرة .

وللمفسرين في عدد هؤلاء النَّفَر ثلاثة أقوال :

(118/705)

أحدها : أنهم كانوا سبعة ، قاله ابن مسعود ، وزِرُّ بن حبيش ، ومجاهد ، ورواه عكرمة عن ابن عباس :

والثاني : تسعةً ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : اثني عشر ألفاً ، روي عن عكرمة .

ولا يصح ، لأن النَّفَر لا يُطلَق على الكثير .

قوله تعالى : ﴿ فلمّا حَضَروه ﴾ أي : حضروا استماعه و ﴿ قُضِيَ ﴾ يعني : فُرِغَ من تلاوته ﴿ ولَّوا إلى قومهم مُنْذِرِينَ ﴾ أي : محذِّرين عذاب الله عز وجل إن لم يؤمِنوا .

وهل أنذَروا قومَهم مِنْ قِبَل أنفُسهم أم جعلَهم رسولُ اللهُ رسُلاً إلى قومهم ؟ فيه قولان :

قال عطاء : كان دِينُ أولئك الجنِّ اليهودية فلذلك قالوا : ﴿ مِنْ بَعْدِ موسى ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أجيبوا داعيَ اللهِ ﴾ يعنون محمداً صلى الله عليه وسلم .

وهذا يدُلُّ على أنه أُرسِلَ إلى الجن والإنس .

قوله تعالى : ﴿ يَغْفِرْ لكم مِنْ ذُنوبكم ﴾ "مِنْ" ها هنا صلة .

قوله تعالى : ﴿ فليس بمُعْجِزٍ في الأرض ﴾ أي : لا يُعْجِزُ اللهَ تعالى ﴿ وليس له مِنْ دونه أولياءُ ﴾ أي : أنصار يمنعونه من عذاب الله تعالى ﴿ أولئك ﴾ الذين لا يجيبون الرُّسل ﴿ في ضلالٍ مُبينٍ ﴾ .

ثم احتج على إحياء الموتى بقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا . . .

﴾ إلى آخر الآية .

والرُّؤية ها هنا بمعنى العِلْم .

﴿ ولَمْ يَعْيَ ﴾ أي : لم يَعْجَزْ عن ذلك ؛ يقال : عَيَّ فلانٌ بأمره ، إذا لم يَهتد له ولم يَقدر عليه .

قال الزجاج : يقال عَيِيتُ بالأمر ، إذا لم تعرف وجهه ، وأعيَيْتُ ، إذا تعبتَ .

قوله تعالى : ﴿ بقادرٍ ﴾ قال أبو عبيدة والأخفش : الباء زائدة مؤكّدة .

وقال الفراء : العرب تُدخل الباءَ مع الجحد ، مثل قولك ما أظُنُّك بقائم ، وهذا قول الكسائي ، والزجاج .

وقرأ يعقوب : "يَقْدُرُ" بياء مفتوحة مكان الباء وسكون القاف ورفع الراء من غير ألف .

وما بعد هذا ظاهر إلى قوله : ﴿ كما صَبَرَ أُولُوا العَزْم ﴾ أي : ذَوو الحَزْم والصَّبْر ؛ وفيهم عشرة أقوال :

أحدها : أنهم نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، صلى الله عليهم وسلم ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وقتادة ، وعطاء الخراساني ، وابن السائب .

والثاني : نوح ، وهود ، وإبراهيم ، ومحمد ، صلى الله عليهم وسلم ، قاله أبو العالية الرياحي .

والثالث : أنهم الذين لم تُصِبْهم فتنةٌ من الأنبياء ، قاله الحسن .

والرابع : أنهم العرب من الأنبياء ، قاله مجاهد والشعبي .

والخامس : أنهم إبراهيم ، وموسى ، وداود ، وسليمان ، وعيسى ، ومحمد ، صلى الله عليهم وسلم ، قاله السدي .

والسادس : أن منهم إِسماعيل ، ويعقوب ، وأيُّوب ، وليس منهم آدم ، ولا يونس ، ولا سليمان ، قاله ابن جريج .

والسابع : أنهم الذين أُمروا بالجهاد والقتال ، قاله ابن السائب ، وحكي عن السدي .

والثامن : أنهم جميع الرُّسل ، فإن الله لم يَبْعَثْ رسولاً إلاّ كان من أُولي العزم ، قاله ابن زيد ،

واختاره ابن الأنباري ، وقال : " مِنْ " دخلتْ للتجنيس لا للتبعيض ، كما تقول : قد رأيتُ الثياب من الخَزِّ والجِباب من القَزِّ .

والتاسع : أنهم الأنبياء الثمانية عشر المذكورون في سورة [الأنعام : 83 86] ، قاله الحسين بن الفضل .

والعاشر : أنهم جميع الأنبياء إلاّ يونس ، حكاه الثعلبي .

قوله تعالى : ﴿ ولا تَسْتَعْجِلْ لهم ﴾ يعني العذاب قال بعض المفسرين : كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم ضَجِر بعض الضَّجَر ، وأحبَّ أن ينزل العذاب بمن أبى من قومه ، فأُمر بالصَّبر .

قوله تعالى : ﴿ كأَنَّهم يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدونَ ﴾ أي : من العذاب ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا ﴾ في الدنيا ﴿ إلاّ ساعةً مِنْ نَهارٍ ﴾ لأن ما مضى كأنه لم يكن وإن كان طويلاً .

وقيل : لأن مقدار مَكْثهم في الدُّنيا قليلٌ في جَنْبِ مَكْثهم في عذاب الآخرة .

وها هنا تم الكلام .

ثم قال : ﴿ بلاغٌ ﴾ أي : هذا القرآن وما فيه من البيان بلاغٌ عن الله إليكم .

وفي معنى وَصْفِ القرآنِ بالبلاغ قولان :

أحدهما : أن البلاغ بمعنى التبليغ .

والثاني : أن معناه : الكفاية ، فيكون المعنى : ما أخبرناهم به لهم فيه كفايةٌ وغِنىً .

وذكر ابن جرير وجهاً آخر ، وهو أن المعنى : لَمْ يَلْبَثُوا إلاّ ساعةً من نهار ، ذلك لُبْث بلاغ ، أي : ذلك بلاغ لهم في الدنيا إلى آجالهم ، ثُمَّ حُذفتْ " ذلك لُبْث " اكتفاءً بدلالة ما ذُكِر في الكلام عليها .

وقرأ أبو العالية ، وأبو عمران : " بَلِّغْ " بكسر اللام وتشديدها وسكون الغين من غير ألف .

قوله تعالى : ﴿ فهل يُهْلَكُ ﴾ وقرأ أبو رزين ، وأبو المتوكل ، وابن محيصن : ﴿ يَهْلِكُ ﴾ بفتح الياء وكسر اللام ، أي : عند رؤية العذاب ﴿ إلاّ القَوْمُ الفاسقونَ ﴾ الخارجون عن أمر الله عز وجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 7 صـ 383.394 ﴾

(121/705)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ واذكر أخا عاد ﴾

يعني هوداً عليه السلام ﴿ إذ أنذر قومه بالأحقاف ﴾ قال ابن عباس : الأحقاف وادٍ بين عمان ومهرة .

وقيل : كانت منازل عاد باليمن في حضرموت بموضع يقال له مهرة .

وكانوا أهل عمد سيارة في الربيع فإذا هاج العود ، رجعوا إلى منازلهم وكانوا من قبيلة إرم .

وقيل : إن عاداً كانوا أحياء باليمن وكانوا أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشحر .

والأحقاف : جمع حقف وهو المستطيل من الرمل فيه اعوجاج كهيئة الجبل ولم يبلغ أن يكون جبلاً .

(122/705)

وقيل : الأحقاف ما استدار من الرمل ﴿ وقد خلت النذر ﴾ أي مضت الرسل ﴿ من بين يديه ﴾ أي من قبل هود ﴿ ومن خلفه ﴾ أي من بعده ﴿ ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ والمعنى : أن هوداً قد أنذرهم بذلك وأعلمهم أن الرسل الذين بعثوا قبله والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو إنذاره ﴿ قالوا أجئتنا لتأفكنا ﴾ أي لتصرفنا ﴿ عن آلهتنا ﴾ أي عبادتها ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ أي من العذاب ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ يعني أن العذاب نازل بنا ﴿ قال ﴾ يعني هوداً ﴿ إنما العلم عند الله ﴾ يعني هو يعلم متى يأتيكم العذاب ﴿ وأبلغكم ما أرسلت به ﴾ يعني

من الوحي الذي أنزله الله عليّ وأمرني بتبليغه إليكم ﴿ ولكني أراكم قوماً تجهلون ﴾ يعني قدر العذاب الذي ينزل بكم ﴿ فلما رأوه ﴾ يعني رأوا ما يوعدون به من العذاب ثم بينه فقال تعالى : ﴿ عارضاً ﴾ يعني رأوا سحاباً عارضاً وهو السحاب الذي يعرض في ناحية السماء ثم يطبق السماء ﴿ مستقبل أوديتهم ﴾ وذلك أنه خرجت عليهم سحابة سوداء من ناحية وادٍ يقال له المغيث وكان قد حبس عنهم المطر مدة طويلة فلما رأوا تلك السحابة استبشروا بها ثم ﴿ قالوا هذا عارض ممطرنا ﴾ قال الله رداً عليهم ﴿ بل هو ما استعجلتم به ﴾ يعني من العذاب ثم بين ماهية ذلك العذاب فقال تعالى : ﴿ ريح فيها عذاب أليم ﴾ ثم وصف تلك الريح فقال تعالى : ﴿ تدمر كل شيء بأمر ربها ﴾ يعني تهلك كل شيء مرت به من رجال عاد وأموالهم يقال : إن تلك الريح كانت تحمل الفسطاط وتحمل الظعينة حتى ترى كأنها جرادة فلما رأوا ذلك ، دخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم ، فجاءت الريح فقلعت الأبواب وصرعتهم .

وأمر الله الريح ، فأهالت عليهم الرمال فكانوا تحت الرمل سبع ليال وثمانية أيام لهم أنين .

ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمل واحتملتهم فرمت بهم في البحر .

(123/705)

وقيل : إن هوداً عليه السلام لما أحس بالريح ، خط على نفسه وعلى من معه من المؤمنين خطاً فكانت الريح تمر بهم لينة باردة طيبة والريح التي تصيب قومه شديدة عاصفة مهلكة وهذه معجزة عظيمة لهود عليه السلام .

ولقد مكنّاهم فيما إن مكناكم فيه ﴾ الخطاب لأهل مكة يعني مكناهم فيما لم نمكنكم فيه من قوة الأبدان وطول الأعمار وكثرة الأموال ﴿ وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة ﴾ يعني إنا أعطيناهم هذه الحواس ليستعملوها فيما ينفعهم في أمر الدين فما استعملوها إلا في طلب الدنيا ولذاتها فلا جرم ﴿ فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء ﴾ يعني أنه لما أنزل بهم العذاب ما أغنى ذلك عنهم شيئاً ﴿ إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ يعني ونزل بهم العذاب الذي كانوا يطلبونه على سبيل الاستهزاء ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى ﴾ الخطاب لأهل مكة يعني أهلكنا قرى ديار ثمود وهي الحجر وسدوم وهي قرى قوم لوط بالشام وقرى قوم عاد باليمن يخوف أهل مكة بذلك ﴿ وصرفنا الآيات ﴾ يعني وبينا لهم الحجج والدلائل الدالة على التوحيد ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ يعني عن كفرهم فلم يرجعوا فأهلكناهم بسبب كفرهم وتماديهم في الكفر ﴿ فلولا ﴾ يعني فهلا ﴿ نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة ﴾ يعني أنهم اتخذوا الأغنام آلهة يتقربون بعبادتها إلى الله تعالى والقربان كل ما يتقرب به إلى الله تعالى : ﴿ بل ضلوا عنهم ﴾ يعني بل ضلت الآلهة عنهم فلم تنفعهم عند نزول العذاب

بهم ﴿ وذلك إفكهم ﴾ يعني كذبهم الذي كانوا يقولون إنها تقربهم إلى الله تعالى وتشفع لهم عنده ﴿ وما كانوا يفترون ﴾ يعني يكذبون بقولهم إنها آلهة وإنها تشفع لهم .

قوله : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن ﴾ الآية .

(ذكر القصة في ذلك)

(124/705)

قال المفسرون : لما مات أبو طالب عم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكان في حياته يحوطه وينصره ويمنعه ممن يؤذيه ، فلما مات وجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وحشة من قومه ، فخرج إلى الطائف يلتمس من ثقيف النصرة له والمنعة من قومه فروى محمد بن إسحاق عن زيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال : لما انتهى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف ، وهم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم ، وهم إخوة ثلاثة : عبد ياليل ، ومسعود ، وحبيب بنو عمير .

وعندهم امرأة من قريش من بني جمح ، فجلس إليهم ، فدعاهم إلى الله وكلمهم بما جاء له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه فقال له أحدهم : هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك .

وقال الآخر : ما وجد الله أحداً يرسله غيرك وقال الثالث : لا أكلمك كلمة أبداً لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام وإن كنت تكذب على الله فما ينبغي لي أن أكلمك فقام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من عندهم وقد يئس من خير ثقيف فقال لهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا علي وكره رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يبلغ قومه فيزيد ذلك في تجرئهم عليه فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم فجعلوا يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع إليه الناس وألجؤوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة وهما فيه ، فرجع عنه سفهاء ثقيف ومن كان تبعه منهم ، فعمد إلى ظل حبلة من عنب فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقي من سفهاء ثقيف وقد لقي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تلك المرأة التي من بني جمح فقال لها : ماذا لقينا من أحمائك ؟ فلما اطمأن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ، فأنت رؤوف وأنت أرحم الراحمين ، وأنت رب المستضعفين ، وأنت ربي إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني ، أو إلى عدو ملكته أمري إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ولكن عافيتك أوسع لي .

أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك أو يحل عليّ سخطك لك العتبى حتى ترضى لا حول ولا قوة إلا بك " فلما رأى ابنا ربيعة ما لقي تحركت له رحمهما فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له عداس فقالا له : خذ قطفاً من هذا العنب وضعه في ذلك الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل وقل له يأكل منه .

ففعل عداس ذلك ثم أقبل بالطبق حتى وضعه بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقال له : كل .

(126/705)

فلما رفع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يده قال : بسم الله ثم أكل فنظر عداس إلى وجهه ثم قال والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة فقال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : من أي البلاد أنت يا عداس وما دينك ؟ فقال : أنا نصراني وأنا رجل من أهل نينوى .

فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ فقال له عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : ذاك

أخي كان نبياً وأنا نبي .

فأكبَّ عداس على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقبل رأسه ويديه وقدميه قال فقال أحد ابني ربيعة : أما غلامك ، فقد أفسده عليك .

فلما جاءهم عداس قال له : ويلك يا عداس ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟

قال : يا سيدي ما في الأرض خير من هذا الرجل .

لقد أخبرني بأمرٍ ما يعلمه إلا نبي .

فقال له : ويحك يا عداس لا يصرفك عن دينك فإن دينك خير من دينه ثم إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة حين يئس من خير ثقيف حتى إذا كان ببطن نخلة قام من جوف الليل يصلي فمر به نفر من جن نصيبين كانوا قاصدين اليمن وذلك حين منعوا من استراق السمع من السماء ورموا بالشهب فاستمعوا له فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين وقد آمنوا به وأجابوا لما سمعوا القرآن فقص الله خبرهم عليه فقال تعالى : ﴿ وإذا صرفنا إليك نفراً من الجن ﴾ وفي الآية قول آخر وسيأتي في سورة الجن وهو حديث مخرج في الصحيحين من حديث ابن عباس .

وروي أن الجن لما رجموا بالشهب بعث إبليس سراياه ليعرف الخبر فكان أول بعث بعث من أهل نصيبين وهم أشراف الجن وساداتهم فبعثهم إلى تهامة .

وقال أبو حمزة : بلغنا أنهم من بني الشيصبان وهم أكثر الجن عدداً وهم عامة جنود إبليس فلما رجعوا إلى قومهم قالوا إنا سمعنا قرآنا عجباً وقال جماعة : بل أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن ينذر الجن ويدعوهم إلى الله ويقرأ عليهم القرآن فصرف الله إليه نفراً من الجن وهم من أهل نينوى وجمعهم له فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه : إني أمرت أن أقرأ على الجن الليلة فأيكم يتبعني فأطرقوا ثم استتبعهم فأطرقوا ثم استتبعهم فأطرقوا ثم استتبعهم الثالثة فتبعه عبد الله بن مسعود قال عبد الله بن مسعود لم يحضر معه أحد غيري قال : فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة دخل نبي الله (صلى الله عليه وسلم) شعباً يقال له شعب الحجون وخط لي خطاً ثم أمرني أن أجلس فيه وقال : لا تخرج منه حتى أعود إليك فانطلق حتى قام عليهم فافتتح القرآن فجعلت أرى مثال النسور تهوي وسمعت لغطاً شديداً حتى خفت على نبي الله (صلى الله عليه وسلم) وغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه حتى لا أسمع صوته ثم طفقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين ففرغ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) منهم مع الفجر فانطلق إليّ فقال لي نمت فقلت : لا والله يا رسول الله لقد هممت مراراً أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك تقول لهم اجلسوا فقال : لو خرجت لم آمن عليك أن يتخطفك بعضهم ثم قال : هل رأيت شيئاً ؟ قلت : نعم رأيت رجالاً سوداً عليهم ثياب بيض قال أولئك جن نصيبين سألوني المتاع

والمتاع الزاد فمتعتهم بكل عظم حائل وروثة وبعرة فقالوا يا رسول الله يقذرها الناس علينا فنهى النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يستنجي بالعظم والروث قال : فقلت يا رسول الله وما يغني ذلك عنهم ؟ فقال : إنهم لا يجدون عظماً إلا وجدوا عليه لحمه يوم أكل ولا روثة إلا وجدوا فيها حبها يوم أكلت فقلت : يا رسول الله سمعت لغطاً شديداً فقال إن الجن تدارأت في قتيل قتل بينهم فتحاكموا إليّ فقضيت

(128/705)

بينهم بالحق قال ثم تبرز رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأتاني فقال لهم معك ماء ؟ قلت : يا رسول الله معي أداوة فيها شيء من نبيذ التمر فاستدعاه فصببت على يديه فتوضأ وقال : تمرة طيبة وماء طهور .

قال قتادة : ذكر لنا أن ابن مسعود لما قدم الكوفة رأى شيوخاً شمطاً من الزط فأفزعوه حين رآهم ثم قال اظهروا ؟ فقيل له : إن هؤلاء قوم من الزط .

فقال : ما أشبههم بالنفر .

الذين صرفوا إلي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليلة الجن قلت حديث التوضؤ بنبيذ التمر ضعيف ذكره البيهقي في كتابه الخلافيات بأسانيده وأجاب عنها كلها .

والذي صح عن علقمة قال : قلت لابن مسعود : هل صحب النبي (صلى الله عليه وسلم) ليلة الجن منكم أحد ؟ قال : ما صحبه منا أحد ولكنا كنا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ذات ليلة ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب فقلنا استطير أو اغتيل فبتنا بشر ليلة بات بها قوم فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء فقلنا يا رسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا ليلة بات قوم قال أتاني داعي الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن قال : فانطلق بنا فأرنا آثارهم وآثار نيرانهم وسألوه الزاد فقال لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً وكل بعرة علف لدوابكم فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم الجن .

(129/705)

﴿ قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً ﴾ قال عطاء : كان دينهم اليهودية ولذلك ﴿ قالوا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه ﴾ يعني من الكتب الإلهية المنزلة من السماء وذلك أن كتب الأنبياء كانت مشتملة على الدعوة إلى التوحيد وتصديق الأنبياء والإيمان بالمعاد والحشر والنشر وجاء هذا الكتاب وهو القرآن المنزل على محمد (صلى الله عليه وسلم) كذلك فذلك هو تصديقه لما بين يديه من الكتب

﴿ يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ﴾ يعني : يهدي إلى دين الحق وهو دين الإسلام ويهدي إلى طريق الجنة ﴿ يا قومنا أجيبوا داعي الله ﴾ يعني محمداً (صلى الله عليه وسلم) لأنه لا يوصف بهذا غيره وفي الآية دليل على أنه مبعوث إلى الإنس والجن جميعاً قال مقاتل لم يبعث الله نبياً إلى الإنس والجن قبله ﴿ وآمنوا به ﴾ .

فإن قلت قوله تعالى ﴿ أجيبوا داعي الله ﴾ أمر بإجابته في كل ما أمر به فيدخل فيه الأمر بالإيمان فلم أعاد ذكره بلفظ التعيين .

قلت : إنما أعاده لأن الإيمان أهم أقسام المأمور به وأشرفها فلذلك ذكره على التعيين فهو من باب ذكر العام ثم يعطف عليه أشرف أنواعه ﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ﴾ قال بعضهم : لفظة من هنا زائدة والتقدير يغفر لكم ذنوبكم وقيل : هي على أصلها وذلك أن الله يغفر من الذنوب ما كان قبل الإسلام فإذا أسلموا جرت عليهم أحكام الإسلام فمن أتى بذنب أخذ به ما لم يتب منه أو يبقى تحت خطر المشيئة إن شاء الله غفر له وإن شاء آخذه بذنبه واختلف العلماء في حكم مؤمني الجن ، فقال قوم : ليس لهم ثواب إلا نجاتهم من النار .

وتأولوا قوله : ﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ﴾ .

وإليه ذهب أبو حنيفة .

وحكي عن الليث قال : ثوابهم أن يجاروا من النار ثم يقال لهم : كونوا تراباً مثل البهائم .

وعن أبي الزناد قال : إذا قضى بين الناس ، قيل لمؤمني الجن : عودوا تراباً ، فيعودون ، تراباً .

(130/705)

فعند ذلك يقول الكافر : يا ليتني كنت تراباً .

وقال الآخرون : لهم الثواب في الإحسان كما يكون عليهم العقاب في الإساءة كالإنس وهذا هو الصحيح وهو قول ابن عباس وإليه ذهب مالك وابن أبي ليلى .

قال الضحاك : الجن يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون .

وقال أرطأة بن المنذر : سألت ضمرة بن حبيب : هل للجن ثواب ؟ قال : نعم وقرأ ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾ قال : فالإنسيات للإنس والجنيات للجن وقال عمر بن عبد العزيز : إن مؤمني الجن حول الجنة في ربض ورحاب وليسوا فيها يعني في الجنة .

وقوله تعالى : ﴿ ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض ﴾ يعني لا يعجز الله فيفوته ﴿ وليس له من دونه أولياء ﴾ يعني أنصاراً يمنعونه من الله ﴿ أولئك ﴾ يعني الذين لم يجيبوا داعي الله ﴿ في ضلال مبين ﴾ قوله تعالى : ﴿ أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن ﴾ يعني أنه تعالى خلق هذا الخلق العظيم ولم يعجز عن

إبداعه واختراعه وتكوينه ﴿ بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ يعني أن إعادة الخلق وإحياءه بعد الموت أهون عليه من إبداعه وخلقه فالكل عليه هين إبداع الخلق وإعادته بعد الموت وهو قوله ﴿ بلى إنه على كل شيء قدير ﴾ يعني من إماتة الخلق وإحيائهم لأنه قادر على كل شيء .

﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار ﴾ فيه إضمار تقديره فيقال لهم ﴿ أليس هذا بالحق ﴾ يعني هذا العذاب هو الذي وعدكم به الرسل وهو الحق ﴿ قالوا بلى وربنا ﴾ هذا اعتراف منهم على أنفسهم بعد ما كانوا منكرين لذلك وفيه توبيخ وتقريع لهم فعند ذلك ﴿ قال ﴾ لهم ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ قوله : ﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ﴾ الخطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) أمره الله تعالى بالاقتداء بأولي العزم من الرسل في الصبر على أذى قومه قال ابن عباس ذوو الحزم وقال الضحاك ذوو الجد والصبر .

(131/705)

واختلفوا في أولي العزم من الرسل من هم فقال ابن زيد : كل الرسل كانوا أولي عزم لم يبعث الله نبياً إلا كان ذا عزم وحزم ورأي وكمال عقل .

وهذا القول هو اختيار الإمام فخر الدين الرازي .

قال : لأن لفظة من في قوله ﴿ من الرسل ﴾ للتبين لا للتبعيض كما تقول : ثوب من خز كأنه قيل له اصبر كما صبر الرسل من قبلك على أذى قومهم وصفهم بالعزم لقوة صبرهم وثباتهم وقال بعضهم : الأنبياء كلهم أولو العزم إلا يونس لعجلة كانت فيه ألا ترى أنه قيل للنبي (صلى الله عليه وسلم) : ﴿ ولا تكن كصاحب الحوت ﴾ وقال قوم : أولي العزم هم نجباء الرسل المذكورون في سورة الأنعام وهم ثمانية عشر نبياً لقوله بعد ذكرهم ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ وقال الكلبي : هم الذين أمروا بالجهاد وأظهروا المكاشرة لأعداء الله .

وقيل : هم ستة : نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، وموسى ، وهم المذكورون على النسق في سورة الأعراف والشعراء .

وقال مقاتل : هم ستة : نوح صبر على أذى قومه ، وإبراهيم صبر على النار ، وإسحاق صبر على الذبح ، في قول ، ويعقوب صبر على فقد ولده وذهاب بصره ، ويوسف صبر على الجب والسجن ، وأيوب صبر على الضر .

(132/705)

وقال ابن عباس وقتادة : هم : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، أصحاب الشرائع فهم مع محمد (صلى الله عليه وسلم) وعليهم أجمعين وخمسة قد ذكرهم الله على التخصيص والتعيين في قوله ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ﴾ وفي قوله : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ﴾ الآية روى البغوي بسنده عن عائشة قالت : " قال لي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يا عائشة إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد يا عائشة إن الله لم يرض من أولي العزم إلا بالصبر على مكروهها والصبر عن محبوبها ولم يرض إلا أن كلفني ما كلفهم فقال : ﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ﴾ وإني والله لا بد لي من طاعته والله لأصبرن كما صبروا ولأجهدن كما جهدوا ولا قوة إلا بالله " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 6 صـ 163 .

﴿ 172

(133/705)

وقال النسفى :

﴿ واذكر أَخَا عَادٍ ﴾

أي هوداً ﴿ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بالأحقاف ﴾ جمع حقف وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء

من احقوقف الشيء إذا اعوج.

عن ابن عباس رضي الله عنهما : هو وادٍ بين عمان ومهرة ﴿ وَقَدْ خَلَتِ النذر ﴾ جمع نذير بمعنى المنذر أو الإنذار ﴿ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ من قبل هود ومن خلف هود ، وقوله ﴿ وَقَدْ خَلَتِ النذر مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ وقع اعتراضاً بين ﴿ أَنذَرَ قَوْمَهُ ﴾ وبين ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ الله إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ والمعنى واذكر إنذار هود قومه عاقبة الشرك والعذاب العظيم وقد أنذر من تقدمه من الرسل ومن تأخر عنه مثل ذلك ﴿ قَالُواْ ﴾ أي قوم هود ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا ﴾ لتصرفنا فالأفك الصرف يقال : أفكه عن رأيه ﴿ عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾ عن عبادتها ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ من معاجلة العذاب على الشرك ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ في وعيدك .

﴿ قَالَ إِنَّمَا العلم ﴾ بوقت مجيء العذاب ﴿ عَندَ الله ﴾ ولا علم لي بالوقت الذي يكون فيه تعذيبكم ﴿ وَأُبَلِّغُكُمْ مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ ﴾ وبالتخفيف : أبو عمرو أي الذي هو شأني أن أبلغكم ما أرسلت به من الإنذار والتخويف ﴿ ولكنى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ أي ولكنكم جاهلون لا تعلمون أن الرسل بعثوا منذرين لا مقترحين ولا سائلين غير ما أذن لهم فيه .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ ﴾ الضمير يرجع إلى ﴿ مَا تَعِدُنَا ﴾ أو هو مبهم وضح أمره بقوله ﴿ عَارِضاً ﴾ إما تمييزاً أو حالاً .

والعارض السحاب الذي يعرض في أفق السماء ﴿ مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هذا عَارِضٌ

مُّمْطِرُنَا ﴾ رُوي أن المطر قد احتبس عنهم فرأوا سحابة استقبلت أوديتهم فقالوا : هذا سحاب يأتينا بالمطر وأظهروا من ذلك فرحاً .

(134/705)

وإضافة ﴿ مُّسْتَقْبِلَ ﴾ و ﴿ ممطر ﴾ مجازية غير معرفة بدليل وقوعهما وهما مضافان إلى معرفتين وصفاً للنكرة ﴿ بَلْ هُوَ ﴾ أي قال هود : بل هو ، ويدل عليه قراءة من قرأ ﴿ قَالَ هُود بَلْ هُوَ ﴾ ﴿ مَا استعجلتم بِهِ ﴾ من العذاب .

ثم فسره فقال ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ تهلك من نفوس عاد وأموالهم الجم الكثير فعبر عن الكثرة بالكلية ﴿ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ رب الريح ﴿ فَأَصْبَحُواْ لاَ يرى إِلاَّ مساكنهم ﴾ عاصم وحمزة وخلف أي لا يرى شيء إلا مساكنهم .

غيرهم ﴿ لاَّ ترى إِلاَّ مساكنهم ﴾ والخطاب للرائي من كان .

﴿ كَذَلِكَ نَجْزِى القوم المجرمين ﴾ أي مثل ذلك نجزي من أجرم مثل جرمهم وهو تحذير لمشركي العرب .

عن ابن عباس رضي الله عنهما : اعتزل هود عليه السلام ومن معه في حظيرة ما يصيبهم من الريح إلا ما تلذه الأنفس ، وإنها لتمر من عاد بالظعن بين السماء والأرض وتدمغهم

بالحجارة.

﴿ وَلَقَدْ مكناهم فِيمَآ إِن مكناكم فِيهِ ﴾ "إن" نافية أي فيما ما مكناكم فيه إلا أن "إن" أحسن في اللفظ لما في مجامعة ما مثلها من التكرير المستبشع، ألا ترى أن الأصل في "مهما" "ما ما" فلبشاعة التكرير قلبوا الألف هاء.

(135/705)

وقد جعلت "إن" صلة وتؤول بأنا مكناهم في مثل ﴿ مَا إِنَّ مكناكم فِيهِ ﴾ [الأحقاف: 26] والوجه هو الأول لقوله تعالى: ﴿ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً ورئياً ﴾ [مريم: 74] ﴿ كَانُواْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءاثَاراً ﴾ [غافر: 82] و "ما" بمعنى الذي أو نكرة موصوفة ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وأبصارا وَأَفْئِدَةً ﴾ أي آلات الدرك والفهم ﴿ فَمَا أغنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أبصارهم وَلاَ أَفْئِدَتُهُمْ مِّن شَىْءٍ ﴾ أي من شيء من الإغناء وهو القليل منه ﴿ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بئايات الله ﴾ "إذ" نصب بقوله ﴿ فَمَا أغنى ﴾ وجرى مجرى التعليل لاستواء مؤدي التعليل والظرف في قولك: ضربته لإساءته وضربته إذ أساء، لأنك إذا ضربته في وقت إساءته فإنما ضربته فيه لوجود إساءته فيه إلا أن "إذ" و "حيث" غلبتا

دون سائر الظروف في ذلك ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ ونزل بهم ﴿ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ جزاء استهزائهم وهذا تهديد لكفار مكة ثم زادهم تهديداً بقوله :

(136/705)

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ ﴾ يا أهل مكة ﴿ مِّنَ القرى ﴾ نحو حجر ثمود وقرى قوم لوط والمراد أهل القرى ولذلك قال ﴿ وَصَرَّفْنَا الآيات لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي كررنا عليهم الحجج وأنواع العبر لعلهم يرجعون عن الطغيان إلى الإيمان فلم يرجعوا ﴿ فَلَوْلا ﴾ فهلا ﴿ نَصَرَهُمُ الذين اتخذوا مِن دُونِ الله قُرْبَاناً ءَالِهَةً ﴾ القربان ما تقرب به إلى الله تعالى أي اتخذوهم شفعاء متقرباً بهم إلى الله تعالى حيث قالوا ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ [يونس : 18] وأحد مفعولي "اتخذ" الراجع إلى "الذين" محذوف أي اتخذوهم والثاني ﴿ ءالِهَةً ﴾ و ﴿ قُرْبَاناً ﴾ حال ﴿ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ ﴾ غابوا عن نصرتهم ﴿ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ ﴿ وَذَلِكَ ﴾ إشارة إلى امتناع نصرة آلهتهم وضلالهم عنهم أي وذلك أثر إفكهم الذي هو اتخاذهم إياها آلهة وثمرة شركهم وافترائهم على الله الكذب .

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَراً ﴾ أملناهم إليك وأقبلنا بهم نحوك والنفر دون العشرة ﴿ مِّنَ الجن ﴾ جن نصيبين ﴿ يَسْتَمِعُونَ القرءان ﴾ منه عليه الصلاة والسلام ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ

﴿ أي الرسول صلى الله عليه وسلم أو القرآن أي كانوا منه بحيث يسمعون ﴿ قَالُواْ ﴾ أي قال بعضهم لبعض ﴿ أَنصِتُواْ ﴾ اسكتوا مستمعين رُوي أن الجن كانت تسترق السمع ، فلما حرست السماء ورجموا بالشهب قالوا : ما هذا إلا لنبأ حدث .

فنهض سبعة نفر أو تسعة من أشراف جن نصيبين أو نينوى منهم زوبعة فضربوا حتى بلغوا تهامة ثم اندفعوا إلى وادي نخلة فوافوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم في جوف الليل يصلي أو في صلاة الفجر فاستمعوا لقراءته .

وعن سعيد بن جبير : ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن ولا رآهم وإنما كان يتلو في صلاته فمروا به فوقفوا مستمعين وهو لا يشعر فأنبأه الله باستماعهم .

(137/705)

وقيل : بل الله أمر رسوله أن ينذر الجن ويقرأ عليهم فصرف إليه نفراً منهم فقال : إني أمرت أن أقرأ على الجن الليلة فمن يتبعني ؟ قالها ثلاثاً .

فأطرقوا إلا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : لم يحضره ليلة الجن أحد غيري فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة في شعب الحجون فخط لي خطاً وقال : لا تخرج منه حتى أعود إليك ، ثم افتتح القرآن وسمعت لغطاً شديداً فقال لي رسول الله صلى الله عليه

وسلم : " هل رأيت شيئاً ؟ قلت : نعم رجالاً سوداً .

فقال : أولئك جن نصيبين " .

وكانوا اثنى عشر ألفا والسورة التى قرأها عليهم اقرأ باسم ربك

(138/705)

فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين

فلما قضى أى فرغ النبى صلى الله عليه و سلم من القراءة ولوا الى قومهم منذرين إياهم قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا انزل من بعد موسى وانما قالوا من بعد موسى لأنهم كانوا على اليهودية وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان الجن لم تكن سمعت بأمر عيسى عليه السلام

مصدقا لما بين يديه من الكتب يهدى الى الحق الى الله تعالى والى طريق مستقيم يا قومنا أجيبوا داعى الله اي محمد صلى الله عليه و سلم وآمنوا به يغفر لكم ذنوبكم ويجركم من عذاب اليم قال ابو حنيفة رضى الله عنه لا تواب لهم الا النجاة من النار لهذه الآية وقال مالك وابن ابى ليلى وابو يوسف ومحمد رحمهم الله لهم الثواب والعقاب وعن الضحاك انهم يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون لقوله تعالى لم يطمثهن اني قبلهم ولا جان ومن لا يجب داعى

الله فليس بمعجز في الارض اى لا ينجى منه مهرب وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين أو لم ير أن الله الذي خلق السموات والارض ولم يعي بخلقهن هو كقوله وما مسنا من لغوب ويقال عييت بالامر اذا لم تعرف وجهه بقادر محله الرفع لانه خبر ان يدل عليه قراءة عبد الله قادر وانما دخلت الباء لا شتمال النفى في اول الاية على ان وما في حيزها وقال الزجاج لو قلت ما ظننت ان زيدا بقائم جاز كانه قيل اليس الله بقادر الا ترى الى وقو بلى مقررة للقدرة على كل شيء من البعث وغير لالرؤيتهم على ان يحيى الموت بلى هو جواب النفى انه على كل شيء قدير ويوم يعرض الذين كفروا على النار يقال لهم اليس هذا بالحق وناصب الظرف القول المضمر وهذا إشارة إلى العذاب وقالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون بكفركم في الدنيا فاصبر كما صبر اولوا العزم اولوا الجد والثبات والصبر من الرسل من التبعيض والمراد باولى العزم ما ذكر في الاحزاب واذ اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن

(139/705)

ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون

نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم ويونس ليس منهم لقوله ولا تكن كصاحب الحوت

وكذا آدم لقوله ولم نجد له عزما او لبيان فيكون اولوا العزم صفة الرسل كلهم ولا تستعجل لهم لكفار قريش بالعذاب اى لا تدع لهم بتعجيله فانه نال بهم لا محالة وان تأخر كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهارى انهم يستقصرون حينئذ مدة لبثهم في الدنيا حتى يحسبوها ساعة من نهار بلاغ هذا بلاغ اى هذا الذي وعظتم به كفايه في الموعظة او هذا تبليغ من الرسول فهل يهلك هلاك عذاب والمعنى فلن يهلك بعذاب الله الا القوم الفاسقون اى المشركون الخارجون عن الإتعاظ به والعمل بموجبة قال عليه السلام من قرأ سورة الأحقاف كتب الله له عشر حسنات بعدد كل رملة في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 144.148 ﴾

(140/705)

وقال ابن جزى :

﴿ واذكر أَخَا عَادٍ ﴾

يعني هوداً عليه السلام ﴿ بالأحقاف ﴾ جمع حقف وهو الكدس من الرمل ، واختلف أين كانت فقيل بالشام ، وقيل : بين عُمان ومُهْرة وقيل : بين عُمان وحَضْرَموت ، والصحيح أن بلاد عاد كانت باليمن ﴿ وَقَدْ خَلَتِ النذر ﴾ أي تقدمت من قبله ومن بعده ، والنذر

جمع نذير ، فإن قيل : كيف يتصور تقدمها من بعده ؟ فالجواب أن هذه الجملة اعتراض ، وهي إخبار من الله تعالى أنه قد بعث رسلاً متقدمين قبل هود وبعده ، وقيل : معنى من خلفه في زمانه .

﴿ قَالَ إِنَّمَا العلم عِندَ الله ﴾ أي قل : إن العذاب الذي قلتم ائتنا به ليس لي علم متى يكون ، وإنما يعلمه الله ، وما عليّ إلا أن أبلغكم ما أرسلت به .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾ العارض السحاب الذي يعرض في أفق السماء ، والضمير في رأوه يعود على ما تعدنا أو على المرئي المبهم الذي فسره قوله ﴿ عَارِضاً ﴾ قال الزمخشري : وهذا أعرب وأفصح ، وروي أنهم كانوا قد قحطوا مدّة ، فلما رأوا هذا العارض ظنوا أنه مطر ففرحوا به فقال لهم هود عليه السلام : بل هو ما استعجلتم به من العذاب وقوله : ﴿ رِيحٌ ﴾ بدل من ﴿ مَا استعجلتم ﴾ أو خبر ابتداء مضمر ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ عموم يراد به الخصوص .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَاهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾ هذا خطاب لقريش على وجه التهديد أي مكنا عاداً فيما لم نمكنكم فيه من القوة والأموال وغير ذلك ، ثم أهلكنا لما كفروا وإن هنا نافية بمعنى ما ، وعدل عن ما كراهية لاجتماعها مع التي قبلها ، وقيل : إن شرطية ، وجوابها محذوف تقديره : إن مكنّاكم فيه طغيتم ، قال ابن عطية : وهذا تنطع في التأويل .

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ القرى ﴾ يعني بلاد عاد وثمود وسبأ وغيرها ، والمراد إهلاك أهلها ﴿ فَلَوْلاَ نَصَرَهُمُ ﴾ الآية عرض معناه النفي أي لم تنصرهم آلهتهم التي عبدوا من دون الله ﴿ قُرْبَاناً ﴾ أي ترقبوا بهم إلى الله وقالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، وانتصاب قرباناً على الحال ، ولا يصح أن يكون قرباناً مفعولاً ثانياً لا تخذوا وآلهة بدل منه لفساد المعنى ، قاله الزمخشري ، وقد أجازه ابن عطية ﴿ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ ﴾ أي تلفوا لهم وغابوا عن نصرهم حين احتاجوا إليهم .

(142/705)

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الجن ﴾ أي أملناهم نحوها ، والنفر دون العشرة ، وروي أن الجن كانوا سبعة وكانوا كلهم ذكراناً ، لأن النفر الرجال دون النساء ، وكانوا من أهل نصيبين ، وقيل من أهل الجزيرة ، واختلف هل رآهم النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قيل : إنه لم يرهم ، ولم يعلم باستماعهم حتى أعلمه الله بذلك ، وقيل : بل علم بهم واستعد لهم واجتمع معهم ، وقد ورد في ذلك عن عبد الله بن مسعود أحاديث مضطربة ، وسبب استماع الجن أنهم لما طردوا من استراق السمع من السماء برجم النجوم قالوا : ما هذا إلا لأمر حدث ،

فطافوا بالأرض ما أوجب ذلك ، حتى سمعوا قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلاة الفجر في سوق عكاظ ، فاستمعوا إليه وآمنوا به ﴿ أُنزِلَ مِن بَعْدِ موسى ﴾ في هذا دلالة على أنهم على دين اليهود ، وقيل : كانوا لم يعلموا ببعث عيسى ﴿ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ذكر في [البقرة : 89] ﴿ دَاعِيَ الله ﴾ هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ من هنا للتبعيض على الأصح ، أي يغفر لكم الذنوب التي فعلتم قبل الإسلام ، وأما التي بعد الإسلام فهي في مشيئة الله ، وقيل : معنى التبعيض أن المظالم لا تغفر وقيل : إن من زائدة ﴿ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي من النار ، واختلف الناس هل للجن ثواب زائد على النجاة من النار ، أم ليس لهم ثواب إلا النجاة خاصة ﴿ وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ الله ﴾ الآية : يحتمل أن يكون من كلام الجن ، أو من كلام الله تعالى ، ومعنى ليس بمعجز أي لا يفوت .

(143/705)

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ الآية : احتجاج على بعث الأجساد بخلق السموات والأرض ﴿ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ يقال : عييتَ بالأمر إذا لم تعرفه ، فالمعنى أنه تعالى علم كيف خلق السموات والأرض ، وأحكم خلقتها ، فلا شك أنه قادر على إحياء الموتى ﴿ بِقَادِرٍ ﴾ في موضع

رفع لأنه خبر أن ، وإنما دخلت الباء لاشتمال النفي في أول الآية على أن وخبرها ﴿ بلى ﴾ جواب لما تقدم ، أي هو قادر على أن يحي الموتى .

﴿ فاصبر كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ العزم مِنَ الرسل ﴾ هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أي اصبر على تكذيب قومك وألولوا العزم هم ، نوح وإبراهيم وعيسى وموسى ، وقيل هم الثمانية عشر المذكورون في سورة الأنعام لقوله : ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ [الأنعام : 90] ، وقيل : كل من لقي من أمته شدة ، وقيل : الرسل كلهم أولوا عزم ، فمن الرسل على هذا لبيان الجنس وعلى الأقوال المتقدمة للتبعيض ﴿ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ أي لا تستعجل نزول العذاب بهم ، فإنهم صائرون إليه فإنهم إذا هلكوا كأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار لاستقصار أعمارهم ﴿ بَلاَغٌ ﴾ خبر ابتداء مضمر تقديره : هذا الذي وعظتم به بلاغ بمعنى : كفاية في الموعظة ، أو بلاغ من الرسول عليه الصلاة والسلام ، أي بلغ هذه المواعظ والبراهين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 44.46 ﴾

(144/705)

وقال البيضاوى :

﴿ واذكر أَخَا عَادٍ ﴾

يعني هوداً . ﴿ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بالأحقاف ﴾

جمع حقف وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء من احقوقف الشيء إذا اعوج ، وكانوا يسكنون بين رمال مشرفة على البحر بالشحر من اليمن . ﴿ وَقَدْ خَلَتِ النذر ﴾ الرسل . ﴿ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ قبل هود وبعده والجملة حال أو اعتراض . ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ الله ﴾ أي لا تعبدوا ، أو بأن لا تعبدوا فإن النهي عن الشيء إنذار من مضرته . ﴿ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ هائل بسبب شرككم .

﴿ قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا ﴾ لتصرفنا . ﴿ عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾ عن عبادتها . ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ من العذاب على الشرك . ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ في وعدك . ﴿ قَالَ إِنَّمَا العلم عِندَ الله ﴾ لا علم لي بوقت عذابكم ولا مدخل لي فيه فأستعجل به ، وإنما علمه عند الله فيأتيكم به في وقته المقدر له . ﴿ وَأُبَلِّغُكُمْ مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ ﴾ إليكم وما على الرسول إلا البلاغ . ﴿ ولكنى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ لا تعلمون أن الرسل بعثوا مبلغين منذرين لا معذبين مقترحين .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً ﴾ سحاباً عرض في أفق السماء . ﴿ مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾ متوجه أوديتهم ، والإضافة فيه لفظية وكذا في قوله : ﴿ قَالُواْ هذا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ أي يأتينا بالمطر . ﴿ بَلْ هُوَ ﴾ أي قال هود عليه الصلاة والسلام ﴿ بَلْ هُوَ مَا استعجلتم بِهِ ﴾ من

العذاب ، وقرىء "قل" "بل" : ﴿ رِيحٌ ﴾ هي ريح ، ويجوز أن يكون بدل ما . ﴿ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ صفتها وكذا قوله :

(145/705)

﴿ تُدَمِّرُ ﴾ تهلك . ﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ من نفوسهم وأحوالهم . ﴿ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ إذ لا توجد نابضة حركة ولا قابضة سكون إلا بمشيئته ، وفي ذكر الأمر والرب وإضافة إلى الريح فوائد سبق ذكرها مراراً ، وقرىء "يدمر كل شيء" من دمر دماراً إذا هلك فيكون العائد محذوفاً أو الهاء في ﴿ رَبِّهَا ﴾ ، ويحتمل أن يكون استئنافاً للدلالة على أن لكل ممكن فناء مقضياً لا يتقدم ولا يتأخر ، وتكون الهاء لكل شيء فإنه بمعنى الأشياء ﴿ فَأَصْبَحُواْ لاَ تُرَى إِلاَّ مساكنهم ﴾ أي فجاءتهم الريح فدمرتهم فأصبحوا بحيث لو حضرت بلادهم لا ترى إلا مساكنهم ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي "لا يرى إلاَّ مساكنهم" بالياء المضمومة ورفع المساكن . ﴿ كذلك نَجْزِي القوم المجرمين ﴾ . روي أن هوداً عليه السلام لما أحس بالريح اعتزل بالمؤمنين في الحظيرة وجاءت الريح فأمالت الأحقاف على الكفرة ، وكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام ، ثم كشفت عنهم واحتملتهم تقذفتهم في البحر .

﴿ وَلَقَدْ مكناهم فِيمَا إِن مكناكم فِيهِ ﴾ ﴿ إن ﴾ نافية وهي أحسن من ما ههنا لأنها

توجب التكرير لفظاً ولذلك قلبت ألفها هاء في مهما ، أو شرطية محذوفة الجواب والتقدير ، ولقد مكناهم في الذي أوفي شيء إن مكناكم فيه كان بغيكم أكثر ، أو صلة كما في قوله :

يُرَجِّي المَرْءُ مَا إِنْ لاَ يَرَاه . . . ويعرض دُونَ أدناهُ الخُطُوبُ

(146/705)

والأول أظهر وأوفق لقوله : ﴿ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً ﴾ ﴿ كَانُواْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءاثَاراً ﴾ ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وأبصارا وَأَفْئِدَةً ﴾ ليعرفوا تلك النعم ويستدلوا بها على مانحها تعالى ويواظبوا على شكرها . ﴿ فَمَا أغنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أبصارهم وَلاَ أَفْئِدَتُهُمْ مِّن شَىْءٍ ﴾ من الإغناء وهو القليل . ﴿ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ الله ﴾ صلة ﴿ فَمَا أغنى ﴾ وهو ظرف جرى مجرى التعليل من حيث إن الحكم مرتب على ما أضيف إليه وكذلك حيث . ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ من العذاب

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ ﴾ يا أهل مكة . ﴿ مِّنَ القرى ﴾ كحجر ثمود وقرى قوم لوط . ﴿ وَصَرَّفْنَا الايات ﴾ بتكريرها . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عن كفرهم .

﴿ فَلَوْلاَ نَصَرَهُمُ الذين اتخذوا مِن دُونِ الله قُرْبَاناً ءالِهَةَ ﴾ فهلا منعتهم من الهلاك آلهتهم الذين يتقربون بهم إلى الله تعالى حيث قالوا : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، وأول مفعولي ﴾

اتخذوا ﴾ الراجع إلى الموصول محذوف ، وثانيهما ﴿ قُرْبَاناً ﴾ و﴿ ءَالِهَةً ﴾ بدل أو عطف بيان ، أو ﴿ ءَالِهَةً ﴾ و﴿ قُرْبَاناً ﴾ حال أو مفعول له على أنه بمعنى التقرب .

وقرىء " قُرَبَاناً " بضم الراء . ﴿ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ ﴾ غابوا عن نصرهم وامتنع أن يستمدوا بهم امتناع الاستمداد بالضال . ﴿ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ ﴾ وذلك الاتخاذ الذي هذا أثره صرفهم عن الحق ، وقرىء "إِفْكِهِمْ" بالتشديد للمبالغة ، و"آفكهم" أي جعلهم آفكين و"آفكهم" أي قولهم الآفك أي ذو الإفك . ﴿ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ .

(147/705)

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الجن ﴾ أملناهم إليك والنفر دون العشرة وجمعه أنفار . ﴿ يَسْتَمِعُونَ القرءان ﴾ حال محمولة على المعنى . ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ ﴾ أي القرآن أو الرسول . ﴿ قَالُواْ أَنصِتُواْ ﴾ قالوا بعضهم لبعض اسكتوا لنسمعه . ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ ﴾ أتم وفرغ من قراءته ، وقرىء على بناء الفاعل وهو ضمير الرسول عليه الصلاة والسلام . ﴿ وَلَّوْاْ إِلى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ أي منذرين إياهم بما سمعوا . روي أنهم وافوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بوادي النخلة عند منصرفه من الطائف يقرأ في تهجده .

﴿ قَالُواْ يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كتابا أُنزِلَ مِن بَعْدِ موسى ﴾ قيل إنما قالوا ذلك لأنهم كانوا يهودا

أو ما سمعوا بأمر عيسى عليه الصلاة والسلام . ﴿ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِلَى الحق ﴾ من العقائد . ﴿ وإلى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ من الشرائع .

﴿ ياقومنا أَجِيبُواْ دَاعِىَ الله وَءامِنُواْ بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ بعض ذنوبكم ، وهو ما يكون في خالص حق الله فإن المظالم لا تغفر بالإيمان . ﴿ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ هو معد للكفار ، واحتج أبو حنيفة رضي الله عنه باقتصارهم على المغفرة والإجارة على أن لا ثواب لهم ، والأظهر أنهم في توابع التكليف كبني آدم .

﴿ وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِىَ الله فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى الأرض ﴾ إذ لا ينجي منه مهرب . ﴿ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ يمنعونه منه . ﴿ أُوْلَئِكَ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ حيث أعرضوا عن إجابة من هذا شأنه .

(148/705)

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ الله الذى خَلَقَ السموات والأرض وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ ولم يتعب ولم يعجز ، والمعنى أن قدرته واجبة لا تنقص ولا تنقطع بالإيجاد أبد الأباد . ﴿ بِقَادِرٍ على أَن يُحْيِيَ الموتى ﴾ أي قادر ، ويدل عليه قراءة يعقوب "يقدر" ، والباء مزيدة لتأكيد النفي فإنه مشتمل على ﴿ أن ﴾ وما في حيزها ولذلك أجاب عنه بقوله : ﴿ بلى إِنَّهُ على كُلِّ شَىْءٍ

قَدِيرٍ ﴾ تقرير للقدرة على وجه عام يكون كالبرهان على المقصود ، كأنه صَدَّرَ السورة بتحقيق المبدأ أراد ختمها بإثبات المعاد .

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الذين كَفَرُواْ عَلَى النار ﴾ منصوب بقول مضمر مقوله : ﴿ أَلَيْسَ هذا بالحق ﴾ والإِشارة إلى العذاب . ﴿ قَالُواْ بلى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ العذاب بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ بكفركم في الدنيا ، ومعنى الأمر هو الإِهانة بهم والتوبيخ لهم .

(149/705)

﴿ فاصبر كَمَا صَبَرَ أُوْلُو العزم مِنَ الرسل ﴾ أولو الثبات والجد منهم فإنك من جملتهم ، و ﴿ مِنْ ﴾ للتبيين ، وقيل للتبعيض ، و ﴿ أُوْلُو العزم ﴾ منهم أصحاب الشرائع اجتهدوا في تأسيسها وتقريرها وصبروا على تحمل مشاقها ومعاداة الطاعنين فيها ، ومشاهيرهم : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى عليهم السلام . وقيل الصابرون على بلاء الله كنوح صبر على أذى قومه كانوا يضربونه حتى يغشى عليه ، وإبراهيم على النار وذبح ولده والذبيح على الذبح ، ويعقوب على فقد الولد والبصر ، ويوسف على الجب والسجن ، وأيوب على الضر ، وموسى قال له قومه ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ وداود بكى على خطيئته أربعين سنة ، وعيسى لم يضع لبنة على لبنة . ﴿ وَلاَ تَسْتَعْجِل

لَّهُمْ ﴾ لكفار قريش بالعذاب فإنه نازل بهم في وقته لا محالة . ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾ استقصروا من هوله مدة لبثهم في الدنيا حتى يحسبونها ساعة . ﴿ بَلاَغٌ ﴾ هذا الذي وعظتم به أو هذه السورة بلاغ أي كفاية ، أو تبليغ من الرسول عليه الصلاة والسلام ويؤيده أنه قرىء "بلغ" ، وقيل ﴿ بَلاَغٌ ﴾ مبتدأ خبره ﴿ لَهُمْ ﴾ و ﴿ مَا ﴾ بينهما اعتراض أي لهم وقت يبلغون إليه كأنهم إذا بلغوه ورأوا ما فيه استقصروا مدة عمرهم ، وقرىء بالنصب أي بلغوا بلاغاً . ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ القوم الفاسقون ﴾ الخارجون عن الاتعاظ أو الطاعة ، وقرىء يهلك بفتح اللام وكسرها من هلك وهلك ، ونهلك بالنون ونصب القوم . عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة الأحقاف كتب له عشر حسنات بعدد كل رملة في الدنيا " . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 182.187 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

(150/705)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ﴾

التفسير : إنه سبحانه بعد حكاية شبه المكذبين والأجوبة عنها ، وبعد إتمام ما انجر الكلام إليه ، أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يذكر قومه بقصة هود أعني أخا عاد لأنه واحد منهم . والأحقاف جمع حقف وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء من احقوقف الشيء إذا اعوج ، ويقال له الشحر من بلاد اليمن . وقيل : بين عمان ومهرة . والنذر جمع نذير مصدر أو صفة . الواو في قوله ﴿ وقد خلت ﴾ إما أن تكون للحال والمعنى أنذرهم وهم عالمون بإنذار الرسل من قبل ومن بعده ، وإما أن يكون اعتراضاً والمعنى واذكروا وقت إنذار هود قومه ﴿ ألا تعبدوا إلا الله ﴾ وقد أنذر من تقدمه من الرسل ومن تأخر عنه مثل ذلك فأذكرهم قوله ﴿ لتأفكنا ﴾ أي لتصرفنا عن عبادة آلهتنا . قوله ﴿ إنما العلم عند الله ﴾ أي لا علم لي بالوقت الذي عينه الله لتعذيبكم فلا معنى لاستعجالكم ولهذا نسبهم إلى الجهالة ، وأيّ جهل أعظم من نسبة نبي الله إلى الكذب . ومن ترك طريقة الاحتياط ومن استعجال ما فيه هلاكهم ، والضمير في قوله ﴿ فلما رأوه ﴾ عائد إلى الموعود ، أو هو مبهم يوضحه قوله ﴿ عارض ﴾ أي سحاب عرض في نواحي السماء .

(151/705)

والإضافة في قوله ﴿ مستقبل أوديتهم ﴾ و ﴿ ممطر ﴾ لفظية ولهذا صح وقوعها صفة للنكرة . والتدمير الإهلاك والاستئصال . وفي قوله ﴿ بأمر ربها ﴾ إشارة إلى إبطال قول من زعم أن مثل هذه الآثار مستند إلى تأثيرات الكواكب بالاستقلال . ثم زاد في تخويف كفار مكة وذكر فضل عاد في القوة الجسمانية وفي الأسباب الخارجية عليهم فقال ﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ﴾ قال المبرد : " ما " موصولة و " إن " نافية أي في الذي لم نمكنكم فيه . وقال ابن قتيبة : " إن " زائدة وهذا فيه ضعف لأن الأصل حمل الكلام على وجه لا يلزم منه زيادة في اللفظ ، ولأن المقصود فضل أولئك القوم على هؤلاء حتى يلزم المبالغة في التخويف ، وعند تساويهما يفوت هذا المقصود . وقيل : " إن " للشرط والجزاء مضمر أي في الذي إن مكناكم فيه كان بغيكم أكثر . وقوله ﴿ من شيء ﴾ أي شيئاً من الإغناء وهو القليل منه . وقوله ﴿ إذ كانوا ﴾ ظرف لما أغنى وفيه معنى التعليل كقولك " ضربته إذ أساء " قوله ﴿ من القرى ﴾ يريد من قريات عاد وثمود ولوط وغيرهم بالشام والحجاز واليمن ، وتصريف الآيات أي تكريرها . قيل : للعرب المخاطبين والأظهر أنه للماضين لقوله ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ عن شركهم ، والأوّلون حملوه على الالتفات . ثم وبخهم بأن أصنامهم لم يقدروا على نصرتهم وشفاعتهم . فقوله ﴿ آلهة ﴾ مفعول ثانٍ ﴿ لا تخذوا ﴾ والمفعول الأول محذوف وهو الراجع إلى ﴿ الذين ﴾ و ﴿ قرباناً ﴾ حال أو مفعول له أي متقربين إلى الله ، أو لأجل القربة بزعمهم . والقربان مصدر أو اسم لما يتقرب

به إلى الله عز وجل . ويجوز أن يكون ﴿ قرباناً ﴾ مفعولاً ثانياً و ﴿ آلهة ﴾ بدلاً أو بياناً .

قوله ﴿ وذلك إفكهم ﴾ أي عدم نصرة آلهتهم وضلالهم عنهم وقت الحاجة محصول إفكهم وافترائهم ، أو عاقبة شركهم وثمرة كذبهم على الله .

(152/705)

وحين بّين أن الإنس من آمن وفيهم من كفر ، أراد أن يبين أن نوع الجن أيضاً كذلك . وفي كيفية الواقعة قولان : أحدهما عن سعيد بن جبير وعليه الجمهور : كانت الجن تسترق فلما رجموا قالوا : هذا إنما حدث في السماء لشيء حدث في الأرض . فذهبوا يطلبون السبب فوافوا النبي صلى الله عليه وسلم بمكة يصلي بأصحابه أو منفرداً . فمنهم من قال صلاة العشاء الآخرة ومنهم من قال صلاة الصبح ، فقرأ فيها سورة " اقرأ " فسمعوا القرآن وعرفوا أن ذلك هو السبب . وعلى هذا لم يكن ذلك بعلم منه صلى الله عليه وسلم حتى أوحى الله إليه . والقول الثاني " أنه صلى الله عليه وسلم أمر بذلك فقال لأصحابه : إني أمرت أن أقرأ القرآن على الجن فأيكم يتبعني ؟ فأتبعه ابن مسعود ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم شعب الحجون وخط على ابن مسعود وقال : لا تبرح حتى آتيك . قال : فسمعت لغطاً شديداً حتى خفت على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم علا بالقرآن أصواتهم . فلما

رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم سألته عن اللغط فقال : اختصموا إليّ في قتيل كان بينهم فقضيت فيهم . "

وفي رواية أخرى " عن ابن مسعود قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمعك ماء ؟ قلت : يا رسول الله معي إداوة فيها شيء من نبيذ التمر . فاستدعاه فصببت على يده فتوضأ فقال : تمرة طيبة وماء طهور . " واختلفوا في عددهم : عن ابن عباس : كانوا تسعة من جن نصيبين أو نينوى . وقال عكرمة : كانوا عشرة من جزيرة الموصل ، وزر بن حبيش : كانوا تسعة ومنهم زوبعة . وقيل : اثني عشر ألفاً .

(153/705)

ولنرجع إلى التفسير . قوله ﴿ وإذ صرفنا ﴾ معطوف على قوله ﴿ أذكر أخا عاد إذ أنذر ﴾ ومعنى صرفنا أملناهم إليك ، والنفر ما دون العشرة ويجمع على أنفار . والضمير في ﴿ حضروه ﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم أو القرآن ﴿ قالوا ﴾ أي قال بعضهم لبعض ﴿ أنصتوا ﴾ والإنصات السكوت لاستماع الكلام ﴿ فلما قضى ﴾ أي فرغ النبي صلى الله عليه وسلم من القراءة . وإنما قالوا ﴿ أنزل من بعد موسى ﴾ لأنهم كانوا يهوداً أو لأنهم لم يسمعوا أمر عيسى قاله ابن عباس ﴿ أجيبوا داعي الله ﴾ عنوا رسول الله أو أنفسهم

بناء على أنهم رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قومهم ، ومنه يعلم أنه صلى الله عليه وسلم كان مبعوثاً إلى الجن أيضاً وهذا من جملة خصائصه . وحين عمموا الأمر بإجابة الداعي خصصوه بقولهم ﴿ وآمنوا به ﴾ لأن الإيمان أشرف أقسام التكاليف . و " من " في قوله ﴿ من ذنوبكم ﴾ للتبعيض فمن الذنوب ما لا يغفر بالإيمان كالمظالم وقد مر في " إبراهيم " . واختلفوا في أن الجن هل لهم ثواب أم لا ؟ فقيل : لا ثواب لهم إلا النجاة من النار بقوله ﴿ ويجركم من عذاب أليم ﴾ وهو قول أبي حنيفة . والصحيح أنهم في حكم بني آدم يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون . وقد جرت بين مالك وأبي حنيفة مناظرة في هذا الباب . قوله ﴿ فليس بمعجز ﴾ أي لا يفوته هارب . قوله ﴿ ولم يعي ﴾ يقال : عييت بالأمر إذا لم يعرف وجهه . قوله ﴿ بقادر ﴾ في محل الرفع لأنه خبر " أن " وإنما دخلت الباء لاشتمال الآية على النفي كأنه قيل : أليس الله بقادر ؟ والمقصود تأكيد ما مر في أول السورة من دلائل البعث والنبوّة . ثم سلى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله ﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم ﴾ وقوله ﴿ من الرسل ﴾ بيان لأن جميع الرسل أرباب عزم وجد في تبليغ ما أمروا بأدائه ، أو هو للتبعيض فنوح صبر على أذى قومه ، وإبراهيم على النار وذبح الولد ، وإسحق على الذبح ، ويعقوب على فراق الولد ، ويوسف على السجن ، وأيوب على الضر ، وموسى

على سفاهة قومه وجهالاتهم ، وأما يونس فلم يصبر على دعاء القوم فذهب مغاضباً ، وقال الله تعالى في حق آدم ﴿ ولم نجد له عزماً ﴾ [طه : 115] ﴿ ولا تستعجل لهم ﴾ أي لا تدع لكفار قريش بتعجيل العذاب فإنه نازل بهم لا محالة وإن تأخر ، وإنهم يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا حتى ظنوا أنها ساعة من نهار ﴿ هذا ﴾ الذي وعظهم به كفاية في بابه وقد مر في آخر سورة " إبراهيم " عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 123.126 ﴾

(155/705)

وقال الخطيب الشربينى :

ولما كان قوم عاد أكثر أموالاً وقوة وجاهاً من أهل مكة ، ذكر تعالى قصتهم ليعتبروا ، فيتركوا الاغترار بما وجدوه في الدنيا . فقال عز من قائل:

﴿ واذكر ﴾ يا أشرف الرسل ، لهؤلاء الذين لا يتعظون ﴿ أخا عاد ﴾ وهو أخوك هود عليه السلام ، الذي كان بين قوم أشدّ من قومك ، ولم يخف عاقبتهم وأمرهم ونهاهم ونجيناه منهم فهو لك قدوة ، وفيه أسوة ، ولقومك في قصدهم إياك بالأذى من أمره موعظة . وقوله

تعالى : ﴿ إذ أنذر ﴾ بدل اشتمال من ﴿ أخا ﴾ ﴿ قومه ﴾ أي : الذين لهم قوة على القيام فيما يحاولونه . ﴿ بالأحقاف ﴾ قال ابن عباس : واديين عمان ومهرة ، وقال مقاتل : كانت منازل عاد باليمن في حضرموت بموضع يقال له : مهرة إليها تنسب الإبل المهرية . وكانوا أهل عمد سيارة في الربيع ، فإذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم . وكانوا من قبيلة إرم قال قتادة : ذكر لنا : أن عاداً كانوا حياً من اليمن ، كانوا أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشحر .

﴿ وقد ﴾ أي : والحال أنّه قد ﴿ خلت النذر ﴾ أي : مرّت ومضت الرسل الكثيرون ﴿ من بين يديه ﴾ أي : قبل هود ، كنوح وشيث وآدم عليهم السلام ﴿ ومن خلفه ﴾ أي : بعده والمعنى ؛ أنّ الرسل الذين بعثوا قبله ، والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو إنذاره ، والجملة حال ، أو اعتراض . ولما أشار إلى كثرة الرسل ، ذكر وحدتهم في أصل الدعاء ، فقال مفسراً للإنذار معبراً بالنهي ﴿ أن لا تعبدوا ﴾ أي : أيها العباد المنذرون ، بوجه من الوجوه شيئاً من الأشياء ﴿ إلا الله ﴾ أي : الملك الذي لا ملك غيره ، ولا خالق سواه ، ولا منعم إلا هو فإني أراكم تشركون به من لم يشركه في شيء من تدبيركم والملك لا يقرّ على مثل هذا ﴿ إني أخاف عليكم ﴾ لكونكم قومي ، وأعز الناس عليّ ﴿ عذاب يوم عظيم ﴾ أي لا يدع جهة إلا ملأها عذابه إن أصررتم على ما أنتم فيه من الشرك .

﴿ قالوا ﴾ له في جوابه منكرين عليه ﴿ أجئتنا ﴾ أي : يا هود ، ﴿ لتأفكنا ﴾ أي : لتصرفنا عن وجه أمرنا إلى قفاه ﴿ عن آلهتنا ﴾ فلا نعبدها ، ولا نعتد بها ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ من العذاب ؛ سموا الوعيد وعداً ﴿ إن كنت ﴾ أي : يقال عنك كوناً ثابتاً ﴿ من الصادقين ﴾ في أنك رسول من الله ، وأنه يأتينا بما تخافه علينا من العذاب إن أصررنا .

﴿ قال ﴾ أي هود مكذباً لهم في نسبتهم إليه ادعاء شيء من ذلك : ﴿ إنما العلم ﴾ أي : المحيط بكل شيء ، عذابكم وغيره . ﴿ عند الله ﴾ أي : المحيط بجميع صفات الكمال ، فهو ينزل علم ما توعدون به على من يشاء إن شاء . ولا علم لي إلى الآن ، ولا لكم بشيء من ذلك ولا قدرة ، ﴿ وأبلغكم ﴾ أي : في الحال والاستقبال وقرأ أبو عمرو بسكون الباء الموحدة وتخفيف اللام والباقون : بفتح الموحدة وتشديد اللام . ﴿ ما أرسلت به ﴾ ممن لا مرسل في الحقيقة غيره ، سواء أكان وعداً أم وعيداً أم غير ذلك . ولم يذكر الغاية ؛ لأنّ ما أرسل به صالح لهم ولغيرهم ﴿ ولكني أراكم ﴾ أي : أعلمكم علماً كالرؤية . وقرأ نافع والبزي وأبو عمرو : بفتح الياء والباقون : بسكونها . وأمال الألف بعد الراء ورش بين بين وأمالها أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي محضة . والباقون بالفتح . ﴿ قوماً تجهلون ﴾ أي : باستعجال العذاب . فإنّ الرسل بعثوا مبلغين منذرين لا مقترحين .

﴿ فلما رأوه ﴾ أي : العذاب الذي توعدهم به ﴿ عارضا ﴾ أي : سحاباً أسود بارزاً في الأفق ، ظاهر الأمر عند من له أهلية النظر ، حال كونه قاصداً إليهم . ﴿ مستقبل أوديتهم ﴾ أي : طالباً لأن يكون مقابلاً لها وموجداً لذلك . ﴿ قالوا ﴾ على عادة جهلهم ، مشيرين إليه بأداة القرب الدالة على أنهم في غاية الجهل ، لأنّ جهلهم به استمّر حتى كاد أن يواقعهم . ﴿ هذا عارض ﴾ أي : سحاب معترض في عرض السماء . أي : ناحيتها . ﴿ ممطرنا ﴾ قال المفسرون : كان حبس عنهم المطر أياماً فساق الله تعالى إليهم سحابة سوداء فخرجت عليهم من واد لهم يقال له المغيث فلما رأوها استبشروا وقالوا هذا عارض ممطرنا فقال الله تعالى ﴿ بل هو ﴾ أي : هذا العارض الذي ترونه ﴿ ما استعجلتم به ﴾ أي : طلبتم العجلة في إتيانه وقوله تعالى : ﴿ ريح ﴾ بدل من ﴿ ما ﴾ ﴿ فيها عذاب أليم ﴾ أي : شديد الإيلام وروي أنها كانت تحمل الفسطاط فترفعه في الجوّ ، وتحمل الظعينة في الجوّ ، فترفعها وهودجها حتى ترى كأنها جرادة وكانوا يرون ما كان خارجاً عن منازلهم من الناس والمواشي تطير بهم الريح بين السماء والأرض ، ثم تقذف بهم . ثم وصف تلك الريح . بقوله تعالى:

﴿ تدمر ﴾ أي : تهلك إهلاكاً عظيماً شديداً . ﴿ كل شيء ﴾ أي : أتت عليه من الحيوان والناس وغيرهما ، هذا شأنها فمن سلم منها كهود عليه السلام ومن آمن به ، فسلامته أمر خارق للعادة . كما أنّ أمرها في إهلاك كل ما مرّت عليه أمر خارق للعادة .

﴿ بأمر ربها ﴾ أي : المبدع لها والمربي والمحسن بالانتقام من أعدائه .

فإن قيل : ما فائدة إضافة الرب إلى الريح أجيب : بأنّ فائدة ذلك : الدلالة على أنّ الريح وتصريف أعنتها ، مما يشهد بعظيم قدرته لأنها من أعاجيب خلقه ، وأكابر جنوده . وذكر الأمر وكونها مأمورة من جهته عز وعلا يعضد ذلك ويقويه فليس من تأثير الكواكب والقرانات .

(158/705)

قيل : إنّ أوّل من أبصر العذاب امرأة منهم ، قالت : رأيت ريحاً فيها كشهب النار . وروي : أنّ أوّل ما عرفوا به أنه عذاب أليم : أنهم رأوا ما كان في الصحراء من رحالهم ومواشيهم تطير به الريح بين السماء والأرض فدخلوا بيوتهم ، وغلقوا أبوابهم فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم ، وأمال الله عليهم الأحقاف فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام ، لهم أنين ثم أمر الله تعالى الريح ، فكشفت عنهم الرمال ، وحملتهم ، فرمت بهم في البحر .

وروي : أن هوداً عليه السلام لما أحس بالريح خط على نفسه وعلى المؤمنين خطاً إلى جنب عين تنبع وكانت الريح التي تصيبهم ريحاً طيبة هادئة ، والريح التي تصيب قوم عاد ترفعهم من الأرض وتطير بهم إلى السماء وتضربهم على الأرض .

وعن ابن عباس اعتزل هود ومن معه في حظيرة ، ما يصيبهم من الريح إلا ما يلين على الجلود وتلذه الأنفس . وإنها لتمرّ من عاد بالظعن بين السماء والأرض ، وتدمغهم بالحجارة . وأثر المعجزة إنما ظهر في تلك الريح من هذا الوجه "قال صلى الله عليه وسلم ما أمر الله تعالى خازن الريح أن يرسل على عاد إلا مقدار الخاتم وذلك القدر أهلكهم بكليتهم" كما قال تعالى:

(159/705)

﴿ فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم ﴾ أي : فجاءتهم الريح فدمّرتهم ، فأصبحوا بحيث لو خضت بلادهم لا ترى إلا مساكنهم . وقرأ عاصم وحمزة : بالياء التحتية المضمومة ورفع النون من مساكنهم ، لقيامه مقام الفاعل . والباقون : بالتاء الفوقية مفتوحة مبنياً للفاعل ، ونصب مساكنهم مفعولاً به . وأمال الألف بعد الراء ورش بين بين ، وأبو عمرو وحمزة والكسائي محضة . وكذلك من ﴿ القرى ﴾ ﴿ كذلك ﴾ أي : مثل هذا الجزاء الهائل ؛

في أصله ، أو جنسه ، أو نوعه ، أو شخصه من الإهلاك . ﴿ نجزي ﴾ بعظمتنا دائماً إذا شئنا ﴿ القوم المجرمين ﴾ أي : العريقين في الإجرام الذين يقطعون ما حقه الوصل وذلك الجزاء هو الإهلاك على هذا الوجه الشنيع "وروي أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى الريح فزع وقال : "اللهم إني أسألك خيرها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرّها وشرّ ما أرسلت به ، وإذا رأى مخيلة أي : سحابة . قام وقعد ، وجاء وذهب ، وتغير لونه ، فنقول له : يا رسول الله ما تخاف ؟ فيقول : إني أخاف أن يكون مثل قوم عاد حيث قالوا : هذا عارض ممطرنا فاحذروا أيها العرب مثل ذلك إن لم ترجعوا" فإن قيل قال تعالى : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ (الأنفال :)

فكيف يحصل التخويف أجيب بأنّ ذلك كان قبل نزول الآية ثم أخبر الله تعالى عن مكنة عاد بقوله سبحانه:

﴿ ولقد مكناهم ﴾ أي : تمكيناً تظهر به عظمتنا ﴿ فيما ﴾ أي : في الذي ﴿ إن ﴾ نافية أي : ما ﴿ مكناكم ﴾ يا أهل مكة ﴿ فيه ﴾ من قوّة الأبدان ، وطول الأعمار ، وكثرة الأموال ، وغيرها . ثم إنّهم مع ذلك ما نجوا من عذاب الله تعالى . فكيف يكون حالكم ؟ .

(160/705)

تنبيه : قال البقاعي : وجعل النافي إن ؛ لأنها أبلغ من ﴿ ما ﴾ لأن ما تنفى تمام الفوت ، لتركبها من الميم والألف التي حقيقة إدراكها فوت تمام الإدراك . وإن تنفي أدنى مظاهر مدخولها ، فكيف بما وراء من تمامه ؟ لأنّ الهمزة أوّل مظهر لفوت الألف ، والنون لمطلق الإظهار . هذا إلى ما في ذلك من عذوبة اللفظ ، وصونه عن ثقل التكرار ، إلى غير ذلك من بديع الأسرار ا .ه .

وقال الزمخشريّ : إن نافية أي : فيما ما مكناكم فيه إلا أن إن أحسن في اللفظ ، لما في مجامعة ما بمثلها من التكرار المستبشع ، ومثله مجتنب . ألا ترى أنّ الأصل في مهما ما ما فلبشاعة التكرير قلبوا الألف هاء ولقد أغث أبو الطيب في قوله:

*لعمرك ما ما بان منك لضارب

وما ضرّه لو اقتدى بعذوبة لفظ التنزيل فقال:

لعمرك ما إن بان منك لضارب . وقد جعلت إن صلة مثلها فيما أنشده الأخفش رحمه الله تعالى:

*يرجى المرء ما إن لا يراه

** وتعرض دون أدناه الخطوب

ونؤوّل بأنا مكناهم في مثل ما مكناكم فيه والوجه هو الأوّل ﴿ وجعلنا لهم ﴾ أي على ما اقتضته عظمتنا ﴿ سمعاً ﴾ وأفرده لقلة التفاوت فيه ﴿ وأبصاراً ﴾ وجمعه لكثرة التفاوت في أنوار الأبصار ، وكذا في قوله تعالى : ﴿ وأفئدة ﴾ أي : فتحنا عليهم أبواب النعم ، وأعطيناهم سمعاً فما استعملوه في سماع الدلائل . وأعطيناهم أبصاراً فما استعملوها في دلائل ملكوت السموات والأرض وأعطيناهم أفئدة ، أي : قلوباً فما استعملوها في طلب معرفة الله تعالى ، بل صرفوا كل هذه القوى إلى طلب الدنيا ولذاتها . فلا جرم قال تعالى : ﴿ فما أغنى عنهم ﴾ في حال إرسالنا إليهم الرحمة على لسان هود عليه السلام ثم النقمة بيد الريح ﴿ سمعهم ﴾ وأكد النفي بتكرير النافي بقوله تعالى : ﴿ ولا أبصارهم ﴾ وكذا في قوله تعالى : ﴿ ولا أفئدتهم ﴾ أردنا إهلاكهم ، وأكد بإثبات الجار بقوله تعالى : ﴿ من شيء ﴾ أي : من الأشياء وإن قل وقال الجلال المحلي إنّ ﴿ من ﴾ زائدة وقوله تعالى : ﴿ إذ ﴾ معمولة لأغنى وأشربت معنى التعليل . أي : لأنهم ﴿ كانوا ﴾ أي : طبعاً وخلقاً ﴿ يجحدون ﴾ أي : يكرّرون على ممر الزمان الجحد ﴿ بآيات الله ﴾ أي : الإنكار لما يعرب عن دلائل الملك الأعظم ﴿ وحاق ﴾ أي : نزل ﴿ بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ لأنهم ؛ كانوا يطلبون نزول العذاب على سبيل الاستهزاء

ولما تم المراد من الإخبار بهلاكهم على ما لهم من المكنة العظيمة ليتعظ بهم من سمع أمرهم أتبعهم من كان مشاركاً لهم في التكذيب فشاركهم في الهلاك فقال تعالى:

(162/705)

﴿ ولقد أهلكنا ﴾ أي: بما لنا من العظمة ﴿ ما حولكم ﴾ يا أهل مكة ﴿ من القرى ﴾ كحجر ثمود وعاد وأرض سدوم وسبأ ومدين والأيكة وقوم لوط وفرعون وأصحاب الرس ، وغيرهم ممن فيهم معتبر ﴿ وصرّفنا ﴾ أي: بينا ﴿ الآيات ﴾ أي: الحجج البينات ﴿ لعلهم ﴾ أي: الكفار ﴿ يرجعون ﴾ أي: ليكونوا عند من يعرف حالهم في رؤية الآيات ، حال من يرجع عن الغيّ الذي كان يرتكبه ، لتقليد أو شبهة كشفتها الآيات وفضحتها الدلالات؛ فلم يرجعوا فكان عدم رجوعهم سبب إهلاكهم. ﴿ فلولا ﴾ أي: فهلا ولم لا ﴿ نصرهم الذين ﴾ أي: نصر هؤلاء المهلكين الذين ﴿ اتخذوا ﴾ أي: اجتهدوا في صرف أنفسهم عن دواعي العقل حتى أخذوا. ﴿ من دون الله ﴾ أي: الملك الذي هو أعظم من كل عظيم ﴿ قرباناً ﴾ أي: متقرباً بهم إلى الله تعالى: ﴿ آلهة ﴾ معه وهم الأصنام ومفعول اتخذوا الأوّل ضمير محذوف يعود على الموصول أي: هم ، وقرباناً المفعول الثاني ، وآلهة بدل منه ﴿ بل ضلوا ﴾ أي: غابوا ﴿ عنهم ﴾ وقت نزول النقمة.

وقرأ الكسائي بإدغام اللام في الضاد ، والباقون بالإظهار ﴿ وذلك ﴾ أي : اتخاذهم الأصنام آلهة قرباناً ﴿ إفكهم ﴾ أي : كذبهم ﴿ وما كانوا ﴾ أي : على وجه الدوام لكونه في طباعهم ﴿ يفترون ﴾ أي : يتعمدون كذبه ، لأنّ إصرارهم عليه بعد مجيء الآيات لا يكون إلا كذلك ، لأنّ من نظر فيها مجرداً نفسه عن الهوى اهتدى . ﴿ وإذ ﴾ أي : واذكر إذ ﴿ صرفنا ﴾ أي : أملنا ﴿ إليك نفراً ﴾ وهو اسم يطلق على ما دون العشرة وسيأتي في ذلك خلاف ﴿ من الجنّ ﴾ أي جنّ نصيبين اليمن ، أو جنّ نينوى ﴿ يستمعون القرآن ﴾ أي : يطلبون سماع الذكر الجامع لكل خير الفارق بين كل ملبس ، وأنت في صلاة الفجر في نخلة ، تصلي بأصحابك ﴿ فلما حضروه ﴾ أي : صاروا بحيث يستمعونه ﴿ قالوا ﴾ أي : قال بعضهم لبعض ، ورضي الآخرون ﴿ أنصتوا ﴾ أي : اسكتوا ، وميلوا بكلياتكم ، واستمعوا . حفظاً للأدب على بساط الخدمة وفيه تأدب مع العلم في تعلمه . قال القشيري : فأهّل الحضور صفتهم الذبول والسكون والهيبة

(163/705)

والوقار .

(164/705)

تنبيه : ذكروا في كيفية هذه الواقعة قولين : أحدهما "قال سعيد بن جبير : كان الجنّ تستمع فلما رجموا قالوا هذا الذي حدث في السماء إنما حدث لشيء في الأرض فذهبوا يطلبون السبب ، وكان قد اتفق أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لما أيس من أهل مكة أن يجيبوه ، خرج إلى الطائف ليدعوهم إلى الإسلام فلما انصرف إلى مكة وكان ببطن نخلة قام يقرأ القرآن ، فمرّ به نفر من أشرار جنّ نصيبين ، كان إبليس بعثهم ليعرف السبب الذي أوجب حراسة السماء بالرجم ، فسمعوا القرآن فعرفوا أن ذلك هو السبب" . والقول الثاني أنّ الله تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن ينذر الجنّ ويدعوهم إلى الله تعالى ويقرأ عليهم القرآن فصرف الله تعالى إليه نفراً من الجنّ يستمعون منه القرآن وينذرون قومهم روي أن الجنّ كانوا يهوداً لأنّ في الجنّ مللاً كما في الإنس من اليهود والنصارى ، وعبدة الأوثان ، والمجوس وأطبق المحققون على أنّ الجن مكلفون سئل ابن عباس هل للجنّ ثواب قال نعم لهم ثواب وعليهم عقاب يلبثون في أبواب الجنة ويزدحمون على أبوابها . "وروى الطبراني عن ابن عباس أن أولئك الجنّ كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين فجعلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم رسلاً إلى قومهم" "وعن زرّ ابن حبيش كانوا تسعة ، أحدهم زوبعة" "وعن قتادة ذكر لنا أنهم صرفوا إليه من نينوى" وروي في الحديث : "أنّ الجنّ ثلاثة أصناف صنف لهم أجنحة يطيرون في الهواء وصنف حيات وكلاب وصنف يحلون ويظعنون" واختلفت

الروايات هل كان عبد الله بن مسعود مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ أو لا ؟

وروى عن أنس قال كنت عند النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو بظاهر المدينة ، إذ أقبل شيخ يتوكأ على عكازة فقال النبي صلى الله عليه وسلم إنها لمشية جني ، ثم أتى فسلم على النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم إنها لنغمة جنيّ فقال الشّيخ : أجل يا رسول الله . فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم من أيّ الجنّ أنت ؟

(165/705)

فقال

يا رسول الله ، أنا هام بن هيم بن لاقيس بن إبليس فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم لا أرى بينك وبين إبليس إلا أبوين . قال : أجل يا رسول الله ، قال : كم أتى عليك من العمر ؟ قال : أكلت عمر الدنيا إلا القليل ، كنت حين قُتل هابيل غلاماً ابن أعوام ، فكنت أتشرف على الآكام ، وأصطاد الهام ، وأورّش بين الأنام . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم بئس العمل . فقال : يا رسول الله ، دعني من العتب فإني ممن آمن مع نوح عليه السلام وعاتبته في دعوته فبكى وأبكاني ، وقال : والله إني لمن النادمين ، وأعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ولقيت هوداً فعاتبته في دعوته فبكى وأبكاني ، وقال والله إني لمن النادمين ، وأعوذ بالله أن أكون

من الجاهلين ولقيت إبراهيم ، وآمنت به ، وكنت بينه وبين الأرض إذ رمي به في المنجنيق ، وكنت معه في النار إذ ألقي فيها وكنت مع يوسف إذ ألقي في الجب ، فسبقته إلى قعره . ولقيت موسى بن عمران بالمكان الأثير . وكنت مع عيسى ابن مريم عليهما السلام . فقال لي : إن لقيت محمداً فاقرأ عليه السلام . قال أنس : فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم وعليه السلام وعليك يا هام ما حاجتك ؟ قال : إنّ موسى علمني التوراة ، وإنّ عيسى علمني الإنجيل ، فعلّمني القرآن قال أنس : فعلمه النبيّ صلى الله عليه وسلم سورة الواقعة عم يتساءلون وإذا الشمس كوّرت وقل يا أيها الكافرون وسورة الإخلاص والمعّوذتين . ﴿ فلما قضي ﴾ أي : فرغ من قراءته ﴿ ولوا ﴾ أي : رجعوا ﴿ إلى قومهم ﴾ الذين فيهم قوة القيام بما يحاولونه ﴿ منذرين ﴾ أي مخوفين لهم ومحذرين عواقب الضلال بأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس جعلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم رسلاً إلى قومهم .

ولما كان كأنه قيل ما قالوا لهم في إنذارهم ؟ قيل:

﴿ قالوا يا قومنا ﴾ مترققين لهم ، ومترفقين بهم بذكر ما يدل على أنهم منهم ، يهمهم ما يهمهم ﴿ إنا سمعنا ﴾ أي : ما بيننا وبين القارىء واسطة . وأشاروا إلى أنه لم ينزل بعد التوراة شيء جامع لجميع ما يراد منه ، مغن عن جميع الكتب غير هذا . وبذلك عرفوا أنه ناسخ لجميع الشرائع بقولهم : ﴿ كتاباً ﴾ أي : ذكراً جامعاً ، لا كما نزل بعد التوراة على بني إسرائيل ﴿ أنزل ﴾ أي : ممن لا منزل غيره ، وهو ملك الملوك لأنّ عليه من رونق الكتب الإلهية ما يوجب القطع لسامعه بأنه منها ، فكيف إذا انضم إلى ذلك الإعجاز ؟ وعلموا قطعاً بعربيته أنه عربي ، وبأنهم كانوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها ويسمعون قراءة الناس لما يحدثونه من الحكم والخطب والكهانة والرسائل والأشعار ، وأنه مباين لجميع ذلك ﴿ من بعد موسى ﴾ فلم يقتدوا بما أنزل بين هذا الكتاب وبين التوراة ، من الإنجيل وما قبله ، لأنه لا يساوي التوراة في الجمع ، وروي عن عطاء والحسن : إنما قالوا ذلك لأنهم كانوا يهوداً . "وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ الجنّ ما سمعوا أمر عيسى ، فلذلك قالوا من بعد موسى" ولما أخبروا بأنه منزل ، أتبعوه ما يشهد له بالصحة بقولهم:

﴿ مصدقاً لما بين يديه ﴾ أي : من جميع كتب بني إسرائيل الإنجيل وما قبله ، ثم بينوا تصديقه بقولهم : ﴿ يهدي إلى الحق ﴾ الأمر الثابت الذي يطابق الواقع ، فلا يقدر أحد على إزالة شيء مما يخبر به الكامل في جميع ذلك ﴿ وإلى طريق ﴾ موصل إلى المقصود ﴿ مستقيم ﴾ لا عوج فيه ﴿ يا قومنا ﴾ الذين لهم قوة العلم والعمل ﴿ أجيبوا داعي

الله ﴾ أي : الملك الأعظم المحيط بصفات الكمال . فإن دعوة هذا الداعي عامة لجميع الخلق ، فالإجابة واجبة على كل من بلغه أمره وفي هذه الآية دلالة على أنه صلى الله عليه وسلم كان مبعوثاً إلى الجن ، كما كان مبعوثاً إلى الإنس ﴿ وآمنوا به ﴾ أي : أوقعوا التصديق بسبب الداعي ، وهو النبي صلى الله عليه وسلم لا بسبب آخر فإن المفعول معه مفعول مع الله تعالى .

(167/705)

فإن قيل قوله تعالى : ﴿ أجيبوا داعي الله ﴾ أمر بإجابته في كل ما أمر به فيدخل فيه الأمر بالإيمان فكيف قال وآمنوا به ؟

أجيب بأنه إنما ذكر الإيمان على التعيين ، لأنه أهمّ الأقسام وأشرفها وقد جرت العادة في القرآن العظيم بأن يذكر اللفظ العام ، ثم يعطف عليه أشرف أنواعه ، كقوله تعالى ﴿ وملائكته ورسله وجبريل وميكال ﴾ (البقرة :)

وقوله تعالى ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح ﴾ (الأحزاب :)

ولما أمر تعالى بالإيمان ذكر فائدته بقوله تعالى : ﴿ يغفر لكم ﴾ أي : الله تعالى ﴿ من ذنوبكم ﴾ أي : بعضها من الشرك وما شابهه مما هو حق لله تعالى وكذا ما يجازى به

صاحبه في الدنيا بالعقوبات والنكبات والهموم ونحوها ، مما أشار إليه قوله تعالى ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ (الشورى :)

وأما المظالم فلا تغفر إلا برضا أربابها ، وقيل : ﴿ من ﴾ زائدة والتقدير : يغفر لكم ذنوبكم ، وقيل : بل فائدته أن كلمة ﴿ من ﴾ هنا لابتداء الغاية ، والمعنى : أنه يقع ابتداء الغفران بالذنوب ، ثم ينتهي إلى غفران ما صدر عنكم من ترك الأولى والأكمل ﴿ ويجركم ﴾ أي : يمنعكم منع الجار لجاره لكونكم بالتحيز إلى داعيه صرتم من حزبه .

﴿ من عذاب أليم ﴾ "قال ابن عباس : فاستجاب لله تعالى لهم من قومهم نحو سبعين رجلاً من الجنّ فرجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوافوه في البطحاء ، فقرأ عليهم القرآن وأمرهم ونهاهم" .

تنبيه : اختلفوا في أن الجنّ هل لهم ثواب أو لا فقيل : لا ثواب لهم إلا النجاة من النار ، ويقال لهم : كونوا تراباً ، مثل البهائم واحتجوا على ذلك بقوله تعالى ﴿ ويجركم من عذاب أليم ﴾ وهو قول أبي حنيفة .

(168/705)

والصحيح أنّ حكمهم حكم بني آدم يستحقون الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية ، وهو قول ابن أبي ليلى ومالك وتقدّم عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً نحو ذلك قال الضحّاك : يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون ، لأنّ كل دليل دلّ على أنّ البشر يستحقون الثواب فهو بعينه قائم في حق الجن ، والفرق بينهما بعيد جداً وذكر النقاش في تفسيره حديثاً أنهم يدخلون الجنة ، فقيل : هل يصيبون من نعيمها قال يلهمهم الله تعالى تسبيحه وذكره فيصيبهم من لذته ما يصيب بني آدم من نعيم الجنة وقال أرطأة بن المنذر سألت ضمرة بن حبيب هل للجنّ ثواب ؟ قال : نعم وقرأ ﴿ لم يطمثهنّ إنس قبلهم ولا جانّ ﴾ (الرحمن :)

وقال عمر بن عبد العزيز إن مؤمني الجنّ حول الجنة في ربض ورحاب وليسوا فيها" ولما أفهم كلامهم أنهم إن لم يجيبوا ينتقم منهم بالعذاب الأليم ، أتبعوه ما هو أغلظ إنذاراً منه .

فقالوا ﴿ ومن لا يجب ﴾ أي : لا يتجدد منه أن يجيب ﴿ داعي الله ﴾ أي : الملك الذي لا كفء له ﴿ فليس بمعجز ﴾ أي : لا يعجز الله عز وجلّ بالهرب منه ﴿ في الأرض ﴾ فيفوته فإنه أيّ مكان سلك فيها فهو في ملكه وملكه وقدرته محيطة به ﴿ وليس له من دونه ﴾ أي : الله تعالى الذي لا مجير عليه ﴿ أولياء ﴾ يفعلون لأجله ما يفعل القريب مع قريبه من الذب عنه والاستشفاع له والافتداء ﴿ أولئك ﴾ البعيدون من كل خير ﴿ في ضلال مبين ﴾ ظاهر في نفسه أنه ضلال مظهر لكل أحد قبح إحاطته بهم .

تنبيه : ههنّا همزتان مضمومتان من كلمتين ولا نظير لهما في القرآن العظيم قرأ قالون والبزي بتسهيل الأولى كالواو مع المدّ والقصر وسهل الثانية ورش وقنبل بعد تحقيق الأولى ولهما أيضاً إبدال الثانية ألفاً وأسقط الأولى أبو عمرو مع المدّ والقصر والباقون بتحقيقهما وهم على مراتبهم في المدّ .

(169/705)

﴿ أولم يروا ﴾ أي : يعلموا علماً هو في الوضوح كالرؤية ﴿ أن الله ﴾ ودل على ما دلّ عليه هذا الاسم الأعظم بقوله تعالى : ﴿ الذي خلق السموات ﴾ على ما احتوت عليه بما يعجز الوصف من العبر ﴿ والأرض ﴾ على ما اشتملت عليه من الآيات المدركة بالعيان والخبر ﴿ ولم يعي ﴾ أي : ولم يتعب ولم يعجز ﴿ بخلقهنّ ﴾ أي : بسبب من الأسباب . فإنه لو حصل له شيء من ذلك أدّى إلى نقصان فيهما ، أو في إحداهما . وأكد الإنكار المتضمن للنفي بزيادة الجارّ في خبر إن فقال : ﴿ بقادر ﴾ أي : قدرة عظيمة ﴿ على أن يحيي ﴾ أي : على سبيل التجديد مستمرّاً ﴿ الموتى ﴾ والأمر فيهم لكونه إعادة وكونه جزءاً يسيراً مما ذكر ، اختراعه أصغر شأناً وأسهل صنعاً وأجاب بقوله تعالى ﴿ بلى ﴾ لأنّ هذا الاستفهام الإنكاري في معنى النفي . m

أي : قد علموا أنه قادر على ذلك علماً هو في إيقانه كالبصر لأنهم يعلمون أنه المخترع لذلك ، وأن الإعادة أهون من الابتداء في مجاري عاداتهم ، ولكنهم عن ذلك غافلون لأنهم عنه معرضون . وقوله تعالى : ﴿ إنه على كل شيء قدير ﴾ تقرير للقدرة على وجه عام يكون كالبرهان على المقصود . كأنه لما صدر السورة بتحقيق المبدأ أراد ختمها بإثبات المعاد . ولما أثبت البعث بما أقام من الدلائل ، ذكر بعض ما يحصل في يومه من الأهوال . بقوله تعالى:

(170/705)

﴿ ويوم ﴾ أي : واذكر يوم ﴿ يعرض ﴾ أي : بأيسر أمر من أوامرنا ﴿ الذين كفروا ﴾ أي : ستروا بغفلتهم وتماديهم الأدلة الظاهرة ﴿ على النار ﴾ عرض الجند على الملك ، فيسمعون من تغيظها وزفيرها ما لو قدّر أن أحداً يموت في ذلك اليوم لماتوا من معاينته ، وهائل رؤيته ثم يقال لهم ﴿ أليس هذا ﴾ أي : الأمر الذي كنتم به توعدون ، ولرسلنا في إخبارهم به تكذبون ﴿ بالحق ﴾ أي : الأمر الثابت الذي يطابقه الواقع ، أم هو خيال وسحر ﴿ قالوا ﴾ أي : مصدّقين حيث لا ينفعهم التصديق ﴿ بلى ﴾ وما كفاهم البدار إلى تكذيب أنفسهم حتى أقسموا عليه بقولهم : ﴿ وربنا ﴾ أي إنه لحق هو أثبت الأشياء ، وليس فيه شيء مما يقارب السحر .

تنبيه : المقصود من هذا الاستفهام التحكم والتوبيخ على استهزائهم بوعد الله تعالى ووعيده . ﴿ قال فذوقوا العذاب ﴾ أي : باشروه مباشرة الذائق باللسان . ومعنى الأمر ؛ الإهانة بهم والتوبيخ لهم ثم صرّح بالسبب فقال تعالى : ﴿ بما كنتم ﴾ أي : خلقاً مستمرّاً ﴿ تكفرون ﴾ في دار العمل .

ولما قرّر تعالى المطالب الثلاثة ؛ وهي التوحيد ، والنبوّة ، والمعاد . وأجاب عن الشبهات أردفه بما يجري مجرى الوعظ والنصيحة لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وذلك لأنّ الكفار كانوا يؤذونه ويوحشون صدره . فقال تعالى:

﴿ فاصبر ﴾ أي : على مشاق ما ترى في تبليغ الرسالة ، وعلى أذى قومك قال القشيري : الصبر ، هو الوثوق بحكم الله تعالى والثبات من غير بث ولا استكراه ﴿ كما صبر أولو العزم ﴾ أي : الثبات والجدّ في الأمور . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أولو الحزم وقوله تعالى : ﴿ من الرسل ﴾ يجوز فيه أن تكون ﴿ من ﴾ تبعيضية وعلى هذا فالرسل : أولو عزم وغير أولي عزم ويجوز أن تكون للبيان ، وعليه جرى الجلال المحلي فكلهم على هذا أولو عزم .

(171/705)

قال ابن زيد كل الرسل كانوا أولي عزم وحزم ورأي وكمال عقل ، وإنما أدخلت من للتجنيس لا للتبعيض كما يقال : اشتريت أكسية من الخز وأردية من البز . وقال بعضهم : الأنبياء كلهم أولو العزم إلا يونس لعلة كانت فيه . ألا ترى أنه قيل لنبينا صلى الله عليه وسلم ﴿ ولا تكن كصحاب الحوت ﴾ (القلم :)

وقال قوم : هم نجباء الرسل ، وهم المذكورون في سورة الأنعام وهم ثمانية عشر لقوله تعالى بعد ذكرهم ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ (الأنعام :)

وقال الكلبيّ هم الذين أمروا بالجهاد ، وأظهروا المكاشفة مع أعداء الله تعالى وقيل : هم ستة ؛ نوح وهود وصالح ولوط . وشعيب وموسى . وهم المذكورون على النسق في سورة الأعراف والشعراء وقال مقاتل : هم ستة ، نوح صبر على أذى قومه ، وإبراهيم صبر على النار ، وإسحاق صبر على الذبح ، ويعقوب صبر على فقد ولده ، وذهاب بصره ويوسف صبر في الجب والسجن ، وأيوب صبر على الضرّ . وقال ابن عباس وقتادة هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، أصحاب الشرائع فهم مع محمد صلى الله عليه وسلم خمسة ونظمهم بعضهم في بيت فقال:

*محمد إبراهيم موسى كليمه ** فعيسى فنوح هم أولو العزم فاعلم*

قال البغوي : ذكرهم الله تعالى على التخصيص في قوله تعالى ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ﴾ (الأحزاب :)

وفي قوله تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ﴾ (الشورى :)
الآية .

(172/705)

وعن مسروق قال "قالت عائشة رضي الله عنها : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عائشة إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد يا عائشة إن الله لم يرض من أولي العزم إلا الصبر على مكروهها ، والصبر عن محبوبها . ولم يرض إلا أن كلفني ما كلفهم قال تعالى ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ وإني والله لا بدّ لي من طاعته والله لأصبرنّ كما صبروا ولأجهدنّ ، ولا قوّة إلا بالله ، ولما أمره الله تعالى بالصبر الذي هو من أعلى الفضائل ، نهاه عن العجلة التي هي من أمهات الرذائل . فقال عز من قائل:
﴿ ولا تستعجل لهم ﴾ أي : لا تطلب العجلة وتوجدها بأن تفعل شيئاً مما يسوءهم في غير حينه الأليق به . فإنه نازل بهم في وقته لا محالة .
قيل : إنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ضجر من قومه ، وأحب أن ينزل الله تعالى العذاب بمن أبى من قومه ، فأمر بالصبر وترك الاستعجال ثم أخبر أنّ ذلك العذاب إذا نزل بهم يستقصرون مدّة لبثهم في الدنيا ، حتى يحسبونها ساعة من نهار فقال تعالى : ﴿ كأنهم يوم

يرون ما يوعدون ﴾ أي : من العذاب بهم في الآخرة ﴿ لم يلبثوا ﴾ أي : في الدنيا ﴿ إلا ساعة من نهار ﴾ استقصروا مدّة لبثهم في الدنيا والبرزخ كأنه ساعة من نهار ، أو كأنه لم يكن لهول ما عاينوا ، ولأنّ ما مضى وإن كان طويلاً صار كأنه لم يكن قال الشاعر :

*كأنّ شيئاً لم يكن إذا مضى ** كأنّ شيئاً لم يكن إذا أتى*

(173/705)

تنبيه : تم الكلام ههنا وقوله تعالى ﴿ بلاغ ﴾ خبر مبتدأ محذوف قدره بعضهم : تلك الساعة بلاغ لدلالة قوله تعالى ﴿ إلا ساعة من نهار ﴾ وبعضهم : هذا أي القرآن بلاغ أي تبليغ من الله تعالى إليكم وجرى عليه الجلال المحلي . ﴿ فهل ﴾ أي : لا ﴿ يهلك ﴾ أي : بالعذاب إذا نزل ﴿ إلا القوم ﴾ أي : الذين هم أهل القيام بما يحاولونه من اللدد ، ﴿ الفاسقون ﴾ أي : العريقون في إدامة الخروج عن الانقياد والطاعة ، وهم الكافرون . قال الزجاج : تأويله لا يهلك مع فضل الله ورحمته إلا القوم الفاسقون ولهذا قال قوم : ما في الرجاء لرحمة الله أقوى من هذه الآية . وما قاله البيضاويّ تبعاً للزمخشري : من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الأحقاف كتب الله له عشر حسنات بعدد كل رملة في الدنيا . حديث موضوع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ السراج المنير حـ 7 صـ 21ـ34 ﴾

وقال القاسمي :

﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [21] .

﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ ﴾ يعني هوداً : ﴿ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ﴾ جمع حقف ، وهو الرمل المستطيل المرتفع . قال قتادة ذكر لنا أن عاداً كانوا حيّاً باليمن ، أهل رمل ، مشرفين على البحر ﴿ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ أي : وقد مضت الرسل بإنذار أممها قبله وبعده ، متفقين على : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ أي : لا تشركوا مع الله شيئاً في عبادتكم إياه . وقال كل واحد منهم عليه السلام : ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي : من عبادة غير الله : ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي : بمقدار هتكهم ، عذاب الله بالشرك .

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ ﴾ [22 ، 23] .

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا ﴾ أي : لتصرفنا : ﴿ عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ أي : من العذاب على عبادتنا إياها : ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أي : في وعدك أنه آت لا محالة

﴿ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ ﴾ أي : إني ، وإن علمت إتيانه قطعاً ، فلا أعلم وقت مجيئه ؛ لأن العلم بوقته عنده تعالى ، فيأتيكم به في وقته الذي قدره له : ﴿ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ ﴾ . قال الطبري : أي : مواضع حظوظ أنفسكم ، فلا تعرفون ما عليها من المضرة بعبادتكم غير الله ، وفي استعجال عذابه .

(175/705)

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [24 ، 25] .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾ أي : فلما جاءهم عذاب الله الذي استعجلوه ، فرأوه عارضاً في ناحية من نواحي السماء ، متجهاً نحو مزارعهم : ﴿ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ ﴾ أي : سحاب عارض : ﴿ مُّمْطِرُنَا ﴾ أي : بغيث نحيا به : ﴿ بَلْ هُوَ ﴾ أي : قال هود بل هو : ﴿ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ﴾ أي : من العذاب : ﴿ رِيحٌ ﴾ أي : هي ريح ، أو بدل من ما , : ﴿ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ ﴾ أي : تهلك : ﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أي : من أموالهم وأنفسهم : ﴿ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ أي : إذنه الذي لا يعارض ، فلم تدفع عنهم آلهتهم ، بل دمّرتهم :

﴿ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ﴾ أي : بيوتهم . ثم أشار إلى أن هذا لا يقتصر على عاد ، بل ينتظر لمن كان على شاكلتهم من أهل مكة ، وغيرها ، بقوله : ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي : الكافرين إذا تمادوا في غيّهم ، وطغوا على ربهم .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ ﴾ [26] .

(176/705)

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾ أي : مكنّا عاداً ، وآتيناهم من كثرة الأموال وقوة الأجسام ، فيما لم نمكنكم فيه من الدنيا ، على أن : إن شرطية محذوفة الجواب . والتقدير : ولقد مكناهم في الذي ، أو في شيء ، إن مكناكم فيه كان بغيكم أكثر . وقيل : هي صلة كما في قوله :

يُرَجَّى الْمَرْءُ مَا إِنْ لَا يَرَاهُ وَيَعْرِضُ دُونَ أَدْنَاهُ الْخُطُوبُ

قال الزمخشري : والوجه هو الأول . ولقد جاء عليه في غير آية في القرآن : ﴿ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً ﴾ [مريم : 74] ، ﴿ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً ﴾ [غافر : 82]

وهو أبلغ في التوبيخ ، وأدخل في الحث على الاعتبار .

قال الناصر : واختص بهذه الطائفة قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت : 15] ، وقوله : ﴿ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ ﴾ [الأنعام : 6] أي : والأصل توافق المعاني في الآي الواردة في نبأ واحد . على ما فيه أيضاً من سلامة الحذف ، والزيادة .

﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً ﴾ قال الطبري : أي : جعلنا لهم سمعاً يسمعون به مواعظ ربهم ، وأبصاراً يبصرون بها حجج الله ، وأفئدة يعقلون بها ما يضرهم ، وينفعهم ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ ﴾ أي : لأنهم لم يستعملوها فيما خلقت له ، بل في خلافه : ﴿ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ ﴾ أي : من العذاب .

قال الطبري : وهذا وعيد من الله عز وجل ثناؤه ، لقريش . يقول لهم : فاحذروا أن يحل بكم من العذاب على كفركم بالله ، وتكذيبكم رسله ، ما حلّ بعاد ، وبادروا بالتوبة قبل النقمة .

لطيفة :

قال الشهاب : أفرد السمع في النظم ، وجمع غيره ، لاتحاد المدرك به ، وهو الأصوات ، وتعددت مدركات غيره ، ولأنه في الأصل مصدر ، وأيضاً مسموعهم من الرسل متحد .

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [27] .

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم ﴾ أي : ما حول قريتكم يا أهل مكة : ﴿ مِّنَ الْقُرَى ﴾ أي : كحجر ثمود ، وأرض سدوم ، ومأرب ونحوها ، فأنذرنا أهلها بالمثلات ، وخربنا ديارها ، فجعلناها خاوية على عروشها : ﴿ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ ﴾ أي : وعظناهم بأنواع العظات ، وبيّنا لهم ضروباً من الحجج : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي : عن الكفر بالله ورسله . قال الطبري : وفي الكلام متروك ، ترك ذكره استغناء بدلالة الكلام عليه ، وهو : فأبوا إلا الإقامة على كفرهم ، والتمادي على غيّهم ، فأهلكناهم ، فلم ينصرهم منا ناصر .

﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [28] .

﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ﴾ أي : فهلا نصر هؤلاء الذين أهلكناهم من الأمم الخالية قبلهم ، أوثانهم التي اتخذوا عبادتها قرباناً يتقربون بها ، فيما زعموا ، إلى ربهم إذ جاءهم بأسنا ، فتنقذهم من عذابنا ، إن كانت تشفع لهم عند ربهم ، كما قالوا : ﴿ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾ [يونس : 18] .

﴿ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ﴾ أي : غابوا عن نصرهم ، وامتنع أن يستمدوا بهم ، امتناع الاستمداد بالضالّ ففي : ﴿ ضَلُّوا ﴾ استعارة تبعية : ﴿ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ ﴾ أي : ضياع آلهتهم عنهم ، وامتناع نصرهم إثر إفكهم الذي هو اتخاذهم إياها آلهة ﴿ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي : وإثر افترائهم في أنها شفعاؤهم .

(178/705)

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [29 - 32] .

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ ﴾ أي : أملناهم إليك ، وأقبلنا بهم نحوك : ﴿ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ﴾ أي : ليتم التدبر والتفكر : ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ ﴾ أي : فرغ من قراءته ، كمل تأثيرهم به ، فأرادوا التأثير به ، لذلك : ﴿ وَلَّوْا ﴾ أي : رجعوا : ﴿ إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ أي : عما هم فيه من الضلال ﴿ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا

سَمِعْنَا كِتَابا أُنْزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى ﴾ أي : المتفق على تعظيم كتابه . أي : وقد علمنا صدقه لكونه : ﴿ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي : من هذه الكتب كلها ، وقد فُضّل عليها إذ : ﴿ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ﴾ أي : معرفة الحقائق : ﴿ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي : لا عوج فيه ، وهو الإسلام .

(179/705)

قال ابن كثير : أي : يهدي إلى الحق في الاعتقاد والأخبار ، وإلى طريق مستقيم في الأعمال . فإن القرآن مشتمل على شيئين : خبر وطلب . فخبره صدق ، وطلبه عدل ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً ﴾ [الأنعام : 115] وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ [التوبة : 33] ، فالهدى هو العلم النافع . ودين الحق هو العمل الصالح . وهكذا قالت الجن : يهدي إلى الحق في الاعتقادات ، وإلى طريق مستقيم ، أي : في العمليات ﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ ﴾ أي : رسول الله محمداً إلى ما يدعوكم إليه من طاعة الله ﴿ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : بمعجز ربّه ، بهربه إذا أراد تعالى عقوبته ؛ لأنه في قبضته وسلطانه ، أنّى اتجه ﴿ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ أي : نصراء

ينصرونه من الله إذا عاقبه ﴿ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : أخذ على غير استقامة .

تنبيهات :

الأول – روى الإمام مسلم عن علقمة قال : سألت ابن مسعود رضي الله عنه : هل شهد أحد منكم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن ؟ قال : لا ، ولكنا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ففقدناه ، فالتمسناه في الأودية والشعاب ، فقيل : استطير ، اغتيل ! قال : فبتنا بشرّ ليلة بات فيها قوم . فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حِراء . قال : فقلنا : يا رسول الله ! فقدناك فطلبناك فلم نجدك ، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم . فقال : < أتاني داعي الجن ، فذهبت معهم ، فقرأت عليهم القرآن > قال : فانطلق بنا ، فأرانا آثارهم .

(180/705)

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان الجن يستمعون الوحي ، فيسمعون الكلمة ، فيزيدون فيها عشراً . فيكون ما سمعوا حقاً ، وما زادوا باطلاً . وكانت النجوم لا يُرمى بها قبل ذلك . فلما بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أحدهم لا يأتي مقعده إلا رمي بشهاب يحرق ما أصاب ، فشكوا ذلك إلى إبليس ، فقال :

ما هذا إلا من أمر قد حدث . فبثّ جنوده ، فإذا النبي صلى الله عليه وسلم يصلّي بين جبلي نخلة ، فأتوه فأخبروه ، فقال : هذا الحدث الذي حدث في الأرض . ورواه الترمذي والنسائي في كتابي التفسير من سننيهما . وهكذا قال الحسن البصري : إنه صلى الله عليه وسلم ما شعر بأمرهم حتى أنزل الله تعالى عليه بخبرهم .

وذكر محمد بن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي قصة خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ، ودعائه إياهم إلى الله عز وجل ، وإبائهم عليه ، فذكر القصة بطولها ، ثم قال : فلما انصرف عنهم ، بات بنخلة ، فقرأ تلك الليلة من القرآن ، فاستمعته الجن من أهل نصيبين . قال ابن كثير : وهذا صحيح ، ولكن قوله : إن الجن كان استماعهم تلك الليلة . فيه نظر ؛ فإن الجن كان استماعهم في ابتداء الإيحاء ، كما دل عليه حديث ابن عباس رضي الله عنهما المذكور . وخرُوجُه صلى الله عليه وسلم إلى الطائف كان بعد موت عمه ، وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين ، كما قرره ابن إسحاق وغيره .

(181/705)

وروى ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال : هبطوا على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة ، فلما سمعوه قالوا : أنصتوا ، فأنزل الله عز وجل عليه : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا

إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ ﴾ الآية . قال ابن كثير : فهذا مع الأول من رواية ابن عباس رضي الله عنهما ، يقتضي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشعر بحضورهم في هذه المرة ، وإنما استمعوا قراءته ، ثم رجعوا إلى قومهم ، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالاً : قوماً بعد قوم ، وفوجاً بعد فوج . فأما ما رواه البخاري ومسلم جميعاً عن معن بن عبد الرحمن قال : سمعت أبي يقول : سألت مسروقاً : من آذن النبي صلى الله عليه وسلم ليلة استمعوا القرآن ؟ فقال : حدثني أبوك – يعني ابن مسعود رضي الله عنه – أنه آذنته بهم شجرة ، فيحتمل أن يكون هذا في المرة الأولى ، ويكون إثباتاً مقدماً على نفي ابن عباس رضي الله عنهما ، ويحتمل أن يكون في الأولى ، ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى آذنته بهم الشجرة ، أي : أعلمته باجتماعهم ، ويحتمل أن يكون هذا في بعض المرات المتأخرات ، والله أعلم .

قال الحافظ البيهقي : وهذا الذي حكاه ابن عباس رضي الله عنهما إنما هو أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلمت حاله ، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ، ولم يرهم ، ثم بعد ذلك أتاه داعي الجن ، فقرأ ، عليهم القرآن ، ودعاهم إلى الله عز وجل – كما رواه ابن مسعود رضي الله عنه – .

(182/705)

ثم قال ابن كثير : وأما ابن مسعود رضي الله عنه ، فإنه لم يكن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حال مخاطبته للجن ، ودعائه إياهم ، وإنما كان بعيداً منه ، ولم يخرج مع النبي صلى الله عليه وسلم أحد سواه ، ومع هذا ، لم يشهد حال المخاطبة . هذه طريقة البيهقي . وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم ، لم يكن معه صلى الله عليه وسلم ابن مسعود ولا غيره ، كما هو ظاهر سياق الرواية الأولى من طريق الإمام مسلم ، ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى – والله أعلم – كما روى ابن أبي حاتم في تفسير : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ من حديث ابن جريج قال : قال عبد العزيز بن عُمَر : أما الجن الذين لقوه بنخلة فجن نينوى ، وأما الجن الذين لقوه بمكة ، فجن نصيبين .

(183/705)

وتأول البيهقي قوله : فبتنا بشرّ ليلة . على غير ابن مسعود ، ممن لم يعلم بخروجه صلى الله عليه وسلم إلى الجن ، وهو محتمل ، على بُعدٍ ، وبالجملة ، فقد روي ما يدل على تكرار ذلك . وقد روي عن ابن عباس غير ما روي عنه أولاً من وجه جيد عن ابن جرير في هذه الآية ، قال : كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين ، فجعلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم رسلاً إلى قومهم ، فهذا يدلّ على أنه قد روى القصتين . وذكر أبو حمزة الثمالي أن هذا الحي

من الجن كانوا أكثر الجن عدداً , وأشرفهم نسباً . وعن ابن مسعود أنهم كانوا تسعة . ويروى أنهم كانوا خمسة عشر ، وروي ستين ، وروي ثلاثمائة . وعن عِكْرِمَة أنهم كانوا اثني عشر ألفاً . قال ابن كثير : فلعل هذا الاختلاف دليل على تكرر وفادتهم عليه صلى الله عليه وسلم . ومما يدل على ذلك ما رواه البخاري في " صحيحه " أن عبد الله بن عُمَر رضي الله عنهما قال : ما سمعت عمر رضي الله عنه لشيء قط يقول : إني لأظنه هكذا ، إلا كان كما يظن . بينما عُمَر بن الخطاب جالس ، إذ مر به رجل جميل فقال : لقد أخطأ ظني ، أو إن هذا على دينه في الجاهلية ، أو لقد كان كاهنهم . عليّ الرجل . فدعي له ، فقال له ذلك ، فقال : ما رأيت كاليوم استقبل به رجل مسلم . قال : فإني أعزم عليك إلا ما أخبرتني !

(184/705)

قال : كنت كاهنهم في الجاهلية . قال : فما أعجب ما جاءتك به جنيتك ؟ قال : بينا أنا يوماً في السوق ، جاءتني أعرف فيها الفزع ، فقالت : ألم تر الجن وإبلاسها ويأسها من بعد إنكاسها ، ولحوقها بالقلاص وأحلاسها ؟ قال عمر : صدق ! بينما أنا نائم عند آلهتهم ، إذ جاء رجل بعجل فذبحه ، فصرخ به صارخ ، لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه ، يقول

: يا جليح ! أمر نَجِيْح ، رجل فصيح ، يقول : لا إله إلا الله . قال فوثب القوم . فقلت : لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا . ثم نادى : يا جليح ! أمر نَجِيْح ، رجل فصيح ، يقول : لا إله إلا الله . فقمت ، فما نشبنا أن قيل : هذا نبي – هذا سياق البخاري – وقد رواه البيهقي من حديث ابن وهب بنحوه .

ثم قال : وظاهر هذه الرواية يوهم أن عمر رضي الله عنه بنفسه سمع الصارخ يصرخ من العجل الذي ذبح . وكذلك هو صريح في رواية ضعيفة عن عمر رضي الله عنه . وسائر الروايات تدل على أن هذا الكاهن هو الذي أخبر بذلك عن رؤيته وسماعه – والله أعلم – .

(185/705)

وهذا الرجل هو سواد بن قارب . قال البيهقي : وسواد بن قارب يشبه أن يكون هو الكاهن الذي لم يذكر اسمه في الحديث الصحيح . ثم روى بسنده عن البراء قال : بينما عُمَر بن الخطاب يخطب الناس على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال : أيها الناس ! أفيكم سواد بن قارب ؟ قال ، فلم يجبه أحد تلك السنة . فلما كانت السنة المقبلة قال أيها الناي ! أفيكم سواد بن قارب ؟ قال ، فقلت : يا أمير المؤمنين ! وما سواد

بن قارب ؟ قال ، فقال له عمر : إن سواد بن قارب كان بدء إسلامه شيئاً عجيباً ! قال : فبينما نحن كذلك ، إذ طلع سواد بن قارب . قال ، فقال له عمر : يا سواد ! حدثنا ببدء إسلامك كيف كان ؟ . قال سواد : فإني كنت نازلاً بالهند ، وكان لي رَئِيٌّ من الجن . قال : فبينا أنا ذات ليلة نائم إذ [في المطبوع : إذا] جاءني في منامي ذلك ، قال : قم فافهم ، واعقل إن كنت تعقل ! قد بعث رسول من لؤي بن غالب ، ثم أنشأ يقول :

~عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وَتَحْسَاسِهَا وَشَدِّهَا الْعِيْسَ بِأَحْلَاسِهَا

~تَهْوِي إِلَى مَكَّةَ تَبْغِي الْهُدَى مَا خَيْرُ الْجِنِّ كَأَنْجَاسِهَا

~فَانْهَضْ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ وَاسْمُ بِعَيْنَيْكَ إِلَى رَاسِهَا

قال : ثم أنبهني فأفزعني وقال : يا سواد بن قارب ! إن الله عزّ وجل بعث نبياً ، فانهض إليه تهتد وترشد . فلما كان من الليلة الثانية ، أتاني فأنبهني ، ثم أنشأ يقول :

~عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وَتَطْلَابِهَا وَشَدِّهَا الْعِيْسَ بِأَقْتَابِهَا

~تَهْوِي إِلَى مَكَّةَ تَبْغِي الْهُدَى وَلَيْسَ قُدْمَاهَا كَأَذْنَابِهَا

~فَانْهَضْ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ وَاسْمُ بِعَيْنَيْكَ إِلَى قَابِهَا

فلما كان في الليلة الثالثة ، أتاني فأنبهني ، ثم قال :

~عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وَتَخْبَارِهَا وَشَدِّهَا الْعِيْسَ بِأَكْوَارِهَا

~تَهْوِي إِلَى مَكَّةَ تَبْغِي الْهُدَى وَلَيْسَ ذَوُو الشَّرِّ كَأَخْيَارِهَا

~فَانْهَضْ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ مَا مُؤْمِنُو الْجِنِّ كَكُفَّارِهَا

قال : فلما سمعه تكرر ليلة بعد ليلة ، وقع في قلبي حب الإسلام من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله . قال : فانطلقت إلى رحلي ، فشددته على راحلتي ، فما حللت نسعة ، ولا عقدت أخرى ، حتى أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا هو بالمدينة - يعني مكة - والناس عليه كعرف الفرس ، فلما رآني النبي صلى الله عليه وسلم قال : < مرحباً بك يا سواد بن قارب ، قد علمنا ما جاء بك > . قال : قلت : يا رسول الله ! قد قلت شعراً ، فاسمعه مني ! قال صلى الله عليه وسلم : < قل يا سواد > ، فقلت :

~أَتَانِي رَئِيِّي بَعْدَ لَيْلٍ وَهَجْعَةٍ وَلَمْ يَكُ فِيمَا قَدْ بَلَوْتُ بِكَاذِبِ

~ثَلَاثَ لَيَالٍ ، قَوْلُهُ كُلَّ لَيْلَةٍ : أَتَاكَ رَسُولٌ مِنْ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبِ

~فَشَمَّرْتُ عَنْ سَاقِي الْإِزَارِ وَوَسَّطَتْ بِي الدَّعْلِبُ الْوَجْنَاءُ بَيْنَ السَّبَاسِبِ

~فَأَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ وَأَنَّكَ مَأْمُونٌ عَلَى كُلِّ غَائِبِ

~وَأَنَّكَ أَدْنَى الْمُرْسَلِينَ وَسِيلَةً إِلَى اللَّهِ ، يَا ابْنَ الْأَكْرَمِينَ الْأَطَايِبِ

~فَمُرْنَا بِمَا يَأْتِيكَ يَا خَيْرَ مُرْسَلٍ وَإِنْ كَانَ فِيمَا جَاءَ شَيْبُ الذَّوَائِبِ

~وَكُنْ لِي شَفِيعاً يَوْمَ لَا ذُو شَفَاعَةٍ سِوَاكَ بِمُغْنٍ عَنْ سَوَادِ بْنِ قَارِبِ قال : فضحك النبي

صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ، وقال لي : أفلحت يا سواد ! فقال له عمر رضي الله عنه : هل يأتيك رئيك الآن ؟ فقال : منذ قرأت القرآن لم يأتني ، ونعم العوض كتاب الله عز وجل من الجن . ثم أسنده البيهقي من وجهين آخرين . انتهى كلام ابن كثير .

(187/705)

وقد ساقه الإمام الماروديّ في " أعلام النبوة " مع نظائر له ، في الباب السادس عشر ، في هتوف الجن ، ثم قال : ولئن كانت هذه الهتوف أخبارَ آحاد ، عمن لا يرى شخصه ، ولا يحج قوله ، فخروجه عن العادة نذير ، وتأثيره في النفوس بشير ، وقد قبلها السامعون . وقبول الأخبار يؤكد صحتها ، ويؤيد حجتها . فإن قيل : إن كانت هتوف الجن من دلائل النبوة ، جاز أن تكون دليلاً على صحة الكهانة ، فعنه جوابان :

أحدهما : أن دلائل النبوة غيرها ، وإنما هي من البشائر بها ، وفرق بين الدلالة والبشارة إخباراً .

والثاني : أن الكهانة عن مغيّب ، والبشارة عن معين ، فالعيان معلوم ، والغائب موهوم . انتهى .

التنبيه الثاني :

قال الماوردي : في صرف الجن المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ﴾ [الأحقاف : 29] ، وجهان :

أحدهما – أنهم صرفوا عن استراق سمع السماء ، برجوم الشهب ، ولم يصرفوا عنه بعد عيسى إلا بعد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : ما هذا الحادث في السماء ، إلا لحادثٌ في الأرض ، وتخيلوا به تجديد النبوة ، فجابوا الأرض ، حتى وقفوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ببطن مكة عامداً إلى عكاظ ، وهو يصلي الفجر ، فاستمعوا القرآن ، ورأوه كيف يصلي ، ويقتدي به أصحابه ، فعلموا أنه لهذا الحادث ، صرفوا عن استراق السمع برجوم الشهاب . وهذا قول ابن عباس رضي الله تعالى عنه .

أقول : وعليه فتكون إلى – في إليك – بمعنى لام التعليل . وذُكر في " المغني " أنها تأتي مرادفة اللام ، نحو : ﴿ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ ﴾ [النمل : 33] . وفيه تكلف وبعدٌ ؛ لنبوّه عما يقتضيه سياق بقية الآية .

ثم قال الماوردي : وحكى عِكْرِمَة أن السورة التي كان يقرؤها : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق : 1] . أقول : سيأتي مرفوعاً عن جابر أنها سورة الرحمن .

ثم قال الماوردي :

والوجه الثاني – أنهم صرفوا عن بلادهم بالتوفيق ، هداية من الله تعالى ، حتى أتوا نبي الله ببطن نخلة ، فنزل عليه جبريل بهذه الآية ، وأخبره بوفود الجن ، وأمره بالخروج إليهم ، فخرج ومعه ابن مسعود ، حتى جاء الحجون . قال ابن مسعود : فخط عليّ خطّاً وقال : لا تجاوزه .

فعلى الوجه الأول ، لم يعلم بهم حتى أتوه . وعلى الوجه الثاني ، أعلمه جبريل قبل إتيانهم . واختلف أهل العلم في رؤيته لهم ، وقراءته عليهم . فحكى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يرهم ، ولم يقرأ عليهم ، وإنما سمعوا قراءته حين مرّوا به مصلياً . وحكى ابن مسعود أنه رآهم . وقرأ عليهم القرآن .

أقول : تقدم لابن كثير ما فيه كفاية – .

ثم قال الماوردي : وفي قوله : ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ﴾ [الأحقاف : 29] وجهان :

أحدهما – فلما حضروا قراءته القرآن ، قالوا : أنصتوا لسماعه .

والوجه الثاني : فلما حضروا رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : أنصتوا لسماع قوله . انتهى .

قال ابن كثير : وهذا – أي : قولهم أنصتوا – أدب منهم . وقد روى البيهقي عن جابر قال :

قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة الرحمن حتى ختمها ، ثم قال : < مالي أراكم سكوتاً ؟ للجن كانوا أحسن منكم رداً ؛ ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : 42] ، إلا قالوا : ولا بشيء من آلائك أو نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد > ورواه الترمذي وقال : لا نعرفه إلا من حديث الوليد ابن مسلم عن زهير .

الثالث – دل قوله تعالى : ﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ ﴾ [الأحقاف : 31] ، على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عام الرسالة إلى الإنس والجن .

(189/705)

قال ابن كثير : لأنه دعا الجن إلى الله تعالى ، وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين ، وتكليفهم ، ووعدهم ، ووعيدهم ، وهي سورة الرحمن ، ولهذا قال : ﴿ أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ ﴾ [الأحقاف : 32] . قال الماوردي : لم يختلف أهل العلم أنه يجوز أن يبعث إليهم رسولاً من الإنس ، واختلفوا في جواز بعثة رسول منهم ، فجوزه قوم لقول الله تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ [الأنعام : 130] ، ومنع آخرون منه . وهذا قول من جعلهم من ولد إبليس ، وحملوا قوله : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ على الذين لما سمعوا القرآن ، ولّوا إلى قومهم منذرين . انتهى .

أقول : ونظيره تسمية رسل عيسى عليه السلام رسلاً في آية : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ ﴾ [يس : 14] .

الرابع – استدل بقوله : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة ، وإنما جزاء صالحيهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة ؛ إذ لو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا ، لأوشك أن يذكروه .

قال الماوردي : فأما كفارهم فيدخلون النار ، وأما مؤمنوهم ، فقد اختلفوا في دخولهم الجنة ثواباً على إيمانهم . فقال الضحاك : ومن جوز أن يكون رسلهم منهم ، يدخلون الجنة . وحكى سفيان عن ليث أنهم يثابون على الإيمان بأن يجازوا على النار خلاصاً منها ، ثم يقال : لهم : كونوا تراباً كالبهائم . انتهى .

(190/705)

والحق – كما قال ابن كثير – أن مؤمنهم كمؤمن الإنس ، يدخلون الجنة ، كما هو مذهب جماعة من السلف . وقد استدل بعضهم لهذا بقوله عز وجل : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ [الرحمن : 56] ، وفي هذا الاستدلال نظر ، وأحسن منه قوله جل وعلا : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : 46 – 47] ،

فقد امتن تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة . وقد قابلت الجن هذه الآية بالشكر القوليّ أبلغ من الإنس ، فقالوا : ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب ، فلك الحمد . فلم يكن تعالى ليمتن عليهم بجزاء لا يحصل لهم .

وأيضاً ، فإنه إذا كان يجازي كافرهم بالنار ، وهو مقام عدل ، فلأن يجازي مؤمنهم بالجنة ، وهو مقام فضل ، بطريق الأولى والأحرى ، ومما يدل أيضاً على عموم ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴾ [الكهف : 107] ، وما أشبه ذلك من الآيات . وما ذكروه ههنا من الجزاء على الإيمان ، من تكفير الذنوب ، والإجارة من العذاب الأليم ، هو يستلزم دخول الجنة ؛ لأنه ليس في الآخرة إلا الجنة أو النار . فمن أجير من النار دخل الجنة لا محالة ، ولم يرد معنا نص صريح , ولا ظاهر عن الشارع ، أن مؤمني الجن لا يدخلون الجنة ، وإن أجيروا من النار ، ولو صح لقلنا به ، والله أعلم .

وهذا نوح عليه الصلاة والسلام يقول لقومه : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ [نوح : 4] ولا خلاف أن مؤمني قومه في الجنة ، فكذلك هؤلاء . وقد حكي فيهم أقوال غريبة . فعن عُمَر بن عبد العزيز أنهم لا يدخلون بحبوحة الجنة ، وإنما يكونون في ربضها ، وحولها ، وفي أرجائها .

ومن الناس من زعم أنهم في الجنة يراهم بنو آدم ، ولا يرون بني آدم بعكس ما كانوا عليه في الدار الدنيا ، ومن الناس من قال : لا يأكلون في الجنة ولا يشربون ، وإنما يلهمون التسبيح ، والتحميد ، والتقديس ، عوضاً عن الطعام والشراب ، كالملائكة ؛ لأنهم من جنسهم ، وكل هذه الأقوال فيها نظر ، ولا دليل عليها . انتهى .

الخامس – قيل : سر التبعيض في قوله : ﴿ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ أن من العذاب ما لا يغفر بالإيمان ، كذنوب المظالم ، أي : حقوق العباد . وفيه نظر ؛ لأن الحربي لو نهب الأموال المصونة ، وسفك الدماء المحقونة ، ثم حسن إسلامه ، جبّ الإسلام عنه إثم ما تقدم ، بلا إشكال . ويقال : إنه ما وعد المغفرة للكافر على تقدير الإيمان في كتاب الله تعالى إلا مبعضة ، والسر فيه أن مقام الكافر قبض لا بسط ، فلذلك لم يبسط رجاؤه كما في حق المؤمن – أفاده الناصر – .

السادس – قال ابن كثير : جمعوا في دعواهم قومهم بين الترغيب والترهيب ، ولهذا نجع في كثير منهم ، وجاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفوداً وفوداً ، كما تقدم بيانه .

السابع – قال الماوردي : الجن من العالم الناطق المميز ، يأكلون ، ويتناكحون ، ويتناسلون ، ويموتون ، وأشخاصهم محجوبة عن الأبصار ، وإن تميزوا بأفعالٍ وآثارٍ ، إلا أن الله يخص برؤيتهم من يشاء ، وإنما عرفهم الإنس من الكتب الإلهية ، وما تخيلوه من آثارهم الخفية .

وقال القاشاني : الجن نفوس أرضية تجسدت في أبدان لطيفة مركبة من لطائف العناصر ، سماها حكماء الفرس : الصور المعلقة . ولكونها أرضية متجسدة في أبدان عنصرية ، ومشاركتها الإنس في ذلك ، سمّيا ثقلين . وكما أمكن الناس التهدي بالقرآن أمكنهم ، وحكاياتهم من المحققين وغيرهم أكثر من أن يمكن رد الجميع ، وأوضح من أن يقبل التأويل . انتهى .

(192/705)

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [33] .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ أي : بإعادة الروح إلى الجسد ، بعد مفارقتها إياه ، وإخراجهم من قبورهم كهيئتهم قبل وفاتهم . وفي ابن جرير بحث نحوي في دخول الباء في : ﴿ بِقَادِرٍ ﴾ بديع . ويذكر في مباحث زيادة الباء ، في مطولات العربية .

﴿ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي : من إعادة المعدوم ، ولو فني الجسد وغيره .

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ

بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [34 ، 35]

.

(193/705)

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا ﴾ أي : على الإحياء إحياء : ﴿ بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ فَاصْبِرْ ﴾ أي : على تبليغ الرسالة وتكذيبهم وإيذائهم : ﴿ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ أي : أولو الثبات والجد منهم ، فإنك منهم . والعزم – في اللغة – كالعزيمة ، ما عقدت قلبك عليه من أمر . والعزم أيضاً القوة على الشيء والصبر عليه . فالمراد به هنا المجتهدون ، المجدّون ، أو الصابرون على أمر الله فيما عهده إليهم ، وقدره وقضاه عليهم . ومطلق الجد ، والجهد ، والصبر موجود في جميع الرسل ، بل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وكثير من الأولياء . فلذا ذهب جمهور المفسرين في هذه الآية إلى أنهم جميع الرسل ، وأن من بيانية لا تبعيضية ، فكل رسول من أولي العزم ، فإن أريد به معنى مخصوص ببعضهم ، فلا بد من بيانه ليظهر وجه التخصيص . ومنشأ الاختلاف في عددهم إلى أقوال :

أحدها – أنهم جميع الرسل . والثاني – أنهم أربعة : نوح وإبراهيم وموسى ومحمد .

والثالث – أنهم خمسة بزيادة عيسى ، كما قيل :

~أُوْلِي الْعَزْمِ نُوْحٌ وَالْخَلِيْلُ الْمُمَجَّدُ وَمَوْسَىْ وَعِيْسَىْ وَالنَّبِيّ مُحَمَّدُ

والرابع – أنهم ستة ، بزيادة هارون أو داود . والخامس – أنهم سبعة بزيادة آدم .

والسادس – أنهم تسعة ، بزيادة إسحاق ، ويعقوب ، ويوسف . وقد يزاد وينقص .

(194/705)

وتوجيه التخصيص أن المراد بهم من له جد وجهد تام في دعوته إلى الحق ، وذبه عن حريم التوحيد ، وحمى الشريعة ، بحيث يصبر على ما لا يطيقه سواه من عوارضه النفسية والبدنية ، وأموره الخارجية ، كمبارزة كل أهل عصره ، كما كان لنوح ، أو لملك جبار في عصره ، وانتصاره عليه من غير عدة دنيوية ، كنمروذ إبراهيم ، وجالوت داود ، وفرعون موسى ، ولكل موسى فرعون ، ولكل محمد أبو جهل . وكالابتلاء بأمور لا يصبر عليها البشر بدون قوة قدسية ، ونفس ربانية ، كما وقع لأيوب عليه الصلاة والسلام . ومن هنا كشف برقع الخفاء عن وجه التخصيص ، وهذا مما كشف بركاتهم سره – أفاده الشهاب –

.

﴿ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ أي : ولا تستعجل بمساءلتك ربك العذاب لهم ، فإن ذلك نازل بهم لا محالة ، وإن اشتد عليك الأمر من جهتهم ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ ﴾ أي : من عذاب الله ، ونكاله ، وخزيه الذي ينزل بهم في الدنيا ، أو في الآخرة : ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً ﴾ : ﴿ مِّن نَّهَارٍ ﴾ أي : لأنه ينسيهم شدة ما ينزل بهم من عذابه ، قدر ما كانوا في الدنيا لبثوا ، ومبلغ ما فيها مكثوا .

وقوله تعالى : ﴿ بَلَاغٌ ﴾ قال ابن جرير : فيه وجهان :

أحدهما – أن يكون معناه : لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ، ذلك لبث بلاغ ، بمعنى : ذلك بلاغ لهم في الدنيا إلى أجلهم ، ثم حذف : ذلك لبث ، وهي مرادة في الكلام اكتفاء بدلالة ما ذكر من الكلام عليها .

والآخر – أن يكون معناه : هذا القرآن والتذكير بلاغ لهم وكفاية ، إن فكروا واعتبروا ، فتذكروا . انتهى .

وأشار المهايمي إلى معنى آخر فقال : ليس من حق الرسل الاستعجال ، بل حقهم بلاغ .

﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ ﴾ أي : بعذاب الله إذا أنزله بمقتضى العدل ، والحكمة : ﴿ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أي : الذين خالفوا أمره ، وخرجوا من طاعته ، نعوذ بالله من غضبه ، وأليم عقابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 15 صـ 344. 359 ﴾

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾

وهذا الشوط جولة في مجال آخر ، تخدم القضية التي تعالجها السورة ، وتأخذ القلب البشري من جانب غير الجوانب التي عالجها الشوطان الأولان . . جولة في مصرع عاد ومصارع القرى غيرها حول مكة . وقد وقفوا من رسولهم وأخيهم هود – عليه السلام – موقف المشركين من رسولهم وأخيهم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ واعترضوا اعتراضاتهم ، وأجابهم نبيهم بما يليق به من أدب النبوة في حدود بشريته وحدود وظيفته . ثم أخذهم ما أخذهم من العذاب المدمر ، حين لم يسمعوا النذير . فلم تغن عنهم قوتهم – وكانوا أقوى – ولم يغن عنهم ثراؤهم – وكانوا أغنى – ولم ينتفعوا بسمعهم وأبصارهم وأفئدتهم – وكانوا أذكياء – ولم تغن عنهم آلهتم التي اتخذوها تقرباً – بزعمهم – إلى الله . وكذلك يقف المشركين في مكة أمام مصارع أسلافهم من أمثالهم ؛ فيقفهم أمام مصيرهم هم أنفسهم . ثم أمام الخط الثابت المطرد المتصل . خط الرسالة القائمة على أصلها الواحد الذي لا يتغير وخط السنة الإلهية التي لا تتحول ولا تتبدل . وتبدو شجرة العقيدة عميقة الجذور ، ممتدة الفروع ضاربة في أعماق الزمان ؛ واحدة على اختلاف القرون واختلاف

المكان .

﴿ واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف – وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه – ألا تعبدوا إلا الله . إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ . .

وأخو عاد هو هود – عليه السلام – يذكره القرآن هنا بصفته . صفة الأخوة لقومه . ليصور صلة الود بينه وبينهم ، وصلة القرابة التي كانت كفيلة بأن تعطفهم إلى دعوته ، وتحسن ظنهم بها وبه . وهي ذات الصلة بين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقومه الذين يقفون منه موقف الملاحاة والخصومة .

(196/705)

والأحقاف جمع حقف . وهو الكثيب المرتفع من الرمال . وقد كانت منازل عاد على المرتفعات المتفرقة في جنوب الجزيرة – يقال في حضرموت .

والله – سبحانه – يوجه نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يذكر أخا عاد وإنذاره لقومه بالأحقاف . يذكره ليتأسى بأخ له من الرسل لقي مثلما يلقى من إعراض قومه وهو أخوهم . ويذكره ليذكر المشركين في مكة بمصير الغابرين من زملائهم وأمثالهم ، على مقربة منهم ومن حولهم .

وقد أنذر أخو عاد قومه ، ولم يكن أول نذير لقومه . فقد سبقته الرسل إلى أقوامهم . .

﴿ وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ﴾ . .

قريباً منه وبعيداً عنه في الزمان وفي المكان . فالنذارة متصلة ، وسلسلة الرسالة ممتدة .

والأمر ليس بدعاً ولا غريباً . فهو معهود مألوف .

أنذرهم – ما أنذر به كل رسول قومه – : ﴿ ألا تعبدوا إلا الله . إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ . . وعبادة الله وحده عقيدة في الضمير ومنهج في الحياة ؛ والمخالفة عنها تنتهي إلى العذاب العظيم في الدنيا أو في الآخرة ، أو فيهما على السواء .

والإشارة إلى يوم ﴿ عذاب يوم عظيم ﴾ . . تعني حين تطلق يوم القيامة وهو أشد وأعظم .

فماذا كان جواب قومه على التوجيه إلى الله ، والإنذار بعذابه ؟

﴿ قالوا : أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا ؟ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ! ﴾ . .

سوء الظن وعدم الفهم ، والتحدي للنذير ، واستعجال العذاب الذي ينذرهم به ، والاستهزاء والتكذيب . وإصرار على الباطل واعتزاز !

فأما هود النبي فيتلقى هذا كله في أدب النبي ، وفي تجرده من كل ادعاء ، وفي الوقوف عند حده لا يتعداه :

﴿ قال : إنما العلم عند الله . وأبلغكم ما أرسلت به . ولكني أراكم قوماً تجهلون ﴾ . .

إنما أنذركم بالعذاب كما كلفت أن أنذركم . وليست أعلم متى يحين موعده ، ولا كيف يكون شكله . فعلم ذلك عند الله . وإنما أنا مبلغ عن الله . لا أدعي علماً ولا قدرة مع الله . . ﴿ ولكني أراكم قوماً تجهلون ﴾ وتحمقون . وأية حماقة وأي جهل أشد من استقبال النذير الناصح والأخ القريب بمثل هذا التحدي والتكذيب ؟

ويجمل السياق هنا ما كان بين هود وقومه من جدل طويل ، ليمضي إلى النهاية المقصودة أصلاً في هذا المقام ؛ رداً على التحدي والاستعجال .

﴿ فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا : هذا عارض ممطرنا . بل هو ما استعجلتم به : ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شيء بأمر ربها ، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم . كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾ . .

وتقول الروايات : إنه أصاب القوم حر شديد ، واحتبس عنهم المطر ، ودخن الجو حولهم من الحر والجفاف . ثم ساق الله إليهم سحابة ، ففرحوا بها فرحاً شديداً ، وخرجوا يستقبلونها في الأودية ، وهم يحسبون فيها الماء : ﴿ قالوا هذا عارض ممطرنا ﴾ . .

وجاءهم الرد بلسان الواقع : ﴿ بل هو ما استعجلتم به : ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها ﴾ . . وهي الريح الصرصر العاتية التي ذكرت في سورة أخرى . كما جاء في صفتها : ﴿ ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾ والنص القرآني يصور الريح حية مدركة مأمورة بالتدمير : ﴿ تدمر كل شيء بأمر ربها ﴾ وهي الحقيقة الكونية التي يحفل القرآن بإشعارها للنفوس . فهذا الوجود حي . وكل قوة من قواه واعية . وكلها تدرك عن ربها وتتوجه لما تكلف به من لدنه . والإنسان أحد هذه القوى . وحين يؤمن حق الإيمان ، ويفتح قلبه للمعرفة الواصلة ، يستطيع أن يعي عن القوى الكونية من حوله ، وأن يتجاوب معها ، وأن تتجاوب معه ، تجاوب الأحياء المدركة ، بغير الصورة الظاهرة التي يعرفها الناس من الحياة والإدراك . ففي كل شيء روح وحياة ، ولكننا لا ندرك هذا لأننا محجوبون بالظواهر والأشكال عن البواطن والحقائق . والكون من حولنا حافل بالأسرار المحجوبة بالأستار ، تدركها البصائر المفتوحة ولا تراها الأبصار .

وقد أدت الريح ما أمرت به ، فدمرت كل شيء ﴿ فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ﴾ .

. أما هم وأما أنعامهم وأما أشياؤهم وأما متاعهم فلم يعد شيء منه يرى . إنما هي المساكن قائمة خاوية موحشة ، لا ديار فيها ولا نافخ نار . . ﴿ كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾ . . سنة جارية وقدر مطرد في المجرمين .

وعلى مشهد الدمار والخراب يلتفت إلى أمثالهم الحاضرين ، يلمس قلوبهم بما ترتعش منه القلوب :

﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه . وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة . فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء . إذ كانوا يجحدون بآيات الله . وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ . .

(199/705)

هؤلاء الذين دمرتهم الريح المأمورة بالتدمير . مكناهم فيما لم نمكنكم فيه . . إجمالاً . . من القوة والمال والعلم والمتاع . وآتيناهم أسماعاً وأبصاراً وأفئدة – والقرآن يعبر عن قوة الإدراك مرة بالقلب ومرة بالفؤاد ومرة باللب ومرة بالعقل . وكلها تعني الإدراك في صورة من صوره – ولكن هذه الحواس والمدارك لم تنفعهم في شيء . إذ أنهم عطلوها وحجبوها ﴿ إذ كانوا يجحدون بآيات الله ﴾ . . والجحود بآيات الله يطمس الحواس والقلوب ، ويفقدها الحساسية والإشراق والنور والإدراك . ﴿ وحاق به ما كانوا به يستهزئون ﴾ . . من العذاب والبلاء . .

والعبرة التي يفيدها كل ذي سمع وبصر وقلب ، ألا يغتر ذو قوة بقوته ، ولا ذو مال بماله ، ولا

ذو علم بعلمه . فهذه قوة من قوى الكون تسلط على أصحاب القوة والمال والعلم والمتاع ، فتدمر كل شيء ، وتتركهم ﴿ لا يرى إلا مساكنهم ﴾ حين يأخذهم الله بسنته التي يأخذ بها المجرمين .

والريح قوة دائبة العمل ، وفق النظام الكوني الذي قدره الله ، وهو يسلطها حين يسلطها للتدمير وهي ماضية في طريقها الكوني ، تعمل وفق الناموس المرسوم . فلا حاجة لخرق النواميس الكونية – كما يعترض المعترضون واهمين – فصاحب الناموس المرسوم هو صاحب القدر المعلوم . وكل حادث وكل حركة ، وكل اتجاه ، وكل شخص ، وكل شيء ، محسوب حسابه ، داخل في تصميم الناموس .

والريح كغيرها من القوى الكونية مسخرة بأمر ربها ، ماضية تؤدي ما قدره لها في نطاق الناموس المرسوم لها وللوجود كله . ومثلها قوة البشر المسخرة لما يريده الله بها . المسخر لها من قوى الكون ما أراد الله تسخيره لها . وحين يتحرك البشر فإنما يؤدون دورهم في هذا الوجود ، ليتم ما أراده الله بهم وفق ما يريد . وحرية إرادتهم في الحركة والاختيار جزء من الناموس الكلي ينتهي إلى التناسق الكوني العام . وكل شيء مقدر تقديراً لا يناله نقص ولا اضطراب .

ويختم هذا الشوط بالعبرة الكلية لمصارع من حولهم من القرى من عاد وغير عاد :

﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى ، وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون . فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم . وذلك إفكهم وما كانوا يفترون ﴾ . .

وقد أهلك الله القرى التي كذبت رسلها في الجزيرة .

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (29) ﴾

هذا الشوط الأخير جولة جديدة في مجال القضية التى تعالجها السورة ؛ فسياقة قصة النفر من الجن الذين استمعوا لهذا القرآن ، فتنادوا بالإنصات ، واطمأنت قلوبهم إلى الإيمان ، وانصرفوا إلى قومهم منذرين يدعونهم إلى الله ويبشرونهم بالغفران والنجاة ، ويحذرونهم الإعراض والضلال . سياقة الخبر في هذا المجال ، بهذه الصورة ، وتصوير مس القرآن لقلوب الجن هذا المس الذي يتمثل في قولهم : ﴿ أنصتوا ﴾ عندما طرق أسماعهم يتمثل فيما حكوه لقومهم عنه ، وفيما دعوهم إليه . كل هذا من شأنه أن يحرك قلوب البشر ، الذين جاء القرآن لهم في الأصل . وهو إيقاع مؤثر ولا شك ، يلفت هذه القلوب لفتة عنيفة عميقة . وفي الوقت ذاته تجيء الإشارة إلى الصلة بين كتاب موسى وهذا القرآن على لسان الجن ، فتعلن هذه الحقيقة التي يدركها الجن ويغفل عنها البشر . ولا يخفى ما في هذه اللفتة

من إيحاء عميق متفق مع ما جاء في السورة .

كذلك ما يرد فى كلام الجن من الإشارة إلى كتاب الكون المفتوح ، ودلالته على قدرة الله الظاهرة في خلق السماوات والأرض ، الشاهدة بقدرته على الإحياء والبعث . وهي القضية التى يجادل فيها البشر وبها يجحدون .

وبمناسبة البعث يعرض مشهداً من مشاهد القيامة ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار ﴾ . .

(201/705)

وفي الختام تجيء الوصية للرسول - صلى الله عليه وسلم - بالصبر عليهم وعدم الاستعجال لهم . وتركهم للأجل المرسوم . وهو قريب قريب كأنه ساعة من نهار . . للبلاغ . . قبل الهلاك !

﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا : أنصتوا . فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا : يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى ، مصدقاً لما بين يديه ، يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم . ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض ،

وليس له من دونه أولياء ، أولئك في ضلال مبين . أو لم يروا أن الله الذى خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ؟ بلى إنه على كل شئ قدير ﴾ . .

ومقالة النفر من الجن – مع خشوعهم عند سماع القرآن – تتضمن أسس الاعتقاد الكامل : تصديق الوحي . ووحدة العقيدة بين التوراة والقرآن . والاعتراف بالحق الذى يهدي إليه . والإيمان بالآخرة وما ينتهي إلى المغفرة وما ينتهي إلى العذاب من الأعمال . والإقرار بقوة الله وقدرته على الخلق وولايته وحده للعباد . والربط بين خلق الكون وإحياء الموتى . . وهي الأسس التى تتضمنها السورة كلها ، والقضايا التى تعالجها في سائر أشواطها . . كلها جاءت على لسان النفر من الجن . من عالم آخر غير عالم الإنسان .

ويحسن قبل أن نستعرض هذه المقالة أن نقول كلمة عن الجن وعن الحادثة .

.

(202/705)

إن ذكر القرآن لحادث صرف نفر من الجن ليستمعوا القرآن من النبي - صلى الله عليه وسلم - وحكاية ما قالوا وما فعلوا . . هذا وحده كاف بذاته لتقرير وجود الجن ولتقرير وقوع الحادث . ولتقرير أن الجن هؤلاء يستطيعون أن يستمعوا للقرآن بلفظه العربي المنطوق كما

يلفظه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولتقرير أن الجن خلق قابلون للإيمان وللكفران ، مستعدون للهدى وللضلال . . وليس هنالك من حاجة إلى زيادة تثبيت أو توكيد لهذه الحقيقة ؛ فما يملك إنسان أن يزيد الحقيقة التي يقررها الله – سبحانه – ثبوتاً .

ولكنا نحاول إيضاح هذه الحقيقة فى التصور الإنساني .

إن هذا الكون من حولنا حافل بالأسرار ، حافل بالقوى والخلائق المجهولة لنا كنهاً وصفة وأثراً . ونحن نعيش في أحضان هذه القوى والأسرار . نعرف منها القليل ، ونجهل منها الكثير . وفي كل يوم نكشف بعض هذه الأسرار ، وندرك بعض هذه القوى ، ونتعرف إلى بعض هذه الخلائق تارة بذواتها . وتارة بصفاتها . وتارة بمجرد آثارها في الوجود من حولنا .

ونحن ما نزال فى أول الطريق . طريق المعرفة لهذا الكون ، الذي نعيش نحن وآباؤنا وأجدادنا ويعيش أبناؤنا وأحفادنا ، على ذرة من ذراته الصغيرة الصغيرة . . هذا الكوكب الأرضي الذي لا يبلغ أن يكون شيئاً يذكر في حجم الكون أو وزنه !

وما عرفناه اليوم – ونحن في أول الطريق – يعد بالقياس إلى معارف البشرية قبل خمسة قرون فقط عجائب أضخم من عجيبة الجن . ولو قال قائل للناس قبل خمسة قرون عن شيء من أسرار الذرة التي نتحدث عنها اليوم لظنوه مجنوناً ، أو لظنوه يتحدث عما هو أشد غرابة من الجن قطعاً !

ونحن نعرف ونكشف في حدود طاقتنا البشرية ، المعدة للخلافة في هذه الأرض ، ووفق مقتضيات هذه الخلافة ، وفي دائرة ما سخره الله لنا ليكشف لنا عن أسراره ، وليكون لنا ذلولاً ، كيما نقوم بواجب الخلافة في الأرض . . ولا تتعدى معرفتنا وكشوفنا في طبيعتها وفي مداها – مهما امتد بنا الأجل – أي بالبشرية – ومهما سخر لنا من قوى الكون وكشف لنا من أسراره – لا تتعدى تلك الدائرة . دائرة ما نحتاجه للخلافة في هذه الأرض . وفق حكمة الله وتقديره .

وسنكشف كثيراً ، وسنعرف كثيراً ، وستتفتح لنا عجائب من أسرار هذا الكون وطاقاته ، مما قد تعتبر أسرار الذرة بالقياس إليه لعبة أطفال ! ولكننا سنظل في حدود الدائرة المرسومة للبشر في المعرفة . وفي حدود قول الله – سبحانه – ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ قليلاً بالقياس إلى ما في هذا الوجود من أسرار وغيوب لا يعلمها إلا خالقه وقيومه . وفي حدود تمثيله لعلمه غير المحدود ، ووسائل المعرفة البشرية المحدودة بقوله : ﴿ ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ﴾

فليس لنا – والحالة هذه – أن نجزم بوجود شيء أو نفيه . وبتصوره أو عدم تصوره . من عالم الغيب المجهول ، ومن أسرار هذا الوجود وقواه ، لمجرد أنه خارج عن مألوفنا العقلي أو تجاربنا المشهودة . ونحن لم ندرك بعد كل أسرار أجسامنا وأجهزتها وطاقاتها ، فضلاً على إدراك أسرار عقولنا وأرواحنا !

وقد تكون هنالك أسرار ليست داخلة في برنامج ما يكشف لنا عنه أصلاً . وأسرار ليست داخلة في برنامج ما يكشف لنا عن كنهه ، فلا يكشف لنا إلا عن صفته أو أثره أو مجرد وجوده ، لأن هذا لا يفيدنا في وظيفة الخلافة في الأرض .

(204/705)

فإذا كشف الله لنا عن القدر المقسوم لنا من هذه الأسرار والقوى ، عن طريق كلامه – لا عن طريق تجاربنا ومعارفنا الصادرة من طاقتنا الموهوبة لنا من لدنه أيضاً – فسبيلنا في هذه الحالة أن نتلقى هذه الهبة بالقبول والشكر والتسليم . نتلقاها كما هي فلا نزيد عليها ولا ننقص منها . لأن المصدر الوحيد الذي نتلقى عنه مثل هذه المعرفة لم يمنحنا إلا هذا القدر بلا زيادة . وليس هنالك مصدر آخر نتلقى عنه مثل هذه الأسرار !

ومن هذا النص القرآني ، ومن نصوص سورة الجن ، والأرجح أنها تعبير عن الحادث نفسه ،

ومن النصوص الأخرى المتناثرة في القرآن عن الجن ، ومن الآثار النبوية الصحيحة عن هذا الحادث ، نستطيع أن ندرك بعض الحقائق عن الجن . . ولا زيادة . .

هذه الحقائق تتلخص في أن هنالك خلقاً اسمه الجن . مخلوق من النار . لقول إبليس في الحديث عن آدم : ﴿ أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ . وإبليس من الجن لقول الله تعالى : ﴿ إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ﴾ . فأصله من أصل الجن .

وأن هذا الخلق له خصائص غير خصائص البشر . منها خلقته من نار ، ومنها أنه يرى الناس ولا يراه الناس ، لقوله تعالى عن إبليس – وهو من الجن – : ﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾ وأن له تجمعات معينة تشبه تجمعات البشر في قبائل وأجناس . للقول السابق : ﴿ إنه يراكم هو وقبيله . . . ﴾ وأن له قدرة على الحياة في هذا الكوكب الأرضي – لا ندري أين – لقوله تعالى : لآدم وإبليس معاً : ﴿ اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ والجن الذين سخروا لسليمان عليه السلام كانوا يقومون له بأعمال في الأرض تقتضي أن يكونوا مزودين بالقدرة على الحياة فيها .

وأن له قدرة كذلك على الحياة خارج هذا الكوكب لقول الله تعالى حكاية عن الجن : ﴿ وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً ، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ﴾ وأنه يملك التأثير في إدراك البشر وهو مأذون في توجيه الضالين منهم – غير عباد الله – للنصوص السابقة ، ولقوله تعالى في حكاية حوار إبليس اللعين :

﴿ قال : فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ وغير هذا من النصوص المماثلة . ولكنا لا نعرف كيف يوسوس ويوجه وبأي أداة .

وأنه يستطيع أن يسمع صوت الإنسان ويفهم لغته ، بدلالة استماع نفر من الجن للقرآن وفهمه والتأثر به . وأنه قابل للهدى وللضلال بدلالة قول هذا النفر في سورة الجن : ﴿ وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون . فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً ، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً ﴾ وبدليل ذهابهم إلى قومهم منذرين يدعونهم إلى الإيمان ، بعدما وجدوه في نفوسهم ، وعلموا أن قومهم لم يجدوه بعد .

وهذا هو القدر المستيقن في أمر الجن ، وهو حسبنا ، بلا زيادة عليه ليس عليها من دليل .

فأما الحادث الذي تشير إليه هذه الآيات ، كما تشير إليه سورة الجن كلها على الأرجح ، فقد وردت فيه روايات متعددة نثبت أصحها :

أخرج البخاري – بإسناده – عن مسدد ، ومسلم عن شيبان بن فروخ عن أبي عوانة .

وروى الإمام أحمد في مسنده قال : حدثنا عفان ، حدثنا أبو عوانة وقال الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه دلائل النبوة : أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدان ، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار ، حدثنا إسماعيل القاضي ، أخبرنا مسدد ، حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : " ما قرأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على الجن ولا رآهم . انطلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ . وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم . فقالوا : ما لكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب . قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث ، فاضربوا في مشارق الأرض ومغاربها ، وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء . فانطلقوا يضربون في مشارق الأرض ومغاربها ، يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء . فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر . فلما سمعوا القرآن استمعوا له ، فقالوا : هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء . فهنالك حين رجعوا إلى قومهم : وقالوا : يا قومنا ﴿ إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي

إلى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحداً ﴾ . . وأنزل الله على نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ﴿ قل : أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن ﴾ وإنما أوحي إليه قول الجن " .

وأخرج مسلم وأبو داود والترمذي – بإسناده –

(207/705)

" عن علقمة ، قال : قلت لابن مسعود – رضي الله عنه – هل صحب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ منكم أحد ليلة الجن ؟ قال : ما صحبه أحد منا ولكنا كنا معه ذات ليلة ، ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب . فقلنا : استطير ، أو اغتيل . فبتنا بشر ليلة بات بها قوم . فلما أصبحنا فإذا هو جاء من قبل حراء . فقلنا : يا رسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم . فقال : " أتاني داعي الجن فذهبت معه ، فقرأت عليهم القرآن " . قال : فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم . وسألوه الزاد فقال : " كم كل عظم ذكر اسم الله تعالى عليه ، يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً ، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم " . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم " .

وقال : ساق ابن إسحاق – فيما رواه ابن هشام في السيرة – خبر النفر من الجن بعد خبر خروج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف ، بعد موت

عمه أبي طالب ، واشتداد الأذى عليه وعلى المسلمين في مكة . ورد ثقيف له رداً قبيحاً ، وإغرائهم السفهاء والأطفال به ، حتى أدموا قدميه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحجارة . فتوجه إلى ربه بذلك الابتهال المؤثر العميق الكريم : " اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس . يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي . إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بي غضبك ، أو يحل علي سخطك . لك العتبى حتى ترضى . ولا حول ولا قوة إلا بك " .

(208/705)

قال : ثم إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة ، حين يئس من خير ثقيف . حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلي ، فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى . وهم – فيما ذكر لي – سبعة نفر من جن نصيبين . فاستمعوا له . فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين . قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا . فقص الله خبرهم عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال الله عز وجل : ﴿ وإذ صرفنا إليك

نفراً من الجن يستمعون القرآن ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ ويجركم من عذاب أليم ﴾ . . وقال تعالى : ﴿ قل : أوحي إليَّ أنه استمع نفر من الجن ﴾ إلى آخر القصة من خبرهم في هذه السورة .

ويعقب ابن كثير في التفسير على رواية ابن إسحاق بقوله : " وهذا صحيح .

ولكن قوله : إن الجن كان استماعهم تلك الليلة فيه نظر . فإن الجن كان استماعهم في ابتداء الإيحاء ، كما دل عليه حديث ابن عباس – رضي الله عنهما – المذكور ، وخروجه - صلى الله عليه وسلم - إلى الطائف كان بعد موت عمه . وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين كما قرره ابن إسحاق وغيره . والله أعلم " .

وهناك روايات أخرى كثيرة . ونحن نعتمد من جميع هذه الروايات الرواية الأولى عن ابن عباس – رضي الله عنهما – لأنها هي التي تتفق تماماً مع النصوص القرآنية : ﴿ قل : أوحي إليَّ أنه استمع نفر من الجن ﴾ وهي قاطعة في أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - إنما علم بالحادث عن طريق الوحي ، وأنه لم ير الجن ولم يشعر بهم . ثم إن هذه الرواية هي الأقوى من ناحية الإسناد والتخريج . وتتفق معها في هذه النقطة رواية ابن إسحاق . كما يقويها ما عرفناه من القرآن من صفة الجن : ﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾ وفي هذا غناء في تحقيق الحادث .

﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا : أنصتوا . فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين ﴾ . .

(209/705)

لقد كان إذن تدبيراً من الله أن يصرف هؤلاء النفر من الجن إلى استماع القرآن ، لا مصادفة عابرة . وكان في تقدير الله أن تعرف الجن نبأ الرسالة الأخيرة كما عرفت من قبل رسالة موسى ؛ وأن يؤمن فريق منهم وينجو من النار المعدة لشياطين الجن كما هي معدة لشياطين الإنس .

ويرسم النص مشهد هذا النفر – وهم ما بين ثلاثة وعشرة – وهم يستمعون إلى هذا القرآن ، ويصور لنا ما وقع في حسهم منه ، من الروعة والتأثر والرهبة والخشوع . ﴿ فلما حضروه قالوا : أنصتوا ﴾ . . وتلقي هذه الكلمة ظلال الموقف كله طوال مدة الاستماع .

﴿ فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين ﴾ . .

وهذه كذلك تصور الأثر الذي انطبع في قلوبهم من الإنصات للقرآن . فقد استمعوا صامتين منتبهين حتى النهاية . فلما انتهت التلاوة لم يلبثوا أن سارعوا إلى قومهم ، وقد حملت نفوسهم ومشاعرهم منه ما لا تطيق السكوت عليه ، أو التلكؤ في إبلاغه والإنذار به .

وهي حالة من امتلأ حسه بشيء جديد ، وحفلت مشاعره بمؤثر قاهر غلاب ، يدفعه دفعاً إلى الحركة به والاحتفال بشأنه ، وإبلاغه للآخرين في جد واهتمام :

﴿ قالوا : يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى ، مصدقاً لما بين يديه ، يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ﴾ . .

ولوا إلى قومهم مسارعين يقولون لهم : إنا سمعنا كتاباً جديداً أنزل من بعد موسى ، يصدق كتاب موسى في أصوله . فهم إذن كانوا يعرفون كتاب موسى . فأدركوا الصلة بين الكتابين بمجرد سماع آيات من هذا القرآن ، قد لا يكون فيها ذكر لموسى ولا لكتابه ، ولكن طبيعتها تشي بأنها من ذلك النبع الذى نبع منه كتاب موسى .

وشهادة هؤلاء الجن البعيدين – نسبياً – عن مؤثرات الحياة البشرية ، بمجرد تذوقهم لآيات من القرآن ، ذات دلالة وذات إيحاء عميق .

ثم عبروا عما خالج مشاعرهم منه ، وما أحست ضمائرهم فيه ، فقالوا عنه :

﴿ يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ﴾ . .

ووقع الحق والهدى في هذا القرآن هائل ضخم ، لا يقف له قلب غير مطموس ؛ ولا تصمد له روح غير معاندة ولا مستكبرة ولا مشدودة بالهوى الجامع اللئيم . ومن ثم لمس هذه القلوب لأول وهلة ، فإذا هي تنطق بهذه الشهادة ، وتعبر عما مسها منه هذا التعبير .

ثم مضوا في نذارتهم لقومهم في حماسة المقتنع المندفع ، الذي يحس أن عليه واجباً في النذارة لا بد أن يؤديه :

﴿ يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به ، يغفر لكم من ذنوبكم ، ويجركم من عذاب أليم ﴾ . .

فقد اعتبروا نزول هذا الكتاب إلى الأرض دعوة من الله لكل من بلغته من إنس وجن ؛ واعتبروا محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ داعياً لهم إلى الله بمجرد تلاوته لهذا القرآن واستماع الثقلين له : فنادوا قومهم : ﴿ يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به ﴾ . . وآمنوا كذلك بالآخرة ، وعرفوا أن الإيمان والاستجابة لله يكون معهما غفران الذنب والإجارة من العذاب . فبشروا وأنذروا بهذا الذي عرفوه .

ويروي ابن إسحاق أن مقالة الجن انتهت عند هذه الآية . ولكن السياق يوحي بأن الآيتين التاليتين هما من مقولات النفر أيضاً . ونحن نرجح هذا وبخاصة الآية التالية :

﴿ ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض ، وليس له من دونه أولياء . أولئك في ضلال مبين ﴾ .

فهي تكملة طبيعية لنذارة النفر لقومهم فقد دعوهم إلى الاستجابة والإيمان . فالاحتمال قوي وراجح أن يبينوا لهم أن عدم الاستجابة وخيم العاقبة . وأن الذي لا يستجيب لا يعجز الله أن يأتي به ويوقع عليه الجزاء . ويذيقه العذاب الأليم ؛ فلا يجد له من دون الله أولياء ينصرونه أو يعينونه . وأن هؤلاء المعرضين ضالون ضلالاً بيناً عن الصراط المستقيم .

وكذلك الآية التي بعدها يحتمل كثيراً أن تكون من كلامهم ، تعجيباً من أولئك الذين لا يستجيبون لله ؛ حاسبين أنهم سيفلتون ، أو أنه ليس هناك حساب ولا جزاء :

(211/705)

﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلق السماوات والأرض ولم يعيَ بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ؟ بلى . إنه على كل شئ قدير ﴾ . .

وهي لفتة إلى كتاب الكون المنظور ، الذي ورد ذكره في أول السورة . وكثيراً ما يتضمن السياق القرآني مثل هذا التناسق بين قول مباشر في السورة ، وقول مثله يجيء في قصة ، فيتم التطابق بين مصدرين على الحقيقة الواحدة .

وكتاب الكون يشهد بالقدرة المبدعة ابتداء لهذا الخلق الهائل : السماوات والأرض .

ويوحي للحس البشري بيسر الإحياء بعد الموت . وهذا الإحياء هو المقصود . وصياغة القضية في أسلوب الاستفهام والجواب أقوى وآكد في تقرير هذه الحقيقة . ثم يجيء التعقيب الشامل : ﴿ إنه على كل شيء قدير ﴾ . . فتضم الإحياء وغيره في نطاق هذه القدرة الشاملة لكل شيء كان أو يكون .

وعند ذكر الإحياء يرتسم مشهد الحساب كأنه شاخص للعيون :

﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار . أليس هذا بالحق ؟ قالوا : بلى وربنا . قال : فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ . .

يبدأ المشهد حكاية أو مقدمة لحكاية : ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار ﴾ . . وبينما السامع في انتظار وصف ما سيكون ، إذا المشهد يشخص بذاته . وإذا الحوار قائم في المشهد المعروض : ﴿ أليس هذا بالحق ؟ ﴾ . .

ويا له من سؤال ؟ بل يا لها من قارعة للذين كانوا يكذبون ويستهزئون ويستعجلون ، واليوم تتلوى أعناقهم على الحق الذي كانوا ينكرون .

والجواب في خزي وفي مذلة وفي ارتياع :

﴿ بلى . وربنا ﴾ . .

هكذا هم يقسمون : ﴿ وربنا ﴾ . . ربهم الذي كانوا لا يستجيبون لداعيه ، ولا يستمعون لنبيه ولا يعترفون له بربوبية . ثم هم اليوم يقسمون به على الحق الذي أنكروه !

عندئذ يبلغ السؤال غاية من التزذيل والتقريع ، ويقضى الأمر ، وينتهي الحوار :

﴿ قال : فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ . .

"كلمة ورد غطاها " . . كما يقال ! الجريمة ظاهرة . الجاني معترف . فإلى الجحيم !

(212/705)

وسرعة المشهد هنا مقصودة . فالمواجهة حاسمة ، ولا مجال لأخذ ولا رد . لقد كانوا ينكرون فالآن يعترفون . والآن يذوقون !

وعلى هذا المشهد الحاسم في مصير الذين كفروا ، وعلى مشهد الإيمان من أبناء عالم آخر . وفي ختام السورة التي عرضت مقولات الكافرين عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعن القرآن الكريم . . يجيء الإيقاع الأخير . توجيهاً للرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يصبر عليهم ، ولا يستعجل لهم ، فقد رأى ما ينتظرهم ، وهو منهم قريب :

﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ، ولا تستعجل لهم ، كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار . بلاغ . فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ﴾ . .

وكل كلمة في الآية ذات رصيد ضخم ؛ وكل عبارة وراءها عالم من الصور والظلال ، والمعاني والإيحاءات ، والقضايا والقيم .

﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل . ولا تستعجل لهم ﴾ . .

توجيه يقال لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو الذي احتمل ما احتمل ، وعانى من قومه ما عانى . وهو الذي نشأ يتيماً ، وجرد من الولي والحامي ومن كل أسباب الأرض واحداً بعد واحد . الأب . الأم . والجد . والعم . والزوج الوفية الحنون . وخلص لله ولدعوته مجرداً من كل شاغل . كما هو مجرد من كل سند أو ظهير . وهو الذي لقي من أقاربه من المشركين أشد مما لاقى من الأبعدين . وهو الذي خرج مرة ومرة ومرة يستنصر القبائل والأفراد فرد في كل مرة بلا نصرة .

(213/705)

وفي بعض المرات باستهزاء السفهاء ورجمهم له بالحجارة حتى تدمى قدماه الطاهرتان ,

فما يزيد على أن يتوجه إلى ربه بذلك الابتهال الخاشع النبيل .

وبعد ذلك كله يحتاج إلى توجيه ربه: فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم . .

ألا إنه لطريق شاق طريق هذه الدعوة . وطريق مرير . حتى لتحتاج نفس كنفس محمد (صلى الله عليه وسلم) في تجردها وانقطاعها للدعوة , وفي ثباتها وصلابتها , وفي صفائها

وشفافيتها . تحتاج إلى التوجيه الرباني بالصبر وعدم الاستعجال على خصوم الدعوة المتعنتين .

نعم . وإن مشقة هذا الطريق لتحتاج إلى مواساة , وإن صعوبته لتحتاج إلى صبر . وإن مرارته لتحتاج إلى جرعة حلوة من رحيق العطف الإلهي المختوم .

(فاصبر . كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم . .

تشجيع وتصبير وتأسية وتسلية . . ثم تطمين:

(كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) . .

إنه أمد قصير . ساعة من نهار . وإنها حياة خاطفة تلك التي يمكثونها قبيل الأخرة . وإنها لتافهة لا تترك وراءها من الوقع والأثر في النفوس إلا مثلما تتركه ساعة من نهار . . ثم يلاقون المصير المحتوم . ثم يلبثون في الأبد الذي يدوم . وما كانت تلك الساعة إلا بلاغا قبل أن يحق الهلاك والعذاب الأليم:

(بلاغ . فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) . .

لا . وما الله يريد ظلما للعباد . لا . وليصبر الداعية على ما يلقاه . فما هي إلا ساعة من نهار . ثم يكون ما يكون . . انتهى انتهى . اهـ ﴿الظلال حـ 6 صـ 3265 .

3276 ﴾

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى - : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾

رُوِيَ أَنَّ عُثْمَانَ أَمَرَ بِرَجْمِ امْرَأَةٍ قَدْ وَلَدَتْ لِسِتَّةِ أَشْهُرٍ ، فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ : قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ وَرُوِيَ أَنَّ عُثْمَانَ سَأَلَ النَّاسَ عَنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَأَنَّ عُثْمَانَ رَجَعَ إلَى قَوْلِ عَلِيٍّ وَابْنِ عَبَّاسٍ .

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ كُلَّ مَا زَادَ فِي الْحَمْلِ نَقَصَ مِنْ الرَّضَاعِ ، فَإِذَا كَانَ الْحَمْلُ تِسْعَةَ أَشْهُرٍ فَالرَّضَاعُ وَاحِدٌ وَعِشْرُونَ شَهْرًا ، وَعَلَى هَذَا الْقِيَاسِ جَمِيعُ ذَلِكَ .

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الرَّضَاعَ حَوْلَانِ فِي جَمِيعِ النَّاسِ ، وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ مَنْ زَادَ حَمْلُهُ أَوْ نَقَصَ وَهُوَ مُخَالِفٌ لِلْقَوْلِ الْأَوَّلِ وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ : مَا نَقَصَ عَنْ تِسْعَةِ أَشْهُرٍ أَوْ زَادَ عَلَيْهَا .

قَوْله تَعَالَى - : ﴿ حَتَّى إذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةَ : " أَشُدُّهُ ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ سَنَةً " وَقَالَ الشَّعْبِيُّ : " هُوَ بُلُوغُ الْحُلُمِ " وَقَالَ الْحَسَنُ : " أَشُدُّهُ قِيَامُ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ " .

(215/705)

وقَوْله تَعَالَى - : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ﴾ رَوَى الزُّهْرِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ عُمَرُ : فَقُلْت يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُوَسِّعَ عَلَى أُمَّتِك فَقَدْ وَسَّعَ عَلَى فَارِسَ وَالرُّومِ وَهُمْ لَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاسْتَوَى جَالِسًا وَقَالَ : ﴿ أَفِي شَكٍّ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ؟ أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ .

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا الجرجاني قَالَ : أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا ﴾ .

(216/705)

قَالَ : إنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ : " لَوْ شِئْت أَنْ أُذْهِبَ طَيِّبَاتِي فِي حَيَاتِي لَأَمَرْت بِجَدْيٍ سَمِينٍ يُطْبَخُ بِاللَّبَنِ " وَقَالَ مَعْمَرٌ : قَالَ قَتَادَةُ : قَالَ عُمَرُ : " لَوْ شِئْت أَنْ أَكُونَ أَطْيَبَكُمْ طَعَامًا وَأَلْيَنَكُمْ ثِيَابًا لَفَعَلْت ، وَلَكِنِّي أَسْتَبْقِي طَيِّبَاتِي " وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى قَالَ : قَدِمَ عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ ، فَقَرَّبَ إلَيْهِمْ طَعَامَهُ ، فَرَآهُمْ كَأَنَّهُمْ يَتَعَذَّرُونَ فِي

الْأَكْلِ ، فَقَالَ : "يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ لَوْ شِئْتُ أَنْ يُدَهْمَقَ لِي كَمَا يُدَهْمَقُ لَكُمْ لَفَعَلْتُ ، وَلَكِنْ نَسْتَبْقِي مِنْ دُنْيَانَا لِآخِرَتِنَا ، أَمَا سَمِعْتُمْ اللَّهَ يَقُولُ : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا ﴾ " قَالَ أَبُو بَكْرٍ : هَذَا مَحْمُولٌ عَلَى أَنَّهُ رَأَى ذَلِكَ أَفْضَلَ لَا عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ غَيْرُهُ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَبَاحَ ذَلِكَ ، فَلَا يَكُونُ آكِلُهُ فَاعِلًا مَحْظُورًا ، قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(217/705)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الْأَحْقَافِ

[فِيهَا ثَلَاثُ آيَاتٍ]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنْ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي مَسَاقِ الْآيَةِ ، وَهِيَ أَشْرَفُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ فَإِنَّهَا

اسْتَوْفَتْ أَدِلَّةَ الشَّرْعِ عَقْلِيَّهَا وَسَمْعِيَّهَا لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ فَهَذِهِ بَيَانٌ لِأَدِلَّةِ الْعَقْلِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالتَّوْحِيدِ ، وَحُدُوثِ الْعَالَمِ ، وَانْفِرَادِ الْبَارِيِّ سُبْحَانَهُ بِالْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ وَالْوُجُودِ وَالْخَلْقِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ عَلَى مَا تَقُولُونَ ، وَهَذِهِ بَيَانٌ لِأَدِلَّةِ السَّمْعِ فَإِنَّ مُدْرِكَ الْحَقِّ إنَّمَا يَكُونُ بِدَلِيلِ الْعَقْلِ أَوْ بِدَلِيلِ الشَّرْعِ حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ مِنْ مَرَاتِبِ الْأَدِلَّةِ فِي كُتُبِ الْأُصُولِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ ﴾ يَعْنِي أَوْ عِلْمٍ يُؤْثَرُ ، أَوْ يُرْوَى وَيُنْقَلُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَكْتُوبًا ؛ فَإِنَّ الْمَنْقُولَ عَنْ الْحِفْظِ مِثْلُ الْمَنْقُولِ عَنْ الْكُتُبِ .

(218/705)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَالَ قَوْمٌ : إنَّ قَوْلَهُ : ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ عِلْمَ الْخَطِّ ، وَهُوَ الضَّرْبُ فِي التُّرَابِ لِمَعْرِفَةِ الْكَوَائِنِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ أَوْ فِيمَا مَضَى مِمَّا غَابَ عَنْ الضَّارِبِ ، وَأَسْنَدُوا ذَلِكَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يَصِحَّ .

وَفِي مَشْهُورِ الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ كَانَ نَبِيٌّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ يَخُطُّ ، فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَلِكَ ﴾ وَلَمْ يَصِحَّ أَيْضًا .

وَاخْتَلَفُوا فِي تَأْوِيلِهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : إنَّهُ جَاءَ لِإِبَاحَةِ الضَّرْبِ بِهِ ؛ لِأَنَّ بَعْضَ الْأَنْبِيَاءِ كَانَ

يَفْعَلُهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : جَاءَ لِلنَّهْيِ عَنْهُ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَلِكَ ﴾ .

(219/705)

وَلَا سَبِيلَ إلَى مَعْرِفَةِ طَرِيقِ النَّبِيِّ الْمُتَقَدِّمِ فِيهِ فَإِذًا لَا سَبِيلَ إلَى الْعَمَلِ بِهِ : لَعَمْرُك مَا تَدْرِي الضَّوَارِبُ بِالْحَصَى وَلَا زَاجِرَاتُ الطَّيْرِ مَا اللَّهُ صَانِعٌ وَحَقِيقَتُهُ عِنْدَ أَرْبَابِهِ تَرْجِعُ إلَى صُوَرِ الْكَوَاكِبِ ، فَيَدُلُّ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا عَلَى مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ تِلْكَ الْكَوَاكِبِ مِنْ سَعْدٍ أَوْ نَحْسٍ يَحِلُّ بِهِمْ ، فَصَارَ ظَنًّا مَبْنِيًّا عَلَى ظَنٍّ ، وَتَعَلُّقًا بِأَمْرٍ غَائِبٍ قَدْ دَرَسَتْ طَرِيقُهُ ، وَفَاتَ تَحْقِيقُهُ ، وَقَدْ نَهَتْ الشَّرِيعَةُ عَنْهُ ، وَأَخْبَرَتْ أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا اخْتَصَّ اللَّهُ بِهِ ، وَقَطَعَهُ عَنْ الْخَلْقِ ، وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ أَسْبَابٌ يَتَعَلَّقُونَ بِهَا فِي دَرْكِ الْغَيْبِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ رَفَعَ تِلْكَ الْأَسْبَابَ ، وَطَمَسَ تِلْكَ الْأَبْوَابَ ، وَأَفْرَدَ نَفْسَهُ بِعِلْمِ الْغَيْبِ ؛ فَلَا يَجُوزُ مُزَاحَمَتُهُ فِي ذَلِكَ ، وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ دَعْوَاهُ ، وَطَلَبُهُ عَنَاءٌ لَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ نَهْيٌ ، فَإِذْ قَدْ وَرَدَ النَّهْيُ فَطَلَبُهُ مَعْصِيَةٌ أَوْ كُفْرٌ بِحَسَبِ قَصْدِ الطَّالِبِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ إنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُبْقِ مِنْ الْأَسْبَابِ الدَّالَّةِ عَلَى الْغَيْبِ الَّتِي أَذِنَ فِي التَّعَلُّقِ بِهَا

وَالِاسْتِدْلَالِ مِنْهَا إلَّا الرُّؤْيَا ، فَإِنَّهُ أَذِنَ فِيهَا وَأَخْبَرَ أَنَّهَا جُزْءٌ مِنْ النُّبُوَّةِ ، وَكَذَلِكَ الْفَأْلُ .

فَأَمَّا الطِّيَرَةُ وَالزَّجْرُ فَإِنَّهُ نَهَى عَنْهُمَا .

(220/705)

وَالْفَأْلُ هُوَ الِاسْتِدْلَالُ بِمَا يَسْتَمِعُ مِنْ الْكَلَامِ عَلَى مَا يُرِيدُ مِنْ الْأَمْرِ إذَا كَانَ حَسَنًا ، فَإِنْ سَمِعَ مَكْرُوهًا فَهُوَ تَطَيُّرٌ ، وَأَمَرَ الشَّرْعُ بِأَنْ يَفْرَحَ بِالْفَأْلِ ، وَيَمْضِيَ عَلَى أَمْرِهِ مَسْرُورًا بِهِ .

فَإِذَا سَمِعَ الْمَكْرُوهَ أَعْرَضَ عَنْهُ وَلَمْ يَرْجِعْ لِأَجْلِهِ ، وَقَالَ كَمَا عَلَّمَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ اللَّهُمَّ لَا طَيْرَ إلَّا طَيْرُك ، وَلَا خَيْرَ إلَّا خَيْرُك ، وَلَا إلَهَ غَيْرُك ﴾ .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ بَعْضِ الْأُدَبَاءِ : الْفَأْلُ وَالزَّجْرُ وَالْكُهَّانُ كُلُّهُمْ مُضَلِّلُونَ وَدُونَ الْغَيْبِ أَقْفَالٌ وَهَذَا كَلَامٌ صَحِيحٌ إلَّا فِي الْفَأْلِ ، فَإِنَّ الشَّرْعَ اسْتَثْنَاهُ ، وَأَمَرَ بِهِ ، فَلَا يُقْبَلُ مِنْ هَذَا الشَّاعِرِ مَا نَظَمَهُ فِيهِ ، فَإِنَّهُ تَكَلَّمَ بِجَهْلٍ ؛ وَصَاحِبُ الشَّرْعِ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ .

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ .

رُوِيَ أَنَّ امْرَأَةً تَزَوَّجَتْ فَوَلَدَتْ لِسِتَّةِ أَشْهُرٍ مِنْ يَوْمِ زُوِّجَتْ ، فَأُتِيَ بِهَا عُثْمَانَ ، فَأَرَادَ أَنْ يَرْجُمَهَا ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ لِعُثْمَانَ : إنَّهَا إنْ تُخَاصِمْكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ تَخْصِمْكُمْ ؛ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ .

وَقَالَ : " وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ " فَالْحَمْلُ سِتَّةُ أَشْهُرٍ ، وَالْفِصَالُ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ شَهْرًا ؛ فَخَلَّى سَبِيلَهَا .

فِي رِوَايَةٍ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ قَالَ لَهُ ذَلِكَ .

(221/705)

وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَهُوَ اسْتِنْبَاطٌ بَدِيعٌ .

الْآيَةُ الثَّالِثَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى لَا خِلَافَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ فِي الْكُفَّارِ بِنَصِّ الْقُرْآنِ ، لِقَوْلِهِ فِي أَوَّلِهَا : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ﴾ ، أَيْ فَيُقَالُ لَهُمْ : أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا ، يُرِيدُ أَفْنَيْتُمُوهَا فِي الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَمَعْصِيَتِهِ ، وَإِنَّ اللَّهَ أَحَلَّ الطَّيِّبَاتِ مِنْ الْحَلَالِ وَاللَّذَّاتِ ، وَأَمَرَ بِاسْتِعْمَالِهَا فِي الطَّاعَاتِ ، فَصَرَفَهَا الْكُفَّارُ إلَى الْكُفْرِ فَأَوْعَدَهُمْ اللَّهُ بِمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْهُمْ ، وَقَدْ يَسْتَعْمِلُهَا الْمُؤْمِنُ فِي الْمَعَاصِي ، يَدْخُلُ فِي وَعِيدٍ آخَرَ وَتَنَالُهُ آيَةٌ أُخْرَى بِرَجَاءِ الْمَغْفِرَةِ ، وَيَرْجِعُ أَمْرُهُ إلَى الْمَشِيئَةِ ، فَيُنَفِّذُ اللَّهُ فِيهِ مَا عَلِمَهُ مِنْهُ وَكَتَبَهُ لَهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ لَقِيَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ ، وَقَدْ ابْتَاعَ لَحْمًا بِدِرْهَمٍ ، فَقَالَ لَهُ : أَمَا سَمِعْتَ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ﴾ وَهَذَا عِتَابٌ مِنْهُ لَهُ عَلَى التَّوَسُّعِ بِابْتِيَاعِ اللَّحْمِ وَالْخُرُوجِ عَنْ جِلْفِ الْخُبْزِ وَالْمَاءِ ؛ فَإِنَّ تَعَاطِي الطَّيِّبَاتِ مِنْ الْحَلَالِ تَسْتَشْرِي لَهَا الطِّبَاعُ ، وَتَسْتَمِرُّ عَلَيْهَا الْعَادَةُ ، فَإِذَا فَقَدْتَهَا اسْتَسْهَلْتَ فِي تَحْصِيلِهَا بِالشُّبُهَاتِ ، وَحَتَّى تَقَعَ فِي الْحَرَامِ الْمَحْضِ بِغَلَبَةِ الْعَادَةِ ، وَاسْتِشْرَاهِ الْهَوَى عَلَى النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ ، فَأَخَذَ عُمَرُ الْأَمْرَ مِنْ أَوَّلِهِ ، وَحَمَاهُ مِنْ ابْتِدَائِهِ كَمَا يَفْعَلُهُ مِثْلُهُ .

وَالَّذِي يَضْبِطُ هَذَا الْبَابَ وَيَحْفَظُ قَانُونَهُ : عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَأْكُلَ مَا وَجَدَ طَيِّبًا كَانَ أَوْ قَفَارًا ، وَلَا يَتَكَلَّفُ الطَّيِّبَ ، وَيَتَّخِذُهُ عَادَةً ؛ وَقَدْ كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَشْبَعُ إذَا وَجَدَ ، وَيَصْبِرُ إذَا عَدِمَ ، وَيَأْكُلُ الْحَلْوَى إذَا قَدَرَ عَلَيْهَا ، وَيَشْرَبُ الْعَسَلَ إذَا اتَّفَقَ لَهُ ، وَيَأْكُلُ اللَّحْمَ إذَا تَيَسَّرَ ، وَلَا يَعْتَمِدُهُ أَصْلًا ، وَلَا يَجْعَلُهُ دَيْدَنًا ، وَمَعِيشَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعْلُومَةٌ ، وَطَرِيقَةُ أَصْحَابِهِ بَعْدُ مَنْقُولَةٌ ؛ فَأَمَّا الْيَوْمَ عِنْدَ اسْتِيلَاءِ

الْحَرَامِ ، وَفَسَادِ الْحُطَامِ ، فَالْخَلَاصُ عَسِيرٌ ، وَاللَّهُ يَهَبُ الْإِخْلَاصَ ، وَيُعِينُ عَلَى الْخَلَاصِ بِرَحْمَتِهِ .

(223/705)

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَدِمَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنْ الْعِرَاقِ فَرَأَى الْقَوْمُ كَأَنَّهُمْ يَتَقَزَّزُونَ فِي الْأَكْلِ ، فَقَالَ : مَا هَذَا يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ؟ وَلَوْ شِئْت أَنْ يُدَهْمَقُ لِي كَمَا يُدَهْمَقُ لَكُمْ ، وَلَكِنَّا نَسْتَبْقِي مِنْ دُنْيَانَا مَا نَجِدُهُ فِي آخِرَتِنَا .

أَلَمْ تَسْمَعُوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ قَوْمًا فَقَالَ : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(224/705)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة الأحقاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله : ﴿ عَمَّآ أُنذِرُواْ ﴾ : يجوزُ أَنْ تكونَ " ما " مصدريةً أي : عن إنذارهم ، أو بمعنى الذي أي : عن الذي أُنْذِرُوْه . و " عن " متعلقةٌ بالإعراض و " مُعْرِضون " خبرُ الموصول .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (4)

قوله : ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ : تقدَّمَ حُكْمُها . ووقع بعدَها " أَرُوْني " فاحتملت وجهين ، أحدُهما : أَنْ تكونَ توكيداً لها لأَنَّهما بمعنى أَخْبروني ، وعلى هذا يكونُ المفعولُ الثاني لـ " أَرَأَيْتُمْ " قولَه : " ماذا خَلَقوا " لأنه استفهامٌ ، والمفعولُ الأولُ هو قولُه : " ما تَدْعُون " . والوجه الثاني : أَنْ لا تكونَ مؤكِّدةً لها ، وعلى هذا تكون المسألةُ من بابِ التنازعِ لأَنَّ " أَرَأَيْتُمْ " يطلب ثانياً ، و " أَرُوْني " كذلك ، وقولُه : " ماذا خَلَقوا " هو المتنازَعُ فيه ، وتكون المسألةُ من إعمالِ الثاني والحذفِ من الأولِ . وجوَّزَ ابنُ عطية في " أَرَأَيْتُم " أَنْ لا يتعدَّى . وجعل " ما تَدْعُوْن " استفهاماً معناه التوبيخُ . قال : " وتَدْعُوْنَ " معناه " تَعْبدون " قلت : وهذا رأيُ الأخفشِ وقد قال بذلك في قولِه : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى الصخرة ﴾ [الكهف : 63] وقد مضى ذلك .

قوله : " من الأرض " هذا بيانُ الإبهامِ الذي في قوله : " ماذا خَلَقُوا " .

قوله : " أَمْ لهم " هذه " أم " المنقطعةُ . والشِّرْكُ : المُشاركة .

قوله : ﴿ مِّن قَبْلِ هاذآ ﴾ صفةٌ لـ "كتاب" أي : بكتابٍ مُنَزَّلٍ من قبل هذا . كذا قدَّره أبو البقاء . والأحسنُ أَنْ يُقَدَّرَ/ كونٌ مطلقٌ أي : كائِنٍ مِنْ قبلِ هذا .

(225/705)

قوله : "أَو أَثَارَةٍ" العامة على "أَثارة" وهي مصدرٌ على فَعالة كالسَّماحَة والغَواية والضَّلالة ، ومعناها البقيةُ مِنْ قولِهم : سَمِنَتِ الناقةُ على أثارةٍ مِنْ لحم ، إذا كانت سَمينةً ثم هَزَلَتْ ، وبقِيَتْ بقيةٌ مِنْ شَحْمِها ثم سَمِنَتْ . والأثارَةُ غَلَبَ استعمالُها في بقيةِ الشَّرَف . يقال : لفلانٍ أثارةٌ أي : بقيةٌ أشرافٌ ، ويُستعمل في غيرِ ذلك . قال الراعي :

وذاتِ أثارَةٍ أكلَتْ عليها . . . نباتاً في أَكِمَّتِهِ قِفارا

وقيل : اشتقاقها مِنْ أَثَر كذا أي : أَسْنَدَه . ومنه قول عمر : "ما حَلَفْتُ ذاكراً ولا آثِراً" أي : مُسْنِداً له عن غيري . وقال الأعشى :

4039أ إنَّ الذي فيه تَمارَيْتُما . . . بُيِّنَ للسامعِ والآثِرِ

وقيل فيها غيرُ ذلك . وقرأ عليٌّ وابنُ عباس وزيد بن علي وعكرمة في آخرين "أَثَرَة" دونَ ألفٍ ، وهي الواحدة . ويُجْمع على أَثَر كقَتَرَة وقَتَر . وقرأ الكسائيُّ "أُثْرَة" و "إِثْرَة" بضم الهمزة وكسرِها مع سكونِ الثاء . وقتادةُ والسُّلمي بالفتح والسكون . والمعنى : بما يُؤْثَرُ

ويُرْوى . أي : ايتوني بخبرٍ واحدٍ يَشْهَدُ بصحةِ قولِكم . وهذا على سبيلِ التنزُّلِ للعِلْمِ بكذِبِ المُدَّعي . و " مِنْ عِلْمٍ " صفةٌ لأَثارة .

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (5)

قوله : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ ﴾ : مبتدأ وخبرٌ .

قوله : ﴿ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ ﴾ " مَنْ " نكرةٌ موصوفةٌ أو موصولةٌ ، وهي مفعولٌ بقولِه : " يَدْعُو " .

(226/705)

قوله : ﴿ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ ﴾ يجوزُ أَنْ يكونَ الضميران عائدَيْنِ على " مَنْ " مِنْ قولِه : ﴿ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ ﴾ وهم الأصنامُ وتُوْقَعُ عليهم " مَنْ " لمعاملتهم إياها معاملةَ العقلاءِ ، أو لأَنَّه أراد جميعَ مَنْ عُبِدَ مِنْ دونِ الله . وغَلَّب العقلاءَ ، ويكون قد راعى معنى " مَنْ " فلذلك جَمَعَ في قوله : " وهم " بعدما راعى لفظَها فأفردَ في قولِه : " يَسْتَجيب " وقيل : يعود على " مَنْ " مِنْ قولِه " ومَنْ أضَلُّ " ، وحُمِلَ أولاً على لفظها فأُفْرِدَ في قولِه : " يَدْعُو " ، وثانياً على معناها فجُمِعَ في قوله : ﴿ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ .

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (7)

قوله : ﴿ قَالَ الذين كَفَرُوا لِلْحَقِّ ﴾ : هنا أقام ظاهرَيْن مُقامَ مضمَرَيْنِ ؛ إذ الأصلُ : قالوا لها ، أي للآياتِ ، ولكنه أبرزَهما ظاهرَيْن لأجلِ الوصفَيْن المذكورَيْن . واللام في " للحق " للعلةِ .

قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (9)

قوله : ﴿ بِدْعاً ﴾ : فيه وجهان ، أحدهما : على حَذْفِ مضافٍ تقديرُه : ذا بِدْعٍ ، قاله أبو البقاء . وهذا على أَنْ يكونَ البِدْعُ مصدراً . والثاني : أَنَّ البِدْعَ بنفسِه صفةٌ على فِعْل بمعنى بديع كالخِفِّ والخَفيف . والبِدْعُ والبديعُ : ما لم يُرَ له مِثْلٌ ، وهو من الابتداع وهو الاختراعُ . أنشد قطرب :

4039ب فما أنا بِدْعٌ مِنْ حوادِثَ تَعْتَري . . . رجالاً عَرَتْ مِنْ بعدِ بُؤْسَى بأَسْعُدِ

(227/705)

وقرأ عكرمة وأبو حيوةَ وابنُ أبي عبلة " بِدَعاً " بفتح الدال جمع بِدْعة أي : ما كنتَ ذا بِدَع . وجَوَّز الزمخشري أَنْ يكونَ صفةً على فِعَل كـ " دِين قِيَم " و " لحم زِيَم " . قال الشيخ : "

ولم يُثْبِتْ سيبويه صفةً على فِعَل إلاَّ قوماً عِدَا ، وقد اسْتُدْرِك عليه " لحم زِيَم " أي : متفرق ، وهو صحيحٌ . فأمَّا " قِيَم " فمقصورٌ مِنْ قيام ، ولولا ذلك لصَحَّتْ عينُه كما صَحَّتْ في حِوَل وعِوَض . وأمَّا قولُ العربِ : " مكان سِوَىً " و " ماء رِوَىً " ورجل رِضَا وماء صِرَىً فمتأوَّلَةٌ عند التَّصْريفيّين " قلت : تأويلُها إمَّا بالمصدريَّة أو القَصْر كقِيَم في قيام .

وقرأ أبو حيوةَ أيضاً ومجاهد " بِدَع " بفتح الباء وكسر الدال وهو وصفٌ كحَذِر .

وقوله : " يُفْعَلُ " العامَّةُ على بنائه للمفعول . وابنُ أبي عبلة وزيد ابن علي مبنياً للفاعلِ أي : الله تعالى . والظاهرُ أنَّ " ما " في قولِه : ﴿ مَا يُفْعَلُ بِي ﴾ استفهاميةٌ مرفوعةٌ بالابتداءِ ، وما بعدها الخبرُ ، وهي معلِّقَةٌ لأَدْري عن العملِ ، فتكونُ سادَّةً مَسَدَّ مفعولَيْها . وجَوَّزَ الزمخشري أَنْ تكونَ موصولةً منصوبةً يعني أنها متعديةٌ لواحدٍ أي : لا أعْرِفُ الذي يفعلُه اللَّهُ تعالى .

قوله : ﴿ إِلاَّ مَا يوحى ﴾ العامَّةُ على بناء " يُوْحَى " للمفعول . وقرأ ابن عُمير بكسرِ الحاءِ على البناءِ للفاعلِ ، وهو اللَّهُ تعالى .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10)

قوله : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ ﴾ : مفعولاها محذوفان تقديره : أرأيتم حالَكم إنْ كان كذا أَلَسْتُمْ ظالمين/ ، وجوابُ الشرطِ أيضاً محذوفٌ تقديره : فقد ظَلَمْتُمْ ، ولهذا أتى بفعل الشرط ماضياً . وقَدَّره الزمخشريُّ : ألستُمْ ظالمين . ورَدَّ عليه الشيخ : " بأَنَّه لو كان كذلك لَوَجَبَتْ الفاءُ ؛ لأنَّ الجملةَ الاستفهامية متى وقعت جواباً للشرط لَزِمَتِ الفاءُ . ثم إنْ كانت أداةُ الاستفهامِ همزةً تقدَّمَتْ على الفاء نحو : " إنْ تَزُرْنا أفما نُكْرِمُك " ، وإنْ كانت غيرَها تقدَّمَتِ الفاءُ عليها ، نحو : إنْ تَزُرْنا فهل تَرى إلاَّ خيراً " . قلت : والزمخشريُّ ذكر أمراً تقديريّاً فَسَّر به المعنى لا الإعرابَ .

وقال ابن عطية : " وأَرَأَيْتُمْ تَحْتمل أن تكون مُنَبِّهةً ، فهي لفظٌ موضوعٌ للسؤالِ لا يَقْتضي مفعولاً ، وتحتمل أن تكونَ الجملةُ كان وما عملتْ فيه سادَّةً مَسَدَّ مفعولَيْها " . قال الشيخ : " وهذا خلافُ ما قَرَّره النحاة " . قلت : قد تقدَّم تحقيقُ ما قَرَّره . وقيل : جوابُ الشرطِ هو قولُه : " فآمَن واستكْبَرْتُمْ " وقيل : هو محذوفٌ تقديرُه : فَمَنْ المُحِقُّ منَّا والمُبْطِلُ . وقيل : فَمَنْ أَضَلُّ .

قوله : " وكَفَرْتُمْ به " الجملةُ حاليةٌ أي : وقد كَفَرْتُمْ . ومنهم من لا يُضْمِرُ " قد " في مثلِه .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (11)

قوله : ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ : يجوزُ أَنْ تكونَ لامَ العلة أي : لأجلِهم ، وأَنْ تكونَ للتبليغ ، ولو جَرَوْا على مقتضى الخطابِ لَقالوا : ما سَبَقْتُمونا ، ولكنهم التفَتُوا فقالوا : ما سَبَقُوْنا .

والضميرُ في "كان" وإليه عائدان على القرآن ، أو ما جاء به الرسولُ .

(229/705)

قوله : ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ ﴾ العامل في "إذْ" مقدرٌ أي : ظهر عِنادُهم وتَسَبَّب عنه قولُه : " فسَيقولون " . ولا يَعْمل في "إذ" "فسَيقولون" لتضادّ الزمانَيْنِ ولأجل الفاءِ أيضاً .

وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ (12)

قوله : ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ موسى ﴾ : العامَّةُ على كسر ميم "مِنْ" حرفَ جرٍّ . وهي مع مجرورِها خبرٌ مقدَّمٌ . والجملةُ حاليةٌ أو خبرٌ مستأنفٌ .

وقرأ الكلبيُّ بنصبِ "الكتابَ" تقديرُه : وأَنْزَلَ مِنْ قبلِه كتابَ موسى . وقُرِئ "ومَنْ" بفتح الميم "كتابَ موسى" بالنصبِ على أن "مَنْ" موصولةٌ ، وهي مفعولٌ أول لآتَيْنا مقدَّراً . وكتابَ موسى مفعولُه الثاني . أي : وآتَيْنا الذي قبلَه كتابَ موسى .

قوله : "إماماً ورَحْمَةً" حالان مِنْ "كتاب موسى" . وقيل : منصوبان بمقدرٍ أي : أَنْزَلْناه

إماماً . ولا حاجةَ إليه . وعلى كَوْنِهما حالَيْن هما منصوبان بما نُصِبَ به "مِنْ قبل" من الاستقرار .

قوله : "لِساناً" حالٌ مِن الضمير في "مُصَدّقٌ" . ويجوزُ أَنْ يكونَ حالاً مِنْ "كتاب" والعاملُ التنبيهُ ، أو معنى الإشارةِ و "عربيّاً" [صفةٌ] ل "لساناً" ، وهو المُسَوّغُ لوقوع هذا الجامد حالاً . [وجَوَّز أبو البقاء] أَنْ يكونَ مفعولاً به ناصبُهُ "مُصَدّقٌ" . وعلى هذا تكون الإشارةُ إلى غيرِ القرآنِ ؛ لأنَّ المرادَ باللسانِ العربيِّ القرآنُ وهو خلافُ الظاهر . وقيل : هو على حَذْفِ مضافٍ أي : مُصَدّقٌ ذا لسانٍ عربي ، وهو النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم . وقيل : هو على إسقاطِ حرفِ الجرِّ أي : بلسانٍ . وهو ضعيفٌ .

(230/705)

قوله : "لِيُنْذِرَ" متعلّقٌ بمصدّق . و "بُشْرَى" عطفٌ على محلّه . تقديره : للإنذار وللبشرى ، ولمَّا اختلف العلةُ والمعلولُ وَصَلَ العاملُ إليه باللامِ ، [وهذا فيمَنْ قرأ بتاء الخطابِ . فأمَّا مَنْ قرأ بياءِ الغَيْبة . وقد تقدَّم ذلك في يس فإنهما مُتَّحدان . وقيل : بُشْرى] عطفٌ على لفظ "لتنذِرَ" أي : فيكونُ مجروراً فقط . وقيل : هي مرفوعةٌ على خبرِ ابتداءٍ مضمرٍ . تقديرُه : هي بُشْرَى . وقيل : بل هي عطفٌ على "مُصَدّقٌ" وقيل :

هي منصوبةٌ بفعل مقدرٍ أي : وبَشّرِ بُشْرى . ونقل الشيخُ وجهَ النصبِ عطفاً على محلِّ " لتنذِرَ " عن الزمخشري وأبي البقاء . ثم قال : " وهذا لا يَصِحُّ على الصحيح من مذاهبِ النحويين لأنهم يَشْتَرِطون في الحَمْلِ على المَحَلِّ أَنْ يكونَ بحقِّ الأصالة ، وأَنْ يكونَ للموضعِ مُحْرِزٌ ، وهنا المحلُّ ليسَ بحقِّ الأصالة ، إذ الأصلُ في المفعولِ [له] الجرُّ ، والنصبُ ناشِئ عنه ، لكن لَمَّا كَثُرَ بالشروط المذكورةِ وَصَلَ إليه الفعلُ فنصبَه " انتهى .

قوله : " الأصلُ في المفعول له الجرُّ بالحرفِ " ممنوعٌ بدليل قولِ النَّحْويين : إنَّه يَنْصِبُ بشروطٍ ذكروها . ثم يقولون : ويجوزُ جرُّه بلامٍ ، فقولُهم " ويجوز " ظاهرٌ في أنه فرعٌ لا أصلٌ .

و " للمُحْسِنين " متعلقٌ ب " بُشْرَى " أو بمحذوفٍ على أنَّه صفةٌ لها .

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (13)

قوله : ﴿ فَلاَ خَوْفٌ ﴾ : الفاءُ زائدةٌ في خبرِ الموصولِ لما فيه من معنى الشرطِ ، ولم تمنَعْ " إنَّ " من ذلك لبقاءِ معنى الابتداء بخلاف " ليت " و " لعلَّ " و " كأن " .

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (14)

قوله : ﴿ خَالِدِينَ ﴾ : منصوبٌ على الحاليَّةِ . و " جزاءً " منصوب على المصدرِ : إمَّا بعاملٍ مضمرٍ أي : يُجْزَوْن جزاءً ، أو بما تقدَّم ؛ لأنَّ معنى أولئك أصحاب الجنة معنى جازَيْناهم بذلك .

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15)

(232/705)

قوله : ﴿ إِحْسَاناً ﴾ : قرأ الكوفيون " إحْساناً " وباقي السبعةِ " حُسْناً " بضمِّ الحاءِ وسكونِ السينِ ، فالقراءةُ الأولى يكون " إحساناً " فيها منصوباً بفعلٍ مقدَّرٍ أي : وَصَّيْناه أَنْ يُحْسِنَ إليهما إحساناً . وقيل : بل هو مفعولٌ به على تضمينِ وصَّيْنا معنى أَلْزَمْنا ، فيكونُ مفعولاً ثانياً . وقيل : بل هو منصوبٌ على المفعولِ به أي : وصَّيناه بهما إحساناً مِنَّا إليهما . وقيل : هو منصوبٌ على المصدرِ ؛ لأنَّ معنى وصَّيْنا : أَحْسَنَّا فهو مصدرٌ صريحٌ . والمفعولُ الثاني / هو المجرورُ بالباء . وقال ابن عطية : " إنها تتعلَّق : إمَّا بوَصَّيْنا ، وإمَّا

بإحساناً " . وردَّ الشيخُ : هذا الثاني بأنَّه مصدرٌ مؤوَّلٌ فلا يتقدَّم معمولُه عليه ، ولأن " أَحْسَنَ " لا يتعدَّى بالباء ، وإنما يتعدَّى باللامِ . لا تقول : " أحسَنْتُ بزيدٍ " على معنى وصول الإِحسان إليه . وقد ردَّ بعضُهم هذا بقولِه : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي ﴾ [يوسف : 100] وقيل : هو بغير هذا المعنى . وقدَّر بعضُهم : ووَصَّيْنا الإِنسانَ بوالدَيْه ذا إحسانٍ ، يعني فيكونُ حالاً . وأمَّا " حُسْناً " فقيل فيه ما تقدَّم في إحسان .

وقرأ عيسى والسُّلَمي " حَسَناً " بفتحِهما . وقد تقدَّمَ معنى القراءتَيْنِ في البقرة وفي لقمان .

قوله : " كُرْهاً " قد تَقَدَّم الخلافُ فيه في النساء . وله هما بمعنىً واحد أم لا ؟ وقال أبو حاتم : " الكَرْهُ بالفتح لا يَحْسُنُ لأنَّه بالفتح الغَصْبُ والغَلَبَةُ " . ولا يُلْتَفَتُ لِما قاله لتواترِ هذه القراءةِ . وانتصابُها : إمَّا على الحالِ من الفاعلِ أي : ذاتَ كُرْه . وإمَّا على النعت لمصدرٍ مقدرٍ أي : حَمْلاً كُرْهاً .

(233/705)

قوله : " وحَمْلُه " أي : مدةُ حَمْلِه . وقرأ العامَّةُ " فِصالُه " مصدر فاصَلَ ، كأنَّ الأمَّ فاصَلَتْهُ وهو فاصَلَها . والجحدري والحسن وقتادة " فَصْلُه " . قيل : والفَصْلُ والفِصال بمعنىً

كالفَطْمِ والفِطام ، والقَطْفِ والقِطاف . ولو نَصَب " ثلاثين " على الظرفِ الواقعِ موقعَ الخبرِ جاز ، وهو الأصلُ . هذا إذا لم نُقَدِّر مضافاً ، فإنْ قَدَّرْنا أي : مدةُ حَمْلِه لم يَجُزْ ذلك وتعيَّن الرفعُ ، لتصادُقِ الخبرِ والمُخْبَرِ عنه .

قوله : ﴿ حتى إذَا بَلَغَ ﴾ لابُدَّ مِنْ جملةٍ محذوفةٍ تكونُ " حتى " غايةً لها أي : عاش واستمرَّتْ حياتُه حتى إذا .

قوله : " أربعين " أي : تمامَها ف " أربعين " مفعولٌ به .

قوله : ﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذريتي ﴾ أَصْلَحَ يتعدَّى بنفسِه لقولِه : ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ [الأنبياء : 90] وإنما تعدَّى ب في لتضمُّنِه معنى الطُفْ بي في ذرِّيَتي ، أو لأنه جَعَلَ الذرِّيَة ظرفاً للصَّلاح كقولِه :

4040 . . . . . .

. . . . . يَجْرَحُ في عَراقيبها نَصْلي

أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (16)

قوله : ﴿ نَتَقَبَّلُ ﴾ : قرأ الأخوان وحفص " نَتَقَبَّلُ " بفتح النون مبنيَّاً للفاعلِ ونصبِ " أَحْسَنَ " على المفعول به ، وكذلك " ونتجاوَزُ " . والباقون ببنائِهما للمفعولِ ورفع " أحسنُ

" لقيامِه مقام الفاعل ومكانَ النونِ ياءٌ مضمومةٌ في الفعلَيْن . والحسنُ والأعمش وعيسى بالياء منْ تحتُ ، والفاعلُ اللَّهُ تعالى .

(234/705)

قوله : ﴿ فِي أَصْحَابِ الجنة ﴾ فيه أوجه ، أحدُها : - وهو الظاهر - أنَّه في محلِّ حالٍ أي : كائنين في جملةِ أصحابِ الجنة كقولِك : أكرَمَني الأميرُ في أصحابِه ، أي : في جملتهم . والثاني : أن " في " بمعنى " مع " . والثالث : أنها خبرُ مبتدأ مضمرٍ أي : هم في أصحاب الجنة .

قوله : " وَعْدَ الصدقِ " مصدرٌ مؤكِّد لمضمونِ الجملةِ السابقة ؛ لأنَّ قولَه ﴿ أولئك الذين نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ ﴾ في معنى الوعد .

وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17)

قوله : ﴿ أُفٍّ ﴾ : قد تقدَّم الكلامُ على " أُفّ " مستوفى و " لكما " بيانٌ أي : التأفيفُ لكما نحو : ﴿ هَيْتَ ﴾ [يوسف : 23] .

قوله : " أَتَعِدانِني " العامَّةُ على نونَيْن مكسورتَيْن : الأولى للرفع والثانية للوقاية ، وهشام

بالإِدغام ، ونافع في روايةٍ بنونٍ واحدة . وهذه مُشَبَّهةٌ بقوله : ﴿ تأمروني أَعْبُدُ ﴾ [الزمر : 64] . وقرأ الحسن وشيبة وأبو جعفر وعبد الوارث عن أبي عمرو بفتح النون الأولى ، كأَنَّهم فَرُّوا مِنْ توالي مِثْلَيْنِ مكسورَيْن بعدهما ياءٌ . وقال أبو البقاء : " وهي لغةٌ شاذَّةٌ في فتح نون الاثنين " قلت : إنْ عَنَى نونَ الاثنين في الأسماءِ نحو قولِه :

4041 على أَحْوَذِيَّيْنَ اسْتَقَلَّتْ . . . . . .

. . . . . .

فليس هذا منه . وإن عَنَى في الفعلِ فلم يَثْبُتْ ذلك لغةً ، وإنَّما الفتحُ هنا لِما ذَكَرْتُ .

قوله : " أَنْ أُخْرَجَ " هو الموعودُ به ، فيجوز أَنْ تُقَدِّرَ الباءَ قبل " أَنْ " وأَنْ لا تُقَدِّرَها .

(235/705)

قوله : " وقد خَلَتْ " جملةٌ حاليةٌ . وكذلك ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللهَ ﴾ أي : يَسْأَلان اللَّهَ . واستغاث يتعدَّى بنفسِه تارةً وبالباء أخرى ، وإن كان ابنُ مالكٍ زعمَ أَنَّه متعدٍّ بنفسِه فقط ، وعابَ قولَ النحاةِ " مستغاث به " قلت : لكنه لم يَرِدْ في القرآن إلاَّ متعدِّيًا بنفسِه : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ [الأنفال : 9] ﴿ فاستغاثه الذي ﴾ [القصص : 15] ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ ﴾ [الكهف : 29] قوله : " وَيْلَكَ " منصوبٌ على المصدرِ بفعلٍ مُلاقٍ له

في المعنى دونَ الاشتقاقِ . ومثله : وَيْحَه ووَيْسَه ووَيْبَه ، وإمَّا على المفعولِ به بتقدير : ألزمَك الله وَيْلَكَ . وعلى كلا التقديرَيْن الجملةُ معمولةٌ لقولٍ مقدرٍ أي : يقولان وَيْلَكَ آمِنْ . والقولُ في محلِّ نصب على الحال أي : يَسْتغيثان اللَّهَ قائلين ذلك .

قوله : ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾ العامةُ على كسرِ "إنَّ" / استئنافاً أو تعليلاً . وقرأ عمرو بن فائد والأعرج بفتحِها على أنها معمولةٌ لـ آمِنْ على حَذْفِ الباءِ أي : آمِنْ بأنَّ وَعْدَ اللَّهِ حقٌّ .

أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (18)

قوله : ﴿ فِي أُمَمٍ ﴾ : كقوله : ﴿ فِي أَصْحَابِ الجنة ﴾ [الأحقاف : 16] .

وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (19)

قوله : ﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ ﴾ : مُعَلَّلُهُ محذوفٌ تقديرُه : جازاهم بذلك . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصمٌ وهشامٌ بالياء مِنْ تحتُ . وباقي السبعة بالنونِ . والسُّلمي بالتاءِ مِنْ فوقُ أَسْنَدَ التوفيةَ للدرجات مجازاً .

قوله : ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ : إمَّا استئنافٌ ، وإمَّا حالٌ مؤكِّدة .

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (20)

قوله : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ﴾ : اليومَ منصوبٌ بقولٍ مقدرٍ أي : يُقال لهم : أَذْهَبْتُمْ في يومِ عَرْضِهم . وجَعَل الزمخشريُّ هذا مثل " عَرَضْتُ الناقةَ على الحوضِ " فيكونُ قَلْباً . ورَدَّه الشيخُ : بأنه ضرورةٌ . وأيضاً العَرْضُ أمرٌ نسبيٌّ فتصِحُّ نسبتُه إلى الناقةِ وإلى الحوضِ . وقد تقدَّم الكلامُ في القلبِ ، وأنَّ فيه ثلاثةَ مذاهبَ .

قوله : " أَذْهَبْتُم " قرأ ابن كثير " أَأَذْهَبْتُمْ " بهمزتَيْن : الأولى مخففةٌ ، والثانيةُ مُسَهَّلَةٌ بينَ بينَ ، ولم يُدْخِلْ بينهما ألفاً ، وهذا على قاعدتِه في ﴿ أَأَنذَرْتَهُمْ ﴾ [البقرة : 6] ونحوِه . وابنُ عامرٍ قرأ أيضاً بهمزتَيْن ، لكن اختلفَ راوياه عنه : فهشام سَهَّل الثانيةَ وخَفَّفَها ، وأدخل ألفاً في الوجهيْن ، وليس على أصلِه فإنه من أهلِ التحقيق . وابنُ ذكوان بالتحقيقِ فقط دونَ إدخالِ ألفٍ . والباقون بهمزةٍ واحدةٍ فيكونُ : إمَّا خبراً ، وإمَّا استفهاماً ، فأُسْقِطَتْ أداتُه للدلالةِ عليها ، والاستفهامُ معناه التقريعُ والتوبيخُ .

قوله : " في حياتِكم " يجوز تَعَلُّقُه ب " أَذْهَبْتُمْ " ويجوز تعلُّقُه بمحذوفٍ على أنَّه حالٌ مِنْ " طيباتكم " .

وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21)

(237/705)

قوله: ﴿ إِذْ أَنذَرَ ﴾: بدلٌ مِنْ "أَخا" بدلُ اشتمالٍ، وتقدَّم تحقيقُه. والأَحْقافُ: جمعُ حِقْف وهو الرَّمْلُ المستطيلُ المِعْوَجُّ ومنه "احْقَوْقَفَ الهِلالُ" قال امرؤ القيس:

4042 فلمَّا أَجَزْنا ساحةَ الحيِّ وانتحى . . . بنا بَطْنُ حِقْفٍ ذي قِفافٍ عَقَنْقَلِ

قوله: "وقد خَلَتْ" يجوزُ أَنْ يكونَ حالاً مِن الفاعل أو من المفعول، والرابطُ الواوُ. والنُّذُر جمعُ نَذير. ويجوزُ أَنْ تكونَ معترضةً بين "أَنْذَرَ" وبين ﴿ أَلَّا تعبدوا ﴾ أي: أَنْذَرهم بأَنْ لا.

فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (24)

قوله: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً ﴾: في هاء "رَأَوْه" قولان، أحدهما: أنه عائدٌ على "ما تَعِدُنا". والثاني: أنه ضميرٌ مُبْهَمٌ يُفَسِّرُه "عارضاً": إمَّا تمييزاً أو حالاً، قالهما الزمخشريُّ. وردَّه الشيخُ: بأنَّ التمييزَ المفسِّرَ للضميرِ محصورٌ في باب: رُبَّ وفي نِعْمَ وبِئْس

، وبأنَّ الحالَ لم يَعْهَدُوها أَنْ تُوَضِّحَ الضميرَ قبلها ، وأنَّ النَّحْويين لا يَعْرفون ذلك .

قوله : " مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهم " صفةٌ ل " عارِضاً " وإضافتُه غيرُ مَحْضةٍ ، فمِنْ ثَمَّ ساغ أَنْ يكونَ نعتاً لنكرةٍ وكذلك " مُمْطِرُنا " وقع نعتاً ل " عارِض " ومثله :

4043 يا رُبَّ غابِطِنا لو كان يَطْلُبُكُمْ . . . لاقى مباعَدَةً منكم وحِرْمانا

والعارِضُ : المُعْتَرِضُ من السحاب في الجوِّ . قال :

4044 يا مَنْ رَأَى عارِضاً أَرِقْتُ له . . . بين ذراعَيْ وجَبْهَةِ الأَسَدِ

وقد تقدَّم : أَنَّ أَوْدِيَة جمعُ " وادٍ " ، وأنَّ أَفْعِلة شذَّتْ جمعاً ل فاعِل في ألفاظٍ : كوادٍ وأَوْدِيَة ، ونادٍ وأَنْدِية ، وجائِز وأَجْوِزة .

(238/705)

قوله : " ريحٌ " يجوز أَنْ يكونَ خبرَ مبتدأ مضمرٍ أي : هو ريحٌ . ويجوز أَنْ يكونَ بدلاً مِنْ " هو " . وقُرِئ " ما استُعْجِلْتُمْ " مبنياً للمفعول " وفيها عذابٌ " صفةٌ ل " ريحٌ " وكذلك " تُدَمِّرُ " . وقُرِئ ﴿ يَدْمُرُ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ بالياءِ من تحتُ وسكونِ الدال وضمِّ الميم " كلُّ " بالرفع على الفاعلية أي : يهلك كلُّ شيء . وزيد بن علي كذلك إلاَّ أنه بالتاءِ مِنْ فوقُ ونصبِ " كلَّ " ، والفاعلُ ضميرُ الريح ، وعلى هذا فيكون دَمَّر الثلاثي لازِماً ومتعدياً .

تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (25)

قوله : ﴿ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ﴾ : قرأ حمزةُ وعاصم " لا يُرَى " بضمِّ الياءِ مِنْ تحتُ مبنياً للمفعولِ ، " مَسَاكُنُهم " بالرفع لقيامِه مقامَ الفاعلِ . والباقون من السبعةِ بفتح تاءِ الخطاب " مَساكنَهم " بالنصب مفعولاً به . والجحدريُّ والأعمش وابنُ أبي إسحاقَ والسُّلميُّ وأبو رجاءٍ بضمِّ التاءِ مِنْ فوقُ مبنياً للمفعول . " مساكُنهم " بالرفع لقيامِه مقامَ الفاعل ، إلاَّ أنَّ هذا عند الجمهور لا يجوزُ ، أعني إذا كان الفاصلُ " إلاَّ " فإنه يمتنع لَحاقُ علامةِ التأنيثِ في الفعل إلاَّ في ضرورةٍ كقولِه : /

4045 . . . . . وما بَقِيَتْ إلاَّ

الضلوعُ الجراشِعُ

وقول الآخر :

4046 كأنه جَمَلٌ هَمٌّ وما بَقِيَتْ . . . إلاَّ التَحِيزةُ والألواحُ والعَصَبُ

وعيسى الهمداني " لا يُرى " بالياء مِنْ تحتُ مبنياً للمفعول ، " مَسْكَنُهم " بالتوحيد .

ونصر بن عاصم بتاء الخطاب " مَسْكَنَهم " بالتوحيد أيضاً منصوباً ، واجتُزِئ بالواحد عن الجمع .

وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (26)

قوله: ﴿ مَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾ : " ما " موصولةٌ أو موصوفةٌ . وفي " إنْ " ثلاثةُ أوجهٍ : شرطية وجوابُها محذوفٌ . والجملةُ الشرطيةُ صلةُ ما والتقديرُ : في الذي إنْ مَكَّنَّاكم فيه طَغَيْتُم . والثاني : أنها مزيدةٌ تشبيهاً للموصولةِ ب " ما " النافيةِ والتوقيتيةِ . وهو كقوله :

4047 يُرَجِّي المرءُ ما إنْ لا يَراهُ . . . وتَعرِضُ دونَ أَدْناه الخُطوبُ

والثالث : – وهو الصحيحُ – أنها نافيةٌ بمعنى : مَكَّنَّاهم في الذي ما مكَّنَّاكم فيه من القوةِ والبَسْطَةِ وسَعَةِ الأرزاق . ويدلُّ له قولُه تعالى في مواضعَ : ﴿ كانوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [الروم : 9] وأمثالِه . وإنما عَدَلَ عن لفظِ " ما " النافية إلى " إنْ " كراهيةً لاجتماعِ متماثلَيْن لفظاً . قال الزمخشري : " وقد أَغَثَّ أبو الطيبِ في قولِه :

4048 لَعَمْرُكَ ما ما بانَ منكِ لِضاربٍ . . . . . .

. . . . .

وما ضَرَّه لو اقتدى بعُذوبة لفظِ التنزيل فقال : " ما إنْ بانَ منك " .

قوله : " فما أَغْنَى " يجوزُ أَنْ تكونَ " ما " نفياً ، وهو الظاهرُ أو استفهاماً للتقرير .

واستبعده الشيخُ لأجْلِ قولِه : " مِنْ شيء " قال : " إذ يصيرُ التقديرُ : أيُّ شيء أغنى عنهم مِنْ شيءٍ ، فزاد " مِنْ " في الواجب ، وهو لا يجوزُ على الصحيح " . قلت : قالوا تجوزُ زيادتُها في غيرِ الموجَبِ وفَسَّروا غيرِ الموجَبِ بالنفيِ والنهيِ والاستفهامِ ، وهذا استفهامٌ .

(240/705)

قوله : " إذ كانوا " معمولٌ ل " أَغْنى " وهي مُشْرَبَةٌ معنى التعليلِ أي : لأنهم كانوا يَجْحَدُون .

فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (28)

قوله : ﴿ قُرْبَانًا آلِهَةً ﴾ : فيه أربعةُ أوجهٍ ، أوجَهُها : أنَّ المفعولَ الأولَ ل " اتَّخذوا " محذوفٌ هو عائدُ الموصولِ . " وقُرْبانًا " نُصِبَ على الحال و " آلهةً " هو المفعولُ الثاني للاتخاذ . والتقدير : فهَلاَّ نَصَرهم الذين اتَّخَذُوْهم مُتَقَرَّبًا بهم آلهةً . الثاني : أنَّ المفعولَ الأولَ محذوفٌ ، كما تقدَّم تقريرُه ، و " قُرْبانًا " مفعولاً ثانياً و " آلهةً " بدلٌ منه . وإليه نحا ابنُ عطية والحوفيُّ وأبو البقاء . إلاَّ أنَّ الزمخشريَّ مَنَعَ هذا الوجهَ قال : " لفسادِ المعنى " ، ولم يُبَيِّنْ جهةَ الفساد . قال الشيخ : " ويَظْهَرُ أنَّ المعنى صحيحٌ على ذلك الإعراب " قلت :

ووجهُ الفسادِ – واللَّهُ أعلم – أنَّ القُرْبان اسمٌ لما يُتَقَرَّبُ به إلى الإله ، فلو جَعَلْناه مفعولاً ثانياً ، وآلهةً بدلاً منه لَزِمَ أَنْ يكونَ الشيءُ المتقرَّبُ به آلهةً ، والفَرَضُ أنه غيرُ الآلهةِ ، بل هو شيءٌ يُتَقَرَّب به إليها فهو غيرُها ، فكيف تكون الآلهةُ بدلاً منه ؟ هذا ما لا يجوزُ . الثالثُ : أنَّ " قُرْباناً " مفعولٌ مِنْ أجلِه ، وعزاه الشيخُ للحوفيِّ . قلت : وإليه ذهب أبو البقاء أيضاً ، وعلى هذا ف " آلهةً " مفعول ثانٍ والأولُ محذوفٌ كما تقدَّم . الرابع : أَنْ يكونَ مصدراً ، نقله مكيٌّ . ولولا أنَّه ذكر وجهاً ثانياً وهو المفعولُ مِنْ أجلِه لأوَّلْتُ كلامَه : أنَّه أراد بالمصدرِ المفعولَ مِنْ أجلِهِ لبُعْدِ معنى المصدر .

(241/705)

قوله : " إفْكُهم " العامَّةُ على كسرِ الهمزةِ وسكونِ الفاءِ ، مصدرُ أَفَكَ يَأْفِك إفْكاً أي : كَذِبُهم . وابن عباس بالفتح وهو مصدرٌ له أيضاً . وابنُ عباس أيضاً وعكرمة والصباح بن العلاء " أَفَكَهُمْ " بثلاثِ فتحات فعلاً ماضياً . أي : صَرَفَهم . وأبو عياض وعكرمةُ أيضاً ، كذلك إلاَّ أنَّه بتشديد الفاءِ للتكثير . وابن الزبير وابن عباس أيضاً " آفَكَهم " بالمدِّ فعلاً ماضياً أيضاً ، وهو يحتمل أَنْ يكونَ بزنةِ فاعَلَ ، فالهمزةُ أصليةٌ ، وأَنْ يكونَ بزنةِ أَفْعَل ، فالهمزةُ زائدةٌ والثانيةُ بدلٌ مِنْ همزةٍ . وإذا قلنا : إنه أَفْعَلَ فهمزتُه تحتمل أَنْ تكونَ للتعديةِ ،

وأَنْ يكونَ أَفْعَلَ بمعنى المجرد . وابنُ عباس أيضاً : "آفِكُهم" بالمدِّ وكسرِ الفاءِ ورَفْعِ الكافِ ، جعله اسمَ فاعلٍ بمعنى صارِفهم . وقُرِئ "أَفَكُهم" بفتحتين ورفعِ الكافِ على أنَّه مصدرٌ لأَفَكَ أيضاً فتكونُ له ثلاثةُ مصادرَ : الأَفْكُ والإِفْكُ بفتح الهمزة وكسرها مع سكون الفاء وفتح الهمزة والفاء . وزاد أبو البقاء أنه قُرِئ "آفَكُهم" بالمدِّ وفتحِ الفاءِ ورفعِ الكافِ . قال : "بمعنى أَكْذَبُهم" فجعله أَفْعَلَ تفضيلٍ .

قوله : ﴿ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ / يجوز أَنْ تكونَ "ما" مصدريةً وهو الأحسنُ لِيُعْطَفَ على مثلِه ، وأَنْ تكونَ بمعنى الذي ، والعائدُ محذوفٌ أي : يَفْتَرُونه . والمصدرُ مِنْ قولِه : "إِفْكُهم" يجوز أَنْ يكونَ مضافاً إلى الفاعلِ بمعنى كَذِبهم ، وإلى المفعول بمعنى صَرْفِهم .

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (29)

(242/705)

قوله : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ ﴾ : منصوبٌ بـ اذْكُرْ مقدَّراً . وقُرِئ "صَرَّفْنا" بالتشديدِ للتكثيرِ . "من الجنِّ" صفةٌ لـ "نَفَراً" ، ويجوز أَنْ يتعلَّقَ بـ "صَرَفْنا" ، و "مِنْ" لابتداءِ الغايةِ .

قوله : "يَسْتَمِعُون" صفةٌ أيضاً لـ "نَفَراً" أو حالٌ لتخصُّصِه بالصفةِ ، إنْ قلنا : إنَّ "مِنَ الجنِّ

" صفةٌ له ، وراعى معنى النَّفر ، فأعاد عليه الضميرَ جمعاً ، ولو راعَى لفظَه وقال : " يَسْتمع " لَجاز .

قوله : " فلَمَّا حَضَرُوْه " يجوز أَنْ تكونَ الهاءُ للقرآنِ ، وهو الظاهرُ ، وأَنْ تكونَ للرسولِ عليه السلام ، وحينئذٍ يكونُ في الكلام التفاتٌ مِنْ قولِه : " إليك " إلى الغَيْبَةِ في قولِه : " حَضَرُوه " .

قوله : " قُضِي " العامَّةُ على بنائِه للمفعولِ أي : فَرَغَ [مِنْ] قراءةِ القرآنِ ، وهو يُؤَيِّدُ عَوْدَ هاء " حَضَروه " على القرآن . وأبو مجلز . وحبيب بن عبد الله " قَضَى " مبنياً للفاعلِ أي : أَتَمَّ الرسولُ قراءتَه ، وهي تؤيِّدُ عَوْدَها على الرسولِ عليه السلام .

يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (31)

قوله : ﴿ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ : يجوز أَنْ تكونَ تبعيضيَّةً ، وأن تكونَ مزيدةً عند مَنْ يرى ذلك .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (33)

قوله : ﴿ وَلَمْ يَعْيَ ﴾ : العامَّةُ على سكونِ العينِ وفتحِ الياءِ مضارعَ عَيِيَ بالكسر يَعْيا بالفتحِ ، فلمَّا دَخَلَ الجازمُ حَذَفَ الألفَ . وقرأ الحسن "يَعِيْ" بكسر العين وسكون الياءِ . قالوا : وأصلُها عَيِيَ بالكسرِ ، فجعلَ الكسرةَ فتحةً على لغةِ طَيِّئ فصارَ "عَيا" كما قالوا في بَقِيَ : بَقَا . ولَمَّا بُني الماضي على فَعَلَ بالفتح جاء بمضارعِه على يَفْعِل بالكسرِ ، فصار يَعْيِي مثل : يَرْمي . فلمَّا دَخَلَ الجازمُ حَذَفَ الياءَ الثانيةَ فصار "لم يَعْيِ" بعين ساكنة وياء مكسورة ثم نَقَلَ حركةَ الياءِ إلى العينِ فصار اللفظُ كما ترى . وقد تَقَدَّمَ أن عَيِيَ وحَيِي فيهما لغتان : الفكُّ والإدغامُ ، فأمَّا "حِيِي" فتقدَّمَ في الأنفال . وعَيَّ فكقولِه :

4049 عَيُّوا بأَمْرِهِمُ كما . . . عَيَّتْ ببَيْضَتِها الحمَامَهْ

والعِيُّ : عَدَمُ الاهتداءِ إلى جهةٍ . ومنه العِيُّ في الكلامِ ، وعيِيَ بالأمرِ : إذا لم يَهْتَدِ لوَجْهه .

قوله : "بقادرٍ" الباءُ زائدةٌ . وحَسَّنَ زيادتَها كونُ الكلامِ في قوةِ "أليسَ اللَّهُ بقادرٍ" وقاس الزجَّاجُ "ما ظَنَنْتُ أنَّ أحداً بقائمٍ" عليها ، والصحيحُ التوقُّفُ . وقرأ عيسى وزيد بن علي والجحدريُّ "يَقْدِرُ" مضارعَ قَدَرَ ، والرسمُ يَحْتَمِلُه . وقوله : "بلى" إيجابٌ لما تضمَّنَه الكلامُ مِن النفي في قولِه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ .

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (34)

قوله : ﴿ أَلَيْسَ هذا ﴾ : معمولٌ لقولٍ مضمرٍ هو حالٌ ، كما تقدَّمَ في نظيرِه .

فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (35)

قوله: ﴿ فاصبر ﴾: الفاءُ عاطفةٌ هذه الجملةَ على ما تقدَّمَ، والسببيَّةُ فيها ظاهرةٌ.

قوله: "من الرسُل" يجوز أَنْ تكونَ تبعيضيَّةً، وعلى هذا فالرسل أُولو عَزْمٍ وغيرُ أُولي عَزْمٍ. ويجوز أَنْ تكونَ للبيانِ، فكلُّهم على هذا أُوْلو عَزْم.

قوله: "بلاغٌ" العامَّةُ على رَفْعِه. وفيه وجهان، أحدهما: أَنَّه خبرُ مبتدأ محذوفٍ، فقدَّره بعضُهم: تلك الساعةُ بلاغٌ، لدلالةِ قولِه: ﴿ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾ وقيل: تقديرُه هذا أي: القرآن والشرعُ بلاغٌ. والثاني: أَنَّه مبتدأٌ، والخبرُ قولُه: "لهم" الواقعُ بعد قولِه: "ولا تَسْتَعْجِلْ" أي: لهم بلاغٌ، فيُوْقَفُ على "فلا تَسْتعجل". وهو ضعيفٌ جداً للفصلِ بالجملةِ التشبيهية، لأنَّ الظاهرَ تَعَلُّقُ "لهم" بالاستعجال، فهو يُشْبه التهيئةَ والقطعَ. وقرأ زيد بن علي والحسن وعيسى "بلاغاً" نصباً على المصدرِ أي: بَلَغَ بلاغاً، ويؤيِّده قراءةُ أبي مجلز "بَلِّغْ" أمراً. وقرأ أيضاً "بَلَغَ" فعلاً ماضياً.

ويُؤْخَذُ مِنْ كلامِ مكيّ أنه يجوز نصبُه نعتاً لـ "ساعةً" فإنه قال: "ولو قُرِئ "بلاغاً"

بالنصبِ على المصدر أو على النعتِ ل " ساعةً " جاز " . قلت : قد قُرِئ به وكأنه لم يَطَّلِعْ على ذلك .

وقرأ " الحسن " أيضاً " بلاغ " بالجرِّ . وخُرِّجَ على الوصف ل " نهار " على حَذْفِ مضافٍ أي : مِنْ نَهارٍ ذي بلاغ ، أو وُصِف الزمانُ بالبلاغ مبالغةً .

(245/705)

قوله : " يُهْلَكُ " العامَّةُ على بنائِه للمفعولِ . وابن محيصن " يَهْلِك " بفتح الياء وكسرِ اللام مبنياً للفاعل . وعنه أيضاً فتحُ اللامِ وهي لغةٌ . والماضي هلِكَ بالكسر . قال ابن جني : " كلٌّ مرغوبٌ عنها " . وزيد بن ثابت بضمِّ الياءِ وكسرِ اللام/ والفاعلُ اللَّهُ تعالى . " القومَ الفاسقين " نصباً على المفعولِ به . و " نُهْلك " بالنون ونصب " القوم " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 682.659 ﴾

(246/705)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة الأحقاف

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " كلمة للقولب سالبة ، للعقول غالبة ، للمطيعين واهبة ، للعارفين ناهية ، فالذين يهبهم فلهم لطفه ، والذين ينهبهم فمن محقه فهو عنه خلفه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ حم تَنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ ﴾ .

حَمَيْتُ قلوبَ أهلِ عنايتي فَصَرَفْتُ عنها خواطرَ التجويز ، وَثَبَّتُها في مشاهدِ اليقينِ بنور التحقيق ؛ فلاحت فيها شواهدُ البرهان ، فأَضَفْنا إليها لطائفَ الإحسان ؛ فكَمُلَ منالُها من عين الوصلة ، وغذيناهم بنسيم الأُنس في ساحات القربة .

﴿ الْعَزِيزِ ﴾ : المُعزّ للمؤمنين بإنزال الكتاب عليهم .

﴿ الْحَكِيم ﴾ ، المُحْكِم لكتابه عن التبديل والتحويل .

قوله جلّ ذكره : ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ﴾ .

الكافرون مُعْرِضُون عن موضع الإنذار ، مقيمون على حَدّ الإصرار .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ

شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

أروني . . أي أثر فيهم في الملك ، أو القدرة على النفع والضر ؟ إن كانت لكم حُجَّةٌ فأَظْهِرُوها ، أو دلالة فبَيِّنوها . . وإذا قد عَجَزْتُم عن ذلك فهلاَّ رجعتم عن غيْكم وأقلعتم ؟

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ اللّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ .

مَنْ أشدُّ ضلالاً مِمَّنْ عَبَدَ الجمادَ الذي ليس له حياة ولا له في النفع أو الضر إثبات ؟ .

(247/705)

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ .

إذا حُشِرَ الناسُ للحساب وقعت العداوةُ بين الأصنام وعابديها .

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (7)

رموا رُسُلَنا بالسِّحر ثم بالافتراء والمكر . . قُلْ – يا محمد – كفى بالله بيني وبينكم شهيداً ؛ أنتم أشركتم به ، وأنا أخلصت له توحيداً . وما كنت بدعاً من الرسل ؛ فلستُ بأول رسولٍ أُرْسِل ، ولا بغيرما جاءوا به من أصول التوحيد جئتُ ، إنما أمرتكم بالإخلاص في

التوحيد ، والصدقِ في العبودية ، والدعاءِ إلى محاسن الأخلاق .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

وهذا قبل أن نزل قوله تعالى : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ (1) [الفتح : 2] .

وفي الآية دليلٌ على فساد قول أهل القَدَرِ والبدعِ حيث قالوا : " إيلامُ البريء قبيحٌ في العقل " . لأنه لو لم يَجُزْ ذلك لكان يقول : أَعْلَمُ – قطعاً – أني رسول الله ، وأني معصومٌ . . . فلا محالةَ يغفر لي ، ولكنه قال : وما أدري ما يُفْعَلُ بي ولا بكم ؛ لِيُعْلَمَ أن الأمرَ أمرُه ، والحكمَ حكمُه ، وله أن يفعلَ بعباده ما يريد . (2)

قوله جلّ ذكره : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَاءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَئَامَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ . (3)

تبيَّنَ له أنه لا عُذْرَ لهم بحال ، ولا أمانَ لهم من عقوبةِ الله . وما يستروحون إليه من حُجَجِهم عند انفسهم كلُّها – في التحقيق – باطلٌ .

---

(1) آية (2) سورة الفتح وبنزولها نسخت هذه الآية ، وزال فرح المشركين واليهود والمنافقين الذين كانوا يقولون : كيف نتبع نبيا لا يدرى ما يفعل به ولا بنا وأنه لا فضل له علينا ، ولو لا أنه ابتدع الذي يقوله من تلقاء نفسه لأخبره الذي بعثه بما يفعل به – وبنزول هذه الآية

أرغم اللّه أنوفهم ، وقالت الصحابة : هنيئا لك يا رسول اللّه ! وهنيئا لنا ! [. . . . .]

(2) القشيري ينكر أن يذهب البشر إلى التماس تعليلات للأفعال الإلهية لأن أفعال اللّه سبحانه لا تخضع للأغراض ، فهو لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، فهو يعود بالأمر كله إلى الحكمة والإرادة الإلهيتين ، وطالما هما في غير نطاق الإنسانية فلا ينبغي إخضاعهما للمفاهيم الإنسانية من حسن وقبح ، وخير وشر لأن هذه المفاهيم متأثرة بالمصلحة والغرض . . واللّه منزه عن ذلك ، فله أن يفعل بعباده ما يشاء ، وإذا كان رب الأسرة لا يقودها إلا إلى الخير فما ظنك برب البرية وخالق كل شيء ؟ !

(3) هو عبد اللّه بن سلام عند الجمهور ، ولهذا قيل إن هذه الآية مدنية لأن إسلامه كان بالمدينة . وروى أنه سأل النبي عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي : ما أول أشراط الساعة وما أول طعام يأكله أهل الجنة ، وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه . ؟ فقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) : أول أشراط الساعة نار تحشرهم من المشرق إلى المغرب ، وأول طعام أهل الجنة زيادة كبد حوت ، وأما الولد فاذا سبق ماء الرجل نزعه وإن سبق ماء المرأة نزعته . فقال : أشهد أنك رسول اللّه حقا . (صحيح البخاري ح 2 ص 226) .

وأخبر أن الكفار قالوا : لو كان هذا الذي يقوله من الحشر والنشر حقّاً لم تتقاصر رتبتُنا عند الله عن رتبة أحدٍ ، ولتَقَدَّمنا – في الاستحقاق – على الكُلِّ . ولمَّا لم يجدوا لهذا القول دليلاً صرَّحوا :

﴿ فَسَيَقُولُونَ هَذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ .

ولقد بَعَثَ اللَّهُ أنبياءَه – عليهم السلام – وأنزل عليهم الكتب ، وبيَّنَ في كلِّ كتابٍ ، وعلى لسانِ كلِّ رسولٍ بأنه يبعث محمداً رسولاً ، ولكن القومَ الذين في عصر نبيِّنا – صلى الله عليه وسلم – كتموه ، وحسدوه .

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (13)

مضى تفسيرُ الاستقامة . وإنَّ مَنْ خرج على الإيمان والاستقامة حَظِيَ بكلِّ كرامة ، ووصل إلى جزيل السلامة .

وقيل : السين في " الاستقامة " سين الطَّلَب ؛ وإن المستقيم هو الذي يبتهل إلى الله تعالى في أن يُقيمَه على الحق ، ويُثَبِّتُه على الصدق .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً ﴾ .

أَمَرَ الإنسانَ برعاية حقِّ والديه على الاحترام ، لما لهما عليه من حق التربية والإنعام ، وإذا لم يُحْسِنْ الإنسانُ حُرْمةَ مَنْ هو مِنْ جنسه فهو عن حُسْنِ مراعاة سِّده أبعد . ولو لم يكن في

هذا الباب إلا قوله – صلى الله عليه سلم : " رضا الرب من رضا الوالدين وسخطه في سخطهما " لكان ذلك كافياً . ورعايةُ حق الوالد من حيث الاحترام ، ورعاية حق الأم من حيث الشفقة والإكرام . ووَعَدَ الوالدين قبولَ الطاعة بقوله جلَّ ذكره :

(249/705)

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُواْ يُوْعَدُونَ ﴾ .

فقبولُ الطاعةِ وغفران الزَّلَّة مشروطان ببرِّ الوالدين ، وقد ذمَّ اللَّهُ – سبحانه – الذي يتصف في حقهما بالتأفُّفِ ، وفي ذلك تنبيهٌ على ما وراء ذلك من أي تعنُّف ، وعلى أنَّ الذي يَسْلكُ ذلك يكونُ من أهل الخسران ، وبالتالي يكون ناقصَ الإيمان .

وسبيلُ العبدِ في رعاية حق الوالدين أن يُصْلِح ما بينه وبين الله ، فحينئذٍ يَصْلُحُ ما بينه وبين غيره – على العموم ، وأهله – على الخصوص .

وشَرُّ خصَال الولد في رعاية حق والديه أَنْ يتبرَّم بطول حياتهما ، ويتأذَّى بما يحفظ من حقهما . وعن قريب يموت الأصلُ ويبقى النسلُ ، ولا بدَّ من أن يتبع النسلُ الأصلَ ، وقد قالوا في هذا المعنى :

رويدك إن الدهر فيه كفايةٌ . . . لتفريق ذات البيْن . . فانتظر الدهرا

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (20)

سبيلُ العبد ألا ينسى في كل حالٍ معبودَه ، وأَنْ يتذكرَ أنه معه في همّه وسروره ، وفي مناجاته عند رخائه وبلائه . فإن اتفق أَنْ حَصَلَ له أُنْسٌ ، وغَلَبَ عليه رجاءٌ وبسطٌ ثم هجم على قلبه قَبْضٌ أو مَسّهُ خوف . . فليخاطبْ ربَّه حتى لا يكونَ من جملة مَنْ قيل له : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ .

(250/705)

وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21)

أخبر بالشرحِ عن قصة هود وقومه عاد وما جرى بينهم من الخطاب ، وتوجّه عليهم من العتاب ، وأَخْذِهم بأليم العذاب .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾

فلم يُغْنِ عنهم ما آتيناهم . . وانظروا كيف أهلكناهم .

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (29)

كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مبعوثاً إلى الجنِّ كما كان مبعوثاً إلى الإنس . وإن قوماً أتوه ليلة الجن وآمنوا به ، ورجعوا إلى قومهم فأخبروهم ، وآمن قومٌ منهم ، فاليومَ في الجن مؤمنون ، وفيهم كافرون .

﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ﴾ الصيحةُ على الباب وفوق البساط غيبةٌ ؛ ولهذا لما حضر الجنُّ بساطَ خدمته – صلى الله عليه وسلم – تواصوا فيما بينهم بحفظ الأدب ، وقالوا لما حضروا بساطَه : ﴿ أَنصِتُوا ﴾ ، فأهلُ الحضور صفتُهم الذبولُ والسكونُ ، والهيبة والوقار . والثورانُ أو الإنزعاجُ يدل على غيبة أو قلّةِ تيقُّظٍ أو نقصان اطلاع . ﴿ فَلَمَّا قَضَى ﴾ يعني الوحي ﴿ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ وأخبروهم بما رأوه وسمعوه .

يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (31)

(251/705)

يقال الإجابة على ضربين : إجابةٌ لله ، وإجابة للداعي ؛ فإجابة الداعي بشهود الوساطة – وهو الرسول صلى الله عليه وسلم – . وإجابةُ الله بالجهْرِ إذا بَلَغَتْهُ الرسالةُ على لسان

السفير ، وبالسِّرِّ إذا حصلت التعريفاتُ من الواردات على القلب ؛ فمستجيبٌ بنفسه ومستجيبٌ بقلبه ومستجيبٌ بروحه ومستجيبٌ بسرِّه . ومن توقف عن دعاء الداعي إيّاه ، ولم يبادرْ بالاستجابة هُجِرَ فيما كان يُخاطب به .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (33) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (34) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (35)

الرؤيةُ هنا بمعنى العلم .

﴿ وَلَمْ يَعْيَ ﴾ أي ولم يعجز ولم يَضْعفُ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ﴾ .

ثم يقال لهم على سبيل تأكيد إلزام الحجة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ .

جزاءً لكم على كُفْركم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ .

أولو الجد والصبر والحزم . وجاء في التفسير أنهم : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ،

ومحمد صلى الله عليه سلم . وقيل : هود وصالح وشعيب ومحمد عليهم السلام . وقيل : منهم يعقوب وأيوب ويونس .

والصبرُ هو الوقوفُ لحُكْمِ الله ، والثباتُ من غير بثٍ ولا استكراهٍ .

(252/705)

قوله جلّ ذكره : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾ .

ويقال مُدّةُ الخَلْقِ : من مبتدأ وقتهم إلى مُنتَهى آجالهم بالإضافة إلى الأزليّة كلحظةٍ بل هي أقلُّ ؛ إذ الأزلُ لا ابتداء له ولا انتهاء . . وأي خَطَرٍ لما حصل في لحظةٍ . . . خيراً كان أو شرّاً ؟ ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 395.402 ﴾

(253/705)

من فوائد شيخ الإسلام ابن تيمية فى السورة الكريمة

سُورَةُ الْأَحْقَافِ

سَأَلَ رَجُلٌ آخَرُ :

عَنْ قَوْله تَعَالَى ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ فَقَالَ : مَا سَمِعْنَا بِنَصِّ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ أَنَّ مَا قَبْلَ كِتَابِنَا إِلَّا الْإِنْجِيلَ فَقَالَ الْآخَرُ : عِيسَى إِنَّمَا كَانَ تَبَعًا لِمُوسَى وَالْإِنْجِيلُ إِنَّمَا فِيهِ تَوَسُّعٌ فِي الْأَحْكَامِ تَيْسِيرٌ مِمَّا فِي التَّوْرَاةِ فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ رَجُلٌ وَقَالَ : كَانَ لِعِيسَى شَرْعٌ غَيْرُ شَرْعِ مُوسَى وَاحْتَجَّ بِقَوْلِهِ : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ قَالَ : فَمَا الْحُكْمُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ ؟ فَقَالَ : لَيْسَتْ هَذِهِ حُجَّةً .

فَأَجَابَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - :

قَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ أَنَّ عِيسَى قَالَ لَهُمْ : ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ فَعُلِمَ أَنَّهُ أَحَلَّ الْبَعْضَ دُونَ الْجَمِيعِ وَأَخْبَرَ عَنْ الْمَسِيحِ أَنَّهُ عَلَّمَهُ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَوْلَا أَنَّهُ مُتَّبِعٌ لِبَعْضِ مَا فِي التَّوْرَاةِ لَمْ يَكُنْ تَعَلُّمُهَا

(254/705)

لَهُ مِنَّةً أَلَا تَرَى أَنَّا نَحْنُ لَمْ نُؤْمَرْ بِحِفْظِ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَإِنْ كَانَ كَثِيرٌ مِنْ شَرَائِعِ الْكِتَابَيْنِ يُوَافِقُ شَرِيعَةَ الْقُرْآنِ فَهَذَا وَغَيْرُهُ يُبَيِّنُ مَا ذَكَرَهُ عُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَنَّ الْإِنْجِيلَ لَيْسَ فِيهِ إِلَّا أَحْكَامٌ

قَلِيلَةٌ وَأَكْثَرُ الْأَحْكَامِ يَتْبَعُ فِيهَا مَا فِي التَّوْرَاةِ ؛ وَبِهَذَا يَحْصُلُ التَّغَايُرُ بَيْنَ الشرعتين . وَلِهَذَا كَانَ النَّصَارَى مُتَّفِقِينَ عَلَى حِفْظِ التَّوْرَاةِ وَتِلَاوَتِهَا كَمَا يَحْفَظُونَ الْإِنْجِيلَ ؛ وَلِهَذَا لَمَّا سَمِعَ النَّجَاشِيُّ الْقُرْآنَ قَالَ : إنَّ هَذَا وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ وَكَذَلِكَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمَّا ذَكَرَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يَأْتِيهِ قَالَ هَذَا هُوَ النَّامُوسُ الَّذِي كَانَ يَأْتِي مُوسَى . وَكَذَلِكَ قَالَتْ الْجِنُّ : ﴿ إنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ﴾ قَالُوا سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا أَيْ مُوسَى وَمُحَمَّدٌ وَفِي الْقِرَاءَةِ الْأُخْرَى : ﴿ سِحْرَانِ تَظَاهَرَا ﴾ أَيْ التَّوْرَاةُ وَالْقُرْآنُ . وَكَذَلِكَ قَالَ : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ

(255/705)

مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ فَهَذَا وَمَا أَشْبَهَهُ مِمَّا فِيهِ اقْتِرَانُ التَّوْرَاةِ بِالْقُرْآنِ وَتَخْصِيصُهَا بِالذِّكْرِ يُبَيِّنُ مَا ذَكَرُوهُ مِنْ أَنَّ التَّوْرَاةَ هِيَ الْأَصْلُ وَالْإِنْجِيلَ تَبَعٌ لَهَا فِي كَثِيرٍ مِنْ الْأَحْكَامِ وَإِنْ كَانَ مُغَايِرًا لِبَعْضِهَا .

فَلِهَذَا يَذْكُرُ الْإِنْجِيلَ مَعَ التَّوْرَاةِ وَالْقُرْآنِ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ ﴿ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾ فَيَذْكُرُ الثَّلَاثَةَ تَارَةً وَيَذْكُرُ الْقُرْآنَ مَعَ التَّوْرَاةِ وَحْدَهَا تَارَةً لِسِرٍّ : وَهُوَ أَنَّ الْإِنْجِيلَ مِنْ وَجْهٍ أَصْلٌ وَمِنْ وَجْهٍ تَبَعٌ ؛ بِخِلَافِ الْقُرْآنِ مَعَ التَّوْرَاةِ فَإِنَّهُ أَصْلٌ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ بَلْ هُوَ مُهَيْمِنٌ عَلَى مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَإِنْ كَانَ مُوَافِقًا لِلتَّوْرَاةِ فِي أُصُولِ الدِّينِ وَكُتُبِهِ مِنْ الشَّرَائِعِ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجموع الفتاوى جـ16صـ45.43 ﴾

(256/705)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة الأحقاف

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 1 إلى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2)

الإعراب :

(تنزيل) مبتدأ مرفوع (من اللّه) متعلّق بخبر المبتدأ .

والجملة : " الاسميّة . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

[سورة الأحقاف (46) : آية 3]

ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (3)

الإعراب :

(ما) نافية ، والثانية اسم موصول في محلّ نصب معطوف على السموات (إلّا) للحصر (بالحقّ) متعلّق بحال من فاعل خلقنا أو من مفعوله " 1 " ، (أجل) معطوف على الحقّ بالواو بحذف مضاف أي وتقدير أجل ، (عمّا) متعلّق بالخبر (معرضون) ، و(الواو) في (أنذروا) نائب الفاعل . . .

جملة : " ما خلقنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) أو بمحذوف مفعول مطلق والباء للملابسة .

وجملة : " الذين كفروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " أنذروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الاسمي أو الحرفيّ .

[سورة الأحقاف (46) : آية 4]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ ائْتُونِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (4)

الإعراب :

(أرأيتم) بمعنى أخبرونى والهمزة للاستفهام (ما) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به أوّل (من دون) متعلّق بحال من العائد المقدّر " 1 " ، (ماذا) مبتدأ وخبر (من الأرض) متعلّق بـ (خلقوا) " 2 " ، (أم) هي المنقطعة بمعنى بل والهمزة (لهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ شرك (في السموات) متعلّق بـ (شرك) بحذف مضاف أي في خلق السموات (بكتاب) متعلّق بـ (ائتوني) ، (من قبل) بنعت لكتاب (أو) حرف عطف (أثارة) معطوف على كتاب (من علم) متعلّق بنعت لـ (أثارة) (كنتم) ماض ناقص في محلّ جزم فعل الشرط . . .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " رأيتم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " تدعون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " أروني . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

(1) أو تمييز (ما) .

(2) أو بحال من العائد المقدّر .

(258/705)

وجملة : " ماذا خلقوا . . . " في محلّ نصب مفعول به ثان لفعل الرؤية الثاني ، ومفعول فعل الرؤية الأول محذوف دلّ عليه المذكور .

وجملة : " خلقوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ذا) .

وجملة : " لهم شرك . . . " لا محلّ لها استئناف في حيز القول .

وجملة : " ائتوني . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " كنتم صادقين " لا محلّ لها استئنافيّة . . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله .

الصرف :

(أثارة) ، مصدر سماعيّ لفعل أثر الثلاثيّ باب نصر أي ذكر الحديث أو الخبر أو غيره ، وزنه فعالة بفتح الفاء كضلالة ، أي بقيّة من علم . .

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 5 إلى 6]

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ (5) وَإِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً وَكانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ (6)

الإعراب :

(259/705)

(الواو) استئنافيّة (من) اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ خبره (أضلّ) (ممّن) متعلّق بـ (أضلّ) (من دون) متعلّق بحال من الموصول : من لا يستجيب (لا) نافية (له) متعلّق بـ (يستجيب) ، (إلى يوم) متعلّق بـ (يستجيب) (الواو) عاطفة - أو حالية - (عن دعائهم) متعلّق بـ (غافلون) . .

جملة : " من أضلّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يدعو . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " لا يستجيب . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني .

وجملة : " هم . . . غافلون " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا يستجيب " 1 " .

6 - (الواو) عاطفة (لهم) متعلّق بحال من (أعداء) خبر كانوا (بعبادتهم) متعلّق بخبر كانوا الثاني (كافرين) .

وجملة : " حشر الناس " في محلّ جرّ مضاف إليه . .

وجملة : "كانوا . . . (الأولى) " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : "كانوا . . . (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة كانوا (الأولى) .

البلاغة

1 - نكتة بلاغية : في قوله تعالى " إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ " .

---

(1) أو في محلّ نصب حال من فاعل يستجيب العائد على (من) الثاني . . .

حيث يوجد فيها نكتة حسنة رائعة ، وذلك أنّه جعل يوم القيامة غاية لعدم الاستجابة ، ومن شأن الغاية انتهاء الشيء عندها . لكن عدم الاستجابة مستمر بعد هذه الغاية ، لأنهم في القيامة أيضا لا يستجيبون لهم فالوجه أنها من الغايات المشعرة بأن ما بعدها ، وإن وافق ما قبلها ، إلا أنّه أزيد منه زيادة بينة تلحقه بالثاني ، حتى كأن الحالتين وإن كانتا نوعا واحدا لتفاوت ما بينهما كالشيء وضده ، وذلك أن الحالة الأولى التي جعلت غايتها القيامة لا تزيد على عدم الاستجابة ، والحالة الثانية التي في القيامة زادت على عدم الاستجابة بالعداوة وبالكفر بعبادتهم إياهم ، وذكر ذلك في الآية التي بعدها ، فهو من وادي

ما تقدم في سورة الزخرف في قوله " بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ وَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ قالُوا هذا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كافِرُونَ " .

2 - التغليب : في قوله تعالى " مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ حيث أسند إلى ما يدعون من دون اللّه من الأصنام ما يسند إلى أولى العلم من الاستجابة والغفلة ، تغليبا . وذلك لأنهم كانوا يصفونهم بالتمييز جهلا وغباوة .

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 7 إلى 8]

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (7) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ كَفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (8)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (عليهم) متعلّق بـ (تتلى) ، وضمير الغائب يعود على كفّار مكّة (بيّنات) حال من آياتنا منصوبة (للحقّ) متعلّق بـ (قال) و(اللام) للتعليل أي لأجله (لمّا) ظرف بمعنى حين مجرد من الشرط متعلّق بـ (قال) .

جملة : " تتلى عليهم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . . والشرط وفعله وجوابه استئناف .

وجملة : " قال الذين كفروا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " جاءهم . . . " في محلّ جر مضاف إليه .

وجملة : " هذا سحر . . . " في محلّ نصب مقول القول .

8 – (أم) المنقطعة بمعنى بل وهمزة الإنكار (افتريته) ماض في محلّ جزم فعل الشرط (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لا) نافية (لي) متعلّق بـ (تملكون)

بتضمينه معنى تقدّمون (من اللّه) متعلّق بـ (حال) من (شيئًا) بحذف مضاف أي من عذاب اللّه (بما) متعلّق بأعلم (فيه) متعلّق بـ (تفيضون) ، (الهاء) في (به) محلّها البعيد فاعل كفى ، ومحلّها القريب مجرورة بالباء الزائدة (شهيدا) حال منصوبة – أو تمييز – (بيني) ظرف منصوب متعلّق بـ (شهيدا) ، (بينكم) معطوف على بيني ومتعلّق بـ (شهيدا) ، (الواو) عاطفة (الرحيم) خبر ثان مرفوع .

وجملة : " يقولون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " افتراه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " افتريته . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لا تملكون . . . " في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره أنتم والجملة الاسميّة في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " هو أعلم . . . " لا محلّ لها تعليل للنفي السابق .

وجملة : " تفيضون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " كفى به . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " هو الغفور . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كفى به .

الصرف :

(كفى) ، فيه إعلال بالقلب أصله كفى مضارعه يكفي ، تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا .

[سورة الأحقاف (46) : آية 9]

قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى إِلَيَّ وَما أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (9)

الإعراب :

(ما) نافيّة (من الرسل) متعلّق بنعت لـ (بدعا) ، (الواو) عاطفة (ما) مثل الأولى ، والثالثة

نكرة موصوفة في محلّ نصب مفعول به " 1 " ، (بي) متعلّق بـ (يفعل) ، (لا) زائدة لتأكيد النفي (بكم) متعلّق بـ (يفعل) فهو معطوف على الجارّ الأول (إن) حرف نفي (إلّا) للحصر (ما) موصول في محلّ نصب مفعول به ، ونائب الفاعل لفعل (يوحى) هو العائد (إليّ) متعلّق بـ (يوحى) ، (الواو) عاطفة (ما) نافية مهملة (إلّا) مثل الأولى . . .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ما كنت بدعا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ما أدري . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " يفعل . . . " في محلّ نصب نعت لـ (ما) " 2 " .

وجملة : " أتّبع . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " يوحى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " ما أنا إلّا نذير . . . " لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة " 3 " .

الصرف :

(بدعا) ، مصدر بدع يبدع باب فتح ، وزنه فعل بكسر فسكون ، وهو بمعنى اخترع الشيء وصنعه على مثال فريد . . . أو هو من باب كرم ولكنّه صفة مشبّهة أي كان بدعا أي فريدا . . .

---

(1) أو اسم موصول في محلّ نصب . . . أو اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ خبره جملة

يفعل . . وجملة الاستفهام سدت مسدّ مفعولي أدري المعلّق بالاستفهام .

(2) أو لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

(3) أو في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

(263/705)

[سورة الأحقاف (46) : آية 10]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10)

الإعراب :

مفعولا فعل (رأيتم) مقدّران أي : أرأيتم حالكم إن كان كذا . . . ألستم ظالمين (كان) ماض ناقص في محلّ جزم فعل الشرط (من عند) متعلّق بخبر كان (به) متعلّق بـ (كفرتم) ، (من بني) متعلّق بنعت لـ (شاهد) (على مثل) متعلّق بـ (شهد) ، (الفاء) عاطفة (لا) نافية . . .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أرأيتم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : "كان من عند اللّه . . . "لا محلّ لها اعتراضيّة بين الفعل ومفعوليه المقدّرين

وجواب الشرط محذوف تقديره خسرتم .

وجملة : "كفرتم به . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة كان . . . " 1 " .

وجملة : " شهد شاهد . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة كان .

وجملة : " آمن . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة شهد .

وجملة : " استكبرتم . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة آمن .

وجملة : " إنّ اللّه لا يهدي . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا يهدي . . . "في محلّ رفع خبر إنّ .

الفوائد :

صدق النبوة . .

دلت هذه الآية على صدق نبوة محمد (صلى اللّه عليه وسلم) . وقد شهد بها عالم من

اليهود

---

(1) يجوز أن تكون الجملة حاليّة بتقدير قد ، وكذلك الجمل التالية بالعطف .

فآمن . ولكن الكفار استكبروا فلم يؤمنوا ، واختلف العلماء في هذا الشاهد والجمهور على أنّه عبد اللّه بن سلام . ويدل عليه ما

روى عن أنس بن مالك قال : بلغ عبد اللّه بن سلام مقدم النبي (صلى اللّه عليه وسلم) المدينة فأتاه وقال إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي ، ما أول أشراط الساعة ؟ وما أوّل طعام يأكله أهل الجنّة ؟ ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه ؟ ومن أي شيء ينزع الولد إلى أمه ، وفي رواية إلى أخواله ؟ فقال رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) : أخبرني بهن آنفا جبريل ، فقال عبد اللّه بن سلام ذاك عدوّ اليهود ، فقرأ هذه الآية مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ ، فقال رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) : أما أوّل أشراط الساعة ، فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام يأكله أهل الجنّة فزيادة كبد الحوت وأما الشبه بالولد ، فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له ، وإذا سبقت كان الشبه لها . قال :

أشهد أنك رسول اللّه . ثم قال : يا رسول اللّه ، إن اليهود قوم بهت (كاذبون) إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني عندك فجاءت اليهود ، ودخل عبد اللّه البيت ، فقال رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) : أي رجل فيكم عبد اللّه بن سلام ؟ قالوا : أعلمنا وابن أعلمنا ، وخيرنا وابن خيرنا . قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) : أ فرأيتم إن أسلم عبد اللّه ، قالوا :

أعاذه اللّه من ذلك ، فخرج عبد اللّه إليهم ، فقال : أشهد أن لا إله إلا اللّه وأشهد أن محمدا رسول اللّه ، فقالوا : شرّنا وابن شرّنا ، ووقعوا فيه . فقال عبد اللّه بن سلام : هذا الذي كنت أخاف يا رسول اللّه . أخرجه البخاري في صحيحة .

[سورة الأحقاف (46) : آية 11]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ (11)

الإعراب :

(265/705)

(الواو) استئنافيّة (للذين) متعلّق بـ (قال) و(اللام) بمعنى لأجل (لو) حرف شرط غير جازم ، واسم (كان) محذوف يعود على ما جاء به الرسول من الإيمان والقرآن المفهوم من السياق (ما) نافية (إليه) متعلّق

ب (سبقونا) ، (الواو) عاطفة (إذ) ظرف للزمن الماضي متعلّق بمحذوف يقتضيه السياق أي قالوا ما قالوه ، أو ظهر عنادهم " 1 " (به) متعلّق بـ (يهتدوا) المنفي (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (السين) حرف استقبال . . . .

جملة : " قال الذين كفروا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) (الثاني) .

وجملة : "كان خيرا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ما سبقونا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " لم يهتدوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " سيقولون . . . " لا محلّ لها معطوفة على الجملة المقدّرة المستأنفة .

وجملة : " هذا إفك . . . " في محلّ نصب مقول القول .

[سورة الأحقاف (46) : آية 12]

وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً وَهذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ لِساناً عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرى لِلْمُحْسِنِينَ (12)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (من قبله) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (كتاب) (إماما) حال منصوبة من كتاب والعامل فيها الاستقرار (مصدّق) نعت لكتاب - أو خبر ثان - مرفوع (لسانا) حال من الضمير في مصدّق " 2 " ، (اللام)

---

(1) لا يجوز التعليق بـ (يقولون) لاختلاف الزمنين ولوجود الفاء .

(2) أو من كتاب ، والعامل فيها معنى الإشارة . . . وقد جاءت الحال جامدة لأنّها وصفت . . . و(لسانا) مفعول به لاسم الفاعل – على رأي أبي البقاء – على أن تكون الإشارة لغير القرآن الكريم .

(266/705)

للتعليل (ينذر) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (الواو) عاطفة (بشرى) معطوف على مصدّق مرفوع " 1 " ، (للمحسنين) متعلّق بـ (بشرى) .

جملة : " من قبله كتاب . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " هذا كتاب . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف وجملة : " ينذر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر والمصدر المؤوّل (أن ينذر) في محلّ جرّ باللام متعلّق بمصدّق وجملة : " ظلموا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين)

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 13 إلى 14]

إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (13) أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (14)

الإعراب :

(الفاء) زائدة في خبر إنّ لمشابهة الموصول – اسم إنّ – للشرط (لا) نافية (خوف) مبتدأ مرفوع – معتمد على نفي – (عليهم) متعلّق بمحذوف خبر (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي . . .

جملة : "إن الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " ربّنا اللّه . . . " في محلّ نصب مقول القول وجملة : " استقاموا " لا محلّ لها معطوفة على جملة قالوا

---

(1) أو معطوف على محلّ (لينذر) وهو النصب لأنه مفعول لأجله قاله الزمخشريّ وتبعه أبو البقاء ، أو هو خبر لمبتدأ محذوف . . .

وجملة : " لا خوف عليهم . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " هم يحزنون " في محلّ رفع معطوفة على جملة الخبر .

وجملة : " يحزنون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) 14 – (أصحاب) خبر المبتدأ أولئك (خالدين) حال منصوبة من الضمير المستتر في أصحاب ، والعامل فيها الإشارة (فيها) متعلّق بـ (خالدين) (جزاء) مفعول مطلق لفعل محذوف أي يجزون جزاء (ما) حرف

مصدريّ . . . " 1 "

والمصدر المؤوّل (ما كانوا يعملون) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بالفعل المقدّر - أو بجزاء إن كان نائبا عن فعله وجملة : " أولئك أصحاب . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو تعليليّة - وجملة : " كانوا يعملون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) وجملة : " يعملون " في محلّ نصب خبر كانوا

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 15 إلى 16]

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إِحْساناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15) أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ فِي أَصْحابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ (16)

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جر ، والعائد محذوف ، والجملة صلة له .

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (بوالديه) متعلّق بـ (وصّينا) ، (إحسانا) مفعول مطلق لفعل محذوف " 1 " ، (كرها) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته أي حملا كرها " 2 " ، في الموضعين ، (الواو) عاطفة في المواضع السّتّة (حمله) مبتدأ بحذف مضاف أي مدّة حمله خبره (ثلاثون) ، (حتّى) حرف ابتداء (أربعين) مفعول به منصوب (ربّ) منادى مضاف منصوب ، والمضاف إليه – (ياء) المتكلّم – محذوف (التي) موصول في محلّ نصب نعت لنعمتك (عليّ) متعلّق بـ (أنعمت) ، ومثله (على والديّ) فهو معطوف على الأول . . .

(الواو) عاطفة (أن أعمل) مثل أن أشكر . . .

والمصدر المؤوّل (أن أشكر) في محلّ نصب مفعول به ثان عامله أوزعني والمصدر المؤوّل (أن أعمل) في محلّ نصب معطوف على المصدر المؤوّل الأول .

(صالحا) مفعول به منصوب " 3 " ، (لي) متعلّق بـ (أصلح) وكذلك (في ذرّيتي) " 4 " ، (إليك) متعلّق بـ (تبت) ، (من المسلمين) متعلّق بخبر إنّ . .

---

(1) يجوز أن يكون مفعولا ثانيا عامله وصينا بتضمينه معنى ألزمنا . . . كما يجوز أن يكون مفعولا لأجله . [. . . . .]

(2) أو مصدر في موضع الحال .

(3) أو مفعول مطلق ناب عن المصدر فهو صفته ، والمفعول مقدّر .

(4) كأن الذرّية ظرف للصلاح.

(269/705)

جملة : " وصّينا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " (أحسن) إحسانا " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " حملته أمّه . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " وضعته . . . " لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة وجملة : " حمله . . . ثلاثون شهرا " لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة وجملة : " بلغ أشدّه " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : " بلغ أربعين سنة " في محلّ جرّ معطوفة على جملة بلغ (الأولى) وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم وجملة : " النداء وجوابه . . . " في محلّ نصب مقول القول وجملة : " أوزعني . . . " لا محلّ لها جواب النداء وجملة : " أشكر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) وجملة : " أنعمت . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) وجملة : " أعمل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) الثاني وجملة : " ترضاه . . . " في محلّ نصب نعت لـ (صالحا) وجملة : " أصلح . . . " لا محلّ لها معطوفة على

جملة جواب النداء وجملة : " إنّي تبت . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول وجملة : " تبت . . . " في محلّ رفع خبر إنّ وجملة : " إنّي من المسلمين " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّي تبت . . .

(270/705)

---

16 - (عنهم) متعلّق بـ (نتقبّل) بتضمينه معنى نتلقى (ما) حرف مصدريّ (عن سيّئاتهم) متعلّق بـ (نتجاوز) ، (في أصحاب) متعلّق بحال من الضمير في (عنهم) بحذف مضاف أي في جملة أصحاب . . .

والمصدر المؤوّل (ما عملوا) في محلّ جرّ مضاف إليه

(وعد) مفعول مطلق لفعل محذوف مؤكّد لمضمون الجملة السابقة (الذي) موصول في محلّ نصب نعت لوعد ، و(الواو) في (يوعدون) نائب الفاعل ، والعائد محذوف وجملة : " أولئك الذين " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " نتقبّل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) وجملة : " نتجاوز . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نتقبّل وجملة : " (نعدهم) وعد . . . " لا محلّ لها استئنافيّة - أو حال من فاعل نتقبّل - وجملة : " كانوا يوعدون " لا محلّ لها صلة الموصول

(الذي) وجملة : " يوعدون " في محلّ نصب خبر كانوا

الصرف :

(والديه) ، مثنى والد اسم الأب ، جاء على وزن فاعل ، المؤنّث والدة (ثلاثون) ، من ألفاظ العقود اسم للعدد ، ملحق بجمع المذكّر (تبت) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء على السكون ، أصله توبت – بواو بين التاء والباء – فلمّا التقى ساكنان حذفت الواو ، وزنه فلت بضمّ الفاء دلالة على الواو المحذوفة .

البلاغة

المجاز المرسل : في قوله تعالى " وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً " .

الفصال هو : الفطام ، وأريد به هنا مدته التي يعقبها الفطام ، فعلاقته المجاورة .

الفوائد

1 الأحوال التي لا يكون فيها الفعل إلّا لازما . ورد في هذه الآية قوله تعالى وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي فجاء الفعل " أصلح " لازما لأنه بمعنى (بارك) . وقد ذكر النحاة الحالات التي يكون فيها الفعل لازما وهي :

1 – إذا كان على وزن فعل : مثل شرف – ظرف 2 – إذا كان على وزن فعل أو فعل ، ووصفهما على فعيل ، مثل : ذلّ وقوي .

3 – أن يكون على وزن أفعل ، بمعنى صار ذا ، مثل : أحصد الزرع أي صار ذا حصاد .

4 – أن يكون على وزن افعللّ مثل : اقشعرّ – اشمأزّ .

5 – أن يكون على وزن افعنلل ، بأصالة اللامين ، مثل احرنجم (اجتمع) .

6 – أن يكون على وزن (افعنلى) ، كاحرنبى الديك ، إذا انتفش .

7 – أن يكون على وزن انفعل مثل : انطلق وانكسر .

8 – أن يضمّن معنى فعل لازم ، كقوله تعالى : أَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي بمعنى (بارك) كما ورد في هذه الآية التي نحن بصددها .

9 – أن يكون رباعيا مزيدا مثل : تدحرج – اطمأنّ .

10 – أن يدل على سجيّة ، كلؤم وجبن وشجع ، أو على عرض (حالة عارضة) كفرح وحزن ، أو ما دلّ على طهارة أو دنس مثل طهر ونجس ، أو على لون كأحمرّ وأخضر ، أو حلية : كدعج – وكحل – وسمن – وهزل .

ومعنى : إن البغاث بأرضنا يستنسر . أي إن الطير الضعيف يصبح قويا كالنسر .

وهذا مثل يضرب للذليل يصير عزيزا .

2 – بر الوالدين . .

دعت هذه الآية إلى بر الوالدين . وقد ذكر ذلك في عدة مواضع من القرآن الكريم ، فقال تعالى : وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُما وَقُلْ لَهُما قَوْلًا كَرِيماً

قال العلماء : لو كان هناك كلمة أقل من كلمة (أف) تعبر عن الإساءة للوالدين لذكرها اللّه تعالى .

كما نلاحظ كيف قرن اللّه عز وجل طاعة الوالدين بطاعته ، تنبيها على عظم شأنهما وعلوّ مقامهما ، و

(272/705)

قد ورد أن رجلا خدم أمه دهرا وأخذها وحج بها وطاف وسعى بها ، فظن أنه قد وفّاها حقها ، فسأل رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) عن ذلك ، فقال له عليه الصلاة والسلام : لم توفّها ولا بعطة في بطنها أثناء الحمل

و

قد أخبر عليه الصلاة والسلام ، بإسلام أويس من اليمن ، وكان يوصي أصحابه بأن يلتمسوا منه الدعاء ، ولم يتمكن أويس القرني رضى اللّه عنه من الوفود على رسول اللّه

صلى اللّه عليه وسلم فلقيه عمر رضى اللّه عنه في الحج ، فقال له أوصانا رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) أن نلتمس منك الدعاء ، لا بد أن لك عملا صالحا ، فقال أويس : كنت حريصا على لقاء رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) ، ولكن شغلني عنه خدمة أمي .

فبهذا نرى مقدار ما للوالدين من أهمية واعتبار .

3 – مدة الحمل والرضاع . . . .

أفاد الفقهاء من قوله تعالى وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً بأن أقل مدة للحمل هي ستة أشهر ، وأكثر مدة للرضاع أربعة وعشرون شهرا . قال ابن عباس :

إذا حملت المرأة تسعة أشهر أرضعت أحدا وعشرين شهرا ، وإذا حملت ستة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهرا .

3 – أسباب النزول في قوله تعالى : " أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ . . "

الأصح أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي اللّه عنه وذلك أنه صحب النبي (صلى اللّه عليه وسلم) ابن عشرين سنة في تجارة إلى الشام ، فنزلوا منزلا فيه سدرة ، فقعد النبي (صلى اللّه عليه وسلم) في ظلها ، ومضى أبو بكر إلى راهب هناك ، يسأله عن الدين .

فسأله الراهب عن الرجل الذي في ظل السدرة فقال :

هو محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب فقال الراهب :

هذا واللّه نبي وما استظل تحتها بعد عيسى عليه الصلاة والسلام أحد إلا هذا وهو نبي آخر الزمان ، فوقع في قلب أبى بكر اليقين والتصديق ، فكان لا يفارق النبي (صلى اللّه عليه وسلم) في سفر ولا حضر . فلما بلغ رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) أربعين سنة ، أكرمه اللّه تعالى بنبوته ، واختصه برسالته ، فآمن به أبو بكر وصدق ، وهو ابن ثمان وثلاثين سنة ، فلما بلغ أربعين سنة دعا اللّه عز وجل (قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) فاستجاب له ربه ، فأسلم والداه وأبناؤه ، رضي اللّه عنهم أجمعين .

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 17 إلى 19]

وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما أَتَعِدانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُما يَسْتَغِيثانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ ما هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17) أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ (18) وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (19)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (الذي) موصول مبتدأ في محلّ رفع ، وقصد به الجنس ، خبره جملة (أولئك الذين) . . . (لوالديه) متعلّق بـ (قال) ، (أفّ) اسم فعل مضارع بمعنى أتضجّر ،

والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا (لكما) متعلّق باسم الفعل (أفّ) ، (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ ، ونائب الفاعل للمجهول (أخرج) ضمير مستتر تقديره أنا

(274/705)

و المصدر المؤوّل (أن أخرج) في محلّ نصب مفعول به ثان عامله تعدانني " 1 " (الواو) حاليّة (قد) حرف تحقيق (من قبلي) متعلّق بـ (خلت) ، (الواو) الثانية حاليّة أيضا (ويلك) مفعول مطلق لفعل محذوف مهمل (الفاء) عاطفة (ما) نافيّة (إلّا) للحصر . . .

جملة : " الذي قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) وجملة : " أفّ لكما . . . " في محلّ نصب مقول القول " 2 " وجملة : " أ تعدانني . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ وجملة : " أخرج . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) وجملة : " قد خلت القرون " في محلّ نصب حال من نائب الفاعل وجملة : " هما يستغيثان . . . " في محلّ نصب حال من والديه وجملة : " يستغيثان . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ هما وجملة : " ويلك . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة دعائية وجملة : " آمن . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر ، . وهذا القول المقدّر في محلّ نصب حال من الفاعل في (يستغيثان) ، أي يقولان ويلك آمن وجملة : " إنّ وعد اللّه حقّ . . . " لا محلّ

لها استئناف بيانيّ – أو تعليليّة – وجملة : " يقول . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة القول المقدّرة وجملة : " ما هذا إلّا أساطير . . . " في محلّ نصب مقول القول

---

(1) أو في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف هو الباء ، متعلّق بـ (تعدانني) .

(2) أو لا محلّ لها اعتراضيّة ، وجملة تعدانني تصبح هي مقول القول .

(275/705)

---

18 – (عليهم) متعلّق بـ (حقّ) ، (في أمم) متعلّق بحال من الضمير في (عليهم) " 1 " ، (من قبلهم) متعلّق بـ (خلت) ، (من الجنّ) متعلّق بحال من فاعل خلت . . .

وجملة : " أولئك الذين . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذي قال . . .)

وجملة : " حقّ عليهم القول . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " قد خلت . . . " في محلّ جرّ نعت لأمم وجملة : " إنّهم كانوا خاسرين " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " كانوا خاسرين " في محلّ رفع خبر إنّ 19 – (الواو) استئنافيّة (لكلّ) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (درجات) ، (ممّا) متعلّق بنعت لـ (درجات) (الواو) عاطفة (اللام) للتعليل (يوفّيهم) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (أعمالهم) مفعول به ثان منصوب (الواو) حاليّة (لا) نافية .

وجملة : " لكلّ درجات . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) وجملة : " يوفّيهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر والمصدر المؤوّل (أن يوفّيهم) في محلّ جرّ باللام متعلّق بفعل محذوف تقديره : جازاهم . . . والجملة المقدّرة معطوفة على جملة لكلّ درجات ، لا محلّ لها .

وجملة : " هم لا يظلمون " في محلّ نصب حال .

وجملة : " لا يظلمون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم)

---

(1) أو متعلّق بالقول بمعنى العذاب .

الصرف :

أفّ : اسم فعل مضارع مرتجل ، وجعله بعضهم مصدرا للثلاثيّ أفّ يؤفّ بمعنى تبّ وقبح وزنه فعل بضم فسكون

[سورة الأحقاف (46) : آية 20]

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِها فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (20)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بفعل محذوف تقديره يقال لهم . . .

(الذين) موصول في محلّ رفع نائب الفاعل (على النار) متعلّق بـ (يعرض) ، (في حياتكم) متعلّق بـ (أذهبتم) ، (بها) متعلّق بـ (استمتعتم) ، (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (اليوم) ظرف متعلّق بـ (تجزون) ، (ما) حرف مصدريّ . . .

والمصدر المؤوّل (ما كنتم) في محلّ جرّ بالباء السببيّة ، متعلّق بـ (تجزون) . (في الأرض) متعلّق بـ (تستكبرون) ، (بغير) متعلّق بحال من فاعل تستكبرون (الواو) عاطفة و(ما) مصدريّة .

والمصدر المؤوّل (ما كنتم . . .) في محلّ جرّ بالباء الثانية السببيّة . متعلّق بما تعلّق به المصدر الأول جملة : " (يقال) . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " يعرض الذين . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : "كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " أذهبتم . . . " في محلّ رفع نائب الفاعل للفعل المقدّر وجملة : " استمتعتم . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة أذهبتم . . .

وجملة : " تجزون " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة وجملة : "كنتم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) الأول وجملة : " تستكبرون . . . " في محلّ نصب خبر كنتم وجملة : "كنتم (الثانية) " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) الثاني وجملة : " تفسقون "

في محلّ نصب خبر كنتم الثاني

البلاغة

فن القلب : في قوله تعالى " وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ " .

وذلك على حسب قولهم : عرض بنو فلان على السيف إذا قتلوا به أما القلب فيجوز أن يراد : عرض النار عليهم ، من قولهم : عرضت الناقة على الحوض ، يريدون عرض الحوض عليها فقلبوا . ويدل عليه تفسير ابن عباس رضى اللّه عنه : يجاء بهم إليها فيكشف لهم عنها .

[سورة الأحقاف (46) : آية 21]

(277/705)

وَاذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (إذ) ظرف للزمن الماضي في محلّ نصب بدل اشتمال من (أخا) ،

(بالأحقاف) متعلّق بحال من قومه ، (الواو) حاليّة (قد) حرف تحقيق (من بين) متعلّق بـ

(خلت) ، وكذلك (من خلفه) فهو معطوف على الأول (أن) مفسّرة " 1 " ، (لا) ناهية جازمة (إلّا) للحصر (عليكم) متعلّق بـ (أخاف) . . .

---

(1) أو مخفّفة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف . . . أو مصدريّة ، وجملة لا تعبدوا مقول القول لقول مقدّر .

(278/705)

جملة : " اذكر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " أنذر . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : " قد خلت النذر . . . " في محلّ نصب حال - أو اعتراضيّة لا محلّ لها - وجملة : " لا تعبدوا . . . " لا محلّ لها تفسيريّة " 1 " وجملة : " إنّي أخاف . . . " لا محلّ لها تعليليّة وجملة : " أخاف . . . " في محلّ رفع خبر إنّ

الصرف :

(عاد) ، اسم علم لقوم هود بن عبد اللّه بن رباح وكانوا باليمن بأرض يقال لها شحر أو في موضع يقال له مهرة - والشحر بسكون الحاء - موضع بين عمان وعدن على ساحل البحر . . .

(الأحقاف) ، اسم علم لموضع في اليمن أو بين عمان وعدن ، والأحقاف في الأصل جمع

حقف وهو ما استطال من الرمل العظيم وأعوج ، وقيل الأحقاف جمع حقاف وهذا جمع حقف . . . ووزن أحقاف أفعال

[سورة الأحقاف (46) : آية 22]

قالُوا أَجِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22)

الإعراب :

---

(1) أو في محلّ رفع خبر (أن) المخفّفة ، والمصدر المؤوّل في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف متعلّق بـ (أنذر) أي أنذر قومه بأنّه لا تعبدوا إلّا اللّه . . .

(279/705)

(الهمزة) للاستفهام (اللام) للتعليل (تأفكنا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (عن آلهتنا) متعلّق بـ (تأفكنا) ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (بما) متعلّق بـ (ائتنا) ، والعائد محذوف (كنت) ماض ناقص في محلّ جزم فعل الشرط (من الصادقين) متعلّق بخبر كنت . . .

والمصدر المؤوّل (أن تأفكنا . . .) في محلّ جرّ متعلّق بـ (جئتنا) جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " أجئتنا . . . " في محلّ نصب مقول القول وجملة : " ائتنا . . .

"في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن كنت صادقا فأتنا . . .

وجملة : " تعدنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) وجملة : "كنت من الصادقين . . .

" لا محلّ لها مفسّرة للشرط المقدّر - أو استئنافيّة - وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله

الصرف :

(آلهتنا) ، جمع إله ، اسم للمعبود فعله أله يأله باب فتح بمعنى عبد ، وزنه فعال بكسر الفاء ووزن آلهة أفعلة ، فالمدّة هي همزتان الأولى مفتوحة والثانية ساكنة " 1 "

[سورة الأحقاف (46) : آية 23]

قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ وَلكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (23)

الإعراب :

(إنّما) كافّة ومكفوفة ، (عند) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ (به) متعلّق بـ (أرسلت) ، (قوما) مفعول به ثان . . .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ وجملة : " إنّما العلم عند اللّه . . . " في محلّ نصب مقول القول وجملة : " أبلّغكم . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول

---

(1) وانظر الآية (74) من سورة الأنعام.

وجملة : " أرسلت به . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) وجملة : " لكنّي أراكم . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول وجملة : " أراكم . . . " في محلّ رفع خبر لكنّ وجملة : " تجهلون . . . " في محلّ نصب نعت لـ (قوما)

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 24 إلى 28]

فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ (24) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلَّا مَساكِنُهُمْ كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (25) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصاراً وَأَفْئِدَةً فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (26) وَلَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى وَصَرَّفْنَا الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (27) فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْباناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذلِكَ إِفْكُهُمْ وَما كانُوا يَفْتَرُونَ (28)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط متعلّق بالجواب قالوا

(رأوه) ماض مبنيّ على الضم المقدّر على الألف

المحذوفة لالتقاء الساكنين ، و(الواو) فاعل ، و(الهاء) الضمير العائد على ما (ما تعدنا) "

1 " مفعول به (عارضا) حال منصوبة من ضمير الغائب (مستقبل) نعت لـ (عارضا)

منصوب مثله " 2 " ، (ممطرنا) خبر ثان مرفوع " 3 " ، (بل) للإضراب الانتقاليّ (ما)

موصول في محلّ رفع خبر (به) متعلّق بـ (استعجلتم) ، (ريح) بدل من (ما) مرفوع " 4 " ،

(فيها) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (عذاب) . . .

(281/705)

جملة : " رأوه . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها جواب

شرط غير جازم وجملة : " هذا عارض . . . " في محلّ نصب مقول القول وجملة : " هو ما

استعجلتم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " استعجلتم . . . " لا محلّ لها صلة

الموصول (ما) وجملة : " فيها عذاب . . . " في محلّ رفع نعت لريح 25 - (بأمر) متعلّق

بحال من فاعل تدمّر (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (لا) نافية (إلّا) للحصر

(مساكنهم) نائب الفاعل (كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله نجزي . . .

وجملة : " تدمّر . . . " في محلّ رفع نعت ثان لريح " 5 "

---

(1) في الآية (22) .

(2) هذا النعت في تقدير الانفصال أي مستقبلا أوديتهم . . أو هذه الإضافة لا تفيد تعريفا وعلى هذا يصحّ أن يكون (مستقبل) حالا ثانية .

(3) أو نعت لـ (عارض) مرفوع ولا تمنع الإضافة من ذلك لأنّها غير محضة مثل (مستقبل) ، أو هو خبر لمبتدأ محذوف .

(4) أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي - أو هو - .

(5) يجوز أن تكون استئنافا بيانيّا فلا محلّ لها . [. . . . .]

(282/705)

وجملة : " أصبحوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي فدمّرتهم فأصبحوا وجملة : " لا يرى إلّا مساكنهم " في محلّ نصب خبر أصبحوا وجملة : " نجزي . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

26 - (الواو) عاطفة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (ما) موصول في محلّ جرّ متعلّق بـ (مكّناهم) ، (إن) حرف نفي " 1 " ، (فيه) متعلّق بـ (مكّناكم) ، (الواو) عاطفة (لهم) في موضع المفعول الثاني (الفاء) عاطفة (ما) نافية (عنهم) متعلّق بـ (أغنى) ،

(لا) زائدة لتأكيد النفي في الموضعين (أبصارهم ، أفئدتهم) معطوفان على سمعهم مرفوعان مثله (شيء) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول مطلق نائب عن المصدر أي إغناء ما ، أو شيئا من الإغناء (إذ) ظرف للزمن الماضي في محلّ نصب متعلّق بـ (أغنى) ، (بآيات) متعلّق بـ (يجحدون) ، (بهم) متعلّق بـ (حاق) ، (ما) موصول في محلّ رفع فاعل بحذف مضاف أي جزاء ما كانوا . . . (به) متعلّق بـ (يستهزئون) وجملة : " مكّناهم . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . . وجملة القسم المقدّرة معطوفة على جملة أصبحوا فلا محلّ لها وجملة : " إن مكّناكم فيه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) وجملة : " جعلنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة مكّناهم وجملة : " ما أغنى عنهم سمعهم " لا محلّ لها معطوفة على جملة جعلنا وجملة : " كانوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : " يجحدون . . . " في محلّ نصب خبر كانوا

---

(1) الذي يؤكد معنى النفي قوله تعالى : . . . مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ (الأنعام/ 6) . . أو هو حرف شرط والجواب محذوف أي طغيتم . . . وبعضهم جعلها زائدة وهو مردود بآية الانعام.

وجملة : " حاق بهم ما . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما أغنى . . .

وجملة : " كانوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني وجملة : " يستهزئون " في محلّ نصب خبر كانوا (الثاني) 27 - (الواو) عاطفة (لقد أهلكنا . . .) مثل لقد مكنّا ، (ما) موصول في محلّ نصب مفعول به (حولكم) ظرف مكان منصوب متعلّق بمحذوف صلة ما (من القرى) تمييز الموصول " 1 " . . .

وجملة : " أهلكنا . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . . وجملة القسم معطوفة على جملة القسم الأولى وجملة : " صرّفنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم وجملة : " لعلّهم " لا محلّ لها استئناف بيانيّ وجملة : " يرجعون . . . " في محلّ رفع خبر لعلّ 28 - (الفاء) عاطفة (لولا) للتوبيخ (من دون) متعلّق بحال من آلهة (قربانا) مفعول به ثان عامله اتّخذوا " 2 " ، والمفعول الأول مقدّر أي اتّخذوهم " 3 " ، (آلهة) بدل من (قربانا) منصوب (بل) للإضراب الانتقاليّ (عنهم) متعلّق بـ (ضلّوا) بتضمينه معنى غابوا (الواو) استئنافيّة ، والثانية عاطفة ، (ما) موصول في محلّ رفع معطوف على (إفكهم) " 4 " والعائد محذوف

---

(1) أو حال من الضمير العائد في الصلة المقدّرة .

(2) يجوز أن يكون حالا من المفعول الأول المقدّر ، والمفعول الثاني هو آلهة . . . وأجاز أبو البقاء نصبه على أنّه مفعول لأجله أي للتقرّب .

(3) وضمير الغائب يعود على الأصنام المعبّر عنه بالموصول (الذين) ، وفاعل اتّخذوهم يعود على الكافرين .

(4) يجوز أن يكون حرفا مصدريّا ، والمصدر المؤوّل معطوف على إفكهم .

(284/705)

وجملة : " لولا نصرهم الذين . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف السابقة وجملة : " اتّخذوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " ضلّوا عنهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " ذلك إفكهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " كانوا يفترون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) وجملة : " يفترون . . . " في محلّ نصب خبر كانوا

الصرف :

(24) عارض : اسم للسحاب الذي يعرض في الأفق كما جاء في المختار ، وزنه فاعل (مستقبل) ، اسم فاعل من السداسيّ استقبل ، وزنه مستفعل بضمّ الميم وكسر العين (ممطر) ، اسم فاعل من الرباعيّ أمطر ، وزنه مفعل بضمّ الميم وكسر العين (25) كلّ : اسم موضوع لاستغراق أفراد المتعدد ، أو لعموم أجزاء الواحد ، وزنه فعل بضمّ فسكون

الفوائد :

- لولا . .

تكلمنا عن (لولا) بالتفصيل في غير هذا الموضع . وسنتكلم عن جانب يخص الآية التي نحن بصددها ، فقد أفادت - في هذه الآية - معنى التوبيخ والتنديم في قوله تعالى : فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبانا آلِهَةً وإذا كانت لولا للتوبيخ والتنديم فإنها تختص بالماضي ، كما مر في الآية الكريمة ، وفي قوله تعالى : لَوْلا جاؤُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذا وهنا الفعل أخّر ، والتقدير (لولا قلتم) .

وأما قول جرير :

تعدون عقر النيب أفضل مجدكم بني ضوطري لولا الكمّي المقنّعا

فالفعل مضمر والتقدير (لولا عددتم الكمي) ومعنى النيب : النوق المسنة . وضوطرى : حمقاء .

وقد فصلت من الفعل بإذ وإذا وبجملة شرطية معترضة فبإذ مثل قوله تعالى : فَلَوْلا إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا وبإذا مثل قوله تعالى : فَلَوْلا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلكِنْ لا تُبْصِرُونَ فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ .

المعنى : فهلا ترجعون الروح إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مدينين ، وحالتكم أنكم تشاهدون ذلك ، ونحن أقرب إلى المحتضر منكم بعلمنا ، أو بالملائكة ، ولكنكم لا تشاهدون ذلك ، ولولا الثانية تكرار للأولى . ولا يخفى أن أهم استعمالات (لولا) أن تكون أداة شرط غير جازمة ، وهي حرف امتناع لوجود ، وتختص بالدخول على الاسم مثل " لولا المشقة ساد الناس كلهم " والاسم بعدها مبتدأ والخبر محذوف وجوبا ، وقد امتنعت سيادة الناس كلهم لوجود المشقة .

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 29 إلى 32]

وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (29) قالُوا يا قَوْمَنا إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (30) يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (31) وَمَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (32)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (إذ) اسم ظرفيّ في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر (إليك) متعلّق صرفنا ، (من الجنّ) متعلّق بنعت لـ (نفرا) ، (الفاء) عاطفة (لمّا) ظرف

بمعنى حين متضمّن معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بالجواب قالوا . . . (فلمّا قضي) مثل لمّا حضروا ، متعلّق بـ (ولّوا) ، وضمير نائب الفاعل يعود على القرآن الكريم (إلى قومهم) متعلّق بـ (ولوا) ، (منذرين) حال منصوبة من فاعل ولّوا . . .

(286/705)

جملة : " صرفنا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . . وجملة اذكر المقدّرة لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " يستمعون . . . " في محلّ نصب حال من (نفرا) وجملة : " حضروه . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم وجملة : " أنصتوا . . . " في محلّ نصب مقول القول وجملة : " قضي . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : " ولّوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم 30 - (من بعد) متعلّق بـ (أنزل) ، (لما) متعلّق بـ (مصدّقا) " 1 " ، (بين) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة ما (إلى الحقّ) متعلّق بـ (يهدي) ومثله (إلى طريق) معطوف على الأول .

---

(1) أو اللام زائدة للتقوية و(ما) موصول في محلّ نصب مفعول به لاسم الفاعل (مصدّقا) .

(287/705)

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ وجملة : " يا قومنا . . . " في محلّ نصب مقول القول وجملة : " إنّا سمعنا . . . " لا محلّ لها جواب النداء وجملة : " سمعنا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ وجملة : " أنزل . . . " في محلّ نصب نعت لـ (كتابا) وجملة : " يهدي . . . " في محلّ نصب حال من (كتابا) – أو نعت – ثان .

31 – (به) متعلّق بـ (آمنوا) ، (من ذنوبكم) متعلّق بـ (يغفر) مثله (لكم) ، و(من) تبعيضيّة (من عذاب) متعلّق بفعل (يجركم) .

وجملة : " يا قومنا (الثانية) " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول وجملة : " أجيبوا . . . " لا محلّ لها جواب النداء وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء وجملة : " يغفر . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء وجملة : " يجركم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب الشرط (الواو) عاطفة (من) اسم شرط جازم في محلّ رفع مبتدأ (لا) نافية (الفاء) رابطة لجواب الشرط (معجز) مجرور لفظا بالباء منصوب محلّا خبر ليس (في الأرض) متعلّق بـ (معجز) (له) متعلّق بخبر ليس الثاني (من دونه) متعلّق بحال من (أولياء) وهو اسم ليس (في ضلال) متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ (أولئك) .

وجملة : " من لا يجب . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء وجملة : " لا يجب . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ وجملة : " ليس بمعجز . . . " في محلّ جزم جواب

الشرط مقترنة بالفاء

وجملة : " ليس له . . . أولياء " في محلّ جزم معطوفة على جملة جواب الشرط وجملة : " أولئك في ضلال مبين " لا محلّ لها استئناف بيانيّ

الصرف :

(30) طريق : اسم جامد لما يسار عليه في سهل أو جبل ، وزنه فعيل

البلاغة

فن التنكيت : في قوله تعالى "يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ" .

أي يغفر لكم بعض ذنوبكم ، فمن للتبعيض ، وقد عبر بها إشارة إلى أنّه تعالى يغفر ما كان في خالص حق اللّه تعالى ، فإن حقوق العباد لا تغفر بالإيمان .

الفوائد :

استماع الجن للقرآن وإسلامهم . .

(288/705)

أفادت هذه الآية بأن النبي صلى اللّه عليه وسلم مرسل إلى الجن والإنس ، وبأن الجن مكلفون بالأوامر الشرعية . وخلاصة القصة : أن النبي (صلى اللّه عليه وسلم) ارتحل إلى

الطائف ليدعوها إلى الإسلام ، واجتمع بوجهائها ، ودعاهم ، فأبوا عليه وأغروا به سفهاءهم فآذوه حتّى أدموا قدميه ، فقفل راجعا إلى مكة ، حتى إذا كان ببطن نخلة ، قام من جوف الليل يصلي ، فمرّ به نفر من جن نصيبين ، كانوا قاصدين اليمن ، فاستمعوا له ، فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين ، وقد آمنوا به وأجابوا لما سمعوا القرآن ، فقص اللّه خبرهم عليه .

وفي حديث آخر ،

أن النبي (صلى اللّه عليه وسلم) قال لأصحابه : أمرت أن أقرأ على الجن الليلة ، فأيكم يتبعني ، فتبعه عبد اللّه بن مسعود . قال : فانطلقنا ، حتى إذا كنّا بأعلى مكة ، دخل نبي اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) شعب الحجون ، وخط لي خطا ، ثم أمرني أن أجلس فيه ، وقال لا تخرج منه حتّى أعود إليك ، فانطلق حتّى قام عليهم ، فافتتح القرآن ، فجعلت أرى مثال النسور تهوي ، وسمعت لغطا شديدا ، حتى خفت على نبي اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) ، وغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه ، حتى لا أسمع صوته . ثم طفقوا يتقطعون ، مثل قطع السحاب ، ذاهبين . ففرغ رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) منهم مع الفجر ، فانطلق إليّ فقال لي :

نمت ؟ فقلت : لا واللّه يا رسول اللّه ، قد هممت مرارا أن أستغيث بالناس ، حتى سمعتك تقرعهم بعصاك تقول لهم : اجلسوا . فقال : لو خرجت لم آمن عليك أن يتخطفك بعضهم . ثم قال : هل رأيت شيئا ، قلت : نعم رأيت رجالا سودا عليهم ثياب بيض ، قال : أولئك جن نصيبين ، سألوني المتاع ، والمتاع الزاد ، فمتعتهم بكل عظم حائل وروثة وبعرة . أما العظم فطعامهم ، وأما الروث والبعر فعلف دوابهم . فقالوا يا رسول اللّه يقذرها الناس علينا ، فنهى النبي (صلى اللّه عليه وسلم) أن يستنجى بالعظم والروث .

قال : فقلت : يا رسول اللّه وما يغني ذلك عنهم ، فقال : إنهم لا يجدون عظما إلا وجدوا عليه لحمه يوم أكل ، ولا روثة إلا وجدوا فيها حبها يوم أكلت . فقلت : يا رسول اللّه سمعت لغطا شديدا ، فقال : إن الجن تدارءت في قتيل قتل بينهم ، فتحاكموا إلي ، فقضيت بينهم بالحق .

وفي الجن ملل كثيرة مثل الإنس ، ففيهم اليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأصنام . وأطبق المحققون من العلماء على أن الكل مكلفون . سئل ابن عباس هل للجن ثواب فقال : نعم ، لهم ثواب وعليهم عقاب .

[سورة الأحقاف (46) : آية 33]

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ

الْمَوْتى بَلى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (33)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ (الواو) عاطفة (الذي) موصول في محلّ نصب نعت للفظ الجلالة (الواو) عاطفة (بخلقهنّ) متعلّق بـ (يعي) ، (قادر) مجرور لفظا مرفوع محلّا خبر أنّ . . . " 1 "

والمصدر المؤوّل (أنّ اللّه . . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي يروا

---

(1) زيدت الباء في خبر أنّ ، والكلام مثبت ، لأنّ المعنى على تقدير أليس اللّه بقادر ، والقاعدة الكلّية في النحو تقول : قد يعطى الشيء حكم ما أشبهه في معناه .

والمصر المؤوّل (أن يحيى . . .) في محلّ جرّ بـ (على) متعلّق بـ (قادر) (بلى) حرف جواب لإقرار نقيض النفي أي هو قادر على إحياء الموتى (على كلّ) متعلّق بـ (قدير) جملة : " يروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي أغفلوا ولم يروا . .

وجملة : " خلق . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) وجملة : " لم يعي . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة وجملة : " يحيى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن)

وجملة : " إنّه . . . قدير " لا محلّ لها تعليل للجواب المقدّر

الصرف :

(يعي) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم ، أصله يعيا ، . وزنه يفع

البلاغة

المجاز المرسل : في قوله تعالى " وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ " أي لم يتعب ولم ينصب بذلك أصلا ، أو لم يعجز عنه . والتعب هو سبب الانقطاع عن العمل أو النقص فيه والتأخر في إنجازه . فعلاقة هذا المجاز هي السببية .

[سورة الأحقاف (46) : آية 34]

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى وَرَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (34)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بفعل محذوف تقديره يقال . . . (على النار) متعلّق بـ (يعرض) ، (الهمزة) للاستفهام (الحقّ) مجرور لفظا بالباء منصوب محلّا خبر ليس (بلى) حرف جواب (الواو)

واو القسم (ربّنا) مجرور بالواو ، والجارّ والمجرور متعلّق بفعل محذوف تقديره أقسم (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (ما) حرف مصدريّ ، و(الباء) للسببيّة . . .

والمصدر المؤوّل (ما كنتم . . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (ذوقوا) جملة : " (يقال) يوم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " يعرض الذين . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " أليس هذا بالحقّ . . . " في محلّ رفع نائب الفاعل وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ . . . ومقول القول محذوف بعد حرف الجواب أي : بلى هو الحقّ وجملة القسم : " ربّنا . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " ذوقوا . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن أقررتم بالكفر فذوقوا . . .

وجملة : " كنتم تكفرون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) وجملة : " تكفرون " في محلّ نصب خبر كنتم

[سورة الأحقاف (46) : آية 35]

فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ (35)

الإعراب :

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (ما) حرف مصدريّ (من الرسل) متعلّق بحال من (أولو العزم) والمصدر المؤوّل (ما صبر . . .) في محلّ جرّ بالكاف متعلّق بمحذوف مفعول مطلق أي صبرا كصبر أولي العزم.

(292/705)

(الواو) عاطفة (لا) ناهية (لهم) متعلّق بـ (تستعجل) ، (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يلبثوا) ، (ما) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به ، والعائد محذوف ، و(الواو) في (يوعدون) نائب الفاعل (إلّا) للحصر (ساعة) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يلبثوا) ، (من نهار) متعلّق بنعت لـ (ساعة) (بلاغ) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذا - أو هو - والإشارة إلى القرآن أو التشريع . . . (الفاء) استئنافيّة (هل) للاستفهام فيه معنى النفي (إلّا) للحصر (القوم) نائب الفاعل مرفوع جملة : " اصبر . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن أوذيت فاصبر وجملة : " صبر أولو العزم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) وجملة : " لا تستعجل . . . " معطوفة على جملة جواب الشرط وجملة : " كأنّهم . . . لم يلبثوا " لا محلّ لها تعليليّة - أو استئناف بياني - وجملة : " يرون . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة : " يوعدون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) وجملة : " لم يلبثوا . . . " في محلّ رفع خبر كأنّ وجملة : " (هذا) بلاغ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " يهلك إلّا القوم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة

الصرف :

(ساعة) ، اسم للوقت المعروف المحدّد ، وزنه فعلة بفتح الفاء والعين واللام ، وفيه إعلال بالقلب ، أصله سوعة بفتح الأحرف الثلاثة ، تحرّكت الواو بعد فتح قلبت ألفا .

الفوائد

- أولو العزم من الرسل . .

(293/705)

ورد في هذه الآية ذكر أولي العزم من الرسل . وقال ابن عباس : معنى أولي العزم ذوو الحزم . وقال الضحاك : ذوو الجد والصبر ، واختلف العلماء في أولى العزم من الرسل . فقال ابن زيد : كل الرسل كانوا أولى عزم ، وكل الأنبياء ذوو حزم وصبر ورأي وكمال وعقل . وهذا القول هو اختيار الإمام فخر الدين الرازي ، لأن لفظ (من) في قوله من الرسل للتبيين لا للتبعيض ، كما تقول ثوب من خز وقال قوم هم نجباء الرسل ، المذكورون في سورة الأنعام .

وهم ثمانية عشر ، لقوله بعد ذكرهم (أولئك الذين هدى اللّه فبهداهم اقتده) . وقال الكلبي : هم الذين أمروا بالجهاد وأظهروا المكاشرة لأعداء اللّه . وقيل : هم ستة : نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى . وهم المذكورون على النسق في سورة الأعراف والشعراء وقال مقاتل : هم ستة : نوح صبر على أذى قومه ، وإبراهيم صبر على النار ، ويعقوب صبر على فقد ولده وغشاوة بصره ، ويوسف صبر على الجب والسجن ، وأيوب صبر على الضر وقال ابن عباس وقتادة : هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، صلى اللّه عليهم أجمعين ، فهم أصحاب الشرائع ، وقد ذكرهم اللّه على التخصيص والتعيين في قوله وَإِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، و

روى البغوي بسنده عن عائشة قالت : قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) : إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد يا عائشة ، إن اللّه لم يرض من أولي العزم إلا بالصبر على مكروهها ، ولم يرض إلا أن كلفني ما كلفهم ، فقال : (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) وإني واللّه لا بد لي من طاعته ، واللّه لأصبرن كما صبروا ، ولأجهدن ، ولا قوة إلا باللّه . والقول الأخير هو أرجح . هذه الأقوال واللّه أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الجدول حـ 26 صـ 167.204﴾

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(46) سورة الأحقاف

مكيّة وآياتها خمس وثلاثون

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (3) قُلْ أَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ ائْتُونِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (4)

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ (5)

اللغة :

(الأثارة) بفتح الهمزة بقية من علم والمكرمة المتوارثة والفعل المجيد من قولهم سمنت الناقة على أثارة من شحم وهي البقية منه ، وعن ابن الأعرابي أغضبني فلان على أثارة غضب أي على أثر غضب كان قبل ذلك ، وهم أثارة من علم أي بقية منه يأثرونها عن الأولين ويقال

: لبني فلان أثارة من شرف إذا كانت عندهم شواهد قديمة وفي غير ذلك ، قال الراعي :

وذات أثارة أكلت علينا نباتا في أكمته قفارا

أي بقية من شحم ، وقال الواحدي : وكلام أهل اللغة في هذا الحرف يدور على ثلاثة أقوال : الأول الأثارة واشتقاقها من أثرت الشيء أثيره أثارة كأنها بقية تخرج فتستثار والثاني من الأثر الذي هو الرواية والثالث من الأثر بمعنى العلامة .

الإعراب :

(295/705)

(حم تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) حم تقدم القول في فواتح السور وتنزيل الكتاب خبر لمبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره من اللّه والعزيز الحكيم نعتان (ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى) ما نافية وخلقنا السموات فعل وفاعل ومفعول به وإلا أداة حصر وبالحق صفة لمصدر محذوف أي خلقا ملتبسا بالحق والواو حرف عطف وأجل عطف على الحق ومسمى صفة (وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ) الواو عاطفة والذين مبتدأ وجملة كفروا صلة وعمّا متعلقان بمعرضون وجملة أنذروا صلة والعائد محذوف أي عن الذي أنذروه ومعرضون خبر الذين ويجوز أن تكون ما

مصدرية أي عند إنذارهم ذلك اليوم (قُلْ أَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ) قل فعل أمر وفاعل مستتر وأرأيتم فعل وفاعل وما مفعول به وجملة تدعون صلة ومن دون اللّه حال وأروني فعل أمر وفاعله ومفعوله والجملة توكيد لأرأيتم وجملة ماذا خلقوا مفعول أرأيتم الثاني وماذا مفعول مقدم لخلقوا أو ما مبتدأ وذا اسم موصول خبره وجملة خلقوا صلة ويجوز أن لا تكون أروني توكيدا لأرأيتم فتكون المسألة من باب التنازع لأن أرأيتم يطلب مفعولا ثانيا وأروني كذلك وقوله ماذا خلقوا هو المتنازع فيه . ونص عبارة أبي حيان : " قل أرأيتم ما تدعون معناه

(296/705)

أخبروني عن الذين تدعون من دون اللّه وهي الأصنام أروني ماذا خلقوا من الأرض استفهام توبيخ ومفعول أرأيتم الأول هو ما تدعون وماذا خلقوا جملة استفهامية يطلبها أرأيتم لأن مفعولها الثاني يكون استفهاما ويطلبها أروني على سبيل التعليق فهذا من باب الإعمال أعمل الثاني وحذف مفعول أرأيتم الثاني ويمكن أن يكون أروني توكيدا لأرأيتم بمعنى أخبروني كأنها بمعنى واحد . وقال ابن عقبة : يحتمل أرأيتم وجهين أحدهما أن

تكون متعدية وما مفعولة بها ويحتمل أن تكون أرأيتم منبهة لا تتعدى وتكون ما استفهاما على معنى التوبيخ وتدعون معناه تعبدون " ا .

(297/705)

ه وكون أرأيتم لا تتعدى وأنها منبهة فيه شيء قاله الأخفش في قوله : قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة والذي يظهر أن ما تدعون مفعول أرأيتم كما هو في قوله قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون في سورة فاطر وتقدم الكلام على نظير هذه الجملة فيها وقد أمضى الكلام في أرأيتم في سورة الأنعام " ومن الأرض حال لأنها تفسير للمبهم في ماذا خلقوا (أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ ائْتُونِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ) أم بمعنى همزة الإنكار وبل الإضرابية فهي منقطعة كأنه أضرب عن الاستفهام الأول إلى الاستفهام عن أن لهم مشاركة مع اللّه في خلق السموات والأرض فإن الشرك بمعنى المشاركة ولهم خبر مقدم وشرك مبتدأ مؤخر وفي السموات متعلقان بشرك وائتوني فعل أمر وفاعل ومفعول به والجملة من تتمة المقول وبكتاب متعلقان بائتوني ومن قبل هذا صفة لكتاب أي كائن من قبل هذا وأو حرف عطف وأثارة عطف على بكتاب ومن علم صفة لأثارة وإن شرطية وكنتم فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط والجواب محذوف تقديره فائتوني وصادقين

خبر كنتم (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ) الواو استئنافية ومن اسم استفهام معناه الإنكار في محل رفع مبتدأ وأضل خبر وممّن متعلقان بأضل وجملة

يدعو صلة من ومن دون اللّه حال ومن مفعول يدعو وجملة لا يستجيب له صلة ، وأجازوا في من أن تكون نكرة تامة موصوفة فتكون جملة لا يستجيب له صفة وإلى يوم القيامة حال وسيأتي معنى الغاية في باب البلاغة (وَهُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ) الواو حالية وهم مبتدأ وعن دعائهم متعلقان بغافلون وغافلون خبر هم والجملة في موضع نصب على الحال .

البلاغة :

(298/705)

---

1 - في قوله : إلى يوم القيامة نكتة بلاغية رائعة وذلك أنه جعل يوم القيامة غاية لعدم الاستجابة ومن شأن الغاية انتهاء المعنى عندها لكن عدم الاستجابة مستمر بعد هذه الغاية لأنهم في القيامة أيضا لا يستجيبون لهم فالوجه أنها من الغايات المشعرة بأن ما بعدها وإن وافق ما قبلها إلا أنه أزيد منه زيادة بيّنة تلحقه بالثاني حتى كأن الحالتين وإن كانتا نوعا واحدا لتفاوت ما بينهما كالشيء وضدّه وذلك أن الحالة الأولى التي جعلت غايتها القيامة

لا تزيد على عدم الاستجابة والحالة الثانية التي في القيامة زادت على عدم الاستجابة بالعداوة وبالكفر بعبادتهم إياهم فهو من وادي ما تقدم في سورة الزخرف في قوله بل متّعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين ولما جاء الحق قالوا : هذا سحر وإنّا به كافرون .

2- التغليب : وغلب العاقل على غير العاقل على سبيل المجازاة لأن عابدي الأصنام كانوا يصفونها بالتمييز جهلا وغباوة .

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 6 إلى 9]

وَإِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً وَكانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ (6) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (7) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ كَفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (8) قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى إِلَيَّ وَما أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (9)

اللغة :

)

بِدْعاً) فيه وجهان أحدهما أن يكون مصدرا فيكون على حذف مضاف تقديره ذا بدع والثاني أن البدع بنفسه صفة على فعل بمعنى بديع كالخف والخفيف والحب والحبيب وقد تقدم القول في البديع مسهبا وأنه ما لم ير له مثيل من الابتداع وهو الاختراع.

الإعراب:

(وَإِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً وَكانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ) الواو حرف عطف وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة حشر الناس في محل جر بإضافة الظرف إليها والناس نائب فاعل وجملة كانوا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وكان واسمها ولهم حال وأعداء خبر كانوا وكانوا عطف على وكانوا الأولى وبعبادتهم متعلقان بكافرين والهاء مضافة إلى عبادة من إضافة المصدر إلى مفعوله أي بكونهم معبودين وكافرين خبر كانوا (وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ هذا سِحْرٌ مُبِينٌ) الواو عاطفة وإذا تتلى عليهم

آياتنا عطف على ما تقدم وبيّنات حال وجملة قال الذين كفروا جواب إذا لا محل لها وللحق متعلقان بقالوا وعبارة أبي حيان " واللام في للحق لام الصلة أي لأجل الحق " ولما ظرفية حينية أو رابطة ، وجاءهم فعل ومفعول به وفاعل مستتر وهذا مبتدأ وسحر خبر ومبين نعت والجملة مقول قولهم (أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً) أم بمعنى بل وهمزة الاستفهام الإنكاري أضرب عن ذكر تسميتهم إياه سحرا إلى ذكر قولهم أن محمدا افتراه ونسج أسلوبه من صنعه وذلك أشدّ سماجة من قبله وإن كانا ينبعان من مصدر واحد موغل في الضلالة والكفر ، وجملة افتراه مقول قولهم ، وقل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وإن شرطية وافتريته فعل وفاعل ومفعول به والفاء رابطة لجواب الشرط ولا نافية وتملكون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله ولي جار ومجرور متعلقان بتملكون ومن اللّه حال لأنه كان في الأصل صفة وتقدم على موصوفة وشيئا مفعول به (هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ) الجملة حالية وهو مبتدأ وأعلم خبر وبما متعلقان بأعلم وجملة تفيضون فيه صلة ما (كَفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) كفى فعل ماض والباء حرف جر زائد والهاء ضمير مجرور لفظا في موضع رفع بالفاعلية وشهيدا تمييز وبيني ظرف متعلق بشهيدا وبينكم ظرف معطوف على مثله والواو عاطفة وهو مبتدأ والغفور الرحيم خبران له (قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ) قل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وما نافية وكان واسمها وبدعا خبرها ومن الرسل نعت

لبدعا وما عطف على ما النافية الأولى وأدري فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره نحن وما اسم استفهام في محل رفع مبتدأ وجملة يفعل بالبناء للمجهول خبرها وهي معلقة لأدري عن

(301/705)

العمل فتكون سادّة مسدّ مفعوليها ، وقال الزمخشري : " وما في ما يفعل يجوز أن تكون موصولة منصوبة وأن تكون استفهامية مرفوعة " وبي متعلقان

بيفعل ولا بكم عطف عليه (إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ وَما أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ) إن نافية وأتبع فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره أنا وإلا أداة حصر وما مفعول أتبع وجملة يوحى إليّ صلة والواو حرف عطف وما نافية وأنا مبتدأ وإلا أداة حصر ونذير خبر ومبين نعت .

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 10 إلى 14]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ (11) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً وَهذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ لِساناً عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرى لِلْمُحْسِنِينَ

(12) إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (13) أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (14)

الإعراب :

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ) جملة أرأيتم مقول القول ومفعولا أرأيتم محذوفان تقديرهما أرأيتم حالكم إن كان كذا ألستم ظالمين وجواب الشرط محذوف أيضا تقديره فقد ظلمتم وقدّره الزمخشري ألستم ظالمين ورد عليه أبو حيان بأنه لو كان كذلك لوجبت الفاء لأن الجملة الاستفهامية متى وقعت جوابا للشرط ألزمت الفاء ثم

إن كانت أداة الاستفهام همزة تقدمت على الفاء نحو إن تزرنا أفما نكرمك وإن كانت غيرها تقدمت الفاء عليها نحو إن تزرنا فهل ترى ألا خيرا وقيل جواب الشرط فآمن واستكبرتم وقيل هو محذوف تقديره فمن المحق منّا ومن المبطل وقيل فمن أضلّ واسم كان ضمير مستتر تقديره هو ومن عند اللّه خبرها وكفرتم الواو عاطفة وجملة كفرتم عطف على فعل الشرط واختار الجلال والسمين أن تكون حالية وبه متعلقان بكفرتم (وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ) الواو عاطفة وشهد شاهد فعل وفاعل ومن بني إسرائيل صفة لشاهد

وعلى مثله متعلقان بشهد والضمير يعود إلى القرآن أي على مثل القرآن من المعاني الموجودة في التوراة المطابقة له من إثبات التوحيد والبعث والنشور وغير ذلك وهذه المثلية هي باعتبار تطابق المعاني وإن اختلفت الألفاظ (فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) الفاء عاطفة وآمن فعل وفاعل مستتر تقديره هو أي الشاهد واستكبرتم عطف على فآمن وإن واسمها وجملة لا يهدي القوم الظالمين خبر (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ) الواو عاطفة وقال الذين فعل وفاعل وجملة كفروا صلة وللذين متعلقان بقال وجملة آمنوا صلة ولو شرطية وكان فعل ماض ناقص واسمها مستتر يعود على ما جاء به محمد وخيرا خبرها وما نافية وسبقونا فعل وفاعل ومفعول به وإليه متعلقان بسبقونا والجملة مقول القول وجملة ما سبقونا إليه لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم (وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ) الواو عاطفة وإذ ظرف ماض متعلق بمحذوف تقديره ظهر عنادهم وتسبّب عنه قوله فسيقولون ولا يعمل في إذ فسيقولون لتضاد الزمانين ولأجل الفاء أيضا وقيل إن لم يكن مانع من عمل فسيقولون في الظرف إلا تنافي دلالتي المضي

(303/705)

و الاستقبال فهذا غير مانع فإن الاستقبال ها هنا إنما خرج مخرج الإشعار بدوام ما وقع ومضى لأن القوم قد حرموا الهداية وقالوا هذا إفك قديم

وأساطير الأولين وغير ذلك فمعنى الآية إذن وقالوا إذا لم يهتدوا به هذا إفك قديم وداموا على ذلك وأصرّوا عليه فعبّر عن وقوعه ثم دوامه بصيغة الاستقبال كما قال إبراهيم إلا الذي فطرني فإنه سيهدين وقد كانت الهداية واقعة وماضية ولكن أخبر عن وقوعها ثم دوامها فعبّر بصيغة الاستقبال وهذا طريق الجمع بين قوله سيهدين وقوله في الأخرى فهو يهدين ولو لا دخول الفاء على الفعل لكان هذا الذي ذكرناه هو الوجه ولكن الفاء المسبّبة دلّت بدخولها على محذوف هو السبب وقطعت الفعل عن الظرف المتقدم فوجب تقدير المحذوف عاملا فيه .

وقال أبو السعود في تفسيره " وإذا لم يهتدوا به ظرف لمحذوف يدل عليه ما قبله ويترتب عليه ما بعده أي وإذ لم يهتدوا بالقرآن قالوا ما قالوا فسيقولون غير مكتفين بنفي خبريته هذا إفك قديم كما قالوا أساطير الأولين وقيل المحذوف ظهر عنادهم وليس بذاك " . وعبارة الكرخي " قوله وإذ لم يهتدوا ظرف لمحذوف مثله ظهر عنادهم لا لقوله فسيقولون فإنه للاستقبال وإذ للمضي ويجوز أن يقال إن إذ للتعليل لا للظرف أو يقال فسيقولون للاستمرار في الأزمنة الثلاث والسين لمجرد التأكيد وأما الفاء فلا تمنع من العمل فيما قبلها نصّ عليه الرضي وغيره والتسبب يجوز أن يكون عن كفرهم " .

(304/705)

و لم حرف نفي وقلب وجزم ويهتدوا فعل مضارع مجزوم بلم والواو فاعل والفاء عاطفة والسين حرف استقبال ويقولون فعل مضارع مرفوع وفاعل وهذا مبتدأ وإفك خبر وقديم صفة والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول (وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً) الواو استئنافية ومن قبله جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم وكتاب موسى مبتدأ مؤخر وإماما ورحمة حالان من كتاب موسى والتقدير وكتاب موسى كائن من قبل القرآن في حال كونه إماما ورحمة (وَهذا كِتابٌ
مُصَدِّقٌ لِساناً عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرى لِلْمُحْسِنِينَ)

(305/705)

الواو عاطفة وهذا مبتدأ وكتاب خبر ومصدّق صفة ولسانا حال من الضمير في مصدّق أو من كتاب والعامل فيه معنى الإشارة ، وأعربه أبو البقاء مفعولا به لمصدّق وعلى هذا تكون الإشارة إلى غير القرآن وقيل هو منصوب بنزع الخافض أي بلسان عربي ، وأجاز أبو حيان

جميع هذه الأوجه . واللام للتعليل وينذر فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والجار والمجرور متعلقان بمصدق أو هو في محل نصب مفعول لأجله والذين مفعول به وجملة ظلموا صلة وبشرى عطف على محل لينذر إن كان مفعولا لأجله ويجوز أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف أي وهو بشرى وللمحسنين نعت لبشرى (إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا) إن واسمها وجملة قالوا صلة وربنا مبتدأ والله خبر ويجوز العكس وثم حرف عطف وجملة استقاموا عطف على جملة قالوا . (فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) الفاء زائدة في خبر إن لما في الموصول من رائحة الشرط وقال السمين : والفاء زائدة في خبر الموصول لما فيه من معنى الشرط ولم تمنع إن من ذلك لبقاء معنى الانتداب بخلاف لعل وليت وكأن ، وسيبويه يرى تقدير حذف إن ثم دخلت الفاء في خبر الذين ، ولا نافية وخوف مبتدأ ساغ الابتداء به لتقدم النفي وعليهم خبر ، ولا هم يحزنون عطف على الجملة السابقة وجملة فلا خوف عليهم خبر إن (أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ) أولئك مبتدأ وأصحاب الجنة خبره وخالدين فيها حال وجزاء مصدر منصوب بفعل محذوف أي يجزون جزاء وأجاز أبو البقاء إعرابه حالا ، وبما متعلقان بجزاء وما موصولة أو مصدرية وكان واسمها وجملة يعملون خبرها والجملة خبر ثان لإن .

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 15 إلى 17]

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إِحْسانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحًا تَرْضاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15) أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ فِي أَصْحابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ (16) وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما أَتَعِدانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُما يَسْتَغِيثانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ ما هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17)

اللغة :

(وَفِصالُهُ) في المختار : " الفصال هو الفطام ، وقرئ وفصله والفصل والفصال كالعظم والعظام بناء ومعنى وسيأتي المراد به في باب البلاغة .

و(بَلَغَ أَشُدَّهُ) تقدم تفسير الأشد وعبارة الكشاف : " بلوغ الأشد أن يكتهل ويستوفي السن التي تستحكم فيها قوته وعقله وتمييزه وذلك إذا أناف على الثلاثين وناطح الأربعين " .

(أَوْزِعْنِي) ألهمني وقد تقدم تفسيرها .

الإعراب :

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إِحْساناً) كلام مستأنف مسوق لبيان العبرة في اختلاف حال الإنسان مع أبويه فقد يطيعهما وقد يخالفهما وما دام

(307/705)

الإنسان مركوزا على هذه السجية فلا يبعد مثل هذا مع النبي صلى اللّه عليه وسلم.

ووصينا فعل وفاعل والإنسان مفعول به وبوالديه متعلقان بوصّينا وإحسانا مصدر منصوب بفعل محذوف أي وصّيناه أن يحسن إليهما إحسانا وقيل هو مفعول به على تضمين وصينا معنى ألزمنا فيكون مفعولا ثانيا وقيل بل هو منصوب على أنه مفعول من أجله أي وصيناه بهما إحسانا منّا إليهما وقرئ حسنا وإعرابه كما تقدم (حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً) الجملة لا محل لها لأنها تعليلية للوصية المذكور وحملته أمه فعل ماض ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر وكرها بضم الكاف وفتحها وقد قرئ بهما وهو منصوب على الحال من الفاعل أي ذات كره ويجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف أي حملا كرها ووضعته كرها عطف على ما تقدم (وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً) الواو حالية وحمله مبتدأ وفصاله عطف على حمله وثلاثون خبر وشهرا تمييز (حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً) حتى حرف غاية وجر أي وعاش إلى أن بلغ أشدّه وإذا ظرف مستقبل وجملة بلغ أشده في محل

جر بإضافة الظرف إليها وبلغ عطف على بلغ الأولى وأربعين مفعول به وسنة تمييز ولا بدّ من تقدير مضاف أي تمام أربعين (قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ) جملة قال لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ورب منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة وقد تقدم تقريره وأوزعني فعل أمر للدعاء وأن وما في حيزها في محل نصب مفعول أوزعني ونعمتك مفعول أشكر والتي صفة نعمتك وجملة أنعمت عليّ صلة وأن أعمل عطف على أن أشكر وصالحا مفعول به أو صفة لمصدر محذوف وجملة ترضاه صفة لعملا (وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) وأصلح عطف على أوزعني

(308/705)

ولي متعلقان بأصلح وفي ذريتي متعلقان بمحذوف حال وعبارة الزمخشري : " فإن قلت ما معنى وأصلح لي في ذريتي ؟

قلت معناه أن يجعل ذريته موقعا للصلاح ومظنة له كأنه قال هب لي الصلاح في ذريتي وأوقعه فيهم " وأحسن من ذلك عبارة الشهاب الخفاجي في حاشيته على البيضاوي : " يعني كان الظاهر أصلح لي ذريتي لأن الإصلاح متعدّ كما في قوله تعالى وأصلحنا له زوجه فقيل أنه

عدّي بفي لتضمنه معين اللطف أي الطف بي في ذريتي أو هو نزل منزلة اللازم ثم عدي بفي ليفيد سريان الصلاح فيهم وكونهم كالظرف له لتمكنه فيهم وهذا ما أراده المصنف وهو الأحسن " وإن واسمها وجملة تبت خبرها وإليك متعلقان بتبت وإني من المسلمين عطف على إني تبت إليك (أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا) أولئك مبتدأ والذين خبره وجملة نتقبل عنهم صلة وأحسن مفعول به وما موصول مضاف إليه وجملة عملوا صلة ويجوز أن تكون ما مصدرية أي أحسن عملهم (وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ فِي أَصْحابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ) ونتجاوز عطف على نتقبل داخل في حيز الصلة وعن سيئاتهم متعلقان بنتجاوز وفي أصحاب الجنة حال وعبارة الزمخشري " فإن قلت ما معنى قوله في أصحاب الجنة قلت هو نحو قولك أكرمني الأمير في ناس من أصحابه تريد أكرمني في جملة من أكرم منهم ونظمني في عدادهم ومحله النصب على الحال على معنى كائنين من أصحاب الجنة ومعدودين فيهم " وأجاز أبو البقاء وغيره أن يكون الجار والمجرور في موضع رفع على أنه خبر مبتدأ مضمر أي هم في أصحاب الجنة .

(309/705)

و وعد الصدق مصدر منصوب بفعله المقدّر أي وعدهم اللّه وعد الصدق أي وعدا صادقا وهو مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة والذي صفة لوعد الصدق وجملة كانوا يوعدون صلة الموصول وجملة يوعدون خبر كانوا ويوعدون فعل مضارع مرفوع مبني للمجهول والواو نائب فاعل (وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما) والذي مبتدأ سيأتي خبره فيما بعد وجملة قال صلة ولوالديه متعلقان بقال وأفّ اسم فعل مضارع معناه أتضجر وقد تقدم القول فيه ولكما

(310/705)

جار ومجرور في محل نصب على الحال لأن اللام للبيان (أَتَعِدانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي) الهمزة للاستفهام الإنكاري وتعدانني فعل مضارع مرفوع وفاعل ومفعول به وأن أخرج في تأويل مصدر مفعول ثان لتعدانني أو نصب على نزع الخافض وأخرج فعل مضارع مبني للمجهول ، وقد الواو حالية وقد حرف تحقيق وخلت القرون فعل وفاعل ومن قبلي متعلقان بخلت (وَهُما يَسْتَغِيثانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ ما هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ) الواو للحال وهما مبتدأ وجملة يستغيثان في محل رفع خبر المبتدأ ولفظ الجلالة مفعول به ، واستغاث يتعدى بنفسه تارة وبالباء أخرى ولكنه لم يرد في القرآن إلا

متعديا بنفسه ، وقال الرازي : " معناه يستغيثان باللّه من كفره فلما حذف الجار وصل الفعل ، وقيل : الاستغاثة الدعاء فلا حاجة إلى الباء " وويلك مصدر أمات العرب فعله والجملة معمولة لقول مقدّر أي يقولان ويلك آمن والجملة في محل نصب على الحال أي يستغيثان اللّه قائلين ، وعبارة أبي البقاء : " وويلك مصدر لم يستعمل فعله وقيل هو مفعول به أي ألزمك اللّه ويلك " وآمن فعل أمر من الإيمان وهو من جملة مقولهما وإن واسمها وخبرها والجملة تعليلية للأمر لا محل لها والفاء عاطفة على القول المحذوف وما نافية وهذا مبتدأ وإلا أداة حصر وأساطير الأولين خبر هذا والجملة مقول القول .

البلاغة :

في قوله " وحمله وفصاله ثلاثون شهرا " مجاز مرسل علاقته المجاورة لأن الفصال هو الفطام وأريد به هنا مدته التي يعقبها الفطام .

الفوائد :

1 - تضمنت هذه الآيات تعليمات فريدة في برّ الوالدين لأن إكرامهما من العمل الذي يحبه اللّه تعالى ويساوي ثواب الجهاد في

سبيله ولا غرو فقد قرن اللّه رضاه برضاهما وقد تقدم ذلك في سورة النساء حيث يقول تعالى : " واعبدوا اللّه ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا " وقال تعالى في سورة العنكبوت " ووصّينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إليّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون " وقد أخرج مسلم من طريق مصعب بن سعد عن أبيه قال : حلفت أم سعد لا تكلمه أبدا حتى يكفر بدينه قالت : زعمت أن اللّه أوصاك بوالديك فأنا أمك وأنا آمرك بهذا فنزلت الآية ، وعن أبي بكرة رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم :

ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثا ؟ قلنا : بلى يا رسول اللّه قال الإشراك باللّه وعقوق الوالدين وكان متكئا فجلس فقال ألا وقول الزور وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت رواه البخاري ومسلم والمعنى تمنينا أنه يسكت إشفاقا عليه لما رأوا من أثر انزعاجه في ذلك ، وقال ابن دقيق العيد : اهتمامه صلى اللّه عليه وسلم بشهادة الزور يحتمل أن يكون لأنها أسهل وقوعا على الناس والتهاون بها أكثر ومفسدتها أكثر وقوعا لأن الشرك ينبو عنه المسلم والعقوق ينبو عنه الطبع وأما قول الزور فإن الحوامل عليه كثيرة فحسن الاهتمام بها وليس ذلك لعظمها بالنسبة إلى ما ذكر معها .

2- مدة الحمل : قال أبو حيان : وحمله وفصاله ثلاثون شهرا أي ومدة حمله وفصاله وهذا لا يكون إلا بأن يكون أحد الطرفين ناقصا إما بأن تلد المرأة لستة أشهر وترضع عامين وإما

أن تلد لتسعة أشهر على العرف وترضع عامين غير ربع عام فإن زادت مدة الحمل نقصت مدة الرضاع فمدة الرضاع عام وتسعة أشهر وإكمال العامين لمن أراد أن يتم الرضاعة وقد كشفت التجربة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر كنص القرآن ، وقال جالينوس : كنت شديد الفحص عن مقدار زمن الحمل

(312/705)

فرأيت امرأة ولدت لمائة وأربع وثمانين ليلة وزعم ابن سينا أنه شاهد ذلك وأما أكثر الحمل فليس في القرآن ما يدل عليه وحكي عن أرسطاطاليس أنه قال : إن مدة الحمل لكل الحيوان مضبوطة سوى الإنسان فربما وضعت لسبعة أشهر ولثمانية وقلّما يعيش الولد في الثامن إلا في بلاد معينة مثل مصر .

3- لطيفة : ذكر تعالى الأم في ثلاث مراتب : في قوله بوالديه وحمله وإرضاعه المعبّر عنه بالفصال ، وذكر الوالد في واحدة في قوله بوالديه فناسب ما قال الرسول من جعل ثلاثة أرباع البرّ للأم والربع للأب في قول الرجل : يا رسول اللّه من أبرّ ؟ قال أمك قال ثم من ؟ قال أمك قال ثم من ؟ قال أمك قال ثم من ؟ قال أباك .

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 18 إلى 26]

أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا
خاسِرِينَ (18) وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (19) وَيَوْمَ
يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِها فَالْيَوْمَ
تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (20)
وَاذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا
إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21) قالُوا أَجِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا فَأْتِنا بِما
تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22)

(313/705)

قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ وَلكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (23) فَلَمَّا رَأَوْهُ
عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ
أَلِيمٌ (24) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلَّا مَساكِنُهُمْ كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ
الْمُجْرِمِينَ (25) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصاراً وَأَفْئِدَةً فَما
أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللَّهِ
وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (26)

اللغة :

(الأحقاف) قال في القاموس : " الحقف بالكسر المعوج من الرمل والجمع أحقاف وحقاف وحقوف وجمع الجمع حقائف وحقفة أو الرمل العظيم المستدير أو المستطيل المشف أو هي رمال مستطيلة بناحية الشحر " وقال شارحه في التاج : " وبه فسر قوله تعالى " واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف " قال الجوهري : وهي ديار عاد وقال ابن عرفة قوم عاد كانت منازلهم بالرمال وهي الأحقاف وفي المعجم : وروي عن ابن عباس أنها واد بين عمان وأرض مهرة وقال ابن إسحق : الأحقاف رمل فيما بين عمان إلى حضرموت وقال قتادة : الأحقاف رمال مشرفة على

هجر بالشحر من أرض اليمن ، قال ياقوت : فهذه ثلاثة أقوال غير مختلفة في المعنى " وفي القاموس أيضا : " الشجر كالمنع فتح الفم وساحل البحر بين عمان وعدن ويكسر " وقال أبو حيان : " الحقف رمل مستطيل مرتفع فيه اعوجاج وانحناء ومنه احقوقف الشيء اعوج قال امرؤ القيس :

فلما أجزنا ساحة الحيّ وانتحى بنا بطن خبت ذي حقاف عقنقل

(314/705)

قال شارحه الزوزني : " والحقف رمل مشرف معوج والجمع أحقاف وحقاف " وعبارة الكشاف : " الأحقاف جمع حقف وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء من احقوقف الشيء إذا اعوجّ وكانت عاد أصحاب عمد يسكنون بين رمال مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشحر من بلاد اليمن وقيل بين عمان ومهرة " وقال ابن زيد : " هي رمال مشرفة على البحر مستطيلة كهيئة الجبال ولم تبلغ أن تكون جبالا " وقال مقاتل : كانت منازل عاد باليمن في حضرموت بموضع يقال له مهرة وإليه تنسب الإبل المهرية وقال أبو الطيب في هجاء كافور :

ويلمّها خطة ويلم قابلها لمثلها خلق المهرية القود

قال أبو البقاء في شرحه للديوان : المهرية : منسوبة إلى مهرة بن حيدان بطن من قضاعة .

(عارِضاً) العارض : السحاب الذي يعرض في أفق السماء ، وقال أبو حيان : والعارض : المعترض في الجو من السحاب الممطر ومنه قول الشاعر :

يا من رأى عارضا أرقت له بين ذراعي وجبهة الأسد

وقال الأعشى :

يا من رأى عارضا قد بتّ أرمقه كأنه البرق في حافاته الشعل

الإعراب :

(أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ) أولئك مبتدأ

والذين خبره وجملة حق عليهم القول لا محل لها لأنها صلة الموصول وفي أمم حال من المجرور بعلى وجملة قد خلت صفة لأمم ومن قبلهم متعلقان بخلت ومن الجن صفة ثانية لأمم (إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ) إن واسمها وجملة كانوا خبرها وخاسرين خبر كانوا والجملة لا محل لها لأنها تعليلية (وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ) الواو استئنافية ولكل خبر مقدم ودرجات مبتدأ مؤخر ومما صفة لدرجات وجملة عملوا صلة ، وليوفّيهم :

(315/705)

الواو عاطفة واللام للتعليل ويوفّيهم فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والجار والمجرور متعلقان بالمعلل المحذوف كأنه قيل وجازاهم بذلك ليوفّيهم والهاء مفعول به أول وأعمالهم مفعول به ثان والواو للحال وهم مبتدأ وجملة لا يظلمون خبره والجملة نصب على الحال المؤكدة (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِها) الواو استئنافية ويوم ظرف زمان متعلق بمحذوف تقديره يقال لهم أذهبتم في يوم عرضهم وجملة يعرض في محل جر بإضافة الظرف إليها ويعرض فعل مضارع مبني للمجهول والذين نائب فاعل وجملة كفروا صلة الموصول وعلى النار متعلقان بيعرض وأذهبتم فعل وفاعل وطيباتكم مفعول به وفي حياتكم متعلقان بأذهبتم والدنيا نعت للحياة

، وسيرد المزيد من بحث هذه الآية في باب البلاغة (فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) الفاء الفصيحة واليوم ظرف زمان متعلق بتجزون وتجزون فعل

(316/705)

مضارع مرفوع مبني للمجهول وعذاب الهون مفعول به ثان وبما متعلقان بتجزون وما موصولة ويجوز أن تكون مصدرية وجملة كنتم لا محل لها وجملة تستكبرون خبر كنتم وفي الأرض متعلقان بتستكبرون وبغير الحق حال (وَبِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ) عطف على ما تقدم ويجوز أن تجعل ما مصدرية أو موصولة والمصدرية أولى (وَاذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ) الواو استئنافية والكلام مستأنف مسوق للأمر بذكر قصة عاد لهؤلاء المشركين للاعتبار بها ، واذكر فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وأخا عاد مفعول به وإذ ظرف لما مضى وهو بدل اشتمال من أخا عاد لأن أخا عاد وهو هود يلابس وقت إنذاره وما وقع له معهم وجملة أنذر قومه في محل جر بإضافة الظرف إليها وبالأحقاف حال من أخا عاد وليس متعلقا بأنذر كما يبدو لأول وهلة أي حالة كونهم كائنين بالأحقاف وأما صلة أنذر فستأتي فيما بعد (وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ) الواو

اعتراضية والجملة معترضة وقد حرف تحقيق وخلت النذر فعل وفاعل ومن بين يديه

حال ومن خلفه عطف على من بين يديه وأن مصدرية أو مخففة من الثقيلة واسمها ضمير

الشأن وجملة لا تعبدوا خبرها وهي على كل حال مع مدخولها في محل نصب بنزع الخافض

والجار والمجرور متعلقان بأنذر ولا ناهية وتعبدوا فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وإلا أداة

حصر ولفظ الجلالة مفعول تعبدوا (إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) إن واسمها وجملة

أخاف خبرها وعليكم متعلقان بأخاف وعذاب يوم مفعول به وعظيم نعت ليوم والجملة لا

محل لها لأنها تعليل للنهي (قالُوا أَجِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا) قالوا فعل وفاعل والهمزة

للاستفهام الإنكاري وجئتنا فعل وفاعل ومفعول به واللام للتعليل وتأفكنا فعل مضارع

منصوب بأن مضمرة بعد اللام وعن

(317/705)

آلهتنا متعلقان بتأفكنا (فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) الفاء الفصيحة وائت فعل

أمر مبني على حذف حرف العلة والفاعل مستتر تقديره أنت ونا

مفعول به وبما متعلقان بائت وجملة تعدنا صلة وإن شرطية وكنت فعل ماض ناقص في محل

جزم فعل الشرط وكنت كان واسمها ومن الصادقين خبرها وجواب الشرط محذوف دلّ

عليه ما قبله أي فائتنا بما تعدنا (قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ) قال فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو أي هود وإنما كافة ومكفوفة والعلم مبتدأ وعند اللّه ظرف متعلق بمحذوف خبر والجملة مقول القول (وَأُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ وَلكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ) الواو عاطفة أي وأما أنا فإنما مهمتي التبليغ لا الإتيان بالعذاب إذ لست قادرا عليه وإنما القادر عليه هو اللّه تعالى ، وأبلغكم فعل مضارع وفاعل مستتر تقديره أنا والكاف مفعول به وما مفعول به وجملة أرسلت صلة وأرسلت فعل ماض مبني للمجهول وبه متعلقان بأرسلت والواو عاطفة ولكن واسمها وجملة أراكم خبرها وقوما مفعول به ثان وجملة تجهلون صفة لقوما (فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا) الفاء عاطفة على مقدر محذوف تقديره فأصروا على إلحاحهم وطلبهم

(318/705)

العذاب فجاءهم فلما رأوه ، ولما ظرفية حينية أو رابطة ورأوه فعل ماض وفاعل ومفعول به وعارضا حال لأن الرؤية بصرية وقيل تمييز ومستقبل أوديتهم نعت وجاز لأن الإضافة غير محضة فلم تفد التعريف فساغ وقوعها نعتا للنكرة أي متوجها وسائرا إليها وجملة قالوا لا محل لها لأنها جواب لما المتضمنة معنى الشرط على كل حال وهذا مبتدأ وعارض خبره

وممطرنا نعت لعارض وساغ النعت لما تقدم أي ممطر إيانا . وقال المبرد والزجّاج : الضمير في رأوه يعود إلى غير مذكور وبيّنه قوله : عارضا فالضمير يعود إلى السحاب أي فلما رأوا السحاب عارضا (بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ) بل حرف عطف وإضراب قال ذلك هود وهو مبتدأ وما خبر وجملة استعجلتم صلة وبه صلة وريح بدل من ما أو خبر لمبتدأ محذوف أي هي ريح وفيها خبر مقدم وعذاب مبتدأ مؤخر وأليم نعت وجملة فيها

(319/705)

عذاب أليم نعت لريح وقيل هو من كلام قول اللّه تعالى والأول أنسب وأقعد بالفصاحة (تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها) الجملة نعت ثان لريح وتدمر فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره هي وكل شيء مفعول به وبأمر متعلقان بندمر وربها مضاف إليه (فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلَّا مَساكِنُهُمْ) الفاء الفصيحة أي قال هود ذلك ثم أدركتهم الريح فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم وإذا كان القول من اللّه تعالى كانت الفاء لمجرد العطف (كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ) كذلك نعت لمصدر محذوف ونجزي فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره نحن والقوم مفعول به والمجرمين نعت للقوم (وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ) الواو واو القسم واللام جواب

للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق ومكناهم فعل وفاعل ومفعول به وفيما متعلقان بمكناهم وما اسم موصول بمعنى الذي أو موصوفة وفي إن ثلاثة أوجه الأول شرطية وجوابها محذوف والجملة الشرطية صلة ما والتقدير في الذي إن مكنّاكم فيه طغيتم ، والثاني أنها مزيدة تشبيها للموصولة بما النافية والتوقيتية ، والثالث وهو الأرجح أنها نافية بمعنى ما أي مكناهم في الذي ما مكناكم من القوة والبسطة واتساع الرزق وإنما عدل عن لفظ ما النافية إلى أن تفاديا من اجتماع متماثلين لفظا وسيأتي مزيد بسط لهذا البحث في باب الفوائد ومكناكم فعل وفاعل ومفعول به وفيه متعلقان بمكناكم (وَجَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصاراً وَأَفْئِدَةً فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ) وجعلنا فعل وفاعل ولهم متعلقان بجعلنا لأنها بمعنى خلقنا وسمعا مفعول به وأبصارا وأفئدة عطف على سمعا والفاء حرف عطف وما نافية وأغنى فعل ماض وعنهم متعلقان بأغنى وسمعهم فاعل ولا أبصارهم ولا أفئدتهم عطف على سمعهم ومن حرف جر زائد وشيء مجرور لفظا منصوب

(320/705)

محلا على أنه مفعول مطلق أي شيئا من الإغناء (إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ) إذ ظرف ماض يفيد التعليل متعلق بمعنى

النفي لأن المعلل هو النفي أي انتفى نفع هذه الحواس عنهم لأنهم كانوا يجحدون وإلى ذلك أشار صاحب الكشاف قال : " فإن قلت بم ينتصب إذ كانوا يجحدون ؟ قلت بقوله تعالى فما أغنى فإن قلت لم جرى مجرى التعليل ؟ قلت لاستواء مؤدى التعليل والظرف في قولك ضربته لإساءته وضربته إذا أساء لأنك إذا ضربته في وقت إساءته فإنما ضربته لوجود إساءته فيه إلا أن " إذ وحيث " غلبتا دون سائر الظروف في ذلك " حيث كاد يلحق بمعانيهما الوضعية ، وجملة كانوا في محل جر بإضافة الظرف إليها وكان واسمها وجملة يجحدون خبرها وبآيات اللّه متعلقان بيجحدون ، وحاق بهم الواو عاطفة وحاق فعل ماض مبني على الفتح وبهم متعلقان بحاق وما فاعل حاق وجملة كانوا صلة الموصول وكان واسمها وجملة يستهزئون خبر وبه متعلقان بيستهزئون .

البلاغة :

في قوله تعالى " ويوم يعرض الذين كفروا على النار " إلى آخر الآية فن القلب وقد تقدم القول فيه على رأي بعضهم وأن الأصل تعرض النار عليهم ، فعلى هذا القول يقال لهم قبل دخولها أي لدى معاينتها ، وممّن ذهب إلى هذا الرأي الزمخشري والجلال ونص عبارة الزمخشري : " وعرضهم على النار تعذيبهم بها من قولهم عرض ببنو فلان على السيف إذا قتلوا به ومنه

قوله تعالى : النار يعرضون عليها ويجوز أن يراد عرض النار عليهم من قولهم عرضت الناقة على الحوض يريدون عرض الحوض عليها فقلبوا ويدل عليها تفسير ابن عباس رضي اللّه عنه ، يجاء بهم إليها فيكشف لهم عنها " وقيل في الرد على الزمخشري أنه لا ملجئ للقلب باعتبار أنه جماد لا إدراك له والناقة هي المدركة فهي التي يعرض عليها الحوض وأما النار فقد وردت النصوص

(321/705)

بأنها حينئذ مدركة إدراك الحيوانات بل إدراك أولي العلم فالأمر في الآية على ظاهره وعبارة زاده في حاشيته على البيضاوي : " العرض يتعدى باللام وبعلى يقال عرضت له أمر كذا وعرضت عليه الشيء أي أظهرته له قال تعالى " وعرضنا جهنم للكافرين عرضا " ، قال الفراء : أي أبرزناها حتى نظر الكفار إليها ، فالمعروض عليه يجب أن يكون من أهل الشعور والنار ليست منه فلا بدّ أن يحمل العرض على التعذيب مجازا بطريق التعبير عن الشيء باسم ما يؤدي إليه كما يقال عرض بنو فلان على السيف فقتلوا به أو يكون باقيا على أصل معناه ويكون الكلام محمولا على القلب والأصل ويوم تعرض النار على الذين كفروا أي تظهر وتبرز عليهم والنكتة في اعتبار القلب المبالغة بادّعاء أن النار ذات تمييز

وقهر وغلبة " .

أما الشيخ أبو حيان فقد ردّ القلب وقال في معرض الرد على الزمخشري : " ولا ينبغي حمل القرآن على القلب إذ الصحيح في القلب أنه مما يضطر إليه في الشعر وإذا كان المعنى صحيحا واضحا مع عدم القلب فأي ضرورة تدعو إليه وليس في قولهم عرضت الناقة على الحوض ولا في تفسير ابن عباس بما يدل على القلب لأن عرض الناقة على الحوض وعرض الحوض على الناقة كلّ منهما صحيح إذ العرض أمر نسبي يصحّ إسناده لكل واحد من الناقة والحوض " .

الفوائد :

قال الزمخشري : " وإن نافية أي فيما مكنّاكم فيه إلا أن إن أحسن في اللفظ لما في مجامعة ما مثلها من التكرير المستبشع ومثله مجتنب ، ألا ترى أن الأصل في مهما ما ما فلبشاعة التكرير قلبوا الألف هاء ، ولقد أغث أبو الطيب في قوله :

لعمرك ما ما بان منك لضارب بأقتل مما بان منك لغائب

وما ضرّه لو اقتدى بعذوبة لفظ التنزيل فقال لعمرك ما إن بان منك لضارب وقد جعلت إن صلة مثلها فيما أنشده الأخفش :

يرجى المرء ما إن لا يراه وتعرض دون أذناه الخطوب "

هذا ما قاله الزمخشري والرواية في ديوانه :

يرى أن ما ما بان منك لضارب بأقتل مما بان منك لعائب

قال ابن جنّي : " ما الأولى زائدة والثانية بمعنى الذي واسم إن مضمر فيها " وقال ابن القطاع : " قال المتنبي ما الأولى بمعنى ليس والثانية بمعنى الذي " والمعنى يريد أنه ما الذي بان منك لضارب بأقتل من الذي بان لعائب يعيبك ، يزيد أن العيب أشدّ من القتل وهذا من قول حبيب بن أوس أبي تمام الطائي :

فمتى لا يرى أن الفريصة مقتل ولكن يرى أن العيوب مقاتل

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 27 إلى 32]

وَلَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى وَصَرَّفْنَا الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (27) فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْباناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذلِكَ إِفْكُهُمْ وَما كانُوا يَفْتَرُونَ (28) وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (29) قالُوا يا قَوْمَنا إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (30) يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (31)

وَمَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (32)

الإعراب :

)

(323/705)

وَلَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى وَصَرَّفْنَا الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) كلام مستأنف مسوق لخطاب أهل مكة على جهة التمثيل واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وأهلكنا فعل وفاعل وما مفعول به وحولكم ظرف متعلق بمحذوف لا محل له من الإعراب لأنه صلة الموصول ومن القرى متعلقان بمحذوف حال وصرفنا عطف على أهلكنا والآيات مفعول به ولعل واسمها وجملة يرجعون خبرها (فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْباناً آلِهَةً) الفاء عاطفة ولو لا حرف تحضيض بمنزلة هلّا ونصرهم فعل ماض ومفعول به مقدم والذين فاعل مؤخر وجملة اتخذوا صلة ومن دون اللّه متعلقان باتخذوا والمفعول الأول لاتخذوا محذوف وهو عائد الموصول وقربانا نصب على الحال وآلهة مفعول به ثان ، وذهب ابن عطية والحوفي إلى أن المفعول الأول محذوف أيضا كما تقدم تقريره

وقربانا مفعول به ثان وآلهة بدل منه وقد شجب الزمخشري هذا الوجه وقال إن المعنى يفسد عليه ولم يبيّن وجه فساد المعنى ونحن نبيّنه فنقول لو كان قربانا مفعولا ثانيا ومعناه متقربا بهم لصار المعنى إلى أنهم وبّخوا على ترك اتخاذ اللّه متقربا لأن السيد إذا وبخ عبده وقال : اتخذت سيدا دوني فإنما معناه اللوم على نسبة السيادة إلى غيره وليس هذا المقصد فإن اللّه تعالى يتقرب إليه ولا

(324/705)

يتقرب به لغيره فإنما وقع التوبيخ على نسبة الإلهية إلى غير اللّه تعالى فكان حق الكلام أن يكون آلهة هو المفعول الثاني لا غير ، وأجاز أبو حيان وأبو البقاء أن يعرب قربانا مفعولا من أجله وآلهة هو المفعول الثاني والمفعول الأول محذوف كما تقدم (بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذِلِكَ إِفْكُهُمْ وَما كانُوا يَفْتَرُونَ) بل حرف إضراب وعطف للانتقال عن نفي النصرة لما هو أخص منه إذ نفيها يصدق بحضورها عندهم بدون النصرة فأفاد بالإضراب أنهم لم يحضروا بالكلية فضلا عن أن ينصروهم .

(325/705)

و ضلّوا فعل وفاعل وعنهم متعلقان بضلوا والواو حرف عطف وذلك مبتدأ وإفكهم خبر وما الواو حرف عطف وما مصدرية أو موصولة والمعنى وافتراؤهم أو والذي يفترونه ، وكان واسمها وجملة يفترون خبر كان (وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ) الواو عاطفة وإذ ظرف معمول لاذكر محذوفا وجملة صرفنا في محل جر بإضافة الظرف إليها وصرفنا فعل وفاعل وإليك متعلقان بصرفنا ونفرا مفعول به ومن الجن صفة لنفر وجملة يستمعون القرآن صفة ثانية لنفرا أو حال لتخصصه بالصفة (فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا : أَنْصِتُوا) الفاء عاطفة ولما ظرفية حينية أو رابطة وحضروه فعل وفاعل ومفعول به وجملة قالوا : لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وجملة أنصتوا مقول القول والضمير في حضروه للقرآن (فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ) عطف على ما تقدم وقضي فعل ماض مبني للمجهول وجملة ولّوا لا محل لها وإلى قومهم متعلقان بولّوا ومنذرين حال (قالُوا يا قَوْمَنا إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ) قالوا فعل وفاعل وإن واسمها وجملة سمعنا خبرها وكتابا مفعول به وجملة أنزل صفة لكتابا وهو مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر تقديره هو ومن بعد متعلقان بأنزل وموسى مضاف إليه ومصدقا نعت لكتابا ولما متعلقان بمصدقا وبين ظرف متعلق بمحذوف وهو صلة الموصول ويديه مضاف إليه (يَهْدِي إِلَى

الْحَقِّ وَإِلى طَرِيقٍ

مُسْتَقِيمٍ)

(326/705)

جملة يهدي نعت ثان لكتابا أو حال منه لأنه وصف وقد تقدمت القاعدة وإلى الحق

متعلقان بيهدي وإلى صراط مستقيم عطف على إلى الحق (يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللَّهِ

وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ) يا أداة نداء وقومنا منادى مضاف

وأجيبوا فعل أمر وفاعل وداعي اللّه مفعول به وآمنوا عطف على أجيبوا وبه متعلقان بآمنوا

ويغفر فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب ولكم متعلقان بيغفر ومن ذنوبكم متعلقان

بيغفر أيضا أي بعضها فمن للتبعيض وسيأتي سر التبعيض في باب البلاغة ، ويجركم من

عذاب أليم عطف على ما تقدم (وَمَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ) الواو

عاطفة ومن شرطية في محل رفع مبتدأ و

لا نافية ويجب فعل الشرط مجزوم وداعي اللّه مفعوله والفاء رابطة لجواب الشرط لأن

الجواب وقع فعلا جامدا ، وليس فعل ماض ناقص والباء حرف زائد ومعجز مجرور لفظا

منصوب محلا لأنه خبر ليس واسمها مستتر يعود على من وفي الأرض متعلقان بمعجز (وَلَيْسَ

لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) الواو حرف عطف وليس فعل ماض ناقص وله خبر ليس المقدم ومن دونه حال وأولياء اسم ليس المؤخر وأولئك مبتدأ وفي ضلال خبر أولئك ومبين صفة.

البلاغة:

في قوله "يغفر لكم من ذنوبكم" فن التنكيت، فقد عبّر بمن التبعيضية إشارة إلى أن الغفران يقع على الذنوب الخاصة أما حقوق العباد فلا يمكن غفرانها إلا بعد أن يرضى أصحابها فإن اللّه تعالى لا يغفر بالإيمان ذنوب المظالم.

[سورة الأحقاف (46): الآيات 33 إلى 35]

(327/705)

أَ وَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى بَلى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (33) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى وَرَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (34) فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ (35)

الإعراب :

(أَ وَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى) الهمزة للاستفهام الإنكاري والواو عاطفة على مقدّر ولم حرف نفي وقلب وجزم ويروا فعل مضارع مجزوم بلم وأن وما بعدها سدّت مسدّ مفعولي يروا وأن واسمها والذي صفة للّه وجملة خلق السموات والأرض صلة الذي والواو حرف عطف ولم حرف نفي وقلب وجزم ويعي فعل مضارع مجزوم بلم وبخلقهنّ متعلقان بيعي والباء حرف جر زائد وقادر مجرور لفظا مرفوع محلا لأنه خبر أن وإنما دخلت الباء الزائدة لاشتمال النفي الذي في أول الآية على أن وما في حيزها ، وسيأتي المزيد من هذا البحث في باب الفوائد وعلى أن يحيي الموتى متعلق بقادر (بَلى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) بلى حرف جواب لإبطال النفي فهي تبطل النفي وتقرر نقيضه وتقدم بحث الفرق بينها وبين نعم ، وإن واسمها وقدير خبرها وعلى كل شيء متعلقان بقدير (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِّ) الواو استئنافية ويوم ظرف متعلق بمحذوف تقديره يقال لهم والجملة مستأنفة وجملة

يعرض في محل جر بإضافة الظرف إليها ويعرض فعل مضارع مبني للمجهول والذين نائب فاعل وجملة كفروا صلة وعلى النار متعلقان بيعرض وجملة أليس هذا بالحق مقول للقول الناصب للظرف والهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي وليس فعل ماض ناقص وهذا اسمها والباء حرف جر زائد والحق مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ليس (قالُوا بَلى وَرَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ) قالوا فعل وفاعل وبلى حرف جواب والواو للقسم وربنا مجرور بواو القسم والجار والمجرور متعلقان بفعل مقدر تقديره أقسم وقال فعل ماض والفاء الفصيحة وذوقوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والعذاب مفعول وبما متعلقان بذوقوا والباء للسببية وما مصدرية أي بسبب كفركم وكان واسمها وجملة تكفرون خبرها (فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ) الفاء الفصيحة لأنها جواب شرط مقدّر أي إذا كانت عاقبة الكفّار ما ذكر فاصبر على أذاهم ، واصبر فعل أمر مبني على السكون وفاعله مستتر تقديره أنت وكما صبر في محل نصب مفعول مطلق أو حال وأولو العزم فاعل صبر ومن الرسل حال (وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ) الواو حرف عطف ولا ناهية وتستعجل فعل مضارع مجزوم بلا والفاعل مستتر تقديره أنت ولهم متعلقان بتستعجل ومفعول تستعجل محذوف تقديره نزول العذاب وكأن واسمها ويوم ظرف متعلق بالنفي المفاد بلم وجملة يرون في محل جر بإضافة الظرف إليها ويرون فعل مضارع وفاعل وما مفعول به وجملة يوعدون صلة وجملة لم يلبثوا

خبر كأن وإلا أداة حصر وساعة ظرف متعلق بيلبثوا ومن نهار صفة لساعة (بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ) بلاغ خبر لمبتدأ محذوف أي هذا الذي وعظتم به بلاغ وقيل تقديره هذا القرآن ، فجعل الفاء عاطفة وهل

حرف استفهام معناه النفي

(329/705)

و يهلك فعل مضارع مبني للمجهول وإلا أداة حصر والقوم نائب فاعل والفاسقون صفة .

البلاغة :

في قوله تعالى " ولم يعي بخلقهن " مجاز مرسل علاقته السببية لأن العيّ أي التعب مستحيل عليه تعالى وهو سبب للانقطاع عن العمل أو النقص فيه والتأخر في إنجازه فهو العلاقة في هذا المجاز .

الفوائد :

قال الزجّاج : " لو قلت ما ظننت أن زيدا بقائم جاز كأنه قيل أليس اللّه بقادر ألا ترى إلى وقوع بلى مقررة للقدرة على كل شيء من البعث وغيره لا لرؤيتهم " وقال أبو حيان في التعقيب عليه : " والصحيح قصر ذلك على السماع " .

وقال ابن هشام : قد يعطى الشيء حكم ما أشبهه في معناه أو لفظه أو فيهما ، فأما الأول فله صور كثيرة إحداها دخول الباء في خبر إن في قوله تعالى : أو لم يروا أن اللّه الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهنّ بقادر ، لأنه في معنى أو ليس اللّه بقادر والذي سهل ذلك التقدير تباعد ما بينهما ، ولهذا لم تدخل في : أولم يروا أن اللّه الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم ، ومثله إدخال الباء في كفى باللّه شهيدا لما دخله من معنى اكتف باللّه شهيدا بخلاف قوله :

قليل منك يكفيني ، وفي قوله سود المحاجر لا يقرأن بالسور لما دخله من معنى لا يتقربن بقراءة السور ، ولهذا قال السهيلي : لا يجوز أن تقول : وصل إليّ كتابك فقرأت به على حدّ قوله لا يقرأن بالسور لأنه عار عن معنى التقريب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 9 صـ 165.195 ﴾

(330/705)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/706)

الجزء السادس بعد السبعمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة محمد صلى الله عليه وسلم)

(4/706)

(سورة محمد صلى الله عليه وسلم)

(5/706)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة محمد صلى الله عليه وسلم

مقصودها التقدم إلى المؤمنين في حفظ حظيرة الدين بإدامة الجهادة للكفار ، حتى يلزموهم الصغار ، أو يبطلوا ضلالهم كما أصل الله أعمالهم ، لا سيما أهل الردة الذين فسقوا عن محيط الدين إلى أودية الضلال المبين ، والتزام هذا الخلق الشريف إلى أن تضع الحرب أوزارها بإسلام أهل الأرض كلهم بنزول عيسى عليه الصلاة والسلام ، وعلى ذلك دل اسمها) الذين كفروا (لأن من المعلوم أن من صدك عن سبيلك قاتلته و أنك إن لم تقاتله كن مثله ، واسمعها محمد واضح في ذلك لأن الجهاد كان خلقه عليه أفضل الصلاة والسلام إلى أن توفاه الله تعالى وهو نبي الرحمة بالملحمة لأنه لا يكون حمد وثم نوع ذم كما تقدم تحقيقه في سورة فاطر وفي سبإ وفي الفاتحة ، ومتى كان كف عن أعداء الله كان الذم ، وأوضح

أسمائها في هذا المقصد القتال ، فإن من المعلوم أنه لأهل الضلال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 148 ﴾

(6/706)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله)

السّورة مَدَنِيَّة بالاتِّفَاق .

وآياتها أَربعون فى البصرة ، وثمان فى الكوفة وتسع وثلاثون عند الباقين .

وكلماتها خمسمائة وتسع وثلاثون .

وحروفها أَلفان وثلثمائة وتسع وأَربعون .

المختلف فيها آيتان : أَوزارها ، للشاربين .

فواصل آياتها (ما) ولها اسمان : سورة محمّد ؛ لقوله فيها : ﴿ نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴾ ، وسورة القتال ؛ لقوله ﴿ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ﴾ .

معظم مقصود السّورة : الشكاية من الكفَّار فى إِعراضهم عن الحقِّ ، وذكر آداب الحرب

والأَسرى وحكمهم ، والأَمر بالنُّصرة والإِيمان ، وابتلاء الكفَّار فى العذاب ، وذكر أَنهار الجنة : من ماء ، ولبن ، وخمر ، وعسل ، وذكر طعام الكفَّار وشرابهم ، وظهور علامة القيامة ، وتخصيص الرّسول – صلَّى الله عليه وسلَّم – بأَمره بالخوض فى بحر التوحيد ، والشكاية من المنافقين ، وتفصيل ذميمات خِصالهم ، وأَمر المؤمنين بالطاعة والإِحسان ، وذمّ البخلاءِ فى الإِنفاق ، وبيان استغناءِ الحَقّ تعالى ، وفقر الخَلْق فى قوله : ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَآءُ ﴾ .

فيها من المنسوخ آية واحدة : ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ ﴾ م آية السّيف ن .

المتشابهات :

قوله : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾ نزّل وأُنزل كلاهما متعدٍّ .

وقيل : نزّل للتعدّى والمبالغة ، وأَنزل للتَّعدّى .

وقيل : نزّل دفعة مجموعاً وأَنزل متفرّقاً ، وخصّ الأُولى بنزّلت ؛ لأَنَّه من كلام المؤمنين ، وذكر بلفظ المبالغة ، وكانوا يأْنسون لنزول الوحى ، ويستوحشون لإِبطائه .

والثَّانى من كلام الله تعالى ، ولأَنَّ فى أَوّل السّورة ﴿ نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴾ وبعده : ﴿ أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ وكذلك فى هذه الآية قال : ﴿ نُزِّلَتْ ﴾ ثم ﴿ أُنزِلَت ﴾ .

قوله : ﴿ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ نزلت فى اليهود ، وبعده : ﴿ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَن يَضُرُّواْ اللَّهَ شَيْئاً ﴾ نزلت فى قوم ارتدّوا .

وليس بتكرار .

فضل السّورة

فيه حديث أُبى الضَّعيف : مَنْ قرأَ سورة محمّد كان حقًّا على الله أَن يسقيه من أَنهار الجنة ، وحديث علىّ : يا علىّ مَنْ قرأَ هذه السّورة وجبت له شفاعتى ، وشُفِّع فى مائة أَلف بيت ، وله بكلّ آية قرأَها مثلُ ثواب خديجة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 430 . 431 ﴾

(8/706)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة القتال

412 - مسألة :

قوله تعالى : (وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ)

ما فائدته بعد وصف إضافة النعم عليهم ، والمغفرة سابقة لتلك النعم ؟ .

جوابه :

أن "الواو" لا توجب الترتيب في الإخبار ، وإفاضة النعم لا يلزم منه الستر ، فذكر سبحانه أنه مع ذلك ستر ذنوبه ولم يفضحهم بها . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 339﴾

(9/706)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة محمد

سميت هذه السورة في كتب السنة سورة محمد .

وكذلك ترجمت في صحيح البخاري من رواية أبي ذر عن البخاري ، وكذلك في التفاسير

قالوا : وتسمى سورة القتال .

ووقع في أكثر روايات صحيح البخاري سورة الذين كفروا .

والأشهر الأول ، ووجهه أنها ذكر فيها اسم النبي صلى الله عليه وسلم في الآية الثانية منها فعرفت به قبل سورة آل عمران [144] التي فيها ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ .

وأما تسميتها سورة القتال فلأنها ذكرت فيها مشروعية القتال ، ولأنها ذكر فيها لفظه في قوله تعالى ﴿ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ﴾ مع ما سيأتي أن قوله تعالى ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾ إلى قوله ﴿ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ﴾ [محمد : 20] أن المعني بها هذه السورة فتكون تسميتها سورة القتال تسمية قرآنية .

وهي مدنية بالاتفاق حكاه ابن عطية وصاحب الإتقان .

وعن النسفي : أنها مكية .

وحكى القرطبي عن الثعلبي وعن الضحاك وابن جبير : أنها مكية .

ولعله وهم ناشئ عما روي عن ابن عباس أن قوله تعالى ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ ﴾ [محمد : 13] الآية نزلت في طريق مكة قبل الوصول إلى حراء ، أي في الهجرة .

قيل نزلت هذه السورة بعد يوم بدر وقيل نزلت في غزوة أحد .

وعدت السادسة والتسعين في عداد نزول سور القرآن ، نزلت بعد سورة الحديد وقبل سورة الرعد .

وآيها عدت في أكثر الأمصار تسعا وثلاثين ، وعدها أهل البصرة أربعين ، وأهل الكوفة تسعا وثلاثين .

(10/706)

أغراضها

معظم ما في هذه السورة التحريض على قتال المشركين ، وترغيب المسلمين في ثواب الجهاد .

افتتحت بما يثير حنق المؤمنين على المشركين لأنهم كفروا بالله وصدوا عن سبيله ، أي دينه .

وأعلم الله المؤمنين بأنه لا يسدد المشركين في أعمالهم وأنه مصلح المؤمنين فكان ذلك كفالة للمؤمنين بالنصر على أعدائهم .

وانتقل من ذلك الى الأمر بقتالهم وعدم الإبقاء عليهم .

وفيها وعد المجاهدين بالجنة ، وأمر المسلمين بمجاهدة الكفار وأن لا يدعوهم إلى السلم ، وإنذار المشركين بأن يصيبهم ما أصاب الأمم المكذبين من قبلهم .

ووصف الجنة ونعيمها ، ووصف جهنم وعذابها .

ووصف المنافقين وحال اندهاشهم إذا نزلت سورة فيها الحض على القتال ، وقلة تدبرهم القرآن وموالاتهم المشركين .

وتهديد المنافقين بأن الله ينبي رسوله صلى الله عليه وسلم بسيماهم وتحذير المسلمين من أن يروج عليهم نفاق المنافقين .

وختمت بالإشارة إلى وعد المسلمين بنوال السلطان وحذرهم إن صار إليهم الأمر من الفساد والقطيعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 26 صـ 60 . 61﴾

(11/706)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة محمد

هذه السورة مدنية , ولها اسم آخر . اسمها سورة القتال . وهو اسم حقيقي لها . فالقتال هو موضوعها . والقتال هو العنصر البارز فيها . والقتال في صورها وظلالها . والقتال في جرسها وإيقاعها .

القتال موضوعها . فهي تبدأ ببيان حقيقة الذين كفروا وحقيقة الذين آمنوا في صيغة هجوم أدبي على الذين كفروا , وتمجيد كذلك للذين آمنوا , مع إيحاء بأن الله عدو للأولين ولي

للآخرين , وأن هذه حقيقة ثابتة في تقدير الله سبحانه . فهو إذن إعلان حرب منه تعالى على أعدائه وأعداء دينه منذ اللفظ الأول في السورة: (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم , والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد – وهو الحق من ربهم – كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم . ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم . كذلك يضرب الله للناس أمثالهم) .

وعقب إعلان هذه الحرب من الله على الذين كفروا , أمر صريح للذين آمنوا بخوض الحرب ضدهم . في صيغة رنانة قوية , مع بيان لحكم الأسرى بعد الإثخان في المعركة والتقتيل العنيف: (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب , حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق , فإما منا بعد وإما فداء , حتى تضع الحرب أوزارها) . .

ومع هذا الأمر بيان لحكمة القتال , وتشجيع عليه , وتكريم للإستشهاد فيه , ووعد من الله بإكرام الشهداء , وبالنصر لمن يخوض المعركة انتصارا لله , وبهلاك الكافرين وإحباط أعمالهم: ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم , ولكن ليبلو بعضكم ببعض , والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم . يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم . ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم . .

ومعه كذلك تهديد عنيف للكافرين , وإعلان لولاية الله ونصرته للمؤمنين , وضياع الكافرين وخذلانهم وضعفهم وتركهم بلا ناصر ولا معين: فلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ? دمر الله عليهم , وللكافرين أمثالها . ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم . . كذلك تهديد آخر للقرية التي أخرجت الرسول (صلى الله عليه وسلم) :(وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم) . .

ثم تمضي السورة بعد هذا الهجوم العنيف السافر في ألوان من الحديث حول الكفر والإيمان , وحال المؤمنين وحال الكافرين في الدنيا والآخرة . فتفرق بين متاع المؤمن بالطيبات ; وتمتع الكافرين بلذائذ الأرض كالحيوان: إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار . والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم . . كما تصف متاع المؤمنين في الجنة بشتى الأشربة الشهية من ماء غير آسن , ولبن لم يتغير طعمه , وخمر لذة للشاربين , وعسل مصفى , في وفر وفيض . . في صورة أنهار جارية . . ذلك مع شتى الثمرات , ومع المغفرة والرضوان . ثم سؤال:أهؤلاء (كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم ?) . .

فإذا انقضت هذه الجولة الأولى في المعركة السافرة المباشرة بين المؤمنين والكافرين . أعقبها

في السورة جولة مع المنافقين , الذين كانوا هم واليهود بالمدينة يؤلفون خطرا على الجماعة الإسلامية الناشئة لا يقل عن خطر المشركين الذين يحاربونها من مكة وما حولها من القبائل في تلك الفترة , التي يبدو من الوقائع التي تشير إليها السورة أنها كانت بعد غزوة بدر , وقبل غزوة الأحزاب وما تلاها من خضد شوكة اليهود , وضعف مركز المنافقين "كما ذكرنا في تفسير سورة الأحزاب" .

(13/706)

والحديث عن المنافقين في هذه السورة يحمل ظلالها . ظلال الهجوم والقتال , منذ أول إشارة . فهو يصور تلهيهم عن حديث رسول الله , وغيبة وعيهم واهتمامهم في مجلسه ; ويعقب عليه بما يدمغهم بالضلال والهوى: (ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم: ماذا قال آنفا ? أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم) . .

ويهددهم بالساعة يوم لا يستطيعون الصحو ولا يملكون التذكر: (فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ? فقد جاء أشراطها . فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ?) . .

ثم يصور هلعهم وجبنهم وتهافتهم إذا ووجهوا بالقرآن يكلفهم القتال - وهم يتظاهرون

بالإيمان – والفارق بينهم يومئذ وبين المؤمنين الصادقين: (ويقول الذين آمنوا :لولا نزلت سورة ! فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت !) .

ويحثهم على الطاعة والصدق والثبات . ويرذل اتجاهاتهم , ويعلن عليهم الحرب والطرد واللعن: (فأولى لهم طاعة وقول معروف . فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم . فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ? أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم) . .

(14/706)

ويفضحهم في توليهم للشيطان , وفي تآمرهم مع اليهود , ويهددهم بالعذاب عند الموت بالفضيحة التي تكشف أشخاصهم فردا فردا في المجتمع الإسلامي , الذي يدمجون أنفسهم فيه , وهم ليسوا منه , وهم يكيدون له:(إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى , الشيطان سول لهم وأملى لهم . ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله:سنطيعكم في بعض الأمر . والله يعلم إسرارهم . فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ? ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم .

أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم . ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم , ولتعرفنهم في لحن القول . والله يعلم أعمالكم , ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم) . .

وفي الجولة الثالثة والأخيرة في السورة عودة إلى الذين كفروا من قريش ومن اليهود وهجوم عليهم: (إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول – من بعد ما تبين لهم الهدى – لن يضروا الله شيئا وسيحبط أعمالهم) . .

وتحذير للذين آمنوا أن يصيبهم مثل ما أصاب أعدائهم: يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول , ولا تبطلوا أعمالكم . إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار , فلن يغفر الله لهم . .

وتحضيض لهم على الثبات عند القتال: (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم) . .

وتهوين من شأن الحياة الدنيا وأعراضها . وحض على البذل الذي يسره الله , ولم يجعله استئصالا للمال كله , رأفة بهم , وهو يعرف شح نفوسهم البشرية , وتبرمها وضيقها لو أحفاهم في السؤال:

(إنما الحياة الدنيا لعب ولهو , وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم . إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم) . .

وتختم السورة بما يشبه التهديد للمسلمين إن هم بخلوا بإنفاق المال , وبالبذل في القتال: (ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله , فمنكم من يبخل , ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه , والله الغني وأنتم الفقراء , وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم , ثم لا يكونوا أمثالكم) . .

إنها معركة مستمرة من بدء السورة إلى ختامها ; يظللها جو القتال , وتتسم بطابعه في كل فقراتها .

وجرس الفاصلة وإيقاعها منذ البدء كأنه القذائف الثقيلة: [أعمالهم . بالهم . أمثالهم . أهواءهم . أمعائهم . .] وحتى حين تخف فإنها تشبه تلويح السيوف في الهواء: [أوزارها . أمثالها . أقفالها . . .] .

وهناك شدة في الصور كالشدة في جرس الألفاظ المعبرة عنها . . فالقتال أو القتل يقول عنه: (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب) . . والتقتيل والأسر يصوره بشدة: (حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق) . . والدعاء على الكافرين يجيء في لفظ قاس: (فتعسا لهم وأضل أعمالهم) . . وهلاك الغابرين يرسم في صورة مدوية ظلا ولفظا: (دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها) . . وصورة العذاب في النار تجيء في هذا المشهد: (وسقوا ماء

حميما فقطع أمعاءهم) . . وحالة الجبن والفزع عند المنافقين تجيء في مشهد كذلك عنيف: (ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت !) . . حتى تحذير المؤمنين من التولي يجيء في تهديد نهائي حاسم: (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) . . وهكذا يتناسق الموضوع والصور والظلال والإيقاع في سورة القتال . . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الظلال حـ 6 صـ 3278 . 3280 ﴾

(16/706)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة محمد صلى الله عليه وسلم

مدنية وآياتها ثمانى وثلاثون آية

بين يدي السورة

* سورة محمد من السور المدنية ، وهي تعنى بالأحكام التشريعية ، شأن سائر السور المدنية ، وقد تناولت السورة أحكام (القتال ، والأسرى ، والغنائم ، وأحوال المنافقين) ، ولكن المحور الذي تدور عليه السورة هو موضوع (الجهاد في سبيل الله) . ، ابتدأت السورة الكريمة بدءا عجيبا ، بإعلان حرب سافرة على الكفار أعداء الله ، وأعداء رسوله ،

الذين حاربوا الإسلام ، وكذبوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ووقفوا في وجه الدعوة المحمدية ، ليصدوا إلى اس عن دين الله [الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم . .] الآيات .

* ثم أمرت المؤمنين بقتال الكافرين ، وحصدهم بسيوف المجاهدين ، لتطهير الأرض من رجسهم ، حتى لا تبقى لهم شوكة ولا قوة ، ثم دعت إلى أسرهم بعد إكثار القتل فيهم والجراحات [فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق . .] الآيات .

* ثم بينت طريق العزة والنصر ، ووضعت الشروط لنصرة الله لعباده المؤمنين ، وذلك بالتمسك بشريعته ، ونصرة دينه [يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . .] . الآيات . وضربت لكفار مكة الأمثال بالطغاة المتجبرين من الأمم السابقة ، وكيف دمر الله عليهم بسبب إجرامهم وطغيانهم [أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها] .

* وتحدثت السورة بإسهاب عن صفات المنافقين ، باعتبارهم الخطر الداهم على الإسلام والمسلمين ، فكشفت عن مساوئهم ومخازيهم ليحذر الناس مكرهم وخبثهم [ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم . .] الآيات .

* وختمت السورة الكريمة بدعوة المؤمنين إلى سلوك طريق العزة والنصر ، بالجهاد في سبيل الله ، وعدم الوهن والضعف أمام قوى الشر والبغي ، وحذرت من الدعوة إلى الصلح مع الأعداء ، حرصا على الحياة والبقاء ، فإن الحياة الدنيا زائلة فانية ، وما عند الله خير للأبرار [فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم

* إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم . .] إلى نهاية السورة الكريمة . وهكذا ختمت السورة بالدعوة إلى الجهاد ، كما بدأت بالدعوة إليه ، حفزا لعزائم المؤمنين ، وليتناسق البدء من الختام ألطف التئام ! ! . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 204 . 205 ﴾

(18/706)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة محمد صلى الله عليه وسلم

صدوا عن سبيل اللّه : أي صرفوا الناس عن الدخول فى الإسلام ، وذلك يستلزم أنهم

منعوا أنفسهم عن الدخول فيه ، أضل أعمالهم : أي أبطلها ، وهو الحق من ربهم :

أي وهو الحق الثابت الذي لا مرية فيه ، بالهم : أي حالهم فى الدين والدنيا بالتوفيق لصالح الأعمال ، وأصل البال : الحال التي يكترث بها ، ولذلك يقال ما باليت به : أي ما اكترثت به ، ومنه

قوله صلّى اللّه عليه وسلم "كل أمر ذى بال"

الحديث . يضرب اللّه للناس أمثالهم : أي يبين لهم مآل أعمالهم وما يصيرون إليه فى معادهم .

لقيتم من اللقاء : وهو الحرب ، فضرب الرقاب : أي فالقتل ، وعبر به عنه تصويرا له بأشنع صورة وهو حزّ العنق وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وأوجه أعضائه ومجمع حواسه ، وبقاء البدن ملقى على هيئة مستبشعة ، وفى ذلك من الغلظة والشدة ما ليس فى لفظ القتل ، وأثخنتموهم : أي أكثرتم القتل فيهم ، فشدّوا الوثاق : أي فأسروهم ، والوثاق : (بالفتح والكسر) : ما يوثق به ، منّا : أي إطلاقا من الأسر بالمنّ ، فداء : أي إطلاقا فى مقابلة مال أو غيره ، والأوزار فى الأصل : الأحمال ويراد بها آلات الحرب وأثقالها من السلاح والكراع ، قال الأعشى :

وأعددت للحرب أوزارها رماحا طوالا وخيلا ذكورا

ومن نسج داود موضونة تساق مع الحىّ عيرا فعيرا

انتصر : أي انتقم ببعض أسباب الهلاك من خسف أو رجفة أو غرق ، ليبلو :

أي ليختبر ، يضلّ : أي يضيع ، بالهم . أي شأنهم وحالهم ، عرّفها . أي بينها وأعلمها ، إن تنصروا اللّه : أي تنصروا دينه ، يثبت أقدامكم : أي يوفقكم للدوام على طاعته ، فتعسا لهم ، من قولهم : تعس (بفتح العين) الرجل تعسا : أي سقط على وجهه ، وضده انتعش : أي قام من سقوطه ، ويقال تعسا ونكسا (بضم النون) : أي سقوطا على الوجه وسقوطا على الرأس ، أحبط أعمالهم : أي أبطلها .

(19/706)

مثل الجنة : أي صفتها ، آسن : أي متغير الطعم والريح لطول مكثه ، وفعله أسن (بالفتح من بابى ضرب ونصر ، وبالكسر من باب علم) لذة تأنيث لذّ ، وهو اللذيذ ، مصفى : أي لم يخالطه الشمع ولا فضلات النحل ولم يمت فيه بعض نحله كعسل الدنيا ، حميما : أي حارّا ، والأمعاء : واحدها معى (بالفتح والكسر) وهو ما فى البطون من الحوايا .

آنفا : أي قبيل هذا الوقت ، مأخوذ من أنف الشيء لما تقدم منه ، وأصل ذلك الأنف بمعنى الجارحة ثم سمى به طرف الشيء ومقدمه وأشرفه ، آتاهم : أي ألهمهم ، بغتة : أي فجأة ، والأشراط : العلامات ، واحدها شرط (بالسكون والفتح) ومنه أشراط الساعة ، قال

أبو الأسود الدؤلي :

فإن كنت قد أزمعت بالصّرم بيننا فقد جعلت أشراط أوله تبد

وفأنى لهم : أي كيف لهم ، ذكراهم : أي تذكرهم ، متقلبكم : أي تقلبكم لأشغالكم فى الدنيا ، ومثواكم : أي مأواكم فى الجنة أو النار .

لولا : كلمة تفيد الحثّ على حصول ما بعدها ، أي هلا أنزلت سورة فى أمر الجهاد ، محكمة : أي بيّنة واضحة لا احتمال فيها لشىء آخر ، مرض : أي ضعف ونفاق ، نظر المغشىّ عليه من الموت : أي كما ينظر المصروع الذي لا يطرف بصره جبنا منه وهلعا ، أولى لهم : أي فويل لهم ، وهو من الولي بمعنى القرب ، والمراد الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه ويقرب منهم ، عزم الأمر : أي جدّ أولو الأمر ، عسى كلمة تدل على توقع حصول ما بعدها ، توليتم أي توليتم أمور الناس . وتأمرتم عليهم .

يتدبرون القرآن : أي يتصفحون ما فيه من المواعظ والزواجر حتى يقلعوا عن الوقوع فى الموبقات ، ارتدوا على أدبارهم : أي رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر ، سوّل لهم : أي سهّل لهم وزين ، وأملى لهم : أي مدّ لهم فى الأمانى والآمال ، يضربون وجوههم وأدبارهم : أي يتوفونهم وهم على أهوال الأحوال وأفظعها ، والأضغان : واحدها ضغن ، وهو الحقد الشديد ، وتضاغن القوم واضطغنوا إذا أبطنوا الأحقاد ، قال :

قل لابن هند ما أردت بمنطق ساء الصديق وشيّد الأضغانا ؟

لأريناكهم : أي لعرّفناكهم ، والسيمى : العلامة ، ولحن القول : أسلوبه بإمالته عن وجهه من التصريح إلى التعريض والتورية ، ولنبلونّكم : أي لنختبرنّكم .

شاقوا الرسول : أي عادوه وخالفوه ، وأصله صاروا فى شقّ غير شقه ، فلا تهنوا : أي فلا تضعفوا عن القتال ، من الوهن وهو الضعف ، وقد وهن الإنسان ووهّنه غيره ، وتدعوا إلى السلم : أي تدعوا الكفار إلى الصلح خوفا وإظهارا للعجز ، الأعلون : أي الغالبون ، والله معكم : أي ناصركم ، لن يتركم أعمالكم : أي لن ينقصكموها من وترت الرجل : إذا قتلت له قتيلا من ولد أو أخ أو حميم أو سلبت ماله وذهبت به ، فشبه إضاعة عمل العامل وتعطيل ثوابه بوتر الواتر وهو إضاعة شىء معتد به من الأنفس والأموال .

كل ما اشتغلت به مما ليس فيه ضرر فى الحال ولا منفعة فى المآل ولم يمنعك عن مهامّ أمورك فهو لعب ، فإن شغلك عنها فهو لهو ، ومن ثم يقال آلات الملاهي ، لأنها مشغلة عن غيرها ، ويقال لما دون ذلك لعب كاللعب بالشّطرنج والنّرد والحمام ، فيحفكم أي فيجهدكم بطلبها جميعا ، والإلحاف والإحفاء بلوغ الغاية فى كل شىء يقال أحفاه فى المسألة : إذا لم يترك شيئا من الإلحاح ، أضغانكم : أي أحقادكم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المراغى حـ 26 صـ 43 . 76 ﴾ . باختصار .

وقال الإمام أبو جعفر النحاس :

تفسير سورة محمد صلى الله عليه وسلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وهي مدنية 1 - من ذلك قوله جل وعز (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم) (آية 1) روى أبو يحيى عن مجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) قال أهل مكة (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) قال الأنصار (وأصلح بالهم) قال أمرهم قال أبو جعفر معنى (أضل أعمالهم) أبطلها كما قال تعالى (وقالوا أئذا ضللنا في الأرض) والمعنى لم نثبهم كان على ما عملوا لكفرهم ومعنى (كفر عنهم سيئاتهم) غطى عليها ولم يؤاخذهم بما عملوا وقت كفرهم 2 - وقوله جل وعز (كذلك يضرب الله للناس أمثالهم) (آية 3) المعنى كذلك يبين الله أمر الحسنات والسيئات ومعنى ضربت له مثلا بينت له ضربا من الأمثال أي نوعا

منها

3 - ثم قال جل وعز (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب) (آية 4) أي فاقتلوهم

وذكرت الرقاب لأن القتل أكثر ما يقع بها 4 - ثم قال جل وعز (حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق) (آية 4) قال سعيد بن جبير لا ينبغي أن يقع أسر حتى يثخن بالقتل في العدو كما قال جل وعز (ما كان النبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض)

5 - ثم قال جل وعز (فإما منا بعد إما فداء حتى تضع الحرب أوزارها) (آية 4) قال أبو جعفر في هذه الآية اختلاف قال ابن جريج كان عطاء يكره قتل الأسير صبرا لقول الله جل وعز (فإما منا بعد وإما فداء) وقال امنن أو فاد ولا تقتل وقال قتادة الآية منسوخة نسخها قوله تعالى (فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم) وروى شعبة عن الحكم قال سألني مغيرة عن آية غامضة منسوخة وهي قوله تعالى (فإما منا بعد وإما فداء)

(22/706)

وقال الضحاك هي ناسخة نسخت قوله تعالى (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) قال أبو جعفر البين في الآية أنها ليست بمنسوخة ولا ناسخة وإنما هذا إباحة وكذلك القتل لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد قتل وفادى وذكر القتل في آية أخرى وهو (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) فاجتزأ بذلك 6 - وقوله جل وعز (حتى تضع الحرب أوزارها) (آية 4) قال قتادة أي حتى يسلم أهل الشرك فسماهم حربا قال سعيد بن جبير ومجاهد في

قوله تعالى (حتى تضع الحرب أوزارها) حتى ينزل عيسى بن مريم فيكسر الصليب ويقتل الخنزير وتزول الأديان إلا دين الإسلام وتكون الملة واحدة قال أبو جعفر فهذا قول في الآية أي حتى يضع أهل الحرب أوزارهم فيسلموا أو يسالموا وقيل يعني بالأوزار ههنا السلاح كما قال الشاعر: وأعددت للحرب أوزارها * رماحا طوالا وخيلا ذكورا والمعنى على هذا فشدوا الوثاق حتى تضع الحرب أوزارها فإما منا بعد وإما فداء

7 – وقوله جل وعز (ولكن ليبلوا بعضكم ببعض) (آية 4) أي ليمحص المؤمنين ويمحق الكافرين

8 – ثم قال جل وعز (والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم) (آية 4) ويقرأ (قتلوا) و (قتلوا) و (قتلوا) 9 – وقوله جل وعز (سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم) (آية 6) في معناه ثلاثة أقوال: قال مجاهد عرفهم بيوتها ومساكنها وقسمهم منها فلا يغلط أحد منهم فيدخل إلى موضع غيره ولا يحتاج أن يستدل وقال سلمة بن كهيل (عرفها لهم) عرفهم طرقها فهذا قول وقيل (عرفها) طيبها وقيل (عرفها) رفعها قال أبو جعفر القول الأول وإن كان بعض أهل اللغة قد أنكره وقال لو كان كذا لقال عرفهم بها أحسن الأقوال وأصحها ولا يلزم هذا الرد

والمعنى بينها لهم فتبينوها أو والقول الثاني ليس بممتنع لأنه يقال طعام معرف أي مطيب والقول الثالث: مأخوذ من العرف لارتفاعه وقيل أي عرف المكلفين من عباده بأنها لهم

10 - وقوله جل وعز (والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم) (آية 8) أي ممن ينبغي أن يقال لهم أتعسهم الله أي لا جبرهم وهذا يدعى به على العاثر وقال ثعلب التعس الشر قال وقيل هو البعد وانتكس قلب أمره وأفسد وقال ابن السكيت التعس أن يخر على رأسه قال

والتعس أيضا الهلاك 11 - وقوله جل وعز (دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها) (آية 10) قال مجاهد وللكافرين التدمير وعيدا من الله وقال غيره فقتل منهم من قتل بالسيف 12 - ثم قال جل وعز (ذلك بان الله مولى الذين آمنوا وان الكافرين لا مولى لهم) (آية 11) قال قتادة أي ولي الذين آمنوا

قال أبو جعفر وفي قراءة عبد الله كذلك وقال الشاعر: فغدت كلا الفرجين تحسب أنه * مولى المخافة خلفها وأمامها أي ولي المخافة وروى سماك عن عكرمة عن ابن عباس (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا) قال لا مولى لهم غيره

قال قتادة نزلت هذه الآية يوم أحد والنبي صلى الله عليه وسلم في الشعب وقد اثخن في المسلمين بالقتل والجراح فصاح المشركون يوم بيوم بدر لنا العزى ولا عزى لكم فانزل الله جل

وعز (والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم) إلى قوله (ذلك بان الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم) فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم قولوا الله مولانا ولا مولى لكم وقتلانا أحياء يرزقون في الجنة وقتلاكم في النار قال أبو جعفر والمعنى الله ولي الذين آمنوا في الهداية والنصرة فلما أخبر بولايته المؤمنين وخذلانه الكافرين أعلم بما أعده للمؤمنين والكافرين فقال (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار) أي منزل لهم (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم) (آية 14) 13 - ثم قال جل وعز (وكأين من قرية هي اشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم) (آية 13)

(24/706)

قال قتادة يعني أهل مكة قال فلا ناصر لهم 14 - ثم قال جل وعز (أفمن كان على بينة من ربه) (آية 14) قال قتادة هو محمد صلى الله عليه وسلم

(كمن زين له سوء عمله) قال هم مشركو العرب ثم قال (واتبعوا أهواءهم) على معنى (من)

15 - ثم قال جل وعز (مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن) (آية 15) ولم يأت بالمماثل

في معناه ثلاثة أقوال: أ – منها أن مثلا بمعنى صفة قال ذلك النضر بن شميل والفراء وروي عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قرأ (أمثال الجنة التي وعد المتقون) قال أبو جعفر فهذا قول ويكون على هذا (مثل) على معنى (مثل) ويكون فيه خلاف معناه كما ان في (عدل) خلاف معنى (عدل) ب – وقيل المعنى مثل الجنة التي وعد المتقون فيما تعرفون في الدنيا جنة فيها أنهار ج – والقول الثالث أن المعنى على التوبيخ والتقرير أي مثل الجنة التي وعد المتقون كمن هو خالد في النار أي مثل المطيع عندكم كمثل العاصي ؟

وروى معمر عن قتادة (من ماء غير آسن) قال غير منتن

قال قتادة الاسن المتغير الآجن قال أبو جعفر قول قتادة اصح لأنه يقال أسن الماء يأسن ويأسن فهو آسن وأسن إذا أنتن فلم يقدر أحد على شربه وأجن يأجن وهو آجن إذا تغير وإن كان شرب على كره 16 – وقوله جل وعز (وأنهار من خمر لذة للشاربين) (آية 15) يقال شراب لذيذ ولذ

(وأنهار من عسل مصفى) أي ليس كعسل الدنيا الذي فيه الشمع وغيره (ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم) أي ولهم مغفرة من ربهم ثم قال تعالى (كمن هو خالد في النار) ؟ قال أبو جعفر قد تقدم القول فيها وفيه قول آخر وهو ان المعنى أمن يخلد في الجنة وفي هذا النعيم المذكور كمن هو خالد في النار ثم حذف هذا لعلم السامع كما قال تعالى (أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما)

وغن كان قد قيل إن المعنى يا من هو قانت 17 - وقوله جل وعز (ومنهم من يستمع إليك) (آية 16) قال قتادة هم المنافقون 18 - ثم قال تعالى (حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا

العلم ماذا قال آنفا) (آية 16) أي إذا سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يخطب ثم خرجوا قالوا للمسلمين استهزاء (ماذا قال آنفا) أي لم نلتفت إلى ما قال والمعنى ماذا قال الساعة أي في أقرب الأوقات إلينا ؟ من قولهم استأنفت الشئ وروضة أنف لم ترع

19 - وقوله جل وعز (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) (آية 17) المعنى زادهم الله هدى فيكون الضمير يعود على قوله (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم) ويجوز أن يكون المعنى وزادهم قول النبي هدى ويجوز أن يكون المعنى وزادهم استهزاء المنافقين هدى ثم قال تعالى (وآتاهم تقواهم) أي ألهمهم ويجوز أن يكون المعنى ثواب تقواهم

20 - وقوله جل وعز (فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها) (آية 18) أي فهل ينتظرون إلا أن تأتيهم الساعة فجأة (فقد جاء أشراطها) قال الفراء أي علامتها الواحد شرط 21 - ثم قال جل وعز (فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم) ؟ (آية

18)

قال قتادة أي فأنى لهم أن يتذكروا قال أبو جعفر فالمعنى على هذا فمن أين لهم منفعة الذكرى إذا جاءت الساعة وانقطعت التوبة ؟

22 - ثم قال جل وعز (فاعلم انه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) (آية 19) والمخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم مخاطبة لأمته أي اثبتوا على هذا 23 - وقوله جل وعز (ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال) (آية 20) قال قتادة كل سورة فيها ذكر القتال فهي محكمة قال أبو جعفر وهذه آية مشكلة وفي قراءة عبد الله (وإذا أنزلت سورة محدثة) والمعنى واحد أي لم يقع عليها النسخ وذكر فيها القتال

(26/706)

وإنما كان المسلمون يقولون هذا لأنهم كانوا يأنسون بنزول الوحي (رأيت الذين في قلوبهم مرض) أي ريب وشك (ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت) أي نظر مغتاظين مغمومين كما قال تعالى (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم) وإنما كانوا يكرهون ذكر القتال لأنهم إذا تأخروا عنه تبين نفاقهم فخافوا القتل

ثم قال تعالى (فأولى لهم) على التهديد وحقيقته وليهم المكروه أي أولى لهم المكروه والعرب تقول

لكل من قارب الهلكة ثم افلت أولى لك أي كدت تهلك كما روي أن أعرابيا كان يوالي رمي الصيد فيفلت منه فيقول أولى لك رمى صيدا فقاربه ثم افلت منه فقال: فلو كان (أولى) يطعم القوم صدتهم * ولكن (أولى) تترك الناس جوعا 24 - ثم قال تعالى (طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم) (آية 21) قال قتادة أي طاعة الله وقول بالمعروف في حقائق الأمور أي سمع وطاعة خير لهم وقال الخليل وسيبويه أي طاعة وقول معروف أمثل

وفي المعنى قول آخر وهو انه حكى ما كانوا يقولون قبل نزول القتال وقبل الفرض فالمعنى على هذا يقولون منا طاعة وقول معروف ويدل على صحة هذا القول (فإذا عزم الأمر) قال مجاهد أي جد الأمر قال أبو جعفر فالتقدير على هذا فإذا جد الأمر بفرض القتال كرهوا ذلك ثم حذف 25 - ثم قال جل وعز (فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم) (آية 21) قال قتادة فلو صدقوا الله في الإيمان والجهاد 26 - وقوله جل وعز (فهل عسيتم إن توليتم ان تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم) (آية 22)

قال بكر بن عبد الله المزني هؤلاء الحرورية قال محمد بن كعب اي فهل عسيتم إن توليتم الأمور أن يقتل بعضكم بعضا كقتل قريش بني هاشم وكقتل بني هاشم قريشا وفي المعنى قول آخر وهو فهل تريدون إن توليتم عن النبي صلى الله عليه وسلم وكفرتم بما جاءكم به على أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه من الكفر فتفسدوا في الأرض بالكفر وتقطعوا أرحامكم بان تئدوا بناتكم ؟ وقرأ علي بن أبي طالب عليه السلام (فهل عسيتم إن

توليتم) اي ولي عليكم 27 – وقوله جل وعز (إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم) (آية 25) قال قتادة هؤلاء أهل الكتاب عندهم صفة محمد صلى الله عليه وسلم فأنكروها وكفروا من بعد ما تبين لهم الهدى وقال الضحاك هم أهل النفاق (الشيطان سول لهم) قال قتادة أي زين لهم ثم قال تعالى (وأملى لهم)

المعنى وأملى الله لهم أي مد الله لهم في آجالهم ملاوة

من الدهر كما قال تعالى (وأملي لهم إن كيدي متين) وقرأ مجاهد (الشيطان سول لهم واملي لهم) وهذه قراءة حسنة والمعنى وأنا أملي لهم وحكى الفراء انه قرئ (وأملي لهم) وهي قراءة شيبة وأبي عمرو 28 – ثم قال جل وعز (ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر) (آية 26) أي في التضافر على عداوة محمد صلى الله عليه

وسلم وقال سفيان يعني الفرائض قال قتادة هم المنافقون

29 - وقوله جل وعز (أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم) (آية 29) اي عداوتهم أي يظهروا عداوتهم لأهل الإسلام 30 - ثم قال جل وعز (ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول) (آية 30) أي لعرفناكهم يقال قد أريتك كذا أي عرفتكه) (فلعرفتهم بسيماهم) أي بعلامتهم 31 - ثم قال تعالى (ولتعرفنهم في لحن القول) (آية 30) اي فحواه ومعناه كما قال الشاعر:

منطق صائب وتلحن أحيانا * وخير الحديث ما كان لحنا

(28/706)

أي ما لم يصرح به وما عرف بالمعنى ونحو الكلام وقولهم لحن فلان في هذا إنما معناه أخذ في ناحية غير الصواب 31 - وقوله جل وعز (والله معكم ولن يتركم أعمالكم) (آية 35) قال مجاهد لن ينقصكم قال أبو جعفر من هذا حديث النبي صلى الله عليه وسلم من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله 32 - وقوله جل وعز (إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم) (آية 37)

(فيحفكم) أي يجهدكم ومنه حفيت الدابة (ويخرج أضغانكم) قيل أي عداوتكم وقال

الضحاك غش قلوبكم إذا سئلتم أموالكم 33 - وقوله جل وعز (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم) (آية 38) قال قتادة أي إن تتولوا عن طاعة الله ثم قال (يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) (آية 38) قال مجاهد من شاء

وروى العلاء عن أبيه عن أبي هريرة قال قالوا يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا ثم لا يكونوا أمثالنا ؟ فضرب بيده على فخذ سلمان رضي الله عنه فقال هم قوم هذا لو كان الدين بالثريا لتناوله رجال من الفرس تمت سورة محمد صلى الله عليه وسلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للنحاس حـ 6 صـ 459. 488 ﴾

(29/706)

وقال الفراء :

سورة (محمد)

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ اللَّهُ لاَنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَاكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾

قوله عز وَجل: ﴿ فَضَرْبَ الرِّقَابِ . . . ﴾ .

نصب على الأمر ، وَالذى نصب به مضمر ، وكذلك كل أمر أظهرَتَ فيه الأسماء ، وَتركت الأفعال فانصب فيه الأسماء ، وَذكر : أنه أدبٌ من الله وتعليم للمؤمنين للقتال .

وقوله: ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً . . . ﴾ .

منصوب أيضاً على فعل مضمر ، فإمّا أن تمنُّوا ، وَإما أن تفدوا ، فالمن : أنت تترك الأسير بغير فداء ، وَالفداء : أن يفدىَ المأسورُ نفسه .

وقوله: ﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا . . . ﴾ .

آثامها وَشركها حتى لا يبقى إلاّ مسلم ، أو مسالم . وَالهاء التي في أوزارها تكون للحرب وَأنت تعنى : أوزار أهلها ، وَتكون لأهل الشرك خاصةً ، كقولك : حتى تنفى الحرب أوزار المشركين .

وقوله: ﴿ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ . . . ﴾ .

بملائكة غيركم ، ويقال : بغير قتال : ولكن ليبلو بعضكم ببعض ، المؤمن بالكافر ، والكفر بالمؤمن .

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ قَاتَلوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ . . . ﴾ .

قرأها الأعمش وعاصم وزيد بن ثابت [حدثنا محمد] حدثنا الفراء قال : حدثنى بذلك محمد بن الفضل الخراسانى عن [عطاء عن أبى] عبد الرحمن عن زيد بن ثابت : قاتَلوا ، وقرأها الحسن : قُتِّلوا مشددة ، وقد خففها بعضهم فقال : قُتِلوا مخفف ، وكل ذلك

صواب .

﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾

وقوله: ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ . . . ﴾ .

(30/706)

يعرفون منازلهم إذا دخلوها ، حتى يكون أحدهم أعرف بمنزله فى الجنة منه بمنزله إذا رجع من الجمعة .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾

وقوله: ﴿ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ . . . ﴾ .

كأنه قال: فأتعسهم الله وأضل أعمالهم ؛ لأنّ الدعاء قد يجرى مجرى الأمر والنهى ، ألا ترى أنّ أضل فعل ، وأنها مردودة على التعس ، وهو اسم لأن فيه معنى أتعسهم ، وكذلك قوله: ﴿ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا ﴾ مردودة [/ب] على أمر مضمر ناصبٍ لضرب الرقاب .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾

وقوله: ﴿ كَرِهُواْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ . . . ﴾ كرهوا القرآن وسخطوه .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾

وقوله: ﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا . . . ﴾

يقول: لأهل مكة أمثال ما أصاب قوم لوط وعاد وثمود وعيدٌ من الله .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ ﴾

وقوله: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُواْ . . . ﴾

يريد : وَلِيّ الذين آمنوا ، وكذلك هى فى قراءة عبد الله "ذلك بأن الله وِلِيّ الذين آمنوا" وهي مثل التى في المائدة في قراءتنا : ﴿ إنما وَلِيّكم الله ورسوله ﴾ ، ومعناهما واحد ، والله أعلم .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾

وقوله: ﴿ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ . . . ﴾ .

ترفع النار بالمثوى ، ولو نصبت المثوى ، ورفعت النار باللام التى فى (لهم) كان وجها .

(31/706)

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلاَ نَاصِرَ لَهُمْ ﴾

وقوله: ﴿ مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ . . . ﴾ .

يريد : التى أخرجك أهلها إلى المدينة ، ولو كان من قريتك التى أخرجوك كان وجها ، كما قال: ﴿ فَجاءَها بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قائلون ﴾ ، فقال: (قائلون) ، وفى أول الكلمة: (فجاءها) .

وقوله: ﴿ فَلاَ نَاصِرَ لَهُمْ . . . ﴾ .

جاء في التفسير: فلم يكن لهم ناصر حين أهلكناهم ، فهذا وجه ، وقد يجوز إضمار كان ، وإن كنت قد نصبت الناصر بالتبرية ، ويكون: أهلكناهم فلا ناصر لهم الآن من عذاب الله .

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُواْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾

وقوله: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُواْ أَهْوَاءَهُمْ . . . ﴾ ولم يقل: واتبع هواه ، وذلك أنّ من تكون فى معنى واحد وجميع ، فرُدّت أهواؤهم على المعنى ، ومثله: ﴿ وَمِنَ الشياطِينِ مَنْ يَغُوصُون له ﴾ ، وفي موضع آخر: ﴿ ومِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيكَ ﴾ ، وفي موضع آخر: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ .

﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن

رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾

وقوله: ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ . . . ﴾ .

[حدثنا أبو العباس قال: حدثنا محمد قال:] حدثنا الفراء قال: أخبرني حبّان بن علي عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال:

(32/706)

مثل الجنة، أمثال الجنة، صفات الجنة. قال ابن عباس: وكذلك قرأها علي بن أبي طالب: أمثال.

وقوله: ﴿ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ آسِنٍ . . . ﴾ .

غير متغير، غير آجن.

وقوله: ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ . . . ﴾ لم يخرج من ضروع الإبل ولا الغنم برغوته.

وقوله: ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ . . . ﴾ .

اللذة مخفوضة، وهي الخمر بعينها، وإن شئت جعلتها تابعة للأنهار، وأنهارٌ لذةٌ، وإن شئت نصبتها على يتلذذ بها لذة، كما تقول: هذا لك هبةً وشبهه، ثم قال: ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ ﴾ لم يقل: أمَن كان في هذا كَمَن هو خالد في النار؟ ولكنه فيه ذلك المعنى فبُني

عليه .

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُواْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾

وقوله: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ . . . ﴾ .

يعنى خطبتك في الجمعة [/ا] فلا يستمعون ولا يعون [حتى] إذا انصرفوا ، وخرج الناس قالوا للمسلمين: ماذا قال آنفا ، يعنون النبي صلى الله عليه وسلم استهزاءً منهم .

قال الله عز وجل: ﴿ أُولئك الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ على قُلوبهم ﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى . . . ﴾ .

زادهم استهزاؤهم هدى ، وآتاهم الله تقواهم ، يقال: أثابهم ثواب تقواهم ، ويقال: ألهمهم تقواهم ، ويقال: آتاهم تقواهم من المنسوخ إذا نزل الناسخ .

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾

وقوله: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا . . . ﴾ .

(أنْ) مفتوحة في القراءة كلها . حدثنا الفراء قال: وَحدثنى أبو جعفر الرؤاسى قال: قلت لأبى عمرو بن العلاء: ما هذه الفاء التى فى قوله: ﴿ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ ؟ قال: جواب للجزاء . قال: قلت: إنها ﴿ أَنْ تأتيهم ﴾ مفتوحة؟ قال: فقال: معاذ الله إنما هى (إِنْ تَأْتِهِمْ) . قال الفراء: فظننت أنه أخذها عن أهل مكة؛ لأنه عليهم قرأ ، وهى أيضاً فى بعض مصاحف الكوفيين: تأتهم بسينة واحدة ، ولم يقرأ بها أحد منهم ، وهو من المكرّر: هل ينظرون إلا الساعة ، هل ينظرون إلا أَن تأتيهم بغتة . والدليل على ذلك أن التى فى الزخرف فى قراءة عبد الله: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيهم الساعةُ ﴾ ، ومثله: ﴿ وَلَوْلاَ رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِساءٌ مؤمِناتٌ ﴾ لولا أن تطئوهم فإن فى موضع رفع عند الفتح ، وأن فى الزخرف. وههنا نصب مردودة على الساعة ، والجزم جائز تجعل: هل ينظرون إلا الساعة مكتفيا ، ثم تبتدىء: إن تأتهم ، وتجيئها بالفاء على الجزاء ، والجزم جائز .

وقوله: ﴿ فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ . . . ﴾ .

"ذكراهم" فى موضع رفع بلهم ، والمعنى: فأنى لهم ذكراهم إذا جاءتهم الساعة؟ ومثله: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسانُ وأَنّى لَهُ الذِّكْرَى ﴾ أى: ليس ينفعه ذكره ، ولا ندامته .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلاَ نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ

الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ ﴾

وقوله: ﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ . . . ﴾ .

(34/706)

وفى قراءة عبد الله: سُورةٌ مُحْدَثةٌ . كان المسلمون إذا نزلت الآية فيها القتال وذِكْره شق عليهم وتواقعوا أن تنسخ ، فذلك قوله: "لولا نزلت سورة" أى هلاّ أنزلت سوى هذه ، فإذا نزلت وقد أُمروا فيها بالقتال كرهوها ، قال الله: ﴿ فَأَوْلَى لَهُمْ ﴾ لمن كرهها ، ثم وصف قولهم قبل أن تنزَّل: سمع وطاعة ، قد يقولون: سمع وطاعة ، فإذا نزل الأمر كرهوه ، فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم ، فالطاعة مرفوعة في كلام العرب إذا قيل لهم: افعلوا كذا وكذا ، فثقل عليهم أو لم يثقل قالوا: سمع وطاعة .

[حدثنا أبو العباس قال: حدثنا محمد قال]: حدثنا الفراء قال: أخبرنى حبان عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال:

قال الله عزّ وجل: ﴿ فَأَوْلَى ﴾ ثم قال لَهُمْ لِلَّذِين آمنوا مِنْهم طاعةٌ وَقَوْلٌ مَعْروف ، فصارت: فأولى وعيدا لمن كرهها ، واستأنف الطاعة لهم ، والأول عندنا كلام العرب ، وقول الكلبى هذا غير مردود .

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُواْ أَرْحَامَكُمْ ﴾

وقوله: [/ب] ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ . . . ﴾ .

قرأها العوام بنصب السين ، وقرأها نافع المدنى: فهل عَسِيْتُم ، بكسر السين ، ولو كانت كذلك لقال: عَسِيَ [فى موضع عسى] . ولعلها لغة بادرة ، وربما اجترأت العرب على تغيير بعض اللغة إذا كان الفعل لا يناله قد . قالوا: لُسْتُم يُريدون لستُم ، ثم يقولون: لَيْسَ وليسُوا سواء ، لأنه فعل لا يتصرف ليس له يفعل وكذلك عسى ليس له يفعل فلعله اجترى عليه كما اجترى على لستم .

وقوله: "هَلْ عَسَيْتُم" . . . إن توليتم أمور الناس أن تفسدوا فى الأرض ، وتُقطعوا أرحامكم ، ويقال: ولعلكم إن انصرفتم عن محمد صلى الله عليه وسلم ، وتوليتم عنه أن تصيروا إلى أمركم الأول من قطيعة الرحم والكفر والفساد .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّواْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ﴾

(35/706)

وقوله: ﴿ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ . . . ﴾ .

زين لهم وأملى لهم الله ، وكذلك قرأها الأعمش وعاصم ، وذُكر عن على بن أبى طالب وابن مسعود وزيد بن ثابت (رحمهم الله) أنهم قرءوها كذلك بفتح الألف .

وذُكر عن مجاهد أنه قرأها : (وأُمْلِي لهم) مرسلة الياء ، يخبر الله جل وعز عن نفسه ، وقرأ بعض أهل المدينة: وأُمْلِيَ لهم بنصب الياء وضم الألف ، يجعله فعلاً لم يسمّ فاعله ، والمعنى متقارب .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾

وقوله: ﴿ إِسْرَارَهُمْ . . . ﴾ .

قرأها الناس: أسرارهم: جمع سر ، وقرأها يحيى بن وثاب وحده: إسرارهم بكسر الألف ، واتبعه الأعمش وحمزة والكسائى ، وهو مصدر ، ومثله: ﴿ وإِدْبَارَ السجود ﴾ .

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾

وقوله: ﴿ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ . . . ﴾ يقول: أنْ لن يبدى الله عدواتهم وبغضهم لمحمد صلى الله عليه .

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾

وقوله: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ . . . ﴾ .

يريد : لعرفناكهم ، تقول للرجل: قد أريتك كذا وكذا ، ومعناه عرفتكه وعلمتكه ، ومثله:

﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ ، في نحو القول ، وفي معنى القول .

﴿ فَلاَ تَهِنُواْ وَتَدْعُواْ إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾

وقوله: ﴿ فَلاَ تَهِنُواْ وَتَدْعُواْ إِلَى السَّلْمِ . . . ﴾ .

كلاهما مجزومتان بالنهي: لا تهنوا ولا تدعوا ، وقد يكون منصوباً على الصرف يقول: لا تدعوا إلى السلم ، وهو الصلح ، وأنتم الأعلون ، أنتم الغالبون آخر الأمر لكم .

وقوله: ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ . . . ﴾ .

(36/706)

من وترت الرجل إذا قتلت له قتيلا ، أو أخذت له مالا فقد وترته . وجاء في الحديث: (من فاتته العصر فكأنما وتر أهله وماله) قال الفراء ، وبعض الفقهاء يقول: أوتر ، والصواب وتر .

﴿ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾

وقوله: ﴿ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ . . . ﴾ .

أي يجهدكم تبخلوا ويخرج أضغانكم ، ويخرج ذلك البخل عداوتكم ، ويكون يخرج الله

أضغناكم أحفيت الرجل: أجهدته. انتهى انتهى. اهـ ﴿معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 64.57﴾

(37/706)

وقال بيان الحق الغزنوى:

سورة محمد عليه السلام

(أضل أعمالهم) [1] أبطلها. وقيل: ضلت أعمالهم، كما قال الشاعر: 1090- هبوني امرءاً منكم أضل بعيره له حرمة إن الذمام كبير. (حتى تضع الحرب أوزارها) [4] أي: أهل [الحرب] آثامها، فلا يبقى إلا مسلم أو مسالم.

وقيل: أوزارها: أثقالها من الكراع والسلاح، كما فصلها الأعشى [بقوله]: 1091- [و]أعددت للحرب أوزارها رماحاً طوالاً وخيلاً ذكورا 1092- ومن نسج داود يحدى بها على أثر الخيل عيراً فعيرا. (عرفها) [6] إذا دخلوها عرف كل منزله فسبق إليه. وقيل: عرفها: طيبها. /قال الشاعر:

1093- فتدخل أيد في حناجر أقنعت لعادتها من الخزير المعرف. (ويأكلون كما تأكل الأنعام) [12] قاله وضعاً منهم، وتخسيساً لهم، كما قيل في معناه: 1094- نهارك يا

مغرور أكل وراحة وليلك نوم والردى لك لازم 1095- تكدح فيما سوف تكره غبة كذلك في الدنيا تعيش البهائم. (مثل الجنة) [15] صفتها. أي: الصفة التي مثلت الجنة بها، فصارت مثلاً لها.

(غير ءاسن) أسن الماء يأسن أسناً وأسوناً فهو آسن إذا تغير. ومعنى الآية على وجهين: صفة الحال: أي: من ماء غير متغير. وصفة الاستقبال: أي: غير صائر إلى التغير، وإن طال [جمامه]، ومقامه، بخلاف مياه الدنيا. (من لبن لم يتغير طعمه) [15] لأن أحب الألبان عند [هم] الحليب الصريح المحض، وهو الأنفع والأمرأ. (من خمر لذة للشاربين) يسوغ كما يسوغ ماء العسل في حلاوته، والماء النمير في عذوبته. ولذة: معناه: لذيذة، كما قال مزرد:

1096- إذ ألهو بليلى وهي لذ حديثها لطالبها مسئول خير فباذل. (ماذا قال ءانفاً) [16] إما أنهم لم يعوا ولم يفهموا لقلة اعتنائهم به. أو أظهروا أنهم لم يفهموا تغافلاً عن الدين وتهاوناً به. ([و]ءاتاهم تقواهم) [17] أي: ثواب تقواهم. وقيل: ألهمهم. (فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم) [18] أي: من أين لهم، بمعنى: من أين الانتفاع بها في ذلك الوقت. (فاعلم أنه لا إله إلا الله) [19]

دم عليه اعتقاداً وقولاً . (طاعة وقول معروف) [21] أي: هذا قولهم في الأمن . (فإذا عزم الأمر) كرهوه . (إن توليتم) [22] أي: وليتم أمور الناس ، أن تصيروا إلى أمركم الأول في قطيعة الرحم والفساد . (وجوههم وأدبارهم) [27] ما دبر منهم/ ، وذلك أن الكافر عند موته يضرب وجهه وظهره . (لحن القول) [30] فحواه وكنايته . (يتركم) [35] يسلبكم ، والوتر: السلب .

(فيحفكم) [37] يجهدكم في المسألة .

[تمت سورة محمد عليه الصلاة والسلام] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ باهر البرهان صـ 1318 ـ 1324 ﴾.

(39/706)

وقال الأخفش :

سورة (محمد)

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾

قال ﴿ فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ يقول: فانى لهم ذكراهم اذا جاءتهم الساعة .

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُواْ أَرْحَامَكُمْ ﴾

وقال ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ ﴾ فان الأول للمجازاة وأَوقعت ﴿ عَسَيْتُمْ ﴾ على ﴿ أَن تُفْسِدُواْ ﴾ لأنه اسم ، ولا يكون ان تعمل فيه ﴿ عَسَيْتُمْ ﴾ ولا "عَسَيْتُ" إلاّ وفيه "أنْ" لا تقول "عَسَيْتُم الفِعْلَ" كما ان قولك "لو ان زيدا جاء كان خيرا له" فقولك "أَنَّ زَيْداً جاءَ" اسم وانت لا تقول "لوذاك" لأنه ليس كل الأسماء تقع في كل موضع . وليس كل الأفعال يقع على كل الأسماء . الا ترى انهم يقولون "يَدَعُ" ولا يقولون "وَدَعَ" [ويقولون "يَذَرُ"] ولا يقولون: "وَذَرَ" .

﴿ فَلاَ تَهِنُواْ وَتَدْعُواْ إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾

وقال ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ أي: في أعمالكم كما تقول: "دَخَلْتُ البيتَ" وانت تريد "في البيت" .

﴿ هَا أَنتُمْ هؤلاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُواْ أَمْثَالَكُم ﴾

وقال ﴿ هَا أَنتُمْ هؤلاء ﴾ فجعل التنبيه في موضعين للتوكيد وكان التنبيه الذي في "هَؤُلاَءِ" تنبيها لازما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 520 ﴾

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة محمد

مدنية كلها

1 - أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ : أبطلها و[أصل «الضلال» :

الغيبوبة] . يقال ضل الماء في اللبن ، إذا [غاب] وغلب عليه ، فلم يتبين .

كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ أي سترها ، وَأَصْلَحَ بالَهُمْ أي حالهم .

4 - حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها أي يضع أهل الحرب السلاح .

قال الأعشى :

وأعددت للحرب أوزارها رماحا طوالا ، وخيلا ذكورا

ومن نسج داود يحدي بها على أثر الحي ، عيرا فعيرا

وأصل «الوزر» ما حملته ، فسمي السلاح «أوزارا» لأنه يحمل .

6 - وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ يقال في التفسير : «بينها لهم ، وعرفهم منازلهم منها» .

وقال أصحاب اللغة . «عرفها لهم» : طيبها . يقال : طعام معرف ، أي مطيب . قال

الشاعر :

فتدخل أيد في حناجر ، أقنعت لعادتها من الخزير المعرف

---

8 - وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ من قولك : تعست ، أي عثرت وسقطت .

11 - مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا أي وليهم . وَأَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ : لا ولي لهم .

12 - وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ أي منزل لهم .

13 - وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أي كم من أهل قرية : هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ يريد : [اخرجك] أهلها .

15 - مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ أي غير متغير الريح والطعم و«الآجن» نحوه .

وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ أي : لذيذة . يقال : شراب لذّ ، إذا كان طيبيا .

18 - فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً أي هل ينظرون ؟ ! فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها أي علاماتها .

فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ ؟ فكيف لهم منفعة الذكرى إذا جاءت ، والتوبة - حينئذ - لا تقبل ؟ ! 20 و 21 - وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا : لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ . هذا مفسر في كتاب «تأويل المشكل» .

فَأَوْلى لَهُمْ وعيد وتهدد ، تقول للرجل - إذا أردت به سوءا ، ففاتك - : أولى لك .

ثم ابتدأ ، فقال : طاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ . . . قال قتادة : «يقول :

لطاعة اللّه ، وقول بالمعروف – عند حقائق الأمور – خير لهم» .

25 – سَوَّلَ لَهُمْ : زين لهم ، وَأَمْلى لَهُمْ : أطال لهم الأمل .

(42/706)

---

30 – وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ، في نحو كلامهم ومعناه .

35 – فَلا تَهِنُوا أي لا تضعفوا . من «الوهن» . وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ أي الصلح .

وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ أي لن ينقصكم ، ولن يظلمكم . يقال :

وترتني حقي ، أي بخستنيه .

37 – [إِنْ يَسْئَلْكُمُوها] فَيُحْفِكُمْ أي ان يلح عليكم بما يوجبه في أموالكم . تَبْخَلُوا : يقال :

احفاني بالمسألة والحف وألح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 352 .

354 ﴾

(43/706)

وقال الغزنوى :

ومن سورة محمد صلى اللّه عليه وسلم

1 أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ : أبطلها «1» ، وهي نحو صدقاتهم ، وصلة أرحامهم .

وَأَصْلَحَ بالَهُمْ : [أمرهم] «2» وحالهم في الدين .

4 فَضَرْبَ الرِّقابِ : نصب على الأمر ، أي : فاضربوها ضربا «3» .

وفي الحديث «4» : «لم أبعث لأعذّب/ بعذاب اللّه ، إنّما بعثت بضرب الرقاب وشدّ الوثاق» .

أَثْخَنْتُمُوهُمْ : أكثرتم فيهم القتل «5» ، فَشُدُّوا الْوَثاقَ : عند الأسر .

تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها : أهل الحرب آثامها ، فلا يبقى إلّا مسلم أو

---

(1) ينظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 409 ، وتفسير الماوردي : 4/ 42 ، وتفسير البغوي : 4/ 177 .

(2) ما بين معقوفين عن «ك» و «ج» .

(3) هذا قول الفراء في معانيه : 3/ 57 . وانظر معاني القرآن للزجاج : 5/ 6 ، وإعراب القرآن للنحاس : 4/ 179 .

(4) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف : 12/ 390 ، كتاب الجهاد ، باب «من نهى عن

التحريق بالنار» عن القاسم بن عبد الرحمن ورفعه .

والحديث مرسل وفي إسناده عبد الرحمن بن عبد اللّه المسعودي اختلط قبل موته .

ورواية وكيع عنه قبل اختلاطه ، كما في الكواكب النيرات : 293 .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 459 ، وزاد نسبته إلى الطبري عن القاسم عن عبد الرحمن مرفوعا .

(5) معاني القرآن للزجاج : 5/ 6 ، والكشاف : 3/ 531 .

(44/706)

مسالم «1» .

أو أَوْزارَها : أثقالها من الكراع والسّلاح «2» .

6 عَرَّفَها : طيّبها «3» ، أو إذا دخلوها عرف كلّ منزله فسبق إليه «4» .

15 غَيْرِ آسِنٍ : أسن الماء يأسن وياسن وياسن أسنا وأسنا وأسونا فهو آسن وأسن إذا تغير «5» ، ويجوز المعنى حالا ، أي : غير متغير ، واستقبالا ، أي : غير صائر إلى التغير وإن طال جمامه بخلاف مياه الدنيا .

17 وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ : ثوابها «6» ، أو ألهموها «7» .

18 فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ : من أين لهم الانتفاع بها في ذلك الوقت .

19 فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ : دم عليه اعتقادا وقولا «8» .

---

(1) هذا قول الفراء في معانيه : 3/ 57 ، وذكره الطبري في تفسيره : 26/ 42 ، والبغوي في تفسيره : 4/ 179 ، ونقله ابن الجوزي في زاد المسير : 7/ 397 عن الفراء .

(2) هذا قول ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 409 ، ومكي في تفسير المشكل : 316 ونقله ابن الجوزي في زاد المسير : 7/ 398 عن ابن قتيبة .

و«الكراع» : السلاح ، وقيل : هو اسم يجمع الخيل والسلاح .

ينظر اللسان : 8/ 307 (كرع) .

(3) ذكر ابن قتيبة هذا القول في تفسير غريب القرآن : 410 ، والماوردي في تفسيره : 4/ 45 ، وأورده ابن الجوزي في زاد المسير : 7/ 398 ، وقال : «رواه عطاء عن ابن عباس» .

وانظر هذا القول في تفسير البغوي : 4/ 179 ، وتفسير القرطبي : 16/ 231 .

(4) ورد هذا المعنى في أثر أخرجه الطبري في تفسيره : 26/ 44 عن أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه ، وذكره الماوردي في تفسيره : 4/ 45 ، والقرطبي في تفسيره : 16/ 231 .

(5) ينظر معاني القرآن للفراء : 3/ 60 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 215 ،

وتفسير الطبري :

26/ 49 ، ومعاني الزجاج : 5/ 9 ، والمفردات للراغب : 18 . [. . . . .]

(6) ذكر الفراء هذا القول في معاني القرآن : 3/ 61 ، ونقله الماوردي في تفسيره : 4/ 48 عن السدي ، وعزاه البغوي في تفسيره : 4/ 181 إلى سعيد بن جبير .

(7) ذكره الفراء في معاني القرآن : 3/ 61 ، والزجاج في معانيه : 5/ 11 .

(8) معاني القرآن للزجاج : 5/ 12 ، وتفسير البغوي : 4/ 182 ، وتفسير الفخر الرازي :

28/ 61 .

(45/706)

---

21 طاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ : أي : هذا قولهم في الأمر .

فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ : كرهوه «1» .

22 إِنْ تَوَلَّيْتُمْ : وليتم أمور النّاس أن تصيروا إلى أمركم الأول في الفساد وقطيعة الرحم .

30 لَحْنِ الْقَوْلِ : فحواه وكنايته «2» .

35 يَتِرَكُمْ : يسلبكم ، والوتر : السلب «3» .

يحفكم «4» : يجهدكم في المسألة «5» .

38 فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ : عن داعي نفسه لا عن ربّه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 746. 748 ﴾

---

(1) في تفسير الطبري : 26/ 55 : «فإذا وجب القتال وجاء أمر اللّه بفرض ذلك كرهتموه» .

(2) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 215 ، والمفردات للراغب : 449 ، والبحر المحيط :

8/ 71 ، واللسان : 13/ 380 (لحن) .

(3) اللسان : 5/ 274 (وتر) .

(4) من قوله تعالى : إِنْ يَسْئَلْكُمُوها فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ [آية : 37] .

(5) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 411 ، ومعاني القرآن للزجاج : 5/ 17 ، وتفسير المشكل لمكي : 316 ، والمفردات للراغب : 125 .

وقال ملا حويش :

تفسير سورة محمد عليه السّلام

عدد 9 - 95 و47 وتسمى سورة القتال

نزلت بالمدينة بعد سورة الحديد عدا الآية 13 فإنها نزلت بالطريق أثناء الهجرة وهي ثمان وثلاثون آية ، وخمسمائة وثمان وثلاثون كلمة ، وألفان وخمسمائة واثنان وعشرون حرفا ، ولا يوجد سورة مبدوءة بما بدئت به ولا بما ختمت به ، ولا مثلها في عدد الآي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى "الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ" (1) أي ضيعها اللّه عليهم ، فلم ينتفعوا بها في الآخرة ، لأن ما يفعلونه من البر وإطعام الطّعام وإقراء الضّيف وصلة الرّحم وإجارة المستجير وإغاثة الملهوف وفك الأسرى وغيرها كان للسمعة والرّياء ونشر الصيت لا لوجه اللّه تعالى ، فلذلك جعل مكافأتهم عنها في الدّنيا من بلوغهم ثناء الناس ومدحهم ، وما أعطاهم اللّه من عافية ومال وولد وجاه وغيرها .

وهذه الآية عامة في كلّ كافر مات على كفره ، كما أن قوله تعالى : "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَآمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بالَهُمْ" (2) عام أيضا في كلّ مؤمن مات على إيمانه .

والبال هو القلب والشّأن والأمر والحال "ذَلِكَ" إبطال أعمال الكفرة وإصلاح بال المؤمنين "بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْباطِلَ" فصدوا أنفسهم وغيرهم عن الطّريق الموصل للسعادة الأبدية "وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ" فأوصلهم لسعادته الأبدية وأحلهم بدار كرامته "كَذلِكَ" مثل هذا المثل المضروب للفريقين "يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثالَهُمْ" (3) ليعتبروا ويتعظوا ويتدبروا حال الطّرفين في الدّنيا ومصيرهم في الآخرة "فَإِذا لَقِيتُمُ" أيها المؤمنون "الَّذِينَ كَفَرُوا" في صف القتال بعد أن طلبتم منهم الإيمان بالله ولم يفعلوا "فَضَرْبَ الرِّقابِ" (4) لتقطعوا منهم أشرف الأعضاء وهو الرأس ، وفي قطعه إهانة لهم أكثر من قطع غيره من الأعضاء المؤدية للموت ، وهو أسرع في الموت من غيره "حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ" وأكثرتم فيهم القتل

(48/706)

واثقلتموهم بالجراح فاعمدوا لأسرهم "فَشُدُّوا الْوَثاقَ" من المأسورين لإظهار ذلتهم لكم ، ولئلا ينفلتوا فيلتحقوا باعدائكم ويكونوا أكثر شرا من غيرهم ، عليكم ، لكم لم تفلتوهم ليكون لكم يد عليهم وليكن شأنكم هذا حتى انتهاء الحرب ، فإذا وضعتم السّلاح وتمّ لكم

ما أمثلتم "فَإِمَّا" أن تمنوا على أسراكم "مَنًّا بَعْدُ" فتركونهم كرما منكم "وَإِمَّا" أن تفدوهم "فِداءً" فتأخذون المال المتفق عليه منهم أو تبدلونهم بأسراكم ، وهذه الآية محكمة غير منسوخة بآية 58 من الأنفال المارة ، وهي (فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ) ولا بآية السّيف وهي قاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً) عدد 37 من التوبة الآتية ، كما قاله بعض المفسرين ، لان للامام الخيار بين أربعة أمور حسبما يراه لا معارض له في ذلك ، وهي إما أن يقتل الأسرى ، أو يسترقهم ، أو يمن عليهم فيطلقهم بلا عوض ، أو يفاديهم بالمال أو بأسرى المسلمين ، وإلى هذا ذهب ابن عمر وبه قال الحسن وعطاء وأكثر أصحاب وجل العلماء ، ومشى عليه الشّافعي والنّووي واحمد واسحق رحمهم اللّه .

(49/706)

تشير هذه الآية الكريمة إلى حث المسلمين على القتال لما فيه من إعلاء شأنهم وعظمة شوكتهم ، وأن لا يميلوا إلى قبول فداء الأسرى إلّا بعد الإثخان في القتل من العدو ، ولهذا عاقبهم اللّه تعالى على قبول الفداء في أسرى بدر ، كما مر في الآية 68 من سورة الأنفال وسبب نزولها على ما قاله ابن عباس ، هو أنه لما كثر المسلمون واشتد سلطانهم أنزلها وهو الصّحيح لما روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال بعث النّبي صلى اللّه عليه وسلم

خيلا قبل نجد ، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة أثال ، فربطوه في سارية من سواري المسجد ، فخرج إليه النّبي صلى اللّه عليه وسلم فقال عندك يا ثمامة ؟ فقال عندي خير يا محمد ، إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فاسأل تعط منه ما شئت ، فتركه النّبي صلى اللّه عليه وسلم حتى إذا كان من الغد قال ما عندك يا ثمامة ؟ قال ما قلت لك (وكرر الألفاظ) بعينها فقال صلى اللّه عليه وسلم أطلقوا ثمامة ، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال أشهد أن لا إله إلّا اللّه وأشهد أن محمدا رسول اللّه ، أو قال عبده ورسوله ، واللّه ما كان على وجه الأرض أبغض إلي من وجهك فقد أصبح

وجهك أحب الوجوه إليّ ، واللّه ما كان دين أبغض إلي من دينك فأصبح دينك أحب الدّين كله إلي ، واللّه ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إلي ، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى ؟ فبشره النبي صلى اللّه عليه وسلم وأمره أن يعتمر ، فلما قدم مكة قال له قائل أصبوت ؟ قال لا ، ولكن أسلمت مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم واللّه لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم .

(50/706)

وروي عن عمران بن حصين قال أسر أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم رجلا من بني عقيل فأوثقوه ، وكانت ثقيف قد أسرت رجلين من أصحاب رسول اللّه ، فقداه رسول اللّه بالرجلين الّذين أسرتهما ثقيف – أخرجه الشّافعي في مسنده وأخرجه مسلم وأبو داود – فعلى هذا يكون القول بالنسخ لا وجه له .

فيا أيها المؤمنون داوموا على هذه الحالة ، فاقتلوا وأسروا وأبقوا الأسرى "حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها" أثقالها من سلاح وغيره من أدوات الحرب ولوازمها فيعزّ اللّه المسلمين بنصره ويخذل الكافرين "ذِلكَ" الحكم في الأسرى فافعلوه "وَلَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ" فأهلكهم وأسرهم بغير قتال ولكفاكم أمرهم "وَلكِنْ" لم يفعل وقد أمركم بقتالهم "لِيَبْلُوَا" يمتحن ويختبر "بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ" وليثيب المؤمن بالشهادة أو السّعادة ويعاقب الكافر بالخيبة والنّار "وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ" منكم أيها المؤمنون أو سلموا "فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ" (4) بل ينميها لهم ويثيبهم عليها وأنه "سَيَهْدِيهِمْ" بالدنيا إلى طرق الرّشاد "وَيُصْلِحُ بالَهُمْ" (5) فيها ويوفقهم للسداد إذا سلموا من القتل "وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ" في الآخرة إذا قتلوا ويفيض عليهم من خيرها ونعيمها وقد "عَرَّفَها لَهُمْ" (6) إذ وصفها لهم بالدنيا ، فيكونون في الآخرة أعرف بمواقعهم فيها من دورهم في الدّنيا فلا يحتاجون إلى دليل يدلهم على منازلهم فيها ، هذا إذا كان الفعل مأخودا من التعريف وإذا كان من العرف وهو الرّائحة الطّيبة فيقال

طيبها لهم بالطيب ، وكلاهما جائز .

قال تعالى "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ" فتنضموا إلى حزبه لإعلاء كلمته "يَنْصُرْكُمْ" على عدوكم "وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ" (7) عند القتال في الدّنيا وعلى الصّراط في الآخرة

(51/706)

"وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ" خيبة وسقوطا وبعدا وشقاء وعثرة في الدّنيا والآخرة "وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ" (8) محقها وحرمهم من ثوابها وأنسى النّاس ذكرها الحسن "ذلِكَ" الإضلال والإتعاس "بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ" من الذكر على رسوله وتأففوا منه وزعموا أنه مشاق فعله عليهم "فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ" (9) اذهب ذكرها وأجرها بالكلية ، لأنها صادرة عن شهواتهم الخسيسة لم يرد بها وجه اللّه "أَ فَلَمْ يَسِيرُوا" هؤلاء الكفرة "فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ" من كفار الأمم الماضية كيف "دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ" مساكنهم بما فيها من مال ونشب ، فأهلكهم دفعة واحدة هم وما يملكون "وَلِلْكافِرِينَ" بك يا سيد الرّسل "أَمْثالُها" (10) أمثال تلك العاقبة والعقوبة إذا أصروا على كفرهم وماتوا عليه "ذلِكَ" الإهلاك والتدمير يكون للكافرين فقط "بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا" يجرهم منه "وَأَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ" (11) في الدّنيا يتمكن وقايتهم منه ، لأن مولاهم الشّيطان أو بعضهم

، وكلّ منهم ضعيف لا يقدر على خلاص نفسه مما بها في الدّنيا وفي الآخرة ، كذلك لا مولى لهم يخلصهم من عذاب اللّه أو يجيرهم منه "إِنَّ اللَّهَ" مولى المؤمنين "يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ" تمر في جوانبها يمينا وشمالا .

(52/706)

وأماما ووراء وهم مشرفون عليها بحيث لا تخفى على من فيها "وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ" في الدّنيا فعلا "وَيَأْكُلُونَ" من نعيمها "كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ" التي لا هم لها إلا بطونها وفروجها ، ساهون عما يراد منهم في الآخرة ، وقد شبههم اللّه بها بجامع عدم التمييز بين الخير والشّر والنّفع والضّر والتدبير في العواقب في كل "وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ" (12) وبئس المثوى النّار .

مطلب الآية المكية وصفة الجنّة وعلامات السّاعة وحال أهل الجنّة وأهل النّار :

وهذه الآية التي نزلت في الطّريق أثناء الهجرة المنوه عنها في الآية 87 من سورة العنكبوت في ج 2 "وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ" وأعظم "قُوَّةً مِنْ" أهل "قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْناهُمْ فَلا ناصِرَ لَهُمْ" (13)

وذلك أنه صلى اللّه عليه وسلم بعد أن خرج من الغار وسار مع صاحبه أبي بكر وخرج من عمران مكة التفت إليها وقال أنت أحب البلاد إلى اللّه وأحبها إلي ، ولو لا أن المشركين

أخرجوني لم أخرج منك ، وقد وضعت هنا كغيرها باشارة من السّيد جبريل وأمر من النّبي صلى اللّه عليه وسلم كما هي في علم اللّه ، وتعد مكية لأن المدني ، ما نزل في المدينة بعد وصله إليها أو في غيرها ، وكذلك المكي هو ما نزل قبل الهجرة في مكة أو غيرها كما أشرنا إليه في المقدمة ، وإنما قال أخرجوني لأنهم أرادوا إخراجه حين مذاكرتهم في دار النّدوة ، وقد خرج بارادة اللّه تعالى ليس إلّا كما أشرنا إليه في الآية الآنفة الذكر من سورة العنكبوت لأن اللّه تعالى قدّر على خروجه منها ظهور دينه للناس أجمع وعلو شأنه على غيره وفتح مكة على يده ، ولأنه لو لم يخرج بطوعه على الصّورة المذكورة لأدى بقاؤه فيها إلى مقاتلة بينه وبين قومه وهو لا يريد قتالهم مع قوته بعشيرته ، وتعهد اللّه له بالنصر عليهم .

(53/706)

قال تعالى "أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ" وهو محمد وأصحابه "كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ" من الكفار "وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ" (14) في إخراج حضرة الرّسول واختيار عبادة الأصنام على عبادة الملك العلام كلا لا يستوون عند اللّه ، وبينهما كما بين ما أعده اللّه لكل منهما .

وما قيل إن المراد بهذه الآية أبو جهل أو غيره من الكفرة المحرّضين على إخراج الرّسول من مكة لا يقيدها بهم ، بل هي عامة فيهم وفي غيرهم من الكفار ، على أن أبا جهل قتل في

حادثة بدر الأولى الكائنة في السّنة الثانية من الهجرة وهذه السّورة نزلت في ذي القعدة السّنة السابعة منها ، فبينهما خمس سنين وشهران ، لأن غزوة بدر في رمضان ، ولكن الآية مكية فيجوز إدخال أبو جهل واضرابه فيها ، إذ نزلت على أثر ما دبروه في قصته صلى اللّه عليه وسلم .

قال تعالى "مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ" متغير الطّعم ولا منتن من طول المكث أو طرح شيء فيها كأنهار الدّنيا ، بل هي صافية طيبة عذبة "وَأَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ" لأن التغيير من خصائص الدّنيا وما فيها ، أما الآخرة فلا تغير فيها ، كما أنها هي لا تتغير على كر الأزمان "وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ"

(54/706)

لا حامضة ولا مرة ولا حريقة ولم تدنس بعصر الأيدي ولا بدوس الأرجل كخمر الدنيا ولا غول فيها يذهب العقل ويصدع الرّأس ويقيء الطّعام ، راجع الآية 44 من سورة الصّافات ج2 تجد ما يتعلق بالفرق بينهما "وَأَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى" لا شمع فيه ولم يخرج من بطون النّحل فيوجد منه ميتا فيه مما تستقذره النفس ، بل هو خالص من كلّ الشّوائب جاء عن حكيم بن معاذ عن أبيه عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال إن في الجنّة بحر الماء وبحر

العسل وبحر اللّبن وبحر الخمر ، ثم تشقق الأنهار بعد – أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح – وروى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم سيحان (نهر اورقه غير سيحون) وجيحان (نهر المصيصة في بلاد الأرمن غير جيحون) والفرات ونيل مصر كلّ من أنهار الجنّة أي مادتها من مادة أنهار الجنّة من حيث الطّعم واللّون ، لا أن منبعها من هناك لأن منابعها الظّاهرة في الدّنيا مشهودة ومعلومة ومشهورة ، وان قول حضرة الرسول من أنهار الجنّة لا يعني أن منابعها منها بالنسبة لما نراه وبالنظر لواقع الحال أما في الحقيقة فلا يعلمها إلّا اللّه لأن ظاهر علمنا يقتصر عند ظاهر منابعها ولا نعلم من أين يأتي ذلك ، وليس محالا على اللّه أو مستحيلا عليه إن جعل أصل منبعها من الجنّة أو من فوقها أو من تحتها ، واللّه على كلّ شيء قدير .

وعلينا أن نصدق بما جاء عن الرّسول في هذه وغيرها لأنه لا ينطق عن هوى ، وقد أمرنا اللّه بأن نأخذ ما يأتينا به وننتهي عما ينهانا عنه كما يأتي في الآية 7 من سورة الحشر .

(55/706)

قال تعالى "وَلَهُمْ فِيها" أي الجنّة ذات الأنهار المذكورة "مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ" مما عرفه البشر أو لم يعرفه يتفكهون فيها "وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ" أيضا زيادة على ذلك كله ، ورفع التكاليف عنهم

فيما يأكلون ويشربون بخلاف فواكه الدنيا فإنهم قد يحاسبون عليها هل هي من حل أم لا ، وهل أسرف فيها أم لا ، وهل رزق غيره منها أم لا ، أما المغفرة عن الذنوب فتكون لأهل الجنّة قبل دخولها فمثل هؤلاء المؤمنين الكرام ليس "كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النّارِ" من الكفرة اللئام "وَسُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ" (15) لشدة حرارته .

وبعد أن بين تعالى حال أهل الجنّة وأهل النّار طفق يذكر بعض مثالب المنافقين ، فقال عز قوله "وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ" يا حبيبي "قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ" من أصحابك "ما ذا قالَ آنِفاً" لأنهم لا يعون قوله إذ لا يلقون له بالا تهاونا به قاتلهم اللّه ، وتغافلا عنه ، لذلك لا يفهمونه "أُولئِكَ" الّذين لا يفطنون لكلام رسولهم هم "الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ" فلم ينتفعوا بها لذلك لم يصغوا لمواعظ الرّسول وهو معهم فتركوها "وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ" (16) الباطلة فأمات اللّه قلوبهم "وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا" بهداية اللّه وعظات رسوله ، فسمعوا خطابه ووعوا قوله وانتفعوا به "زادَهُمْ هُدىً" وبصيرة وعلما لم يعلمه غيرهم لأن اللّه شرح صدورهم "وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ" (17) أي

جزاءها الدّنيوي في الآخرة وبينه لهم على لسان رسولهم .

ثم شرع يهدد الكافرين والمنافقين ، فقال عز قوله "فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً" على حين غفلة وغرة "فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها" علاماتها وأماراتها "فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ" (8) أي فكيف بهم إذا جاءتهم السّاعة المذكّرة لهم بكل ما وقع منهم ، وكيف يكون حالهم في ذلك الوقت عند بروز أعمالهم السّيئة ، ومن أين لهم إذ ذاك التذكر والاعتذار والتوبة والإيمان لفوات محلها ؟ أخرج الترمذي عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بادروا بالأعمال سبعا ، فهل تنظرون إلّا فقرا منسيا ، أو غنى مطغيا ، أو مرضا مفسدا ، أو هرما مقعدا ، أو موتا مجهزا ، أو الدّجال ، فشرّ غائب ينتظر ، أو السّاعة والسّاعة أدهى وأمر .

وروى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد قال رأيت النّبي صلى اللّه عليه وسلم قال بإصبعه هكذا الوسطى والتي تلي الإبهام وقال بعثت أنا والسّاعة كهاتين .

ورويا عن أنس مثله بزيادة كفضل إحداهما على الأخرى ، وضم السّبابة والوسطى .

أي ما بين مبعثه صلى اللّه عليه وسلم وقيام السّاعة شيء يسير كما بين الإصبعين من الطّول .

مطلب عصمة النّساء وصلة الرّحم وتدبر القرآن ومثالب المنافقين والكافرين والبخل وما نفرع عنه :

ورويا عن أنس قال عند قرب وفاته ألا أحدثكم حديثا عن النّبي صلى اللّه عليه وسلم لا

يحدثكم به أحد غيري ، سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول لا تقوم السّاعة ، أو قال من أشراط

الساعة أن يرفع العلم ، ويظهر الجهل ، ويشرب الخمر ، ويفشو الزنى ويذهب الرجال ويبقى النّساء حتى يكون لخمسين امرأة قيم .

وفي رواية : ويظهر الزنى ويقل الرّجال وتكثر النّساء .

(57/706)

ورويا عن أبي هريرة أن من أشراط السّاعة أن يتقارب الزمان وينقص العلم وتظهر الفتن ويلقى الشّح ، أي يلقى البخل والحرص في قلوب النّاس على اختلاف أحوالهم هذا على سكون اللام (فَمَنْ يُلْقى) وعلى فتحه وتشديد القاف يكون المعنى يتلقى البخل ويتعلم ويدعى إليه ويتواصى به ، قاله العتبي وصوّبه ابن الأثير .

ولا يقال يلقى بمعنى يترك إذ لا يستقيم المعنى لأن المقام مقام ذم ، ويكثر الهرج ، قالوا وما الهرج يا رسول اللّه ؟ قال القتل .

هذا وقد أسهبنا البحث في هذا في الآية 158 من سورة الأنعام المارة في ج 2 .

واعلم أن المراد برفع العلم ونقصه موت العلماء وقلة طلبه ، لا أنه يرفعه من قلوب العلماء ،

لأنه أكرم من أن يأخذه ممن يمنحه إياه ، يؤيده خبر : إن اللّه لا ينتزع العلم انتزاعا وإنما يرفعه بموت العلماء .

ثم التفت إلى رسوله وخاطبه بقوله "فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ" ودم على ما أنت عليه من العلم بهذا التوحيد الخالص ، وأعلم أمتك بالمداومة عليه وحثهم على التمسك به ، وأن يعضوا على هذه الكلمة بالنواجذ وأعلمهم أن لا خلاص لأحد من عذاب اللّه إلّا بها ، وحرضهم على أن لا يفقوا عنها ، وخاصة عند مفارقتهم الدنيا ، فمن مات عليها .

اللهم أمتنا عليها ، وقد وصفها بعضهم بقوله :

مليحة التكرار والتنثى لا تغفلي عند الوداع عني

"وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ" مما تعده ذنبا بالنسبة لمقامك "وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ" استغفر أيها الرّسول "وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ" (19) أنت وإياهم في الدّنيا من جميع حركاتكم وسكناتكم وفي الآخرة يعلمه على درجاتكم فيها ، وإنما أمر اللّه نبيه بالاستغفار تعليما لأمته ، وإلّا فهو مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، كما سيأتي أوّل سورة الفتح الآتية ، وذنبه عليه السّلام ليس كذنوب أمته لأنه منزه عنها ، وإنما هي على حد حسنات الأبرار سيئات المقربين .

روى مسلم عن الأعز المزني قال سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول أنه ليغان على قلبي (أي يغطّى

ويغشّى كما تغشّى السّماء بالغيم) حتى أستغفر في اليوم مئة مرة ، وفي رواية توبوا إلى ربكم إني لأتوب إلى ربي عز وجل مئة مرة في اليوم ، وروى البخاري عن أبي هريرة قال سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول إني لأستغفر اللّه وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة .

وفي رواية أكثر من سبعين مرة .

وذلك بسبب ما أطلعه اللّه عليه من أحوال أمته بعده ، فأحزنه ذلك حتى كان يستغفر لهم ، أو لما كان يشغله النّظر في أمورهم ومصالحهم حتى يرى أنه اشتغل بذلك عن التفرد بربه ، فيحزنه ذلك ، فيستغفر ربه من أجل أمته ، فعليكم باتباعه والتمسك بشريعته واهتدوا بهديه واتخذوه وسيلة لكم وحجة عند ربكم ، وإياكم أن تسببوا لأنفسكم ما يكون به حجة عليكم .

وتقدم البحث في هذا في الآية 65 من سورة الزمر المارة في ج 2 وفيها ما يرشدك لمراجعة غيرها .

ولهذا البحث صلة عند قوله تعالى (أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) الآية 30 من سورة الرّعد الآتية .

قال تعالى "وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ" تأمرنا بالجهاد حبا فيه وحرصا عليه ، لأن فيه العزّ ، فأجابهم بقوله "فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ" في الجهاد غير متشابهة لا تحتمل تأويلا ولا تفسيرا "وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ" وكلّ سورة فيها ذكر الجهاد من أشد القرآن على المنافقين ، لذلك قال تعالى "رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ" نظر شزر وكراهية تضجرا أوجبنا عن لقاء العدو ، فتراهم شاخصي أبصارهم كأنهم يعانون سكرات الموت "فَأَوْلى لَهُمْ" (20) كلمة ذم ودعاء عليهم بالمكروه كما تقول ويلك قاربك ما تكره بمعنى التهديد ويقارب هذه الآية في المعنى الآية 7 من الأنفال والآية 77 من النّساء والآية 20 من الأحزاب المارات فراجعها .

وهنا تم الكلام ثم ابتدأ فقال "طاعَةٌ" للّه ورسوله "وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ" عند سماع كلامه بالإجابة أولى بهم من ذلك لو عقلوا وسكتوا "فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ" ودنى وقت الجهاد "فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ" وآمنوا به وأخلصوا وجاهدوا مع رسوله ولم يخالفوا أمره ويخلفوا وعده ولم يكذبوا في قولهم "لَكانَ خَيْراً لَهُمْ" (21) من الإيمان الكاذب والقول الفارغ والنّكث بالعهد والطّاعة المزيفة .

واعلم أنه لا يوجد في القرآن

غير سبع آيات مبدوءة بحرف الطّاء هذه وأول طه وأول الطّواسيم والآية 65 من الصافات و24 من الدّخان قال تعالى "فَهَلْ عَسَيْتُمْ" أيها المنافقون "إِنْ تَوَلَّيْتُمْ" عن سماع كلام اللّه واتباع أحكامه وطاعة رسوله فلعلكم "أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ" كما كنتم في الجاهلية وتسلكوا طرق البغي وسفك دماء النّاس "وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ" (22) كما يفعل غيركم من الكفرة.

(60/706)

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن النّبي صلى اللّه عليه وسلم قال إن اللّه خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرّحم فأخذت بحقوي الرّحمن (الحقوه مشد الأزرار) فقال مه فقالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت بلى، قال فذالك لك.

ثم قال صلى اللّه عليه وسلم اقرأوا إن شئتم (فَهَلْ عَسَيْتُمْ) الآية.

وفي رواية الرّحم شجنة (قرابة) من الرّحمن مشتبكة اشتباك العروق.

ولهذا البحث صلة في الآية 23 من سورة الرّعد الآتية وقد بيّنا أول سورة النّساء وآخر

الأنفال المارتين ما يتعلق في بحث الأرحام وأشرنا إليه في الآية 6 من سورة الأحزاب المارة أيضا فراجعها "أُولَئِكَ" المفسدون في الأرض قاطعوا أرحامهم هم "الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمى أَبْصارَهُمْ" (23) عن طريق الحق وسبيل الرّشاد فتاهو في الحيرة التي أدت بهم إلى النّار "أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ" فيتأملون في معانيه ويتفكرون في مغازيه بحضور قلب فيعرفون زواجره ومواعظه ووعده ووعيده ورشده وتهديده ، فلا يجسرون على مخالفة ما فيه ، وينقادون لأوامره ونواهيه .

ونظير هذه الآية الآية 81 من سورة النساء المارة ، وهذا استفهام بمعنى التعجب من سوء حالهم وقبح تمردهم وشناعة جبنهم فقد تراكم الصّدأ على أفئدتهم وران عليها سوء فعلهم ، ولهذا قال تعالى "أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها" (24) والقفل مثل لكل مانع للانسان من تعاطي الطّاعات كما أن قفل الدّار مانع من دخولها ، وهذا من التكليف الذي لا يطاق ، لأن المحل المغلق لا يمكن دخوله ، والإيمان محله القلب فإذا ختم عليه وأغلق فمن أين يدخله ؟

وهذا من الجائزات ، لأن اللّه أمر من سبق علمه أن لا يؤمن بالإيمان ، ولهذا فلا يقال كيف يمكنهم التدبر في القرآن وقد أصمهم اللّه وأعمى أبصارهم وختم على

قلوبهم ؟ وأم هنا بمعنى بل ، والهمزة للتقرير ، وهو إعلام بأن قلوبهم مسكرة لا يصل إليها ذكر اللّه ، وتنكير القلوب للدلالة على أنها قاسية لا تتأثر بالوعظ والزجر والمراد بها قلوب المنافقين ، لأنها على هذه الصّفة .

وتقدم في الآية 82 من النّساء ما يتعلق بهذا البحث فراجعه .

وقيل في القفل لغزا :

وأسود عار أنحل البرد جسمه وما زال من أوصافه الحرص والمنع

وأعجب شيء كونه الدّهر حارسا وليس له عين وليس له سمع

قال تعالى "إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ" القهقرى ورجعوا كفارا "مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى" وأصروا على ارتدادهم كان "الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ" بوساوسه حتى زين لهم القبيح ورأوا السّيء حسنا "وَأَمْلى لَهُمْ" (25) بامتداد الأمل وفسحة الأجل ، ورغبهم في التمتع بالدنيا وحب الرّئاسة كما يفعل بعض الجهال الآن ، ويقولون سوف نتوب ، وما يحسون إلّا وقد باغتهم الموت فيتدمون ولات حين مندم .

وقرىء وأملي بضم الهمزة وكسر اللام وفتح الياء أي أمهلوا في العمر ، ولا شك أن المملي هو اللّه تعالى ، وإنما أسند إلى الشّيطان لمباشرته له فعلا ، وإلّا فإن اللّه قادر على منعه ، وهو الذي قدره على ذلك التسويل والإملاء واراده ، وإلّا فإن كيد الشّيطان ضعيف لا يستطيع

على شيء إلا بتقدير اللّه إياه كما تقدم غير مرة "ذِلِكَ" الإملاء والتسويل "بِأَنَّهُمْ" أهل الكتاب والمنافقين "قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللَّهُ" وهم المشركون "سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ" ونتعاون معكم على عداء محمد وأصحابه فلا نجاهد معهم ونقعد عن سراياهم ولا نكثر سوادهم ، وهذه كلها من الأحوال التي يذكرها المنافقون فيما بينهم سرا ولا يعلمون أن اللّه تعالى يفضحهم ويخبر رسوله بها "وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ" (26) لا يخفى عليه شيء منها .

وقرىء بكسر الهمزة أي ما يسره بعضهم لبعض .

وبفتحها أي مكن في قلوبهم من ذلك ولم يفشوها بعد "فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ" يكون حالهم حين "يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ" (27) إهانة له ويقرب من معنى هذه الآية 51 ، من سورة الأنفال المارة "ذِلِكَ" الضرب "بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللَّهَ" وهو عدم التعاون مع الرّسول وأصحابه "وَكَرِهُوا رِضْوانَهُ" الذي هو التعاون لأن فيه رضاهم الذي هو من رضاء اللّه ، ولهذا "فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ" (28) التي زعموا أنها تنفعهم عند اللّه لأن سيئاتهم هذه محقت ثوابها ومحته فلم تبق له أثرا .

قال تعالى "أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ" شك وشبهة ونفاق "أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغانَهُمْ" (29) التي في قلوبهم بل يخرجها ويبيّنها ليفضحهم بها "وَلَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ" يا سيد الرّسل "فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ" وعلاماتهم "وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ" مقصوده ومغزاه وهو صرف الكلام من الصّواب إلى الخطأ وهو مذموم ، وصرف الكلام من الخطأ إلى الصواب وهو ممدوح في اللاحن ، أي فتكون كلمة اللّحن من الأضداد .

قال أنس رضي اللّه عنه ما خفي على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بعد نزول هذه الآية شيء من أحوال المنافقين ، وكانوا يهجنون ويقبحون ويستهزئون به وبأصحابه .

قال تعالى "وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ" (30) فيجازيكم بمثلها

(63/706)

"وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ" بشيء من التكاليف الشّاقة المحتملة الوقوع وغير المحتملة اختبارا وامتحانا "حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ" حقيقة "وَالصَّابِرِينَ" على البلاء "وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ" (31) فنظهرها للناس ليعلموا كذبكم الذي تتظاهرون به مظهر الصّدق "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ" خالفوه وانشقوا عليه وتفرقوا عنه "مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً" بأفعالهم هذه ، وإنما يضرون أنفسهم "وَسَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ"

(32) يمحقها ويحرمهم ثوابها بحيث يمحوها من صحائف أعمالهم راجع الآية 39 من سورة الرّعد الآتية "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ"

(33) مثل هؤلاء المنافقين بالرياء والسّمعة.

زعم بعض المؤمنين أن لا يضرهم ذنب مع الإيمان كما لا ينفع عمل مع الشّرك فنزلت هذه الآية ، ولا دليل فيها لمن يرى إحباط الطّاعات بالمعاصي ، لأن اللّه تعالى قال فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره الآية الأخيرة من سورة الزلزلة المارة ، ولا حجة فيها لمن لا يرى إبطال النوافل بأنه إذا دخل في صلاة أو حرم تطوعا لا يجوز له إبطاله ، لأن السّنة مبينة

لكتاب اللّه ، وقد ثبت في الصّحيحين أن النّبي صلّى اللّه عليه وسلم أصبح صائما ، فلما رجع إلى البيت وجد حبسا فأكل منه ، قالت الفقهاء إذا تلبس بالنفل من صوم أو صلاة أو غيرها فعنّ له أن يفطر فله ذلك وعليه القضاء ، وإيجاب القضاء ، وإيجاب القضاء لا يخالف الحديث قال تعالى "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ ماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ 24" حكم هذه الآية عام ولو أنها نزلت في أبي جهل وأضرابه أهل القليب في بدر حينما جاء ذكرهم بأن لهم أعمالا كإطعام الطّعام وصلة الأرحام وغيرها مما يفعله

الجاهلية عادة لأن ما قدموه من خير وهم على كفرهم كافأهم اللّه عليه في الدّنيا ولم يبق لهم برّ ما يلاقون به وجه اللّه ، وأين هؤلاء من لقائه ، لأنهم يساقون إلى النّار على وجوههم "فَلا تَهِنُوا" أيها المؤمنون ولا تضعفوا إذا تخلف عنكم المنافقون أو ناوءوكم ليلجئوكم إلى الكف عن أعدائكم "وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ" الصلح .

منع اللّه المؤمنين في هذه الآية أن يطلبوا الصّلح من الكفار لئلا تلحقهم الذلة ، وخاطبهم بقوله "وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ" عليهم "وَاللَّهُ مَعَكُمْ" بالنصر والغلبة والمعونة "وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ 35" لا ينقصها بل يوفّها لكم .

(65/706)

هذا وقد أمر اللّه تعالى في الآية 62 من الأنفال بإجابة طلب الصلح من قبل الأعداء فراجعها لتقف على الفرق بين الطّلبين ، وأن ما يفعله الأجانب من طلب الصّلح وهم غالبون ليس هو طلب صلح بمعناه الحقيقي ، لأن الغالب لا يطلبه من المغلوب ، وإنما هو عبارة عن تكليفهم بالإذعان لشروط شاقة يفرضها الغالب على المغلوب حين اشتداد البأس وإيناس الضّعف منه ليقبلها قسرا عنه وهو راغم أنفه ، فلو كان صلحا بمعناه الحقيقي لما كان منهم طلبه عند الضّيق وبلوغ القلوب الحناجر ، وإنما هو أشد وقعا من

الحرب فيقبلونه وهم كارهون لئلا يقضى عليهم بالاستئصال ، أما الصّلح زمن السّلم فلا يكون إلّا عن رضى وطيب نفس ، لأن العاقبة مجهولة لدى الفريقين ، لذلك فإن كلا منهم يرى الصّلح خيرا بحقه وهذا هو الفرق بين صلح السّلم وصلح الحرب .

ثم زهّدهم اللّه تعالى في الدّنيا بقوله "إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ" فلا تغتروا بها "وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا" فتعضدوا إيمانكم وتقووه بالتقوى "يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ" ربكم كاملة

(66/706)

يوم القيامة "وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ 36" لقاء ما يعطيكم من الثواب بل يمنحكم أياما عفوا منه ، لأنه تعالى يعلم بأنه "إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا" بمقابلة ثوابه "فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا" بإعطائها والاجفاء المبالغة في كلّ شيء ومنه إحفاء الشّارب أي المبالغة في قصة وأحفى في المسألة إذا ألح فيها جهده ، أي إذا استقصى عليكم بها أجهدكم بطلبها كلها ، فلا بد أن تبخلوا ، ولهذا جعل زكاة المال ربع عشره كي لا يبخل النّاس بها على فقراء اللّه فلا يعطوهم شيئا منها "وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ 37" ويظهر عداوتكم وبغضكم للانفاق لشدة محبتكم للمال المفروزة في قلوبهم عند الامتناع من الانفاق واللّه تعالى لا يريد ذلك منكم ولهذا خفف عليكم القدر الواجب لإنفاقه من أموالكم "ها أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ" أيها المخاطبون الموصوفون "تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ

اللَّهِ" شطرا قليلا من أموالكم في وجوه البر والخير طلبا لمرضاته "فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ" فلا تسمح نفسه بانفاق شيء مما أنعم اللّه عليه به "وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ" فيكون و

(67/706)

باله عليها ، أي من يمسك ماله فلم ينفنه في طرقه المشروعة ، ولهذا عدّي الفعل بعن ، ولا شك أن البخل خطة ذميمة موجبة للخزي والعار بالدنيا والعذاب والنّار في الآخرة ، حتى أن العقلاء حذروا مخالطة البخيل ومشورته ، فقالوا لا تدخلن في مشورتك بخيلا فإنه يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر . - راجع الآية 265 من البقرة المارة قالوا ولا جبانا فإنه يضعفك عن الإقدام ، ولا حريصا فإنه يزين لك الشّره فالبخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظّن باللّه ، أجارنا اللّه منها "وَاللَّهُ الْغَنِيُّ" عنا وعن صدقاتنا ، وإنما أمرنا بالإنفاق لما فيه من النّفع لنا في الدّنيا والآخرة "وَأَنْتُمُ الْفُقَراءُ" المحتاجون إلى ربكم أيها النّاس في كلّ أحوالكم ، فإن فعلتم ما أمركم به نجوتم وكان خيرا لكم "وَإِنْ تَتَوَلَّوْا" وتعرضوا عن الإنفاق بالكلية وعن طاعة اللّه ورسوله ، فلا تفعلوا ما يأمركم به ولا تجتنبوا ما ينهاكم عنه "يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ" يطيعونه ويأتمرون بأمره وينتهون عما ينهاهم عنه "ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ 28" بالبخل وغيره من عدم الامتثال في أمر الجهاد ومخالفة الرّسول فيها يأمركم

وينهاكم .

أخرج الترمذي عن أبي هريرة قال

قال ناس من أصحاب رسول اللّه يا رسول اللّه من هؤلاء الّذين ذكر اللّه عز وجل إن تولينا استبدلوا بنا ثم لا يكونوا أمثالها ؟ قال وكان سلمان بجنب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فضرب رسول اللّه فخذ سلمان فقال هذا وأصحابه والذي نفسي بيده لو كان الإيمان متوطا بالثريا لتناوله رجال من فارس - وفي رواية من هؤلاء وكان واضعا يده على سلمان رضي اللّه عنه - وهذا الحديث مكتوب على باب ضريح الإمام الأعظم أبي حنيفة النّعمان بن ثابت رضي اللّه عنه دفين بغداد إعلاما بأنه من أصحاب سلمان - أخرجاه في الصّحيحين - .

(68/706)

هذا واللّه أعلم ، واستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلّا باللّه العلي العظيم ، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين وسلم تسليما كثيرا آمين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بيان المعاني حـ 6 صـ 20 . 34 ﴾

(69/706)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة القتال

مدنية إلا قوله وكأين من قرية الآية فمكي أو مدني

أعمالهم تام وكذا وأصلح بالهم من ربهم كاف للناس أمثالهم تام فضرب الرقاب صالح

فشدوا الوثاق وأوزارها تام وكذا ببعض فلن يضل أعمالهم صالح وكذا ويصلح بالهم عرفها

لهم تام وكذا أقدامكم وأضل أعمالهم حسن فأحبط أعمالهم تام من قبلهم صالح دمر الله

عليهم كاف أمثالها تام وكذا إلا مولى لهم وأفلم يسيروا في الأرض ومن تحتها الأنهار ومثوى

لهم أخرجتك جائز وكذا أهلكناكم وهو أصلح ولا يجمع بينهما فلا ناصر لهم وكذا

أهواءهم وعد المتقون كاف لمن جعل التقدير وفيما نقص عليكم مثل الجنة وليس بوقف لمن

جعل خبر مثل الجنة فيها أنهار من عسل مصفى حسن أمعاءهم تام قال آنفا كاف أهواءهم

تام تقواهم حسن أشرطها كاف ذكراهم تام وكذا والمؤمنات ومثواكم سورة كاف فأولى لهم

تام وكذا وقول معروف وخيرا لهم أرحامكم كاف أبصارهم تام وكذا أقفالها وسّول لهم

وأملى لهم حسن سواء جعل الاملاء من الله ام من الشيطان لكن على الثاني لا يوقف على

سّول لهم في بعض الأمر كاف وكذا أسرارهم وأدبارهم تام أضغانهم كاف وكذا بسيماهم

وفي لحن القول وأعمالكم لهم كاف الاعلون صالح معكم حسن وقال أبو حاتم تام ولن يتركم أعمالكم تام لعب وهو كاف وكذا أموالكم أضغانكم حسن وكذا من يبخل وعن نفسه الفقراء تام وكذا آخر السورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(70/706)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة القتال

مدنية إلا قوله وكأي من قرية الآية فمكيّ كلمها خمسمائة وتسع وثلاثون كلمة وحروفها ألفان وثلاثمائة وتسع وأربعون حرفاً وآيها ثمان أو تسع وثلاثون آية 0

أعمالهم (تام) للفصل بين وصف الكفار ووصف المؤمنين 0

وهو الحق من ربهم ليس بوقف لأنَّ خبر والذين آمنوا لم يأت وهو كفَّر عنهم سيآتهم 0

وسيآتهم (حسن)

وأصلح بالهم (أحسن) مما قبله

من ربهم (كاف) وكذا أمثالهم

فضرب الرقاب (حسن) ومثله الوثاق وقيل لا يحسن لأنَّ قوله حتى تضع الحرب أوزارها

متعلق بقوله فضرب فكأنه قال فاضربوا الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها 0

وأوزارها (كاف) وقيل الوقف على ذلك لأنه تبيين وإيضاح لما قبله من قوله فإذا ألقيتم الذين كفروا ووقع الإثخان وتمكنتم من أخذ من لم يقتل فشدوا وثاقه فأما أن تمنوا عليه بالإطلاق وإما أن تفدوه فداء فالوقف على ذلك يبين هذا أي الأمر ذلك كما فعلنا وقلنا فهو خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ محذوف الخبر أي ذلك كذلك فلا يقطع عن خبره واتصاله بما قبله أوضح قاله السجاوندي ثم تبتدئ ولو شاء الله 0

ببعض (حسن) ومثله فلن يضل أعمالكم وكذا ويصلح بالهم

عرفها لكم (كاف)

ينصركم ليس بوقف لأنَّ ما بعده مجزوم معطوف على ما قبله 0

أقدامكم (تام) لأنَّ ما بعده مبتدأ وليس بوقف إن عطف على معنى ما قبله 0

فتعساً لهم ليس بوقف وإن زعمه بعضهم لأنَّ ما بعده معطوف على الفعل الذي فسره فتعساً لهم 0

وأضل أعمالهم (كاف) ومثله فأحبط أعمالهم 0

من قبلهم (جائز)

دمر الله عليهم (كاف) للابتداء بالتهديد 0

أمثالها (تام) ومثله لا مولى لهم وكذا الأنهار وكذا مثوى لهم

أخرجتك (جائز) وأرقى منه أهلكناهم لأنه صفة للقرية ولا يجمع بينهما 0

فلا ناصر لهم (تام) ومثله واتبعوا أهواءهم

(71/706)

وعد المتقون (كاف) إن جعل التقدير ومما نقص عليك أو يقص عليك مثل الجنة فمثل خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ والخبر محذوف تقديره مثل الجنة فيما نقص عليك أو يقص عليك وليس بوقف إن جعل مثل مبتدأ خبره فيها أنهارا وما تسمعون من صفة الجنة لأنه يصير تفسيراً يغني عنه ما قبله ولا وقف من قوله فيها أنهار إلى مصفى لعطف كل منها على ما قبله والعطف يصير الأشياء كالشيء الواحد ويجوز الوقف على كل منها نظر التفصيل أنواع النعم مع العطف والتفصيل المذكور من مقتضيات الوقف 0

من عسل مصفى (حسن) ومثله من ربهم لحذف مبتدأ تعلقت به كاف التشبيه مستفهم به والتقدير أفمن هذه حالته كمن هو خالد في النار

أمعاءهم (كاف) جمع معي وهو المصران ومثله إليك وكذا آنفاً 0

وأتبعوا أهواءهم (تام)

تقواهم (كاف)

فهل ينظرون إلاَّ الساعة (جائز) لمن قرأ أن تأتيهم بكسر همزة إن وليس بوقف على قراءة

العامة بفتحها لأنَّ موضعها نصب على البدل من الساعة 0

بغتة (جائز) لتناهي الاستفهام 0

أشراطها (كاف) لتناهي الأخبار 0

ذكراهم (تام) أي أنى لهم ذكراهم إذا جاءتهم الساعة 0

لا إله إلا الله ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله 0

والمؤمنات (كاف)

ومثواكم (تام)

لولا نزلت سورة (كاف) للابتداء بالشرط ولا يوقف على محكمه ولا على القتال لأنَّ جواب

إذا لم يأت بعد وهو رأيت الذين 0

من الموت (حسن) لانقضاء جواب إذا 0

(72/706)

فأولى لهم (تام) إن جعل أولى مبتدأ خبره لهم أي الهلاك لهم وكذا إن جعل خبر مبتدأ

محذوف أي الهلاك أولى لهم فأولى من الولي وهو القرب والمعنى وليهم الهلاك وقاربهم وقيل

الوقف على فأولى ثم تبتدئ لهم تهديد ووعيد بجعل أولى بمعنى ويل متصل بما قبله رواه الكلبي عن ابن عباس ثم قال للذين آمنوا منهم طاعة وقول معروف فصار قوله فأولى وعيداً ثم استأنف بقوله لهم طاعة وقول معروف وليس أولى لهم بوقف إن جعل أولى مبتدأ وطاعة خبراً وقال أبو حاتم السجستاني الوقف فأولى لهم طاعة وقول معروف ومعناه طاعة المنافقين لله وللرسول وكلام حسن له خير لهم من المخالفة 0

وقول معروف (حسن) في الوجوه كلها 0

فإذا عزم الأمر (جائز) على أن جواب إذا محذوف أي فإذا عزم الأمر كذبوا وخالفوا وليس بوقف إن جعل جواب إذا فلو صدقوا 0

لكان خيراً لهم (كاف) ومثله أرحامكم 0

أبصارهم (تام) للابتداء بالاستفهام ومثله أقفالها 0

الهدى ليس بوقف لأنَّ خبر إن لم يأت بعد وهو قوله الشيطان سوّل لهم 0

وسوَّل لهم (حسن) ومثله أملى لهم في جميع الوجوه كلها في أملي أعني سواء قرئ أملى بضم الهمزة وإسكان الياء أو قرئ أملى بفتحها أي سواء جعل الإملاء من الله أم من الشيطان فتقديره على ضم الهمزة وأملى أنا لهم وتقديره على فتحها والله أملى لهم وليس بوقف إن جعل الإملاء والتسويل من الشيطان فلا يوقف على سوّل لهم لعطف وأملى عليه قرأ ابن كثير ونافع وعاصم وحمزة والكسائي وابن عامر وأملي لهم وقرأ أبو عمرو وأملي لهم بضم

الهمزة وفتح الياء على أنه فعل ما لم يسم فاعله وهو منقطع مما قبله وذلك أنَّه أراد وأملى الله

لهم أي لا يعاجلهم بالعقوبة 0

في بعض الأمر (حسن)

إسرارهم (كاف) ومثله وأدبارهم وقال نافع توفتهم الملائكة أي فكيف يفعلون إذا توفتهم

الملائكة ثم يبتدئ يضربون أي هم يضربون

فأحبط أعمالهم (تام)

أضغانهم (كاف) ومثله بسيماهم وكذا في لحن القول 0

أعمالكم (تام)

(73/706)

والصابرين (جائز) على قراءة يعقوب من العشرة ونبلو أخباركم بالنون وإسكان الواو

مستأنف مرفوع بضمة مقدرة على الواو منع من ظهورها الثقل وليس بوقف إن عطف على

ولنبلونكم وكان الوقف التام أخباركم للابتداء بإن 0

الهدي ليس بوقف لأنَّ خبر إن لم يأت وهو لن يضروا الله شيأً 0

وشيأ (حسن)

أعمالهم (تام) للابتداء بيا النداء 0

وأطيعوا الرسول (جائز)

أعمالكم (حسن) ومثله فلن يغفر الله لهم

وتدعوا إلى السلم (جائز) لأنَّ وأنتم يصلح مبتدأ وحالاً وجعله حالاً أولى 0

الأعلون (جائز)

معكم (حسن) وقال أبو حاتم تام 0

أعمالكم (تام)

ولهو (كاف) للابتداء بالشرط

أجوركم (حسن) ومثله أموالكم

تبخلوا ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله

أضغانكم (حسن)

في سبيل الله (جائز)

من يبخل (حسن) للابتداء بالشرط

ومن يبخل الثاني ليس بوقف لأنه شرط لم يأت جوابه

عن نفسه (تام)

والله الغني (حسن)

وأنتم الفقراء (تام) للابتداء بالشرط 0

قوماً غيركم ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله 0

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(74/706)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة محمد صلى الله عليه وسلم :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ علي وابن عباس "رضي الله عنهما" : "مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ1" .

قال أبو الفتح : هذه القراءة دليل على أن القرءة العامة التي هي "مثل" ، بالتوحيد – بلفظ الواحد ومعنى الكثرة ؛ وذلك لما فيه من معنى المصدرية ؛ ولهذا جاز مررت برجل مثل رجلين وبرجلين مثل رجال ، وبامرأة مثل رجل ، وبرجل مثل امرأة . ألا ترى أنك تستفيد في أثناء ذلك معنى التشبيه والتمثيل ؟

ومثل ومثل بمعنى واحد ، كشبه وشبه ، وبدل وبدل .

فإن قيل : فإنه لم يأت عنهم ضربت له مثلا ، كما يقال : ضربت له مثلا .

قيل : المعنى الواحد ، وإن لم يأت الاستعمال به ، كما أتى الآخر في هذا المعنى . ألا ترى أنك لا تضرب مثلا إلا بين الشيئين اللذين كل واحد منهما مثل صاحبه ، ولو خالفه فيما ضربته فيه لم تضربه مثلا ؟

ومن ذلك قراءة أهل مكة – فيما حكاه أبو جعفر الرواسي2 : "إِنْ تَأْتِهِمُ3" ، بكسر الألف من غير ياء .

قال أبو الفتح : هذا على استئناف شرط ؛ لأنه وقف على قوله : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ ﴾ ، ثم قال : ﴿ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ فأجاب الشرط بقوله : ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾

---

1 سورة محمد : 15 .

2 هو أبو جعفر محمد بن أبي سارة الرؤاسي ، وسمي الرؤاسي لكبر رأسه . وهو أستاذ الكسائي والفراء ، وأول من ألف من الكوفيين كتابا في النحو ، وكان رجلا صالحا . ومن كتبه كتاب الفيصل ، وكتاب التصغير ، وكتاب معاني القرآن . الفهرست : 96 ، وبغية الوعاة : 33

3 سورة محمد : 18 .

فإن قلت : فإن الشرط لا بد فيه من الشك ، وهذا موضع محذوف عنه الشك البتة . ألا ترى إلى قوله "تعالى" : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا 1 ﴾ ، وغير ذلك من الآي القاطعة بإتيانها ؟

قيل : لفظ الشك من الله "سبحانه" ، ومعناه منا ، أي : إن شكوا في مجيئها بغتة فقد جاء أشراطها ، أي : أعلامها ، فهو توقعوا وتأهبوا لوقوعها مع دواعي العلم بذلك لهم إلى حال وقوعها . فنظيره مما اللفظ فيه من الله "تعالى" ، ومعناه منا – قوله "تعالى" : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ 2 ﴾ ، أي : يزيدون عندكم أنتم ؛ لأنكم لو رأيتم جمعهم [148ظ] لقلتم أنتم : هؤلاء مائة ألف ، أو يزيدون . وقد مضى هذا مشروحا فيما قبل .

ومن ذلك قراءة أبي عمرو في رواية هارون 3 بن حاتم عن حسين 4 عنه : "بَغْتَة 5" .

قال أبو الفتح : فعله مثال لم يأت في المصادر ولا في الصفات أيضا ، وإنما هو مختص بالاسم ، منه الشربة : اسم موضع . أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسن عن أبي العباس أحمد بن يحيى : يقول عبد الله بن الحجاج التغلبي لعبد الملك بن مروان في خبر له معه :

ارحم أصيبيتي الذين كأنهم حجلى تدرج بالشربة وقع6

---

1 سورة غافر : 59 .

2 سورة الصافات : 147 وانظر الصفحة 227 من هذا الجزء .

3 هو هارون بن حاتم أبو بشر الكحوفي البزاز ، مقرئ مشهور ، ضعفوه . روى الحروف عن أبي بكر بن عياش ، وحسين الجعفي عن ابن عياش ، وعن أبي عمرو وغيرهم . وروى القراءة عنه أحمد بن يزيد الحلواني ، وموسى بن إسحاق وغيرهما . توفي سنة 249 . طبقات ابن الجزري : 2 : 345 .

4 هو الحسين بن علي بن فتح الإمام الحبر أو عبد الله ، يقال : أبو علي الجعفي مولاهم . الكوفي الزاهد ، أحد الأعلام . قرأ على حمزة ، وهو أحمد الذين خلفوه في القيام بالقراءة ، وروى القراءة عن أبي بكر بن عياش وأبي عمرو بن العلاء . وروى عنه القراءة خلاد بن خالد وهارون ابن حاتم وغيرهما . وروى عن الكسائي ، قال قال لي الرشيد : من اقرأ الناس اليوم ؟ قلت : حسين الجعفي . مات في ذي القعدة سنة 203 عن أربع وثمانين سنة . طبقات ابن الجزري : 1 : 247 .

6 أصيبية : كأنه تصغير أصبية ، جمع صبي . الحجلى : اسم جمع ، واحده حجل بالتحريك ، والواحدة حجلة ، وهو طائر في حجم الحمام ، أحمر المنقار والرجلين .

وضبطت "الحجلى" في الأصل بفتح الحاء ، وهو تحريف . والشربة : موضع بين السليلة والربذة ، وقيل غير ذلك . اللسان "صبا" ، ومعجم البلدان .

(76/706)

ومنه الجزية : الجماعة . قال :

جربة كحمر الأيك لا ضرع فيها ولا مذكى 1

وجاء بلا تاء في الاسم أيضا ، وهو معد ، وهبي ، وهو الصبي الصغير . ولا بد من إحسان الظن بأبي عمرو ، ولا سيما وهو القرآن ، وما أبعده عن الزيغ والبهتان !

ومن ذلك قراءة النبي "صلى الله عليه وسلم" : "فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ 2" .

وروي عن علي : "إِنْ تَوَلَّيْتُم" .

قال أبو الفتح : قال أبو حاتم : معناه إن تولاكم الناس .

ومن ذلك قراءة الأعرج ومجاهد والجحدري والأعمش ويعقوب : "سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ 3" ، بضم الألف ، وسكون الياء .

قال أبو الفتح : تقديره الشيطان سول لهم ، وأملي أنا لهم ، أي : الشيطان يغويهم وأنا

أنظرهم . ومعنى سول لهم ، أي : دلاهم ، وهو من السول ، وهو استرخاء البطن . رجل أسول ، وامرأة سولاء : إذا كانا مسترخين البطون . قال الهذلي :

كالسحل البيض جلا لونها سح نجاء الحمل الأسول4

أي : السحاب المسترخي الأسافل ، لثقله وغزر مائه . فهذا إذا كقول الله "سبحانه" : ﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ5 ﴾ ، وهذا اشتقاق حسن ، أخذناه عن أبي علي .

---

1 الجربة : الجماعة المتساوون الأقوياء من الناس . والأيك : موضع . والضرع : الضعيف ، والفعل ككرم . والمذكى : المسن البدين ، وانظر اللسان "جرب" .

2 سورة محمد : 22 .

3 سورة محمد : 25 .

4 للمتنخل الهذلي . والسحل : الثياب البيض ، جمع سحل كسهل . وضمير لونها لحمر الوحشي . وفي ك : حلا ، بالحاء . وهو تحريف . والنجاء : السحاب الذي نشأ في نوء الحمل ، والمفرد نجو بفتح فسكون . وقيل : النجاء : السحاب الذي هراق ماءه . والحمل : السحاب الكثير الماء . يقول : جلا لون هذه الحمر مطر السحاب الغزير الماء . ديوان الهذليين : 2 : 1 .

ومن ذلك : ﴿ فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ1 ﴾ ، بالتشديد . قرأ بها السلمي .

قال أبو الفتح : معنى تدعو هنا ، أي : تنسبوا إلى السلم ، كقولك : فلان يدعى إلى بني فلان ، أي : ينتسب إليهم ، ويحمل نفسه عليهم . وإلى هذا يرجع معنى قوله :

فما برحت خيل تثوب وتدعى2

فأما قوله :

فلا وأبيك ابنه العامري لا يدعي القوم أني أفر3

فإنه من الدعوى المستعملة في المعاملات ، المحوجة إلى البينة . وقد تمكن رجوعها أيضا إلى معنى الانتساب ، أي : لا ينسبونني إلى الفرار . وما أقرب أطراف هذه اللغة على ظاهر بعدها وأشد تلاقيها مع مظنون تنافيها !

ومن ذلك ما رواه الحلواني عن أبي معمر4 عن عبد الوارث عن أبي عمرو : "وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ5" ، مرفوعة الجيم .

---

1 سورة محمد : 35 .

2 ليزيد بن الصعق ، وصدره :

بني أسد ما تأمرون بأمركم

وانظر الأصمعيات : 161

وورد في المفضليات "365" البيت الآتي من قصيدة لعوف بن الأحوص :

وما برحت بكر تثوب وتدعي ويلحق منهم أولون وآخر

3 لامرئ القيس ، يروى "لا وأبيك" . وابنة العامري : اسمها هو ، وقد ذكر اسمها في هذه القصيدة . والعامري : من بني عمرو بن عامر من الأزد ، اسمه سلامة بن عبد الله ، وقيل غير ذلك . انظر الديوان : 154 ، والخزانة : 4 : 489 .

4 هو عبد الله بن عمرو بن الحجاج أبو معمر النقري التميمي البصرين قيم بحروف أبي عمرو . وروى القراءة عن عبد الوارث بن سعيد ، وروى عنه القراءة أحمد بن علي بن هاشم البصري وغيره . وهو الذي انفرد باسكان اللام من "مَالِكِ يَوْمِ الدِّين" عن أبي عمرو . مات سنة 224 .

5 سورة محمد : 34 .

(78/706)

قال أبو الفتح : هو على القطع تقديره ﴿ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا ﴾ ، ثم الكلام هنا ن ثم استأنف فقال : وهو ﴿ يُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾ على كل حال ، أي : هذا ما يصح

منه ، فاحذروه أن يتم منه عليكم ، فهو راجع بالمعنى إلى معنى الجزم .

وهذا كقولك : إذا زرتني فأنا ممن يحسن إليك ، أي : فحرى بي أن أحسن إليك . ولو جاء بالفعل مصارحا به فقال : إذا زرتني أحسنت إليك لم يكن في لفظه ذكر عادته التي يستعملها من الإحسان إلى زائره . وجاز أيضا أن يظن به عجز عنه ، أو وني وفتور دونه . فإذا ذكر أن ذلك عادته ، ومظنة منه - [149و] كانت النفس إلى وقوعه أسكن ، وبه أوثق .

فاعرف هذه المعاريض في القول ، ولا ترينها تصرفا واتساعا في اللغة ، مجردة من الأغراض المرادة فيها ، والمعاني المحمولة عليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحتسب حـ 2 صـ 269 . 273﴾

(79/706)

وقال العلامة الدمياطى :

سورة محمد صلى الله عليه وسلم

مدنية عند الأكثر قيل إلا آية وكأين من قرية وقيل مكية وآيها ثلاثون وثمان كوفي وتسع حجازي ودمشقي وأربعون بصري وحمصي خلافها سبع أوزارها غير كوفي وحمصي

فضرب الرقاب فشدوا الوثاق لاتنصر منهم حمصي وترك بالهم ويثبت أقدامكم وللشارين

بصري معه مشبه الفاصلة سبعة ينصركم فتعسا لهم الذين من قبلهم دمر الله عليهم قال آنفا لأريناكهم بسيماهم القراآت عن ابن محيصن وإما فداء بغير مد ولا همز ورويت عن ابن كثير في رواية شبل عنه لغة فيه

واختلف في ( ) والذين قتلوا (الآية 4 فأبو عمرو وحفص ويعقوب بضم القاف وكسر التاء بلا ألف مبنيا للمفعول وعن الحسن بفتح القاف وتشديد التاء بلا ألف والباقون ﴿ قاتلوا ﴾ بفتح القاف وتخفيف التاء وألف بينهما من المفاعلة قيل نزلت في قتلى أحد وعن ابن محيصن عرفها بتخفيف الراء والجمهور بتشديدها من التعريف ضد الجهل

وأمال الكافرين أبو عمرو وابن ذكوان بخلفه والدوري والكسائي ورويس وقللهما الأزرق وأمال لا مولى لهم حمزة والكسائي وخلف وقللها الأزرق بخلفه وكذا مثوى وقفا

وقرأ وكائن بألف ممدودة بعد الكاف ثم همزة مكسورة ابن كثير وكذا أبو جعفر لكن مع التسهيل بالمد والقصر كما مر بآل عمران مع حكم الوقف عليه

واختلف في (آسن) الآية 15 فابن كثير بغير مد بعد الهمزة صفة مشبهة من أسن الماء بالكسر كحذر يأسن فهو آسن كحذر تغير وافقه ابن محيصن بخلفه والباقون بالمد على وزن ضارب آسن فاعل من آسن الماء بالفتح يأسن بالكسر والضم أسونا وأمال مصفى وقفا حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه واختلف في آنفا فالبزي من قراءة الداني على أبي الفتح عن السامري عن أصحابه عن أبي ربيعة بقصر الهمزة قال في النشر

وقد انفرد بذلك أبو الفتح فكل أصحاب السامري لم يذكروا القصر عن البزي ثم قال وعلى تقدير أن يكونوا رووا القصر فلم يكونوا من طرق التيسير فلا وجه لإدخال هذا الوجه في طرق الشاطبية والتيسير نعم روى سبط الخياط القصر من طريق النقاش عن أبي ربيعة عن البزي ورواه ابن سوار عن ابن فرح عن البزي ورواه ابن مجاهد عن نص عن البزي وافقه ابن محيصن بخلفه وروى ابن الحباب وسائر أصحاب البزي عنه المد وبه قرأ الباقون وهما لغتان بمعنى الساعة كحاذر وحذر إلا أنه لم يستعمل أنهما فعل مجرد بل المستعمل أيتنف يأتنف واستأنف يستأنف قال الجعبري روي أن المنافقين كانوا يحضرون خطبة النبي أو مجلسه فإذا خرجوا قالوا للصحابة رضي الله تعالى عنهم أي شيء قال محمد في الساعة المتقدمة استهزاء وإيذانا أنهم يحضرون وقلوبهم غائبة لاهية عن قوله فعاقبهم الله بالطبع عليها فلن يهتدوا إذا أبدا

وأمال زادهم حمزة وهشام من طريق الداجوني وابن ذكوان من طريق الصوري والنقاش عن الأخفش

وأمال وآتاهم تقواهم و وهدى وقفا حمزة والكسائي وخلف وبالفتح والصغرى الأزرق

وكذا أبو عمرو في تقويهم بالفتح والصغرى كالأزرق وأما جاء شراطها من حيث الهمزتان فمر غير مرة نحو تلقاء أصحاب بالأعراف

وأمال فأنى حمزة والكسائي وخلف وقللها الأزرق والدوري عن أبي عمرو بخلفهما وأدغم التاء من نزلت سورة فإذا أنزلت سورة أبو عمرو وهشام بخلفه وحمزة والكسائي وخلف وقرأعسيتم) الآية 22 بكسر السين نافع ومر بالبقرة

واختلف في ( ) إن توليتم ( ) الآية 22 فرويس بضم التاء والواو وكسر اللام مبنيا للمفعول أي وإن وليتم أمور الناس ورويت عن النبي وبها قرأ علي رضي الله عنه والباقون بالفتح فيهن إما بمعنى الأول أو من الإعراض

واختلف في (وتقطعوا) الآية 22 ويعقوب بفتح التاء وسكون القاف وفتح الطاء مخففة وافقه ابن محيصن والباقون بضم التاء وفتح القاف وكسر الطاء مشددة على التكثير

(81/706)

وأمال وأعمى حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه ونقل القران ابن كثير

واختلف في (وأملي لهم) الآية 25 فأبو عمرو بضم الهمزة وكسر اللام وفتح الياء مبنيا للمفعول ونائب الفاعل لهم وقيل ضمير الشيطان وقرأ يعقوب كذلك لكنه سكن الياء

مضارعا أي وأملي أنا لهم أو ماضيا سكنت ياؤه تخفيفا وافقه المطوعي

والباقون بفتح الهمزة واللام وبالألف مبنيا للفاعل ضمير الشيطان وقيل للباري تعالى

واختلف فيإسرارهم) الآية 26 فحفص وحمزة والكسائي وخلف بكسر الهمزة مصدر

أسر وافقهم الأعمش والباقون بالهمزة المفتوحة جمع سر وعن المطوعي توفيهم بالتذكير بلا

تاء وقرأ رضوانه بضم الراء أبو بكر

واختلف في ( ) ولنبلونكم حتى نعلم ( ) ونبلو ( ) الآية 31 فأبو بكر بالياء التحتية في

الثلاثة والباقون بنون العظمة واختلف في نبلو فرويس بإسكان الواو تخفيفا أو بتقدير ونحن

نبلو وانفرد به ابن مهران عن روح والباقون بفتحها عطفا على ما قبله

(82/706)

وقرأ (السلم) الآية 35 بكسر السين أبو بكر وحمزة وخلف ومر بالبقرة وعن ابن محيصن

ويخرج بفتح الياء وضم الراء أضغانكم بالرفع فاعلا وأما ها أنتم فمن ذكرها غير مرة

وحاصل ما في النشر وغيره كما لخصه شيخنا رحمه الله تعالى أن القراء فيه على مذاهب

فقالون وأبو عمرو وأبو جعفر ها نتم بإثبات ألف بعد الهاء ثم همزة مسهلة فيصير مدا

منفصلا عندهم ففيه القصر لكلهم والمد لمن يمد منهم كقالون وأبي عمرو ويتحصل من ها

أنتم هؤلاء من جمع المدين المنفصلين ثلاثة أوجه قصرهما ثم قصر هأنتم ومد هؤلاء لتغير سبب المد في هأنتم ثم مدهما بناء على إجراء المسهلة مجرى المخففة والأزرق من طرق كتابنا كالنشر ثلاثة أوجه حذف الألفين مع همزة مسهلة على وزن فعلتم والثاني إبدال الهمزة ألفا بعد الهاء فتمد مدا مشبعا مثل أنذرتهم في أحد وجهيه ويوافقنا في هذين الشاطبي رحمه الله تعالى والثالث إثبات الألف مع الهمزة المسهلة كقالون وحينئذ المد المشبع والقصر لتغيير الهمزة كما مر وللأصبهاني وجهان حذف الألف مع تسهيل الهمزة وإثباتها كذلك ويجيء على الثاني المد والقصر كما مر للأزرق وقرأ البزي بإثبات الألف ثم همزة محققة مع القصر مثل ها أنتم وقرأ قنبل بوجهين أحدهما من طرق الكتاب كالنشر كالبزي والثاني من الطرق المذكورة كالشاطبية بحذفها مع همزة محققة مثل فعلتم والباقون وهم ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب بتخفيف الهمزة مع الألف وهم على مراتبهم في المنفصل من القصر والمد وأما ما زاده الشاطبي رحمه الله تعالى بناء على أن الهاء مبدلة من همزة لابن عامر ومن معه من جواز القصر لأن الألف حينئذ للفصل فيصير عنده في ها أنتم هؤلاء لمن ذكر القصر في هانتم مع المد على مراتبهم في هؤلاء ثم المد فيها كذلك فتعقبه في النشر كما مر بأنه مصادم للأصول مخالف للأداء ويوقف عليها لحمزة بالتحقيق والتسهيل بين بين مع المد والقصر لأنه متوسط بزائد ومر الوقف على هؤلاء .

انتهى انتهى . اهـ ﴿إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة سيدنا ومولانا محمد – صلى الله عليه وسلم – "

" وهو " وأصلح . سيهديهم ، كله جلي .

" والذين قتلوا " قرأ حفص والبصريان بضم القاف وكسر التاء ، والباقون بفتح القاف والتاء وألف بينهما .

" ينصركم " لا خلاف بينهم في إسكان الراء .

" فأحبط أعمالهم " آخر الربع .

الممال

أراكم ، ولا ترى والقرى بالإمالة للبصري والأصحاب والتقليل لورش . موسى والموتى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه ، أغنى وبلى معا بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلفه ، وحاق لحمزة ، النار ، ونهار بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش ، للناس لدوري البصري .

المدغم

الصغير " بل ضلوا للكسائي ، وإذ صرفنا للبصري وهشام وخلاد والكسائي ، يغفر لكم للبصري بخلف عن الدوري .

" الكبير " بأمر ربها ، العذاب بما ، العزم من .

" وكأين " قرأ ابن كثير وأبو جعفر بألف ممدودة بعد الكاف وبعدها همزة مكسورة فيكون مدا متصلا إلا أن ابن كثير يحقق الهمزة وأبو جعفر يسهلها مع المد والقصر ، والباقون بهمزة مفتوحة بعد الكاف وبعدها ياء مشددة مكسورة ، ويقف البصريان على الياء في وقف الاختبار بالموحدة ، والباقون على النون .

" ناصر " ماء غير ، ومغفرة ، جاء أشراطها ، وذكر ، خيرا ، القرآن ، كله جلي .

" آسن " قرأ ابن كثير بقصر الهمزة ، وغيره بمدها ، وورش على أصله في البدل .

" آنفا " اتفقوا على قراءته بمد الهمزة أي بألف بعدها من طرق الشاطبية والتيسير والتحبير وما ذكره الشاطبي من جواز القصر للبزي فخروج منه عن طريقه فلا يقرأ له من طريق الشاطبية والتيسير إلا بالمد كالجماعة .

" رأيت " حقق الجميع همزه وصلا ووقفا إلا حمزة فله فيه التسهيل فقط وقفا .

" عسيتم " كسر السين نافع ، وفتحها غيره .

" توليتم " قرأ رويس بضم التاء والواو وكسر اللام ، وغيره بفتح التاء والواو واللام .

" وتقطعوا " قرأ يعقوب بفتح التاء الفوقية وإسكان القاف وفتح الطاء مخففة ، وغيره بضم التاء وفتح القاف وكسر الطاء مشددة .

" وأملي " قرأ أبو عمرو بضم الهمزة وكسر اللام وفتح الياء ، وقرأ يعقوب بضم الهمزة وكسر اللام وإسكان الياء ، والباقون بفتح الهمزة واللام وألف بعدها .

" إسرارهم " قرأ حفص والأخوان وخلف بكسر الهمزة ، وغيرهم بفتحها .

" رضوانه " ضم الراء شعبة ، وكسرها غيره .

" ولنبلونكم " نعلم ، ونبلوا ، قرأ شعبة بالياء التحتية في الأفعال الثلاثة ، والباقون بالنون فيهن ، وقرأ رويس بإسكان واو ونبلو ، وغيره بفتحها .

" أعمالهم " آخر الربع .

الممال

وللكافرين ، والكافرين بالإمالة لرويس والبصري والدوري والتقليل لورش ، النار وأدبارهم المجرور للمذكورين ماعدا رويسا فبالفتح . مولى ومثوى ومصفى وهدى والهدى لدى الوقف على الجميع ، ولا مولى وآتاهم ومثواكم وفأولى وأعمى وأملى والهدى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . جاء وجاءتهم لابن ذكوان وخلف وحمزة ، زادهم لحمزة وابن ذكوان بخلف عنه ، ذكراهم بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش ،

تقواهم وسيماهم بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . فأنى بالإمالة للأصحاب والتقليل لدوري البصري وورش بخلف عنه . واعلم أن فأولى لهم وزنه أفعل على رأى جمهور العلماء فلا تقليل فيه للبصري ، وقد نص على منع التقليل فيه للبصري كثير من العلماء وأهل الأداء .

المدغم

" الصغير " فقد جاء للبصري وهشام والأخوين وخلف ، واستغفر لذنبك للبصري بخلف عن الدوري ، نزلت سورة وأنزلت سورة للبصري والأخوين وخلف .

" الكبير " الصالحات جنات ، ناصر لهم ، زين له ، عندك قالوا ، العلم ماذا ، يعلم متقلبكم ، القتال رأيت وتبين لهم معا ، سول لهم .

" يغفر " يتركم ، قوما غيركم ، كله واضح .

" السلم " كسر السين شعبة وحمزة وخلف ، وفتحها غيرهما .

(85/706)

" هأنتم هؤلاء " قرأ قالون وأبو عمرو وأبو جعفر بألف بعد الهاء وتسهيل الهمزة مع المد والصقر إلا أبا جعفر والسوسي فبالقصر فقط . وورش بتسهيل الهمزة من غير ألف قبلها

وعنه أيضا إبدالها ألفا مع المد المشبع للساكنين ، وقنبل بتحقيق الهمزة من غير ألف قبلها والبزي والشامي والكوفيون ويعقوب بتحقيق الهمزة مع ألف قبلها ، وكل على أصله في المنفصل ، وقد تقدم بسط الكلام عليها وعلى تركيبها مع هؤلاء في آل عمران . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 303 . 305 ﴾

(86/706)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة محمد صلى الله عليه وسلم

هذه السورة أول المفصل وإنما سمي مفصلا لكثرة تفصيل بسم الله الرحمن الرحيم بين سوره

قوله تعالى ﴿ والذين قتلوا في سبيل الله ﴾ يقرأ بالتشديد والتخفيف وضم القاف وبإثبات ألف بين القاف والتاء مع فتح القاف فالحجة لمن خفف او شدد أنه دل بضم القاف على بناء الفعل لما لم يسم فاعله والحجة لمن أثبت الألف وفتح القاف أنه دل بذلك على بناء الفعل لهم والكنايتان في موضع رفع

قوله تعالى ﴿ غير آسن ﴾ يقرأ بالمد على وزن فاعل وبالقصر على وزن فعل فالحجة لمن

قرأه بالمد أنه أخذه من قولهم أسن الماء يأسن فهو آسن كما تقول خرج يخرج فهو خارج والحجة لمن قصر أنه أخذه من قولهم أسن الماء يأسن فهو أسن كما تقول حذر يحذر فهو حذر وهرم يهرم فهو هرم والهمزة فيهما معا همزة أصل

قوله تعالى ﴿ وأملي لهم ﴾ يقرا بضم الهمزة وكسر اللام وفتح الياء وبفتح الهمزة واللام وإسكان الياء فالحجة لمن ضم الهمزة أنه دل على بناء الفعل لما لم يسم فاعله لأنه جعل التسويل للشيطان والإملاء لغيره والحجة لمن فتح الهمزة أنه جعل الفعل مبنيا للفاعل فكأنه قال الشيطان سول لهم والله أملى لهم

قوله تعالى ﴿ والله يعلم إسرارهم ﴾ يقرأ بفتح الهمزة وكسرها فالحجة لمن فتح أنه اراد جمع سر والحجة لمن كسر انه أراد المصدر وقد ذكرنا العلة في فتح همزة الجمع وكسر همزة المصدر ذكرا يغني عن إعادته

قوله تعالى ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم ﴾ ﴿ ونبلو أخباركم ﴾ يقرآن بالياء والنون فالحجة لمن قرأ بالياء أنه جعله من إخبار النبي عن الله عز وجل والحجة لمن قرأه بالنون أنه جعله من إخبار الله عز وجل عن نفسه

فإن قيل فما وجه قوله ﴿ حتى نعلم ﴾ وعلمه سابق لكون الأشياء فقل الإخبار عنه والمراد بذلك غيره ممن لا يعلم وهذا من تحسين اللفظ ولطافة الرد

قوله تعالى ﴿ وتدعوا إلى السلم ﴾ يقرأ بفتح السين وكسرها وقد تقدم القول فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 328 . 329 ﴾

(88/706)

وقال ابن زنجلة :

47 - سورة محمد صلى الله عليه و سلم

والذين قتلوا في سبيل الله ف يضل أعملهم سيهديهم ويصلح بالهم 4 و 5

قرأ أبو عمرو وحفص والذين قتلوا في سبيل الله بضم القاف على ما لم يسم فاعله وحجتهما أن هذه الآية مخصوص بها الشهداء المقتولون في سبيل الله الذين قال الله جل وعز فيه ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا وقوله سيهديهم إلى طريق الجنة ويصلح شأنهم في الآخرة ويدخلهم الجنة

وقرأ الباقون قاتلوا وحجتهم أن قاتلوا أعم ثوابا وأبلغ للممدوح في المجاهدين في سبيل الله لأنه إذا فعل ذلك بالمقاتل في سبيله وإن لم يقتل ولم يقتل كان أعم من أن يكون ذلك الوعد منه لم قتل دون من قاتل

وحجة أخرى أن الله جل وعز أخبر أنه يهديهم ويصلح بالهم

بعد ما أخبرنا عنهم بالقتال في سبيله فلو كان المراد من الكلام القتل لم يكن في ظاهر قوله سيهديهم ويصلح بالهم كبير معنى لأنه قتلوا بل إنما يدل الظاهر على أنه وعدهم الهداية وإصلاح البال جزاء لهم في الدنيا على قتالهم أعداءه وأن يدخلهم في الآخرة والجنة وهذا أوضح الوجهين

مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهر من ماء غير ءاسن 15

قرأ ابن كثير من ماء غير أسن مقصورا على وزن فعل قال أبو زيد تقول أسن الماء يأسن أسنا فهو أسن كقولك هرم الرجل فهو هرم وعرج فهو عرج ومرض يمرض فهو مرض وكذلك أسن فهو أسن إذا تغيرت رائحته فأعلم الله أن أنهار الجنة لا تتغير رائحة مائها

وقرأ الباقون من ماء غير آسن بالمد على فاعل فالهمزة الأولى فاء الفعل والألف بعدها مزيدة فالمد من اجل ذلك تقول أسن الماء يأسن فهو آسن مثل أجن الماء يأجن ويأجن إذا تغير وهو آجن وذهب فهو ذاهب وضرب فهو ضارب قال الأخفش أسن لغة و فعل إنما هو للحال التي تكون عليها فأما من قال غير آسن على فاعل فإنما يريد ذلك لا يصير إليه فيما يستقبل

الشيطن سول لهم وأملى لهم 25

قرأ أبو عمرو وأملي لهم بضم الألف وكسر اللام وفتح الياء

على ما لم يسم فاعله قال أبو عمرو إن الشيطان لا يملي لأحد وحجته قوله ولا يحسبن الذين كفروا أن ما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم فكأن أبا عمرو لما كان القارئ إذا قرأ وأملى بالفتح جاز أن يقع في الوهم أن الإملاء مسند إلى الشيطان لأن ذكره قد تقدم الفعل ولم يجر لله قبل الفعل ذكر فقرأ وأملي ليزيل التوهم إن الإملاء إلى الله لا إلى الشيطان كما قال جل وعز فأمليت للكافرين وأصل الإملاء الإطالة في العمر يقال تملى فلا منزله إذا طالت إقامته فيه

وقرأ الباقون أملى لهم بفتح الألف أي زين لهم الشيطان كذا قال النخعي وقال آخرون أملى الله لهم فالفعل مسند إلى إليه وإن لم يجر له ذكر وحجتهم في هذا قوله لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه هذه الهاء أعني تسبحوه عائدة على الله وقوله تعزروه وتوقروه عائدة على النبي صلى الله عليه فكذلك قوله الشيطان سول لهم وأملى لهم التسويل راجع إلى الشيطان والإملاء إلى الله

والله يعلم إسرارهم 26

قرأ حمزة والكسائي وحفص والله يعمل إسرارهم بكسر الألف وقرأ الباقون أسرارهم

بالفتح جمع سر وأسرار مثل حمل وأحمال فكأنهم جمعوا للاختلاف في ضروب السر وجميع الأجناس يحسن جمعها مع الاختلاف وجاء سر في قوله يعلم سرهم على ما عليه جميع المصادر فأفرد مرة وجمع أخرى وقد جمع في غير هذا وأفرد كقوله يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة فالغيب الذي يؤمنون به ضروب البعث والنشور وإتيان الساعة فأوقع على هذه الأشياء وغيرها وجمع أيضا في قوله علام الغيوب فكذلك السر أفرد في موضع وجمع في آخر وقد قيل إنه جمع فأخرج الأسرار بعددهم كما قال بعدها والله يعلم أعمالكم 30 فجمع الأعمال لإضافته إياها إلى جمع ومن قرأ إسرارهم فهو مصدر أسررت إسرارا وحجتهم قوله ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم فكما أفرد السر ولم يجمع فكذلك قال إسرارهم

ولنبلونكم حتى نعلم المجهدين منكم والصبرين ونبلوا أخباركم 31

(90/706)

قرأ أبو بكر وليبلونكم حتى يعلم المجاهدين ويبلو أخباركم بالياء إخبارا عن الله أي ليبلوكم الله

وحجته ما تقدم من ذكر الله وهو قوله والله يعلم أعمالكم 30 وقرأ الباقون ولنبلونكم حتى نعلم ونبلو كله بالنون الله يخبر عن نفسه وحجتهم أن قبله ولو نشاء لأريناكهم 30 فأخبر

عن نفسه بلفظ الجمع

فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم 35

قرأ أبو بكر وحمزة وتدعوا إلى السلم بكسر السين وقرأ الباقون بالفتح

السلم بالكسر الإسلام كقوله وإن جنحوا للسلم أي الإسلام وبالفتح الصلح كذا قال أبو

عمرو وقال آخرون هما لغتان الفتح والكسر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ

670.666 ﴾

(91/706)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة محمد 47

مدنية ونظيرتها في غير الكوفي والبصري القيامة ولا نظير لها فيهما

وكلمها خمس مئة وتسع وثلاثون كلمة

وحروفها ألفان وثلاث مئة وتسعة وأربعون حرفا

وهي ثلاثون وثماني آيات في الكوفي وتسع في المدنيين والمكي والشامي وأربعون آية في

البصري

اختلافها آيتان (﴿ أوزارها ﴾) لم يعدها الكوفي وعدها الباقون (﴿ للشاربين ﴾)

عدها البصري ولم يعدها الباقون وكلهم عدها في والصافات

وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدودا بإجماع سبعة مواضع (﴿ فضرب الرقاب ﴾

فشدوا الوثاق) (﴿ لانتصر منهم ﴾ ببعض) (﴿ آنفا ﴾ لأريناكهم) (﴿ بسيماهم

﴾) ورؤوس الآي

أعمالهم

1 بالهم

2 أمثالهم

3 أوزارها

* أعمالهم

4 بالهم

5 عرفها لهم

6 أقدامكم

7 أعمالهم

8 أعمالهم

9 أمثالها

10 لا مولى لهم

11 مثوى لهم

12 ناصر لهم

13 أهواءهم

14 أمعاءهم

15 أهواءهم

16 تقواهم

17 ذكراهم

18 ومثواكم

19 فأولى لهم

20 خيرا لهم

21 أرحامكم

22 أبصارهم

23 أقفالها

24 وأملى لهم

25 إسرارهم

26 وأدبارهم

27 أعمالهم

28 أضغانهم

29 أعمالكم

30 أخباركم

31 أعمالهم

32 أعمالكم

33 الله لهم

34 أعمالكم

35 أموالكم

36 أضغانكم

37 أمثالكم

39 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 228﴾

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة محمد صلى الله عليه وسلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (الذين كفروا) مبتدأ ، و (أضل أعمالهم) خبره ، ويجوز أن تنتصب بفعل دل عليه المذكور ، أي أضل الذين كفروا ، ومثله (والذين آمنوا) .

قوله تعالى (فإذا لقيتم) العامل في إذا هو العامل في (ضرب) والتقدير: فاضربوا ضرب الرقاب ، فضرب هنا مصدر فعل محذوف ، ولا يعمل فيه نفس المصدر لأنه مؤكد ، و (منا) مصدر: أي إما أن تمنوا منا ، وأما أن تفادوا فداء ويجوز أن يكونا مفعولين: أي أولوهم منا ، أو اقبلوا فداء ، و (حتى تضع الحرب) أي أهل الحرب (ذلك) أي الأمر ذلك .

قوله تعالى (عرفها) أي قد عرفها فهو حال ، ويجوز أن يستأنف .

قوله تعالى (والذين كفروا) هو مبتدأ ، والخبر محذوف تقديره: تعسوا أو أتعسوا ، ودل عليهما (تعسا) ودخلت الفاء تنبيها على الخبر ، و (لهم) تبيين (وأضل) معطوف على الفعل المحذوف ، والهاء في (أمثالها) ضمير العاقبة أو العقوبة .

قوله تعالى (وكأين من قرية) أي من أهل قرية ، و (أخرجتك) للقرية لا للمحذوف وما

بعدها من الضمائر للمحذوف .

قوله تعالى (كمن زين) هو خبر من قوله تعالى (مثل الجنة) أي فيما نقص عليك مثل الجنة .

قوله تعالى (فيها أنهار) مستأنف شارح لمعنى المثل ، وقيل مثل الجنة مبتدأ ، وفيها أنهار جملة هي خبره ، وقيل المثل زائد ، فتكون الجنة في موضع مبتدأ مثل قولهم * ثم اسم السلام عليكما * واسم زائد (غير آسن) على فاعل من أسن بفتح السين ، وأسن من أسن بكسرها ، وهي لغة ، و (لذة) صفة لخمر ، وقيل هو مصدر : أي ذات لذة ، و (من كل الثمرات) أي لهم من كل ذلك صنف أو زوجان (ومغفرة) معطوف على المحذوف أو الخبر محذوف: أي ولهم مغفرة .

(93/706)

قوله تعالى (كمن هو) الكاف في موضع رفع: أي حالهم كحال من هو خالد في الإقامة الدائمة ، وقيل هو استهزاء بهم: وقيل هو على معنى الاستفهام: أي أكمن هو ، وقيل هو في موضع نصب أي يشبهون من هو خالد فيما ذكرناه ، و (آنفا) ظرف: أي وقتا مؤتنفا ، وقيل هو حال من الضمير في قال .

أي مؤتنفا (والذين اهتدوا) يحتمل الرفع والنصب (وآتاهم تقواهم) أي ثوابها .

قوله تعالى (أن تأتيهم) موضعه نصب بدلا من الساعة بدل الاشتمال .

قوله تعالى (فأنى لهم) هو خبر و (ذكراهم) والشرط معترض: أي أنى لهم ذكراهم إذا جاءتهم الساعة ، وقيل التقدير: أنى لهم الخلاص إذا جاء تذكرتهم .

قوله تعالى (نظر المغشى) أي نظرا مثل نظر المغشى ، و (أولى) مبتدأ ، و (لهم) الخبر وأولى مؤنثه أولات ، وقيل الخبر (طاعة) وقيل طاعة صفة ، لسورة ، أي ذات طاعة أو مطاعة ، وقيل طاعة مبتدأ ، والتقدير: طاعة وقول معروف أمثل من غيره ، وقيل التقدير أمرنا طاعة (فإذا عزم الأمر) العامل في إذا محذوف تقديره: فإذا عزم الأمر فاصدق ، وقيل العامل (فلو صدقوا) أي لو صدقوا إذا عزم الأمر ، والتقدير: إذا عزم أصحاب الأمر أو يكون المعنى تحقق الأمر ، و (أن تفسدوا) خبر عسى ، وإن توليتم معترض بينهما ، ويقرأ توليتم: أي ولى عليكم .

قوله تعالى (أولئك الذين) أي المفسدون ، ودل عليه ما تقدم .

قوله تعالى (الشيطان) مبتدأ ، و (سول لهم) خبره ، والجملة خبر إن ، و (أملى) معطوف على الخبر ، ويجوز أن يكون الفاعل ضمير اسم الله عزوجل .

فيكون مستأنفا ، ويقرأ أملى على ما لم يسم فاعله وفيه وجهان: أحدهما القائم مقام الفاعل لهم .

والثانى ضمير الشيطان .

قوله تعالى (يضربون) هو حال من الملائكة أو من ضمير المفعول ، لأن في الكلام ضميرا يرجع إليهم .

قوله تعالى (ثم لا يكونوا) هو معطوف على يستبدل ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(94/706)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة محمد

[سورة محمد (47) : الآيات 1 الى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ (1) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَآمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بالَهُمْ (2) ذلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْباطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثالَهُمْ (3)

(95/706)

"الَّذِينَ" مبتدأ "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَصَدُّوا" معطوف على كفروا "عَنْ سَبِيلِ" متعلقان بالفعل قبلهما "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "أَضَلَّ" ماض فاعله مستتر "أَعْمالَهُمْ" مفعوله والجملة خبر الذين والجملة الاسمية ابتدائية لا محل لها "وَالَّذِينَ" الواو حرف عطف ومبتدأ "آمَنُوا" ماض وفاعله "وَعَمِلُوا" معطوف على آمنوا "الصَّالِحاتِ" مفعول به "وَآمَنُوا" معطوف "بِما" متعلقان بما قبلهما "نُزِّلَ" ماض مبني للمجهول "عَلى مُحَمَّدٍ" متعلقان بالفعل والجملة صلة "وَهُوَ" الواو اعتراضية ومبتدأ "الْحَقُّ" خبره "مِنْ رَبِّهِمْ" جار ومجرور حال والجملة الاسمية اعتراضية لا محل لها "كَفَّرَ" ماض فاعله مستتر "عَنْهُمْ" متعلقان بالفعل "سَيِّئاتِهِمْ" مفعول به والجملة خبر الذين "وَأَصْلَحَ بالَهُمْ" معطوف على كفر عنهم "ذلِكَ" مبتدأ "بِأَنَّ" الباء حرف جر وأن حرف مشبه بالفعل "الَّذِينَ" اسمها "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة الفعلية صلة "اتَّبَعُوا" ماض وفاعله والجملة خبر أن "الْباطِلَ" مفعول به وأن وما بعدها في تأويل مصدر في محل جر بالباء والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ "وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ" معطوف على ما قبله "مِنْ رَبِّهِمْ" جار ومجرور حال "كَذلِكَ" جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف "يَضْرِبُ" مضارع "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل "لِلنَّاسِ" متعلقان بالفعل "أَمْثالَهُمْ"

مفعول به والجملة الفعلية مستأنفة .

[سورة محمد (47) : الآيات 4 الى 6]

(96/706)

فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها ذلِكَ وَلَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ (4) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بالَهُمْ (5) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ (6)

"فَإِذا" الفاء حرف استئناف وإذا ظرفية شرطية غير جازمة "لَقِيتُمُ" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "الَّذِينَ" مفعول به "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "فَضَرْبَ" الفاء واقعة في جواب الشرط ومفعول مطلق لفعل محذوف "الرِّقابِ" مضاف إليه والجملة جواب شرط لا محل لها "حَتَّى" حرف ابتداء "إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "أَثْخَنْتُمُوهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة في محل جر بالإضافة "فَشُدُّوا" الفاء واقعة في جواب الشرط وأمر مبني على حذف النون والواو فاعله "الْوَثاقَ" مفعوله والجملة جواب شرط لا محل لها "فَإِمَّا" الفاء حرف استئناف وتفريع وإما أداة شرط وتفصيل

"مَنًّا" مفعول مطلق لفعل محذوف "بَعْدُ" ظرف زمان "وَإِمَّا فِداءً" معطوف على ما قبله "حَتَّى تَضَعَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى "الْحَرْبُ" فاعل "أَوْزارَها" مفعول به والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر بحتى وهما متعلقان بفداء "ذِلكَ" خبر لمبتدأ محذوف والجملة الاسمية مستأنفة "وَلَوْ" الواو حرف استئناف ولو شرطية غير جازمة "يَشاءُ" مضارع "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل والجملة الفعلية ابتدائية لا محل لها "لَانْتَصَرَ" اللام واقعة في جواب الشرط وماض فاعله مستتر "مِنْهُمْ" متعلقان بالفعل والجملة جواب الشرط لا محل لها "وَلكِنْ" الواو عاطفة وحرف استدراك مهمل "لِيَبْلُوَا" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والفاعل مستتر "بَعْضَكُمْ" مفعول به "بِبَعْضٍ" متعلقان بالفعل والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل جر باللام وهما متعلقان بفعل مقدر محذوف "وَالَّذِينَ" الواو حرف استئناف ومبتدأ "قُتِلُوا" ماض مبني للمجهول ونائب فاعل والجملة صلة "فِي سَبِيلِ" متعلقان بالفعل "اللَّهُ" لفظ الجلالة مضاف إليه "فَلَنْ" الفاء زائدة ولن حرف ناصب "يُضِلَّ" مضارع منصوب بلن فاعله مستتر "أَعْمالَهُمْ" مفعول به والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة "سَيَهْدِيهِمْ" السين للاستقبال ومضارع

ومفعوله والفاعل مستتر والجملة مستأنفة "وَيُصْلِحُ بالَهُمْ" معطوف على سيهديهم "وَيُدْخِلُهُمُ" معطوف على سيهديهم "الْجَنَّةَ" مفعول به ثان "عَرَّفَها" ماض ومفعوله والفاعل مستتر "لَهُمْ" متعلقان بالفعل والجملة الفعلية حال من الجنة.

[سورة محمد (47) : الآيات 7 الى 11]

(98/706)

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ (7) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ (8) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ (9) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكافِرِينَ أَمْثالُها (10) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ (11)

"يا أَيُّهَا" يا حرف نداء وها للتنبيه وأي منادى نكرة مقصودة "الَّذِينَ" بدل "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "إِنْ" شرطية جازمة "تَنْصُرُوا" مضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعله والجملة ابتدائية لا محل لها "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعول به "يَنْصُرْكُمْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط والكاف مفعوله والفاعل مستتر والجملة جواب شرط لا محل لها "وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ" معطوف على ينصركم "وَالَّذِينَ" الواو حرف عطف ومبتدأ "كَفَرُوا" ماض

وفاعله والجملة صلة "فَتَعْساً" الفاء زائدة ومفعول مطلق لفعل محذوف "لَهُمْ" متعلقان بتعسا "وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة عطف على ما قبلها "ذِلكَ" مبتدأ "بِأَنَّهُمْ" حرف جر وأن واسمها "كَرِهُوا" ماض وفاعله وجملة كرهوا خبر أن "ما" مفعول به "أَنْزَلَ" ماض "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل والجملة صلة والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل جر بالباء وهما متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ "فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ" معطوف على كرهوا "أَفَلَمْ" الهمزة حرف استفهام إنكاري والفاء حرف استئناف ولم

حرف جازم "يَسِيرُوا" مضارع مجزوم والواو فاعله "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل والجملة مستأنفة "فَيَنْظُرُوا" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية والواو فاعله "كَيْفَ كانَ" اسم استفهام خبر كان المقدم "عاقِبَةُ" اسمها المؤخر "الَّذِينَ" مضاف إليه "مِنْ قَبْلِهِمْ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول وجملة كان سدت مسد مفعول ينظروا "دَمَّرَ اللَّهُ" ماض وفاعله "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل والجملة مستأنفة "وَلِلْكافِرِينَ" خبر مقدم "أَمْثالُها" مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة على ما قبلها "ذِلكَ" مبتدأ "بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى" أن واسمها وخبرها "الَّذِينَ" مضاف إليه "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة الذين والمصدر المؤول من أن وما

بعدها في محل جر بالباء وهما متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ "وَأَنَّ الْكافِرِينَ" معطوف على ما قبله "لا" نافية للجنس تعمل عمل إن "مَوْلَى" اسمها "لَهُمْ" جار ومجرور خبرها والجملة الاسمية خبر أن.

[سورة محمد (47) : الآيات 12 الى 14]

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ (12) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْناهُمْ فَلا ناصِرَ لَهُمْ (13) أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ (14)

(100/706)

"إِنَّ اللَّهَ" إن واسمها "يُدْخِلُ" مضارع فاعله مستتر "الَّذِينَ" مفعوله والجملة خبر إن والجملة الاسمية مستأنفة "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ" معطوف على آمنوا "جَنَّاتٍ" مفعول به ثان "تَجْرِي" مضارع "مِنْ تَحْتِهَا" متعلقان بالفعل "الْأَنْهارُ" فاعل والجملة صفة جنات "وَالَّذِينَ" حرف عطف ومبتدأ "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "يَتَمَتَّعُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر الذين "وَيَأْكُلُونَ" معطوف على يتمتعون

"كَما" الكاف حرف تشبيه وجر وما مصدرية "تَأْكُلُ" مضارع "الْأَنْعامُ" فاعل والمصدر المؤول من ما والفعل في محل جر بالكاف وهما متعلقان بصفة مفعول مطلق محذوف "وَ النَّارُ" مبتدأ "مَثْوىً" خبره "لَهُمْ" متعلقان بمثوى والجملة مستأنفة "وَكَأَيِّنْ" الواو حرف استئناف وكأين مبتدأ "مِنْ" حرف جر زائد "قَرْيَةٍ" تمييز مجرور لفظا "هِيَ أَشَدُّ" مبتدأ وخبره "قُوَّةً" تمييز وجملة كأين مستأنفة وجملة هي أشد صفة قرية "مِنْ قَرْيَتِكَ" متعلقان بأشد "الَّتِي" صفة قريتك "أَخْرَجَتْكَ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صلة "أَهْلَكْناهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة خبر كأين "فَلا" الفاء حرف عطف ولا نافية للجنس تعمل عمل إن "ناصِرَ" اسمها "لَهُمْ" جار ومجرور خبرها والجملة معطوفة على ما قبلها "أَ فَمَنْ" الهمزة حرف استفهام والفاء حرف استئناف ومن مبتدأ "كانَ" ماض ناقص اسمه مستتر "عَلى بَيِّنَةٍ" جار ومجرور خبر كان والجملة الفعلية صلة والجملة الاسمية مستأنفة "مِنْ رَبِّهِ" متعلقان بمحذوف صفة بينة "كَمَنْ" خبر المبتدأ من "زُيِّنَ" ماض مبني للمجهول "لَهُ" متعلقان بالفعل "سُوءُ" نائب فاعل "عَمَلِهِ" مضاف إليه والجملة الفعلية صلة من "وَاتَّبَعُوا" ماض وفاعله "أَهْواءَهُمْ" مفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها .

(101/706)

[سورة محمد (47) : الآيات 15 الى 16]

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ (15) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ما ذا قالَ آنِفاً أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ (16)

(102/706)

"مَثَلُ" مبتدأ "الْجَنَّةِ" مضاف إليه "الَّتِي" صفة الجنة "وُعِدَ" ماض مبني للمجهول "الْمُتَّقُونَ" نائب فاعل مرفوع بالواو والجملة صلة "فِيها" خبر مقدم "أَنْهارٌ" مبتدأ مؤخر "مِنْ ماءٍ" جار ومجرور صفة أنهار "غَيْرِ" صفة "آسِنٍ" مضاف إليه والجملة الاسمية فيها أنهار خبر المبتدأ مثل "وَأَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ" معطوف على ما قبله "لَمْ يَتَغَيَّرْ" مضارع مجزوم بلم "طَعْمُهُ" فاعل والجملة صفة لبن "وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ" معطوف على ما قبله أيضا "لَذَّةٍ" صفة خمر "لِلشَّارِبِينَ" صفة لذة "وَأَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى" معطوف على سابقه "وَلَهُمْ" الواو حرف استئناف ولهم خبر مقدم "فِيها" متعلقان بالخبر المقدم المحذوف "مِنْ كُلِّ" جار

ومجرور صفة المبتدأ المحذوف "الثَّمَراتِ" مضاف إليه والجملة مستأنفة "وَمَغْفِرَةٌ" الواو حرف عطف ومغفرة مبتدأ خبره محذوف "مِنْ رَبِّهِمْ" جار ومجرور صفة مغفرة "كَمَنْ" خبر لمبتدأ محذوف "هُوَ خالِدٌ" مبتدأ وخبره والجملة صلة من "فِي النَّارِ" متعلقان بخالد "وَسُقُوا" الواو حرف عطف وماض مبني للمجهول ونائب فاعل "ماءً" مفعول به ثان "حَمِيماً" صفة ماء والجملة معطوفة على جملة الصلة "فَقَطَّعَ" ماض فاعله مستتر "أَمْعاءَهُمْ" مفعول به "وَمِنْهُمْ" الواو حرف استئناف ومنهم خبر مقدم "مَنْ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية مستأنفة "يَسْتَمِعُ" مضارع فاعله مستتر "إِلَيْكَ" متعلقان بالفعل والجملة صلة "حَتَّى" حرف ابتداء "إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "خَرَجُوا" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "مِنْ عِنْدِكَ" متعلقان بالفعل "قالُوا" ماض وفاعله "لِلَّذِينَ" متعلقان بالفعل والجملة جواب شرط غير جازم "أُوتُوا" ماض مبني للمجهول ونائب فاعل "الْعِلْمَ" مفعول به ثان والجملة صلة "ما ذا" مبتدأ وخبر "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة على اعتبار ذا

موصولية "آنِفاً" حال "أُولئِكَ الَّذِينَ" مبتدأ وخبره والجملة مستأنفة "طَبَعَ اللَّهُ" ماض وفاعله والجملة صلة "عَلى قُلُوبِهِمْ" متعلقان بالفعل "وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة محمد (47) : الآيات 17 الى 19]

وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ (17) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ (18) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْواكُمْ (19)

"وَالَّذِينَ" الواو حرف عطف ومبتدأ "اهْتَدَوْا" ماض وفاعله والجملة صلة "زادَهُمْ" ماض ومفعوله الأول والفاعل مستتر "هُدىً" مفعوله الثاني والجملة خبر المبتدأ "وَآتاهُمْ" ماض ومفعوله وفاعله مستتر

"تَقْواهُمْ" مفعوله الثاني والجملة معطوفة على ما قبلها "فَهَلْ" الفاء حرف استئناف وهل حرف استفهام "يَنْظُرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة مستأنفة "إِلَّا" حرف حصر "السَّاعَةَ" مفعول به "أَنْ تَأْتِيَهُمْ" مضارع منصوب بأن والهاء مفعوله "بَغْتَةً" حال والمصدر

المؤول من أن والفعل بدل اشتمال من الساعة "فَقَدْ" الفاء حرف تعليل وقد حرف تحقيق "جاءَ أَشْراطُها" ماض وفاعله والجملة تعليلية لا محل لها "فَأَنَّى" الفاء حرف استئناف وأنى اسم استفهام خبر مقدم لمبتدأ محذوف تقديره الخلاص "لَهُمْ" متعلقان بالخبر "إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ" ماض ومفعوله وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها "فَاعْلَمْ" الفاء حرف استئناف وأمر فاعله مستتر "أَنَّهُ" أن واسمها "لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ" سبق إعرابها في الآية 8 من الدخان والجملة الاسمية خبر أن والمصدر المؤول من أن وما بعدها سد مسد مفعولي اعلم وجملة اعلم مستأنفة لا محل لها "وَاسْتَغْفِرْ" أمر فاعله مستتر "لِذَنْبِكَ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها "وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ" معطوف على ما قبله "وَاللَّهُ" حرف استئناف ومبتدأ "يَعْلَمُ" مضارع فاعله مستتر "مُتَقَلَّبَكُمْ" مفعوله "وَمَثْواكُمْ" معطوف عليه والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة.

[سورة محمد (47) : الآيات 20 الى 23]

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلى لَهُمْ (20) طاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ (21) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ (22) أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمى أَبْصارَهُمْ (23)

"وَيَقُولُ" الواو حرف استئناف ومضارع "الَّذِينَ" فاعل والجملة مستأنفة "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة الذين "لَوْلا" حرف تحضيض "نُزِّلَتْ" ماض مبني للمجهول "سُورَةٌ" نائب فاعل والجملة مقول القول "فَإِذا" الفاء حرف استئناف وإذا ظرفية شرطية غير جازمة "أُنْزِلَتْ" ماض مبني للمجهول "سُورَةٌ" نائب فاعل "مُحْكَمَةٌ" صفة والجملة في محل جر بالإضافة "وَذُكِرَ" ماض مبني للمجهول "فِيهَا" متعلقان بالفعل "الْقِتالُ" نائب فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها "رَأَيْتَ" ماض وفاعله "الَّذِينَ" مفعوله والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها "فِي قُلُوبِهِمْ" جار ومجرور خبر مقدم "مَرَضٌ" مبتدأ مؤخر والجملة صلة "يَنْظُرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة حال "إِلَيْكَ" متعلقان بالفعل "نَظَرَ" مفعول مطلق "الْمَغْشِيِّ" مضاف إليه "عَلَيْهِ" متعلقان بالمغشي "مِنَ الْمَوْتِ" متعلقان به أيضا "فَأَوْلى" الفاء حرف عطف وأولى اسم فعل ماض فاعله مستتر "لَهُمْ" متعلقان به "طاعَةٌ" مبتدأ خبره محذوف "وَقَوْلٌ" معطوف على طاعة "مَعْرُوفٌ" صفة قول "فَإِذا"

الفاء حرف استئناف وإذا ظرفية شرطية غير جازمة "عَزَمَ الْأَمْرُ" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "فَلَوْ" الفاء حرف واقع في

(106/706)

جواب إذا ولو شرطية غير جازمة "صَدَقُوا" ماض وفاعله "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعول به والجملة ابتدائية لا محل لها "لَكانَ" اللام واقعة في جواب لو وماض ناقص اسمه مستتر "خَيْراً" خبره "لَهُمْ" متعلقان بخيرا وجملة لكان جواب لو لا محل لها "فَهَلْ" الفاء حرف استئناف وهل حرف استفهام "عَسَيْتُمْ" عسى واسمها "إِنْ" حرف شرط جازم "تَوَلَّيْتُمْ" ماض والتاء فاعله والجملة ابتدائية لا محل لها وجملة عسيتم مستأنفة "أَنْ تُفْسِدُوا" مضارع منصوب بأن والواو فاعله "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل "وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ" معطوف على أن تفسدوا والمصدر المؤول من أن والفعل خبر عسى "أُولئِكَ" مبتدأ "الَّذِينَ" خبر والجملة مستأنفة "لَعَنَهُمُ" ماض ومفعوله "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعله والجملة صلة "فَأَصَمَّهُمْ" الفاء حرف عطف وماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "وَأَعْمى أَبْصارَهُمْ" معطوف على فأصمهم.

[سورة محمد (47) : الآيات 24 الى 28]

أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها (24) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلى لَهُمْ (25) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ (26) فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ (27) ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ (28)

(107/706)

"أَفَلا" الهمزة حرف استفهام إنكاري والفاء حرف استئناف ولا نافية "يَتَدَبَّرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "الْقُرْآنَ" مفعول به والجملة مستأنفة "أَمْ" حرف عطف بمعنى بل "عَلى قُلُوبٍ" جار ومجرور خبر مقدم "أَقْفالُها" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها "إِنَّ الَّذِينَ" إن واسمها "ارْتَدُّوا" ماض وفاعله والجملة صلة "عَلى أَدْبارِهِمْ" متعلقان بالفعل "مِنْ بَعْدِ" متعلقان بالفعل أيضا "ما" مصدرية "تَبَيَّنَ" ماض "لَهُمُ" متعلقان بالفعل "الْهُدَى" فاعله والمصدر المؤول من ما والفعل في محل جر بالإضافة "الشَّيْطانُ" مبتدأ "سَوَّلَ" ماض فاعله مستتر "لَهُمْ" متعلقان بالفعل والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية خبر إنّ "وَأَمْلى لَهُمْ" معطوف على سول لهم "ذلِكَ" مبتدأ "بِأَنَّهُمْ" أن واسمها

"قالُوا" ماض وفاعله والجملة خبر أن والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل جر بالباء والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ "لِلَّذِينَ" متعلقان بالفعل "كَرِهُوا" ماض وفاعله والجملة صلة الذين "ما" مفعول به "نَزَّلَ اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة فاعله والجملة صلة ما "سَنُطِيعُكُمْ" السين للاستقبال ومضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة مقول القول "فِي بَعْضِ" متعلقان بالفعل "الْأَمْرِ" مضاف إليه "وَاللَّهُ" الواو حرف استئناف ولفظ الجلالة مبتدأ "يَعْلَمُ" مضارع فاعله مستتر "إِسْرارَهُمْ" مفعول به والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة "فَكَيْفَ" الفاء حرف عطف واسم استفهام خبر لمبتدأ محذوف "إِذا" ظرف زمان "تَوَفَّتْهُمُ" ماض ومفعوله "الْمَلائِكَةُ" فاعل والجملة في محل جر بالإضافة

(108/706)

"يَضْرِبُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "وُجُوهَهُمْ" مفعول به "وَأَدْبارَهُمْ" معطوف على وجوههم والجملة حال "ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا" انظر الآية 26 "ما أَسْخَطَ" ما موصولية مفعول به وماض فاعله مستتر "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعول به والجملة صلة "وَكَرِهُوا رِضْوانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ" معطوف على ما قبله.

[سورة محمد (47) : الآيات 29 الى 31]

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (29) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (30) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ (31)

(109/706)

"أَمْ" حرف إضراب وعطف "حَسِبَ الَّذِينَ" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "فِي قُلُوبِهِمْ" جار ومجرور خبر مقدم "مَرَضٌ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية صلة الموصول "أَنْ" حرف مشبه بالفعل مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف "لَنْ يُخْرِجَ" مضارع منصوب بلن "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل "أَضْغَانَهُمْ" مفعول به والجملة الفعلية خبر أن وأن وما بعدها في تأويل مصدر سد مسد مفعولي حسب "وَلَوْ" الواو حرف استئناف ولو حرف شرط غير جازم "نَشَاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة ابتدائية لا محل لها "لَأَرَيْنَاكَهُمْ" اللام واقعة في جواب الشرط وماض وفاعله والكاف مفعوله الأول والهاء مفعوله الثاني والجملة جواب الشرط لا محل لها "فَلَعَرَفْتَهُمْ" الفاء حرف عطف واللام واقعة في جواب لو وماض وفاعله ومفعوله "بِسِيمَاهُمْ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها "وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ" الواو حرف عطف واللام واقعة في جواب قسم محذوف ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد

الثقيلة فاعله مستتر والهاء مفعوله والجملة جواب القسم لا محل لها "فِي لَحْنِ" متعلقان بالفعل "الْقَوْلِ" مضاف إليه "وَاللَّهُ" الواو حرف استئناف ولفظ الجلالة مبتدأ "يَعْلَمُ" مضارع فاعله مستتر "أَعْمالَكُمْ" مفعول به والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة "وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ" الواو حرف عطف واللام واقعة في جواب قسم محذوف ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة ومفعوله والفاعل مستتر "حَتَّى" حرف تعليل وجر "نَعْلَمَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى فاعله مستتر "الْمُجاهِدِينَ" مفعوله وأن وما بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحتى والجار والمجرور متعلقان بما قبلهما وجملة لنبلونكم جواب القسم لا محل لها "مِنْكُمْ" متعلقان بالمجاهدين "وَالصَّابِرِينَ" معطوف على المجاهدين "وَنَبْلُوَا" معطوف

على نعلم "أَخْبارَكُمْ" مفعول به.

(110/706)

[سورة محمد (47) : الآيات 32 الى 34]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ (32) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا

تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ (33) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ ماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (34)

"إِنَّ الَّذِينَ" إن واسمها "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَصَدُّوا" معطوف على كفروا "عَنْ سَبِيلِ" متعلقان بالفعل "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "وَشَاقُّوا الرَّسُولَ" معطوف على ما قبله "مِنْ"

(111/706)

"بَعْدِ" متعلقان بشاقوا "ما" مصدرية "تَبَيَّنَ" ماض "لَهُمُ" متعلقان به "الْهُدى" فاعله والمصدر المؤول من ما والفعل في محل جر بالإضافة "لَنْ يَضُرُّوا" مضارع منصوب بلن وعلامة نصبه حذف النون والواو فاعله "اللَّهِ" لفظ الجلالة مفعول به "شَيْئاً" نائب مفعول مطلق "وَسَيُحْبِطُ" الواو حرف عطف والسين للاستقبال ومضارع فاعله مستتر "أَعْمالَهُمْ" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا" راجع الآية رقم 7 "أَطِيعُوا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعله "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعول به والجملة الفعلية ابتدائية "وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ" معطوف على ما قبله "وَلا تُبْطِلُوا" الواو حرف عطف ومضارع مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعله "أَعْمالَكُمْ" مفعول به

والجملة معطوفة على ما قبلها "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا" انظر الآية رقم 34 "وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ" معطوفة على ما قبلها "ثُمَّ" حرف عطف "ماتُوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "وَهُمْ كُفَّارٌ" الواو حالية ومبتدأ وخبره والجملة الاسمية حالية "فَلَنْ يَغْفِرَ" مضارع منصوب بلن والفاء زائدة "اللَّهِ" لفظ الجلالة فاعل "لَهُمْ" متعلقان بالفعل والجملة الفعلية خبر إن وجملة إن الذين ابتدائية.

[سورة محمد (47) : الآيات 35 الى 37]

فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ (35) إِنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْئَلْكُمْ أَمْوالَكُمْ (36) إِنْ يَسْئَلْكُمُوها فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ (37)

(112/706)

"فَلا تَهِنُوا" الفاء الفصيحة ومضارع مجزوم بلا وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعله والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "وَتَدْعُوا" معطوف على تهنوا "إِلَى السَّلْمِ" متعلقان بالفعل "وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ" مبتدأ وخبره والجملة حال "وَاللَّهُ" حرف عطف ولفظ الجلالة مبتدأ "مَعَكُمْ" ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر المبتدأ "وَلَنْ يَتِرَكُمْ" مضارع منصوب بلن

والكاف مفعوله الأول والفاعل مستتر "أَعْمالَكُمْ" مفعول به ثان والجملة معطوفة على ما قبلها "إِنَّمَا" كافة ومكفوفة "الْحَياةُ" مبتدأ "الدُّنْيا" صفة "لَعِبٌ" خبر "وَلَهْوٌ" معطوف على لعب والجملة الاسمية مستأنفة "وَإِنْ" الواو حرف استئناف وإن جازمة "تُؤْمِنُوا" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط والواو فاعله والجملة ابتدائية "وَتَتَّقُوا" معطوف على تؤمنوا "يُؤْتِكُمْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط والفاعل مستتر والكاف مفعوله الأول "أُجُورَكُمْ" مفعوله الثاني والجملة جواب الشرط لا محل لها "وَلا يَسْئَلْكُمْ أَمْوالَكُمْ" الواو حرف عطف ولا نافية ويسألكم أموالكم معطوف على يؤتكم أجوركم "إِنْ" شرطية جازمة "يَسْئَلْكُمُوها" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط والفاعل مستتر والكاف مفعول به أول وها مفعول به ثان والجملة ابتدائية "فَيُحْفِكُمْ" الفاء حرف عطف ومضارع معطوف على يسألكموها "تَبْخَلُوا" مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط والواو فاعله والجملة جواب الشرط لا محل لها "وَيُخْرِجْ" معطوف على تبخلوا "أَضْغانَكُمْ" مفعول به.

[سورة محمد (47) : آية 38]

ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَراءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ (38)

"ها" للتنبيه "أَنْتُمْ هؤُلاءِ" مبتدأ وخبره والجملة ابتدائية "تُدْعَوْنَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة مستأنفة "لِتُنْفِقُوا" مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل والواو فاعله والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بتدعون "فِي سَبِيلِ" متعلقان بالفعل "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "فَمِنْكُمْ" الفاء حرف استئناف وتفريع ومنكم خبر مقدم "مَنْ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية مستأنفة "يَبْخَلُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "وَمَنْ" حرف استئناف ومن اسم شرط جازم مبتدأ "يَبْخَلُ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط "فَإِنَّما" الفاء واقعة في جواب الشرط وإنما كافة ومكفوفة "يَبْخَلُ" مضارع فاعله مستتر "عَنْ نَفْسِهِ" متعلقان بالفعل والجملة في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر المبتدأ "وَاللَّهُ الْغَنِيُّ" الواو حرف استئناف ولفظ الجلالة مبتدأ والغني خبره والجملة مستأنفة "وَأَنْتُمُ الْفُقَراءُ" معطوف على اللّه الغني "وَإِنْ" الواو حرف عطف وإن شرطية جازمة "تَتَوَلَّوْا" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط والواو فاعله والجملة ابتدائية "يَسْتَبْدِلْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط والفاعل مستتر والجملة جواب الشرط لا محل لها "قَوْماً" مفعول به "غَيْرَكُمْ" صفة "ثُمَّ" حرف عطف "لا" نافية "يَكُونُوا" مضارع ناقص مجزوم واسمه "أَمْثالَكُمْ" خبره والجملة معطوفة على ما قبلها .

انتهى انتهى . اهـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 232. 240﴾

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة الْقِتَال

ذكر فِيهَا ثَمَانِيَة أَحَادِيث

1197 - الحَدِيث الأول

رَوَى أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مر عَلَى أبي عزة الجُمَحِي وَعَلَى ثُمَامَة بن أَثَال الْحَنَفِيّ وفادي رجلا برجلَيْن من الْمُشْركين

قلت هُوَ ثَلَاثَة أَحَادِيث

فَالْأول فِي سيرة ابْن هِشَام فِي غَزْوَة بدر الْكُبْرَى قَالَ ابْن إِسْحَاق وَكَانَ مِمَّن سمي لنا من الْأَسَارَى مِمَّن من عَلَيْهِ بغَيْر فدَاء أَبُو الْعَاص بن الرّبيع وَالْمطلب بن حنْطَب وَصَيْفِي بن أبي رِفَاعَة وَأَبُو عزة عَمْرو بن عبد الله بن جمح الجُمَحِي مُخْتَصر

وَقَالَ الدَّارَقُطْنِيّ فِي كِتَابه المؤتلف والمختلف وَأَبُو عزة الجُمَحِي كَانَ مَعَ الْمُشْركين يَوْم بدر فَأسره النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَكَانَ مِمَّن من عَلَيْهِ فَلَمَّا كَانَ يَوْم أحد خرج وَرجع مَعَ

الْمُشْرِكِين فَأسره النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَتله صبرا انْتَهَى

وَفِي الطَّبَقَاتِ لِابْنِ سعد أَبُو عزة الْجُمَحِي أسر يَوْم بدر فَمن عَلَيْهِ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثمَّ خرج عَلَيْهِ يَوْم أحد مَعَ الْمُشْرِكِين فَأسره أَيْضا فَقَالَ لَهُ من عَلّي يَا مُحَمَّد فَقَالَ (لَا يلْدغ الْمُؤمن من الْجُحر مرَّتَيْنِ) ثمَّ أَمر بِهِ عَاصِم بن ثَابت ابْن أبي الْأَفْلَح فَضرب عُنُقه انْتَهَى

وَأسْند الْبَيْهَقِيّ فِي الْمعرفَة عَن الشَّافِعِي قَالَ وَكَانَ من الْمَمْنُون عَلَيْهِم يَوْم

(115/706)

بدر بِغَيْر فدية أَبُو عزة الْجُمَحِي تركه رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لبناته وَأخذ عَلَيْهِ عهدا أَلا يقاتله فَخرج عَلَيْهِ يَوْم أحد وَرجع مَعَ الْمُشْرِكِين فَمَا أسر من الْمُشْرِكِين غَيره فَلَمَّا جِيءَ بِهِ قَالَ يَا مُحَمَّد امْنُنْ عَلّي وَدعنِي أَعُود لبناتي وَأَنا لَا أَعُود لِقِتَالِك فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام (لَا تمسح عَارِضَيْك وَتقول خدعت مُحَمَّدًا مرَّتَيْنِ) ثمَّ أَمر بِهِ فَضربت عُنُقه انْتَهَى

وَرَوَى الْوَاقِدِيّ فِي كتاب الْمَغَازِي ثني مُحَمَّد بن عبد الله عَن الزُّهْرِيّ عَن سعيد بن الْمسيب أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من يَوْم بدر عَلَى أبي عزة عَمْرو بن عبد الله ابْن عُمَيْر الْجُمَحِي فَذكره بنَحْوِهِ

وَقد ذَكرْنَاهُ فِي أَحَادِيث الْهِدَايَة

وَحَدِيث ثُمَامَة رَوَاهُ مُسلم فِي صَحِيحه عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ بعث النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيلا قبل نجد فَجَاءَت برَجُل من بني حنيفَة يُقَال لَهُ ثُمَامَة بن أَثَال فَذكر قصَّته بطُولِهَا وَهُوَ فِي نسخ الْكَشَّاف وَمن عَلَى أَثَال وَهُوَ غلط

الثَّالِث رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي كِتَابه فِي الْجِهَاد من حَدِيث أبي الْمُهلب عَن عمرَان ابْن حُصَيْن أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدى رجلَيْنِ من الْمُسلمين برَجُل من الْمُشْركين انْتَهَى وَقَالَ حَدِيث حسن صَحِيح

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الثَّالِث من الْقسم الْخَامِس وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَذكر فِيهِ قصَّة

(116/706)

وَالَّذِي فِي الْكتاب أَنه فَادَى رجلا برجلَيْن من الْمُشْركين وَهِي رِوَايَة ذكرهَا الْبَيْهَقِيّ فِي الْمعرفَة عَن الشَّافِعِي أخبرنَا عبد الْوَهَّاب الثَّقَفِيّ ثَنَا أَيُّوب السّخْتِيَانِيّ عَن أبي قلَابَة الْجرْمِي عَن أبي الْمُهلب عَن عمرَان بن حُصَيْن أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدى رجلا من الْمُسلمين برجلَيْن من الْمُشْركين قَالَ الْبَيْهَقِيّ هَكَذَا وَقع فِي هَذَا الْمَتْن وَأَظنهُ غَلطا من الْكَاتِب وَالصَّحِيح مَا أخبرنَا أَبُو عبد الله الْحَافِظ أَنا أَبُو الْعَبَّاس أَنا

أَبو الرّبيع الشَّافِعِي بِهَذَا الْإِسْنَاد أَن أَصْحَاب رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَسرُّوا رجلا من بني عقيل وَكَانَت ثَقِيف أسرت رجلَيْن من أَصْحَاب رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَفَدَاهُ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بِالرجلَيْنِ اللَّذين أسرتهمَا ثَقِيف انْتَهَى

1198 - الْحَدِيث الثَّانِي

رُوِيَ أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَانَ فِي الشّعب يَوْم أحد وَقد فَشَتْ فيهم الْجِرَاحَات فَنَادَى الْمُشْرِكُونَ أعل هُبل فَنَادَى الْمُسلمُونَ الله أَعلَى وَأجل فَنَادَى الْمُشْرِكُونَ يَوْم بيَوْم وَالْحَرب سِجَال إِن لنا عزى وَلَا عزى لكم فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (قُولُوا الله مَوْلَانَا وَلَا مولَى لكم إِن الْقَتْلَى مُخْتَلفَة أما قَتْلَانَا وَأَحْيَاء يرْزقُونَ وَأما قَتْلَاكُمْ فَفِي النَّار يُعَذبُونَ)

قلت رَوَاهُ الطَّبَرِيّ حَدثنَا بشر بن معَاذ ثَنَا يزِيد بن هَارُون ثَنَا سعيد بن أبي عرُوبَة عَن قَتَادَة قَالَ ذكر لنا أَن هَذِه الْآيَة نزلت يَوْم أحد وَرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي الشّعب وَقد فَشَتْ فيهم الْجِرَاحَات إِلَى آخِره سَوَاء

(117/706)

وَكَذَلِكَ ذكره الثَّعْلَبِيّ عَن قَتَادَة من غير سَنَد

وَفِي البُخَارِيّ بعضه رَوَاهُ فِي غَزْوَة أحد عَن أبي إِسْحَاق عَن الْبَراء بن عَازِب قَالَ لَقينَا الْمُشْركين يَوْم أحد فَذكر الْقِصَّة إِلَى أَن قَالَ فَقَالَ أَبُو سُفْيَان نَحن لنا الْعُزَّى وَلَا عزى لكم فَقَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَجِيبُوهُ) قَالُوا مَا نقُول قَالَ (قُولُوا الله مَوْلَانَا وَلَا مولى لكم) فَقَالَ أَبُو سُفْيَان يَوْم بِيَوْم وَالْحَرب سِجَال مُخْتَصر

وَلم يذكر ابْن مرْدَوَيْه إِلَّا متن البُخَارِيّ بِسَنَدِهِ

1199 - قَوْله

عَن ابْن عَبَّاس لَا يَمُوت أحد فِي مَعْصِيّة الله إِلَّا تضرب الْمَلَائِكَة

فِي وَجهه وَدبره

1200 - الحَدِيث الثَّالِث

عَن أنس مَا خَفِي عَلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد هَذِه الْآيَة أحد من الْمُنَافِقين يَعْنِي قَوْله تَعَالَى وَلَو نشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلعَرَفْتهمْ بِسِيمَا هُمْ قَالَ فَكَانَ يعرفهُمْ بِسِيمَا هُمْ وَلَقَد كُنَّا فِي بعض الْغَزَوَات وفيهَا تِسْعَة من الْمُنَافِقين يَشْكُونَهُمْ النَّاس فَبَاتُوا ذَات لَيْلَة وَأَصْبحُوا عَلَى وَجه كل وَاحِد مَكْتُوب هَذَا مُنَافِق

قلت غَرِيب وَهُوَ فِي الثَّعْلَبِيّ هَكَذَا

1201 - الحَدِيث الرَّابِع

عَن أبي الْعَالِيَة قَال كَانَ أَصْحَاب النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يرَوْنَ أَنه لَا يضر مَعَ الْإِيمَان ذَنْب كَمَا أَنه ينفع لَا مَعَ الشّرك عمل

(118/706)

قلت رَوَاهُ الإِمَام مُحَمَّد بن نصر الْمروزِي الْفَقِيه الشَّافِعِي فِي كتاب الصَّلَاة ثَنَا أَبُو قدامَة ثَنَا وَكِيع ثَنَا أَبُو جَعْفَر الرَّازِيّ عَن الرّبيع بن أنس عَن أبي الْعَالِيَة قَال كَانَ أَصْحَاب رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يرَوْنَ أَنه لَا يضر مَعَ لَا إِلَه إِلَّا الله ذَنْب كَمَا لَا ينفع مَعَ الشّرك عمل فَنزلت أَطِيعُوا الله وَأَطيعُوا الرَّسُول وَلَا تُبْطِلُوا أَعمالكُم انْتَهَى

وَقد ورد فِي ذَلِك أَحَادِيث مَرْفُوعَة فَمِنْهَا

حَدِيث رَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مُسْنده وَأَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مُسْنده إِلَّا انه قَال عوض يَحْيَى بن الْيَمَان أَبُو احْمَد فَلْينْظر أخبرنَا يَحْيَى بن الْيَمَان

ثَنَا سُفْيَان عَن إِبْرَاهِيم بن مُحَمَّد بن الْمُنْتَشِر عَن أَبيه عَن مَسْرُوق قَال سَمِعت عبد الله بن عَمْرو يَقُول قَال رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (لَا يضر مَعَ الْإِسْلَام ذَنْب كَمَا لَا ينفع مَعَ الشّرك عمل) انْتَهَى

وَمن طَرِيق ابْن رَاهَوَيْه رَوَاهُ أَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة سُفْيَان الثَّوْرِيّ ثمَّ قَال حَدِيث

غَرِيب من رِوَايَة الثَّوْرِيّ عَن إِبْرَاهِيم تفرد بِهِ يَحْيَى بن الْيَمَان انْتَهَى

وَأعله عبد الْحق فِي أَحْكَامه فِي كتاب الْإِيمَان بِيَحْيَى بن الْيَمَان وَقَالَ إِنَّه لَا يحْتَج بحديثه انْتَهَى

حَدِيث آخر رَوَاهُ الْعقيلِيّ فِي كِتَابه وَابْن عدي فِي الْكَامِل من حَدِيث حجاج بن نصير عَن مُنْذر بن زِيَاد الطَّائِي عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن عمر ابْن الْخطاب قَالَ سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول (لَا ينفع مَعَ الشّرك شَيْء كَمَا لَا يضر مَعَ الْإِيمَان شَيْء) انْتَهَى

(119/706)

وَهُوَ مَعْلُول بِحجاج بن نصير وَمُنْذِر بن زِيَاد فَقَالَ عبد الْحق فِي أَحْكَامه وحجاج هَذَا ضعفه ابْن معِين وَالنَّسَائِيّ وَقَالَ فِيهِ الْبُخَارِيّ وَأَبُو حَاتِم وَابْن الْمَدِينِيّ مَتْرُوك وَقَالَ الْعقيلِيّ مُنْذر بن زِيَاد مُنكر الحَدِيث انْتَهَى

وَذكره ابْن الْجَوْزِيّ فِي الموضوعات وَقَالَ قَالَ عَمْرو بن عَلّي الفلاس كَانَ الْمُنْذر بن زِيَاد كذابا وَقَالَ الدَّارَقُطْنِيّ مَتْرُوك وَله مَنَاكِير قَالَ ابْن الْجَوْزِيّ وَقد رَوَاهُ أَحْمد بن عبد الله الْهَرَوِيّ عَن عبد الله بن معدان الْأَزْدِيّ عَن أنس بن مَالك عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ إِنِّي لأرجو أَلا يمْنَع مَعَ التَّوْحِيد ذنْب كَمَا لَا يمْنَع مَعَ الشّرك عمل

وَقَالَ هَذَا أَيْضا بَاطِل وَهُوَ من عمل الْهَرَوِيّ

1202 - الْحَدِيث الْخَامِس

عَن ابْن عمر قَالَ كُنَّا نرَى أَنه لَيْسَ شَيْء من حَسَنَاتنَا إِلَّا مَقْبُولًا حَتَّى نزلت وَلَا تُبْطِلُوا أَعمالكُم فَقُلْنَا مَا هَذَا الَّذِي يبطل أَعمالنَا فَقُلْنَا الْكَبَائِر وَالْمُوجبَات وَالْفَوَاحِش حَتَّى نزلت إِن الله لَا يغْفر أَن يُشْرك بِهِ وَيغْفر مَا دون ذَلِك لمن يَشَاء فَكَفَفْنَا عَن القَوْل فِي ذَلِك فَكُنَّا نَخَاف عَلَى من أصَاب الْكَبَائِر وَنَرْجُو لمن لم يصبهَا

قلت ثمَّ رَوَى الإِمَام مُحَمَّد بن نصر الْمَذْكُور فِي الْحَدِيث قبله من طَرِيق عبد الله بن الْمُبَارك أَخْبرنِي بكير بن مَعْرُوف عَن مقَاتل بن حَيَّان عَن نَافِع عَن ابْن عمر قَالَ كُنَّا معشر أَصْحَاب رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم نرَى أَنه لَيْسَ شَيْء من الْحَسَنَات إِلَّا مَقْبُولًا حَتَّى نزلت أَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُول وَلَا تُبْطِلُوا أَعمالكُم فَقُلْنَا مَا هَذَا الَّذِي يبطل أَعمالنَا . . . إِلَى آخِره

(120/706)

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره حَدثنَا دعْلج بن أَحْمد ثَنَا جَعْفَر بن مُحَمَّد ابْن الْحسن ثَنَا سعيد بن يَعْقُوب الطَّالقَانِي ثَنَا عبد الله بن الْمُبَارك بِهِ سندا ومتنا بِلَفْظ الْمُصَنّف سَوَاء

1203 - الحَدِيث السَّادِس

قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من فَاتَتْهُ صَلَاة الْعَصْر فَكَأَنَّمَا وتر أَهله وَمَاله

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ وَمُسلم فِي الصَّلَاة من حَدِيث مَالك عَن نَافِع عَن ابْن عمر قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (الَّذِي تفوته صَلَاة الْعَصْر فَكَأَنَّمَا وتر أَهله وَمَاله) انْتَهَى

1204 - الحَدِيث السَّابِع

سُئِلَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَن الْقَوْم فِي قَوْله تَعَالَى يسْتَبْدل قوما غَيْركُمْ وَكَانَ سلمَان إِلَى جنبه فَضرب عَلَى فَخذه وَقَالَ (هَذَا

وَقَومه وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لَو كَانَ الْإِيمَان مَنُوطًا بِالثُّرَيَّا لتنَاوله رجال من فَارس)

قلت رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ من حَدِيث الْعَلَاء بن عبد الرَّحْمَن عَن أَبِيه عَن أبي هُرَيْرَة أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم تَلا هَذِه الْآيَة فَقَالُوا وَمن يسْتَبْدل بنَا قَالَ فَضرب رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَلَى فَخذ سلمَان وَقَالَ (هَذَا وَقَومه وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ) إِلَى آخِره سَوَاء

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الثَّامِن من الْقسم الثَّالِث إِلَّا أَنه قَالَ الدِّين عوض الْإِيمَان . . . إِلَى آخِره

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك إِلَّا أَنه لم يقل فِيهِ وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ . . . إِلَى آخِره وَقَالَ صَحِيح عَلَى شَرط مُسلم وَلم يخرجَاهُ

وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة والطبري وَابْن أبي حَاتِم فِي تفسيريهما وَابْن مرْدَوَيْه والواحدي

1205 - الحَدِيث الثَّامِن

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ (من قَرَأَ سُورَة مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَانَ حَقًا عَلَى الله أَن يسْقِيه من أَنهَار الْجنَّة)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره من حَدِيث أبي عبد الله مُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم بن سعيد البوسنجي ثَنَا سعيد بن جَعْفَر قَالَ قَرَأت عَلَى معقل بن عبد الله عَن عِكْرِمَة بن خَالِد عَن سعيد بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (من قَرَأَ سُورَة مُحَمَّد) إِلَى آخِره سَوَاء

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه الْمَذْكُورين فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط بِسَنَدِهِ الْمُتَقَدّم فِي يُونُس . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 3 صـ 295 . 301 ﴾

(122/706)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة محمد محمد صلّى اللّه عليه وسلّم

قوله تعالى : (فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ – إلى قوله – فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها) الآية/ 4 .

فيه بيان كيفية الجهاد ، وما يجب التمسك به في محاربتهم ، فبيّن أولا ما يجب عند لقاء الكفار ، والمنعة قائمة ، وهو ضرب الرقاب ، لأن عند ذلك تجب هذه الطريقة ، ثم بين الحكم إذا نحن أثخناهم وبنّنّا امتناعهم «1» ، فأمر أن نشدهم في الوثاق فإما أن نمن أو نفادى ، وهذا لأنه تعالى كان قد حرم الأسر بقوله : (ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ) «2» :

فأباح بهذه الآية أسرهم إذا أثخناهم بالجراح وغيره ، وبين أن أمرهم إلى الإمام ، فإن شاء منّ عليهم بإطلاق من غير فداء ، وإن شاء فادى ، وإن شاء قتل ، على ما يراد الأصلح للإسلام والمسلمين .

ودل بقوله : (حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها) : أن ذلك غاية فيما

---

(1) أي حجزنا امتناعهم وأوقفناه ، قال في القاموس : وبنن ارتبط الشاة ليسمنها .

[.....]

(2) سورة الأنفال آية 67 .

(123/706)

تقدم ذكره ، ولا يجوز أن يكون غاية في حكم الأسرى ، فإذا يجب أن يكون غاية في حكم ، ما كان يجب أن يكون غاية في المقاتلة ، فكأنه بين أن أثقال الحرب من قبلهم إذا زالت ، فللمؤمنين مفارقة السلاح ، ويدعوا الحرب إلى حال أخرى .

قال الحسن : في الآية تقديم وتأخير ، فكأنه قال : فضرب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها ، ثم قال : حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق .

وزعموا أنه ليس للإمام إذا حصل الأسير في يده أن يقتله بل هو بالخيار في ثلاثة مراتب : إما أن يمن أو يفادى أو يسترق .

وقال السدي فيما رواه إسماعيل بن إسحاق : إن ذلك منسوخ بقوله تعالى : (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) «1» .

وقال قتادة مثله ، وجعل ناسخه قوله تعالى : (فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ) «2» .

وقال إسماعيل بن إسحاق : المن والفداء حقه في الأسير إذا تمكن منه «3» ، ولا يمنع ذلك من القتل الذي سنه اللّه تعالى في الكفار ، فكأن اللّه تعالى حرم المن والفداء قبل التمكن ، وأذن فيهما بعد التمكن ، والقتل في الحالتين من حيث الكفر سائغ .

وروى في قوله تعالى : (حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها) أقوال :

روي عن الحسن : حتى يعبد اللّه ولا يشرك به ، وعن مجاهد : حتى لا يكون دين إلا الإسلام .

---

(1) سورة التوبة آية 5 .

(2) سورة الأنفال آية 57 .

(3) انظر تفسير الدر المنثور للسيوطي .

وعن سعيد بن جبير ومجاهد في رواية أخرى :

حتى يخرج عيسى بن مريم فيسلم كل يهودي ونصراني وصاحب ملة ، وتأمن الشاة من الذئب .

قوله تعالى : (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ) ، الآية/ 33 .

احتج به قوم في أن التحلل من التطوع ، صلاة كان أو صوما بعد التلبس به لا يجوز ، لأن فيه إبطال العمل ، وقد نهى اللّه تعالى عنه .

والجواب عنه : أن المراد بذلك إبطال ثواب العمل المفروض ، وذلك العمل المفروض ينهى الرجل عن إحباط ثوابه ، فأما ما كان فعلا فلا ، فإنه ليس واجبا عليه .

فإن زعموا أن اللفظ عام .

قلنا : العام يجوز تخصيصه ووجه تخصيصه أن الفعل تطوع والتطور يقتضي تخيرا ، وهذا مستقصى في كتب الفقه «1» .

قوله تعالى : (فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ) الآية/ 35 .

فيه دليل على منع مهادنة الكفار إلا عند الضرورة ، وتحريم ترك الجهاد إلا عند العجز عن مقابلتهم ، لضعف يكون بالمسلمين والعياذ باللّه .

وهذا إتمام ما أردناه في هذه السورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 373. 375﴾

---

(1) انظر أحكام القرآن للجصاص ، وأحكام القرآن للقرطبي

وقال السايس :

من سورة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم

قال اللّه تعالى : فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها ذلِكَ وَلَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ (4)

أثخن في العدو – بالغ في الجراحة فيهم ، وأثخن فلانا أوهنه . وحَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ أي غلبتموهم ، وكثرت فيهم الجراح .

والمعنى : أنهم صاروا لا قبل لهم بالحرب ، ولا قدرة لهم على قتالكم من شدة ما أصابهم .

والوثاق : ما يشد به ، وأوثقه به : شده فيه .

ومن عليه منّا : أنعم ، واصطنع عنده صنيعة .

وفداه يفديه فداء ، وافتدى به ، وفاداه : أعطي شيئا فأنقذه ، والفداء ككساء : ذلك الشيء المعطى .

والأوزار ، جمع وزر بكسر الأول : الإثم ، والثقل ، والسلاح ، والحمل الثقيل .

هذا هو بيان المفردات التي تحتاج إلى بيان في الآية الكريمة .

ومعنى الآية بعد هذا : أنّ اللّه تعالى يأمر المؤمنين عند لقاء الكفار في الحرب ألا تأخذهم في قتال الكفار شفقة ، بل عليهم أن يعملوا فيهم السلاح ، فيضربوا به رقابهم ، وأن يستمر ذلك

حتى يهنوا ويضعفوا ، وتخضد شوكتهم ، فلا يبقى لهم بعد ذلك قدرة على قتال المسلمين ، فإذا انتهت الحرب بإثخانهم وقهرهم ، فعلى المؤمنين أن يشدّوا وثاق من قدروا عليه منهم ، وذلك كناية عن قيد الأسر ، ووقوعهم أسرى في يد المؤمنين هنالك بعد الأسر ، واستقرارهم في قبضة المؤمنين يكون لنا أن نبقيهم كذلك أسرى أرقاء ، يقتسمهم الغانمون على ما ورد في قسمة الغنائم ، وأن ننعم عليهم بالإطلاق من غير مقابل ، فيكون ذلك يدا لنا عليهم ، ومنة نمنّ عليهم بها ، حيث أصبح الأعداء لا يخشى بأسهم . وأن نأخذ الفداء في مقابل إطلاقهم ، لنسد بالفداء ما عساه يكون عند المؤمنين من حاجة إليه ، وقد جعل اللّه تعالى غاية هذه الأوامر وضع الحرب أوزارها وآثامها وشرورها ، التي تلحق الناس منها ، أو وضع الأثقال والتبعات

(126/706)

التي تلحق الناس في الحروب ، أو وضع الحرب سلاحها ، فلا يكون قتال بعد .

ثم قال اللّه تعالى : (ذلك) وقد كثر في لغة العرب استعمال اسم الإشارة عند الفصل بين كلامين ، والانتهاء من الأول وإرادة الانتقال إلى الثاني .

كأنه قيل : ذلك هو ما نريد أن نقوله في هذا الشأن ، ونقول بعده كذا وكذا . أو احفظ ذلك

والأمر بعده كذا وكذا ، فاسم الإشارة للفصل بين كلامين ، والكلام في الإعراب بعد ذلك سهل يسير .

والكلام الذي بعده يقصد منه بيان الحكمة في شرع القتال مع قدرة اللّه أن ينتصر على أعدائه من غير أن تكون حرب بينهم وبين أوليائه ، وتلك الحكمة هي امتحان الناس ، واختبار صبرهم على المكاره ، واحتمالهم للشدائد أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (142) [آل عمران : 142] .

ثم بيّن اللّه تعالى بعد ذلك أنّ الذين يكون من حظّهم أن يقتلوا في سبيل اللّه ستحفظ أعمالهم ، وتخلّد لهم ، ثم هم بعد ذلك في روضات الجنات يحبرون .

والآية الكريمة بعد هذا متفقة مع آية الأنفال ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ [الأنفال : 67] غير أنّ آية الأنفال لم يذكر فيها ما يكون بعد الإثخان ، والآية التي معنا بيّن فيها أنّ المؤمنين عليهم بعد غلبة الأعداء وقهرهم أن يشدوا الوثاق ، ثم لهم بعد ذلك أن يمنّوا على من أوثقوهم من غير فداء ، ولهم أن يفادوهم ، وقد تسأل بعد هذا وأين استرقاقهم ؟ فنقول : إن الاسترقاق قد فهم من الأمر بشدّ الوثاق . وبعد هناك حالان أذن لنا فيهما الشارع الكريم : هما المن والفداء .

وإنا نذكر لك هنا آراء العلماء في المن على الأسرى وأخذ فدائهم ثم نعقب عليه بما يفتح اللّه به :

قد اختلف العلماء فيما دلّت عليه الآية الكريمة في مواضع : منها المراد بالذين كفروا ، فذهب بعضهم إلى أنهم المشركون ، وهو مروي عن ابن عباس ، وذهب بعضهم إلى أن المراد كلّ من ليس بيننا وبينهم عهد ولا ذمة ، ويظهر أنّ هذا هو الصحيح ، إذ الآية عامة ، والتخصيص لا دليل عليه .

وقد اختلف أيضا في المراد من ضرب الرقاب ، فذهب السدي إلى أنّ المراد منه القتال ، وذهب جماعة على أن المراد منه قتل الأسير صبرا ، والظاهر الأول ، فإنّه الذي ينساق إليه الذهن من قول اللّه : فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ إذ جعل الإثخان وهو الإضعاف – غاية لضرب الرقاب ، فأين قتل الأسير صبرا ، وهو إنما يقع في الأسر بعد إثخانه وضعفه .

وكذلك اختلف العلماء في المراد من الفداء ، فقال بعضهم : المراد من المفاداة

العتق : وقال بعضهم : إنّ المراد إطلاق سراحهم في مقابل ما يأخذه المسلمون منهم ، وقد يكون المقابل أسرى من المسلمين عند الكفار ، من طريق التبادل ، حسبما يتيسر عند المفاداة ، وقد يكون المقابل مالا ، أو عتادا يأخذه المسلمون في نظير أسرى الحرب .

واختلفوا كذلك في المراد من وضع الحرب أوزارها ، بعد الذي علمت من معاني الأوزار ، فقال بعضهم : إنّ وضع الأوزار كناية عن الإيمان ، والمعنى حتى يؤمنوا ويذهب الكفر ، وقال بعضهم : بل المراد حتى ينزل عيسى عليه السلام ، وأنت لو نظرت إلى قول اللّه تعالى : وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ [البقرة : 193] رجحت الأول على الثاني ، نعم إنّ نزول عيسى قد ورد فيه أنّه حين يكون لا يكون على ظهر الأرض كافر ، ولكنّ نزول عيسى أمر لا شيء في الآية ، ولا في غيرها مما جاء في القرآن ، يشعر به .

بقي بعد كلّ هذا خلاف العلماء في الأحكام التي دلّت عليها الآية من التخيير بين الاسترقاق والإطلاق دون مقابل والفداء ، ألا تزال هذه الأحكام معمولا بها ، أم نسخ العمل بها ، وتغيّرت الأحكام .

فذهب بعضهم إلى أنّها منسوخة بقوله تعالى : فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ [التوبة : 5] وذهب البعض إلى أنّ النسخ إنما هو في بعض ما تناولته فقط ، فهي منسوخة في حقّ عبّاد الأوثان ، فهؤلاء لا يمنّ عليهم ، ولا يفادون ، لأنّنا منهيون عن معاهدتهم ، وقال الضحاك : لا نسخ فيها ، بل هي باقية الحكم في كل ما دلّت عليه .

ويرى سعيد بن جبير ، أنّ الكفار بعد أن يثخنوا ويضعفوا فالحكم فيهم باق لا يتغير ، أما قبل أن يضعفوا فلا يجوز أن يكون هناك منّ ولا فداء ، وهذا يتفق مع ما أشير إليه في قوله تعالى : ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ [الأنفال : 67] وقد اختلف

فقهاء الأمصار في ذلك أيضا .

قال الجصاص «1» : اتفق فقهاء الأمصار على جواز قتل الأسير ، لا نعلم بينهم خلافا فيه ، وقد تواترت الأخبار عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في قتل الأسير . منها قتله عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث [و هو الذي قالت أخته :

أمحمّد ها أنت صنو كريمة في قومها ، والفحل فحل معرق

ما كان ضرّك لو مننت وربّما منّ الفتى ، وهو المغيظ المحنق

قتل بعد الأسر يوم بدر .

وقتل النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم يوم أحد أبا عزّة الشاعر ، بعد ما أسر .

---

(1) انظر أحكام القرآن للإمام أبي بكر الجصاص (3/ 391) .

وقتل بني قريظة بعد نزولهم على حكم سعد بن معاذ ، فحكم فيهم بالقتل وسبي الذرية .

ومنّ على الزبير بن باطا من بينهم .

وفتح خيبر بعضها صلحا وبعضها عنوة ، وشرط على ابن أبي الحقيق ألا يكتم شيئا ، فلما ظهر على خيانته وكتمانه قتله «1» .

وفتح مكة ، وأمر بقتل هلال بن خطل ، ومقيس بن صبابة ، وعبد اللّه بن سعد بن أبي سرح وآخرين . وقال : «اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلّقين بأستار الكعبة» .

واختلف الفقهاء في فداء الأسير ، فقال الحنفية جميعا : لا يفادى الأسير بالمال ، ولا يباع السّبي لأهل الحرب ، فيرجعون حربا علينا ، وقال أبو حنيفة : لا يفادون بأسرى المسلمين أيضا ، وقال أبو يوسف ومحمد : لا بأس أن يفادى أسرى المؤمنين بأسرى المشركين ، وهو قول الثوري والأوزاعي .

ونقل المزني عن الشافعي : أن للإمام أن يمنّ على الرجال الذي ظهر عليهم ، أو يفادي بهم .

أما المجيزون للفداء بأسرى المسلمين وبالمال ، فيستدلّون بقوله تعالى : فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً فقد أجازت الآية الكريمة الفداء مطلقا غير مقيّد ، وبأن النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم فادى أسرى بدر بالمال .

ويحتجون للفداء بأسرى المسلمين بما

روى ابن المبارك عن معمر عن أبي قلابة عن أبي المهلب عن عمران بن حصين : قال أسرت ثقيف رجلين من أصحاب النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وأسر أصحاب النبي صلّى اللّه عليه وسلّم رجلا من بني عامر بن صعصعة ، فمرّ به على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فقال الأسير : علام أحبس ؟ فقال : «بجريرة حلفائك» فقال : «إني مسلم» فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «لو قلتها وأنت تملك أمرك لأفلحت كلّ الفلاح» . ثم مضى رسول اللّه

صلّى اللّه عليه وسلّم فناداه أيضا ، فأقبل ، فقال : إني جائع فأطعمني ، فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «نعم هذه حاجتك» ثم فداه بالرجلين اللذين كانت ثقيف أسرتهما «2» .

وروي أنّ النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فدى رجلين من المسلمين برجل من المشركين ، ولم يذكر في هذه الرواية إسلام الأسير .

والذين يقولون بعدم الجواز يقولون : إنّ هذه الآية نسختها آية فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ [التوبة : 5]

---

(1) رواه أبو داود في السنن (3/ 92) ، كتاب الخراج ، باب ما جاء في حكم أرض خيبر حديث رقم (3006) .

(2) رواه مسلم في الصحيح (3/ 2262) ، 26 - كتاب النذر ، 3 - باب لا وفاء لنذر ، حديث رقم (8/ 1641) ، وأبو داود في السنن (3/ 200) ، كتاب الأيمان حديث رقم (3316) .

وبقوله تعالى : قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صاغِرُونَ (29) [التوبة : 29] .

ويقولون :

إنّ ما كان من النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في صلح الحديبية : «إنّ من جاءنا منهم رددناه عليهم» «1»

قد نسخ . ونهى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم عن الإقامة بين أظهر المشركين ، وقال : «من أقام بين أظهر المشركين فقد برئت منه الذّمة» «2»

وما روي في أسارى بدر منسوخ بما تلونا .

هذه حجج الفريقين قد سقناها لك ، وإنك لترى فيها أنّ النبي فعل أشياء كثيرة مختلفة ، فمنّ وقال : «اذهبوا فأنتم الطّلقاء»

وقال : «من دخل دار فلان فهو آمن» .

وفي الوقت نفسه قتل جماعة من الأسرى ، وقال : «اقتلوهم وإن تعلقوا بأستار الكعبة»

وقتل يهود بني قريظة نزولا على حكم سعد بن معاذ ، وكانوا قد رضوا حكمه ، ومنّ على واحد منهم ، وفادى بالمال والمسلمين ، وترى أنّ كلّ ذلك قد كان تبعا للمصلحة الحربية ، وقد أرشد اللّه تعالى في القرآن الكريم إلى أنّ المصلحة الحربية فوق كلّ اعتبار ، انظر إلى قوله

تعالى : ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (67) [الأنفال : 67] فقد عاتب اللّه نبيه على اتخاذ الأسرى قبل أن تقوى شوكة الإسلام ، وقبل أن يتمّ خذلان العدو وقهره .

وقد يكون في إباحة الأسر قبل الغلبة تقوية قلوب الأعداء ، إذ يقولون : ما دمنا سنكون أحياء نأكل ونشرب ، فما لنا نخضع لدعوتهم ، فيستمرّون في مناوشة المسلمين ، ومداومة حربهم كلّ يوم . أما إذا علموا أنّه لا هوادة في الحرب ، وأنهم مقتولون إن لم يؤمنوا ، وأنهم لا ملجأ لهم من اللّه إلا إليه أسلموا ، وقبلوا الدعوة ، أو أسلموا أمورهم ، وانقادوا ، وذلوا ، فلا يقومون بحرب ، ولا يقلقون راحة المسلمين ، فما لنا لا نوادعهم ، ونأسر منهم ، فنسترقّ ، ونمنّ ، ونفادي ، فانظر عظمة الإسلام ومكارمه .

---

(1) رواه الترمذي في الجامع الصحيح (4/ 115) ، كتاب السير ، باب الأسارى حديث رقم (1568) ، وابن ماجه في السنن (1/ 689) ، 1 - كتاب الكفارات ، 16 - باب النهي عن النذر حديث رقم (2124) .

(2) رواه الترمذي في الجامع الصحيح (4/ 132) ، كتاب السير ، باب كراهية المقام حديث رقم (1604) ، وأبو داود في السنن (2/ 394) ، كتاب الجهاد ، باب النهي حديث رقم (2645) .

وقد جاء القرآن بالترخيص في هذا صريحا في الآية التي معنا .

والقول بالنسخ لا حاجة إليه ، وقواعد النسخ تأباه ، إذ النسخ مشروط – بعد المعارضة – بعدم إمكان الجمع بعد ثبوت التأخر في الناسخ ، والتقدم في المنسوخ .

وحيث إنه لا معارضة فإنّ لنا أن نقول : إنّ آيات القتال كانت في أولئك الذين كانوا حربا على المسلمين ، وأخرجوهم من ديارهم ، وظاهروا على إخراجهم ، وعاهدوا ، ونقضوا عهدهم ، أو نقول : إن المصلحة الحربية والتمكين لقاعدة المسلمين (جزيرة العرب) ألا يبقى فيها دينان ، قضت بالقتل حتى تطهر الجزيرة .

انظر إلى قول اللّه تعالى : إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [التوبة : 28] .

وبعد فإنّا نرى أن يفوّض إلى أهل الذكر والبصر بالحرب أمر الحرب ، ووضع خططها ، والتصرف في الأسرى وغيرهم ، بحسب ما تقضي المصلحة الحربية ، فإن رأوا إبادتهم خيرا أبادوهم ، وإن رأوا استرقاقهم استرقوهم ، وإن رأوا المفاداة بالمال وبالأسرى فعلوا ، فيترك لهم أمر تقدير المصلحة .

وما نحسبنا مخطئين إذا قلنا : إنّ الذي كان من النبي صلّى اللّه عليه وسلّم من الأعمال المختلفة كان نزولا على مقتضى المصلحة ، ولذلك نراه كان يجتهد في تعرّف وجوه المصلحة ، فيستشير أبا بكر وعمر ، ويختلف أبو بكر وعمر ، ويجيء القرآن مؤيدا لأحد الرأيين ، وكذلك نزوله على تحكيم سعد بن معاذ ، ولو كان الأمر أمر خطة مرسومة ، وحدا لا يتخطّى ، لما كان هناك معنى للاستشارة ، ولا للنزول على الرضا بالتحكيم ولما خالف في الحرب الواحدة بين أسير وأسير ، فقتل هذا ومنّ على غيره . فالمصلحة العامة وحدها هي المحكّمة ، وهي الخطة التي تتّبع في الحروب ، خصوصا والحرب مكر وخديعة ، وما دامت مكرا وخديعة فليترك للماكرين وضع خطط المكر والخديعة ، ولا يرسم لهم كيف يمكرون ، وإلا ما كانوا ماكرين .

قال اللّه تعالى : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ (33)

إطاعة اللّه ورسوله امتثال أوامرهما واجتناب نواهيهما .

وقد نهى اللّه المؤمنين في الآية الكريمة عن إبطال أعمالهم ، وذلك يدل بظاهره على أنّ من شرع نافلة ، ثم أراد تركها ، ليس له ذلك .

واختلف العلماء :

فذهب الشافعي رحمه اللّه إلى أنّ له ذلك ، قال الشافعي هو تطوّع : و«المتطوّع

أمير نفسه» «1» وإلزامه إياه مخرج عن وصف التطوع ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ [التوبة : 91].

وذهب مالك وأبو حنيفة إلى أنه ليس له ذلك. وقال المالكية والحنفية: هو أمير نفسه، ولا سبيل عليه قبل أن يشرع، أمّا إذا شرع فقد ألزم نفسه، وعقد عزمه على الفعل، فوجب عليه أن يؤدي ما التزم، وأن يوفي بما عقد يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ [المائدة: 1] والله أعلم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير آيات الأحكام / للسايس صـ 688.694 ﴾

(1) رواه الترمذي في الجامع الصحيح (3/ 109)، كتاب الصوم، باب ما جاء في إفطار الصائم حديث رقم (732).

(132/706)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة القنوجى:

سورة محمد صلّى اللّه عليه وآله وسلّم

آياتها تسع وثلاثون ، وقيل : ثمان وثلاثون آية

وتسمى سورة القتال ، وسورة الذين كفروا .

وهي مدنيّة . قال الماوردي : في قول الجميع إلا ابن عباس وقتادة فإنهما قالا : إلا آية نزلت منها بعد حجة الوداع حيث خرج من مكة وجعل ينظر إلى البيت وهو يبكي حزنا فنزل قوله تعالى : وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ [محمد : 13] .

وقال الثعلبي : إنها مكية . وهو غلط من القول ، فالسورة مدنيّة كما لا يخفى «1» .

[الآية الأولى]

فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها ذلِكَ وَلَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ (4) .

فَشُدُّوا الْوَثاقَ : بالفتح ، وتجيء بالكسر ، اسم الشيء الذي يوثق به كالرباط .

والمعنى إذا بالغتم في قتلهم فأسروهم واحفظوهم بالوثاق .

فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً أي فإما أن تمنوا عليهم بعد الأسر منا أو تفدوا فداء .

والمن : الإطلاق بغير عوض .

والفداء : ما يفدي به الأسير نفسه من الأسر . ولم يذكر القتل هنا اكتفاء بما تقدم ، وإنما قدم المن على الفداء لأنه من مكارم الأخلاق ، ولهذا كانت العرب تفتخر به :

(1) قول الثعلبي في تفسيره «الكشف والبيان» مخطوط بأماكن متفرقة بمصر والظاهرية وتركيا والسعودية والهند وغيرها ، وهو قيد التحقيق .

(133/706)

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقل الأعناق حمل المغارم

ثم ذكر سبحانه الغاية لذلك فقال : حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا .

أوزار الحرب : آلاتها التي لا تقوم إلا بها من السلاح والكراع ، أسند الوضع إليها وهو لأهلها على طريق المجاز .

والمعنى أن المسلمين مخيرون بين تلك الأمور إلى غاية ، هي أن لا يكون حرب مع الكفار .

وقال مجاهد : المعنى حتى لا يكون دين غير دين الإسلام ، وبه قال الحسن والكلبي .

وقال الكسائي : حتى يسلم الخلق .

قال الفراء : حتى يؤمنوا ويذهب الكفر . وقيل : المعنى حتى يضع الأعداء المحاربون أوزارهم وهو سلاحهم بالهزيمة أو الموادعة .

وروي عن الحسن وعطاء أنهما قالا : في الآية تقديم وتأخير ، والمعنى : فضرب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها ، فإذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق «1» .

وقد اختلف العلماء في هذه الآية: هل هي محكمة؟ أو منسوخة؟

فقيل: إنها منسوخة في أهل الأوثان، وأنه لا يجوز أن يفادوا ولا يمن عليهم، والناسخ لها قوله: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ [التوبة: 5] وقوله: فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ [الأنفال: 57]، وقوله: وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً [التوبة: 36]، وبهذا قال قتادة والضحاك والسدي وابن جريج وكثير من الكوفيين «2».

قالوا: والمائدة آخر ما نزل، فوجب أن يقتل كل مشرك إلا من قامت الدلالة على

---

(1) انظر: الطبري (26/ 40)، والسيوطي في «الدر المنثور» (6/ 46)، والقرطبي في «تفسيره» (16/ 226، 228). ومعاني الفراء (3/ 57)، وزاد المسير لابن الجوزي (7/ 397)، والنكت والعيون للماوردي (4/ 44).

(2) وممن قال بدعوى النسخ أيضا: شعبة عن الحكم ومغيرة بن شعبة والحسن البصري ومجاهد وهو مذهب أبي حنيفة وانظر: القرطبي (16/ 227)، الدر المنثور (6/ 46، 47)، والناسخ والمنسوخ لابن العربي (2/ 372).

تركه كالنساء والصبيان «1» ، ومن يؤخذ منه الجزية «2» . وهذا هو المشهور من مذهب أبي حنيفة .

وقيل : إن هذه الآية ناسخة لقوله : فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ [التوبة : 5] ، روي ذلك عن عطاء وغيره .

وقال كثير من العلماء : إن الآية محكمة وإن الإمام مخير بين القتل والأسر ، وبعد الأسر مخير بين المن والفداء . وبه قال مالك والشافعي والثوري والأوزاعي وأبو عبيد وغيرهم وهذا هو الراجح ، لأن النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم والخلفاء الراشدين من بعده فعلوا ذلك «3» .

وقال سعيد بن جبير : لا يكون فداء ولا أسر إلا بعد الإثخان والقتل بالسيف لقوله : ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ [الأنفال : 67] ، فإذا أسر بعد ذلك فللإمام أن يحكم بما رآه من قتل أو غيره «4» .

[الآية الثانية]

فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ (35) .

فَلا تَهِنُوا : أي لا تضعفوا عن القتال .

---

(1) دلّ على ذلك ما أخرجه البخاري (6/ 148) ، ومسلم (12/ 48) عن ابن عمر قوله مرفوعا :

«وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم ، فنهى رسول اللّه عن قتل النساء والصبيان» .

(2) دلّ على ذلك قوله عز وجل : حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صاغِرُونَ (29) [التوبة : 29] .

(3) قال القاضي محمد بن العربي رحمه اللّه : «و الآية محكمة ليس للنسخ فيها طريق ، لا من آيات القتال ولا من غيرها ، لأن النسخ كما بينا إنما يكون بشروط منها المعارضة ومنها معرفة التاريخ ، ولا تاريخ هاهنا يعلم ، ولا معارضة بين الآيتين ، لأن آيات القتال هي معنى قوله تعالى : فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ فأمر بالقتال ثم قال : حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ ثم منوا بعد ذلك عليهم أو فادوهم ، وقد منّ النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم على ثمامة بن أثال وأطلقه ، وقال في أسارى بدر : «لو كان المطعم بن عدي حيّا وكلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له» والإمام مخير في الأسرى بين خمسة أشياء : إما القتل أو المنّ أو الفداء أو الرّق أو إقرارهم على الجزية ، وبه قال جماعة .

روى أبو حنيفة الإمام لا يمن إلا من جهة الآية ، ولكن زعم أن في المنّ إتلاف حق الغانمين ، وهذا يبطل بالقتل ، فإن له أن يقتل جميعهم وفي ذلك إتلاف حقهم ، ويبطل أيضا بما قدمناه من الأدلة واللّه أعلم . (الناسخ والمنسوخ 2/ 872 ، 873) . والأحكام (4/ 1688) .

(4) ذكر قول سعيد بن جبير القرطبي في «تفسيره» (16/ 228) ، والسيوطي في «الدر المنثور» (6/ 46) .

بنحوه .

(135/706)

والوهن : الضعف .

وَتَدْعُوا : أي الكفار .

إِلَى السَّلْمِ : أي الصلح ، ابتداء منكم فإن ذلك لا يكون إلا عند الضعف .

قال الزجاج : منع اللّه المسلمين المؤمنين أن يدعوا الكفار إلى الصلح وأمرهم بحربهم حتى يسلموا «1» .

واختلف أهل العلم في هذه الآية : هل هي محكمة ؟ أو منسوخة ؟ فقيل : إنها محكمة وناسخة لقوله : وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها [الأنفال : 61] . وقيل : منسوخة بهذه الآية . ولا يخفى عليك أن لا مقتضى للقول بالنسخ ، فإن اللّه سبحانه نهى المسلمين في هذه الآية أن يدعوا إلى السّلم ابتداء ولم ينه عن قبول السّلم إذا جنح إليها المشركون ، فالآيتان محكمتان ولم تتواردا على محل واحد حتى يحتاج إلى دعوى النسخ أو التخصيص «2» .

وجملة : وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ : مقررة لما قبلها من النهي ، أي وأنتم الغالبون بالسيف والحجة .

قال الكلبي : أي آخر الأمر لكم وإن غلبوكم في بعض الأوقات .

وكذا قوله : وَاللَّهُ مَعَكُمْ : أي بالنصر والمعونة عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نيل المرام صـ 422.419 ﴾

---

(1) انظر : معاني القرآن للنحاس (6/ 486) ، والمجاز لأبي عبيدة (2/ 216) ، وغريب ابن قتيبة (411) ، وزاد المسير (7/ 414) ، وتفسير القرطبي (16/ 256) .

(2) انظر في ذلك : زاد المسير (7/ 414) ، القرطبي (16/ 256) . [. . . . .]

(136/706)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة محمّد صلوات اللّه عليه» (47)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«وَأَصْلَحَ بالَهُمْ» (2) حالهم . .

«فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ» (4) كقول العرب :

يا نفسى صبرا «1» قال حرىّ بن ضمرة بن ضمرة النّهشلىّ «2» :

يا نفس صبرا على ما كان من مضض إذ لم أجد لفضول القول أقرانا

«3» [842] ولغة بنى تميم يا نفس ويا عين ، فى موضع يا نفس اصبري . .

«فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً» (4) نصبهما لأنهما فى موضع فعلهما مجازها فإما أن تمنّوا وإما أن تفادوا مثل سقيا ورعيا إنما هو سقيت ورعيت مثل قولك : مهلا للأنثى والذكر والاثنين والجميع وهى فى موضع أمهل وقد فعلوا هذا فى غير مصدر أمروا به . .

«عَرَّفَها لَهُمْ» (6) بيّنها لهم وعرفهم منازلهم «4» .

---

(1) . - 4 - 5 «كقول . . . صبرا» : رواه القرطبي عن أبى عبيدة 16/ 225 .

(2) . - 5 «حرى . . . النهشلي» : لم أقف على ترجمته ولكن نسبه مذكور فى الخزانة (1/ 242) هكذا : ضمرة بن ضمرة بن جابر بن قطن بن نهشل بن دارم شاعر جاهلى .

(3) . - 842 : فى اللسان (مضض) .

(4) . - 12 «عرفها . . . منازلهم» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 445) .

«بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا» (11) ولىّ الذين آمنوا . .

«مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ» (15) الآسن المتغير الريح يقال : قد أسن ماء ركيّتك . .

«وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ» (16) من ها هنا فى موضع جميع

. .

«فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها» (18) أعلامها وإنما سمى الشّرط فيما نرى لأنهم أعلموا أنفسهم

وأشراط المال صغار الغنم وشراره قال جرير :

تساق من المعزى مهور نسائهم وفى شرط المعزى لهنّ مهور

«1» [843] .

«سَوَّلَ لَهُمْ» (25) زيّن لهم . .

«فِي لَحْنِ الْقَوْلِ» (30) فى فحوى القول ، يقال : فلان ألحن بحجته من فلان . .

«حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ» (31) حتى نميّز . «2» «3»

---

(1) . - 843 : ديوانه ص 266 واللسان (شرط) .

(2) . - 845 : ديوانه ص 252 واللسان (شرط) . [. . . . .]

(3) . - 846 : هذا صدر بيت عجزه .

«ولحنت لحنا ليس بالمرتاب»

فى اللسان (لحن) .

«فَلا تَهِنُوا» (35) وهن يهن .

«وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ» (35) لن ينقصكم لن يظلمكم وترتنى حقى ظلمتنى . .

«فَيُحْفِكُمْ «1» تَبْخَلُوا» (37) يقال : أحفانى بالمسألة وألحف علىّ وألحّ قال أبو الأسود : لن تمنع السائل الحفي بمثل المنع الحامس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 216.214 ﴾

---

(1) . - 3 «فيحفكم إلخ» : وورد فى البخاري (6/ 32 س 4 - 5 : «لا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحافاً» (2/ 276) يقال : ألحف على وألح وأحفانى بالمسألة «فيحفبكم يجهدكم» :

قال ابن حجر هو تفسير أبى عبيدة قال فى قوله تعالى : «إِنْ يَسْئَلْكُمُوها فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا» يقال . . . واحد . . . وقال ابو عبيدة فى قوله : «لا يسألون الناس إلحافا» قال : إلحاحا (فتح الباري 8/ 151) .

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «محمد» صلّى اللّه عليه وعلى آله وسلّم

[سورة محمد (47) : آية 4]

فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها ذلِكَ وَلَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ (4)

قوله سبحانه : فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها [4] وهذه استعارة .

والمراد بالأوزار هاهنا الأثقال ، وهى آلة الحرب وعتادها ، من الدروع ، والمغافر ، والرماح ، والمناصل وما يجرى هذا المجرى ، لأن جميع ذلك ثقل على حامله ، وشاقّ»

على مستعمله .

وعلى هذا قول الأعشى .

وأعددت للحرب أوزارها رماحا طوالا وخيلا ذكورا «2»

ومن نسج داود موضونة تساق مع الحي عيرا فعيرا

والمراد بذلك فى الظاهر : الحرب ، وفى المعنى : أهل الحرب ، لأنهم الذين يصحّ وصفهم بحمل الأثقال ووضعها ، ولبس الأسلحة ونزعها .

[سورة محمد (47) : آية 21]

طاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ (21)

وقوله سبحانه : فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ [21] .

وهذه استعارة ، لأن العزم لا يوصف بحقيقته إلا الإنسان المميز الذي يوطّن النفس على فعل الأمر قبل وقته ، عقدا بالمشيئة على فعله . فيصح أن يسمّى عازما عليه ،

---

(1) فى الأصل «وساق» بالسين المهملة . وهو تحريف .

(2) فى «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبى ج 16 ص 229 ، روى البيتان هكذا :

وأعددت للحرب أوزارها رماحا طوالا وخيلا ذكورا ومن نسج داود يحدى بها على أثر الحي عيرا فعيرا وفى الديوان ص 99 ، روى البيتان كما فى رواية الشريف الرضى هنا .

وإنما قال تعالى: عَزَمَ الْأَمْرُ مجازا. أي قويت العزائم على فعله، فصار كالعازم فى نفسه.

وقال بعضهم: معنى عزم الأمر، أي جدّ الأمر، ومنه قول النابغة الذبياني «1».

حياك ود فأنا لا يحلّ لنا لهو النساء لأن الدين قد عزما

أي استحكم وجدّ، وقوى واشتدّ.

[سورة محمد (47): آية 24]

أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها (24)

وقوله سبحانه: أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها [24] وهذه استعارة. والمراد: أم قلوبهم كالأبواب المقفلة، لا تنفتح لوعظ واعظ، ولا يلج فيها عذل عاذل. وفى لغة العرب أن يقول القائل إذا وصف نفسه بضيق الصدر، وتشعّب الفكر:

قلبى مقفل، وصدرى ضيّق. وإذا وصف غيره بضد هذه الصفات: قال انفتح قلبه، وانفسح صدره.

وقد يجوز أيضا أن يكون المعنى أن «2» .... انتهى انتهى. اهـ ﴿تلخيص البيان صـ 309.308﴾

---

(1) انظر القصيدة فى شعر النابغة بديوان «فحول الشعراء» المطبوع فى بيروت سنة 1352 هـ ص 93. ومطلع القصيدة:

بانت سعاد وأمسى حبلها انجذما واحتلت الشرع فالأجزاع من أضما [.....]

(2) هنا قدر ورقتين ضائعتين من الأصل ، من الآية 24 من سورة محمد إلى الآية 15 من سورة ق .

(141/706)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة محمد

وتسمى سورة القتال . بينت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نبى المرحمة ونبى الملحمة ، وأنه يقتص من الظالم للمظلوم ، ومن الواتر للموتور ، وأنه لا يدع البغى يمشى فى الأرض متكبرا ، بل يرغم أنفه ويقلم أظافره . ولكى تعرف جو هذه السورة ، سل نفسك أولا : ماذا يكنه أهل البوسنة فى قلوبهم للصربيين الذين ذبحوا رجالهم واغتصبوا نساءهم ؟ هل يكنون إلا البغضاء والمقت ! وماذا يكنه أهل فلسطين لليهود الذين أخرجوهم من دورهم واسترخصوا دماءهم وحقوقهم ؟ هل يكنون إلا الغضب والحقد ؟ وماذا تنتظر أن يقوله القرآن الكريم للمغلوب المستباح ، إذا لقى خصمه فى الميدان ؟ إنه يقول ! له " قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين * ويذهب غيظ

قلوبهم " . أو ما جاء فى هذه السورة " فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض . . . " . إن الحرب دواء مر ، ولكن لمرض أمر . وكما قال شوقى : الحرب فى حق لديك شريعة ومن السموم الناقعات دواء . . . ! وقد بدأت السورة بآيات تضمنت قانونا عاما خالدا " الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم * والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم * ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم " . وكما افتتحت السورة بهذه الستة المطردة ، تكرر المعنى نفسه فى ختامها ، فقال جل شأنه

" إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئا وسيحبط أعمالهم " . وقد كان المسلمون فى ميادين القتال يتلون هذه السورة جماعات بصوت عالي . ولما كانت فواصل الآيات تنتهى بميم ساكنة فإن الوقوف الجماعى عليها له دوى يخلع قلوب الأعداء ! ثم يؤكد الوعد الإلهى نتيجة المعركة داعيا إلى

الإقدام والفداء " يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم * والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم " . وخلال هذه التعليمات العسكرية يذكر القرآن مصاير الشهداء ، وما ينتظرهم من جزاء " والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم * سيهديهم ويصلح بالهم * ويدخلهم الجنة عرفها لهم " . ثم يضرب المثل للنعيم المنتظر " مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى . . . " إلخ . وذاك خلال تسبيح موصول وعبادة تقر بها العين " دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين " . ومع الحديث عن المؤمنين المجاهدين والكافرين المعتدين تطرق الحديث إلى المنافقين لكشف النقاب عن سرائرهم المريضة ولحماية المجتمع من شرورهم . إن هؤلاء الناس يشاركون المسلمين مجلسهم حول الرسول الكريم ، ويستمعون إلى ما يصدر من توجيهات ، ولكن بقلوب مدخولة . وقد يشاركون فى عبادات خفيفة التكاليف ، وقد ينقلون إلى خصوم الإسلام ما يدور بين النبى وصحبه ولهم تعليقات تكشف المخبوء من كفرهم " ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم " . وهذا استفهام مشرب بالتجاهل أو بالسخرية ، بيد أن وجوههم تسود وفرائصهم ترعد عندما ينزل أمر بالقتال ،

فهم ليسوا أصحاب عقائد يدفعون عنها ، وتعلقهم بمصالحهم الدنيوية يجعلهم جبناء " . . .

فإذا أنزلت سورة

(143/706)

محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت " . ووزر المنافقين مضاعف ، فإن هناك كفارا لا يدرون عن الإسلام شيئا ويحاربونه بغباوة . أما هؤلاء

المنافقون فمقيمون بين ظهرانى المسلمين يستمعون إلى الوحى النازل ويرمقون سيرة صاحب الرسالة فما لهم عذر " إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم " . وفى عصرنا هذا يجدد المنافقون سيرة المخادعين القدامى . فهم يتلقون التعليمات من مناسر التبشير العالمى أو من مراكز الغزو الثقافى ويندسون بين الجماهير يثيرون الفتن ويطلقون الإشاعات ويرجحون وجهات النظر المعادية ويخذلون أصحاب الكفاح: " ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم * فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم * ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم " . إن الله كشف أولئك المنافقين ،

وهم على كل حال ستكشفهم مسالكهم وتدل عليهم أعمالهم . بل إن لأقوالهم رنينا يفضح خباياهم " ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم " . وانتهت السورة بوصاة للمؤمنين ألا يستسلموا مهما اشتدت المعركة وطالت فليقاوموا أسباب الضعف وليتحملوا أعباء القتال " فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم " . ثم قال للناكصين عن البذل الباخلين بما لديهم دون أن ينصروا الحق: " ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم " إن المجتمعات الجبانة الشحيحة لا تستحق الحياة والبقاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 395.397 ﴾

(144/706)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/707)

الجزء السابع بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة (محمد صلى الله عليه وسلم)

وحتى الآية ﴿ 11 ﴾ من السورة

(4/707)

(5/707)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة القتال

لا يخفى وجه ارتباط أولها بقوله في آخر الأحقاف : (فهَل يهلك إلا القوم الفاسقون) واتصاله وتلاحمه ، بحيث أنه لو أسقطت البسملة منه ، لكان متصلاً اتصالاً واحداً لا تنافر فيه ، كالآية الواحدة ، آخذاً بعضه بعنق بعض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 131﴾

(6/707)

قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ

(2) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (3) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

(بسم الله) الملك الأعظم الذي أقام جنده للذب عن حماه (الرحمن) الذي عمت رحمته تارة بالبيان وأخرى بالسيف والسنان (الرحيم) الذي خص حزبه بالحفظ في طريق الجنان .

(7/707)

لما أقام سبحانه الأدلة في الحواميم حتى صارت كالشمس ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، وختم بأنه يهلك بعد هذه الأدلة القوم الفاسقون ، افتتح هذه بالتعريف بهم فقال سبحانه وتعالى : ﴿ الذين كفروا ﴾ أي ستروا أنوار الأدلة فضلوا على علم ﴿ وصدوا ﴾ أي امتنعوا بأنفسهم ومنعوا غيرهم لعراقتهم في الكفر ﴿ عن سبيل الله ﴾ أي الطريق الرحب المستقيم الذي شرعه الملك الأعظم ﴿ أضل ﴾ أي أبطل إبطالاً عظيماً يزيل العين والأثر ﴿ أعمالهم ﴾ التي هي أرواحهم المعنوية وهي كل شيء يقصدون به نفع أنفسهم من جلب

نفع أو دفع ضر بعد أن وفر سيئاتهم وأفسد بالهم ، ومن جملة أعمالهم ما يكيدونكم به لأنها إذا ضلت عما قصدوا بها بجعله سبحانه لها ضالة ضائعة هلكت من جهة أنها ذهبت في المهالك ومن جهة أنها ذهبت في غير الجهة التي قصدت لها فبطلت منفعتها المقصودة منها فصارت هي باطلة فأذهبوا أنتم أرواحهم الحسية بأن تبطلوا صورهم وأشباحهم بأن تقطعوا أوصالهم وأنتم في غاية الاجتراء عليهم ، فإن ربهم الذي أوجدهم قد أبطلهم وأذن لكم في إبطالهم ، فإنه قد علم أن لا صلاح لهم والمؤذي طبعاً يقتل شرعاً ، فمن قدرتم على قتله فهو محكوم بكفره ، محتوم بخيبته وخسره .

(8/707)

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما انبنت سورة الأحقاف على ما ذكر من مآل من كذب وافترى وكفر وفجر ، وافتتحت السورة بإعراضهم ، ختمت بما قد تكرر من تقريعهم وتوبيخهم ، فقال تعالى : ﴿ ألم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ أي لو اعتبروا بالبداءة لتيسر عليهم أمر العودة ، ثم ذكر عرضهم على النار إلى قوله ﴿ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ﴾ فلما ختم بذكر هلاكهم ، افتتح السورة الأخرى بعاجل ذلك اللاحق لهم في دنياهم فقال تعالى : ﴿ فإذا لقيتم الذين

كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منّاً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ الآية بعد ابتداء السورة بقوله ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ﴾ فنبه على أن أصل محنتهم إنما هو بما أراده تعالى بهم في سابق علمه ليعلم المؤمنون أن الهدى والضلال بيده ، فنبه على الطريقين بقوله ﴿ أضل أعمالهم ﴾ وقوله في الآخر ﴿ كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ﴾ ثم بين أنه تعالى لو شاء لانتصر منهم ولكن أمر المؤمنين بقتالهم ابتلاء واختباراً ، ثم حض المؤمنين على ما أمرهم به من ذلك فقال : ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ﴾ ثم التحمت الآي - انتهى .

ولما ذكر أهل الكفر معبراً عنهم بأدنى طبقاتهم ليشمل من فوقهم ، ذكر أضدادهم كذلك ليعم من كان منهم من جميع الفرق فقال تعالى : ﴿ والذين آمنوا ﴾ أي أقروا بالإيمان باللسان ﴿ وعملوا ﴾ تصديقاً لدعواهم ذلك ﴿ الصالحات ﴾ أي الأعمال الكاملة في الصلاة بتأسيسها على الإيمان .

ولما كان هذا الوصف لا يخص أتباع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، خصهم بقوله تعالى : ﴿ وآمنوا ﴾ أي مع ذلك .

(9/707)

ولما كان بعضهم كحيي بن أخطب ومن نحا نحوه قد طعن في القرآن بنزوله منجماً مع أن التوراة ما نزلت إلا كذلك ، وليس أحد منهم يقدر أن ينكره قال : ﴿ بما نزل ﴾ أي ممن لا منزل إلا هو منجماً مفرقاً ليجددوا بعد الإيمان به إجمالاً الإيمان بكل نجم منه ﴿ على محمد ﴾ النبي الأمي العربي القرشي المكي ثم المدني الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ولما كان هذا معلماً بأن كل إيمان لم يقترن بالإيمان به ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يعتد به ، اعترض بين المبتدأ وجوابه بما يفهم علته حثاً عليه وتأكيداً له فقال تعالى : ﴿ وهو ﴾ أي هذا الذي نزل عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ مختص بأنه ﴿ الحق ﴾ أي الكامل في الحقية لأن ينسخ ولا ينسخ كائناً ﴿ من ربهم ﴾ المحسن إليهم بإرساله ، أما إحسانه إلى أمته فواضح ، وأما سائر الأمم فبكونه هو الشافع فيهم الشفاعة العظمى يوم القيامة ، وأمته هي الشاهدة لهم .

ولما ثبت بهذا أنهم أحق الناس بالحق ، بين ما أثمر لهم ذلك دالاً على أنه لا يقدر أحد أن يقدر الله حق قدره ، فلا يسع الخلق إلا العفو لأنهم وإن اجتهدوا في الإصلاح بدا لهم لنقصانهم من سيئات أو هفوات فقال تعالى : ﴿ كفر ﴾ أي غطى تغطية عظيمة ﴿ عنهم ﴾ في الدارين بتوبتهم وإيمانهم لأن التوبة تجب ما كان قبلها كالإيمان ﴿ سيئاتهم ﴾ أي الأعمال السيئة التي لحقتهم قبل ذلك بما يظهر لهم من المحاسن وهدى أعمالهم .

ولما كان من يعمل سوءاً يخاف عاقبته فيتفرق فكره ، إذ لا عشية لخائف قال تعالى :

﴿ وأصلح بالهم ﴾ أي موضع سرهم وفكرهم بالأمن والتوفيق والسداد وقوة الفهم والرشاد لما يوفقهم له من محاسن الأعمال ويطيب به اسمهم في الدارين ، قال ابن برجان : وإذا أصلح ذلك من العبد صلح ما يدخل إليه وما يخرج عنه وما يثبت فيه ، وإذا فسد فبالضد من ذلك .

(10/707)

ولذلك إذا اشتغل البال لم ينتفع من صفات الباطن بشيء ، وقد علم أن الآية من الاحتباك : ذكر ضلال الكفار أولاً دليلاً على إرادة الهدى للمؤمنين ثانياً ، وإصلاح البال ثانياً دليلاً على حذف إفساده أولاً .

ولما كان الجزاء من جنس العمل ، علل ما تقدم من فعله بالفريقين بقوله : ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر العظيم الذي ذكر هنا من جزاء الطائفتين ﴿ بأن ﴾ أي بسبب أن ﴿ الذين كفروا ﴾ أي ستروا مرائي عقولهم ﴿ اتبعوا ﴾ أي بغاية جهدهم ومعالجتهم لما قادتهم إليه فطرهم الأولى ﴿ الباطل ﴾ من العمل الذي لا حقيقة له في الخارج يطابقه ، وذلك هو الابتداع والميل مع الهوى إيثاراً للحظوظ فضلوا ﴿ وأن الذين آمنوا ﴾ أي ولو كانوا في أقل درجات

الإيمان ﴿ اتبعوا ﴾ أي بغاية جهدهم متابعين لما تدعو إليه الفطرة الأولى مخالفين لنوازع الشهوات ودواعي الحظوظ على كثرتها وقوتها ﴿ الحق ﴾ أي الذي له واقع يطابقه وذلك هو الحكمة وهي العمل بموافقة العلم وهو معرفة المعلوم على ما هو عليه ﴿ من ربهم ﴾ الذي أحسن إليهم بإيجادهم وما سببه من حسن اعتقادهم فاهتدوا .

(11/707)

ولما علم من هذا أن باطن حال الذين كفروا الباطل ، وباطن حال الذين آمنوا الحق ، وتقدم في البقرة أن المثل هو ما يتحصل في باطن الإدراك من حقائق الأشياء المحسوسة ، فيكون ألطف من الشيء المحسوس ، وأن ذلك هو وجه الشبه ، علم أن مثل كل من الفريقين ما علم من باطن حاله فمثل الأول الباطل ومثل الثاني الحق ، فلذلك قال سبحانه استئنافاً جواباً لمن كأن قال لما أدركه من دهش العقل لما راعه من علو هذا المقال : هل يضرب مثل مثل هذا : ﴿ كذلك ﴾ أي مثل هذا الضرب العظيم الشأن ﴿ يضرب الله ﴾ أي الذي له الإحاطة بجميع صفات الكمال ﴿ للناس ﴾ أي كل من فيه قوة الاضطراب والحركة ﴿ أمثالهم ﴾ أي أمثال أنفسهم وأمثال الفريقين المتقدمين أو أمثال جميع الأشياء التي يحتاجون إلى بيان أمثالها مبيناً لها مثل هذا البيان ليأخذ كل واحد من ذلك جزاء حاله ،

فقد علم من هذا المثل أن من اتبع الباطل أضل الله عمله ووفر سيئاته وأفسد باله ، ومن اتبع الحق عمل به ضد ذلك كائناً من كان ، وهو غاية الحث على طلب العلم في كتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والعمل بهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 148 . 151 ﴾

(12/707)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ والذين قتلوا ﴾ مبنياً للمفعول ثلاثياً : أبو عمرو وسهل ويعقوب وحفص . الباقون ﴿ قاتلوا ﴾ ﴿ ويثبت ﴾ من الإثبات : المفضل . الباقون : بالتشديد ﴿ أسن ﴾ بغير الألف كحذر : إبن كثير ﴿ أنفا ﴾ بدون الألف كما قلنا : ابن مجاهد وأبو عون عن قنبل .

الوقوف : ﴿ أعمالهم ﴾ ه ﴿ بالهم ﴾ ه ﴿ من ربهم ﴾ ط ﴿ أمثالهم ﴾ ه ﴿ الرقاب ﴾ ط ﴿ الوثاق ﴾ لا للفاء ولتعلق ﴿ بعد ﴾ بما قبلها أي بعد ما شددتم الوثاق ﴿ أوزارها ﴾ ج ﴿ ذلك ﴾ ط أي ذلك كذلك ، وقد يحسن اتصاله بما قبله لانقطاعه

عن خبره أو عن المبتدأ أو الفعل أي الأمر ذلك ، أو فعلوا ذلك ﴿ ببعض ﴾ ط ﴿ أعمالهم ﴾ ه ﴿ بالهم ﴾ 5 ج للآية مع العطف واتحاد الكلام ﴿ لهم ﴾ 5 ﴿ أقدامهم ﴾ 5 ﴿ أعمالهم ﴾ 5 ج ﴿ من قبلهم ﴾ ط لتناهي الاستخبار ﴿ عليهم ﴾ ج للابتداء بالتهديد مع الواو ﴿ أمثالها ﴾ ه ﴿ لهم ﴾ ه ﴿ الأنهار ﴾ ط ﴿ لهم ﴾ ه ﴿ أخرجتك ﴾ ج لاحتمال أن ما بعده صفة ﴿ قرية ﴾ أو ابتداء إخبار ﴿ لهم ﴾ ه ﴿ أهواءهم ﴾ ه ﴿ المتقون ﴾ ط للحذف أي صفة الجنة فيما نقص عليكم ثم شرع في قصتها . ﴿ آسن ﴾ ج ﴿ طعمه ﴾ ج ﴿ للشاربين ﴾ ه ج لتفصيل أنواع النعم مع العطف ﴿ مصفى ﴾ ج ﴿ من ربهم ﴾ ط لحذف المبتدأ والتقدير أفمن هذا حاله كمن هو خالد ﴿ أمعاءهم ﴾ ه ﴿ إليك ﴾ ج لاحتمال أن يكون حتى للانتهاء وللابتداء ﴿ آنفاً ﴾ ط ﴿ أهواءهم ﴾ ه ﴿ تقواهم ﴾ ه ﴿ بغتة ﴾ ه لتناهي الاستفهام مع مجيء الفاء بعده في الإخبار ﴿ أشراطها ﴾ ج لعكس ما مر ﴿ ذكراهم ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 128 ﴾

(13/707)

فصل

قال الفخر :

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1) ﴾

أول هذه السورة مناسب لآخر السورة المتقدمة ، فإن آخرها قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ القوم الفاسقون ﴾ [الأحقاف : 35] فإن قال قائل كيف يهلك الفاسق وله أعمال صالحة كإطعام الطعام وصلة الأرحام وغير ذلك ؟ مما لا يخلو عنه الإنسان في طول عمره فيكون في إهلاكه إهدار عمله وقد قال تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾ [الزلزله : 7] وقال تعالى : ﴿ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله أَضَلَّ أعمالهم ﴾ أي لم يبق لهم عمل ولم يوجد فلم يمتنع الإهلاك ، وسنبين كيف إبطال الأعمال مع تحقيق القول فيه ، وتعالى الله عن الظلم ، وفي التفسير مسائل :

المسألة الأولى :

من المراد بقوله ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ ؟ قلنا فيه وجوه الأول : هم الذين كانوا يطعمون الجيش يوم بدر منهم أبو جهل والحرث ابنا هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وغيرهم الثاني : كفار قريش الثالث : أهل الكتاب الرابع : هو عام يدخل فيه كل كافر .

المسألة الثانية :

في الصد وجهان أحدهما : صدوا أنفسهم معناه أنهم صدوا أنفسهم عن السبيل ومنعوا عقولهم من اتباع الدليل وثانيهما : صدوا غيرهم ومنعوهم كما قال تعالى عن المستضعفين ﴿ يَقُولُ الذين استضعفوا لِلَّذِينَ استكبروا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ : 31] وعلى هذا بحث : وهو أن إضلال الأعمال مرتب على الكفر والصد ، والمستضعفون لم يصدوا فلا يضل أعمالهم ، فنقول التخصيص بالذكر لا يدل على نفي ما عداه ، ولا سيما إذا كان المذكور أولى بالذكر من غيره وههنا الكافر الصاد أدخل في الفساد فصار هو أولى بالذكر أو نقول كل من كفر صار صاداً لغيره ، أما المستكبر فظاهر ، وأما المستضعف فلأنه بمتابعته أثبت للمستكبر ما يمنعه من اتباع الرسول فإنه بعد ما يكون متبوعاً يشق عليه بأن يصير تابعاً ، ولأن كل من كفر صار صاداً لمن بعده لأن عادة الكفار اتباع المتقدم كما قال عنهم ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا ءابَاءنَا على أُمَّةٍ وَإِنَّا على آثارهم مُهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : 22] أو مقتدون ، فإن قيل فعلى هذا كل كافر صاد فما الفائدة في ذكر الصد بعد الكفر نقول هو من باب ذكر السبب وعطف المسبب عليه تقول أكلت كثيراً وشبعت ، والكفر على هذا سبب الصد ، ثم إذا قلنا بأن المراد منه أنهم صدوا أنفسهم ففيه إشارة إلى أن ما في الأنفس من الفطرة كان داعياً إلى الإيمان ، والامتناع لمانع وهو الصد لنفسه .

المسألة الثالثة :

في المصدود عنه وجوه الأول : عن الإتفاق على محمد عليه السلام وأصحابه الثاني : عن الجهاد الثالث : عن الإيمان الرابع : عن كل ما فيه طاعة الله تعالى وهو اتباع محمد عليه السلام ، وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم على الصراط المستقيم هاد إليه ، وهو صراط الله قال تعالى :

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ * صراط الله ﴾ [الشورى : 52 ، 53] فمن منع من اتباع محمد عليه السلام فقد صد عن سبيل الله .

المسألة الرابعة :

(15/707)

في الإضلال وجوه الأول : المراد منه الإبطال ، ووجهه هو أن المراد أنه أضله بحيث لا يجده ، فالطالب إنما يطلبه في الوجود ، وما لا يوجد في الوجود فهو معدوم .

(16/707)

فإن قيل كيف يبطل الله حسنة أوجدها ؟ نقول إن الابطال على وجوه أحدها : يوازن بسيئاتهم الحسنات التي صدرت منهم ويسقطها بالموازنة ويبقي لهم سيئات محضة ، لأن الكفر يزيد على غير الإيمان من الحسنات والإيمان يترجح على غير الكفر من السيئات وثانيها : أبطلها لفقد شرط ثبوتها وإثباتها وهو الإيمان لأنه شرط قبول العمل قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صالحا مّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [غافر : 40] وإذا لم يقبل الله العمل لا يكون له وجود لأن العمل لا بقاء له في نفسه بل هو يعدم عقيب ما يوجد في الحقيقة غير أن الله تعالى يكتب عنده بفضله أن فلاناً عمل صالحاً وعندي جزاؤه فيبقى حكماً ، وهذا البقاء حكماً خير من البقاء الذي للأجسام التي هي محل الأعمال حقيقة ، فإن الأجسام وإن بقيت غير أن مآلها إلى الفناء والعمل الصالح من الباقيات عند الله أبداً ، وإذا ثبت هذا تبين أن الله بالقبول متفضل ، وقد أخبر أني لا أقبل إلا من مؤمن فمن عمل وتعب من غير سبق الإيمان فهو المضيع تعبه لا الله تعالى وثالثها : لم يعمل الكافر عمله لوجه الله تعالى فلم يأت بخير فلا يرد علينا قوله ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 7] وبيانه هو أن العمل لا يتميز إلا بمن له العمل لا بالعامل ولا بنفس العمل ، وذلك لأن من قام ليقتل شخصاً ولم يتفق قتله ، ثم قال ليكرمه ولم يتفق الإكرام ولا القتل ، وأخبر عن نفسه أنه قام في اليوم الفلاني لقتله وفي اليوم الآخر لإكرامه يتميز القيامان لا بالنظر إلى القيام فإنه واحد ولا بالنظر إلى القائم فإنه حقيقة واحدة ، وإنما يتميز بما كان لأجله القيام ، وكذلك من قام وقصد

بقيامه إكرام الملك وقام وقصد بقيامه إكرام بعض العوام يتميز أحدهما عن الآخر بمنزلة العمل لكن نسبة الله الكريم إلى الأصنام فوق نسبة الملوك إلى العوام فالعمل للأصنام ليس بخير ثم إن اتفق أن يقصد واحد بعمله وجه الله تعالى

(17/707)

ومع ذلك يعبد الأوثان لا يكون عمله خيراً ، لأن مثل ما أتى به لوجه الله أتى به للصنم المنحوت فلا تعظيم الوجه الثاني : الإضلال هو جعله مستهلكاً وحقيقته هو أنه إذا كفر وأتى للأحجار والأخشاب بالركوع والسجود فلم يبق لنفسه حرمة وفعله لا يبقى معتبراً بسبب كفره ، وهذا كمن يخدم عند الحارس والسايس إذا قام فالسلطان لا يعمل قيامه تعظيماً لخسته كذلك الكافر ، وأما المؤمن فبقدر ما يتكبر على غير الله يظهر تعظيمه لله ، كالملك الذي لا ينقاد لأحد إذا انقاد في وقت لملك من الملوك يتبين به عظمته الوجه الثالث : ﴿ أضله ﴾ أي أهمله وتركه ، كما يقال أضل بعيره إذا تركه مسيباً فضاع .

ثم إن الله تعالى لما بيّن حال الكفار بيّن حال المؤمنين فقال :

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (2)

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

قد ذكرنا مراراً أن الله تعالى كلما ذكر الإيمان والعمل الصالح ، رتب عليهما المغفرة والأجر كما قال : ﴿ إِنَّ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحج : 50] وقال : ﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ ﴾ [العنكبوت : 7] وقلنا بأن المغفرة ثواب الإيمان والأجر على العمل الصالح واستوفينا البحث فيه في سورة العنكبوت فنقول ههنا جزاء ذلك قوله ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سيئاتهم ﴾ إشارة إلى ما يثيب على الإيمان ، وقوله ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ إشارة إلى ما يثيب على العمل الصالح .

المسألة الثانية :

قالت المعتزلة تكفير السيئات مرتب على الإيمان والعمل الصالح فمن آمن ولم يفعل الصالحات يبقى في العذاب خالداً ، فنقول لو كان كما ذكرتم لكان الإضلال مرتباً على الكفر والضد ، فمن يكفر لا ينبغي أن تضل أعماله ، أو نقول قد ذكرنا أن الله رتب أمرين

على أمرين فمن آمن كفر سيئاته ومن عمل صالحاً أصلح باله أو نقول أي مؤمن يتصور أنه غير آت بالصالحات بحيث لا يصدر عنه صلاة ولا صيام ولا صدقة ولا إطعام ، وعلى هذا فقوله ﴿ وَعَمِلُواْ ﴾ عطف المسبب على السبب ، كما قلنا في قول القائل أكلت كثيراً وشبعت .

المسألة الثالثة :

(19/707)

قوله ﴿ وآمنوا بما نُزِّلَ على محمد ﴾ مع أن قوله آمنوا وعملوا الصالحات أفاد هذا المعنى فما الحكمة فيه وكيف وجهه ؟ فنقول : أما وجهه فبيانه من وجوه الأول : قوله ﴿ والذين ءَامَنُواْ ﴾ أي بالله ورسوله واليوم الآخر ، وقوله ﴿ وآمنوا بما نزل ﴾ أي بجميع الأشياء الواردة في كلام الله ورسوله تعميم بعد أمور خاصة وهو حسن ، تقول خلق الله السموات والأرض وكل شيء إما على معنى وكل شيء غير ما ذكرنا وإما على العموم بعد ذكر الخصوص الثاني : أن يكون المعنى آمنوا وآمنوا من قبل بما نزل على محمد وهو الحق المعجز الفارق بين الكاذب والصادق يعني آمنوا أولاً بالمعجز وأيقنوا بأن القرآن لا يأتي به غير الله ، فآمنوا وعملوا الصالحات والواو للجمع المطلق ، ويجوز أن يكون المتأخر ذكراً متقدماً

وقوعاً ، وهذا كقول القائل آمن به ، وكان الإيمان به واجباً ، أو يكون بياناً لإيمانهم كأنهم ﴿ وآمنوا بما نُزِّلَ على محمد ﴾ أي آمنوا وآمنوا بالحق كما يقول القائل خرجت وخرجت مصيباً أي وكان خروجي جيداً حيث نجوت من كذا وربحت كذا فكذلك لما قال آمنوا بين أن إيمانهم كان أمر الله وأنزل الله لا بما كان باطلاً من عند غير الله الثالث : ما قاله أهل المعرفة ، وهو أن العلم العمل والعمل العلم ، فالعلم يحصل ليعمل به لما جاء : إذا عمل العالم العمل الصالح علم ما لم يكن يعلم ، فيعلم الإنسان مثلاً قدرة الله بالدليل وعلمه وأمره فيحمله الأمر على الفعل ويحثه عليه علمه فعلمه بحاله وقدرته على ثوابه وعقابه ، فإذا أتى بالعمل الصالح علم من أنواع مقدورات الله ومعلومات الله تعالى ما لم يعلمه أحد إلا باطلاع الله عليه وبكشفه ذلك له فيؤمن ، وهذا هو المعنى في قوله

(20/707)

﴿ هُوَ الذي أَنزَلَ السكينة فِي قُلُوبِ المؤمنين لِيَزْدَادُواْ إيمانا مَّعَ إيمانهم ﴾ [الفتح : 4] فإذا آمن المكلف بمحمد بالبرهان وبالمعجزة وعمل صالحاً حمله علمه على أن يؤمن بكل ما قاله محمد ولم يجد في نفسه شكاً ، وللمؤمن في المرتبة الأولى أحوال وفي المرتبة الأخيرة أحوال ، أما في الإيمان بالله ففي الأول يجعل الله معبوداً ، وقد يقصد غيره في حوائجه فيطلب الرزق

من زيد وعمر ويجعل أمراً سبباً لأمر ، وفي الأخيرة يجعل الله مقصوداً ولا يقصد غيره ، ولا يرى إلا منه سره وجهره ، فلا ينيب إلى شيء في شيء فهذا هو الإيمان الآخر بالله وذلك الإيمان الأول .

وأما ما في النبي صلى الله عليه وسلم فيقول أولاً هو صادق فيما ينطق ، ويقول آخر لا نطق له إلا بالله ، ولا كلام يسمع منه إلا وهو من الله ، فهو في الأول يقول بالصدق ووقوعه منه ، وفي الثاني يقول بعدم إمكان الكذب منه لأن حاكي كلام الغير لا ينسب إليه الكذب ولا يمكن إلا في نفس الحكاية ، وقد علم هو أنه حاك عنه كما قاله ، وأما في المرتبة الأولى فيجعل الحشر مستقبلاً والحياة العاجلة حالاً وفي المرتبة الأخيرة يجعل الحشر حالاً والحياة الدنيا ماضياً ، فيقسم حياة نفسه في كل لحظة ، ويجعل الدنيا كلها عدماً لا يلتفت إليها ولا يقبل عليها .

المسألة الرابعة :

قوله ﴿ وآمَنوا بما نُزِّلَ على محمد ﴾ هو في مقابلة قوله في حق الكافر ﴿ وَصُدُّواْ ﴾ [محمد : 1] لأنا بينا في وجه أن المراد بهم صدوا عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا حث على اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، فهم صدوا أنفسهم عن سبيل الله ، وهو محمد عليه السلام وما أنزل عليه ، وهؤلاء حثوا أنفسهم على اتباع سبيله ، لا جرم حصل لهؤلاء ضد ما حصل لأولئك ، فأضل الله حسنات أولئك وستر على سيئات

هؤلاء .

المسألة الخامسة :

(21/707)

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الحق مِن رَّبِّهِمْ ﴾ هل يمكن أن يكون من ربهم وصفاً فارقاً ، كما يقال رأيت رجلاً من بغداد ، فيصير وصفاً للرجل فارقاً بينه وبين من يكون من الموصل وغيره ؟ نقول لا ، لأن كل ما كان من الله فهو الحق ، فليس هذا هو الحق من ربهم ، بل قوله ﴿ مّن رَّبِّهِمُ ﴾ خبر بعد خبر ، كأنه قال وهو الحق وهو من ربهم ، أو إن كان وصفاً فارقاً فهو على معنى أنه الحق النازل من ربهم لأن الحق قد يكون مشاهداً ، فإن كون الشمس مضيئة حق وهو ليس نازل من الرب ، بل هو علم حاصل بطريق يسره الله تعالى لنا .

(22/707)

ثم قال تعالى : ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سيئاتهم وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ أي سترها وفيه إشارة إلى بشارة ما كانت تحصل بقوله أعدمها ومحاها ، لأن محو الشيء لا ينبىء عن إثبات أمر آخر مكانه ،

وأما الستر فينبىء عنه ، وذلك لأن من يريد ستر ثوب بال أو وسخ لا يستره بمثله ، وإنما يستره بثوب نفيس نظيف ، ولا سيما الملك الجواد إذا ستر على عبد من عبيده ثوبه البالي أمر بإحضار ثوب من الجنس العالي لا يحصل إلا بالثمن الغالي ، فيلبس هذا هو الستر بينه وبين المحبوبين ، وكذلك المغفرة ، فإن المغفرة والتكفير من باب واحد في المعنى ، وهذا هو المذكور في قوله تعالى : ﴿ فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حسنات ﴾ [الفرقان : 70] وقوله ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ إشارة إلى ما ذكرنا من أنه يبدلها حسنة ، فإن قيل كيف تبدل السيئة حسنة ؟ نقول معناه أنه يجزيه بعد سيئاته ما يجزى المحسن على إحسانه ، فإن قال الإشكال باق وباد ، وما زال بل زاد ، فإن الله تعالى لو أثاب على السيئة كما يثيب عن الحسنة ، لكان ذلك حثاً على السيئة ، نقول ما قلنا إنه يثيب على السيئة وإنما قلنا إنه يثيب بعد السيئة بما يثيب على الحسنة ، وذلك حيث يأتي المؤمن بسيئة ، ثم يتنبه ويندم ويقف بين يدي ربه معترفاً بذنبه مستحقراً لنفسه ، فيصير أقرب إلى الرحمة من الذي لم يذنب ، ودخل على ربه مفتخراً في نفسه ، فصار الذنب شرطاً للندم ، والثواب ليس على السيئة ، وإنما هو على الندم ، وكأن الله تعالى قال عبدي أذنب ورجع إليّ ، ففعله شيء لكن ظنه بي حسن حيث لم يجد ملجأ غيري فاتكل على فضلي ، والظن عمل القلب ، والفعل عمل البدن ، واعتبار عمل القلب أولى ، ألا ترى أن النائم والمغمى عليه لا يلتفت إلى عمل بدنه ، والمفلوج الذي لا حركة له يعتبر قصد قلبه ، ومثال الروح والبدن راكب دابة

يركض فرسه بين يدي ملك يدفع عنه العدو بسيفه وسنانه ، والفرس يلطخ ثوب الملك بركضه في استنانه ، فهل

(23/707)

يلتفت إلى فعل الدابة مع فعل الفارس ، بل لو كان الراكب فارغاً الفرس يؤذي بالتلويث يخاطب الفارس به ، فكذلك الروح راكب والبدن مركوب ، فإن كانت الروح مشغولة بعبادة الله وذكره ، ويصدر من البدن شيء لا يلتفت إليه ، بل يستحسن منه ذلك ويزاد في تربية الفرس الراكض ويهجر الفرس الواقف ، وإن كان غير مشغول فهو مؤاخذ بأفعال البدن ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (3)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في الباطل وجوه الأول : ما لا يجوز وجوده ، وذلك لأنهم اتبعوا إلها غير الله ، وإله غير الله محال الوجود ، وهو الباطل وغاية الباطل ، لأن الباطل هو المعدوم ، يقال بطل كذا ، أي عدم ، والمعدوم الذي لا يجوز وجوده ولا يمكن أن يوجد ، ولا يجوز أن يصير حقاً موجوداً ،

فهو في غاية البطلان ، فعلى هذا فالحق هو الذي لا يمكن عدمه وهو الله تعالى ، وذلك لأن الحق هو الموجود ، يقال تحقق الأمر ، أي وجد وثبت ، والموجود الذي لا يجوز عدمه هو في غاية الثبوت الثاني : الباطل الشيطان بدليل قوله تعالى : ﴿ لأَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : 85] فبيّن أن الشيطان متبوع وأتباعه هم الكفار والفجار ، وعلى هذا فالحق هو الله ، لأنه تعالى جعل في مقابلة حزب الشيطان حزب الله الثالث : الباطل ، هو قول كبرائهم ودين آبائهم ، كما قال تعالى عنهم : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءنَا على أُمَّةٍ وَإِنَّا على آثارهم مهتدون ﴾ [الزخرف : 22] ومقتدون فعلى هذا الحق ما قاله النبي عليه السلام عن الله الرابع : الباطل كل ما سوى الله تعالى ، لأن الباطل والهالك بمعنى واحد .

و ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص : 88] وعلى هذا فالحق هو الله تعالى أيضاً .

المسألة الثانية :

(24/707)

لو قال قائل من ربهم لا يلائم إلا وجهاً واحداً من أربعة أوجه ، وهو قولنا المراد من الحق هو ما أنزل الله وما قال النبي عليه السلام من الله ، فأما على قولنا الحق هو الله فكيف يصح

قوله ﴿ اتبعوا الحق مِن رَّبِهِمْ ﴾ نقول على هذا ﴿ مِّن رَّبِهِمُ ﴾ لا يكون متعلقاً بالحق ، وإنما يكون تعلقه بقوله بقوله تعالى : ﴿ اتبعوا ﴾ أي اتبعوا أمر ربهم ، أي من فضل الله أو هداية ربهم اتبعوا الحق ، وهو الله سبحانه .

المسألة الثالثة :

إذا كان الباطل هو المعدوم الذي لا يجوز وجوده ، فكيف يمكن اتباعه ؟ نقول لما كانوا يقولون إنما يفعلون للأصنام وهي آلهة وهي تؤجرهم بذلك كانوا متبعين في زعمهم ، ولا متبع هناك .

المسألة الرابعة :

قال في حق المؤمنين ﴿ اتبعوا الحق مِن رَّبِهِمْ ﴾ وقال في حق الكفار ﴿ اتبعوا الباطل ﴾ من آلهتهم أو الشيطان ، نقول أما آلهتهم فلأنهم لا كلام لهم ولا عقل ، وحيث ينطقهم الله ينكرون فعلهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ القيامة يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ [فاطر : 14] وقال تعالى : ﴿ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كافرين ﴾ [الأحقاف : 6] والله تعالى رضي بفعلهم وثبتهم عليه ، ويحتمل أن يقال قوله ﴿ مّن رَّبِهِمُ ﴾ عائد إلى الأمرين جميعاً ، أي من ربهم اتبع هؤلاء الباطل ، وهؤلاء الحق ، أي من حكم ربهم ، ومن عند ربهم .

ثم قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهِ لِلنَّاسِ أمثالهم ﴾ وفيه أيضاً مسائل :

المسألة الأولى :

أي مثل ضربه الله تعالى حتى يقول ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمثالهم﴾ ؟ نقول فيه وجهان أحدهما : إضلال أعمال الكفار وتكفير سيئات الأبرار الثاني : كون الكافر متبعاً للباطل ، وكون المؤمن متبعاً للحق ، ويحتمل وجهين آخرين أحدهما : على قولنا ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي من عند ربهم اتبع هؤلاء الباطل وهؤلاء الحق ، نقول هذا مثل يضرب عليه جميع الأمثال ، فإن الكل من عند الله الإضلال وغيره والاتباع وغيره وثانيهما : هو أن الله تعالى لما بيّن أن الكافر يضل الله عمله والمؤمن يكفر الله سيئاته ، وكان بين الكفر والإيمان مباينة ظاهرة فإنهما ضدان ، نبه على أن السبب كذا أي ليس الإضلال والتكفير بسبب المضادة والاختلاف بل بسبب اتباع الحق والباطل ، وإذا علم السبب فالفعلان قد يتحدان صورة وحقيقة وأحدهما يورث إبطال الأعمال والآخر يورث تكفير السيئات بسبب أن أحدهما يكون فيه اتباع الحق والآخر اتباع الباطل ، فإن من يؤمن ظاهراً وقلبه مملوء من الكفر ، ومن يؤمن بقلبه وقلبه مملوء من الإيمان اتحد فعلاهما في الظاهر ، وهما مختلفان بسبب اتباع الحق واتباع الباطل ، لا بدع من ذلك فإن من يؤمن ظاهراً وهو يسر الكفر ، ومن يكفر ظاهراً بالإكراه وقلبه مطمئن بالإيمان اختلف الفعلان في الظاهر ، وإبطال

الأعمال لمن أظهر الإيمان بسبب أن اتباع الباطل من جانبه فكأنه تعالى قال الكفر والإيمان مثلان يثبت فيهما حكمان وعلم سببه ، وهو اتباع الحق والباطل ، فكذلك اعلموا أن كل شيء اتبع فيه الحق كان مقبولاً مثاباً عليه ، وكل أمر اتبع فيه الباطل كان مردوداً معاقباً عليه فصار هذا عاماً في الأمثال ، على أنا نقول قوله ﴿كذلك﴾ لا يستدعي أن يكون هناك مثل مضروب بل معناه أنه تعالى لما بيّن حال الكافر وإضلال أعماله وحال المؤمن وتكفير سيئاته وبيّن السبب فيهما ، كان ذلك غاية الإيضاح فقال : ﴿كذلك﴾ أي مثل هذا البيان ﴿يَضْرِبُ اللهِ لِلنَّاسِ أمثالهم﴾ ويبين

(26/707)

لهم أحوالهم .

المسألة الثانية :

الضمير في قوله ﴿أمثالهم﴾ عائد إلى من ؟ فيه وجهان : أحدهما : إلى الناس كافة قال تعالى : ﴿يَضْرِبُ اللهِ لِلنَّاسِ أمثالهم﴾ على أنفسهم وثانيهما : إلى الفريقين السابقين في الذكر معناه : يضرب الله للناس أمثال الفريقين السابقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 32. 37﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ الذين كفروا ﴾ الآية ، إشارة إلى أهل مكة الذين أخرجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقوله : ﴿ والذين آمنوا ﴾ الآية إشارة إلى الأنصار أهل المدينة الذين آووه ، وفي الطائفتين نزلت الآيتان ، قاله ابن عباس ومجاهد ، ثم هي بعد تعم كل من دخل تحت ألفاظها . وقوله : ﴿ وصدوا ﴾ يحتمل أن يريد الفعل المجاوز ، فيكون المعنى : ﴿ وصدوا ﴾ غيرهم ، ويحتمل أن يكون الفعل غير متعد ، فيكون المعنى : ﴿ وصدوا ﴾ أنفسهم . و: ﴿ سبيل الله ﴾ شرعه وطريقه الذي دعا إليه .

وقوله : ﴿ أضل أعمالهم ﴾ أي أتلفها ، لم يجعل لها غاية خير ولا نفعاً ، وروي أن هذه الآية نزلت بعد بدر ، وأن الإشارة بقوله : ﴿ أضل أعمالهم ﴾ هي إلى الإنفاق الذي أنفقوه في سفرتهم إلى بدر ، وقيل المراد بالأعمال : أعمالهم البرة في الجاهلية من صلة رحم ونحوه ، واللفظ يعم ذلك .

وقرأ الناس : " نُزّل " بضم النون وشد الزاي . وقرأ الأعمش : " أنزل " معدى بالهمزة وقوله

تعالى : ﴿ وأصلح بالهم ﴾ قال قتادة معناه : وأصلح حالهم . وقرأ ابن عباس " أمرهم " . وقال مجاهد : شأنهم .

وتحرير التفسير في اللفظة أنها بمعنى الفكر والموضع الذي فيه نظر الإنسان وهو القلب ، فإذا صلح ذلك صلحت حاله ، فكأن اللفظة مشيرة إلى صلاح عقيدتهم وغير ذلك من الحال تابع ، فقولك : خطر في بالي كذا ، وقولك : أصلح الله بالك : المراد بهما واحد ، ذكره المبرد . والبال : مصدر كالحال والشأن ، ولا يستعمل منها فعل ، وكذلك عرفه أن لا يثنى ولا يجمع ، وقد جاء مجموعاً لكنه شاذ ، فإنهم قالوا بالات .

وقوله تعالى : ﴿ ذلك بأن الذين كفروا ﴾ الإشارة إلى هذه الأفعال التي ذكر الله أنه فعلها بالكفار وبالمؤمنين . و: ﴿ الباطل ﴾ الشيطان وكل ما يأمر به ، قاله مجاهد . و: ﴿ الحق ﴾ هنا هو الشرع ومحمد عليه السلام .

(28/707)

وقوله : ﴿ كذلك ﴾ يبين أمر كل فرقة ويجعل لها ضربها من القول وصنفها . وضرب المثل مأخوذ من الضريب والضرب الذي هو بمعنى النوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1) ﴾

قال ابن عباس ومجاهد : هم أهل مكة كفروا بتوحيد الله ، وصدّوا أنفسهم والمؤمنين عن دين الله وهو الإسلام بنهيهم عن الدخول فيه ؛ وقاله السدّي .

وقال الضحاك : "عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ" عن بيت الله بمنع قاصديه .

ومعنى "أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ" : أبطل كيدهم ومكرهم بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وجعل الدائرة عليهم ؛ قاله الضحاك .

وقيل : أبطل ما عملوه في كفرهم بما كانوا يسمونه مكارم ؛ من صلة الأرحام وفَكّ الأسارى وقِرَى الأضياف وحفظ الجوار .

وقال ابن عباس : نزلت في المُطْعِمِين ببدر ، وهم اثنا عشر رجلاً : أبو جهل ، والحارث بن هشام ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأُبَيّ وأُمَيّة ابنا خلف ، ومُنَبِّه ونُبَيْه ابنا الحجاج ، وأبو البَخْتَرِيّ بن هشام ، وزمعة بن الأسود ، وحكيم بن حزام ، والحارث بن عامر بن نوفل .

قوله تعالى : ﴿ والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَآمَنُواْ بِمَا نُزِّلَ على مُحَمَّدٍ ﴾

قال ابن عباس ومجاهد : هم الأنصار .

وقال مقاتل : إنها نزلت خاصة في ناس من قريش .

وقيل : هما عامّتان فيمن كفر وآمن .

ومعنى "أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ" : أبطلها .

وقيل : أضلهم عن الهدى بما صرفهم عنه من التوفيق .

﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ من قال إنهم الأنصار فهي المواساة في مساكنهم وأموالهم .

ومن قال إنهم من قريش فهي الهجرة .

ومن قال بالعموم فالصالحات جميع الأعمال التي ترضي الله تعالى ﴿ وَآمَنُواْ بِمَا نُزِّلَ على مُحَمَّدٍ ﴾ لم يخالفوه في شيء ؛ قاله سفيان الثوريّ .

وقيل : صدّقوا محمداً صلى الله عليه وسلم فيما جاء به .

﴿ وَهُوَ الحق مِن رَّبِّهِمْ ﴾ يريد أن إيمانهم هو الحق من ربهم .

وقيل : أي إن القرآن هو الحق من ربهم ، نسخ به ما قبله ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أي ما مضى من سيئاتهم قبل الإيمان .

(30/707)

﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ أي شأنهم ؛ عن مجاهد وغيره .

وقال قتادة : حالهم .

ابن عباس : أمورهم .

والثلاثة متقاربة وهي متأوّلة على إصلاح ما تعلق بدنياهم .

وحكى النقاش أن المعنى أصلح نياتهم ؛ ومنه قول الشاعر :

فإن تُقبلي بالودّ أقبل بمثله . . .

وإن تدبري أذهب إلى حال باليا

وهو على هذا التأويل محمول على صلاح دينهم .

"والبال" كالمصدر ، ولا يعرف منه فعل ، ولا تجمعه العرب إلا في ضرورة الشعر فيقولون فيه : بالات .

المبرد : قد يكون البال في موضع آخر بمعنى القلب ؛ يقال : ما يخطر فلان على بالي ؛ أي على قلبي .

الجوهري : والبال رخاء النفس ؛ يقال فلان رخيّ البال .

والبال : الحال ؛ يقال ما بالك .

وقولهم : ليس هذا من بالي ؛ أي مما أباليه .

والبال : الحوت العظيم من حيتان البحر ؛ وليس بعربي .

والبالة : وعاء الطِّيب ؛ فارسي معرّب ؛ وأصله بالفارسية بيلة .

قال أبو ذؤيب :

كأن عليها بالةً لَطَمِيّة . . .

لها من خلال الدَّأْيَتَيْن أريج

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الذين كَفَرُواْ اتبعوا الباطل وَأَنَّ الذين آمَنُواْ اتبعوا الحق مِن رَّبِّهِمْ ﴾

"ذِلك" في موضع رفع ؛ أي الأمر ذلك ، أو ذلك الإضلال والهدى المتقدم ذكرهما سببه هذا .

فالكافر اتبع الباطل ، والمؤمن اتبع الحق .

والباطل : الشرك .

والحق : التوحيد والإيمان .

﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ أي كهذا البيان الذي بُيّن يُبَيّن الله للناس أمر الحسنات والسيئات .

والضمير في "أَمْثَالَهُمْ" يرجع إلى الذين كفروا والذين آمنوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله ﴾

أي أعرضوا عن الإسلام وسلوك طريقه أو منعوا غيرهم عن ذلك على أن صد لازم أو متعد ، قال في الكشف : والأول أظهر لأن الصد عن سبيل الله هو الاعراض عما أتى به محمد صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى : ﴿ قُلْ هذه سَبِيلِى أَدْعُو إلى الله ﴾ [يوسف : 108] فيطابق قوله تعالى : ﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَءامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ على مُحَمَّدٍ ﴾ [محمد : 2] وكثير من الآثار تؤيد الثاني ، وفسر الضحاك ﴿ سَبِيلِ الله ﴾ ببيت الله عز وجل ، وقال : صدهم عنه منعهم قاصديه وليس بذلك .

والآية عامة لكل من اتصف بعنوان الصلة ، وقال ابن عباس : هم أي الذين كفروا وصدوا على الوجه الثاني في ﴿ صدوا ﴾ المطعون يوم بدر الكبرى ، وكأنه عني من يدخل في العموم دخولاً أولياً ، فإن أولئك كانوا صادين بأموالهم وأنفسهم فصدهم أعظم من صد غيرهم ممن كفر وصد عن السبيل ، وأول من أطعم منهم على ما نقل عن سيرة ابن سيد الناس أبو جهل عليه اللعنة نحر لكفار قريش حين خرجوا من مكة عشرا من الإبل ، ثم صفوان بن أمية نحر تسعا بعسفان ، ثم سهل بن عمرو نحر بقديد عشرا ثم شيبة بن ربيعة وقد ضلوا الطريق نحر تسعا ثم عبتة بن ربيعة نحر عشرا ، ثم مقيس الجمهى بالأبواء نحر

تسعا ، ثم العباس نحر عشرا ، والحرث بن عامر نحر تسعا ، وأبو البختري على ماء بدر نحر عشرا ، ومقيس تسعا ؛ ثم شغلتهم الحرب فأكلوا من أزوادهم ، وقيل : كانوا ستة نفر نبيه .

ومنبه ابنا الحجاج .

وعتبة .

وشيبة ابنا ربيعة .

وأبو جهل .

والحرث ابنا هشام ، وضم مقاتل إليهم ستة أخرى وهم عامر بن نوفل .

وحكيم بن حزام .

وزمعة بن الأسود .

والعباس بن عبد المطلب .

وصفوان بن أمية .

(32/707)

وأبو سفيان بن حرب أطعم كل واحد منهم يوماً الاحابيش والجنود يستظهرون بهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا ينافي عد أبي سفيان أن صحت الرواية من

أولئك كونه مع العير لأن المراد بيوم بدر زمن وقعتها فيشمل من أطعم في الطريق وفي مدتها حتى انقضت ، وقال مقاتل : هم اثنا عشر رجلاً من أهل الشرك كانوا يصدون الناس عن الإسلام وأمرونهم بالكفر ، وقيل : هم شياطين من أهل الكتاب صدوا من أراد منهم أو من غيرهم عن الدخول في الإسلام .

والموصول مبتدأ خبره قوله تعالى : ﴿ اللهُ أَضَلَّ أعمالهم ﴾ أي إبطالها وأحبطها وجعلها ضائعة لا أثر لها ولا نفع أصلاً لا بمعنى أنه سبحانه أبطلها وأحبطها بعد أن لم تكن كذلك بل بمعنى أنه عز وجل حكم ببطلانها وضياعها وأريد بها ما كانوا يعملونه من أعمال البر كصلة الأرحام وقرى الأضياف وفك الأساري وغيرها من المكارم .

وجوز أن يكون المعنى جعلها ضلالاً أي غير هدى حيث لم يوفقهم سبحانه لأن يقصدوا بها وجهه سبحانه أو جعلها ضالة أي غير مهتدية على الإسناد المجازي ، ومن قال الآية في المطعمين واضرابهم قال : المعنى إبطال جل وعلا ما عملوه من الكيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم كالانفاق الذي أنفقوه في سفرهم إلى محاربته عليه الصلاة والسلام وغيره بنصر رسوله صلى الله عليه وسلم وإظهار دينه على الدين كله ، ولعله أوفق بما بعده ، وكذا بما قيل أن الآية نزلت ببدر .

﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾

قال ابن عباس فيما أخرجه عنه جماعة منهم الحاكم وصححه هم أهل المدينة الأنصار ، وفسر رضي الله تعالى عنه ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ [محمد : 1] بأهل مكة قريش ، وقال مقاتل : هم ناس من قريش ، وقيل : مؤمنو أهل الكتاب ، وقيل : أعم من المذكورين وغيرهم فإن الموصول من صيغ العموم ولا داعي للتخصيص ﴿ وَءامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ على مُحَمَّدٍ ﴾ من القران ، وخص بالذكر الإيمان بذلك مع اندراجه فيما قبله تنويها بشأنه وتنبيهاً على سمو مكانه من بين سائر ما يجب الإيمان به وانه الأصل في الكل ولذلك أكد بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الحق مِن رَّبِّهِمْ ﴾ وهو جملة معترضة بين المبتدأ والخبر مفيدة لحصر الحقية فيه على طريقة الحصر في قوله تعالى : ﴿ ذلك الكتاب ﴾ [البقرة : 2] وقولك : حاتم الجواد فيراد بالحق ضد الباطل ، وجوز أن يكون الحصر على ظاهره والحق الثابت ، وحقية ما نزل عليه عليه الصلاة والسلام لكونه ناسخاً لا ينسخ وهذا يقتضي الاعتناء به ومنه جاء التأكيد ، وأياً ما كان فقوله تعالى : ﴿ مّن رَّبِّهِمُ ﴾ حال من ضمير ﴿ الحق ﴾ وقرأ زيد بن علي . وابن مقسم ﴿ نَزَّلَ ﴾ مبنياً للفاعل ، والأعمش ﴿ أَنزلَ ﴾ معدى بالهمزة مبنياً للمفعول .

وقرىء ﴿ أَنزلَ ﴾ بالهمز مبنياً للفاعل ﴿ وَنُزِّلَ ﴾ بالتخفيف ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ ﴾ أي سترها بالإيمان والعمل الصالح ، والمراد إزالها ولم يؤاخذهم بها ﴿ سيئاتهم وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ

﴿ أي حالهم في الدين والدنيا بالتوفيق والتأييد ، وتفسير البال بالحال مروى عن قتادة وعنه تفسيره بالشأن وهو الحال أيضاً أو ماله خطر ، وعليه قول الراغب : الباب الحال التي يكترث بها ، ولذلك يقال : ما باليت بكذا بالة أي ما اكترثت به ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : "كل أمر ذي بال" الحديث ويكون بمعنى الخاطر القلبي ويتجوز به عن القلب كما قال الشهاب .

(34/707)

وفي البحر حقيقة البال الفكر والموضع الذي فيه نظر الإنسان وهو القلب ومن صلح قلبه صلحت حاله ، فكأن اللفظ مشير إلى صلاح عقيدتهم وغير ذلك من الحال تابع له ، وحكى عن السفاقسي تفسيره هنا بالفكر وكأنه لنحو ما أشير إليه ، وهو كما في البحر أيضاً مما لا يثني ولا يجمع وشذ قولهم في جمعه بالات .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما مر من الاضلال والتكفير والاصلاح وهو مبتدأ خبره قوله تعالى : ﴿ بِأَنَّ الذين كَفَرُواْ اتبعوا الباطل وَأَنَّ الذين ءامَنُواْ اتبعوا الحق مِن رَّبِّهِمْ ﴾ أي ذلك كائن بسبب اتباع الأولين الباطل واتباع الآخرين الحق ؛ والمراد بالحق والباطل معناهما المشهور . وأخرج ابن المنذر .

وغيره عن مجاهد تفسير ﴿ الباطل ﴾ بالشيطان .

وفي البحر .

قال مجاهد : الباطل الشيطان وكل ما يأمر به و ﴿ الحق ﴾ هو الرسول والشرع ، وقيل : الباطل ما لا ينتفع به ، وجوز الزمخشري كون ذلك خبر مبتدأ محذوف و ﴿ بِأَنَّ ﴾ الخ في محل نصب على الحال ، والتقدير الأمر ذلك أي كما ذكر ملتبساً بهذا السبب .

والعامل في الحال أما معنى الإشارة وأما نحو أثبته وأحقه فإن الجملة تدل على ذلك لأنه مضمون كل خبر وتعقبه أبو حيان بأن فيه ارتكاباً للحذف من غير داع له ، والجار والمجرور أعني ﴿ مّن رَّبِهِمُ ﴾ في موضع الحال على كل حال ، والكلام أعني قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ مّن رَّبِهِمُ ﴾ تصريح بما أشعر به الكلام السابق من السببية لما فيه من البناء على الموصول ، ويسميه علماء البيان التفسير ، ونظيره ما أنشده الزمخشري لنفسه :

به فجع الفرسان فوق خيولهم . . .

كما فجعت تحت الستور العواتق

تساقط من أيديهم البيض حيرة . . .

وزعزع عن أجيادهن المخانق

فإن فيه تفسيراً على طريق اللف والنشر كما في الآية وهو من محاسن الكلام ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الضرب البديع ﴿ يَضْرِبُ الله ﴾ أي يبين للنصاس ﴾ أي لأجلهم ﴿ ﴾ أي لأجلهم ﴿ أمثالهم ﴾ أي أحوال الفريقين المؤمنين والكافرين وأوصافهما الجارية في الغرابة مجرى الأمثال ، وهي اتباع المؤمنين الحق وفوزهم وفلاحهم ، واتباع الكافرين الباطل وخيبتهم وخسرانهم ، وجوز أن يراد بضرب الأمثال التمثيل والتشبيه بأن جعل سبحانه اتباع الباطل مثلا لعمل الكفار والاضلال مثلا لخيبتهم واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين وتكفير السيآت مثلا لفوزهم والإشارة بذلك لما تضمنه الكلام السابق ، وجوز كون ضمير ﴿ أمثالهم ﴾ للناس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(36/707)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1) ﴾

قوله تعالى في هذه الآية الكريمة : وصدوا عن سبيل الله ، قال بعضهم : هو من الصدود ، لأن صد في الآية لازمة .

وقال بعضهم : هو من الصد لأن صد في الآية متعدية .

وعليه فالمفعول محذوف أي صدوا غيرهم عن سبيل الله ، أي عن الدخول في الإسلام .

وهذا القول الأخير هو الصواب ، لأنه على القول بأن صد لازمة ، فإن ذلك يكون تكراراً مع قوله ﴿ كَفَرُوا ﴾ لأن الكفر هو أعظم أنواع الصدود عن سبيل الله .

وأما على القول : بأن صد متعدية فلا تكرار لأن المعنى أنهم ضالون في أنفسهم ، مضلون لغيرهم بصدهم إياهم عن سبيل الله ، وقد قدمنا في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم ﴾ [النحل : 97] الآية ، أن اللفظ إذا دار بين التأكيد والتأسيس وجب حمله على التأسيس ، إلا بدليل يجب الرجوع إليه .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي أبطل ثوابها ، فما عمله الكافر من حسن في الدنيا ، كقري الضيف ، وبر الوالدين ، وحمي الجار ، وصلة الرحمن ، والتنفيس عن المكروب ، يبطل يوم القيامة ، ويضمحل ويكون لا أثر له ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً ﴾ [الفرقان : 23] ، وهذا هو الصواب في معنى الآية .

وقيل : أضل أعمالهم أي أبطل كيدهم ، الذي أرادوا أن يكيدوا به النبي صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُم والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَآمَنُواْ بِمَا نُزِّلَ على مُحَمَّدٍ وَهُوَ الحق مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أي غفر لهم ذنوبهم وتجاوز لهم عن أعمالهم السيئة ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ أي أصلح لهم شأنهم وحالهم إصلاحاً لا فساد معه ، وما ذكره جل وعلا هنا في أول هذه السورة الكريمة ، من أن يبطل أعمال الكافرين ، ويبقي أعمال المؤمنين جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الحياة الدنيا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ أولئك الذين لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخرة إِلاَّ النار وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود : 15 – 16] . وقوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى : 20] وقوله تعالى : ﴿ أَصْحَابُ الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ [الفرقان : 24] .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا مع بعض الأحاديث الصحيحة فيه ، مع زيادة إيضاح مهمة في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخرة وسعى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً ﴾ [الإسراء : 19] . وفي سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾

[النحل: 97] الآية. وذكرنا طرفا منه في سورة الأحقاف في الكلام على قوله تعالى: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدنيا واستمتعتم بِهَا ﴾ [الأحقاف: 20] الآية.

(38/707)

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ أَضَلَّ أَعْمَالَهُم ﴾ أصله من الضلال بمعنى الغيبة، والاضمحلال. لا من الضالة كما زعمه الزمخشري فهو كقوله: ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: 24].

وقد قدمنا معاني الضلال في القرآن واللغة، في سورة الشعراء في الكلام على قوله: ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذاً وَأَنَاْ مِنَ الضالين ﴾ [الشعراء: 20]، وفي آخر الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿ الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحياة الدنيا ﴾ [الكهف: 104] الآية، وفي غير ذلك من المواضع.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ﴾ قد قدمنا إيضاحه في أول سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَيُبَشِّرَ المؤمنين الذين يَعْمَلُونَ الصالحات ﴾ [الكهف: 2] الآية، وفي سورة النحل في الكلام على قوله تعالى ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [النحل: 97] الآية.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَآمَنُواْ بِمَا نُزِّلَ على مُحَمَّد ﴾ .

قال فيه ابن كثير : هو عطف خاص على عام ، وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان ، بعد بعثته صلى الله عليه وسلم اه منه .

ويدل لذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأحزاب فالنار مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الحق مِن رَّبِّكَ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [هود : 17] .

(39/707)

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ جملة اعتراضية تتضمن شهادة الله بأن هذا القرآن المنزل على هذا النبي الكريم ، صلى الله عليه وسلم هو الحق من الله ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الحق ﴾ [الأنعام : 66] ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الكافرين وَإِنَّهُ لَحَقُّ اليقين ﴾ [الحاقة : 50 - 51] وقال تعالى : ﴿ قُلْ يا أيها الناس قَدْ جَآءَكُمُ الحق مِن رَّبِّكُمْ فَمَنُ اهتدى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾ [يونس : 108] الآية وقال تعالى : ﴿ يا أيها الناس قَدْ جَآءَكُمُ الرسول بالحق مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [النساء : 170] الآية ، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الذين كَفَرُواْ اتبعوا الباطل وَأَنَّ الذين آمَنُواْ اتبعوا الحق مِن رَّبِّهِمْ

﴿ أي ذلك المذكور من إضلال أعمال الكفار أي إبطالها واضمحلالها ، وبقاء ثواب أعمال المؤمنين ، وتكفير سيئاتهم وإصلاح حالهم ، كله واقع بسبب أن الكفار اتبعوا الباطل ، ومن اتبع الباطل فعمله باطل .

والزائل المضمحل تسميه العرب باطلاً وضده الحق .

وبسبب أن الذين آمنوا اتبعوا الحق ، ومتبع الحق أعماله حق ، فهي ثابتة باقية ، لا زائلة مضمحلة .

(40/707)

وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من أن اختلاف الأعمال ، يستلزم اختلاف الثواب ، لا يتوهم استواءهما إلا الكافر الجاهل ، الذي يستوجب الإنكار عليه ، جاء موضحاً في آيات أخر ، كقوله تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ المسلمين كالمجرمين مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم : 35 - 36] . وقوله تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كالمفسدين فِي الأرض أَمْ نَجْعَلُ المتقين كالفجار ﴾ [ص : 28] . وقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين اجترحوا السيئات أَن نَّجْعَلَهُمْ كالذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية : 21] .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ .

قال فيه الزمخشري : فإن قلت : أين ضرب الأمثال ؟

قلت : في جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار .

واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين .

أو في أن جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفار ، وتكفير السيئات مثلاً لفوز المؤمنين اه . منه .

وأصل ضرب الأمثال يراد منه بيان الشيء بذكر نظيره الذي هو مثل له . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(41/707)

وقال ابن عاشور :

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1) ﴾

صُدّر التحريض على القتال بتوطئة لبيان غضب الله على الكافرين لكفرهم وصدهم الناس عن دين الله وتحقير أمرهم عند الله ليكون ذلك مثيراً في نفوس المسلمين حنقاً عليهم وكراهية فتثور فيهم همة الإقدام على قتال الكافرين ، وعدم الاكتراث بما هم فيه من قوة ، حين يعلمون الله يخذل المشركين وينصر المؤمنين ، فهذا تمهيد لقوله : ﴿ فإذا لقيتم الذين

كفروا ﴾ [محمد : 4] .

وفي الابتداء بالموصول والصلة المتضمنة كُفر الذين كفروا ومناواتهم لدين الله تشويق لما يرد بعده من الحكم المناسب للصلة ، وإيماء بالموصول وصلته إلى علة الحكم عليه بالخبر أي لأجل كفرهم وصدهم ، وبراعة استهلال للغرض المقصود .

والكفُر : الإشراك بالله كما هو مصطلح القرآن حيثما أطلق الكفر مجرداً عن قرينة إرادة غير المشركين .

وقد اشتملت هذه الجملة على ثلاثة أوصاف للمشركين .

وهي : الكفر ، والصد عن سبيل الله ، وضلال الأعمال الناشىء عن إضلال الله إياهم .

والصدّ عن سبيل : هو صرف الناس عن متابعة دين الإسلام ، وصرفُهم أنفسهم عن سماع دعوة الإسلام بطريق الأوْلى .

وأضيف (السبيل) إلى ﴿ الله ﴾ لأنه الدين الذي ارتضاه الله لعباده ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ [آل عمران : 19] .

واستعير اسم السبيل للدين لأن الدين يوصل إلى رضى الله كما يوصل السبيل السائرَ فيه إلى بُغيته .

ومن الصد عن سبيل الله صدهم المسلمين عن المسجد الحرام قال تعالى : ﴿ ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام ﴾ [الحج : 25] .

ومن الصد عن المسجد الحرام : إخراجهم الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من مكة ، وصدهم عن العُمرة عام الحديبية .

(42/707)

ومن الصد عن سبيل الله : إطعامهم الناس يوم بدر ليثبتوا معهم ويكثروا حولهم ، فلذلك قيل : إن الآية نزلت في المطعِمين يوم بدر وكانوا اثني عشر رجلاً من سادة المشركين من قريش .

وهم : أبو جهل وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبيٌّ بن خلَف وأمية بن خلَف ونُبَيْه بن الحجاج ومُنَبِّه بنُ الحجاج وأبو البَخْتَرِي بنُ هشام والحارث بن هشام وزَمعة بن الأسود والحارث بن عامر بن نَوفل وحَكيم بن حِزام وهذا الأخير أسلم من بعد وصار من خيرة الصحابة .

وعدّ منهم صفوان بن أمية وسهل بن عمرو ومِقْيَس الجُمحي والعباس بن عبد المطلب وأبو سفيان بن حرب وهذان أسلما وحَسن إسلامهما وفي الثلاثة الآخَرين خلاف .

ومن الصد عن سبيل الله صدهم الناس عن سماع القرآن ﴿ وقال الذين كفروا لا تَسمعوا لهذا القرآن والغَوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ [فصلت : 26] .

والإضلال : الإبطال والإضاعة ، وهو يرجع إلى الضلال .

وأصله الخطأ للطريق المسلوك للوصول إلى مكان يُراد وهو يستلزم المعاني الأخر .

وهذا اللفظ رشيق الموقع هنا لأنه الله أبطل أعمالهم التي تبدو حسنة ، فلم يثبهم عليها من صلة رحم ، وإطعام جائع ، ونحوهما ، ولأن من إضلال أعمالهم أن كان غالب أعمالهم عبثاً وسيئاً ولأن من إضلال أعمالهم أن الله خَيَّبَ سعيهم فلم يحصلوا منه على طائل فانهزموا يوم بدر وذهب إطعامُهم الجيْش باطلاً ، وأفسد تدبيرهم وكيدهم للرسول صلى الله عليه وسلم فلم يشفُوا غليلهم يوم أحد ، ثم توالت انهزاماتهم في المواقع كلها قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ﴾ [الأنفال : 36] .

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (2)

(43/707)

هذا مقابل فريق الذين كفروا وهو فريق الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وإيراد الموصول وصلته للإيماء إلى وجه بناء الخبر وعلته ، أي لأجل إيمانهم الخ كفَّر عنهم سيئاتهم .

وقد جاء في مقابلة الأوصاف الثلاثة التي أثبتت للذين كفروا بثلاثة أوصاف ضدها للمسلمين وهي : الإيمان مقابل الكفر ، والإيمانُ بما نُزل على محمد صلى الله عليه وسلم مقابل الصد عن سبيل الله ، وعملُ الصالحات مقابل بعض ما تضمنه ﴿ أضل أعمالهم ﴾ [محمد : 1] ، و ﴿ وكفّر عنهم سيئاتهم ﴾ مقابل بعض آخر مما تضمنه ﴿ أضلّ أعمالهم ﴾ ، ﴿ وأصلح بالهم ﴾ مقابل بقية ما تضمنه ﴿ أضل أعمالهم ﴾ .

وزيد في جانب المؤمنين التنويه بشأن القرآن بالجملة المعترضة قوله : ﴿ وهو الحق من ربهم ﴾ وهو نظير لوصفه بسبيل الله في قوله : ﴿ وصدوا عن سبيل الله ﴾ [محمد : 1] .

وعبر عن الجلالة هنا بوصف الربّ زيادة في التنويه بشأن المسلمين على نحو قوله : ﴿ وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ [محمد : 11] فلذلك لم يقل : وصدّوا عن سبيل ربهم .

وتكفير السيئات غفرانها لهم فإنهم لما عملوا الصالحات كَفَّر الله عنهم سيئاتهم التي اقترفوها قبل الإيمان ، وكفر لهم الصغائر ، وكفر عنهم بعض الكبائر بمقدار يعلمه إذا كانت قليلة في جانب أعمالهم الصالحات كما قال تعالى : ﴿ خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيّئاً عسى الله أن يتوب عليهم ﴾ [التوبة : 102] .

والبال : يطلق على القلب ، أي العقل وما يخطر للمرء من التفكير وهو أكثر إطلاقه ولعله حقيقة فيه ، قال امرؤ القيس:

فعادي عداء بين ثور ونعجة . . .

وكان عداء الوحش مِنّي على بال

وقال:

عليه القَتَامُ سيء الظن والبال . . .

ومنه قولهم : ما بالك ؟ أي ماذا ظننت حين فعلت كذا ، وقولهم : لا يبالي ، كأنه مشتق منه ، أي لا يخطر بباله ، ومنه بيت العُقيلي في الحماسة:

ونبكي حين نقتلكم عليكم . . .

ونقتلكم كأَّنا لا نُبالي

أي لا نفكر .

(44/707)

وحكى الأزهري عن جماعة من العلماء ، أي معنى لا أبالي : لا أكره أ هـ .

وأحسبهم أرادوا تفسير حاصل المعنى ولم يضبطوا تفسير معنى الكلمة .

ويطلق البال على الحال والقدر .

وفي الحديث "كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أبتر " قال الوزير البطليوسي في شرح ديوان امرىء القيس : قال أبو سعيد : كنت أقول للمعري : كيف أصبحت ؟ فيقول : بخير

أصلح الله بَالك .

ولم يوفه صاحب الأساس حقه من البيان وأدمجه في مادة (بلو) .

وإصلاح البال يجمع إصلاح الأمور كلها لأن تصرفات الإنسان تأتي على حسب رأيه ، فالتوحيد أصل صلاح بال المؤمن ، ومنه تنبعث القوى المقاومة للأخطاء والأوهام التي تلبس بها أهل الشرك ، وحكاها عنهم القرآن في مواضع كثيرة والمعنى : أقام أنظارهم وعقولهم فلا يفكرون إلا صالحاً ولا يتدبرون إلا ناجحاً .

ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (3)

هذا تبيين للسبب الأصيل في إضلال أعمال الكافرين وإصلاح بال المؤمنين .

والإتيان باسم الإشارة لتمييز المشار إليه أكملَ تمييز تنويهاً به .

وقد ذُكرت هذه الإشارة أربع مرات في هذه الآيات المتتابعة للغرض الذي ذكرناه .

والإشارة إلى ما تقدم من الخبرين المتقدمين ، وهما ﴿ أضل أعمالهم ﴾ [محمد : 1] و ﴿ كفَّر عنهم سيئاتهمْ وأصلح بالهم ﴾ [محمد : 2] ، مع اعتبار علتي الخبرين المستفادتين من اسمي الموصول والصلتين وما عطف على كلتيهما .

واسم الإشارة مبتدأ ، وقوله : ﴿ بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ﴾ الخ خبره ، والباء للسببيّة ومجرورها في موضع الخبر عن اسم الإشارة ، أي ذلك كائن بسبب اتباع الكافرين

الباطل واتباع المؤمنين الحق ، ولما كان ذلك جامعاً للخبرين المتقدمين كان الخبر عنه متعلقاً بالخبرين وسبباً لهما .

(45/707)

وفي هذا محسن الجمع بعد التفريق ويسمونه كعكسه التفسيرَ لأن في الجمع تفسيرا للمعنى الذي تشترك فيه الأشياء المتفرقة تقدمَ أو تأخَّرَ .

وشاهده قول حسان من أسلوب هذه الآية:

قوم إذا حاربوا ضَرّوا عدوَّهم . . .

أو حاولوا النفعَ في أشياعهم نفَعوا

سَجية تلكَ فيهم غير مُحدثة . . .

إنَّ الخَلائق فاعَلمْ شرُّها البِدَع

قال في "الكشاف" : وهذا الكلام يسميه علماء البيان التفسير ، يريد أنه من المحسنات البديعية .

ونقل عن الزمخشري أنه أنشد لنفسه لمّا فسر لطلبته هذه الآية فقُيد عنه في الحواشي قوله:

به فُجع الفرسان فوق خيولهم . . .

كما فُجعت تحت الستور العواتق

تساقط من أيديهم البِيضُ حيرة . . .

وزُعزع عن أجيادهن المخانق

وفي هذه الآية محسّن الطباق مرتين بين ﴿ الذين كفروا ﴾ و ﴿ الذين آمنوا ﴾ وبين ﴿ الحق ﴾ و ﴿ الباطل ﴾ .

وفي بيتي الزمخشري محسّن الطباق مرة واحدة بين فوق وتحت .

واتباع الباطل واتباع الحق تمثيليتان لهيئتي العمل بما يأمر به أئمة الشرك أولياءهم وما يدعو إليه القرآن ، أي عملوا بالباطل وعمل الآخرون بالحق .

ووصف ﴿ الحق ﴾ بأنه ﴿ من ربهم ﴾ تنويه به وتشريف لهم .

﴿ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ ﴾ .

تذييل لما قبله ، أي مثل ذلك التبيين للحالين يبين الله الأحوال للناس بياناً واضحاً .

والمعنى : قد بيّنا لكل فريق من الكافرين والمؤمنين حاله تفصيلاً وإجمالاً ، وما تفضي إليه من استحقاق المعاملة بحيث لم يبق خفاء في كنه الحالين ، ومثل ذلك البيان يمثل الله للناس أحوالهم كيلا تلتبس عليهم الأسباب والمسببات .

ومعنى ﴿ يضرب ﴾ : يلقي وهذا إلقاء تبيين بقرينة السياق ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ أن يضرب مثلاً ﴾ ما في سورة البقرة (26) .

والأمثال : جمع مثَل بالتحريك وهو الحال التي تمثل صاحبها ، أي تشهره للناس وتعرفهم به فلا يلتبس بنظائره .

واللام للأجل ، والمراد بالناس جميع الناس .

وضمير أمثالهم ﴾ للناس .

(46/707)

والمعنى : كهذا التبيين يبّين الله للناس أحوالهم فلا يبقوا في غفلة عن شؤون أنفسهم محجوبين عن تحقق كنههم بحِجَاب التعود لئلا يختلط الخبيث بالطيب ، ولكي يكونوا على بصيرة في شؤونهم ، وفي هذا إيماء إلى وجوب التوسم لتمييز المنافقين عن المسلمين حقاً ، فإن من مقاصد السورة التحذير من المنافقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(47/707)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى ضل)

الضَّلال ، والضَلّ – بالفتح – والضُلّ – بالضمّ – والضَّلالة ، والضَلْضلة والأُضلولة : ضدّ الهُدَى .

وقد ضلَلتَ – بالفتح – تضِلّ .

وضَلِلْتَ – با لكسر – تَضَلّ .

وهو ضالٌّ وضَلُول .

وأَضلَّه غيره وضلَّلَه .

وضلَلتُ بعيرى : إذا كان معقولاً فلم تهتدِ لمكانه ، وأَضللته : إذا كان مطلقًا فمرّ ولم يدرِ أَين أَخَذَ .

وأَضللت خاتمى .

وضلّ فى الدّين .

وهو ضالٌّ ، وضلّيل ، وصاحب ضلال وضلالة ، ومُضَلَّل .

ووقع فى أَضاليل وأَباطيل .

وفلانٍ لضِلَّة : لِغيّة .

وذهب دمه ضِلَّة : هَدَرًا .

وضلّ عنّى كذا : ضاع .

وضَلَّلْتُه : أُنسِيته .

وأَضلَّنى أَمر كذا : لم أَقدر عليه .

وأَنشد ابن الأَعرابىّ :

*إِنّى إِذا خُلَّة تضيَّفنى * يريد مالى أَضلَّنى عِلَلِى*

وضلّ الماءُ فى اللبن ، واللبنُ فى الماءِ : غاب .

وأُضِلّ الميّتُ : دُفِنَ .

وفلان ضُلّ بن ضُلّ ، وقُلّ بن قُلّ : لا يُعْرف هو وأَبوه .

قال :

*فإِنّ إِيادكم ضُلُّ ابن ضُلّ * وإِنَّا من إِيادكم بَرَاءُ*

ويقال الضلال لكل عدول عن المنهج ، عمدًا كان أَو سهوًا ، يسيرًا كان أَو كثيرًا ، فإِنَّ الطريق المستقيم الذى هو المرتضَى صعب جدًّا ، ولهذا قال صلَّى الله عليه وسلم : "استقيموا ولن تُحْصوا" .

وقيل : لن تحصوا ثوابه .

وقال بعض الحكماء .

كونُنا مصيبين من وجه ، وكوننا ضالّين من وجوه كثيرة ، فإنَّ الاستقامة والصّواب يجرى مجرى المقرطَس من المرمىّ ، وما عداه من الجوانب كلّها ضلال .

وإذا كان الضلال تَرْكُ الطريق المستقيم ، عمدًا كان أَو سهوًا ، قليلاً كان أَو كثيرًا ، صحّ أَن يستعمل لفظ الضَّلال فيمن يكون منه خطأ مّا .

ولذلك نُسب الضلال إلى الأَنبياءِ وإلى الكفار ، وإنْ كان بين الضلالَيْن بَوْن بعيد ، قال تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَى ﴾ ، أَى غير مهتد لما سيق إليك من النبوّة .

(48/707)

و ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذاً وَأَنَاْ مِنَ الضَّآلِّينَ ﴾ ، وقال : ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ تنبيهًا أَنَّ ذلك منهم سهو .

وقوله تعالى : ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا ﴾ ، أَى تَنْسَى ، وذلك من النّسيان الموضوع عن الإنسان .

والضَّلال من وجه آخر ينقسم قسمين : ضلال فى العلوم النظريّة ؛ كالضلال فى معرفة الوحدانيّة ومعرفة النبوّة ونحوهما المشار إليهما بقوله : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً ﴾ .

/ وضلال فى العلوم العمليّة ، كمعرفة الأَحكام الشرعيّة .

والضَّلال البعيد إشارة إلى ما هو كفر .

وقوله تعالى : ﴿ بَلِ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلاَلِ الْبَعِيدِ ﴾ أَى فى عقوبة الضلال البعيد .

وقوله : ﴿ أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ ﴾ كناية عن الموت واستحالة البدن .

وقوله : ﴿ وَلاَ الضَّآلِّينَ ﴾ ، قيل : أَراد به النَّصارى .

وقوله : ﴿ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى ﴾ أَى لا يَغْفل عنه .

وقولُه : ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾ ، أَى فى باطل وإِضلال لأَنفسهم .

والإِضلال ضربان : أَحدهما أَن يكون سببه الضلال ، وذلك على وجهين : إِمّا أَن يضِلّ عنك الشىء ، كقولك : أَضللتُ البعير ، أَى ضلّ عنى ؛ وإِمّا أَن يحكم بضلاله .

فالضلال فى هذين سبب للإِضلال .

الضَّرب الثانى : أَن يكون الإِضلال سببًا للضلال .

وهو أَن يزيّن للإِنسان الباطل ليَضِلّ ، كقوله تعالى : ﴿ لَهَمَّتْ طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ ﴾ أَى يَتَحَرَّون أَفعالا يقصدون بها أَن تَضِلّ ، فلا يحصل من فعلهم ذلك إِلاَّ ما فيه ضلال أَنفسهم .

وإِضلال الله تعالى للإِنسان على وجهين :

أَحدهما : أَن يكون سببه الضلال .

(49/707)

وهو أَن يَضِلّ الإِنسانُ فيحكم الله عليه بذلك فى الدنيا ، ويعدل به عن طريق الجنَّة إِلى النار فى الآخرة .

وذلك الإِضلال هو حقّ وعَدْل ؛ فإِنَّ الحكم على الضَّال بضلاله ، والعدولَ به عن طريق الجنَّة إِلى النار حقّ وعدل .

والثانى : من إِضلال الله : هو أَنَّ الله تعالى وضح جِبِلَّة الإِنسان على هيئةٍ إِذا راعى طريقًا محمودًا كان أَو مذمومًا أَلِفه واستطابهُ ، وتعسّر عليه صرفُه وانصرافه عنه .

ويصير ذلك كالطبْع الذى يأبى على النَّاقل ؛ ولذلك قيل : العادة طبع ثان .

وهذه القوّة فينا فعلٌ إِلهىّ .

وإِذا كان كذلك ، وقد ذكر فى غير هذا الموضع أَن كل شىء يكون سببًا فى وقوع فعل يصحّ نسبة ذلك الفعل إِليه ، فصحَّ أَن ينسب ضلال العبد إِلى الله من هذا الوجه ، فيقال : أَضلَّه الله ، لا على الوجه الذى يتصوّره الجَهَلة .

ولِمَا قلنا جعَل الإِضلال المنسوب إلى نفسه للكافر والفاسق دون المؤمن ، بل نفى عن نفسه إضلال المؤمن فقال : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ ﴾ ، ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ .

وقال فى الكافرين : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْساً لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ ، ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

وعلى هذا النحو تقليب الأَفئدة والأَبصار فى قوله : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ ﴾ ، والخَتْم على القلب فى قوله : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ ، وزيادة المرض فى قوله : ﴿ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 481 .

485 ﴾

(50/707)

فصل

قال المقريزى :

فصل في ذكر صفة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

اعلم أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان ربعه ، بعيد ما بين المنكبين ، أبيض اللون

مشربا حمرة ، يبلغ شعره شحمة أذنيه ، وكان شعره فوق الجمة ، ودون الوفرة ، ودخل مكة وله أربع غدائر ، وكان سبط الشعر ، في لحيته كثافة ومات صلّى الله عليه وسلّم ولم يبلغ الشيب في رأسه ولحيته عشرين شعرة ، وكان ظاهر الوضاءة ، يتلألأ وجهه كالقمر ليلة البدر ، وكان كما وصفته عائشة رضي الله عنها بما قاله شاعره حسان بن ثابت رضي الله عنه [1] :

متى يبد في الداجي البهيم جبينه يلح مثل مصباح الدجى المتوقد

فمن كان أو قد يكون كأحمد نظام لحق أو نكال لملحد

وكما كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول إذا رآه صلّى الله عليه وسلّم :

أمسى مصطفى بالخير يدعو كعضو البدر زايله الظلام

وكما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ينشد إذا رآه :

لو كنت من شيء سوى بشر كنت المعني لليلة البدر

وكان أبيض اللون ، ليس بالأبيض الأمهق [2] ولا بالآدم [3] ، أقنى العرنين [4] ،

[()] رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : سموا باسمي ولا تكنوا بكنيتي ، فإنما أنا قاسم بعثت أقسم بينكم» ، وفي باب من رأى الكراهة في الجمع بينهما : أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال : «من تسمي باسمي فلا يكنى بكنيتي ، ومن تكنى بكتيتي فلا يتسمي باسمي» ، وفي باب ما جاء في الرخصة في الجمع بينهما ما رواه محمد بن الحنفية عن علي رضي الله

عنه ، ثم قال : والحديث مختلف في وصله ، وتعقبه صاحب (الجوهر النقي) ص 309 بأن (الترمذي) قد أخرج هذا الحديث ، وصححه ، وذهب إلى جواز التكني بأبي القاسم لمن اسمه محمد ، مذهب مالك وجمهور السلف وفقهاء الأمصار وجمهور العلماء ، وقد اشتهر جماعة تكنوا بأبي القاسم في العصر الأول ، وفيما بعد ذلك إلى اليوم مع كثرة فاعلي ذلك ، وعدم الإنكار ، كذا في شرح مسلم للنووي .

[1] ديوان حسان بن ثابت ص . 380

[2] مهق مهقا : كان لونه أبيض ناصع البياض بغير حمرة ، وهو معيب في لون الإنسان ، فهو أمهق (المعجم الوسيط) ج 2 ص 890 .

[3] أدم أدما وأدمة : اشتدت سمرته : فهو آدم . المرجع السابق ج 1 ص 10 .

[4] قوله : أقنى العرنين : القنا أن يكون في عظم الأنف احديداب في وسطه ، والعرنين : الأنف (صفة الصفوة) ج 1 ص 162 .

سهل الخدين ، أزج الحاجبين [1] أقرن [2] ، أدعج العينين [3] ، في بياض عينيه عروق حمر دقاق ، حسن الخلق معتدلة ، أطول من المربوع وأقصر من المشذب ، دقيق السرة ،

كأن عنقه إبريق فضة ، من لبته إلى سرته شعر يجري كالقضيب ، ليس في بطنه ولا صدره شعر غيره ، شثن الكف والقدم ، ضليع [4] الفم أشنب ، مفلج الأسنان [5] ، بادنا متماسكا [6] سواء البطن والصدر ، ضخم الكراديس [7] ، أنور المتجرد ، أشعر الذراعين والمنكبين ، عريض الصدر طويل الزندين ، رحب الراحة ، شائل الأطراف [8] خمصان [9] ، بين كتفيه خاتم النبوة مثل بيضة الحمام يشبه جسده ، إذا مشى كأنما يتحدّر من صبب [10] وإذا مشى كأنما يتقلع من صخر [11] ، وإذا التفت التفت جميعا ، كأن عرقه اللؤلؤ ، ولريح عرقه أطيب من ريح المسك [12] .

---

[1] أزج الحاجبين : أي مقوس الحاجبين .

[2] القرن (بالتحريك) : اقتران الحاجبين بحيث يلتقي طرفاهما .

[3] الأدعج : الشديد سواد العينين .

[4] الضليع : الواسع ، والعرب تمدح ذلك ، لأن سمته دليل الفصاحة .

[5] الفلج : انفراج ما بين الأسنان .

[6] البادن : السمين المعتدل السمن .

[7] الكراديس : رءوس العظام .

[8] السائل والشائل : الطويل .

[9] أخمص القدم هو الموضع الّذي لا يمس الأرض عند الوطء من وسط القدم .

[10 ، 11] أي إذا مشي رفع رجليه بقوة. وفي رواية: (تكفّؤا) وهي تأكيد لما قبلها.

[12] وقد أورد ابن الجوزي في (صفة الصفوة) ج 1 ص 162 ، 163 ، 164 ، 165 فصلا جامعا في تفسير غريب أحاديث صفة النبي صلّى الله عليه وسلّم نذكره هنا بصف إجمالية.

الفخم المفخم: هو العظيم المعظم في الصدور والعيون.

المشذب: الطويل الّذي ليس بكثير اللحم.

الرجل الشعر: الّذي في شعره تكسر، فإذا كان الشعر منبسطا قبل شعر سبط.

والعقيقة: الشعر المجتمع في الرأس.

الأزهر اللون: النير.

أزج الحواجب: أي طويل امتدادهما لوفور الشعر فيهما وحسنه إلى الصدغين.

الأشم: الّذي عظم أنفه طويل إلى طرف الأنف.

وضليع الفم: كبيره، والعرب تمدح بذلك وتهجو بصغره.

والدمية: الصورة وجمعها دمي.

بادن متماسك: أي تام خلق الأعضاء ليس بمسترخي اللحم ولا كثيره.

وقال عند أم سليم [1] فعرق ، فجاءت بقارورة فجعلت تسكب العرق فيها ، فاستيقظ صلّى الله عليه وسلّم فقال : يا أم سليم ، ما هذا الّذي تصنعين ؟ قالت : هذا عرقك نجعله في طيبنا وهو أطيب من الطيب . وكان في صوته صهل وفي عنقه سطع ، إن سكت فعليه الوقار ، وإن تكلم سماه وعلاه البهاء ، أجمل الناس وأبهاه من بعيد ، وأحلاه وأجمله من قريب ، حلو المنطق خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء يسوق أصحابه ، ويبدأ من لقيه بالسلام ، أجود الناس كفّا ، وأرحب الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفى [2] الناس بعهده ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه [معرفة أحبّه] .

يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله صلّى الله عليه وسلّم .

فأما صفة رأسه المقدس

فقد خرج أبو عيسى الترمذي من حديث جميع بن عمر العجليّ قال : حدثني رجل

[()] سواء البطن والصدر : معناه أن بطنه ضامر وصدره عريض ، فلهذا ساوى بطنه صدره .

أنور المتجرّد : أي نير الجسد إذا تجرد من الثياب .

والنير : الأبيض المشرق .

مسيح القدمين : أي ليس بكثير اللحم فيهما وعلى ظاهرهما .

ذريع المشية : واسع المشية من غير أن يظهر منه استعجال .

المهين : الحقير .

يسوق أصحابه : يقدمهم بين يديه ومن ورائه .

لكل حال عنده عتاد : أي عدة ، يعني أنه قد أعد للأمور أشكالها .

وقوله : يرد بالخاصّة على العامة : فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه كان يعتمد على أن الخاصة ترفع علومه وآدابه إلى العامة ، ومعنى ذلك أن العامة كانت لا تصل إليه في هذا الوقت ، فكانت الخاصة تخبر العامة بما سمعت منه ، فكأنه أوصل الفوائد إلى العامة بالخاصة .

والثاني : أن المعني يجعل المجلس للعامة بعد الخاصة . فتنوب الباء عن (من) ، و(على) عن (إلى) .

والثالث : فيرد ذلك بدلا من الخاصة على العامة ، فتفيد الباء معنى البدل .

[1] قال : من القيلولة وهي نوم الظهيرة .

[2] في (خ) «وأوتا» .

عن ابن لأبي هالة عن الحسن بن على عن خاله هند بن أبي هالة قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عظيم الهامة [1] .

وقال شريك عن عبد الملك بن عمير بن نافع بن جبير قال : وصف لنا عليّ رضي الله عنه النبي صلّى الله عليه وسلّم فقال : كان عظيم الهامة [1] .

وأما وجهه الكريم

فخرج البخاري من حديث عن إسحاق بن منصور قال : أخبرنا إبراهيم بن يوسف عن أبيه عن أبي إسحاق ، قال : سمعت البراء يقول : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أحسن الناس وجها وأحسنهم خلقا ، ليس بالطويل الذاهب ، وليس بالقصير [2] .

وقال البخاري : ليس بالطويل البائن ، ذكره في باب صفة النبي صلّى الله عليه وسلّم [3] .

وخرجه ابن أبي خيثمة ، من حديث إبراهيم بن يوسف كما رواه مسلم والبخاري والترمذي من حديث أبي نعيم ، حدثنا زهير عن أبي إسحاق قال : سئل البراء أكان وجه النبي صلّى الله عليه وسلّم مثل السيف ؟ قال لا ، مثل القمر [4] . قال : هذا حديث حسن [5] .

ولمسلم من حديث أبي بكر بن أبي شيبة عن عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن سماك ، أنه سمع جابر بن سمرة قال له رجل : أكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وجهه كالسيف

؟ قال جابر : لا ، مثل الشمس والقمر مستديرا .

وقال المحاربي عن أشعث عن أبي إسحاق عن جابر بن سمرة قال : رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في ليلة أضحيان وعليه حلّة حمراء ، فجعلت انظر إليه وإلى القمر ، فلهو أحسن كان في عيني من القمر ، وفي لفظ قال : رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في ليلة

---

[1] (الشمائل المحمدية للترمذي) ص . 9

[2] الحديث رقم 3549 (صحيح البخاري) بشرح (ابن حجر في الفتح) .

[3] (المرجع السابق) الحديث رقم . 3548

[4] (المرجع السابق) الحديث رقم 3552 .

[5] (الجامع الصحيح للترمذي) ج 5 ص 259 حديث رقم 3715 .

أضحيان [1] ، وعليه حلة حمراء ، فجعلت أماثل بينه وبين القمر [2] .

وخرج البخاري من حديث يحيى بن بكير ، أخبرنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، أن عبد الله بن كعب - وكان قائد كعب من بنيه حين عمى - قال : سمعت كعب بن مالك يقول : لما سلمت على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو

يبرق وجهه ، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا سرّ استنار وجهه كأنه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه [3] .

وخرج أيضا من حديث يحيى عن عبد الرّزاق قال : أخبرنا ابن جريج عن ابن شهاب عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخل النبي صلّى الله عليه وسلّم يوما مسرورا وأسارير وجهه تبرق فقال : ألم تسمعي ما قال مجزر المدلجي ، ورأى زيدا وأسامة قد غطيا رءوسهما ، وبدت أقدامها ، فقال : إن هذه الأقدام بعضها من بضع [4] .

وخرّجه مسلم عن عبد بن حميد عن عبد الرّزاق ، وقال أبو إسحاق الهمدانيّ عن امرأة من همدان سمّاها قالت حججت مع النبي صلّى الله عليه وسلّم مرات فرأيته على بعير له يطوف بالكعبة ، بيده محجن ، عليه بردان أحمران يكاد يمس منكبه ، إذا مر بالحجر استلمه بالمحجن ، ثم يرفعه إلى فمه فيقبله ، قال أبو إسحاق : فقلت لها شبّهيه ، قالت : [كان] كالقمر ليلة البدر ، ولم أر قبله ولا بعده مثله صلّى الله عليه وسلّم [5] .

وخرّج عبد الله بن محمد بن إسحاق الفاكهي من حديث أسامة بن زيد عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال : قلنا للربيع بنت معوذ : صفي لي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قالت : لو رأيته لقلت : الشمس طالعة [5] .

وفي حديث هند بن أبي هالة : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فخما مفخما [6] يتلألأ

---

[1] أضحيان : أي مضيئة .

[2] أخرجه الترمذي في (الشمائل المحمدية) ص 12 .

[3] (فتح الباري) ج 6 ص 565 حديث رقم 3556 ، وفي (خ) «ذاك منه» وما أثبتناه رواية البخاري .

[4] المرجع السابق ، حديث رقم 3555 ولفظه : «ألم تسعى ما قال المدلجي لزيد وأسامة ورأى أقدامهما» .

[5] (البداية والنهاية) ج 6 ص 15 .

[6] في (خ) «فخما فخما» وما أثبتناه من (الشمائل) .

وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر ، خرجه الترمذي [1] .

وفي حديث علي رضي الله عنه : كان في وجه رسول الله تدوير . ولأحمد من حديث عبد الرازق قال : أخبرنا إسرائيل عن سماك أنه سمع جابر ابن سمرة يقول : كان وجه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مستديرا .

وفي حديث أم معبد قالت [2] : رأيت رجلا ظاهر الوضاءة متبلج الوجه (تعنى مشرق

الوجه مضيئة) ، ومنه : تبلج الصبح إذا أسفر .

وفي حديث هند بن أبي هالة : كان سهل الخدين ، وقال قتادة : ما بعث الله نبيا إلا بعثه حسن الوجه وحسن الصوت ، حتى بعث نبيكم صلّى الله عليه وسلّم فبعثه حسن الوجه حسن الصوت ، ولم يكن يرجّع ، ولكن كان يمد بعض المد .

وأما صفة لونه

فخرج البخاري في باب صفة النبي صلّى الله عليه وسلّم من حديث يحيى بن بكير قال : حدثني الليث عن خالد عن سعيد ابن أبي هلال عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن قال : سمعت أنس بن مالك يصف النبي صلّى الله عليه وسلّم قال : كان ربعة من القوم ليس بالطويل ولا بالقصير ، أزهر اللون ، ليس بأبيض أمهق ، ولا بأدم ، ليس بجعد قطط ، ولا سبط رجل ، أنزل عليه وهو ابن أربعين ، فلبث بمكة عشر سنين ينزل عليه : وبالمدينة عشر سنين ، وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء . قال ربيعة . فرأيت شعرا من شعره فإذا هو أحمر ، فسألت . فقيل : أحمر من الطيب [3] .

ولمسلم من حديث إسماعيل بن جعفر وسليمان بن بلال . كلاهما عن ربيعة عن أنس أنه سمعه يقول : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ليس بالطويل البائن ولا بالقصير ، وليس بالأبيض الأمهق ولا بالآدم ، ولا بالجعد القطط ، ولا بالسبط ، كان أزهر ، بعثه الله على رأس أربعين سنة ، فأقام بمكة عشر سنين ، وبالمدينة عشر سنين ، وتوفاه الله على دابر

ستين سنة ، وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء [4] .

---

[1] (الشمائل المحمدية للترمذي) ص 76 .

[2] الحديث بتمامه في آخر كتاب (الشمائل المحمدية للترمذي) .

[3] (فتح الباري) ج 6 ص 564 حديث رقم 3547 .

[4] (صحيح مسلم بشرح النووي) ج 15 ص 100 .

لم يقل في حديث إسماعيل على رأس ستين سنة . قال الحافظ أبو نعيم : هذا حديث صحيح ثابت متفق عليه ، رواه عن ربيعة يحيى بن سعيد الأنصاري ، وعمرو ابن يحيى المازني ، وعبادة بن غزية ، وسعيد بن هلال وأسامة بن زيد ، ونافع بن أبي نعيم ، ومحمد بن إسحاق ، وعبد الله بن عمر ، وفليح . وأبو أويس ، وعبد العزيز الماجشون ، والدراوَرْديّ : والثوري ، ومالك والأوزاعي ، وسعد ، وأبو بكر ابن عياش ، وقرة بن جبريل ، وأبو زكين ، وأنس بن عياض ، ومنصور بن أبي الأسود ، وإبراهيم بن طهمان في آخرين .

وخرّج الترمذي من حديث عبد الوهاب الثقفي عن حميد عن أنس ، قال :

كان النبي صلّى الله عليه وسلّم ربعة ، ليس بالطويل ، ولا بالقصير ، حسن الجسم ، أسمر اللون ، كان شعره ليس بجعد ولا سبط ، إذا مشى يتوكأ ، قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح غريب [1] .

ولمسلم من حديث الجرير عن أبي الطفيل قال : قلت له : رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ؟ قال : نعم ، كان أبيض مليح الوجه [2] .

وله أيضا من حديث الجرير عن أبي الطفيل قال : رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وما على وجه الأرض رجل رآه غيري ، قال : قلت : فكيف رأيته : قال : كان أبيض مليح الوجه مقصدا [2] .

وخرجه ابن أبي خيثمة والبخاري ومسلم من حديث محمد بن فضيل عن إسماعيل بن أبي خالد عن أبي جحيفة قال : رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد شاب ، وكان الحسن بن على يشبهه [3] .

ولأبي داود الطيالسي من حديث عثمان بن عبد الله بن عزيز عن نافع بن جبير عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مشربا وجهه حمرة . قال البيهقي ، ويقال إن المشرب بالحمرة ما أضحى للشمس والرياح ، وما تحت

---

[1] (الشمائل المحمدية للترمذي) ص 29 حديث رقم 2 وإسناده جيد قوى .

[2] (مسلم بشرح النووي) ج 15 ص 93 .

[3] كذا في (خ) «و رواية البخاري : «رأيت النبي صلّى الله عليه وسلّم ، وكان الحسن يشبهه» (فتح الباري) ج 6 ص 563 حديث رقم 3543 .

الثياب فهو الأبيض الأزهر .

وقال ابن إسحاق عن ابن شهاب عن عبد الرحمن بن مالك بن جعشم ، عن أبيه أن سراقة بن جعشم قال : أتيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم [و كان راكبا] على ناقته ، انظر إلى ساقه كأنها جمّارة [1] .

وخرج الحافظ يعقوب بن سفيان الفسوي من حديث مزاحم بن أبي مزاحم عن عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد عن محرش الكعبي قال : اعتمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من الجعرانة ليلا فنظرت إلى ظهره كأنه سبيكة فضة .

وخرج من حديث ابن شهاب عن سعيد بن المسيب أنه سمع أبا هريرة رضي الله تعالى عنه يصف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال : كان شديد البياض .

وللترمذي في الشمائل من حديث صالح بن أبي الأخضر عن ابن شهاب عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أبيض كأنما صيغ من فضة ، رجل

الشعر [2] قلت : صالح بن أبي الأخضر ضعيف في الزهري ، قال ابن معين :

ليس بشيء في الزهري ، وفي رواية صالح بن أبي الأخضر بغير ضعيف [3] .

وقال ابن المبارك : أخبرني رشدي بن سعد قال : أخبرني عمرو بن الحارث عن أبي يونس مولى أبي هريرة أنه سمع أبا هريرة قال : ما رأيت شيئًا أحسن من النبي صلّى الله عليه وسلّم كأن الشمس تجري في وجهه ، وما رأيت أحدا أسرع في مشيته منه ، كأن الأرض تطوى له ، إنا لنجتهد وإنه [4] غير مكترث .

وخرجه أبو عيسى الترمذي من حديث قتيبة قال : أخبرنا ابن لهيعة عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : ما رأيت [شيئًا أحسن من النبي صلّى الله عليه وسلّم] [5] .

وخرجه تقي بن مخلد من حديث حرملة قال : أخبرنا ابن وهب قال : أخبرني

---

[1] الجمار : قلب النخل : واحدته : جمارة (المعجم الوسيط) ج 1 ص 124 .

[2] (الشمائل المحمدية للترمذي) ص 12 .

[3] «وقال البخاري وأبو حاتم : لين ، وقال البخاري والنسائي : ضعيف ، وقال الترمذي : يضعف في الحديث – ضعفه يحيى القطان وغيره ، وقال ابن عدي : وفي بعض حديثه ما ينكر وهو من الضعفاء الذين يكتب حديثهم ، (تهذيب التهذيب) ج 4 ص 381 .

[4] في (خ) «وأتا» .

[5] (الشمائل المحمدية) ص 60 حديث رقم 115 ولفظه «أسرع في مشيته من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم» .

(58/707)

عمرو بن الحارث أن أبا يونس مولى أبي هريرة حدثه عن أبي هريرة أنه سمعه يقول :

ما رأيت شيئًا أحسن من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، كأنما الشمس تجري في وجهه ، وما رأيت أحدا أسرع من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في مشيته كأنما الأرض تطوى له ، إنا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث .

قال الترمذي : هذا حديث غريب : قال مؤلفه : إسناد تقي هذا الحديث أجود من إسناد الترمذي ، وإسناد تقي على شرط مسلم .

وقد روي مسلم عن حرملة بن يحيى هذا غير ما حدثت ، ولم يخرج هو ولا البخاري من حديث ابن لهيعة شيئًا .

وخرّج مسلم من حديث محمد بن جعفر قال : أخبرنا شعبة عن سماك بن حرب قال : سمعت جابر بن سمرة قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ضليع الفم ، أشكل العينين ، منهوس العقبين [1] .

قال : قلت لسماك : ما ضليع الفم ؟ قال : عظيم الفم ، قلت ، ما أشكل العينين ؟ قال .

طويل شق العينين ، قلت : ما منهوس العقب ؟ قال : قليل لحم العقب .

قال قاسم بن ثابت في كتاب الدلائل : وتفسير سماك على ما ذكره إلا في الشكلة ، فإن ابن الهيثم أخبرنا عن داود بن محمد عن ثابت بن عبد العزيز قال :

الشكلة في العين حمرة تخالط البياض ، وقال أبو عبيد : الشكلة كهيئة الحمرة تكون في بياض العين ، والشهلة عين الشكلة ، وهي حمرة في سواد العين .

وخرجه الترمذي من حديث أبي قطن قال : أخبرنا شعبة عن سماك بن حرب عن جابر بن سمرة قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أشكل العينين منهوس العقب ، قال :

هذا حديث حسن صحيح .

وخرج من حديث محمد بن جعفر عن شعبة مثل حديث مسلم ، وقال في تفسيره : قال شعبة : قلت لسماك : ما ضليع الفم ؟ قال : واسع الفم . . الحديث .

---

[1] في (الشمائل المحمدية) «منهوس العقب» ص 11 رقم 8 وما أثبتناه من (خ) وهي رواية صحيح مسلم ، (مسلم بشرح النوري) ج 3 ص 93 .

وخرجه أبو داود من حديث شعبة بسنده ولفظه : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أشهل العينين منهوس العقب ضليع الفم .

وللترمذي من حديث عباد بن العوام ، أخبرنا الحجاج عن سماك بن حرب عن جابر بن سمرة قال : كان في ساقي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حموشة ، وكان لا يضحك إلا تبسما ، وكنت إذا نظرت إليه قلت : أكحل وليس بأكحل . قال أبو عيسى .

هذا حديث حسن غريب صحيح [1] .

وله من حديث عمر بن عبد الله مولى غفرة قال : حدثني إبراهيم بن محمد من ولد علي رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أدعج العينين أهدب الأشفار [2] ، والدعج : سواد العينين ، والأهدب : الطويل الأشفار ، وهو الشعر المتعلق به الأجفان .

وقال حجاج : حدثنا حماد عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن محمد بن علي عن أبيه قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عظيم العينين أهدب الأشفار متشرب العين بحمرة .

وخرّج سعيد بن منصور من حديث خالد بن عبد الله عن عبيد الله بن محمد ابن عمر بن علي بن أبي طلب عن أبيه عن جده قال : قيل لعلي رضي الله عنه :

انعت لنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال : كان أبيض مشربا بياضه حمرة ، وقال : كان أسود الحدقة أهدب الأشفار . وله من حديث عيسى بن يونس قال ، حدثنا عمر بن

عبد الله مولى غفرة عن إبراهيم بن محمد من ولد علي قال : كان علي رضي الله عنه إذا نعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : كان في الوجه تدوير أبيض مشرب ، أدعج العينين ، أهدب الأشفار . ومن حديث ابن أبي ذؤيب : حدثنا صالح مولى التّزمّة عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان ينعت النبي صلّى الله عليه وسلّم قال . كان أهدب أشفار العين .

---

[1] (الشمائل المحمدية) ص 186 حديث رقم 227 ، والحموشة : الدقة ، والكحل (بفتحتين) : سواد في أجفان العين .

[2] (سنن الترمذي) ج 5 ص 260 حديث رقم 3717 .

أما صفة جبينه وأنفه وحاجبيه وفمه وأسنانه ونكهته

فخرّج يعقوب بن سفيان من حديث الزهري عن سعيد بن المسيّب أنه سمع أبا هريرة يصف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال : كان خاضّ الجبين أهدب الأشفار .

وفي حديث أبي هالة : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم واسع الجبين أزج الحواجب سوابغ في غير قرن ، بينهم عرق يدره الغضب ، أقنى العرنين ، له نور يعلوه ، يحسبه من لم

يتأمله أشمّ ، سهل الخدين ضليع الفم أشنب ، مفلج الأسنان .

وقال موسي بن عقبة عن كريب عن ابن عباس رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أفلج الثنيتين ، كان إذا تكلم رئي كالنور بين ثناياه ، وقال أبو عبيدة معمر ابن المثنى : حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : كنت قاعدة أغزل والنبي صلّى الله عليه وسلّم يخصف نعله ، فجعل جبينه يعرق ، وجعل عرقه يتولد نورا ، فبهت ، فنظر إليّ فقال : مالك ؟ قلت : جعل جبينك يعرق ، وجعل عرقك يتولد نورا ، فلو رآك أبو كثير الهزلي لعلم أنك أحق بشعره ، قال : وما يقول أبو كثير ؟ قلت :

يقول :

وإذا نظرت إلى أسرّة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل

فقام فقبّل بين عيني ، وقال : جزاك الله يا عائشة عني خيرا ، ما سررت مني كسروري منك . أخرجه ابن عساكر في تاريخه .

ولابن حبان من حديث أبي جعفر الداريّ ، عن أبي رهم عن يونس بن عبيد (مولى لأنس) عن أنس قال : صحبت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عشر سنين ، وشممت العطر كله ، فلم أشم نكهة أطيب من نكهته [1] .

وأما بلوغ صوته حيث لا يبلغ صوت غيره

فخرج أبو نعيم من حديث حمزة الزيات عن أبي إسحاق عن البراء قال : خطبنا رسول الله

صلّى الله عليه وسلّم حتى أسمع العواتق في خدورهن ، ينادي بأعلى صوته : يا معشر من آمن بلسانه ولم يخلص الإيمان إلى قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ،

---

[1] ونحوه في البخاري ، انظر (فتح الباري) ج6 ص 66 ، حديث رقم 3561 بلفظ آخر .

فإنه من يتبع عورة أخيه أتبع الله عورته ، ومن اتبع الله عروته فضحه في جوف بيته [1] .

وخرجه من حديث عمران بن وهب عن سعيد بن عبد الله بن جريج عن أبي بردة قال : خرج علينا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالهاجرة العليا بصورت يسمع العواتق في خدورهن فقال : يا معشر من آمن بلسانه . . . فذكره .

ومن حديث أبي ثميلة قال : حدثنا جريج بن هلال الطائي ، حدثنا عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : صلينا خلف النبي صلّى الله عليه وسلّم يوما ، فلما انفلت من صلاته أقبل علينا غضبان فنادى بصوت أسمع العواتق في أجواف الخدور فقال : يا معشر من أسلم بلسانه ، ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تسبوا المسلمين ولا تطلبوا عوراتهم ، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم هتك الله ستره ، وأبدى عروته ولو كان في جوف بيته ، أو في ستر بيته [2] . عن

هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلّى الله عليه وسلّم جلس يوم الجمعة على المنبر فقال للناس : اجلسوا ، فسمع عبد الله بن رواحة فجلسوا في بني غنم ، فقيل يا رسول الله ، ذاك ابن رواحة جالس في بني غنم ، سمعك وأنت تقول للناس اجلسوا فجلسوا في مكانه [3] . وله من حديث مسدد قال : أخبرنا عبد الوارث عن حميد الأعرج عن محمد ابن إبراهيم التيمي بن عبد الرحمن بن معاذ – وكان من أصحاب النبي صلّى الله عليه وسلّم – قال : خطبنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بمنى ، ففتحنا أسماعنا حتى إن كنا لنسمع ما يقول ونحن في منازلنا ، فطفق يعلمهم مناسكهم ثم قال : عليكم بحصى الخذف [4] . وقال سفيان عن سعد عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة عن أم هانئ قالت : كنت أسمع قراءة النبي صلّى الله عليه وسلّم وأنا على عريش أهلي .

وقال هلال بن حباب : نزلت أنا ومجاهد على يحيى بن جعدة بن أم هانئ فحدثنا عن أم هانئ قالت : كنا نسمع قراءة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في جوف الليل عند

---

[1] (دلائل النبوة لأبي نعيم) ج2 ص . 157

[2] المرجع السابق .

[3] المرجع السابق ج2 ص . 158

[4] المرجع السابق ج2 ص 158 .

الكعبة وأنا على عريشي .

وأما صفة لحيته

ففي حديث علي رضي الله عنه : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ضخم الرأس واللحية ، وفي رواية : كان ضخم الهامة عظيم اللحية [1] . وللترمذي من حديث أبي هالة : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كثّ اللحية .

ورواه حماد عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن محمد بن علي عن أبيه قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كث اللحية ، وليعقوب بن سفيان من حديث الزهري عن ابن المسيب أنه سمع أبا هريرة يصف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال : كان أسود اللحية حسن الشعر .

وقال محمد بن المثنى : حدثنا يحيى بن كثير عن أبي ضمضم قال : نزلت بالرجيع فقيل لي : هاهنا رجل رأى النبي صلّى الله عليه وسلّم فأتيته فقلت : رأيت رسول الله ؟

قال نعم ، رأيته رجلا مربوعا حسن السّبلة ، قال : وكانت اللحية تدعى في أول الإسلام سبلة .

وقال عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يأخذ من لحيته من طولها وعرضها بالسّوية .

وروي ابن عبد البر من طريق جنادة بن مروان الأزدي عن جرير بن عثمان عن عبد الله بن بسر قال : كان شارب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بجيال شفته .

وقال محمد بن عائذ : قال ابن شهاب الزهري : أخبرني عروة عن عائشة رضي الله عنها ، انصرف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من جنازة سعد بن معاذ ويده في لحيته .

وقال ابن شهاب : أخبرني سعيد بن المسيب عن عائشة قالت : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا وجد [2] فإنما يده في لحيته يفتلها أو يحركها .

قال محمد بن عمرو عن علقمة الليثي عن عائشة قالت . بكى أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على سعد - يعني ابن معاذ - حتى إني لأعرف بكاء أبي بكر من بكاء

---

[1] ونحوه في (البداية والنهاية) ج 6 ص 18 .

[2] من الوجد ، وهو الحزن والأسى

عمر رضي الله عنهما ، قالت : وكانوا كما قال الله عزّ وجلّ : رُحَماءُ بَيْنَهُمْ 48 : 29 [1] .

فقال : يا أمتاه ! فما صنع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ؟ فقالت : ما كانت عيناه تكاد تدمعان على أحد ، ولكنه كان إذا وجد [2] فإنما يده في لحيته .

وقال حماد بن سلمة : أخبرنا عبيد الله بن عمر عن سعيد المقبري عن ابن جريج أنه قال لابن عمر : رأيتك تحفي شاربك ، قال : رأيت النبي صلّى الله عليه وسلّم يحفي شاربه .

وقال الفضل بن دكين : أخبرنا مندل عن عبد الرحمن بن زياد عن أشياخ لهم قالوا : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يأخذ الشارب من أطرافه .

وأما صفة شعره

فخرج مسلم من حديث أنس كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رجل الشعر ليس بالسبط ولا بالجعد القطط .

وأخرج من حديث مالك وغيره عن ربيعة ، وللبخاريّ من حديث مسلم ابن إبراهيم : أخبرنا جرير عن قتادة عن أنس : كان النبي صلّى الله عليه وسلّم ضخم اليدين لم أر بعده مثله ، وكان شعر النبي صلّى الله عليه وسلّم رجل لا جعدا ولا سبطا .

ومن حديث وهب بن جرير قال : حدثني أبي عن قتادة قال : سألت أنس ابن مالك عن شعر النبي صلّى الله عليه وسلّم فقال : كان شعر رسول الله رجلا ليس بالسبط ولا الجعد

، بين أذنيه وعاتقه ، ذكرهما في اللباس ، وخرّج مسلم من هذه الطريق نحو هذا [3] .

ولأبي داود من حديث عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن ثابت عن أنس قال :

كان شعر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى شحمة أذنيه [4] .

وقال حميد عن أنس كان شعر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى أنصاف أذنيه .

---

[1] من الآية 29/ الفتح .

[2] من الوجد وهو الحزن والأسى .

[3] (مسلم بشرح النووي) ج 15 ص 92 .

[4] (سنن أبي داود) ج 4 ص 405 باب ما جاء في الشعر ، الأحاديث 4183 ، 4184 ، 4185 ، 4186 ، 4187 ، انظر أيضا : (البخاري) في (اللباس) باب الجعد ، و(مسلم) في الفضائل باب صفة النبي ، و(النسائي) في الزينة حديث 5234 باب اتخاذ الجمة .

وللبخاريّ من حديث أبي إسحاق سمعت البراء بن عازب قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مربوعا بعيد ما بين المنكبين ، يبلغ شعره شحمة أذنيه . الحديث .

وأخرجه مسلم ولفظه : ما رأيت أحدا من خلق في حلة حمراء يعني أحسن من رسول الله ، إن [1] لمّته تضرب قريبا من منكبيه .

وفي حديث علي رضي الله عنه كان كثير شعر الرأس رجله .

ولأبي داود من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان شعر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فوق الوفرة ودون الجمة .

وقال سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : قالت أم هانئ : قدم النبي صلّى الله عليه وسلّم مكة وله أربع غدائر يعني ضفائر .

وفي الصحيحين من حديث ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه ، وكان أهل الكتاب يسدلون أشعارهم ، وكان المشركون يفرقون دونهم ، فسدل رسول الله ناصيته ثم فرق بعد [2] .

وقال ابن إسحاق حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة عن عائشة قالت .

أنا فرقت لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم رأسه [صدعت] [3] فرقه عن يافوخه ، وأرسلت ناصيته بين عينيه .

قال ابن إسحاق والله أعلم : ذلك لقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : لا تكف ثوبا ولا شعرا ، وهي سيما كان يتوسم بها . قال : وقد قال محمد بن جعفر وكان فقيها : ما هي إلا

سيما من سيم الأنبياء تمسكت بها النصارى من بين الناس .

---

[1] اللمة بكسر اللام وتشديد الميم : الشعر يسترخي عن شحمة الأذن ولا يصل إلى المنكبين .

[2] (سنن أبي داود) ج4 ص 407 باب ما جاء في الفرق حديث رقم 4188 ، وأخرجه (البخاري) في (اللباس) باب الفرق ، (و مسلم) في الفضائل باب في سدل النبي صلّى الله عليه وسلّم شعره وفرقه ، (و ابن ماجة) في (اللباس) حديث 2336 باب اتخاذ الجمة والذوائب ، (النسائي) في الزينة حديث 5340 باب فرق الشعر ، و(الترمذي) في (الشمائل) حديث 29 .

[3] صدع الشيء فتصدع : فرّقه متفرق . (لسان العرب) : 8/ 194 .

وخرّج البخاري من حديث أنس : توفي رسول الله وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء [1] .

ولمسلم عنه أن النبي صلّى الله عليه وسلّم لم يختضب ، إنما كان شمط عند العنفقة يسيرا وفي الصدغين يسيرا وفي الرأس يسيرا .

وروي أبو إبراهيم محمد بن القاسم الأسدي ، حدثنا شعبة بن الحجاج عن عبد العزيز بن صهيب عن أنس بن مالك قال : كان لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم جمة جعدة .

قال ابن شاهين : تفرد بهذا الحديث محمد بن القاسم الأسدي عن شعبة ، لا أعلم حدّث به غيره ، وهو حديث غريب .

وأما صفة عنقه وبعد ما بين منكبيه

ففي حديث أم معبد [2] أنها قالت : في عنقه سطع ، يعني الطول ، وفي حديث هند بن أبي هالة : كان عنقه جيد دمية في صفاء الفضة [3] .

وفي حديث علي رضي الله عنه كان عنقه إبريق فضة ، وفي حديث البراء :

كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مربوعا بعيد ما بين المنكبين ، وفي حديث الزهري عن ابن المسيب أنه سمع أبا هريرة يصف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال : كان بعيد ما بين المنكبين .

وقال النضر بن شميل ، حدثنا صالح بن أبي الأخضر عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كأنما صيغ من فضة ، رجل الشعر [سواء] [4] البطن [و الصدر] [4] ، عظيم مشاش المنكبين [5] ، يطأ بقدميه جميعا ، إذا أقبل أقبل جميعا ، وإذا أدبر أدبر جميعا .

وخرّج الترمذي من حديث غفرة قال : حدثني إبراهيم بن محمد عن علي كان

---

[1] هذه التكملة من (سنن أبي داود) حديث رقم 4189 ج 4 ص 408 .

[2] هي عاتكة بنت خالد الخزاعية (أم معبد) (الإصابة) ج 13 ص 33 ترجمة 691 وص 279 من المرجع ذاته ترجمة رقم 1501 ، وفي (خ) «في» .

[3] (الشمائل المحمدية) ص 222 .

[4] ما بين الأقواس تكملة من (صفة الصفوة) ج 1 ص 156 .

[5] يريد رءوس المناكب ، والمشاش (بضم الميم) : مفردها مشاشة ، وهي رأس العظم .

رسول الله صلّى الله عليه وسلّم جليل الكتد ، الكتد : مجمع الكتفين ، وهو الكاهل .

والمنكب :

مجمع رأس العضد في الكتف .

وأما صفة صدره وبطنه

ففي حديث هند بن أبي هالة : كان عريض الصدر سواء البطن والصدر ، وفي حديث أم معبد : لم يعبه ثجلة ، والثجلة عظم البطن واسترخاء أسفله .

وفي حديث أم هانئ : ما رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلا ذكرت القراطيس المثنى

بعضها على بعض .

وفي حديث علي رضي الله عنه : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أجرد ذو مسربة .

وفي حديث هند بن أبي هالة : كان أنور المتجرد [1] ، دقيق المسربة [2] ، موصول ما بين اللبة [3] والسّرة بشعر يجري كالخيط . عاري الثديين والبطن مما سوى ذلك ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر .

أما صفة كفيه وقدميه وإبطيه وذراعيه وساقيه وصدره

فخرج البخاري من حديث أنس رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فخم اليدين ، لم أر بعده مثله . . الحديث .

وفي رواية : كان النبي صلّى الله عليه وسلّم ضخم الرأس والقدمين ، وكان سبط [4] الكفين ، وخرّج من حديث همام : أخبرنا قتادة عن أنس أو عن رجل عن أبي هريرة قال : كان النبي صلّى الله عليه وسلّم شثن [5] الكفين والقدمين .

وفي رواية عن قتادة عن أنس أو جابر بن عبد الله كان النبي صلّى الله عليه وسلّم ضخم الكفين والقدمين ، لم أر بعده شبها له .

وللفسوي من حديث ابن أبي ذؤيب حدثنا صالح مولى التزمة قال : كان

---

[1] أنور المتجرد : أي نير الجسد إذا تجرد من الثياب ، والنير : الأبيض المشرق .

[2] المسربة : الشعر الدقيق الّذي كأنه قضيب من الصدر إلى السّرة .

[3] اللبة (بفتح اللام وتشديد الباء) : أعلى الصدر ممّا يلي العنق .

[4] السبط : المسترسل .

[5] الشثن : الغليظ الأصابع من الكعبين والقدمين .

أبو هريرة ينعت النبي صلّى الله عليه وسلّم قال : كان شبح [1] الذراعين بعيد ما بين المنكبين ، أهدب أشفار العينين .

وفي حديث علي رضي الله عنه : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم شثن الكفين والقدمين ، ضخم الكراديس . وفي حديث ابن أبي هالة : كان رحب الراحة ، وفي حديث أنس : ما مست قط خزا ولا حريرا ألين من كف رسول الله [2] .

وفي حديث هند بن أبي هالة : كان طويل الزندين ضخم الكراديس ، وفي حديث شعبة عن سماك عن جابر : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ضليع الفم أشكل العينين منهوس العقبين ، يعني قليل لحم العقب .

وفي حديث أبي هريرة كان يطأ بقدميه جميعا ، ليس له أخمص ، وفي حديث هند بن أبي هالة : كان خصان الأخمصين مسيح القدمين ينبو عنهما الماء [3] .

وخرج البيهقي من حديث زيد بن هارون ، أخبرنا عبد الله بن يزيد بن مقسم قال : حدثني عمتي سارة بنت مقسم عن ميمونة بنت كردم قال رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بمكة وهو على ناقة له وأنا مع أبي ، وبيد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم درة كدرة الكتاب ، فدنا منه أبي فأخذ بقدمه نقيلة [4] رسول الله ، قالت : فما نسيت طول إصبع قدمه السبابة على سائر أصابعه .

وفي الصحيحين من حديث مالك بن مغول قال : سمعت عون بن أبي جحيفة ذكر عن أبيه قال : دفعت إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم بالأبطح في قبة بالهاجرة ، فخرج بلال فنادى بالصلاة ، ثم دخل فأخرج فضل وضوء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فدفع الناس يأخذون

---

[1] الشبح : الطويل (ترتيب القاموس) ج 2 ص 678 ، (لسان العرب) : 2/ 494 .

[2] (سنن الدارميّ) ج 1 ص 31 .

[3] خمصان الأخمصين : معناه أن أخمص رجله شديد الارتفاع من الأرض ، والأخمص : ما يرتفع من الأرض من وسط باطن الرجل ، وهو الموضع الّذي لا يلصق بالأرض من القدم عند الوطء ، والخمصان (بضم الخاء) : المبالغ منه .

وقوله مسيح القدمين : أي ليس بكثير اللحم فيهما وعلى ظاهرهما ، فلذلك ينبو الماء عنها .

[4] نقيلة العضد : كربلة الفخذ (ترتيب القاموس) ج 4 ص 432 ، وفي (خ) «ناقولة» ولعل ما أثبتناه هو الصواب .

(68/707)

منه ، قال : ثم دخل فأخرج العنزة ، ثم خرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كأني انظر إلى وميض ساقيه فركز العنزة [1] ثم صلّى بنا الظهر ركعتين [2] ، يمر بين يديه المرأة والحمار [3] .

وفيهما من حديث أنس : رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يرفع يديه في الدعاء حتى يرى بياض إبطه ، يعني في الاستسقاء .

وفي حديث حجاج عن سماك بن حرب عن جابر بن سمرة قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لا يضحك إلا تبسما ، وكان في ساقيه حموشة . . . الحديث .

وخرّج البيهقي وأحمد من حديث يحيى بن يمان ، حدثنا إسرائيل عن سماك ابن حرب عن جابر بن سمرة قال : كانت إصبع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خنصره من رجله متظاهرة .

وقال محمد بن معد : أخبرنا سعيد بن محمد الثقفي ، حدثنا سالم أبو النضر عن نافع عن

ابن عمر أن النبي صلّى الله عليه وسلّم كان إذا أشفق من الحاجة (يعني ينساها) ربط في خنصره أو في خاتمه الخيط .

---

[1] (مسلم بشرح النووي) ج 4 ص 219 .

والعنزة (بفتح العين والنون) : عصا أقصر من الرمح ، وقيل : هي الحربة الصغيرة : (معالم السنن للخطابي) ج 1 ص 443 . وفي (مسلم بشرح النووي) ج 4 ص 219 «هي عصا في أسفلها حديدة» ورواية مسلم «ثم ركزت له عنزة» وفيها دليل على جواز استعانة الإمام بمن يركز له عنزة ونحو ذلك ، وفيه : «بياض ساقيه» .

[2] فيه دليل على أن الأفضل قصر الصلاة في السفر وإن كان بقرب بلد ما لم ينو الإقامة أربعة أيام فصاعدا وفيه أيضا أن الساق ليست بعورة ، وهذا مجمع عليه (المرجع السابق) .

[3] في رواية (مسلم) «يقطع صلاته الحمار والمرأة والكلب الأسود» ، يقول النووي في شرح (مسلم) ج 4 ص 226 ، 227 : «اختلف العلماء في هذا ، فقال بعضهم يقطع هؤلاء الصلاة ، وقال أحمد ابن حنبل رضي الله عنه : يقطعهما الكلب الأسود وفي قلبي من الحمار والمرأة شيء ، ووجه قوله أن الكلب لم يجيء في الترخيص فيه شيء يعارض هذا الحديث ، أما المرأة ففيها حديث عائشة رضي الله عنها المذكور بعد هذا – وفيه «لقد شبّهتمونا بالحمير والكلاب والله لقد رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يصلّي وإني

على السرير بيني وبينه القبلة» ، – وفي الحمار حديث ابن عباس السابق – وفيه «يمر بين يديه الكلب والحمار لا يمنع» – وقال مالك وأبو حنيفة والشافعيّ رضي الله عنهم وجمهور العلماء من السلف والخلف : لا تبطل الصلاة بمرور شيء من هؤلاء ومن غيرهم ، وتأويل هؤلاء هذا الحديث على أن المراد بالقطع نقص الصلاة بشغل القلب بهذه الأشياء» ، راجع : (مسلم بشرح النووي) ج 4 «باب سترة المصلي والندب إلى الصلاة إلى سترة والنهي عن المرور بين يدي المصلي والصلاة إلى الراحة والأمر بالدنو من السترة وبيان قدر السترة وما يتعلق بذلك» .

(69/707)

وأما قامته

ففي حديث أنس : أن كان ربعة من القوم ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، وفي حديث البراء : ليس بالطويل الذاهب ولا بالقصير .

وفي حديث علي : ليس بالقصير ولا بالطويل ، وفيه : إذا مشى تكفأ تكفيا [1] كأنما ينحط من صبب ، وفي رواية : كان لا قصير ولا طويل ، وكان يتكفأ في مشيته كأنما يمشى في صبب [2] .

وفي رواية كان لا قصير ولا طويل ، وهو إلى الطول أقرب . قال : إذا مشى تكفأ كأنما يمشى في صفد [3] .

وفي رواية كان ليس بالذاهب طولا ، فوق الربعة ، إذا جامع القوم غمرهم ، وفي حديث أبي هريرة : كان رجلا ربعة وهو إلى الطويل أقرب ، وكان يقبل جميعا ويدبر جميعا .

وفي رواية الترمذي : لم يكن بالطويل الممغط ولا بالقصير المتردد ، كان ربعة من القوم . قال الترمذي : سمعت أبا جعفر محمد بن الحسين يقول : سمعت الأصمعي يقول : الممغط : الذاهب طولا ، والمتردد : الداخل بعضه في بعض قصرا .

وفي حديث هند بن أبي هالة : كان أطول من المربوع وأقصر من المشذب ، وقال عبد العزيز بن عبد الصمد العمي ، عن جعفر بن محمد عن أبيه ، وهشام ابن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت : من صفة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه لم يك يماشيه أحد ينسب إلى الطول إلا طاله رسول الله ، وربما مشى [بين] [4] الرجلين الطويلين يتطولهما ، فإذا فارقاه نسبا إلى الطول ، ونسب هو إلى الربعة .

وأما اعتدال خلقه ورقة بشرته

ففي حديث هند : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم معتدل الخلق بادنا متماسكا [5] ، يعني كان تام خلق الأعضاء ، ليس بمسترخي اللحم ولا كثيره .

---

[1] أي إذا مشى رفع رجليه بقوة .

[2] الصّبب : الأرض المنحدرة .

[3] الصفد : القيد والوثاق .

[4] زيادة للسياق والمعنى .

[5] في (خ) «بادن متماسك» .

(70/707)

وخرّج الحافظ أبو نعيم الأصفهاني من حديث محمد بن بكر الحضرميّ ، حدثنا يزيد بن عبد الله القرشي عن عثمان بن عبد الملك قال حدثني خالي - وكان من أصحاب عليّ قدم صفين - عن علي رضي الله عنه قال كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رقيق البشرة . وقال عبد الأعلى بن حماد : حدثنا معمر عن حميد عن أنس قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ألين الناس كفا [و ما] [1] مست خزا ولا حريرا ألين من كفه .

وأما حسنه وطيب رائحته وبرودة يده ولينها في يد من مسها وصفة قوته

ففي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم [و سأله رجل : أكان وجهه] مثل السيف ؟ قال : لا ، مثل القمر ، انفرد بإخراجه البخاري [2] .

وخرّج الإمام أحمد من حديث ابن لهيعة عن أبي يونس أنه سمع أبا هريرة يقول ما رأيت أحسن من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كأن الشمس تخرج في وجهه .

وقال جابر بن سمرة رأيت النبي صلّى الله عليه وسلّم في ليلة أضحيان [3] ، وعليه حلة حمراء ، فجعلت انظر إليه وإلى القمر ، فلهو أحسن في عيني من القمر [4] .

وقال البراء ما رأيت أحدا في حلة حمراء مترجلا أحسن من رسول الله . .

الحديث .

وفي حديث أبي الطفيل كان أبيض مليحا مقصدا [5] ، وفي حديث أم معبد كان أجمل الناس وأبهاه من بعيد ، وأحلاه وأحسنه من قريب . وعن أبي هريرة :

كأنما صيغ من فضة .

---

[1] زيادة يتم بها المعنى .

[2] (فتح الباري) ج 6 ص 565 حديث رقم 3552 ، (الشمائل المحمدية) ص 12 حديث رقم 10 ، و(سنن الترمذي) ج 5 ص 359 حديث رقم 3715 .

[3] أضحيان : مضيئة .

[4] (سنن الدارميّ) ج 1 ص 30 .

[5] مقصدا (بفتح الصاد المشددة) : وهو الّذي ليس بجسيم ولا نحيف ، ولا طويل ولا قصير .

وخرّج الحافظ أبو نعيم من حديث عبد العزيز العمي عن جعفر بن محمد وهشام ابن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أحسن الناس وجها ، وأنورهم لونا .

ومن حديث هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي هريرة عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه : كان وجه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كدارة القمر .

وخرّج الدارميّ من حديث عبيد الله بن موسى عن أسامة بن زيد عن أبي عبيدة محمد بن عمارة قال : قلت للربيع بنت معوذ صفى لي رسول الله ، فقالت : يا بني ، لو رأيته رأيت الشمس طالعة [1] .

وقال أحمد بن عبد الله الغدافي أخبرنا عمرو بن أبي عمرو عن محمد بن السائب عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنه : لم يكن لرسول الله ظل ، ولم يقم مع شمس قط إلا غلب ضوء الشمس ، ولم يقم مع سراج قط إلا غلب ضوءه على ضوء السراج .

وخرّج ابن عساكر من حديث عبد الجبار بن وائل عن أبيه قال : كنت أصافح النبي صلّى الله عليه وسلّم أو يمس جلدي جلده ، فأعرف في يدي بعد ثالثة أطيب من ريح المسك .

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه ما مسست بيدي ديباجا ولا حريرا ولا شيئا ألين من كف رسول الله ، ولا شممت رائحة قط أطب من ريح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم .

وي رواية ، قال أنس : ما شممت شيئا قط - مسكا ولا عنبرا - أطيب من ريح رسول الله ، ولا مسست شيئا قط - حريرا ولا ديباجا - ألين مسّا من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم .

وفي رواية : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أزهر اللون ، كأن عرقه اللؤلؤ ، إذا مشى تكفّأ ، وما مسست حريرا ولا ديباجا ألين من كف رسول الله ، ولا شممت مسكا ولا عنبرا أطيب رائحة من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم [2] .

---

[1] (سنن الدارميّ) ج 1 ص 31 .

[2] (مسلم بشرح النووي) ج 15 ص 86 ، وفيه «مسكة ولا عنبرة» .

وقال جابر بن سمرة وأما أنا فمسح خدي فوجدت ليده بردا وريحا كأنما أخرجهما من جونة [1] عطار .

وقال شعبة عن يعلي بن عطاء : سمعت جابر بن يزيد بن الأسود عن أبيه قال :

أتيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو بمنى فقلت له : رسول الله ، ناولني يدك !

فناولينها ، فإذا هي أبرد من الثلج وأطيب ريحا من المسك .

وخرّج أبو نعيم من طريق الحميدي قال : أخبرنا سفيان [2] بن عيينة عن عبد الجبار بن وائل عن أبيه قال : أتي النبي صلّى الله عليه وسلّم بدلو من ماء فشرب ثم توضأ ، فمضمض ثم مجة في الدلو مسكا أو أطيب من المسك ، واستنثر خارجا من الدلو .

وخرّجه البيهقي من طريق يعقوب بن سفيان ومن حديث مسعر عن عبد الجبار ابن وائل قال : حدثني أخي [3] عن أبي قال : أتى النبي صلّى الله عليه وسلّم بدلو من ماء فشرب من الدلو ثم مج في الدلو ثم صب في البئر ، أو قال : شرب من الدلو ثم مج في البئر ففاح منها مثل رائحة المسك .

وخرّج مسلم من حديث سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس قال : دخل علينا النبي صلّى الله عليه وسلّم فقال [4] عندنا ، فعرق ، وجاءت أمي بقارورة فجعلت تسلت العرق ، فاستيقظ النبي صلّى الله عليه وسلّم ، فقال : يا أم سليم ! ما هذا الّذي تصنعين ، قالت :

هذا عرق نجعله لطيبنا ، وهو أطيب من الطيب [5] . ومن حديث أيوب عن أبي قلابة عن أنس عن أم سليم أن النبي صلّى الله عليه وسلّم كان يأتيها فيقيل عندها فتبسط له نطعا فيقيل عليه – وكان كثير العرق – فكانت تجمع عرقه فتجعله في الطيب والقوارير ،

فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم : يا أم سليم ! ما هذا قالت :

عرقك أدوف به طيبي [5] . وخرّج أبو نعيم من حديث أبي يعلي الموصلي قال : أخبرنا بشر بن سنحان ، أخبرنا عمرو بن سعيد الأشج ، أخبرنا سعيد عن قتادة عن أنس قال : كنا نعرف

---

[1] الجونة والجؤنة : بمعنى : وهي السقط الّذي فيه متاع العطار ، هكذا فسره الجمهور ، وقال صاحب (العين) : وهي سليلة مستديرة مغشاة (المرجع السابق) .

[2] في (خ) «ياسفين» .

[3] في (خ) «أحلي» .

[4] قال : من القيلولة وهي نوم الظهيرة .

[5] (مسلم بشرح النووي) ج 15 ص 86 ، 87 .

رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا أقبل بطيب ريحه .

وخرّج من حديث مغيرة بن عطية عن أبي الزبير عن جابر قال كان في رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خصال : لم يكن في طريق فسلكه أحد إلا عرف مسلكه من طيب عرفه أو ريح

عرقه [1] .

وأما صفة خاتم النبوة

فخرج البخاري من حديث حاتم بن إسماعيل عن الجعد بن عبد الرحمن قال :

سمعت السائب بن يزيد يقول : ذهبت بي خالتي إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فقالت :

يا رسول الله ، إن ابن أختي وجع ، فمسح رأسي ودعا لي بالبركة ، ثم توضأ فشربت من وضوئه ، ثم قمت خلف ظهره ، فنظرت إلى خاتمه بين كتفيه مثل ذر الحجلة .

ذكره في كتاب المناقب ، وفي كتاب الدعاء في باب الدعاء للصبيان ، وفي كتاب المرضى في باب من ذهب بالصبي المريض ليدعى له ، وقال فيه : فنظرت إلى خاتمه ، وذكره في الطهارة في باب استعمال فضل وضوء الناس ، وفيه : أن ابن أختي وقع ، وفيه : فنظرت إلى خاتم النبوة [2] .

وخرّجه مسلم من طرق ، ولمسلم من حديث عبد الله بن موسى عن إسرائيل عن سماك أنه سمع جابر بن سمرة يقول : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد شمط مقدّم رأسه ولحيته ، وكان إذا ادّهن لم تتبين ، وإذا شعث رأسه تبين ، وكان كثير شعر اللحية ، فقال رجل : وجهه مثل السيف ؟ قال : لا : بل مثل الشمس والقمر ، وكان مستدير الرأس ، ورأيت الخاتم عند كتفه مثل بيضة الحمامة يشبه جسده [3] .

وله من حديث شعبة عن سماك قال : سمعت جابر بن سمرة قال : رأيت خاتما في ظهر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كأنه بيضة حمام .

وله من حديث حامد بن محمد البكراويّ قال : أخبرنا عبد الواحد - يعني ابن زياد - أخبرنا عاصم عن عبد الله ابن سرجس قال رأيت النبي صلّى الله عليه وسلّم وأكلت

---

[1] (سنن الدارميّ) ج 1 ص ص 32 ، والعرف : الرائحة مطلقا ، وأكثر ما يستعمل في الرائحة الطيبة ، وانظر أيضا (دلائل النبوة لأبي نعيم) ص 158 .

[2] (صحيح البخاري بحاشية السندي) ج 4 ص 7 .

[3] (مسلم بشرح النووي) ج 15 ص 97 .

معه خبزا ولحما ، أو قال : ثريدا ، قال : قلت له أستغفر لك النبي صلّى الله عليه وسلّم ؟ قال :

نعم ، ولك ، ثم تلا هذه الآية : وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ 47 : 19 [1] ، قال : ثم درت خلفه فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه عند ناغض [2] كتفه اليسري ، جمعا عليه خيلان كأمثال الثآليل [3] .

وخرّجه النّسائي ولفظه : عن عبد الله بن سرجس قال : أتيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو جالس في ناس من أصحابه فدرت من خلفه فعرف الّذي أريد ، فألقى الرداء عن ظهره فرأيت موضع الخاتم على موضع كتفيه مثل الجمع كأنها الثآليل ، فجئت حتى استبقلته ، فقلت : غفر الله لك يا رسول الله ، قال : ولك – قال بعض القوم استغفر لك رسول الله ؟ قال [4] : نعم ولكم ، ثم تلا ، وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ 47 : 19 [1] ، ذكره في التفسير . وخرج أبو داود الطيالسي من حديث قرّه بن خالد قال : أخبرني معاوية بن قرة عن أبيه قال : أتيت النبي صلّى الله عليه وسلّم فقلت : يا رسول الله ، أرني الخاتم ، قال : أدخل يدك ، قال : فأدخلت يدي في جربانه ، فجعلت ألمس انظر إلى الخاتم ، فإذا هو على نغض كتفه مثل البيضة ، فما منعه ذلك أن جعل يدعو لي ، وإن يدي لفي جربانه .

وخرج الفسوي من حديث عبيد الله بن إياد قال : حدثني أبي عن أبي دمثة قال : انطلقت مع أبي نحو النبي صلّى الله عليه وسلّم فنظر إلى مثل السلعة بين كتفيه ، فقال : يا رسول الله ، إني كأطبّ الرجال ، أفأعالجها لك ؟ فقال : لا ، طبيبها الّذي خلقها . وقال الثوري عن إياد بن لقيط في هذا الحديث : فإذا خلف كتفه مثل التفاحة ،

---

[1] من الآية 19 سورة محمد صلّى الله عليه وسلّم .

[2] الناغض : أعلى الكتف ، وقيل هو العظم الرقيق الّذي على طرفه ، وقيل ما يظهر

عند التحرك .

[3] وقوله «جمعا» فبضم الجيم وإسكان الميم ، ومعناه : أنه كجمع الكف وهو صورته بعد أن تجمع الأصابع وتضمها ، وأما «الخيلان» فبكسر الخاء المعجمة وإسكان الياء : جمع خال وهو الشامة في الجسد .

(مسلم بشرح النووي) ج 15 ص 98 ، 99 والثآليل : جمع ثؤلول ، وهو بثر صغير صلب مستدير يظهر على الجلد كالحمصة أو دونها (المعجم الوسيط) ج 1 ص 93 .

[4] (الشمائل المحمدية للترمذي) ص 18 ، 19 حديث رقم 22 .

(75/707)

وقال عاصم بن بهدلة عن أبي دمثة : فإذا في نغضّي كتفه مثل بعرة البعير أو بيضة الحمامة .

وخرّج البيهقي من حديث عبد الله بن ميسرة ، حدثنا عتاب قال : سمعت أبا سعيد يقول : الخاتم الّذي بين كتفي النبي صلّى الله عليه وسلّم لحمة ناتئة . وخرّج البيهقي من حديث سماك بن حرب عن سلامة العجليّ عن سلمان الفارسيّ قال : أتيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فألقى إليّ رداءه وقال : يا سليمان إلى ما أمرت به ، قال : فرأيت الخاتم بين كتفيه مثل بيضة الحمامة .

فصل جامع في صفة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

روي أبو نعيم من حديث المسعودي عن عثمان بن عبد الله بن هرمز عن نافع ابن جبير بن معطم عن علي رضي الله عنه قال : لم يكن رسول الله بالطويل ولا بالقصير ، وكان [1] شثن الكفين والقدمين ، ضخم الرأس واللحية مشربا وجهه حمرة ، ضخم الكراديس ، طويل المسربة ، إذا مشى يمشى قلعا كأنما ينحدر من صبب . وفي رواية : إذا مشى تكفّأ تكفيا كأنما ينحط من صبب ، لم أر قبله ولا بعده مثله صلّى الله عليه وسلّم . وروي الفسوي من حديث عيسى بن يونس ، حدثنا محمد بن عبد الله مولى عفرة ، قال : حدثني إبراهيم بن محمد من ولد على قال : كان علي إذا نعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : لم يكن بالطويل الممغط ، ولا القصير المتردد ، وكان ربعة من القوم ، ولم يكن بالجعد القطط ، ولا بالسبط ، كان جعدا رجلا ، ولم يكن بالمطهم ولا المكلثم ، وكان في الوجه تدوير أبيض ، مشرب أدعج العينين ، أهدب الأشفار ، جليل المشاش والكتف ، أو قال الكتد ، أجرد ذا مسربة ، شثن الكفين والقدمين ، إذا مشى تقلع كأنما يمشي في صبب ، وإذا التفت التفت معا ، بين كتفيه خاتم النبوة [2] ، أجود الناس كفا وأرحب الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفى

---

[1] في (خ) «وكاشثن» .

[2] في (خ) «بعد قوله : «خاتم النبوة» عبارة «خاتم النبيين» والسياق يقتضي حذفها .

الناس بذمة ، وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله صلّى الله عليه وسلّم . وفي رواية لم يكن بالطويل الممغط ولا القصير المتردد ، لم يكن بالمطهم ولا المكلثم ، أبيض مشرب ، أدعج العينين ، أهدب الأشفار ، جليل المشاش والكتد ، شثن الكفين والقدمين ، دقيق المسربة ، إذا مشى تقلع كأنما يمشي في صبب ، وإذا التفت التفت معا ، ليس بالسبط ولا بالجعد القطط . وفي رواية : كان أزهر ، ليس بالأبيض الأمهق ، وفي رواية : كان في عينيه شكلة ، وفي رواية : كان شبح الذراعين .

فالممغط : الّذي ليس بالبائن الطويل ، ولا القصير ، وقيل : الممغط : الذاهب طولا ، والمتردد : الّذي تردد خلقه بعضه على بعض ، فهو مجتمع .

يقول : ليس هو كذلك ، ولكن ربعة بين الرجلين ، كما جاء في حديث آخر :

كان ضرب اللحم بين الرجلين .

والمطهم : المنتفخ الوجه ، وقيل الفاحش السّمن ، وقيل النحيف الجسم ، وقيل : الطهمة في اللون أن تتجاوز سمرته إلى السواد ، والمكلثم : المدور الوجه ، وقيل : هو القصير الحنك

الداني الجبهة مع الاستدارة .

يقول : فليس كذلك ، ولكنه مسنون ، وقوله : مشرب أي شرب حمرته ، والأدعج العين :

الشديد سوادها ، والجليل المشاش : العظيم رءوس العظام ، مثل الركبتين والمرفقين ،

والكتد : الكاهل وما يليه من الجسد ، وقيل : الكتد : مجمع الكتفين ، وهو الكاهل .

وقوله : شثن الكفين والقدمين : يعني أنهما إلى الغلظ . وقيل الشثن الغليظ الأصابع من

الكفين والقدمين ، وقوله إذا مشى تقلع كأنما يمشي في صبب : القلع :

أن يمشي بقوة ، والصبب الانحدار ، والقطط : الشديد الجعودة من أشعار الحبش ،

والسبط : الّذي ليس فيه تكسر ، يقول : فهو جعد رجل ، والأزهر الأبيض النير البياض ،

لا يخالط بياضه حمرة ، والأمهق الشديد البياض الّذي لا يخالط بياضه شيء من الحمرة

وليس بنيّر ، ولكن كلون الجصّ أو نحوه ، يقول : فليس هو كذلك .

(77/707)

والشكلة : كهيئة الحمرة تكون في بياض العين ، والشهلة : حمرة في سواد العين ، والمرهة :

بياض لا يخالطه غيره ، وأهدب الأشفار : يعني طويلها ، وقوله :

شبح الذراعين : يعني عبل الذراعين عريضهما ، والمسربة الشعر المستدق ما بين اللبة إلى

السرة .

وقال يعلي بن عبيد عن مجمع بن يحيى الأنصاري عن عبد الله بن فران عن رجل من الأنصار أنه سأل عليا رضي الله عنه عن نعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أبيض اللون مشربا حمرة ، أدعج العينين ، سبط الشعر ذو وفرة ، دقيق المسربة ، كأن عنقه إبريق فضة ، من لبته إلى سرته شعر يجري كالقضيب ، ليس في بطنه ولا صدره شعر غيره ، شثن الكف والقدم ، إذا مشى كأنما ينحدر من صبب ، وإذا مشى كأنما يتقلع من صخر ، وإذا التفت التفت جميعا ، كأن عرقه اللؤلؤ ، ولريح عرقه أطيب من المسك [] [1] ، ليس بالطويل ولا بالقصير ؟ لم أر قبله ولا بعده مثله صلّى الله عليه وسلّم . وقال إبراهيم بن طهمان عن حميد الطويل عن أنس قال : لم يكن النبي صلّى الله عليه وسلّم بالآدم ولا الأبيض الشديد البياض ، فوق الربعة ودون البائن [2] الطويل ، كان من أحسن ما رأيت من خلق الله ، وأطيبهم ريحا وألينهم كفا ، ليس بالجعد الشديد الجعودة ، وكان يرسل شعره إلى أنصاف أذنيه ، وكان يتوكأ إذا مشى .

وقال عبد الرّزاق : أخبرنا معمر عن الزهري قال : سئل أبو هريرة عن صفة النبي صلّى الله عليه وسلّم فقال : أحسن الناس صفة وأجملها ، كان ربعة إلى الطول ، ما هو بعيد ما بين المنكبين ، أسيل الجبين ، شديد سواد الشعر ، أكحل العينين أهدب ، إذا وطئ بقدمه وطئ بكلها ، وليس أخمص ، إذا وضع رداءه عن منكبه فكأنه سبيكة فضة ، وإذا

ضحك يتلألأ . لم أر قبله ولا بعده مثله صلّى الله عليه وسلّم .

وفي حديث أم معبد عاتكة بنت خالد بن خليف الخزاعية ، رأيت رجلا ظاهر الوضاءة متبلج الوجه [3] ، حسن الخلق ، لم تعبه ثجلة ، ولا تزريه صقله ، وسيما قسيما ، في عينيه دعج ، وفي أشفاره عطف ، وفي صوته صحل [4] ، وفي عنقه

---

[1] مكان هذا البياض في (خ) كلمة ممجوجة لم أتبين معناها .

[2] في (خ) «البياض» .

[3] أي يشرق بالنور .

[4] صحل : بحة .

سطع ، وفي لحيته كثافة ، أزجّ أقرن ، إن صمت فعليه الوقار ، وإن تكلم سماه وعلاه البهاء ، أجمل الناس وأبهاه من بعيد ، وأحسنه ، وأحلاه من قريب ، حلو المنطق ، فصل لا نذر ولا هدر ، وكأن منطقه خرزات نظم يتحدرن ، لا تشنؤه [1] من طول ، ولا تقتحمه عين من قصر ، غصنا بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظرا ، وأحسنهم قدرا ، له رفقاء يحفون به ، إن قال أنصتوا لقوله ، وإن أمر تبادروا إلى أمره ، محفود محشود ، لا عابس ولا مفنّد صلّى

الله عليه وسلّم ، [وسيأتي] حديث أم معبد بطوله مشروحا عند ذكر المعجزات إن شاء الله تعالى .

وخرّج الحافظ أبو يوسف يعقوب بن سفيان الفسوي [2] من حديث جميع بن عمر العجليّ ، قال حدثني رجل بمكة عن ابن أبي هالة عن الحسن بن علي قال سألت خالي هند بن أبي هالة التميمي – وكان وصافا – عن حلية النبي صلّى الله عليه وسلّم وأنا أشتهى أن يصف لي منها شيئا أتعلق به ، فقال كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فخما مفخما يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر ، أطول من المربوع ، وأقصر من المشذّب ، عظيم الهامة ، رجل الشعر . إن انفرقت عقيصته فرق ، وإلا فلا يتجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفّره ، أزهر اللون ، واسع الجبين ، أزّج الحواجب سوابغ في غير قرن ، بينهما عرق يدره الغضب ، أقنى العرنين ، له نور يعلوه ، يحسبه من لم يتأمله أشمّ ، كثّ اللحية ، سهل الخدين ، ضليع الفم ، أشنب ، مفلج الأسنان ، دقيق المسربة ، كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة ، أنور المتجرد ، موصول ما بين اللبة والسّرة بشعر يجرى كالخط ، عاري الثديين والبطن مما سوى ذلك ، شثن الذراعين والمنكبين وأعلى الصدر ، طويل الزندين ، رحب الراحة ، سبط العقب ، شثن الكفين والقدمين ، شائل الأطراف ، خمصان الأخمصين ، مسيح القدمين ، ينبو عنهما الماء ، فإذا زال زال قلعا ، يخطو تكفيا ، ويمشى هونا ، ذريع المشية كأنما ينحط من صبب ، وإذا التفت التفت جميعا ، خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره

إلى السماء ، جلّ نظره الملاحظة ، يسوق أصحابه ويبدأ من لقيه بالسلام ، قلت : صف لي منطقه ، قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم متواصل الأحزان . دائم الفكرة ، ليست له راحة ، طويل السكوت ، لا يتكلم في غير حاجة : يفتتح الكلام ويختتمه

---

[1] في (خ) «لا يأس» وما أثبتناه من (الشمائل المحمدية) ص 223 .

[2] (نسبة إلى فسا) من بلاد فارس (لسان الميزان) ج 6 ص 376 ترجمة رقم 265/ 9329 .

بأشداقه ، ويتكلم بجوامع الملك ، فصلا لا فضول ولا تقصير ، دمثا ، ليس بالمجافي ولا المهين ، يعظم النعمة وإن دقّت ، ولا يذم منها شيئا ، غير أنه لم يكن يذم ذواقا [1] ، ولا يمدحه ، ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها ، فإذا تعوطي الحق لم يعرفه أحد ولم يكن يغضبه شيء حتى ينتصر له ، لا يغضب لنفسة ولا ينتصر لها ، إذا أشار أشار بكفه كلها : وإذا تعجب قلبها ، وإذا تحدث اتصل بها ، فيضرب بباطن راحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى ، وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غضّ طرفه ، جلّ ضحكه التبسم ، يفتر عن مثل حبّ الغمام .

قال الحسن : فكتمها الحسين زمانا ثم حدثنيه فوجدته قد سبقني إليه . فسأله عما

سألته . فوجدته قد سأل (يعني عليا) رضي الله عنه عن مدخله ومخرجه ، وشكله فلم يدع منه شيئا . قال الحسين عليه السلام سألت أبا هريرة عن دخول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال : كان دخوله لنفسه مأذونا له في ذلك ، فكان إذا أوى إلى منزله جزّأ دخوله ثلاثة أجزاء ، جزءا للّه عزّ وجلّ ، وجزءا لأهله ، وجزءا لنفسه ، ثم جزءا جزأة بينه وبين الناس ، فيرد ذلك على العامة بالخاصة ولا يدخر عنهم شيئا .

وكان من سيرته في جزء الأمة إيثار أهل الفضل بإذنه وقسمه [2] على قدر فضلهم في الدين ، فمنهم ذو الحاجة ، ومنهم ذو الحاجتين ، ومنهم ذو الحوائج ، فيتشاغل بهم ويشغلهم فيما أصلحهم والأمة من مسألته عنهم ، وإخبارهم بالذي ينبغي لهم . ويقول : ليبلغ الشاهد الغائب ، وأبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغي حاجته ، فإنه من أبلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع إبلاغها إياه ثبّت الله قدميه يوم القيامة ، لا يذكر عنده إلا ذلك ، ولا يقبل من أحد غيره ، يدخلون عليه روادا ولا يفترقون إلا عن ذواق ، ويخرجون أدلة (يعني فقهاء) [3] .

قال : وسألته عن مخرجه كيف كان يصنع فيه ؟ فقال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يخزن لسانه [4] إلا فيما [5] يعينهم ويؤلفهم ولا ينفرهم ، ويكرم كريم كل قوم ويوليه

---

[1] الذواق (بفتح الذال وتخفيف الواو) المأكول والمشروب .

[2] في (خ) «وقسمته» وما أثبتناه من (صفة الصفوة) ج 1 ص 158 .

[3] كذا في (خ) ، وفي المرجع السابق «يعني على الخير» .

[4] في (خ) «يحزن» ، وما أثبتناه من المرجع السابق .

[5] في (خ) «هما» ، وما أثبتناه من المرجع السابق .

(80/707)

عليهم ، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد بشره ولا خلقه ، يتفقد أصحابه ويسأل الناس عما في الناس [1] ، ويحسّن الحسن ويقويه ، ويقبّح القبيح ويوهنه ، معتدل الأمر ، غير مختلف ، ولا يغفل مغافة أن يغفلوا أو يميلوا ، لكل حال عنده عتاد ، لا يقصر عن الحق ولا يجوزه [2] الذين يلونه من الناس ، خيارهم وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مؤاساة ومؤازرة .

قال : فسألته عن مجلسه كيف كان يصنع فيه ؟ فقال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر . ولا يوطن الأماكن وينهي عن إيطانها [3] ، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك ، يعطي كل جلسائه نصيبه ، ولا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه ، ومن جالسه أو قاومه في حاجة صابره ، حتى يكون هو المنصرف ، ومن سأله حاجة لم يردّه إلا بها أو بميسور من القول ، قد وسع الناس

من بسطه وخلقه ، فصار لهم أبا . وصاروا عنده في الحق متقاربين ، متفاضلين بالتقوى متواضعين ، يوقرون فيه الكبير ، ويرحمون الصغير ، ويؤثرون ذا الحاجة ويحفظون الغريب . قال : قلت : كيف كانت سيرته في جلسائه ؟ قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب [4] ولا فحاش ولا عيّاب ولا مدّاح ، يتغافل عما لا يشتهي . ولا يؤيس [5] منه ، ولا يخيّب فيه مؤمليه [6] ، قد ترك نفسه من ثلاث : المراء ، والإكثار ، وما لا يعنيه ، وترك الناس من ثلاث : لا يذم أحدا ، ولا يعيّره ، ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه ، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير ، فإذا سكت تكلموا ، ولا يتنازعوا عنده الحديث ، من تكلم أنصتوا له حتى يفرغ ، حديثهم

---

[1] كذا في (خ) وفي المرجع السابق «ما في أيدي الناس» .

[2] كذا في (خ) ، وفي المرجع السابق «يجاوزه» .

[3] إيطان المكان : التعود على الجلوس في مكان بعينه .

[4] الصخّاب والسخّاب : بمعني ، وهو الصياح .

[5] في (خ) «يواس» وما أثبتناه من (صفة الصفوة) ج 1 ص 160 .

[6] في (خ) «ولا يجب فيه» وما أثبتناه من (صفة الصفوة) ج 1 ص 160 .

عنده حديث أوليهم [1] ، يضحك مما يضحكون منه ، ويتعجب مما يتعجبون منه ، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته [2] ، حتى كان أصحابه ليستجلبوهم [3] [في المنطق] [4] ، ويقول . إذا رأيتم طالب الحاجة يطلبها فأرفدوه ، ولا يقبل الثناء إلا من مكافئ [5] ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز فيقطعه بنهي أو قيام [6] .

قال : سألته كيف كان سكوته ؟ قال : كان سكوت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على أربع : الحلم ، والحذر ، والتقدير ، والتفكير ، فأما تقديره ففي تسويته النظر ، والاستماع بين الناس ، وأما تذكره – أو قال : تفكره – ففيم يبقى ويغنى [7] .

وجمع له صلّى الله عليه وسلّم الحلم والصبر ، فكان لا يغضبه شيء ولا يستفزه ، وجمع له الحذر في أربع : أخذه بالحسن ليقتدى به ، وتركه القبيح لينتهي عنه ، واجتهاد الرأى فيما أصلح أمته ، والقيام لهم فيما جمع لهم أمر الدنيا والآخرة صلّى الله عليه وسلّم . وحديث جميع بن عمرو قال : حدثني رجل من بني تميم من ولد أبي هالة زوج خديجة يكنى أبا عبد الله عن ابن أبي هالة لم يسم ، عن الحسن بن علي قال :

سألت خالي هند بن أبي هالة – وكان وصّافا – عن حلية رسول الله فقال : كان رسول

الله فخما مفخما . (الحديث . هكذا رواه الترمذي في الشمائل ، والطبراني في معجمه الكبير ، ورواه العقيلي في الضعفاء من طريق مجمع بن عمر ، حدثنا يزيد ابن عمر التميمي عن أبيه عن الحسن ، فبين ذلك المبهمين في الإسناد الأول .

والفخم المفخّم : العظيم المعظم في العيون والصدور ، أي كان جميلا مهيبا عند الناس .

والمشذب : الطويل البائن الطول مع نقص في لحمة ، أي ليس بنحيف طويل ، بل طوله وعرضه متناسبان على أتم صفة .

---

[1] كذا في (خ) «وفي المرجع السابق «أولهم» .

[2] أي إنه يصبر على ما يبدو من الغريب من غلظة في كلامه وسؤاله .

[3] كذا في (خ) ، وفي (صفة الصفوة) «ليستجلبونهم» .

[4] ما بين القوسين ليس في (صفة الصفوة) .

[5] في (خ) «مكلف» وما أثبتناه من المرجع السابق ومن (النهاية لابن الأثير) .

[6] رواه (الترمذي)

[7] هذه الفقرة من (الطبراني) زيادة عن رواية (الترمذي) .

والشعر الرّجل الّذي ليس شديد الجعودة ولا شديد السبوطة ، بل بينهما ، والعقيصة : الشعر المجموع كهيئة المضفور ، والعقيقة : الشعر الّذي يخرج على رأس الصبي حين يولد وسمي الشعر عقيقة لأنه منها ونباته من أصولها ، وقيل العقيقة هنا تصحيف ، وإنما هي العقيصة .

والأزهر : الأبيض المستنير ، وهو أحسن الألوان ، وليس بالشديد البياض .

الزّجج : وهو دقة الحاجبين وسبوغهما إلى محاذاة آخر العين مع تقوس ، والقرن : أن يلتقي طرفاهما مما يلي أعلى الأنف ، وهو محمود عند العرب ، ويستحبون البلج وهو بياض ما بين رأسيهما وخلوة في صفته عليه السلام ، دون أن حاجبيه قد سبغا وامتدا حتى كادا يلتقيان فيه ولم يلتقيا ، ونفي القرن هو الصحيح في صفته عليه السلام ، دون ما وصفته به أم معبد ، ويمكن أن يقال : لم يكن بالأقرن ، ولا بالأبلج حقيقة ، بل كان بين حاجبيه فرجة كبيرة ، لا تتبين إلا لمن حقق النظر إليها ، كما ذكر في صفة أنفه فقال : يحسبه من لم يتأمله أشمّ ولم يكن أشم .

والسوابغ : جمع سابغ ، وهو التام الطويل ، ويدرّه الغضب ، أي يحركه ويظهره ، كان إذا غضب امتلأ ذلك العرق دما كما يمتلى الضرع لبنا إذا درّ ، فيظهر ويرتفع .

والعرنين : الأنف ، والقنا : طول الأنف ودقة أرنبته مع ارتفاع في وسط قصبته ، والشمم : ارتفاع رأس الأنف وإشراف الأرنبة قليلا ، واستواء أعلى القصبة ، أي كان يحسب لحسن

قناة قبل التأمل أشم ، فليس قناؤه بفاحش مفرط ، بل يميل إلى الشمم .

والشعر الكث : الكثيف المتراكب من غير طول ولا رقة ، وسهل الخدين :

أي ليس في خديه نتوء وارتفاع ، وقيل : أراد أن خديه أسيلان قليلا اللحم رقيقا الجلدة .

والضليع الفم : العظيم الواسع ، وكانوا يذمون صغر الفم ، وقال أبو عبيد :

أحسبه جله في الشفتين ، وغلظة فيهما .

والشنب : رقة الأسنان ودقتهما ، وتحدد أطرافهما ، وقيل : هو بردهما وعذوبتهما .

(83/707)

والفلج : تباعد ما بين الثنايا والرباعيات ، والمسربة : ما دق من شعر الصدر مائلا إلى السرة .

والجيد : العنق ، والدمية الصورة المصورة في جدار أو غيره .

واعتدال الخلق : تناسب الأعضاء والأطراف ، وأن لا تكون متباينة في الدقة والغلظ ، والصّغر والكبر ، والطول والقصر .

والبادن : الضخم التام اللحم ، والمتماسك : الّذي لحمه ليس بمسترخ ولا بعضه بعضا ، لأن الغالب على السّمن الاسترخاء .

قوله : سواء البطن والصدر : أي متساويهما ، يعني أن بطنه غير خارج ، فهو مساو لصدره ، وصدره عريض فهو مساو لبطنه .

والمنكبان : أعلا الكتفين ، وبعد ما بينهما يدل على سعة الصدر والظهر ، والكراديس : جمع كردوس ، وهو رأس كل عظم كبير ، وملتقى كل عظمتين ضخمتين كالمنكبين والمرفقين ، والوركين والركبتين ، ويريد به ضخامة الأعضاء وأغلظها .

والمتجرد ما كشف عنه الثوب من اليدين ، يعني أنه كان مشرق الجسد ، نيّر اللون ، فوضع الأنور موضع النيّر .

والأشعر : الّذي عليه الشعر من البدن ، واللبة (بفتح اللام) الوهدة في أعلى الصدر وفي أسفل الحلق بين الترقوتين .

وقوله : عاري الثديين والبطن مما سوى ذلك ، أي أن ثدييه وبطنه ليس عليهما شعر سوى المسربة المقدم ذكرها ، الّذي جعله جاريا كالخط .

والزندان : العظمان اللذان يليان الكف من الذراع ، رأس أحدهما يلي الإبهام ، ورأس الآخر يلي الخنصر .

والراحة : الكف ، ورحبها : سعتها ، وهو دليل الجود ، والشثن : الغليظ الأطراف والأصابع وكونها سائلة أي ليست بمتعقدة ولا متجعدة ، فهي مع غلظتها سهلة سبطة .

والقصب : جمع القصبة ، وهي كل عظم أجوف فيه مخ ، والسبط : الممتد في استواء ليس فيه تعقد ولا نتوء .

والأخمص من القدم : الموضع الّذي لا يصل إلى الأرض منها عند الوطء ، والخمصان : المبالغ منه ، أي أن ذلك الموضع منه شديد التجافي عن الأرض . وسئل ابن الأعرابي عنه فقال : إذا كان خمص الأخمص بقدر لم يرتفع جدا ولم يسو أسفل القدم جدا فهو أحسن ما يكون ، وإذا استوى أو ارتفع جدا فهو ذم .

فيكون المعنى حينئذ : معتدل الخمص بخلاف الأولى ، وكلا القولين متجه يحتمله اللفظ ، ومسيح القدمين : أي أن ظاهرهما ممسوح غير متعقد ، فإذا صب عليهما الماء مرّ سريعا لملامستهما فينبو عنهما الماء ولا يقف ، يقال : نبا الشيء ينبو [1] إذا تباعد .

وقال الهروي : أراد أنهما ملساوان : ليس فيهما وسخ ولا شقاق ولا تكسر ، فإذا أصابهما الماء نبا عنهما .

وقوله : إذا زال زال قلعا كأنما ينحط من صبب ، والانحدار من صبب والتقلع من الأرض قريب بعضه من بعض . أراد أنه كان يستعمل التثبت ، ولا يبين منه في هذه الحال استعجال ومبادرة شديدة .

وفي حديث آخر : إذا مشى تقلّع ، أراد به قوة المشي وأنه كان يرفع رجليه من الأرض رفعا

قويا ، لا كمن يمشي اختيالا ، ويقارب خطوه ، فإن ذلك من مشي النساء .

والتكفؤ : تمايل الماشي إلى قدام كالغصن إذا هبت به الريح ، والهون : المشي في رفق ولين غير مختال ولا معجب - ، والذريع : السريع ، أي أنه كان واسع الخطو فيسرع مشيه ، وربما يظن أن هذا ضد الأول . ولا تضاد فيه ، لأن معناه أنه كان مع تثبته في المشي يتابع الخطوات ويوسعها فيسبق غيره .

والصّبب : الموضع المنحدر من الأرض ، وذلك دليل سرعة مشيه ، لأن المنحدر لا يكاد يثبت في مشيه .

---

[1] في (خ) «ينبوا» .

وفي رواية كأنما يهوي من صبوب بضم الصاد : جمع صبب ، وهو المنحدر من الأرض ، وبفتح الصاد : اسم لما يصب على الإنسان من ماء غيره ، وهو يهوي :

إذا نزل من موضع عال .

وقوله : وإذا التفت التفت جميعا : أي لم يكن يلوي عنقه ، ورأسه إذا أراد أن يلتفت إلى ورائه ، فعل الطائش العجل ، إنما يدير بدنه كله وينظر ، وقيل : أراد أن لا يسارق النظر ،

وخفض الطرف ضد رفعه ، وجلّ الشيء معظمه والملاحظة :

أن ينظر بلحظ عينيه وهو شقها الّذي يلي الصدغ والأذن . ولا يحدق [1] إلى الشيء تحديقا .

والطرف العين . وكانت الملاحظة معظم نظره وأكثره ، وهو دليل الحياء والكرم . ويسوق أصحابه : أي يقدمهم أمامه ، ويمشي وراءهم ، والسكت :

السكوت ، وجوامع الكلم : القليلة الألفاظ الكثيرة المعاني ، جمع جامعة وهي اللفظة الجامعة للمعاني ، والقول الفصل : هو البين الظاهر المحكم الّذي لا يعاب قائله ، وحقيقته الفاصل بين الحق والباطل ، والخطأ والصواب .

والفضول من الكلام : ما زاد عن الحاجة وفضل ، ولذلك عطف عليه (ولا تقصير) ، والدمث : السهل اللين الخلق ، والجافي : المعرض المتباعد عن الناس ، وقيل : الغليظ الخلقة والطبع ، والمهين (بضم الميم) من الإهانة وهي الإذلال والإطراح ، أي لا يهين أحدا من الناس ، و(بفتح الميم) من المهانة وهي الحقارة والصغر .

ويعظم النعمة : أي لا يستصغر شيئا أوتيه وإن كان صغيرا ، والذّواق : اسم لما يذاق باللسان ، أي لا يصف الطعام بطيب ولا بشاعة ، وقالوا : وقوله : تعوطي الحق لم يعرفه أحد ، أي إذا نيل من الحق أو أهمل أو تعرض للقدح فيه ، تنكر عليهم وخالف عادته معهم ، حتى لا يكاد يعرفه أحد منهم ، ولا يثبت لغضبه شيء حتى ينتصر للحق .

وقوله : إذا تحدث اتصل بها ، أي أنه كان يشير بكفه إلى حديثة ، وتفسير ، «قوله فيضرب بباطن راحته اليمني باطن إبهامه اليسرى ، وأشاح» : إذا بالغ في

---

[1] نحوه في (مسلم بشرح النووي) ج 15 ص 69 .

(86/707)

الإعراب وجدّ فيه . المشيح المبالغ في كل أمر ، أي إذا غضب لم يكن ينتقم ويؤاخذ . بل يقنع بالإعراض عمن أغضبه» .

وغض الطرف عند الفرح دليل على نفي البطر والأشر ، والتبسم : أقل من الضحك ، ويفتر : أي يكشف عند التبسم عن أسنانه من غير قهقهة . وحب الغمام : البرد ، وقوله : فيرد ذلك على العامة بالخاصة : أرد أن العامة كانت لا تصل إليه في هذا الوقت ، وكانت الخاصة تخبر العامة بما سمعت منه فكأنه أوصل الفوائد إلى العامة بالخاصة ، وقيل أن الباء في الخاصة تخبر العامة : بمعنى من ، أي فجعل وقت العامة بعد وقت الخاصة وبدلا منهم . والرّوّاد : جمع رائد ، وهو الّذي يتقدم القوم . يكشف لهم حال الماء والمرعى قبل وصولهم ، ويخرجون أدلة : أي يدلون الناس بما قد علموه منه وعرفوه . يريد أنهم يخرجون من عنده فقهاء .

ومن قال أذلة (بذال معجمة) فيكون جمع ذليل ، أي يخرجون من عنده متواضعين ، وقوله : لا يفترقون إلا عن ذواق : ضرب الذواق مثلا لما ينالون عنده من الخير ، أي لا يفترقون إلا عن علم يتعلمونه يقوم لهم مقام الطعام والشراب ، لأنه يحفظ الأرواح كما يحفظ الأجسام .

وقوله : لا تؤبن فيه الحرم : أي لا تقذف وترمي بعيب ، والحرم : جمع حرمة ، وهي المرأة .

ولا تنثى فلتاته : أي لا يتحدث عن مجلسه بهفوة أو زلة إن حدثت فيه من بعض القوم ، يقال : نتوت الحديث إذا أذعته . والفلتات جمع فلتة ، وهي الزلة والسقطة .

وقيل معناه : أنه لم يكن فيه فلتات فتنثى . والبشر : طلاقة الوجه وبشاشته .

والفظ : السيء الخلق . والسخاب فعال من السخب ، وهو الضجة واختلاط الأصوات .

والخصّام والفحّاش والعيّاب : فعال من الفحش في القول وعيب الناس والوقيعة بينهم .

وقوله : لا يقبل الثناء إلا من مكافئ : يريد أنه كان إذا ابتدأ بثناء ومدح كره ذلك ، وإذا اصطنع معروفا فأثني عليه ، هش وشكر له قبل ثنائه .

(87/707)

وأنكر ابن الأعرابي هذا التأويل وقال : المعنى أنه لا يقبل الثناء عليه ممن لا يعرف حقيقة إسلامه ويكون من المنافقين الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم .

وقال الأزهري : معناه لا يقبل الثناء إلا من مقارب غير مجاوز حد مثله ، ولا مقصر عما رفعه الله إليه . والمكافأة : المجازاة على الشيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إمتاع الأسماع حـ 2 صـ 186.149 ﴾

(88/707)

قوله تعالى ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (4) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (5) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (6) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تحرر أن الكفار أحق الخلق بالعدم لأن الباطل مثلهم وحقيقة حالهم ، سبب عنه قوله : ﴿ فإذا لقيتم ﴾ أي أيها المؤمنون ﴿ الذين كفروا ﴾ ولو بأدنى أنواع الكفر في أيّ مكان كان

وأيّ زمان اتفق .

ولما كان المراد القتل المجهر بغاية التحقق ، عبر عنه مؤكداً له من الاختصار بذكر المصدر الدال على الفعل مصوراً له بأشنع صوره مع ما فيه من الغلظة على الكفار والاستهانة بهم فقال تعالى : ﴿ فضرب الرقاب ﴾ أي عقبوا لقيكم لهم من غير مهلة بأن تضربوا رقابهم ضرباً بالصدق في الضرب بما يزهق أرواحهم ، فإن ذلك انتهاز للفرصة وعمل بالأحوط ، وكذلك النفس التي هي أعدى العدو إذا ظفرت بها وجب عليك أن لا تدع لها بقية ، قال القشيري : فالحية إذا بقيت منها بقية فوضعت عليها إصبع ثبت فيها سمها .

ولما كان التقدير : ولا يزال ذلك فعلكم ، غياه بقوله : ﴿ حتى ﴾ وبشرهم بالتعبير بأداة التحقق فقال تعالى : ﴿ إذا أثخنتموهم ﴾ أي أغلظتم القتل فيهم وأكثرتموه بحيث صاروا لا حراك بهم كالذي ثخن فأفرط ثخنه ؛ فجعل ذلك شرطاً للأسر كما قال تعالى ﴿ وما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ﴾ [الأنفال : 67] ثم قال تعالى مبيناً لما بعد الثخن : ﴿ فشدوا ﴾ أي لأنه لا مانع لكم الآن من الأسر ﴿ الوثاق ﴾ أي الرباط الذي يستوثق به من الأسر بالربط على أيديهم مجموعة إلى أعناقهم - مجاز عن الأسر بغاية الاستيلاء والقهر .

ولما كان الإمام مخيراً في أسراهم بين أربعة أشياء : القتل والإطلاق مجاناً والإطلاق بالفدية وهي شيء يأخذه عوضاً عن رقابهم والاسترقاق ، عبر عن ذلك بقوله مفصلاً : ﴿ فإما منّاً ﴾ أي أن ينعموا عليهم إنعاماً ﴿ بعد ﴾ أي في جميع أزمان ما بعد الأسر باستبقائهم ثم بعد الإنعام باستبقائهم إما أن يكون ذلك مع الاسترقاق أو مع الإطلاق ثم الإطلاق إما مجاناً ﴿ وإما فداء ﴾ بمال أو بأسرى من المسلمين ونحو ذلك ، فأفهم التعبير بالمن الذي معناه الإنعام أن الإبقاء غير واجب بكل جائز ، ودخل في الإبقاء ثلاث صور : الاسترقاق والإطلاق مجاناً وبالفداء فصرح سبحانه وتعالى بالفداء الذي معناه الأخذ على وجه أن قسيم للمن ، فعلم أن المراد به الإبقاء مع عدم الأخذ فدخل فيه الإطلاق مجاناً وهو واضح والاسترقاق لأنه إنعام بالنسبة إلى القتل ، وأفهم التعبير بالمن الذي معناه الإنعام من المنان الذي هو اسمه تعالى ومعناه المعطي ابتداء جواز القتل لأن الإنعام مخير فيه لا واجب لأنه لو كان واجباً كان حقاً لا نعمة ، فقد دخلت السور الأربع في التعبير بهاتين الكلمتين – والله الهادي ، وكل هذا على ما يراه الإمام أو نائبه مصلحة ، قال القشيري : كذلك حال المجاهدة مع النفس إذا كان في إغفاء ساعة وإفطار يوم ترويح للنفس من الكد وقوة على الجهد فيما يستقبل من الأمر على ما يحصل به الاستصواب من شيخ المريد وفتوى لسان الوقت أو فراسة صاحب المجاهدة – انتهى .

وقد أفهم هذا السياق أن هذا الحكم ثابت غير منسوخ والأمر بالقتل وحده في غيرها من الآيات عام غير مخصوص بما أفهمته الغاية من أن التقدير : والجهاد على هذه الصفة باق وماض مع كل أمير براً كان أو فاجراً ، لا يزال طائفة من الأمة قائمين به ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله ، وهو – والله أعلم – المراد بقوله تعالى :

﴿ حتى ﴾ أي افعلوا ما أمرتكم به على ما جددت لكم إلى أن ﴿ تضع الحرب أوزارها ﴾ وهي أثقالها أي الآلات التي تثقل القائمين بها من النفقات والسلاح والكراع ونحوه ، وذلك لا يكون وفي الأرض كافر ، وذلك على زمن عيسى عليه الصلاة والسلام حين تخرج الأرض بركاتها ، وتكون الملة واحدة وهي الإسلام لله رب العالمين ، فيتخذ الناس حديد السلاح سككاً ومناجل وفؤوساً ينتفعون بها في معاشهم كما ورد في الحديث : " الجهاد ماض منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال " – رواه في الفردوس عن أنس -رضى الله عنه- " الجهاد واجب عليكم مع كل بر وفاجر " رواه أبو داود عن أبي هريرة -رضى الله عنه- .

ولما كانت الحرب كريهة إلى النفوس شديدة المشقة ، أكد أمرها بما معناه : إن هذا أمر قد

فرغ منه ، فقال تعالى : ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر العظيم العالي الحسن النافع الموجب لكل خير .
ولما كان هذا ربما أوهم أن التأكيد في هذا الأمر لكون الحال لا يمكن انتظامه إلا به ، أتبعه ما يزيل هذا الإيهام فقال : ﴿ ولو ﴾ ولما كان لو عبر بالماضي أفاد أنه كان ولم يبق ، عبر بالمضارع الدال على الحال وما بعده فقال : ﴿ يشاء الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي له جميع صفات الكمال والقدرة على ما يمكن ﴿ لانتصر منهم ﴾ أي بنفسه من غير أحد انتصاراً عظيماً بأن لا يبقى منهم أحداً ﴿ ولكن ﴾ أوجب ذلك عليكم ﴿ ليبلوا ﴾ .

(91/707)

ولما كان الابتلاء ليس خاصاً بفريق منهم بل عاماً للفريقين لأنه يكشف عن أهل المحاسن وأهل المساوئ من كل منهم ، قال تعالى : ﴿ بعضكم ﴾ من الفرقة المؤمنين بالإنكار عليهم من الفرقة الطاغين حتى يكون لهم بذلك اليد البيضاء ﴿ ببعض ﴾ أي يفعل في ذلك فعل المختبر ليترتب عليه الجواء على حسب ما تألفونه من العوائد .
ولما أفهم هذا أن الابتلاء بين فريقين بالجهاد ، قال عاطفاً على ما تقديره : فالذين قاتلوا أو قتلوا في سبيل الشيطان أضل أعمالهم : ﴿ والذين قتلوا ﴾ وفي قراءة البصريين وحفص ﴿ قتلوا ﴾ وهي أكثر ترغيباً والأولى أعظم ترجية ﴿ في سبيل الله ﴾ أي لأجل تسهيل

طريق الملك الأعظم المتصف بجميع صفات الكمال .

ولما كان في سياق الترغيب ، قرن الخبر بالفاء إعلاماً بأن أعمالهم سببه فقال تعالى : ﴿ فلن يضل ﴾ أي يضيع ويبطل ﴿ أعمالهم ﴾ لكونها غير تابعة لدليل بل يبصرهكم بالأدلة ويوفقهم لاتباعها ، وهو معنى قوله تعالى تعليلاً : ﴿ سيهديهم ﴾ أي في الدارين بوعد لا خلف فيه بعد المجاهدة إلى كل ما ينفعهم مجدداً ذلك على سبيل الاستمرار ﴿ ويصلح بالهم ﴾ أي موضع فكرهم فيجعله مهيأ لكل خير بعيداً عن كل شر آمناً من المخاوف مطمئناً بالإيمان بما فيه من السكينة ، فإذا قتل أحد في سبيله تولى سبحانه وتعالى ورثته بأحسن من تولي المقتول لو كان حياً .

(92/707)

ولما كان هذا ثواباً عظيماً ونوالاً جسيماً ، أتبعه ثواباً أعظم منه فقال تعالى : ﴿ ويدخلهم الجنة ﴾ أي دار القرار الكاملة في النعيم ، وأجاب من كأنه يسأل عن كيفية إدخالهم إياها وكيفيتها عند ذلك بقوله تعالى : ﴿ عرفها لهم ﴾ أي بتعريف الأعمال الموصلة إليها والتوفيق لهم إليها في الدنيا وأيضاً بالتبصير بالمنازل في الآخرة حتى أن أحدهم يصير أعرف بمنزله فيها منه بمنزله في الدنيا ، وطيب رائحتها وجعل موضعها عالياً وجدرانها عالية

وهي ذات أغراف وشرف ، وفي هذه الآية بشرى عظيمة لمن جاهد ساعة ما بأن الله يميته على الإسلام المستلزم لئلا يضيع له عمل ، ويؤيده ما رواه الطبراني في الكبير عن فضالة بن عبيد الأنصاري ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : " للإسلام ثلاث أبيات : سفلى وعليا وغرفة ، فأما السفلى فالإسلام دخل فيه عامة المسلمين فلا تسأل أحداً منهم إلا قال : أنا مسلم ، وأما العليا فتفاضل أعمالهم بعض المسلمين أفضل من بعض ، وأما الغرفة العليا فالجهاد في سبيل الله لا ينالها إلا أفضلهم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 151 . 154 ﴾

(93/707)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾

ثم قال تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الذين كَفَرُواْ فَضَرْبَ الرقاب حتى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

الفاء في قوله ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ﴾ يستدعي متعلقاً يتعلق به ويترتب عليه ، فما وجه التعلق بما قبله ؟ نقول هو من وجوه : الأول : لما بيّن أن الذين كفروا أضل الله أعمالهم واعتبار الإنسان بالعمل ، ومن لم يكن له عمل فهو همج فإن صار مع ذلك يؤذي حسن إعدامه ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ﴾ بعد ظهور أن لا حرمة لهم وبعد إبطال أعمالهم ، فاضربوا أعناقهم الثاني : إذا تبين تباين الفريقين وتباعد الطريقين ، وأن أحدهما يتبع الباطل وهو حزب الشيطان ، والآخر يتبع الحق وهو حزب الرحمن حق القتال عند التحزب ، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم الثالث : أن من الناس من يقول لضعف قلبه وقصور نظره إيلام الحيوان من الظلم والطغيان ، ولا سيما القتل الذي هو تخريب بنيان ، فيقال رداً عليهم : لما كان اعتبار الأعمال باتباع الحق والباطل فمن يقتل في سبيل الله لتعظيم أمر الله لهم من الأجر ما للمصلي والصائم ، فإذا لقيتم الذين كفروا فاقتلوهم ولا تأخذكم بهما رأفة فإن ذلك اتباع للحق والاعتبار به لا بصورة الفعل .

المسألة الثانية :

﴿ فَضَرْبَ ﴾ منصوب على المصدر ، أي فاضربوا ضرب الرقاب .

المسألة الثالثة :

ما الحكمة في اختيار ضرب الرقبة على غيرها من الأعضاء نقول فيه : لما بيّن أن المؤمن ليس يدافع إنما هو دافع ، وذلك أن من يدفع الصائل لا ينبغي أن يقصد أولاً مقتله بل يتدرج ويضرب على غير المقتل ، فإن اندفع فذاك ولا يترقى إلى درجة الإهلاك ، فقال تعالى ليس المقصود إلا دفعهم عن وجه الأرض ، وتطهير الأرض منهم ، وكيف لا والأرض لكم مسجد ، والمشركون نجس ، والمسجد يطهر من النجاسة ، فإذاً ينبغي أن يكون قصدكم أولاً إلى قتلهم بخلاف دفع الصائل ، والرقبة أظهر المقاتل لأن قطع الحلقوم والأوداج مستلزم للموت لكن في الحرب لا يتهيأ ذلك ، والرقبة ظاهرة في الحرب ففي ضربها حز العنق وهو مستلزم للموت بخلاف سائر المواضع ، ولا سيما في الحرب ، وفي قوله ﴿ لَقِيتُمُ ﴾ ما ينبىء عن مخالفتهم الصائل لأن قوله ﴿ لَقِيتُمُ ﴾ يدل على أن القصد من جانبهم بخلاف قولنا لقيكم ، ولذلك قال في غير هذا الموضع ﴿ واقتلوهم حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ [البقرة : 191] .

المسألة الرابعة :

قال ههنا ﴿ ضَرب الرقاب ﴾ بإظهار المصدر وترك الفعل ، وقال في الأنفال ﴿ فاضربوا فَوْقَ الأعناق ﴾ [الأنفال : 12] بإظهار الفعل ، وترك المصدر ، فهل فيه فائدة ؟ نقول نعم ولنبينها بتقديم مقدمة ، وهي أن المقصود أولاً في بعض السور قد يكون صدور الفعل من

فاعل ويتبعه المصدر ضمناً ، إذ لا يمكن أن يفعل فاعل إلا ويقع منه المصدر في الوجود ، وقد يكون المقصود أولاً المصدر ولكنه لا يوجد إلا من فاعل فيطلب منه أن يفعل ، مثاله من قال : إني حلفت أن أخرج من المدينة .

(95/707)

فيقال له : فاخرج ، صار المقصود منه صدور الفعل منه والخروج في نفسه غير مقصود الانتفاء ، ولو أمكن أن يخرج من غير تحقق الخروج منه لما كان عليه إلا أن يخرج لكن من ضرورات الخروج أن يخرج ، فإذا قال قائل ضاق بي المكان بسبب الأعداء فيقال له مثلاً الخروج يعني الخروج فاخرج فإن الخروج هو المطلوب حتى لو أمكن الخروج من غير فاعل لحصل الغرض لكنه محال فيتبعه الفعل ، إذا عرفت هذا فنقول في الأنفال الحكاية عن الحرب الكائنة وهم كانوا فيها والملائكة أنزلوا لنصرة من حضر في صف القتال فصدور الفعل منه مطلوب ، وههنا الأمر وارد وليس في وقت القتال بدليل قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ﴾ والمقصود بيان كون المصدر مطلوباً لتقدم المأمور على الفعل قال : ﴿ فَضَرْبَ الرقاب ﴾ وفيما ذكرنا تبيين فائدة أخرى وهي أن الله تعالى قال هناك ﴿ واضربوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال : 12] وذلك لأن الوقت وقت القتال فأرشدهم إلى المقتل وغيره إن لم يصيبوا

المقتل ، وههنا ليس وقت القتال فبيّن أن المقصود القتل وغرض المسلم ذلك .

المسألة الخامسة :

﴿ حتى ﴾ لبيان غاية الأمر لا لبيان غاية القتل أي حتى إذا اثخنتموهم لا يبقى الأمر بالقتل ، ويبقى الجواز ولو كان لبيان القتل لما جاز القتل ، والقتل جائز إذا التحق المثخن بالشيخ الهرم ، والمراد كما إذا قطعت يداه ورجلاه فنهى عن قتله .

ثم قال تعالى : ﴿ فَشُدُّواْ الوثاق ﴾ أمر إرشاد .

ثم قال تعالى : ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(إما) وإنما للحصر وحالهم بعد الأسر غير منحصر في الأمرين ، بل يجوز القتل والاسترقاق والمن والفداء ، نقول هذا إرشاد فذكر الأمر العام الجائز في سائر الأجناس ، والاسترقاق غير جائز في أسر العرب ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان معهم فلم يذكر الاسترقاق ، وأما القتل فلأن الظاهر في المثخن الإزمان ، ولأن القتل ذكره بقوله ﴿ فَضَرْبَ الرقاب ﴾ فلم يبق إلا الأمران .

المسألة الثانية :

مناً وفداءً منصوبان لكونهما مصدرين تقديره : فإما تمنون مناً وإما تفدون فداءً وتقديم المن على الفداء إشارة إلى ترجيح حرمة النفس على طلب المال ، والفداء يجوز أن يكون مالاً يكون وأن يكون غيره من الأسرى أو شرطاً يشرط عليهم أو عليه وحده .

المسألة الثالثة :

إذا قدرنا الفعل وهو تمنون أو تفدون على تقدير المفعول ، حتى نقول إما تمنون عليهم منا أو تفدونهم فداء ، نقول لا لأن المقصود المن والفداء لا عليهم وبهم كما يقول القائل : فلان يعطي ويمنع ولا يقال يعطي زيداً ويمنع عمراً لأن غرضه ذكر كونه فاعلاً لا بيان المفعول ، وكذلك ههنا المقصود إرشاد المؤمنين إلى الفضل .

ثم قال تعالى : ﴿ حتى تَضَعَ الحرب أَوْزَارَهَا ﴾ .

وفي تعلق ﴿ حتى ﴾ وجهان أحدهما : تعلقها بالقتل أي اقتلوهم حتى تضع وثانيهما : بالمن والفداء ، ويحتمل أن يقال متعلقة بشدوا الوثاق وتعلقها بالقتل أظهر وإن كان ذكره أبعد ، وفي الأوزار وجهان أحدهما : السلاح والثاني : الآثام وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

إن كان المراد الإثم ، فكيف تضع الحرب الإثم والإثم على المحارب ؟ وكذلك السؤال في السلاح لكنه على الأول أشد توجهاً ، فيقول تضع الحرب الأوزار لا من نفسها ، بل تضع

الأوزار التي على المحاربين والسلاح الذي عليهم .

المسألة الثانية :

(97/707)

هل هذا كقوله تعالى : ﴿ واسئل القرية ﴾ [يوسف : 82] حتى يكون كأنه قال حتى تضع أمة الحرب أو فرقة الحرب أوزارها ؟ نقول ذلك محتمل في النظر الأول ، لكن إذا أمعنت في المعنى تجد بينهما فرقاً ، وذلك لأن المقصود من قوله ﴿ حتى تَضَعَ الحرب أَوْزَارَهَا ﴾ الحرب بالكلية بحيث لا يبقى في الدنيا حزب من أحزاب الكفر يحارب حزباً من أحزاب الإسلام ، ولو قلنا حتى تضع أمة الحرب جاز أن يضعوا الأسلحة ويتركوا الحرب وهي باقية بمادتها كما تقول خصومتي ما انفصلت ولكني تركتها في هذه الأيام ، وإذا أسندنا الوضع إلى الحرب يكون معناه إن الحرب لم يبق .

المسألة الثالثة :

لو قال حتى لا يبقى حزب أو ينفر من الحرب هل يحصل معنى قوله ﴿ حتى تَضَعَ الحرب أَوْزَارَهَا ﴾ نقول لا والتفاوت بين العبارتين مع قطع النظر عن النظم ، بل النظر إلى نفس المعنى كالتفاوت بين قولك انقرضت دولة بني أُمية ، وقولك لم يبق من دولتهم أثر ، ولا شك

أن الثاني أبلغ ، فكذلك ههنا قوله تعالى : ﴿ أَوْزَارَهَا ﴾ معناه آثارها فإن من أوزار الحرب آثارها .

المسألة الرابعة :

وقت وضع أوزار الحرب متى هو ؟ نقول فيه أقوال حاصلها راجع إلى أن ذلك الوقت هو الوقت الذي لا يبقى فيه حزب من أحزاب الإسلام وحزب من أحزاب الكفر وقيل ذلك عند قتال الدجال ونزول عيسى عليه السلام .

ثم قال تعالى : ﴿ ذلك وَلَوْ يَشَاء اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ .

في معنى ذلك وجهان أحدهما : الأمر ذلك والمبتدأ محذوف ويحتمل أن يقال ذلك واجب أو مقدم ، كما يقول القائل إن فعلت فذاك أي فذاك مقصود ومطلوب ، ثم بيّن أن قتالهم ليس طريقاً متعيناً بل الله لو أراد أهلكهم من غير جند .

قوله تعالى : ﴿ ولكن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ .

أي ولكن ليكلفكم فيحصل لكم شرف باختياره إياكم لهذا الأمر .

فإن قيل ما التحقيق في قولنا التكليف ابتلاء وامتحان والله يعلم السر وأخفى ، وماذا يفهم من قوله ﴿ ولكن لّيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ ؟ نقول فيه وجوه الأول : أن المراد منه يفعل ذلك فعل المبتلين أي كما يفعل المبتلى المختبر ، ومنها أن الله تعالى يبلو ليظهر الأمر لغيره إما للملائكة وإما للناس ، والتحقيق هو أن الابتلاء والامتحان والاختبار فعل يظهر بسببه أمر غيره متعين عند العقلاء بالنظر إليه قصداً إلى ظهوره ، وقولنا فعل يظهر بسببه أمر ظاهر الدخول في مفهوم الابتداء ، لأن ما لا يظهر بسببه شيء أصلاً لا يسمى ابتلاء ، أما قولنا أمر غير متعين عند العقلاء ، وذلك لأن من يضرب بسيفه على القثاء والخيار لا يقال إنه يمتحن ، لأن الأمر الذي يظهر منه متعين وهو القطع والقد بقسمين ، فإذا ضرب بسيفه سبعاً يقال يمتحن بسيفه ليدفع عن نفسه وقد يقده وقد لا يقده ، وأما قولنا ليظهر منه ذلك فلأن من يضرب سبعاً بسيفه ليدفعه عن نفسه لا يقال إنه ممتحن لأن ضربه ليس لظهور أمر متعين ، إذا علم هذا فنقول الله تعالى إذا أمرنا بفعل يظهر بسببه أمر غير متعين ، وهو إما الطاعة أو المعصية في العقول ليظهر ذلك يكون ممتحناً ، وإن كان عالماً به لكون عدم العلم مقارناً فينا لابتلائنا فإذا ابتلينا وعدم العلم فينا مستمر أمرنا وليس من ضرورات الابتلاء ، فإن قيل الابتلاء فائدته حصول العلم عند المبتلى ، فإذا كان الله تعالى عالماً فأية فائدة فيه ؟ نقول ليس هذا سؤال يختص بالابتلاء ، فإن قول القائل : لم ابتلى كقول القائل لم عاقب الكافر وهو مستغن ، ولم خلق النار محرقة وهو قادر على أن يخلقها بحيث تنفع ولا تضر ؟ وجوابه : لا

يسأل عما يفعل ، ونقول حينئذ ما قاله المتقدمون إنه لظهور الأمر المتعين لإله ، وبعد هذا فنقول : المبتلى لا حاجة له إلى الأمر الذي يظهر من الابتلاء ، فإن الممتحن للسيف فيما ذكرنا من الصورة لا حاجة له إلى قطع ما يجرب السيف

(99/707)

فيه حتى أنه لو كان محتاجاً ، كما ضربنا من مثال دفع السبع بالسيف لا يقال إنه يمتحن وقوله ﴿ لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ إشارة إلى عدم الحاجة تقريراً لقوله ﴿ ذلك وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ والذين قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ الله فَلَن يُضِلَّ أعمالهم ﴾ .

(100/707)

قرىء قتلوا وقاتلوا والكل مناسب لما تقدم ، أما من قرأ قتلوا فلأنه لما قال : ﴿ فَضَرْبَ الرقاب ﴾ ومعناه فاقتلوهم بين ما للقاتل بقوله ﴿ والذين قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ الله فَلَن يُضِلَّ أعمالهم ﴾ رداً على من زعم أن القتل فساد محرم إذ هو إفناء من هو مكرم ، فقال عملهم

ليس كحسنة الكافر يبطل بل هو فوق حسنات الكافر أضل الله أعمال الكفار ، ولن يضل القاتلين ، فكيف يكون القتل سيئة ، وأما من قرأ ﴿ قَاتَلُواْ ﴾ فهو أكثر فائدة وأعم تناولاً ، لأنه يدخل فيه من سعى في القتل سواء قتل أو لم يقتل ، وأما من قرأ ﴿ والذين قُتِلُواْ ﴾ على البناء للمفعول فنقول هي مناسبة لما تقدم من وجوه أحدها : هو أنه تعالى لما قال : ﴿ فَضَرْبَ الرقاب ﴾ أي اقتلوا والقتل لا يتأتى إلا بالإقدام وخوف أن يقتل المقدم يمنعه من الإقدام ، فقال لا تخافوا القتل فإن من يقتل في سبيل الله له من الأجر والثواب ما لا يمنع المقاتل من القتال بل يحثه عليه وثانيها : هو أنه تعالى لما قال : ﴿ لّيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ والمبتلى بالشيء له على كل وجه من وجوه الأثر الظاهر بالابتلاء حال من الأحوال ، فإن السيف الممتحن تزيد قيمته على تقدير أن يقطع وتنقص على تقدير أن لا يقطع فحال المبتلين ماذا فقال إن قتل فله أن لا يضل عمله ويهدى ويكرم ويدخل الجنة ، وأما إن قتل فلا يخفى (أمره) عاجلاً وآجلاً ، وترك بيانه على تقدير كونه قاتلاً لظهوره وبين حاله على تقدير كونه مقتولاً وثالثها : هو أنه تعالى لما قال : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ ولا يبتلي الشيء النفيس بما يخاف منه هلاكه ، فإن السيف المهند العضب الكبير القيمة لا يجرب بالشيء الصلب الذي يخاف عليه منه الانكسار ، ولكن الآدمي مكرم كرمه الله وشرفه وعظمه ، فلماذا ابتلاه بالقتال وهو يفضي إلى القتل والهلاك إفضاء غير نادر ، فكيف يحسن هذا الابتلاء ؟ فنقول القتل ليس بإهلاك بالنسبة إلى المؤمن فإنه يورث الحياة الأبدية فإذا

ابتلاه بالقتال فهو على تقدير أن يقتل مكرم وعلى تقدير أن لا يقتل مكرم هذا إن قاتل وإن لم يقاتل ، فالموت لا بد منه وقد فوت على نفسه الأجر الكبير .

وأما قوله تعالى : ﴿ فَلَن يُضِلَّ أعمالهم ﴾ قد علم معنى الإضلال ، بقي الفرق بين العبارتين في حق الكافر والضال قال ﴿ أَضَلَّ ﴾ [محمد : 1] وقال في حق المؤمن الداعي ﴿ لَنْ يُضِلَّ ﴾ ، لأن المقاتل داع إلى الإيمان لأن قوله ﴿ حتى تَضَعَ الحرب أَوْزَارَهَا ﴾ قد ذكر أن معناه حتى لم يبق إثم بسبب حرب ، وذلك حيث يسلم الكافر فالمقاتل يقول إما أن تسلم وإما أن تقتل ، فهو داع والكافر صاد وبينهما تباين وتضاد فقال في حق الكافر أضل بصيغة الماضي ، ولم يقل يضل إشارة إلى أن عمله حيث وجد عدم ، وكأنه لم يوجد من أصله ، وقال في حق المؤمن فلن يضل ، ولم يقل ما أضل إشارة إلى أن عمله كلما ثبت عليه أثبت له ، فلن يضل للتأبيد وبينهما غاية الخلاف ، كما أن بين الداعي والصاد غاية التباين والتضاد ، فإن قيل ما معنى الفاء في قوله ﴿ فَلَن يُضِلَّ ﴾ ؟ جوابه لأن في قوله تعالى : ﴿ والذين قُتِلُواْ ﴾ معنى الشرط .

سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (5)

إن قرىء ﴿ قتلوا ﴾ أو ﴿ قَاتَلُواْ ﴾ فالهداية محمولة على الآجلة والعاجلة ، وإن قرىء ﴿ قتلوا ﴾ فهو الآخرة ﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ طريق الجنة من غير وقفة من قبورهم إلى موضع حبورهم .

وقوله : ﴿ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ .

قد تقدم تفسيره في قوله تعالى : ﴿ أَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ [محمد : 2] والماضي والمستقبل راجع إلى أن هناك وعدهم ما وعدهم بسبب الإيمان والعمل الصالح ، وذلك كان واقعاً منهم فأخبر عن الجزاء بصيغة تدل على الوقوع ، وههنا وعدهم بسبب القتال والقتل ، فكان في اللفظ ما يدل على الاستقبال ، لأن قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ﴾ [محمد : 4] يدل على الاستقبال فقال : ﴿ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ ثم قال تعالى :

وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (6)

(102/707)

وكأن الله تعالى عند حشرهم يهديهم إلى طريق الجنة ويلبسهم في الطريق خلع الكرامة ، وهو إصلاح البال ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الجنة ﴾ فهو على ترتيب الوقوع .

وأما قوله ﴿ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ .

ففيه وجوه : أحدها : هو أن كل أحد يعرف منزلته ومأواه ، حتى أن أهل الجنة يكونون أعرف بمنازلهم فيها من أهل الجمعة ينتشرون في الأرض كل أحد يأوي إلى منزله ، ومنهم من قال الملك الموكل بأعماله يهديه الوجه الثاني : ﴿ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ أي طيبها يقال طعام معرف الوجه الثالث : قال الزمخشري يحتمل أن يقال عرفها لهم حددها من عرف الدار وأرفها أي حددها ، وتحديدها في قوله ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السموات والأرض ﴾ [آل عمران : 133] ويحتمل أن يقال المراد هو قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الجنة التى أُورِثْتُمُوهَا ﴾ [الزخرف : 72] مشيراً إليها معرفاً لهم بأنها هي تلك وفيه وجه آخر وهو أن يقال معناه ﴿ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ قبل القتل فإن الشهيد قبل وفاته تعرض عليه منزلته في الجنة فيشتاق إليها ووجه ثان : معناه ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الجنة ﴾ ولا حاجة إلى وصفها فإنه تعالى : ﴿ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ مراراً ووصفها ووجه ثالث : وهو من باب تعريف الضالة فإن الله تعالى لما قال : ﴿ إِنَّ الله اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وأموالهم بِأَنَّ لَهُمُ الجنة ﴾ [التوبة : 111] فكأنه تعالى قال من يأخذ الجنة ويطلبها بماله أو بنفسه فالذي قتل سمع التعريف وبذل ما طلب منه عليها فأدخلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 38 . 42 ﴾

(103/707)

وقال القرطبى :

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الذين كَفَرُواْ فَضَرْبَ الرقاب ﴾ لما ميّز بين الفريقين أمر بجهاد الكفار .

قال ابن عباس : الكفار المشركون عبدة الأوثان .

وقيل : كل من خالف دين الإسلام من مشرك أو كتابي إذا لم يكن صاحب عهد ولا ذِمّة ؛ ذكره الماوردي .

واختاره ابن العربي وقال : وهو الصحيح لعموم الآية فيه ؛ "فَضَرْبَ الرِّقَابِ" مصدر .

قال الزجاج : أي فاضربوا الرقاب ضرباً .

وخص الرقاب بالذكر لأن القتل أكثر ما يكون بها .

وقيل : نصب على الإغراء .

قال أبو عبيدة : هو كقولك يا نفس صبراً .

وقيل : التقدير اقصدوا ضرب الرقاب .

وقال : "فَضَرْبَ الرِّقَابِ" ولم يقل فاقتلوهم ؛ لأن في العبارة بضرب الرقاب من الغِلظة والشدة ما ليس في لفظ القتل ؛ لما فيه من تصوير القتل بأشنع صوره ؛ وهو حز العنق وإطارة العضو

الذي هو رأس البدن وعُلوّه وأوْجَهُ أعضائه .

الثانية قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ ﴾ أي أكثرتم القتل .

وقد مضى في "الأنفال" عند قوله تعالى : "حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ" .

﴿ فَشُدُّواْ الوثاق ﴾ أي إذا أسرتموهم .

والوثاق اسم من الإيثاق ، وقد يكون مصدراً ؛ يقال : أوثقته إيثاقاً ووثاقاً .

وأما الوِثاق (بالكسر) فهو اسم الشيء الذي يوثق به كالرباط ؛ قاله القشيري .

وقال الجوهريّ : وأوثقه في الوثاق أي شدّه ، وقال تعالى : "فَشُدُّوا الْوَثَاقَ" .

والوِثاق (بكسر الواو) لغة فيه .

وإنما أمر بشدّ الوثاق لئلا يفلِتوا .

﴿ فَإِمَّا مَنًّا ﴾ عليهم بالإطلاق من غير فِدْية ﴿ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ .

ولم يذكر القتل ها هنا اكتفاء بما تقدّم من القتل في صدر الكلام ، و "مَنًّا" و "فِدَاءً" نصب بإضمار فعل .

وقرىء "فَدًى" بالقصر مع فتح الفاء ؛ أي فإما أن تمنُّوا عليهم مَنًّا ، وإما أن تفادوهم فِداءً .

(104/707)

روي عن بعضهم أنه قال : كنت واقفاً على رأس الحجاج حين أُتِيَ بالأسرى من أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث وهم أربعة آلاف وثمانمائة فقتل منهم نحو من ثلاثة آلاف حتى قدم إليه رجل مِن كِنْدة فقال : يا حجاج ، لا جازاك الله عن السنة والكرم خيرا ! قال : ولِمَ ذلك ؟ قال : لأن الله تعالى قال : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الذين كَفَرُواْ فَضَرْبَ الرقاب حتى إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ الوثاق فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ في حق الذين كفروا ؛ فوالله ! ما مَنَنْتَ ولا فَدَيْتَ ؟ وقد قال شاعركم فيما وصف به قومه من مكارم الأخلاق :

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم . . .

إذا أثقل الأعناقَ حِملُ المغارم

فقال الحجاج : أفٍّ لهذه الجِيَف ! أمَا كان فيهم من يحسن مثل هذا الكلاما ؟ خَلُّوا سبيل من بقي .

فَخُلِّيَ يومئذ عن بقية الأسرى ، وهم زهاء ألفين ، بقول ذلك الرجل .

الثالثة واختلف العلماء في تأويل هذه الآية على خمسة أقوال :

الأوّل أنها منسوخة ، وهي في أهل الأوثان ، لا يجوز أن يفادوا ولا يُمَنّ عليهم .

والناسخ لها عندهم قوله تعالى : ﴿ فاقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة : 5] وقوله : ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الحرب فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ ﴾ [الأنفال : 57] وقوله : ﴿ وَقَاتِلُواْ المشركين كَآفَّةً ﴾ [التوبة : 36] الآية ؛ قاله قتادة والضحاك والسدّي وابن

جُرَيج والعَوْفِي عن ابن عباس ، وقاله كثير من الكوفيين .

وقال عبد الكريم الجَوْزِيّ : كُتب إلى أبي بكر في أسير أسِر ، فذكروا أنهم التمسوه بفداء كذا وكذا ؛ فقال اقتلوه ، لَقَتْلُ رجلٍ من المشركين أحبّ إليّ من كذا وكذا .

الثاني أنها في الكفار جميعاً .

وهي منسوخة على قول جماعة من العلماء وأهل النظر ، منهم قتادة ومجاهد .

(105/707)

قالوا : إذا أسِر المشرك لم يجز أن يُمَنّ عليه ، ولا أن يفادى به فيردّ إلى المشركين ؛ ولا يجوز أن يفادى عندهم إلا بالمرأة ؛ لأنها لا تُقتل .

والناسخ لها : "فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ" إذ كانت براءة آخر ما نزلت بالتوقيف ؛ فوجب أن يُقتل كل مشرك إلا من قامت الدلالة على تركه من النساء والصبيان ومن يؤخذ منه الجِزية .

وهو المشهور من مذهب أبي حنيفة ؛ خيفة أن يعودوا حَرْباً للمسلمين .

ذكر عبد الرّزاق أخبرنا معمر عن قتادة "فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً" قال : نسخها "فَشَرِّدْ بِهِم مَنْ خَلْفَهُمْ" .

وقال مجاهد : نسخها ﴿ فاقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ .

وهو قول الحَكَم .

الثالث أنها ناسخة ؛ قاله الضحاك وغيره .

روى الثوري عن جُوَيْبِر عن الضحاك : ﴿ فاقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ قال : نسخها "فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً" .

وقال ابن المبارك عن ابن جُرَيج عن عطاء : "فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً" فلا يُقتل المشرك ولكن يُمَنّ عليه ويُفادى ؛ كما قال الله عز وجل .

قال أشعث : كان الحسن يكره أن يقتل الأسير ، ويتلو ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ .

وقال الحسن أيضاً : في الآية تقديم وتأخير ؛ فكأنه قال : فضرب الرّقاب حتى تضع الحرب أوزارها .

ثم قال : ﴿ حتى إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ الوثاق ﴾ .

وزعم أنه ليس للإمام إذا حصل الأسير في يديه أن يقتله ؛ لكنه بالخيار في ثلاث منازل : إما أن يَمُنّ ، أو يفادي ، أو يسترق .

الرابع قول سعيد بن جُبَير : لا يكون فداء ولا أسر إلا بعد الإثخان والقتل بالسيف ؛ لقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أسرى حتى يُثْخِنَ فِي الأرض ﴾ [الأنفال : 67] .

فإذا أسِر بعد ذلك فللإمام أن يحكم بما رآه من قتل أو غيره .

الخامس أن الآية محكمة ، والإمام مخيَّر في كل حال ؛ رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، وقاله كثير من العلماء منهم ابن عمر والحسن وعطاء ، وهو مذهب مالك والشافعي والثوري والأوزاعي وأبي عبيد وغيرهم .

وهو الاختيار ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين فعلوا كل ذلك ؛ قَتل النبيّ صلى الله عليه وسلم عُقْبَة بن أبي مُعَيْط والنضر بن الحارث يوم بدر صَبْراً ، وفادى سائر أسارى بدر ، ومَنّ على ثُمامة بن أُثَال الحنفي وهو أسير في يده ، وأخذ من سلمة بن الأَكْوَع جارية ففدى بها أناساً من المسلمين ، وهبط عليه عليه السلام قوم من أهل مكة فأخذهم النبيّ صلى الله عليه وسلم ومنّ عليهم ، وقد منّ على سَبْيِ هوازن .

وهذا كله ثابت في الصحيح ، وقد مضى جميعه في (الأنفال) وغيرها .

قال النحاس : وهذا على أن الآيتين محكمتان معمول بهما ؛ وهو قول حسن ، لأن النسخ إنما يكون لشيء قاطع ، فإذا أمكن العمل بالآيتين فلا معنى للقول بالنسخ ، إذا كان يجوز أن يقع التعبُّد إذا لقينا الذين كفروا قتلناهم ، فإذا كان الأسر جاز القتل والاسترقاق والمفاداة والمنّ ؛ على ما فيه الصلاح للمسلمين .

وهذا القول يروى عن أهل المدينة والشافعي وأبي عبيد ، وحكاه الطحاوي مذهباً عن أبي حنيفة ، والمشهور عنه ما قدّمناه ، وبالله عز وجل التوفيق .

الرابعة قوله تعالى : ﴿ حتى تَضَعَ الحرب أَوْزَارَهَا ﴾ قال مجاهد وابن جبير : هو خروج عيسى عليه السلام .

وعن مجاهد أيضاً : أن المعنى حتى لا يكون دين إلا دين الإسلام ؛ فَيُسْلِم كلّ يهوديّ ونصراني وصاحب مِلّة ، وتأمن الشاة من الذئب .

ونحوه عن الحسن والكلبي والفرّاء والكسائي .

قال الكسائي : حتى يُسْلِم الخلق .

وقال الفرّاء : حتى يؤمنوا ويذهب الكفر .

وقال الكلبي : حتى يظهر الإسلام على الدِّين كله .

وقال الحسن : حتى لا يعبدوا إلا الله .

(107/707)

وقيل : معنى الأوزار السلاح ؛ فالمعنى شدّوا الوثاق حتى تأمنوا وتضعوا السلاح .

وقيل : معناه حتى تضع الحرب ، أي الأعداء المحاربون أوزارهم ، وهو سلاحهم بالهزيمة أو

الموادعة .

ويقال للكراع أوزار .

قال الأعشى :

وأعددت للحرب أوزارها . . .

رماحاً طوالاً وخيلاً ذكورا

ومِن نَسْج داود يحدي بها . . .

على أثر الحيّ عِيراً فعِيرَا

وقيل : "حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا" أي أثقالها .

والوِزر الثقل ؛ ومنه وزير الملك لأنه يتحمل عنه الأثقال .

وأثقالها السلاح لثقل حملها .

قال ابن العربي : قال الحسن وعطاء : في الآية تقديم وتأخير ؛ المعنى فضرب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها فإذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق ؛ وليس للإمام أن يقتل الأسير .

وقد روي عن الحجاج أنه دفع أسيراً إلى عبد الله بن عمر ليقتله فأبى وقال : ليس بهذا أمرنا الله ؛ وقرأ "حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ" .

قلنا : قد قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم وفعله ، وليس في تفسير الله للمنّ والفداء منع من غيره ؛ فقد بيّن الله في الزنى حكم الجلد ، وبيّن النبيّ صلى الله عليه وسلم حكم

الرجم ؛ ولعل ابن عمر كره ذلك من يد الحجاج فاعتذر بما قال ، وربك أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ "ذَلِكَ" في موضع رفع على ما تقدّم ؛ أي الأمر ذلك الذي ذكرت وبينت .

وقيل : هو منصوب على معنى افعلوا ذلك .

ويجوز أن يكون مبتدأ ؛ المعنى ذلك حكم الكفار .

وهي كلمة يستعملها الفصيح عند الخروج من كلام إلى كلام ؛ وهو كما قال تعالى : ﴿ هذا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴾ [ص : 55] .

أي هذا حق وأنا أعرفكم أن للظالمين كذا .

ومعنى : "لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ" أي أهلكهم بغير قتال .

وقال ابن عباس : لأهلكهم بجند من الملائكة .

(108/707)

﴿ ولكن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ أي أمركم بالحرب ليبلُوَ ويختبر بعضكم ببعض فيعلم المجاهِدِين والصابرين ؛ كما في السورة نفسها .

﴿ والذين قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ الله ﴾ يريد قتلى أُحُد من المؤمنين ﴿ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾

قراءة العامة "قاتلوا" وهي اختيار أبي عبيد .

وقرأ أبو عمرو وحفص "قُتِلوا" بضم القاف وكسر التاء ، وكذلك قرأ الحسن إلا أنه شدّد التاء على التكثير .

وقرأ الجَحْدرِي وعيسى بن عمر وأبو حَيْوة "قَتَلُوا" بفتح القاف والتاء من غير ألف ؛ يعني الذين قتلوا المشركين .

قال قتادة : ذكر لنا أن " هذه الآية نزلت يوم أُحُد ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الشِّعب ، وقد فَشَت فيهم الجراحات والقتل ، وقد نادى المشركون : اعل هُبَلُ .

ونادى المسملون : الله أعلى وأجل .

وقال المشركون : يومٌ بيوم بَدْر والحرب سِجال .

فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "قولوا لا سواء .

قتلانا أحياء عند ربهم يرزقون وقتلاكم في النار يعذَّبون" " فقال المشركون : إن لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم .

فقال المسلمون : الله مولانا ولا مولى لكم .

وقد تقدّم ذكر ذلك في "آل عمران" .

سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (5)

قال القشيري : قراءة أبي عمرو "قُتِلوا" بعيدة ؛ لقوله تعالى : ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾

والمقتول لا يوصف بهذا .

قال غيره : يكون المعنى سيهديهم إلى الجنة ، أو سيهدي من بقي منهم ؛ أي يحقق لهم الهداية .

وقال ابن زياد : سيهديهم إلى محاجة منكر ونكير في القبر .

قال أبو المعالي : وقد ترد الهداية والمراد بها إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان والطرق الْمُفْضية إليها ؛ من ذلك قوله تعالى في صفة المجاهدين : "فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ" ومنه قوله تعالى : ﴿ فاهدوهم إلى صِرَاطِ الجحيم ﴾ [الصافات : 23] معناه فاسلكوا بهم إليها .

(109/707)

وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (6)

أي إذا دخلوها يقال لهم تفرّقوا إلى منازلكم ؛ فهم أعرف بمنازلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم .

قال معناه مجاهد وأكثر المفسرين .

وفي البخاري ما يدل على صحة هذا القول عن أبي سعيد الخُدْرِيّ ، قال : قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم :

" يخلص المؤمنون من النار فيُحبسون على قنطرة بين الجنة والنار (فَيُقَصُّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا) حتى إذا هُذِّبُوا ونُقُّوا أذِن لهم في دخول الجنة فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة (منه) بمنزله في الدنيا " وقيل : "عَرَّفَهَا لَهُمْ" أي بيّنها لهم حتى عرفوها من غير استدلال .

قال الحسن : وصف الله تعالى لهم الجنة في الدنيا ، فلما دخلوها عرفوها بصفتها .

وقيل : فيه حذف ؛ أي عَرَّف طرقها ومساكنها وبيوتها لهم ؛ فحذف المضاف .

وقيل : هذا التعريف بدليل ، وهو المَلَك الموكل بعمل العبد يمشي بين يديه ويتبعه العبد حتى يأتي العبد منزله ، ويعرّفه المَلَك جميع ما جُعل له في الجنة .

وحديث أبي سعيد الْخُدْرِيّ يردّه .

وقال ابن عباس : "عَرَّفَهَا لَهُمْ" أي طيّبها لهم بأنواع الملاذ ؛ مأخوذ من العَرْف ، وهو الرائحة الطيبة .

وطعام مُعَرَّف أي مطيّب ؛ تقول العرب : عرّفت القدر إذا طيبتها بالملح والأبزار .

وقال الشاعر يخاطب رجلاً ويمدحه :

عَرُفْتَ كإتْبٍ عرّفته اللَّطائم . . .

يقوله : كما عَرُف الإتْب ، وهو البَقِير والبَقِيرة ، وهو قميص لا كُمَّين له تلبسه النساء .

وقيل : هو من وضع الطعام بعضه على بعض من كثرته ؛ يقال حرير معرّف ؛ أي بعضه على بعض ، وهو من العُرْف المتتابع كعُرْف الفرس .

وقيل : "عَرَّفَهَا لَهُمْ" أي وفّقهم للطاعة حتى استوجبوا الجنة .

وقيل : عرّف أهل السماء أنها لهم إظهاراً لكرامتهم فيها .

وقيل : عرّف المطيعين أنها لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(110/707)

وقال الثعالبى :

وقوله سبحانه : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الذين كَفَرُواْ فَضَرْبَ الرقاب . . . ﴾ الآية :

قال أَكْثَرُ العلماءِ : إنَّ هذه الآية وآيَةَ السَّيْفِ ، وهي قوله تعالى : ﴿ فاقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة : 5] مُحْكَمَتَانِ ، فقوله هنا : ﴿ فَضَرْبَ الرقاب ﴾ بمثابة قوله هنالك : ﴿ فاقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ ، وصرَّح هنا بذكر المَنِّ والفداء ، ولم يُصَرِّحْ به هنالك ، فهذه مُبَيِّنَةٌ لِتِلْكَ ، وهذا هو القولُ القويُّ ، وقوله : ﴿ فَضَرْبَ الرقاب ﴾ مصدر بمعنى الفِعْل ، أي : فاضربوا رقابهم وعَيَّنَ مِنْ أنواع القَتْلِ أَشْهَرَهُ ، والمراد : اقتلوهم بأَيِّ وجه أَمكَنَ ؛ وفي صحيح مسلمٍ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال : " لا يَجْتَمِعُ كَافِرٌ

وَقَاتِلهُ فِي النَّارِ أَبداً " وفي «صحيح البخاري» عنه صلى الله عليه وسلم قال : " مَا اغْبَرَّتْ قَدَمَا عَبْدٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؛ فَتَمَسَّهُ النَّارُ " انتهى .

والإثخان في القوم أنْ يكثر فيهم القتلى والجرحى ، ومعنى : ﴿ فَشُدُّواْ الوثاق ﴾ أي : بمن لمْ يُقْتَلْ ، ولم يترتَّب فيه إلاَّ الأسْرُ ، ومَنًّا وفِدَاءً : مصدران منصوبانِ بفعلَيْن مُضْمَرَيْنِ .

وقوله : ﴿ حتى تَضَعَ الحرب أَوْزَارَهَا ﴾ معناه : حتى تذهبَ الحربُ وتزول أَثقالُهَا ، والأوزار : الأثقال ؛ ومنه قول عَمْرِو بنِ مَعْدِ يكرِبَ : [من المتقارب]

وَأَعْدَدْتُ لِلْحَرْبِ أَوْزَارَهَا . . . رِمَاحاً طِوَالاً وَخَيْلاً ذُكُورَا

(111/707)

واختلف المتأولون في الغاية التي عندها تضع الحربُ أوزارها ، فقال قتادة : حتى يُسَلِّمَ الجميعُ ، وقال حُذَّاقُ أهل النظر : حتى تغلبوهم وتَقْتُلُوهُمْ ، وقال مجاهد : حتى ينزل عيسى ابْنُ مَرْيَمَ ، قال *ع* : وظاهر اللفظ أَنَّهُ استعارةٌ يُرَادُ بها التزامُ الأمْرِ أبداً ؛ وذلك أَنَّ الحربَ بين المؤمنين والكافرين لا تضع أوزارها ، فجاء هذا كما تقول : أنا أفعل كذا وكذا إلى يَوْمِ القيامةِ ، وإنَّما تريد أَنَّك تفعله دائماً .

﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ أي : بعذابٍ مِنْ عنده ، ولكن أراد سبحانه اختبار

المؤمنين ، وأنْ يَبْلُوَ بعضَ الناس ببعضٍ ، وقرأ الجمهور : ﴿ قَاتَلُواْ ﴾ وقرأ عاصم بخلاف عنه : ﴿ قاتلوا ﴾ بفتح القاف والتاء ، وقرأ أبو عمرو وحَفْصٌ : ﴿ قاتلوا ﴾ بضم القاف وكسر التاء ، قال قتادة : نزلَتْ هذه الآيةُ فيمَنْ قُتِلَ يوم أُحُدٍ من المؤمنين .

وقوله سبحانه : ﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ أي : إلى طريقِ الجَنَّةِ .

* ت * : ذكر الشيخ أبو نُعَيْمٍ الحافظ أَنَّ مَيْسَرَةَ الخادمَ قال : غزونا في بعض الغَزَوَاتِ ، فإذا فتًى إلى جانِبي ، وإذا هو مُقَنَّعٌ بالحديد ، فَحَمَلَ على المَيْمَنَةِ ، فَثَنَاها ، ثُمَّ على المَيْسَرَةِ حتى ثَنَاهَا ، وحَمَلَ عَلَى القَلْبِ حتى ثناه ، ثم أنشأ يقول [الرجز]

أَحْسِنْ بِمَوْلاَكَ سَعِيدُ ظَنَّا . . . هَذا الَّذِي كُنْتَ لَهُ تمنى

تَنَحِّيَا حُورَ الْجِنَانِ عَنَّا . . . مَالَكِ قَاتَلْنَا وَلاَ قُتِلْنَا

لَكِنْ إلى سَيِّدِكُنَّ اشتقنا . . . قَدْ عَلِمَ السِّرَّ وَمَا أَعْلَنَّا

قال : فحمل ، فقاتل ، فَقَتَلَ منهم عدداً ، ثم رَجَعَ إلى مَصَافِّهِ ، فتكالَبَ عليه العَدُوُّ ، فإذا هو رضي اللَّه تعالى عنه قد حمل على الناس ، وأنشأ يقول : [الرجز]

قَدْ كُنْتُ أَرْجُو وَرَجَائِي لَمْ يَخِبْ . . . أَلَّا يَضِيعَ الْيَوْمَ كَدِّي وَالطَّلَبْ

يَا مَنْ مَلَأَ تِلْكَ الْقُصُورَ بِاللَّعِبْ . . . لَوْلَاكَ مَا طَابَتْ وَلَا طَابَ الطَّرَبْ

ثم حَمَلَ رضي اللَّه عنه فقاتل ، فَقَتَلَ منهم عَدَداً ، ثم رجع إلى مَصَافِّه ، فتكالَبَ عليه العَدُوُّ فحَمَلَ رضي اللَّه عنه في المرة الثالثة ، وأنشأ يقول : [الرجز]

يَا لُعْبَةَ الْخُلْدِ قِفِي ثُمَّ اسْمَعِي . . . مَالَكِ قَاتَلْنَا فَكُفِّي وارجعي

ثُمَّ ارجعي إِلَى الْجِنَانِ واسرعي . . . لَا تَطْمَعِي لَا تَطْمَعِي لَا تَطْمَعِي

فقاتل رضي اللَّه عنه حتى قُتِلَ ، ، انتهى من ابن عَبَّاد شارح «الحِكَم» .

وقوله تعالى : ﴿ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ قال أبو سعِيدٍ الْخُدْرِيُّ ، وقتادة ، ومجاهد : معناه : بَيَّنَهَا لهم ، أي : جعلهم يعرفون منازلهم منها ، وفي نحو هذا المعنى قولُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم : " لأَحَدُكُمْ بِمَنْزِلِهِ فِي الجَنَّةِ أَعْرَفُ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ فِي الدُّنْيَا " قال القرطبيُّ في «التذكرة» : وعلى هذا القولِ أكثرُ المفسِّرين قال : وقيل : إنَّ هذا التعريفَ إلى المنازِلِ هو بالدليلِ ، وهو المَلَكُ المُوَكَّلُ بِعَمَلِ العَبْدِ ، يمشي بين يَدَيْهِ ، ، انتهى ، وقالت فرقة : معناه : سَمَّاها لهم ، ورَسَمَهَا كُلُّ منزل باسم صاحبه ، فهذا نحو من التعريف ، وقالت فرقة : معناه شَرَّفَهَا لهم ورفعها وعلاَّها ، وهذا من الأَعْرَافِ التي هي الجبال ، ومنه أعرافُ الخَيْلِ ، وقال مُؤَرِّجٌ وغيره : معناه : طَيَّبَهَا ؛ مأخوذٌ من العَرْفِ ، ومنه طَعَامٌ مُعَرَّفٌ ، أي : مُطَيَّبٌ ، وعَرَّفْتُ

القِدْرَ : طَيَّبْتُها بالمِلْحِ والتَّابِلِ ، قال أبو حيَّان : «وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ» البال : الفِكْرُ ولا يُثَنَّى ولا يُجْمَعُ . انتهى . انتهى . اهـ ﴿الجواهر الحسان حـ 4 صـ ﴾

(113/707)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله ﴾

أي أعرضُوا عن الإسلامِ وسلوكِ طريقةِ ، منْ صَدَّ صُدوداً ، أو منعُوا النَّاسَ عن ذلكَ مِنْ صدَّهُ صَدّاً كالمُطعمينَ يومَ بدرٍ وقيلَ : هُم اثنا عشرَ رجُلاً من أهلِ الشركِ كانُوا يصدُّونَ الناسَ عن الإسلامِ ويأمرونَهُم بالكفرِ ، وقيلَ أهلُ الكتابِ الذينَ كفرُوا وصدُّوا مَنْ أرادَ منْهم ومن غيرِهم أنْ يدخلَ في الإسلامِ ، وقيلَ : هو عامٌّ في كلِّ مَن كفرَ وصدَّ ﴿ أَضَلَّ أعمالهم ﴾ أي أبطلَها وأحبطَها وجعلَها ضائعةً لا أثرَ لَها أصلاً ، لكنْ لا بمعنى أنَّه أبطلَها وأحبطَها بعد أنْ لم تكُنْ كذلك بلْ بمَعْنى أنَّه حكَم ببطلانِها وضياعِها ، فإنَّ ما كانُوا يعملونَ من أعمالِ البرِّ كصلةِ الأرحامِ وقِرَى الأضيافِ وفكِّ الأُسارَى وغيرِها من المكارمِ ليسَ لها أثرٌ منْ أصلِها لعدمِ مقارنتِها للإيمانِ أو أبطلَ ما عملوا من الكيدِ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم والصدِّ عن سبيلِه بنصرِ رسوله وإظهارِ دينِه على الدِّينِ كُلِّه ، وهُو الأوفقُ لما سيأتِي من

قولِه تعالى : ﴿ فَتَعْساً لَّهُمْ وَأَضَلَّ أعمالهم ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ﴾ الخ . ﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ قيلَ : هم ناسٌ من قُريشٍ وقيلَ : من الأنصارِ وقيلَ : هُم مُؤمنو أهلِ الكتابِ وقيلَ : عامٌّ للكُلِّ ﴿ وَءامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ على مُحَمَّدٍ ﴾ خُصَّ بالذكرِ الإيمانُ بذلكَ مع اندراجِه فيما قبلَهُ تنويهاً بشأنِه وتنبيهاً على سُموِّ مكانِه منْ بينِ سائرِ ما يجبُ الإيمانُ بِهِ وأنه الأصلُ في الكُلِّ ، ولذلكَ أُكِّدَ بقولِه تعالى ﴿ وَهُوَ الحق مِن رَّبِّهِمْ ﴾ بطريقِ حصرِ الحقِّيةِ فيهِ ، وقيلَ : حقِّيتُه بكونِه ناسخاً غيرَ منسوخٍ ، فالحقُّ على هذا مقابلُ الزائلِ وعلى الأولِ مقابلُ الباطلِ ، وأيّاً ما كانَ فقولُه تعالى من ربِّهم حالٌ من ضميرِ الحقِّ . وقُرِىءَ نزَّلَ على البناءِ للفاعلِ ، وأنزلَ على

(114/707)

البناءينِ ، ونزَلَ بالتخفيفِ ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سيئاتهم ﴾ أي سترَهَا بالإيمانِ والعملِ الصالحِ . ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ أي حالَهم في الدِّينِ والدُّنيا بالتأييدِ والتوفيقِ .

﴿ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى ما مرَّ من إضلالِ الأعمالِ وتكفيرِ السيئاتِ وإصلاحِ البالِ ، وهو مبتدأٌ خبرُهُ قولُه تعالى : ﴿ بِأَنَّ الذين كَفَرُواْ اتبعوا الباطل وَأَنَّ الذين ءامَنُواْ اتبعوا الحق مِن رَّبِّهِمْ ﴾ أيْ ذلكَ كائنٌ بسببِ أنَّ الأولينَ اتَّبعُوا الشيطانَ كما قالَهُ مجاهدٌ ففعلُوا ما فعلُوا منَ

الكفرِ والصدّ ، فبيانُ سببيةِ اتباعِه للإضلالِ المذكورِ متضمنٌ لبيانِ سببيتِهما له لكونِه أصلاً مُستتبعاً لهما قطعاً وبسببِ أنَّ الآخرينَ اتبعُوا الحقَّ الذي لا محيدَ عنه كائناً من ربِّهم ففعلُوا ما فعلُوا من الإيمانِ به وبكتابِه ومن الأعمالِ الصالحة فبيانُ سببيةِ اتّباعِه لما ذُكرَ من التكفيرِ والإصلاحِ بعدَ الإشعارِ بسببيةِ الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ له متضمنٌ لبيانِ سببيتِهما له لكونِه مبدأً ومنشأً لهما حتماً فلا تدافُعَ بينَ الإشعارِ والتصريحِ في شيءٍ من الموضعينِ ويجوزُ أنْ يُحملَ الباطلُ على ما يُقابلُ الحقَّ وهو الزائلُ الذاهبُ الذي لا أصلَ له أصلاً فالتَّصريحُ بسببيةِ اتباعِه لإضلالِ أعمالِهم وإبطالِها لبيانِ أنَّ إبطالَها لبطلانِ مبناها وزوالِه ، وأما حملُه على ما لا يُنتفعُ به فليسَ كما ينبغِي لما أنَّ الكفرَ والصدَّ أفحشُ منه فلا وجهَ للتصريحِ بسببيتِه لما ذُكر من إضلالِ أعمالِهم بطريقِ القصرِ بعدَ الإشعارِ بسببيتِهما له فتدبر .

(115/707)

ويجوزُ أنْ يرادَ بالباطلِ نفسُ الكفرِ والصدّ وبالحقّ نفسُ الإيمانِ والأعمالِ الصالحةِ ، فيكونُ التنصيصُ على سببيتِهما لما ذُكرَ من الإضلالِ ومن التكفيرِ والإصلاحِ تصريحاً بالسببيةِ المُشعرِ بها في المَوقعينِ ﴿ كذلك ﴾ أي مثلَ ذلكَ الضربِ البديعِ ﴿ يَضْرِبُ الله ﴾ أيْ يبينُ

﴿ لِلنَّاسِ أمثالهم ﴾ أي أحوالَ الفريقينِ وأوصافَهما الجاريةَ في الغرابةِ مَجْرى الأمثالِ وهي اتباعُ الأولينِ الباطلَ وخيبتُهم وخُسرانُهم واتباعُ الآخرينَ الحقَّ وفوزُهم وفلاحُهم والفاءُ في قولِه تعالى ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الذين كَفَرُواْ ﴾ لترتيبِ مَا في حيزِها من الأمرِ على ما قبلها فإنَّ ضلالَ أعمالِ الكفرةِ وخيبتَهم وصلاحَ أحوالِ المؤمنينَ وفلاحَهم ممَّا يُوجبُ أنْ يرتّب على كلَ من الجانبينِ ما يليقُ به من الأحكامِ أيْ فإذا كانَ الأمرُ كما ذُكِرَ فإذا لقيتُموهم في المُحاربةِ ﴿ فَضَرْبَ الرقاب ﴾ أصلُه فاضربُوا الرقابَ ضرباً فحُذفَ الفعلُ وقُدّمَ المصدرُ وأُنيبَ مُنابَهُ مُضافاً إلى المفعولِ ، وفيه اختصارٌ وتأكيدٌ بليغٌ ، والتعبيرُ به عن القتلِ تصويرٌ له بأشنعِ صورةٍ وتهويلٌ لأمرِه وإرشادٌ للغزاةِ إلى أيسرَ ما يكونُ منْهُ . ﴿ حتى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ ﴾ أي أكثرتُم قتلَهم وأغلظتُموه ، من الشيءِ الثخينِ وهو الغليظُ أو أثقلتُموهم بالقتلِ والجراحِ حتَّى أذهبتُم عنهُم النهوضَ . ﴿ فَشُدُّواْ الوثاق ﴾ فأْسِرُوهم واحفظُوهم ، والوَثاقُ اسمٌ لما يُوثقُ بهِ وكذا الوثاقُ بالكسرِ ، وقَدْ قُرِىءَ بذلكَ . ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء ﴾ أيْ فإمَّا تمنونَ منًّا بعد ذلكَ أو تفْدونَ فداءً . والمَعْنى التخييرُ بين القتلِ والاسترقاقِ والمنِّ والفداءِ وهذا ثابتٌ عند الشافعيِّ رحمه الله تعالى وعندنَا منسوخٌ ، قالُوا نزلَ ذلكَ يومَ بدرٍ ، ثُمَّ نُسخَ والحكمُ إما القتلُ أو الاسترقاقُ . وعن مجاهدٍ ليسَ اليومَ منٌّ

ولا فداءٌ إنما هُو الإسلامُ أو ضربُ العنقِ ، وقُرِىءَ فداً كعَصَا .

﴿ حتى تَضعَ الحرب أَوْزَارَهَا ﴾ أوزارُ الحربِ آلاتُها وأثقالُها التي لا تقومُ إلا بها من السلاحِ والكُراعِ. وأُسندَ وضعُها إليها وهو لأهلِها إسناداً مجازياً ، وحتَّى غايةٌ عندَ الشافعيِّ لأحدِ الأمورِ الأربعةِ أو للمجموعِ. والمَعْنى أنَّهم لا يزالونَ على ذلكَ أبداً إلى أنْ لا يكونَ مع المشركينَ حربٌ بأن لا تبقى لهم شوكةٌ ، وقيلَ بأنْ ينزلَ عيسى عليه السلامُ وأما عند أبي حنيفةَ رحمه الله تعالى فإنْ حُملَ الحربُ على حربِ بدرٍ فهي غايةٌ للمنِّ والفداءِ والمعنى يُمنُّ عليهم ويُفادون حتى تضعَ حربُ بدرٍ أوزارَها ، وإنْ حُملتْ على الجنسِ فهي غايةٌ للضربِ والشدِّ والمَعْنى أنهم يُقتلون ويؤسرون حتَّى يضع جنسُ الحربِ أوزارَها بأنْ لا يبقى للمشركينَ شوكةٌ .

وقيلَ أوزارُها آثامُها أي حتَّى يتركَ المشركونَ شركَهم ومعاصيَهم بأنْ أسلمُوا . ﴿ ذلك ﴾ أي الأمرُ ذلك أو افعلُوا ذلك ﴿ وَلَوْ يَشَاء الله لانْتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ لانتقمَ منهم ببعضِ أسبابِ الهلكةِ والاستئصالِ ﴿ ولكن ﴾ لم يشأْ ذلك ﴿ لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ فأمركم بالقتالِ وبلاكُم بالكافرينَ لتجاهدُوهم فتستوجبُوا الثوابَ العظيمَ بموجبِ الوعدِ والكافرين بكم ليعاجلَهم على أيديكُم ببعضِ عذابِهم كيْ يرتدعَ بعضُهم عن الكفرِ . ﴿ والذين قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ الله ﴾ أي استُشهدوا . وقُرِىءَ قاتلُوا أي جاهدُوا وقَتَلُوا وقُتِلوا . ﴿ فَلَن يُضِلَّ

أعمالهم ﴾ أي فلنْ يُضيِّعَها . وقُرِىءَ يُضَلَّ أعمالُهم على البناءِ للمفعولِ . ويضِلَّ أعمالَهم من ضلَّ وعنْ قَتَادةَ أنَّها نزلتْ في يومِ أحدٍ .

(117/707)

﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ في الدُّنيا إلى أرشدِ الأمورِ وفي الآخرةِ إلى الثوابِ أو سُيْثبِّتَ هدايتَهم ﴿ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الجنة عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ في الدُّنيا بذكرِ أوصافِها بحيثُ اشتاقُوا إليها أو بيَّنها لهم بحيثُ يعلم كلُّ أحدٍ منزلَه ويهتدي إليهِ كأنه كان ساكنَهُ منذُ خُلقَ وعن مقاتل : أنَّ الملكَ الموكلَ بعملِهِ في الدُّنيا يمشي بين يديه فيعرفُه كلَّ شيءٍ أعطاهُ اللهُ تعالى . أو طيَّبها لهم من العَرْفِ وهو طيبُ الرائحةِ ، أو حدَّدها لهم وأفرزَها ، من عَرفُ الدَّارِ فجنةٌ كلَ منهم محددةٌ مفرزةٌ . والجملةُ إمَّا مستأنفةٌ أو حالٌ بإضمارِ قَدْ أو بدونِه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(118/707)

وقال الآلوسى :

والفاء في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الذين كَفَرُواْ ﴾

لترتيب ما في حيزها من الأمر على ما قبلها فإن ضلال أعمال الكفرة وخيبتهم وصلاح أحوال المؤمنين وفلاحهم مما يوجب أن يترتب على كل من الجانبين ما يليق به من الأحكام أي إذا كان الأمر كذلك فإذا لقيتموهم في المحارب ﴿ فَضَرْبَ الرقاب ﴾ وقال الزمخشري : ﴿ لَقِيتُمُ ﴾ من اللقاء وهو الحرب و ﴿ ضَرْبَ ﴾ نصب على المصدرية لفعل محذوف والأصل أضربوا الرقاب ضرباً فحذف الفعل وقدم المصدر وأنيب منا به مضافاً إلى المفعول ، وحذف الفعل الناصب في مثل ذلك مما أضيف إلى معموله واجب ، وهو أحد مواضع يجب فيها الحذف ذكرت في مطولات كتب النحو ، وليس منها نحو ضرباً زيداً على ما نص عليه ابن عصوفر .

(119/707)

وذكر غير واحد أن فيما ذكر اختصاراً وتأكيداً ولا كلام في الاختصار ، وأما التأكيد فظاهر القول به أن المصدر بعد حذف عامله مؤكد ، وقال الحمصي في حواشي التصريح : إن المصدر في ذلك مؤكد في الأصل وأما الآن فلا لأنه صار بمنزلة الفعل الذي سد هو مسده

فلا يكون مؤكداً بل كل مصدر ثار بدلاً من اللفظ بالفعل لا يكون مؤكداً ولا مبيناً لنوع ولا عدد ، و﴿ ضَرْبَ الرقاب ﴾ مجاز مرسل عن القتل ، وعبر به عنه إشعاراً بأنه ينبغي أن يكون بضرب الرقبة حيث أمكن وتصويراً له بأشنع صورة لأن ضرب الرقبة فيه إطارة الرأس الذي هو أشرف أعضاء البدن ومجمع حواسه وبقاء البدن ملقى على هيئة منكرة والعياذ بالله تعالى ، وذكر أن في التعبير المذكور تشجيع المؤمنين وأنهم منهم بحيث يتمكنون من القتل بضرب أعناقهم في الحرب ﴿ حتى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ ﴾ أي أوقعتم القتل بهم بشدة وكثرة على أن ذلك مستعار من ثخن المائعات لمنعه عن الحركة ، والمراد حتى إذ أكثرتم قتلهم وتمكنتم من أخذ من لم يقتل ﴿ فَشُدُّواْ الوثاق ﴾ أي فأسروهم واحفظوهم ، فالشد وكذا ما بعد في حق من أسر منهم بعد اثخانهم لا للمثخن إذ هو بالمعنى السابق لا يشد ولا يمن عليه ولا يفدي لأنه قد قتل أو المعنى حتى إذا أثقلتموهم بالجراح ونحوه بحيث لا يستطيعون النهوض فأسروهم واحفظوهم ؛ فالشد وكذا ما بعد في حق المثخن لأنه بهذا المعنى هو الذي لم يصل إلى حد القتل لكن ثقل عن الحركة فصار كالشيء الثخين الذي لم يسل ولم يستمر في ذهابه ، والاثخان عليه مجاز أيضاً ، و﴿ الوثاق ﴾ في الأصل مصدر كالخلاص وأريد به هنا ما يوثق به .

وقرىء ﴿ الوثاق ﴾ بالكسر وهو اسم لذلك ، ومجيء فعال اسم آلة كالحزام والركاب

نادر على خلاف القياس ، وظاهر كلام البعض أن كلا من المفتوح والمكسور اسم لما يوثق به ، ولعل المراد بيان المراد هنا .

(120/707)

﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء ﴾ أي فاما تمنون منا وإما تفدون فداء ، والكلام تفصيل لعاقبة مضمون ما قبله من شد الوثاق ، وحذف الفعل الناصب للمصدر في مثل ذلك واجب أيضاً ، ومنه قوله :

لأجهدن فاما درء واقعة . . .

تخشى وإما بلوغ السؤال والامل

وجوز أبو البقاء كون كل من ﴿ مِنًّا ﴾ و ﴿ فداء ﴾ مفعولا به لمحذوف أي أولوهم منا أو أقبلوا منهم فداء ، وليس كما قال أبو حيان اعراب نحوي ، وقرأ ابن كثير في رواية شبل ﴿ وَأَمَّا فدى ﴾ بالفتح والقصر كعصا .

وزعم أبو حاتم أنه لا يجوز قصره لأنه مصدر فاديته ، قال الشهاب : ولا عبرة به فإن فيه أربع لغات الفتح والكسر مع المد والقصر ولغة خامسة البناء مع الكسر كما حكاه الثقات انتهى ، وفي الكشف نقلاً عن الصحاح الفداء إذا كسر أوله يمد ويقصر وإذا فتح فهو مقصور .

ومن العرب من يكسر الهمزة أي يبنيه على الكسر إذا جاور لام الجر خاصة لأنه اسم فعل بمعنى الدعاء ، وأنشد الأصمعي بين النابغة :

مهلاً فداء لك . . .

وهذا الكسر مع التنوين كما صرح به في البحر ، وظاهر الآية على ما ذكره السيوطي في أحكام القرآن العظيم امتناع القتل بعد الأسر وبه قال الحسن .

وأخرج ابن جرير .

وابن مردويه عنه أنه قال : أتى الحجاج بأسارى فدفع إلى ابن عمر رضي الله تعالى عنهما رجلاً يقتله فقال ابن عمر : ليس بهذا أمرنا إنما قال الله تعالى : ﴿ حتى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ الوثاق فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء ﴾ وفي حكم الأساري خلاف فذهب الأكثرون إلى أن الإمام بالخيار إن شاء قتلهم إن لم يسلموا لأنه صلى الله عليه وسلم قتل صبرا عقبة بن أبي معيط .

وطعيمة بن عدى .

والنضر بن الحرث التي قالت فيه أخته أبياتاً منها تخاطب النبي صلى الله عليه وسلم :

ما كان ضرك لو مننت وربما . . .

من الفتى وهو المغيظ المحنق

وون في قتلهم حسم مادة فسادهم بالكلية ، وليس ولحاد من الغزاة أن يقتل أسيراً بنفسه فإن فعل بلا ملجىء كخوف شر الأسير كان للإمام أن يعزره إذا وقع على خلاف مقصوده ولكن لا يضمن شيئاً ، وإن شاء استرقهم لأن فيه دفع شرهم مع وفور المصلحة لأهل الإسلام ، وإن شاء تركهم ذمة أحراراً للمسلمين كما فعل عمر رضي الله تعالى عنه ذلك في أهل السواد الا أسارى مشركي العرب والمرتدين فإنهم لا تقبل منهم جزية ولا يجوز استراقاتهم بل الحكم فيهم إما الإسلام أو السيف ، وإن أسلم الأساري بعد الأسر لا يقتلهم لاندفاع شرهم بالإسلام ، ولكن يجوز استراقاتهم فإن الإسلام لا ينافي الرق جزاء على الكفر الأصلي وقد وجد بعد انعقاد سبب الملك وهو الاستيلاء على الحربي غير المشرك من العرب ، بخلاف ما لو أسلموا من قبل الأخذ فإنهم يكونون أحراراً لأنه اسلام قبل انعقاد سبب الملك فيهم ، ولا يفادي بالاساري في احدى الروايتين عن الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه لما في ذلك من معونة الكفر لأنه يعود الأسير الكافر حرباً علينا ، ودفع شر حرابته خيرم ن استنقاذا لمسلم لأنه إذا بقي في أيديهم كان ابتلاء في حقه فقط ، والضرر بدفع أسيرهم إليهم يعود على جماعة المسلمين .

والرواية الأخرى عنه أنه يفادي وهو قول محمد .

وأبي يوسف .

والإمام الشافعي .

ومالك .

وأحمد إلا بالنساء فإنه لا يجوز المفاداة بهن عندهم ، ومنع أحمد المفاداة بصبيانهم ، وهذه رواية السير الكبير ، قيل : وهو أظهر الروايتين عن الإمام أبي حنيفة ، وقال أبو يوسف : تجوز المفاداة بالأسارى قبل القسمة لا بعدها ، وعند محمد تجوز بكل حال .

(122/707)

ووجه ما ذكره الأئمة من جواز المفاداة أن تخليص المسلم أولى من قتل الكافر للانتفاع به ولأن حرمته عظيمة وما ذكر من الضرر الذي يعود إلينا بدفعه إليهم يدفعه ظاهراً المسلم الذي يتخلص منهم لأنه ضرر شخص واحد فيقوم بدفعه واحد مثله ظاهراً فيتكافئان وتبقى فضيلة تخليص المسلم وتمكينه من عبادة الله تعالى فإن فيها زيادة ترجيح .

ثم أنه قد ثبت ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرج مسلم .

وأبو داود .

والترمذي .

وعبد بن حميد .

وابن جرير عن عمران بن حصين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فدى رجلين من المسلمين برجل من المشركين ويحتج لمحمد بما أخرجه مسلم أيضاً عن إياس بن سلمة عن أبيه سلمة قال : خرجنا مع أبي بكر رضي الله تعالى عنه أمره علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن قال فلقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغد في السوق فقال : يا سلمة هب لي المرأة يعني التي نقله أبو بكر إياها فقلت : يا رسول الله لقد أعجبتني وما كشفت لها ثوباً ، ثم لقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغد في السوق فقال : " يا سلمة هب لي المرأة لله أبوك " فقلت : هي لك يا رسول الله فوالله ما كشفت لها ثوباً فبعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ففدى بها ناساً من المسلمين أسروا بمكة ، ولا يفادي بالأسير إذا أسلم وهو بأيدينا لأنه لا يفيد إلا إذا طابت نفسه وهو مأمون على إسلامه فيجوز لأنه يفيد تخليص مسلم من غير إضرار بمسلم آخر ، وأما المفاداة بمال فلا تجوز في المشهور من مذهب الحنفية لما بين في المفاداة بالمسلمين من ردهم حرباً علينا .

وفي "السير الكبير" أنه لا بأس به إذا كان بالمسلمين حاجة ، قيل : استدلالاً بأساري بدر فإنه لا شك في احتياج المسلمين بل في شدة حاجتهم إذ ذاك فليكن محمل المفاداة الكائنة في بدر بالمال ، وأما المن على الأساري وهو أن يطلقهم إلى دار الحرب من غير شيء فلا يجوز عند أبي حنيفة .

ومالك .

وأحمد ، وأجازه الإمام الشافعي لأنه صلى الله عليه وسلم من على جماعة من أسرى بدر منهم أبو العاص بن أبي الربيع على ما ذكره ابن إسحاق بسنده .

وأبو داود من طريقه إلى عائشة لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في فداء أبي العاص بمال وبعثت فيه بقلادة كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنائه عليها فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ذلك رق لها رقة شديدة وقال لأصحابه : " إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرنا وتردوا لها الذي لها " ففعلوا ذلك مغتبطين به ، ورواه الحاكم وصححه وزاد "وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أخذ عليه أن يخلي زينب إليه ففعل" ومن صلى الله عليه وسلم على ثمامة بن أثال بن النعمان الحنفي سيد أهل اليمامة ثم أسلم وحسن إسلامه ، وحديثه في "صحيح مسلم" عن أبي هريرة ، ويكفي ما ثبت في "صحيح البخاري" من قوله عليه الصلاة والسلام : " لو كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء النتني يعني أساري بدر لتركتهم له " فإنه صلى الله عليه وسلم أخبر وهو الصادق المصدوق بأنه يطلقهم لو سأله المطعم ، والإطلاق على ذلك التقدير لا يثبت إلا وهو جائز شرعاً لمكان العصمة ، وكونه لم يقع لعدم وقوع ما علق عليه لا ينفي

جوازه شرعاً .

واستدل أيضاً بالآية التي نحن فيها فإن الله تعالى خير فيها بين المن والفداء ، والظاهر أن المراد بالمن الإطلاق مجاناً ؛ وكون المراد المن عليهم بترك القتل وإبقاءهم مسترقين أو تخليتهم لقبول الجزية وكونهم من أهل الذمة خلاف الظاهر ، وبعض النفوس يجد طعم الإلاء أحلى من هذا المن .

(124/707)

وأجاب بعض الحنفية بأن الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ اقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة : 5] من سورة براءة فإنه يقتضي عدم جواز المن وكذا عدم جواز الفداء وهي آخر سورة نزلت في هذا الشأن ، وزعم أن ما وقع من المن والفداء إنما كان في قضية بدر وهي سابقة عليها وإن كان شيء من ذلك بعد بدر فهو أيضاً قبل السورة .

والقول بالنسخ جاء عن ابن عباس .

وقتادة .

والضحاك .

ومجاهد في روايات ذكرها الجلال السيوطي في "الدر المنثور" ، وقال العلامة ابن الهمام :

قد يقال إن ذلك يعني ما في سورة براءة في حق غير الأساري بدليل جواز الاسترقاق فيهم فيعلم أن القتل المأمور به في حق غيرهم ، وما ذكره في جواز الاسترقاق ليس على إطلاقه إذ لا يجوز كما علمت استرقاق مشركي العرب ﴿ حتى تَضَعَ الحرب أَوْزَارَهَا ﴾ أي آلاتها وأثقالها من السلاح وغيره ، قال الأعشى :

وأعددت للحرب أوزارها . . .

رماحاً طوالاً وخيلاً ذكورا

ومن نسج داود موضونة . . .

تساق إلى الحرب عيراً فعيرا

وهي في الأصل الأحمال فاستعيرت لما ذكر استعارة تصريحية ، ويجوز أن يكون في ﴿ الحرب ﴾ استعارة مكنية بأن تشبه بإنسان يحمل حملاً على رأسه أو ظهره ويثبت لها ما أثبت تخييلاً ، وكلام الشكاف أميل إليه ، وقيل : هي أحمال المحارب أضيفت للحرب تجوزاً في النسبة الإضافية وتغليباً لها على الكراع ، وإسناد الوضع للحرب مجازي أيضاً وليس بذاك .

وعد بعض الأماثل الكلام تمثيلاً ، والمراد حتى تنقضي الحرب وقال : يجوز أن يكون إرادة ذلك من باب المجاز المتفرع على الكناية كما في قوله :

فألقت عصاها واستقر بها النوى . . .

فإنه كنى به عن انقضاء السفر والإقامة ، وقيل : الأوزار جمع وزر بمعنى إثم وهو هنا الشرك والمعاصي ، ﴿ وَتَضَعُ ﴾ بمعنى تترك مجازاً ، وإسناده للحرب مجاز أو بتقدير مضاف ، والمعنى حتى يضع أهل الحرب شركهم ومعاصيهم ، وفيه أنه لا يستحسن إضافة الأوزار بمعنى الآثام إلى الحرب ، و﴿ حتى ﴾ عند الشافعي عليه الرحمة ومن قال نحو قوله : غاية للضرب ، والمعنى اضربوا أعناقهم حتى تنقضي الحرب ، وليس هذا بدلاً من الأول ولا تأكيداً له بناء على ما قرروه من أن حتى الداخلة على إذا الشرطية ابتدائية أو غاية للشد أو للمن والفداء معاً أو للمجمع من قوله تعالى : ﴿ فَضَرْبَ الرقاب ﴾ الخ بمعنى أن هذه الأحكام جارية فيهم حتى لا يكون حرب مع المشركين بزوال شوكتهم ، وقيل : بنزول عيسى عليه السلام ، وروى ذلك عن سعيد بن جبير .

والحسن ، وفي الحديث ما يؤيده .

أخرج أحمد .

والنسائي .

وغيرهما عن سلمة بن نفيل قال : بينما أنا جالس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ

جاء رجل فقال : يا رسول الله إن الخيل قد سيبت ووضع السلاح وزعم أقوام أن لا قتال وإن قد وضعت الحرب أوزارها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كذبوا فالآن جاء القتال ولا تزال طائفة من أمتي يقاتلون في سبيل الله لا يضرهم من خالفهم يزيغ الله تعالى قلوب قوم ليرزقهم منهم ويقاتلون حتى تقوم الساعة ولا تزال الخيل معقوداً في نواصيها الخير حتى تقوم الساعة ولا تضع الحرب أوزارها حتى يخرج يأجوج ومأجوج" وهي عند من يقول : لا من ولا فداء اليوم غاية للمن والفداء إن حمل على الحرب على حرب بدر بجعل تعريفه للعهد ، والمعنى المن عليهم ويفادون حتى تضع حرب بدر أوزارها ، وغاية للضرب والشد إن حملت على الجنس ، والمعنى أنهم يقتلون ويؤسرون حتى تضع جنس الحرب أوزارها بأن لا يبقى للمشركين شوكة ، ولا تجعل غاية للمن والفداء مع إرادة الجنس .

(126/707)

وفي زعم جوازه والتزام النسخ كلام فتأمل ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر ذلك أو افعلوا ذلك فهو في محل رفع خبر مبتدأ محذوف أو في محل نصب مفعول لفعل كذلك ، والإشارة إلى ما دل عليه قوله تعالى : ﴿ فَضَرْبَ الرقاب ﴾ الخ لا إلى ما تقدم من أول السورة إلى ههنا لأن افعلوا لا يقع على جميع السالف وعلى الرفع ينفك النظم الجليل إن لم يحمل عليه لأن ما بعد كلام فيهم

﴿ وَلَوْ يَشَاء اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ لانتقم منهم ببعض أسباب الهلاك من خسف أو رجفة أو غرق أو موت جارف ﴿ ولكن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ ولكن أمركم سبحانه بالقتال ليبلو المؤمنين بالكافرين بأن يجاهدوهم فينالوا الثواب ويخلد في صحف الدهر ما لهم من الفضل الجسيم والكافرين بالمؤمنين بأن يعاجلهم عز وجل ببعض انتقامه سبحانه فيتعظ به بعض منهم ويكون سبباً لاسلامه ؛ واللام متعلق بالفعل المقدر الذي ذكرناه ﴿ والذين قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ الله ﴾ أي استشهدوا .

وقرأ الجمهور ﴿ قَاتَلُواْ ﴾ أي جاهدوا ، والجحدري بخلاف عنه ﴿ قاتلوا ﴾ بفتح القاف والتاء بلا ألف ، وزيد بن ثابت .

والحسن .

وأبو رجاء .

وعيسى .

والجحدري أيضاً ﴿ قاتلوا ﴾ بالبناء للمفعول وشد التاء .

﴿ فَلَن يُضِلَّ أعمالهم ﴾ فلن يضيعها سبحانه ، وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه ﴿ يُضِلَّ ﴾ مبنياً للمفعول ﴿ أعمالهم ﴾ بالرفع على النيابة عن الفاعل .

وقرىء ﴿ يُضِلَّ ﴾ بفتح الياء من ضل ﴿ أعمالهم ﴾ بالرفع على الفاعلية .

والآية قال قتادة : كما أخرجه عنه ابن جرير .

وابن أبي حاتم ذكرنا لنا أنها نزلت في يوم أحد ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعب وقد فشت فيهم الجراحات والقتل وقد نادى المشركون يومئذ أعل هبل ونادى المسلمون الله أعلى وأجل فنادى المشركون يوم بيوم بدر وإن الحرب سجال لنا عزى ولا عزى لكن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الله مولانا ولا مولى لكم إن القتلى مختلفة أما قتلانا فأحياء مرزوقون وأما قتلاكم ففي النار يعذبون " ومنه يعلم وجه قراءة ﴿ قاتلوا ﴾ بصيغة التفعيل .

﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ سيوصلهم إلى ثواب تلك الأعمال من النعيم المقيم والفضل العظيم ، وهذا كالبيان لقوله سبحانه : ﴿ فَلَن يُضِلَّ أعمالهم ﴾ [محمد : 4] أو سيثبت جل شأنه في الدنيا هدايتهم ، والمراد الوعد بأن يحفظهم سبحانه ويصونهم عما يورث الضلال وحبط الأعمال ، وهو كالتعليل لذلك ، ويجوز أن يكون كالبيان له أيضاً .

﴿ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ أي شأنهم ، قال الطبرسي : المراد إصلاح ذلك في العقبى فلا يتكرر مع ما تقدم لأن المراد به إصلاح شأنهم في الدين والدنيا فلا تغفل .

﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الجنة عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ في موضع الحال بتقدير قد أو بدونه أو استئناف كما قال

أبو البقاء ، والتعريف في الآخرة .

أخرج عبد بن حميد .

وابن جرير عن مجاهد أنه قال : يهدي أهل الجنة إلى بيوتهم ومساكنهم وحيث قسم الله تعالى لهم منها لا يخطؤن كأنهم ساكنوها منذ خلقوا لا يستدلون عليها أحداً ، وفي الحديث "لأحدكم بمنزله في الجنة أعرف منه بمنزله في الدنيا" وذلك بإلهام منه عز وجل ، وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل أنه قال : بلغنا أن الملك الذي كان وكل بحفظ عمل الشخص في الدنيا يمشي بين يديه في الجنة ويتبعه الشخص حتى يأتي أقصى منزل هو له فيعرفه كل شيء أعطاه الله تعالى في الجنة فإذا انتهى إلى أقصى منزله في الجنة دخل إلى منزله وأزواجه وانصرف الملك عنه .

(128/707)

وورد في بعض الآثار أن حسناته تكون دليلاً له إلى منزله فيها ، وقيل : إنه تعالى رسم على كل منزل اسم صاحبه وهو نوع من التعريف ، وقيل : تعريفها تحديدها يقال : عرف الدار وأرفها أي حددها أي حددها لهم بحيث يكون لكل جنة مفرزة ، وقيل : أي شرفها لهم ورفعها وعلاها على أن عرفها من الأعراف التي هي الجبال وما أشبهها ، وعن ابن عباس

في رواية عطاء ، وروى عن مؤرج أي طيبها لهم على أنه من العرف وهو الريح الطيبة ههنا ، ومنه طعام معرف أي مطيف ، وعرفت القدر طيبتها بالملح والتابل ، وعن الجبائي أن التعريف في الدنيا وهو بذكر أوصافها ، والمراد أنه تعالى لم يزل يمدحها لهم حتى عشقوها فاجتهدوا فيما يوصلهم إليها .

والأذن تعشق قبل العين أحياناً . . .

وعلى هذا المراد قيل :

اشتاقه من قبل رؤيته كما . . .

تهوى الجنان بطيب الأخبار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(129/707)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الذين كَفَرُواْ فَضَرْبَ الرقاب حتى إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ الوثاق فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حتى تَضَعَ الحرب أَوْزَارَهَا ﴾ .

قوله تعالى : فضرب الرقاب مصدر نائب عن فعله ، وهو بمعنى فعل الأمر ، ومعلوم أن صيغ الأمر في اللغة العربية أربع :

وهي فعل الأمر كقوله تعالى : ﴿ أَقِمِ الصلاةَ لِدُلُوكِ الشمس ﴾ [الإسراء : 78] الآية .

واسم فعل الأمر كقوله تعالى : ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [المائدة : 105] الآية .

والفعل المضارع المجزوم بلام الأمر كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ [الحج : 29] الآية .

والمصدر النائب عن فعله كقوله تعالى : ﴿ فَضَرْبَ الرقاب ﴾ ، أي فاضربوا رقابهم ،

وقوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُم ﴾ أي أوجعتم فيهم قتلاً .

فالإثخان هو الإكثار من قتل العدو حتى يضعف ويثقل عن النهوض .

وقوله : فشدوا الوثاق ، أي فأسروهم ، والوثاق بالفتح والكسر اسم لما يؤسر به الأسير من قد ونحوه .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من الأمر بقتل الكفار حتى يثخنهم المسلمون ، ثم بعد ذلك يأسرونهم جاء موضحاً في غير هذا الموضع ، كقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أسرى حتى يُثْخِنَ فِي الأرض ﴾ [الأنفال : 67] ، الآية ، وقد أمر تعالى بقتلهم في آيات أخر كقوله تعالى : ﴿ فاقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُم ﴾ [التوبة : 5] الآية .

وقوله : ﴿ فاضربوا فَوْقَ الأعناق واضربوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال : 12] ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُواْ المشركين كَآفَّةً ﴾ [التوبة : 36] الآية . وقوله : ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الحرب فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ ﴾ [الأنفال : 57] الآية ، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ أي فإما تمنون عليهم منا ، أو تفادونهم فداء .

ومعلوم أن المصدر إذا سيق لتفصيل وجب حذف عامله ، كما قال في الخلاصة :

وما لتفصيل كإما منا . . . عامله يحذف حيث عنا

ومنه قول الشاعر :

لأجهدن فإما درء واقعة . . . تخضى وإما بلوغ السؤل والأمل

وقال بعض العلماء : هذه الآية منسوخة بالآيات التي ذكرنا قبلها وممن يروى عنه هذا القول ، ابن عباس والسدي وقتادة والضحاك وابن جريج .

وذكر ابن جرير عن أبي بكر رضي الله عنه ما يؤيده .

ونسخ هذه الآية هو مذهب أبي حنيفة رحمه الله فإنه لا يجوز عنده المن ولا الفداء ، لأن الآية المنسوخة عنده بل يخير عنده الإمام بين القتل والاسترقاق .

ومعلوم أن آيات السيف النازلة في براءة نزلت بعد سورة القتال هذه .

وأكر أهل العلم يقولون : إن الآية ليست منسوخة ، وإن جميع الآيات المذكورة ، محكمة ، فالإمام مخير وله أن يفعل ما رآه مصلحة للمسلمين من من وفداء وقتل واسترقاق .

قالوا : قتل النبي صلى الله عليه وسلم عقبة بن أبي معيط ، والنضر بن الحارث أسيرين يوم بدر ، وأخذ فداء غيرهما من الأسارى .

ومن على ثمامة بن أثال سيد بني حنيفة ، وكان يسترق السبي من العرب وغيرهم .

وقال الشوكاني في نيل الأوطار :

والحاصل أنه قد ثبت في جنس أسارى الكفار جواز القتل والمن والفداء والاسترقاق ، فمن ادعى أن بعض هذه الأمور تخصص ببعض الكفار دون بعض لم يقبل منه ذلك إلا بدليل ناهض يخصص العمومات ، والمجوز قائم فى مقام المنع ، وقول علي وفعله عند بعض المانعين من استرقاق ذكور العرب حجة .

(131/707)

وقد استرق بني ناجية ذكورهم وإناثهم وباعهم كما هو مشهور في كتب السير والتواريخ اه .

محل الغرض منه .

ومعلوم أن بني ناجية من العرب .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له :

لم يختلف المسلمون في جواز الملك بالرق .

ومعلوم أن سببه أسر المسلمين الكفار في الجهاد ، والله تبارك وتعالى في كتابه يعبر عن الملك بالرق بعبارة هي أبلغ العبارات ، في توكيد ثبوت ملك الرقيق ، وهي ملك اليمين لأن ما ملكته يمين الإنسان ، فهو مملوك له تماماً ، وتحت تصرفه تماماً ، كقوله تعالى : ﴿ فانكحوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النسآء مثنى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيمَانُكُمْ ﴾ [النساء : 3] وقله : ﴿ والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلاَّ على أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ [المؤمنون : 5 – 6] في سورة ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾ [المؤمنون : 1] ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌ ﴾ [المعارج : 1] وقوله ﴿ والمحصنات مِنَ النسآء إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيمَانُكُمْ كِتَابَ الله عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء : 24] الآية .

وقوله : ﴿ والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وَمَا مَلَكَتْ أَيمَانُكُم ﴾ [النساء : 36] .

وقوله : ﴿ لاَّ يَحِلُّ لَكَ النسآء مِن بَعْدُ وَلاَ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ [الأحزاب : 52] .

(132/707)

الآية. وقوله: ﴿ يا أيها النبي إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاتي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ اللهُ عَلَيْكَ ﴾ [الأحزاب: 50] الآية. وقوله ﴿ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ [النور: 31]. وقوله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ المحصنات المؤمنات ﴾ [النساء: 25] وقوله: ﴿ فَمَا الذين فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ على مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُم ﴾ [النحل: 71]. وقوله ﴿ هَلْ لَّكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّن شُرَكَآءَ ﴾ [الروم: 28] الآية، فالمراد بملك اليمين في جميع هذه الآيات كلها الملك بالرق، والأحاديث والآيات بمثل ذلك يتعذر حصرها، وهي معلومة، فلا ينكر الرق في الإسلام، إلا مكابر أو ملحد أو من لا يؤمن بكتاب الله، ولا بسنة رسوله.

وقد قدمنا حكمة الملك بالرق وإزالة الإشكال في ملك الرقيق المسلم في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هذا القرآن يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: 9].

ومن المعلوم أن كثيراً من أجلاء علماء المسلمين ومحدثيهم الكبار كانوا أرقاء مملوكين، أو أبناء أرقاء مملوكين.

فهذا محمد بن سيرين كان أبوه سيرين عبداً لأنس بن مالك.

وهذا مكحول كان عبداً لامرأة من هذيل فأعتقته.

ومثل هذا أكثر من أن يحصى كما هو معلوم.

واعلم أن ما يدعيه بعض من المتعصبين، لنفي الرق في الإسلام من أن آية القتال هذه دلت

على نفي الرق من أصله ، لأنها أوجبت واحداً من أمرين لا ثالث لهما ، وهما المن والفداء فقط فهو استدلال ساقط من وجهين :

أحدهما أن فيه استدلالاً بالآية ، على شيء لم يدخل فيها ، ولم تتناوله أصلا ، والاستدلال إن كان كذلك فسقوطه كما ترى .

(133/707)

وإيضاح ذلك أن هذه الآية اتي فيها تقسيم حكم الأسارى ، إلى من وفداء ، لم تتناول قطعاً إلا الرجال المقاتلين من الكفار لأن قوله ﴿ فَضَرْبَ الرقاب ﴾ ، وقوله : ﴿ حتى إِذآ أَثْخَنتُمُوهُمْ ﴾ . صريح ي ذلك كما ترى .

وعلى إثخان هؤلاء المقاتلينَ رتب بالفاء قوله : ﴿ فَشُدُّواْ الوثاق ﴾ الآية .

فظهر أن الآية لم تتناول أنثى ولا صغيراً ألبتة .

ويزيد ذلك إيضاحاً أن النهي عن قتل نساء الكفار وصبيانهم ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم ن وأكثر أهل الرق في أقطار الدنيا إنما هو من النساء والصبيان .

ولو كان الذي يدعي نفي الرق من أصله يعترف بأن الآية ، لا يمكن أن يستدل بها على شيء غير الرجال المقاتلين ، لقصر نفي الرق الذي زعمه على الرجال الذين أسروا ، في حال

كونهم مقاتلين ، ولو قصره على هؤلاء ، لم يمكنه أن يقول بنفي الرق من أَّله كما ترى .

الوجه الثاني : هو ما قدمنا من الأدلة على ثبوت الرق في الإسلام . وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة :

﴿ حتى تَضَعَ الحرب أَوْزَارَهَا ﴾ أي إذا لقيتم الكفار فاضربوا أعناقهم ﴿ حتى إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ ﴾ قتلاً فأسروهم ﴿ حتى تَضَعَ الحرب أَوْزَارَهَا ﴾ أي حتى تنتهى الحرب .

وأظهر الأقوال في معنى وضع الحرب أوزارها أنه وضع السلاح ، والعرب تسمي السلاح وزراًن وتطلق العرب الأوزار على آلا الحرب وما يساعد فيها كالخيل ، ومنه قول الأعشى :

وأعددت للحرب أوزارها . . . رماحاً طوالاً وخيلاً ذكورا

وفي معنى أوزار الحرب ، أقوال أخر معروفة تركناها ، لأن هذا أظهرها عندنا . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(134/707)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ﴾

لا شك أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر لأن فيها قوله : ﴿ حتى إذا أثخنتموهم فشُدُّوا الوثاق ﴾ .

وهو الحكم الذي نزل فيه العقاب على ما وقع يوم بدر من فداء الأسرى التي في قوله تعالى : ﴿ ما كان لنبيء أن يكون له أسرى حتى يُثْخِن في الأرض ﴾ [الأنفال : 67] الآية إذ لم يكن حكم ذلك مقرراً يومئذٍ ، وتقدم في سورة الأنفال .

والفاء لتفريع هذا الكلام على ما قبله من إثارة نفوس المسلمين بتشنيع حال المشركين وظهور خيبة أعمالهم وتنويه حال المسلمين وتوفيق آرائهم .

والمقصود : تهوين شأنهم في قلوب المسلمين وإغراؤهم بقطع دابرهم ليكون الدين كله لله ، لأن ذلك أعظم من منافع فداء أسراهم بالمال ليعبد المسلمون ربهم آمنين .

وذلك ناظر إلى آية سورة الأنفال وإلى ما يفيده التّعليل من قوله : ﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ .

و(إذ) ظرف للمستقبل مضمنة معنى الشرط ، وذلك غالب استعمالها وجواب الشرط قوله : ﴿ فضَرْب الرقاب ﴾ .

واللقاء في قوله : ﴿ فإذا لقِيتم الذين كفروا ﴾ : المقابلة ، وهو إطلاق شهير للقاء ، يقال : يوم اللقاء ، فلا يفهم منه إلا لقاء الحرب ، ويقال : إن لقيت فلاناً لقيت منه أسداً ، وقال النابغة:

تجنب بني حُنّ فإن لقاءهم . . .

كريهٌ وإن لم تلْق إلا بصائر

فليس المعنى : إذا لقيتم الكافرين في الطريق ، أو نحو ذلك وبذلك لا يحتاج لذكر مخصص لفعل ﴿ لقيتم ﴾ .

والمعنى : فإذا قاتلتم المشركين في المستقبل فأمعنوا في قتلهم حتى إذا رأيتم أن قد خضّدتم شوكتهم ، فآسروا منهم أسرى .

وضرب الرقاب : كناية مشهورة يعبر بها عن القتل سواء كان بالضرب أم بالطعن في القلوب بالرماح أو بالرمي بالسهام ، وأوثرت على كلمة القتل لأن في استعمال الكناية بلاغة ولأن في خصوص هذا اللفظ غلظة وشدة تناسبان مقام التحريض .

(135/707)

والضرب هنا بمعنى : القطع بالسيف ، وهو أحد أحوال القتال عندهم لأنّه أدل على شجاعة المحارب لكونه مواجِهَ عدوه وجهاً لوجه .

والمعنى : فاقتلوهم سواء كان القتَل بضرب السيف ، أو طعن الرّماح ، أو رشق النبال ، لأن الغاية من ذلك هو الإثخان .

والذين كفروا : هم المشركون لأنّ اصطلاح القرآن من تصاريف مادة الكفر ، نحو : الكافرين ، والكفار ، والذين كفروا ، هو الشرك .

و﴿ حتى ﴾ ابتدائية .

ومعنى الغاية معها يؤول إلى معنى التفريع .

والإثخان : الغلبة لأنها تترك المغلوب كالشيء المثخن وهو الثقيل الصُلب الذي لا يخف للحركة ويوصف به المائع الذي جمد أو قارب الجمود بحيث لا يسيل بسهولة ، ووصف به الثوب والحبل إذا كثرت طاقاتهما بحيث يعسر تفككها .

وغلب إطلاقه على التوهين بالقتل ، وكلا المعنيين في هذه الآية ، فإذا فسر بالغلبة كان المعنى حتى إذا غلبتم منهم من وقعوا في قبضتكم أسرى فشدوا وثاقهم وعليه فجواز المنّ والفداءِ غيرُ مقيّد .

وإذا فسّر الإثخان بكثرة القتل فيهم كان المعنى حتى إذا لم يبق من الجيش إلا القليل فأسروا حينئذٍ ، أي أبقوا الأسرى ، وكلا الاحتمالين لا يخلو من تأويل في نظم الآية إلا أن الاحتمال الأول أظهر .

وتقدم بيانه في سورة الأنفال في قوله : ﴿ حتى يُثخن في الأرض ﴾ .

وانتصب ﴿ ضرب الرقاب ﴾ على المفعولية المطلقة على أنه بدل من فِعله ثم أضيف إلى مفعوله ، والتقدير : فاضربوا الرقاب ضرباً ، فلما حذف الفعل اختصاراً قدم المفعول

المطلق على المفعول به وناب مناب الفعل في العمل في ذلك المفعول وأضيف إلى المفعول إضافة الأسماء إلى الأسماء لأن المصدر راجح في الاسمية .

والشَدّ : قوة الربط ، وقوة الإمساك .

والوثاق بفتح الواو : الشيء الذي يوثق به ، ويجوز فيه كسر الواو ولم يقرأ به .

وهو هنا كناية عن الأسر لأن الأسر يستلزم الوضع في القيد يشد به الأسير .

والمعنى : فاقتلوهم ، فإن أثخنتم منهم فأسروا منهم .

(136/707)

وتعريف ﴿ الرقاب ﴾ و ﴿ الوثاق ﴾ يجوز أن يكون للعهد الذهني ، ويجوز أن يكون عوضاً عن المضاف إليه ، أي فضربَ رقابِهم وشُدُّوا وثاقهم .

والمنُّ : الإنعام .

والمراد به : إطلاق الأسير واسترقاقه فإن الاسترقاق منٌّ عليه إذ لم يُقتل ، والفداء : بكسر الفاء ممدوداً تخليص الأسير من الأسر بعوض من مال أو مبادلة بأسرى من المسلمين في يدي العدّو .

وقدم المن على الفداء ترجيحاً له لأنه أعون على امتلاك ضمير الممنون عليه ليستعمل

بذلك بغضه .

وانتصب ﴿ منّا ﴾ و ﴿ فداء ﴾ على المفعولية المطلقة بدلاً من عامليهما ، والتقدير : إما تمّنون وإما تُفدون .

وقوله ﴿ بعْدُ ﴾ أي بعد الإثخان وهذا تقييد لإباحة المنّ والفداء .

وذلك موكول إلى نظر أمير الجيش بحسب ما يراه من المصلحة في أحد الأمرين كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بعد غزوة هوازن .

وهذا هو ظاهر الآية والأصل عدم النسخ ، وهذا رأي جمهور أئمة الفقه وأهل النظر .

فقوله : ﴿ الذين كفروا ﴾ عام في كل كافر ، أي مشرك يشمل الرجال وهم المعروف حَربهم ويشمل من حارَب معهم من النساء والصبيان والرهبان والأحبار .

وهذه الآية لتحديد أحوال القتال وما بعده ، لا لبيان وقت القتال ولا لبيان من هم الكافرون ، لأن أوقات القتال مبينة في سورة براءة .

ومعرفة الكافرين معلومة من اصطلاح القرآن بقوله : ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة : 5] .

ثم يظهر أن هذه الآية نزلت بعد آية ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ﴾ في سورة الأنفال (67) .

واختلف العلماء في حكم هذه الآية في القتل والمن والفداء والذي ذهب إليه مالك

والشافعي والثوري والأوزاعي وهو أحدُ قولين عن أبي حنيفة رواه الطحاوي ، ومِن السلف عبدُ الله بن عمر ، وعطاءُ ، وسعيدُ بن جبير : أن هذه الآية غير منسوخة ، وأنها تقتضي التخيير في أسرى المشركين بين القتل أو المن أو الفداء ، وأمير الجيش مخيّر في ذلك .

(137/707)

ويشبه أن يكون أصحاب هذا القول يرون أن مورد الآية الإذنُ في المنّ أو الفداء فهي ناسخة أو مُنهية لحكم قوله تعالى : ما كانَ لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض إلى قوله : ﴿ لمسّكُم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ في سورة الأنفال (67 ، 68) .

وهذا أولى من جعلها ناسخة لقوله تعالى : فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ لما علمت من أن مورد تلك هو تعيين أوقات المتاركة ، وأوقات المحاربة ، فلذلك لم يقل هؤلاء بحَظْر قتل الأسير في حين أن التخيير هنا وارد بين المنّ والفداء ، ولم يذكر معهما القتل .

وقد ثبت في "الصحيح" ثبوتاً مستفيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قَتل من أسرى بدر النضر بنَ الحارث وذلك قبل نزول هذه الآية ، وعقبة بن أبي معيط وقتل أسرى قريظة الذين نزلوا على حكم سعد بن معاذ ، وقتل هلال بن خطل ومقيس بن حبابة يوم فتح مكة ، وقتل بعد أحد أبا عزّة الجمعي الشاعر وذلك كله لا يعارض هذه الآية لأنها جعلت

التخيير لولي الأمر .

وأيضاً لم يذكر في هذه الآية جواز الاسترقاق ، وهو الأصل في الأسرى ، وهو يدخل في المنّ إذا اعتبر المن شاملاً لترك القتل ، ولأن مقابلة المن بالفداء تقتضي أن الاسترقاق مشروع .

وقد روى ابن القاسم وابن وهب عن مالك : أنَّ المنّ من العتق .

وقال الحسن وعطاء : التخيير بين المنّ والفداء فقط دون قتل الأسير ، فقتل الأسير يكون محظوراً .

وظاهر هذه الآية يعضد ما ذهب إليه الحسن وعطاء .

وذهب فريق من أهل العلم إلى أن هذه الآية منسوخة وأنه لا يجوز في الأسير المشرك إلا القتل بقوله تعالى : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة : 5] .

وهذا قول مجاهد وقتادة والضحاك والسدّي وابن جريج ، ورواه العَوفي عن ابن عباس وهو المشهور عن أبي حنيفة ، وقال أبو يوسف ومحمد من أصحاب أبي حنيفة : لا بأس أن يُفادى أسرى المشركين الذين لم يسلموا بأسرى المسلمين الذين بيد المشركين .

(138/707)

وروى الجصّاص أن النبي صلى الله عليه وسلم فدى أسيرين من المسلمين بأسير من المشركين في ثقيف .

والغاية المستفادة من ﴿ حتى ﴾ في قوله : ﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ للتعليل لا للتقييد ، أي لأجل أن تضع الحرب أوزارها ، أي ليكفّ المشركون عنها فتأمنوا من الحرب عليكم وليست غاية لحكم القتال .

والمعنى يستمر هذا الحكم بهذا ليهِن العدوَّ فيتركوا حربكم ، فلا مفهوم لهذه الغاية ، فالتعليل متصل بقوله : ﴿ فضرب الرقاب ﴾ وما بينهما اعتراض .

والتقدير : فضرب الرقاب ، أي لا تتركوا القتل لأجل أن تضع الحرب أوزارها ، فيكون وارداً مورد التعليم والموعظة ، أي فلا تشتغلوا عند اللقاء لا بقتل الذين كفروا لتضع الحرب أوزارها فإذا غلبتموهم فاشتغلوا بالإبقاء على من تغلبونه بالأسر ليكون المنّ بعد ذلك أو الفداء .

والأوزار : الأثقال ، ووضع الأوزار تمثيل لانتهاء العمل فشبهت حالة انتهاء القتال بحالة وضع الحمّال أو المسافر أثقاله ، وهذا من مبتكرات القرآن .

وأخذ منه عبد ربه السُلمى ، أو سُليم الحنفي قوله:

فألقت عصاها واستقرّ بها النوَى . . .

كما قرّ عينا بالإياب المسافر

فشبه حالة المنتهي من كلفة بحالة السائر يلقي عصاه التي استصحبها في سيره .

﴿ أَوْزَارَهَا ذلك وَلَوْ يَشَآءُ اللَّهُ لاَنْتَصَرَ مِنْهُمْ ولكن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ ﴾ .

أعيد اسم الإشارة بعد قوله آنفاً : ﴿ ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ﴾ [محمد : 3]

للنكتة التي تقدمت هنالك ، وهو خبر لمبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف .

وتقدير المحذوف : الأمر ذلك ، والمشار إليه ما تقدم من قوله : ﴿ فضرب الرقاب ﴾ إلى

هنا ، ويفيد اسم الإشارة تقرير الحكم ورسوخه في النفوس .

(139/707)

والجملة من اسم الإشارة والمحذوف معترضة و ﴿ لو يشاء الله لانتصر منهم ﴾ في موضع

الحال من الضمير المرفوع المقدر في المصدر من قوله : ﴿ فضَرْبَ الرقاب ﴾ ، أي أمرتم

بضرب رقابهم ، والحال أن الله لو شاء لاستأصلهم ولم يكلفكم بقتالهم ، ولكن الله ناط

المسببات بأسبابها المعتادة وهي أن يبلو بعضكم ببعض .

وتعدية (انتصر) بحرف (من) مع أن حقه أن يعدّى بحرف (على) لتضمينه معنى :

انتقم .

والاستدراك راجع إلى ما في معنى المشيئة من احتمال أن يكون الله ترك الانتقام منهم لسبب

غير ما بعدَ الاستدراك .

والبَلْوُ حقيقته : الاختبار والتجربة ، وهو هنا مجاز في لازمه وهو ظهور ما أراده الله من رفع درجات المؤمنين ووقع بأسهم في قلوب أعدائهم ومن إهانة الكفار ، وهو أن شأنهم بمرأى ومسمع من الناس .

﴿ ﴾

هذا من مظاهر بلوى بعضهم ببعض وهو مقابل ما في قوله : ﴿ فضرب الرقاب بِبَعْضٍ والذين قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ الله فَلَن يُضِلَّ أعمالهم * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الجنة عَرَّفَهَا لَهُمْ * يا أيها الذين ءامنوا إِن تَنصُرُواْ الله يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ وإما فداء ﴾ ، فإن ذلك من مظاهر إهانة الذين كفروا فذُكر هنا ما هو من رفعة الذين قاتلوا في سبيل الله من المؤمنين بعناية الله بهم .

وجملة ﴿ والذين قاتلوا في سبيل الله ﴾ الخ عطف على جملة ﴿ فإذا لَقِيتُمُ الذين كفروا فضرب الرقاب ﴾ الآية فإنه لما أمرهم بقتال المشركين أعقب الأمر بوعد الجزاء على فعله .

وذكر ﴿ الذين قاتلوا في سبيل الله ﴾ إظهار في مقام الإضمار إذ كان مقتضى الظاهر أن يقال : فلن يُضل الله أعمالكم ، وهكذا بأسلوب الخطاب ، فعدل عن مقتضى الظاهر من الإضمار إلى الإظهار ليكون في تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي إفادة تقوّي الخبر ، وليكون ذريعة إلى الإتيان بالموصول للتنويه بصلته ، وللإيماء إلى وجه بناء الخبر على الصلة بأن تلك الصلة هي علة ما ورد بعدها من الخبر .

فجملة ﴿ فلن يضل أعمالهم ﴾ خبر عن الموصول ، وقرنت بالفاء لإفادة السببية في ترتب ما بعد الفاء على صلة الموصول لأن الموصول كثيراً ما يشرب معنى الشرط فيقرن خبره بالفاء ، وبذلك تكون صيغة الماضي في فعل ﴿ قاتلوا ﴾ منصرفة إلى الاستقبال لأن ذلك مقتضى الشرط .

وجملة ﴿ سيهديهم ﴾ وما عطف عليها بيان لجملة ﴿ فلن يضل أعمالهم ﴾ .

وتقدم الكلام آنفاً على معنى إضلال الأعمال وإصلاح البال .

ومعنى ﴿ عَرَّفها لهم ﴾ أنه وصفها لهم في الدنيا فهم يعرفونها بصفاتها ، فالجملة حال من الجنة ، أو المعنى هداهم إلى طريقها في الآخرة فلا يترددون في أنهم داخلونها ، وذلك من تعجيل الفرح بها .

وقيل : ﴿ عرفها ﴾ جعل فيها عرْفاً ، أي ريحاً طيباً ، والتطييب من تمام حسن الضيافة .

وقرأ الجمهور ﴿ قاتلوا ﴾ بصيغة المفاعلة ، فهو وعد للمجاهدين أحيائهم وأمواتهم .

وقرأه أبو عمرو وحفص عن عاصم ﴿ قُتِلوا ﴾ بالبناء للنائب ، فعلى هذه القراءة يكون مضمون الآية جزاء الشهداء فهدايتهم وإصلاح بالهم كائنان في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(141/707)

وقال الشيخ الصابونى

﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ﴾

سورة محمد

[1] الحرب في الإسلام

التحليل اللفظي

﴿ أثخنتموهم ﴾ : أكثرتم فيهم القتل والجراح ، يقال : أثخن العدو : إذا أكثر فيه الجراح ، قال في " اللسان " : والإثخان في كل شيء قوته وشدته ، يقال : قد أثخنه المرض إذا اشتدت قوته عليه ووهنه ، وأثخنته الجراحة : أوهنته ، وقوله تعالى : ﴿ حتى يثخن في الأرض ﴾ [الأنفال : 67] معناه حتى يبالغ في قتل أعدائه .

﴿ الوثاق ﴾ : الوثاق : في الأصل مصدر كالخلاص ، وأريد به هنا ما يوثق به أي ما يربط كالحبل وغيره .

قال في اللسان : والوثاق اسم الإيثاق ، تقول : أوثقته إيثاقا ووثاقا ، والحبل أو الشيء الذي يوثق به (وثاق) والجمع الوثق بمنزلة الرباط والربط .

وقال الجوهري : وأوثقه في الوثاق : أي شده ، ومنه قوله تعالى ﴿ فشدوا الوثاق ﴾ والوثاق بكسر الواو لغة فيه . ا ه .

والمراد في الآية الكريمة : أسر الأعداء لئلا يفلتوا .

﴿ منا ﴾ : مصدر من ومعناه : أن يطلق سراح الأسير بدون فداء ، وبدون مقابل . قال الشاعر :

ما كان ضرك لو مننت وربما . . . من الفتى وهو المغيظ المحنق

﴿ فداء ﴾ : مصدر فادى : والفداء أن يطلق الأسير مقابل مال يأخذه منه .

قال في اللسان : الفداء بالكسر : فكاك الأسير ، والعرب تقول : فاديت الأسير وتقول : فديته بمالي ، وفديته بأبي وأمي ، إذا لم يكن أسيرا ، وإذا كان أسيرا مملوكا قلت : فاديته ، قال الشاعر :

ولكنني فاديت أمي بعدما . . . علا الرأس منها كبرة ومشيب

﴿ أوزارها ﴾ : الأوزار جمع وزر ، وهو في الأصل : الإثم والذنب ، ويطلق على الحمل

الثقيل ، والمراد به آلات الحرب وأثقالها من السلاح ، والخيل ، والعتاد ، وسمي السلاح " أوزارا " لأنه يحمل لثقله ، قال الأعشى :

وأعددت للحرب أوزارها . . . رماحا طوالا ، وخيلا ذكورا

وإنما جاء الضمير مؤنثا (أوزارها) لأن الحرب مؤنثة .

(142/707)

ومعنى الآية : حتى تنتهي الحرب ، وتضع سلاحها ، فلا يكون قتال مع المشركين لضعف شوكتهم .

﴿ ذلك ﴾ : اسم الإشارة " ذلك " جيء به للفصل بين كلامين ، وقد كثر في لغة العرب استعمال اسم الإشارة عند الفصل بين كلامين والانتقال من الكلام الأول للثاني ، كأنه قيل : ذلك ما كنا نريد أن نقول في هذا الشأن ، ونقول بعده كذا . . وكذا .

﴿ لانتصر منهم ﴾ : أي انتصر منهم بدون أن يكلفكم بحرب أو قتال ، فالله سبحانه قادر على إهلاك الكفار بدون حرب المسلمين لهم ، ولكنه ابتلاء من الله سبحانه : ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم ﴾ [محمد : 31] .

قال الألوسي : قوله تعالى : ﴿ ولو يشآء الله لانتصر منهم ﴾ أي لانتقم منهم ببعض أسباب

الهلاك من خسف ، أو رجفة ، أو غرق ، أو موت جارف .

﴿ ليبلوا بعضكم ببعض ﴾ : أي أمركم سبحانه بالحرب ﴿ ليبلوا بعضكم ببعض ﴾ فيثيب المؤمن ويكرمه بالشهادة ، ويخزي الكافر بالقتل والعذاب ، والابتلاء في اللغة : الامتحان والاختبار .

﴿ يضل أعمالهم ﴾ : أي فلن يضيع أعمالهم بل ستحفظ وتخلد لهم ، ويجزون عليها الجزاء الأوفى يوم الدين .

﴿ عرفها لهم ﴾ : أي بينها لهم وأعلمهم منازلهم فيها فلا يخطئونها ، أو عرفها لهم في الدنيا بذكر أوصافها كما قال تعالى : ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن . . . ﴾ [محمد : 15] الآية .

المعنى الإجمالي

(143/707)

يأمر الله سبحانه المؤمنين عند لقاء الكفار في الحرب ، الا تأخذهم شفقة عليهم ، بل ينبغي أن يحكموا السلاح في رقابهم ، ويحصدونهم بسيوفهم حصدا ، حتى إذا غلبوهم ، وقهروهم ، وكسروا شوكتهم ، عند ذلك عليهم أن يشدوا الوثاق وهو كناية عن وقوعهم

أسرى في أيدي المؤمنين ، فإذا انتهت الحرب فالمؤمنون عند ذلك بالخيار ، إما أن يمنوا على الأسرى فيطلقوا سراحهم بدون عوض ، وإما أن يأخذوا منهم الفداء ليستعين به المسلمون على مصالحهم ، بعد أن تضعف عزائم المشركين وتكسر شوكتهم .

ثم بين الله سبحانه الحكمة من مشروعية القتال مع قدرته تعالى أن ينتصر من أعدائه من غير أن تكون حرب بين المؤمنين والكافرين ، وتلك الحكمة هي امتحان الناس ، واختبار صبرهم على المكاره ، واحتمالهم للشدائد في سبيل الله ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ [آل عمران : 142] .

ثم بين الله تعالى بعد ذلك أن الذين أكرمهم الله بالشهادة في سبيله ، ستحفظ أعمالهم . وتخلد لهم ، ثم هم بعد ذلك في روضات الجنات يحبرون وفي ذلك حض على الجهاد ، وترغيب للخروج في سبيل الله لينال المؤمن إحدى الحسنيين : إما النصر والعزة في الدنيا ، وإما الشهادة في سبيل الله .

وجوه القراءات

أولا : قوله تعالى : ﴿ فشدوا الوثاق ﴾ قرأ الجمهور ﴿ الوثاق ﴾ بفتح الواو ، وقرئ ﴿ الوثاق ﴾ بالكسر وهو اسم لما يوثق به .

قال الألوسي : " ومجيء (فعال) اسم آلة كالحزام والركاب نادر على خلاف القياس ، وظاهر كلام بعضهم أن كلا من المفتوح والمكسور اسم بما يوثق به " .

ثانيا : قوله تعالى : ﴿ وإما فداآء ﴾ قرأ الجمهور بالمد ، وقرأ ابن كثير ﴿ وإما فدى ﴾ بالفتح والقصر كعصا .

قال أبو حاتم : لا يجوز قصره لأنه مصدر فاديته .

قال الشهاب : ولا عبرة به فقد حكى الفراء فيه أربع لغات الفتح والكسر ، مع المد والقصر .

(144/707)

ثالثا : قوله تعالى : ﴿ والذين قتلوا في سبيل الله ﴾ قرأ الأعمش وحفص عن عاصم ﴿ قتلوا ﴾ بتخفيف التاء مبنيا للمجهول ، وقرأ الجمهور ﴿ قاتلوا ﴾ بألف مبينا للمعلوم .

رابعا : قوله تعالى : ﴿ فلن يضل أعمالهم ﴾ قرأ علي كرم الله وجهه ﴿ يضل ﴾ مبنيا للمفعول ، و ﴿ أعمالهم ﴾ بالرفع نائب فاعل ، وقرئ ﴿ يضل ﴾ بفتح الياء من ضل وأعمالهم فاعل . وقراءة الجمهور ﴿ يضل أعمالهم ﴾ أي لن يضل الله أعمالهم بمعنى لن يضيعها .

خامسا : قوله تعالى : ﴿ عرفها لهم ﴾ قرأ الجمهور بتشديد الراء ، وقرأ أبو رجاء وابن محيصن ﴿ عرفها لهم ﴾ بتخفيف الراء .

وجوه الإعراب

أولا : قوله تعالى : ﴿ فضرب الرقاب ﴾ منصوب على المصدرية ، أي اضربوا ضرب فهو مفعول مطلق لفعل محذوف ، وهو من إضافة المصدر للمفعول ، والأصل : اضربوا الرقاب ضربا ، فحذف الفعل وقدم المصدر ، وأنيب منابه مضافا إلى المفعول ، وحذف الفعل في مثله واجب كما نبه عليه علماء النحو .

ثانيا : قوله تعالى : ﴿ فإما منا بعد وإما فداء ﴾ منا وفداء منصوبان على المصدر إما أن تمنوا عليهم منا ، أو تفادوهم فداء ، فهو كسابقه مفعول مطلق لفعل محذوف . وحذف الفعل الناصب للمصدر واجب كذلك ومنه قول الشاعر :

لأجهدن فإما درء واقعة . . . تخشى وإما بلوغ السؤل والأمل

وجوز أبو البقاء كون كل من (منا) و (فداء) مفعولا به لمحذوف تقديره : تولوهم منا ، أو تقبلوا منهم فداء ، ولكن أبا حيان رد هذا بأنه ليس إعراب نحوي .

ثالثا : قوله تعالى : ﴿ ذلك ولو يشاء الله ﴾ ذلك ، في موضع رفع لأنه خبر لمبتدأ محذوف وتقديره : الأمر ذلك أو الحكم ذلك .

رابعا : قوله تعالى : ﴿ ويدخلهم الجنة عرفها لهم ﴾ جملة ﴿ عرفها لهم ﴾ في موضع نصب على الحال ، والتقدير ويدخلهم الجنة معرفة لهم .

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : عبر القرآن الكريم عن القتل بقوله تعالى : ﴿ فضرب الرقاب ﴾ والسر في ذلك أن في هذه العبارة من الغلظة والشدة ما ليس في لفظ (القتل) لما فيه من تصوير القتل بأشنع صورة ، وهو حز العنق وإطارة العضو الذي هو رأس البدن ، وأشرب أعضائه ، ومجمع حواسه ، وبقاء البدن ملقى على هيئة منكرة والعياذ بالله تعالى ، ولو قال : (فاقتلوهم) لما كان هذا المعنى الدقيق .

والتعبير أيضا : يوحي بشجاعة المؤمنين وأنهم من الكفار كأنهم متمكنون من رقابهم ، يعملون فيهم سيوفهم بضرب الأعناق ، وهو (مجاز مرسل) علاقته السببية لأن ضرب الرقبة سبب الموت .

اللطيفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ فشدوا الوثاق ﴾ كناية عن الأسر أي اجعلوهم أسرى واحفظوهم رهائن تحت أيديكم ، حتى تروا فيهم رأيكم ، ولما كانت العادة أن يربط الأسير لئلا يهرب جاء التعبير بقوله : ﴿ فشدوا الوثاق ﴾ وفيه الإشارة إلى الكف عن القتل والاكتفاء بالأسر ، لأن الشريعة الغراء تنهى عن الإجهاز على الجريح ، وذلك من آداب الإسلام وتعاليمه الإنسانية الرشيدة .

اللطيفة الثالثة : تقوله تعالى : ﴿ فإما منا بعد وإما فداء ﴾ ذكر تعالى (المن والفداء) ولم يذكر القتل والاسترقاق ، وفي ذلك إرشاد من الله تعالى إلى أن الغرض من الحرب كسر (شوكة المشركين) ، لا إراقة الدماء والتشفي بإزهاق الأرواح ، فإذا ضعفت شوكة المشركين ووهنت قواهم فلا حاجة إلى القتل . وتقديم (المن) على (الفداء) في الآية الكريمة للإشارة إلى ترجيح حرمة النفس على طلب المال ، فالمجاهد في سبيل الله يقاتل لإعلاء كلمة الله ، لا للمغنم المادي والكسب الدنيوي .

(146/707)

اللطيفة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ في الآية الكريمة إشارة إلى أن الإسلام يكره الحرب ويمقتها ، لأنها مخربة مدمرة ، والتعبير ب ﴿ أوزارها ﴾ للإشارة إلى أن ما فيها من آثام إنما ترجع على الذين أشعلوها وهم الكفار ، المحاربون لله ورسوله ، فلولا كفرهم وإفسادهم في الأرض لما كانت هناك حرب .

قال الإمام الفخر : " والمقصود من وضع الحرب أوزارها ، انقارض الحرب بالكلية بحيث لا يبقى في الدنيا حزب من أحزاب الكفر ، يحارب حزبا من أحزاب الإسلام ، وإنما قال : ﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ ولم يقل : حتى لا يبقى حرب ، لأن التفاوت بين العبارتين

كالتفاوت بين قولك : انقرضت دولة بني أمية ، وقولك لم يبق من دولتهم أثر ، ولا شك أن الثاني أبلغ ، فكذا هاهنا " .

اللطيفة الخامسة : فإن قيل : لماذا لم يهلك الله الكافرين مع قدرته عليهم وأمر المؤمنين بالجهاد ؟

فالجواب : أن الله عز وجل أراد بذلك أن يختبر عباده ، فابتلى المؤمنين بالكافرين ، ليختبر صبرهم على المكاره ، واحتمالهم للشدائد ، وابتلى الكافرين بالمؤمنين ، ليطهر الأرض من رجسهم ، وينيل المؤمنين الشهادة في سبيله بسببهم ، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة : ﴿ ولكن ليبلوا بعضكم ببعض ﴾ .

فإن قيل : إن الله يعلم المؤمن من الكافر ، والبر من الفاجر ، والمطيع من العاصي ، فما هي فائدة هذا الابتلاء ؟ فالجواب أن الابتلاء من الله تعالى ليس بقصد العلم والمعرفة ، وإنما هو بقصد إثابة المؤمن ، وتعذيب الكافر ، بعد إقامة الحجة عليه ، حتى يقطع العذر على الإنسان ، أو نقول : إن الابتلاء غرضه الكشف للناس ، أو للملائكة ، ليظهر لهم الصادق من المنافق ، والتقي من الشقي ، وليس بالنسبة له تعالى ، لأنه بكل شيء عليم .

(147/707)

اللطيفة السادسة : أمر الله تعالى بالمن أو الفداء ، وهذا من مكارم الأخلاق التي أرشد إليها الإسلام ، روي أن الحجاج حين أسر أصحاب (عبد الرحمن بن الأشعث) وكانوا قريبا من خمسة آلاف رجل ، قتل منهم ثلاثة آلاف فجاءه رجل من (كندة) فقال يا حجاج : لا جزاك الله عن السنة والكرم خيرا ! قال : لأن الله تعالى يقول : ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء ﴾ في حق الذين كفروا . . . فوالله ما مننت ، ولا فديت ؟ وقد قال شاعركم فيما وصف به قومه من مكارم الأخلاق :

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم . . . إذا أثقل الأعناق حمل المغارم

فقال الحجاج : أف لهذه الجيف ! ! أما كان فيهم من يحسن مثل هذا الكلام ! ؟ خلوا سبيل من بقي ، فخلي يومئذ عن بقية الأسرى وهم زهاء ألفين ، بقول ذلك الرجل .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : ما المراد ب ﴿ الذين كفروا ﴾ في الآية الكريمة ؟

اختلف المفسرون في المراد من قوله تعالى : ﴿ الذين كفروا ﴾ على قولين :

1 – القول الأول : أن المراد بهم المشركون الكفار عبدة الأوثان . وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما .

2 – القول الثاني : أن المراد بهم كل من خالف دين الإسلام من مشرك ، أو كتابي إذا لم يكن

صاحب عهد ولا ذمة ، فيدخل فيه كل الكفار بدون استثناء وهو ظاهر الآية ، واختيار جمهور المفسرين .

قال ابن العربي : وهو الصحيح لعموم الآية فيه ، والتخصيص لا دليل عليه .

الحكم الثاني : ما المراد من قوله تعالى : ﴿ فضرب الرقاب ﴾ في الآية الكريمة ؟

ذهب (السدي) وجمهور المفسرين إلى أن المراد منه (قتل الأسير صبرا) .

(148/707)

والراجح هو الأول : لأن الآية الكريمة وهي قوله تعالى : ﴿ فضرب الرقاب حتى إذآ أثخنتموهم فشدوا الوثاق ﴾ قد جعلت (الإثخان) وهو الإضعاف لشوكة العدو غاية لضرب الرقاب ، فأين هو قتل الأسير صبرا ؟ مع العلم بأنه إنما يقع في الأسر بعد إثخانه وضعفه ، فيكون قول جمهور المفسرين هو الأرجح ، بل هو الصحيح .

الحكم الثالث : ما المراد من الفداء وما هي أنواعه ؟

ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد إطلاق سراح الأسير في مقابل ما يأخذه المسلمون منهم ، وقد يكون المقابل (أسرى) من المسلمين عند الكفار بطريق التبادل .

وقد يكون المقابل (مالا) أو عتادا يأخذه المسلمون في نظير إطلاق الأسرى .

وقد يكون العوض (منفعة) كما كان في غزوة بدر ، فقد كان من ليس عنده مال يفدي به نفسه أمره عليه الصلاة والسلام أن يعلم عشرة من أولاد المسلمين القراءة والكتابة .

فالمراد من الفداء كل ما يأخذه المسلمون من أعدائهم من مال ، أو عتاد ، أو منفعة ، أو مبادلة أسرى بأسرى وغير ذلك .

الحكم الرابع : ما معنى قوله تعالى : ﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ ؟

اختلف المفسرون في معنى الآية الكريمة على عدة أقوال :

أ- قال ابن عباس : تحتى لا يبقى أحد من المشركين يقاتل .

ب- وقال مجاهد : حتى لا يكون دين إلا دين الإسلام .

ج- وقال سعيد بن جبير : حتى ينزل المسيح بن مريم وحينئذ ينتهي القتال .

والقول الأخير ضعيف ، لأن نزول عيسى ابن مريم ليس في الآية ما يدل عليه ، وإنما يؤخذ من الأحاديث الشريفة ، فبنزوله يدخل الناس في الإسلام ولا يبقى على ظهر الأرض كافر ، كما دلت عليه السنة المطهرة ، ولكن الآية ليس فيها ما يشير إلى هذا المراد من قريب أو بعيد .

ومما يدل على أن المراد بالآية الكريمة ظهور الإيمان ، واندحار الكفر بحيث تكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا هي السفلى قوله تعالى : في سورة الأنفال [39] : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ الحكم الخامس : هل يجوز قتل الأسير ؟

اتفق الفهاء على جواز قتل الأسير ، حتى قال : " الجصاص " لا نعلم في ذلك خلافا فيه ، وقد تواترت الأخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم في قتله لبعض الأسرى منها :

أ- ما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قتل (أبا عزة) الشاعر يوم أحد .

ب- وقتل (عقبة بن أبي معيط) صبرا ، و (النضر بن الحارث) بعد الأسر في بدر .

ج- وقتل (بني قريظة) بعد نزولهم على حكم (سعد بن معاذ) الذي حكم فيهم بالقتل ، وسبي الذرية .

د- وفتح صلى الله عليه وسلم خيبر بعضها صلحا ، وبعضها عنوة ، وشرط على (ابن أبي الحقيق) ألا يكتم شيئا ، فلما ظهر على خيانته وكتمانه قتله عليه السلام .

ه -وفتح مكة وأمر بقتل (هلال بن خطل) و (عبد الله بن أبي سرح) و (مقيس بن حبابة) وقال : اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة .

فكل هذه الأخبار تدل على جواز قتل الأسير ، ولأن في قتله حسم مادة الفساد في الأرض

.

قال الألوسي : " وليس لواحد من الغزاة أن يقتل أسيرا بنفسه ، فإن فعل كان للإمام أن يعزره ، ولكن لا يضمن شيئا ، وإن أسلم الأسارى بعد الأسر لا يقتلهم ، لاندفاع شرهم بالإسلام ، ولكن يجوز استرقاقهم ، فإن الإسلام لا ينافي الرق جزاء على الكفر الأصلي ، بخلاف ما لو اسلموا من قبل الأخذ فإنهم يكونون أحرارا ، لأنه إسلام قبل انعقاد سبب الملك فيهم . " .

وقال القرطبي : " وقيل : ليس للإمام أن يقتل الأسير ، وقد روي عن الحجاج أنه دفع أسيرا إلى (عبد اله بن عمر) ليقتله فأبى وقال : ليس بهذا أمرنا الله ، وقرأ ﴿ حتى إذآ أثخنتموهم فشدوا الوثاق ﴾ .

(150/707)

قلنا : قد قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم وفعله ، وليس في تفسير الله للمن والفداء منع من غيره ، ولعل ابن عمر كره ذلك من يد الحجاج فاعتذر بما قال وربك أعلم " .

الحكم السادس : هل يجوز أخذ الفداء من الأسير ؟

اختلف الفقهاء في أخذ الفاء من الأسير على أقوال :

أولا : مذهب الحنفية : أن الأسير لا يفادى بالمال ، ولا يباع لأهل الحرب ، لأنه يرجع حربا

علينا ، أما فداؤه بأسرى من المسلمين فجائز عند الصاحبين (أبي يوسف ومحمد) وقال : (أبو حنيفة) : لا يفادون بأسرى المسلمين أيضا .

ثانيا : مذهب الجمهور (الشافعي ومالك وأحمد) جواز أخذ الفداء من الأسرى .

دليل الحنفية :

استدل الحنفية على عدم جواز الفداء بما يلي :

أ- قالوا : إن الآية الكريمة : ﴿ فإما منا بعد وإما فداآء ﴾ منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة : 5] وبقوله تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾ [التوبة : 29] نقل ذلك عن مجاهد .

وروي عن (قتادة) أنه قال : نسختها آية الأنفال [57] : ﴿ فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم ﴾ ووجه الاستدلال : أن سورة براءة من آخر ما نزل ، فوجب أن يقتل كل مشرك ، إلا من قامت الدلالة على تركه من النساء والصبيان ، ومن يؤخذ منه الجزية ، والمتأخر ينسخ المتقدم كما هو المعلوم من أصول الشريعة الغراء .

ب- وقالوا : لا يجوز المن ولا الفداء ، لأن فيه تقوية لأهل الشرك على أهل الإسلام ، حيث يرجعون حربا علينا ، وقد أمرنا بتطهير الأرض من الكفر ومن رجس المشركين .

ج- وقالوا : إن ما روي في (أسرى بدر) منسوخ أيضا بما تلونا ، سيما وأنه قد نزل العتاب في قوله تعالى : ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ﴾ [الأنفال : 67

] .

فلا يجوز الاستدلال به على جواز أخذ الفداء .

(151/707)

د – وقالوا : إن ما كان من النبي صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية : " أن من جاء منهم رددناه عليهم " إنما كان في بدء الدعوة ، وقد نسخ ذلك ، ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الإقامة بين أظهر المشركين وقال : " من أقام بين أظهر المشركين فقد برئت منه الذمة " .

أدلة الجمهور :

واستدل الجمهور على جواز فداء الأسير بعدة أدلة نوجزها فيما يلي :

أ – قوله تعالى : ﴿ فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء ﴾ فقد أجازت الآية الكريمة الفداء مطلقا بدون قيد ولا شرط ، فللإمام أن يمن أو يفدي ، أو يسترق ، عملا بالآية الكريمة .

ب – وقالوا : إن الآية محكمة ولا نسخ فيها ، لأن النسخ إنما يكون لشيء قاطع ، فإذا أمكن العمل بالآيتين فلا معنى للقول بالنسخ ، والجمع ممكن فإن آية براءة وهي قوله تعالى : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة : 5] أمر لنا بقتل المشركين عند اللقاء ،

فإذا وقعوا في الأسر كففنا عن القتل إلى المن أو الفداء عملا بقوله تعالى : ﴿ فإما منا بعد وإما فداء ﴾ .

ج – واستدلوا أيضا بأن النبي صلى الله عليه وسلم فادى أسرى بدر بالمال ، ومن لم يكن عنده مال منهم أمره عليه السلام بتعليم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة ، وهذا قد ثبت بفعله عليه الصلاة والسلام .

د – واستدلوا بما روى ابن المبارك عن عمران بن حصين أنه قال : " أسرت ثقيف رجلين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأسر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم رجلا من بني عامر بن صعصعة فمر به النبي صلى الله عليه وسلم وهو في الأسر فقال الأسير : علام أحبس ؟ فقال : بجريرة حلفائك ، فقال : إني مسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لو قلتها وأنت تملك أمرك لأفلحت كل الفلاح ، ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فناداه الأسير ، فقال : إني جائع فأطعمني ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم نعم هذه حاجتك . . ثم فداه بالرجلين اللذين كانت ثقيف أسرتهما " .

(152/707)

قالوا : فهذا دليل على جواز فداء المسلم بغيره من المشركين .

ه – واستدلوا با رواه مسلم عن عمران بن الحصين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فدى رجلين من المسلمين برجل من المشركين .

و – واستدلوا بما رواه مسلم أيضا عن (إياس بن سلمة) عن أبيه قال : " خرجنا مع أبي بكر رضي الله عنه ، وأمره علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن قال : فلقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغد في السوق فقال يا سلمة : هب لي المرأة – يعني التي نفله أبو بكر إياها – فقلت يا رسول الله : لقد أعجبتني وما كشفت لها ثوبا .

ثم لقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغد في السوق ، فقال يا سلمة : هب لي المرأة لله أبوك ! ! فقلت : هي لك يا رسول الله ، فوالله ما كشفت لها ثوبا . . فبعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ففدى بها ناسا من المسلمين أسروا بمكة " .

ز – واستدلوا بالمعقول وهو : أن تخليص المسلم أولى من قتل الكافر ، للانتفاع بالمسلم ، لأن حرمته عظيمة ، وأما الضرر الذي يعود إلينا بدفعه إلى المشركين ، فيدفعه نفع المسلم الذي يتخلص من فتنتهم وعذابهم ، وضرر واحد يقوم بدفعه واحد مثله فيتكافئان ، وتبقى فضيلة تخليص المسلم وتمكينه من عبادة الله تعالى ، وفيها زيادة ترجيح .

هذه خلاصة أدلة الجمهور بالنسبة (للفداء) سواء كان بالمال أو بالرجال على ما عرفت

.

وأما (المن) على الأسارى وهو أن يطلقهم إلى دار الحرب من غير شيء فلا يجوز (عند أبي حنيفة ، ومالك ، وأحمد) وأجازه الإمام الشافعي لما ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم من على (ثمامة بن أثال) سيد أهل اليمامة ثم أسلم وحسن إسلامه ، وقال صلى الله عليه وسلم : " لو كان المطعم بن عدي حيا ثم كلمني في هؤلاء النتنى - يعني أسارى بدر - لتركتهم له " . فقوله صلى الله عليه وسلم ذلك دليل على جواز المن على الأسرى .

الترجيح :

(153/707)

وبعد استعراض هذه الأدلة من الفريقين نرى أن الأرجح أن يفوض أمر الحرب لأهل الاختصاص من ذوي الرأي والبصر ، يفعلون ما تقتضي به المصلحة العامة ، فإن رأوا قتل الأسرى قتلوهم ، وإن رأوا أخذ الفداء بالمال أو بالأسرى ، فادوهم ، وإن رأوا إبقاءهم في الأسر تركوهم تحت أيدي المسلمين ، فيترك لهم تقدير المصلحة حسب الظروف التي هم فيها ، وهذه من (السياسة الحكيمة) التي ينبغي أن تتوفر في قادة المسلمين .

والرسول صلى الله عليه وسلم قد فعل ذلك كله ، فأسر من أسر ، وقتل من قتل ، وفادى منهم ، وأطلق سراح من أطلق دون مال ولا فداء . وما نزل من آيات العتاب في سورة

الأنفال فإنما كان بتوجيه إلهي حكيم – حسب المصلحة أيضا – حيث نزلت هذه الآيات الكريمة في (غزوة بدر) وهي أول حرب يخوضها المسلمون مع أعدائهم ، فكانت المصلحة تقضي بترجيح جانب الشدة على جانب الرحمة ، بالقتل ، والإثخان ، وإراقة الدماء ، حتى لا يطمع المشركون بالإقدام على حرب المسلمين مرة أخرى ، وحتى تقلم أظافر الكفر منذ اللحظة الأولى ، فإذا علم المشركون أن لا رحمة في قلوب المسلمين عليهم ، هابوهم وتخوفوا من الإقدام على حربهم ، وهذا ما كان قد أشار به الفاروق عمر رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل القرآن موافقا لرأية .

ولما كثر عدد المسلمين ، وقويت شوكتهم ، وأصبحت الدولة بأيديهم نزل القرآن الكريم بالمن والفداء على الأسرى ، بعد أن توطدت دعائم الدولة الإسلامية ، وأصبح صرح الإسلام شامخا عتيدا ، فكان المن عن قوة ، لا عن ضعف ، وعن عزة ، لا عن ذلة واستكانة .

فالمصلحة العامة هي التي ينبغي أن تراعى في مثل هذه الحالات ، والحرب مكر وخديعة ، ولا عزة للضعفاء المستكينين .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

أولا : المؤمن يقاتل في سبيل الله ، لإعلاء كلمة الله ، فينبغي أن يكون شجاعا مقداما .

ثانيا : إثخان العدو بكثرة القتل فيهم والجروح ، من أجل إضعاف شوكتهم وتوهين قوتهم .

ثالثا : الحرب في الإسلام حرب مقدسة ، غرضها تطهير الأرض من رجس الكفرة المشركين .

رابعا : الاكتفاء بالأسر بعد إثخان العدو مظهر من مظاهر رحمة الإسلام بأعدائه .

خامسا : إطلاق سراح الأسرى بدون عوض ، أو أخذ الغداء منهم ينبغي أن تراعى فيه مصلحة المسلمين .

سادسا : الجهاد في سبيل الله ماض في هذه الأمة حتى لا يبقى على وجه الأرض مشرك .

سابعا : الله جل ثناؤه قادر على أن ينتقم من المشركين ولكنه أراد أن ينيل المؤمنين أجر الاستشهاد في سبيله .

ثامنا : الحياة ابتلاء للمؤمن والكافر ، يبتلي بعضهم ببعض ليعذب الكافر ويثيب المؤمن .

حكمة التشريع

أقر الإسلام الحرب – مع علمه بما تجره على البلاد من ويلات ونكبات – لضرورة وقائية ، وعلاج اضطراري ، لا مناص منه لمجابهة الطغيان ، ودفع الظلم والعدوان ، وتطهير الأرض من رجس المشركين الغادرين ، على حد قول القائل :

إذا لم تكن إلا الأسنة مركبا . . . فلا بد للمضطر إلا ركوبها

ولكن الإسلام في الوقت الذي يدعو فيه إلى الجهاد ، ويحض على القتال ، ويبيح الحرب كضرورة من الضرورات ، تجده يأمر بالرحمة والشفقة في (معاملة الأسرى) الواقعين في أسر العبودية ، فيحرم تعذيبهم أو إيذاءهم كما يحرم التمثيل بالقتلى ، أو الإجهاز على الجرحى ، أو تقتيل النساء والصبيان .

إن الغرض من الجهاد ليس إراقة الدماء ، وسلب الأموال ، وتخريب الديار ، ولكنه غرض إنساني نبيل ، هو حماية المستضعفين في الأرض ، ودفع عدوان الظالمين ، وتأمين الدعوة ، والوقوف في وجه الاستعلاء والطغيان كما قال جل ثناؤه ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ﴾ [الحج : 40] .

(155/707)

ولقد كان من وصايا النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم ، للجند والجيش المجاهدين في سبيل الله ، أن يأمرهم بطاعة الله ، وعدم الغدر والخيانة حتى بالأعداء . فقد روى مسلم في صحيحة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أمر أميرا على جيش أو سرية ، أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله ، ومن معه من المسلمين خيرا ، ثم قال :

" أغزوا باسم الله في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، أغزوا ولا ، تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليدا " .

وكذلك فعل الخلفاء الراشدون ، ففي وصية أبي بكر رضي الله عنه لأسامة بن زيد حين بعثه إلى الشام : " لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ، ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكله ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم له " .

وهكذا كانت رحمة الإسلام في الحرب ، ممثلة بمبادئه الإنسانية الرحيمة ، فالإسلام حين يبيح الحرب يجعلها مقدرة بقدرها ، فلا يقتل إلا من يقاتل في المعركة ، وأما من تجنب الحرب فلا يحل قتله أو الاعتداء عليه ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ [البقرة : 194] .

﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ [البقرة : 190] .

لقد حرم الإسلام قتل النساء ، والشيوخ ، والأطفال ، وقتل المرضى والرهبان .

وحرم (المثلة) والإجهاز على الجريح ، وتتبع الفارة ، وتحريق البيوت والأشجار . وذلك تمشيا مع نظرته الإنسانية المثلى ، في حماية المستضعفين ، ودفع الظلم والعدوان ، ولأن الحرب كعملية جراحية ، يجب ألا تتجاوز موضع المرض من جسم الإنسان .

(156/707)

فلا عجب أن نرى هذه الرحمة ممثلة في تعاليم القرآن ، تدعو إلى الإحسان إلى الأسرى ثم إلى المن عليهم والفداء ، حتى تنتهي المعركة لما فيه خير الإنسانية بانتصار الحق واندحار الباطل وصدق الله العظيم : ﴿ فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ .

فلله ما أرحم الإسلام ! وما أسمى مبادئه وأحكامه ! ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روائع البيان حـ 2 صـ 442 . 461 ﴾

(157/707)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (8) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (9) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (10) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (11) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر القتال ، تشوف السامع إلى حال المقاتل من النصر والخذلان فأجاب بما يعرف بشرط النصر فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي أقروا بذلك وإن كان في أدنى الدرجات بما أشعرت به أداة البعد والصلة بالماضي ﴿ إن تنصروا الله ﴾ أي يتجدد لكم نية مستمرة وفعل دائم على نصرة دين الملك الأعظم بإيضاح أدلته وتبيينها وتوهية شبه أهل الباطل وقتالهم ، ويكون ذلك خالصاً له لا لغيره من النيات الفاسدة المعلولة بطلب الدنيا أو الشهرة بالشجاعة والعلم وطيب الذكر الغضب للأهل وغير ذلك ﴿ ينصركم ﴾ فإنه الناصر لا غيره من عدد أو عدد فيقمع أعداء الدين بأيديكم .

(158/707)

ولما كان النصر قد يكون مع العجز والكسل والجبن والفشل بين أنه يحميهم من ذلك فقال : ﴿ ويثبت أقدامكم ﴾ أي تثبيتاً عظيماً بأن يملأ قلوبكم سكينة واطمئناناً وأبدانكم قوة وشجاعة في حال القتل ووقت البحث والجدال ، وعند مباشر جميع الأعمال ، فتكونوا عالين قاهرين في غاية ما يكون من طيب النفوس وانشراح الصدور ثقة بالله واعتزازاً به وإن تملأ عليكم أهل الأرض .

ولما ذكر أهل الإيمان ، بين ما لأهل الكفران ، فقال سبحانه : ﴿ والذين كفروا ﴾ أي ستروا ما دل عليه العقل وقادت إليه الفطر الأولى ، وبين أن سوء أعمالهم أسباب وبالهم بالفاء . فقال مؤكداً بجعل الخبر مفعولاً مطلقاً لأجل استبعادهم بما لهم من القوة بكثرة العدد والملاءة بالعدد : ﴿ فتعساً ﴾ أي فقد عثروا فيقال لهم ما يقال للعاثر الذي يراد أنه لا يقوم : تعساً لا قيام معه ، كما يقال لمن عثر وأريد قيامه : تعساً لك ، والمراد بالتعس الانحطاط والسفول والهوان والقلق .

ولما كان كأنه قيل : لمن هذا ؟ قيل : ﴿ لهم ﴾ فلا يكادون يثبتون في قتال لمن صلحت من الأعمال .

ولما كان الإنسان قد يعثر ويقع ويقال له : تعساً ، ويقوم بعد ذلك ، ولا يبطل عمله ، بين أن قوله ليس كذلك ، بل مهما قاله كان لا يتخلف أصلاً ، فقال معبراً بالماضي إشارة إلى التحتم فيه ، وأما الاستقبال فربما تاب على بعضهم فيه عاطفاً على ما تقديره فقال تعالى لهم ذلك : ﴿ وأضل أعمالهم ﴾ وإن كانت ظاهرة الإيقان لأجل تضييع الأساس بالإيمان .

(159/707)

ولما بين ما صنع بهم ليجترئ به حزبه عليهم ، بين سببه ليجتنب فقال : ﴿ ذلك ﴾ الأمر البعيد من الخير ﴿ بأنهم ﴾ أي بسبب بأنهم ﴿ كرهوا ﴾ بغضوا وخالفوا وأنكروا ﴿ ما أنزل الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي لا نعمة إلا منه ، والذي أنزله من القرآن والسنة هو روح الوجود الذي لا يعاندونه ، فلما كرهوا الروح الأعظم بطلت أرواحهم فتبتها أشباحهم ، وهو معنى قوله مسبباً بياناً لمعنى إضلال أعمالهم : ﴿ فأحبط ﴾ أي أبطل إبطالاً لا صلاح معه ﴿ أعمالهم ﴾ بسبب أنهم أفسدوها بنياتهم فصارت وإن كانت صورها صالحة ليس لها أرواح ، لكونها واقعة على غير ما أمر به الله الذي لا أمر إلا له يقبل من العمل إلا ما حده ورسمه ، وهذا وعيد للأمة بأنها إن تخلت عن نصر الله والجهاد في سبيله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكلها سبحانه إلى نفسها وتخلى عن نصرها وسلط عليها عدوها ، ولقد وجد بعض ذلك من تسلط الفسقة لما وجد التهاون في بعض ذلك والتواكل فيه .

ولما كان لا يستهين بهذه القضايا ويجترئ مثل هذه البلايا إلا من أمن العقوبة ، ولا يأمن العقوبة إلا من أعرض عن الله سبحانه وتعالى ، وكان يكفي في الصد عن الأمرين وقائعه تعالى بالأمم الخالية لأجل تكذيب رسله ومناصبة أوليائه والاعتداء على حدوده ، قال منكراً عليهم وموبخاً لهم تقدماً إليهم بالتحذير من بطشه وسطوته وشديد أخذه وعقوبته ، مسبباً عن كراهيتهم المذكورة وما تأثر عنها من العداوة لأهل الله : ﴿ أفلم يسيروا ﴾ أي

بسبب تصحيح أعمالهم وبنائها على أساس ﴿ في الأرض ﴾ أي التي فيها آثار الوقائع فإنها هي الأرض في الحقيقة لما لها من زيادة التعريف بالله ﴿ فينظروا ﴾ عقب سيرهم وبسبه .

(160/707)

ولما كانت وقائعه خلعة للقلوب بما فيها من الأمور الباهرة الناطقة بها ألسنة الأحوال بعد التنبيه بالمقال ، ساق ذلك بسوقه في أسلوب الاستفهام مساقاً منبهاً على أنه من العظمة بحيث يفرغ الزمان للعناية بالسؤال عنه فقال : ﴿ كيف كان عاقبة ﴾ أي آخر أمر ﴿ الذين ﴾ ولما كان يمكنهم معرفة ذلك من جميع المهلكين ، نبه بإثبات الجار على أنهم بعضهم بل بعض المكذبين للرسل ، وهم الذين سمعوا أخبارهم ورأوا ديارهم بعاد وثمود ومدين وسا وقوم لوط فقال تعالى : ﴿ من قبلهم ﴾ ولما كان كأنه قيل : ما لهم ؟ قال : ﴿ دمر الله ﴾ أي أوقع الملك الأعظم الهلاك العظيم الداخل بغير إذن ، الهاجم بغتة ﴿ عليهم ﴾ بما علم أهاليهم وأحوالهم وكل من رضي فعالهم أو مقالهم ، وعدل عن أن يقول : " ولهؤلاء " إلى قوله : ﴿ وللكافرين ﴾ تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف وهو العراقة في الكفر ، فكان فيه بشارة بأن بعضهم سينجيه الله تعالى من أسباب الهلاك لكونه ليس عريقاً في الكفر ، لأنه لم يطبع عليه ﴿ أمثالها ﴾ أي أمثال هذه العاقبة .

ولما بين أن يعلي أولياءه ويذل أعداءه ، بين علته فقال : ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر العظيم الذي فعله بالفريقين ﴿ بأن الله ﴾ أي بسبب أن الملك الأعظم المحيط بصفات الكمال ﴿ مولى الذين آمنوا ﴾ أي القريب من المصدقين به المرضين له ، فهو يفعل معهم بما له من الجلال والجمال ما يفعل القريب بقريبه الحبيب له ، قال القشيري : ويصح أن يقال : أرجى آية في كتاب الله هذه الآية لأنه لم يقل : الزهاد والعباد وأصحاب الأوراد والاجتهاد .

يعني بل ذكر أدنى أسنان أهل الإيمان .

﴿ وأن الكافرين ﴾ أي العريقين في هذا الوصف ﴿ لا مولى لهم ﴾ بهذا المعنى ، لأنهم بعيدون من الله الذي لا يعبد على الحقيقة إلا هو ، فلا ينفعهم قرب قريب أصلاً وإن كان الله مولاهم بغير هذا المعنى بل بمعنى أنه سيدهم ومالكهم ، وفيه إيماء إلى أنه سبحانه وتعالى ولي من لم يكن عريقاً في الكفر فيخرجه من الظلمات إلى النور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 154.156 ﴾

(161/707)

فصل

قال الفخر :

ثم إنه تعالى لما بيّن ما على القتال من الثواب والأجر وعدهم بالنصر في الدنيا زيادة في الحث ليزداد منهم الإقدام فقال :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7)

وفي نصر الله تعالى وجوه : الأول : إن تنصروا دين الله وطريقه والثاني : إن تنصروا حزب الله وفريقه الثالث : المراد نصرة الله حقيقة ، فنقول النصرة تحقيق مطلوب أحد المتعادين عند الاجتهاد والأخذ في تحقيق علامته ، فالشيطان عدو الله يجتهد في تحقيق الكفر وغلبة أهل الإيمان ، والله يطلب قمع الكفر وإهلاك أهله وإفناء من اختار الإشراك بجهله ، فمن حقق نصرة الله حيث حقق مطلوبه لا تقول حقق مراده فإن مراد الله لا يحققه غيره ، ومطلوبه عند أهل السنة غير مراده فإنه طلب الإيمان من الكافر ولم يرده وإلا لوقع .

ثم قال : ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ فإن قيل فعلام قلت إذا نصر المؤمنين الله تعالى ، فقد حقق ما طلبه ، فكيف يحقق ما طلبه العبد وهو شيء واحد ، فنقول المؤمن ينصر الله بخروجه إلى القتال وإقدامه ، والله ينصره بتقويته وتثبيت أقدامه ، وإرسال الملائكة الحافظين له من خلفه وقدامه

وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (8)

هذا زيادة في تقوية قلوبهم ، لأنه تعالى لما قال : ﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : 7] جاز أن يتوهم أن الكافر أيضاً يصير ويثبت للقتال فيدوم القتال والحراب والطعان والضراب ، وفيه المشقة العظيمة فقال تعالى : لكم الثبات ولهم الزوال والتغير والهلاك فلا يكون الثبات ، وسببه ظاهر لأن آلهتهم جمادات لا قدرة لها ولا ثبات عند من له قدرة ، فهي غير صالحة لدفع ما قدره الله تعالى عليهم من الدمار ، وعند هذا لا بد عن زوال القدم والعثار ، وقال في حق المؤمنين ﴿ وَيُثَبِّتْ ﴾ بصيغة الوعد لأن الله تعالى لا يجب عليه شيء ، وقال في حقهم بصيغة الدعاء ، وهي أبلغ من صيغة الإخبار من الله لأن عثارهم واجب لأن عدم النصرة من آلهتهم واجب الوقوع إذ لا قدرة لها والتثبيت من الله ليس بواجب الوقوع ، لأنه قادر مختار يفعل ما يشاء .

وقوله ﴿ وَأَضَلَّ أعمالهم ﴾ إشارة إلى بيان مخالفة موتاهم لقتلى المسلمين ، حيث قال في حق قتلاهم ﴿ فَلَن يُضِلَّ أعمالهم ﴾ [محمد : 4] وقال في موتى الكافرين ﴿ وَأَضَلَّ أعمالهم ﴾ ثم بيّن الله تعالى سبب ما اختلفوا فيه فقال :

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (9)

وفيه وجوه الأول : المراد القرآن ، ووجهه هو أن كيفية العمل الصالح لا تعلم بالعقل وإنما تدرك بالشرع والشرع بالقرآن فلما أعرضوا لم يعرفوا العمل الصالح وكيفية الإتيان به ، فأتوا بالباطل فأحبط أعمالهم الثاني : ﴿ كَرِهُواْ مَا أَنزَلَ اللهُ ﴾ من بيان التوحيد كما قال الله تعالى عنهم ﴿ أئنا لتاركو آلهتنا ﴾ [الصافات : 36] وقال تعالى : ﴿ أَجَعَلَ الآلهة إلها واحدا ﴾ إلى أن قال : ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ اختلاق ﴾ [ص : 75] وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشمأزت قُلُوبُ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾ [الزمر : 45] ووجهه أن الشرك محبط للعمل ، قال الله تعالى : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : 65] وكيف لا والعمل من المشرك لا يقع لوجه الله فلا بقاء له في نفسه ولا بقاء له ببقاء من له العمل ، لأن ما سوى وجه الله تعالى هالك محبط الثالث : ﴿ كَرِهُواْ مَا أَنزَلَ اللهُ ﴾ من بيان أمر الآخرة فلم يعملوا لها ، والدنيا وما فيها ومآلها باطل ، فأحبط الله أعمالهم .

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (10)

فيه مناسبة للوجه الثالث يعني فينظروا إلى حالهم ويعلموا أن الدنيا فانية .

وقوله ﴿ دَمَّرَ الله عَلَيْهِمْ ﴾ أي أهلك عليهم متاع الدنيا من الأموال والأولاد والأزواج والأجساد .

وقوله تعالى : ﴿ وللكافرين أمثالها ﴾ يحتمل وجهين أحدهما : أن يكون المراد لهم أمثالها في الدنيا ، وحينئذ يكون المراد من الكافرين هم الكافرون بمحمد عليه الصلاة والسلام وثانيهما : أن يكون المراد لهم أمثالها في الآخرة ، فيكون المراد من تقدم كأنه يقول : دمر الله عليهم في الدنيا ولهم في الآخرة أمثالها ، وفي العائد إليه ضمير المؤنث في قوله ﴿ أمثالها ﴾ وجهان أحدهما : هو المذكور وهو العاقبة وثانيهما : هو المفهوم وهو العقوبة ، لأن التدمير كان عقوبة لهم ، فإن قيل على قولنا المراد للكافرين بمحمد عليه السلام أمثال ما كان لمن تقدمهم من العاقبة يرد سؤال ، وهو أن الأولين أهلكوا بوقائع شديدة كالزلازل والنيران وغيرهما من الرياح والطوفان ، ولا كذلك قوم محمد صلى الله عليه وسلم ، نقول جاز أن يكون عذابهم أشد من عذاب الأولين لكون دين محمد أظهر بسبب تقدم الأنبياء عليهم السلام عليه وإخبارهم عنه وإنذارهم به على أنهم قتلوا وأسروا بأيديهم من كانوا يستخفونهم ويستضعفونهم والقتل بيد المثل الم من الهلاك بسبب عام وسؤال آخر : إذا كان الضمير عائداً إلى العاقبة فكيف يكون لها أمثال ؟ قلنا يجوز أن يقال المراد العذاب الذي

هو مدلول العاقبة أو الألم الذي كانت العاقبة عليه

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (11)

(165/707)

﴿ ذلك ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى النصر وهو اختيار جماعة ذكره الواحدي ، ويحتمل وجها آخر أغرب من حيث النقل ، وأقرب من حديث العقل ، وهو أنا لما بينا أن قوله تعالى : ﴿ وللكافرين أمثالها ﴾ [محمد : 10] إشارة إلى أن قوم محمد عليه الصلاة والسلام أهكلوا بأيدي أمثالهم الذين كانوا لا يرضون بمجالستهم وهو الم من الهلاك بالسبب العام ، قال تعالى : ﴿ ذلك ﴾ أي الإهلاك والهوان بسبب أن الله تعالى ناصر المؤمنين ، والكافرون اتخذوا آلهة لا تنفع ولا تضر ، وتركوا الله فلا ناصر لهم ولا شك أن من ينصره الله تعالى يقدر على القتل والأسر وإن كان له ألف ناصر فضلاً عن أن يكون لا ناصر لهم ، فإن قيل كيف الجمع بين قوله تعالى ﴿ لاَ مولى لَهُمْ ﴾ وبين قوله ﴿ مولاهم الحق ﴾ [الأنعام : 62] نقول المولى ورد بمعنى السيد والرب والناصر فحيث قال : ﴿ لاَ مولى لَهُمْ ﴾ أراد لا ناصر لهم ، وحيث قال : ﴿ مولاهم الحق ﴾ أي ربهم ومالكهم ، كما قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الناس اتقوا رَبَّكُمُ ﴾ [النساء : 1] وقال : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَائِكُمُ الأولين ﴾ [الشعراء :

26] وفي الكلام تباين عظيم بين الكافر والمؤمن لأن المؤمن ينصره الله وهو خير الناصرين ، والكافر لا مولى له بصيغة نافية للجنس ، فليس له ناصر وإنه شر الناصرين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 42.44 ﴾

(166/707)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إِن تَنصُرُواْ اللهَ يَنصُرْكُمْ ﴾

أي إن تنصروا دين الله ينصركم على الكفار .

نظيره : "وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ" وقد تقدّم .

وقال قُطْرُب : إن تنصروا نبيّ الله ينصركم الله ؛ والمعنى واحد .

﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ أي عند القتال .

وقيل على الإسلام .

وقيل على الصراط .

وقيل : المراد تثبيت القلوب بالأمن ؛ فيكون تثبيت الأقدام عبارةً عن النصر والمعونة في موطن الحرب .

وقد مضى في "الأنفال" هذا المعنى .

وقال هناك : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الملائكة أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الذين آمَنُواْ ﴾ [الأنفال : 12] فأثبت هناك (واسطة ونفاها هنا) ؛ كقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الموت ﴾ [السجدة : 11] ثم نفاها بقوله : ﴿ الله الذي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ [الروم : 40] .

﴿ الذي خَلَقَ الموت والحياة ﴾ [الملك : 2] ومثله كثير ؛ فلا فاعل إلا الله وحده .

قوله تعالى : ﴿ والذين كَفَرُواْ ﴾ يحتمل الرفع على الابتداء ، والنصب بما يفسره "فَتَعْساً لَهُمْ" كأنه قال : أَتْعَسَ الذين كفروا .

و"تَعْساً لَهُمْ" نصب على المصدر بسبيل الدعاء ؛ قاله الفرّاء ، مثل سَقْياً له ورَعْياً .

وهو نقيض لَعاً له .

قال الأعشى :

فالتَّعْس أَوْلَى لها من أن أقول لَعَا . . .

وفيه عشرة أقوال : الأوّل بُعْداً لهم ؛ قاله ابن عباس وابن جريج .

الثاني حُزْناً لهم ؛ قاله السدي .

الثالث شقاء لهم ؛ قاله ابن زيد .

الرابع شَتْماً لهم من الله ؛ قاله الحسن .

الخامس هلاكاً لهم ؛ قاله ثعلب .

السادس خَيْبَةً لهم ؛ قاله الضحاك وابن زيد .

السابع قبحاً لهم ؛ حكاه النقاش .

الثامن رغماً لهم ؛ قاله الضحاك أيضاً .

التاسع شَرًّا لهم ؛ قاله ثعلب أيضاً .

العاشر شِقْوة لهم ؛ قاله أبو العالية .

وقيل : إن التَّعْس الانحطاط والعِثار .

(167/707)

قال ابن السِّكّيت : التعس أن يَخِرّ على وجهه .

والنَّكْس أن يَخِرّ على رأسه .

قال : والتعس أيضاً الهلاك .

قال الجوهري : وأصله الكَبّ ، وهو ضدّ الانتعاش .

وقد تَعَس (بفتح العين) يَتْعَس تَعْساً ، وأتعسه الله .

قال مُجَمّع بن هلال :

تقول وقد أفردْتُها من خَلِيلها . . .

تَعِسْتَ كما أتْعَسْتَنِي يا مُجَمّعُ

يقال : تعساً لفلان ؛ أي ألزمه الله هلاكاً .

قال القُشَيْرِي : وجوّز قوم تِعِس (بكسر العين) .

قلت : ومنه حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" تَعِس عَبْدُ الدينار والدرهم والقَطِيفة والخَمِيصة إن أُعطِي رَضِيَ وإن لم يُعْطَ لم يرض "

خرّجه البخاري .

في بعض طرق هذا الحديث " تعس وانتكس وإذا شِيك فلا انتقش " خرّجه ابن ماجه .

قوله تعالى : ﴿ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي أبطلها لأنها كانت في طاعة الشيطان .

ودخلت الفاء في قوله : "فَتَعْساً" لأجل الإبهام الذي في "الَّذِينَ" ، وجاء "وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ"

على الخبر حملاً على لفظ الذين ؛ لأنه خبر في اللفظ ، فدخول الفاء حملاً على المعنى ،

"وأضلّ" حَمْلاً على اللفظ .

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (9)

أي ذلك الإضلال والإتعاس ؛ لأنهم ﴿ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ الله ﴾ من الكتب والشرائع .

﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي ما لهم من صور الخيرات ، كعمارة المسجد وقِرى الضيف

وأصناف القُرَب ، ولا يَقْبَل الله العمل إلا من مؤمن .

وقيل : أحبط أعمالهم أي عبادة الصنم .

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (10)

(168/707)

بيّن أحوال المؤمن والكافر تنبيهاً على وجوب الإيمان ، ثم وصل هذا بالنظر ؛ أي ألم يَسِر هؤلاء في أرض عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ليعتبروا بهم ﴿ فَيَنظُرُواْ ﴾ بقلوبهم ﴿ كَيْفَ كَانَ ﴾ آخر أمر الكافرين قبلهم ﴿ دَمَّرَ الله عَلَيْهِمْ ﴾ أي أهلكهم واستأصلهم .

يقال : دمّره تدميراً ، ودمّر عليه بمعنًى .

ثم تواعد مشركي مكة فقال : ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ أي أمثال هذه الفعلة ؛ يعني التدمير .

وقال الزجاج والطبري : الهاء تعود على العاقبة ؛ أي وللكافرين من قريش أمثال عاقبة تكذيب الأمم السالفة إن لم يؤمنوا .

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (11)

أي وليّهم وناصرهم .

وفي حرف ابن مسعود "ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا" .

فالمولى : الناصر هاهنا ؛ قاله ابن عباس وغيره .

قال :

فَغدَت كِلاَ الفَرْجَيْن تحسِب أنه . . .

مَوْلَى المخافة خَلْفُها وأمامها

قال قتادة : نزلت يوم أُحُد والنبيّ صلى الله عليه وسلم في الشّعب ، إذ صاح المشركون : يومٌ بيوم ، لنا العُزّى ولا عُزّى لكم ؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم : " قولوا الله مولانا ولا مولى لكم " وقد تقدّم .

﴿ وَأَنَّ الكافرين لاَ مولى لَهُمْ ﴾ أي لا ينصرهم أحد من الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(169/707)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1) ﴾

هذه السورة مدنية عند الأكثر .

وقال الضحاك ، وابن جبير ، والسدي : مكية .

وقال ابن عطية : مدنية بإجماع ، وليس كما قال ، وعن ابن عباس ، وقتادة : أنها مدنية ، إلا آية منها نزلت بعد حجة ، حين خرج من مكة وجعل ينظر إلى البيت ، وهي : ﴿ وكأين من قرية ﴾ الآية .

ومناسبة أولها لآخر ما قبلها واضحة جداً .

﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ﴾ : أي أعرضوا عن الدخول في الإسلام ، أو صدوا غيرهم عنه ، وهم أهل مكة الذين أخرجوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

قال ابن عباس : وهم المطعمون يوم بدر .

وقال مقاتل : كانوا اثني عشر رجلاً من أهل الشرك ، يصدون الناس عن الإسلام ويأمرونهم بالكفر ، وقيل : هم أهل الكتاب ، صدوا من أراد منهم ومن غيرهم أن يدخل في الإسلام .

وقال الضحاك : ﴿ عن سبيل الله ﴾ : عن بيت الله ، يمنع قاصديه ، وهو عام في كل من كفر وصد .

﴿ أضل أعمالهم ﴾ : أي أتلفها ، حيث لم ينشأ عنها خير ولا نفع ، بل ضرر محض .

وقيل : نزلت هذه الآية ببدر ، وأن الإشارة بقوله : ﴿ أضل أعمالهم ﴾ إلى الاتفاق الذي اتفقوه في سفرهم إلى بدر .

وقيل : المراد بالأعمال : أعمالهم البرة في الجاهلية ، من صلة رحم وفك عان ونحو ذلك ؛

واللفظ يعم جميع ذلك .

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ : هم الأنصار .

وقال مقاتل : ناس من قريش .

وقيل : مؤمنو أهل الكتاب .

وقيل : هو عام ؛ وعلى تقدير خصوص السبب في القبيلتين ، فاللفظ عام يتناول كل كافر وكل مؤمن .

﴿ وآمنوا بما نزل على محمد ﴾ : تخصيصه من بين ما يجب الإيمان به ، تعظيم لشأن الرسول ، وإعلام بأنه لا يصح الإيمان ولا يتم إلا به .

وأكد ذلك بالجملة الأعتراضية التي هي : ﴿ وهو الحق من ربهم ﴾ .

وقيل : ﴿ وهو الحق ﴾ : ناسخ لغيره ولا يرد عليه النسخ .

(170/707)

وقرأ الجمهور : نزل مبنياً للمفعول ؛ وزيد بن علي ، وابن مقسم : نزل مبنياً للفاعل ؛ والأعمش : أنزل معدى بالهمزة مبنياً للمفعول .

وقرىء : نزل ثلاثياً .

﴿ كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ﴾ : أي حالهم ، قاله قتادة ؛ وشأنهم ، قاله مجاهد ؛ وأمرهم ، قاله ابن عباس .

وحقيقة لفظ البال أنها بمعنى الفكر ، والموضع الذي فيه نظر الإنسان وهو القلب .

فإذا صلح ذلك ، فقد صلحت حاله ، فكأن اللفظ مشير إلى صلاح عقيدتهم ، وغير ذلك من الحال تابع .

﴿ ذلك ﴾ : إشارة إلى ما فعل بالكفار من إضلال أعمالهم ، وبالمؤمنين من تكفير سيآتهم وإصلاح حالهم .

وذلك مبتدأ وما بعده الخبر ، أي كائن بسبب اتباع هؤلاء الباطل وهؤلاء الحق .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون ذلك خبر مبتدأ محذوف تقديره الأمر ذلك ، أي كما ذكر بهذا السبب ، فيكون محل الجار والمجرور منصوباً . انتهى .

ولا حاجة إلى الإضمار مع صحة الوجه وعدم الإضمار .

والباطل : ما لا ينتفع به .

وقال مجاهد : الشيطان وكل ما يأمر به ؛ والحق : هو الرسول والشرع ، وهذا الكلام تسميه علماء البيان : التفسير .

﴿ كذلك يضرب ﴾ : قال ابن عطية : الإشارة إلى اتباع المذكورين من الفريقين ، أي كما اتبعوا هذين السبيلين ، كذلك يبين أمر كل فرقة ، ويجعل لها ضربها من القول وصفها ؛

وضرب المثل من الضرب الذي هو بمعنى النوع .

وقال الزمخشري : كذلك ، أي مثل ذلك الضرب .

﴿ يضرب الله للناس أمثالهم ﴾ لأجل الناس ليعتبروا بهم .

فإن قلت : أين ضرب الأمثال ؟ قلت : في أن جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار ، واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين ؛ أو في أن جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفار ، وتكفير السيئآت مثلاً لفوز المؤمنين .

﴿ فإذا لقيت الذين كفروا ﴾ : أي في أي زمان لقيمتوهم ، فاقتلوهم .

وفي قوله : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ أي في أي مكان ، فعم في الزمان وفي المكان .

وقال الزمخشري : لقيتم ، من اللقاء ، وهو الحرب . انتهى .

(171/707)

﴿ فضرب الرقاب ﴾ : هذا من المصدر النائب مناب فعل الأمر ، وهم مطرد فيه ، وهو منصوب بفعل محذوف فيه ، واختلف فيه إذا انتصب ما بعده فقيل : هو منصوب بالفعل الناصب للمصدر ؛ وقيل : هو منصوب بنفس المصدر لنيابته عن العامل فيه ، ومثاله :

ضرباً زيداً ، كما قال الشاعر :

على حين ألهى الناس جل أمورهم . . .

فندلاً زريق المال ندل الثعالب

وهذا هو الصحيح ، ويدل على ذلك قوله : ﴿ فضرب الرقاب ﴾ ، وهو إضافة المصدر للمفعول ، ولو لم يكن معمولاً له ، ما جازت إضافته إليه .

وضرب الرقاب عبارة عن القتل ؛ ولما كان القتل للإنسان أكثر ما يكون بضرب رقبته ، عبر بذلك عن القتل ، ولا يراد خصوصية الرقاب ، فإنه لا يكاد تتأتى حالة الحرب أن تضرب الرقاب ، وإنما يتأتى القتال في أي موضع كان من الأعضاء .

ويقال : ضرب الأمير رقبة فلان ، وضرب عنقه وعلاوته وما فيه عيناه ، إذا قتله ، كما عبر بقوله : ﴿ بما كسبت أيديكم ﴾ عن سائر الأفعال ، لما كان أكثر الكسب منسوباً إلى الأيدي .

قال الزمخشري : وفي هذه العبارة من الغلظة والشدة ما ليس في لفظ القتل ، لما فيه من تصوير القتل بأشنع صورة ، وهو حز العنق وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وعلوه وأوجه أعضائه .

وقد زاد في هذه في قوله : ﴿ فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾ انتهى .

ولما في ذلك من تشجيع المؤمنين ، وأنهم من الكفار بحيث هم متمكنون منهم إذا أمروا

بضرب رقابهم .

﴿ حتى إذا أثخنتموهم ﴾ : أي أكثرتم القتل فيهم ، وهذه غاية للضرب ، فإذا وقع الإثخان وتمكنوا من أخذ من لم يقتل وشدوا وثاق الأسرى ، ﴿ فإما مناً ﴾ بالإطلاق ، ﴿ وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ : أي أثقالها وآلاتها .

ومنه قول عمرو بن معدي كرب :

وأعددت للحرب أوزارها . . .

رماحاً طوالاً وخيلاً ذكورا

أنشده ابن عطية لعمرو هذا ، وأنشده الزمخشري للأعشى .

(172/707)

وقيل : الأوزار هنا : الآثام ، لأن الحرب لا بد أن يكون فيها آثام في أحد الجانبين ، وهذه الغاية .

قال مجاهد : حتى ينزل عيسى بن مريم .

وقال قتادة : حتى يسلم الجميع : وقيل : حتى تقتلوهم .

وقال ابن عطية : وظاهر اللفظ أنها استعارة يراد بها التزام الأمر أبداً ، وذلك أن الحرب بين

المؤمنين والكافرين لا يضيع أوزارها ، فجاء هذه ، كما تقول : أنا أفعل كذا وكذا إلى يوم القيامة ، فإنما تريد أنك تفعله دائماً .

وقال الزمخشري : وسميت ، يعني آلات الحرب من السلاح والكراع ، أوزارها ، لأنه لما لم يكن لها بد من جرها ، فكأنها تحملها وتستقل بها ؛ فإذا انقضت ، فكأنها وضعتها .

وقيل : أوزارها : آثامها ، يعني حتى يترك أهل الحرب ، وهم المشركون ، شركهم ومعاصيهم ، بأن يسلموا .

والظاهر أن ضرب الرقاب ، وهو القتل مغياً بشد الوثاق وقت حصول الإثخان ، وأن قوله : ﴿ فإما مناً بعد ﴾ ، أي بعد الشد ، ﴿ وإما فداء ﴾ ، حالتان للمأسور ، إما أن يمن عليه بالإطلاق ، كما منّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بإطلاق ثمامة بن أثال الحنفي ، وإما أن يفدى ، كما روي عنه عليه السلام أنه فودي منه رجلان من الكفار برجل مسلم .

وهذه الآية معارض ظاهرها لقوله تعالى : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ فذهب ابن عباس ، وقتادة ، وابن جريج ، والسدي ، والضحاك ، ومجاهد ، إلى أنها منسوخة بقوله : ﴿ فاقتلوا المشركين ﴾ الآية ، وأن الأسر والمن والفداء مرتفع ، فإن وقع أسير قتل ولا بد إلا أن يسلم .

وروي نحوه عن أبي بكر الصديق ، وذهب ابن عمر ، وعمر بن عبد العزيز ، وعطاء ، والحسن ، إلى أن هذه مخصصة لعموم تلك ، والمنّ والفداء ثابت .

وقال الحسن : لا يقتل الأسير إلا في الحرب ، يهيب بذلك على العدو .

وذهب أكثر العلماء إلى أن أهل الكتاب فيهم المنّ والفداء وعباد الأوثان ، ليس فيهم إلا القتل ، فخصصوا من المشركين أهل الكتاب ، وخصص من الكفار عبدة الأوثان .

(173/707)

وأما مذهب الأئمة اليوم : فمذهب أبي حنيفة أن الإمام يخير في القتل والاسترقاق ؛ ومذهب الشافعي أنه مخير في القتل والاسترقاق والفداء والمن ؛ ومذهب مالك أنه مخير في واحد من هذه الأربعة ، وفي ضرب الجزية .

والظاهر أن قوله : ﴿ وإما فداء ﴾ ، يجوز فداؤه بالمال وبمن أسر من المسلمين .

وقال الحسن : لا يفدى بالمال .

وقرأ السلمي : فشدوا ، بكسر الشين ، والجمهور : بالضم .

والوثاق : بفتح الواو ، وفيه لغة الوثاق ، وهو اسم لما يوثق به ، وانتصب مناً وفداء بإضمار فعل يقدر من لفظهما ، أي فإما تمنون مناً ، وإما تفدون فداء ، وهو فعل يجب إضماره ، لأن المصدر جاء تفصيل عاقبة ، فعامله مما يجب إضماره ، ونحوه قول الشاعر :

لأجهدنّ فإما درء واقعة . . .

تخشى وإما بلوغ السؤل والأمل

أي : فإما أدرأ درأ واقعة ، وإما أبلغ بلوغ السؤل .

وقال أبو البقاء : ويجوز أن يكونا مفعولين ، أي أدوهم منا واقبلوا ، وليس إعراب نحوي .

وقرأ ابن كثير في رواية شبل : وإما فدى بالقصر .

قال أبو حاتم : لا يجوز قصره لأنه مصدر فاديته ، وهذا ليس بشيء ، فقد حكى الفراء فيه أربع لغات : فداء لك بالمد والإغراء ، وفدى لك بالكسر بياء والتنوين ، وفدى لك بالقصر ، وفداء لك .

والظاهر من قوله : ﴿ فإما مناً ﴾ : المن بالإطلاق ، كما منّ الرسول عليه الصلاة والسلام على ثمامة ، وعلى أبي عروة الحجبي .

وفي كتاب الزمخشري : كما منّ على أبي عروة الحجبي ، وأثال الحنفي ، فغير الكنية والاسم ، ولعل ذلك من الناسخ ، لا في أصل التصنيف .

وقيل : يجوز أن يراد بالمنّ : أي يمنّ عليهم بترك القتل ويسترقوا ، أو يمن عليهم فيخلوا لقبولهم الجزية وكونهم من أهل الذمة .

والظاهر أن قوله : ﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ غاية لقوله : ﴿ فشدوا الوثاق ﴾ ، لأنه قد غيا فضرب الرقاب بشد الوثاق وقت الإثخان .

فلا يمكن أن يغيا بغاية أخرى لتدافع الغايتين ، إلا إن كانت الثانية مبينة للأولى ومؤكدة ، فيجوز ، لأن شد الوثاق للأسرى لا يكون إلا حتى تضع الحرب أوزارها .

إذا فسرنا ذلك بانتفاء شوكة الكفار الملقيين إذ ذاك ، ويكون الحرب المراد بها التي تكون وقت لقاء المؤمنين للكفار ، ويجوز أن يكون المغيا محذوفاً يدل عليه المعنى ، التقدير : الحكم ذلك حتى تضع الحرب أوزارها ، أي لا يبقى شوكة لهم .

أو كما قال ابن عطية : إنها استعارة بمعنى إلى يوم القيامة ، أي اصنعوا ذلك دائماً .

وقال الزمخشري : فإن قلت : حتى بم تعلقت ؟ قلت : لا يخلو من أن تتعلق إما بالضرب والشد ، أو بالمنّ والفداء .

فالمعنى على كلا المتعلقين عند الشافعي رحمه الله : أنهم لا يزالون على ذلك أبداً إلى أن يكون حرب مع المشركين ، وذلك إذا لم يبق لهم شوكة .

وقيل : إذا نزل عيسى بن مريم ؛ وعند أبي حنيفة رحمه الله : إذا علق بالضرب والشد .

فالمعنى : أنهم يقتلون ويؤسرون حتى تضع جنس الحرب الأوزار ، وذلك حتى لا يبقى شوكة للمشركين .

وإذا علق بالمن والفداء ، فالمعنى : أنهم يمن عليهم ويفادون حتى تضع حرب بدر أوزارها ، إلى أن تناول المن والفداء ، يعني : بتناول المن بأن يتركوا عن القتل ويسترقوا ، أي بالتخلية

بضرب الجزية بكونهم من أهل الذمة ، وبالعذاب أن يفادى بأسارى المشركين أسارى المسلمين .

وقد رواه الطحاوي مذهباً لأبي حنيفة ؛ والمشهور أنه لا يرى فداءهم بمال ولا غيره ، خيفة أن يعودوا حرباً للمسلمين .

﴿ ذلك ﴾ أي الأمر ذلك إذا فعلوا .

﴿ ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ﴾ : أي لا أنتقم منهم ببعض أسباب الهلاك ، من خسف ، أو رجفة ، أو حاصب ، أو غرق ، أو موت جارف .

﴿ ولكن ليبلو ﴾ : أي ولكن : أمركم بالقتال ليبلو بعضكم ، وهم المؤمنون ، أي يختبرهم ببعض ، وهم الكافرون ، بأن يجاهدوا ويصبروا ، والكافرين بالمؤمنين بأن يعاجلهم على أيديهم ببعض ما وجب لهم من العذاب .

(175/707)

وقرأ الجمهور : قاتلوا ، بفتح القاف والتاء ، بغير ألف ؛ وقتادة ، والأعرج ، والأعمش ، وأبو عمرو ، وحفص : قتلوا مبنياً للمفعول ، والتاء خفيفة ، وزيد بن ثابت ، والحسن ، وأبو رجاء ، وعيسى ، والجحدري أيضاً : كذلك .

وقرأ علي : ﴿ فلن يضل ﴾ مبنياً للمفعول ؛ ﴿ أعمالهم ﴾ : رفع .

وقرىء : يضل ، بفتح الياء ، من ضل أعمالهم : رفع .

﴿ سيهديهم ﴾ : أي إلى طريق الجنة .

وقال مجاهد : يهتدي أهل الجنة إلى مساكنهم منها لا يخطؤون ، لأنهم كانوا سكانها منذ خلقوا ، لا يستبدلوا عليها .

وروى عياض عن أبي عمرو : ﴿ ويدخلهم ﴾ ، و ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ﴾ و ﴿ إنما نطعمكم ﴾ بسكون لام الكلمة .

﴿ عرفها لهم ﴾ ، عن مقاتل : أن الملك الذي وكل بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه فيعرفه كل شيء أعطاه الله .

وقال أبو سعيد الخدري ، ومجاهد ، وقتادة : معناه بينها لهم ، أي جعلهم يعرفون منازلهم منها .

وفي الحديث لأحدكم بمنزلة في الجنة أعرف منه بمنزلة في الدنيا .

وقيل : سماها لهم ورسمها كل منزل بصاحبه ، وهذا نحو من التعريف .

يقال : عرف الدار وأرفها : أي حددها ، فجنة كل أحد مفرزة عن غيرها .

والعرف والأرف : الحدود .

وقيل : شرفها لهم ورفعها وعلاها ، وهذا من الأعراف التي هي الجبال وما أشبهها .

وقال مؤرج وغيره : طيبها ، مأخوذ من العرف ، ومنه : طعام معرف : أي مطيب ، أي وعرفت القدر طيبتها بالملح والتابل .

﴿ إن تنصروا الله ﴾ : أي دينه ، ﴿ ينصركم ﴾ : أي على أعدائكم ، بخلق القوة فيكم ، وغير ذلك من المعارف .

﴿ ويثبت أقدامكم ﴾ : أي في مواطن الحرب ، أو على محجة الإسلام .

وقرأ الجمهور : ﴿ ويثبت ﴾ : مشدداً ، والمفضل عن عاصم : مخففاً .

﴿ فتعساً لهم ﴾ : قال ابن عباس : بعد الهم ؛ وابن جريج ، والسدي : حزناً لهم ؛ والحسن : شتماً ؛ وابن زيد : شقاء ؛ والضحاك : رغماً ؛ وحكى النقاش : قبحاً .

﴿ والذين كفروا ﴾ : مبتدأ ، والفاء داخلة في خبر المبتدأ وتقديره : فتعسهم الله تعساً .

(176/707)

فتعساً : منصوب بفعل مضمر ، ولذلك عطف عليه الفعل في قوله : ﴿ وأضل أعمالهم ﴾ .

ويجوز أن يكون الذين منصوباً على إضمار فعل يفسره قوله : ﴿ فتعساً لهم ﴾ ، كما تقول : زيداً جدعاً له .

وقال الزمخشري : فإن قلت : على م عطف قوله : وأضل أعمالهم ؟ قلت : على الفعل الذي نصب تعساً ، لأن المعنى : فقال تعساً لهم ، أو فقضى تعساً لهم ؛ وتعساً لهم نقيض لعى له . انتهى .

وإضمار ما هو من لفظ المصدر أولى ، لأن فيه دلالة على ما حذف .

وقال ابن عباس : يريد في الدنيا القتل ، وفي الآخرة التردي في النار . انتهى .

وفي قوله : ﴿ فتعساً لهم ﴾ : أي هلاكاً بأداة تقوية لقلوب المؤمنين ، إذ جعل لهم التثبيت ، وللكفار الهلاك والعثرة .

﴿ ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله ﴾ : يشمل ما أنزل من القرآن في بيان التوحيد ، وذكر البعث والفرائض والحدود ، وغير ذلك مما تضمنه القرآن .

﴿ فأحبط أعمالهم ﴾ : أي جعلها من الأعمال التي لا تزكوا ولا يعتد بها .

﴿ دمر الله عليهم ﴾ : أي أفسد عليهم ما اختصوا به من أنفسهم وأولادهم وأموالهم ، وكل ما كان لهم وللكافرين أمثالها .

تلك العاقبة والتدميرة التي يدل عليها دمّر والهلكة ، لأن التدمير يدل عليها ، أو السنة ، لقوله عز وجل : ﴿ سنة الله في الذين خلوا ﴾ والوجه الأول هو الراجح ، لأن العاقبة منطوق بها ، فعاد الضمير على الملفوظ به ، وما بعده مقول القول .

﴿ ذلك بإن ﴾ : ابتداء وخبر ، والإشارة بذلك إلى النصر في اختيار جماعة ، وإلى

الهلاك ، كما قال : ﴿ وللكافرين أمثالها ﴾ ، قال ذلك الهلاك الذي جعل للكفار بأيدي المؤمنين بسبب ﴿ إن الله مولاهم ﴾ : أي ناصرهم ومؤيدهم ، وأن الكافرين لا ناصر لهم ، إذ اتخذوا آلهة لا تنفع ولا تضر ، وتركوا عبادة من ينفع ويضر ، وهو الله تعالى .

(177/707)

قال قتادة : نزلت هذه الآية يوم أُحُد ، ومنها انتزع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رده على أبي سفيان حين قال : "قولوا الله مولانا ولا مولى لكم" ، حين قال المشركون : إن لنا عزى ، ولا عزى لكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(178/707)

وقال أبو السعود :

﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ إِن تَنصُرُواْ الله ﴾

أي دينَه ورسوله ﴿ يَنصُرْكُمْ ﴾ على أعدائِكم ويفتحْ لكُم ﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ في مواطنِ الحربِ ومواقفِها أو على مَحَجةِ الإسلامِ . ﴿ والذين كَفَرُواْ فَتَعْساً لَّهُمْ ﴾ التعسُ

الهلاكُ والعِثارُ والسقوطُ والشرُّ والبعدُ والانحطاطُ، ورجلٌ تاعسٌ وتَعِسٌ. وانتصابُه بفعلِه الواجبِ حذفُه سماعاً أي فقالَ تعساً لهم أو فقضى تعساً لهم. وقولُه تعالى: ﴿ وَأَضَلَّ أعمالهم ﴾ عطفٌ عليهِ داخلٌ معه في حيزِ الخبريةِ للموصولِ.

﴿ ذلك ﴾ أي ما ذُكِرَ من التعسِ وإضلالِ الأعمالِ ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ بسببِ أنَّهم ﴿ كَرِهُواْ مَا أَنزَلَ الله ﴾ من القرآنِ لما فيهِ من التوحيدِ وسائرِ الأحكامِ المخالفةِ لما أَلِفُوه واشتهتْهُ أنفسُهم الأمارةُ بالسُّوءِ ﴿ فَأَحْبَطَ ﴾ لأجلِ ذلكَ ﴿ أعمالهم ﴾ التي لو كانُوا عملوها مع الإيمانِ لأُثيبُوا عليَها.

(179/707)

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأرض ﴾ أي أقعدُوا في أماكِنِهم فلم يسيرُوا فيها ﴿ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من الأممِ المكذبةِ فإنَّ آثارَ ديارِهم تنبىءُ عن أخبارِهم. وقولُه تعالى: ﴿ دَمَّرَ الله عَلَيْهِمْ ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأَ من الكلامِ كأنَّه قيلَ كيفَ كانَ عاقبتُهم فقيلَ استأصلَ اللهُ تعالىَ عليهم ما اختصَّ بهم من أنفسِهم وأهليهم وأموالِهم، يقالُ دمَّره أهلكَه ودمَّر عليهِ أهلكَ عليهِ ما يختصُّ بهِ. ﴿ وللكافرين ﴾ أي ولهؤلاءِ الكافرينَ السائرينَ بسيرِتهم ﴿ أمثالها ﴾ أمثالُ عواقبِهم أو عقوباتِهم لكنْ لا على

أنَّ لهؤلاءِ أمثالَ ما لأولئكَ وأضعافَهُ ، بلْ مثلَه ، وإنما جُمعَ باعتبارِ مماثلتِه لعواقبَ متعددةٍ حسبَ تعددِ الأممِ المُعذبةِ . وقيلَ يجوزُ أن يكونَ عذابُهم أشدَّ من عذابِ الأولينَ وقد قُتلوا وأُسروا بأيدِي من كانُوا يستخفّونهم ويستضعفونهم والقتلُ بيد المثلِ أشدُّ ألماً من الهلاكِ بسببٍ عامٍ ، وقيلَ المرادُ بالكافرينَ المتقدمونَ بطريقِ وضعِ الظاهرِ موضعَ الضميرِ ، كأنَّه قيلَ دمَّر اللهُ عليهم في الدُّنيا ولهُم في الآخرةِ أمثالُها .

﴿ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى ثبوتِ أمثالِ عقوبةِ الأممِ السَّالفةِ لهؤلاءِ ﴿ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الذين ءَامَنُواْ ﴾ أي ناصرُهم على أعدائِهم . وقُرِىءَ وليُّ الذينَ ﴿ وَأَنَّ الكافرين لاَ مولى لَهُمْ ﴾ فيدفعُ عنُهم ما حلَّ بهم من العقوبةِ والعذابِ ولا يُخالفُ هَذا قولَه تعالى : ﴿ ثُمَّ رُدُّواْ إلى اللهِ مولاهم الحق ﴾ فإنَّ المَوْلَى هُناكَ بمعنى المالِك ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(180/707)

وقال الآلوسى :

﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ إِن تَنصُرُواْ اللهَ ﴾

أي دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم لا على أن الكلام على تقدير مضاف بل على أن

نصرة الله فيه تجوز في النسبة فنصرته سبحانه نصرة رسوله ودينه إذ هو جل شأنه وعلا المعين الناصر وغيره سبحانه المعان المنصور ﴿ يَنصُرْكُمُ ﴾ على أعدائكم ويفتح لكم ﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ في مواطن الحرب ومواقفها أو على محجة الإسلام ، والمراد يقويكم أو يوفقكم للدوام على الطاعة .

وقرأ المفصل عن عاصم ﴿ وَيُثَبِّتْ ﴾ مخففاً .

﴿ والذين كَفَرُواْ فَتَعْساً لَّهُمْ ﴾ من تعس الرجل بفتح العين تعساً أي سقط على وجهه ، وضده انتعش أي قام من سقوطه ، وقال شمر .

وابن شميل .

وأبو الهيثم .

وغيرهم : تعس بكسر العين ، ويقال : تعساً له ونكساً على أن الأول كما قال ابن السكيت بمعنى السقوط على الوجه والثاني بمعنى السقوط على الرأس ، وقال الحمصي في "حواشيه على التصريح" : تعس تعساً أي لا انتعش من عثرته ونكساً بضم النون وقد تفتح إما في لغة قليلة وإما اتباعاً لتعساً ، والنكس بالضم عود المرض بعد النقه ، ويراد بذلك الدعاء ، وكثر في الدعاء على العاثر تعساً له ، وفي الدعاء له لعاً له أي انتعاشاً وإقامة ، وأنشدوا قول الأعشى يصف ناقة :

كلفت مجهولة نفسي وشايعني . . .

همي عليها إذا ما آلها لمعا

بذات لوث عفرناة إذا عثرت . . .

فالتعس أولى لها من أن أقول لعا

وقال ثعلب .

وابن السكيت أيضاً التعس الهلاك ، ومنه قول مجمع بن هلال :

تقول وقد أفردتها من حليلها . . .

تعست كما أتعستني يا مجمع

(181/707)

وفي "القاموس" التعس الهلاك والعثار والسقوط والشر والبعد والانحطاط والفعل كمنع وسمع أو إذا خاطبت قلت : تعست كمنع وإذا حكيت قلت : تعس كسمع ، ويقال : تعسه الله تعالى وأتعسه ورجل تاعس وتعس ، وانتصابه على المصدر بفعل من لفظه يجب إضماره لأنه للدعاء كسقيا ورعياً فيجري مجرى الأمثال إذا قصد به ذلك ، والجار والمجرور بعده متعلق بمقدر للتبيين عند كثير أي أعني له مثلاً فنحو تعساً له جملتان .

وذهب الكوفيون إلى أنه كلام واحد ، ولابن هشام في هذا الجار مذكور في بحث لام التبيين

فلينظر هناك .

واختلفت العبارات في تفسير ما في الآية الكريمة ، فقال ابن عباس : أي بعداً لهم .

وابن جريج .

والسدي أي حزناً لهم ، والحسن أي شتماً لهم ، وابن زيد أي شقاء لهم ، والضحاك أي رغماً لهم ، وحكى النقاش تفسيره بقبحا لهم ، وقال غير واحد : أي عثوراً وانحطاطاً لهم ، وما ألطف ذكر ذلك في حقهم بعد ذكر تثبيت الاقدام في حق المؤمنين ، وفي رواية عن ابن عباس يريد في الدنيا القتل وفي الآخرة التردي في النار ، وأكثر الأقوال ترجع إلى الدعاء عليهم بالهلاك .

وجوز الزمخشري في إعرابه وجهين .

الأول : كونه مفعولاً مطلقاً لفعل محذوف كما تقدم .

والثاني : مفعولاً به لمحذوف أي فقضى تعساً لهم ، وقدر على الأول القول أي فقال : تعساً لهم ، والذي دعاه لذلك على ما قيل جعل ﴿ الذين ﴾ مبتدأ والجملة المقرونة بالفاء خبراً له وهي لانشاء الدعاء والإنشاء لا يقع خبراً بدون تأويل ، فأما أن يقدر معها قول أو تجعل خبراً بتقدير قضى ، وجعل قوله تعالى : ﴿ وَأَضَلَّ أعمالهم ﴾ عطفاً على ما قدر .

وفي "الكشف" المراد من قال : تعساً لهم أهلكهم الله لا أن ثم دعاء وقولاً ، وذلك لأنه لا يدعي على شخص إلا وهو مستحق له فإذا أخبر تعالى أنه يدعو عليه دل على تحقق الهلاك لا سيما وظاهر اللفظ أن الدعاء منه عز وجل ، وهذا مجاز على مجاز أعني أن القول مجاز وكذلك الدعاء بالتعس ، ولم يجعل العطف على ﴿ تعساً ﴾ لأنه دعاء ، و ﴿ اللهُ أَضَلَّ ﴾ أخبار ، ولو جعل دعاء أيضاً عطفاً على ﴿ تعساً ﴾ على التجوز المذكور لكان له وجه انتهى .

وأنت تعلم أن اعتبار ما اعتبره الزمخشري ليس لأجل أمر العطف فقط بل لأجل أمر الخبرية أيضاً ، فإن قيل بصحة الاخبار بالجملة الإنشائية من غير تأويل استغنى عما قاله بالكلية ، ودخلت الفاء في خبر الموصول لتضمنه معنى الشرط .

وجوز أن يكون الموصول في محل نصب على المفعولية لفعل مقدر يفسره الناصب لتعساً أي اتعس الله الذين كفروا أو تعس الله الذي كفروا تعساً لما سمعت عن "القاموس" وقد حكى أيضاً عن أبي عبيدة ، والفاء زائدة في الكلام كما في قوله تعالى : ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ [المدثر : 3] ويزيدها العرب في مثل ذلك على توهم الشرط ، وقيل : يقدر الفعل مضارعاً معطوفاً على قوله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ ﴾ [محمد : 7] أي ويتعس الذين الخ .

والفاء للعطف فالمراد اتعاس بعد اتعاس ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وإياى فارهبون ﴾ [

البقرة : 40] أو لأن حق المفسر أن يذكر عقب المفسر كالتفصيل بعد الاجمال ، وفيه مقال .

(183/707)

﴿ ذلك ﴾ أي ما ذكر من التعس والإضلال ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ بسبب أنهم ﴿ كَرِهُواْ مَا أَنزَلَ الله ﴾ من القرآن لما فيه من التوحيد وسائر الأحكام المخالفة لما ألفوه واشتهته أنفسهم الأمارة بالسوء ، وهذا تخصيص وتصريح بسببية الكفر بالقرآن للتعس والإضلال إذ قد علم من قوله تعالى : ﴿ والذين كَفَرُواْ ﴾ [محمد : 8] الخ سببية مطلق الكفر الداخل فيه الكفر بالقرآن دخولاً أولياً لذلك ﴿ فَأَحْبَطَ ﴾ لأجل ذلك ﴿ أعمالهم ﴾ التي لو كانوا عملوها مع الايمان لأثيبوا عليها ، وذكر الاحباط مع ذكر الإضلال المراد هو منه إشعاراً بأنه يلزم الكفر بالقرآن ولا ينفك عنه بحال .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأرض ﴾ أي أقعدوا في أماكنهم فلم يسيروا فيها ﴿ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم المكذبة فإن آثار ديارهم تنبىء عن أخبارهم ، وقوله تعالى : ﴿ دَمَّرَ الله عَلَيْهِمْ ﴾ استئناف بياني كأنه قيل : كيف كانت عاقبتهم ؟ فقيل : أهلك ما يختص بهم من النفس والأهل والمال يقال دمره أهلكه ودمر عليه أهلك ما يختص

به فدمر عليه أبلغ من دمره ، وجاءت المبالغة من حذف المفعول وجعله نسيا منسياً والاتيان بكلمة الاستعلاء وهي لتضمن التدمير معنى الإيقاع أو الهجوم أو نحوه ﴿ وللكافرين ﴾ أي لهؤلاء الكافرين السائرين سيرتهم ﴿ أمثالها ﴾ أمثال عاقبتهم أو عقوبتهم لدلالة ما سبق عليها لكن لا على أن لهؤلاء أمثال ما لأولئك وأضعافه بل مثله ، وإنما جمع باعتبار مماثلته لعواقب متعددة حسب تعدد الأمم المعذبة ، وقيل : يجوز أن يكون عذابهم أشد من عذاب الأولين وقد قتلوا وأسروا بأيدي من كانوا يستخفونهم ويستضعفونهم ، والقتل بيد المثل أشد من الهلاك بسبب عام ، وقيل : المراد بالكافرين المتقدمون بطريق الظاهر موضع الضمير كأنه قيل : دمر الله تعالى عليهم في الدنيا ولهم في الآخرة أمثالها .

(184/707)

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ثبوت أمثال عاقبة أو عقوبة الأمم السالفة لهؤلاء ، وقيل : إشارة إلى النصر وهو كما ترى ﴿ بِأَنَّ الله مَوْلَى الذين ءامَنُواْ ﴾ أي ناصرهم على أعدائهم ، وقرىء ﴿ وَلِيُّ الذين ءامَنُواْ ﴾ ﴿ وَأَنَّ الكافرين لاَ مولى لَهُمْ ﴾ فيدفع ما حل بهم من العقوبة والعذاب ، ولا يناقض هذا قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ رُدُّواْ إلى الله مولاهم الحق ﴾ [الأنعام : 62

] لأن المولى هناك بمعنى المالك فلم يتوارد النفي والإثبات على معنى واحد . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ روح المعاني حـ 26 صـ ﴾

(185/707)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7) ﴾

لما ذكر أنه لو شاء الله لانتصر منهم عُلم منه أن ما أمر به المسلمين من قتال الكفار إنما أراد منه نصرَ الدين بخضد شوكة أعدائه الذين يصدون الناس عنه ، أتبعه بالترغيب في نصر الله والوعد بتكفل الله لهم بالنصر إن نصروه ، وبأنه خاذل الذين كفروا بسبب كراهيتهم ما شرعه من الدين .

فالجملة استئناف ابتدائي لها تهالمناسبة .

وافتتح الترغيب بندائهم بصلة الإيمان اهتماماً بالكلام وإيماء إلى أن الإيماء يقتضي منهم ذلك ، والمقصود تحريضهم على الجهاد في المستقبل بعد أن اجتنوا فائدته مشاهدة يوم بدر .

ومعنى نصرهم الله : نصرُ دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم لأن الله غني عن النصر في

تنفيذ إرادته كما قال : ﴿ ولو يشاء الله لانتصر منهم ﴾ [محمد : 4] .

ولا حاجة إلى تقدير مضاف بين ﴿ تنصروا ﴾ واسم الجلالة تقديره : دين الله ، لأنه يقال : نصر فلان فلاناً ، إذا نصر ذويه وهو غير حَاضر .

وجيء في الشرط بحرف ﴿ إنْ ﴾ الذي الأصل فيه عدم الجزم بوقوع الشرط للإشارة إلى مشقة الشرط وشدته ليُجعل المطلوبُ به كالذي يشك في وفائه به .

وتثبيت الأقدام : تمثيل لليقين وعدم الوهن بحالة من ثبتت قدمه في الأرض فلم يَزِل ، فإن الزلل وهَن يسقط صاحبه ، ولذلك يمثَّل الانهزام والخيبة والخطأ بزلل القدم قال تعالى : ﴿ فتزل قدَم بعد ثبوتها ﴾ [النحل : 94] .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (8)

هذا مقابل قوله : ﴿ والذين قاتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم ﴾ [محمد : 4] فإن المقاتلين في سبيل الله هم المؤمنون ، فهذا عطف على جملة ﴿ والذين قاتلوا في سبيل الله ﴾ [محمد : 4] الآية .

والتعْس : الشقاء ويطلق على عدة معان : الهلاك ، والخيبة ، والانحطاط ، والسقوط ، وهي معان تحوم حول الشقاء ، وقد كثر أن يقال : تعسا له ، للعاثر البغيض ، أي سقوطاً وخروراً لا نهوض منه .

ويقابله قولهم للعاثر : لعاً لهَ ، أي ارتفاعاً ، قال الأعشى:

بذات لَوث عفرناةٍ إذا عَثَرت . . .

فالتعسُ أولى لها من أن أقول لَعَا

وفي حديث الإفك : فعثرت أم مسطح في مِرطها فقالت : تَعِس مسطح لأن العثار تَعْس .

ومن بدائع القرآن وقوع ﴿ فتَعْساً لهم ﴾ في جانب الكفار في مقابلة قوله للمؤمنين : ﴿ ويُثبتْ أقدامكم ﴾ [محمد : 7] .

والفعل من التعس يجيء من باب منع وباب سمع ، وفي "القاموس" إذا خاطبتَ قلتَ : تَعَست كمَنع ، وإذا حَكيت قلت : تَعِسَ كسمع .

وانتصب ﴿ تعساً ﴾ على المفعول المطلق بدلاً من فعله .

والتقدير : فتعسوا تعسهم ، وهو من إضافة المصدر إلى فاعله مثل تبًّا له ، وويحاً له .

وقصد من الإضافة اختصاص التعس بهم ، ثم أدخلت على الفاعل لام التبيين فصار ﴿ تعساً لهم ﴾ .

والمجرور متعلق بالمصدر ، أو بعامله المحذوف على التحقيق وهو مختار بن مالك وإن أباه

ابنُ هشام.

ويجوز أن يكون ﴿ تعساً لهم ﴾ مستعملاً في الدعاء عليهم لقصد التحقير والتفظيع، وذلك من استعمالات هذا المركب مثل سَقياً له ورَعياً له وتبًّا له وويحاً له وحينئذٍ يتعين في الآية فعل قول محذوف تقديره: فقال الله: تعساً لهم، أو فيقال: تعساً لهم.

ودخلت الفاء على ﴿ تعساً ﴾ وهو خبر الموصول لمعاملة الموصول معاملة الشرط.

وقوله: ﴿ وأضل أعمالهم ﴾ إشارة إلى ما تقدم في أول السورة من قوله: ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ﴾ [محمد: 1]، وتقدم القول على ﴿ أضلّ أعمالهم ﴾ هنالك.

والقول في قوله: ﴿ ذلك بأنهم كرهوا ﴾ الخ في معناه، وفي موقعه من الجملة التي قبله وفي نكتة تكريره كما تقدم في قوله: ﴿ ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ﴾ [محمد: 3].

والإشارة إلى التعس وإضلال الأعمال المتقدم ذكرهما.

والكراهية: البغض والعداوة.

و﴿ ما أنزل الله ﴾ هو القرآن وما فيه من التوحيد والرسالة والبعث، قال تعالى: ﴿ كَبُر

على المشركين ما تدعوهم إليه ﴾ [الشورى : 13] .

والباء في ﴿ بأنهم كرهوا ﴾ للسببيّة .

وإحباط الأعمال إبطالها : أي جعلها بُطْلاً ، أي ضائعة لا نفع لهم منها ، والمراد بأعمالهم : الأعمال التي يرجون منها النفع في الدنيا لأنهم لم يكونوا يرجون نفعها في الآخرة إذ هم لا يؤمنون بالبعث وإنما كانوا يرجون من الأعمال الصالحة رضي الله ورضى الأصنام ليعيشوا في سعة رزق وسلامة وعافية وتسلَم أولادهم وأنعامهم ، فالأعمال المُحبَطة بعض الأعمال المضللة ، وإحباطها هو عدم تحقق ما رجَوه منها فهو أخص من إضلال أعمالهم كما علمته عند قوله تعالى:

﴿ الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ﴾ [محمد : 1] أول السورة .

والمقصود من ذكر هذا الخاص بعد العام التنبيه على أنهم لم ينتفعوا بها لئلا يظن المؤمنون أنها قد تخفف عنهم من العذاب فقد كانوا يتساءلون عن ذلك ، كما في حديث عدي بن حاتم أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أعمال كان يتحنث بها في الجاهلية من عتاقة ونَحوها فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم " أسلمتَ على ما سَلف من خير " أي ولو لم يُسلم لما كان له فيها خير .

والمعنى : أنّهم لو آمنوا بما أنزل الله لانتفعوا بأعمالهم الصّالحة في الآخرة وهي المقصود الأهمّ وفي الدنيا على الجملةَ .

وقد حصل من ذكر هذا الخاص بعد العام تأكيد الخبر المذكور .

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (10)

تفريع على جملة ﴿ والذين كفروا فتعساً لهم ﴾ [محمد : 8] الآية ، وتقدم القول في نظائر ﴿ أولم يسيروا في الأرض ﴾ في سورة الروم (9) وفي سورة غافر (21) .

(188/707)

والاستفهام تقريري ، والمعنى : أليس تعس الذين كفروا مشهوداً عليه بآثاره من سوء عاقبة أمثالهم الذين كانوا قبلهم يدينون بمثل دينهم .

وجملة دمر الله عليهم ﴾ استئناف بياني ، وهذا تعريض بالتهديد .

والتدمير : الإهلاك والدمار وهو الهلك .

وفعل ﴿ دمَّر ﴾ متعد إلى المدمَّر بنفسه ، يقال : دمرهم الله ، وإنما عدي في الآية بحرف الاستعلاء للمبالغة في قوة التدمير ، فحذف مفعول ﴿ دمر ﴾ لقصد العموم ، ثم جعل التدمير واقعاً عليهم فأفاد معنى ﴿ دمّر ﴾ كل ما يختصُّ بهم ، وهو المفعول المحذوف ، وأن التدمير واقع عليهم فهم من مشموله .

وجملة ﴿ وللكافرين أمثالها ﴾ اعتراض بين جملة ﴿ أفلم يسيروا في الأرض ﴾ وبين جملة ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا ﴾ [محمد : 11] .

والمراد بالكافرين : كفار مكة .

والمعنى : ولكفاركم أمثال عاقبة الذين من قبلهم من الدّمار وهذا تصريح بما وقع به التعريض للتأكيد بالتعميم ثم الخصوص .

وأمثال : جمع مِثْل بكسر الميم وسكون الثاء ، وجمع الأمثال لأن الله استأصل الكافرين مرات حتى استقر الإسلام فاستأصل صناديدهم يوم بدر بالسيف ، ويوم حنين بالسيف أيضاً ، وسلط عليهم الريح يوم الخندق فهزمهم وسلط عليهم الرعب والمذلة يوم فتح مكة ، وكل ذلك مماثل لما سلطه على الأمم في الغاية منه وهو نصر الرسول صلى الله عليه وسلم ودينه ، وقد جعل الله ما نصر به رسوله صلى الله عليه وسلم أعلى قيمة بكونه بيده وأيدي المؤمنين مباشرة بسيوفهم وذلك أنكى للعدو .

وضمير ﴿ أمثالها ﴾ عائد إلى ﴿ عاقبة الذين من قبلهم ﴾ باعتبار أنها حالة سوء .

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (11)

أعيد اسم الإشارة للوجه الذي تقدم في قوله : ﴿ ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ﴾ [محمد : 3] وقوله : ﴿ ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ﴾ [محمد : 4] .

واسم الإشارة منصرف إلى مضمون قوله : ﴿ وللكافرين أمثالها ﴾ [محمد : 10] بتأويل : ذلك المذكور ، لأنه يتضمن وعيداً للمشركين بالتدمير ، وفي تدميرهم انتصار للمؤمنين على ما لَقُوا منهم من الأضرار ، فأفيد أن ما توعدهم الله به مسبب على أن الله نصير الذين آمنوا وهو المقصود من التعليل وما بعده تتميم .

والمولى ، هنا : الولي والناصر .

والمعنى : أن الله ينصر الذين ينصرون دينه وهم الذين آمنوا ولا ينصر الذين كفروا به ، فأشركوا معه في إلهيته وإذا كان لا ينصرهم فلا يجدون نصيراً لأنه لا يستطيع أحد أن ينصرهم على الله ، فنفي جنسُ المولى لهم بهذا المعنى من معاني المولى .

فقوله : ﴿ وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ أفاد شيئين : أن الله لا ينصرهم ، وأنه إذا لم ينصرهم فلا ناصر لهم ، وأما إثبات المولى للمشركين في قوله تعالى : ﴿ ثم نقول للذين أشركوا مكانكم إلى قوله : ﴿ ورُدُّوا إلى الله مولاهم الحق ﴾ [يونس : 28 30] فذلك المولى بمعنى آخر ، وهو معنى : المالك والرب ، فلا تعارض بينهما . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1) ﴾

أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ﴾ قال : هم أهل مكة قريش نزلت فيهم ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ قال : هم أهل المدينة الأنصار ﴿ وأصلح بالهم ﴾ قال : أمرهم .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ أضل أعمالهم ﴾ قال : كانت لهم أعمال فاضلة لا يقبل الله مع الكفر عملاً .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ وأصلح بالهم ﴾ قال : أصلح حالهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ وأصلح بالهم ﴾ قال : شأنهم .

وفي قوله ﴿ وذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ﴾ قال : الشيطان .

فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ﴾ قال : مشركي العرب ، يقول ﴿ فضرب الرقاب ﴾ قال : حتى يقولوا لا إله إلا الله .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ﴾ قال : لا تأسروهم ولا تفادوهم حتى تثخنوهم بالسيف .

وأخرج النحاس عن ابن عباس في قوله ﴿ فإما منّاً بعد وإما فداء ﴾ قال : فجعل النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالخيار في الأسرى إن شاؤوا قتلوهم ، وإن شاؤوا استعبدوهم ، وإن شاؤوا فادوهم .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ فإما منّاً بعد وإما فداء ﴾ قال : هذا منسوخ نسختها ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين ﴾ [التوبة : 5] .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فإما منّاً بعدُ وإما فداء ﴾ قال : فرخص لهم أن يمنوا على من شاؤوا منهم ، نسخ الله ذلك بعد في براءة فقال : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة : 51] .

(191/707)

وأخرج عبد بن حميد وأبو داود في ناسخه وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فإما منّاً بعد وإما فداء ﴾ قال : كان المسلمون إذا لقوا المشركين قاتلوهم ، فإذا أسروا منهم أسيراً فليس لهم إلا أن يفادوه أو يمنوا عليه ، ثم نسخ ذلك بعد ﴿ فإما تثقفنهم

في الحرب فشرد بهم من خلفهم ﴾ [الأنفال : 57] .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف وعبد بن حميد وابن جرير عن الضحاك ومجاهد في قوله ﴿ فإما منّاً ﴾ قالا : نسختها ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن السدي مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم فادى رجلين من أصحابه برجلين من المشركين أسروا .

وأخرج عبد بن حميد عن أشعث قال : سألت الحسن وعطاء عن قوله ﴿ فإما منّاً بعدُ وإما فداء ﴾ قال : أحدهما يمن عليه أولا يفادى وقال الآخر : يصنع كما يصنع رسول الله صلى الله عليه وسلم يمن عليه أولا يفادى .

وأخرج ابن جرير ابن مردويه عن الحسن رضي الله عنه قال : أتى الحجاج بأسارى ، فدفع إلى ابن عمر رضي الله عنهما رجلاً يقتله فقال ابن عمر : ليست بهذا أمرنا إنما قال الله ﴿ حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منّاً بعد وإما فداء ﴾

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في سننه عن نافع أن ابن عمر رضي الله عنهما أعتق ولد زنية وقال : قد أمرنا الله ورسوله أن نمنَّ على من هو شر منه قال الله ﴿ فإما منّاً بعدُ وإما فداء ﴾

وأخرج عبد الرزاق في المصنف وابن المنذر وابن مردويه عن ليث رضي الله عنه قال : قلت لمجاهد : بلغني أن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لا يحل قتل الأسارى لأن الله تعالى قال ﴿ فإما منّاً بعدُ وإما فداء ﴾ فقال مجاهد : لا تعبأ بهذا شيئاً أدركت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلهم ينكر هذا ، ويقول : هذه منسوخة ، إنما كانت في الهدنة التي كانت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين ، فأما اليوم فلا يقول الله ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ ويقول ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ﴾ فإن كانوا من مشركي العرب لم يقبل منهم شيء إلا الإِسلام فإن لم يسلموا فالقتل ، وأما من سواهم فإنهم إذا أسروا فالمسلمون فيهم بالخيار إن شاؤوا قتلوهم وإن شاؤوا استحيوهم وإن شاؤوا فادوهم إذا لم يتحوّلوا عن دينهم فإن أظهروا الإِسلام لم يفادوا ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الصغير والمرأة والشيخ الفاني .

وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد رضي الله عنه قال : نسخت ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة : 5] ما كان قبل ذلك من فداء أو مَنّ .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن عطاء رضي الله عنه أنه كان يكره قتل أهل الشرك صبراً ويتلو ﴿ فشدوا الوثاق فإما منّاً بعدُ وإما فداء ﴾ ثم نسختها ﴿ فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ﴾ ونزلت زعموا في العرب خاصة وقتل النبي صلى الله عليه

وسلم عقبة بن أبي معيط يوم بدر صبراً .

وأخرج عبد الرزاق عن أيوب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن قتل الوصفاء والعسفاء .

وأخرج عبد الرزاق عن الضحاك بن مزاحم رضي الله عنه قال : نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل النساء والولدان إلا من عدا منهم بالسيف .

(193/707)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن القاسم بن عبد الرحمن رضي الله عنه قال : " بعث النبي صلى الله عليه وسلم سرية فطلبوا رجلاً فصعد شجرة فأحرقوها بالنار فلما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم أخبروه بذلك فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : إني لم أبعث أعذب بعذاب الله ، إنّما بضرب الرقاب وشد الوثاق " .

أما قوله تعالى : ﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ .

أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ قال : حتى لا يكون شرك .

وأخرج ابن المنذر عن الحسن رضي الله عنه ﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ قال :

حتى يعبد الله ولا يشرك به .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في سننه عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ قال : حتى يخرج عيسى ابن مريم عليه السلام فيسلم كل يهودي ونصراني وصاحب ملة ، وتأمن الشاة من الذئب ولا تقرض فأرة جراباً ، وتذهب العداوة من الناس كلها ، ذلك ظهور الإِسلام على الدين كله ، وينعم الرجل المسلم حتى تقطر رجله دماً إذا وضعها .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يوشك من عاش منكم أن يلقى عيسى ابن مريم إماماً مهدياً وحكماً عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير وتوضع الجزية وتضع الحرب أوزارها " .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير رضي الله عنه ﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ قال : خروج عيسى ابن مريم عليه السلام .

وأخرج ابن سعد وأحمد والنسائي والبغوي والطبراني وابن مردويه " عن سلمة بن نفيل رضي الله عنه قال : بينما أنا جالس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل

فقال يا رسول الله : إن الخيل قد سُيبت وَوُضِعَ السلاحُ وزعم أقوام أن لا قتال وأنْ قد وضعت الحرب أوزارها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كذبوا فالآن جاء القتال ، ولا تزال طائفة من أمتي يقاتلون في سبيل الله لا يضرهم من خالفهم يزيغ الله قلوب قوم ليرزقهم منهم ويقاتلون حتى تقوم الساعة ، ولا تزال الخيل معقوداً في نواصيها الخير ، حتى تقوم الساعة ، ولا تضع الحرب أوزارها حتى يخرج يأجوج ومأجوج " .

(195/707)

وأخرج ابن أبي حاتم " عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : فتح لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتح فقلت يا رسول الله اليوم ألقى الإِسلام بجرانه ، ووضعت الحرب أوزارها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن دون أن تضع الحرب أوزارها خلالاً ؟ ستاً أولهن موتي ثم فتح بيت المقدس ثم فئتان من أمتي دعواهم واحدة يقتل بعضهم بعضاً ويفيض المال حتى يعطي الرجل المائة دينار فيتسخط وموت يكون كقعاص الغنم ، وغلام من بني الأصفر ينبت في اليوم كنبات الشهر وفي الشهر كنبات السنة ، فيرغب فيه قومه فيملكونه يقولون نرجو أن يربك علينا ملكنا فيجمع جمعاً عظيماً ثم يسير حتى يكون فيما بين العريش وأنطاكية ، وأميركم يومئذ نعم الأمير فيقول لأصحابه : ما ترون فيقولون نقاتلهم

حتى يحكم الله بيننا وبينهم فيقول لا أرى ذلك نحرز ذرارينا وعيالنا ونخلي بينهم وبين الأرض ثم نغزوهم وقد أحرزنا ذرارينا فيسيرون فيخلون بينهم وبين أرضهم حتى يأتوا مدينتي هذه فيستهدون أهل الإِسلام فيهدونهم ثم يقول لا ينتدبن معي إلا من يهب نفسه لله حتى نلقاهم فنقاتل حتى يحكم الله بيني وبينهم فينتدب معه سبعون ألفاً ويزيدون على ذلك فيقول حسبي سبعون ألفاً لا تحملهم الأرض وفيهم عين لعدوّهم فيأتيهم فيخبرهم بالذي كان ، فيسيرون إليهم حتى إذا التقوا سألوا أن يخلي بينهم وبين من كان بينهم وبينه نسب فيدعونهم فيقولون ما ترون فيما يقولون فيقول : ما أنتم بأحق بقتالهم ولا أبعد منهم ، فيقول : فعندكم فأكسروا أغمادكم فيسل الله سيفه عليهم فيقتل منهم الثلثان ، ويقر في السفن الثلث ، وصاحبهم فيهم ، حتى إذا تراءت لهم جبالهم بعث الله عليهم ريحاً فردتهم إلى مراسيهم من الشام فأخِذوا فَذُبِحوا عند أرجل سفنهم عند الساحل ، فيومئذ تضع الحرب أوزارها " .

أما قوله تعالى : ﴿ ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ﴾ .

أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ﴾ قال : أي والله بجنوده الكثيرة كل خلقه له جند فلو سلط أضعف خلقه لكان له جنداً .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ذلك ﴿ ولو يشاء الله لانتصر منهم ﴾ قال : لأرسل عليهم ملكاً فدمر عليهم ، وفي قوله ﴿ والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم ﴾ قال : نزلت فيمن قتل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يوم أُحد .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم رضي الله عنه أنه قرأ " والذين قاتلوا " بالألف .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم ﴾ الآية . قال : ذكر لنا أن هذه الآية نزلت في يوم أُحد ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعب ، وقد فشت فيهم الجراحات والقتل ، وقد نادى المشركون يومئذ : أعل هُبَل ، ونادى المسلمون الله أعلى وأجل ، فنادى المشركون يوم بيوم بدر ، وإن الحرب سجال لنا عُزّى ولا عُزّى لكم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قولوا الله مولانا ولا مولى لكم إن القتلى مختلفة أما قتلانا فأحياء يرزقون ، وأما قتلاكم ففي النار يعذبون " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ ويدخلهم الجنة عرفها لهم ﴾ قال : يهدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم وحيث قسم الله لهم منها لا يخطئون كأنهم

ساكنوها منذ خلقوا لا يستدلون عليها أحداً .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ عرفها لهم ﴾ قال : عرفهم منازلهم فيها .

(197/707)

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل رضي الله عنه في قوله ﴿ ويدخلهم الجنة عرفها لهم ﴾ قال : بلغنا أن الملك الذي كان وُكِّلَ بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه في الجنة ويتبعه ابن آدم حتى يأتي أقصى منزل هو له فيعرفه كل شيء أعطاه الله في الجنة فإذا انتهى إلى أقصى منزله في الجنة دخل إلى منزله وأزواجه وانصرف الملك عنه .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7)

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ قال : على نصره .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ﴾ قال : حق على الله أن يعطي من سأله ، وأن ينصر من نصره ﴿ والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم ﴾ قال : أما الأولى ففي

الكفار الذين قتل الله يوم بدر ، وأما الأخرى ففي الكفار عامة .

وأخرج ابن شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن عمرو بن ميمون رضي الله عنه : ﴿ ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله ﴾ قال : كرهوا الفرائض .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم ﴾ قال : أهلكهم الله بألوان العذاب بأن يتفكر متفكر ويتذكر متذكر ويرجع راجع ، فضرب الأمثال وبعث الرسل ليعقلوا عن الله أمره .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وللكافرين أمثالها ﴾ قال : لكفار قومك يا محمد مثل ما دمرت به القرى فأهلكوا بالسيف .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ وللكافرين أمثالها ﴾ قال : مثل ما دمرت به القرون الأولى وعيد من الله تعالى لهم ، وفي قوله ﴿ ذلك بأن الله مولى الذي آمنوا ﴾ قال : وليهم الله .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا ﴾ قال : ليس لهم مولى غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ 463.456 ﴾

(199/707)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى نصر)

نَصَرَه على عَدُوِّه يَنصُرُه نَصْراً : أَعانَه ، والاسم النُّصْرَةُ .

ونُصْرَةُ الله لنا ظاهرةٌ ، ونصرتُنا لِله هو النُّصْرةِ لبعاده ، أَو القِيام بحفظ حُدُودِه ورِعايَة عهوده ، وامتثال أَوامره واجتناب نَواهِيه .

قال الله تعالى : ﴿ إِن تَنصُرُواْ اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ .

والنَّصِيرُ : الناصر ، والجمع أَنصارٌ كشَرِيف وأَشْراف ، وجمعُ النَّاصِر نَصْرٌ كصاحب وصَحْب ، واسْتَنصَرَه على عدوِّه : سأَله أَنْ يَنْصُرَه عليه .

وقوله تعالى : ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾ أَى انْصُر .

وإنَّما قال انْتَصِرْ ولم يقلْ انْصُر تنبيهاً أَنَّ ما يَلْحقُنى يَلْحقك من حيث إنى جئتهم بأَمرك ، فإذا نصرتَنى فقد انتصرت لنفسك .

والتَّناصر : التعاون ، قال الله تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ ﴾ .

والنَّصْرُ : العَطاءِ قال رؤبة :

*إنِّى وأَسْطار سُطِرْنَ سَطْراً * لَقائلٌ يا نَصْرُ نَصْراً نَصْراً*

والنَّصارَى جمع نَصْران ونَصْرانَة ، مثل النَّدامَى جمع نَدْمان ونَدْمانَة .

وقيل : سُمّوا بذلك لقوله تعالى : ﴿ كُونُواْ أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ﴾ .

ولم يستعمل نَصْران إلاَّ بياءِ النَّسَب لأَنَّهم قالوا : رجل نَصْرَانِىٌّ وامرأَةٌ نصرانيّة .

/ ونَصَّرَهُ : جعله نصرانيّاً .

وقيل : سُمُّو بذلك انْتِساباً إلى قرية بالشّام يقال لها نصرانة وجمعهُ : نَصارَى .

ونَصَرَ الغَيْثُ الأَرضَ ، أَى غاثَها .

ونُصِرَت الأَرضُ فهى مَنْصُورة أَى مَمْطُورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 69.70 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثامن بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 12 ﴾ من سورة (محمد صلى الله عليه وسلم)

وحتى الآية ﴿ 19 ﴾ من السورة

(4/708)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (13) أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (14) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تشوف السامع إلى تعرف تمام آثار الولاية ، قال شافياً لعيّ سؤالهم مؤكداً لأجل كثرة المكذبين : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له جميع الكمال ﴿ يدخل الذين آمنوا ﴾ أي أوقعوا التصديق ﴿ وعملوا ﴾ تصديقاً لما ادعوا أنهم أوقعوه ﴿ الصالحات ﴾ فتمتعوا بما رزقهم الله من الملاذ لا على وجه أنها ملاذ بل على وجه أنها مأذون فيها ، وهي بلاغ إلى الآخرة

وأكلوا لا للترفه بل لتقوية البدن على ما أمروا به تقوتاً لا تمتعاً ﴿ جنات ﴾ أي بساتين عظيمة الشأن موصوفة بأنها ﴿ تجري ﴾ وبين قرب الماء من وجهها بقوله : ﴿ من تحتها الأنهار ﴾ أي فهي دائمة النمو والبهجة والنضارة والثمرة لأن أصول أشجارها ربى وهي بحيث متى أثرت بقعة مناه أدنى إثارة جرى منها نهر ، فأنساهم دخولهم غصص ما كانوا فيه في الدنيا من نكد العيش ومعاناة الشدائد ، وضموا نعيمها إلى ما كانوا فيه في الدنيا من نعيم الوصلة بالله ثم لا يحصل لهم كدر ما أصلاً ، وهي مأواهم لا يبغون عنها حولاً ، وهذا في نظير ما زوي عنهم من الدنيا وضيق فيها عيشهم نفاسة منهم عنها حتى فرغهم لخدمته وألزمهم حضرته حباً لهم وتشريفاً لمقاديرهم ﴿ والذين كفروا ﴾ أي غطوا ما دل عليه العقل فعملوا لأجل كفرهم الأعمال الفاسدة المبعدة عن جناب الله ﴿ يتمتعون ﴾ أي في الدنيا بالملاذ لكونها ملاذ كما تتمتع الأنعام ، ناسين ما أمر الله معرضين عن لقائه بل عن الموت أصلاً بل يكون ذكر الموت حاثاً لهم على الانهماك في اللذات مسابقة له جهلاً منهم بالله ﴿ ويأكلون ﴾ على سبيل الاستمرار ﴿ كما تأكل الأنعام ﴾ أكل التذاذ ومرح من أيّ موضع كان وكيف كان الأكل في سبعة أمعاء ، أي في جميع بطونهم من غير تمييز للحرام من غيره لأن الله تعالى أعطاهم الدنيا ووسع عليهم فيها وفرغهم لها حتى شغلهم عنه هواناً بهم وبغضاً لهم لأنه علم حالهم قبل أن يوجدهم فيدخلهم ناراً وقودها الناس والحجارة ﴿ والنار ﴾ أي والحال أن ذات الحرارة العظمى والإحراق الخارج عن الحد

﴿ مثوى ﴾ أي منزل ومقام ﴿ لهم ﴾ تنسيهم أول انغماسهم فيها كل نعيم كانوا فيه ثم لا يصير لهم نعيم ما أصلاً ، بل لا ينفك عنهم العذاب وقتاً ما ، فالآية من الاحتباك ، ذكر الأعمال الصالحة ودخول الجنات أولاً دليلاً على حذف الفاسدة ودخول النار ثانياً ، والتمتع والمثوى ثانياً دليلاً على حذف التعلل والمأوى أولاً ، فهو احتباك في احتباك واشتباك مقارن لاشتباك .

ولما وعد سبحانه أنه ينصر من ينصره لأنه مولاه ويدخله دار نعمته ، ويخذل من يعانده لأنه عاداه إلى أن يدخله دار شقوته ، كان التقدير دليلاً على ذلك : فكأين من قوم هم أضعف من الذين اتبعوك نصرناهم على من كذبهم ، فلا خاذل لهم ، فعطف عليه قوله :

﴿ وكأين ﴾ ولما كانت قوة قريش في الحقيقة ببلدهم ، وكان الإسناد إليها أدل على تمالؤ أهلها وشدة اتفاقهم حتى كأنهم كالشيء الواحد قال : ﴿ من قرية ﴾ أي كذبت رسولها ﴿ هي أشد قوة ﴾ وأكثر عدة ﴿ من قريتك ﴾ ولما كان إنزال هذه بعد الهجرة ، عين فقال : ﴿ التي أخرجتك ﴾ أي أخرجك أهلها متفقين في أسباب الإخراج من أنواع الأذى على كلمة واحدة حتى كأن قلوبهم قلب واحد فكأنها هي المخرجة - وهي مكة -

كذبوك وآذوك حتى أخرجناك من عندهم لننصرك عليهم بمن أيدناك بهم من قريتك هذه التي آوتك من الأنصار نصراً جارياً على ما تألفونه وتعتادونه ﴿ أهلكناهم ﴾ بعذاب الاستئصال كما اقتضت عظمتنا ، وحكى حالهم الماضية بقوله : ﴿ فلا ناصر لهم ﴾ .

ولما كان هذا دليلاً شهودياً بعد الأدلة العقلية على ما تقدم الوعد به ، سبب عنه الإنكار عليهم فقال : ﴿ أفمن كان ﴾ أي في جميع أحواله ﴿ على بينة ﴾ أي حالة ظاهرة البيان في أنها حق ﴿ من ربه ﴾ المربي المدبر له المحسن إليه بما يقيم من الأدلة التي تعجز الخلائق أجمع عن أن يأتوا بواحد منها فبصر سوء عمله وأريه على حقيقته فرآه سيئاً فاجتنبه مخالفاً لهواه ، قال القشيري : العلماء في ضياء برهانهم والعارفون في ضياء بيانهم .

(6/708)

﴿ كمن زين له ﴾ بتزيين الشيطان بتسليطنا له عليه وخلقنا للآثار بأيسر أمر ﴿ سوء عمله ﴾ من شرك أو معصية دونه .

ولما كان التقدير : فرآه حسناً فعمله ملازماً له ، فكان على عمى وضلال ، وكان قد أفرد الضمير لقبول " من " له من جهة لفظها ، جمع رداً على معناها بتعميم القبح مثنى وفرادى ، وإشارة إلى أن القبيح يكون أولاً قليلاً جداً ، فمتى غفل عنه فلم تحسم مادته دب وانتشر

فقال عاطفاً على ما قدرته : ﴿ واتبعوا أهواءهم ﴾ فلا شبهة لهم في شيء من أعمالهم السيئة فضلاً عن دليل ، والآية من الاحتباك ذكر البينة أولاً دليلاً على ضدها ثانياً ، والتزيين واتباع الهوى ثانياً دليلاً على ضدهما أولاً ، وسره أنه ذكر الأصل الجامع للخير ترغيباً والأصل الجامع للشر ترهيباً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 156 . 158 ﴾

(7/708)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾

لما بيّن الله تعالى حال المؤمنين والكافرين في الدنيا بيّن حالهم في الآخرة وقال إنه يدخل المؤمن الجنة والكافر النار وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

كثيراً ما يقتصر الله على ذكر الأنهار في وصف الجنة لأن الأنهار يتبعها الأشجار والأشجار تتبعها الثمار ولأنه سبب حياة العالم ، والنار سبب الإعدام ، وللمؤمن الماء ينظر إليه

وينتفع به ، وللكافر النار يتقلب فيها ويتضرر بها .

المسألة الثانية :

ذكرنا مراراً أن من في قوله ﴿ مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ يحتمل أن يكون صلة معناه تجري تحتها الأنهار ، ويحتمل أن يكون المراد أن ماءها منها لا يجري إليها من موضع آخر ، فيقال هذا النهر منبعه من أين ؟ يقال من عين كذا من تحت جبل كذا .

(8/708)

لمسألة الثالثة : قال : ﴿ والذين كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ ﴾ خصهم بالذكر مع أن المؤمن أيضاً له التمتع بالدنيا وطيباتها ، نقول من يكون له ملك عظيم ويملك شيئاً يسيراً أيضاً لا يذكر إلا بالملك العظيم ، يقال في حق الملك العظيم صاحب الضيعة الفلانية ومن لا يملك إلا شيئاً يسيراً فلا يذكر إلا به ، فالمؤمن له ملك الجنة فمتاع الدنيا لا يلتفت إليه في حقه والكافر ليس له إلا الدنيا ، ووجه آخر : الدنيا للمؤمن سجن كيف كان ، ومن يأكل في السجن لا يقال إنه يتمتع ، فإن قيل كيف تكون الدنيا سجناً مع ما فيها من الطيبات ؟ نقول للمؤمن في الآخرة طيبات معدة وإخوان مكرمون نسبتها ونسبتهم إلى الدنيا ومن فيها تتبين بمثال ، وهو أن من يكون له بستان فيه من كل الثمرات الطيبة في غاية اللذة وأنهار جارية في غاية الصفاء ودور

وغرف في غاية الرفعة وأولاده فيها ، وهو قد غاب عنهم سنين ثم توجه إليهم وهم فيها ، فلما قرب منهم عوق في أجمة فيها من بعض الثمار العفصة والمياه الكدرة ، وفيها سباع وحشرات كثيرة ، فهل يكون حاله فيها كحال مسجون في بئر مظلمة وفي بيت خراب أم لا ؟ وهل يجوز أن يقال له اترك ما هو لك وتعلل بهذه الثمار وهذه الأنهار أم لا ؟ .

كذلك حال المؤمن ، وأما الكافر فحاله كحال من يقدم إلى القتل فيصبر عليه أياماً في مثل تلك الأجمة التي ذكرناها يكون في جنة ، ونسبة الدنيا إلى الجنة والنار دون ما ذكرنا من المثال ، لكنه ينبىء ذا البال ، عن حقيقة الحال .

وقوله تعالى : ﴿ كَمَا تَأْكُلُ الأنعام ﴾ يحتمل وجوهاً أحدها : أن الأنعام يهمها الأكل لا غير والكافر كذلك والمؤمن يأكل ليعمل صالحاً ويقوى عليه وثانيها : الأنعام لا تستدل بالمأكول على خالقها والكافر كذلك وثالثها : الأنعام تعلف لتسمن وهي غافلة عن الأمر ، لا تعلم أنها كلما كانت أسمن كانت أقرب إلى الذبح والهلاك ، وكذلك الكافر ويناسب ذلك قوله تعالى : ﴿ والنار مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ .

(9/708)

المسألة الرابعة :

قال في حق المؤمن ﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ ﴾ بصيغة الوعد ، وقال في حق الكافر ﴿ والنار مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ بصيغة تنبىء عن الاستحقاق لما ذكرنا أن الإحسان لا يستدعي أن يكون عن استحقاق ، فالمحسن إلى من لم يوجد منه ما يوجب الإحسان كريم ، والمعذب من غير استحقاق ظالم .

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (13)

لما ضرب الله تعالى لهم مثلاً بقوله ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض ﴾ [محمد : 10] ولم ينفعهم مع ما تقدم من الدلائل ضرب للنبي عليه السلام مثلاً تسلية له فقال : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ التى أَخْرَجَتْكَ أهلكناهم ﴾ وكانوا أشد من أهل مكة كذلك نفعل بهم ، فاصبر كما صبر رسلهم ، وقوله ﴿ فَلاَ ناصر لَهُمْ ﴾ قال الزمخشري كيف قوله ﴿ فَلاَ ناصر لَهُمْ ﴾ مع أن الإهلاك ماض ، وقوله ﴿ فَلاَ ناصر لَهُمْ ﴾ للحال والاستقبال ؟ والجواب أنه محمول على الحكاية والحكاية كالحال الحاضر ، ويحتمل أن يقال أهلكناهم في الدنيا فلا ناصر لهم ينصرهم ويخلصهم من العذاب الذي هم فيه ، ويحتمل أن يقال قوله ﴿ فَلاَ ناصر لَهُمْ ﴾ عائد إلى أهل قرية محمد عليه السلام كأنه قال أهلكنا من تقدم أهل قريتك ولا ناصر لأهل قريتك ينصرهم ويخلصهم مما جرى على الأولين .

أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (14)

اعلم أن هذا إشارة إلى الفرق بين النبي عليه السلام والكفار ليعلم أن إهلاك الكفار ونصرة النبي عليه السلام في الدنيا محقق ، وأن الحال يناسب تعذيب الكافر وإثابة المؤمن ، وقوله ﴿ على بَيِّنَةٍ ﴾ فرق فارق ، وقوله ﴿ مِّن رَّبِّهِ ﴾ مكمل له ، وذلك أن البينة إذا كانت نظرية تكون كافية للفرق بين المتمسك بها وبين القائل قولاً لا دليل عليه ، فإذا كانت البينة منزلة من الله تعالى تكون أقوى وأظهر فتكون أعلى وأبهر ، ويحتمل أن يقال قوله ﴿ مِّن رَّبِّهِ ﴾ ليس المراد إنزالها منه بل المراد كونها من الرب بمعنى قوله ﴿ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [المدثر : 31] وقولنا الهداية من الله ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ فرق فارق ، وقوله ﴿ واتبعوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ تكملة وذلك أن من زين له سوء عمله وراجت الشبهة عليه في مقابلة من يتبين له البرهان وقبله ، لكن من راجت الشبهة عليه قد يتفكر في الأمر ويرجع إلى الحق ، فيكون أقرب إلى من هو على البرهان ، وقد يتبع هواه ولا يتدبر في البرهان ولا يتفكر في البيان فيكون في غاية البعد ، فإذن حصل النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمن مع الكافر في طرفي التضاد وغاية التباعد حتى مدهم بالبينة ، والكافر له الشبهة وهو مع الله وأولئك مع الهوى وعلى قولنا ﴿ مِّن رَّبِّهِ ﴾ معناه الإضافة إلى الله ، كقولنا

الهداية من الله ، فقوله ﴿ اتبعوا أَهْوَاءهُمْ ﴾ مع ذلك القول يفيد معنى قوله تعالى : ﴿ مَّا أصابك مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ الله وَمَا أصابك مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء : 79] وقوله ﴿ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ بصيغة التوحيد محمول على لفظة من ، وقوله ﴿ واتبعوا أَهْوَاءهُمْ ﴾ محمول على معناه فإنها للجميع والعموم ، وذلك لأن التزيين للكل على حد واحد فحمل على اللفظ لقربه منه في الحس والذكر ، وعند اتباع الهوى كل أحد يتبع هوى نفسه ، فظهر التعدد فحمل على المعنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 46.45 ﴾

(11/708)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله يُدْخِلُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾

تقدّم في غير موضع .

﴿ والذين كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ ﴾ في الدنيا كأنهم أنعام ، ليس لهم همّة إلا بطونهم وفروجهم ، ساهون عما في غدِهم .

وقيل : المؤمن في الدنيا يتزوّد ، والمنافق يتزين ، والكافر يتمتع .

﴿ والنار مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ أي مقام ومنزل .

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ﴾ تقدّم الكلام في "كَأَيِّنْ" في (آل عمران) .

وهي هاهنا بمعنى كم ؛ أي وكم من قرية .

وأنشد الأخفش قول لبيد :

وكائن رأينا من ملوك وسُوقة . . .

ومفتاحِ قَيْد للأسير المكبل

فيكون معناه : وكم من أهل قرية .

﴿ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ ﴾ أي أخرجك أهلها .

﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلاَ نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ قال قتادة وابن عباس :

" لما خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال : "اللَّهُمّ أنتِ أحبّ البلاد إلى الله وأنت أحبّ البلاد إليّ ولولا المشركون أَهْلُكِ أخرجوني لما خرجت منك" " (فنزلت الآية) ؛ ذكره الثعلبي ، وهو حديث صحيح .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ الألف ألف تقرير .

ومعنى "على بينةٍ" أي على ثبات ويقين ؛ قاله ابن عباس .

أبو العالية : وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

والبينة : الوَحْيُ .

﴿ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سواء عَمَلِهِ ﴾ أي عبادة الأصنام ، وهو أبو جهل والكفار .

﴿ واتبعوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أي ما اشتهوا .

وهذا التزيين من جهة الله خلقاً .

ويجوز أن يكون من الشيطان دعاءً ووسوسة .

ويجوز أن يكون من الكافر ؛ أي زيّن لنفسه سوء عمله وأصرّ على الكفر .

وقال : "سُوءُ" على لفظ "مَن" "وَاتَّبَعُوا" على معناه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(12/708)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ بيان لحكم ولايته تعالى لهم وثمرتها الأخروية ﴿ والذين كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ ﴾ أي ينتفعون بمتاع الدنيا أياماً قلائل ﴿ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأنعام ﴾ الكاف في موضع نصب إما على الحال من ضمير المصدر كما يقول سيبويه أي يأكلونه أي الأكل مشبهاً أكل الأنعام ، وإما على أنه نعت

لمصدر محذوف كما يقول أكثر المعربين أي أكلاً مثل أكل الأنعام ، والمعنى أن أكلهم مجرد من الفكر والنظر كما تقول للجاهل تعيش كما تعيش البهيمة لا تريد التشبيه في مطلق العيش ولكن في خواصه ولوازمه ، وحاصله أنهم يأكلون غافلين عن عواقبهم ومنتهى أمورهم ، وقوله تعالى : ﴿ والنار مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ أي موضع إقامة لهم ، حال مقدر من واو ﴿ يَأْكُلُونَ ﴾ .

(13/708)

وجوز أن يكون استئنافاً وكان قوله تعالى : ﴿ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ ﴾ في مقابلة قوله سبحانه : ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ لما فيه من الايماء إلى أنهم عرفوا أن نعيم الدنيا خيال باطل وظل زائل ، فتركوا الشهوات وتفرغوا للصالحات ، فكان عاقبتهم النعيم المقيم في مقام كريم وهؤلاء غفلوا عن ذلك فرتعوا في دمنهم كالبهائم حتى ساقهم الخذلان إلى مقرهم من درك النيران ، وهذا ما ذكره العلامة الطيبي في بيان التقابل بين الآيتين ، وقال بعض الأجلة : في الكلام احتباك وذلك أنه ذكر الأعمال الصالحة ودخول الجنة أولاً دليلاً على حذف الأعمال الفاسدة ودخول النار ثانياً وذكر التمتع والمثوى ثانياً دليلاً على حذف التقلل والمأوى أولاً والأول أحسن وأدق ، وأسند إدخال الجنة إلى الله تعالى ولم يسلك نحو هذا

المسلك في قوله تعالى : ﴿ والنار مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ وخولف بين الجملتين فعلية واسمية للإيذان بسبق الرحمة والإعلام بمصير المؤمنين والوعد بأن عاقبتهم أن الله سبحانه يدخلهم جنات وأن الكافرين مثواهم النار وهم الآن حاضرون فيها ولا يدرون وكالبهائم يأكلون .

(14/708)

﴿ وَكَأَيِّن ﴾ بمعنى كم الخبرية وهي مبتدأ ، وقوله تعالى : ﴿ مِن قَرْيَةٍ ﴾ تمييز لها ، وقوله سبحانه : ﴿ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ﴾ صفة لقرية كما أن قوله عز وجل : ﴿ التى أَخْرَجَتْكَ ﴾ صفة لقريتك ، وقد حذف عنهما المضاف وأجرى أحكامه عليهما كما يفصح عنه الخبر الذي هو قوله تعالى : ﴿ أهلكناهم ﴾ أي وكم من أهل قرية هم أشد قوة من أهل قريتك الذين أخرجوك أهلكناهم بأنواع العذاب ، وجوز أن لا يكون هناك حذف وإنما أطلق المحل وأريد الحال مجازاً ، وإسناد الإخراج إلى أهل قريته صلى الله عليه وسلم وهي مكة المكرمة مجاز من باب الإسناد إلى السبب لأنهم عاملوه صلى الله عليه وسلم بما عاملوه فكانوا بذلك سبباً لإخراجه حين أذن الله تعالى له عليه الصلاة والسلام بالهجرة منها ، ونظير ذلك أقدمني بلدك حق لي عليك .

وأنت تعلم أنه على ما حققه الأجلة يحتمل أوجهاً ثلاثة .

مجازاً في الإسناد إذا كان الإقدام مستعملاً في معناه الذي وضع له وإن كان موهوماً .

ومجازاً في الطرف إذا كان مستعملاً في معنى الحمل على القدوم .

واستعارة باكلناية إن كان الحق مستعملاً في المقدم ، والشيخ يقول في مثل ذلك : إن الفعل المتعدي موهوم لا فاعل له ليصير الإسناد إليه حقيقة فلا إقدام مثلاً في قصد المتكلم وإنما هو تصوير القدوم بصورة الإقدام ، وإسناده إلى الحق المصور بصورة المقدم مبالغة في كونه داعياً للقدوم ، وارتضاه السالكوتي في "حواشي شرح مختصر التلخيص" وذب عنه القال والقيل ، وتمام الكلام هناك ، والكلام في الآية على طرز ذاك ، ووصف القرية الأولى بشدة القوة للإيذان بأولوية الثانية منها بالإهلاك لضعف قوتها كما أن وصف الثانية بإخراجه عليه الصلاة والسلام للإيذان بأولويتها به لقوة جنايتها ، وعلى طريقته قول النابغة :

كليب لعمري كان أكثر ناصرا . . .

وأيسر جرماً منك ضرح بالدم

(15/708)

وقوله تعالى : ﴿ فَلاَ ناصر لَهُمْ ﴾ بيان لعدم خلاصهم بواسطة الأعوان والأنصار إثر بيان عدم خلاصهم منه بأنفسهم ، والفاء لترتيب ذكر ما بالغير على ذكر ما بالذات وخو حكاية

حال ماضية كما في قوله تعالى : ﴿ فأغشيناهم فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾ [يس : 9] ولا نسلم أن اسم الفاعل إذا لم يعمل حقيقة في الماضي ، والآية تسلية له صلى الله عليه وسلم ، فقد أخرج عبد بن حميد .

وأبو يعلى .

وابن جرير .

وابن أبي حاتم .

وابن مردويه عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال : " أنت أحب بلاد الله تعالى إلى الله وأنت أحب بلاد الله تعالى إلي ولولا أن أهلك أخرجوني منك لم أخرج منك " فأعدى الأعداء من عدا على الله تعالى في حرمه أو قتل غير قاتله أو قتل بدخول أهل الجاهلية فأنزل الله سبحانه ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ﴾ الخ ، وقد تقدم ما يتعلق بذلك أول السورة فتذكر .

﴿ أَفَمَن كَانَ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾

تقرير لتباين حال الفريقين المؤمنين والكافرين وكون الأولين في أعلى عليين والآخرين في أسفل سافلين وبيان لعلة ما لكل منهما من الحال ، والهمزة لإنكار استوائهما أو لإنكار كون الأمر ليس كما ذكر ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام وقد قرىء بدونها ، و﴿ مِنْ ﴾ عبارة عن المؤمنين المتمسكين بأدلة الدين كما أنها في قوله تعالى : ﴿ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوء عَمَلِهِ

﴿ عبارة عن أضدادهم من المشركين .

وأخرج جماعة عن ابن عباس أن ﴿ مَن كَانَ على بَيّنَةٍ مّن رَّبِهِ ﴾ هو رسول الله صلى الله عليه وسلم و ﴿ مّن زِينَةِ لَهُ سُوء عَمَلِهِ ﴾ هم المشركون ، وروى عن قتادة نحوه وإليه ذهب الزمخشري .

(16/708)

وتعقب بأن التخصيص لا يساعده النظم الكريم ولا داعي إليه ، وقيل : ومثله كون ﴿ مِنْ ﴾ الأولى عبارة عنه صلى الله عليه وسلم وعن المؤمنين ، والمعنى أيستوي الفريقان أو أليس الأمر كما ذكر فمن كان ثابتاً على حجة ظاهرة وبرهان نير من مالك أمره ومربيه وهو القرآن العظيم وسائر المعجزات والحجج العقلية كمن زين له الشيطان عمله السيء من الشرك وسائر المعاصي كإخراجك من قريتك مع كون ذلك في نفسه أقبح القبائح ﴿ واتبعوا ﴾ في ذلك العمل السيء ، وقيل : بسبب ذلك التزيين ﴿ أَهْوَاءهُمْ ﴾ الزائغة من غير أن يكون لهم شبهة توهم صحة ما هم عليه فضلاً عن حجة تدل عليها .

وجمع الضميرين الأخيرين باعتبار معنى ﴿ مِنْ ﴾ كما أن افراد الأولين باعتبار لفظها .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

قوله : ﴿ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله ﴾

هم كفار قريش كفروا بالله ، وصدّوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله ، وهو دين الإسلام بنهيهم عن الدخول فيه ، كذا قال مجاهد ، والسديّ .

وقال الضحاك : معنى ﴿ عن سبيل الله ﴾ : عن بيت الله بمنع قاصديه .

وقيل : هم أهل الكتاب ، والموصول مبتدأ ، وخبره ﴿ أَضَلَّ أعمالهم ﴾ أي : أبطلها وجعلها ضائعة .

قال الضحاك : معنى ﴿ أَضَلَّ أعمالهم ﴾ : أبطل كيدهم ومكرهم بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وجعل الدائرة عليهم في كفرهم .

وقيل : أبطل ما عملوه في الكفر مما كانوا يسمونه مكارم أخلاق : من صلة الأرحام ، وفكّ الأسارى وقري الأضياف ، وهذه وإن كانت باطلة من أصلها ، لكن المعنى : أنه سبحانه حكم ببطلانها .

ولما ذكر فريق الكافرين أتبعهم بذكر فريق المؤمنين ، فقال : ﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ

الصالحات وَءامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ على مُحَمَّدٍ ﴾ ظاهر هذا العموم، فيدخل تحته كل مؤمن من المؤمنين الذين يعملون الصالحات، ولا يمنع من ذلك خصوص سببها؛ فقد قيل: إنها نزلت في الأنصار، وقيل: في ناس من قريش، وقيل: في مؤمني أهل الكتاب، ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وخص سبحانه الإيمان بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم بالذكر مع اندراجه تحت مطلق الإيمان المذكور قبله تنبيهاً على شرفه وعلوّ مكانه، وجملة: ﴿ وَهُوَ الحق مِن رَّبِّهِمْ ﴾ معترضة بين المبتدأ، وهو قوله: ﴿ والذين ءامَنُواْ ﴾، وبين خبره، وهو قوله: ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سيئاتهم ﴾ ومعنى كونه الحق: أنه الناسخ لما قبله، وقوله: ﴿ مّن رَّبِّهِم ﴾ في محل نصب على الحال، ومعنى ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سيئاتهم ﴾ أي: السيئات التي عملوها فيما مضى فإنه غفرها لهم بالإيمان، والعمل الصالح ﴿ سيئاتهم وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ أي: شأنهم وحالهم.

قال مجاهد: شأنهم، وقال قتادة: حالهم.

(18/708)

وقيل: أمرهم، والمعاني متقاربة.

قال المبرد: البال: الحال ها هنا.

قيل والمعنى : أنه عصمهم عن المعاصي في حياتهم ، وأرشدهم إلى أعمال الخير ، وليس المراد إصلاح حال دنياهم من إعطائهم المال ، ونحو ذلك ، وقال النقاش : إن المعنى : أصلح نياتهم ، ومنه قول الشاعر :

فإن تقبلي بالودّ أقبل بمثله . . . وإن تدبري أذهب إلى حال باليا

والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما مرّ مما أوعد به الكفار ، ووعد به المؤمنين ، وهو مبتدأ خبره ما بعده ، وقيل : إنه خبر مبتدأ محذوف أي : الأمر ذلك بسبب إِنَّ الذين كَفَرُواْ اتبعوا الباطل وَأَنَّ الذين ءامَنُواْ اتبعوا الحق مِن رَّبِّهِمْ ، فالباطل : الشرك ، والحق : التوحيد والإيمان ، والمعنى : أن ذلك الإضلال لأعمال الكافرين بسبب اتباعهم الباطل من الشرك بالله والعمل بمعاصيه ، وذلك التكفير لسيئات المؤمنين وإصلاح بالهم ، بسبب اتباعهم للحقّ الذي أمر الله باتباعه من التوحيد والإيمان ، وعمل الطاعات ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ الله لِلنَّاسِ أمثالهم ﴾ أي : مثل ذلك الضرب يبين للناس أمثالهم ، أي : أحوال الفريقين الجارية مجرى الأمثال في الغرابة .

قال الزجاج : ﴿ كذلك يضرب ﴾ : يبين الله للناس أمثال حسنات المؤمنين ، وإضلال أعمال الكافرين ، يعني : أن من كان كافراً أضلّ الله عمله ، ومن كان مؤمناً كفر الله سيئاته .

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الذين كَفَرُواْ فَضَرْبَ الرقاب ﴾ لما بيّن سبحانه حال الفريقين أمر بجهاد الكفار ، والمراد بالذين كفروا : المشركين ومن لم يكن صاحب عهد من أهل الكتاب ،

وانتصاب ﴿ ضرب ﴾ على أنه مصدر لفعل محذوف .

قال الزجاج : أي : فاضربوا الرقاب ضرباً ، وخصّ الرقاب بالذكر ؛ لأن القتل أكثر ما يكون بقطعها ، وقيل : هو منصوب على الإغراء .

قال أبو عبيدة : هو كقولهم : يا نفس صبراً ، وقيل التقدير : اقصدوا ضرب الرقاب .

(19/708)

وقيل : إنما خصّ ضرب الرقاب ؛ لأن في التعبير عنه من الغلظة والشدّة ما ليس في نفس القتل ، وهي حزّ العنق ، وإطارة العضو الذي هو رأس البدن ، علوّه وأحسن أعضائه ﴿ حتى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ ﴾ أي : بالغتم في قتلهم ، وأكثرتم القتل فيهم ، وهذه غاية للأمر بضرب الرقاب ، لا لبيان غاية القتل ، وهو مأخوذ من الشيء الثخين ، أي : الغليظ ، وقد مضى تحقيق معناه في سورة الأنفال ﴿ فَشُدُّواْ الوثاق ﴾ الوثاق بالفتح ويجيء بالكسر : اسم الشيء الذي يوثق به كالرباط .

قال الجوهري : وأوثقه في الوثاق أي : شدّه ، قال : والوثاق بكسر الواو لغة فيه .

قرأ الجمهور ﴿ فشدّوا ﴾ بضم الشين ، وقرأ السلمي بكسرها .

وإنما أمر سبحانه بشدّ الوثاق ؛ لئلا ينفلتوا ، والمعنى : إذا بالغتم في قتلهم فأسروهم ،

وأحيطوهم بالوثاق ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء ﴾ أي : فإما أن تمنوا عليهم بعد الأسر منا ، أو تفدوا فداء ، والمنّ : الإطلاق بغير عوض ، والفداء : ما يفدي به الأسير نفسه من الأسر ، ولم يذكر القتل هنا اكتفاءً بما تقدّم .

قرأ الجمهور ﴿ فداءً ﴾ بالمد .

وقرأ ابن كثير (فدى) بالقصر ، وإنما قدّم المنّ على الفداء ، لأنه من مكارم الأخلاق ، ولهذا كانت العرب تفتخر به ، كما قال شاعرهم :

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم . . . إذا أثقل الأعناق حمل المغارم

ثم ذكر سبحانه الغاية لذلك ، فقال : ﴿ حتى تَضَعَ الحرب أَوْزَارَهَا ﴾ أوزار الحرب التي لا تقوم إلاّ بها من السلاح والكراع ، أسند الوضع إليها ، وهو لأهلها على طريق المجاز ، والمعنى : أن المسلمين مخيرون بين تلك الأمور إلى غاية هي أن لا يكون حرب مع الكفار .

قال مجاهد : المعنى حتى لا يكون دين غير دين الإسلام ، وبه قال الحسن ، والكلبي .

قال الكسائي : حتى يسلم الخلق .

قال الفراء : حتى يؤمنوا ويذهب الكفر .

وقيل المعنى : حتى يضع الأعداء المحاربون أوزارهم ، وهو سلاحهم بالهزيمة ، أو الموادعة .

وروي عن الحسن ، وعطاء أنهما قالا : في الآية تقديم وتأخير ، والمعنى : فضرب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها ، فإذا أثخنتموهم ، فشدّوا الوثاق .

وقد اختلف العلماء في هذه الآية هل هي محكمة ، أو منسوخة ؟ فقيل : إنها منسوخة في أهل الأوثان ، وإنه لا يجوز أن يفادوا ، ولا يمنّ عليهم ، والناسخ لها قوله : ﴿ فاقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة : 5] ، وقوله : ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى الحرب فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ ﴾ [الأنفال : 57] ، وقوله : ﴿ وَقَاتِلُواْ المشركين كَافَّةً ﴾ [التوبة : 36] وبهذا قال قتادة ، والضحاك ، والسديّ ، وابن جريج ، وكثير من الكوفيين ، قالوا : والمائدة آخر ما نزل ، فوجب أن يقتل كل مشرك إلاّ من قامت الدلالة على تركه من النساء والصبيان ، ومن تؤخذ منه الجزية ، وهذا هو المشهور من مذهب أبي حنيفة ، وقيل : إن هذه الآية ناسخة لقوله : ﴿ فاقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة : 5] روي ذلك عن عطاء وغيره .

وقال كثير من العلماء : إن الآية محكمة ، والإمام مخيّر بين القتل والأسر ، وبعد الأسر مخير بين المنّ والفداء .

وبه قال مالك ، والشافعي ، والثوري ، والأوزاعي ، وأبو عبيد وغيرهم .

وهذا هو الراجح ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء الراشدين من بعده فعلوا

ذلك .

وقال سعيد بن جبير : لا يكون فداء ولا أسر إلاّ بعد الإثخان والقتل بالسيف لقوله : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسرى حتى يُثْخِنَ فِي الأرض ﴾ [الأنفال : 67] فإذا أسر بعد ذلك ، فللإمام أن يحكم بما رآه من قتل أو غيره .

(21/708)

﴿ ذلك وَلَوْ يَشَاء اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ محل ذلك الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي : الأمر ذلك ، وقيل : في محل نصب على المفعولية بتقدير فعل ، أي : افعلوا ذلك ، ويجوز أن يكون مبتدأ ، وخبره محذوف يدلّ عليه ما تقدّم ، أي : ذلك حكم الكفار ، ومعنى ﴿ لَّوْ يَشَاء الله لانْتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ ، أي : قادر على الانتصار منهم بالانتقام منهم وإهلاكهم ، وتعذيبهم بما شاء من أنواع العذاب ﴿ ولكن ﴾ أمركم بجربهم ﴿ لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ أي : ليختبر بعضكم ببعض ، فيعلم المجاهدين في سبيله ، والصابرين على ابتلائه ويجزل ثوابهم ، ويعذب الكفار بأيديهم .

﴿ والذين قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ الله ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ قاتلوا ﴾ مبنياً للفاعل ، وقرأ أبو عمرو ، وحفص : ﴿ قتلوا ﴾ مبنياً للمفعول ، وقرأ الحسن بالتشديد مبنياً للمفعول

أيضاً .

وقرأ الجحدري ، وعيسى بن عمر ، وأبو حيوة : ﴿ قتلوا ﴾ على البناء للفاعل مع التخفيف من غير ألف ، والمعنى على القراءة الأولى ، والرابعة : أن المجاهدين في سبيل الله ثوابهم غير ضائع ، وعلى القراءة الثانية والثالثة : أن المقتولين في سبيل الله كذلك لا يضيع الله سبحانه أجرهم .

قال قتادة : ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أحد .

ثم ذكر سبحانه ما لهم عنده من جزيل الثواب فقال : ﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ أي : سيهديهم الله سبحانه إلى الرشد في الدنيا ، ويعطيهم الثواب في الآخرة ﴿ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ أي : حالهم وشأنهم وأمرهم .

قال أبو العالية : قد ترد الهداية ، والمراد بها : إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان ، والطريق المفضية إليها ، وقال ابن زياد : يهديهم إلى محاجة منكر ونكير ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الجنة عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ أي : بيّنها لهم حتى عرفوها من غير استدلال ، وذلك أنهم إذا دخلوا الجنة تفرّقوا إلى منازلهم .

قال الواحدي : هذا قول عامة المفسرين .

وقال الحسن : وصف الله لهم الجنة في الدنيا ، فلما دخلوها عرفوها بصفتها .

وقيل : فيه حذف ، أي : عرفوا طرقها ومساكنها وبيوتها .

وقيل : هذا التعريف بدليل يدلهم عليها ، وهو الملك الموكل بالعبد يسير بين يديه حتى يدخله منزله ، كذا قال مقاتل .

وقيل : معنى ﴿ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ : طيبها بأنواع الملاذّ ، مأخوذ من العرف ، وهو الرائحة .

ثم وعدهم سبحانه على نصر دينه بقوله : ﴿ يَاأَيُّهَا الذين ءامَنُواْ إِن تَنصُرُواْ اللهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ أي : إن تنصروا دين الله ينصركم على الكفار ، ويفتح لكم ، ومثله قوله : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ [الحج : 40] .

قال قطرب : إن تنصروا نبيّ الله ينصركم ﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ أي : عند القتال ، وتثبيت الأقدام عبارة عن النصر ، والمعونة في مواطن الحرب ، وقيل : على الإسلام ، وقيل : على الصراط ﴿ والذين كَفَرُواْ فَتَعْساً لَّهُمْ ﴾ الموصول في محل رفع على أنه مبتدأ ، وخبره محذوف ، تقديره : فتعسوا بدليل ما بعده ، ودخلت الفاء تشبيهاً للمبتدأ بالشرط ، وانتصاب ﴿ تعساً ﴾ على المصدر للفعل المقدّر خبراً .

قال الفراء : مثل سقياً لهم ورعياً ، وأصل التعس : الانحطاط والعثار .

قال ابن السكيت : التعس : أن يجرّ على وجهه ، والنكس : أن يجر على رأسه ، قال :

والتعس أيضاً : الهلاك .

قال الجوهري : وأصله الكبّ ، وهو ضد الانتعاش ، ومنه قول مجمع بن هلال :

تقول وقد أفردتها من حليلها . . . تعست كما أتعستني يا مجمع

قال المبرّد : أي : فمكروهاً لهم ، قال ابن جريج : بعداً لهم ، وقال السديّ : خزياً لهم .

وقال ابن زيد : شقاءً لهم ، وقال الحسن : شتماً لهم .

وقال ثعلب : هلاكاً لهم ، وقال الضحاك : خيبةً لهم ، وقيل : قبحاً لهم ، حكاه النقاش .

وقال الضحاك : رغماً لهم .

وقال ثعلب أيضاً : شرّاً لهم .

وقال أبو العالية : شقوةً لهم .

(23/708)

واللام في ﴿ لهم ﴾ للبيان ، كما في قوله : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ [يوسف : 23] وقوله : ﴿ وَأَضَلَّ أعمالهم ﴾ معطوف على ما قبله داخل معه في خبرية الموصول .

والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما تقدّم مما ذكره الله من التعس والإضلال ، أي : الأمر ذلك ، أو ذلك الأمر ﴿ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَا أَنزَلَ الله ﴾ على رسوله من القرآن ، أو ما أنزل على

رسله من كتبه لاشتمالها على ما في القرآن من التوحيد والبعث ﴿ فَأَحْبَطَ ﴾ الله ﴿ أعمالهم ﴾ بذلك السبب ، والمراد بالأعمال : ما كانوا عملوا من أعمال الخير في الصورة ، وإن كانت باطلة من الأصل ؛ لأن عمل الكافر لا يقبل قبل إسلامه .

ثم خوّف سبحانه الكفار ، وأرشدهم إلى الاعتبار بحال من قبلهم ، فقال : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأرض ﴾ أي : ألم يسيروا في أرض عاد ، وثمود ، وقوم لوط وغيرهم ؛ ليعتبروا ﴿ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي : آخر أمر الكافرين قبلهم ، فإن آثار العذاب في ديارهم باقية .

ثم بيّن سبحانه ما صنع بمن قبلهم فقال : ﴿ دَمَّرَ الله عَلَيْهِمْ ﴾ والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، والتدمير : الإهلاك ، أي : أهلكهم واستأصلهم ، يقال : دمّره ودمر عليه بمعنى ، ثم توعد مشركي مكة فقال : ﴿ وللكافرين أمثالها ﴾ أي : لهؤلاء الكافرين أمثال عاقبة من قبلهم من الأمم الكافرة .

قال الزجاج ، وابن جرير : الضمير في ﴿ أمثالها ﴾ يرجع إلى ﴿ عاقبة الذين من قبلهم ﴾ ، وإنما جمع لأن العواقب متعدّدة بحسب تعدّد الأمم المعذبة ، وقيل : أمثال العقوبة ، وقيل : الهلكة ، وقيل : التدميرة ، والأوّل أولى لرجوع الضمير إلى ما هو مذكور قبله ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما ذكر من أن للكافرين أمثالها ﴿ بِأَنَّ الله مَوْلَى الذين

آمنوا ﴾ أي : بسبب أن الله ناصرهم ، ﴿ وَأَنَّ الكافرين لاَ مولى لَهُمْ ﴾ أي : لا ناصر يدفع عنهم .

(24/708)

وقرأ ابن مسعود (ذلك بأن الله وليّ الذين آمنوا) قال قتادة : نزلت يوم أحد .

﴿ إِنَّ الله يُدْخِلُ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ قد تقدّم تفسير الآية في غير موضع ، وتقدّم كيفية جري الأنهار من تحت الجنات ، والجملة مسوقة لبيان ولاية الله للمؤمنين ﴿ والذين كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأنعام ﴾ أي : يتمتعون بمتاع الدنيا وينتفعون به ؛ كأنهم أنعام ليس لهم همّة إلاّ بطونهم وفروجهم ، ساهون عن العاقبة لاهون بما هم فيه ﴿ والنار مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ أي : مقام يقيمون به ، ومنزل ينزلونه ويستقرّون فيه ، والجملة في محل نصب على الحال ، أو مستأنفة .

وقد أخرج الفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله ﴾ قال : هم أهل مكة قريش نزلت فيهم : ﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ قال : هم أهل المدينة الأنصار ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ قال : أمرهم .

وأخرج ابن المنذر عنه في قوله : ﴿ أَضَلَّ أعمالهم ﴾ قال : كانت لهم أعمال فاضلة لا يقبل الله مع الكفر عملاً .

وأخرج النحاس عنه أيضاً في قوله : ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء ﴾ قال : فجعل الله النبيّ والمؤمنين بالخيار في الأسارى ، إن شاءوا قتلوهم ، وإن شاءوا استعبدوهم ، وإن شاءوا فادوهم .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه عنه أيضاً في الآية قال : هذا منسوخ نسختها : ﴿ فَإِذَا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين ﴾ [التوبة : 5] .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه عن الحسن قال : أتى الحجاج بأسارى ، فدفع إلى ابن عمر رجلاً يقتله ، فقال ابن عمر : ليس بهذا أمرنا إنما قال الله : ﴿ حتى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ الوثاق فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء ﴾ .

(25/708)

وأخرج عبد الرزاق في المصنف ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن ليث قال : قلت لمجاهد : بلغني أن ابن عباس قال : لا يحلّ قتل الأسارى ؛ لأن الله قال : ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء ﴾ فقال مجاهد : لا تعبأ بهذا شيئاً أدركت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

وكلهم ينكر هذا ، ويقول : هذه منسوخة إنما كانت في الهدنة التي كانت بين النبيّ صلى الله عليه وسلم وبين المشركين ، فأما اليوم فلا ، يقول الله :

﴿ فاقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة : 5] ويقول : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الذين كَفَرُواْ فَضَرْبَ الرقاب ﴾ فإن كان من مشركي العرب لم يقبل شيء منهم إلاّ الإسلام ، فإن لم يسلموا فالقتل ، وأما من سواهم فإنهم إذا أسروا ، فالمسلمون فيهم بالخيار إن شاءوا قتلوهم ، وإن شاءوا استحيوهم ، وإن شاءوا فادوهم إذا لم يتحوّلوا عن دينهم ، فإن أظهروا الإسلام لم يفادوا .

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الصغير ، والمرأة ، والشيخ الفاني .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يوشك من عاش منكم أن يلقى عيسى ابن مريم إماماً مهدياً وحكماً عدلاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، وتوضع الجزية ، وتضع الحرب أوزارها " وأخرج ابن سعد ، وأحمد ، والنسائي ، والبغوي ، والطبراني ، وابن مردويه عن سلمة بن نفيل ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من حديث قال : " لا تضع الحرب أوزارها حتى يخرج يأجوج ومأجوج " وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﴿ وللكافرين أمثالها ﴾ قال : لكفار قومك يا محمد مثل ما دمرت به القرى ، فأهلكوا بالسيف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 28 . 33 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ ﴾

استئناف بياني جواب سؤال يخطر ببال سامع قوله : ﴿ بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ [محمد : 11] عن حال المؤمنين في الآخرة وعن رزق الكافرين في الدنيا ، فبيّن الله أن من ولايته المؤمنين أن يعطيهم النعيم الخالد بعد النصر في الدنيا ، وأنّ ما أعطاه الكافرين في الدنيا لا عبرةَ به لأنهم مسلوبون من فهم الإيمان فحظهم من الدنيا أكل وتمتع كحظ الأنعام ، وعاقبتهم في عالم الخلود العذاب ، فقوله : ﴿ والنار مثوًى لهم ﴾ في معنى قوله في سورة آل عمران (196 ، 197) ﴿ لا يغرنك تقلُّب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾

وهذا الاستئناف وقع اعتراضاً بين جملة ﴿ أفلم يسيروا في الأرض ﴾ [محمد : 10] وجملة ﴿ وكأين من قرية ﴾ [محمد : 13] الآية .

والمجرور من قوله : ﴿ كما تأكل الأنعام ﴾ في محل الحال من ضمير ﴿ يأكلون ﴾ ، أو في محل الصفة لمصدر محذوف هو مفعول مطلق ل ﴿ يأكلون ﴾ لبيان نوعه .

والتمتع : الانتفاع القليل بالمتاع ، وتقدم في قوله : ﴿ متاع قليل ﴾ في سورة آل عمران (197) ، وقوله : ﴿ ومتاع إلى حين ﴾ في سورة الأعراف (24) .

والمثوى : مكان الثواء ، والثواء : الاستقرار ، وتقدم في قوله : ﴿ قال النار مثواكم ﴾ في الأنعام (128) .

وعدل عن الإضافة فقيل مثوًى لهم ﴾ بالتعليق باللام التي شأنها أن تنون في الإضافة ليفاد بالتنوين معنى التمكّن من القرار في النار مثوى ، أي مثوى قوياً لهم لأن الإخبار عن النار في هذه الآية حصل قبل مشاهدتها ، فلذلك أضيفت في قوله : ﴿ قال النار مثواكم لأنه إخبار عنها وهم يشاهدونها في المحشر .

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (13)

(27/708)

عطف على جملة ﴿ أفلم يسيروا في الأرض ﴾ [محمد : 10] ، وما بينهما استطراد اتصل بعضه ببعض .

وكلمة ﴿ كأين ﴾ تدلّ على كثرة العدد ، وتقدم في سورة آل عمران وفي سورة الحج .

والمراد بالقرية : أهلها ، بقرينة قوله : ﴿ أهلكناهم ﴾ ، وإنما أجري الإخبار على القرية

وضميرها لإفادة الإحاطة بجميع أهلها وجميع أحوالهم وليكون لإسناد إخراج الرسول إلى القرية كلها وقع من التبعة على جميع أهلها سواء منهم من تولى أسباب الخروج، ومن كان ينظر ولا ينهى قال تعالى: ﴿ وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم ﴾ [الممتحنة: 9].

وهذا إطناب في الوعيد لأن مقام التهديد والتوبيخ يقتضي الإطناب، فمفاد هذه الآية مؤكد لمفاد قوله: ﴿ فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمرَّ الله عليهم وللكافرين أمثالها ﴾ [محمد: 10]، فحصل توكيد ذلك بما هو مقارب له من إهلاك الأمم ذوات القُرى والمُدنِ بعد أن شمل قوله: ﴿ الذين من قبلهم ﴾ من كان من أهل القرى، وزاد هنا التصريح بأن الذين من قبلهم كانوا أشد قوة منهم ليفهموا أن إهلاك هؤلاء هيّن على الله، فإنه لما كان التهديد السابق تهديداً بعذاب السيف من قوله: ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضربَ الرقاب ﴾ [محمد: 4] الآيات، قد يُلقي في نفوسهم غروراً فتعذّر استئصالهم بالسيف وهم ما هم من المَنعة وأنهم تمنعهم قريتهم مكةُ وحرمتُها بين العرب فلا يقعدون عن نصرتهم، فربّما استخفَّوا بهذا الوعيد ولم يستكينوا لهذا التهديد، فأعلمهم الله أن قرى كثيرة كانت أشد قوة من قريتهم أهلكهم الله فلم يجدوا نصيرا.

وبهذا يظهر الموقع البديع للتفريع في قوله : ﴿ فلا ناصر لهم ﴾ وزاد أيضاً إجراءُ الإضافة في قوله : ﴿ قريتك ﴾ ، ووصفها بـ ﴿ التي أخرجتك ﴾ لما تفيده إضافة القرية إلى ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم من تعبير أهلها بمذمة القطيعة ولما تؤذن به الصلة من تعليل إهلاكهم بسبب إخراجهم الرسول صلى الله عليه وسلم من قريته قال تعالى : ﴿ وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ﴾ [البقرة : 191] .

وإطلاق الإخراج على ما عامل به المشركون النبي صلى الله عليه وسلم من الجفاء والأذى ومقاومة نشر الدين إطلاق من قبيل الاستعارة لأن سوء معاملتهم إياه كان سبباً في خروجه من مكة وهي قريته ، فشبه سبب الخروج بالإخراج ثم أطلق عليه فعل ﴿ أخرجتك ﴾ ، وليس ذلك بإخراج وإنما هو خروج فإن المشركين لم يُلجِئوا النبي صلى الله عليه وسلم بالإخراج بل كانوا على العكس يرصدون أن يمنعوه من الخروج خشيَة اعتصامه بقبائل تنصره فلذلك أخفَى على الناس أمر هجرته إلا عن أبي بكر رضي الله عنه ، فقوله : ﴿ أخرجتك ﴾ من باب قولك : أقدمني بلدك حقٌّ لي على فلان ، وهو استعارة على التحقيق ، وليس مجازاً عقلياً إذ ليس ثمة إخراج حتى يدعى أن سَببه بمنزلة فاعل الإخراج ، ولا هو من الكناية وإن كان قد مثل به الشيخ في دلائل الإعجاز للمجاز العقلي ، والمثالُ يكفي فيه الفرض والاحتمال .

وفُرِع على الإخبار بإهلاك الله إياهم الإخبارُ بانتفاء جنس الناصر لهم ، أي المنقذ لهم من الإهلاك .

والمقصود : التذكير بأن أمثال هؤلاء المشركين لم يجدوا دافعاً يدفع عنهم الإهلاك ، وذلك تعريض بتأييس المشركين من إلفاء ناصر ينصرهم في حربهم للمسلمين قطعاً لما قد يخالج نفوس المشركين أنهم لا يغلبون لتظاهر قبائل العرب معهم ، ولذلك حزبوا الأحزاب في وقعة الخندق .

وضمير ﴿ لهم ﴾ عائد إلى ﴿ من قرية ﴾ لأن المراد بالقرى أهلها .

(29/708)

والمعنى : أهلكناهم إهلاكاً لا بقاء معه لشيء منهم لأن بقاء شيء منهم نصر لذلك الباقي بنجاته من الإهلاك .

واسم الفاعل في قوله : ﴿ فلا ناصر ﴾ مراد به الجنس لوقوعه بعد (لا) النافية للجنس فلذلك لا يقصد تضمنه لزمن مَّا لأنه غير مراد به معنى الفعل بل مجرد الاتصاف بالمصدر فتمحض للاسمية ، ولا التفات فيه إلى زمن من الأزمنة الثلاثة ، ولذا فمعنى ﴿ فلا ناصر لهم ﴾ : فلم ينصرهم أحد فيما مضى .

ولا حاجة إلى إجراء ما حصل في الزمن الماضي مجرى زمن الحال ، وقولهم اسم الفاعل حقيقة في الحال جرى على الغالب فيما إذا أريد به معنى الفعل .

وقرأ الجمهور : ﴿ وكأيِّن ﴾ بهمزة بعد الكاف وبتشديد الياء .

وقرأه ابن كثير بألف بعد الكاف وتخفيف الياء مكسورة وهي لغة .

أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (14)

تفريع على جملة ﴿ أهلكناهم فلا ناصر لهم ﴾ [محمد : 13] لتحقيق أنهم لا ناصر لهم تحقيقاً يرجع إلى ما في الكلام من المعنى التعريضي فهو شبيه بالاستئناف البياني جاء بأسلوب التفريع .

ويجوز مع ذلك أن يكون مفرَّعاً على ما سبق من قوله : ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ [محمد : 12] الآية ، فيكون له حكم الاعتراض لأنه تفريع على اعتراض .

وهذا تفنن في تلوين الكلام لتجديد نشاط السامعين هو من الأساليب التي ابتكرها القرآن في كلام العرب .

والاستفهام مستعمل في إنكار المماثلة التي يقتضيها حرف التشبيه .

والمقصود من إنكار المشابهة بين هؤلاء وهؤلاء هو تفضيل الفريق الأول ، وإنكار زعم المشركين أنهم خير من المؤمنين كما ظهر ذلك عليهم في مواطن كثيرة كقولهم : ﴿ لو كان خيراً ما سبقونا إليه ﴾ [الأحقاف : 11] ﴿ وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ﴾ [

المطففين : 32] ﴿ فاتخذتموهم سُخرياً حتى أنسوكم ذِكري وكنتم منهم تضحكون ﴾ [المؤمنون : 110] .

(30/708)

والمراد بالموصولين فريقان كما دل عليه قوله في أحدهما ﴿ واتبعوا أهواءهم ﴾ .

والبينة : البرهان والحجة ، أي حجة على أنه محق .

و ﴿ مِن ﴾ ابتدائية ، وفي التعبير بوصف الرب وإضافته إلى ضمير الفريق تنبيه على زلفى الفريق الذي تمسك بحجة الله .

ومعنى وصف البينة بأنها من الله : أن الله أرشدهم إليها وحرّك أذهانهم فامتثلوا وأدركوا الحق ، فالحجة حجة في نفسها وكونها من عند الله تزكية لها وكشف للتردّد فيها وإتمام لدلالتها ، كما يظهر الفرق بين أخذ العلم عن متضلع فيه وأخذه عن مستضعف فيه وإن كان مصيباً .

و(عَلى) للاستعلاء المجازي الذي هو بمعنى التمكن كما في قوله تعالى : ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ في سورة البقرة (5) .

وهذا الفريق هم المؤمنون وهم ثابتون على الدين واثقون بأنهم على الحق .

فلا جرم يكون لهم الفوز في الدنيا لأن الله يسّر لهم أسبابه فإن قاتلوا كانوا على ثقة بأنهم على الحق وأنهم صائرون إلى إحدى الحسنيين فقويت شجاعتهم ، وإن سالموا عُنوا بتدبير شأنه وما فيه نفع الأمة والدين فلم يَألوا جهداً في حسن أعمالهم ، وذلك من آثار أن الله أصلح بالهم وهداهم .

والفريق الذين زيّن له سوء عمله هم المشركون ، فإنهم كانوا في أحوال السُوأى من عبادة الأصنام والظلم والعدوان وارتكاب الفواحش ، فلما نبههم الله لفساد أعمالهم بأن أرسل إليهم رسولاً بين لهم صالح الأعمال وسيئاتها لم يدركوا ذلك ورأوا فسادهم صلاحاً فتزينت أعمالهم في أنظارهم ولم يستطيعوا الإقلاع عنها وغَلب إلفُهم وهواهم على رأيهم فلم يعبأوا باتباع ما هو صلاح لهم في العاجل والآجل ، فذلك معنى قوله : كمن زُيِّن له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ﴾ بإيجاز .

(31/708)

وبني فعل ﴿ زُيِّن ﴾ للمجهول ليشمل المزيّنين لهم من أئمة كفرهم ، وما سولته لهم أيضاً عقولهم الآفنة من أفعالهم السيئة اغتراراً بالإلف أو اتباعاً للذات العاجلة أو لجلب الرئاسة ، أي زيَّن له مُزيّنَ سوءَ عمله ، وفي هذا البناء إلى المجهول تنبيه لهم أيضاً ليرجعوا إلى أنفسهم

فيتأمّلوا فيمن زيّن لهم سوء أعمالهم .

ولمّا كان تزيين أعمالهم لهم يبعثهم على الدأب عليها كان يتولد من ذلك إلفهم بها وولعهم بها فتصير لهم أهواء لا يستطيعون مفارقتها أعقب بقوله : ﴿ واتبعوا أهواءهم ﴾ .

والفرق بين الفريقين بَيّن للعاقل المتأمل بحيث يحق أن يُسأل عن مماثلة الفريقين سُؤال من يعلم انتفاء المماثلة ويُنكِر على من عسى أن يزعمها .

والمراد بانتفاء المماثلة الكناية عن التفاضل ، والمقصود بالفضل ظاهر وهو الفريق الذي وقع الثناء عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(32/708)

فائدة

قال التستري :

قوله : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلاَ نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ [13]

في الآية دليل على تفضيله على الكليم ، لأنه لم يخرج خوفاً منهم ، كما خرج موسى عليه السلام ، ولكنه خرج كما قال الله تعالى : ﴿ أَخْرَجَتْكَ ﴾ [13] ولم يقل خرجت ولا

جزعت ، لأنه لله وبالله في جميع أوقاته ، فلم يجز منه التفات إلى الغير بحال ما . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير التستري صـ 146 ﴾

(33/708)

قوله تعالى ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (15) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تكرر ذكر الجنة والنار في هذه السورة إلى أن ختم بهذه الآية التي قسم الناس فيها إلى أولياء مهتدين وأعداء ضالين معتدين ، فهدى سياقها إلى أن التقدير : أفمن كان على بينة من ربه أحياه الحياة الطيبة في الدارين ، ومن تبع هواه أراده فيها ، أتبعه وصف الجنة التي هي دار أوليائه قادهم إليها الهدى ، والنار التي هي دار أعدائه ساقهم إليها الضلال المحتم للردى ، فقال : ﴿ مثل الجنة ﴾ أي البساتين العظيمة التي تستر داخلها من كثرة أشجارها .

ولما تكرر وعده سبحانه للذين آمنوا بالجنة بالاسم الأعظم الجامع وبعضها بالضمير العائد إليه ، صار الوعد بها في غاية التحقق فعبر عنه هنا بالماضي المبني للمفعول إشارة إلى أنه أمر قد تحقق بأسهل أمر ، وفرغ منه إلى أن صار حاضراً لا مانع منه إلا الوصف الذي علق به الوعد ووصفها بصفات تفيد القطع بأنه لا يقدر عليها إلا الله فصار مجرد ذكرها والإخبار به عنها بصيغة المجهول أعلى لأمره فقال : ﴿ التي وعد المتقون ﴾ أي الذي حملتهم تقواهم بعد الوقوف عن كل فعل لم يدل عليه دليل على أن استمعوا منك فانتفعوا بما دللتهم عليه من أمور الدين حتى انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام : مقبل عليه بكليته فهو متبع ، ومعرض عنه جملة ، ومستمع غير منتفع .

ولما كان التقدير : مثل بستان عظيم لا يسقط ورقه ولا ينقطع ثمره ولا يتفطن نعيمه لما فيه من الأنهار المتنوعة ، وكان ما هو بهذه الصفة إنما هو موهوم لنا لا معلوم ، طواه وذكره ما دل عليه من صفة الجنة الموعودة المعلومة بوعد الصادق الذي ثبت صدقه بالمعجزات فقال استئنافاً : ﴿ فيها ﴾ أي الجنة الموعودة .

ولما كان ما يعهدونه من الجنان لا يحتمل أكثر من ثلاثة أنهار ، عبر بالجمع الذي يستعار

للكثرة إذا دلت قرينة ، وهي هنا المدح والامتنان ، فقال : ﴿ أنهار من ماء ﴾ ولما كان ماء الدنيا مختلف الطعوم على ثلاثة : حلو وعذب وملح ، مع اتحاد الأرض ببساطتها وشدة اتصالها للدلالة على أن فاعل ذلك قادر مختار ، وقد يكون آسناً أي متغيراً عن الماء الذي يشرب بريح منتنة من أصل خلقه أو من عارض عرض له من منبعه أو مجراه قال : ﴿ غير آسن ﴾ أي ثابت له في وقت ما شيء من الطعم أو الريح أو اللون بوجه من الوجوه وإن طالت إقامته وإن أضيف إليه غيره فإنه لا يقبل التغير بوجه .

(35/708)

ولما كان أكثر شرابهم بعد الماء اللبن ، ثنى به فقال سبحانه : ﴿ وأنهار من لبن ﴾ ولما كان التغير غير محمود ، وكانوا يعهدون في الدنيا أن اللبن كله على جميع أنواعه طيب حال نزوله من الضرع مع اختلاف ذوات الدر في الأشكال والأنواع والمقادير والأمزجة ، ومع انفصال كل واحدة منها من الأخرى ، وأنه إنما يتغير بعد حلبه ، عبر بما ينفي التغير في الماضي فقال : ﴿ لم يتغير طعمه ﴾ أي بنفسه عن أصل خلقته وإن أقام مدى الدهر ، وهذا يفهم أنهم لو أرادوا تغييره لشهوة اشتهوها تغير ، وأنه مع طيبه على أنواع كثيرة كما كان في الدنيا متنوعاً .

ولما كان أكثر ما بعد اللبن الخمر قال : ﴿ وأنهار من خمر ﴾ ولما كانت الخمر يكثر طعمها ، وإنما يشربها شاربوها لأثرها ، وأنه متى تغير طعمها زال اسمها ، عرف أن كل ما في خمر الجنة في غاية الحسن غير متعرض لطعم فقال : ﴿ لذة ﴾ أي ثابتة لها اللذة ودائمة حال شربها وعبده ﴿ للشاربين ﴾ في طيب الطعم وحسن العاقبة .

ولما كان العسل أعزها وأقلها ، أخره وإن كان أجلها فقال : ﴿ وأنهار من عسل ﴾ ولما كان عسل الدنيا لا يوجد إلا مخلوطاً بالشمع وغيره من القذى قال : ﴿ مصفى ﴾ أي هو صاف صفاء ما اجتهد في تصفيته من ذلك ، وهذا الوصف ثابت له دائماً لا انفكاك له عنه في وقت ما ، فقد حصل بهذا غاية التشويق إلى الجنة بالتمثيل بما يستلذ به من أشربة الدنيا لأنه غاية ما نعلم من ذلك مجرداً عما ينقصه أو ينغصه مع الوصف بالغزارة والاستمرار قال البغوي : قال كعب الأحبار : نهر دجلة نهر ماء أهل الجنة ، ونهر الفرات نهر لبنهم ، ونهر مصر نهر خمرهم ، ونهر سبحان نهر عسلهم .

وهذه الأنهار الأربعة تخرج من نهر الكوثر .

(36/708)

وقال ابن عبد لحكم في فتوح مصر : حدثنا عثمان بن صالح ثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب أن معاوية بن أبي سفيان ـ رضى الله عنهما ـ سأل كعب الأحبار ـ رضى الله عنه ـ : هل تجد لهذا النيل في كتاب الله تعالى خبراً ؟ قال : أي والذي فلق البحر لموسى ، إني لأجده في يكتاب الله أن الله عز وجل يوحي إليه في كل عام مرتين ، يوحي إليه عن جريه أن الله يأمرك أن تجري ، فيجري ما كتب الله له ثم يوحي إليه بعد ذلك : يا نيل غر حميداً .

حدثنا عبد الله بن صالح حدثنا الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن كعب الأحبار أنه كان يقول : أربعة أنها من الجنة وضعها الله عز وجل في الدنيا .

فالنيل نهر العسل في الجنة ، والفرات نهر الخمر في الجنة .

وسيحان نهر الماء في الجنة .

وجيحان نهر اللبن في الجنة .

حدثنا سعيد بن أبي مريم حدثنا الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة قالا حدثنا يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن أبي جنادة الكناني أنه سمع كعباً يقول : النيل في الآخرة عسلاً أغزر ما يكون من الأنهار التي سمى الله عز وجل ، ودجلة في الآخرة لبناً أغزر ما يكون من الأنهار التي سمى الله عز وجل ، والفرات خمراً أغزر ما يكون من الأنهار التي سمى الله عز وجل ، وجيحان ماء أغزر ما يكون من الأنهار التي سمى الله وأصل هذا كله ما في الصحيح في صفة الجنة عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

" سيحان وجيحان والنيل والفرات من أنهار الجنة " وقال أبو حيان في حكمة ترتيبها غير ما تقدم : إنه بدئ بالماء الذي لا يستغنى عنه في المشروبات ، ثم باللبن إذ كان يجري مجرى المطعومات في كثير من أقوات العرب وغيرهم ، ثم بالخمر لأنه إذا حصل الري والمطعوم تشوفت النفس إلى ما يتلذذ به ، ثم بالعسل لأن فيه الشفاء في الدنيا مما يعرض من المطعوم والمشروب – انتهى .

(37/708)

وأحسن منه أنه لما كان السياق للتعجب في ضرب المثل لأنه قول لا ينفك عن غرابة بدأ بأنهار الماء لغرابتها في بلادهم وشدة حاجتهم إليها ، ولما كان خلوها عن تغير أغرب نفاه ، ولما كان اللبن أقل فكان جريه أنهاراً أغرب ، ثنى به ، ولما كان الخمر أعز ثلث به ، ولما كان العسل أشرفها وأقلها ختم به ، ونبه – مع هذا التذكير بقدرته تعالى – على ما يريد بسبب وبغير سبب فإن هذه المشروبات الثلاثة التي وبعضها متمحض للشرابية كالخمر وبعضها في غذائية وهي فيه أغلب ، وهو العسل ، وبعضها ينزع إلى كل منهما وهو اللبن كلها من الماء مع تمايزها مذاقاً وأثراً في الغذاء والدواء وغير ذلك ، فإن الماء أصل النبات ، ومن النبات يكون اللبن والخمر والعسل بما لا يخفى من الأسباب ، وأما الآخرة فغنية عن الأسباب

لظهور اسمه الظاهر سبحانه هناك لأنه لا ابتلاء فيها ، وبهذا فهم للترتيب سر آخر وهو أنه تعالى قدم الماء لأنه الأصل لها ، وتلاه بأقرب الأشياء إليه في الشرابية والطبع : اللبن ، ثم بما هو أقرب إلى اللبن من جهة أنه شراب فقط ، ثم بالعسل لأنه أبعدها منه .

ولما كانت الثمار ألذ مستطاب بعد سائغ الشراب قال تعالى : ﴿ ولهم فيها ﴾ ولما كان أهلها متفاوين في الدرجات فلا تجمع جنان أغلبهم جميع ما في الجنة من الثمار بعض فقال : ﴿ من كل الثمرات ﴾ أي جميع أصنافها على وجه لا حاجة معه من قلة ولا انقطاع .

ولما كان العيش لا يطيب مع الإنصاف بما يوجب العتب ، قال مشيراً إلى أنه لا يقدر أحد أن يقدر الله حق قدره ، لأن الرتب متضائلة عن رتبته سبحانه : ﴿ ومغفرة من ربهم ﴾ أي المحسن إليهم بمحو ذنوبهم السالفة أعيانها وأثارها بحيث لا يخشون لها عاقبة بعقاب .

لا عتاب وعدم بلوغهم إلى ما يحق له من الشكر سبحانه .

(38/708)

ولما أرشد هذا السياق إلى أن التقدير : أفمن هو في هذا النعيم الأكبر المقيم ، بنى عليه قوله : ﴿ كمن هو خالد ﴾ أي مقيم إقامة لا انقطاع معها ، ووحده لأن الخلود يعم من فيها على حد سواء ﴿ في النار ﴾ أي التي لا يطفأ لهيبها ، لا يفك أسيرها ولا يؤنس عريبها .

ولما كان كل واحد من داخليها له سقي يخصه على حسب عمله ولا يظلم ربك أحداً .

كان المؤثر لضرهم السقي على الكيفية التي تذكر لا كونه من ساق معين ، بني للمجهول قوله مسنداً إلى ضمير الجمع قوله تعالى : ﴿ وسقوا ﴾ أي عوض ما ذكر من شراب أهل الجنة ﴿ ماء حميماً ﴾ أي في غاية الحرارة ﴿ فقطع أمعاءهم ﴾ ويمكن أن تكون الآية من الاحتباك ، وذلك أنه تعالى لما قدم أن المؤمنين في جنات تجري من تحتها الأنهار ، وأن الكافرين مأواهم النار ، وكان التقدير إنكاره على من لم يرتدع للزواجر تنبيهاً على أن عمله عمل من يسوي بين الجنة والنار لأن كون النار جزاء لمثله والجنة جزاء المؤمن صار في حد لا يسوغ إنكاره : أمثل الجنة الموصوفة كمثل النار ، ومن هو خالد في الجنة كمن هو خالد في النار – والله الموفق للصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 158 .

﴿ 162

(39/708)

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ مَّثَلُ الجنة التى وُعِدَ المتقون ﴾ .

لما بيّن الفرق بين الفريقين في الاهتداء والضلال بيّن الفرق بينهما في مرجعهما ومآلهما ، وكما قدم من على البينة في الذكر على من اتبع هواه ، قدم حاله في مآله على حال من هو بخلاف حاله ، وفي التفسير مسائل :

المسألة الأولى :

قوله تعالى : ﴿ مَّثَلُ الجنة ﴾ يستدعي أمراً يمثل به فما هو ؟ نقول فيه وجوه : الأول : قول سيبويه حيث قال المثل هو الوصف معناه وصف الجنة ، وذلك لا يقتضي ممثلاً به ، وعلى هذا ففيه احتمالان أحدهما : أن يكون الخبر محذوفاً ويكون ﴿ مَّثَلُ الجنة ﴾ مبتدأ تقديره فيما قصصناه مثل الجنة ، ثم يستأنف ويقول ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ ﴾ ، وكذلك القول في سورة الرعد يكون قوله تعالى : ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الانهار ﴾ [الرعد : 35] ابتداء بيان والاحتمال الثاني : أن يكون فيها أنهار وقوله ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ﴾ خبراً كما يقال صف لي زيداً ، فيقول القائل : زيد أحمر قصير ، والقول الثاني : أن المثل زيادة والتقدير : الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار .

الوجه الثاني : ههنا الممثل به محذوف غير مذكور وهو يحتمل قولين أحدهما : قال الزجاج حيث قال : ﴿ مَّثَلُ الجنة ﴾ جنة تجري ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ ﴾ كما يقال مثل زيد رجل طويل أسمر فيذكر عين صفات زيد في رجل منكر لا يكون هو في الحقيقة إلا زيداً الثاني : من القولين هو أن يقال معناه ﴿ مَّثَلُ الجنة التى وُعِدَ المتقون ﴾ مثل عجيب ، أو شيء عظيم أو مثل ذلك ، وعلى هذا يكون قوله ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ ﴾ كلاماً مستأنفاً محققاً لقولنا مثل عجيب الوجه الثالث : الممثل به مذكور وهو قول الزمخشري حيث قال : ﴿ كَمَنْ هُوَ خالد فِى النار ﴾ مشبه به على طريقة الإنكار ، وحينئذ فهذا كقول القائل حركات زيد أو أخلاقه كعمرو ، وكذلك على أحد التأويلين ، إما على تأويل كحركات عمرو أو على تأويل زيد في حركاته كعمر ، وكذلك على أحد التأويلين ، إما على تأويل كحركات عمرو أو على تأويل زيد في حركاته كعمر ، وكذلك ههنا كأنه تعالى قال : مثل الجنة كمن هو خالد في النار ، وهذا أقصى ما يمكن أن يقرر به قول الزمخشري ، وعلى هذا فقوله تعالى : ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ ﴾ وما بعد هذا جمل اعتراضية وقعت بين المبتدأ والخبر كما يقال نظير زيد فيه مروءة وعنده علم وله أصل عمرو .

ثم قال تعالى : ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مّن مَّاء غَيْرِ ءاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وأنهار مّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ للشاربين وأنهار مّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ .

اختار الأنهار من الأجناس الأربعة ، وذلك لأن المشروب إما أن يشرب لطعمه ، وإما أن يشرب لأمر غير عائد إلى الطعم ، فإن كان للطعم فالطعوم تسعة : المر والمالح والحريف والحامض والعفص والقابض والتفه والحلو والدسم ألذها الحلو والدسم ، لكن أحلى الأشياء العسل فذكره وأما أدسم الأشياء فالدهن ، لكن الدسومة إذا تمحضت لا تطيب للأكل ولا للشرب ، فإن الدهن لا يؤكل ولا يشرب كما هو في الغالب ، وأما اللبن فيه الدسم الكائن في غيره وهو طيب للأكل وبه تغذية الحيوان أولاً فذكره الله تعالى ، وأما ما يشرب لا لأمر عائد إلى الطعم فالماء والخمر فإن الخمر فيها أمر يشربها الشارب لأجله ، هي كريهة الطعم باتفاق من يشربها وحصول التواتر به ثم عرى كل واحد من الأشياء الأربعة عن صفات النقص التي هي فيها وتتغير بها الدنيا فالماء يتغير يقال أسن الماء يأسن على وزن أمن يأمن فهو آسن وأسن اللبن إذا بقي زماناً تغير طعمه ، والخمر يكرهه الشارب عند الشرب ، والعسل يشوبه أجزاء من الشمع ومن النحل يموت فيه كثيراً ، ثم إن الله تعالى خلط الجنسين فذكر الماء الذي يشرب لا للطعم وهو عام الشرب ، وقرن به اللبن الذي يشرب لطعمه وهو عام الشرب إذ ما من أحد إلا وكان شربه اللبن ، ثم ذكر الخمر الذي يشرب لا للطعم وهو قليل الشرب ، وقرن به العسل الذي يشرب للطعم وهو قليل الشرب ، فإن قيل العسل لا يشرب ، نقول شراب الجلاب لم يكن إلا من العسل والسكر قريب الزمان ،

ألا ترى أن السكنجبين من "سركه وانكبين" وهو الخل والعسل بالفارسية كما أن استخراجه كان أولاً من الخل والعسل ولم يعرف السكر إلا في زمان متأخر ، ولأن العسل اسم يطلق على غير عسل النحل حتى يقال عسل النحل للتمييز ، (1) والله أعلم .

---

(1) كانت العرب تشرب العسل ممزوجا بالماء ، وقد شربه الرسول كذلك وأمر بأن يسقي مريض البطن عسلا ، والأحاديث الدالة على هذا كثيرة ، والمراد به في كلها عسل النحل والعسل إذا أطلق لا يراد إلا عسل النحل كما أنه لم يسمه إلا عسلا بدون إضافة .

(42/708)

المسألة الثانية :

قال في الخمر ﴿ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ ولم يقل في اللبن لم يتغير طعمه للطاعمين ولا قال في العسل مصفى للناظرين لأن اللذة تختلف باختلاف الأشخاص فرب طعام يلتذ به شخص ويعافه الآخر ، فقال : ﴿ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ بأسرهم ولأن الخمر كريهة الطعم فقال : ﴿ لَذَّةٍ ﴾ أي لا يكون في خمر الآخرة كراهة الطعم ، وأما الطعم واللون فلا يختلفان باختلاف الناس ، فإن الحلو والحامض وغيرهما يدركه كل أحد كذلك ، لكنه قد يعافه بعض الناس ويلتذ به البعض مع اتفاقهم على أن له طعماً واحداً وكذلك اللون فلم يكن إلى التصريح بالتعميم

حاجة ، وقوله ﴿ لَذَّةٍ ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون تأنيث لذ يقال طعام لذ ولذيذ وأطعمة لذة ولذيذة وثانيهما : أن يكون ذلك وصفاً بنفس المعنى لا بالمشتق منه كما يقال للحليم هو حلم كله وللعاقل كله .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثمرات وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ .

بعد ذكر المشروب أشار إلى المأكول ، ولما كان في الجنة الأكل للذة لا للحاجة ذكر الثمار فإنها تؤكل للذة بخلاف الخبز واللحم ، وهذا كقوله تعالى في سورة الرعد

﴿ مَّثَلُ الجنة التى وُعِدَ المتقون تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الانهار أُكُلُهَا دَائِمٌ وِظِلُّهَا ﴾ [الرعد : 35] حيث أشار إلى المأكول والمشروب ، وههنا لطيفة وهي أنه تعالى قال فيها ﴿ وِظِلُّهَا ﴾ ولم يقل ههنا ذلك ، نقول قال ههنا ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ والظل فيه معنى الستر والمغفرة كذلك ، ولأن المغفور تحت نظر من رحمة الغافر يقال نحن تحت ظل الأمير ، وظلها هو رحمة الله ومغفرته حيث لا يمسهم حر ولا برد .

المسألة الثالثة :

المتقي لا يدخل الجنة إلا بعد المغفرة فكيف يكون لهم فيها مغفرة ؟ فنقول الجواب عنه من وجهين : الأول : ليس بلازم أن يكون المعنى لهم مغفرة من ربهم فيها ، بل يكون عطفاً على قوله (لهم) كأنه تعالى قال لهم الثمرات فيها ولهم المغفرة قبل دخولها والثاني : هو أن يكون المعنى لهم فيها مغفرة أي رفع التكليف عنهم فيأكلون من غير حساب بخلاف الدنيا فإن الثمار فيها على حساب أو عقاب ، ووجه آخر وهو أن الآكل في الدنيا لا يخلو عن استنتاج قبيح أو مكروه كمرض أو حاجة إلى تبرز ، فقال : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثمرات وَمَغْفِرَةٌ ﴾ لا قبيح على الآكل بل مستور القبائح مغفور ، وهذا استفدته من المعلمين في بلادنا فإنهم يعودون الصبيان بأن يقولون وقت حاجتهم إلى إراقة البول وغيره : يا معلم غفر الله لك ، فيفهم المعلم أنهم يطلبون الإذن في الخروج لقضاء الحاجة فيأذن لهم ، فقلت في نفسي معناه هو أن الله تعالى في الجنة غفر لمن أكل ، وأما في الدنيا ، فلأن للأكل توابع ولوازم لا بد منها فيفهم من قولهم حاجتهم .

ثم قال تعالى : ﴿ كَمَنْ هُوَ خالد فِى النار وَسُقُواْ مَاء حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ ﴾ وفيه أيضاً مسائل :

المسألة الأولى :

على قول من قال : ﴿ مَّثَلُ الجنة ﴾ معناه وصف الجنة فقوله ﴿ كَمَنْ هُوَ ﴾ بماذا يتعلق ؟ نقول قوله ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثمرات ﴾ يتضمن كونهم فيها فكأنه قال هو فيها كمن هو

خالد في النار ، فالمشبه يكون محذوفاً مدلولاً عليه بما سبق ، ويحتمل أن يقال ما قيل في تقرير قول الزمخشري أن المراد هذه الجنة التي مثلها ما ذكرنا كمقام من هو خالد في النار .

المسألة الثانية :

(44/708)

قال الزجاج قوله تعالى : ﴿كَمَنْ هُوَ خالد فِى النار﴾ راجع إلى ما تقدم كأنه تعالى قال : أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله وهو خالد في النار فهل هو صحيح أم لا ؟ نقول لنا نظر إلى اللفظ فيمكن تصحيحه بتعسف ونظر إلى المعنى لا يصح إلا بأن يعود إلى ما ذكرناه ، أما التصحيح فبحذف كمن في المرة الثانية أو جعله بدلاً عن المتقدم أو بإضمار عاطف يعطف ﴿كَمَنْ هُوَ خالد﴾ على ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوء عَمَلِهِ﴾ أو ﴿كَمَنْ هُوَ خالد فِى النار﴾ ، وأما التعسف فبيّن نظراً إلى الحذف وإلى الإضمار مع الفاصل الطويل بين المشبه والمشبه به ، وأما طريقة البدل ففاسدة وإلا لكان الاعتماد على الثاني فيكون كأنه قال : أفمن كان على بينة كمن هو خالد ؟ وهو سمج في التشبيه تعالى كلام الله عن ذلك ، والقول في إضمار العاطف كذلك لأن المعطوف أيضاً يصير مستقلاً في التشبيه ، اللّهم إلا أن يقال المجموع بالمجموع كأنه يقول : أفمن كان على بينة من ربه ، وهو في الجنة التي

وعد المتقون فيها أنهار ، كمن زين له سوء عمله وهو خالد في النار ، وعلى هذا تقع المقابلة بين من هو على بينة من ربه ، وبين من زين له سوء عمله ، وبين من في الجنة وبين من هو خالد في النار ، وقد ذكرناه فلا حاجة إلى خلط الآية بالآية ، وكيف وعلى ما قاله تقع المقابلة بين من هو في النار وسقوا ماءً حميماً وبين من هو على بينة من ربه وأية مناسبة بينهما ، بخلاف ما ذكرناه من الوجوه الآخر فإن المقابلة بين الجنة التي فيها الأنهار وبين النار التي فيها الماء الحميم وذلك تشبيه إنكار مناسب .

المسألة الثالثة :

(45/708)

قال : ﴿ كَمَنْ هُوَ خالد ﴾ حملاً على اللفظ الواحد وقال : ﴿ وَسُقُواْ مَاء حَمِيماً ﴾ على المعنى وهو جمع وكذلك قال من قبل ﴿ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوء عَمَلِهِ ﴾ [محمد : 14] على التوحيد والإفراد ﴿ واتبعوا أَهْوَاءهُمْ ﴾ على الجمع فما الوجه فيه ؟ نقول المسند إلى من إذا كان متصلاً فرعاية اللفظ أولى لأنه هو المسموع ، إذا كان مع انفصال فالعود إلى المعنى أولاً ، لأن اللفظ لا يبقى في السمع ، والمعنى يبقى في ذهن السامع فالحمل في الثاني على

المعنى أولى وحمل الأول على اللفظ أولى ، فإن قيل كيف قال في سائر المواضع ﴿ مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صالحا ﴾ [سبأ : 37] و ﴿ فَمَن تَابَ . . .

(46/708)

وَأَصْلَحَ ﴾ [المائدة : 39] ؟ نقول إذا كان المعطوف مفرداً أو شبيهاً بالمعطوف عليه في المعنى فالأولى أن يختلفا كما ذكرت فإنه عطف مفرد على مفرد وكذلك لو قال : كمن هو خالد في النار ومعذب فيها لأن المشابهة تنافي المخالفة ، وأما إذا لم يكن كذلك كما في هذا الموضع ، فإن قوله ﴿ سُقُواْ مَاء ﴾ جملة غير مشابهة لقوله ﴿ هُوَ خالد ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَسُقُواْ مَاء حَمِيماً ﴾ بيان لمخالفتهم في سائر أحوال أهل الجنة فلهم أنهار من ماء غير آسن ، ولهم ماء حميم ، فإن قيل المشابهة الإنكارية بالمخالفة على ما ثبت ، وقد ذكرت البعض وقلت بأن قوله ﴿ على بَيّنَةٍ ﴾ في مقابلة ﴿ زُيّنَ لَهُ سُوء عَمَلِهِ ﴾ و ﴿ مّن رَّبِّهِ ﴾ في مقابلة قوله ﴿ واتبعوا أَهْوَاءهُمْ ﴾ والجنة في مقابلة النار في قوله ﴿ خالد فِى النار ﴾ والماء الحميم في مقابلة الأنهار ، فأين ما يقابل قوله ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلّ الثمرات وَمَغْفِرَةٌ ﴾ فنقول تقطع الأمعاء في مقابلة مغفرة لأنا بينا على أحد الوجوه أن المغفرة التي في الجنة هي تعرية أكل الثمرات عما يلزمه من قضاء الحاجة والأمراض وغيرها ، كأنه قال : للمؤمن أكل

وشرب مطهر طاهر لا يجتمع في جوفهم فيؤذيهم ويحوجهم إلى قضاء حاجة ، وللكافر ماء حميم في أول ما يصل إلى جوفهم يقطع أمعاءهم ويشتهون خروجه من جوفهم ، وأما الثمار فلم يذكر مقابلها ، لأن في الجنة زيادة مذكورة فحققها بذكر أمر زايد .

المسألة الرابعة :

الماء الحار يقطع أمعاءهم لأمر آخر غير الحرارة ، وهي الحدة التي تكون في السموم المدوفة ، وإلا فمجرد الحرارة لا يقطع ، فإن قيل قوله تعالى : ﴿ فَقَطَّعَ ﴾ بالفاء يقتضي أن يكون القطع بما ذكر ، نقول نعم ، لكنه لا يقتضي أن يقال : يقطع ، لأنه ماء حميم فحسب ، بل ماء حميم مخصوص يقطع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 47.50 ﴾

(47/708)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ مَّثَلُ الجنة التي وُعِدَ المتقون ﴾

لما قال عز وجل : ﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جَنَاتٍ ﴾ وصف تلك الجنات ، أي صفة الجنة المعدّة للمتقين .

وقد مضى الكلام في هذا في "الرعد" .

وقرأ علي بن أبي طالب "مِثَالُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ" .

﴿ فِيهَآ أَنْهَارٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ أي غير متغير الرائحة .

والآسِن من الماء مثل الآجِن .

وقد أسَن الماء يأسُن ويأسِن (أسْناً و) أُسُوناً إذا تغيّرت رائحته .

وكذلك أجَن الماء يأجُن ويأجِن أجْناً وأُجُوناً .

ويقال بالكسر فيهما : أجِن وأسِن يأسن ويأجن أسْناً وأجْناً ؛ قاله اليزيدي .

وأسِن الرجل أيضاً يأسَن (بالكسر لا غير) إذا دخل البئر فأصابته ريح منتِنة من ريح البئر أو غير ذلك فغشِي عليه أو دار رأسُه ؛ قال زُهير :

قد أترك القِرن مُصْفَرًّا أنامله . . .

يَميد في الرُّمح مَيد المائح الأسِن

ويروى "الوسن" .

وتأسّن الماء تغيّر .

أبو زيد : تأسّن عليّ تأسّناً اعتل وأبطأ .

أبو عمرو : تأسّن الرجل أباه أخذ أخلاقه .

وقال اللَّحياني : إذا نزع إليه في الشَّبه .

وقراءة العامة "آسن" بالمدّ .

وقرأ ابن كثير وحُميد "أسن" بالقصر ، وهما لغتان ؛ مثل حاذر وحذر .

وقال الأخفش : أسن للحال ، وآسن (مثل فاعل) يراد به الاستقبال .

﴿ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ أي لم يحمض بطول المقام كما تتغير ألبان الدنيا إلى الحموضة .

﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴾ أي لم تدنسها الأرجل ولم تُرَنِّقْها الأيدي كخمر الدنيا ؛ فهي لذيذة الطعم طيبة الشرب لا يتركها الشاربون .

يقال : شراب لَذّ ولذيذ بمعنًى .

واستلذه عدّه لذيذاً .

﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ العسل ما يسيل من لعاب النحل .

"مُصَفًّى" أي من الشمع والقَذَى ، خلقه الله كذلك لم يطبخ على نار ولا دنّسه النحل .

(48/708)

وفي الترمذي عن حكيم بن معاوية عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن في الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر ثم تشقّق الأنهار بعدُ " قال : حديث حسن صحيح .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سَيْحان وجَيْحان والنيل والفُرات كلٌّ من أنهار الجنة " وقال كعب : نهر دجلة نهر ماء أهل الجنة ، ونهر الفرات نهر لبنهم ، ونهر مصر نهر خمرهم ، ونهر سَيْحان نهر عسلهم .

وهذه الأنهار الأربعة تخرج من نهر الكوثر .

والعسل : يذكر ويؤنث .

وقال ابن عباس : "مِن عَسَلٍ مُصَفًّى" أي لم يخرج من بطون النحل .

﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثمرات ﴾ "مِن" زائدة للتأكيد .

﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ أي لذنوبهم .

﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النار ﴾ قال الفرّاء : المعنى أفمن يخلد في هذا النعيم كمن يخلد في النار .

وقال الزجاج : أي أفمن كان على بينة من ربه وأعطي هذه الأشياء كمن زُيِّن له سوء عمله وهو خالد في النار .

فقوله : "كَمَنْ" بدل من قوله : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سواء عَمَلِهِ ﴾ .

وقال ابن كيسان : مثل هذه الجنة التي فيها الثمار والأنهار كمثل النار التي فيها الحميم والزقوم .

ومثل أهل الجنة في النعيم المقيم كمثل أهل النار في العذاب المقيم .

﴿ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيماً ﴾ أي حاراً شديد الغليان ، إذا أُدْني منهم شوى وجوههم ، ووقعت فروة رؤوسهم ؛ فإذا شربوه قطع أمعاءهم وأخرجها من دبورهم .

والأمعاء : جمع مِعًى ، والتثنية مِعيان ، وهو جميع ما في البطن من الحوايا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(49/708)

وقال الآلوسى :

﴿ مَّثَلُ الجنة التى وُعِدَ المتقون ﴾ إلى آخره

استئناف مسوق لشرح محاسن الجنة الموعودة آنفاً للمؤمنين وبيان كيفية أنهارها التي أشير إلى جريانها من تحتها وعبر عنهم بالمتقين إيذاناً بأن الايمان والعمل الصالح من باب التقوى الذي هو عبارة عن فعل الواجبات وترك السيآت ، والمثل الوصف العجيب الشأن وهو مبتدأ باتفاق المعربين ، واختلف في خبره فقيل محذوف فقال النضر بن شميل : تقديره ما تسمعون ، وقوله عز وجل : ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ ﴾ إلى آخره مفسر له ، وقال سيبويه : تقديره فيما يتلى عليكم أو فيما قصصنا عليك ويقدر مقدماً ﴿ وَفِيهَا أَنْهَارٌ ﴾ الخ بيان لذلك المثل ، وقدره ابن عطية ظاهر في نفس من وعى هذه الأوصاف وليس بذاك ، ولعل

الأنسب بصدر النظم الكريم تقدير النضر ، وقيل : هو مذكور فقيل هو قوله تعالى : ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ ﴾ الخ على معنى مثل الجنة وصفتها مضمون هذا الكلام ولا يحتاج مثل هذا الخبر إلى رابط .

وقيل هذه الجملة هي الخبر إلا أن لفظ ﴿ مَثَلُ ﴾ زائدة زيادة اسم في قول من قال :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما . . .

فالمبتدأ في الحقيقة هو المضاف إليه فكأنه قيل : الجنة فيها أنهار الخ وليس بشيء ، وقيل : الخبر قوله تعالى الآتي : ﴿ كَمَنْ هُوَ خالد فِى النار ﴾ وسيأتي إن شاء الله تعالى بسط الكلام فيه .

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه .

وابن عباس .

وعبد الله .

والسلمي ﴿ أصحاب الجنة ﴾ أي صفاتها ، قال ابن جني : وهذا دليل على أن قراءة العامة بالتوحيد معناها الكثرة لما في مثل من معنى المصدرية ولذا جاز مررت برجل مثل رجلين وبرجلين مثل رجال وبامرأة مثل رجل ، وعن علي كرم الله تعالى وجهه أيضاً أنه قرىء ﴿ أصحاب الجنة ﴾ ومثال الشيء في الأصل نظيره الذي يقابل به .

﴿ مّن مَّاء غَيْرِ ءاسِنٍ ﴾ أي غير متغير الطعم والريح لطول مكث ونحوه ، وماضيه أسن بالفتح من باب ضرب ونصر وبالكسر من باب علم حكى ذلك الخفاجي عن أهل اللغة .

وفي "البحر" أسن الماء تغير ريحه يأسن ويأسن ذكره ثعلب في الفصيح ، والمصدر أسون ، وأسن بسكر السين يأسن بفتحها لغة أسنا قاله اليزيدي ، وأسن الرجل بالكسر لا غير إذا دخل البئر فأصابته ريح منتنة منها فغشي عليها أو دار رأسه ومنه قول الشاعر :

قد أترك القرن مصفراً أنامله . . .

يميد في الريح ميد المائح الأسن

وقرأ ابن كثير .

وأهل مكة ﴿ ءاسِنٍ ﴾ على وزن حذر فهو صفة مشبهة أو صيغة مبالغة ، وقرأ ﴿ يسن ﴾ بالياء قال أبو علي : وذلك على تخفيف الهمزة ﴿ ءاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ لم يحمض ولم يصر قارصاً ولا حذاراً كألبان الدنيا وتغير الريح لا يفارق تغير الطعم ﴿ وأنهار مّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ للشاربين ﴾ أي لذيذة لهم ليس فيها كراهة طعم وريح ولا غائلة سكر وخمار كخمور الدنيا فإنها لا لذة في نفس شربها وفيها من المكاره والغوائل ما فيها وهي صفة مشبهة مؤنث لذ وصفت بها الخمر لأنها مؤنثة وقد تذكر أو مصدر نعت به بتقدير مضاف أو بجعلها عين اللذة مبالغة على ما هو المعروف في أمثال ذلك ؛ وقرئت

بالرفع على أنها صفة ﴿ أَنْهَارٌ ﴾ وبالنصب على أنها مفعول له أي كائنة لأجل اللذة لا لشيء آخر من الصداع وسائر آفات خمور الدنيا ﴿ وأنهار مّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ مما يخالفه فلا يخالطه الشمع وفضلات النحل وغيرها ، ووصفه بمصفى لأن الغالب على العسل التذكير وهو مما يذكر ويؤنث كما نص عليه أبو حيان .

وغيره ، وهذا على ما قيل تمثيل لما يجري مجرى الأشربة في الجنة بأنواع ما يستطاب منها أو يستلذ في الدنيا بالتخلية عما ينقصها وينغصها والتحلية بما يوجب غزارتها ودوامها .

(51/708)

وبدىء بالماء لأنه في الدنيا مما لا يستغني عنه ثم باللبن إذ كان يجري مجرى المطعم لكثير من العرب في كثير من أوقاتهم ثم بالخمر لأنه إذا حصل الري والمطعوم تشوفت النفس إلى ما يلتذ به ثم بالعسل لأن فيه الشفاء في الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعوم فهو متأخر بالرتبة ، وجاء عن ابن عباس أن لبن تلك الأنهار لم يحلب ، وقال سعيد بن جبير : أنه لم يخرج من بين فرث ودم وإن خمرها لم تدسها الرجال بأرجلها وإن عسلها لم يخرج من بطون النحل .

وأخرج ابن جرير عن سعد قال : سألت أبا إسحاق عن قوله تعالى : ﴿ مّن مَّاء غَيْرِ ءاسِنٍ ﴾ فقال : سألت عنه الحرث فحدثني أن ذلك الماء تسنيم وقال بلغني : أنه لا تمسه

يد وأنه يجيء الماء هكذا حتى يدخل الفم .

وفي حديث أخرجه ابن مردويه عن الكلبي أن نهر دجلة نهر الخمر في الجنة وأن عليه إبراهيم عليه السلام ونهر جيحون نهر الماء فيها ويقال له نهر الرب ونهر الفرات نهر اللبن وأنه لذرية المؤمنين ونهر النيل نهر العسل .

وأخرج الحرث بن أبي أسامة في "مسنده" .

والبيهقي عن كعب قال : نهر النيل نهر العسل ونهر دجلة نهر اللبن ونهر الفرات نهر الخمر ونهر سيحان نهر الماء في الجنة .

وأنت تعلم أن المذكور في الآية لكل أنهار بالجمع والله تعالى أعلم بصحة هذه الأخبار ونحوها ، ثم إنها إن صحت لا يبعد تأويلها وإن كانت القدرة الإلهية لا يتعاصاها شيء ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا ﴾ مع ما ذكر من فنون الأنهار ﴿ مِن كُلِّ الثمرات ﴾ أي أنواع من كل الثمرات فالجار والمجرور صفة مبتدأ مقدر وقدره بعضهم زوجان وكأنه انتزعه من قوله تعالى :

(52/708)

﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فاكهة زَوْجَانِ ﴾ [الرحمن : 52] وقيل : ﴿ مِنْ ﴾ زائدة أي ولهم فيها كل الثمرات ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ مبتدأ خبره محذوف والجملة عطف على الجملة السابقة

أي ولهم مغفرة ، وجوز أن يكون عطفاً على المبتدأ قبل بدون قيد فيها لأن المغفرة قبل دخول الجنة أو بالقيد والكلام على حذف مضاف أي ونعيم مغفرة أو جعل المغفرة عبارة عن أثرها وهو النعيم أو مجازاً عن رضوان الله عز وجل ، وقد يقال : المراد بالمغفرة هنا ستر ذنوبهم وعدم ذكرها لهم لئلا يستحيوا فتتنغص لذتهم والمغفرة السابقة ستر الذنوب وعدم المؤاخذة بها وحينئذٍ العطف على المبتدأ من غير ارتكاب شيء مما ذكر ، وقد رأيت نحو هذا بعد كتابته للطبرسي مقتصراً عليه ولعله أولى مما قالوه ، وتنوين ﴿ مَغْفِرَةٌ ﴾ للتعظيم أي مغفرة عظيمة لا يقادر قدرها ، وقوله تعالى : ﴿ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ متعلق بمحذوف صفة لها مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أي كائنة من ربهم ، وقوله عز وجل : ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِى النَّارِ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره أمن هو خالد في هذه الجنة حسبما جرى به الوعد كمن هو خالد في النار كما نطق به قوله تعالى : ﴿ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد : 12] لهم ، وجوز أن يكون بدلاً من قوله سبحانه : ﴿ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ [محمد : 14] وما بينهما اعتراض لبيان ما يمتاز به من على بينة في الآخرة تقريراً لإنكار المساواة وفيه بعد .

وذهب جار الله إلى أنه خبر ﴿ مَّثَلُ الجنة ﴾ وأن ذاك مرتب على الإنكار السابق أعني قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ ﴾ [محمد : 14] الخ ، والمعنى أمثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد في النار فالمضافان محذوفان الجزاء بقرينة مقابلة الجنة ولفظ المثل بقرينة تقدمه ومثله كثير ، وفائدة التعرية عن حرف الإنكار أن من اشتبه عليه الأول أعني حال المتمسك بالبينة وحال التابع لهواه فالثاني مثله عنده وإذ ذاك لا يستحق الخطاب ، ونظير ذلك قول حضرمي بن عامر :

أفرح إن أرزأ الكرام وإن . . .

أورث ذوداً شصائصا نبلا

(54/708)

فإنه كلام منكر للفرح برزية الكرام ووراثة الذود مع تعريه من حرف الإنكار لانطوائه تحت حكم من قال له : أتفرح بموت أخيك وبوراثة إبله وذلك من التسليم الذي يقل تحته كل إنكار ، وجعل قوله تعالى : ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ ﴾ كالتكرير للصلة أي صلة بعد صلة يتضمن تفصيلها لأنه كالتفصيل للموعود ، ولهذا لم يتخلل العاطف بينهما ، وجوز أن يكون في موضع الحال على أن الظرف في موضع ذلك و ﴿ أَنْهَارٌ ﴾ فاعله لا على أنه مبتدأ والظرف خبر مقدم

والجملة الاسمية حال لعدم الواو فيها ، وقد صرحوا بأن الاكتفاء فيها بالضمير غير فصيح ، واعتبارها فعلية بتقدير متعلق الظرف استقر لا يخفى حاله ، وقيل : في الحال ضعف من حيث المعنى لمجيئه مجيء الفضلات وهي أم الإنكار ، وأيضاً هو حال من الجنة لا من ضميرها في الصلة وفي العامل تكلف ، ثم الحال غير مقيدة وجعلها مؤكدة وقد علم كونها كذلك من إخباره تعالى فيه أيضاً تكلف ، وأن يكون خبر مبتدأ محذوف والجملة استئناف بياني ، قال في "الكشف" : وهو الوجه ، والتقدير هي فيها أنها وكأنه قيل : أنى يكون صفة الجنة وهي كذا وكذا كصفة النار فالاستئناف ههنا بمنزلة قولك : وهي كذا وكذا اعتراضاً لما في لفظ المثل من الأشعار بالوصف العجيب ، وليس خبر الجملة السابقة ﴿ وَهُوَ كَمَنْ هُوَ خالد فِى النار ﴾ مورد السؤال ليعترض بوقوع الاستئناف قبل مضيه .

(55/708)

وأورد أنه لا حاجة إلى تقدير المبتدأ لأن ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ ﴾ جملة برأسها ، والجواب أن التقدير مثلها فيها أنهار فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فصار مرفوعاً ثم حذف ولهذا قال : في السؤال كأن قائلاً قال : وما مثلها ؟ ويجري ما قرر في قراءة الأمير كرم الله تعالى وجهه ومن معه ﴿ أمثال ﴾ بالجمع فيقال : التقدير أمثال الجنة كأمثال جزاء من

هو خالد في النار ، ويقدر المضاف الأول جمعاً للمطابقة ، ولعمري لقد أبعد جار الله المغزى ، وقد استحسن ما ذكره كثير من المحققين قال صاحب الكشف بعد تقرير جعل ﴿ رَّبِهِمْ كَمَنْ هُوَ خالد ﴾ خبر لمثل الجنة : هذا هو الوجه اللائح المناسب للمساق .

وقال ابن المنير : في الانتصاف بعد نقله كم ذكر الناس في تأويل هذه الآية فلم أر أطلى ولا أحلى من هذه النكت التي ذكرها لا يعوزها إلا التنبيه على أن في الكلام محذوفاً ليتعادل ، والتقدير مثل ساكن الجنة كمن هو خالد في النار ، ومن هذا النمط قوله تعالى : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحاج وَعِمَارَةَ المسجد الحرام كَمَنْ ءامَنَ بالله ﴾ [التوبة : 19] الخ ؛ وما قدرناه لتحصيل التعادل أولى وإن كان فيه كثرة حذف فتأمل ذاك والله تعالى يتولى هداك ،

والضمير المفرد أعني ﴿ هُوَ ﴾ راجع إلى ﴿ مِنْ ﴾ باعتبار لفظها كما أن ضمير الجمع في قوله سبحانه : ﴿ وَسُقُواْ مَاء حَمِيماً ﴾ راجع إليها باعتبار معناها ، والمراد وسقوا ماءً حاراً مكان تلك الأشربة وفيه تهكم بهم ﴿ فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ ﴾ من فرط الحرارة .

روي أنه إذا أدنى منهم شوي وجوههم وامتازت فروة رؤوسهم فإذا شربوه قطع أمعاءهم ، وهي جمع معى بالفتح والكسر ما ينتقل الطعام إليه بعد المعدة ويقال له عفاج وهو مذكر وقد يؤنث . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾

استئناف بياني لأن ما جرى من ذكر الجنة في قوله : ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناتٍ تجري من تحتها الأنهار ﴾ [محمد : 12]مما يستشرف السامعُ إلى تفصيل بعض صفاتها ، وإذ قد ذكر أنها تجري من تحتها الأنهار مُوهم السامع أنها أنهار المياه لأن جري الأنهار أكمل محاسن الجنات المرغوب فيها ، فلما فُرغ من توصيف حال فريقي الإيمان والكفر ، ومما أعد لكليهما ، ومن إعلان تباين حاليهما ثُني العنان إلى بيان ما في الجنة التي وعد المتقون ، وخص من ذلك بيان أنواع الأنهار ، ولما كان ذلك موقع الجملة كان قوله : ﴿ مثَل الجنة ﴾ مبتدأ محذوف الخبر .

والتقدير : مَا سيوصف أو ما سيتلى عليكم ، أو مما يتلى عليكم .

وقوله : ﴿ كمن هو خالد في النار ﴾ كلام مستأنف مقدر فيه استفهام إنكاري دلّ عليه ما سبق من قوله : ﴿ أفمن كان على بينة من ربه كمن زيّن له سوء عمله ﴾ [محمد : 14] .

والتقدير : أكَمَنْ هو خالد في النار .

والإنكار متسلط على التشبيه الذي هو بمعنى التسوية .

ويجوز أن تكون جملة ﴿ مثَل الجنة ﴾ بدلاً من جملة ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ فهي داخلة في حيز الاستفهام الإنكاري .

والخبر قوله : ﴿ كمن هو خالد في النار ﴾ ، أي كحال من هو خالد في النار وذلك يستلزم اختلاف حال النار عن حال الجنة ، فحصل نحو الاحتباك إذ دل ﴿ مَثَل الجنة ﴾ على مَثَل أصحابها ودلّ مثل من هو خالد في النار على مثل النار .

والمقصود : بيان البَون بين حالي المسلمين والمشركين بذكر التفاوت بين حالي مصيرهما المقرر في قوله : ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعمل الصالحات جناتٍ ﴾ [الحج : 23] إلى آخره ، ولذلك لم يترك ذكر أصحاب الجنّة وأصحاب النار في خلال ذكر الجنة والنار فقال : ﴿ مثل الجنة التي وُعد المتقون ﴾ وقال بعده ﴿ كمن هو خالد في النار ﴾ .

(57/708)

ولقصد زيادة تصوير مكابرة من يُسَوِّي بين المتمسك ببينةِ ربه وبين التابع لهواه ، أي هو أيضاً كالذي يسوي بين الجنّة ذات تلك الصفات وبين النار ذاتِ صفاتٍ ضدها .

وفيه اطراد أساليب السورة إذ افتتحت بالمقابلة بين الذين كفروا والذين آمنوا ، وأعقب باتباع الكافرين الباطل واتباع المؤمنين الحق ، وثُلِّثَ بقوله : ﴿ أفمن كان على بيّنة من ربّه

﴿ الخ .

والمثل : الحال العجيب .

وجملة ﴿ فيها أنهار ﴾ وما عطف عليها تفصيل للإجمال الذي في جملة ﴿ مَثل الجنة ﴾ ، فهو استئناف ، أو بدل مفصَّل من مجمل على رأي من يثبته في أنواع البدل .

والأنهار : جمع نهْر ، وهو الماء المستبحر الجاري في أخدود عظيم من الأرض ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ قال إن الله مبْتَلِيكم بنهَر ﴾ في سورة البقرة (249) .

فأما إطلاق الأنهار على أنهار الماء فهو حقيقة ، وأما إطلاق الأنهار على ما هو من لبن وخَمر وعَسل فذلك على طريقة التشبيه البليغ ، أي مماثلة للأنهار ، فيجوز أن تكون المماثلة تامة في أنها كالأنهار مستبحرة في أخاديد من أرض الجنة فإن أحوال الآخرة خارقة للعادة المعروفة في الدنيا ، فإن مرأى أنهار من هذه الأصناف مرأى مُبهج .

ويجوز أن تكون مماثلة هذه الأصناف للأنهار في بعض صفات الأنهار وهي الاستبحار .

وهذه الأصناف الخمسة المذكورة في الآية كانت من أفضل ما يتنافسون فيه ومن أعزّ ما يتيسر الحصول عليه ، فكيف الكثير منها ، فكيف إذا كان منها أنهار في الجنة .

وتناولُ هذه الأصناف من التَفَكُّهِ الذي هو تنعم أهل اليسار والرفاهية .

وقد ذكر هنا أربعة أشربة هي أجناس أشربتهم ، فكانوا يستجيدون الماء الصافي لأن غالب مياههم من الغُدران والأحواض بالبادية تمتلىء من ماء المطر أو من مرور السيول

فإذا استقرت أياماً أخذت تتغير بالطحلب وبما يدخل فيها من الأيدي والدلاء ، وشرب الوحوش وقليلٌ البلاد التي تكون مجاورة الأنهار الجارية .

(58/708)

وكذلك اللبن كانوا إذا حلبوا وشربوا أبقوا ما استفضلوه إلى وقت آخر لأنهم لا يحلبون إلا حَلْبة واحدة أو حلْبتين في اليوم فيقع في طعم اللبن تغيير .

فأما الخمر فكانت قليلة عزيزة عندهم لقلة الأعناب في الحجاز إلا قليلاً في الطائف ، فكانت الخمر تجتلب من بلاد الشام ومن بلاد اليمن ، وكانت غالية الثمن وقد ينقطع جلبها زماناً في فصل الشتاء لعسر السير بها في الطرق وفي أوقات الحروب أيضاً خوف انتهابها .

والعسل هو أيضاً من أشربتهم ، قال تعالى في النحل (69) ﴿ يَخرج من بطونها شَراب مختلف ألوانه ﴾ والعرب يقولون : سقاه عسلاً ، ويقولون : أطعمه عسلاً .

وكان العسل مرغوباً فيه يجتلب من بلاد الجبال ذات النبات المستمر .

فأما الثمرات فبعضها كثير عندهم كالتمر وبعضها قليل كالرمان .

والآسِن : وصف من أسَن الماء من باب ضرب ونصر وفرح ، إذا تغيّر لونه .

وقرأه ابن كثير أسِنٍ ﴾ بدون ألف بعد الهمزة على وزن فَعِلٍ للمبالغة .

والخمر : عصير العنب الذي يترك حتى يصيبه التخمر وهو الحموضة مثل خمير العجين .

و ﴿ لَذَةٍ ﴾ وصفٌ وليس باسم ، وهو تأنيث اللذّ ، أي اللذيذ قال بشار :

ذكرت شبابي اللذّ غير قريب . . .

ومجلس لهو طاب بين شروب

واللّذاذة : انفعال نفساني فيه مسرة ، وهي ضد الألم وأكثر حصوله من الطعوم والأشربة والملامس البدنية ، فوصف خمر هنا بأنها ﴿ لذة ﴾ معناه يجد شاربها لذاذة في طعمها ، أي بخلاف خمر الدنيا فإنها حريقة الطعم فلولا ترقب ما تفعله في الشارب من نشوة وطرب لما شربها لحُموضة طعمها .

والعسل المصفى : الذي خُلِّص مما يخالط العسل من بقايا الشمع وبقايا أعضاء النحل التي قد تموت فيه ، وتقدم الكلام على العسل وتربيته في سورة النحل .

(59/708)

ومعنى ﴿ من كلّ الثمرات ﴾ أصناف من جميع أجناس الثمرات ، فالتعريف في ﴿ الثمرات ﴾ للجنس ، و ﴿ كُلّ ﴾ مستعملة في حقيقتها وهو الإحاطة ، أي جميع ما خلق الله من الثمرات مما علموه في الدنيا وما لم يعلموه مما خلقه الله للجنة .

و﴿ مِن ﴾ تبعيضية ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ فيهما من كل فاكهة زوجان ﴾ [الرحمن : 52] .

و﴿ مغفرة ﴾ عطف على ﴿ أنهار ﴾ وما بعده ، أي وفيها مغفرة لهم ، أي تجاوز عنهم ، أي إطلاق في أعمالهم لا تكليف عليهم كمغفرته لأهل بدر إذ بينت بأن يعملوا ما شاؤوا في الحديث " لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم " وقد تكون المغفرة كناية عن الرضوان عليهم كما قال تعالى : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ [التوبة : 72] .

وتقدير المضاف في ﴿ مثله ﴾ ظاهر للقرينة .

وقوله : ﴿ وسُقوا ماءً حميعاً ﴾ جيء به لمقابلة ما وصف من حال أهل الجنة الذي في قوله : ﴿ فيها أنهار من ماء غير آسن ﴾ إلى قوله : ﴿ من كل الثمرات ﴾ ، أي أن أهل النار محرومون من جميع ما ذكر من المشروبات .

وليسوا بذائقين إلا الماء الحميم الذي يقطع أمعاءهم بفور سقيه .

ولذلك لم يعرج هنا على طعام أهل النار الذي ذكر في قوله تعالى : ﴿ لآكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم ﴾ [الواقعة : 52 54] وقوله : ﴿ أذلك خير نُزُلاً أم شجرة الزقوم ﴾ [الصافات : 62] إلى قوله : ﴿ فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم ﴾ [الصافات : 66 67] .

وضمير ﴿ سقوا ﴾ راجع إلى ﴿ من هو خالد في النار ﴾ باعتبار معنى (من) وهو الفريق من الكافرين بعد أن أعيد عليه ضمير المفرد في قوله : ﴿ هو خالد ﴾ .

والأمعاء : جمع مِعًى مقصوراً وبفتح الميم وكسرها ، وهو ما ينتقل الطعام إليه بعد نزوله من المعدة .

ويسمى عَفِج بوَزن كَتِف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(60/708)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى مثل)

المِثْل والمَثَل والمَثِيل ، كالشِبْه والشَبَه والشبيه لفظا ومعنًى ، والجمع : أَمثال .

والمَثَل – محركة – : الحديث .

وقد مثَّل به وامتثله وتمثَّله وتمثَّل به .

وقد يعبّر بالمَثَل والشَبَه عن وصف الشىء ؛ نحو قوله تعالى : ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ .

وقد يستعمل المِثْل عبارة عن المشابه لغيره فى معنى من المعانى ، أَىَّ معنى كان .

وهو أَعمّ الأَلفاظ الموضوعة للمشابهة ؛ وذلك أَن النِدّ يقال فيما يشاركه فى الجوهريّة فقط ، والشكل يقال فيما يشاركه فى القَدْر والمساحة ، والشِبْه يقال فيما يشاركه فى الكيفيّة فقط ، والمساوى يقال فيما يشاركهُ فى الكميّة فقط ، والمِثْل عامّ فى جميع ذلك .

ولهذا لمَّا أَراد الله نفى التشبيه من كل وجه خصّه بالذِكر فقال تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ .

وأَمَّا الجمع بين الكاف والمِثْل فقد قيل : ذلك لتأْكيد النفى ، تنبيها على أَنه لا يصح استعمال المِثْل ولا الكاف ، فنفى بليس الأَمرين جميعاً .

وقيل : المِثل هاهنا بمعنى الصفة ، ومعناه : ليس كصفته صفة ، تنبيها على أَنّه وإِن وُصف بكثير ممَّا يوصف به البَشَر فليس تلك الصفات له على حَسَب ما يُستعمل فى البَشَر .

والمَثَل : عبارة عن قول فى شىء يشبه قولاً فى شىء آخر بينهما مشابهة ، ليبيّن أَحدهما الآخر ، ويصوّره ، نحو قولهم : الصيفَ ضيَّعتِ اللَبَنَ ؛ فإِن هذا القول يشبه قولك : أَهملت وقت الإِمكان أَمركِ .

وعلى هذا الوجه ما ضرب الله تعالى من الأَمثال فقال : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ .

والمُثُول : الانتصاب .

والتَمثال – بالفتح – : التمثيل .

والتِمثال – بالكسر – : الصورة .

ومثَّله له : صوّرهُ .

وتمثل : تصوَّر .

(61/708)

قال تعالى : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً ﴾ [و] تَمثَّل بالشيءِ : ضربه مَثَلاً .

وقوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى ﴾ أَى لهم الصفات الذميمة ، ولله الصفات العلى .

وقد منع الله تعالى عن ضرب الأَمثال بقوله : ﴿ فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلَّهِ الأَمْثَالَ ﴾ ، ثم أَخبر أَنه يضرب لنفسه المَثَل ، ولا يجوز لنا أَن نقتدى به فى ذلك وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ ؛ ثم ضرب لنفسه مَثَلاً فقال : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ﴾ الآية .

وفى هذا تنبيه أَنه لا يجوز أَن نصفه بصفة مِمَّا يوصف به البشر إِلاَّ ما وصف به نفسه .

وقوله : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُواْ التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ ، أَى هم

فى جهلهم بمضمون حقائق التوارة كالحمار فى جهله بما على ظهره من الأَسفار .

وقوله : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ ﴾ فإنه شبهه فى ملازمته واتّباع هواه وقلَّة مزايلته بالكلب الذى لا يزايل اللهْث على جميع الأَحوال .

وقوله : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً ﴾ ، شبّه من آتاه الله ضرباً من الهداية والمعاون فأَضاعه ولم يتوصَّل به إلى ما رُشِّح له من نعيم الأَبد ، بمن استوقد نارًا فى ظلمة ، فلما أَضاءَت له ضيَّعها / ونُكس فعاد فى الظلمة .

وقوله : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ ، فإنه قصد تشبيه المدعوّ بالغنم التى يُنعق بها ، وداعيهم بالناعق بالغنم ، فأَجمل وراعى مقابلة المعنى دون مقابلة اللفظ ؛ وبسط الكلام وحاصله : مَثَلُ داعى الذين كفروا والذين كفروا كمثل الذى ينَعق بالغنم ومثلِ الغنم التى لا تسمع إلاَّ دعاء ونداء .

(62/708)

والمُثْلة – بالضمّ – والمَثْلة والمَثُلة : نِقمة تنزل بالإنسان فيُجعل مثالاً يَرتدع به غيره وذلك كالنَكَال ، وجمعه : مُثْلات ومَثُلات ، وقرئ (المَثْلات) بإسكان الثاء على التخفيف ؛ نحو عَضْد فى عَضُد .

والأَماثل : يقال من هم أَشبه بالأَفاضل وأَقرب إلى الخير .

وأَماثل القوم : خيارهم ، وعلى هذا قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ أُمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴾ أَى الأَشبه بالفضيلة ، وقيل : أَشبه بالحق ، وهى تأْنيث الأَمثل ، وقيل : أَمثلهم طريقة أَى أَعدلهم وأَشبههم بأَهل الحق ، وقيل : أَعلمهم عند نفسه بما يقول .

والمَثَالة : الفضل .

وقد مَثُل - ككرم - : صار فاضلا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 484.481 ﴾

(63/708)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾

هذه الآية الكريمة تدل على تعدد الأنهار مع تعدد أنواعها ، وقد جاءت آية أخرى يوهم

ظاهرها أنه نهر واحد وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾ وقد تقدم الجمع واضحا في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ ﴾ الآية، وبينا أن قوله: ﴿ وَنَهَرٍ ﴾ يعني أنهار. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 269 ﴾

(64/708)

قوله تعالى ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (16) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (17) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (18) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (19) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي:

ولما كان التقدير بعد هذا التمثيل والوصف والتشويق الذي يبهر العقول: فمن الناس من يسمع منك بغاية المحبة والإنصاف فيعليه الله بفهم ما يتلوه واعتقاده والعمل به واعتماده

وهم المتقون الذين وعدوا الجنة ، عطف عليه قوله تعالى : ﴿ ومنهم من يستمع ﴾ أي بغاية جهده لعله يجد في المتلو مطعناً يشك به على الضعفاء ، وبين تعالى بعدهم بقوله :

﴿ إليك ﴾ ولما أفرد المستمع نظراً إلى لفظ " من " إشارة إلى قلة المستمع جمع نظراً إلى معناه إشارة إلى كثرة المعرضين الجامدين المستهزئين من المستمعين منهم والسامعين فقال تعالى : ﴿ حتى ﴾ أي واستمر إجهادهم لأنفسهم بالإصغاء حتى ﴿ إذا خرجوا ﴾ أي المستمعون والسامعون جميعاً ﴿ من عندك قالوا ﴾ أي الفريقان عمى وتعاميا واستهزاء .

ولما كان مجرد حصول العلم النافع مسعداً ، أشار إلى تعظيمه ببنائه لما لم يسم فاعله فقال تعالى : ﴿ للذين أوتوا العلم ﴾ أي بسبب تهيئة الله لهم بما آتاهم من صفاء الأفهام لتجردهم عن النفوس والحظوظ وانقيادهم لما تدعوا إليه الفطرة الأولى : ﴿ ماذا قال ﴾ أي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ آنفاً ﴾ أي قبل افتراقنا وخروجنا عنه من ساعة – أي أول وقت – تقرب منه ، من أنفة الصلاة – بالتحريك ، وهو ابتداؤها وأولها ، قال أبو حيان : حال ، أي مبتدئاً ، أي ما القول الذي ائتنفه الآن قبل انفصالنا عنه .

ورد كونه ظرفاً بأنه تفسير معنى ، وأنه لا يعلم أحداً من النحاة عده في الظروف .

وقال البغوي : ائتنفت الأمر : ابتدأته ، وأنف الشيء أوله ، قال مقاتل : وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يخطب ويعيب المنافقين ، فإذا خرجوا من المسجد سألوا عبد

الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ استهزاء : ماذا قال محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ قال ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ : وقد سئلت فيمن سئل .

(65/708)

ولما دل هذا من المصغي ومن المعرض على غاية الجمود الدال على غاية الشقاء ، أنتج قوله : ﴿ أولئك ﴾ أي خاصة هؤلاء البعداء من الفهم ومن كل خير ﴿ الذين طبع الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي لا تناهي لعظمه جل وعلا ﴿ على قلوبهم ﴾ أي فلم يؤمنوا ولم يفهموا فهم الانتفاع لأن مثل هذا الجمود لا يكون إلا بذلك .

ولما كان التقدير : إنهم ضلوا حتى صاروا كالبهائم ، عطف عليه ما هو من أفعال البهائم فقال : ﴿ واتبعوا ﴾ أي بغاية جهدهم ﴿ أهواءهم ﴾ أي مجانبين لوازع العقل وناهي المروءة ، فلذلك هم يتهاونون بأعظم الكلام ويقبلون على جمع الحطام ، فهم أهل النار المشار إليهم قبل آية " مثل الجنة " بأنهم زين لهم سوء أعمالهم .

ولما ذكر ما هم عليه وشنع عليهم أقبح الذكر ، ذكر الذين آتاهم العلم فقال : ﴿ والذين اهتدوا ﴾ أي اجتهدوا باستماعهم منك في مطاوعة داعي الفطرة الأولى إلى الوقوع على الهدى بالصدق في الإيمان والتسليم والإذعان بأنواع المجاهدات ﴿ زادهم ﴾ أي الله الذي

طبع على قلوب الجهلة ﴿ هدى ﴾ بأن شرح صدورهم ونورها بأنوار المشاهدات فصارت أوعية للحكمة " إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم " ﴿ وآتاهم تقواهم ﴾ أي بين لهم ما هو أهل لأن يحذر ووفقهم لاجتنابه مخالفة للهوى ، فهم القسم الأول من آية توطئة المثل ﴿ الذين هم على بينة من ربهم ﴾ ومعنى الإضافة أنه آتى كلاًّ منهم منها بحسب ما يقتضيه حاله ، قال ابن برجان : التقوى عمل الإيمان كما أن أعمال الجوارح عمل الإسلام - انتهى .

ولما كان أشد ما يتقى القيامة التي هم بها مكذبون ، سبب عن اتباعهم الهوى قوله تعالى : ﴿ فهل ينظرون ﴾ أي ينتظرون ، ولكنه جرده إشارة إلى شدة قربها ﴿ إلا الساعة ﴾ ولما كان كأنه قيل : ما ينتظرون من أمرها ؟ أبدل منها قوله : ﴿ أن تأتيهم ﴾ أي تقوم عليهم ، وعبر بالإتيان زيادة في التخويف ﴿ بغتة ﴾ أي فجاءة من غير شعور بها ولا استعداد لها .

(66/708)

ولما دل ذلك على مزيد القرب ، وكان مجيء علامات الشيء أدل على قربه مع الدلالة على عظمته ، قال معللاً للبغتة : ﴿ فقد ﴾ ودل على القوة بتذكير الفعل فقال : ﴿ جاء أشراطها ﴾ أي علاماتها المنذرات بها من مبعث النبي - صلى الله عليه وسلم - " بعثت أنا

والساعة كهاتين " انشقاق القمر المؤذن بآية الشمس في طلوعها من مغربها وغير ذلك ، وما بعد مقدمات الشيء إلا حضوره .

ولما كان المجيء من أهوالها تذكرها قبل حلولها للعمل بما يقتضيه التذكر ، وكانت إذا جاءت شاغلة عن كل شيء ، سبب عن مجيئها قوله تعالى : ﴿ فأنّى ﴾ أي فكيف ومن أين ﴿ لهم إذا جاءتهم ﴾ أي الساعة وأشراطها المعينة لها مثل طلوع الشمس من مغربها ﴿ ذكراهم ﴾ لأنهم في أشغل الشغل ولو فرغوا لما تذكروا فعملوا ما أفاد لفوات وقت الأعمال وشرطها ، وهو العمل على الإيمان بالغيب ، وهكذا ساعة الإنسان التي تخصه وهي موته وأشراطها الجاثة على الذكرى وهو المرض والشيب ونحو ذلك ، ومن أشراطها المعينة لها التي لا ينفع معها العمل الوصول إلى حد الغرغرة .

ولما علم بذلك أن الذكرى غير نافعة إذا انقضت هذه الدار التي جعلت للعمل أو جاءت الأشراط المحققة الكاشفة لها ، سبب عنه أمر أعظم الخلق وأشرفهم وأرقاهم وأجملهم - صلى الله عليه وسلم - تكويناً ليكون لغيره تكليفاً فقال تعالى : ﴿ فاعلم أنه ﴾ أي الشأن الأعظم الذي ﴿ لا إله إلا الله ﴾ أي انتفى انتفاء عظيماً أن يكون معبود بحق غير الملك الأعظم ، فإن هذا العلم هو أعظم الذكرى المنجية من أهوال الساعة ، وإنما تكون عالماً إذا كان نافعاً وإنما يكون نافعاً إذا كان مع الإذعان والعمل بما يقتضيه وإلا فهو جهل صرف ،

وهذا العلم يفيد أنه لا بد من قيام الساعة لأن الإله وعد بذلك وهو متصف بالكمال ولا شريك له يمنعه من إنجاز وعده .

(67/708)

قال القشيري : والعبد يعلم أولاً ربه بدليل وبحجة فعلمه بنفسه ضروري وهذا هو أصل الأصول ، وعليه بني كل علم استدلالي ، ثم تزداد قوة علمه بزيادة البيان وكثرة الحجج وتناقص علمه بنفسه بغلبات ذكره لله بقلبه ، فإذا انتهى إلى حال المشاهدة واستيلاء سلطان الحقيقة عليه صار علمه في تلك الحالة ضرورياً ويقل إحساسه بنفسه حتى يصير علمه بنفسه كالاستدلال وكأنه غافل عن نفسه أو ناس لنفسه ، ويقال : الذي رأى البحر غلب عليه ما يأخذه في الرؤية للبحر عن ذكر نفسه فإذا ركب البحر قوي هذا الحال ، فإذا غرق في البحر فلا إحساس له بشيء سوى ما هو مستغرق فيه ومستهلك ، ولهذه الكلمة من الأسرار ما يملأ الأقطار منها أنها بكلماتها الأربع مركبة من ثلاثة أحرف إشارة إلى الوتر الذي هو الله سبحانه وتعالى والشفع الذي هو الخلق أنشأه تعالى أزواجاً ، ومنها حرف لساني وحرفان حلقيان : الهاء والألف ، غير أن الألف عبر عنها بمظهرها وهو الهمزة ظاهراً مرتين وخفياً في أداة التعريف في الابتداء مرة ، وذكرت بلفظها أربع مرات ، فتلك

سبع هي أتم العدد لذلك وبني الخلق عليه ، فالسماوات سبع والأراضي كذلك سبع إشارة إلى أن الإله الحق الذي هو غيب محض إنما علم بالتنزيل بأفعاله ، فهي وصلة إلى معرفته وهي منقسمة إلى علوي وسفلي كما أن الألف التي هي كالغيب لأنها لا يمكن النطق بها ابتداء نزلت في مظهر الهمزة التي تكررت في هذه الكلمة مرتين في مقابلة الكونين العلوي والسفلي وبينهما ما لا نعلمه مما خفي عنا كما خفيت همزة الوصل .

(68/708)

وعبر في الأمر بهذه الكلمة بالعلم إعلاماً بأن عمل القلب بها هو العمدة العظمى لكن لما كانت حروفها حلقياً ولسانياً كان في ذلك إشارة إلى أنه لا يكفي في أمرها إلا إذعان الباطن ومطابقة الظاهر الذي هو اللسان ، فهو ترجمان القلب ، ومتى لم يطابق اللسان القلب حيث لا مانع كان صاحبه من أهل آية الصافات وأحرفها اللفظية أربعة عشر حرفاً على عدد السماوات والأرض الدالة على الذات الأقدس الذي هو غيب محض والمقصود منها مسمى الجلالة الذي هو الإله الحق سبحانه وتعالى والجلالة الدالة عليه خمسة أحرف على عدة دعائم الإسلام الخمس : ووتريته دلالة على التوحيد ، ولم يجعل فيها شيئاً شفهياً لتمكن ملازمتها لكونها أعظم مقرب إلى الله وأقرب موصل إليه مع الإخلاص ، فإن الذاكر

بها يقدر على المواظبة عليها ولا يعلم جليسه بذلك أصلاً ، لأن غيرك لا يعلم ما في وراء شفتيك إلا بإعلامك ، وكما دل الكلام على التوحيد بهذه الكلمة صريحاً دل على كلمة الرسالة التي لا ينفع التوحيد إلا بها تلويحاً بتسمية السورة " سورة محمد " ، فهي القتال لأنه أمر ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقاتل الناس حتى يصرحوا بما صرحت به السورة من كلمة التوحيد ، وهي سورة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن التوحيد لا ينفع بدون الشهادة له بالرسالة ، وبين الكلمتين مزيد اتفاق يدل على تمام الاتحاد والاعتناق ، وذلك أن أحرف كل منهما إن نظرنا إليها خطاً كانت اثني عشرة حرفاً على عدد أجزاء السنة يكفر كل حرف منها شهراً ، وإن نظرنا إليها نطقاً كانت أربعة عشر حرفاً لملأ الخافقين نوراً وعظمة ومهابة وجلالة واحتشاماً ، وإن نظرنا إليها بالنظرين معاً كانت خمسة عشر لا يوقفها عن ذي العرش خالق الكونين موقف ، وهو سر غريب دال على الحكم الشرعي الذي هو عدم انفكاك إحداهما عن الأخرى ، فمن لم يجمعهما اعتقاده لم يقبل إيمانه ، وقدمت هذه السورة في هذا سابقة لأن لها السبق وذكرت الأخرى في الفتح

(69/708)

تالية ، وسميت سورة هذه بالقتال وسورة الكلمة المحمدية بالفتح إشارة إلى أنه ما قاتل أحد عليهما مع الإخلاص إلا فتح عليه ولا يقدر أحد على مخالفته مع مناصبته إلا نفاقاً على وجه الذل والاضطراب .

ولما كان حصول التوحيد الذي هو كمال النفس موجباً للإجابة كما في حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عند الترمذي وأبي يعلى " ما من مؤمن يدعو الله بدعوة إلا استجيب له ما لم يكن إثماً أو قطيعة رحم " الحديث ، قال معلماً أنه يجب على الإنسان بعد تكميل نفسه السعي في تكميل غيره ليحصل التعاون على ما خلق العباد له ، ﴿ واستغفر ﴾ أي اطلب الغفران من الله بعد العلم بأنه لا كفوء له بالدعاء له وبالاجتهاد في الأعمال الصالحة ﴿ لذنبك ﴾ ، وهو كل مقام عال ارتفعت عنه إلى أعلى منه ، وأوجده أنت من نفسك من أساء إليك لتكثر أبتاعك ، فإن الاستقامة مهيئة للإمامة .

ولما كان تكميل النفس مرقياً إلى تكميل الغير ليكون له مثل أجره ، قال تعالى مبيناً لهذه النعمة العظيمة والمنة الجسيمة معيداً للجار معبراً بالإيمان والوصف إيذاناً بأن أعلى الأمة محتاج إلى ذلك ، لأنه لا يقدر أحد أن يقدر الله حق قدره ، وهذا مشرفاً لهذه الأمة حيث أمر الشفيع المجاب الدعوة بالاستغفار لهم وهو بالدعاء والحث على الاجتهاد في الأعمال الصالحة ، حاذفاً المضاف إشارة إلى الاحتياج إلى المغفرة في كل حال لما للإنسان من النقصان بالخطأ والنسيان : ﴿ وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ أي الراسخين في الإيمان لأنهم أحق

الناس بذلك منك لأن ما عملوا من خير كان لك مثل أجره ، ولا يخلو أحد منهم من تقصير في المعارف الإلهية والعمل بموجبها أو هفوة .

(70/708)

ولما كان معرفة من يذنب ومن لا يذنب متوقفة على إحاطة العلم ، قال عاطفاً على ما تقديره : فالله يعلم حركاتكم وسكناتكم سراً وجهراً ويعلم أنكم لا بد أن تعملوا ما جبلكم عليه من ذنب وهو يغفر لمن أراد ممن يسعى في كمال نفسه وتكميل غيره بغسل الذنوب ، بالرجوع إلى طاعة علام الغيوب ﴿ والله ﴾ المحيط بجميع صفات الكمال ﴿ يعلم متقلبكم ﴾ أي تقلبكم ومكانه وزمانه ﴿ ومثواكم ﴾ أي موضع سكونكم وقراره للراحة وكل ما يقع فيه من الثواء في وقته – في الدنيا والآخرة من حين كونكم نطفاً إلى ما لا آخر له . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 162 . 166 ﴾

(71/708)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾

(72/708)

لما بيّن الله تعالى حال الكافر ذكر حال المنافق بأنه من الكفار ، وقوله ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ يحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى الناس ، كما قال تعالى في سورة البقرة ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَقُولُ ءامَنَّا بالله ﴾ [البقرة : 8] بعد ذكر الكفار ، ويحتمل أن يكون راجعاً إلى أهل مكة ، لأن ذكرهم سبق في قوله تعالى : ﴿ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مّن قَرْيَتِكَ التى أَخْرَجَتْكَ أهلكناهم ﴾ [محمد : 13] ويحتمل أن يكون راجعاً إلى معنى قوله ﴿ كَمَنْ هُوَ خالد فِى النار وَسُقُواْ مَاء حَمِيماً ﴾ [محمد : 15] يعني ومن الخالدين في النار قوم يستمعون إليك ، وقوله ﴿ حتى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ ﴾ على ما ذكرنا حمل على المعنى الذي هو الجمع ، ويستمع حمل على اللفظ ، وقد سبق التحقيق فيه ، وقوله ﴿ حتى ﴾ للعطف في قول المفسرين ، وعلى هذا فالعطف بحتى لا يحسن إلا إذا كان المعطوف جزءاً من المعطوف عليه إما أعلاه أو دونه ، كقول القائل : أكرمني الناس حتى الملك ، وجاء الحاج حتى المشاة ، وفي الجملة

ينبغي أن يكون المعطوف عليه من حيث المعنى ، ولا يشترط في العطف بالواو ذلك ، فيجوز أن تقول في الواو : جاء الحاج وما علمت ، ولا يجوز مثل ذلك في حتى ، إذا علمت هذا فوجه التعلق ههنا هو أن قوله ﴿ حتى إذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ ﴾ يفيد معنى زائداً في الاستماع كأنه يقول : يستمعون استماعاً بالغاً جيداً ، لأنهم يستمعون وإذا خرجوا يستعيدون من العلماء كما يفعله المجتهد في التعلم الطالب للتفهم ، فإن قلت فعلى هذا يكون هذا صفة مدح لهم ، وهو ذكرهم في معرض الذم ، نقول يتميز بما بعده ، وهو أحد أمرين : إما كونهم بذلك مستهزئين ، كالذكي يقول للبليد : أعد كلامك حتى أفهمه ، ويرى في نفسه أنه مستمع إليه غاية الاستماع ، وكل أحد يعلم أنه مستهزىء غير مستفيد ولا مستعيد ، وإما كونهم لا يفهمون مع أنهم يستمعون ويستعيدون ، ويناسب هذا الثاني قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ

(73/708)

الله على قُلُوبِ الكافرين ﴾ [الأعراف : 101] ، والأول : يؤكده قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَلَوْاْ إلى شياطينهم قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءونَ ﴾ [البقرة : 14] .
والثاني : يؤكده قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الأعراب ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ولكن قُولُواْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا

يَدْخُلِ الإِيمانُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات : 14] وقوله ﴿ ءانِفاً ﴾ قال بعض المفسرين : معناه الساعة ، ومنه الاستئناف وهو الابتداء ، فعلى هذا فالأولى أن يقال يقولون ماذا قال آنفاً بمعنى أنهم يستعيدون كلامه من الابتداء ، كما يقول المستعيد للمعيد : أعد كلامك من الابتداء حتى لا يفوتني شيء منه .

ثم قال تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ الذين طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ واتبعوا أَهْوَاءهُمْ ﴾ .

أي تركوا اتباع الحق إما بسبب عدم الفهم ، أو بسبب عدم الاستماع للاستفادة واتبعوا ضده

وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (17)

لما بيّن الله تعالى أن المنافق يستمع ولا ينتفع ، ويستعيد ولا يستفيد ، بين أن حال المؤمن المهتدي بخلافه ، فإنه يستمع فيفهم ، ويعمل بما يعلم ، والمنافق يستعيد ، والمهتدي يفسر ويعيد ، وفيه فائدتان إحداهما : ما ذكرنا من بيان التباين بين الفريقين وثانيهما : قطع عذر المنافق وإيضاح كونه مذموم الطريقة ، فإنه لو قال ما فهمته لغموضه وكونه معمى ، يرد عليه ويقول ليس كذلك ، فإن المهتدي فهم واستنبط لوازمه وتوابعه ، فذلك لعماء القلوب ، لا لخفاء المطلوب وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

ما الفاعل للزيادة في قوله ﴿ زَادَهُمْ ﴾ ؟ نقول فيه وجوه الأول : المسموع من النبي عليه الصلاة والسلام من كلام الله وكلام الرسول يدل عليه قوله ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ [محمد : 16] فإنه يدل على مسموع ، والمقصود بيان التباين بين الفريقين ، فكأنه قال : هم لم يفهموه ، وهؤلاء فهموه والثاني : أن الله تعالى زادهم ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الذين طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ ﴾ [محمد : 16] وكأنه تعالى طبع على قلوبهم فزادهم عمى ، والمهتدين زاده هدىً والثالث : استهزاء المنافق زاد المهتدي هدى ، ووجهه أنه تعالى لما قال : ﴿ واتبعوا أَهْوَاءهُمْ ﴾ قال : ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ ﴾ اتباعهم الهدى هدى ، فإنهم استقبحوا فعلهم فاجتنبوه .

المسألة الثانية :

ما معنى قوله ﴿ وآتاهم تقواهم ﴾ ؟ نقول فيه وجوه منقولة ومستنبطة ، أما المنقولة فنقول : قيل فيه إن المراد آتاهم ثواب تقواهم ، وقيل آتاهم نفس تقواهم من غير إضمار ، يعني بيّن لهم التقوى ، وقيل آتاهم توفيق العمل بما علموا .

(75/708)

وأما المستنبط فنقول : يحتمل أن يكون المراد به بيان حال المستمعين للقرآن الفاهمين لمعانيه المفسرين له بياناً لغاية الخلاف بين المنافق ، فإنه استمع ولم يفهمه ، وستعاد ولم يعلمه ، والمهتدي فإنه علمه وبينه لغيره ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ زَادَهُمْ هُدىً ﴾ ولم يقل اهتداء ، والهدى مصدر من هدى ، قال الله تعالى : ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ [الأنعام : 90] أي خذ بما هدوا واهتد كما هدوا ، وعلى هذا فقوله تعالى : ﴿ وآتاهم تقواهم ﴾ معناه جنبهم عن القول في القرآن بغير برهان ، وحملهم على الاتقاء من التفسير بالرأي ، وعلى هذا فقوله ﴿ زَادَهُمْ هُدىً ﴾ معناه كانوا مهتدين فزادهم على الاهتداء هدى حتى ارتقوا من درجة المهتدين إلى درجة الهادين ويحتمل أن يقال قوله ﴿ زَادَهُمْ هُدىً ﴾ إشارة إلى العلم ﴿ وآتاهم تقواهم ﴾ إشارة إلى الأخذ بالاحتياط فيما لم يعلموه ، وهو مستنبط من قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ * الذين يَسْتَمِعُونَ القول فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ [الزمر : 17 ، 18] وقوله ﴿ والرسخون فِي العلم يَقُولُونَ ءامَنَّا بِهِ ﴾ [آل عمران : 7] .

المعنى الثالث : يحتمل أن يكون المراد بيان أن المخلص على خطر فهو أخشى من غيره ، وتحقيقه هو أنه لما قال : ﴿ زَادَهُمْ هُدىً ﴾ أفاد أنهم ازداد علمهم ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ العلماء ﴾ [فاطر : 28] فقال آتاهم خشيتهم التي يفيدها العلم .

والمعنى الرابع : تقواهم من يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا رَبَّكُمْ واخشوا

يَوْماً لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ ﴾ [لقمان : 33] ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ الساعة أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ [محمد : 18] كأن ذكر الساعة عقيب التقوى يدل عليه .

المعنى الخامس : آتاهم تقواهم ، التقوى التي تليق بالمؤمن ، وهي التقوى التي لا يخاف معها لومة لائم .

(76/708)

ثم قال تعالى : ﴿ الذين يُبَلِّغُونَ رسالات الله وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ الله ﴾ [الأحزاب : 39] وكذلك قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى اتق الله وَلاَ تُطِعِ الكافرين والمنافقين ﴾ [الأحزاب : 1] وهذا الوجه مناسب لأن الآية لبيان تباين الفريقين ، وهذا يحقق ذلك ، من حيث إن المنافق كان يخشى الناس وهم الفريقان ، المؤمنون والكافرون فكان يتردد بينهما ويرضي الفريقين ويسخط الله فقال الله تعالى المؤمن المهتدي بخلاف المنافق حيث علم ذاك ولم يعلم ذلك واتقى الله لا غير ، واتقى ذلك غير الله .

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (18)

يعني الكافرون والمنافقون لا ينظرون إلا الساعة ، وذلك لأن البراهين قد صحت والأمور

قد اتضحت وهم لم يؤمنوا فلا يتوقع منهم الإيمان إلا عند قيام الساعة وهو من قبيل بدل الاشتمال على تقدير لا ينظرون إلا الساعة إتيانها بغتة ، وقرىء ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ الساعة أَن تَأْتِيَهُمْ ﴾ على الشرط وجزاؤه لا ينفعهم ذكراهم ، يدل عليه قوله تعالى : ﴿ فأنى لَهُمْ إِذَا جَاءتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ ، وقد ذكرنا أن القيامة سميت بالساعة لساعة الأمور الواقعة فيها من البعث والحشر والحساب .

(77/708)

وقوله ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ يحتمل وجهين أحدهما : لبيان غاية عنادهم وتحقيقه هو أن الدلائل لما ظهرت ولم يؤمنوا لم يبق إلا إيمان اليأس وهو عند قيام الساعة لكن أشراطها بانت فكان ينبغي أن يؤمنوا ولم يؤمنوا فهم في لجة الفساد وغاية العناد ثانيهما : يكون لتسلية قلوب المؤمنين كأنه تعالى لما قال : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ ﴾ فهم منه تعذيبهم والساعة عند العوام مستبطأة فكأن قائلاً قال متى الساعة ؟ فقد جاء أشراطها كقوله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ [القمر : 1] والأشراط العلامات ، قال المفسرون هي مثل انشقاق القمر ورسالة محمد عليه السلام ، ويحتمل أن يقال معنى الأشراط البينات الموضحة لجواز الحشر ، مثل خلق الإنسان ابتداء وخلق السموات والأرض ، كما قال

تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ الذي خَلَقَ السموات والأرض بقادر على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [ياس : 81] والأول هو التفسير .

ثم قال تعالى : ﴿ فأنى لَهُمْ إِذَا جَاءتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ يعني لا تنفعهم الذكرى إذ لا تقبل التوبة ولا يحسب الإيمان ، والمراد فكيف لهم الحال إذا جاءتهم ذكراهم ، ومعنى ذلك يحتمل أن يكون هو قوله تعالى : ﴿ هذا يَوْمُكُمُ الذي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : 103] ﴿ هذا يَوْمُ الفصل الذي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الصافات : 21] فيذكرون به للتحسر ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ﴾ [الزمر : 71] .

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (19)

(78/708)

ولبيان المناسبة وجوه الأول : هو أنه تعالى لما قال : ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ [محمد : 18] قال : ﴿ فاعلم أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ الله ﴾ يأتي بالساعة ، كما قال تعالى : ﴿ أَزِفَتِ الآزفة * لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ الله كَاشِفَةٌ ﴾ [النجم : 57 ، 58] ، وثانيها : ﴿ فَقَدْ جَاءَ

أَشْرَاطُهَا ﴾ وهي آتية فكأن قائلاً قال متى هذا ؟ فقال : ﴿ فاعلم أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ الله ﴾ فلا تشتغل به واشتغل بما عليك من الاستغفار ، وكن في أي وقت مستعداً للقائها ويناسبه قوله تعالى : ﴿ واستغفر لذَنبكَ ﴾ ، الثالث : ﴿ فاعلم أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ الله ﴾ ينفعك ، فإن قيل النبي عليه الصلاة والسلام كان عالماً بذلك فما معنى الأمر ، نقول عنه من وجهين أحدهما : فاثبت على ما أنت عليه من العلم كقول القائل لجالس يريد القيام : اجلس أي لا تقم ثانيهما : الخطاب مع النبي عليه الصلاة والسلام ، والمراد قومه والضمير في أنه للشأن ، وتقدير هذا هو أنه عليه السلام لما دعا القوم إلى الإيمان ولم يؤمنوا ولم يبق شيء يحملهم على الإيمان إلا ظهور الأمر بالبعث والنشور ، وكان ذلك مما يحزن النبي عليه الصلاة والسلام ، فسلى قلبه وقال أنت كامل في نفسك مكمل لغيرك فإن لم يكمل بك قوم لم يرد الله تعالى بهم خيراً فأنت في نفسك عامل بعلمك وعلمك حيث تعلم أن الله واحد وتستغفر وأنت بحمد الله مكمل وتكمل المؤمنين والمؤمنات وأنت تستغفر لهم ، فقد حصل لك الوصفان ، فاثبت على ما أنت عليه ، ولا يحزنك كفرهم ، وقوله تعالى : ﴿ واستغفر لذَنبكَ ﴾ يحتمل وجهين أحدهما : أن يكون الخطاب معه والمراد المؤمنون وهو بعيد لإفراد المؤمنين والمؤمنات بالذكر .

وقال بعض الناس ﴿لِذَنبِكِ﴾ أي لذنب أهل بيتك وللمؤمنين والمؤمنات أي الذين ليسوا منك بأهل بيت وثالثهما : المراد هو النبي والذنب هو ترك الأفضل الذي هو بالنسبة إليه ذنب وحاشاه من ذلك وثالثها : وجه حسن مستنبط وهو أن المراد توفيق العمل الحسن واجتناب العمل السيء ، ووجهه أن الاستغفار طلب الغفران ، والغفران هو الستر على القبيح ومن عصم فقد ستر عليه قبائح الهوى ، ومعنى طلب الغفران أن لا تفضحنا وذلك قد يكون بالعصمة منه فلا يقع فيه كما كان للنبي صلى الله عليه وسلم وقد يكون بالستر عليه بعد الوجود كما هو في حق المؤمنين والمؤمنات ، وفي هذه الآية لطيفة وهي أن النبي صلى الله عليه وسلم له أحوال ثلاثة حال مع الله وحال مع نفسه وحال مع غيره ، فأما مع الله وحده ، وأما مع نفسك فاستغفر لذنبك واطلب العصمة من الله ، وأما مع المؤمنين فاستغفر لهم واطلب الغفران لهم من الله ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ يعني حالكم في الدنيا وفي الآخرة وحالكم في الليل والنهار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 54.50 ﴾

(80/708)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾

قال ابن عباس وقتادة وابن جريج والسدي : إن هذه الآية منسوخة بآية السيف التي في براءة : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة : 5] وإن الأسر والمن والفداء مرتفع ، فمتى وقع أسر فإنما معه القتل ولا بد ، وروي نحوه عن أبي بكر الصديق . وقال ابن عمر وعمر بن عبد العزيز وعطاء ما معناه : إن هذه الآية محكمة مبينة لتلك ، والمن والفداء ثابت ، وقد منَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على ثمامة بن أثال ، وفادى أسرى بدر ، وقاله الحسن ، وقال : لا يقتل الأسير إلا في الحرب ، يهيب بذلك على العدو . وكان عمر بن عبد العزيز يفادي رجلاً برجل ، ومنع الحسن أن يفادوا بالمال . وقد أمر عمر بن عبد العزيز بقتل أسير من الترك ذكر له أنه قتل مسلمين . وقالت فرقة : هذه الآية خصصت من الأخرى أهل الكتاب فقط ، ففيهم المن والفداء ، وعباد الأوثان ليس فيهم إلا القتل . وعلى قول أكثر العلماء الآيتان محكمتان . وقوله هنا : ﴿ فضرب الرقاب ﴾ بمثابة قوله هناك : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة : 5] وصرح هنا بذكر المن والفداء ، ولم يصرح به هنالك ، وهو مراد متقرر ، وهذا هو القول القوي .

وقوله : ﴿ فضرب الرقاب ﴾ مصدر بمعنى الفعل ، أي فاضربوا رقابهم وعين من أنواع القتل أشهره وأعرفه فذكره ، والمراد : اقتلوهم بأي وجه أمكن ، وقد زادت آية : ﴿ واضربوا منهم كل بنان ﴾ [الأنفال : 12] وهي من أنكى ضربات الحرب ، لأنها تعطل من المضروب جميع جسده ، إذ البنان أعظم آلة المقاتل وأصلها . و: ﴿ أثخنتموهم ﴾ معناه : بالقتل . والإثخان في القوم : أن يكثر فيهم القتلى والجرحى ، والمعنى : فشدوا الوثاق بمن لم يقتل ولم يترتب عليه إلا الأسر . و: ﴿ مناً ﴾ و: ﴿ فداء ﴾ مصدران منصوبان بفعلين مضمرين . وقرأ جمهور الناس : " فداء " . وقرأ شبل عن ابن كثير : " فدى " مقصوراً .

وإمام المسلمين مخير في أسراه في خمسة أوجه : القتل ، أو الاسترقاق ، أو ضرب الجزية ، أو الفداء ، أو المن . ويترجح النظر في أسير أسر بحسب حاله من إذاية المسلمين أو ضد ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ معناه : حتى تذهب وتزول أثقالها . والأوزار : الأثقال فيها والآلات لها ، ومنه قول الشاعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي : [المتقارب]

وأعددت للحرب أوزارها . . . رماحاً طوالاً وخيلاً ذكورا

وقال الثعلبي : وقيل الأوزار في هذه الآية : الآثام ، جمع وزر ، لأن الحرب لا بد أن يكون فيها آثام في أحد الجانبين .

واختلف المتأولون في الغاية التي عندها ﴿ تضع الحرب أوزارها ﴾ ، فقال قتادة : حتى يسلم الجميع فتضع الحرب أوزارها . وقال حذاق أهل النظر : حتى تغلبوهم وتقتلوهم .

وقال مجاهد حتى ينزل عيسى ابن مريم .

قال القاضي أبو محمد : وظاهر الآية أنها استعارة يراد لها التزام الأمر أبداً ، وذلك أن الحرب بين المؤمنين والكافرين لا تضع أوزارها ، فجاء هذا كما تقول : أنا أفعل كذا إلى يوم القيامة ، فإنما تريد : إنك تفعله دائماً .

(82/708)

وقوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ تقديره : الأمر ذلك . ثم قال : ﴿ ولو يشاء الله لانتصر منهم ﴾ أي بعذاب من عنده يهلكهم به في حين واحد ، ولكنه تعالى أراد اختبار المؤمنين وأن يبلو بعض الناس ببعض .

وقرأ جمهور الناس : " قاتلوا " وقرأ عاصم الجحدري بخلاف عنه : " قَتَلوا " بفتح القاف والتاء . وقرأ أبو عمرو وحفص عن عاصم والأعرج وقتادة والأعمش : " قُتِلوا " بضم

القاف وكسر التاء . وقرأ زيد بن ثابت والحسن والجحدري وأبو رجاء : " قُتِّلوا " بضم القاف وكسر التاء وشدها ، والقراءة الأولى أعمها وأوضحها معنى . وقال قتادة : نزلت هذه الآية فيمن قتل يوم أحد من المؤمنين .

وقوله تعالى : ﴿ سيهديهم ﴾ أي إلى طريق الجنة ، وقد تقدم القول في إصلاح البال .

وروى عباس بن المفضل عن أبي عمرو : " ويدخلهم " بسكون اللام . وفي سورة [التغابن] ﴿ يوم يجمعكم ﴾ [التغابن : 9] وفي سورة [الإنسان] ﴿ إنما نطعمكم ﴾ [الإنسان : 9] بسكون العين والميم .

وقوله تعالى : ﴿ عرفها لهم ﴾ قال أبو سعيد الخدري وقتادة معناه : بينها لهم ، أي جعلهم يعرفون منازلهم منها ، وفي نحو هذا المعنى هو قول النبي عليه السلام : " لأحدكم بمنزله في الجنة أعرف منه بمنزله في الدنيا " وقالت فرقة معناه : سماها لهم ورسمها ، كل منزل باسم صاحبه ، فهذا نحو من التعريف . وقالت فرقة معناه : شرفها لهم ورفعها وعلاها ، وهذا من الأعراف التي هي الجبال وما أشبهها ، ومنه أعراف الخيل . وقال مؤرج وغيره معناه : طيبها مأخوذ من العرف ، ومنه طعام معرف ، أي مطيب . وعرفت القدر : طيبتها بالملح والتابل .

وقوله تعالى : ﴿ إن تنصروا الله ﴾ فيه حذف مضاف ، أي دين الله ورسوله ، والمعنى :

تنصروه بجدكم واتباعكم وإيمانكم ﴿ ينصركم ﴾ بخلق القوة لكم والجرأة وغير ذلك من المعاون.

(83/708)

وقرأ جمهور الناس: "ويثبّت" بفتح التاء المثلثة وشد الباء. وقرأ المفضل عن عاصم: "ويثْبِت" بسكون الثاء وتخفيف الباء، وهذا التثبيت هو في مواطن الحرب على الإسلام، وقيل على الصراط في القيامة.

وقوله تعالى: ﴿ فتعساً لهم ﴾ معناه: عثاراً وهلاكاً فيه، وهي لفظة تقال للعاثر إذا أريد به الشر، ومنه قول الشاعر: [المنسرح]

يا سيدي إن عثرت خذ بيدي... ولا تقل: لا، ولا تقل تعسا

وقال الأعشى: [البسيط]

بذات لوث عفرناة إذا عثرت... فالتعس أدنى لها من أن أقول لعا

ومنه قول أم مسطح لما عثرت في مرطها: تعس مسطح. قال ابن السكيت: التعس أن يخر على وجهه. و: ﴿ تعساً ﴾ مصدر نصبه فعل مضمر.

وقوله تعالى: ﴿ كرهوا ما أنزل الله ﴾ يريد القرآن. وقوله: ﴿ فأحبط أعمالهم ﴾

يقتضي أن أعمالهم في كفرهم التي هي بر مقيدة محفوظة ، ولا خلاف أن الكافر له حفظة يكتبون سيئاته .

واختلف الناس في حسناتهم ، فقالت فرقة : هي ملغاة يثابون عليها بنعم الدنيا فقط .

وقالت فرقة : هي محصاة من أجل ثواب الدنيا ، ومن أجل أنه قد يسلم فينضاف ذلك إلى حسناته في الإسلام ، وهذا أحد التأويلين في قول النبي عليه السلام لحكيم بن حزام : " أسلمت على ما سلف لك من خير " . فقوم قالوا تأويله : أسلمت على أن يعد لك ما سلف من خير ، وهذا هو التأويل الذي أشرنا إليه . وقالت فرقة معناه : أسلمت على إسقاط ما سلف لك من خير ، إذ قد ثوبت عليه بنعم دنياك . وذكر الطبري أن أعمالهم التي أخبر في هذه الآية بحبطها : عبادتهم الأصنام وكفرهم . ومعنى : ﴿ أحبط ﴾ جعلها من العمل الذي لا يزكو ولا يعتد به ، فهي لذلك كالذي أحبط .

قوله تعالى : ﴿ أفلم يسيروا ﴾ توقيف لقريش وتوبيخ . و: ﴿ الذين من قبلهم ﴾ يريد : ثمود وقوم لوط وقوم شعيب وأهل السد وغيرهم . والدمار : الإفساد وهدم البناء وإذهاب العمران .

وقوله : ﴿ دمر الله عليهم ﴾ من ذلك . والضمير في قوله : ﴿ أمثالها ﴾ يصح أن يعود على العاقبة المذكورة ، ويصح أن يعود على الفعلة التي يتضمنها قوله : ﴿ دمر الله عليهم ﴾ . وقولهم : ﴿ ذلك بأن ﴾ ابتداء وخبر في " أن " وما عملت فيه . والمولى : الناصر الموالي ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود : " ذلك بأن الله ولي الذين آمنوا " . وقال قتادة : إن هذه الآية نزلت يوم أحد ومنها انتزع رسول الله صلى الله عليه وسلم رده على أبي سفيان حين قال له : " قولوا الله مولانا ولا مولى لكم " .

وقوله تعالى : ﴿ ويأكلون كما تأكل الأنعام ﴾ أي أكلاً مجرداً من فكرة ونظر ، فالتشبيه بالمعنى إنما وقع فيما عدا الأكل من قلة الفكر وعدم النظر ، فقوله : ﴿ كما ﴾ في موضع الحال ، وهذا كما تقول لجاهل : يعيش كما تعيش البهيمة ، فأما بمقتضى اللفظ فالجاهل والعالم والبهيمة من حيث لهم عيش فهم سواء ، ولكن معنى كلامك يعيش عديم النظر والفهم كما تعيش البهيمة . والمثوى : موضع الإقامة ، وقد تقدم القول غير مرة في قوله : ﴿ وكأين ﴾ . وضرب الله تعالى لمكة مثلاً بالقرى المهلكة على عظمها ، كقرية قوم عاد وغيرها . و: ﴿ أخرجتك ﴾ معناه : وقت الهجرة . ونسب الإخراج إلى القرية حملاً على اللفظ . وقال : ﴿ أهلكناهم ﴾ حملاً على المعنى . ويقال : إن هذه الآية نزلت إثر خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة في طريق المدينة . وقيل : نزلت بالمدينة . وقيل : نزلت بمكة عام دخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الحديبية . وقيل نزلت :

عام الفتح وهو مقبل إليها . وهذا كله حكمه حكم المدني .

أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (14)

(85/708)

قوله تعالى : ﴿ أفمن كان ﴾ الآية توقيف وتقرير على شيء متفق عليه وهي معادلة بين هذين الفريقين . وقال قتادة : الإشارة بهذه الآية إلى محمد عليه السلام في أنه الذي هو على بينة وإلى كفار قريش في أنهم الذين زين لهم سوء أعمالهم .

قال القاضي أبو محمد : وبقي اللفظ عاماً لأهل هاتين الصفتين غابر الدهر وقوله : ﴿ على بينة ﴾ معناه على قصة واضحة وعقيدة نيرة بينة ، ويحتمل أن يكون المعنى على أمر بين ودين بين ، وألحق الهاء للمبالغة : كعلامة ونسابة . والذي يسند إليه قوله : ﴿ زين ﴾ الشيطان . واتباع الأهواء : طاعتها كأنها تذهب إلى ناحية والمرء يذهب معها .

واختلف الناس في قوله تعالى : ﴿ مثل الجنة ﴾ الآية ، فقال النضر بن شميل وغيره : ﴿ مثل ﴾ معناه صفة ، كأنه قال صفة الجنة ما تسمعون فيها كذا وكذا ، وقال سيبويه : المعنى فيما يتلى عليكم مثل الجنة . ثم فسر ذلك الذي يتلى بقوله : فيها كذا وكذا .

(86/708)

قال القاضي أبو محمد : والذي ساق أن يجعل ﴿ مثل ﴾ بمثابة صفة هو أن الممثل به ليس في الآية ، ويظهر أن القصد في التمثيل هو إلى الشيء الذي يتخيله المرء عند سماعه فيها كذا وكذا فإنه يتصور عند ذلك بقاعاً على هذه الصورة وذلك هي ﴿ مثل الجنة ﴾ ومثالها ، وفي الكلام حذف يقتضيه الظاهر ، كأنه يقول : ﴿ مثل الجنة ﴾ ظاهر في نفس من وعى هذه الأوصاف . وقرأ علي بن أبي طالب : " مثال الجنة " . وقرأ علي بن أبي طالب أيضاً وابن عباس : " أمثال الجنة " . وعلى هذه التأويلات كلها ففي قوله : ﴿ كمن هو خالد ﴾ حذف تقديره : أساكن هذه ، أو تقديره : أهؤلاء إشارة إلى المتقين ، ويحتمل عندي أيضاً أن يكون الحذف في صدر الآية . كأنه قال : أمثل أهل الجنة ﴿ كمن هو خالد ﴾ ، ويكون قوله : ﴿ مثل ﴾ مستفهماً عنه بغير ألف الاستفهام ، فالمعنى : أمثل أهل الجنة ، وهي بهذه الأوصاف ﴿ كمن هو خالد في النار ﴾ فتكون الكاف في قوله : ﴿ كمن ﴾ مؤكدة في التشبيه ، ويجيء قوله : ﴿ فيها أنهار ﴾ في موضع الحال على هذا التأويل . ﴿ وما غير آسن ﴾ معناه غير متغير ، قاله ابن عباس وقتادة ، وسواء أنتن أو لم ينتن ، يقال : أسَن الماء : بفتح السين ، وأسِن بكسرها .

وقرأ جمهور القراء : " آسِن " على وزن فاعل . وقرأ ابن كثير : " أسن " ، على وزن فعل ، وهي قراءة أهل مكة ، والأسن أيضاً هو الذي يخشى عليه من ريح منتنة من ماء ، ومنه

قول الشاعر :

التارك القرن مصراً أنامله . . . يميل في الرمح ميل المائح الأسن

وقال الأخفش : ﴿ آسن ﴾ لغة : والمعنى الإخبار به عن الحال ، ومن قال : " آسِن " على وزن فاعل ، فهو يريد به أن يكون كذلك في المستقبل فنفى ذلك في الآية .

وقرأت فرقة : " غير يسن " ، بالياء . قال أبو علي : وذلك على تخفيف الهمزة ، قال أبو حاتم عن عوف : كذلك كانت في المصحف : " يسن " ، فغيرها الحجاج .

(87/708)

وقوله : في اللبن ﴿ لم يتغير طعمه ﴾ نفي لجميع وجوه الفساد في اللبن وقوله : ﴿ لذة للشاربين ﴾ جمعت طيب المطعم وزوال الآفات من الصداع وغيره و ﴿ لذة ﴾ نعت على النسب ، أي ذات لذة . وتصفية العسل مذهبة لمومه وضرره . وقوله : ﴿ من كل الثمرات ﴾ أي من هذه الأنواع ، لكنها بعيدة الشبه ، إذ تلك لا عيب فيها ولا تعب بوجه .

وقوله : ﴿ ومغفرة من ربهم ﴾ معناه : وتنعيم أعطته المغفرة وسببته ، فالمغفرة إنما هي قبل الجنة ، وقوله : ﴿ وسقوا ﴾ الضمير عائد على " مَنْ " لأن المراد به جمع .

وقوله تعالى : ﴿ ومنهم من يستمع إليك ﴾ يعني بذلك المنافقين من أهل المدينة ، وذلك

أنهم كانوا يحضرون عند النبي عليه السلام فيسمعون كلامه وتلاوته ، فإذا خرجوا قال بعضهم لمن شاء من المؤمنين الذين عملوا وانتفعوا ﴿ ماذا قال آنفاً ﴾ فكان منهم من يقول هذا استخفافاً ، أي ما معنى ما قال وما نفعه وما قدره ؟ ومنهم من كان يقول ذلك جهالة ونسياناً ، لأنه كان في وقت الكلام مقبلاً على فكرته في أمر دنياه وفي كفره ، فكان القول يمر صفحاً ، فإذا خرج قال : ﴿ ماذا قال آنفاً ﴾ ، وهذا أيضاً فيه ضرب من الاستخفاف ، لأنه كان يصرح أنه كان يقصد الإعراض وقت الكلام ، ولو لم يكن ذلك بقصد لم يبعد أن يجري على بعض المؤمنين . وروي أن عبد الله بن مسعود وابن عباس ممن سئل هذا السؤال ، حكاه الطبري عن ابن عباس .

وقرأ الجمهور : " آنفاً " على وزن فاعل ، وقرأ ابن كثير وحده : " أنفاً " على وزن فعل ، وهما اسما فاعل من ائتنف ، وجريا على غير فعلهما ، وهذا كما جرى فقير على افتقر ولم يستعمل فقر ، وهذا كثير ، والمفسرون يقولون : " أنفاً " معناه : الساعة الماضية القريبة منا ، وهذا تفسير بالمعنى .

ثم أخبر تعالى أنه ﴿ طبع ﴾ على قلوب هؤلاء المنافقين الفاعلين لهذا ، وهذا الطبع يحتمل أن يكون حقيقة ، ويحتمل أن يكون استعارة وقد تقدم القول فيه .

وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (17)

لما ذكر تعالى المنافقين بما هم أهله من قوله : ﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ﴾ [محمد : 16] عقب ذلك بذكر المؤمنين ليبين الفرق ، وشرفهم بإسناد فعل الاهتداء إليهم وهي إشارة إلى تكسبهم .

وقوله تعالى : ﴿ زادهم هدى ﴾ يحتمل أن يكون الفاعل في ﴿ زادهم ﴾ الله تعالى ، والزيادة في هذا المعنى تكون إما بزيادة التفهيم والأدلة ، وإما بورود الشرائع والنواهي والأخبار فيزيد الاهتداء لتزيد علم ذلك كله والإيمان به وذلك بفضل الله تعالى ، ويحتمل أن يكون الفاعل في : ﴿ زادهم ﴾ قول المنافقين واضطرابهم ، لأن ذلك مما يتعجب المؤمن منه ويحمد الله على إيمانه ، ويتزيد بصيرة في دينه ، فكأنه قال : المهتدون والمؤمنون زادهم فعل هؤلاء المنافقين هدى ، أي كانت الزيادة بسببه ، فأسند الفعل إليه ، وقالت فرقة : إن هذه الآية نزلت في قوم من النصارى ، آمنوا بمحمد فالفاعل في : ﴿ زادهم ﴾ محمد عليه السلام كان سبب الزيادة فأسند الفعل إليه . وقوله على هذا القول : ﴿ اهتدوا ﴾ يريد في إيمانهم بعيسى عليه السلام ثم ﴿ زادهم ﴾ محمد ﴿ هدى ﴾ حين آمنوا به .

والفاعل في ﴿ آتاهم ﴾ يتصرف بحسب التأويلات المذكورة ، وأقواها أن الفاعل الله تعالى . ﴿ وآتاهم ﴾ معناه : أعطاهم ، أي جعلهم متقين له ، فالتقدير : تقواهم إياه . وقرأ

الأعمش : " وأنطاهم تقواهم " ، وهي بمعنى أعطاهم ، ورواها محمد بن طلحة عن أبيه . وهي في مصحف عبد الله .

وقوله تعالى : ﴿ فهل ينظرون ﴾ يريد المنافقين ، والمعنى : ﴿ فهل ينظرون ﴾ أي هكذا هو الأمر في نفسه وإن كانوا هم في أنفسهم ينتظرون غير ذلك ، فإن ما في أنفسهم غير مراعى ، لأنه باطل .

(89/708)

وقرأ جمهور الناس : " أن تأتيهم " ف ﴿ أن ﴾ بدل من ﴿ الساعة ﴾ . وقوله تعالى على هذه القراءة . ﴿ فقد جاء أشراطها ﴾ إخبار مستأنف والفاء عاطفة جملة من الكلام على جملة . وقرأ أهل مكة فيما روى الرؤاسي " إن تأتهم " بكسر الألف وجزم الفعل على الشرط ، والفاء في قوله : ﴿ فقد جاء أشراطها ﴾ جواب الشرط وليست بعاطفة على القراءة الأولى فثم نحو من معنى الشرط ، و . ﴿ بغتة ﴾ معناه : فجأة ، وروي عن أبي عمرو " بغَتّة " بفتح الغين وشد التاء . وقوله : ﴿ فقد جاء أشراطها ﴾ على القراءتين معناه : فينبغي أن يقع الاستعداد والخوف منها لمن جزم ونظر لنفسه . والذي جاء من أشراط الساعة محمد عليه السلام لأنه آخر الأنبياء ، فقد بان من أمر الساعة قدر ما ، وفي

الحديث عنه عليه السلام أنه قال : " أنا من أشراط الساعة وقد بعثت أنا والساعة كهاتين وكفرسي رهان " . ويقال شرط وشرط : بسكون الراء وتخفيفها ، وأشرط الرجل نفسه : ألزمها أموراً . وقال أوس بن حجر : [الطويل]

فأشرط فيها نفسه وهو معصم . . . وألقى باسباب له وتوكلا

وقوله تعالى : ﴿ فأنى لهم ﴾ الآية ، يحتمل أن يكون المعنى : ﴿ فأنى لهم ﴾ الخلاص أو النجاة ﴿ إذ جاءتهم ﴾ الذكرى بما كانوا يخبرون به في الدنيا فيكذبون به وجاءهم العذاب مع ذلك . ويحتمل أن يكون المعنى : فأنى لهم ذكراهم وعملهم بحسبها إذا جاءتهم الساعة ، وهذا تأويل قتادة ، نظيره : ﴿ وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ﴾ [سبإ : 52] .

(90/708)

وقوله تعالى : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ الآية إضراب عن أمر هؤلاء المنافقين وذكر الأهم ، والمعنى : دم على علمك ، وهذا هو القانون في كل أمر بشيء هو متلبس به ، وهذا خطاب للنبي عليه السلام ، وكل واحد من الأمة داخل معه فيه . واحتج بهذه الآية من قال من أهل السنة : إن العلم والنظر قبل القول ، والإقرار في مسألة أول الواجبات . وبوب

البخاري رحمه الله العلم قبل القول والعمل لقوله تعالى : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك ﴾ الآية ، وواجب على كل مؤمن أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات ، فإنها صدقة .

وقال الطبري وغيره : ﴿ متقلبكم ﴾ تصرفكم في يقظتكم . ﴿ ومثواكم ﴾ منامكم .

وقال ابن عباس : ﴿ متقلبكم ﴾ تصرفكم في حياتكم الدنيا . ﴿ ومثواكم ﴾ في قبوركم وفي آخرتكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(91/708)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾

أي من هؤلاء الذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، وزُيِّن لهم سوء عملهم قوم يستمعون إليك وهم المنافقون : عبد الله بن أُبَيّ بن سَلُول ورفاعة بن التابوت وزيد بن الصليت والحارث بن عمرو ومالك بن دُخْشم ، كانوا يحضرون الخطبة يوم الجمعة فإذا سمعوا ذكر المنافقين فيها أعرضوا عنه ، فإذا خرجوا سألوا عنه ؛ قاله الكلبي ومقاتل .

وقيل : كانوا يحضرون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المؤمنين ؛ فيستمعون منه ما يقول ، فيَعِيَه المؤمن ولا يعيه الكافر .

﴿ حتى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ ﴾ أي إذا فارقوا مجلسك .

﴿ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ العلم ﴾ قال عكرمة : هو عبد الله بن العباس .

قال ابن عباس : كنت ممن يُسأل ، أي كنت من الذين أوتوا العلم .

وفي رواية عن ابن عباس : أنه يريد عبد الله بن مسعود .

وكذا قال عبد الله بن بريدة : هو عبد الله بن مسعود .

وقال القاسم بن عبد الرحمن : هو أبو الدرداء .

وقال ابن زيد : إنهم الصحابة .

﴿ مَاذَا قَالَ آنِفاً ﴾ أي الآن ؛ على جهة الاْستهزاء .

أي أنا لم ألتفت إلى قوله .

و"آنِفاً" يراد به الساعة التي هي أقرب الأوقات إليك ؛ من قولك : استأنفت الشيء إذا ابتدأت به .

ومنه أَمْرٌ أُنُف ، ورَوْضة أُنُف ؛ أي لم يرعها أحد .

وكأس أنف : إذا لم يُشرب منها شيء ؛ كأنه استؤنف شربها مثل روضة أنف .

قال الشاعر :

ويَحْرُم سِرُّ جارتهم عليهم . . .

ويأكل جارهم أنفَ القصاع

وقال آخر :

إن الشّواء والنَّشِيل والرُّغُفْ . . .

والْقَيْنَةَ الحسناءَ والكأسَ الأُنُفْ

للطاعنين الخيل والخيل قُطُف . . .

وقال امرؤ القيس :

قد غَدَا يحملني في أنفه . . .

أي في أوّله .

وأُنُفُ كلّ شيء أوّله .

وقال قتادة في هؤلاء المنافقين : الناس رجلان : رجل عَقَل عن الله فانتفع بما سمع ، ورجل لم يعقل ولم ينتفع بما سمع .

(92/708)

وكان يقال : الناس ثلاثة : فسامع عامل ، وسامع عاقل ، وسامع غافل تارك .

قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ ﴾ فلم يؤمنوا .

﴿ واتبعوا أَهْوَآءَهُمْ ﴾ في الكفر .

﴿ والذين اهتدوا ﴾ أي للإيمان زادهم الله هدى .

وقيل : زادهم النبيّ صلى الله عليه وسلم هدى .

وقيل : ما يستمعونه من القرآن هدى ؛ أي يتضاعف يقينهم .

وقال الفرّاء : زادهم إعراض المنافقين واستهزاؤهم هدى .

وقيل : زادهم نزول الناسخ هدى .

وفي الهدى الذي زادهم أربعة أقاويل : أحدها زادهم علماً ؛ قاله الربيع بن أنس .

الثاني أنهم علموا ما سمعوا وعملوا بما علموا ؛ قاله الضحاك .

الثالث زادهم بصيرة في دينهم وتصديقاً لنبيّهم ؛ قاله الكلبيّ .

الرابع شرح صدورهم بما هم عليه من الإيمان .

﴿ وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ أي ألهمهم إياها .

وقيل : فيه خمسة أوجه : أحدها آتاهم الخشية ؛ قاله الربيع .

الثاني ثواب تقواهم في الآخرة ؛ قاله السدّي .

الثالث وفقهم للعمل الذي فرض عليهم ؛ قاله مقاتل .

الرابع بيّن لهم ما يتقون ؛ قاله ابن زياد والسدّيّ أيضاً .

الخامس أنه ترك المنسوخ والعمل بالناسخ ؛ قاله عطية .

الماورديّ : ويحتمل .

سادساً أنه ترك الرخص والأخذ بالعزائم .

وقرىء "وَأَعْطَاهُمْ" بدل "وَآتَاهُمْ" .

وقال عكرمة : هذه نزلت فيمن آمن من أهل الكتاب .

قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ الساعة أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ أي فجأة .

وهذا وعيد للكفار .

﴿ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ أي أماراتها وعلاماتها .

وكانوا قد قرءوا في كتبهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء ، فَبَعْثُه من أشراطها وأدلتها ، قاله الضحاك والحسن .

وفي الصحيح عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" بعثت أنا والساعة كهاتين " وضمّ السبابة والوسطى ، لفظ مسلم : وخرّجه البخاريّ والترمذيّ وابن ماجه .

(93/708)

ويروى " بعثت والساعة كَفَرَسَيْ رِهان " وقيل : أشراط الساعة أسبابها التي هي دون معظمها .

ومنه يقال للدُّون من الناس : الشَّرَط .

وقيل : يعني علامات الساعة انشقاق القمر والدخان ، قاله الحسن أيضاً .

وعن الكلبي : كثرة المال والتجارة وشهادة الزور وقطع الأرحام ، وقلة الكرام وكثرة اللئام .

وقد أتينا على هذا الباب في كتاب "التذكرة" مستوفًى والحمد لله .

وواحد الأشراط شَرَط ، وأصله الأعلام .

ومنه قيل الشُّرَط ، لأنهم جعلوا لأنفسهم علامة يعرفون بها .

ومنه الشَّرْط في البيع وغيره .

قال أبو الأسود :

فإن كنتِ قد أزْمَعْتِ بالصُّرْمِ بيننا . . .

فقد جعلت أشراط أوّله تبدو

ويقال : أشرط فلان نفسه في عمل كذا أي أعلمها وجعلها له .

قال أوس بن حَجر يصف رجلاً تدلّى بحبل من رأس جبل إلى نَبْعة يقطعها ليتّخذ منها قَوْساً

:

فأشْرَط نفسه فيها وهو مُعْصِمٌ . . .

وألقى بأسباب له وتَوَكَّلا

﴿ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ "أَنْ" بدل اشتمال من "الساعة" ؛ نحو قوله : ﴿ أَن تَطَئُوهُمْ ﴾ من

قوله : ﴿ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَاتٌ ﴾ [الفتح : 25] .

وقرىء "بَغَّةً" بوزن جَرَّبَة ، وهي غريبة لم ترد في المصادر أختها ؛ وهي مَرْوِية عن أبي عمرو .

الزمخشريّ : وما أخوفني أن تكون غلطة من الراوي عن أبي عمرو ، وأن يكون الصواب "بَغَتة" بفتح الغين من غير تشديد ؛ كقراءة الحسن .

وروى أبو جعفر الرؤاسي وغيره من أهل مكة "إِنْ تَأْتِهِمْ بَغْتَةً" .

قال المهدويّ : ومن قرأ "إِنْ تَأْتِهِمْ بَغْتَةً" كان الوقف على "السَّاعَةَ" ثم استأنف الشرط .

وما يحتمله الكلام من الشك مردود إلى الخلق ؛ كأنه قال : إن شكُّوا في مجيئها "فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا" .

قوله تعالى : ﴿ فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ "ذِكْرَاهُمْ" ابتداء و "أَنَّى لَهُمْ" الخبر .

(94/708)

والضمير المرفوع في "جَاءَتْهُمْ" للساعة ؛ التقدير : فمن أين لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة ؛ قال معناه قتادة وغيره .

وقيل : فكيف لهم بالنجاة إذا جاءتهم الذكرى عند مجيء الساعة ؛ قاله ابن زيد .

وفي الذكرى وجهان : أحدهما تذكيرهم بما عملوه من خير أو شر .

الثاني هو دعاؤهم بأسمائهم تبشيراً وتخويفاً ؛ روى أبان عن أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أحسنوا أسماءكم فإنكم تدعون بها يوم القيامة يا فلان قم إلى نورك يا فلان قم لا نور لك " ذكره الماوَرْدِيّ .

قوله تعالى : ﴿ فاعلم أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ الله ﴾

قال الماورديّ : وفيه وإن كان الرسول عالماً بالله ثلاثة أوجه : يعني اعلم أن الله أعلمك أن لا إله إلا الله .

الثاني ما علمته استدلالا فاعلمه خبراً يقيناً .

الثالث يعني فاذكر أن لا إله إلا الله ؛ فعبّر عن الذكر بالعلم لحدوثه عنه .

وعن سفيان بن عيينة أنه سئل عن فضل العلم فقال : ألم تسمع قوله حين بدأ به ﴿ فاعلم أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ الله واستغفر لذَنبكَ ﴾ [محمد : 19] فأمر بالعمل بعد العلم وقال : ﴿ اعلموا أَنَّمَا الحياة الدنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ إلى قوله سابقوا إلى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الحديد : 20 21] وقال : ﴿ واعلموا أَنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [الأنفال : 82] .

ثم قال بعد : "فاحذروهم" .

وقال تعالى : ﴿ واعلموا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ للَّهِ خُمُسَهُ ﴾ [الأنفال : 41] .

ثم أمر بالعمل بعد .

قوله تعالى : ﴿ واستغفرِ لذَنبِكَ ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما يعني استغفر الله أن يقع منك ذنب .

الثاني استغفر الله ليعصمك من الذنوب .

وقيل : لما ذكر له حال الكافرين والمؤمنين أمره بالثبات على الإيمان ؛ أي اثبت على ما أنت عليه من التوحيد والإخلاص والحذر عما تحتاج معه إلى استغفار .

(95/708)

وقيل : الخطاب له والمراد به الأمة ؛ وعلى هذا القول توجب الآية استغفار الإنسان لجميع المسلمين .

وقيل : كان عليه السلام يضيق صدره من كفر الكفار والمنافقين ؛ فنزلت الآية .

أي فاعلم أنه لا كاشف يكشف ما بك إلا الله ، فلا تعلق قلبك بأحد سواه .

وقيل : أمر بالاْستغفار لتقتدي به الأمة .

﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات ﴾ أي ولذنوبهم .

وهذا أمر بالشفاعة .

وروى مسلم عن عاصم الأحول عن عبد الله بن سَرْجِس المخزوميّ قال : أتيت النبي

صلى الله عليه وسلم وأكلت من طعامه فقلت : يا رسول الله ، غفر الله لكا فقال له صاحبي : هل استغفر لك النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ، ولك .

ثم تلا هذه الآية : ﴿ واستغفرِ لذنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات ﴾ ثم تحوّلت فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه ، جُمْعاً (عليه) خِيلان كأنه الثآليل .

﴿ واللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ فيه خمسة أقوال : أحدها يعلم أعمالكم في تصرفكم وإقامتكم .

الثاني "مُتَقَلَّبَكُم" في أعمالكم نهاراً "وَمَثْوَاكُمْ" في ليلكم نياماً .

وقيل "مُتَقَلَّبَكُمْ" في الدنيا .

"وَمَثْوَاكُمْ" في الدنيا والآخرة ؛ قاله ابن عباس والضحاك .

وقال عكرمة : "مُتَقَلَّبَكُمْ" في أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات .

"وَمَثْوَاكُمْ" مقامكم في الأرض .

وقال ابن كَيْسان : "مُتَقَلَّبَكُمْ" من ظهر إلى بطن إلى الدنيا .

"ومثواكم" في القبور .

قلت : والعموم يأتي على هذا كله ، فلا يخفى عليه سبحانه شيء من حركات بني آدم وسكناتهم ، وكذا جميع خلقه .

فهو عالم بجميع ذلك قبل كونه جملة وتفصيلاً أُولَى وأخْرَى .

سبحانه ! لا إله إلا هو . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(96/708)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12) ﴾

﴿ يتمتعون ﴾ : أي ينتفعون بمتاع الدنيا أياماً قلائل ، ﴿ ويأكلون ﴾ ، غافلين غير مفكرين في العاقبة ، ﴿ كما تأكل الأنعام ﴾ في مسارحها ومعالفها ، غافلة عما هي بصدده من النحر والذبح .

والكاف في موضع نصب ، إما على الحال من ضمير المصدر ، كما يقول سيبويه ، أي يأكلونه ، أي الأكل مشبهاً أكل الأنعام .

والمعنى : أن أكلهم مجرد من الفكر والنظر ، كما يقال للجاهل : يعيش كما يعيش البهيمة ، لا يريد التشبيه في مطلق العيش ، ولكن في لازمه .

﴿ والنار مثوى لهم ﴾ : أي موضع إقامة .

ثم ضرب تعالى مثلاً لمكة والقرى المهلكة على عظمها ، كقرية عاد وغيرهم ، والمراد أهلها ، وأسند الإخراج إليها مجازاً .

والمعنى : كانوا سبب خروجك ، وذلك وقت هجرته عليه السلام إلى المدينة .

وكما جاء في حديث ورقة بن نوفل : يا ليتني فيها جذعاً إذ يخرجك قومك ، قال : أوَ مخرجي هم .

وقال ابن عطية : ونسب الإخراج إلى القرية حملاً على اللفظ ، وقال : ﴿ أهلكناهم ﴾ ، حملاً على المعنى . انتهى .

وظاهر هذا الكلام لا يصح ، لأن الضمير في أهلكناهم ليس عائداً على المضاف إلى القرية التي أسند إليها الإخراج ، بل إلى أهل القرية في قوله : ﴿ وكأين من قرية ﴾ ، وهو صحيح ، لكن ظاهر قوله حملاً على اللفظ وحملاً على المعنى : أي أن يكون في مدلول واحد ، وكان يبقى كأين مفلتاً غير محدث عنه بشيء ، إلا أن وقت إهلاكهم كأنه قال : فهم لا ينصرون إذ ذاك .

(97/708)

وقال ابن عباس : لما أخرج من مكة إلى الغار ، التفت إلى مكة وقال : أنت أحب بلاد الله إلى الله ، وأنت أحب بلاد الله إليّ ، فلو أن المشركين لم يخرجوني ، لم أخرج منك ، فأعدي الأعداء من عدا على الله في حرمه ، أو قتل غير قاتله .

وقيل : بدخول الجاهلية قال : فأنزل الله تعالى ، ﴿ وكأين من قرية ﴾ الآية ؛ وقد تقدّم أول السورة عن ابن عباس خلاف هذا القول .

﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ : استفهام توقيف وتقرير على كل شيء متفق عليه ، وهي معادلة بين هذين الفريقين .

قال قتادة : والإشارة إلى الرسول وإلى كفار قريش . انتهى .

واللفظ عام لأهل الصنفين .

ومعنى على بينة : واضحة ، وهو القرآن المعجز وسائر المعجزات .

﴿ كمن زين له سوء عمله ﴾ : وهو الشرك والكفر بالله وعبادة غيره .

﴿ واتبعوا أهواءهم ﴾ : أي شهوات أنفسهم ممن لا يكون له بينة ، فعبدوا غير خالقهم .

والضمير في واتبعوا عائد على معنى من ، وقرىء أمن كان بغير فاء .

﴿ مثل الجنة ﴾ : أي صفة الجنة ، وهو مرفوع بالابتداء .

قال الزمخشري : قال النضر بن شميل : كأنه قال : صفة الجنة ، وهو ما تسمعون . انتهى .

فما تسمعون الخبر ، وفيها أنها تفسير لتلك الصفة ، فهو استئناف إخبار عن تلك الصفة .

وقال سيبويه : فيما يتلى عليكم مثل الجنة ، وقدر الخبر المحذوف متقدماً ، ثم فسر ذلك الذي يتلى .

وقال ابن عطية : وفي الكلام حذف يقتضيه الظاهر ، كأنه قيل : مثل الجنة ظاهر في نفس من وعى هذه الأوصاف .

وكان ابن عطية قد قال قبل هذا : ويظهر أن القصد بالتمثيل هو إلى الشيء الذي يتخيله المرء عند سماعه .

فههنا كذا ، فكأنه يتصور عند ذلك اتباعاً على هذه الصورة ، وذلك هو مثل الجنة .

قال : وعلى هذه التأويلات ، يعني قول النضر وقول سيبويه ، وما قاله هو يكون قبل قوله : ﴿ كمن هو خالد في النار ﴾ حذف تقديره : أساكن ؟ أو أهؤلاء ؟ إشارة إلى المتقين .

(98/708)

قيل : ويحتمل عندي أن يكون الحذف في صدر هذه الآية ، كأنه قال : مثل أهل الجنة ، وهي بهذه الأوصاف ، ﴿ كمن هو خالد في النار ﴾ .

ويجيء قوله : ﴿ فيها أنهار ﴾ في موضع الحال على هذا التأويل . انتهى .

ولم يذكر الزمخشري غير هذا الوجه .

قال : ومثل الجنة : صفة الجنة العجيبة الشأن ، وهو مبتدأ ، وخبر من هو خالد في النار .

وقوله : ﴿ فيها أنهار ﴾ ، في حكم الصلة ، كالتكرير لها .

ألا ترى إلى سر قوله : التي فيها أنهار ؟ ويجوز أن تكون خبر مبتدأ محذوف هي : فيها أنهار ، كأن قائلاً قال : وما مثلها ؟ فقيل : فيها أنهار .

وقال الزمخشري أيضاً : فإن قلت : ما معنى قوله : ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار ﴾ ؟ قال : ﴿ كمن هو خالد في النار ﴾ .

قلت : هو كلام في صورة الإثبات ، ومعناه النفي والإنكار ، لانطوائهم تحت كلام مصدر بحرف الإنكار ، ودخوله في حيزه ، وانخراطه في مسلكه ، وهو قوله : ﴿ أفمن كان على بينة من ربه كمن زين لهم سوء عمله ﴾ ، فكأنه قيل : مثل الجنة كمن هو خالد في النار ، أي كمثل جزاء من هو خالد في النار .

فإن قلت : لم عري من حرف الإنكار ؟ وما فائدة التعرية ؟ قلت : تعريته من حرف الإنكار فيها زيادة تصوير لمكابرة من سوى بين المستمسك بالبينة والتابع لهواه ، وأنه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنة التي تجري فيها تلك الأنهار ، وبين النار التي يسقى أهلها الحميم ، ونظيره قول القائل :

أفرح أن أرزأ الكرام وأن . . .

أورث ذوداً شصائصاً نبلا

هو كلام منكر للفرح برزية الكرام ووراثة الذود ، مع تعريته من حرف الإنكار ، لانطوائه تحت حكم من قال : أتفرح بموت أخيك ، وبوراثة إبله ؟ والذي طرح لأجله حرف الإنكار إرادة أن يصور قبح ما أذن به ، فكأنه قال : نعم مثلي يفرح بمرزأة الكرام ، وبأن يستبدل منهم ذوداً يقل طائله ، وهو من التسليم الذي تحته كل إنكار . انتهى .

(99/708)

وتلخص من هذا الاتفاق على إعراب : ﴿ مثل الجنة ﴾ مبتدأ ، واختلفوا في الخبر ، فقيل : هو مذكور ، وهو : ﴿ كمن هو خالد في النار ﴾ .

وقيل : محذوف ، فقيل : مقدر قبله ، وهو قول سيبويه .

وقيل : بعده ، وهو قول النضر وابن عطية على اختلاف التقدير .

ولما بين الفرق بين الفريقين في الاهتداء والضلال ، بين الفرق بينهما فيما يؤولان إليه .

وكما قدم من على بينة ، على من اتبع هواه ، قدّم حاله على حاله .

وقرأ ابن كثير وأهل مكة : آسن ، على وزن فاعل ، من أسن ، بفتح السين ؛ وقرىء : غير ياسن بالياء .

قال أبو علي : وذلك على تخفيف الهمز .

﴿ لم يتغير ﴾ ، وغيره .

و﴿ لذة ﴾ : تأنيث لذ ، وهو اللذيذ ، ومصدر نعت به ، فالجمهور بالجر على أنه صفة لخمر ، وقرىء بالرفع صفة لأنهار ، وبالنصب : أي لأجل لذة ، فهو مفعول له .

﴿ من عسل مصفى ﴾ قال ابن عباس : لم يخرج من بطون النحل .

قيل : فيخالطه الشمع وغيره ، ووصفه بمصفى لأن الغالب على العسل التذكير ، وهو مما يذكر ويؤنث .

وعن كعب : أن النيل ودجلة والفرات وجيحان ، تكون هذه الأنهار في الجنة .

واختلف في تعيين كل ، فهو منها لماذا يكون ينزل ، وبدىء من هذه الأنهار بالماء ، وهو الذي لا يستغنى عنه في المشروبات ، ثم باللبن ، إذ كان يجري مجرى الطعوم في كثير من أقوات العرب وغيرهم ، ثم بالخمر ، لأنه إذا حصل الري والمطعوم تشوقت النفس إلى ما تلتذ به ، ثم بالعسل ، لأن فيه الشفاء في الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعوم ، فهو متأخر في الهيئة .

﴿ ولهم فيها من الثمرات ﴾ ، وقيل : المبتدأ محذوف ، أي أنواع من كل الثمرات ، وقدره بعضهم بقوله : زوجان .

﴿ ومغفرة من ربهم ﴾ : لأن المغفرة قبل دخول الجنة ، أو على حذف ، أي بنعيم مغفرة ، إذ المغفرة سبب التنعيم .

﴿ وسقوا ﴾ : عائد على معنى من ، وهو خالد على اللفظ ؛ وكذا : ﴿ اخرجوا ﴾ : على معنى من يستمع .

(100/708)

كان المنافقون يحضرون عند الرسول ويستمعون كلامه وتلاوته ، فإذا خرجوا ، ﴿ قال الذين أوتوا العلم ﴾ ، وهم السامعون كلام الرسول حقيقة الواعون له : ﴿ ماذا قال آنفاً ﴾ ؟ أي الساعة ، وذلك على سبيل الهزء والاستخفاف ، أي لم نفهم ما يقول ، ولم ندر ما نفع ذلك .

وممن سألوه : ابن مسعود .

وآنفاً : حال ؛ أي مبتدأ ، أي : ما القول الذي ائتنفه قبل انفصاله عنه ؟ وقرأ الجمهور : آنفاً ، على وزن فاعل ؛ وابن كثير : على وزن فعل .

وقال الزمخشري : وآنفاً نصب على الظرف . انتهى .

وقال ذلك لأنه فسره بالساعة .

وقال ابن عطية ، والمفسرون يقولون : آنفاً ، معناه : الساعة الماضية القريبة منا ، وهذا تفسير بالمعنى . انتهى .

والصحيح أنه ليس بظرف ، ولا نعلم أحداً من النحاة عده في الظروف .

والضمير في ﴿ زادهم ﴾ عائد على الله ، كما أظهره قوله : ﴿ طبع الله ﴾ ، إذ هو مقابلهم ، وكما هو في : ﴿ وآتاهم ﴾ ؛ والزيادة في هذا المعنى تكون بزيادة التفهيم والأدلة ، أو بورود الشرع بالأمر والنهي والإخبار ، فيزيد المهدي لزيادة علم ذلك والإيمان به .

قيل : ويحتمل أن يعود على قول المنافقين واضطرابهم ، لأن ذلك مما يعجب به المؤمن ويحمد الله على إيمانه ويزيد نصرة في دينه .

وقيل : يعود على قول الرسول ﴿ وآتاهم تقواهم ﴾ : أي أعطاهم ، أي جعلهم متقين له ؛ فتقواهم مصدر مضاف للفاعل .

﴿ أن يأتيهم ﴾ : بدل اشتمال من الساعة ، والضمير للمنافقين ؛ أي الأمر الواقع في نفسه انتظار الساعة ، وإن كانوا هم في أنفسهم ينتظرون غير ذلك ؛ لأن ما في أنفسهم غير مراعى ، لأنه باطل .

وقرأ أبو جعفر الرواسي عن أهل مكة : ﴿ أن تأتهم ﴾ على الشرط ، وجوابه : ﴿ فقد جاء أشراطها ﴾ ، وهذا غير مشكوك فيه ، لأنها آتية لا محالة .

لكن خوطبوا بما كانوا عليه من الشك ، ومعناه : إن شككتم في إثباتها فقد جاء أعلامها ؛ فالشك راجع إلى المخاطبين الشاكين .

وقال الزمخشري : فإن قلت : فما جزاء الشرط ؟ قلت : قولهم : ﴿ فأنى لهم ﴾ ، ومعناه : أن تأتيهم الساعة ، فكيف لهم ذكراهم ، أي تذكرهم واتعاظهم ؟ إذا جاءتهم الساعة يعني لا تنفعهم الذكرى حينئذ لقوله : ﴿ يوم يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ﴾ فإن قلت : بم يتصل قوله ، وقد جاء أشراطها على القراءتين ؟ قلت : بإتيان الساعة اتصال العلة بالمعلول كقولك : إن أكرمني زيد فأنا حقيق بالإكرام أكرمه .

وقرأ الجعفي ، وهرون ، عن أبي عمرو : ﴿ بغتة ﴾ ، بفتح الغين وشد التاء .

قال صاحب اللوامح : وهي صفة ، وانتصابها على الحال لا نظير لها في المصادر ولا في الصفات ، بل في الأسماء نحو : الحرية ، وهو اسم جماعة ، والسرية اسم مكان . انتهى .

وكذا قال أبو العباس بن الحاج ، من أصحاب الأستاذ أبي علي الشلوبين ، في (كتاب المصادر) على أبي عمرو : أن يكون الصواب بغتة ، بفتح الغين من غير تشديد ، كقراءة الحسن فيما تقدم . انتهى .

وهذا على عادته في تغليظ الرواية .

﴿ فقد جاء أشراطها ﴾ : أي علاماتها ، فينبغي الاستعداد لها .

ومن أشراط الساعة مبعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، إذ هو خاتم الأنبياء .

وروي عنه أنه قال : " أنا من أشراط الساعة " وقال : " بعثت أنا والساعة كهاتين وكفرسي

رهان" وقيل: منها الدخان وانشقاق القمر.

وعن الكلبي: كثرة المال، والتجارة، وشهادة الزور، وقطع الأرحام، وقلة الكرام، وكثرة اللئام.

﴿ فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ﴾: الظاهر أن المعنى: فكيف لهم الذكرى والعمل بها إذا جاءتهم الساعة؟ أي قد فاتها ذلك.

قيل: ويحتمل أن يكون المبتدأ محذوفاً، أي: فأنى لهم الخلاص إذا جاءتهم الذكرى بما كانوا يخبرون به فيكذبون به بتواصله بالعذاب؟ ثم أضرب عن ذكر المنافقين وقال: ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾، والمعنى: دم على عملك بتوحيد.

واحتج بهذا على قول من قال: أول الواجبات العلم والنظر قبل القول والإقرار.

(102/708)

وفي الآية ما يدل على التواضع وهضم النفس، إذ أمره بالاستغفار، ومع غيره بالاستغفار لهم.

﴿ متقبلكم ﴾: متصرفكم في حياتكم الدنيا.

﴿ ومثواكم ﴾: إقامتكم في قبوركم وفي آخرتكم.

وقال عكرمة : متقلبكم في أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات ، ومثواكم : إقامتكم في الأرض .

وقال الطبري وغيره : متقلبكم : تصرفكم في يقظتكم ، ومثواكم : منامكم .

وقيل : متقلبكم في معائشكم ومتاجركم ، ومثواكم حيث تستقرون من منازلكم .

وقيل : متقلبكم بالتاء ، وابن عباس بالنون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(103/708)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ بيانٌ لحكمِ ولايتِه تعالى لَهُم وثمرتِها الأُخرويةِ . ﴿ والذين كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ ﴾ أيْ ينتفعونَ في الدُّنيا بمتاعِها ﴿ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأنعام ﴾ غافلينَ عنْ عواقِبهم ﴿ والنار مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ أي منزلُ ثُواءٍ وإقامةٍ . والجملةُ إمَّا حالٌ مقدرةٌ منْ واوِ يأكُلونَ ، أو استئنافٌ ﴿ وَكَأَيِّن ﴾ كلمةٌ مركبةٌ من الكافِ ، وأَيْ بمَعنى كَمِ الخبريةِ ومحلُّها الرفعُ بالابتداءِ . وقوله تعالى : ﴿ مِن قَرْيَةٍ ﴾ تمييزٌ لها . وقولُه تعالى : ﴿ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مّن قَرْيَتِكَ ﴾ صفةٌ لقريةٍ كما أنَّ قولَه

تعالى : ﴿ التى أَخْرَجَتْكَ ﴾ صفةٌ لقريتكَ ، وقد حُذفَ عنهُمَا المضافُ وأُجريَ أحكامُه عليهمَا كما يُفصحُ عنه الخبرُ الذي هو قولُه تعالى : ﴿ أهلكناهم ﴾ أي وكم منْ أهلِ قريةٍ هُم أشدُّ قوةً من أهلِ قريتكَ الذين كانُوا سبباً لخروجكَ من بينهم . ووصفُ القريةِ الأولى بشدةِ القُوَّةِ للإيذانِ بأولويةِ الثانيةِ منها بالإهلاكِ لضعفِ قوَّتها كما أنَّ وصفَ الثانيةِ بإخراجهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ للإيذانِ بأولويتها به لقوةِ جنايتها . وعلى طريقتِه قولُ النابغةِ

كُلَيبٌ لعَمْرِي كانَ أكثَرَ ناصرا . . . وَأيسَرَ جُرماً منكَ ضُرِّجَ بالدَّمِ

وقولُه تعالى : ﴿ فَلاَ ناصر لَهُمْ ﴾ بيانٌ لعدمِ خلاصِهم من العذابِ بواسطةِ الأعوانِ والأنصارِ إثرَ بيانِ عدمِ خلاصِهم منْهُ بأنفسِهم . والفاءُ لترتيبِ ذكرِ ما بالغيرِ على ذكرِ ما بالذاتِ وهو حكايةُ حالٍ ماضيةٍ .

﴿ أَفَمَن كَانَ على بَيّنَةٍ مّن رَّبِّهِ ﴾

(104/708)

تقريرٌ لتباينِ حَالَيْ فَرِيقَيْ المؤمنينَ والكافرينَ وكونِ الأولينَ في أعلى علّيينَ والآخرينَ في أسفلِ سافلينَ وبيانٌ لعلةِ ما لكلٍ منهُمَا من الحالِ . والهمزةُ للإنكارِ ، والفاءُ للعطفِ على مقدرٍ يقتضيهِ المقامُ ، وقد قُرِئَ بدونها . ومَنْ عبارةٌ عن المؤمنينَ المتمسكينَ بأدلةِ الدِّينِ ،

وجعلُها عبارةً عن النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أو عنْهُ وعنِ المؤمنينَ لا يساعدُه النظمُ الكريمُ على أنَّ الموازنةَ بينه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وبينَهم مما يأباهُ منصبُه الجليلُ . والتقديرُ أليسَ الأمرُ كما ذُكِرَ فمنْ كانَ مستقراً على حجةٍ ظاهرةٍ وبرهانٍ نيِّرٍ من مالكِ أمرِه ومربّيهِ وهو القرآنُ الكريمُ وسائرُ المعجزاتِ والحججِ العقليةِ . ﴿ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ من الشركِ وسائرِ المعاصي مع كونِه في نفسِه أقبحَ القبائحِ ﴿ واتبعوا ﴾ بسببِ ذلكَ التزيينِ ﴿ أَهْوَاءهُمْ ﴾ الزائغةَ وانهمكُوا في فنونِ الضلالاتِ من غيرِ أنْ يكونَ لهم شبهةٌ توهمُ صحةَ ما هُم عليهِ فضلاً عن حجةٍ تدلُّ عليهِ . وجمعُ الضميرينِ الأخيرينِ باعتبارِ مَعْنى مَنْ ، كما أنَّ إفرادَ الأولَينِ باعتبارِ لفظِها .

(105/708)

﴿ مَّثَلُ الجنة التى وُعِدَ المتقون ﴾ استئنافٌ مَسُوقٌ لشرحِ مَحَاسنِ الجنَّةِ الموعودةِ آنفاً للمؤمنينَ ، وبيانِ كيفيةِ أنهارِها التي أُشيرَ إلى جريانِها من تحتِها ، وعُبِّرَ عنهُم بالمتقينَ إيذاناً بأنَّ الإيمانَ والعملَ الصالحَ من بابِ التقوى الذي هُو عبارةٌ عن فعلِ الواجباتِ بأسرِها وتركِ السيئاتِ عن آخرِها ، ومَثَلُها : وصفُها العجيبُ الشأنِ . وهُو مبتدأٌ محذوفُ الخبرِ فقدَّرَهُ النَّضْرُ بْنُ شُمَيلٍ : مثلُ الجنةِ ما تسمعونَ . وقولُه تعالى : ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ ﴾ إلخ مفسرٌ لَهُ

وقدَّرهُ سيبويهِ فيما يُتلَى عليكُم مَثَلُ الجنةِ ، والأولُ هو الأنسبُ لصدرِ النظمِ الكريمِ ، وقيلَ المَثَلُ زائدةٌ كزيادةِ الاسمِ في قولِ مَنْ قالَ

إلى الحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلامِ عليكما . . . والجنةُ مبتدأٌ خبرُهُ فيها أنهارٌ إلخ . ﴿ مّن مَّاء غَيْرِ ءاسِنٍ ﴾ أيْ غيرِ متغيرِ الطعمِ والرَّائحةِ . وقُرِىءَ غيرِ أَسِنٍ . ﴿ وَأَنْهَارٌ مّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ بأنْ صارَ قارصاً ولاَ خَازِراً كألبانِ الدُّنيا . ﴿ وأنهار مّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ للشاربين ﴾ لذيذةٍ ليسَ فيها كراهةُ طعمٍ وريحٍ ولا غائلةُ سُكرٍ ولا خُمارٌ ، وإنما هيَ تلذذٌ محضٌ . ولذةٍ إمَّا تأنيثُ لذ بمعنى لذيذٍ ، أو مصدرٌ نُعتَ به مبالغةً . وقُرِىءَ لذةٌ بالرفعِ على أنَّها صفةُ أنهارٌ ، وبالنصبِ على العلَّةِ أي لأجلِ لذةِ الشاربينَ ﴿ وأنهار مّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ لا يُخالطُه الشمعُ وفضلاتُ النحلِ وغيرُها . وفي هذا تمثيلٌ لما يَجْري مَجرى الأشربةِ في الجنةِ بأنواعِ ما يُستطابُ منها ويُستلذُّ في الدُّنيا بالتخليةِ عمَّا يُنغصها ويُنقصها والتحليةِ بما يُوجبُ غزارتَها ودوامَها . ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا ﴾ مع ما ذُكِرَ من فنونِ الأنهارِ ﴿ مِن كُلّ الثمرات ﴾ أيْ صنفٌ من كلِّ الثمراتِ ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ أي ولهم مغفرةٌ عظيمةٌ لا يُقادَرُ قَدرُها .

(106/708)

وقولُه تعالى : ﴿ مّن رَّبِّهِمْ ﴾ متعلقٌ بمحذوفٍ هو صفةٌ لمغفرةٌ مؤكدةٌ لما أفاده التنكيرُ من الفخامةِ الذاتيةِ بالفخامةِ الإضافيةِ أي كائنةٌ من ربّهم . وقولُه تعالى : ﴿ كَمَنْ هُوَ خالد فِى النار ﴾ خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ تقديرُهُ أمَّنْ هو خالدٌ في هذه الجنةِ حسبما جرى به الوعدُ كمن هو خالدٌ في النَّارِ كما نطقَ بهِ قولُه تعالى : والنَّارُ مَثْوىً لَهُم ، وقيل هو خبرٌ لمَثَلُ الجنةِ على أنَّ في الكلامِ حذفاً ، تقديرُهُ أمثلُ الجنةِ كمثلِ جزاءِ من هُو خالدٌ في النَّارِ أو أمثلُ أهلِ الجنةِ كمثلِ من هو خالدٌ في النارِ ، فعُرّيَ عن حرفِ الإنكارِ وحُذفَ ما حذفَ تصويراً لمكابرةِ مَن يُسوي بين المتمسكِ بالبينةِ وبين التابعِ للهوى بمكابرةِ من سوَّى بين الجنةِ الموصوفةِ بما فُصّلَ من الصفاتِ الجليلةِ وبين النارِ . ﴿ وَسُقُواْ مَاء حَمِيماً ﴾ مكانَ تلك الأشربةِ ﴿ فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ ﴾ من فرْطِ الحرارةِ قيل إذا دنَا منهم شَوَى وجوهَهم وانمازتْ فروةُ رؤوسِهم فإذا شربوُه قطَّع أمعاءَهم .

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾

(107/708)

هم المنافقونَ وإفرادُ الضميرِ باعتبارِ لفظِ مَنْ كما أنَّ جمعَهُ فيما سيأتي باعتبارِ معناها . كانُوا يحضُرون مجلسَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فيسمعونَ كلامَهُ ولا يَعُونَهُ ولا

يُراعونَهُ حقَّ رعايتِه تهاوناً منهُم. ﴿ حتى إذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ العلم ﴾ من الصحابةِ رضي الله عنهُم ﴿ مَاذَا قَالَ ءانِفاً ﴾ أي ما الذي قالَ الساعةَ على طريقةِ الاستهزاءِ وإن كان بصورةِ الاستعلامِ. وآنِفاً من قولِهم أُنْفُ الشيءِ لما تقدمَ منه مستعارٌ من الجارحةِ ومنه استأنفَ الشيءَ وائتنفَ، وهو ظرفٌ بمعنى وقتاً مؤتنفاً. أو حالٌ من الضميرِ في قالَ. وقُرِىءَ أَنِفاً. ﴿ أولئك ﴾ الموصوفونَ بما ذُكِرَ ﴿ الذين طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ ﴾ لعدمِ توجههم نحوَ الخيرِ أصلاً. ﴿ واتبعوا أَهْوَاءهُمْ ﴾ الباطلةَ فلذلك فعلُوا ما فعلُوا مما لا خيرَ فيهِ ﴿ والذين اهتدوا ﴾ إلى طريقِ الحقِّ ﴿ زَادَهُمْ ﴾ أي الله تعالَى ﴿ هُدًى ﴾ بالتوفيقِ والإلهامِ ﴿ وءاتاهم تقواهم ﴾ أعانَهُم على تقواهُم أو أعطاهُم جزاءَها أو بيّنَ لهم ما يتقونَ.

(108/708)

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ الساعة ﴾ أي القيامةَ. وقولُه تعالى: ﴿ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ أي تُباغتُهم بغتةً وهي المفاجأةُ. بدلُ اشتمالٍ من الساعةَ والمعنى أنَّهم لا يتذكرونَ بذكرِ أهوالِ الأممِ الخاليةِ ولا بالأخبارِ بإتيانِ الساعةِ وما فيها من عظائمِ الأهوالِ وما ينتظرونَ للتذكرِ إلا إتيانِ نفسِ الساعةِ بغتةً. وقُرِىءَ بَغَتَةً بفتحِ الغينِ. وقولُه تعالى: ﴿ فَقَدْ جَاء أَشْرَاطُهَا

﴿ تعليلٌ لمفاجأتِها ، لا لإتيانِها مُطلقاً على معنى أنه لم يبقَ من الأمورِ الموجبةِ للتذكرِ أمرٌ مترقبٌ ينتظرونَهُ سوى إتيانِ نفسِ الساعةِ إذْ قد جاءَ أشراطُها فلم يرفعُوا لها رأساً ولم يعدّوها من مبادىءِ إتيانِها فيكون إتيانُها بطريقِ المفاجأةِ لا محالةَ . والأشراطُ جمعُ شَرَطٍ بالتحريكِ ، وهي العلامةُ والمرادُ بها مبعثُه صلى الله عليه وسلم وانشقاقُ القمرِ ونحوُهما .

وقولُه تعالى : ﴿ فأنى لَهُمْ إذَا جَاءتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ حكمٌ بخطِئهم وفسادِ رأيهم في تأخيرِ التذكرِ إلى إتيانِها ببيانِ استحالةِ نفعِ التذكرِ حينئذٍ كقولِه تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإنسان وأنى لَهُ الذكرى ﴾ أي وكيفَ لهم ذكراهُم إذا جاءتْهُم على أن أَنَّى خبرٌ مقدمٌ وذكراهُم مبتدأٌ وإذا جاءتْهُم اعتراضٌ وسطٌ بينهما رمزاً إلى غايةِ سرعةِ مجيئِها وإطلاقُ المجىءِ عن قيدِ البغتِه لما أن مدارَ استحالةِ نفعِ التذكرِ كونُه عند مجيئِه مطلقاً لا مقيداً بقيدِ البغتةِ .

وقُرِىءَ أنْ تأتِهم على أنَّه شرطٌ مستأنفٌ جزاؤُه فأَنَّى لهم إلخ . والمعنى إنْ تأتِهم الساعةُ بغتةً لأنه قد ظهرَ أماراتُها فكيفَ لهم تذكرُهم واتعاظُهم إذا جاءتْهُم .

﴿ فاعلم أَنَّهُ لاَ إله إلا الله ﴾

(109/708)

أي إذا علمتَ أنَّ مدارَ السعادةِ هو التوحيدُ والطاعةُ ومناطَ الشقاوةِ هو الإشراكُ والعصيانُ فاثبُتْ على ما أنتَ عليه من العلمِ بالوحدانيةِ والعملِ بموجبه . ﴿ واستغفر لِذَنبِكَ ﴾ وهو الذي ربَّما يصدرُ عنه عليه الصلاةُ والسلامُ من تركِ الأَوْلى ، عُبِّر عنه بالذنبِ نظراً إلى منصبه الجليلِ ، كيفَ لا وحسناتُ الأبرارِ سيئاتُ المقربينَ وإرشادٌ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى التواضعِ وهضمِ النفسِ واستقصارِ العملِ . ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات ﴾ أي لذنوبِهم بالدعاءِ لهم وترغيبِهم فيما يستدعي غفرانَهم . وفي إعادةِ صلةِ الاستغفارِ تنبيهٌ على اختلاف متعلّقَيه جنساً ، وفي حذفِ المضافِ وإقامةِ المضافِ إليهِ مُقامَهُ إشعارٌ بعراقتِهم في الذنبِ وفرطِ افتقارِهم إلى الاستغفارِ . ﴿ واللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ ﴾ في الدُّنيا فإنَّها مراحلُ لا بُدَّ من قطعِها لا محالةَ . ﴿ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ في العُقْبى فإنَّها موطنُ إقامتِكم فلا يأمرُكم إلا بما هو خيرٌ لكم فيهما فبادِرُوا إلى الامتثالِ بما أمركُم به فإنه المهمُّ لكم في المقامينِ وقيل يعلمُ جميعَ أحوالِكم فلا يَخْفى عليه شيءٌ منها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(110/708)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾

هم المنافقون ، وإفراد الضمير باعتبار اللفظ كما أن جمعه بعد باعتبار المعنى ، قال ابن جريج : كانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسمعون كلامه ولا يعونه ولا يراعونه حق رعايته تهاوناً منهم ﴿ حتى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ العلم ﴾ أي لأولي العلم من الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، وقيل : هم الواعون لكلامه عليه الصلاة والسلام الراعون له حق رعايته من الصحابة رضي الله تعالى عنهم ﴿ مَاذَا قَالَ ءانِفاً ﴾ أي ما الذي قال قبيل هذا الوقت ومقصودهم من ذلك الاستهزاء وإن كان بصورة الاستعلام ، وجوز أن يكون مرادهم حقيقة الاستعلام إذ لم يلقوا له آذانهم تهاوناً به ولذلك ذموا والأول أولى ، قيل : قالوا ذلك لابن مسعود ، وعن ابن عباس أنا منهم وقد سميت فيمن سئل وأراد رضي الله تعالى عنه أنه من الذين أوتوا العلم بنص القرآن ، وما أحسن ما عبر عن ذلك ، و﴿ ءانِفاً ﴾ اسم فاعل على غير القياس أو بتجريد فعله من الزوائد لأنه لم يسمع له فعل ثلاثي بل استأنف وأتنف ، وذكر الزجاج أنه من استأنفت الشيء إذا ابتدأته وكان أصل معنى هذا أخذت أنفه أي مبدأه ، وأصل الأنف الجارحة المعروفة ثم يسمى به طرف الشيء ومقدمه وأشرفه ، وذكر غير واحد أن آنفاً من ذلك قالوا : إنه اسم للساعة التي قبل ساعتك التي أنت فيها من الأنف بمعنى المتقدم وقد استعير من الجارحة لتقدمها

على الوقت الحاضر ، وقيل : هو بمعنى زمان الحال ، وهو على ما ذهب إليه الزمخشري نصب على الظرفية ولا ينافي كونه اسم فاعل كما في بادىء فإنه اسم فاعل غلب على معنى الظرفية في الاستعمال ، وقال أبو حيان : الصحيح أنه ليس بظرف ولا نعلم أحداً من النحاة عده في الظروف وأوجب نصبه على الحال من فاعل ﴿ قَالَ ﴾ أي ماذا قال مبتدئاً أي ما القول الذي ائتنفه الآن قبل انفصالنا عنه ، وإلى ذلك يشير كلام الراغب .

(111/708)

وقرأ ابن كثير ﴿ ءانِفاً ﴾ على وزن فعل ﴿ أولئك ﴾ الموصفون بما ذكر ﴿ الذين طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ ﴾ فعدم توجههم نحو الخير ﴿ واتبعوا أَهْوَاءهُمْ ﴾ فتوجهوا نحو كل ما لا خير فيه فلذلك كان منهم ما كان .

(112/708)

﴿ والذين اهتدوا ﴾ إلى طريق الحق ﴿ زَادَهُمْ ﴾ أي الله عز وجل ﴿ هُدًى ﴾ بالتوفيق والإلهام ، والموصول يحتمل الرفع على الابتداء والنصب بفعل محذوف يفسره

المذكور و﴿ هُدًى ﴾ مفعول ثان لأن زاد قد يتعدى لمفعولين ، ويحتمل أن يكون تمييزاً والأول هو الظاهر ، وتنوينه للتعظيم أي هدى عظيماً ﴿ وءاتاهم تَقْوَاهُمْ ﴾ أي أعطاهم تقواهم إياه جل شأنه بأن خلقها فيهم بناءً على ما يقوله الأشاعرة في أفعال العباد أو بأن خلق فيهم قدرة عليها مؤثرة في فعلها بإذنه سبحانه على ما نسبه الكوراني إلى الأشعري وسائر المحققين في أفعال العباد من أنها بقدرة خلقها الله تعالى فيهم مؤثرة بإذنه تعالى ، وقول بعضهم : بأن جعلهم جل شأنه متقين له سبحانه يمكن تطبيقه على كل من القولين ، وقال البيضاوي : أي بين لهم ما يتقون أو أعانهم على تقواهم أو أعطاهم جزاءها فالإيتاء عنده مجاز عن البيان أو الإعانة أو هو على حقيقته والتقوى مجاز عن جزائها لأنها سببه أو فيه مضاف مقدر وليس في شيء من ذلك ما يأباه مذهب أهل الحق ، وذكر الزمخشري الثاني والثالث من ذلك ، واختار الطيبي الأول من هذين الاثنين وقال : هو أوفق لتأليف النظم الكريم لأن أغلب آيات هذه السورة الكريمة روعي فيها التقابل فقوبل ﴿ أُولَئِكَ الذين طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ ﴾ [محمد : 16] بقوله سبحانه : ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ لأن الطبع يحصل من تزايد الرين وترادفع ما يزيد في الكفر ، وقوله تعالى : ﴿ واتبعوا أَهْوَاءهُمْ ﴾ [محمد : 16] بقوله جل وعلا : ﴿ والذين اهتدوا ﴾ فيحمل على كمال التقوى وهو أن يتنزه العارف عما يشغل سره عن الحق ويتبتل إليه سبحانه بشراشره وهو التقوى الحقيقية المعنية بقوله تعالى : ﴿ اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ [آل عمران : 102] فإن

المزيد على مزيد الهدى مزيد لا مزيد عليه ، وفي الترفع عن متابعة الهوى النزوع إلى المولى والعزوب عن شهوات الحياة الدنيا ،

(113/708)

ثم في إسناد إيتاء التقوى إليه تعالى وإسناد متابعة الهوى إليهم إيماءً إلى معنى قوله تعالى حكاية : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء : 80] وتلويح إلى أن متابعة الهوى مرض روحاني وملازمة التقوى دواء إلهي انتهى .

وما ذكره من التقابل جار فيما ذكرناه أيضاً ، وكذا يجري التقابل على تفسير إيتاء التقوى ببيان ما يتقون لإشعار الكلام عليه بأن ما هم فيه ليس من ارتكاب الهوى والتشهي بل هو أمر حق مبني على أساس قوي ، وتفسير ذلك بإعطاء جزاء التقوى مروى عن سعيد بن جبير وذهب إليه الجبائي ، والكلام عليه أفيد وأبعد عن التأكيد من غير حاجة إلى حمل التقوى على أعلى مراتبها ، وأمر التقابل هين فإنه قد يقال : إن قوله تعالى : ﴿ اهتدوا ﴾ في مقابلة ﴿ اتبعوا أَهْوَاءهُمْ ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ زَادَهُمْ هُدًى ﴾ في مقابلة ﴿ طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ ﴾ فليتدبر ، وقيل : فاعل ﴿ زَادَهُمْ ﴾ ضمير قوله صلى الله عليه وسلم المفهوم من قوله تعالى :

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ [محمد : 16] وقوله سبحانه : ﴿ مَاذَا قَالَ ءَانِفاً ﴾ [محمد : 16] وكذا فاعل ﴿ ءاتاهم ﴾ أي أعانهم أو بين لهم ، والإسناد مجازي ، ولا يخفى أنه خلاف الظاهر ، وأيضاً إذا كان قوله تعالى : ﴿ زَادَهُمْ هُدًى ﴾ في مقابلة قوله سبحانه : ﴿ طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ ﴾ فالأولى أن يتحد فاعله مع فاعله ويجري نحو ذلك على ما قاله الطيبي لئلا يلزم التفكيك ، وجوز أن يكون ضميراً عائداً على قول المنافقين فإن ذلك مما يعجب منه المؤمن فيحمد الله تعالى على إيمانه ويزيد بصيرة في دينه ، وهو بعيد جداً بل لا يكاد يلتفت إليه .

(114/708)

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ الساعة ﴾ أي القيامة ، وقوله تعالى : ﴿ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ أي تباغتهم بغتة وهي المفاجأة بدل اشتمال من الساعة أي لا يتذكرون بأحوال الأمم الخالية ولا بالإخبار بإتيان الساعة وما فيها من عظائم الأحوال فما ينتظرون للتذكر إلا إتيان الساعة نفسها ، وقوله تعالى : ﴿ فَقَدْ جَاء أَشْرَاطُهَا ﴾ أي علاماتها وأماراتها كما في قوله أبي الأسود الدؤلي :

فإن كنت قد أزمعت بالصرم بيننا . . .

فقد جعلت أشراط أوله تبدو

(115/708)

وهي جمع شرط بالتحريك تعليل لمفاجأتها على معنى أنه لم يبق من الأمور الموجبة للتذكر أمر مترقب ينتظرونه سوى إتيان نفس الساعة إذ قد جاء أشراطها فلم يرفعوا لها رأساً ولم يعدوها من مبادىء إتيانها فيكون إتيانها بطريق المفاجأة لا محالة كذا في إرشاد العقل السليم ، وظاهر كلام الكشاف أنه تعليل للإتيان مطلقاً أي ما ينتظرون إلا إتيان الساعة لأنه قد جاء أشراطها وبعد مجيئها لا بد من وقوع الساعة ، وتعليل المقيد دون قيده لا يخلو عن بعد ، قيل : ويقربه هنا أن انتظارهم ليس إلا لإتيان الساعة وتقييده ببغتة ليس إلا لبيان الواقع ، وقال بعض المحققين : هو تعليل لانتظار الساعة لأن ظهور إمارات الشيء سبب لانتظاره ، وفي جعله تعليلاً للمفاجأة خفاء لأنها لا تناسب مجيء الأشراط إلا بتأويل ، وأنت تعلم أن البدل هو المقصود فالانتظار لإتيان الساعة بغتة فالتعليل المذكور تعليل للمقيد دون قيده أيضاً فكان ما في الإرشاد متعين وإن كان فيه نوع تأويل ، وقوله تعالى : ﴿ فأنى لَهُمْ إِذَا جَاءتْهُمْ ﴾ على ما أفاده بعض الأجلة تعجيب من نفع الذكرى عند مجيء

الساعة وإنكار لعدم تشمرهم لها ولانتظارهم إياها هزؤاً وجحوداً ، وفي "الإرشاد" وقوله تعالى : ﴿ أَشْرَاطُهَا فأنى لَهُمْ إِذَا جَاءتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ حكم بخطئهم وفساد رأيهم في تأخير التذكر إلى إتيانها ببيان استحالة نفع التذكر حينئذٍ كقوله سبحانه : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإنسان وأنى لَهُ الذكرى ﴾ [الفجر : 23] أي فكيف لهم ذكراهم على أن ﴿ إِنّى ﴾ خبر مقدم و ﴿ ذِكْرَاهُمْ ﴾ مبتدأ و ﴿ إِذَا جَاءتْهُمُ ﴾ اعتراض وسط بينهما رمزاً إلى غاية سرعة مجيئها ، وإطلاق المجيء عن قيد البغتة لما أن مدار استحالة نفع التذكر كونه عند مجيئها مطلقاً لا مقيداً بقيد البغتة ، وقيل : ﴿ إِنّى ﴾ خبر مقدم لمبتدأ محذوف أي فأنى لهم الخلاص إذا جاءتهم الذكرى بما يخبرون به فينكرونه منوطة بالعذاب ولا يخفى

(116/708)

حاله ، وقرأ أبو جعفر الرؤاسي عن أهل مكة ﴿ إن تَأْتِهم ﴾ على أنه شرط مستأنف جزاؤه ﴿ فأنى لَهُمْ ﴾ الخ أي أن تأتهم الساعة بغتة إذ قد جاء أشراطها فأنى تنفعهم الذكرى وقت مجيئها ، ﴿ وَأَنْ ﴾ هنا بمعنى إذا لأن إتيان الساعة متيقن ، ولعل الإتيان بها للتعريض بهم وأنهم في ريب منها أو لأنها لعدم تعيين زمانها أشبهت المشكوك فيه وإذا جاءتهم باعتبار الواقع فلا تعارض بينهما كما يتوهم في النظرة الحمقاء .

وفي "الكشف" ﴿ إِذَا ﴾ على هذه القراءة لمجرد الظرفية لئلا يلزم التمانع بين ﴿ إِذَا جَاءتْهُمُ ﴾ و﴿ إِن تَأْتِهِم ﴾ وفي الإتيان بأن مع الجزم بالوقوع تقوية أمر التوبيخ والإنكار كما لا يخفى انتهى ، وعلى ما ذكرنا لا يحتاج إلى جعل إذاً لمجرد الظرفية .

وقرأ الجعفي .

وهارون عن أبي عمرو ﴿ بَغْتَةً ﴾ بفتح الغين وشد التاء ، قال صاحب اللوامح : وهي صفة وانتصابها على الحال ولا نظير لها في المصادر ولا في الصفات بل في الأسماء نحو الجربة وهي القطيع من حمر الوحش ، وقد يسمى الأقوياء من الناس إذا كانوا جماعة متساوين جربة ، والشربة وهي اسم موضع وكذا قال أبو العباس بن الحاج من أصحاب أبي علي الشلوبين في كتابه المصادر ، وقال الزمخشري : وما أخوفني أن تكون غلطة من الراوي عن أبي عمرو وأن يكون الصواب بغتة بفتح الغين من غير تشديد كقراءة الحسن فيما تقدم .

وتعقبه أبو حيان بأن هذا على عادته في تغليط الرواة ، والظاهر أن المراد بأشراط الساعة هنا علاماتها التي كانت واقعة إذ ذاك وأخبروا أنها علامات لها كبعثة نبينا صلى الله عليه وسلم ، فقد أخرج أحمد .

والبخاري .

ومسلم .

والترمذي عن أنس قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثت أنا والساعة كهاتين

وأشار بالسبابة والوسطى " وأراد عليه الصلاة والسلام مزيد القرب بين مبعثه والساعة فإن السبابة تقرب من الوسطى طولاً فينا وهكذا فيه صلى الله عليه وسلم .

(117/708)

وزعم بعضهم أن أمر الطول والقصر في وسطاه وسبابته عليه الصلاة والسلام على عكس ما فينا خطأ لا يلتفت إليه إلا أن يكون أراد ذلك في أصابع رجليه الشريفة صلى الله عليه وسلم .

وأخرج أحمد عن بريدة رضي الله تعالى عنه قال : " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بعثت أنا والساعة جميعاً وإن كادت لتسبقني "

وهذا أبلغ في إفادة القرب وعدوا منها انشقاق القمر الذي وقع له صلى الله عليه وسلم والدخان الذي وقع لأهل مكة وأما أشراطها مطلقاً فكثيرة ألفت فيها كتب مختصرة ومطولة وهي تنقسم إلى مضيقة لا تبقى الدنيا بعد وقوعها إلا أيسر يسير كخروج المهدي رضي الله تعالى عنه على ما يقول أهل السنة دون ما يقوله الشيعة القائلون بالرجعة فإن الدنيا عندهم بعد ظهوره تبقى مدة معتداً بها وكنزول عيسى عليه السلام وخروج الدجال وطلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة وغير ذلك ، وغير مضيقة وهي أكثر

الأشراط ككون الحفاة الرعاة رؤوس الناس وتطاولهم في البنيان وفشو الغيبة وأكل الربا وشرب الخمر وتعظيم رب المال وقلة الكرام وكثرة اللئام وتباهي الناس في المساجد واتخاذها طرقاً وسوء الجوار وقطيعة الأرحام وقلة العلم وأن يوسد الأمر إلى غير أهله وأن يكون أسعد الناس بالدنيا لكع بن لكع إلى ما يطول ذكره .

ومن وقف على الكتب المؤلفة في هذا الشأن واطلع على أحوال الأزمان رأى أن أكثر هذه العلامات قد برزت للعيان وامتلأت منها البلدان ، ومع هذا كله أمر الساعة مجهول ورداء الخفاء عليه مسدول .

(118/708)

وقصارى ما ينبغي أن يقال : أن ما بقي من عمر الدنيا أقل قليل بالنسبة إلى ما مضى ، وفي بعض الآثار أنه عليه الصلاة والسلام خطب أصحابه بعد العصر حين كادت الشمس تغرب ولم يبق منها إلا أسف أي شيء فقال : " والذي نفس محمد بيده ما مثل ما مضى من الدنيا فيما بقي منها إلا مثل ما مضى من يومكم هذا فيما بقي منه وما بقي منه إلا اليسير " ولا ينبغي أن يقال : إن الألف الثانية بعد الهجرة وهي الألف التي نحن فيها هي ألف مخضرمة أي نصفها من الدنيا ونصفها الآخر من الآخرة ، وقال الجلال السيوطي في رسالة

سماها الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف : الذي دلت عليه الآثار أن مدة هذه الأمة تزيد على ألف سنة ولا تبلغ الزيادة عليها ألف سنة وبنى الأمر على ما ورد من أن مدة الدنيا سبعة آلاف سنة وأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث في آخر الألف السادسة وأن الدجال يخرج على رأس مائة وينزل عيسى عليه السلام فيقتله ثم يمكث في الأرض أربعين سنة وأن الناس يمكثون بعد طلوع الشمس من مغربها مائة وعشرين سنة وأن بين النفختين أربعين سنة ، وذكر الأحاديث والأخبار في ذلك .

وفي بهجة الناظرين وآيات المستدلين قد احتج كثير من العلماء على تعيين قرب زمانها بأحاديث لا تخلو عن نظر فمنهم من قال : بقي منها كذا ، ومنهم من قال : يخرج الدجال على رأس كذا وتطلع الشمس على رأس كذا ، وأفرد الحافظ السيوطي رسالة لذلك كله وقال : تقوم الساعة في نحو الألف والخمسمائة ، وكل ذلك مردود وليس للمتكلمين في ذلك إلا ظن وحسبان لا يقوم عليه من الوحي برهان انتهى ، ونقله السفاريني في "البحور الزاخرة" في علوم الآخرة ، وذكر السيوطي عدة أخبار في كون مدة الدنيا سبعة آلاف سنة ، أولها ما أخرجه الحكيم الترمذي في "نوادر الأصول" بسنده عن أبي هريرة قال :

" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما الشفاعة يوم القيامة لمن عمل الكبائر من أمتي ثم ماتوا عليها فهم في الباب الأول من جهنم " وساق بقية الحديث ، وفيه " وأطولهم مكثاً فيه من يمكث فيها مثل الدنيا منذ خلقت إلى يوم أفنيت وذلك سبعة آلاف سنة " الحديث وتعقبه السفاريني بقوله : ذكر الحافظ ابن رجب في كتابه صفة النار أن هذا الحديث خرجه ابن أبي حاتم .

وغيره ، وخرجه الاسماعيلي مطولاً ، وقال الدارقطني في كتاب المختلف : هو حديث منكر وذكر علله ، ومما ذكره السيوطي في ذلك ما نقل هو ضعف إسناد رفعه ، وقد يرد عليه بأنه قد مضى من زمن البعثة إلى يومنا هذا ألف ومئتان وثماني وستون سنة وإذا ضم إليها ما ذكره من سني مكث عيسى عليه السلام وبقاء الدنيا بعد طلوع الشمس من مغربها وما بين النفختين وهي مائتا سنة تصير ألفاً وأربعمائة وثماني وسبعين فيبقى من المدة التي ذكرها اثنتان وعشرون سنة وإلى الآن لم تطلع الشمس من مغربها ولا خرج الدجال الذي خروجه قبل طلوعها من مغربها بعدة سنين ولا ظهر المهدي الذي ظهوره قبل الدجال بسبع سنين ولا وقعت الأشراط التي قبل ظهور المهدي ، ولا يكاد يقال : إنه يظهر بعد خمس عشرة سنة ويظهر الدجال بعدها بسبع سنين على رأس المائة الثالثة من الألف الثانية لأن قبل ذلك مقدمات تكون في سنين كثيرة ، فالحق أنه لا يعلم ما بقي من مدة الدنيا إلا الله عز وجل وأنه وإن طال أقصر قصير وما متاع الحياة الدنيا إلا قليل ، وكذا فيما أرى

مبدأ خلقها لا يعلمه إلا الله تعالى وما يذكرونه في المبدأ لو صح فإنما هو في مبدأ خلق الخليفة آدم عليه السلام لا مبدأ خلق السماء والأرض والجبال ونحوها .

وحكى الشيخ محيي الدين قدس سره عن إدريس عليه السلام وقد اجتمع معه اجتماعاً روحانياً وسأله عن العالم أنه قال : نحن معاشر الأنبياء نعلم أن العالم حادث ولا نعلم متى حدث .

(120/708)

والفلاسفة على المشهور يزعمون أن من العالم ما هو قديم بالشخص وما هو قديم بالنوع مع قولهم بالحدوث الذاتي ولا يدثر عندهم .

وذهب الملا صدر الشيرازي أنهم لا يقولون إلا بقدم العقول المجردة دون عالم الأجسام مطلقاً بل هم قائلون بحدوثها ودثورها وأطال الكلام على ذلك في الأسفار وأتى بنصوص أجلتهم كأرسطو وغيره .

وحكى البعض عنهم أنه خلق هذا العالم الذي نحن فيه وهو عالم الكون والفساد والطالع السنبلة ويدثر عند مضي ثمانية وسبعين ألف سنة وذلك عند مضي مدة سلطان كل من البروج الاثني عشر ووصول الأمر إلى برج الميزان وزعموا أن مدة سلطان الحمل اثنا عشر

ألف سنة ومدة سلطان الثور أقل بألف وهكذا إلى الحوت .

ونقل البكري عن هرمس أنه زعم أنه لم يكن في سلطان الحمل والثور والجوزاء على الأرض حيوان فلما كان سلطان الأسد تكونت دواب الماء وهوام الأرض فلما كان سلطان الأسد تكونت الدواب ذوات الأربع فلما كان سلطان السنبلة تولد الإنسانان الأولان ادمانوس وحوانوس ، وزعم بعضهم أن مدة العالم مقدار قطع الكواكب الثابتة لدرج الفلك التي هي ثلثمائة وستون درجة وقطعها لكل درجة على قول كثير منهم في مائة سنة فتكون مدته ستاً وثلاثين ألف سنة وكل ذلك خبط لا دليل عليه .

(121/708)

ومن أعجب ما رأيت ما زعمه بعض الإسلاميين من أن الساعة تقوم بعد ألف وأربعمائة وسبع سنين أخذاً من قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً ﴾ [الأعراف : 187] بناءً على أن عدة حروف ﴿ بَغْتَةً ﴾ بالجمل الكبير ألف وأربعمائة وسبع ويوشك أن يقول قائل : هي ألف وثمانمائة واثنان وبحسب تاء التأنيث أربعمائة لا خمسة فإنه رأى بعض أهل الحساب كما في فتاوى خير الدين الرملي ويجيء آخر ويقول : هي أكثر من ذلك أيضاً ويعتبر بسط الحروف على

نحو ما قالوا في اسم محمد صلى الله عليه وسلم إنه متضمن عدة المرسلين عليه السلام ، وأنت تعلم أن مثل ذلك مما لا ينبغي لعاقل أن يعول عليه أو يلتفت إليه ، والحزم الجزم بأنه لا يعلم ذلك إلا اللطيف الخبير .

﴿ فاعلم أَنَّهُ لاَ إِله إِلا الله ﴾

(122/708)

مسبب عن مجموع القصة من مفتتح السورة لا عن قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ ﴾ [محمد : 18] كأنه قيل : إذا علمت أن الأمر كما ذكر من سعادة هؤلاء وشقاوة هؤلاء فأثبت على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية فهو من موجبات السعادة ، وفسر الأمر بالعلم بالثبات عليه لأن علمه صلى الله عليه وسلم بالتوحيد لا يجوز أن يترتب على ما ذكره سبحانه من الأحوال فإنه عليه الصلاة والسلام موحد عن علم حال ما يوحى إليه ولأن المعنى فتمسك بما أنت فيه من موجبات السعادة لا باطلب السعادة ، وقال بعض الأفاضل : إن الثبات أيضاً حاصل له عليه الصلاة والسلام فأمره بذلك صلى الله عليه وسلم تذكير له بما أنعم الله تعالى عليه توطئة لما بعده ، وتعقب بأن المراد بالثبات الاستمرار وهو بالنظر إلى الأزمنة الآتية وذلك وإن كان مما لا بد من حصوله له عليه الصلاة والسلام لمكان العصمة

لكن المعصوم يؤمر وينهى فيأتي بالمأمور ويترك المنهي ولا بد للعصمة والأمر في قوله تعالى : ﴿ واستغفر لذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات ﴾ قيل على معنى الثبات أيضاً ، وجعل الاستغفار كناية عما يلزمه من التواضع وهضم النفس والاعتراف بالتقصير لأنه صلى الله عليه وسلم معصوم أو مغفور لا مصر ذاهل عن الاستغفار ، وقيل : التحقيق أنه توطئة لما بعده من الاستغفار للمؤمنين والمؤمنات ؛ ولعل الأولى إبقاؤه على الحقيقة من دون جعله توطئة ، والنبي صلى الله عليه وسلم كان يكثر الاستغفار ، أخرج أحمد .

ومسلم .

وأبو داود .

والنسائي .

وابن حبان عن الأغر المزني رضي الله تعالى عنه قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله كل يوم مائة مرة " وأخرج النسائي .

وابن ماجه .

وغيرهما عن أبي موسى قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أصبحت غداة قط لا استغفرت الله فيها مائة مرة " وأخرج أبو داود .

والترمذي وصححه .

والنسائي .

وابن ماجه .

(123/708)

وجماعة عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : " إنا كنا لنعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس يقول : رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم مائة مرة " وفي لفظ "التواب الغفور" إلى غير ذلك من الأخبار الصحيحة .

والذنب بالنسبة إليه عليه الصلاة والسلام ترك ما هو الأولى بمنصبه الجليل ورب شيء حسنة من شخص سيئة من آخر كما قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين ؛ وقد ذكروا أن لنبينا صلى الله عليه وسلم في كل لحظة عروجاً إلى مقام أعلى مما كان فيه فيكون ما عرج منه في نظره الشريف ذنباً بالنسبة إلى ما عرج إليه فيستغفر منه ، وحملوا على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام :

" إنه ليغان على قلبي " الحديث وفيه أقوال أخر ، وقوله تعالى : ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ على حذف مضاف بقرينة ما قبل أي ولذنوب المؤمنين ، وأعيد الجار لأن ذنوبهم جنس آخر غير ذنبه عليه الصلاة والسلام فإنها معاص كبائر وصغائر وذنبه صلى الله عليه وسلم ترك

الأولى بالنسبة إلى منصبه الجليل ، ولا يبعد أن يكون بالنسبة إليهم من أجل حسناتهم ، قيل : وفي حذف المضاف وتعليق الاستغفار بذواتهم إشعار بفرط احتياجهم إليه فكأن ذواتهم عين الذنوب وكذا فيه إشعار بكثرتها ، وجوز بعضهم كون الاستغفار للمؤمنين بمعنى طلب المغفرة لهم وطلب سببها كأمرهم بالتقوى ، وفيه الجمع بين الحقيقة والمجاز مع أن في صحته كلاماً ، فالظاهر إبقاء اللفظ على حقيقته .

وفي تقديم الأمر بالتوحيد إيذان بمزيد شرف التوحيد فإنه أساس الطاعات ونبراس العبادات ، وفي الكلمة الطيبة أبحاث شريفة ولطائف منيفة لا بأس بذكر بعضها وإن تقدم شيء من ذلك فنقول .

(124/708)

المشهور أن إلا للاستثناء والاسم الجليل بدل من محل اسم لا النافية للجنس وخبر ﴿ لا ﴾ محذوف ، واستشكل الإبدال من جهتين أولاهما أنه بدل بعض وليس معه ضمير يعود على المبدل منه وهو شرط فيه ؛ وأجيب بمنع كونه شرطاً مطلقاً بل هو شرط حيث لا تفهم البعضية بقرينة وههنا قد فهمت بقرينة الاستثناء .

ثانيتهما : أن بين المبدل منه والبدل مخالفة فإن الأول منفي والثاني موجب .

وأجاب السيرافي بأنه بدل عن الأول في عمل العامل والتخالف نفياً وإيجاباً لا يمنع البدلية لأن مذهب البدل أن يجعل الأول كأنه لم يذكر والثاني في موضعه وقد تتخالف الصفة والموصوف في ذلك نحو مررت برجل لا كريم ولا لبيب على أنه لو قيل : إن البدل في الاستثناء قسم على حياله مغاير لغيره من الإبدال لكان له وجه .

واستشكل أمر الخبر بأنه إن قدر ممكن يلزم عدم إثبات الوجود بالفعل للواحد الحقيقي تعالى شأنه أو موجود يلزم عدم تنزيهه تعالى عن إمكان الشركة وتقدير خاص مناسب لا قرينة عليه قيل : ولصعوبة هذا الإشكال ذهب صاحب الكشاف وأتباعه إلى أن الكلمة لا غير محتاجة إلى خبر وجعل ﴿ إِلاَّ الله ﴾ مبتدأ و ﴿ لا إله ﴾ خبره والأصل الله إله أي معبود بحق لكن لما أريد قصر الصفة على الموصوف قدم الخبر وقرن المبتدأ بإلا إذ المقصور عليه هو الذي يلي إلا والمقصور هو الواقع في سياق النفي والمبتدأ إذا اقترن بإلا وجب تقديم خبره .

وتعقب بأنه مع ما فيه من التمحل يلزم منه بناء الخبر مع لا وهي لا يبنى معها إلا المبتدأ ، وأيضاً لو كان الأمر كذلك لم يكن لنصب الاسم الواقع بعدها وجه وقد جوزه جماعة .

(125/708)

وقال بعض الأفاضل : إن لا إله إلا الله على هذا المذهب قضية معدولة الطرفين بمنزلة غير الحي لا عالم بمعنى الحي عالم ولا يدفع الاعتراض كما لا يخفى ، وقال بعضهم : إن الخبر هو ﴿ إِلَّا الله ﴾ أعني إلا مع الاسم الجليل وأورد عليه أن الجنس مغاير لكل من أفراده فكيف يصدق حينئذٍ سلب مغايرة فرد عنه اللهم إلا أن يقال : إن ذلك بناءً على تضمين معنى من وإن المفهوم منه أنه انتفى من هذا الجنس غير هذا الفرد ، والوجه كما قيل أن يقال : إن المغايرة المنفية هي المغايرة في الوجود لا المغايرة في المفهوم حتى لا يصدق ، ولا شك أن المراد من الجنس المنفي بلا هذه هو المفهوم من غير اعتبار حصوله في الأفراد كلها أو بعضها فيكون محمولاً لا بمعنى اعتبار عدم حصوله فيها أصلاً حتى لا يصح حمله إذ لا يلزم من عدم اعتبار شيء اعتبار عدمه ومتى تحقق الحمل تحقق عدم المغايرة في الوجود فتدبره .

(126/708)

وقال بعضهم : لا خبر للا هذه أصلاً على ما قاله بنو تميم فيها ، وأورد عليه أنه يلزم حينئذٍ انتفاء الحكم والعقد وهو باطل قطعاً ضرورة اقتضاء التوحيد ذلك ولا يبعد أن يقال : إن القول بعدم احتياج لا إلى الخبر لا يخرج المركب منها ومن اسمها عن العقد وذلك لأن معنى المركب نحو لا رجل على هذا التقدير انتفى هذا الجنس فإذا قلنا : لا رجل إلا حاتم كان

معناه انتفى هذا الجنس في غير هذا الفرد ويخدشه أن تركب الكلام من الحرف والاسم مما ليس إليه سبيل ، وربما يدفع بما قيل في النداء مثل يا زيد من أنه قائم مقام ادعوه ، والشريف العلامة قدس سره صرح في بيان ما نقل عن بني تميم من عدم إثبات خبر لا هذه بأنه يحتمل أن يكون بناءً على أن المفهوم من التركيب كما ذكر آنفاً انتفاء هذا الجنس ثم إن كلمة إلا على هذا التقدير بمعنى غير ولا مجال لكونها للاستثناء لا لما يتوهم من التناقض بناءً على أن سلب الجنس عن كل فرد فرد ينافي إثباته لواحد من أفراده فإنه مدفوع بنحو ما اختاره نجم الأئمة في دفع التناقض المتوهم في مثل ما قام القوم إلا زيداً لوجوب شمول القوم المنفي عنهم الفعل لزيد المثبت هو له فيما يتبادر بأن يقال : إن الجنس الخارج عنه هذا الفرد منتف في ضمن كل ما عداه ولا لما قد يتوهم من عدم تناول الجنس المنفي لما هو بعد إلا وهو شرط الاستثناء لما عرفت من الفرق بين الجنس بدون اعتبار حصوله في الأفراد وبينه مع اعتبار عدم حصوله فيها بل لأنها لو كانت للاستثناء لما أفراد الكلام التوحيد لأنه يكون حاصله حينئذٍ أن هذا الجنس على تقدير عدم دخول هذا الفرد فيه منتف فيفهم منه عدم انتفائه في أفراد غير خارج عنها ذلك الفرد فأين التوحيد ، فالواجب حملها على معنى غير وجعلها تابعة لمحل اسم لا بدلاً عنه أو صفة كما في قوله :

وكل أخ مفارقه أخوه . . .

لعمر أبيك إلا الفرقدان

كذا رأيته في بعض نسخ قديمة وذكره بعض شيوخ مشايخنا العلامة الطبقجلي في رسالته شرح الكلمة الطيبة ولم يتعقبه بشيء ، وعندي أن ما ذكر في نفي كون إلا للإستثناء على ذلك التقدير لا يخلو عن نظر ، ثم إنه قيل : إذا كان مضمون المركب على ذلك التقدير أن هذا الجنس منتف فيما عدا هذا الفرد كانت القضية شخصية ولها لازم هو قضية كلية أعني قولنا كل ما يعتبر فرداً له سوى هذا الفرد فهو منتف ولا استبعاد في شيء من ذلك .

وذهب الكثير إلى تقدير الخبر موجود وأجاب عن الإشكال بأنه يلزم نفي الإمكان العام من جانب الوجود عن الآلهة غير الله تعالى وذلك مبني على مقدمة قطعية معلومة للعقلاء هي أن المعبود بالحق لا يكون إلا واجب الوجود فيصير المعنى لا معبود بحق موجود إلا الله وإذا ليس موجوداً ليس ممكناً لأنه لو كان ممكناً لكان واجباً بناء على المقدمة القطعية فيكون موجوداً ، وقد أفادت الكلمة الطيبة أنه ليس بموجود فليس بممكن لأن نفي اللازم يدل على نفي الملزوم .

واعترض بأن المقدمة القطعية وإن كانت صحيحة في نفس الأمر لكنها غير مسلمة عند المشركين لأنهم يعبدون الأصنام ويعتقدونها آلهة مع اعترافهم بأنها ممكنة محتاجة إلى الصانع

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [لقمان : 25] فيمكن أن يعترف المكلف بالكلمة الطيبة ويعتقد أن نفي الوجود لا يستلزم نفي الإمكان فيمكن عنده وجود آلهة غير الله فلا يكون التلفظ بالكلمة نصاً على إيمانه ولو كانت المقدمة المذكورة مسلمة عند الكل لأمكن أن يقدر الخبر من أول الأمر موجود بالذات أي لا إله موجود بالذات إلا الله وإذا لم يكن غيره تعالى موجوداً بالذات لم يكن مستحقاً للعبادة لأن المستحق لها لا يكون إلا واجباً لذاته .

وقد قرر الجواب بوجهين آخرين .

(128/708)

الأول أن لا إله موجود قضية سالبة حملية لا بد لها من جهة وهي الإمكان العام فيكون المعنى أن الجانب المخالف للسلب وهو إثبات الوجود ليس ضرورياً للآلهة إلا الله تعالى فإنه موجود بالإمكان العام أي جانب السلب ليس ضرورياً له تعالى فيكون الوجود ضرورياً له سبحانه تحقيقاً للتناقض بين المستثنى والمستثنى منه .

الثاني أن لا إله موجود بالإمكان العام سالبة كلية ممكنة عامة فيكون المتحصل بالاستثناء الذي هو نقيض موجبة جزئية ضرورية أي الله موجود بالضرورة .

وأورد على التقريرين أنهما إنما يتمان إذا كان كل من طرفي المستثنى والمستثنى منه قضية مستقلة وهو ممنوع.

والصحيح عند أهل العربية أنهما كلام واحد مقيد بالاستثناء فلا يجري فيهما أحكام التناقض إلا أن يؤول بالمعنى اللغوي، وأيضاً جعل الله موجود بالضرورة قضية جزئية فيه تساهل، وقيل: يمكن أن يقال الخبر المقدر هو الموجود مطلقاً سواء كان بالفعل أو بالإمكان على استعمال المشترك في كلا معنييه أو على تأويله بما يطلق عليه اسم الموجود وهو كما ترى، وقيل: يجوز تقديره ممكن ونفي الإمكان يستلزم نفي الوجود لأن الاله واجب الوجود وإمكان اتصاف شيء بوجوب الوجود يستلزم اتصافه بالفعل بالضرورة فإذا استفيد من الكلمة الطيبة إمكانه يستفاد منه وجوده أيضاً إذ كل ما لم يوجد يستحيل أن يكون واجب الوجود، ويعلم ما فيه مما مر فلا تغفل، وقال بعضهم: الخبر المقدر مستحق للعبادة، فالمعنى لا إله مستحق للعبادة إلا الله، ولا محذور فيه.

واعترض بأن هذا كون خاص ولا بد في حذفه من قرينة ولا قرينة فلا يصح الحذف.

وأجيب بأنها كنار على علم لأن الاله بمعنى المعبود فدل على العبادة واستحقاقها، ويؤيده ملاحظة المقام واعتبار حال المخاطبين لأن هذه الكلمة الطيبة واردة لرد اعتقاد المشركين الزاعمين أن الأصنام تستحق العبادة.

واعترض أيضاً بأنه لا يدل على نفي التعدد مطلقاً أي لا بالإمكان ولا بالفعل لجواز وجود إله غيره سبحانه لا يستحق العبادة ، وأيضاً يمكن أن يقال : المراد إما نفي إله مستحق للعبادة غيره تعالى بالفعل أو بالإمكان فعلى الأول لا ينفي إمكان اله مستحق للعبادة أيضاً غيره عز وجل وعلى الثاني لا يدل على استحقاقه تعالى للعبادة بالفعل .

ورد بأن وجوب الوجود مبدأ جميع الكمالات ولذا فرعوا عليه كثيراً منها فلا ريب أنه يوجب استحقاق التعظيم والتبجيل ، ولا معنى لاستحقاق العبادة إلا ذلك فإذا لم يستحق غيره تعالى العبادة لم يوجد واجب وجود غيره سبحانه وإلا لاستحق العبادة قطعاً ، وإذا لم يوجد لم يكن ممكناً أيضاً فثبت أن نفي استحقاق العبادة يستلزم نفي التعدد جزماً .

وتعقب بأن فيه البناء على أن الاله لا يكون إلا واجب الوجود ، وقد سمعت أنها وإن كانت قطعية الصدق في نفس الأمر إلا أنها غير مسلمة عند المشركين .

ومن المحققين من قال : إنه لا يلتفت إلى عدم تسليمهم لمكابرتهم ما عسى أن يكون بديهياً .

نعم ربما يقال : إن الكلمة الطيبة على ذلك التقدير إنما تدل على نفي المعبود بالفعل بناء على ما قرر في املنطق أن ذات الموضوع يجب اتصافه بالعنوان بالفعل ، ويجاب بمنع وجوب ذلك بل يكفي الاتصاف بالإمكان كما صرح به الفارابي ، وأما ما نقل عن الشيخ فمعناه كونه

بالفعل بحسب الفرض العقلي لا بحسب نفس الأمر كما تدل عليه عبارته في الشفاء والإشارات فيرجع إلى معنى الإمكان .

(130/708)

والفرق بين المذهبين أن في مذهب الشيخ زيادة اعتبار ليست في مذهب الفارابي وهي أن الشيخ اعتبر مع الإمكان بحسب نفس الأمر فرض الاتصاف بالفعل ولم يعتبره الفارابي ، وبالجملة إن الاتصاف بالفعل غير لازم فكل ما يمكن اتصافه بالمعبودية داخل في الحكم بأنه لا يستحق العبادة ، ولما كانت القضية سالبة صدقت وان لم يوجد الموضوع ، ولعل التحقيق في هذا المقام إن الكلمة الطيبة جارية بين الناس على متفاهم اللغة والعرف لا على الاصطلاحات المنطقية والتدقيقات الفلسفية ، وهي كلام ورد في رد اعتقاد المشرك الذي اعتقد أن آلهة غير الله سبحانه تستحق العبادة فإذا اعترف المشرك بمضمونه من أنه لا معبود مستحق للعبادة إلا ا تعالى علم من ظاهر حاله الإيمان ، ولهذا اكتفى به الشارع عليه الصلاة والسلام ، وأما الكافر الذي يعتقد إمكان وجود ذات تستحق العبادة بعد فلا تكفي هذه الكلمة الطيبة في إيمانه كما لا تكفي في إيمان من أنكر النبوة أو المعاد أو نحو ذلك مما يجب الإيمان به بل لا بد من الاعتراف بالحكم الذي أنكره ولا محذور في ذلك ، ولما كان

الكفرة الذين يعتقدون أن آلهة غير الله تعالى تستحق العبادة هم المشهورون دون من يعتقد إمكان وجودها بعد اعتبرت الكلمة علماً للتوحيد بالنسبة إليهم .

(131/708)

ويعلم من هذا أنه لو قدر الخبر المحذوف من أول الأمر موجود أمكن دفع الاشكال بهذا الطريق أعني متفاهم اللغة وعرف الناس من الأوساط ، وأما أن نفي الوجود لا يستلزم نفي الإمكان فلا يلزم من الكلمة الطيبة حينئذ نفي إمكان آلهة غير الله تعالى فمما لا يسبق إلى الأفهام ولا يكاد يوجد كافر يعتقد نفي وجود إله غيره تعالى مع اعتقاده إمكان وجود إله غيره سبحانه بعد ذلك ، ومن الناس من أيد تقدير الخبر كذلك بأن الظاهر أن لا نافية للجنس ونفي الماهية نفسها بدون اعتبار الوجود واتصافها به كنفي السواد نفسه لا نفي وجوده عنه بعيد ، فكما أن جعل الشيء باعتبار الوجود إذ لا معنى لجعل الشيء وتصييره نفسه فكذلك نفيه ورفعه أيضاً باعتبار رفع الوجود عنه .

وتعقب بأن هذا هو الذي يقتضيه النظر الجليل ، وأما النظر الدقيق فقد يحكم بخلافه لأن نفي املاهية باعتبار الوجود ينتهي بالآخرة إلى نفس ماهية ما باعتبار نفسها ، وذلك لأن نفي اتصافها بالوجود لا يكون باعتبار اتصاف ذلك الاتصاف به إلى ما لا يتناهى ، فلا بد

من الانتهاء إلى اتصاف منتف بنفسه لا باعتبار اتصافه بالوجود دفعاً للتسلسل ، وقيل : الظاهر أن نفي الأعيان كما في الكلمة الطيبة إنما هو باعتبار ذلك ، واما غيرها فتارة وتارة فتدبر ، و﴿ إِلا ﴾ على التقدير المذكور للاستثناء ورفع الاسم الجليل على ما سمعت من المشهور ، وقيل : هي فيه بمعنى غير صفة الاسم لا باعتبار المحل أي لا إله غير الله تعالى موجود .

واعترض بأن المقصود من الكلام أمر أن نفي الألوهية عن غيره تعالى وإثباتها له سبحانه ، وهو إنما يتم إذا كانت لا فيه للاستثناء إذ يستفاد النفي والإثبات حينئذ بالمنطوق إما إن كانت بمعنى غير فلا يفيد بمنطوقه إلا نفي الألوهية عن غيره تعالى سبحانه وفي كون إثباتها له تعالى بالمفهوم ويكتفي به بحث ون ذلك ان كان مفهوم لقب فلا عبرة عند القائلين بالمفهوم على الصحيح خلافاً للدقاق .

(132/708)

والصيرفي من الشافعية ، وابن خويز منداد من المالكية ، ومنصور بن أحمد من الحنابلة ، وإن كان مفهوم صفة فمن البين أنه غير مجمع عليه بل أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه لم يقل بشيء من مفاهيم المخالفة أصلاً ، وأنت تعلم أن ما ذكره من إفادة الكلمة الطيبة إثبات

الإلهية لله تعالى ونفيها عما سواه عز وجل على تقدير كون إلا للاستثناء غير مجمع عليه أيضاً فإن الاستثناء من النفي ليس بإثبات عند أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه .

وجعل الإثبات في كلمة الوتحيد بعرف الشرع ، وفي المفرغ نحو ما قام إلا زيد بالعرف العام ، وما له وما عليه فيك تب الأصول فلا تغفل ، وتمام الكلام فيما يتعلق باعراب هذه الكلمة الطيبة في كتب العربية ، وقد ذكرنا ذلك في تعليقاتنا على شرح السيوطي للألفية ، وهي عند السادة الصوفية قدست أسرارهم جامعة لجميع مراتب التوحيد ودالة عليها اما منطوقا أو بالاستلزام ، ومراتبه أربع .

الأولى توحيد الألوهية .

الثانية توحيد الأفعال .

الثالثة توحيد الصفات ، وإن شئت قلت : توحيد الوجوب الذاتي فإنه يستلزم سائر الصفات الكمالية كما فرعها عليه بعض المحققين .

الرابعة توحيد الذات وإن شئت قلت : توحيد الوجود الحقيقي فإن المآل واحد عندهم ، وبيان ذلك أن لا إله إلا الله منطوقة على ما يتبادر إلى الأذهان وذهب أليه المعظم قصر الألوهية على الله تعالى قصراً حقيقياً أي إثباتها له تعالى بالضرورة ونفيها عن كل ما سواه سبحانه كذلك وهو يستلزم توحيد الأفعال .

وتوحيد الصفات .

وتوحيد الذات .

(133/708)

أما الأول الذي هو قصر الخالقية فيه تعالى فلأن مقتضى قصر الألوهية عليه تعالى قصراً حقيقياً هو أن الله عز وجل هو الذي يستحق أن يعبده كل مخلوق فهو النافع الضار على الإطلاق فهو سبحانه وتعالى الخالق لكل شيء ، فإن كل من لا يكون خالقاً لكل شيء لا يكون نافعاً ضاراً على الإطلاق وكل من لا يكون كذلك لا يستحق أن يعبده كل مخلوف لأن العبادة هي الطاعة والإنقياد والخضوع ومن لا يملك نفعاً ولا ضراً بالنسبة إلى بعض المخلوقين لا يستحق أن يعبده ذلك البعض ويطيعه وينقاد به ، فإن من لا يقدر على أيصال نفع إلى شخص أو دفع ضر عنه لا يرجوه ، ومن لا يقدر على إيصال ضر إليه لا يخافه ، وكل ما لا يخاف ولا يرجى أصلاً لا يستحق أن يعبد ؛ وهو ظاهر لكحن الذي يقتضيه قصر الألوهية عليه تعالى قصراً حقيقياً هو أن الله تعالى هو الذي يستحق أن يعبده كل محلوق فهو النافع الضار على الإطلاق فهو الخالق لكل شيء وهو المطلوب ، وأما الثاني فلأن الكلمة الطيبة تدل على أن الألوهية ثابتة له تعالى ثبوتاً مستمراً ممتنع الانفكاك ومنتفية عن غيره

انتفاء كذلك ، وكل ما كان كذلك فهي دالة على أنه عز وجل واجب الوجود ، وأن كل موجود سواه تعالى ممكن الوجود ؛ وكل ما كان كذلك كان وجوب الوجود مقصوراً عليه تعالى وهو مستلزم لسائر صفات الكمال وهو المطلوب ، أما دلالتها على أنه عز وجل واجب الوجود فلأن الالوهية لا تكون إلا لموجود حقيقة اتفاقاً ، وكل ما لا يكون صفة إلا لموجود إذا دل كلام على أنه ثابت لشيء ثبوتاً ممتنع الانفكاك سرمداً فقد دل على أن الوجود ثابت لذلك الشيء ثبوتاً ممتنع الانفكاك سرمداً ، ولا يكون كذلك إلا إذا كان موجوداً لذاته وهو المعنى بواجب الوجود لذاته .

وحيث دلت على ثبوت الألوهية ثبوتاً مستمراً ممتنع الانفكاك فقد دلت على وجوب وجوده تعالى وهو مستلزم لسائر صفات الكامل وهو المطلوب .

(134/708)

وأما دلالتها على أن كل موجود سواه فهو ممكن الوجود فلأن موجوداً ما سواه لو كان واجب الوجود لذاته لكان مستحقاً أن يعبد لكنها قد دلت على أنه لا يستحق أن يعبد إلا الله فقد دلت على أنه لا واجباً وجوده لذاته إلا الله تعالى فكل ما سواه فهو ممكن وهو المطلوب ، أو يقال : إنها قد دلت على أنه تعالى هو النافع الضار على الإطلاق فهو الجامع لصفات الجلال

والإكرام فهو سبحانه المتصف بصفات الكمال كلها وهو المطلوب .

وأما الثالث فقد قال حجة الإسلام الغزالي في باب الصدق من الاحياء : كل ما تقيد العبد به فهو عبد له كما قال عيسى عليه السلام : يا عبيد الدنيا ، وقال نبينا صلى الله عليه وسلم : " تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم وعبد الحلة وعبد الخميصة " سمي كل من تقيد قلبه بشيء عبدا له ، وقال في باب الزهد منه : من طلب غير الله تعالى فقد عبده ؛ وكل مطلوب معبود ، وكل طالب عبد بالإضافة إلى مطلبه ، وقال في الباب الثالث من كتاب "العلم منه" .

كل متبع هواه فقد اتخذ هواه معبوداً قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ [الجاثية : 23] وقال صلى الله عليه وسلم :

" أبغض اله عبد في الأرض عند الله تعالى هو الهوى " انتهى .

ومن المعلوم أنه ما في الوجود شيء إلا وهو مطلوب لطالب ما وقد صح بما مر إطلاق الإله عليه ولا إله إلا الله فما ف الوجود حقيقة إلا الله : ومنهم من قرر دلالة الكلمة الطيبة على توحيد الذات ونفي وجود أحد سواه عز وجل بوجه آخر ، وهو أن ﴿ إِلا ﴾ بمعنى غير بدل من الإله المنفي فيكون النفي في الحقيقة متوجهاً إلى الغير ونفي الغير توحيد حقيقي عندهم ، وإذا تبين لك دلالتها على جميع مراتب التوحيد لاح لك أن الشارع لأمر ما جعلها مفتاح الإسلام وأساس الدين ومهداة الأنام .

(135/708)

وفي حديث أخرجه أبو نعيم عن عياض الأشعري أنه صلى الله عليه وسلم قال : " لا إله إلا الله كلمة كريمة ولها عند الله مكان جمعت وسولت من قالها صادقاً من قلبه دخل الجنة " وفي حديث أخرجه ابن النجار عن دينار عن أنس أنه عليه الصلاة والسلام قال : " لا إله إلا الله كلمة عظيمة كريمة على الله تعالى من قالها مخلصاً استوجب الجنة " وأخرج مسلم عن أبي هريرة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذهب بنعلي هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مسيقناً بها قلبه فبشره بالجنة " وحديث البطاقة أشهر من أن يذكر ، وكذا الحديث القدسي المروي عن علي الرضا عن آبائه عليهم السلام ، وجاء "من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة أي بلا حساب وإلا فما الفرق بين ذلك ومن قالها ولم تكن آخر كلامه من الدنيا ، وبالجملة إن فضلها لا يحصى وإنها لتوصل قائلها إلى المقام الأقصى ، وقد ألفت كتب في فضلها وكيفية النطق بها وآداب استعمالها فلا نطيل الكلام في ذلك .

(136/708)

بقي ههنا بحث وهو أن المسلمين أجمعوا على وجوب معرفة الله تعالى وان اختلفوا في كونه شرعياً أو عقلياً ، وأما النظر في معرفته تعالى لأجل حصولها بقدر الطاقة البشرية فقد قال العلامة التفتازاني في "شرح المقاصد" : لا خلاف بين أهل الإسلام في وجوبه لأنه أمر مقدور يتوقف عليه الواجب المطلق الذي هو المعرفة ، وكل مقدور يتوقف عليه الواجب المطلق فهو واجب شرعاً ان كان وجوب الواجب المطلق شرعياً كما هو رأي الأصحاب وعقلاً إن كان عقلياً كما هو رأي المعتزلة لئلا يلزم تكليف المحال ، أما كون النظر مقدوراً فظاهر ، وأما توقف المعرفة عليه فلأنها ليست بضرورية بل نظرية ، ولا معنى للنظري إلا ما يتوقف على النظر ويتحصل به ، وظاهر كلام السيد السند في "شرح المواقف" إجماع المسلمين كافة على ذلك أيضاً ، والحق وقوع الخلاف في وجوب النظر كما يدل عليه كلام ابن الحاجب في مختصره ، والعضد في شرحه ، وكلام التاج السبكي في جمع الجوامع ، والجلال المحلي في شرحه ، وقول شيخ الإسلام في حاشيته عليه : محل الخلاف في وجوب النظر في أصول الدين وعدم وجوبه في غير معرفة الله تعالى منها أما النظر فيها فواجب إجماعاً كما ذكره السعد التفتازاني كغيره اعترضه المحقق ابن قاسم العبادي في حاشيته الآيات البينات بقوله : أن الظاهر أن ما نقله السعد من الإجماع على وجوب النظر في معرفة الله تعالى غير مسلم عند الشارح وغيره ، ألا ترى إلى تمثيل الشارح لمحل الخلاف بقوله : كحدوث العالم ووجود الباري تعالى وما جيب له جل شأنه وما يمتنع عليه سبحانه من الصفات فإن قوله :

ووجود الباري تعالى الخ يتعلق بمعرفته عز وجل إلى آخر ما قال .

نعم قال كثير ورجحه الإمام الرازي .

والآمدي : إنه يجب النظر في مسائل الاعتقاد ومعرفة الله تعالى أسها فيجب فيها بالأولى ، وقالوا في ذلك .

(137/708)

لأن المطلوب اليقين لقوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ فاعلم أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ الله ﴾ وقد علم ذلك ، وقال تعالى للناس : ﴿ واتبعوه لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف : 158] ويقاس غير الوحدانية عليها ، ولا يتم الاستدلال إلا بضم توقف حصول اليقين على النظر .

وهؤلاء لم يجوزوا التقليد في الأصول وهو أحد أقوال في المسألة ، ثانيها قول العنبري .

إنه يجوز التقليد فيها بالعقد الجازم ولا يجب النظر لأنه عليه الصلاة والسلام كان يكتفي في الإيمان بالعقد الجازم ويقاس غير الإيمان عليه .

والمراد أنه عليه الصلاة والسلام كان يكتفي بذلك نظراً إلى ظاهر الحال فإن الخبر كما صرح به المحقق عيسى الصفوي في شرحه للفوائد الغياثية على ما نقله عنه تلميذه ابن قاسم العبادي في الآيات البينات دال وضعا على صورة ذهنية على وجه الاذعان تحكي الحال

الواقعية ، ولا شك أن لا إله إلا الله محمد رسول الله من قسم الخبر فهما دالان وضعا على أن قائلهما ولو تحت ظلال السيف معتقد لمضمونهما على وجه الأذعان ، وعدم كونه معتقداً في نفس الأمر احتمال عقلي ، والمطلع على ما في القلوب علام الغيوب .

وثالث الأقوال أنه يجب التقليد بالعقد الجازم ويحرم النظر لأنه مظنة الوقوع في الشبه والضلال لاختلاف الأذهان بخلاف التقليد وهذا ليس بشيء أصلاً .

والذي أوجب النظر من المحققين لم يرد به النظر على طريق المتكلمين بل صرح كما في الجواب العتيد للكوراني بأن المعتبر هو النظر على طريق العامة ، والظاهر أنه ليس مظنة الوقوع فيما ذكر ، وهل القائل بوجوبه من أولئك جاعل له شرطاً لصحة الإيمان أم لا ففيه خلاف .

(138/708)

فيفهم من بعض عبارات شرح الأربعين لابن حجر أنه جاعل له كذلك فلا يصح إيمان المقلد عنده ، بل يفهم منها أن النظر المعتبر عند ذلك هو النظر على طريق المتكلمين ، وكلام الجلال المحلي في شرح جمع الجوامع صريح في أن القائلين بوجوب النظر غير أبي هاشم ليسوا جاعلين النظر شرطاً لصحة الإيمان ولا زاعمين بطلان إيمان المقلد بل هو صحيح عندهم

مع الإثم بترك النظر الواجب .

نعم سيأتي إن شاء الله تعالى نقل الإمام حجة الإسلام في كتابه فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة نقل الاشتراط عن طائفة من المتكلمين مع رده .

وأما ما نقل عن الشيخ الأشعري من الاشتراط وأنه لا يصح إيمان المقلد فكذب عليه كما قاله الأستاذ أبو القاسم القشيري ، وقال التاج السبكي : التحقيق أنه ان كان التقليد أخذاً بقول الغير بغير حجة مع احتمال شك أو وهم فلا يكفي ، وان كان جزماً فيكفي خلافاً لأبي هاشم .

والظاهر أن القائل بكفاية التقليد مع الجزم يمنع القول بأن المعرفة لا تحصل إلا بالنظر ويقول : إنها قد تحصل بالإلهام أو التعليم أو التصفية فمن حصل له العقد الجازم بما يجب عليه اعتقاده فقد صح إيمانه من غير اثم لحصول المقصود ، ومن لم يحصل له ذلك ابتداء أو تقليداً أو ضرورة فالنظر عليه متعين ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ [السجدة : 22] .

(139/708)

ويكفي دليلاً للصحة اكتفاء النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله تعالى عنهم من عوام العجم كوجلاف العرب وان أسلم أحدهم تحت ظل السيف بمجرد الإقرار بلا إله إلا الله محمد رسول الله الدال بحسب ظاهر حالهم على أنهم يعتقدون مضمون ذلك ويذعنون له ، ولو كان الاستدلال فرضاً لأمروا به بعد النطق بالكلمتين أو علموا الدليل ولقنوه كما لقنوهما وكما علموا سائر الواجبات ، ولو وقع ذلك لنقل إلينا فإنه من أهم مهمات الدين ، ولم ينقل أنهم أمروا أحداً منهم أسلم بترديد نظر ولا سألوه عن دليل تصديقه ولا أرجؤا أمره حتى ينظر فلو كان النظر واجباً على الأعيان ولو إجمالياً على طريق العامة لما اكتفى النبي صلى الله عليه وسلم من أولئك العوام والاجلاف بمجرد الإقرار لأن النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه لا يقرون أحداً على ترك فرض العين من غير عذر ، فلا يكون تاركه آثماً فضلاً عن أن يكون بتركه غير صحيح الإيمان ، ويشهد لذلك ما قاله صلى الله عليه وسلم لأسامة بن زيد عند اعتذاره عن قتل مرداس بن نهيك من أهل فدك وغيره من الأخبار الكثير .

(140/708)

وما في المواقف والمقاصد وشرح المختصر العضدي وغيرها من كتب الكلام والأصول من أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا يعلمون أنهم أي العوام واجلاف العرب يعلمون الأدلة إجمالاً كما قال الأعرابي : البعرة تدل على البعير وأثر الاقدام على المسير أفسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج لا تدل على اللطيف الخبير أي فلذلك لم يلزموهم النظر ولا سألوهم عنه ولا أرجؤوا أمرهم وكل ما كان كذلك لم يكن اكتفاؤهم بمجرد الإقرار دليلاً على أن النظر ليس واجباً على الأعيان ولا على أن تاركه غير آثم دعوى لا دليل عليها ، وحكاية الأعرابي ان كانت مسوقة للاستدلال لا تدل غاية ما في الباب أن ذلك الأعرابي كان عالماً لدليل إجمالي ، ولا يلزم منه أن جميع الأجلاف والعوام كانوا عالمين بالأدلة الإجمالية في عهد النبوة وغيره وإلا لكانت حجة على أنه لا مقلد في الوجود ، على أن بعضهم أسند ذلك القول إلى قس بن ساعدة وكان في الفترة .

والجلال المحلي ذكره لأعرابي قاله في جواب الأصمعي وكان في زمن الرشيد بل قد يقال : إن ظاهر كثير من الآيات والأخبار يدل على أن كثيراً من المشركين في عهده عليه الصلاة والسلام لم يكونوا عالمين بأدلة التوحيد مطلقاً ، وذلك كقوله تعالى : حكاية عنهم : ﴿ أَجَعَلَ الالهة إلها واحدا إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص : 5] ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إله إِلاَّ الله يستكبرون وَيَقُولُونَ أَئنا لَتَارِكُوءِالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ [الصافات : 35 ، 36] وقول بعضهم في بعض الحروب : أعل هبل اعل هبل ؛ وما ذكره المحقق العضد في

"شرح المختصر" من الدليل على عدم جواز التقليد حيث قال : إن الأمة أجمعوا على وجوب معرفة الله تعالى وأنها لا تحصل بالتقليد لثلاثة أوجه .

(141/708)

أحدها انه يجوز الكذب على المخبر فلا يحصل بقوله العلم ثانيها أنه لو أفاد العلم لأفاده بنحو حدوث العالم من المسائل المختلفة فيها فإذا قلد واحد في الحدوث والآخر في القدم كانا عالمين بهما فيلزم حقيقتهما وأنه محال .

ثالثها أن التقليد لو حصل العلم فالعلم بأنه صدق فيما أخبر به إما أن يكون ضرورياً أو نظرياً لا سبيل إلى الأول بالضرورة فلا بد له من دليل والمفروض أنه لا دليل إذ لو علم صدقه بدليله لم يبق تقليداً تعقبه العلامة الكوراني فقال : فيه بحث ، أما الوجه الأول فلأن من جوز التقليد مثل المقلد بمن نشأ ععلى شاهق جبل ولم ينظر في ملكوت السموات والأرض وأخبره غيره بما يلزمه اعتقاده وصدقه بمجرد اخباره من غير الفكر وتدبر وهو صريح في أن الكلام في مقلد أخبره غيره بما يلزمه اعتقاده وما يلزمه اعتقاده لا يكون إلا صدقاً فإن الكذب لا يلزم أحداً اعتقاده ، وأما من أخبر بالأكاذيب فاعتقادها فهو لم يعتقد إلا أكاديب والأكاذيب ليست من معرفة الله تعالى في شيء فكيف يحكم عليه أحد من العقلاء بأنه

مؤمن بالله تعالى عارف به مع أنه لم يعتقد إلا الأكاذيب وهو ظاهر ، وأما في الوجه الثاني فلمثل ما مر لأنا لا نقول : إن كل تقليد مفيد للعلم ولا أن كل مقلد عالم كيف وليس كل نظر مفيداً للعلم ولا كل ناظر مصيباً ، فإذا لم يكن النظر موجباً للعلم مطلقاً وإنما الموجب النظر الصحيح فكذلك نقول : ليس كل تقليد مفيداً للعلم وإنما المفيد التقليد الصحيح ، وهو أن يقلد عالماً بمسائل معرفة الله تعالى صادقاً فيما يخبره به فإن الكلام إنما هو في صحة إيمان مثل هذا المقلد لا مطلقاً ، وأما في الثالث فلأنا نختار أن عمله بأنه صدق فيما أخبر به ضروري قولكم لا سبيل إليه بالضرورة قلنا : ممنوع لقوله تعالى :

(142/708)

﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسلام ﴾ [الأنعام : 125] وقد روي مرفوعاً أنه صلى الله عليه وسلم سئل عن شرح الصدر فقال عليه الصلاة والسلام : " نور يقذفه الله في قلب المؤمن فينفسح " فصرح صلى الله عليه وسلم بأنه نور لا يحصل من دليل وإنما يقذفه الله تعالى في قلبه فلا يقدر على دفعه من غير فكر ولا روية ولا نظر ولا استدلال ، وقد صرح بعض أكابر المحققين بأن توحيد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن علم ضروري وجدوه في نفوسهم لم يقدروا على دفعه وبأن من أهل الفترة من وجد كذلك بل قد صرح بأن

الإيمان علم ضروري يجده المؤمن في قلبه لا يقدر على دفعه فكم من آمن بلا دليل ومن لم يؤمن مع الدليل ، وقلما يوثق بإيمان من آمن عن دليل فإنه معرض للشبه القادحة فيه .

(143/708)

وفي الباب المائة والاثنين والسبعين والمائتين والسابع والسبعين من الفتوحات المكية ما يؤيد ذلك ، وقال الإمام حجة الإسلام في فيصل التفرقة : من أشد الناس غلوا وانحرافاً طائفة من المتكلمين كفروا عوام المسلمين وزعموا أن من لا يعرف الكلام معرفتنا ولم يعرف الأدلة الشرعية بأدلتنا التي حرزناها فهو كافر فهؤلاء ضيقوا رحمة الله تعالى الواسعة على عباده أولا ، وجعلوا الجنة وقفاً على شرذمة يسيرة من المتكلمين ، ثم جهلوا ما تواترت به السنة ثانياً إذ ظهر من عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعصر الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين حكمهم باسلام طوائف من اجلاف العرب كانوا مشغولين بعبادة الوثن ولم يشتغلوا بتعليم الدلائل ولو اشتغلوا بها لم يفهموها ، ومن ظن أن مدرك الإيمان الكلام والأدلة المحررة والتقسيمات المرتبة فقد أبعد ، لا بل الإيمان نور يقذفه الله تعالى في قلب عبده عطية وهداية من عنده ، تارة بتنبه في الباطن لا يمكن التعبير عنه ، وتارة بسبب رؤيا في المنام ، وتارة بمشاهدة حال رجل متدين وسراية نوره إليه عند صحبته ومجالسته ، وتارة بقرينة

حال ، فقد جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم جاحداً له منكراً فلما وقع بصره على طلعته البهية وغرته الغريرة السنية فرآها يتلألأ منها نور النبوة قال : والله ما هذا وجه كذاب ، وسأله أن يعرض عليه السلام فأسلم ، وجاء آخر فقال : أنشدك الله بعثك الله نبينا ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : بلى إني والله الله بعثني نبيا فصدقه بيمينه وأسلم ، فهذا وأمثاله أكثر من أن يحصى ولم يشتغل واحد منهم قط بالكلام وتعلم الأدلة بل كان تبدو أنوار الإيمان أولاً بمثل هذه القرائن في قلوبهم لمعة بيضاء ثم لا تزال تزداد وضوحاً وإشراقاً بمشاهدة تلك الأحوال العظيمة وبتلاوة القرآن وتصفية القلوب ، وليت شعري من نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة إحضاره أعرابياً أسلم وقوله الدليل

(144/708)

على أن العالم حادث لأنه لا يخلو عن الأعراض وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، وأن الله تعالى عالم بعلم وقادر بقدرة كلاهما زائد على الذات لا هو ولا غيره إلى غير ذلك من رسوم المتكلمين ، ولست أقول : لم تجر هذه الألفاظ بل لم يجر أيضاً ما معناه معنى هذه الألفاظ بل كان لا تنكشف ملحمة إلا عن جماعة من الأجلاف يسلمون تحت ظلال السيوف وجماعة من الأساري يسلمون واحداً واحداً بعد طول الزمان أو على القرب

وكانوا إذا نطقوا بكلمة الشهادة علموا الصلاة والزكاة وردوا إلى صناعتهم من رعاية الغنم أو غيرها .

نعم لست أنكر أنه يجوز أن يكون ذكر أدلة المتكلمين أحد أسباب الإيمان في حق بعض الناس ولكن ذلك ليس بمقصور عليه وهو نادر أيضاً وساق الكلام إلى أن قال : والحق الصريح أن كل من اعتقد أن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم واشتمل عليه القرآن حق اعتقاداً جزماً فهو مؤمن وإن لم يعرف أدلته ، فالإيمان المستعار من الدلائل الكلامية ضعيف جداً مشرف على التزلزل بكل شبهة بل الإيمان الراسخ إيمان العوام الحاصل في قلوبهم في الصبا بتواتر السماع والحاصل بعد البلوغ بقرائن لا يمكن العبارة عنها اه .

(145/708)

وفيه فوائد شتى ولذا نقلناه بطوله ، ومتى جاز أن يقذف الله تعالى في قلب العبد نور الإيمان فيؤمن بلا نظر واستدلال جاز أن يقذف سبحانه في قلبه صدق المخبر بحيث لا يقدر على دفعه ولا يدري أنه من أين جاء لا سيما إذا كان المخبر هو النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن من لازم قذف نور الإيمان في قلب المؤمن به عليه الصلاة والسلام أن يقذف في قلبه صدقه صلى الله عليه وسلم لأن الإيمان لا يتم إلا بذلك ، فقد ظهر أن دعوى الضرورة في أنه لا

سبيل إلى العلم بصدق المخبر فيما أخبر به علماً ضرورياً إن لم تكن مكابرة فمنعها ليس مكابرة أيضاً ، فإن الدليل قد قام على جواز حصول العلم الضروري بصدقه بل على وقوعه فليست تلك الدعوى من المقدمات الضرورية التي يكون منعها مكابرة غير مسموعة ، وقد اتضح من جميع ما ذكر أن ما قاله السعد في "شرح المقاصد" من أن الحق أن المعرفة بدليل إجمالي يرفع الناظر من حضيض التقليد فرض عين لا مخرج عنه لأحد من المكلفين وبدليل تفصيلي يتمكن معه من ازاحة الشبه وإلزام المنكرين وإرشاد المسترشدين فرض كفاية لا بد من أن يقوم به البعض لا يخلو عن نظر على ما قيل ، لكن الظاهر عندي أن الحق مع السعد من جهة أن الإيمان بمعنى التصديق مكلف به وشرط المكلف به كونه اختيارياً ، وقد صرحوا أن التكليف بما ليس باختياري تكليف في الحقيقة بما يتوقف عليه من الأمور الاختيارية وان التصديق نفسه لكونه غير اختياري كان التكليف به في الحقيقة تكليفاً بما يتوقف هو عليه من النظر الاختياري ، فالإيمان الذي يحصل بقذفه تعالى النور في القلب من غير فكر ولا روية ولا نظر ولا استدلال ليس اختيارياً بنفسه ولا باعتبار ما يحصل هو منه فكيف يكون مكلفاً به ، وما مراد السعد ومن وافقه بالمعرفة إلا المعرفة من حيث أنها مكلف بها كما يشير إليه قوله : لا مخرج عنه لأحد من المكلفين ، وكون ذلك مكلفاً به باعتبار أمر اختياري غير النظر كتحصيل الاستعداد لإفاضة

النور وخلق العلم الضروري في قلب العبد غير ظاهر .

نعم لست أنكر إن من المعرفة ما لا يتوقف على نظر في دليل إجمالي أو غيره كمعرفة الأنبياء عليهم السلام على ما سمعت عن بعضهم ، وكمعرفة من شاء الله تعالى من عباده سبحانه غيرهم ولا أسمي نحو هذه المعرفة تقليدية ، وكذا لا أنكر أن المعرفة الحاصلة من قذف النور فوق المعرفة الحاصلة من النظر في الدليل فإنها يخشى عليها من عواصف الشبه ، وأذهب إلى أن النظر في الدليل مطلقاً واجب على من لم يحصل له العقد الجازم إلا به ، وأما من حصل له ذلك بأي طريق كان دونه فلا يجب عليه وكذا لا يأثم بتركه ، وحكاية الإجماع على إثمه به لا يخفى ما فيها ، وتوجيه ذلك بأن جزم المؤمن حينئذ لا ثقة به إذ لو عرضت له شبهة فات وبقي متردداً بخلاف الجزم الناشيء عن الاستدلال فإنه لا يفوت بذلك غير ظاهر لأنه إذا سلم أن من تم جزمه من غير نظر فقد أتى بواجب الايمان فلا وجه لتأثيمه بترك النظر بناء على مجرد احتمال عروض شبهة مشوشة لجزمه لأنه إذا سلم أن الواجب عليه ليس إلا أن يجزم وقد جزم فقد أدى واجب الوقت وما ترك منه شيئاً ، وكل من لم يترك واجباً معيناً في وقت معين لا معنى لتأثيمه في ذلك الوقت من جهة ذلك الواجب ، وكما يحتمل عقلاً إن تعرض له شبهة تشوش عليه الجزم لعدم الدليل كذلك يحتمل عقلاً أن يحصل له الدليل على ما جزم به قبل عروض شبهة ولعل هذا الاحتمال أقوى وأقرب إلى الوقوع .

وإذا أحطت خبراً بجميع ما ذكرنا علمت أن الاستدلال بقوله تعالى : ﴿ فاعلم أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ الله ﴾ على وجوب النظر في نظر لتوقفه على صحة قولهم : إن العلم لا يحصل إلا بالنظر وقد سمعت ما فيه .

(147/708)

ويقوى ذلك إذا قلنا : إن علمه صلى الله عليه وسلم بالوحدانية ضروري إذ يكون المراد الأمر بالثبات والاستمرار على ما هو صلى الله عليه وسلم فيه اجتناب ما يخل بالعمل ، وقد يقال : يجوز أن يكون الاستدلال نظراً إلى ظاهر اللفظ من حيث أنه أمر بالعلم بالوحدانية فلا بد أن يكون مقدوراً بنفسه أو باعتبار ما يحصل هو منه ، وحيث انتفى كونه مقدوراً بنفسه تعين كونه مقدوراً باعتبار ما يحصل هو منه ، والظاهر أنه النظر .

وأنت تعلم أنه إن كان التقليد سبباً من أسباب العلم إيضاً لم يتم هذا وإن لم يكن سبباً تم فتأمل ، ثم اعلم أن النظر الذي قالوا به في الأصول الاعتقادية أعم من النظر في الأدلة العقلية والنظر في الأدلة السمعية ، فإن منها ما ثبت بالسمع كالأمور الأخروية ومدخل العقل فيها ليس إلا بأنها أمور ممكنة أخبر الصادق بوقوعها وكل ممنكن أخبر الصادق بوقوعه واقع فتلك الأمور واقعة ، وأما النطر في معرفة الله تعالى أعني التصديق بوجوده تعالى وصفاته

العلا فقيل : يتعين أن يكون المراد به النظر في الأدلة العقلية فقط ، ولا يجوز أن يكون النظر في الأدلة السمعية طريقاً إليها لاستلزامه الدور .

وفي الجواب العتيد الدور لازم لكن لا مطلقاً بل بالنسبة إلى كل مطلوب يتوقف العلم بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم به ، وذلك لأن النظر في الأدلة السمعية إنما يكون طريقاً إلى المعرفة إذا كانت صادقة عند الناظر فيها ، وصدقها في علم الناظر موقوف على علمه بأن هذا الذي يدعي أنه رسول الله الذي جاء بها صادقاً في دعواه الرسالة .

(148/708)

وعلمه بذلك موقوف على العلم بأن الله تعالى قد أظهر المعجزات على يده تصديقاً له في دعواه وعلمه بذلك موقوف على العلم بأن ثمت إلهاً على صفة يمكن بها أن يبعث رسولاً ككونه حياً عالماً مريداً قادراً وهو من معرفة الإله سبحانه فلو استفدنا العلم بوجود الله تعالى وبتلك الصفات من الدلائل السمعية الموقوفة على صدق الرسول عليه الصلاة والسلام لزم الدور كما ترى .

نعم إذا قيل : إن المكلف بعدما آمن بالرسول صلى الله عليه وسلم واعتقد اعتقاداً جازماً بصدقه في جميع ما جاء به من عند الله تعالى بأي وجه كان ذلك الجزم بالضرورة أو بالنظر

أو بالتقليد فله أن يأخذ عقيدته من القرآن من غير تأويل ولا ميل من غير أن ينظر في دليل عقلي كان ذلك كلاماً صحيحاً لا غبار عليه ، ولا يلزم منه تحصيل للحاصل بالنسبة إلى ما حصله أولاً من المسائل التي يتوقف عليها صدق الرسول عليه الصلاة والسلام لأن التحصيل الثاني من حيث أن الجائي بدلائلها صادق فيها والتحصيل الأول كان بالنظر العقلي من غير اعتبار صدق الرسول عليه الصلاة والسلام فاختلفت الحيثية فليفهم والله تعالى أعلم .

(149/708)

﴿ واللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ ومثواكم ﴾ في الآخرة ، وخص المتلقب بالدنيا والمثوى بالآخرة لأن كل أحد متحرك في الدنيا دائماً نحو معاده غير قار وفي الآخرة مقيم لا حركة له نحو دار وراءها ، والمراد من علمه تعالى بذلك تحذيرهم من جزائه وعقابه سبحانه أو الترغيب في امتثال ما يأمرهم جل شأنه به والترهيب عما ينهاهم عز وجل عنه على طريق الكناية ، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : متقلبكم تصرفكم في حياتكم الدنيا ومثواكم في قبوركم وآخرتكم ، وقال عكرمة : متقلبكم في أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات ومثواكم إقامتكم في الأرض ؛ وقال الطبري : وغيره : متقلبكم تصرفكم

في يقظتكم ومثواكم منامكم ، وقيل : متقلبكم في معايشكم ومتاجركم ومثواكم حيث تستقرون من منزلكم ، وقيل : متقلبكم في أعمالكم ومثواكم من الجنة والنار .

واختار أبو حيان عمومهما في كل متقلب وفي كل إقامة ، ونحوه ما قيل : المراد يعلم جميع أحوالكم فلا يخفى عليه سبحانه شيء منها .

وقرأ ابن عباس ﴿ منقلبكم ﴾ بالنون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(150/708)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (13) ﴾

خوّف سبحانه الكفار ؛ بأنه قد أهلك من هو أشدّ منهم فقال : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ التى أَخْرَجَتْكَ أهلكناهم ﴾ قد قدّمنا أن "كأين" مركبة من الكاف وأيّ ، وأنها بمعنى كم الخبرية أي : وكم من قرية ، وأنشد الأخفش قول لبيد :

وكأين رأينا من ملوك وسوقة . . . ومفتاح قيد للأسير المكبل

ومعنى الآية : وكم من أهل قرية هم أشدّ قوة من أهل قريتك التي أخرجوك منها أهلكناهم

﴿ فَلاَ ناصر لَهُمْ ﴾ فبالأولى من هو أضعف منهم ، وهم قريش الذين هم أهل قرية النبي صلى الله عليه وسلم وهي مكة ، فالكلام على حذف المضاف ، كما في قوله : ﴿ واسئل القرية ﴾ [يوسف : 82] قال مقاتل : أي : أهلكناهم بالعذاب حين كذبوا رسولهم .

ثم ذكر سبحانه الفرق بين حال المؤمن ، وحال الكافر فقال : ﴿ أَفَمَن كَانَ على بَيّنَةٍ مّن رَّبِهِ ﴾ والهمزة للإنكار ، والفاء للعطف على مقدّر كنظائره ، ومن مبتدأ ، والخبر ﴿ كَمَن زُيّنَ لَهُ سُوء عَمَلِهِ ﴾ وأفرد في هذا باعتبار " لفظ " من ، وجمع في قوله : ﴿ واتبعوا أَهْوَاءهُمْ ﴾ باعتبار معناها ، والمعنى : أنه لا يستوي من كان على يقين من ربه ، ولا يكون كمن زيّن له سوء عمله ، وهو عبادة الأوثان ، والإشراك بالله ، والعمل بمعاصي الله ، واتبعوا أهواءهم في عبادتها ، وانهمكوا في أنواع الضلالات بلا شبهة توجب الشك فضلاً عن حجة نيرة .

ثم لمّا بيّن سبحانه الفرق بين الفريقين في الاهتداء ، والضلال بين الفرق في مرجعهما ومآلهما فقال : ﴿ مَّثَلُ الجنة التى وُعِدَ المتقون ﴾ والجملة مستأنفة لشرح محاسن الجنة ، وبيان ما فيها ؛ ومعنى ﴿ مَّثَلُ الجنة ﴾ : وصفها العجيب الشأن ، وهو مبتدأ ، وخبره محذوف .

(151/708)

قال النضر بن شميل : تقديره : ما يسمعون ، وقدّره سيبويه : فيما يتلى عليكم مثل الجنة ، قال : والمثل : هو الوصف ، ومعناه : وصف الجنة ، وجملة ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مّن مَّاء غَيْرِ ءاسِنٍ ﴾ إلخ مفسرة للمثل .

وقيل : إن ﴿ مثل ﴾ زائدة ، وقيل : إن ﴿ مثل الجنة ﴾ مبتدأ ، والخبر ﴿ فيها أنهار ﴾ ، وقيل : خبره : ﴿ كمن هو خالد ﴾ ، والآسن : المتغير ، يقال : أسن الماء يأسن أسوناً : إذا تغيرت رائحته ، ومثله الآجن ، ومنه قول زهير :

قد أترك القرن مصفراً أنامله . . . يميد في الرمح ميد المالح الأسن

قرأ الجمهور ﴿ آسن ﴾ بالمدّ .

وقرأ حميد ، وابن كثير بالقصر ، وهما لغتان كحاذر وحذر .

وقال الأخفش : إن الممدود يراد به الاستقبال ، والمقصود يراد به الحال ، ﴿ وَأَنْهَارٌ مّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ أي : لم يحمض ، كما تغير ألبان الدنيا ؛ لأنها لم تخرج من ضروع الإبل والغنم والبقر ﴿ وأنهار مّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ للشاربين ﴾ أي : لذيذة لهم طيبة الشرب لا يكرهها الشاربون ، يقال : شراب لذّ ولذيذ وفيه لذة بمعنى ، ومثل هذه الآية قوله : ﴿ بَيْضَاء لَذَّةٍ للشاربين ﴾ [الصافات : 46] قرأ الجمهور ﴿ لذة ﴾ بالجرّ صفة ل ﴿ خمر ﴾ ، وقرىء بالنصب على أنه مصدر ، أو مفعول له .

وقرىء بالرفع صفة ل ﴿ أنهار ﴾ ﴿ وأنهار مّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ أي : مصفى مما يخالطه من الشمع والقذى والعكر والكدر ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثمرات ﴾ أي : لأهل الجنة في الجنة مع ما ذكر من الأشربة من كل الثمرات ، أي : من كل صنف من أصنافها ، و "من" زائدة للتوكيد ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مّن رَّبِّهِمْ ﴾ لذنوبهم ، وتنكير مغفرة للتعظيم ، أي : ولهم مغفرة عظيمة كائنة من ربهم ﴿ كَمَنْ هُوَ خالد فِى النار ﴾ هو خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير : أم من هو في نعيم الجنة على هذه الصفة خالداً فيها كمن هو خالد في النار ، أو خبر لقوله : ﴿ مثل الجنة ﴾ كما تقدّم ، ورجح الأوّل الفراء ، فقال : أراد أمن كان في هذا النعيم كمن هو خالد في النار ؟ وقال الزجاج : أي : أفمن كان على بينة من ربه ، وأعطي هذه الأشياء كمن زين له سوء عمله ، وهو خالد في النار ، فقوله : "كَمَنْ" بدل من قوله : ﴿ أفمن زيّن له سوء عمله ﴾ وقال ابن كيسان : ليس مثل الجنة التي فيها الثمار والأنهار ، كمثل النار التي فيها الحميم والزقوم ، وليس مثل أهل الجنة في النعيم ، كمثل أهل النار في العذاب الأليم ، وقوله : ﴿ وَسُقُواْ مَاء حَمِيماً ﴾ عطف على الصلة عطف جملة فعلية على اسمية لكنه راعى في الأولى لفظ "من" ، وفي الثانية معناها ، والحميم : الماء الحارّ الشديد الغليان ، فإذا شربوه قطع أمعاءهم ، وهو معنى قوله : ﴿ فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ ﴾ لفرط حرارته ، والأمعاء جمع معًى ، وهي ما في البطون من الحوايا .

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ أي : من هؤلاء الكفار الذين يتمتعون ويأكلون ، كما تأكل الأنعام من يستمع إليك وهم المنافقون ، أفرد الضمير باعتبار لفظ " من " ، وجمع في قوله : ﴿ حتى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ ﴾ باعتبار معناها ، والمعنى : أن المنافقين كانوا يحضرون مواقف وعظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومواطن خطبه التي يمليها على المسلمين حتى إذا خرجوا من عنده ﴿ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ العلم ﴾ وهم علماء الصحابة ، وقيل : عبد الله بن عباس ، وقيل : عبد الله بن مسعود ، وقيل : أبو الدرداء ، والأوّل أولى ، أي : سألوا أهل العلم فقالوا لهم : ﴿ مَاذَا قَالَ ءانِفاً ﴾ أي : ماذا قال النبيّ الساعة على طريقة الاستهزاء ، والمعنى : أنا لم نلتفت إلى قوله ، و ﴿ آنِفاً ﴾ يراد به الساعة التي هي أقرب الأوقات ، ومنه : أمر آنف ، أي : مستأنف ، وروضة أنف ، أي : لم يرعها أحد ، وانتصابه على الظرفية ، أي : وقتاً مؤتنفاً ، أو حال من الضمير في " قال " .

قال الزجاج : هو من استأنفت الشيء : إذا ابتدأته ، وأصله مأخوذ من أنف الشيء لما تقدّم منه ، مستعار من الجارحة ، ومنه قول الشاعر :

ويحرم سرّ جارتهم عليهم . . . ويأكل جارهم أنف القصاع

والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى المذكورين من المنافقين ﴿ الذين طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ ﴾ فلم يؤمنوا ، ولا توجهت قلوبهم إلى شيء من الخير ﴿ واتبعوا أَهْوَاءهُمْ ﴾ في الكفر والعناد .

ثم ذكر حال أضدادهم فقال : ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ أي : والذين اهتدوا إلى طريق الخير ، فآمنوا بالله ، وعملوا بما أمرهم به زادهم هدًى بالتوفيق ، وقيل : زادهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل : زادهم القرآن .

وقال الفراء : زادهم إعراض المنافقين واستهزاؤهم هدًى .

(154/708)

وقيل : زادهم نزول الناسخ هدًى ، وعلى كل تقدير ، فالمراد : أنه زادهم إيماناً وعلماً وبصيرة في الدين ﴿ وآتاهم تقواهم ﴾ أي : ألهمهم إياها وأعانهم عليها ، والتقوى قال الربيع : هي الخشية ، وقال السديّ : هي ثواب الآخرة ، وقال مقاتل : هي التوفيق للعمل الذي يرضاه ، وقيل : العمل بالناسخ وترك المنسوخ ، وقيل : ترك الرخص والأخذ بالعزائم ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ الساعة ﴾ أي : القيامة ﴿ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ أي : فجأة ، وفي هذا وعيد للكفار شديد ، وقوله : ﴿ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ بدل من ﴿ الساعة ﴾ بدل

اشتمال .

وقرأ أبو جعفر الرواسي (إن تأتهم) بإن الشرطية ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ أي : أماراتها وعلاماتها ، وكانوا قد قرؤوا في كتبهم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء ، فبعثته من أشراطها ، قاله الحسن ، والضحاك .

والأشراط جمع شرط بسكون الراء وفتحها .

وقيل : المراد بأشراطها هنا : أسبابها التي هي دون معظمها .

وقيل : أراد بعلامات الساعة : انشقاق القمر والدخان ، كذا قال الحسن .

وقال الكلبي : كثرة المال ، والتجارة ، وشهادة الزور ، وقطع الأرحام ، وقلة الكرام ، وكثرة اللئام ، ومنه قول أبي زيد الأسود :

فإن كنت قد أزمعت بالصرم بيننا . . . فقد جعلت أشراط أوله تبدو

﴿ فأنى لَهُمْ إِذَا جَاءتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ ﴿ ذكراهم ﴾ مبتدأ ، وخبره ﴿ فأنى لهم ﴾ ، أي : أنّى لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة كقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإنسان وأنى لَهُ الذكرى ﴾ [الفجر : 23] و ﴿ إذا جاءتهم ﴾ اعتراض بين المبتدأ والخبر .

(155/708)

﴿ فاعلم أَنَّهُ لاَ إله إِلا الله ﴾ أي : إذا علمت أن مدار الخير هو التوحيد والطاعة ، ومدار الشرّ هو الشرك والعمل بمعاصي الله ، فاعلم أنه لا إله غيره ، ولا ربّ سواه ، والمعنى : اثبت على ذلك واستمر عليه ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم قد كان عالماً بأنه لا إله إلاَّ الله قبل هذا ، وقيل : ما علمته استدلالاً فاعلمه خبراً يقيناً .

وقيل المعنى : فاذكر أنه لا إله إلاَّ الله ، فعبّر عن الذكر بالعلم ﴿ واستغفرِ لذَنبِكَ ﴾ أي : استغفر الله أن يقع منك ذنب ، أو استغفر الله ليعصمك ، أو استغفره مما ربما يصدر منك من ترك الأولى .

وقيل : الخطاب له ، والمراد : الأمة ، ويأبى هذا قوله : ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات ﴾ فإن المراد به : استغفاره لذنوب أمته بالدعاء لهم بالمغفرة عما فرط من ذنوبهم ﴿ والله يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ ﴾ في أعمالكم ﴿ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ في الدار الآخرة ، وقيل : متقلبكم في أعمالكم نهاراً ، ومثواكم في ليلكم نياماً .

وقيل : متقلبكم في أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات ، ومثواكم في الأرض ، أي : مقامكم فيها .

قال ابن كيسان : متقلبكم من ظهر إلى بطن في الدنيا ، ومثواكم في القبور .

وقد أخرج عبد بن حميد ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما خرج من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال : "

أنت أحبّ بلاد الله إليّ ، ولولا أنّ أهلك أخرجوني منك لم أخرج ، فأعتى الأعداء من عتا على الله في حرمه ، أو قتل غير قاتله ، أو قتل بدخول الجاهلية " فأنزل الله : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ أنهار من ماء غير آسن ﴾ قال : متغير .

(156/708)

وأخرج أحمد ، والترمذي وصححه ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث عن معاوية بن حيدة ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " في الجنة بحر اللبن ، وبحر الماء ، وبحر العسل ، وبحر الخمر ، ثم تشقق الأنهار منها " وأخرج الحارث بن أبي أسامة في مسنده ، والبيهقي عن كعب قال : نهر النيل نهر العسل في الجنة ، ونهر دجلة نهر اللبن في الجنة ، ونهر الفرات نهر الخمر في الجنة ، ونهر سيحان نهر الماء في الجنة .

وأخرج ابن جرير ، والحاكم وصححه من طريق سعيد بن جبير ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ حتى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ العلم مَاذَا قَالَ ءانِفاً ﴾ قال : كنت فيمن يُسأل .

وأخرج عبد بن حميد من وجه آخر عنه في الآية قال : أنا منهم .

وفي هذا منقبة لابن عباس جليلة ؛ لأنه كان إذ ذاك صبياً غير بالغ ، فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم مات وهو في سنّ البلوغ ، فسؤال الناس له عن معاني القرآن في حياة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ووصف الله سبحانه للمسؤولين بأنهم الذين أوتوا العلم وهو منهم ، من أعظم الأدلة على سعة علمه ، ومزيد فقهه في كتاب الله ، وسنّة رسوله ، مع كون أترابه وأهل سنه إذ ذاك يلعبون مع الصبيان .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : كانوا يدخلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا خرجوا من عنده قالوا لابن عباس : ماذا قال آنفاً ؟ فيقول : كذا وكذا ، وكان ابن عباس أصغر القوم ، فأنزل الله الآية ، فكان ابن عباس من الذين أوتوا العلم .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن عساكر عن ابن بريدة في الآية قال : هو عبد الله بن مسعود .

وأخرج ابن عساكر من طريق الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس قال : هو عبد الله بن مسعود .

(157/708)

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وءاتاهم تَقْوَاهُمْ ﴾ قال : لما أنزل القرآن آمنوا به ، فكان هدًى ، فلما تبيّن الناسخ من المنسوخ زادهم هدًى .

وأخرج ابن المنذر عنه : ﴿ فَقَدْ جَاء أَشْرَاطُهَا ﴾ قال : أوّل الساعات ، وقد ثبت في الصحيحين ، وغيرهما من حديث أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بعثت أنا والساعة كهاتين " ، وأشار بالوسطى والسبابة ، ومثله عند البخاري من حديث سهل بن سعد .

وفي الباب أحاديث كثيرة فيها بيان أشراط الساعة ، وبيان ما قد وقع منها ، وما لم يكن قد وقع ، وهي تأتي في مصنف مستقل فلا نطيل بذكرها .

وأخرج الطبراني ، وابن مردويه ، والديلمي عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أفضل الذكر لا إله إلاّ الله ، وأفضل الدعاء الاستغفار " ثم قرأ : ﴿ فاعلم أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ الله واستغفر لذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، والترمذي وصححه ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة في قوله : ﴿ واستغفر لذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة " وأخرج أحمد ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه

عن عبد الله بن سرجس قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فأكلت معه من طعام ، فقلت : غفر الله لك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : " ولك " ، فقيل : أنستغفر لك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : " نعم ولكم " وقرأ : ﴿ واستغفرِ لذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات ﴾ .

وقد ورد أحاديث في استغفاره صلى الله عليه وسلم لنفسه ولأمته ، وترغيبه في الاستغفار .

(158/708)

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ والله يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 34 . 37 ﴾

(159/708)

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7) ﴾

ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، أن المؤمنين ، إن نصروا ربه/ن نصرهم على أعدائهم ، وثبت أقدامهم ، أي عصمهم من الفرار والهزيمة .

وقد أوضح هذا المعنى في آيات كثيرة ، وبين في بعضها صفات الذين وعدهم بهذا النصر كقوله تعالى ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : 40] ثم بين صفات الموعودين بهذا النصر في قوله تعالى بعده ﴿ الذين إِنْ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُواْ الصلاة وَآتَوُاْ الزكاة وَأَمَرُواْ بالمعروف وَنَهَوْاْ عَنِ المنكر وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأمور ﴾ [الحج : 41] وكقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نصر المؤمنين ﴾ [الروم : 47] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين آمَنُواْ فِي الحياة الدنيا ﴾ [غافر : 51] وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [الصافات : 171 - 173] إلى غير ذلك من الآيات . وقوله تعالى في بيان صفات من وعدهم بالنصر في الآيات المذكورة : ﴿ الذين إِنْ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُواْ الصلاة وَآتَوُاْ الزكاة وَأَمَرُواْ بالمعروف ﴾ [الحج : 41] الآية . يدل على أن الذين لا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ، ليس لهم وعد من الله بالنصر ألبتة .

فمثلهم كمثل الأجير الذي لم يعمل لمستأجره شيئاً ثم جاءه يطلب منه الأجرة .

فالين يرتكبون جميع المعاصي ممن يتسمون باسم المسلمين ثم يقولون : إن الله سينصرنا مغرورون لأنهم ليسوا من حزب الله الموعدين بنصره كما لا يخفى .

(160/708)

ومعنى نصر المؤمنين لله ، نصرهم لدينه ولكتابه ، وسعيهم وجهادهم ، في أن تكون كلمته هي العليا ، وأن تقام حدوده في أرضه ، وتتمثل أوامره وتجتنب نواهيه ، ويحكم في عباده بما أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم .

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (10)

قد قدمنا إيضاحه في سورة هود في الكلام على قوله تعالى : ﴿ هِيَ مِنَ الظالمين بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : 83] ، وأحلنا على الآيات الموضحة لذلك في سورة الروم في الكلام على قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ كانوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ الأرض ﴾ [الروم : 9] الآية . وأوضحناها في الزخرف في الكلام على قوله : ﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً ﴾ [الزخرف : 8] الآية وفي الأحقاف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَاهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾ [الأحقاف : 26] الآية ، وفي

غير ذلك من المواضع .

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (13)

التي توضح معنى هذه الآية ، هي المشار إليها في نفس الآية ، التي ذكرنا قبلها .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من إخراج كفار مكة للنبي صلى الله عليه وسلم منها بينه في غير هذا الموضع ، كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بالمودة وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُمْ مِّنَ الحق يُخْرِجُونَ الرسول وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الممتحنة : 1] الآية ، وقوله تعالى ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذين كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ [الأنفال : 30] .

(161/708)

وقد أخرجوه فعلاً بمكرهم المذكور ، وبين جل وعلا أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين أخرجوا من ديارهم لا ذنب لهم يستوجبون به الإخراج إلا الإيمان بالله ، كما قال تعالى : ﴿ الذين أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا الله وَلَوْلاَ دَفْعُ الله ﴾ [الحج : 40] وقال تعالى : ﴿ يُخْرِجُونَ الرسول وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بالله رَبِّكُمْ ﴾ [الممتحنة : 1] أي يخرجون الرسول وإياكم لأجل إيمانكم بربكم .

وقال تعالى في إخراجهم له ﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرسول ﴾ [التوبة : 13] الآية . إلى غير ذلك من الآيات .

وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير ابن كثير بهمزة مفتوحة بعد الكاف وياء مشددة مكسورة ونون ساكنة .

وقرأه ابن كثير وكأين ، بألف بعد الكاف ، وهمزة مكسورة .

وكلهم عند الوقف يقفون على النون الساكنة ، كحال الصلة ، إلا أبا عمرو فإنه يقف على الياء .

وقد قدمنا أوجه القراءة في كأين ومعناها ، وما فيها من اللغات ، مع بعض الشواهد العربية في سورة الحج في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ [الحج : 45] الآية .

قوله تعالى : ﴿ مَّثَلُ الجنة التي وُعِدَ المتقون فِيهَآ أَنْهَارٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِين ﴾ . الآية .

أنهار الماء ، وأنهار الخمر التي ذكرها الله في هذه الآية بين بعض صفاتها ، في آيات أخرى كقوله تعالى : ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنهار ﴾ [البقرة : 25 – 266] في آيات كثيرة ، وقوله ﴿ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾ [الواقعة : 31] . وقوله : ﴿ إِنَّ المتقين فِي ظِلاَلٍ وَعُيُونٍ ﴾ [المرسلات : 41] وقوله ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ [الغاشية : 12] ، وقد بين تعالى من صفات خمر الجنة أنها لا تسكر شاربها ، ولا تسبب له الصداع الذي هو وجع الرأس في آيات من كتابه كقوله تعالى : ﴿ لاَّ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنزِفُونَ ﴾ [الواقعة : 19] ، وقوله ﴿ لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ [الصافات : 47] .

وقد قدمنا معنى هذه الآيات بإيضاح في سورة المائدة في الكلام على قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشيطان فاجتنبوه ﴾ [المائدة : 90] الآية . وقوله تعالى في الآية الكريمة ﴿ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ أي غير متغير اللون ولا الطعم . والآسن والآجن معناهما واحد ، ومنه قول ذي الرمة :

ومنهل آجن قفر محاضره . . . تذروا الرياح على جماته البعرا

وقول الراجز :

ومنهل فيه الغراب ميت . . . كأنه من الأجون زيت

سقيت منها القوم واستقيت . . . وبما ذكرنا تعلم أن قوله : غير آسن كقوله : من لبن لم يتغير طعمه .

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثمرات ﴾ .

قد بين تعالى في سورة البقرة أن الثمار التي يرزقها أهل الجنة يشبه بعضها بعضاً في الجودة والحسن والكمال ، ليس فيها شيء رديء ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هذا الذي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً ﴾ [البقرة : 25] .

قوله تعالى : ﴿ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُم ﴾ .

(163/708)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الحج ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ هذان خَصْمَانِ اختصموا فِي رَبِّهِمْ فالذين كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الحميم يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ ﴾ [الحج : 19 - 20] الآية .

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ الساعة أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له ، في سورة الزخرف ، في الكلام على قوله تعالى ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ الساعة أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [الزخرف : 66] .

قوله تعالى : ﴿ فأنى لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ .

التحقيق إن شاء الله تعالى ، في معنى هذه الآية الكريمة ، أن الكفار يوم القيامة ، إذا جاءتهم

الساعة ، يتذكرون ويؤمنون بالله ورسوله ، وأن الإيمان في ذلك الوقت لا ينفعهم لفوات وقته فقوله ﴿ ذِكْرَاهُم ﴾ مبتدأ خبره ﴿ فَأَنَّى لَهُمْ ﴾ أي كيف تنفعهم ذكراهم وأيمانهم بالله ، وقد فات الوقت الذي يقبل فيه الإيمان .

والضمير المرفوع في ﴿ جَآءَتْهُمْ ﴾ عائد إلى الساعة التي هي القيامة .

وهذا المعنى ، الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة ، من أن الكفار يوم القيامة يؤمنون ، ولا ينفعهم إيامنهم جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ وقالوا آمَنَّا بِهِ وأنى لَهُمُ التناوش مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [سبأ : 52] ، وقوله تعالى : ﴿ وجيء يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإنسان وأنى لَهُ الذكرى ﴾ [الفجر : 23] .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُه ﴾ [الأعراف : 53] إلى قوله – ﴿ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الذي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [الأعراف : 53] .

فظهر أن قوله ﴿ فأنى لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ على حذف مضاف ، أي أنى لهم نفع ذكراهم .

والذكرى اسم مصدر بمعنى الاتعاظ الحامل على الايمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ﴾

ضمير ﴿ ومنهم ﴾ عائد إلى ﴿ الذين كفروا ﴾ [محمد : 12] الذين جرى ذكرهم غير مرة من أول السورة ، أي ومن الكافرين قوم يستمعون إليك ، وأراد بمن يستمع معهم المنافقين بقرينة قوله : ﴿ قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال ﴾ وقوله : ﴿ خرجوا من عندك ﴾ .

وليس المراد مجرد المستمعين مثل ما في قوله : ﴿ ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تُسمع الصم ﴾ [يونس : 42] وقوله : ﴿ ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة ﴾ [الأنعام : 25] للفرق الواضح بين الأسلوبين ، وهذا صنف آخر من الكافرين الذين أسرّوا الكفر وتظاهروا بالإيمان ، وقد كان المنافقون بعد الهجرة مقصودين من لفظ الكفار .

وهذه السورة نازلة بقرب عهد من الهجرة فلذلك ذكر فيها الفريقان من الكفار .

ومعنى ﴿ يستمع إليك ﴾ : يحضرون مجلسك ويسمعون كلامك وما تقرأ عليهم من القرآن .

وهذه صفة من يتظاهر بالإسلام فلا يُعرضون عن سماع القرآن إعراض المشركين بمكة .

روي عن الكلبي ومقاتل : أنها نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول ورفاعة بن الثابوت والحارث بن عَمرو وزيد بن الصلت ومالك بن الدخشم .

والاستماع : أشد السمع وأقواه ، أي يستمعون باهتمام يظهرون أنهم حريصون على وَعي ما يقوله الرسول صلى الله عليه وسلم وأنهم يُلقون إليه بالهم ، وهذا من استعمال الفعل في معنى إظهاره لا في معنى حصوله .

وحق فعل استمع أن يعدّى إلى المفعول بنفسه كما في قوله : ﴿ يستمعون القرآن ﴾ [الأحقاف : 29] فإذا أريد تعلقه بالشخص المَسموع منه يقال : استمع إلى فلان كما قال هنا ﴿ ومنهم من يستمع إليك ﴾ ، وكذا جاء في مواقعه كلها من القرآن .

و﴿ حتى ﴾ في قوله : ﴿ حتى إذا خرجوا من عندك ﴾ ابتدائية و ﴿ إذَا ﴾ اسم زمان متعلق بـ ﴿ قالوا ﴾ .

(165/708)

والمعنى : فإذا خرجوا من عندك قالوا الخ .

والخروج : مغادرة مكان معيّن محصوراً وغير محصور ، فمنه ﴿ إذ أخرجني من السجن ﴾ [يوسف : 100] ، ومنه ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم ﴾ [الأعراف : 110

].

والخروج من عند النبي صلى الله عليه وسلم مغادرة مجلسه الذي في المسجد وهو الذي عبر عنه هنا بلفظ ﴿ عندك ﴾ .

و﴿ مِن ﴾ لتعدية فعل ﴿ خرجوا ﴾ وليست التي تزاد مع الظروف في نحو قوله تعالى : ﴿ مِن عند الله ﴾ [البقرة : 89] .

والذين أوتوا العلم : هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الملازمون لمجلسه وسُمِّي منهم عبد الله بن مسعود وأبو الدرداء وابن عبّاس .

وروي عنه أنه قال : أنا منهم وسُئِلتُ فيمن سُئل .

والمعنى : أنهم يستمعون إلى النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن وما يقوله من الإرشاد وحذف مفعول ﴿ يستمعون ﴾ ليشمل ذلك .

ومعنى ﴿ آنفاً ﴾ : وقتاً قريباً من زمن التكلم ، ولم ترد هذه الكلمة إلا منصوبة على الظرفية .

قال الزجاج : هو من استَأنف الشيءَ إذا ابتدأه انتهى انتهى . اهـ يريد أنه مشتق من فعل مزيد ولم يسمع له فعل مجرد ، وظاهر كلامهم أن اشتقاقه من الاسم الجامد وهو الأُنْفُ ، أي جَارحة الشمّ وكأنهم عنوا به أنف البعير لأن الأنف أول ما يَبْدُو لراكبه فيأخذ بخطامه ، فلوحظ في اسم الأُنْف معنى الوصف بالظهور ، وكني بذلك عن القرب ، وقال غيره : هو

مشتق من أُنُف بضم الهمزة وضم النون يوصف به الكأس التي لم يُشرب منها من قَبل ، وتُوصف به الروضة التي لم تُرْع قبلُ ، كأنهم لاحَظوا فيها لازم وصف عدم الاستعمال وهو أنه جديد ، أي زمن قريب ، ف ﴿ آنفاً ﴾ زماناً لم يبعد العهد به .

قال ابن عطية : "والمفسّرون يقولون : ﴿ آنفاً ﴾ معناه : الساعة القريبة مِنا وهذا تفسيرُ المعنى" أ هـ .

وفي كلامه نظر لأن أهل اللغة فسروه بوقت يقرب منا .

وصيغ على زنة اسم الفاعل وليس فيه معنى اسم الفاعل ، فهذا اسم غريب التصريفِ ولا يحفظ شيء من شعر العرب وقع فيه هذا اللفظ .

(166/708)

واتفق القراء على قراءته بصيغة فاعل وشذت رواية عن البزي عن ابن كثير أنه قرأ ﴿ آنفاً ﴾ بوزن كتف .

وقد أنكر بعض علماء القراءات نِسبتها إلى ابن كثير ولكن الشاطبي أثبتها في حرز الأماني وقد ذكرها أبو علي في الحجة .

فإذا صحت هذه الرواية عن البزّي عنه كان ﴿ اِنفاً ﴾ حالاً من ضمير ﴿ من يستمع ﴾

أجري على الإفراد رعياً للفظ ﴿ مَن ﴾ .

ومعناه : أنه يقول ذلك في حال أنه شديد الأنفة ، أي التكبر إظهاراً لترفعه عن وعي ما يقوله النبي صلى الله عليه وسلم وينتهي الكلام عند ماذا .

وزعم أبو علي في الحجة : أن البزي توهمه مثل : حَاذر وحَذر .

ولا يظن مثل هذا بالبزي لو صحت الرواية عنه عن ابن كثير .

وسياق الكلام يدل على ذم هذا السؤال لقوله عقبه ﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم ﴾ فهو سؤال يُنْبىء عن مذمة سائليه ، فإن كان سؤالهم حقيقة أنبأ عن قلة وعيهم لما يسمعونه من النبي صلى الله عليه وسلم فهم يستعيدونه من الذين علموه فلعل استعادتهم إياه لقصد أن يتدارسوه إذا خلوا مع إخوانهم ليختلقوا مغامر يهيئونها بينهم ، أو أن يجيبوا من يسألهم من إخوانهم عما سمعوه في المجلس الذي كانوا فيه .

ويجوز أن يكون السؤال على غير حقيقته ناوين به الاستهزاء يُظهرون للمؤمنين اهتمامهم باستعادة ما سمعوه ويقولون لإخوانهم : إنما نحن مستهزؤون ، أو أن يكون سؤالهم تعريضا بأنهم سمعوا كلاماً لا يستبين المراد منه لإدخال الشك في نفوس مَن يُحسون منهم الرغبة في حضور مجالس النبي صلى الله عليه وسلم تعريضاً لقلة جدوى حضورها .

ويجوز أن تكون الآية أشارتْ إلى حادثة خاصة ذكر فيها النبي صلى الله عليه وسلم المنافقين وأحوالهم وعَلِم الذين كانوا حاضرين منهم أنهم المعنيّون بذلك ، فأرادوا أن يسألوا

سؤال استطلاع هل شعر أهل العلم بأن أولئك هم المعنيّون ، فيكون مفعول ﴿ يستمعون ﴾ محذوفاً للعلم به عند النبي صلى الله عليه وسلم

(167/708)

﴿ ءَانِفاً أولئك الذين طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ واتبعوا ﴾ .

استئناف بياني لأن قولهم : ﴿ ماذا قال آنفاً ﴾ سؤال غريب من شأنه إثارة سؤال من يسأل عن سبب حصوله على جميع التقادير السابقة في مرادهم منه .

وجيء باسم الإشارة بعد ذكر صفاتهم تشهيراً بهم ، وجيء بالموصول وصلتيه خبراً عن اسم الإشارة لإفادة أن هؤلاء المتميزين بهذه الصفات هم أشخاص الفريق المتقرر بين الناس أنهم فريق مطبوع على قلوبهم لأنه قد تقرر عند المسلمين أن الذين صمّموا على الكفر هم قد طبع الله على قلوبهم وأنهم متّبعون لأهوائهم ، فأفادت أن هؤلاء المستمعين زمرة من ذلك الفريق ، فهذا التركيب على أسلوب قوله تعالى : ﴿ أولئك هم المفلحون ﴾ في سورة البقرة (5) .

والطبع على القلب : تمثيل لعدم مخالطة الهدى والرشد لعقولهم بحال الكِتاب المطبوع عليه ، أو الإناء المختوم بحيث لا يصل إليه من يحاول الوصول إلى داخله ، فمعناه أن الله خلق

قلوبهم ، أي عقولهم غير مدركة ومصدقة للحقائق والهدى .

وهذا الطبع متفاوت يزول بعضه عَن بعض أهله في مدد متفاوتة ويدوم مع بعض إلى الموت كما وقعَ ، وزواله بانتهاء ما في العقل من غشاوة الضلالة وبتوجه لطف الله بمن شاء بحكمته اللطف به المسمى بالتوفيق الذي فسره الأشعرية بخلق القدرة والداعية إلى الطاعة ، وبأنه ما يقع عنده صلاح العبد آخره .

وفسر المعتزلة اللطف بإيصال المنافع إلى العبد من وجه يدق إدراكه وتمكينُه بالقدرة والآلات .

وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (17)

جملة معترضة بين جملة ﴿ ومنهم من يستمع إليك ﴾ [الأنعام : 25] وما فيهم عنها من قوله : ﴿ فهل ينظرون إلا الساعة ﴾ [الزخرف : 66] والواو اعتراضية .

والمقصود من هذا الاعتراض : مقابلة فريق الضلالة بفريق الهداية على الأسلوب الذي أقيمت عليه هذه السورة كما تقدم في أولها .

فهذا أسلوب مستمر وإن اختلفت مواقع جمله .

(168/708)

والمعنى : والذين شرح الله صدرهم للإيمان فاهتدوا لطَفَ الله بهم فزادهم هدى وأرسخ الإيمان في قلوبهم ووفقهم للتقوى ، فاتقوا وغالبوا أهواءهم .

وإيتاء التقوى مستعار لتيسير أسبابها إذ التقوى معنى نفساني ، والإيتاء يتعدى حقيقة للذوات .

وإضافة التقوَى إلى ضمير ﴿ الذين اهتدوا ﴾ إيماء إلى أنهم عرفوا بها واختصت بهم .

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (18)

تفريع على ما مضى من وصف أحوال الكافرين من قوله : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض إلى قوله : واتبعوا أهواءهم فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ الساعة أَن تَأْتِيَهُمْ ﴾ [محمد : 10 16] الشاملة لأحوال الفريقين ففرع عليها أن كلا الفريقين ينتظرون حلول الساعة لينالوا جزاءهم على سوء كفرهم فضمير ينظرون مراد به الكافرون لأن الكلام تهديد ووعيد ، ولأن المؤمنين ينتظرون أموراً أخر مثل النصر والشهادة ، قال تعالى : ﴿ قل هل تَرَبَّصُون بنا إلا إحدى الحُسْنَيْين ﴾ [التوبة : 52] الآية .

والنظر هنا بمعنى الانتظار كما في قوله تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك ﴾ [الأنعام : 158] الآية .

والاستفهام إنكار مشوب بتهكم ، وهو إنكار وتهكم على غائبين ، موجه إلى الرسول صلى

الله عليه وسلم أي لا تحسب تأخير مؤاخذتهم إفلاتاً من العقاب ، فإنه مُرجَوْن إلى الساعة .

وهذا الاستفهام الإنكاري ناظر إلى قوله آنفاً ﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾ [محمد : 12] .

والقصر الذي أفاده الاستثناء قصر ادعائي ، نُزل انتظارهم ما يأملونه من المرغوبات في الدنيا منزلة العدم لضآلة أمره بعد أن نُزلوا منزلة من ينتظرون فيما ينتظرون الساعة لأنهم لتحقق حلوله عليهم جديرون بأن يكونوا من منتظريها .

و ﴿ أن تأتيهم ﴾ بدل اشتمال من الساعة .

(169/708)

و ﴿ بغتة ﴾ حال من الساعة قال تعالى : ﴿ لا تأتيكم إلا بغتة ﴾ [الأعراف : 187] .

والبغتة : الفجأة ، وهو مصدر بمعنى : المرة ، والمراد به هنا الوصف ، أي مباغتة لهم .

ومعنى الكلام : أن الساعة موعدهم وأن الساعة قريبة منهم ، فحالهم كحال من ينتظر شيئاً فإنما يكون الانتظار إذا اقترب موعد الشيء ، هذه الاستعارة تهكمية .

والفاء من قوله : ﴿ فقد جاء أشراطها ﴾ فاء الفصيحة كالتي في قول عباس بن الأحنف:

قالوا خراسانُ أقصى ما يراد بنا . . .

ثم القفول فقد جئنا خراسانا

وهذه الفصيحة تفيد معنى تعليل قرب مؤاخذتهم .

والأشراط : جمع شَرَط بفتحتين ، وهو : العلامة والأمارة على وجود شيء أو على وصفه .

وعلامات الساعة هي علامات كونها قريبة .

وهذا القرب يتصور بصورتين:

إحداهما أن وقت الساعة قريب قرباً نسبياً بالنسبة إلى طول مدة هذا العالم ومن عليه من الخلق .

والثانية : أن ابتداء مشاهدة أحوال الساعة يحصل لكل أحد بموته فإن روحه إذا خلصت عن جسده شاهدت مصيرها مشاهدة إجمالية وبه فسر حديث أبي هريرة مرفوعاً " القبر روضة من رياض الجنة أو حفر من حفر النار " رواه الترمذي .

وهو ضعيف ويفسره حديث ابن عمر مرفوعاً " إذا مات الميت عرض عليه مقعده بالغداة والعشي فإن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ثم يقال

: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة " ونهاية حياة المرء قريبة وإن طال العمر .

والأشراط بالنسبة للصورة الأولى : الحوادث التي أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنها تقع بين يدي الساعة ، وأولها بعثته لأنه آخر الرسل وشريعته آخر الشرائع ثم ما يكون بعد ذلك ، وبالنسبة للصورة الثانية أشراطها الأمراض والشيخوخة .

﴿ أَشْرَاطُهَا فأنى لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ﴾ .

تفريع على ﴿ فقد جاء أشراطها ﴾ .

(170/708)

و ﴿ أنّى ﴾ اسم يدل على الحالة ، ويضمّن معنى الاستفهام كثيراً وهو هنا استفهام إنكاري ، أي كيف يحصل لهم الذكرى إذا جاءتهم الساعة ، والمقصود : إنكار الانتفاع بالذكرى حينئذٍ .

و ﴿ أَنَّى ﴾ مبتدأ ثان مقدم لأن الاستفهام له الصدارة .

و ﴿ ذكراهم ﴾ مبتدأ أول و ﴿ لهم ﴾ خبر عن ﴿ أنّى ﴾ ، وهذا التركيب مثل قوله تعالى : ﴿ أنّى لهم الذكرى ﴾ في سورة الدخان (13) ، وضمير جاءتهم ﴾ عائد إلى ﴿ الساعة ﴾ .

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (19)

فرع على جميع ما ذكر من حال المؤمنين وحال الكافرين ومن عواقب ذلك ووعده أو وعيده أن أمَر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالثبات على ما له من العلم بوحدانية الله وعلى ما هو دأبه من التواضع لله بالاستغفار لذنبه ومن الحرص على نجاة المؤمنين بالاستغفار لهم لأن في ذلك العلم وذلك الدأب استمطار الخيرات له ولأمته والتفريع هذا مزيد مناسبة لقوله آنفاً ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ [محمد : 11] الآية .

فالأمر في قوله : ﴿ فاعلم ﴾ كناية عن طلب العلم وهو العمل بالمعلوم ، وذلك مستعمل في طلب الدوام عليه لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد علم ذلك وعلمه المؤمنون ، وإذا حصل العلم بذلك مرة واحدة تقرر في النفس لأن العلم لا يحتمل النقيض فليس الأمر به بعد حصوله لطلب تحصيله بل لطلب الثبات فهو على نحو قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمِنوا بالله ورسوله ﴾ [النساء : 136] .

وأما الأمر في قوله : ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ فهو لطلب تجديد ذلك إن كان قد علمه النبي صلى الله عليه وسلم من قبل وعَمِله أو هو لطلب تحصيله إن لم يكن فعَلَه من قبل .

وذكر ﴿ المؤمنات ﴾ بعد ﴿ المؤمنين ﴾ اهتمام بهن في هذا المقام وإلا فإن الغالب اكتفاء القرآن بذكر المؤمنين وشموله للمؤمنات على طريقة التغليب للعلم بعموم تكاليف الشريعة للرجال والنساء إلا ما استثني من التكاليف .

ومن اللطائف القرآنية أن أمر هنا بالعلم قبل الأمر بالعمل في قوله : ﴿ واسغفر لذنبك ﴾ .

قال ابن عيينة لما سئل عن فضل العلم : ألم تسمع قوله حين بدأ به ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك ﴾ .

وترجم البخاري في كتاب العلم من "صحيحه" باب العلم قبل القول والعمل لقول الله تعالى : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ فبدأ بالعلم .

وما يستغفر منه النبي صلى الله عليه وسلم ليس من السيئات لعصمته منها ، وإنما هو استغفار من الغفلات ونحوها ، وتسميته بالذنب في الآية إما مُحاكاة لما كان يُكثر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقوله : (اللهم اغفر لي خطيئتي) وإنما كان يقوله في مقام التواضع ، وإما إطلاق لاسم الذنب على ما يفوت من الازدياد في العبادة مثل أوقات النوم والأكل ، وإطلاقه على ما عناه النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : " إنه ليغان على قلبي وإني أستغفر الله في اليوم مائة مرة "

واللام في قوله : ﴿ لذنبك ﴾ لام التعيين بينت مفعولاً ثانياً لفعل ﴿ اسْتَغْفِرْ ﴾ واللام في

قوله ﴿ وللمؤمنين ﴾ لام العلة ، أو بمعنى (عن) والمفعول محذوف ، أي استغفر الذنوب لأجل المؤمنين ، وفي الكلام حذف ، تقديره : وللمؤمنين لذنوبهم .

وجملة ﴿ والله يعلم متقلبكم ومثواكم ﴾ تذييل جامع لأحوال ما تقدم .

فالمَتَقَلَّبُ : مصدر بمعنى التقلب ، أوثر جلبه هنا لمزاوجة قوله : ﴿ ومثواكم ﴾ .

والتقلب : العمل المختلف ظاهراً كانَ كالصلاة ، أو باطناً كالإيمان والنصح .

(172/708)

والمثوى : المرجع والمآل ، أي يعلم الله أحوالكم جميعاً من مؤمنين وكافرين ، وقدر لها جزاءها على حسب علمه بمراتبها ويعلم مصائركم وإنما أمركم ونهاكم وأمركم بالاستغفار خاصة لإجراء أحكام الأسباب على مسبباتها فلا تيأسوا ولا تُهملوا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(173/708)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ﴾ قال : لا يلتفت إلى آخرته .

قوله تعالى : ﴿ وكأين من قرية ﴾ الآيتين .

أخرج عبد بن حميد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما " أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال : أنت أحب بلاد الله إلى الله وأنت أحب بلاد الله إلي ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك لم أخرج منك فأعتى الأعداء من عدا على الله في حرمه أو قتل غير قاتله أو قتل بذحول أهل الجاهلية " فأنزل الله تعالى ﴿ وكأين من قرية هي أشد قوّة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وكأين من قرية هي أشد قوّة من قريتك ﴾ قال : قريته مكة وفي قوله ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ قال : هو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ كمن زين له سوء عمله ﴾ قال : هم المشركون .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه قال : كلُّ هوىً ضلالة .

وأخرج ابن المنذر عن طاوس قال : ما ذكر الله هوى في القرآن إلا ذمه .

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وأنهار من ماء غير آسن ﴾ قال : غير متغير .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ من ماء غير آسن ﴾ قال : غير منتن .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ﴾ قال : قال ابن عباس رضي الله عنهما : لم يحلب .

(174/708)

وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ﴾ قال : لم يخرج من بين فرث ودم ﴿ وأنهار من خمر لذة للشاربين ﴾ قال : لم تدنسه الرجال بأرجلهم ﴿ وأنهار من عسل مصفى ﴾ قال : لم يخرج من بطون النحل .

وأخرج أحمد والترمذي وصححه وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في البعث والنشور

عن معاوية بن حيدة رضي الله الله عنه : " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في الجنة بحر اللبن وبحر الماء وبحر العسل وبحر الخمر ثم تشقق الأنهار منها بعد " .

وأخرج الحرث بن أبي أسامة في مسنده والبيهقي عن كعب رضي الله عنه قال : نهر النيل نهر العسل في الجنة ، ونهر دجلة نهر اللبن في الجنة ، ونهر الفرات نهر الخمر في الجنة ؟ ونهر سيحان نهر الماء في الجنة .

(175/708)

وأخرج ابن مردويه عن الكلبي رضي الله عنه في قوله : ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن ﴾ الآية قال : حدثني أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما أسري بي فانطلق بي الملك فانتهى بي إلى نهر الخمر فإذا عليه إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فقلت للملك : أيّ نهر هذا ؟ فقال : هذا نهر دجلة . فقلت له : إنه ماء قال هو ماء في الدنيا يسقي الله به من يشاء ، وهو في الآخرة خمر لأهل الجنة . قال : ثم انطلقت مع الملك إلى نهر الرب فقلت للملك : أي نهر هذا ؟ قال : هو جيحون وهو الماء غير آسن ، وهو في الدنيا ماء يسقي الله به من يشاء ، وهو في الآخرة ماء غير آسن ، ثم انطلق بي فأبلغني نهر اللبن الذي يلي القبلة ، فقلت للملك : أيّ نهر

هذا ؟ قال : هذا نهر الفرات ، فقلت : هو ماء قال : هو ماء يسقي الله به من يشاء في الدنيا ، وهو لبن في الآخرة لذرية المؤمنين الذين رضي الله عنهم وعن آبائهم ، ثم انطلق بي فأبلغني نهر العسل الذي يخرج من جانب المدينة ، فقلت للملك الذي أرسل معي : أيّ نهر هذا ؟ قال : هذا نهر مصر . قلت : هو ماء . قال : هو ماء يسقي الله به من يشاء في الدنيا وهو في الآخرة عسلٌ لأهل الجنة "

﴿ ولهم فيها من كل الثمرات ﴾ يقول : في الجنة ﴿ ومغفرة من ربهم ﴾ يقول : لذنوبهم .

(176/708)

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أبي وائل رضي اللهعنه قال : جاء رجل يقال له نهيك بن سنان ألى ابن مسعود رضي الله عنه فقال : يا أبا عبد الرحمن كيف تقرأ هذا الحرف ؟ أياء تجده أما الفا ؟ من ماء غير ياسن أو من ماء غير آسن ؟ فقال له عبد الله رضي الله عنه : وكل القرآن أحصيت غير هذا ؟ فقال أني لأقرأ المفصل في ركعة . قال : هذا كهذا الشعر إن قوماً يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، ولكن القرآن إذا وقع في القلب فرسخ نفع ، إني لأعرف النظائر التي كان يقرأ بهن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن جرير عن سعد بن طريف رضي الله عنه قال : سألت أبا إسحق رضي الله عنه عن ﴿ ماء غير آسن ﴾ قال : سألت عنها الحارث فحدثني أن الماء الذي غير آسن تسنيم ، قال : بلغني أنه لا تمسه يد وأنه يجيء الماء هكذا حتى يدخل فمه والله تعالى أعلم .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه قال : كان المؤمنون والمنافقون يجتمعون إلى النبي صلى الله عليه سولم فيستمع المؤمنون منه ما يقول ويعونه ، ويسمعه المنافقون فلا يعونه ، فإذا اخرجوا سألوا المؤمنين ماذا قال آنفاً ؟ فنزلت ﴿ ومنهم من يستمع إليك ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة رضي الله عنه قال : كانوا يدخلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا خرجوا من عنده قالوا لابن عباس رضي الله عنهما : ماذا قال آنفاً ؟ فيقول : كذا وكذا . وكان ابن عباس رضي الله عنهما من الذين أوتوا العلم .

وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً ﴾ قال : أنا منهم ، ولقد سئلت .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ومنهم من يستمع إليك ﴾ قال : هؤلاء المنافقون دخل رجلان ، فرجل عقل عن الله وانتفع بما يسمع ورجل لم يعقل عن الله ولم يعه ولم ينتفع به .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن عساكر عن ابن بريدة رضي الله عنه ﴿ قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً ﴾ قال : هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

وأخرج ابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

قوله تعالى : ﴿ والذين اهتدوا ﴾ الآية .

أخرج ابن المنذر والبيهقي في الدلائل عن عكرمة رضي الله عنه أن ناساً من أهل الكتاب آمنوا برسلهم وصدقوهم ، وآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث ، فلما بعث كفروا به فذلك قوله ﴿ فأما الذين اسودّت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم ﴾ وكان قوم من أهل الكتاب آمنوا برسلهم وبمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث ، فلما بعث آمنوا به فذلك قوله ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾ قال : لما أنزل القرآن آمنوا به فكان هدى فلما تبين الناسخ

من المنسوخ زادهم هدى .

أما قوله تعالى : ﴿ فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها ﴾ .

أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فقد جاء أشراطها ﴾ قال : دنت الساعة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فقد جاء أشراطها ﴾ قال : أول الساعات .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ فقد جاء أشراطها ﴾ قال : محمد صلى الله عليه وسلم من أشراطها .

وأخرج البخاري " عن سهل بن مسعود رضي الله عنه قال : " رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بأصبعيه هكذا الوسطى والتي تليها بعثت أنا والساعة كهاتين " " .

(178/708)

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بالسبابة والوسطى " .

وأخرج ابن مردويه عن سعيد بن أبي عروبة رضي الله عنه في قوله ﴿ فهل ينظرون إلا

الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها ﴾ قال : كان قتادة رضي الله عنه يقول : قد دنت الساعة ودنا منكم فداء ودنا من الله فراغ للعباد ، قال قتادة رضي الله عنه وذكر لنا أن النبي الله صلى الله عليه وسلم خطب أصحابه بعد العصر حتى كادت الشمس تغرب ولم يبق منها إلا أسف أي شيء قال : " والذي نفس محمد بيده ما مثل ما مضى من الدنيا فيما بقي منها إلا مثل ما مضى من يومكم هذا فيما بقي منه وما بقي منه إلا اليسير " .

وأخرج أحمد عن بريدة رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " بعثت أنا والساعة جميعاً إن كادت تسبقني " .

وأخرج البخاري وابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بعثت أنا والساعة كهاتين " .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي جبيرة بن الضحاك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بعثت في سم الساعة " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري ومسلم وابن مردويه عن أنس رضي الله عنه ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويظهر الجهل ويشرب الخمر ويظهر الزنا ويقل الرجال ويكثر النساء حتى يكون على خمسين امرأة قيم واحد " .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وابن ماجة وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً بارزاً للناس ، فأتاه رجل فقال : يا رسول الله متى الساعة ؟ فقال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، ولكن سأحدثك عن أشراطها ، إذا ولدت الأمة ربتها فذاك من أشراطها وإذا كانت الحفاة العراة رعاء الشاء رؤوس الناس فذاك من أشراطها ، وإذا تطاول رعاء الغنم في البنيان فذاك من أشراطها ".

وأخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه "أن أعرابياً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : متى الساعة ؟ فقال : إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة . قال يا رسول الله : وكيف إضاعتها ؟ قال : إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : "أتى رجل فقال يا رسول الله متى الساعة ؟ قال : ما السائل بأعلم من المسؤول . قال : فلو علمتنا أشراطها . قال : تقارب الأسواق . قلت : وما تقارب الأسواق ؟ قال : أن يشكو الناس بعضهم إلى بعض قلة إصابتهم ، ويكثر ولد البغي وتفشوا الغيبة ، ويعظم رب المال ، وترتفع أصوات الفساق في المساجد ، ويظهر أهل المنكر ، ويظهر البغاء " .

وأخرج ابن مردويه والديلمي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسو الله صلى الله

عليه وسلم : " من أشراط الساعة سوء الجوار وقطيعة الأرحام وأن يعطل السيف من الجهاد وأن ينتحل الدنيا بالدين " .

وأخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن من أشراط الساعة أن يكون أسعد الناس بالدنيا لكع بن لكع " .

وأخرج أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لن تذهب الدنيا حتى تصير للكع بن لكع " .

(180/708)

وأخرج أحمد والبخاري وابن ماجة عن عمرو بن تغلب رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوماً نعالهم الشعر ، وإن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوماً عراض الوجوه كأن وجوههم المجان المطرقة " .

وأخرج النسائي عن عمرو بن تغلب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن من أشراط الساعة أن يقبض العلم ويفشو المال وتفشو التجارة ويظهر القلم " قال عمرو : فإن كان هذا الرجل ليبيع البيع فيقول حتى استأمر تاجر بن فلان ويلتمس في الحواء العظيم الكاتب فلا يوجد .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم وابن ماجة عن ابن مسعود رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يكون بين يدي الساعة أيام فيرفع فيها العلم وينزل فيها الجهل ويكثر في الهرج " .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن عبد الله بن ربيب الجندي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا أبا الوليد يا عبادة بن الصامت إذا رأيت الصدقة كتمت وغلت واستؤجر في الغزو ، وعمر الخراب ، وخرب العامر ، والرجل يتمرس بأمانته كما يتمرس البعير بالشجرة ، فإنك والساعة كهاتين " وأشار بأصبعه السبابة والتي تليها .

وأخرج أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد " .

وأخرج أحمد والترمذي عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان فيكون السنة كالشهر كالجمعة والجمعة كاليوم واليوم كالساعة والساعة كالضرم بالنار " .

وأخرج أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان فتكون السنة كالشهر ويكون الشهر كالجمعة وتكون الجمعة كاليوم ويكون اليوم كالساعة وتكون الساعة كاحتراق السعفة " .

وأخرج مسلم والحاكم وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً " .

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تقوم الساعة حتى يقتتل فئتان عظيمتان يكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحدة وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله ، وحتى يقبض العلم وتكثر الزلازل ويتقارب الزمان وتظهر الفتن وكثر الهرج وهو القتل ، وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يهم رب المال من يقبل صدقته ، وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه لا أرب لي به ، وحتى يتطاول الناس في البنيان ، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول يا ليتني مكانه ، وحتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون ، وذلك حين لا ينفع إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيراً . ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوباً بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه لا يسقي به ، ولتقومن الساعة وقد رفعت أكلته إلى فيه فلا يطعمها " .

وأخرج الحاكم وصححه عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش ، والذي نفس محمد بيده لا تقوم الساعة حتى يظهر

الفحش والتفحش وسوء الجوار وقطيعة الأرحام ، وحتى يخون الأمين ويؤتمن الخائن . ثم قال : إنما مثل المؤمن مثل النخلة وقعت فأكلت طيباً ولم تفسد ولم تكسر ، ومثل المؤمن كمثل القطعة الذهب الأحمر أدخلت النار فنفخ عليها ولم تتغير ووزنت فلم تنقص " .

وأخرج أحمد والحاكم وصححه عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تقوم الساعة حتى يمطر الناس مطراً عامّاً ولا تنبت الأرض شيئاً " .

(182/708)

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن جابر رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " بين يدي الساعة كذابون منهم صاحب اليمامة وصاحب صنعاء العنسي ، ومنهم صاحب حمير ، ومنهم الدجال وهو أعظمهم فتنة " .

وأخرج أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

" بين الساعة قريب من ثلاثين دجالين كلهم يقول أنا نبي أنا نبي " . وأخرج أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " سيكون في أمتي دجالون كذّابون يأتونكم ببدع من الحديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم فإياكم وإياهم لا يفتنونكم " .

وأخرج أحمد والطبراني عن ابن عمر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "

ليكونن قبل يوم القيامة المسيح الدجال وكذابون ثلاثون أو أكثر " .

وأخرج أبو يعلى عن ابن عمر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن في أمتي لنيفاً وسبعين داعياً كلهم داع إلى النار لو أشاء لأنبأتكم بأسمائهم وقبائلهم " .

وأخرج أبو يعلى عن أبي الجلاس قال : سمعت علياً رضي الله عنه يقول لعبد الله السبائي : لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن بين يدي الساعة ثلاثين كذاباً " وإنك لأحدهم .

وأخرج أبو يعلى عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يكون قبل خروج الدجال ينيف على سبعين دجالاً " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أنس رضي الله عنه أن بين يدي الساعة لستاً وسبعين دجالاً .

وأخرج أحمد والبزار عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تقوم الساعة حتى تمطر السماء مطراً لا يكن منه بيوت المدر ولا يكن منه إلا بيوت الشعر " .

(183/708)

وأخرج البيهقي في البعث والنشور عن الحسن قال : قال عليّ خرجت في طلب العلم فقدمت الكوفة فإذا أنا بعبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقلت يا أبا عبد الرحمن : هل للساعة من علم تعرف به ؟ قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : " إن من أشراط الساعة أن يكون الولد غيظاً والمطر قيظاً ، وتفيض الأشرار فيضاً ، ويصدق الكاذب ، ويؤتمن الخائن ، ويخون الأمين ، ويسود كل قبيلة وكل سوق فجارهم ، وتزخرف المحاريب ، وتخرب القلوب ويكتفي الرجال بالرجال والنساء بالنساء ، ويخرب عمران الدنيا ، ويعمر خرابها ، وتظهر الفتنة ، وأكل الربا وتظهر المعازف والكنوز وشرب الخمر ، ويكثر الشرط والغمازون والهمازون " .

(184/708)

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من اقتراب الساعة اثنتان وسبعون خصلة ، إذ رأيتم الناس أماتوا الصلاة وأضاعوا الأمانة وأكلوا الربا واستحلوا الكذب واستخفوا بالدماء واستعلوا البناء وباعوا الدين بالدنيا وتقطعت الأرحام ويكون الحكم ضعفاً والكذب صدقاً والحرير لباساً وظهر الجور وكثرة الطلاق وموت الفجاءة وائتمن الخائن وخوّن الأمين وصدق الكاذب

وكذب الصادق وكثر القذف وكان المطر قيظاً والولد غيظاً وفاض اللئام فيضاً ، وغاض الكرام غيضاً ، وكان الأمراء والوزراء كذبة والأمناء خونة والعرفاء ظَلَمَة والقراء فَسَقَة إذا لبسوا مسوك الضأن قلوبهم أنتن من الجيف وأمرّ من الصبر يغشيهم الله تعالى فتنة يتهاركون فيها تهارك اليهود الظلمة وتظهر الصفراء يعني الدنانير ، وتطلب البيضاء وتكثر الخطايا ويقل الأمن ، وحليت المصاحف وصورت المساجد وطوّلت المنائر وخرّبت القلوب وشربت الخمور وعطلت الحدود ، وولدت الأمة ربتها ، وترى الحفاة العراة قد صاروا ملوكاً ، وشاركت المرأة زوجها في التجارة ، وتشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال ، وحلف بغير الله ، وشهد المؤمن من غير أن يستشهد ، وسلم للمعرفة ، وتفقه لغير دين الله ، وطلب الدنيا بعمل الآخرة ، واتخذ المغنم دولاً والأمانة مغنماً والزكاة مغرماً ، وكان زعيم القوم أرذلهم ، وعق الرجل أباه وجفا أمه وضر صديقه وأطاع امرأته ، وعلت أصوات الفسقة في المساجد ، واتخذ القينات والمعازف ، وشربت الخمور في الطرق ، واتخذ الظلم فخراً وبيع الحكم ، وكثرت الشرط ، واتخذ القرآن مزامير وجلود السباع خفافاً ، ولعن آخر هذه الأمة أولها ، فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء وخسفاً ومسخاً وقذفاً وآيات " .

(185/708)

وأخرج ابن أبي شيبة عن علي رضي الله عنه أنهم سألوا متى الساعة فقال : لقد سألتموني عن أمر ما يعلمه جبريل ولا ميكائيل ، ولكن إن شئتم أنبأتكم بأشياء إذا كانت لم يكن للساعة كثير لبث إذا كانت الألسن لينة والقلوب جنادل ورغب الناس في الدنيا وظهر البناء على وجه الأرض ، واختلف الإِخوان فصار هواهما شتى ، وبيع حكم الله بيعاً " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال : إن من اقتراب الساعة أن يظهر البناء على وجه الأرض ، وأن تقطع الأرحام ، وأن يؤذي الجار جاره " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : إن من أشراط الساعة أن يظهر الفحش والتفحش وسوء الخلق وسوء الجوار " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : إن من أشراط الساعة أن يظهر القول ويخزن العمل ويرتفع الأشرار ويوضع الأخيار ويقرأ المثاني عليهم فلا يعيها أحد منهم . قلت : ما المثاني ؟ قال : كل كتاب سوى كتاب الله " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن رجاء بن حيوة قال : لا تقوم الساعة حتى تحمل النخلة إلا تمرة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن قيس قال : لا تقوم الساعة حتى تقوم رأس البقرة بالأوقية .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الوداك قال : من اقتراب الساعة انتفاخ الإِهلّة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الشعبي : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من اقتراب

الساعة أن يرى الهلال قبلاً فيقال ابن ليلتين " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي شيبة عن الشعبي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" من اقتراب الساعة أن يرى الهلال قبلاً فيقال ابن ليلتين " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي موسى قال : إن بين يدي الساعة أياماً ينزل فيها الجهل ويرفع العلم حتى يقوم الرجل إلى أمه فيكربها بالسيف من الجهل .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن عمر قال : يأتي على الناس زمان يجتمعون ويصلون في المساجد وليس فيهم مؤمن .

(186/708)

وأخرج ابن أبي شيبة عن الشعبي قال : لا تقوم الساعة حتى يصير العلم جهلاً والجهل علماً .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أنس رضي الله عنه قال : ليأتين على الناس زمان يجد النسوة نعلاً ملقى على الطريق فيقول بعضهن لبعض قد كانت هذه النعلة مرة لرجل .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبزار عن علي رضي الله عنه قال : " قيل لرسول الله صلى الله

عليه وسلم : متى الساعة ؟ فزبره رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا صلى الفجر رفع رأسه إلى السماء فقال : " تبارك خالقها ورافعها ومبدلها وطاويها كطي السجل للكتاب " ثم تطلع إلى الأرض فقال " تبارك خالقها وواضعها ومبدلها وطاويها كطي السجل للكتاب " ثم قال : " أين السائل عن الساعة ؟ " فجثا رجل من آخر القوم على ركبتيه فإذا هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عند حيف الأئمة ، وتكذيب بالقدر ، وإيمان بالنجوم ، وقوم يتخذون الأمانة مغنماً والزكاة مغرماً والفاحشة زيارة " ، فسألته عن الفاحشة زيارة ، قال : " الرجلان من أهل الفسق يصنع أحدهما طعاماً وشراباً ويأتيه بالمرأة فيقول اصنع لي كما صنعت فيتزاورون على ذلك " قال : فعند ذلك هلكت أمتي يا ابن الخطاب " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا تقوم الساعة حتى يكون السلام على المعرفة ، وحتى تتخذ المساجد طرقاً لا يسجد لله فيها حتى يجاوز ، وحتى يبعث الغلام بالشيخ بريداً بين الأفقين ، وحتى ينطلق الفاحر إلى الأرض النامية فلا يجد فضلاً " .

(187/708)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " حج النبي صلى الله عليه وسلم حجة الوداع ثم أخذ بحلقة باب الكعبة فقال : أيها الناس ألا أخبركم بأشراط الساعة ؟ فقام إليه سلمان رضي الله عنه فقال : أخبرنا فداك أبي وأمي يا رسول الله . قال : إن من أشراط الساعة إضاعة الصلاة ، والميل مع الهوى ، وتعظيم رب المال . فقال سلمان : ويكون هذا يا رسول الله ؟ قال : نعم والذي نفس محمد بيده ، فعند ذلك يا سلمان تكون الزكاة مغرماً والفيء مغنماً ، ويصدق الكاذب ، ويكذب الصادق ، ويؤتمن الخائن ، ويخون الأمين ، ويتكلم الرويبضة . قال : وما الرويبضة ؟ قال : يتكلم في الناس من لم يتكلم ، وينكر الحق تسعة أعشارهم ، ويذهب الإِسلام فلا يبقى إلا اسمه ، ويذهب القرآن فلا يبقى إلا رسمه ، وتحلى المصاحف بالذهب وتتسمن ذكور أمتي وتكون المشورة للإِماء ويخطب على المنابر الصبيان وتكون المخاطبة للنساء ، فعند ذلك تزخرف المساجد كما تزخرف الكنائس والبيع ، وتطول المنائر وتكثر الصفوف ، مع قلوب متباغضة وألسن مختلفة وأهواء جمة . قال سلمان : ويكون ذلك يا رسول الله ؟ قال : نعم والذي نفس محمد بيده ، عند ذلك يا سلمان يكون المؤمن فيهم أذل من الأمة يذوب قلبه في جوفه كما يذوب الملح في الماء مما يرى من المنكر فلا يستطيع أن يغيره ، ويكتفي الرجال بالرجال والنساء بالنساء ، ويغار على الغلمان كما يغار على الجارية البكر ، فعند ذلك يا سلمان يكون أمراء فسقة ووزراء فجرة وأمناء خونة يضيعون الصلوات ويتبعون الشهوات ، فإن أدركتموهم فصلوا صلاتكم

لوقتها . عند ذلك يا سلمان يجيء سبي من المشرق وسبي من المغرب جثاؤهم جثاء الناس وقلوبهم قلوب الشياطين لا يرحمون صغيراً ولا يوقرون كبيراً ، عند ذلك يا سلمان يحج الناس إلى هذا البيت الحرام تحج ملوكهم لهواً وتنزهاً وأغنياؤهم للتجارة ومساكينهم للمسألة وقراؤهم رياء وسمعة . قال : ويكون ذلك يا رسول الله ؟ قال : نعم والذي

(188/708)

نفسي بيده ، عند ذلك يا سلمان يفشو الكذب ويظهر الكوكب له الذنب ، وتشارك المرأة زوجها في التجارة وتتقارب الأسواق . قال : وما تقاربها ؟ قال : كسادها وقلة أرباحها عند ذلك يبعث الله ريحاً فيها حيات صفر فتلتقط رؤساء العلماء لما رأوا المنكر فلم يغيروه قال : ويكون ذلك يا رسول الله ؟ قال : نعم والذي بعث محمداً بالحق " .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن حذيفة رضي الله عنه قال : والله لا تقوم الساعة حتى يلي عليكم من لا يزن عشر بعوضة يوم القيامة .

وأخرج أحمد وابن ماجة والطبراني عن سلامة بنت الحر قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يأتي على الناس زمان يقومون ساعة لا يجدون إماماً يصلي بهم " .

وأخرج أحمد عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أيام

الدجال خداعة يكذب فيها الصادق ، ويصدق فيها الكاذب ، ويخون فيها الأمين ، ويؤتمن فيها الخائن ، ويتكلم فيها الرويبضة . قيل : وما الرويبضة ؟ قال : الفاسق يتكلم في أمر العامة " .

وأخرج أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قبل الساعة سنون خداعة يكذب فيها الصادق ، ويصدق فيها الكاذب ويخون فيها الأمين ، ويؤتمن فيها الخائن ، وينطق بها الرويبضة " .

وأخرج أحمد وأبو يعلى والحاكم والبيهقي في البعث والضياء عن بريدة قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " إن أمتي يسوقها قوم اعراض الوجوه ، صغار الأعين كأن وجوههم الحجف ثلاث مرار حتى يلحقوهم بجزيرة العرب . أما السابقة الأولى فينجو من هرب منهم وإما الثانية فيهلك بعض وينجو بعض ، وأما الثالثة فيصطلمون كلهم من بقي منهم . قالوا يا رسول الله : من هم ؟ قال : هم الترك " .

(189/708)

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : لا تقوم الساعة حتى يتسافد الناس في الطرق تسافد الحمر . وفي لفظ : حتى يتهارجون في الطرق تهارج الحمر فيأتيهم

إبليس ، فيصرفهم إلى عبادة الأوثان .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة رضي الله عنه يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم : " لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً نعالهم الشعر ، ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً صغار الأعين ذلف الأنف كأن وجوههم المجانّ الْمُطَرَّقَة " .

وأخرج ابن أبي شيبة والحاكم وصححه عن حذيفة رضي الله عنه قال : " إن الناس كانوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر كيما أعرفه فأتقيه ، قلت يا رسول الله : أرأيت هذا الخير الذي أعطانا الله يكون بعده شر ؟ قال : نعم قلت : فما العصمة من ذلك ؟ قال : السيف . قلت : وهل للسيف من بقية ؟ قال : نعم . قلت : ثم ماذا ؟ قال : ثم على دخن جماعة على فرية ، فإن كان يومئذ لله خليفة ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع وإلا فمت عاضّاً بجذل شجرة ، قلت : ثم ماذا ؟ قال : يخرج الدجال ومعه نهر ونار فمن وقع في ناره وقع وحط وزره ، ومن وقع في نهره وجب وزره وحط أجره . قلت : ثم ماذا ؟ قال : ثم إنما هي قيام الساعة " .

وأخرج أحمد ومسلم والترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله " .

وأخرج الحاكم وصححه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله " .

وأخرج أحمد وأبو يعلى والحاكم ، وصححه عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله ، وحتى تمر المرأة بقطعة النعل فتقول : قد كان لهذه رجل مرة وحتى يكون الرجل قيم خمسين امرأة ، وحتى تمطر السماء ولا تنبت الأرض " .

(190/708)

وأخرج الحاكم وصححه عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً " والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة على رجل يقول لا إله إلا الله ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر "

وأخرج الحاكم وصححه وضعفه الذهبي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

" لا تقوم الساعة حتى لا يبقى على وجه الأرض أحد لله فيه حاجة ، وحتى تؤخذ المرأة نهاراً جهاراً تُنْكَحُ وسط الطريق ، لا ينكر ذلك أحد ، فيكون أمثلهم الذي يقول : لو نحيتها عن الطريق قليلاً فذاك فيهم مثل أبي بكر وعمر فيكم " .

وأخرج أحمد والحاكم وصححه عن علباء السلمي مرفوعاً : " لا تقوم الساعة إلا على حثالة الناس " .

وأخرج أحمد ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اللهم لا يدركني زمان لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس " .

وأخرج أحمد عن سهل بن سعد الساعدي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اللهم لا يدركني زمان ولا تدركون زماناً لا يتبع فيه العليم ولا يستحيا من الحليم قلوبهم قلوب الأعاجم وألسنتهم ألسنة العرب " .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا تقوم الساعة حتى تضطرب اليات نساء دوس على ذي الخلصة ، وذو الخلصة طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن عمر قال : لا تقوم الساعة حتى تضطرب اليات نساء حول الأصنام " . وأخرج الطبراني عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن من أشراط الساعة أن تعزب العقول وتنقص الأحلام " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الشعبي قال : كان يقال من اقتراب الساعة موت الفجأة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد قال : من أشراط الساعة موت البدار .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي العالية قال : كنا نتحدث أنه سيأتي على الناس زمان خير أهله الذي يرى الخير فيجانبه قريباً .

وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي في البعث عن طلحة بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن من أشراط الساعة هلاك العرب " .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تقوم الساعة حتى تتخذ المساجد طرقاً وحتى يسلم الرجل على الرجل بالمعرفة ، وحتى تتجر المرأة وزوجها ، وحتى تغلو الخيل والنساء ثم ترخص فلا تغلوا إلى يوم القيامة " .

وأخرج أحمد والبخاري في الأدب المفرد والحكم وصححه عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " بين يدي الساعة تسليم الخاصة وفشو التجارة حتى تعين المرأة زوجها على التجارة وقطع الأرحام وفشو القلم وظهور الشهادة بالزور وكتمان شهادة الحق " .

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن من أشراط الساعة أن يمر الرجل في المسجد لا يصلي فيه ركعتين ، وأن لا يسلم الرجل إلا على من يعرفه ، وأن يبرد الصبي الشيخ لفقره ، وأن تتطاول الحفاة العراة رعاء الشاء في البنيان " .

وأخرج أحمد والحاكم وصححه عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تقوم الساعة حتى يأخذ الله شريطته من أهل الأرض فيبقى منها عجاج لا

يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً " .

وأخرج أحمد ومسلم والحاكم وصححه عن أبي هريرة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن طالت بك مدة يوشك أن ترى قوماً يغدون في سخط ويروحون في لعنته في أيديهم مثل أذناب البقر " .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً يكون في آخر هذه الأمة رجال يركبون على المياثر حتى يأتوا أبواب المساجد نساؤهم كاسيات عاريات على رؤوسهن كأسنمة البخت العجاف ، العنوهن فإنهن ملعونات لو كانت وراءكم أمة من الأمم لخدمتهم كما خدمكم نساء الأمم قبلكم " فقلت لأبي : وما المياثر ؟ قال : سروجٌ عظام .

(192/708)

وأخرج أحمد والحاكم وصححه عن أبي أمامة مرفوعاً : " يخرج في هذه الأمة في آخر الزمان رجال معهم سياط كأنها أذناب البقرة يغدون في سخط الله ويروحون في لعنته " .

وأخرج البزار والحاكم بسند ضعيف عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " والذي بعثني بالحق لا تنقضي هذه الدنيا حتى يقع بهم الخسف والمسخ والقذف . قالوا : ومتى ذاك يا نبي الله ؟ قال : إذا رأيت النساء ركبن السروج وكثرت

القينات وشهد شهادت الزور وشرب المصلون في آنية أهل الشرك الذهب والفضة ، واستغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء فاستبدروا واستعدوا " .

وأخرج الطبراني وصححه عن أبي أمامة رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا يزداد الأمر إلى شدة ولا المال إلا إفاضة ، ولا تقوم الساعة إلا على شرار خلقه " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والحاكم وصححه عن أبي ذر رضي الله عنه قال : "كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رجعنا تعجل ناس فدخلوا المدينة ، فسأل عنهم النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخبر أنهم تعجلوا المدينة ، فقال : " يوشك أن يدعوها أحسن ما كانت ليت شعري متى تخرج نار من جبل الوراق يضيء لها أعناق البخت ببصرى يروها كضوء النهار " " .

وأخرج أحمد والحاكم عن رافع بن بشر السلمي عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " تخرج نار من حبس سيل تسير بطيبة تكمن بالليل وتسير بالنهار تغدو وتروح ، يقال غدت النار أيها الناس فاغدوا قالت النار : أيها الناس فقيلوا راحت النار فروحوا من أدركته أكلته " .

وأخرج الحاكم عن أبي البداح بن عاصم الأنصاري رضي الله عنه بسند ضعيف قال : " سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثان ما قدم فقال : أي حبس سيل ؟ قلنا : لا ندري فمر بي رجل من بني سليم ، فقلت : ومن أين جئت ؟ قال : من حبس سيل . فأتيت فقلت يا رسول الله : إن هذا الرجل يخبر أن أهله بحبس سيل ، فسأله النبي صلى الله عليه وسلم وقال : " أخر أهلك فإنه يوشك ان تخرج منه نار تضيء أعناق الإِبل ببصرى " " .

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تقوم الساعة حتى تخرج نار الحجاز تضيء منها أعناق الإِبل ببصرى " .

وأخرج أحمد وصححه ، وضعفه الذهبي ، عن معاذ بن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تزال الأمة على شريعة ما لم يظهر فيهم ثلاث : ما لم يقبض منهم العلم ، ويكثر ولد الخبث ، ويظهر فيهم السقارون . قالوا : وما السقارون ؟ قال : بشر يكونون في آخر الزمان تكون تحيتهم بينهم إذا تلاقوا التلاعن " .

وأخرج أحمد والحاكم وصححه عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة فيصبح القوم فيقولون : من صعق البارحة فيقولون : صعق فلان وفلان " .

وأخرج البزار وأبو يعلى وابن حبان والحاكم وصححه عن أبي سعيد رضي الله عنه عن

النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا تقوم الساعة حتى لا يُحج البيت " .

وأخرج الحاكم وصححه عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يكون في أمتي خليفة يحثي المال حثياً لا يعده عداً ، ثم قال : والذي نفسي بيده ليعودن الأمر كما بدأ ليعودن كل إيمان إلى المدينة كما بدأ بها حتى يكون كل إيمان بالمدينة . ثم قال : لا يخرج رجل من المدينة رغبة عنها إلا أبدلها الله خيراً منه ، وليسمعن ناس برخص من أسعار وزيف فيتبعونه والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون " .

(194/708)

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لتركبن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو أن أحدهم دخل حجر ضبّ لدخلتم ، وحتى لو أن أحدهم جامع امرأته بالطريق لفعلتموه " .

وأخرج الحاكم وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سيأتي على أمتي زمان يكثر فيه القراء وتقل الفقهاء ويقل العلم ويكثر الهرج . قالوا وما الهرج يا رسول الله ؟ قال : القتل بينكم . ثم يأتي بعد ذلك زمان يقرأ القرآن رجال لا يجاوز تراقيهم . ثم يأتي بعد ذلك زمان يحاول المنافق الكافر المشرك بالله المؤمن بمثل ما

يقول " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والحاكم وصححه عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإِنسان ، وحتى تكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله ويخبره فخذه بما أحدث أهله من بعده " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : يكون فتنة فيقوم لها رجال فيضربون خيشومها حتى تذهب ، ثم تكون أخرى فيقوم لها رجال فيضربون خيشومها حتى تذهب ، ثم تكون أخرى فيقوم لها رجال فيضربون خيشومها حتى تذهب ، ثم تكون أخرى فيقوم لها رجال فيضربون خيشومها حتى تذهب ، ثم تكون الخامسة وهي مجللة تنشق في الأرض كما ينشق الماء .

وأخرج مسلم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : والله إني لأعلم الناس بكل فتنة كائنة فيما بيني وبين الساعة ، وما بي أن لا يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم أسرّ في ذلك شيئاً لم يحدثه غيري ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يحدث مجلساً أنا فيه عن الفتن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعد الفتن : منهن ثلاث لا يكدن يذرن شيئاً ومنهن فتن كرياح الصيف منها صغار ومنها كبار قال حذيفة رضي الله عنه : فذهب أولئك الرهط غيري .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يكون في هذه الأمة أربع فتن آخرها الغناء " .

وأخرج أحمد وأبو داود والحاكم وصححه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : " كنا قعوداً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الفتن فأكثر في ذكرها حتى ذكر فتنة الأحلاس ، فقال قائل يا رسول الله : وما فتنة الأحلاس ؟ قال : هي فتنة حرب وهرب ثم فتنة السراء دخنها من تحت قدمي رجل من أهل بيتي يزعم أنه بني وليس مني إنما أوليائي المتقون ثم يصطلح الناس على رجل كورك على ضلع ، ثم فتنة الدهيماء لا تدع أحداً من هذه الأمة إلا لطمته ، حتى إذا قيل انقضت عادت ، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً حتى يصير الناس إلى فسطاطين فسطاط إيمان لا نفاق فيه وفسطاط نفاق لا إيمان فيه فإذا كان ذاكم فانظروا الدجال من يومه أو من غده " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فنزلنا منزلاً فمنا من يضرب خباءه ، ومنا من ينتضل إذ نادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم : الصلاة

جامعة .

فانتهيت إليه وهو يخطب الناس ويقول : " أيها الناس إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على ما يعلمه خيراً لهم ، وينذرهم ما يعلمه شراً لهم ، الا وان عافية هذه الأمة في أولها سيصيب آخرها بلاء وفتن يرفق بعضها بعضاً ، تجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه تهلكني ، ثم تنكشف ، ثم تجيء فيقول هذه وهذه ثم تجيء فيقول هذه وهذه ، ثم تنكشف فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويأتي إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه ، ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه ما استطاع " .

(196/708)

وأخرج ابن خزيمة والحاكم عن العداء بن خالد رضي الله عنه قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ قام قومة له كأنه مفزع ثم رجع فقال : أحذركم الدجالين الثلاث فقال ابن مسعود رضي الله عنه بأبي أنت وأمي يا رسول الله أخبرتنا عن الدجال الأعور وعن أكذب الكذابين فمن الثالث ؟ قال : رجل يخرج في قوم أولهم مثبور وآخرهم مثبور عليهم

اللعنة دائبة في فتنة الجارفة وهو الدجال الأكيس يأكل عباد الله قال محمد : وهو أبعد الناس من سننه قال الذهبي : الحديث منكر بمرة .

وأخرج الحاكم وصححه عن جابر بن سمرة مرفوعاً " ليفتحن لكم كنوز كسرى . الأبيض أو الذي في الأبيض عصابة من المسلمين " .

وأخرج الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً " تكون هدة في شهر رمضان توقظ النائم وتفزع اليقظان ثم تظهر عصابة في شوال ثم مقمعة في ذي الحجة تنتهك المحارم ثم يكون موت في صفر ، ثم تتنازل القبائل في ربيع ثم العجب كل العجب بين جمادى ورجب ، ثم في المحرم ناقة مقتبة خير من دسكرة تقل مائة ألف قال الحاكم : غريب المتن ، وقال الذهبي : موضوع .

وأخرج أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " شيطان الردهة يحتدره رجل من بجيلة يقال له الأشهب أو ابن الأشهب راعي الخيل غلامه في القوم الظلمة " قال الذهبي ما أبعده من الصحة وأنكره !

وأخرج ابن أبي شيبة عن أرقم بن يعقوب قال : سمعت عبد الله رضي الله عنه يقول : كيف أنتم إذا أخرجتم من أرضكم هذه إلى جزيرة العرب ومنابت الشيخ ؟ قلت : من يخرجنا ؟ قال : عدو الله .

وأخرج ابن أبي شيبة عن حذيفة رضي الله عنه قال : كأني أراهم مسر آذان خيلهم وابطبها بحافتي الفرات .

(197/708)

وأخرج الحاكم وصححه عن معيقيب ونعيم بن حماد عن حذيفة رضي الله عنه مرفوعاً " لن تفنى أمتي حتى يظهر فيهم التمايز والتمايل والمقامع . قلت يا رسول الله : ما التمايز ؟ قال : عصبية يظهرها الناس بعدي في الإِسلام . قلت : فما التمايل ؟ قال : تميل القبيلة علن القبيلة فتستحل حرمتها . قلت : فما المقامع ؟ قال : تسير الأحبار بعضها إلى بعض تختلف أعناقها في الحرب " .

وأخرج ابن ماجة والحاكم وصححه وابن عساكر عن أبي هريرة رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا " وقعت الملاحم خرج بعث من الموالي من دمشق هم أكرم العرب فرساً وأجودهم سلاحاً يؤيد الله بهم هذا الدين " " .

وأخرج الحاكم وصححه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ستكون فتنة تحصل الناس منها كما يحصل الذهب في المعدن فلا تسبوا أهل الشام وسبوا ظَلَمَتَهُمْ ، فإن فيهم الأبدال ، وسيرسل الله سيباً من السماء فيغرقهم حتى لو قاتلهم الثعالب غلبتهم ، ثم يبعث

الله عند ذلك رجلاً من عترة الرسول عليه الصلاة والسلام في إثني عشر ألفاً إن قلوا أو خمسة عشر ألفاً إن كثروا أمارتهم أن علامتهم أمت أمت على ثلاث رايات يقاتلهم أهل سبع رايات ليس من صاحب راية إلا وهو يطمع في الملك ، فيقتلون ويهزمون ثم يظهر الهاشمي فيردّ الله على الناس إلفتهم ونعمتهم فيكونون على ذلك حتى يخرج الدجال .

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي عن جبير بن نفير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لتستصعبن الأرض بأهلها حتى لا يكون على ظهرها أهل بيت مَدَر ولا وبر وليبتلين آخر هذه الأمة بالرجف فإن تابوا تاب عليهم ، وإن عادوا عاد الله عليهم بالرجف والقذف والمسخ والصواعق " .

(198/708)

وأخرج أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أبشركم بالمهدي يبعثه الله في أمتي على اختلاف من الزمان وزلازل فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً ويرضى عنه ساكنوا السماء وساكنوا الأرض ، يقسم الأرض ضحاحاً . فقال له رجل : ما ضحاحا ؟ قال : بالسوية بين الناس ، ويملأ قلوب أمة محمد غنى ، ويسعهم عدله حتى يأمر مناد ينادي يقول : من كانت له في مال

حاجة فما يقوم من المسلمين إلا رجلٌ واحد ، فيقول : ائت السادن يعني الخازن فقل له : إن المهديّ يأمرك أن تعطيني مالاً فيقول له : أحث حتى إذا جعله في حجره وأبرزه ندم ، فيقول : كنت أجشع أمة محمد نفساً إذ عجز عني ما وسعهم قال : فيرد ، فلا يقبل منه ، فيقال له : إنا لا نأخذ شيئاً أعطيناه ، فيكون كذلك سبع سنين أو ثمان سنين أو تسع سنين ثم لا خير في العيش بعده قال : ثم لا خير في الحياة بعده " .

وأخرج أحمد وأبو داود عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تقوم الساعة حتى يملك الأرض رجل من أهل بيتي أجلي أقنى " ولفظ أبي داود : " المهدي مني أجلى الجبهة أقنى الأنف يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت قبله ظلماً وجوراً يكون سبع سنين " .

وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن ماجة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يخرج المهدي في أمتي خمساً أو سبعاً – شك أبو الجوري – قلنا : أي شيء قال : سنين ، ثم ترسل السماء عليهم مدراراً ولا تدخر الأرض من نباتها شيئاً ، ويكون المال كردساً يجيء الرجل إليه فيقول يا مهدي أعطني أعطني فيحثي له في ثوبه ما استطاع أن يحمل " .

وأخرج أحمد ومسلم : يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعده .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يخرج في آخر الزمان خليفة يعطي الحق بغير عدد " .

(199/708)

عن أبي شيبة عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يخرج رجل من أهل بيتي عند انقطاع من الزمان وظهور من الفتن يكون عطاؤه حثياً " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لبعث الله رجلاً منا يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن ماجة عن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " المهدي منا أهل البيت يصلحه الله في ليلة " .

وأخرج أبو داود عن أبي إسحق قال : قال علي ، ونظر إلى ابنه الحسن ، فقال : إن ابني هذا سيد كما سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيخرج من صلبه رجل يسمى باسم نبيكم يشبهه في الخلق ، ولا يشبهه في الخلق يملأ الأرض عدلاً .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والترمذي والحاكم وصححاه عن ابن مسعود

رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجل مني أو من أهل بيتي ، وفي لفظ ، لا تذهب الأيام والليالي حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً " .

وأخرج الترمذي وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" لو لم يبقَ من الدنيا إلا يوم لطوّل الله ذلك اليوم حتى يلي رجل من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي " .

وأخرج أبو داود وابن ماجة والطبراني والحاكم عن أم سلمة رضي الله عنها : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم : " المهدي من عترتي من ولد فاطمة " .

(200/708)

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود وأبو يعلى والطبراني عن أم سلمة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يكون اختلاف عند موت خليفة فيخرج رجل من أهل المدينة هارباً إلى مكة فيأتيه ناس من أهل المدينة فيخرجونه وهو كاره فيبايعونه بين

الركن والمقام ، ويبعث إليه بعث من الشام فيخسف بهم بالبيداء بين مكة والمدينة فإذا رأى الناس ذلك أتاه إبدال الشام وعصائب أهل العراق فيبايعونه ثم ينشأ رجل من قريش اخواله كلب فيبعث إليهم بعثاً ، فيظهرون عليهم فذلك بعث كلب ، والخيبة لمن لم يشهد غنيمة كلب ، فيقسم المال ويعمل في الناس سنة نبيهم ويلقى الإِسلام بجرانه إلى الأرض فليبث سبع سنين ، ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن ماجة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : " بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبل فتية من بني هاشم ، فلما رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم اغرورقت عيناه وتغير لونه ، فقلت : ما تزال ترى في وجهك شيئاً نكرهه فقال : " إنا أهل بيت اختار لنا الآخرة على الدنيا وإن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاء وتشريداً وتطريداً حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود فيسألون الخير فلا يُعْطونَهُ فيقاتلون فَيُنْصَرون فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه حتى يدفعوها إلى رجل من أهل بيتي فيملأوها قسطاً كما ملأوها جوراً فمن أدرك ذلك منكم فليأتهم ولو حبواً على الثلج " .

وأخرج ابن ماجة والحاكم وصححه عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقتتل عند كنزكم ثلاثة كلهم ابن خليفة ثم لا يصير إلى واحد منهم ، ثم تطلع الرايات السود

من قبل المشرق فيقاتلونكم قتالاً لم يقاتله قوم ذكر شيئاً لا أحفظه ، قال : فإذا رأيتموه فتابعوه ولو حَبْواً على الثلج فإنه خليفة الله المهدي " .

(201/708)

وأخرج الترمذي ونعيم بن حماد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ينزل بأمتي آخر الزمان بلاء شديد من سلطانهم حتى تضيق عليهم الأرض فيبعث الله رجلاً من عترتي فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض لا تدخر الأرض من بذرها شيئاً إلا أخرجته ولا السماء شيئاً من قطرها إلا صبته ، يعيش فيهم سبع سنين أو ثمان أو تسع " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد رضي الله عنه قال : حدثني رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن المهدي لا يخرج حتى يقتل النفس الزكية فإذا قتلت النفس الزكية غضب عليهم من في السماء ومن في الأرض فأتى الناس المهدي فزفوه كما تزف العروس إلى زوجها ليلة عرسها ، وهو يملأ الأرض قسطاً وعدلاً وتخرج الأرض نباتها وتمطر السماء مطرها وتنعم أمتي في ولايته نعمة لا تنعمها قط .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي الجلد قال : تكون فتنة بعدها فتنة ألا وفي الآخرة كثمرة

السوط يتبعها ذباب السيف ، ثم لا يكون بعد ذلك فتنة تُسْتَحَلُّ فيها المحارم كلها ثم يأتي الخلافة خير أهل الأرض وهو قاعد في بيته ههنا .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عاصم بن عمرو البجلي رضّي الله عنه قال : لَيُنادَيَنَّ باسم رجل من السماء لا ينكره الذليل ولا يمتنع منه الدليل .

(202/708)

وأخرج ابن أبي شيبة من طريق ثابت بن عطية عن عبد الله قال : الزموا هذه الطاعة والجماعة فإنه حبل الله الذي أمر به وإن ما تكرهون في الجماعة خير مما تحبون في الفرقة إن الله لم يخلق شيئاً إلا جعل له منتهى ، وإن هذا الدين قد تم ، وإنه صائر إلى نقصان وإن أمارة ذلك أن تقطع الأرحام ، ويؤخذ المال بغير حقه ، ويسفك الدماء ويشتكي ذو القرابة قرابته لا يعود عليه شيء ، ويطوف السائل لا يوضع في يده شيء ، فبينما هم كذلك إذ خارت الأرض خور البقرة يحسب كل إنسان أنها خارت من قبلهم فبينما الناس كذلك إذ قذفت الأرض بأفلاذ كبدها من الذهب والفضة لا ينفع بعد شيء منه ذهب ولا فضة .

وأخرج أحمد " عن عبد الله بن عمرو قال : دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يتوضأ فرفع رأسه فنظر إليّ فقال : " ست فيكم أيتها الأمة موت نبيكم ، فكأنما انتزع قلبي

من مكانه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : واحدة قال : ويفيض المال فيكم حتى إن الرجل ليعطى عشرة آلاف فيظل يسخطها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنتين قال : وفتنة تدخل بيت كل رجل منكم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث . قال : وموت كقعاص الغنم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أربع ، وهدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر فيجمعون لكم تسعة أشهر بقدر حمل المرأة ثم يكونون أولى بالغدر منكم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خمس ، وفتح مدينة . قلت يا رسول الله : أي مدينة ؟ قال : قسطنطينية " " .

(203/708)

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري وأبو داود وابن ماجة " عن عوف بن مالك الأشجعي قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك وهو في قبة أدم فقال : " أعدد ستّاً بين يدي الساعة : موتي ، ثم فتح بيت المقدس ، ثم موتان يأخذكم كقعاص الغنم ، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً ، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته ، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين راية تحت كل راية اثنا عشر ألفاً زاد أحمد فسطاط المسلمين يومئذ في أرض يقال لها

الغوطة في مدينة يقال لها دمشق " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والطبراني عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ست من أشراط الساعة : موتي ، وفتح بيت المقدس ، وموت يأخذ في الناس كقعاص الغنم ، وفتنة يدخل حرها بيت كل مسلم ، وأن يعطى الرجل ألف دينار فيسخطها ، وأن يغدر الروم فيسيرون بثمانين بنداً تحت كل بند اثنا عشر ألفاً " .

وأخرج أبو داود والحاكم وصححه عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن فسطاط المسلمين يوم الملحمة الكبرى بالغوطة إلى جانب مدينة يقال لها دمشق من خير مدائن دمشق " .

وأخرج الحاكم عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه قال : " إذا رأيت بيدة بيد رجل وأهل بيته فعند ذلك فتح القسطنطينية " .

(204/708)

وأخرج مسلم والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " هل سمعتم بمدينة جانب منها في البر وجانب منها في البحر ؟ فقالوا : نعم يا رسول

الله ، قال : لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفاً من بني إسحق حتى إذا جاؤوها نزلوا فلم يقاتلوا بسلاح ولم يرموا بسهم ، فيقولون لا إله إلا الله والله أكبر ، فيسقط أحد جانبيها ، ثم يقولون الثانية لا إله إلا الله والله أكبر فيسقط جانبها الآخر ، ثم يقولون الثالثة لا إله إلا الله والله أكبر فيفرج لهم فيدخلونها ، فيغنمون فبينما هم يقتسمون الغنائم إذ جاءهم الصريخ أن الدجال قد خرج فيتركون كل شيء ويرجعون " قال الحاكم : يقال إن هذه المدينة هي القسطنطينية صح أن فتحها مع قيام الساعة .

وأخرج أحمد وأبو داود وابن ماجة وأبو يعلى ونعيم بن حماد في الفتن والطبراني والبيهقي في البعث والضياء والمقدسي في المختارة عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " بين الملحمة وفتح القسطنطينية سنين ويخرج الدجال في السابعة " .

وأخرج الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : فتح القسطنطينية مع قيام الساعة .

وأخرج مسلم والحاكم وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

" لا تقوم الساعة حتى تنزل الروم بالأعماق فيخرج إليهم جلب من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ فإذا تصافوا قالت الروم : خلو بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم فيقاتل المسلمون لا والله ، فيقاتلونهم ، فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً ، ويقتل ثلثهم أفضل الشهداء عند الله ويصبح ثلث لا يفتنون أبداً فيبلغون القسطنطينية فيفتتحون ، فبينما هم يقتسمون غنائمهم وقد علقوا سلاحهم بالزيتون إذ صاح الشيطان ؛ أن المسيح قد خلفكم في أهليكم ، وذاك باطل ، فإذا جاؤوا الشام خرج ، فبينما هم يعدون للقتال ويسوون الصفوف إذ أقيمت الصلاة صلاة الصبح ، فينزل عيسى ابن مريم فأمهم فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح ، فلو تركه لذاب حتى يهلك ، ولكن الله يقتله بيده فيريهم دمه في حربته " .

وأخرج ابن ماجة والحاكم عن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا تذهب الدنيا حتى تقاتلوا بني الأصفر يخرج إليهم روقة المؤمنين أهل الحجاز الذين يجاهدون في سبيل الله ولا تأخذهم في الله لومة لائم حتى يفتح الله عليهم قسطنطينية ورومية بالتسبيح والتكبير فينهدم حصنها فيصيبون نيلاً عظيماً لم يصيبوا مثله قط حتى إنهم يقتسمون بالترس ثم يصرخ صارخ بأهل الإِسلام قد خرج الدجال في بلادكم وذراريكم فينفضّ الناس حتى عن المال منهم الآخذ ومنهم التارك

فالآخذ نادم والتارك نادم " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والحاكم وصححه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عمران بيت المقدس خراب يثرب ، وخراب يثرب حضور الملحمة ، وحضور الملحمة فتح القسطنطينية ، وفتح القسطنطينية ، خروج الدجال " ثم ضرب معاذ على منكب عمر بن الخطاب وقال ، والله إن ذلك لحق كما أنك جالس .

(206/708)

وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجة عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الملحمة العظمى وفتح القسطنطينية وخروج الدجال في سبعة أشهر " .

وأخرج أحمد وأبو داود وابن ماجة وابن حبان والحاكم وصححه عن ذي مخمر ابن أخي النجاشي أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ستصالحكم الروم صلحاً آمناً حتى تغزون أنتم وهم عدواً من ورائهم فتنصرون وتغتنمون وتنصرفون تنزلوا بمرج ذي تلال فيقول قائل من الروم : غلب الصليب ويقول قائل من المسلمين : بل الله غلب فيتداولانها

بينهم فيثور المسلم إلى صليبهم وهم منهم غير بعيد فيدقه وتثور الروم إلى كاسر صليبهم فيقتلونه ، ويثور المسلمون إلى أسلحتهم فيقتتلون ، فيكرم الله تلك العصابة من المسلمين بالشهادة فتقول الروم لصاحب الروم كفيناك حد العرب ، فيندرون فيجمعون الملحمة فيأتونكم تحت ثمانين غاية تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً " .

وأخرج أحمد والبخاري والبزار وابن خزيمة والطبراني والحاكم وصححه عن عبد الله بن بشر الغنوي حدثني أبي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لتفتحن القسطنطينية ولنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش " .

وأخرج أحمد والحاكم وصححه عن أبي قبيل قال : تذاكر فتح القسطنطينية والرومية أيهما تفتح أولاً فدعا عبد الله بن عمر بصندوق ففتحه فأخرج منه كتاباً قال : "كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نكتب فقيل : أي المدينتين تفتح أوّلاً يا رسول الله قسطنطينية أو رومية ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مدينة هرقل تفتح أوّلاً " يريد القسطنطينية .

(207/708)

وأخرج الحاكم وصححه " عن عوف بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج عليهم واقناء معلقة وقنو منها حشف ومعه عصا فطعن بالعصا في القنو وقال : لو شاء رب هذه الصدقة تصدق بأطيب منها . إن صاحب هذه الصدقة يأكل الحشف يوم القيامة ، أما والله يا أهل المدينة لتدعنها مذللة أربعين عاماً للعوافي . قلنا : الله ورسوله أعلم قال : أتدرون ما العوافي ؟ قالوا : لا . قال : " الطير والسباع " " .

وأخرج الحاكم وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً " لتتركن المدينة على خير ما كانت تأكلها الطير والسباع " .

وأخرج الحاكم وصححه " عن محجن بن الأدرع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صعد أحداً وصعدت معه فأقبل بوجهه نحو المدينة فقال لها قولاً ، ويل أمك أو ويح أمها قرية يدعها أهلها أينع ما تكون يأكلها عافية الطير والسباع ولا يدخلها الدجال إن شاء الله ، كلما أراد دخولها يلقاه ، بكل نقب من أنقابها ملك مصلت يمنعه عنها " .

وأخرج الحاكم وصححه عن واثلة بن الأسقع سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا تقوم الساعة حتى يكون عشر آيات خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف في جزيرة العرب والدجال ونزول يأجوج ومأجوج والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر تحشر الذر والنمل " .

وأخرج أبو يعلي والروياني وابن قانع والحاكم وصححه عن بريدة قال : قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم : " إن لله ريحاً يبعثها على رأس مائة سنة تقبض روح كل مؤمن " .

وأخرج أحمد والطبراني والحاكم وصححه عن عياش بن أبي ربيعة . سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " تجيء ريح بن يدي الساعة تقبض فيها روح كل مؤمن " .

وأخرج مسلم والحاكم وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" إن الله يبعث ريحاً من اليمن ألين من الحرير فلا تدع أحداً في قلبه مثقال حبة من إيمان إلا قبضته " .

(208/708)

وأخرج مسلم والحاكم وصححه عن عائشة رضي الله عنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى ، ويبعث الله ريحاً طيبة فتتوفى من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من خير ، فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم " .

وأخرج الحاكم وصححه عن عقبة بن عامر رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله ظاهرين على العدوّ لا

يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك " فقال عبد الله بن عمرو : أجل ويبعث الله ريحاً ريحها المسك ومسها مس الحرير ، فلا تترك نفساً في قلبه مثقال حبة من الإيمان إلا قبضته ، ثم يبقى شرار الناس عليهم تقوم الساعة .

وأخرج الحاكم عن ابن عمرو قال : لا تقوم الساعة حتى يبعث الله ريحاً لا تدع أحداً في قلبه مثقال ذرة من تقى أو نهي إلا قبضته ، ويلحق كل قوم بما كان يعبد آباؤهم في الجاهلية ، ويبقى عجاج من الناس لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر ، يتناكحون في الطرق ، فإذا كان ذلك اشتد غضب الله على أهل الأرض فأقام الساعة .

وخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب ، فيقتتل الناس عليه ، فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون ، ويقول كل رجل منهم : لعلي أكون الذي أنجو " .

وأخرج مسلم عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يوشك الفرات أن يحسر عن جبل من ذهب ، فإذا سمع به الناس ساروا إليه ، فيقول من عنده : لئن تركنا الناس يأخذون منه ليذهبن به كله . قال : فيقتتلون عليه فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون " .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : تخرج معادن مختلفة فيها

قريب من الحجاز يأتيه شرار الناس يقال له فرعون فبينما هم يعملون فيه إذ حسر عن الذهب فأعجبهم معتمله إذ خسف به وبهم .

(209/708)

وأخرج أحمد وابن ماجة والحاكم وصححه عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يكون في أمتي خسف وقذف ومسخ " .

وأخرج أحمد والبغوي وابن قانع والطبراني والحاكم وصححه عن عبد الله بن صحار العبدي عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تقوم الساعة حتى يخسف بقبائل من العرب فيقال من بني فلان " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن عمرو قال : ليخسفن بالدار إلى جنب الدار وبالدار إلى جنب الدار حيث تكون المظالم .

وأخرج ابن سعد عن أبي عاصم الغطفاني قال : كان حذيفة رضي الله عنه لا يزال يحدث الحديث يستفظعونه ، فقيل له يوشك أن تحدثنا أنه سيكون فينا مسخ ، قال : نعم ليكونن فيكم مسخ قردة وخنازير .

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي عن فرقد السبخي قال : قرأت في التوراة التي جاء بها

جبريل إلى موسى عليه السلام : ليكونن مسخ وقذف وخسف في أمة محمد في أهل القبلة . قيل يا أبا يعقوب : ما أعمالهم ؟ قال : باتخاذهم القينات وضربهم بالدفوف ولباسهم الحرير والذهب ، ولن تغيب حتى ترى أعمالاً أزلية فاستيقن واستعد واحذر . قيل : ما هي ؟ قال : تكافأ الرجال بالرجال والنساء بالنساء . ورغبت العرب في آنية العجم ، فعند ذلك ثم قال : والله ليقذفن رجال من السماء بالحجارة يشدخون بها في طرقهم وقبائلهم كما فعل بقوم لوط ، وليمسخن آخرون قردة وخنازير كما فعل ببني إسرائيل ، وليخسف بقوم كما خسف بقارون .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن سالم بن أبي الجعد رضي الله عنه قال : ليأتين على الناس زمان يجتمعون فيه على باب رجل منهم ينتظرون أن يخرج إليهم فيطلبون إليه الحاجة ، فيخرج إليهم ، وقد مسخ قرداً أو خنزيراً وليمرنَّ الرجل على الرجل في حانوته يبيع فيرجع عليه وقد مسخ قرداً أو خنزيراً .

(210/708)

وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي الزاهرية رضي الله عنه قال : لا تقوم الساعة حتى يمشي الرجلان إلى الأمر يعملانه فيمسخ أحدهما قرداً أو خنزيراً فلا يمنع الذي نجا منهما ما رأى

بصاحبه أن يمشي إلى شأنه ذلك حتى يقضي شهوته ، وحتى يمشي الرجلان إلى الأمر يعملانه فيخسف بأحدهما ، فلا يمنع الذي نجا منهما ما رأى بصاحبه أن يمضي إلى شأنه ذلك حتى يقضي شهوته منه .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن عبد الرحمن بن غنم قال : يوشك أن تعقد أمتان على رحى فتطحنان فتمسخ إحداهما والأخرى تنظر .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن غنم قال : سيكون خباءان متجاوران فينشق بينهما نهر فيسقيان منه بسهم واحد يقبس بعضهم من بعض ، فيصبحان يوماً من الأيام قد خسف بأحدهما والآخر حيّ .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن مالك بن دينار قال : بلغني أن ريحاً تكون في آخر الزمان وظلمة ، فيفزع الناس إلى علمائهم فيجدونهم قد مسخوا .

وأخرج الترمذي في نوادر الأصول عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يكون في أمتي فزعة فيصير الناس إلى علمائهم فإذا هم قردة وخنازير " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن حذيفة أنه قال : لتعملن عمل بني إسرائيل فلا يكون فيهم شيء إلا كان فيكم مثله .

فقال رجل : يكون منا قدرة وخنازير ؟ قال : وما يبرئك من ذلك لا أم لك ؟

وأخرج ابن أبي شيبة عن حذيفة قال : كيف أنتم إذا أتاكم زمان يخرج أحدهم من حجلته

إلى حشه فيرجع وقد مسخ قرداً ؟

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري وابن مردويه عن أنس أن عبد الله بن سلام قال يا رسول الله : ما أول أشراط الساعة ؟ قال : " نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب " .

وأخرج الدارقطني في الأفراد والطبراني والحاكم وصححه عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تبعث نار على أهل المشرق فتحشرهم إلى المغرب تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا ، يكون لها ما سقط منهم وتخلف تسوقهم سوق الجمل الكسير " .

(211/708)

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وقال : حسن صحيح عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ستخرج نار قبل يوم القيامة من بحر حضرموت تحشر الناس ، قالوا يا رسول الله : فما تأمرنا ؟ قال : عليكم بالشام " .

أما قوله تعالى : ﴿ فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ﴾ .

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ﴾ يقول : إذا جاءت الساعة أنى لهم الذكرى ؟

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ﴾ قال : إذا جاءتهم الساعة فأنى لهم أن يذكروا ويتوبوا ويعملوا ، والله أعلم .

أما قوله تعالى : ﴿ فأعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ .

أخرج الطبراني وابن مردويه والديلمي عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أفضل الذكر لا إلا الله وأفضل الدعاء الاستغفار ، ثم قرأ ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ " .

وأخرج أبو يعلى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار فأكثروا منهما فإن إبليس قال : أهلكت الناس بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك اهلكتهم بالأهواء وهم يحسبون أنهم مهتدون " .

وأخرج أحمد والنسائي والطبراني والحاكم والترمذي في نوادر الأصول وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يموت عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله يرجع ذلك إلى قلب موقن إلا دخل الجنة " وفي لفظ : " إلا غفر الله له " .

وأخرج أحمد والبزار وابن مردويه والبيهقي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " مفتاح الجنة شهادة أن لا إله إلا الله " .

وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليس شيء إلا بينه وبين الله حجاب إلا قول لا إله إلا الله ودعاء الوالد " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما قال عبد لا إله إلا الله مخلصاً إلا فتحت له أبواب السماء حتى تفضي إلى العرش " .

وأخرج أحمد عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل : " اعلم أنه من مات يشهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة " وأخرج أحمد والبخاري ومسلم وابن ماجة والبيهقي في الأسماء والصفات عن عتبان بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لن يوافي عبد يوم القيامة يقول لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله إلا حرم على النار " .

وأخرج أحمد عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من شهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فلن تطعمه النار " .

وأخرج أحمد والطبراني " عن سهيل بن البيضاء رضي الله عنه قال : بينما نحن في سفر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا رديفه ، فقال : " يا سهيل بن بيضاء ورفع صوته ،

فاجتمع الناس ، فقال : إنه من شهد أن لا إله إلا الله حرمه الله على النار وأوجب له الجنة " .

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن يحيى بن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه قال : رؤي طلحة حزيناً فقيل له : ما لك ؟ قال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند موته إلا نفَّسَ الله عنه كربته وأشرق لونه ورأى ما يسره " وما منعني أن أسأله عنها إلا القدرة عليه حتى مات فقال عمر : إني لأعلمها فقال : فما هي ؟ قال : لا نعلم كلمة هي أعظم من كلمة أمر بها عمه . لا إله إلا الله قال : فهي والله هي .

(213/708)

وأخرج أحمد ومسلم والنسائي وابن حبان والبيهقي عن عثمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة " .

وأخرج البيهقي عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا أبا ذر بشّر الناس أنه من قال لا إله إلا الله دخل الجنة " .

وأخرج أحمد وأبو داود والطبراني والحاكم ومسلم والترمذي والنسائي وابن خزيمة وابن

حبان والبيهقي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرم الله عليه النار " .

وأخرج البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قال لا إله إلا الله أنجته يوماً من الدهر أصابه قبلها ما أصابه " .

وأخرج البيهقي عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قال لا إله إلا الله طلست ما في صحيفته من السيئات حتى يعود إلى مثلها " .

وأخرج البيهقي عن حذيفة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من ختم له بشهادة أن لا إله إلا الله صادقاً دخل الجنة ، ومن ختم له بصوم يوم يبتغي به وجه الله دخل الجنة ، ومن ختم له عند الموت بإطعام مسكين يبتغي به وجه الله دخل الجنة " .

قوله تعالى : ﴿ واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ الآية .

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والترمذي وصححه وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله ﴿ واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة " .

وأخرج أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه " عن عبد الله بن سرجس رضي الله عنه قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فأكلت معه من طعام فقلت : غفر الله لك يا رسول الله . قال : ولك . فقيل : أستغفر لك يا رسول الله ؟ قال : نعم ولكم ، وقرأ ﴿ واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ " .

وأخرج ابن أبي شيبة والحاكم وصححه وابن مردويه " عن عبيد بن المغيرة رضي الله عنه قال : سمعت حذيفة رضي الله عنه تلا قوله تعالى ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك ﴾ قال : كنت ذرب اللسان على أهلي ، فقلت يا رسول الله : إني أخشى أن يُدخلني لساني النار . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " فأين أنت عن الإِستغفار أني لأستغفر الله في كل يوم مائة مرة " " .

وأخرج ابن أبي شيبة والنسائي وابن ماجة وابن مردويه والطبراني عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أصبحت غداة قط إلا استغفرت الله فيها مائة مرة " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والطبراني وابن مردويه عن رجل من المهاجرين يقال له الأغر قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " يا أيها الناس استغفروا الله وتوبوا إليه فإني استغفر الله وأتوب إليه في كل يوم مائة مرة " .

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم وأبو داود والنسائي وابن حبان وابن مردويه عن الأغر المزني رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" إنه ليغان على قلبي وأني لأستغفر الله كل يوم مائة مرة " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : " إنا كنا لنعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس يقول : " رب اغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم مائة مرة " وفي لفظ " التواب والغفور " .

(215/708)

وأخرج ابن أبي شيبة والترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة " .

أما قوله تعالى : ﴿ والله يعلم متقلبكم ومثواكم ﴾ .

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ والله يعلم متقلبكم ﴾ في الدنيا ﴿ ومثواكم ﴾ في الآخرة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه ﴿ والله يعلم متقلبكم ومثواكم ﴾ قال :

متقلب كل دابة بالليل والنهار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المنثور حـ 7 صـ 463 .

496 ﴾

(216/708)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تبارك وتعالى : ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾

أي : جحدوا بتوحيد الله تعالى ، وبالقرآن ﴿ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله ﴾ أي : صرفوا الناس عن طاعة الله ، وهو الجهاد ﴿ أَضَلَّ أعمالهم ﴾ يعني : أَبْطَلَ الله حسناتهم التي عملوا في الدنيا ، لأنهم عملوا بغير إيمان ، وكل عمل يكون بغير إيمان ، فهو باطل كما قال ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الآخرة مِنَ الخاسرين ﴾ [آل عمران : 85] الآية .

قال الكلبي : نزلت في مطعمي بدر ، وهم رؤساء مكة ، الذين كانوا يطعمون الناس في حال خروجهم إلى بدر ، منهم أبو جهل والحارث ابنا هشام ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبي وأمية ابنا خلف ، ومنبه ونبيه ابنا الحجاج ، وغيرهم .

ويقال : هذا في عامة الكفار .

وهذا كقوله : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ الله عِندَهُ فوفاه حِسَابَهُ والله سَرِيعُ الحساب ﴾ [النور : 39] الآية .

وروى مجاهد عن ابن عباس قال : ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ هم أهل مكة ﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ قال هم الأنصار ، الذين آمنوا ، يعني : صدقوا بالله تعالى ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، وبالقرآن وعملوا الصالحات ، يعني : أدوا الفرائض والسنن ، وهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن كان في مثل حالهم ﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَءامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ على مُحَمَّدٍ ﴾ يعني : صدقوا بما أنزل جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو الحق وليس فيه باطل ، ولا تناقض ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سيئاتهم ﴾ يعني : محا عنهم ذنوبهم التي عملوا في الشرك ، بإيمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وطاعتهم لله تعالى ، فيما يأمرهم به من الجهاد ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ يعني : حالهم .

وهذا قول قتادة .

وقال مقاتل : يعني : بين أمورهم في الإسلام ، وعملهم وحالهم ، حتى يدخلوا الجنة .

وروى مجاهد ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ يعني : شأنهم وقال القتبي ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سيئاتهم ﴾ أي : سترها ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ أي : حالهم .

ويقال : أصلح بالهم يعني : أظهر الله تعالى أمرهم في الإسلام ، حتى يقتدى بهم .

ثم بين المعنى الذي أحبط أعمال الكافرين ، وأصلح شأن المؤمنين فقال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ يعني : ذلك الإبطال ، بأن الذين كفروا ﴿ اتبعوا الباطل ﴾ يعني : اختاروا الشكر وثبتوا عليه ، ولم يرغبوا في الإسلام .

ويقال : معناه لأنهم اختاروا الباطل على الحق ، واتباع الهوى ، على اتباع رضى الله سبحانه وتعالى ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الذين ﴾ وهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ اتبعوا الحق مِن رَّبِّهِمْ ﴾ يعني : اتبعوا القرآن ، وعملوا به .

ويقال : معناه اختاروا الإيمان على الكفر ، واتباع القرآن ، واتباع رضى الله تعالى على اتباع الهوى .

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهِ لِلنَّاسِ أمثالهم ﴾ يعني : هكذا يبين الله صفة أعمالهم .

ثم حرض المؤمنين على القتال فقال :

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الذين كَفَرُواْ فَضَرْبَ الرقاب ﴾ يعني : اضربوا الرقاب ، صار نصباً بالأمر ، ومعناه اضربوا الأعناق ضرباً .

وروى وكيع ، عن المسعودي ، عن القاسم بن عبد الرحمن ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنَّه قَالَ : " إِنِّي لَمْ أُبْعَثُ لأُعَذِّبَ بِعَذَابِ اللهِ ، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ بِضَرْبِ الرِّقَابِ ، وَشَدِّ الوَثَاقِ "

﴿ حتى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ الوثاق ﴾ يعني : حتى إذا قهرتموهم وأسرتموهم ، فشدوا الوثاق يعني : فاستوثقوا أيديهم من خلفهم .

ويقال الإثخان : أن يعطوا أيديهم ، ويستسلموا وقال الزجاج ﴿ حتى أَثْخَنتُمُوهُمْ ﴾ يعني : أكثرتم فيهم القتل والأسر بعد المبالغة في القتل .

(218/708)

وقال مقاتل : حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهم بالسيف ، فظفرتم عليهم ﴿ فَشُدُّواْ الوثاق ﴾ يعني : الأسر .

﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ ﴾ يعني : عتقاً بعد الأسر ، بغير فداء ﴿ وَإِمَّا فِدَاء ﴾ يعني : يفادي نفسه بماله .

وروي عن إبراهيم النخعي ، أنه قال : الإمام بالخيار في الأسرى ، إن شاء فادى ، وإن شاء قتل وإن شاء استرق .

وروي عن أبي بكر الصديق ، رضي الله عنه ، أنه قال : لا أفادي ، وإن طلبوا بمدين من

ذهب ، وذكر عن أبي بكر ، أنه كتب إليه في أسير ، التمسوا منه الفداء .

فقال : اقتلوه ، لأَنْ أقتل رجلاً من المشركين أحب إليَّ من كذا وكذا .

قال أبو الليث : وقد كره بعض الناس قتل الأسير ، واحتج بظاهر هذه الآية ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء ﴾ وقال أَصْحَابُنَا : لا بأس بقتله ، بالخبر الذي روي عن أبي بكر رضي الله عنهم .

وروي عن ابن جريج ، وغيره من أهل التفسير ، أن هذه الآية منسوخة بقوله : ﴿ فَإِذَا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ واحصروهم واقعدوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصلاة وَءاتَوُاْ الزكواة فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : 5] ، وقد قتل النبي صلى الله عليه وسلم ابن خطل يوم فتح مكة ، بعد ما وقع في منعة المسلمين ، فهو كالأسير ، وأما الفداء : فإن فادوا بأسير من المسلمين ، فلا بأس به .

كما قال إبراهيم النخعي : إن شاء فادى بالأسير ، وإن أراد أن يفتدى بمال ، لا يجوز إلا عند الضرورة ، لأن في رد الأسير إلى دار الحرب ، قوة لهم في الحرب .

فكره ذلك ، كما يكره أن يحمل إليهم السلاح .

للبيع .

ثم قال : ﴿ حتى تَضَعَ الحرب ﴾ روي عن ابن عباس ، أنه قال : حتى تترك الكفار إشراكها ، ويوحدوا الرب تبارك وتعالى ، حتى لا يبقى إلا مسلم يعني : في ذمة المسلمين ، الذين يعطون الجزية ، وعن سعيد بن جبير قال : ﴿ فِدَاء حتى تَضَعَ الحرب أَوْزَارَهَا ﴾ قال خروج عيسى عليه السلام ، يكسر الصليب ، فيلقى الذئب الغنم ، فلا يأخذها ، ولا تكون عداوة بين اثنين ، وهكذا قال مجاهد ، وقال مقاتل ﴿ حتى تَضَعَ الحرب أَوْزَارَهَا ﴾ يعني : في مكان يقاتل سَمَّاهُم حرباً .

وقال القتبي : حتى تضع الحرب ، يعني : حتى يضع أهل الحرب السلاح .

ثم قال عز وجل : ﴿ ذلك ﴾ يعني : افعلوا ذلك ، ثم استأنف فقال ﴿ وَلَوْ يَشَاء اللَّهُ لأَنتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ بغير قتال ، يعني : يهلكهم ﴿ ولكن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ يعني : لم يهلكهم ، لكي يختبرهم بالقتال ، حتى يتبين فضلهم ، ويستوجبوا الثواب .

ثم قال : ﴿ والذين قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ الله ﴾ يعني : جاهدوا عدوهم في طاعة الله تعالى .

﴿ فَلَن يُضِلَّ أعمالهم ﴾ يعني : لن يبطل ثواب أعمالهم .

قرأ أبو عمرو (قُتِلُوا) بضم القاف بغير ألف ، وهكذا روي عن عاصم في إحدى الروايتين ، يعني : الذين قتلوا يوم أحد ، ويوم بدر وفي سائر الحروب .

وقرأ الباقون ﴿ والذين قَاتَلُواْ فِى سَبِيلِ الله ﴾ بالنصب ، يعني : جاهدوا الكفار

وحاربوهم.

ثم قال ﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ يعني: يجنبهم من أهوال الآخرة.

ويقال: سيهديهم، يعني: يثبتهم على الهدى ﴿ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ وقد ذكرناه ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الجنة ﴾ في الآخرة ﴿ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ يعني: هداهم الله تعالى إلى منازلهم.

(220/708)

وروى أبو المتوكل الناجي، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إِذَا أُذِنَ لأَهْلِ الجَنَّةِ فِي دُخُولِهَا لأَحَدهم أَهْدَى أي: أعرف بِمَنْزِلِهِ فِي الجَنَّةِ، من منزله الَّذِي كَانَ فِي الدُّنْيَا" وعن ابن مسعود، أنه قال: ما أشبههم إلاَّ أهل الجمعة، حين انصرفوا من جمعتهم.

يعني: إن كل واحد منهم، يهتدي إلى منزله.

وقال الزجاج في قوله: ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ أي: يصلح لهم أمر معايشهم في الدنيا، مع ما يجازيهم في الآخرة.

وهذا كما قال تعالى: ﴿ فَقُلْتُ استغفروا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السمآء عَلَيْكُمْ مُدْرَاراً ﴾ [نوح: 10، 11] الآية.

ويقال : ﴿ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ أي طيبها لهم .

يقال : طعام معرف أي : مطيب .

ثم حث المؤمنين على الجهاد .

فقال ﴿ لَهُمْ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ إِن تَنصُرُواْ اللهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ يعني : إن تنصروا دين الله بقتال الكفار ، ﴿ يَنصُرْكُمْ ﴾ بالغلبة على أعدائكم ﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ فلا تزول في الحرب .

ثم قال تعالى : ﴿ والذين كَفَرُواْ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ يعني : بعداً ، ونكساً ، وخيبة لهم .

وهو من قولك : تعست أي : عثرت ، وسقطت ، ﴿ وَأَضَلَّ أعمالهم ﴾ يعني : أبطل ثواب حسناتهم ، فلم يقبلها منهم .

ثم بيّن المعنى الذي أبطل به حسناتهم ، فقال : ﴿ ذلك ﴾ يعني : ذلك الإبطال ﴿ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَا أَنزَلَ الله ﴾ يعني : أنكروا ، وكرهوا الإيمان بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ فَأَحْبَطَ أعمالهم ﴾ يعني : ثواب أعمالهم .

ثم خوّفهم ليعتبروا فقال عز وجل : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأرض ﴾ يعني : أفلم يسافروا في الأرض ﴿ فَيَنظُرُواْ ﴾ يعني : فيعتبروا ﴿ كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني : كيف كان آخر أمرهم .

﴿ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ ﴾ يعني : أهلكهم الله تعالى بالعذاب ﴿ وللكافرين أمثالها ﴾ يعني : للكافرين من هذه الأمة أمثالها من العذاب ، وهذا وعيد لكفار قريش .

ثم قال : ﴿ ذلك ﴾ يعني : النصرة التي ذكر في قوله : ﴿ يا أيها الذين ءامنوا إِن تَنصُرُواْ اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : 7] ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الذين ﴾ يعني : إن الله تبارك وتعالى ناصر أولياءه بالغلبة على أعدائهم ، ﴿ وَأَنَّ الكافرين لاَ مولى لَهُمْ ﴾ يعني : لا ناصر ، ولا ولي لهم ، لا تنصرهم آلهتهم ، ولا تمنعهم مما نزل بهم من العذاب .

ثم ذكر مستقر المؤمنين ، ومستقر الكافرين ، فقال : ﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ وقد ذكرناه ، ﴿ والذين كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ ﴾ يعني : يعيشون بما أعطوا في الدنيا ، ﴿ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأنعام ﴾ ليس لهم هَمٌّ إِلاَّ الأكل ، والشرب ، والجماع ، ﴿ والنار مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ أي : منزلاً ، ومستقراً لهم .

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ﴾ يعني : وكم من قرية فيما مضى .

يعني : أهل قرية ﴿ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً ﴾ يعني : أشد منعة ، وأكثر عدداً ، وأكثر أموالاً ، ﴿ مِّن قَرْيَتِكَ التى أَخْرَجَتْكَ ﴾ يعني : أهل مكة الذين أخرجوك من مكة إلى المدينة ، ﴿

أهلكناهم ﴾ يعني : عذبناهم عند التكذيب ﴿ فَلاَ ناصر لَهُمْ ﴾ يعني : لم يكن لهم مانع مما نزل بهم من العذاب ، وهذا تخويف لأهل مكة .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ على بَيّنَةٍ مّن رَّبِهِ كَمَن زُيّنَ لَهُ سُوء عَمَلِهِ ﴾ قال مقاتل والكلبي : يعني : محمداً صلى الله عليه وسلم وأبا جهل بن هشام يعني : لا يكون حال من كان على بيان من الله تعالى ، كمن حسن له قبح عمله .

﴿ واتبعوا أَهْوَاءهُمْ ﴾ بعبادة الأوثان .

ويقال : هذا في جميع المسلمين ، وجميع الكافرين .

(222/708)

لا يكون حال الكفار ، مثل حال المؤمنين في الثواب .

قوله تعالى : ﴿ مَّثَلُ الجنة ﴾ يعني : صفة الجنة ﴿ التى وُعِدَ المتقون ﴾ الذين يتقون الشرك ، والفواحش ، ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مّن مَّاء غَيْرِ ءاسِنٍ ﴾ قرأ ابن كثير : ﴿ مّن مَّاء غَيْرِ ءاسِنٍ ﴾ بغير مد .

والباقون : بالمد ، ومعناهما واحد .

يعني : ماء غير منتن ، ولا متغير الطعم والريح .

﴿ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ إلى الحموضة كما يتغير لبن أهل الدنيا من الحالة الأولى .

﴿ وأنهار مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ للشاربين ﴾ يعني : لذيذة .

ويقال : ﴿ لاَّ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنزِفُونَ ﴾ [الواقعة : 19] .

﴿ وأنهار مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ ليس فيها العكر ، ولا الكدرة ، ولا الدردي ، كعسل أهل الدنيا .

قال مقاتل : هذه الأنهار الأربعة تتفجر من الكوثر ، إلى أهل الجنة .

ويقال : من تحت شجرة طوبى إلى أهل الجنة .

﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثمرات ﴾ يعني : من ألوان الثمرات ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ لذنوبهم في الآخرة .

ويقال : في الدنيا .

﴿ كَمَنْ هُوَ خالد فِى النار ﴾ يعني : هل يكون حال من هو في هذه النعم ، كمن هو في النار أبداً .

﴿ وَسُقُواْ مَاء حَمِيماً ﴾ أي : حاراً قد انتهى حره ﴿ فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ ﴾ من شدة الحر ، فذابت أمعاؤهم ، كقوله تعالى : ﴿ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِى بُطُونِهِمْ والجلود ﴾ [الحج : 20] .

ثم قال : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ يعني : من المنافقين من يستمع إليك ﴿ حتى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ العلم مَاذَا قَالَ ءانِفاً ﴾ وذلك أن النبي صلى الله عليه

وسلم خطب الناس يوم الجمعة ، وعاب في خطبته المنافقين ، فلما خرجوا من عنده ، قال بعض المنافقين لعبد الله بن مسعود ، وهو الذي أوتي العلم .

ماذا قال آنفاً ؟ يعني : الساعة ، على جهة الاستهزاء .

(223/708)

قال الله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الذين طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ ﴾ مجازاة لهم ﴿ واتبعوا أَهْوَاءهُمْ ﴾ يعني : عملوا بهوى أنفسهم .

ثم ذكر المؤمنين ، المصدقين ، فقال : ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ يعني : آمنوا بالله تعالى ، وأحسنوا الاستماع إلى ما قال النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ زَادَهُمْ هُدًى ﴾ يعني : زادهم الله بصيرة في دينهم ، وتصديقاً لنبيهم .

ويقال : زادهم بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هدى .

ويقال : زادهم قول المنافقين واستهزاؤهم .

﴿ هُدًى ﴾ يعني : تصديقاً ، وثباتاً على الإسلام ، وشكر الله تعالى .

﴿ والذين اهتدوا ﴾ حين بيّن لهم التقوى .

ويقال : ألهمهم قبول الناسخ ، وترك المنسوخ .

قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ الساعة ﴾ أي : ما ينتظر قومك إلا قيام الساعة .

يعني : فما ينتظر قومك إن لم يؤمنوا إلا الساعة ﴿ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ يعني : فجأة ﴿ فَقَدْ جَاء أَشْرَاطُهَا ﴾ يعني : علاماتها ، وهو انشقاق القمر ، والدخان ، وخروج النبي صلى الله عليه وسلم .

وروى مكحول عن حذيفة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : متى الساعة ؟ فقال : " مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ وَلَكِنْ لَهَا أَشْرَاطٌ : تَقَارُبُ الأَسْوَاقِ يعني : كَسَادَهَا وَمَطَرٌ وَلاَ نَبَاتَ يعني : مطر في غَيْرِ حِينِهِ ، وَتَفْشُو الْفِتْنَةُ ، وَتَظْهَرُ أَوْلادُ البَغْيَةِ ، وَيَعْظُمُ رَبُّ المَالِ ، وَتَعْلُو أَصْوَاتُ الفَسَقَةِ فِي الْمَسَاجِدِ ، وَيَظْهَرُ أَهْلُ الْمُنْكَرِ عَلَى أَهْلِ الْحَقِّ " .

ثم قال : ﴿ فأنى لَهُمْ إِذَا جَاءتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ يعني : من أين لهم التوبة ، إذا جاءتهم الساعة .

وقال قتادة : فأنى لهم أن يتذكروا أو يتذاكروا إذا جاءتهم الساعة .

وقال مقاتل : فيه تقديم .

يعني : أنى لهم التذكرة ، والتوبة عند الساعة إذا جاءتهم ، وقد فرطوا فيها .

قوله عز وجل : ﴿ فاعلم أَنَّهُ لاَ إله إِلا الله ﴾ قال الزجاج : هذه الفاء جواب الجزاء .

ومعناه قد بينا ما يدل على توحيد الله ، فاعلم أنه لا إله إلا الله ، والنبي صلى الله عليه وسلم قد علم أن الله تعالى واحد .

إنما خاطبه والمراد به أمته .

وقال : هذا الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة .

ومعناه .

فاثبت على إظهار قول لا إله إلا الله .

يعني : ادع الناس إلى ذلك .

ويقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لَيْتَنِي أَعْلَمُ أَيُّ الكَلامِ أَفْضَلُ وَأَيُّ الدُّعَاءِ أَفْضَلُ .

فَأَعْلَمَهُ الله تَعَالَى ، أَنَّ أَفْضَلَ الكَلاَمِ التَّوْحِيدُ ، وَأَفْضَلَ الدُّعَاءِ الاسْتِغْفارُ " .

ثم قال : ﴿ واستغفر لذنبك وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات ﴾ روى الزهري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ الله ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ ، فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً أَوْ أَكْثَرَ " .

وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إِنِّي أَسْتَغْفِرُ الله تَعَالَى ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ ، فِي كُلِّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ " .

وروى عبد الرزاق ، عن معمر ، عن ابن جريج قال : قيل لعطاء : استغفر للمؤمنين في المكتوبة ؟ قال : نعم .

قلت : فمن ابتدىء ؟ قال : فبنفسك ، كما قال الله تعالى : ﴿ واستغفر لذَنبكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات ﴾ .

﴿ واللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ يعني : منتشركم بالنهار ، ومأواكم بالليل .

ويقال : ذهابكم ، ومجيئكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 281.287 ﴾

(225/708)

وقال الثعلبى :

﴿ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾

أي أبطلها فلم يقبلها ، وقال الضحّاك : أبطل كيدهم ومكرهم بالنبي صلى الله عليه وسلم وجعل الدبرة عليهم .

﴿ والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَآمَنُواْ بِمَا نُزِّلَ على مُحَمَّدٍ وَهُوَ الحق مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ حالهم ، وجمعُهُ بالات . قال سفيان الثوري : ﴿ وَآمَنُواْ بِمَا نُزِّلَ على مُحَمَّدٍ ﴾ لم يخالفوه في شيء . قال ابن عبّاس : ﴿ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ ﴾ أهل

مكّة . ﴿ والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ الأنصار .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الذين كَفَرُواْ اتبعوا الباطل ﴾ يعني الشياطين . ﴿ وَأَنَّ الذين آمَنُواْ اتبعوا الحق مِن رَّبِّهِمْ ﴾ يعني القرآن . ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ الله لِلنَّاسِ ﴾ يبيّن الله للنّاس . ﴿ أَمْثَالَهُمْ ﴾ أشكالهم .

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الذين كَفَرُواْ ﴾ من أهل الحرب . ﴿ فَضَرْبَ ﴾ نصب على الإغراء ﴿ الرقاب ﴾ الأعناق ، واحدتها رقبة . ﴿ حتى إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ ﴾ أي غلبتموهم ، وقهرتموهم ، وصاروا أسرى في أيديكم . ﴿ فَشُدُّواْ الوثاق ﴾ كي لا يفلتوا منكم ، فيهربوا . ﴿ فَإِمَّا مَنًّا ﴾ عليهم ﴿ بَعْدُ ﴾ الأسر ، بإطلاقكم إيّاهم من غير عوض ، ولا فدية .

﴿ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ (و) نصبا بإضمار الفعل ، مجازه : فإمّا أن تمنّوا عليهم منّاً ، وإمّا أن تفادوهم ، واختلف العلماء في حكم هذه الآية ، فقال قوم : هي منسوخة بقوله : ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الحرب فَشَرِّدْ بِهِم ﴾ [الأنفال : 57] . . . الآية . وقوله : ﴿ فاقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة : 5] ، وإلى هذا القول ذهب قتادة ، والضحاك ، والسدي ، وابن جريج ، وهي رواية العوفي ، عن ابن عبّاس .

أخبرنا عقيل بن محمّد أنّ أبا الفرج البغدادي أخبرهم ، عن محمّد بن جرير ، حدّثنا ابن عبد الأعلى ، حدّثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن عبد الكريم الجزري ، قال : كُتب إلى أبي بكر رضي الله عنه في أسير أُسر ، فذكر أنّهم التمسوه بفداء كذا ، وكذا ، فقال أبو بكر : اقتلوه ، لَقتل رجل من المشركين أحبّ إليَّ من كذا ، وكذا .

وقال آخرون : هي مُحكمة والإمام مخيّر بين القتل ، والمنّ ، والفداء . وإليه ذهب ابن عمر ، والحسن ، وعطاء ، وهو الاختيار ؛ لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين كلّ ذلك فعلوا ، فقتل رسول الله عقبة بن أبي معيط ، والنضر بن الحارث ، يوم بدر صبراً فادى سائر أسارى بدر . وقيل : بني قريظة ، وقد نزلوا على حكم سعد ، وصاروا في يده سلماً ومنّ على أمامة بن أثال الحنفي وهو أسير في يده .

أخبرنا عقيل أنّ أبا الفرج القاضي البغدادي أخبرهم ، عن محمّد بن جرير ، حدّثنا ابن عبد الأعلى ، حدّثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن رجل من أهل الشام ممّن كان يحرس عمر بن عبد العزيز ، قال : ما رأيت عمر قتل أسيراً إلاّ واحداً من الترك ، كان جيء بأسارى من الترك ، فأمر بهم أن يسترقوا ، فقال رجل ممّن جاء بهم : يا أمير المؤمنين لو كنت رأيت هذا لأحدهم وهو يقتل المسلمين ، لكثر بكاؤك عليهم فقال عمر : قد فدك ، فاقتله ، فقام إليه فقتله .

﴿ حتى تَضَعَ الحرب أَوْزَارَهَا ﴾ [محمد : 4] أثقالها وأحمالها فلا تكون حرب ، وقيل : حتّى تضع الحرب آثامها ، وأجرامها ، فيرتفع ، وينقطع ، لأنّ الحرب لا تخلو من الإثم في أحد الجانبين والفريقين . وقيل : معناه حتّى يضع أهل الحرب آلتها وعدّتها أو آلتهم وأسلحتهم فيمسكوا عن الحرب .

والحرب القوم المحاربون كالشرب والركب ، وقيل حتّى يضع الأعداء المتحاربون أوزارها وآثامها بأن يتوبوا من كفرهم ويؤمنوا بالله ورسوله . ويقال للكراع : أوزار ، قال الأعشى :

(227/708)

وأعددت للحرب أوزارها . . . رماحاً طوالاً وخيلاً ذكورا

ومعنى الآية أثخنوا المشركين بالقتل ، والأسر حتّى يظهر الإسلام على الأديان كلّها ، ويدخل فيه أهل كلّ ملّة طوعاً أو كرهاً ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله ﴾ [الأنفال : 39] فلا نحتاج إلى قتال وجهاد ، وذلك عند نزول عيسى (عليه السلام) .

وقال الحسن : معناه حتّى لا يُعبد إلاّ الله . الكلبي : حتّى يسلموا أو يسالموا . ﴿ ذَلِكَ ﴾ الذي ذكرت وبيّنت من حكم الكفّار ﴿ وَلَوْ يَشَآءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ فأهلكهم وكفاكم أمرهم بغير قتال .

﴿ ولكن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ من حكم الكفّار ونعلم المجاهدين منكم والصابرين ﴿ والذين قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ الله ﴾ قرأ الحسن بضم (القاف) وكسر (التاء) مشدّداً من غير (ألف) ، وقرأ أبو عمرو ويعقوب وحفص بضمّ (القاف) وكسر (التاء) مخفّفاً من غير (ألف) ، واختاره أبو حاتم يعني الشهداء ، وقرأ عاصم الجحدري (قُتِلُوا) بفتح (القاف) و (التاء) من غير (ألف) ، يعني والذين قتلوا المشركين .

وقرأ الباقون (قاتلوا) (بالألف) من المقاتلة ، وهم المجاهدون ، واختاره أبو عبيد . ﴿ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ قال قتادة : " ذُكر لنا إنّ هذه الآية أُنزلت يوم أُحُد ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعب وقد فشت فيهم الجراحات والقتل ، وقد نادى المشركون : أعلُ هُبل ، فنادى المسلمون : الله أعلى وأجلّ . فنادى المشركون : يوم بيوم والحرب سجال ، لنا عزّى ولا عزّى لكم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم ، إنّ القتال مختلفة ، أمّا قتلانا فأحياء عند ربّهم يرزقون ، وأمّا قتلاكم ففي النّار يُعذّبون " " .

﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ في الدُّنيا إلى الطاعة وفي العقبى إلى الدرجات .

﴿ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ يرضي خصماءهم ، ويقبل أعمالهم ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الجنة عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ أي بيّن لهم منازلهم فيها حتّى يهتدوا إلى مساكنهم ، ودرجاتهم التي قسم الله لهم ، لا يخطئون ، ولا يستدلّون عليها أَحد ، كأَنّهم سكّانها منذ خُلقوا ، وإنّ الرجل ليأتي منزله منها إذ دخلها كما كان يأتي منزله في الدُّنيا ، لا يشكل ذلك عليه . وإنّه أهدى إلى درجته وزوجته وخدمه ونعمه منه إلى أهله ومنزله في الدُّنيا . هذا قول أكثر المفسِّرين ، وقال المؤرّخ : يعني طيبها ، والعرف : الريح الطيّبة ، تقول العرب : عرّفت المرقة إذا طيّبتها بالملح والأبازير ، قال الشاعر :

وتدخل أيد في حناجر أقنعت . . . لعادتها من الحزير المعرّف

﴿ يا أيها الذين آمنوا إِن تَنصُرُواْ الله ﴾ أي رسوله ودينه .

﴿ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ على الإسلام ، وفي القتال ﴿ والذين كَفَرُواْ فَتَعْساً لَّهُمْ ﴾ قال ابن عبّاس : بُعداً لهم ، وقال أبو العالية : سقوطاً ، وقال الضحّاك : خيبة ، وقال ابن زيد : شقاً ، وقال ابن جرير : حزناً ، وقال الفراء : هو نصب على المصدر على سبيل الدعاء ، وأصل التعس في النّاس الدواب ، وهو أن يقال للعاثر : تعساً ، إذا لم يريدوا قيامه ، ويقال : أتعسه الله ، فتعس وهو متعس ، وضدّه لعاء إذا أرادوا قيامه ، وقد جمعها الأعمش في بيت واحد يصف ناقته :

بذات لوث غفرناه إذا عثرت . . . فالتعس أدنى لها من أن أقول لعا

﴿ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ لأنّها كانت في طاعة الشيطان خالية عن الإيمان . ﴿ ذَلِكَ ﴾ الإضلال ، والإبعاد . ﴿ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ * أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي أهلكهم ودمّر عليهم منازلهم ، ثمّ توعّد مشركي قريش . ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ إن لم يؤمنوا ﴿ ذَلِكَ ﴾ الذي ذكرت ، وفعلت ﴿ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الذين آمَنُواْ ﴾ وليّهم ، وناصرهم ، وحافظهم ، وفي حرف ابن مسعود ذلك بأنّ الله ولي الّذين آمنوا .

﴿ وَأَنَّ الكافرين لاَ مولى لَهُمْ * إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار والذين كَفَرُواْ ﴾ محلّه رفع على الابتداء ﴿ يَتَمَتَّعُونَ ﴾ في الدُّنيا ﴿ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأنعام ﴾ ليس لهم همّة إلاّ بطونهم ، وفروجهم ، وهم لاهون ساهون عمّا في غدهم ، وقيل : المؤمن في الدُّنيا يتزوّد ، والمنافق يتزيّن ، والكافر يتمتّع .

﴿ والنار مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ التي أَخْرَجَتْكَ ﴾ أي أخرجك أهلها يدلّ عليه ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ ولم يقل : أهلكناها ﴿ فَلاَ نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ عن ابن عبّاس : " لما خرج

رسول الله عليه السلام من مكّة إلى الغار ، التفت إلى مكّة ، وقال : " أنت أحبّ بلاد الله إلى الله ، وأحبّ بلاد الله إليّ ، ولو أنّ المشركين لم يخرجوني لم أخرج منك " فأنزل الله تعالى هذه الآية .

﴿ أَفَمَن كَانَ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ وهو محمّد صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ﴿ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سواء عَمَلِهِ واتبعوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ وهم أبو جهل والمشركون .

(230/708)

﴿ مَّثَلُ ﴾ شبه وصفة ﴿ الجنة التي ﴾ وقرأ علي بن أبي طالب أمثال الجنّة التي ﴿ وُعِدَ المتقون فِيهَآ أَنْهَارٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ آجن متغيّر منتن ، يقال : آسن الماء يأسن ، وآجن يأجن ، وأسن يأسن ويأُسن ، وأجن يأجن ، ويأُجن ، أُسونا ، وأُجوناً ، إذا تغيّر ، ويقال : أسِنَ الرجل : بكسر السين لا غير ، إذا أصابته ريح منتنة ، فغشى عليه قال زهير :

يغادر القرنُ مصفراً أنامله . . . يميد في الرمح ميل المائح الأسن

وقرأ العامّة آسن بالمد ، وقرأ ابن كثير بالقصر وهما لغتان .

﴿ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴾ لم تدنسها الأيدي ، ولم تدنسها الأرجل ، ونظير لذّ ولذيذ ، طب وطبيب . ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ قال

كعب الأحبار : نهر دجلة نهر ماء الجنّة ، ونهر الفرات نهر لبنهم ، ونهر مصر نهر خمرهم ، ونهر سيحان نهر عسلهم ، وهذه الأنهار الأربعة تخرج من نهر الكوثر .

﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثمرات وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النار ﴾ يعني المتّقين الّذين هم أهل الجنّة ، كمن هو خالد في النّار ، فاستغنى بدلالة للكلام عليه ، وقال ابن كيسان : مَثَلُ الجنّة التي فيها هذه الأنهار ، والثمار ، كمَثَلُ النّار التي فيها الحميم ، ومَثَلُ أهل الجنّة في النعيم المقيم ، كمثل أهل النّار في العذاب الأليم .

﴿ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيماً فَقَطَّعَ ﴾ إذا أُدِني منهم شوى وجوههم ، ووقعت فروة رؤوسهم ، فإذا شربوه قطّع .

(231/708)

﴿ أَمْعَآءَهُمْ * وَمِنْهُمْ ﴾ يعني ومن هؤلاء الكفّار ﴿ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ وهم المنافقون يستمعون قولك ، فلا يعونه ، ولا يفهمونه تهاوناً منهم بذلك ، وتغافلاً ﴿ حتى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ العلم ﴾ من الصحابة ﴿ مَاذَا قَالَ آنِفاً ﴾ (الآن) وأصله الابتداء . قال مقاتل : وذلك أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يخطب ويحث المنافقين ، فسمع المنافقون قوله ، فلمّا خرجوا من المسجد سألوا عبد الله بن مسعود عمّا قال رسول

الله صلى الله عليه وسلم استهزاءً وتهاوناً منهم بقوله .

قال ابن عبّاس في قوله : ﴿ لِلَّذِينَ أُوتُواْ العلم ﴾ : أنا منهم وقد سئلت فيمن سئل . قال قتادة : هؤلاء المنافقون ، دخل رجلان : رجل عقل عن الله تعالى وانتفع بما سمع ، ورجل لم يعقل عن الله ، فلم ينتفع بما سمع ، وكان يقال : النّاس ثلاثة : سامع عاقل ، وسامع عامل ، وسامع غافل تارك .

﴿ أولئك الذين طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ ﴾ فلم يؤمنوا . ﴿ واتبعوا أَهْوَآءَهُمْ * والذين اهتدوا ﴾ يعني المؤمنين . ﴿ زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ ﴾ وقرأ ابن مسعود والأعمش وأنطاهم وأعطاهم ﴿ تَقْوَاهُمْ ﴾ ألهمهم ذلك ، ووفّقهم ، وقال سعيد بن جبير : وآتاهم ثواب تقواهم .

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ ﴾ ينتظرون . ﴿ إِلاَّ الساعة أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ أماراتها وعلاماتها ، وبعث (النبي) صلى الله عليه وسلم منها وقيل : أدلّتها وحجج كونها ، واحدها شرط ، وأصل الأشراط الإعلام ، ومنه الشرط ، لأنّهم جعلوا لأنفسهم علامة يعرفون بها ، ومنه الشرط في البيع وغيره .

ويقال : أشرط نفسه في عمل كذا ، وأعلمها وجعلا له . قال أوس بن حجر يصف رجلاً وقد تدلّى بحبل من رأس جبل إلى نبعة ليقطعها ويتخذ منها قوساً :

فأشرط فيها نفسه وهو معصم . . . وألقى بأسباب له وتوكلا

﴿ فأنى لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ يعني فمن أين لهم التذكّر والاتعاظ والتوبة إذا جاءتهم السّاعة ، نظيره قوله تعالى : ﴿ آمَنَّا بِهِ وأنى لَهُمُ التناوش مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [سبأ : 52] .

﴿ فاعلم أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ الله ﴾ قال بعضهم : الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره وأخواتها كثيرة ، وقيل : فاثبت عليه ، وقال الحسين بن الفضل : فازدد علماً على علمك ، وقال عبد العزيز ابن يحيى الكناني : هو أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يضجر ، ويضيق صدره من طعن الكافرين ، والمنافقين فيه ، فأنزل الله هذه الآية ، يعني فاعلم إنّه لا كاشف يكشف ما بك إلاّ الله ، فلا تعلق قلبك على أحد سواه .

وقال أبو العالية وابن عيينة : هذا متصل بما قبله ، معناه فاعلم إنّه لا ملجأ ، ولا مفزع عند قيام السّاعة ، إلاّ الله . سمعت أبا القاسم بن حبيب يقول : سمعت أبا بكر بن عدش يقول : معناه فاعلم إنّه لا قاضي في ذلك اليوم إلاّ الله ، نظيره ﴿ مالك يَوْمِ الدين ﴾ [الحمد : 4] .

﴿ واستغفر لِذَنبِكَ ﴾ لتستنّ أُمّتك بسنّتك ، وقيل : واستغفر لذنبك من التقصير الواقع

لك في معرفة الله .

﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات ﴾ أخبرني عقيل بن محمّد أنّ أبا الفرج القاضي أخبرهم ، عن محمّد بن جرير ، حدّثنا أبو كريب ، حدّثنا عثمان بن سعيد ، حدّثنا إبراهيم بن سليمان ، عن عاصم الأحول ، عن عبد الله بن سرحس ، قال : " دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : غفر الله لك يا رسول الله ، فقال رجل من القوم : استغفر لك يا رسول الله ؟ قال : " نعم ولك " . ثمّ قرأ ﴿ واستغفر لذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات ﴾ " .

(233/708)

أخبرنا ابن منجويه الدينوري ، حدّثنا أحمد بن علي بن عمر بن حبش الرازي ، حدّثنا أبو بكر محمّد بن عيّاش العتبي ، حدّثنا أبو عثمان سعيد بن عنبسة الحراز ، حدّثنا عبد الرّحمن بن محمّد ، عن بكر بن حنيس ، عن محمّد بن يحيى ، عن يحيى بن وردان ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

" من لم يكن عنده مال يتصدّق به ، فليستغفر للمؤمنين والمؤمنات ، فإنّها صدقة " .

﴿ والله يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ قال عكرمة : يعني منقلبكم من أصلاب الآباء إلى أرحام الأُمّهات ، ومثواكم : مقامكم في الأرض . ابن كيسان : متقلبكم من ظهر إلى بطن ،

ومثواكم : مقامكم في القبور . ابن عبّاس والضحّاك : منصرفكم ومنتشركم في أعمالكم في الدُّنيا ، ومثواكم : مصيركم إلى الجنّة وإلى النّار . ابن جرير : متقلبكم : منصرفكم لأشغالكم بالنهار ، ومثواكم : مضجعكم للنوم بالليل ، لا يخفى عليه شيء من ذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشف والبيان حـ 9 صـ 28.35﴾

(234/708)

وقال الزمخشرى :

سورة محمد صلى اللّه عليه وسلم

مدنية عند مجاهد . وقال الضحاك وسعيد بن جبير : مكية . وهي سورة القتال وهي تسع وثلاثون آية . وقيل ثمان وثلاثون [نزلت بعد الحديد] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة محمد (47) : الآيات 1 إلى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ (1) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَآمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بالَهُمْ (2)

وَصَدُّوا . وأعرضوا وامتنعوا عن الدخول في الإسلام : أو صدّوا غيرهم عنه . قال ابن

عباس رضى اللّه عنه : هم المطعمون يوم بدر . وعن مقاتل : كانوا اثنى عشر رجلا من أهل الشرك يصدّون الناس عن الإسلام ويأمرونهم بالكفر . وقيل : هم أهل الكتاب الذين كفروا وصدّوا من أراد منهم ومن غيرهم أن يدخل في الإسلام . وقيل : هو عامّ في كل من كفر وصدّ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ أبطلها وأحبطها . وحقيقته : جعلها ضالة ضائعة ليس لها من يتقبلها

(235/708)

ويثيب عليها ، كالضالة من الإبل «1» التي هي بمضيعة لا ربّ لها يحفظها ويعتنى بأمرها . أو جعلها ضالة في كفرهم ومعاصيهم ومغلوبة بها ، كما يضل الماء في اللبن . وأعمالهم : ما عملوه في كفرهم بما كانوا يسمونه مكارم : من صلة الأرحام وفك الأسارى وقرى الأضياف وحفظ الجوار .

وقيل : أبطل ما عملوه من الكيد لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والصدّ عن سبيل اللّه : بأن نصره عليهم وأظهر دينه على الدين كله وَالَّذِينَ آمَنُوا قال مقاتل : هم ناس من قريش . وقيل : من الأنصار . وقيل : هم مؤمنو أهل الكتاب . وقيل : هو عام . وقوله وَآمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ اختصاص للإيمان بالمنزل على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من بين ما

يجب به الإيمان تعظيما لشأنه وتعليما ، لأنه لا يصح الإيمان ولا يتم إلا به . وأكد ذلك بالجملة الاعتراضية التي هي قوله وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وقيل : معناها إنّ دين محمد هو الحق ، إذ لا يرد عليه النسخ ، وهو ناسخ لغيره . وقرئ :

نزل وأنزل ، على البناء للمفعول . ونزّل على البناء للفاعل ، ونزل بالتخفيف كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ستر بإيمانهم وعملهم الصالح ما كان منهم من الكفر والمعاصي لرجوعهم عنها وتوبتهم وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ أى حالهم وشأنهم بالتوفيق في أمور الدين ، وبالتسليط على الدنيا بما أعطاهم من النصرة والتأييد .

[سورة محمد (47) : آية 3]

ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (3)

ذَلِكَ مبتدأ وما بعده خبره ، أى : ذلك الأمر وهو إضلال أعمال أحد الفريقين وتكفير سيئات الثاني : كائن بسبب اتباع هؤلاء الباطل وهؤلاء الحق . ويجوز أن يكون ذلك خبر مبتدإ محذوف ، أى . الأمر كما ذكر بهذا السبب ، فيكون محل الجار والمجرور منصوبا على هذا ، ومرفوعا على الأوّل والْبَاطِلَ ما لا ينتفع به . وعن مجاهد : الباطل الشيطان : وهذا الكلام يسميه علماء البيان التفسير كَذَلِكَ مثل ذلك الضرب يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ والضمير راجع إلى الناس ، أو إلى المذكورين من الفريقين ، على معنى : أنه يضرب

أمثالهم لأجل الناس

---

(1) . قال محمود : «معناه جعلها كالضالة من الإبل . . . الخ» قال أحمد : هذا المعنى الثاني حسن متمكن مليء بمقابلة قوله وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ثم قال كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بالَهُمْ وتحرير المقابلة بينهما أن الكفار ضلت أعمالهم الصالحة في جملة أعمالهم السيئة من الكفر والمعاصي ، حتى صار صالحهم مستهلكا في غمار سيئهم ، ومقابله في المؤمنين ستر اللّه لأعمالهم السيئة في كنف أعمالهم الصالحة من الايمان والطاعة ، حتى صار سيئهم مكفرا ممحقا في جنب صالح أعمالهم ، وإلى هذا التمثيل الحسن في عدم تقبل صالح الكفار والتجاوز عن سيئ أعمال المؤمنين وقعت الاشارة بقوله تعالى كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثالَهُمْ واللّه أعلم . [. . . . .]

(236/708)

ليعتبروا بهم . فإن قلت : أين ضرب الأمثال ؟ قلت : في أن جعل اتباع الباطل مثلا لعمل الكفار ، واتباع الحق مثلا لعمل المؤمنين . أو في أن جعل الإضلال مثلا لخيبة الكفار ، وتكفير السيئات مثلا لفوز المؤمنين .

[سورة محمد (47) : الآيات 4 إلى 6]

فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها ذلِكَ وَلَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ (4) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بالَهُمْ (5) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ (6)

لَقِيتُمُ من اللقاء وهو الحرب فَضَرْبَ الرِّقابِ أصله : فاضربوا الرقاب ضربا ، فحذف الفعل وقدّم المصدر فأنيب منابه مضافا إلى المفعول . وفيه اختصار مع إعطاء معنى التوكيد ، لأنك تذكر المصدر وتدل على الفعل بالنصبة التي فيه . وضرب الرقاب عبارة عن القتل ، لأنّ الواجب أن تضرب الرقاب خاصة دون غيرها من الأعضاء ، وذلك أنهم كانوا يقولون : ضرب الأمير رقبة فلان ، وضرب عنقه وعلاوته ، وضرب ما فيه عيناه «1» إذا قتله ، وذلك أن قتل الإنسان أكثر ما يكون بضرب رقبته ، فوقع عبارة عن القتل ، وإن ضرب بغير رقبته من المقاتل كما ذكرنا في قوله فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ على أن في هذه العبارة من الغلظة والشدّة ما ليس في لفظ القتل ، لما فيه «2» من تصوير القتل بأشنع صورة وهو حز العنق وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وعلوه وأوجه أعضائه . ولقد زاد في هذه الغلظة في قوله تعالى فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ . أَثْخَنْتُمُوهُمْ أكثرتم قتلهم وأغلظتموه ، من الشيء الثخين : وهو الغليظ . أو أثقلتموهم بالقتل والجراح حتى أذهبتم عنهم النهوض فَشُدُّوا الْوَثاقَ فأسروهم .

والوثاق بالفتح والكسر : - اسم ما يوثق به مَنًّا وفِداءً منصوبان بفعليهما مضمرين ، أى : فإمّا تمنون منا ، وإما تفدون فداء . والمعنى : التخيير بعد الأسر بين أن يمنوا عليهم فيطلقوهم ، وبين أن يفادوهم . فإن قلت : كيف حكم أسارى المشركين ؟ قلت : أمّا عند أبى حنيفة وأصحابه فأحد أمرين : إمّا قتلهم وإمّا استرقاقهم : أيهما رأى الإمام ، ويقولون في المنّ والفداء المذكورين في الآية : نزل ذلك في يوم بدر ثم نسخ . وعن مجاهد : ليس اليوم منّ ولا فداء ، وإنما هو الإسلام أو ضرب العنق . ويجوز أن يراد بالمنّ : أن يمنّ عليهم بترك القتل ويسترقوا .

---

(1) . قوله «و ضرب ما فيه عيناه» لعله كناية عن رأسه أو عن وجهه . (ع)

(2) . قوله «لما فيه من تصوير القتل» لعله لما فيها . (ع)

أو يمنّ عليهم فيخلوا لقبولهم الجزية ، وكونهم من أهل الذمّة . وبالفداء أن يفادى بأساراهم أسارى المشركين ، فقد رواه الطحاوي مذهبا عن أبى حنيفة ، والمشهور أنه لا يرى فداءهم لا بمال ولا بغيره ، خيفة أن يعودوا حربا للمسلمين ، وأما الشافعي فيقول : للإمام أن يختار أحد أربعة على حسب ما اقتضاه نظره للمسلمين ، وهو : القتل ، والاسترقاق

«1» ، والفداء بأسارى المسلمين ، والمن . ويحتج بأن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم منّ على أبى عروة الجبي «2» ، وعلى ثمامة بن أثال الحنفي ، «3» وفادى رجل برجلين من المشركين «4» : وهذا كله منسوخ عند أصحاب الرأى . وقرئ : فدى ، بالقصر مع فتح الفاء . أوزار الحرب : آلاتها وأثقالها التي لا تقوم إلا بها كالسلاح والكراع . قال الأعشى :

وأعددت للحرب أوزارها رماحا طوالا وخيلا ذكورا «5»

وسميت أوزارها لأنه لما لم يكن لها بد من جرّها فكأنها تحملها وتستقل بها ، فإذا انقضت فكأنها وضعتها . وقيل . أوزارها آثامها ، يعنى : حتى يترك أهل الحرب . هم المشركون شركهم ومعاصيهم بأن يسلموا . فإن قلت : حَتَّى بم تعلقت ؟ قلت : لا تخلو إما أن تتعلق بالضرب والشد : أو بالمن والفداء ، فالمعنى على كلا المتعلقين عند الشافعي رضى اللّه عنه : أنهم لا يزالون على ذلك أبدا إلى أن لا يكون حرب مع المشركين . وذلك إذا لم يبق لهم شوكة . وقيل :

إذا نزل عيسى ابن مريم عليه السلام . وعند أبى حنيفة رحمه اللّه : إذا علق بالضرب والشد ، فالمعنى : أنهم يقتلون ويؤسرون حتى تضع جنس الحرب الأوزار ، وذلك حين لا تبقى شوكة للمشركين . وإذا علق بالمن والفداء ، فالمعنى : أنه يمن عليهم ويفادون حتى تضع حرب بدر أوزارها

---

(1) . قوله «و هو القتل والاسترقاق» لعله : وهي . . . (ع)

(2) . هو مذكور في المغازي لابن إسحاق وغيره «أنه أسر يوم بدر . فمن عليه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بغير فداء ثم أسره يوم أحد فقتله صبرا» ورواه الواقدي عن ابن أخى الزهري عن عمه عن سعيد بن المسيب .

(3) . قوله «على ثمامة بن أثال الحنفي» هو في حديث أبى هريرة عند الشيخين مطولا

(4) . قوله «و فادى رجلا برجلين من المشركين» : هذا طرف من حديث أخرجه مسلم والترمذي وغيرهما من حديث عمران ، ولكن فيه «أن أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أسروا رجلا من بنى عقيل ، وكانت ثقيف أسرت رجلين من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . ففداه النبي صلى اللّه عليه وسلم بالرجلين اللذين أسرتهما ثقيف» وروى البيهقي في المعرفة عن الشافعي من هذا الوجه مثل لفظ الكتاب . ثم قال : أظنه من الكاتب ، والصحيح الأول .

(5) . للأعشى ، واستعار الأوزار لآلات الحرب على طريق التصريحية ، ويحتمل أنه شبيه الحرب بمطايا ذات أوزار ، أى : أحمال ثقال على طريق المكنية ، وإثبات الأوزار تخييل ، ورماحا : بدل .

إلا أن يتأول المن والفداء بما ذكرنا من التأويل ذِلِكَ أى الأمر ذلك ، أو افعلوا ذلك لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ لانتقم منهم ببعض أسباب الهلك : من خسف ، أو رجفة ، أو حاصب ، أو غرق . أو موت جارف ، وَلَكِنْ أمركم بالقتال ليبلو المؤمنين بالكافرين : أن يجاهدوا ويصبروا حتى يستوجبوا الثواب العظيم ، والكافرين بالمؤمنين بأن يعاجلهم على أيديهم ببعض ما وجب لهم من العذاب . وقرئ : قتلوا ، بالتخفيف والتشديد : وقتلوا . وقاتلوا . وقرئ : فلن يضل أعمالهم ، وتضل أعمالهم : على البناء للمفعول . ويضل أعمالهم من ضل . وعن قتادة :

أنها نزلت في يوم أحد عَرَّفَهَا لَهُمْ أعلمها لهم وبينها بما يعلم به كل أحد منزلته ودرجته من الجنة . قال مجاهد : يهتدى أهل الجنة إلى مساكنهم منها لا يخطئون ، كأنهم كانوا سكانها منذ خلقوا لا يستدلون عليها . وعن مقاتل : إن الملك الذي وكل بحفظ عمله في الدنيا يمشى بين يديه فيعرفه كل شيء أعطاه اللّه . أو طيبها لهم ، من العرف : وهو طيب الرائحة . وفي كلام بعضهم :

عزف كنوح القمارى «1» ، وعرف كفوح القمارى . أو حددها لهم ، فجنة كل أحد محدودة مفرزة عن غيرها ، من : عرف الدار وارفها . والعرف والارف ، الحدود .

[سورة محمد (47) : آية 7]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ (7)

إِنْ تَنْصُرُوا دين اللَّهَ ورسوله يَنْصُرْكُمْ على عدوكم ويفتح لكم وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ في مواطن الحرب أو على محجة الإسلام.

[سورة محمد (47) : الآيات 8 إلى 9]

وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ (8) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ (9)

وَالَّذِينَ كَفَرُوا يحتمل الرفع على الابتداء والنصب بما يفسره فَتَعْساً لَهُمْ كأنه قال: أتعس الذين كفروا. فإن قلت: علام عطف قوله وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ؟ قلت: على الفعل الذي نصب تعسا، لأنّ المعنى فقال: تعسا لهم، أو فقضى تعسا لهم. وتعسا له: نقيض «لعاله» قال الأعشى:

فالتّعس أولى لها من أن أقول لعا «2»

---

(1). قوله «عزف كنوح القمارى» العزف: الغناء. والقمارى: جمع قمرى، اسم طير. والعود القمارى:

منسوب إلى موضع ببلاد الهند. أفاده الصحاح. (ع)

(2) وبلدة يرهب الجواب دلجتها حتى تراه عليها يبتغى الشيما

كلفت مجهولها نفسي وشايعنى همى عليها إذا ما آلها لمعا

بذات لوث عفرناة إذا عثرت فالتعس أولى لها من أن يقال لعا

للأعشى ، أى : ورب مفازة يخاف الجواب : أى كثير السير ، من جبت الأرض : قطعتها بالسير . والدلجة من دلج وأدلج ، وزن افتعل . وأدلج وزن أكرم : إذا سار ليلا . والدلجة : ساعة من الليل ، أى : يخاف المعتاد على السير من سيرها ليلا ، حتى يطلب الجماعات المساعدين له على سيرها ، كلفت نفسي سير المجهول منها ، وعاونني عزمي على سيرها وقت لمعان آلها وهو السراب الذي يرى عند شدة الحر ، كأنه ماء ، مع أن سير الهاجرة أشد من سير الليل ، ثم قال : مع ناقة صاحبة قوة . ويطلق اللوث على الضعف أيضا ، فهو من الأضداد . عفرناة : غليظة .

ويقال للعاثر : لعا لك : دعاء له بالانتعاش . وتعسا له : دعاء عليه بالسقوط ، يريد أنها لا تعثر ، ولو عثرت فالدعاء عليها أحق بها من الدعاء لها .

(239/708)

يريد : فالعثور والانحطاط أقرب لها من الانتعاش والثبوت . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : يريد في الدنيا القتل ، وفي الآخرة التردي في النار كَرِهُوا القرآن وما أنزل اللّه فيه من التكاليف والأحكام ، لأنهم قد ألفوا الإهمال وإطلاق العنان في الشهوات والملاذ فشق عليهم ذلك وتعاظمهم .

[سورة محمد (47) : آية 10]

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكافِرِينَ أَمْثالُها (10)

دمره : أهلكه ، ودمر عليه : أهلك عليه ما يختص به . والمعنى : دمر اللّه عليهم ما اختص بهم من أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكل ما كان لهم وَلِلْكافِرِينَ أَمْثالُها الضمير للعاقبة المذكورة أو للهلكة ، لأن التدمير يدل عليها . أو للسنة ، لقوله عزّ وعلا سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا .

[سورة محمد (47) : آية 11]

ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ (11)

مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وليهم وناصرهم . وفي قراءة ابن مسعود : ولى الذين آمنوا . ويروى أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان في الشعب يوم أحد وقد فشت فيهم الجراحات ، وفيه نزلت ، فنادى المشركون : اعل هبل : فنادى المسلمون : اللّه أعلى وأجل ، فنادى المشركون :

يوم بيوم والحرب سجال ، إن لنا عزى ولا عزى لكم فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «قولوا اللّه مولانا ولا مولى لكم ، إن القتلى مختلفة أما قتلانا فأحياء يرزقون وأما قتلاكم ففي النار يعذبون «1» . فإن قلت : قوله تعالى وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ مناقض لهذه الآية .

قلت :

لا تناقض بينهما ، لأن اللّه مولى عباده جميعا على معنى أنه ربهم ومالك أمرهم وأما على معنى الناصر فهو مول المؤمنين خاصة .

---

(1) . أخرجه الطبري من رواية سعيد عن قتادة قال «ذكر لنا أن هذه الآية . يعنى بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا نزلت يوم أحد ، ورسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في الشعب وقد فشت فيهم الجراحات . الخ» سواء . وله شاهد في البخاري من حديث البراء بن عازب .

(240/708)

[سورة محمد (47) : آية 12]

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ (12)

يَتَمَتَّعُونَ ينتفعون بمتاع الحياة الدنيا أياما قلائل وَيَأْكُلُونَ غافلين غير مفكرين في العاقبة كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ في مسارحها ومعالفها ، غافلة عما هي بصدده من النحر والذبح مَثْوىً لَهُمْ منزل ومقام .

[سورة محمد (47) : آية 13]

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْناهُمْ فَلا ناصِرَ لَهُمْ (13)

وقرئ: وكائن، بوزن كاعن «1». وأراد بالقرية أهلها، ولذلك قال أَهْلَكْناهُمْ كأنه قال: وكم من قوم هم أشد قوّة من قومك الذين أخرجوك أهلكناهم. ومعنى أخرجوك: كانوا سبب خروجك. فإن قلت: كيف قال فَلا ناصِرَ لَهُمْ؟ وإنما هو أمر قد مضى. قلت: مجراه مجرى الحال المحكية، كأنه قال أهلكناهم فهم لا ينصرون.

[سورة محمد (47): آية 14]

أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ (14)

من زين له: هم أهل مكة الذين زين لهم الشيطان شركهم وعداوتهم للّه ورسوله، ومن كان على بينة من ربه أى على حجة من عنده وبرهان: وهو القرآن المعجز وسائر المعجزات هو رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. وقرئ: أمن كان على بينة من ربه. وقال تعالى سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا للحمل على لفظ مِنْ ومعناه.

[سورة محمد (47): آية 15]

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ (15)

---

(1). قوله «وكائن بوزن كاعن» في الصحاح «كائن»: معناها معنى كم في الخبر

والاستفهام ، وفيها لغتان :

كأين . مثال كعين وكائن : مثال كاعن اه . (ع)

(241/708)

فإن قلت : ما معنى قوله تعالى مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهارٌ كمن هو خالد في النار ؟

قلت : هو كلام في صورة الإثبات ومعنى النفي والإنكار «1» ، لانطوائه تحت حكم كلام مصدّر بحرف الإنكار ، ودخوله في حيزه ، وانخراطه في سلكه ، وهو قوله تعالى أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فكأنه قيل : أمثل الجنة كمن هو خالد في النار ، أى كمثل جزاء من هو خالد في النار . فإن قلت : فلم عرّى في حرف الإنكار ؟ وما فائدة التعرية ؟ قلت :

تعريته من حرف الإنكار فيها زيادة تصوير لمكابرة من يسوّى بين المتمسك بالبينة والتابع لهواه ، وأنه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنة التي تجرى فيها تلك الأنهار ، وبين النار التي يسقى أهلها الحميم . ونظيره قول القائل :

أفرح أن أرزأ الكرام وأن أورث ذودا شصائصا نبلا «2»

هو كلام منكر للفرح برزية الكرام ووراثة الذود ، مع تعريه عن حرف الإنكار لانطوائه تحت حكم قول من قال : أتفرح بموت أخيك وبوراثة إبله ، والذي طرح لأجله حرف الإنكار إرادة أن يصوّر قبح ما أزن به «3» فكأنه قال له : نعم مثلي يفرح بمرزاة الكرام وبأن يستبدل منهم ذودا يقل طائله «4» ، وهو من التسليم الذي تحته كل إنكار ، ومثل الجنة : صفة الجنة العجيبة الشأن ، وهو مبتدأ ، وخبره : كمن هو خالد . وقوله : فيها أنهار ، داخل في حكم الصلة كالتكرير لها . ألا ترى إلى صحة قولك : التي فيها أنهار . ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف هي فيها «5»

---

(1) . قال محمود : «هو كلام في صورة الإثبات ومعناه النفي . . . الخ» قال أحمد : كم ذكر الناس في تأويل هذه الآية ، فلم أر أطلى ولا أحلى من هذه النكت التي ذكرها ، لا يعوزها إلا للتنبيه على أن في الكلام محذوفا لا بد من تقديره لأنه لا معادلة بين الجنة وبين الخالدين في النار إلا على تقدير مثل ساكن فيه يقوم وزن الكلام ويتعادل كفتاه . ومن هذا النمط قوله تعالى أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فانه لا بد من تقدير محذوف مع الأول أو الثاني ، ليتعادل القسمان ، وبهذا الذي قدرته في الآية ينطبق آخر الكلام على أوله ، فيكون المقصود تنظير بعد التسوية بين المتمسك بالسيئة والراكب للهوى ببعد التسوية بين المنعم في الجنة والمعذب في النار على الصفات المتقابلة المذكورة في الجهتين . وهو من وادى تنظير الشيء بنفسه ، باعتبار حالتين

إحداهما أوضح في البيان من الأخرى ، فان المتمسك بالسنة هو المنعم في الجنة الموصوفة . والمتبع للهوى : هو المعذب في النار المنعوتة ، ولكن أنكر التسوية بينهما باعتبار الأعمال أولا ، وأوضح ذلك بإنكار التسوية بينهما باعتبار الأعمال أولا ، وأوضح ذلك بإنكار التسوية بينهما باعتبار الجزاء ثانيا .

(2) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثالث صفحة 264 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(3) . قوله «ما أزن» أى اتهم . أفاده الصحاح . (ع) [. . . . .]

(4) . قوله «يقل طائله» لأن الشصائص قليلات اللبن . والنبل : الكبار من الإبل ، والصغار منها أيضا ، فهو من الأضداد . أفاده الصحاح . (ع)

(5) . قوله «هي فيها» لعله : أى هي فيها . (ع)

أنهار ، وكأن قائلا قال : وما مثلها ؟ فقيل : فيها أنهار ، وأن يكون في موضع الحال ، أى : مستقرّة فيها أنهار ، وفي قراءة على رضى اللّه عنه : أمثال الجنة ، أى : ما صفاتها كصفات النار . وقرئ : أسن . يقال : أسن الماء وأجن : إذا تغير طعمه وريحه . وأنشد ليزيد بن

معاوية :

لقد سقتني رضابا غير ذى أسن كالمسك فتّ على ماء العناقيد «1»

مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ كما تتغير ألبان الدنيا ، فلا يعود قارصا ولا حاذرا «2» ، ولا ما يكره من الطعوم لَذَّةٍ تأنيث لذّ ، وهو اللذيذ ، أو وصف بمصدر . وقرئ بالحركات الثلاث ، فالجر على صفه الخمر ، والرفع على صفة الأنهار ، والنصب على العلة ، أى : لأجل لذة الشاربين .

والمعنى : ما هو إلا التلذذ الخالص ، ليس معه ذهاب عقل ولا خمار ولا صداع ، ولا آفة من آفات الخمر مُصَفًّى لم يخرج من بطون النحل فيخالطه الشمع وغيره ماءً حَمِيماً قيل إذا دنا منهم شوى وجوههم ، وانماز ت فروة رءوسهم ، فإذا شربوه قطع أمعاءهم .

[سورة محمد (47) : آية 16]

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ما ذا قالَ آنِفاً أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ (16)

هم المنافقون : كانوا يحضرون مجلس رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فيسمعون كلامه ولا يعونه ولا يلقون له إلا تهاونا منهم ، فإذا خرجوا قالوا لأولى العلم من الصحابة ، ما ذا قال الساعة ؟

على جهة الاستهزاء . وقيل : كان يخطب فإذا عاب المنافقين خرجوا فقالوا ذلك للعلماء .

وقيل :

قالوه لعبد اللّه بن مسعود . وعن ابن عباس : أنا منهم ، وقد سميت فيمن سئل آنِفاً وقرئ : أنفا على فعل ، نصب على الظرف «3» قال الزجاج : هو من استأنفت الشيء : إذا ابتدأته .

والمعنى : ما ذا قال في أوّل وقت يقرب منا .

[سورة محمد (47) : آية 17]

وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ (17)

زادَهُمْ اللّه هُدىً بالتوفيق وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ أعانهم عليها . أو أتاهم جزاء تقواهم .

---

(1) . ليزيد بن معاوية . وترضب الرجل ريق المرأة : إذا ترشفه . وأسن أسنا كتعب تعبا : تغير طعمه أو ريحه أو لونه . لطول مدته . يقول : سقتني ريقها الذي لم يتغير . وماء العناقيد : كناية عن الخمر ، واستعاره لريقها على التصريحية ، وناولتني المسك حال كونه تفتت على ريقها الشبيه بالخمر ، أى : كأنه كذلك لطيبه . ويروى : كالمسك وهي الظاهرة ، والتشبيه من قبيل تشبيه المفرد بالمركب ، لأنه لا يريد تشبيه الرضاب بالمسك فقط .

(2) . قوله «ولا حاذرا ولا ما يكره» لعله محذوف ، وأصله : حازر بالزاي ، وفي الصحاح : الحاذر : اللبن الحامض

(3) . قوله «وقرئ أنفا على فعل نصب على الظرف» لعله : بالضم . (ع)

وعن السدى : بين لهم ما يتقون . وقرئ : وأعطاهم . وقيل : الضمير في زادهم ، لقول الرسول أو لاستهزاء المنافقين .

[سورة محمد (47) : آية 18]

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ (18)

أَنْ تَأْتِيَهُمْ بدل اشتمال من الساعة ، نحو : أن تطؤهم من قوله رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِساءٌ مُؤْمِناتٌ وقرئ : أن تأتهم ، بالوقف على الساعة واستئناف الشرط ، وهي في مصاحف أهل مكة كذلك : فإن قلت : فما جزاء الشرط ؟ قلت : قوله فأنى لهم . ومعناه : إن تأتهم الساعة فكيف لهم ذكراهم ، أى تذكرهم واتعاظهم إذا جاءتهم الساعة ، يعنى لا تنفعهم الذكرى حينئذ ، كقوله تعالى يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرى . فإن قلت : بم يتصل قوله فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها على القراءتين ؟ قلت : بإتيان الساعة اتصال العلة بالمعلول ، كقولك : إن أكرمنى زيد فأنا حقيق بالإكرام أكرمه . والأشراط : العلامات . قال أبو الأسود :

فإن كنت قد أزمعت بالصّرم بيننا فقد جعلت أشراط أوّله تبدو «1»

وقيل : مبعث محمد خاتم الأنبياء صلى اللّه عليه وسلم وعليهم منها ، وانشقاق القمر ، والدخان .

وعن الكلبي : كثرة المال والتجارة ، وشهادة الزور ، وقطع الأرحام ، وقلة الكرام ، وكثرة اللئام . وقرئ : بغتة بوزن جربة «2» ، وهي غريبة لم ترد في المصادر أختها ، وهي مروية عن أبى عمرو ، وما أخوفنى أن تكون غلطة من الراوي على أبى عمرو ، وأن يكون الصواب :

بغتة ، بفتح الغين من غير تشديد ، كقراءة الحسن فيما تقدم .

[سورة محمد (47) : آية 19]

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْواكُمْ (19)

لما ذكر حال المؤمنين وحال الكافرين قال : إذا علمت أن الأمر كما ذكر من سعادة هؤلاء وشقاوة هؤلاء ، فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانية اللّه ، وعلى التواضع وهضم النفس :

---

(1) . لأبى الأسود . يقول : إن كنت جزمت بقطع المودة بيننا فلا تكتميه ، لأن علامات ابتدائه شرعت في الظهور .

(2) . قوله «بغتة بوزن جربة وهي غريبة» في القاموس «الجربة» محركة مشددة : جماعة

الحمراء . وفي الصحاح «الجربة» بالفتح : بغتة ، وتشديد الباء : العانة من الحمير . رفيه أيضا «العانة» القطيع من حمر الوحش . (ع)

(244/708)

باستغفار ذنبك وذنوب من على دينك . والله يعلم أحوالكم ومتصرفاتكم ومتقلبكم في معايشكم ومتاجركم ، ويعلم حيث تستقرون في منازلكم أو متقلبكم في حياتكم ومثواكم في القبور . أو متقلبكم في أعمالكم ومثواكم من الجنة والنار . ومثله حقيق بأن يخشى ويتقى ، وأن يستغفر ويسترحم . وعن سفيان بن عيينة : أنه سئل عن فضل العلم فقال : ألم تسمع قوله حين بدأ به فقال فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ فأمر بالعمل بعد العلم وقال : اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ إلى قوله سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وقال : وَاعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ

ثم قال بعد فَاحْذَرُوهُمْ وقال : وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ثم أمر بالعمل بعد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 4 صـ 324.314 ﴾

(245/708)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾

يعني كفروا بتوحيد الله .

﴿ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : عن الله وهو الإسلام بنهيهم عن الدخول فيه ، قاله السدي .

الثاني : عن بيت الله يمنع قاصديه إذا عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم – عليهم الإسلام أن يدخلوا فيه ، قاله الضحاك .

﴿ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه :

أحدها : أحبط ما فعلوه من الخير بما أقاموا عليه من الكفر .

الثاني : أبطل ما أنفقوا ببدر لما نالهم من القتل .

الثالث : أضلهم عن الهدى بما صرفهم عن التوفيق .

وحكى مقاتل بن حيان أن هذه الآية نزلت في اثني عشر رجلاً من كفار مكة ، ذكر النقاش أنهم أبو جهل وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عقبة وعقبة بن أبي معيط وأمية بن خلف ومنبه ونبيه ابنا الحجاج وأبو البختري وزمعة بن الأسود وحكيم بن حزام والحارث بن عامر بن نوفل .

قوله عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّالِحَاتِ ﴾ فيهم قولان :

أحدهما : أنهم الأنصار ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنها نزلت خاصة في ناس من قريش ، قاله مقاتل .

وفي قوله : ﴿ وَعَمِلُوا۟ الصَّالِحَاتِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : المواساة بمساكنهم وأموالهم ، وهذا قول من زعم أنهم الأنصار .

الثاني : الهجرة وهذا قول من زعم أنهم قريش .

﴿ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﴾ أي آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما أنزل عليه من القرآن .

﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن إيمانهم هو الحق من ربهم .

الثاني : أن القرآن هو الحق من ربهم .

﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : سترها عليهم .

الثاني : غفرها بإيمانهم .

﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : أصلح شأنهم ، قاله مجاهد .

الثاني : أصلح حالهم ، قاله قتادة .

(246/708)

الثالث : أصلح أمرهم ، قاله ابن عباس ، والثلاثة متقاربة وهي متأولة على إصلاح ما تعلق بدنياهم .

الرابع : أصلح نياتهم . حكاه النقاش ، ومنه قول الشاعر :

فإن تقبلي بالود أقبل بمثله . . . وإن تدبري أذهب إلى حال باليا

وهو على هذا التأويل محمول على إصلاح دينهم ، والبال لا يجمع لأنه أبهم إخوانه من الشأن والحال والأمر .

قوله عز وجل : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن الباطل الشيطان ، قاله مجاهد .

الثاني : إبليس ، قاله قتادة ، وسُمِّي بالباطل لأنه يدعو إلى الباطل .

ويحتمل ثالثاً : أنه الهوى .

﴿ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : اتبعوا الرسول ، لأنه دعاهم إلى الحق وهو الإسلام .

الثاني : يعني القرآن سمي حقاً لمجيئه بالحق .

﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ قال يحيى : صفات أعمالهم ، وفي الناس هنا قولان :

أحدهما : أنه محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله الكلبي .

الثاني : جميع الناس ، قاله مقاتل .

قوله عز وجل : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ فيهم هنا قولان :

أحدهما : أنهم عبدة الأوثان ، قاله ابن عباس .

الثاني : كل من خالف دين الإسلام من مشرك أو كتابي إذا لم يكن صاحب عهد ولا ذمة .

وفي قوله : ﴿ فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ وجهان :

أحدهما : ضرب أعناقهم صبراً عند القدرة عليهم .

الثاني : أنه قتلهم بالسلاح واليدين ، قاله السدي .

﴿ حَتَّى إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ الْوَثَاقَ ﴾ يعني بالإثخان الظفر ، وبشد الوثاق الأسر .

﴿ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ في المَنِّ هنا قولان : أحدهما : أنه العفو والإطلاق كما من رسول الله صلى الله عليه على ثمامة بن أثال بعد أسره .

الثاني : أنه العتق ، قاله مقاتل .

فأما الفداء ففيه وجهان :

(247/708)

أحدهما : أنه المفاداة على مال يؤخذ من أسير يطلق ، كما فادى رسول الله صلى الله عليه وسلم في بدر كل أسير بأربعة آلاف درهم ، وفادى في بعض المواطن رجلاً برجلين .

الثاني : أنه البيع ، قاله مقاتل .

﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : أن أوزار الحرب أثقالها ، والوزر الثقل ومنه وزير الملك لأنه يتحمل عنه الأثقال ، وأثقالها السلاح .

الثاني : هو [وضع] سلاحهم بالهزيمة أو الموادعة ، قال الشاعر :

وأعددت للحرب أوزارها . . . رماحا طوالاً وخيلاً ذكوراً

الثالث : حتى تضع الحرب أوزار كفرهم بالإسلام ، قاله الفراء .

الرابع : حتى يظهر الإسلام على الدين كله ، وهو قول الكلبي .

الخامس : حتى ينزل عيسى ابن مريم ، قاله مجاهد .

ثم في هذه الآية قولان :

أحدهما : أنها منسوخة بقوله : ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُم لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأنفال : 57] قاله قتادة .

الثاني : أنها ثابتة الحكم ، وأن الإمام مخير في من أسره منهم بين أربعة أمور : أن يقتل لقوله تعالى : ﴿ فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ ، أو يسترق لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم استرق العقيلي ، أو يَمُنَّ كما مَنَّ على ثمامة ، أو يفادي بمال أو أَسرى ، فإذا أسلموا أسقط القتل عنهم وكان في الثلاثة الباقية ، على خياره ، وهذا قول الشافعي .

﴿ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنهُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بالملائكة ، قاله الكلبي .

الثاني : بغير قتال ، قاله الفراء .

قوله عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ قراءة أبي عمرو وحفص ، قال قتادة : هم قتلى أحد . وقرأ الباقون ﴿ قَاتَلُواْ ﴾ .

﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : يحق لهم الهداية ، قاله الحسن .

الثاني : يهديهم إلى محاجة منكر ونكير في القبر ، قاله زياد .

الثالث : يهديهم إلى طريق الجنة ، قاله ابن عيسى .

قوله عز وجل : ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : عرفها بوصفها على ما يشوق إليها ، حكاه ابن عيسى .

الثاني : عرفهم ما لهم فيها من الكرامة ، قاله مقاتل .

الثالث : معنى عرفها أي طيبها بأنواع الملاذ ، مأخوذ من العرف وهي الرائحة الطيبة ، قاله بعض أهل اللغة .

الرابع : عرفهم مساكنهم فيها حتى لا يسألون عنها ، قاله مجاهد . قال الحسن : وصف الجنة لهم في الدنيا فلما دخلوها عرفوها بصفتها .

ويحتمل خامساً : أنه عرف أهل السماء انها لهم إظهاراً لكرامتهم فيها .

قوله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِن تَنصُرُواْ اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : إن تنصروا دين الله ينصركم الله . الثاني : إن تنصروا نبي الله ينصركم الله ، قاله قطرب .

﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : ويثبت أقدامكم في نصره .

الثاني : عند لقاء عدوه .

ثم فيه وجهان :

أحدهما : يعني تثبيت الأقدام بالنصر .

الثاني : يريد تثبيت القلوب بالأمن .

قوله عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْساً لَّهُمْ ﴾ فيه تسعة تأويلات :

أحدها : خزياً لهم ، قاله السدي .

الثاني : شقاء لهم ، قاله ابن زيد .

الثالث : شتماً لهم من الله ، قاله الحسن .

الرابع : هلاكاً لهم ، قال ثعلب .

الخامس : خيبة لهم ، قاله ابن زياد .

السادس : قبحاً لهم ، حكاه النقاش .

السابع : بعداً لهم ، قاله ابن جريج .

الثامن : رغماً لهم ، قاله الضحاك .

التاسع : أن التعس الانحطاط والعثار ، حكاه ابن عيسى .

قوله عز وجل : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ﴾ أي وكم من قرية ، وأنشد الأخفش للبيد :

وكائن رأينا من ملوك وسوقة . . . ومفتاح قيد للأسير المكبل

فيكون معناه : وكم من أهل قرية .

﴿ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً ﴾ أي أهلها أشد قوة .

﴿ مِّن قَرْيَتِكَ ﴾ يعني مكة .

﴿ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ ﴾ أي أخرجك أهلها عند هجرتك منها .

﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ يعني بالعذاب .

(249/708)

﴿ فَلاَ نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ يعني فلا مانع لهم منا ، وهذا وعيد .

قوله عز وجل : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : أنه القرآن ، قاله ابن زيد .

الثاني : أنه محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله أبو العالية ، والبينة الوحي .

الثالث : أنهم المؤمنون ، قاله الحسن ، والبينة معجزة الرسول .

الرابع : أنه الدين ، قاله الكلبي .

﴿ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : عبادتهم الأوثان ، قاله الضحاك .

الثاني : شركهم ، قاله قتادة ، وفيهم قولان :

أحدهما : أنهم كافة المشركين .

الثاني : أنهم الإثنا عشر رجلاً من قريش .

وفيمن زينه لهم قولان :

أحدهما : الشيطان .

الثاني : أنفسهم .

﴿ وَاتَّبَعُواْ أَهْوَآءَهُم ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه نعت لمن زين له سوء عمله .

الثاني : أنهم المنافقون ، قاله ابن زيد .

قوله عز وجل : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ هم المنافقون : عبد الله بن أُبيّ بن سلول ، ورفاعة بن التابوت ، وزيد بن الصليت ، والحارث بن عمرو ، ومالك بن الدخشم . وفيما يستمعونه قولان :

أحدهما : أنهم كانوا يحضرون الخطبة يوم الجمعة فإذا سمعوا ذكر المنافقين فيها أعرضوا عنه ، فإذا خرجوا سألوا عنه ، قاله الكلبي ومقاتل .

الثاني : أنهم كانوا يحضرون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المؤمنين ، فيسمعون منه ما يقول ، فيعيه المؤمن ولا يعيه المنافق .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُواْ مِن عِندِكَ ﴾ أي من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ ﴾ فيهم أربعة أقاويل :

أحدها : أنه عبد الله بن عباس ، قاله عكرمة .

الثاني : عبد الله بن مسعود ، قاله عبد الله بن بريدة .

الثالث : أبو الدرداء ، قاله القاسم بن عبد الرحمن .

الرابع : أنهم الصحابة ، قاله ابن زيد .

(250/708)

﴿ مَاذَا قَالَ ءَانِفاً ﴾ هذا سؤال المنافقين للذين أُوتوا العلم إذا خرجوا من عند النبي صلى الله عليه وسلم . وفيه وجهان :

أحدهما : يعني قريباً .

الثاني : مبتدئاً .

وفي مقصودهم بهذا السؤال وجهان :

أحدهما : الإستهزاء بما سمعوه .

الثاني : البحث عما جهلوه .

قوله عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن الإستهزاء زاد المؤمنين هدى ، قاله الفراء .

الثاني : أن القرآن زادهم هدى ، قاله ابن جريج .

الثالث : أن الناسخ والمنسوخ زادهم هدى ، قاله عطية .

وفي الهدى الذي زادهم أربعة أقاويل :

أحدها : زادهم علماً ، قاله الربيع بن أنس .

الثاني : علموا ما سمعوا ، وعلموا بما عملوا ، قاله الضحاك .

الثالث : زادهم بصيرة في دينهم وتصديقاً لنبيهم ، قاله الكلبي .

الرابع : شرح صدورهم بما هم عليه من الإيمان .

ويحتمل خامساً : والذين اهتدوا بالحق زادهم هدى للحق .

﴿ وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : آتاهم الخشية ، قاله الربيع .

الثاني : ثواب تقواهم في الآخرة ، قاله السدي .

الثالث : وفقهم للعمل الذي فرض عليهم ، قاله مقاتل .

الرابع : بين لهم ما يتقون ، قاله ابن زياد .

الخامس : أنه ترك المنسوخ والعمل بالناسخ ، قاله عطية .

قوله عز وجل : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ أي فجأة .

﴿ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : أشراطها آياتها ، قاله ابن زيد .

الثاني : أوائلها ، قاله ابن عباس .

الثالث : أنه انشقاق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاله الحسن .

الرابع : ظهور النبي ، قاله الضحاك . قال الضحاك لأنه آخر الرسل وأمته آخر الأمم ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بُعِثْتُ وَالسَّاعَةَ كَهَاتِينِ" وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى .

﴿ فَأَنَّى لَهُمْ ﴾ قال السدي : معناه فكيف لهم النجاة .

(251/708)

﴿ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : إذا جاءتهم الساعة ، قاله قتادة .

الثاني : إذا جاءتهم الذكرى عند مجيء الساعة ، قاله ابن زيد .

وفي الذكرى وجهان :

أحدهما : تذكيرهم بما عملوه من خير أو شر .

الثاني : هو دعاؤهم بأسمائهم تبشيراً أو تخويفاً . روى أبان عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أَحْسِنُواْ أَسْمَآءَكُم فَإِنَّكُم تُدْعَوْنَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يَا فُلاَنُ قُمْ إِلَى نُورِكَ ، يَا فُلاَنُ قُمْ فَلاَ نُورَ لَكَ " .

قوله عز وجل : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ وفي – وإن كان الرسول صلى الله عليه وسلم عالماً به – ثلاثة أوجه :

أحدها : يعني اعلم أن الله أعلمك أن لا إله إلا الله .

الثاني : ما علمته استدلالاً فاعلمه خبراً يقيناً .

الثالث : يعني فاذكر أن لا إله إلا الله ، فعبر عن الذكر بالعلم لحدوثه عنه .

﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : يعني استغفر الله أن يقع منك ذنب .

الثاني : استغفر الله ليعصمك من الذنوب .

﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أي استغفر لهم ذنوبهم .

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : متقلبكم في أسفاركم ، ومثواكم في أوطانكم .

الثاني : متقلبكم في أعمالكم نهاراً ومثواكم في ليلكم نياماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 5 صـ 290. 300 ﴾

(252/708)

وقال ابن الجوزى :

سورة محمد صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ الذين كَفَروا ﴾

أي : بتوحيد الله ﴿ وصَدُّوا ﴾ الناس عن الإيمان به ، وهم مشركو قريش ، ﴿ أَضَلَّ أعمالَهم ﴾ أي : أبطلها ، ولم يجعل لها ثواباً ، فكأَنَّها لم تكن ؛ وقد كانوا يُطْعِمُون الطَّعامَ ، ويَصِلون الأرحام ، ويتصدّقون ، ويفعلون ما يعتقدونه قُرْبَةً .

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ يعني : أصحاب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿ وآمَنوا بما نُزِّل على محمد ﴾ وقرأ ابن مسعود ﴿ نَزَّلَ ﴾ بفتح النون والزَّاي وتشديدها .

وقرأ أُبيُّ بن كعب ، ومعاذ القارىء : " أُنْزِلَ " بهمزة مضمومة مكسورة الزَّاي .

وقرأ أبو رزين ، وأبو الجوزاء ، وأبو عمران : " نَزَلَ " بفتح النون والزاي وتخفيفها ، ﴿ كَفَّر عنهم سيِّئَآتِهم ﴾ أي : غفرها لهم ﴿ وأصْلَحَ بالَهم ﴾ أي : حالَهم ، قاله قتادة ، والمبرِّد .

قوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ قال الزجاج : معناه : الأمرُ ذلك ، وجائز أن يكون : ذلك الإضلال ، لاتِّباعهم الباطل ، وتلك الهداية والكفّارات باتِّباع المؤمنين الحقَّ ، ﴿ كذلك يَضْرِبُ اللهُ للناس أمثالَهم ﴾ أي : كذلك يبيِّن أمثال حسنات المؤمنين وسيِّئات الكافرين كهذا البيان .

قوله تعالى : ﴿ فضَرْبَ الرِّقاب ﴾ إغراءُ ؛ والمعنى : فاقتُلوهم ، لأن الأغلب في موضع القتل ضربُ العُنق ﴿ حتى إذا أثْخَنْتموهم ﴾ أي : أكثرتُم فيهم القتل ﴿ فشُدُّوا الوَثاقَ ﴾ يعني في الأسر ؛ وإنما يكون الأسر بعد المبالغة في القتل .

و" الوَثاق " اسم من الإيثاق ؛ تقول : أوثقتُه إيثاقاً ووَثاقاً ، إذا شددتَ أسره لئلا يُفلِت ﴿ فإمّا مَنّاً بَعْدُ ﴾ قال أبو عبيدة : إمّا أن تُمنُّوا وإمّا أن تفادوا ، ومثلُه سَقْياً ، ورَعْياً ، وإنما هو سُقِيتَ ورُعِيتَ .

وقال الزجاج : إمَّا مننتُم عليهم بعد أن تأسِروهم مَنّاً ، وإمّا أطلقتُموهم بِفداء .

فصل

وهذه الآية محكَمة عند عامَّة العلماء .

وممَّن ذهب إلى أنَّ حُكم المَنِّ والفداء باقٍ لم يُنْسَخ : ابنُ عمر ، ومجاهدٌ ، والحسنُ ، وابنُ سيرين ، وأحمدُ ، والشافعيُّ .

وذهب قوم إلى نسخ المَنِّ والفداء بقوله : ﴿ فاقْتُلوا المشركين حيثُ وجدتموهم ﴾ ، وممن ذهب إلى هذا ابن جريج ، والسدي وأبو حنيفة .

وقد أشرنا إلى القولين في [براءة : 5] .

قوله تعالى : ﴿ حتَّى تَضَعَ الحربُ أوزارَها ﴾ قال ابن عباس : حتى لا يبقى أحد من المشركين .

وقال مجاهد : حتى لا يكون دِينٌ إلاّ دين الإسلام .

وقال سعيد بن جبير : حتى يخرُج المسيح .

وقال الفراء : حتى لا يبقى إلاّ مُسْلِم أو مُسالِم .

وفي معنى الكلام قولان :

أحدهما : حتى يضعَ أهلُ الحرب سلاحَهم ؛ قال الأعشى :

وَأَعْدَدْتُ لِلْحَرْبِ أَوْزَارَهَا . . .

رِمَاحاً طِوَالاً وَخَيْلاً ذُكُورا

وأصل " الوِزْرِ " ما حملته ، فسمّى السلاح " أوزاراً " لأنه يُحْمل ، هذا قول ابن قتيبة .

والثاني : حتى تضعَ حربُكم وقتالكم أوزارَ المشركين وقبائح أعمالهم بأن يُسْلِموا ولا يعبُدوا إلاَّ الله ، ذكره الواحدي .

قوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ أي : الأمر ذلك الذي ذَكَرْنا ﴿ ولو يشاء اللهُ لانْتَصَر منهم ﴾ بإهلاكهم أو تعذيبهم بما شاء ﴿ ولكنْ ﴾ أمركم بالحرب ﴿ لِيَبْلُو بعضَكم ببعض ﴾ فيُثيب المؤمن ويُكرمه بالشهادة ، ويُخزي الكافر بالقتل والعذاب .

قوله تعالى : ﴿ والذين قُتِلُوا ﴾ قرأ أبو عمرو ، وحفص عن عاصم : ﴿ قُتِلُوا ﴾ بضم القاف وكسر التاء ؛ والباقون : ﴿ قاتَلُوا ﴾ بألف .

قوله تعالى : ﴿ سيَهدِيهم ﴾ فيه أربعة أقوال :

أحدها : يَهديهم إلى أرشد الأمور ، قاله ابن عباس .

والثاني : يحقق لهم الهداية ، قاله الحسن .

والثالث : إلى مُحاجَّة منكَر ونكير .

والرابع : إلى طريق الجنة ، حكاهما الماوردي .

وفي قوله : ﴿ عرَّفها لهم ﴾ قولان :

أحدهما : عرَّفهم منازلهم فيها فلا يستدِلُّون عليها ولا يُخطِئونها ، هذا قول الجمهور ، منهم مجاهد وقتادة ، واختاره الفراء ، وأبو عبيدة .

والثاني : طيَّبها لهم ، رواه عطاء عن ابن عباس .

قال ابن قتيبة : وهو قول أصحاب اللغة يقال : طعامٌ معرَّف ، أي : مطيَّب .

وقرأ أبو مجلز ، وأبو رجاء وابن محيصن : ﴿ عَرَفَها لهم ﴾ بتخفيف الراء .

قوله تعالى : ﴿ إن تنصُروا اللهَ ﴾ أي : تنصُروا دينه ورسوله ﴿ ينصُرْكم ﴾ على عدوِّكم ﴿ ويثبِّتْ أقدامكم ﴾ عند القتال .

وروى المفضل عن عاصم : ﴿ ويُثْبِتْ ﴾ بالتخفيف .

﴿ والذين كَفَروا فتَعْساً لهم ﴾ قال الفراء : المعنى : فأتْعَسَهم اللهُ ، والدُّعاء قد يجري مَجرى الأمر والنهي .

قال ابن قتيبة : هو من قولك : تَعَسْتُ ، أي : عَثَرْتُ وسَقَطْتُ .

وقال الزجاج : التَّعْسُ في اللغة : الانحطاط والعُثُور .

وما بعد هذا قد سبق بيانه [الكهف : 105] [يوسف : 109] إلى قوله : ﴿ دمَّر اللهُ عليهم ﴾ أي : أهلكم [اللهُ] ﴿ وللكافرين أمثالُها ﴾ أي : أمثالُ تلك العاقبة .

﴿ ذلك ﴾ الذي فعله بالمؤمنين من النصر ، وبالكافرين من الدَّمار ﴿ بأنَّ اللهَ مَوْلَى الذين

آمَنوا ﴾ أي : وليُّهم .

وما بعد هذا ظاهر إلى قوله : ﴿ ويأكُلون كما تأكُل الأنعامُ ﴾ أي : إن الأنعام تأكُل وتشرب ، ولا تَدري ما في غدٍ ، فكذلك الكفار لا يلتفتون إلى الآخرة .

والمَثْوَى : المَنْزِل .

﴿ وكأيِّن ﴾ مشروح في [آل عمران : 146] .

والمراد بقريته مكة ؛ وأضاف القوة والإخراج إليها ، والمراد أهلُها ولذلك قال ﴿ أهلَكْناهم ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أفَمَن كان على بيِّنة من ربِّه ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاله أبو العالية .

والثاني : أنه المؤمن ، قاله الحسن .

وفي ﴿ البيِّنة ﴾ قولان .

أحدهما : القرآن ، قاله ابن زيد .

والثاني : الدِّين ، قاله ابن السائب .

﴿ كَمَنْ زُيِّن له سوءُ عمله ﴾ يعني عبادة الأوثان ، وهو الكافر ﴿ واتَّبَعوا أهواءَهم ﴾ بعبادتها .

﴿ مَثَلُ الجَنَّةِ التي وعد المتقون ﴾ أي : صِفَتُها وقد شرحناه في [الرعد : 35] .

و" المتَّقون " عند المفسرين : الذين يَتَّقون الشِّرك .

و" الآسِن " المتغيِّر الرِّيح ، قاله أبو عبيدة ، والزجاج .

وقال ابن قتيبة : هو المتغير الرِّيح والطَّعم و " الآجِن " نحوه .

وقرأ ابن كثير ﴿ غيرِ أسِنٍ ﴾ بغير مد .

وقد شرحنا قوله : ﴿ لَذَّةٍ للشّارِبين ﴾ في [الصافات : 46] .

قوله تعالى : ﴿ من عسلٍ مُصَفّىً ﴾ أي : من عسل ليس فيه عكر ولا كدر كعسل أهل الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ كَمَنْ هو خالدٌ في النار ﴾ قال الفراء : أراد مَنْ كان في هذا النعيم ، كمن هو خالد في النار ؟ ! .

قوله تعالى : ﴿ ماءً حميماً ﴾ أي : حارا شديد الحرارة .

و" الأمعاء " جميع ما في البطن من الحوايا .

قوله تعالى : ﴿ ومنهم مَنْ يَسْتَمِعُ إليكَ ﴾ يعني المنافقين .

وفيما يستمعون قولان .

أحدهما : أنه سماع خُطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم يومَ الجمعة .

والثاني : سماع قوله على عموم الأوقات .

فأمّا ﴿ الذين أوتوا العلم ﴾ ، فالمراد بهم : علماء الصحابة .

قوله تعالى : ﴿ ماذا قال آنفاً ﴾ قال الزجاج : أي : ماذا قال الساعة ، وهو من قولك : استأنفتُ الشيء : إذا ابتدأتَه ، وروضة أُنُف : لمن تُرْعَ ، أي : لها أوّل يُرْعى ؛ فالمعنى : ماذا قال في أوّل وقت يَقْرُبُ مِنّا .

وحُدِّثْنا عن أبي عمر غلامِ ثعلب أنه قال : معنى " آنفاً " مُذْ ساعة .

وقرأ ابن كثير ، في بعض الروايات عنه : " أَنِفاً " بالقصر ، وهذه قراءة عكرمة ، وحميد وابن محيصن .

قال أبو علي : يجوز أن يكون ابن كثير توهَّم ، مثل حاذِر وحَذِر ، وفاكِه وفَكِه وفي استفهامهم قولان .

أحدهما : لأنهم لم يَعْقِلوا ما يقول ، ويدُلُّ عليه باقي الآية .

والثاني : أنهم قالوه استهزاءً .

قوله تعالى : ﴿ والذين اهْتَدَوْا ﴾ فيهم قولان .

أحدهما : أنهم المسلمون ، قاله الجمهور .

والثاني : قومٌ من أهل الكتاب كانوا على الإِيمان بأنبيائهم وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، فلمّا بُعث محمدٌ صلى الله عليه وسلم آمَنوا به ، قاله عكرمة .

وفي الذي زادهم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الله عز وجل .

والثاني : قول الرسول .

والثالث : استهزاء المنافقين زاد المؤمنين هُدىً ، ذكرهن الزجاج .

وفي معنى الهُدى قولان .

أحدهما : أنه العِلْم .

والثاني : البصيرة .

وفي قوله : ﴿ وآتاهم تقواهم ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : ثواب تقواهم في الآخرة ، قاله السدي .

والثاني : اتِّقاء المنسوخ والعمل بالناسخ ، قاله عطية .

والثالث : أعطاهم التقوى مع الهُدى ، فاتَّقَوْا معصيته خوفاً من عقوبته ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

و﴿ ينظُرونَ ﴾ بمعنى ينتظِرون ﴿ أن تأتيَهم ﴾ وقرأ أُبيُّ بن كعب، وأبو الأشهب، وحميد: ﴿ إِنْ تَأْتِهم ﴾ بكسر الهمزة من غير ياء بعد التاء.

والأشراط: العلامات؛ قال أبو عبيدة: الأشراط: الأعلام، وإنما سمّي الشُّرط فيما تَرى لأنهم أعلموا أنفُسهم.

قال المفسرون: ظُهور النبيِّ صلى الله عليه وسلم من أشراط الساعة، وانشقاقُ القمر والدخانُ وغير ذلك.

﴿ فأَنَّى لهم ﴾ أي: فمِن أين لهم ﴿ إذا جاءتْهم ﴾ الساعة ﴿ ذِكْراهم ﴾ ؟! قال قتادة: أَنَّى لهم أن يَذَّكَّروا ويتوبوا إذا جاءت؟!.

قوله تعالى: ﴿ فاعْلَمْ أنه لا إله إلاّ اللهُ ﴾ قال بعضهم: اثْبُتْ على عِلْمك، وقال قوم: المراد بهذا الخطاب غيره؛ وقد شرحنا هذا في فاتحة (الأحزاب).

وقيل: إنه كان يَضيق صدرُه بما يقولون، فقيل له: اعْلَمْ أنه لا كاشفَ لما بكَ إلاّ اللهُ.

فأمّا قوله؛ ﴿ واستَغْفِر لذنْبكَ ﴾ فإنه كان يَستغفر في اليوم مائة مرة، وأُمر أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات إكراماً لهم لأنه شفيعٌ مُجابٌ.

﴿ واللهُ يَعْلَمُ متقلَّبَكم ومَثْواكم ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : مُتقلَّبكم في الدنيا ومثواكم في الآخرة ، وهو معنى قول ابن عباس .

والثاني : مُتقلَّبكم في أصلاب الرجال إلى أرحام النساء ، ومقامكم في القبور ، قاله عكرمة .

والثالث : " مُتقلَّبكم " بالنهار و " مثواكم " أي : مأواكم بالليل ، قاله مقاتل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 7 صـ 395.405 ﴾

(258/708)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ﴾

يعني أبطلها ولم يتقبلها منهم .

وأراد بالأعمال : ما كانوا يفعلون من أعمال البر في إطعام الطعام ، وصلة الأرحام وفك العاني وهو الأسير ، وإجارة المستجير ، ونحو ذلك .

وقال بعضهم : أول هذه السورة متعلق بآخر سورة الأحقاف المتقدمة كأن قائلاً قال : كيف يهلك القوم الفاسقون ولهم أعمال صالحة كإطعام الطعام ونحوه من الأعمال والله لا يضيع

لعامل عمله ولو كان مثقال ذرة من خير فأخبر بأن الفاسقين هم الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم يعني أبطلها لأنها لم تكن لله ولا بأمره إنما فعلوها من عند أنفسهم ليقال عنهم ذلك فلهذا السبب أبطلها الله تعالى وقال الضحاك : أبطل كيدهم ومكرهم بالنبي (صلى الله عليه وسلم) وجعل الدائرة عليهم .

قال بعضهم : المراد بقوله ، ﴿ الذين كفروا ﴾ هم الذين كانوا يطعمون الجيش يوم بدر وهم رؤوس كفار قريش منهم أبو جهل ، والحارث بن هشام ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وغيرهم .

(259/708)

وقيل : هم جميع كفار قريش وقيل هم كفار أهل الكتاب وقيل هو عام فيدخل فيه كل كافر ﴿ وصدوا عن سبيل الله ﴾ يعني ومنعوا غيرهم عن الدخول في دين الله وهو الإسلام أو منعوا أنفسهم من الدخول في الإسلام ﴿ أضل أعمالهم ﴾ يعني أبطلها لأنها كانت لغير الله ومنه قوله تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ قال ابن عباس الذين كفروا مشركو قريش ، والذين آمنوا هم الأنصار وقيل مؤمنو أهل الكتاب وقيل هو عام فيدخل فيه كل مؤمن آمن بالله ورسوله وهذا هو الأولى ليشمل جميع المؤمنين ﴿ وآمنوا بما نزل على محمد ﴾ يعني القرآن الذي

أنزله الله على محمد وإنما ذكره بلفظ الاختصاص مع ما يجب من الإيمان بجميع ما جاء به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن الله تعظيماً لشأن القرآن الكريم وتنبيهاً على أنه لا يتم الإيمان إلا به وأكد ذلك بقوله : ﴿ وهو الحق من ربهم ﴾ وقيل : معناه أن دين محمد (صلى الله عليه وسلم) هو الحق لأنه ناسخ للأديان كلها ولا يرد عليه نسخ وقال سفيان الثوري في قوله ﴿ وآمنوا بما نزل على محمد ﴾ يعني لم يخالفوه في شيء ﴿ كفر عنهم سيئاتهم ﴾ يعني ستر بأيمانهم وعملهم الصالح ما كان منهم من الكفر والمعاصي لرجوعهم وتوبتهم منها فغفر لهم بذلك ما كان منهم ﴿ وأصلح بالهم ﴾ يعني حالهم وشأنهم وأمرهم بالتوفيق في أمور الدين والتسليط على أمور الدنيا بما أعطاهم من النصر على أعدائهم .

(260/708)

وقيل أصلح بالهم يعني قلوبهم لأن القلب إذا صلح صلح سائر الجسد وقال ابن عباس عصمهم أيام حياتهم يعني أن هذا الإصلاح يعود إلى إصلاح أعمالهم حتى لا يعصوا ﴿ ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ﴾ يعني الشيطان ﴿ وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم ﴾ يعني القرآن ومعنى الآية ذلك الأمر وهو إضلال أعمال الكفار وتكفير سيئات المؤمنين كائن بسبب إتباع الكفار الباطل وإتباع المؤمنين الحق من ربهم ﴿ كذلك يضرب

الله للناس أمثالهم ﴾ الضمير في أمثالهم راجع إلى الناس على أنه تعالى يضرب للناس أمثال أنفسهم أو أنه راجع إلى الفريقين على معنى أنه تعالى ضرب أمثال الفريقين للناس ليعتبروا بها قال الزجاج كذلك يضرب الله أمثال حسنات المؤمنين وأمثال أعمال الكافرين للناس .

قوله تعالى : ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا ﴾ من اللقاء وهو الحرب ﴿ فضرب الرقاب ﴾ يعني : فاضربوا رقابهم ضرباً .

وضرب الرقاب ، عبارة عن القتل ، إلا أن المراد ضرب الرقاب فقط دون سائر الأعضاء وإنما خص الرقاب بالضرب ، لأن قتل الإنسان أشنع ما يكون بضرب رقبته فلذلك خصت بالذكر في الأمر بالقتل ولأن الرأس من أشرف أعضاء البدن فإذا أبين عن بدنه كان أسرع إلى الموت والهلاك بخلاف غيره من الأعضاء ﴿ حتى إذا أثخنتموهم ﴾ يعني بالغنم في القتل وقهرتموهم مأخوذ من الشيء الثخين الغليظ .

والمعنى : إذا اثقلتموهم بالقتل والجراح ومنعتموهم النهوض والحركة ﴿ فشدوا الوثاق ﴾ يعني في الاسرى والمعنى فأسروهم وشدوا وثاقهم حتى لا يفلتوا منكم والوثاق اسم لما يوثق به أي يشد به ﴿ فإما منّاً بعد وإما فداء ﴾ يعني بعد الأسر إما أن تمنوا عليهم منا بإطلاقهم من غير عوض وإما أن تفادوهم فداء .

(فصل : في حكم الآية)

اختلف العلماء في حكم هذه الآية فقال قوم هي منسوخة بقوله ﴿ فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم ﴾ وبقوله ﴿ اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ وهذا قول قتادة والضحاك والسدي وابن جريج وإليه ذهب الأوزاعي وأصحاب الرأي قالوا لا يجوز لمن على من وقع في الأسر من الكفار ولا الفداء بل إما القتل أو الاسترقاق أيهما رأى الإمام.

ونقل صاحب الكشاف عن مجاهد قال ليس اليوم من ولا فداء إنما هو الإسلام أو ضرب العنق ويجوز أن يكون المراد أن يمن عليهم بترك القتل ويسترقوا أو يمن عليهم فيخلوا لقبول الجزية إن كانوا من أهل الذمة ويراد بالفداء أن يفادى بأسراهم أسرى المسلمين فقد رواه الطحاوي مذهباً عن أبي حنيفة والمشهور عنه أنه لا يرى فداءهم لا بمال ولا بغيره خيفة أن يعودوا حرباً للمسلمين وذهب أكثر العلماء إلى أن الآية محكمة والإمام بالخيار في الرجال البالغين من الكفار إذا أسروا بين أن يقتلهم أو يسترقهم أو يمن عليهم فيطلقهم بلا عوض أو يفاديهم بالمال أو بأسارى المسلمين وإليه ذهب ابن عمر وبه قال الحسن وعطاء وأكثر الصحابة والعلماء وهو قول الثوري والشافعي وأحمد وإسحاق.

(262/708)

قال ابن عباس : لما كثر المسلمون واشتد سلطانهم أنزل الله في الأسارى ﴿ فإما منا بعد وإما فداء ﴾ وهذا القول هو الصحيح ولأنه به عمل النبي (صلى الله عليه وسلم) والخلفاء بعده (ق) عن أبي هريرة قال : " بعث النبي (صلى الله عليه وسلم) خيلاً قبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال فربطوه في سارية من سواري المسجد فخرج إليه النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال : ما عندك يا ثمامة ؟ فقال : عندي خير يا محمد إن تقتل تقتل ذا دم وإن تنعم تنعم على شاكر وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت فتركه النبي (صلى الله عليه وسلم) حتى إذا كان من الغد قال : ما عندك يا ثمامة ؟ قال : ما قلت لك إن تنعم تنعم على شاكر وإن تقتل تقتل ذا دم وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت فتركه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى إذا كان من الغد قال : ما عندك يا ثمامة قال : عندي ما قلت لك إن تنعم تنعم على شاكر وإن تقتل تقتل ذا دم وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : أطلقوا ثمامة .

فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله والله ما كان على الأرض أبغض إليّ من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي .

والله ما كان من دين أبغض من دينك فأصبح دينك أحب الدين كله إليّ والله ما كان من بلد

أبغض إلي من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إليّ وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى فبشره النبي (صلى الله عليه وسلم) وأمره أن يعتمر فلما قدم مكة قال له قائل : أصبوت ؟ قال : لا ولكني أسلمت مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "

(263/708)

لفظ مسلم بطوله واختصره البخاري عن عمران بن حصين قال " أسر أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رجلاً من بني عقيل فأوثقوه وكانت ثقيف قد أسرت رجلين من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ففداه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالرجلين الذين أسرتهما ثقيف " أخرجه الشافعي في مسنده وأخرده مسلم وأبو داود بلفظ أطول من هذا .

وقوله تعالى : ﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ يعني أثقالها وأحمالها والمراد أهل الحرب يعني حتى يضعوا أسلحتهم ويمسكوا عن القتال وأصل الوزر : ما يحمله الإنسان فسمى الأسلحة وزراً لأنها تحمل .

وقيل : الحرب هم المحاربون مثل الشرب والركب .

وقيل : الأوزار الآثام .

ومعناه : حتى يضع المحاربون أوزارهم بأن يتوبوا من كفرهم فيؤمنوا بالله ورسوله .

وقيل : معناه حتى تضع حربكم وقتالكم أوزار المشركين وقبائح أعمالهم بأن يسلموا .

ومعنى الآية : أثخنوا المشركين بالقتل والأسر حتى يدخل أهل الملل كلها في الإسلام ويكون الدين كله لله فلا يكون بعده جهاد ولا قتال وذلك عند نزول عيسى ابن مريم عليه السلام وجاء في الحديث عن النبي (صلى الله عليه وسلم) " الجهاد ماض منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر متى الدجال "

﴿ سيهديهم ﴾ يعني أيام حياتهم في الدنيا إلى أرشد الأمور في الآخرة إلى الدرجات العلي ﴿ ويصلح بالهم ﴾ ويرضي أعمالهم ويقبلها ﴿ ويدخلهم الجنة عرفها لهم ﴾ يبين لهم منازلهم في الجنة حتى اهتدوا إلى مساكنهم لا يخطئونها ولا يستدلون عليها كأنهم ساكنوها منذ خلقوا فيكون المؤمن أهدى إلى درجته ومنزله وزوجته وخدمه منه إلى منزله وأهله في الدنيا هذا قول أكثر المفسرين .

ونقل عن ابن عباس عرفها لهم طيبها لهم من العرف وهو الريح الطيبة وطعام معرف أي مطيب .

قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ﴾ يعني تنصروا دين الله ورسوله وقيل : تنصروا أولياء الله وحزبه ﴿ ينصركم ﴾ يعني على عدوكم ﴿ ويثبت أقدامكم ﴾ يعني عند القتال وعلى الصراط .

﴿ والذين كفروا فتعساً لهم ﴾ قال ابن عباس : يعني بعداً لهم .

وقال أبو العالية : سقوطاً لهم وقال الضحاك : خيبة لهم .

وقال ابن زيد : شقاء لهم .

وقيل : التعس في الدنيا العثرة وفي الآخرة التردي في النار .

يقال للعاثر : تعساً إذا دعوا عليه ولم يريدوا قيامه وضده لعا إذا دعوا له وأرادوا قيامه وفي هذا إشارة جليلة وهي أنه تعالى لما قال في حق المؤمنين ﴿ ويثبت أقدامكم ﴾ ، يعني في الحرب والقتال ، كان من الجائز أن يتوهم متوهم أن الكافر أيضاً يصبر ويثبت قدمه في الحرب والقتال فأخبر الله تعالى أن لكم الثبات أيها المؤمنون ولهم العثار والزوال والهلاك وقال في حق المؤمنين بصيغة الوعد لأن الله تعالى لا يجب عليه شيء وقال في حق الكفار بصيغة الدعاء عليهم ﴿ وأضل أعمالهم ﴾ يعني أبطل أعمالهم لأنها كانت في طاعة الشيطان ﴿ ذلك ﴾ يعني التعس والإضلال ﴿ بأنهم كرهوا ما أنزل الله ﴾ يعني القرآن الذي فيه النور والهدى وإنما كرهوه لأن فيه الأحكام والتكاليف الشاقة على النفس لأنهم كانوا قد

ألفوا الإهمال وإطلاق العنان في الشهوات والملاذ فشق عليهم ذلك والأخذ بالجد والاجتهاد في طاعة الله فلهذا السبب كرهوا ما أنزل الله ﴿ فأحبط أعمالهم ﴾ يعني فأبطل أعمالهم التي عملوها في غير طاعة الله ولأن الشرك محبط للعمل .

ثم خوف الكفار فقال تعالى : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ يعني من الأمم الماضية والقرون الخالية الكافرة ﴿ دمر الله عليهم ﴾ يقال : دمره الله .

(265/708)

يعني أهلكه ، ودمر عليه إذا أهلك ما يختص به والمعنى أهلك الله عليهم ما يختص بهم من أنفسهم وأموالهم وأولادهم ﴿ وللكافرين ﴾ يعني بمحمد (صلى الله عليه وسلم) ﴿ أمثالها ﴾ يعني إن لم يؤمنوا بمحمد (صلى الله عليه وسلم) وبما جاءهم به من عند الله وهذا التضعيف إنما يكون في الآخرة ﴿ ذلك ﴾ يعني الإهلاك والهوان ﴿ بأن ﴾ أي بسبب أن ﴿ الله مولى الذين آمنوا ﴾ يعني هو ناصرهم ووليهم ومتولي أمورهم ﴿ وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ يعني لا ناصر لهم وسبب ذلك أن الكفار لما عبدوا الأصنام وهي جماد لا تضر ولا تنفع ولا تنصر من عبدها فلا جرم ولا ناصر لهم والفرق بين قوله : ﴿ وأن

الكافرين لا مولى لهم ﴾ وبين قوله ﴿ ثم ردوا إلى الله مولاهم ﴾ الحق أن المولى هنا بمعنى الناصر والمولى هناك بمعنى الرب والمالك والله تعالى رب كل أحد من الناس ومالكهم فبان الفرق بين الآيتين ولما ذكر الله تعالى حال المؤمنين والكافرين في الدنيا ذكر حالهم في الآخرة فقال تعالى : ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ يعني هذا لهم في الآخرة ﴿ والذين كفروا يتمتعون ﴾ يعني في الدنيا بشهواتها ولذاتها ﴿ ويأكلون كما تأكل الأنعام ﴾ يعني ليس لهم همة إلا بطونهم وفروجهم وهم مع ذلك لاهون ساهون عما يراد بهم في غد ولهذا شبههم بالأنعام لأن الأنعام لا عقل لها ولا تمييز وكذلك الكافر لا عقل له ولا تمييز لأنه لو كان له عقل ما عبد ما يضره ولا ينفعه .

قوله : ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون ﴾ لما بين الله حال الفريقين في الاهتداء والضلال بيَّن في هذه الآية ما أعد لكل واحد من الفريقين فبين أولاً ما أعد للمؤمنين المتقين فقال تعالى : ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون ﴾ يعني صفة الجنة .

قال سيبويه : المثل هو الوصف فمعناه وصف الجن وذلك لا يقتضي مشبهاً به .

وقيل : الممثل به محذوف غير مذكور والمعنى مثل الجنة التي وعد المتقون مثل عجيب وشيء عظيم وقيل : الممثل به مذكور وهو قوله : ﴿ كمن هو خالد في النار ﴾ ﴿ فيها ﴾ يعني الجنة التي وعد المتقون ﴿ إنها من ماء غير آسن ﴾ يعني غير متغير ولا منتن . يقال : أسن الماء وأجن إذا تغير طعمه وريحه ﴿ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ﴾ يعني كما تتغير ألبان الدنيا فلا يعود حامضاً ولا قارصاً ولا ما يكره من الطعوم ﴿ وأنهار من خمر لذة للشاربين ﴾ يعني ليس فيها حموضة ولا عفوصة ولا مرارة ولم تدنسها الأرجل بالدوس ولا الأيدي بالعصر وليس من شرابها ذهاب عقل ولا صداع ولا خمار بل هي لمجرد الالتذاذ فقط ﴿ وأنهار من عسل مصفى ﴾ يعني ليس فيه شمع كعسل الدنيا ولم يخرج من بطون النحل حتى يموت فيه بعض نحله بل هو خالص صاف من جميع شوائب عسل الدنيا .

عن حكيم بن معاوية عن أبيه عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : " إن في الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر ثم تشقق الأنهار بعد " أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح (م) عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة " قال الشيخ محيي الدين النووي في شرح مسلم : سيحان وجيحان غير سيحون وجيحون فأما سيحان جيحان المذكوران في الحديث اللذان هما من أنهار الجنة فهما في بلاد الأرمن فسيحان نهر أردنة وجيحان نهر المصيصة وهما نهران عظيمان جداً أكبرهما جيحان هذا هو الصواب في موضعهما ثم ذكر

كلاماً بعد هذا طويلاً .

ثم قال : فأما كون هذه الأنهار من ماء الجنة ، ففيه تأويلان الثاني ، وهو الصحيح ، أنها على ظاهرها وأن لها مادة من الجنة .

فالجنة مخلوقة موجودة اليوم هذا مذهب أهل السنة .

(267/708)

وقال كعب الأحبار : نهر دجلة نهر ماء أهل الجنة ، ونهر الفرات نهر لبنهم ، ونهر مصر نهر خمرهم ، ونهر سيحان نهر عسلهم ، وهذه الأنهار الأربعة تخرج من نهر الكوثر هكذا نقله البغوي عنه .

وقوله تعالى : ﴿ ولهم فيها من كل الثمرات ﴾ في ذكر الثمرات بعد المشروب إشارة إلى أن مأكول أهل الجنة للذة لا الحاجة فلهذا ذكر الثمار بعد المشروب لأنها للتفكه واللذة ﴿ ومغفرة من ربهم ﴾ فإن قلت : المؤمن المتقي لا يدخل الجنة إلا بعد المغفرة ، فكيف يكون له فيها المغفرة .

قلت ليس بلازم أن يكون المعنى ولهم مغفرة فيها لأن الواو لا تقتضي الترتيب فيكون المعنى ولهم فيها من كل الثمرات ولهم مغفرة قبل دخولهم إليها ، وجواب آخر وهو أن المعنى ولهم

مغفرة فيها برفع التكاليف عنهم فيما يأكلون ويشربون بخلاف الدنيا فإن مأكولها يترتب عليه حساب وعقاب ونعيم الجنة لا حساب عليه ولا عقاب فيه قوله تعالى : ﴿ كمن هو خالد في النار ﴾ يعني من هو في هذا النعيم المقيم الدائم كمن هو خالد في النار يتجرع من حميمها وهو قوله ﴿ وسقوا ماء حميماً ﴾ يعني شديد الحر قد استعرت عليه جهنم منذ خلقت ، إذا دنا منهم شوى وجوههم ، ووقعت فروة رؤوسهم ﴿ ف ﴾ إذا شربوه (قطع أمعاءهم) يعني فخرجت من أدبارهم والأمعاء جمع معي وهو جميع ما في البطن من الحوايا .

وقال الزجاج : قوله كمن هو خالد في النار راجع إلى ما تقدم كأنه تعالى قال : أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله وهو خالد في النار وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم .

عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : " إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الحميم حتى يخلص إلى جوفه فيسلت ما في جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصهر ثم يعاد " كما كان أخرجه الترمذي وقال : حديث غريب حسن صحيح .

عن أبي أمامة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) " في قوله يسقى من ماء صديد يتجرعه قال : يقرب إلى فيه فيكرهه فإذا دنا منه وجهه ووقعت فروة رأسه ، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره .

قال الله تعالى : ﴿ ماء حميماً فقطع أمعاءهم ﴾ ويقول : وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه " أخرجه الترمذي وقال حديث غريب .

قوله تعالى : ﴿ ومنهم ﴾ يعني ومن هؤلاء الكفار ﴿ من يستمع إليك ﴾ وهم المنافقون يستمعون قولك فلا يعونه ولا يفهمونه تهاوناً به وتغافلاً عنه ﴿ حتى إذا خرجوا من عندك ﴾ يعني أن هؤلاء المنافقين الذين كانوا عندك يا محمد يستمعون كلامك فإذا خرجوا من عندك ﴿ قالوا ﴾ يعني المنافقين ﴿ للذين أوتوا العلم ﴾ يعني من الصحابة ﴿ ماذا قال آنفاً ﴾ يعني ما الذي قال محمد الآن وهو من الائتناف .

(269/708)

يقال : ائتنفت الأمر أي ابتدأته قال مقاتل : وذلك أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يخطب ويعيب المنافقين ، فإذا خرجوا من المسجد سألوا عبد الله بن مسعود استهزاء ماذا قال محمد (صلى الله عليه وسلم) قال ابن عباس وقد سئلت فيمن سئل ﴿ أولئك

﴿ يعني المنافقين ﴾ الذين طبع الله على قلوبهم ﴾ يعني فلم يؤمنوا ولم ينتفعوا بما سمعوا من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ﴿ واتبعوا أهواءهم ﴾ يعني في الكفر والنفاق والمعنى أنهم لما تركوا إتباع الحق أماتَ الله قلوبهم فلم تفهم ولم تعقل فعند ذلك اتبعوا أهواءهم في الباطل ﴿ والذين اهتدوا ﴾ يعني المؤمنين لما بين الله أن المنافق يسمع ولا ينتفع بل هو مصر على متابعة الهوى بين حال المؤمن المهتدي الذي ينتفع بما يستمع فقال تعالى : ﴿ والذين اهتدوا ﴾ يعني بهداية الله إياهم إلى الإيمان ﴿ زادهم هدى ﴾ يعني أنهم كلما سمعوا من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مما جاء به عن الله آمنوا بما سمعوا منه وصدقوه فيزيدهم ذلك هدى مع هدايتهم وإيماناً مع إيمانهم ﴿ وآتاهم تقواهم ﴾ يعني وفقهم للعمل بما أمرهم به وهو التقوى .

قوله : ﴿ فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ﴾ يعني الكافرين والمنافقين الذين قعدوا عن الإيمان فلم يؤمنوا فالساعة بغتة تفجؤهم وهم على كفرهم ونفاقهم ففيه وعيد وتهديد والمعنى لا ينظرون إلى الساعة والساعة آتية لا محالة وسميت القيامة ساعة لسرعة قيامها .

عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " بادروا بالأعمال سبعاً فهل تنتظرون إلا فقراً منسياً أو غنى مطغياً أو مرضاً مفسداً أو هرماً مقيداً أو موتاً مجهزاً أو الدجال فشر غائب ينتظر أو الساعة والساعة أدهى وأمر " أخرجه الترمذي وقال :

حديث حسن .

وقوله تعالى : ﴿ فقد جاء أشراطها ﴾ أي أماراتها وعلاماتها واحدها شرط .

(270/708)

ولما كان قيام الساعة أمراً مستبطأ في النفوس وقد قال الله تعالى : فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فكأن قائلاً قال متى يكون قيام الساعة فقال تعالى : ﴿ فقد جاء أشراطها ﴾ قال المفسرون : من أشراط الساعة انشقاق القمر وبعثة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (ق) .

عن سهل بن سعد قال : " رأيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال بأصبعه هكذا الوسطى والتي تلي الإبهام وقال : بعثت أنا والساعة كهاتين وفي رواية قال بعثت أنا والساعة كهاتين ويشير بأصبعيه يمدهما " (ق) عن أنس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " بعثت أنا والساعة كهاتين كفضل أحدهما على الأخرى وضم السبابة والوسطى وفي رواية قال بعثت في نفس الساعة فسبقتها كفضل هذه على الأخرى " قيل معنى الحديث أن المراد أن ما بين مبعثه (صلى الله عليه وسلم) وقيام الساعة شيء يسير كما بين الإصبعين في الطول وقيل هو إشارة إلى قرب المجاورة (ق) عن أنس قال عند قرب

وفاته ألا أحدثكم حديثاً عن النبي (صلى الله عليه وسلم) لا يحدثكم به أحد غيري سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول " لا تقوم الساعة أو قال من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويظهر الجهل ويشرب الخمر ويفشو الزنى ويذهب الرجال ويبقى النساء حتى يكون لخمسين امرأة قيم .

(271/708)

وفي رواية ويظهر الزنى ويقل الرجال ويكثر النساء " (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " إن من أشراط الساعة أن يتقارب الزمان وينقص العلم وتظهر الفتن ويبقى الشح ويكثر الهرج قالوا وما الهرج قال القتل وفي رواية : يرفع العلم ويثبت الجهل أو قال ويظهر الجهل " (خ) عن أبي هريرة قال : " بينا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في مجلس يحدث القوم إذ جاءه أعرابي فقال متى الساعة فمضى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في حديثه فقال بعض القوم سمع ما قال فكره ما قال وقال بعضهم : بل لم يسمع حتى إذا قضى حديثه قال أين السائل عن الساعة قال : ها أنا ذا يا رسول الله قال : إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة قال وكيف إضاعتها ؟ قال إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة " .

وقوله تعالى : ﴿ فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ﴾ يعني فمن أين لهم التذكر والاتعاظ والتوبة إذا جاءتهم الساعة بغتة .

وقيل : معناه كيف يكون حالهم إذا جاءتهم الساعة فلا تنفعهم الذكرى ولا تقبل منهم التوبة ولا يحتسب بالإيمان في ذلك الوقت ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ الخطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) .

وأورد على هذا أنه (صلى الله عليه وسلم) كان عالماً بالله وأنه لا إله إلا هو فما فائدة هذا الأمر .

وأجيب عنه بأن معناه : دُمْ على ما أنت عليه من العلم .

فهو كقول القائل للجالس : اجلس أي دم على ما أنت عليه من الجلوس أو يكون معناه ازدد علماً إلى علمك .

وقيل : إن هذا الخطاب وإن كان للنبي (صلى الله عليه وسلم) ، فالمراد به غيره من أمته .

قال أبو العالية وسفيان بن عيينة : هذا متصل بما قبله .

معناه : إذا جاءتهم فاعلم أنه لا ملجأ ولا منجى ولا مفزع عند قيامها إلا إلى الله الذي لا إله إلا هو .

وقيل : معناه فاعلم أنه لا إله إلا الله وأن جميع الممالك تبطل عند قيامها فلا ملك ولا حكم لأحد إلا الله الذي لا إله إلا هو ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ أمر الله نبيه (صلى الله عليه وسلم) بالاستغفار مع أنه مغفور له ليستنَّ به أمته وليقتدوا به في ذلك (م) عن الأغر المزني أغر مزينة قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : " إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر في اليوم مائة مرة وفي رواية قال : توبوا إلى ربكم فوالله إني لأتوب إلى ربي مائة مرة في اليوم " (خ) عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول " إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة وفي رواية أكثر من سبعين مرة " قوله : إنه ليغان على قلبي الغين التغطية والستر أي يلبس على قلبي ويغطي وسبب ذلك ما أطلعه عليه من أحوال أمته بعده فأحزنه ذلك حتى كان يستغفر لهم .

وقيل : إنه لما كان يشغله النظر في أمور المسلمين ومصالحهم حتى يرد أنه قد شغل بذلك وإن كان من أعظم طاعة وأشرف عبادة عن أرفع مقام مما هو فيه وهو التفرد بربه وصفاء وقته معه وخلوص همه من كل شيء سواه فلهذا السبب كان (صلى الله عليه وسلم) يستغفر الله فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 6 صـ 180.172 ﴾

وقال النسفى :

﴿ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله ﴾

أي أعرضوا وامتنعوا عن الدخول في الإسلام أوصدوا غيرهم عنه .

قال الجوهري : صد عنه يصد صدوداً أعرض ، وصده عن الأمر صداً منعه وصرفه عنه .

وهم المطعمون يوم بدر أو أهل الكتاب أو عام في كل من كفر وصد ﴿ أَضَلَّ أعمالهم ﴾ أبطلها وأحبطها ، وحقيقته جعلها ضالة ضائعة ليس لها من يتقبلها ويثيب عليها كالضالة من الإبل ، وأعمالهم ما عملوه في كفرهم من صلة الأرحام وإطعام الطعام وعمارة المسجد الحرام ، أو ما عملوه من الكيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم والصد عن سبيل الله ﴿ والذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ هم ناس من قريش أو من الأنصار أو من أهل الكتاب أو عام ﴿ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ على مُحَمَّدٍ ﴾ وهو القرآن ، وتخصيص الإيمان بالمنزل على رسوله من بين ما يجب الإيمان به لتعظيم شأنه ، وأكد ذلك بالجملة الاعتراضية وهي قوله ﴿ وَهُوَ الحق مِن رَّبِّهِمْ ﴾ أي القرآن .

وقيل : إن دين محمد هو الحق إذ لا يرد عليه النسخ وهو ناسخ لغيره ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سيئاتهم ﴾ ستر بإيمانهم وعملهم الصالح ما كان منهم من الكفر والمعاصي لرجوعهم عنها وتوبتهم ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ أي حالهم وشأنهم بالتوفيق في أمور الدين وبالتسليط على الدنيا بما أعطاهم من النصرة والتأييد ﴿ ذلك بِأَنَّ الذين كَفَرُواْ اتبعوا الباطل وَأَنَّ الذين ءَامَنُواْ اتبعوا الحق مِن رَّبِّهِمْ ﴾ ﴿ ذلك ﴾ مبتدأ وما بعده خبره أي ذلك الأمر وهو إضلال أعمال أحد الفريقين وتكفير سيئات الثاني والإصلاح كائن بسبب اتباع هؤلاء الباطل وهو الشيطان وهؤلاء الحق وهو القرآن ﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك الضرب ﴿ يَضْرِبُ الله ﴾ أي يبين الله ﴿ لِلنَّاسِ أمثالهم ﴾ والضمير راجع إلى الناس أو إلى المذكورين من الفريقين على معنى أنه يضرب أمثالهم لأجل الناس ليعتبروا بهم ، وقد جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكافرين ، واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين ، أو جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفار ، وتكفير السيئات مثلاً لفوز الأبرار .

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الذين كَفَرُواْ ﴾ من اللقاء وهو الحرب ﴿ فَضَرْبَ الرقاب ﴾ أصله فاضربوا الرقاب ضرباً فحذف الفعل وقدم المصدر فأنيب منابه مضافاً إلى المفعول ، وفيه اختصار مع إعطاء معنى التوكيد لأنك تذكر المصدر وتدل على الفعل بالنصبة التي فيه ﴿ وَضَرَبَ الرقاب ﴾ عبارة عن القتل لا أن الواجب أن تضرب الرقاب خاصة دون غيرها من الأعضاء ، ولأن قتل الإنسان أكثر ما يكون بضرب رقبته فوقع عبارة عن القتل وإن ضرب غير رقبته ﴿ حتى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ ﴾ أكثرتم فيهم القتل ﴿ فَشُدُّواْ الوثاق ﴾ فأسروهم والوثاق بالفتح والكسر اسم ما يوثق به ، والمعنى فشدوا وثاق الأسارى حتى لا يفلتوا منكم ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ ﴾ أي بعد أن تأسروهم ﴿ وَإِمَّآ فِدَاءً ﴾ ﴿ منًّا ﴾ و ﴿ فِدَاء ﴾ منصوبان بفعليهما مضمرين أي فإما تمنون مناً أو تفدون فداء ، والمعنى التخيير بين الأمرين بعد الأسر بين أن يمنوا عليهم فيطلقوهم وبين أن يفادوهم ، وحكم أسارى المشركين عندنا القتل أو الاسترقاق ، والمن والفداء المذكوران في الآية منسوخ بقوله

﴿ فاقتلوا المشركين ﴾ [التوبة : 5] لأن سورة "براءة" من آخر ما نزل .

وعن مجاهد : ليس اليوم منّ ولا فداء إنما هو الإسلام أو ضرب العنق .

أو المراد بالمن أن يمن عليهم بترك القتل ويسترقوا ، أو يمن عليهم فيخلوا لقبولهم الجزية وبالفداء أن يفادى بأسراهم أسارى المسلمين فقد رواه الطحاوي مذهباً عن أبي حنيفة رحمه الله وهو قولهما ، والمشهور أنه لا يرى فداءهم لا بمال ولا بغيره لئلا يعودوا حرباً علينا

، وعند الشافعي رحمه الله تعالى : للإمام أن يختار أحد الأمور الأربعة : القتل والاسترقاق والفداء بأسارى المسلمين والمن .

﴿ حتى تَضَعَ الحرب أَوْزَارَهَا ﴾ أثقالها وآلاتها التي لا تقوم إلا بها كالسلاح والكراع .

(276/708)

وقيل : أوزارها آثامها يعني حتى يترك أهل الحرب وهم المشركون شركهم بأن يسلموا وحتى لا يخلو من أن يتعلق بالضرب والشد أو بالمن والفداء ، فالمعنى على كلا المتعلقين عند الشافعي رحمه الله أنهم لا يزالون على ذلك أبداً إلى أن لا يكون حرب مع المشركين ، وذلك إذا لم يبق لهم شوكة .

وقيل : إذا نزل عيسى عليه السلام .

وعند أبي حنيفة رحمه الله : إذا علق بالضرب والشد فالمعنى أنهم يقتلون ويؤسرون حتى تضع جنس الحرب الأوزار ، وذلك حين لا تبقى شوكة للمشركين .

وإذا علق بالمن والفداء فالمعنى أنه يمن عليهم ويفادون حتى تضع حرب بدر أوزارها إلا أن يتأول المن والفداء بما ذكرنا من التأويل ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر ذلك فهو مبتدأ وخبر أو افعلوا بهم ذلك فهو في محل النصب ﴿ وَلَوْ يَشَآءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ لانتقم منهم بغير قتال ببعض

أسباب الهلاك كالخسف أو الرجفة أو غير ذلك ﴿ ولكن ﴾ أمركم بالقتال ﴿ لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ أي المؤمنين بالكافرين تمحيصاً للمؤمنين وتمحيقاً للكافرين ﴿ والذين قُتِلُواْ ﴾ بصري وحفص .

﴿ قَاتَلُواْ ﴾ غيرهم ﴿ فِى سَبِيلِ الله فَلَن يُضِلَّ أعمالهم سَيَهْدِيهِمْ ﴾ إلى طريق الجنة أو إلى الصواب في جواب منكر ونكير ﴿ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ يرضى خصماءهم ويقبل أعمالهم ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الجنة عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ عن مجاهد : عرفهم مساكنهم فيها حتى لا يحتاجون أن يسألوا أو طيبها لهم من العرف وهو طيب الرائحة .

﴿ ياأَيُّهَا الذين ءَامَنُواْ إِن تَنصُرُواْ الله ﴾ أي دين الله ورسوله ﴿ يَنصُرْكُمْ ﴾ على عدوكم ويفتح لكم ﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ في مواطن الحرب أو على محجة الإسلام ﴿ والذين كَفَرُواْ ﴾ في موضع رفع بالابتداء والخبر ﴿ فَتَعْساً لَّهُمْ ﴾ وعطف قوله ﴿ وَأَضَلَّ أعمالهم ﴾ على الفعل الذي نصب ﴿ تعسا ﴾ لأن المعنى فقال تعساً لهم والتعس العثور .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : يريد في الدنيا القتل وفي الآخرة التردي في النار .

﴿ ذلك ﴾ أي التعس والضلال ﴿ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ الله ﴾ أي القرآن ﴿ فَأَحْبَطَ أعمالهم أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأرض ﴾ يعني كفار أمتك ﴿ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ الله عَلَيْهِمْ ﴾ أهلكهم هلاك استئصال ﴿ وللكافرين ﴾ مشركي قريش ﴿ أمثالها ﴾ أمثال تلك الهلكة لأن التدمير يدل عليها ﴿ ذلك ﴾ أي نصر المؤمنين وسوء عاقبة الكافرين ﴿ أَنَّ الله مَوْلَى الذين ءَامَنُواْ ﴾ وليهم وناصرهم ﴿ وَأَنَّ الكافرين لاَ مولى لَهُمْ ﴾ أي لا ناصر لهم فإن الله مولى العباد جميعاً من جهة الاختراع وملك التصرف فيهم ، ومولى المؤمنين خاصة من جهة النصرة ﴿ إِنَّ الله يُدْخِلُ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار والذين كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ ﴾ ينتفعون بمتاع الحياة الدنيا أياماً قلائل ﴿ وَيَأْكُلُونَ ﴾ غافلين غير متفكرين في العاقبة ﴿ كَمَا تَأْكُلُ الأنعام ﴾ في معالفها ومسارحها غافلة عما هي بصدده من النحر والذبح ﴿ والنار مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ منزل ومقام .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ﴾ أي وكم من قرية للتكثير وأراد بالقرية أهلها ولذلك قال ﴿ أهلكناهم ﴾ ﴿ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ التى أَخْرَجَتْكَ ﴾ أي وكم من قرية أشد قوة من قومك الذين أخرجوك أي كانوا سبب خروجك ﴿ أهلكناهم فَلاَ ناصر لَهُمْ ﴾ أي فلم يكن لهم من ينصرهم ويدفع العذاب عنهم ﴿ أَفَمَن كَانَ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ أي على

حجة من عنده وبرهان وهو القرآن المعجز وسائر المعجزات يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ هم أهل مكة الذين زين لهم الشيطان شركهم وعداوتهم لله ورسوله .

(278/708)

وقال سوء عمله ﴿ واتبعوا أَهْوَآءَهُمْ ﴾ للحمل على لفظ من ومعناه ﴿ مَّثَلُ الجنة ﴾ صفة الجنة العجيبة الشأن ﴿ التى وُعِدَ المتقون ﴾ عن الشرك ﴿ فِيهَآ أَنْهَارٌ ﴾ داخل في حكم الصلة كالتكرير لها ألا ترى إلى صحة قولك التي فيها أنهار ، أو حال أي مستقرة فيها أنهار ﴿ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ ﴾ غير متغير اللون والريح والطعم .
يقال : أسن الماء إذا تغير طعمه وريحه ﴿ أسِن ﴾ مكي ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ كما تتغير ألبان الدنيا إلى الحموضة وغيرها ﴿ وأنهار مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ ﴾ تأنيث لذ وهو اللذيذ ﴿ لِّلشَّارِبِينَ ﴾ أي ما هو إلا التلذذ الخالص ليس معه ذهاب عقل ولا خمار ولا صداع ولا آفة من آفات الخمر ﴿ وأنهار مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ لم يخرج من بطون النحل فيخالطه الشمع وغيره ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثمرات وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ ﴿ مَثَلُ ﴾ مبتدأ خبره ﴿ كَمَنْ هُوَ خالد فِى النار وَسُقُواْ مَآءً حَمِيماً ﴾ حاراً في النهاية ﴿ فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ

﴿ والتقدير : أمثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد في النار ؟ وهو كلام في صورة الإثبات ومعناه النفي لانطوائه تحت حكم كلام مصدّر بحرف الإنكار ودخوله في حيزه وهو قوله : ﴿ أَفَمَن كَانَ على بَيّنَةٍ مّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوء عَمَلِهِ ﴾ .

وفائدة حذف حرف الإنكار زيادة تصوير لمكابرة من يسوي بين المتمسك بالبينة والتابع لهواه وأنه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنة التي تجري فيها تلك الأنهار وبين النار التي يسقى أهلها الحميم .

(279/708)

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حتى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ العلم مَاذَا قَالَ ءَانِفاً ﴾ هم المنافقون كانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسمعون كلامه ولا يعونه ولا يلقون له بالاً تهاوناً منهم ، فإذا خرجوا قالوا لأولي العلم من الصحابة : ماذا قال الساعة على جهة الاستهزاء ﴿ أُوْلَئِكَ الذين طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ واتبعوا أَهْوَآءَهُمْ ﴾ .

﴿ والذين اهتدوا ﴾ بالإيمان واستماع القرآن ﴿ زَادَهُمْ ﴾ الله ﴿ هُدًى ﴾ أي بصيرة وعلماً أو شرح صدورهم ﴿ وءاتاهم تقواهم ﴾ أعانهم عليها أو آتاهم جزاء تقواهم أو

بين لهم ما يتقون ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ الساعة ﴾ أي ينتظرون ﴿ أَن تَأْتِيهُم ﴾ أي إتيانها فهو بدل اشتمال من ﴿ الساعة ﴾ ﴿ بَغْتَةً ﴾ فجأة ﴿ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ علاماتها وهو مبعث محمد صلى الله عليه وسلم وإنشقاق القمر والدخان .

وقيل : قطع الأرحام وقلة الكرام وكثرة اللئام ﴿ فأنى لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ قال الأخفش : التقدير فأنى لهم ذكراهم إذا جاءتهم ﴿ فاعلم أَنَّهُ ﴾ أن الشأن ﴿ لآ إله إِلاَّ الله واستغفر لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات ﴾ والمعنى فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله وعلى التواضع وهضم النفس باستغفار ذنبك وذنوب من على دينك .

وفي شرح التأويلات جاز أن يكون له ذنب فأمره بالاستغفار له ولكنا لا نعلمه ، غير أن ذنب الأنبياء ترك الأفضل دون مباشرة القبيح ، وذنوبنا مباشرة القبائح من الصغائر والكبائر .

(280/708)

وقيل : الفاآت في هذه الآيات لعطف جملة على جملة بينهما اتصال ﴿ والله يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ ﴾ في معايشكم ومتاجركم ﴿ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ ويعلم حيث تستقرون من منازلكم أو متقلبكم في حياتكم ومثواكم في القبور ، أو متقلبكم في أعمالكم ومثواكم في الجنة والنار ، ومثله حقيق بأن يتقى ويخشى وأن يستغفره وسئل سفيان ابن عيينة عن فضل العلم فقال :

ألم تسمع قوله ﴿ فاعلم أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ الله واستغفر لذَنبِكَ ﴾ فأمر بالعمل بعد العلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 148 . 153 ﴾

(281/708)

وقال ابن جزى :

سورة محمد صلى الله عليه وسلم

﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾

يعني كفار قريش ، وعموم اللفظ يعم كل كافر ، كما أن قوله بعد هذا : ﴿ والذين آمَنُواْ ﴾ يعني الصحابة ، وعموم اللفظ يصلح لكل مؤمن ﴿ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله ﴾ يحتمل أن يكون صدُّوا بمعنى ؛ أعرضوا فيكون غير متعد أو يكون بمعنى صدوا الناس فيكون متعدياً ، وسبيل الله : الإسلام والطاعة ﴿ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي أبطلها وأحبطها ، وقيل : المراد بأعمالهم هنا ما أنفقوا في غزوة بدر ؛ فإن هذه الآية نزلت بعد بدر ، واللفظ أعم من ذلك ﴿ وَآمَنُواْ بِمَا نُزِّلَ على مُحَمَّدٍ ﴾ هذا تجريد للاختصاص والاعتناء ، بعد عموم قوله : ﴿ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ ولذلك أكده بالجملة الاعتراضية ، وهو قوله : ﴿ وَهُوَ الحق مِن رَّبِّهِمْ ﴾ ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ قيل : معناه أصلح حالهم وشأنهم ، وحقيقة

البال الخاطر الذي في القلب ، وإذا صلح القلب صلح الجسد كله ، فالمعنى إصلاح دينهم بالإيمان والإخلاص والتقوى .

(282/708)

﴿ فَضَرْبَ الرقاب ﴾ أصله فاضربوا الرقاب ضرباً ، ثم حذف الفعل وأقام المصدر مقامه ، والمراد ، اقتلوهم . ولكن عبّر عنه بضرب الرقاب ، لأنه الغالب في صفة القتل ﴿ حتى إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ ﴾ أي هزمتموهم ، والإثخان أن يكثر فيهم القتل والأسر ﴿ فَشُدُّواْ الوثاق ﴾ عبارة معن الأسر ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ المن : العتق ، والفداء : فك الأسير بمال ، وهما جائزان فإن مذهب مالك أن الإمام مخيّر في الأسارى بين خمسة أشياء : وهي : المن والفداء والقتل والاسترقاق وضرب الجزية . وقيل : لا يجوز المنّ ولا الفداء لأن الآية منسوخة بقوله : ﴿ فاقتلوا المشركين ﴾ [التوبة : 5] فلا يجوز على هذا إلا قتلهم . والصحيح أنها محكمة وانتصب منًّا وفِداء على المصدرية ، والعامل فيهما فعلان مضمران ﴿ حتى تَضَعَ الحرب أَوْزَارَهَا ﴾ الأوزار في اللغة : الأثقال ، فالمعنى حتى تذهب وتزول أثقالها ، وهي آلاتها وقيل : الأوزار : الآثام ، لأن الحرب لا بد أن يكون فيها إثم في أحد الجانبين ، واختلف في الغاية المرادة هنا فقيل : حتى يسلموا جميعاً ؛ فحينئذ تضع الحرب

أوزارها وقيل : حتى تقتلوهم وتغلبوهم ، وقيل : حتى ينزل عيسى ابن مريم : قال ابن عطية : ظاهر اللفظ أنها استعارة يراد بها التزام الأمر أبداً ، كما تقول : أنا فاعل ذلك إلى يوم القيامة ﴿ ذَلِكَ ﴾ تقديره : الأمر ذلك ﴿ وَلَوْ يَشَآءُ اللَّهُ لاَنْتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ أو لو شاء الله لأهلك الكفار بعذاب من عنده ، ولكنه تعالى أراد اختبار المؤمنين ، وأن يبلو بعض الناس ببعض .

﴿ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ أي جعلهم يعرفون منازلهم فيها ، فهو من المعرفة وقيل : معناه طيّبها لهم فهو من العَرْف وهو طيب الرائحة ، وقيل : معناه شرّفها ورفعها ، فهو في الأعراف التي هي الجبال .

(283/708)

﴿ فَتَعْساً لَّهُمْ ﴾ أي عثاراً وهلاكاً . وانتصابه على المصدرية ، والعامل فيه فعل مضمر ، وعلى هذا عَطَفَ وأضلَّ أعمالهم .

وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ أي لكفار قريش أمثال عاقبة الكفار المتقدمين من الدمار والهلاك .

﴿ مَوْلَى الذين آمَنُواْ ﴾ أي وليهم وناصرهم وكذلك ﴿ وَأَنَّ الكافرين لاَ مولى لَهُمْ ﴾ معناه : لا ناصر لهم ، ولا يصح أن يكون المولى هنا بمعنى السيد ، لأن الله مولى المؤمنين

والكافرين بهذا المعنى ولا تعارض بين هذه الآية وبين قوله : وَ ﴿ ردوا إلى الله مَوْلاَهُمُ الحق ﴾ [الأنعام : 62] لأن معنى المولى مختلف في الموضعين ؛ فمعنى ﴿ مَوْلاَهُمُ الحق ﴾ : ربهم وهذا على العموم في جميع الخلق بخلاف قوله : ﴿ مَوْلَى الذين آمَنُواْ ﴾ فإنه خاص بالمؤمنين لأنه معنى الولي والناصر .

﴿ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأنعام ﴾ عبارة عن كثرة أكلهم ، وعن غفلتهم عن النظر كالبهائم .

﴿ مِّن قَرْيَتِكَ التي أَخْرَجَتْكَ ﴾ يعني مكة . وخروجه صلى الله عليه وسلم من وقت الهجرة ، ونسب الإخراج إلى القرية . والمراد بأهلها ، لأنهم آذوه حتى خرج ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ الضمير للقرى المتقدمة المذكورة في قوله : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ﴾ وجمعه حملاً على المعنى والمراد أهلكنا : أهلها .

﴿ أَفَمَن كَانَ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ أي على حجة ويعني به النبي صلى الله عليه وسلم ، كما يعني قريشاً بقوله : ﴿ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سواء عَمَلِهِ ﴾ واللفظ أعم من ذلك .

﴿ مَّثَلُ الجنة ﴾ ذكر في [الرعد : 35] ﴿ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ أي غير متغير ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النار ﴾ تقديره : أمثل أهل الجنة المذكورة كمن هو خالد في النار ؟ فحذف هذا على التقدير والمراد به النفي ، وإنما حذف لدلالة التقدير المتقدم وهو قوله : ﴿ أَفَمَن كَانَ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ .

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ يعني المنافقين ، وجاء يستمعون بلفظ الجمع رعياً لمعنى من ﴿ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ العلم ﴾ روي أنه عبد الله بن مسعود ﴿ مَاذَا قَالَ آنِفاً ﴾ كانوا يقولون ذلك على أحد وجهين : إما احتقاراً لكلامه ، كأنهم قالوا : أي فائدة فيه ، وإما جهلاً منهم ونسياناً لأنهم كانوا وقت كلامه معرضين عنه ، وآنفاً معناه الساعة الماضية قريباً ، وأصله من : استأنفت الشيء إذا ابتدأته .

﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ يعني المؤمنين والضمير في زادهم الله تعالى أو للكلام الذي قال فيه المنافقون : ماذا قال آنفاً . وقيل : يعني بالذين اهتدوا قوماً من النصارى آمنوا بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فاهتداؤهم هو إيمانهم بعيسى وزيادة هداهم إسلامهم .

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ الساعة ﴾ الضمير للمنافقين ، والمعنى هل ينتظرون إلا الساعة قريبة ﴿ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ أي علاماتها والذي كان قد جاء من ذلك مبعث سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه قال : " أنا من أشراط الساعة ، وبعثت أنا والساعة كهاتين " ﴿ فأنى لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ أي كيف لهم الذكرى إذا جاءتهم الساعة بغتة ؟ فلا يقدرون على عمل ولا تنفعهم التوبة ، ففاعل جاءتهم الساعة ، وذكراهم مبتدأ وخبره الاستفهام المتقدم ، والمراد به الاستبعاد .

﴿ فاعلم أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ الله ﴾ أي دُمْ على العلم بذلك ، واستدل بعضهم بهذه الآية على أن النظر والعلم قبل العمل ، لأنه قدم قوله : فاعلم على قوله : واستغفر ﴿ والله يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ قيل : متقلبكم تصرفكم في الدنيا ، ومثواكم إقامتكم في القبور . وقيل : متقلبكم تصرفكم في اليقظة ، ومثواكم منامكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 48.46 ﴾

(285/708)

وقال البيضاوى :

سورة محمد صلى الله عليه وسلم

(وتسمى سورة القتال وهي مدنية وقيل مكية وآيها سبع أو ثمان وثلاثون أو أربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله ﴾

امتنعوا عن الدخول في الإِسلام وسلوك طريقه ، أو منعوا الناس عنه كالمطعمين يوم بدر ، أو شياطين قريش أو المصريين من أهل الكتاب . أو عام في جميع من كفر وصد . ﴿ أَضَلَّ أعمالهم ﴾ جعل مكارمهم كصلة الرحم وفك الأسارى وحفظ الجوار ضالة أي ضائعة

محيطة بالكفر ، أو مغلوبة مغمورة فيه كما يضل الماء في اللبن ، أو ضلال حيث لم يقصدوا به وجه الله ، أو أبطل ما عملوه من الكيد لرسوله والصد عن سبيله بنصر رسوله وإظهار دينه على الدين كله .

﴿ والذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ يعم المهاجرين والأنصار والذين آمنوا من أهل الكتاب وغيرهم . ﴿ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴾ تخصيص للمنزل عليه مما يجب الإيمان به تعظيماً له وإشعاراً بأن الإيمان لا يتم دونه ، وأنه الأصل فيه ولذلك أكده بقوله : ﴿ وَهُوَ الحق مِن رَّبِّهِمْ ﴾ اعتراضاً على طريقة الحصر . وقيل حقيقته بكونه ناسخاً لا ينسخ ، وقرىء "نَزَّلَ" على البناء للفاعل و"أنزل" على البناءين و"نَزَلَ" بالتخفيف . ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سيئاتهم ﴾ سترها بالإيمان وعملهم الصالح . ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ في الدين والدنيا بالتوفيق والتأييد .

(286/708)

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما مر من الإضلال والتكفير والإصلاح وهو مبتدأ خبره . ﴿ بِأَنَّ الذين كَفَرُواْ اتبعوا الباطل وَأَنَّ الذين ءامَنُواْ اتبعوا الحق مِن رَّبِّهِمْ ﴾ بسبب اتباع هؤلاء الباطل واتباع هؤلاء الحق ، وهذا تصريح بما أشعر به ما قبلها ولذلك سمي تفسيراً . ﴿

كذلك ﴿ مثل ذلك الضرب . ﴿ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ ﴾ يبين لهم . ﴿ أمثالهم ﴾ أحوال الفريقين أو أحوال الناس ، أو يضرب أمثالهم بأن جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار والإضلال مثلاً لخيبتهم واتباع الحق مثلاً للمؤمنين ، وتكفير السيئات مثلاً لفوزهم .

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الذين كَفَرُواْ ﴾ في المحاربة . ﴿ فَضَرْبَ الرقاب ﴾ أصله فاضربوا الرقاب ضرباً فحذف الفعل وقدم المصدر ، وأنيب منابه مضافاً إلى المفعول ضماً إلى التأكيد والاختصار . والتعبير به عن القتل إشعاراً بأنه ينبغي أن يكون بضرب الرقاب حيث أمكن ، وتصوير له بأشنع صورة . ﴿ حتى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ ﴾ أكثرتم قتلهم وأغلظتموه من الثخين وهو الغليظ . ﴿ فَشُدُّواْ الوثاق ﴾ فأسروهم واحفظوهم ، والوثاق بالفتح والكسر ما يوثق به . ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ أي فإما تمنون منا أو تفدون فداء ، والمراد التخيير بعد الأسر بين المن والإطلاق وبين أخذ الفداء ، وهو ثابت عندنا فإن الذكر الحر المكلف إذا أسر تخير الإمام بين القتل والمن والفداء ، والاسترقاق منسوخ عند الحنفية أو مخصوص بحرب بدر فإنهم قالوا يتعين القتل أو الاسترقاق . وقرىء "فدا" كعصا .

﴿ حتى تَضَعَ الحرب أَوْزَارَهَا ﴾ آلاتها وأثقالها التي لا تقوم إلا بها كالسلاح والكراع، أي تنقضي الحرب ولم يبق إلا مسلم أو مسالم. وقيل آثامها والمعنى حتى يضع أهل الحرب شركهم ومعاصيهم، وهو غاية للضرب أو الشد أو للمن والفداء أو للمجموع بمعنى أن هذه الأحكام جارية فيهم حتى لا يكون حرب مع المشركين بزوال شوكتهم. وقيل بنزول عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر ذلك، أو افعلوا بهم ذلك. ﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ لانتقم منهم بالاستئصال. ﴿ ولكن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ ولكن أمركم بالقتال ليبلوا المؤمنين بالكافرين بأن يجاهدوهم فيستوجبوا الثواب العظيم والكافرين بالمؤمنين بأن يعاجلهم على أيديهم ببعض عذابهم كي يرتدع بعضهم عن الكفر. ﴿ والذين قَاتِلُواْ فِى سَبِيلِ الله ﴾ أي جاهدوا، وقرأ البصريان وحفص "قَتِلُواْ" أي استشهدوا. ﴿ فَلَن يُضِلَّ أعمالهم ﴾ فلن يضيعها، وقرىء "يُضِلَّ" من ضل ويضل على البناء للمفعول.

﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ إلى الثواب، أو سيثبت هدايتهم. ﴿ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾.

﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الجنة عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ وقد عرفها لهم في الدنيا حتى اشتاقوا إليها فعملوا ما استحقوها به، أو بينها لهم بحيث يعلم كل واحد منزله ويهتدي إليه كأنه كان ساكنه منذ خلق، أو طيبها لهم من العرف وهو طيب الرائحة، أو حددها لهم بحيث يكون لكل جنة مفرزة.

﴿ يَا أَيُّهَا الذين ءَامَنُواْ إِن تَنصُرُواْ الله ﴾ إن تنصروا دينه ورسوله. ﴿ يَنصُرْكُمْ ﴾ على

عدوكم. ﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ في القيام بحقوق الإسلام والمجاهدة مع الكفار.
﴿ والذين كَفَرُواْ فَتَعْساً لَّهُمْ ﴾ فعثوراً لهم وانحطاطاً ونقضه لما قال الأعشى:

(288/708)

فالتعس أولى بها من أن أقول لَعَا . . . وانتصابه بفعله الواجب إضماره سماعاً، والجملة خبر ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ أو مفسرة لناصبه. ﴿ وَأَضَلَّ أعمالهم ﴾ عطف عليه.
﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَا أَنزَلَ الله ﴾ القرآن لما فيه من التوحيد والتكاليف المخالفة لما ألفوه واشتهته أنفسهم، وهو تخصيص وتصريح بسببه الكفر بالقرآن للتعس والإضلال. ﴿ فَأَحْبَطَ أعمالهم ﴾ كرره إشعاراً بأنه يلزم الكفر بالقرآن ولا ينفك عنه بحال.
﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ الله عَلَيْهِمْ ﴾ استأصل عليهم ما اختص بهم من أنفسهم وأهليهم وأموالهم. ﴿ وللكافرين ﴾ من وضع الظاهر موضع المضمر. ﴿ أمثالها ﴾ أمثال تلك العاقبة أو العقوبة، أو الهلكة لأن التدمير يدل عليها، أو السنة لقوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ الله التى قَدْ خَلَتْ ﴾ ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الله مَوْلَى الذين ءامَنُواْ ﴾ ناصرهم على أعدائهم. ﴿ وَأَنَّ الكافرين لاَ مولى لَهُمْ ﴾ فيدفع العذاب عنهم وهو لا يخالف قوله: ﴿ وَرُدُّواْ إِلَى الله مولاهم الحق ﴾ فإن المولى فيه بمعنى

المالك .

﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار والذين كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ ﴾ ينتفعون بمتاع الدنيا . ﴿ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأنعام ﴾ حريصين غافلين عن العاقبة . ﴿ والنار مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ منزل ومقام .

﴿ وَكَأَيِّن مّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مّن قَرْيَتِكَ التى أَخْرَجَتْكَ ﴾ على حذف المضاف وإجراء أحكامه على المضاف إليه ، والإِخراج باعتبار التسبب . ﴿ أهلكناهم ﴾ بأنواع العذاب . ﴿ فَلاَ ناصر لَهُمْ ﴾ يدفع عنهم العذاب وهو كالحال المحكية .

(289/708)

﴿ أَفَمَن كَانَ على بَيّنَةٍ مّن رَّبِّهِ ﴾ حجة من عنده وهو القرآن ، أو ما يعمه والحجج العقلية كالنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين . ﴿ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ كالشرك والمعاصي . ﴿ واتبعوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ في ذلك لا شبهة لهم عليه فضلاً عن حجة .

﴿ مَّثَلُ الجنة التى وُعِدَ المتقون ﴾ أي فيما قصصنا عليك صفتها العجيبة . وقيل مبتدأ خبره : ﴿ كَمَنْ هُوَ خالد فِى النار ﴾ ، وتقدير الكلام أمثل أهل الجنة كمثل من هو خالد ، أو أمثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد فعري عن حرف الإِنكار وحذف ما حذف

استغناء يجري مثله تصويراً لمكابرة من يسوي بين المتمسك بالبينة والتابع للهوى ، بمكابرة من يسوي بين الجنة والنار ، وهو على الأول خبر محذوف تقديره : أفمن هو خالد في هذه الجنة كمن هو خالد في النار ، أو بدل من قوله : ﴿ كَمَن زُيِّنَ ﴾ وما بينهما اعتراض لبيان ما يمتاز به من على بينة في الآخرة تقريراً لإنكار المساواة .

(290/708)

﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ ﴾ استئناف لشرح المثل أو حال من العائد المحذوف ، أو خبر لمثل و﴿ ءَاسِنٍ ﴾ من أسن الماء بالفتح إذا تغير طعمه وريحه ، أو بالكسر على معنى الحدوث . وقرأ ابن كثير "أسن" . ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ لم يصر قارصاً ولا حازراً . ﴿ وأنهار مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ للشاربين ﴾ لذيذة لا يكون فيها كراهة طعم وريح ولا غائلة سكر وخمار تأنيث لذ أو مصدر نعت به بإضمار ذات ، أو تجوز وقرئت بالرفع على صفة الأنهار والنصب على العلة . ﴿ وأنهار مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ لم يخالطه الشمع وفضلات النحل وغيرها ، وفي ذلك تمثيل لما يقوم مقام الأشربة في الجنة بأنواع ما يستلذ منها في الدنيا بالتجريد عما ينقصها وينغصها ، والتوصيف بما يوجب غزارتها واستمرارها .

﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثمرات ﴾ صنف على هذا القياس . ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾

عطف على الصنف المحذوف ، أو مبتدأ خبره محذوف أي لهم مغفرة . ﴿ كَمَنْ هُوَ خالد فِى النار وَسُقُواْ مَاءً حَمِيماً ﴾ مكان تلك الأشربة . ﴿ فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ من فرط الحرارة .

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حتى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ ﴾ يعني المنافقين كانوا يحضرون مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم ويسمعون كلامه فإذا خرجوا ﴿ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ العلم ﴾ أي لعلماء الصحابة رضي الله تعالى عنهم . ﴿ مَاذَا قَالَ ءانِفاً ﴾ ما الذي قال الساعة ، استهزاء أو استعلاماً إذا لم يلقوا له آذانهم تهاوناً به ، و ﴿ ءانِفاً ﴾ من قولهم أنف الشيء لما تقدم منه مستعار من الجارحة ، ومنه استأنف وائتنف وهو ظرف بمعنى وقتاً مؤتنفاً ، أو حال من الضمير في ﴿ قَالَ ﴾ وقرأ ابن كثير "أنفاً" .

﴿ أُوْلَئِكَ الذين طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ واتبعوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ فلذلك استهزؤوا وتهاونوا بكلامه .

(291/708)

﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ أي زادهم الله بالتوفيق والإلهام ، أو قول الرسول عليه الصلاة والسلام . ﴿ وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ بين لهم ما يتقون أو أعانهم على تقواهم ، أو

أعطاهم جزاءها .

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ الساعة ﴾ فهل ينتظرون غيرها . ﴿ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ بدل اشتمال من ﴿ الساعة ﴾ ، وقوله : ﴿ فَقَدْ جَاء أَشْرَاطُهَا ﴾ كالعلة له ، وقرىء أن تأتهم على أنه شرط مستأنف جزاؤه : ﴿ فأنى لَهُمْ إِذَا جَاءتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ والمعنى أن تأتهم الساعة بغتة لأنه قد ظهر أماراتها كمبعث النبي عليه الصلاة والسلام ، وانشقاق القمر فكيف لهم ﴿ ذِكْرَاهُمْ ﴾ أي تذكرهم ﴿ إِذَا جَاءتْهُمُ ﴾ الساعة بغتة ، وحينئذ لا يفرغ له ولا ينفع .

﴿ فاعلم أَنَّهُ لاَ إله إِلا الله واستغفر لذَنبِكَ ﴾ أي إذا علمت سعادة المؤمنين وشقاوة الكافرين فاثبت على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية وتكميل النفس بإصلاح أحوالها وأفعالها وهضمها بالاستغفار ﴿ لِذَنبِكِ ﴾ . ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات ﴾ ولذنوبهم بالدعاء لهم والتحريض على ما يستدعي غفرانهم ، وفي إعادة الجار وحذف المضاف إشعار بفرط احتياجهم وكثرة ذنوبهم وأنها جنس آخر ، فإن الذنب له ماله تبعة ما بترك الأولى . ﴿ والله يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ ﴾ في الدنيا فإنها مراحل لا بد من قطعها . ﴿ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ في العقبى فإنها دار إقامتكم فاتقوا الله واستغفروه وأعدوا لمعادكم . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 188 . 193 ﴾

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1) ﴾

التفسير : قال أهل النظم : إن أول هذه السورة مناسب لآخر السورة كأنه قيل : كيف يهلك الفاسق إن كان له أعمال صالحة ؟ فأجاب ﴿ الذين كفروا وصدوا ﴾ منعوا الناس عن الإيمان صداً أو امتنعوا عنه صدوداً ﴿ أضل ﴾ الله ﴿ أعمالهم ﴾ أي أبطل ثوابها وكانوا يصلون الأرحام ويطعمون الطعام ويعمرون المسجد الحرام . وعن ابن عباس أنها نزلت في المطعمين يوم بدر . وقيل : هم أهل الكتاب . والأظهر العموم . قال جار الله : حقيقة إضلال الأعمال جعلها ضالة ضائعة ليس لها من يثيب عليها كالضالة من الإبل لا رب لها يحفظها ، أو أراد أنه يجعلها ضالة في كفرهم ومعاصيهم مغلوبة بها كما يضل الماء في اللبن . وقيل : أراد إبطال ما عملوه من الكيد للإسلام وذويه بأن نصر المسلمين عليهم وأظهر دينه على الدين كله . وحين بيّن حال الكفار بيّن حال المؤمنين قائلاً ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ بالهجرة والنصرة وغير ذلك ﴿ وآمنوا بما نزل على محمد ﴾ يعني القرآن وهو تخصيص بعد تعميم ، ولم يقتصر على هذا التخصيص الموجب للتفضيل ولكنه أكده بجملة اعتراضية هي قوله ﴿ وهو الحق من ربهم ﴾ ولأن الحق الثابت ففيه دليل على أن دين محمد صلى الله عليه وسلم لا يرد عليه النسخ أبداً .

وتكفير السيئات من الكريم سترها بما هي خير منها فهو في معنى قوم ﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ [الفرقان : 7] والبال الحال والشأن لا يثنى ولا يجمع . وقيل : هو بمعنى القلب أي يصلح أمر دينهم . والحاصل أن قوله ﴿ وآمنوا بما نزل على محمد ﴾ بإزاء قوله ﴿ وصدّوا عن سبيل الله ﴾ فأولئك امتنعوا عن اتباع سبيل محمد صلى الله عليه وسلم ، وهؤلاء حثوا أنفسهم على إتباعه فلا جرم حصل لهؤلاء ضدّ ما حصل لأولئك فأضل الله حسنات أولئك وستر على سيئات هؤلاء ، وقد أشير إلى هذا الحاصل بقوله ﴿ ذلك ﴾ الإضلال والتكفير بسبب اتباع أولئك الباطل الشيطان وحزبه وأولئك الحق محمداً والقرآن ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الضرب ﴿ يضرب الله للناس ﴾ كلهم أمثال أنفسهم أو أمثال المذكورين من الفريقين على معنى إنه يضرب أمثالهم لأجل الناس ليعتبروا بهم . وضرب المثل في الآية هو أن جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين ، ولا ريب أن إخباره عن الفريقين بغير تصريح مثل لحالهما وهذا حقيقة ضرب المثل . وقيل : إن الإضلال مثل لخيبة الكفار ، وتكفير السيئات مثل لفوز المؤمنين . وقيل : إن قوله ﴿ كذلك ﴾ لا يستدعي أن يكون هناك مثل مضروب ، ولكنه لما بين حال الكافر

وإضلال أعماله وحال المؤمن وتكفير سيئاته ، وبين السبب فيهما كان ذلك نهاية الإيضاح فقال ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك البيان يضرب الله للناس أمثالهم ويبين أحوالهم . قال أصحاب النظم : لما بيّن أن عمل الكفار ضلال والإنسان حرمته باعتبار عمله نتج من ذلك قوله ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا ﴾ أي في دار الحرب أو في القتال ﴿ فضرب الرقاب ﴾ وأصله فأضربوا الرقاب ضرباً إلا أنه اختصر للتوكيد لأنه بذكر المصدر المنصوب دل على الفعل وكان كالحكم البرهاني . وليس ضرب الرقبة مقصوداً بالذات ولكنه وقع التعبير عن القتل به لأنه أغلب أنواع القتل ، ولما في ذكره من التخويف والتغليظ . وفيه ردّ على من زعم أن

القتل بل إيلام الحيوان قبيح مطلقاً لأنه تخريب البنيان ، فبين الشرع أن أهل الكفر والطغيان يجب قتلهم لأن فيه صلاح نوع الإنسان كما أن الطبيب الحاذق يأمر بقطع العضو الفاسد إبقاء على سائر البدن ﴿ حتى إذا أثخنتموهم ﴾ أكثرتم قتلهم وأغلظتموه من الشيء الثخين ، أو أثقلتموهم بالقتل والجراح حتى لا يمكنهم النهوض وقد مر في آخر " الأنفال " . ﴿ فشدّوا الوثاق ﴾ وهو بالفتح والكسر اسم ما يوثق به والمراد فأسروهم وشدّوهم

بالحبال والسيور . فإما تمنون مناً وإما تفدون فداء ، وهذا مما يلزم فيه حذف فعل المفعول المطلق لأنه وقع المفعول تفصيلاً لأثر مضمون جملة متقدمة . وقال الشافعي : للإمام أن يختار أحد أربعة أمور هي : القتل والاسترقاق والمنّ وهو الإطلاق من غير عوض والفداء بأسارى المسلمين أو بمال .

لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم منّ على أبي عروة الجهني وعلى ابن أثال الحنفي ، وفادى رجلاً برجلين من المشركين . وذهب بعض أصحاب الرأي أن الآية منسوخة . وأن المنّ والفداء إنما كان يوم بدر فقط وناسخها ﴿ اقتلوا المشركين ﴾ [التوبة : 5] وليس للإمام إلا القتل أو الاسترقاق . وعن مجاهد : ليس اليوم منّ ولا فداء إنما هو الإسلام أو ضرب العنق . وقوله ﴿ حتى تضع ﴾ يتعلق بالضرب والشدّ أو بالمنّ والفداء . والمراد عند الشافعي أنهم لا يزالون على ذلك أبداً إلى أن لا يكون حرب مع المشركين وذلك إذا لم يبق لهم شوكة . وأوزار الحرب آلاتها وأثقالها التي لا تقوم الحرب إلا بها . قال الأعشى :

وأعددت للحرب أوزارها . . . رماحاً طوالاً وخيلاً ذكوراً

فإذا أنقضت الحرب فكأنها وضعت أسبابها . وقيل : أوزارها آثامها والمضاف محذوف أي حتى يترك أهل الحرب . وهم المشركون شركهم ومعاصيهم بأن يسلموا . وعلى هذا جاز أن يكون الحرب جمع حارب كالصحب جمع صاحب فلا يحتاج إلى تقدير المضاف . وفسر بعضهم وضع الحرب أوزارها بنزول عيسى عليه السلام . عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يوشك من عاش منكم أن يلقى عيسى عليه السلام إماماً هادياً وحكماً عدلاً يكسر الصليب ويقتل الخنزير وتضع الحرب أوزارها حتى تدخل كلمة الإخلاص كل بيت من وبر ومدر " وعند أبي حنيفة : إذا علق بالضرب والشدّ فالمعنى أنهم يقتلون ويؤسرون حتى تضع جنس الحرب الأوزار ، وذلك إذا لم تبق شوكة للمشركين . وإذا علق بالمنّ والفداء فالحرب معهودة وهي حرب بدر . ثم بين أنه منزه في الانتقام من الكفار عن الاستعانة بأحد فقال ﴿ ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ﴾ بغير قتال أو بتسليط الملائكة أو أضعف خلقه عليهم ﴿ ولكن ﴾ أمركم بقتالهم ﴿ ليبلو بعضكم ببعض ﴾ فيمتحن المؤمنين بالكافرين هل يجاهدون في سبيله حق الجهاد أم لا ، ويبتلي الكافرين بالمؤمنين هل يذعنون للحق أم لا إلزاماً للحجة وقطعاً للمعاذير . ومعنى الابتلاء من الله سبحانه قد مر مراراً أنه مجاز أي يعاملهم معاملة المختبر ، أو ليظهر الأمر لغيره من الملائكة أو الثقلين .

ثم وعد الشهداء والمجاهدين بقوله ﴿ والذين قتلوا ﴾ أو قاتلوا على القراءتين ﴿ فلن يضل أعمالهم ﴾ خلاف الكفرة ﴿ سيهديهم ﴾ إلى الثواب ويثبتهم على الهداية ﴿ ويصلح بالهم ﴾ أمر معاشهم في المعاد أو في الدنيا ، وكرر لأن الأوّل سبب النعيم ، والثاني نفس النعيم ﴿ ويدخلهم الجنة عرّفها لهم ﴾ جعل كل واحد بحيث يعرف ماله في الجنة كأنهم كانوا سكانها منذ خلقوا . وعن مقاتل : يعرفها لهم الحفظة وعسى أنه عرفها بوصفها في القرآن . وقيل : طيبها لهم من العرف وهو طيب الرائحة . ثم حث على نصرة دين الله بقوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ﴾ أي دينه أو رسوله ﴿ ينصركم ﴾ على عدوّكم ويفتح لكم ﴿ ويثبت أقدامكم ﴾ في مواقف الحرب أو على جادّة الشريعة ﴿ والذين كفروا ﴾ حالهم بالضد .

(297/708)

يقال : تعساً له في الدعاء عليه بالعثار والتردّي . عن ابن عباس : هو في الدنيا القتل ، وفي الآخرة الهويّ في جهنم . وهو من المصادر التي يجب حذف فعلها سماعاً والتقدير : أتعسهم الله فتعسوا تعساً ولهذا عطف عليه قوله ﴿ وأضل أعمالهم ﴾ ثم بين سبب بقائهم على

الكفر والضلال بقوله ﴿ ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله ﴾ من القرآن والتكاليف لألفهم بالإهمال وإطلاق العنان ﴿ فأحبط أعمالهم ﴾ التي لا استناد لها إلى القرآن أو السنة . ثم هدّدهم بحال الأقدمين وهو ظاهر . ودمر عليه ويقال دمره فالثاني الإهلاك مطلقاً ، والأوّل إهلاك ما يختص به من نفسه وماله وولده وغيره ﴿ وللكافرين أمثالها ﴾ الضمير للعاقبة أو العقوبة . والأوّل مذكور ، والثاني مفهوم بدلالة التدمير فإن كان المراد الدعاء عليهم فاللام للعهد وهم كفار قريش ومن ينخرط في سلكهم ، وإن كان المراد الإخبار جاز أن يراد هؤلاء . والقتل والأسر نوع من التدمير وجاز أن يراد الكفار الأقدمون ﴿ ذلك ﴾ النصر والتعس ﴿ بأن الله مولى الذين آمنوا ﴾ أي وليهم وناصرهم ﴿ وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ بمعنى النصرة والعناية ، وأما بمعنى الربوبية والمالكية فهو مولى الكل لقوله ﴿ وردّوا إلى الله مولاهم الحق ﴾ [يونس : 30] ثم برهن على الحكم المذكور وهو أن ولايته مختصة بالمؤمنين فقال ﴿ إن الله يدخل ﴾ الآية . فشبه الكافرين بالأنعام من جهة أن الكافر غرضه من الحياة التنعم والأكل وسائر الملاذ لا التقوى والتوسل بالغذاء إلى الطاعة وعمل الآخرة ، ومن جهة أنه لا يستدل بالنعم على خالقها ، ومن جهة غفلتهم عن مآل حالهم وأن النار مثوى لهم . ثم زاد في تهديد قريش بقوله ﴿ وكأين من قرية ﴾ أي أهل قرية هم ﴿ أشدّ قوّة من ﴾ أهل ﴿ قريتك التي أخرجتك ﴾ تسببوا لخروجك . وقوله ﴿ فلا ناصر

لهم ﴿ حكاية تلك الحال كقوله ﴿ وكلبهم باسط ﴾ [الكهف : 18] ثم بين الفرق بين أهل الحق وحزب الشيطان بقوله على طريق الإنكار ﴿ أفمن كان

(298/708)

على بينة ﴾ معجزة ظاهرة وحجة باهرة ﴿ من ربه ﴾ يريد محمداً وأمته قوله ﴿ وأتبعوا ﴾ محمول على معنى " من " وهو تأكيد للتزيين كما أن كون البينة من الرب تأكيد لها . وحين أثبت الفرق بين الفريقين أراد أن يبين الفرق بين جزائهما فقال ﴿ مثل الجنة ﴾ أي صفتها العجيبة الشأن . وفي إعرابه وجهان : أحدهما ما مر في الوقوف ، والثاني قول الزمخشري في الكشاف أنه على حذف حرف الاستفهام ، والتقدير : أمثل الجنة وأصحابها كمثل جزاء من هو خالد في النار ، أو كمثل من هو خالد ؟ وفائدة التعرية عن حروف الاستفهام زيادة تصوير مكابرة من يسوّي بين الفريقين . وقوله ﴿ فيها أنهار ﴾ كالبدل من الصلة أو حال . والآسن المتغير اللون أو الريح أو الطعم ومصدره الأسون والنعت آسن مقصوراً ، واللذة صفة أو مصدر وصف به كما مر في " الصافات " ، والباقي ظاهر .

(299/708)

قال بعض علماء التأويل : لا شك أن الماء أعم نفعاً للخلائق من اللبن والخمر والعسل فهو بمنزلة العلوم الشرعية لعموم نفعها للمكلفين كلهم ، وأما اللبن فهو ضروري للناس كلهم ولكن في أوّل التربية والنماء فهو بمنزلة العلوم الغريزية الفطرية ، وأما الخمر والعسل فليسا من ضرورات التعيش فهما بمنزلة العلوم الحقيقية السببية إلا أن الخمر يمكن أن تخص بالعلوم الذوقية . والعسل بسائرها وقد يدور في الخلد أن هذه الأنهار الأربعة يمكن أن تحمل على المراتب الإنسانية الأربع . فالعقل الهيولاني بمنزلة الماء لشموله وقبوله الآثار ، والعقل بالملكة بمنزلة اللبن لكونه ضرورياً في أوّل النشوء والتربية ، والعقل بالفعل بمنزلة الخمر فإن حصوله ليس بضروري لجميع الإنسان إلا أنه إذا حصل وكان الشخص ذاهلاً عنه غير ملتفت إليه كان كالخمر الموجب للغفلة وعدم الحضور ، والعقل المستفاد بمنزلة العسل من جهة لذته ومن جهة شفائه لمرض الجهل ومن قبل ثباته في المذاق للزوجته ودسومته والتصاقه والله تعالى أعلم بمراده . وقوله ﴿ ومغفرة من ربهم ﴾ إن قدر ولهم مغفرة من الله قبل ذلك فلا إشكال ، وإن قدر لهم فيها مغفرة أمكن أن يقال : إنهم مغفورون قبل دخول الجنة فما معنى الغفران بعد ذلك ؟ والجواب أن المراد رفع التكليف يأكلون من غير حساب ولا تبعة وآفة بخلاف الدنيا فإن حلالها حساب وحرامها عذاب . ثم ذكر نوعاً آخر من قبيح خصال الكافرين وقيل أراد المنافقين فقال ﴿ ومنهم من يستمع إليك ﴾ كانوا يحضرون مجلس

النبي صلى الله عليه وسلم والجمعات ويسمعون كلامه ولا يعونه كما يعيه المسلم ﴿ حتى إذا خرجوا ﴾ انصرفوا وخرج المسلمون ﴿ من عندك ﴾ يا محمد قال المنافقون للعلماء وهم بعض الصحابة كابن عباس وابن مسعود وأبي الدرداء : أيّ شيء قال محمد ﴿ آنفاً ﴾ أي في ساعتنا هذه . وأنف كل شيء ما تقدمه ومنه فولهم " استأنفت الأمر " ابتدأته . ولا يستعمل منه فعل ثلاثي بهذا المعنى . وإنما

(300/708)

توجه الذم عليهم لأن سؤالهم سؤال استهزاء وإعلام أنهم لم يلتفتوا إلى قوله ، ولو كان سؤال بحث عما لم يفهموه لم يكن كذلك ، على أن عدم الفهم دليل قلة الاكتراث بقوله . ثم مدح أهل الحق بقوله ﴿ والذين اهتدوا ﴾ بالإيمان ﴿ زادهم ﴾ الله ﴿ هدى ﴾ بالتوفيق والتثبيت وشرح الصدر ونور اليقين ﴿ وآتاهم تقواهم ﴾ أعانهم عليها أو أعطاهم جزاء تقواهم . وعن السدي : بين لهم ما يتقون . وقيل : الضمير في ﴿ زادهم ﴾ للاستهزاء أو لقول الرسول صلى الله عليه وسلم . ثم خوف أهل الكفر والنفاق باقتراب القيامة . وقوله ﴿ أن تأتيهم ﴾ بدل اشتمال من ﴿ الساعة ﴾ وأشراط الساعة إماراتها من انشقاق القمر وغيره . ومنه مبعث محمد صلى الله عليه وسلم فإنه نبي آخر الزمان ولهذا قال "

بعثت أنا والساعة كهاتين " وأشار بالسبابة والوسطى ﴿ فأنى لهم ﴾ من أين لهم ﴿ إذا جاءتهم ﴾ الساعة ﴿ ذكراهم ﴾ أي لا ينفعهم تذكرهم وإيمانهم حينئذ فالذكرى مبتدأ و ﴿ أنى لهم ﴾ الخبر . وقيل : فاعل ﴿ جاءتهم ﴾ ضمير يعود إلى " الذكرى " . وجوّز أن يرتفع " الذكرى " بالفعل والمبتدأ مقدر أي من أين لهم التذكر إذا جاءتهم الذكرى ؟ والقول هو الأول ولله المرجع والمآب وإليه المصير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 128.133 ﴾

(301/708)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة محمد صلى الله عليه وسلم .

مكية وتسمى القتال والذين كفروا وهي : ثمان وثلاثون آية ، وخمسمائة وتسع وثلاثون كلمة ، وألفان وثلثمائة وتسعة وأربعون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ الملك الأعظم الذي أقام جنده للذب عن حماه ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمت رحمته تارة بالبرهان ، وتارة بالسيف واللسان ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص حزبه بالحفظ في طريق الجنان . واختلف في قوله تعالى:

﴿ الذين كفروا ﴾ من هم ؟ فقيل : هم الذين كانوا يطعمون الجيش يوم بدر منهم أبو جهل والحارث ابنا هشام ، وعقبة ، وشيبة ابنا ربيعة ، وغيرهم ، وقيل : كفار قريش وقيل : أهل الكتاب وقيل : كل كافر لأنهم ستروا أنوار الأدلة وضلوا على علم ﴿ وصدّوا ﴾ أي : امتنعوا بأنفسهم ، ومنعوا غيرهم لعراقتهم في الكفر ، ﴿ عن سبيل الله ﴾ أي : الطريق الرحب المستقيم الذي شرعه الملك الأعظم ، ﴿ أضلّ ﴾ أي : أبطل إبطالاً عظيماً يزيل العين والأثر ، ﴿ أعمالهم ﴾ كإطعام الطعام ، وصلة الأرحام ، وفك الأسارى ، وحفظ الجوار ، وغير ذلك . فلا يرون لها في الآخرة ثواباً ويجزي عليها في الدنيا من فضله تعالى .

تنبيه : أوّل هذه السورة مناسب لآخر السورة المتقدمة .

(302/708)

ولما ذكر تعالى أهل الكفر معبراً عنهم بأدنى طبقاتهم ليشمل من فوقهم ، ذكر أضدادهم كذلك ؛ ليعمّ من كان منهم من جميع الفرق . بقوله تعالى : ﴿ والذي آمنوا ﴾ أي : أقرّوا بالإيمان باللسان ﴿ وعملوا ﴾ تصديقاً لدعواهم ﴿ الصالحات ﴾ أي : الأعمال الكاملة في الصلاح ، بتأسيسها على الإيمان . ولما كان هذا الوصف لا يخص أتباع محمد صلى الله عليه وسلم خصهم بقوله تعالى : ﴿ وآمنوا ﴾ أي : مع ذلك ﴿ بما نزل ﴾ أي : ممن لا منزل

إلا هو ، منجماً مفرقاً ليجدّدوا بعد الإيمان به إجمالاً الإيمان بكل نجم منه ﴿ على محمد ﴾ النبيّ الأميّ العربيّ القرشيّ المكيّ المدنيّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى : ﴿ وهو ﴾ أي : هذا الذي نزل عليه صلى الله عليه وسلم موصوف بأنه ﴿ الحق ﴾ أي : الكامل في الحقيقة ينسخ ولا ينسخ كائناً ﴿ من ربهم ﴾ أي : المحسن إليهم بإرساله أما إحسانه إلى أمّته فواضح وأمّا سائر الأمم فبكونه هو الشافع فيهم الشفاعة العظمى يوم القيامة ، وأمّته هي الشاهدة لهم جملة معترضة وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائيّ ﴿ وهو ﴾ بسكون الهاء والباقون بضمّها ﴿ كفر عنهم سيئاتهم ﴾ أي : ستر أعمالهم السيئة بالإيمان ، وعملهم الصالح ﴿ وأصلح بالهم ﴾ أي : حالهم في الدين والدنيا بالتوفيق والتأييد .

﴿ ذلك ﴾ أي : الأمر العظيم الذي ذكر هنا من جزاء الطائفتين .

(303/708)

﴿ بأن ﴾ أي : بسبب أن ﴿ الذين كفروا ﴾ أي : ستروا مرائي عقولهم ﴿ اتبعوا ﴾ أي : بغاية جهدهم ومعالجتهم ﴿ الباطل ﴾ من العمل الذي لا حقيقة له في الخارج تطابقه وذلك هو الابتداع والميل مع الهوى فضلوا ﴿ وأن الذين آمنوا ﴾ أي : ولو كانوا في أقل درجات

الإيمان ﴿ اتبعوا ﴾ أي بغاية جهدهم ﴿ الحق ﴾ أي الذي له واقع يطابقه وذلك هو الحكمة وهو العلم بموافقة العمل وهو معرفة المعلوم على ما هو عليه ﴿ من ربهم ﴾ أي : الذي أحسن إليهم بإيجادهم وما سببه من حسن اعتقادهم فاهتدوا ﴿ كذلك ﴾ أي : مثل هذا الضرب العظيم الشأن ﴿ يضرب الله ﴾ أي : الذي له الإحاطة بجميع صفات الكمال ﴿ للناس ﴾ أي : كل من فيه قوّة الاضطراب والحركة ﴿ أمثالهم ﴾ أي : أمثال أنفسهم ، أو أمثال الفريقين المتقدّمين ، أو أمثال جميع الأشياء التي يحتاجون إلى بيان أمثالها ، مبيناً لها مثل هذا البيان ، ليأخذ كل أحد من ذلك جزاء حاله ، فقد علم من هذا المثل أنّ من اتبع الباطل أضلّ الله تعالى عمله ، ووفر سيئاته ، وأفسد باله ومن اتبع الحق عمل به ضد ذلك كائناً من كان . وهو غاية الحث على طلب العلم في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم والعمل بها .

ولما بين تعالى أنّ الذين كفروا أضلّ أعمالهم ، وأن اعتبار الإنسان بالعمل ، ومن لا عمل له فهو همج إعدامه خير من وجوده سبب عنه . قوله تعالى:

﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا ﴾ أيها المؤمنون في المحاربة ، وقوله تعالى : ﴿ فضرب الرقاب ﴾ أصله : فاضربوا الرقاب ضرباً فحذف الفعل وقدم المصدر فأنيب منا به مضافاً إلى المفعول ، ضماً إلى التأكيد الاختصار والحكمة في اختيار ضرب الرقبة دون غيرها من الأعضاء ، لأنّ المؤمن هنا ليس بدافع إنما هو رافع ، وذلك لأن من يدفع الصائل لا ينبغي أولاً أن يقصد مقتله بل يتدرج ويضرب غير المقتل ، فإن اندفع فذاك ، ولا يرقى إلى درجة الإهلاك فأخبر تعالى أنه ليس المقصود دفعهم عنكم بل المقصود رفعهم من وجه الأرض ؛ فإذاً ينبغي أن يكون قصدكم أولاً إلى قتلهم ، بخلاف دفع الصائل . فالرقبة أظهر المقاتل وقطع الحلقوم والأوداج مستلزم للموت لكن في الحرب لا يتهيأ ذلك والرقبة ظاهرة في الحرب ، ففي ضربها حز العنق ، وهو مستلزم للموت ، بخلاف سائر المواضع ، ولا سيما في الحرب وفي قوله تعالى : ﴿ لقيتم ﴾ ما ينبىء عن مخالفتهم الصائل ؛ لأن قوله تعالى ﴿ لقيتم ﴾ يدل على أنّ القصد من جانبهم ، بخلاف قولنا : لقيكم ولذلك ؛ قال تعالى في غير هذا الموضع ﴿ واقتلوهم حيث ثقفتموهم ﴾ (البقرة :)

﴿ حتى إذا أثخنتموهم ﴾ أي : أكثرتم فيهم القتل ، وهذه غاية الأمر بضرب الرقاب ، لا لبيان غاية القتل .

﴿ فشدّوا ﴾ أي : فأمسكوا عن القتل وأسروهم ﴿ الوثاق ﴾ أي : ما يوثق به الأسرى وقوله تعالى : ﴿ فإما مناً بعد ﴾ أي : في جميع أزمان ما بعد الأسر ﴿ وإما فداء ﴾ فيه

وجهان أشهرهما : أنهما منصوبان على المصدر بفعل لا يجوز إظهاره ، لأنّ المصدر متى سيق تفصيلاً لعاقبة جملة ، وجب نصبه بإضمار فعل لا يجوز إظهاره ، والتقدير : فإما أن تمنوا مناً أي : بإطلاقهم من غير شيء ، وإما أن تفدوا فداء أي : تفادوهم بمال أو أسرى مسلمين ومثل هذا قول القائل:

*لأحمدنّ فإما درء واقعة** تخشى وإما بلوغ السؤل والأمل*

(305/708)

والثاني : قاله أبو البقاء أنهما مفعولان بهما لعامل مقدّر تقديره : أولوهم مَنّاً ، واقبلوا منهم فداء قال أبو حيان : وليس بإعراب نحوي وقوله تعالى : ﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ أي : أثقالها من السلاح وغيره بأن يسلم الكافر ، أو يدخل في العهد ، مجاز وقيل : هو من مجاز الحذف أي : أهل الحرب وهو غاية للقتل والأسر . والمعنى أثخنوا المشركين بالقتل والأسر حتى تدخل الملل كلها في الإسلام ، ويكون الدين كله لله ، فلا يكون بعده جهاد ولا قتال وذلك عند نزول عيسى عليه السلام وجاء في الحديث : "الجهاد حاضر منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال" وقال الفراء حتى لا يبقى إلا مسلم أو مسالم .

تنبيه : اختلف العلماء في حكم هذه الآية فقال قوم هي منسوخة بقوله تعالى ﴿ فإمّا

تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم ﴾ (الأنفال :)

وبقوله تعالى : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ (التوبة :)

(306/708)

وإليه ذهب قتادة والضحاك والسدّي وابن جريج وهو قول الأوزاعي ، وأصحاب الرأي وقالوا : لا يجوز المّن على من وقع في الأسر من الكفار ولا الفداء وذهب آخرون إلى أنّ الآية محكمة والإمام بالخيار في الرجال العاقلين من الكفار إذا وقعوا في الأسر بين أن يقتلهم ، أو يسترقهم أو يمنّ عليهم فيطلقهم بغير عوض . أو يفاديهم بالمال أو بأسارى المسلمين وإليه ذهب ابن عمر ، وبه قال الحسن وعطاء وأكثر الصحابة والعلماء وهو قول الثوري والشافعي وأحمد وإسحاق قال ابن عباس رضى الله عنهما لما كثر المسلمون واشتد سلطانهم أنزل الله تعالى في الأسارى ﴿ فإما مناً بعدوا ما فداء ﴾ وهذا هو الأصح والاختيار لأنه عمل به صلى الله عليه وسلم والخلفاء بعده ، روى البخاريّ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : "بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم خيلاً قبل نجد ، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال ، فربطوه في سارية من سواري المسجد ، فخرج إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما عندك يا ثمامة ؟ فقال عندي خير يا محمد إن تقتلني

تقتل ذا ذم وإن تنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل ما شئت ، حتى كان الغد فقال له صلى الله عليه وسلم ما عندك يا ثمامة ؟ قال : عندي ما قلت لك إن تنعم تنعم على شاكر فتركه حتى إذا كان بعد الغد ، قال : ما عندك يا ثمامة قال : عندي ما قلت لك ؟ . قال : أطلقوا ثمامة فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ، ثم دخل المسجد فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي والله ما كان من دين أبغض إلي من دينك ، فأصبح دينك أحبّ الدين إليّ . والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك ، فقد أصبح بلدك أحبّ البلاد إليّ . وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى ؟ فبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمره أن يعتمر . فلمّا قدم مكة ، قال له قائل : صبوت قال : لا ، ولكن

(307/708)

أسلمت مع

محمد صلى الله عليه وسلم

وعن عمران بن حصين قال : أسر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً من

عقيل فأوثقوه وكانت ثقيف قد أسرت رجلين من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم ففداه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرجلين اللذين أسرتهما ثقيف .

قوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ يجوز أن يكون خبر مبتدإ مضمر ، أي : الأمر ذلك وأن ينتصب بإضمار افعلوا قال الرازي : ويحتمل أن يقال : ذلك واجب . أو مقدّم كما يقول القائل إن فعلت فذاك . أي : فذاك مقصود ومطلوب ، قال المفسرون : ومعناه ذلك الذي ذكرت وبينت من حكم الكفار . ﴿ ولو يشاء الله ﴾ أي : الملك الأعظم الذي له جميع الكمال ﴿ لانتصر منهم ﴾ أي : بنفسه من غير أحد انتصاراً عظيماً ، فيهلكهم بأن لا يبقي منهم أحداً وكفاكم أمرهم بغير قتال .

﴿ ولكن ﴾ أمركم بذلك ﴿ ليبلو ﴾ أي يختبر ﴿ بعضكم ببعض ﴾ أي يفعل في ذلك فعل المختبر ، ليرتب عليه الجزاء فيصير من قتل من المؤمنين إلى الجنة ومن قتل من الكافرين إلى النار .

فإن قيل : فما فائدة الابتلاء مع حصول العلم عند المبتلي ، فإذا كان الله تعالى عالماً بجميع الأشياء فأي فائدة فيه ؟

أجيب : بأن هذا السؤال كقول القائل : لم عاقب الكافر وهو مستغن ؟ ولم خلق النار محرقة وهو قادر على أن يخلقها بحيث تنفع ولا تضرّ ؟ وجوابه : ﴿ لا يسئل عما يفعل ﴾ (الأنبياء :)

. ونزل يوم أحد لما فشا في المسلمين القتل والجراحات ﴿ والذين قتلوا في سبيل الله ﴾ أي : لأجل تسهيل طريق الملك الأعظم المتصف بجميع صفات الكمال ﴿ فلن يضلّ ﴾ أي : لا يضيع ولا يبطل ﴿ أعمالهم ﴾ وقرأ أبو عمرو وحفص : بضم القاف وكسر التاء مبنياً للمفعول على معنى أنه أصاب القتل بعضهم كقوله تعالى ﴿ قاتل معه ربيون ﴾ (آل عمران :)

والباقون بفتح القاف والتاء وألف بينهما أي جاهدوا .

(308/708)

﴿ سيهديهم ﴾ أي أيام حياتهم في الدنيا إلى أرشد الأمور ، وفي الآخرة إلى الدرجات بوعد لا خلف فيه ﴿ ويصلح بالهم ﴾ أي يرضي خصماءهم ، ويقبل أعمالهم ﴿ ويدخلهم الجنة ﴾ أي : الكاملة في النعيم ﴿ عرفها ﴾ أي : أعلمها ، وبينها ﴿ لهم ﴾ أي : بما يعلم به كل أحد منزلته ودرجته من الجنة قال مجاهد : يهتدي أهل الجنة إلى مساكنهم منها لا يخطئون كأنهم كانوا سكانها منذ خلقوا ، يستدلون عليها وعن مقاتل : أنّ الملك الذي وكل بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه فيعرفه كل شيء أعطاه الله تعالى وعن ابن عباس رضي الله عنهما : عرفها لهم : طيبها مشتق من العرف وهو الريح الطيبة يقال

طعام معرف أي : مطيب . ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي : أقرّوا بذلك ﴿ إن تنصروا الله ﴾ أي : دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ ينصركم ﴾ أي : على عدوّكم فإنه الناصر لا غيره ، من عدد أو عدد . ويثبت أقدامكم أي في القيام بحقوق الإسلام والمجاهده مع الكفار ولما بين تعالى ما لأهل الإيمان بين ما لأهل الكفران بقوله تعالى:

﴿ والذين كفروا ﴾ وهو مبتدأ أي : ستروا ما دل عليه العقل ، وقادت إليه الفطرة الأولى ، وخبره تعسوا يدل عليه قوله تعالى : ﴿ فتعساً لهم ﴾ أي : هلاكاً لهم وخيبة من الله تعالى ، وقال ابن عباس : أي بعداً لهم وقيل التعس الجرّ على الوجه ، والنكس : الجرّ على الرأس وقوله تعالى : ﴿ وأضل أعمالهم ﴾ عطف على تعسوا أي : أبطلها وإن كانت ظاهرة الإتقان ؛ لأجل تضييع الأساس وهو الإيمان . وقوله تعالى:

(309/708)

﴿ ذلك ﴾ يجوز أن يكون مبتدأ والخبر الجار بعده ، أو خبر مبتدأ مضمر . أي : الأمر ذلك ﴿ بأنهم ﴾ أي : بسبب أنهم ﴿ كرهوا ما أنزل الله ﴾ أي : الملك الأعظم الذي لا نعمة إلا منه من القرآن وما أنزل الله تعالى فيه من التكاليف والأحكام لأنهم قد ألفوا الإهمال وإطلاق العنان في الشهوات والملاذّ فشق عليهم ذلك ، وتعاظمهم والذي أنزله من القرآن

وغيره هو روح الوجود الذي لا بقاء بدونه فلما كرهوا الروح الأعظم بطلت أرواحهم فتبعتها أشباحهم وهو معنى قوله تعالى مسبباً بياناً لمعنى إضلال أعمالهم ﴿ فأحبط ﴾ أي : أبطل إبطالاً لاصلاح معه ﴿ أعمالهم ﴾ بسبب : أنهم أفسدوها بنياتهم فصارت وإن كانت صورها صالحة ليس لها أرواح لكونها واقعة على غير ما أمر به الله الذي لا أمر إلا له ، ولا يقبل من العمل إلا ما حدّه ورسمه ثم خوّف الكفار بقوله تعالى : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض ﴾ أي : التي فيها آثار الوقائع ﴿ فينظروا كيف كان عاقبة ﴾ أي : آخر أمر ﴿ الذين من قبلهم دمّر الله ﴾ أي : أوقع الملك الأعظم الهلاك ﴿ عليهم ﴾ بما عم أهاليهم وأموالهم ، وكل من رضي أفعالهم أو مقالهم . وعدل عن أن يقول ﴿ ولهؤلاء ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وللكافرين ﴾ تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف وهو العراقة في الكفر ﴿ أمثالها ﴾ أي : أمثال عاقبة من قبلهم .

﴿ ذلك ﴾ أي : الأمر العظيم وهو نصر المؤمنين وقهر الكافرين ، ﴿ بأن الله ﴾ أي : بسبب أنّ الملك الأعظم المحيط بصفات الكمال ﴿ مولى ﴾ أي : ولي وناصر ﴿ الذين آمنوا ﴾ فهو يفعل معهم بما له من الجلال والجمال ما يفعل القريب بقريبه الحبيب له قال القشيري : ويصح أن يقال : أرجى آية في القرآن هذه الآية ؛ لأن الله تعالى لم يقل إنه هادي العباد وأصحاب الأوراد والاجتهاد بل علق ذلك بالإيمان ﴿ وأنّ الكافرين ﴾ أي : العريقين في هذا الوصف . ا

﴿ لا مولى لهم ﴾ فيدفع العذاب عنهم وهذا لا يخالف قوله تعالى ﴿ وردّوا إلى الله مولاهم الحق ﴾ (سورة يونس ، آية :)

(310/708)

فإنّ المولى فيه بمعنى المالك ثم ذكر سبحانه وتعالى ما للفريقين بقوله تعالى:

﴿ إنّ الله ﴾ أي الذي له جميع الصفّات ﴿ يدخل الذين آمنوا ﴾ أي : أوقعوا التصديق ﴿ وعملوا ﴾ تصديقاً لما ادعوا أنهم أوقعوه ﴿ الصالحات ﴾ أي : الطاعات ﴿ جنات ﴾ أي : بساتين عظيمة الشأن موصوفة بأنها ﴿ تجري من تحتها ﴾ أي : من تحت قصورها ﴿ الأنهار ﴾ فهي دائمة النموّ والبهجة والنضارة والثمرة ﴿ والذين كفروا يتمتعون ﴾ أي : في الدنيا بالملاذ ، كما تتمتع الأنعام ناسين ما أمر الله تعالى به معرضين عن كتابه .

﴿ ويأكلون ﴾ على سبيل الاستمرار ﴿ كما تأكل الأنعام ﴾ أي : أكل التذاذ ومرح من أيّ موضع كان وكيف الأكل من غير تمييز الحرام من غيره ، إذ ليس لهم همة إلا بطونهم وفروجهم ، لا يلتفتون إلى الآخرة ؛ لأنّ الله تعالى أعطاهم الدنيا ، ووسع عليهم فيها ، وفرغهم لها حتى شغلتهم عنه هواناً بهم وبغضاً لهم فيدخلهم ناراً وقودها الناس والحجارة

كما قال تعالى : ﴿ والنار مثوى لهم ﴾ أي : منزل ومقام ومصير ولما ضرب الله تعالى لهم مثلاً بقوله تعالى ﴿ أفلم يسيروا في الأرض ﴾ ولم ينفعهم مع ما تقدم من الدلائل ضرب للنبيّ صلى الله عليه وسلم مثلاً تسلية له . فقال تعالى:

﴿ وكأين ﴾ أي : وكم ﴿ من قرية ﴾ أريد أهلها أي : كذبت رسولها ﴿ هي أشد قوة ﴾ وأكثر عدداً ﴿ من قريتك ﴾ مكة أي : أهلها وقوله تعالى : ﴿ التي أخرجتك ﴾ روعي فيه لفظ قرية وقوله تعالى : ﴿ أهلكناهم ﴾ أي : بأنواع العذاب روعي فيه معنى قرية الأول ﴿ فلا ناصر لهم ﴾ يدفع عنهم الهلاك . كذلك نفعل بهم فاصبر كما صبر رسلهم قال ابن عباس : "لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال أنت أحب أرض الله إلى الله وأحب بلاد الله إليّ ولو أنّ المشركين لم يخرجوني لم أخرج منك" فأنزل الله تعالى هذه .

(311/708)

﴿ أفمن كان ﴾ أي : في جميع أحواله ﴿ على بينة ﴾ أي : حجة ظاهرة البيان في أنها حق ﴿ من ربه ﴾ أي : المربي والمدبر له المحسن إليه وهم النبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ﴿ كمن زين له ﴾ بتزيين الشيطان بتسليطنا له عليه ﴿ سوء عمله ﴾ فرآه حسناً وهم :

أبو جهل والكفار ﴿ واتبعوا أهواءهم ﴾ في ذلك ولا شبهة لهم في شيء من أعمالهم السيئة فضلاً عن دليل ولما تكرّر ذكر الجنة في هذه السورة بين صفتها . بقوله تعالى:

﴿ مثل ﴾ أي : صفة ﴿ الجنة ﴾ أي : البساتين العظيمة التي تستر داخلها من كثرة أشجارها ﴿ التي وعد المتقون ﴾ أي : الذين حملتهم تقواهم بعد الوقوف عن فعل لم يدلّ عليه دليل على أن استمعوا منك فانتفعوا بما دللتهم عليه من أمور الدين .

تنبيه : اختلف في إعراب هذه الآية على أوجه:

أحدها : أن ﴿ مثل ﴾ مبتدأ وخبره مقدّر . قدره النضر بن شميل : مثل الجنة ما تسمعون . فما تسمعون خبره و﴿ فيها أنهار ﴾ مفسر له . وقدّره سيبويه : فيما يتلى عليكم مثل الجنة . والجملة بعدها أيضاً مفسرة للمثل .

ثانيها : أن ﴿ مثل ﴾ زائدة تقديره : الجنة التي وعد المتقون ﴿ فيها أنهار ﴾ ونظير زيادة ﴿ مثل ﴾ هنا زيادة اسم في قول القائل:

*إلى الحول ثم اسم السلام عليكما

(312/708)

ثالثها : أنّ مثل الجنة مبتدأ ، والخبر : قوله تعالى ﴿كمن هو خالد في النار﴾ فقدّره ابن عطية : أمثل أهل الجنة كمن هو خالد فقدر حرف الإنكار ومضافاً ليصح وقدّره الزمخشريّ : أمثّل الجنة كمثل جزاء من هو خالد . والجملة من قوله تعالى ﴿فيها أنهار﴾ حال من الجنة أي : مستقرّة فيها أنهار ﴿من ماء﴾ ولما كان ماء الدنيا مختلف الطعوم ، مع اتحاد الأرض ببساطها ، وشدّة اتصالها ، للدلالة على أنّ فاعل ذلك قادر مختار وقد يكون آسناً أي : متغيراً عن الماء الذي يشرب بريح منتنة من أصل خلقته ، أو من عارض عرض له من منبعه ، أو مجراه قال تعالى : ﴿غير آسن﴾ أي : ثابت له في وقت ما شيء من الطعم ، أو اللون ، أو الريح بوجه من الوجوه وإن طالت إقامته وإن أضيف إليه غيره فإنه لا يقبل التغير بوجه بخلاف ماء الدنيا فيتغير لعارض وقرأ ابن كثير : بقصر الهمزة والباقون : بمدّها وهما لغتان ﴿وأنهار من لبن﴾ ولما كان التغير غير محمود قال تعالى : ﴿لم يتغير طعمه﴾ أي : بنفسه عن أصل خلقته وإن أقام مدى الدهر بخلاف لبن الدنيا ، لخروجه من الضرع وهذا يفهم : أنهم لو أرادوا تغييره لشهوة اشتهوها تغير . وأنه مع طيبه على أنواع كثيرة ، كما كان في الدنيا متنوعاً ﴿وأنهار من خمر﴾ ولما كان الخمر يكره طعمها وإنما يشربها شاربوها لأثرها . وإنه متى تغير طعمها زال اسمها عرّف أنّ كل ما في خمر الجنة في غاية الحسن ، غير متعرّض لطعم فقال تعالى : ﴿لذة﴾ أي : لذيذة ﴿للشاربين﴾ في طيب الطعم ، وحسن العاقبة بخلاف خمر الدنيا فإنها كريهة عند الشرب ﴿وأنهار من عسل﴾

ولما كان عسل الدنيا لا يوجد إلا مخلوطاً ، لخروجه من بطون النحل بالشمع ، وغيره من القذى قال تعالى:

﴿ مصفى ﴾ أي : هو صاف صفاء ما اجتهد في تصفيته من ذلك وهذا الوصف ثابت له دائماً لا انفكاك له في وقت ما .

(313/708)

تنبيه : قال أبو حيان في حكمة ترتيب هذه الأنهار : إنه بدأ بالماء الذي لا تستغني عنه المشروبات ، ثم باللبن إذ كان يجري مجرى المطعومات في كثير من أوقات العرب ، ثم بالخمر لأنه إذا حصل الريّ والمطعم ، تشوّقت النفس إلى ما تلتذ به ، ثم بالعسل لأنّ فيه الشفاء في الدنيا مما يعرض من المطعوم والمشروب ، ا . ه . فإن قيل ما الحكمة في قوله تعالى في الخمر : ﴿ لذة للشاربين ﴾ ولم يقل في اللبن لم يتغير طعمه للطاعمين ، ولا قال في العسل مصفى للناظرين . أجاب الرازي : بأنّ اللذة تختلف باختلاف الأشخاص فرب طعام يلتذ به شخص ، ويعافه الآخر . فقال : لذة للشاربين بأسرهم ، ولأنّ الخمر كريهة الطعم في الدنيا فقال : لذة أي : لا يكون في خمر الآخرة كراهة الطعم . وأمّا الطعم واللون فلا يختلف باختلاف الناس ، فإنّ الحلو والحامض وغيرهما يدركه كل أحد لكن قد يعافه بعض الناس

، ويلتذ به البعض مع اتفاقهم على أنّ له طعماً واحداً . وكذلك اللبن فلم يكن للتصريح بالتعميم حاجة .

(314/708)

فائدة : روي عن كعب الأحبار أنه قال : نهر دجلة نهر ماء أهل الجنة ونهر الفرات نهر لبنهم ونهر مصر نهر خمرهم ونهر سيحان وجيحان نهر عسلهم وهذه الأنهار الأربعة ، تخرج من نهر الكوثر وقال ابن عبد الحكم في فتوح مصر : إن كعب الأحبار سئل هل تجد لهذا النيل في كتاب الله عز وجلّ خبراً فقال أي : والذي فلق البحر لموسى إني أجده في كتاب الله تعالى أنّ الله عز وجلّ يوحي إليه في كل عام مرتين يوحى إليه عند جريه أنّ الله يأمرك أن تجري فيجري ما كتب الله تعالى له ثم يوحى إليه بعد ذلك يا نيل غر حميداً وعن كعب أيضاً أنه قال : أربعة أنهر من الجنة ، وضعها الله تعالى في الدنيا فالنيل : نهر العسل في الجنة ، والفرات : نهر الخمر في الجنة ، وسيحان : نهر الماء في الجنة ، وجيجان : نهر اللبن في الجنة" وعنه أيضاً أنه قال : النيل في الآخرة لبناً ، أغزر ما يكون من الأنهار التي سمى الله عز وجل ، والفرات خمر أغزر ما يكون من الأنهار التي سمى الله عز وجلّ ، وجيجان ماء أغزر ما يكون من الأنهار التي سمى الله عز وجل وأصل هذا كله ما في الصحيح في وصف الجنة عن

أبي هريرة "أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال سيحان وجيحان والنيل والفرات من أنهار الجنة" ولما كانت الثمار ألذ مستطاب بعد منافع الشراب قال تعالى:

﴿ ولهم فيها ﴾ وقوله تعالى : ﴿ من كل الثمرات ﴾ فيه وجهان أحدهما : أنّ هذا الجار صفه لمقدر ، ذلك المقدر مبتدأ ، وخبره الجار قبله ، وهو لهم وفيها متعلق بما تعلق به والتقدير ولهم فيها زوجان من كل الثمرات كأنه انتزعه من قوله تعالى ﴿ فيهما من كل فاكهة زوجان ﴾ وقدّره بعضهم صنف والأوّل كما قال ابن عادل أليق ثانيهما أن ﴿ من ﴾ مزيدة في المبتدأ .

(315/708)

﴿ ومغفرة من ربهم ﴾ فهو راض عنهم مع إحسانه إليهم بما ذكر ، بخلاف سيد العبيد في الدنيا فإنه قد يكون مع إحسانه إليهم ساخطاً عليهم وقوله تعالى : ﴿ كمن هو خالد في النار ﴾ خبر مبتدأ مقدّر أي : أمن هو في هذا النعيم ، كمن هو مقيم إقامة لا انقطاع معها في النار التي لا ينطفئ لهيبها ، ولا ينفك أسيرها ، ووحده لأنّ الخلود يعم من فيها على حدّ سواء ، ﴿ وسقوا ﴾ أي : عوض ما ذكر من شراب أهل الجنة ﴿ ماء حميماً ﴾ هو في غاية الحرارة ﴿ فقطع أمعاءهم ﴾ أي : مصارينهم ، فخرجت من أدبارهم وهو جمع مع

بالقصر وألفه عن ياء لقولهم معيان .

﴿ ومنهم من يستمع إليك ﴾ أي : في خطب الجمعة ، وهم المنافقون والضمير في قوله تعالى ﴿ ومنهم ﴾ يحتمل أن يعود إلى الناس كما قال تعالى في سورة البقرة ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله ﴾ (البقرة :)

بعد ذكر الكفار ويحتمل أن يعود إلى أهل مكة ؛ لأنّ ذكرهم سبق في قوله تعالى ﴿ هي أشدّ قوة من قريتك التي أخرجتك ﴾ ويحتمل أن يرجع إلى معنى قوله تعالى ﴿ هو خالد في النار وسقوا ماء حميما ﴾ أي : ومن الخالدين في النار قوم يستمعون إليك ﴿ حتى إذا ﴾ أي : واستمر جهلهم لأنفسهم في الإصغاء حتى إذا ﴿ خرجوا ﴾ أي : المستمعون والسامعون ﴿ من عندك قالوا ﴾ أي : الفريقان تعامياً واستهزاءً .

(316/708)

﴿ للذين أوتوا العلم ﴾ بسبب تهيئة الله تعالى لهم من صفاء الأفهام بتجردهم عن النفوس والحظوظ ، وانقيادهم لما تدعو إليه الفطرة الأولى . منهم ابن مسعود وابن عباس ﴿ ماذا قال ﴾ أي : النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ آنفا ﴾ أي : قبل افتراقنا وخروجنا عنه روى مقاتل : "أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يخطب ويعيب المنافقين فإذا خرجوا من

المسجد سألوا عبد الله بن مسعود استهزاء ماذا قال محمد آنفاً" أي الساعة ، أي : لا ترجع إليه وقرأ البزي بقصر الهمزة بخلاف عنه والباقون بالمدّ وهما لغتان بمعنى واحد وهما اسما فاعل كحاذر وحذر ، ﴿ أولئك ﴾ أي : البعداء من كل خير ﴿ الذين طبع الله ﴾ أي : الملك الأعظم ﴿ على قلوبهم ﴾ أي : بالكفر فلم يفهموا فهم انتفاع ؛ لأنّ مثل هذا الجمود لا يكون إلا بذلك ﴿ واتبعوا ﴾ أي : بغاية جهدهم

﴿ أهواءهم ﴾ أي : في الكفر والنفاق ، فلذلك هم يتهاونون بأعظم الكلام ، ويقبلون على جمع الحطام ، فهم أهل النار المشار إليهم قبل آية ﴿ مثل الجنة ﴾ بأنهم ﴿ زين لهم سوء عملهم ﴾ ثم ذكر تعالى أضداد هؤلاء .

بقوله سبحانه:

﴿ والذين اهتدوا ﴾ أي : اجتهدوا باستماعهم منك في الإيمان ، والتسليم والإذعان بأنواع المجاهدات وهم المؤمنون ﴿ زادهم ﴾ أي : الله الذي طبع على قلوب الكفرة ، ﴿ هدى ﴾ بأن شرح صدورهم ، ونورها بأنوار المشاهدات ، فصارت أوعية للحكمة ﴿ وآتاهم تقواهم ﴾ أي : ألهمهم ما يتقون به النار ، قال ابن برحان : التقوى عمل الإيمان كما أن أعمال الجوارح عمل الإسلام .

﴿ فهل ﴾ أي : ما ﴿ ينظرون ﴾ أي : ينتظرون وجودها إشارة إلى شدة قربها .

﴿ إلا الساعة ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أن تأتيهم ﴾ أي : الكافرين بدل اشتمال من الساعة أي

: ليس الأمر إلا أن تأتيهم ﴿ بغتة ﴾ أي : فجأة من غير شعور بها ، ولا استعداد لها .

وقوله تعالى : ﴿ فقد جاء أشراطها ﴾ جمع شرط بسكون الراء وفتحها قال أبو الأسود :

*فإن كنت قد أزمعت بالصرم بيننا ** فقد جعلت أشراطاً وله تبدو*

(317/708)

والأشراط : العلامات ومنه أشراط الساعة وأشرط الرجل نفسه أي ألزمها أموراً قال أوس:

*فأشرط فيها نفسه وهو يقسم ** فألقى بأسباب له وتوكلا*

والشرط : القطع أيضاً ، مصدر شرط الجلد يشرطه شرطاً قال السهيلي عن ابن سعد عن أنس قال "رأيت النبيّ صلى الله عليه وسلم قال بأصبعيه هكذا بالوسطى والتي تلي الإبهام بعثت والساعة كهاتين" وعن أنس قال : "لأحدّثنكم بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أنّ من أشراط الساعة أن يرفع العلم ، ويكثر الجهل ، ويكثر الربا ، ويشرب الخمر ، وتقل الرجال ، وتكثر النساء ، حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد" وعن أبي هريرة قال : "بينما النبيّ صلى الله عليه وسلم في مجلس يحدث القوم إذ جاءه أعرابي ، فقال : متى الساعة ؟ فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث ، فقال

بعض القوم : سمع ما قال فكره ما قال وقال بعضهم : لم يسمع حتى إذا قضى حديثه ، قال : أين السائل عن الساعة ؟ قال : ها أنا يا رسول الله قال : إذا ضيعت الأمانة ، فانتظر الساعة فقيل : كيف إضاعتها قال : إذا وسد الأمر لغير أهله فانتظروا الساعة" .

ومن أشراطها انشقاق القمر المؤذن بآية الشمس في طلوعها من مغربها ، وغير ذلك وما بعد مقدّمات الشيء إلا حضوره .

﴿ فأنى ﴾ أي : فكيف وأين ﴿ لهم ﴾ أي التذكر والاتعاظ والتوبة ﴿ إذا جاءتهم ذكراهم ﴾ أي : الساعة لا تنفعهم .

نظيره قوله تعالى ﴿ يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ﴾ ولما علم بذلك أنّ الذكرى غير نافعة إذا انقضت هذه الدار التي جعلت للعمل ، أو جاءت الأشراط المحققة الكاشفة لها ، سبب عنه أمر أعظم الخلق تكويناً ليكون لغيره تكليفاً فقال:

(318/708)

﴿ فاعلم أنه ﴾ أي : الشأن العظيم ﴿ لا إله ﴾ أي : لا معبود بحق ﴿ إلا الله ﴾ أي : إذا علمت سعادة المؤمنين وشقاوة الكافرين ، فاثبت على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية ، فإنه النافع يوم القيامة وقيل : الخطاب مع النبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد غيره وقال

الحسن بن الفضل : فازدد علماً إلى علمك وقال أبو العالية وابن عيينة معناه إذا جاءتهم الساعة ، فاعلم أنه لا ملجأ ولا مفزع عند قيامها إلا إلى الله ، ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ أي : لأجله ، أمر بذلك مع عصمته لتستن به أمته وقد فعله قال صلى الله عليه وسلم "إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة" وقيل : معنى قوله ﴿ لذنبك ﴾ أي : لذنب أهل بيتك وللمؤمنين والمؤمنات الذين ليسوا من أمتك بأهل بيت وقيل : المراد النبيّ ، والذنب هو ترك الأفضل الذي هو بالنسبة إليه ذنب وحسناتنا دون ذلك قال صلى الله عليه وسلم "إنه ليغان على قلبي ، وإني لأستغفر الله في كل يوم مائة مرة" وقيل : هو كل مقام عال ارتفع منه إلى أعلى منه . وقوله تعالى : ﴿ وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ فيه إكرام من الله تعالى لهذه الأمّة ؛ حيث أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لذنوبهم ﴿ والله ﴾ المحيط بجميع صفات الكمال ﴿ يعلم متقلبكم ﴾ أي : تصرّفكم لأشغالكم بالنهار ، ومكانه وزمانه ﴿ ومثواكم ﴾ أي : مأواكم إلى مضاجعكم بالليل أي : هو عالم بجميع أحوالكم ، لا يخفى عليه شيء منها فاحذروه ، والخطاب للمؤمنين وغيرهم ، وقيل : يعلم متقلبكم في أعمالكم ، ومثواكم في الجنة والنار ، ومثله حقيق بأن يخشى ويتقى وأن يستغفر ويسترحم ، وعن سفيان ابن عيينة أنه سئل عن فضل العلم فقال : ألم تسمع قوله تعالى حين بدأ به ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك ﴾ فأمر بالعمل بعد العلم وقال : ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا

لعب ولهو ﴾ (الحديد :) الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 7 صـ 35 .

48 ﴾

(319/708)

وقال القاسمي :

سورة محمد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [1] .

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي : جحدوا توحيد الله ، وعبدوا غيره : ﴿ وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي : أعرضوا وامتنعوا عن الإقرار لله بالوحدانية ، ولنبيه بالرسالة . أو صدوا غيرهم عن ذلك ﴿ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي : جعلها على غير هدى ورشاد .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي : الطاعات فيما بينهم وبين ربهم . وقوله : ﴿ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴾ أي : بما أنزل الله به جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم . وإنما خصه بالذكر ، مع دخوله فيما قبله ، تعظيماً لشأنه وتعليماً ؛ لأنه لا يصح الإيمان ولا يتم إلا به ؛ إذ يفيد بعطفه أنه أعظم أركانه ، لإفراده بالذكر . وقد تأكد ذلك بالجملة

الاعتراضية التي هي قوله : ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ أي : الثابت بالواقع ، ونفس الأمر ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أي : ستر بإيمانهم وعملهم الصالح ، ما كان منهم من الكفر والمعاصي ، لرجوعهم عنها وتوبتهم : ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ أي : حالهم وشأنهم ، وعملهم في الدنيا بالتأييد والتوفيق .

قال الشهاب : البال يكون بمعنى الحال والشأن ، وقد يخص بالشأن العظيم ، كقوله صلى الله عليه وسلم <كل أمر ذي بال> . ويكون بمعنى الخاطر القلبيّ ، ويتجوز به عن القلب ، ولو فسر به هنا كان حسناً أيضاً . وقد فسره السفاقسي بالفكر ؛ لأنه إذا صلح قلبه وفكره ، صلحت عقيدته وأعماله . وقال ابن جرير : البال كالمصدر ، مثل الشأن ، لا يعرف منه فعل ، ولا تكاد العرب تجمعه إلا في ضرورة شعر ، فإذا جمعوه قالوا : بالات .

(320/708)

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ [3] .

﴿ ذَلِكَ ﴾ أي : المذكور من فعله تعالى بالفريقين ما فعله كائن : ﴿ بِأَنَّ الَّذِينَ ﴾ أي : بسبب أن الذين : ﴿ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ

يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ أي : يشبه لهم الأشباه ، فليحق بكل قوم من الأمثال أشكالاً .

قال الزمخشري : فإن قلت : أين ضرب الأمثال ؟ قلت : في أن جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار ، واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين . أو في أن جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفار ، وتكفير السيئات مثلاً لفوز المؤمنين . انتهى .

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [4] .

(321/708)

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ لما كان طليعة هذه السورة تمهيداً لجهاد المشركين الساعين في الأرض بالفساد ، الصادّين عن منهج الرشاد ، وبعثاً على الصدق في قتالهم ، كسحاً لعقبة باطلهم ، عملاً بما يوجبه الإيمان ويفرضه الإيقان ، وتمييزاً لأولياء الرحمن من أولياء الشيطان ، تأثر تلك الطليعة بهذه الجملة . ولذا قال أبو السعود : الفاء لترتيب ما في حيّزها من الأمر على ما قبلها ؛ فإن ضلال أعمال الكفرة وخبثهم ، وصلاح

أحوال المؤمنين وفلاحهم ، مما يوجب أن يرتب على كل من الجانبين ما يليق به من الأحكام ؛ أي : فإذا كان الأمر كما ذكر ، فإذا لقيتموهم في المحاربة ، فضرب الرقاب . وأصله : فأضربوا الرقاب ضرباً . فحذف الفعل ، وقدم المصدر ، وأنيب منابه مضافاً إلى المفعول . وفيه اختصار وتأكيد بليغ . والتعبير به عن القتل ، تصوير له بأشنع صورة ، وتهويل لأمره ، وإرشاد للغزاة إلى أيسر ما يكون منه : ﴿ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ ﴾ أي : غلبتموهم ، وقهرتم من لم تضربوا رقبته منهم ، فصاروا في أيديكم أسرى : ﴿ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ﴾ بفتح الواو ، وقرئ بكسرها . وهو ما يوثق به ، أي : يربط ويشد ، كالقيد والحبل . أي : فأمسكوهم به كيلاً يقتلوكم فيهربوا منكم : ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء ﴾ أي : فإما تمنون بعد ذلك عليهم ، فتطلقونهم بغير عوض ، لزوال سبعيّتهم ، وإما تفدون فداءً ، فتطلقونهم بعوض مال ، أو مسلم أسروه فيتقوى به المسلمون ، أو يتخلص أسيرهم .

(322/708)

قال المهايمي : ولم يذكر القتل اكتفاء بما مر من قوله : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الأنفال : 67] ، وذلك فيمن يرى فيه الإمام بقاء السبعية بالكمال ، ولم يذكر الاسترقاق ؛ لأنه في معنى استدامة الأسر ، وذلك فيمن يرى فيه نوع سبعية ، ولا

تزالوا كذلك : ﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ أي : إلى انقضاء الحرب . والأوزار : كالأحمال وزناً ومعنى ، استعير لآلات الحرب التي لا تقوم إلا بها ، استعارة تصريحية أو مكنية ، بتشبيهها بإنسان يحمل حملاً على رأسه أو ظهره ، وأثبت له ذلك تخييلاً ، وقد جاء ذكرها في قول الأعشى :

~وَأَعْدَدْتَ لِلْحَرْبِ أَوْزَارَهَا رِمَاحاً طِوَالاً وَخَيْلاً ذُكُورًا

وقيل : أوزارها آثامها . يعني : حتى يترك أهل الحرب – وهم المشركون – شركهم ومعاصيهم بأن يسلموا .

تنبيهات :

الأول – قال في " الإكليل " : في الآية بيان كيفية الجهاد .

الثاني – للسلف قولان في أن الآية : منسوخة ، أو محكمة .

فروي عن ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك ، والسدي أنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ [التوبة : 5] ، قالوا : فلم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة بعد براءة ، وانسلاخ الأشهر الحرم .

وروي عن ابن عمر ، وعطاء ، والحسن ، وعمر بن عبد العزيز ، أن الآية محكمة ليست منسوخة ، وأنه لا يجوز قتل الأسير ، وإنما له المن أو الفداء .

ووجه من ذهب إلى الأول تعارض الآيتين عنده بادئ بدء ، فلم يبق إلا القول بإحداهما

وهي المطلقة .

ومدرك الثاني أن الأمر بقتلهم المجمل في آيات ، محمول على المفصل في مثل هذه الآية ، أي : إن القتل عند اللقاء ، ثم بعد انقضاء الحرب المن أو الفداء لا غير ، إلا أن تبدو مصلحة في القتل ، فتلك من باب آخر .

(323/708)

وثم قول ثالث : وهو كون الآية محكمة مع تفويض الأمر إلى الإمام ، وأن ذكر المن والفداء لا ينافي جواز القتل ، لعلمه من آيات أخر ، لاسيما ومرجع الأمر إلى المصلحة . وهذا القول هو الذي أختاره ، وإذا دار الأمر في الآي بين الإحكام والنسخ ، فالأول هو المرجح . وقد لا يتعارض قول من قال بالنسخ مع الذاهب إلى الإحكام ، لما قدمناه في مقدمة التفسير ، من تغاير اصطلاح السلف ، والأصوليين في النسخ .

ثم رأيت ابن جرير سبقني في ترجيح ذلك ، وعبارته :

(324/708)

والصواب من القول عندنا في ذلك ، أن هذه الآية محكمة غير منسوخة . وذلك أن صفة الناسخ والمنسوخ ، أنه ما لم يجز اجتماع حكميهما في حال واحدة ، أو ما قامت الحجة بأن أحدهما ناسخ الآخر ، وغير مستنكر أن يكون جعل الخيار في المن ، والفداء ، والقتل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإلى القائمين بعده بأمر الأمة ، وإن لم يكن القتل مذكوراً في هذه الآية ، لأنه قد أذن بقتلهم في آية أخرى ، وذلك قوله تعالى : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ [التوبة : 5] ، الآية . بل ذلك كذلك ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك كان يفعل فيمن صار أسيراً في يده من أهل الحرب ، فيقتل بعضاً ، ويفادي ببعض ، ويمن على بعض ، مثل يوم بدر : قتل عقبة بن أبي معيط ، وقد أتي به أسيراً . وقتل بني قريظة وقد نزلوا على حكم سعد ، وصاروا في يده سلماً ، وهو على فدائهم والمن عليهم قادر ، وفادى بجماعة ، أسارى المشركين الذين أسروا ببدر ، ومن على ثمامة بن أثال الحنفي ، وهو أسير في يده . ولم يزل ذلك ثابتاً من سيره في أهل الحرب ، من لدن أذن الله له بحربهم ، إلى أن قبضه إليه صلى الله عليه وسلم دائماً ذلك فيهم . وإنما ذكر جل ثناؤه في هذه الآية المن والفداء في الأسارى ، فخص ذكرهما فيها ، لأن الأمر بقتلهم والأذن منه بذلك ، قد كان تقدم في سائر أي : تنزيله مكرراً ، فأعلم نبيه صلى الله عليه وسلم بما ذكر في هذه الآية من المن والفداء ، ما له فيهم مع القتل . انتهى كلام ابن جرير .

الثالث – من فوائد الآية أيضاً جواز تخلية سبيل المشركين ، إذا ضعفت شوكتهم ، وأمنت مفسدتهم ، لأن ذلك من لوازم المن ، وقبول الفداء ، والقول بإبادة خضرائهم من غير تفصيل ، ينافيه نص هذه الآية ، وقبول النبي صلى الله عليه وسلم الجزية من مجوس هجر وهم مشركون ، فتفهّم . وبالجملة ، فالذي عول عليه الأئمة المحققون رضي الله عنهم ، أن الأمير يخيّر ، بعد الظفر تخيير مصلحة لا شهوة في الأسراء المقاتلين ، بين قتال واسترقاق ، ومنّ وفداء . ويجب عليه اختيار الأصلح للمسلمين ؛ لأنه يتصرف لهم على سبيل النظر ، فلم يجز له ترك ما فيه الحظ ، كوليّ اليتيم ، لأن كل خصلة من هذه الخصال قد تكون أصلح في بعض الأسرى . فإن منهم من له قوة ونكاية في المسلمين ، فقتله أصلح . ومنهم الضعيف ذو المال الكثير ، ففداؤه أصلح ، ومنهم حسن الرأي في المسلمين ، يرجى إسلامه ، فالمنّ عليه أولى ، ومن ينتفع بخدمته ، ويؤمن شرّه ، استرقاقه أصلح – كما في " شرح الإقناع " .

الرابع – تسن دعوة الكفار إلى الإسلام قبل القتال لمن بلغته الدعوة ، قطعاً لحجته . ويحرم القتال قبلها لمن لم تبلغه الدعوة ، لحديث بريدة بن الحصيب قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا بعث أميراً على سرية أو جيش ، أمره بتقوى الله تعالى في خاصة نفسه ، وبمن معه من المسلمين . وقال : < إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث ، فإن هم أجابوك إليها فاقبل منهم ، وكف عنهم : ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل

منهم ، وكف عنهم ، فإن هم أبوا فادعهم إعطاء الجزية ، فإن أجابوك فاقبل منهم ، وكف عنهم . فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم > رواه مسلم .

(326/708)

وقيد الإمام ابن القيم وجوب الدعوة واستحبابها ، بما قصدهم المسلمون . أما إذا كان الكفار قاصدين المسلمين بالقتال ، فللمسلمين قتالهم من غير دعوة ، دفعاً عن نفوسهم ، وحريمهم ، وأمر الجهاد موكول إلى الإمام واجتهاده ، لأنه أعرف بحال الناس ، وبحال العدو ، ونكايتهم ، وقربهم ، وبعده – كما في " شرح الإقناع " – .

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ ﴾ خبر لمحذوف . أي : الأمر ذلك . أو مفعول لمقدر : ﴿ وَلَوْ يَشَاء اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ أي : لنتقم منهم بعقوبة عاجلة ، وكفاكم ذلك كله ﴿ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ أي : ليختبركم بهم ، فيعلم المجاهدين منكم والصابرين فيثيبهم ، ويبلوهم بكم ، فيعاقب بأيديكم من شاء منهم حتى ينيب إلى الحق ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا ﴾ أي : استشهدوا . وقرئ : قَاتِلُوْا : ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ .

﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ [5 ، 6] .

﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ أي : بيّنها لهم في كثير من آياته ،

تعريفاً يشوق كل مؤمن أن يسعى لها .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [7] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ أي : الظفر والتمكين في الأرض ، وإرث ديار العدو .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [8 - 9] .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [8 - 9] .

(327/708)

وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَّهُمْ ﴾ أي : خزياً وشقاءً . وأصله من السقوط على الوجه ، كالكبّ ﴿ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي : جعلها على غير هدى واستقامة ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ أي : من الحق ، وشايعوا ما ألفوه من الباطل ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ كعبادتهم لأوثانهم ، حيث لم تنفعهم ، بل أوبقهم بها فأصلاهم سعيراً .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ [10] .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي : من الأمم المكذّبة رسلها ، الرادة نصائحها ﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : ما اختص بهم ، وكان لهم ، يقال : دمّره بمعنى أهلكه ، ودمّره عليه : أهلك ما يختص به من المال والنفس . فالثاني أبلغ ، لما فيه من العموم ، لجعل مفعوله نسياً منسياً ، فيتناول نفسه ، وكل ما يختص به . والإتيان بـ : على ؛ لتضمنه معنى أطبق عليه ، أي : أوقعه عليهم محيطاً بهم ، أو هجم الهلاك عليهم ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ ﴾ يعني المكذّبين رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ أَمْثَالُهَا ﴾ أي : أمثال عاقبة تكذيب الأمم السالفة .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ * إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [11 ، 12] .

(328/708)

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ أي : لا ناصر لهم يدفع عنهم العذاب ، إذا حاق بهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن

تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ ﴾ أي : غير مفكّرين في المعاد ، ولا معتبرين بسنة الله ، كغفلة الأنعام عن النحر والذبح ، فلا هم لهم إلا الاعتلاف دون غيره ﴿ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ أي : مأواهم بعد مماتهم .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ * أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [13 ، 14] .

﴿ وَكَأَيِّن ﴾ أي : وكم : ﴿ مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ ﴾ يعني مكة ، على حذف مضاف : ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ أي : على برهان ، وحجة ، وبيان من أمر ربه ، والعلم بوحدانيته ، فهو يعبده على بصيرة منه ﴿ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ أي : فأراه إياه الشيطان حسناً ، فهو مقيم عليه ﴿ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ .

﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ [15] .

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ ﴾ أي : متغيّر الريح : ﴿ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ أي : من القذى ، وما يوجد من عسل الدنيا : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاء حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ ﴾ أي : من فرط حرارته .

لطيفة :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ ﴾ مبتدأ خبره : ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ ﴾ بتقدير حرف إنكار ومضاف ؛ أي : أمثل أهل الجنة كمثل من هو خالد . أو أمثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد . فلفظ الآية ، وإن كان في صورة الإثبات ، هو في معنى الإنكار والنفي ، لانطوائه تحت حكم كلام مصدّر بحرف الإنكار ، وانسحاب حكمه عليه ، وهو قوله : ﴿ أَفَمَن كَانَ ﴾ الخ ، وليس في اللفظ قرينة على هذا ، وإنما هو من السياق ، وإن فيه جزالة المعنى ، وثم أعاريب أخر ، هذا أمتنها .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ ﴾ [16] .

﴿ وَمِنْهُم ﴾ أي : ومن هؤلاء الكفار : ﴿ مَّن ﴾ أي : كافر منافق : ﴿ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ أي : من الصحابة ، استهزاء بما سمعوه من المتلو ، وتهاوناً به : ﴿ مَاذَا قَالَ آنِفاً ﴾ أي : الساعة . هل فيه هدى ؟ فإن

بينوه لم يستفيدوا منه شيئاً ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ أي : فلا يدخلها الهدى لإبائهم عنه : ﴿ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ ﴾ أي : آرائهم ، لا ما يدعوا إليه البرهان .

(330/708)

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [17] .

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا ﴾ أي : بإتباع الحق ، والمشي مع الحجة : ﴿ زَادَهُمْ هُدًى ﴾ أي : بياناً لحقيقة ما جاءهم : ﴿ وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ أي : أعانهم عليها . أو آتاهم جزاء تقواهم ، أو بين لهم ما يتقون .

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاء أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ [18] .

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاء أَشْرَاطُهَا ﴾ قال ابن كثير : أي : أمارات اقترابها ، كقوله تبارك وتعالى : ﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴾ [النجم : 56 – 57] ، وكقوله جلت عظمته : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر : 1] ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل : 1] ، وقوله جل وعلا : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : 1]

. فبعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أشراط الساعة ، لأنه خاتم الرسل ، الذي أكمل الله تعالى به الدين ، وأقام به الحجة على العالمين . وقد أخبر صلى الله عليه وسلم بأمارات الساعة وأشراطها ، وأبان عن ذلك وأوضحه ، بما لم يؤته نبيّ قبله ، كما هو مبسوط في موضعه .

وقال الحسن البصري : بعثة محمد صلى الله عليه وسلم من أشراط الساعة ، وهو كما قال ، ولهذا جاء في أسمائه صلى الله عليه وسلم أنه نبيّ التوبة ، ونبيّ الملحمة ، والحاشر الذي يحشر الناس على قدميه ، والعاقب الذي ليس بعده نبي .

روى البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بإصبعيه هكذا - بالوسطى ، والتي تليها - : < بعثت أنا والساعة كهاتين >

.

(331/708)

﴿ فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ أي : ذكرى ما قد ضيعوا وفرّطوا فيه من طاعة الله إذا جاءتهم الساعة . يعني : أن ليس ذلك بوقت ينفعهم فيه التذكر والندم ؛ لأنه وقت مجازاة ، لا وقت استعتاب واستعمال .

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ [19] .

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ قال ابن جرير : أي : فاعلم يا محمد أنه لا معبود تنبغي أو تصلح له الألوهية ويجوز لك وللخلق عبادته ، إلا الله الذي هو خالق الخلق ، ومالك كل شيء . يدين له بالربوبية كل ما دونه . والفاء فصيحة في جواب شرط معلوم ، مما مر من أول السورة إلى هنا ، من حال الفريقين .

قال السيوطي : وقد استدل بالآية من قال بوجوب النظر ، وإبطال التقليد في العقائد ، ومن قال بأن أول الواجبات ، المعرفةُ قبل الإقرار .

﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ قال ابن جرير : أي : وسل ربك غفران سالف ذنوبك وحادثها ، وذنوب أهل الإيمان بك من الرجال والنساء . قال الشهاب : وإنما أعيد الجار ؛ لأن ذنوبهم جنس آخر غير ذنب النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن ذنوبهم معاص كبائر وصغائر ، وذنبه ترك الأولى .

وقال السيوطي : استدل بالآية من أجاز الصغائر على الأنبياء . انتهى .

والمسألة مبسوطة بأقوالها ، وما لها وما عليها في " الفصل " لابن حزم ، فارجع إليه .

وفي " الصحيح " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : < اللهم اغفر لي خطيئتي

وجهلي ، وإسرافي في أمري ، وما أنت أعلم به مني . اللهم اغفر لي هزلي ، وجدي ، وخطاياي ، وعمدي ، وكل ذلك عندي > .

(332/708)

وفي " الصحيح " أنه كان يقول في آخر الصلاة : < اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت ، وما أنت أعلم به مني . أنت إلهي لا إله إلا أنت > .

وفي " الصحيح " أنه قال : < يا أيها الناس ! توبوا إلى ربكم ، فإني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة > .

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ أي : متصرفكم فيما تتصرفون فيه ، وإقامتكم على ما تقيمون عليه من الأقوال والأعمال ، فيجازيكم عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 15 صـ 361.372 ﴾

(333/708)

فصل فى منزلة العلم

قال ابن القيم :

فصل ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة العلم

وهذه المنزلة إن لم تصحب السالك من أول قدم يضعة في الطريق إلى آخر قدم ينتهي إليه: فسلوكه على غير طريق وهو مقطوع عليه طريق الوصول مسدود عليه سبل الهدى والفلاح مغلقة عنه أبوابها وهذا إجماع من الشيوخ العارفين ولم ينه عن العلم إلا قطاع الطريق منهم ونواب إبليس وشرطه قال سيد الطائفة وشيخهم الجنيد بن محمد رحمه الله: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى آثار الرسول وقال: من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة وقال: مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة وقال أبو حفص رحمه الله: من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره فلا يعد في ديوان الرجال وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله: ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياما فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنة وقال سهل به عبد الله رحمه الله: كل فعل يفعله العبد بغير اقتداء طاعة كان أو معصية فهو عيش النفس وكل فعل يفعله العبد بالاقتداء : فهو عذاب على النفس وقال السري: التصوف اسم لثلاثة معان: لا يطفىء نور معرفته نور ورعه ولا يتكلم بباطن في علم

ينقضه عليه ظاهر الكتاب ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله وقال أبو يزيد : عملت في المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئا أشد علي

(334/708)

من العلم ومتابعته ولولا اختلاف العلماء لبقيت واختلاف العلماء رحمة إلا في تجريد التوحيد وقال مرة لخادمه: قم بنا إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالصلاح لنزوره فلما دخلا عليه المسجد تنخع ثم رمى بها نحو القبلة فرجع ولم يسلم عليه وقال: هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يكون مأمونا على ما يدعيه وقال: لقد هممت أن أسأل الله تعالى أن يكفيني مؤنة النساء ثم قلت: كيف يجوز لي أن أسأل الله هذا ولم يسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أسأله ثم إن الله كفاني مؤنة النساء حتى لا أبالي استقبلتني امرأة أو حائط وقالوا: لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات إلى أن يرتفع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة وقال أحمد بن أبي الحواري رحمه الله: من عمل عملا بلا اتباع سنة فباطل عمله وقال أبو عثمان النيسابوري رحمه الله: الصحبة مع الله: بحسن

الأدب ودوام الهيبة والمراقبة والصحبة مع الرسول: بإتباع سنته ولزوم ظاهر العلم ومع أولياء الله: بالاحترام والخدمة ومع الأهل: بحسن

(335/708)

الخلق ومع الإخوان: بدوام البشر ما لم يكن إثما ومع الجهال: بالدعاء لهم والرحمة زاد غيره: ومع الحافظين: بإكرامهما واحترامهما وإملائهما ما يحمدانك عليه ومع النفس: بالمخالفة ومع الشيطان: بالعداوة وقال أبو عثمان أيضا: من أمر السنة على نفسه قولا وفعلا: نطق بالحكمة ومن أمر الهوى على نفسه قولا وفعلا: نطق بالبدعة قال الله تعالى: ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ [النور: 54] وقال أبو الحسين: النووي من رأيتموه يدعي مع الله عز وجل حالة تخرجه عن حد العلم الشرعي فلا تقربوا منه وقال محمد بن الفضل البامجي من مشايخ القوم الكبار: ذهاب الإسلام من أربعة: لا يعملون بما يعلمون ويعملون بما لا يعلمون ولا يتعلمون ما يعملون ويمنعون الناس من التعلم والتعليم وقال عمرو بن عثمان المكي: العلم قائد والخوف سائق والنفس حرون بين ذلك جموح خداعة رواغة فاحذرها وراعها بسياسة العلم وسقها بتهديد الخوف يتم لك ما تريد

وقال أبو سعيد الخراز كل باطن يخالفه الظاهر فهو باطل وقال ابن عطاء: من ألزم نفسه

آداب السنة نور الله قلبه بنور المعرفة ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب في أوامره وأفعاله وأخلاقه وقال: كل ما سألت عنه فاطلبه في مفازة العلم فإن لم تجده ففي ميدان الحكمة فإن لم تجده فزنه بالتوحيد فإن لم تجده في هذه المواضع الثلاثة فاضرب به وجه الشيطان وألقى بنان الحمال بين يدي السبع فجعل السبع يشمه ولا يضره فلما أخرج

(336/708)

قيل له: ما الذي كان في قلبك حين شمك السبع قال: كنت أتفكر في اختلاف العلماء في سؤر السباع وقال أبو حمزة البغدادي من أكابر الشيوخ وكان أحمد بن حنبل يقول له في المسائل: ما تقول يا صوفي من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه ولا دليل على الطريق إلى الله إلا متابعة الرسول في أحواله وأقواله وأفعاله ومر الشيخ أبو بكر محمد بن موسى الواسطي يوم الجمعة إلى الجامع فانقطع شسع نعله فأصلحه له رجل صيدلاني فقال: تدري لم انقطع شسع نعلي فقلت: لا فقال: لأني ما اغتسلت للجمعة فقال: ههنا حمام تدخله فقال: نعم فدخل واغتسل وقال أبو إسحاق الرقي من أقران الجنيد: علامة محبة الله: إيثار طاعته ومتابعة رسوله وقال أبو يعقوب النهرجوري: أفضل الأحوال: ما قارن العلم وقال أبو القاسم النصراباذي شيخ خراسان في وقته: أصل التصوف ملازمة الكتاب

والسنة وترك الأهواء والبدع وتعظيم كرامات المشايخ ورؤية أعذار الخلق والمداومة على المداومة على الأوراد وترك ارتكاب الرخص والتأويلات وقال أبو بكر الطمستاني من كبار شيوخ الطائفة: الطريق واضح والكتاب والسنة قائم بين أظهرنا وفضل الصحابة معلوم لسبقهم إلى الهجرة ولصحبتهم فمن صحب الكتاب والسنة وتغرب عن نفسه وعن الخلق وهاجر بقلبه إلى الله: فهو الصادق المصيب

(337/708)

وقال أبو عمرو بن نجيد: كل حال لا يكون عن نتيجة علم فإن ضرره على صاحبه أكثر من نفعه وقال: التصوف الصبر تحت الأوامر والنواهي وكان بعض أكابر الشيوخ المتقدمين يقول: يا معشر الصوفية لا تفارقوا السواد في البياض تهلكوا وأما الكلمات التي تروى عن بعضهم: من التزهيد في العلم والاستغناء عنه كقول من قال: نحن نأخذ علمنا من الحي الذي لا يموت وأنتم تأخذونه من حي يموت وقول الآخر وقد قيل له: ألا ترحل حتى تسمع من عبد الرزاق فقال: ما يصنع بالسماع من عبد الرزاق من يسمع من الخلاق وقول الآخر: العلم حجاب بين القلب وبين الله عز وجل وقول الآخر: إذا رأيت الصوفي يشتغل بأخبرنا و حدثنا فاغسل يدك منه وقول الآخر: لنا علم الحرف ولكم علم الورق ونحو هذا من

الكلمات التي أحسن أحوال قائلها : أن يكون جاهلا يعذر بجهله أو شاطحا معترفا بشطحه وإلا فلولا عبد الرزاق وأمثاله ولولا أخبرنا و حدثنا لما وصل إلى هذا وأمثاله شيء من الإسلام ومن أحالك على غير أخبرنا و حدثنا فقد أحالك: إما على خيال صوفي أو قياس فلسفي أو رأي نفسي فليس بعد القرآن و أخبرنا

(338/708)

و حدثنا إلا شبهات المتكلمين وآراء المنحرفين وخيالات المتصوفين وقياس المتفلسفين ومن فارق الدليل ضل عن سواء السبيل ولا دليل إلى الله والجنة سوى الكتاب والسنة وكل طريق لم يصحبها دليل القرآن والسنة فهي من طرق الجحيم والشيطان الرجيم و العلم ما قام عليه الدليل والنافع منه: ما جاء به الرسول و العلم خير من الحال: العلم حاكم و الحال محكوم عليه و العلم هاد والحال تابع و العلم آمر ناه و الحال منفذ قابل و الحال سيف إن لم يصحبه العلم فهو مخراق في يد لاعب الحال مركب لا يجارى فإن لم يصحبه علم ألقى صاحبه في الممالك والمتالف والحال كالمال يؤتاه البر والفاجر فإن لم يصحبه نور العلم كان وبالا على صاحبه الحال بلا علم كالسلطان الذي لا يزعه عن سطوته وازع الحال بلا علم كالنار التي لا سائس لها نفع الحال لا يتعدى صاحبه ونفع العلم كالغيث يقع على الظراب

والآكام وبطون الأودية ومنابت الشجر دائرة العلم تسع الدنيا والآخرة ودائرة الحال تضيق عن غير صاحبه وربما ضاقت عنه العلم هاد والحال الصحيح مهتد به وهو تركة الأنبياء وتراثهم وأهله عصبتهم ووراثهم وهو حياة القلوب ونور البصائر وشفاء الصدور ورياض العقول ولذة الأرواح وأنس المستوحشين ودليل المتحيرين وهو الميزان الذي به توزن الأقوال والأعمال والأحوال وهو الحاكم المفرق بين الشك واليقين والغي والرشاد والهدى والضلال به يعرف الله ويعبد ويذكر ويوحد ويحمد ويمجد وبه اهتدى إليه السالكون ومن طريقه وصل إليه الواصلون ومن بابه دخل عليه القاصدون

به تعرف الشرائع والأحكام ويتميز الحلال من الحرام وبه توصل الأرحام وبه تعرف مراضي الحبيب وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب

(339/708)

وهو إمام والعمل مأموم وهو قائد والعمل تابع وهو الصاحب في الغربة والمحدث في الخلوة والأنيس في الوحشة والكاشف عن الشبهة والغني الذي لا فقر على من ظفر بكنزه والكنف الذي لا ضيعة على من آوى إلى حرزه مذاكرته تسبيح والبحث عنه جهاد وطلبه قربة وبذله صدقة ومدارسته تعدل بالصيام والقيام والحاجة إليه أعظم منها إلى

الشراب والطعام قال الإمام أحمد رضي الله عنه: الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب في اليوم مرة أو مرتين وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه وروينا عن الشافعي رضي الله تعالى عنه أنه قال: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة ونص على ذلك أبو حنيفة رضي الله عنهوقال ابن وهب: كنت بين يدي مالك رضي الله عنه فوضعت ألواحي وقمت أصلي فقال: ما الذي قمت إليه بأفضل مما قمت عنه ذكره ابن عبد البر وغيره واستشهد الله عز وجل بأهل العلم على أجل مشهود به وهو التوحيد وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته وفي ضمن ذلك تعديلهم فإنه سبحانه وتعالى لا يستشهد بمجروح ومن ههنا : والله أعلم يؤخذ الحديث المعروف: يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وتأويل المبطلين وهو حجة الله في أرضه ونوره بين عباده وقائدهم ودليلهم إلى جنته ومدنيهم من كرامته

(340/708)

ويكفي في شرفه: أن فضل أهله على العباد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وأن الملائكة لتضع لهم أجنحتها وتظلهم بها وأن العالم يستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في البحر وحتى النمل في جحرها وأن الله وملائكته يصلون على

معلمي الناس الخير ولقد رحل كليم الرحمن موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام في طلب العلم هو وفتاه حتى مسهما النصب في سفرهما في طلب العلم حتى ظفر بثلاث مسائل وهو من أكرم الخلق على الله وأعلمهم به وأمر الله رسوله أن يسأله المزيد منه فقال: ﴿ وقل رب زدني علما ﴾ [طه: 114] وحرم الله صيد الجوارح الجاهلة وإنما أباح للأمة صيد الجوارح العالمة فهكذا جوارح الإنسان الجاهل لا يجدي عليه صيدها من الأعمال شيئا والله سبحانه وتعالى أعلم

فصل قال صاحب المنازل رحمه الله: العلم ما قام بدليل ورفع الجهل

يريد : أن للعلم علامة قبله وعلامة بعده فعلامته قبله: ما قام به الدليل وعلامته بعده: رفع الجهل قال: وهو على ثلاث درجات الدرجة الأولى: علم جلي به يقع العيان أو واستفاضة صحيحة أو صحة تجربة قديمة يريد بالجلي: الظاهر الذي لا خفاء به وجعله ثلاثة أنواع أحدها : ما وقع عن عيان وهو البصر والثاني: ما استند إلى السمع وهو علم الاستفاضة والثالث: ما استند إلى العقل وهو علم التجربة

فهذه الطرق الثلاثة وهي السمع والبصر والعقل هي طرق العلم وأبوابه ولا تنحصر طرق العلم فيما ذكره فإن سائر الحواس توجب العلم وكذا ما يدرك بالباطن وهي الوجدانيات وكذا ما يدرك بخبر المخبر الصادق وإن كان واحدا وكذا ما يحصل بالفكر والاستنباط وإن لم يكن عن تجربة فالعلم لا يتوقف على هذه الثلاثة التي ذكرها فقط والفرق بينه وبين

المعرفة من وجوه ثلاثة:

أحدها: أن المعرفة لب العلم ونسبة العلم إليها كنسبة الإيمان إلى الإحسان وهي علم خاص متعلقها أخفى من متعلق العلم وأدق

(341/708)

والثاني: أن المعرفة هي العلم الذي يراعيه صاحبه بموجبه ومقتضاه فهي علم تتصل به الرعاية

والثالث: أن المعرفة شاهد لنفسها وهي بمنزلة الأمور الوجدانية التي لا يمكن صاحبها أن يشك فيها ولا ينتقل عنها وكشف المعرفة أتم من كشف العلم والله سبحانه وتعالى أعلم

فصل قال: الدرجة الثانية: علم خفي ينبت في الأسرار الطاهرة من الأبدان الزاكية بماء الرياضة الخالصة ويظهر في الأنفاس الصادقة لأهل الهمة العالية في الأحايين الخالية والأسماع الصاخبة وهو علم يظهر الغائب ويغيب الشاهد ويشير إلى الجمع

يعني: أن هذا العلم خفي على أهل الدرجة الأولى وهو المسمى بالمعرفة عند هذه الطائفة

قوله: ينبت في الإسرار الطاهرة لفظ السر يطلق في لسانهم ويراد به أمور

(342/708)

أحدها : اللطيفة المودعة في هذا القالب التي حصل بها الإدراك والمحبة والإرادة والعلم وذلك هو الروح الثاني: معنى: قائم بالروح نسبته إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن وغالب ما يريدون به: هذا المعنى وعندهم: أن القلب أشرف ما في البدن والروح أشرف من القلب والسر ألطف من الروح وعندهم: للسر سر آخر لا يطلع عليه غير الحق سبحانه وصاحبه لا يطلع عليه وإن اطلع على سره فيقولون السر مالك عليه إشراف و سر السر مالا اطلاع عليه لغير الحق سبحانه والمعنى الثالث: يراد به ما يكون مصونا مكتوما بين العبد وبين ربه من الأحوال والمقامات كما قال بعضهم: أسرارنا بكر لم يفتضها وهم واهم ويقول قائلهم: لو عرف زرى سري لطرحته والمقصود قوله: ينبت في الأسرار الطاهرة يعني: الطاهرة من كدر الدنيا والاشتغال بها وعلائقها التي تعوق الأرواح عن ديار الأفراح فإن هذه أكدار وتنفسات في وجه مرآة القلب والروح فلا تنجلي فيها صور الحقائق كما ينبغي والنفس تنفس فيها دائما بالرغبة في الدنيا والرهبة من فوتها فإذا جليت المرآة بإذهاب هذه الأكدار صفت وظهرت فيها الحقائق والمعارف وأما الأبدان الزكية فهي التي زكت بطاعة الله ونبتت على أكل الحلال فمتى خلصت الأبدان من الحرام وأدناس البشرية التي ينهى عنها العقل والدين والمروءة وطهرت الأنفس من علائق الدنيا : زكت أرض القلب

فقبلت بذر العلوم والمعارف فإن سقيت بعد ذلك بماء الرياضة الشرعية النبوية المحمدية وهي التي

(343/708)

لا تخرج عن علم ولا تبعد عن واجب ولا تعطل سنة أنبتت من كل زوج كريم من علم وحكمة وفائدة وتعرف فاجتنى منها صاحبها ومن جالسه أنواع الطرف والفوائد والثمار المختلفة الألوان والأذواق كما قال بعض السلف: إذا عقدت القلوب على ترك المعاصي: جالت في الملكوت ثم رجعت إلى أصحابها بأنواع التحف والفوائد قوله: وتظهر في الأنفاس الصادقة يريد بالأنفاس أمرين: أحدهما: أنفاس الذكر والمعرفة والثاني: أنفاس المحبة والإرادة وما يتعلق بالمعروف المذكور وبالمحبوب المراد من الذاكر والمحب وصدقها خلوصها من شوائب الأغيار والحظوظ وقوله: لأهل الهمم العالية فهي التي لا تقف دون الله عز وجل ولا تعرج في سفرها على شيء سواه وأعلى الهمم: ما تعلق بالعلي الأعلى وأوسعها: ما تعلق بصلاح العباد وهي همم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وورثتهم وقوله: في الأحايين الخالية يريد بها: ساعات الصفاء مع الله تعالى وأوقات النفحات الإلهية التي من تعرض لها يوشك أن لا يحرمها ومن أعرض عنها فهي عنه أشد إعراضا وقوله: في

الأسماع الصاخية فهي التي صحت من تعلقها بالباطل واللغو وأصاخت لدعوة الحق ومنادي الإيمان فإن الباطل واللغو خمر الأسماع والعقول فصحوها بتجنبه والإصغاء إلى دعوة الحق قوله: وهو علم يظهر الغائب أي يكشف ما كان غائبا عن العارف قوله: ويغيب الشاهد أي يغيبه عن شهود ما سوى مشهوده الحق ويشير إلى الجمع وهو مقام الفردانية واضمحلال الرسوم حتى رسم الشاهد نفسه والله سبحانه أعلم

فصل قال: الدرجة الثالثة: علم لدني إسناده وجوده وإدراكه عيانه

ونعته حكمه ليس بينه وبين الغيب حجاب يشير القوم بالعلم اللدني إلى ما يحصل للعبد من غير واسطة بل بإلهام من الله وتعريف منه لعبده كما حصل للخضر عليه السلام بغير واسطة موسى قال الله تعالى: ﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ﴾ [الكهف: 65]

(344/708)

وفرق بين الرحمة والعلم وجعلهما من عنده و من لدنه إذ لم ينلهما على يد بشر وكان من لدنه أخص وأقرب من عنده ولهذا قال تعالى: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً ﴾ [الإسراء: 80] ف السلطان

النصير الذي من لدنه سبحانه: أخص وأقرب مما عنده ولهذا قال تعالى واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا وهو الذي أيده به والذي من عنده: نصره بالمؤمنين كما قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: 62] و العلم اللدني ثمرة العبودية والمتابعة والصدق مع الله والإخلاص له وبذل الجهد في تلقي العلم من مشكاة رسوله وكمال الانقياد له فيفتح له من فهم الكتاب والسنة بأمر يخصه به كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد سئل: هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء دون الناس فقال:

(345/708)

لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهما يؤتيه الله عبدا في كتابه فهذا هو العلم اللدني الحقيقي وأما علم من أعرض عن الكتاب والسنة ولم يتقيد بهما : فهو من لدن النفس والهوى والشيطان فهو لدني لكن من لدن من وإنما يعرف كون العلم لدنيا رحمانيا : بموافقته لما جاء به الرسول عن ربه عز وجل فالعلم اللدني نوعان: لدني رحماني ولدني شيطاني بطناوي والمحك: هو الوحي ولا وحي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما قصة موسى مع الخضر عليهما السلام: فالتعلق بها في تجويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللدني إلحاد وكفر مخرج عن الإسلام موجب لإراقة الدم والفرق: أن موسى لم يكن مبعوثا إلى الخضر ولم يكن

الخضر مأمورا بمتابعته ولو كان مأمورا بها لوجب عليه أن يهاجر إلى موسى ويكون معه ولهذا قال له: أنت موسى نبي بني إسرائل قال: نعم ومحمد مبعوث إلى جميع الثقلين فرسالته عامة للجن والإنس في كل زمان ولو كان موسى وعيسى عليهما السلام حيين لكانا من أتباعه وإذا نزل عيسى ابن مريم عليهما السلام فإنما يحكم بشريعة محمد فمن ادعى أنه مع محمد كالخضر مع موسى أو جوز ذلك لأحد من الأمة: فليجدد إسلامه وليتشهد شهادة الحق فإنه بذلك مفارق لدين الإسلام بالكلية فضلا عن أن يكون من خاصة أولياء الله وإنما هو من أولياء الشيطان وخلفائه ونوابه وهذا الموضع مقطع ومفرق بين زنادقة القوم وبين أهل الاستقامة منهم فحرك تره

(346/708)

قوله: إسناده وجوده يعني: أن طريق هذا العلم: هو وجدانه كما أن طريق غيره: هو الإسناد و إدراكه عيانه أي إن هذا العلم لا يؤخذ بالفكر والاستنباط وإنما يؤخذ عيانا وشهودا ونعته حكمه يعني: أن نعوته لا يوصل إليها إلا به فهي قاصرة عنه يعني أن شاهده منه ودليله وجوده وإنيته لميته فبرهان الإن فيه هو برهان اللم فهو الدليل وهو المدلول ولذلك لم يكن بينه وبين الغيوب حجاب بخلاف ما دونه من العلوم فإن بينه وبين العلوم حجابا والذي

يشير إليه القوم: هو نور من جناب المشهود يمحو قوى الحواس وأحكامها ويقوم لصاحبها مقامها فهو المشهود بنوره ويفني ما سواه بظهوره وهذا عندهم معنى الأثر الإلهي: فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع له وبصره الذي يبصر به فبي يسمع وبي يبصر والعلم اللدني الرحماني: هو ثمرة هذه الموافقة والمحبة التي أوجبها التقرب بالنوافل بعد الفرائض واللدني الشيطاني: ثمرة الإعراض عن الوحي وتحكيم الهوى والشيطان والله المستعان انتهى انتهى . اهـ ﴿ مدارج السالكين حـ 2 صـ 464 . 477 ﴾

(347/708)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/709)

الجزء التاسع بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 20 ﴾ من سورة (محمد صلى الله عليه وسلم)

وحتى الآية ﴿ 30 ﴾ من السورة

(4/709)

قوله تعالى ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ (20) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (21) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان دليل على إحاطة العلم ، علم ما أبطنه الإنسان ولا سيما إن كان مخالفاً لما أظهره ، قال دالاً على إحاطة علمه بإظهار أسرار المنافقين عاطفاً على ﴿ ومنهم من يستمع إليك ﴾ : ﴿ ويقول ﴾ على سبيل التجديد المستمر ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي ادعوا ذلك بألسنتهم وفيهم الصادق والمنافق دالين على صدقهم في إيمانهم بالتحريض على طلب الخير بتجدد الوحي الذي هو الروح الحقيقي : ﴿ لولا نزلت ﴾ على سبيل التدريج ، وبناه للمفعول دلالة على إظهار أنهم صاروا في صدقهم في الإيمان اعتقادهم أن التنزيل لا يكون إلا من الله بحيث لا يحتاجون إلى التصريح به ﴿ سورة ﴾ أي سورة كانت لنسر بسماعها ونتعبد بتلاوتها ونعمل بما فيها كائناً ما كان ، ويستمر الوحي فينا متجدداً مع تجدد الزمان ليكون ذلك أنشط لنا وأدخل في تحريك عزائمنا ﴿ فإذا أنزلت سورة ﴾ أي قطعة من القرآن تكامل نزولها كلها تدريجاً أو جملة ، وزادت على مطلوبهم بالحس بأنها ﴿ محكمة ﴾ أي مبينة لا يلبس شيء منها بنوع إجمال ولا ينسخ لكونه جامعاً للمحاسن في كل زمان ومكان ﴿ وذكر فيها القتال ﴾ بأيّ ذكر كان ، والواقع أنه لا يكون إلا ذكراً مبيناً أنه لا يزداد إلا وجوباً وتأكداً حتى تضع الحرب أوزارها ، قال البغوي : وكل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة وهي أشد القرآن على المنافقين .

وهو مروي عن قتادة ﴿ رأيت ﴾ أي بالعين والقلب ﴿ الذين في قلوبهم مرض ﴾ أي ضعف في الدين أو نفاق من الذين أقروا بالإيمان وطلبوا تنزيل القرآن وكانوا قد أقسموا بالله جهد أيمانهم : لئن أمرتهم ليخرجن ﴿ ينظرون إليك ﴾ كراهة لما نزل عليك بعد أن حرضوا على طلبه ﴿ نظر المغشي عليه ﴾ ولما كان للغشي أسباب ، بين أن هذا أشدها فقال تعالى : ﴿ من الموت ﴾ الذي هو نهاية الغشي فهو لا يطرف بعينه بل هو شاخص لا يطرف كراهة للقتال من الجبن والخور .

(5/709)

ولما كان هذا أمراً منابذاً للإنسانية لأنه مباعد للدين والمروءة ، سبب عنه أعلى التهديد فقال متوعداً لهم بصورة الدعاء بأن يليهم المكروه : ﴿ فأولى ﴾ أي أشد ميل وويل وانتكاس وعثار موضع لهم في الهلكة كائن ﴿ لهم ﴾ أي خاص بهم ، وفسرته بذلك لما تقدم في آخر الأنفال من أن مادة " ولى " تدور على الميل ، فإذا كانت على صيغة أفعل التفضيل – وهو قول الأكثر – جاءت الشدة ، قال الأصمعي : إنه فعل ماضٍ أي قاربهم ما يهلكهم وأولادهم الله الهلاك ، وقال الرضي في باب المعرفة والنكرة : إنه علم للوعيد وفيه وزن الفعل فلذا منع من الصرف ، وليس بأفعل تفضيل ولا أفعل فلاً ولا اسم فعل لأن أبا زيد

حكى لحاق تاء التأنيث له فقالوا : أولاة الآن – كأرملة وهو من وله الشر أي قرنه حال ، وقبوله للتاء لا يضر الوزن ، لأن ذلك في علم آخر .

ولما علم بما ذكر من التسبب أن هذا الدعاء عليهم لما تقدم من سوء أدبهم في مقالهم ، وقبح ما ظهر من فعالهم ، حصل التشوف إلى ما ينبغي لهم ، فقال تعالى على طريق النشر المشوش : ﴿ طاعة ﴾ أي منهم ﴿ وقول معروف ﴾ أي بالتسليم والإذعان وحسن الانقياد خير لهم مما أظهروا من المحبة في الطاعة وما كشف حالهم عنه من الكراهة ، ونكر الاسمين ليكونا صالحين للتعظيم وما دونه ، ثم سبب عنهما قوله مسنداً إلى الأمر ما هو لأهله تأكيداً لمضمون الكلام : ﴿ فإذا عزم الأمر ﴾ أي فإذا أمر بالقتال الذي ذكر في أول السورة وغيره من الأوامر أمراً مجزوماً به معزوماً عليه ﴿ فلو صدقوا الله ﴾ أي الملك الأعظم المحيط قدرة وعلماً في قولهم الذي قالوه في طلب التنزيل ﴿ لكان ﴾ صدقهم له ﴿ خيراً لهم ﴾ أي من تعللهم وتسللهم عنه لواذاً على تقدير التنزيل في تسليم أن في جماحهم عن الأمر وتقاعدهم عنه نوع خير ، ويجوز أن يكون " خير " اسماً لا للتفضيل ليفهم أن كذبهم شر لهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 167 . 168 ﴾

(6/709)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ وتقطعوا ﴾ بالتخفيف من القطع : سهل ويعقوب . والآخرون : بالتشديد من التقطيع ﴿ وأملى لهم ﴾ مبنياً للمفعول ماضياً : أبو عمرو ويعقوب ﴿ وأملى ﴾ مضارعاً مبنياً للفاعل : سهل ورويس . الباقون : ماضياً مبنياً للفاعل ﴿ إسرارهم ﴾ بكسر الهمز على المصدر : حمزة وعلي وخلف وعاصم غير أبي بكر وحماد ﴿ وليبلونكم حتى يعلم ﴾ ﴿ ويبلوا ﴾ بالياءات : أبو بكر وحماد . الآخرون : بالنون في الكل . وقرأ يعقوب ﴿ ونبلو ﴾ بالنون مرفوعاً ﴿ السلم ﴾ بكسر السين : حمزة وخلف وأبو بكر وحماد .

(7/709)

الوقوف : ﴿ والمؤمنات ﴾ ط ﴿ ومثواكم ﴾ ه ﴿ نزلت سورة ﴾ ج للشرط مع الفاء ﴿ القتال ﴾ لا ﴿ الموت ﴾ ط للابتداء بالدعاء عليهم ﴿ لهم ﴾ ه ج لاحتمال أن يكون الأولى بمعنى الأقرب كما يجيء ﴿ معروف ﴾ قف ﴿ الأمر ﴾ ز لاحتمال أن التقدير فإذا عزم الأمر كذبوا وخالفوا ﴿ خيراً لهم ﴾ ه ج لابتداء الاستفهام مع الفاء ﴿

أرحامكم ﴾ ه ﴿ أبصارهم ﴾ ه ﴿ أقفالها ﴾ ه ﴿ الهدى ﴾ لا لأن الجملة بعده خبر "إن" ﴿ سوّل لهم ﴾ ط لأن فاعل ﴿ وأملى ﴾ ضمير اسم الله ويجوز الوصل على جعله حالاً وقد أملى ، أو على أن فاعله ضمير الشيطان من حيث أنه يمنيهم ويعدهم ، والوقف أجوز واعزم . والحال على قراءة ﴿ وأملى ﴾ بفتح الياء أجوز والوقف به جائز ، ومن سكن الياء فالوقف به أليق لأن المستقبل لا ينعطف على الماضي . ومع ذلك لو جعل حالاً على تقدير وأنا أملي جاز ﴿ لهم ﴾ ه ﴿ الأمر ﴾ ج لأن ما بعده يصلح استئنافاً وحالاً والوقف أجوز لأن الله يعلم الأسرار في الأحوال كلها ﴿ إسرارهم ﴾ ه ﴿ وأدبارهم ﴾ ه ﴿ أعمالهم ﴾ ه ﴿ أضغانهم ﴾ ه ﴿ بسيماهم ﴾ ط للابتداء بما هو جواب القسم ﴿ القول ﴾ ط ﴿ أعمالكم ﴾ ه ﴿ والصابرين ﴾ ط لمن قرأ ﴿ ونبلو ﴾ بسكون الواو أي ونحن نبلو ﴿ أخباركم ﴾ ه ﴿ الهدى ﴾ لا لأن ما بعده خبر "إن" ﴿ شيئاً ﴾ ط ﴿ أعمالهم ﴾ ه ﴿ أعمالكم ﴾ ه ﴿ لهم ﴾ ه ﴿ إلى السلم ﴾ قف قد قيل : على أن قوله ﴿ وأنتم ﴾ مبتدأ ، وجعله حالاً أولى ﴿ الأعلون ﴾ قف كذلك ﴿ أعمالكم ﴾ ه قف ﴿ ولهو ﴾ ط ﴿ أموالكم ﴾ ه ﴿ أضغانكم ﴾ ه ﴿ سبيل الله ﴾ ج لانقطاع النظم مع الفاء ﴿ من يبخل ﴾ ج لابتداء الشرط مع العطف ﴿ عن نفسه ﴾ ط ﴿ الفقراء ﴾ ه للشرط مع العطف ﴿ غيركم ﴾ لا للعطف ﴿ أمثالكم ﴾ ه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 134 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾

لما بيّن الله حال المنافق والكافر والمهتدي المؤمن عند استماع الآيات العلمية من التوحيد والحشر وغيرهما بقوله ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ [محمد : 16] وقوله ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد : 17] بين حالهم في الآيات العملية ، فإن المؤمن كان ينتظر ورودها ويطلب تنزيلها وإذا تأخر عنه التكليف كان يقول هلا أمرت بشيء من العبادة خوفاً من أن لا يؤهل لها ، والمنافق إذا نزلت السورة أو الآية وفيها تكليف شق عليه ، ليعلم تباين الفريقين في العلم والعمل ، حيث لا يفهم المنافق العلم ولا يريد العمل ، والمؤمن يعلم ويحب العمل وقولهم ﴿ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾ المراد منه سورة فيها تكليف بمحن المؤمن والمنافق .

ثم إنه تعالى أنزل سورة فيها القتال فإنه أشق تكليف وقوله ﴿ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ ﴾ فيها وجوه : أحدها : سورة لم تنسخ ثانيها : سورة فيها ألفاظ أُريدت حقائقها بخلاف قوله ﴿ الرحمن عَلَى العرش استوى ﴾ [طه : 5] وقوله ﴿ فِى جَنبِ الله ﴾ [الزمر : 56] فإن قوله تعالى : ﴿ فَضَرْبَ الرقاب ﴾ [محمد : 4] أراد القتل وهو أبلغ من قوله ﴿ فاقتلوهم ﴾ [البقرة : 191] وقوله ﴿ واقتلوهم حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ [النساء : 91] صريح وكذلك غير هذا من آيات القتال وعلى الوجهين فقوله ﴿ مُّحْكَمَةٌ ﴾ فيها فائدة زائدة من حيث إنهم لا يمكنهم أن يقولوا المراد غير ما يظهر منه ، أو يقولوا هذه آية وقد نسخت فلا نقاتل ، وقوله ﴿ رَأَيْتَ الذين فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ أي المنافقين ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ المغشي عَلَيْهِ مِنَ الموت ﴾ لأن عند التكليف بالقتال لا يبقى لنفاقهم فائدة ، فإنهم قبل القتال كانوا يترددون إلى القبيلتين وعند الأمر بالقتال لم يبق لهم إمكان ذلك ﴿ فأولى لَهُمْ ﴾ دعاء كقول القائل فويلٌ لهم ، ويحتمل أن يكون هو خبر لمبتدأ محذوف سبق ذكره وهو الموت كأن الله تعالى لما قال : ﴿ نَظَرَ المغشى عَلَيْهِ مِنَ الموت ﴾ قال فالموت أولى لهم ، لأن الحياة التي لا في طاعة الله ورسوله الموت خير منها ، وقال الواحدي يجوز أن يكون المعنى فأولى لهم طاعة أي الطاعة أولى لهم .

ثم قال تعالى : ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ .

كلام مستأنف محذوف الخبر تقديره خير لهم أي أحسن وأمثل ، لا يقال طاعة نكرة لا تصلح

للابتداء ، لأنا نقول هي موصوفة بدل عليه قوله ﴿ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ فإنه موصوف فكأنه تعالى قال : ﴿ طَاعَةٌ ﴾ مخلصة ﴿ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ خير ، وقيل معناه قالوا ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ أي قولهم أمرنا ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ ويدل عليه قراءة أُبي ﴿ يَقُولُونَ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ .

(10/709)

وقوله ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأمر فَلَوْ صَدَقُواْ الله لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ ﴾ .

جوابه محذوف تقديره ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأمر ﴾ خالفوا وتخلفوا ، وهو مناسب لمعنى قراءة أُبي كأنه يقول في أول الأمر قالوا سمعاً وطاعة ، وعند آخر الأمر خالفوا وأخلفوا موعدهم ، ونسب العزم إلى الأمر والعزم لصاحب الأمر معناه : فإذا عزم صاحب الأمر .

هذا قول الزمخشري ، ويحتمل أن يقال هو مجاز كقولنا جاء الأمر وولى فإن الأمر في الأول يتوقع أن لا يقع وعند إظلاله وعجز الكاره عن إبطاله فهو واقع فقال ﴿ عَزَمَ ﴾ والوجهان متقاربان ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَوْ صَدَقُواْ ﴾ فيه وجهان على قولنا المراد من قوله طاعة أنهم قالوا طاعة فمعناه لو صدقوا في ذلك القول وأطاعوا ﴿ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ ﴾ وعلى قولنا ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ خير لهم وأحسن ، فمعناه ﴿ لَوْ صَدَقُواْ ﴾ في إيمانهم واتباعهم

الرسول ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 54 .

55 ﴾

(11/709)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الذين آمَنُواْ ﴾

أي المؤمنون المخلصون .

﴿ لَوْلاَ نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾ اشتياقا للوَحْي وحرصاً على الجهاد وثوابه .

ومعنى "لَوْلاَ" هلا .

﴿ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ ﴾ لا نسخ فيها .

قال قتادة : كل سورة ذكر فيها الجهاد فهي مُحْكمة ، وهي أشدّ القرآن على المنافقين .

وفي قراءة عبد الله "فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْدَثَةٌ" أي محدثة النزول .

﴿ وَذُكِرَ فِيهَا القتال ﴾ أي فرض فيها الجهاد .

وقرىء "فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ وذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالَ" على البناء للفاعل ونصب القتال .

﴿ رَأَيْتَ الذين فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ أي شك ونفاق .

﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ المغشي عَلَيْهِ مِنَ الموت ﴾ أي نظر مغموصين مغتاظين بتحديد وتحديق ؛ كمن يشخص بصره عند الموت ؛ وذلك لجبنهم عن القتال جزعاً وهلعاً ، ولميلهم في السر إلى الكفار .

قوله تعالى : ﴿ فأولى لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ "فَأَوْلَى لَهُمْ" قال الجوهريّ : وقولهم : أَوْلَى لَكَ ، تهديد ووعيد .

قال الشاعر :

فأَوْلَى ثم أَوْلَى ثم أَوْلَى . . .

وهل لِلدَّرِّ يُحْلَبُ من مَرَدّ

قال الأصمعي : معناه قارَبَه ما يُهْلكه ؛ أي نزل به .

وأنشد :

فعادَى بين ها دِيَتَيْن منها . . .

وأَوْلَى أن يزيد على الثلاث

أي قارب أن يزيد .

قال ثعلب : ولم يقل أحد في "أَوْلَى" أحسن مما قال الأصمعي .

وقال المُبَرِّد : يقال لمن هَمّ بالعَطَب ثم أَفْلَت : أَوْلى لك ؛ أي قاربت العطب .

كما رُوِي أن أعرابيًّا كان يوالي رَمْيَ الصيد فيُفْلِت منه فيقول : أَوْلى لك .

ثم رمى صيداً فَقَاربه ثم أفلت منه فقال :

فلو كان أوْلَى يُطعِم القومَ صِدْتُهم . . .

ولكنّ أوْلَى يَتْرُكُ القومَ جُوَّعَا

(12/709)

وقيل : هو كقول الرجل لصاحبه : يا محروم ، أيّ شيء فاتك ! وقال الجُرْجَانِيّ : هو مأخوذ من الويل ؛ فهو أفعل ، ولكن فيه قلب ؛ وهو أن عين الفعل وقع موقع اللام .

وقد تم الكلام على قوله : ﴿ فأولى لَهُمْ ﴾ .

قال قتادة : كأنه قال العقاب أوْلَى لهم .

وقيل : أي وَلِيَهم المكروه .

ثم قال : "طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ" أي طاعة وقول معروف أمثل وأحسن ؛ وهو مذهب سيبويه والخليل .

وقيل : إن التقدير أمرنا طاعة وقول معروف ؛ فحذف المبتدأ فيوقف على "فَأَوْلَى لَهُمْ" .

وكذا من قدّر يقولون مِنَّا طاعة .

وقيل : إن الآية الثانية متصلة بالأولى .

واللام في قوله : "لَهُمْ" بمعنى الباء ؛ أي الطاعة أولى وأليق بهم ، وأحق لهم من ترك امتثال أمر الله .

وهي قراءة أُبَيّ "يَقُولُونَ طَاعَةٌ" .

وقيل إن : "طَاعَةٌ" نعت ل "سورة" ؛ على تقدير : فإذا أنزلت سورة ذات طاعة ، فلا يوقف على هذا على "فَأَوْلَى لَهُمْ" .

قال ابن عباس : إن قولهم "طَاعَةٌ" إخبار من الله عز وجل عن المنافقين .

والمعنى لهم طاعة وقول معروف ، قيل : وجوب الفرائض عليهم ، فإذا أنزلت الفرائض شق عليهم نزولها .

فيوقف على هذا على "فَأَوْلَى" .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأمر ﴾ أي جدّ القتال ، أو وجب فرض القتال ، كرهوه .

فكرهوه جواب "إذا" وهو محذوف .

وقيل : المعنى فإذا عزم أصحاب الأمر .

﴿ فَلَوْ صَدَقُواْ الله ﴾ أي في الإيمان والجهاد .

﴿ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ ﴾ من المعصية والمخالفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَيَقُولُ الذين ءامَنُواْ ﴾

حرصاً على الجهاد لما فيه من الثواب الجزيل فالمراد بهم المؤمنون الصادقون ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾ أي هلا أنزلت سورة يؤمر فيها بالجهاد فلولا تحضيضية ، وعن ابن مالك أن ﴿ لا ﴾ زائدة والتقدير لو أنزلت سورة وليس بشيء .

﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا القتال ﴾ أي بطريق الأمر به ، والمراد بمحكمة مبنية لا تشابه ولا احتمال فيها لوجه آخر سوى وجوب القتال ، وفسرها الزمخشري بغير منسوخة الأحكام .

وعن قتادة كل سورة فيها القتال فهي محكمة وهو أشد القرآن على المنافقين وهذا أمر استقرأه قتادة من القرآن لا بخصوصية هذه الآية والمتحقق أن آيات القتال غير منسوخة وحكمها باق إلى يوم القيامة .

وقيل : محكمة بالحلال والحرام .

وقرىء ﴿ نُزِّلَتْ ﴾ سورة بالبناء للفاعل من نزل الثلاثي المجرد ورفع ﴿ سُورَةٌ ﴾ على الفاعل .

وقرأ زيد بن علي ﴿ نُزِّلَتْ ﴾ كذلك إلا أنه نصب ﴿ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ ﴾ ، وخرج ذلك

على كون الفاعل ضمير السورة ، و﴿ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ ﴾ نصب على الحال .

وقرأ هو .

(14/709)

وابن عمير ﴿ وَذُكِرَ ﴾ مبنياً للفاعل وهو ضميره تعالى ﴿ القتال ﴾ بالنصب على أنه مفعول به ﴿ رَأَيْتَ الذين فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ أي نفاق ، وقيل : ضعف في الدين ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ المغشى عَلَيْهِ مِنَ الموت ﴾ أي نظر المحتضر الذي لا يطرف بصره ، والمراد تشخص أبصارهم جبناً وهلعاً ، وقيل : يفعلون ذلك من شدة العداوة له عليه الصلاة والسلام ، وقيل : من خشية الفضيحة فإنهم إن تخلفوا عن القتال افتضحوا وبأن نفاقهم ، وقال الزمخشري : كانوا يدعون الحرص على الجهاد ويتمنونه بألسنتهم ويقولون : لولا أنزلت سورة في معنى الجهاد فإذا أنزلت وأمروا فيها بما تمنوا وحرصوا عليه كاعوا وشق عليهم وسقط في أيديهم كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القتال إِذَا فِرْقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ الناس ﴾ [النساء : 77] والظاهر ما ذكرناه أولاً من أن القائلين هم الذين أخلصوا في ايمانهم وإنما عرا المنافقين ما عرا عند نزول أمر المؤمنين بالجهاد لدخولهم فيهم بحسب ظاهر حالهم ، وقد جوز هو أيضاً أرادة الخلص من الذين آمنوا لكن كلامه ظاهر في ترجح

ما ذكره أولاً عنده والظاهر أن في الكلام عليه إقامة الظاهر مقام المضمر ، وجوز أن يكون المطلوب في قوله تعالى : ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾ إنزال سورة مطلقاً حيث كانوا يستأنسون بالوحي ويستوحشون إذا أبطأ ، وروى نحوه عن ابن جريج .

أخرج ابن المنذر عنه أنه قال في الآية : كان المؤمنون يشتاقون إلى كتاب الله تعالى وإلى بيان ما ينزل عليهم فيه فإذا نزلت السورة يذكر فيها القتال رأيت يا محمد المنافقين ينظرون إليك الخ .

﴿ فأولى لَهُمْ ﴾ تهديد ووعيد على ما روى عن غير واحد ، وعن أبي علي أن ﴿ أُوْلِى ﴾ فيه علم لعين الويل مبني على زنة أفعل من لفظ الويل على القلب وأصله أويل وهو غير منصرف للعلمية والوزن ، فالكلام مبتدأ وخبر .

(15/709)

واعترض بأن الويل غير متصرف فيه ، ومثل يوم أيوم مع أنه غير منقاس لا يفرد عن الموصوف البتة ، وإن القلب خلاف الأصل لا يرتكب إلا بدليل ، وإن علم الجنس شيء خارج عن القياس مشكل التعقل خاصة فيما نحن فيه ، ثم قيل : إن الاشتقاق الواضح من الولي بمعنى القرب كما في قوله :

تكلفني ليلى وقد شط وليها . . .

وعادت عواد بيننا وخطوب

يرشد إلى أنه للتفضيل في الأصل غلب في قرب الهلاك ودعاء السوء كأنه قيل : هلاكاً أولى لهم بمعنى أهلكهم الله تعالى هلاكاً أقرب لهم من كل شر وهلاك ، وهذا كما غلب بعداً وسحقاً في الهلاك ، وهو على هذا منصوب على أنه صفة في الأصل لمصدر محذوف وقد أقيم مقامه والجار متعلق به .

وفي "الصحاح" عن الأصمعي أولى له قاربه ما يهلكه أي نزل به وأنشد :

فعادى بين هاديتين منها . . .

وأولى أن يزيد على الثلاث

أي قارب أن يزيد ، قال ثعلب : ولم يقل أحد في ﴿ أُوْلِى ﴾ أحسن مما قاله الأصمعي ، وعلى هذا هو فعل مستتر فيه ضمير الهلاك بقرينة السياق ، وقريب منه ما قيل : إنه فعل ماض وفاعله ضميره عز وجل واللام مزيدة أي أولاهم الله تعالى ما يكرهون أو غير مزيدة أي أدنى الله عز وجل الهلاك لهم ، والظاهر زيادة اللام على ما سمعت عن الأصمعي ، ومن فسره بقرب جوز الأمرين ، وقيل : هو اسم فعل والمعنى وليهم شر بعد شر ، وقيل : هو فعلى من آل بمعنى رجع لا أفعل من الولي فهو في الأصل دعاء عليهم بأن يرجع أمرهم إلى الهلاك ، والمراد أهلكهم الله تعالى إلا أن التركيب مبتدأ وخبر ، وقال الرضي : هو علم

للوعيد من وليه الشر أي قربه ، والتركيب مبتدأ وخبر أيضاً .

واستدل بما حكى أبو زيد من قولهم : أولاة بتاء التأنيث على أنه ليس بأفعل تفضيل ولا أفعل فعلى وأنه علم وليس بفعل ثم قال : بل هو مثل أرمل وأرملة إذا سمي بهما ولذا لم ينصرف ، وليس اسم فعل أيضاً بدليل أولاة في تأنيثه بالرفع يعني أنه معرب ولو كان اسم فعل كان مبنياً مثله .

(16/709)

وتعقب بأنه لا مكانع من كون أولاة لفظاً آخر بمعناه فلا يرد من ذلك على قائلي ما تقدم أصلاً ، وجاء أول أفعل تفضيل وظرفاً كقبل وسمع فيه أولة كما نقله أبو حيان ، وقيل : الأحسن كونه أفعل تفضيل بمعنى أحق وأحرى وهو خبر لمبتدأ محذوف يقدر في كل مقام بما يليق به والتقدير ههنا العقاب أولى لهم ، وروى ذلك عن قتادة ومال إلى هذا القول ابن عطية ، وعلى جميع هذه الأقوال قوله تعالى :

﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾

كلام مستقل محذوف منه أحد الجزأين أما الخبر وتقديره خير لهم أو أمثل ، وهو قول مجاهد ومذهب سيبويه .

والخليل ، وأما المبتدأ وتقديره الأمر أو أمرنا طاعة أي الأمر المرضي لله تعالى طاعة ، وقيل : أي أمرهم طاعة معروفة وقول معروف أي معلوم حال أنه خديعة ، وقيل : هو حكاية قولهم قبل الأمر بالجهاد أي قالوا أمرنا طاعة ويشهد له قراءة أبي ﴿ يَقُولُونَ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ وذهب بعض إلى أن ﴿ أُوْلِى ﴾ [محمد : 20] أفعل تفضيل مبتدأ و ﴿ لَهُمْ ﴾ صلته واللام بمعنى الباء ﴿ وطاعة ﴾ خبر كأنه قيل فأولى بهم من النظر إليك نظر المغشي عليه من الموت طاعة وقول معروف ، وعليه لا يكون كلاماً مستقلاً ولا يوقف على ﴿ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ ومما لا ينبغي أن يلتفت إليه ما قيل : إن ﴿ طَاعَةٌ ﴾ صفة لسورة في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾ [محمد : 20] والمراد ذات طاعة أو مطاعة .

وتعقبه أبو حيان بأنه ليس بشيء لحيلولة الفصل الكثير بين الصفة والموصوف ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأمر ﴾ أي جد والجد أي الاجتهاد لأصحاب الأمر إلا أنه أسند إليه مجازاً كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الامور ﴾ [لقمان : 17] ومنه قول الشاعر :

قد جدت الحرب بكم فجدوا . . .

(17/709)

والظاهر أن جواب ﴿ إِذَا ﴾ قوله تعالى : ﴿ فَلَوْ صَدَقُواْ اللهَ ﴾ وهو العامل فيها ولا يضر اقترانه بالفاء ولا تمنع من عمل ما بعدها فيما قبلها في مثله كما صرحوا به ، وهذا نحو إذا جاء الشتاء فلو جئتني لكسوتك ، وقيل : الجواب محذوف تقديره فإذا عزم الأمر كرهوا أو نحو ذلك قاله قتادة .

وفي "البحر" من حمل ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ على أنهم يقولون ذلك خديعة قدر فإذا عزم الأمر ناقضوا وتعاصوا ، ولعل من يجعل القول السابق للمؤمنين في ظاهر الحال وهم المنافقون جوز هذا التقدير أيضاً ، وقدر بعضهم الجواب فاصدق وهو كما ترى ، وأياً ما كان فالمراد فلو صدقوا الله فيما زعموا من الحرص على الجهاد ولعلهم أظهروا الحرص عليه كالمؤمنين الصادقين ، وقيل : في قولهم : ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ ، وقيل : في إيمانهم ﴿ لَكَانَ ﴾ أي الصدق ﴿ خَيْراً لَّهُمْ ﴾ مما ارتكبوه وهذا مبني على ما في زعمهم من أن فيه خيراً وإلا فهو في نفس الأمر لا خير فيه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(18/709)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾

قد ذكرنا أن هذه السورة أنزلت بالمدينة وقد بدت قرون نفاق المنافقين ، فلما جرى في هذه السورة وصف حال المنافقين أعقب ذلك بوصف أجلى مظاهر نفاقهم ، وذلك حين يُدعَى المسلمون إلى الجهاد فقد يضيق الأمر بالمنافقين إذ كان تظاهرهم بالإسلام سيلجئهم إلى الخروج للقتال مع المسلمين ، وذلك أمر ليس بالهيّن لأنه تعرض لإتلافهم النفوس دون أن يَرْجُو منه نفعاً في الحياة الأبدية إذ هم لا يصدقون بها فيَصبحوا في حيرة .

وكان حالهم هذا مخالفاً لحال الذين آمنوا الذي تمنوا أن يَنزل القرآن بالدعوة إلى القتال ليلاقوا المشركين فيشفوا منهم غليلهم ، فبهذه المناسبة حُكي تمني المؤمنين نزول حكم القتال لأنه يلوح به تمييز حال المنافقين ، ويبدو منه الفرق بين حال الفريقين وقد بين كره القتال لديهم في سورة براءة .

فالمقصود من هذه الآية هو قوله : ﴿ فإذ أنزلت سورة محكمة وذُكِر فيها القتال رأيتَ الذين في قلوبهم مرض ﴾ الآية ، وما قبله توطئة له بذكر سببه ، وأفاد تقديمه أيضاً تنويهاً بشأن الذين آمنوا ، وأفاد ذكره مقابلةً بين حالي الفريقين جريا على سنن هذه السورة .

ومقال الذين آمنوا هذا كان سبباً في نزول قوله تعالى : ﴿ فإذا لقِيتم الذين كفروا فضَربَ الرقاب ﴾ [محمد : 4] ، ولذلك فالمقصود من السورة التي ذكر فيها القتال هذه السورة التي نحن بصددها .

ومعلوم أن قول المؤمنين هذا وقع قبل نزول هذه الآية فالتعبير عنه بالفعل المضارع : إمّا لقصد

استحضار الحالة مثل ﴿ ويصنع الفلك ﴾ [هود : 38] ، وإما للدلالة على أنهم مستمرون على هذا القول .

(19/709)

وتبعاً لذلك تكون ﴿ إذا ﴾ في قوله : ﴿ فإذا أنزلت سورة ﴾ ظرفاً مستعملاً في الزمن الماضي لأن نزول السورة قد وقع ، ونَظَرُ المنافقين إلى الرسول صلى الله عليه وسلم هذا النظر قد وقع إذ لا يكون ذمهم وزجرهم قبل حصول ما يوجبه فالمقام دال والقرينة واضحة .

و ﴿ لولا ﴾ حرف مستعمل هنا في التمني ، وأصل معناه التخصيص فأطلق وأريد به التمني لأن التمني يستلزم الحرصَ والحرصُ يدعو إلى التحضيض .

وحذف وصف ﴿ سورة ﴾ في حكاية قولهم : ﴿ لولا نزلت سورة ﴾ لدلالة ما بعده عليه من قوله : ﴿ وذُكِر فيها القتال ﴾ لأن قوله ﴿ فإذا أنزلت سورة ﴾ ، أي كما تمنَّوا اقتضى أن المسؤول سورة يشرع فيها قتال المشركين .

فالمعنى : لولا نزلت سورة يذكر فيها القتال وفرضه ، فحُذف الوصف إيجازاً .

ووصف السورة بـ ﴿ محكمة ﴾ باعتبار وصف آياتها بالإحكام ، أي عدم التشابه

وانتفاء الاحتمال كما دلت عليه مقابلة المحكمات بالمتشابهات في قوله : ﴿ منه آيات محكمات هنّ أم الكتاب وأخر متشابهات ﴾

في سورة آل عمران (7) ، أي لا تحتمل آيات تلك السورة المتعلّقةُ بالقتال إلا وجوب القتال وعدم الهوادة فيه مثل قوله : ﴿ فإذا لَقِيتم الذين كفروا فضربَ الرقاب ﴾ [محمد : 4] الآيات ، فلا جرم أن هذه السورة هي التي نزلت إجابة عن تمنّي الذين آمنوا .

وإنما قال : ﴿ وذُكِر فيها القتال ﴾ لأن السورة ليست كلها متمحضة لذكر القتال فإن سور القرآن ذوات أغراض شتّى .

والخطاب في ﴿ رأيتَ ﴾ للنبيء صلى الله عليه وسلم لأنه لاحِقٌ لقوله تعالى : ﴿ ومنهم من يستمع إليك ﴾ [الأنعام : 25] .

و ﴿ الذين في قلوبهم مرض ﴾ هم المبطنون للكفر فجعل الكفر الخفيّ كالمرض الذي مقره القلب لا يبدو منه شيء على ظاهر الجسد ، أي رأيت المنافقين على طريق الاستعارة .

(20/709)

وقد غلب إطلاق هذه الصلة على المنافقين ، وأن النفاق مرض نفساني معضل لأنه تتفرع منه فروع بيناها في قوله تعالى : ﴿ في قلوبهم مرض ﴾ في سورة البقرة (10) .

وانتصب نظر المغشي عليه من الموت ﴾ على المفعولية المطلقة لبيان صفة النظر من قوله : ﴿ ينظرون إليك ﴾ فهو على معنى التشبيه البليغ .

ووجه الشبه ثبات الحدقة وعدم التحريك ، أي ينظرون إليك نظر المتحيّر بحيث يتجه إلى صوب واحد ولا يشتغل بالمرئيات لأنه في شاغل عن النظر ، وإنما يوجهون أنظارهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم إذ كانوا بمجلسه حين نزول السورة ، وكانوا يتظاهرون بالإقبال على تلقي ما ينطق به من الوحي فلما سمعوا ذكر القتال بهتوا ، فالمقصود المشابهة في هذه الصورة .

وفي معنى هذه الآية قوله تعالى : ﴿ فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يُغشى عليه من الموت ﴾ في سورة الأحزاب (19) .

ومِن ﴾ هنا تعليلية ، أي المغشي عليه لأجل الموت ، أي حضور الموت .

وفرّع على هذا قوله : ﴿ فأولى لهم طاعة وقول معروف ﴾ .

وهذا التفريع اعتراض بين جملة ﴿ ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت ﴾ وبين جملة ﴿ فإذا عزم الأمر ﴾ .

ولفظ ﴿ أَوْلى ﴾ هنا يجوز أن يكون مستعملاً في ظاهره استعمال التفضيل على شيء غير مذكور يدل عليه ما قبله ، أي أولى لهم مِن ذلك الخوفِ الذي دَل عليه نظرهم كالمغشي عليه من الموت ، أن يطيعوا أمر الله ويقولوا قولاً معروفاً وهو قول ﴿ سمعنا

وأطعنا ﴾ [البقرة : 285] فذلك القول المعروف بين المؤمنين إذا دُعُوا أو أمروا كما قال تعالى : ﴿ إنما كان قولَ المؤمنين إذا دُعُوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ﴾ في سورة النور (51) .

وعلى هذا الوجه فتعدية أولى ﴾ باللام دون الباء للدلالة على أن ذلك أولى وأنفع ، فكان اجتلاب اللام للدلالة على معنى النفع .

(21/709)

فهو مثل قوله تعالى : ﴿ ذلك أزكى لهم ﴾ [النور : 30] وقوله : ﴿ هن أطهر لكم ﴾ [هود : 78] .

وهو يرتبط بقوله بعده ﴿ فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم ﴾ .

ويجوز أن يكون ﴿ فأولى لهم ﴾ مستعملاً في التهديد والوعيد كما في قوله تعالى : ﴿ أوْلى لك فأوْلى ثم أولى لك فأولى ﴾

في سورة القيامة (34 ، 35) ، وهو الذي اقتصرَ الزمخشري عليه .

ومعناه : أن الله أخبر عن توعده إياهم .

ثم قيل على هذا الوجه إن أولى ﴾ مرتبة حروفه على حالها من الوَلْي وهو القرب ، وأن

وزنه أفعل .

وقال الجرجاني : هو في هذا الاستعمال مشتق من الويل .

فأصل أولى : أويِل ، أي أشد ويلا ، فوقع فيه قلب ، ووزنه أفلع .

وفي "الصحاح" عن الأصمعي ما يقتضي : أنه يَجعل (أولى له) مبتدأ محذوف الخبر .

والتّقدير : أقرب ما يُهلكه ، قال ثعلب : ولم يقل أحد في (أولى له) أحسن مما قال الأصمعي .

واللام على هذا الوجه إما مزيدة ، أي أولاهم الله ما يكرهون فيكون مِثل اللام في قول النابغة:

سَقْيا ورعيا لذاك العَاتب الزّاري . . .

وإمّا متعلقة بـ ﴿ أولى ﴾ على أنه فعل مضى ، وعلى هذا الاستعمال يكون قوله ﴿ طاعة وقول معروف ﴾ كلاماً مستأنفاً وهو مبتدأ خبره محذوف ، أي طاعة وقول معروف خير لهم ، أو خبر لمبتدأ محذوف ، تقديره : الأمر طاعة ، وقول معروف ، أي أمر الله أن يطيعوا .

﴿ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأمر فَلَوْ صَدَقُواْ اللهَ لَكَانَ خَيْراً ﴾ .

تفريع على وصف حال المنافقين من الهلع عند سماع ذكر القتال فإنه إذا جدّ أمر القتال ، أي حان أن يُندب المسلمون إلى القتال سيضطرب أمر المنافقين ويتسللون لِوَاذاً من حضور

الجهاد ، وأن الأولى لهم حينئذٍ أن يخلصوا الإيمان ويجاهدوا كما يجاهد المسلمون الخلص وإلاّ فإنهم لا محيص لهم من أحد أمرين : إمّا حضور القتال بدون نية فتكون عليهم الهزيمة ويخسروا أنفسهم باطلاً ، وإمّا أن ينخزلوا عن القتال كما فعل ابنُ أُبَيّ وأتباعُه يومَ أُحُد .

(22/709)

و ﴿ إذا ﴾ ظرف للزمان المستقبل وهو الغالب فيها فيكون ما بعدها مقدراً وجوده ، أي فإذا جدّ أمر القتال وحدث .

وجملة ﴿ فلو صدقوا الله ﴾ دليل جواب ﴿ إذَا ﴾ لأن ﴿ إذا ﴾ ضمنت هنا معنى الشرط ، أي كذبوا الله وأخلفوا فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم ، واقتران جملة الجواب بالفاء للدلالة على تضمين ﴿ إذَا ﴾ معنى الشرط ، وذلك أحسن من تجريده عن الفاء إذا كانت جملة الجواب شرطية أيضاً .

والتعريف في ﴿ الأمر ﴾ تعريف العهد ، أو اللام عن المضاف إليه ، أي أمر القتال المتقدم آنفاً في قوله : ﴿ وذُكر فيها القتال ﴾ .

والعزم : القطع وتحقق الأمر ، أي كونه لا محيص منه .

واستعير العزم للتعيين واللزوم على طريقة المكنية بتشبيه ما عُبر عنه بالأمر ، أي القتال

برجل عزم على عمل مَّا وإثبات العزم له تخييلة كَإِثْبَاتِ الأظفار للمنية ، وهذه طريقة السكاكي في جميع أمثلة المجاز العقلي ، وهي طريقة دقيقة لكن بدون اطراد ولكن عندما يسمح بها المقام .

وجعل في "الكشاف" إسناد العزم إلى الأمر مجازاً عقلياً ، وحقيقته أن يسند لأصحاب العزم على طريق الجمهور في مثله وهو هنا بعيد إذ ليس المعنى على حصول الجد من أصحاب الأمر ، ونظيره قوله تعالى:

﴿ إن ذلك من عزم الأمور ﴾ [لقمان : 17] فالكلام فيها سواء .

ومعنى ﴿ صدقوا الله ﴾ قالوا له الصدق ، وهو مطابقة الكلام لما في نفس الأمر ، أي لو صدقوا في قولهم : نحن مؤمنون ، وهم إنما كذبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذْ أظْهروا له خلاف ما في نفوسهم ، فجعل الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم كذباً على الله تفظيعاً له وتهويلاً لمغبته ، أي لو أخلصوا الإيمان وقاتلوا بنية الجهاد لكان خيراً لهم في الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا خير العزة والحُرمة وفي الآخرة خير الجنة .

(23/709)

فهذه الآية إنْبَاء مما سيكون منهم حين يجد الجد ويَجيءُ أوان القتال وهي من معجزات القرآن في الإخبار بالغيب فقد عزم أمر القتال يوم أُحُد وخرج المنافقون مع جيش المسلمين في صورة المجاهدين فلما بلغ الجيش إلى الشوْط بينَ المدينة وأُحد قال عبد الله بن أُبَيّ بنُ سلول رأسُ المنافقين : ما ندري علامَ نَقْتُلُ أنفسنا ها هنا أيها الناس ؟ ورجع هو وأتباعه وكانوا ثلث الجيش وذلك سنة ثلاث من الهجرة ، أي بعد نزول هذه الآية بنحو ثلاث سنين .

وقوله : ﴿ فلو صدقوا الله ﴾ جواب كما تقدم ، وفي الكلام إيجاز لأن قوله : ﴿ لكان خيراً ﴾ يؤذن بأنه إذا عزم الأمر حصل لهم ما لا خير فيه .

ولفظ ﴿ خيراً ﴾ ضد الشَّرِ بوزن فَعْل ، وليس هو هنا بوزن أَفْعَلَ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(24/709)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الإنزال)

وهو إفعال من النُّزول ، وهو فى الأَصل انحطاط من عُلُوّ .

يقال : نَزَل عن دابّته ، ونزل فى مكان كذا : حَطَّ رحلَه فيه .

وأَنزل غيره .

وأَنزل اللهِ نعمه على الخَلْق : أَعطاها إيّاهم .

وذلك إمّا بإنزال الشئ نفسه ، كإنزال القرآن ، وإمّا بإنزال أَسبابه والهداية إليه ، كإنزال الحديد واللّباس .

والفرْق بين الإنزال والتَّنزيل فى وصف القرآن والملائكة ، أَنَّ التنزيل يختصّ بالموضع الَّذى يشير إلى إنزاله متفرّقاً ، ومَرّةً بعد أُخرى ، والإنزال عامّ ﴿ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ ﴾ فإنّما ذكر فى الأَوّل (نزّل) وفى الثانى (أُنزل) ، تنبيهاً أَنَّ المنافقين يقترحون أَن ينزل شيءٌ فشئٌ من الحَثّ على القتال ؛ ليتولّوه .

وإذا أُمِروا بذلك دفعة واحدة تحاشَوا عنه ، فلم يفعلوه ، فهم يقترحون الكثير ، ولا يَفُون منه بالقليل .

و ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ إنّما خصّ بلفظ الإنزال ، لأَنَّ القرآن نزل دفعة إلى السّماءِ الدّنيا ، ثمّ نزل نَجْماً نجماً .

وقوله : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هذا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ ﴾ دون نزّلنا تنبيهاً أَنَّا لو خوّلناه تارةً واحدة ما (خوّلناكم مراراً) إذا لرأَيته خاشعاً .

والتنزل النزول ، قال : ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا ﴾ .

والإِنزال فى القرآن ورد على خمسة عشر وجها :

الأَوّل : إِنزال المَنّ والسّلْوَى على سبيل الكفاية .

الثانى : إِنزال العذاب والبَلْوَى على سبيل اللَّعنة .

﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَآءِ ﴾ .

الثالث : إِنزال الملائكة المقرّبين فى بدر ، للتقوّى : ﴿ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾ .

(25/709)

الرّابع : إِنزال النُّعَاس على أَهل الحَرْب ؛ لتأْمين الصّحابة : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً ﴾ .

الخامس : إِنزال اللِّباس من السّماءِ ؛ ستراً للعورة : ﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ ﴾ .

السّادس : إِنزال السّكينة ؛ لتحقيق العَوْن والنُّصْرة : ﴿ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

السّابع : إنزال الصّاعقة والبَرَد ؛ لإظهار السّياسة والهيْبة : ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ ﴾ .

الثَّامن : إنزال المطر ؛ لكمال النّعمة والرّحمة : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ .

التَّاسع : إنزال الأَنعامِ ؛ لكمال الإِنْعامِ والمنفعة : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ .

العاشر : إنزال الرّزق على الحيوانات للغِذاءِ والتربية : ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَآءِ رِزْقاً ﴾ .

الحَادى عشر : إنزال الغيث وإرسال الرّياح للبشارة : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ ﴾ الآية .

الثانى عشر : إنزال ميزان العدل ، لأَجل الإنصاف والأَمانة : ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ﴾ .

الثالث عشر : إنزال الحديد لتقرير المنافع والمصلحة : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ .

الرّابع عشر : إنزال المائدة للامتحان والمُعْجزة : ﴿ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ ﴾ .

الخامس عشر : إنزال الوَحْى والقرآن لإلزام الحجّة وإهداءِ هدِيّة الهداية ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ .

ولا يقال فى المفترَى والكذب ، وما كان من الشياطين إلاَّ التّنزُّل قال الله تعالى : ﴿ وَمَا

تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴾ .

والنُزل – بالضمّ وبضمّتين – : ما يُعَدّ للنَّازل من الزاد .

(26/709)

وأَنزلت فلاناً : أَضفته .

ويعبّر بالنَّازلة عن الشِّدّة ، وجمعه نوازل .

والنِّزَال فى الحرب : المنازلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 49 .

52 ﴾

(27/709)

قوله تعالى ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (23) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان هذا تبكيتاً لهم من أجل فتورهم عن أمر الله ، سبب عن ذلك الفتور بيان ما يحصل منه من عظيم الفساد ويتأثر به من خراب البلاد وشتات العباد في معرض سؤال في أسلوب الخطاب بعد التبكيت والتهديد في أسلوب الغيبة تنبيهاً على تناهي الغضب وبلوغه الغاية فقال تعالى : ﴿ فهل عسيتم ﴾ أي فتسبب عن تسرعكم إلى السؤال في أن يأمركم الملك بما يرضيه ، فإذا أجابكم فرحمكم بما يعلم أنه أصلح الأشياء لكم وهو الجهاد كرهتموه ووجهتم منه وقعدتم عنه أن يقال لكم لما يرى منكم من المخايل الدالة على ضعف الإيمان : هل يمكن عندكم نوع إمكان وتتوقعون شيئاً من توقع أن يكون حالكم جديراً وخليقاً لتغطية علم العواقب عنكم فتخافون من أنفسكم .

(28/709)

ولما كان المقام لذم الإعراض عن الأمر ، فصل بين " عسى " وخبرها بشرطية معبر فيها بالتولي بصيغة التفعل إشارة مع نهاية الذم إلى أن المعرض عن أمر الله معرض عما تدعوه الفطرة الأولى القويمة والعقل السديد إلى حسنه ، فهو لا يعرض عنه إلا بمجاهدة منه لنفسه فقال تعالى : ﴿ إن توليتم ﴾ أي بأنفسكم عن الجهاد الذي أمركم به ربكم الذي عرفكم من

فوائده ما لا مزيد عليه مما لا يتركه معه عاقل ولا يتخيل تركه إلا على سبيل الفرض – بما أشارت إليه أداة الشرط – أو حصلت توليتكم بتحصيل محصل أوجبها لكم وزينها في أعينكم حتى فعلتموها ، وهذا المعنى الثاني هو المراد ببنائه للمجهول في رواية رويس عن يعقوب ﴿ أن تفسدوا ﴾ أي توقعوا الإفساد العظيم الذي يستمر تجديده منكم ﴿ في الأرض ﴾ بقتال يكرهه الله ويسخطه ويغضب أشد غضب على فاعله وتكونوا في غاية الجرأة عليه ، فإن الذي رحمكم بإنزال ما أنزل حكم بأن من جبن عما يرضيه رغبة في الآخرة اجترأ على ما يسخطه حباً في الدنيا ، وقد كنتم في الجاهلية على ذلك في الغارة من بعضكم على بعض ونحو ذلك ﴿ وتقطعوا ﴾ تقطعياً عظيماً شديداً كثيراً منتشراً كبيراً ﴿ أرحامكم ﴾ فتكونوا بذلك أعزة على المؤمنين كما كنتم أذلة على الكافرين ، وأقل ما في إعراضكم خذلانكم للمؤمنين المجاهدين بما قد يكون سبباً لظهور الكافرين عليهم فتكونوا بذلك قد جمعتم بين قطيعة أرحامهم وفقدكم لما كان يصل إليكم من منافعهم ، فإن كففتم بعدهم عن قتلهم كنتم مع ما فاتكم من خيرهم أجبن الناس وأرضاهم بالعار ، وإن تعاطيتم الأخذ بثأرهم كنتم كمن أخذ في فعل ما أمر به بعد فواته وأن له ذلك ، وقد علم من هذا أن من أمر بالمعروف وجاهد أهل المنكر أمن الإفساد في الأرض وقطيعة الرحم ، ومن تركه وقع فيهما ، ويمكن أن يكون " توليتم " من ولاية الأمر ، فتكون الآية مشيرة إلى ولاية

الفجرة ومنذرة بذلك أن اصنع الأمر بالمعروف ، وقد وقع ذلك وشوهد ما ابتنى عليه من الفساد

(29/709)

والقطيعة ، وعزائم الأنكاد وسوء الصنيعة .

ولما بين لهم ما يكون ممن تثاقل عن أمر الله ، لأن الملك لا يطرق احتمالاً في شيء إلا وهو واقع فرقاً بين كلامه وكلام غيره ، فكيف بملك الملوك المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ، بين حالهم الذي أنتج لهم ذلك ، فقال ملتفتاً عنهم إيذاناً بالغضب مخاطباً لمن جبل على الشفقة على خلق الله والرحمة لهم إعلاماً له بأن هؤلاء قد تحتم شقاؤهم فليسوا بأهل للشفاعة فيهم ولا للأسى عليهم : ﴿ أولئك ﴾ أي البعداء البغضاء ﴿ الذين لعنهم الله ﴾ أي طردهم أشد الطرد الملك الأعظم لما ذكر من إفسادهم وتقطيعهم ؛ ثم سبب عن لعبهم قوله تعالى : ﴿ فأصمهم ﴾ عن الانتفاع بما يسمعون ﴿ وأعمى أبصارهم ﴾ عن الارتفاق بما يبصرون ، فليس سماعهم سماع ادكار ، ولا إبصارهم إبصار اعتبار ، فلا سماع لهم ولا إبصار .

ولما أخبر بذلك فكان ربما سأل من لا يعي الكلام حق وعيه عن السبب الموجب للعن

المسبب للصم والعمى ، أجابه بقوله منكراً موبخاً مظهراً لتاء التفعل إشارة إلى أن المأمور به صرف جميع الهمة إلى التأمل : ﴿ أفلا يتدبرون ﴾ أي كل من له أهلية التدبر بقلوب منفتحة منشرحة ليهتدوا إلى كل خير ﴿ القرآن ﴾ بأن يجهدوا أنفسهم في أن يتفكروا في الكتاب الجامع لكل خير الفارق بين كل ملبس تفكر من ينظر في أدبار الأمور وماذا يلزم من عواقبها ليعلموا أنه لا عون على الإصلاح في الأرض وصلة الأرحام والإخلاص لله في لزوم كل طاعة والبراءة من كل معصية مثل الأمر بالمعروف من الجهاد بالسيف وما دونه ، وربما دل إظهار التاء على أن ذلك من أظهر ما في القرآن من المعاني ، فلا يحتاج في العثور عليه إلى كبير تدبر – والله أعلم .

(30/709)

ولما كان الاستفهام إنكارياً فكان معناه نفياً ، فهو لكونه داخلاً على النفي نفي له فصار إثباتاً ، فكان كأنه قيل : هل يجددون التدبر تجديداً مستمراً لترق قلوبهم به وتنير بصائرهم له ، فيكفوا عن الإفساد والتقطيع ، عادله بقوله مشبهاً للقلوب بالصناديق دالاً على ذلك التشبيه بذكر ما هو مختص بالصناديق من الأقفال : ﴿ أم على قلوب ﴾ من قلوب الغافلين لذلك ، ونكرها لتبعيضها وتحقيرها بتعظيم قسوتها ﴿ أقفالها ﴾ أي الحقيقة بها الجديرة

بأن تضاف إليها ، فهي لذلك لا تعي شيئاً ولا تفهم أمراً ولا تزداد إلا غباوة وعناداً ، لأنها لا تقدر على التدبر ، قال القشيري : فلا تدخلها زواجر التنبيه ولا ينبسط عليها شعاع العلم ، فلا يحصل لهم فهم الخطاب ، والباب إذا كان مقفلاً فكما لا يدخل فيه شيء فلا يخرج ما فيه ، فلا كفرهم يخرج ولا الإيمان الذي يدعون إليه يدخل – انتهى .

والإضافة تشعر بأن بعض المتولين على قلوبهم أقفال ، لكن ليست متمكنة فيها ، فهو سبحانه يفتحها بالتوبة عليهم إذا أراد ، وأما الأولون فلا صلاحية لهم ، وفي هذه الآية أعظم حاث على قبول أوامر الله لا سيما الجهاد في سبيله وأشد زاجر عن الإعراض عنه لأن حاصلها أنه لعن من أعرض عنه لكونه لا يتدبر القرآن مع وضوحه ويسره ليعلم فوائد الجهاد الداعية إليه المحببة فيه ، فكان كأن قلبه مقفل ، والآية من الاحتباك : ذكر التدبر أولاً دليلاً على ضده ثانياً ، والأقفال ثانياً دليلاً على ضدها أولاً ، وسره أنه ذكر نتيجة الخير الكافلة بالسعادة أولاً وسبب الشر الجامع للشقاوة ثانياً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 168.170 ﴾

(31/709)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22) ﴾

وهذه الآية فيها إشارة إلى فساد قول قالوه ، وهو أنهم كانوا يقولون كيف نقاتل والقتل إفساد والعرب من ذوي أرحامنا وقبائلنا ؟ فقال تعالى : ﴿ إِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ لا يقع منكم إلا الفساد في الأرض فإنكم تقتلون من تقدرون عليه وتنهبونه والقتال واقع بينكم ، أليس قتلكم البنات إفساداً وقطعاً للرحم ؟ فلا يصح تعللكم بذلك مع أنه خلاف ما أمر الله وهذا طاعة وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في استعمال عسى ثلاثة مذاهب أحدها : الإتيان بها على صورة فعل ماضٍ معه فاعل تقول عسى زيد وعسينا وعسوا وعسيت وعسيتما وعسيتم وعست وعستا والثاني : أن يؤتى بها على صورة فعل معه مفعول تقول عساه وعساهما وعساك وعساكما وعساي وعسانا .

والثالث : الإتيان بها من غير أن يقرن بها شيء تقول عسى زيد يخرج وعسى أنت تخرج وعسى أنا أخرج والكل له وجه وما عليه كلام الله أوجه ، وذلك لأن عسى من الأفعال الجامدة واقتران الفاعل بالفعل أولى من اقتران المفعول لأن الفاعل كالجزء من الفعل ولهذا لم

يجز فيه أربع متحركات في مثل قول القائل نصرت وجوز في مثل قولهم نصرك ولأن كل فعل له فاعل سواء كان لازماً أو متعدياً ولا كذلك المفعول به ، فعسيت وعساك كعصيت وعصاك في اقتران الفاعل بالفعل والمفعول به ، وأما قول من قال عسى أنت تقوم وعسى أن أقوم فدون ما ذكرنا للتطويل الذي فيه .

المسألة الثانية :

الاستفهام للتقرير المؤكد ، فإنه لو قال على سبيل الإخبار ﴿ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ لكان للمخاطب أن ينكره فإذا قال بصيغة الاستفهام كأنه يقول أنا أسألك عن هذا وأنت لا تقدر أن تجيب إلا بلا أو نعم ، فهو مقرر عندك وعندي .

المسألة الثالثة :

(32/709)

عسى للتوقيع والله تعالى عالم بكل شيء فنقول فيه ما قلنا في لعل ، وفي قوله ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ ﴾ [الكهف : 7] إن بعض الناس قال يفعل بكم فعل المترجي والمبتلي والمتوقع ، وقال آخرون كل من ينظر إليهم يتوقع منهم ذلك ونحن قلنا محمول على الحقيقة وذلك لأن الفعل إذا كان ممكناً في نفسه فالنظر إليه غير مستلزم لأمر ، وإنما الأمر يجوز أن يحصل منه تارة ولا يحصل

منه أخرى فيكون الفعل لذلك الأمر المطلوب على سبيل الترجي سواء كان الفاعل يعلم حصول الأمر منه وسواء أن لم يكن يعلم ، مثاله من نصب شبكة لاصطياد الصيد يقال هو متوقع لذلك فإن حصل له العلم بوقوعه فيه بإخبار صادق أنه سيقع فيه أو بطريق أخرى لا يخرج عن التوقع ، غاية ما في الباب أن في الشاهد لم يحصل لنا العلم فيما نتوقعه فيظن أن عدم العلم لازم للمتوقع ، وليس كذلك بل المتوقع هو المنتظر لأمر ليس بواجب الوقوع نظراً لذلك الأمر فحسب سواء كان له به علم أو لم يكن وقوله ﴿ إِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه من الولاية يعني إن أخذتم الولاية وصار الناس بأمركم أفسدتم وقطعتم الأرحام وثانيهما : هو من التولي الذي هو الإعراض وهذا مناسب لما ذكرنا ، أي كنتم تتركون القتال وتقولون فيه الإفساد وقطع الأرحام لكون الكفار أقاربنا فلا يقع منكم إلا ذلك حيث تقاتلون على أدنى شيء كما كان عادة العرب الأول : يؤكده قراءة علي عليه السلام توليتم ، أي إن تولاكم ولاة ظلمة جفاة غشمة ومشيتم تحت لوائهم وأفسدتم بإفسادهم معهم وقطعتم أرحامكم ، والنبي عليه السلام لا يأمركم إلا بالإصلاح وصلة الأرحام ، فلم تتقاعدون عن القتال وتتباعدون في الضلال

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (23)

إشارة لمن سبق ذكرهم من المنافقين أبعدهم الله عنه أو عن الخير فأصمهم فلا يسمعون الكلام المستبين وأعماهم فلا يتبعون الصراط المستقيم ، وفيه ترتيب حسن ، وذلك من حيث إنهم استمعوا الكلام العلمي ولم يفهموه فهم بالنسبة إليه صم أصمهم الله وعند الأمر بالعمل تركوه وعللوا بكونه إفساداً وقطعاً للرحم وهم كانوا يتعاطونه عند النهي عنه فلم يروا حالهم عليه وتركوا اتباع النبي الذي يأمرهم بالإصلاح وصلة الأرحام ولو دعاهم من يأمر بالإفساد وقطيعة الرحم لاتبعوه فهم عمي أعماهم الله ، وفيه لطيفة : وهي أن الله تعالى قال أصمهم ولم يقل أصم آذانهم ، وقال : ﴿ وأعمى أبصارهم ﴾ ولم يقل أعماهم ، وذلك لأن العين آلة الرؤية ولو أصابها آفة لا يحصل الإبصار والأذن لو أصابها آفة من قطع أو قلع تسمع الكلام ، لأن الأذن خلقت وخلق فيها تعاريج ليكثر فيها الهواء المتموج ولا يقرع الصماخ بعنف فيؤذي كما يؤذي الصوت القوي فقال : ﴿ أصمهم ﴾ من غير ذكر الأذن ، وقال : ﴿ أعمى أبصارهم ﴾ مع ذكر العين لأن البصر ههنا بمعنى العين ، ولهذا جمعه بالأبصار ، ولو كان مصدراً لما جمع فلم يذكر الأذن إذ لا مدخل لها في الإصمام ، والعين لها مدخل في الرؤية بل هي الكل ، ويدل عليه أن الآفة في غير هذه المواضع لما أضافها إلى الأذن سماها وقراً ، كما قال تعالى : ﴿ وفي آذاننا وقر ﴾ [فصلت : 5] وقال : ﴿ كَأَنَّ فِى أُذُنَيْهِ وَقْراً ﴾ [لقمان : 7] والوقر دون الصم وكذلك الطرش :

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24)

ولنذكر تفسيرها في مسائل :

المسألة الأولى :

(34/709)

لما قال الله تعالى : ﴿ فَأَصَمَّهُمْ وأعمى أبصارهم ﴾ [محمد : 23] كيف يمكنهم التدبر في القرآن قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ﴾ وهو كقول القائل للأعمى أبصر وللأصم اسمع ؟ فنقول الجواب : عنه من ثلاثة أوجه مترتبة بعضها أحسن من البعض الأول : تكليفه ما لا يطاق جائز والله أمر من علم أنه لا يؤمن بأن يؤمن ، فكذلك جاز أن يعميهم ويذمهم على ترك التدبر الثاني : أن قوله ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ﴾ المراد منه الناس الثالث : أن نقول هذه الآية وردت محققة لمعنى الآية المتقدمة ، فإنه تعالى قال : ﴿ أولئك الذين لَعَنَهُمُ الله ﴾ [محمد : 23] أي أبعدهم عنه أو عن الصدق أو عن الخير أو غير ذلك من الأمور الحسنة ﴿ فَأَصَمَّهُمْ ﴾ لا يسمعون حقيقة الكلام وأعماهم لا يتبعون طريق الإسلام فإذن هم بين أمرين ، إما لا يتدبرون القرآن فيبعدون منه ، لأن الله تعالى لعنهم وأبعدهم عن الخير والصدق ، والقرآن منهما الصنف الأعلى بل النوع الأشرف ، وأما يتدبرون لكن لا تدخل

معانيه في قلوبهم لكونها مقفلة ، تقديره أفلا يتدبرون القرآن لكونهم ملعونين مبعودين ، أم على قلوب أقفال فيتدبرون ولا يفهمون ، وعلى هذا لا نحتاج أن نقول أم بمعنى بل ، بل هي على حقيقتها للاستفهام واقعة في وسط الكلام والهمزة أخذت مكانها وهو الصدر ، وأم دخلت على القلوب التي في وسط الكلام .

المسألة الثانية :

(35/709)

قوله ﴿ على قُلُوبٍ ﴾ على التنكير ما الفائدة فيه ؟ نقول قال الزمخشري يحتمل وجهين أحدهما : أن يكون للتنبيه على كونه موصوفاً لأن النكرة بالوصف أولى من المعرفة فكأنه قال أم على قلوب قاسية أو مظلمة الثاني : أن يكون للتبعيض كأنه قال أم على بعض القلوب لأن النكرة لا تعم ، تقول جاءني رجال فيفهم البعض وجاءني الرجال فيفهم الكل ، ونحن نقول التنكير للقلوب للتنبيه على الإنكار الذي في القلوب ، وذلك لأن القلب إذا كان عارفاً كان معروفاً لأن القلب خلق للمعرفة ، فإذا لم تكن فيه المعرفة فكأنه لا يعرف ، وهذا كما يقول القائل في الإنسان المؤذي : هذا ليس بإنسان هذا سبع ، ولذلك يقال هذا ليس بقلب هذا حجر .

إذا علم هذا فالتعريف إما بالألف واللام وإما بالإضافة ، واللام لتعريف الجنس أو للعهد ، ولم يمكن إرادة الجنس إذ ليس على قلب قفل ، ولا تعريف العهد لأن ذلك القلب ليس ينبغي أن يقال له قلب ، وأما بالإضافة بأن نقول على قلوب أقفالها وهي لعدم عود فائدة إليهم ، كأنها ليست لهم .

فإن قيل فقد قال : ﴿ خَتَمَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ ﴾ [البقرة : 7] وقال : ﴿ فَوَيْلٌ للقاسية قُلُوبُهُمْ ﴾ [الزمر : 22] فنقول الأقفال أبلغ من الختم فترك الإضافة لعدم انتفاعهم رأساً .

المسألة الثالثة :

في قوله ﴿ أَقْفَالُهَا ﴾ بالإضافة ولم يقل أقفال كما قال : ﴿ قُلُوبٍ ﴾ لأن الأقفال كانت من شأنها فأضافها إليها كأنها ليست إلا لها ، وفي الجملة لم يضف القلوب إليهم لعدم نفعها إياهم وأضاف الأقفال إليها لكونها مناسبة لها ، ونقول أراد به أقفالاً مخصوصة هي أقفال الكفر والعناد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 55 ـ 57 ﴾

(36/709)

وقال القرطبى :

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22) ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ اختلف في معنى "إِنْ تَوَلَّيْتُمْ" فقيل : هو من الوِلاية .

قال أبو العالية : المعنى فهل عسيتم إن توليتم الحكم فجعِلتم حكاماً أن تفسدوا في الأرض بأخذ الرُّشَا .

وقال الكلبيّ : أي فهل عسيتم إن توليتم أمر الأمة أن تفسدوا في الأرض بالظلم .

وقال ابن جريج : المعنى فهل عسيتم إن توليتم عن الطاعة أن تفسدوا في الأرض بالمعاصي وقطع الأرحام .

وقال كعب : المعنى فهل عسيتم إن توليتم الأمر أن يقتل بعضكم بعضاً .

وقيل : من الإعراض عن الشيء .

قال قتادة : أي فهل عسيتم إن توليتم عن كتاب الله أن تفسدوا في الأرض بسفك الدماء الحرام ، وتقطعوا أرحامكم .

وقيل : "فَهَلْ عَسَيْتُمْ" أي فلعلكم إن أعرضتم عن القرآن وفارقتم أحكامه أن تفسدوا في الأرض فتعودوا إلى جاهليتكم .

وقرىء بفتح السين وكسرها .

وقد مضى في "البقرة" القول فيه مستوفى .

وقال بكر المزني : إنها نزلت في الحَرُورِيّة والخوارج ؛ وفيه بُعْدٌ .

والأظهر أنه إنما عُني بها المنافقون .

وقال ابن حيان : قريش .

ونحوه قال المسيّب بن شريك والفرّاء ، قالا : نزلت في بني أمية وبني هاشم ؛ ودليل هذا التأويل ما روى عبد الله بن مُغَفّل قال سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " "فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ" ثم قال هم هذا الحيّ من قريش أخذ الله عليهم إن وَلُوا الناس ألاّ يفسدوا في الأرض ولا يقطعوا أرحامهم" " وقرأ عليّ بن أبي طالب "إِنْ تُوُلِّيتُم أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ" بضم التاء والواو وكسر اللام .

وهي قراءة ابن أبي إسحاق ، ورواها رُوَيْس عن يعقوب .

يقول : إن وليتكم ولاة جائرة خرجتم معهم في الفتنة وحاربتموهم .

(37/709)

﴿ وتقطعوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ بالبغي والظلم والقتل .

وقرأ يعقوب وسلام وعيسى وأبو حاتم "وَتَقْطَعُوا" بفتح التاء وتخفيف القاف ، من القطع ؛ اعتبارا بقوله تعالى : ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ [الرعد : 52] .

وروى هذه القراءة هارون عن أبي عمرو .

وقرأ الحسن "وَتَقَطَّعُوا" مفتوحة الحروف مشدّدة ؛ اعتبارا بقوله تعالى : ﴿ وتقطعوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنبياء : 93] .

الباقون "وتُقَطِّعُوا" بضم التاء مشدّدة الطاء ، من التقطيع على التكثير ؛ وهو اختيار أبي عبيد .

وتقدّم ذكر "عَسَيْتُمْ" في (البقرة) .

وقال الزجاج في قراءة نافع : لو جاز هذا لجاز "عَسِي" بالكسر .

قال الجوهريّ : ويقال عَسَيت أن أفعل ذلك ، وعَسِيت بالكسر .

وقرىء "فَهَلْ عَسِيتُم" بالكسر .

قلت : ويدل قوله هذا على أنهما لغتان .

وقد مضى القول فيه في "البقرة" مستوفى .

﴿ أولئك الذين لَعَنَهُمُ الله ﴾ أي طردهم وأبعدهم من رحمته .

(فَأَصَمَّهُمْ) عن الحق .

﴿ وأعمى أَبْصَارَهُمْ ﴾ أي قلوبهم عن الخير .

فأتبع الأخبارَ بأن مَن فعل ذلك حقّت عليه لعنته ، وسلبه الانتفاع بسمعه وبصره حتى لا ينقاد للحق وإن سمعه ؛ فجعله كالبهيمة التي لا تعقل .

وقال : "فَهَلْ عَسَيْتُمْ" ثم قال : "أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ" فرجع من الخطاب إلى الغيبة على عادة العرب في ذلك .

الثانية قوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن ﴾ أي يتفهمونه فيعلمون ما أعدّ الله للذين لم يتولّوا عن الإسلام .

﴿ أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ أي بل على قلوب أقفال أقفلها الله عز وجل عليهم فهم لا يعقلون .

وهذا يردّ على القدرية والإمامية مذهبهم .

وفي حديث مرفوع أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن عليها أقفالاً كأقفال الحديد حتى يكون الله يفتحها " وأصل القَفْل اليُبْس والصلابة .

ويقال لما يبس من الشجر : القَفْل .

والقفيل مثله .

والقَفِيل أيضاً نبت .

(38/709)

والقِفِيل : الصوت .

قال الراجز :

لما أتاك يابساً قِرْشَباً . . .

قمت إليه بالقِفِيل ضربا

كيف قَرَيْتَ شَيْخَك الأَزَبّا . . .

القِرْشَبُّ (بكسر القاف) المسِنّ ؛ عن الأصمعي .

وأقفله الصوم أي أيبسه ؛ قاله القشيريّ والجوهريّ .

فالأقفال ها هنا إشارة إلى ارتتاج القلب وخلوّه عن الإيمان .

أي لا يدخل قلوبهم الإيمان ولا يخرج منها الكفر ؛ لأن الله تعالى طبع على قلوبهم وقال : "عَلَى قُلُوبٍ" لأنه لو قال على قلوبهم لم يدخل قلب غيرهم في هذه الجملة .

والمراد أم على قلوب هؤلاء وقلوب من كانوا بهذه الصفة أقفالها .

الثالثة في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرَّحِم فقالت هذا مَقام العائذ من القطيعة قال نعم أما ترضين أن أصل من وصلكِ وأقطع من قطعكِ قالت بلى قال فذاكِ لكِ ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرءوا إن شئتم ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وتقطعوا أَرْحَامَكُمْ * أولئك الذين لَعَنَهُمُ الله فَأَصَمَّهُمْ وأعمى أَبْصَارَهُمْ * أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ

القرآن أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ " وظاهر الآية أنها خطاب لجميع الكفار .

وقال قتادة وغيره : معنى الآية فلعلكم ، أو يخاف عليكم ، إن أعرضتم عن الإيمان أن تعودوا إلى الفساد في الأرض لسفك الدماء .

قال قتادة : كيف رأيتم القوم حين تَوَلَّوْا عن كتاب الله تعالى ! ألم يسفكوا الدماء الحرام ويقطعوا الأرحام وعصَوُا الرحمن .

فالرحِم على هذا رَحِم دين الإسلام والإيمان ، التي قد سماها الله إخوة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : 10] .

وعلى قول الفرّاء أن الآية نزلت في بني هاشم وبني أمية ؛ والمراد من أضمر منهم نفاقاً ؛ فأشار بقطع الرحِم إلى ما كان بينهم وبين النبيّ صلى الله عليه وسلم من القرابة بتكذيبهم النبيّ صلى الله عليه وسلم .

(39/709)

وذلك يوجب القتال .

وبالجملة فالرحم على وجهين : عامة وخاصة ؛ فالعامة رحِم الدين ، ويجب مواصلتها بملازمة الإيمان والمحبة لأهله ونصرتهم ، والنصيحة وترك مضارتهم والعدل بينهم ،

والنَّصَفة في معاملتهم والقيام بحقوقهم الواجبة ؛ كتمريض المرضى وحقوق الموتى مِن غسلهم والصلاة عليهم ودفنهم ، وغير ذلك من (الحقوق) المترتبة لهم .

وأما الرحم الخاصة وهي رحم القرابة من طرفي الرجل أبيه وأمه ، فتجب لهم الحقوق الخاصة وزيادة ؛ كالنفقة وتفقد أحوالهم ، وترك التغافل عن تعاهدهم في أوقات ضروراتهم ؛ وتتأكد في حقهم حقوق الرحم العامة ، حتى إذا تزاحمت الحقوق بدىء بالأقرب فالأقرب .

وقال بعض أهل العلم : إن الرحم التي تجب صلتها هي كل رَحِم مَحْرَم ، وعليه فلا تجب في بني الأعمام وبني الأخوال .

وقيل : بل هذا في كل رحم ممن ينطلق عليه ذلك من ذوي الأرحام في المواريث ، مَحْرَماً كان أو غير محرم .

فيخرج من هذا أن رحم الأم التي لا يتوارث بها لا تجب صلتهم ولا يحرم قطعهم .

وهذا ليس بصحيح ، والصواب أن كل ما يشمله ويعمه الرحم تجب صلته على كل حال ، قربةً ودينية ؛ على ما ذكرناه أولاً والله أعلم .

وقد روى أبو داود الطيالسي في مسنده قال : حدثنا شعبة قال أخبرني محمد بن عبد الجبار قال سمعت محمد بن كعب القُرَظِي يحدّث عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن للرحم لساناً يوم القيامة تحت العرش يقول يا رب قُطعتُ يا

رب ظُلمت يا رب أُسِيء إليّ فيجيبها ربُّها ألا تَرْضَيْن أن أصل مَن وصلكِ وأقطع مَن قطعكِ " وفي صحيح مسلم عن جُبير بن مُطْعِم عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " لا يدخل الجنة قاطع " قال ابن أبي عمر قال سفيان : يعني قاطع رحِم .

ورواه البخاري .

الرابعة قوله عليه السلام : " إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم . . .

" "خلق" بمعنى اخترع وأصله التقدير ؛ كما تقدّم .

والخلق هنا بمعنى المخلوق .

(40/709)

ومنه قوله تعالى : ﴿ هذا خَلْقُ الله ﴾ [لقمان : 11] أي مخلوقه .

ومعنى "فرغ منهم" كمل خلقهم .

لا أنه اشتغل بهم ثم فرغ من شغله بهم ؛ إذ ليس فعله بمباشرة ولا مناولة ، ولا خَلْقُه بآلة ولا محاولة ؛ تعالى عن ذلك .

وقوله : "قامت الرّحم فقالت" يحمل على أحد وجهين : أحدهما أن يكون الله تعالى أقام من يتكلم عن الرحم من الملائكة فيقول ذلك ، وكأنه وكل بهذه العبادة من يناضل عنها

ويكتب ثواب من وصلها ووزر مَن قطعها ؛ كما وكل الله بسائر الأعمال كراماً كاتبين ، وبمشاهدة أوقات الصلوات ملائكة متعاقبين .

وثانيهما أن ذلك على جهة التقدير والتمثيل المفهم للإعياء وشدّة الاعتناء .

فكأنه قال : لو كانت الرحم ممن يعقل ويتكلم لقالت هذا الكلام ؛ كما قال تعالى : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هذا القرآن على جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ الله ثم قال وَتِلْكَ الأمثال نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر : 21] .

وقوله : "فقالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة" مقصود هذا الكلام الإخبار بتأكّد أمر صلة الرحم ، وأن الله سبحانه قد أنزلها بمنزلة من استجار به فأجاره ، وأدخله في ذمته وخُفارته .

وإذا كان كذلك فجار الله غير مخذول وعهده غير منقوض .

ولذلك قال مخاطباً للرَّحِم : "أمَا تَرْضَيْن أن أصل مَن وصلكِ وأقطع مَن قطعكِ" .

وهذا كما قال عليه السلام : " ومن صلى الصبح فهو في ذمة الله تعالى فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء فإنه من يطلبه بذمته بشيء يدركه ثم يَكُبّه في النار على وجهه " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ ﴾

خطَاب لأولئك الذين في قلوبهم مرض بطريق الالتفات لتأكيد التوبيخ وتشديد التقريع ، وهل للاستفهام والأصل فيه أن يدخل الخبر للسؤال عن مضمونه والإنشاء الموضوع له عسى ما دل عليه بالخبر أي فهل يتوقع منكم وينتظر ﴿ إِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أمور الناس وتأمرتم عليهم فهو من الولاية والمفعول به محذوف وروى ذلك عن محمد بن كعب وأبي العالية والكلبي ﴿ أَن تُفْسِدُواْ فِى الأَرض وَتُقَطِّعُواْ أَرْحَامَكُمْ ﴾ تناحراً على الولاية وتكالباً على جيفة الدنيا والمتوقع كل من يقف على حالهم إلا الله عز وجل إذ لا يصح من سبحانه ذلك والاستفهام أيضاً بالنسبة إلى غيره جل وعلا فالمعنى إنكم لما عهد منكم من الأحوال الدالة على الحرص على الدنيا حيث أمرتم بالجهاد الذي هو وسيلة إلى ثواب الله تعالى العظيم فكرهتموه وظهر عليكم ما ظهر أحقاء بأن يقول لكم كل من ذاقكم وعرف حالكم يا هؤلاء ما ترون هل يتوقع منكم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض الخ .

وفسر بعضهم التولي بالإعراض عن الإسلام فالفعل لازم أي فهل عسيتم إن أعرضتم عن الإسلام أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الإفساد في الأرض بالتغاور والتناهب وقطع الأرحام بمقاتلة بعض الأقارب بعضاً ووأد البنات ، وتعقب بأن الواقع في حيز الشرط

في مثل هذا المقام لا بد أن تكون محذوريته باعتبار ما يتبعه من المفاسد لا باعتبار ذاته ولا ريب في أن الإعراض عن الإسلام رأس كل شر وفساد فحقه أن يجعل عمدة في التوبيخ لا وسيلة للتوبيخ بما دونه من المفاسد ، ويؤيد الأول قراءة بعض ﴿ وَلَّيْتُم ﴾ مبنياً للمفعول وكذا قراءته عليه الصلاة والسلام على ما ذكر في "البحر" وروريت عن علي كرم الله تعالى وجهه .

ورويس .

(42/709)

ويعقوب ﴿ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ بالبناء للمفعول أيضاً بناء على أن المعنى تولاكم الناس واجتمعوا على مولاتكم ، والمراد كنتم فيهم حكاماً ، وقيل : المعنى تولاكم ولاة غشمة خرجتم معهم ومشيتم تحت لوائهم وأفسدتم بإفسادهم واستظهر أبو حيان تفسيره بالإعراض إلا أنه قال : المعنى إن أعرضتم عن امتثال أمر الله تعالى في القتال أن تفسدوا في الأرض بعدم معونة أهل الإسلام على أعدائهم وتقطعوا أرحامكم لأن من أرحامكم كثيراً من المسلمين فإذا لم تعينوهم قطعتم ما بينكم وبينهم من الرحم .

وتعقب بأن حمل الإفساد على الإفساد بعدم المعونة فيه خفاء ، وكذا الإتيان بأن عليه دون

إذا من حيث أن الاعراض عن امتثال أمر الله تعالى في القتال كالمحقق من أولئك المنافقين فتأمل ، و﴿ أَن تُفْسِدُواْ ﴾ خبر عسى و﴿ إِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ اعتراض ، وجواب أن محذوف يدل عليه ما قبله ، وزعم بعضهم أن الأظهر جعل ﴿ إِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ حالاً مقدرة ، وفيه أن الشرط بدون الجواب لم يعهد وقوعه حالاً في غير أن الوصلية وهي لا تفارق الواو ، والحاق الضمائر بعسى كما في سائر الأفعال المتصرفة لغة أهل الحجاز ، وبنو تميم لا يلحقونها به ويلتزمون دخوله على أن والفعل فيقولون الزيدان عسى أن يقوما والزيدون عسى أن يقوموا ، وذكر الإمام هاتين اللغتين ثم قال : وأما قول من قال : عسى أنت تقوم وعسى أنا أقوم فدون ما ذكرنا للتطويل الذي فيه فإن كان مقصوده حكاية لغة ثالثة هي انفصال الضمير فنحن لا نعلم أحداً من نقله اللسان العربي ذكرها وإن كان غير ذلك فليس فيه كثير جدوى .

وقرأ نافع ﴿ عَسَيْتُمْ ﴾ بكسر السين المهملة ، وهو غريب .

وقرأ أبو عمرو في رواية .

وسلام .

ويعقوب .

وأبان .

وعصمة .

﴿ تقطعوا ﴾ بالتخفيف مضارع قطع ، والحسن ﴿ تقطعوا ﴾ بفتح التاء والقاف وشد الطاء وأصله تتقطعوا بتاءين حذفت إحداهما ونصبوا ﴿ وَتُقَطِّعُواْ أَرْحَامَكُمْ ﴾ على إسقاط الحرف أي في أرحامكم لأن تقطع لازم .

(43/709)

﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المخاطبين بطريق الالتفات إيذاناً بأن ذكر هناتهم أوجب إسقاطهم عن درجة الخطاب ولو على جهة التوبيخ وحكاية أقوالهم الفظيعة لغيرهم ، وهو مبتدأ خبره قوله تعالى : ﴿ الذين عَبْدُ الله ﴾ أي أبعدهم من رحمته عز وجل ﴿ فَأَصَمَّهُمْ ﴾ عن استماع الحق لتصامهم عنه لسوء اختيارهم ﴿ وأعمى أبصارهم ﴾ لتعاميهم عما يشاهدونه من الآيات المنصوبة في الأنفس والآفاق وجاء التركيب ﴿ فَأَصَمَّهُمْ ﴾ ولم يأت فأصم آذانهم كما جاء ﴿ وأعمى أبصارهم ﴾ أو وأعماهم كما جاء فأصمهم ، قيل : لأن الأذن لو أصيبت بقطع أو قلع لسمع الكلام فلم يحتج إلى ذكر الأذن والبصر وهو العين لو أصيب لامتنع الأبصار فالعين لها مدخل في الرؤية والأذن لا مدخل لها في السمع انتهى وهو كما ترى .

وقال الخفاجي : لأنه إذا ذكر الصمم لم يبق حاجة إلى ذكر الآذان ، وأما العمى فلشيوعه في

البصر والبصيرة حتى قيل : إنه حقيقة فيهما وهو ظاهر ما في "القاموس" فإذا كان المراد أحدهما حسن تقييده .

(44/709)

وقيل في وجه ذلك بناء على كون العمى حقيقة فيما كان في البصر إن نحو أعمى الله أبصارهم بحسب الظاهر من باب أبصرته بعيني وهو يقال في مقام يحتاج إلى التأكيد ، ولما كان أولئك الذين حكى حالهم في أمر الجهاد غير ظاهر إعماؤهم ظهور إصمامهم وكيف وفي الآيات السابقة ما يؤذن بعدم انتفاعهم بالمسموع من القرآن وهو من آثار إصمامهم وليس فيها ما يؤذن بعدم انتفاعهم بالآيات المرئية المنصوبة في الأنفس والآفاق الذي هو من آثار إعمائهم ناسب أن يسلك في كل من الجملتين ما سلك مع ما في سلوكه في الأخير من رعاية الفواصل وهو أدق مما قبل ، هذا والأرحام جمع رحم بفتح الراء وكسر الحاء وهي على ما في "القاموس" القرابة أو أصلها وأسبابها ، وقال الراغب : الرحم رحم المرأة أي بيت منبت ولدها ووعاؤه ومنه استعير الرحم للقرابة لكونهم خارجين من رحم واحدة ، ويقال للأقارب ذوو رحم كما يقال لهم أرحام ، وقد صرح ابن الأثير بأن ذا الرحم يقع على كل من يجمع بينك وبينه نسب ويطلق في الفرائض على الأقارب من جهة النساء ؛ والمذكور في

كتبها تفسيره بكل قريب ليس بذي سهم ولا عصبة وعدوا من ذلك أولاد الأخوات لأبوين أو لأب وعمات الآباء وظاهر كلام الأئمة في قوله عليه الصلاة والسلام من ملك ذا رحم محرم فهو حر دخول الأبوين والولد في ذي الرحم لغة حيث أجمعوا على أنهم يعتقون على من ملكهم لهذا الخبر وإن اختلفوا في عتق غيرهم ، وصرح ابن حجر الهيثمي في "الزواجر" بأن الأولاد من الأرحام وظاهر عطف الأقربين على الوالدين في الآية يقتضي عدم دخولهما في الأقارب فلا يدخلون في الأرحام لأنهم كما قالوا الأقارب ، وكلام فقهائنا نص في عدم دخول الوالدين والولد في ذلك حيث قالوا : إذا أوصى لأقاربه أو لذوي قرابته أو لأرحامهم فهي للأقرب فالأقرب من كل ذي رحم محرم ولا يدخل الوالدان والولد ، وأما الجد وولد الولد فنقل أبو السعود عن العلامة قاسم عن البدائع أن الصحيح عدم دخولهما ،

(45/709)

واختاره في الاختيار وعلله بأن القريب من يتقرب إلى غيره بواسطة غيه وتكون الجزئية بينهما منعدمة ، وفي "شرح الحموي" أن دخولهما هو الأصح .

وفي "متن المواهب" وادخل أي محمد الجد والحفدة وهو الظاهر عنهما ، وذكر أن مثل الجد الجدة وقد يقال : إن عدم دخول الوالدين والولد في ذلك وكذا الجد والحفدة عند من يقول

بعدم دخولهم ليس لأن اللفظ لا يصدق عليهم لغة بل لأنه لا يصدق عليهم عرفاً وهم اعتبروا العرف كما قال الطحطاوي في أكثر مسائل الوصية .

وفي جامع الفصولين أن مطلق الكلام فيما بين الناس ينصرف إلى المتعارف ، وما ذكره في المعراج من خبر من سمى والده قريباً عقه لا يدل على أنه ليس قريباً لغة بل هو بيان حكم شرعي مبناه أن في ذلك إيذاء للوالد وحطاً من قدره عرفاً ، وهذا كما لو ناداه باسمه وكان يكره ذلك ، وأمر العطف في الآية الكريمة سهل لجواز عطف العام على الخاص كعطف الخاص على العام ، فالذي يترجح عندي أن الأرحام كما صرحوا به الأقارب بالقرابة الغير السببية والمراد بهم ما يقابل الأجانب ويدخل فيهم الأصول والفروع والحواشي من قبل الأب أو من قبل الأم وحرمة قطع كل لا شك فيها لأنه على ما قلنا رحم ، والآية ظاهرة في حرمة قطع الرحم .

وحكى القرطبي في تفسيره اتفاق الأمة على حرمة قطعها ووجوب صلتها ، ولا ينبغي التوقف في كون القطع كبيرة ، والعجب من الرافعي عليه الرحمة كيف توقف في قول صاحب الشامل : إنه من الكبائر ، وكذا تقرير النووي قدس سره له على توقفه ، واختلف في المراد بالقطيعة فقال أبو زرعة : ينبغي أن تختص بالإساءة ، وقال غيره : هي ترك الإحسان ولو بدون إساءة لأن الأحاديث آمرة بالصلة ناهية عن القطيعة ولا واسطة بينهما

، والصلة إيصال نوع من أنواع الإحسان كما فسرها بذلك غير واحد فالقطيعة ضدها فهي ترك الإحسان .

(46/709)

ونظر فيه الهيثمي بناء على تفسير العقوق بأن يفعل مع أحد أبويه ما لو فعله مع أجنبي كان محرماً صغيرة فينتقل بالنسبة إلى أحدهما كبيرة وإن الأبوين أعظم من بقية الأقارب ثم قال : فالذي يتجه ليوافق كلامهم وفرقهم بين العقوق وقطع الرحمن أن المراد بالأول أن يفعل مع أحد الأبوين ما يتأذى به فإن كان التأذي ليس بالهين عرفاً كان كبيرة وإن لم يكن محرماً لو فعله مع الغير وبالثاني قطع ما ألف القريب منه من سابق الوصلة والإحسان بغير عذر شرعي لأن قطع ذلك يؤدي إلى إيحاش القلوب وتأذيها ، فلو فرض أن قريبه لم يصل إليه إحسان ولا إساءة قط لم يفسق بذلك لأن الأبوين إذا فرض ذلك في حقهما من غير أن يفعل معهما ما يقتضي التأذي العظيم لغناهما مثلاً لم يكن كبيرة فأولى بقية الأقارب ؛ ولو فرض أن الإنسان لم يقطع عن قريبه ما ألفه منه من الإحسان لكنه فعل معه محرماً صغيرة أو قطب في وجهه أو لم يقم له في ملأ ولا عبأ به لم يكن ذلك فسقاً بخلافه مع أحد الأبوين لأن تأكد حقهما اقتضى أن يتميزا على بقية الأقارب بما لا يوجد نظيره فيهم وعلى ضبط الثاني بما ذكرته فلا فرق بين

أن يكون الإحسان الذي ألفه منه قريبه مالاً أو مكاتبة أو مراسلة أو زيارة أو غير ذلك فقطع ذلك كله بعد فعله لغير عذر كبيرة ، وينبغي أن يراد بالعذر في المال فقد ما كان يصله به أو تجدد احتياجه إليه أو أن يندبه الشارع إلى تقديم غير القريب عليه لكونه أحوج أو أصلح ، فعدم الإحسان إلى القريب أو تقديم الأجنبي عليه لهذا العذر يرفع عنه وإن انقطع بسبب ذلك ما ألفه منه القريب لأنه إنما راعى أمر الشارع بتقديم الأجنبي عليه ، وواضح أن القريب لو ألف منه قدراً معيناً من المال يعطيه إياه كل سنة مثلاً فنقصه لا يفسق بذلك بخلاف ما لو قطعه من أصله لغير عذر ، وأما عذر الزيارة فينبغي ضبطه بعذر الجمعة لجامع أن كلا فرض عين وتركه كبيرة ؛ وأما عذر ترك المكاتبة والمراسلة فهو أن لا يجد من يثق

(47/709)

به في أداء ما يرسله معه ، والظاهر أنه إذا ترك الزيادة التي ألفت منه في وقت مخصوص لعذر لا يلزمه قضاؤها في غير ذلك الوقت ، والأولاد والأعمام من الأرحام وكذا الخالة فيأتي فيهم وفيها ما تقرر من الفرق بين قطعهم وعقوق الوالدين ، وأما قول الزركشي : صح في الحديث أن الخالة بمنزلة الأم وأن عم الرجل صنو أبيه وقضيتهما أنهما مثل الأب والأم حتى

في العقوق فبعيد جداً ويكفي مشابهتهما في أمر ما كالحضانة تثبت للخالة كما تثبت للأم وكذا المحرمية وكالإكرام في العم والمحرمية وغيرهما مما ذكر انتهى المراد منه ، ولو قيل : إن الصغيرة تعد كبيرة لو فعلت مع القريب لكنها دون ما لو فعلت مع أحد الأبوين لم يبعد عندي لتفاوت قبح السيئات بحسب الإضافات بل لا يبعد على هذا أن يكون قبح قطع الرحم متفاوتاً باعتبار الشخص القاطع وباعتبار الشخص المقطوع ومتى سلم التفاوت فليقل به في العقوق ويكون عقوق الأم أقبح من عقوق الأب وكذا عقوق الولد الذي يعبأ به أقبح من عقوق الولد الذي لا يعبأ به ويتفرع من ذلك ما يتفرع مما لا يخفى على فقيه ، واستدل بالآية عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه على منع بيع أم الولد .

روى الحاكم في "المستدرك" وصححه .

(48/709)

وابن المنذر عن بريدة قال : كنت جالساً عند عمر إذ سمع صائحاً فسأل فقيل : جارية من قريش تباع أمها فأرسل يدعو المهاجرين والأنصار فلم تمض ساعة حتى امتلأت الدار والحجرة فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فهل تعلمونه كان مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم القطيعة قالوا : لا قال : فإنها قد أصبحت فيكم فاشية ثم قرأ ﴿

فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى الأَرض وَتُقَطِّعُواْ أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد : 22] ثم قال : وأي قطيعة أقطع من أن تباع أم امرىء فيكم قالوا فاصنع ما بدا لك فكتب في الآفاق أن لا تباع أم حر فإنها قطيعة رحم وأنه لا يحل واستدل بها أيضاً على جواز لعن يزيد عليه من الله تعالى ما يستحق نقل البرزنجي في الإشاعة والهيثمي في الصواعق إن الإمام أحمد لما سأله ولده عبد الله عن لعن يزيد قال كيف لا يلعن من لعنه الله تعالى في كتابه فقال عبد الله قد قرأت كتاب الله عز وجل فلم أجل فيه لعن يزيد فقال الإمام إن الله تعالى يقول : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى الأَرض وَتُقَطِّعُواْ أَرْحَامَكُمْ أُوْلَئِكَ الذين لَعَنَهُمُ الله ﴾ [محمد : 22] الآية وأي فساد وقطيعة أشد مما فعله يزيد انتهى .

وهو مبني على جواز لعن العاصي المعين من جماعة لعنوا بالوصف ، وفي ذلك خلاف فالجمهور ، على أنه لا يجوز لعن المعين فاسقاً كان أو ذمياً حياً كان أو ميتاً ولم يعلم موته على الكفر لاحتمال أن يختم له أو يختم له أو ختم له بالإسلام بخلاف من علم موته على الكفر كأبي جهل .

(49/709)

وذهب شيخ الإسلام السراج البلقيني إلى جواز لعن العاصي المعين لحديث الصحيحين " إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت أن تجيء فبات غضبان لعنتها الملائكة حتى تصبح " وفي رواية "إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح" واحتمال أن يكون لعن الملائكة عليهم السلام إياها ليس بالخصوص بل بالعموم بأن يقولوا : لعن الله من باتت مهاجرة فراش زوجها بعيد وإن بحث به معه ولده الجلال البلقيني .

وفي "الزواجر" لو استدل لذلك بخبر مسلم " أنه صلى الله عليه وسلم مر بحمار وسم في وجهه فقال : لعن الله من فعل هذا " لكان أظهر إذ الإشارة بهذا صريحة في لعن معين إلا أن يؤول بأن المراد الجنس وفيه ما فيه انتهى .

وعلى هذا القول لا توقف في لعن يزيد لكثرة أوصافه الخبيثة وارتكابه الكبائر في جميع أيام تكليفه ويكفي ما فعله أيام استيلائه بأهل المدينة ومكة فقد روى الطبراني بسند حسن " اللهم من ظلم أهل المدينة وأخافهم فأخفه وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل " والطامة الكبرى ما فعله بأهل البيت ورضاه بقتل الحسين على جده وعليه الصلاة والسلام واستبشاره بذلك وإهانته لأهل بيته مما تواتر معناه وإن كانت تفاصيله آحاداً ، وفي الحديث " ستة لعنتهم وفي رواية لعنهم الله وكل نبي مجاب الدعوة المحرف لكتاب الله وفي رواية الزائد في كتاب الله والمكذب بقدر الله والمتسلط بالجبروت ليعز من أذل الله ويذل من أعز الله والمستحل من عترتي والتارك لسنتي " وقد جزم بكفره

وصرح بلعنه جماعة من العلماء منهم الحافظ ناصر السنة ابن الجوزي وسبقه القاضي أبو يعلى ، وقال العلامة التفتازاني : لا نتوقف في شأنه بل في إيمانه لعنة الله تعالى عليه وعلى أنصاره وأعوانه ، وممن صرح بلعنه الجلال السيوطي عليه الرحمة وفي تاريخ ابن الوردي .

(50/709)

وكتاب "الوافي بالوفيات" أن السبي لما ورد من العراق على يزيد خرج فلقي الأطفال والنساء من ذرية علي .

والحسين رضي الله تعالى عنهما والرؤس على أطراف الرماح وقد أشرفوا على ثنية جيرون فلما رآهم نعب غراب فأنشأ يقول :

لما بدت تلك الحمول وأشرفت . . .

تلك الرؤس على شفا جيرون

نعب الغراب فقلت قل أو لا تقل . . .

فقد اقتضيت من الرسول ديوني

يعني أنه قتل بمن قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر كجدة عتبة وخاله ولد عتبة وغيرهما وهذا كفر صريح فإذا صح عنه فقد كفر به ومثله تمثله بقول عبد الله بن الزبعرى

قبل إسلامه :

ليت أشياخي . . .

الأبيات ، وأفتى الغزالي عفا الله عنه بحرمة لعنه وتعقب السفاريني من الحنابلة نقل البرزنجي والهيثمي السابق عن أحمد رحمه الله تعالى فقال : المحفوظ عن الإمام أحمد خلاف ما نقلا ، ففي الفروع ما نصه ومن أصحابنا من أخرج الحجاج عن الإسلام فيتوجه عليه يزيد ونحوه ونص أحمد خلاف ذلك وعليه الأصحاب ، ولا يجوز التخصيص باللعنة خلافاً لأبي الحسين .

وابن الجوزي .

وغيرهما ، وقال شيخ الإسلام : يعني والله تعالى أعلم ابن تيمية ظاهر كلام أحمد الكراهة ، قلت : والمختار ما ذهب إليه ابن الجوزي .

وأبو حسين القاضي .

ومن وافقهما انتهى كلام السفاريني .

وأبو بكر بن العربي المالكي عليه من الله تعالى ما يستحق أعظم الفرية فزعم أن الحسين قتل بسيف جده صلى الله عليه وسلم وله من الجهلة موافقون على ذلك

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [الكهف : 5] .

قال ابن الجوزي : عليه الرحمة في كتابه السر المصون من الاعتقادات العامة التي غلبت على جماعة منتسبين إلى السنة أن يقولوا : إن يزيد كان على الصواب وأن الحسين رضي الله تعالى عنه أخطأ في الخروج عليه ولو نظروا في السير لعلموا كيف عقدت له البيعة وألزم الناس بها ولقد فعل في ذلك كل قبيح ثم لو قدرنا صحة عقد البيعة فقد بدت منه بواد كلها توجب فسخ العقد ولا يميل إلى ذلك إلا كل جاهل عامي المذهب يظن أنه يغيظ بذلك الرافضة .

هذا ويعلم من جميع ما ذكره اختلاف الناس في أمره فمنهم من يقول : هو مسلم عاص بما صدر منه مع العترة الطاهرة لكن لا يجوز لعنه ، ومنهم من يقول : هو كذلك ويجوز لعنه مع الكراهة أو بدونها ومنهم من يقول : هو كافر ملعون ، ومنهم من يقول : إنه لم يعص بذلك ولا يجوز لعنه وقائل هذا ينبغي أن ينظم في سلسلة أنصار يزيد وأنا أقول : الذي يغلب على ظني أن الخبيث لم يكن مصدقاً برسالة النبي صلى الله عليه وسلم وأن مجموع ما فعل مع أهل حرم الله تعالى وأهل حرم نبيه عليه الصلاة والسلام وعترته الطيبين الطاهرين في الحياة وبعد الممات وما صدر منه من المخازي ليس بأضعف دلالة على عدم تصديقه من إلقاء ورقة من المصحف الشريف في قذر ؛ ولا أظن أن أمره كان خافياً على أجلة المسلمين إذ ذاك ولكن كانوا مغلوبين مقهورين لم يسعهم إلا الصبر ليقضي الله أمراً كان مفعولا ، ولو سلم أن

الخبيث كان مسلماً فهو مسلم جمع من الكبائر ما لا يحيط به نطاق البيان ، وأنا أذهب إلى جواز لعن مثله على التعيين ولو لم يتصور أن يكون له مثل من الفاسقين ، والظاهر أنه لم يتب ، واحتمال توبته أضعف من إيمانه ، ويلحق به ابن زياد .

وابن سعد .

(52/709)

وجماعة فلعنة الله عز وجل عليهم أجمعين ، وعلى أنصارهم وأعوانهم وشيعتهم ومن مال إليهم إلى يوم الدين ما دمعت عين على أبي عبد الله الحسين ، ويعجبني قول شاعر العصر ذو الفضل الجلي عبد الباقي أفندي العمري الموصل وقد سئل عن لعن يزيد اللعين :

يزيد على لعني عريض جنابه . . .

فاغدو به طول المدى ألعن اللعنا

ومن كان يخشى القال والقيل من التصريح بلعن ذلك الضليل فليقل : لعن الله عز وجل من رضي بقتل الحسين ومن آذى عترة النبي صلى الله عليه وسلم بغير حق ومن غصبهم حقهم فإنه يكون لاعناً له لدخوله تحت العمول دخولاً أولياً في نفس الأمر ، ولا يخالف أحد في جواز اللعن بهذه الألفاظ ونحوها سوى ابن العربي المار ذكره وموافقيه فإنهم على ظاهر ما

نقل عنهم لا يجوزون لعن من رضي بقتل الحسين رضي الله تعالى عنه ، وذلك لعمري هو الضلال البعيد الذي يكاد يزيد على ضلال يزيد .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ القرءان ﴾

أي لا يلاحظونه ولا يتصفحونه وما فيه من المواعظ والزواجر حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه من الموبقات ﴿ أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ تمثيل لعدم وصول الذكر إليها وانكشاف الأمر لها فكأنه قيل : أفلا يتدبرون القرآن إذ وصل إلى قلوبهم أم لم يصل إليها فتكون أم متصلة على مذهب سيبويه ، وظاهر كلام بعض اختياره .

وذهب أبو حيان .

(53/709)

وجماعة إلى أنها منقطعة وما فيها من معنى بل للانتقال من التوبيخ بترك التدبر إلى التوبيخ بكون قلوبهم مقفلة لا تقبل التدبر والتفكر ، والهمزة للتقرير ، وتنكير القلوب لتهويل حالها وتفظيع شأنها وأمرها في القساوة والجهالة كأنه قيل : على قلوب منكرة لا يعرف حالها ولا يقادر قدرها في القساوة وقيل : لأن المراد قلوب بعض منهم وهم المنافقون فتنكيرها للتبعيض أو للتنويع كما قيل ، وإضافة الأقفال إليها للدلالة على أنها أقفال مخصوصة بها

مناسبة لها غير مجانسة لسائر الأقفال المعهودة ، وقرىء ﴿ أَقْفَالُهَا ﴾ بكسر الهمزة ، وهو مصدر من الأفعال و﴿ أقفلها ﴾ بالجمع على أفعل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(54/709)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22) ﴾

مقتضى تناسق النظم أن هذا مفرع على قوله : ﴿ فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم ﴾ [محمد : 21] لأنه يفهم منه أنه إذا عزم الأمر تولوا عن القتال وانكشف نفاقهم فتكون إتماماً لما في الآية السابقة من الإنباء بما سيكون من المنافقين يوم أُحُد .

وقد قال عبد الله بن أبي : عَلاَم نقتل أنفسنا ها هنا ؟ وربما قال في كلامه : وكيف نقاتل قريشاً وهم من قومنا ، وكان لا يرى على أهل يثرب أن يقاتلوا مع النبي صلى الله عليه وسلم ويرى الاقتصار على أنهم آووه .

والخطاب موجّه إلى الذين في قلوبهم مرض على الالتفات .

والاستفهام مستعمل في التكذيب لما سيعتذرون به لانخزالهم ولذلك جيء فيه بـ ﴿ هل

﴿ الدالة على التحقيق لأنّها في الاستفهام بمنزلة (قد) في الخبر ، فالمعنى : أفيتحقق إن توليتم أنكم تفسدون في الأرض وتقطعون أرحامكم وأنتم تزعمون أنكم توليتم إبقاء على أنفسكم وعلى ذوي قرابة أنسابكم على نحو قوله تعالى : ﴿ قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال أن لا تقاتلوا ﴾ [البقرة : 246] وهذا توبيخ كقوله تعالى : ﴿ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم ﴾ [البقرة : 85] .

والمعنى : أنكم تقعون فيما زعمتم التّفادي منه وذلك بتأييد الكفر وإحداث العداوة بينكم وبين قومكم من الأنصار .

فالتولّي هنا هو الرجوع عن الوجهة التي خرجوا لها كما في قوله تعالى : ﴿ فلما كتب عليهم القتال تولّوا إلا قليلاً منهم ﴾ [البقرة : 246] وقوله : ﴿ أفرأيت الذي تولّى ﴾ [النجم : 33] وقوله : ﴿ فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى ﴾ [طه : 60] .

وبمثله فسر ابن جريج وقتادة على تفاوتٍ بين التفاسير .

(55/709)

ومن المفسرين من حمل التولّي على أنه مطاوع ولّاه إذا أعطاه ولاية ، أي ولاية الحكم والإمارة على الناس وبه فسر أبو العالية والكلبي وكعب الأحبار .

وهذا بعيد من اللفظ ومن النظم وفيه تفكيك لاتصال نظم الكلام وانتقال بدون مناسبة ، وتجاوز بعضهم ذلك فأخذ يدعي أنها نزلت في الحرورية ومنهم من جعلها فيما يحدث بين بني أمية وبني هاشم على عادة أهل الشيع والأهواء من تحميل كتاب الله ما لا يتحمله ومن قصر عموماته على بعض ما يراد منها .

وقرأ نافع وحده ﴿ عَسِيتُم ﴾ بكسر السين .

وقرأه بقية العشرة بفتح السين وهما لغتان في فعل عسى إذا اتصل به ضمير .

قال أبو علي الفارسي : وجه الكسر أن فعله : عَسِي مثل رَضِي ، ولم ينطقوا به إلاّ إذا أسند هذا الفعل إلى ضمير ، وإسناده إلى الضمير لغة أهل الحجاز ، أما بنو تميم فلا يسندونه إلى الضمير البتة ، يقولون : عسى أن تفعلوا .

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (23)

الإشارة إلى الذين في قلوبهم مرض على أسلوب قوله آنفاً : ﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم ﴾ [محمد : 16] ولا يصح أن تكون الإشارة إلى ما يؤخذ من قوله : ﴿ أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾ [محمد : 22] لأن ذلك لا يستوجب اللعنة ولا أن مرتكبيه بمنزلة الصمّ ، على أن في صيغة المضيّ في أفعال : لعنهم ، وأصمّهم ، وأعمى ، ما لا يلاقي قوله : ﴿ فهل عَسِيتم ﴾ [محمد : 22] ولا ما في حرف (إنْ) من زمان الاستقبال .

واستعير الصمم لعدم الانتفاع بالمسموعات من آيات القرآن ومواعظ النبي صلى الله عليه وسلم كما استعير العمَى هنا لعدم الفهم على طريقة التمثيل لأن حال الأعمى أن يكون مضطرباً فيما يحيط به لا يدري نافعه من ضارّه إلا بمعونة من يرشده ، وكَثر أن يقال : أعمى الله بصره ، مراداً به أنه لم يهده ، وهذه هي النكتة في مجيء تركيب ﴿ وأعمى أبصارهم ﴾ مخالفاً لتركيب ﴿ فأصمهم ﴾ إذ لم يقل : وأعماهم .

وفي الآية إشعار بأن الفساد في الأرض وقطيعة الأرحام من شعار أهل الكفر ، فهما جرمان كبيران يجب على المؤمنين اجتنابهما .

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24)

تفريع على قوله : ﴿ فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾ [محمد : 23] ، أي هلا تدبروا القرآن عوض شغل بالهم في مجلسك بتتبع أحوال المؤمنين ، أو تفريع على قوله : ﴿ فأصمّهم وأعمى أبصارهم ﴾ .

والمعنى : أن الله خلقهم بعقول غير منفعلة بمعاني الخير والصلاح فلا يتدبرون القرآن مع فهمه أو لا يفهمونه عند تلقيه وكلا الأمرين عجيب .

والاستفهام تعجيب من سوء علمهم بالقرآن ومن إعراضهم عن سماعه .

وحرف ﴿ أم ﴾ للإضراب الانتقالي .

والمعنى : بل على قلوبهم أقفال وهذا الذي سلكه جمهور المفسرين وهو الجاري على كلام سيبويه في قوله تعالى : ﴿ أفلا تبصرون أمْ أنا خير من هذا الذي هو مهين ﴾ في سورة الزخرف (51 ، 52) ، خلافاً لما يوهمه أو توهمه ابن هشام في مغني اللبيب ﴾ .

والتدبر : التفهم في دُبر الأمر ، أي ما يخفى منه وهو مشتق من دبر الشيء ، أي خلفه .

والأقفال : جمع قُفْل ، وهو استعارة مكنية إذ شبهت القلوب ، أي العقول في عدم إدراكها المعاني بالأبواب أو الصناديق المغلقة ، والأقفال تخييل كالأظفار للمنية في قول أبي ذؤيب الهذلي:

وإذا المنية أنشبت أظفارها . . .

ألفيت كل تميمة لا تنفع

وتنكير ﴿ قلوب ﴾ للتنويع أو التبعيض ، أي على نوع من القلوب أقفال .

(57/709)

والمعنى : بل بعض القلوب عليها أقفال .

وهذا من التعريض بأن قلوبهم من هذا النوع لأن إثبات هذا النوع من القلوب في أثناء التعجيب من عدم تدبر هؤلاء القرآن يدل بدلالة الالتزام أن قلوب هؤلاء من هذا النوع من القلوب ذواتِ الأقفال .

فكون قلوبهم من هذا النوع مستفاد من الإضراب الانتقالي في حكاية أحوالهم .

ويدنو من هذا قول لُبيد :

تَرَّاكُ أمكنة إذا لم أرضها . . .

أو يَعتلقْ بعضَ النفوس حِمامها

يريد نفسه لأنه وقع بعد قوله : تَرَّاكُ أمكنة البيت ، أي أنا تراك أمكنة .

وإضافة (أقفال) إلى ضمير ﴿ قلوب ﴾ نظم بديع أشار إلى اختصاص الأقفال بتلك القلوب ، أي ملازمتها لها فدلّ على أنها قاسية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(58/709)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾

قال ابن عباس يريد على قلوب هؤلاء أقفال وقال مقاتل يعني الطبع على القلب وكأن القلب بمنزلة الباب المرتج الذي قد ضرب عليه قفل فإنه ما لم يفتح القفل لا يمكن فتح الباب والوصول إلى ما وراءه وكذلك ما لم يرفع الختم والقفل عن القلب لم يدخل الإيمان والقرآن وتأمل تنكير القلب وتعريف الأقفال فإن تنكير القلوب يتضمن إرادة قلوب هؤلاء وقلوب من هم بهذه الصفة ولو قال أم على القلوب أقفالها لم تدخل قلوب غيرهم في الجملة وفي قوله أقفالها بالتعريف نوع تأكيد فإنه لو قال اقفال لذهب الوهم إلى ما يعرف بهذا الاسم فلما أضافها إلى القلوب علم أن المراد بها ما هو للقلب بمنزلة القفل للباب فكأنه أراد أقفالها المختصة بها التي لا تكون لغيرها والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ شفاء العليل صـ 203 ﴾ 204.

(59/709)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (25) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (26) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبر سبحانه وتعالى بأقفال قلوبهم ، بين منشأ ذلك ، فقال مؤكداً تنبهاً لمن لا يهتم به على أنه مما ينبغي الاهتمام بالنظر فيه ليخلص الإنسان نفسه منه ، وتكذيباً لمن يقال : إن ذلك حسن : ﴿ إن الذين ارتدوا ﴾ أي عالجوا نفوسهم في منازعة الفطرة الأولى في الرجوع عن الإسلام ، وهو المراد بقوله : ﴿ على أدبارهم ﴾ أي من أهل الكتاب وغيرهم ، فقلبوا وجوه الأمور إلى ظهورها ، فوقعوا في الضلال فكفروا .

ولما كان الذي يلامون عليه ترك ما أتاهم به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مما أوحاه الله سبحانه إليه من الشريعة ، لا ما في غرائزهم من الملة التي يكفي في الهداية إليها نور العقل ، وكان الذم لاحقاً بهم ولو كان ارتدادهم في أدنى وقت ، أثبت الجار فقال : ﴿ من بعد ما تبين ﴾ غاية البيان الذي لا خفاء معه بوجه وظهر غاية الظهور ﴿ لهم ﴾ بالدلائل التي هي من شدة ظهورها غنية عن بيان مبين ﴿ الهدى ﴾ أي الذي أتاهم به رسولنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

ولما كانوا قد أحرقوا بذلك أنفسهم وأبعدوها به غاية البعد عن كل خير ، عبر عن المغوي بما يدل على ذلك فقال تعالى : ﴿ الشيطان ﴾ أي المحترق باللعنة البعيد من الرحمة ﴿ سول ﴾ أي حسن ﴿ لهم ﴾ بتزيينه وإغوائه الذي حصل لهم منه استرخاء في عزائمهم وفتور في هممهم فجروا معه في مراده في طول الأمل ، والإكثار من مواقعه الزلل والأماني من جميع الشهوات والعلل ، بعد أن زين لهم سوء العمل ، بتمكين الله له منهم ، وهذا لما علم سبحانه منهم حال الفطرة الأولى ﴿ وأملى لهم ﴾ أي أطال في ذلك ووسع بتكرار ذلك عليهم على تعاقب الملوين ومر الجديدين حتى نسوا المواعظ وأعرضوا عن الذكر هذا على قراءة الجماعة بفتح الهمزة واللام ، وأما على قراءة البصريين بضم الهمزة وكسر اللام فالمراد أن الله تعالى هو المملي – أي الممهل – لهم بإطالة العمر وإسباغ النعم ، وتسهيل الأماني والحلم ، عن المعاجلة بالنقم ، حتى اغتروا ، وهي أيضاً موافقة لقوله تعالى ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين ﴾ [القلم : 45] ، وأما في قراءة أبي عمرو بفتح الياء فهو فعل ماض مبني للمفعول ، ودل على أن المملي هو الله سبحانه وتعالى قراءة يعقوب بإسكان الياء على أنه مضارع همزته للمتكلم .

ولما بين تسليطه الشيطان عليهم ، بين سببه فقال : ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر البعيد من الخير وما دل عليه صريح العقل ﴿ بأنهم ﴾ أي بسبب أن هؤلاء المتولين ﴿ قالوا للذين كرهوا ما ﴾ أي جميع ما ﴿ نزل الله ﴾ أي الملك الأعظم على التدريج بحسب الوقائع تنزيلاً فيه إعجاز الخلق في بلاغة التركيب مع فصاحة المفردات وجزالتها مع السهولة في النطق والعذوبة في السمع والملاءمة للطبع كما يشهد به كل ذوق من الأغبياء والأذكياء على تباينهم في مراتب الغباوة والذكاء ، وإعجاز آخر لهم في رصانة المعنى وحكمته ، وثالث في مطابقته للحال الذي اقتضى نزوله مطابقة يعجز الخلق عن الإتيان بمثلها ، ورابع بنظمه مع ما نزل قبله من الآيات ، لا على ترتيب النزول ، بل على ما اقتضته الحكمة التي تتضاءل دونها الأفكار ، وتولى خاسئة من جلالتها على الأدبار ، بصائر أولي الأبصار ، وهؤلاء المقول لهم هذا الكلام هم – والله أعلم – المصارحون بالكفر ، قالوا لهم بعد هذه الأدلة من الإعجازات ، وما تقدمها من الآيات البينات الواضحات : ﴿ سنطيعكم ﴾ بوعد صادق لا خلق فيه ﴿ في بعض الأمر ﴾ وهو القتال في سبيل الله الذي تقدم أنهم عند نزول سورة يذكر بها يصيرون كالذي يغشى عليه من الموت ، فأنتم في أمان من أن نقاتلكم أبداً ،

فإنا إنما أسلمنا للأمان على دمائنا وأموالنا ، والذي نحبه مما ينزل هو التأمين لمن أقر بكلمة الإسلام والقناعة منه بالظاهر والوعد العام بالتبسط في البلاد والتوسعة في الأرزاق ونحو ذلك ، فكانوا بذلك كفرة فإن الدين لا يتجزأ ، فمن أضاع من أصوله شيئاً فقد أضاعه كله ، والتقييد بالبعض يفهم أنهم لا يطيعونهم في البعض الآخر ، وهو إظهار الإسلام والتصور بصورة المسالمة ، وذلك كله بأن الله تعالى جبلهم جبلة هيأهم فيها لمثل هذا ، فلما قالوه مضيعين لما من عليهم من غريزة العقل استحقوا في مجاري عاداتنا لاختيارهم طاعة العدو – مع تعييب علم العواقب عنهم – أن يخذلوا ويسلط عليهم

(62/709)

ليكون أخذهم في الظاهر ممن أطاعوه في الباطن ، ولو أنهم استمسكوا بدينهم وكانوا مع أهله يداً على من سواهم لم يقدر عليهم عدو ، ولا طرقتهم طارقة يكرهونها سوء .

ولما كان من له أدنى عقل لا يخون إلا إذا ظن أن خيانته تخفي ليأمن عاقبتها ، صور قباحة ما ارتكبوه فقال : ﴿ والله ﴾ أي قالوا ذلك والحال أن الملك الأعظم المحيط بكل شيء علماً وقدرة ﴿ يعلم ﴾ على مر الأوقات ﴿ إسرارهم ﴾ أي كلها هذا الذي أفشاه عليهم وغيره مما في ضمائرهم مما لم يبرز على ألسنتهم ، ولعلهم لم يعلموه هم فضلاً عن أقوالهم التي

تحدثت بها ألسنتهم فبان بذلك أنه لا أديان لهم ولا عقول ولا مروءات . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 170.172 ﴾

(63/709)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (25) ﴾

إشارة إلى أهل الكتاب الذين تبين لهم الحق في التوراة بنعت محمد صلى الله عليه وسلم وبعثه وارتدوا ، أو إلى كل من ظهرت له الدلائل وسمعها ولم يؤمن ، وهم جماعة منعهم حب الرياسة عن اتباع محمد عليه السلام وكانوا يعلمون أنه الحق ﴿ الشيطان سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ سهل لهم ﴿ وأملى لَهُمْ ﴾ يعني قالوا نعيش أياماً ثم نؤمن به ، وقرىء ﴿ وأملى لَهُمْ ﴾ فإن قيل الإملاء والإمهال وحد الآجال لا يكون إلا من الله ، فكيف يصح قراءة من قرأ ﴿ وأملى لَهُمْ ﴾ فإن المملي حينئذ يكون هو الشيطان نقول الجواب عنه من وجهين أحدهما : جاز أن يكون المراد ﴿ وأملى لَهُمْ ﴾ الله فيقف على ﴿ سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ وثانيها : هو أن المسول

أيضاً ليس هو الشيطان ، وإنما أسند إليه من حيث إن الله قدر على يده ولسانه ذلك ، فذلك الشيطان يمليهم ويقول لهم في آجالكم فسحة فتمتعوا برياستكم ثم في آخر الأمر تؤمنون ، وقرىء ﴿ وأملى لَهُمْ ﴾ بفتح الياء وضم الهمزة على البناء للمفعول .

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (26)

قال بعض المفسرين ذلك إشارة إلى الإملاء ، أي ذلك الإملاء بسبب أنهم قالوا للذين كرهوا وهو اختيار الواحدي ، وقال بعضهم ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى التسويل ، ويحتمل أن يقال ذلك الارتداد بسبب أنهم قالوا ﴿ سَنُطِيعُكُمْ ﴾ وذلك لأنا نبين أن قوله ﴿ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ الأمر ﴾ هو أنهم قالوا : نوافقكم على أن محمداً ليس بمرسل ، وإنما هو كاذب ، ولكن لا نوافقكم في إنكار الرسالة والحشر والإشراك بالله من الأصنام ، ومن لم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم فهو كافر ، وإن آمن بغيره .

(64/709)

لا بل من لم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لا يؤمن بالله ولا برسله ولا بالحشر ، لأن الله كما أخبر عن الحشر وهو جائز ، أخبر عن نبوّة محمد عليه الصلاة والسلام ، وهي جائزة

فإذا لم يصدق الله في شيء لا ينفي الكذب بقول الله في غيره ، فلا يكون مصدقاً موقناً بالحشر ، ولا برسالة أحد من الأنبياء ، لأن طريق معرفتهم واحد ، والمراد من الذين كرهوا ما نزل الله هم المشركون والمنافقون ، وقيل المراد اليهود ، فإن أهل مكة قالوا لهم : نوافقكم في إخراج محمد وقتله وقتال أصحابه ، والأول أصح ، لأن قوله ﴿ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ الله ﴾ لو كان مسنداً إلى أهل الكتاب لكان مخصوصاً ببعض ما أنزل الله ، وإن قلنا بأنه مسند إلى المشركين يكون عاماً ، لأنهم كرهوا ما نزل الله وكذبوا الرسل بأسرهم ، وأنكروا الرسالة رأساً ، وقوله ﴿ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ الأمر ﴾ يعني فيما يتعلق بمحمد من الإيمان به فلا نؤمن ، والتكذيب به فنكذبه كما تكذبونه والقتال معه ، وأما الإشراك بالله ، واتخاذ الأنداد له من الأصنام ، وإنكار الحشر والنبوة فلا ، وقوله ﴿ والله يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ قال أكثرهم : المراد منه هو أنهم قالوا ذلك سراً ، فأفشاه الله وأظهره لنبيه عليه الصلاة والسلام ، والأظهر أن يقال ﴿ والله يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ وهو ما في قلوبهم من العلم بصدق محمد عليه الصلاة والسلام ، فإنهم كانوا مكابرين معاندين ، وكانوا يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم ، وقرىء ﴿ إِسْرَارَهُمْ ﴾ بكسر الهمزة على المصدر (1) ، وما ذكرنا من المعنى ظاهر على هذه القراءة ، فإنهم كانوا يسرون نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، وعلى قولنا المراد من الذين ارتدوا المنافقون ، فكانوا يقولون للمجاهدين من الكفار ﴿ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ الأمر ﴾ وكانوا يسرون أنهم إن غلبوا انقلبوا ، كما قال الله

تعالى ﴿ ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم ﴾ [العنكبوت : 10] وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاء الخوف سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ [الأحزاب : 15] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 58.59 ﴾

---

(1) جرى المصنف في تفسيره على القراءة بفتح الهمزة ، ولذلك نبه على الثانية هنا وكأنها ليست مشهورة .

(65/709)

وقال القرطبى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ﴾

قال قتادة : هم كفار أهل الكتاب ، كفروا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم بعد ما عرفوا نعته عندهم ؛ قاله ابن جريج .

وقال ابن عباس والضحاك والسدي : هم المنافقون ، قعدوا عن القتال بعد ما علموه في القرآن .

﴿ الشيطان سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ أي زيّن لهم خطاياهم ؛ قاله الحسن .

﴿ وأملى لَهُمْ ﴾ أي مدّ لهم الشيطان في الأمل ووعدهم طول العمر ؛ عن الحسن أيضاً .

وقال : إن الذي أملى لهم في الأمل ومدّ في آجالهم هو الله عز وجل ؛ قاله الفرّاء والمفضل .

وقال الكَلْبيّ ومقاتل : إن معنى "أَمْلَى لَهُمْ" أمهلهم ؛ فعلى هذا يكون الله تعالى أمْلَى لهم بالإمهال في عذابهم .

وقرأ أبو عمرو وابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر وأبو جعفر وشيبة "وَأُمْلِي لَهُمْ" بضم الهمزة وكسر اللام وفتح الياء ؛ على ما لم يسمّ فاعله .

وكذلك قرأ ابن هُرْمُز ومجاهد والجَحْدرِي ويعقوب ، إلا أنهم سكّنوا الياء على وجه الخبر من الله تعالى عن نفسه أنه يفعل ذلك بهم ؛ كأنه قال : وأنا أملي لهم .

واختاره أبو حاتم ، قال : لأن فتح الهمزة يُوهم أن الشيطان يملي لهم ، وليس كذلك ؛ فلهذا عدل إلى الضم .

قال المهدويّ : ومن قرأ "وَأَمْلَى لَهُمْ" فالفاعل اسم الله تعالى .

وقيل الشيطان .

واختار أبو عبيد قراءة العامة ، قال : لأن المعنى معلوم ؛ لقوله : ﴿ لِّتُؤْمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ [الفتح : 9] ردّ التسبيح على اسم الله ، والتوقير والتعزير على اسم الرسول .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ ﴾ أي ذلك الإملاء لهم حتى يتمادَوْا في الكفر بأنهم قالوا ؛

يعني المنافقين واليهود .

﴿ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ اللّهُ ﴾ وهم المشركون .

(66/709)

﴿ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأمر ﴾ أي في مخالفة محمد والتظاهر على عداوته ، والقعود عن الجهاد معه وتوهين أمره في السر .

وهم إنما قالوا ذلك سرًّا فأخبر الله نبيّه .

وقراءة العامة "أَسْرَارَهُمْ" بفتح الهمزة جمع سِرّ ؛ وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم .

وقرأ الكوفيون وابن وثّاب والأعمش وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم "إِسْرَارَهُمْ" بكسر الهمزة على المصدر ؛ نحو قوله تعالى : ﴿ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً ﴾ [نوح : 9] جُمع لاْختلاف ضروب السر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(67/709)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ الذين ارتدوا على أدبارهم ﴾

أي رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر ، قال ابن عباس .

وغيره : نزلت في منافقين كانوا أسلموا ثم نافقت قلوبهم ، وفي إرشاد العقل السليم هم المنافقون الذين وصفوا فيما سلف بمرض القلوب وغيره من قبائح الأحوال فإنهم قد كفروا به عليه الصلاة والسلام ﴿ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهدى ﴾ بالدلائل الظاهرة والمعجزات الباهرة القاهرة .

وأخرج عبد الرزاق .

وجماعة عن قتادة أنه قال : هم أعداء الله تعالى أهل الكتاب يعرفون بعث النبي صلى الله عليه وسلم ويجدونه مكتوباً في التوراة والإنجيل ثم يكفرون به عليه الصلاة والسلام .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال : ﴿ إِنَّ الذين ارتدوا ﴾ الخ اليهود ارتدوا عن الهدى بعد أن عرفوا أن محمداً صلى الله عليه وسلم نبي ، والمختار ما تقدم ، وأياً ما كان فالموصول اسم أن وجملة قوله تعالى : ﴿ الشيطان سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ خبرها كقولك : إن زيداً عمرو مر به أي سهل لهم ركوب العظائم من السول بفتحتين وهو الاسترخاء استعير للتسهيل أي لعده سهلاً هيناً حتى لا يبالي به كأنه شبه بإرخاء ما كان مشدوداً ، وقيل : أي حملهم على الشهوات من السول وهو التمني ، وأصله حملهم على سؤلهم أي ما يشتهونه

ويتمنونه فالتفعيل للحمل على المصدر كغربه إذا حمله على الغربة إلا أنهم جعلوا المصدر بمعنى اسم المفعول ، ونقل ذلك عن ابن السكيت .

(68/709)

واعترض بأن السول بمعنى التمني من السؤال فهو مهموز والتسويل واوى ومعناه التزيين فلا مناسبة لا لفظاً ولا معنى فالقول باشتقاق سول منه خطأ ، ورد بأن السول من السؤال وله استعمالان فيكون مهموزاً وهو المعروف ومعتلاً يقال سال يسال كخاف يخاف وقالوا منه : يتساولان بالواو فيجوز كون التسويل من السول على هذه اللغة أو هو على المشهورة خفف بقلب الهمزة ثم التزم ، ونظيره تدير من الدار لاستمرار القلب في ديار وكذلك تحيز لاستمرار القلب في حيز ويكون مآل المعنى على هذا حملهم على الشهوات .

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ مبنياً للمفعول وخرج ذلك على تقدير مضاف أي كيد الشيطان سول لهم ، وجوز تقديره سول كيده لهم فحذف وقام الضمير المجرور مقامه فارتفع واستتر ، قيل : وهو أولى لأنه تقدير في وقت الحاجة ولا يخفى أن الأول أقل تكلفاً .

﴿ وأملى لَهُمْ ﴾ أي ومد لهم الشيطان في الأماني والآمال ، ومعنى المد فيها توسيعها

وجعلها ممدودة بنفسها أو بزمانها بأن يوسوس لهم بأنكم تنالون في الدنيا كذا وكذا مما لا أصل لهم حتى يعوقهم عن العمل ، وأصل الإملاء الإبقاء ملاوة من الدهر أي برهة ، ومنه قيل : المعنى وعدهم بالبقاء الطويل ، وجعل بعضهم فاعل ﴿ أملى ﴾ ضميره تعالى ، والمعنى أمهلهم ولم يعاجلهم بالعقوبة ؛ وفيه تفكيك لكن أيد بقراءة مجاهد .

وابن هرمز .

والأعمش وسلام .

ويعقوب ﴿ لَهُمْ وأملى ﴾ بهمزة المتكلم مضارع أملى فإن الفاعل حينئذٍ ضميره تعالى على الظاهر والأصل توافق القراءتين ، وجوز أن يكون ماضياً مجهولاً من المزيد سكن آخره للتخفيف كما قالوا في بقى بقى بسكون الياء .

وعلى الظاهر جوز أن تكون الواو للاستئناف وأن تكون للحال ويقدر مبتدأ بعدها أي وأنا أملى لئلا يكون شاذاً كقمت وأصك وجهه ، وجوزت الحالية في قراءة الجمهور أيضاً على جعل الفاعل ضميره تعالى فحينئذٍ تقدر قد على المشهور .

وقرأ ابن سيرين .

والجحدري .

وشيبة .

وأبو عمرو .

وعيسى ﴿ وأملى ﴾ بالبناء للمفعول فلهم نائب الفاعل أي أمهلوا ومد في أعمارهم ، وجوز أن يكون ضمير الشيطان والمعنى أمهل الشيطان لهم أي جعل من المنظرين إلى يوم القيامة لأجلهم ففيه بيان لاستمرار ضلالهم وتقبيح حالهم .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من ارتدادهم لا إلى الإملاء كما نقل عن الواحدي ولا إلى التسويل كما قيل لأن شيئاً منهما ليس مسبباً من القول الآتي ، وهو مبتدأ خبره قوله تعالى : ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ قَالُواْ ﴾ يعني المنافقين ﴿ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ الله ﴾ هم بنو قريظة .

والنضير من اليهود الكارهين لنزول القرآن على النبي عليه الصلاة والسلام مع علمهم بأنه من عند الله تعالى حسداً وطمعاً في نزوله على أحد منهم ﴿ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ الأمر ﴾ أي في بعض أموركم وأحوالكم وهو ما حكي عنهم في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين نافقوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ ﴾ [الحشر : 11] وقيل : في بعض ما تأمرون به كالتناصر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل : القائلون اليهود الكافرون به صلى الله عليه وسلم بعد ما وجدوا نعته الشريف في كتابهم والمقول لهم المنافقون كان اليهود يعدونهم النصرة إذا أعلنوا بعداوة

رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وقيل : القائلون أولئك اليهود والمقول لهم المشركون كانوا يعدونهم النصرة أيضاً إذا حاربوا .

(70/709)

وتعقب كلا القولين بأن كفر اليهود به عليه الصلاة والسلام ليس بسبب هذا القول ولو فرض صدوره عنهم على رأي القائل بل من حيث إنكارهم بعثه عليه الصلاة والسلام وقد عرفوه كما عرفوا أبناءهم وآباءهم ، ومنه يعلم ما في قول بعضهم : إن القائلين هم المنافقون واليهود والمقول لهم المشركون ، وما فسرنا به الآية الكريمة مروى عن الحبر رضي الله تعالى عنه ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ أي إخفاءهم ما يقولونه لليهود أو كل قبيح ويدخل ذلك دخولاً أولياً .

وقرأ الجمهور ﴿ إِسْرَارَهُمْ ﴾ بفتح الهمزة أي يعلم الأشياء التي يسرونها ومنها قولهم هذا الذي أظهره سبحانه لتفضيحهم ، وقال الإمام : الأظهر أن يقال المراد يعلم سبحانه ما في قلوبهم من العلم بصدق رسوله صلى الله عليه وسلم ، وفيه ما لا يخفى ، والجملة اعتراض مقرر لما قبله متضمن للوعيد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(71/709)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (25) ﴾

لم يزل الكلام على المنافقين فالذين ارتدوا على أدبارهم منافقون ، فيجوز أن يكون مراداً به قوم من أهل النفاق كانوا قد آمنوا حقا ثم رجعوا إلى الكفر لأنهم كانوا ضعفاء الإيمان قليلي الاطمئنان وهم الذين مثلهم الله في سورة البقرة (17) بقوله : ﴿ مَثَلهم كمثل الذين استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم ﴾ الآية .

والارتداد على الأدبار على هذا الوجه : تمثيل للراجع إلى الكفر بعد لإيمان بحال من سار ليصل إلى مكان ثم ارتد في طريقه .

ولما كان الارتداد سيراً إلى الجهة التي كانت وراء السائر جُعل الارتداد إلى الأدبار ، أي إلى جهة الأدبار .

وجيء بحرف على ﴾ للدلالة على أن الارتداد متمكن من جهة الأدبار كما يقال : على صراط مستقيم .

والهدى : الإيمان ، وتبيّن الهدى لهم على هذا الوجه تبيّن حقيقي لأنهم ما آمنوا إلا بعد أن تبين لهم هدى الإيمان .

وعلى هذا الوجه فالإتيان بالموصول والصلة ليس إظهاراً في مقام الإضمار لأن أصحاب هذه الصلة بعض الذين كان الحديث عنهم فيما تقدم .

ويجوز أن يكون مراداً به جميعُ المنافقين ، عبر عن تصميمهم على الكفر بعد مشاركتهم المسلمين في أحوالهم في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم والصلاة معه وسماعِ القرآن والمواعظ بالارتداد لأنه مفارقة لتلك الأحوال الطيبة ، أي رجعوا إلى أقوال الكفر وأعماله وذلك إذا خلوا إلى شياطينهم ، وتبين الهدى على هذا الوجه كونه بيّناً في نفسه ، وهو بيّن لهم لوضوح أدلته ولا غبار عليه ، فهذا التبين من قبيل قوله تعالى : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾ [البقرة : 2] ، أي ليس معه ما يوجب ريب المرتابين .

ويجوز أن يكون المراد به قوماً من المنافقين لم يقاتلوا مع المسلمين بعد أن علموا أن القتال حق .

(72/709)

وهذا قول ابن عباس والضحاك والسدّي ، وعليه فلعل المراد : الجماعة الذين انخزلوا يوم أُحُد مع عبد الله بن أُبَيّ بن سلول ، والارتداد على الأدْبار على هذا الوجه حقيقة لأنهم رجعوا عن موقع القتال بعد أن نزلوا به فرجعوا إلى المدينة وكانت المدينة خلفهم .

وهذا عندي أظهر الوجهين وأليق بقوله بعد ﴿ ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزّل الله سنطيعكم في بعض الأمر إلى قوله : ﴿ وأدبارهم ﴾ [محمد : 26 ، 27] .

والهدى على هذا الوجه هو الحقّ ، أي من بعد ما علموا أن الحق قتال المشركين .

وأوثر أن يكون خبر (إنَّ) جملة ليتأتَّى بالجملة اشتمالها على خصائص الابتداءِ باسم الشيطان للاهتمام به في غرض ذمهم ، وأن يسند إلى اسمه مُسند فعلي ليفيد تقوّي الحكم نحو : هو يعطي الجزيل .

والتسويل : تسهيل الأمر الذي يستشعر منه صعوبة أو ضر وتزيين ما ليس بحسن .

والإملاء : المدّ والتمديد في الزمان ، ويطلق على الإبقاء على الشيء كثيراً ، أي أراهم الارتداد حسناً دائماً كما حكى عنه في قوله تعالى : ﴿ قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخُلد ومُلك لا يبلى ﴾ [طه : 120] ، أي أن ارتدادهم من عمل الشيطان .

وقرأ الجمهور ﴿ وأملى لهم ﴾ بفتح الهمزة على صيغة المبني للفاعل .

وقرأه أبو عمرو بضم الهمزة وكسر اللام وفتح التحتية على صيغة المبني إلى المجهول .

وقرأه يعقوب بضم الهمزة وكسر اللام وسكون التحتية على أنه مسند إلى المتكلم فالضمير عائد إلى الله تعالى ، أي الشيطان سَوّل لهم وأنا أُملِي لهم فيكون الكلام وعيداً ، أي أنا أؤخرهم قليلاً ثم أعاقبهم .

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (26)

(73/709)

استئناف بياني إذ التقدير أن يسأل سائل عن مظهر تسويل الشيطان لهم الارتدادَ بعد أن تبين لهم الهدى ، فأجيب بأن الشيطان استدرجهم إلى الضلال عندما تبين لهم الهدى فسوّل لهم أن يوافقوا أهل الشرك والكفر في بعض الأمور مسولاً أن تلك الموافقة في بعض الأمر لا تنقض اهتداءهم فلما وافقوهم وجدوا حلاوة ما ألفوه من الكفر فيما وافقوا فيه أهل الكفر فأخذوا يعودون إلى الكفر المألوف حتى ارتدوا على أدبارهم .

وهذا شأن النفس في معاودة ما تحبه بعد الانقطاع عنه إن كان الانقطاع قريب العهد .

فمعنى ﴿ قالوا ﴾ : قالوا قولاً عن اعتقاد ورأي ، وإنما قالوا : ﴿ في بعض الأمر ﴾ احترازاً لأنفسهم إذا لم يطيعوا في بعض .

و﴿ الذين كرهوا ما نزّل الله ﴾ هم الذين كرهوا القرآن وكفروا ، وهم : إما المشركون من أهل مكة قال تعالى فيهم ﴿ ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم ﴾ [محمد : 9] وقد كانت لهم صلة بأهل يثرب فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة اشتد

تعهد أهل مكة لأصحابهم من أهل يثرب ليتطلعوا أحوال المسلمين ، ولعلهم بعد يوم بدر كانوا يكيدون للمسلمين ويتأهبون للثأر منهم الذي أنجزوه يوم أحد .

وإما اليهود من قريظة والنضير فقد حكى الله عنهم في قوله : ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ [الحشر : 11] .

فالمراد بـ ﴿ بعض الأمر ﴾ على الوجه الأول في محمل قوله : ﴿ إن الذين ارتدوا على أدبارهم ﴾ [محمد : 25] إفشاء بعض أحوال المسلمين إليهم وإشعارهم بوفرة عدد المنافقين وإن كانوا لا يقاتلون لكراهتهم القتال .

والمراد بـ ﴿ بعض الأمر ﴾ على الوجه الثاني بعض أمر القتال ، يعنون تلك المكيدة التي دبروها للانخزال عن جيش المسلمين .

(74/709)

والأمر هو : شأن الشرك وما يلائم أهله ، أي نطيعكم في بعض الكفر ولا نطيعكم في جميع الشؤون لأن ذلك يفضح نفاقهم ، أو المراد في بعض ما تأمروننا به من إطلاق المصدر وإرادة اسم المفعول كالخلق على المخلوق .

وأيًّا مَا كان فهمُ قالوا ذلك للمشركين سرّاً فاطلع الله عليه نبيئه صلى الله عليه وسلم ولذلك

قال تعالى : ﴿ والله يعلم أسرارهم ﴾ .

وقرأ الجمهور ﴿ أسرارهم ﴾ بفتح الهمزة جمع سرّ .

وقرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف بكسر الهمزة مصدر أسَرَّ . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(75/709)

قوله تعالى ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (27) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (28) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (29) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (30) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما بين تعالى إحاطة علمه بهم ، أتبعه إحاطة قدرته فقال تعالى مسبباً عن خيانتهم وهم في القبضة بما لا يخفى مما يريدون به صيانة أنفسهم عن القتل معبراً بالاستفهام تنبيهاً على أن حالهم مما يجازون به على هذا الاستحقاق له من البشاعة والقباحة والفظاعة ما يحق

السؤال عنه لأجله فقال : ﴿ فكيف ﴾ أي حالهم ﴿ إذا توفتهم الملائكة ﴾ أي قبضت رسلنا وهم ملك الموت وأعوانه أرواحهم كاملة ، فجازتها إلى دار الجزاء مقطوعة عن جميع أسبابهم وأنسابهم فلم ينفعهم تقاعدهم عن الجهاد في تأخير آجالهم ، وصور حالهم وقت توفيهم فقال : ﴿ يضربون ﴾ أي يتابعون في حال التوفية ضربهم ﴿ وجوههم ﴾ التي هي أشرف جوارحهم التي جبنوا عن الحرب صيانة لها عن ضرب الكفار .

ولما كان حالهم في جبنه مقتضياً لضرب الأقفاء ، صوره بأشنع صوره فقال :

﴿ وأدبارهم ﴾ التي ضربها أدل ما يكون على هوان المضروب وسفالته ثم تتصل بعد ذلك آلامهم وعذابه وهوانهم إلى ما لا آخر له .

(76/709)

ولما كان كفران النعيم يوجب مع إحلال النعم إبطال ما تقدم من الخدم قال : ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر العظيم الإهانة من فعل رسلنا بهم ﴿ بأنهم اتبعوا ﴾ أي عالجوا فطرهم الأولى في أن تبعوا عناداً منهم ﴿ ما أسخط الله ﴾ أي الملك الأعظم وهو العمل بمعاصيه من موالاة أعدائه ومناواة أوليائه وغير ذلك .

ولما كان فعل ما يسخط قد يكون مع الغفلة عن أنه يسخط ، بين أنهم ليسوا كذلك فقال

تعالى : ﴿ وكرهوا ﴾ أي بالإشراك ﴿ رضوانه ﴾ بكراهتهم أعظم أسباب رضاه وهو الإيمان ، فهم لما دونه بالقعود عن سائر الطاعات أكره ، لأن ذلك ظاهر غاية الظهور في أنه مسخط ففاعله مع ذلك غير معذور في ترك النظر فيه ﴿ فأحبط ﴾ أي فلذلك تسبب عنه أنه أفسد ﴿ أعمالهم ﴾ الصالحة فأسقطها بحيث لم يبق لها وزن أصلاً لتضييع الأساس من مكارم الأخلاق من قرى الضيف والأخذ بيد الضعيف والصدقة والإعتاق وغير ذلك من وجوه الإرفاق .

(77/709)

ولما صور سبحانه ما أثرته خيانتهم بأقبح صوره ، فبان به أنه ما حملهم على ما فعلوه إلا جهلهم وسفاهتهم ، فأنتج إهانتهم بالتبكيت فقال عاطفاً على ما تقديره : أعلموا حين قالوا ما يسخطنا أنا نعلم سرهم ونجواهم ، وإن قدرتنا محيطة بهم ليكونوا قد وطنوا أنفسهم على أنا نظهر للناس ما يكتمونه ونأخذهم أخذاً وبيلاً فيكونوا أجهل الجهلة : ﴿ أم ﴾ حسبوا لضعف عقولهم - بما أفهمه التعبير بالحسبان - هكذا كان الأصل ، ولكنه عبر بما دل على الآفة التي أدتهم إلى ذلك فقال تعالى : ﴿ حسب الذين في قلوبهم ﴾ التي إذا فسدت فسد جميع أجسادهم ﴿ مرض ﴾ أي آفة لا طب لها حسباناً هو في غاية الثبات

بما دل عليه التأكيد في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ أن لن يخرج الله ﴾ أي يبرز من هو محيط بصفات الكمال للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنين رضوان الله عليهم على سبيل التجديد والاستمرار ﴿ أضغانهم ﴾ أي ميلهم وما يبطنونه في دواخل أكشاحهم من اعوجاجهم الدال على أحقادهم ، وهي أنهم كاتمون عداوة في قلوبهم مصرون عليهم يترقبون الدوائر لانتهاز فرصتها ، ليس الأمر كما توهموا بل الله يفضحهم ويكشف تلبيسهم .

ولما علم من ذلك إحاطة علمه سبحانه وتعالى وشمول قدرته علم ما له سبحانه من باهر العظمة وقاهر العزة ، فنقل الكلام إلى أسلوبها تنبيهاً على ذلك عاطفاً على ما تقديره : خابت ظنونهم وفالت آراؤهم فلنخرجن ما يبالغون في ستره حتى لا ندع منه شيئاً يريدون إخفاءه إلا كشفناه وأبديناه للناس وأوضحناه ، فإنا نعلمهم ونعلم ذلك منهم من قبل أن نخلقهم ، فلو نشاء لفضحناهم حتى يعرفهم الناس أجمعون ، فلا يخفى منهم أحد على أحد منهم فقال تعالى : ﴿ ولو ﴾ ويجوز أن تكون واو للحال أي أم حسبوا ذلك والحال أنا لو ﴿ نشاء ﴾ أي وقعت منا مشيئة الآن أو قبله أو بعده .

(78/709)

ولما كانوا لشدة جهلهم لا يتصورون أن سرائرهم كلها معلومة مقدور على أن يعلمها بشر مثلهم ، أكد قوله : ﴿ لأريناكهم ﴾ أي رؤية تامة كاشفة لك الغطاء عنهم ﴿ فلعرفتهم ﴾ أي فتعقبت رؤيتك إياهم معرفتك لهم أنت بخصوصك ﴿ بسيماهم ﴾ أي بسبب علاماتهم التي نجعلها عالية عليهم غالبة لهم في إظهار ضمائرهم عليها لا يقدرون على مدافعتها بوجه ، ولم يذكرهم سبحانه بأسمائهم إبقاء على قراباتهم المخلصين من الفتن .

ولما انقضى ما علق بالمشيئة مما كان ممكناً له في الماضي وغيره ، عطف عليه ما يجزه له مما كشف من أمرهم في المستقبل فقال مؤكداً لاستبعاد من يستبعد ذلك منهم أو ممن شاركهم في مرض القلب من غيرهم فقال في جواب قسم محذوف دل عليه باللام : ﴿ ولتعرفنهم ﴾ أي بعد هذا الوقت معرفة تتجدد بحسب تجدد أقوالهم مستمرة باستمرار ضمائرهم الخبيثة وإسرارهم ﴿ في لحن القول ﴾ أي الصادر منهم ، ولحنه فحواه أي معناه ومذهبه وما يدل عليه ويلوح به من مثله عن حقائقه إلى عواقبه وما " يؤول إليه " أمره مما يخفى على غيرك ، وقال ابن برجان : هو ما تنحوا إليه بلسانك أي تميل إليه ليفطن لك صاحبك وتخفيه على من لم يكن له عهد بمرادك ، وعلى القول بالتحقيق فلحن القول ما يبدو من غرض الكلام وخفيات الخطاب وسياق اللفظ وهيئة السحنة حال القول وإن لم يرد المتكلم أن يظهره ولكنه على الأغلب يغلبه حالاً ، فلا يقدر على كل كتمه وإن كان في تكليمه معتمداً على ذلك ، وحقيقته حال يلوح عن السر وإظهار كلام الباطن يكاد يناقض كلام

اللسان بحال خفية ومعان يقف عليها باطن التخاطب وقال :

ولقد لحنت لكم لكيما تفقهوا . . .

واللحن يعرفه ذوو الألباب

وقال آخر :

عيناك قد دلتا عيناي منك على . . .

أشياء لولاهما ما كنت أدريها

(79/709)

وقال أبو حيان : كانوا اصطلحوا على الفاظ يخاطبون بها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مما ظاهره حسن ويعنون به القبيح ، وقال الأصبهاني : وقيل للمخطىء : لاحن لأنه يعدل بالكلام عن الصواب : وقال البغوي : للحن وجهان : صواب وخطأ ، فالفعل من الصواب لحن يلحن لحناً فهو لحن – إذا فطن للشيء ، والفعل من الخطأ لحن يلحن لحناً فهو لاحن ، والأصل فيه إزالة الكلام عن جهته ، قال : فكان بعد هذا لا يتكلم منافق عند النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا عرفه ، وقال الثعلبي : وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ : ما خفي على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد نزول هذه الآية شيء من المنافقين ، كان يعرفهم

بسيماهم ، ولقد كنا في غزوة وفيها سبعة من المنافقين يشكرهم الناس فناموا ذات ليلة وأصبحوا على جبهة كل واحد منهم مكتوب " هذا منافق " ومثل ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ م بقوله : " ما لنا إن أطعنا من الثواب " قال : ولا يقولون : ما لنا إن عصينا من العقاب . ولما أخبر سبحانه أنه يعلم ظواهرهم وبواطنهم ، وأنه يجليهم لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في صور ما يخفونه من أقوالهم ، وأكد ذلك لعلمه بشكهم فيه ، واجههم بالتبكيت زيادة في إهانتهم عاماً لغيرهم إعلاماً بأنه محيط بالكل فقال عاطفاً على ما تقديره : فالله يعلم أقولكم : ﴿ والله ﴾ أي مما له من صفات الكمال ﴿ يعلم أعمالكم ﴾ كلها الفعلية والقولية جليها وخفيها ، علماً ثابتاً غيبياً وعلماً راسخاً شهودياً يتجدد بحسب تجددها مستمراً باستمرار ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 172 . 175 ﴾

(80/709)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (27) ﴾

اعلم أنه لما قال الله تعالى : ﴿ والله يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ [محمد : 26] قال فهب أنهم

يسرون والله لا يظهره اليوم فكيف يبقى مخفياً وقت وفاتهم ، أو نقول كأنه تعالى قال : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ وهب أنهم يختارون القتال لما فيه الضراب والطعان ، مع أنه مفيد على الوجهين جميعاً ، إن غلبوا فالمال في الحال والثواب في المآل ، وإن غلبوا فالشهادة والسعادة ، فكيف حالهم إذا ضرب وجوههم وأدبارهم ، وعلى هذا فيه لطيفة ، وهي أن القتال في الحال إن أقدم المبارزة فربما يهزم الخصم ويسلم وجهه وقفاه ، وإن لم يهزمه فالضرب على وجهه إن صبر وثبت وإن لم يثبت وانهزم ، فإن فات القرن فقد سلم وجهه وقفاه وإن لم يفته فالضرب على قفاه لا غير ، ويوم الوفاة لا نصرة له ولا مفر ، فوجهه وظهره مضروب مطعون ، فكيف يحترز عن الأذى ويختار العذاب الأكبر .

ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (28)

(81/709)

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتبعوا مَا أَسْخَطَ الله وَكَرِهُواْ رِضْوَانَهُ ﴾ وفيه لطيفة ، وهي أن الله تعالى ذكر أمرين : ضرب الوجه ، وضرب الأدبار ، وذكر بعدهما أمرين آخرين : اتباع ما أسخط الله وكراهة رضوانه ، فكأنه تعالى قابل الأمرين فقال : يضربون وجوههم حيث أقبلوا على سخط الله ، فإن المتسع للشيء متوجه إليه ، ويضربون أدبارهم لأنهم تولوا عما

فيه رضا الله ، فإن الكاره للشيء يتولى عنه ، وما أسخط الله يحتمل وجوهاً الأول : إنكار الرسول عليه الصلاة والسلام ورضوانه الإقرار به والإسلام الثاني : الكفر هو ما أسخط الله والإيمان يرضيه يدل عليه قوله تعالى : ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلاَ يَرضَى لِعِبَادِهِ الكفر وَإِن تَشْكُرُواْ يَرضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر : 7] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ البرية ﴾ إلى أن قال : ﴿ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ [البينة : 7 ، 8] الثالث : ما أسخط الله تسويل الشيطان ، ورضوان الله التعويل على البرهان والقرآن ، فإن قيل هم ما كانوا يكرهون رضوان الله ، بل كانوا يقولون : إن ما نحن عليه فيه رضوان الله ، ولا نطلب إلا رضاء الله ، وكيف لا والمشركون بإشراكهم كانوا يقولون : إنا نطلب رضاء الله .

كما قالوا ﴿ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر : 3] وقالوا ﴿ فَيَشْفَعُواْ لَنَا ﴾ [الأعراف : 53] فنقول معناه كرهوا ما فيه رضاء الله تعالى .

(82/709)

وفيه لطيفة وهي أن الله تعالى قال : ﴿ مَا أَسْخَطَ اللهَ ﴾ ولم يقل : ما أرضى الله (1) وذلك لأن رحمة الله سابقة ، فله رحمة ثابتة وهي منشأ الرضوان ، وغضب الله متأخر فهو

يكون على ذنب ، فقال : ﴿ رِضْوَانَهُ ﴾ لأنه وصف ثابت لله سابق ، ولم يقل سخط الله ، بل ﴿ مَا أَسْخَطَ اللهَ ﴾ إشارة إلى أن السخط ليس ثبوته كثبوت الرضوان ، ولهذا المعنى قال في اللعان في حق المرأة ﴿ والخامسة أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصادقين ﴾ [النور : 9] يقال : غضب الله مضافاً لأن لعانه قد سبق مظهر الزنا بقوله وأيمانه ، وقبله لم يكن لله غضب ، و رضوان الله أمر يكون منه الفعل ، وغضب الله أمر يكون من فعله ، ولنضرب له مثالاً : الكريم الذي رسخ الكرم في نفسه يحمله الكرم على الأفعال الحسنة ، فإذا كثر من السيء الإساءة فغضبه لا لأمر يعود إليه ، بل غضبه عليه يكون لإصلاح حالة ، وزجراً لأمثاله عن مثل فعاله ، فيقال هو كان الكريم فكرمه لما فيه من الغريزة الحسنة ، لكن فلاناً أغضبه وظهر منه الغضب ، فيجعل الغضب ظاهراً من الفعل ، والفعل الحسن ظاهراً من الكرم ، فالغضب في الكريم بعد فعل ، والفعل منه بعد كرم ، ومن هذا يعرف لطف قوله ﴿ مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَانَهُ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ فَأَحْبَطَ أعمالهم ﴾ حيث لم يطلبوا إرضاء الله ، وإنما طلبوا إرضاء الشيطان والأصنام .

---

(1) يعني أنه تعالى قال : وَكَرِهُوا رِضْوانَهُ ولم يقل : وكرهوا ما أرضى اللّه ، وليس في مقابلة قوله ما أَسْخَطَ اللَّهَ كما هو المتبادر من قول المفسر .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ الله أضغانهم ﴾ .

هذا إشارة إلى المنافقين و ﴿ أَمْ ﴾ تستدعي جملة أخرى استفهامية إذا كانت للاستفهام ، لأن كلمة ﴿ أَمْ ﴾ إذا كانت متصلة استفهامية تستدعي سبق جملة أخرى استفهامية ، يقال أزيد في الدار أم عمرو ، وإذا كانت منقطعة لا تستدعي ذلك ، يقال إن هذا لزيد أم عمرو ، وكما يقال بل عمرو ، والمفسرون على أنها منقطعة ، ويحتمل أن يقال إنها استفهامية ، والسابق مفهوم من قوله تعالى : ﴿ والله يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ فكأنه تعالى قال : أحسب الذين كفروا أن لن يعلم الله إسرارهم أم حسب المنافقون أن لن يظهرها والكل قاصر ، وإنما يعلمها ويظهرها ، ويؤيد هذا أن المنقطعة لا تكاد تقع في صدر الكلام فلا يقال ابتداء ، بل جاء زيد ، ولا أم جاء عمرو ، والإخراج بمعنى الإظهار فإنه إبراز ، والأضغان هي الحقود والأمراض ، واحدها ضغن .

وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (30)

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لأريناكهم فَلَعَرَفْتَهُم بسيماهم وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القول والله يَعْلَمُ أعمالكم ﴾ .

لما كان مفهوم قوله ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ الله أضغانهم ﴾ [محمد : 29] أن الله يظهر ضمائرهم ويبرز سرائرهم كأن قائلاً قال فلم لم يظهر فقال أخرناه لمحض المشيئة لا لخوف منهم ، كما لا تفشى أسرار الأكابر خوفاً منهم ﴿ وَلَوْ نَشَاء لأريناكهم ﴾ أي لا مانع لنا والإراءة بمعنى التعريف ، وقوله ﴿ فلتعرفنهم ﴾ لزيادة فائدة ، وهي أن التعريف قد يطلق ولا يلزمه المعرفة ، يقال عرفته ولم يعرف وفهمته ولم يفهم فقال ههنا ﴿ فَلَعَرَفْتَهُم ﴾ يعني عرفناهم تعريفاً تعرفهم به ، إشارة إلى قوة التعريف ، واللام في قوله ﴿ فَلَعَرَفْتَهُم ﴾ هي التي تقع في جزاء لو كما في قوله ﴿ لأريناكهم ﴾ أدخلت على المعرفة إشارة إلى أن المعرفة كالمرتبة على المشيئة كأنه قال : ولو نشاء لعرفتهم ، ليفهم أن المعرفة غير متأخرة عن التعريف فتفيد تأكيد التعريف ، أي لو نشاء لعرفناك تعريفاً معه المعرفة لا بعده ، وأما اللام في قوله تعالى : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ ﴾ جواب لقسم محذوف كأنه قال ولتعرفنهم والله ، وقوله ﴿ فِي لَحْنِ القول ﴾ فيه وجوه أحدها : في معنى القول وعلى هذا فيحتمل أن يكون المراد من القول قولهم أي لتعرفنهم في معنى قولهم حيث يقولون ما معناه النفاق كقولهم حين مجيء النصر إنا كنا معكم ، وقولهم ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى المدينة لَيُخْرِجَنَّ ﴾ [

المنافقون : 8] وقولهم ﴿ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ [الأحزاب : 13] وغير ذلك ، ويحتمل أن يكون المراد قول الله عزّ وجل أي لتعرفنهم في معنى قول الله تعالى حيث قال ما تعلم منه حال المنافقين كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون الذين ءَامَنُواْ بالله وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُ على أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ ﴾ [النور : 62] وقوله ﴿ إِنَّمَا المؤمنون الذين إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال : 2] إلى غير ذلك ، وثانيها : في ميل القول عن الصواب حيث

(85/709)

قالوا ما لم يعتقدوا ، فأمالوا كلامهم حيث قالوا ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله والله يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ والله يَشْهَدُ إِنَّ المنافقين لكاذبون ﴾ [المنافقون : 1] وقالوا ﴿ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ﴾ [الأحزاب : 13] ، ﴿ وَلَقَدْ كَانُواْ عاهدوا الله مِن قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأدبار ﴾ [الأحزاب : 15] إلى غير ذلك وثالثها : في لحن القول أي في الوجه الخفي من القول الذي يفهمه النبي عليه السلام ولا يفهمه غيره ، وهذا يحتمل أمرين أيضاً والنبي عليه السلام كان يعرف المنافق ولم يكن يظهر أمره إلى أن أذن الله تعالى له في إظهار أمرهم ومنع من الصلاة على جنائزهم والقيام على قبورهم ، وأما قوله ﴿ بسيماهم ﴾ فالظاهر أن المراد أن الله تعالى لو شاء لجعل على وجوههم علامة أو يمسخهم كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاء

لمسخناهم ﴾ [ياس : 67] وروي أن جماعة منهم أصبحوا وعلى جباههم مكتوب هذا منافق ، وقوله تعالى : ﴿ والله يَعْلَمُ أعمالكم ﴾ وعد للمؤمنين ، وبيان لكون حالهم على خلاف حال المنافق ، فإن المنافق كان له قول بلا عمل ، والمؤمن كان له عمل ولا يقول به ، وإنما قوله التسبيح ويدل عليه قوله تعالى :

﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : 286] وقوله ﴿ رَبَّنَا فاغفر لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سيئاتنا ﴾ [آل عمران : 193] وكانوا يعملون الصالحات ويتكلمون في السيئات مستغفرين مشفقين ، والمنافق كان يتكلم في الصالحات كقوله ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ [البقرة : 14] ﴿ قَالَتِ الأعراب ءَامَنَّا ﴾ [الحجرات : 14] ، ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَقُولُ ءَامَنَّا ﴾ [البقرة : 8] ويعمل السيء فقال تعالى الله يسمع أقوالهم الفارغة ويعلم أعمالكم الصالحة فلا يضيع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 59 . 61 ﴾

(86/709)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾

هذا ابتداء وصف حال المؤمنين في جدهم في دين الله وحرصهم على ظهوره وحال

المنافقين من الكسل والفشل والحرص على فساد دين الله وأهله ، وذلك أن المؤمنين كان حرصهم يبعثهم على تمني الظهور وتمني قتال العدو وفضيحة المنافقين ونحو ذلك مما هو ظهور للإسلام ، فكانوا يأنسون بالوحي ويستوحشون إذا أبطأ ، والله تعالى قد جعل ذلك بآماد مضروبة وأوقات لا تتعدى ، فمدح الله المؤمنين بحرصهم . وقولهم : ﴿ لولا نزلت سورة ﴾ معناه : تتضمن إظهارنا وأمرنا بمجاهدة العدو ونحوه . ثم أخبر تعالى عن حال المنافقين عند نزول أمر القتال .

وقوله : ﴿ محكمة ﴾ معناه : لا يقع فيها نسخ ، وبهذا الوجه خصص السورة بالأحكام ، وأما الإحكام الذي هو بمعنى الإتقان ، فالقرآن فيه كله سواء . وقال قتادة : كل سورة فيها القتال فهي محكمة ، وهو أشد القرآن على المنافقين .

قال القاضي أبو محمد : وهذا أمر استقرأه قتادة من القرآن ، وليس من تفسير هذه الآية في شيء .

وفي مصحف ابن مسعود : " سورة محدثة " . والمرض الذي في القلوب : استعارة لفساد المعتقد وحقيقة الصحة والمرض في الأجسام ، وتستعار للمعاني ، ونظر الخائف المولّه قريب من نظر ﴿ المغشي عليه ﴾ ، وخسسهم هذا الوصف والتشبيه .

وقوله تعالى : ﴿ فأولى لهم ﴾ الآية ، " أولى " : وزنه أفعل ، من وليك الشيء يليك .

وقالت فرقة وزنه : أفلع ، وفيه قلب ، لأنه مشتق من الويل ، والمشهور من استعمال " أولى " : أنك تقول : هذا أولى بك من هذا ، أي أحق ، وقد تستعمل " أولى " فقط على جهة الحذف والاختصار لما معها من القول ، فتقول على جهة الزجر والتوعد : أولى لك يا فلان ، وهذه الآية من هذا الباب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أولى لك فأولى ﴾ [القيامة : 34-35] ، ومنه قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه للحسن : أولى لك . وقالت فرقة من المفسرين : " أولى " رفع بالابتداء . و: ﴿ طاعة ﴾ خبره .

وقالت فرقة من المفسرين : ﴿ أولى لهم ﴾ ابتداء وخبر ، معناه : الزجر والتوعد . ثم اختلفت هذه الفرقة في معنى قوله : ﴿ طاعة وقول معروف ﴾ فقال بعضها ، التقدير : ﴿ طاعة وقول معروف ﴾ أمثل ، وهذا هو تأويل مجاهد ومذهب الخليل وسيبويه ، وحسن الابتداء بالنكرة لأنها مخصصة ، ففيها بعض التعريف . وقال بعضها التقدير : الأمر ﴿ طاعة وقول معروف ﴾ ، أي الأمر المرضي لله تعالى . وقال بعضها التقدير قولهم لك يا محمد على جهة الهزء والخديعة ﴿ طاعة وقول معروف ﴾ فإذا عزم الأمر كرهوه ، ونحو هذا من التقدير قاله قتادة . وقال أيضاً ما معناه : إن تمام الكلام الذي معناه الزجر والتوعد ب " أولى " . وقوله ﴿ لهم ﴾ ابتداء كلام ، ف ﴿ طاعة ﴾ على هذا القول : ابتداء ،

وخبره : ﴿ لهم ﴾ والمعنى أن ذلك منهم على جهة الخديعة ، فإذا عزم الأمر ناقضوا وتعاصوا .

وقوله : ﴿ عزم الأمر ﴾ استعارة كما قال :

قد جدت الحرب بكم فجدوا . . . ومن هذا الباب : نام ليلك ونحوه .

وقوله : ﴿ صدقوا الله ﴾ يحتمل أن يكون من الصدق الذي هو ضد الكذب ، ويحتمل أن يكون من قولك عود صدق ، والمعنى متقارب .

وقوله تعالى : ﴿ فهل عسيتم ﴾ مخاطبة لهؤلاء ﴿ الذين في قلوبهم مرض ﴾ أي قل لهم يا محمد .

(88/709)

وقرأ نافع وأهل المدينة " عسِيتم " بكسر السين . وقرأ أبو عمرو والحسن وعاصم وأبو جعفر وشيبة : " عسَيتم " بفتح السين ، والفتح أفصح ، لأنه من عسى التي تصحبها " أن " . والمعنى : فهل عسى أن تفعلوا ﴿ إن توليتم ﴾ غير ﴿ أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾ ، وكأن الاستفهام الداخل على عسى غير معناها بعض التغيير كما يغير الاستفهام قولك : أو لو كان كذا وكذا . وقوله : ﴿ إن توليتم ﴾ معناه : إن أعرضتم عن

الحق . وقال قتادة : كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله ألم يسفكوا الدم الحرام وقطعوا الأرحام وعصوا الرحمن .

وقرأ جمهور القراء : " إن توليتم " والمعنى : إن أعرضتم عن الإسلام . وقال كعب الأحبار ومحمد بن كعب القرظي المعنى : إن توليتم أمور الناس من الولاية ، وعلى هذا قيل إنها نزلت في بني هاشم وبني أمية ، ذكره الثعلبي . وروى عبد الله بن مغفل عن النبي عليه السلام : " إن وُليتم " بواو مضمومة ولام مكسورة . قرأ علي بن أبي طالب : " إن تُوُلِّيتم " بضم التاء والواو وكسر اللام المشددة على معنى : إن وليتكم ولاية الجور فملتم إلى دنياهم دون إمام العدل ، أو على معنى : إن توليتم بالتعذيب والتنكيل وأفعال العرب في جاهليتها وسيرتها من الغارات والسباء ، فإنما كانت ثمرتها الإفساد في الأرض وقطيعة الرحم ، وقيل معناها : إن توليكم الناس ووكلكم الله إليهم .

وقرأ جمهور الناس : " وتُقطِّعوا " بضم التاء وشد الطاء المكسورة . وقرأ أبو عمرو : " وتَقطَعوا " بفتح التاء والطاء المخففة ، وهي قراءة سلام ويعقوب .

وقوله تعالى : ﴿ أولئك الذين لعنهم الله ﴾ إشارة إلى مرضى القلوب المذكورين . و: ﴿ لعنهم ﴾ معناه : أبعدهم . وقوله : ﴿ فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾ استعارة لعدم سمعهم فكأنهم عمي وصم .

قوله تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ توقيف وتوبيخ ، وتدبر القرآن : زعيم بالتبيين والهدى . و: ﴿ أم ﴾ منقطعة وهي المقدرة ببل وألف الاستفهام .

(89/709)

وقوله تعالى : ﴿ أم على قلوب أقفالها ﴾ استعارة للرين الذي منعهم الإيمان . وروي أن وفد اليمن وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وفيهم شاب ، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ، فقال الفتى عليها أقفالها حتى يفتحها الله ويفرجها ، قال عمر : فعظم في عيني ، فما زالت في نفس عمر رضي الله عنه حتى ولي الخلافة فاستعان بذلك الفتى .

وقوله تعالى : ﴿ إن الذين ارتدوا على أدبارهم ﴾ الآية ، قال قتادة : إنها نزلت في قوم من اليهود كانوا قد عرفوا من التوراة أمر محمد عليه السلام وتبين لهم الهدى بهذا الوجه ، فلما باشروا أمره حسدوه فارتدوا عن ذلك القدر من الهدى . وقال ابن عباس وغيره : نزلت في منافقين كانوا أسلموا ثم نافقت قلوبهم . والآية تعم كل من دخل في ضمن لفظها غابر الدهر . و: ﴿ سول ﴾ معناه : أرجاهم سولهم وأمانيهم ، وقال أبو الفتح عن أبي علي أنه بمعنى : دلاهم ، مأخوذ من السول : وهو الاسترخاء والتدلي .

وقرأ جمهور القراء : " وأملى لهم " وأمال ابن كثير وشبل وابن مصرف : " أملى " . وفاعل ﴿ أملى ﴾ هنا : قال الحسن : هو ﴿ الشيطان ﴾ جعل وعده الكاذب بالبقاء كالإملاء ، وذلك أن الإملاء هو الإبقاء ملاوة من الدهر ، يقال مُلاوة ومَلاوة ومِلاوة بضم الميم وفتحها وكسرها ، وهي القطعة من الزمن ، ومنه الملوان الليل والنهار ، فإذا أملى الشيطان إملاء لا صحة له إلا بطمعهم الكاذب ، ويحتمل أن يكون الفاعل في ﴿ أملى ﴾ الله عز وجل ، كأنه قال : الشيطان سول لهم وأملى الله لهم . وحقيقة الإملاء إنما هو بيد الله عز وجل ، وهذا هو الأرجح . وقرأ الأعرج ومجاهد والجحدري والأعمش : " وأُمِلي لهم " بضم الهمزة وكسر اللام وإرسال ياء المتكلم ، ورواها الخفاف عن أبي عمرو " وأُمليَ " بفتح الياء على بناء الفعل للمفعول ، وهي قراءة شيبة وابن سيرين والجحدري وعيسى البصري وعيسى الهمذاني ، وهذا يحتمل فاعله من الخلاف ما في القراءة الأولى .

(90/709)

وقوله تعالى : ﴿ ذلك بأنهم قالوا ﴾ الآية ، قيل إنها نزلت في بني إسرائيل الذين تقدم ذكرهم في تفسير قوله : ﴿ إن الذين ارتدوا ﴾ وروي أن قوماً من قريظة والنضير كانوا يعدون المنافقين في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلاف عليه بنصر وموازرة ،

وذلك قولهم ﴿ سنطيعكم في بعض الأمر ﴾ .

وقرأ جمهور القراء " أَسرارهم " بفتح الهمزة ، وذلك على جمع سر ، لأن أسرارهم كانت كثيرة . وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم " إسرارهم " بكسر الهمزة ، وهي قراءة ابن وثاب وطلحة والأعمش ، وهو مصدر اسم الجنس .

وقوله تعالى : ﴿ فكيف إذا توفتهم ﴾ الآية ، يحتمل أن يتوعدوا به على معنيين : أحدهما هذا هلعهم وجزعهم لفرض القتال وفراع الأعداء ، ﴿ فكيف ﴾ فزعهم وجزعهم ﴿ إذا توفتهم الملائكة ﴾ ؟ والثاني أن يريد : هذه معاصيهم وعنادهم وكفرهم ، ﴿ فكيف ﴾ تكون حالهم مع الله ﴿ إذا توفتهم الملائكة ﴾ ؟ وقال الطبري : المعنى ﴿ والله يعلم أسرارهم فكيف ﴾ علمه بها ﴿ إذا توفتهم الملائكة ﴾ . و ﴿ الملائكة ﴾ هنا : ملك الموت والمصرفون معه . والضمير في : ﴿ يضربون ﴾ ل ﴿ الملائكة ﴾ ، وفي نحو هذا أحاديث تقتضي صفة الحال ومن قال إن الضمير في : ﴿ يضربون ﴾ للكفار الذين يتوفون ، فذلك ضعيف . و: ﴿ ما أسخط الله ﴾ هو الكفر . والرضوان هنا : الشرع والحق المؤدي إلى رضوان ، وقد تقدم القول في تفسير قوله : ﴿ أحبط أعمالهم ﴾ .

وقرأ الأعمش : " فكيف إذا توفاهم الملائكة " .

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (29)

هذه الآية توبيخ للمنافقين وفضح لهم .

وقوله : ﴿ أم حسب ﴾ توقيف وهي ﴿ أم ﴾ المنقطعة ، وتقدم تفسير مرض القلب .

وقوله : ﴿ أن لن يخرج الله أضغانهم ﴾ أي يبديها من مكانها في نفوسهم . والضغن : الحقد . وقوله تعالى : ﴿ ولو نشاء لأريناكم ﴾ مقاربة في شهرتهم ، ولكنه تعالى لم يعينهم قط بالأسماء والتعريف التام إبقاء عليهم وعلى قرابتهم ، وإن كانوا قد عرفوا ب ﴿ لحن القول ﴾ وكانوا في الاشتهار على مراتب كعبد الله بن أبيّ والجد بن قيس وغيرهم ممن دونهم في الشهرة . والسيما : العلامة التي كان تعالى يجعل لهم لو أراد التعريف التام بهم . وقال ابن عباس والضحاك : إن الله تعالى قد عرفه بهم في سورة براءة . في قوله : ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ﴾ [التوبة : 84] وفي قوله : ﴿ قل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً ﴾ [التوبة : 83] .

قال القاضي أبو محمد : وهذا في الحقيقة ليس بتعريف تام ، بل هو لفظ يشير إليهم على الإجمال لا أنه سمى أحداً . وأعظم ما روي في اشتهارهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر يوماً فأخرجت منهم جماعة من المسجد كأنه وسمهم بهذا لكنهم أقاموا على التبري من ذلك وتمسكوا بلا إله إلا الله فحقنت دماؤهم . وروي عن حذيفة ما يقتضي أن النبي عليه السلام عرفه بهم أو ببعضهم ، وله في ذلك كلام مع عمر رضي الله عنه . ثم أخبر تعالى أنه سيعرفهم ﴿ في لحن القول ﴾ ، ومعناه في مذهب القول ومنحاه ومقصده ، وهذا هو كما يقول لك إنسان معتقده وتفهم أنت من مقاطع كلامه وهيئته وقرائن أمره أنه على خلاف ما يقول ، وهذا معنى قوله : ﴿ في لحن القول ﴾ ومن هذا المعنى قول النبي عليه السلام : " فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض " الحديث أي أذهب بها في جهات الكلام ، وقد يكون هذا اللحن متفقاً عليه : أن يقول الإنسان قولاً يفهم السامعون منه معنى ، ويفهم الذي اتفق مع المتكلم معنى آخر ، ومنه الحديث الذي قال سعد بن معاذ وابن رواحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : عضل والقارة وفي هذا المعنى قول الشاعر [مالك بن أسماء] : [الخفيف]

وخير الحديث ما كان لحنا . . . أي ما فهمه عنك صاحبك وخفي على غيره ، فأخبر الله محمداً رسوله عليه السلام أن أقوالهم المحرفة التي هي على خلاف عقدهم ستتبين له فيعرفهم بها ، واحتج بهذه الآية من جعل في التعريض بالقذف .

وقوله تعالى : ﴿ والله يعلم أعمالكم ﴾ مخاطبة للجميع من مؤمن وكافر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(93/709)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ ﴾ أي فكيف تكون حالهم .

﴿ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الملائكة يَضْرِبُونَ ﴾ أي ضاربين ؛ فهو في موضع الحال .

ومعنى الكلام التخويف والتهديد ؛ أي إن تأخر عنهم العذاب فإلى انقضاء العمر .

وقد مضى في "الأنفال والنحل" .

وقال ابن عباس : لا يتوفى أحد على معصية إلا بضرب شديد لوجهه وقفاه .

وقيل : ذلك عند القتال نُصْرَةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، بضرب الملائكة وجوههم عند الطلب وأدبارهم عند الهرب .

وقيل : ذلك في القيامة عند سَوْقهم إلى النار .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي ذلك جزاؤهم .

﴿ بِأَنَّهُمُ اتبعوا مَآ أَسْخَطَ الله ﴾ قال ابن عباس : هو كتمانهم ما في التوراة من نعت محمد

صلى الله عليه وسلم .

وإن حُملت على المنافقين فهو إشارة إلى ما أضمروا عليه من الكفر .

﴿ وَكَرِهُواْ رِضْوَانَهُ ﴾ يعني الإيمان .

﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي ما عملوه من صدقة وصلة رحم وغير ذلك ؛ على ما تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ نفاق وشك ، يعني المنافقين .

﴿ أَن لَّن يُخْرِجَ الله أَضْغَانَهُمْ ﴾ الأضغان ما يُضمر من المكروه .

واختلف في معناه ؛ فقال السدّي : غِشّهم .

وقال ابن عباس : حسدهم .

وقال قُطْرُب : عدوانهم ؛ وأنشد قول الشاعر :

قل لابْن هند ما أردت بمنطق . . .

ساء الصديق وشيّد الأضغانا

وقيل : أحقادهم .

واحدها ضِغن .

قال :

وذي ضغن كففت النفس عنه . . .

وقد تقدم .

وقال عمرو بن كلثوم :

وإن الضغن بعد الضغن يفشو . . .

عليك ويُخرج الداء الدفينا

قال الجوهريّ : الضغن والضغينة : الحقد .

وقد ضغِن عليه (بالكسر) ضِغناً .

وتضاغن القومُ واضطغنوا : أبطنوا على الأحقاد .

واضطغنت الصبيَّ إذا أخذته تحت حضنك .

وأنشد الأحمر :

كأنّه مُضْطَغِنٌ صبيّا . . .

أي حامله في حجره .

وقال ابن مُقْبل :

إذا اضطغنتُ سلاحي عند مَغْرِضها . . .

ومِرفقٍ كرِئاس السيف إذ شَسَفَا

(94/709)

وفرس ضاغن : لا يعطي ما عنده من الجري إلا بالضرب .

والمعنى : أم حسبوا أن لن يظهر الله عداوتهم وحقدهم لأهل الإسلام .

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ ﴾ أي لعرّفناكهم .

قال ابن عباس : وقد عرّفه إياهم في سورة "براءة" .

تقول العرب : سأريك ما أصنع ؛ أي سأعلمك ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ بِمَآ أَرَاكَ اللهُ ﴾ [النساء : 105] أي بما أعلمك .

﴿ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ﴾ أي بعلاماتهم .

قال أنس : ما خفي على النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية أحد من المنافقين ؛ كان يعرفهم بسيماهم .

وقد كنا في غزاة وفيها سبعة من المنافقين يشك فيهم الناس ، فأصبحوا ذات ليلة وعلى جبهة كل واحد منهم مكتوب "هذا منافق" فذلك سيماهم .

وقال ابن زيد : قدر الله إظهارهم وأمر أن يخرجوا من المسجد فأبوا إلا أن يتمسكوا بلا إله إلا الله ، فحقنت دماؤهم ونكحوا وأنكحوا بها .

﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القول ﴾ أي في فحواه ومعناه .

ومنه قول الشاعر :

وخير الكلام ما كان لَحْنَا . . .

أي ما عُرف بالمعنى ولم يُصرَّح به .

مأخوذ من اللحن في الإعراب ، وهو الذهاب عن الصواب ، ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض " أي أذهب بها في الجواب لقوّته على تصريف الكلام .

أبو زيد : لَحَنْت له (بالفتح) أَلْحَنُ لَحْناً إذا قُلْتَ له قَوْلاً يفهمه عنك ويَخْفَى على غيره .

ولَحِنَه هو عَنّي (بالكسر) يلحنه لَحْناً أي فهمه .

وألحنته أنا إياه ، ولاحنت الناس فاطنتهم ؛ قال الفَزارِيّ :

وحدِيثٍ أَلَذُّه هو مما . . .

يَنْعَت النَّاعِتُون يُوزَن وزْنَا

منطِقٌ رائعٌ وتَلْحَنُ أحيا . . .

ناً وخير الحديث ما كان لحنَا

يريد أنها تتكلم (بشيء) وهي تريد غيره ، وتُعَرِّض في حديثها فتزيله عن جهته من فطنتها وذكائها .

وقد قال تعالى : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القول ﴾ .

وقال القَتّال الكِلاَبِيّ :

ولقد وَحَيْت لكم لكيما تفهموا . . .

ولَحَنْتُ لحناً ليس بالمرتاب

وقال مرار الأسدي :

ولحنتِ لحناً فيه غشٌّ ورابني . . .

صدودُك تُرْضين الوشاةَ الأعادِيَا

قال الكلبي : فلم يتكلم بعد نزولها عند النبيّ صلى الله عليه وسلم منافق إلا عرفه .

وقيل : كان المنافقون يخاطبون النبي صلى الله عليه وسلم بكلام تواضعوه فيما بينهم ؛ والنبي صلى الله عليه وسلم يسمع ذلك ويأخذ بالظاهر المعتاد ، فنبهه الله تعالى عليه ، فكان بعد هذا يعرف المنافقين إذا سمع كلامهم .

قال أنس : فلم يَخْفَ منافق بعد هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ عَرّفه الله ذلك بوحي أو علامة عرَفها بتعريف الله إياه ﴿ واللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ أي لا يخفى عليه شيء منها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(96/709)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾

كان المؤمنون حريصين على ظهور الإسلام وعلو كلمته وتمني قتل العدو ، وكانوا يستأنسون بالوحي ، ويستوحشون إذا أبطأ .

والله تعالى قد جعل ذلك باباً ومضروبة لا يتعدى .

فمدح تعالى المؤمنين بطلبهم إنزال سورة ، والمعنى تتضمن أمرنا بمجاهدة العدو ، وفضح أمر المنافقين .

والظاهر أن ظاني ذلك هم خلص في إيمانهم ، ولذلك قال بعد ﴿ رأيت الذين في قلوبهم مرض ﴾ .

وقال الزمخشري : كانوا يدعون الحرص على الجهاد ، ويتمنونه بألسنتهم ، ويقولون : ﴿ لولا نزلت سورة ﴾ في معنى الجهاد .

﴿ فإذا أنزلت ﴾ ، وأمروا فيها بما تمنوا وحرصوا عليه ، كاعوا وشق عليهم وسقطوا في أيديهم ، كقوله : ﴿ فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس ﴾ انتهى ؛ وفيه تخويف لما يدل عليه لفظ القرآن و ﴿ لولا ﴾ : بمعنى هلا ؛ وعن أبي مالك : لا زائدة ، والتقدير : لو نزلت ، وهذا ليس بشيء .

وقرىء : فإذا نزلت .

وقرأ زيد بن علي : سورة محكمة ، بنصبهما ، ومرفوع نزلت بضم ، وسورة نصب على الحال .

وقرأ هو وابن عمر : ﴿ وذكر ﴾ مبنياً للفاعل ، أي الله .

﴿ فيها القتال ﴾ ونصب .

الجمهور : برفع سورة محكمة على أنه مفعول لم يسم فاعله ، وبناء وذكر للمفعول ، والقتال رفع به ، وإحكامها كونها لا تنسخ .

قال قتادة : كل سورة فيها القتال ، فهي محكمة من القرآن ، لا بخصوصية هذه الآية ، وذلك أن القتال نسخ ما كان من المهادنة والصلح ، وهو غير منسوخ إلى يوم القيامة .

وقيل : محكمة بالحلال والحرام .

وقيل : محكمة أريدت مدلولات ألفاظها على الحقيقة دون المتشابه الذي أريد به المجاز ، نحو قوله : ﴿ على العرش استوى ﴾ ﴿ في جنب الله ﴾ ﴿ فضرب الرقاب ﴾ .

﴿ رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك ﴾ : أي تشخص أبصارهم جبناً وهلعاً .

﴿ نظر المغشي عليه ﴾ : أي نظراً كما ينظر من أصابته الغشية من أجل حلول الموت .

وقيل : يفعلون ذلك ، وهو شخوص البصر إلى الرسول من شدة العداوة .

وقيل : من خشية الفضيحة ، فإنهم إن يخالفوا عن القتال افتضحوا وبان نفاقهم .

وأولى لهم : تقدم شرحه في المفردات .

وقال قتادة : كأنه قال : العقاب أولى لهم .

وقيل : وهم المكروه ، وأولى وزنها أفعل أو أقلع على الاختلاف ، لأن الاستفعال الذي ذكرناه في المفردات .

فعلى قول الجمهور : إنه اسم يكون مبتدأ ، والخبر لهم .

وقيل : أولى مبتدأ ، ولهم من صلته وطاعة خبر ؛ وكأن اللام بمعنى الباء ، كأنه قيل : فأولى بهم طاعة .

ولم يتعرض الزمخشري لإعرابه ، وإنما قال : ومعناه الدعاء عليهم بأن يليه المكروه .

وعلى قول الأصمعي : أنه فعل يكون فاعله مضمراً يدل عليه المعنى .

وأضمر لكثرة الاستعمال كأنه قال : قارب لهم هو ، أي الهلاك .

قال ابن عطية : والمشهور من استعمال العرب أولى لك فقط على جهة الحذف والاختصار ، لما معها من القوة ، فيقول ، على جهة الزجر والتوعد : أولى لك يا فلان .

وهذه الآية من هذا الباب .

ومنه قوله : ﴿ أولى لك فأولى ﴾ وقول الصديق للحسن رضي الله عنهما : أولى لك

انتهى .

والأكثرون على أن : ﴿ طاعة وقول معروف ﴾ كلام مستقل محذوف منه أحد الجزأين ، إما الخبر وتقديره : أمثل ، وهو قول مجاهد ومذهب سيبويه والخليل ؛ وإما المبتدأ وتقديره : الأمر أو أمرنا طاعة ، أي الأمر المرضي لله طاعة .

وقيل : هي حكاية قولهم ، أي قالوا طاعة ، ويشهد له قراءة أبيّ يقولون : ﴿ طاعة وقول معروف ﴾ ، وقولهم هذا على سبيل الهزء والخديعة .

وقال قتادة : الواقف على : ﴿ فأولى لهم طاعة ﴾ ابتداء وخبر ، والمعنى : أن ذلك منهم على جهة الخديعة .

وقيل : طاعة صفة لسورة ، أي فهي طاعة ، أي مطاعة .

وهذا القول ليس بشيء لحيلولة الفصل لكثير بين الصفة والموصوف .

﴿ فإذا عزم الأمر ﴾ : أي جد ، والعزم : الجد ، وهو لأصحاب الأمر .

واستعير للأمر ، كما قال تعالى : ﴿ لمن عزم الأمر ﴾ وقال الشاعر :

قد جدت بهم الحرب فجدوا . . .

والظاهر أن جواب إذاً قوله : ﴿ فلو صدقوا الله ﴾ ، كما تقول : إذا كان الشتاء ، فلو جئتني لكسوتك .

وقيل : الجواب محذوف تقديره : فإذا عزم الأمر هو أو نحوه ، قاله قتادة .

ومن حمل ﴿ طاعة وقول معروف ﴾ ، على أنهم يقولون ذلك خديعة قدّرناه ﴿ عزم الأمر ﴾ ، فاقفوا وتقاضوا ، وقدره أبو البقاء فأصدّق ، ﴿ فلو صدقوا الله ﴾ فيما زعموا من حرصهم على الجهاد ، أو في إيمانهم ، وواطأت قلوبهم فيه ألسنتهم ، أو في قلوبهم ﴿ طاعة وقول معروف ﴾ .

﴿ فهل عسيتم ﴾ : التفات اللذين في قلوبهم مرض ، أقبل بالخطاب عليهم على سبيل التوبيخ وتوقيفهم على سوء مرتكبهم ، وعسى تقدّم الخلاف في لغتها .

وفي القراءة فيها ، إذا اتصل بها ضمير الخطاب في سورة البقرة ، واتصال الضمير بها لغة الحجاز ، وبنو تميم لا يلحقون بها الضمير .

وقال أبو عبد الله الرازي : وقد ذكروا أن عسى يتصل بها ضمير الرفع وضمير النصب ، وأنها لا يتصل بها ضمير قال : وأما قول من قال : عسى أنت تقوم ، وعسى أنا أقوم ، فدون ما ذكرنا لك تطويل الذي فيه . انتهى .

ولا أعلم أحداً من نقلة العرب ذكر انفصال الضمير بعد عسى ، وفصل بين عسى وخبرها

بالشرط، وهو أن توليتم.

وقرأ الجمهور: ﴿ إن توليتم ﴾، ومعناه إن أعرضتم عن الإسلام.

وقال قتادة: كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله؟ ألم يسفكوا الدم الحرام، وقطعوا الأرحام، وعصوا الرحمن؟ يشير إلى ما جرى من الفترة بعد زمان الرسول.

وقال كعب، ومحمد بن كعب، وأبو العالية، والكلبي: إن توليتم، أي أمور الناس من الولاية؛ ويشهد لها قراءة وليتم مبنياً للمفعول.

وعلى هذا قيل: نزلت في بني هاشم وبني أمية.

وعن النبي (صلى الله عليه وسلم): "إن توليتم"؛ بضم التاء والواو وكسر اللام، وبها قرأ علي وأويس، أي إن وليتكم ولاية جور دخلتم إلى دنياهم دون إمام العدل.

(99/709)

وعلى معنى إن توليتم بالتعذيب والتنكيل وإقفال العرب في جاهليتها وسيرتها من الغارات والثبات، فإن كانت ثمرتها الإفساد في الأرض وقطيعة الرحم.

وقيل معناه: إن تولاكم الناس: وكلكم الله إليهم؛ والأظهر أن ذلك خطاب للمنافقين في أمر القتال، وهو الذي سبقت الآيات فيه، أي إن أعرضتم عن امتثال أمر الله في القتال.

﴿ وأن تفسدوا في الأرض ﴾ بعدم معونة أهل الإسلام ، فإذا لم تعينوهم قطعتم ما بينكم وبينهم من صلة الرحم .

ويدل على ذلك ﴿ أولئك الذين لعنهم الله ﴾ .

فالآيات كلها في المنافقين .

وهذا التوقع الذي في عسى ليس منسوباً إليه تعالى ، لأنه عالم بما كان وما يكون ، وإنما هو بالنسبة لمن عرف المنافقين ، كأنه يقول لهم : لنا علم من حيث ضياعهم .

هل يتوقع منكم إذا أعرضتم عن القتال أن يكون كذا وكذا ؟ وقرأ الجمهور : ﴿ تقطعوا ﴾ ، بالتشديد على التكثير ، وأبو عمرو ، في رواية ، وسلام ، ويعقوب ، وأبان ، وعصمة : بالتخفيف ، مضارع قطع ؛ والحسن : وتقطعوا ، بفتح التاء والقاف على إسقاط حرف الجر ، أي أرحامكم ، لأن تقطع لازم .

﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المرضى القلوب ، ﴿ فأصمهم ﴾ عن سماع الموعظة ، ﴿ وأعمى أبصارهم ﴾ عن طريق الهدى .

وقال الزمخشري : لعنهم الله لإفسادهم وقطعهم الأرحام ، فمنعهم ألطافه ، وخذلهم حتى عموا . انتهى .

وهو على طريق الاعتزال .

وجاء التركيب : فأصمهم ، ولم يأت فأصم آذانهم ؛ وجاء : وأعمى أبصارهم ، ولم يأت

وأعمامهم .

قيل : لأن الأذن لو أصمت لا تسمع الإبصار ، فالعين لها مدخل في الرؤية ، والأذن لها مدخل في السمع . انتهى .

ولهذا جاء : ﴿ وعلى سمعهم ﴾ ﴿ وجعل لكم السمع ﴾ ولم يأت : وعلى آذانهم ، ولا يأتي : وجعل لكم الآذان .

وحين ذكر الأذن ، نسبت إليه الوقر ، وهو دون الصمم ، كما قال : ﴿ وفي آذاننا وقر ﴾

﴿ أفلا يتدبرون ﴾ : أي يتصفحونه وما فيه من المواعظ والزواجر ووعيد العصاة ، وهو استفهام توبيخي وتوقيفي على محاربهم .

(100/709)

﴿ أم على قلوبهم أقفالها ﴾ : استعارة للذين منهم الإيمان ، وأم منقطعة بمعنى بل ، والهمزة للتقرير ، ولا يستحيل عليهم بأن قلوبهم مقفلة لا يصل إليها ذكر ، ولم يحتج إلى تعريف القلوب ، لأنه معلوم أنها قلوب من ذكر .

ولا حاجة إلى تقدير صفة محذوف ، أي أم على قلوب أقفالها قاسية .

وأضاف الأقفال إليها ، أي الأقفال المختصة ، أو هي أقفال الكفر التي استغلقت ، فلا

تفتح .

وقرىء : إقفالها ، بكسر الهمزة ، وهو مصدر ، وأقفلها بالجمع على أفعل .

﴿ إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى ﴾ قال قتادة : نزلت في قوم من اليهود ، وكانوا عرفوا أمر الرسول من التوراة ، وتبين لهم بهذا الوجه ؛ فلما باشروا أمره حسدوه ، فارتدوا عن ذلك القدر من الهدى .

وقال ابن عباس وغيره : نزلت في منافقين كانوا أسلموا ، ثم ماتت قلوبهم .

والآية تتناول كل من دخل في ضمن لفظها .

وتقدم الكلام على ﴿ سوّل ﴾ في سورة يوسف .

وقال الزمخشري : سول لهم ركوب العظائم ، من السول ، وهو الاسترخاء ، وقد اشتقه من السؤل من لا علم له بالتصريف والاشتقاق جميعاً .

انتهى .

وقال أبو علي الفارسي : بمعنى ولا هم من السول ، وهو الاسترخاء والتدلي .

وقال غيره : سولهم : رجاهم .

وقال ابن بحر : أعطاهم سؤلهم .

وقول الزمخشري ، وقد اشتقه إلى آخره ، ليس بجيد ، لأنه توهم أن السول أصله الهمزة .

واختلفت المادتان ، أو عين سول واو ، وعين السؤل همزة ؛ والسول له مادتان : إحداهما

الهمز ، من سأل يسأل ؛ والثانية الواو ، من سال يسال .

فإذا كان هكذا ، فسول يجوز أن يكون من ذوات الهمز .

وقال صاحب اللوامح : والتسويل أصله من الإرخاء ، ومنه : ﴿ فدلاهما بغرور ﴾

والسول : استرخاء البطن .

وقرأ زيد بن علي : ﴿ سول لهم ﴾ : أي كيده على تقدير حذف مضاف .

وقرأ الجمهور : ﴿ وأملى لهم ﴾ مبنياً للفاعل ، والظاهر أنه يعود على الشيطان ، وقاله الحسن ، وجعل وعده الكاذب بالبقاء ، كالإبقاء .

(101/709)

والإبقاء هو البقاء ملاوة من الدهر يمد لهم في الآمال والأماني .

قيل : ويحتمل أن يكون فاعل أملى ضميراً يعود على الله ، وهو الأرجح ، لأن حقيقة الإملاء إنما هو من الله .

وقرأ ابن سيرين ، والجحدري ، وشيبة ، وأبو عمرو ، وعيسى : وأملى مبنياً للمفعول ، أي امهلوا ومدوا في عمرهم .

وقرأ مجاهد ، وابن هرمز ، والأعمش ، وسلام ، ويعقوب : وأملي بهمزة المتكلم مضارع

أملى ، أي وأنا أنظرهم ، كقوله : ﴿ إنما نملي لهم ﴾ ويجوز أن يكون ماضياً سكنت منه الياء ، كما تقول في يعي بسكون الياء .

﴿ ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل ﴾ .

وروي أن قوماً من قريظة والنضير كانوا يعينون المنافقين في أمر الرسول ، والخلاف عليه بنصره ومؤازرته ، وذلك قوله : ﴿ سنطيعكم في بعض الأمر ﴾ .

وقيل : الضمير في قالوا للمنافقين ؛ والذين كرهوا ما نزل الله : هم قريظة والنضير ؛ وبعض الأمر : قول المنافقين لهم : ﴿ لئن أخرجتم لنخرجن معكم ﴾ قاله ابن عباس .

وقيل : بعض الأمر : التكذيب بالرسول ، أو بلا إله إلا الله ، أو ترك القتال معه .

وقيل : هو قول الفريقين ، اليهود والمنافقين ، للمشركين : سنطيعكم في التكافؤ على عداوة الرسول والقعود عن الجهاد معه ، وتعين في بعض الأمر في بعض ما يأسرون به ، أو في بعض الأمر الذي يهمكم .

وقرأ الجمهور : أسرارهم ، بفتح الهمزة ، وكانت أسرارهم كثيرة .

وابن وثاب ، وطلحة ، والأعمش ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص : بكسرها : وهو مصدر ؛ قالوا ذلك سراً فيما بينهم ، وأفشاه الله عليهم .

وقال أبو عبد الله الرازي : الأظهر أن يقال : والله يعلم أسرارهم ، ما في قلوبهم من العلم بصدق محمد عليه السلام ، فإنهم كانوا معاندين مكابرين ، وكانوا يعرفون رسول الله (

صلى الله عليه وسلم) ، كما يعرفون أبناءهم . انتهى .

﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة ﴾ : تقدم شرح : ﴿ الذين في قلوبهم مرض ﴾ ، ومبلغهم لأجل القتال .

(102/709)

وتقدم قول المرتدين ، وما يلحقهم في ذلك من جزائهم على طواعية الكاذبين ما أنزل الله .

وتقدم : ﴿ والله يعلم إسرارهم ﴾ ؛ فجاء هذا الاستفهام الذي معناه التوقيف عقب هذه الأشياء .

فقال الطبري : فكيف علمه بها ، أي بأسرارهم إذا توفتهم الملائكة ؟ وقيل : فكيف يكون حالهم مع الله فيما ارتكبوه من ذلك القول ؟ وقرأ الأعمش : توفاهم ، بألف بدل التاء ، فاحتمل أن يكون ماضياً ومضارعاً حذفت منه التاء ، والظاهر أن وقت التوفي هو عند الموت .

وقال ابن عباس : لا يتوفى أحد على معصيته إلا تضرب الملائكة في وجهه وفي دبره .

والملائكة : ملك الموت والمصرفون معه .

وقيل : هو وقت القتال نصرة للرسول ؛ يضرب وجوههم أن يثبتوا ؛ وأدبارهم : انهزموا .

والملائكة : النصر .

والظاهر أن يضربون حال من الملائكة ؛ وقيل : حال من الضمير في توفاهم ، وهو ضعيف .

﴿ ذلك ﴾ : أي ذلك الضرب للوجوه والأدبار ؛ ﴿ بأنهم اتبعوا ما أسخط الله ﴾ : وهو الكفر ، أو كتمان بعث الرسول ، أو تسويل الشيطان ، أقوال .

والمتبع الشيء هو مقبل بوجهه عليه ، فناسب ضرب الملائكة وجهه .

﴿ وكرهوا رضوانه ﴾ : وهو الإيمان بالله واتباع دينه .

والكافر للشيء متول عنه ، فناسب ضرب الملائكة دبره ؛ ففي ذلك مقابلة أمرين بأمرين .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(103/709)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ وَيَقُولُ الذين ءامَنُواْ ﴾

حرصاً منهم على الجهادِ ﴿ لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾ أي هلاَّ نزلتْ سورةٌ تؤمرُ فيها بالجهادِ ﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا القتال ﴾ بطريقِ الأمر به أي سورةٌ مبينةٌ لا تشابَه ولا احتمالَ فيها لوجهٍ آخرَ سوى وجوبِ القتالِ . عن قَتَادَة . كُلُّ سورةٍ فيها ذكرُ القتالِ فهيَ

محكمةٌ لم تنسخْ . وقُرِىءَ فإذا نزلتْ سورةٌ ، وقُرِىءَ وذُكِرَ على إسنادِ الفعلِ إلى ضميرِه تعالى ونصبِ القتالِ . ﴿ رَأَيتَ الذين فِى قلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ أي ضعفٌ في الدينِ وقيل نفاقٌ وهو الأظهرُ الأوفقُ لسياقِ النظمِ الكريمِ . ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ المغشى عَلَيْهِ مِنَ الموت ﴾ أي تشخصُ أبصارُهم جُبناً وهلعاً كدأب منْ أصابتْهُ غشيةُ الموتِ ﴿ فأولى لَهُمْ ﴾ أي فويلٌ لهم وهو أفعلُ من الوَلي وهو القُربُ وقيلَ مِنْ آلَ ومعناهُ الدعاءُ عليهم بأنْ يليهَم المكروهُ أو يؤولَ إليهِ أمرُهم ، وقيل هو مُشتقٌ من الويلِ وأصله أَوْيَل نُقلتْ العينُ إلى مَا بعدِ اللامِ فوزنُه أَفْلَعَ .

﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾

كلامٌ مستأنفٌ أي أمرُهم طاعةٌ الخ . أو طاعةٌ وقولٌ معروفٌ خيرٌ لهم ، أو حكايةٌ لقولِهم ، ويؤيدُه قراءةُ أُبي : يقولونَ طاعةٌ وقولٌ معروفٌ أي أمرُنا ذلكَ ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأمر ﴾ أَسندَ العزمَ وهو الجِدُّ إلى الأمرِ وهو لأصحابه مجازاً كما في قولِه تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الامور ﴾ وعاملُ الظرفِ محذوفٌ أي خالفُوا وتخلَّفُوا وقيلَ ناقضُوا وقيل كرِهُوا وقيلَ هُو قولُه تعالى :

﴿ فَلَوْ صَدَقُواْ اللهَ ﴾ على طريقةِ قولِك إذا حضرني طعامٌ فلو جئتني لأطعمتُكَ أي فلو صدقُوه تعالى فيما قالُوا من الكلامِ المنبىءِ عن الحرصِ على الجهادِ بالجري على موجبهِ . ﴿ لَكَانَ ﴾ أي الصدقُ ﴿ خَيْراً لَّهُمْ ﴾ وفيه دلالةٌ على اشتراكِ الكلِّ فيما حُكِيَ عنهم من قولِه تعالى : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾ وقيل : فلو صدقُوه في الإيمانِ وواطأتْ قلوبُهم في ذلك ألسنتَهُم ، وأيّاً ما كان فالمرادُ بهم الذين في قلوبِهم مرضٌ وهم المخاطبون بقولِه تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ ﴾ الخ بطريقِ الالتفاتِ لتأكيدِ التوبيخِ وتشديدِ التقريعِ أي هل يُتوقعُ منكم ﴿ إِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أمورَ الناسِ وتأمَّرتُم عليهم ﴿ أَن تُفْسِدُواْ فِى الأَرْضِ وَتُقَطِّعُواْ أَرْحَامَكُمْ ﴾ تناحراً على المُلك وتهالُكاً على الدُّنيا فإن من شاهدَ أحوالَكم الدالَّةَ على الضعفِ في الدِّينِ والحرصِ على الدُّنيا حينَ أُمرتُم بالجهادِ الذي هو عبارةٌ عن إحرازِ كلِّ خيرٍ وصلاحٍ ودفعِ كلِّ شرَ وفسادٍ وأنتم مأمورون شأنُكم الطاعةُ والقولُ المعروفُ يتوقعُ منكم إذا أطلقتْ أعِنّتُكم وصرتُم آمرين ما ذكر من الإفسادِ وقطعِ الأرحامِ . وقيل : إن أعرضتُم عن الإسلامِ أنْ ترجعوا إلى ما كنتُم عليه في الجاهليةِ من الإفسادِ في الأرضِ بالتغاورِ والتناهبِ وقطعِ الأرحامِ بمقاتلةِ بعضِ الأقاربِ بعضاً ووأدِ البناتِ ، وفيه أن الواقعَ في حيزِ الشرطِ في مثلِ هذا المقامِ لا بد أن تكون محذوريتُه باعتبارِ ما يستتبعُه من المفاسدِ لا باعتبارِ ذاتِه ، ولا ريبَ في أنَّ الإعراضَ عن الإسلامِ رأسُ كلِّ شرَ وفسادٍ فحقُّه أنْ يجعلَ عمدةً في التوبيخِ لا وسيلةً للتوبيخِ بما دونَهُ من المفاسدِ . وقُرِئَ وُلِّيتُم على البناءِ للمفعولِ أي جُعلتُم ولاةً ،

وقُرِىءَ تُوُلِّيتُم أي تولاَّكُم ولاةُ جورٍ خرجتُم معهُم وساعدتُموهم في الإفسادِ وقطيعةِ الرحمِ .
وقُرِىءَ

(105/709)

وتَقطَّعُوا من التقطُّعِ بحذفِ إحدى التاءينِ ، فانتصابُ أرحامَكم حينئذٍ على نزعِ الجارِّ أي في أرحامِكم . وقُرِىءَ وتَقْطَعُوا منَ القطعِ . وإلحاقُ الضميرِ بعسَى لغةُ أهلِ الحجازِ ، وأمَّا بنُو تميمٍ فيقولونَ عسى أنْ تفعلَ وعسى أنْ تفعلُوا .

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (23)

﴿ أولئك ﴾ إشارةٌ إلى المخاطبينَ بطريقِ الالتفاتِ إيذاناً بأنَّ ذكرَ هَنَاتِهم أوجبَ إسقاطَهُم عن رُتبةِ الخطابِ وحكايةَ أحوالِهم الفظيعةِ لغيرِهم ، وهُو مبتدأٌ خبرُه ﴿ الذين لَعَنَهُمُ الله ﴾ أيْ أبعدهُم من رحمتِه ﴿ فَأَصَمَّهُمْ ﴾ عن استماعِ الحقِّ لتصامّهم عنْهُ بسوءِ اختيارِهم . ﴿ وأعمى أبصارهم ﴾ لتعامِيهم عمَّا يشاهدونَهُ من الآياتِ المنصوبةِ في الأنفسِ والآفاقِ .

﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرءان ﴾ أيْ أَلاَ يلاحظونَهُ ولاَ يتصفحونَهُ وما فيهِ من المواعظِ والزواجرِ حتَّى لا يقعُوا فيَما وقعُوا فيهِ من الموبقاتِ ﴿ أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ فلا يكادُ يصلُ إليها

ذكرٌ أصلاً . وأم منقطعةٌ وما فيها من معنى بلْ للانتقالِ من التوبيخِ بعدمِ التدبرِ إلى التوبيخِ بكونِ قلوبهم مقفلةً لا تقبلُ التدبرَ والتفكرَ . والهمزةُ للتقريرِ ، وتنكيرُ القلوبِ إمَّا لتهويلِ حالِها وتفظيعِ شأنِها بإبهامِ أمرِها في القساوةِ والجهالةِ كأنَّه قيلَ على قلوبٍ منكرةٍ لا يعرفُ حالُها ولا يُقادرُ قدرُها في القساوةِ وإما لأنَّ المرادَ بها قلوبُ بعضٍ منْهم وهم المنافقونَ . وإضافةُ الأقفالِ إليها للدلالةِ على أنَّها أقفالٌ مخصوصةٌ بها مناسبةٌ لها غيرُ مجانسةٍ لسائرِ الأقفالِ المعهودةِ . وقُرِىءَ أقفالُها وإقفالُها على المصدر .

(106/709)

﴿ إِنَّ الذين ارتدوا على أدبارهم ﴾ أي رجعُوا إلى ما كانُوا عليهِ من الكفرِ وهم المنافقونَ الذين وُصفوا فيما سلفَ بمرضِ القلوبِ وغيرِهِ من قبائحِ الأفعالِ والأحوالِ فإنَّهم قد كفرُوا به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿ مّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهدى ﴾ بالدلائلِ الظاهرةِ والمعجزاتِ القاهرةِ ، وقيل هم اليهودُ وقيل أهلُ الكتابينِ جميعاً كفرُوا به عليهِ الصَّلاة والسَّلامُ بعد ما وجدُوا نعتَهُ في كتابِهم وعرفُوا أنه المبعوثُ بذلكَ . وقولُه تعالى : ﴿ الشيطان سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ جملةٌ من مبتدأٍ وخبرٍ ، وقعتْ خبراً لإنَّ أي سهَّلَ لهم ركوبَ العظائمِ من السَّولِ وهو الاسترخاءِ ، وقيلَ من السُّوْلِ المخففِ من السُّؤلِ لاستمرارِ القلبِ فمعنى سوَّلَ له أمراً

حينئذٍ أوقعه في أمنيته فإن السُّؤل الأمنية . وقرىء سُوِّل مبنياً للمفعولِ على حذفِ المضافِ أن كيدَ الشيطانِ . ﴿ وأملى لَهُمْ ﴾ ومَدَّ لهم في الأمانِيِّ والآمالِ ، وقيل أمهلهُم الله تعالى ولم يُعاجلْهم بالعقوبةِ . وقُرِىءَ وأُمْلِي لَهُم على صيغةِ المتكلمِ فالمعنى أي الشيطانُ يُغويهم وأنا أُنْظِرُهم فالواوُ للحالِ أو للاستئنافِ . وقُرِىءَ أُمْلِىَ لَهُم على البناءِ للمفعولِ أي أُمْهِلُوا ومُدَّ في عمرِهم .

(107/709)

﴿ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ من ارتدادِهم لا إلى الإملاءِ كما نُقِلَ عن الواحديِّ ولا إلى التسويلِ كما قيل لأنَّ شيئاً منهما ليس مُسبباً عن القولِ الآتي وهو مبتدأٌ خبرُهُ قولُه تعالى : ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي بسببِ أنَّهم ﴿ قَالُواْ ﴾ يعني المنافقينَ المذكورينَ لا اليهودَ الكافرينَ به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بعد ما وجدُوا نعتَهُ في التوارةِ كما قيل فإن كفرَهم به ليسَ بسببِ هذا القولِ ولو فُرِض صدورُه عنهم سواءٌ كان المقولُ لهم المنافقينَ أو المشركينَ على رأي القائلِ ، بل من حينِ بعثتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ الله ﴾ أي لليهودِ الكارهينَ لنزولِ القرآنِ على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم مع علمِهم بأنَّه من عندِ الله تعالى حسداً وطمعاً في نزولِه عليهم لا للمشركينَ كما قيلَ فإنَّ قولَه تعالى : ﴿ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ الأمر

﴿ عبارةٌ قطعاً عما حُكِيَ عنهم بقولِه تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين نافقوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فيكُمْ ﴾ وهم بنُو قريظةَ والنَّضيرِ الذين كانوا يوالونَهم ويوادُّونَهم وأرادُوا بالبعضِ الذي أشارُوا إلى عدمِ إطاعتهم فيه إظهارَ كُفرِهم وإعلانَ أمرِهم بالفعلِ قبل قتالِهم وإخراجِهم من ديارِهم فإنَّهم كانوا يأبَون ذلك قبل مساسِ الحاجةِ الضروريةِ الداعيةِ إليه لِما كان لهم في إظهارِ الإيمانِ من المنافعِ الدنيويةِ ، وإنما كانوا يقولون لهم ما يقولون سِرّاً كما يُعربُ عنه قولُه تعالى : ﴿ واللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ أي إخفاءَهُم لما يقولونَهُ لليهودِ . وقُرِىءَ أَسْرَارَهُم أي جميعَ أسرارِهم التي من جُملتِها قولُهم هذا ، والجملةُ اعتراضٌ مقررٌ لما قبله متضمنٌ للإفشاءِ في الدنيا والتعذيبِ في الآخرةِ .

(108/709)

فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (27)

الفاءُ في قولِه تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الملائكة ﴾ لترتيبِ ما بعدها على ما قبلَها . وكيفَ منصوبٌ بفعلٍ محذوفٍ هو العاملُ في الظرفِ كأنَّه قيلَ يفعلون في حياتِهم ما يفعلون من الحيلِ ، فكيفَ يفعلونَ إذا توفَّتْهم الملائكةُ ، وقيلَ مرفوعٌ على أنه خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ أي

فكيفَ حالُهم أو حياتُهم إذا توفَّتْهم الخ . وقُرِىءَ توفَّاهُم على أنَّه إما ماضٍ أو مضارعٌ قد حُذفَ إحدى تاءيهِ . ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وأدبارهم ﴾ حالٌ من فاعلِ توفَّتهم أو من مفعولِه ، وهو تصويرٌ لتوفّيهم على أهولِ الوجوهِ وأفظعها . وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهُمَا لا يُتوفَّى أحدٌ على معصيةٍ إلا يضربُ الملائكةُ وجهَهُ ودبُره . ﴿ ذلك ﴾ التَّوفّي الهائلُ ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي بسببِ أنَّهم ﴿ اتبعوا مَا أَسْخَطَ الله ﴾ من الكفرِ والمعاصِي ﴿ وَكَرِهُواْ رِضْوَانَهُ ﴾ أي ما يرضاهُ من الإيمانِ والطاعةِ حيث كفُروا بعد الإيمانِ وخرجُوا عن الطاعةِ بما صنعُوا من المعاملةِ مع اليهودِ ﴿ فَأَحْبَطَ ﴾ لأجلِ ذلكَ ﴿ أعمالهم ﴾ التي عملوها حالَ إيمانِهم من الطاعاتِ أو بعد ذلك من أعمال البرِّ التي لو عملُوها حالَ الإيمانِ لا نتفعُوا بها .

(109/709)

﴿ أَمْ حَسِبَ الذين فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ هم المنافقون الذين فُصِّلتْ أحوالُهم الشنيعةُ ، وُصفُوا بوصفِهم السابقِ لكونِه مداراً لِما نُعِيَ عليهم بقولِه تعالى : ﴿ أَن لَّن يُخْرِجَ الله أضغانهم ﴾ فأمْ منقطعةٌ وأنْ مخففةٌ من أنَّ وضميرُ الشأنِ الذي هو اسمُها محذوفٌ ولنْ بما في حيزِها خبرُها . والأضغانُ جمعُ ضَغنٍ وهو الحقدُ ، أي بل أحسبَ الذين في قلوبِهم حقدٌ

وعداوةٌ للمؤمنين أنه لنْ يخرجَ الله أحقادَهم ولن يُبرزَها لرسولِه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنينَ فتبقى أمورُهم مستورةً والمعنى أنَّ ذلك مما لا يكادُ يدخلُ تحتَ الاحتمالِ .

﴿ وَلَوْ نَشَاء ﴾ إراءتَهم ﴿ لأريناكهم ﴾ لعرّفناكَهُم بدلائلَ تعرفُهم بأعيانِهم معرفةً متاخمةٌ للرؤيةِ . والالتفاتُ إلى نونِ العظمةِ لإبرازِ العنايةِ بالإراءةِ ﴿ فَلَعَرَفْتَهُم بسيماهم ﴾ بعلامتهم التي نسِمهُم بها . وعن أنسٍ رضيَ الله عنه ما خَفِيَ على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بعد هذهِ الآيةِ شيءٌ من المنافقين كان يعرفُهم بسيماهم ولقد كنا في بعضِ الغزواتِ وفيها تسعةٌ من المنافقينَ يشكُوهم الناسُ فناموا ذاتَ ليلةٍ وأصبحوا وعلى كلِّ واحدٍ منهم مكتوبٌ هذا منافقٌ . واللامُ لامُ الجوابِ كُررتْ في المعطوفِ للتأكيدِ ، والفاءُ لترتيبِ المعرفةِ على الإراءةِ ، وأمَّا ما في قولِه تعالى : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ القول ﴾ فلجوابِ قسمٍ محذوفٍ . ولحنُ القولِ نحوُه وأسلوبُه أو إمالتُه إلى جهةِ تعريضٍ وتوريةٍ ، ومنه قيلَ للمُخطىءِ لاحنٌ لعدلِه بالكلامِ عن سمتِ الصوابِ . ﴿ والله يَعْلَمُ أعمالكم ﴾ فيجازيكُم بسحبِ قصدِكم ، وهذا وعدٌ للمؤمنين وإيذانٌ بأنَّ حالَهم بخلافِ حالِ المنافقينَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 8 صـ ﴾

(110/709)

وقال الآلوسى :

والفاء في قوله سبحانه : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الملائكة ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، ﴿ وَكَيْفَ ﴾ منصوب بفعل محذوف هو العامل في الظرف كأنه قيل : يفعلون في حياتهم ما يفعلون من الحيل فكيف يفعلون إذا توفتهم الملائكة ، وقيل : مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي فكيف حالهم أو حيلتهم إذا توفتهم الخ ، وزعم الطبري أن التقدير فكيف علمه تعالى بأسرارهم إذا توفتهم الخ ، وليس بشيء ، ووقت التوفي هو وقت الموت ، والملائكة عليهم السلام ملك الموت وأعوانه .

وقرأ الأعمش ﴿ توفاهم ﴾ بالألف بدل التاء فاحتمل أن يكون ماضياً وأن يكون مضارعاً حذف منه أحد تاءيه والأصل تتوفاهم ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وأدبارهم ﴾ حال من الملائكة ، وجوز كونه حالاً من ضمير ﴿ تَوَفَّتْهُمُ ﴾ وضعفه أبو حيان ، وهو على ما قيل تصوير لتوفيهم على أهول الوجوه وأفظعها وإبراز لما يخافون منه ويجبنون عن القتال لأجله فإن ضرب الوجوه والإدبار في القتال والجهاد مما يتقى ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنه لا يتوفى أحد على معصية ألا تضرب الملائكة في وجهه وفي دبره ، والكلام على الحقيقة عنده ولا مانع من ذلك وإن لم يحس بالضرب من حضر وما ذلك إلا كسؤال الملكين وسائر أحوال البرزخ .

والمراد بالوجه والدبر قيل العضوان المعروفان .

أخرج ابن المنذر عن مجاهد أنه قال : يضربون وجوههم واستاههم ولكن الله سبحانه كريم يكنى ، وقال الراغب .

وغيره : المراد القدام والخلف ، وقيل : وقت التوفي وقت سوقهم في القيامة إلى النار والملائكة ملائكة العذاب يومئذٍ ، وقيل : هو وقت القتال والملائكة ملائكة النصر تضرب وجوههم إن ثبتوا وأدبارهم إن هربوا نصرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلا القولين كما ترى .

(111/709)

﴿ ذلك ﴾ التوفي الهائل ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ اتبعوا مَا أَسْخَطَ الله ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿ وَكَرِهُواْ رِضْوَانَهُ ﴾ ما يرضاه عز وجل من الإيمان والطاعات حيث كفروا بعد الإيمان وخرجوا عن الطاعة بما صنعوا من المعاملة مع إخوانهم اليهود ، وقيل : ما أسخط الله كتمان نعت الرسول صلى الله عليه وسلم ورضوانه ما يرضيه سبحانه من إظهار ذلك ، وهو مبني على أن ما تقدم أخبار عن اليهود وقد سمعت ما فيه ، ولما كان اتباع ما أسخط الله تعالى مقتضياً للتوجه ناسب ضرب الوجه وكراهة رضوانه سبحانه مقتضياً للإعراض ناسب ضرب الدبر ففي الكلام مقابلة بما يشبه اللف والنشر ﴿

فَأَحْبَطَ ﴾ لذلك ﴿ أعمالهم ﴾ التي عملوها حال إيمانهم من الطاعات ، وجوز أن يراد ما كان بعد من أعمال البر التي لو عملوها حال الإيمان لانتفعوا بها .

﴿ أَمْ حَسِبَ الذين فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ هم المنافقون الذين فصلت أحوالهم الشنيعة وصفوا بوصفهم السابق لكونه مداراً لما نعى عليهم بقوله تعالى : ﴿ أَن لَّن يُخْرِجَ الله أضغانهم ﴾ فأم منقطعة وأن مخففة من أن واسمها ضمير الشأن والجملة بعدها خبرها ، والأضعان جمع ضغن وهو الحقد وقيده الراغب بالشديد وقد ضغن بالكسر وتضاغن القوم واضطغنوا أبطنوا الأحقاد ، ويقال : اضطغنت الصبي إذا أخذته تحت حضنك وأنشد الأحمر

كأنه مضطغن صبياً . . .

وفرس ضاغن لا يعطي ما عنده من الجري إلا بالضرب ، وأصل الكلمة من الضغن وهو الالتواء والاعوجاج في قوائم الدابة والقناة وكل شيء ، قال بشر :

كذات الضغن تمشي في الرقاق . . .

وأنشد الليث :

إن قناتي من صليبات القنا . . .

ما زادها التثقيف إلا ضغنا

والحقد في القلب يشبه به : وقال الليث ، وقطرب .

الضغن العداوة قال الشاعر :

قل لابن هند ما أردت بمنطق . . .

ساء الصديق وشيد الإضغانا

(112/709)

وهذا لا ينافي الأول لأن الحقد العداوة لأمر يخفيه المرء في قلبه ، والإخراج مختص بالأجسام ، والمراد به هنا الإبراز أي بل أحسب الذين في قلوبهم حقد وعداوة للمؤمنين أنه لن يبرز الله تعالى أحقادهم ويظهرها للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فتبقى مستورة ، والمعنى أن ذلك مما لا يكاد يدخل تحت الاحتمال .

﴿ وَلَوْ نَشَاء ﴾ إراءتك إياهم ﴿ لأريناكهم ﴾ أي لعرفناكهم على أن الرؤية علمية ﴿ فَلَعَرَفْتَهُم بسيماهم ﴾ تفريع لمعرفته صلى الله عليه وسلم على تعريف الله عز وجل ، ويجوز أن تكون الرؤية بصرية على أن المعنى أنه صلى الله عليه وسلم يعرفهم معرفة متفرعة على إراءته إياهم ، والالتفات إلى نون العظمة للإيماء إلى العناية بالإراءة ، والسيما العلامة ، والمعنى هنا على الجمع لعمومها بالإضافة لكنها أفردت للإشارة إلى أن علاماتهم متحدة الجنس فكأنها شيء واحد أي فلعرفتهم بعلامات نسمهم بها ؛ ولام ﴿ فَلَعَرَفْتَهُم ﴾ كلام

لأريناكهم الواقعة في جواب لو لأن المعطوف على الجواب جواب ، وكررت في المعطوف للتأكيد ، وأما التي في قوله تعالى : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ القول ﴾ فواقعة في في جواب قسم محذوف والجملة معطوفة على الجملة الشرطية ﴿ مِنَ القول ﴾ أسلوب من أساليبه مطلقاً ، أو المائلة عن الطريق المعروفة كان يعدل عن ظاهره من التصريح إلى التعريض والإبهام ، ولذا سمي خطأ الإعراب به لعدوله عن الصواب ، وقال الراغب : اللحن صرف الكلام عن سننه الجاري عليه إما بإزالة الإعراب أو التصحيف وهو المذموم وذلك أكثر استعمالاً ، وإما بإزالته عن التصريح وصرفه بمعناه إلى تعريض وفحوى وهو محمود من حيث البلاغة ، وإليه أشار بقوله الشاعر عند أكثر الأدباء :

منطق صائب وتلحن أحيا . . .

ناً وخير الحديث ما كان لحناً

(113/709)

وإياه قصد بقوله تعالى : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ القول ﴾ وفي "البحر" يقال : لحنت له بفتح الحاء ألحن لحناً قلت له قولاً يفهمه عنك ويخفى على غيره ، ولحنه هو بالكسر فهمه وألحنته أنا إياه ولاحنت الناس فاطنتهم ، وقيل : لحن القول الذهاب عن الصواب ، وعن ابن عباس

﴿ لَحْنِ القول ﴾ هنا قولهم ما لنا إن أطعنا من الثواب ولا يقولون ما علينا إن عصينا من العقاب وكان هذا الذي ينبغي منهم ، وقال بعض من فسره بالأسلوب المائل عن الطريق المعروفة : إنهم كانوا يصطلحون فيما بينهم على ألفاظ يخاطبون بها الرسول صلى الله عليه وسلم مما ظاهره حسن ويعنون به القبيح وكانوا أيضاً يتكلمون بما يشعر بالاتباع وهم بخلاف ذلك كقولهم إذا دعاهم المؤمنون إلى نصرهم : إنا معكم ، وبالجملة أنهم كانوا يتكلمون بكلام ذي دسائس وكان صلى الله عليه وسلم يعرفهم بذلك ، وعن أنس رضي الله تعالى عنه ما خفي بعد هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء من المنافقين كان عليه الصلاة والسلام يعرفهم بسيماهم ولقد كنا في بعض الغزوات وفيها تسعة من المنافقين يشكوهم الناس فناموا ذات ليلة وأصبحوا وعلى جهة كل واحد منهم مكتوب هذا منافق .

(114/709)

وفي دعواه أنه صلى الله عليه وسلم كان يعرفهم بسيماهم أشكال فإن ﴿ لَوْ ﴾ ظاهرها عدم الوقوع بل المناسب معرفتهم من لحن القول ، وكأنه حمله على أنه وعد بالوقوع دال على الامتناع فيما سلف ، ولقد صدق وعده واستشهد عليه بما اتفق في بعض الغزوات ، ولا

تنحصر السيما بالكتابة بل تكون بغيرها أيضاً مما يعرفهم به النبي صلى الله عليه وسلم كما يعرف القائف حال الشخص بعلامات تدل عليه ، وكثيراً ما يعرف الإنسان محبه ومبغضه من النظر ويكاد النظر ينطق بما في القلب ، وقد شاهدنا غير واحد يعرف السني والشيعي بسمات في الوجه ، وإن صح أن بعض الأولياء قدست أسرارهم كان يعرف البر والفاجر والمؤمن والكافر ويقول أشم من فلان رائحة الطاعة ومن فلان رائحة المعصية ومن فلان رائحة الإيمان ومن فلان رائحة الكفر ويظهر الأمر حسبما أشار فرسول الله صلى الله عليه وسلم بتلك المعرفة أولى وأولى ؛ ولعلها بعلامات وراء طور عقولنا ، والنور المذكور في خبر " اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى " متفاوت الظهور بحسب القابليات وللنبي صلى الله عليه وسلم أتمه ، وذكروا من علامات النفاق بغض علي كرم الله تعالى وجهه . فقد أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ببغضهم علي بن أبي طالب .

(115/709)

وأخرج هو وابن عساكر عن أبي سعيد الخدري ما يؤيده ، وعندي أن بغضه رضي الله تعالى عنه من أقوى علامات النفاق فإن آمنت بذلك فيا ليت شعري ماذا تقول في يزيد

الطريد أكان يحب علياً كرم الله تعالى وجهه أم كان يبغضه ، ولا أظنك في مرية من أنه عليه اللعنة كان يبغضه رضي الله تعالى عنه أشد البغض وكذا يبغض ولديه الحسن والحسين على جدهما وأبويهما وعليهما الصلاة والسلام كما تدل على ذلك الآثار المتواترة معنى ، وحينئذٍ لا مجال لك من القول بأن اللعين كان منافقاً ، وقد جاء في الأحاديث الصحيحة علامات للنفاق غير ما ذكر كقوله عليه الصلاة والسلام : " علامات المنافق ثلاث " الحديث لكن قال العلماء هي علامات للنفاق العملي لا الإيماني ، وقيل : الحديث خارج مخرج التنفير عن اتصاف المؤمن المخلص بشيء منها لما أنها كانت إذ ذاك من علامات المنافقين . واستدل بقوله تعالى : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ من جعل التعريض بالقذف موجباً الحد ، ولا يخفى حاله ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ فيجازيكم عليها بحسب قصدكم وهذا على ما قيل وعد للمؤمنين وإيذان بأن حالهم بخلاف حال المنافقين ؛ وقيل : وعيد للمنافقين وإيذان لهم بأن المجزى عليه ما يقصدونه لا ما يعرضون أو يورون به ، واستظهر أنه خطاب عام فهو وعد ووعيد ، وحمل على العموم قوله تعالى :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (31) ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(116/709)

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا القتال رَأَيْتَ الذين فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ المغشي عَلَيْهِ مِنَ الموت فأولى لَهُمْ ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، أنه إذا أنزل سورة محكمة ، أي متقنة الألفاظ والمعاني ، واضحة الدلالة ، لا نسخ فيها وذكر فيها وجوب قتال الكفار ، تسبب عن ذلك ، كون الذين فى قلوبهم مرض أي شك ونفاق ، ينظرون كنظر الإنسان الذي يغشى عليه لأنه في سياق الموت ، لأن نظر من كان كذلك تدور فيه عينه ويزيغ بصره .

وهذا إنما وقع لهم من شدة الخوف من بأس الكفار المأمور بقتالهم .

وقد صرح جل وعلا بأن ذلك من الخوف المذكور في قوله : ﴿ فَإِذَا جَآءَ الخوف رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدورُ أَعْيُنُهُمْ كالذي يغشى عَلَيْهِ مِنَ الموت ﴾ [الأحزاب : 19] .

وقد بين تعال ، أن الأغنياء من هؤلاء المنافقين ، إذا أنزل الله سورة ، فيها الأمر بالجهاد ، استأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم في التخلف عن الجهاد ، وذمهم الله على ذلك ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُواْ بالله وَجَاهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ استأذنك أُوْلُواْ الطول مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُنْ مَّعَ القاعدين رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الخوالف وَطُبِعَ على قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة : 86 – 87] .

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24)

الهمزة في قوله : أفلا يتدبرون للإنكار ، والفاء عاطفة على جملة محذوفة ، على أصح القولين ، والتقدير أيعرضون عن كتاب الله فلا يتدبرون القرآن كما أشار له في الخلاصة بقوله :

(117/709)

وحذف متبوع بدا هنا استبح . . . وقوله تعالى : ﴿ أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ فيه منقطعة بمعنى بل ، فقد أنكر تعالى عليهم إعراضهم عن تدبر القرآن ، بأداة الإنكار التي هي الهمزة ، وبين أن قلوبهم عليها أقفال لا تنفتح لخير ، ولا لفهم قرآن .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من التوبيخ والإنكار على من أعرض عن تدبر كتاب الله ، جاء موضحاً في آيات كثيرة ، كقوله تعالى ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ الله لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافا كَثِيراً ﴾ [النساء : 82] ، وقوله تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ القول أَمْ جَآءَهُمْ مَّا لَمْ يَأْتِ آبَآءَهُمُ الأولين ﴾ [المؤمنون : 68] ، وقوله تعالى ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ليدبروا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُو الألباب ﴾ [ص : 29] .

وقد ذم جل وعلا المعرض عن هذا القرآن العظيم في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ

مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ [الكهف : 57] الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ [السجدة : 22] .

ومعلوم أن كل من لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم أي تصفحها وتفهمها ، وإدراك معانيها والعمل بها ، فإنه معرض عنها ، غير متدبر لها ، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات إن كان الله أعطاه فهماً يقدر به على التدبر ، وقد شكا النبي صلى الله عليه وسلم إلى ربه من هجر قومه هذا القرآن ، كما قال تعالى ﴿ وَقَالَ الرسول يا رب إِنَّ قَوْمِي اتخذوا هذا القرآن مَهْجُوراً ﴾ [الفرقان : 30] .

وهذه الآيات المذكورة تدل على أن تدبر القرآن وتفهمه وتعلمه والعمل به ، أمر لا بد منه للمسلمين .

(118/709)

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن المشتغلين بذلك هم خير الناس . كما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال " خيركم من تعلم القرآن وعلمه " وقال تعالى : ﴿ ولكن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الكتاب وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران : 79] .

فإعراض كثير من الأقطار عن النظر في كتاب الله وتفهمه والعمل به وبالسنة الثابتة به وبالنسبة الثابتة المبينة له . من أعظم المناكر وأشنعها ، وإن ظن فاعلوه أنهم على هدى . ولا يخفى على عاقل أن القول بمنع العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، اكتفاء عنهما بالمذاهب المدونة . وانتفاء الحاجة إلى تعلمهما ، لوجود ما يكفي عنهما من مذاهب الأئمة من أعظم الباطل .

وهو مخالف لكتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة ، ومخالف لأقوال الأئمة الأربعة .

وهو مخالف لكتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة ومخالف لأقوال الأئمة الأربعة .

فمرتكبه مخالف لله ولرسوله ولأصحاب رسوله جميعاً وللأئمة رحمهم الله ، كما سترى إيضاحه إن شاء الله تعالى .

مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة

المسألة الأولى :

اعلم أن قول بعض متأخري الأصوليين : إن تدبر هذا القرآن العظيم ، وتفهمه والعمل به . لا يجوز إلا للمجتهدين خاصة ، وأن كل من لم يبلغ درجة الاجتهاد المطلق بشروطه المقررة عندهم التي لم يستند اشتراط كثير منها إلى دليل من كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا قياس جلي ، ولا أثر عن الصحابة ، قول لا مستند له من دليل شرعي أصلاً .

بل الحق الذي لا شك فيه ، أن كل من له قدرة من المسلمين ، على التعلم والتفهم ، وإدراك

معانى الكتاب والسنة ، يجب عليه تعلمهما ، والعمل بما علم منهما .

أما العمل بهما مع الجهل بما يعمل به منهما فممنوع إجماعاً .

وأما ما علمه منهما علماً صحيحاً ناشئاً عن تعلم صحيح . فله أن يعمل به . ولو آية واحدة أو حديثاً واحداً .

(119/709)

ومعلوم أن هذا الذم والإنكار على من يتدبر كتاب الله عام لجميع الناس .

ومما يوذح ذلك أن المخاطبين الأولين به الذين نزل فيهم هم المنافقون والكفار ، ليس أحد منهم مستكملاً لشروط الاجتهاد المقررة عند أهل الأصول ، بل ليس عندهم شيء منها أصلاً . فلو كان القرآن لا يجوز أن ينتفع بالعمل به ، والاهتداء بهديه إلا المجتهدون بالإصلاح الأصولي لما وبخ الله الكفار وأنكر عليهم عدم الاهتداء بهداه ، ولما أقام عليهم الحجة به حتى يحصلوا شروط الاجتهاد المقررة عند متأخري الأصوليين ، كما ترى .

ومعلوم أن من المقرر فى الأصول أن صورة سبب النزول قطعية الدخول ، وإذاً فدخول الكفار والمنافقين ، في الآيات المذكورة قطعي ، ولو كان لا يصح الانتفاع بهدي القرآن إلا لخصوص المتجتهدين لما أنكر الله على الكفار عدم تدبرهم كتاب الله ، وعدم عملهم به .

وقد علمت أن الواقع خلاف ذلك قطعاً ، ولا يخفى أن شروط الاجتهاد لا تشترط إلا فيما فيه مجال للاجتهاد ، والأمور المنصوصة في نصوص صحيحة ، من الكتاب والسنة ، لا يجوز الاجتهاد فيها لأحد ، حتى تشترط فيها شروط الاجتهاد ، بل ليس فيها إلا الاتباع ، وبذلك تعلم أنما ذكره صاحب مراقي السعود تبعاً للقرافي من قوله :

من لم يكن مجتهداً فالعمل . . . منه بمعنى النص مما يحظل

لا يصح على إطلاقه بحال لمعارضته لآيات وأحاديث كثيرة من غير استناد إلى دليل .

ومن المعلوم ، أنه لا يصح تخصيص عمومات الكتاب والسنة ، إلا بدليل يجب الرجوع إليه .

ومن المعلوم أيضاً ، أن عمومات الآيات والأحاديث ، الدالة على حث جميع الناس ، على العمل بكتاب الله ، وسنة رسوله ، أكثر من أن تحصى ، كقوله صلى الله عليه وسلم : " تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وسنتي " وقوله صلى الله عليه وسلم " عليكم بسنتي " الحديث . ونحو ذلك مام لا يحصى .

(120/709)

فتخصيص جميع تلك النصوص ، بخصوص المتجتهدين وتحريم الانتفاع بهدي الكتاب والسنة على غيرهم ، تحريماً باتاً يحتاج إلى دليل من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه

وسلم ، ولا يصح تخصيص تلك النصوص بآراء جماعات من المتأخرين المقرين على أنفسهم بأنهم من المقلدين .

ومعلوم أن المقلد الصرف ، لا يجوز عده من العلماء ولا من ورثة الأنبياء ، كما سرتى إيضاحه إن شاء الله .

وقال صاحب مراقي السعود ، في نشر البنود ، في شرحه لبيته المذكور آنفاً ما نصه : يعني أن غير المتجهد ، يحظل له . أي يمنع أن يعمل بمعنى نص من كتاب أو سنة وإن صح سندها لاحتمال عوارضه ، من نسخ وتقييد ، وتخصيص وغير ذلك من العوارض التي لا يضبطها إلا المجتهد ، فلا يخلصه من الله إلا تقليد مجتهد . قاله القرافي . اه . محل الغرض منه بلفظه .

وبه تعلم أنه لا مستند له ، ولا للقرافي الذي تبعه ، في منع جميع المسلمين ، غير المجتهدين من العمل بكتاب الله ، وسنة رسوله ، إلا مطلق احتمال العوارض ، التي تعرض لنصوص الكتاب والسنة ، من نسخ أو تخصيص أو تقييد ونحو ذلك ، وهو مردود من وجهين :

الأول : أن الأصل السلامة من النسخ حتى يثبت ورود الناسخ والعام ظاهر في العموم حتى يثبت ورود المخصص ، والمطلق ظاهر في الإطلاق ، حتى يثبت ورود المقيد والنص يجب العمل به ، حتى يثبت النسخ بدليل شرعي ، والظاهر يجب العمل به عموماً كان أو إطلاقاً أو غيرهما ، حتى يرد دليل صارف عنه الى المحتمل المرجوح . كما هو معروف في محله .

وأول من زعم أنه لا يجوز العمل بالعام ، حتى يبحث عن المخصص فلا يوجد ونحو ذلك ، أبو العباس بن سريج وتبعه جماعات من المتأخرين ، حتى حكوا على ذلك الإجماع حكاية لا أساس لها .

(121/709)

وقد أوضح ابن القاسم العبادي ، في الآيات البينات غلطهم في ذلك ، في كلامه على شرح المحل لقول ابن السبكي في جمع الجوامع ، ويتمسك بالعام في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، قبل البحث عن المخصص ، وكذا بعد الوفاة ، خلافاً لابن سريج اه .

وعلى كل حال فظواهر النصوص ، من عموم وإطلاق ، ونحو ذلك ، لا يجوز تركها إلا لدليل يجب الرجوع إليه ، من مخصص أو مقيد ، لا لمجرد مطلق الاحتمال ، كما هو معلوم في محله .

فادعاء كثير من المتأخرين ، أنه يجب ترك العمل به ، حتى يبحث عن المخصص ، والمقيد مثلاً خلاف التحقيق .

الوجه الثاني : أن غير المجتهد إذا تعلم بعض آيات القرآن ، أو بعض أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ليعمل بها ، تعلم ذلك النص العام ، أو المطلق ، وتعلم معه ، مخصصه ومقيده إن كان مخصصاً أو مقيداً ، وتعلم ناسخه إن كان منسوخاً وتعلم ذلك سهل جداً ، بسؤال

العلماء العارفين به ، ومراجعة كتب التفسير والحديث المعتد بها في ذلك ، والصحابة كانوا في العصر الأول يتعلم أحدهم آية فيعمل بها ، وحديثاً فيعمل به ، ولا يمتنع من العمل بذلك حتى يحصل رتبة الاجتهاد المطلق ، وربما عمل الإنسان بما علم فعلمه ما لم يكن يعلم ، كما يشير له قوله تعالى :

﴿ واتقوا الله ويُعَلِّمُكُمُ الله والله بكُلِّ ﴾ [البقرة : 282] وقوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمنوا إِن تَتَّقُواْ الله يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً ﴾ [الأنفال : 29] على القول بأن الفرقان هو العلم النافع الذي يفرق به بين الحق والباطل .

وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ اتقوا الله وَآمِنُواْ بِرَسُولِهِ يُؤْتكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ ﴾ [الحديد : 28] الآية .

(122/709)

وهذه التقوى ، التي دلت الآيات ، على أن الله يعلم صاحبها ، بسببها ما لم يكن يعلم ، لا تزيد على عمله بما علم ، من أمر الله وعليه فهي عمل ببعض ما علم زاده الله به علم ما لم يكن يعلم .

فالقول بمنع العمل بما علم من الكتاب ولاسنة ، حتى يحصل رتبة الاجتهاد المطلق ، هو عين

السعي في حرمان جميع المسلمين ، من الانتفاع بنور القرآن ، حتى يحصلوا شرطاً مفقوداً ، فى اعتقاد القائلين بذلك ، وادعاء مثل هذا على الله وعلى كتابه وعلى سنة رسوله هو كما ترى .

تنبيه مهم

يجب على كل مسلم ، يخاف العرض على ربه ، يوم القيامة ، أن يتأمل فيه ليرى لنفسه المخرج من هذه الورطة العظمى ، والطاعة الكبرى ، التى عمت جل بلاد المسلمين من المعمورة .

وهي ادعاء الاستغناء عن كتاب الله وسنة رسوله ، استغناء تاماً ، في جميع الأحكام من عبادات ومعاملات ، وحدود وغير ذلك ، بالمذاهب المدونة .

وبناء هذا على مقدمتين :

إحداهما : أن العمل بالكتاب والسنة لا يجوز إلا للمتجهدين .

والثانية : أن المجتهدين معدومون عدماً كلياً ، لا وجود لأحد منهم ، في الدنيا ، وأنه بناء على هاتين المقدمتين ، يمنع العمل بكتاب الله وسنة رسوله منعاً باتاً على جميع أهل الأرض ، ويستغنى عنهما بالمذاهب المدونة .

وزاد كثير منهم على هذا منع تقليد غير المذاهب الأربعة ، وأن ذلك يلزم استمراره إلى آخر الزمان .

فتأمل يا أخي رحمك الله : كيف يسوغ لمسلم ، أن يقول بمنع الاهتداء بكتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وعدم وجوب تعلمهما والعمل بهما ، استغناء عنهما بكلام رجال ، غير معصومين ولا خلاف في أنهم يخطئون .

فإن كان قصدهم أن الكتاب والسنة ، لا حاجة إلى تعلمهما ، وأنهما يغني غيرهما ، فهذا بهتان عظيم ، ومنكر من القول وزور .

(123/709)

وإن كان قصدهم أن تعلمهما صعب لا يقدر عليه ، فهو أيضاً زعم باطل ، لأن تعلم الكتاب والسنة ، أيسر من تعلم مسائل الآراء والاجتهاد المنتشرة ، مع كونه في غاية التعقيد ، والكثرة والله جل وعلا يقول في سورة القمر مرات متعددة : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآنَ للذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : 17 – 22 – 40] . ويقول تعالى في الدخان :

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الدخان : 58] . ويقول في مريم : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ المتقين وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً ﴾ [مريم : 97] .

فهو كتاب ميسر ، بتيسير الله ، لمن وفقه الله للعمل به ، والله جل وعلا يقول ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الذين أُوتُواْ العلم ﴾ [العنكبوت : 49] ، ويقول ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ

بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ على عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : 52] .

فلا شك أن الذي يتباعد ، عن هداه ، يحاول التباعد ، عن هدى الله ورحمته .

ولا شك أن هذا القرآن العظيم ، هو النور الذي أنزله الله إلى أرضه ، ليسضاء به فيعلم في ضوئه الحق من الباطل والحسن من القبيح والناف من الضار ، والرشد من الغي .

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الناس قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً ﴾ [النساء : 174] .

(124/709)

وقال تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكتاب وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ الله نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ الله مَنِ اتبع رِضْوَانَهُ سُبُلَ السلام وَيُخْرِجُهُمْ مِّنِ الظلمات إِلَى النور بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة : 15 - 16] .

وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب وَلاَ الإيمان ولكن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى : 52] وقال تعالى : ﴿ فَآمِنُواْ بالله وَرَسُولِهِ والنور الذي أَنزَلْنَا ﴾ [التغابن : 8] وقال تعالى : ﴿ فالذين آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ واتبعوا النور الذي أُنزِلَ مَعَهُ أولئك هُمُ المفلحون ﴾ [الأعراف : 157

].

فإذا علمت أيها المسلم أن هذا القرآن العظيم ، هو النور الذي أنزله الله ليستضاء به ، ويهدتي بهداه في أرضه ، فكيف ترضى لبصريتك أن تعمى عن النور .

فلا تكن خفي البصيرة ، واحذر أن تكون ممن قيل فيهم :

خفافيشش أعماها النهار بضوئه . . . ووافقها قطع من الليل مظلم

مثل النهار يزيد أبصار الورى . . . نوراً ويعمي أعين الخفاش

﴿ يَكَادُ البرق يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ [البقرة : 22] . ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحق كَمَنْ هُوَ أعمى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الألباب ﴾ [الرعد : 19] .

ولا شك أن من عميت بصيرته عن النور ، تخبط في الظلام ، ومن لم يجعل الله له نوراً ، فما له من نور .

وبهذا تعلم أيها المسلم المنصف ، أنه يجب عليك الجد ، والاجتهاد في تعلم كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وبالوسائل النافعة المنتجة ، والعمل بكل ما علمك الله منهما ، علماً صحيحاً .

ولتعلم أن تعلم كتاب الله وسنة رسوله في هذا الزمان ، أيسر منه بكثير في القرون الأولى ، لسهولة معرفة جميع ما يتعلق بذلك ، من ناسخ ومنسوخ وعام وخاص ، ومطلق ومقيد ، ومجمل ومبين وأحوال الرجال ، من رواة الحديث ، والتمييز بين الصحيح والضعيف ، لأن الجميع ضبطج وأتقن ودون ، فالجميع سهل التناول اليوم .

فكل آية من كتاب الله قد علم ما جاء فيها من النبي صلى الله عليه وسلم ثم من الصحابة والتابعين وكبار المفسرين .

وجميع الأحاديث الواردة عنه صلى الله عليه وسلم حفظت ودونت ، وعلمت أحوال متونها وأسانيدها وما يتطرق غليها من العلل والضعف .

فجميع الشروط التي اشترطوها في الاجتهاد يسهل تحصيلها جداً على كل من رزقه الله فهماً وعلماً .

والناسخ والمنسوخ ، والخاص والعام ، والمطلق والمقيد ، ونحو ذلك تسهل معرفته اليوم على كل ناظر في الكتاب والسنة ممن رزقه الله فهماً ووفقه لتعلم كتاب الله وسنة رسوله .

واعلم أيها المسلم المنصف ، أن من أشنع الباطل وأعظم القول بغير الحق ، على الله وكتابه وعلى النبي وسنته المطهرة ، ما قاله الشيخ أحمد الصاوي ، في حاشيته على الجلالين ، في سورة الكهف وآل عمران وغتر بقوله في ذلك ، خلق لا يحصى من المتسمين ، باسم طلبة العلم ، لكونهم لا يميزون بين حق وباطل .

فقد قال الصاوي أحمد المذكور في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴾ [الكهف : 23] الآية ، بعد أن ذكر الأقوال في انفصال الاستثناء عن المستثنى منه بزمان ، ما نصه : وعامة المذاهب الأربعة على خلاف ذلك كله فإن شرط حل الأيمان بالمشيئة أن تتصل ، وأن يقصد بها حل اليمين ، ولا يضر الفصل بتنفس أو سعال أو عطاس ، ولا يجوز تقليد ما عدا المذاهب الأربعة ، ولو وافق قول الصحابة والحديث الصحيح والآية ، فالخارج عن المذاهب الأربعة ، ضال مضل وربما أداه ذلك للكفر ، لأن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر . اه . منه بلفظه .

فانظر يا أخي رحمك الله ، ما أشنع هذا الكلام وما أبطله ، وما أجرأ قائله على الله ، وكتابه وعلى النبي صلى الله عليه وسلم وسنته وأصحابه ﴿ سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور : 19] .

أما قوله بأنه لا يجوز الخروج عن المذاهب الأربعة ، ولو كانت أقوالهم مخالفة للكتاب والسنة ، وأقوال الصحابة فهو قول باطل بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة رضي الله عنهم وإجماع الأئمة الأربعة أنفسهم ، كما سنرى إيضاحه إن شاء الله بما لا مزيد عليه في المسائل الآتية

بعد هذه المسألة . فالذي ينصره هو الضال المضل .

وأما قوله : إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة ، من أصول الكفر ، فهذا أيضاً من أشنع الباطل وأعظمه ، وقائله من أعظم الناس انتهاكاً لحرمة كتاب الله وسنة لرسوله صلى الله عليه وسلم . ﴿ سُبْحَانَكَ هذا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور : 19] .

والتحقيق الذي لا شك فيه ، وهو الذي كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعامة علماء المسلمين أنه لا يجوز العدول عن ظاهر كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حال من الأحوال بوجه من الوجوه ، حتى يقوم دليل صحيح شرعي صارف عن الظاهر إلى المحتمل المرجوح .

(127/709)

والقول بأن العمل بظاهر الكتاب والسنة من أصول الكفر لا يصدر ألبتة عن عالم بكتاب الله وسنة رسوله وإنما يصدر عمن لا علم له بالكتاب والسنة أصلاً ، لأنه لجهله بهما يعتقد ظاهرهما كفراً والواقع في نفس الأمر أن ظاهرهما بعيد مما ظنه أشد من بعد الشمس من اللمس .

ومما يوضح لك ذلك أن آية الكهف هذه ، التي ظن الصاوي أن ظاهرها حل الأيمان بالتعليق

بالمشيئة المتأخر وزمنها عن اليمين وأن ذلك مخالف للمذاهب الأربعة : وبنى على ذلك أن العمل بظواهر الكتاب والسنة من أُول الكفر كله باطل لا أساس له .

وظاهر الآية بعيد مما ظن بل الظن الذي ظنه والزعم الذي زعمه لا تشير الآية إليه أصلاً ، ولا تدل عليه لا بدلالة المطابقة ، ولا التضمن ولا الالتزام . فضلاً على أن تكون ظاهرة فيه .

وسبب نزولها يزيد ذلك إيضاحاً ، لأن سبب نزول الآية أن الكافر سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين فقال لهم " سأخبركم غداً " ، ولم يقل إن شاء الله فعاتبه ربه بعدم تفويض الأمر إليه ، وعدم تعليقه بمشيئته جل وعلا فتأخر عنه الوحي .

ثم علمه الله في الآية والأدب معه في قوله : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الكهف : 23 – 24] .

ثم قال لنبيه ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [الكهف : 24] يعني إن قلت سأفعل كذا غداً ، ثم نسيت أن تقول إن شاء الله ، ثم تذكرت بعد ذلك ، فاذكر ربك ، أي قل إن شاء الله ، أي لتتدارك بذلك الأدب ، مع الله الذي فاتك عند وقته ، بسبب النسيان وتخرج من عهدة النهي في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الكهف : 23 – 24] .

والتعليق بهذه المشيئة المتأخرة لأجل المعنى المذكور ، الذي هو ظاهر الآية الصحيح لا يخالف مذهباً من المذاهب الأربعة ولا غيرهم ، وهو التحقيق في مراد ابن عباس بما ينقل عنه من جواز تأخير الاستثناء كما أوضحه كبير المفسرين . أبو جعفر بن جرير الطبري رحمه الله .

وقد قدمنا إيضاحه فيى الكالم على آي الكهف هذه . في أتباع الصاوي المقلدين له تقليداً أعمى على جهالة عمياء ، أين دل ظاهر آية الكهف هذه ، على اليمين بالله ، أو بالطلاق أو بالعتق أو بغير ذلك من الأيمان ؟

هل النبي صلى الله عليه وسلم حلف لما قال للكفار : سأخبركم غداً ؟

وهل قال الله : ولا تقولن لشيء غني حالف سأفعل ذلك غداً ؟

ومن أين جئتم باليمين ، حتى قلتم إن ظاهر القرآن ، هو حل الأيمان بالمشيئة المتأخرة عنها ، وبنيتم على ذلك أن ظاهر الآية مخالف لمذاهب الأئمة الأربعة ، وأن العمل بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر ؟

ومما يزيد مما ذكرنا إيضاحاً ما قاله الصاوي أيضاً في سورة آل عمران في الكلام على قوله

تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابتغاء الفتنة وابتغاء تَأْوِيلِهِ ﴾ [آل عمران : 7] فإنه قال على كلام الجلال ما نصه : زيغ أي ميل عن الحق للباطل ، قوله : بوقوعهم في الشبهات واللبس ، أي كنصارى نجران ، ومن حذا حذوهم ممن أخذ بظاهر القرآن ، فإن العلماء ذكروا أن من أصول الكفر الأخذ بظواهر الكتاب والسنة اه .

فانظر رحمك الله ، ما أشنع هذا الكلام وما أبطله وما أجرأ قائله على انتهاك حرمات الله ، وكتابه ونبيه وسنته صلى الله عليه وسلم ، وما أدله على أن صاحبه لا يدري ما يتكلم به . فإنه جعل ما قاله نصارى نجران ، هو ظاهر كتاب الله ، ولذا جعل مثلهم من حذا حذوهم فأخذ بظاهر القرآن .

(129/709)

وذكر أن العلماء قالوا إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر مع أنه لا يدري وجه ادعاء نصارى نجران على ظاهر القرآن أنه كفر ، مع أنه مسلم أن ادعاءهم على ظاهر القرآن أنه كفرهم ومن حذا حذوهم ادعاء صحيح إلا أن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر .

وقد قال قبل هذا : قيل سبب نزولها أن وفد نجران قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ألست

تقول : إن عيسى روح الله وكلمته ؟ فقال نعم ، فقالوا حسبنا ، أي كفانا ذلك في كونه ابن الله . فنزلت الآية .

فاتضح أن الصاوي يعتقد أن ادعاء نصارى نجران أن ظاهر قوله تعالى : ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء : 171] هو أن عيس ابن الله ادعاء صحيح ، وبنى على ذلك أن العماء قالوا إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر .

وهذا كله من أشنع الباطل وأعظمه ، فالآية لا يفهم من ظاهرها ألبتة ، بوجه من الوجوه ، ولا بدلالة من الدلالات ، أن عيس ابن الله ، وادعاء نصارى نجران ذلك كذب بحت .

فقول الصاوي كنصارى نجران ، ومن حذا حذوهم ممن أخذ بظواهر القرآن صريح في أنه يعتقد أن ما ادعاه وفد نجران من كون عيس ابن الله هو ظاهر القرآن اعتقاد باطل باطل باطل ، حاشا القرآن العظيم من أن يكون هذا الكفر البواح ظاهره ، بل هو لا يدل عليه ألبتة فضلاً عن أن يكون ظاهره وقوله : ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض جَمِيعاً مِّنْهُ ﴾ [الجاثية : 13] أي كل ذلك من عيسى وم تسخير السماوات والأرض مبدؤه ومنشؤه جل وعلا .

فلفظة من في الآيتين لابتداء الغاية ، وذلك هو ظاهر القرآن وهو الحق خلافاً لما زعمه الصاوي وحكاه عن نصارى نجران .

وقد اتضح بما ذكرنا أن الذين يقولون : إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر لا يعلمون ما هي الظواهر وأنهم يعتقدون شيئاً ظاهر النص . والواقع أن النص لا يدل عليه بحال من الأحوال فضلاً عن أن يكون ظاهره .

فبنوا باطلاً على باطل ، ولا شك أن الباطل لا يبنى عليه إلا الباطل .

ولو تصوروا معاني ظواهر الكتاب والسنة على حقيقتها لمنعهم ذلك ، من أن يقولوا ما قالوا .

فتصور الصاوي ، أن ظاهر آية الكهف المتقدمة ، هو حل الأيمان ، بالتعليق بالمشيئة المتأخر زمنها عن اليمين ، وبناؤه على ذلك مخالفة ظاهر الآية لمذاهب الأئمة الأربع ، وأن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر ، مع أن الآية لا تشير أصلاً إلى ما اعتقد أنه ظاهرها .

وكذلك اعتقاده أن ظاهر آية آل عمران المذكورة هو ما زعمه نصارى نجران ، من أن عيسى ابن الله فإنه كله باطل وليس شيء مام زعم ظاهر القرآن مطلقاً ، كما لا يخفى على عاقل .

وقول الصاوي في كلامه المذكور في سورة آل عمران : إن العلماء قالوا : إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر . قول باطل لا يشك في بطلانه من عنده أدنى معرفة .

ومن هم العلماء الذين قالوا إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر ؟

سموهم لنا ، وبينوا لنا من هم ؟

والحق الذي لا شك فيه أن هذا القول لا يقوله عالم ، ولا متعلم ، لأن ظواهر الكتاب والسنة هي نور الله الذي أنزله على رسوله ليستضاء به في أرضه وتقام به حدوده ، وتنفذ به أوامره ، وينصف به بين عباده في أرضه .

والنصوص القطعية التي لا احتمال فيها قليلة جداً لا يكاد يوجد منها إلا أمثلة قليلة جداً كقوله تعالى : ﴿ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الحج وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ [البقرة : 196] .

والغالب الذي هو الأكثر هو كون نصوص الكتاب والسنة ظواهر .

(131/709)

وقد أجمع جميع المسلمين على أن العمل بالظاهر واجب حتى يرد دليل شرعي صارف عنه ، إلى المحتمل المرجوح ، وعلى هذا كل من تكلم في الأصول .

فتنفير الناس وإبعادها عن كتاب الله ، وسنة رسوله ، بدعوى أن الأخذ بظواهرهما من أصول الكفر هو من أشنع الباطل وأعظمه كما ترى .

وأصول الكفر يجب على كل مسلم أن يحذر منها كل الحذر ، ويتباعد منها كل التباعد ويتجنب أسبابها كل الاجتناب ، فيلزم على هذا القول المنكر الشنيع وجوب التباعد من الأخذ بظواهر الوحي .

وهذا كما ترى ، وبما ذكرنا يتبين أن من أعظم أسباب الضلال ، ادعاء أن ظواهر الكتاب والسنة دالة على معان قبيحة ، ليست بلائقة .

والواقع في نفس الأمر بعدها وبراءتها من ذلك .

وسبب تلك الدعوى الشنيعة على ظواهر كتاب الله ، وسنة رسوله ، هو عدم معرفة مدعيها .

ولأجل هذه البلية العظمى ، والطامة الكبرى ، زعم كثير من النظار الذين عندهم فهم ، أن ظواهر آيات الصفات وأحاديثها ، غير لائقة بالله ، لأن ظواهرها المتبادرة منها هو تشبيه صفات الله بصفات خلقه ، وعقد ذلك المقري في إضاءته في قوله :

والنص إن أوهم غير اللائق . . . بالله كالتشبيه بالخلائق

فاصرفه عن ظاهره أجماعاً . . . واقطع عن الممتنع الأطماعا

وهذه الدعوى الباطلة ، من أعظم الافتراء على آيات الله تعالى ، وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم .

والواقع في نفس الأمر أن ظواهر آيات الصفات وأحاديثها المتبادرة منها ، لكل مسلم راجع

عقله ، هي مخالفة صفات الله لصفات خلقه .

ولا بد أن نتساءل هنا فنقول :

أليس الظاهر المتبادر مخالفة الخالق للمخلوق ، في الذات والصفات والأفعال ؟

والجواب الذي لا جواب غيره : بلى .

وهل تشابهت صفات اله مع صفات خلقه حتى يقال إن اللفظ الدال على صفته تعالى ظاهره المتبادر منه تشبيهه بصفة الخلق ؟

والجواب الذي لا جواب غيره : لا .

(132/709)

فبأي وجه يتصور عاقل أن لفظاً أنزله الله في كتابه ، مثلاً دالاً على صفة من صفات الله اثنى بها تعالى على نفسه ، يكون ظاهره المتبادر منه ، مشابهته لصفة الخلق ؟ ﴿ سُبْحَانَكَ هذا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور : 19] .

فالخالق والمخلوق متخالفان كل التخالف وصفاتهما متخالفة كل التخالف .

فبأي وجه يعقل دخول صفة المخلوق في اللفظ الدال على صفة الخالق ؟ أو دخول صفة الخالق في اللفظ الدال على صفة المخلوق مع كمال المنافقاة بين الخالق والمخلوق ؟

فكل لفظ دل على صفة الخالق ظاهره المتبادر منه أن يكون لائقاً بالخالق منزهاً عن مشابهة صفات المخلوق .

وكذلك اللفظ الدال على صفة المخلوق لا يعقل أن تدخل فيه صفة الخالق .

فالظاهر المتبادر من لفظ اليد بالنسبة للمخلوق ، هو كونها جارحة هي عظم ولحم ودم ، وهذا هو الذي يتبادر إلى الذهن في نحو قوله تعالى : ﴿ فاقطعوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة : 38] .

والظاهر المتبادر من اليد بالنسبة للخالق في نحو قوله ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص : 75] أنها صفة كمال وجلال ، لائقة بالله جل وعلا ثابتة له على الوجه اللائق بكماله وجلاله .

وقد بين جل وعلا عظم هذه الصفة وما هي عليه من الكمال والجلال ، وبين أنها من صفات التأثير كالقدرة ، قال تعالى في تعظيم شأنها ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامة والسماوات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر : 67] .

وبين أنها صفة تأثير كالقدرة ، في قوله تعالى : ﴿ قَالَ يا إبليس مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص : 75] ، تفصريحه تعالى بأنه خلق نبيه آدم بهذه الصفة العظيمة التي هي صفات كماله وجلاله يدل على أنها من صفات التأثير كما ترى .

ولا يصح هنا تأويل اليد بالقدرة ألبتة ، لإجماع أهل الحق والباطل ، كلهم على أنه لا يجوز تثنية القدرة .

ولا يخطر في ذهن المسلم المراجع عقله ، دخول الجارحة التي هي عظم ولحم ودم في معنى هذا اللفظ ، الدال على هذه الصفة العظيمة من صفات خالق السماوات والأرض .

فاعلم أيها المدعي أن ظاهر لفظ اليد في الآية المذكورة وأمثالها ، لا يليق بالله ، لأن ظاهرها التشبيه بجارحة الإنسان ، وأنها يجب صرفها ، عن هذا الظاهر الخبيث ، ولم تكتف بهذا حتى ادعيت الإجماع على صرفها عن ظاهرها ، إن قولك هذا كله افتراء عظيم على الله تعالى ، وعلى كتابه العظيم ، وإنك سببه كنت عظم المشبهين والمجسمين ، وقد جرك شؤم هذا التشبيه ، إلى ورطة التعطيل ، فنفيت الوصف الذي أثبته الله في كتابه لنفسه بدعوى أنه لا يليق به ، وأولته بمعنى آخر من تلقاء نفسك بلا مستند من كتاب ولا سنة ولا إجماع ، ولا قول أحد من السلف .

وماذا عليك لو صدقت الله وآمنت بما مدح به فنسه على الوجه اللائق بكماله وجلاله من غير كيف ولا تشبيه ولا تعطيل ؟

وبأي موجب سوغت لذهنك أن يخطر فيه صفة المخلوق عند ذكر صفة الخالق ؟

هيل تلتبس صفة الخالق بصفة المخلوق عن أحد ؟ حتى يفهم صفة المخلوق من اللفظ الدال على صفة الخالق ؟

فاخش الله يا إنسان ، واحذر من التقول على الله بلا علم ، وآمن بما جاء في كتاب الله مع تنزيه الله عن مشابهة خلقه .

واعلم أن الله الذي أحاط علمه بكل شيء لا يخفى عليه الفرق بين الوصف اللائق به والوصف غير اللائق به ، حتى يأتي إنسان فيتحكم في ذلك فيقول : هذا الذي وصفت به نفسك غير لائق بك ، وأنا أنفيه عنك بلا مستند منك ولا من رسولك ، وآتيك بدله بالوصف اللائق بك .

فاليد مثلا التي وصفت بها نفسك لا تليق بك لدلالتها على التشبيه بالجارحة ، وأنا أنفيها عنك نفياً باتاص ، وأبدلها لك بوصف لائق بك وهو النعمة أو القدرة مثلاً أو الجود .

﴿ سُبْحَانَكَ هذا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾

(134/709)

[النور : 19] .

﴿ فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمَنُواْ قَدْ أَنزَلَ الله إِلَيْكُمْ ذِكْراً رَّسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ الله مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات مِنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ [الطلاق : 10 – 11] .

ومن الغريب أن بعض الجاحدين لصفات الله المؤولين لها بمعان لم ترد عن الله ولا عن رسوله يؤمنون فيها ببعض الكتاب دون بعض .

فيقرون بأن الصفات السبع التي تشتق منها أوصاف ثابتة لله مع التنزيه ، ونعني بها القدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام ، لأنها يشتق منها قادر حي عليم إلخ .

وكذلك في بعض الصفات الجامعة كالعظمة والكبرياء والملك والجلال مثلاً ، لأنها يشتق منها العظيم المتكبر والجليل والملك ، وهكذا ويجحدون كل صفة ثبتت في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لم يشتق منها غيرها كصفة اليد والوجه ونحو ذلك ، ولا شك أن هذا التفريق بين صفات الله التي أثبتها لنفسه أو أثبتها له رسوله صلى الله عليه وسلم لا وجه له ألبتة بوجه من الوجوه .

ولم يرد عن الله ولا عن رسوله صلى الله عليه وسلم الإذن في الإيمان ببعض صفاته وجحد بعضها ، وتأويله لأنها لا يشتق منها .

وهل يتصور عاقل أن يكون عدم الاشتقاق مسوغاً لجحد ما وصف الله به نفسه ؟

ولا شك عند كل مسلم راجع عقله ، أن عدم الاشتقاق لا يرد به كلام اللهن فيما أثنى به على نفسه ، ولا كلام رسوله فيما وصف به ربه .

والسبب الموجب للإيمان إيجاباً حتماً كلياً هو كونه من عند الله ، وهذا السبب هو الذي علم الراسخون في العلم أنه الموجب للإيمان بكل ما جاء عن الله سواء استأثر الله بعلمه كالمتشابه ، أو كان مما يعلمه الراسخون في العلم كما قال الله عنهم : ﴿ والراسخون فِي العلم يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران : 7] .

(135/709)

فلا شك أن قوله تعالى : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص : 75] من عند ربنا . وقوله تعالى : ﴿ والله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : 284] من عند ربنا أيضاً ، فيجب علينا الإيمان بالجميع ، لأنه كله من عند ربنا .

أما الذي يفرق بينه ، وهو عالم بأن كله من عند ربه ، بأن هذا يشتق منه ، وهذا لا يشتق منه فقد آمن ببعض الكتاب دون بعض .

والمقصود أن كلما جاء من عند الله ، يجب الإيمان به سواء كان من المشتابه ، أو من غير المشتابه ، وسواء كان يشتق منه أو لا .

ومعلوم أن مالكاً رحمه الله سئل كيف استوى ، فقل الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب .

وما يزعمه بعضهم من أن القدرة والإرادة مثلاً ونحوهما ليست كاليد ، والوجه ، بدعوى أن القدرة والإرادة مثلاً ظهرت آثارهما في العالم العلوي والسفلي بخلاف غيرهما كصفة اليد ونحوها فهو من أعظم الباطل .

ومما يوضح ذلك أن الذي يقول هو وأبوه وجده من آثار صفة اليد اليت خلق الله بها نبيه آدم .

ونحن نرجو أن يغفر الله للذين ماتوا على هذا الاعتقاد ، لأنهم لا يقصدون تشبيه الله بخلقه ، وإنما يحاولون تنزيهه عن مشابهة خلقه .

فقصدهم حسن ولكن طريقهم إلى ذلك القصد سيئة .

وإنما نشأ لهم ذلك السوء بسبب أنهم ظنوا لفظ الصفة التي مدح الله بها نفسه يدل ظاهره على مشابهة صفة الخلق فنفوا الصفة التي ظنوا أنها لا تليق قصداً منهم لتنزيه الله ، وأولوها بمعنى آخر يقتضي التنزيه في ظنهم فهم كما قال الشافعي رحمه الله :

رام نفعاً فضر من غير قصد . . . ومن البر ما يكون عقوقا

ونحن نرجو أن يغفر الله لهم خطأهم ، وأن يكونوا داخلين في قوله تعالى : ﴿ اوليس عَلَيْكُمْ

جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ولكن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [الأحزاب : 5] .

(136/709)

وخطؤهم المذكور لا شك فيه ، ولو وفقهم الله لتطهير قلوبهم من التشبيه أولاً ، وجزموا بأن ظاهر صفة الخالق هو التنزيه عن مشابهة صفة المخلوق ، لسلموا مما وقعوا فيه .

ولا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم ، عالم كل العلم ، بأن الظاهر المتبادر ، مما مدح الله به نفسه ، في آيات الصفات هو التنزيه التام عن صفات الخلق ، ولو كان يخطر في ذهنه لا يليق ، لأنه تشبيه بصفات الخلق ، لبادر كل المبادرة غلى بيان ذلك ، لأنه لا يجوز في حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة إليه ، ولا سيما في العقائد ، ولا سيما فيما ظاهره الكفر والتشبيه .

فسكوت النبي صلى الله عليه وسلم عن بيان هذا يدل على أن ما زعمه المؤولون لا أساس له كما ترى .

فإن قيل : إن هذا القرآن العظيم ، نزل بلسان عربي مبين ، والعرب لا تعرف في غلتها ، كيفية لليد مثلاً ، إلا كيفية المعاني المعروفة عندها كالجارحة ، وغيرها من معاني اليد

المعروفة في اللغة ، فبينوا لنا كيفية لليد ملائمة لما ذكرتم .

فالجواب من وجهين :

الوجه الأول : أن العرب لا تدرك كيفيات صفات الله من لغتها ، لشدة منافاة صفة الله لصفة الخلق .

والعرب لا تعرف عقولهم كيفيات إلا لصفات الخلق ، فلا تعرف العرب كيفية للسمع والبصر ، غلا هذه المشاهدة ، في حاسة الأذن والعين ، أما سمع لا يقوم بأذن وبصر لا يقوم بحدقة ، فهذا لا يعرفون له كيفية ألبتة .

فلا فرق بين السمع والبصر ، وبين اليد والاستواء ، فالذي تعرف كيفيته العرب من لغتها من جمع ذلك ، هو المشاهد في المخلوقات .

وأما الذي اتصف الله به من ذلك ، فلا تعرف له العرب كيفية ، ولا حداً لمخالفة صفاته لصفات الخلق ، إلا أنهم يعرفون من لغتهم أصل المعنى ، كما قال الإمام مالك رحمه الله : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

(137/709)

كما يعرفون من لغتهم ، أن بين الخالق والمخلوق ، والرزق والمرزوق ، والمحيي والمحيا ، والمميت والممات . فوارق عظيمة لا حد لها ، تستلزم المخالفة ، التامة ، بين صفات الخالق والمخلوق .

الوجه الثاني : أن نقول لمن قال : بينوا لنا كيفية لليد ملائمة لما ذكرتم ، من كونها صفة كمال ، وجلال ، منزهة عن مشابهة جارحة المخلوق .

هل عرفت كيفية الذات المقدسة المتصفة باليد ، فلا بد أن تقول : لا . فإن قال ذلك .

قلناك معرفة كيفية الصفات تتوقف على معرفة كيفية الذات .

فالذات والصفات من باب واحد .

فكما أن ذاته جل وعلا تخالف جميع الذوات ، فإن صفاته تخالف جميع الصفات .

ومعلوم أن الصفات ، تختلف وتتباين ، باختلاف موصوفاتها .

ألا ترى مثلاً أن لفظة رأس كلمة واحدة ؟

إن أضفتها إلى الإنسان فقلت رأس الإنسان ، وإلى الوادي فقلت رأس الوادي ، وإلى المال فقلت رأس المال ، وإلى الجبل فقلت رأس الجبل .

فإن كلمة الرأس اختلفت معانيها ، وتباينت تبايناً ، شديداً بحسب اختلاف إضافتها مع أنها في مخلوقات فما بالك بما أضيف من الصفات إلى الله وما أضيف منها إلى خلقه ، فإنه يتباين كتباين الخلق والمخلوق ، كما لا يخفى .

فاتضح بما ذكر أن الشرط في قول المقري في إضاءته :

والنص إن أوهم غير اللائق . . . شرط مفقود قطعاً ، لأن نصوص الوحي الواردة في صفات الله ، لا تدل ظواهرها ألبتة ، إلا على تنزيه الله ، ومخالفته لخلقه في الذات والصفات والأفعال .

فكل المسلمين ، الذي يراجعون عقولهم ، لا يشك أحد منهم في أن الظاهر المتبادر السابق إلى ذهن المسلم ، هو مخالفة الله لخلقه ، كما نص عليه بقوله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : 11] وقوله ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَد ﴾ [الإخلاص : 4] ونحو ذلك من الآيات ، وبذلك تعلم أن الإجماع الذي بناه على ذلك في قوله :

(138/709)

فاصرفه عن ظاهره إجماعا . . . إجماعا مفقود أصلاً ، ولا وجود له ألبتة ، لأنه مبني على شرط مفقود لا وجود له ألبتة .

فالإجماع المعدوم المزعوم لم يرد في كتاب الله ، ولا في سنة رسوله ، ولم يقله أحد من أصحاب رسول الله ، ولا من تابعيهم ولم يقله أحد من الأئمة الأربعة ، ولا من فقهاء الأمصار المعروفين .

وإنما لم يقولوا بذلك لأنهم يعلمون أن ظواهر نصوص الوحي لا تدل إلا على تنزيه الله عن مشابهة خلقه ، وهذا الظاهر الذي هو تنزيه الله لا داعي لصفرها عنه كما ترى .

ولأجل هذا كله قلنا فى مقدمة هذا الكتاب المبارك ، إن الله تبارك وتعالى موصوف بتلك الصفات حقيقة لا مجازاً ، لأنا نعتقد اعتقاداً جازماً لا يتطرق إليه شك ، أن ظواهر آيات الصفات وأحاديثها ، لا تدل ألبتة إلى على التنزيه عن مشابهة الخلق واتصافه تعالى بالكمال والجلال .

وإثبات التنزيه والكمال والجلال لله حقيقة لا مجازاً لا ينكره مسلم .

ومما يدعو إلى التصريح بلفظ الحقيقة ، ونفي المجاز ، كثرة الجاهليت الزعمين أن تلك الصفات لا حقائق لها ، أنها كلها مجازات .

وجعلوا ذلك طريقاً إلى نفيها ، لأن المجاز يجوز نفيه ، والحقيقة لا يجوز نفيها .

فقالوا مثلاً : اليد مجاز يردا به القدرة والنعمة أو الجود ، فنفوا صفة اليد ، لأنها مجاز .

وقالوا على العرش استوى : مجاز فنفوا الاستواء ، لأنه مجاز .

وقالوا : معنى استوى : استولى ، وشبهوا استيلاءه باستيلاء بشر بن مروان على العراق .

(139/709)

ولو تدبروا كتاب الله ، لمنعم ذلك من تبديل الاستواء بالاستيلاء ، وتبديل اليد بالقدرة ، أو النعمة ، لأن الله جل وعلا يقول في محكم كتابه في سورة البقرة ﴿ فَبَدَّلَ الذين ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الذي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الذين ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السمآء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ [البقرة : 59] . ويقول في الأعراف ﴿ فَبَدَّلَ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الذي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِّنَ السمآء بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف : 162] فالقول الذي قاله الله لهم ، هو قوله حطة ، وهي فعلة من الحط بمعنى الوضع خبر مبتدأ محذوف أي دعاؤنا ومسألتنا لك حطة لذنوبنا أي حط ووضع لها عنا فهي بمعنى طلب المغفرة ، وفي بعض روايات الحديث في شأنهم أنهم بدلوا هذا القول بأن زادوا نوناً فقط فقالوا حنطة وهي القمح .

وأهل التأويل قيل لهم على العرش استوى .

فزادوا لاما فقالوا استولى .

وهذه اللام التي زادوها أشبه شيء بالنون التي زادها اليهود في قوله تعالى ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآءِ نفسي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ إِني أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس : 15] .

ولا شك أن من بدل استوى باستولى مثلاً لم يتبع ما أوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

فعليه أن يجتنب التبديل ويخاف العذاب العظيم ، الذي خافه رسول الله صلى الله عليه

وسلم لو عصا الله فبدل قرآناً بغيره المذكور في قوله ﴿ إِنِي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس : 15] .

واليهود لم ينكروا أن اللفظ الذي قاله الله لهم : هو لفظ حطة ولكنهم حرفوه بالزيادة المذكورة .

(140/709)

وأهل هذه المقالة ، لم ينكروا أن كلمة القرآن هي استوى ، ولكن حرفوها وقالوا في معناها استولى وإنما أبدلوها بها ، لأنها أصلح في زعمهم من لفظ كلمة القرآن ، لأن كلمة القرآن توهم غير اللائق ، وكلمة استولى في زعمهم هي المنزهة اللائقة بالله معأنه لا يعقل تشبيه أشنع من تشبيه استيلاء الله على عرشه المزعوم ، باستيلاء بشر على العراق .

وهل كان أحد يغاب بالله على عرشه حتى غبه على العرش ، واستولى عليه ؟

وهل يوجد شيء إلا والله مستول عليه ، فالله مستول على كل شيء .

وهل يجوز أن يقال إنه تعالى استوى على كل شيء غير العرش ؟

فافهم .

وعلى كل حال ، فإن المؤول ، زعم أن الاستواء يوهم غير اللائق بالله لاستلزامه مشابهة

استواء الخلق ، وجاء بدله بالاستيلاء ، لأنه هو اللائق به في زعمه ، ولم ينتبه .

لأن تشبيه استيلاء الله على عرشه باستيلاء بشر بن مروان على العراق هو أفظع أنواع التشبيه ، وليس بلائق قطعاً ، إلا أنه يقول : إن الاستيلاء المزعوم منزه ، عن مشابهة استيلاء الخلق ، مع أنه ضرب له المثل باستيلاء بشر على العراق والله يقول ﴿ فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 74] .

ونحن نقول : أيها المؤول هذا التأويل ، نحن نسألك إذا علمت أنه لا بد من تنزيه أحد اللفظين أعني لفظ ﴿ استوى ﴾ [البقرة : 29 والأعراف : 54] الذي أنزل الله به الملك على النبي صلى الله عليه وسلم قرآناً يتلى ، كل حرف منه عشر حسنات ومن أنكر أنه من كتاب الله كفر .

ولفظة استولى التي جاء بها قوم من تلقاء أنفسهم من غير استناد إلى نص من كتاب الله ولا سنة رسوله ولا قول أحد من السلف .

فأي الكلمتين أحق بالتنزيه في رأيك . الأحق بالتنزيه كلمة القرآن ، المنزلة من الله على رسوله ، ام كلمتكم التي جئتم بها ، من تلقءا أنفسكم ، من غير مستند أصلاً ؟

ونحن لا يخفى علينا الجواب الصحيح ، عن هذا السؤال إن كنت لا تعرفه .

(141/709)

واعلم أنما ذركنا من أن ما وصف الله به نفسه من صفات ، فهو موصوف به حقيقة لا مجازاً ، على الوجه اللائق بكماله وجلاله .

وأنه لا فرق ألبتة بين صفة يشتق منها وصف ، كالسمع والبصر والحياة .

وبين صفة لا يشتق منها كالوجه واليد .

وأن تأويل الصفات كتأويل الاستواء بالاستيلاء لا يجوز ولا يصح .

هو معتقد أبي الحسن الأشعري رحمه الله .

وهو معتقد عامة السلف ، وهو الذي كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

فمن ادعى على أبي الحسن الأشعري ، أن يؤول صفة من الصفات ، كالوجه اليد والاستواء ، ونحو ذلك فقد افترى عليه افتراء عظيماً .

بل الأشعري رحمه الله مصرح في كتبه العظيمة التي صنفها بعد رجوعه عن الاعتزال ، [كالموجز] ، [ومقالات الإسلاميين واختلاف المصلين] ، [والإبانة عن أصول الديانة] أن معتقده الذي يدين الله به هو ما كان عليه السلف الصالح من الإيمان بكل ما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم ، وإثبات ذلك كله من غير كيف ولا تشبيه ولا تعطيل .

وأن ذلك لا يصح تأويله ولا القول بالمجاز فيه .

وأن تأول الاستواء بالاستيلاء هو مذهب المعتزلة ومن ضاهاهم .

وهو أعلم الناس بأقوال المعتزلة لأنه كان أعظم إمام في مذهبهم ، قبل أن يهديه الله إلى الحق ، وسنذكر لك هنا بعض نصوص أبي الحسن الأشعري رحمه الله لتعلم صحة ما ذكرنا عنه .

قال رحمه الله [في كتاب الإبانة عن أصول الديانة] ، الذي قال غير واحد أنه آخر كتاب صنفه ، ما نصه :

فإن قال لنا قائل : قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة ، والمرجئة ، فعرفونا قولكم الذي به تقولون وديانتكم التي بها تدينون قيل له :

قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها ، التمسك بكتاب ربنا عز وجل وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم ، وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث .

(142/709)

ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل نصر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته قائلون ، ولمن خالف قوله مجانبون .

لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل الذي أبان به الحق ورفع به الضلال وأوضح به المنهاج وقمع به بدع المبتدعين ، وزيغ الزائغين وشك الشاكين . فرحمة الله عليه من إمام مقدم

وخليل معظم مفخم ، وعلى جميع أئمة المسلمين .

وجملة قولنا : أنا نقر بالله وملائكته وكتبه ورسوله وما جاء من عند الله ، وما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا نرد من ذلك شيئاً .

وأن الله عز وجل إله واحد لا إله إلا هو فرد صمد ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق ، والساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور .

وأن الله استوى على عرشه كما قال ﴿ الرحمن عَلَى العرش استوى ﴾ [طه : 5] وأن له وجهاً كما قال :

﴿ ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجلال والإكرام ﴾ [الرحمن : 27] . وأن له يدين بلا كيف كما قال ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص : 75] وكما قال ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر : 14] اه . محل الغرض منه بلفظه .

وبه تعلم أن من يفتري على الأشعري أنه من المؤولين المدعين أن ظاهر آيات الصفات وأحاديثها لا يليق بالله كاذب عليه كذباً شنيعاً .

وقال الشيخ أبو الحسن الأشعري في كتاب البانة أيضاً في إثبات الاستواء لله تعالى ما نصه :

إن قال قائل ما تقولون في الاستواء ؟

قيل له نقول : إن الله عز وجل مستو على عرشه كما قال : ﴿ الرحمن عَلَى العرش استوى ﴾ [طه : 5] . وقد قال الله عز وجل : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب ﴾ [فاطر : 10] وقد قال : ﴿ بَل رَّفَعَهُ الله إِلَيْهِ ﴾ [النساء : 158] . قال عز وجل ﴿ يُدَبِّرُ الأمر مِنَ السمآء إِلَى الأرض ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ [السجدة : 5] . وقال حكاية عن فرعون : ﴿ ياهامان ابن لِي صَرْحاً لعلي أَبْلُغُ الأسباب أَسْبَابَ السماوات فَأَطَّلِعَ إلى إله موسى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً ﴾ [غافر : 36 – 37] .

فكذب فرعون نبي الله موسى عليه السلام في قوله : ﴿ إن الله عز وجل فوق السماوات ﴾ . وقال عز وجل : ﴿ أَأَمِنتُمْ مَّن فِي السمآء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأرض ﴾ [الملك : 16] .

فالسماوات فوقها العرش ، فلما كان العرش فوق السماوات : قال ﴿ أَأَمِنتُمْ مَّن فِي السمآء ﴾ لأنه مستو على العرش الذي فوق السماوات ، وكل ما علا فيهو سماء ، فالعرش أعلى السماوات . هذا لفظ أبي الحسن الأشعري رحمه الله في كتاب الإبانة المذكور .

وقد أطال رحمه الله فى الكلام بذكر الأدلة القرآنية ، في إثبات صفة الاستواء ، وصفة العلو لله جل وعلا .

ومن جملة كلامه المشار إليه ما نصه :

وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية : إن قول الله عز وجل ﴿ الرحمن عَلَى العرش استوى ﴾ [طه : 5] أنه استولى وملك وقهر ، وأن الله عز وجل في كل مكان .

وجحدوا أن يكون الله عز وجل على عرشه كما قال أهل الحق ، وذهبوا في الاستواء إلى القدرة .

ولو كان هذا كما ذكروه كان لا فرق بين العرش والأرض ، فالله سبحانه قادر عليها وعلى الحشوش ، وعلى كل ما في العالم .

فلو كان الله مستوياً على العرش بمعنى الاستيلاء وهو عز وجل مستول على الأشياء كلها لكان مستوياً على العرش وعلى الأرض وعلى السماء وعلى الحشوش والأفراد ، لأنه قادر على الأشياء مستول عليها .

(144/709)

وإذا كان قادراً على الأشياء كلها ولم يجز عند أحد من المسلمين أن يقول : إن الله عز وجل مستو على الحشوش والأخلية ، لم يجز أن يكون الاستواء على العرش الاستيلاء الذي هو عام في الأشياء كلها .

ووجب أن يكون معناه استواء يختص العرش دون الأشياء كلها .

وزعمت المعتزلة والحرورية والجهمية أن الله عز وجل في كل مكان فلزمهم أنه في بطن مريم وفي الحشوش والأخلية .

وهذا خلاف الدين ، تعالى الله عن قولهم . اه .

هذا لفظ أبي الحسن الأشعري رحمه الله في آخر مصنفاته .

وهو كتاب الإبانة عن أصول الديانة .

وتراه صرح رحمه الله بأن تأويل الاستواء بالاستيلاء هو قول المعتزلة والجهمية والحرورية لا قول أحد من أهل السنة وأقام البراهين الواضحة على بطلان ذلك .

فليعلم مؤولو الاستواء بالاستيلاء أن سلفه في ذلك المعتزلة والجهمية والحرورية ، لا أبو الحسن الأشعري رحمه الله ولا أحد من السلف .

وقد أوضحنا في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ اللهُ فِي السماوات وَفِي الأرض يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ [الأنعام : 3] الآية . أن قول الجهمية ومن تبعهم : إن الله في كل مكان قول باطل .

لأن جميع الأمكنة الموجودة ، أحق وأقل وأصغر ، من ان يسع شيء منها خالق السماوات والأرض ، الذي هو أعظم وأكبر من كل شيء ، وهو بكل شيء ، ولا يحيط به شيء .

فانظر غيضاح ذلك في الأنعام .

واعلم أن ما يزعمه كثير من الجهلة ، من أن ما في القرآن العظيم ، من صفة الاستواء والعلو

والفوقية ، يستلزم الجهة ، وأن ذلك محال على الله ، وأنه يجب نفي الاستواء والعلو والفوقية ، وتأويلها بما لا دليل عليه من المعاني كله باطل .

وسببه سوء الظن بالله وبكتابه ، وعلى كل حال فمدعي لزوم الجهة لظواهر نصوصو القرآن العظيم . واستلزام ذلك للنقص الموجب للتأويل يقال له :

ما مرادك بالجهة ؟

(145/709)

إن كنت تريد بالجهة مكاناً موجوداً ، انحصر فيه الله ، فهذا ليس بظاهر القرآن ، ولم يقله أحد من المسلمين .

وإن كنت تريد بالجهة العدم المحض .

فالعدم عبارة عن لا شيء .

فميز أولاً ، بين الشيء الموجود وبين لا شيء .

وقد قال أيضاً أبو الحسن الأشعري رحمه الله في كتاب الإبانة أيضاً ما نصه :

فإن سئلنا أتقولون إن لله يدين ؟ قيل نقول ذلك ، وقد دل عليه قوله عز وجل : ﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح : 10] . وقوله عز وجل : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص : 75

].

وأطال رحمه الله ، الكلام في ذكر الأدلة من الكتاب ولاسنة على غثبات صفة اليدين لله .

ومن جملة ما قال ما نصه :

ويقال لهم : لم أنكرتم أن يكون الله عز وجل عنى بقوله : ﴿ يدي ﴾ يدين ليستا نعمتين .

فإن قالوا : لأن اليد إذا لم تكن نعمة لم تكن إلا جارحة .

قيل لهم : ولم قضيتم أن اليد إذا لم تكن نعمة لم تكن إلا جارحة ؟

فإن رجوعنا إلى شاهدنا ، وإلى ما نجده فيما بيننا من الخلق ؟

فقالوا : اليد إذا لم تكن نعمة في الشاهد لم تكن إلا جارحة .

قيل لهم : إن عملتم على الشاهد وقضيتم به على الله عز وجل فذلك لم نجد حياً من الخلق ، إلا جسماً لحماً ودماً ، فاقضوا بذلك على الله عز وجل .

وإلا فأنتم لقولكم متأولون ولاعتلالكم ناقضون .

وإن أثبتم حياً لا كالأحياء منا .

فلم أنكرتم أن تكون اليدان اللتان أخبر الله عز وجل عنهما ، يدين ليستا نعمتين لا جارحتين ولا كالأيدي ؟

وكذلك يقال لهم :

لم تجدوا مدبراً حكيماً إلا إنساناً ، ثم أثبتم أن للدنيا مدبراً حكيماً ، ليس كالإنسان ،

وخالفتم الشاهد ونقضتم اعتلالكم .

فلا تمنعوا من إثبات يدين ليستا نعمتين ولا جارحتين ، من أجل أن ذلك خلاف الشاهد اه .

محل الغرض منه بلفظه .

(146/709)

وبه تعلم أن الأشعري رحمه الله ، يعتقد أن الصفات التي أنكرها المؤولون كصفة اليد ، من جملة صفات المعاني كالحياة ونحوها ، وأنه لا فرق ألبتة بين صفة اليد وصفة الحياة فما اتصف الله به من جميع ذلك فهو منزه عن مشابهة ما اتصف به الخلق منه .

واللازم لمن شبه في بعض الصفات ونزه في بعضها أن يشبه في جميعها أو ينزه في جميعها ، كما قاله الأشعري .

أما ادعاء ظهور التشبيه في بعضها دون بعض ، فلا وجه له بحال من الأحوال ، لأن الموصوف بها واحد ، وهو منزه عن مشابهة صفات خلقه .

ومن جملة كلام أبي الحسن الأشعري رحمه الله المشار إليه آنفاً في إثبات الصفات ما نصبه :

فإن قال قائل : لم أنكرتم أن يكون قوله : ﴿ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ ﴾ [يس : 71] وقوله ﴿ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْت ﴾ [ص : 75] على المجاز ؟

قيل له : حكم كلام الله عز وجل أن يكون على ظاهره وحقيقته ولا يخرج الشيء عن ظاهره إلى المجاز إلا لحجة .

ألا ترون أنه إذا كان ظاهر الكلام العموم فإذا ورد بلفظ العموم ، والمراد به الخصوص ، فليس لهو على حقيقة الظاهر ؟

وليس يجوز أأن يعدل بما ظاهره العموم عن العموم بغير حجة ؟

كذلك قول الله عز وجل ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص : 75] على ظاهره وحقيقته من إثبات اليدين ، ولا يجوز أن يعدل به عن ظاهر اليدين إلى ما ادعاه خصومنا إلا بحجة .

ولو جاز ذلك لمدع أن يدعي أن ما ظاهره العموم ، فهو على الخصوص ، وما ظاهره الخصوص فهو على العموم بغير حجة .

وإذا لم يجز هذا لمدعيه بغير برهان ، لم يجز لكم ما ادعيتموه ، أنه مجاز بغير حجة .

بل واجب أن يكون قوله ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ إثبات يدين لله تعالى في الحقيقة غير نعمتين غذا كانت النعمتان لا يجوز عند أهل اللسان أن يقول قائلهم : فعلت بيدي وهو يعني النعمتين . اه محل الغرض منه بلفظه .

(147/709)

وفيه تصريح أبي الحسن الأشعري رحمه الله ، بأن صفات الله كصفة اليد ثابتة له حقيقة لا مجازاً ، وأن المدعين أنها مجاز هم خصومه وهو خصمهم كما ترى .

وإنما قال رحمه الله : إنه تعالى متصف بها حقيقة لا مجازاً ، لأنه لا يشك فى أن ظاهر صفة الله هو مخالفة صفة الخلق ، وتنزيهها عن مشابهتها كام هو شأن السلف الصالح كلهم .

فإثبات الحقيقة ونفي المجاز في صفات الله هو اعتقاد كل مسلم طاهر القلب من أقذار التشبيه ، لأنه لا يسبق إلى ذهنه من اللفظ الدال على الصفة كصفة اليد والوجه إلا أنها صفة كمال منزهة عن مشابهة صفات الخلق .

فلا يخطر في ذهنه التشبيه الذي هو سبب نفي الصفة وتأويلها بمعنى لا أصل له .

تنبيه مهم

فإن قيل دل الكتاب والسنة وإجماع السلف على أن الله وصف نفسه بصفة اليدين كقوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص : 75] . وقوله تعالى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة : 64] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامة والسماوات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر : 67] الآية .

والأحاديث الدالة على مثل ما دلت عليه الآيات المذكورة كثيرة ، كما هو معلوم ، وأجمع المسلمون على أنه جل وعلا ، لا يجوز أن يوصف بصفة الأيدي مع أنه تعالى قال ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعاما فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ [يس : 71] فلم أجمع

المسلمون على تقديم آية لما خلقت بيدي على آية مما عملت أيدينا ؟

فالجواب : أنه لا خلاف بين أهل اللسان العرب ولا بين المسلمين أن صيغ الجموع تأتي لمعنيين أحدهما إرادة التعظيم فقط ، فلا يدخل في صيغة الجمع تعدد أصلاً ، لأن صيغة الجمع المراد بها التعظيم ، إنما يراد بها واحد .

(148/709)

والثاني أن يراد بصيغة الجمع معنى الجمع المعروف ، وغذا علمت ذلك ، فالم أن القرآن العظيم . يكثر فيه جداً غطلاق الله جل وعلا ، على نفسه صيغة الجمع ، يريد بذلك تعظيم نفسه ، ولا يريد بذلك تعدداً ولا أن معه غيره ، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ن كقوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون ﴾ [الحجر : 9] .

فصيغة الجمع في قوله ﴿ إِنَّا ﴾ وفي قوله : ﴿ نَحْنُ ﴾ وفي قوله : ﴿ نَزَّلْنَا ﴾ وقوله : ﴿ لَحَافِظُونَ ﴾ لا يراد بها أن معه منزلاً للذكر ، وحافظاً له غيره تعالى .

بل هو وحده المنزل له والحافظ له ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَم نَحْنُ الخالقون ﴾ [الواقعة : 58 – 59] وقوله ﴿ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المزن أَمْ نَحْنُ المنزلون ﴾ [الواقعة : 69] . وقوله : ﴿ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ المنشئون ﴾ [الواقعة :

72] ، ونحو هذا كثير في القرآن جداً ، وبه تعلم أن صيغة الجمع في قوله ﴿ إِنَّا ﴾ . وفي قوله ﴿ خلقنا ﴾ وفي قوله : ﴿ عَمِلَتْ أَيْدِينَآ ﴾ [يس : 71] إنما يراد بها التعظيم ، ولا يراد بها التعدد أصلاً .

وإذا كان يراد بها التعظيم ، لا التعدد علم بذلك أنها لا تصح بها معارضة قوله : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ ، لأنها دلت على صفة اليدين ، والجمع في قوله : ﴿ أَيْدِينَآ ﴾ لمجرد التعظيم .

وما كان كذلك لا يدل على التعدد فيطلب الدليل من غيره ، فإن دل على أن المراد بالتعظيم واحد حكم بذلك ، كالآيات المتقدمة .

وإن دل على معنى آخر حكم به .

(149/709)

فقوله مثلاً : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ قام فيه البرهان القطعي أنه حافظ واحد ، وكذلك قوله : ﴿ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ ، ﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴾ ، ﴿ أَمْ نَحنُ الْمُنشِئُونَ ﴾ فإنه قد قام في كل ذلك البرهان القطعي على أنه خالق واحد ، ومنزل واحد ، ومنشىء واحد .

وأما قوله ﴿ مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ ﴾ فقد دل البرهان القطعي ، على أن الله موصوف بصفة اليدين كما صرح به في قوله : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص : 75] كما تقدم إيضاحه قريباً .

وقد علمت أن صيغة الجمع في قوله : ﴿ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : 9] . وقوله : ﴿ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ [الواقعة : 59] وقوله : ﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴾ [الواقعة : 69] وقوله : ﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴾ [الواقعة : 72] وقوله ﴿ خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ ﴾ [يس : 71] لا يراد بشيء منه معنى الجمع ، وإنما يراد به التعظيم فقط .

وقد أجاب أبو الحسن الأشعري رحمه الله في كتاب الإبانة بما يقرب من هذا في المعنى .

واعلم أن لفظ اليدين ، قد يستعمل في اللغة العربية استعمالاً خاصاً ، بلفظ خاص لا تقصد به في ذلك النعمة ولا الجارحة ولا القدرة ، وإنما يراد به معنى أمام .

واللفظ المختص بهذا المعنى هو لفظة اليدين التي أضيفت إليها لفظة بين خاصة ، أعني لفظة بين يديه ، فإن المراد بهذه اللفظة أمامه . وهو استعمال عربي معروف مشهور في لغة العرب لا يقصد فيه معنى الجارحة ولا النعمة ولا القدرة ، ولا أي صفة كائنة ما كانت .

وإنما يراد به أمام فقط كقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهذا القرآن وَلاَ بِالذي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [سبأ : 31] أي ولا بالذي كان أمامه سابقاً عليه من الكتب .

وكقوله : ﴿ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التوراة ﴾ [المائدة : 46] أي مصدقاً لما كان أمامه متقدماً عليه من التوراة .

(150/709)

وكقوله : ﴿ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ [فصلت : 25] ، فالمراد بلفظ ما بين أيديهم ما أمامهم .

وكقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي يُرْسِلُ الرياح بُشْرىً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِه ﴾ [الأعراف : 57] ، أي يرسل الرياح مبشرات أمام رحمته التي هي المطر ، إلى غير ذلك من الآيات .

ومام يوضح لك ذلك أنه لا يمكن تأويل اليدين في ذلك بنعمتين ولا قدرتين ولا جارحتين . ولا غير ذلك من الصفات ، فهذا أسلوب خاص دال على معنى خاص . بلفظ خاص مشهور ، في كلام العرب فلا صلة له باللفظ الدال على الجارحة ، بالنسبة إلى الإنسان ولا باللفظ الدال على صفة الكمال والجلال الثابتة لله تعالى فافهم .

وقال أبو الحسن الأشعري رحمه الله في كتابه : مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، الذي ذكر فيه أقوال جميع أهل الأهواء والبدع والمؤولين والنافين لصفات الله أو بعضها ما نصه :

جملة ما عليه أهل الحديث والسنة الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسوله وما جاء من عند الله وما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يردون من ذلك شيئاً .

وأن الله سبحانه إله واحد فرد صمد لا إله غيره لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الجنة حق وأن النار حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، وأن الله سبحانه على عرشه كما قال

﴿ الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه : 5] وأن له يدين بلا كيف كما قال : ﴿ خَلَقْتُ بِيدَيَّ ﴾ [ص : 75] . وكما قال : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة : 64]

إلى أن قال في كلامه هذا ، بعد أن سرد مذهب أهل السنة والجماعة . ما نصه :

(151/709)

فهذه جملة ما يأمرون به ويستعملونه ويرونه ، وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول وإليه نذهب ، وما توفيقنا إلا بالله ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وبه نستعين ، وعيله نتوكل وإليه المصير ، هذا لفظ أبي الحسن الأشعري رحمه الله في كتاب المقالات المذكور .

وبه تعلم أنه يؤمن بكل ما جاء عن الله في كتابه وما ثبت عن رسوله صلى الله عليه وسلم لا يرد من ذلك شيئاً ولا ينفيه بل يؤمن به ويثبته لله ، بقلا كيف ولا تشبيه ، كما هو مذهب

أهل السنة . وقال أبو الحسن الأشعري أيضاً في كتاب المقالات المذكور ما نصه :

وقال أهل السنة وأصحاب الحديث : ليس بجسم ولا يشبه الأشياء وأنه على العرش كما قال عز وجل :

﴿ الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه : 5] ولا نقدم بين يدي الله في القول بل نقول : استوى بل كيف ، ثم أطال الكلام رحمه الله ، في إثبات الصفات كما قدمنا عنه ، ثم قال ما نصه وقالت المعتزلة : إن الله استوى على عرشه بمعنى استولى . اه . محل الغرض منه بلفظه .

فتراه صرح في كتاب المقالات المذكور ، بأن تأويل الاستواء بالاستيلاء ، هو قول المعتزلة لا قوله هو ، ولا قول أحد من أهل السنة .

وزاد في كتاب الإبانة مع المعتزلة الجهمية والحرورية كما قدمنا .

وبكل ما ذكرنا تعلم أن الأشعري رجع عن الاعتزال إلى مذهب السلف في آيات الصفات وأحاديثها .

وقد قدمنا إيضاح الحق في آيات الصفات بالأدلة القرآنية بكثرة في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الأعراف : 54] الآية .

واعلم أن أئمة القائلين بالتأويل ، رجعوا قبل موتهم عنه ، لأنه مذهب غير مأمون العاقبة ،

لأن مبناه على ادعاء أن ظواهر آيات الصفات وأحاديثها ، لا تليق بالله لظهورها وتبادرها في مشابهة صفات الخلق .

(152/709)

ثم نفى تلك الصفات الواردة في الآيات والأحاديث ، لأجل تلك الدعوى الكاذبة المشؤومة ، ثم تأويلها بأشياء أخر ، دون مستند من كتاب أو سنة ، أو قول صحابي أو أحد من السلف .

وكل مذهب هذه حاله ، فإنه جدير بالعاقل المفكر أن يرجع عنه إلى مذهب السلف .

وقد أشار تعالى في سورة الفرقان أن وصف الله بالاستواء صادر عن خبير بالله ، وبصفاته عالم بما يليق به وبما لا يليق وذلك في قوله تعالى : ﴿ الذي خَلَقَ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش الرحمن فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ [الفرقان : 59] .

فتأمل قوله : ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ ، بعد قوله : ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش الرحمن ﴾ ، تعلم أن من وصف الرحمن بالاستواء على العرش خبير بالرحمن وبصفاته لا يخفى عليه اللائق من الصفات وغير اللائق .

فالذي نبأنا بأنه استوى على عرشه هو العليم الخبير الذي هو الرحمن .

وقد قال تعالى : ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر : 14] .

وبذلك تعلم أن من يدعي أن الاستواء يستلزم التشبيه ، وأنه غير لائق غير خبير ، نعم والله هو غير خبير .

وسنذكر هنا إن شاء الله أن أئمة المتكلمين المشهورين رجعوا كلهم عن تأويل الصفات .

أما كبيرهم الذي هو أفضل المتكلمين المنتسبين على أبي الحسن الأشعري ، وهو القاضي محمد بن الطيب المعروف بأبي بكر الباقلاني ، فإنه كان يؤمن بالصفات على مذهب السلف ويمنع تأويلها منعاً باتاً ، ويقول فيها بمثل ما قدمنا عن الأشعري .

وسنذكر لك هنا بعض كلامه .

قال الباقلاني المذكور في كتاب التمهيد ما نصه :

باب في أن لله وجهاً ويدين ، فإن قال قائل . فما الحجة في أن لله عز وجل وجهاً ويدين ؟ قيل له قوله : ﴿ ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجلال والإكرام ﴾ [الرحمن : 27] .

وقوله : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص : 75] . فأثبت لنفسه وجهاً ويدين .

فإن قالوا : فما أنكرتم أن يكون المعنى في قوله ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ أنه خلقه بقدرته أو بنعمته ، لأن اليد في اللغة قد تكون بمعنى النعمة ، وبمعنى القدرة ، كما قال : لي عند فلان يد بيضاء . يراد به نعمة .

وكما يقال : هذا الشيء في يد فلان وتحت يد فلان ، يراد به انه تحت قدرته وفي ملكه .

ويقال : رجل أيدٌ إذا كان قادراً .

وكما قال تعالى : ﴿ خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ [يس : 71]

يريد عملنا بقدرتنا . وقال الشاعر :

إذا ما راية رفعت لمجد . . . تلقاها عرابة باليمين

فكذلك قوله : ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ يعني بقدرتي أو نعمتي .

يقال لهم هذا باطل لأن قوله : ﴿ بِيَدَيَّ ﴾ يقتضي إثبات يدين هما صفة له .

فلو كان المراد بهما القدرة لوجب أن يكون له قدرتان .

وأنتم لا تزعمون أن للباري سبحانه قدرة واحدة ، فكيف يجوز أن تثبتوا له قدرتين ؟

وقد أجمع المسلمون من مثبتي الصفات والنافين لها على أنه لا يجوز أن يكون له تعالى قدرتان فبطل ما قلتم .

وكذلك لا يجوز أن يكون الله تعالى خلق آدم بنعمتين ، لأن نعم الله تعالى على آدم وعلى غيره

لا تحصى .

ولأن القائل لا يجوز أن يقول : رفعت لاشيء بيدي أو وضعته بيدي أو توليته بيدي وهو يعني نعمته .

وكذلك لا يجوز أن يقال : لي عند فلان يدان يعني نعمتين .

وإنما يقال لي عنده يدان بيضاوان ، لأن القول : يد ، لا يستعمل إلا في اليد التي هي صفة الذات . ويدل على فساد تأويلهم أيضاً بيدك خلقتني التي هي قدرتك وبنعمتك خلقتني ؟ وفي العلم بأن الله تعالى فضل آدم عليه بخلقه بيديه ، دليل على فساد ما قالوه .

فإن قال قائل : فما أنكرتم أن يكون وجهه ويده جارحة ؟ إذ كنتم لم تعقلوا يد صفة ووجه صفة لا جارحة .

يقال له : لا يجب ذلك كما لا يجب غذا لم نعقل حياً عالماً قادراً غلا جسماً أن نقضي نحن وأنتم على الله تعالى بذلك .

(154/709)

وكما لا يجب متى كان قائماً بذاته أن يكون جوهراً أو جسماً ، لأنا وإياكم لم نجد قائماً بنفسه في شاهدنا إلا كذلك . اه . محل الغرض منه بلفظه .

وهو صريح في أنه يرى أن صفة الوجه وصفة اليد وصفة العلم والحياة والقدرة كلها من صفات المعاني ولا وجه للفرق بينها وجميع صفات الله مخالفة لجيمع صفات خلقه .

وقال الباقلاني أيضاً في كتاب التمهيد ما نصه :

فإن قالوا : فهل تقولون : إنه في كل مكان ؟

قيل : معاذ الله بل هو مستو على العرض كما أخبر في كتابه ، فقال : ﴿ الرحمن عَلَى العرش استوى ﴾ [طه : 5] وقال تعالى ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب والعمل الصالح يَرْفَعُه ﴾ [فاطر : 10] وقال : ﴿ أَأَمِنتُمْ مَّن فِي السمآء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأرض فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ [الملك : 16] .

ولو كان في كل مكان ، لكان في جوف الإنسان ، وفمه وفي الحشوش والمواضع التي يرغب عن ذكرها ان تعالى عن ذلك ، ولوجب أن يزيد بزيادة الأماكن إذ خلق منها ما لم يكن خلقه ، وينقص بنقصانها إذا بطل منها ما كان .

ولصح أن يرغب إليه إلى نحو الأرض وإلى وراء ظهورنا وعن أيماننا وشمائلنا .

وهذا ما قد أجمع المسلمون على خلافه وتخطئة قائله ، إلى أن قال رحمه الله : ولا يجوز أن يكون معنى استوائه على العرش هو استيلاؤه عليه كما قال الشاعر :

قد استوى بشر على العراق . . . من غير سيف ودم مهراق

لأن الاستيلاء هو القدرة والقهر ، والله تعالى لم يزل قادراً قاهراً عزيزاً مقتدراً .

وقوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الأعراف : 54 ، يونس : 2] يقتضي استفتاح هذا الوصف بعد أن لم يكن ، فيبطل ما قالوه .

فإن قال قائل : ففصلوا لي صفات ذاته من صفات أفعاله ، لأعرف ذلك .

قيل له : صفات ذاته هي التي لم يزل ولا يزال موصوفاً بها .

وهي الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام والإرادة والبقاء والوجه والعينان واليدان . اه محل الغرض منه بلفظه .

(155/709)

وقد نقلناه من نسخة هي أجود نسخة موجودة لكتاب التمهيد للباقلاني المذكور .

وترى تصريحه فيها بأن صفة الوجه واليد من صفات المعاني كالحياة والعلم والقدرة والإرادة ، كما هو قول أبي الحسن الأشعري الذي قدمنا إيضاحه .

واعلم أن إمام الحرمين ، أبا المعالي الجويني ، كان في زمانه من أعظم أئمة القائلين بالتأويل ، وقد قرر التأويل وانتصر له في كتابه الإرشاد .

ولكنه رجع عن ذلك في رسالته العقيدة النظامية فإنه قال فيها :

اختلف مسالك العلماء ، في الظواهر التي وردت في الكتاب والسنة ، وامتنع على أهل

الحق فحواها وإجراؤها على موجب ما تبرزه أفهام أرباب اللسان منها .

فرأى بعضهم تأويلها ، التوام هذا المنهج في آي الكتاب وفيما صح من سنن النبي صلى الله عليه وسلم .

وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل وأجراء الظواهر على مواردها ، وتفويض معانيها إلى الرب سبحانه .

والذي نرتضيه رأياً وندين الله به عقداً ، ابتاع سلف الأمة ، فالأولى الاتباع وترك الابتداع والدليل السمعي القاطع في ذلك ، أن إجماع الأمة حجة متبعة ، وهو مستند معظم الشريعة .

وقد درج صحب الرسول صلى الله عليه وسلم على ترك التعرض لمعانيها ودرك ما فيها وهم صفوة الإسلام والمشتغلون بأعباء الشريعة .

وكانوا لا يألون جهداً في ضبط قواعد الملة والتواصي بحفظها وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها .

فلو كان تأويل هذه الظواهر مسوغاً أو محتوماً لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة .

فإذا انصرم عصرهم وعصر التابعين على الإضراب عن التأويل كان ذلك قاطعاً بأنه الوجه المتبع بحق .

فعلى ذي الدين أن يعتقد تنزه الرب تعالى عن صفات المحدثات ولا يخوض في تأويل المشكلات ويكل معناها إلى الرب .

ومما استحسن من إمام دار الهجرة مالك بن أنس أنه سئل عن قوله تعالى : ﴿ الرحمن عَلَى العرش استوى ﴾ [طه : 5] ، فقال : الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة .

(156/709)

فلتجر آية الاستواء والمجيء وقوله : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص : 75] ، ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ [الرحمان : 27] ، وقوله ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر : 14] . وما صح عن الرسول عليه السلام كخبر النزول وغيره على ما ذكرنا ، فهذا بيان ما يجب لله تعالى . اه . كلامه بلفظه من الرسالة النظامية المذكورة مع أن رجوع الجويني فيها إلى أن الحق هو مذهب السلف أمر معلوم .

وكذلك أبو حامد الغزالي ، كان في زمانه من أعظم القائلين بالتأويل ثم رجع عن ذلك ، وبين أن الحق الذي لا شك فيه هو مذهب السلف .

وقال في كتابه : إلجام العوام عن علم الكلام :

اعلم أن الحق الصريح الذي لا مراء فيه عند أهل البصائر ، هو مذهب السلف أعني الصحابة والتابعين ، ثم قال : إن البرهان الكلي على أن الحق في مذهب السلف وحده ينكشف بتسليم أربعة أصول مسلمة عند كل عاقل .

ثم بين أن الأول من تلك الأصول المذكورة أن النبي صلى الله عليه وسلم هو أعرف الخلق بصلاح أحوال العباد في دينهم ودنياهم .

الأصل الثاني : أنه بلغ كلما أوحى إليه من صلاح العباد في معادهم ومعاشهم ، ولم يكتم منه شيئاً .

الأصل الثالث : أن أعرف الناس بمعاني كلام الله وأحراهم بالوقوف على أسراره هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين لازموه وحضروا التنزيل وعرفوا التأويل .

والأصل الرابع : أن الصحابة رضي الله عنهم في طول عصرهم إلى آخر أعمارهم ما دعوا الخلق إلى التأويل ، ولو كان التأويل من الدين أو علم الدين لأقبلوا عليه ليلاً ونهاراً ودعوا إليه أولادهم وأهلهم .

ثم قال الغزالي : وبهذه الأصول الأربعة المسلمة عند كل مسلم نعلم بالقطع أن الحق ما قالوه والصواب ما رأوه . اه . باختصار .

(157/709)

ولا شك أن استدلال الغزالي هذا لأن مذهب السلف هو الحق استدلال لا شك في صحته ، ووضوح وجه الدليل فيه ، وأن التأويل لو كان سائغاً أو لازماً لبين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ، ولقال به أصحابه وتابعوهم كما لا يخفى .

وذكر غير واحد عن الغزالي : أنه رجع في آخر حياته إلى تلاوة كتاب الله وحفظ الأحاديث الصحيحة والاعتراف بأن الحق هو ما في كتاب الله وسنة رسوله .

وذكر بعضهم أنه مات وعلى صدره صحيح البخاري رحمه الله .

واعلم أيضاً أن الخفر الرازي الذي كان في زمانه أعظم أئمة التأويل رجع عن ذلك المذهب إلى مذهب السلف معترفاً بأن طريق الحق هي اتباع القرآن في صفات الله .

وقد قال في ذلك في كتابه : أقسام اللذات .

لقد اختبرت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فلم أجدها تروي غليلاً ، ولا تشفي عليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن أقرأ في الإثبات : ﴿ الرحمن عَلَى العرش استوى ﴾ [طه : 5] ، ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ [فاطر : 10] ، وفي النفي : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : 11] ، ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ [مريم : 65] ، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي . اه .

وقد بين هذا المعنى في أبياته المشهورة التي يقول فيها :

نهاية إقدام العقول عقال . . . وغاية سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا . . . وحاصل دنيانا أذى وبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا . . . سوى أن جمعنا فيه قيل وقال

إلى آخر الأبيات .

وكذلك غالب أكابر الذين كانوا يخوضون في الفلسفة والكلام ، فإنه ينتهي بهم أمرهم إلى الحيرة وعدم الثقة بما كانوا يقررون .

وقد ذكر عن الحفيد ابن رشد وهو من أعلم الناس بالفسلفة أنه قال :

ومن الذي قال في الإلهيات شيئاً يعتد به ؟

وذكروا عن الشهرستاني أنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم ، وقد قال في ذلك :

لعمري لقد طفت المعاهد كلها . . . وسيرت طرفي بين تلك المعالم

(158/709)

فلم أر إلا واضعاً كف حائر . . . على ذقن أو قارعاً سن نادم

وأمثال هذا كثيرة .

فيا أيها المعاصرون المتعصبون لدعوى أن ظواهر آيات الصفات وأحاديثها خبيث لا يليق بالله لاستلزامه التشبيه بصفات الخلق ، وأنها يجب نفيها وتأويلها بمعان ما أنزل الله بها من سلطان ، ولم يقلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحد من أصحابه ولا من التابعين .

فمن هو سلفكم في هذه الدعوى الباطلة المخالفة لإجماع السلف ؟

إن كنتم تزعمون أن الأشعري يقول مثل قولكم ، وأنه سلفكم في ذلك فهو بريء منكم ومن دعواكم .

وهو مصرح في كتبه التي صنفها بعد الرجوع عن الاعتزال أن القائلين بالتأويل هم المعتزلة ، وهم خصومه وهو خصمهم ، كما أوضحنا كلامه في الإباحة والمقالات .

وقد بينا أن أساطين القول بالتأويل قد اعترفوا بأن التأويل لا مستند له ، وأن الحق هو اتباع مذهب السلف كما أوضحنا ذلك عن أبي بكر الباقلاني ، وأبي المعالي الجويني ، وأبي حامد الغزالي ، وأبي عبد الله الفخر الرازي ، وغيرهم من ذكرنا .

فنوصيكم وأنفسنا بتقوى الله وألا تجادلوا في آيات الله بغير سلطان أتاكم ، والله جل وعلا يقول في كتابه :

﴿ إِنَّ الذين يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ الله بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فاستعذ بالله إِنَّهُ هُوَ السميع البصير ﴾ [غافر : 56] .

ويقول تعالى : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يُجَادِلُ فِي الله بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ وَإِذَا قِيلَ

لَهُمُ اتبعوا مَآ أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشيطان يَدْعُوهُمْ إلى عَذَابِ السعير ﴾ [لقمان : 20 - 21] .

المسألة الثانية في الكلام على الاجتهاد

(159/709)

اعلم أولاً أنا قدمنا بطلان قول الظاهرية بمنع الاجتهاد مطلقاً ، وأن من الاجتهاد ما هو صحيح موافق للشرع الكريم ، وبسطان أدلة ذلك بإيضاح في سورة الانبياء في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الحرث إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القوم وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ [الأنبياء : 78] الآية .

وبينا طرفاً منه في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الأسراء : 36] فأغنى ذلك عن إعادته هنا .

وغرضنا في هذه المسألة هو أن نبين أن تدبر القرآن وانتفاع متدبره بالعمل بما علم منه الذي دل عليه قوله تعالى في هذه الآية الكريمة التي نحن بصددها التي هي قوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ ، لا يتوقف على تحصيل الاجتهاد المطلق بشروطه المعروفة عند متأخري الأصوليين .

اعلم أولاً : أن المتأخرين من أهل الأصول الذين يقولون بمنع العمل بالكتاب والسنة نطلقاً غلا للمتجهدين ، يقولون :

إن شروط الاجتهاد هي كون المجتهد بالغاً ، عاقلاً شديد الفهم .

طبعاً عارفاً بالدليل العقلي ، الذي هو استصحاب العدم الأصلي ، حتى يرد نقل صارف عنه .

عارفاً باللغة العربية ، وبالنحو من صرف وبلاغة مع معرفة الحقائق الشرعية والعرفية .

وبعضهم يزيد المحتاج غليه من فن المنطق كشرائط الحدود ، والرسوم ، وشرائط البرهان .

عارفاً بالأصول ، عارفاً بأدلة الأحكام من الكتاب والسنة .

ولا يشترط عندهم حفظ النصوص ، بل يكفي عندهم علمه بمداركها في المصحف وكتب الحديث :

عارفاً بمواقع الإجماع والخلاف

عارفاً بشروط المتواتر ، والآحاد والصحيح والضعيف .

عارفاً بالناسخ والمنسوخ .

عارفاً بأبٍاب النزول .

عارفاً بأحوال الصحابة وأحوال رواة الحديث ، اختلفوا في شرط عدم إنكاره للقياس .

اه .

ولا يخفى أن مستندهم في اشتراطهم لهذه الشروط ليس نصاً من كتاب ولا سنة يصرح بأن هذه الشروط كلها لا يصح دونها عمل بكتاب ولا سنة ، ولا إجماعاً دالاً على ذلك .

وإنما مستندهم في ذلك هو تحقيق المناط في ظنهم .

وإيضاح ذلك هو أن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وإجماع المسلمين كلها دال على ان العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لا يشترط له إلا شرط واحد ، وهو العلم بحكم ما يعمل به منهما .

ولا يشترط في العمل بالوحي شرط زائد على العلم بحكمه ألبتة .

وهذا مام لا يكاد ينازع فيه أحد .

ومراد متأخري الأصوليين بجميع الشروط التي اشترطوها هو تحقيق المناط .

لأن العلم بالوحي لما كان هو مناط العمل به أرادوا أن يحققوا هذا المناط ، أي يبينوا الطرق التي يتحقق بها حصلوا العلم الذي هو مناط العمل .

فاشترطوا جميع الشروط المذكورة ، ظناً منهم أنه لا يمكن تحقيق حصول العلم بالوحي دونها .

وهذا الظن فيه نظر .

لأن كل إنسان له فهم إذا أراد العمل بنص من كتاب أو سنة فلا يمتنع عليه ، ولا يستحيل أن يتعلم معناه ويبحث عنه هل هو منسوخ أو مخصص أو مقيد حتى يعلم ذلك فيعمل به .

وسؤال أهل العلم : هل لهذا النص ناسخ أو مخصص أو مقيد مثلاً . وغخبارهم بذلك ليس من نوع التقليد ، بل هو من نوع الاتباع .

وسنبين إن شاء الله الفرق بين التقليد والاتباع في مسألة التقليد الآتية .

والحاصل أن نصوص الكتاب والسنة التي لا تحصى واردة بإلزام جميع المكلفين بالعمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وليس في شيء منها التخصيص بمن حصل شروط الاجتهاد المذكورة .

وسنذكر طرفاً منها لنبين أنه لا يجوز تخصيصها بتحصيل الشروط المذكورة .

(161/709)

قال الله تعالى : ﴿ اتبعوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : 3] ، والمراد بما أنزل إليكم هو القرآن والسنة المبينة له لا آراء الرجال .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرسول رَأَيْتَ المنافقين يَصُدُّونَ

عَنكَ صُدُوداً ﴾ [النساء : 61] .

فدلت هذه الآية الكرمية أن من دعي إلى العمل بالقرآن والسنة وصد عن ذلك ، أنه من جملة المنافقين ، لأن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب .

وقال تعالى : ﴿ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ والرسول إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر ﴾ [النساء : 59] الآية ، والرد إلى الله والرسول هو الرد إلى كتابه والرد إلى الرسول بعد وفاته صلى الله عليه وسلم هو الرد إلى سنته .

وتعليقه الإيمان في قوله : ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بالله ﴾ [النور : 2] على رد التنازع إلى كتاب الله وسنة رسوله ، يفهم منه أن من يرد التنازع إلى غيرهما لم يكن يؤمن بالله .

وقال تعالى : ﴿ واتبعوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العذاب بَغْتَةً وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ [الزمر : 55] .

ولا شك أن القرآن أحسن ما أنزل إلينا من ربنا ، والسنة مبينة له ، وقد هدد من لم يتبع أحسن ما أنزل إلينا من ربنا بقوله :

﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العذاب بَغْتَةً وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ [الزمر : 55] .

وقال تعالى : ﴿ الذين يَسْتَمِعُونَ القول فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أولئك الذين هَدَاهُمُ الله وأولئك هُمْ أُوْلُو الألباب ﴾ [الزمر : 18] ، ولا شك أن كتاب الله وسنة رسوله أحسن من آراء الرجال .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا واتقوا الله إِنَّ الله شَدِيدُ العقاب ﴾ [الحشر : 7] .

وقوله : ﴿ شَدِيدُ العقاب ﴾ فيه تهديد شديد لمن لم يعمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا سيما إن كان يظن أن أقوال الرجال تكفي عنها .

وقال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو الله واليوم الآخر ﴾ [الأحزاب : 21] ، والأسوة : الاقتداء .

فيلزم المسلم أن يجعل قدوته رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك باتباع سنته .

وقال تعالى : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حتى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾ [النساء : 65] ، وقد أقسم تعالى في هذه الآية الكريمة أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا النبي صلى الله عليه وسلم في كل ما اختلفوا فيه .

وقال تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فاعلم أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتبع هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ الله إِنَّ الله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين ﴾ [القصص : 50] .

والاستجابة له صلى الله عليه وسلم وفاته هي الرجوع إلى سنته صلى الله عليه وسلم ، وهي مبينة لكتاب الله .

وقد جاء في القرآن العظيم أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يتبع شيئاً إلا الوحي .

وأن من أطاعه صلى الله عليه وسلم فقد أطاع الله .

قال تعالى في سورة يونس : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآءِ نفسي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ إِني أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس : 15] .

(163/709)

وقال تعالى في الأنعام : ﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ الله ولا أَعْلَمُ الغيب ولا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأعمى والبصير أَفَلاَ تَتَفَكَّرُون ﴾ [الأنعام : 50] .

وقال تعالى في الأحقاف : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرسل وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ وَمَآ أَنَآ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأحقاف : 9] .

وقال تعالى في الأنبياء : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بالوحي ﴾ [الأنبياء : 45] الآية ، فحصر الإنذار في الوحي دون غيره .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ﴾ [سبأ : 50] ، فبين أن الاهتداء إنما هو بالوحي والآيات بمثل هذا كثيرة .

وإذا علمت منها أن طريقه صلى الله عليه وسلم هي اتباع الوحي ، فاعلم أن القرآن دل على ان من أطاعه صلى الله عليه وسلم فهو مطيع لله كما قال تعالى : ﴿ مَّن يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله ﴾ [النساء : 80] وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ الله فاتبعوني يُحْبِبْكُمُ الله ﴾ [آل عمران : 31] الآية .

ولم يضمن الله لأحد ألا يكون ضالاً في الدنيا ولا شقياً في الآخرة إلا لمتبعي الوحي وحده .

قال تعالى في طه ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتبع هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يشقى ﴾ [طه : 123] ، وقد دلت آية طه هذه على انتفاء الضلال والشقاوة عن متبعي الوحي .

ودلت آية البقرة على انتفاء الخوف والحزن عنه ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : 38] .

(164/709)

ولا شك أن انتفاء الضلال والشقاوة والخوف والحزن عن متبعي الوحي ، المصرح به في القرآن ، لا يتحقق فيمن يقلد عالماً ليس بمعصوم ، لا يدري أصواب ما قلده فيه أم خطأ ، في

حال كونه معرضاً عن التدبر في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ولا سيما إن كان يظن أن آراء العالم الذي قلده ، كافية مغنية ، عن كتابه الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

والآيات القرآنية الدالة على لزوم اتباع الوحي ، والعمل به ، لا تكاد تحصى ، وكذلك الأحاديث النبوية الدالة على لزوم العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لا تكاد تحصى ، لأن طاعة الرسول طاعة الله .

وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا واتقوا الله إِنَّ الله شَدِيدُ العقاب ﴾ [الحشر : 7] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَطِيعُواْ الله والرسول لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [آل عمران : 132] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ الله والرسول فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الكافرين ﴾ [آل عمران : 32] .

وقال : ﴿ وَمَن يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب : 71] .

وقال تعالى : ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله وَمَن تولى فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ﴾ [النساء : 80] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ أَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول وَأُوْلِي الأمر مِنْكُمْ فَإِن

تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ والرسول إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر ﴾ [النساء : 59] الآية.

(165/709)

وقال تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا وذلك الفوز العظيم وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [النساء : 13 - 14].

وقال تعالى : ﴿ وَأَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرسول واحذروا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فاعلموا أَنَّمَا على رَسُولِنَا البلاغ المبين ﴾ [المائدة : 92].

وقال تعالى : ﴿ وَأَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال : 1].

وقال تعالى ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرسول فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى الرسول إِلاَّ البلاغ المبين ﴾ [النور : 54].

وقال : ﴿ وَأَقِيمُواْ الصلاة وَآتُواْ الزكاة وَأَطِيعُواْ الرسول لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النور : 56].

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرسول وَلاَ تبطلوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ [

محمد : 33] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [النور : 51 - 52] .

وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : 21] الآية .

وقال تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ [التوبة : 71] الآية .

(166/709)

ولا شك عند أحد من أهل العلم أن طاعة الله ورسوله المذكورة في هذه الآيات ونحوها من نصوص الوحي ، محصورة في العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

فنصوص القرآن والسنة كلها دالة على لزوم تدبر الوحي ، وتفهمه وتعلمه والعمل به .

فتخصيص تلك النصوص كلها ، بدعوى أن تدبر الوحي وتفهمه والعمل به : لا يصح شيء

منه إلا لخصوص المجتهدين ، الجامعين لشروط الاجتهاد المعروفة عند متأخري الأصوليين ، يحتاج إلى دليل يجب الرجوع إليه .

ولا دلي على ذلك ألبتة .

بل أدلة الكتاب والسنة ، دالة على وجوب تدبر الوحي ، وتفهمه وتعلمه والعمل بكل ما علم منه ، علماً صحيحاً قليلاً كان أو كثيراً .

وهذه المسألة الثانية يتداخل بعض الكلام فيها ، مع بعض الكلام ، في المسألة الأولى . فهما شبه المسألة الواحدة .

المسألة الثالثة في التقليد في بيان معناه لغة واصطلاحاً وأقسامة وبيان ما يصح منها وما لا يصح

اعلم أن التقليد في اللغة ، هو جعل القلادة في العنق .

وتقليد الولاة هو جعل الولايات قلائد في أعناقهم .

ومنه قول لقيط الأيادي :

وقلدوا أمركم لله دركم رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا

وأما التقليد في اصطلاح الفقهاء : فهو الأخذ بمذهب الغير من غير معرفة دليله .

ولا يصح الاجتهاد ألبتة في شيء يخالف نصاً من كتابه أو سنة ثابتة ، سالماً من المعارض .

لأن الكتاب والسنة حجة على كل أحد كائناً من كان ، لا تسوغ مخالفتهما ألبتة لأحد كائناً

من كان فيجب التفطن ، لأن المذهب الذي فيه القليد يختص بالأمور الاجتهادية ولا يتناول ما جاء فيه نص صحيح من الوحي سالم من المعارض .

قال الشيخ الحطاب في شرحه لقول خليل في مختصره : مختصراً على مذهب الإما مالك بن أنس ما نصه :

[والمذهب لغة الطريق ومكان الذهاب ، ثم صار عند الفقهاء حقيقة عرفية فيما ذهب إليه إمام من الأئمة من الأحكام الاجتهادية] اه . محل الغرض منه بلفظه .

(167/709)

فقوله : من الأحكام الاجتهادية تدل على أن اسم المذهب لم يتناول مواقع النصوص الشريعة السالمة من المعارض .

وذلك أمر لا خلاف فيه لإجماع العلماء على أن المجتهد المطلق إذا أقام باجتاده دليلاً ، مخالفاً لنص من كتاب أو سنة أو إجماع ، أن دليله ذلك باطل بلا خلاف .

وأنه يرد بالقادح المسمى في الأصول بفساد الاعتبار .

وفساد الاعتبار الذي هو مخالفة الدليل لنص أو إجماع من القوادح التي لا نزاع في إبطال الدليل بها . وإليه الإشارة بقول صاحب مراقي السعود في القوادح :

والخلف للنص أو إجماع دعا . . . فسادالألاعتبار كل من وعى

وبما ذكرنا تعلم أنه لا اجتهاد أصل ولا تقليد أصلاً في شيء يخالف نصاً من كتاب أو سنة أو إجماع.

وإذا عرفت ذلك فاعلم أن بعض الناس من المتأخرين أجاز التقليد ، ولو كان فيه مخالفة نصوص الوحي ، كما ذكرنا عن الصاوي وأضرابه .

وعليه أكثر المقلدين للمذاهب في هذا الزمان وأزمان قبله .

وبعض العلماء منع التقليد مطلقاً ، وممن ذهب إلى ذلك هو منداد من المالكية ، والشوكاني في القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد .

والتحقيق : أن التقليد منه ما هو جائز ، ومنه ما ليس بجائز .

ومنه ما خالف فيه المتأخرون المتقدمين من الصحابة وغيرهم من القرون الثلاثة المفضلية .

وسنذكر كل الأقسام هنا إن شاء الله مع بيان الأدلة .

أما التقليد الجائز الذي لا يكاد يخالف فيه أحد من المسلمين فهو تقليد العامي عالماً أهلاً للفتيا في نازلة نزلت به ، وهذا النوع من التقليد كان شائعاً في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ولا خلاف فيه .

فقد كان العامي ، يسأل من شاء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن حكم النازلة تنزل به فيفتيه فيعمل بفتياه .

وإذا نزلت به نازلة أخرى لم يرتبط بالصحابي الذي أفتاه أولاً بل يسأل عنها من شاء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يعمل بفتياه .

قال صاحب نشر البنود في شرحه لقوله في مراقي السعود :

(168/709)

رجوعه لغيره في آخر . . . يجوز للإجماع عند الأكثر

ما نصه : يعني أن العامي يجوز له عند الأكثر ، الرجوع إلى قول غير المتجهد الذي استفتاه أولاً في حكم آخر لإجماع الصحابة رضي الله عنهم ، على أنه يسوغ للعامي السؤال لكل عالم ، ولأن كل مسألة لها حكم نفسها .

فكما لم يتعين الأول للاتباع في المسألة الأولى غلى بعد سؤاله ، فكذلك في المسألة الأخرى .

قاله الخطاب شارح مختصر خليل .

قال القرافي : انعقد الإجماع على أن من أسلم فله أن يقلد من شاء من العلماء من غير حجر .

وأجمع الصحابة على ان من استفتى أبا بكر وعمر وقلدهما فله أن يستفتي أبا هريرة ومعاذ بن جبل وغيرهما ، ويعمل بقولهم بغير نكير .

فمن ادعى رفع هذين الإجماعين فعليه الدليل . اه . محل الغرض منه .

وما ذكره من انعقاد الإجامعين صحيح كما لا يخفى ، فالأقوال المخالفة لهما من متأخري الأصوليين كلها مخالفة للإجماع .

وبعض العلماء يقول : إن تقليد العامي المذكور للعالم وعمله بفتياه من الاتباع لا من التقليد .

والصواب : أن ذلك تقليد امشروع مجمع على مشروعيته .

وأما ما ليس من التقليد بلا خلاف ؟ فهو تقليد المجتهد الذي ظهر له الحكم باجتهاده ، مجتهداً آخر يرى خلاف ما ظهر له هون للإجماع على أن المجتهد إذا ظهر له الحكم باجتهاده لا يجوز له التقليد غيره المخالف لرأيه .

وأما نوع التقليد الذي خالف فيه المتأخرون ، الصحابة وغيرهم من القرون المشهود لهم بالخير ، فهو تقليد رجل واحد معين دون غيره ، من جميع العلماء .

فإن هذا النوع من التقليد ، لم يرد به نص من كتاب ولا سنة ، ولم يقل به أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أحد من القرون الثلاثة المشهود لهم بالخير .

وهو مخالفة لأقوال الأئمة الأربعة رحمهم اللهن فلم يقل أحد منهم بالجمود على قول رجل واحد معين دون غيره ، من جميع علماء المسلمين .

فتقليد العالم المعين من بدع القرن الرابع ، ومن يدعي خلاف ذلك ، فليعين لنا رجلاً واحداً من القرون الثلاثة الأول ، التزم مذهب رجل واحد معين ولن يستطيع ذلك أبداً ، لأنه لم يقع ألبتة .

وسنذكر هنا إن شاء الله جملاً من كلام أهل العلم في فساد هذا النوع من التقليد وحجج القائلين به ، ومناقشتها . وبعد إيضاح ذلك كله نبين ما يظهر لنا بالدليل أنه هو الحق والصواب إن شاء الله .

قال الإمام أبو عمر بن عبد البر رحمه الله ، في كتابه جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله ، ما نصه :

باب فساد التقليد ونفيه والفرق بين التقليد والاتباع .

قد ذم الله تبارك وتعالى التقليد في غير موضع من كتابه ، فقال : ﴿ اتخذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ الله ﴾ [التوبة : 31] .

وروي عن حذيفة وغيره قالوا : " لم يعبودهم من دون الله ولكنهم أحلوا لهم وحرموا عليهم فاتبعوهم " .

وقال عدي بن حاتم : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي عنقي الصليب فقال لي : " يا عدي : ألق هذا الوثن من عنقك " ، فانتهين إليه وهو يقرأ سورة براءة حتى أتى على

هذه الآية : ﴿ اتخذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ ﴾ قال قلت يا رسول الله : إنا لم نتخذهم أربابا . قال " بلى أليس يحلون لكم ما حرم عليكم فتحلونه ويحرمون عليكم ما أحل الله لكم فتحرمونه ؟ فقلت بلى فقال : تلك عبادتهم "

حدثنا عبد الوارث بن سفيان ثم ساق السند إلى أن قال عن أبي البختري في قوله عز وجل : ﴿ اتخذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ ﴾ أما أنهم لو أمروهم أن يعبدوهم من دون الله ما أطاعوهم ولكنهم أمروهم ، فجعلوا حلال الله حرامه ، وحرامه حلاله فأطاعوهم ، فكانت تلك الربوبية .

(170/709)

قال وحدثنا ابن وضاح ، ثم ساق السند إلى أن قال عن أبي البختري قال : قيل لحذيفة في قوله ﴿ اتخذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ ﴾ [التوبة : 31] أكانوا يعبدونهم ؟ فقال لا ، ولكن كانوا يحلون لهم الحرام فيحلونه ويحرمون عليهم الحلال فيحرمونه .

وقال جل وعز : ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ

آبَاءَكُمْ ﴾ [الزخرف: 23 - 24].

فمنعهم الاقتداء بآبائهم من قبول الاهتداء، فقالوا: ﴿ أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [سبأ: 34].

وفي هؤلاء ومثلهم قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدوابِ عِندَ اللهِ الصم البكم الذين لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال: 22].

وقال: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتبعوا مِنَ الذين اتبعوا وَرَأَوُاْ العذاب وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأسباب وَقَالَ الذين اتبعوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ﴾ [البقرة: 166 - 167].

وقال عز وجل عائباً لأهل الكفر وذاماً لهم: ﴿ مَا هذه التماثيل التي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُواْ وَجَدْنَا آبَآءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء: 52 - 53].

وقال ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السبيلا ﴾ [الأحزاب: 67].

ومثل هذا في القرآن كثير من ذم تقليد الآباء والرؤساء.

وقد احتج العلماء بهذه الآيات، في إبطال التقليد ولم يمنعهم كفر أولئك من الاحتجاج بها، لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر.

وإنما وقع التشبيه بين التقليدين بغير حجة للمقلد ، كما لو قلد رجل فكفر وقلد آخر فأذنب ، وقلد آخر ف مسألة دنياه فأخطأ وجهها ، كان كل واحد ملوماً على التقليد بغير حجة .

لأن كل ذلك تقليد يشبه بعضه بعضاً ، وإن اختلفت الآثام فيه .

وقال الله عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حتى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة : 115] .

وقد ثبت الاحتجاج بما قدمنا في الباب هذا ، وفي ثبوته إبطال التقليد أيضاً .

فإذا بطل التقليد بكل ما ذكرنا وجب التسليم للأصول التي يجب التسليم لها ، وهي الكتاب والسنة أو ما كان في معناهما بدليل جامع بين ذلك .

أخبرنا عبد الوارث ثم ساق السند إلى أن قال : حدثنا كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إني لأخاف على أمتي من بعدي من أعمال ثلاثة " ، قال وما هي يا رسول الله ؟ قال : " أخاف عليهم من زلة العالم ، ومن حكم جائر ، ومن هوى متبع "

وبهذا الإسناد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة رسوله " هذا لفظ أب عمر في جامعه .

وكثير بن عبد الله المذكور في الإسناد ضعيف ، وأبوه عبد الله مقبول .

ولكن المتنين المرويين بالإسناد المذكور كلاهما له شواهد كثيرة تدل على أن أصله صحيح .

ثم ذكر أبو عمر بن عبد البر في جامعه بإسناد عن زياد بن حدير عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : ثلاث يهدم من الدين : زلة عالم ، وجدال منافق بالقرآن ، وأئمة مضلون .

ثم ذكر بالإسناد المذكور عن ابن مهدي عن جعفر بن حبان ، عن الحسن قال : قال أبو الدرداء إن فيما أخشى عليكم زلة العالم ، وجدال المنافق بالقرآن ، والقرآن حق وعلى القرآن منار كأعلام الطريف .

(172/709)

ثم أخرج بإسناده عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه كان يقول في مجلسه كل يوم ، قلما يخطئه أن يقول ذلك " الله حكم قسط هلك المرتابون إن وراءكم فتناً يكثر فيها المال ، ويفتح فيها القرآن ، فما أظن أن يتبعوني حتى أبتدع لهم غيره ، فإياكم وما ابتدع ، فإن كل بدعة ضلالة ، وإياكم وزيغة الحكيم " إلى آخر ما ذكره رحمه الله من الآثار الدالة على نحو ما تقدم من أن زلة العالم من أخوف المخاوف على هذه الأمة .

وإنما كانت كذلك لأن من يقلد العالم تقليداً أعمى يقلده فيما زل فيه فيتقول على الله أن تلك

الزلة التي قلد فيها العالم من دين الله ، وأنها مما أمر الله بها ورسوله ، وهذا كما ترى والتنبيه عليه هو مراد ابن عبد البر .

ومرادنا أيضاً بإيراد الآثار المذكورة .

ثم قال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله في جامعه ما نصه :

وشبه الحكماء زلة العالم بانكسار السفينة ، لأنها غذا غرقت غرق معها خلق كثير .

وإذا صح وثبت أن اعالم يزل ويخطىء ، لم يجز لأحد أن يفتي ويدين بقول لا يعرف وجهه .

وحدثنا عبد الرحمن بن يحيى ثم ساق السند إلى أن قال : عن ابن مسعود أنه كان يقول : " اغد عالماً أو متعلماً ولا تغد إمعة " فيما بين ذلك .

ثم ساق الروايات في تفسيرهم الإمعة .

ومعنى الإمعة معروف .

قال الجوهري في صحاحه : يقال الإمع والإمعة أيضاً للذي يكون لضعف رأيه مع كل أحد ، ومنه قول ابن مسعود : لا يكونن أحدكم إمعة . اه . منه .

ولقد أصاب من قال :

شمر وكن في أمور الدين مجتهداً ولا تكن مثل عير قيد فانقادا

وذكر ابن عبد البر بإسناده عن ابن مسعود في تفسير الإمعة أنه قال .

كنا ندعو الإمعة في الجاهلية الذي يدعى إلى الطعام فيذهب معه بغيره ، وهو فيكم اليوم

المحقب دينه الرجال .

ثم ذكر أبو عمر بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال :

(173/709)

ويل لأتباع ، عثرات العالم ، قيل كيف ذلك ؟ قال : يقول العالم شيئاً برأيه ثم يجد من هو أعلم برسول الله صلى الله عليه وسلم ومنه فيترك قوله ذلك ثم تمضي الأتباع .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لكميل بن زياد النخعي ، وهو حديث مشهور عند أهل العلم ، يستغنى عن الإسناد لشهرته عندهم :

يا كميل إن هذه القلوب أوعية ، فخيرها أوعاها للخير ، والناس ثلاثة : فعالم رباني ومتعلم على سبيل نجاة ، وهجم رعاع أتباع كل ناعق ، لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق ، إلى آخر الحديث .

وفيه : أف لحامل حق لا بصيره له ، ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة ، لا يدري أين الحق ، إن قال أخطأ وإن أخطأ لم يدر ، مشغوف بما لا يدري حقيقته ، فهو فتنة لمن افتتن به ، وإن من الخير كله من عرفه الله دينه ، وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف دينه .

ولا شك أن المقلد غيره تقليداً أعمى يدخل فيما ذكره علي رضي الله عنه في هذا الحديث

، لأنه لا يدري عن دين الله شيئاً إلا أن الإمام الفلاني عمل بهذا .

فعلمه محصور في أن من يقلده من الأئمة ذهب إلى كذا ولا يدري أمصيب هو فيه أم مخطىء .

ومثل هذا لم يستضىء بنور العلم ولم يلجأ إلى ركن وثيق لجواز الخطأ على متبوعه ، وعدم ميزه هو بين الخطأ والصواب .

ثم ذكر أبو عمر بن عبد البر رحمه الله في جامعه بإسناده عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال :

ألا لا يقلدن أحدكم دينه رجلاً إن آمن آمن وإن كفر كفر ، فإنه لا أسوة في الشر .

وقال في جامعه أيضاً رحمه الله : وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم مما قد ذكرناه في كتابنا هذا أنه قال : " علماء ثم تتخذ الناس رؤساء جهالاً يسألون فيفتون بغير علم فيضلون ويضلون "

وهذا كله نفي للتقليد ، وإبطال له لمن فهمه وهدي لرشده .

ثم ذكر رحمه الله آثاراً نحو ما تقدم ثم قال :

وقال : عبيد الله بن المعتمر : لا فرق بين بهيمة تقاد وإنسان يقلد .

وهذا كله لغير العامة ، فإن العامة لا بد لها من تقليد علمائها عند النازلة تنزل بها .

لأنها لا تتبين موقع الحجة ولا تصل لعدم الفهم إلى علم ذلك ، لأن العلم درجات لا سبيل مناه إلى أعلاها إلا بنيل أسفلها .

وهذا هو الحائل بين العامة وبين طلب الحجة . والله أعلم .

ولم تختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علمائها ، وأنهم المرادون بقول الله عز وجل : ﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكرِ إن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 43والأنبياء : 7] .

وأجمعوا على أن الأعمى لا بد له من تقليد غيره ممن يثق بميزه في القبلةإذا أشكلت عليه .

فكذلك من لا علم له ولا بصر بمعنى ما يدين به لا بد من تقليد عالمه ، وكذلك لم يختلف العلماء أن العامة لا يجوز لها الفتيا .

وذلك والله أعلم لجهلها بالمعاني التي منها يجوز التحريم والتحليل ، والقول في العلم .

ثم ذكر أبو عمر بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من قال عليَّ ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار ، ومن استشار أخاه فأشار عليه بغير رشده فقد خانه ، ومن أفتى بفتيا من غير ثبت فإنما إثمها على من أفتاه "

ثم ذكر بسنده أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال :

من أفتى بفتيا وهو يعمى عنها كان إثمها عليه اه .

ولا شك أن المقلد أعمى عما يفتي به لأن علمه به محصور في أن فلاناً قاله مع علمه بأن فلاناً ليس بمعصوم من الخطأ والزلل .

ثم قال أبو عمر رحمه الله : وقال أهل العلم والنظر حد العلم التبيين وإدراك المعلوم على ما هو به ، فمن بان له الشيء فقد علمه .

قالوا : والمقلد لا علم له . ولم يختلفوا في ذلك إلى أن قال رحمه الله ، وقال أبو عبد الله بن خويمنداد البصري المالكي :

التقليد معناه في الشرع الرجوع إلى قول لا حجة لقائله عليه .

وذلك ممنوع منه في الشريعة .

والاتباع ما ثبت عليه حجة .

(175/709)

وقال في موضع آخر من كتابه : كل من اتبعت قوله من غير أن يجب عليك قبوله لدليل يوجب عليك ذلك فأنت مقلده .

والتقليد في دين الله غير صحيح .

وكل من أوجب عليك الدليل اتباع قوله فأنت متبعه .

والاتباع في الدين مسوغ والتقليد ممنوع .

وقالأبو عمر في آخر كلامه في هذا الباب ما نصه :

ولا خلاف بين أئمة الأمصار في فساد التقليد فأغنى ذلك عن الإكثار .

وقال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله ، في كلامه عن التقليد ما نصه :

وقد احتج جماعة من الفقهاء وأهل النظر على من أجاز التقليد بحجج نظرية عقلية بعد ما تقدم .

فأحسن ما رأيت من ذلك قول المزني رحمه الله ، وأنا أورده قال :

يقال لمن حكم بالتقليد هل لك من حجة فيما حكمت به ؟

فإن قال : نعم ، أبطل التقليد لأن الحجة أوجبت ذلك عنده لا التقليد .

وإن قال : حكمنت به بغير حجة .

قيل له : فلم أرقت الدماء ، وأبحت الفروج وأتلفت الأموال ، وقد حرم الله ذلك إلا بحجة ؟

قال الله عز وجل ﴿ إِنْ عِندَكُمْ مِّن سُلْطَانٍ بِهَاذَآ ﴾ [يونس : 68] أي من حجة بهذا ؟

فإن قال : أنا أعلم أني قد أصبت وإن لم أعرف الحجة ، لأني قلدت كبيراً من العلماء وهو لا يقول إلا بحجة خفيت علي .

قيل له : إذا جاز تقليد معلمك لأنه لا يقول إلا بحجة خفيت عليك ، فتقليد معلم معلمك أولى .

لأنه لا يقول إلا بحجة خفيت على معلمك : كما لم يقل معلمك إلا بحجة خفيت عليك .

فإن قال : نعم ترك تقليد معلمه إلى تقليد معلم معلمه .

وكذلك من هو أعلا حتى ينتهي الأمر إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإن أب ذلك نقض قوله .

وقيل له : كيف تجوز تقليد من هو أصغر ، وأقل علماً ؟

ولا تجوز تقليد من أكبر وأكثر علماً ، وهذا تناقض ؟

فإن قال لأن معلمي وإن كان أصغر فقد جمع علم من هو فوقه إلى علمه ، فهو أبصر بما أخذ وأعلم بما ترك .

قيل له : كذلك من تعلم من معلمك ، فقد جمع علم معلمك وعلم من فوقه إلى علمه ، فيلزمك تقليده .

وترك تقليد معلمك .

(176/709)

وكذلك أنت أولى أن تقلد نفسك من معلمك . لأنك جمعت علم معلمك وعلم من هو فوقه إلى علمك .

فإن قلد قوله جعل الأصغر ومن يحدث من صغار العلماء ، أولى بالتقليد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وسلم .

وكذلكالصاحب عنده يلزمه تقليد التابع والتابع من دونه في قياس قوله . والأعلى للأدنى أبداً .

وكفى بقول يؤول إلى هذا تناقضاً وفساداً اه .

ثم قال أبو عمر رحمه الله بعد هذا ما نصه :

يقال لمن قال بالتقليد : لم يقلت به ، وخالفت السلف في ذلك فإنهم لم يقلدوا ؟

فإن قال : قلدت لأن كتاب الله لا علم لي بتأويله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لم أحصها .

والذي قلدته قد علم ذلك فقلدت من هو أعلم مني .

قيل له : أما العلماء ، إذا أجمعوا على شيء من تأويل الكتاب أو حكاية عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو اجتمع رأيهم على شيء فهو الحق لا شك فيه .

ولكن قد اختلفوا فيما قلدت فيه بعضهم دون بعض .

فما حجتك في تقليد بعضهم دون بعض .

وكلهم عالم ، والعالم الذي رغبت عن قوله ، أعلم من الذي ذهبت إلى مذهبه .

فإن قال : قلدته لأني أعلم أنه صواب .

قيل له : علمت ذلك بدليل من كتاب الله أو سنة أو إجماع ؟

فإن قال نعم . أبطل التقليد وطولب بما ادعاه من الدليل .

وإن قال : قلدته لأنه أعلم مني .

قيل له : فقلد كل من هو أعلم منك .

فإنك تجد من ذلك خلقاً كثيراً ولا تخص من قلدته غذ علتك فيه انه أعلم منك .

فإن قال : قلدته لأنه اعلم الناس .

قيل له : فإنه إذاً أعلم من الصحابة وكفى بقول مثل هذا قبحاً .

فإن قال : قلدته لأنه أعلم الناس .

قيل له : فما حجتك في ترك من لم تقلد منهم ، ولعل من تركت قوله منهم أفضل ممن أخذت بقوله ؟

على أن القول لا يصح لفضل قائله ، وإنما يصح بدلالة الدليل عليه .

(177/709)

وقد ذكر ابن مزين عن عيسى بن دينار ، عن ابن القاسم عن مالك ، قال : ليس كل ما قال رجل قولاً وإن كان له فضل يتبع عليه لقول الله عز وجل : ﴿ الذين يَسْتَمِعُونَ القول فَيَتَّبِعُونَ

أَحْسَنَهُ ﴾ [الزمر : 18] . فإن قال قصري وقلة علمي يحملني على التقليد .

قيل له : أما من قلد فيما ينزل . من أحكام شريعته عالماً يتفق له على علمه ، فيصدر في ذلك عما يخبره فمعذور ، لأنه قد أدى ما عليه وأدى ما لزمه فيما نزل به لجهله ولا بد له من تقليد عالم ، فيما جهله ، لإجماع المسلمين أن المكفوف يقلد من يثق بخبره في القبلة لأنه لا يقدر على أكثر من ذلك .

ولكن من كانت هذه حاله هل تجوز له الفتيا في شرائع دين الله ؟ فيحمل غيره على إباحة الفروج وإراقة الدماء واسترقاق الرقاب وإزالة الأملاك ويصيرها إلى غير ما كانت في يديه بقول لا يعرف صحته ولا قام له الدليل عليه ؟

وهو مقر أن قائله يخطىء ويصيب ، وأن مخالفه في ذلك ربما كان المصيب ، فيما خالفه فيه .

فإن أجاز الفتوى لمن جهل الأصل والمعنى لحفظه الفروع ، لزمه أن يجيزه للعامة .

وكفى بهذا جهلاً ، ورداً للقرآن قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء : 36] . وقال : ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : 28] .

وقد أجمع العلماء على أن ما لم يتبين ويتيقن فليس بعلم ، وإنما هو ظن ، والظن لا يغني من الحق شيئاً اه . كله من جامع ابن عبد البر رحمه الله .

واعلم أن حاصل جميع حجج المقلدين منحصر في قولهم : نحن معاشر المقلدين ممتثلون قول

الله تعالى : ﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكرِ إن كُنْتُم لا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 43 والأنبياء : 7] .

فأمر سبحانه من لا علم له أن يسأل من هو أعلم منه ، وهذا نص قولنا :

(178/709)

وقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم من لا يعلم إلى سؤال من يعلم ، فقال في حديث صاحب الشجة : ﴿ ألا سألوا إذا لم يعلموا ، إنما شفاء العيي السؤال ﴾ وقال أبو العسيف : الذي زنى بأمرأة مستأجرة :

" وإني سألت أهل العلم فأخبروني أن ما على ابني جلد مائة وتغريب عام ، وأن على امرأة هذا الرجم فلم ينكر عليه تقليد من هو أعلم منه " :

وهذا عالم الأرض عمر قد قلد أبا بكر .

فروى شعبة عن عاصم الأحول ، عن الشعبي أن أبا بكر قال في الكلالة : أقضي فيها فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان ، والله منه بريء : هو ما دون الولد والوالد ، فقال عمر بن الخطاب إنيي لأستحيي من الله أن أخالف أبا بكر .

وصح عنه أنه قال له :

رأينا لرأيك تبع ، وصح عن ابن مسعود أنه كان يأخذ بقول عمر .

وقال الشعبي عن مسروق : كان ستة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتون الناس ابن مسعود وعمر بن الخطاب وعلي وزيد بن ثابت وأُبي بن كعب وأبو موسى .

وكان ثلاثة منهم يدعون قولهم لقول ثلاثة .

كان عبد الله يدع قوله لقول عمر ، وكان أبو موسى يدع قوله لقول علي ، وكان زيد يدع قوله لقول أبي بن كعب .

وقال جندب : ما كنت أدع قول ابن مسعود لقول أحد من الناس .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم " إن معاذاً قد سنَّ لكم سنة فكذلك فافعلوا " في شأن الصلاة حيث أخر فصلى ما فاته من الصلاة مع الإمام بعد الفراغ ، وكانوا يصلون ما فاتهم أولاً ثم يدخلون مع الإمام .

قال المقلدة :

فوقد أمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله وأولي الأمر وهم العلماء أو العلماء والأمراء ، وطاعتهم تقليدهم فيما يفتون به .

فإنه لولا التقليد لم يكن هناك طاعة تختص بهم .

وقال تعالى : ﴿ والسابقون الأولون مِنَ المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْه ﴾ [التوبة : 100] .

وتقليدهم اتباع لهم ففاعله ممن رضي الله عنهم ، ويكفي ذلك الحديث المشهور . "

أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم "

وقال عبد الله بن مسعود : من كان منكم مستناً فليستن بمن قد مات ، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد أبر هذه الأمة قلوباً ، وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ، وإقامة دينه فاعرفوا لهم حقهم وتمسكوا بهديهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم .

وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي "

وقال : " اقدتوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر واهتدوا بهدي عمار وتمسكوا بعهد ابن أم عبد "

وقد كتب عمر إلى شريح : ان اقض بما في كتاب الله فإن لم يكن في كتاب الله فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن لم يكن في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقضِ بما قضى به الصالحون .

وقد منع عمر عن بيع أمهات الأولاد وتبعه الصحابة .

وألزم بالطلاق الثلاث فتبعوه أيضاً .

واحتلم مرة ، فقال له عمرو بن العاص : خذ ثوباً غير ثوبك فقال لو فعلتها صارت سنة .

وقال أُبي بن كعب وغيره من الصحابة : ما استبان لك فاعمل به ، وما اشتبه عليك فكله إلى عالمه .

وقد كان الصحابة يفتون ورسول الله صلى الله عليه وسلم حي بين أظهرهم .

وهذا تقليد لهم قطعاً .

إذ قولهم لا يكون حجة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد قال تعالى : ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدين وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رجعوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : 122] فأوجب عليهم قبول ما أنذروهم به إذا رجعوا إليهم .

وهذا تقليد منهم للعلماء .

وصح عن ابن الزبير ، أنه سئل عن الجد والإخوة ، فقال :

أما الذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذته خليلاً " ، فإنه أنزله أبا .

(180/709)

وهذا ظاهر في تقليده له .

وقد أمر الله سبحانه بقبول شهادة الشاهد ، وذلك تقليد له .

وجاءت الشريعة ، بقبول قول القائف ، والخارص والقاسم والمقوم للمتلفات ، وغيرها والحاكمين بالمثل ، في جزاء الصيد وذلك تقليد محض .

وأجمعت الأمة على قبول قول المترجم والرسول والمعرف والمعدل ، وإن اختلفوا في جواز الاكتفاء بواحد ، وذلك تقليد محض لهؤلاء .

وأجمعوا على جواز شراء اللحمان ، والثياب والأطعمة وغيرها ، من غير سؤال عن أسباب حلها ، وتحريمها اكتفاء بتقليد أربابها .

ولو كلف الناس كلهم الاجتهاد وأن يكونوا علماء فضلاء لضاعت مصالح العباد ، وتعطلت الصنائع والمتاجر ، وكان الناس كلهم علماء مجتهدين .

وهذا مما لا سبيل إليه شرعاً ، والقدر قد منع من وقوعه .

وقد أجمع الناس على تقليد الزوج ، للنساء اللاتي يهدين إليه زوجته وجواز وطئها تقليداً لهن في كونها هي زوجته .

وأجمعوا على ان الأعمل يقلد في القبلة ، وعلى تقليد الأئمة في الطهارة ، وقراءة الفاتحة ، وما يصح به الاقتداء ، وعلى تقليد الزوجة مسلمة كانت أو ذمية أن حيضها قد انقطع فيباح للزوج وطؤها بالقليد .

ويباح للولي تزويجها بالتقليد لها في انقضاء عدتها .

وعلى جواز تقليد الناس للمؤذنين في دخول أوقات الصلوات .

ولا يجب عليهم الاجتهاد ومعرفة ذلك بالدليل .

وقد قالت الأمة السوداء لعقبة بن الحرث : أرضعتك وأرضعت امرأتك ، فأمره صلى الله عليه وسلم بفراقها ، وتقليدها فيما أخبرته به من ذلك .

وقد صرح الائمة بجواز التقليد ، فقال حفص بن غيثا : سمعت سفيان يقول : إذا رأيت الرجل يعمل العمل الذي قد اختلف فيه وأنت ترى تحريمه فلا تنهه .

وقال محمد بن الحسن : يجوز للعالم تقليد من هو أعلم منه ، ولا يجوز له تقليد من هو مثله .

وقد صرح الشافعي بالتقليد فقال : في الضبع بعير ، قلته تقليداً لعمر .

وقال في مسألة بيع الحيوان بالبراءة من العيوب ، قلته تقليداً لعثمان .

(181/709)

وقال في مسألة الجد مع الإخوة إنه يقاسمهم ثم قال : وإنما قلت بقول زيد . وعنه قبلنا أكثر الفرائض .

قال في موضع آخر من كتابه الجديد ، قلته تقلداً لعطاء .

وهذا أبو حنيفة رحمه الله في مسائل الآبار ليس معه فيها إلا تقليد من تقدمه من التابعين فيها وهذا مالك لا يخرج عن عمل أهل المدينة .

ويصرح في موطئه بأنه أدرك العمل على هذا ، وهو الذي عليه أهل العلم ببلدنا .

ويقول في غير موضع : ما رأيت أحداً أقتدي به يفعله ، ولو جمعنا ذلك من كلامه لطال .

وقد قال الشافعي في الصحابة : رأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا ، ونحن نقول ونصدق أي رأي الشافعي والأئمة معه لنا خير من رأينا لأنفسنا .

وقد جعل الله سبحانه في فطر العباد تقليد المتعلمين للأستاذين والمعلمين ولا تقوم مصالح الخلق إلا بهذا .

وذلك عام في كل علم وصناعة .

وقد فاوت الله سحبانه بين قوي الأذهان ، كما فاوت بين الأبدان ، فلا يحسن في حكمته وعدله ورحمته أن يفرض على جميع خلقه معرفة الحق بدليله ، والجواب عن معارضه في جميع لمسائل الدين دقيقها وجليلها .

ولو كان كذلك لتساوت أقدام الخلائق في كونهم علماء ، بل جعل سبحانه وتعالى هذا عالماً ، وهذا متعلماً وهذا متبعاً للعالم مؤتماً به بمنزلة المأموم مع الإمام والتابع مع المتبوع ، وأين حرم الله تعالى على الجاهل أن يكون متبعاً للعالم مؤتماً به مقلداً له يسير بسيربه وينزل بنزوله .

وقد علم الله سبحانه أن الحوادث والنوازل كل وقت نازلة بالخلق ، فهل فرض على كل منها

عين ، أن يأخذ حكم نازلة من الأدلة الشرعية بشروطها ولوازمها ؟

وهل ذلك في إمكان أحد فضلاً عن كونه مشروعاً .

وهؤلاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتحوا البلاد ، وكان الحديث العهد بالإسلام يسألهم فيفتونه .

ولا يقولون له عليك أن تطلب معرفة الحق في هذه الفتوى بالدليل ولا يعرف ذلك عن أحد منهم ألبتة .

(182/709)

وهل التقليد إلا من لوازم التكليف ولوازم الوجود ؟ فهو من لوازم الشرع والقدر .

والمنكرون له مضطرون إليه ولا بد . وذلك فيما تقدم بيانه من الأحكام وغيرها .

ونقول لمن احتج على إبطاله : كل حجة أثرية ذكرتها فأنت مقلد لحملتها ورواتها إذ لم يقم دليل قطعي على صدقهم ، فليس بيدك إلا تقليد الراوي .

وليس بيد الحاكم إلا تقليد الشاهد ، وكذلك ليس بيد العامي إلا تقليد العالم .

فما الذي سوغ لك تقليد الراوي والشاهد ومنعنا من تقليد العالم ، وهذا سمع بأذنه ما رواه .

وهذا عقل بقلبه ما سمعه فأدى هذا مسموعه ، وأدى هذا معقوله .

وفرض على هذا تأدية ما سمعه ، وعلى هذا تأدية ما عقله ، وعلى من لم يبلغ منزلتهما القبول منهما .

ثم يقال للمانعين من التقليد أنتم منعتموه خشية وقوع المقلد في الخطأ ، بأن يكون مقلده مخطئاً في فتواه ، ثم أوجبتم عليه النظر والاستدلال في طلب الحق .

ولا ريب أن صوابه في تقليده للعالم أقرب من صوابه في اجتهاده هو لنفسه .

وهذا كمن أراد شراء سلعة لا خبرة له بها ، فإنه إذا قلد عالماً بتلك السلعة خبيراً بها أميناً ناصحاً كان صوابه وحصول غرضه أقرب من اجتهاده لنفسه ، وهذا متفق عليه بين العقلاء اه .

هذا هو غاية ما يحتج به المقلدون ، وقد ذكره ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين ، وبين بطلانه منواحد وثمانين وجهاً .

وسنذكر هنا إن شاء الله جملاً مختصرة من كلامه الطويل تكفي المنصف .

وتزيد المسألة إن شاء الله إيضاحاً وإقناعاً .

قال في إعلام الموقعين بعد ذكره حجج المقلدين التي ذكرناها آنفاً ما نصه :

قال أصحاب الحجة :

عجباً لكم معاشر المقلدين ، الشاهدين على أنفسهم مع شهادة أهل العلم بأنهم ليسوا من

أهله ، ولا معدودين في زمرة أهله .

كيف أبطلتم مذهبكم ، بنفس دليلكم ، فما للمقلد وما للاستدلال ؟

وأين منصب المقلد من منصب المستدل ؟

(183/709)

وهل ما ذكرتم من الأدلة إلا ثياباً استعرتموها ، من صاحب الحجة فتجملتم بها ، بين الناس ، وكنتم في ذلك متشبهين بما لم تعطوه ، ناطقين من العلم بما شهدتم على أنفسكم أنكم لم تؤتوه ، وذلك ثوب زور لبستموه ، ومنصب لستم من أهله غصبتموه .

فأخبرونا ، هل صرتم إلى التقليد لدليل قادكم إليه ، وبرهان دلكم عليه ، فنزلتم به من الاستدلال أقرب منزل ، وكنتم به عن التقليد بمعزل ، أم سلكتم سبيله اتفاقاً ، وتخميناً من غير دليل .

وليس إلى خروجكم عن أحد هذين القسمين ، سبيل ، وأيهما كان فهو بفساد مذهب التقليد حاكم ، والرجوع إلى مذهب الحجة منه لازم .

ونحن إن خاطبناكم بلسان الحجة ، قلتم لسنا من أهل هذه السبيل ، وإن خاطبناكم بحكم التقليد ، فلا معنى لما أقمتموه من الدليل .

والعجب أن كل طائفة من الطوائف ، وكل أمة من الأمم ، تدعي أنها على حق ، حاشا فرقة التقليد ، فإنهم لا يدعون ذلك ، ولو ادعوه لكانوا مبطلين ، فإنهم شاهدون على أنفسهم بأنهم لم عقدوا تلك الأقوال لدليل قادهم إليها ، وبرهان دلهم عليها ، وإنما سبيلهم محض التقليد .

والمقلد لا يعرف الحق من الباطل ، ولا الحالي من العاطل .

وأعجب من هذا أن أئمتهم نهوهم عن تقليدهم فعصوهم وخالفوهم ، وقالوا نحن على مذاهبهم ، وقد دانوا بخلافهم في أصل المذهب الذي بنوا عليه .

فإنهم بنوا على الحجة ونهوا عن التقليد وأوصوهم إذا ظهر الدليل أن يتركوا أقوالهم ويتبعوه ، فخالفوهم في ذلك كله .

وقالوا نحن من أتباعهم ، تلك أمانيهم ، وما أتباعهم إلا من سلك سبيلهم ، واقتفى آثارهم في أُولهم وفروعهم .

وأعجب من هذا أنهم مصرحون في كتبهم ببطلان التقليد ، وتحريمه ، وأنه لا يحل القول به في دين الله .

ولو اشترط الإمام على الحاكم أن يحكم بمذهب معين لم يصح شرطه ولا توليته .

ومنهم من صحح التولية وأبطل الشرط .

وكذلك المفتي يحرم عليه الإفتاء بما لا يعلم صحته باتفاق الناس .

والمقلد لا علم له بصحة القول وفساده إذ طريق ذلك مسدودة عليه .

ثم كل منهم يعرف من نفسه أنه مقلد لمتبوعه لا يفارق قوله ، ويترك له كل ما خالفه من كتاب أو سنة أو قول صاحب ، أو قول من هو أعلم من متبوعه أو نظيره .

وهذا من أعجب العجب .

وأيضاً فإنا نعلم بالضرورة ، أنه لم يكن في عصر الصحابة ، رجل واحد اتخذ رجلاً منهم يقلده في جميع أقواله ، فلم يسقط منها شيئاً وأسقط أقوال غيره ، فلم يأخذ منها شيئاً .

ونعلم بالضرورة ، أن هذا لم يكن في عصر التابعين ، ولا تابعي التابعين .

فليكذبنا المقلدون برجل واحد ، سلك سبيلهم الوخيمة ، في القرون الفضيلة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإنما حدثت هذه البدعة في القرن الرابع المذموم على لسانه صلى الله عليه وسلم .

فالمقلدون لمتبوعهم في جميع ما قالوه ، يبيحون به الفروج ، والدماء والأموال ، ويحرمونها ولا يدرون أذلك صواب أم خطأ على خطر عظيم ، ولهم بين يدي الله موقف شديد يعلم فيه من قال على الله ما لا يعلم أنه لم يكن على شيء اه محل الغرض منه بلفظه .

وعلى كل حال فأنتم أيها المقلدون : تقولون إنه لا يجوز العمل بالوحي إلا لخصوص المجتهدين فلم سوغتم لأنفسكم الاستدلال على التقليد بآية : ﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكر إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 43] ، وآية ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ ﴾ [التوبة : 122] .

هل رجعتم عن قولكم بأن الاستدلال بالوحي لا يجوز لغير المتجتهد ، أو ارتكبتم ما تعتقدون أنه حرم من استدلالكم بالقرآن مع شدة بعدكم عن رتبة الاجتهاد ؟

وفي هذا رد إجمالي ما استدللتم به على التقليد الذي أنتم عليه .

ثم يقال : أليست هذه الآيات التي استدللتم بها في زعمكم ، من ظواهر الكتاب ، التي سن لكم الصاوي وأمثاله ، أن العمل بها من أصول الكفر .

فإنه لم يستثن شيئاً من ظواهر القرآن يكون العمل به ليس من أصول الكفر .

(185/709)

فلم تجرأتم على شيء هو من أصول الكفر وسوغتم لأنفسكم الاستدلال بالقرآن ، مع أنه لا يجوز عندكم إلا للمجتهدين .

وسنذكر رد استدلال المقلدين تفصيلاً ، بإيجاز إن شاء الله تعالى .

أما استدلالهم بآية ﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكرِ إِن كُنتُمْ لاَّ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 43] فهو استدلال في غير محله .

فإن الآية لا تدل على هذا النوع من التقليد الأعمي الذي هم عليه من التزام جميع أقوال رجل واحد وترك جميع ما سواها .

ولا شك أن المراد بأهل الذكر أهل الوحي الذين يعلمون ما جاء من عند الله كعلماء الكتاب والسنة .

فقد أمروا أن يسألوا أهل الذكر ليفتوهم بمقتضى ذلك الذكر الذي هو الوحي .

ومن سأل عن الوحي وأعلم به ، وبين له كان عمله به اتباعاً للوحي لا تقليداً واتباع الوحي لا نزاع في صحته .

وإن كانت الآية تدل على نوع تقليد في الجملة ، فهي لا تدل إلا على التقيلد الذي قدمنا أنه لا خلاف فيه بين المسلمين ، وهو تقليد العامي الذي تنزل به النازلة عالماً من العلماء ، وعمله بما أفتاه به من غير التزام منه لجميع ما يقوله ذلك العالم ، ولا تركه لجميع ما يقوله غيره .

وأما استدلالهم بالحديث الوارد في الرجل الذي أصابته شجة في رأسه ، ثم احتلم فسأل أصحابه : هل يعلمون له رخصة في التيمم ؟

فقالوا : ما نرى لك رخصة وأنت قادر على الماء ، فاغتسل فمات .

فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فقال " قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا ؟ فإنما

شفاء العيي السؤال "

فهو استدلال أيضاً في غير محله ، وهو حجة أيضاً على المقلدين لا لهم .

قال في إعلام الموقعين في بيان وجه ذلك ما نصه :

إن النبي صلى الله عليه وسلم إنما أرشد المستفتين ، كصاحب الشجة بالسؤال عن حكمه ، وسنته فقال :

قتلوه قتلهم الله ، فدعا عليهم حين أفتوا بغير علم .

وفي هذا تحريم الإفتاء بالتقليد .

فإنه ليس علماً باتفاق الناس .

(186/709)

فإنما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاعله ، فهو حرام وذلك أحد أدلة التحريم .

فما احتج به المقلدون هو من أكبر الحجج عليهم .

وكذلك سؤال أبي العسيف الذي زنى بامرأة مستأجرة لأهل العلم .

فإنه لما أخبروه بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في البكر الزاني أقره على ذلك ، ولم

ينكره ، فلم يكن سؤالهم عن رأيهم ومذاهبهم .

وأما استدلالهم بأن عمر قال في الكلالة : إني لأستحيي من الله أن أخالف أبا بكر ، وأن ذلك تقليد منه له . فلا حجة لهم فيه أيضاً .

وخلاف عمر لأبي بكر رضي الله عنهما أشهر من أن يذكر .

كما خالفه في سبي أهل الردة فسباهم أبو بكر ، وخالفه عمر .

وبلغ خلافه إلى أن ردهن حرائر إلى أهلهن إلا لمن ولدت لسيدها منهن .

ونقص حكمه ، ومن جملتهن خولة الحنفية أم محمد بن علي .

وخالفة في أرض العنة فقسمها أبو بكر ووقفها عمر .

وخالفه في المفاضلة في العطاء ، فرأى أبو بكر التسوية ، ورأى عمر المفاضلة .

وخالفه في الاستخلاف ، فاستخلف أبو بكر عمر على المسلمين ، ولم يستخلف عليهم عمر أحداً إيثاراً لفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فعل أبي بكر رضي الله عنهم .

وخالفه في الجد والإخوة ، مع أن خلاف أبي بكر الذي استحيى منه عمر هو خلافه في قوله : إن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان ، والله منه برئ ، هو ما دون الولد والوالد فاستحيى عمر من مخالفة أبي بكر في اعترافه بجواز الخطأ عليه ، وأنه ليس كلامه كله صواباً مأموناً عليه الخطأ .

ويدل على ذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أقر عند موته أنه لم يقض في الكلالة بشيء .

وقد اعترف أنه لم يفهمها ، قاله في إعلام الموقعين .

ومن العجب استدلال المقلدين على تقليدهم ، باستحياء عمر من مخالفة أبي بكر ، مع أنهم لم يستحيوا من مخالفة أبي بكر وعمر ، وجميع الصحابة ، ومخالفة الكتاب والسنة إذا كان ذلك ، لا يوافق مذهب إمامهم ، كما هو معلوم من عادتهم .

(187/709)

وكما أوشحه الصاوي في الكلام الذي قدمنا على قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الكهف : 23 - 24] .

فقد قدمنا هناك أنه قال : إن من خرج عن المذاهب الأربعة فهو ضال مضل ، ولو وافق الصحابة ، والحديث الصحيح والآية .

وربما أداه ذلك إلى الكفر ، لأن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر !

فمن هذا مذهبه ودينه ، وكيف يستدل باستحياء عمر من مخالفة أبي بكر ؟

بل كيف يستدل بنص من نصوص الوحي ، أو قول أحد من أصحاب رسول الله صلى الله

عليه وسلم ؟

مع أن أبا بكر خليفة راشد أمر النبي بالاقتداء به في قوله :

" عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي " الحديث .

فليس الاقتداء بالخلفاء كالاقتداء بغيرهم .

وأما استدلالهم على تقليدهم بقول عمر لأبي بكر رضي الله عنهما : رأينا لرأيك تبع .

فيكفي في رده ما قدمنا قريباً ، من مخالفة عمر لأبي بكر ، مع القصة التي قال له فيها : رأينا لرأيك تبع ، رد فيها على أبي بكر بعض ما قاله .

وأيد الصحابة ما قال عمر في رده على أبي بكر رضي الله عنهما .

لأن الحديث المذكور في وفد بزاخة من أسد وغطفان حين قدموا على أبي بكر يسألونه الصلح ، فخيرهم أبو بكر بين الحرب المجلية والسلم المخزية .

فقالوا هذا المجلية والسلم المخزية .

فقالوا هذه المجلية قد عرفناها . فما المخزيه .

قال : تنزع منكم الحلقة والكراع ، ونغنم ما أصبنا لكم وتردون لنا ما أصبتم منا ؟ وتدون لنا قتلانا إلى آخر كلامه .

وفيه : فقام عمر بن الخطاب فقال : قد رأيت رأياً سنشير عليك .

أما ما ذكرت من الحرب المجلية والسلم المخزية فنعم ما ذكرت .

وما ذكرت من أن نغنم ما أصبنا منكم ، وتردون ما أصبتم منا ، فنعم ما ذكرت .

وأما ما ذكرت من أن تدون قتلانا وتكون قتلاكم في النار .

فإن قتلانا قد قاتلت فقتلت على ما أمر الله أجورها على الله ، ليس لها ديات .

(188/709)

فتتابع القوم على ما قال عمر رضي الله عنه .

فهذه القصة الثابتة : هي التي في بعض ألفاظها ورأينا لرأيك تبع .

وأنت ترى عمر رضي الله عنه لم يقلد فيها أبا بكر رضي الله عنه ، إلا فيما يعتقد صوابه .

فإنما ظهر له أنه صواب قال فه فيه : نعم ما ذكرت .

وما ظهر له أنه ليس بصواب رده على أبي بكر ، وهو قول أبي بكر بدفع ديات الشهداء .

لأن عمر يعتقد أن الشهيد في سبيل الله لا دية له ، لأن الله يقول : ﴿ إِنَّ اللهَ اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجنة يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التوراة والإنجيل والقرآن وَمَنْ أوفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فاستبشروا بِبَيْعِكُمُ الذي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الفوز العظيم ﴾ [التوبة : 111] .

وذلك يوضح لك أن الصحابة رضي الله عنهم لا يعدلون عن الكتاب والسنة إلى قول أحد .

وأما احتجاجهم بتقليد ابن مسعود لعمر فهو ظاهر السقوط ، ولو وافق عمر في بعض المسائل فهو من قبيل موافقة بعض العلماء لبعض ، لاتفاق رأيهم لا لتقليد بعضهم لبعض .

وقد خالف ابن مسعود عمر رضي الله عنهما في مسائل كثيرة جداً ، كمخالفته له في أم الولد ، لأن ابن مسعود يقول فيها إنها تعتق من نصيب ولدها ، ومن ذلك أن ابن مسعود كان يطبق في ركوعه إلى أن مات ، وعمر كان يضع يديه على ركبتيه .

وكان ابن مسعود يقول في الحرام هي يمين وعمر يقول : إنه طلقة واحدة .

وكان ابن مسعود يحرم النكاح بين الزانيين وعمر يتوبهما ، وينكح أحدهما الآخر .

وكان ابن مسعود يرى بين الأمة طلاقها ، وعمر يرى عدم ذلك وأمثال هذا كثيرة معلومة .

ومع أن ابن مسعود يقول : إنه اعلم الصحابة بكتاب الله وأنه لو كان يعلم أحداً أعلم منه به لرحل إليه .

ولم ينكر عليه أحد من الصحابة .

وقد قدمنا عنه قوله : "كن عالماً أو متعلماً ولا تكن إمعة"

فليس ابن مسعود من أهل التقليد ، مع أن المقلدين المحتجين بتقليد ابن مسعود لعمر ، لا يقلدون ابن مسعود ، ولا عمر ولا غيرهما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولا يأخذون بقول الله ولا رسوله وإنما يفضلون على ذلك كله تقليد أحد الأئمة أصحاب المذاهب رحمهم الله .

وأما استدلالهم على التقليد بأن عبد الله كان يدع قوله لقول عمر .

وأبو موسى كان يدع قوله لقول علي .

وزيد يدع قوله لقول أبي بن كعب فهو ظاهر السقوط أيضاً .

لأنه من المعلوم أن الصحابة المذكورين رضي الله عنهم لا يدعون سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لقول أحد ، وهذا لا شك فيه .

وكان ابن عمر يدع قول عمر ، إذا ظهرت له السنة .

وكان ابن عباس يقول : يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء ، أقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقولون : قال أبو بكر وعمر .

وأما استدلالهم على التقليد بأن معاذاً رضي الله عنه صلى مسبوقاً فصلى ما أدرك مع الإمام أولاً ، ثم قضى ما فاته بعد سلام الإمام ، وكانوا قبل ذلك يصلون ما فاتهم أولاً ثم يدخلون مع الإمام في الباقي .

وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال في ذلك " إن معاذاً قد سن لكم سنة ، فكذلك فافعلوا

" فهو ظاهر السقوط أيضاً ، لأن ذلك لم يكن سنة إلا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم كما لا يخفى .

فلا حجة قطعاً في قول أحد كائناً من كان ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم موجود .

وإنما العبرة بقوله صلى الله عليه وسلم وفعله وتقريره .

وهذا معلوم بالضرورة من الدين .

وأما استدلالهم على التقليد بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ أَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول وَأُوْلِي الأمر مِنْكُمْ ﴾ [النساء : 59] .

قائلين إن المراد بأولي الأمر العلماء ، وأن طاعتهم المأمور بها في الآية هي تقليدهم ، فهو ظاهر السقوط أيضاً .

(190/709)

لأنه لا يجوز طاقة أولي الأمر إجماعاً فيما خالف كتاباً أو سنة ، ولا طاعة لهم إلا في المعروف كما جاءت به الأحاديث الصحيحة عنه صلى الله عليه وسلم .

ولا نزاع بين المسلمين في أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

والتحقيق في معنى الآية الكريمة أن المراد بأولي الأمر : ما يشمل الأمراء والعلماء .

لأن العلماء مبلغون عن الله وعن رسوله ، والأمراء منفذون ، ولا تجوز طاعة أحد منهم إلا فيما أذن الله فيه .

لأن ما أمر به أولو الأمر لا يخلو من أحد الأمرين :

أحدهما : أن يكون طاعة لله ولرسوله من غير نزاع ، وطاعة أولي الأمر في مثل هذا من طاعة الله ورسوله .

والثاني : أن يحصل فيه نزاع هل هو من طاعة الله ورسوله أو لا ؟

وفي هذه الحالة لا تجوز الطاعة العمياء لأولي الأمر ولا التقليد الأعمى كما صرح الله تعالى بذلك في نفس الآية .

لأنه تعالى لما قال : ﴿ وَأَطِيعُواْ الرسول وَأُوْلِي الأمر مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى الله والرسول إِن كُنْتُم ﴾ [النساء : 59] ، أتبع ذلك قوله : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى الله والرسول إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر ذلك خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [النساء : 59] .

فالآية صريحة في رد كل نزاع إلى الله ورسوله .

والرد إلى الله هو الرد إلى كتابه ، والرد إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، هو الرد إليه في حياته ، والرد إلى سنته بعد وفاته صلى الله عليه وسلم .

وفي الكتاب العزيز : ﴿ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ [الممتحنة : 12] .

ولا يخفى أن طاعة الله وطاعة رسوله المأمور بها في الآية لا يتحقق وجودها إلا بمعرفة أمر الله ورسوله ونهي الله ورسوله .

والمقلدون مقرون على أنفسهم بأنهم لا يعلمون أمر الله ولا نهيه ، ولا أمر رسوله ولا نهيه .

(191/709)

وغاية ما يدعون علمه هو أن الإمام الذي قلدوه قال كذا ، مع عجزهم عن التمييز بين ما هو خطأ وما هو صواب ، بل أكثرهم لا يميزون بين قول الإمام وبين ما ألحقه أتباعه بعده مما قاسوه على أصول مذهبه .

ولا شك أن طاعة العلماء هي اقتفاء ما كانوا عليه من النظر في كتاب الله وسنة رسوله وتقديمهما على كل قول وعلى كل رأي كائناً ما كان .

فمن قلدهم التقليد الأعمر وترك الكتاب والسنة لأقوالهم ، فهو المخالف لهم المتباعد عن طاعتهم كما تقدم ، وكما سيأتي إن شاء الله .

وأما استدلالهم على التقليد بقوله تعالى : ﴿ والسابقون الأولون مِنَ المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ [التوبة : 100] ، قائلين : إن تقليدهم من جملة اتباعهم بإحسان ، فمقلدهم ممن رضي الله عنه بنص الآية فهو ظاهر

السقوط أيضاً :

لأن الذين اتبعوهم بإحسان هم الذين ساروا على مثل ما كانوا عليه من العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

فلم يكن أحد منهم يقلد رجلاً ويترك الكتاب والسنة لقوله .

فالمقلدون التقليد الأعمر ليسوا ممن اتبعهم ألبتة ، بل هم أعظم الناس مخالفة لهم ، وأبعدهم عن اتباعهم ، فأتبع الناس لمالك مثلاً ابن وهب ونظراؤه ، ممن يعرضون أقواله على الكتاب ولاسنة ، فيأخذون منها ما وافقهما دون غيره .

وأتبع الناس لأبي حنيفة أبو يوسف ومحمد مع كثرة مخالفتهما له ، لأجل الدليل من كتاب أو سنة .

وأتبع أصحاب أحمد بن حنبل له البخاري ومسلم وأبو داود والأثرم لتقديمهم الدليل على قوله وقول غيره ، وهكذا .

وأما استدلالهم على تقليدهم : بحديث " أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم " فهو ظاهر السقوط أيضاً .

اعلم أولاً أن الحديث لا يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم فهو حديث ضعيف لا يصح الاحتجاج به .

فجميع طرقه ليس فيها شيء قائم ، قال في إعلام الموقعين .

روى هذا الحديث من طريق الأعمش عن أبي سفيان عن جابر ، ومن حديث سعيد بن المسيب عن ابن عمر .

ومن طريق حمزة الجري عن نافع عن ابن عمر ، ولا يثبت شيء منها .

قال ابن عبد البر حدثنا محمد بن غبراهيم بن سعيد أنا أبا عبد الله بن مضرح حديثهم ثنا محمد بن أيوب الصموت قال : قال لنا البزار .

وأما ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم : " أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم " فهذا الكلام لا يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم اه . منه .

وضعف الحديث المذكور معروف عند أهل العلم .

مع أن المقلدين المحتجين به يمنعون تقليد الصحابة ، ويحرمون الاهتداء بتلك النجوم .

وهو تناقض عجيب لأنهم تركوا نفس ما دل عليه الحديث واستدلوا بالحديث على ما لم يتعرض له الحديث ، وهو تقديمهم تقليد أئمتهم على تقليد الصحابة .

مع أن قياسهم على لاصحابة لا يصح لعظم الفارق ، وبما ذكرنا تعلم سقوط استدلالهم بما ذكروا عن ابن مسعود من قوله :

" من كان مستناً منكم فليستن بمن قد مات أولئك أصحاب محمد "

والله جل وعلا يقول : ﴿ أَتَأْمُرُونَ الناس بالبر وَتَنْسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة : 44] الآية .

وأما استدلالهم بقوله صلى الله عليه وسلم " عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي "

وقوله صلى الله عليه وسلم " اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر " فهو حجة عليهم لا لهم .

لأن سنة الخلفاء الراشدين التي حث عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم مقرونة بسنته ليس فيها ألبتة تقليد أعمى ، ولا التزام قول رجل بعينه .

بل سنتهم هي اتباع كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وتقديمهما على كل شيء .

لأنهم هم أتبع الناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأشدهم حرصاً على العمل بما جاء به .

فالذي يقدم آراء الرجال على كتاب الله وسنة رسوله ويستدل على ذلك بحديث " عليكم بسنتي وسنة الخفاء الراشدين " الحديث ، هو كما ترى .

وأقوال الخلفاء رضي الله عنهم وأفعالهم كلها معروفة مدونة إلى الآن ليس فيها تقليد أعمى ولا جمود على قول رجل واحد .

وإنما هي عمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ومشاورة لأصحابه فيما نزل من النوازل واستنباط ما لم يكن منصوصاً من نصوص الكتاب والسنة على أحسن الوجوه أتقنها ، أقربها لرضى الله والاحتياط في طاعته .

وكانوا إذا بلغهم شيء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجعوا إليه ولو كان مخالفاً لرأيهم .

فقد رجع أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى قول المغيرة بن شعبة ، ومحمد بن مسلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم فرض للجدة السدس .

وكان أبو بكر يرى أنها لا ميراث لها ، وقد قال لها لما جاءته " لا أرى لك شيئاً في كتاب الله ولا أعلم لك شيئاً في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم " .

وقد رجع عمر إلى قول المذكورين في دية الجنين أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل فيها غرة عبد أو وليدة .

ورجع عمر أيضاً إلى حديث عبد الرحمن بن عوف أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ الجزية من مجوس هجر .

ورجع عمر أيضاً إلى قول الضحاك بن سفيان أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب غليه أن يورث امرأة أشيم الضبابي من دية زوجها .

ورجع عثمان بن عفان إلى حديث فريعة بنت مالك أخت أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم أمرها بالسكنى في البيت الذي توفي عنها زوجها وهي فيه حتى تنقضي عدتها .

وكان عثمان بعد ذلك يفتي بوجوب السكنى للمتوفى عنها حتى تنقضي عدتها .

وأمثال هذا أكثر من أن تحصى ، وفي ذلك بيان واضح ، لأن سنة الخلفاء الراشدين هي المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتقديم سنته على كل شيء ، فعلينا جميعاً أن نعمل بمثل ما كانوا يعملون لنكون متبعين لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنتهم .

(194/709)

أما المقلد المعرض عن سنتهم ، وعن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، مفضلاً على ذلك تقليد أبي حنيفة أو مالك أو الشافعي أو أحمد رحمهم الله ، فما كان يحق له أن يستدل بحديث " عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين " الحديث لأنه مقر بمقتضى

تقليده ، بأنه أبعد الناس عن العمل بحديث " عليكم بسنتي وسنة الخفاء الراشدين " الحديث .

وأما استدلالهم ، بأن عمر كتب إلى شريح :

أن اقض بما في كتاب الله فإن لم يكن في كتاب الله فبما في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ن فإن لم يكن في سنة رسول الله ، فيما قضى به الصالحون فهو حجة عليهم أيضاً لا لهم .

لأن فيه تقديم كتاب الله ، ثم سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ن ثم العمل بما قضى به الصالحون ، وخيرهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولو كان المقلدون يمتثلون هذا ، لما أنكر عليهم أهل العلم ، ولكن المقلدين المحتجين بهذا يمنعون العمل بكتاب الله وسنة رسوله ، والعمل بفتاوى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولو كان المقلدون يمتثلون هذا ، لما أنكر عليهم أهل العلم ، ولكن المقلدين المحتجين بهذا يمنعون العمل بكتاب الله وسنة رسوله ، والعمل بفتاوى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويوجبون الجمود على قول الإمام الذي قلدوه والتزموا بمذاهبه .

ومن كانت هذه حاله ، فلا يحق له أن يستدل بشيء من هذه الأدلة .

وأما استدلالهم بأن عمر رضي الله عنه منع بيع أمهات الأولاد فتبعه الصحابة .

وألزم الطلاق الثلاث بكلمة واحد وتبعه الصحابة .

فهو ظاهر السقوط أيضاً .

وقد قدمنا أن متابعة بعض الصحابة لبعض إنما هي لاتفاقهم فيما رأوه ، لا لأن بعضه مقلد بعضاً تقليداً أعمى .

وقد قدمنا إيضاح ذلك بما يكفي .

مع أن المقلدين المحتجين بهذا يمنعون تقليد عمر ، وسائر الصحابة ، فمن عجائبهم أنهم يستدلون بما يعتقدون أن العمل به ممنوع .

(195/709)

وأما استدلالهم بأن عمرو بن العاص قال لعمر لما احتلم : خذ ثوباً غير ثوبك ، فقال لو فعلت صارت سنة . فهو ظاهر السقوط أيضاً .

لأن عمر بن الخطاب خاف أن يفعل شيئاً فيعتقد من لا علم عنده أنه إنما فعله لكونه سنة ، فامتنع من فعله لأجل هذا المحذور .

مع أن المقلد يرى منع تقليد عمر رضي الله عنه .

وأما استدلالهم بما ذكروه عن أُبي وغيره أنه قال :

ما استبان لك فاعمل به ، وما اشتبه عليك فكله إلى عالمه ، فهو حجة عليهم أيضاً لا لهم .

لأن قوله : ما استبان لك فاعمل به ، صريح في أن ما استبان من كتاب الله وسنة رسوله ، يجب العمل بله ولا يجوز العدول عنه لقول أحد .

وهذا نقيض ما عليه المقلدون ، فهم دائماً يستدلون على مذهبهم بما يناقضه .

والأظهر أن مراد أُبي بن كعب بقوله : فكله إلى عالمه ، أي فكل علمه إلى الله .

فمراده بما اشتبه المتشابه ، ومراده بعالمه الله .

فهو يشير إلى قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابتغاء الفتنة وابتغاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ والراسخون فِي العلم يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران : 7] .

فالذين قالوا آمنا به كل من عند ربنا ، فقد وكلوا ما اشتبه عليهم غلى عالمه وهو الله .

ويحتمل أن يكون مراد أبي بقوله : فكله إلى عالمه أي فكله إلى من هو أعلم به منك من العلماء .

وهذا هو الذي فهمه ابن القيم في إعلام الموقعين من كلام أُبي .

وعلى هذا الاحتمال فلا حجة فيه أيضاً للمقلدين لأن من خفي عليه شيء من العلم فوكله إلى من هو أعلم منه ، فقد أصاب .

ولا يلزم من ذلك الإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله بل هو عمل بالقرآن لقوله تعالى :

﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء : 36] .

(196/709)

وأما استدلالهم على تقليدهم بأن الصحابة كانوا يفتون ورسول الله صلى الله عليه وسلم موجود بين أظهرهم ، وأن ذلك تقليد لهم فهو ظاهر السقوط أيضاً .

لأنهم ما كانوا يفتونهم في حالة وجود رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم إلا بما علمهم من الكتاب والسنة كما لا يخفى .

ومن أفتى منهم وغلط في فتواه أنكر عليه النبي صلى الله عليه وسلم فتواه التي ليست مطابقة للحق ، وردها عليه كإنكاره على أبي السنابل بن بعكك قوله لسبيعة الأسلمية لما مات زوجها ووضعت حملها بعد ذلك بأيام :

" إنها لا تنقضي عدتها إلى بعد أربعة أشهر وعشر ليال " .

وقد استدل أبو السنابل على ما أفتى به بعموم قوله تعالى : ﴿ والذين يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً ﴾ [البقرة : 234] .

وقد رد عليه النبي صلى الله عليه وسلم فتواه مبيناً أن عموم قوله تعالى : ﴿ والذين يُتَوَفَّوْنَ

مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً ﴾ [البقرة : 234] . الآية ، مخصص بقوله تعالى : ﴿ وَأُوْلاَتُ الأحمال أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : 4] .

وكإنكاره صلى الله عليه وسلم على الذين أفتوا صاحب الشجة بأنهم لم يجدوا له رخصة وهو يقدر على الماء .

وقد قدمنا قصته ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيهم : " قتلوه قتلهم الله " الحديث .

والظاهر أنهم استندوا في فتواهم لما فهموه من قوله تعالى ﴿ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً ﴾ [النساء : 43] . وغفلوا عن قوله : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مرضى ﴾ [النساء : 43] الآية ، وأمثال هذا كثيرة .

(197/709)

وأما استدلالهم على التقليد بقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدين وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رجعوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : 122] قائلين إن الآية أوجبت قبول إنذارهم ، وأن ذلك تقليد لهم ، فهو ظاهر السقوط أيضاً .

لأن الإنذار في قوله : ﴿ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ ﴾ لا يكون برأي .

وإنما يكون بالوحي خاصة ، وقد حصر تعالى الإنذار في الوحي بأداة الحصر التي هي إنما في

قوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بالوحي ﴾ [الأنبياء : 45] .

وبه تعلم أن الإنذار لا يقوم إلا بالحجة فمن لم تقم عليه الحجة ، لم يكن قد أنذر ، كما أن النذير من أقام الحجة ، فمن لم يأت بحجة فليس بنذير .

فممّا لا شك فيه أن هذا الإنذار المذكور في قوله ﴿ وَلِيُنذِرُواْ ﴾ ، والتحذير من مخالفته في قوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ ليس برأي ولا اجتهاد .

وإنما هو إنذار بالوحي ممن تفقه في الدين ، وصار ينذر بما علمه من الدين ، كما يدل عليه قوله تعالى قبله ﴿ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى الدِّينِ ﴾ [التوبة : 122] ، فهو يدل على أن قوله ﴿ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ ﴾ [التوبة : 122] أي بما تفقهوا فيه من الدين .

وليس التفقه في الدين إلا علم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

فتبين أن الآية لا دليل فيها ألبتة لطائف التقليد ، الذين يوجبون تقليد إمام بعينه ، من غير أن يرد من أقواله شيء ، ولا يؤخذ من أقوال غيره شيء .

ونجعل أقواله عياراً لكتاب الله وسنة رسوله فما وافق أقواله منها قبل وما لم يوافقها منها رد .

وهذا النوع من التقليد لا شك في بطلانه ، وعدم جوازه .

فالآية الكريمة بعدية كل البعد من الدلالة عليه ، مع أن استدلال المقلدين بها على تقليدهم استدلال بشيء يعتقدون أن الاستدلال به ممنوع باتاً ، لأنه استدلال بقرآن .

وأما قبول إنذارهم فهو من الاتباع لا من التقليد ، كما سيأتي إيضاحه إن شاء الله .

وأما استدلالهم بأن ابن الزبير ، قال ما يدل على تقليده لأبي بكر الصديق رضي الله عنه في أن الجد يحجب الإخوة ، فهو ظاهر السقوط أيضاً .

وقد قدمنا مراراً في رد استدلالهم بتقليد الصحابة بعضهم بعضاً ما يكفين فأغنى عن إعادته هنا .

وأم استدلالهم بقبول شهادة الشاهد في الحقوق . قائلين : إن قبول شهادته فيما شهد به تقليد له ، فهو ظاهر السقوط لظهور الفرق بينه وبين ما استدلوا عليه به . من تقليد رجل واحد بعينه ، بحيث لا يترك من أقواله شيء ولا يؤخذ مما خالفها شيء ، ول كان كتاباً أو سنة .

وذلك من وجهين .

أحدهما : أن العمل بشهادة الشاهد أخذ بكتاب الله وسنة رسوله ، لأن الله يقول : ﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ [الطلاق : 2] ويقول :

﴿ واستشهدوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وامرأتان مِمَّن تَرْضَوْنَ

مِنَ الشهدآء ﴾ [البقرة : 282] إلى غير ذلك من الآيات .

وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم القضاء بالشاهد واليمين في الأموال .

وفي الحديث " شاهداك أو يمينه " وهو حديث صحيح .

فالأخذ بشهادة الشاهد إذا من العمل بكتاب الله وسنة رسوله لا من التقليد لرجل واحد بعينه تقليداً أعمى .

الوجه الثاني : أن الشاهد إنما يخبر عما أدركه بإحدى حواسه والمدرك بالحاسة يحصل به القطع لمن أدركه بخلاف الرأي ، فإن صاحبه لا يقطع بصحة ما ظهر له من الرأي .

ولذا أجمع العلماء على الفرق بين خبر التواتر المستند إلى حس ، وبين خبر التواتر المستند إلى عقل .

فأجمعوا على أن الأول يوجب العلم المفيد للقطع لاستناده إلى الحس .

وأن الثاني لا يوجبه ، ولو كان خبر التواتر يفيد العلم في المعقولات لكان قدم العالم مقطوعاً به .

لأنه تواتر عليه من الفلاسفة خلق لا يحصيهم إلا الله .

مع أن حدوث العالم أمر قطعي لا شك فيه .

فالذين تواتروا من الفلاسفة على قدم العالم الذي هو من المعقولات لا من المحسوسات لو تواتر عشرهم على أمر محسوس لأفاد العلم اليقني فيه .

فالشاهد إن أخبر عن محسوس ، وكان عدلاً ، فهو عدل مخبر عما قطع به قطعاً لا يتطرق إليه الشك بخلاف المتجهد ، فإنه عدل أخبر عما ظنه ، فوضح الفرق بين الأمرين كما ترى .

وأما استدلالهم على تقليدهم بقبول قول القائف والخارص والمقوم والحاكمين بالمثل في جزاء الصيد . وتقليد الأعمى في القبلة .

وتقليد المؤذنين في الوقت والمترجمين والمعرفين ، والمعدلين ، والمجرحين .

وتقليده المرأة في ظهرها ، فهو كله ظاهر السقوط أيضاً .

لأن جمع ذلك لا يقبل منه إلا ما قام عليه دليل من كتاب أو سنة .

فالعمل به من العمل بالدليل الشرعي لا من التقليد الأعمى .

وذلك كله من قبيل الشهادة ، والإخبار بما عرفه القائف والخارص إلى آخره ، لا من قبيل الفتوى في الدين .

وقد استدل العلماء على قبول قول القائف بسرور النبي صلى الله عليه وسلم من قول مجزز بن الأعور المدلجي في أسامة وزيد " هذه الأقدام بعضها من بعض "

فلو كان قول القائف : لا يقبل لما أقره النبي صلى الله عليه وسلم .

ولما برقت أسارير وجهه سروراً به .

فقبوله لذلك ، فهو اتباع لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد قدمنا الأحاديث النبوية الدالة على قبول قول الخارص ، وبينا أن بعضها ثابت في الصحيح . ورد قول من منع ذلك في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [الأنعام : 141] .

فهذا مثال ما ثبت بالسنة من قبول قول المذكورين .

ومثال ما دل عليه القرآن من ذلك قبول قول الحكمين في المثل في جزاء الصيد ، لأن الله نص عليه في قوله تعالى ﴿ فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النعم يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُم ﴾ [المائدة : 95] الآية .

وهكذا كل من ذكروا ، فإن قبول قولهم : إنما صح بدليل شرعي يدل على قبوله من كتاب أو سنة أو إجماع .

مع أن الإخبار عن جميع ما ذكر إخبار عن محسوس ، والتقليد الذي استدلوا به عليه إخبار عن معقول مظنون .

والفرق بين الأمرين قدمناه قريباً ، فليس شيء من ذلك تقليداً أعمى بدون حجة .

وأما استدلالهم على التقليد المذكور بجواز شراء اللحوم والثياب والأطعمة وغيرها من غير سؤال عن أسباب حلها اكتفاء بتقليد أربابها .

فهو ظاهر السقوط أيضاً .

لأن الاكتفاء بقول الذابح والبائع ليس بتقليد أعمى في حكم ديني لهما .

وإنما هو عمل بالأدلة الشرعية ، لأنها دلت على أن ما في أسواق المسلمين من اللحوم والسلع محمول على الجواز والصحة ، حتى يظهر ما يخالف ذلك .

ومما يدل على ذلك ، ما صح عنه صلى الله عليه وسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت " إن قوماً قالوا يا رسول الله : إن قوماً يأتوننا باللحم لا ندري أذكر اسم الله عليه أم لا ؟ فقال : " سموا عليه أنتم وكلوا " ، قال : وكانوا حديثي عهد بالكفر " قال المجد في المنتقى بعد أن ساق الحديث : رواه البخاي والنسائي وابن ماجه ، وهو دليل على أن التصرفات والأفعال تحمل على حال الصحة والسلامة إلى أن يقوم دليل الفساد .

اه منه .

وقد أجمع العلماء على هذا ، فالعمل به عمل بالدليل الشرعي .

لأن الله لو كلف الناس ألا يشتري أحد منهم شيئاً حتى يعلم حليته لوقعوا في حرج عظيم تتعطل به المعيشة ، ويختل به نظامها .

فأجاز الله تعالى ذلك برفع الحرج كما قال تعالى ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدين مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : 78] فالاستدلالا به على التقليد الأعمى فاسد ، لأنه اخذ بالحجة والدليل ، وليس من اقتليد .

وأما استدلالهم على التقليد بأن الله لو كلف الناس كلهم الاجتهاد ، وان يكونوا علماء ضاعت مصالح العباد ، وتعطلت الصنائع والمتاجر ، وهذا مما لا سبيل إليه شرعاً وقدراً . فهو ظاهر السقوط أيضاً .

ومن أوضح الأدلة على سقوطه أن القرون الثلاثة المشهود لهم بالخير ، لم يكن فيهم تقليد رجل واحد بعينه هذا التقليد الأعمى .

(201/709)

ولم تتعطل متاجرهم ولا صنائعهم ، ولم يرتكبوا ما يمنعه الشرع ولا القدر بل كانوا كلهم لا يقدمون شيئاً على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وكان فيهم علماء مجتهدون يعلمون بالكتاب والسنة ويفتون بهما .

وكان فيهم قوم دون رتبتهم في العلم ، يتعلمون من كتاب الله وسنة رسوله ما يحتاجون للعمل به في أنفسهم ، وهم متبعون لا مقلدون .

وفيهم طائفة أخرى ، هي العوام لا قدرة لها على التعلم .

وكانوا يستفتون فيما نزل بهم من النوازل من شاءوا من العلماء وتارة يسألونه عن الدليل فيما أفتاهم به .

وتارة يكتفون بفتواه ولا يسألون ولم يتقيدوا بنفس ذلك العالم الذي استفتوه .

فإذا نزلت بهم نازلة أخرى ، سألوا عنها غيره من العلماء إن شاءوا .

ولا إشكال في هذا الذي مضت عليه الصحابة والتابعون وتابعوهم ، ولا يلزمه تعطيل صنائع ولا متاجر ، ولا يمنعه شرع ولا قدر .

فكيف يتسدل منصف للتقليد الأعمى ، بأن الناس لو لم ترتكبه لوقعوا في المحذور المذكور .

وعلى كل حال فكل عاقل لم يعمه لا تعصب ، يعلم أن تقليد إمام واحد بعينه ، بحث لا يترك من أقواله شيء ، ولا يؤخذ من أقوال غيره شيء ، وجعل أقواله عياراً لكتاب الله وسنة رسوله فما وافق أقوالهمنهما جاز العمل به ، وما خالفها منهما وجبا اطراحه ، وترك العمل به لا وجه له أبتة .

وهو مخالف لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وإجماع الصحابة والتابعين وتابعيهم وإجماع الأئمة الأربعة .

فالواجب على المسلمين تعلم كتاب الله وسنة رسوله ، والعمل بما علموا منهما .

والواجب على العوام الذين لا قدرة لهم على التعلم سؤال أهل العلم ، والعمل بما أفتوهم به .

وسيأتي لهذا زيادة إيضاح وإقناع للمنصف في التنبيهات الآتية إن شاء الله تعالى .

وقد بينا هنا بطلان جميع الحجج التي يحتج بها المقلدون التقليد المذكور ، وما لم نذكر من حججهم ، قد أوضحنا رده وإبطاله فيما ذكرنا .

تنبيهات مهمة تتعلق بهذه المسألة

التنبيه الأول .

(202/709)

اعلم أن المقلدين ، اغتروا بقضيتين ظنوهما صادقتين ، وهما بعيدتان من الصدق ، وظن صدقهما يدخل أولياً في عموم قوله تعالى ﴿ إِنَّ الظن لاَ يُغْنِي مِنَ الحق شَيْئاً ﴾ [يونس : 36] وقوله صلى الله عليه وسلم : " أياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث "

أما الأولى منهما فهي ظنهم ، أن الإمام الذي قلدوه لا بد أن يكون قد اطعل على جميع معاني كتاب الله ، ولم يفته منها شيء وعلى جميع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يفته منها شيء .

ولذلك فإن كل آية وكل حديث قد خالفا قوله فلا شك عندهم أن ذلك الإمام اطلع على تلك الية وعلم معناها ، وعلى ذلك الحديث وعلم معناه .

وأنه ما ترك العمل بهما غلا لأنه اطلع على ما هو أقوى منهما وأرجح .

ولذلك يجب تقديم ذلك الأرجح الذي تخيلوه شيء من الوحي الموجود بين أيديهم .

وهذا الظن كذب باطل بلا شك .

والأئمة كلهم معترفون بأنهم ما أحاطوا بجميع نصوص الوحي ، كما سيأتي إيضاحه إن شاء الله .

ومن أَرح ذلك أن الإمام مالكاً رحمه الله ، إمام دار الهجرة المجمع على علمه وفضله وجلالته ، لما أراد أبو جعفر المنصور أن يحمل الناس على العمل بما جمعه في موطئه لم يقبل ذلك من أبي جعفر ورده عليه .

وأخره أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرقوا في أقطار الدنيا ، كلهم عنده علم ليس عند الآخرة .

ولم يجمع لاحديث جمعاً تاماً بحيث أمكن جمع جميع السنة إلا بعد الأئمة الأربعة .

لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين تفرقوا في أقطار الدنيا روي عنهم كثير من الأحاديث لم يكن عند غيرهم ، ولم يتيسر الاطلاع عليه إلا بعد أزمان .

فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو عجز عن أن يفهم معنى الكلالة حتى مات

رضي الله عنه .

وقد سأل النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً فبينها له ولم يفهم .

(203/709)

فقد ثبت عنه رضي الله عنه أنه قال : ما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة ، حتى طعن بإصبعه في صدري ، وقال لي " يكفيك آية الصيف في آخر سورة النساء "

فهذا من أوضح البيان ، لأن مراد النبي صلى الله عليه وسلم بآية الصيف ﴿ إِنِ امرؤ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَد ﴾ [النساء : 176] والآية تبين معنى الكلالة بياناً شافياً ، لأنها أوضحت أنها : ما دون الولد والوالد .

فبينت نفي الولد بدلالة المطابقة في قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ﴾ [النساء : 176] ، لأن ميراث الأخت يستلزم نفي الولد .

ومع هذا البيان النبوي الواضح لهذه الآية الكريمة ، فإن عمر رضي الله عنه لم يفهم .

وقد صح عنه أن الكلالة لم تزل مشكلة عليه .

وقد خفي معنى هذا أيضاً على أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقال في الكلالة : أقول

فيها برأيي . فإن كان صواباً فمن الله وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان ، هو ما دون الولد والوالد .

فوافق رأيه معنى الآية .

والظاهر أنه لو كان فاهماً للآية لكفته عن الرأي .

كما قال النبي صلى الله عليه وسلم بأن في الآية كفاية عن كل ما سواها في الحكم المسؤول عنه .

ومما يوضح ذلك أن عمر طلب من النبي صلى الله عليه وسلم بيان الآية .

وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز في حقه صلى الله عليه وسلم .

فما أحال عمر على الآية إلا لأن فيها من البيان ما يشفي ويكفي .

وقد خفي على أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم " أعطى الجدة السدس حتى أخبره المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطاها السدس " فرجع إلى قولهما .

ولم يعلم عمر رضي الله عنه بأن النبي صلى الله عليه وسلم : قضى في دية الجنين بغرة عبد أو وليدة حتى أخبره المذكوران قبل .

ولم يعلم عمر رضي الله عنه بأن المرأة ترث من دية زوجها . حتى أخبره الضحاك بن سفيان أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب غليه : أن يورث امرأة أشيم الضبابي من دية زوجها .

ولم يعلم أيضاً بآخذ الجزية من المجوسي حتى أخبره عبد الرحمن بن عوف . بأن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ الجزية من مجوس هجر .

ولم يعلم بحكم الاستئذان ثلاثاً حتى أخبره أبو موسى الأشعري وأبو سعيد الخدري رضي الله عنه .

ولم يعلم عثمان رضي الله عنه بوجبو السكنى للمتوفى عنه حتى أخبرته قريعة بنت مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم ألزمها بالسكنى في المحل الذي مات عنها زوجها فيه حتى تنقضي عدتها .

وأمثال هذا أكثر من أن تحصر .

فهؤلاء الخلفاء الراشدون وهم همن خفي عليهم كثير من قضايا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحاديثه مع ملازمتهم له ، وشدة حرصهم على الأخذ منه .

فتعلموه ممن هو دونهم في الفضل والعلم .

فما ظنك بغيرهم من الأئمة الذي نشأوا وتعلموا بعد تفرق الصحابة في أقطار الدنيا ؟

وروي عنه الأحاديث عدول من الأقطار التي ذهبوا إليها ؟

والحاصل أن ظن إحاطة الإمام بجميع نصوص الشرع ومعانيها ظن لا يغني من الحق شيئاً ، وليس بصحيح قطعاً .

لأنه لا شك أنه يفوته بعض الأحاديث فلم يطلع عليها ويرويه بعض العدول عن الصحابة فيثبت عند غيره . وهو معذور في ترك العمل به ، بعدم اطلاعه عليه مع أنه بذل المجهود في البحث .

ولذا كان له أجر الاجتهاد والعذر في الخطأ .

وقد يكون الإمام اطلع على الحديث ، ولكن السند الذي بلغه به ضعيف فيتركه لضعيف السند .

ويكون غيره اطلع على رواية أخرى صحيحة يثبت بها الحديث فهو معذور في تركه ، لأنه لم يطلع إلا على السند الضعيف ولم تبلغه الطريق الصحيحة الأخرى .

وقد يترك الحديث لشيء يظنه أرجح منه ، ويكون الواقع أن الحديث أرجح من ذلك الشيء الذي ظنه لقيام أدلة أخرى على ذلك لم يطلع عليها ، إلى أسباب أخر كثيرة ، كترك الأئمة للعمل ببعض النصوص .

(205/709)

وبهذا كله تعلم أن ظن اطلاع الإمام على كل شيء من أحكام الشرع وإصابته في معانيها كلها ظن باطل .

وكل واحد من الأئمة يصرح ببطلان هذا الظن كما سترى إيضاحه إن شاء الله .

فاللازم هو ما قاله الأئمة أنفسهم رحمهم الله من أنهم قد يخطئون ونهوا عن اتباعهم في كل شيء يخالف نصاً من كتاب أو سنة .

فالمتبع لهم حقيقة ، هو من لا يقدم على كتاب الله وسنة رسوله شيئاً .

أما الذي يقدم أقوال الرجال على الكتاب وصحيح السنة ، فهو مخالف لهم لا متبع لهم .

ودعواه اتباعهم كذب محض .

وأما القضية الثانية :

فهي ظن المقلدين أن لهم مثل ما للإمام من العذر في الخطأ .

وإيضاحه : أنهم يظنون أن الإمام لو أخطأ في بعض الأحكام وقلدوه في ذلك الخطأ يكون لهم من العذر في الخطأ والأجر مثل ما لذلك الإمام الذي قلدوه .

لأنهم متبعون له فيجري عليهم ما جرى عليه .

وهذا ظن كاذب باطل بلا شك . لأن الإمام الذي قلدوه بذلك جهده في تعلم كتاب الله وسنة رسوله وأقوال أصحابه وتفاويهم .

فقد شمر وما قصر فيما يلزم من تعلم الوحي والعمل به وطاعة الله على ضوء الوحي

المنزل .

ومن كان هذا شأنه فهو جدير بالعذر في خطئه والأجر في اجتهاده .

وأما مقلدوه فقد تركوا النظر في كتاب الله وسنة رسوله وأعرضوا عن تعلمهما إعراضاً كلياً مع يسره وسهولته ونزلوا أقوال الرجال الذين يخطئون ويصيبون منزلة الوحي المنزل من الله .

فأين هؤلاء من الأئمة الذي قلدوهم ؟

وهذا الفرق العظيم بينهم ، وبينهم ، يدل دلالة واضحة ، على أنهم ليسوا مأجورين في الخطأ في تقليد أعمى إذ لا اقتداء ولا أسوة في غير الحق .

وليسوا معذورين لأنهم تركوا ما يلزمهم تعلمه من أمر الله ونهيه على ضوء وحيه المنزل .

والذي يجب عليهم من تعلم ذلك ، هو ما تدعوهم الحاجة للعمل به ، كأحكام عباداتهم ومعاملاتهم .

وأغلب ذلك تدل عليه نصوص واضحة ، سهلة التناول من الكتاب والسنة .

(206/709)

والحاصل أن المعرض عن كتاب الله ، وسنة رسوله المفرط في تعلم دينه ، مما أنزل الله ، وما سنه رسوله ، المقدم كلام الناس على كتاب الله ، وسنة رسوله ، لا يكون له ألبتة ما للإمام الذي لم يعرض عن كتاب الله وسنة رسوله ، ولم يقدم عليهما شيئاً ولم يفرط في تعلم الأمر والنهي من الكتاب والسنة .

فأين هذا من هذا ؟

سارت مشرقة وسرت مغربا . . . شتان بين مشرق ومغرب

التنبيه الثاني

اعلم أن الأئمة الأربعة رحمهم الله ، متفقون على منع تقليدهم ، التقليد الأعمى الذي يتعصب له من يدعون أنهم أتباعهم .

ولو كانوا أتباعهم حقاً لما خالفوهم في تقليدهم الذي منعوا منه ونهوا عنه .

قال الإمام أبو عمر بن عبد البر رحمه الله في جامعه :

أخبرنا عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن ، قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن أحمد القاضي المالكي ، قال حدثنا موسى بن إسحاق ، قال حدثنا إبراهيم بن المنذر ، قال حدثنا معن بن عيسى ، قال سمعت مالك بن أنس يقول : إنما أنا بشر أخطىء وأصيب ، فانظروا في رأيي ، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به ، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه .

اه . محل الغرض منه بلفظه .

فمالك رحمه الله مع علمه وجلالته وفضله يعترف بالخطأ وينهى عن القول بما خالف الوحي من رأيه .

فمن كان مالكياً فليمتثل قول مالك ولا يخالفه بلا مستند .

وقال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله في جامعه أيضاً :

أخبرني أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي حدثني أبي حدثنا محمد بن عمر بن لبابة قال : حدثنا مالك بن علي القرشي ، قال أنبأنا عبد الله بن مسلمة القعنبي قال : دخلت على مالك فوجدته باكياً فسلمت عيله فرد علي ثم سكت عني يبكي ، فقلت له : يا أبا عبد الله ما الذي يبكيك ؟ فقال لي يا ابن قعنب إنا لله على ما فرط مني ، ليتني جلدت بكل كلمة تكلمت بها في هذا الأمر بسوط ، ولم يكن فرط مني ما فرط من هذا الرأي ، وهذه المسائل قد كانت لي سعة فيما سبقت إليه . اه . محل الغرض منه بلفظه .

(207/709)

ومن العلوم بالضرورة أن مالكاً رحمه الله لا يسره ولا يرضيه تقديم رأيه هذا الذي يسترجع ويبكي ندماً عليه ، ويتمنى لو ضرب بالسياط ولم يكن صدر منه على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

فليتق الله وليستحي من الله من يقدم مثل هذا الرأي على الكتاب والسنة زاعماً أنه متبع مالكاً في ذلك .

وهو مخالف فيه لمالك ، ومخالف فيه لله ولرسوله ، ولأصحابه ولكل من يعتد به من أهل العلم .

وقال ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين :

وقد نهى الأئمة الأربعة عن تقليدهم وذموا من أخذ أقوالهم بغير حجة .

فقال الشافعي : مثل الذي يطلب العلم بلا حجة ، كمثل حاطب ليل يحمل حزمة حطب وفيه أفعى تلدغه وهو لا يدري ، ذكره البيهقي .

وقال إسماعيل بن عيسى المزني في أول مختصره : اختصرت هذا من علم الشافعي ، ومن معنى قوله لأقربه على من أراده مع إعلامه نهيه عن تقليده وتقليد غيره لينظر فيه لدينه ، ويحتاط فيه لنفسه إلى أن قال :

وقال أحمد بن حنبل : لا تقلدني ، ولا تقلد مالكاً ، ولا الثوري ولا الأوزاعي ، وخذ من حيث أخذوا .

وقال : من قلة فقه الرجل أن يقلد دينه الرجال .

وقال بشر بن الوليد : قال أبو يوسف : لا يحل لأحد أن يقول مقالتنا حتى يعلم من أين قلنا .

وقد صرح مالك بأن من ترك قول عمر بن الخطاب لقول إبراهيم النخعي أنه يستتاب ،

فكيف بمن ترك قول الله ورسوله لقول من هو دون إبراهيم أو مثله اه محله الغرض منه .

ومما لا شك فيه أن الأئمة الأربعة رحمهم الله نهوا عن تقليدهم في كل ما خالف كتاباً أو سنة كما نقله عنهم أصحابهم .

كما هو مقرر في كتب الحنفية عن أبي حنيفة .

وكتب الشافعية عن الشافعي القائل : إذا صح الحديث فهو مذهبي .

وكتب المالكية ، والحنابلة عن مالك وأحمد رحمهم الله جميعاً .

وكذلك كان غيرهم من أفاضل العلماء يمنعون من تقليدهم فيما لم يوافق الكتاب والسنة وقد يتحفظون منه ولا يرضون .

قال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله في جامعه :

(208/709)

وذكر محمد بن حارث في أخبار سحنون بن سعيد عن سحنون ، قال كان مالك بن أنس وعبد العزيز بن أبي سلمة ومحمد بن إبراهيم بن دينار وغيرهم يختلفون إلى ابن هرمز ، فكان إذا سأله مالك وعبد العزيز أجابهما .

وإذا سأله محمد بن إبراهيم بن دينار وذووه لم يجبهما .

فقال له :

يسألك مالك وعبد العزيز فتجيبهما ، وأسألك أنا وذوي فلا تجيبا ؟

فقال :

أوقع ذلك يا ابن أخي في قلبك ؟

قال : نعم : فقال له :

إني قد كبرت سني ورقَّ عظمي ، وأنا أخاف أن يكون خالطني في عقلي مثل الذي خالطني في بدني .

ومالك وعبد العزيز عالمان فقيهان ، إذا سمعا مني حقاً قبلاه ، وإذا سمعا خطأ تركاه .

وأنت وذووك ما أجبتكم به قبلتموه .

قال محمد بن حارث : هذا والله هو الدين الكامل ، والعقل الراجح .

لا كمن يأتي بالهذيان ، ويريد أن ينزل من القلوب منزلة القرآن . اه منه .

التنبيه الثالث

اعلم أن المقلدين للأئمة هذا التقليد الأعمى قد دل كتاب الله ، وسنة رسوله ، وإجماع من يعتد به من أهل العلم ، أنه لا يجوز لأحد منهم أن قول : هذا حلال وهذا حرام .

لأن الحال ما أحله الله ، على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم في كتابه أو سنة رسوله ، والحرام ما حرمه الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم في كتابه ، أو سنة رسوله .

ولا يجوز ألبتة للمقلد أن يزيد على قوله : هذا الحكم قاله الإمام الذي قلدته أو أفتى به .

أما دلالة القرآن على منع ذلك فقد قال تعالى :

(209/709)

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس : 59] وقال تعالى : ﴿ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكذب هذا حَلاَلٌ وهذا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ على الله الكذب إِنَّ الذين يَفْتَرُونَ على الله الكذب لاَ يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل : 116] . وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ الذين يَشْهَدُونَ أَنَّ الله حَرَّمَ هذا ﴾ [الأنعام : 150] الآية .

ومعلوم أن العبرة بعموم الألفاظ ، لا بخصوص الأسباب كما بيناه مراراً ، وأوضحنا أدلته من السنة الصحيحة .

ومما يوضح هذا أن المقلد الذي يقول : هذا حلال وهذا حرام من غير علم بأن الله حرمه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم يقول على الله بغير علم قطعاً .

فهو داخل بلا شك في عموم قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفواحش مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ والإثم والبغي بِغَيْرِ الحق وَأَن تُشْرِكُواْ بالله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى الله مَا لاَ

تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : 33] .

فدخوله في قوله : ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 169] كما ترى .

وهو داخل ايضاً في عموم قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بالسواء والفحشآء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 169] .

وأما اسنة ، فقد قال مسلم بن الحجاج في صحيحه :

حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا وكيع بن الجراح عن سفيان .

ح وحدثنا إسحاق بن إبراهيم أخبرنا يحيى بن آدم حدثنا سفيان قال : أملاه علينا إملاء .

ح وحدثني عبد الله بن هاشم واللفظ له حدثني عبد الرحمن يعني ابن مهدي حدثنا سفيان عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال :

(210/709)

كان رسلو الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال :

" اغزوا باسم الله ، في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله " الحديث .

وفيه " وإذا حاصرت أهل حسن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم

الله ، ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدري ، أتصيب حكم الله فيهم أم لا "

هذا لفظ مسلم في صحيحه .

وفيه النهي الصريح من النبي صلى الله عليه وسلم عن نسبة حكم إلى الله ، حتى يعلم بأن هذا حكم الله الذي شرعه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم .

ولأجل هذا كان أهل العلم لا يتجرؤون على القول بالتحريم والتحليل إلا بنص من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

قال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله في جامعه :

حدثنا عبد الوارث بن سفيان قال حدثنا قاسم بن أصبغ قال حدثنا ابن وضاح قال حدثنا يوسف بن عدي قال حدثنا عبيدة بن حميد عن عطاء بن السائب قال : قال الربيع بن خيثم :

إياكم أن يقول الرجل في شيء إن الله حرم هذا أو نهى عنه فيقول الله : كذبت لم أحرمه ولم أنه عنه .

قال أو يقول :

إن الله أحل هذا وأمر به ، فيقول : كذبت لم أحله ولم آمر به .

وذكر ابن وهب وعتيق بن يعقوب أنهما سمعا مالك بن أنس يقول : لم يكن من أمر الناس ولا من مضى من سلفنا ولا أدركت أحداً اقتدى به يقول في شيء : هذا حلال وهذا حرام .

ما كانوا يجترئون على ذلك .

وإنما كانوا يقولون : نكره هذا .

ونرى هذا حسناً .

ونتقي هذا ، ولا نرى هذا .

وزاد عتيق بن يعقوب ، ولا يقولون حلال ولا حرام .

أما سمعت قول الله عز وجل : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس : 59] .

(211/709)

الحال ما أحله الله ورسوله ، والحرام ما حرمه الله ورسوله : قال أبو عمر : معنى قول مالك هذا إن ما أخذ من العلم رأياً واستحساناً لم نقل فيه حلال ولا حرام والله اعلم . اه . محل الغرض منه .

وقال أبو عبد الله القرطبي رحمه الله في تفسيره ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكذب هذا حَلاَلٌ وهذا حَرَامٌ ﴾ [النحل : 116] الآية ، ما نصه :

أسند الدرامي أبو محمد في مسنده أخبرنا هارون عن حفص عن الأعمش قال : ما

سمعت إبراهيم قط يقول : حلال ولا حرام ولكن كان يقول : كانوا يكرهون كانوا يستحبون .

وقال ابن وهب :

قال مالك : لم يكن من فتيا الناس أن يقولوا هذا حلال وهذا حرام .

ولكن يقولون : إياكم وكذا وكذا . ولم أكن لأصنع هذا .

ومعنى هذا أن التحليل والتحريم إنما هو لله عز وجل ليس لأحد أن يقول أو يصرح بهذا في عين من الأعيان ، إلا أن يكون البارئ تعالى بذلك عنه .

وما يؤدي إليه الاجتهاد في أنه حرام يقول :

إني أكره كذا .

وكذلك كان مالك يفعل اقتداء بمن تقدم من أهل الفتوى اه . محل الغرض منه .

وإذا كان مالك وإبراهيم النخعي وغيرهما من أكابر أهل العلم لا يتجرؤون أن يقولوا في شيء من مسائل الاجتهاد والرأي : هذا حلال أو حرام .

فما ظنك بغيرهم من المقلدين الذين لم يستضيئوا بشيء من نور الوحي ؟

فتجرؤهم على التحيم والتحليل بلا مستند من الكتاب إنما نشأ لهم من الجهل بكتاب الله وسنة رسوله ، وآثار السلف الصالح .

وآية يونس المقتدمة صريحة فيما ذكرنا صراحة تغني عن كل ما سواها .

لأنه تعالى لما قال : ﴿ فَجَعَلْتُمْ مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً ﴾ [يونس : 59] أتبع ذلك بقوله ﴿ قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس : 59] .

ولم يجعل واسطة بين إذنه في ذلك وبين الأفتراء عليه .

فمن كان عنده إذن من الله بتحريم هذا أو تحليله فليعتمد على إذن الله في ذلك .

(212/709)

ومن لم يكن عنده إذن من الله في ذلك فليحذر من الافتراء على الله .

إذ ل واسطة بن الأمرين .

ومعلوم أن العبرة بعموم لفظ الآية لا بخصوص سببها .

فالذين يقولون من الجهلة المقلدين : هذا حلال وهذا حرام ، وهذا حكم الله ، ظناً منهم أن أقوال الإمام الذي قلدوه تقوم مقام الكتاب والسنة وتغني عنهما .

وأنّ ترك الكتاب والسنة والاكتفاء بأقوال من قلدوه أسلم لدينه أعمتهم ظلمات الجهل المتراكمة عن الحقائق حتى صاروا يقولون هذا .

فهم كما ترى ، مع أن الإمام الذي قلدوه ، ما كان يتجرأ على مثل الذي تجرؤوا عليه ، لأن علمه يمنعه من ذلك .

والله جل وعلا يقول : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الذين يَعْلَمُونَ والذين لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو الألباب ﴾ [الزمر : 9] .

التنبيه الرابع

اعلم أن مما لا بد منه معرفة ، الفرق بين الاتباع والتقليد ، وأن محل الاتباع لا يجوز التقليد فيه بحال .

وإيضاح ذلك ، أن كل حكم ظهر دليله من كتاب الله ، أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، او غجماع المسلمين ، لا يجوز فيه التقليد بحال .

لأن كل اجتهاد يخالف النص ، فهو اجتهاد باطل ، ولا تقليد إلا في محل الاجتهاد .

لأن نصوص الكتاب والسنة ، حاكمة على كل المجتهدين ، فليس لأحد منهم مخالفتها كائناً من كان .

ولا يجوز التقليد فيما خالف كتاباً أو سنة أو إجماعاً إذ لا أسوة في غير الحق .

فليس فيما دلت عليه النصوص إلا الاتباع فقط .

ولا اجتهاد ، ولا تقليد فيما دل عليه نص ، من كتاب أو سنة ، سالم من المعارض .

والفرق بين التقليد والاتابع أمر معروف عند أهل العلم ، لا يكاد ينازع في صحة معناه أحد من أهل العلم ، وقد قدمنا كلام ابن هويز منداد الذي نقله عنه ابن عبد البر في جامعه .

وهو قوله : التقليد معناه في الشرع الرجوع إلى قول لا حجة لقائله عليه ، وذلك ممنوع منه في

الشريعة والاتباع ما ثبت عليه حجة .

وقال في موضع آخر من كتابه :

(213/709)

كل من اتبعت قوله من غير أن يجب عليك قوله لدليل يوجب ذلك فأنت مقلده ، والتقليد في دين الله غير صحيح .

وكل من أوجب عليك الدليل اتباع قوله لإأنت متبعه والاتباع في الدين مسوغ والتقليد ممنوع . اه .

وقال ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين :

وقد فرق الإمام أحمد رحمه الله بين التقليد والاتباع .

فقال أبو داود :

سمعته يقول : الاتباع أن يتبع الرجل ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه ، ثم هو من بعد في التابعين مخير . انتهى محل الغرض منه .

قال مقيده عفا الله عنه ، وغفر له : أما كون العمل باوحي اتباعاً لا تقليداً فهو أمر قطعي .

والآيات الدالة على تسميته اتباعاً كثيرة جداً :

كقوله تعالى : ﴿ اتبعوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : 3] .

وقوله تعالى : ﴿ واتبعوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ [الزمر : 55] الآية .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يوحى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هذا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : 203] .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآءِ نفسي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ إِني أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس : 15] .

وقوله تعالى : ﴿ وهذا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فاتبعوه واتقوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام : 155] .

وقوله تعالى : ﴿ اتبع مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إله إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ المشركين ﴾ [الأنعام : 106] .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرسل وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأحقاف : 9] .

والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة . فالعمل بالوحي ، هو الاتباع كما دلت عليه الآيات .

ومن المعلوم الذي لا شك فيه ، أن اتباع الوحي المأمور به في الآيات لا يصح اجتهاد يخالفه من الوجوه ، ولا يجوز التقليد في شيء يخالفه .

فاتضح من هذا الفرق بين الاتباع والتقليد ، وأن مواضع الاتباع ليست محلاً أصلاً للاجتهاد ولا للتقليد .

فنصوص الوحي الصحيحة الواشحة الدلالة السالمة من المعارض لا اجتهاد ولا تقليد معها ألبتة .

لأن اتباعها والإذعان لها فرض على كل أحد كائناً من كان كما لا يخفى .

وبهذا تعلم أن شروط المجتهد التي يشترطها الأصوليون إنما تشترط في الاجتهاد .

وموضع الاتباع ليس محل اجتهاد .

فجعل شروط المجتهد في المتبع مع تباين الاجتهاد والاتباع وتباين مواضعهما خلط وخبط ، كما ترى .

والتحقيق أن اتباع الوحي لا يشترط فيه إلا علمه باما يعمل به من ذلك الوحي الذي يتبعه .

وأنه يصح علم حديث والعمل به ، وعلم آية والعمل بها .

ولا يتوقف ذلك على تحصيل جميع شروط الاجتهاد .

فيلزم المكلف أن يتعلم ما يحتاج غليه من الكتاب والسنة ، ويعمل بكل ما علم من ذلك ،

كما كان عليه اول هذه الأمة ، من القرون المشهود لها بالخير .

التنبيه الخامس .

اعلم أنه لا يخفى علينا أن المقلدين التقليد الأعملى المذكور ، يقولون :

هذا الذي تدعوننا إليه وتأمروننا به من العمل بالكتاب والسنةن والتقديمهما على آراء الرجال من التكليف بما لا يطاق .

لأنا لا قدرة لنا على معرفة الكتاب والسنة حتى نعمل بهما .

ولا يمكننا معرفة شيء من الشرع إلا عن طريق الإمام الذي نقلده .

لأنا لم نتعلم نحن ولا آباؤنا شيئاً غير ذلك .

فإذا لم نقلد إمامنا بقينا في حيرة لا نعلم شيئاً من أحكام عباداتنا ولا معاملاتنا ، وتعطلت بيننا الأحكام إذ لا نعرف قضاء ولا فتوى ولا غير ذلك من الأحكام إلا عن طيق مذهب إمامنا .

(215/709)

لأن أحكام مدونة عندنا وهي التي نتعلمها ونتدارسها دون غيرها من الكتاب أو السنة وأقوال الصحابة ومذاهب الأئمة الآخرين .

ونحن نقول :

والله لقد ضيقتم واسعاً . وادعيتم العجز ، وعدم القدرة في أمر سهل .

ولا شك أن الأحوال الراهنة للمقلدين التقليد الأعمى ، للمذاهب المدونة تقتضي صعوبة شديدة جداً في طريق التحول من التقليد الأعمى إلى الاستضاءة بنور الوحي .

وذلك إنما نشأ من شدة التفريط في تعلم الكتاب والسنة والإعراض عنهما إعراضاً كلياً يتوارثه الأبناء عن الآباء والآباء عن الأجداد .

فالداء المستحكم من مئات السنين لا بد لعلاجه من زمن طويل .

ونحن لا نقول : إن الجاهل بالكتاب والسنة يعمل بهما باجتهاده .

بل نعوذ بالله من أن نقول ذلك .

ولكنا نقول : إن الكتاب والسنة يجب تعلمهما ، ولا يجوم الإعراض عنهما وأن كل ما علمه المكلف منهما علماً صحيحاً ناشئاً عن تعلم صحيح وجب عليه العمل به .

فالبلية العظمى إنما نشأت من توارث الإعراض عنهما إعراضاً كلياً اكتفاء عنهما بغيرهما .

وهذا من أعظم المنكر وأشنع الباطل .

فالذي ندعو إليه هو المبادرة بالرجوع إليهما بتعلمهما أولاً ثم العمل بهما والتوبة إلى الله من الإعراض عنهما .

ودعوى أن تعلمهما غير مقدور عليه ، لا يشك في بطلانها عاقل ، ونعيذ أنفسنا وإخواننا

بالله أن يدعوا على أنفسهم أن على قلوبهم أكنة ، وفي آذانهم وقرأ يمنعهم من فهم كتاب الله .

لأن ذلك قول الكفار لا قول المسلمين قال الله تعالى ﴿ حمتَنزِيلٌ مِّنَ الرحمن الرحيم كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فاعمل إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ [فصلت : 1 - 5] .

(216/709)

فاحذر يا أخي وارحم نفسك أن تقول مثل قول هؤلاء الكفرة وأنت تسمع ربك يقول : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : 17 - 22 - 23 - 40] ، ويقول : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الدخان : 58] .

ويقول ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيدبروا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُو الألباب ﴾ [ص : 29] .

فلا تخرج نفسك من عموم أولي الألباب الذين هم أصحاب العقول ، لأنك إن فعلت ذلك اعترفت على نفسك أنك لست من جملة العقلاء .

وعلى كل حال فلا يخلو المقلدون ، التقليد الأعمى ، من أحد أمرين :

احدهما : ألا يلتفتوا غلى نصح ناصح .

بل يستمرون على تقليدهم الأعمى ، والإعرضا عن نور الوحي عمداً .

وتقديم رأي الرجال عليه .

وهذا القسم منهم لا نعلم له عذراً في كتاب الله ولا سنة رسوله .

ولا في قول أحد من الصحابة ، ولا أحد من القرون المشهود لهم بالخير .

لأن حقيقة ما هم عليه ، هو الإعراض عما أنزل الله عمداً مع سهولة تعلم القدر المحتاج إليه منه ، والاستغناء عنه بأقوال الأئمة .

ومن كان هذا شأنه وهو تام العقل والفهم قادر على التعلم فعدم عذره كما ترى .

الأمر الثاني : هو أن يندم المقلدون على ما كانوا عليه من التفريط في تعلم الوحي ، والإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ويبادروا إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة ويشرعوا في ذلك بجد . تائبين مما كانوا عليه من التفريط قبل ذلك ، وهذا القسم على هدى من الله .

التنبيه السادس

لا خلاف بين أهل العلم ، في أن الضرورة لها أحوال خاصة تستوجب أحكاماً غير أحكام الاختيار .

فكل مسلم ألجأته الضرورة إلى شيء إلجاءً صحيحاً حقيقاً ، فهون في سعة من أمره فيه .

وقد استثنى الله جل وعلا ، حالة الاضطرار في خمس آيات من كتابه ، ذكر فيها المحرمات الأربع التي هي من أغلظ المحرمات ، تحريماً وهو الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به .

فإن الله تعالى كلما ذكر تحريمها استثنى منها حالة الضرورة ، فأخرجها من حكم التحريم .

قال تعالى في سورة الأنعام .

﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضطر غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأعراف : 145] .

وقال في الأنعام أيضاً :

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسم الله عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضطررتم إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بالمعتدين ﴾ [الأنعام : 119] .

وقال تعالى في النحل :

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الميتة والدم وَلَحْمَ الخنزير وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضطر غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : 115] .

وقال تعالى في البقرة :

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الميتة والدم وَلَحْمَ الخنزير وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ الله فَمَنِ اضطر غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة : 173] .

وقال تعالى في المائدة :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة والدم وَلَحْمُ الخنزير وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَمَنِ اضطر فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : 3] .

(218/709)

وبهذا تعلم أن المضطر للتقليد الأعمى اضطراراً حقيقياً ، بحيث يكون لا قدرة له ألبتة ، على غيره مع عدم التفريط لكونه لا قدرة له أصلاً على الفهم .

أو له قدرة على الفهم وقد عاقته عوائق قاهرة عن التعلم .

أو هو في أثناء التعلم ولكنه يتعلم تدريجاً لأنه لا يقدر على تعلم كل ما يحتاجه في وقت واحد .

أو لم يجد كفئاً يتعلم منه ونحو ذلك فهو معذور في التقليد المذكور للضرورة .

لأنه لا مندوحة له عنه .

أما القادر على التعلم المفرط فيه .

والمقدم آراء الرجال على ما علم من الوحي .

فهذا الذي ليس بمعذور .

التنبيه السابع

اعلم أن موقفنا من الأئمة رحمهم الله من الأربعة وغيرهم .

هو موقف سائر المسلمين المنصفين مننهم .

وهو موالاتهم ، ومحبتهم ، وتعظيمهم ، وإجلالهم ، والثناء عليهم ، بما هم عليه من العلم والتقوى ، واتباعهم في العمل بالكتاب والسنة وتقديمهما على رأيهم وتعلم أقوالهم للاستعانة بها على الحق ، وترك ما خالف الكتاب والسنة منها .

وأما المسائل التي لا نص فيها فالصواب النظر في اجتهادهم فيها .

وقد يكون اتباع اجتهادهم أصوب من اجتهادنا لأنفسنا .

لأنهم أكثر علماً وتقوى منا .

ولكن علينا أن ننظر ونحتاط لأنفسنا في أقرب الأقوال إلى رضى الله وأحوطها وأبعدها من الاشتباه .

كما قال صلى الله عليه وسلم : " دع ما يريبك إلى ما ليريبك "

وقال : " فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه "

وحقيقة القول الفصل في الأئمة رحمهم الله أنهم من خيار علماء المسلمين وأنهم ليسوا معصومين منن الخطأ ، فكل ما أصابوا فيه فلهم فيه أجر الاجتهاد وأجر الإصابة ، وما أخطأوا فيه فهم مأجورون فيه باجتهادهم معذورون في خطئهم فهم مأجورون على كل حال ، لا يلحقهم ذم ولا عيب ولا نقص في ذلك .

ولكن كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم حاكمان عليهم وعلى أقوالهم كما لا يخفى .

فلا تغل في شيء من الأمر واقتصد . . . كلا طرفي قصد الأمور ذميم

(219/709)

فلا تكم ممن يذمهم وينتقصهم ولا ممن يعقد أقوالهم مغنية عن كتاب الله وسنة رسوله أو مقدمة عليهما .

التنبيه الثامن

اعلم أن كلاً من الأئمة أخذت عليه مسائل . قال بعض العلماء : إنه خالف فيها السنة .

وسنذكر طرفاً من ذلك هنا إن شاء الله .

أما الإمام أبو حنيفة رحمه الله فهو أكثر الأئمة في ذلك ، لأنه أكثرهم رأياً .

ولكثرة المسائل اتي حصل فيها القيل والقال من ذلك لا نحتاج إلى بسط تفصيلها .

وبعض المسائل اتي قيل فيها ذلك يظهر أنه لم تبلغه السنة فيها ، وبعضها قد بلغته السنة فيها ، ولكنه تركها لشيء آخر ظنه أرجح ممنها .

كتركه العمل لحديث القضاء بالشاهد واليمين في الأموال .

وحديث " تغريب الزاني البكر " لأنه ترك العمل بذلك ونحوه احتراماً للنصوص القرآنية في ظنه .

لأنه يعتقد أن الزيادة على النص نسخ وأن القضاء بالشاهد واليمين نسخ . لقوله تعالى : ﴿ واستشهدوا شَهِيدَيْنِ مِّن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وامرأتان مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشهدآء ﴾ [البقرة : 282] .

فاحترم النص القرآني المتواتر ، فلم يرض نسخه بخر آحاد سنده دون سنده .

لأن نسخ المتواتر بالآحاد عنده ، رفع للأقوى بالأضعف ، وذلك لا يصح .

وكذلك حديث تغريب الزاني البكر فهو عنده زيادة ناسخة لقوله تعالى : ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ الله إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ المؤمنين ﴾ [النور : 2] والمتواتر لا ينسخ بالآحاد .

فتركه العمل بهذا النوع من الأحاديث بناه على مقدمتين :

أحداهما : أن الزيادة على النص نسخ .

والثانية : أن المتواتر لا ينسخ بالآحاد .

وخالفه في المقدمة الأولى جمهور العلماء .

ووافقوه في الثانية .

والذي يظهر لنا ونعتقده اعتقاداً جازماً أن كلتا المقدمتين ليست بصحيحة .

(220/709)

أما الزيادة فيجب فيها التفصيل .

فإن كانت أثبتت حكماً نفاه النص أو نفت حكماً أثبته النص فهي نسخ .

وإن كانت لم تتعرض للنص بنفي ولا إثبات بل زادت شيئاً سكت عنه النص فلا يمكن أن تكون نسخاً لأنها إنما رفعت الإباحة العقلية التي هي البراءة الأصلية .

ورفعها ليس نسخاً إجماعاً .

وأما نسخ المتواتر بالآحاد .

فالتحقيق الذي لا شك فيه أنه لا مانع منه ولا محذور فيه ، ولا وجه لمنعه ألبتة ، وإن خالف في ذلك جمهور أهل الأصول .

لأن أخبار الآحاد الصحيحة الثابت تأخرها عن المتواتر لا وجه لردها ، ولا تعارض ألبتة بينها وبين المتواتر إذ لا تناقض بين خبرين اختلف زمنهما ، لجواز صدق كل منهما في وقته .

فلو أخبرك مثلاً عدد يستحيل تواطؤهم على الكذب ، بأن أخاك الغائب لم يزل غائباً ولم يأت منزله .

لأنهم كانوا بمنزله وليس بموجود ، ثم أخبرك بعد ذلك رجل واحد بأن أخاك موجود في منزله الآن .

فهل يسوغ لك أن تقول له كذبت ، لأني أخبرني عدد كثير قبلك أنه لم يأت ؟

ولو قلت له ذلك لقال لك هم في وقت إخبارهم لك صادقون ، ولكن أخاك جاء بعد ذلك .

فالمتواتر في وقت نزوله صادق .

وخبر الآحاد الوارد بعده صادق أيضاً .

لأنه أفاد تجدد شيء لم يكن .

فحصر المحرمات مثلاً في الأربع المذكورة في قوله تعالى :

﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَة ﴾ [الأنعام : 145] الآية . صادق في ذلك الوقت .

لا يوجد محرم على طاعم بطعمه إلا تلك المحرمات الأربع .

فلا تحرم في ذلك الوقت الحمر الأهلية ولا ذو الناب من السباع ولا الخمر ولا غير ذلك .

فإذا جاء بعد خبر آحاد صحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم : حرم لحوم الحمر الأهلية بخيبر ، فهل يسوغ لقائل أن يقول :

هذا الخبر الصحيح مردود لأنه يعارض حصر المحرمات في الأربع المذكورة في آية : ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً ﴾ [الأنعام : 145] الآية ؟

(221/709)

هذا الخب ر الصحيح لا تناقضه الآية ، لأنه إنما أفاد حكماً جديداً طارئاً لم يكن مشروعاً من قبل .

وأحكام الشريعة تتجدد شيئاً فشيئاً .

والآية لم تدل على استمرار الحصر المذكور فيها .

فتبين أن زيادة حكم طارئ لا تناقض بينها وبين ما كان قبلها .

وإيضاح هذا أن نسخ المتواتر بالآحاد إنما رفع استمرار حكم المتواتر ودلالة المتواتر على استمرار حكمه ليست قطعية حتى يمنع نسخها بأخبار الآحاد الصحيحة .

وقد قدمنا إيضاح هذا في سورة الأنعام .

وقصدنا مطلق المثال لما يقال : إن الإمام أبا حنيفة رحمه الله خالف فيه السنه برأيه .

وغرضنا أن نبين أنه رحمه الله لم يخالف شيئاً من ذلك ، إلا لشيء اعتقده مسوغاً لذلك .

وأنه لا يترك السنة إلا لشيء يراه مستوجباً لذلك شرعاً .

ومما يبين ذلك أنه كان يقدم ضعيف الحديث على الرأي .

قال ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين ما نصه :

وأصحاب أبي حنيفة رحمه الله مجمعون على أن مذهب أبي حنيفة أن ضعيف الحديث عنده أولى من القياس والرأي .

وعلى ذلك بني مذهبه كما قدم حديث القهقة مع ضعفه على القياس والرأي .

وقدم حديث الوضوء بنبيذ التمر في السفر مع ضعفه على الرأي والقياس .

ومنع قطع يد السارق لسرقة أقل من عشرة دراهم ، والحديث فيه ضعيف .

وجعل أكثر الحيض عشرة أيام والحديث فيه ضعيف .

وشرط في إقامة الجمعة المصر ، والحديث فيه كذلك .

وترك القياس في مسائل الآبار لآثار فيها غير مرفوعة .

فتقديم الحديث الضعيف وآثار الصحابة قوله ، وقول الإمام أحمد :

وليس المراد بالحديث الضعيف في اصطلاح السلف هو الضعف في اصطلاح المتأخرين .

بل ما يسميه المتأخرون حسناً قد يسميه المتقدمون ضعيفا اه . محل الغرض منه .

ومن أمثلة ما ذكر أن أبا حنيفة رحمه الله خالف فيها السنة لزوم الطمأنينة في الصلاة وتعين تكبيرة الإحرام في الدخول فيها والسلام للخروج منها .

وقراءة الفاتحة فيها والنية في الوضوء والغسل إلى غير ذلك من مسائل كثيرة .

(222/709)

ولا يتسع المقام هنا لذكر ما استدل به أبو حنيفة لذلك ومناقشة الأدلة .

بل المقصود بيان أن الأئمة لا يخلو أحد منهم من أن يؤخذ عليه شيء خالف فيه سنة وأنهم لم يخالفوها إلا لشيء سوغ لهم ذلك .

وعند المناقشة الدقيقة قد يظهر أن الحق قد يكون معهم وقد يكون الأمر بخلاف ذلك .

وعلى كل حال فهم مأجورون ومعذورون كما تقدم إيضاحه .

وقد أخذ بعض العلماء على مالك رحمه الله أشياء قال :

إنه خالف فيها السنة قال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله في جامعه :

وقد ذكر يحيى بن سلام قال : سمعت عبد الله بن غانم في مجلس إبراهيم بن الأغلب يحدث عن الليث بن سعد أنه قال أحصيت على مالك بن أنس سبعين مسألة كلها مخالفة لسنة النبي صلى الله عليه وسلم مما قال مالك فيها برأيه ، قال : ولقد كتبت إليه في ذلك . انتهى

محل الغرض منه .

ومعلوم أن مثل كلام الليث هذا عن مالك لا أثر له ، لأنه لم يعين المسائل المذكورة ولا أدلتها .

فيجوز أن يكون الصواب فيها مع مالك لأدلة خفيت على الليث ، فليس خفاؤها على مالك بأولى من خفائها على الليث .

ولا شك أن مذهب مالك المدون فيه فروع تخالف بعض نصوص الوحي .

والظاهر أن بعضها لم يبلغه رحمه الله ولو بلغه لعمل به .

وأن بعضها بلغه وترك العمل به لشيء آخر يعتقده دليلاً أقوى منه .

ومن أمثلة ما لم يبلغه النص فيه صيام ست من شوال بعد صوم رمضان .

قال رحمه الله في الموطأ ما نصه : إني لم أر أحداً من أهل العلم والفقه يصومها ولم يبلغني ذلك عن أحد من السلف .

وإن أهل العلم يكرهون ذلك ويخافون بدعته .

وأن يلحق برمضان ما ليس منه أهل الجهالة والجفاء ، ولو رأوا في ذلك رخصة عند أهل العلم ، ورأوهم يعملون ذلك . اه منه بلفظه .

وفيه تصريح مالك رحمه الله بأنه لم يبلغه صيام ستة من شوال عن أحد من السلف ، وهو صريح في أنه لم يبلغه عن النبي صلى الله عليه وسلم .

ولا شك أنه لو بلغه الترغيب فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم لكان يصومها ويأمر بصومها ، فضلاً عن أن يقول بكراهتها .

وهو لا يشك أن النبي صلى الله عليه وسلم أرأف وأرحم بالأمة منه .

لأن الله وصفه صلى الله عليه وسلم في القرآن بأنه رؤوف رحيم .

فلو كان صوم السنة يلزمه المحذور الذي كرهها مالك من أجله لما رغب فيها النبي صلى الله عليه وسلم ولراعى المحذور الذي راعاه مالك .

ولكنه صلى الله عليه وسلم ، ألغى المحذور المذكور وأهدره ، لعلمه بأن شهر رمضان أشهر من أن يلتبس بشيء من شوال .

كما أن النوافل المرغب فيها قبل الصلوات المكتوبة وبعدها لم يكرهها أحد من أهل العلم خشية أن يلحقها الجهلة بالمكتوبات لشهرة المكتوبات الخمس وعدم التباسها بغيرها .

وعلى كل حال ، فإنه ليس لإمام من الأئمة أن يقول هذا الأمر الذي شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم مكروه لخشية أن يظنه الجهال من جنس الواجب .

وصيام الستة المذكورة ، وترغيب النبي صلى الله عليه سولم فيه ثابت عنه .

قال مسلم بن الحجاج رحمه الله في صحيحه :

حدثنا يحيى بن أيوب وقتيبة بن سعيد وعلي بن حجر جميعاً عن إسماعيل ، قال ابن أيوب

حدثنا إسماعيل بن جعفر أخبرني سعد بن سعيد بن قيس عن عمر بن ثابت بن الحارث الخزرجي عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنه حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر " انتهى منه بلفظه .

وفيه التصريح من النبي بالترغيب في صوم الستة المذكورة فالقول بكراهتها من غير مستند من أدلة الوحي خشية إلحاق الجهال لها برمضان ، لا يليق بجلالة مالك وعلمه وورعه ، لكن الحديث لم يبلغه كما هو صريح كلامه نفسه رحمه الله في قوله : لم يبلغني ذلك عن أحد من السلف ، ولو بلغه الحديث لعمل به .

لأنه رحمه الله من أكثر الناس اتباعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحرصهم على العمل بسنته .

(224/709)

والحديث المذكور رواه أحمد وأصحاب السنن إلا النسائي ، وصوم الستة المذكور رواه أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم جماعة من أصحابه منهم ثوبان وجابر وابن عباس وأبو هريرة والبراء بن عازب كما بينه صاحب نيل الأوطار .

وعلى كل حال فالحديث صحيح ويكفي في ذلك إسناد مسلم المذكور .

ولا عبرة بكلام من تكلم في سعد بن سعيد لتوثيق بعض أهل العلم له واعتماد مسلم عليه في صحيحه .

ومن أمثلة ما لم تبلغ مالكاً رحمه الله فيه السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إفراد صوم يوم الجمعة ، فقد قال رحمه الله في الموطأ ما نصه :

لم أسمع أحداً من أهل العلم والفقه ، ومن يقتدى به ينهى عن صيام يوم الجمعة وصيامه حسن .

وقد رأيت بعض أهل العلم يصومه .

وأراه كان يتحراه . انتهى منه بلفظه .

وفيه تصريحه رحمه الله بأنه لم يسمع أحداً من أهل العلم ينهى عن صوم الجمعة .

وأن ذلك حسن عنده ، وأنه رأى بعض أهل العلم يتحرى يوم الجمعة ليصومه .

وهذا تصريح منه رحمه الله بأنه لم يبلغه نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن صوم يوم الجمعة واحده ، وأمره من صامه أن يصوم معه يوماً غيره وإلا أفطر إن ابتدأ صيامه ناوياً إفراده .

ولو بلغته السنة في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمل بها وترك العمل بغيرها .

لأن النهي عن صوم يوم الجمعة وحجه ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال البخاري رحمه الله في صحيحه :

حدثنا أبو عاصم عن ابن جريج عن عبد الحميد بن جبير بن شيبة عن محمد بن عباد ، قال سألت جابراً رضي الله عنه . أنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن صوم الجمعة ؟ قال : نعم . زاد غير أبي عاصم يعني أن ينفرد بصومه .

حدثنا عمر بن حفص بن غياث حديثنا أبي حدثنا الأعمش حدثنا أبو صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " لا يصوم أحدكم يوم الجمعة إلا يوماً قبله أو بعده "

(225/709)

حدثنا مسدد حدثنا يحيى عن شعبة ح وحدثني محمد حدثنا غندر حيثنا شعبة عن قتادة عن أبي أيوب عن جويرية بنت الحارث رضي الله عنها " أن النبي صلى الله عليه وسلم ، دخل عليها يوم الجمعة وهي صائمة فقال : " أصمت أمس " ؟ قالت : لا ، " قال : تريدين أن تصومي غداً " ؟ قالت : لا . " قال : فأفطري "

وقال حماد بن الجعد سمع قتادة حدثني أبو أيوب أن جويرية حدثته فأمرها ، فأفطرت ، انتهى من صحيح البخاري بلفظه .

وقال مسلم بن الحجاج رحمه الله في صحيحه :

حدثنا عمرو الناقد حدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الحميد بن جبير عن محمد بن عباد بن جعفر " سألت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما وهو يطوف بالبيت أنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صيام يوم الجمعة ؟ فقال : نعم ، ورب هذا البيت " .

وقال مسلم أيضاً :

وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا حفص وأبو معاوية عن الأعمش ح وحدثنا يحيى بن يحيى واللفظ له أخبرنا أو بمعاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" لا يصم احدكم يوم الجمعة إلا أن يصوم قبله او يصوم بعده "

وفي لفظ في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " لا تختصوا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي ولا تخصوا يوام الجمعة بصيام من بين الأيام ، إلا أن يكون في صوم يصومه أحدكم " هذا لفظ مسلم في صحيحه .

ولا شك أن هذا الأحاديث لو بلغت مالكاً ما خالفها ، فهو معذور في كونها لم تبلغه .

وقال النووي في شرح مسلم : وأما قول مالك في الموطأ : لم أسمع أحداً من أهل العلم والفقه ومن به يقتدى نهى عن صيام يوم الجمعة وصيامه حسن .

وقد رأيت بعض اهل العلم يصومه وأراه كان يتحراه .

فهذا الذي قاله هو الذي رآه .

وقد رأى غيره خلاف ما رأى هو .

والسنة مقدمة على ما رآه هو وغيره .

وقد ثبت النهي عن صوم يوم الجمعة ، فيتعين القول به .

ومالك معذور ، فإنه لم يبلغه .

(226/709)

قال الداودي من أصحاب مالك : لم يبلغ مالكاً هذا الحديث ولو بلغه لم يخالفه . انتهى منه .

وهذا هو الحق الذي لا شك فيه .

لأن مالكاً من أورع العلماء وأكثر الناس اتباعاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يدعها وهو عالم بها .

وقوله في هذا الحديث : " إلا أن يكون في صوم يصومه أحدكم " أي كأن ينذر أحد صوم اليوم الذي يشفي الله فيه مرضه ، فوافق ذلك يوم الجمعة .

لأن صومه له لأجل النذر ، الذي لم يقصد بأصله تعيين يوم الجمعة .

وإنما النهي فيمن قصد بصومه نفس يوم الجمعة دون غيره .

والغرض عندنا إنما هو المثال لبعض الأحكام التي لم تبلغ مالكاً فيها السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو بلغته لعمل بها .

ومعلوم أن هنالك بعضاً من النصوص ترك مالك العمل به مع أنه بلغه ، لأنه يعتقد أن ما ترك النص من أجله أرجح من النص .

وهذا يحتاج فيه إلى مناقشات دقيقة بين الأدلة ، فقد يكون الحق في ذلك مع هذا الإمام تارة ومع غيره أخرى .

فقد ترك مالك العمل بحديث خيار المجلس مع أنه حديث متفق عليه ، وقد بلغ مالكاً .

وقد حلف عبد الحميد الصائغ من المالكية بالمشي إلى مكة على أنه لا يتفي بثلاث . قالها مالك .

ومراده بالثلاث المذكورة عدم القول بخيرا المجلس هذا مع صحة الحديث فيه .

وجنسية القمح والشعير مع صحة الأحاديث الدالة على أنهما جنسان .

والتدمية البيضاء ، ولا شك أن مالكاً بلغه حديث خيار المجلس هذا .

فقد روي في الموطأ عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" المتبايعان كل واحد منهما بالخيار على صاحبه ما لم يتفرقا إلا بيع الخيار "

قال مالك : وليس لهذا عندنا حد معروف ، ولا أمر معمول به فيه . انتهى منه بلفظه .

مع أن مالكاً لم يعمل بهذا الحديث الصحيح :

وأشار في الموطأ إلى بعض الأسباب التي منعته من العمل به في قوله :

وليس لهذا عندنا حد معروف ولا أمر معمول به فيه ، لأن خيار المجلس لم يحدد بحد معروف .

(227/709)

فصار القول به مانعاً من انعقاد البيع إلى حد غير معروف .

وقد يكون المتعاقدان في سفينة في البحر لا يمكنهم التفرق بالأبدان .

وقد يكونان مسجونين في محل لا يمكنهما التفرق فيه .

وقد حمل مالك التفرق المذكور في الحديث على التفرق في الكلام .

وصيغة العقد قال :

وقد أطلع التفرق على التفرق في الكلام دون الأبدان في قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ ﴾ [النساء : 130] فالتفرق في الآية إنما هو بالتكلم بصيغة الطلاق لا بالأبدان .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الذين أُوتُواْ الكتاب إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ البينة ﴾ [البينة : 4

] فالتفرق في الآية تفرق بالكلام والاعتقاد .

فلا يشترط أن يكون بالأبدان :

وحجج من احتج لمالك في عدم أخذه بحديث خيار المجلس ، هذا كثيرة معروفة .

مناه ما هو في آيات من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ وأشهدوا إذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ [البقرة : 282] ، وقوله : ﴿ أَوْفُواْ بالعقود ﴾ [المائدة : 1] ، وقوله : ﴿ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلاَ تقتلوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ الله كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾ [النساء : 29] .

ومنها ما هو بغير ذلك .

وليس غرضنا هنا بسط الحجج ومناقشتها ، وإنما غرضنا المثال .

لأن الإمام قد يترك نصاً بلغه لاعتقاد أن ما ترك من أجله النص أرجح من نفس النص ، وأنه يجب على المسلم مراعاة المخرج والنجاة لنفسه فينظر في الأدلة ، ويعمل بأقواها وأقربها إلى رضى الله .

كما حلف عبد الحميد الصائغ بالمشي إلى مكة ، لا يفتي بقول مالك في هذا .

مع أنه عالم مالكين ، لأنه رأى الأدلة واضحة وضوحاً لا لبس فيه ، في أن المراد بالتفرق التفرق بالأبدان .

وقد صرح بذلك جماعة من الصحابة منهم ابن عمر راوي الحديث ، ولم يعلم لهم مخالف من الصحابة .

ولا شك أن المنصف إذا تأمل تأملاً صادقاً خالياً من التعصب عرف أن الحق هو ثبوت خيار المجلس .

(228/709)

وإن المراد بالتفرق التفرق في الأبدان لا بالكلام .

لأن معنى التفرق بالكلام هو حصول الإيجاب من البائع والقبول من المشتري .

وكل عاقل يعلم أن الخيار حاصل لكل من البائع والمشتري ضرورة قبل حصول الإيجاب والقبول .

فحمل كلام النبي صلى الله عليه وسلم على هذا ، حمل له على تحصيل حاصل ، وهو كما ترى .

مع أن حمل الكلام على هذا المعنى يستلزم أن المراد بالمتبايعين في الحديث المتساومان ، لأنه لا يصدق عليهما اسم المتبايعين حقيقة إلا بعد حصول الإيجاب والقبول .

وحمل المتبايعين في كلام النبي صلى الله عليه وسلم على المتساومين اللذين لم ينعقد بينهما بيع خلاف الظاهر أيضاً كما ترى .

وأما كون القمح والشعير جنساً واحداً ، فقد استدل له مالك ببعض الآثار التي لي فيها

شيء مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

قال في الموطأ : إنه بلغه أن سليمان بن يسار قال : فني علف حمار سعد بن أبي وقاص فقال لغلامه : خذ من حنطة أهلك فابتع بها شعيراً ، ولا تأخذ إلا مثله . اه منه بلفظه .

وفي الموطأ أيضاً عن نافع عن سليمان بن يسار أنه اخبره أن عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث فني علف دابته ، فقال لغلامة : خذ من حنطة أهلك فابتع بها شعيراً ولا تأخذ إلا مثله . اه منه بلفظه .

وفي الموطأ أيضاً : أن مالكاً بلغه عن القاسم بن محمد عن ابن معيقيب الدوسي مثل ذلك .

قال مالك : وهو الأمر عندنا اه . منه بلفظه .

فهذه الآثار هي عمدة مالك رحمه الله في كون القمح والشعير جنساً واحداً .

وعضد ذلك بتقارب منفعتهما ، والتحقيق الذي لا شك فيه أن القمح والشعير جنسان ، كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم .

ولا تصح معارضتها ألبتة بمثل هذه الآثار المروية عمن ذكر .

وقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

" التمر بالتمر والحنطة بالحنطة والشعير بالشعير والملح بالملح مثلاً بمثل يداً بيد فمن زاد أو استزاد فقد أربى إلا ما اختلفت أوانه " انتهى منه بلفظه .

وهو صريح بأن القمح والشعير جنسان مختلفان ، كاختلافهما مع التمر والملح .

وأن التفاضل جائز مع اختلاف الجنس إن كان يداً بيد ، وروى مسلم في صحيحه والإمام أحمد عن عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلاً بمثل سواء بسواء يداً بيد " اه منه بلفظه .

وللنسائي وابن ماجه وأبي داود نحوه ، وفي آخره : وأمرنا أن نبيع البر بالشعير والشعير بالبر يداً بيد كيف شئنا .

قال المجد في المنتقى : لما ساق هذا الحديث ما نصه : وهو صريح في كون البر والشعير جنسين ، وما قاله صحيح كما ترى .

والأحاديث بمثل هذا كثيرة ، وقد قدمنا طرفاً منها في سورة البرة والمقصود هنا بيان صراحة الأحاديث الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم في أن القمح والشعير جنسان لا جنس واحد ، وأنها لا يجوز ترك العمل بها مع صحتها ووضوحها ، ولا أن يقدم عليها اثر موقوف على سعد بن ابي وقاص ولا أثر موقوف على عبد الرحمن بن الأسود بن عبد

يغوث ، ولا أثر موقوف على ابن معيقيب .

واعلم أنه لا يصح الاستدلال لكون القمح والشعير جنساً واحداً بحديث معمر بن عبد الله الثابت في صحيح مسلم وغيره ، كنت أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " الطعام بالطعام مثلاً بمثل " الحديث .

وذلك لأمرين : أحدهما أن معمر المذكور قال في آخر الحديث ، وكان طعامهم يومئذ الشعير .

فقد عين أن عرفهم المقارن للخطاب يخصص الطعام المذكور بالشعير .

والمقرر في أصول مالك : أن العرف المقارن للخطاب من المخصصات المنفصلة التي يخصص بها العام قال في مراقي السعود في ذلك :

والعرف حيث قارن الخطابا . . . ودع ضمير البعض والأسبابا

(230/709)

الأمر الثاني : إن الاستدلال بالحديث المذكور على فرض اعتبار عمومه ، وعدم تخصيصه بالعرف المذكور ، يقتضي أن الطعام كله جنس واحد فيدخل التمر والملح لصدق الطعام عليهما .

وهذا لا قائل به كما ترى .

فالظاهر أن الإمام مالكاً رحمه الله ومن وافقه من أهل العلم ، لم تبلغهم هذه الأحاديث الصحيحة المصرحة ، بأن القمح والشعير والتمر والملح أجناس .

وان القمح يباع بالشعير كيف شاء المتبايعان إن كان يداً بيد .

وأما التدمية البيضاء فقول مالك فيها يظهر لنا قوته واتجاهه ، وإن خالف في ذلك بعض أصحابه وأكثر أهل العلم .

وقد بين وجه قول مالك فيها ابن عبد البر وابن العربي وغيرهما .

والمسائل التي قال بعض أهل العلم إن مالكاً خالف فيها السنة المعروفة منها ما ذكرنا .

ومنها مسألة سجود الشكر وسجدات التلاوة في المفصل .

وعدم الجهر بآمين ، وعدم رفع اليدين عند الركوع والرفع منه ، وعدم قول الإمام : ربنا ولك الحمد .

وعدم ضفر رأس المرأة الميتة ثلاث ضفائر .

وترك السجدة لاثانية في الحج وغير ذلك من المسائل .

وقد قدمنا أن بعض ما ترك مالك من النصوص قد بلغته فيه السنة ولكنه رأى غيرها أرجع منها ، وأن بعضها لم يبلغه ، وأن الحق قد يكون معه في بعض المسائل التي أخذت عليه .

وقد يكون مع غيره ، كما قال مالك نفسه رحمه الله :

كل كلام فيه مقبول ومردود ، إلا كلام صاحب هذا القبر .

وهو تارة يقدم دليل القرآن المطلق أو العام على السنة التي هي أخبار آحاد .

(231/709)

لأن القرآن أقوى سنداً وإن كانت السنة أظهر دلالة ، ولأجل هذا لم يبح ميتة الجراد بدون ذكاة لأنه يقدم . عموم ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة ﴾ [المائدة : 3] الآية . على حديث " أحلت لنا ميتتان ودمان " الحديث ، وقدم عموم قوله تعالى ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المعتدين ﴾ [الأعراف : 55] الآية . على الأحاديث الواردة بالجهر بآمين لأن التأمين دعاء ، والدعاء مأمور بإخفائه في الآية المذكورة .

فالآية أقوى سنداً وأحاديث الجهر بالتأمين أظهر دلالة في محل النزاع . ومن المعلوم أن أكثر أله العلم يقدمون السنة في نحو هذا .

وقد قدم مالك رحمه الله دليل القرآن فيما ذكرنا كما قدمه أيضاً في الثانية من سجدتي الحج لان نص الآية الكريمة فيها كالتصريح في أن المراد سجود الصلاة ، لأن الله يقول فيها . ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ اركعوا واسجدوا وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ ﴾ [الحج : 77] .

فذكر الركوع مع السجود يدل على أن المراد سجود الصلاة .

والأمر بالصلة في القرآن لا يستلزم سجود التلاوة كقوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانحر ﴾ [الكوثر : 2] .

ولذلك لا يسجد عند قوله تعالى في آخر الحجر ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الحجر : 98] .

قالوا لأن معنى قوله : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أي صل لربك متلبساً بحمده ، وكن من الساجدين في صلاتك

ولا شك أن قوله تعالى في ثانية الحج ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ اركعوا ﴾ الآية . أصرح في إرادة سجود الصلاة من قوله تعالى ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾

(232/709)

ثم بعد هذا كله فإننا نكرر أن الأئمة رحمهم الله لا يلحقهم نقص ولا عيب فيما أخذ عليهم ، لأنهم رحمهم الله بذلوا وسعهم في تعلم ما جاء عن الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ثم اجتهدوا بحسب طاقتهم ، فالمصيب منهم له أجر اجتهاده وإصابته ، والمخطىء منهم مأجور في اجتهاده معذور في خطئه ، ولا يسعنا هنا مناقشة الأدلة فيما أخذ عليهم رحمهم الله ، وإنما قصدنا مع الاعتراف بعظم منزلتهم أن نبين أن كتاب الله وسنة رسوله

صلى الله عليه وسلم يجب تقديمهما على أقوالهم ، لأنهم غير معصومين من الخطأ ، وأن مذاهبهم المدونة لا يصح ولا يجوز الاستغناء بها عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأن على كل مسلم قادر على التعليم أن يتعلم الكتاب والسنة ، ومعرفة مذاهب الأئمة تعينه على ذلك ، والنظر فيما استدل به كل منهم يعينه على معرفة أرجح الأقوال وأقربها غلى رضى الله .

وكذلك الشافعي وأحمد رحمهما الله ، فإن كل واحد منهما لا يخلو من شيء قد أخذ عليه ، ومرادنا هنا لتمثيل لذلك ، وأن الوحي مقدم على أقوالهم جميعاً ، وليس قصدنا الإكثار من ذلك .

وهذه أمثلة بالمطلوب وكان الشيخ رحمه الله أرجاً إيادها فنذكرها على ما هو ظاهر من المذهبين ونرجوا أن تكون موافقة لما أراد .

وبالله التوفيق .

فمما هو في مذهب أحمد رحمه الله صوم يوم الشك وهو يوم الثلاثين من الشعبان حينما يشك فيه هل هو تمام شعبان أو أول رمضان . وذلك حينما تكون السماء مغيمة خشية أن يظهر الهلال خلف الغيم أو القتر .

ولا يكون يوم شك إذا كانت السماء صحواً لأنه غذا رؤي الهلال فهو رمضان وإلا فهو من شعبان .

فمذهب أحمد هو صوم هذا اليوم المشكوك فيه احتياطاً لرمضان ، وهو نص المعنى إلا أنه ذكر عن أحمد روايات أخر . ولكن صومه هو المقدم في المذهب . ولكنه مخالف لصريح النص في قوله صلى الله عليه وسلم في ذلك : " من صام اليوم الذي يشك فيه فقد عصى أبا القاسم " صلى الله عليه وسلم .

(233/709)

قال في بلوغ المرام : ذكره البخاري تعليقاً ووصله ، قال في سبل السلام : واعلم أن يوم الشك هو يوم الثلاثين من شعبان إذا لم ير الهلال في ليلة بغيم ساتر ، أو نحوه فيجوز كونه من رمضان وكونه من شعبان .

والحديث وما في معناه يدل على تحريم صومه . اه . يعني بما في معناه قوله صلى الله عليه وسلم " صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فاقدروا له ثلاثين " متفق عليه ، ولمسلم " فإن غم عليكم فاقدروا له ثلاثين " وللبخاري " فأكملوا العدة ثلاين "

وشبهة أحمد في قوله صلى الله عليه وسلم " فاقدروا له " بمعنى فضيقوا عليكم كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ ﴾ [الطلاق : 7] ولكن هذا معارض للنص الصريح في معنى " فاقدروا له ثلاثين " وقوله " فأكملوا العدة ثلاثين " أي سواء في

شعبان أو في تمام رمضان عند الفطر .

ولم يقل بصومه من الأئمة إلا أحمد رحمه الله .

ومما هو عند الشافعي قوله بنقض الوضوء من مرد لمس المرأة الأجنبية بدون حائل مع ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم في أحاديث عائشة رضي الله عنها "كنت أنام معترضة في القبلة ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي فإذا سجد غمزني في رجلي فأقبضها فإذا قام مددتها " .

وقد أجابوا عن ذلك باحتمال سترها بحائل فجاء قولها " افتقدت رسول الله ذات ليلة فقمت أطلبه او لحجرات ليس فيه نذاك السرج حتى وقعت كفي على بطن قدمه وهو ساجد يقول : " سبوح قدوس رب الملائكة والروح " فقلت : والله إنك لفي واد وأنا في واد " .

فلما قام للركعة الثانية ظنته ذهب عند بعض نسائه اغتسل ثم جاء يصلي عندها فقامت وأدخلت يدها في شعر رأسه تتحس هل اغتسل أم لا . . إلخ .

ولهم اجوبة على كل ذلك ولكنها لا تنهض مع هذه النصوص الصريحة .

وشبهة الشافعي في ذلك في معنى لامستم النساء من قوله تعالى :

﴿ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الغَآئِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ ﴾ [النساء : 43] . الآية ولم يقل بنقض الوضوء به من الأئمة إلا الشافعي رحمه الله .

ومما ينبغي التنبيه عليه في هذا المقام أنه لا يتأتى من أحد أئمة المسلمين أن يخالف نصاً صريحاً من كتاب أو سنة ، بدون أن تكون لديه شبهة معارضة بنص آخر ، أو عدم بلوغ النص إليه ، أو عدم صحته عنده أو غير ذلك مما هو معروف في هذا المقام .

وإنما أوردنا هذين المثالين تتمة للبحث ولمجرد المثال .

التنبيه التاسع .

اعلم أن كل من يرى أنه لا بد له من تقليد الغمام في كل شيء بدعوى أنه لا يقدر على الاستدلال بكتاب ولا سنة ، ولا قول أحد من الصحابة ولا التابعين ، ولا أحد غير ذلك الإمام .

يجب عليه أن يتنبه تنبهاً تاماً للفرق بين أقوال ذلك الإمام التي خالها حقاً ، وبين ما ألحق بعده على قواعد مذهبه ، وما زاده المتأخرون وقتاً بعد وقت من أنواع الاستحسان التي لا أساس لها في كتاب الله ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ولو علم الإمام بإلحاقهم بمذهبه ، لتبرأ منها ، وانكر على ملحقها ، فنسبة جميع ذلك للإمام من الباطل الواضح .

ويزيده بطلاناً نسبته إلى الله ورسوله ، بدعوى أنه شرع ذلك على لسان رسوله ، ونحو هذا كثير في المختصرات في المذاهب وكتب المتأخرين منهم .

ومن أمثلته في مذهب مالك قول خليل المالكي في مختصره الذي قال فيه مبيناً لما به الفتوى : كأقل الطهر يعني ان أقل الطهر بين الحيضتين خمسة عشر يوماً .

والذين يعتنقون مذهب مالك يعتقدون أن مالكاً يقول : بأن أقل الطهر بين الحيضتين خمسة عشر يوماً .

وهذا لم يقله مالك أبداً ولم يفت به ولم يروه عنه أحد من أصحابه .

والذي كان يقوله مالك : إن أقل الطهر ثمانية أيام أو عشرة أيام .

وهو الذي نقله عنه أجلاء أهل مذهبه كأبي محمد بن أبي زيد في رسالته رحمه الله .

(235/709)

والقول بأن أقل الطهر خمسة عشر هو قول ابن مسلمة واعتمده صاحب التلقين ، وجعله ابن شاش المشهور أي مشهور مذهب مالك .

مع أن مالكاً لم يقله ولم يعلم به ، وأمثال هذا كثيرة جداً في مذهب مالك وغيره .

ومثال استحسان المتأخرين لما لم يقله الإمام مما لا يشك أنه لو بلغ الإمام لم يقبله قول الحطاب في

شرحه لقول خليل في مختصره في الصوم : وعاشوراء وتاسوعاء . ما نصه : قال الشيخ زروق في شرح القرطبية : صيام المولد كرهه بعض من قرب عصره ممن صلح علمه وورعه .

قال إنه من أعياد المسلمين فينبغي ألا يصام فيه ، وكان شيخنا أبو عبد الله القوري يذكر ذلك كثيراً ويستحسنه .

انتهى .

قلت : لعله يعني ابن عباد . فقد قال في رسائله الكبرى ما نصه : وأما المولد فالذي يظهر لي أنه عيد من أعياد المسلمين وموسم من مواسمهم ، وكل ما يفعل فيه مما يقتضيه وجود الفرح والسرور بذلك المولد المبارك من إيقاد الشمع وإمتاع البصر والسمع والتزين بلبس فاخر الثياب وركوب فاره الدواب ، أمر مباح لا ينكر على أحد قياساً على غيره من أوقات الفرح .

والحكم بكون هذه الأشياء بدعة في هذا الوقت الذي ظهر فيه سر الوجود وارتفع فيه علم الشهود وانقشع فيه ظلام الكفر والجحود ، وادعاء أن هذا الزمان ليس من المواسم المشروعية لأهل الإيمان ومقارنة ذلك بالنيروز والمهرجان أمر مستثقل تشمئز منه القلوب السليمة وتدفعه الآراء المستقيمة .

ولقد كنت فيما خلا من الزمان خرجت في يوم مولد إلى ساحل البحر ، فاتفق أن وجدت

هناك سيدي الحاج بن عاشر رحمه الله وجماعة من أصحابه وقد أخرج بعضهم طعاماً مختلفاً ليأكلوه هنالك .

فلما قدموه لذلك أرادوا مني مشاركتهم في الأكل ، وكنت إذ ذاك صائماً فقلت لهم : إني صائم .

فنظر إلى سيدي الحاج نظرة منكرة ، وقال لي ما معناه : إن هذا اليوم يوم فرح وسرور يستقبح في مثله الصيام بمنزلة العيد .

فتأملت كلامه فوجدته حقاً ، وكأنني كنت نائماً فأيقظني . انتهى بلفظه .

(236/709)

فهذا الكلام الذي يقتضي قبح صوم يوم المولد وجعله كيوم العيد من غير استناد إلى كتاب الله ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا قول أحد من اصحابه ولا من تابعيه .

ولم يقل به أحد من الأئمة الأربعة ولا من فقهاء الأمصار المعروفين الذي أجخله بعض المتأخرين في مذهب مالكن ومالك بريء منه براءة الشمس من اللمس ، ولم يجر على أصول مذهبه ، لأن علة تحريم صوم يوم العيد والفطر عنده أن الله تعالى يكلف عباده في كل سنة عبادتين عظيمتين والأمر بهما عام لكل من يستطيعهما ، وإحداهما تجب في العمر مرة

واحدة وهي الحج ، والثانية تجب كل سنة في شهر رمضان منها ، وهي الصوم ، فإذا انتهت عبادت الصوم ألزم الله الناس كلهم أن يكونوا في ضيافته يوم النحر ويوم عيد الفطر .

فمن صام في أحد اليومين أعرض عن ضيافة الله ، والإعراض عن ضيافته تعالى لا يجوز

فإلحاق يوم المولد بيوم العيد إلحاق لا أساس له ، لأنه إلحاق ليس بجامع بينهما ولا نفي فارق ولا إلحاق ألبتة إلا بجامع أو نفي فارق .

وكل من لمس يطمس الله بصيرته يعلم أن الحق الذي لا شك فيه هو اتباع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

ومعلوم أن جعل يوم المولد كيوم العيد في منع الصوم لم يقله رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه ولا أحد من الأئمة الأربعة .

فهو تشريع لاستقباح قربة الصوم ومنعها في يوم المولد من غير استناد إلى وحي ولا قياس صحيح ولا قول أحد ممن يقتدى به .

(237/709)

ومما لا نزاع فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسله الله رحمه للعالمين كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : 107] ورسالته صلى الله عليه وسلم

هي أعظم نعمة عل الخلق كما بينه علماء التفسير في الكلام على قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين بَدَّلُواْ نِعْمَةَ الله كُفْراً ﴾ [إبراهيم : 28] الآية ، والخير كل الخير في اتباعه صلوات الله وسلامه عليه ، والشر كل الشر في تشريع ما لم يشرعه والتقول عليه بما لم يقله .

فالمقلدون لمالك مثل هذا التقليد الأعمى يعتقدون أن هذا الكلام الذي ذكره الحطاب عن زروق وابن عباد وابن عاشر ، أنه هو مذهب مالك وأنه من شرع الله ودينه ، وأنه ما دام من مذهب مالك ، فاللازم تقديمه على الكتاب والسنة لأنهما لا يجوز العمل إلا للمجتهد المطلق .

وهذا مثال من بلايا التقليد الأعمى وعظائمه .

ولا يخفى أن ادعاء أن وجود نعم الله كمولد النبي صلى الله عليه وسلم يدل على استقباح طاعة الله بالصوم في أوقات وجود تلك النعم ظاهر الفساد ، لأن المناسب لنعم الله هو طاعته بأنا وع الطاعات كالصوم .

ولذا تجد الناس ينذرون لله صوم اليوم الذي ينعم الله عليهم فيه بشفاء المريض إتيان الغائب ، وهذا أمر معروف وهو المعقول لا عكسه .

ومما يوضح هذا أن إنزال القرآن العظيم هو أعظم نعمة على البشر .

ولأجل ذلك علمهم الله حمده تعالى على هذه النعمة العظمى في أول سورة الكهف في قوله تعالى ﴿ الحمد لِلَّهِ الذي أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب ﴾ [الكهف : 1] الآية .

وقد بين تعالى أنه أنزل هذه النعمة في شهر رمضان ، فكان نزول هذه النعمة في شهر رمضان مقتضياً لصومه لا لجعل أيامه أعياداً يستقبح صومها ، لأن الله تعالى قال ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الذي أُنزِلَ فِيهِ القرآن هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الهدى والفرقان ﴾ [البقرة : 185] .

(238/709)

وهذا هو أعظم النعم ، وقد رتب على هذا بالفاء قوله بعده ، ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [البقرة : 185] . الآية فافهم .

والمقصود بهذا المثال النصيحة للذين لم يقدروا على غير هذا التقليد الأعمى ليبحثوا في كتب المذهب وأمهاته عن أقوال الإمام وكبار أصحابه ليفرقوا بينهما وبين أنواع الاستحسان التي لا مستند لها ، التي يدخلها المتأخرون وقتاً بعد وقت وهي ظاهرة الفساد عند من رزقه الله علماً بكتاب الله وسنة رسوله .

ومما لا شك فيه أن أقوال مالك وكبراء أصحابه مثلاً ، أحرى بالصواب في الجملة من استحسان ابن عباس وابن عاشر وأمثالهما .

التنبيه العاشر .

اعلم أن الدعوى التي اتفق عليها متأخرو الأصوليين التي تتضمن حكمهم على خالق

السماوات والأرض جل وعلا لا يجوز لمسلم يريد الحق والإنصاف أن يعتقدها ، ولا أن يصدقهم فيها لظهور عدم صحتها ومخالفتها للنص ، والحكم فيها على الله بلا مستند ، وهو جل وعلا الذي يحكم لا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب .

وهذه الدعوى المذكورة هي المتركبة مما يأتي ، وهو أن الاجتهاد قد انقرض في الدنيا واسند بابه .

وأن الله تعالى تحكوم عليه بأن لا يخلق مجتهداً ولا يعلم أحداً من خلقه علماً يمكن أن يكون به مجتهداً إلى ظهور المهدي المنتظر .

وأنه لا يجوز لأحد أن يعمل بكتاب ولا سنة ولا أن يقلد أحداً كائناً من كان غير الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المدونة ، كما نص على هذه الدعوى حاكياً إجماعهم عليها صاحب مراقي السعود في قوله :

والمجمع اليوم عليه الأربعه . . . وقفو غيرها الجميع منعه

حتى يجيء الفاطم المجدد . . . دين الهدى لأنه مجتهد

ومراده بالفاطمي المهدي المنتظر لأنه شريف .

وقوله : حتى يجيء . حرف غاية ، والمغيا به ، منع تقليد أحد غير الأربعة المذكور في قوله : وقفوا غيرها الجميع منعه .

وهذا صريح في أنهم حاكمون على الله القدير العليم ، بأنه لا يخلق مجتهداً قبل وجود المهدي المنتظر ، وهذا الذي قاله صاحب مراقي السعود هو المقرر في كتب المتأخرين من الأصوليين من أهل المذاهب المدونة .

وهذا الحكم على الله الذي كل يوم هو في شأن بأنه لا يخلق مجتهداً قبل المهدي من مدة انقراض الاجتهاد المزعوم هو يا أخي كما ترى .

ولا شك أنك إن لم يعمك التعصب المذهبي تقطع أنه لا مستند له ، وهذا الذي ذكره صاحب مراقي السعود قد صرح بما يناقضه في قوله قبله :

والأرض لا عن قائم مجتهد . . . تخلو إلى تزلزل القواعد

وهذا النقيض الأخير هو الصحيح الموافق للحق .

لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد ثبت عنه في الصحيحين وغيرهما أنه قال : " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله " الحديث .

وهو حديث مشهور متفق عليه لا نزاع في صحته .

ولا شك في أن هذه الطائفة التي صرح النبي صلى الله عليه وسلم : بأنها لا تزال ظاهره على الحق حتى يأتي أمر الله أنها طائفة على كتاب الله ، وسنة رسوله ، وليست ألبتة من المقلدين التقليد الأعمى .

لأن الحق هو ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الكتاب ولاسنة كما قال تعالى في سورة النساء : ﴿ يا أيها الناس قَدْ جَاءَكُمُ الرسول بالحق مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [النساء : 170] وقال في الأنعام : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الحق ﴾ [الأنعام : 66] . وقال في النمل ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى الله إِنَّكَ عَلَى الحق المبين ﴾ [النمل : 79] وقال في يونس : ﴿ يا أيها الناس قَدْ جَاءَكُمُ الحق مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [يونس : 108] والآيت بمثل ذلك كثيرة .

فدعوى أن الأرض لم يبق فيها مجتهد ألبتة ، وأن ذلك مستمر إلى ظهور المهدي المنتظر مناقضة لهذا الحديث الثابت ثبوتاً لا مطعن فيه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم .

(240/709)

ومما لا نزاع فيه ان كل ما يناقض الحق هو ضلال ، لأن الله جل وعلا يقول : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الحق إِلاَّ الضلال فأنى تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس : 32] . والعلم عند الله تعالى .

التنبيه الحادي عشر

اعلم يا أخي أن هذا الإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، واعتقاد الاستغناء عنهما بالمذاهب المدونة الذي عم جل من في المعمورة في المسلمين من أعظم المآسي والمصائب ، والدواهي اتي دهت المسلمين من مدة قرون عديدة .

ولا شك أن النتائج الوخيمة الناشئة عن الإعراض عن الكتاب والسنة من جملتها ما عليه السملمون في واقعهم الآن من تحكيم القوانين الوضعية المنافي لأصل الإسلام .

لأن الكفار إنما احتاجوهم بفصلهم عن دينهم بالغزو الفكري عن طرق الثقافة وإدخال الشبه والشكوك في دين الإسلام .

ولو كان المسلمون يتعلمون كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ويعملون بما فيهما لكان ذلك حصناً منيعاً لهم من تأثير الغزو الفكر في عقائدهم ودينهم .

ولكن لما تركوا الوحي ونبذوه وراء ظهورهم واستبدلوا به أقوال الرجال لم تقم لهم أقوال الرجال ومذاهب الأئمة رحمهم الله مقام كلام الله والاعتصام بالقرآن ، وكلام النبي صلى الله عليه وسلم والتحصين بسنته .

ولذلك وجد الغزو الفكري طريقاً إلى قلوب الناشئة من المسلمين :

ولو كان سلاحهم المضاد . . . القرآن والسنة لم يجد إليهم سبيلا

ولا شك أن كل منصف يعلم أن كلام الناس ، ولو بلغوا ما بلغوا من العلم والفضل ، لا يمكن أن يقوم مقام كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم .

وبالجملة فمما لا شك فيه أن هذا الغزو الفكري الذي قضى على كيان المسلمين ، ووحدتهم وفصلهم عن دينهم ، لو صادفهم وهم متمسكون بكتاب الله وسنة رسوله لرجع

مدحوراً في غاية الفشل لوضوح أدلة الكتاب والسنة ، وكون الغزو الفكري المذكور لم يستند إلا على الباطل والتمويه كما هو معلوم .

(241/709)

إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (25) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (26) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (27) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (28)

الظاهر أن الذين ارتدوا على أبدارهم من بعد ما تبين لهم الهدى ، قوم كفروا بعد إيمانهم .

وقال بعض العلماء : هم اليهود الذين كانوا يؤمنون بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فلما بعث وتحققوا أنه هو النبي الموصوف في كتبهم كفروا به .

وعلى هذا القول فارتدادهم على أدبارهم هو كفرهم به بعد أن عرفوه وتيقنوه ، وعلى هذا فالهدى الذي تبين لهم هو صحة نبوته صلى الله عليه وسلم ومعرفته بالعلامات الموجودة في كتبهم .

وعلى هذا القول فهذه الآية يوضحها قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ

عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الذين كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُمْ مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكافرين ﴾ [البقرة : 89] لأن قوله : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ ﴾ مبين معنى قوله : ﴿ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهدى ﴾ ، وقوله ﴿ كَفَرُواْ بِهِ ﴾ مبين معنى قوله : ﴿ ارتدوا على أَدْبَارِهِمْ ﴾ .

وقال بعض العلماء : نزلت الآية المذكورة في المنافقين .

(242/709)

وقد بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن سبب ارتداء هؤلاء القوم من بعد ما تبين لهم الهدى ، هو إغواء الشيطان لهم كما قال تعالى مشيراً إلى على ذلك ﴿ الشيطان سَوَّلَ لَهُم ﴾ أي زين لهم الكفر والارتداد عن الدين ، وأملى لهم أي مد لهم في الأمل ووعدهم طول العمر .

قال الزمخشري : سول سهل لهم ركوب العظائم من السول ، وهو الاسترخاء ، وقد اشتقه من السؤل من لا علم له بالتصريف والاشتقاق جميعاً .

وأملى لهم ومد لهم في الآمال والأماني . انتهى .

وإيضاح هذا أن هؤلاء المرتدين على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى وقع لهم ذلك

بسبب أن الشيطان سول لهم ذلك أي سلهله لهم وزينه لهم وحسنه لهم ومناهم بطول الأعمار .

لأن طول الأمل من أعظم أسباب ارتكاب الكفر والمعاصي .

وفي هذا الحرف قراءتان سبعيتان : قرأه عامة السبعة غير أبي عمرو ، وأملى لهم بفتح الهمزة واللام بعدها ألف وهو فعل ماض مبني للفاعل ، وفاعله ضمير يعود إلى الشيطان .

وأصل الإملاء الإمهال والمد في الأجل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف : 183] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الذين كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ ليزدادوا إِثْمَاً ﴾ [آل عمران : 178] الآية .

ومعنى إملاء الشيطان لهم وعده إياهم بطول الأعمار ، كما قال تعالى : ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشيطان إِلاَّ غُرُوراً ﴾ [النساء : 120] .

وقال تعالى : ﴿ واستفزز مَنِ استطعت مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ [الإسراء : 64] إلى قولك ﴿ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشيطان إِلاَّ غُرُوراً ﴾ [الإسراء : 64] .

وقال بعض العماء : ضمير الفاعل في قوله ﴿ وأملى لَهُمْ ﴾ على قراءة الجمهور راجع إلى الله تعالى .

والمعنى : الشيطان ﴿ سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ أي سهل لهم الكفر والمعاصي ، وزين ذلك وحسنه لهم ، والله جل وعلا أملى لهم : أي أمهلهم إمهال استدراج .

وكون التسويل من الشيطان والإمهال من الله ، قد تشهد لهم آيات من كتاب الله كقوله تعالى في تزيين الشيطان لهم ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ ﴾ [الأنفال : 48] الآية . وقوله تعالى ، ﴿ تالله لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إلى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليوم وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل : 63] ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الشيطان لَمَّا قُضِيَ الأمر إِنَّ الله وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ [الأنفال : 22] الآية . إلى غير ذلك من الآيات .

(244/709)

وكقوله تعالى في إملاء الله لهم استدراجاً : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف : 182 - 183] . وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الذين كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ ليزدادوا إِثْمَاً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [آل عمران : 178] وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضلالة فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرحمن مَدّاً ﴾ [

مريم : 75] وقوله تعالى ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حتى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا آوتوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام : 44] وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السيئة الحسنة حتى عَفَوْاْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضرآء والسرآء فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [الأعراف : 95] . وقوله تعالى ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الخيرات بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : 55 – 56] والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

وقرأ هذا الحرف أبو عمرو وحده من السبعة وأملي لهم بضم الهمزة وكسر اللام بعدها ياء مفتوحة بصيغة الماضي المبني للمفعول والفاعل المحذوف فيه الوجهان المذكوران آنفاً في فاعل ، وأملي لهم على قراءة الجمهور بالبناء للفاعل .

(245/709)

وقد ذكرنا قريباً ما يشهد لكل منهما من القرآن كقوله تعالى في إملاء الشيطان لهم ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشيطان إِلاَّ غُرُوراً ﴾ [النساء : 120] وقوله في إملاء الله لهم : ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف : 183] كما تقدم قريباً ، والإشارة في قوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ الله سَنُطِيعُكُمْ فِي

بَعْضِ الأمر ﴾ راجعة إلى قوله تعالى ، ﴿ الشيطان سَوَّلَ لَهُمْ وأملى لَهُمْ ﴾ .

أي ذلك التسويل والإملاء المفضي إلى الكفر بسبب أنهم ﴿ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ اللّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأمر ﴾ .

وظاهر الآية يدل على أن بعض الأمر الذي قالوا لهم سنطيعكم فيه مما نزل الله وكرهه أولئك المطاعون .

والآية الكريمة تدل على أن كل من أطاع من كره ما نزل الله في معاونته له على كراهته ومؤازرته له على ذلك الباطل ، أنه كافر بالله بدليل قوله تعالى فيمن كان كذلك ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الملائكة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتبعوا مَآ أَسْخَطَ اللّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد : 27 - 28] .

وقد قدمنا ما يوضح ذلك من القرآن في سورة الشورى في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَمَا اختلفتم فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللّهِ ﴾ [الشورى : 10] وي مواضع عديدة من هذا الكتاب المبارك .

وبينا في سورة الشورى أيضاً شدة كراهة الكفار لما نزل الله ، وبينا ذلك بالآيات القرآنية في الكلام على قوله تعالى ﴿ كَبُرَ عَلَى المشركين مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ [الشورى : 13] .

وقد قدمنا مراراً أن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة والله يعلم ﴿ إِسْرَارَهُمْ ﴾ قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة عن عاصم أسرارهم بفتح الهمزة جمع سر .

وقرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم إسرارهم بكسر الهمزة مصدر أسر كقوله : ﴿ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً ﴾ [نوح : 9] وقد قالوا لهم ذلك سراً فأفشاه الله للعالم بكل ما يسرون وما يعلنون .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الملائكة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ أي : فكيف يكون حال هؤلاء إذا توفتهم الملائكة ؟

أي قبض ملك الموت وأعوانه أرواحهم في حال كونهم ضاربين وجوههم وأدبارهم .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون الملائكة ، يتوفون الكفار وهم يضربون وجوههم وأدبارهم جاء موضحاً في موضع أخر من كتاب الله كقوله تعالى في الأنفال : ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ يَتَوَفَّى الذين كَفَرُواْ الملائكة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ [الأنفال : 50] وقوله في الأنعام : ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ الظالمون فِي غَمَرَاتِ الموت والملائكة باسطوا أَيْدِيهِمْ أخرجوا أَنْفُسَكُمُ اليوم تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهون ﴾ [الأنعام : 93] الآية .

فقوله : ﴿ باسطوا أَيْدِيهِمْ ﴾ أي بالضرب المذكور .

والإشارة في قوله ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتبعوا مَآ أَسْخَطَ الله ﴾ أي أغضبه من الكفر به ، وطاعة

الكفار الكارهين لما نزله .

والإسخاط استجلاب السخط ، وهو الغضب هنا .

وقوله : وكرهوا رضوانه لأن من أطاع من كره ما نزل الله فقد كره رضوان الله .

لأن رضوانه تعالى ليس إلا في العمل بما نزل ، فاستلزمت كراهة ما نزل ، كراهة رضوانه لأن رضوانه فيما نزل ، ومن أطاع كرهه ، فهو ككارهه .

(247/709)

وقوله : فأحبط أعمالهم أي أبطلها ، لأن الكفر سيئة لا تنفع معها حسنة . وقد أوضحنا المقام في ذلك إيضاحاً تاماً في سورة بني إسراء في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخرة وسعى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً ﴾ [الإسراء : 19] . وفي سورة النحل في الكلام على قوله تعالى ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل : 97] الآية .

واعلم أن هذه الآية الكريمة ، قد قال بعض العلماء : إنها نزلت في المنافقين .

وقال بعضهم : إنها نزلت في اليهود ، وأن المنافقين او اليهود قالوا للكفار الذين كرهوا ما نزل اله سنطيعكم في بعض الأمر ، وهو عداوة النبي صلى الله عليه وسلم والتعويق عن الجهاد

ونحو ذلك .

وبعضهم يقول : إن الذين اتبعوا ما أسخط الله ، هم اليهود حين كفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم لما عرفوه ، وكرهوا رضوانه ، وهو الإيمان به صلى الله عليه وسلم .

والتحقيق الذي لا شك فيه ان هذه الآيات عامة في كل ما يتناوله لفظها ، وأن كل ما فيها من الوعيد عام لمن أطاع من كره ما نزل الله .

مسألة

اعلم ان كل مسلم ، يدب عليه في هذا الزمان ، تأمل هذه الآيات ، من سورة محمد وتدبرها ، والحذر التام مما تضمنته من الوعيد الشديد .

لأن كثيراً ممن ينتسبون للمسلمين داخلون بلا شك فيما تضمنته من الوعيد الشديد .

لأن عامة الكفار من شرقيين وغربيين كارهون لما نزل الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو هذا القرآن وما يبينه به النبي صلى الله عليه وسلم من السنن .

فكل من قال لهؤلاء الكفار الكارهين لما نزله الله : سنطيعكم في بعض الأمر ، فهو داخل في وعيد الآية .

(248/709)

وأحرى من ذلك من يقول لهم : سنطيعكم في الأمر كالذين يتبعون القوانين الوضعية مطيعين بذلك للذين كرهوا ما نزل الله ، فإن هؤلاء لا شك أنهم من تتوفاهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم .

وأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه ، وأنه محبط أعمالهم .

فاحذر كل الحذر من الدخول في الذين قالوا : سنطيعكم في بعض الأمر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(249/709)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (27) ﴾

الفاء يجوز أن تكون للتفريع على جملة ﴿ إن الذين ارتدوا على أدبارهم ﴾ [محمد : 25] الآية وما بينهما متصل بقوله : ﴿ الشيطانُ سوّل لهم ﴾ [محمد : 25] بناء على المحمل الأول للارتداد فيكون التفريع لبيان ما سيلحقهم من العذاب عند الموت وهو استهلال لما يتواصل من عذابهم عن مبدإ الموت إلى استقرارهم في العذاب الخالد .

ويجوز على المحمل الثاني وهو أن المراد الارتداد عن القتال وتكون الفاء فصيحة فيفيد :

إذا كانوا فروا من القتال هلعاً وخوفاً فكيف إذا توفتهم الملائكة ، أي كيف هلعهم ووجلهم الذي ارتدوا بهما عن القتال .

وهذا يقتضي شيئين : أولهما أنهم ميّتون لا محالة ، وثانيهما أن موتتهم يصحبها تعذيب .

فالأول مأخوذ بدلالة الالتزام وهو في معنى قوله تعالى : ﴿ الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعُونا ما قتلوا قل فادْرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾ [آل عمران : 168] وقولِه : ﴿ وقالوا لا تنفروا في الحرّ قل نار جهنم أشدّ حرّاً لو كانوا يفقهون ﴾ [التوبة : 81] .

والثاني هو صريح الكلام وهو وعيد لتعذيب في الدنيا عند الموت .

والمقصود : وعيدهم بأنهم سيعجل لهم العذاب من أول منازل الآخرة وهو حالة الموت .

ولما جعل هذا العذاب محققاً وقوعُه رتب عليه الاستفهام عن حالهم استفهاماً مستعملاً في معنى تعجيب المخاطب من حالهم عند الوفاة ، وهذا التعجيب مؤذن بأنها حالة فظيعة غير معتادة إذ لا يتعجب إلاّ من أمْر غير معهود ، والسياق يدل على الفظاعة .

و﴿ إذا ﴾ متعلق بمحذوف دل عليه اسم الاستفهام ، تقديره : كيف حالهم أو عملهم حين تتوفاهم الملائكة .

وكثر حذف متعلّق ﴿ كيف ﴾ في أمثال هذا مقدّراً مؤخراً عن ﴿ كيف ﴾ وعن ﴿ إذا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ﴾ [النساء : 41] .

والتقدير : كيف يصنعون ويحتالون .

وجعل سيبويه ﴿ كيف ﴾ في مثله ظرفاً وتبعه ابن الحاجب في الكافية .

ولعله أراد الفرار من الحذف .

وجملة ﴿ يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ حال من ﴿ الملائكة ﴾ .

والمقصود من هذه الحال : وعيدهم بهذه المِيتة الفظيعة التي قدرها الله لهم وجعل الملائكة تضرب وجوههم وأدبارهم ، أي يضربون وجوههم التي وَقَوْهَا من ضرب السيف حين فرُّوا من الجهاد فإن الوجوه مما يقصد بالضرب بالسيوف عند القتال قال الحريش القريعي ، أو العباس بن مدراس:

نعرّض للسيوف إذا التقينا . . .

وجوهاً لا تُعرض للنظام

ويضربون أدبارهم التي كانت محل الضرب لو قاتلوا ، وهذا تعريض بأنهم لو قاتلوا لفرُّوا فلا يقع الضرب إلا في أدبارهم .

ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (28)

الإشارة بذلك إلى الموت الفظيع الذي دل عليه قوله : ﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة ﴾ [محمد : 27] كما تقدم آنفاً .

واتباعهم ما أسخط الله : هو اتباعهم الشرك .

والسخط مستعار لعدم الرضى بالفعل .

وكراهتهم رضوان الله : كراهتهم أسباب رضوانه وهو الإسلام .

وفي ذكر اتباع مَا أسخط الله وكراهة رضوانه محسّن الطباق مرتين للمضادة بين السخط والرضوان ، والاتباع والكراهية .

والجمع بين الإخبار عنهم باتباعهم ما أسخط الله وكراهتهم رضوانه مع إمكان الاجتزاء بأحدهما عن الآخر للإيماء إلى أن ضرب الملائكة وجوه هؤلاء مناسب لإقبالهم على ما أسخط الله ، وأن ضربهم أدبارهم مناسب لكراهتهم رضوانه لأن الكراهة تستلزم الإعراض والإدبار ، ففي الكلام أيضاً محسن اللف والنشر المرتب .

فكان ذلك التعذيب مناسباً لحالَيْ توقيهم في الفرار من القتال وللسببين الباعثين على ذلك التَوقي .

وفرع على اتباعهم ما أسخط الله وكراهتهم رضوانه قوله : ﴿ فأحبط أعمالهم فكان اتباعهم ما أسخط الله وكراهتهم رضوانه سبباً في الأمرين : ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند الوفاة ، وإحباط أعمالهم .

والإحباط : إبطال العمل ، أي أبطل انتفاعهم بأعمالهم التي عملوها مع المؤمنين من قول كلمة التوحيد ومن الصلاة والزكاة وغير ذلك .

وتقدم ما هو بمعناه في أول السورة .

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (29)

انتقال من التهديد والوعيد إلى الإنذار بأن الله مطلع رسوله صلى الله عليه وسلم على ما يضمره المنافقون من الكفر والمَكر والكيد ليعلموا أن أسرارهم غير خافية فيوقنوا أنهم يكدون عقولهم في ترتيب المكائد بلا طائل وذلك خيبة لآمالهم .

و﴿ أَمْ ﴾ منقطعة في معنى (بل) للإضراب الانتقالي ، والاستفهام المقدر بعد ﴿ أم ﴾ للإنكار .

وحرف (لن) لتأبيد النفي ، أي لا يحسبون انتفاء إظهار أضغانهم في المستقبل ، كما انتفى ذلك فيما مضى ، فلعل الله أن يفضح نفاقهم .

واستعير المرض إلى الكفر بجامع الإضرار بصاحبه ، ولكون الكفر مقره العقل المعبر عنه بالقَلب كان ذكر القلوب مع المرض ترشيحاً للاستعارة لأن القلب مما يناسب المرض الخفيّ

إذ هو عضو باطن فناسب المرض الخفيّ .

والإخراج أطلق على الإظهار والإبراز على وجه الاستعارة لأن الإخراج استلال شيء من مكمَنه ، فاستعير للإعلام بخبَر خفيّ .

والأضغان : جمع ضِغن بكسر الضاد المعجمة وسكون الغين المعجمة وهو الحقد والعداوة .

والمعنى أنه يخرجها من قلوبهم وكان العرب يجعلون القلوب مقر الأضغان قال الشاعر ، وهو من شواهد المفتاح للسكاكي ولا يعرف قائله:

الضارِبين بكلّ أبيضَ مِخْذَم . . .

والطاعنين مَجَامع الأضغَان

وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (30)

(252/709)

كان مرض قلوبهم خفياً لأنهم يبالغون في كتمانه وتمويهه بالتظاهر بالإيمان ، فذكر الله لنبيئه صلى الله عليه وسلم أنه لو شاء لأطلعه عليهم واحداً واحداً فيعرف ذواتهم بعلاماتهم .

والسّيمَى بالقصر : العَلامة الملازمة ، أصله : وِسْمَى بوزن فِعلى من الوسم وهو جعل سمة

للشيء ، وهو بكسر أوله .

فهو من المثال الواوي الفاء حولت الواو من موضع فاء الكلمة فوضعت في مكان عين الكلمة وحولت عين الكلمة إلى موضع الفاء فصارت سِوْمَى فانقلبت الواو ياء لسكونها وانكسار ما قبلها ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ تعرفهم بسيماهم ﴾ في سورة البقرة (273) .

والمعنى : لأريناكَ أشخاصهم فعرفتهم ، أو لذكرنَا لك أوصافهم فعرفتهم بها ثم يحتمل أن الله شاء ذلك وأراهم للرسول فعن أنس ما خفي على النبي بعد هذه الآية شيء من المنافقين كان يعرفهم بسيماهم ذكره البغوي والثعلبي بدون سند .

ومما يروى عن حذيفة ما يقتضي أن النبي عرفه بالمنافقين أو ببعضهم ، ولكن إذا صح هذا فَإن الله لم يأمر بإجرائهم على غير حالة الإسلام ، ويحتمل أن الله قال هذا إكراماً لرسوله ولم يطلعه عليهم .

واللام في لأريناكهم ﴾ لام جواب ﴿ لو ﴾ التي تزاد فيه غالباً .

واللام في ﴿ فلعرفتهم ﴾ تأكيدِ للام ﴿ لأريناكهم ﴾ لزيادة تحقيق تفرع المعرفة على الإراءة .

﴿ بسيماهم وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ﴾ .

هذا في معنى الاحتراس مما يقتضيه مفهوم ﴿ لو نشاء لأريناكهم ﴾ من عدم وقوع المشيئة لإراءته إياهم بنعوتهم .

والمعنى : فإن لم نرك إياهم بسيماهم فلتقعن معرفتك بهم من لحن كلامهم بإلهام يجعله الله في علم رسوله صلى الله عليه وسلم فلا يخفى عليه شيء من لحن كلامهم فيحصل له العلم بكل واحد منهم إذا لحن في قوله ، وهم لا يخلو واحد منهم من اللحن في قوله ، فمعرفة الرسول بكل واحد منهم حاصلة وإنما ترك الله تعريفه إياهم بسيماهم ووكله إلى معرفتهم بلحن قولهم إبقاء على سنة الله تعالى في نظام الخلق بقدر الإمكان لأنها سنة ناشئة عن الحكمة فلما أريد تكريم الرسول صلى الله عليه وسلم بإطلاعه على دخائل المنافقين سلك الله في ذلك مسلك الرمز .

واللام في ﴿ ولتعرفنهم ﴾ لام القسم المحذوف .

ولحن القول : الكلام المحال به إلى غير ظاهره ليفطن له من يُراد أن يفهمه دون أن يفهمه غيره بأن يكون في الكلام تعريض أو تورية أو ألفاظ مصطلح عليها بين شخصين أو فرقة كالألفاظ العلمية قال القتَّال الكِلائي :

ولقد وَحيت لكم لكيما تفهموا . . .

ولَحنتُ لحناً ليس بالمرتاب

كان المنافقون يخاطبون النبي صلى الله عليه وسلم بكلام تواضعوه فيما بينهم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأخذهم بظاهر كلامهم فنبهه الله إليه فكان بعد هذا يعرف المنافقين إذا سمع كلامهم .

﴿ القول والله يَعْلَمُ ﴾ .

تذييل ، فهو لعمومه خطاب لجميع الأمة المقصود منه التعليم وهو مع ذلك كناية عن لازمه وهو الوعيد لأهل الأعمال السيّئة على أعمالهم ، والوعد لأهل الأعمال الصالحة على أعمالهم ، وتنبيه لأهل النفاق بأن الله يوشك أن يفضح نفاقهم كما قال آنفاً ﴿ أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ﴾ [محمد : 29] .

واجتلاب المضارع في قوله : ﴿ يعلم ﴾ للدلالة على أن علمه بذلك مستمر . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(254/709)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء العاشر بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/710)

الجزء العاشر بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 31 ﴾ من سورة (محمد صلى الله عليه وسلم)

وحتى الآية ﴿ 38 ﴾ آخر السورة

(4/710)

قوله تعالى ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (31) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (32) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (33) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (34) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبر سبحانه أنه يعرفهم لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، أتبعه الإخبار بأنه يعرفهم لكافة المؤمنين أيضاً ، فقال مؤكداً لأجل ظنهم أن عندهم من الملكة الشديدة والعقل الرصين ما يخفون به أمورهم : ﴿ ولنبلونكم ﴾ أي نعاملكم معاملة المبتلى بأن نخالطكم بما لنا من صفات العظمة بالأوامر الشديدة على النفوس النواهي الكريهة إليها والمصائب ، خلطة مميلة محيلة ، وهكذا التقدير في الفعلين الآتيين في قراءة الجماعة بالنون جرياً على الأسلوب الأول ، وفي قراءة أبي بكر عن عاصم بالياء الضمير لله تعالى الذي هو محيط بصفات العظمة الراجعة إلى القهر وغيرها من صفات الإكرام الآئلة إلى الإنعام ، فهو في غاية الموافقة لقراءة النون ﴿ حتى نعلم ﴾ بالابتلاء علماً شهودياً يشهده غيرنا مطابقاً لما كنا

تعلمه علماً غيبياً فنستخرج من سرائركم ما كوناه فيكم وجبلناكم عليه مما لا يعلمه أحد منكم بل ولا تعلمونه أنتم حق علمه ﴿ المجاهدين منكم ﴾ في القتال وفي سائر الأعمال والشدائد والأهوال امتثالاً للأمر بذلك .

(5/710)

ولما كان عماد الجهاد الصبر على المكاره قال تأكيداً لأمره : ﴿ والصابرين ﴾ أي على شدائد الجهاد وغيره من الأنكاد ، قال القشيري : فبالابتلاء والامتحان تتبين جواهر الرجال ، فيظهر المخلص ويتضح المماذق وينكشف المنافق .

ولما نصب معياراً للعلم بالذوات ، أتبعه مسباراً للمعرفة للأخيار ، فقال عاطفاً على " نعلم " في رواية الجماعة وعلى " نبلو " في الرواية عن يعقوب بإسكان الواو : ﴿ ونبلوا أخباركم ﴾ أي نخالطها بأن نسلط عليها من يحرفها فيجعل حسنها قبيحاً وقبيحاً مليحاً ليظهر للناس العامل لله والعامل للشيطان ، فإن العامل لله إذا سمى قبيحه باسم الحسن علم أن ذلك إحسان من الله إليه فيستحيي منه ويرجع إليه ، وإذا سمى حسنه باسم القبيح واشتهر به علم أن ذلك لطف من الله به كيلا يدركه العجب أو يهاجمه الرياء فيزيد في إحسانه ، والعامل للشيطان يزداد في القبائح .

لأن شهرته عند الناس محط نظره ، ويرجع عن الحسن لأنه لم يوصله إلى ما أراد به من ثناء الناس عليه بالخبر ولم يؤكد بنا ، وفي قراءة يعقوب إشارة إلى أن إحالة حال المخبر بعد ظهور خبره أسهل من إحالته قبل ظهوره ، وعن الفضيل أنه كان إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : اللهم لا تبلنا فإنك إن بلوتنا هتكت أستارنا وفضحتنا .

ولما جرت العادة بأن الإنسان لا يعذب ولا يهدد إلى من ضره كما تقدم من الإخبار بنكالهم وقبيح أعمالهم مهيئاً للسؤال عن ذلك فاستأنف قوله مؤكداً لظنهم أنهم هم الغالبون لحزب الله : ﴿ إن الذين كفروا ﴾ أي غطوا من دلت عليه عقولهم من ظاهر آيات الله لا سيما بعد إرسال الرسول المؤيد بواضح المعجزات ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ وصدوا ﴾ أي امتنعوا ومنعوا غيرهم زيادة في كفرهم ﴿ عن سبيل الله ﴾ أي الطريق الواضح الذي نهجه الملك الأعظم .

ولما كان أكثر السياق للمساترين بكفرهم ، أدغم في قوله : ﴿ وشاقوا الرسول ﴾ أي الكامل في الرسلية المعروفة غاية المعرفة .

ولما كان سبحانه قد عفا عن إهمال الدليل العقلي على الوحدانية قبل الإرسال ، قال مثبتاً الجار إعلاماً بأنه لا يغفر لمضيعه بعد الإرسال ولو في أدنى وقت : ﴿ من بعد ما تبين ﴾ أي غاية التبين بالمعجز ﴿ لهم الهدى ﴾ بحيث صار ظاهراً بنفسه غير محتاج بما أظهره الرسول من الخوارق إلى مبين ، ومنه ما أخبرت به الكتب القديمة الإلهية .

ولما كان المناصب للرسول إنما ناصب من أرسله ، دل على ذلك بقوله معرياً له من الفاء دلالة على عدم التسبيب بمعنى أن عدم هذا الضر موجود عملوا أو لم يعملوا وجدوا أو لم يوجدوا ﴿ لن يضروا الله ﴾ أي ملك الملوك ، ولم يقل : الرسول ﴿ شيئاً ﴾ أي كثيراً ولا قليلاً من ضرر بما تجمعوا عليه من الكفر والصد .

ولما كان التقدير : إنما ضروا أنفسهم ناجزاً بأنهم أتعبوها مما لم يغن عنهم شيئاً .

عطف عليه : ﴿ وسيحبط ﴾ أي يفسد فيبطل بوعد لا خلق فيه ﴿ أعمالهم ﴾ من المحاسن لبنائها من المنافق على غير أساس ثابت ، فهو إنما يرائي بها ، ومن المجاهر على غير أساس أصلاً ، فلا ينفعهم شيء منها ، ومن المكائد التي يريدون بها توهين الإسلام ونجعل تدميرهم بها في تدبيرهم وإن تناهوا في إحكامها ، فلا تثمر لهم إلا عكس مرادهم سواء .

ولما حدى ما تقدم كله من ترغيب المخلص وترهيب المتردد والمبطل إلى الإخلاص ودعا إلى ذلك مع بيان أنه لا غرض أصلاً ، وإنما هو رحمة ولطف وإحسان ومنّ ، أنتج قوله منادياً من احتاج إلى النداء من نوع بعد لاحتياجه إلى ذلك وعدم مبادرته قبله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي أقروا بألسنتهم ﴿ أطيعوا الله ﴾ أي الملك الأعظم تصديقاً لدعواكم طاعته بشدة الاجتهاد فيها أنها خالصة ، وعظم الرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بإفراده فقال تعالى : ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾ لأن طاعته من طاعة الذي أرسله ، فإذا فعلتم ذلك حققتم أنفسكم وأعمالكم كما مضى أول السورة ، فتكون صحيحة ببنائها على الطاعة بتصحيح النيات وتصفيتها مع الإحسان للصورة في الظاهر ليكمل العمل صورة وروحاً .

ولما كانت الطاعة قد تحمل على إقامة الصورة الظاهرة ، قال منبهاً على الإخلاص لتكمل حساً ومعنى : ﴿ ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ أي بمعصيتهما ، فإن الأعمال الصالحة إذا نوى لها ما لا يرضيهما بطلب وإن كانت في الذروة من حسن الصورة ، فكانت صورة بلا معنى ، فهي مما يكون هباء منثوراً مثل ما فعل أولئك المظهرون للإيمان المبطنون للمشاققة بالنفاق والرياء والعجب والملء والأذى ونحو ذلك من المعاصي ، ولكن السياق بسياقه ولحاقه يدل على أن الكفر هو المراد الأعظم بذلك ، والآية من الاحتباك : ذكر الطاعة أولاً دليلاً على المعصية ثانياً ، والإبطال ثانياً دليلاً على الصحة أولاً ، وسره أنه أمر بمبدأ السعادة

ونهى عن نهاية الفساد ثانياً ، لأنه أعظم في النهي عن الفساد لما فيه من تقبيح صورته وهتك سريرته .

(8/710)

ولما دل ما أخبر به أولاً عن المشاققين على أنهم مغلوبون في الدنيا خاسرون في الآخرة ، وكانت الخسارة في الآخرة مشروطة بشرط ، علل ما أمر به المؤمنون هنا من الطاعة ونهوا عنه من إبطال الأعمال بالمعصية ، زيادة في حثهم على ما أمر به بعلتين كل منها مستقل بامتثال أمره واجتناب نهيه : إحدهما عدم المغفرة ، والثانية بطلان الأعمال والأموال بكون الدنيا لا حقيقة لها ، وقدم الأولى لأن الثانية – وهي أن الدنيا لعب – كالعلة الحاصلة على ما أوجبها ، ومن حسن التعليم بيان الحكم ثم تعليله بأقرب ما يحمل عليه أو يصد عنه ، فكأنه قيل : لا تبطلوها بالصد عن سبيل الله الحامل عليه الإقبال على الدنيا التي هي عين الباطل ، فإنكم إن فعلتم ذلك فاتتكم المغفرة ، وذلك من معنى قوله تعالى مؤكداً لإنكارهم مضمونه : ﴿ إن الذين كفروا ﴾ أي أوقعوا الكفر بفعلهم فعل الساتر لما دله عليه عقله من آيات الله المرئية ثم المسموعة ﴿ وصدوا عن سبيل الله ﴾ أي طريق الملك الأعلى الواضح

المستقيم الموصل إلى كل ما ينبغي أن يقصد كل من أراده بتماديهم على باطلهم وأذاهم لمن خالفهم .

(9/710)

ولما كان هذا أمراً قبيحاً من جهات عديد لما فيه من مخالفة الملك الأعظم المرهوب بطشه المحذورة سطوته ، ومن ترك الواسع إلى الضيق والمستقيم إلى المعوج والموصل إلى الفوز إلى الموصل إلى الخيبة ، فكان التمادي فيه في غاية البعد ، نبه على ذلك بأداة التراخي فقال : ﴿ ثم ماتوا ﴾ أي بعد المد لهم في مضمارهم بالتطويل في أعمارهم ﴿ وهم ﴾ أي والحال أنهم ﴿ كفار ﴾ ولما كان السبب الأعظم في الإحباط الموت على الكفر ، نبه عليه بالفاء الدالة على ربط الجزاء بالشرط وتسببه عنه فقال مؤكداً له لإنكارهم ذلك : ﴿ فلن يغفر الله ﴾ أي المحيط بجميع صفات الكمال التي تمنع من تسوية المسيء بالمحسن ﴿ لهم ﴾ فلا يمحو ذنوبهم ولا يستر عيوبهم ، بل يفضح سرائرهم ويوهن كيدهم ويردهم على أعقابهم في كل ما يتقلبون فيه لأنهم قد أبطلوا أعمالهم بالخروج عن دائرة الطاعة ، فلم يبق لهم ما يغفر لهم بسببه ، وقد دلت هذه الآية على ما دلت عليه آية البقرة من أن إحباط العمل في المرتد مشروط بالموت على الكفر .

ولما قدم سبحانه ذم الكفرة وأنه عليهم وأنه يبطل أعمالهم في الدنيا في الحرب وغيرها ، وختم بأن عداوته لهم متحتمة لا انفكاك لها ، وكان ذلك موجباً للاجتراء عليهم ، سبب عنه قوله مرغباً لهم في لزوم الجهاد محذراً من تركه : ﴿ فلا تهنوا ﴾ أي تضعفوا ضعفاً يؤدي بكم إلى الهوان والذل ﴿ وتدعوا ﴾ أي أعداءكم ﴿ إلى السلم ﴾ أي المسالمة وهي الصلح ﴿ وأنتم ﴾ أي والحال أنكم ﴿ الأعلون ﴾ على كل من ناواكم لأن الله عليهم ، ثم عطف على الحال قوله : ﴿ والله ﴾ أي الملك الأعظم الذي لا يعجزه شيء ولا كفوء له ﴿ معكم ﴾ أي بنصره ومعونته وجميع ما يفعله الكرمي إذا كان مع غيره ، ومن علم أن سيده معه وعلم أنه قادر على ما يريد لم يبال بشيء أصلاً ﴿ ولن يتركم أعمالكم ﴾ أي فيسلبكموها فيجعلكم وتراً منها بمعنى أنه يبطلها كما يفعل مع أعدائكم في إحباط أعمالهم فيصيرون مفردين عنها لأنكم لم تبطلوا أعمالكم بجعل الدنيا محط أمركم ، فلا يجوز لإمام المسلمين أن يجيب إلى مسالمة الكفار وبه قوة على مدافعتهم ، ولا يحل له ترك الجهاد إلا لمعنى يظهر فيه النظر للمسلمين ، ومتى لم يجاهد في سبيل الله انصرف بأسه إلى المسلمين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 175 . 179 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (31) ﴾

أي لنأمرنكم بما لا يكون متعيناً للوقوع ، بل بما يحتمل الوقوع ويحتمل عدم الوقوع كما يفعل المختبر ، وقوله تعالى : ﴿ حتى نَعْلَمَ المجاهدين ﴾ أي نعلم المجاهدين من غير المجاهدين ويدخل في علم الشهادة فإنه تعالى قد علمه علم الغيب وقد ذكرنا ما هو التحقيق في الابتلاء ، وفي قوله ﴿ حتى نَعْلَمَ ﴾ وقوله ﴿ المجاهدين ﴾ أي المقدمين على الجهاد ﴿ والصابرين ﴾ أي الثابتين الذين لا يولون الأدبار وقوله ﴿ وَنَبْلُوَ أخباركم ﴾ يحتمل وجوهاً أحدها : قوله ﴿ آمنا ﴾ [البقرة : 8] لأن المنافق وجد منه هذا الخبر والمؤمن وجد منه ذلك أيضاً ، وبالجهاد يعلم الصادق من الكاذب ، كما قال تعالى : ﴿ أولئك هُمُ الصادقون ﴾ [الحجرات : 15] وثانيها : إخبارهم من عدم التولية في قوله ﴿ وَلَقَدْ كَانُواْ عاهدوا الله مِن قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأدبار ﴾ [الأحزاب : 15] إلى غير ذلك ، فالمؤمن وفى بعهده وقاتل مع أصحابه في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص والمنافق كان كالهباء ينزعج

بأدنى صيحة وثالثها : المؤمن كان له أخبار صادقة مسموعة من النبي عليه السلام كقوله تعالى : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام ﴾ [الفتح : 27] ، ﴿ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ [المجادلة : 21] ، و ﴿ إن جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [الصافات : 173] وللمنافق أخبار أراجيف كما قال تعالى في حقهم ﴿ والمرجفون فِي المدينة ﴾ [الأحزاب : 60] فعند تحقق الإيجاف ، يتبين الصدق من الإرجاف .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (32)

(12/710)

فيه وجهان أحدهما : هم أهل الكتاب قريظة والنضير والثاني : كفار قريش يدل على الأول قوله تعالى : ﴿ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهدى ﴾ قيل أهل الكتاب تبين لهم صدق محمد عليه السلام ، وقوله ﴿ لَن يَضُرُّواْ الله شَيْئاً ﴾ تهديد معناه هم يظنون أن ذلك الشقاق مع الرسول وهم به يشاقونه وليس كذلك ، بل الشقاق مع الله فإن محمداً رسول الله ما عليه إلا البلاغ فإن ضروا يضروا الرسل لكن الله منزه عن أن يتضرر بكفر كافر وفسق فاسق ، وقوله ﴿ وَسَيُحْبِطُ أعمالهم ﴾ قد علم معناه .

فإن قيل قد تقدم في أول السورة أن الله تعالى أحبط أعمالهم فكيف يحبط في المستقبل ؟ فنقول الجواب عنه من وجهين أحدهما : أن المراد من قوله ﴿ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله ﴾ [محمد : 1] في أول السورة المشركون ، ومن أول الأمر كانوا مبطلين ، وأعمالهم كانت على غير شريعة ، والمراد من الذين كفروا ههنا أهل الكتاب وكانت لهم أعمال قبل الرسول فأحبطها الله تعالى بسبب تكذيبهم الرسول ولا ينفعهم إيمانهم بالحشر والرسل والتوحيد ، والكافر المشرك أحبط عمله حيث لم يكن على شرع أصلاً ولا كان معترفاً بالحشر الثاني : هو أن المراد بالأعمال ههنا مكايدهم في القتال وذلك في تحقق منهم والله سيبطله حيث يكون النصر للمؤمنين ، والمراد بالأعمال في أول السورة هو ما ظنوه حسنة .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (33)

(13/710)

العطف ههنا من باب عطف المسبب على السبب يقال اجلس واسترح وقم وامش لأن طاعة الله تحمل على طاعة الرسول ، وهذا إشارة إلى العمل بعد حصول العلم ، كأنه تعالى قال : يا أيها الذين آمنوا علمتم الحق فافعلوا الخير ، وقوله ﴿ وَلاَ تُبْطِلُواْ أعمالكم ﴾ يحتمل

وجوهاً أحدها : دوموا على ما أنتم عليه ولا تشركوا فتبطل أعمالكم ، قال تعالى : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : 65] الوجه الثاني : ﴿ لاَ تُبْطِلُواْ أعمالكم ﴾ بترك طاعة الرسول كما أبطل الكتاب أعمالهم بتكذيب الرسول وعصيانه ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين ءَامَنُواْ لاَ تَرْفَعُواْ أصواتكم ﴾ إلى أن قال : ﴿ أَن تَحْبَطَ أعمالكم وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات : 2] الثالث : ﴿ لاَ تُبْطِلُواْ صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ [البقرة : 264] كما قال تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لاَّ تَمُنُّواْ عَلَيَّ إسلامكم ﴾ [الحجرات : 17] وذلك أن من يمن بالطاعة على الرسول كأنه يقول هذا فعلته لأجل قلبك ، ولولا رضاك به لما فعلت ، وهو مناف للاخلاص ، والله لا يقبل إلا العمل الخالص .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (34)

بيّن أن الله لا يغفر الشرك وما دون ذلك يغفره إن شاء حتى لا يظن ظان أن أعمالهم وإن بطلت لكن فضل الله باق يغفر لهم بفضله ، وإن لم يغفر لهم بعملهم .

فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35)

(14/710)

لما بيّن أن عمل الكافر الذي له صورة الحسنات محبط ، وذنبه الذي هو أقبح السيئات غير مغفور ، بين أن لا حرمة في الدنيا ولا في الآخرة ، وقد أمر الله تعالى بطاعة الرسول بقوله ﴿ وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ [النساء : 59] وأمر بالقتال بقوله ﴿ فَلاَ تَهِنُواْ ﴾ أي لا تضعفوا بعد ما وجد السبب في الجد في الأمر والاجتهاد في الجهاد فقاله ﴿ فَلاَ تَهِنُواْ وَتَدْعُواْ إِلَى السلم ﴾ وفي الآيات ترتيب في غاية الحسن ، وذلك لأن قوله ﴿ أَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ يقتضي السعي في القتال لأن أمر الله وأمر الرسول ورد بالجهاد وقد أمروا بالطاعة ، فذلك يقتضي أن لا يضعف المكلف ولا يكسل ولا يهن ولا يتهاون ، ثم إن بعد المقتضي قد يتحقق مانع ولا يتحقق المسبب ، والمانع من القتال إما أخروي وإما دنيوي ، فذكر الأخروي وهو أن الكافر لا حرمة له في الدنيا والآخرة ، لأنه لا عمل له في الدنيا ولا مغفرة له في الآخرة ، فإذا وجد السبب ولم يوجد المانع ينبغي أن يتحقق المسبب ، ولم يقدم المانع الدنيوي على قوله ﴿ فَلاَ تَهِنُواْ ﴾ إشارة إلى أن الأمور الدنيوية لا ينبغي أن تكون مانعة من الإتيان ، فلا تهنوا فإن لكم النصر ، أو عليكم بالعزيمة على تقدير الاعتزام للهزيمة .

(15/710)

ثم قال تعالى بعد ذلك المانع الدنيوي مع أنه لا ينبغي أن يكون مانعاً ليس بموجود أيضاً حيث أنتم الأعلون والأعلون والمصطفون في الجمع حالة الرفع معلوم الأصل ، ومعلوم أن الأمر كيف آل إلى هذه الصيغة في التصريف ، وذلك لأن أصله في الجمع الموافق أعليون ومصطفيون فسكنت الياء لكونها حرف علة فتحرك ما قبلها والواو كانت ساكنة فالتقى ساكنان ولم يكن بد من حذف أحدهما أو تحريكه والتحريك كان يوقع في المحذور الذي اجتنب منه فوجب الحذف ، والواو كانت فيه لمعنى لا يستفاد إلا منها وهو الجمع فأسقطت الياء وبقي أعلون ، وبهذا الدليل صار في الجر أعلين ومصطفين ، وقوله تعالى : ﴿ والله مَعَكُمْ ﴾ هداية وإرشاد يمنع الملكف من الإعجاب بنفسه ، وذلك لأنه تعالى لما قال : ﴿ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ ﴾ كان ذلك سبب الافتخار فقال : ﴿ والله مَعَكُمْ ﴾ يعني ليس ذلك من أنفسكم بل من الله ، أو نقول لما قال : ﴿ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ ﴾ فكان المؤمنون يرون ضعف أنفسهم وقلتهم مع كثرة الكفار وشوكتهم وكان يقع في نفس بعضهم أنهم كيف يكون لهم الغلبة فقال إن الله معكم لا يبقى لكم شك ولا ارتياب في أن الغلبة لكم وهذا كقوله تعالى : ﴿ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِي ﴾ [المجادلة : 21] وقوله ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [الصافات : 173] وقوله ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أعمالكم ﴾ وعد آخر وذلك لأن الله لما قال إن الله معكم ، كان فيه أن النصرة بالله لا بكم فكان القائل يقول لم يصدر مني عمل له اعتبار فلا أستحق تعظيماً ، فقال هو ينصركم ومع ذلك لا ينقص من أعمالكم شيئاً ، ويجعل كأن

النصرة جعلت بكم ومنكم فكأنكم مستقلون في ذلك ويعطيكم أجر المستبد ، والترة النقص ، ومنه الموتر كأنه نقص منه ما يشفعه ، ويقول عند القتال إن قتل من الكافرين أحد فقد وتروا في أهلهم وعملهم حيث نقص عددهم وضاع عملهم ، والمؤمن إن قتل فإنما ينقص من عدده ولم ينقص من عمله ، وكيف ولم ينقص من عدده أيضاً ، فإنه حي مرزوق ، فرح بما هو إليه مسوق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 64.61 ﴾

(16/710)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾

أي نتعبّدكم بالشرائع وإن علمنا عواقب الأمور .

وقيل : لنعاملنكم معاملة المختبرين .

﴿ حتى نَعْلَمَ المجاهدين مِنكُمْ والصابرين ﴾ عليه .

قال ابن عباس : "حَتَّى نَعْلَمَ" حتى نميّز .

وقال عليّ رضي الله عنه .

"حَتَّى نَعْلَمَ" حتى نرى .

وقد مضى في "البقرة" .

وقراءة العامة بالنون في "نَبْلُوَنَّكُمْ" و "نعلم" و "نَبْلُوَ" .

وقرأ أبو بكر عن عاصم بالياء فيهنّ .

وروى رُوَيس عن يعقوب إسكان الواو من "نبلو" على القطع مما قبل .

ونصب الباقون ردًّا على قوله : "حَتَّى نَعْلَمَ" .

وهذا العلم هو العلم الذي يقع به الجزاء ؛ لأنه إنما يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه القديم عليهم .

فتأويله : حتى نعلم المجاهدين علم شهادة ؛ لأنهم إذا أمروا بالعمل يشهد منهم ما عملوا ، فالجزاء بالثواب والعقاب يقع على علم الشهادة .

﴿ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ نختبرها ونظهرها .

قال إبراهيم بن الأشعث : كان الفُضيل بن عِياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : اللهم لا تبتلينا فإنك إذا بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (32)

يرجع إلى المنافقين أو إلى اليهود .

وقال ابن عباس : هم المطعمون يوم بدر .

نظيرها : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ الله ﴾ [الأنفال : 36] الآية .

﴿ وَشَآقُّواْ الرسول ﴾ أي عادوه وخالفوه .

﴿ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهدى ﴾ أي علموا أنه نبيّ بالحجج والآيات .

﴿ لَن يَضُرُّواْ الله شَيْئاً ﴾ بكفرهم .

﴿ وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي ثواب ما عملوه .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (33)

(17/710)

فيه مسألتان :

الأولى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ لما بيّن حال الكفار أمر المؤمنين بلزوم الطاعة في أوامره والرسول في سننه .

﴿ وَلاَ تبطلوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ أي حسناتكم بالمعاصي ؛ قاله الحسن .

وقال الزُّهْرِي : بالكبائر .

ابن جريج : بالرياء والسمعة وقال مقاتل والثُّمَالِيّ : بالمَنّ ؛ وهو خطاب لمن كان يمنّ على

النبي صلى الله عليه وسلم بإسلامه .

وكله متقارب ، وقول الحسن يجمعه .

وفيه إشارة إلى أن الكبائر تحبط الطاعات ، والمعاصي تخرج عن الإيمان .

الثانية احتج علماؤنا وغيرهم بهذه الآية على أن التحلل من التطوّع صلاةً كان أو صوماً بعد التلبس به لا يجوز ؛ لأن فيه إبطال العمل وقد نهى الله عنه .

وقال من أجاز ذلك وهو الإمام الشافعي وغيره : المراد بذلك إبطال ثواب العمل المفروض ؛ فنهى الرجل عن إحباط ثوابه .

فأمّا ما كان نفلاً فلا ؛ لأنه ليس واجباً عليه .

فإن زعموا أن اللفظ عام فالعام يجوز تخصيصه .

ووجه تخصيصه أن النفل تطوّع ، والتطوّع يقتضي تخييراً .

وعن أبي العالية كانوا يرون أنه لا يضر مع الإسلام ذنب ؛ حتى نزلت هذه الآية فخافوا الكبائر أن تحبط الأعمال .

وقال مقاتل : يقول الله تعالى إذا عصيتم الرسول فقد أبطلتم أعمالكم .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (34)

بيّن أن الاعتبار بالوفاة على الكفر يوجب الخلود في النار .

وقد مضى في "البقرة" الكلام فيه .

وقيل : إن المراد بالآية أصحاب القَليب .

وحكمها عام .

فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَهِنُواْ ﴾ أي تضعفوا عن القتال .

والوهْن : الضعف .

وقد وَهَن الإنسانُ وَوَهَنَهُ غيره ، يتعدّى ولا يتعدّى .

قال :

(18/710)

إنني لست بموهونٍ فَقِرْ . . .

ووهِن أيضاً (بالكسر) وَهْناً أي ضعف ، وقرىء "فما وهُنُوا" بضم الهاء وكسرها .

وقد مضى في (آل عمران) .

الثانية قوله تعالى : ﴿ وتدعوا إِلَى السلم ﴾ أي الصلح .

﴿ وَأَنتُمُ الأعلون ﴾ أي وأنتم أعلم بالله منهم .

وقيل : وأنتم الأعلون في الحجة .

وقيل : المعنى وأنتم الغالبون لأنكم مؤمنون وإن غلبوكم في الظاهر في بعض الأحوال .

وقال قتادة : لا تكونوا أوّل الطائفتين ضرعت إلى صاحبتها .

الثالثة واختلف العلماء في حكمها ؛ فقيل : إنها ناسخة لقوله تعالى : ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فاجنح لَهَا ﴾ [الأنفال : 61] ؛ لأن الله تعالى منع من الميل إلى الصلح إذا لم يكن بالمسلمين حاجة إلى الصلح .

وقيل : منسوخة بقوله تعالى : ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فاجنح لَهَا ﴾ [الأنفال : 16] .

وقيل : هي محكمة .

والآيتان نزلتا في وقتين مختلفي الحال .

وقيل : إن قوله : ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فاجنح لَهَا ﴾ مخصوص في قوم بأعيانهم ، والأخرى عامة .

فلا يجوز مهادنة الكفار إلا عند الضرورة ؛ وذلك إذا عجزنا عن مقاومتهم لضعف المسلمين .

وقد مضى هذا المعنى مستوفى .

﴿ والله مَعَكُمْ ﴾ أي بالنصر والمعونة ؛ مثل : ﴿ وَإِنَّ الله لَمَعَ المحسنين ﴾ [العنكبوت : 69] : ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ أي لن ينقصكم ؛ عن ابن عباس وغيره .

ومنه الموتور الذي قتل له قتيل فلم يدرك بدمه ؛ تقول منه : وَتَره يَتِره وَتْراً وِتْرَةً .

ومنه قوله عليه السلام : " من فاتته صلاة العصر فكأنما وُتِرَ أهله وماله " أي ذهب بهما .

وكذلك وَتَرَهُ حقّه أي نقصه .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ أي لن ينتقصكم في أعمالكم ؛ كما تقول : دخلت البيت ؛ وأنت تريد في البيت ؛ قاله الجوهريّ .

الفرّاء : "وَلَنْ يَتِرَكُمْ" هو مشتق من الوتر وهو الفرد ؛ فكان المعنى : ولن يفردكم بغير ثواب .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(19/710)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم ﴾

بالأمر بالجهاد ونحوه من التكاليف الشاقة ﴿ حتى نَعْلَمَ المجاهدين مِنكُمْ والصابرين ﴾

على مشاق التكاليف علماً فعلياً يتعلق به الجزاء ، وفي معناه ما قيل : أي حتى يظهر علمنا ، وقال ابن الحاجب في ذلك : العلم يطلق باعتبار الرؤية والشيء لا يرى حتى يقع يعني على المشهور وهو هنا بمعنى ذلك أو بمعنى المجازاة ، والمعنى حتى نجازي المجاهدين منكم

والصابرين ﴿ وَنَبْلُوَ أخباركم ﴾ فيظهر حسنها وقبيحها ، والكلام كناية عن بلاء أعمالهم فإن الخبر حسنه وقبيحه على حسب المخبر عنه فإذا تميز الحسن عن الخبر القبيح فقد تميز المخبر عنه وهو العمل كذلك ، وهذا أبلغ من نبلو أعمالكم ، والظاهر عموم الأخبار ، وجوز كون المراد بها إخبارهم عن إيمانهم وموالاتهم للمؤمنين على أن إضافتها للعهد أي ونبلو أخبار إيمانكم وموالاتكم فيظهر صدقها وكذبها .

وقرأ أبو بكر الأفعال الثلاثة المسندة إلى ضمير العظمة بالياء ، وقرأ رويس ﴿ وَنَبْلُوَ ﴾ بالنون وسكون الواو ، والأعمش بسكونها وبالياء فالفعل مرفوع بضمة مقدرة بتقدير ونحن نبلو والجملة حالية ، وجوز أن يكون منصوباً كما في قراءة الجمهور سكن للتخفيف كما في قوله :

أبى الله أن أسمو بأم ولا أب . . .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (32)

(20/710)

﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ ﴾ الناس ﴿ عَن سَبِيلِ الله وَشَاقُّواْ الرسول ﴾ صاروا في شق غير شقه ، والمراد عادوه ﴿ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهدى ﴾ لما شاهدوا من نعته عليه الصلاة والسلام في التوراة أو بما ظهر على يديه صلى الله عليه وسلم من المعجزات ونزل عليه عليه الصلاة والسلام من الآيات وهم بنو قريظة والنضير أو المطعمون يوم بدر وقد تقدم ذكرهم ، وقيل : أناس نافقوا بعد أن آمنوا ﴿ لَن يَضُرُّواْ الله ﴾ بكفرهم وصدهم ﴿ شَيْئاً ﴾ من الأشياء أو شيئاً من الضرر أو لن يضروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمشاقته شيئاً ؛ وقد حذف المضاف لتعظيمه عليه الصلاة والسلام بجعل مضرته وما يلحقه كالمنسوب إلى الله تعالى وفيه تفظيع مشاقته صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَسَيُحْبِطُ أعمالهم ﴾ في مكايدهم التي نصبوها في إبطال دينه تعالى ومشاقة رسوله عليه الصلاة والسلام فلا يصلون بها إلى ما كانوا يبغون من الغوائل ولا تثمر لهم إلا القتل والجلاء عن أوطانهم ونحو ذلك ، وجوز أن يراد أعمالهم التي عملوها في دينهم يرجون بها الثواب .

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرسول وَلاَ تُبْطِلُواْ أعمالكم ﴾

قيل : إن بني أسد أسلموا وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : قد آثرناك وجئناك بنفوسنا وأهلنا كأنهم منوا بذلك فنزلت فيهم هذه وقوله تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ﴾ [الحجرات : 17] ومن هنا قيل المعنى لا تبطلوا أعمالكم بالمن بالإسلام ،

وعن ابن عباس بالرياء والسمعة وعنه أيضاً بالشك والنفاق ، وقيل : بالعجب فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، وقيل : المراد بالأعمال الصدقات أي تبطلوها بالمن والأذى ، وقيل : لا تبطلوا طاعاتكم بمعاصيكم ، أخرج عبد بن حميد .

وابن جرير .

(21/710)

عن قتادة أنه قال في الآية : من استطاع منكم أن لا يبطل عملاً صالحاً بعمل سوء فليفعل ولا قوة إلا بالله تعالى ، وأخرج عبد بن حميد .

ومحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة .

وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل حتى نزلت ﴿ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرسول وَلاَ تُبْطِلُواْ أعمالكم ﴾ فخافوا أن يبطل الذنب العمل ، ولفظ عبد بن حميد فخافوا الكبائر أن تحبط أعمالهم ، وأخرج ابن نصر .

وابن جرير .

وابن مردويه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : كنا معاشر أصحاب محمد صلى

الله عليه وسلم نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبولاً حتى نزلت ﴿ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرسول وَلاَ تُبْطِلُواْ أعمالكم ﴾ ﴿ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرسول وَلاَ تُبْطِلُواْ أعمالكم ﴾ فلما نزلت هذه الآية قلنا : ما هذا الذي يبطل أعمالنا ؟ فقلنا : الكبائر الموجبات والفواحش فكنا إذا رأينا من أصاب شيئاً منها قلنا : قد هلك حتى نزلت هذه الآية ﴿ إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ [النساء : 48] فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك وكنا إذا رأينا أحداً أصاب منها شيئاً خفنا عليه وإن لم يصب منها شيئاً رجونا له ، واستدل المعتزلة بالآية على أن الكبائر تحبط الطاعات بل الكبيرة الواحدة تبطل مع الإصرار الأعمال ولو كانت بعدد نجوم السماء ، وذكروا في ذلك من الأخبار ما ذكروا .

(22/710)

وفي "الكشف" لا بد في هذا المقام من تحرير البحث بأن يقال : إن أراد المعتزلة أن نحو الزنا إذا عقب الصلاة يبطل ثوابها مثلاً فهذا لا دليل عليه نقلاً وعقلاً بل هما متعادلان على ما دل عليه صحاح الأحاديث ، وكفى بقوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 7 ، 8] حجة بالغة ، وإن أرادوا أن عقابه قد يكبر حتى

لا يعاد له صغار الحسنات فهذا صحيح والكلام حينئذٍ في تسميته أحباطاً ، ولا بأس به لكن عندنا أن هذا الإحباط غير لازم وعندهم لازم ، وهو مبني على جواز العفو وهي مسألة أخرى ، وأما الكبيرة التي تختص بذلك العمل كالعجب ونحو المن والأذى بعد التصدق فهي محبطة لا محالة اتفاقاً ، وعليه يحمل ما نقل من الآثار ، ومن لا يسميه إحباطاً لأنه يجعله شرطاً للقبول والإحباط أن يصير الثواب زائلاً وهذا لا يتأتى إذا لم يثبت له ثواب فله ذلك ، وهو أمر يرجع إلى الاصطلاح انتهى وهو من الحسن بمكان ؛ وإعادة الفعل في ﴿ وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ للاهتمام بشأن إطاعته عليه الصلاة والسلام .

﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله ﴾

امتنعوا عن الدخول في الإسلام وسلوك طريقه أو صدوا الناس عنه ﴿ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ الله لَهُمْ ﴾ نزلت في أهل القليب كما قيل ، وحكمها عام كما قال غير واحد في كل من مات على كفره ، وهو ظاهر على التفسير الأول لصدوا عن سبيل الله ، وأما على التفسير الثاني له فقيل عليه : إن العموم مع تخصيص الكفر بصد الناس عن الإسلام محل نظر ، ويفهم من كلام بعض الأجلة أن العموم لأن مدار عدم المغفرة هو الاستمرار على الكفر حسبما يشعر اعتباره قيداً في الكلام فتدبر .

واستدل بمفهوم الآية بعض القائلين بالمفهوم على أنه تعالى قد يغفر لمن لم يمت على كفره سائر ذنوبه .

﴿ فَلاَ تَهِنُواْ ﴾ أي إذا علمتم أن الله تعالى مبطل أعمالهم ومعاقبهم فهو خاذلهم في الدنيا والآخرة فلا تبالوا بهم ولا تظهروا ضعفاً ، فالهاء فصيحة في جواب شرط مفهوم مما قبله ، وقيل : هي لترتيب النهي على ما سبق من الأمر بالطاعة ﴿ وَتَدْعُواْ إِلَى السلم ﴾ عطف على ﴿ تَهِنُواْ ﴾ داخل في حيز النهي أي ولا تدعوا الكفار إلى الصلح خوراً وإظهاراً للعجز فإن ذلك إعطاء الدنية ، وجوز أن يكون منصوباً بإضمار أن فيعطف المصدر المسبوك على مصدر متصيد مما قبله كقوله :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله . . .

واستدل ألكيا بهذا النهي على منع مهادنة الكفار إلا عند الضرورة ، وعلى تحريم ترك الجهاد إلا عند العجز ، وقرأ السلمي ﴿ وَتَدْعُواْ ﴾ بتشديد الدال من ادعى بمعنى دعا ، وفي "الكشاف" ذكر لا في هذه القراءة ، ولعلى ذلك رواية أخرى ، وقرأ الحسن .

وأبو رجاء .

والأعمش .

وعيسى .

وطلحة .

وحمزة .

وأبو بكر ﴿ السلام ﴾ بكسر السين ﴿ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ ﴾ أي الأغلبون ، والعلو بمعنى الغلبة مجاز مشهور ، والجملة حالية مقررة لمعنى النهي مؤكدة لوجوب الانتهاء وكذا قوله تعالى : ﴿ واللهُ مَعَكُمْ ﴾ أي ناصركم فإن كونهم الأغلبين وكونه عز وجل ناصرهم من أقوى موجبات الاجتناب عما يوهم الذل والضراعة .

وقال أبو حيان : يجوز أن يكونا جملتين مستأنفتين أخبروا أولاً أنهم الأعلون وهو إخبار بمغيب أبرزه الوجود ثم ارتقى إلى رتبة أعلى من التي قبلها وهي كون الله تعالى معهم ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أعمالكم ﴾ قال : ولن يظلمكم ، وقيل : ولن ينقصكم ، وقيل : ولن يضيعها ، وهو كما قال أبو عبيد .

(24/710)

والمبرد من وترت الرجل إذا قتلت له قتيلاً من ولد أو أخ أو حميم أو سلبته ماله وذهبت به ، قال الزمخشري : وحقيقته أفردته من قريبه أو ماله من الوتر وهو الفرد ، فشبه إضاعة عمل العامل وتعطيل ثوابه بوتر الواتر وهو من فصيح الكلام ، وفيه هنا من الدلالة على مزيد

لطف الله تعالى ما فيه ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله " والظاهر على ما ذكره أنه لا بد من تضمين وترته معنى السلب ونحوه ليتعدى إلى المفعول الثاني بنفسه ، وفي "الصحاح" أنه من الترة وحمله على نزع الخافض أي جعلته موتوراً لم يدرك ثاره في ذلك كأنه نقصه فيه وجعله نظير دخلت البيت أي فيه وهو سديد أيضاً .

وجوز بعضهم ﴿ يتر ﴾ ههنا متعدياً لواحد و ﴿ يَعْلَمُ أعمالكم ﴾ بدل من ضمير الخطاب أي لن يتر أعمالكم من ثوابها .

والجملة قيل معطوفة على قوله تعالى : ﴿ مَّعَكُمْ ﴾ وهي وإن لم تقع حالاً استقلالاً لتصديرها بحرف الاستقبال المنافي للحال على ما صرح به العلامة التفتازاني وغيره لكنه يغتفر في التابع ما لا يغتفر في غيره ، وقيل : المانع من وقوع المصدرة بحرف الاستقبال حالاً مخالفته للسماع وإلا فلا مانع من كونها حالاً مقدرة مع أنه يجوز أن تكون ﴿ لَنْ ﴾ لمجرد تأكيد النفي ، والظاهر أن المانعين بنو المنع على المنافاة وإنها إذا زالت باعتبار أحد الأمرين فلا منع لكن قيل : إن الحال المقصود منها بيان الهيئة غير الحال الذي هو أحد الأزمنة والمنافاة إنما هي بين هذا الحال والاستقبال .

وهذا نظير ما قال مجوز ومجيء الجملة الماضية حالاً بدون قد ، وما لذلك وما عليه في

كتب النحو ، وإذا جعلت الجملة قبل مستأنفة لم يكن إشكال في العطف أصلاً . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(25/710)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾

سأل المؤمنون ربهم عزّ وجلّ أن ينزل على رسوله صلى الله عليه وسلم سورة يأمرهم فيها بقتال الكفار حرصاً منهم على الجهاد ، ونيل ما أعدّ الله للمجاهدين من جزيل الثواب ، فحكى الله عنهم ذلك بقوله : ﴿ وَيَقُولُ الذين ءامَنُواْ لَوْلاَ نُزّلَتْ سُورَةٌ ﴾ أي : هلاّ نزلت ﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ ﴾ أي : غير منسوخة ﴿ وَذُكِرَ فِيهَا القتال ﴾ أي : فرض الجهاد .

قال قتادة : كل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة ، وهي أشدّ القرآن على المنافقين ، وفي قراءة ابن مسعود (فإذا أنزلت سورة محدثة) أي : محدثة النزول ، قرأ الجمهور ﴿ فإذا أنزلت ﴾ و ﴿ ذكر ﴾ على بناء الفعلين للمفعول ، وقرأ زيد بن عليّ ، وابن عمير : (نزلت) و " ذكر " على بناء الفعلين للفاعل ، ونصب القتال ﴿ رَأَيْتَ الذين فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ

﴿ أي : شك ، وهم المنافقون ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ المغشى عَلَيْهِ مِنَ الموت ﴾ أي : ينظرون إليك نظر من شخص بصره عند الموت لجبنهم عن القتال ، وميلهم إلى الكفار .

قال ابن قتيبة ، والزجاج : يريد أنهم يشخصون نحوك بأبصارهم ، وينظرون إليك نظراً شديداً ، كما ينظر الشاخص بصره عند الوت ﴿ فأولى لَهُمْ ﴾ قال الجوهري : وقولهم " أولى " لك : تهديد ووعيد ، وكذا قال مقاتل ، والكلبي ، وقتادة .

قال الأصمعي : معنى قولهم في التهديد : أولى لك ، أي : وليك ، وقاربك ما تكره ، وأنشد قول الشاعر :

فعادى بين هاديتين منها . . . وأولى أن يزيد على الثلاث

أي : قارب أن يزيد .

قال ثعلب : ولم يقل في أولى أحسن مما قاله الأصمعي .

وقال المبرد : يقال لمن همّ بالغضب ثم أفلت : أولى لك ، أي : قاربت الغضب .

(26/710)

وقال الجرجاني : هو مأخوذ من الويل ، أي : فويل لهم ، وكذا قال في الكشاف ، قال قتادة أيضاً : كأنه قال العقاب أولى لهم ، وقوله : ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ كلام مستأنف ، أي

: أمرهم طاعة ، أو طاعة وقول معروف خير لكم .

قال الخليل ، وسيبويه : إن التقدير : طاعة وقول معروف أحسن ، وأمثل لكم من غيرهما .

وقيل : إن طاعة خبر أولى ، وقيل : إن ﴿ طاعة ﴾ صفة ل ﴿ سورة ﴾ ، وقيل : إن ﴿ لهم ﴾ خبر مقدّم ، و ﴿ طاعة ﴾ مبتدأ مؤخر ، والأول أولى ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأمر ﴾ عزم الأمر : جدّ الأمر ، أي : جدّ القتال ووجب وفرض ، وأسند العزم إلى الأمر ، وهو لأصحابه مجازاً ، وجواب " إذا " قيل : هو : ﴿ فَلَوْ صَدَقُواْ الله ﴾ في إظهار الإيمان والطاعة ﴿ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ ﴾ من المعصية والمخالفة ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى الأرض وَتُقَطِّعُواْ أَرْحَامَكُمْ ﴾ هذا خطاب للذين في قلوبهم مرض بطريق الالتفات لمزيد التوبيخ والتقريع .

قال الكلبي : أي : فهل عسيتم إن توليتم أمر الأمة أن تفسدوا في الأرض بالظلم .

وقال كعب : ﴿ أَن تُفْسِدُواْ فِى الأرض ﴾ أي : بقتل بعضكم بعضاً ، وقال قتادة : إن توليتم عن طاعة كتاب الله عزّ وجلّ أن تفسدوا في الأرض بسفك الدماء ، وتقطعوا أرحامكم .

وقال ابن جريج : إن توليتم عن الطاعة ، وقيل : أعرضتم عن القتال ، وفارقتم أحكامه .

قرأ الجمهور ﴿ توليتم ﴾ مبنياً للفاعل ، وقرأ عليّ بن أبي طالب بضم التاء والواو وكسر اللام مبنياً للمفعول ، وبها قرأ ابن أبي إسحاق ، وورش عن يعقوب ، ومعناها : فهل عسيتم

إن ولي عليكم ولاة جائرين أن تخرجوا عليهم في الفتنة ، وتحاربوهم وتقطعوا أرحامكم بالبغي ، والظلم ، والقتل .

(27/710)

وقرأ الجمهور ﴿ وتقطعوا ﴾ بالتشديد على التكثير ، وقرأ أبو عمرو في رواية عنه ، وسلام ، وعيسى ، ويعقوب بالتخفيف من القطع ، يقال : عسيت أن أفعل كذا ، وعسيت بالفتح والكسر لغتان ، ذكره الجوهري وغيره ، وخبر ﴿ عسيتم ﴾ هو ﴿ أَن تُفْسِدُواْ ﴾ ، والجملة الشرطية بينهما اعتراض .

والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى المخاطبين بما تقدّم وهو مبتدأ ، وخبره : ﴿ الذين لَعَنَهُمُ الله ﴾ أي : أبعدهم من رحمته ، وطردهم عنها ﴿ فَأَصَمَّهُمْ ﴾ عن استماع الحق ﴿ وأعمى أبصارهم ﴾ عن مشاهدة ما يستدلون به على التوحيد والبعث ، وحقية سائر ما دعاهم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والاستفهام في قوله : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرءان ﴾ للإنكار ؛ والمعنى : أفلا يتفهمونه ، فيعلمون بما اشتمل عليه من المواعظ الزاجرة ، والحجج الظاهرة ، والبراهين القاطعة التي تكفي من له فهم وعقل ، وتزجره عن الكفر بالله ، والإشراك به ، والعمل بمعاصيه ﴿ أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ أم

هي المنقطعة ، أي : بل أعلى قلوب أقفالها فهم لا يفهمون ولا يعقلون قال مقاتل : يعني الطبع على القلوب والأقفال استعارة لانغلاق القلب عن معرفة الحق ، وإضافة الأقفال إلى القلوب ؛ للتنبيه على أن المراد بها : ما هو للقلوب بمنزلة الأقفال للأبواب ، ومعنى الآية : أنه لا يدخل في قلوبهم الإيمان ، ولا يخرج منها الكفر والشرك ، لأن الله سبحانه قد طبع عليها ، والمراد بهذه القلوب : قلوب هؤلاء المخاطبين .

قرأ الجمهور : ﴿ أقفالها ﴾ بالجمع ، وقرىء (إقفالها) بكسر الهمزة على أنه مصدر كالإقبال .

﴿ إِنَّ الذين ارتدوا على أدبارهم ﴾ أي : رجعوا كفاراً كما كانوا .

قال قتادة : هم كفار أهل الكتاب كفروا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم بعد ما عرفوا نعته عندهم ، وبه قال ابن جرير .

(28/710)

وقال الضحاك ، والسديّ : هم المنافقون قعدوا عن القتال ، وهذا أولى ؛ لأن السياق في المنافقين : ﴿ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهدى ﴾ بما جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم من المعجزات الظاهرة ، والدلائل الواضحة ﴿ الشيطان سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ أي : زيّن لهم

خطاياهم ، وسهل لهم الوقوع فيها ، وهذه الجملة خبر " إن " ، ومعنى ﴿ وأملى لَهُمْ ﴾ : أن الشيطان مدّ لهم في الأمل ، ووعدهم طول العمر ، وقيل : إن الذي أملى لهم هو الله عزّ وجلّ على معنى : أنه لم يعاجلهم بالعقوبة .

قرأ الجمهور ﴿ أملى ﴾ مبنياً للفاعل ، وقرأ أبو عمرو ، وابن أبي إسحاق ، وعيسى بن عمر ، وأبو جعفر ، وشيبة على البناء للمفعول .

قيل : وعلى هذه القراءة يكون الفاعل هو الله ، أو الشيطان كالقراءة الأولى ، وقد اختار القول بأن الفاعل الله الفرّاء ، والمفضل ، والأولى اختيار أنه الشيطان لتقدّم ذكره قريباً .

والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما تقدّم من ارتدادهم ، وهو مبتدأ ، وخبره ﴿ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ الله ﴾ أي : بسبب أن هؤلاء المنافقين الذين ارتدّوا على أدبارهم قالوا للذين كرهوا : ما نزل الله ، وهم المشركون ﴿ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ الأمر ﴾ وهذا البعض هو عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومخالفة ما جاء به .

وقيل : المعنى : إن المنافقين قالوا لليهود : سنطيعكم في بعض الأمر ، وقيل : إن القائلين اليهود ، والذين كرهوا ما أنزل الله من المنافقين ، وقيل : إن الإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى الإملاء ، وقيل : إلى التسويل ، والأوّل أولى .

ويؤيد كون القائلين : المنافقين ، والكارهين : اليهود قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين نَافَقُواْ يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ [الحشر : 11] ولما كان قولهم المذكور للذين كرهوا ما أنزل الله بطريقة السرّ بينهم .

قال الله سبحانه : ﴿ والله يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ قرأ الجمهور بفتح الهمزة جمع سرّ ، واختار هذه القراءة أبو عبيد ، وأبو حاتم .

وقرأ الكوفيون ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ، وابن وثاب ، والأعمش بكسر الهمزة على المصدر ، أي : إخفاءهم .

﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الملائكة ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، و ﴿ كيف ﴾ في محل رفع على أنها خبر مقدّم ، والتقدير : فكيف علمه بأسرارهم إذا توفتهم الملائكة ، أو في محل نصب بفعل محذوف ، أي : فكيف يصنعون ؟ أو خبر لكان مقدّرة ، أي : فكيف يكونون .

والظرف معمول للمقدّر ، قرأ الجمهور ﴿ توفتهم ﴾ وقرأ الأعمش (توفاهم) ، وجملة ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وأدبارهم ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل ﴿ توفتهم ﴾ ، أو من مفعوله ، أي : ضاربين وجوههم وضاربين أدبارهم ، وفي الكلام تخويف وتشديد ، والمعنى

: أنه إذا تأخر عنهم العذاب ، فسيكون حالهم هذا ، وهو تصوير لتوفيهم على أقبح حال وأشنعه .

وقيل : ذلك .

عند القتال نصرة من الملائكة لرسول الله ، وقيل : ذلك يوم القيامة ، والأوّل أولى .

(30/710)

والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى التوفي المذكور على الصفة المذكورة ، وهو مبتدأ وخبر : ﴿ بِأَنَّهُمُ اتبعوا مَا أَسْخَطَ الله ﴾ ، أي : بسبب اتباعهم ما يسخط الله من الكفر والمعاصي ، وقيل : كتمانهم ما في التوراة من نعت نبينا صلى الله عليه وسلم ، والأوّل أولى لما في الصيغة من العموم ﴿ وكَرِهُواْ رِضْوَانَهُ ﴾ أي : كرهوا ما يرضاه الله من الإيمان والتوحيد والطاعة ﴿ فَأَحْبَطَ ﴾ الله ﴿ أعمالهم ﴾ بهذا السبب ، والمراد بأعمالهم : الأعمال التي صورتها صورة الطاعة ، وإلاّ فلا عمل لكافر ، أو ما كانوا قد عملوا من الخير قبل الردّة .

﴿ أَمْ حَسِبَ الذين فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ يعني : المنافقين المذكورين سابقاً ، و " أم " هي المنقطعة ، أي : بل أحسب المنافقون ﴿ أَن لَّن يُخْرِجَ الله أضغانهم ﴾ الإخراج بمعنى :

الإظهار ، والأضغان جمع ضغن ، وهو : ما يضمر من المكروه ، واختلف في معناه ، فقيل : هو الغشّ ، وقيل : الحسد وقيل : الحقد .

قال الجوهري : الضغن والضغينة : الحقد ، وقال قطرب : هو في الآية العداوة ، و " أن " هي المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن مقدّر .

﴿ وَلَوْ نَشَاء لأريناكهم ﴾ أي : لأعلمناكهم ، وعرّفناكهم بأعيانهم معرفة تقوم مقام الرؤية ، تقول العرب : سأريك ما أصنع ، أي : سأعلمك ﴿ فَلَعَرَفْتَهُم بسيماهم ﴾ أي : بعلامتهم الخاصة بهم التي يتميزون بها .

قال الزجاج : المعنى : لو نشاء لجعلنا على المنافقين علامة ، وهي السيما ، فلعرفتهم بتلك العلامة ، والفاء لترتيب المعرفة على الإرادة ، وما بعدها معطوف على جواب " لو " ، وكررت في المعطوف للتأكيد ، وأما اللام في قوله : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ القول ﴾ فهي جواب قسم محذوف .

قال المفسرون : لحن القول : فحواه ومقصده ومغزاه ، وما يعرّضون به من تهجين أمرك وأمر المسلمين ، وكان بعد هذا لا يتكلم منافق عنده إلاّ عرفه .

(31/710)

قال أبو زيد : لحنت له اللحن : إذا قلت له قولاً يفقهه عنك ، ويخفى على غيره ، ومنه قول الشاعر :

منطق صائب وتلحن أحيانا . . . وخير الكلام ما كان لحنا

أي : أحسنه ما كان تعريضاً يفهمه المخاطب ، ولا يفهمه غيره لفطنته وذكائه ، وأصل اللحن : إمالة الكلام إلى نحو من الأنحاء لغرض من الأغراض ﴿ والله يَعْلَمُ أعمالكم ﴾ لا تخفى عليه منها خافية فيجازيكم بها ، وفيه وعيد شديد ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حتى نَعْلَمَ المجاهدين مِنكُمْ والصابرين ﴾ أي : لنعاملنكم معاملة المختبر ، وذلك بأن نأمركم بالجهاد حتى نعلم من امتثل الأمر بالجهاد ، وصبر على دينه ، ومشاقّ ما كلف به .

قرأ الجمهور الأفعال الثلاثة بالنون ، وقرأ أبو بكر عن عاصم بالتحتية فيها كلها ، ومعنى ﴿ وَنَبْلُوَ أخباركم ﴾ : نظهرها ونكشفها امتحاناً لكم ، ليظهر للناس من أطاع ما أمره الله به ، ومن عصى ، ومن لم يمتثل .

وقرأ الجمهور ﴿ ونبلو ﴾ بنصب الواو عطفاً على قوله : ﴿ حتى نَعْلَمَ ﴾ .

وروى ورش عن يعقوب إسكانها على القطع عما قبله .

وقد أخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم بحقو الرحمن ، فقال : مه ، قالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ؟ قال : نعم أترضي أن أصل من وصلك ،

وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى .

قال : فذلك لك " ؛ ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اقرءوا إن شئتم ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ ﴾ الآية إلى قوله : ﴿ أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ "

والأحاديث في صلة الرحم كثيرة جداً .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّ الذين ارتدوا على أدبارهم ﴾ قال : هم أهل النفاق .

(32/710)

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ الله أضغانهم ﴾ قال : أعمالهم : خبثهم ، والحسد الذي في قلوبهم ، ثم دلّ الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم بعد على المنافقين ، فكان يدعو باسم الرجل من أهل النفاق .

وأخرج ابن مردويه ، وابن عساكر عن أبي سعيد الخدري في قوله : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ القول ﴾ قال : ببغضهم عليّ بن أبي طالب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 40.37 ﴾

(33/710)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (31) ﴾

اللام في قوله : لنبلونكم موطئة لقسم محذوف .

وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير شعبة عن عاصم بالنون الدالة عل العظمة في الأفعال الثلاثة أعني لنبلونكم ، ونعلم ، ونبلو .

وقرأه شعبة عن عاصم بالمثناة التحتية .

وضمير الفاعل يعود إلى الله وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الله جل وعلا يبلو الناس أي يختبرهم بالتكاليف ، كبذل الأنفس والأموال في الجهاد ليتميز بذلك صادقهم من كاذبهم ، ومؤمنهم من كافرهم . جاء موضحاً في آيات أخر .

كقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الجنة وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الذين خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ البأساآء والضراآء وَزُلْزِلُواْ حتى يَقُولَ الرسول والذين آمَنُواْ مَعَهُ متى نَصْرُ الله ﴾ [البقرة : 214] الآية .

وقوله تعالى ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الجنة وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الذين جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصابرين ﴾ [آل عمران : 142] .

وقوله تعالى ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الذين جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ

اللهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ المؤمنين وَلِيجَةً واللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : 16] .

وقوله تعالى ﴿ الم أَحَسِبَ الناس أَن يتركوا أَن يقولوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الذين مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذين صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ الكاذبين ﴾ [العنكبوت : 1 – 3] .

وقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ المؤمنين على مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حتى يَمِيزَ الخبيث مِنَ الطيب وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغيب ﴾ [آل عمران : 179] الآية .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ حتى نَعْلَمَ المجاهدين ﴾ الآية .

(34/710)

وقد قدمنا إزالة الإشكال في نحوه في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا القبلة التي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرسول مِمَّن يَنقَلِبُ على عَقِبَيْهِ ﴾ [البقرة : 143] الآية .

فقلنا في ذلك ما نصه :

ظاهر هذه الآية قد يتوهم منه الجاهل أنه تعالى يستفيد بالاختبار علماً لم يكن يعلمه سبحانه وتعالى ، عن ذلك علواً كبيراً ، بل هو تعالى عالم بكل ما سيكون قبل أن يكون .

وقد بين أنه لا يستفيد بالاختبار علماً لم يكن يعلمه بقوله جل وعلا : ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي

صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ [آل عمران : 154] .

فقوله : والله عليم بذات الصدور بعد قوله : ليبتلي ، دليل قاطع على أنه لم يستفد بالاختبار شيئاً لم يكن عالماً به سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً .

لأن العليم بذات لاصدور غني عن الاختبار .

وفي هذه الآية بيان عظيم لجميع الآيات التي يذكر الله فيها اختباره لخلقه .

ومعنى إلا لنعلم أي علماً يترتب عليه الثواب والعقاب فلا ينافي أنه كان عالماً به قبل ذلك ، وفائدة الاختبار ظهور الأمر للناس ، أما عالم السر والنجوى ، فهو عالم بكل ما سيكون ، كما لا يخفى . اه .

قال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة ما نصه : [وهذا العلم هو العلم الذي يقع عليه به الجزاء لأنه إنما يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه القديم عليهم ، فتأويله حتى نعلم المجاهدين علم شهادة ، لأنهم إذا أمروا بالعمل يشهد منهم ما عملوا فالجزاء بالثواب والعقاب يقع على علم الشهادة ، ونبلو أخباركم نختبرها ونظهرها] انتهى محل الغرض منه .

(35/710)

وقال أبو جعفر بن جرير الطبري في تفسير هذه الآية الكريمة ما نصه : [ولنبلونكم أيها المؤمنين بالقتل وجهاد أعداء الله حتى نعلم المجاهدين منكم يقول : حتى يعلم حزبي وأوليائي أهل الجهاد . في الله منكم وأهل الصبر على قتال أعدائه فيظهر ذلك لهم ويعرف ذوو البصائر منكم في دينه من ذوي الشك والحيرة فيه وأهل الإيمان من أهل النفاق ونبلو أخباركم فنعرق الصادق منكم من الكاذب] . انتهى محل الغرض منه بلفظه .

وما ذكره من أن المراد بقوله : حتى نعلم المجاهدين الآية ، حتى يعلم حزبنا .

وأولياؤنا المجاهدين منكمن والصابرين له وجه ، وقد يرشد له قوله تعالى : ﴿ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُم ﴾ أي نظهرها ونبرزها للناس .

وقوله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ اللهِ لِيَذَرَ المؤمنين على مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حتى يَمِيزَ الخبيث مِنَ الطيب ﴾ [آل عمران : 179] لأن المراد يميز الخبيث من الطيب ظهور ذلك للناس .

ولذا قال ﴿ وَمَا كَانَ اللهِ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغيب ﴾ [آل عمران : 179] فتعلموا ما ينطوي عليه الخبيث والطيب ، ولكن الله عرفكم بذلك بالاختبار والابتلاء الذي تظهر بسببه طوايا الناس من خبث وطيب .

والقول الأول وجيه أيضاً ، والعلم عند الله تعالى .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (32)

الظاهر أن صدوا في هذه الآية متعدية ، والمفعول محذوف ، أي كفروا وصدوا غيرهم عن سبيل الله فهم ضالون مضلون .

وقد قدمنا في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : 97] . الآية . أن التأسيس مقدم على التوكيد كما هو مقرر في الأصول .

وصدوا هنا ، إن قدرت لازمة فمعنى الصدود الكفر ، فتكون كالتوكيد لقوله كفروا .

(36/710)

وإن قدرت متعدية كان ذلك تأسيساً .

لأن قوله : كفروا يدل على كفرهم في أنفسهم .

وقوله : وصدوا على أنه متعد يدل على أنهم حملوا غيرهم على الكفر وصدوه عن الحق ، وهذا أرجح مما قبله .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَشَآقُّواْ الرسول ﴾ أي خالفوا محمداً صلى الله عليه وسلم مخالفة شديدة .

وقد دلت هذه الآية الكريمة على أمرين أحدهما أن الذين كفروا وصدوا غيرهم عن الحق

وخالفوه صلى الله عليه وسلم لن يضروا الله بكفرهم شيئاً ، لأنه غني لذاته الغنى المطلق .

والثاني أنهم إنما يضرون بذلك أنفسهم ، لأن ذلك الكفر سبب لإحباط أعمالهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ .

وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية الكريمة جاءا موضحين في آيات من كتاب الله .

فمن الآيات الدالة على الأول الذي هو غنى الله عن خلقه ، وعدم تضرره بمعصيتهم ، قوله تعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ العالمين ﴾ [آل عمران : 97] .

وقوله تعالى : ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ﴾ [الزمر : 7] .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ موسى إِن تكفروا أَنتُمْ وَمَن فِي الأرض جَمِيعاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم : 8] .

وقوله تعالى : ﴿ قَالُواْ اتخذ الله وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الغني لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾ [يونس : 68] .

وقوله تعالى : ﴿ فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ واستغنى الله والله غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [التغابن : 6] .

وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس أَنتُمُ الفقرآء إِلَى الله والله هُوَ الغني الحميد ﴾ [فاطر : 15] إلى غير ذلك من الآيات .

ومن الآيات الدالة على الثاني وهو إحباط أعمالهم بالكفر أي إبطالها به قوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً ﴾ [الفرقان : 23] .

وقوله تعالى : ﴿ مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشتدت بِهِ الريح فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ [إبراهيم : 18] الآية .

وقوله : ﴿ والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ﴾ [النور : 39] .

وقوله تعالى : ﴿ أولئك الذين لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخرة إِلاَّ النار وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود : 16] إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ الآية .

قد قدمنا كثيراً جداً من الآيات المماثلة له قريباً في جملة كلامنا الطويل على قوله تعالى ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن ﴾ [النساء : 82] الآية .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (34)

ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن من مات على الكفر لن يغفر الله له ، لأن النار وجبت له بموته على الكفر ، جاء موضحاً في آيات أخر من كتاب الله .

كقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرض ذَهَباً وَلَوِ

افتدى بِهِ أولئك لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [آل عمران : 91] .

وقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ والملائكة والناس أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العذاب وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ [البقرة : 161 - 162] .

وقوله تعالى ﴿ وَلاَ الذين يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أولئك أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ [النساء : 18] .

(38/710)

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فأولائك حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدنيا والآخرة وأولائك أَصْحَابُ النار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة : 217] .

فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35)

قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير حمزة وشعبة عن عاصم إلى السلم بفتح السين .

وقرأ حمزة وشعبة إلى السلم بكسر السين .

وقوله تعالى ﴿ فَلاَ تَهِنُوا ﴾ أي لا تضعفوا وتذلوا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ الله ﴾ [آل عمران : 146] .

وقوله تعالى : ﴿ ذلكم وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الكافرين ﴾ [الأنفال : 18] أي مضعف كيدهم ، وقول زهير بن أبي سلمى :

وأخلفتك ابنة البكري ما وعدت . . . فأصبح الحبل منها واهناً خلقا

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمُ الأعلون ﴾ جملة حالية فلا تضعفوا عن قتال الكفار وتدعوا إلى السلم ، اي تبدؤوا بطلب السلم أي الصلح والمهادنة وأنتم الأعلون . أي والحال أنكم انتم الأعلون أي الأقهرون والأغلبون لأعدائكم ، ولأنكم ترجون من الله من النصر والثواب ما لا يرجون .

وهذا التفسير في قوله ﴿ وَأَنتُمُ الأعلون ﴾ هو الصواب .

وتدل عليه آيات من كتاب الله كقوله تعالى بعده ﴿ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ لأن من كان الله معه هو الأعلى وهو الغالب وهو القاهر المنصور الموعود بالثواب .

فهو جدير بأن لا يضعف عن مقاومة الكفار ولا يبدأهم بطلب الصلح والمهادنة .

(39/710)

وكقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [الصافات : 173] ، وقله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين آمَنُواْ فِي الحياة الدنيا ﴾ [غافر : 51] الآية ، وقوله ﴿ وَكَانَ حَقّاً

عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمنين ﴾ [الروم : 47] وقوله تعالى ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : 14] الآية .

ومما يوضح معنى آية القتال هذه قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابتغآء القوم إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لاَ يَرْجُونَ ﴾ [النساء : 104] الآية ، لأن قوله تعالى ﴿ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لاَ يَرْجُونَ ﴾ من النصر الذي وعدكم الله به والغلبة وجزيل الثواب .

وذلك كقوله هنا ﴿ وَأَنتُمُ الأعلون ﴾ وقوله : ﴿ والله مَعَكُم ﴾ أي بالنصر والإعانة والثواب .

واعلم أن آية القتال هذه لا تعارض بينها وبين آية الأنفال حتى يقال إن إحداهما ناسخة للأخرى ، بل هما محمتان وكل واحدة منهما منزلة على حال غير الحال التي نزلت عليه الأخرى .

فالنهي في آية القتال هذه في قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَهِنُواْ وتدعوا إِلَى السلم ﴾ إنما هو عن الابتداء بطلب السلم .

والأمر بالجنوح إلى السلم في آية الأنفال محله فيما إذا ابتدأ الكفار بطلب السلم والجنح لها ، كما هو صريح قوله تعالى : ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فاجنح لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى الله ﴾ [الأنفال : 61] الآية .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ واللهُ مَعَكُمْ ﴾ قد قدمنا الآيات الموشحة له في آخر سورة النحل في الكلام على قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الذين اتقوا والذين هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل : 128] وهذا الذي ذكرنا في معنى هذه الآية أولى وأصوب مام فسرها به ابن كثير رحمه الله .

(40/710)

وهو أن المعنى : لا تدعوا إلى الصلح والمهادنية وأنتم الأعلون أي في حال قوتكم وقدرتكم على الجهاد .

أي ، وأما إن كنتم في ضعف وعدم قوة فلا مانع من أن تدعوا إلى السلم أي الصلح والمهادنة ، ومنه قول العباس بن مرداس السلمي :

السلم تأخذ منها ما رضيت به . . . والحرب تكفيك من أنفسا ها جرع

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ أي لن ينقصكم شيئاً من ثواب أعمالكم .

وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة من عدم نقصه تعالى شيئاً من ثواب الأعمال جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى ﴿ وَإِن تُطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ

شَيْئاً ﴾ [الحجرات : 14] أي لا ينقصكم من ثوابها شيئاً .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الموازين القسط لِيَوْمِ القيامة فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وكفى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : 47] .

والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة ، وقد قدمناها مراراً .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ وَلَن يَتِرَكُم ﴾ أصله من التواتر ، وهو الفرد .

فأصل قوله : لن يتركم لن يفردكم ويجردكم من أعمالكم بل يوفيكم إياها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(41/710)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (31) ﴾

عطف على قوله : ﴿ والله يعلم أعمالكم ﴾ [محمد : 30] .

ومعناه معنى الاحتراس مِمَّا قد يتوهم السامعون من قوله : ﴿ والله يعلم أعمالكم ﴾ من الاستغناء عن التكليف .

ووجه هذا الاحتراس أن علم الله يتعلق بأعمال الناس بعد أن تقع ويتعلق بها قبل وقوعها

فإنها ستقع ويتعلق بعزم الناس على الاستجابة لدعوة التكاليف قوة وضعفا ، ومن عدم الاستجابة كفراً وعناداً ، فبيّن بهذه الآية أن من حكمة التكاليف أن يظهر أثر علم الله بأحوال الناس وتقدم الحجة عليهم .

ولما قال النبي صلى الله عليه وسلم " إن الله كتب لِكل عبد مقعده من الجنة أو من النار . فقالوا أفلا نتكل على ما كُتب لنا ؟ قال : اعملوا فكل مُيَسَّر لما خلق له ، وقرأ ﴿ فأما من أعطى واتّقى وصدّق بالحسنى فسنُيَسّرِه لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنُيَسّرِه للعسرى ﴾ [الليل : 5 10] "

والبَلْو : الاختبار وتعرُّف حال الشيء .

والمراد بالابتلاء الأمر والنهي في التكليف ، فإنه يظهرَ به المطيع والعاصي والكافر ، وسُمي ذلك ابتلاء على وجه المجاز المرسل لأنه يلزمه الابتلاء وإن كان المقصود منه إقامة مصالح الناس ودفع الفساد عنهم لتنظيم أحوال حياتهم ثم ليترتب عليه مآل الحياة الأبدية في الآخرة .

ولكن لما كان التكليف مبيّناً لأحوال نفوس الناس في الامتثال وممحّصاً لدعاويهم وكاشفاً عن دخائلهم كان مشتملاً على ما يشبه الابتلاء ، وإلا فإن الله تعالى يعلم تفاصيل أحوالهم ، ولكنها لا تظهر للعيان للناس إلا عند تلقي التكاليف فأشبهت الاختبار ، فإطلاق اسم

الابتلاء على التكليف مجاز مرسل وتسمية ما يلزم التكليف من إظهار أحوال النفوس ابتلاءً استعارة ، ففي قوله : ﴿ ولنبلونكم ﴾ مجاز مرسل واستعارة .

(42/710)

و ﴿ حتى ﴾ حرف انتهاء فما بعدها غاية للفعل الذي قبلها وهي هنا مستعملة في معنى لام التعليل تشبيهاً لعلة الفعل بغايته فإن غاية الفعل باعث لفاعل الفعل في الغالب ، فلذلك كثر استعمال ﴿ حتى ﴾ بمعنى لام التعليل كقوله تعالى : ﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ﴾ [المنافقون : 7] .

فالمعنى : ولنبلونكم لنعلم المجاهدين منكم والصابرين ، وليس المراد انتهاء البلوى عند ظهور المجاهدين منهم والصابرين .

وعلة الفعل لا يلزم انعكاسها ، أي لا يلزم أن لا يكون للفعل علة غيرها فللتكليف عِلل وأغراض عديدة منها أن تظهر حال الناس في قبول التكليف ظهوراً في الدنيا تترتب عليه معاملات دنيوية .

وعلم الله الذي جعل علة للبلو هو العلم بالأشياء بعد وقوعها المسمى علم الشهادة لأن الله يعلم من سيُجاهد ومن يصبر من قبْلِ أن يبلوهم ولكن ذلك علم غيب لأنه قبل حصول

المعلوم في عالم الشهادة .

والأحسن أن يكون ﴿ حتى نعلم ﴾ مستعملاً في معنى حتى نظهر للناس الدعاوي الحق من الباطلة ، فالعلم كناية عن إظهار الشيء المعلوم بقطع النظر عن كون إظهاره للغير كما هنا أو للمتكلم كقول إياس بن قبيصةَ الطائي :

وأَقَبلْتُ والخَطّيُّ يخْطُر بيننا . . .

لا عَلَم منَ جَبَانُها مِن شجاعها

أراد ليظهر للناس أنه شجاع ويظهر من هو من القوم جبان ، فالله شرع الجهاد لنصر الدين ومِنْ شرَعه يتبين من يجاهد ومن يقعد عن الجهاد ، ويتبين من يصبر على لأواء الحرب ومن ينخزل ويفر ، فلا تروج على الناس دعوى المنافقين صدق الإيمان ويعلم الناس المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

وبلو الإخبار : ظهور الأحدوثة من حسن السمعة وضده .

وهذا في معنى قول الأصوليين ترتُّبُ المدح والذم عاجلاً ، وهو كناية أيضاً عن أحوال أعمالهم من خير وشر لأن الأخبار إنما هي أخبار عن أعمالهم ، وهذه علة ثانية عطفت على قوله : ﴿ حتى نعلم المجاهدين منكم ﴾ .

وإنما أعيد عطف فعل ﴿ نبلوَ ﴾ على فعل ﴿ نعلم ﴾ وكان مقتضى الظاهر أن يعطف ﴿ أخباركم ﴾ بالواو على ضمير المخاطبين في ﴿ لنبلونكم ﴾ ولا يعاد ﴿ نبلوَ ﴾ ، فالعدول عن مقتضى ظاهر النظم إلى هذا التركيب للمبالغة في بَلْو لأخبار لأنه كناية عن بلو أعمالهم وهي المقصود من بلو ذواتهم ، فذكره كذكر العام بعد الخاص إذ تعلق البلو الأول بالجهاد والصبرِ ، وتعلق البلو الثاني بالأعمال كلها ، وحصل مع ذلك تأكيد البلو تأكيداً لفظياً .

وقرأ الجمهور ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم ﴾ ﴿ ونبلوَا ﴾ بالنون في الأفعال الثلاثة .

وقرأ أبو بكر عن عاصم تلك الأفعال الثلاثة بياء الغيبة والضمائر عائدة إلى اسم الجلالة في قوله : ﴿ والله يعلم أعمالكم ﴾ .

وقرأ الجمهور ﴿ ونبلوَ ﴾ بفتح الواو عطفاً على ﴿ نعلمَ ﴾ .

وقرأه رويس عن يعقوب بسكون الواو عطفاً على ﴿ ولنبلونكم ﴾ .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (32)

الظاهر أن المعنيّ بالذين كفروا هنا الذين كفروا المذكورون في أول هذه السورة وفيما بعد من الآيات التي جرى فيها ذكر الكافرين ، أي الكفار الصرحاء عاد الكلام إليهم بعد الفراغ

من ذكر المنافقين الذين يخفون الكفر ، عودا على بدء لتهوين حالهم في نفوس المسلمين ، فبعد أن أخبر الله أنه أضل أعمالهم وأنهم اتبعوا الباطل وأمر بضرب رقابهم وأن التعس لهم وحقَّرهم بأنهم يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، وأن الله أهلك قرى هي أشد منهم قوة ، ثم جرى ذكر المنافقين ، بعد ذلك ثُني عنان الكلام إلى الذين كفروا أيضاً ليعرِّف الله المسلمين بأنهم في هذه المآزق التي بينهم وبين المشركين لا يَلحقهم منهم أدنى ضُرّ ، وليزيد وصف الذين كفروا بأنهم شاقّوا الرسول صلى الله عليه وسلم

(44/710)

فالجملة استئناف ابتدائي وهي توطئة لقوله : ﴿ فلا تهنوا وتدْعُوا إلى السلم ﴾ [محمد : 35] .

وفعل ﴿ شاقُّوا ﴾ مشتق من كلمة شِق بكسر الشين وهو الجانب ، والمشاقة المخالفة ، كني بالمشاقة عن المخالفة لأن المستقر بشِق مخالف للمستقر بشق آخر فكلاهما مخالف ، فلذلك صيغت منه صيغة المفاعلة .

وتبيُّن الهدى لهم : ظهور ما في دعوة الإسلام من الحق الذي تدركه العقول إذا نبهتْ إليه ، وظهور أن أمر الإسلام في ازدياد ونماء ، وأن أمور الآخرين في إدبار ، فلم يردعهم ذلك عن

محاولة الإضرار بالرسول صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى : ﴿ أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ﴾ [الرعد : 41] .

فحصل من مجموع ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم رسولُ الله ، وأن الإسلام دين الله .

وقيل المراد بالذين كفروا في هذه الآية يهود قريظة والنضير ، وعليه فمشاقتهم الرسول صلى الله عليه وسلم مشاقة خفية مشاقَّة كيد ومكْر ، وتبيُّن الهدى لهم ظهور أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو الموعود به في التوّراة وكتب الأنبياء ، فتكون الآية تمهيداً لغزو قريظة والنضير .

وانتصب ﴿ شيئاً ﴾ على المفعول المطلق ل ﴿ يَضُروا ﴾ والتنوين للتقليل ، أي لا يضرّون في المستقبل الله أقل ضرّ .

وإضرار الله أريد به إضرار دينه لقصد التنويه والتشريف لهذا الدين بقرينة قوله : ﴿ وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى ﴾ .

والإحباط : الإبطال كما تقدم آنفاً .

ومعنى إبطال أعمالهم بالنسبة لأعمالهم في معاملة المسلمين أن الله يلطف برسوله صلى الله عليه وسلم والمسلمين بتيسير أسباب نصرهم وانتشار دينه ، فلا يحصِّل الذين كفروا من أعمالهم للصد والمشاقة على طائل .

وهذا كما تقدم في تفسير قوله : ﴿ أضلّ أعمالهم ﴾ [محمد : 1] .

وحرف الاستقبال هنا لتحقيق حصول الإحباط في المستقبل وهو يدل على أن الله محبط أعمالهم من الآن إذ لا يعجزه ذلك حتى يترصد به المستقبل ، وهذا التحقيق مثل ما في قوله في سورة يوسف ﴿ قال سوف أستغفر لكم ربي ﴾ [يوسف : 98] .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (33)

اعتراض بين جملة ﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول ﴾ [محمد : 32] ، وبين جملة ﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتُوا وهم كفار ﴾ [محمد : 34] وُجه به الخطاب إلى المؤمنين بالأمر بطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وتجنب ما يبطل الأعمال الصالحة اعتباراً بما حكي من حال المشركين في الصد عن سبيل الله ومشاقة الرسول صلى الله عليه وسلم

فوصف الإيمان في قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ مقابل وصف الكفر في قوله : ﴿ إن الذين كفروا ﴾ [محمد : 32] ، وطاعة الله مقابل الصدّ عن سبيل الله ، وطاعةُ الرسول ضد مشاقة الرسول صلى الله عليه وسلم والنهي عن إبطال الأعمال ضد بطلان أعمال الذين كفروا .

فطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم التي أمروا بها هي امتثال ما أمَر به ونهَى عنه من أحكام الدين .

وأما ما ليس داخلاً تحت التشريع فطاعة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فيه طاعة انتصاح وأدب ، ألا ترى أن بريرة لم تطع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مراجعة زوجها مُغيث لما علمتْ أن أمره إياها ليس بعزم .

والإبطال : جعل الشيء باطلاً ، أي لا فائدة منه ، فالإبطال تتصف به الأشياء الموجودة .

ومعنى النهي عن إبطالهم الأعمالَ : النهي عن أسباب إبطالها ، فهذا مهيع قوله : ﴿ ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ .

وتسمح محامِله بأن يشمل النهي والتحذير عن كل ما بيَّن الدِينُ أنه مبطل للعمل كلاًّ أو بعضاً مثل الردة ومثل الرياء في العمل الصالح فإنه يبطل ثوابه .

(46/710)

وهو عن ابن عباس قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ [البقرة : 264] .

وكان بعض السلف يخشى أن يكون ارتكاب الفواحش مبطلاً لثواب الأعمال الصالحة

ويحمل هذه الآية على ذلك ، وقد قالت عائشة لما بلغها أن زيد بن أرقم عقد عقداً تراه عائشة حراماً : أخبروا زيداً أنه أبطل جهاده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لم يترك فعله هذا ولعلها أرادت بذلك التحذير وإلا فما وجهُ تخصيص الإحباط بجهاده وإنما علمتْ أنه كان أنفس عمل عنده .

وعن الحسن البصري والزهري : لا تبطلوا أعمالكم بالمعاصي الكبائر .

ذكر ابن عبد البرّ في "الاستيعاب" : "أن زيد بن أرقم قال غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع عشرة غزوة وغزوتُ منها معه سبع عشرة غزوة .

وهذه كلها من مختلف الأفهام في المعنيّ بإبطال الأعمال وما يبطلها وأحسن أقوال السلف في ذلك ما رويَ عن ابن عمر قال : "كنا نرى أنه ليس شيء من حسناتنا إلا مقبولاً حتى نزل ﴿ ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ ، فقلنا : ما هذا الذي يبطل أعمالنا ؟ فقلنا : الكبائر الموجبات والفواحش حتى نزل ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾

[النساء : 48] فكففنا عن القول في ذلك وكنا نخاف على من أصاب الكبائر ونرجو لمن لم يصبها " أ هـ .

فأبان أن ذلك محامل محتملة لا جزم فيها .

وعن مقاتل ﴿ لا تبطلوا أعمالكم ﴾ بالمنّ وقال : هذا خطاب لقوم من بني أسد أسلموا

وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قد آثرناك وجئناك بنفوسنا وأهلنا ، يمنون عليه بذلك فنزلت فيهم هذه الآية ونزل فيهم أيضاً قوله تعالى : ﴿ يمنون عليك أن أسلموا قل لا تَمنّوا علي إسلامكم ﴾ [الحجرات : 17] .

(47/710)

وهذه محامل ناشئة عن الرأي والتوقع ، والذي جاء به القرآن وبينته السنة الصحيحة أن الحسنات يُذهبن السيئات ولم يجيء : أن السيئات يذهبن الحسنات ، وقال : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرّة وإن تك حسنة يضاعفها ويُؤتتِ من لدنه أجراً عظيماً ﴾ [النساء : 40] .

وتمسك المعتزلة بهاته الآية فزعموا أن الكبائر تحبط الطاعات .

ومن العجب أنهم ينفون عن الله الظلم ولا يسلمون ظاهر قوله : ﴿ لا يسأل عما يفعل ﴾ [الأنبياء : 23] ، ومع ذلك يجعلون الله يبطل الحسنات إذا ارتكب صاحبها سيئة .

ونحن نرى أن كل ذلك مسطور في صحف الحسنات والسيئات وأن الحسنة مضاعفة والسيئة بمقدارها .

وهذا أصل تواتر معناه في الكتاب وصحيح الآثار ، فكيف ينبذ بالقيل والقال من أهل

الأخبار .

وحمل بعض علمائنا قوله تعالى : ﴿ ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ على معنى النهي عن قطع العمل المتقرب به إلى الله تعالى .

وإطلاق الإبطال على القطع وعدمِ الإتمام يشبه أنه مجاز ، أي لا تتركوا العمل الصالح بعد الشروع فيه ، فأخذوا منه أن النفل يجب بالشروع لأنه من الأعمال ، وهو قول أبي حنيفة في النوافل مطلقاً .

ونسب ابن العربي في الأحكام مثلَه إلى مالك .

ومثله القرطبي وابن الفرس .

ونقل الشيخ الجد في "حاشيته على المحلّى" عن القرافي في "شرح المحصول" ونقل حلولو في "شرح جمع الجوامع" عن القرافي في "الذخيرة" : أن مالكاً قال بوجوب سبْع نوافل بالشروع ، وهي : الصلاة والصيام والحج والعمرة والاعتكاف والائتمام وطواف التطوع دون غيرها نحو الوضوء والصدقة والوقف والسفر للجهاد ، وزاد حُلولو إلحاق الضحية بالنوافل التي تجب بالشروع ولم أقف على مأخذ القرافي ذلك ولا على مأخذ حلولو في الأخير .

ولم ير الشافعي وجوباً بالشروع في شيء من النوافل وهو الظاهر .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (34)

هذه الآية تكملة لآية ﴿ إن الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول ﴾ [محمد : 32] الخ لأن تلك مسوقة لعدم الاكتراث بمشاقّهم ولبيان أن الله مبطل صنائعهم وهذه مسوقة لبيان عدم انتفاعهم لمغفرة الله إذ ماتوا على ما هم عليه من الكفر فهي مستأنفة استئنافاً ابتدائياً .

واقتران خبر الموصول بالفاء إيماء إلى أنه أشرف معنى الشرط فلا يراد به ذو صلة معيّن بل المراد كل من تحققت فيه ماهية الصلة وهي الكفر والموت على الكفر .

فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35)

الفاء للتفريع على ما تقرر في نفوس المؤمنين من خذل الله تعالى المشركين بما أخبر به من أنه أضل أعمالهم وقدّر لهم التعس ، وبما ضرب لهم من مصائر أمثالهم من الذين من قبلهم دمرهم الله وأهلكهم ولم يجدوا ناصراً ، وما وعد به المؤمنين من النصر عليهم وما أمرهم به من قتالهم وبتكلفه للمؤمنين بالولاية وما وعدهم من الجزاء في دار الخلد وبما أتبع ذلك من وصف كَيْد فريق المنافقين للمؤمنين وتعهدهم بإعانة المشركين ، وذلك مما يوجس منه المؤمنون خيفة إذ يعلمون أن أعداء لهم منبثون بين ظهرانيهم .

فعلى ذلك كله فرع نهيهم عن الوهن وعن الميل إلى الدعة ووعدهم بأنهم المنتصرون وأن الله مؤيدهم .

ويجوز أن يجعل التفريع على أقرب الأخبار المتقدمة وهو قوله : ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ﴾ [محمد : 31] .

(49/710)

وهذا النهي عن الوهن وعن الدعاء إلى السَّلْم تحذير من أمر توفرت أسباب حصوله متهيئة للإقدام على الحرب عند الأمر بها وليس نهياً عن وهن حصل لهم ولا عن دعائهم إلى السلم لأن هذه السورة نزلت بعد غزوة بدر وقبل غزوة أُحُد في مدة لم يكن فيها قتال بين المسلمين والمشركين ولكن التحذير من أن يستوهنهم المنافقون عند توجه أمر القتال فيقولوا : لو سالمنا القوم مدة حتى نستعيد عُدتنا ونسترجع قوتنا بعد يوم بدر ، وقد كان أبو سفيان ومن معه من المشركين لما رجعوا إلى مكة مفلولين بعد وقعة بدر ، يتربصُون بالمسلمين فرصة يقاتلونهم فيها لِما ضايقهم من تعرض المسلمين لهم في طريق تجارتهم إلى الشام مثل ما وقع في غزوة السويق ، وغزوة ذي قَرَد ، فلما كان في المدينة منافقون وكان عند أهل مكة رجال من أهل يثرب خرجوا منها مع أبي عامر الضبغي الملقب في الجاهلية بالراهب والذي غيّر النبي صلى الله عليه وسلم لقبَه فلقبه الفاسق .

كان من المتوقع أن يكيد للمسلمين أعداؤهم من أهل يثرب فيظاهِروا عليهم المشركين

متسترين بعلة طلب السلم فحذرهم الله من أن يقعوا في هذه الحبالة .

والوهن : الضعف والعَجز ، وهو هنا مجاز في طلب الدعة .

ومعناه : النهي عن إسلام أنفسهم لخواطر الضعف ، والعمل بهذا النهي يكون باستحضار مساوي تلك الخواطر فإن الخواطر الشريرة إذا لم تقاومها همة الإنسان دبّت في نفسه رُويداً رُويداً حتى تتمكن منها فتصبح ملكةً وسجيّة .

فالمعنى : ادفعوا عن أنفسكم خواطر الوهن واجتنبوا مظاهره ، وأوّلُها الدعاءُ إلى السلم وهو المقصود بالنهي .

والنهي عن الوهن يقتضي أنهم لم يكونوا يومئذٍ في حال وهَن .

وعُطف ﴿ وتَدعوا ﴾ على ﴿ تهنوا ﴾ فهو معمولٍ لحرف النهي ، والمعنى : ولا تدعوا إلى السلم وهو عطف خاص على عام من وجهٍ لأن الدعاء إلى السلم مع المقدرة من طلب الدعة لغير مصلحة .

(50/710)

وإنما خص بالذكر لئلا يظن أن فيه مصلحة استبقاء النفوس والعُدة بالاستراحة من عُدوان العدوّ على المسلمين ، فإن المشركين يومئذٍ كانوا متكالبين على المسلمين ، فربما ظن

المسلمون أنهم إن تداعوا معهم للسلم أمِنوا منهم ، وجعلوا ذلك فرصة لينشُوا الدعوة فعرفّهم الله أن ذلك يعود عليهم بالمضرة لأنه يحط من شوكتهم في نظر المشركين فيحسبونهم طلبوا السلم عن ضعف فيزيدهم ذلك ضراوة عليهم وتستخف بهم قبائل العرب بعد أن أخذوا من قلوبهم مكان الحرمة وتوقع البأس .

ولهذا المقصد الدقيق جمع بين النهي عن الوهن والدعاء إلى السلم وأُتبع بقوله : ﴿ وأنتم الأعلون ﴾ .

فتحصل مما تقرر أن الدعاء إلى السلم المنهي عنه هو طلب المسالمة من العدّو في حال قدرة المسلمين وخوف العدوّ منهم ، فهو سلم مقيد بكون المسلمين داعين له وبكونه عن وهن في حال قوة .

قال قتادة : أي لا تكونوا أول الطائفتين ضَرعت إلى صاحبتها .

فهذا لا ينافي السلم المأذون فيه بقوله : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ﴾ في سورة الأنفال (61) ، فإنه سلم طلبه العدو ، فليست هذه الآية ناسخة لآية الأنفال ولا العكس ولكل حالة خاصة ، ومقيّد بكون المسلمين في حالة قوة ومنعة وعِدّة وعُدّة بحيث يدعون إلى السلم رغبة في الدعَة .

فإذا كان للمسلمين مصلحة في السلم أو كان أخفّ ضرّاً عليهم فلهم أن يبتدئوا إذا احتاجوا إليه وأن يجيبوا إليه إذا دعُوا إليه .

وقد صالح النبي المشركين يوم الحديبية لمصلحة ظهرت فيما بعد ، وصالح المسلمون في غزوهم أفريقية أهلها وانكفأوا راجعين إلى مصر .

وقال عمر بن الخطاب في كلام له مع بعض أمراء الجيش فقد آثرتُ سلامة المسلمين .

وأما الصلح على بعض الأرض مع فتحها فذلك لا ينافي قوة الفاتحين كما صالح أمراء أبي بكر نصف أهل دمشق وكما صالح أمراء عمر أهل سود العراق وكانوا أعلم بما فيه صلاحهم .

وقرأ الجمهور إلى السَّلم ﴾ بفتح السين .

(51/710)

وقرأه أبو بكر عن عاصم وحمزة بكسر السين وهما لغتان .

وجملة ﴿ وأنتم الأعلون ﴾ عطف على النهي عطف الخبر على الإنشاء ، والخبر مستعمل في الوعد .

والأعلون : مبالغة في العلوّ .

وهو هنا بمعنى الغلبة والنصر كقوله تعالى لموسى : ﴿ إنك أنت الأعلى ﴾ [طه : 68] ، أي والله جاعلكم غالبين .

و ﴿ الله معكم ﴾ عطف على الوعد .

والمعية معية الرعاية والكلاءة ، أي والله حافظكم وراعيكم فلا يجعل الكافرين عليكم سبيلاً .

والمعنى : وأنتم الغالبون بعناية الله ونصره .

وصيغ كل من جملتي ﴿ أنتم الأعلون والله معكم ﴾ جملة اسمية للدلالة على ثبات الغلب لهم وثبات عناية الله بهم .

وقوله : ﴿ ولن يتركم أعمالكم ﴾ وعد بتسديد الأعمال ونجاحها عكس قوله في أول السورة ﴿ الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله أضلّ أعمالهم ﴾ [محمد : 1] فكني عن توفيق الأعمال ونجاحها بعدم وترها ، أي نقصها للعلم بأنه إذا كان لا ينقصها فبالحري أن لا يبطلها ، أي أن لا يخيبها ، وهو ما تقدم من قوله : ﴿ والذين قاتلوا في سبيل الله فلن يضلّ أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم ﴾ [محمد : 4 ، 5] .

يقال : وتره يتره وَتْراً وِترَة كوعد ، إذا نقصه ، وفي حديث "الموطأ" " من فاتته صلاة العصر فكأنما وُتِر أهلَه ومالَه " ويجوز أيضاً أن يراد منه صريحه ، أي ينقصكم ثوابكم على أعمالكم ، أي الجهاد المستفاد من قوله ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم ﴾ فيفيد التحريض على الجهاد بالوعد بأجره كاملاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

وقال الشيخ الصابونى

﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم (33) ﴾

[2] ترك العمل بعد الشروع

التحليل اللفظي

﴿ تبطلوا ﴾ : تضيعوا ثوابها من بطل الشيء يبطل بطلا وبطلانا : ذهب ضياعا وخسرا

.

﴿ وصدوا ﴾ : أعرضوا من الصد : وهو الإعراض والصدوف ، قال تعالى : ﴿ رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا ﴾ [النساء : 61]

﴿ فلا تهنوا ﴾ : أي لا تفتروا ، ولا تضعفوا ، ولا تجبنوا عن قتال العدو من الوهن أي الضعف في النفس والعمل قال تعالى : ﴿ فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ﴾ [آل عمران : 146] .

﴿ ولن يتركم ﴾ : أي لن ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئا ، ولن يظلمكم من وتره حقه وماله نقصه إياه وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم : " من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله " .

قال أبو عبيدة : وترث الرجل إذا قتلت له قتيلا من ولد أو أخ ، أو حميم ، أو قريب ، أو

ذهبت بماله .

المعنى الإجمالي

نادى الله سبحانه وتعالى المؤمنين مخاطبا إياهم بوصف الإيمان تذكيرا لهم بأن هذا الوصف يدعوهم إلى طاعة أوامر الله تعالى ، الآتية بعد هذا النداء ، ثم جاء الأمر بطاعة الله جل جلاله في أوامره ونواهيه ، فطاعته هي السبيل إلى الفلاح في الدنيا والآخرة ، وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم من طاعة المولى سبحانه فعلى المؤمن أن يتبعه في كل سنة سنها .

ثم نهى الله المؤمن عن إبطال عمله ، فقد يقدم أعمالا كثيرة من الطاعة ، ولكنه قد يضيع عمله بالمعاصي والرياء والعجب . . . إلى غير ما هنالك ، فنهاه الله عن ذلك ، فعلى المؤمن أن يحافظ على ما يقدم من الطاعات .

ثم بين الله تعالى أنه لا يغفر الشرك ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، حتى لا يظن الظان أن المؤمن إن أبطل عمله بالمعاصي فقد هلك ، بل فضل الله باق يغفر له بفضله ، وإن لم يغفر له بعمله .

وإذا كان أمر الكفار في الآخرة هذا ، فأمرهم في الدنيا كذلك من الذلة والحقارة ، فلا تضعفوا أيها المؤمنون في ملاقاتهم ، ولا تجنبوا عن قتالهم ، فالنصر لك آجلا أو عاجلا ، فلا تدعوا الكفار إلى الصلح خورا ، وإظهارا للعجز فإن ذلك إعطاء للدنية ، وأنتم الأعلون عزة وقوة ورفعة مكانة ، وذلك لأن الله معكم يؤيدكم بنصرة ، ويؤيدكم بقوته ، ولن ينقصكم من أعمالكم شيئا بل يعطيكم ثوابها كاملا خير منقوص .

فائدة

أولا : أخرج عبد بن حميد ومحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال : "كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون أنه لا يضر مع (لا إله إلا الله) ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل حتى نزلت : ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ فخافوا أن يبطل الذنب العمل . ولفظ عبد بن حميد " فخافوا الكبائر أن تحبط أعمالكم " .

ثانيا : وأخرج ابن نصر المروزي وابن جرير وابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كنا معاشر أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبولا حتى نزلت ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ فلما نزلت هذه الآية قلنا : ما هذا الذي يبطل أعمالنا ؟ فقلنا : الكبائر الموجبات ، والفواحش ، فكنا إذا رأينا من أصاب شيئا منها قلنا : قد هلك ، حتى نزلت هذه الآية : ﴿ إن الله لا يغفر أن

يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشآء ﴾ [النساء : 48] فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك ، وكنا إذا رأينا أحدا أصاب منها شيئا خفنا عليه ، وإن لم يصب منها شيئا رجونا له .

وجوه القراءات

أولا : قوله تعالى : ﴿ وتدعوا إلى السلم ﴾ قرأ الأكثرون بفتح السين ﴿ السلم ﴾ . وقرأ الحسن وحمزة وغيرهما بكسر السين ﴿ السلم ﴾ .

ثانيا : قوله تعالى : ﴿ تدعوا ﴾ قرأ الجمهور تدعوا مضارع دعا . وقرأ السلمي بتشديد الدال تدعوا : أي تفتروا .

وجوه الإعراب

(54/710)

1- قوله تعالى : ﴿ وأنتم الأعلون ﴾ جملة حالية وكذا (والله معكم) .

ويجوز أن يكونا جملتي استئناف أخبر أولا بقوله أنتم الأعلون فهو إخبار بمغيب أبرزه الوجود ، ثم ارتقى إلى رتبة أعلى من التي قبلها وهي كون الله تعالى معهم .

فلا تهنوا : الفاء فصيحة في جواب شرط مفهوم مما قبله أي إذا علمتم أن الله مبطل أعمالهم

ومعاقبتهم فهو خاذلهم في الدنيا والآخرة فلا تبالوا بهم ، ولا تظهروا ضعفا .

وقيل : هي لترتيب النهي على ما سبق من الأمر بالطاعة .

وتدعوا إلى السلم : عطف على تهنوا داخل في حيز النهي .

وجوز أن يكون منصوبا بإضمار أن فيعطف المصدر المسبوك على مصدر متصيد مما قبله

.

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : قال الفخر الرازي : " قوله تعالى : ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾ العطف ها هنا من باب عطف المسبب على السبب يقال اجلس واسترح وقم وامش ، لأن طاعة الله تحمل على طاعة الرسول " .

وقال الألوسي : " وإعادة الفعل في قوله : ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾ للاهتمام بشأن إطاعته عليه الصلاة والسلام " .

اللطيفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ الآية .

قال الفخر الرازي : يحتمل وجوها :

أحدها : دوموا على ما أنتم عليه ولا تشركوا فتبطل أعمالكم قال تعالى : ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ [الزمر : 65] .

الوجه الثاني : لا تبطلوا أعمالكم بترك طاعة الرسول كما أبطل أهل الكتاب أعمالهم

بتكذيب الرسول وعصيانه ويؤيده قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ [الحجرات : 2] .

الثالث : لا بتطلوا أعمالكم بالمن والأذى كما قال تعالى : ﴿ يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم ﴾ [الحجرات : 17] .

وقد اختلف فيما يبطل الأعمال على أقوال :

قال الحسن : المعاصي والكبائر .

وقال عطاء : الشك والنفاق ونقل عن ابن عباس .

(55/710)

وقال ابن عباس : الرياء والسمعة ونقل عن ابن جريج .

وقال مقاتل : المن .

وقيل : العجب فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب .

وقيل المراد بالأعمال الصدقات أن تعطلوها بالمن والأذى .

قال القرطبي : وكله متقارب وقول الحسن يجمعه .

اللطيفة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وأنتم الأعلون ﴾ : استعمال العلو في رفعة المنزلة مجاز مشهور ، أي أنتم أعز منهم لأنكم مؤمنون والحجة لكم ، وإن غلبوكم في بعض الأوقات وذلك كقوله تعالى : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ [المنافقون : 8] .

وقيل ﴿ وأنتم الأعلون ﴾ : أي أنتم أعلم بالله منهم .

وقال الجصاص : أي وأنتم أعلم بالله منهم .

وقال الجصاص : أي وأنتم أولى بالله منهم .

وكلها متقاربة فالإيمان يرفع منزلة أهله ويعزهم .

اللطيفة الرابعة : قال الفخر الرازي : قوله ﴿ ولن يتركم أعمالكم ﴾ وعد لأن الله تعالى لما قال : ﴿ والله معكم ﴾ كان فيه أن النصر بالله لا بكم ، فكأن القائل يقول : لم يصدر مني عمل له اعتبار ، فلا استحق تعظيما ، فقال : هو ينصركم ومع ذلك لا ينقص من أعمالكم شيئا ، ويجعل كأن النصرة جعلت بكم ، ومنكم ، فكأنكم مستقلون في ذلك ، ويعطيكم أجر المستبد .

اللطيفة الخامسة : في الآية الكريمة دعوة إلى العزة والكرامة ، وتشجيع للمؤمنين للجهاد والنصال ، لمجابهة أعدائهم دون وهن أو خور ، لأن المؤمن لا يرضى بحياة الذلك والهوان ، وقد أحسن من قال :

عش عزيزا أو مت وأنت كريم . . . بين طعن القنا وخفق البنود

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : قوله تعالى : ﴿ ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ يدل على أن كل من دخل في قربة ، لم يجز له الخروج منها قبل إتمامها .

واختلف العلماء في هذا الحكم على مذهبين .

فذهب (الشافعي وأحمد) إلى أن للمرء أن يترك النافلة إذا شرع فيها ولا شيء عليه ما عدا الحج فيجب عليه الإتمام ، وأما في الصلاة والصوم فيستحب له الإتمام ولا يجب .

(56/710)

وذهب (أبو حنيفة ومالك) إلى أنه ليس له ذلك ، فإذا أبطله وجب عليه القضاء .

أدلة المذهب الأول :

قالوا : هو تطوع ، والمتطوع أمير نفسه ، وإلزامه إياه مخرج عن وصف التطوع قال تعالى : ﴿ ما على المحسنين من سبيل ﴾ [التوبة : 91] .

وقالوا في جواب الاستدلال بالآية : المراد بذلك إبطال ثواب العمل المفروض . فنهي الرجل عن إحباط ثوابه ، فأما ما كان نفلا فلا ، لأنه ليس واجبا عليه .

واللفظ في الآية وإن كان عاما ، فالعام يجوز تخصيصه ، ووجه تخصيصه أن النفل تطوع

والتطوع يقتضي تخييرا .

أدلة المذهب الثاني :

قوله تعالى : ﴿ ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ أفاد أن التحلل من التطوع بعد التلبس به لا يجوز لأن فيه إبطال العلم وقد نهى الله عنه .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كنت أنا وحفصة صائمين فأهدي لنا طعام ، فأكلنا منه فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت حفصة وبدرتني ، وكانت بنت أبيها : يا رسول الله ، إني أصبحت أنا وعائشة صائمتين متطوعتين فأهدي لنا طعام فأفطرنا عليه فقال : " اقضيا مكانه يوما " .

وقالوا في جواب دليل المذهب الأول : المتطوع أمير نفسه ، ولا سبيل عليه قبل أن يشرع أما إذا شرع فقد ألزم نفسه ، وعقد عزمه على الفعل ، فوجب أن يؤدي ما التزم وأن يوفي بما عقد قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾ [المائدة : 1] .

ثم اللفظ عام في الآية يشمل التطوع وغيره .

الحكم الثاني : قوله تعالى : ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم ﴾ .

فيه دلالة على أنه لا يجوز طلب الصلح من المشركين ، فأما إذا كان في الكفار قوة وكثرة بالنسبة إلى جمع المسلمين ، ورأى الإمام المسلم في المهادنة ، والمعاهدة مصلحة ، فله أن يفعل ذلك ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين صده كفار قريش عن مكة

ودعوة إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين فأجابهم صلى الله عليه وسلم إلى ذلك .

فائدة :

(57/710)

دل قوله تعالى : ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون . . . ﴾ الآية على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يدخل مكة صلحا ، وإنما فتحها عنوة ، لأن الله تعالى قد نهاه عن الصلح في هذه الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روائع البيان حـ 2 صـ 462 . 469 ﴾

(58/710)

قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (36) إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (37) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (38) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أتم العلة الأولى أقبل على الثانية الصادة عن الطاعة القائدة إلى المعصية الملائمة للشهوة المبطلة للأعمال الموجبة للتهاون المؤدي إلى عدم المغفرة ، فقال مرغباً في طاعته الموجبة للفوز الدائم ببيان قصر أيام المحنة وتجرع مرارات المشقة : ﴿ إنما الحياة ﴾ وأشار إلى دناءتها تنفيراً عنها بقوله : ﴿ الدنيا ﴾ ولما كان مطلق العلو موجباً لأعظم اللذاذة فكيف إذا كان موجبه الدين الضامن لدوام اللذة موصولاً دنيويها بأخرويها ، وكان اللعب ما ينشأ من زيادة البسط وينقضي بسرعة مع دلالته على الخفة كالرقص ، قدمه إشارة إلى أن العاقل من يسعى في زيادة بسط يحمل على الرزانة ويدوم ، وأتبعه اللهو لأنه ما يستجلب به السرور كالغنا إشارة إلى أنه إن كان المراد بالدنيا زيادة بسطها فهو ينقضي بسرعة ، مع ما فيه من الرعونة ، وإن كان المراد أصل البسط والسرور فعندكم منه بالعلو الحاصل لكم بالجهاد ما هو في غاية العظمة والجد والثبات فلا سفه أعظم من العدول عنه إلى ما إن سر حمل على الطيش وانقضى بسرعة ، فقال : ﴿ لعب ﴾ أي أعمال ضائعة سافلة تزيد في السرور ويسرع اضمحلاله ، فيبطل من غير ثمرة ﴿ ولهو ﴾ أي مشغلة يطلب بها إثارة اللذة كالغنا وحيرة وغفلة ، فإن تتبعوها تكفروا وتبطروا وتجترئوا على الله ، وإن تكفروا به وتجترئوا

عليه تبطل أجوركم فلا يكون لكم أجر ولا مال لأنه يبطل أعمالكم وأموالكم بكونها تصير صوراً لا معاني لها .

(59/710)

ولما صور سبحانه الدنيا بألذ صورها عند الجاهل وأمضها عند العاقل ، وحاصله أنها زيادة سرور لمن كان مسروراً ، واستجلاب له لمن كان مضروراً ، لكنه سريع الانصرام بخلاف ثمرة الاجتماع على الدين من سرور العلو بالإسلام ، فإنه باق على الدوام ، علم أن التقدير بناء على ما تبع وصف الدنيا ، والآخرة جد وعمل وحضور فإن تقبلوا عليها تؤمنوا وتتقوا فلا تخدعنكم الدنيا على دناءتها عن نيل الآخرة بالجهاد الأكبر والأصغر على شرفها وشرفه ، قال بانياً على ما أرشد السياق إلى تقديره : ﴿ وإن تؤمنوا وتتقوا ﴾ أي تخافوا فتجعلوا بينكم وبين غضبه سبحانه وقاية من جهاد أعدائه ومقاساة لفح إيقاد الحروب وحر الأمر بالمعروف وإنفاق الأموال في ذلك ، فتكونوا جادين فتتركوا اللهو واللعب القائدين إلى الكفر ﴿ يؤتكم ﴾ أي الله الذي فعلتم ذلك من أجله في الدار الآخرة ﴿ أجوركم ﴾ أي ثواب كل أعمالكم لبنائها على الأساس ولأنه غني لا ينقصه إلا عطاء ، والآية من الاحتباك : ذكر الحياة الدنيا واللهو واللعب أولاً دال على ذكر الآخرة والجد ثانياً ،

وذكر الإيمان والتقوى ثانياً دال على حذف ضدهما الكفران والجرأة أولاً ، وسره أن تصوير الشيء بحال الصبي والسفيه أشد في الزجر عنه عند ذوي الهمم العالية ، وذكر الأجر المرتب على الخوف الذي هو فعل الحزمة أعون على تركه .

(60/710)

ولما كان الملعوب به الملهو منه يسأل اللاعب اللاهي من ماله ، ولا يقنع عند سؤاله ، فيكون سبباً لضياع أعماله وأمواله ، بين أن المعبود بخلاف ذلك في الأمرين ، وأنه يعطي ولا يأخذ لنفسه شيئاً وإنما أخذه أمره بمواصلة بعضكم لبعض فقال تعالى : ﴿ ولا يسئلكم ﴾ أي الله في الدنيا ﴿ أموالكم ﴾ أي لنفسه ولا كلها ، وهذا مفهم لأنهم إن لم يتقوا بما ذكر سلط عليه من يأخذ أموالهم بما يخرج أضغانهم ، قال ابن برجان : ومتى سئلوا أموالهم بخلوا ، فإن أكرهوا على ذلك أشحنوا ضغائن وحقائد ، ولم يكن من الإمام لهم نصيحة ولا منهم للإمام ولا لبعضهم لبعض ، وكان الخلاف ، وفي ذلك الحالقة ، وهو إنذار منه سبحانه بما يكون بعد ، وما أنذر شيئاً إلا كان منه ما شاء الله .

(61/710)

ولما كان الإنسان ، لما جبل عليه من النقصان ، قد يهلك جميع أمواله لهواً ولعباً بالمقامرة ونحوها ، ولا ينهاه ذلك بل لا يزيده إلا إقبالاً رجاء أن يظفر ، ولو سئل جميع ماله في الطاعة لبخل ، قال تعالى ذاكراً لهم ذلك تنبيهاً عليه وإيماء إلى حلمه تعالى عنهم وتحببه إليه معللاً ما قبله : ﴿ أن يسئلكموها ﴾ أي الأموال كلها ، ولما كانت الأموال قد تطلق على معظمها ، حقق المعنى بقوله : ﴿ فيحفكم ﴾ أي يبالغ في سؤالكم ويبلغ فيه الغاية حتى يستأصلها فيجهدكم بذلك ﴿ تبخلوا ﴾ فلا تعطوا شيئاً ﴿ ويخرج ﴾ أي الله أو المصدر المفهوم من " تبخلوا " بذلك السؤال ﴿ أضغانكم ﴾ أي ميلكم عنه حتى يكون آخر ذلك عداوة وحقداً ، وقد دل إضافة الأضغان إلى ضميرهم أن كل إنسان ينطوي بما له من النقصان ، على ما جبل عليه من الإضغان ، إلا من عصم الرحيم الرحمن ، قال الرازي : وهذا دليل على أن العبد إذا منع في مواسم الخيرات سوى الزكاة لم يخرج من البخل ، فحد البخل منع ما يرتضيه الشرع والمروءة فلا بد من مراعاة المروءة ورفع قبح الأحدوثة ، وذلك يختلف باختلاف الأشخاص ، وقدم المادة مهما ظهر له أن فائدة البذل أعظم من فائدة الإمساك ثم يشق عليه البذل فهو بخيل محب للمال ، والمال لا ينبغي أن يحب لذاته بل لفائدته ، وحفظ المروءة أعظم وأفضل وأقوى من التنعم بالأكل الكثير مثلاً .

ولما أخبر ببخلهم لو سئلوا جميع أموالهم أو أكثرها ، دل عليه بمن يبخل منهم عما سأله منهم وهو جزء يسير جداً من أموالهم ، فقال منبهاً لهم على حسن تدبيره لهم وعفوه عنهم عند من جعل " ها " للتنبيه ، ومن جعل الهاء بدلاً من همزة استفهام جعلها للتوبيخ والتقريع ، لأن من حق من دعاه مولاه أن يبادر للإجابة مسروراً فضلاً أن يبخل ، وفي هاء التنبيه ولا سيما عند من يرى تكررها تأكيد لأجل استبعادهم أن أحداً يبخل عما يأمر الله به سبحانه : ﴿ هأنتم ﴾ وحقر أمرهم أو أحضره في الذهن وصوره بقوله : ﴿ هؤلاء تدعون ﴾ أي إلى ربكم الذي لا يريد بدعائكم إلا نفعكم وأما هو فلا يلحقه نفع ولا ضر ﴿ لتنفقوا ﴾ شيئاً يسيراً من الزكاة وهي ربع العشر ونحوه ، ومن نفقة الغزو وقد يحصل من الغنيمة أضعافها وقد يحصل من المتجر أو أكثر ، وقد عم ذلك وغيره قوله : ﴿ في سبيل الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي يرجى خيره ويخشى ضيره ، بخلاف من يكون وما يكون به اللهو اللعب .

ولما أخبر بدعائهم ، فصلهم فقال تعالى : ﴿ فمنكم ﴾ أي أيها المدعون ﴿ من يبخل ﴾ وهو منكم لا شك فيه ، وحذف القسم الآخر وهو " ومنكم من يجود " لأن المراد الاستدلال على ما قبله من البخل .

ولما كان بخله عمن أعطاه المال بجزء يسير منه إنما طلبه ليقع المطلوب منه فقط زاد العجب بقوله : ﴿ ومن ﴾ أي والحال أنه من ﴿ يبخل ﴾ بذلك ﴿ فإنما يبخل ﴾ أي بماله بخلاً صادراً ﴿ عن نفسه ﴾ التي هي منبع الدنايا ، فلا تنفس ولا تنافس إلا في الشيء الخسيس ، فإن نفع ذلك الذي طلب منه فبخل به إنما هو له ، وأكده لأنه لا يكاد أحد يصدق أن عاقلاً يتجاوز بماله عن نفع نفسه ، ولذا حذف " ومن يجد فإنما يجد على نفسه " لفهمه عن السياق واستغناء الدليل عنه ، هذا والأحسن أن يكون " يبخل " متضمناً " يمسك " ثم حذف " يمسك " ودل عليه بحال محذوفة دل عليها التعدية بعن .

(63/710)

ولما كان سؤال المال قد يوهم شيئاً ، قال مزيلاً له مقرراً لأن بخل الإنسان إنما هو عن نفسه عطفاً على ما تقديره : لأن ضرر بخله إنما يعود عليه وهو سبحانه لم يسألكم ذلك لحاجته إليه ولا إلى شيء منكم ، بل لحاجتكم إلى الثواب ، وهو سبحانه قد بنى أمور هذه الدار كما اقتضته الحكمة على الأسباب : ﴿ والله ﴾ أي الملك الأعظم الذي له الإحاطة بجميع صفات الكمال ﴿ الغني ﴾ أي وحده ﴿ وأنتم ﴾ أيها المكلفون خاصة ﴿ الفقراء ﴾ لأن العطاء ينفعكم والمنع يضركم .

فمن افتقر منكم إلى فقير مثله وقع في الذل والهوان ، وقد جرت عادتكم أن يداخلكم من السرور ما لا يجد إذا طلب من أحد منكم أحد من الأجواد الأغنياء شيئاً طمعاً في جزائه ، فكونوا كذلك وأعظم إذا طلب منكم الغنى المطلق .

ولما كان التقدير : فإن تقبلوا بنولكم تفلحوا عطف عليه قوله مرهباً لأن الترهيب أردع : ﴿ وإن تتولوا ﴾ أي توقعوا التولي عنه تكلفوا أنفسكم ضد ما تدعو إليه الفطرة الأولى من السماح بذلك الجزاء اليسير جداً الموجب للثواب الخطير والفوز الدائم ، ومن الجهاد في سبيله ، والقيام بطاعته ، لكونه المحسن الذي لا محسن في الحقيقة غيره ﴿ يستبدل ﴾ أي يوجد ﴿ قوماً ﴾ فيهم قوة وكفاية لما يطلب منهم محاولته .

ولما كان ذلك مفهماً أنهم غيرهم ، لكنه لا يمنع أن يكونوا – مع كونهم غير أعيانهم – من قومهم أو أن يشأ دونهم في الصفات وإن كانوا من غير قومهم ، نبه على أنهم يكونون من غير قومهم وعلى غير صفاتهم ، بل هم أعلى منهم درجة وأكرم خليقة وأحسن فعلاً فقال تعالى : ﴿ غيركم ﴾ أي بدلاً منكم وهو على غير صفة التولي .

(64/710)

ولما كان الناس متقاربين في الجبلات ، وكان المال محبوباً ، كان من المستبعد جداً أن يكون هذا البذل على غير ما هم عليه ، قال تعالى مشيراً إلى ذلك بحرف التراخي تأكيداً لما أفهمه ما قلته من التعبير ب " غير " وتثبيتاً له : ﴿ ثم ﴾ أي بعد استبعاد من يستبعد وعلو الهمة في مجاوزة جميع عقبات النفس والشيطان : ﴿ لا يكونوا أمثالكم ﴾ في التولي عنه بترك شيء مما أمر به أو فعل شيء مما نهى عنه ، ومن قدر على الإيجاد قدر على الإعدام . بل هو أهون في مجاري العادات ، فقد ثبت أنه سبحانه لو شاء لانتصر من الكفار ، إما بإهلاكهم أو إما بناس غيركم بضرب رقابهم وأسرهم ، وغير ذلك من أمرهم ، وثبت بمواصلة ذم الكفار مع قدرته عليهم أنه أبطل أعمالهم ، فرجع بذلك أول السورة إلى آخرها ، وعانق موصله ما ترى من مفصلها ، وعلم أن معنى هذا الآخر وذلك الأول أنه سبحانه لا بد من إذلاله للكافرين وإعزازه للمؤمنين لأنهم إن أقبلوا على ما يرضيه فجاهدوا نصرهم نصراً عزيزاً بما ضمنه قوله تعالى ﴿ إن تنصروا الله ينصركم وثبت أقدامكم ﴾ وإن تتولوا أتى بقوم غيركم يقبلون عليه فيصدقهم وعده ، فصار خذلانهم أمراً متحتماً ، وهو معنى أول سورة محمد – والله الموفق لما يريد من الصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 182.179 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾

زيادة في التسلية يعني كيف تمنعك الدنيا من طلب الآخرة بالجهاد ، وهي لا تفوتك لكونك منصوراً غالباً ، وإن فاتتك فعملك غير موتر ، فكيف وما يفوتك ، فإن فات فائت ولم يعوض لا ينبغي لك أن تلتفت إليها لكونها لعباً ولهواً ، وقد ذكرنا في اللعب واللهو مراراً أن اللعب ما تشتغل به ولا يكون فيه ضرورة في الحال ولا منفعة في المآل ، ثم إن استعمله الإنسان ولم يشتغله عن غيره ، ولم يثنه عن أشغاله المهمة فهو لعب وإن شغله ودهشه عن مهماته فهو لهو ، ولهذا يقال ملاهي لآلات الملاهي لأنها مشغلة عن الغير ، ويقال لما دونه لعب كاللعب بالشطرنج والحمام ، وقد ذكرنا ذلك غير مرة ، وقوله ﴿ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾ إعادة للوعد والإضافة للتعريف ، أي الأجر الذي وعدكم بقوله ﴿ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [ياس : 11] ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [هود : 11] ﴿ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران : 172] وقوله ﴿ وَلاَ يَسْأَلْكُمْ أموالكم ﴾ يحتمل وجوهاً أحدها : أن الجهاد لا بد له من إنفاق ، فلو قال قائل أنا لا أنفق مالي ، فيقال له الله لا يسئلكم مالكم في الجهات المعينة من الزكاة والغنيمة وأموال المصالح فيها تحتاجون إليه من المال لا تراعون بإخراجه وثانيها :

الأموال لله وهي في أيديكم عارية وقد طلب منكم أو أجاز لكم في صرفها في جهة الجهاد فلا معنى لبخلكم بماله ، وإلى هذا إشارة بقوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السموات والأرض ﴾ [الحديد : 10] أي الكل لله وثالثها : لا يسألكم أموالكم كلها ، وإنما يسألكم شيئاً يسيراً منها وهو ربع العشر ، وهو قليل جداً لأن العشر هو الجزء الأقل إذ ليس دونه جزء وليس اسماً مفرداً ، وأما الجزء من أحد عشر ومن إثنى عشر و (إلى) مائة جزء لما لم يكن ملتفتاً إليه لم يوضع له اسم مفرد .

(66/710)

ثم إن الله تعالى لم يوجب ذلك في رأس المال بل أوجب ذلك في الربح الذي هو من فضل الله وعطائه ، وإن كان رأس المال أيضاً كذلك لكن هذا المعنى في الربح أظهر ، ولما كان المال منه ما ينفق للتجارة فيه ومنه ما لا ينفق ، وما أنفق منه للتجارة أحد قسميه وهو يحتمل أن تكون التجارة فيه رابحة ، ويحتمل أن لا تكون رابحة فصار القسم الواحد قسمين فصار في التقدير كان الربح في ربعه فأوجب (ربع) عشر الذي فيه الربح وهو عشر فهو ربع العشر وهو الواجب ، فعلم أن الله لا يسألكم أموالكم ولا الكثير منه .

إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (37)

الفاء في قوله ﴿ فَيُحْفِكُمْ ﴾ للإشارة إلى أن الإحفاء يتبع السؤال بياناً لشح الأنفس ، وذلك لأن العطف بالواو قد يكون للمثلين وبالفاء لا يكون إلا للمتعاقبين أو متعلقين أحدهما بالآخر فكأنه تعالى بيّن أن الإحفاء يقع عقيب السؤال لأن الإنسان بمجرد السؤال لا يعطي شيئاً وقوله ﴿ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أضغانكم ﴾ يعني ما طلبها ولو طلبها وألح عليكم في الطلب لبخلتم ، كيف وأنتم تبخلون باليسير لا تبخلون بالكثير وقوله ﴿ وَيُخْرِجْ أضغانكم ﴾ يعني بسببه فإن الطالب وهو النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يطلبونكم وأنتم لمحبة المال وشح الأنفس تمتنعون فيفضي إلى القتال وتظهر به الضغائن .

هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ

(67/710)

(يعني) قد طلبت منكم اليسير فبخلتم فكيف لو طلبت منكم الكل وقوله ﴿ هؤلاء ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما : أن تكون موصولة كأنه قال : أنتم هؤلاء الذين تدعون لتنفقوا في سبيل الله وثانيهما : ﴿ هؤلاء ﴾ وحدها خبر ﴿ أَنْتُمْ ﴾ كما يقال أنت هذا تحقيقاً للشهرة والظهور أي ظهر أثركم بحيث لا حاجة إلى الإخبار عنكم بأمر مغاير ثم يبتدىء ﴿ تَدْعُونَ ﴾ وقوله ﴿ تَدْعُونَ ﴾ أي إلى الإنفاق إما في سبيل الله تعالى بالجهاد ، وإما في

صرفه إلى المستحقين من إخوانكم ، وبالجملة ففي الجهتين تخذيل الأعداء ونصرة الأولياء ﴿ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ﴾ ، ثم بيّن أن ذلك البخل ضرر عائد إليه فلا تظنوا أنهم لا ينفقونه على غيرهم بل لا ينفقونه على أنفسهم فإن من يبخل بأجرة الطبيب وثمن الدواء وهو مريض فلا يبخل إلا على نفسه ، ثم حقق ذلك بقوله ﴿ والله الغني ﴾ غير محتاج إلى مالكم وأتمه بقوله ﴿ وَأَنتُمُ الفقراء ﴾ حتى لا تقولوا إنا أيضاً أغنياء عن القتال ، ودفع حاجة الفقراء فإنهم لا غنى لهم عن ذلك في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فلأنه لولا القتال لقتلوا ، فإن الكافر إن يغز يغز ، والمحتاج إن لم يدفع حاجته يقصده ، لا سيما أباح الشارع للمضطر ذلك ، وأما في الآخرة فظاهر فكيف لا يكون فقيراً وهو موقوف مسؤول يوم لا ينفع مال ولا بنون .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُواْ أَمثالكم ﴾ بيان الترتيب من وجهين : أحدهما : أنه ذكره بياناً للاستغناء ، كما قال تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [إبراهيم : 19] وقد ذكر أن هذا تقرير بعد التسليم ، كأنه تعالى يقول : الله غني عن العالم بأسره فلا حاجة له إليكم .

فإن كان ذاهب يذهب إلى أن ملكه بالعالم وجبروته يظهر به وعظمته بعباده ، فنقول هب أن هذا الباطل حق لكنكم غير متعينين له ، بل الله قادر على أن يخلق خلقاً غيركم يفتخرون بعبادته ، وعالماً غير هذا يشهد بعظمته وكبريائه وثانيهما : أنه تعالى لما بيّن الأمور وأقام عليها البراهين وأوضحها بالأمثلة قال إن أطعتم فلكم أجوركم وزيادة وإن تتولوا لم يبق لكم إلا الإهلاك فإن ما من نبي أنذر قومه وأصروا على تكذيبه إلا وقد حق عليهم القول بالإهلاك وطهر الله الأرض منهم وأتى بقوم آخرين طاهرين ، وقوله ﴿ ثُمَّ لاَ يَكُونُواْ أمثالكم ﴾ فيه مسألة نحوية يتبين منها فوائد عزيزة وهي : أن النحاة قالوا : يجوز في المعطوف على جواب الشرط بالواو والفاء وثم ، الجزم والرفع جميعاً ، قال الله تعالى ههنا ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُواْ أمثالكم ﴾ بالجزم ، وقال في موضع آخر ﴿ وَإِن يقاتلوكم يُوَلُّوكُمُ الأدبار ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ ﴾ [آل عمران : 111] بالرفع بإثبات النون وهو مع الجواز ، ففيه تدقيق : وهو أن ههنا لا يكون متعلقاً بالتولي لأنهم إن لم يتولوا يكونون ممن يأتي بهم الله على الطاعة وإن تولوا لا يكونون مثلهم لكونهم عاصين ، كون من يأتي بهم مطيعين ، وأما هناك سواء قاتلوا أو لم يقاتلوا لا ينصرون ، فلم يكن للتعليق هناك وجه فرفع بالابتداء ، وههنا جزم للتعليق .

وقوله ﴿ ثُمَّ لاَ يَكُونُواْ أمثالكم ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون المراد ﴿ ثُمَّ لاَ يَكُونُواْ أمثالكم ﴾ في الوصف ولا في الجنس وهو لائق الوجه الثاني : وفيه وجوه أحدها : قوم من

العجم ثانيها : قوم من فارس روي أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عمن يستبدل بهم إن تولوا وسلمان إلى جنبه فقال : " هذا وقومه " ثم قال : " لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لناله رجال من فارس " و ثالثها : قوم من الأنصار ، والله أعلم .

والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على خير خلقه محمد النبي وآله وصحبه وعترته وآل بيته أجمعين وسلم تسليماً كثيراً آمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 64 .

66 ﴾

(69/710)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم حتى نَعْلَمَ المجاهدين مِنكُمْ والصابرين ﴾

وقرأ جمهور القراء : " ولنبلونكم " بالنون ، وكذلك " نعلم " وكذلك " نبلوا " ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر : " وليبلونكم الله " ، وكذلك " يعلم " ويبلو " .

وروى رويس عن يعقوب : " ويبلو " بالرفع على القطع والإعلام بأن ابتلاءه دائم . وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى ، وقال : اللهم لا تبتلنا ، فإنك إن ابتليتنا فضحتنا وهتكت أستارنا .

وقوله تعالى : ﴿ حتى نعلم المجاهدين ﴾ أي حتى يعلمهم مجاهدين قد خرج جهادهم إلى الوجود وبان تكسبهم الذي به يتعلق ثوابهم ، وعلم الله بالمجاهدين قديم أزلي ، وإنما المعنى ما ذكرناه .

وقوله تعالى : ﴿ وصدوا ﴾ يحتمل أن يكون المعنى : ﴿ وصدوا ﴾ غيرهم ، ويحتمل أن يكون غير متعد ، بمعنى : وصدوهم في أنفسهم .

وقوله : ﴿ وشاقوا الرسول ﴾ معناه : خالفوه ، فكانوا في شق وهو في شق . وقوله : ﴿ من بعد ما تبين لهم الهدى ﴾ قالت فرقة : نزلت في قوم من بني إسرائيل فعلوا هذه الأفاعيل بعد تبينهم لأمر محمد عليه السلام من التوراة . وقالت فرقة : نزلت في قوم من المنافقين حدث النفاق في نفوسهم بعد ما كان الإيمان داخلها . وقال ابن عباس : نزلت في المطعمين سفرة بدر ، و: " تبين الهدى " هو وجوده عند الداعي إليه . وقالت فرقة : بل هي عامة في كل كافر ، وألزمهم أنه قد ﴿ تبين لهم الهدى ﴾ من حيث كان الهدى بيناً في نفسه ، وهذا كما تقول لإنسان يخالفك في احتجاج على معنى التوبيخ له : أنت تخالف في شيء لا خفاء به عليك ، بمعنى أنه هكذا هو في نفسه . وقوله : ﴿ لن يضروا الله ﴾ تحقير لهم .

(70/710)

وقوله : ﴿ وسيحبط أعمالهم ﴾ إما على قول من يرى أن أعمالهم الصالحة من صلة رحم ونحوه تكتب فيجيء هذا الإحباط فيها متمكناً ، وإما على قول من لا يرى ذلك ، فمعنى ﴿ وسيحبط أعمالهم ﴾ أنها عبارة عن إعدامه أعمالهم وإفسادها ، وأنها لا توجد شيئاً منتفعاً به ، فذلك إحباط على تشبيه واستعارة .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (33)

روي أن هذه الآية نزلت في بني أسد من العرب ، وذلك أنهم أسلموا وقالوا لرسول الله عليه السلام : نحن قد آثرناك على كل شيء وجئناك بنفوسنا وأهلنا ، كأنهم منوا بذلك ، فنزل فيهم : ﴿ يمنون عليك أن أسلموا ﴾ [الحجرات : 17] ونزلت فيهم هذه الآية .

قال القاضي أبو محمد : فإن كان هذا فالإبطال الذي نهوا عنه ليس بمعنى الإفساد التام ، لأن الإفساد التام لا يكون إلا بالكفر ، وإلا فالحسنات لا تبطلها المعاصي ، وإن كانت الآية عامة على ظاهرها نهي الناس عن إبطال أعمالهم بالكفر ، والإبطال هو الإفساد التام .

وقوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار ﴾ روي أنها نزلت بسبب عدي بن حاتم قال : يا رسول الله إن حاتماً كانت له أفعال بر فما حاله ؟ فقال رسوله الله صلى الله عليه وسلم " هو في النار " ، فبكى عدي وولى ، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : " أبي وابوك وأبو إبراهيم خليل الرحمن في النار " ونزلت هذه

الآية في ذلك ، وظاهر الآية العموم في كل ما تناولته الصفة .

وقوله تعالى : ﴿ فلا تهنوا ﴾ معناه : فلا تضعفوا ، من وهن الرجل إذا ضعف .

(71/710)

وقرأ جمهور الناس : " وتدعوا " وقرأ أبو عبد الرحمن : " وتدّعوا " بشد الدال . وقرأ جمهور القراء : " إلى السَلم " بفتح السين . وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم : " إلى السِلم " بكسر السين . وهي قراءة الحسن وأبي رجاء والأعمش وعيسى وطلحة وهو بمعنى المسالمة . وقال الحسن بن أبي الحسن وفرقة ممن كسر السين إنه بمعنى إلى الإسلام ، أي لا تهنوا وتكونوا داعين إلى الإسلام فقط دون مقاتلين بسببه . وقال قتادة معنى الآية : لا تكونوا أول الطائفتين ضرعت للأخرى .

قال القاضي أبو محمد : وهذا حسن ملتئم مع قوله : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ﴾ [الأنفال : 61] .

وقوله : ﴿ وأنتم الأعلون ﴾ يحتمل موضعين أحدهما : أن يكون في موضع الحال ، المعنى : لا تهنوا وأنتم في هذه الحال . والمعنى الثاني : أن يكون إخباراً بنصره ومعونته . و" يتر " ، معناه ينقص ويذهب ، ومنه قوله عليه السلام : " من ترك صلاة العصر فكأنما وتر أهله

وماله " أي ذهب بجميع ذلك على جهة التغلب والقهر ، والمعنى : لن يتركم ثواب أعمالكم وجزاء أعمالكم . واللفظة مأخوذة من الوتر الذي هو الدحل ، وذهب قوم إلى أنه مأخوذ من الوتر الذي هو الفرد ، المعنى لن يفردكم من ثواب أعمالكم ، والأول أصح ، وفسر ابن عباس وأصحابه ﴿ يتركم ﴾ بيظلمكم .

قوله تعالى : ﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو ﴾ تحقير لأمر الدنيا ، أي فلا تهنوا في الجهاد بسببها ، ووصفها باللعب واللهو هو على أنها وما فيها مما يختص بها لعب ، وإلا ففي الدنيا ما ليس بلعب ولا لهو ، وهو الطاعة وأمر الآخرة وما جرى مجراه .

(72/710)

وقوله تعالى : ﴿ وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ﴾ معناه هذا هوا لمطلوب منكم لا غيره ، لا تسألون أموالكم أن تنفقوها في سبيل الله . وقال سفيان بن عيينة : لا يسألكم كثيراً من أموالكم إحفاء إنما يسألكم غيضاً من فيض ربع العشر فطيبوا أنفسكم ، ثم قال تعالى منبهاً على خلق ابن آدم ﴿ إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ﴾ والإحفاء هو أشد السؤال وهو المخجل المخرج ما عند المسؤول كرهاً ، ومنه حفاء الرجل . والتحفي من البحث عن الشيء . وقوله : ﴿ تبخلوا ﴾ جزم على جواب شرط .

وقرأ جمهور القراء : " ويخرجْ " جزماً على ﴿ تبخلوا ﴾ . وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو : " ويخرجُ " بالرفع على القطع ، بمعنى هو يخرج ، وحكاها أبو حاتم عن عيسى وقرأت فرقة : ﴿ و ﴾ بالنصب على معنى : يكن بخل وإخراج ، فلما جاءت العبارة بفعل دل على أن التي مع الفعل بتأويل المصدر الذي هو الإخراج ، والفاعل في قوله : ﴿ ويخرج ﴾ على كل الاختلافات يحتمل أن يكون الله ، ويحتمل أن يكون البخل الذي تضمنه اللفظ ، ويحتمل أن يكون السؤال الذي يتضمنه اللفظ أيضاً . وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن سيرين وابن محيصن وأيوب : " يخرج " بفتح الياء " أضغانُكم " رفعاً على أنها فاعلة وروي عنهم : " وتُخرَج " بضم التاء وفتح الراء على ما لم يسم فاعله .

وقرأ يعقوب : " ونُخرِج " بضم النون وكسر الراء " أضغانَكم " نصباً . والأضغان كما قلنا معتقدات السوء ، وهذا الذي كان يخاف أن يعتري المسلمين هو الذي تقرب به محمد بن مسلمة إلى كعب بن الأشرف حين قال له : إن هذا الرجل قد أكثر علينا وطلب منا الأموال ثم وقف تعالى عباده المؤمنين على جهة التوبيخ لبعضهم ﴿ ها أنتم هؤلاء ﴾ وكرر هاء التنبيه تأكيداً .

وقوله : ﴿ عن نفسه ﴾ يحتمل معنيين ، أحدهما : فإنما يبخل عن شح نفسه ، والآخر أن يكون بمنزلة على ، لأنك تقول : بخلت عليك وبخلت عنك ، بمعنى : أمسكت عنك .

وقوله تعالى : ﴿ والله الغني وأنتم الفقراء ﴾ معنى مطرد في قليل الأشياء وكثيرها .

وقوله تعالى : ﴿ يستبدل قوماً غيركم ﴾ قيل الخطاب لقريش ، والقوم الغير هم أهل المدينة . وقال عبد الرحمن بن جبير وشريح بن عبيد : الخطاب لمن حضر المدينة . والقوم الغير : فارس . وروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن هذا وكان سلمان إلى جنبه فوضع يده على فخذه وقال : " قوم هذا ، لو كان الدين بالثريا لناله رجال من أهل فارس " .

وقوله : ﴿ أمثالكم ﴾ معناه في الخلاف والتولي والبخل بالأموال ونحو هذا ، وحكى الثعلبي أن القوم الغير : هم الملائكة .

نجز تفسير سورة القتال ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(74/710)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الحياة الدنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾

تقدّم في "الأنعام" .

﴿ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾ شرط وجوابه ﴿ وَلاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ أي لا يأمركم بإخراج جميعها في الزكاة ؛ بل أمر بإخراج البعض ؛ قاله ابن عُيينة وغيره .

وقيل : "لاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ" لنفسه أو لحاجة منه إليها ؛ إنما يأمركم بالإنفاق في سبيله ليرجع ثوابه إليكم .

وقيل : "لاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ" إنما يسألكم أمواله ؛ لأنه المالك لها وهو المنعم بإعطائها .

وقيل : ولا يسألكم محمد أموالكم أجراً على تبليغ الرسالة .

نظيره : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ [الفرقان : 75] الآية .

﴿ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ ﴾ يلحّ عليكم ؛ يقال : أحفى بالمسألة وألحف وألحّ بمعنًى واحد .

والحَفِيّ المستقصِي في السؤال ؛ وكذلك الإحفاء الاستقصاء في الكلام والمنازعة .

ومنه أحفى شاربه أي استقصى في أخذه .

﴿ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾ أي يخرج البخل أضغانكم .

قال قتادة : قد علم الله أن في سؤال المال خروج الأضغان .

وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن مُحَيصِن وحميد "وتَخرُج" بناء مفتوحة وراء مضمومة .

"أَضْغَانُكُمْ" بالرفع لكونه الفاعل .

وروى الوليد عن يعقوب الحضرميّ "ونخرج" بالنون.

وأبو معمر عن عبد الوارث عن أبي عمرو "ويخرج" بالرفع في الجيم على القطع والاستئناف والمشهور عنه "ويُخْرِج" كسائر القرّاء، عطف على ما تقدّم.

قوله تعالى: ﴿ هَا أَنتُمْ هؤلاء تُدْعَوْنَ ﴾ أي هأنتم هؤلاء أيها المؤمنون تدعون ﴿ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ الله ﴾ أي في الجهاد وطريق الخير.

﴿ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ﴾ أي على نفسه؛ أي يمنعها الأجر والثواب.

﴿ والله الغني ﴾ أي إنه ليس بمحتاج إلى أموالكم.

﴿ وَأَنتُمُ الفقرآء ﴾ إليها.

(75/710)

﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ أي أطوع لله منكم.

روى الترمذيّ "عن أبي هريرة قال: تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يكونوا أَمْثَالَكُم ﴾ قالوا: ومن يُستبدل بنا؟ قال: فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على منكِب سلمان ثم قال: "هذا وقومه.

هذا وقومه" " قال : حديث غريب في إسناده مقال .

وقد روى عبد الله بن جعفر بن نجيح والد علي بن المديني أيضاً هذا الحديث عن العلاء بن عبد الرحمن " عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله ، من هؤلاء الذين ذكر الله إن تَوَلَّينا استبدلوا ثم لا يكونوا أمثالنا ؟ قال : وكان سلمان جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فخذ سلمان ، قال : "هذا وأصحابه .

والذي نفسي بيده لو كان الإيمان مَنُوطاً بالثُّرَيَّا لتناوله رجال من فارس" " وقال الحسن : هم العجم .

وقال عكرمة : هم فارس والروم .

قال المحاسبيّ : فلا أحد بعد العرب من جميع أجناس الأعاجم أحسنُ دِيناً ، ولا كانت العلماء منهم إلا الفرس .

وقيل : إنهم اليمن ، وهم الأنصار ؛ قاله شريح بن عبيد .

وكذا قال ابن عباس : هم الأنصار .

وعنه أنهم الملائكة .

وعنه هم التابعون .

وقال مجاهد : إنهم من شاء من سائر الناس .

﴿ ثُمَّ لاَ يكونوا أَمْثَالَكُم ﴾ قال الطبريّ : أي في البخل بالإنفاق في سبيل الله .

وحكي عن أبي موسى الأشعري أنه لما نزلت هذه الآية فرح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " هي أحبّ إليّ من الدنيا " والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(76/710)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (29) ﴾

إخراج أضغانهم ، وهو حقودها : إبرازها للرسول والمؤمنين ؛ والظاهر أنها من رؤية البصر لعطف العرفان عليه ، وهو معرفة القلب .

واتصل الضمير في أريناكهم ، وهو الأفصح ، وإن كان يجوز الانفصال .

وفي هاتين الجملتين تقريب لشهرتهم ، لكنه لم يعينهم بأسمائهم ، إبقاء عليهم وعلى قراباتهم ، واكتفاء منهم بما يتظاهرون به من اتباع الشرع ، وإن أبطنوا خلافه .

﴿ ولتعرفنهم من لحن القول ﴾ : كانوا يصطلحون فيما بينهم من ألفاظ يخاطبون بها الرسول ، مما ظاهره حسن ويعنون به القبيح ، وكانوا أيضاً يصدر منهم الكلام يشعر بالاتباع

، وهم بخلاف ذلك ، كقولهم عند النصر : ﴿ إنا كنا معكم ﴾ وغير ذلك ، كقولهم : ﴿ لئن رجعنا إلى المدينة ﴾ وقوله : ﴿ إن بيوتنا عورة ﴾ والظاهر الإراءة والمعرفة بالسيماء ، وجود المعرفة في المستقبل بلحن القول .

واللام في : ﴿ ولتعرفنهم ﴾ ، لام جواب القسم المحذوف .

﴿ والله يعلم أعمالكم ﴾ : خطاب عام يشمل المؤمن والكافر ؛ وقيل : خطاب للمؤمنين فقط .

وقرأ الجمهور : ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم ﴾ ، ونبلو : بالنون والواو ؛ وأبو بكر : بالياء فيهن وأويس ، ونبلو : بإسكان الواو وبالنون ؛ والأعمش : بإسكانها وبالياء ، وذلك على القطع ، إعلاماً بأن ابتلاءه دائم .

ومعنى : ﴿ حتى نعلم المجاهدين ﴾ : أي نعلمهم مجاهدين قد خرج جهادهم إلى الوجود ، وبأن مسكهم الذي يتعلق به ثوابهم .

﴿ إن الذين كفروا ﴾ : ناس من بني إسرائيل ، وتبين هداهم : معرفتهم بالرسول من التوراة ، أو منافقون كأن الإيمان قد داخل قلوبهم ثم نافقوا ؛ والمطعمون : سفرة بدر ؛ وتبين الهدى : وجوده عند الداعي إليه ، أو مشاعة في كل كافر ؛ وتبين الهدى من حيث كان في نفسه ، أقوال .

﴿ وسيحبط أعمالهم ﴾ : أي التي كانوا يرجون بها انتفاعاً ، وأعمالهم التي كانوا يكيدون بها الرسول ودين الإسلام .

﴿ يا أيها الذين أمنوا ﴾ : قيل نزلت في بني إسرائيل ، أسلموا وقالوا لرسول الله : قد آثرناك وجئناك بنفوسنا وأهلنا ، كأنهم منوا بذلك ، فنزلت فيهم هذه الآية .

وقوله : ﴿ يمنون عليك أن أسلموا ﴾ فعلى هذا يكون : ﴿ ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ بالمن بالإسلام .

وعن ابن عباس : بالرياء والسمعة ، وعنه : بالشرك والنفاق ؛ وعن حذيفة : بالكبائر ، وقيل : بالعجب ، فإنه يأكل الحسنات ، كما تأكل النار الحطب .

وعن مقاتل : بعصيانكم للرسول .

وقيل : أعمالكم : صدقاتكم بالمن والأذى .

﴿ وماتوا وهم كفار ﴾ : عام في الموجب لانتفاء الغفران ، وهو وفاتهم على الكفر .

وقيل : هم أهل القليب .

وقيل : نزلت بسبب عدي بن حاتم ، رضي الله عنه ، " سأل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن أبيه قال : وكانت له أفعال بر ، فما حاله ؟ فقال : "في النار" ، فبكى عدي وولى ، فدعاه فقال له : "أبي وأبوك وأبو إبراهيم خليل الرحمن في النار " ، فنزلت .

﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم ﴾ : وهو الصلح .

وقرأ الجمهور : وتدعوا ، مضارع دعا ؛ والسلمي : بتشديد الدال ، أي تفتروا ؛ والجمهور : إلى السلم ، بفتح السين ؛ والحسن ، وأبو رجاء ، والأعمش ، وعيسى ، وطلحة ، وحمزة ، وأبو بكر : بكسرها .

وتقدم الكلام على السلام في البقرة في قوله : ﴿ ادخلوا في السلام كافة ﴾ وقال الزمخشري : وقرىء : ولا تدعوا من ادعى القوم ، وتداعوا إذا ادعوا ، نحو قولك : ارتموا الصيد وتراموا . انتهى .

والتلاوة بغير لا ، وكان يجب أن يأتي بلفظ التلاوة فيقول : وقرىء : وتدعوا معطوف على تهنوا ، فهو مجزوم ، ويجوز أن يكون مجزوماً بإضمار إن .

﴿ وأنتم الأعلون ﴾ : أي الأعليون ، وهذه الجملة حالية ؛ وكذا : ﴿ والله معكم ﴾ .

(78/710)

ويجوز أن يكونا جملتي استئناف ، أخبر أولاً بقوله : ﴿ أنتم الأعلون ﴾ ، فهو إخبار بمغيب أبرزه الوجود ، ثم ارتقى إلى رتبة أعلى من التي قبلها ، وهي كون الله تعالى معهم .

﴿ ولن يتركم ﴾ ، قال ابن عباس : ولن يظلمكم ؛ وقيل : لن يعريكم من ثواب أعمالكم ؛

وقيل : ولين ينقصكم .

وقال الزمخشري ، وقال أبو عبيد : ﴿ ولن يتركم ﴾ : من وترت الرجل ، إذا قتلت له قتيلاً من ولد أو أخ أو حميم أو قريب ؛ قال : أو ذهبت بماله ؛ قال : أو حربته ، وحقيقته أفردته من قريبه أو ماله من الوتر وهو الفرد .

فشبه إضاعة عمل العامل وتعطيل ثوابه بوتر الواتر ، وهو من فصيح الكلام ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : " من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله " ، أي أفرد عنهما قتلاً ونهباً .

﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو ﴾ : وهو تحقير لأثر الدنيا ، أي فلا تهنوا في الجهاد .

وأخبر عنها بذلك ، باعتبار ما يختص بها من ذلك ؛ وأما ما فيها من الطاعة وأمر الآخرة فليس بذلك .

﴿ يؤتكم أجوركم ﴾ : أي ثواب أعمالكم من الإيمان والتقوى ، ﴿ ولا يسألكم أموالكم ﴾ .

قال سفيان بن عيينة : أي كثيراً من أموالكم ، إنما يسألكم ربع العشر ، فطيبوا أنفسكم .

وقيل : لا حاجة إليها ، بل يرجع ثواب إنفاقكم إليكم .

وقيل : إنما يسألكم أمواله ، لأنه هو المالك لها حقيقة ، وهو المنعم بإعطائها .

وقيل : الضمير في يسألكم للرسول ، أي لا يسألكم أجراً على تبليغ الرسالة ، كما قال : ﴿

قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ﴾ ﴿ إن يسألكموها جميعاً فيحفكم ﴾ : أي يبالغ في الإلحاح.

﴿ تبخلوا ويخرج أضغانكم ﴾ : أي تطعنون على الرسول وتضيق صدوركم كذلك ، وتخفون ديناً يذهب بأموالكم.

وقرأ الجمهور : ويخرج أضغانكم جزماً على جواب الشرط ، والفعل مسند إلى الله ، أو إلى الرسول ، أو إلى البخل.

وقرأ عبد الوارث ، عن أبي عمرو : ويخرج ، بالرفع على الاستئناف بمعنى : وهو يخرج.

(79/710)

وحكاها أبو حاتم ، عن عيسى ؛ وفي اللوامح عن عبد الوارث ، عن أبي عمرو : وتخرج ، بالتاء وفتحها وضم الراء والجيم ؛ أضغانكم : بالرفع ، بمعنى : وهو يخرج أو سيخرج أضغانكم ، رفع بفعله.

وقرأ ابن عباس ، ومجاهد ، وابن سيرين ، وابن محيصن ، وأيوب بن المتوكل ، واليماني : وتخرج ، بتاء التأنيث مفتوحة ؛ أضغانكم : رفع به ؛ ويعقوب : ونخرج ، بالنون ؛ أضغانكم : رفعاً ، وهي مروية عن عيسى ، إلا أنه فتح الجيم بإضمار أن ، فالواو عاطفة على مصدر

متوهم ، أي يكف بخلكم وإخراج أضغانكم .

وهذا الذي خيف أن يعتري المؤمنين ، هو الذي تقرب به محمد بن سلمة إلى كعب بن الأشرف ، وتوصل به إلى قتله حين قاله له : إن هذا الرجل قد أكثر علينا وطلب منا الأموال .

﴿ ها أنتم هؤلاء ﴾ : كررها التنبيه توكيداً ، وتقدم الكلام على هذا التركيب في سورة آل عمران .

وقال الزمخشري : هؤلاء موصول بمعنى الذين صلته تدعون ، أي أنتم الذين تدعون ، أو أنتم يا مخاطبون هؤلاء الموصوفون ؛ ثم استأنف وصفهم كأنهم قالوا : وما وصفنا فقيل : تدعون لتنفقوا في سبيل الله . انتهى .

وكون هؤلاء موصولاً إذا تقدمها ما الاستفهامية باتفاق ، أو من الاستفهامية باختلاف .

﴿ في سبيل الله ﴾ ، قيل : للغزو ، وقيل : الزكاة ، واللفظ أعم .

﴿ ومن يبخل ﴾ : أي بالصدقة وما أوجب الله عليه ؛ ﴿ فإنما يبخل على نفسه ﴾ : أي لا يتعدى ضرره لغيره .

وبخل يتعدى بعلى وبعن .

يقال : بخلت عليه وعنه ، وصليت عليه وعنه ؛ وكأنهما إذا عديا بعن ضمناً معنى الإمساك ، كأنه قيل : أمسكت عنه بالبخل .

﴿ والله الغني وأنتم الفقراء ﴾ : أي الغني مطلقاً ، إذ يستحيل عليه الحاجات .

وأنتم الفقراء مطلقاً ، لافتقاركم إلى ما تحتاجون إليه في الدنيا ، وإلى الثواب في الآخرة .

﴿ وإن تتولوا ﴾ : عطف على : ﴿ وإن تؤمنوا وتتقوا ﴾ ، أي وإن تتولوا ، أي عن الإيمان والتقوى .

(80/710)

﴿ يستبدل قوماً غيركم ﴾ : أي يخلق قوماً غيركم راغبين في الإيمان والتقوى ، غير متولين عنهما ، كما قال : ﴿ ويأت بخلق جديد ﴾ وتعيين أولئك القوم ، وأنهم الأنصار ، أو التابعون ، أو أهل اليمن ، أو كندة والنخع ، أو العجم ، أو فارس والروم ، أو الملائكة ، أقوال .

والخطاب لقريش ، أو لأهل المدينة ، قولان .

وروى أبو هريرة أنه عليه الصلاة والسلام سئل عن هذا ، وكان سلمان إلى جنبه ، فوضع يده على فخذه وقال : " قوم هذا والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس " وإن صح هذا الحديث ، وجب المصير في تعيين ما انبهم من قوله : ﴿ قوماً غيركم ﴾ إلى تعيين الرسول .

﴿ ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ : أي في الخلاف والتولي والبخل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(81/710)

وقال الثعالبى :

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا الحياة الدنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾

تحقير لأمر الدنيا .

وقوله : ﴿ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾ معناه : هذا هو المطلوب منكم ، لا غيره ؛ لا تُسْأَلُون أموالكم ، ثم قال سبحانهُ مُنَبِّهاً على خُلق ابن آدم : ﴿ إِن يَسْئَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ ﴾ والإحفاء هو أشدُّ السؤال ، وهو الذي يَسْتَخْرِجُ ما عند المسؤول كرهاً .

* ت * : وقال الثعلبيُّ : «فيحفكم» أي : يجهدكم ويلحف عليكم .

وقوله : «تبخلوا» جزماً على جواب الشرط «ويخرج أضغانكم» أي : يخرج اللَّه أضغانكم ، وقرأ يعقوب : «وَنُخْرِجْ» بالنون ، والأضغان : مُعْتَقَدَاتُ السوء ، وهو الذي كان يخاف أنْ يعترِيَ المسلمين ، ثم وقف اللَّه تعالى عباده المؤمنين على جهة التوبيخ لبعضهم بقوله : ﴿ هَأَنتُمْ هَؤُلاءِ ﴾ وكرر «هاء» التنبيه ؛ تأكيداً .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ﴾ أي : بالثواب ﴿ والله الغنى ﴾ أي : عن صدقاتكم ﴿ وَأَنتُمُ الفقراء ﴾ إلى ثوابها .

* ت * : هذا لفظ الثعلبيِّ ، قال * ع * : يقال : بَخِلْتُ عليك بكذا ، وبخلت عنك بمعنى أمسكت عنك ، وروى التِّرْمِذِيُّ عن أبي هريرةَ عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال : " السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ ، قَرِيبٌ مِنَ الجَنَّةِ ، قَرِيبٌ مِنْ النَّاسِ ، بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ ، وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ ، بَعِيدٌ مِنَ الجَنَّةِ ، بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ ، قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ ، وَلَجَاهِلٌ سَخِيٌّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ عَابِدٍ بَخِيلٍ " ، قال أبو عيسى : هذا حديث حسن . غريب ، انتهى .

(82/710)

وقوله سبحانه : ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ قالت فرقة : هذا الخطاب لجميعِ المسلمين والمشركين والعرب حينئذٍ ، والقوم الغير هم فارس ، وروى أبو هريرةَ أَنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم سُئِلَ عَنْ هذا وَكَانَ سَلْمَانُ إِلَى جَنْبِهِ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى فَخِذِهِ وَقَالَ : " قَوْمُ هَذَا ؛ لَوْ كَانَ الدِّينُ فِي الثُّرَيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ فَارِسَ " . وقوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ معناه : في الخلاف والتولي والبُخْلِ بالأموال ونحوِ هذا ، وحكى الثعلبيُّ قولاً أَنَّ القوم الغير هم الملائكة .

* ت * : وليس لأحد مع الحديث : إذا صَحَّ نظر ، ولولا الحديثُ لاحتمل أن يكون الغير ما يأتي من الخَلَفِ بعد ذهاب السَّلَفِ ، على ما ذكر في غير هذا الموضع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 4 صـ ﴾

---

(1) لله در العلامة الثعالبى ما أجملها من قاعدة يجب تعميمها . والله أعلم .

(83/710)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم ﴾

بالأمرِ بالجهادِ ونحوِه من التكاليفِ الشاقةِ ﴿ حتى نَعْلَمَ المجاهدين مِنكُمْ والصابرين ﴾ على مشاقِّ الجهادِ علماً فعلياً يتعلقُ به الجزاءَ ﴿ وَنَبْلُوَ أخباركم ﴾ ما يخبرُ به عن أعمالِكم فيظهرُ حسنُها وقبيحُها . وقُرِىءَ ويبلوَ بالياء ، وقُرِىءَ نبلُوْ بسكونِ الواو ، على معنى ونحنُ نبلُوا .

﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ ﴾ الناسَ ﴿ عَن سَبِيلِ الله وَشَاقُّواْ الرسول ﴾ وعادَوه ﴿ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهدى ﴾ بما شاهدُوا نعتَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في التوراةِ بما ظهرَ على يديهِ من المعجزاتِ ونزلَ عليه من الآياتِ وهم قريظةُ والنضيرُ أو المطعمونَ يومَ بدرٍ . ﴿ لَن

يَضُرُّواْ اللهَ ﴾ بكُفرِهم وصدّهم ﴿ شَيْئاً ﴾ من الأشياءِ أو شيئاً من الضررِ أو لن يضرُّوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بمشاقَّتِه شيئاً . وقد حُذفَ المضافُ لتعظيمِه وتفظيعِ مشاقَّته . ﴿ وَسَيُحْبِطُ أعمالهم ﴾ أي مكايدَهُم التي نصبُوها في إبطالِ دينِه تعالى ومُشاقَّةِ رسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فلا يصلونَ بَها إلى ما كانُوا يبغونَ من الغوائلِ ولا تُثمر لهم إلا القتلَ والجلاَ عن أوطانِهم . ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرسول وَلاَ تُبْطِلُواْ أعمالكم ﴾ بما أبطلَ به هؤلاءِ أعمالَهم من الكفرِ والنفاقِ والعُجبِ والرياءِ والمنِّ والأَذَى ونحوِها ، وليسَ فيه دليلٌ على إحباطِ الطاعاتِ بالكبائرِ .

﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ الله لَهُمْ ﴾ حكمٌ يعمُّ كلَّ مَن ماتَ على الكُفر وإنْ صحَّ نزولُه في أصحابِ القَليبِ .

(84/710)

﴿ فَلاَ تَهِنُواْ ﴾ أي لا تضعُفوا ﴿ وَتَدْعُواْ إِلَى السلم ﴾ أي ولا تدْعوا الكفارَ إلى الصلحِ خَوَراً فإنَّ ذلك إعطاءُ الدنيَّةِ . ويجوزُ أن يكونَ منصوباً بإضمارِ أنْ على جوابِ النَّهي . وقُرِىءَ ولا تدَّعُوا من ادَّعى القومُ بمعنى تَدَاعَوا نحوُ ارتَموا الصيدَ وتَرَامَوهُ ومنه تراءَوا الهلالَ فإنَّ صيغةَ التفاعلِ قد يُرادُ بها صدورُ الفعلِ عن المتعددِ من غيرِ اعتبارِ وقوعِه

عليه . ومنه قولُه تعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءلُونَ ﴾ على أحدِ الوجهينِ . والفاءُ لترتيبِ النَّهي على ما سبقَ من الأمرِ بالطَّاعةِ . وقولُه تعالى : ﴿ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ ﴾ جملةٌ حاليةٌ مقررةٌ لمعنى النَّهي مؤكدةٌ لوجوبِ الانتهاءِ ، وكذا قولُه تعالى : ﴿ واللهُ مَعَكُمْ ﴾ فإنَّ كونَهمُ الأعلينَ وكونَهُ عزَّ وجلَّ ناصرَهُم من أَقْوى موجباتِ الاجتنابِ عمَّا يُوهم الذلَّ والضراعةَ وكذا توفيتُه تعالى لأجورِ الأعمالِ حسبما يُعربُ عنه قولُه تعالى : ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أعمالكم ﴾ أيْ ولن يضيِّعَها من وتَرتَ الرجلَ إذا قتلتَ له قتيلاً من ولدٍ أو أخٍ أو حميمٍ فأفردتَه عنه من الوترِ الذي هُو الفردُ . وعُبِّرَ عن تركِ الإثابةِ في مقابلةِ الأعمالِ بالوترِ الذي هو إضاعةُ شيءٍ معتدَ به من الأنفس والأموال مع أن الأعمال غير موجبة للثواب على قاعدة أهل السَّنَّةِ إبرازاً لغايةِ اللطفِ بتصويرِ الثوابِ بصورةِ الحقِّ المستحقِّ وتنزيلِ تركِ الإثابةِ منزلةَ إضاعةِ أعظمِ الحقوقِ وإتلافِها ، وقد مرَّ في قولِه تعالى : ﴿ فاستجاب لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ . ﴾ ﴿ إِنَّمَا الحياة الدنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ لا ثباتَ لها ولا اعتدادَ بها ﴿ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾ أي ثوابَ إيمانِكم وتقواكم من الباقياتِ الصالحاتِ التي يتنافسُ فيها المتنافسونَ . ﴿ وَلاَ يَسْئَلْكُمْ أموالكم ﴾ بحيثُ يخلُّ

أداؤُها بمعاشِكم ، وإنما اقتصرَ على نَزْرٍ يسيرٍ منها هُو ربعُ العُشرِ تُؤدونَها إلى فقرائِكم . ﴿ وإِن يَسْئَلْكُمُوهَا ﴾ أي أموالَكم ﴿ فَيُحْفِكُمْ ﴾ أي يُجهدكُم بطلبِ الكلِّ فإن الإحفاءَ والإلحافَ المبالغةُ وبلوغُ الغايةِ ، يقالُ أحفَى شاربَهُ إذا استأصلَهُ ، ﴿ تَبْخَلُواْ ﴾ فلا تُعطُوا ﴿ ويُخرِجْ أضغانكم ﴾ أي أحقادَكُم . وضميرُ يُخرج للهِ تعالى ويعضدُه القراءةُ بنونِ العظمةِ ، أو للبخلِ لأنه سببُ الأضغانِ ، وقُرِىءَ يَخرجُ من الخروجِ بالياءِ والتاءِ مُسنَداً إلى الأضغانِ .

﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هؤلاء ﴾ أي أنتُم أيها المخاطبونَ هؤلاء الموصوفونَ . وقولُه تعالى : ﴿ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ الله ﴾ استئنافٌ مقررٌ لذلكَ أو صلةٌ لهؤلاءِ على أنَّه بمَعْنى الذينَ ، أي هَا أنتُم الذين تُدعَونَ ففيهِ توبيخٌ عظيمٌ وتحقيرٌ مَنْ شأنِهم . والإنفاقُ في سبيلِ اللهِ يعمُّ الغزوِ والزكاةَ وغيرَهُما . ﴿ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ﴾ أي ناسٌ يبخلونَ وهو في حيزِ الدليلِ على الشرطيةِ السابقةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(86/710)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّمَا الحياة الدنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾

لا ثبات لها ولا اعتداد بها ﴿ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾ أي ثواب إيمانكم وتقواكم من الباقيات الصالحات التي يتنافس فيها المتنافسون ﴿ وَلاَ يَسْئَلْكُمْ ﴾ عطف على الجزاء والإضافة للاستغراق ، والمعنى إن تؤمنوا لا يسألكم جميع أموالكم كما يأخذ من الكافر جميع ماله ، وفيه مقابلة حسنة لقوله تعالى : ﴿ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾ كأنه قيل : يعطكم كل الأجور ويسألكم بعض المال وهو ما شرعه سبحانه من الزكاة ، وقول سفيان بن عيينة أي لا يسألكم كثيراً من أموالكم إنما يسألكم ربع العشر فطيبوا أنفسكم بيان لحاصل المعنى ، وقيل : أي لا يسألكم ما هو مالكم حقيقة وإنما يسألكم ماله عز وجل وهو المالك لها حقيقة وهو جل شأنه المنعم عليكم بالانتفاع بها ، وقيل : أي لا يسألكم أموالكم لحاجته سبحانه إليها بل ليرجع إنفاقكم إليكم ، وقيل : أي لا يسألك الرسول صلى الله عليه وسلم شيئاً من أموالكم أجراً على تبليغ الرسالة كما قال تعالى : ﴿ قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ المتكلفين ﴾ [ص : 86] ووجه العليق عليها غير ظاهر وفي بعضها أيضاً ما لا يخفى .

﴿ وَإِن يَسْئَلْكُمُوهَا ﴾ أي أموالكم ﴿ فَيُحْفِكُمْ ﴾ فيجهدكم بطلب الكل فإن الإحفاء والإلحاف المبالغة وبلوغ الغاية في كل شيء يقال : أحفاه في المسئلة إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح وأحفى شاربه استأصله وأخذه أخذاً متناهياً ، وأصل ذلك على ما قال الراغب : من أحفيت الدابة جعلته حافياً أي منسحج الحافر والبعير جعلته منسحج الفرسن من

المشي حتحتى يرق ﴿ تَبْخَلُواْ ﴾ جواب الشرط ، والمراد بالبخل هنا ترك الإعطاء إذ هو على المعنى المشهور أمر طبيعي لا يترتب على السؤال ﴿ وَيُخْرِجْ أضغانكم ﴾ أي أحقادكم لمزيد حبكم للمال وضمير ﴿ يَخْرُجُ ﴾ لله تعالى ويعضده قراءة يعقوب .

(87/710)

ورويت أيضاً عن ابن عباس ﴿ وَنُخْرِجُ ﴾ بالنون مضمومة ، وجوز أن يكون للسؤال أو للبخل فإنه سبب إخراج الأضغان والإسناد على ذلك مجازي ، وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو ﴿ وَيُخْرِجْ ﴾ بالرفع على الاستئناف ، وجوز جعل الجملة حالاً بتقدير وهو يخرج وحكاها أبو حاتم عن عيسى ، وفي "اللوامح" عن عبد الوارث عن أبي عمرو ﴿ وَيُخْرِجْ ﴾ بالياء التحتية وفتحها وضم الراء والجيم ﴿ أضغانكم ﴾ بالرفع على الفاعلية .

وقرأ ابن عباس .

ومجاهد .

وابن سيرين .

وابن محيصن .

وأيوب بن المتوكل .

واليماني ﴿ وَتُخْرِجُ ﴾ بتاء التأنيث ورفع ﴿ أضغانكم ﴾ ، وقرىء ﴿ وَيُخْرِجْ ﴾ بضم الياء التحتية وفتح الراء ﴿ أضغانكم ﴾ رفعاً على النيابة عن الفاعل وهي مروية عن عيسى إلا أنه فتح الجيم بإضمار أن فالواو عاطفة على مصدر متصيد أي يكن بخلكم وإخراج أضغانكم .

﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ ﴾

أي أنتم أيها المخاطبون هؤلاء الموصوفون بما تضمنه قوله تعالى : ﴿ إن يسألكموها ﴾ [محمد : 37] الخ ، والجملة مبتدأ وخبر وكررت ها التنبيهية للتأكيد ، وقوله سبحانه : ﴿ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ الله ﴾ الخ استئناف مقرر ومؤكد لذلك لاتحاد محصل معناهما فإن دعوتهم للانفاق هو سؤل الأموال منهم وبخل ناس منهم هو معنى عدم الإعطاء المذكور مجملاً أو لا أو صلة لهؤلاء على أنه بمعنى الذين فإن اسم الإشارة يكون موصولاً مطلقاً عند الكوفيين وأما البصريون فلم يثبتوا اسم الإشارة موصولاً إلا إذا تقدمه ما الاستفهامية باتفاق أو من الاستفهامية باختلاف ، والانفاق في سبيل الله تعالى هو الانفاق المرضي له تعالى شأنه مطلقاً فيشمل النفقة للعيال والأقارب والغزو وإطعام الضيوف والزكاة وغير ذلك وليس مخصوصاً بالانفاق للغزو أو بالزكاة كما قيل .

﴿ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ﴾ أي ناس يبخلون ﴿ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ﴾ فلا يتعدى ضرر بخله إلى غيرها يقال : بخلت عليه وبخلت عنه لأن البخل فيه معنى المنع ومعنى التضييق على من منع عنه المعروف والإضرار فناسب أن يعدي بعن للأول وبعلى للثاني ، وظاهر أن من منع المعروف عن نفسه فإضراره عليها فلا فرق بين اللفظين في الحاصل ، وقال الطيبي : يمكن أن يقال يبخل عن نفسه على معنى يصدر البخل عن نفسه لأنها مكان البخل ومنبعه كقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ [الحشر : 9] وهو كما ترى ﴿ والله الغنى ﴾ لا غيره عز وجل ﴿ وَأَنتُمُ الفقراء ﴾ الكاملون في الفقر فما يأمركم به سبحانه فهو لاحتياجكم إلى ما فيه من المنافع التي لا تقتضي الحكمة إيصالها بدون ذلك فإن امتثلتم فلكم وإن توليتم فعليكم ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ ﴾ عطف على قوله سبحانه : ﴿ أَن تُؤْمِنُواْ ﴾ أي وإن تعرضوا عن الإيمان والتقوى ﴿ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ يخلق مكانكم قوماً آخرين وهو كقوله تعالى : ﴿ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [فاطر : 16] ﴿ ثُمَّ لاَ يَكُونُواْ أمثالكم ﴾ في التولي عن الايمان والتقوى بل يكونون راغبين فيهما .

وثم للتراخي حقيقة أو لبعد المرتبة عما قبل ، والمراد بهؤلاء القوم أهل فارس ، فقد أخرج عبد الرزاق .

وعبد بن حميد .

وابن جرير .

وابن أبي حاتم .

والطبراني في "الأوسط" .

والبيهقي في "الدلائل" .

والترمذي وهو حديث صحيح على شرط مسلم عن أبي هريرة قال : " تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ ﴾ الخ فقالوا : يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا ثم لا يكونون أمثالنا ؟ فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على منكب سلمان ثم قال : هذا وقومه والذي نفسي بيده لو كان الايمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس "

(89/710)

وجاء في رواية ابن مردويه عن جابر الدين بدل الايمان ، وقيل : هم الأنصار ، وقيل : أهل اليمان ، وقيل : كندة والنخع ، وقيل : العجم ، وقيل : الروم ، وقيل : الملائكة وحمل القوم عليهم بعيد في الاستعمال ، وحيث صح الحديث فهو مذهبي .

والخطاب لقريش أو لأهل المدينة قولان والظاهر أنه للمخاطبين قبل والشرطية غير واقعة ،

فعن الكلبي شرط في الاستبدال توليهم لكنهم لم يتولوا فلم يستبدل سبحانه قوماً غيرهم والله تعالى أعلم.

ومما قاله بعض أرباب الإشارة في بعض الآيات: ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ إِن تَنصُرُواْ اللهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ [محمد: 7] نصرة الله تعالى من العبد على وجهين صورة ومعنى، أما نصرته تعالى في الصورة فنصرة دينه جل شأنه بإيضاح الدليل وتبيينه وشرح فرائضه وسننه وإظهار معانيه وأسراره وحقائقه ثم بالجهاد عليه وإعلاء كلمته وقمع أعدائه، وأما نصرته في المعنى فبا فناء الناسوت في اللاهوت، ونصرة الله سبحانه للعبد على وجهين أيضاً صورة ومعنى، أما نصرته تعالى للعبد في الصورة فبإرسال الرسل وإنزال الكتب وإظهار المعجزات والآيات وتبيين السبل إلى النعيم والجحيم، ثم بالأمر بالجهاد الأصغر والأكبر وتوفيق السعي فيهما طلباً لرضاه عز وجل، وأما نصرته تعالى له في المعنى فبافناء وجوده في وجوده سبحانه بتجلي صفات جماله وجلاله ﴿ مَّثَلُ الجنة التى وُعِدَ المتقون ﴾ يشير إلى جنة قلوب أرباب الحقائق الذين اتقوا عما سواه جل وعلا ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ ءاسِنٍ ﴾ هو ماء الحياة الروحانية لم يتغير بطول المكث ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ ﴾ وهو العلم الحقاني الذي هو غذاء الأرواح أو لبن الفطرة التي فطر الناس عليها ﴿ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ بحموضة الشكوك والأوهام أو الأهواء والبدع ﴿ وأنهار مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ ﴾ وهي خمر الشوق والمحبة:

يقولون لي صفها فأنت بوصفها . . .

خبير أجل عندي بأوصافها

(90/710)

علم صفاء ولا ماء ولطف ولا هوى . . .

ونور ولا نار وروح ولا جسم

﴿ للشاربين وأنهار مّنْ عَسَلٍ ﴾ وهو عسل الوصال ﴿ مُّصَفًّى ﴾ عن كدر الملال وخوف الزوال ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلّ الثمرات ﴾ اللذائذ الروحانية ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مّن رَّبِّهِمْ ﴾ ستر لذنب وجودهم كما قيل :

وجودك ذنب لا يقاس به ذنب . . .

﴿ كَمَنْ هُوَ خالد فِى النار ﴾ نار الجفاء ﴿ وَسُقُواْ مَاء حَمِيماً ﴾ وهو ماء الخذلان ﴿ فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ ﴾ [محمد : 15] من الحرمان ﴿ ولو نشاء لاريناكهم فَلَعَرَفْتَهُم بسيماهم ﴾ [محمد : 30] وهي ظلمة في وجوههم تدرك بالنظر الإلهي قيل : المؤمن ينظر بنور الفراسة والعارف بنور التحقيق والنبي عليه الصلاة والسلام ينظر بالله عز وجل ، وقيل : كل من رزق قرب النوافل ينظر به تعالى لحديث " لا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى

أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به " الحديث وحينئذ يبصر كل شيء ، ومن هنا كان بعض الأولياء الكاملين يرى على ما حكى عنه أعمال العباد حين يعرج بها وسبحان السميع البصير اللطيف الخبير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(91/710)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله ﴾

المراد بهؤلاء : هم المنافقون ، وقيل : أهل الكتاب ، وقيل : هم المطعمون يوم بدر من المشركين ، ومعنى صدّهم عن سبيل الله : منعهم للناس عن الإسلام ، واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم معنى ﴿ شَاقُّواْ الرسول ﴾ : عادوه وخالفوه ﴿ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهدى ﴾ أي : علموا أنه صلى الله عليه وسلم نبيّ من عند الله بما شاهدوا من المعجزات الواضحة ، والحجج القاطعة ﴿ لَن يَضُرُّواْ الله شَيْئاً ﴾ بتركهم الإيمان وإصرارهم على الكفر ، وما ضرّوا إلاّ أنفسهم ﴿ وَسَيُحْبِطُ أعمالهم ﴾ أي : يبطلها ، والمراد بهذه الأعمال : ما صورته صورة أعمال الخير كإطعام الطعام ، وصلة الأرحام ،

وسائر ما كانوا يفعلونه من الخير ، وإن كانت باطلة من الأصل ، لأن الكفر مانع ، وقيل : المراد بالأعمال : المكائد التي نصبوها لإبطال دين الله ، والغوائل التي كانوا يبغونها برسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم أمر سبحانه عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ، فقال : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ أَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ فيما أمرتم به من الشرائع المذكورة في كتاب الله وسنة رسوله ؛ ثم نهاهم عن أن يبطلوا أعمالهم ، كما أبطلت الكفار أعمالها بالإصرار على الكفر ، فقال : ﴿ وَلاَ تُبْطِلُواْ أعمالكم ﴾ قال الحسن أي : لا تبطلوا حسناتكم بالمعاصي .

وقال الزهري : بالكبائر .

وقال الكلبي ، وابن جريج : بالرياء والسمعة .

وقال مقاتل : بالمنّ .

والظاهر النهي عن كل سبب من الأسباب التي توصل إلى بطلان الأعمال كائناً ما كان من غير تخصيص بنوع معين .

(92/710)

ثم بيّن سبحانه أنه لا يغفر للمصرّين على الكفر ، والصدّ عن سبيل الله ، فقال : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ الله لَهُمْ ﴾ فقيد سبحانه عدم المغفرة بالموت على الكفر ؛ لأن باب التوبة وطريق المغفرة لا يغلقان على من كان حياً ، وظاهر الآية العموم وإن كان السبب خاصاً .

ثم نهى سبحانه المؤمنين عن الوهن والضعف ، فقال : ﴿ فَلاَ تَهِنُواْ ﴾ أي : تضعفوا عن القتال ، والوهن : الضعف ﴿ وَتَدْعُواْ إِلَى السلم ﴾ أي : ولا تدعوا الكفار إلى الصلح ابتداءً منكم ، فإن ذلك لا يكون إلاّ عند الضعف .

قال الزجاج : منع الله المسلمين أن يدعوا الكفار إلى الصلح ، وأمرهم بحربهم حتى يسلموا .

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي (وتدّعوا) بتشديد الدال من ادّعى القوم وتداعوا .

قال قتادة : معنى الآية : لا تكونوا أوّل الطائفتين ضرعت إلى صاحبتها .

واختلف أهل العلم في هذه الآية هل هي محكمة ، أو منسوخة ؟ فقيل : إنها محكمة ، وإنها ناسخة لقوله : ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فاجنح لَهَا ﴾ [الأنفال : 61] وقيل : منسوخة بهذه الآية .

ولا يخفاك أنه لا مقتضى للقول بالنسخ ، فإن الله سبحانه نهى المسلمين في هذه الآية عن أن يدعوا إلى السلم ابتداءً ، ولم ينه عن قبول السلم إذا جنح إليه المشركون ، فالآيتان محكمتان ، ولم يتواردا على محل واحد حتى يحتاج إلى دعوى النسخ ، أو التخصيص ، وجملة ﴿

وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ ﴾ في محل نصب على الحال ، أو مستأنفة مقرّرة لما قبلها من النهي ، أي : وأنتم الغالبون بالسيف والحجة .

(93/710)

قال الكلبي : أي : آخر الأمر لكم ، وإن غلبوكم في بعض الأوقات ، وكذا جملة قوله : ﴿ والله مَعَكُمْ ﴾ في محل نصب على الحال ، أي : معكم بالنصر ، والمعونة عليهم ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أعمالكم ﴾ أي : لن ينقصكم شيئًا من ثواب أعمالكم ، يقال : وتره يتره وتراً : إذا نقصه حقه ، وأصله من وترت الرجل : إذا قتلت له قريباً ، أو نهبت له مالاً ، ويقال فلان مأتور : إذا قتل له قتيل ، ولم يؤخذ بدمه .

قال الجوهري : أي : لن ينقصكم في أعمالكم ، كما تقول دخلت البيت ، وأنت تريد في البيت .

قال الفراء : هو مشتق من الوتر وهو الدخل ، وقيل : مشتق من الوتر وهو الفرد ، فكأن المعنى : ولن يفردكم بغير ثواب .

﴿ إِنَّمَا الحياة الدنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ أي : باطل وغرور لا أصل لشيء منها ، ولا ثبات له ولا اعتداد به ﴿ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾ أي : إن تؤمنوا بالله ، وتتقوا الكفر

والمعاصي يؤتكم جزاء ذلك في الآخرة ، والأجر : الثواب على الطاعة ﴿ وَلاَ يَسْئَلْكُمْ أموالكم ﴾ أي : لا يأمركم بإخراجها جميعها في الزكاة وسائر وجوه الطاعات ، بل أمركم بإخراج القليل منها ، وهو الزكاة .

وقيل : المعنى : لا يسألكم أموالكم إنما يسألكم أمواله ؛ لأنه أملك لها ، وهو المنعم عليكم بإعطائها .

وقيل : لا يسألكم أموالكم أجراً على تبليغ الرسالة ، كما في قوله : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ [الشعراء : 109] والأوّل أولى .

(94/710)

﴿ وَإِن يَسْئَلْكُمُوهَا ﴾ أي : أموالكم كلها ﴿ فَيُحْفِكُمْ ﴾ قال المفسرون : يجهدكم ، ويلحف عليكم بمسألة جميعها ، يقال : أحفى بالمسألة وألحف وألح بمعنى واحد ، والمحفي : المستقصي في السؤال ، والإحفاء : الاستقصاء في الكلام ، ومنه إحفاء الشارب ، أي : استئصاله ، وجواب الشرط قوله : ﴿ تَبْخَلُواْ ﴾ أي : إن يأمركم بإخراج جميع أموالكم تبخلوا بها ، وتمتنعوا من الامتثال ﴿ وَيُخْرِجْ أضغانكم ﴾ معطوف على جواب الشرط ، ولهذا قرأ الجمهور ﴿ يخرج ﴾ بالجزم وروي عن يعقوب الحضرمي أنه قرأ بالنون ، وقرأ ابن

عباس ، ومجاهد ، وابن محيصن ، وحميد بالفوقية المفتوحة مع ضم الراء .

وعلى قراءة الجمهور ، فالفاعل ضمير يعود إلى الله سبحانه ، أو إلى البخل المدلول عليه بتبخلوا .

والأضغان : الأحقاد ، والمعنى : أنها تظهر عند ذلك .

قال قتادة : قد علم الله أن في سؤال المال خروج الأضغان .

﴿ هَاأَنتُمْ هَؤُلاَء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ الله ﴾ أي : ها أنتم هؤلاء أيها المؤمنون تدعون ؛ لتنفقوا في الجهاد وفي طريق الخير ﴿ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ﴾ بما يطلب منه ، ويدعى إليه من الإنفاق في سبيل الله ، وإذا كان منكم من يبخل باليسير من المال ، فكيف لا تبخلون بالكثير وهو جميع الأموال ؟ ثم بيّن سبحانه أن ضرر البخل عائد على النفس فقال : ﴿ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ﴾ أي : يمنعها الأجر والثواب ببخله ، وبخل يتعدى بعلى تارة وبعن أخرى .

(95/710)

وقيل : إن أصله أن يتعدى بعلى ، ولا يتعدى بعن إلاّ إذا ضمن معنى الإمساك ﴿ والله الغنى ﴾ المطلق المتنزّه عن الحاجة إلى أموالكم ﴿ وَأَنتُمُ الفقراء ﴾ إلى الله ، وإلى ما

عنده من الخير والرحمة ، وجملة : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ معطوفة على الشرطية المتقدّمة ، وهي : ﴿ وإن تؤمنوا ﴾ ، والمعنى : وإن تعرضوا عن الإيمان والتقوى ، يستبدل قوما آخرين يكونون مكانكم هم أطوع لله منكم ﴿ ثُمَّ لاَ يَكُونُواْ أمثالكم ﴾ في التولي عن الإيمان والتقوى .

قال عكرمة : هم فارس ، والروم .

وقال الحسن : هم العجم .

وقال شريح بن عبيد : هم أهل اليمن ، وقيل : الأنصار ، وقيل : الملائكة ، وقيل : التابعون .

وقال مجاهد : هم من شاء الله من سائر الناس .

قال ابن جرير : والمعنى : ﴿ ثُمَّ لاَ يَكُونُواْ أمثالكم ﴾ في البخل بالإنفاق في سبيل الله .

وقد أخرج عبد بن حميد ، ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة ، وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون أنه لا يضرّ مع لا إله إلاّ الله ذنب ، كما لا ينفع مع الشرك عمل حتى نزلت : ﴿ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرسول وَلاَ تُبْطِلُواْ أعمالكم ﴾ فخافوا أن يبطل الذنب العمل ، ولفظ عبد بن حميد : فخافوا الكبائر أن تحبط أعمالهم .

وأخرج ابن نصر ، وابن جرير ، وابن مردويه عن ابن عمر قال : كنا معشر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلاّ مقبول حتى نزلت : ﴿ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرسول وَلاَ تُبْطِلُواْ أعمالكم ﴾ فلما نزلت هذه الآية قلنا : ما هذا الذي يبطل أعمالنا ؟ فقلنا : الكبائر الموجبات والفواحش ، فكنا إذا رأينا من أصاب شيئًا منها قلنا : قد هلك ، حتى نزلت هذه الآية : ﴿ إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ [النساء : 48] فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك .

وكنا إذا رأينا أحداً أصاب منها شيئًا خفنا عليه ، وإن لم يصب منها شيئًا رجوناه .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ يَتِرَكُمْ ﴾ قال : يظلمكم .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه (عن ابي هريرة) قال : لما نزلت : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ قالوا : من هؤلاء ؟ وسلمان إلى جانب النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : هم الفرس ، هذا وقومه .

وفي إسناده مسلم بن خالد الزنجي وقد تفرّد به ، وفيه مقال معروف .

وأخرجه عنه عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والطبراني في الأوسط ، والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ فقالوا : يا رسول الله من

هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا ، ثم لا يكونوا أمثالنا ؟ فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على منكب سلمان ، ثم قال : " هذا وقومه ، والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس " ، وفي إسناده أيضاً مسلم بن خالد الزنجي .

وأخرج ابن مردويه من حديث جابر نحوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 41 . 43 ﴾

(97/710)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾

هذه الأجور التي وعد الله بها من آمن واتقى جاءت مبينة في آيات كثيرة كقوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ اتقوا الله وَآمِنُواْ بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد : 28] إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ .

في هذه الآية الكريمة أوجه معلومة عند أهل التفسير منها أن المعنى : ولا يسألكم النبي صلى الله عليه وسلم أموالكم أجراً على ما بلغكم من الوحي المتضمن لخير الدنيا

والآخرة.

وهذا الوجه تشهد له آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ ﴾ [سبأ: 47].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ المتكلفين ﴾ [ص: 86].

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ [الطور: 40].

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة هود في الكلام على قوله تعالى ﴿ وياقوم لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ ﴾ [هود: 29] وذكرنا بعض ذلك في سورة الشورى في الكلام على قوله تعالى: ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِي القربى ﴾ [الشورى: 23].

قوله تعالى: ﴿ والله الغني وَأَنتُمُ الفقرآء ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له قريباً في الكلام على الله تعالى: ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله وَشَآقُّواْ الرسول مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهدى ﴾ [محمد: 32] الآية.

قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يكونوا أَمْثَالَكُمْ ﴾.

وقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النساء في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا الناس وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ الله على ذلك قَدِيراً ﴾ [النساء : 133] .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(99/710)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾

تعليل لمضمون قوله : ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم ﴾ [محمد : 35] الآية ، وافتتاحها بـ (إنّ) مُغنٍ عن افتتاحها بفاء التسبب على ما بينه في دلائل الإعجاز ، وليس اتصال (إنّ) بـ (ما) الزائدة الكافة بمغيّر موقعها بدون (ما) لأنّ اتصالها بها زادها معنى الحصر .

والمراد بـ ﴿ الحياة ﴾ أحوال مدة الحياة فهو على حذف مضافَيْن .

واللعب : الفعل الذي يريد به فاعله الهزل دون اجتناء فائدة كأفعال الصبيان في مرحهم .

واللهو : العمل الذي يعمل لصرف العقل عن تعب الجد في الأمور فيلهو عن ما يهتم له ويكدّ عقله .

والإخبار عن الحياة بأنها لعب ولهو على معنى التشبيه البليغ ، شُبهت أحوال الحياة الدنيا

باللعب واللهو في عدم ترتب الفائدة عليها لأنها فانية منقضية والآخرة هي دار القرار .

وهذا تحذير من أن يحملهم حب لذائذ العيش على الزهادة في مقابلة العدّو ويتلو إلى مسالمته فإن ذلك يغري العدّو بهم .

وحبّ الفتى طول الحياة يذله . . .

وإن كان فيه نخوة وعِزَام

﴿ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلاَ يَسْأَلْكُمْ ﴾ ﴿ أموالكم * وَإِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أضغانكم ﴾ .

(100/710)

الأشبه أن هذا عطف على قوله : ﴿ فلا تَهِنُوا وتدعُوا إلى السلم ﴾ [محمد : 35] تذكيراً بأن امتثال هذا النهي هو التقوى المحمودة ، ولأن الدعاء إلى السلم قد يكون الباعث عليه حبّ إبقاء المال الذي ينفَق في الغزو ، فذُكروا هنا بالإيمان والتقوى ليخلعوا عن أنفسهم الوهن لأنهم نُهُوا عنه وعن الدعاء إلى السلم فكان الكف عن ذلك من التقوى ، وعطف عليه أن الله لا يسألهم أموالهم إلا لفائدتهم وإصلاح أمورهم ، ولذلك وقع بعده قوله : ﴿ ها أنتم هؤلاء تُدْعَوْن لتنفقوا في سبيل الله إلى قوله : ﴿ عن نفسه ﴾ [محمد : 38

] ، على أن موقع هذه الجملة تعليل النهي المتقدم بقوله : ﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو ﴾ مشير إلى أن الحياة الدنيا إذا عمرت بالإيمان والتقوى كانت سبباً في الخير الدائم .

والأجور هنا : أجور الآخرة وهي ثواب الإيمان والتقوى .

فالخطاب للمسلمين المخاطبين بقوله : ﴿ فلا تهنوا ﴾ الآية .

والمقصود من الجملة قوله : ﴿ وتتقوا ﴾ وأما ذكر ﴿ تؤمنوا ﴾ فللاهتمام بأمر الإيمان .

ووقوع ﴿ تؤمنوا ﴾ في حيز الشرط مع كون إيمانهم حاصلاً يعين صرف معنى التعليق بالشرط فيه إلى إرادة الدوام على الإيمان إذ لا تتقوم حقيقة التقوى إلا مع سبق الإيمان كما قال تعالى : ﴿ فَكُّ رقبة أو إطعام إلى قوله : ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ [البلد : 13 17] الآية .

والظاهر أن جملة ﴿ يؤتكم أجوركم ﴾ إدماج ، وأن المقصود من جواب الشرط هو جملة ﴿ ولا يسألكم أموالكم ﴾ .

وعطف ﴿ ولا يسألكم أموالكم ﴾ لمناسبة قوله : ﴿ يؤتكم أجوركم ﴾ ، أي أن الله يتفضل عليكم بالخيرات ولا يحتاج إلى أموالكم ، وكانت هذه المناسبات أحسن روابط لنظم المقصود من هذه المواعظ لأن البُخل بالمال من بواعث الدعاء إلى السلم كما علمت آنفاً .

ومعنى الآية : وإن تؤمنوا وتتقوا باتباع ما نهيتهم عنه يَرض الله منكم بذلك ويكتِف به ولا يسألكم زيادة عليه من أموالكم .

(101/710)

فيعلمُ أن ما يعنيه النبي صلى الله عليه وسلم عليهم من الإنفاق في سبيل الله إنما هو بقدر طاقتهم .

وهذه الآية في الإنفاق نظيرها قوله تعالى لجماعة من المسلمين في شأن الخروج إلى الجهاد ﴿ يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله أثَّاقَلْتُم إلى الأرض أرضِيتُم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ﴾ في سورة براءة (38) .

فقوله : ولا يسألكم أموالكم ﴾ يفيد بعمومه وسياقه معنى لا يسألكم جميع أموالكم ، أي إنما يسألكم ما لا يجحِف بكم ، فإضافة أموال وهو جمع إلى ضمير المخاطبين تفيد العموم ، فالمنفي سؤال إنفاق جميع الأموال ، فالكلام من نفي العموم لا من عموم النفي بقرينة السياق ، وما يأتي بعده من قوله : ﴿ ها أنتم هؤلاء تُدْعَوْن لتنفقوا في سبيل الله ﴾ الآية .

ويجوز أن يفيد أيضاً معنى : أنه لا يطالبكم بإعطاء مال لذاته فإنه غني عنكم وإنما يأمركم بإنفاق المال لصالحكم كما قال : ﴿ ومن يبخل فإنما يَبْخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء

﴾ [محمد : 38] .

وهذا توطئة لقوله بعده ﴿ ها أنتم هؤلاء تُدعون لتنفقوا في سبيل الله إلى قوله : ﴿ فإنما يبْخل عن نفسه ﴾ [محمد : 38] أي ما يكون طلب بذل المال إلا لمصلحة الأمة ، وأية مصلحة أعظم من دمغها العدّو عن نفسها لئلا يفسد فيها ويستعبدها .

وأما تفسير سؤال الأموال المنفي بطلب زكاة الأموال فصرف للآية عن مهيعها فإن الزكاة مفروضة قبل نزول هذه السورة لأن الزكاة فرضت سنة اثنتين من الهجرة على الأصح .

وجملة ﴿ إنْ يسألكموها ﴾ الخ تعليل لنفي سؤاله إياهم أموالهم ، أي لأنه إن سألكم إعطاء جميع أموالكم وقد علم أن فيكم من يسمح بالمال لا تبْخلوا بالبذل وتجعلوا تكليفكم بذلك سبباً لإظهار ضغنكم على الذين لا يعطون فيَكثر الارتداد والنفاق وذلك يخالف مراد الله من تزكية نفوس الداخلين في الإيمان .

(102/710)

وهذا مراعاة لحال كثير يومئذٍ بالمدينة كانوا حديثي عهد بالإسلام وكانوا قد بذلوا من أموالهم للمهاجرين فيسَّر الله عليهم بأن لم يسألهم زيادة على ذلك ، وكان بينهم كثير من أهل النفاق يترصدون الفرص لفتنتهم ، قال تعالى : ﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند

رسول الله حتى ينفَضّوا ﴾ [المنافقون : 7] .

وهذا يشير إليه عطف قوله : ﴿ ويُخرج أضغانكم ﴾ أي تحدث فيكم أضغان فيكون سؤاله أموالكم سبباً في ظهورها فكأنه أظهرها .

وهذه الآية أصل في سد ذريعة الفساد .

والإحفاء : الإكثار وبلوغ النهاية في الفعل ، يقال : أحفاه في المسألة إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح.

وعن عبد الرحمن بن زيد : الإحفاء أن تأخذ كل شيء بيديك ، وهو تفسير غريب .

وعبر به هنا عن الجزم في الطلب وهو الإيجاب ، أي فيوجب عليكم بذل المال ويجعل على منعه عقوبة .

والبخل : منع بذل المال .

والضغن : العداوة ، وتقدم آنفاً عند قوله ﴿ أن لن يخرج الله أضغانهم ﴾ [محمد : 29] .

والمعنى : يمنعوا المال ويظهروا العصيان والكراهية ، فلطفُ الله بالكثير منهم اقتضى أن لا يسألهم مالاً على وجه الإلزام ثم زال ذلك شيئاً فشيئاً لما تمكن الإيمان من قلوبهم فأوجب الله عليهم الإنفاق في الجهاد .

والضمير المستتر في ﴿ ويخرج ﴾ عائد إلى اسم الجلالة ، وجوز أن يعود إلى البخل المأخوذ

من قوله : ﴿ تبخلوا ﴾ أي من قبيل ﴿ اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ [المائدة : 8] .

وقرأ الجمهور ﴿ يخرج ﴾ بياء تحتية في أوله .

وقرأه يعقوب بنون في أوله .

هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ

كلام المفسرين من قوله : ﴿ ولا يسألْكُم أموالَكم ﴾ إلى قوله : ﴿ عن نفسه ﴾ [محمد : 36 38] يعرب عن حَيرة في مراد الله بهذا الكلام .

(103/710)

وقد فسرناه آنفاً بما يشفي وبقي علينا قوله : ﴿ ها أنتم هؤلاء تُدْعَوْن لتنفقوا ﴾ الخ كيف موقعه بعد قوله : ﴿ ولا يسألكم أموالكم ﴾ فإن الدعوة للإنفاق عين سؤال الأموال فكيف يجمع بين ما هنا وبين قوله آنفاً ﴿ ولا يسألكم أموالكم ﴾ .

فيجوز أن يكون المعنى : تُدْعَون لتنفقوا في سبيل الله لتدفعوا أعداءكم عنكم وليس ذلك لينتفع به الله كما قال : ﴿ والله الغني وأنتم الفقراء ﴾ .

ونظم الكلام يقتضي أن هذه دعوة للإنفاق في الحال وليس إعلاماً لهم بأنهم سيدعون للإنفاق فهو طلبٌ حاصل .

ويحمل ﴿ تدْعَون ﴾ على معنى تؤمرون أي أمر إيجاب .

ويجوز أن يحمل ﴿ تدعون ﴾ على دعوة الترغيب ، فتكون الآية تمهيداً للآيات المقتضية إيجاب الإنفاق في المستقبل مثل آية ﴿ وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ﴾ [التوبة : 41] ونحوها ، ويجوز أن يكون إعلاماً بأنهم سيدعون إلى الإنفاق في سبيل الله فيما بعد هذا الوقت فيكون المضارع مستعملاً في زمن الاستقبال والمضارع يحتمله في أصْل وضعه .

وعلى الاحتمالين فقوله : ﴿ فمنكم من يبْخل ومن يبْخل فإنما يبْخل عن نفسه ﴾ إما مسوق مساق التوبيخ أو مساق التنبيه على الخطأ في الشح ببذل المال في الجهاد الذي هو محلّ السياق لأن المرء قد يبخل بُخلاً ليس عائداً بخلُه عن نفسه .

ومعنى قوله : ﴿ فإنما يبخل عن نفسه ﴾ على الاحتمال الأول فإنما يبْخل عن نفسه إذ يتمكن عدّوه من التسلط عليه فعاد بُخله بالضر عليه ، وعلى الاحتمال الثاني فإنما يبْخل عن نفسه بحرمانها من ثواب الإنفاق .

والقصر المستفاد من ﴿ إنما ﴾ قصر قلب باعتبار لازم بُخله لأن الباخل اعتقد أنه منع من دَعاه إلى الإنفاق ولكن لازم بخله عاد عليه بحرمان نفسه من منافع ذلك الإنفاق ، فالقصر مجاز مرسل مركَّب .

وفعل (بخل) يتعدى بـ ﴿ عن ﴾ لما فيه من معنى الإمساك ويتعدى بـ (على) لما فيه من

معنى التضييق على المبخول عليه .

وقد عدي هنا بحرف ﴿ عن ﴾ .

(104/710)

﴿ وها أنتم هؤلاء ﴾ مركب من كلمة (ها) تنبيه في ابتداء الجملة ، ومن ضمير الخطاب ثم من (هَا) التنبيه الداخلة على اسم الإشارة المفيدة تأكيد مدلول الضمير .

ونظيرُه قوله : ﴿ ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا ﴾ في سورة النساء (109) .

والأكثر أن يكون اسم الإشارة في مثله مجرداً عن (ها) اكتفاء بـ (هاء) التنبيه التي في أول التركيب كقوله تعالى : ﴿ ها أنتم أولاء تحبونهم ﴾ في سورة آل عمران (119) .

وجملة تُدْعَون ﴾ في موضع الحال من اسم الإشارة ، ومجموع ذلك يفيد حصول مدلول جملة الحال لصاحبها حصولاً واضحاً .

وزعم كثير من النحاة أن عدم ذكر اسم الإشارة بعد (ها أنا) ونحوه لحن ، لأنه لم يسمع دخول (ها) التنبيه على اسم غير اسم الإشارة كما ذكره صاحب "مغني اللبيب" ، بناء على أن (ها) التنبيه المذكورة في أول الكلام هي التي تدخل على أسماء الإشارة في نحو :

هذا وهؤلاء ، وأن الضمير الذي يذكر بعدها فصل بينها وبين اسم الإشارة .

ولكن قد وقع ذلك في كلام صاحب "المغني" في ديباجة كتابه إذ قال : وها أنا بائح بما أسررته ، وفي موضعين آخرين منه نبه عليهما بدر الدين الدماميني في شرحه "المزج على المغني" ، وذكر في شرحه الذي بالقول المشتهر ب"الحواشي الهندية" أن تمثيل الزمخشري في "المفصل" بقوله : ها إن زيداً منطلق يقتضي جواز : ها أنا أفعل ، لكن الرضِيّ قال : لم أعثر بشاهد على وقوع ذلك .

وجملة ﴿ والله الغني وأنتم الفقراء ﴾ تذييل للشيء قبلها فالله الغني المطلق ، والغني المطلق لا يسأل الناس مالاً في شيء ، والمخاطبون فقراء فلا يطمع منهم البذل فتعين أن دعاءهم لينفقوا في سبيل الله دعاء بصرف أموالهم في منافعهم كما أشار إلى ذلك قوله : ﴿ ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ﴾ .

(105/710)

والتعريف باللام في ﴿ الغني ﴾ وفي ﴿ الفقراء ﴾ تعريف الجنس ، وهو فيهما مؤذن بكمال الجنس في المخبر عنه ، ولما وقعا خبرين وهما معرفتان أفادا الحصْر ، أي قصر الصفة على الموصوف ، أي قصر جنس الغِنيّ على الله وقصر جنس الفقراء على

المخاطبين بـ ﴿ أنتم ﴾ وهو قصر ادعائي فيهما مرتب على دلالة ال على معنى كمال الجنس ، فإن كمال الغنى لله لا محالة لعمومه ودوامه ، وإن كان يثبت بعض جنس الغني لغيره .

وأما كمال الفقر للناس فبالنسبة إلى غنى الله تعالى وإن كانوا قد يغْنَون في بعض الأحوال لكن ذلك غنًى قليل وغير دائم .

﴿ وَأَنتُمُ الفقرآء وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ ﴾ .

عطف على قوله : ﴿ وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ﴾ [محمد : 36] .

والتولي : الرجوع ، واستعير هنا لاستبدال الإيمان بالكفر ، ولذلك جعل جزاؤه استبدال قوم غيرهم كما استبدلوا دينَ الله بدين الشرك .

والاستبدال : التبديل ، فالسين والتاء للمبالغة ، ومفعوله ﴿ قوماً ﴾ .

والمستبدَل به محذوف دل على تقديره قوله ﴿ غيركم ﴾ ، فعلم أن المستبدل به هو ما أضيف إليه (غير) لِتعيّن انحصار الاستبدال في شيئين ، فإذا ذكر أحدهما علم الآخر .

والتقدير : يستبدل قوماً بكم لأن المستعمَل في فعل الاستبدال والتبديل أن يكون المفعولُ هو المعوَّض ومجرور الباء هو العوَض كقوله : ﴿ أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ﴾ تقدم في سورة البقرة (61) .

وإن كان كلا المتعلقين هو في المعنى معوض وعوض باختلاف الاعتبار ، ولذلك عدل في

هذه الآية عن ذكر المجرور بالباء مع المفعول للإيجاز .

والمعنى : يتخذ قوماً غيركم للإيمان والتقوى ، وهذا لا يقتضي أن الله لا يوجد قوماً آخرين إلاّ عند ارتداد المخاطبين ، بل المراد : أنكم إن ارتددتم عن الدين كان لله قوم من المؤمنين لا يرتدون وكان لله قوم يدخلون في الإيمان ولا يرتدون .

(106/710)

روى الترمذي عن أبي هريرة قال : تَلا رسول الله هذه الآية وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ .

قالوا : ومن يُستبدَل بنا ؟ قال : فضرب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على منكب سَلْمان الفارسي ثم قال : هذا وقومُه ، هذا وقومه" قال الترمذي حديث غريب .

وفي إسناده مقال .

وروى الطبراني في "الأوسط" : هذا الحديث على شرطِ مسلم وزاد فيه " والذي نفسي بيده لو كان الإيمانُ منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس "

وأقول هو يدل على أن فارس إذا آمنوا لا يرتدون وهو من دلائل نبوءة النبي صلى الله عليه وسلم فإن العرب ارتد منهم بعض القبائل بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وارتدّ البربر

بعد فتح بلادهم وإيمانهم ثنتي عشرة مرة فيما حكاه الشيخ أبو محمد ابن أبي زيد ، ولم يرتد أهل فارس بعد إيمانهم .

و﴿ ثم ﴾ للترتيب الرتبي لإفادة الاهتمام بصفة الثبات على الإيمان وعلوّها على مجرد الإيمان ، أي ولا يكونوا أمثالكم في التولِّي .

والجملة معطوفة بـ (ثم) على جملة ﴿ يستبدل قوماً غيركم ﴾ فهي في حيّز جواب الشرط والمعطوف على جواب الشرط بحرف من حروف التشريك يجوز جزمه على العطف ، ويجوز رفعه على الاستئناف .

وقد جاء في هذه الآية على الجزم وجاء في قوله تعالى : ﴿ وإن يقاتلوكم يولُّوكم الأدبار ثم لا ينصرون ﴾ [آل عمران : 111] على الرفع .

وأبدى الفخر وجهاً لإيثار الجزم هنا وإيثار الاستئناف هنالك فقال : وهو مع الجواز فيه تدقيق وهو أن ههنا لا يكون متعلقاً بالتولّي لأنهم إن لم يتولوا يكونون ممن يأتي الله بهم على الطاعة ، وإن تولوا لا يكونون مثلهم لكونهم عاصين وكون من يأتي الله بهم مطيعين ، وأما هنالك فسواء قاتلوا أو لم يقاتلوا لا يُنصرون فلم يكن للتعليق أي بالشرط هنالك وجه فرفع بالابتداء وههنا جُزم للتعليق أ هـ .

وهو دقيق ويزاد أن الفعل المعطوف على الجزاء في آية آل عمران وقع في آخر الفاصلة التي جرت أخواتها على حرف الواو والنون فلو أوثر جزم الفعل لأزيلت النون فاختلّت الفاصلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(108/710)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة ﴾ الآية ، قال : كل سورة أنزل فيها الجهاد فهي محكمة ، وهي أشد القرآن على المنافقين .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ ويقول الذين آمنوا ﴾ الآية قال : كان المؤمنون يشتاقون إلى كتاب الله تعالى وإلى بيان ما ينزل عليهم فيه فإذا أنزلت السورة يذكر فيها القتال رأيت يا محمد المنافقين ﴿ ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى

لهم ﴾ قال : وعيد من الله لهم .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ فأولى لهم ﴾ قال : هذه وعيد ثم انقطع الكلام ، فقال ﴿ طاعة وقول معروف ﴾ يقول : طاعة الله ورسوله وقول بالمعروف عند حقائق الأمور خير لهم .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ طاعة وقول معروف ﴾ قال : أمر الله عز وجل بذلك المنافقين فإذا عزم الأمر قال : جد الأمر .

أخرج الحاكم عن عبد الله بن مغفل رضى الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ ﴿ فهل عسيتم إن توليتم ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ فهل عسيتم إن توليتم ﴾ الآية قال : كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله ألم يسفكوا الدم الحرام وقطعوا الأرحام وعصوا الرحمن ؟

وأخرج عبد بن حميد عن بكر بن عبد الله المزني في قوله ﴿ فهل عسيتم إن توليتم ﴾ الآية قال : ما أراها نزلت إلا في الحرورية .

(109/710)

وأخرج ابن المنذر والحاكم وصححه عن بريدة رضي الله عنه قال : كنت جالساً عند عمر رضي الله عنه إذ سمع صائحاً فقال يا يرفا أنظر ما هذا الصوت فنظر ثم جاء فقال : جارية من قريش تباع أمها ، فقال عمر رضي الله عنه : ادع لي المهاجرين والأنصار فلم يمكث إلا ساعة حتى امتلأت الدار والحجرة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فهل تعلمونه كان فيما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم القطيعة ؟ قالوا : لا . قال : فإنها قد أصحبت فيكم فاشية . ثم قرأ ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾ ثم قال : وأي قطيعة أقطع من أن تباع أم امرىء فيكم وقد أوسع الله لكم ؟ قالوا : فأصنع ما بدا لك ، فكتب في الآفاق أن لا تباع أُمّ حر فإنها قطيعة رحم وأنه لا يحل .

وأخرج عبد بن حميد والبخاري ومسلم والنسائي والحكيم الترمذي وابن جرير وابن حبان والحاكم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإِيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن ، فقال : مه ، فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ؟ قال : نعم أما ترضي أن أصل من وصلك وأقطع من قطعت : قالت : بلى ، قال : فذاك لك ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اقرأوا إن شئتم ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ " .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري والبيهقي عن عائشة رضي الله عنها قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله " .

(110/710)

وأخرج ابن أبي شيبة والحاكم وصححه والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن للرحم لساناً يوم القيامة تحت العرش فتقول يا رب قطعت يا رب ظلمت يا رب أسيء إليّ فيجيبها ربها ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ " .

وأخرج البيهقي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن للرحمن لسناً ذلقاً يوم القيامة ربِّ صل من وصلني واقطع من قطعني " .

وأخرج عبد الرزاق والبيهقي عن طاوس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن للرحم شعبة من الرحمن تجيء يوم القيامة لها جلبة تحت العرش تكلم بلسان ذلق فمن أشارت إليه بوصل وصله الله ، ومن أشارت إليه بقطع قطعه الله " .

وأخرج البيهقي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : " إن الرحمن معلقة بالعرش لها لسان ذلق تقول اللهم صِلْ من وصلني واقطع من قطعني " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والترمذي والحاكم وصححاه والبيهقي عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " قال الله أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته ومن بتها بتته " .

وأخرج البيهقي عن عبد الله بن أبي أوفى قال : "كنا جلوساً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية عرفة في حلقة فقال : " إنا لا نحل لرجل أمسى قاطع رحم إلا قام عنا فلم يقم إذا فتى كان في أقصى الحلقة فأتى خالة له فقالت : ما جاء بك ؟ فأخبرها بما قال النبي صلى الله عليه وسلم ثم رجع فلجس في مجلسه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ما لي لا أرى أحداً قام من الحلقة غيرك فأخبره بما قال لخالته وما قالت له فقال : اجلس فقد أحسنت ألا أنها لا تنزل الرحمة على قوم فيهم قاطع رحم " " .

(111/710)

وأخرج أحمد والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أعمال بني آدم تعرض عشية كل خميس فلا يقبل عمل قاطع رحم " .

وأخرج الحاكم وصححه " عن عمرو بن عبسة قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم أول ما بعث ، وهو بمكة فقلت : ما أنت ؟ قال : نبي . قلت : بم أرسلت ؟ قال : " بأن تعبد الله وتكسر الأصنام وتصل الأرحام بالبر والصلة " " .

وأخرج الحاكم وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : " قال الله أنا الرحمن وهي الرحم فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته " .

وأخرج الحاكم وصححه عن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الرحم شجنة من الرحمن فمن وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله " .

وأخرج البخاري ومسلم والبيهقي في الأسماء والصفات عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الرحم شجنة من الله فمن وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والترمذي والحاكم وصححاه والبيهقي عن عبد الله بن عمرو يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء ، الرحم شجنة من الرحمن فمن وصلها وصله ومن قطعها قطعه " .

وأخرج الحاكم وصححه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : انتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو في قبة من أدم حمراء في نحو من أربعين رجلاً فقال : " إنه مفتوح لكم وإنكم منصورون ومصيبون فمن أدرك منكم ذلك فليتق الله وليأمر بالمعروف ولينه عن المنكر وليصل رحمه ، ومثل الذي يعين قومه على غير الحق كمثل البعير يتردى فهو يتردى بذنبه " .

(112/710)

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قلت يا رسول الله : أوصني قال : " أقم الصلاة وأدِ الزكاة وصم رمضان وحج البيت واعتمر وبر والديك وصل رحمك واقرِ الضيف وأمُرْ بالمعروف وانْهَ عن المنكر وَزُلْ مع الحق حيث زال " .

وأخرج ابن أبي شيبة والحاكم وصححه عن عبد الله بن سلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " افشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام "

وأخرج أحمد والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات وابن نصر في الصلاة وابن حبان

" عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : " قلت يا رسول الله : إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني فأنبئني عن كل شيء ، قال : كل شيء خلق من ماء . قلت : انبئني عن أمر إذا عملت به دخلت الجنة : قال : إفْشِ السلام وأطعم الطعام وصل الأرحام وقم بالليل والناس نيام ثم أدخل الجنة بسلام " .

وأخرج الطبراني والحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله ليعمر بالقوم ويكثر لهم الأموال وما نظر إليهم منذ خلقهم بغضاً لهم . قالوا : وكيف ذاك يا رسول الله ؟ قال : بصلتهم أرحامهم " .

وأخرج الطيالسي والحاكم وصححه والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إعرفوا أنسابكم تصلوا أرحامكم فإنه لأقرب لرحم إذا قطعت وإن كانت قريبة ، ولا بعد لها إذا وصلت وإن كانت بعيدة " .

وأخرج ابن أبي شيبة والحاكم وصححه عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " تجيء الرحم يوم القيامة كحجنة المغزل فتتكلم بلسان ذلق طلق فتصل من وصلها وتقطع من قطعها " .

(113/710)

وأخرج البزار والبيهقي في الأسماء والصفات عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ثلاث معلقات بالعرش : الرحم تقول : اللهم إني بك فلا أقطع ، والأمانة تقول : اللهم إني بك فلا أخان ، والنعمة تقول : اللهم إني بك فلا أكفر " .

وأخرج الحكيم الترمذي عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاث تحت العرش : القرآن له ظهر وبطن يحاج العباد ، والرحم تنادي صل من وصلني واقطع من قطعني ، والأمانة " .

وأخرج الحكيم الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الرحم معلقة بالعرش بالعرش فإذا أتاها الواصل بشرت به وكلمته ، وإذا أتاها القاطع احتجبت منه .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن حبان والطبراني والبيهقي والحكيم الترمذي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الرحم شجنة معلقة بالعرش " .

وأخرج ابن أبي شيبة والطبراني عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الرحم شجنة آخذة بحجزة الرحمن تناشده حقها فيقول : ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ من وصلك فقد وصلني ، ومن قطعك فقد قطعني " .

وأخرج الطبراني والخرائطي في مساوىء الأخلاق عن ابن عباس رضي الله عنهما عن

النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا يدخل الجنة مدمن الخمر لا العاقّ ولا المنّان " قال ابن عباس : شق ذلك على المؤمنين يصيبون ذنوباً حتى وجدت ذلك في كتاب الله في العاقّ ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾ و ﴿ لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ [البقرة : 264] وقال ﴿ إنما الخمر والميسر ﴾ [المائدة : 90] .

قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين لعنهم الله ﴾ الآية .

(114/710)

أخرج أحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن سليمان موقوفاً والحسن بن سفيان والطبراني وابن عساكر عن سلمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا ظهر القول وخزن العمل وائتلفت الألسن واختلفت القلوب وقطع ذي رحم رحمه فعند ذلك ﴿ لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾ " .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب العلم عن الحسن رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا الناس أظهروا العلم وضيعوا العمل وتحابوا بالألسن وتباغضوا بالقلوب وتقاطعوا في الأرحام لعنهم الله عند ذلك ﴿ فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾ " .

أما قوله تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ .

أخرج إسحق بن راهويه وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عروة رضي الله عنه قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ فقال شاب من أهل اليمن بل عليها أقفالها حتى يكون الله يفتحها أو يفرجها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : صدقت فما زال الشاب في نفس عمر رضي الله عنه حتى ولي فاستعان به .

وأخرج الدارقطني في الافراد وابن مردويه عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ فقال شاب عند النبي صلى الله عليه وسلم : بل والله عليها أقفالها حتى يكون الله هو الذي يفكها . فلما ولي عمر وسأل عن ذلك الشاب ليستعمله ، فقيل : قد مات .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ قال : إذاً والله في القرآن زاجر عن معصية الله قال : لم يتدبره القوم ويعقلوه ولكنهم أخذوا بمتشابهه فهلكوا عند ذلك .

(115/710)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن خالد بن معدان رضي الله عنه قال : ما من عبد إلا له أربع أعين عينان في وجهه يبصر بهما دنياه وما يصلحه من معيشته ، وعينان في قلبه يبصر بهما دينه وما وعد الله بالغيب فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح عينيه اللذين في قلبه فأبصر بهما ما وعد بالغيب ، وإذا أراد الله بعبد سوءاً ترك القلب على ما فيه وقرأ ﴿ أم على قلوب أقفالها ﴾ وما من عبد إلا وله شيطان متبطن فقار ظهره لاوٍ عنقه على عنقه فاغر فاه على قلبه .

وأخرج الديلمي في مسند الفردوس عن خالد بن معدان عن معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعاً إلى قوله : وقرأ ﴿ أم على قلوب أقفالها ﴾ .

وأخرج الديلمي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يأتي على الناس زمان يخلق القرآن في قلوبهم يتهافتون تهافتاً ، قيل يا رسول الله : وما تهافتهم ؟ قال : يقرأ أحدهم فلا يجد حلاوة ولا لذة يبدأ أحدهم بالسورة وإنما معه آخرها فإن عملوا قالوا ربنا اغفر لنا ، وإن تركوا الفرائض قالوا : لا يعذبنا الله ونحن لا نشرك به شيئاً أمرهم رجاء ولا خوف فيهم ﴿ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ " .

إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى ﴾ قال : هم أعداء الله أهل الكتاب يعرفون نعت محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه عندهم ويجدونه مكتوباً في التوراة والإنجيل ، ثم يكفرون به ﴿ الشيطان سوّل لهم ﴾ قال : زين لهم ﴿ ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله ﴾ قال : هم المنافقون .

(116/710)

وأخرج ابن المنذر عن ابن جرير رضي الله عنه في قوله ﴿ إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى ﴾ قال : اليهود ارتدوا عن الهدى بعد أن عرفوا أن محمداً صلى الله عليه وسلم نبي ، ﴿ الشيطان سوّل لهم وأملى لهم ﴾ قال : أملى الله لهم ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله قال : يهود تقول للمنافقين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وكانوا يسرون إليهم إنا ﴿ سنطيعكم في بعض الأمر ﴾ وكان بعض الأمر أنهم يعلمون أن محمداً نبي وقالوا اليهودية الدين فكان المنافقون يطيعون اليهود بما أمرتهم ﴿ والله يعلم إسرارهم ﴾ قال : ذلك سر القول ﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ قال : عند الموت .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ إن الذين ارتدوا على أدبارهم . . . إلى إسرارهم ﴾ هم أهل النفاق .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ قال : يضربون وجوههم وأستاهم ، ولكن الله كريم يكني .

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (29)

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ﴾ قال : أعمالهم . خبثهم والحسد الذي في قلوبهم ، ثم دل الله النبي صلى الله عليه وسلم بعد على المنافقين ، فكان يدعو باسم الرجل من أهل النفاق .

وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في قوله ﴿ ولتعرفنهم في لحن القول ﴾ قال : ببغضهم علي بن أبي طالب .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ببغضهم علي بن أبي طالب .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه أنه تلا هذه الآية ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين ﴾ الآية فقال : اللهم عافنا واسترنا ولا تبل أخبارنا .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم رضي الله عنه أنه قرأ " أو ليبلونكم " بالياء " حتى يعلم " بالياء " ويبلو " بالياء ونصب الواو والله أعلم .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (33)

أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في الآية قال : من استطاع منكم أن لا يبطل عملاً صالحاً بعمل سوء فليفعل ولا قوّة إلا بالله فإن الخير ينسخ الشر ، فإنما ملاك الأعمال خواتيمها .

وأخرج عبد بن حميد ومحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب ، كما لا ينفع من الشرك عمل حتى نزلت ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ فخافوا أن يبطل الذنب العمل ، ولفظ عبد بن حميد : فخافوا الكبائر أن تحبط أعمالكم .

وأخرج ابن نصر وابن جرير وابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كنا معشر أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبولاً حتى نزلت ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ فلما نزلت هذه الآية قلنا : ما هذا الذي يبطل أعمالنا ؟ فقال : الكبائر الموجبات والفواحش ، فكنا إذا رأينا من أصاب

شيئاً منها قلنا : هلك ، حتى نزلت هذه الآية ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [النساء : 48] فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك ، وكنا إذا رأينا أحداً أصاب منها شيئاً خفنا عليه وإن لم يصب منها شيئاً رجونا له .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون ﴾ يقول : ولا تكونوا أول الطائفتين صرعت صاحبتها ودعتها إلى الموادعة ، وأنتم أولى بالله منهم ﴿ ولن يتركم أعمالكم ﴾ يقول : لن يظلمكم .

(118/710)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ فلا تهنوا ﴾ قال : لا تضعفوا ﴿ وأنتم الأعلون ﴾ قال : الغالبون ﴿ ولن يتركم ﴾ قال : لن ينقصكم .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ يتركم ﴾ قال : يظلمكم .

وأخرج الخطيب عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم ﴾ قال : محمد بن المنتشر منتصبة السين .

وأخرج أبو نصر السجزي في الإِنابة عن عبد الرحمن بن أبزى قال : كان النبي صل الله عليه وسلم يقرأ هؤلاء الأحرف ﴿ ادخلوا في السلم ﴾ [البقرة : 208] ﴿ وإن جنحوا

للسلم ﴾ [الأنفال: 61] ﴿ وتدعوا إلى السلم ﴾ بنصب السين.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله: ﴿ إن يسألكموها ﴾ قال: علم الله في مسألة الأموال خروج الأضغان.

قوله تعالى: ﴿ وإن تتولوا ﴾ الآية.

أخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

" لما نزلت ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ﴾ قيل: من هؤلاء وسلمان رضي الله عنه إلى جنب النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: " هم الفرس وهذا وقومه " ".

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: " تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ فقالوا يا رسول الله: من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا ثم لا يكونوا أمثالنا فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على منكب سلمان ثم قال: " هذا وقومه والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس " ".

وأخرج ابن مردويه عن جابر رضي الله عنه " أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ﴾ الآية فسئل من هم ، قال : " فارس لو كان الدين بالثريا لتناوله رجال من فارس " " .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ يستبدل قوماً غيركم ﴾ قال : من شاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ 496.506 ﴾

(120/710)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله عز وجل : ﴿ وَيَقُولُ الذين ءامَنُواْ لَوْلاَ نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾

وذلك أنهم كانوا يأنسون بالوحي ، ويستوحشون إذا أبطأ ، فاشتاقوا إلى الوحي ، فقالوا : لولا نزلت .

هلاّ نزلت سورة .

قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ ﴾ يعني : مبينة الحلال ، والحرام ﴿ وَذُكِرَ

فِيهَا القتال ﴾ يعني : أمروا فيها بالقتال .

وقال قتادة : كل سورة ذكر فيها ذكر القتال فهي محكمة .

وقال القتبي في قراءة ابن مسعود : سورة محدثة ، وتسمى المحدثة محكمة ، لأنها إذا نزلت تكون محكمة ما لم ينسخ منها شيء .

ويقال : ﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ ﴾ فِيها ذكر القتال ، وطاعة النبي صلى الله عليه وسلم فرح بها المؤمنون ، وكره المنافقون ، فذلك قوله : ﴿ رَأَيْتَ الذين فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ يعني : الشك ، والنفاق .

﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ المغشى عَلَيْهِ مِنَ الموت ﴾ كراهية لنزول القرآن .

يعني : إنهم يشخصون نحوك بأبصارهم ، وينظرون نظراً شديداً من شدة العداوة ، كما ينظر المريض عند الموت .

﴿ فأولى لَهُمْ ﴾ فهذا تهديد ، ووعيد .

يعني : وليهم المكروه .

يعني : قل لهم احذروا العذاب ، وقد تم الكلام .

ثم قال : ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ قال القتبي : هذا مخصوص .

يعني : قولهم قبل نزول الفرض ، سمعاً لك وطاعة .

فإذا أمروا به كرهوا .

ذلك .

ويقال : معناه ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ أمثل لهم .

ويقال : معناه فإذا أنزلت سورة ذات طاعة ، يؤمر فيها بالطاعة ، وقول معروف ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأمر ﴾ أي : جاء الجد ، ووقت القتال ، فلم يذكر في الآية جوابه .

والجواب فيه مضمر .

معناه : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأمر ﴾ يعني : وجب الأمر ، وجد الأمر ، كرهوا ذلك .

(121/710)

ثم ابتدأ فقال : ﴿ فَلَوْ صَدَقُواْ الله لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ ﴾ يعني : لو صدقوا الله في النبي ، وما جاء به ، لكان خيراً لهم من الشرك والنفاق .

قوله : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ يعني : لعلكم وإن وليتم أمر هذه الأمة ﴿ أَن تُفْسِدُواْ فِى الأرض ﴾ بالمعاصي .

يعني : أن تعصوا الله في الأرض ﴿ وَتُقَطِّعُواْ أَرْحَامَكُمْ ﴾ .

قال السدي : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى الأرض ﴾ بالمعاصي ﴿ وَتُقَطِّعُواْ أَرْحَامَكُمْ ﴾ فإن المؤمنين إخوة .

فإذا قتلوهم ، فقد قطعوا أرحامهم .

وروى جبير عن الضحاك قال : نزلت في الأمراء : ﴿ إِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أمر الناس ﴿ أَن تُفْسِدُواْ فِى الأرض ﴾ .

ويقال : معناه إن أعرضتم عن دين الإسلام ، وعما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، أن تفسدوا في الأرض بسفك الدماء ، ودفن البنات ، وقطع الأرحام ، ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ يعني : هل تريدون إذا أنتم تركتم النبي صلى الله عليه وسلم ، وما أمركم به ، إِلاَّ أن تعودوا إلى مثل ما كنتم عليه من الكفر ، والمعاصي ، وقطع الأرحام .

قرأ نافع : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ ﴾ بكسر السين .

والباقون : بالنصب .

وهما لغتان ، إلا أن النصب أظهر عند أهل اللغة .

قوله عز وجل : ﴿ أُوْلَئِكَ الذين لَعَنَهُمُ الله ﴾ يعني : أهل هذه الصفة خذلهم الله ، وطردهم من رحمته .

قوله : ﴿ فَأَصَمَّهُمْ ﴾ عن الهدى ، فلا يعقلونه ﴿ وأعمى أبصارهم ﴾ عن الهدى : فلا يبصرونه عقوبة لهم .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرءان ﴾ يعني : أفلا يسمعون القرآن ، ويعتبرون به ، ويتفكرون فيما أنزل الله تعالى فيه ، من وعد ووعيد ، وكثرة عجائبه ، حتى يعلموا أنه من

الله تعالى ، وتقدس .

﴿ أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ يعني : بل على قلوب أقفالها .

يعني : أقفل على قلوبهم ومعناه : أن أعمالهم لغير الله ختم على قلوبهم .

(122/710)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين ارتدوا على أدبارهم ﴾ يعني : رجعوا إلى الشرك ﴿ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهدى ﴾ يعني : من بعد ما ظهر لهم الإسلام .

قال قتادة : ﴿ إِنَّ الذين ارتدوا على أدبارهم ﴾ وهم أهل الكتاب عرفوا نعت النبي صلى الله عليه وسلم ، وكفروا به .

ويقال : نزلت في المرتدين .

ثم قال عز وجل : ﴿ الشيطان سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ يعني : زين لهم ترك الهدى ، وزين لهم الضلالة .

﴿ وأملى لَهُمْ ذلك ﴾ قرأ أبو عمرو : ﴿ وَأُمْلِى ﴾ بضم الألف ، وكسر اللام ، وفتح الياء على معنى فعل ما لم يسم فاعله .

والباقون ﴿ وأملى ﴾ بنصب اللام ، والألف .

يعني : أمهل الله لهم ، فلم يعاقبهم حين كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم .

ويقال : زين لهم الشيطان ، وأملى لهم الشيطان .

يعني : خيل لهم تطويل المدة ، والبقاء .

وقرأ يعقوب الحضرمي : ﴿ وَأُمْلِى ﴾ بضم الألف ، وكسر اللام ، وسكون الياء .

ومعناه : أنا أملي يعني : أطول لهم المدة كما قال : ﴿ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمَاً ﴾ ثم قال ذلك : يعني : اللعن ، والصمم ، والعمى ، والتزين ، والإملاء .

﴿ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ الله ﴾ وهم المنافقون ، قالوا ليهود بني قريظة والنضير وهم الذين كرهوا ما نزل الله .

يعني : تركوا الإيمان بما أنزل الله من القرآن ، ﴿ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ الأمر ﴾ يعني : سنغنيكم في بعض الأمر ، ﴿ والله يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ فيما قالوا فيما بينهم .

قرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم ، في رواية حفص : ﴿ إِسْرَارَهُمْ ﴾ بكسر الألف .

والباقون : بالنصب .

فمن قرأ : بالنصب .

فهو جمع السر .

ومن قرأ : بالكسر ، فهو مصدر أسررت إسراراً .

ويقال : سر وأسرار .

ثم خوفهم فقال الله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ ﴾ يعني : كيف يصنعون ﴿ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الملائكة ﴾ يعني : تقبض أرواحهم الملائكة ، ملك الموت ، وأعوانه ، ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وأدبارهم ﴾ يعني : عند قبض الأرواح .

ويقال : يعني : يوم القيامة في النار .

﴿ ذلك ﴾ أي : ذلك الضرب الذي نزل بهم عند الموت ، وفي النار .

﴿ بِأَنَّهُمُ اتبعوا مَا أَسْخَطَ الله ﴾ يعني : اتبعوا الكفر ، وتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَكَرِهُواْ رِضْوَانَهُ ﴾ يعني : عملوا بما لم يرض الله به ، وتركوا العمل بما يرضي الله تعالى .

﴿ فَأَحْبَطَ أعمالهم ﴾ يعني : أبطل ثواب أعمالهم .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ يعني : أيظن أهل النفاق ، والشك ، ﴿ أَن لَّن يُخْرِجَ الله أضغانهم ﴾ يعني : لم يظهر الله نفاقهم .

ويقال : يعني : الغش الذي في قلوبهم للمؤمنين ، وعداوتهم للنبي صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَلَوْ نَشَاء لاريناكهم ﴾ يعني : لعرفتك المنافقين ، وأعلمتك ، ﴿ فَلَعَرَفْتَهُم بسيماهم

﴿ يعني : بعلاماتهم الخبيثة .

ويقال : ﴿ فَلَعَرَفْتَهُم بسيماهم ﴾ إذا رأيتهم .

ويقال : لو نشاء ، لجعلنا على المنافقين علامة ، فلعرفتهم بسيماهم .

يعني : حتى عرفتهم .

﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ القول ﴾ يعني : ستعرفهم يا محمد بعد هذا اليوم ﴿ فِى لَحْنِ القول ﴾ يعني : في محاورة الكلام .

ويقال : ﴿ فِى لَحْنِ القول ﴾ يعني : كذبهم إذا تكلموا ، فلم يخفَ على النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية ، منافق عنده إلا عرفه بكلامه .

ثم قال : ﴿ والله يَعْلَمُ أعمالكم ﴾ يعني : لم يخف عليه أعمالكم قبل أن تعملوها ، فكيف يخفى عليه إذا عملتموها .

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم ﴾ يعني : لنختبرنكم عند القتال ﴿ حتى نَعْلَمَ ﴾ أي : نميز ﴿ المجاهدين مِنكُمْ والصابرين ﴾ يعني : صبر الصابرين عند القتال ﴿ وَنَبْلُوَ أخباركم ﴾ يعني : نختبر أعمالكم .

(124/710)

ويقال : أسراركم .

قرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿ وَلَيَبْلُوَنَّكُم حَتَّى يَعْلَمَ وَيَبْلُوَا ﴾ الثلاثة كلها بالياء .

يعني : يختبركم الله .

والباقون الثلاثة كلها بالنون على معنى الإضافة إلى نفسه .

قوله عز وجل : ﴿ عَنْهُ وكفى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً إِنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ يعني : جحدوا ﴿ وَصُدُّواْ ﴾ يعني : صرفوا الناس عن دين الإسلام ﴿ عَن سَبِيلِ الله ﴾ قال مقاتل : يعني : اليهود .

وقال الكلبي : يعني : رؤساء قريش حيث شاقوا أهل التوحيد ﴿ وَشَاقُّواْ الرسول ﴾ يعني : عادوا الله تعالى ، ورسوله ، وخالفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدين ﴿ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهدى ﴾ يعني : الإسلام ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أنه الحق ﴿ لَن يَضُرُّواْ الله شَيْئاً ﴾ يعني : لن ينقصوا الله من ملكه شيئاً بكفرهم ، بل يضروا بأنفسهم ﴿ وَسَيُحْبِطُ أعمالهم ﴾ يعني : يبطل ثواب أعمالهم التي عملوا في الدنيا ، فلا يقبلها منهم .

قوله تعالى : ﴿ بَصِيراً يا أيها الذين ءامَنُواْ أَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ يعني : أطيعوه في السر ، كما في العلانية .

ويقال : ﴿ أَطِيعُواْ الله ﴾ في الفرائض ﴿ وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ في السنن ، وفيما يأمركم

من الجهاد ﴿ وَلاَ تُبْطِلُواْ أعمالكم ﴾ يعني : حسناتكم بالرياء .

وقال أبو العالية : كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يرون أنه لا يضر مع قول لا إله إلا الله ذنب ، كما لا ينفع مع الشرك عمل ، حتى نزل ﴿ أعمالهم يا أيها الذين ءامَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرسول وَلاَ تُبْطِلُواْ أعمالكم ﴾ فخافوا أن تبطل الذنوب الأعمال .

وقال مقاتل : نزلت في الذين يمنون عليك أن أسلموا ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله ﴾ قال مقاتل : وذلك أن رجلاً سأله عن والده أنه كان محسناً في كفره ، قال : هو في النار .

(125/710)

فولى الرجل يبكي ، فدعاه ، فقال له : " والدك ووالدي ووالد إبراهيم في النار " .

فنزل : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله ﴾ ﴿ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ الله لَهُمْ ﴾ قال الكلبي : نزلت الآية في رؤساء أهل بدر .

قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَهِنُواْ ﴾ يعني : لا تضعفوا عن عدوكم ﴿ وَتَدْعُواْ إِلَى السلم ﴾ يعني : إلى الصلح .

أي : لا تهنوا ، ولا تدعوا إلى الصلح نظير .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَلْبِسُواْ الحق بالباطل وَتَكْتُمُواْ الحق وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 42]

يعني : ولا تكتموا الحق وفي هذه الآية دليل على أن أيدي المسلمين ، إذا كانت عالية على المشركين ، لا ينبغي لهم أن يجيبوهم إلى الصلح ، لأن فيه ترك الجهاد .

وإن لم تكن يدهم عالية عليهم ، فلا بأس بالصلح لقوله تعالى : ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فاجنح لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى الله إِنَّهُ هُوَ السميع العليم ﴾ [الأنفال : 61] يعني : إن مالوا للصلح فمل إليه .

قرأ حمزة في رواية أبي بكر : إلى السلم بكسر السين .

والباقون : بالنصب .

قال بعضهم : وهما لغتان .

وقال بعضهم : أحدهما صلح ، والآخر استسلام .

ثم قال : ﴿ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ ﴾ يعني : العالين يكون آخر الأمر لكم ﴿ والله مَعَكُمْ ﴾ يعني : معينكم ، وناصركم ، ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أعمالكم ﴾ يعني : لن ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئاً .

يقال : وترتني حقي يعني : بخستني فيه .

وقال مجاهد : لن ينقصكم .

وقال قتادة : لن يظلمكم .

﴿ إِنَّمَا الحياة الدنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ يعني : باطل ، وفرح .

(126/710)

﴿ وَإِن تُؤْمِنُواْ ﴾ أي : تستقيموا على التوحيد ﴿ وَتَتَّقُواْ ﴾ النفاق ﴿ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾ يعني : يعطكم ثواب أعمالكم ﴿ وَلاَ يَسْئَلْكُمْ أموالكم ﴾ يعني : لا يسألكم جميع أموالكم ، ولكن ما فضل منها ﴿ وَإِن يَسْئَلْكُمُوهَا ﴾ يعني : جميع الأموال ﴿ فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ ﴾ يعني : إن يلح عليكم بما يوجبه في أموالكم .

ويقال : ﴿ فَيُحْفِكُمْ ﴾ يعني : يجهدكم كثرة المسألة ﴿ تَبْخَلُواْ ﴾ بالدفع ﴿ وَيُخْرِجْ أضغانكم ﴾ يعني : يظهر بغضكم ، وعداوتكم لله تعالى ، ولرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين .

ويقال : ويخرج ما في قلوبكم من حب المال .

يقول : هذا للمسلمين .

ويقال : هذا للمنافقين .

يعني : يظهر نفاقكم .

وقال قتادة : علم الله أن في مسألة الأموال خروج الأضغان .

قوله عز وجل : ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هؤلاء ﴾ قرأ نافع ، وأبو عمرو ﴿ وَإِذْ أَنتُمْ ﴾ بمدة طويلة ، بغير همز .

وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي .

بالمد ، والهمز ، فَهَا تنبيه ، وأنتم كلمة على حدة ، وإنما مد ليفصل ألف هاء من ألف أنتم .

وقرأ ابن كثير : بالهمز بغير مد ومعناه : أَأَنتم .

ثم قلبت إحدى الهمزتين هاء .

ومعنى هذه القراءات كلها أنتم يا معشر المؤمنين ﴿ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ الله ﴾ يعني : لتتصدقوا في سبيل الله ، وتعينوا الضعفاء .

﴿ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ﴾ بالنفقة في سبيل الله ﴿ وَمَن يَبْخَلْ ﴾ بالنفقة ﴿ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ﴾ يعني : لا يكون له ثواب النفقة ﴿ والله الغنى ﴾ عما عندكم من الأموال ، وعن أعمالكم .

﴿ وَأَنتُمُ الفقراء ﴾ إلى ما عند الله من الثواب ، والرحمة ، والمغفرة .

﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ ﴾ يعني : تعرضوا عما أمركم الله به من الصدقة ، وغير ذلك مما افترض الله عليكم من حق .

﴿ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُواْ أمثالكم ﴾ يعني : يهلككم ، ويأت بخير منكم ، وأطوع لله تعالى منكم ﴿ ثُمَّ لاَ يَكُونُواْ أمثالكم ﴾ يعني : أشباهكم في معصية الله تعالى .

قال بعضهم : لم يتولوا ، ولم يستبدل بهم .

وقال بعضهم : استبدل بهم أناس من كندا وغيرها .

وروى أبو هريرة قال : لما نزلت هذه الآية ، قالوا : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم من هؤلاء الذين ، إِنْ تولينا استبدلوا بِنَا ؟ قال : وَعنده سلمان .

فوضع النبي صلى الله عليه وسلم يده عليه ، ثم قال : " هذا وَقَوْمُهُ " ثم قال : " لَوْ كَانَ الإِيمَانُ مُعَلَّقاً بِالثُّرَيَّا لَتَنَاوَلَهُ رِجَالٌ مِنْ أَبْنَاءِ فَارِس " وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 287.292 ﴾

(128/710)

وقال الثعلبى :

﴿ وَيَقُولُ الذين آمَنُواْ ﴾

اشتياقاً منهم إلى الوحي وحرصاً على الجهاد . ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾ تأمرنا بالجهاد .

﴿ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ ﴾ بالأمر والنهي ، قال قتادة : كلّ سورة ذكر فيها الجهاد ، فهي محكمة ، وهي أشدّ للقرآن على المنافقين . وفي حرف عبد الله (سورةٌ محدثة) ﴿ وَذُكِرَ فِيهَا القتال رَأَيْتَ الذين فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ يعني المنافقين ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ شزراً ، بتحديق شديد كراهة منهم للجهاد ، وجبناً منهم على لقاء العدوّ ﴿ نَظَرَ ﴾ كنظر ﴿ المغشي عَلَيْهِ مِنَ الموت فأولى لَهُمْ ﴾ وعيد وتهديد ، قال : ﴿ طَاعَةٌ ﴾ مجازه ، ويقول هؤلاء المنافقون قبل نزول الآية المحكمة (طاعةٌ) رفع على الحكاية أي أمرنا طاعة أو منّا طاعة .

﴿ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ حسن وقيل : هو متصل بالكلام الأوّل ، (واللام) في قوله (لهم) بمعنى (الباء) مجازه فأولى بهم طاعة لله ورسوله ﴿ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ بالإجابة والطاعة .

﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأمر ﴾ أي جدّ الأمر وعُزم عليه وأُمروا بالقتال . ﴿ فَلَوْ صَدَقُواْ الله ﴾ في إظهار الإيمان والطاعة ﴿ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ * فَهَلْ عَسَيْتُمْ ﴾ فلعلّكم ﴿ إِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أعرضتم عن الإيمان ، وعن القرآن ، وفارقتم أحكامه .

﴿ تُفْسِدُواْ فِي الأرض ﴾ بالمعصية ، والبغي ، وسفك الدماء ، وتعودوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الفرقة ، بعد ما جمعكم الله تعالى بالإسلام ، وأكرمكم بالألفة .

قال قتادة : كيف رأيتم القوم حين تولّوا عن كتاب الله ؟ ألم يسفكوا الدم الحرام ، وقطعوا الأرحام ، وعصوا الرّحمن ؟ ، وقال بعضهم : هو من الآية . قال المسيب بن شريك والفراء : يقول : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ إن وليّتم أمر الناس ﴿ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ ﴾ بالظلم ، نزلت في بني أمية ، ودليل هذا التأويل ما أخبرنا الحسين بن محمّد بن الحسين ، حدّثنا هارون بن محمّد بن هارون ، حدّثنا محمّد بن عبد العزيز ، حدّثنا القاسم بن يونس الهلالي ، عن سعيد بن الحكم الورّاق ، عن ابن داود ، عن عبد الله بن مغفل ، قال : " سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم يقرأ ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ ﴾ ثم قال : " هم هذا الحي من قريش أخذ الله عليهم إن وُلوا الناس ألاّ يفسدوا في الأرض ولا يقطّعوا أرحامهم " " .

وقرأ علي بن أبي طالب ﴿ إن توليتم ﴾ بضمّ (التاء) و (الواو) وكسر (اللام) ، يقول : إن وليتكم ولاة جائرة خرجتم معهم في الفتنة ، وعاونتموهم . ومثله روى رويس عن يعقوب .

﴿ وتقطعوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ قرأ يعقوب ، وأبو حاتم ، وسلام (وتقطعوا) خفيفة من القطع اعتباراً بقوله : ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ [البقرة : 27] وقرأ الحسن مفتوحة الحروف ، اعتباراً بقوله : ﴿ فتقطعوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾ [المؤمنون : 53] . وقرأ

غيرهم (وتقعطوا) بضم (التاء) مشدّداً من التقطيع على التكثير لأجل الأرحام .

﴿ أولئك الذين لَعَنَهُمُ الله فَأَصَمَّهُمْ وأعمى أَبْصَارَهُمْ ﴾ عن الحقّ .

(130/710)

﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن ﴾ تفهم مواعظ القرآن ، وأحكامه ، أخبرنا عقيل ابن محمّد ، أخبرنا المعافى بن زكريا ، أخبرنا محمّد بن جرير ، حدّثنا ابن حميد ، حدّثنا يحيى بن واضح ، حدّثنا ثور بن يزيد ، عن خالد بن معدان ، قال : ما من النّاس أحدٌ إلاّ وله أربع أعين : عينان في وجهه لدنياه ، ومعيشته ، وعينان في قلبه لدينه ، وما وعد الله من الغيب . وما من أحدٌ إلاَّ وله شيطانٌ متبطّن فقار ظهره ، عاطف عنقه على عاتقه ، فاغرٌ فاه إلى ثمرة قلبه ، فإذا أراد الله بعبد خيراً أبصرت عيناه اللّتان في قلبه ما وعد الله تعالى من الغيب ، فيعمل به ، وإذا أراد الله بعبد شرّاً طمس عليهما ، فذلك قوله : ﴿ أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ .

وبه عن ابن جرير ، حدّثنا بشير ، حدّثنا حمّاد بن زيد ، حدّثنا هشام بن عبده عن أبيه ، قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ فقال شاب من أهل اليمن : بل عليها أقفالها حتّى يكون الله يفتحها أو يفرجها ،

فما زال الشاب في نفس عمر حتّى ولي فاستعان به .

﴿ إِنَّ الذين ارتدوا على أَدْبَارِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهدى ﴾ قال قتادة : هم كفّار أهل الكتاب كفروا بمحمّد وهم يعرفونه ويجدون نعته مكتوباً عندهم ، وقال ابن عبّاس والضحّاك والسدي : هم المنافقون .

﴿ الشيطان سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ زيّن لهم ﴿ وأملى لَهُمْ ﴾ قرأ أبو عمرو بضم (الألف) وفتح (الياء) على وجه ما لم يُسمَّ فاعله . وقرأ مجاهد ، ويعقوب بضمّ (الألف) وإرسال (الياء) على وجه الخبر من الله تعالى عن نفسه أنّه يفعل ذلك بهم وهو اختيار أبي حاتم . وقرأ الآخرون (وأملى) بفتح (الألف) بمعنى وأملى الله لهم وهو اختيار أبي عبيدة .

(131/710)

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ﴾ يعني هؤلاء المنافقين أو اليهود ﴿ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ الله ﴾ وهم المشركون . ﴿ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأمر ﴾ في مخالفة محمّد صلى الله عليه وسلم والقعود عن الجهاد .

﴿ والله يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ قرأ أهل الكوفة إلاّ أبو بكر بكسر (الألف) على الفعل ، غيرهم بفتحها على جمع السر .

﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ﴾ (بالتاء) قراءة العامّة ، وقرأ عيسى بن عمر (توفّيهم) (بالياء) . ﴿ الملائكة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ عند الموت ، نظيرها في الأنفال والنحل .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتبعوا مَآ أَسْخَطَ الله وَكَرِهُواْ رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ * أَمْ حَسِبَ الذين فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ شك ، يعني المنافقين ﴿ أَن لَّن يُخْرِجَ الله أَضْغَانَهُمْ ﴾ أحقادهم على المؤمنين ، واحدها ضغن ، فيبديها لهم حتّى يعرفوا نفاقهم . ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ ﴾ أي لأعلمناكهم ، وعرفناكهم ، ودللناك عليهم ، تقول العرب : سأُريك ما أصنع بمعنى سأُعلمك ، ومنه قوله تعالى : ﴿ بِمَآ أَرَاكَ الله ﴾ [النساء : 105] .

﴿ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ﴾ بعلامتهم ، قال أنس بن مالك : ما أخفي على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية شيء من المنافقين ، كان يعرفهم بسيماهم ، ولقد كنّا معه في غزاة وفيها سبعة من المنافقين يشكوهم النّاس ، فناموا ذات ليلة وأصبحوا وعلى كلّ واحد منهم مكتوب هذا منافق .

فذلك قوله : ﴿ بِسِيمَاهُمْ ﴾ .

وقال ابن زيد : قد أراد الله إظهار نفاقهم ، وأمر بهم أن يخرجوا من المسجد ، فأبوا إلاّ أن يمسكوا بلا إله إلاّ الله ، فلمّا أبوا أن يمسكوا إلاّ بلا إله إلاّ الله ، حُقنت دماؤهم ، ونكحوا ، ونكحوا بها .

﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القول ﴾ قال ابن عبّاس : في معنى ﴿ القول ﴾ : الحُسن في فحواه . القرظي : في مقصده ومغزاه . واللحن وجهان : صواب ، وخطأ ، فأمّا الصواب فالفعل منه لحن يلحن لحناً ، فهو لحن إذا فطن للشيء ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم " ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجّته من بعض " ، والفعل من الخطأ لحن يلحن لحناً ، فهو لاحن ، والأصل فيه إزالة الكلام عن جهته ، وفي الخبر أنّه قيل لمعاوية : إنّ عبيد الله بن زياد يتكلّم بالفارسية ، فقال : أليس طريفاً من ابن أخي أن يلحن في كلامه أي يعدل به من لغة إلى لغة ، قال الشاعر :

وحديث الذه هو ممّا . . . ينعت الناعتون يوزن وزنا

منطق صائب وتلحن أحيا . . . ناً وخير الحديث ما كان لحنا

يعني ترتل حديثها .

﴿ والله يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ بالجهاد ﴿ حتى نَعْلَمَ المجاهدين مِنكُمْ والصابرين وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ قرأ العامّة كلّها بالنون لقوله : ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ ﴾ [محمد : 30] . وروى أبو بكر والمفضل ، عن عاصم كلّها (بالياء) . وقرأ يعقوب ، (ونبلوا) ساكنة (الواو) ردّاً على قوله : (نعلم) .

قال إبراهيم بن الأشعث : كان الفضل إذا قرأ هذه الآية بكى ، وقال : اللّهم لا تبلنا ، فإنّك

إن بلوتنا هتكت أستارنا ، وفضحتنا .

﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله وَشَآقُّواْ الرسول مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهدى لَن يَضُرُّواْ الله شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ قال ابن عبّاس : هم المطعمون يوم بدر ، نظيره قوله : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ الله ﴾ [الأنفال : 36] . . . الآية .

(133/710)

﴿ يا أيها الذين آمنوا أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرسول وَلاَ تبطلوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ بمعصيتها ، قال مقاتل والثمالي : لا تمنوا على رسول الله فتبطلوا أعمالكم ، نزلت في بني أسد . وسنذكر القصة في سورة الحجرات إن شاء الله . وقيل : بالعجب والرياء .

﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ الله لَهُمْ ﴾ قيل : هم أصحاب القليب ، وحكمها عام ﴿ فَلاَ تَهِنُواْ ﴾ تضعفوا ﴿ وتدعوا إِلَى السلم ﴾ إلى الصلح ﴿ وَأَنتُمُ الأعلون ﴾ لأنّكم مؤمنون محقّون .

﴿ والله مَعَكُمْ ﴾ قال قتادة : لا تكونوا أوّل الطائفتين ضرعت إلى صاحبتها ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ قال ابن عبّاس وقتادة والضحّاك وابن زيد : لن يظلمكم . مجاهد : لن

ينقصكم أعمالكم بل يثيبكم عليها ، ويزيدكم من فضله ، ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم

" من فاته صلاة العصر فكأنّما وتر أهله وماله " أي ذهب بهما .

﴿ إِنَّمَا الحياة الدنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلاَ يَسْأَلْكُمْ ﴾ ربّكم .

﴿ أَمْوَالَكُمْ ﴾ لا يسألكم الأجر ، بل يأمركم بالإيمان ، والطاعة ليثيبكم عليها الجنّة ، نظيره قوله : ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ ﴾ [الذاريات : 57] . . الآية ، وقيل : (ولا يسألكم) محمّد صدقة أموالكم ، نظيره قوله : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ . . . ﴾ [ص : 86] وقيل : معنى الآية ولا يسألكم الله ورسوله أموالكم كلّها إنّما يسألانكم غيضاً من فيض ، ربع العشر فطيبوا بها نفساً ، وإلى هذا القول ذهب ابن عُيينة وهو اختيار أبي بكر بن عبدش ، قال : حكى لنا ابن حبيب عنه ، يدلّ عليه سياق الآية .

﴿ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ ﴾ فيجهدكم ويلحّ ويلحفكم عليها ، وقال ابن زيد : الإحفاء أن تأخذ كلّ شيء بيدك .

(134/710)

﴿ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾ قال قتادة : قد علم الله تعالى أنّ في مسألة المال خروج الأضغان ﴿ هَا أَنتُمْ هؤلاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ الله فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ والله الغني ﴾ عن صدقاتكم وطاعتكم ﴿ وَأَنتُمُ الفقرآء ﴾ إليها ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يكونوا أَمْثَالَكُم ﴾ في الطواعية ، بل يكونوا أطوع لله تعالى وأمثل منكم ، قال الكلبي : هم كندة والنخع . الحسن : هم العجم . عكرمة : فارس والروم . أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن محمّد ابن الحسين بن عبد الله بن منجويه الدينوري ، حدّثنا عمر بن الخطّاب ، حدّثنا عبد الله بن الفضل ، حدّثنا يحيى بن أيّوب ، حدّثنا إسماعيل بن جعفر ، أخبرني عبد الله بن نجيح ، عن العلاء بن عبد الرّحمن ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، قال : " قال أُناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله مَنْ هؤلاء الذين ذكرهم الله تعالى في القرآن إن تولّينا استبدلوا ، ثمّ لا يكونوا أمثالنا ؟ قال : وكان سلمان إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وسلم فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فخذ سلمان وقال : " هذا وقومه ، والّذي نفسي بيده لو كان الإيمان معلّقاً بالثريا لناله لتناوله رجال من فارس " " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 9 صـ 35 . 39 ﴾

(135/710)

وقال الزمخشرى :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلى لَهُمْ (20) ﴾

كانوا يدعون الحرص على الجهاد ويتمنونه بألسنتهم ويقولون لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ في معنى الجهاد فَإِذا أُنْزِلَتْ وأمروا فيها بما تمنوا وحرصوا عليه كاعوا « 1 » وشق عليهم ، وسقطوا في أيديهم ، كقوله تعالى فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ . مُحْكَمَةٌ مبينة غير متشابهة لا تحتمل وجها إلا وجوب القتال . وعن قتادة : كل سورة فيها ذكر القتال فهي محكمة ، وهي أشدّ القرآن على المنافقين . وقيل لها «محكمة» لأنّ النسخ لا يرد عليها من قبل أنّ القتال قد نسخ ما كان من الصفح والمهادنة ، وهو غير منسوخ إلى يوم القيامة . وقيل : هي المحدثة ، لأنها حين يحدث نزولها لا يتناولها النسخ ، ثم تنسخ بعد ذلك أو تبقى غير منسوخة .

وفي قراءة عبد اللّه : سورة محدثة . وقرئ : فإذا نزلت سورة وذكر فيها القتال . على البناء للفاعل ونصب القتال الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ هم الذين كانوا على حرف غير ثابتى الأقدام نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ أى تشخص أبصارهم جبنا وهلعا وغيظا ، كما ينظر من أصابته الغشية عند الموت فَأَوْلى لَهُمْ وعيد بمعنى : فويل لهم ، وهو أفعل : من الولي وهو

القرب . ومعناه الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه طاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ كلام مستأنف ، أى : طاعة وقول معروف خير لهم . وقيل : هي حكاية قولهم ، أى قالوا طاعة وقول معروف ،

---

(1) . قوله «كاعوا» في الصحاح : كاع الكلب يكوع ، أى : مشى على كوعه في الرمل من شدة الحر . (ع)

(136/710)

بمعنى : أمرنا طاعة وقول معروف . وتشهد له قراءة أبىّ : يقولون طاعة وقول معروف فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ أى جدّ . والعزم والجد لأصحاب الأمر . وإنما يسندان إلى الأمر إسنادا مجازيا . ومنه قوله تعالى إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ . فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ فيما زعموا من الحرص على الجهاد . أو : فلو صدقوا في إيمانهم وواطأت قلوبهم فيه ألسنتهم .

[سورة محمد (47) : الآيات 22 إلى 23]

فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ (22) أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمى أَبْصارَهُمْ (23)

عسيت وعسيتم : لغة أهل الحجاز . وأما بنو تميم فيقولون : عسى أن تفعل ، وعسى أن تفعلوا ، ولا يلحقون الضمائر : وقرأ نافع بكسر السين وهو غريب ، وقد نقل الكلام من

الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات ، ليكون أبلغ في التوكيد . فإن قلت : ما معنى : فهل عسيتم . . . أن تفسدوا في الأرض ؟ قلت : معناه : هل يتوقع منكم الإفساد ؟ فإن قلت : فكيف يصح هذا في كلام اللّه عز وعلا وهو عالم بما كان وما يكون ؟ قلت : معناه إنكم - لما عهد منكم - أحقاء بأن يقول لكم كل من ذاقكم وعرف تمريضكم ورخاوة عقدكم في الإيمان : يا هؤلاء ، ما ترون ؟ هل يتوقع منكم إن توليتم أمور الناس وتأمرتم عليهم لما تبين منكم من الشواهد ولاح من المخايل أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ تناحرا على الملك وتهالكا على الدنيا ؟ وقيل : إن أعرضتم وتوليتم عن دين رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وسنته أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الإفساد في الأرض : بالتغاور والتناهب ، وقطع الأرحام :

بمقاتلة بعض الأقارب بعضا ووأد البنات ؟ وقرئ : وليتم « 1 » . وفي قراءة على بن أبى طالب رضى اللّه عنه : توليتم ، أى : إن تولاكم ولاة غشمة خرجتم معهم ومشيتم تحت لوائهم وأفسدتم بإفسادهم ؟ وقرئ : وتقطعوا ، وتقطعوا ، من التقطيع والتقطع أُولئِكَ إشارة إلى المذكورين لَعَنَهُمُ اللَّهُ لإفسادهم وقطعهم الأرحام ، فمنعهم ألطافه وخذلهم ، حتى صموا عن استماع الموعظة ، وعموا عن إبصار طريق الهدى . ويجوز أن يريد بالذين آمنوا : المؤمنين الخلص الثابتين ، وأنهم يتشوفون إلى الوحى إذا أبطأ عليهم ، فإذا أنزلت سورة في معنى الجهاد :

رأيت المنافقين فيما بينهم يضجرون منها .

[سورة محمد (47) : آية 24]

أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها (24)

---

(1) . قوله «و قرئ وليتم» لعله بالبناء للمجهول ، وكذا توليتم في قراءة على . (ع)

(137/710)

أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ويتصفحونه وما فيه من المواعظ والزواجر ووعيد العصاة ، حتى لا يجسروا على المعاصي ، ثم قال أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها وأم بمعنى بل وهمزة التقرير ، للتسجيل عليهم بأن قلوبهم مقفلة لا يتوصل إليها ذكر . وعن قتادة : إذا والله يجدوا في القرآن زاجرا عن معصية الله لو تدبروه ، ولكنهم أخذوا بالمتشابه فهلكوا . فإن قلت : لم نكرت القلوب وأضيفت الأقفال إليها ؟ قلت : أما التنكير ففيه وجهان : أن يراد على قلوب قاسية مبهم أمرها في ذلك .

أو يراد على بعض القلوب : وهي قلوب المنافقين . وأما إضافة الأقفال ، فلأنه يريد الأقفال المختصة بها ، وهي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تنفتح . وقرئ : إقفالها ، على المصدر .

[سورة محمد (47) : الآيات 25 إلى 28]

إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلى لَهُمْ (25) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ (26) فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ (27) ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ (28)

الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ جملة من مبتدإ وخبر وقعت خبرا لإنّ ، كقولك : إنّ زيدا عمرو مرّ به . سوّل لهم : سهل لهم ركوب العظائم ، من السول وهو الاسترخاء ، وقد اشتقه من السؤل من لا علم له بالتصريف والاشتقاق جميعا «1» وَأَمْلى لَهُمْ ومدّ لهم في الآمال والأمانى . وقرئ وأملى لهم ، يعنى : إنّ الشيطان يغويهم وأنا أنظرهم ، كقوله تعالى أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ وقرئ : وأملى لهم على البناء للمفعول ، أى : أمهلوا ومدّ في عمرهم . وقرئ : سوّل لهم «2» ، ومعناه : كيد الشيطان زين لهم على تقدير حذف المضاف . فإن قلت : من هؤلاء ؟ قلت : اليهود كفروا بمحمد صلى اللّه عليه وسلم من بعد ما تبين لهم الهدى ، وهو نعته في التوراة . وقيل : هم المنافقون .

الذين قالوا القائلون : اليهود . والذين كرهوا ما نزل اللّه : المنافقون . وقيل عكسه ، وأنه قول المنافقين لقريظة والنضير : لئن أخرجتم لنخرجنّ معكم . وقيل بَعْضِ الْأَمْرِ : التكذيب برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، أو بلا إله إلا اللّه ، أو ترك القتال معه . وقيل : هو قول

أحد الفريقين

---

(1) . قال محمود : «هو مشتق من السول وهو الاسترخاء ، أى : سهل لهم ركوب العظائم . قال : وقد أشقه من السؤل من لا علم له بالتصريف والاشتقاق جميعا ، قلت : لأن السؤل مهموز ، وسول معتل .

(2) . قوله «و قرئ سول لهم» لعله بالبناء للمجهول . (ع)

(138/710)

للمشركين : سنطيعكم في التظافر على عداوة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والقعود عن الجهاد معه . ومعنى فِي بَعْضِ الْأَمْرِ في بعض ما تأمرون به . أو في بعض الأمر الذي يهمكم وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ وقرئ : إسرارهم على المصدر ، قالوا ذلك سرا فيما بينهم ، فأفشاه اللّه عليهم . فكيف يعملون وما حيلتهم حينئذ ؟ وقرئ : توفاهم ، ويحتمل أن يكون ماضيا ، ومضارعا قد حذفت إحدى تاءيه ، كقوله تعالى إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : لا يتوفى أحد على معصية اللّه إلا يضرب من الملائكة في وجهه ودبره ذلِكَ إشارة إلى التوفي الموصوف ما أَسْخَطَ اللَّهَ من كتمان نعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . ورِضْوانَهُ الإيمان برسول اللّه .

[سورة محمد (47) : الآيات 29 إلى 30]

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغانَهُمْ (29) وَلَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ (30)

أَضْغانَهُمْ أحقادهم وإخراجها : إبرازها لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وللمؤمنين ، وإظهارهم على نفاقهم وعداوتهم لهم ، وكانت صدورهم تغلى حنقا عليهم لَأَرَيْناكَهُمْ لعرفناكهم ودللناك عليهم . حتى تعرفهم بأعيانهم لا يخفون عليك بِسِيماهُمْ بعلامتهم : وهو أن يسمعهم اللّه تعالى بعلامة تعلمون بها . وعن أنس رضى اللّه عنه : ما خفى على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بعد هذه الآية شيء من المنافقين : كان يعرفهم بسيماهم ، ولقد كنا في بعض الغزوات وفيها تسعة من المنافقين يشكوهم الناس ، فناموا ذات ليلة وأصبحوا وعلى جبهة كل واحد منهم مكتوب : هذا منافق «1» . فإن قلت : أى فرق بين اللامين في فَلَعَرَفْتَهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ ؟ قلت : الأولى هي الداخلة في جواب «لو» كالتي في لَأَرَيْناكَهُمْ كررت في المعطوف ، وأما اللام في وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فواقعة مع النون في جواب قسم محذوف فِي لَحْنِ الْقَوْلِ في نحوه وأسلوبه . وعن ابن عباس : هو قولهم : مالنا إن أطعنا من الثواب ؟ ولا يقولون : ما علينا إن عصينا من العقاب . وقيل : اللحن : أن تلحن بكلامك ، أى : تميله إلى نحو من الأنحاء ليفطن له صاحبك كالتعريض والتورية . قال :

ولقد لحنت لكم لكيما تفقهوا واللّحن يعرفه ذوو الألباب «2»

---

(1) . ذكره الشعبي بغير سند ، ولم أجده .

(2) . اللحن : العدول بالكلام عن الظاهر ، كالتعريض والتورية ، والمخطئ لاحن ، لعدوله عن الصواب أى : لكي تفهموا دون غيركم ، فان اللحن يعرفه أرباب الألباب دون غيرهم . والألباب : العقول اه .

(139/710)

وقيل للمخطئ : لاحن ، لأنه يعدل بالكلام عن الصواب .

[سورة محمد (47) : آية 31]

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ (31)

أَخْبارَكُمْ ما يحكى عنكم وما يخبر به عن أعمالكم ، ليعلم حسنها من قبيحها ، لأن الخبر على حسب المخبر عنه : إن حسنا فحسن ، وإن قبيحا فقبيح ، وقرأ يعقوب : ونبلو ، بسكون الواو على معنى : ونحن نبلو أخباركم . وقرئ : وليبلونكم ويعلم ، ويبلو بالياء . وعن الفضيل : أنه كان إذا قرأها بكى وقال : اللهم لا تبلنا ، فإنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا وعذبتنا .

[سورة محمد (47) : آية 32]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ (32)

وَسَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ التي عملوها في دينهم يرجون بها الثواب ، لأنها مع كفرهم برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم باطلة ، وهم قريظة والنضير . أو سيحبط أعمالهم التي عملوها ، والمكايد التي نصبوها في مشاقة الرسول ، أى : سيبطلها فلا يصلون منها إلى أغراضهم ، بل يستنصرون بها ولا يثمر لهم إلا القتل والجلاء عن أوطانهم . وقيل هم رؤساء قريش ، والمطعمون يوم بدر .

[سورة محمد (47) : آية 33]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ (33)

وَلا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ أى لا تحبطوا الطاعات بالكبائر «1» ، كقوله تعالى لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ إلى أن قال أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وعن أبى العالية : كان أصحاب

---

(1) . قال محمود : «معناه : لا تحبطوا الطاعات بالكبائر . . . الخ» قال أحمد : قاعدة أهل السنة مؤسسة على أن الكبائر ما دون الشرك لا تحبط حسنة مكتوبة ، لأن اللّه لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً نعم يقولون : إن الحسنات يذهبن السيئات كما وعد به الكريم جل وعلا . وقاعدة المعتزلة موضوعة على أن كبيرة واحدة تحبط ما تقدمها من الحسنات ولو كانت مثل زبد البحر ، لأنهم يقطعون

بخلود الفاسق في النار ، وسلب سمة الايمان عنه ، ومتى خلد في النار لم تنفع طاعاته ولا إيمانه ، فعلى هذا بنى الزمخشري كلامه وجلب الآثار التي في بعضها موافقة في الظاهر لمعتقده ، ولا كلام عليها جملة من غير تفصيل ، لأن القاعدة المتقدمة ثابتة قطعا بأدلة اقتضت ذلك يحاشى كل معتبر في الحل والعقد عن مخالفتها ، فمهما ورد من ظاهر يخالفها وجب رده إليها بوجه من التأويل ، فان كان نصا لا يقبل التأويل فالطريق في ذلك تحسين الظن بالمنقول عنه ، والتوريك بالغلط على النقلة ، على أن الأثر المذكور عن ابن عمر هو أولى بأن يدل ظاهره لأهل السنة فتأمله ، وأما محمل الآية عند أهل الحق فعلى أن النهى عن الإخلال بشرط من شروط العمل وبركن يقتضى بطلانه من أصله ، لا أنه يبطل بعد استجماعه شرائط الصحة والقبول . [. . . . .]

(140/710)

رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يرون أنه لا يضر مع الإيمان ذنب ، كما لا ينفع مع الشرك «1» عمل ، حتى نزلت وَلا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ فكانوا يخافون الكبائر على أعمالهم . وعن حذيفة :

فخافوا أن تحبط الكبائر أعمالهم . وعن ابن عمر : كنا ترى أنه ليس شيء من حسناتنا إلا

مقبولا ، حتى نزل وَلا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ فقلنا : ما هذا الذي يبطل أعمالنا ؟ فقلنا : الكبائر الموجبات «2» والفواحش ، حتى نزل إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ فكففنا عن القول في ذلك ، فكنا نخاف على من أصاب الكبائر ونرجو لمن لم يصبها «3» . وعن قتادة رحمه اللّه : رحم اللّه عبدا لم يحبط عمله الصالح بعمله السيئ . وقيل : لا تبطلوها بمعصيتهما . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : لا تبطلوها بالرياء والسمعة ، وعنه : بالشك والنفاق : وقيل :

بالعجب ، فإنّ العجب يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب . وقيل : ولا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى .

[سورة محمد (47) : آية 34]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ ماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (34)

ثُمَّ ماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ قيل ، هم أصحاب القليب ، والظاهر العموم .

[سورة محمد (47) : آية 35]

فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ (35)

فَلا تَهِنُوا ولا تضعفوا ولا تذلوا للعدوّ وَلا تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وقرئ : السلم وهما المسالمة وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ أى الأغلبون الأقهرون وَاللَّهُ مَعَكُمْ أى ناصركم ، وعن قتادة : لا تكونوا أوّل الطائفتين ضرعت إلى صاحبتها بالموادعة . وقرئ : ولا تدّعوا ، من ادّعى القوم وتداعوا :

إذا دعوا . نحو قولك : ارتموا الصيد وتراموه . وتدعوا : مجزوم لدخوله

---

(1) . أخرجه محمد بن نصر المروزي في كتاب قدر الصلاة له . قال حدثنا أبو قدامة حدثنا وكيع حدثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس بهذا وزاد : فنزلت وَلا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ وفي الكتاب حديث مرفوع . أخرجه إسحاق وأبو يعلى وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن مسعود . قال أبو نعيم : تفرد به يحيى بن يمان عن سفيان اه .

ويحيى ضعيف . وفيه عن عمر أيضا أخرجه العقيلي . وابن عدى من رواية حجاج بن نصير عن منذر بن زياد وهما ضعيفان .

(2) . قوله «فقلنا الكبائر الموجبات» عبارة الخازن : الكبائر والفواحش . (ع)

(3) . أخرجه ابن مردويه . من طريق عبد اللّه بن المبارك عن بكير بن معروف . عن مقاتل بن حيان . عن نافع . عن ابن عمر بهذا . وأخرجه محمد بن نصر أيضا . من هذا الوجه .

(141/710)

في حكم النهى . أو منصوب لإضمار إن . ونحو قوله تعالى وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ : قوله تعالى إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى . وَلَنْ يَتِرَكُمْ من وترت الرجل إذا قتلت له قتيلا من ولد أو أخ أو حميم ، أو

حربته ، وحقيقته : أفردته من قريبه أو ماله ، من الوتر وهو الفرد فشبه إضاعة عمل العامل وتعطيل ثوابه بوتر الواتر ، وهو من فصيح الكلام . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : «من فاتته صلاة العصر ، فكأنما وتر أهله وماله» «1» أى أفرد عنهما قتلا ونهبا .

[سورة محمد (47) : الآيات 36 إلى 38]

إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (36) إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (37) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (38)

يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ثواب إيمانكم وتقواكم وَلَا يَسْأَلْكُمْ أى ولا يسألكم جميعها ، إنما يقتصر منكم على ربع العشر ، ثم قال إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ أى يجهدكم ويطلبه كله ، والإحفاء : المبالغة وبلوغ الغاية في كل شيء ، يقال : أحفاه في المسألة إذا لم يترك شيئا من الإلحاح . وأحفى شاربه : إذا استأصله تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ أى تضطغنون على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «2» ، وتضيق صدوركم لذلك ، وأظهرتم كراهتكم ومقتكم لدين يذهب بأموالكم ، والضمير في يُخْرِجْ للّه عز وجل ، أى يضغنكم بطلب أموالكم . أو للبخل ، لأنه سبب الاضطغان .

وقرئ : نخرج . بالنون . ويخرج ، بالياء والتاء مع فتحهما ورفع أضغانكم هؤُلاءِ موصول

بمعنى الذين صلته تُدْعَوْنَ أى أنتم الذين تدعون . أو أنتم يا مخاطبون هؤلاء الموصوفون ، ثم استأنف وصفهم ، كأنهم قالوا : وما وصفنا ؟ فقيل : تدعون لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قيل : هي النفقة في الغزو . وقيل : الزكاة ، كأنه قيل : الدليل على أنه لو أحفاكم لبخلتم وكرهتم العطاء واضطغنتم أنكم تدعون إلى أداء ربع العشر ، فمنكم ناس يبخلون به ، ثم قال وَمَنْ يَبْخَلْ بالصدقة وأداء الفريضة . فلا يتعداه ضرر بخله ، وإنما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ يقال بخلت عليه وعنه ، وكذلك

---

(1) . متفق عليه من حديث ابن عمر .

(2) . قوله «أى تضطغنون على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم» في الصحاح : «الضغن» الحقد . وتضاغن القوم واضطغنوا : انطووا على الأحقاد . (ع)

ضننت عليه وعنه . ثم أخبر أنه لا يأمر بذلك ولا يدعو اليه لحاجته إليه ، فهو الغنى الذي تستحيل عليه الحاجات ، ولكن لحاجتكم وفقركم إلى الثواب وَإِنْ تَتَوَلَّوْا معطوف على : وإن تؤمنوا وتتقوا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ يخفق قوما سواكم على خلاف صفتكم راغبين في الإيمان والتقوى ، غير متولين عنهما ، كقوله تعالى وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وقيل : هم الملائكة .

وقيل : الأنصار . وعن ابن عباس : كندة والنخع . وعن الحسن : العجم وعن عكرمة : فارس والروم . وسئل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن القوم وكان سلمان إلى جنبه ، فضرب على فخذه وقال : «هذا وقومه ، والذي نفسي بيده ، لو كان الإيمان منوطا بالثريا لتناوله رجال من فارس» «1» وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «من قرأ سورة محمد صلى اللّه عليه وسلم كان حقا على اللّه أن يسقيه من أنهار الجنة» «2» . انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 324. 331﴾

---

(1) . أخرجه الترمذي وابن حبان والحاكم . والطبري وابن أبى حاتم وغيرهم من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة وله طرق عنه وعن غيره .

(2) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي ، بأسانيدهم إلى أبى بن كعب .

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾

كان المؤمنون إذا تأخر نزول القرآن اشتاقوا إليه وتمنوه ليعلموا أوامر اللّه وتعبده لهم .

﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ ﴾ وفي قراءة ابن مسعود : فإذا أنزلت سورة محدثة ﴾

وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ﴾ .

في السورة المحكمة قولان :

أحدهما : أنها التي يذكر فيها الحلال والحرام ، قاله ابن زياد النقاش .

الثاني : أنها التي يذكر فيها القتال : وهي أشد القرآن على المنافقين ، قاله قتادة .

ويحتمل :

ثالثاً : أنها التي تضمنت نصوصاً لم يتعقبها ناسخ ولم يختلف فيها تأويل :

﴿ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ هم المنافقون ، لأن قلوبهم كالمريضة بالشك . فإذا أنزلت السورة المحكمة سر بها المؤمنون وسارعوا إلى العمل بما فيها ، واغتم المنافقون ونظروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوتِ ﴾ غماً بها وفزعاً منها .

﴿ فَأَوْلَى لَهُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه وعيد ، كأنه قال : العقاب أولى لهم ، قاله قتادة .

الثاني : أولى لهم ، ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ﴾ من أن يجزعوا من فرض الجهاد عليهم ، قاله الحسن .

وفيه وجه ثالث : أن قوله ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ﴾ حكاية من الله عنهم قبل فرض الجهاد عليهم ، ذكره ابن عيسى .

والطاعة هي الطاعة لله ورسوله في الأوامر والنواهي . وفي القول المعروف وجهان :

أحدهما : هو الصدق والقبول .

الثاني : الإجابة بالسمع والطاعة .

﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ ﴾ أي جد الأمر في القتال .

﴿ فَلَوْ صَدَقُواْ اللَّه ﴾ بأعمالهم ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ من نفاقهم .

قوله عز وجل : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : فهل عسيتم إن توليتم أمور الأمة أن تفسدوا في الأرض بالظلم ، قاله الكلبي .

(144/710)

الثاني : فهل عسيتم إن توليتم الحكم فجعلتم حكاماً أن تفسدوا في الأرض بأخذ الرشا ، قاله أبو العالية .

الثالث : فهل عسيتم إن توليتم عن كتاب الله أن تفسدوا في الأرض بسفك الدماء الحرام . ﴿ وَتُقَطِّعُواْ أَرْحَامَكُمْ ﴾ ، قاله قتادة .

الرابع : فهل عسيتم إن توليتم عن الطاعة أن تفسدوا في الأرض بالمعاصي وقطع الأرحام ، قاله ابن جريج .

وفي هذه الآية ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه عنى بها المنافقين وهو الظاهر .

الثاني : قريشاً ، قاله أبو حيان .

الثالث : أنها نزلت في الخوارج ، قاله بكر بن عبد الله المزني .

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ﴾ فيهم قولان :

أحدهما : أنهم اليهود كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم من بعد ما علموا في التوراة أنه نبي ، قاله قتادة وابن جريج .

الثاني : المنافقون قعدوا عن القتال من بعد ما علموه في القرآن ، قاله السدي .

﴿ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أعطاهم سؤالهم ، قاله ابن بحر .

الثاني : زين لهم خطاياهم ، قاله الحسن .

﴿ وَأَمْلَى لَهُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أمهلهم ، قاله الكلبي ومقاتل فعلى هذا يكون الله تعالى هو الذي أملى لهم بالإمهال في عذابهم .

والوجه الثاني : أن معنى أملى لهم أي مد لهم في الأمل فعلى هذا فيه وجهان :

أحدهما : أن الله تعالى هو الذي أملى لهم في الأمل ، قاله الفراء والمفضل .

الثاني : أن الشيطان هو الذي أملى لهم في مد الأمل بالتسويف ، قاله الحسن .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ﴾ وفي قائل ذلك قولان :

أحدهما : أنهم اليهود قالوا للمنافقين سنطيعكم في بعض الأمر . وفيما أرادوا بذلك وجهان :

أحدهما : سنطيعكم في ألا نصدق بشيء ، من مقالته ، قاله الضحاك .

الثاني : سنطيعكم في كتم ما علمنا من نبوته ، قاله ابن جريج .

(145/710)

القول الثاني : أنهم المنافقون قالوا لليهود سنطيعكم في بعض الأمر وفيما أرادوه بذلك ثلاثة أوجه :

أحدهما : سنطيعكم في غير القتال من بغض محمد صلى الله عليه وسلم والقعود عن نصرته ، قال السدي .

الثاني : سنطيعكم في الميل إليكم والمظاهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الثالث : سنطيعكم في الارتداد بعد الإيمان .

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : ما اسر بعضهم إلى بعض من هذا القول .

الثاني : ما أسروه في أنفسهم من هذا الاعتقاد .

قوله عز وجل : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : بالقتال نصرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

الثاني : بقبض الأرواح عند الموت .

﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ يكون على احتمال وجهين :

أحدهما : يضربون وجوههم في القتال عند الطلب وأدبارهم عند الهرب .

الثاني : يضربون وجوههم عند الموت بصحائف كفرهم ، وأدبارهم في القيامة عند سوقهم إلى النار .

قوله عز وجل : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : شك ، قاله مقاتل .

الثاني : نفاق ، قاله الكلبي .

﴿ أَن لن يُخْرِجَ أَضْغَانَهُمْ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : غشهم ، قاله السدي .

الثاني : حسدهم ، قاله ابن عباس .

الثالث : حقدهم ، قاله ابن عيسى .

الرابع : عدوانهم ، قاله قطرب وأنشد :

قل لابن هند ما أردت بمنطق . . . ساء الصديق وسر ذا الأضغان

قوله عز وجل : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : في كذب القول ، قاله الكلبي .

الثاني : في فحوى كلامهم ، واللحن هو الذهاب بالكلام في غير جهته ، مأخوذ من اللحن في الإعراب وهو الذهاب عن الصواب ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " إِنَّكُم لَتَحْتَكِمُونَ إِلَيَّ ، أَحَدَكُمْ أَن يَكُونَ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ " أي أذهب بها في الجهات لقوته على تصريف الكلام . قال مرار الأسدي :

(146/710)

ولحنت لحناً فيه غش ورابني . . . صدودك ترصين الوشاة الأعاديا

قال الكلبي : فلم يتكلم بعد نزولها منافق عند النبي صلى الله عليه وسلم إلا عرفه .

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : المجاهدين في سبيل الله .

الثاني : الزاهدين في الدنيا .

﴿ وَالصَّابِرِينَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : على الجهاد .

الثاني : عن الدنيا .

﴿ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : نختبر أسراركم .

الثاني : ما تستقبلونه من أفعالكم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أطيعوا الله بتوحيده ، وأطيعوا الرسول بتصديقه .

الثاني : أطيعوا الله في حرمة الرسول ، وأطيعوا الرسول في تعظيم الله .

﴿ وَلاَ تُبْطِلُواْ أَعْمَالَكُم ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : لا تبطلوا حسناتكم بالمعاصي ، قاله الحسن .

الثاني : لا تبطلوها بالكبائر ، قاله الزهري .

الثالث : لا تبطلوها بالرياء والسمعة ، وأخلصوها لله ، قاله ابن جريج والكلبي .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَن يَتِرَكُم أَعمَالَكُم ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : لن ينقصكم أعمالكم ، قاله مجاهد وقطرب . وأنشد قول الشاعر :

إن تترني من الإجارة شيئاً . . . لا يفتني على الصراط بحقي

الثاني : لن يظلمكم ، قاله قتادة ، يعني أجور أعمالكم .

الثالث : ولا يستلبكم أعمالكم ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله " .

قوله عز وجل : ﴿ وَلاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُم ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : لا يسألكم أموالكم لنفسه .

الثاني : لا يسألكم جميع أموالكم في الزكاة ولكن بعضها .

الثالث : لا يسألكم أموالكم وإنما يسألكم أمواله ، لأنه أملك بها وهو المنعم بإعطائها .

﴿ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن الإخفاء أخذ الجميع ، قاله ابن زيد وقطرب .

(147/710)

الثاني : أنه الإلحاح وإكثار السؤال ، مأخوذ من الحفاء وهو المشي بغير حذاء ، قاله ابن عيسى .

الثالث : أن معنى فيحفكم أي فيجدكم تبخلوا ، قاله ابن عيينة .

﴿ وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : يظهر بامتناعكم ما أضمرتموه من عدوانكم .

الثاني : تظهرون عند مسألتكم ما أضمرتموه من عداوتكم .

قوله عز وجل : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : وإن تتولوا عن كتابي ، قاله قتادة .

الثاني : عن طاعتي ، حكاه ابن أبي حاتم .

الثالث : عن الصدقة التي أُمرتم بها ، قاله الكلبي .

الرابع : عن هذا الأمر فلا تقبلونه ، قاله ابن زيد .

﴿ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنهم أهل اليمن وهم الأنصار ، قاله شريح بن عبيد .

الثاني : أنهم الفرس . روى أبو هريرة قال : لما نزل ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُم ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾ كان سلمان إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا يستبدلوا بنا ؟ فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على منكب سلمان وقال : " هذا وَقَومُهُ ، والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ الدِّينَ مُعَلَّقٌ بِالثُّرَيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ مِن أَبْنَاءِ فَارِس " .

الثالث : أنهم من شاء من سائر الناس ، قاله مجاهد .

﴿ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني في البخل بالإنفاق في سبيل الله ، قاله الطبري .

الثاني : في المعصية وترك الطاعة .

وحكي عن أبي موسى الأشعري أنه لما نزلت هذه الآية فرح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِن الدُّنْيَا " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 5 صـ 308.300 ﴾

(148/710)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ويقول الذين آمَنوا لولا نُزِّلَتْ سُورةٌ ﴾

قال المفسرون : سألوا ربَّهم أن يُنزل سُورةً فيها ثواب القتال في سبيل الله ، اشتياقاً منهم إلى الوحي وحِرصاً على الجهاد ، فقالوا : " لولا " أي : هلا ؛ وكان أبو مالك الأشجعي يقول : " لا " ها هنا صلة ، فالمعنى : لو أُنزلتْ سورة ، شوقاً منهم إلى الزيادة في العِلْم ، ورغبةً في الثواب والأجر بالاستكثار من الفرائض .

وفي معنى ﴿ مُحكَمة ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها التي يُذْكَر فيها القتال ، قاله قتادة .

والثاني : أنها التي يُذْكَر فيها الحلال والحرام .

والثالث : التي لا منسوخ فيها ، حكاهما أبو سليمان الدمشقي .

ومعنى قوله : ﴿ وذُكِرَ فيها القتالُ ﴾ أي : فُرِضَ فيها الجهاد .

وفي المراد بالمرض قولان .

أحدهما : النفاق ، قاله ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، والجمهور .

والثاني : الشكّ ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ ينظُرونَ إليك ﴾ أي : يَشْخَصون نحوك بأبصارهم ينظرون نظراً شديداً كما ينظُر الشاخص ببصره عند الموت ، لأنهم يكرهون القتال ، ويخافون إن قعدوا أن يتبيَّن نفاقُهم .

﴿ فأَوْلَى لهم ﴾ قال الأصمعي : معنى قولهم في التهديد : " أَوْلَى لكَ " أي : وَلِيَكَ وقاربَك ما تَكْره .

وقال ابن قتيبة : هذا وَعِيدُ وتهديد ، تقولُ للرجُل إذا أردتَ به سوءاً ، فَفَاتَكَ أَوْلَى لكَ ، ثم ابتدأ ، فقال : ﴿ طاعَةٌ وقَوْلٌ مَعْرُوفٌ . . .

﴾ وقال سيبويه والخليل : المعنى طاعةُ وقولٌ معروفٌ أمثل .

وقال الفراء : الطاعةُ معروفةٌ في كلام العرب ، إذا قيل لهم : افعلوا كذلك ، قالوا : سَمعٌ وطاعةٌ ، فوصف [اللهُ] قولَهم قبل أن تنزل السُّورة أنهم يقولون : سمعٌ وطاعة ، فإذا نزل الأمر كرهوا .

(149/710)

وأخبرني حبان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : قال الله تعالى : ﴿ فأولى ﴾ ، ثم قال : ﴿ لهم ﴾ أي : للذين آمنوا منهم ﴿ طاعةٌ ﴾ فصارت (أَوْلَى) وعيداً لِمَن كَرِهها ، واستأنف الطاعة ب ﴿ لهم ﴾ ؛ والأول عندنا كلام العرب ، وهذا غير مردود ، يعني حديث أبي صالح .

وذكر بعض المفسرين أن الكلام متصل بما قبله ؛ والمعنى : فأَوْلَى لهم أن يُطيعوا وأن يقولوا معروفاً بالإِجابة .

قوله تعالى : ﴿ فإذا عَزَمَ الأَمْرُ ﴾ قال الحسن : جَدَّ الأَمْرُ .

وقال غيره : جَدَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابُه في الجهاد ، ولَزِمَ فرضُ القتال ، وصار الأمر معروفاً عليه .

وجواب " إذا " محذوف تقديره : فإذا عَزَمَ الأَمْرُ نَكَلُوا ؛ يدُلُّ على المحذوف ﴿ فلَوْ صَدَقُوا

اللهَ ﴾ أي : في إيمانهم وجهادهم ﴿ لكان خَيْراً لهم ﴾ من المعصية والكراهة .

قوله تعالى : ﴿ فهل عَسَيْتُمْ إن توليتم ﴾ في المخاطَب بهذا أربعة أقوال .

أحدها : المنافقون ، وهو الظاهر .

والثاني : منافقو اليهود ، قاله مقاتل .

والثالث : الخوارج ، قاله بكر بن عبد الله المزني .

والرابع : قريش ، حكاه جماعة منهم الماوردي .

وفي قوله : ﴿ تولَّيتم ﴾ قولان :

أحدهما : أنه بمعنى الإعراض فالمعنى : إن أعرضتم عن الإسلام ﴿ أن تُفْسِدوا في الأرض ﴾ بأن تعودوا إلى الجاهلية يقتل بعضكم بعضاً ، ويُغير بعضكم على بعض ، ذكره جماعة من المفسرين .

والثاني : أنه من الولاية لأُمور الناس ، قاله القرظي .

فعلى هذا يكون معنى " أن تُفْسِدوا في الأرض " : بالجَوْر والظُّلم .

وقرأ يعقوب : ﴿ وتَقْطَعوا ﴾ بفتح التاء والطاء وتخفيفها وسكون القاف .

ثم ذَمَّ من يريد ذلك بالآية التي بعد هذه .

وما بعد هذا قد سبق [النساء : 82] إلى قوله : ﴿ أَمْ على قُلوب أقفالُها ﴾ " أَمْ " بمعنى " بَلْ " ، وذِكْر الأقفال استعارة ، والمراد أن القَلْب يكون كالبيت المُقفَل لا يَصِل إليه الهُدى .

[قال مجاهد] : الرّان أيسرُ من الطَّبْع ، والطَّبْع أيسرُ من الإقفال ، والإقفال أشَدُّ ذلك كُلِّه .

وقال خالد بن معدان : ما مِنْ آدميٍّ إلاّ وله أربعُ أعيُنٍ ، عَيْنان في رأسه لدُنياه وما يُصْلِحه من معيشته ، وعَيْنان في قَلْبه لدِينه وما وَعَد اللهُ من الغَيْب ، فإذا أراد اللهُ بعبد خيراً أبصرتْ عيناه اللتان في قلبه ، وإذا أراد به غير ذلك طمس عليهما ، فذلك قوله : ﴿ أَمْ على قُلوب أقفالُها ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إنَّ الذين ارتَدُّوا على أدبارهم ﴾ أي : رجَعوا كُفّاراً ؛ وفيهم قولان .

أحدهما : أنهم المنافقون ، قاله ابن عباس ، والسدي ، وابن زيد .

والثاني : أنهم اليهود ، قاله قتادة ، ومقاتل .

﴿ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى ﴾ أي : مِنْ بَعْدِ ما وَضَحَ لهم الحقُّ .

ومن قال : هم اليهود ، قال : مِنْ بَعْدِ أن تبيّن لهم وصفُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ونعتُه في كتابهم و ﴿ سَوَّلَ ﴾ بمعنى زيَّن .

﴿ وأَمْلَى لهم ﴾ قرأ أبو عمرو ، وزيد عن يعقوب : ﴿ وأُمْلِيَ لهم ﴾ بضم الهمزة وكسر اللام وبعدها ياء مفتوحة .

وقرأ يعقوب إلاّ زيداً ، وأبان عن عاصم كذلك ، إلاّ أنهما أسكنا الياء .

وقرأ الباقون بفتح الهمزة واللام .

وقد سبق معنى الإملاء [آل عمران : 178] [الأعراف : 183] .

قوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ قال الزجاج : المعنى : الأَمْرُ ذلك ، أي : ذلك الإضلال بقولهم ﴿ للذين كَرِهوا ما نَزَّلَ الله ﴾ وفي الكارِهين قولان .

أحدهما : أنهم المنافقون ، فعلى هذا في معنى قوله : ﴿ سنُطيعُكم في بعض الأَمْر ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : في القُعود عن نُصرة محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله السدي .

والثاني : في المَيْل إليكم والمظاهرة على محمد صلى الله عليه وسلم .

والثالث : في الارتداد بعد الإيمان ، حكاهما الماوردي .

والثاني : أنهم اليهود ، فعلى هذا في الذي أطاعوهم فيه قولان .

(151/710)

أحدهما : في أن لا يصدّقوا شيئاً من مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاله الضحاك .

والثاني : في كَتْم ما عَلِموه من نُبوَّته ، قاله ابن جريج .

﴿ واللهُ يَعْلَمُ إِسرارَهم ﴾ قرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف ، وحفص عن عاصم ، والوليد عن يعقوب : بكسر الألف على أنه مصدر أَسْرَرْتُ ؛ وقرأ الباقون : بفتحها على أنه جمع سِرٍّ والمعنى : أنه يَعْلَم ما بين اليهود والمنافقين من السِّرِّ .

قوله تعالى : ﴿ فكيف إذا توفَّتْهم الملائكةُ ﴾ ، أي : فكيف يكون حالُهم حينئذ ؟ وقد بيَّنّا في [الأنفال : 50] معنى قوله : ﴿ يَضْرِبونُ وجوهَهم وأدبارَهم ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وكَرِهوا رِضْوانَه ﴾ أي : كَرِهوا ما فيه الرِّضوان ، وهو الإيمان والطاعة .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين في قُلوبهم مَرَضٌ ﴾ أي : نفاق ﴿ أَنْ لن يُخرِجَ اللهُ أضغانَهم ﴾ قال الفراء : أي : لن يُبْدِيَ اللهُ عداوتَهم وبُغْضَهم لمحمد صلى الله عليه وسلم .

وقال الزجاج : أي : لن يُبْدِيَ عداوتَهم لرسوله صلى الله عليه وسلم ويُظْهِرَهُ على نفاقهم .

﴿ ولو نشاء لأَرَيْناكهم ﴾ أي : لعرَّفْناكهم ، تقول : قد أَرَيْتُكَ هذا الأمر ، أي : قد عرَّفْتُك إيّاه ، المعنى : لو نشاء لجَعَلْنا على المنافقين علامة ، وهي السِّيماء ﴿ فلَعَرَفْتَهم بسِيماهم ﴾ أي : بتلك العلامة ﴿ ولَتَعْرِفَنَّهم في لَحْنِ القَوْلِ ﴾ أي : في فحوى القَوْل ، فدلَّ بهذا على أن قول القائل وفعله يدُلُّ على نِيَّته .

وقولُ الناس : قد لَحَنَ فلانٌ ، تأويله : قد أَخذ في ناحية عن الصواب ، وَعدَلَ عن الصواب

إليها ، وقول الشاعر :

مَنْطِقٌ صائِبٌ وتَلْحَنُ أَحْيا . . .

ناً ، وخَيْرُ الحديثِ ما كانَ لَحْنا

تأويله : خير الحديث من مِثْل هذه ما كان لا يعرفه كلُّ أحد ، إنما يُعْرَفُ قولها في أنحاء قولها .

(152/710)

قال المفسرون : ولَتَعْرِفَنَّهم في فحوى الكلام ومعناه ومقْصَده ، فإنهم يتعرَّضون بتهجين أمرك والاستهزاء بالمسلمين .

قال ابن جرير : ثم عرَّفه اللهُ إيّاهم .

قوله تعالى : ﴿ ولَنَبْلُوَنَّكم ﴾ أي : ولَنُعامِلَنّكم معامَلةَ المُخْتَبِر بأن نأمركم بالجهاد ﴿ حتَّى نَعْلَم ﴾ العِلْم الذي هو عِلْم وجود ، وبه يقع الجزاء ؛ وقد شرحنا هذا في [العنكبوت : 3] .

قوله تعالى : ﴿ ونَبْلُوَ أَخبارَكم ﴾ أي : نُظْهِرها ونَكْشِفها بابلاء من يأبى القتال ولا يَصْبِر على الجهاد .

وقرأ أبو بكر عن عاصم : ﴿ وَلَيَبْلُوَنَّكم ﴾ بالياء " حتى يَعْلَمَ " بالياء ﴿ ويَبْلُوَ ﴾ بالياء فيهن .

وقرأ معاذ القارىء ، وأيوب السختياني : " أخياركم " بالياء جمع " خير " .

قوله تعالى : ﴿ إِن الذين كَفَروا .

.

﴾ [الآية] اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال .

أحدها : أنها في المُطْعِمِين يومَ بدر ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنها نزلت في الحارث بن سويد ، ووحوح الأنصاري ، أسلما ثم ارتدّا ، فتاب الحارث ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبى صاحبه أن يَرْجِع حتى مات ، قاله السدي .

والثالث : أنها في اليهود ، قاله مقاتل .

والرابع : أنها في قريظة [والنضير] ، ذكره الواحدي .

قوله تعالى : ﴿ ولا تُبْطِلوا أعمالكم ﴾ اختلفوا في مُبْطِلها على أربعة أقوال .

أحدها : المعاصي والكبائر ، قاله الحسن .

والثاني : الشّكّ والنِّفاق ، قاله عطاء .

والثالث : الرِّياء والسُّمعة ، قاله ابن السائب .

والرابع : بالمَنّ ، وذلك أن قوماً من الأعراب قَدِموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : أتيناك طائعين ، فلنا عليك حق ، فنزلت هذه الآية .

ونزل قوله ﴿ يَمُنُّونَ عليكَ أن أَسْلَموا ﴾ [الحجرات : 17] ، هذا قول مقاتل .

(153/710)

قال القاضي أبو يعلى : وهذا يدُلُّ على أن كُلَّ مَنْ دخل في قُرْبَة لم يَجُزْ له الخُروج منها قبل إتمامها ، وهذا على ظاهره في الحج ، فأما في الصلاة والصيام ، فهو على سبيل الاستحباب .

قوله تعالى : ﴿ فلا تَهِنُوا ﴾ أي : فلا تَضْعُفوا ﴿ وتَدْعوا إلى السَّلْم ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : ﴿ إلى السَّلْم ﴾ بفتح السين ؛ وقرأ حمزة ، وأبو بكر عن عاصم : بكسر السين ، والمعنى : لا تَدْعُوا الكفار إلى الصلح ابتداءاً .

وفي هذا دلالة على أنه لا يجوز طلب الصُّلح من المشركين ، و دلالة على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يدخل مكة صلحاً ، لأنه نهاه عن الصُّلح .

قوله تعالى : ﴿ وأنتم الأعْلَوْنَ ﴾ أي : أنتم أعزُّ منهم ، والحُجَّة لكم ، وآخِرُ الأمر لكم وإن

غَلَبوكم في بعض الأوقات ﴿ واللهُ معكم ﴾ بالعَوْن والنُّصرة ﴿ ولن يَتِرَكُمْ ﴾ قال ابن قتيبة : أي : لن يَنْقُصَكم ولن يَظْلِمَكم ، يقال وتَرْتَني حَقِّي ، أي بَخسْتَنِيه .

قال المفسرون : المعنى : لن يَنْقُصَكم من ثواب أعمالكم شيئًا .

قوله تعالى : ﴿ ولا يَسألْكم أموالكم ﴾ أي : لن يَسألَكُموها كُلَّها .

قوله تعالى : ﴿ فيُحْفِكُم ﴾ قال الفراء : يُجْهِدكم .

وقال ابن قتيبة : يُلِحّ عليكم بما يوجبه في أموالكم ﴿ تبخلوا ﴾ ، يقال : أحْفاني بالمسألة وألْحف : إذا ألَحَّ .

وقال السدي : إن يسألْكم جميعَ ما في أيديكم تبخلوا .

﴿ ويُخرِجْ أضغانَكم ﴾ وقرأ سعد بن أبي وقاص ، وابن عباس ، وابن يعمر : ﴿ ويُخْرَج ﴾ بياء مرفوعه وفتح الراء ﴿ أضغانُكم ﴾ بالرفع .

وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وأبو رزين ، وعكرمة ، وابن السميفع ، وابن محيصن ، والجحدري : ﴿ وتَخْرُج ﴾ بتاء مفتوحة ورفع الراء ﴿ أضغانُكم ﴾ بالرفع .

(154/710)

وقرأ ابن مسعود ، والوليد عن يعقوب : ﴿ ونُخْرِجِ ﴾ بنون مرفوعة وكسر الراء ﴿ أضغانَكم ﴾ بنصب النون ، أي يُظهر بُغضَكم وعداوتَكم لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ؛ ولكنه فرض عليكم يسيراً .

وفيمن يضاف إليه هذا الإخراج وجهان :

أحدهما : إلى الله عز وجل .

والثاني : البخل ، حكاهما الفراء .

وقد زعم قوم أن هذه الآية منسوخة بآية الزكاة ، وليس بصحيح ، لأنّا قد بيّنّا أن معنى الآية : إن يسألْكم جميعَ أموالكم ؛ والزكاة لا تنافي ذلك .

قوله تعالى : ﴿ ها أنتم هؤلاء تَدْعَوْنَ لِتُنْفِقوا في سبيل الله ﴾ يعني ما فرض عليكم في أموالكم ﴿ فمنكم من يَبْخَلُ ﴾ بما فُرض عليه من الزكاة ﴿ ومَنْ يَبْخَلْ فإنما يَبْخَلُ عن نَفْسه ﴾ أي : على نفسه بما ينفعُها في الآخرة ﴿ واللهُ الغنيُّ ﴾ عنكم وعن أموالكم ﴿ وأنتم الفقراء ﴾ إليه إلى ما عنده من الخير والرحمة ﴿ وإن تتولَّوا ﴾ عن طاعته ﴿ يَسْتَبْدِلْ قوْماً غيرَكم ﴾ أطوعُ له منكم ﴿ ثُمَّ لا يكونوا أمثالكم ﴾ بل خيراً منكم .

وفي هؤلاء القوم ثمانية أقوال :

أحدها : أنهم العجم ، قاله الحسن ، وفيه حديث يرويه أبو هريرة قال : لمّا نزلت ﴿ وإن تتولَّوا يَسْتَبْدِلْ قوْماً غيرَكم ﴾ كان سلمان إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

فقالوا : يا رسول الله ، مَنْ هؤلاء الذين إذا تولَّينا استُبْدِلوا بنا ؟ فضرب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم [يدَه] على مَنْكِب سلمان ، فقال : " هذا وقومُه ، والذي نفسي بيده ، لو أن الدِّين معلَّق بالثُّرَيَّا لتناوله رجال من فارس " .

والثاني : فارس والروم ، قاله عكرمة .

والثالث : من يشاء من جميع الناس ، قاله مجاهد .

والرابع : يأتي بخلق جديد غيركم .

وهو معنى قول قتادة .

والخامس : كندة والنخع ، قاله ابن السائب .

والسادس : أهل اليمن ، قاله راشد بن سعد ، وعبد الرحمن بن جبير ، وشريح بن عبيد .

والسابع : الأنصار ، قاله مقاتل .

(155/710)

والثامن : أنهم الملائكة ، حكاه الزجاج وقال : فيه بُعْدٌ [لأنه] لا يقال للملائكة " قَوْمٌ " إنما يقال ذلك للآدميين ، قال : وقد قيل : إن تولَّى أهلُ مكَّة استَبْدَلَ اللهُ بهم أهلَ المدينة ، وهذا

[معنى] ما ذَكَرْنا عن مقاتل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 7 صـ 405 .

417 ﴾

(156/710)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة ﴾

وذلك أن المؤمنين كانوا حراصاً على الجهاد في سبيل الله فقالوا : فهلا أنزلت سورة تأمرنا بالجهاد ؟ لكي نجاهد ﴿ فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال ﴾ قال مجاهد : كل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة وهي أشد القرآن على المنافقين ﴿ رأيت الذين في قلوبهم مرض ﴾ يعني نفاقاً وهم المنافقون ﴿ ينظرون إليك ﴾ يعني شزراً وكراهية منهم للجهاد وجبنا عن لقاء العدو ﴿ نظر المغشي عليه من الموت ﴾ يعني كما ينظر الشاخص بصره عند معاينة الموت ﴿ فأولى لهم ﴾ فيه وعيد وتهديد وهو معنى قولهم في التهديد وليك وقاربك ما تكره وتم الكلام عند هذا .

ثم ابتدأ بقوله ﴿ طاعة وقول معروف ﴾ فعلى هذا هو مبتدأ محذوف الخبر تقديره طاعة وقول معروف أمثل لهم وأولى بهم .

والمعنى : لو أطاعوا وقالوا قولاً معروفاً كان أمثل وأحسن .

وقيل : هو متصل بما قبله واللام في لهم بمعنى الباء مجازة فأولى بهم طاعة الله وطاعة رسوله وقول معروف بالإجابة والمعنى لو أطاعوا وأجابوا لكانت الطاعة والإجابة أولى بهم وهذا معنى قول ابن عباس في رواية عطاء عنه ﴿ فإذا عزم الأمر ﴾ فيه حذف تقديره فإذا عزم صاحب الأمر وقيل : هو على أصله ومجازه كقولنا : جاء الأمر ودنا الوقت وهذا أمر متوقع .

(157/710)

ومعنى الآية : فإذا عزم الأمر خالف المنافقون وكذبوا فيما وعدوا به ﴿ فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم ﴾ يعني الصدق وقيل : معناه لو صدقوا الله في إظهار الإيمان والطاعة لكان ذلك خيراً لهم ﴿ فهل عسيتم ﴾ أي فلعلكم ﴿ إن توليتم ﴾ يعني أعرضتم عن سماع القرآن وفارقتم أحكامه ﴿ أن تفسدوا في الأرض ﴾ يعني تعودوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الفساد في الأرض بالمعصية والبغي وسفك الدم وترجعوا إلى الفرقة بعد ما جمعكم الله بالإسلام ﴿ وتقطعوا أرحامكم ﴾ قال قتادة كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله ألم يسفكوا الدم الحرام وقطعوا الأرحام وعصوا الرحمن ؟ (ق) عن أبي هريرة أن

النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " إن الرحم شجنة من الرحمن فقال الله تعالى من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته " وفي رواية قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن فقال : مَهْ فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال : نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك قالت بلى قال فذلك لك ثم قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) اقرؤوا إن شئتم : ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ "

﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى من إذا تولى أفسد في الأرض وقطع الأرحام ﴿ الذين لعنهم الله ﴾ يعني أبعدهم من رحمته وطردهم عن جنته ﴿ فأصمهم ﴾ يعني عن سماع الحق ﴿ وأعمى أبصارهم ﴾ يعني عن طريق الهدى وذلك أنهم لما سمعوا القرآن فلم يفهموه ولم يؤمنوا به وأبصروا طريق الحق فلم يسلكوه ولم يتبعوه ، فكانوا بمنزلة الصم العمى ، وإن كان لهم أسماع وأبصار في الظاهر ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ يعني يتكفرون فيه وفي مواعظه وزواجره وأصل التدبر التفكر في عاقبة الشيء وما يؤول إليه أمره .

(158/710)

وتدبر القرآن لا يكون إلا مع حضور القلب وجمع الهم وقت تلاوته ويشترط فيه تقليل الغذاء من الحلال الصرف وخلوص النية ﴿ أم على قلوب اقفالها ﴾ يعني بل على قلوب أقفالها وجعل القفل مثلاً لكل مانع للإنسان من تعاطي فعل الطاعة .

يقال : فلان مقفل عن كذا ، بمعنى ممنوع منه .

فإن قلت : إذا كان الله تعالى قد أصمهم وأعمى أبصارهم وأقفل على قلوبهم وهو بمعنى الختم فكيف يمكنهم تدبر القرآن مع هذه الموانع الشديدة .

قلت : تكليف ما لا يطاق جائز عندنا ، لأن الله أمر بالإيمان لمن سبق في علمه أنه لا يؤمن فكذلك هنا والله يفعل ما يريد لا اعتراض لأحد عليه .

وقيل : إن قوله ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ المراد به التأسي .

وقيل : إن هذه الآية محققة للآية المتقدمة وذلك أن الله تعالى لما قال : ﴿ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾ فكان قوله أفلا يتدبرون القرآن كالتهييج لهم على ترك ما هم فيه من الكفر الذي استحقوا بسببه اللعنة أو كالتبكيت لهم على إصرارهم على الكفر والله أعلم بمراده .

وروى البغوي بإسناد الثعلبي ، عن عروة بن الزبير قالا : " تلا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها فقال شاب من أهل اليمن : بل على قلوب أقفالها حتى يكون الله يفتحها أو يفرجها فما زال الشاب في نفس عمر حتى ولي فاستعان

به " هذا حديث مرسل وعروة بن الزبير تابعي من كبار التابعين وأجلهم لم يدرك النبي (صلى الله عليه وسلم) لأنه ولد سنة اثنتين وعشرين وقيل غير ذلك .

قوله : ﴿ إن الذين ارتدوا على أدبارهم ﴾ يعني رجعوا القهقرى كفاراً ﴿ من بعد ما تبين لهم الهدى ﴾ يعني من بعد ما وضح لهم طريق الهداية .

قال قتادة : هم كفار أهل الكتاب كفروا بمحمد (صلى الله عليه وسلم) من بعد ما عرفوه ووجدوا نعته في كتابهم .

(159/710)

وقال ابن عباس والضحاك والسدي : هم المنافقون آمنوا أولاً ثم كفروا ثانياً ﴿ الشيطان سول لهم ﴾ يعني زين لهم القبيح حتى رأوه حسناً ﴿ وأملى لهم ﴾ قرىء بضم الألف وكسر اللام وفتح الياء على ما لم يسم فاعله يعني أمهلوا ومد لهم في العمر وقرىء وأملى لهم بفتح الألف واللام بمعنى وأملى لهم الشيطان بأن مد لهم في الأمل .

﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة ﴾ يعني فكيف يكون حالهم إذا توفتهم الملائكة ﴿ يضربون وجوههم وأدبارهم ذلك ﴾ يعني ذلك الضرب ﴿ بأنهم ﴾ يعني بسبب أنهم ﴿ اتبعوا ما أسخط الله ﴾ يعني ترك الجهاد مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقال ابن

عباس : بما كتموا من التوراة وكفروا بمحمد (صلى الله عليه وسلم) ﴿ وكرهوا رضوانه ﴾ يعني كرهوا ما فيه رضوان الله وهو الإيمان والطاعة والجهاد مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ﴿ فأحبط أعمالهم ﴾ التي عملوها من أعمال البر لأنها لم تكن لله ولا بأمره ﴿ أم حسب الذين في قلوبهم مرض ﴾ أي شك ونفاق وهم المنافقون ﴿ أن لن يخرج الله أضغانهم ﴾ يعني يظهر أحقادهم على المؤمنين فيبديها حتى يعرف المؤمنون نفاقهم واحدها ضغن وهو الحقد الشديد .

وقال ابن عباس : حسدهم ﴿ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ﴾ لما قال تعالى : ﴿ أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ﴾ فكأن قائلاً قال لِمَ لمْ يخرج أضغانهم ويظهرها فأخبر تعالى أنه إنما أخر ذلك لمحض المشيئة لا لخوف منهم فقال تعالى : ﴿ ولو نشاء لأريناكهم ﴾ لا مانع لنا من ذلك .

والإراءة بمعنى التعريف والعمل .

وقوله : ﴿ فلعرفتهم ﴾ لزيادة فائدة وهي أن التعريف قد يطلق ولا يلزم منه المعرفة الحقيقية كما يقال : عرفته فلم يعرف فكان المعنى هنا عرفناكهم تعريفاً تعرفهم به ففيه إشارة إلى قوة ذلك التعريف الذي لا يقع معه اشتباه وقوله ﴿ بسيماهم ﴾ يعني بعلامتهم أي نجعل لك علامة تعرفهم بها .

قال أنس : ما خفي على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعد نزول هذه الآية شيء من المنافقين وكان يعرفهم بسيماهم ﴿ ولتعرفنهم في لحن القول ﴾ يعني في معنى القول وفحواه ومقصده وللحن معنيان صواب وخطأ صرف الكلام وإزالته عن التصريح إلى المعنى والتعريض وهذا محمود من حيث البلاغة ومنه قوله (صلى الله عليه وسلم) : " فلعل بعضكم ألحن بحجته من بعض " وإليه قصد بقوله ﴿ ولتعرفنهم في لحن القول ﴾ وأما اللحن المذموم فظاهر وهو صرف الكلام عن الصواب إلى الخطأ بإزالة الإعراب أو التصحيف .

ومعنى الآية : وإنك يا محمد لتعرفن المنافقين فيما يعرضون به من القول من تهجين أمرك وأمر المسلمين وتقبيحه والاستهزاء به فكان بعد هذا لا يتكلم منافق عند النبي (صلى الله عليه وسلم) إلا عرفه بقوله ويستدل بفحوى كلامه على فساد باطنه ونفاقه ثم قال الله تعالى ﴿ والله يعلم أعمالكم ﴾ يعني أعمال جميع عباده فيجازي كلاًّ على قدر عمله .

قوله تعالى ﴿ ولنبلونكم ﴾ يعني ولنعاملنكم معاملة المختبر فإن الله تعالى عالم بجميع الأشياء قبل كونها ووجودها ﴿ حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ﴾ يعني إنا نأمركم بالجهاد حتى يظهر المجاهد ويتبين من يبادر منكم ويصبر عليه من غيره لأن المراد من قوله : حتى نعلم ، أي علم الوجود والظهور ﴿ ونبلوا أخباركم ﴾ يعني نظهرها ونكشفها ليتبين من يأتي القتال ولا يصبر على الجهاد ﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا

الرسول ﴾ يعني خالفوه فيما أمرهم به من الجهاد وغيره ﴿ من بعد ما تبين لهم الهدى ﴾ يعني من بعد ما ظهر لهم أدلة على الهدى وصدق الرسول (صلى الله عليه وسلم) ﴿ لن يضروا الله شيئاً ﴾ يعني إنما يضرون أنفسهم بذلك والله تعالى منزه عن ذلك ﴿ وسيحبط أعمالهم ﴾ يعني وسيبطل أعمالهم فلا يرون لها ثواباً في الآخرة لأنها لم تكن لله تعالى قال ابن عباس : هم المطعمون يوم بدر .

(161/710)

قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ لما ذكر الله الكفار بسبب مشاقتهم لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) أمر الله المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله (صلى الله عليه وسلم) ثم قال تعالى : ﴿ ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ قال عطاء : يعني بالشرك والنفاق والمنى .

داوموا على ما أنتم عليه من الإيمان والطاعة ولا تشركوا فتبطل أعمالكم .

وقيل : لا تبطلوا أعمالكم بترك طاعة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كما أبطل أهل الكتاب أعمالهم بتكذيب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وعصيانه .

وقال الكلبي : لا تبطلوا أعمالكم بالرياء والسمعة لأن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما كان

خالصاً لوجهه الكريم .

وقال الحسن : لا تبطلوا أعمالكم بالمعاصي والكبائر .

قال أبو العالية : كان أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يرون أنه لا يضرهم مع الإيمان ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل فنزلت هذه الآية فخافوا من الكبائر بعد أن تحبط أعمالهم واستدل بهذه الآية من يرى إحباط الطاعات بالمعاصي ولا حجة لهم فيها وذلك لأن الله تعالى يقول : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ وقال تعالى : ﴿ وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ فالله تعالى أعدل وأكرم من أن يبطل طاعات سنين كثيرة بمعصية واحدة وروى ابن عمر أنه قال : كنا نرى أنه لا شيء من حسناتنا إلا مقبولاً حتى نزل ﴿ ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ فقلنا ما هذا الذي يبطل أعمالنا .

(162/710)

فقلنا : الكبائر والفواحش حتى نزل ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ فكففنا عن ذلك القول وكنا نخاف على من أصاب الكبيرة ونرجو لمن لم يصبها واستدل بهذه الآية من لا يرى أبطال النوافل حتى لو دخل في صلاة تطوع أو صوم تطوع لا

يجوز له إبطال ذلك العمل والخروج منه ولا دليل لهم في الآية ولا حجة لأن السنة مبينة للكتاب " وقد ثبت في الصحيحين أن النبي (صلى الله عليه وسلم) أصبح صائماً فلما رجع إلى البيت وجد حيساً فقال لعائشة قربيه فلقد أصبحت صائماً فأكل " وهذا معنى الحديث وليس بلفظه وفي الصحيحين أيضاً أن سلمان زار أبا الدرداء فصنع له طعاماً فلما قربه إليه قال .

كل فإني صائم قال لست بآكل حتى تأكل فأكل معه وقال مقاتل في معنى الآية لا تمنوا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فتبطل أعمالكم نزلت في بني أسد وسنذكر القصة في تفسير سورة الحجرات إن شاء الله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم ﴾ قيل نزلت في أهل القليب وهم أبو جهل وأصحابه الذين قتلوا ببدر وألقوا في قليب بدر وحكمها عام في كل كافر مات على كفره فالله لا يغفر له لقوله تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ ﴿ فلا تهنوا ﴾ الخطاب فيه لأصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) ثم هو عام لجميع المسلمين يعني فلا تضعفوا أيها المؤمنون ﴿ وتدعوا إلى السلم ﴾ يعني ولا تدعوا الكفار إلى الصلح أبداً منع الله المسلمين أن يدعوا الكفار إلى الصلح وأمرهم بحربهم حتى يسلموا ﴿ وأنتم الأعلون ﴾ يعني وأنتم الغالبون لهم والعالون عليهم .

﴿ ها أنتم هؤلاء ﴾ يعني أنتم يا هؤلاء المخاطبون الموصفون ثم استأنف وصفهم فقال تعالى : ﴿ تدعون لتنفقوا في سبيل الله ﴾ قيل أراد به النفقة في الجهاد والغزو وقيل المراد به إخراج الزكاة وجميع وجوه البر والكل في سبيل الله ﴿ فمنكم من يبخل ﴾ يعني بما فرض عليه إخراجه من الزكاة أو ندب إلى أنفاقه في وجوه البر ﴿ ومن يبخل ﴾ يعني بالصدقة وأداء الفريضة فلا يتعداه ضر بخله وهو قوله تعالى : ﴿ فإنما يبخل عن نفسه ﴾ أي على نفسه ﴿ والله الغني ﴾ يعني عن صدقاتكم وطاعتكم لأنه الغني المطلق الذي له ملك السموات والأرض ﴿ وأنتم الفقراء ﴾ يعني إليه وإلى ما عنده من الخيرات والثواب في الدنيا والآخرة ﴿ وإن تتولوا ﴾ يعني عن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله (صلى الله عليه وسلم) وعن القيام بما أمركم به وألزمكم إياه ﴿ يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ يعني يكونون أطوع لله ورسوله (صلى الله عليه وسلم) منكم .

قال الكلبي : هم كندة والنخع من عرب اليمن .

وقال الحسن : هم العجم .

وقال عكرمة : هم فارس والروم .

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : " تلا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هذه الآية ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ قالوا ومن يستبدل بنا قال فضرب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على منكب سلمان ثم قال هذا وأصحابه " أخرجه الترمذي وقال حديث غريب وفي إسناده مقال وله رواية أخرى عن أبي هريرة قال : " قال ناس من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يا رسول الله من هؤلاء الذين ذكر الله إن تولينا استبدلوا منا ثم لا يكونوا أمثالنا قال وكان سلمان بجنب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فضرب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فخذ سلمان فقال هذا وأصحابه والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس " ولهذا الحديث طرق في الصحيح ترد في سورة الجمعة إن شاء الله تعالى والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 6 صـ 180 . 187 ﴾

(165/710)

وقال النسفى :

﴿ وَيَقُولُ الذين ءَامَنُواْ لَوْلاَ نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾

فيها ذكر الجهاد ﴿ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾ في معنى الجهاد ﴿ مُّحْكَمَةٌ ﴾ مبينة غير متشابهة لا تحتمل وجهاً إلا وجوب القتال .

وعن قتادة : كل سورة فيها ذكر القتال فهي محكمة لأن النسخ لا يرد عليها من قبل أن القتال نسخ ما كان من الصفح والمهادنة وهو غير منسوخ إلى يوم القيامة ﴿ وَذُكِرَ فِيهَا القتال ﴾ أي أمر فيها بالجهاد ﴿ رَأَيْتَ الذين فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ نفاق أي رأيت المنافقين فيما بينهم يضجرون منها ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ المغشى عَلَيْهِ مِنَ الموت ﴾ أي تشخص أبصارهم جبناً وجزعاً كما ينظر من أصابته الغشية عند الموت ﴿ فأولى لَهُمْ ﴾ وعيد بمعنى فويل لهم وهو أفعل من الولى وهو القرب ومعناه الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ كلام مستأنف أي طاعة وقول معروف خير لهم ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأمر ﴾ فإذا جد الأمر ولزمهم فرض القتال ﴿ فَلَوْ صَدَقُواْ الله ﴾ في الإيمان والطاعة ﴿ لَكَانَ ﴾ الصدق ﴿ خَيْراً لَّهُمْ ﴾ من كراهة الجهاد .

ثم التفت من الغيبة إلى الخطاب بضرب من التوبيخ والإرهاب فقال :

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى الأرض وَتُقَطِّعُواْ أَرْحَامَكُمْ ﴾ أي فلعلكم إن أعرضتم عن دين رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الإفساد في الأرض بالتغاور والتناهب وقطع الأرحام بمقاتلة بعض الأقارب بعضاً ووأد البنات .

وخبر عسى ﴿ أَن تُفْسِدُواْ ﴾ والشرط اعتراض بين الاسم والخبر والتقدير : فهل عسيتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم إن توليتم ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المذكورين ﴿ الذين لَعَنَهُمُ الله ﴾ أبعدهم عن رحمته ﴿ فَأَصَمَّهُمْ ﴾ عن استماع الموعظة ﴿ وأعمى أبصارهم ﴾ عن إبصارهم طريق الهدى .

(166/710)

﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرءان ﴾ فيعرفوا ما فيه من المواعظ والزواجر ووعيد العصاة حتى لا يجسروا على المعاصي .

و"أم" في ﴿ أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ بمعنى بل وهمزة التقرير للتسجيل عليهم بأن قلوبهم مقفلة لا يتوصل إليها ذكره .

ونكرت القلوب لأن المراد على قلوب قاسية مبهم أمرها في ذلك ، والمراد بعض القلوب وهي قلوب المنافقين ، وأضيفت الأقفال إلى القلوب لأن المراد الأقفال المختصة بها وهي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تنفتح نحو الرين والختم والطبع .

﴿ إِنَّ الذين ارتدوا على أدبارهم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهدى ﴾ أي المنافقون رجعوا إلى الكفر سراً بعد وضوح الحق لهم ﴿ الشيطان سَوَّلَ ﴾ زين ﴿ لَهُمْ ﴾ جملة من مبتدأ

وخبر وقعت خبراً ل "إن" نحو : إن زيداً عمرو مر به ﴿ وأملى لَهُمْ ﴾ ومدّ لهم في الآمال والأماني ﴿ وَأُمْلِيَ ﴾ أبو عمرو أي امهلوا ومد في عمرهم ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ الله ﴾ أي المنافقون قالوا لليهود ﴿ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ الأمر ﴾ أي عدواة محمد والقعود عن نصرته ﴿ والله يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ على المصدر من أسر : حمزة وعلي وحفص .

﴿ أَسْرَارَهُمْ ﴾ غيرهم جمع سر ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الملائكة ﴾ أي فكيف يعملون وما حيلتهم حينئذ ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وأدبارهم ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما : لا يتوفى أحد على معصية إلا يضرب من الملائكة في وجهه ودبره ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى التوفي الموصوف ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ بسبب أنهم ﴿ اتبعوا مَا أَسْخَطَ الله ﴾ من معاونة الكافرين ﴿ وَكَرِهُواْ رِضْوَانَهُ ﴾ من نصرة المؤمنين ﴿ فَأَحْبَطَ أعمالهم أَمْ حَسِبَ الذين فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ الله أضغانهم ﴾ أحقادهم .

(167/710)

والمعنى أظن المنافقون أن الله تعالى لا يبرز بغضهم وعداوتهم للمؤمنين ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لأريناكهم ﴾ لعرّفناكهم ودللناك عليهم ﴿ فَلَعَرَفْتَهُم بسيماهم ﴾ بعلامتهم وهو أن يسمهم

الله بعلامة يعلمون بها وعن أنس رضي الله عنه : ما خفي على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية أحد من المنافقين كان يعرفهم بسيماهم ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ القول ﴾ في نحوه وأسلوبه الحسن من فحوى كلامهم لأنهم كانوا لا يقدرون على كتمان ما في أنفسهم .

واللام في ﴿ فَلَعَرَفْتَهُم ﴾ داخلة في جواب "لو" كالتي في ﴿ لأريناكهم ﴾ كررت في المعطوف ، وأما اللام في ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ ﴾ فواقعة مع النون في جواب قسم محذوف ﴿ والله يَعْلَمُ أعمالكم ﴾ فيميز خيرها من شرها .

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم ﴾ بالقتال إعلاماً لا استعلاماً أو نعاملكم معاملة المختبر ليكون أبلغ في إظهار العدل ﴿ حتى نَعْلَمَ المجاهدين مِنكُمْ والصابرين ﴾ على الجهاد أي نعلم كائناً ما علمناه أنه سيكون ﴿ وَنَبْلُوَ أخباركم ﴾ أسراركم وليبلونكم حتى يعلم .

﴿ ويبلو ﴾ أبو بكر وعن الفضيل أنه كان إذا قرأها بكى وقال : اللهم لا تبلنا فإنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا وعذبتنا ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله وَشَآقُّواْ الرسول ﴾ وعادوه يعني المطعمين يوم بدر وقد مر ﴿ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهدى ﴾ من بعد ما ظهر لهم أنه الحق وعرفوا الرسول ﴿ لَن يَضُرُّواْ الله شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أعمالهم ﴾ التي عملوها في مشاقة الرسول أي سيبطلها فلا يصلون منها إلى أغراضهم .

﴿ يا أيها الذين ءَامَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرسول وَلاَ تُبْطِلُواْ أعمالكم ﴾ بالنفاق أو بالرياء .

(168/710)

﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ الله لَهُمْ ﴾ قيل : هم أصحاب القليب والظاهر العموم ﴿ فَلاَ تَهِنُواْ ﴾ فلا تضعفوا ولا تذلوا للعدو ﴿ وَتَدْعُواْ إِلَى السلم ﴾ وبالكسر : حمزة وأبو بكر وهما المسالة أي ولا تدعوا الكفار إلى الصلح ﴿ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ ﴾ أي الأغلبون وتدعوا مجزوم لدخوله في حكم النهي ﴿ والله مَعَكُمْ ﴾ بالنصرة أي ناصركم ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أعمالكم ﴾ ولن ينقصكم أجر أعمالكم ﴿ إِنَّمَا الحياة الدنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ تنقطع في أسرع مدة ﴿ وَإِن تُؤْمِنُواْ ﴾ بالله ورسوله ﴿ وَتَتَّقُواْ ﴾ الشرك ﴿ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾ ثواب إيمانكم وتقواكم ﴿ وَلاَ يَسْئَلْكُمْ أموالكم ﴾ أي لا يسألكم جميعها بل ربع العشر ، والفاعل الله أو الرسول وقال سفيان بن عيينة : غيضاً من فيض ﴿ إِن يَسْئَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ ﴾ أي يجهدكم ويطلبه كله والإحفاء المبالغة وبلوغ الغاية في كل شيء .

يقال : أحفاه في المسئلة إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح ، وأحفى شاربه إذا استأصله ﴿

تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ ﴾ أي الله أو البخل ﴿ أضغانكم ﴾ عند الامتناع أو عند سؤال الجميع لأنه عند مسئلة المال تظهر العداوة والحقد .

﴿ هَآأَنتُمْ ﴾ ها للتنبيه ﴿ هؤلاء ﴾ موصول بمعنى الذين صلته ﴿ تَدْعُونَ ﴾ أي أنتم الذين تدعون ﴿ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ الله ﴾ هي النفقة في الغزو أو الزكاة كأنه قيل : الدليل على أنه لو أحفاكم لبخلتم وكرهتم العطاء أنكم تدعون إلى أداء ربع العشر ﴿ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ﴾ بالرفع لأن من هذه ليست للشرط أي فمنكم ناس يبخلون به ﴿ وَمَن يَبْخَلْ ﴾ بالصدقة وأداء الفريضة ﴿ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ﴾ أي يبخل عن داعي نفسه لا عن داعي ربه .

(169/710)

وقيل : يبخل على نفسه يقال بخلت عليه وعنه ﴿ والله الغنى وَأَنتُمُ الفقرآء ﴾ أي أنه لا يأمر بذلك لحاجته إليه لأنه غني عن الحاجات ولكن لحاجتكم وفقركم إلى الثواب ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ ﴾ وإن تعرضوا أيها العرب عن طاعته وطاعة رسوله والإنفاق في سبيله ، وهو معطوف على ﴿ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ ﴾ ﴿ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ يخلق قوماً خيراً منكم وأطوع وهم فارس وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القوم وكان سلمان إلى جنبه

فضرب على فخذه وقال : " هذا وقومه ، والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناله رجال من فارس " ﴿ ثُمَّ لاَ يَكُونُواْ أمثالكم ﴾ أي ثم لا يكونوا في الطاعة أمثالكم بل أطوع منكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 153.156 ﴾

(170/710)

وقال ابن جزى :

﴿ لَوْلاَ نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾

كان المؤمنون يقولون ذلك على وجه الحرص على نزول القرآن ، والرغبة فيه ؛ لأنهم كانوا يفرحون به ويستوحشون من إبطائه ﴿ مُّحْكَمَةٌ ﴾ يحتمل أن يريد بالمحكمة أي ليس فيها منسوخ ، أو يراد متقنة ، وقرأ ابن مسعود سورة محدثة ﴿ رَأَيْتَ الذين فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ يعني المنافقين ، ونظرهم ذلك في شدّة الخوف من القتل لأن نظر الخائف قريب من نظر المغشي عليه ﴿ فأولى لَهُمْ ﴾ في معناه قولان : أحدهما أنه بمعنى أحق وخبره على هذا طاعة . والمعنى أن الطاعة والقول المعروف أولى لهم وأحق والآخر أن أولى لهم كلمة معناها التهديد والدعاء عليهم كقولك : ويل لهم ومنه : أولى لك فأولى ، فيوقف على أولى لهم على هذا القول ، ويكون طاعة ابتداء كلام ، تقديره : طاعة وقول

معروف أمثل ، أو المطلوب منهم طاعة وقول معروف ، وقولهم لك يا محمد طاعة وقول معروف بألسنتهم دون قلوبهم ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأمر ﴾ أسند العزم إلى الأمر مجازاً كقولك : نهاره صائم وليله قائم ﴿ صَدَقُواْ الله ﴾ يحتمل أن يريد صدق اللسان ، أو صدق العزم والنية وهو أظهر .

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي الأرض وتقطعوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ هذا خطاب للمنافقين المذكورين خرج من الغيبة إلى الخطاب ، ليكون أبلغ في التوبيخ والمعنى هل يتوقع منكم ، إلاّ فساد في الأرض وقطع الأرحام إن توليتم ، ومعنى توليتم : صرتم ولاة على الناس وصار الأمر لكم ، وعلى هذا قيل : إنها نزلت في بني أمية . وقيل : معناه أعرضتم عن الإسلام .

(171/710)

﴿ إِنَّ الذين ارتدوا على أَدْبَارِهِمْ ﴾ نزلت في المنافقين الذين نافقوا بعد إسلامهم وقيل : نزلت في قوم من اليهود ، كانوا قد عرفوا نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من التوراة ثم كفروا به ﴿ سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ أي زيّن لهم ورجّاهم ومنّاهم و ﴿ وأملى لَهُمْ ﴾ أي مدّ لهم في الأماني والآمال ، والفاعل هو الشيطان وقيل : الله تعالى والأول أظهر ، لتناسب الضمير

بين الفاعلين ، في سوّل وأملى ﴿ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأمر ﴾ قال ذلك اليهود للمنافقين ، وبعض الأمر : يعنون به مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومحاربته ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الملائكة ﴾ أي كيف يكون حالهم إذا توفتهم الملائكة ؟ يعني ملك الموت ومن معه ، والفاء رابطة للكلام مع ما قبله . والمعنى : هذا جزعهم من ذكر القتال ، فكيف يكون حالهم عند الموت ؟ ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ ﴾ ضمير الفاعل للملائكة ، وقيل : إنه للكفار أي يضربون وجوه أنفسهم وذلك ضعيف .

(172/710)

﴿ أَمْ حَسِبَ ﴾ الآية : معناها ظن المنافقون أن لن يفضحهم الله . والضغن : الحقد ، ويراد به هنا النفاق والبعض في الإسلام وأهله ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ ﴾ أي لو نشاء لأريناك المنافقين بأعيانهم حتى تعرفهم بعلامتهم ، ولكن الله ستر عليهم إبقاء عليهم وعلى أقاربهم من المسلمين ، وروي أن الله لم يذكر واحداً منهم باسمه ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القول ﴾ معنى لحن القول مقصده وطريقته ، وقيل : اللحن هو الخفي المعنى كالكناية والتعريض ، والمعنى أنه صلى الله عليه وسلم سيعرفهم من دلائل كلامهم ، وإن لم يعرفه الله بهم على التعيين ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ أي نختبركم ﴿ حتى نَعْلَمَ ﴾ أي نعلمه علماً ظاهراً في الوجود

تقوم به الحجة عليكم ؛ وقد علم الله الأشياء قبل كونها ، ولكنه أراد إقامة الحجة على عباده ؛ بما يصدر منهم ، وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى ، وقال : اللهم لا تبتلنا ، فإنك إذا ابتليتنا فضحتنا وهتكت أستارنا ﴿ وَشَآقُّواْ الرسول ﴾ أي خالفوه وعادوه ، ونزلت الآية في المنافقين وقيل : في اليهود .

﴿ وَلاَ تبطلوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ يحتمل أربعة معان : أحدها لا تبطلوا أعمالكم بالكفر بعد الإيمان والثاني لا تبطلوا حسناتكم بفعل السيئات ذكره الزمخشري وهذا على مذهب المعتزلة ، خلافاً للأشعرية فإن مذهبهم أن السيئات لا تبطل الحسنات . والثالث لا تبطلوا أعمالكم بالرياء والعجب ، والرابع لا تبطلوا أعمالكم بأن تقتطعوها قبل تمامها ، وعلى هذا أخذ الفقهاء الآية : وبهذا يستدلون على أن من ابتدأ نافلة لم يجز له قطعها ، وهذا أبعد هذه المعاني ، والأول أظهر لقوله قبل ذلك في الكفار أو المنافقين ، وسيحبط أعمالهم فكأنه يقول : يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا أعمالكم مثل هؤلاء الذين أحبط الله أعمالهم بكفرهم وصدهم عن سبيل الله ومشاقتهم الرسول .

(173/710)

﴿ فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ﴾ هذا قطع بأن من مات على الكفر لا يغفر الله له ، وقد أجمع المسلمون على ذلك .

﴿ فَلاَ تَهِنُواْ وتدعوا إِلَى السلم ﴾ أي لا تضعفوا عن مقاتلة الكفار وتبتدئوهم بالصلح ، هو كقوله : ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فاجنح لَهَا ﴾ [الأنفال : 61] ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ أي لن ينقصكم أجور أعمالكم ، يقال : وترت الرجال أتره إذا نقصته شيئاً ، أو أذهبت له متاعاً .

﴿ وَلاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ أي لا يسألكم جميعاً إنما يسألكم ما يخفّ عليكم مثل ربع العشر وذلك خفيف ﴿ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ ﴾ معنى يحفظم يلح عليكم ، والإحفاء أشد السؤال وتبخلوا جواب الشرط ﴿ وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾ الفاعل الله تعالى أو البخل ، والمعنى يخرج ما في قلوبكم من البخل وكراهة الإنفاق .

﴿ هؤلاء ﴾ منصوب على التخصيص أو منادى ﴿ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ الله ﴾ يعني الجهاد والزكاة ﴿ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ﴾ أي إنما ضرر بخله على نفسه فكأنه بخل على نفسه بالثواب الذي يستحقه بالإنفاق ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ أي يأت بقوم على خلاف صفتكم ، بل راغبين في الإنفاق في سبيل الله ، فقيل إن هذا الخطاب لقريش ، والقوم غيرهم هم الأنصار ؛ وهذا ضعيف لأن الآية مدنية نزلت والأنصار

حاضرون ، وقيل : الخطاب لكل من كان حينئذ بالمدينة ، والقوم هم أهل اليمن وقيل فارس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 48. 51 ﴾

(174/710)

وقال البيضاوى :

﴿ وَيَقُولُ الذين ءامَنُواْ لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾

أي هلا ﴿ نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾ في أمر الجهاد . ﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ ﴾ مبينة لا تشابه فيها . ﴿ وَذُكِرَ فِيهَا القتال ﴾ أي الأمر به . ﴿ رَأَيْتَ الذين فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ ضعف في الدين وقيل نفاق . ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ المغشى عَلَيْهِ مِنَ الموت ﴾ جبناً ومخافة . ﴿ فأولى لَهُمْ ﴾ فويل ﴿ لَهُمْ ﴾ ، أفعل من الولي وهو القرب ، أو فعلى من آل ومعناه الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه أو يؤول إليه أمرهم .

﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ استئناف أي أمرهم ﴿ طَاعَةٌ ﴾ أو ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ خير لهم ، أو حكاية قولهم لقراءة أُبيّ "يقولون طاعة" . ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأمر ﴾ أي جد وهو لأصحاب الأمر ، وإسناده إليه مجاز وعامل الظرف محذوف ، وقيل ﴿ فَلَوْ صَدَقُواْ الله ﴾ أي فيما زعموا من الحرص على الجهاد أو الإيمان . ﴿ لَكَانَ ﴾ الصدق .

﴿ خَيْراً لَّهُمْ فَهَلْ عَسَيْتُمْ ﴾ فهل يتوقع منكم . ﴿ إِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أمور الناس وتأمرتم عليهم ، أو اعرضتم وتوليتم عن الإسلام . ﴿ أَن تُفْسِدُواْ فِى الأرض وَتُقَطِّعُواْ أَرْحَامَكُمْ ﴾ تناحراً على الولاية وتجاذباً لها ، أو رجوعاً إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من التغاور ومقاتلة الأقارب ، والمعنى أنهم لضعفهم في الدين وحرصهم على الدنيا أحقاء بأن يتوقع ذلك منهم من عرف حالهم ويقول لهم : هل عسيتم ، وهذا على لغة الحجاز فإن بني تميم لا يلحقون الضمير به وخبره ﴿ أَن تُفْسِدُواْ ﴾ و ﴿ إِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ اعتراض ، وعن يعقوب ﴿ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي إن تولاكم ظلمة خرجتم معهم وساعدتموهم في الإفساد وقطيعة الرحم ﴿ وَتُقَطِّعُواْ ﴾ من القطع ، وقرىء ﴿ تقطعوا ﴾ من التقطع .

(175/710)

﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المذكورين . ﴿ الذين لَعَنَهُمُ الله ﴾ لإفسادهم وقطعهم الأرحام . ﴿ فَأَصَمَّهُمْ ﴾ عن استماع الحق . ﴿ وأعمى أبصارهم ﴾ فلا يهتدون سبيله .

﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرءان ﴾ يتصفحونه وما فيه من المواعظ والزواجر حتى لا يجسروا على المعاصي . ﴿ أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ لا يصل إليها ذكر ولا ينكشف لها أمر ، وقيل

﴿ أَمْ ﴾ منقطعة ومعنى الهمزة فيها التقرير ، وتنكير القلوب لأن المراد قلوب بعض منهم أو للإشعار بأنها لإبهام أمرها في القساوة ، أو لفرط جهالتها ونكرها كأنها مبهمة منكورة وإضافة الأقفال إليها للدلالة على أقفال مناسبة لها مختصة بها لا تجانس الأقفال المعهودة . وقرىء "إقفالها" على المصدر .

﴿ إِنَّ الذين ارتدوا على أدبارهم ﴾ أي ما كانوا عليه من الكفر . ﴿ مّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهدى ﴾ بالدلائل الواضحة والمعجزات الظاهرة . ﴿ الشيطان سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ سهل لهم اقتراف الكبائر من السول وهو الاسترخاء . وقيل حملهم على الشهوات من السول وهو التمني ، وفيه أن السول مهموز قلبت همزته واواً لضم ما قبلها ولا كذلك التسويل ، ويمكن رده بقولهم هما يتساولان وقرىء "سَوَّلَ" على تقدير مضاف أي كيد الشيطان ﴿ سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ . ﴿ وأملى لَهُمْ ﴾ ومد لهم في الآمال والأماني ، أو أمهلهم الله تعالى ولم يعاجلهم بالعقوبة لقراءة يعقوب "وَأَمْلِي لَهُمْ" ، أي وأنا أملي لهم فتكون الواو للحال أو الاستئناف ، وقرأ أبو عمرو "وَأَمْلِي لَهُمْ" على البناء للمفعول وهو ضمير ﴿ الشيطان ﴾ أو ﴿ لَهُمْ ﴾ .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ اللهُ ﴾ أي قال اليهود للذين كفروا بالنبي عليه الصلاة والسلام بعد ما تبين لهم نعته للمنافقين ، أو المنافقون لهم أو أحد الفريقين للمشركين . ﴿ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ الأمر ﴾ في بعض أموركم أو في بعض ما تأمرون به كالقعود عن الجهاد والموافقة في الخروج معهم إن أخرجوا ، والتظافر على الرسول صلى الله عليه وسلم . ﴿ واللهُ يَعْلَمُ أَسْرَارَهُمْ ﴾ ومنها قولهم هذا الذي أفشاه الله عليهم ، وقرأ حمزة والكسائي وحفص "إِسْرَارَهُمْ" على المصدر .

﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الملائكة ﴾ فكيف يعملون ويحتالون حينئذ ، وقرىء "توفاهم" وهو يحتمل الماضي والمضارع المحذوف إحدى تاءيه . ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وأدبارهم ﴾ تصوير لتوفيهم بما يخافون منه ويجبنون عن القتال له .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى التوفي الموصوف . ﴿ بِأَنَّهُمُ اتبعوا مَا أَسْخَطَ اللهَ ﴾ من الكفر ككتمان نعت الرسول عليه الصلاة والسلام وعصيان الأمر . ﴿ وَكَرِهُواْ رِضْوَانَهُ ﴾ ما يرضاه من الإيمان والجهاد وغيرهما من الطاعات . ﴿ فَأَحْبَطَ أعمالهم ﴾ لذلك .

﴿ أَمْ حَسِبَ الذين فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَن يُخْرِجَ اللهُ ﴾ أن لن يبرز الله لرسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين . ﴿ أضغانهم ﴾ أحقادهم .

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لأريناكهم ﴾ لعرفناكهم بدلائل تعرفهم بأعيانهم . ﴿ فَلَعَرَفْتَهُم بسيماهم ﴾ بعلاماتهم التي نسمهم بها ، واللام لام الجواب كررت في المعطوف . ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ

القول ﴾ جواب قسم محذوف و ﴿ لَحْنِ القول ﴾ أسلوبه ، أو إمالته إلى جهة تعريض وتورية ، ومنه قيل للمخطىء لاحن لأنه يعدل بالكلام عن الصواب . ﴿ والله يَعْلَمُ أعمالكم ﴾ فيجازيكم على حساب قصدكم إذ الأعمال بالنيات .

(177/710)

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم ﴾ بالأمر بالجهاد وسائر التكاليف الشاقة . ﴿ حتى نَعْلَمَ المجاهدين مِنكُمْ والصابرين ﴾ على مشاقه . ﴿ وَنَبْلُوَ أخباركم ﴾ ما يخبر به عن أعمالكم فيظهر حسنها وقبحها ، أو أخبارهم عن إيمانهم وموالاتهم المؤمنين في صدقها وكذبها . وقرأ أبو بكر الأفعال الثلاثة بالياء لتوافق ما قبلها ، وعن يعقوب "وَنَبْلُوَ" بسكون الواو على تقدير ونحن نبلو .

﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله وَشَاقُّواْ الرسول مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهدى ﴾ هم قريظة والنضير أو المطعمون يوم بدر . ﴿ لَن يَضُرُّواْ الله شَيْئاً ﴾ بكفرهم وصدهم ، أو لن يضروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمشاقته وحذف المضاف لتعظيمه وتفظيع مشاقته . ﴿ وَسَيُحْبِطُ أعمالهم ﴾ ثواب حسنات أعمالهم بذلك ، أو مكايدهم التي نصبوها في مشاقته فلا يصلون بها إلى مقاصدهم ولا تثمر لهم إلا القتل والجلاء عن

أوطانهم .

﴿ يا أيها الذين ءَامَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرسول وَلاَ تُبْطِلُواْ أعمالكم ﴾ بما أبطل به هؤلاء كالكفر والنفاق والعجب والرياء والمن والأذى ونحوها ، وليس فيه دليل على إحباط الطاعات بالكبائر .

﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ الله لَهُمْ ﴾ عام في كل من مات على كفره وإن صح نزوله في أصحاب القليب ، ويدل بمفهومه على أنه قد يغفر لمن لم يمت على كفره سائر ذنوبه .

(178/710)

﴿ فَلاَ تَهِنُواْ ﴾ فلا تضعفوا . ﴿ وَتَدْعُواْ إِلَى السلم ﴾ ولا تدعوا إلى الصلح خوراً وتذللاً ، ويجوز نصبه بإضمار إن وقرىء "ولا تدعوا" من ادعى بمعنى دعا ، وقرى أبو بكر وحمزة بكسر السين . ﴿ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ ﴾ الأغلبون . ﴿ والله مَعَكُمْ ﴾ ناصركم . ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أعمالكم ﴾ ولن يضيع أعمالكم ، من وترت الرجل إذا قتلت متعلقاً به من قريب أو حميم فأفردته منه من الوتر ، شبه به تعطيل ثواب العمل وإفراده منه .

﴿ إِنَّمَا الحياة الدنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ لإثبات لها . ﴿ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾

ثواب إيمانكم وتقواكم . ﴿ وَلاَ يَسْئَلْكُمْ أموالكم ﴾ جميع أموالكم بل يقتصر على جزء يسير كربع العشر والعشر .

﴿ إِنْ يَسْئَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ ﴾ فيجهدكم بطلب الكل والإِحفاء والإِلحاف المبالغة وبلوغ الغاية يقال : أحفى شاربه إذ استأصله . ﴿ تَبْخَلُواْ ﴾ فلا تعطوا . ﴿ وَيُخْرِجْ أضغانكم ﴾ ويضغنكم على رسول الله صلى الله عليه وسلم والضمير في يخرج لله تعالى ، ويؤيده القراءة بالنون أو البخل لأنه سبب الإِضغان ، وقرىء "وتخرج" بالتاء والياء ورفع ﴿ أضغانكم ﴾ .

﴿ هَا أَنتُمْ هؤلاء ﴾ أي أنتم يا مخاطبون هؤلاء الموصوفون وقوله : ﴿ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ الله ﴾ استئناف مقرر لذلك ، أو صلة ل ﴿ هَؤُلاء ﴾ على أنه بمعنى الذين وهو يعم نفقة الغزو والزكاة وغيرهما . ﴿ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ﴾ ناس يبخلون وهو كالدليل على الآية المتقدمة .

(179/710)

﴿ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ﴾ فإن نفع الإنفاق وضر البخل عائدان إليه ، والبخل يعدى بعن وعلى لتضمنه معنى الإِمساك والتعدي فإنه إمساك عن مستحق . ﴿ والله

الغنى وَأَنتُمُ الفقراء ﴾ فما يأمركم به فهو لاحتياجكم إليه فإن امتثلتم فلكم وإن توليتم فعليكم . ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ ﴾ عطف على ﴿ إِن تُؤْمِنُواْ ﴾ . ﴿ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ يقم مقامكم قوما آخرين . ﴿ ثُمَّ لاَ يَكُونُواْ أَمْثَالَكُم ﴾ في التولي والزهد في الإيمان ، وهم الفرس " لأنه سئل عليه الصلاة والسلام عنه وكان سلمان إلى جنبه فضرب فخذه وقال : "هذا وقومه" " أو الأنصار أو اليمن أو الملائكة . عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة محمد كان حقاً على الله أن يسقيه من أنهار الجنة " . (1) انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 193.198 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

(180/710)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (19) ﴾

التفسير : لما ذكر حال الفريقين المؤمن والكافر من السعادة والشقاوة قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : فاثبت على ما أنت عليه من التوحيد ومن هضم النفس باستغفار ذنبك أو

ذنبو أمتك . أو المراد فاعلم خبراً يقيناً على ما علمته نظراً واستدلالاً . أو أراد فاذكر لا إله إلا الله . والهاء في ﴿ أنه ﴾ لله أو للأمر والشأن ، أو الأول إشارة إلى أصول الحكمة النظرية ، والثاني إلى أصول الحكمة العملية ، أمره بالحكمة العملية بعد الحكمة النظرية .

(181/710)

عن سفيان بن عيينة أنه سئل عن فضل العلم فتلا هذه الآية . وذلك أنه أمر بالعمل بعد العلم . والفاءات في هذه الآية وما تقدّمها لعطف جملة على جملة بينهما اتصال . وفي الآية نكتة وهي أن النبي صلى الله عليه وسلم له أحوال ثلاث : حال مع الله وهي توحيده ، وحال مع نفسه وهي طلب العصمة من الذنوب وأن يستر الله عليه جنس الآثام حتى لا يقع فيها ، وحال مع غيره وهي طلب ستر الذنوب عليهم بعد وقوعهم فيها أو أعم ويندرج فيها الشفاعة . ثم قال ﴿ والله يعلم متقلبكم ومثواكم ﴾ فقيل : التقلب في الأسفار والمثوى في الحضر . وقيل : أراد منتشركم في النهار ومستقركم بالليل . وقيل : الأوّل في الدنيا والثاني في الآخرة . وقيل : لكل متقلب مثوى فيتقلب من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات ثم إلى الدنيا ثم إلى القبر ثم إلى الجنة أو النار . والمقصود بيان كمال علمه بحال الخلائق فعليهم أن لا يهملوا دقائق الطاعة والخشية ويواظبوا على طلب المغفرة خوفاً من التقصير في العبودية .

ثم ذكر طرفاً آخر من نصائح أهل النفاق ومن ينخرط في سلكهم من ضعفة الإسلام ، وذلك أنهم كانوا يدّعون الحرص على الجهاد ويقولون بألسنتهم ﴿ لولا نزلت ﴾ سورة في باب القتال ﴿ فإذا أنزلت سورة محكمة ﴾ مبينة غير متشابهة لا تحتمل النسخ ﴿ وذكر فيها القتال ﴾ عن قتادة : كل سورة ذكر فيها القتال فهي محكمة وهي أشدّها على المنافقين . قال أهل البرهان : نزل بالتشديد أبلغ من أنزل فخص بهم ليكون أدل على حرصهم فيكون أبلغ في أبلغ في باب التوبيخ . قوله ﴿ فأولى لهم ﴾ كلمة تحذير أي وليك شر فاحذره . هذه عبارة كثير من المفسرين . وقال المبرد : يقال للإنسان إذا كاد يعطب ثم يفلت : أولى لك . أي قاربت العطب ثم نجوت . وهو في الفرقان على معنى التحذير . وقال جار الله : هو وعيد معناه فويل لهم والمراد الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه . وقيل : أراد طاعة وقول معروف أولى من الجزع عند الجهاد فلا يكون للوعيد ، وعلى هذا

(182/710)

فلا وقف على ﴿ لهم ﴾ كما أشير إليه في الوقف . واعترض عليه بأن الأفصح أن يستعمل وقتئذ بالباء لا مع اللام كما قال ﴿ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض ﴾ [الأنفال : 75] والأصح أنه فعل متعدٍ من الولي وهو القرب أي أولاه الله المكروه فاقتصر لكثرة

الاستعمال . ويحتمل أن يكون " فعلى " من آل يؤل أي يؤل أمرك إلى شر فاحذره . ثم حثهم على الامتثال بقوله ﴿ طاعة وقول معروف ﴾ أي طاعة الله وقول حسن أو ما عرف صحته خير من الجزع عند فرض الجهاد فهو مبتدأ محذوف الخبر ، أو أمرنا طاعة فيكون خبر مبتدأ محذوف كما مر في سورة النور في قوله ﴿ طاعة معروفة ﴾ [الآية : 53] ويجوز أن يكون أمراً للمنافقين أي قولوا طاعة وقول معروف .

(183/710)

﴿ فإذا عزم الأمر ﴾ أي جدّ وصار معزوماً عليه وهو إسناد مجازي لأن العزم لأصحاب أمر القتال . ثم التفت وخاطب كفار قريش بقوله ﴿ فهل عسيتم ﴾ هو من أفعال المقاربة وقد مر وجوه استعمالاته في " البقرة " في قوله ﴿ عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ﴾ [الآية : 216] فنقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب ليكون أبلغ في التوبيخ ومعناه هل يتوقع منكم ﴿ إن توليتم ﴾ وأعرضتم عن الدين أو توليتم أمور الناس ﴿ أن تفسدوا في الأرض ﴾ بالمعاصي والافتراق بعد الاجتماع على الإسلام ﴿ وتقطعوا أرحامكم ﴾ بالقتل والعقوق ووأد البنات وسائر ما كنتم عليه في الجاهلية من أنواع الإفساد ، وفي سلوك طريقة الاستخبار المسمى في غير القرآن بتجاهل العارف ، إمالة لهم إلى طريق الإنصاف وحث

لهم على التدبر وترك العصبية والجدال ، فقد كانوا يقولون كيف يأمرنا النبي صلى الله عليه وسلم بالقتال والقتال إفناء لذوي أرحامنا وأقاربنا ، فعرض الله سبحانه بأنهم إن ولوا أمور الناس أو أعرضوا عن هذا الدين لم يصدر عنهم إلا القتل والنهب وسائر أبواب المفاسد كعادة أهل الجاهلية . ثم صرح بما فعل الله بهم واستقر عليه حالهم فقال ﴿ أولئك الذين لعنهم الله ﴾ بعدهم عن رحمته . ثم بين نتيجة اللعن قائلاً ﴿ فأصمهم ﴾ أي عن قبول الحق بعد استماعه وهذا في الدنيا ﴿ وأعمى أبصارهم ﴾ أي في الآخرة أو عن رؤية الحق والنظر إلى المصنوعات . قال بعض العلماء : إنما لم يقل فأصم آذانهم لأن الأذن عبارة عن الشحمة المعلقة ، والسمع لا يتفاوت بوجود وعدمها ، ولذلك يسمع مقطوع الأذن . وأما الرؤية فتتعلق بالبصر نفسه ، فالتأكيد هناك إنام يحصل بترك ذكر الأذن وههنا بذكر الأبصار والله أعلم . قال جار الله : يجوز أن يريد بالذين آمنوا المؤمنين الخلص الثابتين وذلك أنهم كانوا يأنسون بالوحي . فإذا أبطأ عليهم التمسوه ، فإذا نزلت سورة في معنى الجهاد رأيت المنافقين يضجرون منها .

(184/710)

سؤال : لما أثبت لهم الصمم والعمى فكيف وبخهم بقوله ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ ؟ وأجيب على مذهب أهل السنة بأن تكليف ما لا يطاق جائز . ويمكن أن يقال : لما أخبر عنهم بما أخبر حكى أنهم بين أمرين : إما أن لا يتدبروا القرآن لأن الله أبعدهم عن الخير ، وإما أن يدبروا لكن لا يدخل معانيه في قلوبهم لكونها مقفلة . قال جار الله : إنام نكرت القلوب لأنه أريد البعض وهو قلوب المنافقين أو أريد على قلوب قاسية مبهم أمرها . وإنما أضيفت الأقفال إلى ضمير القلوب لأنه أريد الأقفال المختصة بها وهي أقفال الكفر والعناد التي استغلقت فلا تنفخ . ثم أخبر عن حال المنافقين أو اليهود الذين غيروا حالهم من بعد ما تبين لهم حقيقة الإسلام أو نعت محمد في التوراة فقال ﴿ إن الذين ارتدوا ﴾ الآية . ﴿ ذلك ﴾ الإملاء أو الإضلال أو الارتداد بسبب أنهم قالوا للذين كرهوا أي قال اليهود للمنافقين ، أو قال المنافقون ليهود قريضة والنضير ، أو قاله اليهود أو المنافقون للمشركين ﴿ سنطيعكم في بعض الأمر ﴾ الذي يهمكم كالتظافر على عداوة محمد والقعود عن الجهاد معه أو في بعض ما تأمرون به ، وهو ما يتعلق بتكذيب محمد لا في إظهار الشرك واتخاذ الأصنام وإنكار المعاد ﴿ والله يعلم أسرارهم ﴾ فلذلك أفشى الذي قالوه سراً فيما بينهم وسيجازيهم على حسب ذلك يدل عليه قوله ﴿ فكيف ﴾ يعملون وما حيلتهم حين توفتهم ملائكة الموت ﴿ يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ التي كانوا يتقون أن يصيبها آفة في القتال ، أو يضربون وجوههم عند الموت وأدبارهم عند السوق إلى النار .

وقيل : يضربون وجوههم عند الطلب وأدبارهم حين الهرب ﴿ ذلك ﴾ الإذلال والإهانة ﴿ بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه ﴾ كأنهم ضربوا وجوههم لأنهم أقبلوا على مواجب السخط ، وضربوا أدبارهم لأنهم أعرضوا عما فيه رضا الله . وقد يخص السخط بكتمان نعت الرسول ومعاونة أهل الشرك والرضا بالإيمان به والنصرة للمؤمنين . وإنما قال ﴿ ما أسخط الله ﴾ ولم يقل " ما أرضى الله " لأن رحمته سبقت غضبه ، فالرضا كالأمر الحاصل والإسخاط كالأمر المترتب على شيء . ثم زاد في تعيير المنافقين بقوله ﴿ أم حسب ﴾ وهي منقطعة . والضغن إضمار سوء يتربص به إمكان الفرصة . وإخراج الإضغان إبرازها للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين كما قال ﴿ ولو نشاء لأريناكهم ﴾ أي لو شئنا أريناك أماراتهم ﴿ فلعرفتهم ﴾ كررت لام جواب " لو " في المعطوف لأجل المبالغة ﴿ بسيماهم ﴾ بعلامتهم . عن أنس أنه ما خفي على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية شيء من المنافقين ، ولقد كنا في بعض الغزوات وفيها تسعة منهم يشكوهم الناس فناموا ذات ليلة وأصبحوا وعلى جبهة كل واحد منهم مكتوب " هذا منافق " . ومعنى لحن القول نحوه وأسلوبه وفحواه أي يقولون ما معناه النفاق كقولهم

﴿ لئن رجعنا إلى المدينة ﴾ [المنافقون : 8] ﴿ إن بيوتنا عورة ﴾ [الأحزاب : 13] أو لتعرفنهم في فحوى كلام الله حيث قال ما يعلم منه حال المنافقين كقوله ﴿ ومن الناس من يقول ﴾ [البقرة : 8] ﴿ ومنهم من عاهد الله ﴾ [التوبة : 75] وحقيقة اللحن ذهاب الكلام إلى خلاف جهته . وقيل : اللحن أن تميل كلامك إلى نحو من الأنحاء ليفطن له صاحبك كالتعريض والتورية قال :

ولقد لحنت لكم لكيما تفهموا . . . واللحن يعرفه ذوو الألباب

(186/710)

ويقال للمخطىء لاحن لأنه يعدل بالكلام عن الصواب . وقال الكلبي : لحن القول كذبه . ولم يتكلم بعد نزولها منافق عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عرفه . وعن ابن عباس هو قولهم ما لنا إن أطعنا من الثواب ولا يقولون ما علينا إن عصينا من العقاب ﴿ والله يعلم أعمالكم ﴾ فيميز خيرها من شرها وإخلاصها من نفاقها ﴿ ولنبلونكم ﴾ أي لنأمرنكم بما لا يكون متعيناً للوقوع بل يحتمل الوقوع واللاوقوع كما يفعل المختبر حتى يظهر المجاهد والصابر من المنافق والمضطرب .

(187/710)

﴿ ونبلو أخباركم ﴾ التي تحكي عنكم كقولكم ﴿ آمنا بالله وباليوم الآخر ﴾ [البقرة : 8] أو عهودكم كقوله ﴿ ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار ﴾ [الأحزاب : 15] أو أسراركم أو ما ستفعلونه أو أخباركم الأراجيف كقوله ﴿ والمرجفون في المدينة ﴾ [الأحزاب : 60] عن الفضل أنه كان إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : اللهم لا تبلنا فإنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا وعذبتنا . ثم أنزل في اليهود من قريظة والنضير أو في رؤساء قريش المطعمين يوم بدر ﴿ إن الذين كفروا ﴾ الآية . وأعمالهم طاعاتهم في زمن اليهودية ، ومكايدهم التي نصبوها في عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم أو إطعامهم . ثم أمر المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله بالتوحيد والتصديق مع الإخلاص وأن لا يبطلوا إحسانهم بالمعاصي والرياء وبالمن والأذى . عن أبي العالية قال : كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يرون إنه لا يضر مع " لا إله إلا الله " ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل حتى نزلت الآية ، فكانوا يخافون الكبائر على أعمالهم . وعن قتادة : رضي الله عن عبد لم يحبط عمله الصالح بعمله السيء . ثم أراد أن يبين أن أعمال المكلف إذا بطلت فإن فضل الله باقٍ يغفر له إن شاء ما لم يمت على الكفر فقال ﴿ إن الذين كفروا ﴾ الآية . قال مقاتل : نزلت في رجل سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن والده وقال : إنه كان محسناً في كفره . وعن الكلبي : نزلت في رؤساء أهل بدر . ﴿ فلا تهنوا ﴾ لا تضعفوا ولا تجبنوا ﴿ وتدعوا إلى

السلم ﴾ أي ولا تدعوا الكفار إلى الصلح . ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار " أن " بعد الواو في جواب النهي ﴿ وأنتم الأعلون ﴾ الغالبون المستولون عليهم ﴿ والله معكم ﴾ بالنصرة والكلاءة ﴿ ولن يتركم أعمالكم ﴾ أي لن ينقصكم جزاء أعمالكم من وترت الرجل إذا قتلت له قتيلاً من ولد أو أخ أو قريب أو سلبت ماله وأصله من الوتر وهو الفرد ، كأنك أفردته من قريبه أو ماله . وفي الحديث " من فاتته صلاة

(188/710)

العصر فكأنما وتر أهله وماله " وهو من فصيح الكلام . ثم زادهم حثاً على الجهاد بتحقير الدنيا في أعينهم وبأنه سبحانه إنما يحثهم على الإيمان والجهاد وسائر أبواب التقوى لتعود فائدتها عليهم كما قال " خلقتكم لتربحوا عليّ لا لأربح عليكم " قوله ﴿ ولا يسألكم أموالكم ﴾ أي كل أموالكم ولكنه يقتصر منها على ربع العشر ، أو لا يسألكم أموالكم لنفسه ولكن لتكون زاداً لكم في المعاد . وقيل : لا يسألكم أموالكم رسولي لنفسه . وقيل : إنهم لا يملكون شيئاً وإن المال مال الله وهو المنعم بإعطائه . والقول هو الأوّل لقوله ﴿ إن يسألكموها فيحفكم ﴾ أي يجهدكم يبلغ الغاية فيها من أحفى شاربه استأصله كأنه جعله

حافياً مما في ملكه أي عارياً ﴿ تبخلوا ويخرج ﴾ الإحفاء أو الله تعالى على طريق التسبب ﴿ أضغانكم ﴾ أي تضطغنون على الرسل وتظهرون كراهة هذا الدين .

(189/710)

ثم بين أنه كيف يأمركم بإخراج كل المال وقد دعاكم إلى إنفاق البعض ﴿ فمنكم من يبخل ﴾ و " ها " للتنبيه وكرر مع أولاء للتوكيد وأنتم أولاء جملة مستقلة أي أنتم يا مخاطبون هؤلاء الموصوفون . ثم استأنف وصفهم كأنهم قالوا وما وصفنا فقيل ﴿ تدعون لتنفقوا في سبيل الله ﴾ وهو الزكاة أو الغزو ، فمنكم ناس يبخلون به . وقيل : ﴿ هؤلاء ﴾ موصول صلته ﴿ تدعون ﴾ وهو مذهب الكوفيين وقد سلف في " البقرة " و " آل عمران " . ثم قبح أمر البخل بقوله ﴿ ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ﴾ أي وباله على نفسه أو عن داعي ربه . قال في الكشاف : يقال بخلت عليه وعنه . وفيه نظر لأن البخل عن النفس لا يصح بهذا التفسير . نعم لو قال عن ماله كان تفسيره مطابقاً . ثم مدح نفسه بالغنى المطلق وبين بقوله ﴿ وأنتم الفقراء ﴾ أنه لا يأمر بالإنفاق لحاجته ولكن لفقركم إلى الثواب . ثم هددهم بقوله ﴿ وإن تتولوا ﴾ وهو معطوف على ﴿ وإن تؤمنوا ﴾ ومعنى ﴿ يستبدل قوماً غيركم ﴾ يخلق قوماً سواكم راغبين فيما ترغبون عنه من الإيمان والتقوى

كقوله ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ﴾ [فاطر : 61] ومعنى " ثم " التراخي في الرتبة أي لا يكونون أشباهكم في حال توليكم . وقيل : في جميع الأحوال . وعن الكلبي : شرط في الاستبدال توليهم لكنهم لم يتولوا فلم يستبدل قوماً وهم العرب أهل اليمن أو العجم . قاله الحسن وعكرمة لما روي أو رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن ذلك وكان سلمان إلى جنبه فضرب على فخذه وقال : هذا وقومه ، والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 134.139 ﴾

(190/710)

وقال الخطيب الشربينى :

﴿ ويقول الذين آمنوا ﴾

طلباً للجهاد .

﴿ لولا ﴾ أي : هلا ، ولا التفات إلى قول بعضهم أن لا زائدة والأصل لو ﴿ نزلت سورة ﴾ أي سورة كانت ، نسرّ بسماعها ، ونتعبد بتلاوتها ، ونعمل بما فيها ﴿ فإذا أنزلت سورة ﴾ أي : قطعة من القرآن ، تكامل نزولها كلها تدريجاً ، أو جملة وزادت على مطلوبهم في

الحسن بأنها ﴿ محكمة ﴾ أي : مبينة ، لا يلتبس شيء منها بنوع إجمال ، ولا ينسخ لكونه جامعاً للمحاسن في كل زمان ومكان وقال قتادة : كل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة . وهي أشدّ القرآن على المنافقين ﴿ وذكر فيها القتال ﴾ أي : الأمر به ﴿ رأيت الذين في قلوبهم مرض ﴾ أي : شك وهم المنافقون . ﴿ ينظرون إليك ﴾ شرراً بتحديق شديد ، كراهية منهم للجهاد ، وجبنا منهم عن لقاء العدوّ ﴿ نظر المغشيّ ﴾ والأصل نظراً مثل نظر المغشي ﴿ عليه من الموت ﴾ الذي هو : نهاية الغشي فهو لا يطرف بعينه ، بل شاخص لا يطرف كراهية القتال ؛ من الجبن والخوف . والمعنى : أنّ المؤمن كان ينتظر نزول الأحكام والتكاليف ويطلب تنزيلها ، وإذا تأخر عنه التكليف كان يقول هلا أمرت بشيء من العبادة خوفاً من أن لا يؤهل لها وأمّا المنافق ، فإذا أنزلت السورة أو الآية وفيها تكليف شق عليه ذلك فحصل التباين بين الفريقين في العلم والعمل وقوله تعالى ﴿ فأولى لهم ﴾ وعيد بمعنى فويل لهم وهو أفعل من الولي وهو القرب ومعناه الدعاء عليه بأن يليهم المكروه .

وقوله تعالى:

﴿ طاعة وقول معروف ﴾ مستأنف ، أي : طاعة ومعروف خير لهم وأمثل ، أي : لو أطاعوا وقالوا قولاً معروفاً لكان أمثل وأحسن ، وساغ الابتداء بالنكرة لأنها وصفت بدليل قوله تعالى : ﴿ وقول معروف ﴾ فإنه موصوف فكأنه تعالى قال : طاعة مخلصة وقول معروف خير ، وقيل : يقول المنافقون قبل نزول السورة المحكمة طاعة رفع على الحكاية ، أي : أمرنا طاعة أو منا طاعة وقول معروف حسن ، وقيل : متصل بما قبله واللام في قوله تعالى ﴿ لهم ﴾ بمعنى الباء أي فأولى بهم طاعة الله ورسوله ، وقوله : معروف بالإجابة أولى بهم ، وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء . ثم سبب عنهما قوله تعالى مسنداً إلى الأمر ما هو لأهله تأكيداً لمضمون الكلام : ﴿ فإذا عزم الأمر ﴾ ، أي : فإذا أمر بالقتال الذي ذكر في أوّل السورة وغيره من الأوامر أمراً مجزوماً به مقروحاً عليه ﴿ فلو صدقوا الله ﴾ أي : الملك الأعظم في قولهم الذي قالوه في طلب التنزيل ﴿ لكان ﴾ أي : صدقهم له ﴿ خيراً لهم ﴾ أي : من تعللهم ، وجملة لو جواب إذا ، نحو : إذا جاءني طعام فلو جئتني لأطعمتك ، وقيل : محذوف ، وتقديره : فاصدق كذا قدّره أبو البقاء وعزم الأمر على سبيل المجاز ، كقوله : قد جدّت الحرب فجدوا ، أو يكون على حذف مضاف أي عزم أهل الأمر .

وقوله تعالى : ﴿ فهل عسيتم ﴾ فيه التفات عن الغيبة ، أي : لعلكم ﴿ إن توليتم ﴾ أي : أعرضتم عن الإيمان والجهاد ﴿ أن تفسدوا ﴾ أي : توقعوا الإفساد العظيم الذي يستمر تجدّده ﴿ في الأرض ﴾ بالمعصية والبغي وسفك الدماء الذي يسخط الله تعالى ، ويغضبه أشدّ غضب على فاعله ، وتكونوا في غاية الجراءة عليه وترجعوا إلى الفرقة بعد ما جمعكم الله بالإسلام . وقرأ نافع بكسر السين والباقون بفتحها ﴿ وتقطعوا ﴾ أي : تقطيعاً كثيراً ﴿ أرحامكم ﴾ أي : تعودوا إلى أمر الجاهلية في الإغارة من بعض على بعض وغير ذلك ، قال قتادة : كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله تعالى ألم يسفكوا الدم الحرام وقطعوا الأرحام وعصوا الرحمن ، وقال بعضهم : هو من الولاية . قال الفراء : يقول فهل عسيتم إن توليتم أمر الناس أن تفسدوا في الأرض بالظلم نزلت في بني أمية وبني هاشم .

﴿ أولئك ﴾ أي : المفسدون ﴿ الذين لعنهم الله ﴾ أي : طردهم أشدّ الطرد الملك الأعظم لما ذكر من إفسادهم وتقطيعهم ، ثم سبب عن لعنهم قوله تعالى ﴿ فأصمهم ﴾ أي : عن الانتفاع بما سمعوه ﴿ وأعمى أبصارهم ﴾ أي عن الانتفاع بما يبصرون فليس سماعهم سماع إدراك ، ولا إبصارهم إبصار اعتبار ، فلا سماع ولا إبصار .

﴿ أفلا يتدبرون ﴾ بقلوب منفتحة منشرحة ليهتدوا إلى كل خير ﴿ القرآن ﴾ أي : يجهدوا أنفسهم في أن يتفكروا في الكتاب الجامع لكل خير ، الفارق بين الحق والباطل ، حتى

لا يجسروا على المعاصي

فإن قيل قال تعالى : ﴿ فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾ فكيف يمكنهم التدبر في القرآن ؟

وهو كقول القائل للأعمى : أبصر وللأصم اسمع ، أجيب بثلاثة أوجه مترتبة بعضها أحسن من بعض ؛ الأول : تكليف ما لا يطاق جائز . والله تعالى أمر من علم منه بأنه لا يؤمن أن يؤمن فلذلك جاز أن يصمهم ، ويعميهم ، ويذمهم على ترك التدبر .

الثاني : أن قوله ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ المراد منه الناس .

(193/710)

الثالث : أن يقال أنّ هذه الآية وردت محققة لمعنى الآية المتقدّمة ، كأنه تعالى قال ﴿ أولئك الذين لعنهم الله ﴾ أي : أبعدهم عنه ، أو عن الصدق ، أو الخير ، أو غير ذلك من الأمور الحسنة فأصمهم لا يسمعون حقيقة الكلام ، وأعماهم لا يبصرون طريقة الإسلام فإذا هم بين أمرين : إمّا لا يتدبرون القرآن ، فيبعدون عنه لأنّ الله تعالى لعنهم وأبعدهم عن الخير والصدق ، والقرآن منها هو الصنف الأعلى بل النوع الأشرف .

وإمّا يتدبرون لكن لا تدخل معانيه في قلوبهم لكونها مقفلة تقديره أفلا يتدبرون القرآن لكونهم ملعونين مبعدين ﴿ أم ﴾ أي : بل ﴿ على قلوب ﴾ أي : من قلوب الفاعلين لذلك

﴿ أقفالها ﴾ فلا تعي شيئاً ولا تفهم أمراً ، ولا تزداد إلا غباوة وعناداً لأنها لا تقدر على التدبير قال القشيري : فلا يدخلها زواجر التنبيه ، ولا ينبسط عليها شعاع العلم ، فلا يحصل لهم فهم الخطاب . والباب إذا كان مغلقاً فكما لا يدخل فيه شيء لا يخرج ما فيه فلا كفرهم يخرج ، ولا الإيمان الذي يدعون إليه يدخل . ا . ه فإن قيل ما الفائدة في تنكير القلوب .

أجاب الزمخشري بقوله : يحتمل وجهين:

أحدهما : أن يكون للتنبيه على كونه موصوفاً ، لأنّ النكرة بالوصف أولى من المعرفة كأنه قال أم على قلوب قاسية أو مظلمة

الثاني : أن تكون للتبعيض كأنه قال أم على بعض القلوب لأنّ النكرة لا تعم تقول : جاءني رجال فيفهم البعض ، وجاءني الرجال فيفهم الكل . والتنكير في القلوب للتنبيه على الإنكار الذي في القلوب ، وذلك لأنّ القلب إذا كان عارفاً كان معروفاً ، لأنّ القلب خلق للمعرفة فإذا لم تكن فيه المعرفة ، فكأنه لا يعرف قلباً فلا يكون قلباً يعرف ، كما يقال للإنسان المؤذي : هذا ليس بإنسان فكذلك يقال : هذا ليس بقلب ، هذا حجر ، وإذا علم هذا ، فالتعريف إمّا بالألف واللام ، وإما بالإضافة بأن يقال على قلوبهم أقفالها ، وهي لعدم عود فائدة إليهم كأنها ليست لهم .

فإن قيل قد قال تعالى ﴿ ختم الله على قلوبهم ﴾ (البقرة :)

وقال تعالى : ﴿ فويل للقاسية قلوبهم ﴾ (الزمر :)

أجيب بأنّ الأقفال أبلغ من الختم ، فترك الإضافة لعدم انتفاعهم رأساً .

فإن قيل : ما الحكمة في قوله تعالى : ﴿ أقفالها ﴾ بالإضافة ؟ ولم يقل أقفال كما قال :

﴿ قلوب ﴾ .

أجيب بأنّ الأقفال كأنها ليست إلا لها ولم يضف القلوب إليهم لعدم نفعها إياهم ، وأضاف الأقفال إليها لكونها مناسبة لها ، أو يقال : أراد به أقفالاً مخصوصة هي أقفال الكفر والعناد ولما أخبر تعالى بأقفال قلوبهم بين منشأ ذلك .

فقال تعالى:

﴿ إنّ الذين ارتدوا ﴾ أي : من أهل الكتاب وغيرهم ﴿ على أدبارهم ﴾ أي : رجعوا كفارا ﴿ من بعد ما تبين ﴾ أي : غاية البيان ﴿ لهم الهدى ﴾ أي : بالدلائل التي هي من شدة ظهورها غنية عن بيان مبين ﴿ الشيطان سوّل لهم ﴾ أي : زين وسهل لهم اقتراف الكبائر ﴿ وأملى ﴾ أي : ومدّ الشيطان ﴿ لهم ﴾ في الآمال والأماني بإرادته تعالى فهو المضل لهم وقرأ أبو عمرو : بضم الهمزة وكسر اللام وفتح الياء والباقون : بفتح الهمزة واللام

وسكون الألف المنقلبة وأما لها حمزة والكسائي محضة ، وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين ، والباقون بالفتح قال في الكشاف : فإن قلت : من هؤلاء ؟ قلت : اليهود كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم من بعد ما تبين لهم الهدى وهو نعته في التوراة وقيل : هم المنافقون .

(195/710)

﴿ ذلك ﴾ أي : إضلالهم ﴿ بأنهم ﴾ أي : بسبب أنهم ﴿ قالوا ﴾ أي : المنافقون ﴿ للذين كرهوا ﴾ أي : وهم المشركون ﴿ ما ﴾ أي : جميع ما ﴿ نزل الله ﴾ أي : الملك الأعظم على التدريج بحسب الوقائع ، تنزيلاً في إعجاز الخلق في بلاغة التركيب مع فصاحة المفردات وجزالتها ، مع السهولة في النطق ، والعذوبة في السمع ، والملاءمة للطبع ﴿ سنطيعكم في بعض الأمر ﴾ أي : أمر المعاونة على عداوة النبي صلى الله عليه وسلم وتثبيط الناس عن الجهاد معه قالوا ذلك سراً ، فأظهره الله تعالى ، ﴿ والله ﴾ أي : قالوا ذلك والحال أن الملك الأعظم المحيط بكل شيء علما وقدرة ﴿ يعلم ﴾ أي : على ممر الأوقات ﴿ أسرارهم ﴾ أي : كلها ؛ هذا الذي أفشاه عليهم ، وغيره مما في ضمائرهم مما لم يبرز على ألسنتهم ولعلهم لم يعلموه فضلاً عن أقوالهم التي تحدثت بها أنفسهم فبان بذلك أنه لا أديان لهم ولا عقول ولا مروءات . وقرأ حمزة والكسائي وحفص بكسر الهمزة مصدراً

والباقون بفتحها جمع سر .

﴿ فكيف ﴾ أي : حالهم ﴿ إذا توفتهم الملائكة ﴾ أي : قبضت رسلنا ، وهم ملك الموت وأعوانه أرواحهم كاملة وقوله تعالى : ﴿ يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ تصوير لتوفيهم بما يخافون منه ويجبنون عن القتال له وعن ابن عباس : لا يتوفى أحد على معصية إلا يضرب من الملائكة في وجهه ودبره . وقوله تعالى:

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى التوفي الموصوف ﴿ بأنهم ﴾ أي : بسبب أنهم ﴿ اتبعوا ﴾ أي : عالجوا فطرتهم الأولى في أن اتبعوا ﴿ ما أسخط الله ﴾ أي : الملك الأعظم ، وهو الكفر وكتمان نعت الرسول صلى الله عليه وسلم وعصيان الأمر ﴿ وكرهوا ﴾ بالإشراك ﴿ رضوانه ﴾ بكراهتهم أعظم أسباب رضاه وهو الإيمان ، فهم لما دونه بالقعود عن الطاعات أكره ؛ لأنّ ذلك ظاهر غاية الظهور في أنّ فاعله غير معذور في ترك النظر فيه .

﴿ فأحبط ﴾ أي : فلذلك تسبب عنه أنه أفسد .

(196/710)

﴿ أعمالهم ﴾ أي : الصالحة فأسقطها بحيث لم يبق لها وزن أصلاً لتضييع الأساس من مكارم الأخلاق ؛ من القرى والأخذ بيد الضعيف والتصدّق والإعتاق وغير ذلك من

وجوه الإرفاق .

﴿ أم حسب الذين ﴾ وكان الأصل أم حسبوا لضعف عقولهم كما أفهمه التعبير بالحسبان ولكنه عبر تعالى بما دلّ على الآفة التي أدّتهم إلى ذلك بقوله تعالى : ﴿ في قلوبهم ﴾ أي : التي إذا أفسدت فسد جميع أجسادهم ﴿ مرض ﴾ أي : آفة لا طب لها حسباناً هو في غاية الثبات كما دل عليه التأكيد في قوله تعالى : ﴿ أن لن يخرج الله ﴾ أي يبرز من هو محيط بصفات الكمال للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على سبيل التجديد والاستمرار وقوله تعالى : ﴿ أضغانهم ﴾ جمع ضغن ، وهي الأحقاد أي أحقادهم على المؤمنين فيبديها حتى تعرفوا نفاقهم وكانت صدورهم تغلي حنقاً عليهم .

﴿ ولو نشاء لأريناكهم ﴾ من رؤية البصر وجاء على الأفصح من اتصال الضميرين ولو جاء على أريناك إياهم جاز وقال الرازي الإراءة هنا بمعنى التعريف وقوله تعالى ﴿ فلعرفتهم ﴾ عطف على جواب لو ﴿ بسيماهم ﴾ أي : بسبب علاماتهم التي نجعلها غالبة عليهم عالية لهم في إظهار ضمائرهم غلبة لا يقدرون على مدافعتها بوجه ولم يذكرهم سبحانه بأسمائهم إبقاء على قراباتهم المخلصين من الفتن وقوله تعالى ﴿ ولتعرفنهم ﴾ جواب قسم محذوف ﴿ في لحن القول ﴾ أي : الصادر منهم ، ولحنه فحواه أي معناه وما يدل عليه ويلوح عليه من ميله عن حقائقه إلى عواقبه ، وما يؤول إليه أمره مما يخفى على غيرك قال أنس : ما خفي على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية شيء

من المنافقين كان يعرفهم بسيماهم . وعن ابن عباس : لحن القول هو قولهم ما لنا إن أطعنا من الثواب ولا يقولون ما علينا إن عصينا وقيل اللحن أن تلحن بكلامك أي تميله إلى نحو من الانحاء ليفطن له صاحبك كالتعريض والتورية قال:

*ولقد لحنت لكم لكيما تفهموا ** واللحن يعرفه ذوو الألباب*

(197/710)

وقيل للمخطىء : لاحن ، لأنه يعدل بالكلام عن الصواب . وقال أبو حيان : كانوا اصطلحوا على ألفاظ يخاطبون بها الرسول صلى الله عليه وسلم مما ظاهره حسن ويعنون به القبيح ﴿ والله ﴾ أي : بما له من الكمال ﴿ يعلم أعمالكم ﴾ كلها الفعلية والقولية جليها وخفيها علماً ثابتاً غيبياً وعلماً راسخاً شهودياً يتجدّد بحسب تجدّدها مستمرّاً باستمرار ذلك .

﴿ ولنبلونكم ﴾ أي : نعاملكم معاملة المبتلى ، بأن نخالطكم بما لنا من العظمة بالأوامر الشديدة على النفوس والنواهي الكريهة إليها . ﴿ حتى نعلم ﴾ أي : بالابتلاء علماً شهودياً يشهده غيرنا مطابقاً لما كنا نعلمه علماً غيبياً ، فنستخرج من سرائركم ما جبلناكم عليه مما لا يعلمه أحد منكم بل ولا تعلمونه حق علمه ﴿ المجاهدين منكم ﴾ في القتال وفي

سائر الأعمال والشدائد والأهوال امتثالاً للأمر بذلك ﴿ والصابرين ﴾ أي : على شدائد الجهاد وغيره من الأنكاد قال القشيري : فبالابتلاء والامتحان تتبين جواهر الرجال فيظهر المخلص ويفتضح المماذق وينكشف المنافق ا . هـ .

وعن الفضيل : أنه كان إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : اللهم لا تبلنا فإنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا وعذبتنا ﴿ ونبلو أخباركم ﴾ أي : نخالطها بأن : نسلط عليها من يحرفها فيجعل حسنها قبيحاً وقبيحها حسنا ليظهر للناس العامل لله والعامل للشيطان ، فإنّ العامل لله إذا سمى قبيحه باسم الحسن علم أنّ ذلك إحسان من الله تعالى إليه فيستحي منه ويرجع ، وإذا سمى حسنه باسم القبيح وأشهر به علم أنّ ذلك لطف من الله تعالى به لكي لا يدركه العجب أو يهاجمه الرياء فيزيد في إحسانه ، والعامل للشيطان يزداد في القبائح ، لأنّ شهرته عند الناس محط نظره ويرجع عن الحسن لأنه لم يوصله إلى ما أراد به من ثناء الناس عليه بالخير .

(198/710)

﴿ إنّ الذين كفروا ﴾ أي : غطوا ما دلتهم عليه عقولهم من ظاهر آيات الله لا سيما بعد إرسال الرسول صلى الله عليه وسلم المؤيد بواضح المعجزات ﴿ وصدّوا ﴾ أي امتنعوا

ومنعوا غيرهم زيادة في كفرهم ﴿ عن سبيل الله ﴾ أي الطريق الواضح الذي نهجه الملك الأعظم ﴿ وشاقوا الرسول ﴾ أي : الكامل في الرسالة المعروف غاية المعرفة . ﴿ من بعد ما تبين ﴾ أي : غاية البيان بالمعجز ﴿ لهم الهدى ﴾ بحيث صار ظاهراً بنفسه غير محتاج ما أظهره الرسول من الآيات الظاهرة وهم قريظة والنضير والمطعمون يوم بدر ﴿ لن يضروا الله ﴾ أي ملك الملوك ﴿ شيئاً ﴾ بما هم عليه من الكفر والصدّ أو لن يضرّوا رسوله صلى الله عليه وسلم بمشاقته وحذف المضاف لتعظيمه وتفظيع مشاقته ﴿ وسيحبط ﴾ أي : يفسد فيبطل بوعد لا خلف فيه ﴿ أعمالهم ﴾ من المحاسن لبنائها على غير أساس .

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي : أقرّوا بألسنتهم ﴿ أطيعوا الله ﴾ أي : الملك الأعظم تصديقاً لدعواكم طاعة لشدّة الاجتهاد فيها أنها خالصة ، وعظم الرسول صلى الله عليه وسلم بإفراده فقال تعالى : ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾ لأنّ طاعته من طاعة الذي أرسله ، فإذا فعلتم ذلك حصنتم أنفسكم وأعمالكم ، فتكون صحيحة ببنائها على الطاعة بتصحيح النيات وتصفيتها مع الإحسان للصورة في الظاهر ، ليستكمل العمل صورة وروحاً ﴿ ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ قال عطاء بالشك والنفاق . وقال الكلبي : بالرياء والسمعة . وقال الحسن : بالمعاصي والكبائر . وقال أبو العالية : "كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون أنه لا يضرّ مع الإيمان ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل ، فنزلت هذه الآية" فخافوا الكبائر أن تحبط الأعمال . وقال مقاتل : لا تمنوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم

فتبطلوا أعمالكم نزلت في بني أسد . قال تعالى ﴿ لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ (البقرة :)

(199/710)

وعن حذيفة فخافوا أن تحبط الكبائر أعمالهم . وعن ابن عمر : كنا نرى أنه ليس شيء من حسناتنا إلا مقبولاً حتى ﴿ نزل ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ فقلنا ما هذا الذي يبطل أعمالنا فقلنا الكبائر الموجبات والفواحش ، حتى نزل ﴿ إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ (النساء :)

فكففنا عن القول في ذلك ، فكنا نخاف على من أصاب الكبائر ونرجو لمن لم يصبها . وعن قتادة : رحم الله عبداً لم يحبط عمله الصالح بعمله السيء . وعن ابن عباس : لا تبطلوا بالرياء والسمعة أعمالكم . وعنه أيضاً : بالشك والنفاق . وقيل بالعجب ، فإنّ العجب يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب .

﴿ إن الذين كفروا ﴾ أي : أوقعوا الكفر بفعلهم فعل الساتر لما دل عليه العقل من آيات الله المرئية والمسموعة ﴿ وصدّوا عن سبيل الله ﴾ أي : الملك الأعلى عن الواضح المستقيم الموصل إلى كل ما ينبغي أن يقصد كل من أراد بتماديهم على باطلهم وأذاهم لمن خالفهم

﴿ ثم ماتوا ﴾ بعد المدّ لهم في مضمارهم بالتطويل في أعمارهم ﴿ وهم ﴾ أي : والحال أنهم ﴿ كفار فلن يغفر الله ﴾ أي : المحيط بجميع صفات الكمال الذي يمنع من تسوية المسيء بالمحسن ﴿ لهم ﴾ فلا يمحو ذنوبهم ولا يستر عيوبهم ، بل يفضح سرائرهم ويردّهم على أعقابهم في كل ما يتقلبون فيه ، لأنهم قد أبطلوا أعمالهم بالخروج عن دائرة الطاعة فلم يبق لهم ما يغفر لهم تسببه ، وقد دلت هذه الآية على ما دلت عليه آية البقرة من أنّ إحباط العمل في المرتدّ مشروط بالموت على الكفر قيل : نزلت في أصحاب القليب قال الزمخشريّ : والظاهر العموم ثم رغب تعالى في لزوم الجهاد محذراً من تركه بقوله تعالى:

(200/710)

﴿ فلا تهنوا ﴾ أي : تضعفوا ضعفاً يؤدّي بكم إلى الهوان والذلّ ﴿ وتدعوا ﴾ أعداءكم ﴿ إلى السلم ﴾ أي : المسالمة وهي الصلح ﴿ وأنتم ﴾ أي : والحال أنكم ﴿ الأعلون ﴾ أي : الظاهرون الغالبون قال الكلبي : آخر الأمر لكم وإن غلبوكم في بعض الأوقات . وأصل الأعلون الأعليون فأعلّ وقرأ حمزة وشعبة بكسر السين والباقون بفتحها ثم عطف على الحال قوله تعالى ﴿ والله ﴾ أي : الملك الأعظم الذي لا يعجزه شيء ولا كفء له ﴿ معكم ﴾ أي : بنصره ومعونته وجميع ما يفعله الكريم إذا كان مع عبده ومن علم أنه

سيده وعلم أنه قادر على ما يريد لم يبال بشيء أصلاً ﴿ ولن يتركم ﴾ أي : ينقصكم ﴿ أعمالكم ﴾ أي : ثوابها كما يفعل مع أعدائكم في إحباط أعمالهم ، لأنكم لم تبطلوا أعمالكم بجعل الدنيا محط أمركم .

﴿ إنما الحياة ﴾ وأشار إلى دناءتها تنفيراً عنها بقوله : ﴿ الدنيا ﴾ أي : الاشتغال بها ﴿ لعب ﴾ أي : أعمال ضائعة سافلة تزيد في السرور ما يسرع اضمحلاله فيبطل من غير ثمرة ﴿ ولهو ﴾ أي : مشغلة يطلب بها إثارة اللذة كالغناء ﴿ وإن تؤمنوا وتتقوا ﴾ أي : تخافوا فتجعلوا بينكم وبين غضبه سبحانه وتعالى وقاية من جهاد أعدائه ، وذلك من أعمال الآخرة ﴿ يؤتكم ﴾ أي : الله سبحانه الذي فعلتم ذلك من أجله في الدار الآخرة ﴿ أجوركم ﴾ أي : ثواب كل أعمالكم ببنائها على الأساس ، ولأنه غنيّ لا ينقصه الإعطاء ﴿ ولا يسألكم ﴾ أي : الله في الدنيا ﴿ أموالكم ﴾ أي : لنفسه ولا كلها لغيره ، بل يقتصر على جزء يسير مما تفضل به عليكم كربع العشر وعشره .

(201/710)

﴿ إن يسألكموها ﴾ أي : كلها ﴿ فيحفكم ﴾ أي : يبالغ في سؤالكم ويبلغ فيه الغاية حتى يستأصلها فيجهدكم بذلك ، فالإحفاء المبالغة وبلوغ الغاية في كل شيء يقال : أحفاه في

المسألة إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح، وأحفى شاربه استأصله ﴿ تبخلوا ﴾ فلا تعطوا شيئاً ﴿ ويخرج أضغانكم ﴾ أي: ما تضغنون على رسول الله صلى الله عليه وسلم والضمير في يخرج لله تعالى أو الرسول أو السؤال، أو البخل، واقتصر عليه الجلال المحلي، قال قتادة: علم الله تعالى أنّ في مسألة الأموال خروج الأضغان يعني ما طلبها ولو طلبها وألح عليكم في الطلب لبخلتم كيف وأنتم تبخلون باليسير فكيف لا تبخلون بالكثير.

(202/710)

﴿ هاأنتم ﴾ وحقر أمرهم بقوله تعالى: ﴿ هؤلاء ﴾ أي: أنتم يا مخاطبون هؤلاء الموصوفون، وقوله تعالى ﴿ تدعون لتنفقوا في سبيل الله ﴾ أي: الملك الأعظم الذي يرجى خيره ولا يخشى غيره استئناف مقرّر لذلك أو صلة لهؤلاء على أنه بمعنى الذين وهو يعم نفقة الغزو والزكاة وغيرها ﴿ فمنكم من يبخل ﴾ أي: ناس يبخلون، وحذف القسم الآخر وهو ومنكم من يجود، لأنّ المراد الاستدلال على ما قبله من البخل ولما كان بخله عمن أعطاه المال بجزء يسير منه إنما طلبه لينفع المطلوب منه فقط زاد العجب بقوله تعالى: ﴿ ومن ﴾ أي: والحال أنه من ﴿ يبحل ﴾ بذلك ﴿ فإنما يبخل ﴾ بماله بخلا ضارّاً ﴿ عن نفسه ﴾ فإن نفع الإنفاق وضر البخل عائدان إليه والبخل يعدى بعن وعلى لتضمنه

معنى الإمساك والتعدّي فإنه إمساك عمن يستحق ﴿ والله ﴾ أي : الملك الأعظم الذي له الإحاطة بجميع صفات الكمال ﴿ الغني ﴾ وحده عن نفقتكم ﴿ وأنتم ﴾ أيها المكلفون خاصة ﴿ الفقراء ﴾ لاحتياجكم في جميع أحوالكم إليه ﴿ وإن تتولوا ﴾ عطف على ﴿ وإن تؤمنوا وتتقوا ﴾ ﴿ يستبدل قوماً غيركم ﴾ أي : يخلق قوماً سواكم على خلاف صفتكم راغبين في الإيمان والتقوى ﴿ ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ في التولي عنه والزهد في الإيمان كقوله تعالى ﴿ ويأت بخلق جديد ﴾ قيل : هم الملائكة . وقيل الأنصار وعن ابن عباس : كندة والنخع وعن الحسن : العجم وعن عكرمة : فارس والروم "وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القوم وكان سلمان إلى جنبه فضرب على فخذه وقال : هذا وقومه والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس" رواه الترمذي والحاكم وصححاه وما رواه البيضاويّ تبعاً للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة محمد كان حقاً على الله تعالى أن يسقيه من أنهار الجنة" حديث موضوع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ السراج المنير جـ 7 صـ 48 . 57 ﴾

(203/710)

وقال القاسمي :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾ أي : تأمرنا بجهاد أعداء الله من الكفار ﴿ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ ﴾ أي : مبيّنة لا تقبل نسخاً ولا تأويلاً ﴿ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ﴾ أي الأمر بقتال المشركين : ﴿ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أي : شك في الدين ، وضعف في اليقين : ﴿ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ أي : من فزعهم ، ورعبهم ، وجبنهم من لقاء الأعداء . شبه نظرهم بنظر المحتضر الذي لا يطرف بصره : ﴿ فَأَوْلَى لَهُمْ ﴾ قال الشهاب : اختلف فيه ، بعد الاتفاق على أن المراد به التهديد ، والوعيد ، على أقوال :

فذهب الأصمعي إلى أنه فعل ماض بمعنى قارب . وقيل : قرّب بالتشديد ، ففاعله ضمير يرجع لما علم منه ، أي : قارب هلاكهم . والأكثر أنه اسم تفضيل من الولي ، بمعنى القرب . وقال أبو علي : إنه اسم تفضيل من الويل . والأصل أويل ، فقلب ، فوزنه أفلع . وردّ بأن الويل غير متصرف ، وأن القلب خلاف الأصل ، وفيه نظر . وقد قيل : إنه فَعلى ، من آل يؤول . وقال الرضي : إنه علم للوعيد ، وهو مبتدأ ، ولهم خبره . وقد سمع فيه أولاة بتاء تأنيث . وهو كما قيل ، يدل على أنه ليس بأفعل تفضيل ، ولا أفعل فُعلى ، وأنه علم وليس بفعل ، بل مثل أرمل وأرملة ، إذا سمي بهما ، فلذا لم ينصرف . ولا اسم فعل ؛ لأنه سمع فيه أولاةٌ معرباً مرفوعاً ، ولو كان اسم فعل بني . وفيه أن لا مانع من كون أولاة ، لفظا آخر بمعناه

، فلا يرد شيء منه عليهم أصلاً ، كما جاء أول أفعل تفضيل ، واسم ظرف كـ : قبل ، وسمع فيه أولة – كما نقله أبو حيان – فلا يرد النقص به كما لا يخفى . انتهى .

قال السمين : إذا قلنا باسميته . ففيه أوجه :

أحدهما – أنه مبتدأ ، ولهم خبره ، تقديره : فالهلاك لهم .

(204/710)

والثاني – أنه خبر مبتدأ مضمر ، تقديره : العقاب أو الهلاك أولى لهم ، أي : أقرب وأدنى ، ويجوز أن تكون اللام بمعنى الباء . أي : أولى وأحق لهم .

الثالث – أنه مبتدأ ، ولهم متعلق به ، واللام بمعنى الباء ، وطاعة خبره ، والتقدير : فأولى بهم طاعة دون غيرها ، وقوله تعالى :

﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ فيه أوجه :

أحدها – أنه خبر أولى على ما تقدم .

الثاني – أنها صفة السورة . أي : فإذا أنزلت سورة محكمة طاعة ، أي : ذات طاعة ، أو مطاعة . ذكره مكيّ ، وأبو البقاء . وفيه بعد ، لكثرة الفواصل .

الثالث – أنها مبتدأ ، وقول عطف عليها ، والخبر محذوف . تقديره : أمثل بكم من غيرهما

. وقدّره مكيّ : منا طاعة ، فقدّره مقدماً . الرابع – أن يكون خبر مبتدأ محذوف . أي : أمرنا طاعة .

الخامس – أن لهم : خبر مقدم ، وطاعة : مبتدأ مؤخر . والوقف والابتداء يعرفان مما قدمته ، فتأمل – أفاده السمين – .

﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ ﴾ أي : جد الحال ، وحضر القتال : قال أبو السعود : أسند العزم ، وهو الجد إلى الأمر ، وهو لأصحابه ، مجازاً . كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [لقمان : 17] ، وعامل الظرف محذوف . أي : خالفوا وتخلفوا . وقيل ناقضوا . وقيل : كرهوا . وقيل : هو قوله تعالى : ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ ﴾ على طريقة قولك : إذا حضرني طعام ، فلو جئتني لأطعمتك . أي : فلو صدقوه تعالى فيمل قالوه من الكلام المنبئ عن الحرص على الجهاد ، بالجري على موجبه : ﴿ لَكَانَ ﴾ أي : الصدق : ﴿ خَيْراً لَهُمْ ﴾ أي : في عاجل دنياهم ، وآجل معادهم . قيل : فلو صدقوه في الإيمان ، وواطأت قلوبهم في ذلك ألسنتهم . وأياً ما كان ، فالمراد بهم الذين في قلوبهم مرض ، وهم المخاطبون بقوله تعالى :

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي : أعرضتم عن تنزيل الله تعالى ، وفارقتم أحكام كتابه ، وما جاء به رسوله : ﴿ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : بالتغاور والتناهب : ﴿ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ أي : تعودوا لما كنتم عليه في جاهليتكم من التشتت والتفرق ، بعد ما جمعكم الله بالإسلام ، وألف به بين قلوبكم ، وأمركم بالإصلاح في الأرض ، وصلة الأرحام . وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال ، وبذل الأموال . وقد ساق ابن كثير هنا من الأحاديث في صلة الرحم لباب اللباب .

﴿ أُوْلَئِكَ ﴾ إشارة إلى المذكورين : ﴿ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ ﴾ أي : عن استماع الحق لتصامهم عنه بسوء اختيارهم : ﴿ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾ أي : لتعاميهم عما يشاهدونه من الآيات المنصوبة في الأنفس ، والآفاق .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ قال ابن جرير : أي : أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ الله التي يعظهم بها في أي : القرآن الذي أنزله على نبيه عليه السلام ، ويتفكرون في حججه التي بينها لهم في تنزيله ، فيعلموا بها خطأ ما هم عليه مقيمون ﴿ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ أي : فلا يصل إليها ذكر ، ولا ينكشف لها أمر . وتنكير القلوب للإشعار بفرط جهالتها ونُكرها ، كأنها مبهمة منكورة . والأقفال مجاز عما يمنع الوصول . وإضافتها إلى القلوب لإفادة الاختصاص المميز لها عما عداها ، وللإشارة إلى أنها لا تشبه الأقفال المعروفة ؛ إذ لا يمكن فتحها أبداً .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم ﴾ أي : عادوا لما كانوا عليه من الكفر : ﴿ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ﴾ أي : الحق بواضح الحجة : ﴿ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ أي : زين لهم ارتدادهم وحملهم عليه : ﴿ وَأَمْلَى لَهُمْ ﴾ أي : ومدّ لهم في الآمال والأماني ، أو أمهلهم الله تعالى ، فمد في آجالهم ، ولم يعاجلهم بالعقوبة . والمعنى : الشيطان سول لهم ، والله أملى لهم .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ [26] .

﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما ذكر من ارتدادهم ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي : بسبب أنهم : ﴿ قَالُوا ﴾ أي : المنافقون : ﴿ لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ ﴾ أي : لليهود الكارهين لنزول القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ﴾ أي : بعض أموركم ، أو ما تأمرون به كالقعود عن الجهاد ، والتظاهر على الرسول ، أو الخروج معهم إن أخرجوا ، كما أوضح ذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ﴾ [

الحشر : 11] ، وهم بنو قريظة ، والنضير الذين كانوا يوالونهم ويوادّونهم ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ أي : إخفاءهم لما يقولونه لليهود .

(207/710)

﴿ فَكَيْفَ ﴾ أي : يفعلون ويدفعون ضرر الردة عليهم : ﴿ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ ﴾ أي : التي ولوها عن الله إلى أعدائه : ﴿ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ أي : التي ولوها عن الأعداء إلى الله ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي : التوفي الهائل : ﴿ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ ﴾ أي : من إطاعة أعدائه ﴿ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ﴾ أي : في معاداتهم ، فأدى بهم إلى الردة : ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي : التي كانت تفيدهم النجاة من ذلك الضرب ، ومن الفضائح الدنيوية .

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي : نفاق تفرع منه أضغان على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين : ﴿ أَن لَّن يُخْرِجَ ﴾ أي : يظهر : ﴿ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾ أي : أحقادهم لرسوله وللمؤمنين ، فتبقى أمورهم مستورة . والمعنى : أن ذلك مما لا يكاد يدخل تحت الاحتمال .

﴿ وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ ﴾ أي : لعرّفناكهم بدلائل تعرفهم بأعيانهم معرفة متاخمة للرؤية :

﴿ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ﴾ أي : بعلامتهم التي نسمهم بها : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ أي : أسلوبه وما يرمون من غير إيضاح به .

قال في " الإكليل " : استدل بالآية من جعل التعريض بالقذف موجباً للحد .

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ أي : فيجازيكم بحسب قصدكم ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾ أي : أهل المجاهدة في سبيل الله ، والصبر على المشاق : ﴿ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ أي : أفانين أقوالكم ، وضروب بياناتكم ، وأعمال قوة ألسنتكم في نشر الحق ، والصدع به ، والدأب عليه ، هل هو متمحض لذلك ، أم فيه ما فيه من المحاباة خيفة لوم اللائم .

(208/710)

قال القاشاني : علم الله تعالى قسمان : سابقٌ على معلوماته إجمالاً في لوح القضاء ، وتفصيلاً في لوح القدر ، وتابع إياها في المظاهر التفصيلية من النفوس البشرية ، والنفوس السماوية الجزئية . فمعنى : ﴿ حَتَّى نَعْلَمَ ﴾ حتى يظهر علمنا التفصيليّ في المظاهر الملكوتية والإنسية ، التي يثبت بها الجزاء – والله أعلم – .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَن

يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي : فتذهب سدى ، لا تثمر لهم نفعاً .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ أي : لكن يعذبهم ويعاقبهم .

﴿ فَلَا تَهِنُوا ﴾ أي : فلا تضعفوا أيها المؤمنون بالله عن جهاد الذين اعتدوا عليكم ، وصدوا عن سبيل الله ﴿ وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ ﴾ أي : الصلح والمسالمة : ﴿ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ ﴾ أي : الأغلبون ، فإن كسح الضلال من طريق الحق لا منتدح عنه ، ما تيسرت أسبابه ، وقهرت أربابه : ﴿ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ أي : بنصره ما تمسكتم بحبله : ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ أي : لن ينقصكم ثوابها ويضيعها .

﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ أي : فلا تدعكم الرغبة في الحياة إلى ترك الجهاد : ﴿ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾ أي : ثواب إيمانكم وتقواكم : ﴿ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ أي : لأنه غني عنكم ، وإنما يريد منكم التوحيد ، ونبذ الأوثان ، والطاعة لما أمر به ونهى عنه .

قال بعض المفسرين : أي : لا يسألكم جميع أموالكم ، بل يقتصر منكم على جزء يسير ، كربع العشر وعشره . إشارة إلى إفادة الجمع المضاف للمعلوم ، وهو معطوف على الجزاء . والمعنى : إن تؤمنوا لا يسألكم الجميع ، أي : لا يأخذه منكم ، كما يأخذ من الكفار جميع أموالهم . ولا يخفى حسن مقابلته لقوله : ﴿ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾ أي : يعطكم كل الأجور ، ويسألكم بعض المال – هذا ما قاله الشهاب – .

والظاهر أن المراد بيان غناه تعالى عن عباده ، وأن طلب إنفاق الأموال منهم ، لعود نفعه إليهم لا إليه ، لاستغنائه المطلق ، فإن في الصدقات دفع أحقاد صدور الفقراء عنهم ، وفي بذله للجهاد دفع غائلة الشرور والفساد ، وكله مما يعود ثمرته عليهم .

ثم أشار تعالى إلى حكمته ، ورحمته في عدم سؤاله إنفاق أموالهم كلها ، بقوله :

﴿ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا ﴾ أي : فيجهدكم بالمسألة ، ويلح عليكم بطلبها منكم ، تبخلوا بها وتمنعوها ، ضنّاً منكم بها ، ولكنه علم ذلك منكم ، ومن ضيق أنفسكم ، فلم يسألكموها .

قال الزمخشري : الإحفاء المبالغة ، وبلوغ الغاية في كل شيء . يقال : أحفاه في المسألة ، إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح ، وأحفى شاربه ، إذا استأصله .

﴿ وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾ أي : أحقادكم ، وكراهتكم لدينٍ يذهب بأموالكم . وضمير

يخرج لله تعالى ، ويعضده القراءة بنون العظمة . أو للبخل لأنه سبب الأضغان . وقرئ يخرج من الخروج ، بالياء والتاء ، مسنداً إلى الأضغان .

(210/710)

﴿ هَاأَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي : في جهاد أعدائه ، ونصرة دينه : ﴿ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ﴾ أي : بالنفقة فيه ﴿ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ﴾ أي : يمسكه عنها ، لأنه يحرمها الأجر ، ويكسبها الوزر : ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ ﴾ أي : عن كل ما سواه ، وكل شيء فقير إليه . ولهذا قال سبحانه : ﴿ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء ﴾ أي : بالذات إليه . فوصفه بالغنى وصف لازم له ، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم ، لا ينفكون عنه ، أي : وإذا كان كذلك ، فإنما حضكم في النفقة في سبيله ليكسبكم بذلك ، الجزيل من ثوابه . وليعلم أن سبيل الله يشمل كل ما فيه نفع وخير ، وفائدة ، وقربة ، ومثوبة . وإنما اقتصر المفسرون على الجهاد لأنه فرده الأشهر ، وجزئيه الأهم ، وقت نزول الآيات ، وإلا فلا ينحصر فيه .

﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا ﴾ أي : عما جاءكم به محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ أي : يهلككم ثم يأتي بقوم آخرين غيركم ، بدلاً منكم ، يؤمنون به ، ويعملون بشرائعه .

﴿ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ أي : لا يبخلوا بما أُمروا به من النفقة في سبيل الله ، ولا يضيعون شيئاً من حدود دينهم ، ولكنهم يقومون بذلك كله ، على ما يؤمرون به . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 15 صـ 372. 379 ﴾

(211/710)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1) ﴾

افتتاح يمثل الهجوم بلا مقدمة ولا تمهيد ! وإضلال الأعمال الذي يواجه به الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله . سواء صدوا هم أم صدوا وصدوا غيرهم - يفيد ضياع هذه الأعمال وبطلانها .

ولكن هذا المعنى يتمثل في حركة . فإذا بنا نرى هذه الأعمال شاردة ضالة ، ونلمح عاقبة هذا الشرود والضلال ، فإذا هي الهلاك والضياع . وهي حركة تخلع ظل الحياة على الأعمال ، فكأنما هي شخوص حية أضلت وأهلكت . وتعمق المعنى وتلقي ظلاله . ظلال معركة تشرد فيها الأعمال عن القوم ، والقوم عن الأعمال . حتى تنتهي إلى الضلال والهلاك !

وهذه الأعمال التي أضلت ربما كان المقصود منها بصفة خاصة الأعمال التي يأملون من ورائها الخير . والتي يبدو على ظاهرها الصلاح . فلا قيمة لعمل صالح من غير إيمان . فهذا الصلاح شكلي لا يعبر عن حقيقة وراءه . والعبرة بالباعث الذي يصدر عنه العمل لا بشكل العمل . قد يكون الباعث طيباً . ولكنه حين لا يقوم على الإيمان يكون فلتة عارضة أو نزوة طارئة . لا يتصل بمنهج ثابت واضح في الضمير ، متصل بخط سير الحياة العريض ، ولا بناموس الوجود الأصيل . فلا بد من الإيمان ليشد النفس إلى أصل تصدر عنه في كل اتجاهاتها ، وتتأثر به في كل انفعالاتها . وحينئذ يكون للعمل الصالح معناه . ويكون له هدفه ويكون له اطراده وتكون له آثاره وفق المنهج الإلهي الذي يربط أجزاء هذا الكون كله في الناموس ؛ ويجعل لكل عمل ولكل حركة وظيفة وأثراً في كيان هذا الوجود ، وفي قيامه بدوره ، وانتهائه إلى غايته .

وفي الجانب الآخر : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم ﴾ . .

(212/710)

والإيمان الأول يشمل الإيمان بما نزل على محمد . ولكن السياق يبرزه ويظهره ليصفه بصفته :

﴿ وهو الحق من ربهم ﴾ ويؤكد هذا المعنى ويقرره . وإلى جوار الإيمان المستكن في الضمير ، العمل الظاهر في الحياة . وهو ثمرة الإيمان الدالة على وجوده وحيويته وانبعاثه . وهؤلاء ﴿ كفَّر عنهم سيئاتهم ﴾ . . في مقابل إبطال أعمال الذين كفروا ولو كانت حسنات في شكلها وظاهرها . وبينما يبطل العمل ولو كان صالحاً من الكافرين ، فإن السيئة تغفر للمؤمنين . وهو تقابل تام مطلق ويبرز قيمة الإيمان وقدره عند الله ، وفي حقيقة الحياة . .

﴿ وأصلح بالهم ﴾ . . وإصلاح البال نعمة كبرى تلي نعمة الإيمان في القدر والقيمة والأثر . والتعبير يلقي ظلال الطمأنينة والراحة والثقة والرضى والسلام . ومتى صلح البال ، استقام الشعور والتفكير ، واطمأن القلب والضمير ، وارتاحت المشاعر والأعصاب ، ورضيت النفس واستمتعت بالأمن والسلام . . وماذا بعد هذا من نعمة أو متاع ؟ ألا إنه الأفق المشرق الوضيء الرفاف .

ولم كان هذا وكان ذاك ؟ إنها ليست المحاباة . وليست المصادفة . وليس الجزاف . إنما هو أمر له أصله الثابت ، المرتبط بالناموس الأصيل الذي قام عليه الوجود يوم خلق الله السماوات والأرض بالحق ، وجعل الحق هو الأساس :

﴿ ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ؛ وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم ﴾ . .

والباطل ليست له جذور ضاربة في كيان هذا الوجود ؛ ومن ثم فهو ذاهب هالك ؛ وكل من يتبعه وكل ما يصدر عنه ذاهب هالك كذلك .

ولما كان الذين كفروا اتبعوا الباطل فقد ضلت أعمالهم ، ولم يبق لهم منها شيء ذو غناء .

والحق ثابت تقوم عليه السماوات والأرض ، وتضرب جذوره في أعماق هذا الكون . ومن ثم يبقى كل ما يتصل به ويقوم عليه . ولما كان الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم ، فلا جرم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم .

فهو أمر واضح مقرر يقوم على أصوله الثابتة ، ويرجع إلى أسبابه الأصيلة . وما هو فلتة ولا مصادفة ولا جزاف

(213/710)

﴿ كذلك يضرب الله للناس أمثالهم ﴾ . وكذلك يضع لهم القواعد التي يقيسون إليها أنفسهم وأعمالهم . فيعلمون المثل الذي ينتمون إليه ويقاسون عليه . ولا يحتارون في الوزن والقياس !

ذلك الأصل الذي قررته الآية الأولى في السورة ، يرتب عليه توجيه المؤمنين لقتال الكافرين .

فهم على الحق الثابت الذي ينبغي أن يتقرر في الأرض ، ويستعلي ويهيمن على أقدار الناس

والحياة ليصل الناس بالحق وليقيم الحياة على أساسه . والذين كفروا على الباطل الذي ينبغي أن يبطل وتذهب آثاره من الحياة :

﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب . حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق . فإما منّاً بعد وإما فداء . حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ . .

واللقاء المقصود في الآية هنا هو اللقاء للحرب والقتال لا مجرد اللقاء . فحتى نزول هذه السورة كان المشركون في الجزيرة منهم المحارب ومنهم المعاهد ؛ ولم تكن بعد قد نزلت سورة " براءة " التي تنهي عهود المشركين المحددة الأجل إلى أجلها ، والمطلقة الأجل إلى أربعة أشهر ؛ وتأمر بقتل المشركين بعد ذلك أنى وجدوا في أنحاء الجزيرة – قاعدة الإسلام – أو يسلموا . كي تخلص القاعدة للإسلام .

وضرب الرقاب المأمور به عند اللقاء يجيء بعد عرض الإسلام عليهم وإبائهم له طبعاً . وهو تصوير لعملية القتل بصورتها الحسية المباشرة ، وبالحركة التي تمثلها ، تمشياً مع جو السورة وظلالها .

﴿ حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ﴾ . .

والإثخان شدة التقتيل ، حتى تتحطم قوة العدو وتتهاوى ، فلا تعود به قدرة على هجوم أو دفاع . وعندئذ – لا قبله – يؤسر من استأسر ويشد وثاقه . فأما والعدو ما يزال قوياً فالإثخان والتقتيل يكون الهدف لتحطيم ذلك الخطر .

وعلى هذا لا يكون هناك اختلاف – كما رأى معظم المفسرين – بين مدلول هذه الآية ، ومدلول آية الأنفال التي عاتب الله فيها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمين لاستكثارهم من الأسرى في غزوة بدر . والتقتيل كان أولى . وذلك حيث يقول تعالى : ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ فالإثخان أولاً لتحطيم قوة العدو وكسر شوكته ؛ وبعد ذلك يكون الأسر .

والحكمة ظاهرة ، لأن إزالة القوة المعتدية المعادية للإسلام هي الهدف الأول من القتال . وبخاصة حين كانت القوة العددية للأمة المسلمة قليلة محدودة . وكانت الكثرة للمشركين . وكان قتل محارب يساوي شيئاً كبيراً في ميزان القوى حينذاك . والحكم ما يزال سارياً في عمومه في كل زمان بالصورة التي تكفل تحطيم قوة العدو ، وتعجيزه عن الهجوم والدفاع . فأما الحكم في الأسرى بعد ذلك ، فتحدده هذه الآية . وهي النص القرآني الوحيد المتضمن حكم الأسرى :

﴿ فإما منّاً بعد وإما فداء ﴾ . .

أي إما أن يطلق سراحهم بعد ذلك بلا مقابل من مال أو من فداء لأسرى المسلمين . وإما أن يطلق مقابل فدية من مال أو عمل في نظير إطلاق سراح المسلمين المأسورين .

وليس في الآية حالة ثالثة . كالاسترقاق أو القتل . بالنسبة لأسرى المشركين .

ولكن الذي حدث فعلاً أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والخلفاء من بعده استرقوا بعض الأسرى – وهو الغالب – وقتلوا بعضهم في حالات معينة .

ونحن ننقل هنا ما ورد حول هذه الآية في كتاب (أحكام القرآن للإمام الجصاص الحنفي) ونعلق على ما نرى التعليق عليه في ثناياه . قبل أن نقرر الحكم الذي نراه :

(215/710)

---

* قال الله تعالى : ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ﴾ قال أبو بكر قد اقتضى ظاهره وجوب القتل لا غير إلا بعد الإثخان . وهو نظير قوله تعالى : ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ﴾ (وهذا صحيح فليس بين النصين خلاف) .

* حدثنا محمد بن جعفر بن محمد بن الحكم قال : حدثنا جعفر بن محمد بن اليمان . قال : حدثنا أبو عبيد قال : حدثنا عبد الله بن صالح ، عن معاوية بن صالح ، عن علي بن أبي طلحة . عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في

الأرض ﴾ قال : ذلك يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل ، فلما كثروا واشتد سلطانهم أنزل الله تعالى بعد هذا في الأسارى : ﴿ فإما منّاً بعد وإما فداء ﴾ . . فجعل الله النبي والمؤمنين في الأسارى بالخيار . إن شاءوا قتلوهم ، وإن شاءوا استعبدوهم ، وإن شاءوا فادوهم . شك أبو عبيد في . . وإن شاءوا استعبدوهم . . (والاستعباد مشكوك في صدور القول به عن ابن عباس فنتركه . وأما جواز القتل فلا نرى له سنداً في الآية وإنما نصها المن أو الفداء) .

* وحدثنا جعفر بن محمد قال : حدثنا أبو عبيد ، قال : حدثنا أبو مهدي وحجاج ، كلاهما عن سفيان . قال : سمعت السدي يقول في قوله : ﴿ فإما منّاً بعد وإما فداء ﴾ . . قال : هي منسوخة ، نسخها قوله : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ قال أبو بكر : أما قوله : ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ﴾ . . وقوله : ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ﴾ . وقوله : ﴿ فإما تثقفنّهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم ﴾

(216/710)

فإنه جائز أن يكون حكماً ثابتاً غير منسوخ. وذلك لأن الله تعالى أمر نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالإثخان في القتل وحظر عليه الأسر – إلا بعد إذلال المشركين وقمعهم – وكان ذلك وقت قلة عدد المسلمين وكثرة عدد عدوهم من المشركين، فمتى أثخن المشركون وأذلوا بالقتل والتشريد جاز الاستبقاء. فالواجب أن يكون هذا حكماً ثابتاً إذا وجد مثل الحال التي كان عليها المسلمون في أول الإسلام. (ونقول: إن الأمر بقتل المشركين حيث وجدوا خاص بمشركي الجزيرة. بينما النص في سورة محمد عام. فمتى تحقق الإثخان في الأرض جاز أخذ الأسارى. وهذا ما جرى عليه الخلفاء بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبعد نزول سورة براءة بطبيعة الحال، ولم يقتلوهم إلا في حالات معينة سيأتي بيانها ..)

(217/710)

---

* وأما قوله: ﴿ فإما منّاً بعد وإما فداء ﴾ .. ظاهره يقتضي أحد شيئين: من أو فداء. وذلك ينفي جواز القتل. وقد اختلف السلف في ذلك. حدثنا حجاج عن مبارك بن فضالة عن الحسن أنه كره قتل الأسير، وقال: منّ عليه أو فاده. وحدثنا جعفر قال: حدثنا أبو عبيد قال: أخبرنا هشيم. قال: أخبرنا أشعث قال: سألت عطاء عن قتل

الأسير فقال : منّ عليه أو فاده قال : وسألت الحسن . قال : يصنع به ما صنع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأسارى بدر ، يمن عليه أو يفادي به . وروي عن ابن عمر أنه دفع إليه عظيم من عظماء اصطخر ليقتله ، فأبى أن يقتله ، وتلا قوله : ﴿ فإما منّاً بعد وإما فداء ﴾ . . وروي أيضاً عن مجاهد ومحمد بن سيرين كراهة قتل الأسير . وقد روينا عن السدي أن قوله : ﴿ فإما منّاً بعد وإما فداء ﴾ منسوخ بقوله : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ وروي مثله عن ابن جريج . حدثنا جعفر قال : حدثنا أبو عبيد قال : حدثنا حجاج ، عن ابن جريج ، قال : هي منسوخة . وقال : قتل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عقبة ابن أبي معيط يوم بدر صبراً ، قال أبو بكر : اتفق فقهاء الأمصار على جواز قتل الأسير لا نعلم بينهم خلافاً فيه ، وقد تواترت الأخبار عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قتله الأسير ، منها قتله عقبة بن أبي معيط ، والنضر بن الحارث بعد الأسر يوم بدر . وقتل يوم أحد أبا عزة الشاعر بعد ما أسر . وقتل بني قريظة بعد نزولهم على حكم سعد بن معاذ ، فحكم فيهم بالقتل وسبي الذرية . ومنَّ على الزبير بن باطا من بينهم ، وفتح خيبر بعضها صلحاً وبعضها عنوة ، وشرط على ابن أبي الحقيق ألا يكتم شيئاً ، فلما ظهر على خيانته وكتمانه قتله . وفتح مكة وأمر بقتل هلال بن خطل ، ومقيس بن حبابة ، وعبد الله بن أبي سرح ، وآخرين ، وقال :

" اقتلوهم وإن جدتموهم متعلقين بأستار الكعبة " ومنَّ على أهل مكة ولم يغنم أموالهم .

وروي عن صالح ابن كيسان عن محمد بن عبد الرحمن عن أبيه عبد الرحمن بن عوف ، أنه سمع أبا بكر الصديق يقول : " وددت أني يوم أتيت بالفجاءة لم أكن أحرقته ، وكنت قتلته سريحاً ، أو أطلقته نجيحاً " . وعن أبي موسى أنه قتل دهقان السوس بعد ما أعطاه الأمان على قوم سماهم ونسي نفسه فلم يدخلها في الأمان فقتله . فهذه آثار متواترة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وعن الصحابة في جواز قتل الأسير وفي استبقائه . واتفق فقهاء الأمصار على ذلك . (وجواز القتل لا يؤخذ من الآية ، ولكن يؤخذ من عمل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبعض الصحابة . وتتبع الحالات التي وقع فيها القتل يعطي أنها حالات خاصة ، وراءها أسباب معينة غير مجرد التعرض للقتال والأسر . فالنضر بن حارث وعقبة بن أبي معيط كلاهما كان له موقف خاص في إيذاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإيذاء دعوته . وكذلك أبو عزة الشاعر ، ولبني قريظة كذلك موقف خاص بارتضائهم حكم سعد بن معاذ سلفاً . وهكذا نجد في جميع الحالات أسباباً معينة تفرد هذه الحالات من الحكم العام للأسرى الذي تقرره الآية : ﴿ فإما منّاً بعد وإما فداء ﴾) . .

* وإنما اختلفوا في فدائه ، فقال أصحابنا جميعاً (يعني الحنفية) : لا يفادى الأسير بالمال ، ولا يباع السبي من أهل الحرب فيردوا حرباً . وقال أبو حنيفة : لا يفادون بأسرى المسلمين أيضاً ، ولا يردون حرباً أبداً . وقال أبو يوسف ومحمد : لا بأس أن يفادى أسرى المسلمين بأسرى المشركين . وهو قول الثوري والأوزاعي ، وقال الأوزاعي : لا بأس ببيع السبي من أهل الحرب ، ولا يباع الرجال إلا أن يفادى بهم المسلمون . وقال المزني عن الشافعي : للإمام أن يمن على الرجال الذين ظهر عليهم أو يفادي بهم ، فأما المجيزون للفداء بأسرى المسلمين وبالمال فإنهم احتجوا بقوله : ﴿ فإما منّاً بعد وإما فداء ﴾ وظاهره يقتضي جوازه بالمال وبالمسلمين ؛ وبأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فدى أسارى بدر بالمال . ويحتجون للفداء بالمسلمين بما روى ابن المبارك ، عن معمر ، عن أيوب ، عن أبي قلابة ، عن أبي المهلب ، عن عمران ابن حصين . قال : " أسرت ثقيف رجلين من أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأسر أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجلاً من بني عامر ابن صعصعة ؛ فمر به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو موثق ، فناداه ، فأقبل إليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : علام أحبس ؟ قال : " بجريرة حلفائك " . فقال الأسير : إني مسلم ، فقال

النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " لو قلتها وأنت تملك أمرك لأفلحت كل الفلاح " . ثم مضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فناداه أيضاً ، فأقبل ، فقال : إني جائع فأطعمني . فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " هذه حاجتك " . ثم إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فداه بالرجلين اللذين كانت ثقيف أسرتهما "

. (وحجة القائلين بالفداء أرجح في تقديرنا من حجة أصحاب الإمام الجصاص على الاختلاف في الفداء بالمال أو بأسرى المسلمين) .

(220/710)

---

* وقد ختم الإمام الجصاص القول في المسألة بترجيح رأي أصحابه الحنفية قال : وأما ما في الآية من ذكر المن والفداء ، وما روي في أسارى بدر فإن ذلك منسوخ بقوله : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ﴾ وقد روينا ذلك عن السدي وابن جريج . وقوله تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾ إلى قوله : ﴿ حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ فتضمنت الآيتان وجوب القتال للكفار حتى يسلموا أو يؤدوا الجزية . والفداء بالمال أو بغيره ينافي ذلك . ولم يختلف أهل التفسير ونقلة الآثار أن

سورة " براءة " بعد سورة " محمد " ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوجب أن يكون الحكم المذكور فيها ناسخاً للفداء المذكور في غيرها . . (وقد سبق القول بأن هذا القتل للمشركين – أو الإسلام – مقصود به مشركو الجزيرة فهو حكم خاص بهم . أما غيرهم خارجها فتقبل منهم الجزية كما تقبل من أهل الكتاب . وقبول الجزية عند التسليم لا ينفي أن يقع الأسرى في أيدي المسلمين من قبل التسليم . فهؤلاء الأسرى ما الحكم فيهم ؟ نقول : إنه يجوز المن عليهم إذا رأى الإمام المصلحة ، أو الفداء بهم بالمال أو بالمسلمين ، إذا ظل قومهم قوة لم تستسلم بعد ولم تقبل الجزية . فأما عند الاستسلام للجزية فالأمر منته بطبيعته وهذه حالة أخرى ، فحكم الأسرى يظل سارياً في الحالة التي لم تنته بالجزية) .

(221/710)

والخلاصة التي ننتهي إليها أن هذا النص هو الوحيد المتضمن حكم الأسرى . وسائر النصوص تتضمن حالات أخرى غير حالة الأسر . وأنه هو الأصل الدائم للمسألة . وما وقع بالفعل خارجاً عنه كان لمواجهة حالات خاصة وأوضاع وقتية . فقتل بعض الأسرى كان في حالات فردية يمكن أن يكون لها دائماً نظائر ؛ وقد أخذوا بأعمال سابقة على الأسر ، لا بمجرد خروجهم للقتال . ومثال ذلك أن يقع جاسوس أسيراً فيحاكم على

الجاسوسية لا على أنه أسير . وإنما كان الأسر وسيلة للقبض عليه .

ويبقى الاسترقاق . وقد سبق لنا في مواضع مختلفة من هذه الظلال القول بأنه كان لمواجهة أوضاع عالمية قائمة ، وتقاليد في الحرب عامة . ولم يكن ممكناً أن يطبق الإسلام في جميع الحالات النص العام : ﴿ فإما منًّا بعد وإما فداء ﴾ .

. في الوقت الذي يسترق أعداء الإسلام من يأسرونهم من المسلمين . ومن ثم طبقه الرسول -صلى الله عليه وسلم- في بعض الحالات فأطلق بعض الأسارى مناً . وفادى ببعضهم أسرى المسلمين ، وفادى بعضهم بالمال . وفي حالات أخرى وقع الاسترقاق لمواجهة حالات قائمة لا تعالج بغير هذا الإجراء .

فإذا حدث أن اتفقت المعسكرات كلها على عدم استرقاق الأسرى ، فإن الإسلام يرجع حينئذ إلى قاعدته الإيجابية الوحيدة وهي : ﴿ فإما منًّا بعد وإما فداء ﴾ لانقضاء الأوضاع التي كانت تقضي بالاسترقاق . فليس الاسترقاق حتمياً ، وليس قاعدة من قواعد معاملة الأسرى في الإسلام .

وهذا هو الرأي الذي نستوحيه من النص القرآني الحاسم . ومن دراسة الأحوال والأوضاع والأحداث . . والله الموفق للصواب .

ويحسن أن يكون مفهوماً أنني أجنح إلى هذا الرأي لأن النصوص القرآنية واستقراء الحوادث وظروفها يؤيده ، لا لأنه يهجس في خاطري أن استرقاق الأسرى تهمة أحاول أن أبرىء الإسلام منها ! إن مثل هذا الخاطر لا يهجس في نفسي أبداً ، فلو كان الإسلام رأى هذا لكان هو الخير ، لأنه ما من إنسان يعرف شيئاً من الأدب يملك أن يقول : إنه يرى خيراً مما يرى الله . إنما أنا أسير مع نص القرآن وروحه فأجنح إلى ذلك الرأي بإيحاء النص واتجاهه .

وذلك . . – أي القتال وضرب الرقاب وشد الوثاق واتباع هذه القاعدة في الأسرى – ﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ . . أي حتى تنتهي الحرب بين الإسلام وأعدائه المناوئين له . فهي القاعدة الكلية الدائمة . ذلك أن " الجهاد ماض إلى يوم القيامة " كما يقول الرسول الله صلى الله عليه وسلم – حتى تكون كلمة الله هي العليا .

والله لا يكلف الذين آمنوا هذا الأمر ، ولا يفرض عليهم هذا الجهاد ، لأنه يستعين بهم – حاشاه – على الذين كفروا . فهو سبحانه قادر على أن يقضي عليهم قضاء مباشراً ؛ وإنما هو ابتلاء الله لعباده بعضهم ببعض ؛ الابتلاء الذي تقدر به منازلهم :

﴿ ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض . والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم ﴾ . .

إن هؤلاء الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ، وأمثالهم في الأرض كلها في كل زمان من

البغاة الطغاة المفسدين ، الذين يظهرون في ثوب البطش والاستكبار ، ويتراءون لأنفسهم وللضالين من أتباعهم قادرين أقوياء . إن هؤلاء جميعاً حفنة من الخلق . تعيش على ظهر هذه الهباءة الصغيرة المسماة بالأرض ، بين هذه الكواكب والنجوم والمجموعات الفلكية والمجرات والعوالم التي لا يعلم عددها ولا مداها إلا الله في هذا الفضاء الذي تبدوا فيه هذه المجرات والعوالم نقطاً متناثرة ، تكاد تكون ضائعة ، لا يمسكها ولا يجمعها ولا ينسقها إلا الله .

(223/710)

فلا يبلغ هؤلاء ومن ورائهم من الأتباع ، بل لا يبلغ أهل هذه الأرض كلها ، إن يكونوا نمالاً صغيرة . لا بل إنهم لا يبلغون أن يكونوا هباء تتقاذفه النسمات . لا بل إنهم لا يبلغون شيئاً أصلاً حين يقفون أمام قوة الله .

إنما يتخذ الله المؤمنين – حين يأمرهم بضرب رقاب الكفار وشد وثاقهم بعد إثخانهم – إنما يتخذهم سبحانه ستاراً لقدرته . ولو شاء لانتصر من الكافرين جهرة . كما انتصر من بعضهم بالطوفان والصيحة والريح العقيم . بل لانتصر منهم من غير هذه الأسباب كلها ، ولكنه إنما يريد لعباده المؤمنين الخير . وهو يبتليهم ، ويربيهم ، ويصلحهم ، وييسر لهم

أسباب الحسنات الكبار .

يريد ليبتليهم . وفي هذا الابتلاء يستجيش في نفوس المؤمنين أكرم ما في النفس البشرية من طاقات واتجاهات . فليس أكرم في النفس من أن يعز عليها الحق الذي تؤمن به ، حتى تجاهد في سبيله ، فتقتل وتقتل ، ولا تسلم في هذا الحق الذي تعيش له وبه ، ولا تستطيع الحياة بدونه ، ولا تحب هذه الحياة في غير ظله .

ويريد ليربيهم . فيظل يخرج من نفوسهم كل هوى وكل رغبة في أعراض هذه الأرض الفانية مما يعز عليهم أن يتخلوا عنه . ويظل يقوي في نفوسهم كل ضعف ويكمل كل نقص ، وينفي كل زغل ودخل ، حتى تصبح رغائبهم كلها في كفة وفي الكفة الأخرى تلبية دعوة الله للجهاد ، والتطلع إلى وجه الله ورضاه . فترجح هذه وتشيل تلك . ويعلم الله من هذه النفوس أنها خيرت فاختارت ، وأنها تربت فعرفت ، وأنها لا تندفع بلا وعي ، ولكنها تقدر وتختار .

(224/710)

ويريد ليصلحهم . ففي معاناة الجهاد في سبيل الله ، والتعرض للموت في كل جولة ، ما يعود النفس الاستهانة بهذا الخطر المخوف ، الذي يكلف الناس الكثير من نفوسهم وأخلاقهم وموازينهم وقيمهم ليتقوه . وهو هين هين عند من يعتاد ملاقاته . سواء سلم منه أو لاقاه .

والتوجه به لله في كل مرة يفعل في النفس لحظات الخطر شيئاً يقربه للتصور فعل الكهرباء بالأجسام ! وكأنه صياغة جديدة للقلوب والأرواح على صفاء ونقاء وصلاح .

ثم هي الأسباب الظاهرة لإصلاح الجماعة البشرية كلها ، عن طريق قيادتها بأيدي المجاهدين الذين فرغت نفوسهم من كل أعراض الدنيا وكل زخارفها ؛ وهانت عليهم الحياة وهم يخوضون غمار الموت في سبيل الله . ولم يعد في قلوبهم ما يشغلهم عن الله والتطلع إلى رضاه . . وحين تكون القيادة في مثل هذه الأيدي تصلح الأرض كلها ويصلح العباد .

ويصبح عزيزاً على هذه الأيدي أن تسلم في راية القيادة للكفر والضلال والفساد ؛ وهي قد اشترتها بالدماء والأرواح وكل عزيز وغال أرخصته لتتسلم هذه الراية لا لنفسها ولكن لله !

ثم هو بعد ذلك كله تيسير الوسيلة لمن يريد الله بهم الحسنى لينالوا رضاه وجزاءه بغير حساب .

وتيسير الوسيلة لمن يريد الله بهم السوءى ليكسبوا ما يستحقون عليه غضبه وعذابه .

وكل ميسر لما خلق له . وفق ما يعلمه الله من سره ودخيلته .

ومن ثم يكشف عن مصير الذين يقتلون في سبيل الله :

﴿ والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم ، ويدخلهم الجنة عرفها لهم ﴾ . .

لن يضل أعمالهم . . في مقابل ما جاء عن الذين كفروا أنه أضل أعمالهم . فهي أعمال مهتدية واصلة مربوطة إلى الحق الثابت الذي صدرت عنه ، وانبعثت حماية له ، واتجاهاً إليه . وهي باقية من ثم لأن الحق باق لا يهدر ولا يضيع .

(225/710)

ثم نقف أمام هذه الحقيقة الهائلة . . حقيقة حياة الشهداء في سبيل الله . . فهي حقيقة مقررة من قبل في قوله تعالى : ﴿ ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون ﴾ ولكنها تعرض هنا عرضاً جديداً . تعرض في حالة امتداد ونماء في طريقها الذي غادرت الحياة الدنيا وهي تسلكه وتتوخاه . طريق الطاعة والهداية والتجرد والنقاء :

﴿ سيهديهم ويصلح بالهم ﴾ . .

فالله ربهم الذي قتلوا في سبيله ، يظل يتعهدهم بالهداية – بعد الاستشهاد – ويتعهدهم بإصلاح البال ، وتصفية الروح من بقية أوشاب الأرض ؛ أو يزيدها صفاء لتتناسق مع صفاء الملأ الأعلى الذي صعدت إليه ، وإشراقه وسناه . فهي حياة مستمرة في طريقها لم تنقطع إلا فيما يرى أهل الأرض المحجوبون . وهي حياة يتعهدها الله ربها في الملأ الأعلى .

وزيدها هدى . ويزيدها صفاء ، ويزيدها إشراقاً . وهي حياة نامية في ظلال الله .

وأخيراً يحقق لهم ما وعدهم :

﴿ ويدخلهم الجنة عرفها لهم ﴾ . .

وقد ورد حديث عن تعريف الله الجنة للشهداء رواه الإمام أحمد في مسنده قال : حدثنا زيد بن نمر الدمشقي ، حدثنا ابن ثوبان ، عن أبيه ، عن مكحول ، عن كثير بن مرة ، عن قيس الجذامي – رجل كانت له صحبة – قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " يعطى الشهيد ست خصال : عند أول قطرة من دمه ، تكفر عنه كل خطيئة ؛ ويرى مقعده من الجنة ، ويزوج من الحور العين ، ويأمن من الفزع الأكبر ومن عذاب القبر ، ويحلى حلة الإيمان " . تفرد به أحمد . وقد روى حديثاً آخر قريباً من هذا المعنى . وفيه النص على رؤية الشهيد لمقعده من الجنة . أخرجه الترمذي وصححه ابن ماجه .

فهذا تعريف الله الجنة للشهداء في سبيله . وهذه هي نهاية الهداية الممتدة ، وإصلاح البال المستأنف بعد مغادرتهم لهذه الأرض . ونماء حياتهم وهداهم وصلاحهم هناك عند الله .

وفي ظل هذه الكرامة للذين قتلوا في سبيل الله . وفي ظل ذلك الرضى ، وتلك الرعاية ، وبلوغ ذلك المقام . يحرض الله المؤمنين على التجرد لله ، والاتجاه إلى نصرة نهجه في الحياة ؛ ويعدهم على هذا النصر والتثبيت في المعركة ؛ والتعس والضلال لأعدائهم وأعدائه :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم .

والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم . ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم ﴾ . .

وكيف ينصر المؤمنون الله ، حتى يقوموا بالشرط وينالوا ما شرط لهم من النصر والتثبيت ؟ إن لله في نفوسهم أن تتجرد له ، وألا تشرك به شيئاً ، شركاً ظاهراً أو خفياً ، وألا تستبقي فيها معه أحداً ولا شيئاً ، وأن يكون الله أحب إليها من ذاتها ومن كل ما تحب وتهوى ، وأن تحكمه في رغباتها ونزواتها وحركاتها وسكناتها ، وسرها وعلانيتها ، ونشاطها كله وخلجاتها . . فهذا نصر الله في ذوات النفوس .

وإن لله شريعة ومنهاجاً للحياة ، تقوم على قواعد وموازين وقيم وتصور خاص للوجود كله وللحياة . ونصر الله يتحقق بنصرة شريعته ومنهاجه ، ومحاولة تحكيمها في الحياة كلها بدون استثناء ، فهذا نصر الله في واقع الحياة .

ونقف لحظة أمام قوله تعالى : ﴿ والذين قتلوا في سبيل الله ﴾ . . وقوله : ﴿ إن تنصروا الله ﴾ . .

وفي كلتا الحالتين . حالة القتل . وحالة النصرة . يشترط أن يكون هذا لله وفي سبيل الله .

وهي لفتة بديهية ، ولكن كثيراً من الغبش يغطي عليها عندما تنحرف العقيدة في بعض الأجيال . وعندما تمتهن كلمات الشهادة والشهداء والجهاد وترخص ، وتنحرف عن معناها الوحيد القويم .

إنه لا جهاد ، ولا شهادة ، ولا جنة ، إلا حين يكون الجهاد في سبيل الله وحده ، والموت في سبيله وحده ، والنصرة له وحده ، في ذات النفس وفي منهج الحياة .

(227/710)

لا جهاد ولا شهادة ولا جنة إلا حين يكون الهدف هو أن تكون كلمة الله هي العليا . وأن تهيمن شريعته ومنهاجه في ضمائر الناس وأخلاقهم وسلوكهم ، وفي أوضاعهم وتشريعهم ونظامهم على السواء .

عن أبي موسى – رضي الله عنه – قال : " سئل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء . أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله " .

وليس هنالك من راية أخرى ، أو هدف آخر ، يجاهد في سبيله من يجاهد ، ويستشهد

دونه من يستشهد ، فيحق له وعد الله بالجنة . إلا تلك الراية وإلا هذا الهدف . من كل ما يروج في الأجيال المنحرفة التصور من رايات وأسماء وغايات !

ويحسن أن يدرك أصحاب الدعوة هذه اللفتة البديهية ، وأن يخلصوها في نفوسهم من الشوائب التي تعلق بها من منطق البيئة وتصور الأجيال المنحرفة ، وألا يلبسوا برايتهم راية ، ولا يخلطوا بتصورهم تصوراً غريباً على طبيعة العقيدة .

لا جهاد إلا لتكون كلمة الله هي العليا . العليا في النفس والضمير . والعليا في الخلق والسلوك . والعليا في الأوضاع والنظم . والعليا في العلاقات والارتباطات في كل أنحاء الحياة . وما عدا هذا فليس لله . ولكن للشيطان . وفيما عدا هذا ليست هناك شهادة ولا استشهاد .

وفيما عدا هذا ليس هنالك جنة ولا نصر من عند الله ولا تثبيت للأقدام . وإنما هو الغبش وسوء التصور والانحراف .

وإذا عز على غير أصحاب الدعوة لله أن يتخلصوا من هذا الغبش وسوء التصور والانحراف ، فلا أقل من أن يخلص الدعاة إلى الله أنفسهم ومشاعرهم وتصورهم من منطق البيئة الذي لا يتفق مع البديهية الأولى في شرط الله . .

وبعد فهذا شرط الله على الذين آمنوا . فأما شرطه لهم فهو النصر وتثبيت الأقدام . وعد

الله لا يخلفه . فإذا تخلف فترة ؛ فهو أجل مقدر لحكمة أخرى تتحقق مع تحقق النصر والتثبيت . وذلك حين يصح أن المؤمنين وفوا بالشرط ثم تخلف عنهم – فترة – نصر الله .

(228/710)

ثم نقف لحظة أمام لفتة خاصة في التعبير : ﴿ ينصركم . ويثبت أقدامكم ﴾ . .

إن الظن يذهب لأول وهلة أن تثبيت الأقدام يسبق النصر ، ويكون سبباً فيه . وهذا صحيح . ولكن تأخير ذكره في العبارة يوحي بأن المقصود معنى آخر من معاني التثبيت . معنى التثبيت على النصر وتكاليفه . فالنصر ليس نهاية المعركة بين الكفر والإيمان ، وبين الحق والضلال . فللنصر تكاليفه في ذات النفس وفي واقع الحياة . للنصر تكاليفه في عدم الزهو به والبطر . وفي عدم التراخي بعده والتهاون . وكثير من النفوس يثبت على المحنة والبلاء . ولكن القليل هو الذي يثبت على النصر والنعماء . وصلاح القلوب وثباتها على الحق بعد النصر منزلة أخرى وراء النصر . ولعل هذا هو ما تشير إليه عبارة القرآن . والعلم لله .

﴿ والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم ﴾ . .

وذلك عكس النصر وتثبيت الأقدام . فالدعاء بالتعس قضاء من الله سبحانه بالتعاسة

والخيبة والخذلان وإضلال الأعمال ضياع بعد ذلك وفناء . .

﴿ ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم ﴾ . .

وهو تصوير لما يعتمل في قلوبهم ويختلج في نفوسهم من الكراهية لما أنزل الله من قرآن وشريعة ومنهج واتجاه . وهذا هو الذي يدفع بهم إلى الكفر والعناد والخصومة والملاحاة . وهي حالة كثير من النفوس الفاسدة التي تكره بطبعها ذلك النهج السليم القويم ، وتصادمه من داخلها ، بحكم مغايرة طبيعتها لطبيعته . وهي نفوس يلتقي بها الإنسان كثيراً في كل زمان وفي كل مكان ، ويحسن منها النفرة والكراهية لهذا الدين وما يتصل به ؛ حتى إنها لتفزع من مجرد ذكره كما لو كانت قد لذعتها العقارب ! وتتجنب أن يجيء ذكره أو الإشارة إليه فيما تسمع حولها من حديث ! ولعلنا نشاهد في هذه الأيام حالة من هذا الطراز لا تخفى على الملاحظة !

(229/710)

وكان جزاء هذه الكراهية لما أنزل الله ، أن أحبط الله أعمالهم . وإحباط الأعمال تعبير تصوري على طريقة القرآن الكريم في التعبير بالتصوير . فالحبوط انتفاخ بطون الماشية عند أكلها نوعاً من المرعى سام . ينتهي بها إلى الموت والهلاك . وكذلك انتفخت أعمالهم

وورمت وانبعجت . . ثم انتهت إلى الهلاك والضياع ! إنها صورة وحركة ، ونهاية مطابقة لحال من كرهوا ما أنزل الله ثم تعاجبوا بالأعمال الضخام .

المنتفخة كبطون الأنعام ، حين ترعى من ذلك النبت السام !

ثم يلوي أعناقهم إلى مصارع الغابرين قبلهم في شدة وعنف :

﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ دمر الله عليهم . وللكافرين أمثالها ﴾ . .

وهي لفتة عنيفة مروعة ، فيها ضجة وفرقعة . وفيها مشهد للذين من قبلهم يدمر عليهم كل ما حولهم ، وكل مالهم ، فإذا هو أنقاض متراكمة ، وإذا هم تحت هذه الأنقاض المتراكمة .

وذلك المشهد الذي يرسمه التعبير مقصود بصورته هذه وحركته ، والتعبير يحمل في إيقاعه وجرسه صورة هذا المشهد وفرقعته في انقضاضه وتحطمه !

وعلى المشهد التدمير والتحطيم والردم ، يلوح للحاضرين من الكافرين ، ولكل من يتصف بهذه الصفة بعد ، بأنها في انتظارهم . هذه الوقعة المدمرة التي تدمر عليهم كل شيء وتدفنهم بين الأنقاض : ﴿ وللكافرين أمثالها ﴾ !

وتفسير هذا الأمر الهائل المروع الذي يدمر على الكافرين وينصر المؤمنين هو القاعدة الأصيلة الدائمة :

﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ . .

ومن كان الله مولاه وناصره فحسبه ، وفيه الكفاية والغناء ؛ وكل ما قد يصيبه إنما هو ابتلاء وراءه الخير ، لا تخلياً من الله عن ولايته له ، ولا تخلفاً لوعد الله بنصر من يتولاهم من عباده . ومن لم يكن الله مولاه فلا مولى له ، ولو اتخذ الإنس والجن كلهم أولياء . فهو في النهاية مضيع عاجز ؛ ولو تجمعت له كل أسباب الحماية وكل أسباب القوة التي يعرفها الناس !

(230/710)

ثم يوازن بين نصيب الذين آمنوا ونصيب الذين كفروا من المتاع بعد ما بيّن نصيب هؤلاء وهؤلاء فيما يشتجر بينهم من قتال ونزال . مع بيان الفارق الأصيل بين متاع ومتاع :

﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار . والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والنار مثوى لهم ﴾ . .

والذين آمنوا وعملوا الصالحات يتمتعون في الأرض أحياناً من أطيب المتاع ؛ ولكن الموازنة هنا إنما تقوم بين النصيب الحقيقي الضخم للمؤمنين – وهو نصيبهم في الجنة – والنصيب الكلي للكافرين الذي لا نصيب لهم سواه .

ونصيب المؤمنين يتلقونه من يد الله في جنات تجري من تحتها الأنهار . فالله هو الذي يدخلهم . وهو إذن نصيب كريم علوي رفيع . وهم ينالونه من بين يدي الله في علاه جزاء

على الإيمان والصلاح، متناسقاً في رفعته وكرامته مع الارتفاع المنطلق من الإيمان والصلاح.

ونصيب الذين كفروا متاع وأكل ﴿ كما تأكل الأنعام ﴾ . . وهو تصوير زري، يذهب بكل سمات الإنسان ومعالمه؛ ويلقي ظلال الأكل الحيواني الشره، والمتاع الحيواني الغليظ. بلا تذوق، وبلا تعفف عن جميل أو قبيح. . إنه المتاع الذي لا ضابط له من إرادة، ولا من اختيار، ولا حارس عليه من تقوى، ولا رادع عنه من ضمير.

والحيوانية تتحقق في المتاع والأكل، ولو كان هناك ذوق مرهف للطعوم، وحس مدرب في اختيار صنوف المتاع، كما يتفق هذا لكثير من الناشئين في بيوت النعمة والثراء. وليس هذا هو المقصود. إنما المقصود هو حساسية الإنسان الذي يملك نفسه وإرادته، والذي له قيم خاصة للحياة؛ فهو يختار الطيب عند الله. عن إرادة لا يخضعها ضغط الشهوة، ولا يضعفها هتاف اللذة. ولا تحسب الحياة كلها مائدة طعام، وفرصة متاع؛ بلا هدف بعد ذلك ولا تقوى فيما يباح وما لا يباح!

(231/710)

إن الفارق الرئيسي بين الإنسان والحيوان : أن للإنسان إرادة وهدفاً وتصوراً خاصاً للحياة يقوم على أصولها الصحيحة ، المتلقاة من الله خالق الحياة . فإذا فقد هذا كله فقد أهم خصائص الإنسان المميزة لجنسه ، وأهم المزايا التي من أجلها كرمه الله .

وتعترض سلسلة الموازنات بين الذين آمنوا والذين كفروا لفتة إلى القرية التي أخرجت الرسول - صلى الله عليه وسلم - وموازنة بينها وبين القرى الهالكة وكانت أشد قوة منها :

﴿ وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم ﴾ . .

وهي آية يروى أنها نزلت في الطريق بين مكة والمدينة في أثناء رحلة الخروج والهجرة ، تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - وتسرية عنه ؛ وتهويناً من شأن المشركين الجبارين الذين وقفوا في وجه الدعوة ، وآذوا أصحابها ، حتى هاجروا من أرضهم وأهلهم وأموالهم فراراً بعقيدتهم .

ثم يمضي في الموازنة بين حال الفريقين ؛ ويعلل لم كان الله ولي المؤمنين يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار في الآخرة ، بعد النصر والكرامة في الدنيا ؟ ولم كان الذين كفروا لا مولى لهم معرضين للهلاك في الدنيا - بعد حياة حيوانية هابطة - وللعذاب في الآخرة والثوي في النار والإقامة :

﴿ أفمن كان على بينة من ربه ، كمن زين له سوء عمله ، واتبعوا أهواءهم ؟ ﴾ . .

فهو فارق أصيل في الحالة التي عليها الفريقان ، وفي المنهج والسلوك سواء . فالذين آمنوا

على بينة من ربهم . . رأوا الحق وعرفوه ، واستيقنوا من مصدره واتصلوا بربهم فتلقوا عنه ، وهم على يقين مما يتلقون . غير مخدوعين ولا مضللين . والذين كفروا زين لهم سوء عملهم ، فرأوه حسناً وهو سيِّىء ؛ ولم يروا ولم يستيقنوا ، ﴿ واتبعوا أهواءهم ﴾ . بلا ضابط يرجعون إليه ، ولا أصل يقيسون عليه ، ولا نور يكشف لهم الحق من الباطل .

(232/710)

أهؤلاء كهؤلاء ؟ إنهم يختلفون حالاً ومنهجاً واتجاهاً . فلا يمكن أن يتفقوا ميزاناً ولا جزاء ولا مصيراً ! وهذه صورة من صور التفرقة بين هؤلاء وهؤلاء في المصير :

﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون فيها آنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ؛ ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم .

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (16) ﴾

هذه الجولة مع المنافقين ، وموقفهم إزاء شخص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإزاء القرآن . ثم موقفهم من الجهاد الذي فرضه الله على المسلمين لإعلاء كلمة الله . وأخيراً

موقفهم من اليهود وتآمرهم معهم سراً للإيقاع بالإسلام والمسلمين .

وحركة النفاق حركة مدنية ، لم يكن لها وجود في مكة ، لأنه لم يكن هنالك ما يدعو إليها . فالمسلمون في مكة كانوا في موقف المضطهد ، الذي لا يحتاج أحد أن ينافقه ! فلما أعز الله الإسلام والمسلمين بالأوس والخزرج في المدينة ، وانتشاره في العشائر والبيوت بحيث لم يبق بيت إلا دخله الإسلام ، اضطر ناس ممن كرهوا لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وللإسلام أن يعز ويستعلي ، ولم يملكوا في الوقت ذاته أن يجهروا بالعداوة ، اضطروا إلى التظاهر بالإسلام على كره . وهم يضمرون الحقد والبغضاء . ويتربصون بالرسول وأصحابه الدوائر . وعلى رأسهم عبد الله بن أبيّ بن سلول رأس النفاق المعروف .

(233/710)

وكان وجود اليهود في المدينة وتمتعهم فيها بقوة عسكرية وقوة اقتصادية وقوة تنظيمية في أول العهد المدني . وكراهيتهم كذلك لظهور محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودينه وأتباعه . كان وجود اليهود على هذا الوضع مشجعاً للمنافقين . وسرعان ما جمعتهم البغضاء والحقد فأخذوا في حبك المؤامرات ودس الدسائس في كل مناسبة تعرض . فإن كان المسلمون في شدة ظهروا بعدائهم وجهروا ببغضائهم ؛ وإذا كانوا في رخاء ظلت الدسائس سرية

والمكايد في الظلام ! وكانوا إلى منتصف العهد المدني يؤلفون خطراً حقيقياً على الإسلام والمسلمين .

وقد تواتر ذكر المنافقين ، ووصف دسائسهم ، والتنديد بمؤامراتهم وأخلاقهم في السور المدنية ؛ كما تكرر ذكر اتصالهم باليهود ، وتلقيهم عنهم ، واشتراكهم معهم في بعض المؤامرات المحبوكة . وهذا أحد المواضع التي وردت فيها الإشارة إلى المنافقين ، والإشارة كذلك إلى اليهود .

﴿ ومنهم من يستمع إليك ، حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم : ماذا قال آنفاً ؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم ، واتبعوا أهواءهم ﴾ . .

ولفظة : ﴿ ومنهم ﴾ تحتمل أن تكون إشارة للذين كفروا الذين كان يدور الحديث عنهم في الجولة السابقة في السورة : باعتبار أن المنافقين في الحقيقة فرقة من الكفار مستورة الظاهر ، والله يتحدث عنها بحقيقتها في هذه الآية .

كما تحتمل أن تكون إشارة للمسلمين باعتبار أن المنافقين مندمجون فيهم ، متظاهرون بالإسلام معهم . وقد كانوا يعاملون معاملة المسلمين بحسب ظاهرهم ، كما هو منهج الإسلام في معاملة الناس .

ولكنهم في كلتا الحالتين هم المنافقون كما تدل عليه صفتهم في الآية وفعلهم ، وكما يدل السياق في هذه الجولة من السورة ، والحديث فيها عن المنافقين .

وسؤالهم ذاك بعد استماعهم للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والاستماع معناه السماع باهتمام – يدل على أنهم كانوا يتظاهرون تظاهراً بأنهم يلقون سمعهم وبالهم للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقلوبهم لاهية غافلة .

أو مطموسة مغلقة . كما أنه قد يدل من جانب آخر على الغمز الخفي اللئيم إذ يريدون أن يقولوا بسؤالهم هذا لأهل العلم : إن ما يقوله محمد لا يفهم ، أو لا يعني شيئاً يفهم . فهاهم أولاء مع استماعهم له ، لا يجدون له فحوى ولا يمسكون منه بشيء ! كذلك قد يعنون بهذا السؤال السخرية من احتفال أهل العلم بكل ما يقوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحرصهم على استيعاب معانيه وحفظ ألفاظه – كما كان حال الصحابة رضوان الله عليهم مع كل كلمة يتلفظ بها الرسول الكريم – فهم يسألونهم أن يعيدوا ألفاظه التي سمعوها على سبيل السخرية الظاهرة أو الخفية . . وكلها احتمالات تدل على اللؤم والخبث والانطماس والهوى الدفين :

﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ﴾ . .

ذلك حال المنافقين ، فأما حال المهتدين فهو على النقيض :

﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾ . .

وترتيب الوقائع في الآية يستوقف النظر . فالذين اهتدوا بدأوا هم بالاهتداء ، فكافأهم الله بزيادة الهدى ، وكافأهم بما هو أعمق وأكمل : ﴿ وآتاهم تقواهم ﴾ . . والتقوى حالة في القلب تجعله أبداً واجفاً من هيبة الله ، شاعراً برقابته ، خائفاً من غضبه ، متطلعاً إلى رضاه ، متحرجاً من أن يراه الله على هيئة أو في حالة لا يرضاها . . هذه الحساسية المرهفة هي التقوى . . وهي مكافأة يؤتيها الله من يشاء من عباده ، حين يهتدون هم ويرغبون في الوصول إلى رضى الله .

والهدى والتقوى والحساسية حالة تقابل حالة النفاق والانطماس والغفلة في الآية السابقة .

(235/710)

ومن ثم يعود بعد هذه اللفتة إلى الحديث عن أولئك المنافقين المطموسين الغافلين ، الذين يخرجون من مجلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولم يعوا مما قال شيئاً ينفعهم ويهديهم . ويستجيش قلوبهم للتقوى ، ويذكرهم بما ينتظر الناس من حساب وجزاء :

﴿ فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ؟ فقد جاء أشراطها . فأنى لهم - إذا جاءتهم - ذكراهم ؟ ﴾ .

وهي جذبة قوية تخرج الغافلين من الغفلة بعنف ، كما لو أخذت بتلابيب مخمور وهززته هزاً !

ماذا ينتظر هؤلاء الغافلون الذين يدخلون مجالس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويخرجون منها ، غير واعين ، ولا حافظين ، ولا متذكرين ؟ ماذا ينتظرون ؟ ﴿ فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ؟ ﴾ . . فتفجأهم وهم سادرون غارون غافلون هل ينظرون إلا الساعة ؟ ﴿ فقد جاء أشراطها ﴾ . ووجدت علاماتها . والرسالة الأخيرة أضخم هذه العلامات ، فهي إيذان بأنها النذارة الأخيرة قرب الأجل المضروب . وقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " بعثت أنا والساعة كهاتين " وأشار بأصبعيه السبابة والتي تليها . وإذا كان الزمن يلوح ممتداً منذ هذه الرسالة الأخيرة ؛ فإن أيام الله غير أيامنا .

ولكنها في حساب الله قد جاءت الأشراط الأولى ؛ وما عاد لعاقل أن يغفل حتى تأخذه الساعة بغتة حيث لا يملك صحواً ولا ذكراً :

﴿ فأنى لهم – إذا جاءتهم – ذكراهم ؟ ﴾ . .

إنها الهزة القوية العنيفة التي تخرج الغافلين من غفلتهم ؛ والتي تتفق كذلك مع طابع السورة العنيف .

ثم يتجه الخطاب إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه من المهتدين المتقين المتطلعين

؛ ليأخذوا طريقاً آخر . طريق العلم والمعرفة والذكر والاستغفار ، والشعور برقابة الله وعلمه الشامل المحيط ؛ ويعيشوا بهذه الحساسية يرتقبون الساعة وهم حذرون متأهبون : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ؛ واستغفر لذنبك ، وللمؤمنين والمؤمنات ؛ والله يعلم متقلبكم ومثواكم ﴾ . .

(236/710)

وهو التوجيه إلى تذكر الحقيقة الأولى التي يقوم عليها أمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه :

﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ . .

وعلى أساس العلم بهذه الحقيقة واستحضارها في الضمير تبدأ التوجيهات الأخرى :

﴿ واستغفر لذنبك ﴾ . .

وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . ولكن هذا واجب العبد المؤمن الشاعر الحساس الذي يشعر أبداً بتقصيره مهما جهد ؛ ويشعر – وقد غفر له – أن الاستغفار ذكر وشكر على الغفران . ثم هو التلقين المستمر لمن خلف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ممن يعرفون منزلته عند ربه ؛ ويرونه يوجه إلى الذكر والاستغفار لنفسه . ثم للمؤمنين

والمؤمنات . وهو المستجاب الدعوة عند ربه . فيشعرون بنعمة الله عليهم بهذا الرسول الكريم . وبفضل الله عليهم وهو يوجهه لأن يستغفر لهم ، ليغفر لهم !

وللمسة الأخيرة في هذا التوجيه :

﴿ والله يعلم متقلبكم ومثواكم ﴾ . .

حيث يشعر القلب المؤمن بالطمأنينة وبالخوف جميعاً . الطمأنينة وهو رعاية الله حيثما تقلب أو ثوى . والخوف من هذا الموقف الذي يحيط به علم الله ويتعقبه في كل حالاته ، ويطلع على سره ونجواه . .

إنها التربية . التربية باليقظة الدائمة والحساسية المرهفة ، والتطلع والحذر والانتظار . .

وينتقل السياق إلى تصوير موقف المنافقين من الجهاد ، وما يعتمل في نفوسهم من جبن وخور وذعر وهلع عند مواجهة هذا التكليف ، ويكشف دخيلتهم في هذا الأمر ، كما يكشف لهم ما ينتظرهم لو ظلوا على هذا النفاق ، ولم يخلصوا ويستجيبوا ويصدقوا الله عند ما يعزم الأمر ويتحتم الجهاد :

﴿ ويقول الذين آمنوا : لولا نزلت سورة . فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت ، فأولى لهم طاعة وقول معروف ، فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم . فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ! أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم . أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟ ﴾ . .

وتطلع الذين آمنوا إلى تنزيل سورة : إما أن يكون مجرد تعبير عن شوقهم إلى سورة جديدة من هذا القرآن الذي يحبونه ، ويجدون في كل سورة منه زاداً جديداً حبيباً .

وإما أن يكون تطلعاً إلى سورة تبين أمراً من أمور الجهاد ، وتفصل في قضية من قضايا القتال تشغل بالهم . فيقولون : ﴿ لولا نزلت سورة ! ﴾ . .

﴿ فإذا أنزلت سورة محكمة ﴾ . . فاصلة بينة لا تحتمل تأويلاً ﴿ وذكر فيها القتال ﴾ . . أي الأمر به . أو بيان حكم المتخلفين عنه ، أو أي شأن من شؤونه ، إذا بأولئك ﴿ الذين في قلوبهم مرض ﴾ . . وهو وصف من أوصاف المنافقين . . يفقدون تماسكهم ، ويسقط عنهم ستار الرياء الذين يتسترون به ، وينكشف جزعهم وضعف نفوسهم من مواجهة هذا التكليف ، ويبدون في حالة تزري بالرجال ، يصورها التعبير القرآني المبدع صورة فريدة كأنها معروضة للأنظار :

﴿ رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت ﴾ . .

وهو تعبير لا تمكن محاكاته ، ولا ترجمته إلى أي عبارة أخرى . وهو يرسم الخوف إلى حد الهلع . والضعف إلى حد الرعشة . والتخاذل إلى حد الغشية ! ويبقى بعد ذلك متفرداً حافلاً بالظلال والحركة التي تشغف الخيال ! وهي صورة خالدة لكل نفس خوارة لا تعتصم بإيمان ، ولا بفطرة صادقة ، ولا بحياء تتجمل به أمام الخطر . وهي هي طبيعة المرض والنفاق !

وبينما هم في هذا التخاذل والتهافت والانهيار تمتد إليهم يد الإيمان بالزاد الذي يقوي العزائم ويشد القوائم لو تناولوه في إخلاص :

(238/710)

﴿ فأولى لهم طاعة وقول معروف . فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم ﴾ . نعم . أولى لهم من هذه الفضيحة . ومن هذا الخور . ومن هذا الهلع . ومن هذا النفاق . . أولى لهم ﴿ طاعة وقول معروف ﴾ . . طاعة تستسلم لأمر الله عن طمأنينة ، وتنهض بأمره عن ثقة . وقول معروف يشي بنظافة الحس واستقامة القلب ، وطهارة الضمير . وأولى لهم إذا عزم الأمر ، وجد الجد ، وواجهوا الجهاد أن يصدقوا الله . يصدقوه عزيمة ، ويصدقوه شعوراً . فيربط على قلوبهم ، ويشد من عزائمهم ، ويثبت أقدامهم ، وييسر

المشقة عليهم ، ويهون الخطر الذي يتمثلونه غولاً تفغر فاها لتلتهمهم ! ويكتب لهم إحدى الحسنيين : النجاة والنصر ، أو الاستشهاد والجنة . . هذا هو الأولى . وهذا هو الزاد الذي يقدمه الإيمان فيقوي العزائم ويشد القوائم ، ويذهب بالفزع ، ويحل محله الثبات والإطمئنان .

وبينما هو يتحدث عنهم يلتفت إليهم مباشرة ليخاطبهم مقرعاً مهدداً بسوء العاقبة لو قادهم حالهم هذا إلى النكسة والتولي إلى الكفر ؛ وخلع ذلك الستار الرقيق من الإسلام :

﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ؟ ﴾ . .

وهذا التعبير . . ﴿ هل عسيتم ﴾ . . يفيد ما هو متوقع من حال المخاطبين . ويلوح لهم بالنذير والتحذير . . احذروا فإنكم منتهون إلى أن تعودوا إلى الجاهلية التي كنتم فيها . تفسدون في الأرض وتقطعون الأرحام ، كما كان شأنكم قبل الإسلام . .

وبعد هذه اللفتة المفزعة المنذرة لهم يعود إلى الحديث عنهم لو انتهوا إلى هذا الذي حذرهم إياه :

﴿ أولئك الذين لعنهم الله ، فأصمهم وأعمى أبصارهم .

أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟ ﴾ .

أولئك الذين يظلون في مرضهم ونفاقهم حتى يتولوا عن هذا الأمر الذى دخلوا فيه بظاهرهم ولم يصدقوا الله فيه ، ولم يستيقنوه . ﴿ أولئك الذين لعنهم الله ﴾ . . وطردهم وحجبهم عن الهدى ، ﴿ فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾ . . وهم لم يفقدوا السمع ، ولم يفقدوا البصر ؛ ولكنهم عطلوا السمع وعطلوا البصر ، أو عطلوا قوة الإدراك وراء السمع والبصر ؛ فلم يعد لهذه الحواس وظيفة لأنها لم تعد تؤدي هذه الوظيفة .

ويتساءل في استنكار : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ . . وتدبر القرآن يزيل الغشاوة ، ويفتح النوافذ ، ويسكب النور ، ويحرك المشاعر ، ويستجيش القلوب ، ويخلص الضمير .

وينشئ حياة للروح تنبض بها وتشرق وتستنير ، ﴿ أم على قلوب أقفالها ؟ ﴾ فهي تحول بينها وبين القرآن وبينها وبين النور ؟ فإن استغلاق قلوبهم كاستغلاق الأقفال التي لا تسمح بالهواء والنور !

ويمضي في تصوير حال المنافقين ، وسبب توليهم عن الإيمان بعد إذ شارفوه ، فيتبين أنه تآمرهم مع اليهود ، ووعدهم لهم بالطاعة فيما يدبرون :

﴿ إن الذين ارتدوا على أدبارهم – من بعد ما تبين لهم الهدى – الشيطان سول لهم وأملى لهم . ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله : سنطيعكم في بعض الأمر . والله يعلم إسرارهم ﴾ . .

والتعبير يرسم معنى رجوعهم عن الهدى بعد ما تبين لهم ، في صورة حركة حسية ، حركة الارتداد على الأدبار . ويكشف ما وراءها من وسوسة الشيطان وتزيينه وإغرائه . فإذا ظاهر هذه الحركة وباطنها مكشوفان مفهومان ! وهم المنافقون الذين يتخفون ويتسترون ! ثم يذكر السبب الذي جعل للشيطان عليهم هذا السلطان ، وانتهى بهم إلى الارتداد على الأدبار بعد ما عرفوا الهدى وتبينوه :

﴿ ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر ﴾ . .

(240/710)

واليهود في المدينة هم أول من كرهوا ما نزَّل الله ؛ لأنهم كانوا يتوقعون أن تكون الرسالة الأخيرة فيهم ، وأن يكون خاتم الرسل منهم ؛ وكانوا يستفتحون على الذين كفروا ويوعدونهم ظهور النبي الذي يقودهم ويمكن لهم في الأرض ، ويسترجع ملكهم وسلطانهم . فلما اختار الله آخر رسله من نسل إبراهيم ، من غير يهود ، كرهوا رسالته . حتى إذا هاجر إلى المدينة كرهوا هجرته ، التي هددت ما بقي لهم من مركز هناك . ومن ثم كانوا إلباً عليه منذ أول يوم ، وشنوا عليه حرب الدس والمكر والكيد ، حينما عجزوا عن مناصبته العداء جهرة في ميادين القتال ؛ وانضم إليهم كل حانق ، وكل منافق ، وظلت

الحرب سجالاً بينهم وبين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى أجلاهم في آخر الأمر عن الجزيرة كلها وخلصها للإسلام .

وهؤلاء الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم قالوا لليهود : ﴿ سنطيعكم في بعض الأمر ﴾ . . والأرجح أن ذلك كان في الدس والكيد والتآمر على الإسلام ورسول الإسلام .

﴿ والله يعلم إسرارهم ﴾ .

وهو تعقيب كله تهديد . فأين يذهب تآمرهم وإسرارهم وماذا يؤثر ؛ وهو مكشوف لعلم الله ؟ معرض لقوة الله ؟

ثم التهديد السافر بجند الله ، والمتآمرون في نهاية الحياة :

﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ !

وهو مشهد مفزع مهين . وهم يحتضرون . ولا حول لهم ولا قوة . وهم في نهاية حياتهم على هذه الأرض . وفي مستهل حياتهم الأخرى . هذه الحياة التي تفتتح بضرب الوجوه والأدبار . في لحظة الوفاة ، لحظة الضيق والكرب والمخافة . والأدبار التي ارتدوا عليها من بعد ما تبين لهم الهدى ! فيالها من مأساة !

﴿ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله ، وكرهوا رضوانه ، فأحبط أعمالهم ﴾ . .

فهم الذين أرادوا لأنفسهم هذا المصير واختاروه . هم الذين عمدوا إلى ما أسخط الله من نفاق ومعصية وتآمر مع أعداء الله وأعداء دينه ورسوله فاتبعوه . وهم الذين كرهوا رضوان الله فلم يعملوا له ، بل عملوا ما يسخط الله ويغضبه . . ﴿ فأحبط أعمالهم ﴾ . . التي كانوا يعجبون بها ويتعاجبون ؛ ويحسبونها مهارة وبراعة وهم يتآمرون على المؤمنين ويكيدون . فإذا بهذه الأعمال تتضخم وتنتفخ . ثم تهلك وتضيع !

وفي نهاية الشوط يتهددهم بكشف أمرهم لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وللمسلمين ، الذين يعيشون بينهم متخفين ؛ يتظاهرون بالإسلام وهم لهم كائدون :

﴿ أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ؟ ولو نشاء لأريناكهم ، فلعرفتهم بسيماهم ، ولتعرفنهم في لحن القول ، والله يعلم أعمالكم . ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ . .

ولقد كان المنافقون يعتمدون على إتقانهم فن النفاق ، وعلى خفاء أمرهم في الغالب على المسلمين . فالقرآن يسفه ظنهم أن هذا الأمر سيظل خافياً ، ويهدّدهم بكشف حالهم وإظهار أضغانهم وأحقادهم على المسلمين . ويقول لرسوله - صلى الله عليه وسلم - : ﴿ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ﴾ . . أي لو نشاء لكشفنا لك عنهم بذواتهم وأشخاصهم ، حتى لترى أحدهم فتعرفه من ملامحه (وكان هذا قبل أن يكشف الله له

عن نفر منهم بأسمائهم) ومع ذلك فإن لهجتهم ونبرات صوتهم ، وإمالتهم للقول عن استقامته ، وانحراف منطقهم في خطابك سيدلك على نفاقهم : ﴿ ولتعرفنهم في لحن القول ﴾ . .

ويعرج على علم الله الشامل بالأعمال وبواعثها : ﴿ والله يعلم أعمالكم ﴾ . . فلا تخفى عليه منها خافية . . ثم وعد من الله بالابتلاء . . ابتلاء الأمة الإسلامية كلها ، لينكشف المجاهدون والصابرون ويتميزوا وتصبح أخبارهم معروفة ، ولا يقع الالتباس في الصفوف ، ولا يبقى مجال لخفاء أمر المنافقين ولا أمر الضعاف والجزعين :

(242/710)

﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ، ونبلو أخباركم ﴾ . .

والله يعلم حقائق النفوس ومعادنها ، ويطلع على خفاياها وخباياها ، ويعلم ما يكون من أمرها علمه بما هو كائن فعلاً . فما هذا الابتلاء ؟ ولمن يكون العلم من ورائه بما يتكشف عنه ؟

إن الله – جلت حكمته – يأخذ البشر بما هو في طوقهم ، وما هو من طبيعتهم واستعدادهم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (32) ﴾

الحديث في الشطر الأول من هذا الشوط الأخير من السورة عن ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى ﴾ . . وهؤلاء ، الأقرب أن يكونوا هم المشركين الذين كان الحديث عنهم في أول السورة . فهم الذين ينطبق عليهم التبجح في الوقوف للدعوة الإسلامية . التبجح الذي يعبر عنه بالصد عن سبيل الله ومشاقة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وإن كان هناك احتمال آخر ، وهو أن يكون الحديث عاماً لكل من يقف هذا الموقف ؛ يشمل اليهود في المدينة ويشمل المنافقين ، على سبيل التهديد لهم إذا هموا أن يقفوا مثل هذا الموقف جهراً أو سراً . ولكن الاحتمال الأول أقرب على كل حال .

(243/710)

أما الحديث في الشطر الثاني والأخير حتى ختام السورة فهو خطاب للمؤمنين ، يدعوهم إلى مواصلة الجهاد بالنفس وبالمال ، دون تراخ أو دعوة إلى مهادنة الكفر المعتدي الظالم ، تحت أي مؤثر من ضعف أو مراعاة قرابة أو رعاية مصلحة . ودون بخل بالمال الذي لا يكلفهم الله

أن ينفقوا منه إلا في حدود مستطاعة ، مراعياً الشح الفطري في النفوس ! وإن لا ينهضوا بتكاليف هذه الدعوة فإن الله يحرمهم كرامة حملها والانتداب لها ، ويستبدل بهم قوماً غيرهم ينهضون بتكاليفها ، ويعرفون قدرها . وهو تهديد عنيف مخيف يناسب جو السورة ، كما يشي بأنه كان علاجاً لحالات نفسية قائمة في صفوف المسلمين إذ ذاك – من غير المنافقين – وذلك إلى جانب حالات التفاني والتجرد والشجاعة والفداء التي اشتهرت بها الروايات . فقد كان في الجماعة المسلمة هؤلاء وهؤلاء . وكان القرآن يعالج ويربي لينهض بالمتخلفين إلى المستوى العالي الكريم . .

﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ، وشاقوا الرسول – من بعد ما تبين لهم الهدى – لن يضروا الله شيئاً ، وسيحبط أعمالهم ﴾ . .

إنه قرار من الله مؤكد ، ووعد منه واقع : أن الذين كفروا ، ووقفوا في وجه الحق أن يبلغ إلى الناس ؛ وصدوا الناس عنه بالقوة أو المال أو الخداع أو أية وسيلة من الوسائل ، وشاقوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - في حياته بإعلان الحرب عليه ، والمخالفة عن طريقه ، والوقوف في غير صفه . أو بعد وفاته بمحاربة دينه وشريعته ومنهجه والمتبعين لسنته والقائمين على دعوته . وذلك ﴿ من بعد ما تبين لهم الهدى ﴾ . . وعرفوا أنه الحق ؛ ولكنهم اتبعوا الهوى ، وجمح بهم العناد ، وأعماهم الغرض ، وقادتهم المصلحة العاجلة . .

قرار من الله مؤكد ، ووعد من الله واقع أن هؤلاء ﴿ لن يضروا الله شيئاً ﴾ . . وهم أضأل وأضعف من أن يذكروا في مجال إلحاق ضرر بالله سبحانه وتعالى . فليس هذا هو المقصود . إنما المقصود أنهم لن يضروا دين الله ولا منهجه ولا القائمين على دعوته .

ولن يحدثوا حدثاً في نواميسه وسننه . مهما بلغ من قوتهم ، ومهما قدروا على إيذاء بعض المسلمين فترة من الوقت . فإن هذا بلاء وقتي يقع بإذن الله لحكمة يريدها ؛ وليست ضراً حقيقياً لناموس الله وسنته ونظامه ونهجه وعباده القائمين على نظامه ونهجه . والعاقبة مقررة : ﴿ وسيحبط أعمالهم ﴾ . . فتنتهي إلى الخيبة والدمار . كما تنتهي الماشية التي ترعى ذلك النبات السام !

وفي ظل هذا المصير المخيف للذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول . . يلتفت إلى الذين آمنوا ليحذرهم ظل هذا المصير ، ويوجههم إلى طاعة الله وطاعة الرسول :

﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ . .

وهذا التوجيه يوحي بأنه كان في الجماعة المسلمة يومئذ من لا يتحرى الطاعة الكاملة ؛ أو من تثقل عليه بعض التكاليف ، وتشق عليه بعض التضحيات ، التي يقتضيها جهاد هذه الطوائف القوية المختلفة التي تقف للإسلام ، وتناوشه من كل جانب ؛ والتي تربطها

بالمسلمين مصالح ووشائج قربى يصعب فصمها والتخلي عنها نهائياً كما تقتضي العقيدة ذلك .

ولقد كان وقع هذا التوجيه عنيفاً عميقاً في نفوس المسلمين الصادقين ، فارتعشت له قلوبهم ، وخافوا أن يقع منهم ما يبطل أعمالهم ، ويذهب بحسناتهم . .

(245/710)

قال الإمام أحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة : حدثنا أبو قدامة ، حدثنا وكيع ، حدثنا أبو جعفر الرازي ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، قال : كان أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب ، كما لا ينفع مع الشرك عمل ، فنزلت : ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ . . فخافوا أن يبطل الذنب العمل .

وروي من طريق عبد الله بن المبارك ، أخبرني بكر بن معروف ، عن مقاتل بن حيان ، عن نافع ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : "كنا معشر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول ، حتى نزلت ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ . . فقلنا : ما هذا الذي يبطل أعمالنا ؟ فقلنا : الكبائر

الموجبات والفواحش . حتى نزل قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك . فكنا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش ونرجو لمن لم يصبها .

ومن هذه النصوص يتجلى كيف كانت نفوس المسلمين الصادقين تتلقى آيات القرآن : كيف تهتز لها وتضطرب ، وكيف ترتجف منها وتخاف ، وكيف تحذر أن تقع تحت طائلتها ، وكيف تتحرى أن تكون وفقها ، وأن تطابق أنفسها عليها . . وبهذه الحساسية في تلقي كلمات الله كان المسلمون مسلمين من ذلك الطراز !

ثم بين الله لهم في الآية التالية مصير الذين يشاقون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويخرجون عن طاعته ، ثم يصرون على هذا ، ويذهبون من هذه الأرض كافرين :

﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ، ثم ماتوا وهم كفار ، فلن يغفر الله لهم ﴾ .

.

فالفرصة متاحة فقط للمغفرة في هذه الدنيا ؛ وباب التوبة يظل مفتوحاً للكافر والعاصي حتى يغرغر . فإذا بلغت الروح الحلقوم فلا توبة ولا مغفرة ، فقد ذهبت الفرصة التي لا تعود .

ومثل هذه الآية يخاطب المؤمنين كما يخاطب الكفار . فأما هؤلاء فهي نذارة لهم ليتداركوا أمرهم ويتوبوا قبل أن تغلق الأبواب . وأما أولئك فهي تحذير لهم وتنبيه لاتقاء كافة الأسباب التي تقرب بهم من هذا الطريق الخطر المشؤوم !

ندرك هذا من ترتيب النهي عن الوهن والدعوة إلى السلم في الآية التالية على ما ورد في الآية السابقة من بيان لمصير الكافرين المشاقين :

﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم ، وأنتم الأعلون والله معكم ، ولن يتركم أعمالكم ﴾ . .

فهذا هو الذي يحذر المؤمنين إياه ، ويضع أمامهم مصير الكفار المشاقين للرسول ، ليحذروا شبحه من بعيد !

وهذا التحذير يشي بوجود أفراد من المسلمين كانوا يستثقلون تكاليف الجهاد الطويل ومشقته الدائمة ؛ وتهن عزائمهم دونه ؛ ويرغبون في السلم والمهادنة ليستريحوا من مشقة الحروب . وربما كان بعضهم ذوي قرابة في المشركين ورحم ، أو ذوي مصالح وأموال ؛ وكان هذا يجنح بهم إلى السلم والمهادنة . فالنفس البشرية هي هي ؛ والتربية الإسلامية تعالج هذا الوهن وهذه الخواطر الفطرية بوسائلها . وقد نجحت نجاحاً خارقاً . ولكن هذا لا ينفي أن تكون هنالك رواسب في بعض النفوس ، وبخاصة في ذلك الوقت المبكر من العهد المدني . وهذه الآية بعض العلاج لهذه الرواسب . فلننظر كيف كان القرآن يأخذ النفوس .

فنحن في حاجة إلى تحري خطوات القرآن في التربية . والنفوس هي النفوس :

﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم . وأنتم الأعلون . والله معكم . ولن يتركم أعمالكم ﴾ . .

(247/710)

أنتم الأعلون . فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم . أنتم الأعلون اعتقاداً وتصوراً للحياة . وأنتم الأعلون ارتباطاً وصلة بالعلي الأعلى . وأنتم الأعلون منهجاً وهدفاً وغاية . وأنتم الأعلون شعوراً وخلقاً وسلوكاً . . ثم . . أنتم الأعلون قوة ومكاناً ونصرة . فمعكم القوة الكبرى : ﴿ والله معكم ﴾ . . فلستم وحدكم . إنكم في صحبة العلي الجبار القادر القهار . وهو لكم نصير حاضر معكم . يدافع عنكم . فما يكون أعدائكم هؤلاء والله معكم ؟ وكل ما تبذلون ، وكل ما تفعلون ، وكل ما يصيبكم من تضحيات محسوب لكم ، لا يضيع منه شيء عليكم : ﴿ ولن يتركم أعمالكم ﴾ . . ولن يقطع منها شيئاً لا يصل إليكم أثره ونتيجته وجزاؤه .

فعلام يهن ويضعف ويدعو إلى السلم ، من يقرر الله – سبحانه – له أنه الأعلى . وأنه معه . وأنه لن يفقد شيئاً من عمله . فهو مكرم منصور مأجور ؟

هذه هي اللمسة الأولى . واللمسة الثانية تهوين من شأن هذه الحياة الدنيا ، التي قد يصيبهم

بعض التضحيات فيها .

وتوفية كاملة في الآخرة للأجور مع عدم إيهاظهم ببذل المال مقابل هذه الأجور !

﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو . وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ، ولا يسألكم أموالكم ﴾ . .

(248/710)

والحياة الدنيا لعب ولهو حين لا يكون وراءها غاية أكرم وأبقى . حين تعاش لذاتها مقطوعة عن منهج الله فيها . ذلك المنهج الذي يجعلها مزرعة الآخرة ؛ ويجعل إحسان الخلافة فيها هو الذي يستحق وراثة الدار الباقية . وهذا هو الذي تشير إليه الفقرة التالية في الآية : ﴿ وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ﴾ . . فالإيمان والتقوى في الحياة الدنيا هو الذي يخرجها عن أن تكون لعباً ولهواً ، ويطبعها بطابع الجد ، ويرفعها عن مستوى المتاع الحيواني ، إلى مستوى الخلافة الراشدة ، المتصلة بالملأ الأعلى . ويومئذ لن يكون ما يبذله المؤمن المتقي من عرض هذه الحياة الدنيا ضائعاً ولا مقطوعاً ؛ فعنه ينشأ الأجر الأوفى ، في الدار الأبقى . .

ومع هذا فإن الله لا يسأل الناس أن يبذلوا أموالهم كلها ، ولا يشق عليهم في فرائضه وتكاليفه ، لعلمه سبحانه بشح نفوسهم فطرة وخلقة . وهو لا يكلف نفساً إلا وسعها .

وهو أرحم بهم من أن يكلفهم بذلها كلها ، فتضيق صدورهم وتظهر أضغانهم :

﴿ إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ، ويخرج أضغانكم ﴾ . .

وهذا النص يوحي بحكمة اللطيف الخبير ، كما يوحي برحمته ولطفه بالنفوس . ويكشف عن التقدير الدقيق في تكاليف هذا الدين ، ومراعاته للفطرة ، وتناسقه مع بشرية البشر بكل استعداداتها ، وطاقاتها ، وأحوالها . فهو عقيدة ربانية لإنشاء نظام رباني إنساني . نظام رباني من ناحية أن الله هو الذي يقيم منهجه وقواعده ؛ وإنساني من ناحية أن الله يراعي في تكاليفه طاقة الإنسان وحاجته . والله هو الذي خلق ، وهو أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير .

وفي النهاية يواجههم بواقع حالهم تجاه دعوتهم إلى البذل في سبيل الله ؛ ويعالج شح النفوس بالمال بالوسائل القرآنية ، كما عالج شحها في ذات النفس عند الجهاد :

﴿ ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله . فمنكم من يبخل . ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه . والله الغني وأنتم الفقراء . وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ . .

والآية ترسم صورة وصفية لواقع الجماعة المسلمة يومذاك . ولواقع الناس تجاه الدعوة إلى البذل في كل بيئة . فهي تقرر أن منهم من يبخل . ومعنى هذا أن هنالك من لا يبخلون بشيء . وقد كان هذا واقعاً ، سجلته الروايات الكثيرة الصادقة ، وسجله القرآن في مواضع أخرى . وقد حقق الإسلام في هذا المجال مثلاً تحسب من خوارق الأمثال في البذل والتضحية عن رضى وعن فرح بالبذل والعطاء . ولكن هذا لم يمنع أن يكون هنالك من يبخل بالمال . ولعل الجود بالنفس أرخص عند بعضهم من الجود بالمال !

والقرآن يعالج هذا الشح في هذه الآية :

﴿ ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ﴾ . .

فما يبذله الناس إن هو إلا رصيد لهم مذخور ، يجدونه يوم يحتاجون إلى رصيد ، يوم يحشرون مجردين من كل ما يملكون .

(250/710)

فلا يجدون إلا ذلك الرصيد المذخور . فإذا بخلوا بالبذل , فإنما يبخلون على أنفسهم ; وإنما يقللون من رصيدهم ; وإنما يستخسرون المال في ذواتهم وأشخاصهم ; وإنما يحرمونها بأيديهم !

أجل . فالله لا يطلب إليهم البذل , إلا وهو يريد لهم الخير , ويريد لهم الوفر , ويريد لهم الكنز والذخر . وما يناله شيء مما يبذلون , وما هو في حاجة إلى ما ينفقون:

(والله الغني وأنتم الفقراء) . .

فهو الذي أعطاكم أموالكم , وهو الذي يدخر لكم عنده ما تنفقونه منها . وهو الغني عما أعطاكم في الدنيا , الغني عن أرصدتكم المذخورة في الآخرة . وأنتم الفقراء في الدارين وفي الحالين . أنتم الفقراء إلى رزقه في الدنيا , فما لكم من قدرة على شيء من الرزق إلا أن يهبكم إياه . وأنتم الفقراء إلى أجره في الآخرة , فهو الذي يتفضل به عليكم , وما أنتم بموفين شيئا مما عليكم , فضلا على أن يفضل لكم شيء في الآخرة , إلى أن يتفضل عليكم .

ففيم البخل إذن وفيم الشح ؟ وكل ما في أيديكم , وكل ما ينالكم من أجر على ما تنفقون هو من عند الله , ومن فضل الله ؟

ثم الكلمة الأخيرة وهي فصل الخطاب . .

إن اختيار الله لكم لحمل دعوته تكريم ومن وعطاء . فإذا لم تحاولوا أن تكونوا أهلا لهذا الفضل , وإذا لم تنهضوا بتكاليف هذه المكانة , وإذا لم تدركوا قيمة ما أعطيتم فيهون عليكم كل ما عداه . . فإن الله يسترد , ما وهب , ويختار غيركم لهذه المنة ممن يقدر فضل الله:

(وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم , ثم لا يكونوا أمثالكم) . .

وإنها لنذارة رهيبة لمن ذاق حلاوة الإيمان , وأحس بكرامته على الله , وبمقامه في هذا الكون وهو يحمل هذا السر الإلهي العظيم . ويمشي في الإرض بسلطان الله في قلبه ; ونور الله في كيانه ; ويذهب ويجيء وعليه شارة مولاه . .

(251/710)

وما يطيق الحياة وما يطعمها إنسان عرف حقيقة الإيمان وعاش بها ثم تسلب منه , ويطرد من الكنف ,وتوصد دونه الأبواب . لا بل إن الحياة لتغدو جحيما لا يطاق عند من يتصل بربه ثم يطبق دونه الحجاب .

إن الإيمان هبة ضخمة , لا يعدلها في هذا الوجود شيء ; والحياة رخيصة رخيصة , والمال زهيد زهيد , حين يوضع الإيمان في كفة , ويوضع في الكفة الأخرى كل ما عداه . .

ومن ثم كان هذا الإنذار أهول ما يواجهه المؤمن وهو يتلقاه من الله . . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الظلال حـ 6 صـ 3280 . 3304 ﴾

(252/710)

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

وَمِنْ سُورَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَدْ اقْتَضَى ظَاهِرُهُ وُجُوبَ الْقَتْلِ لَا غَيْرُ إلَّا بَعْدَ الْإِثْخَانِ ، وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى - : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَكَمِ قَالَ : حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْيَمَانِ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَالِحٍ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ صَالِحٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى - : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ قَالَ : " ذَلِكَ يَوْمُ بَدْرٍ وَالْمُسْلِمُونَ يَوْمَئِذٍ قَلِيلٌ ، فَلَمَّا كَثُرُوا وَاشْتَدَّ سُلْطَانُهُمْ أَنْزَلَ اللَّهُ - تَعَالَى - بَعْدَ هَذَا فِي الْأُسَارَى : ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ ، وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ فَجَعَلَ اللَّهُ النَّبِيَّ وَالْمُؤْمِنِينَ فِي الْأُسَارَى بِالْخِيَارِ ، إنْ شَاءُوا قَتَلُوهُمْ ، وَإِنْ شَاءُوا اسْتَعْبَدُوهُمْ ، وَإِنْ شَاءُوا فَادُوهُمْ شَكَّ أَبُو عُبَيْدٍ فِي " ، وَإِنْ شَاءُوا اسْتَعْبَدُوهُمْ " .

(253/710)

وَحَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو مَهْدِيٍّ وَحَجَّاجٌ كِلَاهُمَا عَنْ سُفْيَانَ قَالَ : سَمِعْت السُّدِّيَّ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ قَالَ : هِيَ مَنْسُوخَةٌ نَسَخَهَا قَوْلُهُ : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ .

﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ ﴾ فَإِنَّهُ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ حُكْمًا ثَابِتًا غَيْرَ مَنْسُوخٍ وَذَلِكَ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - أَمَرَ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ بِالْإِثْخَانِ بِالْقَتْلِ وَحَظَرَ عَلَيْهِ الْأَسْرَ إلَّا بَعْدَ إذْلَالِ الْمُشْرِكِينَ وَقَمْعِهِمْ ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي وَقْتِ قِلَّةِ عَدَدِ الْمُسْلِمِينَ وَكَثْرَةِ عَدَدِ عَدُوِّهِمْ مِنْ الْمُشْرِكِينَ ، فَمَتَى أُثْخِنَ الْمُشْرِكُونَ وَأُذِلُّوا بِالْقَتْلِ وَالتَّشْرِيدِ جَازَ الِاسْتِبْقَاءُ .

(254/710)

فَالْوَاجِبُ أَنْ يَكُونَ هَذَا حُكْمًا ثَابِتًا إذَا وُجِدَ مِثْلُ الْحَالِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ ظَاهِرُهُ يَقْتَضِي أَحَدَ شَيْئَيْنِ مِنْ مَنٍّ أَوْ فِدَاءٍ ، وَذَلِكَ يَنْفِي جَوَازَ الْقَتْلِ ، وَقَدْ اخْتَلَفَ السَّلَفُ فِي ذَلِكَ ، حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ

قَالَ : حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْيَمَانِ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا حَجَّاجٌ عَنْ مُبَارَكِ بْنِ فَضَالَةَ عَنْ الْحَسَنِ أَنَّهُ كَرِهَ قَتْلَ الْأَسِيرِ وَقَالَ : " مُنَّ عَلَيْهِ أَوْ فَادِهِ " .

وَحَدَّثَنَا جَعْفَرٌ قَالَ : حَدَّثَنَا جَعْفَرٌ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدٍ قَالَ : أَخْبَرَنَا هُشَيْمٌ قَالَ : أَخْبَرَنَا أَشْعَثُ قَالَ : سَأَلْت عَطَاءً عَنْ قَتْلِ الْأَسِيرِ ، فَقَالَ : " مُنَّ عَلَيْهِ أَوْ فَادِهِ " قَالَ : وَسَأَلْت الْحَسَنَ ، قَالَ : " يُصْنَعُ بِهِ مَا صَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأُسَارَى بَدْرٍ ، يُمَنُّ عَلَيْهِ أَوْ يُفَادَى بِهِ " وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ دُفِعَ إلَيْهِ عَظِيمٌ مِنْ عُظَمَاءِ إصْطَخْرَ لِيَقْتُلَهُ ، فَأَبَى أَنْ يَقْتُلَهُ وَتَلَا قَوْلَهُ : ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ .

(255/710)

وَرُوِيَ أَيْضًا عَنْ مُجَاهِدٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ كَرَاهَةَ قَتْلِ الْأَسِيرِ ، وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ السُّدِّيِّ أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ مَنْسُوخٌ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ وَرُوِيَ مِثْلُهُ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ ، حَدَّثَنَا جَعْفَرٌ قَالَ : حَدَّثَنَا جَعْفَرٌ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا حَجَّاجٌ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ قَالَ : " هِيَ مَنْسُوخَةٌ "

وَقَالَ ﴿ : قَتَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ يَوْمَ بَدْرٍ صَبْرًا ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : اتَّفَقَ فُقَهَاءُ الْأَمْصَارِ عَلَى جَوَازِ قَتْلِ الْأَسِيرِ لَا نَعْلَمُ بَيْنَهُمْ خِلَافًا فِيهِ ، وَقَدْ تَوَاتَرَتْ

الْأَخْبَارُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَتْلِهِ الْأَسِيرَ ، مِنْهَا قَتْلُهُ عَقَبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ وَالنَّضْرَ بْنَ الْحَارِثِ بَعْدَ الْأَسْرِ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَقَتَلَ يَوْمَ أُحُدٍ أَبَا عَزَّةَ الشَّاعِرَ بَعْدَمَا أُسِرَ ، وَقَتَلَ بَنِي قُرَيْظَةَ بَعْدَ نُزُولِهِمْ عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ .

(256/710)

فَحَكَمَ فِيهِمْ بِالْقَتْلِ وَسَبْيِ الذُّرِّيَّةِ وَمَنَّ عَلَى الزُّبَيْرِ بْنِ بَاطَا مِنْ بَيْنِهِمْ ، وَفَتَحَ خَيْبَرَ بَعْضَهَا صُلْحًا وَبَعْضَهَا عَنْوَةً ، وَشَرَطَ عَلَى ابْنِ أَبِي الْحَقِيقِ أَنْ لَا يَكْتُمَ شَيْئًا فَلَمَّا ظَهَرَ عَلَى خِيَانَتِهِ وَكِتْمَانِهِ قَتَلَهُ ، وَفَتَحَ مَكَّةَ وَأَمَرَ بِقَتْلِ هِلَالِ بْنِ خَطَلٍ وَمَقِيسِ بْنِ صَبَابَةَ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ وَآخَرِينَ وَقَالَ : ﴿ اقْتُلُوهُمْ ، وَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمْ مُتَعَلِّقِينَ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ ﴾ وَمَنَّ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ وَلَمْ يَغْنَمْ أَمْوَالَهُمْ .

وَرُوِيَ عَنْ صَالِحِ بْنِ كَيْسَانَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِيهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ يَقُولُ : " وَدِدْتُ أَنِّي يَوْمَ أُتِيتُ بِالْفُجَاءَةِ لَمْ أَكُنْ أَحْرَقْتُهُ وَكُنْتُ قَتَلْتُهُ صَرِيحًا أَوْ أَطْلَقْتُهُ نَجِيحًا " وَعَنْ أَبِي مُوسَى أَنَّهُ قَتَلَ دِهْقَانَ السُّوسِ بَعْدَمَا أَعْطَاهُ الْأَمَانَ عَلَى قَوْمٍ سَمَّاهُمْ وَنَسِيَ نَفْسَهُ فَلَمْ يُدْخِلْهَا فِي الْأَمَانِ فَقَتَلَهُ فَهَذِهِ آثَارٌ مُتَوَاتِرَةٌ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَنْ الصَّحَابَةِ فِي جَوَازِ قَتْلِ الْأَسِيرِ وَفِي اسْتِبْقَائِهِ وَاتَّفَقَ فُقَهَاءُ الْأَمْصَارِ

عَلَى ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا فِي فِدَائِهِ ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا جَمِيعًا : "يُفَادَى الْأَسِيرُ بِالْمَالِ وَلَا يُبَاعُ السَّبْيُ مِنْ

(257/710)

أَهْلِ الْحَرْبِ فَيَرُدُّوا حَرْبًا " وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : لَا يُفَادُونَ بِأَسْرَى الْمُسْلِمِينَ أَيْضًا وَلَا يُرَدُّونَ حَرْبًا أَبَدًا " وَقَالَ أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ : " لَا بَأْسَ أَنْ يُفَادَى أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ بِأَسْرَى الْمُشْرِكِينَ " ، وَهُوَ قَوْلُ الثَّوْرِيِّ وَالْأَوْزَاعِيِّ وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ : " لَا بَأْسَ بِبَيْعِ السَّبْيِ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ وَلَا يُبَاعُ الرِّجَالُ إلَّا أَنْ يُفَادَى بِهِمْ الْمُسْلِمُونَ " وَقَالَ الْمُزَنِيّ عَنْ الشَّافِعِيِّ : " لِلْإِمَامِ أَنْ يَمُنَّ عَلَى الرِّجَالِ الَّذِينَ ظَهَرَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُفَادِي بِهِمْ " فَأَمَّا الْمُجِيزُونَ لِلْفِدَاءِ بِأَسْرَى الْمُسْلِمِينَ وَبِالْمَالِ فَإِنَّهُمْ احْتَجُّوا بِقَوْلِهِ : ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ ، وَظَاهِرُهُ يَقْتَضِي جَوَازَهُ بِالْمَالِ وَبِالْمُسْلِمِينَ ، وَبِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ فَدَى أُسَارَى بَدْرٍ بِالْمَالِ ﴾ وَيَحْتَجُّونَ لِلْفِدَاءِ بِالْمُسْلِمِينَ بِمَا رَوَى ابْنُ الْمُبَارَكِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ أَيُّوبَ عَنْ أَبِي قِلَابَةَ عَنْ أَبِي الْمُهَلَّبِ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حَصِينٍ قَالَ ﴿ : أَسَرَتْ ثَقِيفُ رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَسَرَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا مِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ ، فَمُرَّ بِهِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُوثَقٌ ، فَأَقْبَلَ إلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ فَقَالَ : عَلَامَ أُحْبَسُ ؟ قَالَ : بِجَرِيرَةِ حُلَفَائِك فَقَالَ الْأَسِيرُ : إنِّي مُسْلِمٌ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَوْ قُلْتَهَا

(258/710)

وَأَنْتَ تَمْلِكُ أَمْرَك لَأَفْلَحَتْ كُلَّ الْفَلَاحِ ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَادَاهُ أَيْضًا ، فَأَقْبَلَ فَقَالَ : إنِّي جَائِعٌ فَأَطْعِمْنِي فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هَذِهِ حَاجَتُك ﴾ ، ثُمَّ ﴿ إنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَاهُ بِالرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ كَانَتْ ثَقِيفٌ أَسَرَتْهُمَا .

﴿ وَرَوَى

ابْنُ عُلَيَّةَ عَنْ أَيُّوبَ عَنْ أَبِي قِلَابَةَ عَنْ أَبِي الْمُهَلَّبِ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حَصِينٍ ﴾ : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَى رَجُلَيْنِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ بِرَجُلٍ مِنْ الْمُشْرِكِينَ مِنْ بَنِي عَقِيلٍ ﴾ وَلَمْ يَذْكُرْ إسْلَامَ الْأَسِيرِ ، وَذَكَرَهُ فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ وَلَا خِلَافَ أَنَّهُ لَا يُفَادَى الْآنَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ ؛ لِأَنَّ الْمُسْلِمَ لَا يُرَدُّ إلَى أَهْلِ الْحَرْبِ ، وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَرَطَ فِي صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ لِقُرَيْشٍ أَنَّ مَنْ جَاءَ مِنْهُمْ مُسْلِمًا رَدَّهُ عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ وَنَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الْإِقَامَةِ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ وَقَالَ ﴿ : أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ مَعَ مُشْرِكٍ ﴾ – وَقَالَ ﴿ : مَنْ أَقَامَ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ الذِّمَّةُ .

﴿ وَأَمَّا مَا فِي الْآيَةِ مِنْ ذِكْرِ الْمَنِّ أَوْ الْفِدَاءِ وَمَا رُوِيَ فِي أُسَارَى بَدْرٍ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَنْسُوخٌ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ .

وَقَدْ رَوَيْنَا ذَلِكَ عَنْ السُّدِّيِّ وَابْنِ جُرَيْجٍ وقَوْله تَعَالَى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ إلَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ فَتَضَمَّنَتْ الْآيَتَانِ وُجُوبَ الْقِتَالِ لِلْكُفَّارِ حَتَّى يُسْلِمُوا أَوْ يُؤَدُّوا الْجِزْيَةَ ، وَالْفِدَاءُ بِالْمَالِ أَوْ بِغَيْرِهِ يُنَافِي ذَلِكَ وَلَمْ يَخْتَلِفْ أَهْلُ التَّفْسِيرِ وَنَقَلَةُ الْآثَارِ أَنَّ سُورَةَ بَرَاءَةٍ بَعْدَ سُورَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْحُكْمُ الْمَذْكُورُ فِيهَا نَاسِخًا لِلْفِدَاءِ الْمَذْكُورِ فِي غَيْرِهَا .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ قَالَ الْحَسَنُ : " حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَلَا يُشْرَكَ بِهِ غَيْرُهُ " وَقَالَ

سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : " خُرُوجُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ وَيَلْقَى الذِّئْبُ الشَّاةَ فَلَا يَعْرِضُ لَهَا وَلَا تَكُونُ عَدَاوَةٌ بَيْنَ اثْنَيْنِ " وَقَالَ الْفَرَّاءُ : " آثَامُهَا

وَشِرْكُهَا حَتَّى لَا يَكُونَ إلَّا مُسْلِمٌ أَوْ مُسَالِمٌ " قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَكَأَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ إيجَابُ الْقِتَالِ إلَى أَنْ لَا يَبْقَى مَنْ يُقَاتِلُ .

(260/710)

وقَوْله تَعَالَى - : ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاَللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ : " لَا تَضْعُفُوا عَنْ الْقِتَالِ وَتَدْعُوا إلَى الصُّلْحِ " وَحَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ الجرجاني قَالَ : أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْله تَعَالَى - : ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إلَى السَّلْمِ ﴾ قَالَ : " لَا تَكُونُوا أَوَّلَ الطَّائِفَتَيْنِ ضَرَعَتْ إلَى صَاحِبَتِهَا " ﴿ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ ﴾ قَالَ : " أَنْتُمْ أَوْلَى بِاَللَّهِ مِنْهُمْ " قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى امْتِنَاعِ جَوَازِ طَلَبِ الصُّلْحِ مِنْ الْمُشْرِكِينَ .

وَهُوَ بَيَانٌ لِمَا أَكَّدَ فَرْضَهُ مِنْ قِتَالِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ حَتَّى يُسْلِمُوا وَقِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَمُشْرِكِي الْعَجَمِ حَتَّى يُسْلِمُوا أَوْ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ ، وَالصُّلْحُ عَلَى غَيْرِ إعْطَاءِ الْجِزْيَةِ خَارِجٌ عَنْ مُقْتَضَى الْآيَاتِ الْمُوجِبَةِ لِمَا وَصَفْنَا ، فَأَكَّدَ النَّهْيَ عَنْ الصُّلْحِ بِالنَّصِّ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، وَفِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَدْخُلْ مَكَّةَ صُلْحًا ، وَإِنَّمَا فَتَحَهَا عَنْوَةً ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ نَهَاهُ عَنْ الصُّلْحِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَأَخْبَرَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ هُمْ الْأَعْلَوْنَ الْغَالِبُونَ ، وَمَتَى دَخَلَهَا صُلْحًا

بِرِضَاهُمْ فَهُمْ مُتَسَاوُونَ ؛ إذْ كَانَ حُكْمُ مَا يَقَعُ بِتَرَاضِي الْفَرِيقَيْنِ فَهُمَا مُتَسَاوِيَانِ فِيهِ لَيْسَ أَحَدُهُمَا بِأَوْلَى بِأَنْ يَكُونَ غَالِبًا عَلَى صَاحِبِهِ مِنْ الْآخَرِ .

(261/710)

وقَوْله تَعَالَى - : ﴿ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ يُحْتَجُّ بِهِ فِي أَنَّ كُلَّ مَنْ دَخَلَ فِي قُرْبَةٍ لَا يَجُوزُ لَهُ الْخُرُوجُ مِنْهَا قَبْلَ إتْمَامِهَا لِمَا فِيهِ مِنْ إبْطَالِ عَمَلِهِ نَحْوِ الصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ وَالْحَجِّ وَغَيْرِهِ .

آخِرُ سُورَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(262/710)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

[فِيهَا ثَلَاثُ آيَاتٍ]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ .

فِيهَا تِسْعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي إعْرَابِهَا : قَالَ الْمُعْرِبُونَ : هُوَ مَنْصُوبٌ بِفِعْلٍ مُضْمَرٍ دَلَّ عَلَيْهِ الْمَصْدَرُ ، تَقْدِيرُهُ فَاضْرِبُوا الرِّقَابَ ضَرْبًا .

وَعِنْدِي أَنَّهُ مُقَدَّرٌ بِقَوْلِك : اقْصِدُوا ضَرْبَ الرِّقَابِ ، وَكَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ مَعْنَاهُ افْعَلُوا ذَلِكَ .

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي رِسَالَةِ الْإِلْجَاءِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ : فِيهَا قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُمْ الْمُشْرِكُونَ ؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ .

الثَّانِيَةُ كُلُّ مَنْ لَا عَهْدَ لَهُ وَلَا ذِمَّةَ ؛ وَهُوَ الصَّحِيحُ لِعُمُومِ الْآيَةِ فِيهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ فِي الْمُرَادِ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ ضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ الْقِتَالُ ؛ قَالَهُ السُّدِّيُّ .

الثَّانِي : أَنَّهُ قَتْلُ الْأَسِيرِ صَبْرًا .

وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ فِي الْقِتَالِ ، وَهُوَ اللِّقَاءُ ، وَإِنَّمَا نَسْتَفِيدُ قَتْلَ الْأَسِيرِ صَبْرًا مِنْ فِعْلِ النَّبِيِّ صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُ وَأَمْرِهِ بِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ قَوْله تَعَالَى .

(263/710)

﴿ حَتَّى إذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ .

الْمَعْنَى اقْتُلُوهُمْ حَتَّى إذَا كَثُرَ ذَلِكَ ، وَأَخَذْتُمْ مَنْ بَقِيَ فَأَوْثِقُوهُمْ شَدًّا ؛ فَإِمَّا أَنْ تَمُنُّوا عَلَيْهِمْ فَتُطْلِقُوهُمْ بِغَيْرِ شَيْءٍ ، وَإِمَّا أَنْ تُفَادُوهُمْ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ كَمَا فَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَبِي عِزَّةَ وَبِثُمَامَةَ .

وَقَالَ مُقَاتِلٌ : هُوَ الْعِتْقُ ، وَكَذَلِكَ رَوَى ابْنُ وَهْبٍ وَابْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ .

وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ ؛ فَإِنَّ الْإِسْقَاطَ وَالتَّرْكَ مَعْنًى ، وَالْعِتْقَ مَعْنًى ، وَإِنْ كَانَ فِي الْعِتْقِ مَعْنَى التَّرْكِ فَلَيْسَ حُكْمُهُ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ ﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ ، وَيَعْنِي ثِقَلَهَا ، وَعَبَّرَ عَنْ السِّلَاحِ بِهِ لِثِقَلِ حَمْلِهَا ، وَفِي ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا حَتَّى يُؤْمِنُوا وَيَذْهَبَ الْكُفْرُ ؛ قَالَهُ الْفَرَّاءُ .

الثَّانِي حَتَّى يُسْلِمَ الْخَلْقُ ؛ قَالَهُ الْكَلْبِيُّ .

الثَّالِثُ حَتَّى يَنْزِلَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ؛ قَالَهُ مُجَاهِدٌ .

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هَلْ هِيَ مَنْسُوخَةٌ أَوْ مُحَكَّمَةٌ ؟ فَقِيلَ : هِيَ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ ؛ قَالَهُ السُّدِّيُّ .

الثَّانِي : أَنَّهَا مَنْسُوخَةٌ فِي أَهْلِ الْأَوْثَانِ فَإِنَّهُمْ لَا يُعَاهَدُونَ .

وَقِيلَ : إنَّهَا مُحَكَّمَةٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ ؛ قَالَهُ الضَّحَّاكُ .

(264/710)

الثَّالِثُ أَنَّهَا مُحَكَّمَةٌ بَعْدَ الْإِثْخَانِ ؛ قَالَهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ ، لِقَوْلِهِ : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ .

وَالتَّحْقِيقُ الصَّحِيحُ أَنَّهَا مُحَكَّمَةٌ فِي الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ ، حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي الْقِسْمِ الثَّانِي .

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ فِي التَّنْقِيحِ : اعْلَمُوا وَفَّقَكُمْ اللَّهُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مِنْ أُمَّهَاتِ الْآيَاتِ وَمُحْكَمَاتِهَا ؛ أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِيهَا بِالْقِتَالِ ، وَبَيَّنَ كَيْفِيَّتَهُ كَمَا بَيَّنَهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ حَسْبَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي الْأَنْفَالِ ؛ فَإِذَا تَمَكَّنَ الْمُسْلِمُ مِنْ عُنُقِ الْكَافِرِ أَجْهَزَ عَلَيْهِ ، وَإِذَا تَمَكَّنَ مِنْ ضَرْبِ يَدِهِ الَّتِي يَدْفَعُ بِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَيَتَنَاوَلُ بِهَا قِتَالَ غَيْرِهِ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِ ؛ فَإِنْ لَمْ يَتَمَكَّنْ إلَّا ضَرْبَ فَرَسِهِ الَّتِي يَتَوَصَّلُ بِهَا إلَى مُرَادِهِ فَيَصِيرُ حِينَئِذٍ رَاجِلًا مِثْلَهُ أَوْ دُونَهُ ، فَإِنْ كَانَ فَوْقَهُ قَصَدَ مُسَاوَاتِهِ ، وَإِنْ كَانَ مِثْلَهُ قَصَدَ حَطِّهِ ، وَالْمَطْلُوبُ

نَفْسُهُ ، وَالْمَآلُ إعْلَاءُ كَلِمَةِ اللَّهِ تَعَالَى ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمَّا أَمَرَ بِالْقِتَالِ أَوَّلًا ، وَعَلِمَ أَنْ سَتَبْلُغُ إلَى الْإِثْخَانِ وَالْغَلَبَةِ بَيَّنَ سُبْحَانَهُ حُكْمَ الْغَلَبَةِ بِشَدِّ الْوَثَاقِ ، فَيَتَخَيَّرُ حِينَئِذٍ الْمُسْلِمُونَ بَيْنَ الْمَنِّ وَالْفِدَاءِ .

وَبِهِ قَالَ الشَّافِعِيُّ .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : إنَّمَا لَهُمْ الْقَتْلُ وَالِاسْتِرْقَاقُ ؛ وَهَذِهِ الْآيَةُ عِنْدَهُ مَنْسُوخَةٌ .

(265/710)

وَالصَّحِيحُ إحْكَامُهَا ؛ فَإِنَّ شُرُوطَ النَّسْخِ مَعْدُومَةٌ فِيهَا مِنْ الْمُعَارَضَةِ ، وَتَحْصِيلِ الْمُتَقَدِّمِ مِنْ الْمُتَأَخِّرِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ فَلَا حُجَّةَ فِيهِ ؛ لِأَنَّ التَّشْرِيدَ قَدْ يَكُونُ بِالْمَنِّ وَالْفِدَاءِ وَالْقَتْلِ ، فَإِنَّ طَوْقَ الْمَنِّ يُثْقِلُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ ، وَيَذْهَبُ بِنَفَاسَةِ نُفُوسِهِمْ ، وَالْفِدَاءُ يُجْحِفُ بِأَمْوَالِهِمْ ؛ ﴿ وَلَمْ يَزَلْ الْعَبَّاسُ تَحْتَ ثِقَلِ فِدَاءِ بَدْرٍ حَتَّى أَدَّى عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴾ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ فَقَدْ قَالَ : وَاحْصُرُوهُمْ ؛ فَأَمَرَ بِالْأَخْذِ كَمَا أَمَرَ بِالْقَتْلِ .

فَإِنْ قِيلَ : أَمَرَ بِالْأَخْذِ لِلْقَتْلِ .

قُلْنَا : أَوْ لِلْمَنِّ وَالْفِدَاءِ .

(266/710)

وَقَدْ عَضَّدَتْ السُّنَّةُ ذَلِكَ كُلَّهُ ؛ فَرَوَى مُسْلِمٌ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ مِنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ جَارِيَةً فَفَدَى بِهَا نَاسًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ ، وَقَدْ هَبَطَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ قَوْمٌ ، فَأَخَذَهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنَّ عَلَيْهِمْ ﴾ ، وَقَدْ مَنَّ عَلَى سِبْيِ هَوَازِنَ ، وَقَتَلَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ صَبْرًا فَقَالَتْ أُخْتُهُ قُتَيْلَةُ تَرْثِيهِ : يَا رَاكِبًا إنَّ الْأَثِيلَ مَظِنَّةٌ مِنْ صُبْحِ خَامِسَةٍ وَأَنْتَ مُوَفَّقٌ أَبْلِغْ بِهَا مَيِّتًا بِأَنَّ تَحِيَّةً مَا إنْ تَزَالُ بِهَا النَّجَائِبُ تَخْفِقُ مِنِّي إلَيْهِ وَعَبْرَةً مَسْفُوحَةً جَادَتْ بِوَاكِفِهَا وَأُخْرَى تَخْنُقُ فَلْيَسْمَعْنَ النَّضْرُ إنْ نَادَيْته إنْ كَانَ يَسْمَعُ مَيِّتٌ أَوْ يَنْطِقُ أَمُحَمَّدٌ وَلَأَنْتَ ضِنْءُ كَرِيمَةٍ فِي قَوْمِهَا وَالْفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرِقٌ مَا كَانَ ضَرَّكَ لَوْ مَنَنْت وَرُبَّمَا مِنْ الْفَتَى وَهُوَ الْمَغِيظُ الْمُحْنَقُ لَوْ كُنْت قَابِلَ فِدْيَةٍ لَفَدَيْتُهُ بِأَعَزِّ مَا يُغْلَى بِهِ مَنْ يُنْفِقُ وَالنَّضْرُ أَقْرَبُ مِنْ أَسَرْت قَرَابَةً وَأَحَقُّهُمْ لَوْ كَانَ عِتْقٌ يُعْتَقُ ظَلَّتْ رِمَاحُ بَنِي أَبِيهِ تَنُوشُهُ لِلَّهِ أَرْحَامٌ هُنَاكَ تُشَقَّقُ صَبْرًا يُقَادُ إلَى الْمَنِيَّةِ مَتْعَبًا رَسْفَ الْمُقَيَّدِ وَهُوَ عَانٍ مُوثَقُ فَالنَّظَرُ إلَى الْإِمَامِ حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ .

وَأَمَّا قَوْله تَعَالَى : ﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ فَمَعْنَاهُ عِنْدَ قَوْمٍ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ آثَامَهَا يُرِيدُونَ بِأَنْ يُسْلِمَ الْكُلُّ ، فَلَا يَبْقَى كَافِرٌ ؛ وَيُؤَوَّلُ مَعْنَاهُ إلَى أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ حَتَّى يَنْقَطِعَ الْجِهَادُ ؛ وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ؛ ﴿ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ؛ الْأَجْرُ وَالْمَغْنَمُ ﴾ .

وَمَنْ ذَكَرَ نُزُولَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا هُوَ لِأَجْلِ مَا رُوِيَ أَنَّهُ إذَا نَزَلَ لَا يَبْقَى كَافِرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا جِزْيَةٌ ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَبْقَى مَنْ لَا كِتَابَ لَهُ ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُ جِزْيَةٌ فِي أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ . وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي كُتُبِ الْحَدِيثِ .

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ فِي تَتْمِيمِ الْقَوْلِ : قَالَ الْحَسَنُ وَعَطَاءٌ : فِي الْآيَةِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ : الْمَعْنَى فَضَرْبُ الرِّقَابِ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ، فَإِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ .

وَلَيْسَ لِلْإِمَامِ أَنْ يَقْتُلَ الْأَسِيرَ .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ الْحَجَّاجِ أَنَّهُ دَفَعَ أَسِيرًا إلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ لِيَقْتُلَهُ ، فَأَبَى وَقَالَ : لَيْسَ بِهَذَا أَمَرَنَا اللَّهُ ، وَقَرَأَ : ﴿ حَتَّى إذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ﴾ .

قُلْنَا : قَدْ قَالَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفَعَلَهُ ، وَلَيْسَ فِي تَفْسِيرِ اللَّهِ لِلْمَنِّ وَالْفِدَاءِ مَنْعٌ مِنْ غَيْرِهِ ؛ فَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ فِي الزِّنَا حُكْمَ ، الْجَلْدِ ، وَبَيَّنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُكْمَ الرَّجْمِ ؛ وَلَعَلَّ ابْنَ عُمَرَ كَرِهَ ذَلِكَ مِنْ يَدِ الْحَجَّاجِ فَاعْتَذَرَ بِمَا قَالَ ، وَرَبُّك أَعْلَمُ .

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ .

اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِيمَنْ افْتَتَحَ نَافِلَةً مِنْ صَوْمٍ أَوْ صَلَاةٍ ، ثُمَّ أَرَادَ تَرْكَهَا قَالَ الشَّافِعِيُّ : لَهُ ذَلِكَ .

وَقَالَ مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ : لَيْسَ لَهُ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ إبْطَالٌ لِعَمَلِهِ الَّذِي انْعَقَدَ لَهُ .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : هُوَ تَطَوُّعٌ فَإِلْزَامُهُ إيَّاهُ يُخْرِجُهُ عَنْ الطَّوَاعِيَةِ .

قُلْنَا : إنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ قَبْلَ الشُّرُوعِ فِي الْعَمَلِ ، فَإِذَا شُرِّعَ لَزِمَهُ كَالشُّرُوعِ فِي الْمُعَامَلَاتِ .

الثَّانِي : أَنَّهُ لَا تَكُونُ عِبَادَةٌ بِبَعْضِ رَكْعَةٍ وَلَا بَعْضِ يَوْمٍ فِي صَوْمٍ ؛ فَإِذَا قَطَعَ فِي بَعْضِ الرَّكْعَةِ أَوْ فِي بَعْضِ الْيَوْمِ إنْ قَالَ : إنَّهُ يُعْتَدُّ بِهِ نَاقَضَ الْإِجْمَاعَ ، وَإِنْ قَالَ : إنَّهُ لَيْسَ بِشَيْءٍ فَقَدْ نَقَضَ الْإِلْزَامَ ، وَذَلِكَ مُسْتَقْصًى فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ .

الْآيَةُ الثَّالِثَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاَللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ

أَعْمَالَكُمْ ﴾ .

قَدْ بَيَّنَّا حُكْمَ الصُّلْحِ مَعَ الْأَعْدَاءِ فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ .

(269/710)

وَقَدْ نَهَى اللَّهُ تَعَالَى [هَاهُنَا] عَنْهُ مَعَ الْقَهْرِ وَالْغَلَبَةِ لِلْكُفَّارِ ، وَذَلِكَ بَيِّنٌ ، وَإِنَّ الصُّلْحَ إِنَّمَا هُوَ إِذَا كَانَ لَهُ وَجْهٌ يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَيْهِ ، وَيُفِيدُ فَائِدَةً ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ لَا رَبَّ غَيْرُهُ ، وَلَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُهُ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(270/710)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة محمد صلى الله عليه وسلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله : ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ : يجوزُ فيه الرفعُ على الابتداءِ . والخبرُ الجملةُ مِنْ قولِه : " أَضَلَّ

أعمالَهم " ، ويجوزُ نصبُه على الاشتغالِ بفعلٍ مقدرٍ يُفَسِّرُه " أضَلَّ " من حيثُ المعنى أي : خَيَّبَ الذين كفروا .

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (2)

قوله : ﴿ والذين آمَنُواْ ﴾ : يجوز فيه الوجهان المتقدمان . وتقديرُ الفعلِ : " رَحِمَ الذين آمنوا " .

قوله : ﴿ بِمَا نُزِّلَ على مُحَمَّدٍ ﴾ العامَّةُ على بنائِه للمفعول مشدَّداً . وزيد ابن علي وابن مقسم " نَزَّل " مبنياً للفاعل ، وهو اللَّهُ تعالى . والأعمش " أُنْزِل " بهمزة التعدية مبنياً للمفعول . وقُرِئ " نَزَلَ " ثلاثياً مبنياً للفاعل .

قوله : " وهو الحقُّ " جملةٌ معترضةٌ بين المبتدأ والخبرِ ، أو بين المفسَّر والمفسِّر . وتقدَّم تفسيرُ البال في طه .

ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (3)

قوله : ﴿ ذَلِكَ ﴾ : فيه وجهان ، أظهرهما : أنه مبتدأٌ . والخبرُ الجارُّ بعدَه . والثاني : قاله الزمخشري أنَّه خبرُ مبتدأ مضمرٍ أي : الأمرُ ذلك بسببِ كذا . فالجارُّ في محلِّ نصبٍ . قال الشيخ : " ولا حاجةَ إليه " .

قوله : "كذلك يَضْرِبُ" خرَّجَه الزمخشريُّ على : مِثْلَ ذلك الضربِ يَضْرِبُ اللَّهُ للناسِ أمثالَهم . والضميرُ راجعٌ إلى الفريقين أو إلى الناسِ ، على معنى : أنه يَضْرِبُ أمثالَهم لأجلِ الناس ليَعْتَبِروا .

(271/710)

فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (4)

قوله : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ﴾ : العاملُ في هذا الظرفِ فعلٌ مقدر هو العاملُ في " ضَرْبَ الرِّقاب " تقديرُه : فاضربوا الرقابَ وقتَ ملاقاتِكم العدوَّ . ومنع أبو البقاء أَنْ يكونَ المصدر نفسُه عاملاً قال : " لأنه مؤكَّدٌ " . وهذا أحدُ القولَيْن في المصدرِ النائبِ عن الفعل نحو : " ضَرْباً زيداً " هل العملُ منسوبٌ إليه أم إلى عامِله ؟ ومنه :

4050 على حينَ أَلْهى الناسَ جُلُّ أُمورِهمْ . . . فَنَدْلاً زُرَيْقُ المالَ نَدْلَ الثَّعالبِ

فالمالَ منصوبٌ : إمَّا ب " انْدُلْ " أو ب " نَدْلا " ، والمصدر هنا أُضيف إلى معمولِه . وبه اسْتُدِلَّ على أنَّ العملَ للمصدرِ لإضافتِه إلى ما بعدَه ، ولو لم يكنْ عامِلاً لما أُضِيْفَ إلى ما

بعده .

قوله : " حتى إذا " هذه غايةٌ للأمرِ بضَرْبِ الرقاب . وقرأ السُّلَمِيُّ " فَشِدُّوا " بكسر الشين . وهي ضعيفةٌ جداً . والوَثاق بالفتح – وفيه الكسر – اسمُ ما يُوْثَقُ به .

قوله : ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ فيهما وجهان ، أشهرهما : أنهما منصوبان على المصدر بفعلٍ لا يجوزُ إظهارُه ؛ لأنَّ المصدرَ متى سِيْقَ تفصيلاً لعاقبةِ جملةٍ وَجَبَ نصبُه بإضمارِ فِعْلٍ لا يجوزُ إظهارُه والتقديرُ : فإمَّا أَنْ تَمُنُّوا مَنًّا ، وإمَّا تُفادُوا فداءً . ومثله :

4051 لأَجْهَدَنَّ فإمَّا دَرْءُ واقِعَةٍ . . . تُخْشَى وإمَّا بلوغُ السُّؤْلِ والأَمَلِ

(272/710)

والثاني : – قاله أبو البقاء – أنهما مفعولان بهما لعاملٍ مقدرٍ تقديره : " أَوْلُوْهُمْ مَنّاً ، واقْبَلوا منهم فداءً " . قال الشيخ : " وليس بإعرابٍ نحوي " . وقرأ ابن كثير " فِدَى " بالقصر . قال أبو حاتم : " لا يجوزُ ؛ لأنه مصدرُ فادَيْتُه " ولا يُلْتَفت إليه ؛ لأنَّ الفراءَ حكى فيه أربعَ لغاتٍ : المشهورةُ المدُّ والإعرابُ : فداء لك ، وفداءٍ بالمد أيضاً والبناء على الكسر والتنوين ، وهو غريبٌ جداً . وهذا يُشْبه قولَ بعضِهم " هؤلاءٍ " بالتنوين ، وفِدى بالكسر مع القصر ، وفَدَى بالفتح مع القصرِ أيضاً .

والأَوْزارُ هنا : الأَثْقال ، وهو مجازٌ . قيل : هو مِنْ مجاز الحَذْف أي : أهل الحرب .

والأَوْزار عبارةٌ عن آلاتِ الحرب . قال الشاعر :

4052 وأَعْدَدْت للحَرْبِ أوزارَها . . . رِماحاً طِوالاً وخَيْلاً ذُكوراً

و" حتى " الأولى غايةٌ لضَرْبِ الرِّقاب ، والثانيةُ لـ " شُدُّوا " . ويجوز أَنْ يكونا غايتين لضَرْبِ الرِّقاب ، على أنَّ الثانيةَ توكيدٌ أو بدلٌ .

قوله : " ذلك " يجوز أَنْ يكونَ خبرَ مبتدأ مضمرٍ أي : الأمرُ ذلك ، وأَنْ ينتصِبَ بإضمارِ افْعَلوا .

قوله : " لِيَبْلُوَ بَعْضَكم " أي : ولكنْ أَمَرَكم بالقتال لِيَبْلُوَ .

قوله : " قُتِلُوا " قرأ العامَّةُ " قاتلوا " وأبو عمرو وحفص " قُتِلوا " مبنياً للمفعولِ على معنى : أَنَّهم قُتِلوا وماتوا ، أصاب القتلُ بعضَهم كقولِه : ﴿ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ ﴾ . وقرأ الجحدري " قَتَلوا " بفتح القاف والتاءِ خفيفةً ، ومفعولُه محذوفٌ . وزيد بن ثابت والحسن وعيسى " قُتِّلوا " بتشديد التاء مبنياً للمفعول . /

وقرأ أمير المؤمنين علي " تُضَلَّ " مبنياً للمفعولِ " أعمالُهم " بالرفع لقيامِه مَقامَ الفاعلِ .

وقُرِئَ " تَضِلَّ " بفتح التاء ، " أعمالُهم " بالرفع فاعلاً .

وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (6)

قوله : ﴿ عَرَّفَهَا ﴾ : يجوزُ فيها وجهان ، أحدهما : أَنْ تكونَ مستأنفةً . والثاني : أَنْ تكونَ حالاً فيجوز أَنْ تُضْمِرَ " قد " وأن لا تُضْمِرَ . و " عَرَّفها " : من التعريف الذي هو ضدُّ الجهل . وقيل : من الرَّفْع . وقيل : من العَرْف وهو الطِّيب . وقرأ أبو عمرو في رواية " ويُدْخِلْهم " بسكون اللامِ . وكذا ميمُ ﴿ نُطْعِمُكُمْ ﴾ [الانسان : 9] وعين ﴿ يَجْمَعُكُمْ ﴾ [التغابن : 9] كأنه يَسْتَثْقِلُ الحركاتِ . وقد قرأتُ له بذلك في ﴿ يُشْعِرُكُمْ ﴾ [الأنعام : 109] و ﴿ يَنصُرُكُمْ ﴾ [الملك : 20] وبابه .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7)

قوله : ﴿ وَيُثَبِّتْ ﴾ : قرأه العامَّةُ مُشَدَّداً . ورُوي عن عاصم تخفيفُه مِنْ أَثْبَتَ .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (8)

قوله : ﴿ والذين كَفَرُواْ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ مبتدأً ، والخبرُ محذوفٌ . تقديره : فَتَعِسُوا وأُتْعِسُوا ، يَدُلُّ عليه " فَتَعْساً " فتعساً منصوبٌ بالخبرِ . ودَخَلَتِ الفاءُ تشبيهاً للمبتدأ بالشرط . وقدَّرَ الزمخشري الفعلَ الناصبَ لـ " تَعْساً " فقال : " لأنَّ المعنى : فقال تعساً

أي : فقضى تَعْساً لهم " . قال الشيخ : " وإضمارُ ما هو من لفظِ المصدر أَوْلَى " . والثاني : أنه منصوبٌ بفعلٍ مقدر يُفَسِّره " فتَعْساً لهم " كما تقول : زيداً جَدْعاً له ، كذا قال الشيخ تابعاً للزمخشريّ . وهذا لا يجوز لأنَّ " لهم " لا يتعلَّقُ ب " تَعْساً " ، إنما هو متعلقٌ بمحذوفٍ لأنَّه بيانٌ أي : أعني لهم : وقد تقدَّم تحقيقُ هذا والاستدلالُ عليه . فإنْ عَنَيا إضماراً مِنْ حيث مطلقُ الدلالةِ لا من جهةِ الاشتغالِ فَمُسَلَّمٌ ، ولكنْ تَأْباه عبارتُهما وهي قولُهما : منصوبٌ بفعلٍ مضمرٍ يُفَسره " فَتَعْساً لهم " ، و " أَضَلَّ " عطفٌ على ذلك الفعل المقدرِ أي : أتعسَهُم وأضلَّ أعمالهم . والتَّعْسُ : ضدُّ السَّعْدِ يقال : تَعَسَ الرجلُ بالفتح تَعْساً وأَتْعَسَهُ اللَّهُ . قال مجمّع :

4053 تقولُ وقد أَفْرَدْتُها مِنْ حَلِيلِها . . . تَعِسْتَ كما أَتْعَسْتَني يا مُجَمِّعُ

وقيل : تَعِس بالكسرِ ، عن أبي الهيثم وشَمِر وغيرِهما . وعن أبي عبيدة : تَعَسَه وأَتْعَسَه متعدّيان فهما مما اتَّفَق فيهما فَعَل وأَفْعَل وقيل : التَّعْسُ ضدُّ الانتعاش . قال الزمخشري : " وتَعْساً له نقيض لَعَا له " يعني أنَّ كلمةَ " لَعا " بمعنى انتعش . قال الأعشى :

4054 بذاتِ لَوْثٍ عَفَرْناةٍ ، إذا عَثَرَتْ . . . فالتَّعْسُ أَدْنى لها مِنْ أَنْ أقولَ لَعَا

وقيل : التَّعْسُ الهَلاك . وقيل : التَّعْسُ الجَرُّ على الوجهِ ، والنَّكْسُ الجرُّ على الرأس .

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (9)

قوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ " ذلك " مبتدأً ، والخبرُ الجارُّ بعدَه ، أو خبرُ مبتدأ مضمرٍ . أي : الأمرُ ذلك بسبب أنهم كَرِهوا ، أو منصوبٌ بإضمارِ فعلٍ أي : فَعَل بهم ذلك بسببِ أنَّهم كَرِهوا ، فالجارُّ في الوجهَيْن الأخيرَيْن منصوبُ المحلِّ .

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (10)

قوله : ﴿ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ حَذَفَ مفعولَه أي : أهلك اللَّهُ بيوتَهم وخَرَّبها عليهم ، أو يُضَمَّنَ " دَمَّر " معنى : سَخِط اللَّهُ عليهم بالتدمير .

قوله : " أمثالُها " أي : أمثال العاقبةِ المتقدّمة . وقيل : أمثال العقوبة . وقيل : التَّدْميرة . وقيل : الهَلَكة . والأول أَوْلَى لتقدُّم ما يعودُ عليه الضميرُ صريحاً مع صحةِ معناه .

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (11)

قوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ ﴾ : كقولِه فيما تقدَّم . والوَلِيُّ هنا : الناصِرُ .

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12)

قوله : ﴿ كَمَا تَأْكُلُ الأنعام ﴾ : إمَّا حالٌ مِنْ ضميرِ المصدرِ أي : يأكلوا الأكلَ مُشْبِهاً أَكْلَ الأنعام ، وإمَّا نعتٌ لمصدرٍ أي : أكلاً مثلَ أكلِ الأنعامِ .

قوله : ﴿ والنار مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ يجوز أَنْ تكونَ هذه الجملةُ استئنافاً . ويجوز أَنْ تكونَ حالاً ، ولكنَّها مقدرةٌ أي : يأكلون مُقَدَّراً ثَوِيُّهم في النار .

(276/710)

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (13)

قوله : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ﴾ يريد أهلَ قريةٍ ، ولذلك راعى هذا المقدَّرَ في " أَهْلَكْنَاهم " ﴿ فَلاَ نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ بعد ما راعى المضافَ في قوله : " هي أشدُّ " والجملةُ مِنْ " هي أشدُّ " صفةٌ لقرية . وقال ابنُ عطية : " نَسَبَ الإخراجَ للقرية ، حَمْلاً على اللفظِ ، وقال : " أهلكناهم " حَمْلاً على المعنى " . قال الشيخ : " وظاهرُ هذا الكلامِ لا يَصِحُّ ؛ لأن الضميرَ في " أهلكناهم " ليس عائداً على المضافِ إلى القرية التي أَسْنَدَ إليها الإخراجَ ، بل على أهلِ القرية ، في قوله : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ﴾ [فإنْ كان أرادَ بقوله : " حَمْلاً على المعنى " أي : معنى القرية مِنْ قوله : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ﴾] فهو صحيحٌ ، لكنَّ ظاهرَ / قوله : " حَمْلاً على اللفظِ " و " حَمْلاً على المعنى " أَنْ يكونَ في مدلولٍ واحدٍ ، وكان على هذا يَبْقى " كَأَيِّنْ " مُفْلَتاً غيرَ مُحَدَّثٍ عنه بشيء ، إلاَّ أَنْ يُتَخَيَّلَ أَنَّ " هي أشدُّ " خبرٌ عنه ، والظاهرُ أَنَّه صفةٌ لـ قرية " . قلت : وابن عطية إنما أراد لفظَ القريةِ مِنْ حيث الجملةُ لا من حيث التعيينُ

.

أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (14)

قوله : ﴿ أَفَمَن كَانَ ﴾ : مبتدأٌ ، والخبر "كَمَنْ زُيِّنَ" ، وحُمِل على لفظ "مَنْ" فأُفْرِدَ في قوله : ﴿ لَهُ سواء عَمَلِهِ ﴾ وعلى المعنى فجُمِعَ في قوله : ﴿ واتبعوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ ، والجملةُ مِنْ "اتَّبعوا" عطفٌ على "زُيِّنَ" فهو صلةٌ .

(277/710)

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (15)

قوله : ﴿ مَّثَلُ الجنة ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدها : أنه مبتدأٌ ، وخبرُه مقدرٌ . فقدَّره النضر بن شميل : مثلُ الجنةِ ما تَسْمعون ، ف "ما تَسْمعون" خبرُه ، و "فيها أنهارٌ" مُفَسِّرٌ له . وقَدَّره سيبويه : "فيما يُتْلَى عليكم مَثَلُ الجنة" ، والجملةُ بعدَها أيضاً مُفَسِّرةٌ للمَثَل .

الثاني : أن "مَثَل" زائدةٌ تقديرُه : الجنة التي وُعِدَ المتقون فيها أنهارٌ . ونظيرُ زيادةِ "مَثَل" هنا زيادةُ "اسم" في قوله :

4055 إلى الحَوْلِ ثم اسْمُ السَّلامِ عليكما . . . . . .

. . . . . .

(278/710)

الثالث : أنَّ " مَثَل الجنة " مبتدأٌ ، والخبر قولُه : " فيها أنهارٌ " ، وهذا ينبغي أَنْ يمتنعَ ؛ إذ لا عائدَ من الجملةِ إلى المبتدأ ، ولا ينْفَعُ كونُ الضميرِ عائداً على ما أُضيف إليه المبتدأ . الرابع : أنَّ " مَثَل الجنة " مبتدأٌ ، خبرُه " ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النار ﴾ ، فقدَّره ابنُ عطية : " أمَثَلُ أهلِ الجنة كمَنْ هو خالدٌ " ، فقدَّر حرفَ الإنكارِ ومضافاً ليصِحَّ . وقدَّره الزمخشري : " أَمَثَلُ الجنةِ كمَثَلِ جزاءِ مَنْ هو خالدٌ " . والجملةُ مِنْ قولِه : " فيها أنهارٌ " على هذا فيها ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : هي حالٌ من الجنة أي : مستقرَّةٌ فيها أنهارٌ . الثاني : أنها خبرٌ لمبتدأ مضمرٍ أي : هي فيها أنهارٌ ، كأنَّ قائلاً قال : ما مَثَلُها ؟ فقيل : فيها أنهار . الثالث : أَنْ تكونَ تكريراً للصلة ؛ لأنَّها في حكمِها ألا ترى إلى أنَّه يَصِحُّ قولُك : التي فيها أنهار ، وإنما عَرِيَ قولُه : " مَثَلُ الجنةِ " من حرفِ الإنكار تصويراً لمكابرةِ مَنْ يُسَوِّي بين المُسْتَمْسِكِ بالبيِّنَةِ وبين التابعِ هواه كمَنْ يُسَوِّي بين الجنة التي صفتُها كيتَ وكيتَ ، وبين النارِ التي صفتُها أَنْ يُسْقَى أهلُها الحميمَ . ونظيرُه قولُ القائلِ :

4056 أَفْرَحُ أَنْ أُرْزَأَ الكرامَ وأَنْ . . . أُوْرَثَ ذَوْداً شَصائِصاً نَبْلا

هو كلامٌ مُنْكِرٌ للفرح برُزْئه الكرامَ ووِراثةِ الذَّوْدِ ، مع تَعَرِّيه من حرف الإِنكارِ ، ذكر ذلك كلَّه الزمخشريُّ بأطولَ مِنْ هذه العبارةِ .

وقرأ عليُّ بن أبي طالب " مثالَ الجنةِ " . وعنه أيضاً وعن ابن عباس وابن مسعود " أمثالُ " بالجمع .

(279/710)

قوله : " آسِنٍ " قرأ ابنُ كثير " أَسِنٍ " بزنة حَذِرٍ وهو اسمُ فاعلٍ مِنْ أَسِنَ بالكسرِ يَأْسَنُ ، فهو أَسِنٌ كحَذِرَ يَحْذَرُ فهو حَذِرٌ . والباقون " آسِنٍ " بزنةِ ضارِبٍ مِنْ أَسَنَ بالفتح يَأْسِن ، يقال : أَسَنَ الماءُ بالفتح يَأْسِن ويَأْسُن بالكسرِ والضمِّ أُسُوْناً ، كذا ذكره ثعلب في " فصيحه " .

وقال اليزيدي : " يقال : أَسِن بالكسرِ يَأْسَنُ بالفتح أَسَناً أي : تَغَيَّر طعمُه . وأمَّا أَسِن الرجلُ - إذا دَخَل بئراً فأصابه مِنْ ريحِها ما جعل في رأسِه دُواراً - فأَسِن بالكسرِ فقط .

قال الشاعر :

4057 قد أترُكُ القِرْنَ مُصْفَرّاً أنامِلُه . . . يَميد في الرُّمْحِ مَيْدَ المائِحِ الأَسِنِ

وقُرِئَ " يَسِنٍ " بالياء بدلَ الهمزةِ . قال أبو علي : " هو تَخفيفُ أَسِنٍ " وهو تخفيفٌ غريبٌ

.

قوله : ﴿ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ صفةٌ ل " لبنٍ " . قوله : " لذة " يجوز أَنْ يكونَ تأنيثَ لَذّ ، ولَذٌّ بمعنى لذيذ ، ولا تأويلَ على هذا ، ويجوز أَنْ يكونَ مصدراً وُصِفَ به . وفيه التأويلاتُ المشهورةُ . والعامَّةُ على جرِّ " لَذَّةٍ " صفةً ل " خَمْرٍ " وقُرِئ بالنصب على المفعولِ له ، وهي تؤيِّدُ المصدريةَ في قراءةِ العامَّةِ ، وبالرفع صفةً ل " أنهارٌ " ، ولم تُجْمَعْ لأنها مصدرٌ إنْ قيل به ، وإنْ لا فلأنَّها صفةٌ لجمعٍ غيرِ عاقلٍ ، وهو يُعامَلُ معاملةَ المؤنثةِ الواحدةِ .

قوله : " مِنْ عَسَلٍ " نقلوا في " عَسَل " التذكيرَ والتأنيثَ ، وجاء القرآنُ على التذكيرِ في قوله : " مُصَفًّى " . والعَسَلان : العَدْوُ . وأكثرُ استعمالِه في الذئبِ ، يقال : عَسَل الذئبُ والثعلبُ ، وأصلُه مِنْ عَسَلانِ الرُّمح وهو اهتزازُه ، فكأنَّ العادِيَ يهزُّ أعضاءَه ويُحَرِّكها قال الشاعر : /

4058 لَدْنٌ بِهَزِّ الكفِّ يَعْسِلُ مَتْنُه . . . فيه كما عَسَل الطريقَ الثعلبُ

(280/710)

وكُنِي بالعُسَيْلة عن الجماعِ لما بينهما . قال عليه السلام : " حتى تَذوقي عُسَيْلَتَه ويذوقَ عُسَيْلَتَك " . قوله : ﴿ مِن كُلِّ الثمرات ﴾ فيها وجهان ، أحدهما : أن هذا الجارَّ صفةٌ

لمقدرٍ ، ذلك المقدَّرُ مبتدأٌ ، وخبرُه الجارُّ قبلَه وهو " لهم " . و " فيها " متعلِّقٌ بما تعلَّقَ به .

والتقديرُ : ولهم فيها زوجان مِنْ كلِّ الثمراتِ ، كأنه انتَزَعَه مِنْ قولِه تعالى : ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ [الرحمن : 52] وقدَّره بعضُهم : صِنْفٌ ، والأولُ أليقُ . والثاني : أن : " مِنْ " مزيدةٌ في المبتدأ .

قوله : " ومَغْفِرَةٌ " فيه وجهان ، أحدُهما : أنه عطفٌ على ذلك المقدر لا بقَيْدِ كونِه في الجنة أي : ولهم مغفرةٌ ، لأن المغفرةَ تكون قبلَ دخولِ الجنة أو بُعَيْدَ ذلك . ولا بُدَّ مِنْ حَذْفِ مضافٍ حينئذٍ أي : ونعيمُ مغفرةٍ ؛ لأنه ناشِئٌ عن المغفرة ، وهو في الجنة .

والثاني : أن يُجْعَلَ خبرُها مقدَّراً أي : ولهم مغفرةٌ . والجملةُ مستأنفةٌ . والفرقُ بين الوجهَيْنِ : أنَّ الوجهَ الذي قبل هذا فيه الإخبارُ ب " لهم " الملفوظِ به عن سَنَنِ ذلك المحذوف ، و " مغفرةٌ " ، وفي الوجه الآخر الخبر جارٌّ آخرُ ، حُذِفَ للدلالةِ عليه .

قوله : " كمَنْ هو " قد تقدَّم أنَّه يجوز أَنْ يكونَ خبراً عن " مَثَلُ الجنة " بالتأويلَيْن المذكورَيْن عن ابنِ عطيةَ والزمخشريِّ . وأمَّا إذا لم نجعَلْه خبراً عن " مَثَلُ " ففيه أربعةُ أوجهٍ ، أحدها : أنَّه خبرُ مبتدأ محذوفٍ تقديرُه : أحال هؤلاء المتَّقين كحالِ مَنْ هو خالدٌ . وهذا تأويلٌ صحيحٌ . وذكر فيه أبو البقاء الأوجهَ الباقيةَ وقال : " وهو في موضعِ رفعٍ أي : حالُهم كحالِ مَنْ هو خالدٌ في النارِ .

وقيل : هو استهزاءٌ بهم . وقيل : هو على معنى الاستفهامِ ، أي : أكمَنْ هو خالدٌ . وقيل : في موضعِ نصبٍ أي : يُشْبِهون حالَ مَنْ هو خالدٌ في النار " انتهى . معنَى قولِه : " وقيل هو استهزاءٌ " أي : أن الإخبار بقولِك : حالُهم كحالِ مَنْ ، على سبيلِ الاستهزاءِ والتهكُّمِ .

قوله : " وسُقُوا " عطفٌ على الصلةِ ، عَطَفَ فعليةً على اسمية ، لكنه راعى في الأولِ لفظ " مَنْ " فأَفْرَدَ ، وفي الثانيةِ معناها فجَمَعَ .

والأَمْعاءُ : جمع مِعىً بالقصرِ ، وهو المُصْرانُ الذي في البطن وقد وُصِفَ بالجمع في قوله :

4059 . . . . . .

. . . . . ومِعَىً جياعا

على إرادةِ الجنسِ . وألفُه عن ياءٍ بدليلِ قولهم : مِعَيان .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (16)

قوله : ﴿ آنِفاً ﴾ : فيه وجهان ، أحدهما : أنه منصوبٌ على الحالِ ، فقدَّره أبو البقاء : " ماذا قال مُؤْتَنِفا " . وقَدَّره غيرُه : مُبْتَدِئاً أي : ما القولُ الذي ائْتَنَفه الآن قبلَ انفصالِه عنه .

والثاني : أنه منصوبٌ على الظرفِ أي : ماذا قال الساعةَ ، قاله الزمخشري . وأنكره الشيخ قال : " لأنَّا لم نعلَمْ أحداً عَدَّه من الظروف " . واختلفَتْ عبارتُهم في معناه : فظاهرُ عبارةِ

الزمخشري أنه ظرفٌ حاليٌّ كالآن ، ولذلك فسَّره بالساعة . وقال ابن عطية : " والمفسِّرون يقولون : آنِفاً معناه الساعةُ الماضيةُ القريبةُ منَّا وهذا تفسيرٌ بالمعنى " .

(282/710)

وقرأ البزيُّ بخلافٍ عنه " أَنِفاً " بالقصرِ . والباقون بالمدّ ، وهما لغتان بمعنىً واحدٍ ، وهما اسما فاعِل كحاذِر وحَذِر ، وآسِن وأَسِن ، إلاَّ أنَّه لم يُسْتعمل لهما فِعْلٌ مجردٌ ، بل المستعملُ ائْتَنَفَ يَأْتَنِفُ ، واسْتَأْنَفَ يَسْتأنف . والائْتِنافُ والاسْتِئْناف : الابتداء . قال الزجَّاج : " هو مِنْ اسْتَأْنَفْتُ الشيءَ إذا ابتدَأْتَه أي : ماذا قال في أولِ وقتٍ يَقْرُب مِنَّا " .

وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (17)

قوله : ﴿ والذين اهتدوا ﴾ : يجوزُ فيه الرفعُ بالابتداءِ ، والنصبُ على الاشتغالِ . و " تَقْواهم " مصدرٌ مضافٌ لفاعِله . والضمير في " آتاهم " يعودُ على اللَّهِ أو على قولِ المنافقين ؛ لأنَّ قولهم ذلك مِمَّا يزيدُ المؤمنينَ تقوى ، أو على الرسول .

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (18)

قوله : ﴿ أَن تَأْتِيَهُمْ ﴾ : بدلٌ من الساعة بدلُ اشتمالٍ . وقرأ أبو جعفر الرؤاسي : " إنْ

تَأْتِهم " ب إنْ الشرطيةِ ، وجزمِ ما بعدها . وفي جوابِها وجهان ، أحدهما : أنَّه قولُه : " فأَنَّى لهم " قاله الزمخشريُّ . ثم قال : " فإنْ قلت : بِمَ يتصلُ قولُه : ﴿ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ على القراءتَيْن ؟ قلت : بإتيان السَّاعةِ ، اتصالَ العلةِ بالمعلولِ كقولك : إنْ أكرَمَني زيدٌ فأنا حقيقٌ بالإكرامِ أُكْرِمْه " . والثاني : أنَّ الجوابَ قولُه : ﴿ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ ، وإتيانُ الساعةِ ، وإنْ كان متحققاً ، إلاَّ أنهم عُوْمِلوا مُعاملةَ الشاكِّ ، وحالُهم كانت كذا .

والأَشْراط : جمع شَرْط بسكونِ/ الراءِ وفتحِها . قال أبو الأسود :

4060 فإن كنتِ قد أَزْمَعْتِ بالصَّرْمِ بَيْنَنَا . . . فقد جَعَلَتْ أَشْراطُ أَوَّلِه تَبْدو

(283/710)

والأشراطُ : العلاماتُ ، ومنه أَشْراط الساعةِ . وأَشْرَطَ الرجلُ نفسَه أي : ألزمها أموراً .

قال أوس :

4061 فأَشْرَطَ فيها نَفْسَه وهو مُعْصِمٌ . . . فألْقَى بأسبابٍ له وتَوَكَّلا

والشَّرْطُ : القَطْعُ أيضاً ، مصدرُ شَرَطَ الجلدَ يَشْرِطُه (يَشْرُطُه) شَرْطاً .

قوله : " فَأَنَّى لهم " " أَنَّى " خبرٌ مقدمٌ و " ذِكْراهم " مبتدأٌ مؤخرٌ أي : أَنَّى لهم التذكيرُ . وإذا وما بعدها معترضٌ وجوابُها محذوفٌ أي : كيف لهم التذكيرُ إذا جاءَتْهم الساعةُ ؟ فيكف

يتذكَّرون ؟ ويجوز أن يكونَ المبتدأُ محذوفاً أي : أنَّى لهم الخَلاصُ ، ويكون " ذِكْراهم " فاعلاً ب " جاءَتْهم " .

وقرأ أبو عمروٍ في رواية " بَغَتَّةً " بفتح الغينِ وتشديدِ التاء ، وهي صفةٌ ، فنصبُها على الحال ، ولا نظيرَ لها في الصفات ولا في المصادر ، وإنما هي في الأسماء نحو : الجَرَبَّة للجماعةِ ، والشَّرَبَّة للمكان . قال الزمخشري : " ما أَخْوَفني أن تكونَ غَلْطَةً من الراوي عن أبي عمرو ، وأَنْ يكونَ الصوابُ " بَغَتَةً " بالفتح دون تشديد " .

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ (20) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (21)

(284/710)

قوله : ﴿ لَوْلا نُزِّلَتْ ﴾ : هذه بمعنى : هَلاَّ ، ولا التفاتَ إلى قول بعضِهم : إنَّ " لا " زائدةٌ والأصلُ : لو نُزِّلَتْ . والعامَّةُ على رفع " سورةٌ مُحْكَمَةٌ " لقيامِها مقامَ الفاعل . وزيد بن علي بالنصبِ فيهما على الحالِ والقائمُ مَقامَ الفاعلِ ضميرُ السورة المتقدمةِ ، وسوَّغ وقوع الحال كذا وَصْفُها كقولك : الرجل جاءني رجلاً صالحاً . وقُرِئ : ﴿ فَإِذَا نَزَلَتْ سُورَةٌ ﴾

. وقرأ زيدُ بن علي وابن عمير " وذَكَرَ " مبنياً للفاعل أي : اللَّه تعالى . " القتالَ " نصباً .

قوله : " نَظَرَ المَغْشِيِّ " الأصلُ : نَظَراً مِثْلَ نَظَرِ المَغْشِيِّ .

قوله : ﴿ فأولى لَهُمْ طَاعَةٌ ﴾ اختلف اللغويون والمُعْربون في هذه اللفظةِ ، فقال الأصمعي : إنها فعلٌ ماضٍ بمعنى : قارَبَ ما يُهْلِكه وأنشد :

4062 فعادَى بينَ هادِيَتَيْنِ مِنْها . . . وَأَوْلَى أَنْ يزيدَ على الثلاثِ

أي : قارَبَ أن يزيدَ . قال ثعلب : " لم يَقُلْ أحدٌ في " أَوْلَى " أحسنَ مِنْ قولِ الأصمعيِّ " ، ولكنْ الأكثرون على أنه اسمٌ . ثم اختلف هؤلاء فقيل : هو مشتقٌّ من الوَلْيِ وهو القُرْبُ كقوله :

4063 يُكَلِّفُني لَيْلَى وقد شَطَّ وَلْيُها . . . وعادَتْ عَوادٍ بيننا وخُطُوْبُ

وقيل : هو مشتقٌّ مِن الوَيْلِ . والأصلُ : فيه أَوْيَل فقُلبت العين إلى ما بعدَ اللام فصارَ وزنُه أَفْلَع . وإلى هذا نحا الجرجانيُّ . والأصلُ عدم القَلْبِ . وأمَّا معناها فقيل : هي تهديدٌ ووعيدٌ كقولِه :

4064 فأَوْلَى ثم أَوْلَى ثم أَوْلَى . . . وهَلْ للدَّرِّ يُحْلَبُ مِنْ مَرَدِّ

وقال المبرد : يُقال لمَنْ هَمَّ بالغضبِ : أَوْلَى لك ، كقولِ أعرابي كان يُوالي رَمْيَ الصيدِ فيَفْلَتُ منه فيقول : أَوْلَى لك ، ثم رمى صيداً فقارَبَه فأفلتَ منه ، فقال :

4065 فلو كان أَوْلَى يُطْعِمُ القومَ صِدْتُهم . . . ولكنَّ أَوْلَى يَتْرُكُ القومَ جُوَّعا

هذا ما يتعلَّقُ باشتقاقِه ومعناه . أمَّا الإعرابُ : فإن قلنا بقول الجمهور ففيه أوجهٌ ، أحدُها : أنَّ "أَوْلَى" مبتدأٌ ، و "لهم" خبرُه ، تقديرُه : فالهلاكُ لهم . وسَوَّغَ الابتداءَ بالنكرة كونُه دعاءً نحو : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ ﴾ [الهمزة : 1] . الثاني : أنه خبرُ مبتدأ مضمرٍ تقديرُه العقابُ أو الهلاكُ أَوْلَى لهم ، أي : أقربُ وأَدْنى . ويجوز أن تكونَ اللامُ بمعنى الباءِ أي : أَوْلَى وأحَقُّ بهم . الثالث : أنه مبتدأٌ ، و "لهم" متعلِّقٌ به ، واللامُ بمعنى الباء . و "طاعةٌ" خبره ، والتقدير : أولَى بهم طاعةٌ دونَ غيرِها . وإنْ قلنا بقول الأصمعيِّ فيكون فعلاً ماضياً وفاعلُه مضمر ، يَدُلُّ عليه السِّياقُ كأنه قيل : فأَوْلَى هو أي : الهلاكُ ، وهذا ظاهرُ عبارةِ الزمخشري حيث قال : " ومعناه الدعاءُ عليهم بأَنْ يَلِيَهم المكروهُ " . وقال ابن عطية : / " المشهورُ من استعمالِ العرب أنك تقول : هذا أَوْلَى بك مِنْ هذا أي : أحقُّ . وقد تَسْتعملُ العربُ "أَوْلَى" فقط على جهةِ الحذفِ والاختصارِ لما معها من القول فتقول : أَوْلَى لك يا فلانُ على جهةِ الزَّجْرِ والوعيد " انتهى .

وقال أبو البقاء : " أَوْلَى مؤنثة أَوْلات " وفيه نظر لأن ذلك إنما يكون في التذكير والتأنيث

الحقيقيَيْن ، أمَّا التأنيثُ اللفظيُّ فلا يُقال فيه ذلك . وسيأتي له مزيدُ بيانٍ في سورة القيامة إنْ شاء الله .

(286/710)

قوله : ﴿ طَاعَةٌ ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنه خبرُ " أَوْلَى لهم " على ما تقدَّم . الثاني : أنها صفةٌ لـ " سورةٌ " أي : فإذا أُنْزِلَتْ سورةٌ مُحْكَمَةٌ طاعةٌ أي : ذاتُ طاعةٍ أو مُطاعةٌ . ذكره مكيٌّ وأبو البقاء وفيه بُعْدٌ لكثرةِ الفواصلِ . الثالث : أنها مبتدأٌ و " قولٌ " عطفٌ عليها ، والخبرُ محذوفٌ تقديرُه : أَمْثَلُ بكم مِنْ غيرِهما . وقَدَّره مكي : مِنَّا طاعةٌ ، فقدَّره مقدَّماً . الرابع : أن يكونَ خبرَ مبتدأ محذوفٍ أي : أَمْرُنا طاعةٌ . الخامس : أنَّ " لهم " خبرٌ مقدمٌ ، و " طاعةٌ " مبتدأٌ مؤخرٌ ، والوقف والابتداء يُعْرَفان مِمَّا قدَّمْتُه فتأمَّلْه .

قوله : " فإذا عَزَمَ " في جوابِها ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : قولُه : " فلو صَدَقُوا " نحو : " إذا جاءني طعامٌ فلو جِئْتَني أطعمتُك " . الثاني : أنه محذوفٌ تقديره : فاصْدُقْ ، كذا قَدَّره أبو البقاء . الثالث : أن تقديرَه : فاقْضُوا . وقيل : تقديره : كَرِهوا ذلك و " عَزَمَ الأمرُ " على سبيلِ الإِسنادِ المجازيِّ كقولِه :

4066 قد جَدَّتِ الحربُ بكم فَجُدُّوا . . . . . .

. . . . . .

أو يكونُ على حَذْفِ مضافٍ أي : عَزَمَ أهلُ الأمرِ .

فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22)

(287/710)

قوله : ﴿ أَن تُفْسِدُواْ ﴾ : خبرُ " عسى " ، والشرطُ معترضٌ بينهما ، وجوابُه محذوفٌ لدلالةِ " فهل عَسَيْتُم " عليه أو هو يُفَسِّره " فهل عَسَيْتُمْ " عند مَنْ يرى تقديمَه . وقرأ عليٌّ " إنْ تُوُلِّيْتُمْ " بضم التاءِ والواوِ وكسرِ اللام مبنياً للمفعول مِن الولاية أي : إنْ وَلَّيْتُكم أمورَ الناس . وقُرِئ " وُلِّيْتُمْ " من الوِلاية أيضاً . وهاتان تَدُلاَّن على أنَّ " تَوَلَّيْتُمْ " في العامَّةِ من ذلك . ويجوز أن يكونَ من الإعراض وهو الظاهرُ . وفي قوله : " عَسَيْتُمْ " إلى آخره التفاتٌ مِنْ غَيْبة في قوله : ﴿ الذين فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ إلى خطابِهم بذلك زيادةً في توبيخِهم . وقرأ العامَّةُ " وتُقَطِّعوا " بالتشديد على التكثير . وأبو عمرو في روايةٍ وسلام ويعقوب بالتخفيف ، مضارعَ قَطَعَ . والحسن بفتح التاء والطاءِ مشددةً . وأصلُها تَتَقَطَّعوا بتاءَيْن حُذِفَتْ أحداهما . وانتصابُ " أرحامَكم " على هذا على إسقاط الخافض أي : في أرحامكم .

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (23)

قوله : ﴿ أولئك ﴾ : مبتدأ ، والموصولُ خبرُه . والتقدير : أولئك المُفْسِدون ، يَدُلُّ عليه ما تقدَّم . وقوله : " فأَصَمَّهم " . ولم يَقُلْ : فَأَصَمَّ آذانَهم ، و " أَعْمى أَبْصارهم " ولم يَقُلْ : أَعْماهم . قيل : لأَنَّه لا يَلزَمُ مِنْ ذهابِ الأُذُنِ ذَهابُ السماع فلم يتعرَّضْ لها ، والأَبصار - وهي الأعينُ - يَلْزَمُ مِنْ ذهابِها ذهابُ الإِبصارِ ولا يَرِد عليك ﴿ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ [فصلت : 44] ونحوه لأنه دونَ الصَّمَمِ ، والصَّمَمُ أعظمُ منه .

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24)

(288/710)

قوله : ﴿ أَمْ على قُلُوبٍ ﴾ : أم منقطعةٌ . وقد عَرَفْتَ ما فيها . والعامَّةُ " على أَقْفالُها " بالجمع على أَفْعال . وقُرِئ " أَقْفُلُها " على أَفْعُل . وقُرِئ " إِقْفالُها " بكسرِ الهمزة مصدراً كالإِقبال . وهذا الكلامُ استعارةٌ بليغةٌ جُعِلَ ذلك عبارةً عن عَدَمِ وصولِ الحقِّ إليها .

إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (25)

قوله : ﴿ الشيطان سَوَّلَ ﴾ : هذه الجملةُ خبرُ ﴿ إِنَّ الذين ارتدوا ﴾ . وقد تقدَّم

الكلامُ على " سَوَّل " معنًى واشتقاقاً . وقال الزمخشري هنا : " وقد اشتقَّه من السُّؤْل مَنْ لا عِلْمَ له بالتصريفِ والاشتقاقِ جميعاً " كأنَّه يُشير إلى ما قاله ابن بحر : مِنْ أنَّ المعنى : أعطاهم سُؤْلَهم . ووجهُ الغلطِ فيه أنَّ مادةَ السُّؤْلِ من السؤال بالهمز ، ومادةَ هذا بالواوِ فافترقا ، فلو كان على ما قيل لقيل : سَأَّل بتشديد الهمزة لا بالواو . وفيما قاله الزمخشريُّ نَظَرٌ ؛ لأن السؤالَ له مادتان : سَأَل بالهمز ، وسال بالألفِ المنقلبةِ عن واوٍ ، وعليه قراءةُ " سال سايل " وقوله :

4067 سالَتْ هُذَيْلٌ رسولَ اللهِ فاحِشةً . . . ضَلَّتْ هُذَيْلٌ بما سالَتْ ولم تُصِبِ

وقد تقدَّم هذا في البقرةِ مُسْتوفى .

(289/710)

قوله : " وأَمْلَى " العامَّةُ على " أَمْلَى " مبنياً للفاعل ، وهو ضمير الشيطان . وقيل : هو للباري تعالَى . قال أبو البقاء : " على الأول يكونُ معطوفاً على الخبر ، وعلى الثاني يكونُ مُسْتأنفاً " . ولا يَلْزَمُ ما قاله بل هو معطوفٌ على الخبر في كلا التقديرَيْن ، أخبر عنهم بهذا وبهذا . وقرأ أبو عمروٍ في آخرين " أُمْلِيَ " مبنياً للمفعول ، والقائمُ مَقامَ الفاعلِ الجارُّ . وقيل : القائم مَقامَه ضميرُ الشيطان ، ذكره أبو البقاء ، ولا معنى لذلك . وقرأ يَعْقُوبُ وسلام

ومجاهد / " وأُمْلِيْ " بضمِ الهمزةِ وكسرِ اللام وسكونِ الياءِ . فاحتملَتْ وجهَيْن ، أحدُهما : أَنْ يكونَ مضارعاً مُسْنداً لضمير المتكلم أي : وأُمْلِي أنا لهم ، وأَنْ يكونَ ماضياً كقراءة أبي عمرو سُكِّنَتْ ياؤه تخفيفاً . وقد مضى منه جملةٌ .

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (26)

قوله : ﴿ إِسْرَارَهُمْ ﴾ : قرأ الأخَوان وحفصٌ بكسرِ الهمزة مصدراً ، والباقون بفتحها جمعَ " سِرّ " .

فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (27)

قوله : ﴿ فَكَيْفَ ﴾ : إمَّا خبرٌ مقدمٌ أي : فكيف عِلْمُه بإسْرارِهم إذا تَوَفَّتْهم ؟ وإمَّا منصوبٌ بفعلٍ محذوفٍ أي : فكيف يَصْنعون ؟ وإمَّا خبرٌ لـ " كان " مقدرةً أي : فكيف يكونون ؟ والظرفُ معمولٌ لذلك المقدَّرِ . وقرأ الأعمش " تَوَفَّاهم " دونَ تاءٍ فاحتملَتْ وجهين : أن يكونَ ماضياً كالعامَّةِ ، وأن يكونَ مضارعاً حُذِفَت إحدى ياءَيْه .

قوله : " يَضْرِبُون " حالٌ : إمَّا من الفاعلِ ، وهو الأظهرُ ، أو مِن المفعولِ .

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (29)

قوله: ﴿ أَن لَّن يُخْرِجَ ﴾ : "أنْ" هذه مخففةٌ و "لن" وما بعدها خبرُها ، واسمُها ضميرُ الشأن . والأَضْغان : جمعُ ضِغْن ، وهي الأحقاد والضَّغِينة كذلك قال :

4068 وذي ضِغْنٍ كَفَفْتُ الوُدَّ عنه . . . وكنتُ على إساءَتِه مُقِيتا

وقال عمرو بن كلثوم :

4069 فإنَّ الضِّغْنَ بعد الضِّغْنِ يَغْشُو . . . عليكَ ويُخْرِجُ الداء الدَّفينا

وقيل : الضِّغْنُ العداوةُ . وأُنْشِد :

4070 قُلْ لابنِ هندٍ ما أردْتَ بمنطقٍ . . . ساء الصديقَ وشَيَّد الأضغانا

يقال : ضَغِنَ بالكسرِ يَضْغَنُ بالفتح وقد ضُغِنَ عليه . واضْطَغَنَ القومُ وتَضاغنوا ، وأصل المادة من الالتواءِ في قوائم الدابةِ والقناة قال :

4071 إنَّ قناتي مِنْ صَليباتِ القَنا . . . ما زادَها التثقيفُ إلاَّ ضَغَنا

وقال آخر :

4072 . . . . . كذاتِ الضِّغْنِ تَمْشي في الرِّفاقِ

والاضْطِّغانُ : الاحتواءُ على الشيء أيضاً . ومنه قولُهم : اضْطَغَنْتُ الصبيَّ أي : اختصَصْتُه وأنشد :

4073 كأنه مُضْطَغِنٌ صَبِيًّا . . . وقال آخر :

4074 وما اضْطَغَنْتُ سِلاحي عند مَغْرِضِها . . . . . .

. . . . . .

وفرسٌ ضاغِنٌ : لا يَجْري إلاَّ بالضرب .

وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (30)

قوله : ﴿ لأَرَيْنَاكَهُمْ ﴾ : مِنْ رؤيةِ البصرِ . وجاء على الأفصح من اتصالِ الضميرَيْن ، ولو جاء على : أَرَيْناك إياهم جازَ .

قوله : " فَلَعَرَفْتَهُمْ " عطفٌ على جوابِ لو . وقوله : " ولَتَعْرِفَنَّهم " جواب قسمٍ محذوفٍ .

قوله : ﴿ فِي لَحْنِ القول ﴾ اللحن يُقال باعتبارَيْن ، أحدُهما : الكنايةُ بالكلامِ حتى لا يفهمَه غيرُ مخاطبَكِ . ومنه قولُ القَتَّالِ الكلابي في حكاية له :

(291/710)

4075 ولقد وَحَيْتُ لكم لكيما تَفْهموا . . . ولَحَنْتُ لَحْناً ليس بالمُرْتابِ

وقال آخرُ :

4076 منطِقٌ صائبٌ وتَلْحَنُ أَحْيا . . . ناً وخيرُ الحديثِ ما كان لَحْناً

واللَّحْنُ : صَرْفُ الكلامِ من الإعراب إلى الخطأ . وقيل : يجمعُه هو والأولَ صَرْفُ الكلامِ عن وجهِه ، يقال من الأول : لَحَنْتُ بفتح الحاء أَلْحَنُ له فأنا لاحِنٌ ، وألحنتُه الكلامَ : أفهمتُه إياه فلَحِنَه بالكسر أي : فَهمه فهو لاحِنٌ . ويُقال من الثاني : لَحِن بالكسر إذا لم يُعْرِبْ فهو لَحِنٌ .

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (31)

قوله : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حتى ﴾ : قرأ " وليَبْلوَنَّكم حتى يَعْلم ويبلوَ أخبارَكم " أبو بكر الثلاثةَ بالياءِ مِنْ أسفلَ يعني اللَّهَ تعالى . والأعمش كذلك وتسكين الواو والباقون بنون العظمةِ ، ورُوَيس كذلك وتسكينُ الواوِ . والظاهرُ قَطْعُه عن الأول في قراءةِ تسكينِ الواو . ويجوز أَنْ يكونَ سَكَّن الواوَ تخفيفاً كقراءةِ الحسن ﴿ أَوْ يَعْفُوْ الذي ﴾ بسكونِ الواو .

فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35)

قوله : ﴿ وتدعوا إلى السلم ﴾ : يجوز جَزْمُه عطفاً على فعل النهيِ . ونصبُه بإضمار " أَنْ " في جواب النهي . وقرأ أبو عبد الرحمن بتشديدِ الدال . وقال الزمخشري : " مِنْ ادَّعَى القومُ وتداعَوْا مثلَ : ارتَمَوْا إلى الصيد وتَرَامَوْا " . وقال غيره : بمعنى تَغْتَرُّوا يعني تَنْتَسِبوا . وتقدَّم الخلافُ في " السّلم " .

قوله : " وأنتم الأَعْلَوْن " جملةٌ حاليةٌ . وكذلك " والله معكم " وأصل الأَعْلَوْنَ : الأَعْلَيُون فأُعِلَّ .

قوله : "يَتِرَكُمْ" أي : يُنْقِصكم ، أو يُفْرِدكم عنها فهو مِنْ : وَتَرْتُ الرجلَ إذا قتلْتَ له قتيلاً ، أو نهبْتَ ماله ، أو من الوِتْر وهو الانفرادُ . وقيل : كلا المعنيين يَرْجِعُ إلى الإفراد ؛ لأنَّ مَنْ قُتِل له قتيلٌ أو نُهِبَ له مالٌ/ فقد أُفْرِد عنه .

إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (37)

قوله : ﴿ فَيُحْفِكُمْ ﴾ : عطفٌ على الشرط و " تَبْخَلوا " جوابُ الشرط .

قوله : " وَيُخْرِجْ أَضْغانَكم " العامَّةُ على إسنادِ الفعل إلى ضميرِ فاعلٍ : إمَّا اللَّهِ تعالى أو الرسولِ أو السؤالِ ؛ لأنَّه سببٌ وهو مجزومٌ عَطْفاً على جوابِ الشرط . ورُوي عن أبي عمرو رفعُه على الاستئنافِ . وقرأ أيضاً بفتح الياء وضمِّ الراء ورفعِ " أَضْغانُكم " فاعلاً بفعله . وابن عباس في آخرين " وتَخْرُجْ " بالتاء مِنْ فوقُ وضم الراء " أضغانُكم " فاعلٌ به . ويعقوب " ونُخْرِجْ " بنون العظمة وكسرِ الراء " أضغانَكم " نصباً .

وقُرِئ "يُخْرَجْ" بالياء على البناء للمفعولِ " أَضْغانُكم " رفعاً به . وعيسى كذلك إلاَّ أنه نَصَبه بإضمار " أَنْ " عطفاً على مصدر متوهَّمٍ أي : يَكُنْ بُخْلُكُمْ وإخراجُ أضغانِكم .

هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ

نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (38)

قوله : ﴿ هَا أَنْتُمْ هؤلاء ﴾ : قال الزمخشري : " هؤلاء " موصولٌ صلتُه " تَدْعُوْن " أي : أنتم الذين تَدْعُون ، أو أنتم يا مخاطبون هؤلاء الموصوفون ، ثم استأنف وصفَهم كأنهم قالوا : وما وَصْفُنا ؟ فقيل : تَدْعون " . قلت : قد تقدَّم الكلامُ على ذلك مُشْبَعاً في سورة آل عمران .

(293/710)

قوله : ﴿ يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ﴾ بَخِلَ وضَنَّ يتعديَّان ب على تارةً وب عن أخرى . والأجودُ أَنْ يكونا حال تَعَدِّيهما ب " عن " مضمَّنَيْن معنى الإِمْساك .

قوله : " وإنْ تَتَوَلَّوْا " هذه الشرطيةُ عطفٌ على الشرطية قبلها ، و ﴿ ثُمَّ لا يَكونوا ﴾ عطفٌ على " يَسْتَبْدِلْ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 683.708 ﴾

(294/710)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة محمد (صلى الله عليه وسلم)

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

من ذكر " بسم الله " جلت رتبته ، ومن عرف " بسم الله " صفت حالته ، ومن أحب " بسم الله " أشكلت قصته ، ومن صحب " بسيم الله " امتحقت أنيته ، وتلاشت بالكلية جملته .

قوله جلّ ذكره : ﴿ الّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ .

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ : امتنعوا ، وصَدُّوا فَمُنِعُوا ؛ فلأنهم امتنعوا عن سبيل الله استوجبوا الحَجْبَةَ والغيبة .

﴿ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ : أي أحبطها .

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بما نُزِّلَ على محمد ، ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ .

أصلح حالَهم ، فالكفرُ للأعمال مُحْبِطٌ ، والإيمان للتخليد مُسْقِط .

ويقال : الذين اشتغلوا بطاعةِ اللَّهِ ، ولم يعملوا شيئاً ما خَالَفَ اللَّهَ – فلا محالةَ – نقوم بكفاية

اشتغالهم بالله .

قوله جلّ ذكره : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ اتَّبَعُواْ الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّبَعُواْ الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ .

أي يضرب أمثالَ هؤلاء لحسناتهم ، وامثال هؤلاء لسيئاتهم .

ويكون اتباعُ الحقِّ بموافقة السُّنَّةِ ، ورعاية حقوق الله ، وإيثار رضاه ، والقيام بطاعته

ويكون اتباعُ الباطلِ بالابتداع ، والعملِ بالهوى ، وإيثارِ الحظوظ ، وارتكابِ المعصية .

(295/710)

فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (4) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (5) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (6)

إذا حَصَلَ الظَّفَرُ بالعدوِّ فالعفوُ عنهم وتَرْكُ المبالغةِ في التشديد عليهم – للندم مُوجِبٌ ، وللفرصةِ تضييعٌ ؛ بل الواجبُ إزهاقُ نفوسِهم ، واستئصالُ أُصولِهم ، واقتلاعُ شَجَرِهم من أصله .

وكذلك العبدُ إذا ظفر بنفْسه فلا ينبغي أن يُبْقِيَ بعد انتفاش شوكها بقيةً من الحياة ، فَمَنْ وضع عليها إصبعاً بَثَّتْ سُمَّها فيه .

﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ ذلك إذا رجا المسلمون في ذلك غبطةً أو فائدةً ؛ مثل إفراج الكفَّارِ عن قومٍ من المسلمين ، أو بسبب ما يؤخذ من الفِداء . . وأمثال هذا ، فحينئذٍ ذلك مُسَلّمٌ على ما يراه الإمام .

كذلك حال المجاهدة مع النَّفْس : حيث يكون في إغفاءِ ساعةٍ أو في إفطارِ يوم ترويحٌ للنفس من الكَدّ ، وتقويةٌ على الجهد فيما يستقبل من الأمر – فذلك مطلوبٌ حسبما يحصل به الاستصوابُ من شيخ المريد ، أو فتوى لسانِ الوقت ، أو فراسة صاحب المجاهدة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ يُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ .

إذا قُتِل أحدٌ في سبيل الحقّ تولّى وَرَثَةَ المقتولِ بأحسنَ مِنْ تولية المقتول .

وكذلك يَرْفَعُ درجاتِه ؛ فيُعْظِمُ ثوابَه ، ويُكْرِمُ مآبه .

(296/710)

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ .

نصرةُ الله من العبد نصرةُ دينه بإيضاح الدليل وتبيينه .

ونصرةُ اللَّهِ للعبد بإعلاء كلمته ، وقَمْعِ أعداء الدين ببركاتِ سَعْيه وهمَّتِهِ .

﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ بإدامةِ التوفيق لئلا ينهزم من صولةِ أعداءِ الدين .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ .

تعساً لهم : لعناً وطرداً ، وقَمْعاً وبُعداً !

﴿ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ : هَتَكَ أستارَهم ، وأَظْهَرَ للمؤمنين أسرارَهم ، وأَخْمَدَ نارَهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ .

وكيف أهلكهم وأبادهم وأقماهم ؟

قوله جلّ ذكره : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ ﴾ .

المولى هنا بمعنى الناصر ؛ فاللَّهُ ناصرٌ للذين آمنوا ، وأمَّا الكافرون فلا ناصرَ لهم .

أو المَوْلى من المولاة وهي ضد المعاداة ، فيكون بمعنى المحب ؛ فهو مولى الذين آمنوا أي مُحِبُّهم ، وأما الكافرون فلا يحبهم الله .

ويقول تعالى في آية أخرى : ﴿ وَالَّذِنَ كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ ﴾ [البقرة : 257] .

ويصح أن يقال إنَّ هذه أرجى آية في القرآن ؛ ذلك بأنه سبحانه يقول : ﴿ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى

الَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ولم يقل : مولى الزهَّادِ والعُبَّادِ وأصحاب الأورادِ والاجتادِ ؛ فالمؤمنُ – وإنْ كان عاصياً – من جملة الذين آمنوا ، (لا سيما و " آمنوا " فعل ، والفعل لا عمومَ له) .

(297/710)

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ .

مضى الكلامُ في هذه الآية .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ . ﴾ .

الأنعامُ تأكل من أي موضع بلا تمييز ، وكذلك الكافرُ لا تمييزَ له بين الحلال والحرام [كذلك الأنعام ليس لها وقت لأكلها ؛ بل في كل وقت تقتات وتأكل ، وكذلك الكافر ، وفي الخبر : " إنه يأكل في سبعة أمعاء " أمَّا المؤمن فيكتفي بالقليل كما في الخبر : " إن كان ولا بُد فثُلُثٌ للطعام وثُلُثٌ للشراب وثلث للنفس " و " ما ملأ ابن آدم وعاءً شرّاً من بطنه "

ويقال : الأنعامُ تأكل على الغفله ؛ فَمَنْ كان في حال أكله ناسياً ربَّه فأكْلُه كأكلِ الأنعام .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِى أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلاَ نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ .

﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ : يعني بها مَنْ أهلكهم من القرون الماضية في الأعصر الخاليه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُواْ أَهْوَآءَهُم ﴾ .

" البيِّنة " : الضياء والحُجَّة ، والاستبصار بواضح المحجة : فالعلماءُ في ضياء برهانهم ، والعارفون في ضياءِ بيانهم ؛ فهؤلاء بأحكام أدلة الأصول يُبْصِرون ، وهؤلاء بحكم الإلهام والوصول يستبصرون .

قوله جلّ ذكره : ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ .

(298/710)

كذلك اليومَ شأنُ الأولياء ، فهم شرابُ الوفاء ، ثم شرابُ الصفاء ، ثم شرابُ الولاء ، ثم شرابٌ حالَ اللقاء .

ولكلٍّ من هذه الأشربة عمَلٌ ، ولصاحبه سُكْرٌ وصحو ؛ فَمَنْ تحسَّى شرابَ الوفاء لم ينظر إلى احدٍ في ايام غيبته من أحبابه :

وما سَرَّ صدري مُنْذ شطَّ بك النوى . . . أنيسٌ ولا كأس ولا متصرف

ومَنْ شَرِبَ كأسَ الصفاء خَلُصَ له عن كل شَوْبٍ ، فلا كدورةَ في عهده ، وهو في كلِّ وقتٍ صافٍ عن نَفْسِه ، خالٍ من مُطَالَباته ، قائمٌ بلا شُغلٍ – في الدنيا والآخرة – ولا أرَبٍ .

ومَنْ شَرِبَ كأسَ الولاء عَدِمَ فيه القرار ، ولم يَغِبْ بسرِّه لحظةً في ليلٍ أو نهار .

ومَنْ شَرِبَ في حال اللقاء أَنِسَ على الدوام ببقائه ؛ فلم يطلب – مع بقائه – شيئاً أخَرَ من عطائه ؛ لاستهلاكه في علائه عند سطوات كبريائه .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (16)

هم المنافقون الذين كرهوا ما أنزل اللَّهُ ؛ لِمَا فيه من افتضاحِهم .

وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (17)

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ .

﴿ اهْتَدَوْا ﴾ : بأنواع المجاهدات ، " فزادهم هدًى " : بأنوار المشاهدات .

﴿ اهْتَدَوْا ﴾ : بتأمل البرهان ، " فزادهم هدى " بَرْوح البيان .

﴿ اهْتَدَوْا ﴾ : بعلم اليقين ، " فزادهم هدًى " : بحقِّ اليقين .

﴿ اهْتَدَوْا ﴾ : بآداب المناجاة ، " فزادهم هدًى " : بالنجاة ورَفْعِ الدرجات .

﴿ اهْتَدَوْاْ ﴾ : إلى ما فيه من الحقّ ولم يختلفوا في أنه الحق ، " فزادهم هدًى " بالاستقامة على طرق الحق .

(299/710)

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (18) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (19)

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ .

كان عالماً بأنه : ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ فامره بالثبات عليها ؛ قال (ص) : " أنا أعلمكم بالله ، وأخشاكم له " .

ويقال : كيف قيل له : ﴿ . . . فَاعْلَمْ ﴾ ولم يقل : عَلِمْتُ ، وإبراهيم قيل له : ﴿ أَسْلِمْ ﴾ [البقرة : 131] فقال : " سلمت . . . " ؟ فيُجاب بأن إبراهيمَ لَمَّا قال " اسلمت " ابْتُلِيَ ، ونبيَّنا صلى الله عليه وسلم لم يقل : علمت فعُوفِيَ .

وإبراهيم عليه السلام أتى بَعْدَه شَرْعٌ كَشَفَ سِرَّه ، ونبيُّنا صلى الله عليه وسلم لم يأتِ بعدَه

شرعٌ. ويقال: نبيُّنا صلى الله عليه وسلم أخبر الحقُّ عنه بقوله: ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ . . . ﴾ [البقرة: 285] والإيمان هو العلم- وإخبارُ الحقِّ سبحانه عنه أَتَمُّ من إخباره بنفسه عن نفسه: "عَلِمْتُ".

ويقال: فرقٌ بين موسى عليه السلام لَمَّا احتاج إلى زيادةِ العلم فأُحيلَ على الخضر، ونبيُّنا صلى الله عليه وسلم قال له: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْماً ﴾ [طه: 114]. . . فكم بين مَنْ أُحيلَ في استزادة العلم على عَبْدٍ وبين مَنْ أُمِرَ باستزادة العلم من الحق!!.

(300/710)

ويقال لَمَّا قال له: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ كان يأمره بالانقطاع إليه عن الخَلْق، ثم بالانقطاع منه - أي من الرسول - إليه. . . أي إلى الحق سبحانه. والعبدُ إذا قال هذه الكلمةَ على سبيلِ العادةِ والغفلةِ عن الحقيقة - أي كان بصفة النسيان - فليس لقوله كثيرُ قيمةٍ؛ كأن تُقال عند التعجب من شيء. . . فليس لهذا قَدْرٌ. أمَّا إذا قالها مخلصاً فيها، ذاكراً لمعناها، متحققاً بحقيقتها. . . فإنْ كان بنفسه فهو في وطن التفرقة. . . وعندهم هذا من الشِّرْكِ الخفِّي، وإن قالها بحقٍّ فهو الإخلاص. فالعبد يعلم أولاً ربَّه بدليل وحُجَّةٍ؛ فعِلْمُه بنفسه كَسْبيٌّ. . . وهو اصل الأصول، وعليه ينبني كل علم استدلالي! ثم تزداد قوةُ

علمه بزيادة البيان وزيادة الحجج ، ويتناقص علمُه بنفسه لغَلَبَاتِ ذِكْرِ اللَّهِ على القلب .

فإذا انتهى إلى حال المشاهدة ، واستيلاء سلطان الحقيقة عليه صار عِلْمُه في تلك الحالة ضرورياً . ويقلُّ إحساسُه بنفسه حتى يصير علمه بنفسه كالاستدلاليّ وكأنه غافلٌ عن نفسه أو ناسٍ لنفسه .

ويقال : الذي على البحر يغلب عليه ما يأخذه من رؤية البحر ، فإذا ركب البحر قويت هذه الحالة ، حتى إذا غرق في البحر فلا إحساسَ له بشيء سوى ما هو مستغرقٌ فيه ومستهلك . (1)

﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾ : أي إذا عَلِمْتَ أنك علمت فاستغفِرْ لذنبك من هذا ؛ فإن الحقَّ – على جلال قدْره – لا يعلمه غيره . (2)

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ . . . ﴾ .

---

(1) القشيري هنا مستفيد من شيخه أبى على الدقاق حين أوضح مراحل التواجد فالوجد فالوجود قائلا :

«التواجد يوجب استيعاب العبد ، والوجد يوجب استغراق العبد ، والوجود يوجب استهلاك العبد ، فهو كن شهد البحر ثم ركب البحر ثم غرق في البحر» الرسالة ص 37 .

(2) يذكرنا هذا بقول رابعة بعد ليال قضتها في الصلاة والاستغفار : «إن صلاتنا في حاجة إلى صلاة ، واستغفارنا في حاجة إلى استغفار» كما يذكرنا بقول القشيري في موضع مماثل : « . . . جلت الصمدية عن أن يستشرف من إدراكها بشر» ، وفي ذلك يقول أبو عبد الله الجلاء (ت 306 ه) :

كيفية المرء ليس المرء يدركها فكيف كيفية الجبار في القدم ؟

هو الذي أحدث الأشياء مبتدعا فكيف يدركه مستحدث النسم ؟

(شذرات الذهب ح 2 ص 249) .

(301/710)

كان المسلمون تضيق قلوبهم بتباطؤ الوحي ، وكانوا يتمنون ان ينزل الوحيُ بسرعةٍ فقال تعالى : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ﴾ رأيتَ المنافقين يكرهون ذلكِ لِمَا كان يشق عليهم من القتال ، فكانوا يفتضحون عندئذٍ ، وكانوا ينظرون إلى النبي صلى الله عليه وسلم – بغاية الكراهة .

﴿ . . . فَأَوْلَى لَهُمْ ﴾ .

تهديد .

قوله جلّ ذكره : ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ .

وهو قولهم : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ . . . ﴾ .

ويقال : فأولى لهم طاعةٌ منهم لله ولرسوله . ﴿ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ بالإجابة لما أُمِرُوا به عن الجهاد .

ويقال : طاعةٌ وقولٌ معروفٌ أَمثَلُ بهم .

فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (23) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24)

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ .

إذا عزم ما الأمرُ – أي جَدَّ وفُرِضَ القتالُ – فالصدقُ والإجابةُ خيرٌ لهم من كذبهم ونفاقِهم وتقاعدِهم من الجهاد .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ .

أي فلعلكم إنْ أَعرضتم عن الإيمان – بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم – ورجعتم إلى ما كنتم عليه أن تفسدوا في الأرض ، وتسفكوا الدماءَ الحرامَ ، وتقطعوا أرحامكم ، وتعودوا إلى جاهليتكم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾ .

أصمَّهم عن سماعِ الحقِّ وقبولِه بقلوبهم ، وأعمى بصائرَهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ .

(302/710)

أي إن تدَّبروا القرآن أفضى بهم إلى العرفان ، وأراحهم من ظلمة التحيرُّ .

﴿ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ : أقفلَ الحقُّ على قلوب الكفار فلا يُداخِلُها زاجرُ التنبيه ، ولا ينبسط عليها شعاعُ العلم ، فلا يحصل لهم فَهْمُ الخطاب ؛ فالبابُ إذا كان مُقفَلاً . . . فكما لا يدخل فيه شيءٌ لا يخرج منه شيء ؛ كذلك قلوبُ الكفار مقفلةٌ ، فلا الكفرُ الذي فيها يَخْرُجُ ، ولا الإيمانُ الذي هم يُدْعَوْن إليه يدخل في قلوبهم .

وأهلُ الشِّرْكِ والكفرِ قد سُدَّت بصائرهم وغُطِّيَتْ أسرارهم ، ولُبِّسَ عليهم وجهُ التحقيق .

إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (25)

الذي يطلع فجرُ قلبه ، ويتلألأ نورُ التوحيد فيه ، ثم قَبْلَ متوع نهارِ إيمانه انكسفت شمسُ يومِه ، وأظلم نهارُ عرفانه ، ودَجا ليلُ شَكِّه ، وغابت نجومُ عقله . . . فحدِّث عن

ظُلُماتِه . . . ! ولا حرج ! .

ذلك جزاؤهم على مما لأتهم مع المنافقين ، وتظاهرهم . . فإذا تَوَفَّتْهُم الملائكةُ تتصل آلامُهم ، ولا تنقطع بعد ذلك عقوباتُهم .

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (29) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (30) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (31) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (32)

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾ .

(303/710)

ليس الأمرُ كما تَتوَهَّموه ، بل لله يفضحهم ويكشف تلبيسَهم ، ولقد أخبر الرسولَ عنهم ، وعرَّفه أعيانهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ .

أي في معنى الخطاب ، فالأَسِرَّةُ تدُلُّ على السريرة ، وما يخامر القلوبَ فعَلى الوجوهِ يلوحُ أثرُه

:

لستُ ممن ليس يدري . . . ما هوان من كرامة

إنَّ للحبِّ وللبغضِ على لوجه علامة . . . والمؤمنُ ينظر بنور الفراسة ، والعارفُ ينظر بنورِ التحقيق ، والموحِّدُ ينظر بالله فلا يستتر عليه شيء . ويقال : بصائرُ الصديقين غيرُ مُغَطَّاة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سدوا كل خوخة غير خوخة أبي بكر " .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ .

بالابتلاء والامتحان تتبين جواهرُ الرجال ، فيظهر المخلصُ ، ويفتضح الماذقُ ، وينكشف المنافق ، فالذين آمنوا وأخلصوا نجوا وتخلصوا ، والذين كفروا ونافقوا وقعوا في الهوان وأُذِلُّوا ، ووسِموا بالشَقاوة وقُطعوا .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (33)

﴿ وَلاَ تُبْطِلُواْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ : بالرياء والإعجاب والملاحظة .

﴿ وَلاَ تُبْطِلُواْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ : بالمساكنة إليها . ﴿ وَلاَ تُبْطُلُواْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ بطلب الأعواض عليها .

﴿ وَلاَ تُبْطِلُواْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ : بتوهمكم أنه يجب بها شيء دون فضل الله .

فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35) إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (36) إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (37) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (38)

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَلاَ تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ .

أي لا تميلوا إلى الصلح مع الكفار وانتم الأَعلون بالحجة .

أنتم الأعلون بالنصرة . قوله : ﴿ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ . أي بالنصرة ويقال : لا تضعفوا بقلوبكم ، وقوموا بالله ؛ لأنكم – والله معكم – لا يخفى عليه شيءٌ منكم ، فهو على الدوام يراكم .

ومَنْ عَلِمَ انَّ سَيِّدَه يراه يتحمل كلَّ مشتغلاً برؤيته :

﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ .

أي لا ينقصكم أَجْرَ أعمالكم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلاَ يَسْئَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ .

تجنبوا الشِّرك والمعاصي حتى يَفِيَكُم أجوركم .

واللَّهُ لا يسألكم من أموالكم ، إلا اليسير منها وهو مقدار الزكاة .

﴿ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾ .

(305/710)

" الإحفاء " الإلحاح في المسألة . . . وهذا إنما يقوله لمن لم يُوقَ شُحَّ نَفْسه ، فأمَّا الإخوان ومَنْ عَلَتْ رتبتُهم في باب حرية القلب فلا يُسامَحون في استيفاءِ ذرَّةٍ ، ويُطالَبون ببذل الرُّوح ، والتزام الغرامات .

قوله جلّ ذكره : ﴿ هَآأَنتُمْ هَؤُلآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ﴾ .

البخلُ مَنْعُ الواجب ، وإذا بخل فإنما يبخل عن نفسه لأنه لو لم يفعل ذلك لَحَصَلَ له الثراء – هكذا يظن .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِىُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَآءُ ﴾ .

" غنيٌّ " بنفسه على قول ، وغنيٌّ بوصفه على القول الثاني . وغناه كونه لا تتقيد مراداتُه .

أمَّا البعدُ فهو فقيرٌ بنفسه ؛ لأنه لا يستغني عن مولاه ؛ في الابتداء منذ خَلْقه إلى الانتهاء ، وهو في دوام الاوقات مفتقرٌ إلى مولاه .

والفقيرُ الصادقُ مَنْ يشهد افتقارَه إلى الله . وصِدْقُ الفقير في شهود فقره إلى الله . ومَنْ افتقر إلى الله استغنى بالله ، ومَنْ افتقر إلى غير الله وقع في الذُّلِّ والهوان .

ويقال : اللَّهُ غنيٌّ عن طاعتِكم ، وأنتم الفقراءُ إلى رحمتِه .

ويقال : اللَّهُ غنيٌّ لا يحتاج إليكم ، وأنتم الفقراءُ لأنكم لا بديلَ لكم عنه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُواْ أَمْثَالَكُم ﴾ .

يستبدل قوماً غيركم يكونون أشدَّ منكم طاعةً ، وأصدقَ منكم وفاءً ؛ فهو قادرٌ على خَلْق أمثالَكم ثم لا يكونون أمثالكم في العصيانِ والإعراضِ وتَرْكِ الشكرِ والوفاءِ . . . بل سيكونون خيراً منكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 403 .

416 ﴾

(306/710)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة محمّد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ (1) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَآمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بالَهُمْ (2) ذلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْباطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثالَهُمْ (3)

الإعراب :

(عن سبيل) متعلّق بـ (صدّوا) ، وفاعل (أضلّ) ضمير يعود على لفظ الجلالة جملة : " الذين كفروا . . . أضلّ " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : "كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " صدّوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة وجملة : " أضلّ . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) 2 - (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (بما) متعلّق بـ (آمنوا) ، والعائد هو نائب الفاعل (على محمّد) متعلّق بـ (نزّل) ، (الواو) حاليّة - أو اعتراضيّة - (من ربّهم) متعلّق بمحذوف خبر ثان للمبتدأ هو " 1 " ، (عنهم) متعلّق بـ (كفّر) . . .

وجملة : " الذين آمنوا . . . كفّر عنهم " لا محلّ لها معطوفة على الابتدائيّة .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة وجملة : " آمنوا (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة وجملة : " نزّل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) وجملة : " هو الحقّ . . . " في محلّ

نصب حال من نائب الفاعل " 2 " وجملة : "كفّر عنهم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين آمنوا) وجملة : " أصلح . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة كفّر .

---

(1) أو متعلّق بالحقّ .

(2) أو لا محلّ لها اعتراضيّة .

(307/710)

---

3 - (ذلك) اسم إشارة مبتدأ في محلّ رفع . . .

والمصدر المؤوّل (أنّ الذين كفروا اتّبعوا) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ ذلك والمصدر المؤوّل (أنّ الذين آمنوا اتّبعوا) في محلّ جرّ معطوف على المصدر المؤوّل الأول (من ربّهم) متعلّق بحال من الحقّ (كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله يضرب (للناس) متعلّق بـ (يضرب) . .

وجملة : " ذلك بأنّ الذين . . . " لا محلّ لها تعليل لما سبق وجملة : "كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " اتّبعوا . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنّ) الأول وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) (الثاني)

وجملة : " اتّبعوا الحقّ . . . " في محلّ رفع خبر (أنّ) الثاني وجملة : " يضرب اللّه . . . " لا

محلّ لها استئنافيّة

الصرف :

(محمّد) ، اسم علم مشتقّ من الحمد ، من (حمّد) الرباعيّ ، وهو على وزن اسم المفعول

وزنه مفعّل بضمّ الميم وفتح العين

البلاغة

الاستعارة المكينة : في قوله تعالى " أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ " .

حيث شبه أعمالهم بالضالة من الإبل ، التي هي بمضيعة ، لا ربّ لها يحفظها ويعتني

بأمرها . أو جعلها ضالة في كفرهم ومعاصيهم ومغلوبة بها ، كما يضل الماء في اللبن .

[سورة محمد (47) : الآيات 4 إلى 6]

فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها ذلِكَ وَلَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ (4) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بالَهُمْ (5) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ (6)

الإعراب :

(الفاء) لربط ما بعدها بما قبلها برابط السببيّة (إذا) ظرف للزمن المستقبل متضمن معنى الشرط متعلّق بـ (ضرب) " 1 " ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (ضرب) مفعول مطلق لفعل محذوف ، وقد ناب المصدر عن

(1) يجوز تعليقه بالفعل المقدّر العامل في (ضرب) .

فعله بالأمر (حتّى) حرف ابتداء (إذا) مثل الأول متعلّق بـ (شدّوا) ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط الثاني (الفاء) عاطفة للتفريع (إمّا) حرف تخيير (منا) مفعول مطلق لفعل محذوف أي : فإمّا أن تمنّوا منّا . . . ومثله (إمّا فداء) ، (بعد) ظرف مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب متعلّق بـ (منّا) ، (حتّى) حرف غاية وجرّ (تضع) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتّى والمصدر المؤوّل (أن تضع . . .) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بمضمون الأحداث الأربعة : الضرب ، وشدّ الوثاق ، والمنّ والفداء (ذلك) اسم إشارة في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره : الأمر ذلك (الواو) عاطفة – أو استئنافيّة – (لو) حرف شرط غير جازم (اللام)

رابطة لجواب لو (منهم) متعلّق بـ (انتصر) بتضمينه معنى انتقم (الواو) عاطفة (لكن) للاستدراك لا عمل له (اللام) للتعليل (يبلو) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (ببعض) متعلّق بـ (يبلو) والمصدر المؤوّل (أن يبلو . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بفعل محذوف تقديره أمركم بذلك (الواو) استئنافيّة ، و(الواو) في (قتلوا) نائب الفاعل (في سبيل) متعلّق بـ (قتلوا) ، (الفاء) زائدة في الخبر لمشابهة المبتدأ للشرط . . .

جملة : " لقيتم . . . " في محلّ جرّ بإضافة إذا إليها " 1 " وجملة : "كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " (اضربوا) الرقاب ضربا " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم

---

(1) والشرط وفعله وجوابه مترتّب على الأحكام السابقة أي إذا كان الأمر كما ذكر من ضلال الكافرين وتكفير سيّئات المؤمنين العاملين . . . فإذا لقيتم . .

وجملة : " أثخنتموهم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه " 1 " وجملة : " شدّوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم وجملة : " (تمنّون) منّا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط وجملة : " (تفدون) فداء . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة

(تمنون) وجملة : " تضع الحرب . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " (الأمر) ذلك . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة – أو استئنافيّة – وجملة : " لو يشاء اللّه . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئناف القائم بعد حتّى الابتدائيّة وجملة : " انتصر منهم . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم وجملة : " (أمركم) ليبلو " لا محلّ لها معطوفة على جملة لو يشاء وجملة : " يبلو . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر وجملة : " الذين قتلوا . . . لن يضلّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " قتلوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " يضلّ . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) وجملة : " سيهديهم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ وجملة : " يصلح . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة سيهديهم 6 – (الواو) عاطفة (الجنّة) مفعول به على السعة " 2 " ، (لهم) متعلّق بـ (عرّفها) وجملة : " يدخلهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة سيهديهم وجملة : " عرّفها . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 3 "

---

(1) الواو في (أثخنتموهم) زائدة هي إشباع حركة الميم .

(2) والأصل : يدخلهم إلى الجنّة .

(3) أو في محلّ نصب حال من فاعل يدخل أو مفعوله بتقدير قد . [. . . . .]

الصرف :

(4) الوثاق : اسم لما يوثق به الأسرى وهو القيد أو الحبل ، وزنه فعال بفتح الفاء جمعه وثق بضمّتين (فداء) ، مصدر سماعيّ للثلاثيّ فدى يفدي باب ضرب . . . وفي اللفظ إعلال – أو إبدال – بقلب حرف العلّة – الياء – همزة لمجيئها متطرّفة بعد ألف ساكنة ، أصله فداي . . . وثمّة مصادر أخرى للفعل هي فدى بفتح الفاء وكسرها (تضع) ، فيه إعلال بالحذف ، فهو معتلّ مثال حذفت فاؤه في المضارع ، وزنه تعل بفتحتين (بعضكم) ، اسم للجزء أو القسم أو الطائفة وزنه فعل بفتح فسكون ، جمعه أبعاض زنة أفعال

البلاغة

المجاز المرسل : في قوله تعالى " فَضَرْبَ الرِّقَابِ " .

مجاز مرسل عن القتل ، وعبّر به عنه إشعارا بأنه ينبغي أن يكون بضرب الرقبة حيث أمكن ، وتصويرا له بأشنع صورة ، لأن ضرب الرقبة فيه إطارة الرأس الذي هو أشرف أعضاء البدن ومجمع حواسه ، وبقاء البدن ملقى على هيئة منكرة والعياذ باللّه تعالى . وعلاقة هذا المجاز ذكر الجزء وإرادة الكل ، فذكر ضرب الرقبة وأراد القتل .

الاستعارة التصريحية : في قوله تعالى " حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا " .

حيث استعار الأوزار لآلات الحرب وأثقالها التي لا تقوم إلا بها كالسلاح والكراع ، ويمكن

أن تكون استعارة مكنية ، بأن شبه الحرب بمطايا ذات أوزار أي أحمال ثقال ، وإثبات الأوزار تخييل .

الفوائد :

- أحكام الجهاد والأسرى . .

اختلف العلماء في حكم هذه الآية فقال قوم : هي منسوخة بقوله (فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ) .

(312/710)

وبقوله (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) . وهذا قول قتادة والضحاك والسدي وابن جريج . وإليه ذهب الأوزاعي وأصحاب الرأي ، قالوا : لا يجوز المنّ على من وقع في الأسر من الكفار ولا الفداء ، بل إما القتل وإما الاسترقاق ، أيهما رأى الإمام ونقل صاحب الكشاف عن مجاهد قال : ليس اليوم منّ ولا فداء ، إنما هو الإسلام أو ضرب العنق .

وذهب أكثر العلماء إلى أن الآية محكمة ، والإمام بالخيار في الرجال من الكفار إذا أسروا بين أن يقتلهم ، أو يسترقهم ، أو يمنّ عليهم فيطلقهم بلا عوض ، أو يفاديهم بالمال أو بأسارى المسلمين وإليه ذهب ابن عمر ، وبه قال الحسن وعطاء وأكثر الصحابة والعلماء . وهو قول

الثوري والشافعي وأحمد وإسحاق . قال ابن عباس : لما كثر المسلمون واشتد سلطانهم أنزل اللّه عز وجل في الأسارى (فإما منّا بعد وإما فداء) . وهذا القول هو الصحيح ، ولأنه عمل النبي (صلى اللّه عليه وسلم) والخلفاء بعده .

عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : بعث النبي (صلى اللّه عليه وسلم) خيلا قبل نجد ، فجاءت برجل من بني حنيفة ، يقال له ثمامة ، فربطوه في سارية من سواري المسجد ، فخرج إليه النبي (صلى اللّه عليه وسلم) فقال : ما عندك يا ثمامة ؟ فقال عندي خير يا محمد ، إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت ، فتركه النبي (صلى اللّه عليه وسلم) . وفي الغد قال له : ما عندك يا ثمامة ؟ فقال مثل مقالته الأولى ، فقال رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) :

أطلقوا ثمامة فانطلق إلى نخل قريب من المسجد ، فاغتسل ، ثم دخل المسجد فقال : أشهد أن لا إله إلا اللّه ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . واللّه ما كان على الأرض أبغض إلي من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليّ . واللّه ما كان من دين أبغض إليّ من دينك ، فأصبح دينك أحب الدين كله إليّ . واللّه ما كان من بلد

أبغض إليّ من بلدك ، فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إليّ . وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة ، فما ذا ترى ؟ فبشره النبيّ (صلى اللّه عليه وسلم) وأمره أن يعتمر ، فلما قدم مكة قال له قائل : أصبوت ؟ قال : لا ، ولكني أسلمت مع رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) واللّه لا يأتينكم من اليمامة حبة حنطة حتّى يأذن فيها رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) . رواه البخاري ومسلم .

ويستفاد من قوله تعالى : حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها أن يستمر الجهاد إلى آخر الزمان .

فجاء في الحديث قوله عليه الصلاة والسلام : الجهاد ماض منذ بعثني اللّه إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال .

[سورة محمد (47) : آية 7]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ (7)

الإعراب :

(أيها) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب جملة : " النداء . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " تنصروا . . . " لا محلّ لها جواب النداء وجملة : " ينصركم . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء وجملة : " يثبّت . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط

[سورة محمد (47) : الآيات 8 إلى 9]

وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ (8) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ (9)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (الفاء) زائدة لمشابهة الموصول للشرط (تعسا) مفعول مطلق لفعل محذوف (لهم) متعلّق بـ (تعسا) " 1 " ، (الواو) عاطفة ، وفاعل (أضلّ) ضمير مستتر يعود على اللّه المفهوم من سياق الكلام

---

(1) اللام فيها معنى التعدية . أو الجار والمجرور خبر لمبتدأ محذوف تقديره العذاب لهم .

(314/710)

جملة : " الذين كفروا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : "كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " (تعسوا) تعسا . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) وجملة : " أضلّ . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة (تعسوا) المقدّرة 9 - والمصدر المؤوّل (أنّهم كرهوا . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ ذلك .

(ما) موصول في محلّ نصب مفعول به (الفاء) عاطفة وجملة : " ذلك بأنّهم كرهوا . . . " لا محلّ لها تعليل للدعاء السابق " 1 " وجملة : "كرهوا . . . " في محلّ رفع خبر أنّ وجملة : "

أنزل اللّه . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (ما) وجملة : "أحبط . . . "في محلّ رفع معطوفة على جملة كرهوا

الصرف :

(تعسا) ، مصدر سماعيّ للثلاثيّ تعس باب فرح بمعنى سقط ، وزنه فعل بفتح فسكون

الفوائد .

. الجملة المفسرة لعامل الاسم المشتغل عنه .

مثل : زيدا ضربته أو زيدا ضربت أخاه . فجملة ضربت مفسرة للفعل المحذوف المقدّر قبل (زيد) بمعنى (ضربت زيدا ضربته) وقوله تعالى وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ الذين مبتدأ وتعسا مفعول مطلق لفعل محذوف هو الخبر ولا يكون (الذين) منصوبا بمحذوف يفسره (تعسا) كما تقول : زيدا ضربا إياه وكذا لا يجوز أن تقول : زيدا جدعا له ، ولا عمرا سقيا له . بل تقول بالرفع : زيد جدعا له ، وعمر سقيا له . لأن اللام متعلقة بالفعل المحذوف لا بالمصدر ، لأنه لا يتعدى بالحرف

---

(1) أو استئناف بيانيّ .

وليست لام التقوية ، لأنها لازمة ، ولام التقوية غير لازمة وقوله تعالى : سَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ كَمْ آتَيْناهُمْ مِنْ آيَةٍ إن قدرت (من) زائدة فكم مبتدأ أو مفعول به لآتينا مقدّرا بعده . وإن قدرتها بيانا لـ (كم) فهي مفعول به ثان مقدّم لآتينا فقط . مثل :

أعشرين درهما أعطيتك .

[سورة محمد (47) : الآيات 10 إلى 11]

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكافِرِينَ أَمْثالُها (10) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ (11)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ (الفاء) عاطفة في الموضعين (في الأرض) متعلّق بـ (يسيروا) ، (كيف) اسم استفهام في محلّ نصب خبر كان (من قبلهم) متعلّق بمحذوف صلة الذين (عليهم) متعلّق بـ (دمّر) بتضمينه معنى أطبق أو سخط " 1 " ، ومفعول دمّر محذوف أي أموالهم وممتلكاتهم (الواو) عاطفة (للكافرين) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (أمثالها) جملة : " لم يسيروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي :

أقعدوا فلم يسيروا وجملة : " ينظروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لم يسيروا وجملة : " كان عاقبة . . . " في محلّ نصب مفعول به لفعل النظر المعلّق بالاستفهام ، بتقدير الجارّ وجملة : " دمّر اللّه . . . " لا محلّ لها استئناف بياني .

وجملة : " للكافرين أمثالها " لا محلّ لها معطوفة على جملة دمّر اللّه

---

(1) وفي المعجم : دمّره ودمّر عليه أهلكه . . . فلا تضمين ولا حذف مفعول .

(316/710)

---

11 - (ذلك بأنّ اللّه . . .) مثل ذلك بأنّهم " 1 " ، (لا) نافية للجنس (لهم) متعلّق بخبر لا . . .

والمصدر المؤوّل (أنّ الكافرين . . .) في محلّ جرّ معطوف على المصدر المؤوّل الأول إعرابا وتعليقا وجملة : " ذلك بأنّ اللّه . . . " لا محلّ لها تعليل لما سبق - أو استئناف بيانيّ - وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لا مولى لهم . . . " في محلّ رفع خبر أنّ

[سورة محمد (47) : آية 12]

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ (12)

الإعراب :

(جنّات) مفعول به ثان على السعة " 2 " ، منصوب وعلامة النصب الكسرة (من تحتها)

متعلّق بـ (تجري) " 3 " بحذف مضاف أي من تحت أشجارها (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (ما) حرف مصدريّ . . . (لهم) متعلّق بنعت لـ (مثوى) والمصدر المؤوّل (ما تأكل الأنعام) في محلّ جرّ بالكاف متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله يأكلون

---

(1) في الآية (9) من هذه السورة .

(2) والأصل يدخل الذين آمنوا إلى جنّات . . .

(3) أو متعلّق بحال من الأنهار .

جملة : " إنّ اللّه يدخل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " يدخل . . . " في محلّ رفع خبر إنّ وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة وجملة : " تجري . . . " في محلّ نصب نعت لجنّات وجملة : " الذين كفروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني وجملة : " يتمتّعون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) وجملة : " يأكلون " في محلّ رفع معطوفة على جملة يتمتّعون وجملة : " تأكل الأنعام " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) وجملة : " النار مثوى لهم " لا محلّ لها استئنافيّة

البلاغة

التشبيه : في قوله تعالى " وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ " .

حيث شبه الكفار بالأنعام في التمتع بالأكل ، فهم يأكلون عن شره ونهم شأن البهائم ، ازدراء لهم ، وتحقيرا لحالهم ، ووصفهم بالدناءة والبطنة مما تذمه العرب وتبغضه .

(318/710)

[سورة محمد (47) : آية 13]

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْناهُمْ فَلا ناصِرَ لَهُمْ (13)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (كأيّن) كناية عن عدد بمعنى كثير مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (من قرية) تمييز الكناية (قوّة) تمييز بـ (أشدّ) ، (من قريتك) متعلّق بأشدّ (التي) موصول في محلّ جرّ نعت لقريتك (الفاء) عاطفة (لا) نافية للجنس (لهم) متعلّق بخبر لا .

جملة : "كأيّن من قرية . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هي أشدّ . . . " في محلّ جرّ نعت لقرية .

وجملة : " أخرجتك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

وجملة : " أهلكناهم . . . " في محلّ رفع خبر كأين .

وجملة : " لا ناصر لهم " في محلّ رفع معطوفة على جملة الخبر " 1 " .

الفوائد :

- كأين . .

هي اسم مركب من كاف التشبيه وأي المنونة ، ولذلك جاز الوقف عليها بالنون ، لأن التنوين لما دخل في التركيب أشبه النون الأصلية ، ولهذا رسم في المصحف نونا . ومن وقف عليها بحذفه اعتبر حكمه في الأصل وهو الحذف في الوقف .

وتوافق (كأي) (كم) في أمور . .

التصدير ، وإفادة التكثير - معظم الأحيان - كقوله تعالى : وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ أما الاستفهام ، فهو نادر جدا ، كما في قول أبيّ بن كعب لابن مسعود رضي اللّه عنهما (كأين تقرأ سورة الأحزاب آية ؟ فقال : ثلاثا وسبعين .

وتخالفها في خمسة أمور :

---

(1) المعنى : أهلكناهم فلم ينصرهم ناصر فهو إخبار عمّا مضى . . .

1 - هي مركبة وكم غير مركبة . .

2 - مميزها مجرور بمن غالبا ، وهكذا وردت في القرآن الكريم : (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ) و(كَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ) (وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ) .

3 - لا تقع استفهامية عند الجمهور بل هي خبرية .

4 - لا تقع مجروره .

5 - خبرها لا يقع مفردا بل جملة .

[سورة محمد (47) : آية 14]

أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ (14)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الفاء) استئنافيّة (من) موصول في محلّ رفع مبتدأ (على بيّنة) متعلّق بخبر كان (من ربّه) متعلّق بنعت لـ (بيّنة) ، (كمن) متعلّق بخبر المبتدأ (من) الأول (له) متعلّق بـ (زيّن) .

جملة : " من كان على بيّنة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كان على بيّنة . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الأول .

وجملة : " زيّن له سوء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني .

وجملة : " اتّبعوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة الثانية .

(320/710)

[سورة محمد (47) : آية 15]

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ (15)

" 1 "

الإعراب :

(مثل) مبتدأ مرفوع خبره محذوف أي : في ما يتلى عليكم مثل الجنّة - أو مثل الجنّة ما تقرؤون - (التي) موصول في محلّ جرّ نعت للجنّة ، والعائد محذوف (المتّقون) نائب الفاعل (فيها) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (أنهار) (من ماء) متعلّق بنعت لـ (أنهار) (الواو) عاطفة في المواضع الستّة (من لبن) متعلّق بنعت لـ (أنهار) الثاني (من خمر) نعت لـ (أنهار) الثالث (للشاربين) متعلّق بـ (لذّة) (من عسل) نعت لـ (أنهار) الرابع (لهم) متعلّق بخبر مقدّم ،

والمبتدأ مقدّر أي : أصناف " 2 " ، (فيها) متعلّق بالاستقرار الذي هو خبر (من كلّ) متعلّق بنعت للمبتدأ المقدّر (مغفرة) معطوف على المبتدأ المقدّر (من ربّهم) متعلّق بنعت لـ (مغفرة) (كمن) متعلّق بخبر لمبتدأ محذوف تقديره :

أمن هو في هذا النعيم كمن هو خالد " 3 " ، (في النار) متعلّق بـ (خالد) ، و(الواو) في (سقوا) نائب الفاعل (ما) مفعول به منصوب .

جملة : " مثل الجنّة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " وعد المتّقون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

وجملة : " فيها أنهار " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 4 " .

وجملة : " لم يتغيّر طعمه " في محلّ جرّ نعت للبن .

---

(1) في إعراب هذه الآية تأويلات كثيرة من قبل المعربين الأوائل ، وقد آثرنا أوضح هذه التخريجات وأسهلها وأقلّها تأويلا .

(2) أو زوجان ، أخذا من الآية الكريمة : فيهما من كلّ فاكهة زوجان .

(3) أو مثل هذا الجزاء الموصوف كمثل جزاء من هو خالد . . . ولكن في هذا زيادة تأويل .

ويجوز أن يكون الجارّ والمجرور (كمن) . . . خبرا للمبتدأ مثل الجنّة . . . وما بينهما

اعتراض .

(4) أو هي خبر للمبتدأ مثل الجنّة ، ولا يمنع عدم وجود الرابط لأنّ الخبر عين المبتدأ .

(321/710)

وجملة : " لهم فيها (أصناف) . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة فيها أنهار .

وجملة : " (أمن هو في نعيم) كمن هو خالد " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هو خالد . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " سقوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة " 1 " .

وجملة : " قطّع . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة سقوا .

الصرف :

(آسن) ، اسم فاعل من (أسن) الثلاثيّ ، وزنه فاعل ، وقد عوّض من الهمزة وألف فاعل بمدّة . .

(طعم) ، اسم لما يدركه الذوق من حلاوة أو مرارة ، وزنه فعل بفتح فسكون ، جمعه طعوم بضمّتين (عسل) ، اسم لمادّة الطعام المعروفة ، وهو يذكّر ويؤنّث ، وقد جاء في الآية الكريمة مذكرا فوصف بكونه مصفّى ، وزنه فعل بفتحتين ، ويؤخذ منه فعل فيقال : عسل الطعام

- بفتح الميم - أي عمله عسلا وهو من بابي نصر وضرب .

(مصفّى) ، اسم مفعول من الرباعيّ صفّى ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وفتح العين .

(سقوا) ، فيه إعلال بالتسكين وإعلال بالحذف أصله سقيوا - بضمّ الياء - فاستثقلت الضمّة على الياء فسكّنت - إعلال بالتسكين - ونقلت حركتها إلى القاف . . اجتمعت الياء والواو ساكنتين فحذفت الياء - لام الكلمة - وهو إعلال بالحذف فأصبح سقوا ، وزنه فعوا بضمّتين .

---

(1) أو هي حال بتقدير (قد) .

(322/710)

(أمعاء) ، جمع معى - بكسر الميم وفتح العين بعدهما ألف - اسم لمصران البطن وزنه فعل ، والألف منقلبة عن ياء لأنّ المثنى معيان . . و(الهمزة) في الجمع منقلبة عن ياء لمجيئها متطرّفة بعد ألف ساكنة . . أو هو جمع معي وزنه فعل بفتح فسكون بعدهما ياء ، والمعى والمعي مذكّر وقد يؤنّث .

[سورة محمد (47) : آية 16]

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ما ذا قالَ آنِفاً

أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (16)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (منهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (من) ، (إليك) متعلّق بـ (يستمع) ، (حتّى) حرف ابتداء (من عندك) متعلّق بـ (خرجوا) ، (للذين) متعلّق بـ (قالوا) ، (العلم) مفعول به منصوب (ماذا) اسم استفهام في محلّ نصب مفعول مقدّم " 1 " ، (آنفا) حال منصوبة أي مبتدئا " 2 " ، (على قلوبهم) متعلّق بـ (طبع) .

جملة : " منهم من يستمع " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يستمع إليك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " خرجوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " أوتوا العلم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

---

(1) أو (ما) اسم استفهام مبتدأ خبره الموصول (ذا) ، وجملة قال صلة الموصول ، ومقول القول محذوف وهو العائد .

(2) يجوز أن يكون ظرفا متعلّقا بـ (قال) أي ماذا قال الساعة . . . [. . . . .]

وجملة : " قال . . . " في محلّ نصب مقول القول لفعل قالوا وجملة : " أولئك الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " طبع اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : " اتّبعوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة صلة الموصول

الصرف :

(آنفا) ، اسم فاعل من (أنف) الثلاثي ، وهو فعل غير مستعمل ، والمدّة عوض من الهمزة والألف . . .

[سورة محمد (47) : آية 17]

وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ (17)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اهتدوا) ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين (هدى) مفعول به ثان جملة : " الذين اهتدوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اهتدوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " زادهم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

وجملة : " آتاهم . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة زادهم .

[سورة محمد (47) : آية 18]

(324/710)

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ (18)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (هل) حرف استفهام فيه معنى النفي ، والضمير في (ينظرون) يعود على كفار مكّة (إلّا) للحصر (بغتة) مصدر في

موضع الحال " 1 " ، (الفاء) تعليليّة (قد) حرف تحقيق . .

والمصدر المؤوّل (أن تأتيهم) في محلّ نصب بدل اشتمال من الساعة أي :

ينظرون إتيان الساعة .

(الفاء) استئنافيّة - أو عاطفة - (أنّى) اسم استفهام في محلّ نصب على الظرفيّة متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (ذكراهم) " 2 " ، (لهم) متعلّق بالاستقرار الذي هو خبر (إذا) ظرف للمستقبل مجرّد من الشرط ، وفاعل (جاءتهم) ضمير يعود على الساعة .

جملة : " ينظرون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 3 " .

وجملة : " تأتيهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " جاء أشراطها " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " أنّى لهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " جاءتهم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

الصرف :

(أشراطها) ، جمع شرط وزنه فعل بفتحتين أي علامة ، ووزن أشراط أفعال كسبب وأسباب .

الفوائد :

- أشراط الساعة . .

أشارت هذه الآية إلى مجيء أشراط الساعة بقوله تعالى :

---

(1) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه ملاقيه في المعنى . . . تأتيهم بمعنى تباغتهم .

(2) يجوز أن يكون (ذكراهم) فاعلا لفعل جاءتهم . . . وحينئذ يكون المبتدأ مقدر أي أنى لهم الخلاص . . .

(3) يجوز أن تكون الجملة معطوفة على جملة الاستئناف : أولئك الذين طبع الله . . . (الآية 16) وما بينهما اعتراض .

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها لما كان أمر الساعة مستبطأ في النفوس ذكر اللّه عز وجل أنها تأتي بغتة ، وأنه قد حصل بعض أماراتها وعلاماتها وقد ذكر ذلك رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) في كثير من أحاديثه الصحيحة . وسنورد بعضها للبيان :

عن سهل بن سعد قال : رأيت رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) قال بإصبعه هكذا الوسطى والتي تلي الإبهام ، وقال : بعثت أنا والساعة كهاتين .

قيل معناه بأن ما بين مبعثه (صلى اللّه عليه وسلم) وقيام الساعة كما بين هذين الإصبعين في فارق الطول ، فهو شيء يسير . وقيل : هو إشارة إلى قرب المجاورة .

عن أنس ، قال عند قرب وفاته : ألا أحدثكم حديثا عن النبي (صلى اللّه عليه وسلم) لا يحدثكم به أحد غيري ؟ سمعت رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) يقول : من أشراط الساعة أن يرفع العلم ، ويظهر الجهل (الجهل بالشرع والدين) ويشرب الخمر ، ويفشو الزنا ، ويذهب الرجال ، ويبقى النساء ، حتى يكون لخمسين امرأة قيّم .

عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) إن من أشراط الساعة : أن

يتقارب الزمان ، وينقص العلم ، وتظهر الفتن ، ويلقى الشحّ ، ويكثر الهرج ، قالوا : وما الهرج؟

قال : القتل .

و

عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : سأل أعرابي رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) فقال : متى الساعة ؟ فقال (صلى اللّه عليه وسلم) إذا ضيّعت الأمانة فانتظر الساعة . قال : وما تضييع الأمانة ، قال : أن يوسد الأمر غير أهله .

وقال العلماء : من أشراط الساعة انشقاق القمر ، بدليل قوله تعالى : اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ

[سورة محمد (47) : آية 19]

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْواكُمْ (19)

الإعراب :

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (لا) نافية للجنس (إلّا) للاستثناء (اللّه) لفظ الجلالة بدل من الضمير المستكنّ في الخبر (لذنبك) متعلّق بـ (استغفر) ، وكذلك (للمؤمنين) بحذف مضاف أي لذنب المؤمنين . . .

(الواو) للاستئناف والمصدر المؤوّل (أنّه لا اله إلّا اللّه) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي اعلم

جملة : " اعلم . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر إذا علمت سعادة المؤمنين وشقاوة الكافرين فخذ العلم بوحدانية اللّه .

وجملة : " لا إله إلّا اللّه " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " استغفر . . . " معطوفة على جملة اعلم .

وجملة : " اللّه يعلم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يعلم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

الصرف :

(متقلّبكم) ، مصدر ميميّ للخماسيّ تقلّب ، وزنه متفعّل بضمّ الميم وفتح العين المشدّدة .

[سورة محمد (47) : الآيات 20 إلى 21]

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلى لَهُمْ (20) طاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ (21)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لولا) حرف تحضيض (الفاء) عاطفة وكذلك الواو (فيها) متعلّق بـ (ذكر) ، (في قلوبهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ

(مرض) (إليك) متعلّق بـ (ينظرون) ، (نظر) مفعول مطلق منصوب (عليه) في موضع نائب الفاعل لاسم المفعول المغشيّ (من الموت) متعلّق بـ (المغشيّ) (الفاء) استئنافيّة (أولى) مبتدأ " 1 " مرفوع خبره (طاعة) " 2 " ، (لهم) متعلّق بـ (أولى) " 3 " .

جملة : " يقول الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) يجوز أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف تقديره الهلاك أو العقاب لهم . . . أي أقرب وأدنى . .

والأصمعي وحده جعله فعلا ماضيا فاعله ضمير يدلّ عليه السياق أي قاربه ما يهلكه ، وتبعه في ذلك المبرّد والزمخشريّ .

(2) أو خبره (لهم) ، والمعنى : الهلاك لهم لأنّ أولى من الويل . . . وحينئذ يكون (طاعة) خبر لمبتدأ محذوف تقديره : أمرنا طاعة . . أو هو مبتدأ خبره محذوف تقديره أمثل بكم أو منا طاعة

(3) واللام بمعنى الباء أي : أولى بهم طاعة وقول معروف .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لولا نزّلت سورة " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أنزلت سورة " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " ذكر فيها القتال " في محلّ جرّ معطوفة على جملة أنزلت .

وجملة : " رأيت . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " في قلوبهم مرض . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : " ينظرون . . . " في محلّ نصب حال من الموصول .

وجملة : " أولى لهم " لا محلّ لها استئنافيّة .

21 - (الفاء) استئنافيّة ، والثانية رابطة لجواب الشرط (لو) حرف شرط غير جازم (اللام) واقعة في جواب لو ، واسم (كان) ضمير مستتر يعود على الصدق والإيمان المفهومين من السياق (لهم) متعلّق بـ (خيرا) .

وجملة : " عزم الأمر . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " لو صدقوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم (إذا) .

وجملة : "كان خيرا لهم" لا محلّ لها جواب شرط غير جازم (لو) .

الصرف :

(20) نظر : مصدر سماعيّ للثلاثيّ نظر باب نصر ، وزنه فعل بفتحتين .

(المغشيّ) ، اسم مفعول من الثلاثيّ غشي ، والأصل في وزنه هو مفعول ، ثمّ وقع فيه إعلال بالقلب ، أصله مغشوي – بياء في آخره – اجتمعت الواو والياء والأولى ساكنة قلبت الواو إلى ياء وأدغمت مع الياء الأخرى ثمّ كسرت الشين لمناسبة الياء .

(328/710)

(أولى) ، انظر الآية (68) من سورة آل عمران . . . وفي هذه الحال هو مشتّق من الولي وهو القرب ووزنه أفعل ، وقيل هو مشتّق من الويل فوزنه أفلع .

الفوائد :

– ما يحتمل المبتدأ أو الخبر . .

ورد في هذه الآية قوله تعالى : طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ، فإنه يجوز إعراب طاعة خبر لمبتدأ محذوف . والتقدير : أمرنا طاعة . كما يجوز إعرابها مبتدأ ، والتقدير طاعة وقول معروف أمثل . وقد ورد ذلك في القرآن الكريم في عدة مواضع ، سنشير إليها :

1 - يكثر ذلك بعد الفاء كقوله تعالى : فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ (فَنَظِرَةٌ إِلى مَيْسَرَةٍ) فإن أعربت أخبارا ، فالتقدير : الواجب كذا ، وإن أعربت مبتدأ ، فالتقدير فعليه كذا ، أو فعليكم كذا .

2 - ويأتي في غيره : كقوله تعالى : فَصَبْرٌ جَمِيلٌ أي أمري أو صبر جميل أمثل . وقوله تعالى : طاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ أي أمرنا ، أو أمثل . ويدل للأول قوله :

فقالت على اسم اللّه أمرك طاعة وإن كنت قد كلفت ما لم أعوّد

الشاهد قوله : (أمرك طاعة) مما يرجح الخبر على كونها مبتدأ . لأن الشاعر اعتبر (طاعة) خبرا للمبتدأ (أمرك) وقد جاء مصرحا به لذا فإذا أردنا التقدير نقدر على ضوء ما هو مصرح به .

[سورة محمد (47) : آية 22]

فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ (22)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (هل) حرف استفهام (تولّيتم) ماض في محلّ جزم فعل الشرط (في الأرض) متعلّق بـ (تفسدوا) ، (تقطّعوا) مضارع منصوب معطوف على (تفسدوا) بالواو . .

والمصدر المؤوّل (أن تفسدوا) في محلّ نصب خبر عسيتم جملة : " عسيتم . . . " لا محلّ

لها استئنافيّة.

وجملة: " تولّيتم . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله.

(329/710)

وجملة: " تفسدوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة: " تقطّعوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تفسدوا .

البلاغة

الالتفات: في قوله تعالى " فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ " .

فقد نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب، على طريقة الالتفات، ليكون أبلغ في تأكيد التوبيخ وتشديد التقريع.

[سورة محمد (47) : آية 23]

أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمى أَبْصارَهُمْ (23)

الإعراب:

(الفاء) عاطفة ومثلها (الواو) ، وفاعل (أصمّهم، أعمى) ضميران يعودان على لفظ

الجلالة . .

جملة : " أولئك الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لعنهم اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " أصمّهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " أعمى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أصمّهم .

[سورة محمد (47) : آية 24]

أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها (24)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ (الفاء) عاطفة - أو استئنافيّة - (لا) نافية (أم) منقطعة بمعنى بل (على قلوب) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (أقفالها) .

جملة : " لا يتدبّرون . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي :

أغفلوا فلا يتدبّرون . . . - أو هي استئنافيّة - .

وجملة : " على قلوب أقفالها . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(أقفال) ، جمع قفل ، اسم للأداة المعروفة مستعملا على سبيل المجاز ، وزنه فعل بضمّ فسكون ، وثمّة جموع أخرى هي أقفل بفتح الهمزة وضمّ الفاء وقفول بضمّتين .

البلاغة

التنكير : في قوله تعالى " أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها " .

(330/710)

تنكير القلوب ، إما لتهويل حالها وتفظيع شأنها ، بإبهام أمرها في القساوة والجهالة كأنه قيل : على قلوب منكرة لا يعرف حالها ولا يقادر قدرها في القساوة ، وإما لأن المراد بها قلوب بعض منهم ، وهم المنافقون ، وإضافة الأقفال للدلالة على أنها أقفال مخصوصة بها مناسبة لها غير مجانسة لسائر الأقفال المعهودة .

ففي الكلام استعارة : فقد شبّه قلوبهم بالصناديق ، واستعار لها شيئًا من لوازمها وهي الأقفال المختصة بها ، لاستبعاد فتحها واستمرار انغلاقها .

[سورة محمد (47) : الآيات 25 إلى 28]

إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلى لَهُمْ (25) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ (26) فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ (27) ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ (28)

الإعراب :

(على أدبارهم) متعلّق بـ (ارتدّوا) ، (من بعد) متعلّق بـ (ارتدّوا) ، (ما) حرف مصدريّ

(لهم) متعلّق بـ (تبيّن) . . .

والمصدر المؤوّل (ما تبيّن . .) في محلّ جرّ مضاف إليه .

(لهم) الثاني متعلّق بـ (سوّل) ، و(لهم) الثالث متعلّق بـ (أملى) .

جملة : "إنّ الذين ارتدّوا . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "ارتدّوا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : "تبيّن لهم الهدى . . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : "الشيطان سوّل . . . "في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : "سوّل لهم . . . "في محلّ رفع خبر المبتدأ (الشيطان) .

وجملة : "أملى لهم "في محلّ رفع معطوفة على جملة سوّل .

(331/710)

---

26 – والمصدر المؤوّل (أنّهم قالوا . . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ (ذلك) .

(للذين) متعلّق بـ (قالوا) ، (ما) موصول في محلّ نصب مفعول به ، والعائد محذوف (في بعض) متعلّق بـ (نطيعكم) ، (الواو) حالية . .

وجملة : " ذلك بأنّهم قالوا . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " قالوا . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : "كرهوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " نزّل اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " سنطيعكم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " اللّه يعلم . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " يعلم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

27 – (الفاء) استئنافيّة (كيف) اسم استفهام في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره حالهم " 1 " ، (إذا) ظرف للمستقبل مجرّد من الشرط في محلّ نصب متعلّق بالمبتدأ المقدّر " 2 " .

وجملة : "كيف (حالهم) . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " توفّتهم الملائكة . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " يضربون . . . " في محلّ نصب حال من الملائكة أو من المفعول .

28 – (ذلك بأنّهم . .) مثل الأولى " 3 " (ما) موصول مفعول به (اللّه) لفظ الجلالة مفعول

به (الفاء) عاطفة.

وجملة: " ذلك بأنّهم . . . " لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: " اتّبعوا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: " أسخط . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

وجملة: " كرهوا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة اتّبعوا.

وجملة: " أحبط . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة كرهوا.

الصرف:

(أملى)، رسمت الألف بياء غير منقوطة لأنها رابعة برغم كونها منقلبة عن واو، فثلاثيّه ملا يملو، والملاوة البرهة من الدهر . . .

(26) إسرار: مصدر قياسيّ للفعل الرباعيّ أسرّ، وزنه إفعال بكسر الهمزة.

[سورة محمد (47): الآيات 29 إلى 31]

---

(1) أو في محلّ نصب حال عاملها فعل مقدّر أي كيف يصنعون.

(2) أو متعلّق بالفعل المقدّر.

(3) في الآية (26) من هذه السورة

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (29) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (30) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ (31)

الإعراب :

(أم) منقطعة بمعنى بل والهمزة (في قلوبهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (مرض) (أن) مخفّفة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف .

جملة : " حسب الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " في قلوبهم مرض . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لن يخرج اللّه . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

والمصدر المؤوّل (أن لن يخرج اللّه . . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي حسب .

30 - (الواو) عاطفة (لو) حرف شرط غير جازم (اللام) واقعة في جواب لو في الموضعين و(الفاء) عاطفة (بسيما) متعلّق بـ (عرفتهم) ، (الواو) عاطفة و(اللام) الثالثة لام القسم لقسم مقدّر (تعرفنّهم) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع (في لحن) متعلّق بـ (تعرفنّ) والجارّ للسببيّة ، (الواو) استئنافيّة .

وجملة : " نشاء . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " أريناكهم . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " عرفتهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط .

وجملة : " تعرفنّهم . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . . وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " اللّه يعلم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يعلم أعمالكم " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

(333/710)

---

31 - (الواو) عاطفة (لنبلونّكم) مثل لتعرفنّهم (حتّى) حرف غاية وجرّ (نعلم) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتّى .

والمصدر المؤوّل (أن نعلم) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (نبلونّكم) .

(منكم) متعلّق بحال من المجاهدين (الواو) عاطفة في الموضعين (نبلو) مضارع منصوب معطوف على (نعلم) .

وجملة : " نبلونّكم . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . . وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها معطوفة على جملة القسم المقدّرة الأولى .

وجملة : " نعلم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر وجملة : " نبلو . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نعلم

الصرف :

(أضغانهم) ، جمع ضغن اسم بمعنى الحقد وزنه فعل بكسر فسكون والجمع أفعال .

(أخبار) ، جمع خبر . . اسم للحديث المرويّ ، وزنه فعل بفتحتين ، ووزن أخبار أفعال .

(لحن) ، مصدر الثلاثيّ لحن أي أخطأ في الكلام أو هو اسم بمعنى الفحوى ، أو الخطأ في الكلام وزنه فعل بفتح فسكون .

البلاغة

الاستعارة التصريحية : في قوله تعالى " أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغانَهُمْ " .

فشبه المرض النفسي بالمرض الجسدي ، إذ أن كلا منهما يتلف المرء وينغص عليه حياته . وصرح هنا بالمشبه به دون المشبه ، والاستعارة أبلغ ، لأن الأمراض الجسدية ظاهرة للعين بادية الأثر .

[سورة محمد (47) : آية 32]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ (32)

الإعراب :

(عن سبيل) متعلّق بـ (صدّوا) بتضمينه معنى أعرضوا (من بعد) متعلّق بـ (شاقّوا) ، (ما) حرف مصدريّ .

والمصدر المؤوّل (ما تبيّن . .) في محلّ جرّ مضاف إليه .

(لهم) متعلّق بـ (تبيّن) ، (شيئًا) مفعول مطلق نائب عن المصدر أي ضرارا ما (الواو) عاطفة .

(334/710)

جملة : " إنّ الذين كفروا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " صدّوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " شاقّوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " تبيّن لهم الهدى " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " لن يضرّوا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " سيحبط . . . " في محلّ رفع معطوفة على خبر إنّ .

[سورة محمد (47) : آية 33]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ (33)

الإعراب :

(أيّها) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب (الذين) في محلّ نصب بدل من أيّ - أو عطف بيان عليه - (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة . . .

جملة : " النداء . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " أطيعوا اللّه . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " أطيعوا الرسول . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " لا تبطلوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

[سورة محمد (47) : آية 34]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ ماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (34)

الإعراب :

(إنّ الذين . . . سبيل اللّه) مرّ إعرابها " 1 " ، (ثمّ) . حرف عطف (الواو) حاليّة (الفاء) زائدة لمشابهة الموصول اسم إنّ للشرط (لهم) متعلّق بـ (يغفر) .

جملة : " ماتوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة كفروا . . .

وجملة : " هم كفّار . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " لن يغفر اللّه لهم " في محلّ رفع خبر إنّ .

[سورة محمد (47) : آية 35]

---

(1) في الآية (32) مفردات وجملا .

فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ (35)

الإعراب :

(الفاء) رابطة لجواب الشرط المقدّر (لا) ناهية جازمة (الواو) عاطفة (تدعوا) مضارع مجزوم معطوف على (تهنوا) ، (إلى السلم) متعلّق

ب (تدعوا) ، (الواو) حالية والثانية استئنافيّة والثالثة عاطفة . . . (معكم) ظرف منصوب متعلّق بالخبر .

جملة : " تهنوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر أي : إذا لقيتم الكافرين فلا تهنوا . . . أو إذا علمتم وجوب الجهاد فلا تهنوا .

وجملة : " تدعوا . . . " معطوفة على جملة تهنوا .

وجملة : " أنتم الأعلون " في محلّ نصب حال .

وجملة : " اللّه معكم " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لن يتركم . . . " معطوفة على جملة اللّه معكم .

الصرف :

(يتركم) ، فيه إعلال بالحذف ، أصله يوتركم ، فهو معتلّ مثال حذفت فاؤه في المضارع ، وزنه يعلكم .

الفوائد :

- مع . .

1 - هي اسم ، بدليل التنوين في قولك (معا) ، وتسكين عينه لغة غنم وربيعة ، وقول النحاس إنها حرف مردود . وتستعمل مضافة فتكون ظرفا ، ولها حينئذ ثلاث معان :

1 - موضع الاجتماع ولهذا يخبر بها عن الذوات ، كقوله تعالى في الآية التي نحن بصددها وَاللَّهُ مَعَكُمْ .

2 - زمانه : (جئت مع العصر) . .

3 - مرادفة (عند) كقراءة بعضهم (هذا ذكر من معي) .

2 - وتكون مفردة فتنوّن ، وتكون حالا ، وقد جاءت ظرفا مخبرا به في نحو قول جندل بن

عمرو :

أفيقوا بني حرب وأهواؤنا معا وأرماحنا موصولة لم تقضب

(336/710)

وقيل (معا) حال والخبر محذوف . .

وهي في الإفراد بمعنى جمعا عند ابن مالك ، وهو خلاف قول ثعلب . إذا قلت جاؤوا جميعا احتمل أن فعلهم في وقت واحد أو في وقتين ، وإذا قلت جاؤوا معا فالوقت واحد .

وتستعمل معا للجماعة كما تستعمل للاثنين . قال متمم بن نويرة :

يذكّرون ذا البث الحزين ببثّه إذا حنت الأولى سجعن لها معا

وقالت الخنساء :

وأفنى رجالي فبادوا معا فأصبح قلبي بهم مستفزّا

[سورة محمد (47) : الآيات 36 إلى 38]

إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (36) إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (37) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ

تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ (38)

الإعراب :

جملة : "إنّما الحياة . . . لعب" لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تؤمنوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " تتّقوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على تؤمنوا .

وجملة : " يؤتكم . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " يسألكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط .

37 - (الواو) في (يسألكموها) زائدة هي إشباع حركة الميم . (الفاء) عاطفة (يحفكم) مضارع مجزوم معطوف على فعل الشرط ، وفاعل (يخرج) ضمير يعود على البخل المفهوم من قوله (تبخلوا) جواب الشرط .

وجملة : " يسألكموها . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو تعليليّة - .

وجملة : " يحفكم " لا محلّ لها معطوفة على جملة يسألكموها .

وجملة : " تبخلوا . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " يخرج . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب الشرط .

38 - (هؤلاء) اسم إشارة في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنتم) " 1 " ، و(الواو) في (تدعون) نائب الفاعل (اللام) للتعليل (تنفقوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (في سبيل) متعلّق بـ (تنفقوا) .

والمصدر المؤوّل (أن تنفقوا . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (تدعون) .

(الفاء) عاطفة (منكم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ المؤخّر (من) الموصول (الواو) استئنافيّة (من) الثاني اسم شرط جازم في محلّ رفع مبتدأ (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إنّما) كافّة ومكفوفة (عن نفسه) متعلّق بـ (يبخل) ، (الواو) اعتراضيّة ، وعاطفة في الموضعين التاليين (تتولّوا) مضارع مجزوم فعل الشرط . . . والواو فاعل (غيركم) نعت لـ (قوما) منصوب (لا) نافية (يكونوا)

---

(1) أو هو منادى حذف منه أداة النداء ، وجملة تدعون خبر المبتدأ أنتم .

مضارع ناقص مجزوم معطوف على (يستبدل) ، (أمثالكم) خبر يكونوا منصوب .

وجملة : " أنتم هؤلاء . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تدعون " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " تنفقوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " منكم من يبخل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تدعون .

وجملة : " يبخل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " من يبخل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يبخل . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " .

وجملة : " إنّما يبخل عن نفسه " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " اللّه الغنيّ . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " أنتم الفقراء . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاعتراضيّة .

وجملة : " تتولّوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الشرط من يبخل . . .

أو على جملة الشرط إن تؤمنوا .

وجملة : " يستبدل . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " لا يكونوا أمثالكم " لا محلّ لها معطوفة على جملة يستبدل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الجدول حـ 26 صـ 205 . 240 ﴾

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(339/710)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(47) سورة محمد صلى الله عليه وسلم

مدنيّة وآياتها ثمان وثلاثون

[سورة محمد (47) : الآيات 1 إلى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ (1) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَآمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بالَهُمْ (2) ذلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْباطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثالَهُمْ (3) فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها ذلِكَ وَلَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ (4) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بالَهُمْ (5) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ (6)

اللغة :

(مُحَمَّدٍ) اسم عربي وهو مفعل من الحمد والتكرير فيه للتكثير كما تقول كرّمته فهو مكرّم وعظمته فهو معظّم إذا فعلت ذلك مرة بعد مرة وهو منقول من الصفة على سبيل التفاؤل أنه سيكثر حمده وكان كذلك صلى اللّه عليه وسلم ، روى بعض نقلة العلم فيما حكاه ابن دريد أن النبي صلى اللّه عليه وسلم لما ولد أمر عبد المطلب بجزور فنحرت ودعا رجال قريش وكانت سنّتهم في المولود إذا ولد في استقبال الليل كفئوا عليه قدرا حتى يصبح ففعلوا ذلك بالنبي صلى اللّه عليه وسلم فأصبحوا وقد انشقّت عنه القدر وهو شاخص إلى السماء فلما حضرت رجال قريش وطعموا قالوا لعبد المطلب ما سمّيت ابنك هذا ؟

(340/710)

قال : سمّيته محمدا قالوا : ما هذا من أسماء آبائك قال : أردت أن يحمد في السموات والأرض . يقال : رجل محمود ومحمد قال الأعشى :

إليك أبيت اللعن كان كلالها إلى الواحد الفرد الجواد المحمّد

فمحمود لا يدل على الكثرة ومحمد يدل على ذلك والذي يدل على الفرق بينهما قول الشاعر :

فلست بمحمود ولا بمحمد ولكنما أنت الحبط الحباتر

وقد سمّت العرب في الجاهلية رجالا من أبنائها بذلك منهم محمد بن حمران الجعفي الشاعر وكان في عصر امرئ القيس وسمّاه شويعرا ومحمد بن خولي الهمداني ومحمد بن بلال بن أحيحة وكان زوج سلمى بنت عمرو جدّة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أم جدّه ومحمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم ومحمد بن مسلمة الأنصاري وأبو محمد بن أوس بن زيد شهد بدرا .

(بالَهُمْ) البال : القلب يقال : ما خطر الأمر ببالي والحال والعيش يقال فلان رخي البال والخاطر يقال فلان كاسف البال وما يهتم به يقال : ليس هذا من بالي أي مما أباليه وأمر ذو بال أي يهتم به وما بالك أي ما شأنك وقال الجوهري : " والبال أيضا رفاء العيش يقال فلان رخي البال أي رخي العيش وعبارة البيضاوي " وأصلح بالهم أي حالهم في الدين والدنيا بالتوفيق والتأييد " وعبارة أبي حيان : " البال الفكر تقول خطر في بالي كذا ولا يثني ولا يجمع وشذ قولهم بآلات في جمعه " وعبارة القاموس : " والبال : الحال والخاطر والقلب والحوت العظيم وبهاء : القارورة والجراب ووعاء الطيب " .

(أَثْخَنْتُمُوهُمْ) أكثرتم فيهم القتل وفي المصباح " أثخن في الأرض إثخانا سار إلى العدو وأوسعهم قتلا وأثخنته أوهنته بالجراح وأضعفته " .

(الْوَثَاقَ) بالفتح والكسر اسم ما يوثق به وفي المصباح : " الوثاق القيد والحبل ونحوه بفتح

الواو وكسرها والجمع وثق مثل . وربط وعناق وعنق " .

(أَوْزارَها) آلاتها وأثقالها التي لا تقوم إلا بها كالسلاح والكراع قال الأعشى :

(341/710)

وأعددت للحرب أوزارها رماحا طوالا وخيلا ذكورا

وعبارة الكشاف : " وسمّيت أوزارها لأنه لما لم يكن لها بدّ من جرّها فكأنها تحملها وتستقل بها فإذا انقضت فكأنها وضعتها وقيل أوزارها آثامها يعني حتى يترك أهل الحرب وهم المشركون شركهم ومعاصيهم بأن يسلموا " .

الإعراب :

(342/710)

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ) الذين مبتدأ وجملة كفروا صلة وصدّوا عطف على كفروا وعن سبيل اللّه متعلقان بصدّوا وأضلّ أعمالهم فعل وفاعل مستتر يعود على اللّه تعالى ومفعول به والجملة خبر الذين وأجاز أبو البقاء أن ينتصب الذين

بفعل دلّ عليه المذكور أي أضلّ الذين كفروا (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَآمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ) والذين مبتدأ وجملة آمنوا صلة وعملوا الصالحات عطف على آمنوا ، وآمنوا بما نزل على محمد عطف أيضا والواو اعتراضية وهو مبتدأ والحق خبره ومن ربهم حال (كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بالَهُمْ) جملة كفّر عنهم خبر الذين آمنوا وسيئاتهم مفعول به وأصلح بالهم عطف على كفّر عنهم سيئاتهم (ذلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْباطِلَ) ذلك مبتدأ وبأن الذين كفروا خبره وجملة اتبعوا الباطل خبر أن (وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ) عطف على ما تقدم وقد تقدم إعرابه (كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثالَهُمْ) كذلك نعت لمصدر محذوف أي مثل ذلك الضرب يضرب اللّه للناس أمثالهم وسيأتي معنى ضرب المثل هنا في باب البلاغة (فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ) الفاء عاطفة لترتيب ما في حيزها من الأمر على ما قبلها وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط والعامل فيه فعل مقدّر هو العامل في ضرب الرقاب تقديره فاضربوا الرقاب وقت ملاقاتكم العدو ولا يعمل فيه نفس

المصدر لأنه مؤكد وجملة لقيتم في محل جر بإضافة الظرف إليها والذين مفعول لقيتم وجملة كفروا صلة والفاء رابطة لجواب الشرط وضرب مفعول مطلق لفعل محذوف والرقاب مضاف إليه (حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً) حتى حرف ابتداء أي تبدأ بعده الجمل وجعلها أبو حيان حرف غاية وجر قال " وهذه

(344/710)

غاية للضرب " وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة أثخنتموهم في محل جر بإضافة الظرف إليها والفاء رابطة لجواب إذا وشدّوا الوثاق فعل أمر وفاعل ومفعول به والفاء للتفريع وإما حرف شرط وتفصيل ومنّا وفداء مصدران منصوبان بفعل لا يجوز إظهاره لأن المصدر متى سيق تفصيلا لعاقبة جملة وجب نصبه بإضمار فعل والتقدير فإما أن تمنّوا منّا وإما أن تفادوا فداء ، وأجاز أبو البقاء أن يكونا مفعولين بهما لعامل مقدّر تقديرهم أولوهم منّا واقبلوا منهم فداء ، وليس بالوجه ، وبعد ظرف مبني على الضم لانقطاعه عن الإضافة لفظا لا معنى أي بعد أسرهم وشدّ وثاقهم (حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها) حتى حرف غاية وجر وهي مع مدخولها إما أن تتعلق بالضرب والشدّ أو بالمنّ والفداء لأنها غاية لذلك كله على تفصيل تجده مبسوطا في كتب الفقهاء وليس هذا

موضعه وسيأتي مزيد بيان في باب البلاغة ، وتضع فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى والحرب فاعل وأوزارها مفعول به (ذَلِكَ وَلَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ) ذلك خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر فيهم ما ذكر من القتل والأسر وما بعده من المنّ والفداء ولك أن تنصبه بفعل محذوف أي افعلوا ذلك ، والواو استئنافية ولو شرطية ويشاء اللّه فعل مضارع وفاعل واللام واقعة في جواب لو وانتصر فعل ماض وفاعل مستتر تقديره هو أي اللّه تعالى ولكن الواو عاطفة أو حالية ولكن حرف استدراك مهمل لأنه خفف واللام للتعليل ويبلو فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل واللام ومدخولها متعلقة بفعل محذوف تقديره أمركم بالقتال وبعضكم مفعول به وببعض متعلقان بيبلو (وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ) الواو عاطفة والذين مبتدأ وجملة قتلوا صلة وفي سبيل اللّه متعلقان بقتلوا والفاء رابطة لما في الموصول من معنى

(345/710)

الشرط ولن حرف نفي ونصب واستقبال ويضل فعل مضارع منصوب بلن وفاعله ضمير مستتر تقديره هو وأعمالهم مفعول به

والجملة خبر الذين (سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بالَهُمْ) السين حرف استقبال ويهديهم فعل مضارع

وفاعل مستتر ومفعول به ويصلح عطف على يهدي وبالهم مفعول به (وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ) الواو عاطفة ويدخلهم فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به والجنة مفعول به ثان على السعة وجملة عرفها لهم مستأنفة أو حالية وسيأتي في باب الفوائد معنى عرفها لهم.

البلاغة:

1- في قوله تعالى " وأضلّ أعمالهم " استعارة مكنية فقد شبّه أعمالهم بالضالة من الإبل التي هي بمضيعة لا رب لها يحفظها ويعتني بها أو بالماء الذي يضل في اللبن والمعنى أن الكفار ضلّت أعمالهم الصالحة في جملة أعمالهم السيئة من الكفر والمعاصي وحتى صار صالحهم مستهلكا في غمار سيئهم ومقابله في المؤمنين ستر اللّه لأعمالهم السيئة في كنف أعمالهم الصالحة من الايمان والطاعة حتى صار سيئهم مكفرا ممحقا في جنب صالح أعمالهم، وإلى هذا التمثيل الجميل في عدم تقبل صالح الكفار والتجاوز عن سيئ أعمال المؤمنين وقعت الإشارة في قوله تعالى "كذلك يضرب اللّه للناس أمثالهم" وتفصيل ذلك أن ضرب المثل استعمال القول السائر المشبّه مضربه مورده بمورده قال الزمخشري: " فإن قلت أين ضرب الأمثال؟ قلت في أن جعل اتباع الباطل مثلا لأعمال الكفّار واتباع الحق مثلا لعمل المؤمنين أو في جعل الإضلال مثلا لخيبة الكفّار وتكفير السيئات مثلا لفوز المؤمنين " .

2- المجاز المرسل : وفي قوله تعالى " فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب " مجاز مرسل علاقته ذكر الجزء وإرادة الكل لأن ضرب

(346/710)

الرقاب عبارة عن القتل ولكن لما كان قتل الإنسان أكثر ما يكون بضرب رقبته وقع عبارة عن القتل وقد أوثر المجاز لما فيه من تصوير وتجسيد لأن في هذه العبارة- كما يقول الزمخشري- من الغلظة والشدّة ما ليس في لفظ القتل لما فيها من تصوير القتل بأشنع صورة وهو حزّ العنق وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وعلوّه وأوجه أعضائه .

3- وفي قوله تعالى " حتى تضع الحرب أوزارها " استعارة مكنية أو تصريحية فعلى الأولى شبّه الحرب بمطايا ذات أوزار أي أحمال ثقال ، وعلى الثانية استعار الأوزار لآلات الحرب ، وفيه أيضا مجاز في الإسناد فقد أسند وضع الأوزار إلى الحرب وإنما هو لأهلها .

الفوائد :

معنى قوله تعالى " عرّفها لهم " إما من التعريف وهو التحديد بحيث يكون لكل واحد جنة مفرزة ، وفي البخاري ما يدل على صحة هذا القول عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : " يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة

والنار حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة فو الذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة من منزله الذي كان في الدنيا " وأما من العرف وهو طيب الرائحة قال ابن عباس عرفها لهم بأنواع الملاذ وطعام معرّف أي مطيّب ، تقول العرب : عرفت القدر إذا طيبتها بالملح والأبازير ، وفي كلام بعضهم : عزف كنوح القماري وعرف كفوح القماري ، والقماري الأول جمع قمري اسم طير والقماري الثاني عود منسوب إلى موضع ببلاد الهند ، كذا في الصحاح.

[سورة محمد (47) : الآيات 7 إلى 12]

(347/710)

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ (7) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ (8) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ (9) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكافِرِينَ أَمْثالُها (10) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ (11)

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ (12)

اللغة :

(فَتَعْساً) التعس : الهلاك وخيبة الأمل وفي المختار : " التعس الهلاك وأصله الكبّ وهو ضد الانتعاش وقد تعس من باب قطع وأتعسه اللّه ويقال : تعسا لفلان أي ألزمه اللّه هلاكا " وفي المصباح : " وتعس تعسا من باب تعب لغة فهو تعس مثل تعب ويتعدى بالحركة وبالهمزة فيقال تعسه اللّه بالفتح وأتعسه وفي الدعاء تعسا له وتعس وانتكس فالتعس أن يخرّ لوجهه والنكس أن لا يستقل بعد سقطته حتى يسقط ثانية وهي أشدّ من الأولى " وفي الأساس : " تعس فلان بالفتح ، والكسر غير فصيح ، وتعسا له وتعسه اللّه وأتعسه قال :

غداة هزمنا جمعهم بمقالع فآبوا بأتعاس على شر طائر

وتقول : أضرع اللّه خدّه ، وأتعس جدّه وهو منحوس متعوس وهذا الأمر متعسة منحسة " وعبارة القرطبي : " وفي التعس عشرة أقوال : الأول

(348/710)

بعدا قاله ابن عباس وابن جريج ، الثاني خزيا لهم قاله السدي ، الثالث شقاء لهم قاله ابن زيد ، الرابع شتما لهم من اللّه قاله الحسن ، الخامس هلاكا لهم قاله ثعلب ، السادس خيبة لهم قاله الضحاك وابن زياد ، السابع قبحا لهم حكاه النقاش ، الثامن رغما لهم قاله

الضحاك أيضا ، التاسع شرّا لهم قاله ثعلب أيضا ، العاشر شقوة لهم قاله أبو العالية " .

الإعراب :

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ) يا أيها الذين آمنوا تقدم إعرابها كثيرا وإن شرطية وتنصروا فعل الشرط والله مفعول به وينصركم جواب الشرط ويثبت أقدامكم عطف على الجواب ولا بدّ من حذف مضاف أي دين الله ورسوله (وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ) والذين مبتدأ خبره محذوف تقديره تعسو وهو العامل في تعسا ويجوز أن ينصب بفعل محذوف يفسره ما بعده وجملة كفروا صلة للموصول والفاء رابطة تشبيها للموصول بالشرط وتعسا مفعول مطلق لفعل محذوف كما تقدم ولهم متعلقان بتعسا أو صفة له وأضل أعمالهم عطف على الفعل الذي نصب تعسا (ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ) ذلك مبتدأ وبأنهم خبره وأن واسمها وجملة كرهوا خبرها وما مفعول به وجملة أنزل الله صلة ، فأحبط عطف على كرهوا وأعمالهم مفعول به (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) الهمزة للاستفهام الإنكاري والفاء عاطفة على محذوف ولم حرف نفي وقلب وجزم ويسيروا فعل مضارع مجزوم بلم وفي الأرض متعلقان بيسيروا ، فينظروا : الفاء فاء السببية وينظروا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء وكيف اسم استفهام في محل نصب خبر كان المقدم وعاقبة اسمها المؤخر والذين مضاف إليه

و من قبلهم متعلقان بمحذوف هو الصلة (دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكافِرِينَ أَمْثالُها) الجملة مفسرة لكيف لا محل لها ودمر اللّه فعل وفاعل وعليهم متعلقان بدمر ومفعول دمر محذوف تقديره أهلك نفسهم وأموالهم وما شادوه ، ولك أن تضمن دمر معنى سخط فلا تحتاج إلى مفعول وللكافرين خبر مقدم وأمثالها مبتدأ مؤخر والضمير يعود على العاقبة المتقدمة أي أمثال عاقبة من قبلهم ويجوز أن يعود على التدميرة المفهومة من قوله دمر اللّه عليهم والأول أولى (ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ) ذلك مبتدأ وبأن خبره واللّه اسم أن ومولى الذين آمنوا خبر أن وأن الكافرين عطف على ما تقدم ولا نافية للجنس ومولى اسمها ولهم خبرها والجملة خبر أن (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ) الجملة مفسّرة لولايته تعالى وما يترتب عليها وإن واسمها وجملة يدخل الذين آمنوا خبرها وعملوا الصالحات عطف على الصلة وداخلة في حيزها وجنات مفعول به ثان على السعة وجملة تجري من تحتها الأنهار صفة لجنات (وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ) والذين مبتدأ وجملة كفروا صلة وجملة يتمتعون خبر الذين وجملة يأكلون عطف على جملة يتمتعون وكما في موضع نصب نعت لمصدر

محذوف على مذهب أكثر المعربين أو في موضع نصب على الحال على مذهب سيبويه وتأكل الأنعام فعل وفاعل والواو استئنافية والنار مبتدأ ومثوى خبر ولهم صفة لمثوى.

[سورة محمد (47) : الآيات 13 إلى 15]

(350/710)

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْناهُمْ فَلا ناصِرَ لَهُمْ (13) أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ (14) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ (15)

اللغة:

(آسِنٍ) بالمدّ والقصر كضارب وحذر أي غير متغير بخلاف ماء الدنيا فيتغير بما يطرأ عليه من عوارض وفي المختار: "الآسن من الماء مثل الآجن وزنا ومعنى وقد أسن من باب ضرب ودخل وأسن فهو آسن من باب طرب لغة فيه" ويقال أسن الماء وأجن إذا تغير طعمه وريحه وأنشد ليزيد بن معاوية:

لقد سقتني رضابا غير ذي أسن كالمسك فتّ على ماء العناقيد

(عَسَلٍ) نقلوا في العسل التذكير والتأنيث وجاء في القرآن على التذكير في قوله من عسل مصفى وفي المصباح " والعسل يذكّر ويؤنث وهو الأكثر ويصغّر على عسيلة على لغة التأنيث ذهابا إلى أنها قطعة من الجنس وطائفة منه " وفي المختار " العسل يذكّر ويؤنث يقال منه عسل الطعام أي عمله بالعسل وبابه ضرب ونصر وزنجبيل معسل أي معمول بالعسل والعاسل الذي يأخذ العسل من بيت النحل ، والنحل عسّالة " وفي الأساس " الدليل يعسل في المفازة وصفقت الرياح الماء فهو يعسل عسلانا وأنشد الأصمعي :

قد صبّحت والظل غض ما رحل حوضا كأن ماءه إذا عسل

(351/710)

من نافض الريح رويزيّ سمل ورمح وذئب عسال ورماح وذئاب عواسل وتقول : يمتار الفيء العاسل كما يشتار الأري العاسل ، وبنو فلان يوفضون إلى العسالة ، كما يطّرد النحل إلى العسّالة وهي الخلية وطعام معسول ومعسّل وعسلت القوم وعسّلتهم : أطعمتهم العسل "

.

الإعراب :

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ) كلام مستأنف مسوق لتسليته صلى الله عليه وسلم بمثابة المثل له ، وكأين خبرية وهي كلمة مركبة من الكاف وأي بمعنى كم الخبرية ومحلها الرفع على الابتداء ومن قرية تمييز لها وقد تقدم القول فيها مفصلا فجدد به عهدا وهي مبتدأ وأشد خبر والجملة صفة لقرية وقوة تمييز ومن قريتك متعلقان بأشد والتي نعت لقريتك وجملة أخرجتك صلة التي وجملة أهلكناهم خبر كأين والفاء عاطفة ولا نافية للجنس وناصر اسمها ولهم خبرها وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال : " أنت أحبّ بلاد الله إليّ ولو لا أن أهلك أخرجوني منك لم أخرج فأعتى الأعداء من عتا على الله في حرمه أو قتله غير قاتله أو قتل بدخول الجاهلية " (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ) كلام مستأنف مسوق للشروع في بيان حال الفريقين المؤمنين والكافرين والهمزة للاستفهام الإنكاري والفاء عاطفة على محذوف مقدر يقتضيه المقام والتقدير أليس الأمر كما ذكر فمن كان مستقرا على حجة ظاهرة وبرهان كمن زين له ، ومن اسم استفهام في محل رفع مبتدأ وكان فعل ماض

ناقص واسمها مستتر تقديره هو يعود على من وعلى بيّنة خبر ومن ربه صفة لبينة وكمن خبر وجملة زين بالبناء للمجهول صلة وله متعلقان بزين وسوء عمله نائب فاعل واتبعوا عطف على زين وقد روعي فيه معنى من كما روعي لفظها في زين وأهواءهم مفعول به (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ) مثل الجنة مبتدأ وسيأتي الكلام على خبره والتي صفة وجملة وعد المتقون صلة وفيها خبر مقدم وأنهار مبتدأ مؤخر والجملة حال من الجنة أو خبر لمبتدأ مضمر أي هي فيها أنهار أو داخلة في حيز الصلة وتكرير لها ومن ماء صفة لأنهار وغير آسن صفة ثانية لأنهار وأنهار عطف على أنهار الأولى ومن خمر نعت ولذة للشاربين نعت ثان وللشاربين متعلقان بلذة لأنها مصدر بمعنى الالتذاذ ووقعت صفة للخمر ويجوز أن تكون مؤنث لذّ ، ولذّ بمعنى لذيذ وعلى الأول لا بدّ من تأويلها بالمشتق ليصحّ النعت بها على حدّ زيد عدل بمعنى عادل ، وسيأتي المزيد من بحث لذة للشاربين في باب الفوائد (وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ) وأنهار عطف على أنهار المتقدمة ومن عسل صفة ومصفّى صفة لعسل والواو حرف عطف ولهم خبر مقدم وفيها متعلقان بما يتعلق به الخبر من الاستقرار المحذوف والمبتدأ محذوف تقديره أصناف ومن كل الثمرات نعت للمبتدأ المحذوف ومغفرة عطف على أصناف أو مبتدأ خبره المقدم محذوف أي ولهم مغفرة ومن ربهم نعت لمغفرة (كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً

فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ) كمن خبر لمبتدأ محذوف تقديره أمن هو خالد في هذه الجنة حسبما جرى به الوعد كمن هو خالد في النار وعلى هذا يكون خبر مثل مقدّر فقدّره سيبويه فيما

(353/710)

يتلى عليكم مثل الجنة والجملة بعدها أيضا مفسّرة للمثل وقدّره النضر بن شميل مثل الجنة ما تسمعون والجملة بعدها مفسّرة أيضا ويجوز أن يكون الخبر

كمن هو خالد في النار ، وسقوا الواو عاطفة وسقوا فعل ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل وماء مفعول به ثان وحميما نعت لماء ، فقطع الفاء عاطفة وقطع أمعاءهم فعل وفاعل مستتر ومفعول به .

الفوائد :

كثر الكلام واستفاض حول هذه الآية وسننقل عبارة الزمخشري مع تعقيب بديع عليها قال : " فإن قلت ما معنى قوله تعالى : مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار ؟ قلت هو كلام في صورة الإثبات ومعنى النفي والإنكار لانطوائه تحت حكم كلام مصدر بحرف الإنكار ودخوله في حيّزه وانخراطه في سلكه وهو قوله تعالى : أفمن كان على بيّنة من ربه كمن زيّن له سوء عمله فكأنه قيل أمثل الجنة كمن هو خالد في النار أي كمثل جزاء من هو خالد في

النار فإن قلت : فلم عرّي من حرف الإنكار وما فائدة التعرية ؟ قلت : تعريته من حكم الإنكار فيها زيادة تصوير لمكابرة من يسوّي بين المتمسك بالبيّنة والتابع لهواه وأنه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنة التي تجري فيها تلك الأنهار وبين النار التي يسقى أهلها الهيم ونظيره قول القائل :

أفرح أن أرزأ الكرام وأن أورث ذودا شصائصا نبلا

هو كلام منكر للفرح برزية الكرام ووراثة الذود مع تعرّيه عن حرف الإنكار لانطوائه تحت حكم قول من قال : أتفرح بموت أخيك وبوراثة إبله ، والذي طرح لأجله حرف الإنكار إرادة أن يصوّر قبح ما أزنّ به فكأنه قال له : نعم مثلي يفرح بمرزأة الكرام وبأن يستبدل منهم ذودا يقل طائله وهو من التسليم الذي تحته كل إنكار " .

وعقّب ابن المنير صاحب الانتصاف على كلام الزمخشري فقال :

"

(354/710)

كم ذكر الناس في تأويل هذه الآية فلم أر أطلى ولا أحلى من هذه النكت التي ذكرها ولا يعوزها إلا التنبيه على أن في الكلام محذوفا لا بدّ من تقديره لأنه لا معادلة بين الجنة وبين

الخالدين في النار إلا على تقدير مثل ساكن فيه يقوّم وزن الكلام وتتعادل كفتاه ومن هذا النمط قوله تعالى : أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله ، فإنه لا بدّ من تقدير محذوف مع الأول أو الثاني ليتعادل القسمان وبهذا الذي قدّرته في الآية ينطبق آخر الكلام على أوله فيكون المقصود تنظير بعد التسوية بين المتمسك بالسيئة والراكب للهوى ببعد التسوية بين المنعم في الجنة والمعذب في النار على الصفات المتقابلة المذكورة في الجهتين وهو من وادي تنظير الشيء بنفسه باعتبار حالتين إحداهما أوضح في البيان من الأخرى فإن المتمسّك بالسنّة هو المنعم في الجنة الموصوفة والمتبع للهوى هو المعذب في النار المنعوتة ولكن أنكر التسوية بينهما باعتبار الأعمال أولا وأوضح ذلك بإنكار التسوية بينهما باعتبار الجزاء ثانيا " .

[سورة محمد (47) : الآيات 16 إلى 19]

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ما ذا قالَ آنِفاً أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ (16) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ (17) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ (18) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْواكُمْ (19)

الإعراب :

)

(355/710)

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ : ما ذا قالَ آنِفاً) كلام مستأنف مسوق لبيان جانب آخر من استهزائهم وتعنتهم فقد كانوا يحضرون مجلس رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فيسمعون كلامه ولا يعونه ولا يلقون إليه بالا فإذا خرجوا من المجلس سألوا أهل العلم من الصحابة ماذا قال الساعة على جهة الاستهزاء وقيل في خطبة الجمعة فتكون الآية مدنية . ومنهم خبر مقدم ومن مبتدأ مؤخر وجملة يستمع إليك صلة وقد روعي لفظ من ، وحتى حرف غاية وجر وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة خرجوا في محل جر بإضافة الظرف إليها ومن عندك متعلقان بخرجوا وجملة قالوا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وللذين متعلقان بقالوا وجملة أوتوا بالبناء للمجهول صلة والواو نائب فاعل والعلم مفعول به ثان ، وماذا تقدم أن في إعرابها وجهين فما اسم استفهام مبتدأ وذا اسم موصول هنا خاصة في محل رفع خبر ولك أن تجعلها اسم استفهام بكاملها وآنفا حال من الضمير في قال أي مؤتنفا وأعربه الزمخشري وأبو البقاء ظرفا

أي ماذا قال الساعة وأنكر أبو حيان ذلك وقال ولا نعلم أحدا من النحاة عدّه في الظروف وقال ابن عطية : " والمفسرون يقولون آنفا معناه الساعة الماضية القريبة منّا وهذا تفسير بالمعنى " وقال في القاموس " وقال آنفا كصاحب وكتف وقرئ بهما أي مذ ساعة أي في أول وقت يقرب منّا " كأنه يميل إلى نصبه على الظرفية . وقال الزّجاج " هو من استأنفت الشيء إذا ابتدأته والمعنى ماذا قال في أول وقت يقرب منّا " وعلى هذا رجحت كفّة القائلين بالظرفية (أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ) أولئك مبتدأ والذين خبره وجملة طبع اللّه على قلوبهم صلة وجملة واتبعوا أهواءهم عطف أيضا داخلة في حيز الصلة

(356/710)

)

وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ) والذين مبتدأ وجملة اهتدوا صلة وجملة زادهم خبر وهدى مفعول به ثان أو تمييز وآتاهم عطف على زادهم وتقواهم مفعول به ثان وتقواهم مصدر مضاف للفاعل (فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً) الفاء استئنافية وهل حرف استفهام معناه النفي وينظرون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل وإلا أداة حصر والساعة مفعول به وأن تأتيهم المصدر المؤول بدل اشتمال من الساعة أي ليس

الأمر إلا أن تأتيهم وبغتة حال (فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ) الفاء تعليل لإتيان الساعة مفاجأة فالاتصال بينهما اتصال العلة بالمعلول ، وقد حرف تحقيق وأشراطها فاعل جمع شرط بفتحتين وهي العلامة قال في المصباح " وجمع الشرط شروط مثل فلس وفلوس والشرط بفتحتين العلامة والجمع أشراط مثل سبب وأسباب ومنه أشراط الساعة أي علاماتها ، فأنى الفاء حرف عطف وأنى اسم استفهام في محل نصب على الظرف المكانية وهو متعلق بمحذوف خبر مقدم وذكراهم مبتدأ مؤخر أي أنى لهم التذكّر وجملة إذا وما بعدها اعتراض وجواب إذا محذوف تقديره كيف يتذكرون ويجوز أن يكون المبتدأ محذوفا أي أنّى لهم الخلاص ويكون ذكراهم فاعلا لجاءتهم (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ) الفاء الفصيحة لأنها أفصحت عن شرط مقدّر أي إذا علمت سعادة المؤمنين وشقاوة الكافرين فاثبت على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية فإنه وحدي المجدي يوم القيامة وعلى التواضع وهضم النفس باستغفار ذنبك وذنوب من يؤمنون برسالتك وأن وما في حيزها سدّت مسدّ مفعولي اعلم وأن واسمها وجملة لا إله إلا اللّه خبرها وقد تقدم القول مسهبا في إعراب كلمة الشهادة ، واستغفر فعل أمر ولذنبك متعلقان باستغفر و

للمؤمنين والمؤمنات عطف على لذنبك (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ) الواو استئنافية والله مبتدأ وجملة يعلم خبر ومتقلبكم مفعول به

ومثواكم عطف على متقلبكم ومعناهما متصرفكم ومأواكم وعبارة الزمخشري " والله يعلم أحوالكم ومتصرفاتكم ومتقلبكم في معايشكم ومتاجركم " ويجوز فيهما أن يكون مصدرين ميميين من تقلب وثوى وأن يكونا اسمي مكان أو زمان .

الفوائد :

جاءت مصادر أحوالا بكثرة في النكرات وفيها شذوذ واحد وهو المصدرية وكان الأصل أن لا تقع أحوالا لأنها غير صاحبها في المعنى ولكنهم لما كانوا يخبرون بالمصادر عن الذوات كثيرا واتساعا نحو زيد عدل فعلوا مثل ذلك لأنها خير من الإخبار كطلع زيد بغتة وجاء ركضا وقتلته صبرا فصبرا وهو أن يحبسه حيّا ثم يرمى حتى يقتل حال من مفعول قتلته وذلك كله على التأويل بالوصف فيؤول بغتة بوصف من باغت لأنها بمعنى مفاجأة أي مباغتا أو من بغت أي باغتا يقال بغتة أي فجأة والبغت الفجأة قال :

ولكنهم كانوا ولم أدر بغتة وأعظم شيء حين يفجؤك البغت

ومع كثرة ذلك قال سيبويه والجمهور لا ينقاس مطلقا سواء كان نوعا من العامل أم لا كما لا ينقاس المصدر الواقع نعتا أو خبرا بجامع الصفة المعنوية وقاسه المبرد فيما كان نوعا من

العامل فيه لأنه حينئذ يدل على الهيئة بنفسه فأجاز قياسا جاء زيد سرعة لأن السرعة نوع من المجيء ومنع جاء ضحكا لأن الضحك ليس نوعا من المجيء .

قال ابن هشام في الحواشي : " وإنما قاسه المبرد ولم يقسه سيبويه لأن سيبويه يرى أنه حال على التأويل ووضع المصدر موضع الوصف لا ينقاس كما أن عكسه لا ينقاس والمبرد يرى أنه مفعول مطلق حذف

عامله لدليل فهو عنده مقيس كما يحذف عامل سائر المفاعيل لدليل فهذا الخلاف مبني على الخلاف في أنه حال أو مفعول مطلق " .

(358/710)

و قال اللقاني " التمثيل ببغتة وركضا وصبرا لا يدل على تعيّن ذلك فيها بل يجوز جعلها مفاعيل مطلقة إذ هي نوع من عاملها فهي كرجع القهقرى " .

وقاس ابن مالك في التسهيل وابنه في شرح الألفية الحال بعد أما نحو أما علما فعالم والأصل في هذا أن رجلا وصف عنده شخص بعلم أو غيره فقال للواصف أما علما فعالم أي مهما يذكر شخص في حال علم فالمذكور عالم كأنه منكر ما وصف به من غير العلم فصاحب الحال على هذا التقدير نائب الفاعل ويذكر ناصب الحال لما تقرر أن العامل في صاحب

الحال هو العامل في الحال ويجوز أن يكون ناصب الحال ما بعد الفاء إذا كان صالحا للعمل فيما قبلها وصاحبها ما فيه من ضمير الحال والحال على هذا مؤكدة والتقدير مهما يكن من شيء فالمذكور في حال علم فلو كان ما بعد الفاء لا يعمل فيما قبلها تعين أن يكون منصوبا بفعل الشرط المقدر بعد أما نحو أما علما فلا علم له وأما علما فإن له علما وأما علما فهو ذو علم لأن المصدر يعمل في متقدم فلو كان المصدر التالي أما معرّفا بأل فهو عند سيبويه مفعول له ، وذهب الأخفش إلى أن المعرّف بأل والمنكر كليهما بعد أما مفعول مطلق ، وذهب الكوفيون إلى أنهما مفعول به بفعل مقدّر والتقدير مهما تذكر علما فالذي وصفت عالم قال ابن مالك في شرح التسهيل : " وهذا القول عندي أولى بالصواب ، وأحقّ ما اعتمد عليه في الجواب " وقاسه ابن مالك وابنه أيضا بعد خبر شبّه به مبتدؤه كزيد زهير شعرا فزهير بالتصغير خبر شبّه به مبتدؤه وهو زيد والتقدير مثل زهير في الشعر وإنما حذف مثل ليزول لفظ التشبيه فيكون الكلام أبلغ وشعرا حال في تقدير الصفة

(359/710)

أي شاعرا والعامل فيها ما في زهير من معنى الفعل إذ معناه مجيد وصاحب الحال ضمير مستتر في زهير لما تقرر من أن الجامد المؤول بالمشتق يتحمل الضمير ويجوز أن يكون شعرا

تمييزا لما انبهم في مثل المحذوقة وهي العاملة فيه قاله الخصاف في الإيضاح واستظهره أبو حيان في الارتشاف وابن هشام في المغني ورجحه اللقاني " والأظهر أنه تمييز محوّل عن الفاعل والأصل زيد مماثل شعره شعر زهير " .

وقاساه أيضا بعد الخبر المقرون بأل الدالّة على الكمال نحو :

أنت الرجل علما فعلما حال والعامل فيها ما في الرجل من معنى الفعل إذ معناه الكامل ، وفي الخاطريات لابن جنّي " أنت الرجل فهما وأدبا يحتمل وجهين أحدهما أن يكون في قولك أنت الرجل معنى الفعل أي أنت الكامل فهما وأدبا والثاني أن يكون على معنى تفهم فهما وتأدب أدبا " وقال أبو حيان في الارتشاف " يحتمل عندي أن يكون تمييزا كأنه قال أنت الكامل أدبا أي أدبه فهو محوّل عن الفاعل " فتحصل فيه ثلاثة آراء : حال ومفعول مطلق وتمييز ويتحصل من الخلاف في المصدر المنصوب أقوال :

1- مذهب سيبويه إن المصدر هو الحال .

2- مذهب المبرد والأخفش أنه مفعول مطلق غير منصوب بالعامل قبله وإنما عامله المحذوف من لفظه وذلك المحذوف هو الحال .

3- مذهب الكوفيين أنه مفعول مطلق وعامله الفعل المذكور وليس في موضع الحال .

4- وذهب جماعة إلى أنه مصدر على حذف مضاف وتقدير جاء ركضا جاء ذا ركض .

وعلى القول بالحالية مذاهب :

1- مذهب سيبويه : عدم القياس .

2- وذهب المبرد إلى قياسه فيما كان نوعا من عامله .

3- وقاسه ابن مالك وابنه في ثلاث مسائل : أ- بعد إما ب- وبعد خبر شبه به مبتدؤه

ج- وفيما إذا كان الخبر مقرونا بأل الدالّة على الكمال .

[سورة محمد (47) : الآيات 20 إلى 28]

(360/710)

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ
فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلى لَهُمْ (20) طاعَةٌ وَقَوْلٌ
مَعْرُوفٌ فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ (21) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ
تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ (22) أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمى
أَبْصارَهُمْ (23) أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها (24)
إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلى لَهُمْ
(25) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ

إِسْرارَهُمْ (26) فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ (27) ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ (28)

الإعراب :

)

(361/710)

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ) كلام مستأنف لبيان موقف المؤمنين الصادقين والمنافقين من الجهاد فقد سأل المؤمنون ربهم عزّ وجلّ أن ينزل على رسوله صلى اللّه عليه وسلم سورة يأمرهم فيها بقتال الكفّار حرصا منهم على الجهاد ونيل ما أعدّ اللّه للمجاهدين من جزيل الثواب فحكى اللّه عنهم ذلك . ويقول فعل مضارع والذين فاعله وجملة آمنوا صلة ولو لا حرف تحضيض بمعنى هلّا ونزلت فعل ماض مبني للمجهول وسورة نائب فاعل (فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلى لَهُمْ) الفاء عاطفة وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة أنزلت في محل جر بإضافة الظرف إليها وهو فعل ماض مبني للمجهول وسورة نائب فاعل ومحكمة صفة أي مبينة غير متشابهة لا تحتمل وجها إلا

وجوب القتال ، وعن قتادة كل سورة فيها ذكر القتال فهي محكمة لأن النسخ لا يرد عليها ، وذكر عطف على أنزلت وفيها متعلقان بذكر والقتال نائب فاعل وجملة رأيت لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم والذين مفعول به وفي قلوبهم خبر مقدم ومرض مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية لا محل لها لأنها صلة الموصول وينظرون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة في محل نصب حال إن كانت الرؤية بصرية ومفعول به ثان إن كانت الرؤية قلبية وكلا الوجهين مراد في الآية وإليك متعلقان بينظرون ونظر المغشي مفعول مطلق مؤكد وعليه متعلقان بالمغشي لأنه اسم مفعول ومن الموت متعلقان بالمغشي أيضا ، فأولى الفاء استئنافية وأولى لهم قال الجوهري : " تقول العرب أولى لك تهديد ووعيد ثم اختلف اللغويون والمعربون في هذه اللفظة فقال الأصمعي إنها فعل ماض بمعنى قاربه

(362/710)

ما يهلكه والأكثرون أنها اسم ثم اختلف هؤلاء فقيل مشتق من الولي وهو القرب وقيل من الويل ، هذا ما يتعلق باشتقاقه ومعناه وأما الإعراب فإن قلنا باسميته ففيه أوجه أحدها أنه مبتدأ ولهم خبره وتقديره فالهلاك لهم واقتصر عليه أبو البقاء ، والثاني أنه خبر مبتدأ مضمر تقديره العقاب أو الهلاك أولى لهم أي أقرب وأدنى ، ويجوز أن تكون اللام بمعنى الباء

أي أولى وأحق بهم الثالث أنه مبتدأ ولهم يتعلق به واللام بمعنى الباء وطاعة خبره والتقدير فأولى بهم طاعة دون غيرها وإن قلنا بقول الأصمعي فهو فعل ماض وفاعله مضمر يدل عليه السياق كأنه قيل فأولى هو أي الهلاك وهذا ظاهر عبارة الزمخشري حيث قال معناه الدعاء عليهم بأن يليهم الهلاك وقال المبرد يقال لمن هم بالغضب ثم أفلت أولى لك أي قاربك الغضب . وقال أبو حيان : " قال صاحب الصحاح : قول العرب أولى لك تهديد وتوعيد ومنه قول الشاعر :

فأولى ثم أولى ثم أولى وهل للداء يحلب من يرد

واختلفوا أهو اسم أو فعل فذهب الأصمعي إلى أنه بمعنى قاربه ما يهلكه أي نزل به وأنشد :

تعادى بين هاديتين منها وأولى أن يزيد على الثلاث

أي قارب أن يزيد ، قال ثعلب : لم يقل أحد أحسن مما قال الأصمعي ، وقال المبرد ، يقال لمن هم بالعطب كما روي أن أعرابيا كان يوالي رمي الصيد فينفلت منه فيقول أولى لك رمي صيدا فقاربه ثم أفلت منه وقال :

فلو كان أولى يطعم القوم صيدهم ولكن أولى يترك القوم جوّعا

والأكثرون على أنه اسم فقيل هو مشتق من الولي وهو القرب كما قال الشاعر :

تكلفني ليلى وقد شطّ وليّها وعادت عواد بيننا وخطوب

و قال الجرجاني هو ما حول من الويل فهو أفعل منه لكن فيه قلب " . وقال الجلال في تفسير سورة القيامة " والكلمة اسم فعل واللام للتبيين " أي مبنية على السكون لا محل لها من الإعراب والفاعل ضمير مستتر يعود على ما يفهم من السياق وهو كون هذه الكلمة تستعمل في الدعاء بالمكروه وقوله للتبيين المفعول وهي في المعنى زائدة على حدّ سقيا لك . وعبارة القاموس " وأولى لك هي كلمة تهديد ووعيد والمعنى قد قاربك الشر فاحذر " قال شارحه وقيل معناه الويل لك أو أولاك اللّه ما تكرهه فتكون اللام زائدة " (طاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ) طاعة وقول كلام مستقل محذوف منه أحد الجزأين إما الخبر وتقديره أمثل وهو مذهب سيبويه والخليل ، وإما المبتدأ وتقديره الأمر أو أمرنا طاعة وتقدم أنه يجوز أن يكون خبر الأولى وهناك أعاريب أخرى ضربنا عنها صفحا لبعدها وتكلفها ، فإذا الفاء حرف عطف وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط متعلق بصدقوا نحو إذا جاءني بطعام فلو جئتني أطعمتك ، وجملة عزم الأمر في محل جر بإضافة الظرف إليها والفاء رابطة لجواب إذا ولو شرطية غير جازمة وصدقوا فعل وفاعل والجملة لا محل لها لأنها جواب إذا ولفظ الجلالة مفعول به

ولكان اللام واقعة في جواب لو وكان فعل ماض ناقص واسمها ضمير مستتر تقديره هو أي الصدق وخيرا خبرها ولهم متعلقان بخيرا (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ) الفاء استئنافية وعسيتم فعل ماض من أفعال الرجاء والتاء اسمها وسيأتي مزيد بحث عنها في باب الفوائد وإن شرطية وتوليتم فعل ماض في محل جزم فعل الشرط والجواب محذوف لدلالة فهل عسيتم عليه أو هو نفس فهل عسيتم عند من يرى تقديمه وجملة الشرط وجوابه معترضة لا محل

(364/710)

لها وأن تفسدوا خبر عسى وفي الأرض متعلقان بتفسدوا (وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ) عطف على أن تفسدوا في الأرض (أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمى أَبْصارَهُمْ) أولئك مبتدأ والذين خبره وجملة لعنهم الله صلة والفاء عاطفة وأصمّهم فعل وفاعل مستتر ومفعول به وأعمى أبصارهم عطف على فأصمّهم (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها) الهمزة للاستفهام الإنكاري والفاء عاطفة على مقدّر يقتضيه السياق ولا نافية ويتدبرون القرآن فعل مضارع وفاعل ومفعول به وأم منقطعة بمعنى بل والهمزة للتسجيل عليهم بأن قلوبهم مقفلة لا يتوصل إليها ذكر وعلى قلوب خبر مقدم وأقفالها مبتدأ مؤخر

وجوبا وسيأتي سرّ التنكير في باب البلاغة (إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلى لَهُمْ) إن حرف مشبّه بالفعل والذين اسمها وجملة ارتدوا صلة الموصول وعلى أدبارهم حال ومن بعد متعلقان بارتدّوا وما المصدرية وما في حيزها في محل جر بالإضافة إلى الظرف ولهم متعلقان بتبين والهدى فاعل والشيطان مبتدأ وجملة سوّل لهم خبر الشيطان والجملة الاسمية خبر إن ومعنى سوّل لهم سهّل لهم من السول وهو الاسترخاء وأملى لهم عطف على سوّل لهم (ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ) ذلك مبتدأ وبأنهم خبره وأن واسمها وجملة قالوا خبرها وللذين متعلقان بقالوا وجملة كرهوا صلة وما مفعول به وجملة نزّل اللّه صلة وجملة سنطيعكم مقول القول وفي بعض الأمر متعلقان بنطيعكم (وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ) الواو للحال واللّه مبتدأ وجملة يعلم إسرارهم خبر وإسرارهم مفعول به وهو بكسر الهمزة مصدر أسرّ وقرئ بفتحها جمع سر (فَكَيْفَ إِذا

(365/710)

تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ) الفاء عاطفة وكيف اسم استفهام في محل رفع خبر مقدم أي كيف حالهم ويجوز أن تعرب مفعولا لفعل محذوف أي فكيف يصنعون ، وإذا

ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط

متعلق بالمبتدأ المحذوف وجملة توفتهم الملائكة في محل جر بإضافة الظرف إليها وجملة يضربون حال من الفاعل

أو من المفعول ووجوههم مفعول به وأدبارهم عطف على وجوههم (ذِلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ) ذلك مبتدأ وبأنهم خبر وجملة اتبعوا خبر أن وما مفعول به وجملة أسخط اللّه صلة وكرهوا رضوانه عطف على جملة اتبعوا ما أسخط اللّه ، فأحبط عطف على ما تقدم وأعمالهم مفعول به .

البلاغة :

1 - في قوله تعالى " فهل عسيتم إن توليتم " إلى آخر الآية التفات من الغيبة إلى الخطاب وقد تقدم القول مطولا في الالتفات ، والسرّ فيه هنا أنه جاء لتأكيد التوبيخ وتشديد التقريع وتسجيل ذلك عليهم مشافهة وخطابا ، ولقائل أن يقول كيف يصحّ الاستفهام من اللّه تعالى وهو عالم بما كان وما يكون ؟ والجواب أنه لما عهد منكم أحرياء بأن يقول لكم كل من سبر أغواركم وعرف تمريضكم ورخاوة عقدكم في الإيمان يا هؤلاء ما ترون ؟ هل يتوقع منكم إذا توليتم أمور الناس ونيطت بكم شئونهم وأصبحتم حكاما هل يتوقع منكم أن تفسدوا في الأرض بالتناخر على الملك والتهالك على الدنيا والتناور والتناهب وقطع الأرحام بمقاتلة بعض الأقارب ووأد البنات وأخذ الرشاوة والعودة إلى الجاهلية الأولى .

2- التنكير والاستعارة : وفي قوله تعالى : " أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها " التنكير في قلوب مع إضافة الأقفال إليها على طريق الاستعارة المكنية ، أما التنكير فهو إما لتهويل حالها كأنه قيل على قلوب منكرة مبهم أمرها أو إما لأن المراد بها قلوب بعض منهم وهم قلوب المنافقين ، أما الاستعارة فهي أنه شبّه قلوبهم بالصناديق واستعار لها شيئا من لوازمها وهي الأقفال المختصّة بها لاستبعاد فتحها واستمرار انغلاقها فلا تطلع مخبآتها على أحد ولا يطّلع على مخبآتها أحد .

الفوائد :

يجوز كسر سين عسى في لغة من قال هو عسى بكذا مثل شج من شجى ، وليس ذلك الجواز مطلقا سواء أسندته إلى ظاهر أو مضمر بل يتقيد بأن يسند إلى ضمير يسكن معه آخر الفعل كالتاء أو النون أو نا وبهما قرئ في السبع ، قرأ نافع بالكسر لمناسبة الياء وقرأ الباقون بالفتح وهو المختار لجريانه على الألسن .

[سورة محمد (47) : الآيات 29 إلى 33]

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغانَهُمْ (29) وَلَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ

فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ (30) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ (31) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ (32) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ (33)

اللغة :

(أَضْغانَهُمْ) أحقادهم وفي المصباح : " ضغن صدره ضغنا من باب

(367/710)

تعب حقد والاسم ضغن والجمع أضغان مثل حمل وأحمال وهو ضغن وضاغن " وقال عمرو بن كلثوم :

وإن الضغن بعد الضغن يبدو عليك ويخرج الداء الدفينا

ومن عجيب أمر الضاد والغين أنهما إذا اجتمعتا فاء وعينا للكلمة دلّتا على معنى متقارب وهو الشيء الكامن في الخفاء كما تقدم في الضغن ويقال ضغن عليّ فلان واضطغن وأبعد اللّه كل مضاغن لأخيه مشاحن لمواليه وما زلت به حتى سللت بقية ضغنه وأخليت صدره عمّا كان في ضمنه ، وضغبت الأرنب صوّتت إذا أخذت ، وضربه بضغث أي

بقبضة من قضبان صغار أو حشيش بعضه في بعض ومن مجازه هذه أضغاث أحلام وهي ما التبس وكمن منها ، وضغط الشيء عصره وضيّق عليه وأعوذ باللّه من ضغطة القبر وهي كامنة لا يعلمها إلا اللّه ، وسمعت ضغيل الحجام وهو صوت مصّه وضغمه ضغمة الأسد وهي العضة بملء الفم وفرسه الضيغم والضياغمة وهو الأسد ، وضغا فلان ضغاء تضوّر من ضرب أو أذى وتقول أضغيته إضغاء ثم أغضيت عنه إغضاء وبات صبيانه يتغاضون من الجوع ويتضاغون وهذا من العجب العجاب .

(بِسِيماهُمْ) بعلامتهم وفي القاموس " والسومة بالضم والسيمة والسيماء والسيمياء بكسرهنّ : العلامة " .

(لَحْنِ الْقَوْلِ) نحوه وأسلوبه وقيل اللحن : إن تلحن بكلامك أي تميله إلى نحو من الأنحاء ليفطن له صاحبك كالتعريض والتورية قال :

ولقد لحنت لكم لكيما تفهموا واللحن يعرفه ذوي الألباب

فاللحن العدول بالكلام عن الظاهر والمخطئ لاحن لعدوله عن الصواب أي لكي تفهموا دون غيركم فإن اللحن يعرفه أرباب الألباب

(368/710)

دون غيرهم قال في المصباح : " اللحن بفتحتين الفطنة وهو مصدر من باب تعب والفاعل لحن يتعدى بالهمزة فيقال ألحنته فلحن أي أفطنته ففطن وهو سرعة الفهم وهو ألحن من زيد أي أسبق فهما ولحن في كلامه لحنا من باب نفع أخطأ في العربية قال أبو زيد لحن في كلامه لحنا بسكون الحاء ولحونا إذا أخطأ الإعراب وخالف وجه الصواب ولحنت بلحن فلان لحنا أيضا تكلمت بلغته ولحنت له لحنا قلت قولا فهمه عني وخفي على غيره من القوم وفهمته من لحن كلامه وفحواه ومعاريضه بمعنى ، قال الأزهري : لحن القول كالعنوان وهو كالعلامة تشير لها فيفطن المخاطب لغرضك " .

والخلاصة أن للحن معنيين صواب وخطأ فالصواب صرف الكلام وإزالته عن التصريح إلى المعنى والتعريض وهذا ممدوح من حيث البلاغة ومنه قوله صلى اللّه عليه وسلم : " فلعلّ بعضكم ألحن بحجته من بعض " وقال الشاعر :

منطق صائب وتلحن أحيا نا وخير الحديث ما كان لحنا

وإليه قصد بقوله " ولتعرفنّهم في لحن القول " وأما اللحن المذموم فظاهر وهو صرف الكلام عن الصواب إلى الخطأ بإزالة الإعراب أو التصحيف ، ومعنى الآية : وإنك يا محمد لتعرفنّ المنافقين فيما يعرضون به من القول من تهجين أمرك وأمر المسلمين وتقبيحه والاستهزاء به فكان بعد هذا لا يتكلم منافق عند النبي صلى اللّه عليه وسلم إلا عرفه بقوله ويستدل بفحوى كلامه على فساد باطنه ونفاقه .

الإعراب :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغانَهُمْ) أم حرف إضراب وعطف وحسب الذين فعل وفاعل وفي قلوبهم خبر مقدّم

(369/710)

و مرض مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية صلة الموصول وأن وما في حيزها سدّت مسدّ مفعولي حسب وأن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن ولن حرف نفي ونصب واستقبال ويخرج فعل مضارع منصوب بلن والجملة خبر أن والله فاعل وأضغانهم مفعول به (وَلَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ) الواو عاطفة ولو شرطية ونشاء فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره نحن واللام واقعة في جواب لو وأريناكهم فعل ماض ونا فاعل والكاف مفعول أول والهاء مفعول ثان والرؤية هنا بصرية فلذلك لم تنصب سوى مفعولين والفاء عاطفة واللام عطف على اللام الأولى الواقعة جوابا وكررت للتأكيد وعرفتهم فعل وفاعل ومفعول وجملة لأريناكهم لا محل لها لأنها جواب لو وجملة فلعرفتهم عطف عليها وبسيماهم متعلقان بعرفتهم (وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ) الواو حرف عطف واللام واقعة مع النون في جواب قسم محذوف وتعرفنّهم فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون

التأكيد الثقيلة والفاعل مستتر تقديره أنت والهاء مفعول به وفي لحن القول متعلقان بتعرفنّهم أو بمحذوف حال أي حال كونهم لاحنين واللّه مبتدأ وجملة يعلم أعمالكم خبر والجملة استئنافية . (

(370/710)

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ) اللام واقعة جواب قسم محذوف مع النون ونبلونّكم فعل وفاعل مستتر ومفعول به وحتى حرف غاية وجر أو تعليل وجر ونعلم فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى والمجاهدين مفعول به ومنكم حال والصابرين عطف على المجاهدين ونبلو عطف على نعلم وأخباركم مفعول به (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ) إن واسمها وجملة كفروا صلة وجملة صدّوا عن سبيل اللّه عطف على جملة كفروا وشاقوا الرسول عطف أيضا ومن بعد متعلقان بشاقوا وما مصدرية وهي مع مدخولها في تأويل مصدر

مضاف لبعد ولهم متعلقان بتبين والهدى فاعل ولن حرف نفي ونصب واستقبال ويضرّوا اللّه فعل مضارع منصوب بلن والجملة خبر إن وشيئا مفعول مطلق أي شيئا من الضرر ،

ولك أن تعربه مفعولا به ، وسيحبط الواو حرف عطف والسين حرف استقبال ويحبط أعمالهم فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ) تقدم إعراب نظير هذه الآية كثيرا وقد اشتجر الخلاف بين أهل السنّة والاعتزال حول الكبائر وهل تحبط الحسنات فليرجع إليها من شاء في مختلف المظان.

[سورة محمد (47) : الآيات 34 إلى 38]

(371/710)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ ماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (34) فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ (35) إِنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْئَلْكُمْ أَمْوالَكُمْ (36) إِنْ يَسْئَلْكُمُوها فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ (37) ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَراءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ (38)

اللغة :

(السَّلْمِ) بفتح السين وكسرها الصلح وقد قرئ بهما .

(يَتِرَكُمْ) ينقصكم من وترت الرجل إذا قتلت له قتيلا من ولد أو أخ أو حميم من الوتر وهو الانفراد وفي المختار : " ووتره حقه يتره بالكسر وترا بالكسر أيضا نقصه وقوله تعالى : ولن يتركم أعمالكم أي في أعمالكم كقولهم دخلت البيت أي في البيت وأوتره أفذّه ومنه أوتر صلاته ، وأوتر فرسه وتّرها توتيرا بمعنى " وفي المصباح : " يقال وترت العدد وترا من باب وعد أفردته وأوترته بالألف مثله ووترت الصلاة وأوترتها جعلتها وترا ووترت زيدا حقّه أثره من باب وعد أيضا نقصته ومنه من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله بنصبها على المفعولية " .

(فَيُحْفِكُمْ) يبالغ في طلبها حتى يستأصلها فيجهدكم بذلك فالإحفاء المبالغة وبلوغ الغاية في كل شيء ويقال أحفى شاربه استأصله وفي القاموس : " وحفا شاربه بالغ في أخذه كأحفاه " .

الإعراب :

)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) إن واسمها وجملة كفروا صلة وصدّوا عطف على كفروا وعن سبيل اللّه متعلقان بصدّوا (ثُمَّ ماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) ثم حرف عطف وماتوا فعل وفاعل وجملة فلن يغفر اللّه لهم خبر إن ودخلت الفاء لما في الموصول من معنى الشرط (فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ) الفاء الفصيحة أي إذا علمتم وجوب الجهاد فلا تضعفوا ولا تهنوا ، ولا ناهية وتهنوا فعل مضارع مجزوم بلا والواو فاعل وتدعوا عطف على فلا تهنوا مجزوم مثله وإلى السلم متعلقان بتدعوا والواو للحال وأنتم الأعلون مبتدأ وخبر والجملة حالية (وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ) الواو للحال أيضا واللّه مبتدأ ومعكم ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر والواو عاطفة ولن حرف

(373/710)

نفي ونصب واستقبال ويتركم فعل مضارع منصوب بلن وأعمالكم منصوب بنزع الخافض كما نصّ صاحب المختار ومفهوم كلام صاحب المصباح أنه يجوز أن تكون مفعولا به (إِنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ) إنما كافة ومكفوفة والحياة الدنيا مبتدأ ولعب وخبر ولهو عطف على لعب (وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْئَلْكُمْ أَمْوالَكُمْ) الواو عاطفة وإن شرطية وتؤمنوا فعل الشرط مجزوم بحذف النون والواو فاعل وتتقوا عطف على تؤمنوا

ويؤتكم جواب الشرط والكاف مفعول يؤتكم الأول وأجوركم مفعول يؤتكم الثاني والواو حرف عطف ولا نافية ويسألكم عطف على يؤتكم والكاف مفعول يسأل الأول وأموالكم مفعول يسأل الثاني أي لا يأمركم بإخراج جميع أموالكم في الزكاة بل يأمر بإخراج ما فرض عليكم في الزكاة وهو معروف ومبسوط في كتب الفقه (إِنْ يَسْأَلْكُمُوها فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ) إن شرطية ويسألكموها فعل الشرط مجزوم والكاف مفعوله الأول والهاء مفعوله الثاني والميم علامة جمع الذكور والواو للإشباع ، فيحفكم عطف على فعل الشرط وتبخلوا جواب الشرط ويخرج عطف على الجواب وأضغانكم مفعول به والفاعل يعود على اللّه تعالى لأنكم قوم تحبّون الماء ومن نوزع في حبيبه ظهرت كوامنه التي يخفيها (ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) ها أنتم هؤلاء تقدم القول مشبعا في نظيرها ونعيد بعض ما تقدم فنقول ها للتنبيه وأنتم مبتدأ وهؤلاء خبره وجملة تدعون مستأنفة وأعربه بعضهم ها للتنبيه وأنتم مبتدأ وجملة تدعون خبره وهؤلاء منادى معترض بين المبتدأ والخبر وجنح الزمخشري إلى إعراب هؤلاء اسم موصول بمعنى الذين وهو الخبر وجملة تدعون صلة وتبعه البيضاوي وكررت ها التنبيه للتأكيد قال أبو حيان : " وكون هؤلاء موصولا إذا تقدمها ما الاستفهامية باتفاق أو من

الاستفهامية باختلاف " والكوفيون لا يشترطون ذلك فتبع الزمخشري مذهبهم . ولتنفقوا اللام للتعليل وتنفقوا فعل مضارع منصوب

بأن مضمرة بعد لام التعليل والواو فاعل في سبيل اللّه متعلقان بتنفقوا (فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ ، وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ) الفاء عاطفة للتفريع ومنكم خبر مقدم ومن مبتدأ مؤخر وجملة يبخل صلة ولا بدّ من تقدير جملة ليتم التفريع أي ومنكم من يجود وإنما حذف هذا المقابل لأن المقام مقام استدلال على البخل والواو عاطفة ومن شرطية مبتدأ ويبخل فعل الشرط والفاء رابطة وإنما كافّة ومكفوفة وجملة فإنما وما بعدها في محل جزم جواب الشرط ويبخل فعل مضارع مرفوع وعن نفسه متعلقان بيبخل لأنه يتعدى بعلى وبعن لتضمينه معنى الإمساك والتعدّي يقال بخلت عليه وعنه وكذلك ضننت عليه وعنه (وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَراءُ) الواو استئنافية واللّه مبتدأ والغني خبره وأنتم الفقراء عطف على واللّه الغني (وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ) الواو عاطفة على الجملة الشرطية السابقة وإن شرطية وتتولوا فعل الشرط والواو فاعل ويستبدل جواب الشرط وقوما مفعول به وغيركم نعت لقوما وثم حرف ولا نافية ويكونوا معطوف على الجواب مجزوم والواو اسم يكون وأمثالكم خبرها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 9 صـ 196. 229﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى عشر بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الحادى عشر بعد السبعمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الفتح)

(4/711)

(سورة الفتح)

(5/711)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة الفتح

مقصودها مدلول اسمها الذي يعم فتح مكة وما تقدمه من صلح الحديبية وفتح خيبر ونحوهما ، وما وقع تصديق الخبر به من غلب الروم على أهل فارس وما تفرع من فتح مكة المشرفة من إسلام أهل جزيرة العرب وقتال أهل الردة وفتوح جميع البلاد الذي يجمعه كله

إظهار الذين على الدين كله ، وهذا كله في غاية الظهور بما نطق ابتداؤها) ليظهر على الدين كله) (محمد رسول الله) إلى قوله (ليغيظ بهم الكفار) أي بالفتح الأعظم وما دونه من الفتوحات) وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة (كما كان في أولها ع للرسول (صلى الله عليه وسلم) وأجرا عظيما (كذلك بسائر الفتوحات وما حوت من اللغنائم للثواب الجزيل على ذلك في دار الجزاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 183 ﴾

(6/711)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . إنا فتحنا لك فتحا مبينا)

السّورة مدنيّة إجماعاً .

آياتها تسع وعشرون .

وكلماتها خمسمائة وستّون .

وحروفها أَلفان وأَربعمائة وثمان وثلاثون .

وفواصل آياتها على الأَلف .

وسميت سورة الفتح ؛ لقوله : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ .

معظم مقصود السّورة ؛ وَعْد الرسول – صلَّى الله عليه وسلَّم – بالفتح والغفران ، وإِنزال السّكِينة على أَهل الإِيمان ، وإِبعاد المنافقين بعذاب الجحيم ، ووعد المؤمنين بنعيم الجِنَان ، والثناءُ على سيّد المرسلين ، وذكر العهد ، وبَيْعة الرّضوان ، وذكر ما للمنافقين من الخِذلان ، وبيان عُذْر المعذورين ، والمنّة على الصّحابة بعدم الظفر عليهم من أَهل مكة ذوى الطغيان ، وصدق رؤيا سيّد المرسلين على حَقِّية الرّسالة ، وشهادة المِلك الدّيان ، وتمثيل حال النبىّ والصّحابة بالزَّرع والزُّرَّاع فى البهجة والنضارة وحسن الشان .

والسّورة خالية عن المنسوخ .

المتشابهات :

قوله : ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ وبعد : ﴿ عَزِيزًا حَكِيماً ﴾ لأَنَّ الأَوّل متَّصل بإِنزال السّكينة ، وازدياد إِيمان المؤمنين ، (وكان) الموضع علم وحكمة .

وقد تقدّم ما اقتضاه الفتح عند قوله : ﴿ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ ﴾ وأَمَّا الثانى والثالث الذى بعد فمتصلان بالعذاب والغضب وسلب الأَموال والغنائم (وكان الموضع) موضع عِزّ وغلبة وحكمة .

قوله : ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً ﴾ ، وفى المائدة : ﴿ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ﴾ زاد فى هذه السّورة (لكم) لأَنَّ ما فى هذه السّورة نزلت فى قوم بأَعيانهم وهم المخلَّفون ، وما فى المائدة عامّ لقوله : ﴿ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ .

(7/711)

قوله : ﴿ كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ ﴾ بلفظ الجميع ، وليس له نظير .

موهو خطاب للمضمرين فى قوله ﴿ لَنْ تَتَّبِعُوْنَا ﴾ .

فضل السّورة

عن ابن عبّاس : لمّا نزلت هذه السّورة قال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم : لقد أُنزِل علىّ سورة هى أَحبّ إلىّ من الدنيا وما فيها .

وفيه حديث أُبىّ السّاقط : مَن قرأَ سورة الفتح فكأَنَّما كان مع مَنْ بايع رسول الله تحت الشجرة ، وحديث علىّ : يا علىّ مَنْ قرأَها دعته ثمانية أَبوبا الجنّة ، كلّ باب يقول : إلىّ إلىّ يا ولىّ الله ، وله بكل آية قرأَها مثل ثواب مَن يموت غريباً فى طاعة الله . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 432.434 ﴾

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة الفتح

413 - مسألة :

قوله تعالى : (وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) ثم قال تعالى بعده :

(وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)

جوابه :

لما ذكر ذلك النصر ، وما يترتب عليه من فتح مكة ، ومغفرة

له ، وتمام لنعمته عليه وهدايته مع ظهور صدهم ، ، وما

لقوا من عنت الكفار ، ختم الآية بقوله تعالى : (عَلِيمًا حَكِيمًا) أي : (عَلِيمًا) بما يترتب

على ذلك الصد من

الفتح ، وصلاح الأحوال ، (حَكِيمًا) فيما دبره لك من

كتاب الصلح بينك وبين قريش ، فإنه كان سبب الفتح .

وأما الثاني : فلما ذكر ما أعده للمؤمنين من الجنات ، وتكفير

السيئات ، وتعذيب المنافقين والمشركين ، ختمه بقوله تعالى : (عَزِيزًا) أي : قادر على ذلك

(حَكِيمًا) فيما يفعله

من إكرام المؤمن ، وتعذيب الكافر .

414 - مسألة :

قوله تعالى : (قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا) الآية . وفى المائدة : (قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا) ؟ .

جوابه :

أن آية الفتح مع قوم مخاطبين بذلك ، فناسب التأكيد

والتخصيص بقوله تعالى : (لكم) . وآية المائدة : عامة

لا تختص بقوم ، ولذلك قال تعالى : (وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) .

415 - مسألة :

قوله تعالى : (لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ)

فزاد الاستثناء من الله تعالى مع قوله تعالى :

(وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) وهو عالم بما كان وما يكون ؟ .

جوابه :

أن ذلك تعليم لعباده ، وتأديب لهم في كل أمر سابق

ومستقبل يعزم عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 339. 341 ﴾

(9/711)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الفتح

سورة ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ﴾ [الفتح : 1]

سميت في كلام الصحابة سورة الفتح .

ووقع في صحيح البخاري عن عبد الله بن مغفل بغين معجمة مفتوحة وفاء مشددة

مفتوحة قال : قرأ النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة سورة الفتح فرجع فيها .

وفيها حديث سهل بن حنيف لقد رأيتنا يوم الحديبية ولو ترى قتالا لقاتلنا .

ثم حكى مقاله عمر إلى أن قال فنزلت سورة الفتح ولا يعرف لها اسم آخر .

ووجه التسمية أنها تضمنت حكاية فتح متجه الله للنبي صلى الله عليه وسلم كما

سيأتي .

وهي مدنية على المصطلح المشهور في أن المدني ما نزل بعد الهجرة ولو كان نزوله في مكان غير المدينة من أرضها أو من غيرها .

وهذه السورة نزلت بموضع يقال له كراع الغميم بضم الكاف من كراع وبفتح الغين المعجمة وكسر الميم من الغميم موضع بين مكة والمدينة وهو واد على مرحلتين من مكة وعلى ثلاثة أميال من عسفان وهو من أرض مكة .

وقيل نزلت بضجنان بوزن سكران وهو جبل قرب مكة ونزلت ليلا فهي من القرآن الليلي .

ونزولها سنة ست بعد الهجرة منصرف النبي صلى الله عليه وسلم من الحديبية وقبل غزوة خيبر .

وفي الموطإ عن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسير في بعض أسفاره أي منصرفه من الحديبية ليلا وعمر بن الخطاب يسير معه فسأله عمر بن الخطاب عن شيء فلم يجبه ثم سأله فلم يجبه ثم سأله فلم يجبه فقال : عمر ثكلت أم عمر نزرت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك .

قال عمر : فحركت بعيري وتقدمت أمام الناس وخشيت أن ينزل في القرآن فما نشبت أن سمعت صارخا يصرخ بي ، فقلت : لقد خشيت أن يكون نزل في قرآن ، فجئت رسول الله

فسلمت عليه فقال : " لقد أنزلت علي الليلة سورة لهي أحب الي مما طلعت عليه الشمس " ثم قرأ ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ﴾ [الفتح : 1] ومعنى قوله لهي

(10/711)

أحب إلي مما طلعت عليه الشمس لما اشتملت عليه من قوله ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ ﴾ [الفتح : من الآية2] .

وأخرج مسلم والترمذي عن أنس قال أنزل على النبي ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ ﴾ إلى قوله ﴿ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ [الفتح : 2-5] مرجعه من الحديبية فقال النبي صلى الله عليه وسلم لقد أنزلت علي آية أحب إلي مما على وجه الأرض ثم قرأها .

وهي السورة الثالثة عشرة بعد المائة في ترتيب نزول السور في قول جابر بن زيد .

نزلت بعد سورة الصف وقبل سورة التوبة .

وعدة آيها تسع وعشرون .

وسبب نزولها ما رواه الواحدي وابن إسحاق عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا : نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية وقد حيل بيننا وبين نسكنا فنحن بين الحزن والكآبة أنزل الله تعالى ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ﴾ فقال رسول الله : " لقد أنزلت

علي آية أحب إلي من الدنيا وما فيها " وفي رواية " من أولها إلى آخرها " .

أغراضها

تضمنت هذه السورة بشارة المؤمنين بحسن عاقبة صلح الحديبية وأنه نصر وفتح فنزلت به السكينة في قلوب المسلمين وأزال حزنهم من صدهم عن الاعتمار بالبيت وكان المسلمون عدة لا تغلب من قلة فرأوا أنهم عادوا كالخائبين فأعلمهم الله بأن العاقبة لهم ، وأن دائرة السوء على المشركين والمنافقين .

والتنويه بكرامة النبي صلى الله عليه وسلم عند ربه ووعده بنصر متعاقب .

والثناء على المؤمنين الذين عزروه وبايعوه ، وأن الله قدم مثلهم في التوراة وفي الإنجيل .

ثم ذكر بيعة الحديبية والتنويه بشأن من حضرها .

وفضح الذين تخلفوا عنها من الأعراب ولمزهم بالجبن والطمع وسوء الظن بالله وبالكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنعهم من المشاركة في غزوة خيبر ، وإنبائهم بأنهم سيدعون إلى جهاد آخر فإن استجابوا غفر لهم تخلفهم عن الحديبية .

(11/711)

ووعد النبي صلى الله عليه وسلم بفتح آخر يعقبه فتح أعظم منه وبفتح مكة .

وفيها ذكر بفتح من خيبر كما سيأتي في قوله تعالى ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ [الفتح : من الآية20] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ 119. 120 ﴾

(12/711)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة الفتح

الوحدة الأولى : 1 - 17 الموضوع:الحديبية فتح وفضل الله على رسوله وذم المخلفين من الأعراب

الفتح

تقديم لسورة الفتح

هذه السورة مدنية , نزلت في السنة السادسة من الهجرة , عقب صلح الحديبية ; وهي تتناول هذا الحادث الخطير وملابساته ; وتصور حال الجماعة المسلمة وما حولها في إبانه:فبين وقت نزولها ووقت نزول سورة "محمد" التي تسبقها في ترتيب المصحف , نحو من ثلاث سنوات , تمت فيها تغيرات هامة وخطيرة في أحوال الجماعة المسلمة في المدينة .

تغيرات في موقفها وموقف المناوئين لها , وتغيرات أهم في حالتها النفسية وصفتها الإيمانية , واستوائها على المنهج الإيماني في إدراك ونضج عميق .

وقبل أن نتحدث عن السورة وجوها ودلالتها يحسن أن نمر بصورة للحادث الذي نزلت بصدده . لنعيش في الجو الذي كان المسلمون يعيشون فيه , وهم يتلقون هذا التنزيل الكريم:

(13/711)

لقد أري رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في منامه أنه يدخل الكعبة هو والمسلمون محلقين رؤوسهم ومقصرين . وكان المشركون قد منعوهم منذ الهجرة من دخول مكة , حتى في الأشهر الحرم التي يعظمها العرب كلهم في الجاهلية , ويضعون السلاح فيها ; ويستعظمون القتال في أيامها , والصد عن المسجد الحرام . حتى أصحاب الثارات كانوا يتجمعون في ظلال هذه الحرمة , ويلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه فلا يرفع في وجهه سيفا , ولا يصده عن البيت المحرم . ولكنهم خالفوا عن تقاليدهم الراسخة في هذا الشأن ; وصدوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والمسلمين معه طوال السنوات الست التي تلت الهجرة . حتى كان العام السادس الذي أريفيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هذه الرؤيا . وحدث بها أصحابه - رضوان الله عليهم - فاستبشروا بها وفرحوا .

ورواية ابن هشام لوقائع الحديبية هي أوفى مصدر نستند إليه في تصورها . وهي في جملتها تتفق مع رواية البخاري ورواية الإمام أحمد ومع تلخيص ابن حزم في جوامع السيرة وغيرهم .

قال ابن إسحاق: ثم أقام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالمدينة شهر رمضان وشوالا "بعد غزوة بني المصطلق وما جاء في أعقابها من حديث الإفك" وخرج في ذي القعدة معتمرا لا يريد حربا . واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه ; وهو يخشى من قريش الذي صنعوا أن يعرضوا له بحرب , أو يصدوه عن البيت . فأبطأ عليه كثير من الأعراب . وخرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بمن معه من المهاجرين والأنصار , ومن لحق به من العرب ; وساق معه الهدي , وأحرم بالعمرة , ليأمن الناس من حربه , وليعلم الناس أنه إنما خرج زائرا لهذا البيت ومعظما له .

قال: وكان جابر بن عبد الله - فيما بلغني - يقول: كنا أصحاب الحديبية أربع عشرة مائة .

(14/711)

قال الزهري: وخرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي . فقال: يا رسول الله ! هذه قريش قد سمعت بمسيرك , فخرجوا معهم

العوذ المطافيل , قد لبسوا جلود النمور ; وقد نزلوا بذي طوى , يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدا . وهذا خالد بن الوليد في خيلهم , قد قدموها إلى كراع الغميم . قال:فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :" يا ويح قريش ! لقد أكلتهم الحرب . ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب ? فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا , وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين , وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة . فما تظن قريش ? فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله , أو تنفرد هذه السالفة " . ثم قال:" من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها ? " . .

قال ابن إسحاق:فحدثني عبد الله بن أبي بكر , أن رجلا من أسلم قال:أنا يا رسول الله . قال:فسلك بهم طريقا وعرا أجرل بين شعاب . فلما خرجوا منه – وقد شق ذلك على المسلمين – وأفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي , قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) للناس:" قولوا نستغفر الله ونتوب إليه " . فقالوا ذلك . فقال:" والله إنها للحطة التي عرضت على بني إسرائيل , فلم يقولوها "

(15/711)

قال ابن شهاب الزهري: فأمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الناس فقال: "اسلكوا ذات اليمين" بين ظهري الحمض في طريق على ثنية المرار, مهبط الحديبية من أسفل مكة; قال: فسلك الجيش ذلك الطريق. فلما رأت خيل قريش قترة الجيش, قد خالفوا عن طريقهم, رجعوا راكضين إلى قريش. وخرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى إذا سلك في ثنية المرار بركت ناقته. فقال الناس: خلأت الناقة. فقال: "ما خلأت. وما هو لها بخلق. ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة. لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها" - [وفي رواية البخاري]: "والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله تعالى إلا أعطيتهم إياها". ثم قال للناس: "انزلوا" قيل له: يا رسول الله, ما بالوادي ماء ينزل عليه. فأخرج سهما من كنانته فأعطاه رجلا من أصحابه. فنزل في قليب من تلك القلب, فغرزه في جوفه, فجاش بالرواء.. فلما اطمأن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أتاه بديل بن ورقاء الخزاعي, في رجال من خزاعة, فكلموه, وسألوه ما الذي جاء به؟ فأخبرهم أنه لم يأت يريد حربا, وإنما جاء زائرا للبيت, ومعظما لحرمته. ثم قال لهم نحوا مما قال لبشر بن سفيان; فرجعوا إلى قريش فقالوا: يا معشر قريش, إنكم تعجلون على محمد. إن محمدا لم يأت لقتال, وإنما جاء زائرا لهذا البيت. فاتهموهم وجبهوهم, وقالوا: وإن كان جاء ولا يريد قتالا. فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبدا, ولا تحدث بذلك عنا العرب.

وكانت خزاعة عيبة نصح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مسلمها ومشركها , لا يخفون عنه شيئا كان بمكة . ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص بن الأخيف أخا بني عامر بن لؤي . فلما رآه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مقبلا قال: " هذا رجل غادر " . فلما انتهى إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكلمه , قال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نحوا مما قال لبديل وأصحابه ; فرجع إلى قريش , فأخبرهم بما قال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة أو ابن زبان . وكان يومئذ سيد الأحابيش , وهو أحد بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة . فلما رآه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: " إن هذا من قوم يتألهون - يعني يتعبدون - فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه " . فلما رأى الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده , وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله , رجع إلى قريش , ولم يصل إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إعظاما لما رأى . فقال لهم ذلك . فقالوا له: إجلس فإنما أنت أعرابي لا علم لك !

قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر أن الحليس غضب عند ذلك . وقال: يا معشر قريش , والله ما على هذا حالفناكم , ولا على هذا عاقدناكم . أيصد عن بيت الله

من جاء معظما له ؟ والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له , أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد . قال:فقالوا له:مه . كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به .

(17/711)

قال الزهري:ثم بعثوا إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عروة بن مسعود الثقفي فقال:يا معشر قريش , إني قد رأيت ما يلقى منكم من بعثتموه إلى محمد إذا جاءكم , من التعنيف وسوء اللفظ . وقد عرفتم أنكم والد وأني ولد - وكان نسبه لأمه في بني عبد شمس - وقد سمعت بالذي نابكم , فجمعت من أطاعني منقومي , ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسي . قالوا:صدقت , ما أنت عندنا بمتهم . فخرج حتى جاء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فجلس بين يديه . ثم قال:يا محمد . أجمعت أوشاب الناس , ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم ؟ إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل , قد لبسوا جلود النمور , يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدا . وأيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا . قال:وأبو بكر خلف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قاعد . فزجره وقال:أنحن نكشف عنه ؟ قال:من هذا يا محمد ؟ قال:" هذا ابن أبي قحافة " .

قال . أما والله لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها . ولكن هذه بها . قال: ثم جعل يتناول لحية رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو يكلمه . قال: والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في الحديد . قال: فجعل يقرع يده إذا تناول لحية رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويقول: أكفف يدك عن وجه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قبل أن لا تصل إليك ! قال: فيقول عروة: ويحك ! ما أفظك وأغلظك ! قال: فتبسم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال له عروة: من هذا يا محمد ؟ قال: " هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة " . قال: أي غُدَر . وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس ؟ قال ابن هشام: أراد عروة بقوله هذا أن المغيرة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلا من بني مالك من ثقيف , فتهايج الحيان من ثقيف: بنو مالك رهط المقتولين . والأحلاف رهط المغيرة . فودى عروة المقتولين ثلاث عشرة دية . وأصلح ذلك الأمر .

(18/711)

قال ابن إسحاق: قال الزهري: فكلمه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بنحو مما كلم أصحابه , وأخبره أنه لم يأت يريد حربا . فقام من عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقد رأى ما يصنع به أصحابه: لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه , ولا يبصق بصاقا إلا ابتدروه ,

ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه . فرجع إلى قريش فقال: يا معشر قريش , إني جئت كسرى في ملكه , وقيصر في ملكه , والنجاشي في ملكه ; وإني والله ما رأيت ملكا في قوم قط مثل محمد في أصحابه , ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبدا . فروا رأيكم .

قال ابن إسحاق: وحدثني بعض أهل العلم , أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) دعا خراش بن أمية الخزاعي فبعثه إلى قريش بمكة , وحمله على بعير له يقال له: الثعلب . ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له . فعقروا به جمل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأرادوا قتله , فمنعته الأحابيش , فخلوا سبيله حتى جاء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

قال ابن إسحاق: وحدثني بعض من لا أتهم , عن عكرمة مولى ابن عباس [عن ابن عباس] أن قريشا كانوا بعثوا أربعين رجلا منهم , أو خمسين رجلا , وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليصيبوا لهم من أصحابه أحدا . فأخذوا أخذا , فأتي بهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فعفا عنهم , وخلى سبيلهم . وقد كانوا رموا في عسكر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالحجارة والنبل .

ثم دعا عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له . فقال: يا رسول الله إني أخاف قريشا على نفسي , وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني . وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتيعليها . ولكني أدلك على رجل أعز بها مني . عثمان بن عفان . فدعا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عثمان ابن عفان , فبعثه إلى

أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب , وأنه إنما جاء زائرا لهذا البيت ومعظما لحرمته .

(19/711)

قال ابن إسحاق: فخرج عثمان إلى مكة , فلقيه أبان بن سعيد بن العاص , حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها ; فحمله بين يديه , ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش , فبلغهم عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما أرسله به ; فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف . فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) واحتبسته قريش عندها , فبلغ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والمسلمين أن عثمان بن عفان قد قتل .

قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر , أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال - حين بلغه ان عثمان قد قتل -: " لا نبرح حتى نناجز القوم " . فدعا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الناس إلى البيعة , فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة . فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على الموت . وكان جابر بن عبد

الله يقول: إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لم يبايعنا على الموت , ولكن بايعنا على أن لا نفر . فبايع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الناس , ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس أخو بني سلمة . فكان جابر بن عبد الله يقول: والله لكأني أنظر إليه لاصقا بإبط ناقته قد ضبأ إليها , يستتر بها من الناس . ثم أتى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن الذي ذكر من أمر عثمان باطل .

قال ابن هشام: وحدثني من أثق به , عمن حدثه بإسناد له , عن ابن أبي مليكة , عن ابن عمر , أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بايع لعثمان , فضرب بإحدى يديه على الأخرى .

(20/711)

قال ابن إسحاق: قال الزهري: ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو أخا بني عامر بن لؤي إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقالوا له: إيت محمدا فصالحه , ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا , فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدا . فأتاه سهيل بن عمرو , فلما رآه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مقبلا قال: - " قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل " . فلما انتهى سهيل بن عمرو إلى رسول الله (صلى الله عليه

وسلم) تكلم فأطال الكلام . وتراجعا . ثم جرى بينهما الصلح .

فلما التأم الأمر , ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر , فقال: يا أبا بكر , أليس برسول الله ؟ قال: بلى ! قال: أولسنا بالمسلمين ؟ قال: بلى ! قال: أوليسوا بالمشركين ؟ قال: بلى ! قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ قال أبو بكر: يا عمر , الزم غرزه , فإني أشهد أنه رسول الله . قال عمر: وأنا أشهد انه رسول الله . ثم أتى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال: يا رسول الله , ألست برسول الله ؟ قال: بلى ! قال: أولسنا بالمسلمين ؟ قال: بلى ! قال: أوليسوا بالمشركين ؟ قال: بلى ! قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ قال: " أنا عبد الله ورسوله , لن أخالف أمره , ولن يضيعني " . قال: فكان عمر يقول: ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ , مخافة كلامي الذي تكلمت به , حين رجوت أن يكون خيرا .

(21/711)

قال: ثم دعا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) علي بن أبي طالب - رضوان الله عليه - فقال: " اكتب باسم الله الرحمن الرحيم " قال: فقال سهيل: لا أعرف هذا , ولكن اكتب باسمك اللهم . فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " اكتب باسمك اللهم " فكتبها .

ثم قال: " اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو " . قال: فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ; ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . قال: فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله . سهيل بن عمرو . اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين , يأمن فيهن الناس , ويكف بعضهم عن بعض , على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليه , ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه , وأن بيننا عيبة مكفوفة , وأنه لا إسلال ولا إغلال , وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه , ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه - فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده , وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقدة قريش وعهدهم - وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة , وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك , فدخلتها بأصحابك , فأقمت بها ثلاثا , معك سلاح الراكب: السيوف في القرب , لا تدخلها بغيرها . "

(22/711)

فبينا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو , إذ جاء أبو جندل بن سهيل ابن عمرو يرسف في الحديد , قد انفلت إلى رسول الله (صلى الله عليه

وسلم) وقد كان أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خرجوا وهم لا يشكون في الفتح , لرؤيا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع , وما تحمل عليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) دخل الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون . فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلبيبه , ثم قال: يا محمد , قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا . قال: " صدقت " فجعل ينتره بتلبيبه ويجره ليرده إلى قريش وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين , أأرد إلى المشركين يفتنونني في ديني ؟ فزاد الناس إلى ما بهم . فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " يا أبا جندل , اصبر واحتسب , فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا , إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا , وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله , وإنا لا نغدر بهم " . قال: فوثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل يمشي إلى جنبه , ويقول: اصبر يا أبا جندل , فإنما هم المشركون , وإنما دم أحدهم دم كلب . قال: ويدني قائم السيف منه . قال: يقول عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب أباه . قال: فضن الرجل بأبيه , ونفذت القضية .

فلما فرغ من الكتاب أشهد على الصلح رجال من المسلمين ورجال من المشركين: أبو بكر الصديق , عمر بن الخطاب , وعبد الرحمن بن عوف , وعبد الله بن سهيل بن عمرو ,

وسعد بن أبي وقاص , ومحمود بن مسلمة , ومكرز بن حفص [وهو يومئذ مشرك] وعلي بن أبي طالب , وكتب , وكان هو كاتب الصحيفة .

(23/711)

قال الزهري: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه: " قوموا فانحروا ثم احلقوا " قال: فوالله ما قام منهم رجل , حتى قال (صلى الله عليه وسلم) ذلك ثلاث مرات . فلما لم يقم منهم أحد دخل - صلى الله عليه وآله وسلم - على أم سلمة - رضي الله عنها - فذكر لها ما لقي من الناس . قالت [أم سلمة] - رضي الله عنها -: يا نبي الله , أتحب ذلك ؟ أخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنك , وتدعو حالقك فيحلقك . فخرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك , نحر بيده , ودعا حالقه فحلقه . فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا , وجعل بعضهم يحلق بعضا , حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما .

قال ابن إسحاق : فحدثني عبد الله بن أبي نجيح , عن مجاهد , عن ابن عباس . قال: حلق رجال يوم الحديبية وقصر آخرون . فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): " يرحم الله المحلقين " . قالوا: والمقصرين يا رسول الله ؟ قال: " يرحم الله المحلقين " . قالوا: والمقصرين

يا رسول الله ؟ قال: " يرحم الله المحلقين " . قالوا: والمقصرين يا رسول الله ؟ قال: " والمقصرين " . فقالوا يا رسول الله , فلم ظاهرت الترحيم للمحلقين دون المقصرين ؟ قال: " لم يشكوا " . .

قال الزهري في حديثه . . ثم انصرف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من وجهه ذلك قافلا . حتى إذا كان بين مكة والمدينة نزلت سورة الفتح .

(24/711)

وروى الإمام أحمد - بإسناده - عن مجمع بن حارثة الأنصاري - رضي الله عنه - وكان أحد القراء الذين قرأوا القرآن . قال: شهدنا الحديبية , فلما انصرفنا عنها إذا الناس ينفرون الأباعر , فقال الناس بعضهم لبعض: ما للناس ؟ قالوا أوحي إلى رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - فخرجنا مع الناس نوجف . فإذا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - على راحلته عند كراع الغميم , فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم: (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) . . قال: فقال رجل من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -: أي رسول الله أو فتح هو ؟ قال (صلى الله عليه وسلم) : " إي والذي نفس محمد بيده إنه لفتح " . .

وروى الإمام أحمد باسناده - عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: كنا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في سفر . قال: فسألته عن شيء ثلاث مرات فلم يرد علي . قال: فقلت ثكلتك أمك يا بن الخطاب . ألححت . كررت على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثلاث مرات, فلم يرد عليك ! قال: فركبت راحلتي, فحركت بعيري, فتقدمت, مخافة أن يكون نزل في شيء . قال: فإذا أنا بمناد يا عمر . قال: فرجعت وأنا أظن أنه نزل في شيء . قال: فقال النبي (صلى الله عليه وسلم): " نزل علي البارحة سورة هي أحب إلي من الدنيا وما فيها: إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر " . . [ورواه البخاري والترمذي والنسائي من طرق عن مالك رحمه الله] . .

(25/711)

هذا هو الجو الذي نزلت فيه السورة . الجو الذي اطمأنت فيه نفس الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى إلهام ربه, فتجرد من كل إرادة إلا ما يوحيه هذا الإلهام العلوي الصادق; ومضى يستلهم هذا الإيحاء في كل خطوة وفي كل حركة, لا يستفزه عنه مستفز, سواء من المشركين أو من أصحابه الذين لم تطمئن نفوسهم في أول الأمر لقبول استفزاز المشركين وحميتهم الجاهلية . ثم أنزل الله السكينة في قلوبهم, ففاءوا إلى الرضى واليقين والقبول

الخالص العميق ; كإخوانهم الذين كانوا على هذه الحال منذ أول الأمر , شأن الصديق أبي بكر الذي لم تفقد روحه لحظة واحدة صلتها الداخلية المباشرة بروح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ومن ثمبقيت على اطمئنانها دائما , ولم تفارقها الطمأنينة أبدا .

ومن ثم جاء افتتاح السورة بشرى لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) , فرح لها قلبه الكبير فرحا عميقا :(إنا فتحنا لك فتحا مبينا , ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر , ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما . وينصرك الله نصرا عزيزا) .

كما جاء في الافتتاح , الامتنان على المؤمنين بالسكينة , والاعتراف لهم بالإيمان السابق وتبشيرهم بالمغفرة والثواب , وعون السماء بجنود الله:(هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا – مع إيمانهم – ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليما حكيما , ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها , ويكفر عنهم سيئاتهم , وكان ذلك عند الله فوزا عظيما) . . ذلك مع ما أعده لأعدائهم من المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات من غضب وعذاب:(ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات , الظانين بالله ظن السوء , عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم , وأعد لهم جهنم , وساءت مصيرا) . .

ثم التنويه ببيعة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) واعتبارها بيعة لله ; وربط قلوب المؤمنين مباشرة بربهم عن هذا الطريق , بهذا الرباط المتصل مباشرة بالله الحي الباقي الذي لا يموت: (إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا , لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا . إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله , يد الله فوق أيديهم , فمن نكث فإنما ينكث على نفسه , ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما) .

وبمناسبة البيعة والنكث يلتفت - قبل إكمال الحديث عن المؤمنين ومواقفهم في الحديبية - إلى الأعراب الذين تخلفوا عن الخروج , فيفضح معاذيرهم , ويكشف ما جال في خواطرهم من سوء الظن بالله , ومن توقع السوء للرسول (صلى الله عليه وسلم) ومن معه . ويوجه الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى ما ينبغي أن يكون موقفه منهم في المستقبل . وذلك في أسلوب يوحي بقوة المسلمين وضعف المخلفين , كما يوحي بأن هنالك غنائم وفتوحا قريبة يسيل لها لعاب المخلفين المتباطئين:

سيقول لك المخلفون من الأعراب:شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا , يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم , قل:فمن يملك لكم من الله شيئًا , إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا ? بل كان الله بما تعملون خبيرا . بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا , وزين ذلك في قلوبكم , وظننتم ظن السوء , وكنتم قوما بورا . ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا . ولله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء , ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما . سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها :ذرونا نتبعكم , يريدون أن يبدلوا كلام الله , قل:لن تتبعونا . كذلكم قال الله من قبل . فسيقولون:بل تحسدوننا . بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا . قل للمخلفين من الأعراب:ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون , فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا , وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما .

وفي هذا الصدد يبين المعذورين إذا تخلفوا , والمعفين من الجهاد لعجزهم عنه , وهو العذر الوحيد : ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج , ولا على المريض حرج , ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار , ومن يتول يعذبه عذابا أليما . .

(28/711)

وبعد هذه اللفتة يعود سياق السورة للحديث عن المؤمنين ومواقفهم وخوالج نفوسهم ؛ حديثا كله رضى وشفافية ووضاءة وتكريم ؛ وكله بشريات لهذه النفوس الخالصة القوية , البائعة المتجردة . حديثا يتجلى فيها الله جل جلاله على هذه المجموعة المختارة من البشر . يتجلى عليهم برضوانه وبشرياته وامتنانه وتثبيته . ويبلغهم بأشخاصهم وأعيانهم أنه عنهم راض , وأنه كان حاضرهم وهم يبايعون في مكان بعينه: "تحت الشجرة" وأنه اطلع على ما في نفوسهم . وأنه رضيهم ورضي عنهم , وأنه كتب لهم النصر في المستقبل والغنائم والفتوح , وربط هذا كله بناموس الوجود وسنة الوجود . وهو أمر يقف له الوجود كله يشهد ويرقب ويتأثر ويسجل في أطوائه ذلك الحادث العظيم الفريد :(لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة , فعلم ما في قلوبهم , فأنزل السكينة عليهم , وأثابهم فتحا قريبا . ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما . وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها , فعجل لكم هذه , وكف أيدي الناس عنكم , ولتكون آية للمؤمنين , ويهديكم صراطا مستقيما , وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديرا . ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا . سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) . .

ويمتن عليهم بأخذ عدوهم النفر الذين أرادوا بهم الأذى ; ويندد بأعدائهم الذين صدوهم عن المسجد الحرام , وصدوا الهدي أن يبلغ محله , ويتلطف معهم فيكشف لهم عن حكمته في كفهم هذا العام عنهم ; وفضله في ترضيتهم بما كان , وإنزال سكينته في قلوبهم , لأمر يراه , وهو أعظم مما يرون . وهو فتح مكة ثم هيمنة هذا الدين على الدين كله بأمر الله وتدبيره: وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم , وكان الله بما تعملون بصيرا . هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفا أن يبلغ محله . ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم , أن تطؤوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم , ليدخل الله في رحمته من يشاء , لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما . إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية , فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين , وألزمهم كلمة التقوى , وكانوا أحق بها وأهلها , وكان الله بكل شيء عليما . لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق , لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون . فعلم ما لم تعلموا , فجعل من دون ذلك فتحا قريبا . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله , وكفى بالله شهيدا . .

وتختم السورة بالصفة الكريمة الوضيئة التي تميز هذه المجموعة المختارة من البشر , وتفردها

بسمتها الخاصة , وتنوه بها في الكتب السابقة:التوراة والإنجيل . وبوعد الله الكريم بالمغفرة والأجر العظيم:(محمد رسول الله , والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم , تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا , سيماهم في وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم في التوراة . ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره , فاستغلظ , فاستوى على سوقه , يعجب الزراع , ليغيظ بهم الكفار . وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما) . .

(30/711)

وهكذا تصبح نصوص السورة مفهومة واضحة , تعيش في جوها الذي نزلت فيه , وتصوره أقوى تصوير , بأسلوب القرآن الخاص الذي لا يفصل الحوادث بترتيبها وتسلسلها ; ولكنه يأخذ منها لمحات توجيهية وتربوية ; ويربط الحادثة المفردة بالقاعدة الشاملة . والموقف الخاص بالأصل الكوني العام . ويخاطب النفوس والقلوب بطريقته الفذة ومنهجه الفريد . ومن سياق السورة وجوها , وبالموازنة بينها وبين ايحاءات سورة محمد التي قبلها في ترتيب المصحف ; يتبين مدى ما طرأ على الجماعة المسلمة في موقفها كله من تغيرات عميقة , في مدى السنوات الثلاث , التي نرجحأنها تفرق بين السورتين في زمن النزول . ويتبين مدى

فعل القرآن الكريم , وأثر التربية النبوية الرشيدة لهذه الجماعة التي سعدت بالنشوء والنمو في ظلال القرآن , وفي رعاية النبوة . فكانت ما كانت في تاريخ البشرية الطويل .

واضح في جو سورة الفتح وإيحاءاتها أننا أمام جماعة نضج إدراكها للعقيدة , وتجانست مستوياتها الإيمانية , واطمأنت نفوسها لتكاليف هذا الدين ; ولم تعد محتاجة إلى حوافز عنيفة الوقع كي تنهض بهذه التكاليف في النفس والمال ; بل عادت محتاجة إلى من يخفض حميتها , وينهنه حدتها , ويأخذ بزمامها لتستسلم للهدوء , والمهادنة بعض الوقت , وفق حكمة القيادة العليا للدعوة .

لم تعد الجماعة المسلمة تواجه بمثل قوله تعالى:(فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم) . ولا بمثل قوله تعالى:(ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل , ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه , والله الغني وأنتم الفقراء , وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم , ثم لا يكونوا أمثالكم) .

(31/711)

ولم تعد في حاجة إلى حوافز قوية للجهاد بالحديث عن الشهداء وما أعد الله لهم عنده من الكرامة ; ولا بيان حكمة الابتلاء بالقتال ومشقاته كما في سورة محمد إذ يقول الله تعالى:

(ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم , ولكن ليبلو بعضكم ببعض , والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم , ويدخلهم الجنة عرفها لهم) .

إنما صار الحديث عن السكينة التي أنزلها الله في قلوب المؤمنين , أو أنزلها عليهم .

والمقصود بها تهدئة فورتهم , وتخفيض حميتهم , واطمئنان قلوبهم لحكم الله وحكمة رسوله (صلى الله عليه وسلم) في المهادنة والملاينة , وعن رضى الله عن المبايعين تحت الشجرة . وكانت هذه الصورة الوضيئة في نهاية السورة للرسول ومن معه .

أما الحديث عن الوفاء بالبيعة والنكث فيها في قوله تعالى: (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله , يد الله فوق أيديهم , فمن نكث فإنما ينكث على نفسه , ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما) . . فالإيحاء فيه أكثر إلى تكريم المبايعين وتعظيم شأن البيعة .

والإشارة إلى النكث جاءت بمناسبة الحديث عن الأعراب المتخلفين , وكذلك الإشارة إلى المنافقين والمنافقات فهي إشارة عابرة , تدل على ضعف موقف هذه الطائفة , وعلى خلوص الجماعة المسلمة بالمدينة ونضوجها وتجانسها . وهي على كل حال إشارة عابرة لا تشغل من السورة شيئا مما شغله الحديث عن المنافقين في سورة محمد , حيث كان للمنافقين شأنهم هم وحلفاؤهم اليهود . وهذا تطور آخر في موقف الجماعة المسلمة من ناحية موقفها الخارجي يساير ذلك التطور الذي تم في نفوسها من الداخل .

وواضح كذلك قوة المسلمين بالقياس إلى قوة المشركين في جو السورة كلها وفي آيات بنصها ; والإشارات إلى الفتوح المقبلة , وإلى رغبة المخلفين في الغنائم السهلة واعتذارهم , وإلى ظهور هذا الدين على الدين كله . . كلها تشي بما بلغت إليه قوة المسلمين في هذه الفترة بين نزول السورتين .

ففي حقيقة النفوس , وفي حال الجماعة , وفي الظروف المحيطة بها , حدث تطور واضح , يدركه من يتلمس خط السيرة في النصوص القرآنية . ولهذا التطور قيمته كما أن له دلالته على أثر المنهج القرآني والتربية المحمدية , لهذه الجماعة السعيدة الفريدة في التاريخ . ثم إن لهذا التطور إيحائه للقائمين على الجماعات البشرية . فلا تضيق صدورهم بالنقص فيها والضعف ورواسب الماضي ومخلفاته , وآثار البيئة والوسط , وجواذب الأرض , وثقلة اللحم والدم . . وكلها تبدو في أول العهد قوية عميقة عنيفة . ولكنها مع المثابرة والحكمة والصبر على العلاج , تأخذ في التحسن والتطور . والتجارب والابتلاءات تعين على التحسن والتطور , حين تتخذ فرصة للتربية والتوجيه . وشيئا فشيئا تخف ثقلة الطين , وتشف كثافة اللحم والدم , وتتوارى آثار البيئة , وتصفو رواسب الماضي , وتستشرف القلوب آفاقا أعلى فأعلى , حتى ترى النور هناك على الأفق الوضيء البعيد . ولنا في

رسول الله أسوة حسنة , ولنا في المنهج القرآني صراط مستقيم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الظلال حـ 6 صـ 3306.3316 ﴾

(33/711)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الفتح

مدنية وآياتها تسع وعشرون آية

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة مدنية ، وهي تعنى بجانب التشريع شأن سائر السور المدنية التي تعالج الأسس التشريعية في المعاملات ، والعبادات ، والأخلاق ، والتوجيه إلى مكارم الأخلاق .

* تحدثت السورة الكريمة عن (صلح الحديبية) الذي تم بين الرسول (صلى الله عليه وسلم) وبين المشركين سنة ست من الهجرة ، والذي كان بداية للفتح الأعظم " فتح مكة " وبه تم العز والنصر والتمكين للمؤمنين ، ودخل الناس في دين الله أفواجا أفواجا [إنا فتحنا لك فتحا مبينا . .] الآيات .

* وتحدثت السورة عن جهاد المؤمنين ، وعن (بيعة الرضوان) التي بايع فيها الصحابة رضوان الله عليهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على الجهاد في سبيل الله حتى الموت ، وكانت بيعة جليلة الشأن ولذلك باركها الله ، ورضي عن أصحابها ، وسجلها في كتابه العظيم ، في سطور من نور [لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة .] الآية .

* وتحدثت عن الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من الأعراب الذين في قلوبهم مرض ، ومن لمنافقين الذين ظنوا الظنون السيئة برسول الله (صلى الله عليه وسلم) وبالمؤمنين ، فلم يخرجوا معهم ، فجاءت الآيات تفضحهم وتكشف سرائرهم [سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا . .] الآيات .

* وتحدثت السورة عن الرؤيا التي رأها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في منامه –في المدينة المنورة–وحدث بها أصحابه ففرحوا واستبشروا ، وهي دخول الرسول (صلى الله عليه وسلم) والمسلمين مكة آمنين مطمئنين ، وقد تحققت تلك الرؤيا الصادقة فدخلها المؤمنون معتمرين مع الأمن والطمأنينة [لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لاتخافون] الآيات .

* وختمت السورة الكريمة بالثناء على الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه الأطهار الأخيار ، وبينت فضلهم ، ورفعت قدرهم ، وقد أكرمهم الله عز وجل بالرضى عنهم ، وإدخالهم جنان الخلد والنعيم ، تكريما لجهادهم وصبرهم [محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم . .] الآية .

التسمية :

سميت سورة الفتح لأن الله تعالى بشر فيها المؤمنين بالفتح المبين [إنا فتحنا لك فتحا مبينا . . الآيات .

فضلها :

نزلت السورة الكريمة على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعد مرجعه من الحديبية ، ولما نزلت هذه السورة قال صلوات الله عليه : لقد أنزلت علي الليلة سورة هي أحب إلى من الدنيا وما فيها [إنا فتحنا لك فتحا مبينا] أخرجه الإمام أحمد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 216.217 ﴾

(35/711)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الفتح

أصل الفتح : إزالة الأغلاق ، وفتح البلد : دخله عنوة أو صلحا ، والمراد بالفتح هنا صلح الحديبية (والحديبية بئر) على المشهور ، وهو المروي عن ابن عباس وأنس والشعبي والزهري ، وسمى هذا فتحا لأنه كان سببا لفتح مكة ، قال الزهري : لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية ، اختلط المشركون بالمسلمين وسمعوا كلامهم فتمكن الإسلام من قلوبهم وأسلم فى ثلاث سنين خلق كثير كثر بهم سواد الإسلام ، فما مضت تلك السنون إلا والمسلمون قد جاءوا إلى مكة فى عشرة آلاف ففتحوها والخلاصة – إنه كان من نتائج هذا الصلح الأمور الآتية :

(1) تمّ فى هذا الصلح ما يسمونه فى العصر الحديث (جسّ النبض) لمعرفة قوة العدو ومقدار كفايته وإلى أىّ حد هى .

(2) معرفة صادقى الإيمان من المنافقين كما علم ذلك من المخلفين فيما يأتى .

(3) إن اختلاط المسلمين بالمشركين حبب الإسلام إلى قلوب كثير منهم فدخلوا فى دين الله أفواجا .

مبينا : أي بيّنا ظاهر الأمر مكشوف الحال .

أنزل السكينة : أي خلقها وأوجدها ، قال الراغب : إنزال اللّه تعالى نعمته على عبد : إعطاؤه إياها ، إما بإنزال الشيء نفسه كإنزال القرآن ، أو بإنزال أسبابه بالهداية إليه كإنزال الحديد ونحوه اه . والسكينة : الطمأنينة والثبات من السكون ، إيمانا مع إيمانهم :

(36/711)

أي يقينا مع يقينهم ، جنود السموات والأرض : أي الأسباب السماوية والأرضية ، ويكفر عنهم سيئاتهم : أي يغطيها ولا يظهرها ، والسوء : (بالضم والفتح) : المساءة ، وظن السوء : أي ظن الأمر السوء فيقولون فى أنفسهم : لا ينصر اللّه رسوله والمؤمنين ، عليهم دائرة السوء . الدائرة فى الأصل الحادثة التي تحيط بمن وقعت عليه ، وكثر استعمالها فى المكروه ، والسوء : العذاب والهزيمة والشر (وهو بالضم والفتح لغتان) وقال سيبويه : السوء هنا الفساد ، أي عليهم ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين لا يتخطاهم ، لعنهم : أي طردهم طردا نزلوا به إلى الحضيض ، عزيزا : أي يغلب ولا يغلب .

شاهدا : أي على أمتك لقوله تعالى : "لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ" ومبشرا : أي بالثواب على الطاعة ، ونذيرا : أي بالعذاب على المعصية ، وتعزروه :

أي تنصروه ، وتوقروه : أي تعظموه ، بكرة : أي أول النهار ، وأصيلا : أي آخر النهار ،

والمراد جميع النهار ، إذ من سنن العرب أن يذكروا طرفى الشيء ويريدوا جميعه ، كما يقال شرقا وغربا لجميع الدنيا ، يبايعونك : أي يوم الحديبية إذ بايعوه على الموت فى نصرته والذبّ عنه كما روى عن سلمة بن الأكوع وغيره ، أو على ألا يفروا من قريش كما روى عن ابن عمر وجابر ، إنما يبايعون اللّه ، لأن المقصود من بيعة الرسول وطاعته طاعة اللّه وامتثال أوامره ، يد اللّه فوق أيديهم : أي نصرته إياهم أعلى وأقوى من نصرتهم إياه ، كما يقال اليد لفلان : أي الغلبة والنصرة له ، نكث : أي نقض ، يقال أوفى بالعهد ووفى به : إذا أتمه ، وقرأ الجمهور (عليه) بكسر الهاء ، وضمها حفص ، لأنها هاء هو وهى مضمومة فاستصحب ذلك كما فى له وضربه .

(37/711)

المخلفون : واحدهم مخلّف ، وهو المتروك فى المكان خلف الخارجين منه ، يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم : أي إن كلامهم من طرف اللسان غير مطابق لما فى القلب فهو كذب صراح ، والملك : إمساك بقوة وضبط تقول ملكت الشيء إذا دخل تحت ضبطك دخولا تاما ، ومنه لا أملك رأس بعيري : إذا لم تستطع إمساكه إمساكا تاما ، والمراد بالضر : ما يضر من هلاك الأهل والمال وضياعهما ، وبالنفع : ما ينفع من حفظ المال والأهل ،

ينقلب : أي يرجع ، إلى أهليهم : أي عشائرهم وذوى قرباهم ، بورا :

أي هالكين لفساد عقائدكم وسوء نياتكم ، سعيرا : أي نارا مسعورة موقدة ملتهبة .

المراد بالمغانم : مغانم خيبر ، فإنه عليه الصلاة والسلام رجع من الحديبية فى ذى الحجة من سنة خمس وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل المحرم ، ثم غزا خيبر بمن شهد الحديبية ففتحها وغنم أموالا كثيرة خصهم بها والمراد بتبديل كلام اللّه الشركة فى المغانم دون أن ينصروا دين اللّه ويعلوا كلمته ، يفقهون : أي يفهمون والمراد بالفهم القليل فهمهم لأمور الدنيا دون أمور الدين .

قال الزهري ومقاتل وجماعة : المراد بالقوم أولى البأس الشديد بنو حنيفه أصحاب مسيلمة الكذاب ، وقال قتادة : هم هوازن وغطفان ، وقال ابن عباس ومجاهد : هم أهل فارس ، وقال الحسن : هم فارس والروم ، قال ابن جرير : إنه لم يقم دليل من نقل ولا من عقل على تعيين هؤلاء القوم ، فلندع الأمر على إجماله دون حاجة إلى التعيين اه .

والبأس : النجدة وشدة المراس فى القتال ، والحرج : الإثم والذنب .

الرضا : ما يقابل السخط ، يقال رضى عنه ورضى به ورضيته ، والمراد بالمؤمنين أهل الحديبية ، ورضاه عنهم لمبايعتهم رسوله صلّى اللّه عليه وسلم ، والشجرة : سمرة (شجرة طلح – وهى المعروفة الآن بالسنط) بايع المؤمنون تحت ظلها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ما فى قلوبهم : أي من الصدق والإخلاص فى المبايعة ، والسكينة :

الطمأنينة والأمن وسكون النفس ، فتحا قريبا : هو فتح خيبر عقب انصرافهم من الحديبية كما علمت ، مغانم كثيرة : هى مغانم خيبر ، وكانت خيبر أرضا ذات عقار وأموال قسمها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بين المقاتلة فأعطى الفارس سهمين والراجل سهما ، عزيزا : أي غالبا ، حكيما : أي يفعل على مقتضى الحكمة فى تدبير خلقه .

المغانم الكثيرة : ما وعد به المؤمنون إلى يوم القيامة ، فعجل لكم هذه : أي مغانم خيبر ، أيدى الناس : أي أيدى اليهود عن المدينة بعد خروج الرسول منها إلى الحديبية ، آية : أي أمارة للمؤمنين يعرفون بها : (1) صدق الرسول صلّى اللّه عليه وسلم .

(2) حياطة اللّه لرسوله وللمؤمنين وحراسته لهم فى مشهدهم ومغيبهم . (3) معرفة المؤمنين الذين سيأتون بعد أن كلاءته تعالى ستعمهم أيضا ماداموا على الجادّة ، الصراط المستقيم : هو الثقة بفضل اللّه والتوكل عليه فيما تأتون وما تذرون ، وأخرى : أي مغانم أخرى هى مغانم فارس والروم ، أحاط اللّه بها : أي أعدها لكم وهى تحت قبضته يظهر عليها من أراد ، لولّوا الأدبار : أي لانهزموا ، والولىّ الحارس الحامى ، والنصير : المعين والمساعد ، سنة اللّه : أي سنّ سبحانه غلبة أنبيائه سنة قديمة فيمن مضى من الأمم كما

قال : " لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي " أيديهم عنكم : أي أيدى كفار مكة ، وأيديكم عنهم ببطن مكة ، يعنى بالحديبية ، أظفركم عليهم : أي على كلمته وجعلكم ذوى غلبة عليهم ، فإن عكرمة بن أبى جهل خرج فى خمسمائة إلى الحديبية فبعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم خالد بن الوليد على جند فهزمهم حتى أدخلهم حيطان مكة ثم عاد .

الهدى : ما يقدّم قربانا للّه حين أداء مناسك الحج أو العمرة ، معكوفا : أي محبوسا تقول عكفت الرجل عن حاجته : إذا حبسته عنها ، محله : أي المكان الذي يسوغ فيه نحره وهو منى ، والوطء : الدوس ، والمراد به الإهلاك ،

وفى الحديث " اللهم اشدد وطأتك على مضر " ،

(39/711)

والمعرة : المكروه والمشقة ، من عرّه إذا عراه ودهاه بما يكره والتنزيل : التفرق والتميز ، والحميّة : الأنفة ، يقال حميت من كذا حميّة إذا أنفت منه وداخلك منه عار ، والمراد بها ثوران القوة الغضبية ، وحمية الجاهلية : حمية فى غير

موضعها لا يؤيدها دليل ولا برهان ، وكلمة التقوى هى : لا إله إلا اللّه ، وأهلها : أي المستأهلين .

الرؤيا : هى رؤيا منام وحلم ، وصدق اللّه رسوله الرؤيا : أي صدقه فى رؤياه ولم يكذبه ، محلقين رءوسكم ومقصرين : أي يحلق بعضكم ويقصّر بعض آخر بإزالة بعض الشعر ، ليظهره على الدين كله : أي ليعليه على سائر الأديان حقها وباطلها ، وأصل الإظهار جعل الشيء باديا ظاهرا للرائى ثم شاع استعماله فى الإعلاء .

أشداء : واحدهم شديد ، رحماء : واحدهم رحيم ، فضلا : أي ثوابا ، والسيماء والسيمياء من السومة (بالضم) وهى العلامة قال :

غلام رماه اللّه بالحسن يافعا له سيمياء لا تشق على البصر

مثلهم : أي وصفهم العجيب الجاري مجرى الأمثال فى الغرابة ، والشطء : فروخ الزرع ، وهو ما خرج منه وتفرع فى شاطئيه : أي جانبيه وجمعه أشطاء ، وشطأ الزرع وأشطأ : إذا أخرج فراخه ، وهو فى الحنطة والشعير والنخل وغيرها ، وآزره : أعانه وقوّاه وأصله من المؤازة وهى المعاونة ، واستوى على سوقه : أي استقام على قصبه وأصوله ، والسوق ، واحدها ساق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 26 صـ 80.114 ﴾ .

باختصار .

(40/711)

وقال الإمام أبو جعفر النحاس :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الفتح

وهي مدنية

في رواية مجاهد عن ابن عباس وروى الزهري عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان قالا نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة كلها في شأن الحديبية

1 - من ذلك قوله جل وعز (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) (آية 1) روى قتادة عن أنس قال نزلت (إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) بعد رجوع النبي صلى الله عليه وسلم من الحديبية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد نزلت علي آية أحب إلي من جميع الدنيا ثم تلاها فقال رجل من المسلمين هنيئًا مريئًا هذا لك يا رسول الله فماذا لنا فأنزل الله جل وعز

(ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنت تجري من تحتها الأنهار) إلى آخر الآية قال مجاهد في قوله تعالى (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) قال قضينا لك قضاء بينا قال سفيان (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك) أي ما كان في الجاهلية (وما تأخر) قال ما كان في الإسلام مما لم تعمله بعد قال أبو جعفر في قوله جل وعز (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) ثلاثة أقوال: متقاربة أ: منها ما تقدم أنه فتح الحديبية والحديبية بئر سمي المكان باسمها قال أبو جعفر ولا أعرف أحدا من

أهل اللغة يشدد الياء منها وكان في فتحها أعظم الآيات لأن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روي ورد على هذه البئر وقد نزف ماؤها فتمضمض صلى الله عليه وسلم وتفل فيها فأقبل الماء حتى شرب كل من كان معه ولم يكن بينهم إلا ترام حتى كان الفتح هذا قول

ب - وقيل المعنى (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) باجتناب الكبائر (ليغفر لك الله) الصغائر ج - وقيل (إنا فتحنا لك فتحا) بالهداية إلى الإسلام فهذه الأقوال متقاربة وقول مجاهد يجمعها لأن فتح الحديبية

(41/711)

قضاء من قضاء الله وهداية من هدايته يهدي بها من شاء وكذلك اجتناب الكبائر وقد روي عن ابن عباس ما يقويه قال ما كنت أدري ما معنى (إنا فتحنا) حتى قالت لي ابنة مشرح فتح الله بيني وبينك وقوله تعالى (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق)

2 - وقد تكلم العلماء في قوله تعالى (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) (آية 2) فقال أبو حاتم المعنى ليغفرن لك الله وقال أبو الحسن بن كيسان لا يجوز أن تكون إلا (لام كي) قال قال الله جل وعز (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) فأمر الله أن يستغفره إذا كان الفتح

ووعده بالمغفرة فكان قوله (إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله) متعلقا بذاك وقيل (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) مما

كان أي مما كان مقدما ومؤخرا وقد وقع ذلك كله وقيل (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) كله للمستقبل أي لتقع المغفرة في الاستقبال فيما يكون من الذنوب أولا وآخرا

3 - ثم قال جل وعز (ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك الله نصرا عزيزا) (آية 2 ، 3) أي نصرا ذا عز لا ذل معه 4 - ثم قال جل وعز (هو الذي انزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم) (آية 4)

(السكينة) اي السكون والطمأنينة 5 - وقوله جل وعز (ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما) (آية 4) أي كل ما فيها يدل على أن له خالقا وأنه واحد 6 - ثم قال جل وعز (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار) (آية 5) أي فتح لك بالإسلام والهداية بهذا ويدل عليه أيضا قوله سبحانه (ويعذب المنافقين

(42/711)

والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء) (آية 6) لأنهم ظنوا أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يرجع (عليهم دائرة السوء) أي الهلاك ويقرأ السوء والفرق بينهما أن

السوء الشئ بعينه والسوء الفعل 7 – وقوله جل وعز (إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) (آية 8)

قال قتادة أي شاهدا على أمتك (ومبشرا) المحسن منهم (ونذيرا) المسئ قال أبو جعفر هذا قول حسن وهذه حال مقدرة

حكى سيبويه مررت برجل معه صقر صائدا به غدا فالمعنى إنا أرسلناك مقدرين لشهادتك عبد يوم القيامة وعلى هذا تقول رايت عمروا قائما غدا 8 – وقوله جل وعز (لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة واصيلا) (آية 9) روى شعبة عن أبى بشر عن عكرمة في قوله تعالى (وتعزروه) قال وتقاتلوا معه بالسيف قال قتادة وتنصروه وقرأ جويبر اي وتفخموه وقرأ عاصم الجحدري (وتعزروه) وأصله في اللغة من التبجيل والتطهير ومنه التعزير الذي هو دون الحد

وقرا محمد اليماني (وتعززوه) بزاءين معجمتين يقال عززه أي جعله عزيزا وقواه ومنه قوله تعالى (فعززنا بثالث) ويجوز أن يكون (وتعزروه وتوقروه) لله جل وعز وحده ويجوز أن يكون للنبي صلى الله عليه وسلم 9 – فأما قوله تعالى (وتسبحوه بكرة وأصيلا) (آية 9) فلا يجوز أن تكون إلا لله جل وعز لأنه ليس يخلو من أن يكون معناه كما قال جويبر وتصلوا له أو يكون معناه وتعظموه وتنزهوه

10 – وقوله جل وعز (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) (آية 10) أي عقدك عليهم

البيعة عقد لله جل وعز 11 - ثم قال جل وعز (يد الله فوق أيديهم) (آية 10) أي يد الله في الثواب وقيل في الوفاء وقيل في المنة عليهم بالهداية

(43/711)

(فوق أيديهم) في الطاعة (فمن نكث فإنما ينكث على نفسه) يقال نكث إذا نقض ما اعتقده 12 - وقوله جل وعز (سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا) (آية 11) قال مجاهد هم أعراب المدينة وجهينة ومزينة ثم قال تعالى (شغلتنا أموالنا وأهلونا) أي ليس لنا من يحفظ أموالنا ويقوم بأهالينا 13 - وقوله جل وعز (سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم) (آية 15)

قال مجاهد دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى الخروج إلى مكة فأبوا وقالوا كيف نخرج معه إلى قوم جاءوا إليه فقتلوا أصحابه فلما خرج النبي صلى الله عليه وسلم وأخذ قوما على غفلة ووجه بهم قالوا (ذرونا

نتبعكم) 14 - ثم قال جل وعز (يريدون أن يبدلوا كلام الله) (آية 15) وهو على قول ابن زيد قوله جل وعز (فقل لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا) 15 - وقوله جل وعز (قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون)

(آية 16) روى سفيان عن شعبة عن جعفر بن إياس عن سعيد بن جبير قال سفيان أراه عن ابن عباس (ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد) قال هوازن

وقال عطاء هم فارس وقال الحسن فارس الروم ومن أصح ما قيل فيه انهم بنو حنيفة الذين قوتلوا في الردة وكان هذا مما يدل على صحة خلافة أبي بكر رضي الله عنه من القرآن ويدلك على ذلك قوله تعالى (تقاتلونهم أو يسلمون) فليس هذا ممن تؤخذ منهم الجزية

16 - وقوله جل وعز (وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما) (آية 16) أي كما توليتم مع النبي صلى الله عليه وسلم 17 - قال عثمان بن المغيرة سألت الحسن عن قوله تعالى (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج) (آية 17) فقال هذا في الجهاد 18 - وقوله جل وعز (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) (آية 18) قال جويبر بايعوا على أن لا يفروا

وقال قتادة كانوا ألفا وأربعمائة وكانت الشجرة سمرة 19 - وقوله جل وعز (فعلم ما في قلوبهم فانزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا) (آية 18) (فعلم ما في قلوبهم) من الإخلاص (فأنزل السكينة عليهم) قال قتادة الصبر والوقار (وأثابهم فتحا قريبا) قال ابن

أبي ليلى خيبر 20 – وقوله جل وعز (وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم) (آية 20) قوله (فعجل لكم هذه) قال مجاهد يعني خيبر ثم قال تعالى (وكف أيدي الناس عنكم) لأنهم خلفوا عيالاتهم فزعين عليهم فمنع الله منهم وكف أيدي الناس

عنهم 21 – وقوله جل وعز (وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شئ قديرا) (آية 21) روى شعبة عن سماك الحنفي قال سمعت ابن عباس يقول في قوله تعالى (وأخرى لم تقدروا عليها) هي الفتوح التي فتحت لكم وقال ابن أبي ليلى هي فارس والروم وقال مجاهد هو ما يكون بعد إلى يوم القيامة وقال قتادة هو فتح مكة

22 – ثم قال جل وعز (ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا) (آية 22) قال قتادة كفار قريش قال أبو جعفر ولو قاتلكم من لم يقاتلكم منهم لانهزموا لأن في سنة الله نصر أوليائه قال قتادة يعني في قوله عز وجل (ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا) ولا يجدون لهم وليا ولا نصيرا من الله جل وعز 23 – وقوله جل وعز (وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم) (آية 24)

كف أيدي المشركين عمن خلفه المؤمنون حين خرجوا إلى الحديبية

قال قتادة في قوله تعالى (وكف أيديكم عنهم) تطلع رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقال له زنيم فرماه المشركون بسهم فقتلوه فبعث النبي صلى الله عليه وسلم خيلا

فأخذوا اثني عشر فارسا فأتوا بهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال لهم الكم عهد أو ذمة قالوا لا فأطلقهم فأنزل الله تعالى (وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة) قال قتادة يعني الحديبية

(45/711)

---

24 - وقوله جل وعز (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفا أن يبلغ محله) (آية 25) قال قتادة (والهدي معكوفا) محبوسا 25 - وقوله جل وعز (أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء) (آية 25) (أن تطئوهم) أي تقتلوهم (فتصيبكم منهم معرة) أي عيب يقول المشركون قتلوا أهل دينهم ولو فعلتم لأدخلهم الله في رحمته

26 - وقوله جل وعز (لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما) (آية 25) قال مجاهد (لعذبنا الذين كفروا) بالسباء والقتل 27 - وقوله جل وعز (وألزمهم كلمة التقوى) (آية 26)

قال علي بن أبي طالب وابن عمر وأبو هريرة (كلمة التقوى) لا إله إلا الله 28 - ثم قال تعالى (وكانوا أحق بها وأهلها) (آية 26) أي أن الله اختارهم لدينه 29 - وقوله جل وعز (لقد

صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إنشاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون) (آية 27) قال مجاهد راى النبي صلى الله عليه وسلم كأنه قد دخل مكة هو وأصحابه

محلقين وقال قتادة هي رؤيا رآها النبي صلى الله عليه وسلم بالحديبية كأنهم دخلوا مكة محلقين رؤوسهم ومقصرين فاستبطأوا الرؤيا ثم دخلوا بعد ذلك فأما قوله تعالى (إن شاء الله) ففيه اقوال: أ – منها إن المعنى إن شئت دخلتم آمنين ب – وقيل هو حكاية لما قيل للنبي صلى الله عليه وسلم ج – وقيل خوطب العباد على ما يجب أن يقولوه كما قال تعالى (ولا تقولن لشئ إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله) د – وقيل الاستثناء لمن مات منهم أو قتل

30 – وقوله جل وعز (فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا) (آية 27)

(46/711)

قال مجاهد رجعوا من الحديبية ثم فتح الله عليهم خيبر 31 – وقوله جل وعز (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من اثر السجود) (آية 29) قال سعيد بن جبير ذلك

اثر الطهور وثرى الأرض وقال عكرمة هو أثر التراب

قال ابن وهب أخبرني مالك في قوله تعالى (سيماهم في وجوههم) قال هو ما يتعلق بالجهة من تراب الأرض فهذا قول وقال مجاهد إنما هو الخشوع والتواضع وليس للمنافق هذا وقال الحسن بياض يكون في الوجه يوم القيامة وقال عطية موضع الجبهة يوم القيامة اشد بياضا من سائر الوجه وقال الضحاك هذا يوم القيامة تبدو صلاتهم على

وجوههم وقال شمر بن عطية هو تهيج الوجه وصفرته من سهر الليل وقال قتادة نعتوا بالصلاة اي يعرفون بالصلاة

32 – ثم قال جل وعز (ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه) (آية 29) روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (مثلهم) يعني نعتهم (في التوراة والإنجيل) أي مكتوب فيهما وقال قتادة فيما تقدم مثلهم في التوراة ولهم مثل آخر في الإنجيل وهو (كزرع أخرج شطأه) قال الضحاك هما مثلان فالأول في التوراة والثاني في الإنجيل وقال مجاهد هما مثل واحد والتمام على قول مجاهد (في الإنجيل)

33 – ثم قال جل وعز (كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه) (آية 29) (كزرع) أي هم كزرع (اخرج شطأه) روى حميد عن أنس قال نباته فروخه قال أبو عبيدة يقال أشطأ الزرع إذا خرجت فراخه قال الفراء الحبة تخرج العشر والسبع والثماني

من السنبل

ثم قال تعالى (فآزره) قال مجاهد أي شدده وأعانه

(47/711)

ثم قال تعالى (فآزره) قال مجاهد أي شدده وأعانه وقال الضحاك هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا قليلا فكثروا وضعفاء فقووا 34 - ثم قال جل وعز (فاستغلظ فاستوى على سوقه) (آية 29) جمع ساق (يعجب الزراع) تمثيل (ليغيظ بهم الكفار) قال قتادة أي ليغيظ محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكفار

35 - ثم قال جل وعز (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما) (آية 29) يجوز ان تكون من ههنا لبيان الجنس كما قال تعالى (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) ويجوز أن تكون للتبعيض أي وعد الله الذين ثبتوا على الإيمان منهم مغفرا وأجرا عظيما

آخر السورة

والحمد لله وحده

وصلى الله على سيدنا محمد رسوله وعلى آله وصحبه وسلم

انتهت سورة الفتح (1)

تم الكتاب بعون الله وتوفيقه

في البلد الحرام " مكة المكرمة " عام 1409 ه من هجرة خير الأنام . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ معاني القرآن / للنحاس حـ 6 صـ 491.518 ﴾

---

(1) هذه آخر سورة وجدت في مخطوط هذا الكتاب النفيس رحم الله مؤلفه وأسكنه الفردوس الأعلى من الجنة ، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

(48/711)

وقال الفراء :

سورة (الفتح)

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾

قوله: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً . . . ﴾ .

كان فتح وفيه قتال [قليل] مراماة بالحجارة ، فالفتح قد يكون صلحا ، ويكون أخذ الشيء عنوة ، ويكون القتال إنما [/ا] أريد به يوم الحديبية .

﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّآنِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ

دَآئِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيراً ﴾

وقوله: ﴿ دَآئِرَةُ السَّوْءِ . . . ﴾ .

مثل قولك: رجل السَّوء ، ودائرة السوء: العذاب ، والسَّوء أفشى في اللغة وأكثر ، وقلما تقول العرب: دائرة السُّوء .

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * لِّتُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾

وقوله: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً . . . ﴾ ثم قال: ﴿ لِّتُؤْمِنُواْ . . . ﴾ .

ومعناه: ليؤمن بك من آمن ، ولو قيل: ليؤمنوا ؛ لأن المؤمن غير المخاطَب ، فيكون المعنى: إنا أرسلناك ليؤمنوا بك ، والمعنى فى الأول يراد به مثل هذا ، وإن كان كالمخاطب ؛ لأنك تقول للقوم: قد فعلتم وليسوا بفاعلين كلهم ، أى فعلَ بعضكم ، فهذا دليل على ذلك .

وقوله: ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ . . . ﴾ .

تنصروه بالسيف كذلك ذكره عن الكلبى .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾

وقوله: ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ . . . ﴾ بالوفاء والعهد .

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾

وقوله: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ . . . ﴾ .

الذين تخلفوا عن الحديبية: شغلتنا أموالنا وأهلونا ، وهم أعراب: أسلم ، وجهينة ، ومزينة ، وغِفَار ـ ظنوا أن لن ينقلب رسول الله صلى الله عليه ، فتخلفوا .

وقوله: ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً . . . ﴾ .

ضم يحيى بن وثاب وحده الضاد ، ونصبها عاصم ، وأهل المدينة والحسن "ضَرَاً" .

﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً ﴾

وقوله: ﴿ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً . . . ﴾ وفى قراءة عبد الله: "إلى أهلهم" بغير ياء ، والأهل جمع وواحد .

وقوله: ﴿ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً . . . ﴾ .

[حدثنا محمد قال]: حدثنا الفراء قال: حدثنى حِبان عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: البُور في لغة أَزْدعُمانَ: الفاسد ، وكنتم قوما بورا ، قوما فاسدين ، والبور في

كلام العرب: لاشيء يقال: أصبَحتْ أعمالهم بورا ، ومساكنهم قبورا .

﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَالِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(50/711)

وقوله عز وجل: ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا . . . ﴾ .

يعنى خيبر ؛ لأن الله فتحها على رسوله من فوره من الحديبية ، فقالوا ذلك لرسول الله: ذرنا نتبعك ، قال: نعم على ألاّ يُسْهَم لكم ، فإن خرجتم على ذا فاخرجوا فقالوا للمسلمين: ما هذا لكم ما فعلتموه بنا إلا حسدا ؟ قال المسلمون: كذلكم قال الله لنا من قبل أن تقولوا .

وقوله: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ . . . ﴾ .

قرأها يحيى (كَلِم) وحده ، والقراء بعدُ (كلام الله) بألف ، والكلام مصدرٌ ، والكلمُ جمع الكلمة والمعنى في قوله: "يريدُونَ أن يبدلوا كلم الله": طمعوا أن يأذن لهم فيبدّل كلام الله ، ثم قيل: إن كنتم إنما ترغبون فى الغزو والجهاد لا فى الغنائم ، فستدعون غدا إلى أهل اليمامة إلى قوم أولى بأس شديد ـ بنى حنيفة أتباع مسيلمة ـ هذا من تفسير الكلبى .

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ اللّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾

وقوله: ﴿ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ . . . ﴾ .

وفى إحدى القراءتين: أو يُسْلِموا . والمعنى: تقاتلونهم أبداً حتى يسلموا ، وإلاّ أن يسلموا تقاتلونهم ، أو يكون [/ب] منهم الإسلام .

﴿ لَّيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً ﴾

وقوله: ﴿ لَّيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ . . . ﴾ فى ترك الغزو إلى آخر الآية .

(51/711)

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ﴾

وقوله: ﴿ تَحْتَ الشَّجَرَةِ . . . ﴾ كانت سَمُرَةً .

وقوله: ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ . . . ﴾ .

كان النبى صلى الله عليه أُرِىَ فى منامه أنه يدخل مكة ، فلما لم يتهيأ له ذلك ، وصالح أهل

مكة على أن يخلوها له ثلاثا من العام المقبل دخل المسلمين أمر عظيم ، فقال لهم النبى صلى الله عليه: إنما كانت رؤيا أُريتُها ، ولم تكون وحيا من السماء ، فعَلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم . والسكينة: الطمأنينة والوقار إلى ما أخبرهم به النبى صلى الله عليه: أنها إلى العام المقبل ، وذلك قوله: ﴿ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَموا ﴾ من خير تأويل الرؤيا .

﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَاذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾

وقوله: ﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا . . . ﴾ مما يكون بعد اليوم فعجل لكم هذه: خيبر .

وقوله: ﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ . . . ﴾ .

كانت أسد وغطفان مع أهل خيبر على رسول الله صلى الله عليه ، فقصدهم النبى صلى الله عليه ، فصالحوه ، فكفوا ، وخلّوا بينه وبين أهل خيبر ، فذلك قوله: ﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ ﴾ .

﴿ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ﴾

وقوله: ﴿ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا . . . ﴾ .

فارس. قد أحاط الله بها ، أحاط لكم بها أن يفتحها لكم .

وقوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم . . . ﴾ .

هذا لأهل الحديبية، لا لأهل خيبر.

وقوله: ﴿ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً . . . ﴾ محبوسا.

(52/711)

وقوله: ﴿ أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ . . . ﴾ مَنْحَره، أي: صدوا الهدى.

وقوله: ﴿ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَاتٌ . . . ﴾.

كان مسلمون بمكة، فقال: لولا أن تقتلوهم، وأنتم لا تعرفونهم فتصيبكم منهم معرة، يريد: الدية، ثم قال الله جل وعز: ﴿ لَوْ تَزَيَّلُواْ ﴾ لو تميّز وخلَص الكفار من المؤمنين، لأنزل الله بهم القتل والعذاب.

﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُواْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾

وقوله: ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ . . . ﴾.

حموا أنفا أن يَدخلها عليهم رسول الله صلى الله عليه، فأنزل الله سكينته يقول: أذهب الله عن المؤمنين أن يَدخلهم ما دخل أولئك من الحمية، فيعصوا الله ورسوله.

وقوله: ﴿ كَلِمَةَ التَّقْوَى . . . ﴾ لا إله إلا الله.

وقوله: ﴿ وَكَانُواْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا . . . ﴾ .

ورأيتها في مصحف الحارث بن سويد التيمى من أصحاب عبد الله ، "وكانوا أهلها وأحق بها" وهو تقديم وتأخير ، وكان مصحفه دفن أيام الحجاج.

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَآءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾

وقوله: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ [/ا] الْحَرَامَ إِن شَآءَ اللَّهُ آمِنِينَ . . . ﴾ .

وفى قراءة عبد الله: لا تخافون مكان آمنين ، "مُحلّقين رءوسكم ومُقَصّرِينَ" ، ولو قيل: محلقون ومقصرون أى بعضكم محلقون وبعضكم مقصرون لكان صوابا [كما] قال الشاعر:

* وغودر البقل ملوى ومحصود *

(53/711)

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾

وقوله: ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ . . . ﴾ .

يقال: لا تذهب الدنيا حتى يَغلب الإسلام على أهل كل دين ، أو يؤدوا إليهم الجزية ، فذلك

قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ .

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾

وقوله: ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً . . . ﴾ . فى الصلاة .

وقوله: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ . . . ﴾ . وهى الصفرة من السهر بالليل .

وقوله: ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ . . . ﴾ .

وفى الإنجيل: أيضاً كمثلهم فى القرآن ، ويقال: ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل ، كزرع أخرج شطأه ، وشطؤه: السنبل تُنبت الحبة عشراً وثمانياً وسبعاً ، فيقوى بعضه ببعض ، فذلك قوله: (فآزره) فأعانه وقواه ؛ فاستغلظ [ذلك] فاستوى ، ولو كانت واحدة لم تقم على ساق ، وهو مَثَل ضربه الله عز وجل للنبى صلى الله عليه إذ خرج وحده ثم قوّاه بأصحابه ، كما قوّى الحبة بما نبت منها .

آزرت ، أُؤازره ، مؤازرة: قوّيته ، وعاونته ، وهى المؤازرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 64.69 ﴾

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة الفتح

(إنا فتحنا) [1] صلح الحديبية ، وعده الله فتح مكة عند انكفائه منها . وقال ابن بحر : هو فتح المشكلات عليه في الدين ، كقوله: (وعنده مفاتح الغيب) . (ليغفر لك الله) [2] ليس الفتح [كان] ليغفر له ، بل لينصره نصراً عزيزاً ، ولكنه لما عد عليه هذه النعمة وصله بما هو أعظم النعم .

(ما تقدم من ذنبك) ما كان قبل الفتح . وقيل: قبل البعثة . وقيل: ما تقدم قبل نزول هذه الآية ، (وما تأخر) بعدها . وقيل: إن المراد بما تأخر: ذنوب أمته ، كما تقول: وهبت لك هذه جرائم ، وهي جرائم عشيرته . (أنزل السكينة) [4] قيل: هي الثقة بوعد الله ، والصبر على أمر الله . (ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) يقيناً مع يقينهم . وقيل: عملاً مع تصديقهم . (ولله جنود السموات والأرض) [7]

أي: لو شاء نصركم بها عاجلاً ، ودمر على من منعكم الحرم ، لكنه أنزل السكينة عليكم ، ليكون ظهور كلمته بجهادكم ، وثوابه لكم . (وتسبحوه) [9] تنزهوه من كل ذم وعيب . وقيل: تصلوا عليه . وقيل: توقروا الرسول وتسبحوا الله . (إنما يبايعون الله) [10] هذه بيعة الرضوان بالحديبية ، بايعوه على أن ينصروه ولا يفروا ، وسميت بيعة ، لقوله: (إن الله

اشترى من المؤمنين) ، ولأنها في التواجب كالبيع . (يد الله) أي: في الثواب ، (فوق أيديهم) في النصر .

(سيقول لك المخلفون من الأعراب) [11] لما أراد النبي عليه السلام المسير إلى مكة عام الحديبية ، استنفر من حول المدينة من الأعراب احتراساً /من قريش . (ستدعون إلى قوم) [16] يدعوكم المؤمنون بعد النبي . (أولي بأس شديد) الروم وفارس عن الحسن ، وبنو حنيفة مع مسيلمة عن الزهري .

(55/711)

(لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) [18] كان المبايعون يومئذ ألفاً وأربعمائة رجل . وهم المهاجرون مطلقاً . وطبقة أخرى المهاجرون منهم إلى الحبشة . وطبقة أخرى منهم الذين بايعوا عند العقبة الأولى ، يقال للواحد عقبي . وأخرى المهاجرون الذين وصلوا إلى النبي عليه السلام ، وهو بقباء قبل أن يدخل المدينة ، وهم المهاجرون الأولون . وأخرى المهاجرون منهم بين بدر والحديبية . وأخرى المهاجرون بين الحديبية والفتح . فذلكم خمس طبقات بعد الأولى ، أي: المهاجرين مطلقاً .

والشجرة التي بايعوا تحتها سمرة ، ولذلك قال العباس يوم حنين: يا أهل السمرة . (وأثابهم

فتحاً قريباً) [18] هو فتح خيبر. ويقال: فتح مكة. (وأخرى لم تقدروا عليها) [21] فارس والروم.

(قد أحاط الله بها) قدر عليها. (ولن تجد لسنة الله تبديلا) [23] في نصرة كل نبي يأمره بالقتال. (والهدي معكوفاً) [25] مجموعاً موقوفاً، عكف بعضه على بعض.

(فتصيبكم منهم معرة) إثم. وقيل: شدة. (لو تزيلوا) تميزوا وتفرقوا حتى لا يختلط بمشركي مكة مسلم. (ولولا رجال مؤمنون) [25]

أي: ولولا [وطؤكم] رجالاً مؤمنين، ونساء مؤمنات (لعذبنا الذين كفروا) بالسيف.

(فأنزل الله سكينته) [26] لما طالبهم سهيل بن عمرو أن يكتبوا باسمك اللهم. (كلمة التقوى) سمعنا وأطعنا. (إن شاء الله ءامنين) [27] الاستثناء للتأديب على مقتضى [الدين]، أي: ليدخلنه بمشيئة الله. وقيل: إن الاستثناء في دخول جميعهم، [إذ] علم أن بعضهم يموت.

وقيل: إن/(لتدخلن) من قول رسول الله لأصحابه، حكاية عن رؤياه، فيكون الاستثناء في الرؤيا لا في خبر الله. وقال أبو عبيدة:- "إن" [بمعنى] "إذ"، أي: [إذ] شاء الله.

(والذين معه) [29] رفع [بـ]ـالابتداء، والواو واو الاستئناف. (سيماهم في وجوههم) صفرة السهر و[غضاضة] النظر.

وقال ابن عباس: نور الصلاة. وقال الحسن: السمت الحسن. (مثلهم) صفتهم. (شطئه) الشطأ والسفا والبهمى: شوك السنبل.

(56/711)

وقيل: فراخه [الذي] يخرج في جوانبه. وهو من شاطئ النهر جانبه، [وأشطأ] الزرع: أفرخ. وفي الشطأ لغات أخر: الشطأ: بفتح الطاء والهمز. والشطا: مقصوراً، والشط بلا همز ولا ألف. (فئازره) قواه وشد أزره، أي: شد فراخ الزرع أصوله. قال الأسود بن يعفر: 1097- ولقد غدوت [لعازب متناذر] أحوى المذانب مؤنق الرواد

1098- جادت [سواريه] وآزر نبته نفأ من الصفراء والزباد. (فاستغلظ) غلظ، أي: باجتماع الفراخ مع الأصول. (فاستوى على سوقه) جمع ساق، وهي قصبه الذي يقوم عليه، ويكون ساقاً له. (ليغيظ بهم الكفار) أهل مكة. وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين، إذ كانوا أقلاء فكثروا، وأذلاء فعزوا.

ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعد الحديبية عشرين يوماً ثم خرج إلى خيبر فنصره الله، وفتح عليه خيبر. والحديبية بوزن تريقية تصغير ترقوة، ولا يجوز غيره.

[تمت سورة الفتح]. انتهى انتهى. اهـ ﴿باهر البرهان صـ 1325. 1337﴾

وقال الأخفش :

سورة (الفتح)

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِّنْهُمْ مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾

قال ﴿ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً ﴾ على "وصدوا" ﴿ الهَدْيَ مَعْكُوفاً ﴾ كراهية ﴿ أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ .

وقال ﴿ أَن تَطَئُوهُمْ ﴾ على البدل "لولا رجال أن تطؤوهم" .

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾

وقال ﴿ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ ﴾ يريد "أَفْعَلَه" من "الإِزارَة" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 521 ﴾

(58/711)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الفتح «1»

مدنية كلها

1 - إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً «2» أي قضينا لك قضاء عظيما . ويقال :

للقاضي : الفتاح .

4 - هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ أي السكون والطمأنينة .

9 - وَتُعَزِّرُوهُ أي تعظموه . وفي تفسير أبي صالح : تنصروه .

12 - وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً أي هلكي .

---

(1) أخرج الحاكم وغيره عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قال : نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية من أولها إلى آخرها .

(2) أخرج البخاري عن قتادة عن أنس رضي الله عنه : إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ، قال :

الحديبية .

ورجح الإمام الطبري أن المراد بالفتح «صلح الحديبية» وهو ما اختاره أيضا ابن كثير لما ترتب عليه من الآثار العظيمة من بيعة الرضوان ومن الهدنة بينه وبين المشركين ومن دخول كثير من الناس في الإسلام وذهب بعض المفسرين إلى أنه فتح مكة لأنه هو الفتح الأكبر أن المعنى : سنفتح لك يا محمد فتحا مبينا بانتصارك على الكفار بفتح مكة .

وأخرج البخاري عن عبد اللّه بن مغفل قال : قرأ النبي صلّى اللّه عليه وسلّم يوم فتح مكة سورة الفتح فرجع فيها قال معاوية : لو شئت أن أحكي لكم قراءة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لفعلت .

(59/711)

قال ابن عباس : «البور - في لغة أزد عمان - : الفاسد» .

و«البور» - في كلام العرب - : لا شيء ، يقال : أصبحت أعمالهم بورا ، أي مبطلة .

وأصبحت ديارهم بورا ، أي معطلة خرابا .

17 - لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ أي إثم في ترك الغزو .

18 - و19 - وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً أي جازاهم بفتح قريب ، وَمَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها .

20 - وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ أي عن عيالكم ، ليكون كف ايدي الناس - أهل مكة - عن عيالهم ، آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ .

21 - وَأُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها : مكة .

25 - وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أي محبوسا . يقال : عكفته عن كذا ، إذا حبسته ، ومنه : «العاكف في المسجد» إنما هو : الذي حبس نفسه فيه . أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ أي منحره .

وَلَوْلا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِساءٌ مُؤْمِناتٌ ، مفسر في كتاب «التأويل» .

26 - وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى : قول «لا إله إلا اللّه» .

29 - ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ أي صفتهم .

ثم استأنف ، فقال : وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ : كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ .

قال أبو عبيدة : «شطء الزرع : فراخه وصغاره ، يقال : قد أشطأ الزرع فهو مشطىء ، إذا أفرخ» .

قال الفراء : «شطئه : السّنبل تنبت الحبة عشرا وسبعا وثمانيا» .

فَآزَرَهُ أي أعانه وقواه ، فَاسْتَغْلَظَ أي غلظ ، فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ : جمع «ساق» . [مثل دور ودار] . ومنه يقال : «قام كذا على سوقه

وعلى السوق» ، لا يراد به السوق : التي يباع فيها ويشتري . إنما يراد : انه قد تناهي وبلغ الغاية ، كما ان الزرع إذا قام على السوق . فقد استحكم .

وهذا مثل ضربه اللّه للنبي - صلّى اللّه عليه وسلّم - : : إذ خرج وحده ، فأيده بأصحابه ، كما قوّى الطاقة من الزرع بما نبت منها ، حتى كثرت وغلظت واستحكمت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 355 ـ 357 ﴾

(61/711)

وقال الغزنوى :

سورة الفتح

1 إِنَّا فَتَحْنا : صلح الحديبية « 1 » . «الحديبية» بوزن «تريقية» تصغير «ترقوة» .

---

(1) قال الزجاج في معاني القرآن : 5/ 19 : «وأكثر ما جاء في التفسير أنه فتح الحديبية» .

وقال البغوي في تفسيره : 4/ 188 : «الأكثرون على أنه صلح الحديبية» .

ويدل على هذا القول ما أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : 6/ 44 ، كتاب التفسير ، باب قوله تعالى : إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً عن أنس رضي اللّه عنه قال : «الحديبية» ، وأخرج البخاري أيضا في صحيحه : 5/ 62 ، كتاب المغازي ، باب «غزو الحديبية» عن البراء بن عازب رضي اللّه عنه قال : «تعدون أنتم الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحا ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية . . .» .

(62/711)

وعد اللّه فتح مكة عند اللفاية «1» منها ، وهي بئر وفيها تمضمض صلى اللّه عليه وسلم وقد غارت ففارت بالعذب للرواء ، وعندها «2» بويع بيعة الرضوان ، وأطعموا نخل خيبر ، وظهرت الرّوم على فارس «3» ، فيكون معنى «الفتح المبين» القضاء الفصل في مهادنة أهل مكة . وقيل «4» : هو فتح المشكلات عليه في الدين ، كقوله «5» : وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ فيكون معنى لِيَغْفِرَ لتهتدي أنت والمسلمون وعلى المعنى الظاهر لم يكن الفتح ليغفر له بل لينصره نصرا عزيزا ، ولكنه لما عدّ عليه هذه النعمة وصله بما هو أعظم النعم .

2 ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ : ما كان قبل الفتح ، أو قبل البعثة «6» .

وغفران/ الصّغيرة مع أنها مكفّرة : سترها سترا دائما ودفع الضّرر [89/أ] عليها «7» .

4 أَنْزَلَ السَّكِينَةَ : الثقة بوعد اللّه والصّبر على حكم اللّه «8» .

لِيَزْدادُوا إِيماناً : يقينا «9» .

وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ : أي : لو شاء نصركم بها عاجلا ودمّر على

---

(1) كذا في الأصل ، ولم أتبين معنى هذه الكلمة ، وفي «ك» و«ج» : الكفاية منها ، وفي وضح البرهان : 2/ 303 : عند انكفائه منها .

(2) في الأصل : «وعندهما» ، والمثبت في النص عن نسخة «ك» .

(3) ورد هذا المعنى في أثر أخرجه الطبري في تفسيره : 26/ 71 عن الشعبي .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 509 ، وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، والبيهقي في «البعث» .

وانظر معجزات هذه الغزوة في السيرة لابن هشام : 2/ 310 ، وفتح الباري : 7/ 507 .

(4) ذكر الماوردي نحو هذا القول في تفسيره : 4/ 56 ، ونقله المؤلف - رحمه اللّه - في وضح البرهان : 342 عن ابن بحر .

(5) سورة الأنعام : آية : 59 . [. . . . .]

(6) ينظر تفسير الماوردي : 4/ 57 ، وتفسير القرطبي : 16/ 263 .

(7) في «ك» : «وغفران الصغيرة على قول من يقول إنها تقع مكفرة . . . » .

(8) عن تفسير الماوردي : 4/ 57 .

(9) في «ك» : إيقانا .

(63/711)

من منعكم الحرم ، لكنه أنزل السكينة عليكم ليكون ظهور كلمته بجهادكم وثوابه لكم .

9 تُعَزِّرُوهُ : تنصروه «1» ، وَتُسَبِّحُوهُ : تنزهوه من كلّ ذمّ وعيب ، أو تصلّوا عليه «2» .

10 إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ : هي بيعة الرضوان على أن تنصروا ولا تفروا .

وسمّيت بيعة لقوله تعالى «3» : إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، ولأنها في تواجب الجنة بالشّهادة كالبيع .

10 يَدُ اللَّهِ : أي : في الثواب ، فَوْقَ أَيْدِيهِمْ : في النّصر . أو منّة اللّه عليهم بالهداية فوق طاعتهم ، أو عقد اللّه في هذه البيعة فوق عقدهم ، لأنّهم بايعوا اللّه ببيعة نبيّه «4» .

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ : لما أراد النّبيّ صلى اللّه عليه وسلم المسير إلى مكة عام الحديبية استنفر من حول المدينة .

مِنَ الْأَعْرابِ : جهينة ومزينة «5» .

شَغَلَتْنا أَمْوالُنا : ليس لنا من يقوم بأموالنا [و من] «6» يخلفنا في أهلينا .

---

(1) ذكره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 412 عن أبي صالح ، وأخرجه الطبري في تفسيره :

26/ 74 عن قتادة .

وهو قول الزجاج في معانيه : 5/ 21 ، والبغوي في تفسيره : 4/ 190 .

(2) كذا في «ك» ، وفي تفسير البغوي : 4/ 190 : «تصلوا له» ، قال أبو حيان في البحر المحيط :

8/ 91 : «و الظاهر أن الضمائر عائدة على اللّه تعالى» .

واختاره ابن الجوزي في زاد المسير : 7/ 427 ، والفخر الرازي في تفسيره : 28/ 86 .

(3) سورة التوبة : آية : 111 .

(4) ينظر ما سبق في معاني القرآن للزجاج : 5/ 22 ، وتفسير الماوردي : (4/ 59 ، 60) ، وزاد المسير : (7/ 427 ، 428) ، وتفسير القرطبي : 16/ 267 .

(5) ينظر خبرهم في السيرة لابن هشام : 1/ 308 ، وتفسير الطبري : 26/ 77 ، وزاد المسير :

7/ 429 ، وتفسير القرطبي : 16/ 268 .

(6) ما بين معقوفين عن «ك» .

12 ظَنَّ السَّوْءِ : أنّ الرسول لا يرجع «1» .

15 يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ : وعده أهل الحديبية أنّ غنيمة خيبر لهم خاصة «2» .

16 سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ : الرّوم وفارس «3» . وقيل «4» : بني حنيفة مع مسيلمة .

18 إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ : وهي سمرة «5» ، وكانوا ألفا وخمسمائة «6»

---

(1) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 4/ 60 عن مجاهد ، وقتادة .

وانظر تفسير البغوي : 4/ 191 ، وتفسير القرطبي : 16/ 269 .

(2) ورد هذا المعنى في أثر أخرجه الطبري في تفسيره : 26/ 80 عن قتادة .

واختار الطبري هذا القول ، وكذا البغوي في تفسيره : 4/ 192 .

(3) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : (26/ 82 ، 83) عن الحسن ، وقتادة ، وابن زيد ، وابن أبي ليلى .

ونقله ابن الجوزي في زاد المسير : 7/ 431 عن الحسن ، ومجاهد .

(4) ذكره الفراء في معانيه : 3/ 66 عن الكلبي ، وأخرجه الطبري في تفسيره : 26/ 83 عن الزهري ، ونقله ابن الجوزي في زاد المسير : 7/ 431 عن الزهري ، وابن السائب الكلبي ، ومقاتل .

وعقب الطبري – رحمه اللّه – على الأقوال التي قيلت في «القوم» فقال : «و أولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إن اللّه تعالى ذكره أخبر عن هؤلاء المخلفين من الأعراب أنهم سيدعون إلى قتال قوم أولى بأس في القتال ، ونجدة في الحروب ، ولم يوضع لنا الدليل من خبر ولا عقل على أن المعنيّ بذلك هوازن ، ولا بنو حنيفة ولا فارس ولا الروم ، ولا أعيان بأعيانهم ، وجائز أن يكون عنى بذلك بعض هذه الأجناس ، وجائز أن يكون عني بهم غيرهم ، ولا قول فيه أصح من أن يقال كما قال اللّه جل ثناؤه : إنهم سيدعون إلى قوم أولى بأس شديد اه – . [. . . . .]

(5) السّمرة : ضرب من شجر الطلح ، وهي نوع من شجر العضاة ، والعضاة : كل شجر يعظم وله شوك .

النهاية : 2/ 399 ، واللسان : 4/ 379 (سمر) .

وقد ورد القول الذي ذكره المؤلف في معاني القرآن : 3/ 67 ، وتفسير الطبري : 26/ 86 ، ومعاني الزجاج : 5/ 25 .

(6) ورد هذا القول في أثر أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : 5/ 63 ، كتاب المغازي ، باب «غزوة الحديبية» عن قتادة عن سعيد بن المسيب .

وأخرجه الطبري في تفسيره : (26/ 85 ، 87) عن قتادة .

ونقله الماوردي في تفسيره : 4/ 61 عن ابن عباس رضي اللّه تعالى عنهما .

وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً : فتح خيبر «1» .

21 وَأُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها : فارس وروم «2» .

قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها : قدر عليها «3» ، أو علمها «4» ، بل المعنى : جعلهم بمنزلة ما قد أدير حولهم فيمنع أن يفلت أحد منهم ، وهذه غاية في البلاغة ليس وراءها .

24 وَهُوَ الَّذِي كَفَّ : بعث المشركون أربعين رجلا [ليصيبوا] «5» من المسلمين ، فأتي بهم النّبي صلى اللّه عليه وسلم أسرى فخلّاهم «6» .

25 وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً : مجموعا موقوفا «7» ، وكان ساق

---

(1) ورد هذا المعنى في أثر أخرجه الطبري في تفسيره : 26/ 91 عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، وقتادة .

وذكره الزجاج في معانيه : 5/ 25 ، والماوردي في تفسيره : 4/ 62 ، وابن الجوزي في زاد المسير : 7/ 435 .

وفي معنى هذه الآية قال الحافظ ابن كثير في تفسيره : 7/ 322 : «و هو ما أجرى اللّه على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم ، وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل

بفتح خيبر وفتح مكة ، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم ، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة . . . » .

(2) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 26/ 91 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

وأخرجه - أيضا - عن قتادة ، وعبد الرحمن بن أبي ليلى .

(3) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 4/ 63 عن ابن بحر .

(4) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير : 7/ 436 ، والقرطبي في تفسيره : 16/ 279 .

(5) في الأصل : «ليصبو» ، والمثبت في النص عن «ك» و«ج» .

(6) ينظر صحيح مسلم : 3/ 1442 ، كتاب الجهاد ، باب قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ .

وتفسير الطبري : 26/ 94 ، وأسباب النزول للواحدي : 443 ، وتفسير ابن كثير : 7/ 323 .

(7) تفسير الماوردي : 4/ 64 ، عن أبي عمرو بن العلاء .

وانظر معاني الفراء : 3/ 67 ، ومعاني القرآن للزجاج : 5/ 27 ، والمفردات للراغب : 343 ، واللسان : 9/ 255 (عكف) .

أربعين «1» بدنة.

مَعَرَّةٌ: إثم «2»، أو شدّة «3».

تَزَيَّلُوا: تميّزوا «4» حتى لا يختلط بمشركي مكة مسلم/. [89/ب]

26 فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ: لما أرادهم سهيل «5» بن عمرو أن يكتبوا:

باسمك اللّهم «6».

كَلِمَةَ التَّقْوى: سمعنا وأطعنا «7». وقيل «8»: شهادة أن لا إله إلّا اللّه.

---

(1) في «ك»: سبعين بدنة، وقد ورد كلا العددين.

ينظر مسند الإمام أحمد: 4/ 323، والسيرة لابن هشام: (2/ 308، 309)،

وتفسير الطبري: (26/ 95، 96)، وتفسير ابن كثير: 7/ 327.

(2) تفسير الطبري: 6/ 102، وتفسير الماوردي: 4/ 64 عن ابن زيد.

(3) ذكر الماوردي هذا القول في تفسيره: 4/ 64 عن قطرب.

(4) معاني القرآن للفراء: 3/ 68، ومجاز القرآن لأبي عبيدة: 2/ 217، وتفسير الطبري:

26/ 102، والمفردات للراغب: 218.

(5) هو سهيل بن عمرو بن شمس بن عبد ود القرشي العامري، أبو زيد.

صحابي جليل، وكان أحد الأشراف من قريش وساداتهم في الجاهلية.

ترجمته في الاستيعاب: 2/ 669، وأسد الغابة: 2/ 480، والإصابة: 3/ 212.

[.....]

(6) ينظر خبر سهيل رضي اللّه عنه في صحيح البخاري: 3/ 181، كتاب الشروط، باب «الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحروب وكتابة الشروط».

والسيرة لابن هشام: 2/ 317، وتفسير الطبري: 26/ 99، وتفسير ابن كثير: 7/ 327.

(7) ذكره الماوردي في تفسيره: 4/ 65، وقال: «وسميت «كلمة التقوى» لأنهم يتقون بها غضب اللّه».

(8) ورد هذا القول في أثر أخرجه الإمام أحمد في مسنده: 5/ 138 عن الطفيل بن أبيّ بن كعب عن أبيه عن النبي صلى اللّه عليه وسلم.

وأخرجه - أيضا - الترمذي في سننه: 5/ 386، كتاب التفسير، تفسير سورة الفتح عن الطفيل من طريق الحسن بن قزعة ثم قال: «هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من حديث الحسن بن قزعة، وسألت أبا زرعة عن هذا الحديث فلم يعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه».

وأخرجه الطبري في تفسيره : (26/ 104 ، 105) عن الطفيل ورفعه .

وأخرجه - أيضا - عن علي ، وابن عباس ، وعمرو بن ميمون ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن زيد ، والضحاك ، وعكرمة .

(67/711)

---

27 إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ : الاستثناء للتأديب على مقتضى الدين ، يعني : لتدخلنه بمشيئة اللّه . أو الاستثناء في دخول جميعهم ، إذ ربّما يموت بعضهم ، أو إن] بمعنى : إذ شاء اللّه «1» .

29 مَثَلُهُمْ : صفتهم «2» .

شَطْأَهُ : الشّطأ والشّفاء والبهمى : شوك السّنبل «3» . وقيل «4» : فراخه الذي يخرج في جوانبه من شاطئ النّهر .

فَآزَرَهُ : قوّاه وشدّ أزره «5» ، أي : شدّ فراخ الزّرع أصوله .

فَاسْتَغْلَظَ : قوي باجتماع الفراخ مع الأصول «6» .

عَلى سُوقِهِ : السّاق : قصبه الذي يقوم عليه .

لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ : أهل مكة ، وهذا مثل المؤمنين إذ كانوا أقلاء فكثروا وأذلاء فعزوا

«7» .

---

(1) هذا قول أبي عبيدة كما في تفسير البغوي : 4/ 205 ، وتفسير القرطبي : 16/ 290 ، والبحر المحيط : 8/ 101 وردّه النحاس في إعراب القرآن : 4/ 204 بقوله : «وهذا قول لا يعرج عليه ، ولا يعرف أحد من النحويين «إن» بمعنى «إذ» ، وإنما تلك «أن» فغلط ، وبينهما فصل في اللغة والأحكام عند الفقهاء والنحويين» .

(2) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 413 ، وتفسير الطبري : 26/ 112 ، ومعاني الزجاج : 5/ 29 .

(3) نص هذا القول في تفسير الماوردي : 4/ 66 عن قطرب .

وانظر اللسان : 1/ 100 ، وتاج العروس : 1/ 281 (شطأ) .

(4) نقله الماوردي في تفسيره : 4/ 67 عن الأخفش ، وانظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 218 ، وتفسير المشكل لمكي : 317 ، والمفردات للراغب : 261 .

(5) ينظر معاني القرآن للفراء : 3/ 69 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 413 ، وتفسير المشكل لمكي : 317 ، والمفردات للراغب : 17 .

(6) عن تفسير الماوردي : 4/ 67 .

(7) ينظر تفسير الطبري : 26/ 15 ، وتفسير الماوردي : 4/ 67 .

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا . . . مِنْهُمْ : قاموا على الإيمان .

مِنْهُمْ مَغْفِرَةً : ومنهم لتخليص الجنس ، كقولك : أنفق من الدراهم لا من الدنانير «1» .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 748. 755 ﴾

---

(1) عن معاني القرآن للزجاج : 5/ 29 ، وتتمة كلامه : «المعنى : اجعل نفقتك من هذا الجنس ، وكما قال : فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ ، لا يريد أن بعضها رجس وبعضها غير رجس ، ولكن المعنى : اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان» .

وانظر إعراب القرآن للنحاس : 4/ 206 ، وتفسير القرطبي : 16/ 296 ، والبحر المحيط : 8/ 103 .

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الفتح

عدد 25 - 111 و63

نزلت بالمدينة بعد الجمعة عدا الآيات من 10 إلى 27 فإنها نزلت في الطّريق عند الانصراف من الحديبية فتعد مدنية أيضا ، لأن إقامة الرّسول كانت في المدينة وكلّ ما نزل بعد الهجرة يعد مدنيا وهي تسع وعشرون آية وخمسمائة وستون كلمة والفان وأربعمائة حرف ، وقد بينا السّورة المبدوءة بما بدئت به في سورة الكوثر ج 1 ولا يوجد سورة مختومة بما ختمت به ومثلها في عدد الآي التكوير والحديد فقط .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى "إِنَّا فَتَحْنا لَكَ" يا سيد الرّسل بما أمرناك به من مجاهدة أعدائك بعد حادثة الحديبية وقبول الصّلح فيها لأنها مقدمة لافتتاح مكة والبلاد المقدر فتحها على يديك حيث تلاها فتح خيبر وأعقبها بحادثة الأحزاب والفتوحات الأخرى من بلاد قريظة وبني النّضير وغيرها ، ومن هذا يعلم أن مقدمة الفتوح هو صلح الحديبية الذي صعب وتعذر واشتد الضّيق فيه على المسلمين حتى يسره اللّه تعالى بمنه وكرمه وسهله والهم رسوله قبول الشّروط المجحفة التي اقترحها المشركون وكرهها أصحاب رسول اللّه إذ كان ظاهرها الغبن والحيف على المؤمنين ، ولم يعلموا أنها باطنا تنطوي على الرّبح والفوز لهم ، إذ سبب اختلاط المشركين بالمسلمين فاطلعوا على محاسن الإسلام ومكارم الدّين الحنيف وما يأمر به من مكارم الأخلاق وفواضل الآداب فملأ قلوبهم حبه ، وشارفوا على مزايا حضرة

الرسول فرغبوا في صحبته ودخل منهم في دينه خلق كثير قبل الفتح .

والمراد بهذا الفتح المشار إليه في هذه السّورة فتح مكة شرفها اللّه وأعزها كما روى عن أنس رضي اللّه عنه .

وقال مجاهد هو فتح خيبر الواقع عقب الحديبية .

مطلب قصة الفتح وأعني بالفتح فتح مكة لا غير وبيان الّذين هدر دمهم رسول اللّه وما وقع فيه وسببه :

(70/711)

ومن قال بأن الفتح هو صلح الحديبية تكلف بأن يعدل إلى خلاف الظّاهر فضلا عن أن صلح الحديبية كان سنة ستّ وهذه السّورة نزلت في السّنة الثامنة إذ وقع فيها فتح مكة كما سيأتي ، ومما يؤيد أن المراد بهذا الفتح فتح مكة قوله تعالى "فَتْحاً مُبِيناً" (1) ظاهرا واضحا ولم يكن فتح الحديبية بغاية الظّهور المشار إليه في هذه الآية ، ولا فتح خيبر ، ولا غيرها أيضا ولا يصح إطلاقه إلّا على فتح مكة ، لأن كلّ فتح دونها ليس بشيء إذ ذاك ، ولأن كلمة الإسلام إنما علت بفتحها وما رفع شأن المؤمنين إلّا بعد فتحها الذي صار قاطعا للكفر ، ما حيا آثاره ، معلنا كلمة الإسلام ، معظما أهله ، خضعت فهى صناديد قريش

وطلبوا الأمان من سيد الأكوان ، واستسلموا لحكمه خاشعين خاضعين .

ومن قال إن المراد بهذا الفتح فتح بلاد الرّوم إذا غلبت فارس فليس بشيء أيضا وهو خلاف الظّاهر ولا علاقة لفتح الرّوم بظهور الإسلام ، وكذلك القول إن المراد بالفتح فتح الإسلام بالحجة والبرهان والسّيف والعنان ، لأن هذا تابع للفتح الفعلي لمكة ، وقد كان والحمد للّه مصداقا لقوله تعالى (وَهُوَ مَعَكُمْ) الآية الخامسة من سورة الحديد ، وقوله (وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ) الآية 139 من آل عمران المارتين ، وخلاصة هذه القصة هو أنه لما صالح رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قريشا عام الحديبية كما تقدم في الآية 10 من سورة الممتحنة دخلت بنو بكر في عهد قريش وخزاعة فيه عهد محمد صلّى اللّه عليه وسلم .

ثم إن بني بكر عدت على خزاعة وهم على ماء لهم يسمى الوتير وأصابوا منهم رجلا وتحاربوا فيما بينهم ، وكان من قريش أنها ردفت بني بكر بالسلاح وقاتلت معهم ، وبهذا انتقض ما كان بين قريش وحضرة الرّسول من الميثاق بسبب ما استحلوه من خزاعة حليفته ، ولهذا قدم عميدهم عمرو بن سالم الخزاعي على رسول اللّه في المسجد وخاطبه على ملأ من النّاس بقوله . . .

يا رب إني ناشد محمدا :

خلف أبينا وأبيه الأتلدا قد كنتم ولدا وكنا ولدا

ثمة أسلمنا فلم ننزع يدا فانصر هداك اللّه نصرا أعتدا

وادع عباد اللّه يأتوا مددا فيهم رسول اللّه قد تجردا

إن تمّ حسنا وجهه تريدا في فيلق كالبحر يجري مزيدا

إن قريشا أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا

وجعلوا لي في كداء رصدا وزعموا أن لست أدعوا أحدا

وهم أذل وأقل عددا هم بيتوتا في الوتير هجدا

وقتلونا ركعا وسجدا فانصر هداك اللّه نصرا أيدا

فقال صلّى اللّه عليه وسلم قد نصرت .

وعرض صلّى اللّه عليه وسلم إلى عنان السّماء وقال مشيرا إليه لتشهد بنصر بني كعب رهط عمرو بن سالم ، ثم جاء بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة وعرضوا لرسول اللّه بما أصابهم من مظاهرة قريش بني بكر ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم للناس كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم يشدّد في العقد ويزيد في المدة رهبا من الذي صنعوا فلم يحسوا إلّا وأبو سفيان بالمدينة ، وهذا من معجزاته صلّى اللّه عليه وسلم ومن الغيب الذي أطلعه اللّه عليه ، وقد دخل على بنته أم حبيبة رضي اللّه عنها فأراد أن يجلس على فراش رسول اللّه فطرته من

أمامه وقالت له أنت رجل نجس لا أحب أن تجلس على فراش رسول اللّه الطّاهر المطهر ، فقال لها واللّه لقد أصابك بعدي شرّ ، فتركها ثم أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فكلمه فلم يرد عليه ، فذهب إلى أبي بكر وكلمه بأن يكلم له محمدا ، فقال ما أنا بفاعل ، ثم أتى عمر فكلمه بذلك فقال أنا أشفع لك لا واللّه ، لو لم أجد إلّا الذي لجاهد تكم بها ثم اتى عليا وعنده فاطمة والحسن يدب بين يديهما واسترحمه أن يشفع له فقال ويحك يا أبا سفيان لقد أدى عزم الرسول على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه ، فالتفت إلى فاطمة واستشفعها وقال تأمري بينك هذا فيجيرني بين النّاس فيكون سيد العرب إلى آخر الدّهر ، فقالت ما يجير أحد على رسول اللّه .

(72/711)

فقام أبو سفيان في المسجد بمشورة من علي وقال أيها الناس إني قد أجرت بين النّاس وانما فعل هذا وهو لم يجره أحد ليعلم النّاس أنه قد أجير فلا يتعدى عليه أحد وإنما أمره علي بذلك لما رأى – كرم اللّه وجهه – من تلبّكه ، فأرشده إلى ذلك ليأمن على نفسه إذ رأى ممن أراد أن يستجير بهم قلب الجن ، فاعتراه خوف ورعب وذل وهوان ، الجأه إلى فعل ما فعل ، ولأنه استجار بابنه الحسن وهو طفل فأبت مروءته إن لم يجره ان يدله على ما إذا قاله ظن

النّاس أنه قد أجير ، وكان ذلك ، ثم رجع إلى مكة آيسا مما كان يتوخاه مبلسا مما رآه .

ولما وصل قصّ على قومه ما لاقاه ، ثم أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم الناس بالجهاد ، وأعلمهم بأنه سائر إلى مكة ، وقال اللّهم خذ العيون والأخبار من قريش حتى نبغتها في بلادها ، وإذ ذاك كتب حاطب بن أبي بلتعة الكتاب إلى

قريش يعلمهم بمقدم رسول اللّه وأصحابه ، كما تقدمت قصته أول سورة الممتحنة المارة واستخلف رسول اللّه على المدينة أبا دهم كلثوم بن حصين بن عيينة بن خلف الغفاري ، وخرج صلّى اللّه عليه وسلم في عشرة آلاف ، وقيل اثنى عشر الفا ، ولم يتخلف عنه أحد من المهاجرين والأنصار لعشر يقين من رمضان سنة ثمان من الهجرة ، حتى نزل بحر الظهران ، وقد أعمى اللّه الأخبار عن قريش ، ولقى العباس مهاجرا بأهله في الطريق وهو آخر من هاجر ، فحمله رسول اللّه على بغلته وقال ووا صباح قريش واللّه لئن دخل رسول اللّه مكة عنوة ليكون إهلاكا لقريش إلى آخر الدّهر .

(73/711)

قال العباس فجئت الأراك لعلي أجد من يخبر أهل مكة بمكان رسول اللّه ليستأمنوه إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء ، فقلت أبا حنظلة : فقال أبا الفضل فقلت نعم ،

قال ما بالك فداك أبي وأمي ؟ فقلت ويحك يا أبا سفيان جاءك رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بما لا قبل لكم به ، واللّه ليضربن عنقك ، قال فما الحيلة ؟ قلت اركب عجز هذه البغلة حتى آتيك به فاستأمنه لك ، فركب ، قال العباس فدخلت به على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وقلت هذا أبو سفيان ، فجاء عمر وقال دعني أضرب عنقه يا رسول اللّه ، فقال له العباس قد أجزته ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم ويحك يا أبا سفيان ، قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك يا رسول اللّه وأكرمك ، قال ألم يأن لك أن تعلم إني رسول اللّه حقا ، وإن اللّه وحده لا شريك له ، وإن البعث حق ، قال بأبي وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك الرّحم .

أما هذه فإن في النّفس منها حتى الآن شيئا ، فقال له العباس قلها قبل أن يضرب عنقك فقالها وأسلم .

ثم قال العباس يا رسول اللّه انه يحب الفخر فاجعل له شيئا قال فلينادِ عند دخول الجيش المبارك مكة شرفها اللّه من دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أعلق عليه بابه فهو آمن .

ثم قال يا عباس احبسه بمضيق الوادي حتى يرى جنود اللّه ، قال فخرجت به حتى وقفت به حيث أمرني رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وصارت تمر القبائل ، فجعل يقول كلما تمر واحدة مالي ولهؤلاء ! حتى مر رسول اللّه في كتيبته الخضراء ، وإنما سميت خضراء لكثرة

الحديد فيها فلا يرى منهم إلا الحدق ، فقال سبحان اللّه من هؤلاء يا عباس ؟ قلت هذا رسول اللّه في المهاجرين

والأنصار ، فقال ما لأحد ولهؤلاء من قبل ولا طاقة ، لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما ، قلت ويحك إنها النّبوة ، قال نعم .

(74/711)

ثم تركه فلحق بقومه ، ولما قرب منهم صاح بأعلى صوته يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم ، قالوا فمه ، أي بماذا تأمرنا وماذا نفعل ؟ قال من دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، قالوا وما تغني عنّا دارك ؟ قال من أغلق بابه فهو آمن ، فتفرق الناس إلى المسجد وإلى دورهم ، فجاء حكيم بن خزام وبديل بن ورقاء رفيقاه وأسلما وعمدا إلى مكة ، فبعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم في أثرهما الزبير وأمره على خيل المهاجرين والأنصار ، وأمره أن يركز رأيته بأعلى مكة بالحجون ، وقال له لا تبرح مكانك ، وأمر خالد بن الوليد فيمن اسلم من قضاعه وبني سليم وأمرهم أن يدخلوا من أسفل مكة ، وقال الزبير وخالد لا تقاتلا إلّا من قاتلكما وأمر سعد ابن عبادة أن يدخل في بعض النّاس من كدى ، فقال سعد اليوم يوم الملحمة يوم تحل تدخل ، وأمره أن لا يقاتل أيضا

إلّا من قاتله ، ما عدا نفر سماهم وأمر بقتلهم المحرمة ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم لعلي عليه السّلام أدركه وخذ الرّأية منه وكن أنت الذي تدخل ، وأمره أن لا يقاتل أيضا إلّا من قاتله ، ما عدا نفر سماهم وأمر بقتلهم وان تعلفوا بأستار الكعبة .

وقيل قال لسعد بل اليوم يوم المرحمة .

ثم دخل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم متواضعا لربه الذي أكرمه بالفتح المبين ، حتى أن رأسه الشّريف يكاد يمس واسطة رحله ، ولم يقع قتال إلّا في جهة خالد ، إذ عارضه المشركون بالدخول من حيث أمره الرّسول ، فقتل منهم بضعة عشر رجلا ، وقيل سبعين ، وإن حضرة الرّسول أنبه على ذلك إن كان على ما قيل إنه أرسل إليه من قال له ضع السّلاح عنهم ، وإن هذا يقول إلى خالد يأمرك رسول اللّه أن تضع السّلاح فيهم .

(75/711)

وان جبريل عليه السّلام قال لرسول اللّه لما ذا تعاقب خالدا وهو إنما فعل لإبرار قسمك ، وذلك أن صلّى اللّه عليه وسلم لما رأي حمزة ممثلا به في واقعة أحد أخذته الحدة وقال واللّه لأمثلن بسبعين منهم ، وهناك أنزلت الآيات من آخر سورة النّحل التي أولها (وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا) إلخ كما المعنا إليه في الآية 122 من آل عمران المارة فراجعها .

وقتل من المسلمين ثلاثة : سلمة بن الميلاد الجهني وكرز بن جابر وخنيس ابن خالد بن الوليد .

أما الّذين هدر دمهم رسول اللّه فهم : عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح لارتداده عن الإسلام فاستاء منه أخوه من الرّضاع عثمان بن عفان وعبد اللّه بن حنظلة لأنه قتل مولاه المسلم واتخذ مغنيتين تهجوان حضرة الرّسول قتلت إحداهما واستأمنت الأخرى رسول اللّه فأمتها ، والحويرث بن فضيل بن وهب لشدة إيذائه حضرة الرّسول ، ومقيس بن خبابة لقتله الأنصاري وارتداده ، وسارة مولاه بني عبد المطلب لأنها كانت مبالغة في إيذائه بلسانها فاستأمنت الرّسول فأمنها وعكرمة بن أبي جهل ، وقد استأمنت له حضرة الرّسول زوجته أم حكيم بن الحارث فأمنها ، ثم جاءت أم هاني لنستأمن رسول اللّه على رجلين أراد على قتلهما فقال مرحبا وأهلا قد أجرنا من آجرت .

ثم دخل صلّى اللّه عليه وسلم البيت المكرم فطاف به وصلّى وأخذ مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة وفتحها ، فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها وطرحها ثم وقف على بابها فقال : لا إله إلّا اللّه وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

ألا كلّ مأثرة أو دم أو ما يدعى فهو تحت قدمي هذين ، إلا سدانة البيت (التي ألمعنا إليها في

الآية 58 من آل عمران فراجعها) وسقاية الحاج ، الا وقتل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدّية مغلظة مئة من الإبل أربعون منها خلفة في بطونها أولادها .

(76/711)

يا معشر قريش إن اللّه قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظيمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب ثم تلى (يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى) الآية 13 من سورة الحجرات المارة يا معشر قريش ما ترون إني فاعل بكم ؟ قالوا خير أخ كريم وابن أخ كريم ، قال فاذهبوا فأنتم الطّلقاء .

فأعتقهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ثم جلس فبايعه النّاس على الإسلام والنّصرة ، وثم له الفتح على هذه الصّورة .

ثم ظنت الأنصار أنه يقيم بمكة بعد أن أتم اللّه له وعده ويتركهم فنظر فرآهم يتنا بسون بذلك ، فقال لهم ما معناه كلا إن الحياة معكم والموت معكم ، فاطمأنت نفوسهم وامر على مكة أسيدا وعاد إلى المدينة ومن أراد زيادة إيضاح قصة الفتح فعليه بمراجعة السّير .

وهذا الفتح الواقع من طريق الغزو والجهاد "لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ" إذ رتب عليه هذا الأجر العظيم لك يا سيد الرّسل ، لأن ثواب الجهاد أعظم ثواب ، فأجدر

أن يكون سببا لمحو ما فرط

منك قبله وانطماس ما سيفرط منك بعده من كلّ ما تعده ذنبا بالنسبة لمقامك الكريم وإلّا فإن اللّه قادر على أن يفتح لك البلاد ويخضع لك العباد دون غزو أو جهاد ولكن ليكون سنة لمن بعدك ويكون ثوابه كفارة للذنوب لهم أيضا .

وقد بينا ما يتعلق في ذنوب الأنبياء في الآية 16 من سورة البقرة المارة .

(77/711)

وفيها ما يرشدك إلى المواقع الأخرى التي فيها هذا البحث "وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ" بفتح البلاد الأخرى وينصرك على كلّ من يناوئك ، ويظهر دينك على سائر الأديان ، ويمكنك في البلاد والعباد "وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً" (2) في جميع أمورك الحاضرة والمستقبلة كما هي الحال فيما مضى من أمرك لتكون ظاهرا دائما "وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً" (3) لم يسبق له مثيل وحيد في نوعه فريد في بابه لا ذلّ ولا خذلان بعده أبدا "هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ" فملأها طمأنينة وثباتا ووقارا حتى ساروا معك جميعهم فلم يتخلف عنك إلّا من أذنته بالتخلف ، إذ لم يقع في هذه الغزوة معارضة ما من أحد ، بل كان كل منهم منقادا

عن شوق ورغبة وحزم "لِيَزْدادُوا إِيماناً" ويقينا وصبرا وطاعة "مَعَ إِيمانِهِمْ" الذي هم عليه .

(78/711)

وكأن قائلا يقول كيف نصره اللّه مع قلة عدده وعدده بالنسبة إلى أعدائه ؟ فقال تعالى جل قوله "وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" لا يكاثر ولا يغالب ولا يقابل إذ يجعلهم عونا للمؤمنين على أعدائهم ويكثر سوادهم ويقلل أعدائهم بأعينهم "وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً" بجنوده الموجودين فيهما وكثرتهم وقوتهم "حَكِيماً" (4) في نصر نبيه وأصحابه على أعدائهم بإراءتهم القليل كثيرا لإيقاع الرّعب والخوف والذل في قلوب أعدائه ، وإذا أراد أرسل صاعقة تدمرهم أو صيحة من أحد ملائكته تقصف قلوبهم فتميتهم حالا ، أو يخسف بهم الأرض أو يغرقهم في الماء فيهلكهم عن آخرهم ، كما فعل بالأمم السّابقة ، وهو القادر على إلقاء الرّعب في قلوب أعدائه والجبن والخوف من أوليائه ، ويلقي الثبات في قلوب المؤمنين فيبيدوا أعداءهم مهما كانوا ، وهو القادر على إبادة الكفار بما أراد من عذاب دون سبب ، ولكنه أراد أن يقهرهم ويهلكهم بصورة ظاهرة بواسطة جيشه المبارك الذي تسلح بقوة اليقين ومتانة الايمان ووقاية العزم وحماية الحزم .

وقاية اللّه أغنت عن مضاعفة من الدّروع وعن عال من الأطم

"لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ" الّذين جاهدوا معه "جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ" بسبب طاعتهم وثباتهم وبذل أموالهم وأنفسهم فى إعلاء كلمة اللّه ونصرة رسوله ويجعلهم

"خالِدِينَ فِيها وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ" قبل دخولها ، ثم بدخلهم فيها طاهرين مطهرين "وَكانَ ذلِكَ" التكفير والتخليد في تلك الجنّات "عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً" (5) لهم لا أعظم منه ، ولهذا جعل النصر والفتح على ما كان من بروزهم وجهادهم طائفين مختارين ، ولا يخفى أن العطف بالواو لا يفيد تعقيبا ولا ترتيبا ، ولهذا جاءت جملة (وَيُكَفِّرَ) بعد جملة ليدخل .

(79/711)

روى البخاري ومسلم عن أنس ، وأخرج الترمذي ، عن قتادة عن أنس قال أنزلت على النّبي صلّى اللّه عليه وسلم (إِنَّا فَتَحْنا لَكَ) إلخ مرجعه من الحديبية ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم لقد أنزلت علي اللّيلة آية أحب إلي مما في الأرض ، ثم قرأ صلّى اللّه عليه وسلم ، فقالوا أصحابه هنيئا مريئا

يا رسول اللّه ، لقد بين لك ما يفعل بك ، فماذا يفعل بنا فنزلت (لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ) وليس المراد نزول السّورة كلها ، لأن نزولها كان بعد ذلك كما ذكرنا ، وأن المراد بهذه الآية آية

المبايعة الآتية وما يتعلق بواقعة الحديبية المارة في الآية 10 من سورة الممتحنة بدليل قوله صلّى اللّه عليه وسلم (أنزلت علي اللّيلة آية) ولو كان كذلك لقول سورة لهذا يحتمل أنه سمعها بعد ذلك تدبّر "وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ" وقدم المنافقين هنا وفي أمكنة أخرى ، لأنهم أشد بلاء على المؤمنين من الكافرين لاختلاطهم معهم واطلاعهم على أسرارهم باعتبار أنهم مؤمنون ظاهرا لا يحترز منهم ، أما الكافرون فيحترز منهم ويتحاشى عن إفشاء السّرّ بينهم لظاهر عداوتهم ، ولذلك فإن عذابهم يكون أشدّ من عذاب الكافرين ، قال تعالى (إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ) بعد قوله (إِنَّ اللَّهَ جامِعُ الْمُنافِقِينَ وَالْكافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً) كما أشرنا اليه في هاتين الآيتين 140 و145 من سورة النّساء المارة ، ثم وصفهم بما هم متلبسون به بقوله "الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ" أي بان اللّه لا ينصر رسوله وأصحابه ولا يرجعهم إلى المدينة في غزوتهم هذه "عَلَيْهِمْ" جزاء ظنهم هذا "دائِرَةُ السَّوْءِ"

(80/711)

والهلاك والعذاب الذي يتوخون أن يصيب المؤمنين "وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ" لما يحقدون على المؤمنين "وَلَعَنَهُمْ" زيادة على لعنهم الأوّل "وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً" (6) ومنقلبا

قبيحا لأملها "وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً" (7) كررت هذه الآية تأكيدا ، ولأن جنود السّموات والأرض منهم للرحمة قد مرّ ذكرهم في الآية الأولى قبل ذكر إدخال المؤمنين الجنّة ليكونوا معهم فيثبتوهم على الصّراط وعند الميزان ، فإذا دخلوها الفوا إلى جوار اللّه ورحمته ، فلا يحتاجون بعدها إلى شيء ، ولذلك ختم تلك الآية بقوله عَلِيماً (حَكِيماً) ومنهم للعذاب فأخر ذكرهم في هذه الآية بعد ذكر تعذيب الكافرين والمنافقين ليكونوا معهم فلا يفارقوهم أبدا ، ولذلك ختم هذه الآية بقوله (عَزِيزاً حَكِيماً) كقوله (أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقامٍ) الآية 20 من سورة الزمر ج 2 وقوله (أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ) الآية 43 من سورة القمر في ج 1 "يا أيها النبي إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً" على الأنبياء قبلك وأممهم وأمتك ومن توالد منهم إلى يوم القيامة "وَمُبَشِّراً" أهل الخير بالجنة دائمة النّعيم "وَنَذِيراً" 8 لأهل الشّر بالنار دائمة الجحيم ، وإنما جعلنا نبيّكم أيها العرب مخصوصا بهذه المزية "لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ" تنصروه نصرا مؤزرا مع التعظيم والتبجيل "وَتُوَقِّرُوهُ" تحترموه مع الإجلال والتكريم "وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا" (9) وهذه الضّمائر كلها للّه تعالى .

وما قيل إن ضمير تعزروه فما بعده لحضرة الرّسول وضمير تسبحوه لجلالة الإله لا يصح إلّا أن يجعل الوقف على وتوقروه وقفا تاما ثم يبتدأ مستأنفا بما بعده ، وهذا بعيد ، لذلك جرينا على خلافه وهو الأولى والأحسن بدليل التعليل أول الآية واجراء نسق العطف على ما هو عليه وقرئت هذه الأفعال كلها بالتاء دلالة على ذلك ، ويجوز قراءتها بالياء على التبعة بطريق الالتفات والمعنى على ما هما عليه .

وهذه الآيات التي نزلت بالطريق بعد منصرف رسول اللّه من الحديبية كما أشرنا إليه أول السّورة .

قال تعالى "إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ" أي المبايعين والمبايع له ، واعلموا أيها المؤمنون انكم ألزمتم أنفسكم في هذه المبايعة الشّريفة النّصرة لحضرة الرّسول بصورة المعاهدة والمواثقة "فَمَنْ نَكَثَ" فيها ونقض عهده الذي أعطاه لك يا سيد الرّسل "فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ" ولن يضرّ اللّه شيئا بل يعود ضرره على نفسه "وَمَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ" في هذه البيعة والعهد "فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً" (10) في الآخرة وفخرا كبيرا في الدنيا .

واعلم أن الهاء في عليه المارة في هذه الآية تقرأ بالضمّ ، ولا يوجد في القرآن غير هذه الهاء مضمومة بعد على تفخيما للفظة الجلالة ، وأجمعت القراء عليه بالتلقي من حضرة الرّسول وأصحابه من بعده ، ويوجد في الآية 69 من سورة الفرقان في ج 1 (فِيهِ) تقرأ بإشباع الهاء

كسرا ، كذلك وردت بالتلقي أيضا فلا يجوز كسر الأوّل ولا تخفيف الثاني تبعا لقواعد الإعراب والنّطق لأنهما مستقاة من القرآن والمنزل عليه .

واعلم أن هذه البيعة هي الواقعة تحت الشّجرة في الحديبية المشار إليها في الآية 17 من سورة الممتحنة المارة ، ومعنى المبايعة هي العقد الذي يعقده الإنسان على نفسه من بذل طاعته

(82/711)

للسلطان ويلزمه الوفاء بها وبكل عهد ألزم نفسه به ، راجع الآية 92 من سورة النّحل في ج 2 وما ترشدك إليه .

وتسمى هذه البيعة بيعة الرّضوان لابتداء الآية بقوله تعالى (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ) إلخ كما سيأتي بعد في هذه السّورة ، والمبايعة مع الرّسول مبايعة مع اللّه تعالى ، كما أن المبايعة مع السّلطان المسلم مبايعة مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ،

قال تعالى "سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ" من غفار ومزينه وجهينة وأشجع وأسلم ، وذلك حين رجوعه من غزوته هذه إلى المدينة ، أي غزوة الحديبية معتذرين من تخلفهم عن الذهاب معه ، وهذا من الإخبار بالغيب أيضا لأن هذه الآيات نزلت في الطّريق قبل وصوله

المدينة وتقدم المعتذرين لحضرته بالاعتذار وهو قولهم لك إنا لم نتخلف عنك كلا ولا جبنا ولا لأمر آخر وإنما "شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَأَهْلُونا" عن استصحابك إذ ليس لنا من يخلفنا عليهم ويقوم بأمورهم فيكون خليفتنا فيهم "فَاسْتَغْفِرْ لَنا" يا رسول اللّه ، لانا معترفون بالإساءة والتقصير مع عذرنا هذا راجع الآية 64 من سورة النّساء المارة ، فأكذبهم اللّه بقوله "يَقُولُونَ" لك يا أكمل الرّسل هذا القول "بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ"

(83/711)

من حقيقة التخلف لأنهم أرادوا به تقليل سواد جيش المؤمنين وخذلانهم وأن يبينوا لأهل مكة أنهم ليسوا مع الرّسول بسبب ما هو كامن في قلوبهم من النّفاق والعداء للرسول وأصحابه ، فهذا هو سبب تخلفهم لا ما اختلقوه من العوز الكاذب ، وان طلبهم الاستغفار صورة ، لأنهم لا يعتقدون منفعته وحقيقته "قُلْ" يا سيد الرّسل لهؤلاء الكاذبين إذا كان الأهل والمال عائقين عن الذهاب للجهاد أو لمجرد استصحابك "فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا" القتل أو الهزيمة أو خلل بالمال والأهل أو مجرد عقوبة على تخلفكم هذا "أَوْ أَرادَ بِكُمْ" ما يضاد ذلك من كلّ أنواع الخير مما يعدّ رزقا تنتفعون به "نَفْعاً" هل ينفعكم غير اللّه ، وهل يكشف الضّر عنكم غيره ؟ فسيقولون لك كلا لا أحد البتة ،

ولذلك فلا محل لقبول عذرهم "بَلْ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً" (11) وقد أخبر اللّه رسوله بأنكم ستعتذرون في هذه الأعذار الواهية بألسنتكم وتخفون ضدها ، والأمر ليس كما ذكرتم بل كما قلت لكم "بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً" وقلتم إن أهل مكة سيستأصلونهم جميعا فلا يرجعون إلى المدينة "وَزُيِّنَ ذلِكَ" الظن من قبل الشّيطان "فِي قُلُوبِكُمْ" وقطعتم بصدقه "وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ" بأن اللّه تعالى مخلف وعده لرسوله فينهزم ويغلب "وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً" (12) بائرين هالكين "وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ" ويظن بهما هذا الظّن السّيء الذي يؤدي إلى كفره "فَإِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ" سماهم كافرين هنا لأنهم ظنوا باللّه اخلاف وعده لرسوله ، ومن يظن هذا الظّن فهو كافر ويكون مأواه "سَعِيراً" (13) نارا متأججة ، لأنه لم يصدق قول اللّه ورسوله ولو صدق لما ظن هذا الظّن ، ثم إن اللّه تعالى لم يقطع أمل المنافقين منه إذا

تابوا وأنابوا ونصحوا ، وقد فسح لهم الأمل بقوله جل قوله "وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" يقيم فيهما من يشاء من خلقه وكلّ من وما فيهما ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء ، ويختار طائعهم وعاصيهم "يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً" (15) بخلقه

لا يزال يقبلهم

إذا رجعوا إليه مخلصين ، ثم ان حضرة الرّسول بعد أن وصلوا المدينة صار يعرض بغزو خيبر لأن اللّه فتحها وتخصيص غنائمها بالّذين شهدوا الحديبية وأخبره اللّه بما سيقول الّذين لم يشهدوها معه بقوله "سَيَقُولُ" لك "الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ" وقد أظهر اللّه تعالى كذب عذرهم في قولهم هذا لأنهم لم يحتجّوا بأشغالهم وأموالهم وأهليهم كما ذكروا قبل عند طلبهم الاستغفار لما في هذه الغزوة من أمل الغنيمة ، بخلاف الحديبية لأنها كانت للزيارة فقط ، وبان بهذا أن مبنى حالهم على الطّمع ليس إلا "يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا" بطلبهم هذا الالتحاق معكم "كَلامَ اللَّهِ" الأزلي القاضي بعدم ذهابهم وباختصاص غنائم خيبر لأهل الحديبية ، فإذا قبلتم طلبهم فينبغي أن تشركوهم بالغنائم ، واللّه تعالى لم يرد ذلك ، فكأنهم غيروا كلام اللّه ، وهذا هو قصدهم ليس إلّا فيا سيد الرّسل "قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا" أبدا ما دمتم على نفاقكم لا مطلقا لمنافاته لما يأتي بعد "كَذلِكُمْ قالَ اللَّهُ" وأوحى إلى نبيه به "مِنْ قَبْلُ" وصول المدينة أثناء رجوعه من الحديبية لا الآن "فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنا"

على ما يصيبنا مما تعنونه .

قال تعالى "بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا" (15) من كلام اللّه مما فيه نفع لهم فقط وهذا هو الذي سبب حرمانهم لا من كون المؤمنين يحمدونهم .

فيا أكمل الرّسل "قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلى " قتال "قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ "
وعزم قوي ، فإن أطعتم "داعيكم إلى قتالهم كنتم مؤمنين حقا ولكم الأجر من الله
والنّعمة والمغفرة كما سبق من ذنوبكم كلها إلى يوم تلبيتكم هذه الدّعوة ، وإذا أعرضتم
وثبّتم على نفاقكم فلكم العذاب الأليم على ما اقترفتموه وهؤلاء الّذين ستدعون إلى قتالهم
"تُقاتِلُونَهُمْ" فتقتلونهم "أَوْ يُسْلِمُونَ" فيسلمون لكم ويؤمنون بالله ورسوله ولكم بذلك الثواب
الذي ما فوقه ثواب ، لا يقاس بكل الغنائم ، قال صلّى الله عليه وسلم لأن يهدبك الله رجلا
خير لك من حمر النّعم .

وفي هذه الآية بشارة لتحقيق أحد الأمرين النّصر والظّفر أو الإسلام والإيمان "فَإِنْ تُطِيعُوا"
من يدعوكم لقتالهم "يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً لقاء إطاعتكم هذه وكذلك كلّ طاعة
لرسولكم وإمامكم وأميركم
يكون لكم فيها الأجر الحسن والثواب الجليل "وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ" عن واقعة
الحديبية "يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً" (16) لا تطيقه أجسامكم ، وهؤلاء القوم الّذين وصفهم
الله بالحزم البالغ هم هوازن وثقيف لأنهم من أشد العرب بأسا ، وقد نزلت هذه الآية فيهم ،

واللّه أعلم ، والدّاعي هو رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، وهذا التفسير والتأويل أنسب بالمقام لأنه بمعرض الامتحان للمنافقين المذكورين ، وان قوله تعالى (لَنْ تَتَّبِعُونا) مقيد بأمرين في غزوة خيبر لما سبق من أن اللّه تعالى خصص غنائمها لأهل الحديبية ، واستمرارهم على النّفاق ، وعليه فإنهم إذا آمنوا وصدقوا بقلبهم ولسانهم ونصحوا اللّه ورسوله فلا مانع من اتباعهم لحضرة الرّسول في غزواته الأخر .

(86/711)

وما قاله بعض المفسرين من أن المراد بهم فارس والرّوم حينما دعاهم إلى حربهما عمر رضي اللّه عنه زمن خلافته وإن هذه من قبيل الأخبار بالغيب بعيد عن المعنى المراد بسياق الكلام وسياقه ، وأبعد منه القول بأنهم بنو حنيفية أهل اليمامة قوم مسيلمة الكذاب حينما دعاهم لحربهم أبو بكر رضي اللّه عنه في خلافته ، لأن ما نحن فيه ينافي هذين الأمرين لما فيه من عود الكلام إلى غير مذكور ، ولا يوجد ما يدل عليه ، ولا هو معلوم أو مشهور راجع الآية 22 من سورة ص في ج 1 وما هو في معناها مما رمزنا إليه في تفسيرها وإن عود الكلام إلى ما سبق له ذكر كما جرينا عليه أولى بالمقام وأنسب للمعنى المراد وأحسن ، ولأن هاتين الحادثتين وقعتا بعد نزول هذه الآية بسنتين وكونها من الأخبار

بالغيب جائز ككثير من أمثالها ، ولكن مناسبتها لما قبلها يبعد ذلك والله أعلم ، واعلم أن كلّ من تخلف عن دعوة الإمام إلى الحرب دون عذر شرعي فهو منافق يدخل دخولا أوليا في هذه الآية ، لأن تخلفه دليل على عدم نصحه لامامه ، وإن ما في قلبه مخالف لما في لسانه ، وإن حضرة الرّسول لو لم يدعهم إلى جهاد هوازن وثقيف حينما استنفر النّاس لحرب حنين وبني المصطلق الآتي ذكرهما بعد في سورة التوبة الآتية التي قصد بها اختبارهم وإظهار رجوع من رجع منهم عن نفاقه لما جاز ، بل لا متنع أبو بكر وعمر من الاذن لهم بالخروج معهم إلى الجهاد كما امتنعا من أخذ الزكاة من ثعلبة لا متناع رسول اللّه من أخذها منه ، وكما امتنعا من إعادة مروان بن الحكم من منفاه لأن حضرة الرّسول طرده من المدينة لأنهم لا يخالفون رسولهم قيد شعرة قولا ولا فعلا حيا كان أو ميتا ، وهذا مما يدل على صحة ما ذكرناه وعلى أن الدّاعي هو حضرة الرّسول لا أبو بكر ولا عمر رضي اللّه عنهما .

(87/711)

واعلم أن من قال أن الدّاعيين أبو بكر وعمر استدل على صحة خلافتهما ، إذ وعد المدعوين بالثواب على طاعة الدّاعين وليس بشيء ، وخلافتهما لا يمتري فيها إلّا منافق أو حسود فاسق .

ولما سمع الزمنى والمرضى والعرج والعميان هذه الآية قالوا كيف حالنا يا رسول اللّه ؟ فأنزل اللّه جل شأنه "لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ" في التخلف عن الجهاد لعدم قدرتهم على الكر والفر ويدخل في هذه الآية الفقير الذي لا يمكنه استصحاب ما يلزمه من أدوات الجهاد ولم يمنحه الإمام أو الأمير شيئا يكفيه لذلك ويدخل في هذه الآية من يمرض المريض كما سيأتي في الآيتين 93 و94 من سورة التوبة الآتية ، أما ما جاء في آية النّور 62 المارة المضاهية لهذه الآيات من حيث اللّفظ فهي في حق الأكل لا في حق الجهاد إذ كلّ منها جاءت لمناسبة ما قبلها "وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ" عن أمرهما ويعرض عنهما "يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً" (17) في الدنيا والآخرة .

(88/711)

قال تعالى "لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ" من الصّدق والإخلاص في بيعتهم لك والوفاء بما عاهدوك به وواثقوك عليه ، لأنهم صرحوا بالموت وعدم الفرار في مبايعتهم وما بعد هذا من وفاء كما علم ما في قلوب المنافقين من الشّك والنّفاق والظّن السّيء "فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ" وثبتهم واطمأنت نفوسهم "وَأَثابَهُمْ"

على ذلك "فَتْحاً قَرِيباً" (18) لأراضي خيبر وقراهم "وَمَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها" منها ومن غيرها فيما يأتي من الزمن إلى يوم القيامة إن شاء اللّه "وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً" (19) ولم يزل كذلك على الدّوام والاستمرار "وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ" مغانم خيبر لتسدوا حاجتكم فيها ، وهي في جنب ما يأتيكم بعد قليل من كثير ، وفيها إشارة إلى كثرة

الفتوحات والغنائم التي يعطيهم اللّه تعالى إيّاها في المستقبل "وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ" أي أهل خيبر إذ وقع في قلوبهم الرّعب فلم يجرؤا على قتالكم ، وكذلك حلفاؤهم أسد وغطفان كفّهم عنكم وألقى في قلوبهم الرّعب فمالوا إلى الصّلح كما سيلقيه في قلوب أهل مكة فيستسلمون لكم "وَلِتَكُونَ" هذه الفتوحات والغنائم "آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ" وعبرة يعرفون بها مكانتهم عند اللّه وضمانة لهم بالنصر والفتح وعظة لأعدائكم كي لا يجرءوا على مقابلتكم ، ودلالة على صدق ما وعد الرّسول بذلك وإيقانا بأن إخباره بالغيب حق وصدق ثابت واقع لا مرية فيه ، فيزدادوا إيمانا ويقينا بما يخبر "وَيَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً" (20) بمنه وفضله

"وَأُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها" فهي مؤخرة تأتيكم بعد "قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها" وحفظها لكم ومنع الغير من تناولها حتى وإن فتحها من قبلكم أيها المؤمنون فتأخذونها أيضا قال ابن عباس هي فارس والرّوم ، لأن العرب كانت لا تقدر على قتالهما ، وكان ذلك زمن الخلفاء الرّاشدين .

وهذا من الإخبار بالغيب فيدخل فيه كلّ ما وقع من الفتوحات والغنائم بعد نزول هذه الآية ، سواء الذي زمن الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم أو زمن الخلفاء الرّاشدين فمن بعدهم "وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً" (21) بذل لعظمته كلّ شيء ولا يعجزه شيء فتشمل هذه الآية كلّ فتح وغنيمة حازها المسلمون مما وقع ويقع إلى آخر الدّوران ، فنسأل اللّه أن يقدرهم على إعادة عزّهم وعلو كلمتهم ، ويجمع شملهم ، ويوحد خطتهم ، إنه على كلّ شيء قدير وبالإجابة جدير ، وما شيء على اللّه بعزيز .

قال تعالى "وَلَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا" من أسد وغطفان حلفاء خيبر ، وذلك لنهم قالوا لبعضهم إذا اشتغل المسلمون بحرب حلفائنا أهل خيبر نميل عليهم فنسبي ذراريهم فمنعهم اللّه بإلقاء الخوف في قلوبهم ولذلك قال "لَوَلَّوُا الْأَدْبارَ" منهزمين "ثُمَّ لا يَجِدُونَ" لو أقدموا على قتالكم "وَلِيًّا" يواليهم عليكم "وَلا نَصِيراً" (22) ينصرهم أبدا .

واعلموا أن ما يفعله اللّه لأوليائه من النّصر خذلان لأعدائه ، وليس هذا بأمر مبتدع بل هو "سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ" في نصرة أحبابه وكبح أعدائه الجارية قبل للأنبياء

وأتباعهم جارية لك ولأصحابك يا محمد "وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا"

(23) ولا تغييرا بل تبقى مستمرة للرسل وأتباعهم إذا ساروا على سنتهم ما دام الملوان ، وإن اللّه كما أنجز وعده لمن قبلك منجزه لك ، لا يحول دون ما يريده حائل البتة .

(90/711)

ثم شرع يذكر حضرة الرّسول وأصحابه نعمته في صلح الحديبية ، فقال "وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ" في حرمها ، لأن قسما من الحديبية داخل فيه ولو وقع الحرب فيها لامتد إلى نفس البيت حتما "مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ" أي مكنكم منهم بالمبايعة الحقيقة الواقعة عن رغبة شديدة في القتال "وَكَانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً" (24) لا يخفى عليه شيء ولا يفلت منه شيء ولا يغفل عن شيء .

(91/711)

أخرج مسلم عن أنس رضي اللّه عنه أن ثمانين رجلا من أهل مكة (يوم الحديبية) هبطوا على رسول اللّه من جبل التّنعيم مسلحين يريدون الغدر برسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم

وأصحابه ، فأخذهم سبايا فاستحياهم وقال عبد اللّه بن معقل المزني هم ثلاثون شابا ، فدعا عليهم رسول اللّه فأخذ اللّه أبصارهم وأخذناهم ثم خلى سبيلهم رسول اللّه ، فنزلت هذه الآية بمعرض المن على رسول اللّه من ربه عزّ وجل قال تعالى "هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ" ومنعوكم من دخوله "وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً" محبوسا وممنوعا عن "أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ" الذي يذبح فيه تقربا إلى اللّه "وَلَوْلا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِساءٌ مُؤْمِناتٌ" ستضعفون عند أهل مكة "لَمْ تَعْلَمُوهُمْ" أثناء القتال لو فرض إيقاعه فيوشك "أَنْ تَطَؤُهُمْ" فتوقعوا بهم القتل لعدم معرفتكم بهم بسبب اختلاطهم مع أعدائكم أو تتسببوا بقتلهم من قبل أعدائكم انتقاما "فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ" اثم عظيم بسبب قتلهم وتغريمكم دينهم والزامكم الكفارات بسبب قتلكم إياهم "بِغَيْرِ عِلْمٍ" منكم بأنهم مؤمنون لاختلاطهم مع الكفار ، فلولا هذا لما القى في قلوبهم قبول الصّلح الذي فيه اجحاف عليكم فقبلتموه على علاته ، والا لأذن لكم بالقتال في بطن مكة ليس في حرمها فقط ، ولدخلتم مكة عنوة بإذن اللّه وحاربتموهم في عقر دارهم وتوفقتم عليهم وأديتم الزيارة التي جئتم لأجلها رغما عنهم ، ولكن لم يأذن اللّه لكم في ذلك وحال دون هذه الواقعة المنصورة خوف إضرار أولئك

المساكين وعدم تأثيمكم ، ولوجود أناس من الكفار علم اللّه أنهم سيؤمنون بعد ، إذ لم يحن الوقت المقدر لإيمانهم ، كما أن فتح مكة لم يأت أجله ولم يفعل اللّه تعالى ذلك إلا "لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ" من أهل مكة الّذين ما نعوكم من دخولها فيهديهم للأسلام ، وقد كان ذلك ، أما إنهم "لَوْ تَزَيَّلُوا" تفرقوا وامتازوا المؤمن من الكافر وأمن ذلك المحذور "لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً" (25) بأن هدينا كم للقتال ومنعناكم من قبول الصّلح ونصرناكم عليهم سبيا وجلاء وقتالا ، ولكن لم يرد اللّه هذا لما ذكر .

ثم ذم اللّه الكفرة على ما وقع منهم أثناء كتابة

الصّحيفة بما اتفق عليه من الصّلح بقوله "إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ" الأنفه والاستكبار ، إذ لم يقروا بسم اللّه الرّحمن الرّحيم ، ولا محمد رسول اللّه محتجين بعدم اعترافهم بهما ، مع أنهما حق صريح لأن اللّه أنزل البسمة على رسوله وشرفه بالرسالة ، وقد أخبرهم بذلك ، ولكن تعاظمهم أبى عليهم قبول الحق حتى في الكتابة ثم أنهم لم يتركوهم ليزوروا البيت ويذبحوا هديهم فيه لئلا يقال أنهم غبنوا في ذلك ورغموا عليه ثم انهم اشترطوا على محمد أن يرد من جاءه منهم ولم يردوا من جاءهم من أصحابه .

(93/711)

فكانت هذه الشروط المجحفة "حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ" استولت عليهم فأخذت على قلوبهم بها ليس إلا ، وإلّا فماذا يضرهم لو تركوهم يزورون ويذبحون نسكهم ويكتبون اسم اللّه ورسوله ويقابلونهم بالمثل فيمن يأتي من الطّرفين ، ولهذا اغتاظ المؤمنون وأبوا ألا أن يكون ما رفضوه أو يقاتلونهم "فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ" طمأنيته ووقاره وانائته "عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ" فأزال غضبهم وحنقهم ووسع صدورهم حتى خضعوا لذلك وعصمهم اللّه من أن يداخل قلوبهم شيء من الأنفة التي أخذت سهيلا ورفاقه الّذين تولوا تدوين شروط المعاهدة المشار إليها في الآية 10 من سورة الممتحنة المارة وقبولها مع الكراهة .

قال تعالى (فَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً) الآية 18 من سورة النّساء المارة ، وكان كذلك كما ذكرناه في الآية 75 من سورة النّساء أيضا فراجعها "وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى " المندرج تحتها السّمع والطّاعة والإخلاص والثبات والصّبر والوفاء وكل خير "وَكانُوا" أصحاب محمد أهل بيعة الرّضوان "أَحَقَّ بِها" بتلك الكلمة المنطوية على فروع كثيرة من كفار المتلبسين بكلمة الكفر "وَأَهْلَها" المؤمنون المتلبسون بها ، لأنهم الموحدون اللّه المتصفون بتقواه فهم أولى بالتّسربل بها ، لأن اللّه كتبها لهم في علمه الأزلي "وَكانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً" (26) ومن جملتها علمه بأن هذا الصّلح الذي يراه المؤمنون مجحفا فيهم خير لهم لما فيه من الفوائد التي سيطلعهم اللّه عليها بعد ، والنّوائب للكافرين التي سيريهم إياها .

هذا وكان صلّى اللّه عليه وسلم قبل أن يخرج إلى الحديبية رأى في المنام أنه دخل المسجد الحرام وأصحابه آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين ، فقصها على أصحابه ، فلما كان الصّلح ورجعوا دون أن يدخلوها قال المنافقون أين رؤياه التي رآها ؟ فشق ذلك على المسلمين ، فأنزل اللّه على طريق الحكاية عن رسوله صلّى اللّه عليه وسلم قوله عز قوله "لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ" الذي لا مرية فيه ، ثم أقسم جل شأنه تأكيدا لإنجاز وعده هذا لنبيه صلّى اللّه عليه وسلم وأصحابه رضوان اللّه عليهم "لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ" لا يقوتكم وإرادتكم ولتكونن "آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ" منها "لا تَخافُونَ" أحدا أبدا ، وهذا الاستثناء في قوله تعالى مع أن وعده حق واخباره صدق لا شبهة فيه عبارة عن تعليم عباده الأدب لئلا يجزموا بشيء مهما كان محققا ومهما كان عزمهم فيه جازما بإنجازه ، لأنهم لا يعلمون ما يقدر اللّه من الحوائل دون تنفيذ ما صمموا على إجرائه ، ولذلك أراد منهم الاستثناء في كلّ أمورهم بان لا يقسموا على فعل شيء أو يجزموا على اجرائه إلّا أن يقرنوا مشيئه اللّه معه ، ولهذا أمرهم بقوله جل قوله (وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ) الآية 24 من سورة الكهف في ج 2 "فَعَلِمَ" اللّه

تعالى من الخير في هذا الصّلح لكم "ما لَمْ تَعْلَمُوا" أنتم ولا غيركم عاقبته الحسنة ، ولو علم أعداؤكم نتيجته كما وقعت لما فعلوه ، لأن اللّه كادهم فيه "فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذِلكَ" قبل نهاية أجل تلك المعاهدة "فَتْحاً قَرِيباً" (27) عظيما هو فتح مكة المذكور في الآية 75 من سورة النّساء المارة ، وقد شرح فيه صدور المؤمنين وروح ما فيها من الاغبرار ، ثم رجعوا من العام

(95/711)

المقبل ودخلوا مكة محلقين ومقصرين ، وأعقبه اللّه بفتح مكة قبل مرور سنتين على ذلك الصّلح ، وقد مر سبب نقضه وكيفيته في قصة الحديبية في الآية 10 من سورة الممتحنة المارة ، وقصة خيبر وقصة الفتح مرتا آنفا ، وإلى هنا تنتهي الآيات النازلة في الطّريق ، وإنما كانت متوالية وموضحة للحادثة ، ولم تكن بالاشارة والتعريض كغيرها لازالة ما في قلوب المؤمنين من الغيظ الذي لحقهم بسبب تلك الشروط التي أدرجت في صك المعاهدة ، لأنهم رأوها منقصة لقدرهم وضارة بهم لعدم علمهم بعاقبتها ، إذ وقع الخسار و الخيبة والذل لأعدائهم فيها مما لم يتصوروه ولهذا قال بعض المفسرين إن هذه السّورة نزلت كلها في الطّريق تسامحا لنزول هذه الآيات .

مطلب فيما امتاز به أصحاب محمد صلّى اللّه عليه وسلم ودينه ووصف أصحابه والتوقي من ذكرهم بسوء :

قال تعالى : "هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ" دين الإسلام دين ابراهيم عليه السّلام "لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ" بحيث لا يبقى على وجه الأرض غيره ، وسيكون هذا بعد نزول عيسى عليه السّلام فعلا إن شاء اللّه ، أما بالقوة فقد ظهرت تعاليمه وعمت وجه الأرض ودان به أهلها من حيث لا يعرفونه ، وهذه شهادة من اللّه تعالى لهذا الدّين الحنيف "وَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً" (28) على ذلك فلا قيمة لإنكار المنكرين وتكذيب المكذبين مع هذه الشّهادة القيمة .

(96/711)

ثم صرح باسم هذا الرّسول الذي أظهره دينه على الأديان ، فقال عز قوله "مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ" كما صرح باسمه الشّريف في الآية 144 من آل عمران والآية 2 من سورته المارات أي أن هذا الرّسول العظيم صلّى اللّه عليه وسلم "وَالَّذِينَ مَعَهُ" من أصحابه الكرام والمؤمنين الصّادقين "أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ" أوداء رؤفاء بعضهم على بعض بمثابة الوالد على الولد ، لا يثنيهم عن مقاتلة الكفار أحد لشدة إيمانهم باللّه ومتانة عزمهم وقوة

شكيمتهم واتفاق كلمتهم ، وبمقابلة هذه الأوصاف الرّقيقة يقابلون أعداءهم بتلك الأوصاف الغليظة ، ومع هذا فإنك "تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً" لمرضات ربهم "يَبْتَغُونَ" بتواددهم بعضهم وعبادتهم

(97/711)

لربهم جل وعلا "فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْواناً" لا سمعة ولا رياء ولا غرضا ولا عوضا "سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ" نورا ساطعا يوم القيامة "مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ" غرّة في جباههم وتجميلا في أيديهم وأرجلهم ، يسطع نورا أيضا من آثار الوضوء فإنهم يحشرون غرا محجّلين كما جاء في الحديث الصّحيح ، لأعضائهم بريق ولمعان يعرفون بهما بين النّاس "ذلِكَ" المثل الموصوف به محمد وأتباعه في هذا القرآن هو "مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ" أيضا ، وقد تم الكلام هنا فينبغي أن يوقف عليه ثم يبتدأ القارئ مستأنفا بقوله تعالى "وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ" فراخه وما تفرع عنه في جوانبه أي شواطئه "فَآزَرَهُ" عضده وقواه ومكّنه "فَاسْتَغْلَظَ" ذلك الزرع وقوي وتمكن "فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ" أصوله وقصبه وجذوعه وصار "يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ" بادي الرّأي لحسن نباته وكثرة فروعه وقوة جذوره ، وهذا مثل ضربه اللّه تعالى إلى سيدنا محمد وأصحابه في الإنجيل بان قوما يخرجون بعد فينبتون نبات الزرع أي يكونون

قليلين ثم يكثرون ، فالزرع محمد والفروع أصحابه والمؤمنون به ، وإنما جعلهم اللّه كذلك "لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ" ويوقع في قلوبهم الرّعب منهم بسبب اتحادهم ومحبتهم بعضهم لبعض ، وتعاونهم على عدوهم ، وبذلك "وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً" لذنوبهم وسترا لعيوبهم في الدّنيا "وَأَجْراً عَظِيماً" (29) في الآخرة ، وهذا مما يزيد غيظ الكافرين فضلا عن أنه تعالى وعدهم النصر في الدّنيا والعزة في العقبى .

(98/711)

وفي هذه الآية ردّ لقول الرّوافض بأنهم كفروا بعد وفاته صلّى اللّه عليه وسلم فحاشا ثم حاشا ، وهل يعد اللّه هذه المغفرة والأجر إلّا لأوليائه الّذين ثبتوا على ما عاهدوا اللّه عليه وماتوا على ما واثقوا رسوله به ، راجع الآية 10 من سورة الحشر المارة تقف على ما يتعلق في هذا البحث .

أما ارتداد من لم يتمكن الإيمان في قلوبهم ولم تتشربه جوارحهم عند وفاته صلّى اللّه عليه وسلم ولا يكون دليلا لقولهم ، كيف وقد أخبر رسول اللّه عنهم فيما أخرجه الترمذي عن عبد الرحمن بن عرف أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال أبو بكر في الجنّة وعمر في الجنّة وعثمان بن عفان في الجنّة وعلي بن أبي طالب في الجنّة وطلحة في الجنّة والزبير في

الجنّة وعبد الرّحمن

ابن عوف في الجنّة وسعد بن أبي وقاص في الجنّة وسعد بن زيد في الجنّة وأبو عبيدة بن الجراح في الجنّة .

وأخرج عن سعيد بن زيد مثله وقال هذا أصح من الأوّل وعن أنس بن مالك قال قال صلّى اللّه عليه وسلم أرحم أمتي بأمتي أبو بكر وأشدهم في أمر اللّه عمر وأشدهم حياء عثمان وأقضاهم علي وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل وأفرضهم زيد بن ثابت وأقرأهم أبيّ بن كعب ، ولكل قوم أمين وأمين هذه الأمة عبيدة بن الجراح ، وما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر أشبه عيسى في ورعه ، قال عمر فتعرف له ذلك يا رسول اللّه ؟ قال نعم – أخرجه الترمذي في موضعين – وروى البخاري عن أنس أن رسول اللّه صلّى الله

(99/711)

عليه وسلم صعد أحدا وأبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فقال أثبت أحد (قال أنس أراه ضربه برجله) فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان وهذا من الإخبار بالغيب ومن جملة معجزاته صلّى اللّه عليه وسلم لأن عمر وعثمان ماتا شهيدين وقضية قتلهما معروفة

ومشهودة رضي اللّه عنهما وأرضاهما راجع الآية عشرة من سورة الحشر تجد ما يتعلق بهذا – وروى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لا تسبوا أصحابي فو الذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه فبعد هذا أيها النّاس أيليق بمسلم أن يذكر أصحاب محمد بسوء ، وهل يجوز أن يقال فلان منهم أخطأ وفلان أصاب ولو فعل كذا لكان كذا وقد جفت الصّحف ورفعت الأقلام بما وقع منهم ، وهم أعلم النّاس وأحسنهم وأرضاهم للّه بعد رسوله ، فعلى العاقل أن يكف لسانه وسمعه عن ذكرهم إلّا بخير ، ويعتقد أن ما وقع منهم مجرد اجتهاد تحروا فيه الحق ، وإن ساحتهم براءة مطهرة من كلّ ما هو خلاف الأولى بحسب اجتهادهم رضي اللّه عنهم وأرضاهم وحشرنا في زمرتهم ، واللّه يتولى المغالين بعد له وينصر المؤمنين بفضله ، ويمكنهم من أعدائهم بقوته ، ويعلي كلمتهم برحمته آمين .

هذا واللّه أعلم .

وأستغفر اللّه .

ولا حول ولا قوة إلّا باللّه العلي العظيم .

وصلّى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين وسلم تسليما كثيرا دائما إلى يوم الدّين ، ومن تبعهم بإحسان آمين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بيان المعاني حـ 6 صـ 284.264 ﴾

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الفتح

مدنية

مبينا تام عند أبي حاتم بجعل لام ليغفر لام القسم كما مر نظيره وقال غيره إنها لام كي فلا يوقف على مبينا عزيزا تام وكذا مع ايمانهم حكيما تام وتوقروه كاف وأصيلا تام فوق أيديهم كاف على نفسه أكفى منه عظيما تام لنا كاف في قلوبهم حسن نفعا كاف خبيرا حسن بورا تام وكذا سعيرا من يشاء كاف رحيما تام تتبعكم حسن وكذا كلام الله وتتبعونا من قبل كاف وكذا تحسدوننا إلا قليلا تام أو يسلمون كاف حسنا جائز أليما تام ولا على المريض حرج حسن الأنهار كاف أليما تام يأخذونها كاف حكيما حسن الناس عنكم تام عند أبي حاتم مستقيما كاف وكذا قد أحاط الله بها قديرا حسن وكذا ولا نصيرا من قبل كاف تبديلا حسن عليهم كاف بصيرا تام وكذا محله وبغير علم عند أبي حاتم من يشاء كاف عذابا أليما حسن وأهلها تام وكذا عليما لا تخافون صالح قريبا تام كله شهيدا تام محمد

رسول الله حسن إن جعل محمد مبتدأ ورسول الله خبره وليس بوقف إن جعل رسول الله نعتا لمحمد لان قوله والذين معه حينئذ معطوف على محمد فلا يحسن الوقف قبل ذكر المعطوف رحماء بينهم حسن وكذا ورضوانا ومن أثر السجود لكن كل منهما أصلح مما قبله مثلهم أي صفتهم في التوراة تام والمعنى مثلهم في التوراة أنهم أشداء على الكفار الخ كذا بهم الكفار والمعنى ومثلهم في الإنجيل انهم كزرع أخرج شطأه فآزره الخ وقيل الوقف على في الإنجيل لا على في التوراة ولك أن تقول يوقف على كل منهما والمعنى على هذين القولين ومثلهم في التوراة والإنجيل انهم أشداء على الكفار الخ وعليهما يبتدأ بكزرع أي هم كزرع الخ آخر السورة تام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(101/711)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الفتح

مدنية كلمها خمسمائة وستون كلمة وحروفها ألفان وأربعمائة وثمان وثمانون حرفاً 0

مبيناً (تام) عند أبي حاتم بجعل لام ليغفر لام القسم قال أبو جعفر ورأيت الحسن بن كيسان ينكر مثل هذا على أبي حاتم ويخطئه فيه ويعيب عليه هذا القول ويذهب إلى أنها لام كي

فلا يوقف على مبنياً لأنَّ الله أراد أن يجمع لنبيه صلى الله عليه وسلم الفتح في الدنيا والمغفرة في الآخرة فلما انضم إلى المغفرة شيء حازت حسن معنى كي قاله ثعلب قال عطاء الخراساني ليغفر لك الله ما تقدم يعني من ذنب أبويك آدم وحوّاء ببركتك وما تأخر من ذنوب أمتك بدعوتك فالإضافة في ذنبك من إضافة المصدر لمفعوله أي ذنب أمتك لأنَّه لا يسوغ لنا أن نضيف إليه عليه الصلاة والسلام ذنباً وروي أنَّه عليه الصلاة والسلام لما قرأ على أصحابه ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر قالوا هنيأً لك يا رسول الله فما لنا فنزل ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات الآية ولما قرأ ويتم نعمته عليك قالوا هنيأً لك يا رسول الله فما لنا فنزلت وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ولما قرأ ويهديك صراطاً مستقيماً أنزل الله في حق الأمة ويهديكم صراطاً مستقيماً ولما قرأ وينصرك الله نصراً عزيزاً أنزل الله وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ذكره القشيري 0

(فائدة نفيسة) قال المسعودي من قرأ سورة الفتح في أول ليلة من رمضان في صلاة التطوع حفظه الله ذلك العام 0

عزيزاً (تام) عند الأخفش وهو رأس ثلاث آيات من أولها متعلقة بالفتح 0

في قلوب المؤمنين ليس بوقف لأنَّ اللام بعده لام كي 0

مع إيمانهم (حسن) ومثله والأرض

حكيماً (تام) عند أبي حاتم ولا يوقف على خالدين فيها لعطف ما بعده على ما قبله 0

سيآتهم (كاف)

(102/711)

عظيماً ليس بوقف لأنَّ ما بعده منصوب عطفاً على ما قبله ومثله في عدم الوقف

والمشركات لأن الذي بعده نعت لما قبله ظن السوء بفتح السين والإضافة قال في الصحاح

وشاعت الإضافة إلى المفتوح كرجل سوء ولا يقال سوء بالضم وفيه إضافة الاسم الجامد

وقوله ولا يقال يرد بالقراءة المتواترة عليهم دائرة السوء لكن فرق بين إضافة المصدر وغيره

انظر ابن حجر على الشمايل 0

ظن السوء (حسن) ومثله دائرة السوء وكذا ولعنهم 0

جهنم (كاف)

مصيراً (تام)

والأرض (كاف)

حكيماً (تام) ومثله ونذيراً عند أبي حاتم لانتقاله من مخاطبة الرسول إلى مخاطبة المرسل

إليهم وذلك من مقتضيات الوقف عند غيره لأنَّ بعده لام كي فلا يوقف من قوله إنا أرسلناك

إلى وأصيلاً لأن الضمائر كلها لله فلا يفصل بينها بالوقف ووقف أبو حاتم السجستاني على ونذيراً وعلى ويوقروه فرقاً بين ما هو صفة لله وبين ما هو صفة للنبي صلى الله عليه وسلم ووسمه بالتام وقال لأن التعزير والتوقير للنبي صلى الله عليه وسلم والتسبيح لا يكون إلا لله تعالى وقرأ ابن عباس ويعززوه بزايين من العزة وخولف في ذلك لأن قوله ويسبحونه موضعه نصب عطفاً على ويوقروه وكان الأصل ويسبحونه فحذف النون علامة للنصب فكيف يتم الوقف على ما قبله مع وجود العطف على هذه الصفة والهاء في يسبحوه تعود على الله تعالى والهاء في ويوقروه تعود على النبي صلى الله عليه وسلم فالكلام واحد متصل بعضه ببعض والكناية مختلفة كما ترى 0

وأصيلاً (تام) والأصيل العشي ومنه قول النابغة :

وقفت فيها أصيلاً كي أسائلها أعيت جواباً وما بالربع من أحد

إنما يبايعون الله (جائز) على استئناف ما بعده

فوق أيديهم (كاف) للابتداء بالشرط مع الفاء 0

على نفسه (أكفى) مما قبله وعند أبن نصير لا يوقف عليه حتى يأتي بالثاني والأولى الفصل بين الفريقين 0

عظيماً (تام)

من الأعراب ليس بوقف للفصل بين القول والمقول 0

فاستغفر لنا (كاف)

في قلوبهم (حسن)

(103/711)

نفعاً (كاف) وكذا خبيرا

أبداً (حسن) ومثله في قلوبكم وكذا ظن السوء

بوراً (تام) ومثله سعيراً

والأرض (جائز)

ويعذب من يشاء (كاف)

رحيماً (تام)

لتأخذوها ليس بوقف لأن المحكي لم يأت بعد

ذرونا نتبعكم (حسن)

كلام الله (أحسن) مما قبله

لن تتبعونا (حسن)

من قبل (كاف) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل في معنى الجواب لما قبله 0

بل تحسدوننا (كاف) لأن بل الثانية لرد مقولهم والأولى من جملة المقول 0

إلاَّ قليلاً (تام)

من الأعراب ليس بوقف للفصل بين القول والمقول 0

أو يسلمون (كاف) للابتداء بالشرط مع الفاء

أجراً حسناً (حسن) وعند ابن نصير لا يوقف عليه من قبل ليس بوقف لأن جواب الشرط

لم يأت بعد 0

أليماً (تام)

ولا على المريض حرج (كاف) ومثله الأنهار

أليماً (تام)

عن المؤمنين ليس بوقف لأن قوله إذ يبايعونك أراد وقت يبايعونك فهو ظرف لما قبله وهذه

بيعة الرضوان واستحالة عمل في الزمن الماضي معلومة 0

تحت الشجرة (حسن)

عليهم (جائز)

قريباً (حسن) إن نصب ما بعده بفعل مقدر وليس بوقف إن نصب بالعطف على فتحاً أي

أثابهم فتحاً وأثابهم مغانم أي جعله ثواباً لهم

يأخذونها (كاف)

حكيماً (تام)

تأخذونها (جائز)

عنكم (تام) عند أبي حاتم وليس بوقف عند غيره

مستقيماً (حسن) وقيل ليس بوقف لأن وأخرى معطوفة على ومغانم أي ومغانم أخرى

قد أحاط الله بها (كاف) ومثله قديراً

الإدبار (جائز)

ولا نصيراً (تام) إن نصب سنة الله بفعل مقدر أي سن الله سنة فلما حذف الفعل أضيف

المصدر لفاعله وليس بوقف إن نصب بما قبلها

من قبل (كاف)

تبديلاً (كاف) ومثله من بعد أن أظفركم عليهم

بصيراً (تام) ولا يوقف على المسجد الحرام لأن قوله والهدى معطوف على الكاف في

صدوركم 0

(104/711)

محله (تام) ولا وقف من قوله ولولا رجال إلى بغير علم وجواب لولا محذوف تقديره لأذن لكم في القتال أو ما كف أيديكم عنهم وحذف جواب لولا لدلالة الكلام عليه وما تعلق به لولا الأولى غير ما تعلق به الثانية فالمعنى في الأولى ولولا وطء أي قتل قوم مؤمنين والمعنى في الثانية لو تميزوا من الكفار وهذا معنى مغاير للأول قاله أبو حيان وقيل تعلقهما واحد وجواب ولولا رجال مؤمنون وجواب قوله لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا وجاز ذلك لمرجعهما إلى معنى واحد وعلى هذا فلا يوقف على قوله لم تعلموهم لأن قوله أن تطؤهم موضعه نصب أو رفع لأنه بدل اشتمال من الضمير المنصوب في تعلموهم أو من رجال كقول الشاعر :

ولولا رجال من رزام أعزة وآل سبيع أو أسوأك علقماً

فكأنه قال لولا إساءتي لك علقماً فنصب اسوأك على إضمار أن وعطف به على الاسم الذي بعد لولا وكذا لايوقف على قوله أن تطؤهم لأنَّ ما بعده منصوب معطوف على ما قبله ومثله في عدم الوقف بغير علم لأنَّ بعده لام كي 0

من يشاء (جائز) إن جعل جواب لو الثانية لعذبنا وليس بوقف إن جعل جواباً للولا الأولى والثانية 0

أليماً (جائز) وليس بوقف إن جعل لعذبنا متصلاً بقوله إذ جعل الذين كفروا 0

الحمية ليس بوقف لأن حمية بدل من الأولى 0

الجاهلية (جائز) وكذا وعلى المؤمنين وكذا كلمة التقوى

وأهلها (كاف)

عليماً (تام) وبالحق و آمنين و مقصرين وقوف جائزة وآمنين حال من فاعل لتدخلن وكذا

محلقين و مقصرين ويجوز أن يكون محلقين حالاً من آمنين فتكون متداخلة 0

لا تخافون (حسن)

ما لم تعلموا ليس بوقف لمكان الفاء 0

فتحاً قريباً (تام) وهذا الفتح فتح خيبر لا فتح مكة 0

كله (حسن)

شهيداً (تام)

(105/711)

محمد رسول الله (حسن) إن جعل محمد مبتدأ ورسول الله خبره وليس بوقف إن جعل

رسول الله نعتاً لمحمد أو بدلاً ومثله في عدم الوقف إن جعل والذين معه معطوفاً على محمد

والخبر أشداء والوقف حينئذ على الكفار يوقف على الكفار أيضاً إن جعل والذين معه

مبتدأ خبره أشداء ومثله في حسن الوقف إن جعل رحماء خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ

خبره تراهم وليس الكفار بوقف إن جعل رحماء من نعت أشداء وكان وقفه بينهم 0

سجداً (حسن) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل يبتغون في موضع الحال 0

ورضواناً (حسن) ومثله من أثر السجود

ذلك مثلهم في التوارة (تام) أي مثلهم في التوارة أنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم الخ وقيل

الوقف على الإنجيل وإن المثلين لشيء واحد قال محمد بن جرير لو كانا لشيء واحد لكان

وكزرع بالواو والقول الأول أوضح وأيضاً لو كانا لشيء واحد لبقي قوله كزرع منفرداً

محتاجاً إلى إضمار أي هم كزرع وما لا يحتاج إلى إضمار أولى 0

شطأه ليس بوقف لمكان الفاء

فآزره (حسن) ومثله على سوقه على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل حالاً 0

الزراع ليس بوقف لأنَّ ما بعده لام كي

الكفار (حسن) ومثله الصالحات

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(106/711)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة الفتح :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ : "تُعَزِّرُوه1" ، خفيفة ، مفتوحة التاء ، مضمومة الزاي – الجحدري .

قال أبو الفتح : "تُعَزِّرُوه" ، أي : تمنعوه ، أو تمنعوا دينه وشريعته ، فهو كقوله "تعالى" : ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ2﴾ ، أي : إن تنصروا دينه وشريعته ، فهو على حذف المضاف .

وأما "تُعَزِّرُوه" ، بالتشديد فتمنعوا منه بالسيف ، فيما ذكر الكلبي . وعزرت فلانا ، أي : فخمت أمره . قالوا : ومنه عزرة : اسم الرجل ، ومنه عندي قولهم : التعزير ، للضرب دون الحد ، وذلك أنه لم يبلغ به ذل الحد الكامل وكأنه محاسنة له ومباقة فيه .

قال أبو حاتم قرأ : "تُعَزِّزوه" ، بزايين – اليمامي3 ، أي : يجعلوه عزيزا .

ومن ذلك قراءة تمام بن عباس بن عبد المطلب : "إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ4" .

قال أبو الفتح : هو على حذف المفعول ؛ لدلالة ما قبله عليه ، فكأنه قال : إن الذين يبايعونك إنما يبايعونك لله ، فحذف المفعول الثاني ؛ لقربه من الأول ، وأنه أيضا بلفظه وعلى وضعه .

وهذا المعنى وهو راجع على معنى القراءة العامة : ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ ، أي : إنما يفعلون ذلك لله ، إلا أنها أفخم معنى من قوله : "لله" ، أي : إنما المعاملة في ذلك معه ، فهو

أعلى لها وأرجح بها .

---

1 سورة الفتح : 9 .

2 سورة محمد : 2 .

3 ذكر السمعاني في الأنساب : 306 جماعة من المحدثين ينسب كل منهم إلى اليمامة ، ويلقب باليمامي .

4 سورة الفتح : 10 .

ومن ذلك قراءة الحسن : "أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ1" .

قال أبو الفتح : نصبه على الحال ، أي : "محمد رسول الله والذين معه" ، فـ"معه" خبر عن الذين آمنوا2 ، كقولك : محمد رسول الله علي معه ، ثم نصب "أشداء" و"رحماء" على الحال ، أي : هم معه على هذه الحال ، كقولك : زيد مع هند جالسا ، فتجعله حالا من الضمير في معه3 ، لأمرين :

أحدهما قربة منه ، وبعده عن زيد .

والآخر ليكون العامل في الحال - أعني الضمير - هو العامل في صاحب الحال4 ، أعني

الظرف .

ولو جعلته حالا من الذين كان العامل في الحال غير العامل في صاحبها ، وإن كان ذلك جائزا ، كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا 5 ﴾ ، إلا أن الأول أوجه . وإن شئت نصبت أشداء ورحماء على المدح ، وأصف وأزكى أشداء ورحماء .

وكسر رحيم على رحماء – فعلاء – وشديد على أشداء – أفعلاء – كراهية التضعيف في أشداء ، وقد وجدوا له نظير على أفعلاء ، فقالوا : صفي وأصفياء ، ووفي وأوفياء ، كراهية لصفواء ووفياء ، لما يجب من الاعتذار من ترك قلب الواو والياء ؛ لتحركهما وانفتاح ما قبلها . فهذا ونحوه مما يدلك ويبصرك أنهم لا يتنكبون شيئا إلى آخر تطربا ولا تبدلا ، لا بل إنعاما وتأملا .

ومن ذلك قراءة عيسى الهمداني – بخلاف – : "شَطَاءُهُ 6" ، ممدود ، مهموز .

---

1 سورة الفتح : 29 .

2 الظاهر من كلام أبي الفتح أنه يحسب الآية : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ ، بدليل قوله : فـ"معه" خبر عن الذين آمنوا ، وأنه يجعل "معه" خبرا لا صلة . وليس في المراجع التي رجعنا إليها ما يشير إلى أن قراءة الحسن على ما يحسب أبو الفتح . قال أبو حيان : وقرأ الحسن : "أَشِدَّاء رُحَمَاء" بنصبهما . قيل : على المدح ، وقيل : على الحال : والعامل فيهما العامل في "معه" ، ويكون الخبر عن المبتدأ المتقدم "تراهم" . وانظر البحر : 8 :

.102

3 أي : في متعلقه ، كما لا يخفى .

4 المراد : ليكون العامل في صاحب الحال - أعني الضمير - هو العامل في الحال ولعل ما ذكرناه هو الأصل القويم للعبارة .

5 سورة البقرة : 91 .

6 سورة الفتح : 29 .

(108/711)

وقرأ عيسى : "شَطْأَه" .

وقرأ الجحدري : "شَطْوَهُ" .

قال أبو الفتح : الشطء : الفراخ للزرع ، وجمعه شطوء . ويقال أيضا : هو الورق . والشطء : السنبل أيضا . شطأ الزرع شطئا ، وأشطأ إشطاء .

ويقال : إن معفر بن حمار البارقي شامت 1 ابنته برقا ، فقالت : يا أبه 2 ، جاءتك السماء ! فقال لها : كيف ترينها ؟ فقالت له : كأنها عين جمل طريف 3 . فقال لها : ارعى غنيماتك ، فرعت مليا ، ثم جاءته فقالت : يا أبه ، جاءتك السماء ! فقال : [149ظ]

كيف ترينها ؟ فقالت : كأنها فرس دهماء تجر جلالها . فقال لها : ارعى غنيماتك ، فرعت مليا ، ثم جاءته فقالت : يا أبه ، جاءتك السماء ! فقال : كيف ترينها ؟ فقالت : سطحت4 وابيضت5 . فقال : أدخلي غنيماتك ، فجاءت السماء بشيء شطأ له الزرع.

ومنه عندي قولهم : شاطئ النهر والوادي ؛ لأنه ما برز منه وظهر ؛ ولهذا سموه السيف ؛ لأنه من لفظ السيف ومعناه . ألا ترى أنهم يصفون السيف بالصقال والانجراد ؟ قال :

كأنني سيف بها إصليت6

أي : بارز صلت7 . وموجب الوصية في ترتيب أحوال المشتق والمشتق منه في التقدم والتأخر – أن يكون السيف مشتقا من السيف ؛ لأن السيف من صنعة البشر ، والسيف من صنعة القديم "سبحانه" ، فهو أسبق مرتبة في الزمان ، فليكن أسبق مرتبة في الكلام . ألا ترى أن آدم عليه السلام مخلوق من التراب ؟ وهذا واضح .

وأما "شَطْوَهُ" ، بالواو فلن يخلو أن يكون لغة ، أو بدلا من الهمزة . ولا يكون الشطء إلا في البر والشعير8 . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحتسب حـ 2 صـ 274. 276﴾

---

1 شامت برقا : نظرت إليه لترى أين يتجه السحاب ، وأين يمطر ؟

2 يا أبه : لغة في : يا أبت .

3 عين جمل طريف : أصابها شيء فدمعت .

4 تريد أمتد سحابها وانتشر هنا وهناك ، من قولهم : ألف مسطح ، أي منبسط جدا .

5 تريد حفلت بالمطر ، من قولهم : بيض الأناء ، أي ملأه .

6 لرؤية : وانظر الجمهرة : 2 : 19 ، والديوان : 25 .

7 صلت : صقيل .

8 سكت أبو الفتح عن قراءة عيسى الهمداني : "شطاءه" و"شطاء" . وقال في البحر "8 : 102" عن الأخيرة : وقرأ بألف الهمزة زيد بن علي فاحتمل أن يكون مقصورا وأن يكون أصله الهمز ، فنقل الحركة ، وأبدل الهمزة ألفا ، كما قالوا في المرأة والكمأة : المراة والكماة . وهو تخفيف مقيس عند الكوفيين ، وهو عند البصريين شاذ لا يقاس عليه .

(109/711)

وقال العلامة الدمياطى :

سورة الفتح

مدنية والصحيح أنها نزلت بالطريق من صرفه من الحديبية سنة ست ولذا عدت في المدني وآيها عشرون وتسع مشبه الفاصلة خمس بأس شديد أو يسلمون آمنين مقصرين لا تخافون القراآت قرأ ( ) صراطا مستقيما (الآية 2 بالسين قنبل بخلفه ورويس وأشم الصاد زايا

خلف عن حمزة وهي لغة قيس

وقرأ ( ) دائرة السوء (الآية 6 بضم السين ابن كثير وأبو عمرو وخرج ظن السوء الأول والثالث المتفق على فتحهما ومر بالتوبة مع وقف حمزة عليه والأزرق على أصله من الإشباع والتوسط

واختلف في قراءة ( ) لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه ( ) الآية 9 فابن كثير وابو عمرو بالياء من تحت في الأربعة وافقهما ابن محيصن واليزيدي والحسن والباقون بالخطاب

وقرأ ( ) عليه الله (الآية 10 بضم الهاء حفص كما في هاء الكناية ويتبعه تفخيم لام الجلالة

واختلف في ( ) فسيؤتيه أجرا عظيما (الآية 10 فأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي ورويس وخلف بالياء من تحت وانفرد بذلك ابن مهران عن روح وافقهم اليزيدي والباقون بنون العظمة

واختلف في (ضرا) الآية 11 فحمزة والكسائي وخلف بضم الضاد وافقهم الأعمش والباقون بفتحها لغتان كالضعف والضعف وأدغم الكسائي لام) بل ظننتم (واختلف عن هشام وصوب في النشر عنه بالإدغام وقال إنه الذي عليه الجمهور

واختلف في مد ( ) كلام الله (الآية 15 فحمزة والكسائي وخلف بكسر اللام بلا ألف جمع

كلمة اسم جنس وافقهم الأعمش والباقون بفتح اللام وألف بعدها على جعله اسما للجملة وأدغم لام بل تحسدوننا حمزة والكسائي وهشام في المشهور عنه

(110/711)

وقرأ ﴿ ندخله ﴾ الآية 17 و ﴿ نعذبه ﴾ الآية 17 بنون العظمة نافع وابن عامر وأبو جعفر ومر بالنساء وعن الحسن وأثابهم فتحا وأتاهم بمد الهمزة وتاء مثناة فوقية بلا باء من الإيتاء والجمهور من الإثابة وتقدم حكم صراطا آنفا ووقف على سنت بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب

واختلف في ( ) بما تعملون بصيرا (الآية 24 فأبو عمرو بالياء على الغيب والباقون بالخطاب

وقرأ ﴿ تطوهم ﴾ الآية 25 بحذف الهمزة أبو جعفر ويوقف به لحمزة كما نقله صاحب النشر عن نص الهذلي وغيره والقياس بين بين فهما وجهان وأدغم ذال إذ جعل أبو عمرو وهشام ودال لقد صدق أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف وأبدل همز الرويا واوا ساكنة الأصبهاني عن ورش وابو عمرو بخلفه وكذا أبو جعفر لكنه يقلب الواو ياء ويدغمها في الياء بعدها وقول الأصل ولم يبدلها يعني همزة الرؤيا ورش من طريقيه ليس كذلك بل

يبدلها من طريق الأصبهاني من غير خلاف كما تقرر هنا والصافات والإسراء ويوسف وأمالها الكسائي وقللها الأزرق وأبو عمرو بخلفهما ويوقف عليه لحمزة بالإبدال واوا ساكنة على القياسي وبياء مشددة كقراءة أبي جعفر ونقل في النشر جوازه عن الهذلي وغيره لكن قال إن الإظهار أولى وأقيس وعليه أكثر أهل الأداء ويوقف له على رؤسكم بالتسهيل بين بين على القياس وبالحذف قاله في النشر وهو الأولى عند الآخذين باتباع الرسم وعن الحسن أشداء و رحماء بالنصب على المدح أو الحال من الضمير المستكن في معه لوقوعه صلة وخبر المبتدأ وحينئذ تراهم وركعا سجدا حالان لأن الرؤية بصرية وقرأ رضوان بضم الراء أبو بكر

وأمال سيماهم حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق وابو عمرو بخلفهما وعن الحسن آثار بالجمع ومر حكم إمالة التوراة في بابها وأول آل عمران وعن الحسن الإنجيل بفتح الهمزة وقرأ بالنقل ورش كحمزة وقفا وله السكت في الحالين كعدمه وصلا وورد أيضا عن ابن ذكوان وحفص وإدريس بخلفهم

(111/711)

واختلف في (شطأه) الآية 29 فابن كثير وابن ذكوان بفتح الطاء وافقهما ابن محيصن من المفردة والباقون بإسكانها وهما أختان كالسمع والسمع يقال أشطأ الزرع أي أخرج فراخه وهو سنبل يخرج حول السنبلة الأصلية وشط الشجر أغصانها ويوقف عليه لحمزة بالنقل فقط

واختلف في (فآزره) الآية 29 فابن ذكوان وهشام من طريق الداجوني بقصر الهمزة والباقون بالمد لغتان ووزن المقصور فعله والممدود أفعله عند الأخفش وفاعله عند غيره لكن قال في الدر غلطوا من قال إنه فاعل بأنه لم يسمع توازر بل توزر ويوقف عليه لحمزة بالتحقيق والتسهيل بين بين لأنه متوسط بغيره

وأمال فاستوى حمزة والكسائي وخلف وافقهم الأعمش وبالفتح والصغرى الأزرق

وقرأ ﴿ سؤقه ﴾ الآية 29 بالهمز قنبل وروى له زيادة واو بعد الهمزة كما بين في النمل

وضم الهاء والميم من بهم الكفار حمزة والكسائي وخلف وصلا وكسرهما أبو عمرو ويعقوب وكسر الهاء وضم الميم الباقون

المرسوم نافع كغيره ﴿ بما عهدوا) ﴾ بحذف الألف تخفيفا واتفقوا على الألف في (سيماهم) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الفتح "

" ليغفر " صراطا ، ويكفر ، عليهم ، مصيرا ، ومبشرا ، أيديهم ، خبيرا ، أهليهم ، سعيرا ، يغفر ، انطلقتم ، بأس جلي .

" دائرة السوء " رقق ورش راء دائرة وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بضم السين والباقون بفتحها ، ولورش فيه التوسط والطول وصلا ووقفا مع السكون المحض والروم وقفا كوقفه على شيء ، ولحمزة وهشام النقل والإدغام مع السكون المحض والروم ، واعلم أن قوله تعالى: الظانين بالله ظن السوء . وقوله تعالى: وظننتم ظن السوء لا خلاف بين العشرة في قراءتهما بفتح السين .

" لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه " قرأ ابن كثير وأبو عمرو بياء الغيبة في الأفعال الأربعة وغيرهما بتاء الخطاب ، ولا يخفى ترقيق ورش في وتعزروه وتوقروه وصلة المكي في وتعزروه وتوقروه وتسبحوه .

" عليه الله " قرأ حفص بضم هاء الضمير وصلا والباقون بكسرها ولا يخفى إسكانها وقفا للجميع ، كما لا يخفى أن حفصا يفخم لام اسم الجلالة وغيره يرققه .

" فسيؤتيه " قرأ المدنيان والمكي والشامي وروح بالنون وغيرهم بالياء التحتية ، ولا يخفى

حال إبدال همزه وصلة هائه .

" ضرا " قرأ الأخوان وخلف بضم الضاد والباقون بفتحها .

" كلام الله " قرأ الأخوان وخلف بكسر اللام من غير ألف وغيرهم بفتحها وألف بعدها .

" يدخله ، يعذبه " قرأ المدنيان والشامي بالنون فيهما والباقون بالياء التحتية فيهما .

" أليما " آخر الربع .

الممال

الدنيا معا بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه ، أوفى والأعمى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . الكافرين بالإمالة للبصري والدوري ورويس والتقليل لورش .

المدغم

" الصغير " " فاستغفر لنا " للبصري بخلف عن الدوري ، بل ظننتم للكسائي وهشام ، بل تحسدوننا لهشام والأخوين .

" الكبير " ليغفر لك ، تقدم من ، والمؤمنات جنات ، سيقول لك ، يغفر لمن ، ويعذب من "

" عليهم ، كثيرة " صراطا ، تقدروا ، قديرا ، نصيرا ، وهو ، ليظهره ، مغفرة ، قلوبهم الحمية بهم الكفار ، رءوسكم ، جلي .

" بما تعملون بصيرا " قرأ ابو عمرو بالياء التحتية ، وغيره بالتاء الفوقية .

" أن تطئوهم " فيه لورش ثلاثة البدل ، ولأبي جعفر حذف الهمزة فينطق بواو ساكنة بعد الطاء المفتوحة ولحمزة وقفا وجهان: الأول الحذف كأبي جعفر ، والثاني تسهيل الهمزة بين بين .

" الرؤيا " أبدل همزه مطلقا السوسي وأبدل مع الإدغام في الحالين أبو جعفر ، ولحمزة في الوقف وجهان: الأول كالسوسي ، والثاني كأبي جعفر .

" ورضوانا " ضم الراء شعبة وكسرها غيره .

" شطأه " قرأ ابن كثير وابن ذكوان بفتح الطاء ، وغيرهما بإسكنها ، ولحمزة إن وقف عليه النقل فحسب ، فينطق بطاء مفتوحة فهاء ساكنة .

" فآزره " قرأ ابن ذكوان بقصر الهمزة ، وغيره بمدها ، ولحمزة في الوقف عليه تحقيق الهمزة وتسهيلها .

" سوقه " قرأ قنبل بهمزة ساكنة بعد السين ، بدلا من الواو ، وعنه أيضا ضم الهمزة بعد السين وبعدها واو ساكنة وهذا الوجه صحيح مقروء به وإن لم يذكر في التيسير والباقون بواو ساكنة بعد السين .

" عظيما " آخر السورة وآخر الربع .

الممال

" الناس " لدوري البصري ، وأخرى ، وتراهم بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش . التقوى وسيماهم بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه ، الرؤيا ، بالإمالة للكسائي وخلف في اختياره ، وبالتقليل للبصري وورش بخلف عنه .

" شاء " لابن ذكوان وخلف وحمزة ، بالهدى وكفى فاستوى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه ، التوراة بالإمالة لابن ذكوان والبصري والكسائي وخلف في اختياره وبالتقليل لحمزة وورش وقالون بخلف عنه . الكفار المجرور ، وهو الواقع قبل رحما بالإمالة للبصري والدوري ، والتقليل لورش .

المدغم

" الصغير " " إذ جعل " للبصري وهشام ، لقد صدق للبصري وهشام والأخوين وخلف .

(114/711)

" الكبير " فعلم ما معا ، فعجل لكم ، أرسل رسوله ، الكفار رحماء ، السجود ذلك ، أخرج شطأه ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 305 . 307 ﴾

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة الفتح

قوله تعالى ﴿ لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه ﴾ يقرأ ذلك بالياء على طريق الغيبة وبالتاء دلالة على المخاطبة

قوله تعالى ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ يقرأ بضم السين وفتحها فالحجة لمن ضم أنه أراد الإثم أو الشر أو الفساد والحجة لمن فتح أنه أراد المصدر

قوله تعالى ﴿ فسيؤتيه ﴾ يقرأ بالياء والنون وقد تقدم القول في امثاله

قوله تعالى ﴿ بما عاهد عليه الله ﴾ إجماع القراء على كسر الهاء لمجاورة الياء إلا ما رواه حفص عن عاصم من ضمها على اصل ما يجب من حركتها بعد الساكن

قوله تعالى ﴿ إن أراد بكم ضرا ﴾ يقرأ بضم الضاد وفتحها وقد تقدم ذكر علتها

قوله تعالى ﴿ بما يعملون بصير ﴾ إجماع القراء على الياء بمعنى الغيبة إلا ما اختاره أبو عمرو من التاء بمعنى الحضرة

قوله تعالى ﴿ أخرج شطأه ﴾ يقرأ بإسكان الطاء وفتحها والحجة فيه كالحجة في قوله رأفة في إسكانها وتحريكها ومعناه فراخ الزرع

قوله تعالى ﴿ فآزره ﴾ يقرأ بالمد والقصر فالمد بمعنى أفعله والقصر بمعنى فعله فالالف في الممدود قطع وفي المقصور أصل

قوله تعالى ﴿ على سوقه ﴾ يقرأ بالهمز وتركه وقد تقدم ذكر علته فيما مضى والله أعلم.

انتهى انتهى. اهـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 329.330 ﴾

(116/711)

وقال ابن زنجلة:

48 - سورة الفتح

عليهم دائرة السوء 6

قرأ ابن كثير وأبو عمرو عليهم دائرة السوء بالضم وقرأ الباقون بالنصب السوء بالضم الاسم والسوء بالفتح المصدر كذا ذكر الفراء من سؤته سوءا ومساءة وقال اليزيدي السوء بالضم الشر والعذاب والبلاء وحجته قوله والسوء على الكافرين

يعني العذاب والسؤء بالفتح الفساد والهلاك وهو ما ظنوا أن الرسول صلى الله عليه ومن

معه لا يرجعون قال الله تعالى عليهم دائرة السوء أي الفساد والهلاك وحجتهم قوله بعدها وظننتم ظن السوء 12 وقال آخرون هما لغتان مثل الضر والضر

لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا 9

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ليؤمنوا بالله ورسوله ويعزروه ويوقروه ويسبحوه كلهن بالياء أي إنا أرسلناك ليؤمنوا بالله وبك قال أبو عبيد وبهذه نقرأ لذكر المؤمنين قبل هذا وبعده فالذي تقدم من ذكرهم قوله هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا 4 والذي بعده إن الذين يبايعونك وهم المؤمنون ومع ذلك المخاطبة في قوله إنا أرسلناك للنبي صلى الله عليه وليس يحسن إنا أرسلناك يا محمد لتؤمنوا فحسن أرسلناك ليؤمنوا لأن الله سبحانه أرسله صلى الله عليه ليؤمن به المؤمنون والمعنى فيه إن شاء الله إنا أرسلناك يا محمد شاهدا عليهم ومبشرا بالجنة ونذيرا من النار ليؤمن بك من آمن ويعزروك ولو كان الخطاب في قوله أرسلناك إنا أرسلناه إخبارا لحسن التاء في قوله لتؤمنوا فأما الكاف فالياء معها أحسن وقرأ الباقون بالتاء وحجتهم أنه خاطب المرسل إليهم بعد مخاطبة النبي صلى الله عليه إذ قال له إنا أرسلناك شاهدا ثم صرف الخطاب بعد ذلك إلى المرسل إليهم فقال لتؤمنوا بمعنى فعلنا

ذلك تؤمنوا أيها الناس بالله ورسوله فكأن الخطاب على هذه القراءة مجدد لمن أرسل إليهم

بعد مخاطبة النبي صلى الله عليه

ومن أوفى بما عهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما 10

(117/711)

قرأ نافع وابن كثير وابن عامر فسنؤتيه بالنون الله أخبر عن نفسه وقرأ الباقون بالياء أي فسيؤتيه الله وحجتهم ما تقدم وهو قوله بما عاهد عليه الله فكذلك فسيؤتيه لتقدم ذكره قرأ حفص بما عاهد عليه الله مضمومة الهاء على أصل حركتها وقرأ الباقون عليه بكسر الهاء لمجاورة الياء وقد ذكرت في سورة البقرة

قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا 11

قرأ حمزة والكسائي إن أراد بكم ضرا بالضم وقرأ الباقون ضرا بالفتح وحجتهم في الآية وذلك أنه ذكر النفع وهو ضد الضر وهو قوله تعالى إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا وهذا موضعه قالوا لا يجد مقرونا ب نفع إلا مفتوحا وفي التنزيل ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا وقال لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا في غير موضع من القرآن والضر بالضم هو السقم والبؤس والبلاء كقوله مسني الضر ولم يقل الضر

وحجتهما قوله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره وقد أجمعوا على ضم الضاد ها

هنا فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى

وقال قوم هما لغتان كالفقر والفقر والضعف والضعف

يريدن أن يبدلوا كلم الله قل لن تتبعونا 15

قرأ حمزة والكسائي يريدون أن يبدلوا كلم الله بكسر اللام جع كلمة كما جمعوا الخلفة من النوق فقالوا خلف وكان الجمع عندهما أجود بدلالة قوله لا مبدل لكلماته ولا تبديل لكلمات الله وقد أوقع عليه التبديل الذي أوقعه على الكلم وأعلم بذلك أن المعنى فيهما واحد وأن الجميع يراد به الجمع

وقرأ الباقون كلام الله وحجتهم إجماع الجميع على قوله يسمعون كلام الله وحتى يسمع كلام الله فردوا ما ختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه

ومن يطع الله ورسوله يدخله جنت تجري من تحتها الأنهر ومن يتول يعذبه عذابا أليما 17

قرأ نافع وابن عامر ندخله ونعذبه بالنون إخبار الله جل وعز عن نفسه وقرأ الباقون بالياء فيهما المعنى يدخله الله ويعذبه وحجتهم قوله ومن يطع الله ورسوله فقد تقدم الاسم الظاهر

وهو الذي كف أيديهم عنكم من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا 24

قرأ أبو عمرو وكان الله بما يعلمون بصيرا بالياء وحجته ذكرها اليزيدي فقال يدلك عليها قوله بعدها هم الذين كفروا وصدوكم 25 ولو احتج بقوله من بعد أن أظفركم عليهم كان وجها والمعنى كان الله بما عمل الكفار من كفرهم وصدهم عن المسجد بصيرا

وقرأ الباقون بما تعملون بصيرا بالتاء أي أنتم وهم وحجتهم أنه قد جرى ذكرهما في قوله وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم فالخطاب لتقدم هذا الخطاب

كزرع أخرج شطئه فئازره فاستغلظ فاستوى على سوقه 29

قرأ ابن عامر وابن كثير شطأه بفتح الطاء وقرأ الباقون بإسكان الهاء وهما لغتان كالشمع والشمع والنهر والنهر

قرأ ابن عامر فأزره مقصورة الألف والهمزة فاء الفعل ومعنى أرزه قواه ومنه قوله تعالى اشدد به أزري أي قوتي

وقرأ الباقون فآزره بالمد فاعله مثل عاونه تقول آزره يؤازره مؤازرة وفاعل آزر الشطء أي آزر الشطء الزرع فصار في طوله وقال الفراء فآزره فأعانه وقال الأخفش آزره أفعله وأفعل فيه الأشبه ليكون قول ابن عامر أزره فعله فيكون فيه لغتان فعل وأفعل وهذا مثل ضربه الله للنبي صلى الله عليه إذ خرج وحده فقواه الله بأصحابه كما قوى الحبة بما نبت منها

قرا ابن كثير في رواية القواس سوءقه بالهمز وقرأ الباقون بغير همز وقد ذكرت حجته في سور النمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 670.675 ﴾

(119/711)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة الفتح 48

مدنية وقد ذكر نظيرتها في البصري ونظيرتها في الكوفي الحديد وكورت وفي الشامي نوح وكورت وفي المكي وشيبة كورت فقط ولا نظير لها في عدد أبي جعفر

وكلمها خمس مئة وثلاثون كلمة

وحروفها ألفان وأربع مئة وثمانية وثلاثون حرفا

وهي عشرون وتسع آيات في جميع العدد ليس فيها اختلاف

وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدودا بإجماع أربعة مواضع (﴿ أولي بأس شديد ﴾ أو يسلمون) (﴿ آية للمؤمنين ﴾ لا تخافون) ورؤوس الآي

مبينا

1 مستقيما

2 عزيزا

3 حكيما

4 عظيما

5 مصيرا

6 حكيما

7 ونذيرا

8 وأصيلا

9 عظيما

10 خبيرا

11 بورا

12 سعيرا

13 رحيما

14 قليلا

15 أليما

16 أليما

17 قريبا

18 حكيما

19 مستقيما

20 قديرا

21 نصيرا

22 تبديلا

23 بصيرا

24 أليما

25 عليما

26 قريبا

27 شهيدا

28 عظيما

29 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 229﴾

(120/711)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الفتح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (عند الله) هو حال من الفوز لأنه صفة له في الأصل قدم فصار حالا ، ويجوز أن يكون ظرفا لمكان ، أو لما دل عليه الفوز ، ولايجوز أن يكون ظرفا للفوز لأنه مصدر ، و (الظالمين) صفة للفريقين .

قوله تعالى (لتؤمنوا) بالتاء على الخطاب لأن المعنى .

أرسلناه إليكم ، وبالياء لأن قبله غيبا .

قوله تعالى (إنما يبايعون الله) هو خبر إن ، و (يد الله) مبتدأ وما بعده الخبر ، والجملة خبر آخر لأن أو حال من ضمير الفاعل في يبايعون ، أو مستأنف .

قوله تعالى (يريدون) هو حال من ضمير المفعول في ذرونا ، ويجوز أن يكون حالا من المخلفون ، وأن يستأنف ، و (كلام الله) بالألف ، ويقرأ "كلم الله" والمعنى متقارب .

قوله تعالى (يقاتلونهم) يجوز أن يكون مستأنفا ، وأن يكون حالا مقدرة (أو يسلمون) معطوف على يقاتلونهم ، وفى بعض القراءات "أو يسلموا" وموضعه نصب واو بمعنى إلى أن أو حتى .

قوله تعالى (ومغانم) أي وأثابهم مغانم أو أثابكم مغانم ، لأنه يقرأ (تأخذونها) بالتاء والياء .

قوله تعالى (وأخرى) أي ووعدكم أخرى ، وأثابكم أخرى ، ويجوز أن يكون مبتدأ ، و (لم تقدروا) صفته ، و (قد أحاط) الخبر ، ويجوز أن يكون هذه صفة ، والخبر محذوف: أي وثم أخرى ، و (سنة الله) قد ذكر في سبحان .

قوله تعالى (والهدى) هو معطوف: أي وصدوا الهدى ، و (معكوفا) حال من الهدى ، و (أن يبلغ) على تقدير: من أن يبلغ ، أو عن أن يبلغ ، ويجوز أن يكون بدلا من الهدى بدل الاشتمال: أي صدوا بلوغ الهدى .

قوله تعالى (أن تطؤهم) هو في موضع رفع بدلا من رجال بدل الاشتمال: أي وطئ رجال بالقتل ، ويجوز أن يكون بدلا من ضمير المفعول في تعلموهم: أي تعلموهم وطأهم ، فهو اشتمال أيضا ولم تعلموهم صفة لما قبله (فتصيبكم) معطوف

(121/711)

على تطئوا ، و (بغير علم) حال من الضمير المجرور أو صفة لمعرة (لعذبنا) جواب لو تزيلوا ، وجواب لولا محذوف أغنى عنه جواب لو ، وقيل هو جوابهما جميعا ، وقيل هو جواب الأول .

وجواب الثاني محذوف .

قوله تعالى (حمية الجاهلية) هو بدل ، وحسن لما أضيف إلى ما حصل معنى فهو كصفة النكرة المبدلة ، و (كلمة التقوى) أي العمل أو النطق أو الاعتقاد فحذف لفهم المعنى .

قوله تعالى (بالحق) يجوز أن يتعلق بصدق ، وأن يكون حالا من الرؤيا (لتدخلن) هو تفسير الرؤيا أو مستأنف: أي والله لتدخلن ، و (آمنين) حال والشرط معترض مسدد ، و (محلقين) حال أخرى أو من الضمير في آمنين (لا تخافون) يجوز أن يكون حالا مؤكدة: وأن يكون مستأنفا : أي لا تخافون أبدا .

قوله تعالى (بالهدى) هو حال: أي أرسله هاديا .

قوله تعالى (محمد) هو مبتدأ .

وفي الخبر وجهان ، أحدهما (رسول الله) فيتم الوقف إلا أن تجعل (الذين) في موضع جر عطفا على اسم الله: أي ورسول الذين ، وعلى هذا يكون (أشداء) أي هم أشداء .

والوجه الثاني أن يكون رسول الله صفة ، والذين معطوف على المبتدأ ، وأشداء الخبر ، و (رحماء) خبر ثان ، وكذلك (تراهم) و (يبتغون) ويجوز أن يكون تراهم مستأنفا : ويقرأ " أشداء ورحماء " بالنصب على الحال من الضمير المرفوع في الظرف وهو معه .

وسجدا حال ثانية ، أو حال من الضمير في ركعا مقدرة ، ويجوز أن يكون يبتغون حالا ثالثة .

قوله تعالى (سيماهم) هو فعل من سام يسوم وهو بمعنى العلامة من قوله تعالى " مسومين " و (في وجوههم) خبر المبتدأ ، و (من أثر السجود) حال من الضمير في الجار .

قوله تعالى (ومثلهم في الإنجيل) إن شئت عطفته على المثل الأول: أي هذه صفاتهم في الكتابين ، فعلى هذا تكون الكاف في موضع رفع: أي هم كزرع ، أو في موضع نصب على الحال: أي مماثلين ، أو نعتا لمصدر محذوف: أي تمثيلا كزرع و (شطأه) بالهمز وبغير همز ولاألف .

(122/711)

وجهه أنه ألقى حركة الهمزة على الطاء وحذفها ، ويقرأ بالألف على الإبدال وبالمد والهمز ، وهى لغة ، و (على سوقه) يجوز أن يكون حالا: أي قائما على سوقه ، وأن يكون ظرفا ، و (يعجب) حال .

و(منهم) لبيان الجنس تفضيلا لهم بتخصيصهم بالذكر ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(123/711)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الفتح

[سورة الفتح (48) : الآيات 1 الى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (1) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً (2) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً (3) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (4)

لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَكانَ ذلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً (5)

(124/711)

"إِنَّا" إن واسمها "فَتَحْنا" ماض وفاعله "لَكَ" متعلقان بالفعل "فَتْحاً" مفعول مطلق "مُبِيناً" صفة والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية ابتدائية "لِيَغْفِرَ" مضارع منصوب بأن مضمرة

بعد اللام "لَكَ" متعلقان بالفعل "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل "ما" مفعول به والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر بلام التعليل والجار والمجرور متعلقان بفتحنا "تَقَدَّمَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة "مِنْ ذَنْبِكَ" متعلقان بمحذوف حال "وَما تَأَخَّرَ" معطوفة على ما تقدم "وَيُتِمَّ" معطوفة على يغفر "نِعْمَتَهُ" مفعول به "عَلَيْكَ" متعلقان بالفعل "وَيَهْدِيَكَ" معطوفة على يغفر والكاف مفعول به أول والفاعل مستتر "صِراطاً" مفعول به ثان "مُسْتَقِيماً" صفة "وَيَنْصُرَكَ" معطوف على ما قبله والكاف مفعول به "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل "نَصْراً" مفعول مطلق "عَزِيزاً" صفة "هُوَ الَّذِي" مبتدأ وخبره والجملة مستأنفة "أَنْزَلَ السَّكِينَةَ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صلة "فِي قُلُوبِ" متعلقان بالفعل "الْمُؤْمِنِينَ" مضاف إليه "لِيَزْدادُوا" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل وعلامة نصبه حذف النون والواو فاعل "إِيماناً" تمييز والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر بلام التعليل والجار والمجرور متعلقان بأنزل "مَعَ" ظرف مكان "إِيمانِهِمْ" مضاف إليه "وَلِلَّهِ" حرف استئناف وجار ومجرور خبر مقدم "جُنُودُ" مبتدأ مؤخر "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات والجملة مستأنفة "وَكانَ" الواو حالية وماض ناقص "اللَّهُ" لفظ الجلالة اسمها "عَلِيماً حَكِيماً" خبران لكان والجملة حال "لِيُدْخِلَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والفاعل مستتر والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر بلام التعليل والجار والمجرور متعلقان بمحذوف تقديره أمر بالجهاد ليدخل "الْمُؤْمِنِينَ"

مفعول به "وَالْمُؤْمِناتِ" معطوفة على المؤمنين "جَنَّاتٍ" مفعول به ثان "تَجْرِي" مضارع مرفوع "مِنْ تَحْتِهَا" متعلقان بالفعل "الْأَنْهارُ" فاعل والجملة صفة جنات "خالِدِينَ" حال "فِيها" متعلقان بخالدين "وَيُكَفِّرَ" حرف عطف ومعطوف على يدخل "عَنْهُمْ" متعلقان بالفعل "سَيِّئاتِهِمْ" مفعول به "وَكانَ" واو الحال وماض ناقص "ذلِكَ" اسمه "عِنْدَ" ظرف مكان "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "فَوْزاً" خبر كان "عَظِيماً" صفة والجملة حال.

[سورة الفتح (48) : الآيات 6 الى 9]

وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً (6) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (7) إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (8) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (9)

"وَيُعَذِّبَ" حرف عطف ومضارع فاعله مستتر "الْمُنافِقِينَ" مفعول به "وَالْمُنافِقاتِ" معطوف على المنافقين "وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ" عطف على ما قبله "الظَّانِّينَ" صفة "بِاللَّهِ" متعلقان بالظانين "ظَنَّ" مفعول مطلق "السَّوْءِ" مضاف إليه "عَلَيْهِمْ" خبر مقدم "دائِرَةُ" مبتدأ مؤخر "السَّوْءِ" مضاف إليه والجملة الاسمية مستأنفة "وَغَضِبَ اللَّهُ" حرف عطف وماض وفاعله "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل "وَلَعَنَهُمْ" عطف على ما قبله والهاء مفعول به "وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ" عطف على ما قبله "وَساءَتْ" حرف استئناف وماض للذم فاعله مستتر "مَصِيراً" تمييز والجملة مستأنفة "وَلِلَّهِ" الواو حرف استئناف وخبر مقدم "جُنُودُ" مبتدأ مؤخر "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات والجملة الاسمية مستأنفة "وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً" الواو حالية وكان واسمها وخبراها والجملة حال "إِنَّا" إن واسمها "أَرْسَلْناكَ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية مستأنفة "شاهِداً" حال "وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً" عطف على شاهدا "لِتُؤْمِنُوا" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والجار والمجرور متعلقان بأرسلناك "بِاللَّهِ" متعلقان بتؤمنوا "وَرَسُولِهِ" معطوف على ما قبله "وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ" عطف على تؤمنوا "بُكْرَةً وَأَصِيلًا" ظرفا زمان.

[سورة الفتح (48) : الآيات 10 الى 11]

إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (10) سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَأَهْلُونا فَاسْتَغْفِرْ لَنا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (11)

"إِنَّ الَّذِينَ" إن واسمها "يُبايِعُونَكَ" مضارع وفاعله ومفعوله والجملة صلة "إِنَّما" كافة ومكفوفة "يُبايِعُونَ اللَّهَ" مضارع وفاعله ولفظ الجلالة م "شَيْئاً"

مفعول به "إِنْ" حرف شرط جازم "أَرادَ" ماض فاعله مستتر "بِكُمْ" متعلقان بالفعل والجملة ابتدائية "ضَرًّا" مفعول به "أَوْ" حرف عطف "أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً" معطوف على ما قبله "بَلْ" حرف إضراب "كانَ اللَّهُ" كان واسمها "بِما" متعلقان بخبيرا "تَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة صلة "خَبِيراً" خبر كان وجملة كان مستأنفة.

[سورة الفتح (48) : الآيات 12 الى 14]

بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً (12) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيراً (13) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (14)

"بَلْ" حرف إضراب انتقالي "ظَنَنْتُمْ" ماض وفاعله "أَنْ" مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف "لَنْ يَنْقَلِبَ" مضارع منصوب بلن "الرَّسُولُ" فاعل "وَالْمُؤْمِنُونَ" معطوف على الرسول والجملة الفعلية خبر أن "إِلى أَهْلِيهِمْ" متعلقان بالفعل "أَبَداً" ظرف زمان والمصدر المؤول من أن وما بعدها سد مسد مفعولي ظننتم وجملة ظننتم مستأنفة "وَزُيِّنَ ذِلكَ" حرف عطف وماض مبني للمجهول ونائب فاعل "فِي قُلُوبِكُمْ" متعلقان بالفعل "وَظَنَنْتُمْ" حرف عطف وماض وفاعله "ظَنَّ" مفعول مطلق "السَّوْءِ" مضاف إليه "وَكُنْتُمْ" الواو حرف عطف وكان واسمها "قَوْماً" خبرها "بُوراً" صفة والجملة معطوفة على ما قبلها "وَمَنْ" حرف استئناف واسم شرط جازم مبتدأ "لَمْ يُؤْمِنْ" مضارع مجزوم بلم والفاعل مستتر "بِاللَّهِ" متعلقان بالفعل "وَرَسُولِهِ" معطوف على ما قبله "فَإِنَّا" الفاء حرف تعليل وإن واسمها "أَعْتَدْنا" ماض وفاعله "لِلْكافِرِينَ" متعلقان بالفعل "سَعِيراً" مفعول به والجملة خبر إن والجملة الاسمية تعليل وجملتا الشرط والجواب خبر من "وَلِلَّهِ" حرف استئناف وجار ومجرور خبر مقدم

"مُلْكُ" مبتدأ مؤخر "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات "يَغْفِرُ"

مضارع فاعله مستتر "لِمَنْ" متعلقان بالفعل "يَشاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة وجملة يغفر مستأنفة "وَيُعَذِّبُ" معطوف على يغفر والفاعل مستتر "مَنْ" مفعول به "يَشاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً" الواو حالية وكان واسمها وخبراها والجملة حال.

[سورة الفتح (48) : آية 15]

(129/711)

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا كَذلِكُمْ قالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنا بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً (15)

"سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ" السين حرف استقبال ومضارع وفاعله المرفوع بالواو والجملة مستأنفة "إِذَا" ظرفية شرطية غير جازمة "انْطَلَقْتُمْ" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "إِلى مَغانِمَ" متعلقان بالفعل "لِتَأْخُذُوها" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والواو فاعله وها مفعوله والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بانطلقتم "ذَرُونا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعله ونا مفعوله "نَتَّبِعْكُمْ" مضارع

مجزوم لأنه جواب الطلب والكاف مفعول به والفاعل مستتر وجملة ذرونا مقول القول "يُرِيدُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة مستأنفة "أَنْ يُبَدِّلُوا" مضارع منصوب بأن والواو فاعله "كَلامَ" مفعول به "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه والمصدر المؤول من أن والفعل مفعول يريدون "قُلْ" أمر فاعله مستتر "لَنْ تَتَّبِعُونا" مضارع منصوب بلن والواو فاعله ونا مفعوله والجملة مقول القول وجملة قل مستأنفة "كَذلِكُمْ" جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف "قالَ اللَّهُ" ماض وفاعله "مِنْ قَبْلُ" متعلقان بالفعل "فَسَيَقُولُونَ" الفاء حرف استئناف والسين حرف استقبال ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة مستأنفة "بَلْ" حرف إضراب أو عطف "تَحْسُدُونَنا" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله ونا مفعوله والجملة معطوفة على سيقولون "بَلْ" حرف إضراب "كانُوا" كان واسمها "لا" نافية "يَفْقَهُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله و

(130/711)

الجملة خبر كانوا وجملة كانوا مستأنفة "إِلَّا" حرف حصر "قَلِيلًا" صفة مفعول مطلق محذوف.

[سورة الفتح (48) : آية 16]

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً (16)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر "لِلْمُخَلَّفِينَ" متعلقان بالفعل "مِنَ الْأَعْرابِ" متعلقان بالمخلفين والجملة مستأنفة "سَتُدْعَوْنَ" السين للاستقبال ومضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة مقول القول "إِلى قَوْمٍ" متعلقان بتدعون "أُولِي" صفة قوم مجرور بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم "بَأْسٍ" مضاف إليه "شَدِيدٍ" صفة بأس "تُقاتِلُونَهُمْ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والهاء مفعوله والجملة

(131/711)

حال "أَوْ" حرف عطف "يُسْلِمُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "فَإِنْ" الفاء حرف استئناف وإن حرف شرط جازم "تُطِيعُوا" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعله والجملة ابتدائية "يُؤْتِكُمُ" مضارع مجزوم بأنه جواب الشرط وعلامة جزمه حذف حرف العلة والكاف مفعول به أول "اللَّهُ" فاعله "أَجْراً" مفعول به ثان "حَسَناً" صفة والجملة جواب الشرط لا محل لها "وَإِنْ" الواو حرف عطف وإن شرطية جازمة "تَتَوَلَّوْا" مضارع مجزوم لأنه فعل

الشرط وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعله "كَما" الكاف حرف تشبيه وجر وما مصدرية "تَوَلَّيْتُمْ" ماض وفاعله والمصدر المؤول من ما والفعل في محل جر بالكاف والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف "مِنْ قَبْلُ" متعلقان بتوليتم "يُعَذِّبْكُمْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط والكاف مفعول به والفاعل مستتر "عَذاباً" مفعول مطلق "أَلِيماً" صفة والجملة جواب شرط جازم لم تقترن بالفاء لا محل لها .

[سورة الفتح (48) : الآيات 17 الى 18]

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً (17) لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً (18)

(132/711)

"لَيْسَ" فعل ماض ناقص "عَلَى الْأَعْمى" خبر ليس المقدم "حَرَجٌ" اسمها المؤخر والجملة مستأنفة "وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ" معطوف على ما قبله "وَمَنْ" الواو حرف استئناف ومن اسم شرط جازم مبتدأ "يُطِعِ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط

والفاعل مستتر "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعول به "وَرَسُولَهُ" معطوف على لفظ الجلالة "يُدْخِلْهُ" مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط والهاء مفعول به أول "جَنَّاتٍ" مفعول به ثان وجملتا الشرط والجواب خبر من وجملة يدخله جواب الشرط لا محل لها لأنها لم تقترن بالفاء "تَجْرِي" مضارع "مِنْ تَحْتِهَا" متعلقان بالفعل "الْأَنْهارُ" فاعل والجملة صفة جنات والجملة الاسمية من . . مستأنفة "وَمَنْ" الواو حرف عطف "مَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً" معطوف على ما قبله "لَقَدْ" اللام واقعة في جواب القسم وقد حرف تحقيق "رَضِيَ اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة فاعله "عَنِ الْمُؤْمِنِينَ" متعلقان بالفعل والجملة جواب القسم "إِذْ" ظرف زمان "يُبايِعُونَكَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والكاف مفعوله والجملة في محل جر بالإضافة "تَحْتَ" ظرف مكان "الشَّجَرَةِ" مضاف إليه "فَعَلِمَ" الفاء حرف عطف وماض فاعله مستتر "ما" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها "فِي قُلُوبِهِمْ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول "فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ" الفاء حرف عطف وماض ومفعوله والفاعل مستتر "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل "وَأَثابَهُمْ" ماض ومفعوله الأول والفاعل مستتر "فَتْحاً" مفعوله الثاني "قَرِيباً" صفة والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الفتح (48) : الآيات 19 الى 21]

وَمَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (19) وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً (20) وَأُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (21)

(134/711)

"وَمَغانِمَ" حرف عطف ومعطوف على فتحا "كَثِيرَةً" صفة "يَأْخُذُونَها" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله وها مفعوله والجملة صفة مغانم "وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً" الواو حرف استئناف وكان واسمها وخبراها والجملة مستأنفة "وَعَدَكُمُ" ماض ومفعوله "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل مؤخر "مَغانِمَ" مفعول به ثان "كَثِيرَةً" صفة والجملة مستأنفة "تَأْخُذُونَها" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والهاء مفعوله والجملة صفة مغانم "فَعَجَّلَ" ماض فاعله مستتر "لَكُمْ" متعلقان بالفعل "هذِهِ" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها "وَكَفَّ" ماض فاعله مستتر "أَيْدِيَ" مفعول به "النَّاسِ" مضاف إليه "عَنْكُمْ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها "وَلِتَكُونَ" الواو حرف عطف ومضارع ناقص منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل واسمه مستتر "آيَةً" خبره "لِلْمُؤْمِنِينَ" متعلقان بمحذوف صفة والمصدر

المؤول من أن والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بكف "وَيَهْدِيَكُمْ" حرف عطف ومضارع ومفعوله والفاعل مستتر "صِراطاً" مفعول به ثان "مُسْتَقِيماً" صفة والجملة معطوفة "وَأُخْرى" حرف عطف ومبتدأ "لَمْ تَقْدِرُوا" مضارع مجزوم بلم والواو فاعله "عَلَيْها" متعلقان بالفعل والجملة صفة أخرى "قَدْ" حرف تحقيق "أَحاطَ اللَّهُ" ماض وفاعله "بِها" متعلقان بالفعل والجملة خبر المبتدأ "وَكانَ اللَّهُ" الواو حرف استئناف وكان ولفظ الجلالة اسمها "عَلى كُلِّ" متعلقان بقديرا "شَيْءٍ" مضاف إليه "قَدِيراً" خبر كان والجملة مستأنفة.

[سورة الفتح (48) : الآيات 22 الى 24]

(135/711)

وَلَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (22) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (23) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً (24)

"وَلَوْ" الواو حرف استئناف ولو شرطية غير جازمة "قاتَلَكُمُ" ماض ومفعوله "الَّذِينَ" فاعله والجملة ابتدائية "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "لَوَلَّوُا" اللام واقعة في جواب

الشرط وماض وفاعله والجملة جواب الشرط لا محل لها "الْأَدْبارَ" مفعول به "ثُمَّ" حرف عطف "لا" نافية "يَجِدُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله "وَلِيًّا" مفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها "وَلا" الواو حرف عطف ولا زائدة "نَصِيراً" معطوف على وليا "سُنَّةَ" مفعول مطلق لفعل محذوف "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "الَّتِي" صفة سنة "قَدْ" حرف تحقيق "خَلَتْ" ماض فاعله مستتر "مِنْ قَبْلُ" متعلقان بالفعل والجملة صلة "وَلَنْ تَجِدَ" الواو حرف عطف ومضارع منصوب بلن والفاعل مستتر "لِسُنَّةِ" متعلقان بتبديلا "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "تَبْدِيلًا" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها "وَهُوَ الَّذِي" الواو حرف استئناف ومبتدأ وخبره والجملة مستأنفة "كَفَّ" ماض فاعله مستتر

"أَيْدِيَهُمْ" مفعول به "عَنْكُمْ" متعلقان بالفعل والجملة صلة "وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ" عطف على ما قبله "بِبَطْنِ" متعلقان بمحذوف حال "مَكَّةَ" مضاف إليه "مِنْ بَعْدِ" متعلقان بكف "أَنْ" حرف مصدري ونصب "أَظْفَرَكُمْ" ماض في محل نصب والكاف مفعول به والفاعل مستتر "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل جر بالإضافة "وَكانَ اللَّهُ" الواو حرف استئناف وكان ولفظ الجلالة اسمها "بِما" متعلقان ببصيرا "تَعْمَلُونَ"

مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله "بَصِيراً" خبر كان والجملة صلة وجملة كان مستأنفة.

[سورة الفتح (48) : آية 25]

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِساءٌ مُؤْمِناتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً (25)

(137/711)

"هُمُ الَّذِينَ" مبتدأ وخبره والجملة مستأنفة "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَصَدُّوكُمْ" معطوف على كفروا "عَنِ الْمَسْجِدِ" متعلقان بالفعل "الْحَرامِ" صفة المسجد "وَالْهَدْيَ" مفعول معه والواو للمعية "مَعْكُوفاً" حال "أَنْ يَبْلُغَ" مضارع منصوب بأن وفاعله مستتر "مَحِلَّهُ" مفعول به والمصدر المؤول من أن والفعل في محل نصب بنزع الخافض "وَلَوْلا" الواو حرف عطف ولولا حرف شرط غير جازم "رِجالٌ" مبتدأ خبره محذوف "مُؤْمِنُونَ" صفة "وَنِساءٌ مُؤْمِناتٌ" معطوف على رجال مؤمنون "لَمْ تَعْلَمُوهُمْ" مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعله والهاء مفعول به "أَنْ تَطَؤُهُمْ" مضارع منصوب بأن

والواو فاعله والهاء مفعوله والمصدر المؤول من أن والفعل بدل من الهاء في تعلموهم "فَتُصِيبَكُمْ" الفاء حرف عطف ومضارع معطوف على ما قبله والكاف مفعوله "مِنْهُمْ" متعلقان بالفعل "مَعَرَّةٌ" فاعل "بِغَيْرِ" متعلقان بمحذوف حال من مفعول يصيبكم "عِلْمٍ" مضاف إليه "لِيُدْخِلَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعله "فِي رَحْمَتِهِ" متعلقان بالفعل "مَنْ" مفعول به والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بمحذوف مقدر "يَشاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "لَوْ" شرطية غير جازمة "تَزَيَّلُوا" ماض وفاعله والجملة ابتدائية لا محل لها "لَعَذَّبْنَا" اللام واقعة في جواب الشرط وماض وفاعله والجملة جواب لو لا محل لها "الَّذِينَ" مفعول به "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "مِنْهُمْ" متعلقان بمحذوف حال "عَذاباً" مفعول مطلق "أَلِيماً" صفة.

[سورة الفتح (48) : الآيات 26 الى 27]

(138/711)

إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى وَكانُوا أَحَقَّ بِها وَأَهْلَها وَكانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً

(26) لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً (27)

"إِذْ" ظرف زمان "جَعَلَ" ماض "الَّذِينَ" فاعله والجملة في محل جر بالإضافة "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "فِي قُلُوبِهِمُ" متعلقان بجعل "الْحَمِيَّةَ" مفعول به "حَمِيَّةَ" بدل "الْجاهِلِيَّةِ" مضاف إليه

(139/711)

"فَأَنْزَلَ" الفاء حرف عطف وماض "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعله "سَكِينَتَهُ" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها "عَلى رَسُولِهِ" متعلقان بالفعل "وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ" معطوف على ما قبله "وَأَلْزَمَهُمْ" ماض ومفعوله الأول والفاعل مستتر "كَلِمَةَ" مفعوله الثاني "التَّقْوى" مضاف إليه والجملة معطوفة على ما قبلها "وَكانُوا" الواو حرف عطف وكان واسمها "أَحَقَّ" خبرها "بِها" متعلقان بأحق "وَأَهْلَها" معطوف على أحق "وَكانَ اللَّهُ" الواو حرف استئناف وكان واسمها "بِكُلِّ" متعلقان بعليما "شَيْءٍ" مضاف إليه "عَلِيماً" خبر كان والجملة استئنافية لا محل لها "لَقَدْ" اللام واقعة في جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق "صَدَقَ" ماض "اللَّهُ"

لفظ الجلالة فاعله "رَسُولَهُ" مفعول به "الرُّؤْيا" منصوب بنزع الخافض "بِالْحَقِّ" متعلقان بصدق والجملة جواب القسم لا محل لها "لَتَدْخُلُنَّ" لام جواب القسم المحذوف ومضارع مرفوع بالنون المحذوفة لتوالي الأمثال والواو المحذوفة فاعله والنون للتوكيد والجملة جواب قسم محذوف لا محل لها "الْمَسْجِدَ" مفعول به "الْحَرامَ" صفة "إِنْ" شرطية جازمة "شاءَ" ماض "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعله والجملة الفعلية ابتدائية لا محل لها وجواب الشرط محذوف لدلالة الكلام عليه "آمِنِينَ" حال "مُحَلِّقِينَ" حال ثانية "رُؤُسَكُمْ" مفعول به "وَمُقَصِّرِينَ" معطوف على محلقين "لا" نافية "تَخافُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة حالية "فَعَلِمَ" الفاء حرف عطف وماض فاعله مستتر "ما" مفعوله والجملة معطوفة على صدق "لَمْ تَعْلَمُوا" مضارع مجزوم بلم والواو فاعله والجملة صلة "فَجَعَلَ" ماض فاعله مستتر "مِنْ دُونِ" متعلقان بالفعل "ذلِكَ" مضاف إليه "فَتْحاً" مفعول به "قَرِيباً" صفة.

[سورة الفتح (48) : الآيات 28 الى 29]

(140/711)

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً (28)
مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ

فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْواناً سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (29)

"هُوَ" مبتدأ "الَّذِي" خبره والجملة مستأنفة "أَرْسَلَ" ماض فاعله مستتر "رَسُولَهُ" مفعول به والجملة صلة "بِالْهُدى" متعلقان بالفعل "وَدِينِ" معطوف على الهدى "الْحَقِّ" مضاف إليه "لِيُظْهِرَهُ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والهاء مفعول به "عَلَى الدِّينِ" متعلقان بالفعل "كُلِّهِ" توكيد للدين والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بأرسل "وَكَفى" الواو حرف استئناف وماض "بِاللَّهِ" مجرور لفظا مرفوع محلا فاعل كفى "شَهِيداً" تمييز والجملة مستأنفة لا محل لها "مُحَمَّدٌ رَسُولُ" مبتدأ وخبره "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه والجملة مستأنفة "وَالَّذِينَ" مبتدأ "مَعَهُ" ظرف مكان "أَشِدَّاءُ" خبر والجملة معطوفة على ما قبلها "عَلَى الْكُفَّارِ" متعلقان بأشداء "رُحَماءُ" خبر

ثان "بَيْنَهُمْ" ظرف مكان متعلق برحماء "تَراهُمْ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة حال "رُكَّعاً سُجَّداً" حالان "يَبْتَغُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة مستأنفة "فَضْلًا" مفعول به "مِنَ اللَّهِ" متعلقان بفضلا "وَرِضْواناً" معطوف على فضلا "سِيماهُمْ" مبتدأ "فِي وُجُوهِهِمْ" متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ والجملة حال "مِنْ أَثَرِ" متعلقان بالخبر المحذوف "السُّجُودِ" مضاف إليه "ذلِكَ مَثَلُهُمْ" مبتدأ وخبره "فِي التَّوْراةِ" حال والجملة مستأنفة "وَمَثَلُهُمْ" مبتدأ "فِي الْإِنْجِيلِ" حال "كَزَرْعٍ" جار ومجرور خبر والجملة معطوفة على ما قبلها "أَخْرَجَ شَطْأَهُ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صفة زرع "فَآزَرَهُ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة معطوفة على أخرج "فَاسْتَغْلَظَ" عطف على ما قبله "فَاسْتَوى" معطوف على ما قبله أيضا "عَلى سُوقِهِ" متعلقان باستوى "يُعْجِبُ" مضارع "الزُّرَّاعَ" مفعول به "لِيَغِيظَ" مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل والفاعل مستتر "بِهِمُ" متعلقان بالفعل "الْكُفَّارَ" مفعول به والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بوعد "وَعَدَ اللَّهُ" ماض وفاعله "الَّذِينَ" مفعول به "آمَنُوا"

ماض وفاعله والجملة صلة وجملة وعد مستأنفة "وَعَمِلُوا" معطوف على آمنوا "الصَّالِحاتِ" مفعول به "مِنْهُمْ" متعلقان بمحذوف حال "مَغْفِرَةً" مفعول به ثان لوعد

"وَأَجْراً" معطوف على مغفرة "عَظِيماً" صفة. انتهى انتهى. ا هـ ﴿إعراب القرآن / لـ دعاس حـ 3 صـ 241. 249﴾

(142/711)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله:

سُورَة الْفَتْح

ذكر فِيهَا أَرْبَعَة عشر حَدِيثا

1206 - الحَدِيث الأول

عَن مُوسَى بن عقبَة قَالَ أقبل رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من الْحُدَيْبِيَة فَقَالَ رجل من أَصْحَابه مَا هَذَا بِفَتْح لقد صُدِدْنَا عَن الْبَيْت وَصد هدينَا فَبلغ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ (بئس الْكَلَام هَذَا بل هُوَ أعظم الْفتُوح قد رَضِي الْمُشْركُونَ أَن يَدْفَعُوكُمْ عَن بِلَادهمْ بِالرَّاحِ وَيَسْأَلُوكُمْ الْقَضِيَّة ويرغبوا إِلَيْكُم فِي الْأمان وَقد رَأَوْا مِنْكُم مَا كرهُوا)

(143/711)

قلت رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة فِي بَاب قصَّة الْحُدَيْبِيَة حَدثنَا أَبُو عبد الله الْحَافِظ أَنا إِسْمَاعِيل بن مُحَمَّد بن الْفضل ثَنَا جدي ثَنَا إِبْرَاهِيم بن الْمُنْذر ثَنَا مُحَمَّد ابْن فليح عَن مُوسَى بن عقبَة عَن ابْن شهَاب الزُّهْرِيّ وَأَخْبرنَا أَبُو عبد الله الْحَافِظ أَنا أَبُو جَعْفَر الْبَغْدَادِيّ ثَنَا مُحَمَّد بن عَمْرو بن خَالِد ثَنَا أبي ثَنَا ابْن لَهِيعَة ثَنَا أَبُو الْأَسود عَن عُرْوَة قَالَ أقبل رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الْحُدَيْبِيَة رَاجعا فَقَالَ رجل من أَصْحَاب رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالله مَا هَذَا بِفَتْح لقد صُدِدْنَا عَن الْبَيْت وَصد هدينا وَعَكَفَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورد رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلَيْنِ من الْمُسلمين خرجا فَبلغ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَن هَذَا لَيْسَ بِفَتْح فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (بئس الْكَلَام هَذَا أعظم الْفتُوح لقد رَضِي الْمُشْركُونَ أَن يَدْفَعُوكُمْ بالرَّاح عَن بلَادهمْ وَيَسْأَلُوكُمْ الْقَضِيَّة ويرغبوا إِلَيْكُم فِي الْأَمان وَقد رَأَوْا مِنْكُم مَا كرهُوا وَقد أَظْفَركُم الله عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِم وردوكم سَالِمين غَانِمِينَ مَأْجُورِينَ فَهَذَا أعظم الْفتُوح) الْحَدِيث بِطُولِهِ

1207 - الْحَدِيث الثَّانِي

رُوِيَ أَنه كَانَ فِي فتح الْحُدَيْبِيَة آيَة عَظِيمَة وَذَلِكَ أَنه نزح مَاؤُهَا حَتَّى لم يبْق فِيهَا قَطْرَة فَتَمَضْمَض رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثمَّ مجه فِيهَا فَدرت الْمَاء حَتَّى شرب جَمِيع من كَانَ مَعَه وَقيل فَجَاشَ الْمَاء حَتَّى امْتَلَأت وَلم ينفذ مَاؤُهَا بعد

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ وَمُسلم فِي صَحِيحه فِي فَضَائِل النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من حَدِيث أبي إِسْحَاق عَن الْبَراء قَالَ كُنَّا يَوْم الْحُدَيْبِيَة عَلَى شَفِير الْبِئْر فَدَعَا بِمَاء فَمَضْمض وَمَج فِي الْبِئْر فَمَشى غير بعيد ثمَّ اسْتَقَيْنَا حَتَّى روينا وَرويت رِكَابنَا انْتَهَى

وَأخرج أَيْضا عَن الْمسور ومروان قَالَا خرج علينا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من الْحُدَيْبِيَة . . . إِلَى أَن قَالَ فعدل عَنْهُم حَتَّى نزل بأقصى الْحُدَيْبِيَة عَلَى ثمد قَلِيل الْمَاء فَلم يلبث النَّاس أَن نَزَحُوهُ وَشَكوا إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الْعَطش فَانْتزع سَهْما من كِنَانَته ثمَّ أَمرهم أَن يَجْعَلُوهُ فِيهِ فوَالله مَا زَال يَجِيش لَهُم بالريّ حَتَّى صدرُوا عَنهُ مُخْتَصرا

وَهَذَا مُخَالف للْأول أَو تَكُونَا وَاقِعَتَيْنِ أَو فعلا فِي بِئْر وَاحِدَة يدل عَلَيْهِ مَا رَوَاهُ الْوَاقِدِيّ فِي الْمَغَازِي ثني الْهَيْثَم بن وَاقد عَن عَطاء بن أبي مَرْوَان عَن أَبِيه قَالَ حَدثنِي أَرْبَعَة عشر رجلا مِمَّن أسلم من الصَّحَابَة أَن نَاجِية بن الْأَعْجَم حَدثهمْ قَالَ دَعَاني رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حِين شكي إِلَيْهِ قلَّة الْمَاء يَعْنِي فِي الْحُدَيْبِيَة فَدفع إِلَيّ سَهْما من كِنَانَته وَأمر بدلو من مَائِهَا فَمَضْمض فَاه مِنْهُ ثمَّ مجه فِي الدَّلْو وَقَالَ لي (انْزِل بِالْمَاءِ فَصَبَّهُ فِي الْبِئْر وحثحث الْمَاء

بالسَّهْمِ) فَفعلت فوالذي بَعثه بِالْحَقّ مَا كدت أخرج حَتَّى كَاد يغمرني وَفَارَتْ كَمَا تَفُور الْقدر حَتَّى اسْتَوَى المَاء بشفيرها وَجعلُوا يَغْتَرِفُونَ مِنْهَا حَتَّى نَهلُوا من آخِرهم مُخْتَصر

(145/711)

قَالَ الْوَاقِدِيّ وَثني مُحَمَّد بن الْحِجَازِي عَن أسيد بن أبي أسيد عَن أبي قَتَادَة قَالَ لما دَعَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرجل فَنزل بِالسَّهْمِ وَتوجه رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَج فَاه فِيهِ ثمَّ رده إِلَى الْبِئْر جَاشَتْ بِالرَّوَاءِ مُخْتَصر وَقَوله فَجَاشَ المَاء رَوَى الْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة قصَّة الْحُدَيْبِيَة من طرق قَالَ فِي طَرِيق مِنْهَا فَجَاشَ المَاء حَتَّى ضرب المَاء بِعَطَن

وَلمُسلم فِي قصَّة خَيْبَر من حَدِيث سَلمَة قَالَ قدمنَا الْحُدَيْبِيَة مَعَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنحن أَربع عشرَة مائَة وَعَلَيْهَا خَمْسُونَ شَاة لَا ترْوِيهَا فَقعدَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى جبا الرَّكِيَة فإمَّا دَعَا وَإِمَّا بَصق قَالَ فَجَاشَتْ فسقيا وَاسْتَقَيْنَا . . . الحَدِيث بِطُولِهِ

1208 - الحَدِيث الثَّالِث

عَن جَابر بن عبد الله قَالَ بَايعنَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَحت الشَّجَرَة عَلَى

الْمَوْت وَعَلَى أَلا نفر فَمَا نكث أحد منا الْبيعَة إِلَّا جد بن قيس وَكَانَ منافقا اخْتَبَأَ تَحت إبط بعيره وَلم يسر مَعَ الْقَوْم أَخْزَاهُ الله

قلت رَوَاهُ مُسلم فِي كتاب الْإِمَارَة من حَدِيث أبي الزُّبَيْر عَن جَابر أَنه سُئِلَ كم كَانُوا يَوْم الْحُدَيْبِيَة قَالَ كُنَّا أَربع عشرَة مائَة فَبَايَعْنَاهُ وَعمر آخذ بِيَدِهِ تَحت الشَّجَرَة وَهِي سَمُرَة فَبَايَعْنَاهُ غير جد بن قيس الْأَنْصَارِيّ اخْتَبَأَ تَحت بطن بعيره انْتَهَى

(146/711)

وَرَوَاهُ أَبو يعْلى الْموصِلِي وَالْبزار فِي مسنديهما من حَدِيث أبي سُفْيَان عَن جَابر قَالَ لم نُبَايِع رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَلَى الْمَوْت إِنَّمَا بَايَعْنَاهُ عَلَى أَلا نفر بَايَعْنَاهُ كلنا إِلَّا الْجد بن قيس فَإِنَّهُ اخْتَبَأَ تَحت بطن بعيره انْتَهَى

1209 - الْحَدِيث الرَّابِع

رَوَى أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لما أَرَادَ الْمسير إِلَى مَكَّة عَام الْحُدَيْبِيَة مُعْتَمِرًا اسْتنْفر من حول الْمَدِينَة من أهل الْبَوَادِي وَالْإِعْرَاب لِيخْرجُوا مَعَه حذرا من قُرَيْش أَن يعرضُوا لَهُ بِحَرب أَو يَصُدُّوهُ عَن الْبَيْت وَأحرم هُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وساق الْهَدْي ليعلم أَنه لَا يُرِيد

حَرًبا فتناقل كثير من الْأَعْرَاب وَقَالَ يذهب إِلَى قوم قد غزوه فِي عقر دَاره بِالْمَدِينَةِ وَاعْتَلُّوا بِالشغلِ بِأَهَالِيهِمْ وَأَمْوَالهمْ وَأَنه لَيْسَ لَهُم من يقوم بِأَشْغَالِهِمْ

(147/711)

قلت رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ بنقص يسير فِي دَلَائِل النُّبُوَّة فِي بَاب قصَّة الْحُدَيْبِيَة أَنا أَبُو عبد الله الْحَافِظ أَنا عبد الرَّحْمَن بن الْحسن القَاضِي ثَنَا إِبْرَاهِيم بن الْحُسَيْن ثَنَا آدم بن أبي إِيَاس ثَنَا وَرْقَاء عَن ابْن أبي يَحْيَى عَن مُجَاهِد قَالَ أري رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَهُوَ بِالْحُدَيْبِية أَنه يدْخل مَكَّة الحَدِيث إِلَى أَن قَالَ وَقَالَ تَعَالَى سَيَقُولُ لَك الْمُخَلفُونَ من الْأَعْرَاب شَغَلَتْنَا أَمْوَالنَا وَأَهْلُونَا يَعْنِي أَعْرَاب الْمَدِينَة جُهَيْنَة وَمُزَيْنَة وَذَلِكَ أَنهم اسْتَتْبَعَهُمْ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لِخُرُوجِهِ إِلَى مَكَّة فَقَالُوا أنذهب مَعَه إِلَى قوم جَاءُوهُ فَقتلُوا أَصْحَابه فَنُقَاتِلهُمْ فِي دِيَارهمْ فَاعْتَلُّوا بِالشغلِ مُخْتَصر

1210 - الحَدِيث الْخَامِس

(148/711)

رَوَى أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حِين ترك الْحُدَيْبِيَة بعث جواس بن أُمَيَّة الْخزَاعِيّ رَسُولا إِلَى أهل مَكَّة فَهموا بِهِ فَمنعه الْأَحَابيش فَلَمَّا رَجَعَ دَعَا بعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه ليَبْعَثهُ فَقَالَ إِنِّي أَخَافهُم عَلَى نَفسِي لما عرف من عَدَاوَتِي إِيَّاهُم وَمَا بِمَكَّة عدي يَمْنعنِي وَلَكِنِّي أدلك عَلَى رجل هُوَ أعْربهَا مني وَأحب إِلَيْهِم عُثْمَان بن عَفَّان فَبعثه فَخَبرهُمْ أَنه لم يَأْتِ بحَرب وَإِنَّمَا جَاءَ زَائِرًا لهَذَا الْبَيْت مُعظما لِحُرْمَتِهِ فوقروه وَقَالُوا إِن شِئْت أَن تَطوف بِالْبَيْتِ فافعل فَقَالَ مَا كنت لأَطُوف قبل أَن يطوف رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَاحْتبسَ عِنْدهم فَأَرْجَفَ بِأَنَّهُم قَتَلُوهُ فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (لَا نبرح حَتَّى نُنَاجِز الْقَوْم) ودعا النَّاس إِلَى الْبيعَة فَبَايعُوهُ تَحت الشَّجَرَة وَكَانَت سَمُرَة قَالَ جَابر بن عبد الله لَو كنت أبْصر لأَرَيْتُكُمْ مَكَانهَا وَقيل كَانَ عَلَيْهِ السَّلَام جَالِسا فِي ظل الشَّجَرَة وَعَلَى ظَهره غُصْن من أَغْصَانهَا قَالَ عبد الله بن الْمُغَفَّل وَكنت وَاقِفًا عَلَى رَأسه وَبِيَدِي غُصْن من الشَّجَرَة أذب عَنهُ فَرفعت الْغُصْن عَن ظَهره وَبَايَعُوهُ عَلَى الْمَوْت دونه وَعَلَى أَلا يفروا فَقَالَ لَهُم عَلَيْهِ السَّلَام (أَنْتُم الْيَوْم خير أهل الْأَرْض) وَكَانَ عدد الْمُبَايعين ألفا وَخَمْسمِائَة وَخَمْسَة وَعشْرين وَقيل ألفا وَأَرْبعمِائَة وَقيل ألفا وثلاثمائة

قلت وجدته مفرقا

فَرَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده ثَنَا يزِيد بن هَارُون أَنا مُحَمَّد بن إِسْحَاق عَن الزُّهْرِيّ عَن عُرْوَة بن الزُّبَيْر عَن الْمسور بن مخرمَة ومروان بن الحكم قَالَا خرج رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَام الْحُدَيْبِيَة يُرِيد زِيَارَة الْبَيْت لَا يُرِيد قتالا وسَاق مَعَه الْهَدْي سبعين بَدَنَة . . . إِلَى أَن قَالَ وَقد كَانَ قبل ذَلِك بعث رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جواس بن أُمَيَّة الْخزَاعِيّ إِلَى مَكَّة وَحمله عَلَى جمل لَهُ يُقَال لَهُ الثَّعْلَب فَلَمَّا دخل مَكَّة أَرَادَت قُرَيْش قَتله فَمَنعهُمْ الْأَحَابِيش حَتَّى أَتَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَعَا

وَإِنَّمَا جَاءَ زَائِرًا لهَذَا الْبَيْت مُعظما لِحُرْمَتِهِ فوقروه وَقَالُوا إِن شِئْت أَن تَطوف بِالْبَيْتِ فافعل فَقَالَ مَا كنت لأَطُوف قبل أَن يطوف رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاحْتبسَ عِنْدهم فَأَرْجَفَ بِأَنَّهُم قَتَلُوهُ فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لَا نَبْرَح حَتَّى نُنَاجِز الْقَوْم ودعا النَّاس إِلَى الْبيعَة فَبَايعُوهُ تَحت الشَّجَرَة وَكَانَت سَمُرَة قَالَ جَابر بن عبد الله لَو كنت أبْصر لَأَرَيْتُكُمْ مَكَانهَا وَقيل كَانَ عَلَيْهِ السَّلَام جَالِسا فِي ظلّ الشَّجَرَة وَعَلَى ظَهره غُصْن من أَغْصَانهَا قَالَ عبد الله بن الْمُغَفَّل وَكنت وَاقِفًا عَلَى رَأسه وَبِيَدِي غُصْن من الشَّجَرَة أذب عَنهُ فَرفعت الْغُصْن عَن ظَهره وَبَايَعُوهُ عَلَى الْمَوْت دونه وَعَلَى أَلا يفروا فَقَالَ لَهُم عَلَيْهِ السَّلَام (أَنْتُم الْيَوْم خير أهل الأَرْض) وَكَانَ عدد الْمُبَايعين ألفا وَخَمْسمِائَة وَخَمْسَة وَعشْرين وَقيل

ألفا وَأَرْبَعمِائَة وَقيل ألفا وثلاثمائة

قلت وجدته مفرقا

(150/711)

فَرَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده ثَنَا يزِيد بن هَارُون أَنا مُحَمَّد بن إِسْحَاق عَن الزُّهْرِيّ عَن عُرْوَة بن الزُّبَيْر عَن الْمسور بن مخرمَة ومروان بن الحكم قَالَا خرج رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَام الْحُدَيْبِيَة يُرِيد زِيَارَة الْبَيْت لَا يُرِيد قتالا وساق مَعَه الْهَدْي سبعين بَدَنَة . . . إِلَى أَن قَالَ وَقد كَانَ قبل ذَلِك بعث رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جواس بن أُمَيَّة الْخزَاعِيّ إِلَى مَكَّة وَحمله عَلَى جمل لَهُ يُقَال لَهُ الثَّعْلَب فَلَمَّا دخل مَكَّة أَرَادَت قُرَيْش قَتله فَمَنعهُمْ الْأَحَابِيش حَتَّى أَتَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَعَا

(151/711)

عمر لِيَبْعَثهُ إِلَى مَكَّة فَقَالَ يَا رَسُول الله إِنِّي أَخَاف قُرَيْشًا عَلَى نَفسِي وَلَيْسَ بهَا أحد من بني عدي يَمْنعنِي وَقد عرفت قُرَيْش عَدَاوَتِي إِيَّاهَا وَغِلْظَتِي عَلَيْهَا وَلَكِن أدلك عَلَى رجل هُوَ

أعزمني عُثْمَان بن عَفَّان قَالَ فَدَعَاهُ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَبَعثه إِلَى قُرَيْش يُخْبرهُمْ أَنه لم يَأْتِ لِحَرْب وَأَنه جَاءَ زَائِرًا لهَذَا الْبَيْت مُعظما لِحُرْمَتِهِ فَخرج عُثْمَان حَتَّى أَتَى مَكَّة فَلَقِيَهُ أبان بن سعيد بن الْعَاص فَنزل عَن دَابَّته وَحمله بَين يَدَيْهِ وَردفهُ خَلفه وَأَجَارَهُ حَتَّى بلغ رِسَالَة رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَانْطَلق عُثْمَان حَتَّى أَتَى أَبَا سُفْيَان وَعُظَمَاء قُرَيْش فَبَلغهُمْ عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مَا أرْسلهُ بِهِ فَقَالُوا لعُثْمَان إِن شِئْت أَن تَطوف بِالْبَيْتِ فَطُفْ فَقَالَ مَا كنت لأَفْعَل حَتَّى يطوف بِهِ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ وَاحْتَبَسَتْهُ قُرَيْش عِنْدهَا فَبلغ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَالْمُسْلِمين أَن عُثْمَان قتل . . . مُخْتَصر من حَدِيث فتح مَكَّة

وَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره عَن عِكْرِمَة مولَى ابْن عَبَّاس أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم دَعَا جواس بن أُمَيَّة الْخُزَاعِيّ . . . فَذكره مُرْسلا بِاللَّفْظِ الْمَذْكُور

(152/711)

ثمَّ أخرج عَن ابْن إِسْحَق قَالَ حَدثنِي عبد الله بن أبي بكر أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حِين بلغه أَن عُثْمَان قد قتل قَالَ (لَا نَبْرَح حَتَّى نُنَاجِز الْقَوْم) ودعا النَّاس إِلَى الْبيعَة فَكَانَت بيعَة الرضْوَان تَحت الشَّجَرَة فَقَالَ النَّاس يَقُولُونَ بايعهم رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّم عَلَى الْمَوْت وَجَابر يَقُول لم يُبَايِعنَا عَلَى الْمَوْت وَلَكِن بَايعنَا عَلَى الْأَلا نفر . . . إِلَى أَن قَالَ وَبلغ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الَّذِي ذكر من أم عُثْمَان بَاطِل مُخْتَصر

وَقَوله فَبَايعُوهُ تَحت الشَّجَرَة وَكَانَت سَمُرَة رَوَاهُ مُسلم فِي الْإِمَارَة من حَدِيث أبي الزُّبَيْر عَن جَابر أَنه سُئِل كم كَانُوا يَوْم الْحُدَيْبِيَة قَالَ كُنَّا أَربع عشرَة مائَة فَبَايَعْنَاهُ وَعمر آخذ بِيَدِهِ تَحت الشَّجَرَة وَهِي سَمُرَة

وَقَول جَابر لَو كنت أبْصر لَأَرَيْتُكُمْ مَكَانهَا أَخْرجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَن عَمْرو بن مرّة عَن جَابر قَالَ كُنَّا يَوْم الْحُدَيْبِيَة ألفا وَأَرْبعمِائَة فَقَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (أَنْتُم الْيَوْم خير أهل الْأَرْض) قَالَ جَابر لَو كنت أبْصر لَأَرَيْتُكُمْ مَوضِع الشَّجَرَة انْتَهَى

وَحَدِيث عبد الله بن الْمُغَفَّل رَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي التَّفْسِير أَنا مُحَمَّد بن عقيل أَنا عَلّي بن الْحُسَيْن ثني أبي عَن ثَابت ثني عبد الله بن مُغفل الْمُزنِيّ قَالَ كُنَّا مَعَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بِالْحُدَيْبِية فِي أصل الشَّجَرَة وَعَلَى ظَهره غُصْن من أَغْصَان تِلْكَ الشَّجَرَة فَرَفَعته عَن ظَهره . . . وَسَيَأْتِي بتَمَامِهِ فِي الْحَدِيث التَّاسِع

وَقَوله عَلَيْهِ السَّلَام (أَنْتُم الْيَوْم خير أهل الْأَرْض) تقدم تَقْرِيبًا

(153/711)

وَأما عدد التَّابعين فَفِيهِ ثَلَاث رِوَايَات كَمَا ذكر الْمُصَنّف

فَالرِّوَايَة الْأولى أَخْرَجَاهَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَن سَالم ابْن أبي الْجَعْد قَالَ سَأَلت جَابر ابْن عبد الله عَن أَصْحَاب الشَّجَرَة فَقَالَ لَو كُنَّا مائَة لَكَفَانَا كُنَّا ألفا وَخَمْسمِائَة انْتَهَى

وَالرِّوَايَة الثَّانِيَة أَخْرَجَاهَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَن عَمْرو بن مرّة عَن جَابر قَالَ كُنَّا يَوْم الْحُدَيْبِيَة . . . وَقد تقدم قَرِيبا بِتَمَامِهِ

وَأما الرِّوَايَة الثَّالِثَة فَأَخْرَجَاهَا فِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضا من حَدِيث عَمْرو بن مرّة عَن عبد الله بن أبي أَوْفَى قَالَ كَانَ أَصْحَاب الشَّجَرَة ألفا وثلاثمائة وَكَانَت أسلم ثمن الْمُهَاجِرين انْتَهَى

ذكر هَذِه الْأَحَادِيث فِي الْمَغَازِي وَذكر الْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة الرِّوَايَات الثَّلَاث وَعَزاهَا لِلصَّحِيحَيْنِ ثمَّ اسند إِلَى قَتَادَة قَالَ قلت لسَعِيد بن الْمسيب كم كَانَ الَّذين شهدُوا بيعَة الرضْوَان قَالَ خمس عشرَة مائَة قَالَ قلت فَإِن جَابر ابْن عبد الله قَالَ كَانُوا أَربع عشرَة مائَة قَالَ يرحمهُ اللَّه لقد وهم هُوَ وَالله حَدثنِي أَنهم كَانُوا خمس عشرَة مائَة

انْتَهَى

وَهَذَا رَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الثَّالِث من الْقسم الْخَامِس وَعَزاهُ الْبَيْهَقِيّ لِلْبُخَارِيّ وَلم أَجِدهُ قَالَ الْبَيْهَقِيّ وَهَذَا يدل عَلَى أَنه كَانَ يَقُول فِي الْقَدِيم خمس عشرَة ثمَّ يذكر الْوَهم فَقَالَ أَربع عشرَة وَرِوَايَة الْأَرْبَع

عشرَة أصح كَذَلِك رَوَاهُ الْبَراء بن عَازِب وَمَعْقِل بن يسَار وَسَلَمَة بن الْأَكْوَع انْتَهَى

قلت

(154/711)

فَحَدِيث سَلَمَة بن الْأَكْوَع رَوَاهُ مُسلم قَالَ قدمنَا الْحُدَيْبِيَة مَعَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَنحن أَربع عشرَة مائَة فَدَعَانَا لِلْبيعَةِ فِي أَقْصَى الشَّجَرَة قَالَ فَبَايَعته أول النَّاس . . . الحَدِيث

وَحَدِيث معقل بن يسَار رَوَاهُ مُسلم أَيْضا عَنهُ قَالَ لقد رَأَيْتنِي يَوْم الشَّجَرَة وَالنَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يُبَايع النَّاس وَأَنَا غُصْن من أَغْصَانهَا عَن رَأسه وَنحن لم نُبَايِعهُ عَلَى الْمَوْت وَلَكِن بَايَعْنَاهُ عَلَى أَلا نفر انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه ثمَّ قَالَ وَفِي هَذَا رد عَلَى من يَقُول إِن هَذِه الرِّوَايَة بهَا جَابر قَالَ وَالصَّحِيح ألف وَخَمْسمِائَة انْتَهَى

وَحَدِيث الْبَراء مَا وجدته

1211 - الحَدِيث السَّادِس

رُوِيَ أَن عِكْرِمَة بن أبي جهل خرج فِي خَمْسمِائَة فَبعث النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من

هَزَمه وَأَدْخلهُ حيطان مَكَّة وَكَانَ ذَلِك فِي غَزْوَة الْحُدَيْبِيَة

قلت رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره حَدثنَا ابْن حميد ثَنَا يَعْقُوب القمي ثَنَا جَعْفَر عَن ابْن أَبْزَى قَالَ لما خرج النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بِالْهَدْيِ وَانْتَهَى إِلَى ذِي الحليفة قَالَ لَهُ عمر يَا نَبِي الله تدخل عَلَى قوم حَرْب لَك بِغَيْر سلَاح وَلَا كرَاع قَالَ فَبعث إِلَى الْمَدِينَة فَلم يدع فِيهَا كُرَاعًا وَلَا سِلَاحا إِلَّا حمله فَلَمَّا دنا من مَكَّة منعُوهُ أَن يدْخل فَسَار حَتَّى أَتَى منى فَنزل بهَا فَأَتَاهُ عينه أَن عِكْرِمَة بن أبي جهل قد خرج عَلَيْك فِي خَمْسمِائَة فَقَالَ لخَالِد بن الْوَلِيد (يَا خَالِد هَذَا ابْن عمك

(155/711)

وَقد أَتَاك فِي الْخَيل) فَقَالَ خَالِد أَنا سيف الله وَسيف رَسُوله فَيَوْمئِذٍ سمي سيف الله يَا رَسُول الله ارْمِ بِي إِن شِئْت فَبَعثه عَلَى خيل فلقي عِكْرِمَة فِي الشّعب فَهَزَمَهُ حَتَّى أدخلهُ حيطان مَكَّة ثمَّ عَاد فِي الثَّانِيَة فَهَزَمَهُ حَتَّى أدخلهُ حيطان مَكَّة ثمَّ عَاد فِي الثَّالِثَة فَهَزَمَهُ حَتَّى أدخلهُ حيطان مَكَّة فَأَنْزل الله وَهُوَ الَّذِي كف أَيديهم عَنْكُم وَأَيديكُمْ عَنْهُم بِبَطن مَكَّة إِلَى قَوْله عذابا أَلِيمًا قَالَ فَكف الله تَعَالَى النَّبِي عَنْهُم من بعد أَن أظفرهم عَلَيْهِم لبَقَايَا من الْمُسلمين كَانُوا أَبقوا فِيهَا كَرَاهِيَة أَن تطأهم الْخَيل انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن أبي حَاتِم فِي تَفْسِيره كَذَلِك

قَالَ ابْن كثير فِي تَفْسِيره وَهَذَا السِّيَاق فِيهِ نظر فَإِنَّهُ لَا يجوز أَن يكون عَام الْحُدَيْبِيَة لِأَن خَالِدا لم يكن أسلم بل كَانَ حِينَئِذٍ طَلِيعَة للْمُشْرِكين كَمَا ورد فِي الصَّحِيح وَلَا يجوز أَن يكون فِي عمْرَة الْقَضَاء لِأَنهم قَاضَوْهُ عَلَى أَن يَأْتِي فِي الْعَام الْقَابِل فَيعْتَمِر ويُقِيم بِمَكَّة ثَلَاثَة أَيَّام وَلما قدم لم يُمَانِعُوهُ وَلَا حَارَبُوهُ وَلَا قَاتلُوهُ وَلَا عَام الْفَتْح لِأَنَّهُ لم يسق عَام الْفَتْح هَديا وَإِنَّمَا جَاءَ مُحَارِبًا مُقَاتِلًا فِي جَيش عَرَمْرَم فَهَذَا السِّيَاق فِيهِ خلل فَلْيتَأَمَّل انْتَهَى

1212 - الْحَدِيث السَّابِع

رُوِيَ أَنه عَلَيْهِ السَّلَام وَأَصْحَابه نحرُوا بِالْحُدَيْبِية لما أحْصرُوا وَقَالَ الْمُصَنّف وَبَعض الْحُدَيْبِيَة من الْحرم

وَرُوِيَ أَن مضَارب رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَانَت فِي الْحل وَمُصَلَّاهُ فِي الْحرم

(156/711)

قلت رُوِيَ الْبُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي الشَّهَادَات من حَدِيث ابْن عمر أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم خرج مُعْتَمِرًا فحال كفار قُرَيْش بَينه وَبَين الْبَيْت فَنحر هَدْيه وَحلق رَأسه بِالْحُدَيْبِية وَقَاضَاهُمْ عَلَى أَن يعْتَمر الْعَام الْقَابِل وَلَا يحمل بهَا سِلَاحا وَلَا يُقيم بهَا إِلَّا مَا أَحبُّوا

فَاعْتَمَرَ من الْعَام الْمقبل فَدَخلهَا كَمَا كَانَ صَالحهمْ فَلَمَّا أَقَامَ بهَا ثَلَاثًا أَمرُوهُ أَن يخرج فَخرج انْتَهَى

وَعند الْبُخَارِيّ عَن الْمسور ومروان فِي الْحَج أَنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ لأَصْحَابه (قومُوا فَانْحَرُوا ثمَّ احْلقُوا) قَالَ الْبُخَارِيّ عَقِيبه وَالْحُدَيْبِيَة خَارج الْحرم انْتَهَى

وَقَوله وَرُوِيَ أَن مضَارب رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . إِلَى آخِره

رَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده فِي حَدِيث الْفَتْح ثَنَا يزِيد بن هَارُون أَنا مُحَمَّد بن إِسْحَاق عَن الزُّهْرِيّ عَن عُرْوَة بن الزُّبَيْر عَن الْمسور بن مخرمَة ومروان بن الحكم قَالَا خرج رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَام الْحُدَيْبِيَة يُرِيد زِيَارَة الْبَيْت . . . فَذكره بطُولِهِ وَفِيه وَكَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يُصَلِّي فِي الْحرم وَهُوَ مُضْطَرب فِي الْحل وَقد تقدم مِنْهُ قِطْعَة فِي الْحَدِيث الْخَامِس

1213 - الْحَدِيث الثَّامِن

قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (إِن آخر وَطْأَة وَطئهَا الله تَعَالَى بوج)

قلت تقدم فِي آخر بَرَاءَة

1214 - الْحَدِيث التَّاسِع

رُوِيَ أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لما نزل بالْحُدَيْبِية بعثت قُرَيْش سُهَيْل ابْن عَمْرو الْقرشِي وَحُوَيْطِب بن عبد الْعُزَّى وَمِكْرَز بن حَفْص بن الْأَحْنَف عَلَى أَن يعرضُوا عَلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَن يرجع من عَامه ذَلِك عَلَى أَن تخلي لَهُ قُرَيْش مَكَّة من الْعَام الْقَابِل ثَلَاثَة أَيَّام فَفعل ذَلِك وَكَتَبُوا مِنْهُم كتابا فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ لعَلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْه (اكْتُبْ بِسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم) فَقَالَ سُهَيْل وَأَصْحَابه مَا نَعْرِف هَذَا وَلَكِن اكْتُبْ باسْمِك اللَّهُمَّ ثمَّ قَالَ اكْتُبْ هَذَا مَا صَالح عَلَيْهِ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أهل مَكَّة فَقَالُوا لَو كُنَّا نعلم أَنَّك رَسُول الله مَا صَدَدْنَاك عَن الْبَيْت وَلَا قَاتَلْنَاك

وَلَكِن اكْتُبْ هَذَا مَا صَالح عَلَيْهِ مُحَمَّد بن عبد الله أهل مَكَّة فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (اكْتُبْ مَا يُرِيدُونَ فَإِنِّي أشهد أَنِّي رَسُول الله وَأَنا مُحَمَّد بن عبد الله)

قلت رَوَى الْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة عَن عُرْوَة بن الزُّبَيْر فَذكر حَدِيث إِرْسَال النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عُثْمَان بن عَفَّان إِلَى أهل مَكَّة كَمَا تقدم فِي الْحَدِيث الْخَامِس وَقَالَ فِيهِ فَرجع عُرْوَة إِلَى قُرَيْش فَقَالَ إِنَّمَا جَاءَ الرجل وَأَصْحَابه عمارا فَخلوا بَينه وَبَين الْبَيْت فليطوفوا فَشَتَمُوهُ ثمَّ بعثت قُرَيْش سُهَيْل بن عمروا وَحُوَيْطِب بن عبد الْعُزَّى وَمِكْرَز بن حَفْص لِيُصْلِحُوا عَلَيْهِم فَكَلَّمُوا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَدعوهُ إِلَى الصُّلْح وَالْمُوَادَعَة . . . الْحَدِيث بِطُولِهِ

ثمَّ أخرج عَن ابْن إِسْحَاق ثني الزُّهْرِيّ عَن عُرْوَة بن الزُّبَيْر عَن الْمسور ومروان قَالَا فدعَتْ قُرَيْش سُهَيْل بن عَمْرو وَقَالُوا اذْهَبْ إِلَى هَذَا الرجل وَصَالحَهُ أَن يرجع عَنَّا عَامه هَذَا لَا تَتَحَدَّث الْعَرَب أَنه دخل علينا عنْوَة فَخرج سُهَيْل من عِنْدهم حَتَّى انْتَهَى إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَوَقع الصُّلْح عَلَى أَن يوضع الْحَرْب بَينهم عشر سِنِين وَأَن يَأْمَن النَّاس بَعضهم من بعض وَأَن يرجع عَنْهُم عَامهمْ ذَلِك حَتَّى إِذا الْعَام الْمقبل خلوا بَينه وَبَين مَكَّة فَأَقَامَ بهَا ثَلَاثًا . . . الحَدِيث بطُولِه

وَرَوَى النَّسَائِيّ فِي التَّفْسِير من حَدِيث عَلّي بن الْحُسَيْن ثني أبي عَن ثَابت ثني عبد الله بن الْمُغَفَّل قَالَ كُنَّا مَعَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بِالْحُدَيْبِية فِي أصل الشَّجَرَة الَّتِي قَالَ الله إِذْ يُبَايعُونَك تَحت الشَّجَرَة وَكَأَنِّي بغُصْن من أَغْصَان تلْكَ الشَّجَرَة عَلَى ظهر رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَرَفَعته عَن ظَهره وَعلي بن أبي طَالب وَسُهَيْل ابْن عَمْرو بَين يَدَيْهِ فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (اكْتُبْ بسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم) فَأَخذ سُهَيْل يَده فَقَالَ مَا نَعْرِف الرَّحْمَن الرَّحِيم اكْتُبْ فِي قَضِيَّتنَا مَا نَعْرِف فَقَالَ (اكْتُبْ باسْمِك اللَّهُمَّ هَذَا مَا صَالح عَلَيْهِ مُحَمَّد رَسُول الله أهل مَكَّة) فَأَمْسك يَده لقد ظَلَمْنَاك إِن كنت رَسُولا

اكْتُبْ فِي قَضِيَّتنَا مَا نعْرِف فَقَالَ (اكْتُبْ هَذَا مَا صَالح عَلَيْهِ مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد الْمطلب وَأَنا رَسُول الله) قَالَ فَكتب . . . الحَدِيث بِطُولِهِ

(159/711)

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ بعض هَذِه الْأَلْفَاظ وَلَكِن مَا ذَكرْنَاهُ أقرب إِلَى لفظ الْكتاب

1215 - الحَدِيث الْعَاشِر

رُوِيَ أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم رَأَى فِي مَنَامه قبل خُرُوجه إِلَى الْحُدَيْبِيَة كَأَنَّهُ وَأَصْحَابه قد دخلُوا مَكَّة آمِنين وَقد حَلقُوا وَقصرُوا فَقص الرُّؤْيَا عَلَى أَصْحَابه ففَرِحُوا وَاسْتَبْشَرُوا وَحَسبُوا أَنهم دَاخِلُوهَا فِي عَامهمْ وَقَالُوا إِن رُؤْيَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حق فَلَمَّا تَأَخّر ذَلِك قَالَ عبد الله ابْن أبي وَعبد الله بن نفَيْل وَرِفَاعَة بن الْحَارِث وَالله مَا حلقنا وَلَا قَصرنَا وَلَا رَأينَا الْمَسْجِد فَنزلت لقد صدق الله رَسُوله الرُّؤْيَا الْحق الْآيَة قلت رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة فِي بَاب قصَّة الْحُدَيْبِيَة أخبرنَا أَبُو عبد الله الْحَافِظ أَنا عبد الرَّحْمَن بن الْحسن القَاضِي ثَنَا إِبْرَاهِيم بن أبي إِيَاس ثَنَا وَرْقَاء عَن أبي نجيح عَن مُجَاهِد قَالَ أرَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَهُوَ بِالْحُدَيْبِية أَنه يدْخل مَكَّة هُوَ وَأَصْحَابه آمِنين مُحَلِّقِينَ رُءُوسهم وَمُقَصِّرِينَ فَقَالَ لَهُ أَصْحَابه حِين نحر بِالْحُدَيْبِية أَيْن رُؤْيَاك

يَا رَسُول الله فَأنْزل الله عَزَّ وَجَلَّ لقد صدق الله رَسُوله الرُّؤْيَا بِالْحَقّ إِلَى قَوْله فَجعل من دون ذَلِك فتحا قَرِيبا فَكَانَ تَصْدِيق رُؤْيَاهُ فِي السّنة الْمُقبلَة فتح خَيْبَر ثمَّ اعْتَمر بعد ذَلِك وَهَذَا مُرْسل

(160/711)

وَرَوَى الطَّبَرِيّ ثني يُونُس أَنا ابْن وهب قَالَ قَالَ عبد الرَّحْمَن بن زيد ابْن أسلم فِي قَوْله لقد صدق الله رَسُوله الرُّؤْيَا الْآيَة قَالَ قَالَ لَهُم النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِنِّي قد رَأَيْت أَنَكُمْ سَتَدْخُلُونَ الْمَسْجِد الْحَرَام مُحَلِّقِينَ رءوسكم وَمُقَصِّرِينَ) فَلَمَّا نزل بِالْحُدَيْبِية وَلم يدْخل ذَلِك الْعَام طعن الْمُنَافِقُونَ فِي ذَلِك فَقَالُوا أَيْن رُؤْيَاهُ

فَأنْزل الله لقد صدق الله رَسُوله الرُّؤْيَا بِالْحَقّ الْآيَة انْتَهَى

1216 - الْحَدِيث الْحَادِي عشر

رُوِيَ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنه قَالَ (لَا تعلبوا صوركُمْ)

1217 - الْحَدِيث الثَّانِي عشر

عَن ابْن عمر أَنه رَأَى رجلا قد أثر فِي وَجهه السُّجُود فَقَالَ إِن صُورَة وَجهك أَنْفك فَلَا تعلب وَجهك وَلَا تَشِنْ صُورَتك

قلت رَوَاهُ عبد الرَّزَّاق فِي مُصَنفه فِي الصَّلَاة أَنا سُفْيَان الثَّوْرِيّ عَن الْأَعْمَش عَن حبيب عَن أبي الشعْثَاء عَن ابْن عمر أَنه رَأَى رجلا يتَنَحَّى إِذا سجد قَالَ لَا تعلب صُورَتك يَقُول لَا توثرها قلت مَا تعلب صُورَتك قَالَ لَا تغير لَا تَشِنْ انْتَهَى وَرَوَاهُ إِبْرَاهِيم الْحَرْبِيّ فِي كِتَابه غَرِيب الحَدِيث ثَنَا أَحْمد بن جَعْفَر ثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة عَن الْأَعْمَش عَن حبيب عَن عَطاء عَن ابْن عمر أَنه رَأَى رجلا قد أثر السُّجُود فِي وَجهه فَقَالَ لَا تعلب صُورَتك انْتَهَى ثمَّ قَالَ علبت الشَّيْء أعلبه عُلَبًا وعلوبا إِذا أثرت فِيهِ انْتَهَى

1218 - الحَدِيث الثَّالِث عشر

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من كثرت صلَاته بِاللَّيْلِ حسن وَجهه بِالنَّهَارِ)

قلت رُوِيَ من حَدِيث جَابر وَمن حَدِيث أنس

(161/711)

فَحَدِيث جَابر رَوَاهُ ابْن ماجة فِي سننه فِي الصَّلَاة من حَدِيث أبي زيد ثَابت ابْن مُوسَى عَن شريك عَن الْأَعْمَش عَن أبي سُفْيَان عَن جَابر قَالَ قَالَ

رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من كثرت صلَاته بِاللَّيْلِ حسن وَجهه بِالنَّهَارِ) انْتَهَى

وَقد طعن ابْن عدي والعقيلي وَابْن حبَان فِي ثَابت بِسَبَب رِوَايَته لهَذَا الحَدِيث وَذَلِكَ عَلَى

مَا نقل ابْن طَاهِر عَن أبي عبد الله مُحَمَّد بن عبد الله الْحَاكِم قَالَ دخل ثَابت بن مُوسَى الزَّاهِد عَلَى شريك القَاضِي وَكَانَ شريك رجلا مزاحا وثابت رجلا صَالحا وَالْمُسْتَمْلِي بَين يَدي شريك وَشريك يَقُول لَهُ ثَنَا الْأَعْمَش عَن أبي سُفْيَان عَن جَابر قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَلم يذكر الْمَتْن فَلَمَّا نظر إِلَى ثَابت قَالَ يبا سطه (من كثرت صلاته بِاللَّيْلِ حسن وَجهه بِالنَّهَارِ) فَظن ثَابت لِغَفْلَتِه أَنه رَوَى هَذَا الحَدِيث بِهَذَا الْإِسْنَاد وَكَانَ ثَابت يحدث بِهِ عَن شريك بِهَذَا الْإِسْنَاد وَلَيْسَ لهَذَا الحَدِيث أصل إِلَّا من هَذَا الْوَجْه وَعَن قوم من الْمَجْرُوحين سَرقُوهُ من ثَابت وَرَوَوْهُ عَن شريك انْتَهَى كَلَامه

وَكَذَلِكَ قَالَه ابْن عدي فِي الْكَامِل كَمَا قَالَه مُحَمَّد بن عبد الله الْحَاكِم سَوَاء

وَذكره ابْن الْجَوْزِيّ فِي الموضوعات بِهَذَا الْإِسْنَاد وَنقل كَلَام ابْن عدي

قَالَ ابْن طَاهِر كل من رَوَاهُ عَن شريك غير ثِقَة

(162/711)

وَقَالَ القَاضِي أَبو عبد الله مُحَمَّد بن سَلامَة الْقُضَاعِي فِي كِتَابه مُسْند الشهَاب وَقد وَقع لنا هَذَا الحَدِيث من طَرِيق عَن ثِقَات غير ثَابت وَغير شريك وَذَلِكَ كَمَا أخبرنَا فساق بِسَنَدِهِ إِلَى عبد الله بن شبْرمَة الشريكي ثَنَا شريك وَعَن سعيد ابْن حَفْص ثَنَا شريك وَعَن

مُوسَى بن عَلّي ثَنَا شريك وَعَن كثير بن عبد الله ابْن كثير ثَنَا شريك بِهِ ثمَّ رَوَاهُ من حَدِيث إِسْحَاق بن إِبْرَاهِيم وَأحمد بن عَلّي الْبحار وَمُحَمّد بن عَلّي بن الرّبيع قَالُوا ثَنَا عبد الرَّزَّاق عَن سُفْيَان الثَّوْريّ وَابْن جريج عَن أبي الزُّبَيْر عَن جَابر مَرْفُوعا نَحوه ثمَّ رَوَاهُ من حَدِيث الْحُسَيْن بن حَفْص عَن الثَّوْريّ عَن الْأَعْمَش عَن أبي سُفْيَان عَن جَابر وَمن حَدِيث عَلّي بن الْحُسَيْن الحلمي ثَنَا جرير بن عبد الحميد عَن الْأَعْمَش عَن أبي سُفْيَان عَن جَابر وَمن حَدِيث أبي الْعَتَاهِيَة الْقَاسِم بن إِسْمَاعِيل الشَّاعِر ثَنَا الْأَعْمَش

عَن أبي سُفْيَان بِهِ فَهَذِهِ ثَمَانِيَة طرق

وَلم يصحح ابْن طَاهِر فِي كَلَامه عَلَى أَحَادِيث الشهَاب شَيْئًا من هَذِه الطّرق وَإِنَّمَا قَالَ وَقد رَوَاهُ قوم من الضُّعَفَاء عَن ثِقَات عَن الْأَعْمَش ثمَّ ذكرهَا قَالَ وَظن صَاحب الشهَاب أَن الحَدِيث صَحِيح لكَثْرَة رُوَاته وَهُوَ مَعْذُور لِأَنَّهُ لم يكن من أهل الشَّام انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي كتاب الضُّعَفَاء من حَدِيث عبد الحميد بن بَحر الْكُوفِي عَن شريك بِهِ ثمَّ قَالَ وَعبد الحميد هَذَا كَانَ يسرق الْأَخْبَار لَا يحل الِاحْتِجَاج بحديثه وَهُوَ سَرقه من ثَابت وثابت أَخطَأ فِيهِ

(163/711)

وَحَدِيث أنس رَوَاهُ ابْن الْجَوْزِيّ فِي الموضوعات من حَدِيث حَكَّامَة بنت عُثْمَان بن دِينَار

قَالَت حَدثنِي أبي عَن أَخِيه مَالك بن دِينَار عَن أنس مَرْفُوعا بِلَفْظِهِ سَوَاء ثمَّ قَالَ هَذَا

حَدِيث لَا يَصح عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَهَذَا السَّنَد فِيهِ عُثْمَان بن دِينَار

رَوَت عَنهُ ابْنَته حَكَّامَة أَحَادِيث بَوَاطِيل لَا أصل لَهَا انْتَهَى

وَقَالَ ابْن أبي حَاتِم فِي علله قَالَ أبي هَذَا حَدِيث مَوْضُوع

1219 - الحَدِيث الرَّابِع عشر

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ (من قَرَأَ سُورَة الْفَتْح فَكَأَنَّمَا كَانَ مِمَّن شهد مَعَ

مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَتح مَكَّة) هُوَ هَكَذَا فِي الْفَائِق لِابْنِ غَنَائِم

قلت رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بِسَنَدِهِ الثَّانِي فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط بِسَنَدِهِ الْمُتَقَدّم فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج

الأحاديث والآثار حـ 3 صـ 305. 319 ﴾

(164/711)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة الفتح

قوله تعالى : (قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ) ، الآية/ 16 .

المراد به : فارس والروم «1» .

وقيل : المراد به بني حنيفة .

وفيه دلالة على صحة إمامة أبي بكر وعمر رضي اللّه عنهما ، لأن أبا بكر دعاهم إلى قتال فارس والروم ، ولزمهم بذلك إتباع طاعة من يدعوهم إليه .

قوله تعالى : (تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً) ، الآية/ 16 .

أوعدهم على التخلف عن دعاء من دعاهم إلى قتال هؤلاء ، فدل ذلك على صحة إمامتهما ، إذ كان المتولى عن طاعتهما مستحقا للعذاب ، ولا يجوز أن يكون الداعي لهم هوازن وثقيف يوم حنين ، لأنه يمتنع أن يكون الداعي لهم الرسول عليه الصلاة والسلام ، لأنه قال :

(فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا) «2»

---

(1) وقد بسط صاحب محاسن التأويل القول في هذه الآية في تفسيره ج 15 .

(2) سورة التوبة آية 83 .

فدل أن المراد بالدعاء غير الرسول عليه الصلاة والسلام .

ومعلوم أنه لم يدع هؤلاء القوم بعد النبي عليه الصلاة والسلام إلا أبو بكر وعمر رضي اللّه عنهما .

قوله تعالى : (وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ) ، الآية/ 25 .

ولو كان بلغ الحرم وذبح فيه لم يكن ممنوعا عن بلوغ الحرم ، ثم لما وقع الصلح زال المنع ، فبلغ محله في الحرم ، وذلك أنه إذا حصل المنع في أدنى وقت ، فجائز أن يقال قد منع كما قال تعالى : (يا أَبانا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ) «1» .

وإنما منع في وقت وأطلق في وقت آخر . . فالأول احتجاج أصحاب الشافعي ، والثاني تأويل أصحاب أبي حنيفة ، والأول أظهر ، فإنه لو ذبح في الحرم لم يطلق على الشيء الواحد أنه منع عن بلوغه محله ، وقد وصل محله ، وليس كما احتجوا به في الآية ، فإن الكيل منع في وقت وقيل :

(فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ) «2» مطلقا ، وإن أحضرتموه فلكم الكيل ، وها هنا بخلافه ، فإن الهدي بعد الصلح إن بلغ محله لم يجز أن يقال إنه بعينه منع عن محله ، وهذا ظاهر بين

«3» .

وأصحاب أبي حنيفة يحتجون بقوله : (يَبْلُغَ مَحِلَّهُ) ، وذلك يدل على أن المحل هو الحرم . .

وقال : (وَلا تَحْلِقُوا رُؤُسَكُمْ حَتَّى

---

(1) سورة يوسف آية 63 .

(2) سورة يوسف آية 60 .

(3) انظر أحكام القرآن للجصاص ج 5 ، وتفسير القرطبي سورة الفتح

يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ) «1» وهو الحرم .

قوله تعالى : (لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً) ، الآية/ 25 .

فيه دلالة على ما قاله الشافعي ومالك ، إنه لا يحرق سفينة الكفار إذا كان فيها أسارى المسلمين ، ولو تزيل المؤمنون لعذب الكفار . . وكذلك في إحراق الحصون إذا كان فيها أسارى المسلمين «2» .

وأبو حنيفة وأبو يوسف وزفر ومحمد والثوري جوزوا رمي حصون الكافرين ، وإن اشتملت على الأسارى والأطفال من المسلمين ، وزادوا فقالوا :

لو تترس الكفار بأطفال المسلمين رمى المشركون ، وإن أصابوا أحدا من المسلمين في ذلك فلا دية ولا كفارة . . «3» وقال الثوري : فيه الكفارة ولا دية فيه .

نعم ، لا يمنع نصب المجانق على الحصون مع اشتمالها على أطفال المشركين مع أنه لا عصمة للأطفال تحقيقا للحكم بكفرهم ، ولأطفال المسلمين عصمة وحرمة .

ويحتج الشافعي أيضا بقوله تعالى : (وَلَوْلا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِساءٌ مُؤْمِناتٌ) ، الآية/ 25 ، وفيه دلالة على منع رمي الكفار لأجل

---

(1) سورة البقرة آية 196 .

(2) باب الجهاد في كتاب الاختيار في فقه الامام أبي حنيفة .

(3) انظر فتح القدير لابن الهمام .

(167/711)

من فيهم من المسلمين «1» ، وتمام الاحتجاج بقوله تعالى : (لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ) ، الآية/ 25 . فلولا الحظر ما أصابتهم معرة من قتلهم بإصابتهم إياهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 377 .

(1) راجع ج 3 من أحكام القرآن للإمام الشافعي، وكتاب الأم. [. . . . .]

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى:

«سورة الفتح» (48)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله جل ثناؤه «عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ» (6) تدور عليهم قال حميد:

ودائرات الدهر أن تدورا

(201).

«وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ» (9) تعزّروه: تعظّموه..

«وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً» (12) هلكى «1»..

«وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ» (25) محبوسا واحدها فى قول أبى عمرو بن العلاء

هدية مثل جدية السّرج والرّحل وهما البدادان، وعامة العرب يقولون:

هدية وهدايا..

«فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ» (25) جناية كجناية العرّ وهو الجرب . .

«لَوْ تَزَيَّلُوا» (25) لو انمازوا . .

«الْحَمِيَّةَ» (26) يقال : حميت أنفى حميّة ومحميّة وحميت المريض حميّة

---

(1) . - 6 «ويقال . . . هالك» الذي ورد فى الفروق : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (446/8)

(169/711)

وحميت القوم العدو والحمى منعتهم حماية قال الفرزدق :

كأن ربيعا من حماية منقر أتان دعاها للوداق حمارها

«1» [847] وأحميت الحمى جعلته حماء لا يدخل وأحميت الحديدة وأحميت النار وأحميت الرجل أغضبته علىّ إحماء . .

«ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ» (29) والعرب قد تبدأ بالشيء ثم تجيء ما يكون قبله بعده قال لبيد :

فوضعت رحلى والقراب ونمرقى ومكانهن الكور والنّسعان

«2» [848].

«أَخْرَجَ شَطْأَهُ» (29) أخرج فراخه يقال: قد أشطأ الزرع فهو مشطىء إذا فرّخ . .

«فَآزَرَهُ» (29) ساواه، صار مثل الأمّ. «فَاسْتَغْلَظَ» (29) غلظ . .

«فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ» (29) الساق حاملة الشجرة «3» «4». انتهى انتهى. اهـ

﴿مجاز القرآن حـ2 صـ 217.218﴾

---

(1) . - 847: لم أجد هذا البيت فى ديوان الفرزدق: وهو فى النقائض ص 124 واللسان (ودق).

(2) . - 848: ديوانه (1/ 65).

(3) . - 8 - 11 «اخرج . . . الشجرة»: رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 447).

(4) . - 850: ديوانه ص 43.

(170/711)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة القنوجى:

سورة الفتح

تسع وعشرون آية

كلها مدنيّة بالإجماع، قاله القرطبي «1».

وقال مروان ومسوّر بن مخرمة: نزلت بين مكة والمدينة في شأن الحديبية وهذا لا ينافي الإجماع، لأن المراد بالسّور المدنية السّور النازلة بعد الهجرة من مكة.

[الآية الأولى]

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِساءٌ مُؤْمِناتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً (25).

وَلَوْلا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِساءٌ مُؤْمِناتٌ: يعني المستضعفين ممن آمن بمكة.

ومعنى: لَمْ تَعْلَمُوهُمْ: لم تعرفوهم. وقيل لم تعلموا أنهم مؤمنون.

أَنْ تَطَؤُهُمْ: بالقتل والإيقاع بهم، يقال: وطئت القوم أي أوقعت بهم. وذلك أنهم لو أخذوا مكة عنوة بالسيف لم يتميز المؤمنون الذين هم فيها من الكفار، وعند ذلك لا يأمنوا أن يقتلوا المؤمنين فتلزمهم الكفارة وتلحقهم سبة.

وهو معنى قوله: فَتُصِيبَكُمْ، أي من جهتهم.

مَعَرَّةٌ: أي مشقة بما يلزمكم في قتلهم من كفارة وعيب.

---

(1) ينظر: صحيح مسلم (1786)، (3/ 1413)، والطبري (26/ 43)،

والنكت (4/ 56) ، وزاد المسير (7/ 418) ، والقرطبي (16/ 260) ، ابن كثير (4/ 182) ، الدر المنثور (6/ 67) ، اللباب (193) .

(171/711)

وأصل المعرة : العيب ، مأخوذة من العر وهو الجرب . وذلك أن المشركين سيقولون إن المسلمين قد قتلوا أهل دينهم .

قال الزجاج : معرة أي إثم ، وكذا قال الجوهري - وبه قال ابن زيد - .

وقال الكلبي ومقاتل وغيرهما : المعرة كفارة قتل الخطأ .

وقال ابن إسحق : المعرة غرم الدية .

وقال قطرب : المعرة الشدة ، وقيل : الغم .

بِغَيْرِ عِلْمٍ متعلق بأن تطئوهم أي غير عالمين . وجواب لو لا محذوف أي لإذن الله عز وجل لكم ، أو لما كف أيديكم عنهم «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نيل المرام صـ 423 .

424 ﴾

---

(1) انظر في تفسير هذه الآية : تذكرة الأريب (2/ 166) ، البحر المحيط (8/ 97) ، والفرّاء (3/ 67) .

(172/711)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الفتح

(173/711)

عاد المسلمون من عمرة الحديبية وقلوبهم كسيرة ، كانوا يؤملون فى زيارة البيت الحرام والطواف بالكعبة المشرفة والسعى بين الصفا والمروة ، فلم يتحقق أملهم ، وها هم أولاء يعودون من مكة بعد مفاوضات شاقة مع المشركين ذاقوا فيها العنت ، وكادت الحرب تنشب بين الفريقين لولا حكمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبينما هم يعودون أدراجهم إلى المدينة ، نزلت سورة حافلة بالبشريات "إنا فتحنا لك فتحا مبينا * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما * وينصرك الله نصرا عزيزا " . نصر ! نعم ما وقع كان نصرا ! وكان بداية الفتح العظيم . ما وقع كان بدء انطلاق

الدعوة وزوال العوائق من أمامها ، إنه بعد الشروط التى أملاها المشركون على النبى ، وقبلها المسلمون كارهين ، اتسعت دائرة البلاغ وزاد الداخلون فى الإسلام ، واعترف بالدولة الإسلامية على أنها كيان قائم يأخذ لنفسه ولربه ما يريد ، ولم يمض عامان حتى استسلمت مكة لصاحب الرسالة وهو يقود عشرة آلاف مقاتل ، وتحطمت الأصنام التى غبرت قرونا تعبد من دون الله ، وعلت راية التوحيد ، وأذن بلال فوق الكعبة ! إن حكمة الرسول فى الحديبية آتت كل هذه الثمار فيما بعد ، ولذلك بشره الله بالمغفرة والنصر ، ثم امتدت البشرى إلى جمهور المؤمنين: " هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليما حكيما * ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار . . " . أما أعداؤهم فلهم الويل فى الدنيا والآخرة ، سينهزمون ويسقط بينهم علم الشرك ولن تغنى عنهم قوتهم ولا حميتهم ، فإن أحدا لن يغلب الله " ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزا حكيما " . وقد بعث الله محمدا بالحق ليمحو الجاهلية ، ويبنى أمة تقوم بالتسبيح والتحميد ! وكان الصحابة الأقدمون طليعة هذه الأمة العابدة المجاهدة وقد بايعوا على الموت فى ساعة

الحرج! ما تخفف منهم أحد . ولا عجب ، فهم يحيون لله ويموتون فى سبيله ، ومن ثم قال الله فيهم " إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما " . ولقد صدقوا لله جميعا فأعلن رضاه عنهم ، وكافأهم بالخير العاجل والآجل " لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا * ومغانم كثيرة يأخذونها . . . " . إن سورة الفتح نزلت مع عودة المسلمين إلى المدينة فطمأنتهم وأراحتهم ، ثم كشفت لهم حقيقة القوم الذين تخلفوا عن الخروج معهم ، وعلمتهم ما يقولون لهم وما يؤدبونهم به . لقد قرر المسلمون العمرة ، واستعدوا للخروج ، والمنافقون من أهل المدينة يقولون فى أنفسهم: لن يعودوا ، ستؤدبهم قريش وتنزل بهم هزيمة نكراء ! والغريب أن هؤلاء المنافقين لم يستفيدوا أى درس من هزيمة الأحزاب الذين فشلوا فى اقتحام المدينة . ويبدو أن النفاق متغلغل فى أعماقهم ، فهم يتربصون الدوائر بالمسلمين ، ويفسرون الأحداث بما يكمن فى نفوسهم من غل ، فإذا أحرجوا لجئوا إلى الكذب . " سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا بل كان الله بما تعملون خبيرا * بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا * ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا

للكافرين سعيرا " . والمنافقون أعرف بطبائع المشركين ، لأنهم ذرية بعضها من بعض . وقد أدركوا أن قريشا لن تأذن للمسلمين بدخول مكة ، وأنه إذا دار قتال فسوف ينهزم المسلمون فيه لأنهم قفة . ولا ريب أنهم فوجئوا بعودة المسلمين سالمين ، وأن العمرة المنشودة أخلت للعام القادم ، وأن الله مكر للمسلمين ورتب الأمور بما يضمن لهم الخير

(175/711)

والفوز . " ولله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما " . ومن رحمة الله أنه أبقى باب التوبة مفتوحا لمن شاء العودة إلى الله من المنافقين ! لكنه اشترط عليهم أن يتركوا عبادتهم للدنيا ، وحرصهم على المنفعة الخبيثة ورغبتهم فى اللعب على الحبلين ! !

ولن تصح توبتهم إلا إذا قاتلوا الكفار الأشداء ، وثبتوا فى حربهم . " قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما " . قن هؤلاء أولو البأس الشديد ؟ قيل: هم هوازن وثقيف يوم حنين . وقيل هم قبيلة مسيلمة الكذاب بنو حنيفة المرتدون . وقيل هم الفرس والروم . وأيا ما كانوا ، فإنه قتال يحتاج إلى الفداء والصبر ،

وبذلك يختفى كل أثر للنفاق ! وقد حاول المخففون أن يشاركوا المسلمين فى قتال خيبر لينالوا من غنائمها ، ولكن الله أبى ذلك ، فما وصف اليهود بأنهم أولو بأس ؟ وانتصاراتهم فى هذه الأيام العجاف إنما كانت على علمانيين أو قوميين لا يرفعون للإسلام علما ، ولا يرجون من الله تأييدا ! " سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا " . إن فتح خيبر والاستيلاء على ثروتها جعله الله مكافأة لمن حضر الحديبية ، وقد تم لهم ذلك بعد 40 يوما من عودتهم . كان فتح خيبر بعد زهاء عشرين سنة من بدء الدعوة الإسلامية ، وخيبر أقوى وأغنى المستوطنات اليهودية شمالىّ الحجاز ، وبالقضاء عليها سقطت راية اليهود وانتهت الدويلات التى أووا إليها فى هذه البقاع ، واستراحت الدنيا من عربدة اليهود حين تقوم لهم سلطة ! إنهم ما خدموا الوحى الذى أنزل عليهم ، ولا شرفوه بمسلك نبيل ، ولا حاولوا إنقاذ العرب من الوثنية التى شاعت بينهم ، بل على العكس ظاهروا

(176/711)

الوثنية ضد نبى التوحيد وتمنوا أن يعود المسلمون إلى عبادة الأوثان وألا تقوم لهم قائمة ! آفة اليهود أنهم جعلوا الدين قومية لهم أو شارة تميزهم عن غيرهم ، وكأن الله رب إسرائيل خاصة وليس رب الناس أجمعين . وعندما زعموا لأنفسهم منزلة خاصة عند الله لم يقدموا لهذا الإله ما يقربهم عنده زلفى ، بل أشاعوا الخنا والربا وعبدوا الحياة الدنيا ، كأن الدين تركة آلت إليهم ليستكبروا على الشعوب ! ! ومع أن النبى العربى حاسنهم أول ما هاجر إلى المدينة ونزل بجوارهم ، فقد بيتوا له الشر

(177/711)

وأضمروا الغدر ، فنزل قوله تعالى: " ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير" . ولقد أتى الله بأمره ، وعاقب اليهود مرة بعد أخرى علهم يرعوون ! فلما أصروا على بغيهم أسقط آخر حصونهم أول السنة السابعة من الهجرة ، وجردهم من القوة التى كانوا يعتمدون عليها فى بغيهم ، وجعلهم وأموالهم مغنما للمسلمين الذين كانوا يجرون أقدامهم جرا من الإعياء والمسغبة . "وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا

مستقيما" . وقد جعل الله هذا الخير لمن سار معه إلى الحديبية وبايع تحت الشجرة ! ! وقد بينت سورة الفتح الحكمة الإلهية فى رفض الرسول مقاتلة المشركين فى مكة . إنه لو قاتلهم لأنزل بهم هزيمة ثقيلة كما قال تعالى " ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا" . فلم إذن تركهم ؟ لتبقى أولا للحرم مكانته المتوارثة ، ولأمر آخر خطير ، فإن الإسلام فشا فى كل مكان ، واعتنقه ناس كثيرون فى مكة نفسها ، ولكن ضغط الكفر جعلهم يسرون إيمانهم لخافة أن يفتك بهم فلو دارت رحى الحرب وأعمل المسلمون السيف فى أهل مكة لشمل الأذى هؤلاء المؤمنين المجهولين ، وقتلوا مظلومين . قال تعالى: " ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما" . وعلى كل حال فإن المسلمين الذين منعوا من أداء النسك فى السنة السادسة ، تمكنوا من أدائه فى السنة السابعة ثم دخلوا مكة فاتحين فى السنة الثامنة ! كم قتيلا سقط خلال ! هذه السنين ؟ عدد يحصى على الأصابع ! !

(178/711)

إن الإسلام ضنين بالخسائر فى الأرواح من الفريقين . ولو أحصى القتلى منذ بدأ الإسلام دعوته إلى أن أقام دولته ، لكانت أقل كثيرا جدا من القتلى الذين سقطوا فى مذبحة "سان بارثليميوا " فى ليلة واحدة بين الكاثوليك والبروتستانت . . ولكن ديننا مبتلى بالأفاكين ومروجى الإشاعات الفاجرة ! ! وفى الأحداث التى وقعت ، من الحديبية إلى ما بعدها ، يقول الله تعالى: " لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا" . ثم جاءت هذه الآية التى نطيل النظر إليها " هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا " . صريح هذه الآية أن النصر حليف الإسلام فيما مضى وما تقى من الزمان ، وأنه حتى تقوم الساعة سوف تبقى راية الإسلام خفاقة ، كما جاء فى الحديث " أمتى كالغيث لا يدرى أوله خير أم آخره" لكن النصر له مؤهلات لابد من توافرها فى الجيل الذى يحرزه ، فمن فقد هذه المؤهلات لم يتحقق له أمل ، ولا يلومن إلا نفسه ولن يضر الله شيئا . والآية التى ختمت سورة الفتح شرحت خواص الأمة المنتصرة الوارثة قال تعالى: " محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم . . " . وأقف عند هذه الجملة لأوازن بين وضعين قرأتهما فى أسبوع واحد ! " قرأت أن إحدى الحكومات العربية قتلت فى إحدى حملات التطهير ثلاثة عشر أصوليا من المسلمين ! ! وقرأت كذلك أن الوسيط الأمريكى بين سوريا وإسرائيل عرض على اليهود أن

سوريا ستبذل جهدها فى البحث عن أربعة أو خمسة جنود يهود قتلوا أو جرحوا أو أسروا فى لبنان من بضع سنين . إن إسرائيل تريد جثثهم إن كانوا موتى وتريد أشخاصهم إن كانوا أحياء . إن الشعب اليهودى حريص على أبنائه أشد الحرص ! ! لقد قارنت الخبرين وعرفت الفرق فى هذا العصر بين الأمتين ! ! كنا قديما كما وصف الله " أشداء على الكفار رحماء بينهم " . أما

(179/711)

اليوم فقد انتقلت هذه الصفة إلى غيرنا ، فما

نتراحم ، بل نتزاحم على أسباب الخصام ، فمن ظفر بأخيه أزهق روحه ، وكما قيل: سريع إلى ابن العم يلطم خده وليس إلى داعى الندى بسريع ! ! فكيف يقترب النصر ؟ ! وبم تستحق الأمة ميراث الأرض ؟ ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 398 . 403 ﴾

(180/711)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى عشر بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/712)

الجزء الثانى عشر بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة الفتح

وحتى الآية ﴿ 10 ﴾ من السورة

(4/712)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(5/712)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة الفتح

لا يخفى وجه حسن وضعها هنا ، لأن الفتح بمعنى النصر ، مرتب على القتال وقد ورد في الحديث: أنها مبينة لما يفعل به وبالمؤمنين ، بعد إيهامه في قوله تعالى في الأحقاف: (وما

أَدري ما يفعل بي ولا بكم) فكانت متصلة بسورة الأحقاف من هذه الجملة . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 131 ﴾

(6/712)

قوله تعالى ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (2) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (3) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (4) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) الملك الأعظم المحيط بكل شيء قدرة وعلما (الرحمن) الذي عم المكلفين بنعمة الوعد والوعيد (الرحيم) الذي اختص أهل حزبه لأقامة دينه الحق فأظهرهم على سائر العبيد

لما كانت تلك سورة الجهاد وكانت هذه سورة محمد بشارة للمجاهدين من أهل هذا الدين بالفوز والنصر والظفر على كل من كفر ، وهذا كما سيأتي من إيلاء سورة النصر لسورة

الكافرون ، فأخبرت القتال عن الكافرين بإبطال الأعمال والتدمير وإهلاكهم بالقتال ، وإفساد جميع الأحوال ، وعن الذين آمنوا بما نزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالهداية وإصلاح البال ، وختمها بالتحريض على مجاهدتهم بعد أن ضمن لمن نصره منهم النصر وتثبيت الأقدام ، وهدد من أعرض باستبدال غيره به ، وإن ذلك البدل لا يتولى عن العدو ولا ينكل عنه ، فكان ذلك محتماً لسفول الكفر وعلو الإيمان ، وذلك بعينه هو الفتح المبين ، فافتتح هذه بقوله على طريق النتيجة لذلك بقوله مؤكداً إعلاماً بأنه لا بد منه وأنه مما ينبغي أن يؤكد لابتهاج النفوس الفاضلة به ، وتكذيب من في قلبه مرض وهم أغلب الناس في ذلك الوقت .

﴿ إنا ﴾ أي بما لنا من العظمة التي لا تثبت لها الجبال ﴿ فتحنا ﴾ أي أوقعنا الفتح المناسب لعظمتنا لكل متعلق بإتقان الأسباب المنتجة له من غير شك ، ولذلك عبر عنه بالماضي .

(7/712)

ولما كانت منفعة ذلك له ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن إعلاء كلمة الله يكون به فيعليه ويمتلىء الأرض من أمنه ، فلا يعمل منهم أحد حسنة إلا كان له مثل أجرها ويكونون على

قصر زمنهم ثلثي أهل الجنة ، فيكون ذلك شرفاً له – إلى غير ذلك الأسرار ، التي يعيى دون أيسرها الكفار ، قال : ﴿ لك ﴾ أي بصلح الحديبية في ذي القعدة سنة ست من الهجرة التي نزلت هذه السورة في شأنه ، يصحبان في الرجوع منه إلى المدينة المشرفة ، قال الأزهري : لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية ، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم فرأوا ما لا أعدل منه ولا أحسن ، فاستولى الإسلام على قلوبهم وتمكن منهم فأسلم منهم في ثلاث سنين خلق كثير ، وكذا كان من الفتح تقوية أمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالتصديق فيما أنزل عليه من سورة من غلبهم على أهل فارس في رواية من قال : إنه كان في زمن الحديبية ، ثم زاده تأكيداً بقوله : ﴿ فتحاً ﴾ وزاد في إعظامه بقوله : ﴿ مبيناً ﴾ أي لا لبس فيه على أحد ، بل يعلم كل ذي عقل به أنك ظاهر على جميع أهل الأرض لأنك كنت وحدك ، وكان عند أهل الكفر أنك في أيديهم ، وأن أمرك لا يعدو فمك ، فتبعك ناس ضعفاء فعذبوهم وكانوا معهم في أسوأ الأحوال ، وتقرر ذلك في إذهانهم مدداً طوالاً ثلاث عشرة سنة ، ثم انقذ الله أتباعك منهم بالهجرة إلى النجاشي رحمه الله تعالى أولاً ، وإلى المدينة الشريفة ثانياً ، وهم مطمئنون بأنك أنت – وأنت رأسهم – لا ينتظم لهم بدونك أمر ، ولا يحصل لكسرهم ما لم تكن معهم جبر ، بأنك في قبضتهم لا خلاص لك أبداً منهم ولا انفكاك من بلدتهم ، فاستخرجك الله من عندهم بعد أن حماك على خلاف القياس وأنت

بينهم من أن يقتلوك ، مع اجتهادهم في ذلك واستفراغهم قواهم في أذاك ، ثم بذلوا جهدهم في منعك من الهجرة فما قدروا ، ثم في ردك فما أطاقوا ولا فازوا ولا ظفروا .

(8/712)

بل غلبوا وقهروا ، ثم أيدك بأنصار أبرار أخيار فكنتم على قلتكم كالليوث الكواسر والبحار الزواخر ، ما ملتم على جهة إلا غمرتموها ، وفزتم بالنصف من أربابها قتلتموها أو أسرتموها ولم تزالوا تزدادون وتقوون ، وهم ينقصون ويضعفون ، حتى أتيتموهم في بلادهم التي هم قاطعون بأنهم ملوكها ، يتعذر على غيرهم غلبهم عليها بل سلوكها ، فما دافعوكم عن دخول عليهم إلا بالراح ، وسألوكم في وضع الحرب للدعة والإصلاح ، فقد ظهرت أعلام الفتح أتم ظهور ، وعلم أرباب القلوب أنه لا بد أن تكون في امتطائكم الذرى وسموكم إلى رتب المعالي وأيّ أمور ، وروى الإمام أحمد عن مجمع بن جارية الأنصاري ـ رضى الله عنه ـ قال : " شهدنا الحديبية مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فلما انصرفنا منها إذا الناس يهزون الأباعر فقال بعضهم : ما بال الناس ؟ قالوا : أوحي إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، قال : فخرجنا نوجف ، فوجدنا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ واقفاً على راحلته

عند كراع الغميم ، فلما اجتمع عليه الناس قرأ ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ فقال عمر ـ رضى الله عنه ـ : أو فتح هو يا رسول الله ؟ قال : نعم ، والذي نفسي بيده " .

(9/712)

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : ارتباط هذه السورة بالتي قبلها واضح من جهات – وقد يغمض بعضها – منها أن سورة القتال لما أمروا فيها بقتال عدوهم في قوله تعالى ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ﴾ الآية ، وأشعروا بالمعونة عند وقوع الصدق في قوله ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ﴾ استدعى ذلك تشوف النفوس إلى حالة العاقبة فعرفوا ذلك في هذه السورة فقال تعالى ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ – الآيات ، فعرف تعالى نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعظيم صنعه له ، وأتبع ذلك بشارة المؤمنين العامة فقال ﴿ هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ﴾ – الآيات ، والتحمت إلى التعريف بحال من نكث من مبايعته ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وحكم المخلفين من الأعراب ، والحض على الجهاد ، وبيان حال ذوي الأعذار ، وعظيم نعمته سبحانه على أهل بيعته ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين ﴾ وأثابهم الفتح وأخذ المغانم وبشارتهم بفتح مكة ﴿ لتدخلن المسجد الحرام ﴾ إلى ما ذكر سبحانه من عظيم نعمته عليهم وذكرهم في التوراة والإنجيل ما تضمنت هذه

السورة الكريمة ، ووجه آخر وهو أنه لما قال الله تعالى في آخر سورة القتال ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم ﴾ كان هذا إجمالاً في عظيم ما منحهم وجليل ما أعطاهم ، فتضمنت سورة محمد تفسير هذا الإجمال وبسطه ، وهذا يستدعي من بسط الكلام ما لم تعتمده في هذا التعليق ، وهو بعد مفهوم مما سبق من الإشارات في الوجه الأول ، ووجه آخر مما يغمض وهو أن قوله تعالى ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ إشارة إلى من يدخل في ملة الإسلام من الفرس وغيرهم عند تولي العرب ، وقد أشار أيضاً إلى هذا قوله تعالى

(10/712)

﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ [المائدة : 54] وأشار إلى ذلك عليه الصلاة والسلام : " ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا " – وعقد السبابة بالإبهام ، أشار عليه الصلاة والسلام إلى تولي العرب واستيلاء غيرهم الواقع في الآيتين ، وإنما أشار عليه الصلاة والسلام بقوله " اليوم " إلى التقديم والتأخير ، وفرغ هذا الأمر إلى أيام أبي جعفر المنصور ، فغلبت الفرس والأكراد وأهل الصين وصين الصين – وهو ما يلي يأجوج ومأجوج – وكان فتحاً

وعزاً وظهوراً لكلمة الإسلام ، وغلب هؤلاء في الخطط والتدبير الإماري وسادوا غيرهم ، ولهذا جعل ـ صلى الله عليه وسلم ـ مجيئهم فتحاً فقال : " فتح اليوم " ولو أراد غير هذا لم يعبر بفتح ، ألا ترى قول عمر لحذيفة ـ رضى الله عنهما ـ في حديث الفتن حين قال له " إن بينك وبينها باباً مغلقاً " فقال عمر : أيفتح ذلك الباب أم يكسر ؟ فقال : بل يكسر .

ففرق بين الفتح والكسر ، وإنما أشار إلى قتل عمر ـ رضى الله عنه ـ ، ولذا قال عليه الصلاة والسلام " فتح " وقال : " من ردم يأجوج ومأجوج " وأراد من نحوهم وجهتهم وأقاليمهم ، لأن الفرس ومن أتى معهم هم أهل الجهات التي تلي الردم ، فعلى هذا يكون قوله تعالى : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ﴾ إشارة إلى غلبة من ذكرنا وانتشارهم في الولايات والخطط الدينية والمناصب العلمية .

(11/712)

ولما كان هذا قبل أن يوضح أمره يوهم نقصاً وخطأً ، بين أنه تجديد فتح وإعزاز منه تعالى لكلمة الإسلام ، فقال تعالى : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ الآيات ، ذكر القاضي أبو بكر بن العربي في تلخيص التلخيص علماء المالكية مشيراً إلى تفاوت درجاتهم ثم قال :

وأمضاهم في النظر عزيمة وأقواهم فيه شكيمة أهل خراسان : العجم أنساباً وبلداناً ،

والعرب عقائد وإيماناً ، الذين ينجز فيهم وعد الصادق المصدوق ، وملكهم الله مقاليد التحقيق حين أعرضت العرب عن العلوم وتولت عنها ، وأقبلت على الدنيا واستوثقت منها ، " قال أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يا رسول الله ! من هؤلاء الذين قال الله ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ فأشار عليه الصلاة والسلام إلى سلمان وقال : لو كان الإيمان في الثريا لناله رجال من هؤلاء "

– انتهى .

(12/712)

ولما أخبر سبحانه بالفتح عقب سورة ﴿ الذين كفروا ﴾ بشارة بظهور أهل هذا الدين وإدبار الكافرين – كما سيأتي في إيلاء سورة النصر بسورة الكافرين ، لذلك علل الفتح بالمغفرة وما بعدها رمزاً إلى وفاة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ – بروحي هو وأبي وأمي – وإيماء إلى أن المراد من إخراجه إلى دار الفناء إنما هو إظهار الدين القيم وإزهاق الباطل لتعلو درجته وتعظم رفعته ، فعند حصول الفتح ثم المراد كما كانت سورة النصر الوالية للكافرين رامزة إلى ذلك كما هو مشهور ومذكور ومسطور ، فالفتح الذي هو أحد العلامات الثلاث المذكورة كما في سورة النصر على جميع المناوين ، الذي هو السبب

الأعظم في ظهور دينه على الدين كله الذي هو العلامة العظمى على اقتراب أجله – نفسي فداؤه وإنسان عيني من كل سوء وقاؤه – فقال تعالى : ﴿ ليغفر لك الله ﴾ مشيراً بالانتقال من أسلوب العظمة بالنون إلى أسلوب الغيبة المشير إلى غاية الكبرياء بالإسناد إلى الاسم الأعظم إلى أن هذه المغفرة بحسب إحاطة هذا الاسم الجامع لجميع الأسماء الحسنى : ﴿ ما تقدم من ذنبك ﴾ أي الذي تقدم في القتال أمرك بالاستغفار له وهو مما ينتقل به من مقام كامل إلى مقام فوقه أكمل منه ، فتراه بالنسبة إلى أكملية المقام الثاني ذنباً ، وكذا قوله : ﴿ وما تأخر ﴾ قال الرازي : المغفرة المعتبرة لها درجات كما أن الذنوب لها درجات " حسنات الأبرار سيئات المقربين " انتهى .

(13/712)

ويجوز أن يكون المراد : لتشاهد المغفرة بالنقلة إلينا بعد علم اليقين بعين اليقين وحق اليقين ، فالمعنى أن الله يتوفاه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عقب الفتح ودخول جميع العرب الذين يفتتحون جميع البلاد ويهدي الله بهم سائر العباد في دينه ، ويأس الشيطان من أن يعبد في جزيرتهم إلا بالمحقرات لوجود المقصود من امتلاء الأكوان بحسناته ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وعموم ما دل عليه اسمه المذكور في هاتين السورتين من حمده تعالى بكماله في ذاته

وصفاته ببلوغ أتباعه إلى حد لا يحصرون فيه بعد ، ولا يقف لهم مخلوق على حد .

ولما كان تمام النعمة يتحقق بشيئين : إظهار الدين والتقلة إلى مرافقة النبيين ، قال تعالى مخبراً بالشيئين : ﴿ ويتم نعمته عليك ﴾ بنقلك من عالم الشهادة إلى عالم الغيب ، ومن عالم الكون والفساد إلى عالم الثبات والصلاح ، الذي هو أخص بحضرته وأولى برحمته وإظهار أصحابك من بعدك على جميع أهل الملل ، ويدحضون شبه الشيطان ، ويدمغون كل كفران ، وينشرون رايات الإيمان في جميع البلدان ، بعد إذلال أهل العدوان ، ومحو كل طغيان .

ولما كانت هدايتهم من هدايته ، أضافها سبحانه إليه إعلاماً له أنها هداية تليق بجانبه الشريف سروراً له فقال : ﴿ ويهديك ﴾ أي بهداية جميع قومك ﴿ صراطاً مستقيماً ﴾ أي واضحاً جليلاً جلياً موصلاً إلى المراد من كتاب لا عوج فيه بوجه ، هداية تقتضي لزومه والثبات عليه ﴿ وينصرك الله ﴾ بنصرهم على ملوك الأمم وجلائهم لسائر الغمم ، نصراً يليق إسناده إلى اسمه المحيط بسائر العظم ﴿ نصراً عزيزاً ﴾ أي يغلب المنصور به كل من ناواه ولا يغلبه شيء مع دوامه فلا ذل بعده لأن الأمة التي تنصف به لا يظهر عليها أحد ، والدين الذي قضاه لأجله لا ينسخه شيء .

(14/712)

ولما كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أخبر المؤمنين برؤياه أنه يطوف بالكعبة الشريفة ، وعز على العمرة عام الحديبية ، وخرج ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخرج معه خلاصة أصحابه ألف وخمسمائة ، فكانوا مؤقنين أنهم يعتمرون في وجههم ذلك ، وقر ذلك في صدورهم وأشربته قلوبهم ، فصار نزعه منها أشق شيء يكون ، قصدهم المشركون بعد أن بركت ناقته وصالحهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أن يرجع عنهم في ذلك العام ويعتمر في مثل ذلك الوقت من القابل ، وكان ذلك – بل أدنى منه – مزلزلاً للاعتقاد مطرقاً للشيطان الوسوسة في الدين ، وقد كان مثله في الإسراء ولم يكن ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبر بما يوهم في أمره فارتد ناس كثير بسببه ، قال تعالى دالاً على النصر بتثبيت المؤمنين في هذا المحل الضنك إظهاراً لتمام قدرته ولطيف حكمته : ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ الذي أنزل ﴾ في يوم الحديبية ﴿ السكينة ﴾ أي الثبات على الدين ﴿ في قلوب المؤمنين ﴾ أي الراسخين في الإيمان وهم أهل الحديبية بعد أن دهمهم فيها ما من شأنه أن يزعج النفوس ويزيغ القلوب من صد الكفار ورجوع الصحابة رضي الله تعالى عنهم دون مقصودهم ، فلم يرجع أحد منهم عن الإيمان بعد أن ماج الناس وزلزلوا حتى عمر ـ رضى الله عنه ـ – مع أنه الفاروق ومع وصفه في الكتب السالفة بأنه قرن من حديد – فما الظن بغيره في فلق نفسه وتزلزل قلبه ، وكان للصديق ـ رضى الله عنه ـ من القدم الثابت والأصل الراسخ ما علم به ـ رضى الله عنه ـ أنه لا يسابق ، ثم ثبتهم الله أجمعين ، قال الرازي : والسكينة الثقة بوعد الله ، والصبر على

حكم الله ، بل السكينة ههنا معين بجمع فوزاً وقوة وروحاً ، يسكن إليه الخائف ويتسلى به الحزين ، وأثر هذه السكينة الوقار والخشوع وظهور الحزم في الأمور – انتهى .

وكل من رسخ في الإيمان ، له في هذه الآية نصيب جناه دان .

(15/712)

ولما أخبر بما لا يقدر عليه غيره ، علله بقوله : ﴿ ليزدادوا ﴾ أي بتصديق الرسول حين قال لهم : إنهم لا بد أن يدخلوا مكة ويطوفوا بالبيت العتيق ، وحلهم الله به من الشبهة بتذكرهم أنه لم يقل لهم : إنهم يدخلون العام ﴿ إيماناً ﴾ بهذا التصديق بالغيب من أن صلحهم للكفار ورجوعهم من غير بلوغ قصدهم هو عين الفتح لترتب الصلح عليه وترتب فشو الإسلام على الصلح كما كشف عنه الوجود بعد ذلك ليقيسوا عليه غيره من الأوامر ﴿ مع إيمانهم ﴾ الثابت من قبل هذه الواقعة ، قال القشيري رحمه الله : بطلوع أقمار اليقين على نجوم علم اليقين ، ثم بطلوع شمس حق اليقين على بدر عين اليقين .

(16/712)

ولما كان ربما ظن شقي من أخذ الأمور بالتدريج شيئاً في القدرة قال : ﴿ ولله ﴾ أي الذي أنزل السكينة عليهم ليكون نصرهم في هذه العمرة بالقوة ثم يكون عن قريب بالفعل والحال أنه له وحده ﴿ جنود السماوات والأرض ﴾ أي جميعها ، ومنها السكينة ، يدبرهم بلطيف صنعه وعجيب تدبيره ، فلو شاء لنصر المؤمنين الآن بالفعل ، ودمر على أعدائهم بجنود من جنوده أو بغير سبب ، لكنه فعل ذلك ليكون النصر بكم ، فيعلوا أمركم ويعظم أجركم ، ويظهر الصادق في نصره من الكاذب ، فإن الدار دار البلاء ، وبناء المسببات على الأسباب على وجه الأغلب فيه الحكمة ، لا القهر وظهور الكلمة ، فاسمه الباطن هو الظاهر في هذه الدار ، فلذلك ترى المسببات مستورات بأسبابها ، فلا يعلم الحقائق إلا البصراء ألا ترى أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما نزلت عليه هذه السورة فتلاها عليه قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين : أي رسول الله وفتح هو ؟ قال بعضهم : لقد صدونا عن البيت وصدوا هدينا ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " بئس الكلام هذا ، بل هو أعظم الفتح ، أما رضيتم أن تطرقوهم في بلادهم فيدفعوكم عنها بالراح ويسألوكم التضير ويرغبون إلكم في الأمان وقد رأوا منكم ما كرهوا وأظفركم الله عليهم وردكم سالمين مأجورين ، فهو أعظم الفتوح ، أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في أخراكم ، أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون " ، فقال المسلمون :

صدق الله ورسوله فهو أعظم الفتوح.

والله يا نبي الله ما فكرنا فيما فكرت فيه لأنت أعلم بالله وأمره منا .

(17/712)

وأنزل الله تأكيدا لأمر الرؤيا لمن أشكل عليهم حالها ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ﴾ الآية ، فهذه الأشياء كلها كما ترى راجعة إلى الخفاء بالتعجب في أستار الأسباب ، فلا يبصرها إلا أرباب التدقيق في النظر في حكمة الله سبحانه .

ولما كان مبنى ما مضى كله على القدرة بأمور خفية يظهر منها من الضعف غير ما كشف عنه الزمان من القوة ، وكان تمام القدرة متوقفاً على شمول العلم ، قال تعالى : ﴿ وكان الله ﴾ أي الملك الأعظم أزلاً وأبداً ﴿ عليماً ﴾ بالذوات والمعاني ﴿ حكيماً ﴾ في إتقان ما يصنع ، فرده لهم عن هذه العمرة بعد أن دبر أمر الصلح ليأمن الناس فيداخل بعضهم بعضاً لما علم من أنه لا يسمع القرآن أحد له عقل مستقيم ويرى ما عليه أهله من شدة الاستمساك به والبغض لما كانوا فيه من متابعة الآباء إلا بادر إلى المتابعة ودخل في الدين برغبة ، وأدخل سبحانه خزاعة في صلح النبي - صلى الله عليه وسلم - وبني بكر وهم أعداؤهم في صلح قريش ليبغوا عليهم فتعينهم قريش الصلح بعد أن كثرت جنود الله وعز

ناصر الدين ، فيفتح الله بهم مكة المشرفة ، فتنشر أعلام الدين ، وتخفق ألوية النصر المبين ، ويدخل الناس في الدين أفواجاً ، فيظهر دين الإسلام على جميع الأديان . انتهى انتهى . اهـ

﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 183.190 ﴾

(18/712)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ ليؤمنوا ﴾ ﴿ ويعزروه ويوقروه ويسبحوه ﴾ بياءات الغيبة : ابن كثير وأبو عمرو . و ﴿ عليه الله ﴾ بضم الهاء : حفص ﴿ فسنؤتيه ﴾ بالنون : أبو جعفر ونافع وابن كثير وابن عامر . الآخرون : بالياء التحتانية والضمير لله سبحانه ﴿ شغلتنا ﴾ بالتشديد : قتيبة ﴿ ضراً ﴾ بالضم ﴿ كلم الله ﴾ على الجمع : حمزة وعلي وخلف ﴿ بل ظننتم ﴾ بالإدغام : علي وهشام ﴿ بل تحسدوننا ﴾ مدغماً : حمزة وعلي وهشام . ﴿ ندخله ﴾ ﴿ ونعذبه ﴾ بالنون فيهما : أبو جعفر ونافع وابن عامر ﴿ بما يعملون بصيراً ﴾ بياء الغيبة : أبو عمرو ﴿ الرؤيا ﴾ بالإمالة : ابن عامر وعلي وهشام ﴿ شطأه ﴾ بفتح الطاء من غير مد : ابن ذكوان والبزي والقواس . الباقون : ساكنة الطاء .

الوقوف : ﴿ مبيناً ﴾ ه لا ﴿ مستقيماً ﴾ ه لا على احتمال الجواز ههنا لتكرار إسم الله بالتصريح ﴿ عزيزاً ﴾ ه ﴿ إيمانهم ﴾ ط ﴿ والأرض ﴾ ط ﴿ حكيماً ﴾ ه لا لتعلق اللام ﴿ سيئاتهم ﴾ ط ﴿ عظيماً ﴾ ه لا للعطف ﴿ ظن السوء ﴾ ط ﴿ دائرة السوء ﴾ ج لعطف الجملتين المختلفين ﴿ جهنم ﴾ ط ﴿ مصيراً ﴾ ه ﴿ والأرض ﴾ ط ﴿ حكيماً ﴾ ه ﴿ ونذيراً ﴾ ه لا ﴿ وتوقروه ﴾ ط للفصل بين ضمير اسم الله وضمير الرسول في المعطوفين فيمن لم يجعل الضمائر كلها لله ﴿ وأصيلاً ﴾ ه ﴿ يبايعون الله ﴾ ط ﴿ أيديهم ﴾ ج ط للشرط مع الفاء ﴿ على نفسه ﴾ ج للعطف مع الشرط ﴿ عظيماً ﴾ ه ﴿ فاستغفر لنا ﴾ ج لاحتمال ما بعده الاستئناف والحال ﴿ قلوبهم ﴾ ط ﴿ نفعاً ﴾ ط ﴿ خبيراً ﴾ ه ﴿ بوراً ﴾ ه ﴿ سعيراً ﴾ ه ﴿ الأرض ﴾ ط ﴿ من يشاء ﴾ ط ﴿ رحيماً ﴾ ه ﴿ نتبعكم ﴾ ج لأن ما بعده حال عامله ﴿ سيقول ﴾ أو مستأنف ﴿ كلام الله ﴾ ط ﴿ من قبل ﴾ ج للسين مع الفاء ﴿ تحسدوننا ﴾ ط ﴿ قليلاً ﴾ ه ﴿ يسلمون ﴾ ه ﴿ حسناً ﴾ ج ﴿ أليماً ﴾ ه ﴿ المريض حرج ﴾ ط لأن الواو للاستئناف ﴿ الأنهار ﴾ ج ﴿ اليماً ﴾ ه ﴿ قريباً ﴾ ه لا ﴿ يأخذونها ﴾ ط ﴿

حكيماً ﴾ ه ﴿ عنكم ﴾ ج لأن الواو مقحمة أو المعلل محذوف والواو داخلة في الكلام المعترض ، أو عاطفة على تقدير ليستيقنوا ولتكون ﴿ مستقيماً ﴾ ه لا للعطف ﴿ بها ﴾ ج ﴿ قديراً ﴾ ه ﴿ نصيراً ﴾ ه ﴿ تبديلاً ﴾ ه ﴿ عليهم ﴾ ط ﴿ بصيراً ﴾ ه ﴿ محله ﴾ ط ﴿ بغير علم ﴾ ج لحق المحذوف أي قدر ذلك ليدخل ﴿ من يشاء ﴾ ج لاحتمال أن جواب "لولا" محذوف وأن يكون هذه مع جوابها جواباً للأولى ﴿ أليماً ﴾ ه ﴿ وأهلها ﴾ ط ﴿ عليماً ﴾ ه ﴿ بالحق ﴾ ج لحق حذف القسم ﴿ آمنين ﴾ لا ﴿ مقصرين ﴾ لا لأنها أحوال متابعة ﴿ لا تخافون ﴾ ط لأن قوله ﴿ فعلم ﴾ بيان حكم الصدق كالأعذار فلا ينعطف على قوله ﴿ صدق الله ﴾ ﴿ قريباً ﴾ ه ﴿ كله ﴾ ط ﴿ شهيداً ﴾ ه ﴿ رسول الله ﴾ ج لأن ما بعده مستأنف ﴿ ورضواناً ﴾ ز لأن ﴿ سيماهم ﴾

(20/712)

مبتدأ غير أن الجملة من حد الأولى في كون الكل خبر والذين ﴿ السجود ﴾ ط ﴿ الإنجيل ﴾ ج لاحتمال أن التقدير هم كزرع ﴿ الكفار ﴾ ط ﴿ عظيماً ﴾ ه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 141.142 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1) ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في الفتح وجوه : أحدها : فتح مكة وهو ظاهر وثانيها : فتح الروم وغيرها وثالثها : المراد من الفتح صلح الحديبية ورابعها : فتح الإسلام بالحجة والبرهان ، والسيف والسنان وخامسها : المراد منه الحكم كقوله ﴿ رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق ﴾ [الأعراف : 89] وقوله ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بالحق ﴾ [سبأ : 26] والمختار من الكل وجوه : أحدها : فتح مكة ، والثاني : فتح الحديبية ، والثالث : فتح الإسلام بالآية والبيان والحجة والبرهان .

والأول مناسب لآخر ما قبلها من وجوه أحدها : أنه تعالى لما قال : ﴿ هَاأَنتُمْ هَؤُلاَء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ الله ﴾ .

إلى أن قال : ﴿ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ﴾ [محمد : 38] بيّن تعالى أنه فتح لهم مكة وغنموا ديارهم وحصل لهم أضعاف ما أنفقوا ولو بخلوا لضاع عليهم ذلك فلا يكون بخلهم إلا على أنفسهم ثانيها : لما قال : ﴿ واللهُ مَعَكُمْ ﴾ وقال : ﴿ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ ﴾ [محمد : 35] بيّن برهانه بفتح مكة ، فإنهم كانوا هم الأعلون ثالثها : لما قال تعالى : ﴿ فَلاَ تَهِنُواْ وَتَدْعُواْ إِلَى السلم ﴾ [محمد : 35] وكان معناه لا تسألوا الصلح من عندكم ، بل اصبروا فإنهم يسألون الصلح ويجتهدون فيه كما كان يوم الحديبية وهو المراد بالفتح في أحد الوجوه ، وكما كان فتح مكة حيث أتى صناديد قريش مستأمنين ومؤمنين ومسلمين ، فإن قيل : إن كان المراد فتح مكة ، فمكة لم تكن قد فتحت ، فكيف قال تعالى : ﴿ فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ بلفظ الماضي ؟ نقول : الجواب عنه من وجهين : أحدهما : فتحنا في حكمنا وتقديرنا ثانيهما : ما قدره الله تعالى فهو كائن ، فأخبر بصيغة الماضي إشارة إلى أنه أمر لا دافع له ، واقع لا رافع له .

المسألة الثانية :

قوله ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ﴾ ينبىء عن كون الفتح سبباً للمغفرة ، والفتح لا يصلح سبباً للمغفرة ، فما الجواب عنه ؟ نقول : الجواب عنه من وجوه : الأول : ما قيل إن الفتح لم يجعله سبباً للمغفرة وحدها ، بل هو سبب لاجتماع الأمور المذكورة وهي : المغفرة ، وإتمام النعمة والهداية والنصرة ، كأنه تعالى قال : ليغفر لك الله ويتم نعمته ويهديك وينصرك ، ولا شك أن الاجتماع لم يثبت إلا بالفتح ، فإن النعمة به تمت ، والنصرة بعده قد عمت الثاني : هو أن فتح مكة كان سبباً لتطهير بيت الله تعالى من رجس الأوثان ، وتطهير بيته صار سبباً لتطهير عبده الثالث : هو أن بالفتح يحصل الحج ، ثم بالحج تحصل المغفرة ، ألا ترى إلى دعاء النبي عليه الصلاة والسلام حيث قال في الحج : " اللّهم اجعله حجاً مبروراً ، وسعياً مشكوراً ، وذنباً مغفوراً " الرابع : المراد منه التعريف تقديره إنا فتحنا لك ليعرف أنك مغفور ، معصوم ، فإن الناس كانوا علموا بعد عام الفيل أن مكة لا يأخذها عدو الله المسخوط عليه ، وإنما يدخلها ويأخذها حبيب الله المغفور له .

المسألة الثالثة :

لم يكن للنبي صلى الله عليه وسلم ذنب ، فماذا يغفر له ؟ قلنا الجواب عنه قد تقدم مراراً من وجوه أحدها : المراد ذنب المؤمنين ثانيها : المراد ترك الأفضل ثالثها : الصغائر فإنها جائزة على الأنبياء بالسهو والعمد ، وهو يصونهم عن العجب رابعها : المراد العصمة ،

وقد بينا وجهه في سورة القتال .

المسألة الرابعة :

(23/712)

ما معنى قوله ﴿ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ ؟ نقول فيه وجوه أحدها : أنه وعد النبي عليه السلام بأنه لا يذنب بعد النبوة ثانيها : ما تقدم على الفتح ، وما تأخر عن الفتح ثالثها : العموم يقال اضرب من لقيت ومن لا تلقاه ، مع أن من لا يلقى لا يمكن ضربه إشارة إلى العموم رابعها : من قبل النبوة ومن بعدها ، وعلى هذا فما قبل النبوة بالعفو وما بعدها بالعصمة ، وفيه وجوه أُخر ساقطة ، منها قول بعضهم : ما تقدم من أمر مارية ، وما تأخر من أمر زينب ، وهو أبعد الوجوه وأسقطها لعدم التئام الكلام ، وقوله تعالى : ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ يحتمل وجوهاً : أحدها : هو أن التكاليف عند الفتح تمت حيث وجب الحج ، وهو آخر التكاليف ، والتكاليف نعم ثانيها : يتم نعمته عليك بإخلاء الأرض لك عن معانديك ، فإن يوم الفتح لم يبق للنبي عليه الصلاة والسلام عدو ذو اعتبار ، فإن بعضهم كانوا أهلكوا يوم بدر والباقون آمنوا واستأمنوا يوم الفتح ثالثها : ويتم نعمته عليك في الدنيا باستجابة دعائك في طلب الفتح ، وفي الآخرة بقول شفاعتك في الذنوب ولو كانت في غاية القبح ، وقوله تعالى :

﴿ وَيَهْدِيَكَ صراطا مُّسْتَقِيماً ﴾ يحتمل وجوهاً أظهرها : يديمك على الصراط المستقيم حتى لا يبقى من يلتفت إلى قوله من المضلين ، أو ممن يقدر على الإكراه على الكفر ، وهذا يوافق قوله تعالى : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلام دِيناً ﴾ [المائدة : 3] حيث أهلكت المجادلين فيه ، وحملتهم على الإيمان وثانيها : أن يقال جعل الفتح سبباً للهداية إلى الصراط المستقيم ، لأنه سهل على المؤمنين الجهاد لعلمهم بالفوائد العاجلة بالفتح والآجلة بالوعد ، والجهاد سلوك سبيل الله ، ولهذا يقال للغازي في سبيل الله مجاهد وثالثها : ما ذكرنا أن المراد التعريف ، أي ليعرف أنك على صراط مستقيم ، من حيث إن الفتح لا يكون إلا على يد من يكون على صراط الله بدليل حكاية الفيل ، وقوله ﴿ وَيَنصُرَكَ الله نَصْراً

(24/712)

عَزِيزاً ﴾ ظاهر ، لأن بالفتح ظهر النصر واشتهر الأمر ، وفيه مسألتان إحداهما لفظية والأخرى معنوية :

أما المسألة اللفظية : فهي أن الله وصف النصر بكونه عزيزاً ، والعزيز من له النصر والجواب : من وجهين أحدهما : ما قاله الزمخشري أنه يحتمل وجوهاً ثلاثة الأول : معناه نصر إذ عز ، كقوله ﴿ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 21] أي ذات رضى الثاني : وصف النصر بما

يوصف به المنصور إسناداً مجازياً يقال له كلام صادق ، كما يقال له متكلم صادق الثالث : المراد نصراً عزيزاً صاحبه الوجه الثاني من الجواب أن نقول : إنما يلزمنا ما ذكره الزمخشري من التقديرات إذا قلنا : العزة من الغلبة ، والعزيز الغالب وأما إذا قلنا : العزيز هو النفيس القليل النظير ، أو المحتاج إليه القليل الوجود ، يقال عز الشيء إذا قل وجوده مع أنه محتاج إليه ، فالنصر كان محتاجاً إليه ومثله لم يوجد وهو أخذ بيت الله من الكفار المتمكنين فيه من غير عدد .

(25/712)

أما المسألة المعنوية : وهي أن الله تعالى لما قال : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ ﴾ أبرز الفاعل وهو الله ، ثم عطف عليه بقوله ﴿ وَيُتِمَّ ﴾ وبقوله ﴿ وَيَهْدِيَكَ ﴾ ولم يذكر لفظ الله على الوجه الحسن في الكلام ، وهو أن الأفعال الكثيرة إذا صدرت من فاعل يظهر اسمه في الفعل الأول ، ولا يظهر فيما بعده تقول : جاء زيد وتكلم ، وقام وراح ، ولا تقول : جاء زيد ، وقعد زيد اختصاراً للكلام بالاقتصار على الأول ، وههنا لم يقل وينصرك نصراً ، بل أعاد لفظ الله ، فنقول هذا إرشاد إلى طريق النصر ، ولهذا قلما ذكر الله النصر من غير إضافة ، فقال تعالى : ﴿ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ ﴾ [الروم : 5] ولم يقل بالنصر ينصر ، وقال : ﴿ هُوَ الذي

أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ ﴾ [الأنفال : 62] ولم يقل بالنصر ، وقال : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ والفتح ﴾ [النصر : 1] وقال : ﴿ نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ [الصف : 13] ولم يقل نصر وفتح ، وقال : ﴿ وَمَا النصر إِلاَّ مِنْ عِندِ الله ﴾ [الأنفال : 10] وهذا أدل الآيات على مطلوبنا ، وتحقيقه هو أن النصر بالصبر ، والصبر بالله ، قال تعالى : ﴿ واصبر وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بالله ﴾ [النحل : 127] وذلك لأن الصبر سكون القلب واطمئنانه ، وذلك بذكر الله ، كما قال تعالى : ﴿ أَلاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القلوب ﴾ [الرعد : 28] فلما قال ههنا وينصرك الله ، أظهر لفظ الله ذكراً للتعليم أن بذكر الله يحصل اطمئنان القلوب ، وبه يحصل الصبر ، وبه يتحقق النصر ، وههنا مسألة أخرى وهو أن الله تعالى قال : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا ﴾ ثم قال : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ الله ﴾ ولم يقل إنا فتحنا لنغفر لك تعظيماً لأمر الفتح ، وذلك لأن المغفرة وإن كانت عظيمة لكنها عامة لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً ﴾ [الزمر : 53] وقال : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ [النساء : 48] ولئن قلنا بأن المراد من

(26/712)

المغفرة في حق النبي عليه السلام العصمة ، فذلك لم يختص بنبينا ، بل غيره من الرسل كان معصوماً ، وإتمام النعمة كذلك ، قال الله تعالى : ﴿ اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ

عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ [المائدة : 3] وقال : ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نِعْمَتِيَ التي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : 47] وكذلك الهداية قال الله تعالى : ﴿ يَهْدِي مَن يَشَاء ﴾ [القصص : 56] فعمم ، وكذلك النصر قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون ﴾ [الصافات : 171 ، 172] وأما الفتح فلم يكن لأحد غير النبي صلى الله عليه وسلم ، فعظمه بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً ﴾ وفيه التعظيم من وجهين أحدهما : إنا وثانيهما : لك أي لأجلك على وجه المنة .

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (4)

لما قال تعالى : ﴿ وَيَنصُرَكَ الله ﴾ [الفتح : 3] بين وجه النصر ، وذلك لأن الله تعالى قد ينصر رسله بصيحة يهلك بها أعداءهم ، أو رجفة تحكم عليهم بالفناء ، أو جند يرسله من السماء ، أو نصر وقوة وثبات قلب يرزق المؤمنين به ، ليكون لهم بذلك الثواب الجزيل فقال : ﴿ هُوَ الذي أَنزَلَ السكينة ﴾ أي تحقيقاً للنصر ، وفي السكينة وجوه أحدها : هو السكون الثاني : الوقار لله ولرسول الله وهو من السكون الثالث : اليقين والكل من السكون وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

السكينة هنا غير السكينة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التابوت فِيهِ سكينة

من رِبّكمْ ﴾ [البقرة : 248] في قول أكثر المفسرين ويحتمل هي تلك المقصود منها على جميع الوجوه اليقين وثبات القلوب .

المسألة الثانية :

(27/712)

السكينة المنزّلة عليهم هي سبب ذكرهم الله كما قال تعالى : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القلوب ﴾ [الرعد : 28] .

المسألة الثالثة :

(28/712)

قال الله تعالى في حق الكافرين ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ﴾ [الأحزاب : 26] بلفظ القذف المزعج وقال في حق المؤمنين ﴿ أَنزَلَ السكينة ﴾ بلفظ الإنزال المثبت ، وفيه معنى حكمي وهو أن من علم شيئاً من قبل وتذكره واستدام تذكره فإذا وقع لا يتغير ، ومن كان غافلاً عن شيء فيقع دفعة يرجف فؤاده ، ألا ترى أن من أخبر بوقوع صيحة وقيل له لا تنزعج منها

فوقعت الصيحة لا يرجف ، ومن لم يخبر به و أخبر وغفل عنه يرتجف إذا وقعت ، فكذلك الكافر أتاه الله من حيث لا يحتسب وقذف في قلبه فارتجف ، والمؤمن أتاه من حيث كان يذكره فسكن ، وقوله تعالى : ﴿لِيَزْدَادُواْ إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ فيه وجوه أحدها : أمرهم بتكاليف شيئاً بعد شيء فآمنوا بكل واحد منها ، مثلاً أمروا بالتوحيد فآمنوا وأطاعوا ، ثم أمروا بالقتال والحج فآمنوا وأطاعوا ، فازدادوا إيماناً مع إيمانهم ثانيها : أنزل السكينة عليهم فصبروا فرأوا عين اليقين بما علموا من النصر علم اليقين إيماناً بالغيب فازدادوا إيماناً مستفاداً من الشهادة مع إيمانهم المستفاد من الغيب ثالثها : ازدادوا بالفروع مع إيمانهم بالأصول ، فإنهم آمنوا بأن محمداً رسول الله وأن الله واحد والحشر كائن وآمنوا بأن كل ما يقول النبي صلى الله عليه وسلم صدق وكل ما يأمر الله تعالى به واجب رابعها : ازدادوا إيماناً استدلالياً مع إيمانهم الفطري ، وعلى هذا الوجه نبين لطيفة وهي أن الله تعالى قال في حق الكافر ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا﴾ [آل عمران : 178] ولم يقل مع كفرهم لأن كفرهم عنادي وليس في الوجود كفر فطري لينضم إليه الكفر العنادي بل الكفر ليس إلا عنادياً وكذلك الكفر بالفروع لا يقال انضم إلى الكفر بالأصول لأن من ضرورة الكفر بالأصول الكفر بالفروع وليس من ضرورة الإيمان بالأصول الإيمان بالفروع بمعنى الطاعة والانقياد فقال : ﴿لِيَزْدَادُواْ إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ وقوله ﴿وَلِلَّهِ

جُنُودُ السموات والأرض ﴾ فكان قادراً على إهلاك عدوه بجنوده بل بصيحة ولم يفعل بل أنزل السكينة على المؤمنين ليكون إهلاك أعدائهم بأيديهم فيكون لهم الثواب ، وفي جنود السموات والأرض وجوه أحدها : ملائكة السموات والأرض ثانيها : من في السموات من الملائكة ومن في الأرض من الحيوانات والجن وثالثها : الأسباب السماوية والأرضية حتى يكون سقوط كسف من السماء والخسف من جنوده ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ الله عَلِيماً حَكِيماً ﴾ لما قال : ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السموات والأرض ﴾ وعددهم غير محصور ، أثبت العلم إشارة إلى أنه

﴿ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السموات وَلاَ فِي الأرض ﴾ [سبأ : 3] وأيضاً لما ذكر أمر القلوب بقوله ﴿ هُوَ الذي أَنزَلَ السكينة فِي قُلُوبِ المؤمنين ﴾ والإيمان من عمل القلوب ذكر العلم إشارة إلى أنه يعلم السر وأخفى ، وقوله ﴿ حَكِيماً ﴾ بعد قوله ﴿ عَلِيماً ﴾ إشارة إلى أنه يفعل على وفق العلم فإن الحكيم من يعمل شيئاً متقناً ويعلمه ، فإن من يقع منه صنع عجيب اتفاقاً لا يقال له حكيم ومن يعلم ويعمل على خلاف العلم لا يقال له حكيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 67 . 71 ﴾

وقال القرطبى :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1) ﴾

اختلف في هذا الفتح ما هو ؟ ففي البخاري حدّثني محمد بن بشار قال حدّثنا غندر قال حدّثنا شعبة قال سمعت قتادة عن أنس "إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً" قال : الحديبِية .

وقال جابر : ما كنا نعدّ فتح مكة إلا يوم الْحُدَيْبِيَة .

وقال الفرّاء : تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحاً ونحن نعدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبِية ، كنا نُعَدّ مع النبي صلى الله عليه وسلم أربع عشرة مائة ، والحديبية بئر .

وقال الضحاك : "إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً" بغير قتال .

وكان الصلح من الفتح .

وقال مجاهد : هو مَنْحَره بالحديبية وحلقه رأسه .

وقال : كان فتح الحديبية آية عظيمة ، نزح ماؤها فمج فيها فدرّت بالماء حتى شرب جميع من كان معه .

وقال موسى بن عقبة : " قال رجل عند مُنْصَرَفهم من الحديبية : ما هذا بفتح ؛ لقد صدّونا عن البيت .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "بل هو أعظم الفتوح قد رضي المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح ويسألوكم القضية ويرغبوا إليكم في الأمان وقد رأوا منكم ما كرهوا" " وقال الشعبي في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ قال : هو فتح الحديبية ، لقد أصاب بها ما لم يُصب في غزوة ؛ غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر ، وبويع بيعة الرضوان ، وأطعِموا نخل خيبر ، وبلغ الهَدْيُ مَحِلّه ، وظهرت الروم على فارس ؛ ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس .

وقال الزهريّ : لقد كان الحديبية أعظم الفتوح ؛ وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم جاء إليها في ألف وأربعمائة ، فلما وقع الصلح مشى الناس بعضهم في بعض وعلموا وسمعوا عن الله ، فما أراد أحد الإسلام إلا تمكن منه ؛ فما مضت تلك السنتان إلا والمسلمون قد جاءوا إلى مكة في عشرة آلاف .

وقال مجاهد أيضاً والعَوْفي : هو فتح خَيْبر .

(31/712)

والأوّل أكثر ؛ وخَيْبَرُ إنما كانت وعْداً وُعِدُوه ؛ على ما يأتي بيانه في قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ المخلفون إِذَا انطلقتم ﴾ [الفتح : 15] ، وقوله : ﴿ وَعَدَكُمُ الله مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا

فَعَجَّلَ لَكُمْ هذه ﴾ [الفتح : 20] .

" وقال مُجَمِّع بن جارية وكان أحد القرّاء الذين قرءوا القرآن : شهدنا الحديبية مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فلما انصرفنا عنها إذا الناس يهزون الأباعر ؛ فقال بعض الناس لبعض : ما بال الناس ؟ قالوا : أوحى الله إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم .

قال : فخرجنا نُوجِف فوجدنا نبيّ الله صلى الله عليه وسلم عند كُراع الغَمِيم ، فلما اجتمع الناس قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم "إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً" فقال عمر بن الخطاب : أوَفتحٌ هو يا رسول الله ؟ قال : "نعم ، والذي نفسي بيده إنه لفتح" .

فقسمت خيبر على أهل الحديبية " ، لم يدخل أحد إلا من شهد الحديبية .

وقيل : إن قوله تعالى : "فَتْحاً" يدل على أن مكة فتحت عَنْوة ؛ لأن اسم الفتح لا يقع مطلقاً إلا على ما فتح عَنْوَةً .

هذا هو حقيقة الاسم .

وقد يقال : فُتح البلد صُلْحاً ، فلا يفهم الصلح إلا بأن يُقرن بالفتح ، فصار الفتح في الصلح مجازاً .

والأخبار دالة على أنها فتحت عَنْوة ؛ وقد مضى القول فيها ، ويأتي .

لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (2)

قال ابن الأنباري : "فَتْحاً مُبِيناً" غير تام ؛ لأن قوله : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ ﴾ متعلق

بالفتح .

كأنه قال : إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً لكي يجمع الله لك مع الفتح المغفرة ؛ فيجمع الله لك به ما تَقَرّ به عينك في الدنيا والآخرة .

وقال أبو حاتم السِّجستاني : هي لام القسم .

(32/712)

وهذا خطأ ؛ لأن لام القسم لا تكسر ولا ينصب بها ؛ ولو جاز هذا لجاز : ليقوم زيد ؛ بتأويل ليقومن زيد .

الزَّمَخْشَرِيّ : فإن قلت كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة ؟ قلت : لم يجعل علة للمغفرة ، ولكن لاجتماع ما عدّد من الأمور الأربعة ، وهي : المغفرة ، وإتمام النعمة ، وهداية الصراط المستقيم ، والنصر العزيز .

كأنه قال يَسّرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوّك ليجمع لك عِزّ الدارين وأعراض العاجل والآجل .

ويجوز أن يكون فتح مكة من حيث إنه جهاد للعدوّ سبباً للغفران والثواب .

وفي الترمذي " عن أنس قال : أُنزلت على النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا

تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ مَرْجِعَه من الحديبية ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "لقد أنزلت عليّ آية أحبّ إليّ مما على وجه الأرض" .

ثم قرأها النبي صلى الله عليه وسلم عليهم ؛ فقالوا : هنيئاً مريئاً يا رسول الله ، لقد بيّن الله لك ماذا يفعل بك ؛ فماذا يفعل بنا ؟ فنزلت عليه : ﴿ لِّيُدْخِلَ المؤمنين والمؤمنات جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار حتى بلغ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ " قال حديث حسن صحيح .

وفيه عن مُجَمِّع بن جارية .

واختلف أهل التأويل في معنى "لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ" فقيل : "مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ" قبل الرسالة .

"وَمَا تَأَخَّرَ" بعدها ؛ قاله مجاهد .

ونحوه قال الطبري وسفيان الثوري ، قال الطبري : هو راجع إلى قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ إلى قوله تَوَّاباً ﴾ .

﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ الله مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ ﴾ قبل الرسالة ﴿ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ إلى وقت نزول هذه الآية .

وقال سفيان الثوري : "لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ" ما عملته في الجاهلية من قبل أن يوحى إليك .

"وَمَا تَأَخَّرَ" كل شيء لم تعمله ؛ وقاله الواحدي .

وقد مضى الكلام في جريان الصغائر على الأنبياء في سورة "البقرة" ؛ فهذا قول .

وقيل : "مَا تَقَدَّمَ" قبل الفتح .

"وَمَا تَأَخَّرَ" بعد الفتح .

وقيل : "مَا تَقَدَّمَ" قبل نزول هذه الآية .

"وَمَا تَأَخَّرَ" بعدها .

وقال عطاء الخراسانيّ : "مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ" يعني من ذنب أبويك آدم وحوّاء .

"وَمَا تَأَخَّرَ" من ذنوب أمتك .

وقيل : من ذنب أبيك إبراهيم .

"وَمَا تَأَخَّرَ" من ذنوب النبيّين .

وقيل : "مَا تَقَدَّمَ" من ذنب يوم بدر .

"وَمَا تَأَخَّرَ" من ذنب يوم حُنَين .

وذلك أن الذنب المتقدّم يوم بدر ، أنه جعل يدعو ويقول :

" اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعْبد في الأرض أبداً " وجعل يردّد هذا القول دفعات ،

فأوحى الله إليه : من أين تعلم أني لو أهلكت هذه العصابة لا أُعبد أبداً ؛ فكان هذا الذنب المتقدّم .

وأما الذنب المتأخر فيوم حنين ، لما انهزم الناس " قال لعمه العباس ولابْن عمه أبي سفيان : "ناولاني كَفًّا من حَصْباء الوادي"فناولاه فأخذه بيده ورمى به في وجوه المشركين وقال : "شاهت الوجوه .

حاما .

لا ينصرون" فانهزم القوم عن آخرهم ، فلم يبق أحد إلا امتلأت عيناه رملاً وحصباء .

ثم نادى في أصحابه فرجعوا فقال لهم عند رجوعهم : "لو لم أرمهم لم ينهزموا" " فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ولكن الله رمى ﴾ [الأنفال : 71] فكان هذا هو الذنب المتأخر .

وقال أبو علي الرُّوذَبَارِيّ : يقول لو كان لك ذنب قديم أو حديث لغفرناه لك .

قوله تعالى : ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ قال ابن عباس : في الجنة .

وقيل : بالنبوّة والحكمة .

وقيل : بفتح مكة والطائف وخيبر .

وقيل : بخضوع من استكبر وطاعة من تجبّر .

﴿ وَيَهْدِيَكَ صراطا مُّسْتَقِيماً ﴾ أي يثبتك على الهدى إلى أن يقبضك إليه .

﴿ وَيَنصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً ﴾ أي غالباً منيعاً لا يتبعه ذل .

(34/712)

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ

"السَّكِينَةَ" : السكون والطمأنينة .

قال ابن عباس : كل سكينة في القرآن هي الطمأنينة إلا التي في "البقرة" .

وتقدّم معنى زيادة الإيمان في "آل عمران" .

وقال ابن عباس : بُعث النبيّ صلى الله عليه وسلم بشهادة أن لا إله إلا الله ؛ فلما صدّقوه فيها زادهم الصلاة ؛ فلما صدّقوه زادهم الزكاة ؛ فلما صدّقوه زادهم الصيام ؛ فلما صدّقوه زادهم الحج ؛ ثم أكمل لهم دينهم ؛ فذلك قوله : ﴿ ليزدادوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ أي تصديقاً بشرائع الإيمان مع تصديقهم بالإيمان .

وقال الربيع بن أنس : خَشْيَةً مع خشيتهم .

وقال الضحاك : يقيناً مع يقينهم .

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السماوات والأرض ﴾ قال ابن عباس : يريد الملائكة والجنّ والشياطين

والإنس ﴿ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً ﴾ بأحوال خلقه ﴿ حَكِيماً ﴾ فيما يريده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(35/712)

وقال ابن كثير :

تفسير سورة الفتح

وهي مكية

قال الإمام أحمد حدثنا وَكِيع ، حدثنا شُعْبَة ، عن معاوية بن قرة قال : سمعت عبد الله بن مغفل يقول : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح في مسيره سورة الفتح على راحلته فرجَّع فيها - قال معاوية : لولا أني أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت لكم قراءته ، أخرجاه من حديث شعبة به (1) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1) ﴾ .

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة ، حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام

ليقضي عمرته فيه ، وحالوا بينه وبين ذلك ، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة ، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل ، فأجابهم إلى ذلك على تكره من جماعة من الصحابة ، منهم عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، كما سيأتي تفصيله في موضعه من تفسير هذه السورة إن شاء الله . فلما نحر هديه حيث أحصر ، ورجع ، أنزل الله ، عز وجل ، هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم ، وجعل ذلك الصلح فتحًا باعتبار ما فيه من المصلحة ، وما آل الأمر إليه ، كما روى عن ابن مسعود ، رضي الله عنه ، وغيره أنه قال : إنكم تعدون الفتح فتح مكة ، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية .

وقال الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن جابر قال : ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية . (2)

---

(1) المسند (24/5) وصحيح البخاري برقم (4835) وصحيح مسلم برقم (794) .

(2) رواه الطبري (44/26) .

(36/712)

وقال البخاري : حدثنا عبيد الله بن موسى ، عن إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن البراء قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحًا ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان

يوم الحديبية ، كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع عشرة مائة ، والحديبية بئر .

فنزحناها فلم نترك فيها قطرة ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتاها فجلس على شفيرها ، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ ، ثم تمضمض ودعا ، ثم صبه فيها ، فتركناها غير بعيد ، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركائبنا (1) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو نوح ، حدثنا مالك بن أنس ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن عمر بن الخطاب قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ، قال : فسألته عن شيء – ثلاث مرات – فلم

---

(1) صحيح البخاري برقم (4150) .

(37/712)

يرد علي ، قال : فقلت لنفسي : ثكلتك أمك يا ابن الخطاب ، نزرت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات فلم يرد عليك ؟ قال : فركبت راحلتي فتقدمت مخافة أن يكون نزل في شيء ، قال : فإذا أنا بمناد ينادي : يا عمر ، أين عمر ؟ قال : فرجعت وأنا أظن أنه نزل في شيء ، قال : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "نزلت علي الليلة سورة هي أحب إلي من الدنيا وما فيها : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا . لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا

تَأَخَّرَ ﴾ .

ورواه البخاري ، والترمذي ، والنسائي من طرق ، عن مالك ، رحمه الله (1) ، وقال علي بن المديني : هذا إسناد مديني [جيد] لم نجده إلا عندهم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن قتادة ، عن أنس بن مالك ، رضي الله عنه ، قال : نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ مرجعه من الحديبية ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : "لقد أنزلت علي آية أحب إلي مما على الأرض" ، ثم قرأها عليهم النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : هنيئًا مريئًا يا نبي الله ، لقد بين الله ، عز وجل ، ماذا يفعل بك ، فماذا يفعل بنا ؟ فنزلت عليه : ﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ ﴾ حتى بلغ : ﴿ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح : 5] ، أخرجاه في الصحيحين من رواية قتادة به (2) .

---

(1) المسند (31/1) وصحيح البخاري برقم (4833) وسنن الترمذي برقم (3262) والنسائي في السنن الكبرى برقم (11499) .

(2) المسند (197/3) وصحيح البخاري برقم (4148) وصحيح مسلم برقم (1786) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثنا مُجَمِّعُ بن يعقوب ، قال : سمعت أبي يحدث عن عمه عبد الرحمن بن أبي يزيد الأنصاري عن عمه مجمع بن جارية الأنصاري – وكان أحد القراء الذين قرءوا القرآن – قال : شهدنا الحديبية فلما انصرفنا عنها إذا الناس ينفرون الأباعر ، فقال الناس بعضهم لبعض : ما للناس ؟ قالوا : أوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرجنا مع الناس نوجف ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته عند كراع الغميم ، فاجتمع الناس عليه ، فقرأ عليهم : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ ، قال : فقال رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي رسول الله ، وفتح هو ؟ قال : "إي والذي نفس محمد بيده ، إنه لفتح" . فقسمت خيبر على أهل الحديبية لم يدخل معهم فيها أحد إلا من شهد الحديبية ، فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم على ثمانية عشر سهما ، وكان الجيش ألفا وخمسمائة فارس ، فأعطى الفارس سهمين ، وأعطى الراجل سهما .

رواه أبو داود في الجهاد عن محمد بن عيسى ، عن مجمع بن يعقوب ، به (1) .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع ، حدثنا أبو بحر ، حدثنا شعبة ، حدثنا جامع بن شداد ، عن عبد الرحمن بن أبي علقمة ، قال : سمعت عبد الله بن مسعود يقول : لما

(1) المسند (420/3) وسنن أبي داود برقم (2736) .

(39/712)

أقبلنا من الحديبية أعرسنا فنمنا ، فلم نستيقظ إلا بالشمس قد طلعت ، فاستيقظنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم نائم ، قال : فقلنا : "امضوا" . فاستيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقال : "افعلوا ما كنتم تفعلون وكذلك [يفعل] من نام أو نسي" . قال : وفقدنا ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فطلبنها ، فوجدناها قد تعلق خطامها بشجرة ، فأتيته بها فركبها ، فبينا نحن نسير إذ أتاه الوحي ، قال : وكان إذا أتاه [الوحي] اشتد عليه ، فلما سري عنه أخبرنا أنه أنزل عليه : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ .

وقد رواه أحمد وأبو داود ، والنسائي من غير وجه ، عن جامع بن شداد به (1) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان عن زياد بن علاقة ، قال : سمعت المغيرة بن شعبة يقول : كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي حتى ترم قدماه ، فقيل له : أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : "أفلا أكون عبدًا شكورًا" .

أخرجاه وبقية الجماعة إلا أبا داود من حديث زياد به (2) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هارون بن معروف ، حدثنا ابن وهب ، حدثني أبو صخر ، عن

ابن قسيط ، عن عروة بن الزبير ، عن عائشة ، قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه .

فقالت له عائشة : يا رسول الله ، أتصنع هذا وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : "يا عائشة ، أفلا أكون عبدا شكورا ؟" .

أخرجه مسلم في الصحيح من رواية عبد الله بن وهب ، به (3) .

---

(1) تفسير الطبري (43/26) والمسند (464/1) وسنن أبي داود برقم (447) والنسائي في السنن الكبرى برقم (8853) .

(2) المسند (55/4) وصحيح البخاري برقم (4836) وصحيح مسلم برقم (2819) وسنن الترمذي برقم (412) وسنن النسائي (219/3) وسنن ابن ماجه برقم (1419) .

(3) المسند (115/6) وصحيح مسلم برقم (2820) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا عبد الله بن عون الخراز - وكان ثقة بمكة - حدثنا محمد بن بشر حدثنا مسعر ، عن قتادة ، عن أنس ، قال : قام رسول الله

صلى الله عليه وسلم حتى تورمت قدماه – أو قال ساقاه – فقيل له : أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : "أفلا أكون عبدًا شكورًا ؟" غريب من هذا الوجه (1) .

---

(1) ورواه أبو يعلى في المسند (280/5) من طريق عبد الله بن عون الخراز به ، ورواه البزار في مسنده برقم (2380) "كشف الأستار" من طريق الحسين بن الأسود عن محمد بن بشر به ، وقال البزار : "لا نعلم أحدا حدث بهذا الحديث بهذا الإسناد إلا الحسين بن بشر وعبد الله بن عون الخزار ، وقد رواه غيرهما عن محمد بن بشر عن مسعر ، عن زياد بن علاقة ، عن المغيرة بن شعبةن وهو الصواب" فكلام الإمام البزار هنا موضح لقول الحافظ ابن كثير : "غريب من هذا الوجه" .

(41/712)

فقوله : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ أي : بينا ظاهرا ، والمراد به صلح الحديبية فإنه حصل بسببه خير جزيل ، وآمن الناس واجتمع بعضهم ببعض ، وتكلم المؤمن مع الكافر ، وانتشر العلم النافع والإيمان .

وقوله : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ : هذا من خصائصه – صلوات

الله وسلامه عليه – التي لا يشاركه فيها غيره . وليس صحيح في ثواب الأعمال لغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو – صلوات الله وسلامه عليه – في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه ، لا من الأولين ولا من الآخرين ، وهو أكمل البشر على الإطلاق ، وسيدهم في الدنيا والآخرة . ولما كان أطوع خلق الله لله ، وأكثرهم تعظيما لأوامره ونواهيه . قال حين بركت به الناقة : "حبسها حابس الفيل" ثم قال : "والذي نفسي بيده ، لا يسألوني اليوم شيئا يعظمون به حرمات الله إلا أجبتهم إليها" (1) فلما أطاع الله في ذلك وأجاب إلى الصلح ، قال الله له : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ أي : في الدنيا والآخرة ، ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ أي : بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم .

﴿ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ أي : بسبب خضوعك لأمر الله يرفعك الله وينصرك على أعدائك ، كما جاء في الحديث الصحيح : "وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله" (2) . وعن عمر بن الخطاب [رضي الله عنه] أنه قال : ما عاقبت – أي في الدنيا والآخرة – أحدا عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله فيه .

---

(1) رواه البخاري في صحيحه برقم (2731 ، 2732) .

(2) رواه مسلم في صحيحه برقم (2588) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(42/712)

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾

يقول تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ ﴾ أي : جعل الطمأنينة . قاله ابن عباس ، وعنه : الرحمة .

وقال قتادة : الوقار في قلوب المؤمنين . وهم الصحابة يوم الحديبية ، الذين استجابوا لله ولرسوله وانقادوا لحكم الله ورسوله ، فلما اطمأنت قلوبهم لذلك ، واستقرت ، زادهم إيمانًا مع إيمانهم .

(43/712)

وقد استدل بها البخاري وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان في القلوب .

ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لانتصر من الكافرين ، فقال : ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي : ولو أرسل عليهم ملكا واحدا لأباد خضراءهم ، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال ، لما له في ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة ، والبراهين الدامغة ؛

ولهذا قال : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 7 صـ 325.329 ﴾

(44/712)

وقال الثعالبى :

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً . . . ﴾ الآية ،

قال قوم : يريد فَتْحَ مَكَّةَ ، وقال جمهور الناس ، وهو الصحيح الذي تَعْضُدُهُ قصة الحديبية : إنَّ قوله : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ ﴾ إنَّما معناه هو ما يَسَرَّ اللَّه عز وجل لنبيّه في تلك الخرجة من الفتح البَيِّنِ الذي استقبله ، ونزلت السورة مؤنسة للمؤمنين ؛ لأَنَّهم كانوا استوحشوا من رَدِّ قريشٍ لهم ومن تلك المهادنة التي جعلها اللَّه سبباً للفتوحات ، واستقبل النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم في تلك السفرة أَنَّهُ هَادَنَ عَدوَّه ريثما يَتَقَوَّى هو ، وظهرت على يديه آية الماء في بئر الحديبية ؛ حيث وضع فيه سهمه ، وثاب الماء حتى كَفَى الجيش ، واتَّفَقَتْ بيعةُ الرضوان ، وهي الفتح الأعظم ؛ قاله جابر بن عبد اللَّه والبَرَاءُ بن عازب ، وبلغ هَدْيُهُ مَحِلَّهُ ؛ قاله الشَّعْبِيُّ ، واستقبل فتح خيبر ، وامتلأت أيدي المؤمنين ، وظهرت في ذلك الوقت الروم على فارس ، فكانت من جملة الفتح ؛ فَسُرَّ بها صلى الله عليه وسلم هو والمؤمنون ؛

لظهور أهل الكتاب على المجوس ، وشَرَّفَه اللَّه بأنْ أخبره أَنَّه قد غفر له ما تقدَّمَ من ذنبه وما تأَخَّرَ ، أي : وإِنْ لم يكن ذنب .

* ت * : قال الثعلبيُّ : قوله : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ﴾ قال أبو حاتم : هذه لام القسم ، لما حُذِفَتِ النون من فعله كُسِرَتْ ، ونُصِبَ فعلها ؛ تشبيهاً بلام «كي» ، انتهى .

قال عياض : ومقصد الآية أَنَّك مغفور لك ، غيرَ مؤاخذ بذنب ، إنْ لو كان ، انتهى .

(45/712)

قال أبو حيان : «لِيَغْفِرَ» اللامِ لِلْعِلَّةِ ، وقال * ع * : هي لام الصيرورة ، وقيل : هي لام القسم ، ورُدَّ بأنَّ لام القسم لا تُكْسَرُ ولا يُنْصَبُ بها ، وأُجِيبَ بأَنَّ الكَسْرَ قد عُلِّلَ بالحمل على «لام كي» وأَمَّا الحركة فليست نصباً ؛ بل هي الفتحة الموجودة مع النون ، بَقِيَتْ بعد حذفها دَالَّةً على المحذوف ، ورُدَّ بأَنَّهُ لم يُحْفَظْ من كلامهم : واللَّهِ ليقوم ولا باللَّه ليخرج زيد ، انتهى .

وفي صحيح البخاريِّ عن أنس بن مالك : " إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً " الحديبية ، انتهى .

وقوله سبحانه : ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ أي : بإظهارك وتغليبك على عَدُوِّك ، والرُّضْوَانُ

في الآخرة والسَّكِينَةُ فعيلة من السكون ، وهو تسكين قلوبهم لتلك الهُدْنَةِ مع قريش حتَّى اطمأَنَّتْ ، وعلموا أَنَّ وعد اللَّه حق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 4 صـ ﴾

(46/712)

وقال الآلوسى :

بسْم الله الرحمن الرَّحيم

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ ﴾

إخبار عن صلح الحديبية عند الجمهور وروى ذلك عن ابن عباس .

وأنس .

والشعبي .

(47/712)

والزهري قال ابن عطية : وهو الصحيح ، وأصل الفتح إزالة الإغلاق ، وفتح البلد كما في الكشاف الظفر به عنوة أو صلحاً بحرب أو بغيره لأنه منغلق ما لم يظفر به فإذا ظفر به

وحصل في اليد فقد فتح ، وسمي ذلك الصلح فتحاً لاشتراكهما في الظهور والغلبة على المشركين فإنهم كما قال الكلبي ما سألوا الصلح إلا بعد أن ظهر المسلمون عليهم ، وعن ابن عباس أن المسلمين رموهم أي بسهام وحجارة كما قيل حتى ادخلوهم ديارهم أو لأن ذلك الصلح صار سبباً لفتح مكة ، قال الزهري : لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية اختلط المشركون بالمسلمين وسمعوا كلامهم وتمكن الإسلام من قلوبهم وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير وكثر بهم سواد الإسلام ، قال القرطبي : فما مضت تلك السنون إلا والمسلمون قد جاؤا إلى مكة في عشرة آلاف ففتحوها ، والتسمية على الأول من باب الاستعالرة التبعية كيفما قررت ، وعلى الثاني من باب المجاز المرسل سواء قلنا إنه في مثل ما ذكر تبعي أم لا حيث سمي السبب باسم المسبب ، ولا مانع من أن يكون بين شيئين نوعان من العلاقة فيكون استعمال أحدهما في الآخر باعتبار كل نوعاً من المجاز كما في المشفر والشفة الغليظة لإنسان ، وإسناد الفتح المراد به الصلح الذي هو فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه عز وجل مجاز من إسناد ما للقابل للفاعل الموجد ، وفي ذلك من تعظيم شأن الصلح والرسول عليه الصلاة والسلام ما فيه ؛ لا يقال : قد تقرر في الكلام أن الأفعال كلها مخلوقة له تعالى فنسبة الصلح إليه سبحانه إسناد إلى ما هو له فلا مجاز لأنا نقول : ما هو له عبارة عما كان الفعل حقه أن يسند إليه في العرف سواء كان مخلوقاً له تعالى أو لغيره عز

وجل كما صرح به السعد في المطول وكيف لا ولو كذلك لكان إسناد جميع الأفعال إلى غيره تعالى مجازاً وإليه تعالى حقيقة كالصلاة والصيام وغيرهما .

(48/712)

وقال المحقق ميرزاجان : يمكن توجيه ما في الآية الكريمة على أنه استعارة مكنية أو على أن يراد خلق الصلح وإيجاده أو على أن يكون المجاز في الهيئة التركيبية الموضوعة للإسناد إلى ما هو له فاستعملت في الإسناد إلى غيره أو على أن يكون من قبيل الاستعارة التمثيلية ، والأوجه الأربعة جارية في كل ما كان من قبيل المجاز العقلي كأنبت الربيع البقل ، وقد صرح القوم بالثلاثة الأول منها ، وزعم بعض أن الصلح مما يسند إليه تعالى حقيقة فلا يحتاج إلى شيء من ذلك وفيه ما فيه ، ويجوز أن يكون ذلك إخباراً عن جعل المشركين في الحديبية مغلوبين خائفين طالبين للصلح ويكون الفتح مجازاً عن ذلك وإسناده إليه تعالى حقيقة ، وقد خفي كون ما كان في الحديبية فتحاً على بعض الصحابة حتى بينه عليه الصلاة والسلام .

(49/712)

أخرج البيهقي عن عروة قال : " أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية راجعاً فقال رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : "والله ما هذا بفتح لقد صددنا عن البيت وصد هدينا وعكف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية ورد رجلين من المسلمين خرجاً فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فقال : بئس الكلام هذا بل هو أعظم الفتح لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادكم ويسألونكم القضية ويرغبون إليكم في الأمان وقد كرهوا منكم ما كرهوا ، وقد أظفركم الله عليهم وردكم سالمين غانمين مأجورين فهذا أعظم الفتح ، أنسيتم يوم أحد إذا تصعدون ولا تلون على أحد وأنا أدعوكم في إخراجكم ؟ أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون ؟ قال المسلمون : صدق الله ورسوله هو أعظم الفتوح والله يا نبي الله ما فكرنا فيما ذكرت ولأنت أعلم بالله وبالأمور منا " وفائدة الخبر بالفتح على الوجهين بالنسبة إلى غيره عليه الصلاة والسلام لأنه صلى الله عليه وسلم يعلم ذلك وكذا يعلم لازم الفائدة كذا قيل .

وحمل الغير على من لم يحضر الفتح من الصحابة وغيرهم لأن الحاضرين علموا ذلك قبل النزول ، وقيل : الحاضر إنما علم وقوع الصلح أو كون المشركين بحيث طلبوه ولم يعلم كونه فتحاً كما يشعر به الخبر ، وإن سلم أنه علم ذلك لكنه لم يعلم عظم شأنه على ما يشعر به إسناده إلى نون العظمة والاخبار به بذلك الاعتبار .

وقال بعض المحققين : لعل المقصود بالإفادة كون ذلك للمغفرة وما عطف عليها فيجوز أن تكون الفائدة بالنسبة إليه صلى الله عليه وسلم أيضاً ، وأقول : قد صرحوا بأنه كثيراً ما تورد الجملة الخبرية لأغراض أخر سوى إفادة الحكم أو لازمه نحو ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى ﴾ [آل عمران : 36] ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العظم مِنِّي ﴾ [مريم : 4] ﴿ لاَّ يَسْتَوِي القاعدون مِنَ المؤمنين ﴾ [النساء : 95] الآية إلى غير ذلك مما لا يحصى فيجوز أن يكون الغرض من إيرادها ههنا الامتنان دون إفادة الحكم أو لازمه ولا مجاز في ذلك ونحوه على ما أشار إليه العلامة عبد الحكيم السالكوتي في حواشيه على المطول .

وصرح في الرسالة الجندية بأن الهيئة التركيبية الخبرية في نحو ذلك منقولة إلى الإنشائية وإن المجاز في الهيئة فقط لا في الأطراف ولا في المجموع وهو مجاز مفرد عند صاحب الرسالة والكلمة أعظم من اللفظ الحقيقي والحكمي ، وبعضهم يقول هو مجاز مركب ولا ينحصر في التمثيلية ، وتحقيقه في موضعه .

والتأكيد بأن للاعتناء لا لرد الإنكار وقيل لأن الحكم لعظم شأنه مظنة للإنكار ، وقيل : لأن بعض السامعين منكر كون ما وقع فتحاً ، ويقال في تكرير الحكم نحو ذلك .

وقال مجاهد : المراد بالفتح فتح خيبر وهي مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على ثمانية برد من المدينة إلى جهة الشام ، وكان خروج النبي صلى الله عليه وسلم كما قال ابن إسحاق ورجحه الحافظ ابن حجر في بقية المحرم سنة سبع وأقام يحاصرها بضع عشرة ليالة إلى أن فتحها ونقل عن مالك وجزم به ابن حزم أنه كان في آخر سنة ست ، وجمع بأن من أطلق سنة بناه على أن ابتداء السنة من شهر الهجرة الحقيقي وهو شهر ربيع الأول ، وقول الشيخ أبي حامد في التعليقة : إن غزوة خيبرة كانت سنة خمس وهم ، وقول ابن سعد .

(51/712)

وابن أبي شيبة رواية عن أبي سعيد الخدري ، أنها كانت لثمان عشرة من رمضان خطأ ، ولعل الأصل كانت حنين فحرف ومع هذا يحتاج إلى توجيه وقد فتحت على أيدي أهل الحديبية لم يشركهم أحد من المتخلفين عنها فالفتح على حقيقة وإسناده إليه تعالى على حد ما سمعت فيما تقدم ، والتأكيد بأن وتكرير الحكم للاعتناء ، والتعبير عن ذلك بالماضي مع أنه لم يكن واقعاً يوم النزول بناء على ما روى عن المسور بن مخرمة من أن السورة نزلت من أولها إلى آخرها بين مكة والمدينة من باب مجاز المشارفة نحو من قتل قتيلاً على

المشهور أو الأول نحو ﴿ إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ [يوسف : 36] ولا يضر اختلافهما في الفعلية والاسمية ؛ وفيه وجه آخر يعلم مما سيأتي إن شاء الله تعالى .

وذهب جماعة إلى أنه فتح مكة وهو كما في زاد المعاد الفتح الأعظم الذي أعز الله تعالى به دينه واستنقذ في دين الله عز وجل أفواجاً وأشرق وجه الدهر ضياء وابتهاجاً ، وكان سنة ثمان وفي رواية ونصف ، وقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما أخرجه أحمد بإسناد صحيح عن أبي سعيد لليلتين خلتا من شهر رمضان ، وفتح مكة لثلاث عشرة خلت منه على ما روى عن الزهري ، وروى عن جماعة أنه كان الفتح في عشر بقيت من شهر رمضان وقيل غير ذلك ، وكان معه صلى الله عليه وسلم من المسلمين عشرة آلاف وقيل : إثنا عشر ألفاً والجمع ممكن ، وكان الفتح عند الشافعي صلحاً وهي رواية عن أحمد للتأمين في ممر الظهران بمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ، ولعدم قسمة الدور بين الغانمين ، وذهب الأكثرون إلى أنه عنوة للتصريح بالأمر بالقتال ووقوعه من خالد بن الوليد وقوله ، عليه الصلاة والسلام :

" أحلت لي ساعة من نهار " ولا يسمى ذلك التأمين صلحاً إلا إذا التزم من أشير إليه به الكف عن القتال ، والأخبار الصحيحة ظاهرة في أن قريشاً لم يلتزموا ، وترك القسمة لا يستلزم عدم العنوة فقد تفتح البلدة عنوة ويمن على أهلها وتترك لهم دورهم .

(53/712)

وأقام عليه الصلاة والسلام بعد الفتح خمس عشرة ليلة في رواية البخاري وسبع عشرة في رواية أبي داود وثمان عشرة في رواية الترمذي ، وتسع عشرة في رواية بعض ، وتمام الكلام في كتب السير ، واستظهر هذا القول أبو حيان وذكر أنه المناسب لآخر السورة التي قبل لما قال سبحانه : ﴿ هَاأَنتُمْ هَؤُلاَء تُدْعَوْنَ ﴾ [محمد : 38] الآية فبين جل وعلا أنه فتح لهم مكة وغنموا وحصل لهم أضعاف ما أنفقوا ولو بخلوا لضاع عليهم ذلك فلا يكون بخلهم إلا على أنفسهم ، وأيضاً لما قال سبحانه : ﴿ وَأَنتُمُ الاعلون والله مَعَكُمْ ﴾ [محمد : 35] بين تعالى برهانه بفتح مكة فإنهم كانوا هم الأعلين ، وأيضاً لما قال تعالى : ﴿ فَلا فَلاَ تَهِنُواْ وَتَدْعُواْ إِلَى السلم ﴾ [محمد : 35] كان ذلك في فتح مكة ظاهراً حيث لم يلحقهم وهن ولا دعوا إلى الصلح بل أتى صناديد قريش مستأمنين مستسلمين وهذا ظاهر بالنسبة إلى القول بأن المراد به فتح الحديبية ، وأما على القول بأن المراد به فتح خيبر فليس كذلك ،

ورجع بعضهم القول بأنه صلح الحديبية على القول بأنه فتح مكة بأن وعد فتح مكة يجيء صريحاً في هذه السورة الكريمة وذلك قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرؤيا بالحق لَتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام إِن شَاء الله ءامِنِينَ ﴾ [الفتح : 27] الآية فلو حمل هذا الفتح عليه لكان تأكيداً بخلاف ما إذا حمل على صلح الحديبية فإنه يكون تأسيساً والتأسيس خير من التأكيد ، ورجحه بعض على القول بأنه فتح خيبر بمثل هذا لأن فتح خيبر مذكور فيما بعد أيضاً ، وللبحث في ذلك مجال ، وإن والتكرير لما تقدم ، وكذا الإسناد إلى ضمير العظمة بل هذا الفتح أولى بالاعتناء وتعظيم الشأن حتى قيل : إن إسناده إليه تعالى لكونه من الأمور الغريبة العجيبة التي يخلقها الله تعالى على يد أنبيائه عليهم السلام كالرمي بالحصى المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ولكن

الله رمى ﴾ [الأنفال : 17] وهذا خلاف ظاهر ، والمشهور أن في الكلام مجازاً عقلياً وفيه الاحتمالات السابقة .

وقال بعض المحققين : يمكن أن يقال : لعل الإرادة هنا معتبرة إما على سبيل الحذف أو على المجاز المرسل كما في قوله تعالى : ﴿ إِذَا قمتم إلى الصلاة ﴾ [المائدة : 6] الآية ، وقوله

تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ القرءان فاستعذ بالله ﴾ [النحل : 98] عند أكثر الأئمة ، ومثل هذا التأويل قيل : مطرد في الأفعال الاختيارية ، وزعم بعضهم أن الفتح مجاز عن تيسيره ، وذكر بعض الصدور في توجيه التأكيد بأن ههنا أنه قد يجعل غير السائل بمنزلة السائل إذا قدم إليه ما يلوح به بالخبر ، وصرحوا بأن الملوح لا يلزم أن يكون كلاماً ، وقد ذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم أنه عليه الصلاة والسلام رأى في المنام أنه وأصحابه رضي الله تعالى عنهم دخلوا مكة آمنين فصار المقام مقام أن يتردد في الفتح فألقى إليه عليه الصلاة والسلام الكلام مؤكداً كما يلقى إلى السائل كذلك ، وجوز أن يكون لرد الإنكار بناء على تحققه من المشركين فإنهم كانوا يزعمون أنه صلى الله عليه وسلم لا يستولي على مكة كما لم يستول عليها من أراد الاستيلاء عليها قبله عليه الصلاة والسلام وهو كما ترى ، وذكر بعض أجلة القائلين بأن المراد به فتح مكة أن الكلام وعد بفتحها فقيل إن الجملة حينئذ أخبار ، وقيل : إنها إنشاء ، واستشكل بما صرح به الرضي من أن الجمل الإنشائية منحصرة بالاستقراء في الطلبية والإيقاعية والوعد ليس شيئاً منهما أما الأول فظاهر ، وأما الثاني فلأن مجرد قولك لأكرمنك مثلاً لا يقع به الإكرام ، وقال بعض الصدور أن كلامهم مضطرب في كون الوعد إنشاء أو إخباراً ، ويمكن التوفيق بأن يقال : أصل الوعد إنشاء لأنه إظهار أمر في النفس يوجب سرور المخاطب وما يتعلق به الوعد وهو الموعود إخبار نظيره قول النحاة كأن لإنشاء التشبيه مع أن مدخولها جملة خبرية .

وقال الخفاجي : هذا ناشيء من عدم فهم المراد منه ، فإن قيل : المراد من لأكرمنك مثلاً إكرام في المستقبل فهو خبر بلا مرية ، وإن قيل : معناه العزم على إكرامه وتعجيل المسرة له بإعلامه فهو إنشاء ، وأقول لا يخفى أن الأخبار أصل للإنشاء ، وقد صرح بذلك العلامة التفتازاني ، في المطول وليست هيئة المركب دالة على أنه إنشاء وليس فيه ما يدل بمادته على ذلك فيمكن أن يقال : إنه إخبار قصد به تعجيل المسرة وإن ذلك لا يخرجع عن الاخبار نظير ما قيل في قوله تعالى : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى ﴾ [آل عمران : 36] ونحوه فتدبر ، والتعبير عن ذلك بالماضي لتحققه ، وفيه من تسلية قلوب الأصحاب وتسليتهم حيث صاروا محزونين غاية الحزن من تأخير الفتح ما فيه ، وهذا التعبير من قبيل الاستعارة التبعية على ما حققه السيد السند في "حواشي المطول" حيث قال : اعلم أن التعبير عن المضارع بالماضي وعكسه يعد من باب الاستعارة بأن يشبه غير الحاصل بالحاصل في تحقق الوقوع ويشبه الماضي بالحاضر في كونه نصب العين واجب المشاهدة ثم يستعار لفظ أحدهما للآخر فعلى هذا تكون استعارة الفعل على قسمين .

أحدهما : أن يشبه الضرب الشديد مثلاً بالقتل ويستعار له اسمه ثم يشتق منه قتل بمعنى

ضرباً شديداً .

والثاني : أن يشبه الضرب المستقبل بالضرب في الماضي مثلاً في تحقق الوقوع فيستعمل فيه ضرب فيكون المعنى المصدري أعني الضرب موجوداً في كل واحد من المشبه والمشبه به لكنه قيد في كل منهما بقيد يغاير الآخر فصح التشبيه لذلك .

(56/712)

وقال المحقق ميرزاجان يمكن توجيه الاستعارة ههنا بوجه آخر وهو أن يشبه الزمان المستقبل بالزمان الماضي ووجه الشبه أنه كما أن الثاني ظرف أمر محقق الوقوع كذلك الزمان الأول واللفظ الدال على الزمان الثاني وهو لفظ الفعل الماضي من جهة الصيغة جعل دالاً على الزمان المستقبل مستعملاً فيه ، ومن البين أن المصدر على حاله لم يتغير معناه فكانت الاستعارة في الصيغة والهيئة أولى لأنها الدالة على الزمان الماضي وبواسطتها كانت الاستعارة في الفعل كما كانت الاستعارة في الفعل بواسطة المصدر ، والفرق أن هذه الاستعارة في الفعل بواسطة جوهره ومادته وفيما نحن فيه بواسطة صورته ، لا يقال : الدال على الزمان هو نفس اللفظ المشتق لا جزؤه لأنا نقول : يجري هذا الاحتمال في الاستعارة

التبعية المشهورة بأن يقال : الدال على المعنى الحدثي هو نفس اللفظ المشتق لا جزؤه لأن المصدر بصيغته غير متحقق في المشتق فإن الضرب غير موجود في ضارب وضرب .

(57/712)

فإن قلت : المصدر لفظ مستقل يمكن التعبير به عن معناه بخلاف الهيئة قلت : لفظ الزمان الماضي أيضاً كذلك فلا فرق ولو سلم نقول في كل منهما : نستعير المعنى المطابقي للفظ الفعل بواسطة المعنى التضمني له ، ولا يبعد أن يسمى مثل هذا استعارة تبعية ، والأمر في التسمية هين لا اعتداد بشأنه ، ولعلهم إنما جعلوا الاستعارة في مثل ذلك بواسطة المصدر واعتبروا التغاير الاعتباري ولم يعتبروا ما اعتبرنا من تشبيه نفس الزمان بالزمان حتى تصير الاستعارة في الفعل تبعية بلا تكلف رعاية لطي النشر بقدر الإمكان وأيضاً في كون الصيغة والهيئة جزأ للفظ تأمل ، وأيضاً الهيئة ليست جزأ مستقلاً كالمصدر ، وأيضاً الهيئة ليست لفظاً والاستعارة قسم للفظ ، ولعل القوم لهذه كلها أو بعضها لم يلتفتوا إليه انتهى ، وفيه بحث ، وللفاضل مير صدر الدين رسالة في هذه الآية الكريمة تعرض فيها للمحقق في هذا المقام ، وتعقبها الفاضل يوسف القرباغي برسالة أطال الكلام فيها وجرح وعدل وذكر عدة احتمالات في الاستعارة التبعية ، ومال إلى أن الهيئة لفظ محتجاً بما نقله من "شرح

المختصر" العضدي ومن "شرح الشرح" للعلامة التفتازاني وأيده بنقول أخر فليراجع ذلك فإنه وإن كان في بعضه نظر لا يخلو عن فائدة .

(58/712)

والذي يترجح عندي أن الهيئة ليست بلفظ لكنها في حكمه وأنه قد يتصرف فيها بالتجوز كما في الخبر إذا استعمل في الإنشاء وإن المجاز المرسل يكون تبعياً بناء على ما ذكروه في وجه التبعية في الاستعارة ، وقول الصدر في الفرق : إن العلاقة في الاستعارة ملحوظة حين الاطلاق فإنهم صرحوا بأن اسم المشبه به لا يطلق على المشبه إلا بعد دخوله في جنس المشبه به بخلاف المرسل فإن العلاقة باعثة للانتقال وليست ملحوظة حين الاستعمال فلا ضرورة في القول بالتبعية فيه إن تم لا يجدي نفعاً فافهم ، وزعم بعضهم أن التعبير بالماضي ههنا على حقيقته بناء على أن الفتح مجاز عن تيسيره وتسهيله وهو مما لا يتوقف على حصول الفتح ووقوعه ليكون مستقبلاً بالنسبة إلى زمن النزول مثله ألا ترى أن موسى عليه الصلاة والسلام سأل ربه تعالى بقوله :

﴿ يَسْرِلِى أَمْرِى ﴾ [طه : 26] أن يسهل أمره وهو خلافته في أرضه وما يصحبها ، وأجيب إليه في موقف السؤال بقوله تعالى : ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا موسى ﴾ [طه : 36

] ولم يباشر بعد شيئاً ، وحمله على الوعد بإيتاء السؤال خلاف الظاهر ، وأنت تعلم أن ما ذهب إليه الجمهور أظهر وأبلغ ، وفي مجيء المستقبل بصيغة الماضي لتنزيله منزلة المحقق من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر ما لا يخفى كما في "الكشاف" ، وذلك على ما قيل لأنه يدل على أن الأزمنة كلها عنده تعالى على السواء وإن منتظره كمحقق غيره وأنه سبحانه إذا أراد أمراً تحقق لا محالة وأنه لجلالة شأنه إذا أخبر عن حادث فهو كالكائن لما عنده من أسبابه القريبة والبعيدة ، وقيل غير ذلك .

واستشكل أمر المضي في كلامه تعالى بناء على ثبوت الكلام النفسي الأزلي للزوم الكذب لأن صدق الكلام يستدعي سبق وقوع النسبة ولا يتصور السبق على الأزل ، وأجيب بأن كلامه تعالى النفسي الأزلي لا يتصف بالماضي وغيره لعدم الزمان .

(59/712)

وتعقب بأن تحقق هذا مع القول بأن الأزلي مدلول اللفظي عسير جداً ، وكذا القول بأن المتصف بالمضي وغيره إنما هو اللفظ الحادث دون المعنى القديم .

وأجاب بعضهم بأن العسر لو كان دلالة اللفظي عليه دلالة الموضوع على الموضوع له وليس كذلك عندهم بل هي دلالة الأثر على المؤثر ، ولا يلزم من اعتبار شيء في الأثر اعتباره في

المؤثر ، ولا يخفى أن كون الدلالة دلالة الأثر على المؤثر خلاف الظاهر ، وقال ابن الصدر في ذلك : إن اشتمال الكلام اللفظي على المضي والحضور والاستقبال إنما هو بالنظر إلى زمان المخاطب لا إلى زمان المتكلم كما إذا أرسلت زيداً إلى عمرو تكتب في مكتوبك إليه إني أرسلت إليك زيداً مع أنه حين ما تكتبه لم يتحقق الإرسال فتلاحظ حال المخاطب ، وكما تقدر في نفسك مخاطباً وتقول : لم تفعل الآن كذا وكان قبل ذلك كذا ، ولا شك أن هذا المضي والحضور والاستقبال بالنسبة إلى زمان الوجود المقدر لهذا المخاطب لا بالنسبة إلى زمان المتكلم بالكلام النفسي لكونه متوجهاً لمخاطب مقدر لا يلاحظ فيه إلا أزمنة المخاطبين المقدرين ، وما اعتبره أئمة العربية من حكاية الحال الماضية واعتبار المضي والحضور والاستقبال في الجملة الحالية بالقياس إلى زمان الفعل لا زمان التكلم قريب منه جداً انتهى ، وللمحقق ميرزاجان كلام في هذا المقام يطلب من حواشيه على الشرح العضدي .

وقيل : المراد بالفتح فتح الروم على إضافة المصدر إلى الفاعل فإنهم غلبوا على الفرس في عام النزول ، وكونه فتحاً له عليه الصلاة والسلام لأنه أخبر عن الغيب فتحقق ما أخبر به في ذلك العام ولأنه تفاءل به لغلبة أهل الكتاب المؤمنين وفي ذلك من ظهور أمره صلى الله عليه وسلم ما هو بمنزلة الفتح ، قيل : ففي الفتح استعارة لتشبيه ظهوره صلى الله عليه وسلم

بالفتح ، وقيل : لا تجوز فيه وإنما التجوز في تعلقه به عليه الصلاة والسلام ، وقيل : لا تجوز أصلاً والمعنى فتحنا على الروم لأجلك .

(60/712)

وأنت تعلم أن حمل الفتح على ما ذكره في نفسه بعيد جداً .

وأورد عليه أن فتح الروم لم يكن مسبباً على الجهاد ونحوه فلا يصح ما ذكروه في توجيه التعليل الآتي ، وعن قتادة ﴿ فَتَحْنَا ﴾ من الفتاحة بالضم وهي الحكومة أي انا قضينا لك على أهل مكة أن تدخلها أنت وأصحابك من قابل لتطوفوا بالبيت وهو بعيد أيضاً ، وقيل : المراد به فتح الله تعالى له صلى الله عليه وسلم بالإسلام والنبوة والدعوة بالحجة والسيف ؛ وقريب منه ما نقله الراغب من أنه فتحه عز وجل له عليه الصلاة والسلام بالعلوم والهدايات التي هي ذريعة إلى الثواب والمقامات المحمودة ، وأمره في البعد كما سبق ، وأياً ما كان فحذف المفعول للقصد إلى نفس الفعل والإيذان بأن مناط التبشير نفس الفتح الصادر عنه سبحانه لا خصوصية المفتوح ، وتقديم ﴿ لَكَ ﴾ على المفعول المطلق أعني قوله تعالى : ﴿ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ مع أن الأصل تقديمه على سائر المفاعيل كما صرح به العلامة التفتازاني للاهتمام بكون ذلك لنفعه عليه الصلاة والسلام ، وقيل : لأنه مدار الفائدة ، و ﴿

مُّبِينٌ ﴾ من أبان بمعنى بأن اللازم أي فتحا بينا ظاهر الأمر مكشوف الحال أو فارقا بين الحق والباطل .

﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ﴾

(61/712)

مذهب الأشاعرة القائلين بأن أفعاله تعالى لا تعلل بالاغراض أن مثل هذه اللام للعاقبة أو لتشبيه مدخولها بالعلة الغائية في ترتبه على متعلقها وترتب المغفرة على الفتح من حيث أن فيه سعيا منه صلى الله عليه وسلم في إعلاء كلمة الله تعالى بمكابدة مشاق الحروب واقتحام موارد الخطوب ؛ والسلف كما قال ابن القيم وغيره يقولون بتعليل أفعاله عز وجل ، وفي "شرح المقاصد" للعلامة التفتازاني أن من بعض أدلتهم أي الأشاعرة ومن وافقهم على هذا المطلب يفهم أنهم أرادوا عمون السلب ومن بعضها أنهم أرادوا سلب العموم ، ثم قال : الحق أن بعض أفعاله تعالى معلل بالحكم والمصالح وذلك ظاهر والنصوص شاهدة به ، وأما تعميم ذلك بأنه لا يخلو فعل من أفعاله سبحانه من غرض فمحل بحث ، وذكر الأصفهاني في "شرح الطوالع" في هذه المسألة خلافاً للمعتزلة وأكثر الفقهاء ، وأنا أقول : بما ذهب إليه السلف لوجود التعليل فيما يزيد على عشرة آلاف آية وحديث والتزام تأويل

جميعها خروج عن الانصاف ، وما يكذره الحاضرون من الأدلة يدفع بأدنى تأمل كما لا يخفى على من طالع كتب السلفيين عليهم الحرمة .

(62/712)

وفي الكشاف لم يجعل الفتح علة للمغفرة لكن لاجتماع ما عدد من الأمور الأربعة وهي المغفرة واتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز كأنه قيل : يسرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوك لنجمع لك بين عز الدارين واغراض العاجل والآجل ، وحاصله كما قال العلامة ان الفتح لم يجعل علة لكل من المتعاطفات بعد اللام أعني المغفرة واتمام النعمة والهداية والنصر بل لاجتماعها ، ويكفي في ذلك أن يكون له دخل في حصول البعض كإتمام النعمة والنصر العزيز ، وتحقيقه كما قال أن العطف على المجرور باللام قد يكون للاشتراك في متعلق اللام مثل جئتك لأفوز بلقياك وأحوز عطاياك ويكون بمنزلة تكرير اللام وعطف جار ومجرور على جار ومجرور ، وقد يكون للاشتراك في معنى اللام كجئتك لتستقر في مقامك وتفيض على من انعامك أي لاجتماع الأمرين ، ويكون من قبيل جاءني غلام زيد وعمرو أي الغلام الذي لهما .

واستظهر دفعا لتوهم أنه إذا كان المقصود البعض فذكر الباقي لغو أن يقال : لا يخلو كل منهما

أن يكون مقصوداً بالذات وهو ظاهر أو المقصود البعض وحينئذ فذكر غيره إما لتوقفه عليه أو لشدة ارتباطه به أو ترتبه عليه فيذكر للإشعار بأنهما كشيء واحد كقوله تعالى : ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الاخرى ﴾ [البقرة : 282] وقولك : أعددت الخشب ليميل الحائط فادعمه ولازمت غريمي لأستوفي حقي وأخليه .

وظاهر كلام الزمخشري أن المقصود فيما نحن فيه تعليل الهيئة الإجتماعية فحسب فتأمل لتعرف أنه من أي الاقسام هو .

واعلم أن المشهور كون العلة ما دخلته اللام لا ما تعلقت به كما هو ظاهر عبارة الكشاف ؛ لكن حقق أنها إذا دخلت على الغاية صح أن يقال : إن ما بعدها علة ويراد بحسب التعقل وأن يقال : ما تعلقت به علة ويراد بحسب الوجود فلا تغفل .

وزعم صاحب الغنيان أن اللام ههنا هي لام القسم وكسرت وحذف النون من الفعل تشبيهاً بلام كي .

(63/712)

ورد بأن لام القسم لا تكسر ولا ينصب بها فإنه لم يسمع والله ليقوم زيد على معنى ليقومن زيد ، وانتصر له بأن الكسر قد علل بتشبيهها بلام كي .

وأما النصب فله أن يقول فيه : بأنه ليس نصباً وإنما هو الحركة التي تكون مع وجود النون بقيت بعد حذفها دلالة على الحذف .

وأنت تعلم أنه لا يجدي نفعاً مع عدم السماع ، هذا والالتفات إلى اسم الذات المستتبع لجميع الصفات قيل : للاشعار بأن كل واحد مما انتظم في سلك الغاية من أفعاله تعالى صادر عنه عز وجل من حيثية غير حيثية الآخر مترتبة على صفة من صفاته جل شأنه .

(64/712)

وقال الصدر لا يبعد أن يقال : إن التعبير عنه تعالى في مقام المغفرة بالاسم الجليل المشعر بصفات الجمال والجلال يشعر بسبق مغفرته تعالى على عذابه ، وفي البحر لما كان الغفران وما بعده يشترك في إطلاقه الرسول عليه الصلاة والسلام وغيره لقوله تعالى : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ [النساء : 116] وقوله سبحانه : ﴿ اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ﴾ [المائدة : 3] وقوله تعالى : ﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نِعْمَتِيَ التى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : 40] وقوله عز وجل : ﴿ يَهْدِى مَن يَشَآء ﴾ [البقرة : 142] وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون ﴾ [الصافات : 172] وكان الفتح مختصاً بالرسول صلى الله عليه وسلم أسنده الله تعالى إلى نون العظمة تفخيماً لشأنه

وأسند تلك الأشياء إلى الاسم الظاهر وضميره وهو كما ترى وإن قاله الإمام أيضاً ، وأقول : يمكن أن يكون في إسناد المغفرة إليه تعالى بالاسم الأعظم بعد إسناد الفتح إليه تعالى بنون العظمة إيماء إلى أن المغفرة ما يتولاها سبحانه بذاته وأن الفتح مما يتولاه جل شأنه بالوسائط ، وقد صرح بعضهم بأن عادة العظماء أن يعبروا عن أنفسهم بصيغة المتكلم مع الغير لأن ما يصدر عنهم في الأكثر باستخدام توابعهم ، ولا يعترض بأن النصر كالفتح وقد أسند إلى الاسم الجليل لما يخفي عليك ، وتقديم ﴿ لَكَ ﴾ على المفعول الصريح أعني قوله تعالى : ﴿ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ لما مر غير مرة ، و ﴿ مَا ﴾ للعموم والمتقدم والمتأخر للإحاطة كناية عن الكل ، والمراد بالذنب ما فرط من خلاف الأولى بالنسبة إلى مقماه عليه الصلاة والسلام فهو من قبيل حسنات الأبرار سيآت المقربين ، وقد يقال : المراد ما هو ذنب في نظره العالي صلى الله عليه وسلم وان لم يكن ذنبا ولا خلاف الأولى عنده تعالى كما ير من إلى ذلك الإضافة .

(65/712)

وقال الصدر : يمكن أن يكون قوله تعالى : ﴿ لِّيَغْفِرَ ﴾ الخ كناية عن عدم المؤاخذة أو من باب الاستعارة التمثيلية من غير تحقق معاني المفردات .

وأخرج ابن المنذر عن عامر .

وأبي جعفر أنهما قالا : ما تقدم في الجاهلية وما تأخر في الإسلام ، وقيل ما تقدم من حديث مارية وما تأخر من امرأة زيد وليس بشيء مع أن العكس أولى لأن حديث امرأة زيد متقدم .

وفي الآية مع ما عهد من حاله صلى الله عليه وسلم من كثرة العبادة ما يدل على شرف مقامه إلى حيث لا تحيط به عبارة ، وقد صح أنه صلى الله عليه وسلم لما نزلت صام وصلى حتى انتفخت قدماه وتعبد حتى صار كالشن البالي فقيل له : أتفعل هذا بنفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك أو ما تأخر ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : أفلا أكون عبداً شكوراً ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ باعلاء الدين وانتشاره في البلاد وغير ذلك مما أفاضه تعالى عليه صلى الله عليه وسلم من النعم الدينية والدنيوية ﴿ وَيَهْدِيَكَ صراطا مُّسْتَقِيماً ﴾ في تبليغ الرسالة وإقامة الحدود ، قيل : إن أصل الاستقامة وإن كان حاصلاً قبل الفتح لكن حصل بعد ذلك من اتضاح سبل الحق واستقامة مناهجه ما لم يكن حاصلاً قبل .

﴿ وَيَنصُرَكَ الله ﴾

إظهار الاسم الجليل مع النصر قيل : لكونه خاتمة العلل أو الغايات ولإظهار كمال العناية بشأنه كما يعرب عنه أردافه بقوله تعالى : ﴿ نَصْراً عَزِيزاً ﴾ وقال الصدر : أظهر الاسم في الصدر وهنا لأن المغفرة تتعلق بالآخرة والنصر يتعلق بالدنيا فكأنه أشير بإسناد المغفرة والنصر إلى صريح اسمه تعالى إلى أن الله عز وجل هو الذي يتولى أمرك في الدنيا والآخرة ، وقال الإمام : أظهرت الجلالة هنا إشارة إلى أن النصر لا يكون إلا من عند الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ وَمَا النصر إِلاَّ مِنْ عِندِ الله ﴾ [آل عمران : 126] وذلك لأن النصر بالصبر والصبر بالله قال تعالى : ﴿ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بالله ﴾ [النحل : 127] لأنه سكون القلب واطمئنانه وذلك بذكر الله ﴿ أَلاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القلوب ﴾ [الرعد : 28] والعزيز بحسب الظاهر هو المنصور ، وحيث وصف به النصر فهو إما للنسبة وإن كان المعروف فيها فاعلاً كلابن وفعالا كبزاز أي نصراً فيه عز ومنعة ، أو فيه تجوز في الإسناد من باب وصف المصدر بصيغة المفعول وهو المنصور هنا نحو ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة : 104] في قول لا الفاعل وهو الناصر لما قيل من عدم مناسبته للمقام وقلة فائدته إذ الكلام في شأن المخاطب المنصور ، لا المتكلم الناصر وفيه شيء ، وقيل : الكلام بتقدير مضاف أي عزيز صاحبه وهو المنصور وفيه تكلف الحذف والإيصال .

وقد يقال : يحتاج إلى شيء مما ذكر إذ لا مانع من وصف النصر بالعزيز على ما هو الظاهر

بناء على أحد معاني الغزة وهو قلة الوجود وصعوبة المنال ، والمعنى ينصرك الله نصراً يقل وجود مثله ويصعب مناله ، وقد قال الراغب بهذا في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لكتاب عَزِيزٌ ﴾ [فصلت : 41] ورأيت ذلك للصدر بعد أن كتبته من الصدر فتأمل ولا تكن ذا عجز .

﴿ هُوَ الذى أَنزَلَ السكينة فِى قُلُوبِ المؤمنين ﴾

(67/712)

بيان لما أفاض سبحانه عليهم من مبادي الفتح ، والمراد بالسكينة الطمأنينة والثبات من السكون أي أنزلها في قلوبهم بسبب الصلح والأمن إظهاراً لفضله تعالى عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف ، والمراد بإنزالها خلقها وإيجادها ، وفي التعبير عن ذلك بالإنزال إيماء إلى علو شأنها .

وقال الراغب : إنزال الله تعالى نعمته على عبد إعطاؤه تعالى إياها وذلك إما بإنزال الشيء نفسه كإنزال القرآن أو بإنزال أسبابه والهداية إليه كإنزال الحديد ونحوه ، وقيل : ﴿ أَنزَلَ ﴾ من نزل في مكان كذا حط رحله فيه وأنزله غيره ، فالمعنى حط السكينة في قلوبهم فكان قلوبهم منزلاً لها ومأوى ، وقيل : السكينة ملك يسكن قلب المؤمن ويؤمنه كما روي أن علياً رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه قال : إن السكينة لتنطق على لسان عمر ، وأمر

الإنزال عليه ظهار جداً .

وأخرج ابن جرير .

والبيهقي في الدلائل .

(68/712)

وغيرهما عن ابن عباس أنه قال : السكينة هي الرحمة ، وقيل : هي العقل ويقال له سكينة إذا سكن عن الميل إلى الشهوات وعن الرعب ، وقيل : هي الوقار والعظمة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وقيل : هي من سكن إذا كذا مال إليه أي أنزل في قلوبهم السكون والميل إلى ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من الشرائع ، وأرجح التفاسير هنا على ما قال الخفاجي : الأول ، وما ذكره بعضهم من أن السكينة شيء له رأس كرأس الهرة فما أراه قولاً يصح ﴿ لِيَزْدَادُواْ إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ أي يقيناً مع يقينهم برسوخ العقيدة واطمئنان النفوس عليها على أن الإيمان لما ثبت في الأزمنة نزل تجدد أزمانه منزلة تجدده وازدياده فاستعير له ذلك ورشح بكلمة مع ، وقيل : ازدياد الإيمان بازدياد ما يؤمن به ، وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن أول ما أتاهم به النبي صلى الله عليه وسلم التوحيد ثم الصلاة والزكاة ثم الحج والجهاد فازدادوا إيماناً مع إيمانهم ، ومن قال : الأعمال

من الإيمان قال بأنه نفسه أي الإيمان المركب من ذلك وغيره يزيد وينقص ولم يحتج في الآية إلى تأويل بل جعلها دليلاً له ، وتفصيل الكلام في هذا المقام أنه ذهب جمهور الأشاعرة والقلانسي والفقهاء والمحدثون والمعتزلة إلى أن الإيمان يزيد وينقص ونقل ذلك عن الشافعي ومالك ، وقال البخاري : لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحداً منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص ، واحتجوا على ذلك بالعقل والنقل ، أما الأول فلأنه لو لم تتفاوت حقيقة الإيمان لكان إيمان آحاد الأمة المنهمكين في الفسق والمعاصي مساوياً لإيمان الأنبياء عليهم السلام مثلا واللازم باطل فكذا الملزوم ، وأما الثاني فلكثرة النصوص في هذا المعنى ، مناه الآية المذكورة ، ومنها ما روي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قلنا :

" يا رسول الله ان الإيمان يزيد وينقص قال : نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة وينقص حتى يدخل صاحبه النار " ، ومنها ما روي عن عمر وجابر رضي الله تعالى عنهما مرفوعاً " لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة لرجح به " واعترض بأن عدم قبول الإيمان الزيادة والنقص على تقدير كون الطاعات داخلة في مسماه أولى وأحق من عدم قبوله ذلك

إذا كان مسماه التصديق وحده .

أما أولاً فلأنه لا مرتبة فوق كل الأعمال لتكون زيادة ولا إيمان دونه ليكون نقصاً ، أوما ثانياً فلأن أحداً لا يستكمل الإيمان حينئذ والزيادة على ما لم يكمل بعد محال .

وأجيب بأن هذا إنما يتوجه على المعتزلة والخوارج القائلين بانتفاء الإيمان بانتفاء شيء من الأعمال ، والجماعة إنما يقولون : إنها شرط كمال في الإيمان فلا يلزم عند الانتفاء إلا انتفاء الكمال وهو غير قادح في أصل الإيمان .

وقال النووي وجماعة محققون من علماء الكلام : إن الإيمان بمعنى التصديق القلبي يزيد وينقص أيضاً بكثرة النظر ووضوح الأدلة وعدم ذلك ، ولهذا كان إيمان الصديقين أقوى من إيمان غيرهم بحيث لا تعتريه الشبه ، ويؤيده أن كل واحد يعلم أن ما في قلبه يتفاضل حتى يكون في بعض الأحيان أعظم يقيناً وإخلاصاً منه في بعضها فكذلك التصديق والمعرفة بحسب ظهور البراهين وكثرتها .

واعترض بأنه متى قبل ذلك كان شكا .

ودفع بأن مراتب اليقين متفاوتة إلى علم اليقين وحق اليقين وعين اليقين مع أنها لا شك معها وممن وافق النووي على ما حزم به السعد في القسم الثاني من تهذيبه ، وقال جماعة من العلماء أعظمهم الإمام أبو حنيفة وتبعه أصحابه وكثير من المتكلمين الإيمان لا يزد ولا ينقص ، واختاره إمام الحرمين ، واحتجوا بأنه اسم للتصديق البالغ حد الجزم والإذعان وهذا لا

يتصور فيه زيادة ولا نقصان ، فالصدق إذا ضم إليه الطاعات أو ارتكب المعاصي فتصديقه بحاله لم يتغير أصلاً وإنما يتفاوت إذا كان اسماً للطاعات المتفاوتة قلة وكثرة .

(70/712)

وأجابوا عما تمسك به الأولون بوجوه ، منها ما أشرنا أولاً من أن الزيادة بحسب الدوام والثبات وكثرة الزمان والأوقات .

وإيضاحه ما قاله إمام الحرمين : النبي صلى الله عليه وسلم يفضل من عداه باستمرار تصديقه وعصمة الله تعالى إياه من مخامرة الشرك والتصديق عرض لا يبقى بشخصه بل بتجدد أمثاله فتقع للنبي عليه الصلاة والسلام متوالية ولغيره على الفترات فثبتت للنبي صلى الله عليه وسلم أعداد من الإيمان لا يثبت لغيره إلا بعضها فيكون إيمانه صلى الله عليه وسلم أكثر ، والزيادة بهذا المعنى قيل مما لا نزاع فيها .

واعترض بأن حصول المثل بعد انعدام الشيء لا يكون زيادة فيه كسواد الجسم ، ودفع بأن المراد زيادة أعداد حصلت وعدم البقاء لا ينافي ذلك ، ومنها ما أسرنا إليه ثانياً من أن المراد الزيادة بحسب زيادة ما يؤمن به ، والصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين آمنوا أولا بما آمنوا به وكانت الشريعة لم تتم وكانت الأحكام تنزل شيئاً فشيئاً فكانوا يؤمنون بكل

ما يتجدد منها ولا شك في تفاوت إيمان الناس بملاحظة التفاصيل كثرة وقلة لا يختص ذلك بعصره صلى الله عليه وسلم لإمكان الاطلاع على التفاصيل في غيره من العصور أيضاً ، ومنها أن المراد زيادة ثمرته واشراق نوره في القلب فإن نور الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي ، قيل : وهذا إنما يحتاج إليه بعد إقامة قاطع على امتناع قبول التصديق الزيادة والنقص ومتى لم يقم قاطع على ذلك كان الأولى إبقاء الظواهر على حالها ، وقال الخطابي : الإيمان قول وهو لا يزيد ولا ينقص وعمل وهو يزيد وينقص واعتقاد وهو يزيد ولا ينقص فإذا نقص ذهب واعترض أنه إذا زاد ثم عاد إلى ما كان فقد نقص ولم يذهب .

ودفع بأن مراده أن الاعتقاد باعتبار أول مراتبه يزيد ولا ينقص لا أن الاعتقاد مطلقاً كذلك ، وذهب جماعة منهم الإمام الرازي .

(71/712)

وإمام الحرمين إلى أن الخلاف لفظي وذلك بحمل قول النفي على أصل الإيمان وهو التصديق فلا يزيد ولا ينقص وحمل قول الإثبات على ما به كماله وهو الأعمال فيكون الخلاف في هذه المسألة فرع الخلاف في تفسير الإيمان ، والحق أنه حقيقي لما سمعت عن الإمام النووي ومن معه من أن التصديق نفسه يزيد وينقص .

وقال بعض المحققين : أن الزيادة والنقص من خواص الكم والتصديق قسم من العلم ولم يقل أحد بأنه من مقولة الكم وإنما قيل هو كيف أو انفعال أو اضافة وتعلق بين العلم والمعلوم أو صفة ذات إضافة ؛ والأشهر أنه كيف فمتى صح ذلك وقلنا بمغايرة الشدة والضعف للزيادة والنقص فلا بأس بحملهما في النصوص وغيرها على الشدة والضعف وذلك مجاز مشهور ، وإنكار اتصاف الإيمان بهما يكاد يلحق بالمكابرة فتأمل ، وذكر بعضهم هنا أن الإيمان الذي هو مدخول مع هو الإيمان الفطري والإيمان المذكور قبله الإيمان الاستدلالي فكأنه قيل : ليزدادوا إيماناً استدلالياً مع إيمانهم الفطري ، وفيه من الخفاء ما فيه ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السموات والأرض ﴾ يدبر أمرها كيفما يريد فيسلط بعضها على بعض تارة ويوقع سبحانه بينها السلم أخرى حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح ، ومن قضية ذلك ما وقع في الحديبية ﴿ وَكَانَ الله عَلِيماً ﴾ مبالغاً في العلم بجميع الأمور ﴿ حَكِيماً ﴾ في تقديره وتدبيره عز وجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(72/712)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1) ﴾

التحقيق الذي عليه الجمهور أن المراد بهذا الفتح صلح الحديبية ، لأنه فتح عظيم .

وإيضاح ذلك أن الصلح المذكور هو السبب الذي تهيأ به للمسلمين أن يجتمعوا بالكافر فيدعوهم إلى الإسلام وبينوا لهم محاسنه .

فدخل كثير من قبائل العرب بسبب ذلك في الإسلام .

ومما يوضح ذلك أن الذين شهدوا صلح الحديبية مع النبي صلى الله عليه سولم في ذي القعدة عام ست كانوا ألفاً وأربعمائة .

ولما أراد النبي صلى الله عليه وسلم غزو مكة حين نقض الكفار العهد ، كان خروجه إلى مكة في رمضان عام ثمان .

وكان معه عشرة آلاف مقاتل ، وذلك يوضح أن الصلح المذكور من أعظم الفتوح لكونه سبباً لقوة المسلمين وكثرة عددهم .

وليس المراد بالفتح لمذكور فتح مكة ، وإن قال بذلك جماعة من أهل العلم .

وإنما قلنا ذلك لأن أكثر أهل العلم على ما قلنا .

ولأن ظاهر القرآن يدل عليه لأن سورة الفتح هذه نزلت بعد صلح الحديبية في طريقه صلى الله عليه وسلم راجعاً إلى المدينة .

ولفظ الماضي في قوله : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا ﴾ يدل على أن ذلك الفتح قد مضى ، فدعوى أنه فتح مكة ولم يقع إلا بعد ذلك بقرب سنتين خلاف الظاهر .

والآية التي في فتح مكة دلت على الاستقبال لا على المضي ، وهي قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ والفتح ﴾ [النصر : 1] الآية .

وقد أوضحنا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب معنى اللام في قوله : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ ﴾ [الفتح : 2] . الآية .

قوله تعالى : ﴿ لِيزدادوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ .

(73/712)

ما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الإيمان يزيد دلت عليه آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً ﴾ [الأنفال : 2] . وقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الذين آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة : 124] وقوله تعالى : ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب وَيَزْدَادَ الذين آمنوا إِيمَاناً ﴾ [المدثر : 31] إلى غير ذلك من الآيات .

وقد أوضحناه مراراً .

والحق الذي لا يشك فيه . أن الإيمان يزيد وينقص ، كما عليه أهل السنة والجماعة ، وقد دل عليه الوحي من الكتاب والسنة كما تقدم .

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السماوات والأرض ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، أن له جنود السماوات والأرض وبين في المدثر أن جنوده هذه لا يعلمها إلا هو ، وذلك في قوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ [المدثر : 31] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(74/712)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1) ﴾

افتتاح الكلام بحرف (إنّ) ناشىء على ما أحلّ للمسلمين من الكآبة على أن أجيب المشركون إلى سؤالهم الهدنة كما سيأتي من حديث عمر بن الخطاب وما تقدم من حديث عبد الله بن مغفل فالتأكيد مصروف للسامعين على طريقة التعريض ، وأما النبيء صلى الله عليه وسلم فقد كان واثقاً بذلك ، وسيأتي تبيين هذا التأكيد قريباً .

والفتح : إزالة غلق البابِ أو الخزانة قال تعالى : ﴿ لا تُفَتَّح لهم أبواب السماء ﴾ [الأعراف : 40] ويطلق على النصر وعلى دخول الغازي بلاد عدوّه لأن أرض كل قوم وبلادهم مواقع عنها فاقتحام الغازي إياها بعد الحرب يشبه إزالة الغلق عن البيت أو الخزانة ، ولذلك كثر إطلاق الفتح على النصر المقترن بدخول أرض المغلوب أو بلده ولم يطلق على

انتصار كانت نهايته غنيمة وأسر دون اقتحام أرض فيقال : فتح خيبر وفتح مكة ولا يقال :

فتح بَدر .

وفتح أُحد .

فمن أطلق الفتح على مطلق النصر فقد تسامح ، وكيف وقد عطف النصر على الفتح في قوله : ﴿ نصر من الله وفتح قريب ﴾ في سورة الصف (13) .

ولعلّ الذي حداهم على عدّ النصر من معاني مادة الفتح أن فتح البلاد هو أعظم النصر لأن النصر يتحقق بالغلبة وبالغنيمة فإذا كان مع اقتحام أرض العدّو فذلك نصر عظيم لأنه لا يتم إلا مع انهزام العدّو أشنع هزيمة وعجزه عن الدفاع عن أرضه .

وأطلق الفتح على الحكم قال تعالى : ﴿ ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين ﴾ الآية سورة ألم السجدة (28) .

ولمراعاة هذا المعنى قال جمع من المفسّرين : المراد بالفتح هنا فتح مكة وأن محمله على الوعد بالفتح .

والمعنى : سنفتح .

وإنما جيء في الإخبار بلفظ الماضي لتحققه وتيقنه ، شُبه الزمن المستقبل بالزمن الماضي فاستعملت له الصيغة الموضوعة للمضي .

أو نقول استعمل فتحنا ﴾ بمعنى : قدّرنا لك الفتح ، ويكون هذا الاستعمال من مصطلحات القرآن لأنه كلام من له التصرف في الأشياء لا يحجزه عن التصرف فيها مانع .

وقد جرى على عادة إخبار الله تعالى لأنه لا خلاف في إخباره ، وذلك أيضاً كناية عن علو شأن المخبر مثل ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ [النحل : 1] .

وما يندرج في هذا التفسير أن يكون المراد بالفتح صلح الحديبية تشبيهاً له بفتح مكة لأنه توطئة له فعن جابر بن عبد الله : ما كنّا نعدّ فتح مكة إلا يوم الحديبية ، يريد أنهم أيقنوا بوقوع فتح مكة بهذا الوعد ، وعن البراء بن عازب "تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحاً ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية" ، يريد أنكم تحملون الفتح في قوله : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ على فتح مكة ولكنه فتح بيعة الرضوان وإن كان فتح مكة هو الغالب عليه اسم الفتح .

ويؤيد هذا المحمل حديث عبد الله بن مغفَّل "قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة سورةَ الفتح" ، وفي رواية "دخل مكة وهو يقرأ سورة الفتح على راحلته" .

على أن قرائن كثيرة تُرجح أن يكون المراد بالفتح المذكور في سورة الفتح : أُولاها أنّه جعله مُبيناً .

الثّانية : أنه جعل علّته (النصر العزيز) الثانية ، ولا يكون الشيء علّة لنفسه .

الثالثة : قوله ﴿ وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ [الفتح : 18] .

الرّابعة : قوله : ﴿ ومغانم كثيرة يأخذونها ﴾ [الفتح : 19] .

الخامسة : قوله : ﴿ فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ﴾ [الفتح : 27] .

(76/712)

والجمهور على أن المراد في سورة الفتح هو صلح الحديبية ، وجعلوا إطلاق اسم الفتح عليه مجازاً مرسلاً باعتبار أنه آل إلى فتح خيبر وفتح مكة ، أو كان سبباً فيهما فعن الزهري "لقد كان يوم الحديبية أعظم الفتوح ذلك أن النبيء صلى الله عليه وسلم جاء إليها في ألف وأربعمائة فلما وقع صلح مشي الناس بعضهم في بعض ، أي تفرقوا في البلاد فدخل بعضهم أرض بعض من أجْل الأمن بينهم ، وعلموا وسمِعوا عن الله فما أراد أحد الإسلام إلا تمكن منه ، فما مضت تلك السنتانِ إلا والمسلمون قد جاؤوا إلى مكّة في عشرة آلاف" انتهى انتهى . ا هـ ، وفي رواية "فلما كانت الهدنة أمن الناس بعضُهم بعضاً فالتقوا وتفاوضوا الحديث والمناظرة فلم يكلَّم أحد يعقل بالإسلام إلا دخل فيه" .

وعلى هذا فالمجاز في إطلاق مادة الفتح على سببه ومآله لا في صورة الفعل ، أي التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي لأنه بهذا الاعتبار المجازي قد وقع فيما مضي فيكون اسم الفتح

استعمل استعمال المشترك في معنييه ، وصيغةُ الماضي استعملت في معنييها فيظهر وجه الإعجاز في إيثار هذا التركيب .

وقيل : هو فتح خيبر الواقع عند الرجوع من الحديبية كما يجيء في قوله : ﴿ إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ﴾ [الفتح : 15] .

وعلى هذه المحامل فتأكيد الكلام بـ (إن) لما في حصول ذلك من تردد بعض المسلمين أو تساؤلهم ، فعن عمر أنه لما نزلت ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ قال : "أوَفتح هو يا رسول الله ؟ قال : " نعم والذي نفسي بيده إنه لفتح " .

وروى البيهقي عن عروة بن الزبير قال : أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية راجعاً فقال رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والله ما هذا بفتح صُددنا عن البيت وصُدّ هدينا .

(77/712)

فبلغ ذلك رسول الله فقال : بئس الكلام هذا بل هو أعظم الفتح لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألوكم القضية ويرغبون إليكم الأمان وقد كرهوا منكم ما كرهوا ولقد أظفركم الله عليهم وردكم سالمين غانمين مأجورين ، فهذا أعظم الفتح أنسيتم

يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في أخراكم ، أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون .

فقال المسلمون : صدق الله ورسوله وهو أعظم الفتوح والله يا رسول الله ما فكرنا فيما ذكرت ، ولأنت أعلم بالله وبالأمور منا" .

وحذف مفعول ﴿ فتحنا ﴾ لأن المقصود الإعلام بجنس الفتح لا بالمفتوح الخاص .

واللام في قوله : ﴿ فتحنا لك ﴾ لام العلة ، أي فتحنا لأجلك فتحاً عظيماً مثل التي في قوله تعالى : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ [الشرح : 1] .

وتقديم المجرور قبل المفعول المطلق خلافاً للأصل في ترتيب متعلقات الفعل لقصد الاهتمام والاعتناء بهذه العلة .

وقوله : ﴿ ليغفر لك الله ﴾ بدل اشتمال من ضمير ﴿ لك ﴾ .

والتقدير : إنا فتحنا فتحاً مبيناً لأجلك لغفران الله لك وإتمام نعمته عليك ، وهدايتك صراطاً مستقيماً ونصرك نصراً عزيزاً . . .

وجُعلت مغفرة الله للنبيء صلى الله عليه وسلم علة للفتح لأنها من جملة ما أراد الله حصوله بسبب الفتح ، وليست لام التعليل مُقتضية حَصْرَ الغرض من الفعل المعلل في تلك العلة ، فإن كثيراً من الأشياء تكون لها أسباب كثيرة فيذكر بعضها ممّا يقتضيه المقام وإذ قد

كان الفتح لكرامة النبيء صلى الله عليه وسلم على ربه تعالى كان من علته أن يغفر الله لنبيئه صلى الله عليه وسلم مغفرة عامة إتماماً للكرامة فهذه مغفرة خاصة بالنبيء صلى الله عليه وسلم هي غير المغفرة الحاصلة للمجاهدين بسبب الجهاد والفتح .

(78/712)

فالمعنى : أن الله جعل عند حصول هذا الفتح غفران جميع ما قد يؤاخذ الله على مثله رسلَه حتى لا يبقى لرسوله صلى الله عليه وسلم ما يقصر به عن بلوغ نهاية الفضل بين المخلوقات .

فجعل هذه المغفرة جزاء له على إتمام أعماله التي أرسل لأجلها من التبليغ والجهاد والنَصب والرغبة إلى الله .

فلما كان الفتح حاصلاً بسعيه وتسببه بتيسير الله له ذلك جعل الله جزاءه غفران ذنوبه بعظم أثر ذلك الفتح بإزاحة الشرك وعلوّ كلمة الله تعالى وتكميل النفوس وتزكيتها بالإيمان وصالح الأعمال حتى ينتشر الخير بانتشار الدين ويصير الصلاح خُلقاً للناس يقتدي فيه بعضُهم ببعض وكل هذا إنما يناسب فتح مكة وهذا هو ما تضمنته سورة ﴿ إذا جاء نصر الله ﴾ من قوله : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا

فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾ [النصر : 3 1] أي إنه حينئذٍ قد غفر لك أعظم مغفرة وهي المغفرة التي تليق بأعظمِ من تَابَ على تائب ، وليست إلا مغفرة جميع الذنوب سابقها وما عسى أن يأتي منها مِما يعده النبيء صلى الله عليه وسلم ذنباً لشدة الخشية من أقل التقصير كما يقال : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وإن كان النبيء صلى الله عليه وسلم معصوماً من أن يأتي بعدها بما يؤاخَذ عليه .

وقال ابن عطية : وإنما المعنى التشريف بهذا الحكم ولو لم تكن له ذنوب ، ولهذا المعنى اللَّطيف الجليل كانت سورة ﴿ إذا جاء نصر الله ﴾ مؤذنة باقتراب أجل النبيء صلى الله عليه وسلم فيما فهم عمر بن الخطاب وابن عباس ، وقد روي ذلك عن النبيء صلى الله عليه وسلم

والتقدم والتأخر من الأحوال النسبية للموجودات الحقيقية أو الاعتبارية يقال : تقدم السائر في سيره على الركب ، ويقال : تقدم نزول سورة كذا على سورة كذا ولذلك يكثر الاحتياج إلى بيان ما كان بينهما تقدم وتأخر بذكر متعلق بفعل تقدم وتأخّر .

(79/712)

وقد يترك ذلك اعتماداً على القرينة ، وقد يقطع النظر على اعتبار متعلِّق فيُنزَّل الفعل منزلة الأفعال غير النسبية لقصد التعميم في المتعلقات وأكثر ذلك إذا جمع بين الفعلين كقوله هنا ﴿ ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ [الفتح : 2] .

والمراد بـ ﴿ ما تقدم ﴾ : تعميم المغفرة للذنب كقوله : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ [البقرة : 255] ، فلا يقتضي ذلك أنه فرط منه ذنب أو أنه سيقع منه ذنب وإنما المقصود أنه تعالى رَفَعَ قَدره رفعَة عدم المؤاخذة بذنب لو قُدر صدوره منه وقد مضى شيء من بيان معنى الذنب عند قوله تعالى : ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ في سورة القتال (55) .

وإنما أسند فعل ليغفر ﴾ إلى اسم الجلالة العلَم وكان مقتضى الظاهر أن يسند إلى الضمير المستتر قصداً للتنويه بهذه المغفرة لأن الاسم الظاهر أنفذ في السمع وأجلب للتنبيه وذلك للاهتمام بالمسند وبمتعلقه لأن هذا الخبر أُنف لم يكن للرسول صلى الله عليه وسلم علم به ولذلك لم يبرز الفاعل في ﴿ ويُتمّ نعمته عليك ويهديك ﴾ لأن إنعام الله عليه معلوم وهدايته معلومة وإنما أخبر بازديادهما .

وإتمام النعمة : إعطاء ما لم يكن أعطاه إياه من أنواع النعمة مثل إسلام قريش وخلاص بلاد الحجاز كلّها للدخول تحت حكمه ، وخضوع من عانده وحاربه ، وهذا ينظر إلى قوله تعالى

: ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ﴾ [المائدة : 3] فذلك ما وعد به الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الآية وحصل بعد سنين .

(80/712)

ومعنى ﴿ ويهديك صراطاً مستقيماً ﴾ : يزيدك هديا لم يسبق وذلك بالتوسيع في بيان الشريعة والتعريف بما لم يسبق تعريفه به منها ، فالهداية إلى الصراط المستقيم ثابتة للنبيء صلى الله عليه وسلم من وقت بعثته ولكنها تزداد بزيادة بيان الشريعة وبسعة بلاد الإسلام وكثرة المسلمين مما يدعو إلى سلوك طرائق كثيرة في إرشادهم وسياستهم وحماية أوطانهم ودفع أعدائهم ، فهذه الهداية متجمعة من الثبات على ما سبق هديُه إليه ، ومن الهداية إلى ما لم يسبق إليه وكل ذلك من الهداية .

والصراط المستقيم : مستعار للدين الحق كما تقدم في سورة الفاتحة .

وتنوين ﴿ صراطاً ﴾ للتعظيم .

وانتصب ﴿ صراطاً ﴾ على أنه مفعول ثان ل ﴿ يهدي ﴾ بتضمين معنى الإعطاء ، أو بنزع الخافض كما تقدّم في الفاتحة .

والنصر العزيز : غير نصر الفتح المذكور لأنه جعل علة الفتح فهو ما كان من فتح مكة وما

عقبه من دخول قبائل العرب في الإسلام بدون قتال .

وبعثهم الوفود إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليتلقوا أحكام الإسلام ويُعلموا أقوامهم إذا رجعوا إليهم .

ووصف النصر بالعزيز مجاز عقلي وإنما العزيز هو النبي صلى الله عليه وسلم المنصور ، أو أريد بالعزيز المعز كالسميع في قول عمرو بن معد يكرب:

آمِنْ ريحانة الداعي السميع . . .

أي المسمع ، وكالحكيم على أحد تأويلين .

والعزة : المنعة .

وإنما أظهر اسم الجلالة في قوله : ﴿ وينصرك الله ﴾ ولم يكتف بالضمير اهتماماً بهذا النصر وتشريعاً له بإسناده إلى الاسم الظاهر لصراحة الظاهر والصراحة أدعى إلى السمع ، والكلام مع الإظهار أعلق بالذهن كما تقدم في ﴿ ليغفر لك الله ﴾ .

﴿ هُوَ الذى أَنزَلَ السكينة ﴾

هذه الجملة بدل اشتمال من مضمون جملة ﴿ وينصرك الله نصراً عزيزاً ﴾ [الفتح : 3] .

وحَصل منها الانتقال إلى ذكر حظ المسلمين من هذا الفتح فإن المؤمنين هم جنود الله الذين قد نصر النبي صلى الله عليه وسلم بهم كما قال تعالى : ﴿ هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين ﴾ [الأنفال : 62] فكان في ذكر عناية الله بإصلاح نفوسهم وإذهاب خواطر الشيطان عنهم وإلهامهم إلى الحق في ثبات عزمهم ، وقرارة إيمانهم تكوين لأسباب نصر النبي صلى الله عليه وسلم والفتح الموعود به ليندفعوا حين يستنفرهم إلى العدوّ بقلوب ثابتة ، ألا ترى أن المؤمنين تبلبلت نفوسهم من صلح الحديبية إذ انصرفوا عقبه عن دخول مكة بعد أن جاؤوا للعمرة بعَدد عديد حسبوه لا يغلب ، وأنهم إن أرادهم العدوّ بسوء أو صدهم عن قصدهم قابلوه فانتصروا عليه وأنهم يدخلون مكة قسْرا .

وقد تكلموا في تسمية ما حلّ بهم يومئذٍ فتحاً كما علمت مما تقدم فلما بين لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ما فيه من الخير اطمأنت نفوسهم بعد الاضطراب ورسخ يقينهم بعد خواطر الشك فلولا ذلك الاطمئنان والرسوخ لبقُوا كاسفي البال شديدي البلبال ، فذلك الاطمئنان هو الذي سماه الله بالسكينة ، وسمّي إحداثه في نفوسهم إنزالاً للسكينة في قلوبهم فكان النصر مشتملاً على أشياء من أهمها إنزال السكينة ، وكان إنزال السكينة بالنسبة إلى هذا النصر نظير التأليف بين قلوب المؤمنين مع اختلاف قبائلهم وما كان بينهما من الأمن في الجاهلية بالنسبة للنصر الذي في قوله تعالى : ﴿ هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألّف بين قلوبهم ﴾ [الأنفال : 62 ، 63] .

وإنزالها : إيقاعها في العقل والنفس وخلق أسبابها الجوهرية والعارضة ، وأطلق على ذلك الإيقاع فعل الإنزال تشريفاً لذلك الوجدان بأنه كالشيء الذي هو مكان مرتفع فوق الناس فألقي إلى قلوب الناس ، وتلك رفعة تخييلية مراد بها شرف ما أثبتت له على طريقة التخييلية .

(82/712)

ولما كان من عواقب تلك السكينة أنها كانت سبباً لزوال ما يلقيه الشيطان في نفوسهم من التأويل لوعد الله إياهم بالنصر على غير ظاهره ، وحمله على النصر المعنوي لاستبعادهم أن يكون ذلك فتحاً ، فلما أنزل الله عليهم السكينة اطمأنت نفوسهم ، فزال ما خامرها وأيقنوا أنه وعد الله وأنه واقع فانقشع عنهم ما يوشك أن يشكك بعضهم فيلتحق بالمنافقين الظانين بالله ظن السوء فإن زيادة الأدلة تؤثر رسوخ المستدَلّ عليه في العقل وقوةَ التصديق . وهذا اصطلاح شائع في القرآن وجعل ذلك الازدياد كالعلّة لإنزال السكينة في قلوبهم لأن الله علم أن السكينة إذ حصلت في قلوبهم رسخ إيمانهم ، فعومل المعلوم حصوله من الفعل معاملة العلة وأدخل عليه حرف التعليل وهو لام كي وجعلت قوة الإيمان بمنزلة إيمان آخر دخل على الإيمان الأسبق لأن الواحد من أفراد الجنس إذا انضم إلى أفراد أخر زادها قوة

فلذلك علق بالإيمان ظرف ﴿ مع ﴾ في قوله : ﴿ مع إيمانهم ﴾ فكان في ذلك الحادث خير عظيم لهم كما كان فيه خير للنبيء صلى الله عليه وسلم بأن كان سبباً لتشريفه بالمغفرة العامة ولإتمام النعمة عليه ولهدايته صراطاً مستقيماً ولنصره نصراً عزيزاً ، فأعظم به حدثاً أعقب هذا الخير للرسول صلى الله عليه وسلم ولأصحابه .

﴿ إيمانهم وَلِلَّهِ جُنُودُ السماوات والأرض وَكَانَ الله عَلِيماً ﴾ .

تذييل للكلام السابق لأنه أفاد أن لا عجب في أن يفتح الله لك فتحاً عظيماً وينصرك على أقوام كثيرين أشِداء نصراً صحبه إنزال السكينة في قلوب المؤمنين بعد أن خامرهم الفشل وانكسار الخواطر ، فالله من يملك جميع وسائل النصر وله القوة القاهرة في السماوات والأرض وما هذا نصر إلا بعض مما لله من القوة والقهر .

والواو اعتراضية وجملة التذييل معترضة بين جملة ﴿ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ وبين متعلقها وهو ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات ﴾ [الفتح : 5] الآية .

وأطلق على أسباب النصر الجنود تشبيهاً لأسباب النصر بالجنود التي تقاتل وتنتصر .

وفي تعقيب جملة ﴿ هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ﴾ بجملة التذييل إشارة إلى

أن المؤمنين من جنود الله وأن إنزال السكينة في قلوبهم تشديد لعزائمهم فتخصيصهم بالذكر قبل هذا العموم وبعده تنويه بشأنهم ، ويومىء إلى ذلك قوله بعد ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات ﴾ الآية .

فمن جنود السماوات : الملائكة الذين أنزلوا يوم بدر ، والريح التي أرسلت على العدوّ يوم الأحزاب ، والمطر الذي أنزل يوم بَدر فثبت الله به أقدام المسلمين .

ومن جنود الأرض جيوش المؤمنين وعديد القبائل الذين جاءوا مؤمنين مقاتلين مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة مثل بني سُليم ، ووفود القبائل الذين جاءوا مؤمنين طائعين دون قتال في سنة الوفود .

والجنود : جمع جند ، والجند اسم لجماعة المقاتلين لا واحد له من لفظه وجمعه باعتبار تعدد الجماعات لأن الجيش يتألف من جنود : مقدمةٍ وميمنةٍ وميسرةٍ وقلب وساقةٍ .

وتقديم المسند على المسند إليه في ﴿ ولله جنود السماوات والأرض ﴾ لإفادة الحصر ، وهو حصر ادعائي إذ لا اعتداد بما يجمعه الملوك والفاتحون من الجنود لغلبة العدوّ بالنسبة لما لله من الغلبة لأعدائه والنصر لأوليائه .

وجملة ﴿ وكان الله عليماً حكيماً ﴾ تذييل لما قبله من الفتح والنصر وإنزال السكينة في قلوب المؤمنين .

والمعنى : أنه عليم بأسباب الفتح والنصر وعليم بما تطمئن به قلوب المؤمين بعد البلبلة وأنه

حكيم يضع مقتضيات علمه في مواضعها المناسبة وأوقاتها الملائمة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(84/712)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ﴾ الآية ،

لا يخفى ما سبق إلى الذهن من تنافي هذه العلة ومعلولها لأن فتح الله لنبيه لا يظهر كونه علة لغفرانه له .

والجواب عن هذا من وجهين:

الأول: وهو اختيار ابن جرير لدلالة الكتاب والسنة عليه أن المعنى أن فتح الله لنبيه يدل بدلالة الالتزام على شكر النبي لنعمة الفتح فيغفر الله له ما تقدم وما تأخر بسبب شكره بأنواع العبادة على تلك النعمة فكأن شكر النبي لازم لنعمة الفتح والغفران مرتب على ذلك اللازم .

أما دلالة الكتاب على هذا ففي قوله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ

يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ﴾ فصرح في هذه السورة الكريمة بأن تسبيحه بحمد ربه واستغفاره لربه شكرا على نعمة الفتح سبب لغفران ذنوبه لأنه رتب تسبيحه بحمده واستغفاره بالفاء على مجيء الفتح والنصر ترتيب المعلول على علته ثم بين أن ذلك الشكر سبب الغفران بقوله: ﴿ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ﴾ .

وأما دلالة السنة ففي قوله صلى الله عليه وسلم لما قال له بعض أصحابه لا تجهد نفسك بالعمل فإن الله غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر " أفلا أكون عبدا شكورا ؟" فبين صلى الله عليه وسلم أن اجتهاده في العمل لشكر تلك النعمة وترتب الغفران على الاجتهاد في العمل لا خفاء به .

الوجه الثاني: إن قوله ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا ﴾ يفهم منه بدلالة الالتزام الجهاد في سبيل الله لأنه السبب الأعظم في الفتح ، والجهاد سبب لغفران الذنوب فيكون المعنى ليغفر لك الله بسبب جهادك المفهوم من ذكر الفتح ، والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 270 . 271 ﴾

(85/712)

فصل فى منزلة السكينة

قال ابن القيم :

فصل ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة السكينة

هذه المنزلة من منازل المواهب لا من منازل المكاسب وقد ذكر الله سبحانه السكينة في كتابه في ستة مواضع:

الأولى: قوله تعالى: وقال لهم نبيهم: ﴿ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ [البقرة: 248]

الثاني قوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: 26]

الثالث: قوله تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ [التوبة: 40]

الرابع: قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ [الفتح: 4]

الخامس: قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ [الفتح: 18]

السادس: قوله تعالى: ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ

سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح: 26] الآية وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إذا اشتدت عليه الأمور: قرأ آيات السكينة

(86/712)

وسمعته يقول في واقعة عظيمة جرت له في مرضه تعجز العقول عن حملها من محاربة أرواح شيطانية ظهرت له إذ ذاك في حال ضعف القوة قال: فلما اشتد علي الأمر قلت لأقاربي ومن حولي: اقرأوا آيات السكينة قال: ثم أقلع عني ذلك الحال وجلست وما بي قلبة وقد جربت أنا أيضا قراءة هذه الآيات عند اضطراب القلب مما يرد عليه فرأيت لها تأثيرا عظيما في سكونه وطمأنينته وأصل السكينة هي الطمأنينة والوقار والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده عند اضطرابه من شدة المخاوففلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه ويوجب له زيادة الإيمان وقوة اليقين والثبات ولهذا أخبر سبحانه عن إنزالها على رسوله وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب كيوم الهجرة إذ هو وصاحبه في الغار والعدو فوق رءوسهم لو نظر أحدهم إلى ما تحت قدميه لرآهما وكيوم حنين حين ولوا مدبرين من شدة بأس الكفار لا يلوي أحد منهم على أحد وكيوم الحديبية حين اضطربت قلوبهم من تحكم الكفار عليهم ودخولهم تحت شروطهم التي لا تحملها النفوس وحسبك بضعف عمر

رضي الله عنه عن حملها وهو عمر حتى ثبته الله بالصديق رضي الله عنه قال ابن عباس رضي الله عنهما : كل سكينة في القرآن فهي طمأنينة إلا التي في سورة البقرة

وفي الصحيحين عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: رأيت النبي ينقل من تراب الخندق حتى وارى التراب جلدة بطنه وهو يرتجز بكلمة عبد الله بن رواحة رضي الله عنه:

لاهم لولا أنت ما اهتدينا . . . ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا . . . وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الأولى قد بغوا علينا . . . وإن أرادوا فتنة أبينا

(87/712)

وفي صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكتب المتقدمة: إني باعث نبيا أميا ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا متزين بالفحش ولا قوال للخنا أسدده لكل جميل وأهب له كل خلق كريم ثم أجعل السكينة لباسه والبر شعاره والتقوى ضميره والحكمة معقولة والصدق والوفاء طبيعته والعفو والمعروف خلقه والعدل سيرته والحق شريعته والهدى إمامه والإسلام ملته وأحمد اسمه

فصل قال صاحب المنازل:

السكينة: اسم لثلاثة أشياء أولها: سكينة بني إسرائيل التي أعطوها في التابوت قال أهل التفسير: هي ريح هفافة وذكروا صفتها قلت: اختلفوا: هل هي عين قائمة بنفسها أو معنى على قولين: أحدهما: أنها عين ثم اختلف أصحاب هذا القول في صفتها فروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أنها ريح هفافة لها رأسان ووجه كوجه الإنسان ويروى عن مجاهد: إنها صورة هرة لها جناحان وعينان لهما شعاع وجناحان من زمرد وزبرجد فإذا سمعوا صوتها أيقنوا بالنصر وعن ابن عباس: هي طست من ذهب من الجنة كان يغسل فيه قلوب الأنبياء

وعن وهب بن منبه: هي روح من روح الله تتكلم إذا اختلفوا في شيء أخبرتهم ببيان ما يريدون والثاني: انها معنى ويكون معنى قوله: وسكينة من ربكم أي ومجيئه إليكم: سكينة لكم وطمأنينة وعلى الأول: يكون المعنى: إن السكينة في نفس التابوت ويؤيده عطف قوله: ﴿ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ ﴾ [البقرة: 248] قال عطاء بن أبي رباح: فيه سكينة هي ما تعرفون من الآيات فتسكنون إليها وقال قتادة والكلبي: هي من السكون أي طمأنينة من ربكم ففي أي مكان كان التابوت اطمأنوا إليه وسكنوا

فصل قال: وفيها ثلاثة أشياء: للأنبياء معجزة ولملوكهم كرامة وهي

آية النصرة تخلع قلوب الأعداء بصوتها رعبا إذا التقى الصفان للقتال وكرامات الأولياء: هي من معجزات الأنبياء لأنهم إنما نالوها على أيديهم وبسبب أتباعهم فهي لهم كرامات وللأنبياء دلالات فكرامات الأولياء: لا تعارض معجزات الأنبياء حتى يطلب الفرقان بينهما لأنها من أدلتهم وشواهد صدقهم

نعم: الفرقان بين ما للأنبياء وما للأولياء من وجوه كثيرة جدا ليس هذا موضع ذكرها وغير هذا الكتاب أليق بها

فصل قال: السكينة الثانية: هي التي تنطق على لسان المحدثين ليست هي شيئا يملك إنما هي شيء من لطائف صنع الحق تلقى علي لسان المحدث الحكمة كما يلقي الملك الوحي على قلوب الأنبياء وتنطق بنكت الحقائق مع ترويح الأسرار وكشف الشبه السكينة إذا نزلت على القلب اطمأن بها وسكنت إليها الجوارح وخشعت واكتسبت الوقار وأنطقت اللسان بالصواب والحكمة وحالت بينه وبين قول الخنا والفحش واللغو والهجر وكل باطل قال ابن عباس رضي الله عنهما: كنا نتحدث أن السكينة تنطق على لسان عمر وقلبه وكثيرا ما ينطق صاحب السكينة بكلام لم يكن عن فكرة منه ولا روية ولا هبة ويستغربه هو من نفسه كما يستغرب السامع له وربما لا يعلم بعد انقضائه بما صدر منه وأكثر ما يكون: هذا عند الحاجة وصدق الرغبة من السائل والمجالس وصدق الرغبة

منه: هو إلى الله والإسراع بقلبه إلى بين يديه وحضرته مع تجرده من الأهواء وتجريده النصيحة لله ولرسوله ولعباده المؤمنين وإزالة نفسه من البين

ومن جرب هذا عرف قدر منفعته وعظمها وساء ظنه بما يحسن به الغافلون ظنونهم من كثير من كلام الناس قوله: وليست شيئًا يملك

(89/712)

يعني هي موهبة من الله تعالى ليست بسببية ولا كسبية وليست كالسكينة التي كانت في التابوت تنقل معهم كيف شاءوا وقوله: تلقى على لسان المحدث الحكمة أي تجرى الصواب على لسانه وقوله كما يلقي الملك الوحي على قلوب الأنبياء عليهم السلام يعني: أنها بواسطة الملائكة بحيث تلقي في قلوب أربابها الحكمة عنهم والطمأنينة والصواب كما أن الأنبياء تتلقى الوحي عن الله بواسطة الملائكة ولكن ما للأنبياء مختص بهم ولا يشاركهم فيه غيرهم وهو نوع آخر وقوله: تنطق المحدثين بنكت الحقائق مع ترويح الأسرار وكشف الشبه قد تقدم في أول الكتاب: ذكر مرتبة المحدث وأن هذا التحديث من

مراتب الهداية العشرة وأن المحدث هو الذي يحدث في سره بالشيء فيكون كما يحدث به والحقائقهي حقائق الإيمان والسلوك ونكتها عيونها ومواضع الإشارات منها ولا ريب أن

تلك توجب للأسرار روحا تحيا به وتنعم وتكشف عنها شبهات لا يكشفها المتكلمون ولا الأصوليون فتسكن الأرواح والقلوب إليها ولهذا سميت سكينة ومن لم يفز من الله بذلك لم تنكشف عنه شبهاته فإنها لا يكشفها إلا سكينة الإيمان واليقين

فصل قال: السكينة الثالثة: هي التي نزلت على قلب النبي صلى الله عليه وسلم وقلوب

(90/712)

المؤمنين وهي شيء يجمع قوة وروحا يسكن إليه الخائف ويتسلى به الحزين والضجر ويسكن إليه العصي والجرئ والأبي هذا من عيون كلامه وغرره الذي تثني عليه الخناصر وتعقد عليه القلوب وتظفر به عن ذوق تام لا عن مجرد فذكر: أن هذا الشيء الذي أنزله الله في قلب رسوله وقلوب عباده المؤمنين يشتمل على ثلاثة معان: النور والقوة والروح وذكر له ثلاث ثمرات: سكون الخائف إليه وتسلي الحزين والضجر به واستكانة صاحب المعصية والجرأة على المخالفة والإباء إليه فبالروح الذي فيها: حياة القلب وبالنور الذي فيها: استنارته وضياؤه وإشراقه وبالقوة: ثباته وعزمه ونشاطه فالنور: يكشف له عن دلائل الإيمان وحقائق اليقين ويميز له بين الحق والباطل والهدى والضلال والغي والرشد والشك واليقين والحياة: توجب كمال يقظته وفطنته وحضوره وانتباهه من سنة الغفلة وتأهبه

للقائه والقوة: توجب له الصدق وصحة المعرفة وقهر داعي الغي والعنت

وضبط النفس عن جزعها وهلعها واسترسالها في النقائص والعيوب ولذلك ازداد

بالسكينة إيمانا مع إيمانه والإيمان: يثمر له النور والحياة والقوة وهذه الثلاثة تثمره أيضا

وتوجب زيادته فهو محفوف بها قبلها وبعدها فبالنور: يكشف دلائل الإيمان وبالحياة: ينتبه

من سنة الغفلة ويصير يقظانا وبالقوة: يقهر الهوى والنفس والشيطان كما قيل:

وتلك مواهب الرحمن ليست . . . تحصل باجتهاد أو بكسب

ولكن لا غني عن بذل جهد . . . بإخلاص وجد لا بلعب

وفضل الله مبذول ولكن . . . بحكمته وعن ذا النص ينبى

فما من حكمة الرحمن وضع ال . . . كواكب بين أحجار وترب

فشكرا للذي أعطاك منه . . . فلو قبل المحل لزاد ربي

فصل فإذا حصلت هذه الثلاثة بالسكينة وهي النور والحياة والروح سكن

(91/712)

إليها العصي وهو الذي سكونه إلى المعصية والمخالفة لعدم سكينة الإيمان في قلبه صار

سكونه إليها عوض سكونه إلى الشهوات والمخالفات فإنه قد وجد فيها مطلوبه وهو اللذة

التي كان يطلبها من المعصية ولم يكن له ما يعيضه عنها فإذا نزلت عليه السكينة اعتاض بذلتها وروحها ونعيمها عن لذة المعصية فاستراحت بها نفسه وهاج إليها قلبه ووجد فيها من الروح والراحة واللذة ما لا نسبة بينه وبين اللذة الجسمانية النفسانية فصارت لذته روحانية قلبية بعد أن كانت جسمانية فانسلب منها وحبس عنها وخلصته فإذا تألقت بروقها قال:

تألق البرق نجديا فقلت له . . . يا أيها البرق إني عنك مشغول

وإذا طرقته طيوفها الخيالية في ظلام ليل الشهوات نادى لسان حاله وتمثل بمثل قوله:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا . . . وقت الزيارة فارجعي بسلام

فإذا ودعته وعزمت على الرحيل ووعدته بالموافاة بقول الآخر:

قالت وقد عزمت على ترحالها

ماذا تريد فقلت أن لا ترجعي

فإذا باشرت هذه السكينة قلبه سكنت خوفه وهو قوله: يسكن إليها الخائف وسلت حزنه فإنها لا حزن معها فهي سلوة المحزون ومذهبة الهموم والغموم وكذلك تذهب عنه وخم ضجره وتبعث نشوة العزم وحالت بينه وبين الجرأة على مخالفة الأمر وبين إباء النفس والانقياد إليه والله أعلم

فصل قال: وأما سكينة الوقار التي نزلها نعتا لأربابها: فإنها ضياء

تلك السكينة الثالثة التي ذكرناها وهي على ثلاث درجات الدرجة الأولى: سكينة الخشوع عند القيام للخدمة: رعاية وتعظيما وحضورا

(92/712)

سكينة الوقار هي نوع من السكينة ولكن لما كانت موجبة للوقار سماها الشيخ رحمه الله سكينة الوقار وقوله: نزلها نعتا يعني نزلها الله تعالى في قلوب أهلها ونعتهم بها وقوله: فإنها ضياء تلك السكينة الثالثة التي ذكرناها أي نتيجتها وثمرتها وعنها نشأت كما أن الضياء عن الشمس حصل ولما كان النور والحياة والقوة التي ذكرناها مما يثمر الوقار: جعل سكينة الوقار كالضياء لتلك السكينة إذ هو علامة حصولها ودليل عليها كدلالة الضياء على حامله قوله: الدرجة الأولى: سكينة الخشوع عند القيام للخدمة يريد به الوقار والخشوع الذي يحصل لصاحب مقام الإحسان

ولما كان الإيمان موجبا للخشوع وداعيا إليه قال الله تعالى طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعي بسلام

فإذا ودعته وعزمت على الرحيل ووعدته بالموافاة بقول الآخر:

قالت وقد عزمت على ترحالها

ماذا تريد فقلت أن لا ترجعي

فإذا باشرت هذه السكينة قلبه سكنت خوفه وهو قوله: يسكن إليها الخائف وسلت حزنه فإنها لا حزن معها فهي سلوة المحزون ومذهبة الهموم والغموم وكذلك تذهب عنه وخم ضجره وتبعت نشوة العزم وحالت بينه وبين الجرأة على مخالفة الأمر وبين إباء النفس والانقياد إليه والله أعلم

فصل قال: وأما سكينة الوقار التي نزلها نعتا لأربابها: فإنها ضياء

تلك السكينة الثالثة التي ذكرناها وهي على ثلاث درجات الدرجة الأولى: سكينة الخشوع عند القيام للخدمة: رعاية وتعظيما وحضورا

(93/712)

سكينة الوقار هي نوع من السكينة ولكن لما كانت موجبة للوقار سماها الشيخ رحمه الله سكينة الوقار وقوله: نزلها نعتا يعني نزلها الله تعالى في قلوب أهلها ونعتهم بها وقوله: فإنها ضياء تلك السكينة الثالثة التي ذكرناها أي نتيجتها وثمرتها وعنها نشأت كما أن الضياء عن الشمس حصل ولما كان النور والحياة والقوة التي ذكرناها مما يثمر الوقار: جعل سكينة الوقار كالضياء لتلك السكينة إذ هو علامة حصولها ودليل عليها كدلالة الضياء على

حامله قوله: الدرجة الأولى: سكينة الخشوع عند القيام للخدمة يريد به الوقار والخشوع الذي يحصل لصاحب مقام الإحسان

ولما كان الإيمان موجبا للخشوع وداعيا إليه قال الله تعالى

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ [الحديد : 16]

دعاهم من مقام الإيمان إلى مقام الإحسان يعني: أما آن لهم أن يصلوا إلى الإحسان بالإيمان وتحقيق ذلك بخشوعهم لذكره الذي أنزله إليهم قوله: رعاية وتعظيما وحضورا هذه ثلاثة أمور تحقق الخشوع في الخدمة وهي رعاية حقوقها الظاهرة والباطنة فليس يضيعها خشوع ولا وقار الثاني: تعظيم الخدمة وإجلالها وذلك تبع لتعظيم المعبود وإجلاله ووقاره فعلى قدر تعظيمه في قلب العبد وإجلاله ووقاره: يكون تعظيمه لخدمته وإجلاله لها ورعايته لها والثالث: الحضور وهو إحضار القلب فيها مشاهدة المعبود كأنه يراه فهذه الثلاثة تثمر له سكينة الوقار والله سبحانه أعلم

فصل قال: الدرجة الثانية: السكينة عند المعاملة بمحاسبة النفوس

وملاطفة الخلق ومراقبة الحق هذه الدرجة هي التي يحوم عليها أهل التصوف والعلم الذي يشمرون إليه وهي سكينة للمعاملة التي بينهم وبين الله وبينهم وبين خلقه وتحصل بثلاثة أشياء أحدها: محاسبة النفس حتى تعرف ما لها وما عليها ولا يدعها تسترسل في الحقوق استرسالا فيضيعها ويهملها وأيضا فإن زكاتها وطهارتها موقوف على محاسبتها فلا تزكو ولا تطهر ولا تصلح ألبتة إلا بمحاسبتها قال الحسن رضي الله عنه: إن المؤمن والله لا تراه إلا قائما على نفسه: ما أردت بكلمة كذا ما أردت بأكلة ما أردت بمدخل كذا ومخرج كذا ما أردت بهذا مالي ولهذا والله لا أعود إلى هذا ونحو هذا من الكلام

فبمحاسبتها يطلع على عيوبها ونقائصها فيمكنه السعي في إصلاحها الثاني: ملاطفة الخلق وهي معاملتهم بما يحب أن يعاملوه به من اللطف ولا يعاملهم بالعنف والشدة والغلظة فإن ذلك ينفرهم عنه ويغريهم به ويفسد عليه قلبه وحاله مع الله ووقته فليس للقلب أنفع من معاملة الناس باللطف فإن معاملة الناس بذلك: إما أجنبي فتكسب مودته ومحبته وإما صاحب وحبيب فتستديم صحبته ومودته وإما عدو ومبغض فتطفىء بلطفك جمرته وتستكفى شره ويكون احتمالك لمضض لطفك به دون احتمالك لضرر ما ينالك من الغلظة عليه والعنف به الثالث: مراقبة الحق سبحانه وهي الموجبة لكل صلاح وخير عاجل وآجل ولا تصح الدرجتان الأولتان إلا بهذه وهي المقصود لذاته وما قبله وسيلة إليه

وعون عليه فمراقبة الحق سبحانه وتعالى: توجب إصلاح النفس واللطف بالخلق

فصل قال: الدرجة الثالثة: السكينة التي تثبت الرضى بالقسم وتمنع من

(95/712)

الشطح الفاحش وتقف صاحبها على حد الرتبة والسكينة لا تنزل إلا في قلب نبي أو ولي

هذه الدرجة الثالثة: كأنها عند الشيخ لأهل الصحو بعد السكر ولمن شام بوارق الحقيقة

فقوله: تثبت الرضى بالقسم أي توجب لصاحبها أن يرضى بالمقسوم ولا تتطلع نفسه إلى

غيره وتمنع من الشطح الفاحش يعني مثل ما نقل عن أبي يزيد ونحوه بخلاف الجنيد وسهل

وأمثالهما فإنهم لما كانت لهم هذه السكينة لم تصدر منهم الشطحات ولا ريب أن الشطح

سببه عدم السكينة فإنها إذا استقرت في القلب منعته من الشطح وأسبابه

قوله: وتوقف صاحبها على حد الرتبة أي توجب لصاحبها الوقوف عند حده من رتبة

العبودية فلا يتعدى مرتبة العبودية وحدها قوله: والسكينة لا تنزل إلا على قلب نبي أو ولي

وذلك لأنها من أعظم مواهب الحق سبحانه ومنحه ومن أجل عطاياه ولهذا لم يجعلها في

القرآن إلا لرسوله وللمؤمنين كما تقدم فمن أعطيها فقد خلعت عليه خلع الولاية وأعطى

منشورها والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مدارج السالكين حـ 2 صـ 512.503 ﴾

(96/712)

قوله تعالى ﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (5) وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (6) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (7) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما دل على الفتح بالنصر وما معه ، وعلل الدين بالسكينة ، علل علة الدليل وهي ﴿ ليزدادوا إيماناً ﴾ وعلل ما دل عليه ملك الجنود من تدبيرهم وتدبير الأكوان بهم بقوله تعالى زيادة في السكينة : ﴿ ليدخل ﴾ أي بما أوقع في السكينة ﴿ المؤمنين والمؤمنات ﴾ الذين جبلهم جبلة خير بجهاد بعضهم ودخول بعضهم في الدين بجهاد المجاهدين ، ولو سلط

على الكفار جنوده من أول الأمر فأهلكوهم أو دمر عليهم بغير واسطة لفات دخول أكثرهم الجنة ، وهم من آمن منهم بعد صلح الحديبية ﴿ جنات ﴾ أي بساتين لا يصل إلى عقولكم من وصفها إلا ما تعرفونه بعقولكم وإن كان الأمر أعظم من ذلك ﴿ تجري ﴾ ودل وقرب وبعض بقوله : ﴿ من تحتها الأنهار ﴾ فأي موضع أردت أن تجري منه نهراً قدرت على ذلك ، لأن الماء قريب من وجه الأرض مع صلابتها وحسنها .

ولما كان الماء لا يطيب إلا بالقرار تعالى : ﴿ خالدين فيها ﴾ أي لا إلى آخر .

ولما كان السامع لهذا ربما ظن أن فعله ذلك باستحقاق ، قال إشارة إلى أنه لا سبب إلا رحمته : ﴿ ويكفر ﴾ أي يستر ستراً بليغاً شاملاً ﴿ عنهم سيئاتهم ﴾ التي ليس من الحكمة دخول الجنة دار القدس قبل تكفيرها ، بسبب ما كانوا متلبسين به منها من الكفر وغيره ، فكان ذلك التكفير سبباً لدخولهم الجنة ﴿ وكان ذلك ﴾ أي الأمر العظيم من الإدخال والتكفير المهيىء له ، وقدم الظرف تعظيماً لها فقال تعالى : ﴿ عند الله ﴾ أي الملك الأعظم ذي الجلال والإكرام ﴿ فوزاً عظيماً ﴾ يملأ جميع الجهات .

(97/712)

ولما كان من أعظم الفوز إقرار العين بالانتقام من العدو وكان العدو المكاتم أشد من العدو الجاهر المراغم قال تعالى : ﴿ ويعذب المنافقين ﴾ أي يزيل كل ما لهم من العذوبة ﴿ والمنافقات ﴾ بما غاظهم من ازدياد الإيمان ﴿ والمشركين والمشركات ﴾ بصدهم الذي كان سبباً للمقام الدحض الذي كان سبباً لإنزال السكينة الذي كان سبباً لقوة أهل الإسلام بما تأثر عنه من كثرة الداخلين فيه ، الذي كان سبباً لتدمير أهل الكفران ، ثم بعد ذلك عذاب النيران .

ولما أخبر بعذابهم ، أتبعه وصفهم بما سبب لهم ذلك فقال تعالى : ﴿ الظانين بالله ﴾ أي المحيط بجميع صفات الكمال ﴿ ظن السوء ﴾ من أنه لا يفي بوعده في أنه ينصره رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأتباعه المؤمنين أو أنه لا يبعثهم .

أو أنه لا يعذبهم لمخالفة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

ومشاققة أتباعه .

ولما أخبر سبحانه وتعالى بعذابهم فسره بقوله : ﴿ عليهم ﴾ أي في الدنيا والآخرة بما يخزيهم الله به من كثرة جنوده وغيظهم منهم وقهرهم بهم ﴿ دائرة السوء ﴾ التي دبروها وقدروها للمسلمين لا خلاص لهم منها ، فهم مخذولون في كل موطن خذلاناً ظاهراً يدركه كل أحد ، وباطناً يدركه من أراد الله تعالى من أرباب البصائر كما اتفق في هذه العمرة ، والسوء – بالفتح والضم : ما يسوء كالكره إلا أنه غلب في أن يضاف إلى ما يراد ذمه ،

والمضموم جار مجرى الشر الذي هو ضد الخير – قاله في الكشاف .

ولما كان من دار عليه السوء قد لا يكون مغضوباً عيه ، قال : ﴿ وغضب الله ﴾ أي الملك الأعظم بما له من صفات الجلال والجمال فاستعلى غضبه ﴿ عليهم ﴾ ، وهو عبارة عن أنه يعاملهم معاملة الغضبان بما لا طاقة لهم به .

ولما كان الغضب قد لا يوجب الإهانة والإبعاد قال : ﴿ ولعنهم ﴾ أي طردهم طرداً سفلوا به أسفل سافلين ، فبعدوا به عن كل خير .

(98/712)

ولما قرر ما لهم في الدارين ، وكان قد يظن أنه يخص الدنيا فلا يوجب عذاب الآخرة ، أتبعه بما يخصها فقال : ﴿ وأعد ﴾ أي هيأ الآن ﴿ لهم جهنم ﴾ تلقاهم بالعبوسة والغيظ والزفير والتجهم كما كانوا يتجهمون عباد الله مع ما فيها من العذاب بالحر والبرد والإحراق ، وغير ذلك من أنواع المشاق .

ولما كان التقدير : فساءت معداً ، عطف عليه قوله : ﴿ وساءت مصيراً ﴾ .

ولما كان هذا معلماً بأن الكفار – مع ما يشاهد منهم من الكثرة الظاهرة والقوة المتضافرة المتوافرة – لا اعتبار لهم لأن البلاء محيط بهم في الدارين ، وكان ذلك أمراً يوجب تشعب

الفكر في المؤثر فيهم ذلك ، عطف على ما تقديره إعلاماً بأن التدبير على هذا الوجه لحكم ومصالح يكل عنها الوصف ، ودفعاً لما قد يتوهمه من لم يرسخ إيمانه مما يجب التنزيه عنه : فلله القوة جميعاً يفعل ما يشاء فيمن يشاء من غير سبب ترونه : ﴿ ولله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ جنود السماوات والأرض ﴾ فهو يسلط ما يشاء منها على من يشاء .

ولما كان ما ذكر من عذاب الأعداء وثواب الأولياء متوقفاً على تمام العلم ونهاية القدرة التي يكون بها الانتقام والسطوة قال تعالى : ﴿ وكان الله ﴾ الملك الذي لا أمر لأحد مع أزلاً وأبداً ﴿ عزيزاً ﴾ يغلب ولا يغلب ﴿ حكيماً ﴾ يضع الشيء في أحكم مواضعه ، فلا يستطاع نقض شيء مما ينسب إليه سبحانه وتعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 192.190 ﴾

(99/712)

فصل

قال الفخر :

﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾

(100/712)

يستدعي فعلاً سابقاً ﴿ لِّيُدْخِلَ ﴾ فإن من قال ابتداء لتكرمني لا يصح ما لم يقل قبله جئتك أو ما يقوم مقامه وفي ذلك الفعل وجوه وضبط الأحوال فيه بأن تقول ذلك الفعل إما أن يكون مذكوراً بصريحه أو لا يكون ، وحينئذ ينبغي أن يكون مفهوماً ، فإما أن يكون مفهوماً من لفظ يدل عليه بل فهم بقرينة حالية فإن كان مذكوراً فهو يحتمل وجوهاً أحدها : قوله ﴿ لِيَزْدَادُواْ إِيمَانًا ﴾ [الفتح : 4] كأنه تعالى أنزل السكينة ليزدادوا إيماناً بسبب الإنزال ليدخلهم بسبب الإيمان جنّات ، فإن قيل فقوله ﴿ وَيُعَذِّبَ ﴾ [الفتح : 6] عطف على قوله ﴿ لِّيُدْخِلَ ﴾ وازدياد إيمانهم لا يصلح سبباً لتعذيبهم ، نقول بلى وذلك من وجهين أحدهما : أن التعذيب مذكور لكونه مقصوداً للمؤمنين ، كأنه تعالى يقول بسبب ازدياد كم في الإيمان يدخلكم في الآخرة جنّات ويعذب بأيديكم في الدنيا الكفار والمنافقين الثاني : تقديره ويعذب بسبب ما لكم من الازدياد ، يقال فعلته لأجرب به العدو والصديق أي لأعرف بوجوده الصديق وبعدمه العدو فكذلك ليزداد المؤمن إيماناً فيدخله الجنة ويزداد الكافر كفراً فيعذبه به ووجه آخر ثالث : وهو أن سبب زيادة إيمان المؤمنين بكثرة صبرهم وثباتهم فيعيى المنافق والكافر معه ويتعذب وهو قريب مما ذكرنا الثاني : قوله ﴿ وَيَنصُرَكَ اللهُ ﴾ [الفتح : 3] كأنه تعالى قال وينصرك الله بالمؤمنين ليدخل المؤمنين جنّات الثالث : قوله ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ ﴾ [الفتح : 2] على قولنا المراد

ذنب المؤمن كأنه تعالى قال ليغفر لك ذنب المؤمنين ، ليدخل المؤمنين جنات ، وأما إن قلنا هو مفهوم من لفظ غير صريح فيحتمل وجوهاً أيضاً أحدها : قوله ﴿ حَكِيماً ﴾ [الفتح : 4] يدل على ذلك كأنه تعالى قال : الله حكيم ، فعل ما فعل ليدخل المؤمنين جنات وثانيها : قوله تعالى : ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ [الفتح : 2] في الدنيا والآخرة ، فيستجيب دعاءك في

(101/712)

الدنيا ويقبل شفاعتك في العقبى ﴿ لِّيُدْخِلَ المؤمنين والمؤمنات جنات ﴾ ثالثها : قوله ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ ﴾ [الفتح : 1] ووجهه هو أنه روي أن المؤمنين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم هنيئاً لك إن الله غفر لك فماذا لنا ؟ فنزلت هذه الآية كأنه تعالى قال : إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك وفتحنا للمؤمنين ليدخلهم جنّات ، وأما إن قلنا إن ذلك مفهوم من غير مقال بل من قرينة الحال ، فنقول هو الأمر بالقتال لأن من ذكر الفتح والنصر علم أن الحال حال القتال ، فكأنه تعالى قال إن الله تعالى أمر بالقتال ليدخل المؤمنين ، أو نقول عرف من قرينة الحال أن الله اختار المؤمنين ليدخلهم جنّات .

المسألة الرابعة :

قال ههنا وفي بعض المواضع ﴿ المؤمنين والمؤمنات ﴾ وفي بعض المواضع اكتفى بذكر المؤمنين ودخلت المؤمنات فيهم كما في قوله تعالى : ﴿ وَبَشّرِ المؤمنين ﴾ [الأحزاب : 47] وقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾

(102/712)

[المؤمنون : 1] فما الحكمة فيه ؟ نقول في المواضع التي فيها ما يوهم اختصاص المؤمنين بالجزاء الموعود به مع كون المؤمنات يشتركن معهم ذكرهن الله صريحاً ، وفي المواضع التي ليس فيها ما يوهم ذلك اكتفى بدخولهم في المؤمنين فقوله ﴿ وَبَشّرِ المؤمنين ﴾ مع أنه علم من قوله تعالى : ﴿ وَمَا أرسلناك إِلاَّ كَافَّةً للنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ [سبأ : 28] العموم لا يوهم خروج المؤمنات عن البشارة ، وأما ههنا فلما كان قوله تعالى : ﴿ لّيُدْخِلَ المؤمنين ﴾ لفعل سابق وهو إما الأمر بالقتال أو الصبر فيه أو النصر للمؤمنين أو الفتح بأيديهم على ما كان يتوهم لأن إدخال المؤمنين كان للقتال ، والمرأة لا تقاتل فلا تدخل الجنة الموعود بها صرح الله بذكرهن ، وكذلك في المنافقات والمشركات ، والمنافقة والمشركة لم تقاتل فلا تعذب فصرّح الله تعالى بذكرهن ، وكذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ﴾ [الأحزاب : 35] لأن الموضع موضع ذكر النساء وأحوالهن لقوله ﴿ وَلاَ

تَبَرَّجْنَ . . .

وَأَقِمْنَ . . .

وَءَاتِينَ . . .

وَأَطِعْنَ ﴾ [الأحزاب : 33] وقوله ﴿ واذكرن مَا يتلى فِى بُيُوتِكُنَّ ﴾ [الأحزاب : 34] فكان ذكرهن هناك أصلاً ، لكن الرجال لما كان لهم ما للنساء من الأجر العظيم ذكرهم وذكرهن بلفظ مفرد من غير تبعية لما بينا أن الأصل ذكرهن في ذلك الموضع .

المسألة الخامسة :

(103/712)

قال الله تعالى : ﴿ وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سيئاتهم ﴾ بعد ذكر الإدخال مع أن تكفير السيئات قبل الإدخال ؟ نقول الجواب عنه من وجهين أحدهما : الواو لا تقتضي الترتيب الثاني : تكفر السيئات والمغفرة وغيرهما من توابع كون المكلف من أهل الجنة ، فقدم الإدخال في الذكر بمعنى أنه من أهل الجنة الثالث : وهو أن التكفير يكون بإلباس خلع الكرامة وهي في الجنة ، وكان الإنسان في الجنة تزال عنه قبائح البشرية الجرمية كالفضلات ، والمعنوية كالغضب والشهوة وهو التكفير وتثبت فيه الصفات الملكية وهي أشرف أنواع الخلع ، وقوله تعالى :

﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللهِ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ فيه وجهان أحدهما : مشهور وهو أن الإدخال والتكفير في الله فوز عظيم ، يقال عندي هذا الأمر على هذا الوجه ، أي في اعتقادي وثانيهما : أغرب منه وأقرب منه عقلاً ، وهو أن يجعل عند الله كالوصف لذلك كأنه تعالى يقول ذلك عند الله ، أي بشرط أن يكون عند الله تعالى ويوصف أن يكون عند الله فوز عظيم حتى أن دخول الجنة لو لم يكن فيه قرب من الله بالعندية لما كان فوزاً .

وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ

(104/712)

واعلم أنه قدم المنافقين على المشركين في الذكر في كثير من المواضع لأمور أحدها : أنهم كانوا أشد على المؤمنين من الكافر المجاهر لأن المؤمن كان يتوقى المشرك المجاهر وكان يخالط المنافق لظنه بإيمانه ، وهو كان يفشي أسراره ، وإلى هذا أشار النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : " أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك " والمنافق على صورة الشيطان فإنه لا يأتي الإنسان على أني عدوك ، وإنما يأتيه على أني صديقك ، والمجاهر على خلاف الشيطان من وجه ، ولأن المنافق كان يظن أن يتخلص للمخادعة ، والكافر لا يقطع بأن المؤمن إن غلب يفديه ، فأول ما أخبر الله أخبر عن المنافق وقول ﴿ الظانين بالله ظَنَّ

السوء ﴾ هذا الظن يحتمل وجوهاً أحدها : هو الظن الذي ذكره الله في هذه السورة بقوله ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرسول ﴾ [الفتح : 12] ثانيها : ظن المشركين بالله في الإشراك كما قال تعالى : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ ﴾ إلى أن قال : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن وَإِنَّ الظن لاَ يُغْنِي مِنَ الحق شَيْئاً ﴾ [النجم : 23 28] ثالثها : ظنهم أن الله لا يرى ولا يعلم كما قال : ﴿ ولكن ظَنَنتُمْ أَنَّ الله لاَ يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [فصلت : 22] والأول أصح أو نقول المراد جميع ظنونهم حتى يدخل فيه ظنهم الذي ظنوا أن الله لا يحيي الموتى ، وأن العالم خلقه باطل ، كما قال تعالى : ﴿ ذلك ظَنُّ الذين كَفَرُواْ ﴾ [ص : 27] ويؤيد هذا الوجه الألف واللام الذي في السوء وسنذكره في قوله ﴿ ظَنَّ السوء ﴾ وفيه وجوه أحدها : ما اختاره المحققون من الأدباء ، وهو أن السوء صار عبارة عن الفساد ، والصدق عبارة عن الصلاح يقال مررت برجل سوء أي فاسد ، وسئلت عن رجل صدق أي صالح ، فإذا كان مجموع قولنا رجل سوء يؤدي معنى قولنا فاسد ، فالسوء وحده يكون بمعنى الفساد ، وهذا ما اتفق عليه الخليل والزجاج واختاره الزمخشري ، وتحقيق هذا

أن السوء في المعاني كالفساد في الأجساد ، يقال ساء مزاجه ، وساء خلقه ، وساء ظنه ، كما يقال فسد اللحم وفسد الهواء ، بل كان ما ساء فقد فسد وكل ما فسد فقد ساء غير أن أحدهما كثير الاستعمال في المعاني والآخر في الأجرام قال الله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الفساد فِي البر والبحر ﴾ [الروم : 41] وقال : ﴿ سَاء مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : 9] هذا ما يظهر لي من تحقيق كلامهم .

ثم قال تعالى : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السوء ﴾ أي دائرة الفساد وحاق بهم الفساد بحيث لا خروج لهم منه .

ثم قال تعالى : ﴿ وَغَضِبَ الله عَلَيْهِمْ ﴾ زيادة في الإفادة لأن من كان به بلاء فقد يكون مبتلى به على وجه الامتحان فيكون مصاباً لكي يصير مثاباً ، وقد يكون مصاباً على وجه التعذيب فقوله ﴿ وَغَضِبَ الله عَلَيْهِمْ ﴾ إشارة إلى أن الذي حاق بهم على وجه التعذيب وقوله ﴿ وَلَعَنَهُمُ ﴾ زيادة إفادة لأن المغضوب عليه قد يكون بحيث يقنع الغاضب بالعتب والشتم أو الضرب ، ولا يفضي غضبه إلى إبعاد المغضوب عليه من جنابه وطرده من بابه ، وقد يكون بحيث يفضي إلى الطرد والإبعاد ، فقال : ﴿ وَلَعَنَهُمُ ﴾ لكون الغضب شديداً ، ثم لما بيّن حالهم في الدنيا بيّن مآلهم في العقبى قال : ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً ﴾ وقوله ﴿ سَاءتْ ﴾ إشارة لمكان التأنيث في جهنم يقال هذه الدار نعم المكان ، وقوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السموات والأرض ﴾ [الفتح : 4] قد تقدم تفسيره ، وبقي فيه مسائل :

المسألة الأولى :

ما الفائدة في الإعادة ؟ نقول لله جنود الرحمة وجنود العذاب أو جنود الله إنزالهم قد يكون للرحمة ، وقد يكون للعذاب فذكرهم أولى لبيان الرحمة بالمؤمنين قال تعالى : ﴿ وَكَانَ بالمؤمنين رَحِيماً ﴾ [الأحزاب : 43] وثانياً لبيان إنزال العذاب على الكافرين .

المسألة الثانية :

(106/712)

قال هناك ﴿ وَكَانَ الله عَلِيماً حَكِيماً ﴾ [الفتح : 4] وهنا ﴿ وَكَانَ الله عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ لأن قوله ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السموات والأرض ﴾ [الفتح : 4] قد بينا أن المقصود من ذكرهم الإشارة إلى شدة العذاب فذكر العزة كما قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ الله بِعَزِيزٍ ذِي انتقام ﴾ [الزمر : 37] وقال تعالى : ﴿ فأخذناهم أَخْذَ عِزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر : 42] وقال تعالى : ﴿ العزيز الجبار ﴾ [الحشر : 23] .

المسألة الثالثة :

ذكر جنود السموات والأرض قبل إدخال المؤمنين الجنة ، وذكرهم ههنا بعد ذكر تعذيب

الكفار وإعداد جنهم ، نقول فيه ترتيب حسن لأن الله تعالى ينزل جنود الرحمة فيدخل المؤمنين مكرمين معظمين الجنة ثم يلبسهم خلع الكرامة بقوله ﴿ وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سيئاتهم ﴾ [الفتح : 5] كما بينا ثم تكون لهم القربى والزلفى بقوله ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللهِ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ وبعد حصول القرب والعندية لا تبقى واسطة الجنود فالجنود في الرحمة أولاً ينزلون ويقربون آخراً وأما في الكافر فيغضب عليه أولاً فيبعد ويطرد إلى البلاد النائية عن ناحية الرحمة وهي جهنم ويسلط عليهم ملائكة العذاب وهم جنود الله كما قال تعالى : ﴿ عَلَيْهَا مَلَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ ﴾ [التحريم : 6] ولذلك ذكر جنود الرحمة أولاً والقربة بقوله عند الله آخراً ، وقال ههنا ﴿ غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمُ ﴾ وهو الإبعاد أولاً وجنود السموات والأرض آخراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 71.74 ﴾

(107/712)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1) ﴾

قال قوم فيما حكى الزهراوي ﴿ فتحنا لك ﴾ يريد به فتح مكة ، وحكاه الثعلبي أيضاً ،

ونسبه النقاش إلى الكلبي . وأخبره تعالى به على معنى : قضينا به . والفتاح : القاضي بلغة اليمن ، وقيل المراد : ﴿ إنا فتحنا لك ﴾ بأن هديناك إلى الإسلام ليغفر . وقال جمهور الناس : والصحيح الذي تعضده قصة الحديبية أن قوله : ﴿ إنا فتحنا لك ﴾ إنما معناه : إن ما يسر الله لك في تلك الخرجة فتح مبين تستقبله ، ونزلت السورة مؤنسة للمؤمنين ، لأنهم كانوا استوحشوا من رد قريش لهم ومن تلك المهادنة التي هادنهم النبي عليه السلام فنزلت السورة مؤنسة لهم في صدهم عن البيت ومذهبه : ما كان في قلوبهم ، ومنه حديث عمر الشهير وما قاله للنبي عليه السلام ولأبي بكر واستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك السفرة أنه هادن عدوه ريثما يتقوى هو ، وظهرت على يديه آية الماء في بئر الحديبية حيث وضع فيه سهمه وثاب الماء حتى كفى الجيش ، واتفقت بيعة الرضوان وهي الفتح الأعظم ، قاله جابر بن عبد الله والبراء بن عازب . وبلغ هديه محله ، قاله الشعبي واستقبل فتح خيبر ، وامتلأت أيدي المؤمنين خيراً ، ولم يفتحها إلا أهل الحديبية ولم يشركهم فيها أحد .

قال القاضي أبو محمد : وفيه نظر ، لأن أصحاب السفينة مع جعفر بن أبي طالب شاركوهم في القسم ، فينبغي أن يقال لم يشاركهم أحد من المتخلفين عن الحديبية ، واتفقت في ذلك الوقت ملحمة عظيمة بين الروم وفارس ظهرت فيها الروم ، فكانت من جملة الفتح

على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسر بها هو والمؤمنون لظهور أهل الكتاب على المجوس وانخضاد الشوكة العظمة من الكفر .

(108/712)

ثم عظم الله أمر نبيه بأن نبأه أنه غفر له ﴿ ما تقدم ﴾ من ذنبه ﴿ وما تأخر ﴾ ، فقوله : ﴿ ليغفر ﴾ هي لام كي ، لكنها تخالفها في المعنى والمراد هنا أن الله فتح لك لكي يجعل ذلك أمارة وعلامة لغفرانه لك ، فكأنها لام صيرورة ، ولهذا قال عليه السلام : " لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة هي أحب إليّ من الدنيا " . وقال الطبري وابن كيسان المعنى : ﴿ إنا فتحنا لك ﴾ فسبح بحمد ربك واستغفره ليغفر لك ، وبنيا هذه الآية مع قوله تعالى : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ [النصر : 1] السورة إلى آخرها .

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف من وجهين أحدهما : أن سورة ، ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ [النصر : 1] إنما نزلت من أخر مدة النبي عليه السلام ناعية له نفسه حسبما قال ابن عباس عندما سأل عمر عن ذلك . والآخر : أن تخصيص النبي عليه السلام بالتشريف كان يذهب ، لأن كل أحد من المؤمنين هو مخاطب بهذا الذي قال الطبري ، أي سبح واستغفر لكي يغفر الله ، ولا يتضمن هذا أن الغفران قد وقع ، وما

قدمناه أولاً يقتضي وقوع الغفران للنبي عليه السلام ، ويدل على ذلك قول الصحابة له حين قام حتى تورمت قدماه : أتفعل هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال :

" أفلا أكون عبداً شكوراً " فهذا نص في أن الغفران قد وقع . وقال منذر بن سعيد المعنى : مجاهدتك بالله المقترنة بالفتح هي ليغفر . وحكى الثعلبي عن الحسن بن الفضل أن المعنى : ﴿ إنا فتحنا لك ﴾ فاستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴿ ليغفر لك ﴾ الآية ، وهذا نحو قول الطبري .

(109/712)

وقوله : ﴿ ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ قال سفيان الثوري : ﴿ ما تقدم ﴾ يريد قبل النبوءة . ﴿ وما تأخر ﴾ كل شيء لم تعلمه وهذا ضعيف ، وإنما المعنى التشريف بهذا الحكم ولو لم تكن له ذنوب البتة ، وأجمع العلماء على عصمة الأنبياء عليهم السلام من الكبائر ومن الصغائر التي هي رذائل ، وجوز بعضهم الصغائر التي ليست برذائل ، واختلفوا هل وقع ذلك من محمد عليه السلام أو لم يقع ، وحكى الثعلبي عن عطاء الخراساني أنه قال : ﴿ ما تقدم ﴾ هو ذنب آدم وحواء ، أي ببركتك ﴿ وما تأخر ﴾ هي ذنوب أمتك بدعائك .

قال الثعلبي : الإمامية لا تجوز الصغائر على النبي ولا على الإمام ، والآية ترد عليهم . وقال بعضهم : ﴿ وما تقدم ﴾ هو قوله يوم بدر : " اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد " . ﴿ وما تأخر ﴾ هو قوله يوم حنين : " لن نغلب اليوم من قلة " .

قال القاضي أبو محمد : وإتمام النعمة عليه ، هو إظهاره وتغلبه على عدوه والرضوان في الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ ويهديك صراطاً مستقيماً ﴾ معناه : إلى صراط ، فحذف الجار فتعدى الفعل ، وقد يتعدى هذا بغير حرف جر ، والنصر العزيز : هو الذي معه غلبة العدو والظهور عليه ، والنصر غير العزيز : هو الذي مضمنه الحماية ودفع العدو فقط . وإنزال السكينة في قلوب المؤمنين : وهي فعلية من السكون هو تسكينها لتلك الهدنة مع قريش حتى اطمأنت ، وعلموا أن وعد الله على لسان رسوله حق فازدادوا بذلك إيماناً إلى إيمانهم الأول وكثر تصديقهم . قال ابن عباس : لما آمنوا بالتوحيد زادهم العبادات شيئاً شيئاً . فكانوا يزيدون إيماناً حتى قال لهم : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ [المائدة : 3] فمنحهم أكمل إيمان أهل السماوات والأرض لا إله إلا الله . وفسر ابن عباس ﴿ السكينة ﴾ بالرحمة .

وقوله : ﴿ ولله جنود السماوات والأرض ﴾ إشارة إلى تسكين النفوس أيضاً وأن تكون مسلمة ، لأنه ينصر متى شاء وعلى أي صورة شاء مما لا يدبره البشر ، ومن جنده : ﴿ السكينة ﴾ التي أنزلها في قلوب أصحاب محمد فثبت بصائرهم .

وقوله تعالى : ﴿ وكان الله ﴾ أي كان ويكون ، فهي دالة على الوجود بهذه الصفة لا معينة وقتاً ماضياً . والعلم والإحكام : صفتان مقتضيتان عزة النصر لمن أراد الموصوف بهما نصره .

قوله تعالى : ﴿ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ [الفتح : 4] معناه : فازدادوا وتلقوا ذلك . فتمكن بعد ذلك قوله : ﴿ ليدخل المؤمنين ﴾ أي بتكسبهم القبول لما أنزل الله عليهم .

ويروى في معنى هذه الآية أنه لما نزلت : ﴿ وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ﴾ [الأحقاف : 9] تكلم فيها أهل الكتاب وقالوا : كيف نتبع من لا يدري ما يفعل به وبالناس معه ؟ فبين الله في هذه السورة ما يفعل به بقوله : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ [الفتح : 2] فلما سمعها المؤمنون ، قالوا : هنيئاً مريئاً ، هذا لك يا رسول الله ، فما لنا ؟ فنزلت هذه الآية : ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ إلى قوله : ﴿ وساءت مصيراً ﴾ فعرفه الله تعالى ما يفعل به وبالمؤمنين والكافرين . وذكر النقاش أن رجلاً من عك قال : هذه لك يا رسول الله ، فما لنا ؟ فقال النبي صلى الله عليه

وسلم : " هي لي ولأمتي كهاتين " وجمع بين أصبعيه .

وقوله : ﴿ ويكفر عنهم سيئاتهم ﴾ فيه ترتيب الجمل في السرد لا ترتيب وقوع معانيها ، لأن تكفير السيئات قبل إدخالهم الجنة .

وقوله : ﴿ الظانين بالله ظن السوء ﴾ قيل معناه من قولهم : ﴿ لن ينقلب الرسول ﴾ [الفتح : 12] ، فكأنهم ظنوا بالله ظن السوء في جهة الرسول والمؤمنين ، وقيل : ظنوا بالله ظن سوء ، إذ هم يعتقدونه بغير صفاته ، فهي ظنون سوء من حيث هي كاذبة مؤدية إلى عذابهم في نار جهنم .

(111/712)

وقوله تعالى : ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ كأنه يقوي التأويل الآخر ، أي أصابهم ما أرادوه بكم ، وقرأ جمهور القراء : " دائرة السَوء " كالأول ، ورجحها الفراء ، وقال : قل ما تضم العرب السين . قال أبو علي : هما متقاربان ، والفتح أشد مطابقة في اللفظ . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : " ظن السَوء " بفتح السين . و : " دائرة السُوء " بضم السين ، وهو اسم ، أي " دائرة السُوء " الذي أرادوه بكم في ظنهم السوء . وقرأ الحسن : بضم السين في الموضعين ، وروى ذلك عن أبي عمرو ومجاهد ، وسمى المصيبة التي دعا بها عليهم : ﴿ دائرة ﴾ ،

من حيث يقال في الزمان إنه يستدير ، ألا ترى أن السنة والشهر كأنها مستديرات ، تذهب على ترتيب ، وتجيء من حيث هي تقديرات للحركة العظمى ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض ﴾ فيقال الأقدار والحوادث التي هي في طي الزمان دائرة ، لأنها تدور بدوران الزمان ، كأنك تقول : إن أمراً كذا يكون في يوم كذا من سنة كذا ، فمن حيث يدور ذلك اليوم حتى يبرز إلى الوجود تدور هي أيضاً فيه ، وقد قالوا : أربعاء لا تدور ، ومن هذا قول الشاعر : [الرجز]

ودائرات الدهر قد تدور . . . ومنه قول الآخر : [الطويل]

(112/712)

ويعلم أن النائبات تدور . . . وهذا كثير ويحسن أن تسمى المصيبة دائرة من حيث كمالها أن تحيط بصاحبها كما يحيط شكل الدائرة على السواء من النقطة ، وقد أشار النقاش إلى هذا المعنى ﴿ وغضب الله ﴾ تعالى متى قصد به الإرادة فهو صفة ذات ، ومتى قصد به ما يظهر من الأفعال على المغضوب عليه فهي صفة فعل . ﴿ ولعنهم ﴾ معناه : أبعدهم من رحمته ، وقال تعالى في هذه ﴿ وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ فذكر صفة العزة من حيث

تقدم الانتقام من الكفار ، وفي التي قبل قرن بالحكمة والعلم من حيث وعده بمغيبات ، وقرن باللفظتين ذكر جنود الله تعالى التي منها السكينة ومنها نقمة من المنافقين والمشركين ، فلكل لفظ وجه من المعنى ، وقال ابن المبارك في كتاب النقاش : جنود الله في السماء ، الملائكة ، وفي الأرض الغزاة في سبيل الله . قال عبد الحق : وهذا بعض من كل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(113/712)

وقال القرطبى :

﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾

أي أنزل السكينة ليزدادوا إيماناً .

ثم تلك الزيادة بسبب إدخالهم الجنة .

وقيل : اللام في "لِيُدْخِلَ" يتعلق بما يتعلق به اللام في قوله : "لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ" ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ ﴾

أي ذلك الوعد من دخول مكة وغفران الذنوب .

﴿ عِندَ اللهِ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ أي نجاة من كل غم ، وظفراً بكل مطلوب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

وقيل : لما قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم على أصحابه ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ قالوا : هنيئاً لك يا رسول الله ، فماذا لنا ؟ فنزل : ﴿ لِّيُدْخِلَ المؤمنين والمؤمنات جَنَّاتٍ ﴾ ولما قرأ ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ قالوا : هنيئاً لك ؛ فنزلت : ﴿ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ [المائدة : 3] فلما قرأ ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾ نزل في حق الأمة : ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾ .

ولما قال : ﴿ وَيَنصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً ﴾ نزل : ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمنين ﴾ [الروم : 47] .

وهو كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النبي يا أيها الذين آمَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾ [الأحزاب : 56] .

ثم قال : ﴿ هُوَ الذي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ ﴾ [الأحزاب : 43] ذكره القشيريّ .

قوله تعالى : ﴿ وَيُعَذِّبَ المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ﴾

أي بإيصال الهموم إليهم بسبب عُلُوّ كلمة المسلمين ، وبأن يسلط النبيّ عليه السلام قَتْلاً وَأَسْراً واسترقاقاً .

﴿ الظآنين بالله ظَنَّ السوء ﴾ يعني ظنّهم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لا يرجع إلى المدينة ، ولا أحد من أصحابه حين خرج إلى الحديبية ، وأن المشركين يستأصلونهم .

كما قال : "بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً" .

وقال الخليل وسِيبويه : "السّوء" هنا الفساد .

﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السوء ﴾ في الدنيا بالقتل والسَّبْي والأسر ، وفي الآخرة بجهنم .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو "دائرة السوء" بالضم .

وفتح الباقون .

قال الجوهري : ساءه يسوءه سَوءاً (بالفتح) ومَسَاءة ومَساية ؛ نقيض سرّه ، والاسم السُّوء (بالضم) .

وقرىء "عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ" يعني الهزيمة والشر .

ومن فتح فهو من المساءة .

﴿ وَغَضِبَ الله عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيراً وَلِلَّهِ جُنُودُ السماوات والأرض وَكَانَ الله عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ .

تقدّم في غير موضع جميعه ، والحمد لله .

وقيل : لما جرى صلح الحديبية قال ابن أُبَيّ : أيظن محمد أنه إذا صالح أهل مكة أو فتحها لا يبقى له عدوّ ، فأين فارس والروم ! فبين الله عز وجل أن جنود السموات والأرضِ أكثر من فارس والروم .

وقيل : يدخل فيه جميع المخلوقات .

وقال ابن عباس : "وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ" الملائكة .

وجنود الأرض المؤمنون .

وأعاد لأن الذي سبق عقيب ذكر المشركين من قريش ، وهذا عقيب ذكر المنافقين وسائر المشركين .

والمراد في الموضعين التخويف والتهديد .

فلو أراد إهلاك المنافقين والمشركين لم يعجزه ذلك ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مُسَمًّى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(115/712)

وقال الآلوسى :

﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾

متعلق بما يدل عليه ما ذكر من كون جنود السموات والأرض له جل شأنه من معنى التصرف والتدبير ، وقد صرح بعض الأفاضل بانه كناية عنه أي دبر سبحانه ما دبر من تسليط المؤمنين ليعرفوا نعمة الله تعالى في ذلك ويشكروها فيدخلهم الجنة فالعلة في الحقيقة

معرفة النعمة وشكرها لكنها لما كانت سبباً لدخول الجنة أقيم المسبب مقام السبب .

وقيل : متعلق بفتحنا ، وقيل : بانزل ، وتعلقه بذلك مع تعلق اللام الأخرى به مبني على تعلق الأول به مطلقاً والثاني مقيداً وتنزيل تغاير الوصفين منزلة تغاير الذاتين وإلا فلا يتعلق بعامل واحد حرفاً جر بمعنى واحد من غير اتباع ، وقيل : متعلق بينصرك ، وقيل : بيزداد ، وقيل : بجميع ما ذكر إما على التنازع والتقدير أو بتقدير ما يشمل ذلك كفعل سبحانه ما ذكر ليدخل الخ ، وقيل : هو بدل من ليزداد بدل اشتمال فإن ادخال المؤمنين والمؤمنات الجنة وكذا ما عطف عليه مستلزم لزيادة الإيمان وبدل الاشتمال يعتمد على ملابسة ما بين المبدل والمبدل منه بحيث يشعر أحدهما بالآخر غير الكلية والبعضية ، ولعل الأظهر الوجه الأول ، وضم المؤمنات ههنا إلى المؤمنين دفعا لتوهم اختصاص الحكم بالذكور لأجل الجهاد والفتح على أيديهم ، وكذا في كل موضع يوهم الاختصاص يصرح بذكر النساء ، ويقال نحو ذلك فيما بعد كذا قيل : واخرج ابن جرير .

وجماعة عن أنس قال : " أنزلت على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ [الفتح : 2] في مرجعه من الحديبية فقال : لقد أنزلت على آية هي أحب إلى مما على الأرض ثم قرأها عليهم فقالوا : هنيئاً مريئاً يا رسول الله قد بين الله تعالى لك ماذا يفعل بك فماذا يفعل بنا فنزلت ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات ﴾ حتى بلغ ﴿ فوزاً عظيماً ﴾ "

﴿ وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سيئاتهم ﴾ أي يغطيها ولا يظهرها ، والمراد يمحوها سبحانه ولا يؤاخذهم بها ، وتقديم الادخال في الذكر على التكفير مع أن الترتيب في الوجود على العكس للمسارعة إلى بيان ما هو المطلوب إلا على كذا قال غير واحد ، ويجوز عندي أن يكون التكفير في الجنة على أن المعنى يدخلهم الجنة ويغطي سيآتهم ويسترها عنهم فلا تمر لهم ببال ولا يذكرونها أصلاً لئلا يخجلوا فيتكدر صفو عيشهم ، وقد مر مثل ذلك .

﴿ وَكَانَ ذلك ﴾ أي ما ذكر من الادخال والتكفير ﴿ عِندَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ لا يقادر قدره لأنه منتهى ما تمتد إليه أعناق الهمم من جلب نفع ودفع ضر ، و ﴿ عَندَ الله ﴾ حال من ﴿ فَوْزاً ﴾ لأن صفة النكرة إذا قدمت عليها أعربت حالاً ، وكونه يجوز فيه الحالية إذا تأخر عن ﴿ عَظِيماً ﴾ لا ضير فيه كما توهم أي كائناً عند الله تعالى أي في علمه سبحانه وقضائه جل شأنه ، والجملة اعتراض مقرر لما قبله .

وقوله تعالى : ﴿ وَيُعَذِّبَ المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ﴾ عطف على ﴿ يدخل ﴾ [الفتح : 5] أي وليعذب المنافقين الخ لغيظهم من ذلك ، وهو ظاهر على جميع الأوجه السابقة في ﴿ لِّيُدْخِلَ ﴾ حتى وجه البدلية فإن بدل الاشتمال تصححه اللابسة

كما مر ، وازدياد الإيمان على ما ذكرنا في تفسيره مما يغيظهم بلا ريب ، وقيل : إنه على هذا الوجه يكون عطفاً على المبدل منه ، وتقديم المنافقين على المشركين لأنهم أكثر ضرراً على المسلمين فكان في تقديم تعذيبهم تعجيل المسرة .

(117/712)

﴿ الظانين بالله ظَنَّ السوء ﴾ أي ظن الأمر الفاسد المذموم وهو أنه عز وجل لا ينصر رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، وقيل : المراد به ما يعم ذلك وسائر ظنونهم الفاسدة من الشرك أو غيره ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السوء ﴾ أي ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ دَائِرَةُ السوء ﴾ بالضم ، والفرق بينه وبين ﴿ السوء ﴾ بالفتح على ما في الصحاح أن المفتوح مصدر والمضموم اسم مصدر بمعنى المساءة .

وقال غير واحد : هما لغتان بمعنى كالكره والكره عند الكسائي وكلاهما في الأصل مصدر غير أن المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذمه والمضموم جري مجري الشر ، ولما كانت الدائرة هنا محمودة وأضيفت إلى المفتوح في قراءة الأكثر تعين على هذا أن يقال : إن ذاك على تأويل انها مذمومة بالنسبة إلى من دارت عليه من المنافقين والمشركين واستعمالها في

المكروه أكثر وهي مصدر بزنة اسم الفاعل أو اسم فاعل ، وإضافتها على ما قال الطيبي من إضافة الموصوف إلى الصفة للبيان على المبالغة ، وفي الكشف الإضافة بمعنى من على نحو دائرة ذهب فتدبر .

والكلام إما اخبار عن وقوع السوء بهم أو دعاء عليهم ، وقوله تعالى : ﴿ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ﴾ عطف على ذلك ، وكان الظاهر فلعنهم فأعد بالفاء في الموضعين لكنه عدل عنه للإشارة إلى أن كلا من الأمرين مستقل في الوعيد به من غير اعتبار للسببية فيه ﴿ وَسَاءتْ مَصِيراً ﴾ جهنم .

(118/712)

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السموات والأرض ﴾ ذكر سابقاً [الفتح : 4] على أن المراد أنه عز وجل المدبر لأمر المخلوقات بمقتضى حكمته فلذلك ذيل بقوله تعالى : ﴿ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ وههنا أريد به التهديد بأنهم في قبضة قدرة المنتقم ولذا ذيل بقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ فلا تكرار كما قال الشهاب ، وقيل : إن الجنود جنود رحمة وجنود عذاب ، والمراد به هنا الثاني كام ينبىء عنه التعرض لوصف العزة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾

اختلف في تعيين هذا الفتح ، فقال الأكثر : هو صلح الحديبية ، والصلح قد يسمى فتحاً .

قال الفراء : والفتح قد يكون صلحاً ، ومعنى الفتح في اللغة : فتح المنغلق ، والصلح الذي كان مع المشركين بالحديبية كان مسدوداً متعذراً حتى فتحه الله .

قال الزهري : لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية ، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين ، فسمعوا كلامهم ، فتمكن الإسلام في قلوبهم ، وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير ، وكثر بهم سواد الإسلام .

قال الشعبي : لقد أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديبية ما لم يصب في غزوة ، غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر ، وبويع بيعة الرّضوان ، وأطعموا نخل خيبر ، وبلغ الهدي محله ، وظهرت الروم على فارس ، ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس .

وقال قوم : إنه فتح مكة .

وقال آخرون : إنه فتح خيبر .

والأوّل أرجح ، ويؤيده ما ذكرناه قبل هذا من أن السورة أنزلت في شأن الحديبية .

وقيل : هو جميع ما فتح الله لرسوله من الفتوح ، وقيل : هو ما فتح له من النبوّة ، والدعوة إلى الإسلام ، وقيل : فتح الروم ، وقيل : المراد بالفتح في هذه الآية : الحكم والقضاء .

كما في قوله : ﴿ افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق ﴾ [الأعراف : 89] فكأنه قال : إنا قضينا لك قضاءً مبيناً ، أي : ظاهراً واضحاً مكشوفاً .

﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ اللام متعلقة ب ﴿ فتحنا ﴾ ، وهي لام العلة .

قال ابن الأنباري : سألت أبا العباس يعني : المبرد ، عن اللام في قوله : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ﴾ فقال : هي لام كي معناها : إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ؛ لكي يجتمع لك مع المغفرة تمام النعمة في الفتح ، فلما انضمّ إلى المغفرة شيء حادث واقع حسن معنى كي ، وغلط من قال ليس الفتح سبب المغفرة .

(120/712)

وقال صاحب الكشاف : إن اللام لم تكن علة للمغفرة ؛ ولكن لاجتماع ما عدّد من الأمور الأربعة وهي : المغفرة ، وإتمام النعمة ، وهداية الصراط المستقيم ، والنصر العزيز .

كأنه قيل : يسرنا لك فتح مكة ، ونصرناك على عدوّك ؛ لنجمع لك بين عزّ الدارين ، وأعراض العاجل والآجل .

وهذا كلام غير جيد ، فإن اللام داخلة على المغفرة فهي علة للفتح ، فكيف يصح أن تكون معللة .

وقال الرازي في توجيه التعليل : إن المراد بقوله : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ﴾ التعريف بالمغفرة ، تقديره : إنا فتحنا لك ؛ لتعرف أنك مغفور لك معصوم .

وقال ابن عطية : المراد أن الله فتح لك ؛ لكي يجعل الفتح علامة لغفرانه لك ، فكأنها لام الصيرورة .

وقال أبو حاتم : هي لام القسم وهو خطأ ، فإن لام القسم لا تكسر ، ولا ينصب بها .

واختلف في معنى قوله : ﴿ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ فقيل : ما تقدّم من ذنبك قبل الرسالة ، وما تأخر بعدها .

قاله مجاهد ، وسفيان الثوري ، وابن جرير ، والواحدي ، وغيرهم .

وقال عطاء : ما تقدّم من ذنبك ، يعني : ذنب أبويك آدم وحوّاء ، وما تأخر من ذنوب أمتك .

وما أبعد هذا عن معنى القرآن .

وقيل : ما تقدّم من ذنب أبيك إبراهيم ، وما تأخر من ذنوب النبيين من بعده ، وهذا كالذي

قبله .

وقيل : ما تقدّم من ذنب يوم بدر ، وما تأخر من ذنب يوم حنين ، وهذا كالقولين الأولين في البعد .

وقيل : لو كان ذنب قديم ، أو حديث ؛ لغفرناه لك ، وقيل غير ذلك مما لا وجه له ، والأوّل أولى .

ويكون المراد بالذنب بعد الرسالة : ترك ما هو الأولى ، وسمي ذنباً في حقه لجلالة قدره ، وإن لم يكن ذنباً في حق غيره .

﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ بإظهار دينك على الدين كله ، وقيل : بالجنة ، وقيل : بالنبوّة والحكمة ، وقيل : بفتح مكة ، والطائف ، وخيبر ، والأولى أن يكون المعنى : ليجتمع لك مع الفتح تمام النعمة بالمغفرة ، والهداية إلى صراط مستقيم ، وهو الإسلام .

(121/712)

ومعنى ﴿ يهديك ﴾ : يثبتك على الهدى إلى أن يقبضك إليه ﴿ وَيَنصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً ﴾ أي : غالباً منيعاً لا يتبعه ذلّ : ﴿ هُوَ الذى أَنزَلَ السكينة فِى قُلُوبِ المؤمنين ﴾ أي : السكون والطمأنينة بما يسره لهم من الفتح ؛ لئلا تنزعج نفوسهم لما يرد عليهم ﴿ لِيَزْدَادُواْ

إيمانا مَّعَ إيمانهم ﴾ أي : ليزدادوا بسبب تلك السكينة إيماناً منضماً إلى إيمانهم الحاصل لهم من قبل .

قال الكلبي : كلما نزلت آية من السماء ، فصدّقوا بها ازدادوا تصديقاً إلى تصديقهم ، وقال الربيع بن أنس : خشية مع خشيتهم .

وقال الضحاك : يقيناً مع يقينهم ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السموات والأرض ﴾ يعني : الملائكة ، والإنس ، والجن ، والشياطين يدبر أمرهم كيف يشاء ، ويسلط بعضهم على بعض ، ويحوط بعضهم ببعض ﴿ وَكَانَ الله عَلِيماً ﴾ كثير العلم بليغه ﴿ حَكِيماً ﴾ في أفعاله وأقواله ﴿ لِّيُدْخِلَ المؤمنين والمؤمنات جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ هذه اللام متعلقة بمحذوف يدلّ عليه ما قبله تقديره : يبتلي بتلك الجنود من يشاء ، فيقبل الخير من أهله ، والشرّ ممن قضى له به ؛ ليدخل ويعذب .

(122/712)

وقيل : متعلقة بقوله : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا ﴾ كأنه قال : إنا فتحنا لك ما فتحنا ؛ ليدخل ويعذب ، وقيل : متعلقة ب ﴿ ينصرك ﴾ أي : نصرك الله بالمؤمنين ؛ ليدخل ويعذب ، وقيل : متعلقة ب ﴿ يزدادوا ﴾ أي : يزدادوا ، ليدخل ويعذب ، والأوّل أولى ﴿ وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ

سيئاتهم ﴾ أي : يسترها ، ولا يظهرها ولا يعذبهم بها ، وقدّم الإدخال على التكفير مع أن الأمر بالعكس للمسارعة إلى بيان ما هو المطلب الأعلى ، والمقصد الأسنى ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللهِ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ أي : وكان ذلك الوعد بإدخالهم الجنة ، وتكفير سيئاتهم عند الله ، وفي حكمه فوزاً عظيماً ، أي : ظفراً بكل مطلوب ، ونجاة من كل غمّ ، وجلباً لكل نفع ودفعاً لكل ضرّ ، وقوله : ﴿ عَندَ اللهِ ﴾ متعلق بمحذوف على أنه حال من ﴿ فوزاً ﴾ ؛ لأنه صفة في الأصل ، فلما قدم صار حالاً ، أي : كائناً عند الله ، والجملة معترضة بين جزاء المؤمنين ، وجزاء المنافقين والمشركين ثم لما فرغ مما وعد به صالحي عباده ذكر ما يستحقه غيرهم ، فقال : ﴿ وَيُعَذِّبَ المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ﴾ وهو معطوف على يدخل ، أي : يعذبهم في الدنيا بما يصل إليهم من الهموم والغموم بسبب ما يشاهدونه من ظهور كلمة الإسلام ، وقهر المخالفين له ، وبما يصابون به من القهر والقتل والأسر ، وفي الآخرة بعذاب جهنم .

وفي تقديم المنافقين على المشركين دلالة على أنهم أشدّ منهم عذاباً ، وأحقّ منهم بما وعدهم الله به ، ثم وصف الفريقين ، فقال : ﴿ الظانين بالله ظَنَّ السوء ﴾ وهو ظنهم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم يغلب ، وأن كلمة الكفر تعلو كلمة الإسلام .

ومما ظنوه ما حكاه الله عنهم بقوله : ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرسول والمؤمنون إلى أَهْلِيهِمْ أَبداً ﴾ ، ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السوء ﴾ أي : ما يظنونه ، ويتربصونه بالمؤمنين دائر عليهم حائق بهم ، والمعنى : أن العذاب ، والهلاك الذي يتوقعونه للمؤمنين واقعان عليهم نازلان بهم .

قال الخليل ، وسيبويه : السوء هنا : الفساد .

قرأ الجمهور ﴿ السوء ﴾ بفتح السين .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو بضمها ﴿ وَغَضِبَ الله عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً ﴾ .

لما بيّن سبحانه أن دائرة السوء عليهم في الدنيا بيّن ما يستحقونه مع ذلك من الغضب واللعنة ، وعذاب جهنم ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السموات والارض ﴾ من الملائكة ، والإنس ، والجنّ ، والشياطين ﴿ وَكَانَ الله عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ كرّر هذه الآية ؛ لقصد التأكيد ، وقيل : المراد بالجنود هنا : جنود العذاب ، كما يفيده التعبير بالعزة هنا ، مكان العلم هنالك .

وقد أخرج ابن أبي شيبة ، وأحمد ، وأبو داود ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن مجمع بن حارثة الأنصاري قال : شهدنا الحديبية ، فلما انصرفنا عنها حتى بلغنا كراع الغميم إذ الناس يوجفون الأباعر ، فقال الناس بعضهم لبعض : ما للناس ؟ فقالوا : أوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرجنا

مع الناس نوجف ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته عند كراع الغميم ، فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ ، فقال رجل : إي رسول الله ، أو فتح هو ؟ قال : " إي والذي نفس محمد بيده إنه لفتح " ، فقسمت خيبر على أهل الحديبية لم يدخل معهم فيها أحد إلاّ من شهد الحديبية ، فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانية عشر سهماً ، وكان الجيش ألفاً وخمسمائة منهم ثلثمائة فارس ، فأعطى الفارس سهمين ، وأعطى الراجل سهماً .

(124/712)

وأخرج ابن أبي شيبة ، وأحمد ، والبخاري في تاريخه ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن جرير ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود قال : أقبلنا من الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينا نحن نسير إذ أتاه الوحي ، وكان إذا أتاه اشتدّ عليه ، فسرّي عنه ، وبه من السرور ما شاء الله ، فأخبرنا أنه أنزل عليه : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ .

وأخرج البخاريّ وغيره عن أنس في قوله : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ قال : الحديبية .

وأخرج البخاريّ ، وغيره عن البراء قال : تعدّون أنتم الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة

فتحاً ، ونحن نعدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ قال : " فتح مكة " وأخرج البخاريّ ، ومسلم ، وغيرهما عن المغيرة بن شعبة قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي حتى تتورم قدماه ، فقيل له : أليس قد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ، قال : " أفلا أكون عبداً شكوراً " ، وفي الباب أحاديث .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، والطبراني ، وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله : ﴿ هُوَ الذى أَنزَلَ السكينة فِى قُلُوبِ المؤمنين ﴾ قال : السكينة : هي الرحمة ، وفي قوله : ﴿ لِيَزْدَادُواْ إِيمانا مَّعَ إِيمانهم ﴾ قال : إن الله بعث نبيه بشهادة أن لا إله إلاّ الله ، فلما صدّق بها المؤمنون زادهم الصلاة ، فلما صدّقوا بها زادهم الصيام ، فلما صدّقوا به زادهم الزكاة ، فلما صدّقوا بها زادهم الحجّ ، فلما صدّقوا به زادهم الجهاد ، ثم أكمل لهم دينهم ، فقال : ﴿ اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الأسلام دِيناً ﴾ [المائدة : 3] .

فأوثق إيمان أهل السماء ، وأهل الأرض ، وأصدقه وأكمله شهادة أن لا إله إلاّ الله .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود ﴿ لِيَزْدَادُواْ إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ قال : تصديقاً مع تصديقهم .

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن أنس قال : لما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ مرجعه من الحديبية .

قال : " لقد أنزلت علي آية هي أحبّ إليّ مما على الأرض " ، ثم قرأها عليهم ، فقالوا : هنيئًا مريئًا يا رسول الله ، قد بيّن الله لك ماذا يفعل بك ، فماذا يفعل بنا ؟ فنزلت عليه : ﴿ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ حتى بلغ : ﴿ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 43.46 ﴾

(126/712)

وقال ابن عاشور :

﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾

اللام للتعليل متعلقة بفعل ﴿ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ [الفتح : 4] فما بعد اللام علة لعلة إنزال السكينة فتكون علة لإنزال السكينة أيضاً بواسطة أنه علة العلة .

وذكر المؤمنات مع المؤمنين هنا لدفع توهم أن يكون الوعد بهذا الإدخال مختصاً بالرجال .

وإذ كانت صيغة الجمع صيغة المذكر مع ما قد يؤكد هذا التوهم من وقوعه علة أو علةَ علةٍ للفتح وللنصر وللجنود وكلها من ملابسات الذكور ، وإنما كان للمؤمنات حظ في ذلك لأنهن لا يخلون من مشاركة في تلك الشدَائد ممن يقمن منهن على المرضى والجرحى وسقي الجيش وقت القتال ومن صبر بعضهنّ على الثُّكل أو التأيم ، ومن صبرهن على غيبة الأزواج والأبناء وذوي القرابة .

والإشارة في قوله ﴿ وكان ذلك ﴾ إلى المذكور من إدخال الله إياهم الجنة .

والمراد بإدخالهم الجنة إدخال خاص وهو إدخالهم منازل المجاهدين وليس هو الإدخال الذي استحقوه بالإيمان وصالح الأعمال الأخرى .

ولذلك عطف عليه ﴿ ويكفر عنهم سيئاتهم ﴾ .

والفوز : مصدر ، وهو الظفر بالخير والنجاح .

و﴿ عند الله ﴾ متعلّق بـ ﴿ فوزاً ﴾ ، أي فازوا عند الله بمعنى : لقوا النجاح والظفر في معاملة الله لهم بالكرامة وتقديمه على متعلقه للاهتمام بهذه المعاملة ذات الكرامة .

وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ

الحديث عن جنود الله في معرض ذكر نصر الله يقتضي لا محالة فريقاً مهزوماً بتلك الجنود وهم العدو ، فإذا كان النصر الذي قدره الله معلولاً بما بشر به المؤمنين فلا جرم اقتضى أنه مَعلول بما يسوء العدوّ وحزبه ، فذكر الله من عِلة ذلك النصر أنّه يعذّب بسببه المنافقين حزبَ العدو ، والمشركين صميم العدوّ ، فكان قوله : ﴿ ويعذب المنافقين ﴾ معطوفاً على ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات ﴾ [الفتح : 5] .

والمراد : تعذيب خاص زائد على تعذيبهم الذي استحقوه بسبب الكفر والنفاق وقد أومأ إلى ذلك قوله بعده ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ .

والابتداء بذكر المنافقين في التعذيب قبل المشركين لتنبيه المسلمين بأن كفر المنافقين خفيّ فربما غفل المسلمون عن هذا الفريق أو نسوه .

كان المنافقون لم يخرج منهم أحد إلى فتح مكة ولا إلى عمرة القضية لأنهم لا يحبون أن يراهم المشركون متلبسين بأعمال المسلمين مظاهرين لهم ولأنهم كانوا يحسبون أن المشركين يدافعون المسلمين عن مكة وأنه يكون النصر للمشركين .

والتعذيب : إيصال العذاب إليهم وذلك صادق بعذاب الدنيا بالسيف كما قال تعالى : ﴿ يعذبْهم الله بأيديكم ﴾ [التوبة : 14] وقال : ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين ﴾ [التوبة : 73] ، وبالوَجل ، وحذَر الافتضاح ، وبالكمد من رؤية المؤمنين منصورين

سالمين قال تعالى : ﴿ قل موتوا بغيظكم ﴾ [آل عمران : 119] وقال : ﴿ إن تصبك حسنة تسوءهم ﴾ [التوبة : 50] وصادق بعذاب الآخرة وهو ما خص بالذكر في آخر الآية بقوله : ﴿ وأعد لهم جهنم ﴾ .

وعطف ﴿ المنافقات ﴾ نظير عطف ﴿ المؤمنات ﴾ [الفتح : 5] المتقدم لأن نساء المنافقين يشاركنهم في أسرارهم ويحضون ما يبيتونه من الكيد ويهيئون لهم إيواء المشركين إذا زاروهم .

وقوله : ﴿ الظانين ﴾ صفة للمذكورين من المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات فإن حق الصفة الواردة بعد متعدد أن تعود إلى جميعه ما لم يكن مانع لفظي أو معنوي .

(128/712)

والسَّوء بفتح السين في قوله : ﴿ ظن السوء ﴾ في قراءة جميع العشرة ، وأما في قولهم ﴿ عليْهم دائرة السوء ﴾ فهو في قراءة الجمهور بالفتح أيضاً .

وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وحده بضمّ السّين .

والمفتوح والمضموم مترادفان في أصل اللغة ومعناهما المكروه ضد السرور ، فهما لغتان مثل : الكَره والكُره ، الضَّعف والضُعف ، والضَّر والضُّر ، والبَأس والبُؤس .

هذا عن الكسائي وتبعه الزمخشري وبينه الجوهري بأن المفتوح مصدر والمضموم اسم مصدر ، إلا أن الاستعمال غلب المفتوح في أن يقع وصفاً لمذموم مضافاً إليه موصوفه كما وقع في هذه الآية وفي قوله : ﴿ ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السَّوء ﴾ في سورة براءة (98) ، وغلب المضموم في معنى الشيء الذي هو بذاته شرّ .

فإضافة الظن إلى السوء من إضافة الموصوف إلى الصفة .

والمراد : ظنهم بالله أنهم لم يَعد الرسول بالفتح ولا أمره بالخروج إلى العمرة ولا يقدر للرسول النصر لقلة أتباعه وعِزة أعدائه ، فهذا ظن سوء بالرسول ، وهذا المناسب لقراءته بالفتح .

وأمَّا دائرة السَّوء ﴾ في قراءة الجمهور فهي الدائرة التي تسُوء أولئك الظانين بقرينة قوله : ﴿ عليهم ﴾ ، ولا التفات إلى كونها محمودة عند المؤمنين إذ ليس المقام لبيان ذلك والإضافة مثل إضافة ﴿ ظن السوء ﴾ ، وأما في قراءة ابن كثير وأبي عمرو فإضافة ﴿ دائرة ﴾ المضموم من إضافة الأسماء ، أي الدائرة المختصة بالسوء والملازمة له لا من إضافة الموصوف .

وليس في قراءتهما خصوصية زائدة على قراءة الجمهور ولكنها جمعت بين الاستعمالين ففتح السوء الأول متعيّن وضم الثاني جائز وليس براجح والاختلاف اختلاف في الرواية .

وجملة ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ دعاء أو وعيد ، ولذلك جاءت بالاسمية لصلوحيتها

لذلك بخلاف جملة ﴿ وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدّ لهم ﴾ فإنها إخبار عما جنوه من سوء فعلهم فالتعبير بالماضي منه أظهر .

(129/712)

وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (7)

هذا نظير ما تَقدم آنفاً إلا أن هذا أوثر بصفة عزيز دون عليم لأن المقصود من ذكر الجنود هنا الإنذار والوعيد بهزائم تحل بالمنافقين والمشركين فكما ذكر ﴿ ولله جنود السماوات والأرض ﴾ فيما تقدم للإشارة إلى أنّ نصر النبي صلى الله عليه وسلم يكون بجنود المؤمنين وغيرهما ذكر ما هنا للوعيد بالهزيمة فمناسبة صفة عزيز ، أي لا يغلبه غالب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(130/712)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1) ﴾

أخرج أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وابن حبان وابن مردويه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فسألته عن شيء ثلاث مرات فلم يرد عليَّ فقلت في نفسي : ثكلتك أمك يا ابن الخطاب نزرت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات فلم يردّ عليك ، فحركت بعيري ثم تقدمت أمام الناس ، وخشيت أن ينزل فيَّ القرآن ، فما نشبت أن سمعت صارخاً يصرخ بي ، فرجعت ، وأنا أظن أنه نزل فيَّ شيء ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لقد أنزلت عليَّ سورة أحب إليَّ من الدنيا وما فيها " ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن مجمع ابن جارية الأنصاري قال : " شهدنا الحديبية فلما انصرفنا عنها إلى كراع الغميم إذا الناس يوجفون الأباعر فقال الناس بعضهم لبعض : ما للناس ؟ قالوا : أوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرجنا مع الناس نوجف ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته على كراع الغميم فاجتمع الناس عليه ، فقرأ عليهم : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ فقال رجل : يا رسول الله : أو فتح هو ؟ قال : " والذي نفس محمد بيده إنه لفتح " فقسمت خيبر على أهل الحديبية لم يدخل معهم فيها أحد إلا من شهد

الحديبية ، فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانية عشر سهماً ، وكان الجيش ألفاً وخمسمائة منهم ثلثمائة فارس ، فأعطى الفارس سهمين وأعطى الراجل سهماً " .

(131/712)

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري في تاريخه وأبو داود والنسائي وابن جرير والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : أقبلنا من الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فبينا نحن نسير إذ أتاه الوحي ، وكان إذا أتاه اشتد عليه فسرّي عنه وبه من السرور ما شاء الله ، فأخبرنا أنه أنزل عليه ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري وابن مردويه والبيهقي عن أنس رضي الله عنه في قوله : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ قال : الحديبية .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر والحاكم وابن مردويه عن أنس رضي الله عنه في قوله : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ قال : فتح خيبر .

وأخرج البخاري وابن جرير وابن مردويه عن البراء رضي الله عنه قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحاً ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية .

كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع عشرة مائة ، والحديبية بئر ، فنزحناها ، فلم نترك فيها قطرة ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتاها فجلس على شفيرها ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ ثم تمضمض ، ودعا ثم صبه فيها تركناها غير بعيد ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركابنا .

(132/712)

وأخرج البيهقي عن عروة رضي الله عنه قال : " أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية راجعاً ، فقال رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : والله ما هذا بفتح ، لقد صددنا عن البيت وصدَّ هدينا ، وعكف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية ورد رجلين من المسلمين خرجا ، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قول رجال من أصحابه : إنّ هذا ليس بفتح ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بئس الكلام ، هذا أعظم الفتح ، لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألوكم القضية ويرغبون إليكم في الإِياب ، وقد كرهوا منكم ما كرهوا ، وقد أظفركم الله عليهم ، وردكم سالمين غانمين مأجورين ، فهذا أعظم الفتح . أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ، وأنا أدعوكم في أخراكم ، أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاؤوكم من فوقكم ومن

أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ؟ " قال المسلمون : صدق الله ورسوله هو أعظم الفتوح والله يا نبي الله ما فكرنا فيما فكرت فيه ولأنت أعلم بالله وبالأمور منا . فأنزل الله سورة الفتح " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في البعث في قوله ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ قال : نزلت في الحديبية ، وأصاب في تلك الغزوة ما لم يصب في غزوة ، أصاب أن بويع بيعة الرضوان فتح الحديبية ، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وبايعوا بيعة الرضوان ، وأطعموا نخيل خيبر ، وبلغ الهدي محله ، وظهرت الروم على فارس ، وفرح المؤمنون بتصديق كتاب الله وظهور أهل الكتاب على المجوس .

(133/712)

وأخرج البيهقي عن المسور ومروان في قصة الحديبية قالا : ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعاً فلما كان بين مكة والمدينة نزلت سورة الفتح من أولها إلى آخرها ، فلما أمن الناس وتفاوضوا لم يكلم أحداً بالإِسلام إلا دخل فيه ، فلقد دخل في تلك السنين في الإِسلام أكثر مما كان فيه قبل ذلك ، فكان صلح الحديبية فتحاً عظيماً .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ إنا فتحنا لك

فتحاً مبيناً ﴾ قال : إنا قضينا لك قضاء بيناً ، نزلت عام الحديبية للنحر الذي بالحديبية وحلقة رأسه .

وأخرج عبد بن حميد وعبد الرزاق وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ قال : قضينا لك قضاء بيناً .

وأخرج عبد بن حميد عن عامر الشعبي رضي الله عنه " أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية : أفتح هذا ؟ قال : وأنزلت عليه ﴿ إنا فتحا لك فتحاً مبيناً ﴾ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : نعم عظيم ، قال : وكان فصل ما بين الهجرتين فتح الحديبية قال : ﴿ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ﴾ [الحديد : 10] الآية " .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إنا فتحا لك فتحاً مبيناً ﴾ قال : فتح مكة " .

(134/712)

وأخرج ابن عساكر من طريق أبي خالد الواسطي عن زيد بن علي بن الحسين عن أبيه عن جده عن علي رضي الله عنه قال : " صلّى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر

ذات يوم بغلس وكان يغلس ويسفر ويقول : ما بين هذين وقت لكيلا يختلف المؤمنون فصلّى بنا ذات يوم بغلس فلما قضى الصلاة التفت إلينا كأن وجهه ورقة مصحف ، فقال : " أفيكم من رأى الليلة شيئاً ؟ قلنا : لا يا رسول الله . قال : لكني رأيت ملكين أتياني الليلة فأخذا بضبعي فانطلقا بي إلى السماء الدنيا فمررت بملك وأمامه آدمي وبيده صخرة فيضرب بها مة الآدمي فيقع دماغه جانباً وتقع الصخرة جانباً . قلت : ما هذا ؟ قالا لي : أمضه . فمضيت فإذا أنا بملك وأمامه آدمي وبيد الملك كلوب من حديد فيضعه في شدقه الأيمن فيشقه حتى ينتهي إلى أذنه ثم يأخذ في الأيسر فيلتئم الأيمن قلت : ما هذا ؟ قالا : أمضه . فمضيت فإذا أنا بنهر من دم يمور كمور المرجل على فيه قوم عراة على حافة النهر ملائكة بأيديهم مدرتان كلما طلع طالع قذفوه بمدرة فيقع في فيه ويسيل إلى أسفل ذلك النهر ، قلت : ما هذا ؟ قالا : أمضه فمضيت فإذا أنا ببيت أسفله أضيق من أعلاه فيه قوم عراة توقد من تحتهم النار أمسكت على أنفي من نتن ما أجد من ريحهم ، قلت : من هؤلاء ؟ قالا : أمضه . فمضيت فإذا أنا بتل أسود عليه قوم مخبلون تنفخ النار في أدبارهم فتخرج من أفواههم ومناخرهم وآذانهم وأعينهم قلت : ما هذا ؟ قالا : أمضه ، فمضيت فإذا أنا بنار مطبقة موكل بها ملك لا يخرج منها شيء إلا أتبعه حتى يعيده فيها ، قلت : ما هذا ؟ قالا لي : أمضه ، فمضيت فإذا أنا بروضة وإذا فيها شيخ جميل لا أجمل منه وإذا حوله الولدان وإذا شجرة ورقها كآذان الفيلة فصعدت ما شاء الله من تلك الشجرة وإذا أنا بمنازل لا

أحسن منها من زمردة جوفاء وزبرجدة خضراء وياقوته حمراء . قلت : ما هذا ؟ قالا : أمضه . فمضيت ، فإذا أنا بنهر عليه جسران من ذهب وفضة على حافتي النهر منازل لا منازل

(135/712)

أحسن منها من درة جوفاء وياقوته حمراء وفيه قدحان وأباريق تطرد قلت : ما هذا ؟ قالا لي : أنزل فنزلت فضربت بيدي إلى إناء منها فغرفت ثم شربت فإذا أحلى من عسل ، وأشد بياضاً من اللبن وألين من الزبد ، فقالا لي : أما صاحب الصخرة التي رأيت يضرب بها هامته فيقع دماغه جانباً وتقع الصخرة جانباً ، فأولئك الذين كانوا ينامون عن صلاة العشاء الآخرة ويصلون الصلاة لغير مواقيتها يضربون بها حتى يصيروا إلى النار ، وأما صاحب الكلوب الذي رأيت ملكاً موكلاً بيده كلوب من حديد يشق شدقه الأيمن حتى ينتهي إلى أذنه ثم يأخذ في الأيسر فيلتئم الأيمن فأولئك الذين كانوا يمشون بين المؤمنين بالنميمة فيفسدون بينهم فهم يعذبون بها حتى يصيروا إلى النار ، وأما ملائكة بأيديهم مدرتان من النار كلما طلع طالع قذفوه بمدرة فتقع في فيه فينفتل إلى أسفل ذلك النهر فأولئك أكلة الربا يعذبون حتى يصيروا إلى النار ، وأما البيت الذي رأيت أسفله أضيق من أعلاه

فيه قوم عراة تتوقد من تحتهم النار أمسكت على أنفك من نتن ما وجدت من ريحهم ، فأولئك الزناة وذلك نتن فروجهم يعذبون حتى يصيروا إلى النار ، وأما التل الأسود الذي رأيت عليه قوماً مخبلين تنفخ النار في أدبارهم فتخرج من أفواههم ومناخرهم وأعينهم وآذانهم فأولئك الذين يعملون عمل قوم لوط الفاعل والمفعول به ، فهم يعذبون حتى يصيروا إلى النار وأما النار المطبقة التي رأيت ملكاً موكلاً بها كلما خرج منها شيء أتبعه حتى يعيده فيها ، فتلك جهنم تفرق بين أهل الجنة وأهل النار ، وأما الروضة التي رأيت فتلك جنة المأوى ، وأما الشيخ الذي رأيت ومن حوله من الولدان فهو إبراهيم وهم بنوه . وأما الشجرة التي رأيت فطلعت إليها فيها منازل لا منازل أحسن منها من زمردة جوفاء وزبرجدة خضراء وياقوته حمراء فتلك منازل أهل عليين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً . وأما النهر فهو نهرك الذي أعطاك الله الكوثر

(136/712)

، وهذه منازلك وأهل بيتك . قال : فنوديت من فوقي يا محمد سل تُعْطه ، فارتعدت فرائصي ورجف فؤادي واضطرب كل عضو مني ولم أستطع أن أجيب شيئاً فأخذ أحد الملكين بيده اليمنى ، فوضعها في يدي والآخر يده اليمنى فوضعها بين كتفي فسكن ذلك

مني ثم نوديت من فوقي : يا محمد سل تعط . قال : قلت : اللهم إني أسألك أن تثبت شفاعتي وأن تلحق بي أهل بيتي وأن ألقاك ولا ذنب لي قال : ثم ولي بي ونزلت عليه هذه الآية ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فكما أعطيت هذه كذلك أعطانيها إن شاء الله تعالى " " .

وأخرج السلفي في الطيوريات من طريق يزيد بن هارون رضي الله عنه قال : سمعت المسعودي رضي الله عنه يقول : بلغني أن من قرأ أول ليلة من رمضان ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ في التطوع حفظ ذلك العام .

قوله تعالى : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم ﴾ الآية .

وأخرج ابن المنذر عن عامر وأبي جعفر رضي الله عنه في قوله ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك ﴾ قال : في الجاهلية ﴿ وما تأخر ﴾ قال : في الإِسلام .

وأخرج عبد بن حميد عن سفيان رضي الله عنه قال : بلغنا في قول الله ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ قال : ما تقدم ما كان في الجاهلية ، وما تأخر : ما كان في الإِسلام ما لم يفعله بعد .

وأخرج ابن سعد عن مجمع بن جارية رضي الله عنه قال : لما كنا بضجنان رأيت الناس يركضون ، وإذا هم يقولون : أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فركضت مع الناس

حتى توافينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا هو يقرأ ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ فلما نزل بها جبريل عليه السلام قال : ليهنك يا رسول الله ، فلما هنأه جبريل عليه السلام هنأه المسلمون .

(137/712)

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه وابن عساكر عن عائشة رضي الله عنها قالت : " لما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ الآية ، اجتهد في العبادة فقيل يا رسول الله : ما هذا الإجتهاد ؟ وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال : " أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ " " .

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات وابن عساكر عن أبي هريرة رضي الله عنه " أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ صام وصلّى حتى انتفخت قدماه ، وتعبد حتى صار كالشن البالي ، فقيل له : أتفعل هذا بنفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : " أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ " " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد عن الحسن رضي الله عنه قال : "كان النبي صلى

الله عليه وسلم تأخذه العبادة حتى يخرج على الناس كالشن البالي فقيل له : يا رسول الله أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ " .

وأخرج ابن عساكر عن أبي جحيفة رضي الله عنه قال : "كان النبي صلى الله عليه وسلم يقوم حتى تفطر قدماه فقيل له : أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : " أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ " " .

وأخرج أبو يعلى وابن عساكر عن أنس رضي الله عنه " أن النبي صلى الله عليه وسلم قام يصلي حتى تورمت قدماه فقيل له : أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : " أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ " " .

وأخرج ابن عساكر عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي حتى ترم قدماه .

وأخرج البيهقي في شعب الإِيمان وابن عساكر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي حتى ترم قدماه ، فقيل له : أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : " أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ " " .

(138/712)

وأخرج الحسن بن سفيان وابن عساكر " عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي حتى ترم قدماه ، قلت يا رسول الله : أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : " أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ " " .

وأخرج ابن عساكر عن أحمد بن إسحق بن إبراهيم بن نبيط بن شريط الأشجعي رضي الله عنه قال : حدثني أبي عن أبيه عن جده رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم صلّى حتى تورمت قدماه ، فقيل له يا رسول الله : أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : " " أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ " " .

وأخرج ابن عدي وابن عساكر عن أنس رضي الله عنه قال : " تعبد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صار كالشن البالي ، فقالوا : يا رسول الله ، ما يحملك على هذا الإجتهاد كله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : " أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ " " .

وأخرج أبو نعيم في الحلية " عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي في الليل أربع ركعات ثم يتروح ، فطال حتى رحمته ، فقلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، قال : " أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ " " .

أما قوله تعالى : ﴿ وينصرك الله نصراً عزيزاً ﴾ .

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله : ﴿ وينصرك الله نصراً عزيزاً ﴾

قال : يريد بذلك فتح مكة وخيبر والطائف .

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (4)

(139/712)

أخرج ابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ﴾ قال : السكينة هي الرحمة في قوله ﴿ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ قال : إن الله بعث نبيه صلى الله عليه وسلم بشهادة أن لا إله إلا الله فما صدق بها المؤمنون زادهم الصلاة ، فلما صدقوا بها زادهم الزكاة ، فلما صدقوا بها ، زادهم الصيام ، فلما صدقوا به زادهم الحج ، فلما صدقوا به زادهم الجهاد ، ثم أكمل لهم دينهم فقال : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإِسلام ديناً ﴾ [المائدة : 3] قال ابن عباس رضي الله عنهما : فأوثق إيمان أهل السماء وأهل الأرض وأصدقه وأكمله شهادة أن لا إله إلا الله .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه ﴿ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ قال : تصديقاً مع تصديقهم .

لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

أخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن جرير وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة عن أنس رضي الله عنه قال : " أنزلت على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ مرجعه من الحديبية فقال : " لقد أنزلت عليَّ آية هي أحب إلي مما على الأرض " ثم قرأها عليهم فقالوا : هنيئاً مريئاً يا رسول الله قد بين الله لك ماذا يفعل بك فماذا يفعل بنا ؟ فنزلت عليه ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ حتى بلغ ﴿ فوزاً عظيماً ﴾ " .

(140/712)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر والحاكم وابن مردويه عن أنس رضي الله عنه قال : " لما رجعنا من الحديبية وأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم قد خالطوا الحزن والكآبة حيث ذبحوا هديهم في أمكنتهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنزلت عليَّ ضحى آية هي أحب إلي من الدنيا جميعاً ثلاثاً قلنا : ما هي يا رسول الله ؟ فقرأ ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ الآيتين قلنا : هنيئاً لك يا رسول الله فما لنا ؟ فقرأ ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات ﴾ الآية فلما أتينا خيبر فأبصروا خميس رسول الله صلى الله عليه

وسلم يعني جيشه أدبروا هاربين إلى الحصن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين " .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن عكرمة رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ الآية قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : هنيئاً لك ما أعطاك ربك ، هذا لك فما لنا ؟ فأنزل الله ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات ﴾ إلى آخر الآية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ 507 . 515 ﴾

(141/712)

قوله تعالى ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (8) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (9) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (10) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تبين أنه ليس لغيره مدخل في إيجاد النصر ، وكانت السورة من أولها حضرة مخاطبة وإقبال فلم يدع أمر إلى نداء بياء ولا غيرها .

وكان كأنه قيل : فما فائدة الرسالة إلى الناس ؟ أجيب بقوله تقريراً لما ختم به من صفتي العزة والحكمة .

﴿ إنا ﴾ بما لنا من العزة والحكمة ﴿ أرسلناك ﴾ أي بما لنا من العظمة التي هي معنى العزة والحكمة إلى الخلق كافة ﴿ شاهداً ﴾ على أفعالهم من كفر وإيمان وطاعة وعصيان ، من كان بحضرتك فبنفسك ومن كان بعد موتك أو غائباً عنك فبكتابك ، مع ما أيدناك به من الحفظة من الملائكة .

ولما كانت البشارة محبوبة إلى النفوس رغبهم فيما عنده من الخيرات وحببهم فيه بصوغ اسم الفاعل منها مبالغة فيه فقال تعالى : ﴿ ومبشراً ﴾ أي لمن أطاع بأنواع البشائر .

ولما كانت لنذارة كريهة جداً ، لا يقدم على إبلاغها إلا من كمل عرفانه بما فيها من المنافع الموجبة لتجشم مرارة الإقدام على الصدع بها ، أتى بصيغة المبالغة فقال تعالى : ﴿ ونذيراً ﴾ .

ولما ذكر حال الرسالة ، ذكر علتها فقال : ﴿ لتؤمنوا ﴾ أي الذين حكمنا بإيمانهم ممن أرسلناك إليهم – هذا على قراءة ابن كثير وأبي عمرو بالغيب ، وعلى قراءة الباقين بالخطاب المعنى .

أيها الرسول ومن قضينا بهداه من أمته ، مجدد دين لذلك في كل لحظة مستمرين عليه ، وكذا الأفعال بعده ، وذلك أعظم لطفاً لما في الأنس بالخطاب من رجاء الاقتراب ﴿ بالله ﴾ أي الذي لا يسوغ لأحد من خلقه – والكل خلقه – التوجه إلى غيره لاستجماعه لصفات الجلال والإكرام ﴿ ورسوله ﴾ الذي أرسله من له كل شيء ملكاً وملكاً إلى جميع خلقه .

(142/712)

ولما كان الإيمان أمراً باطناً ، فلا يقبل عند الله إلا بدليل ، وكان الإيمان بالرسول إيماناً بمن أرسله ، والإيمان بالمرسل إيماناً بالرسول ، وحد الضمير فقال : ﴿ ويعزروه ﴾ أي يعينوه ويقووه وينصروه على كل من ناواه ويمنعوه عن كل من يكيده ، مبالغين في ذلك باليد واللسان والسيف ، وغير ذلك من الشأن فيؤثروه على أنفسهم وغيرها ، تعظيماً له وتفخيماً – هذا حقيقة المادة ، وما خالفه فهو إما من باب الإزالة كالعزور بمعنى الديوث ، وإما من باب الأول كاللوم والضرب دون الحد ، فإنه يوجب للملوم والمضروب وتجنب ما نقم عليه فيعظم ، فهو من إطلاق الملزوم على اللازم ، وهو من وادي ما قيل :

عداي لهم فضل عليّ ومنة . . .

فلا أذهب الرحمن عني الأعاديا

هم بحثوا عن زلتي فاجتنبتها . . .

وهم نافسوني فاقتنيت المعاليا

ولما كان المعنى يحتمل الإزالة كما ذكر ، خلص المراد بقوله : ﴿ ويوقروه ﴾ أي يجتهدوا في حسن اتباعه في تبجيله وإجلاله بأن يحملوا عنه جميع الأثقال ، ليلزم السكينة باجتماع همه وكبر عزمه لزوال ما كان يشعب فكره من كل ما يهمه ﴿ ويسبحوه ﴾ أي ينزهوه عن كل وصمة من إخلاف الوعد بدخول مكة والطواف بالبيت الحرام ونحو ذلك ، ويعتقدوا فيه الكمال المطلق ، والأفعال الثلاثة يحتمل أن يراد بها الله تعالى ، لأن من سعى في قمع الكفار فقد فعل فعل المعزر الموقر ، فيكون إما عائداً على المذكور وإما أن يكون جعل الاسمين واحداً إشارة إلى اتحاد المسميين ، في الأمر فلما اتحد أمرها وحد الضمير إشارة إلى ذلك .

ولما كانت محبة الله ورسوله ترضى منها بدون النهاية قال كائناً عن ذلك : ﴿ بكرة وأصيلاً ﴾ أي وعشياً إيصاناً لما بين النهار والليل بذلك .

(143/712)

ولما ذكر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما أرسله له ، وختم الآية بأنه لا يرضى من ذكره وذكر رسوله إلا بالمداومة بالفعل أو بالقوة مع توحيده الضمير إشارة إلى وحدة الإرادة

والمداوة بالفعل أو بالقوة مع توحيده الضمير إشارة إلى وحدة الإرادة والمحبة من الرسول والمرسل ، أوضح المراد بتوحيد الضمير بقوله مرغباً في اتباعه ومرهباً لأتباعه عن أدنى فترة أو توان فيما دخلوا فيه من الإيمان الذي هو علة الرسال ، وما ذكره معه في جواب من يسأل : ما سبب توحيد الضمير والمذكور اثنان ؟ مؤكداً لأجل ما غلب على الطباع البشرية من التقيد بالوهم والنكوص عما غاب ولا مرشد إليه سوى العقل : ﴿ إن الذين ﴾ .

ولما كان المضارع قد يراد به مطلق الوقوع لا بقيد زمن معين كما نقلته في أول سورة البقرة عن أبي حيان وغيره ، عبر به ترغيباً في تجديد مثل ذلك والاستمرار عليه فقال :

﴿ يبايعونك ﴾ أي في بيعة الرضوان وقبلها وبعدها على ما جئت به من الرسالة التي مقصودها الأعظم النذارة التي مبناها على المخالفة التي تتقاضى الشدائد التي عمادها الثبات والصبر ، وسميت " مبايعة " لأنهم بايعوا أنفسهم فيها من الله بالجنة وهذا معنى الإسلام ، فكل من أسلم فقد باع نفسه سبحانه منه ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ﴾ [التوبة : 111] ، الآية .

﴿ إنما يبايعون الله ﴾ أي الملك الأعظم لأن عملك كله من قول وفعل له ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ [النجم : 3] .

ولما عظم بيعته بما رغب فيها ترغيباً مشعراً بالترهيب ، زادها تعظيماً بما الترهيب فيه

أظهر من الأول ، فقال مبيناً للأول : ﴿ يد الله ﴾ أي المتردي بالكبرياء .

ولما كان منزهاً .

(144/712)

عما قد يتوهم من الجارحة مما فيه شائبة نقص ، أوماً إلى نفي ذلك بالفوقية مع ما فيه من الدلالة على تعظيم البيعة فقال : ﴿ فوق أيديهم ﴾ أي في المبايعة عالية عليهم بالقدرة والقوة والقهر والعزة ، والتنزه عن كل شائبة نقص ، ولذلك كرر الاسم الأعظم في هذه ثلاث مرات إشارة إلى العظمة الفائتة للوصف والغيب العالي عن الإدراك ، ثم أعاد ذكره بالضمير إيذاناً بالغيب المحض ، هذا هو المراد من تعظيم البيعة وإجلال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع العلم القطعي بتنزيه الله سبحانه عن كل شائبة نقص من حلول أو اتحاد كما هو واضح في مجاري عادات العرب ظاهر جداً في دأبهم في محاوراتهم ، لا يشك فيه منهم عاقل عالم أو جاهل أصلاً ، فلعنة الله على من حمله على الظاهر من أهل العناد ببدعة الاتحاد على من تبعهم على ذلك من الرعاع الطغام الذي شاقوا الله ورسوله عليه الصلاة والسلام ، وجميع الأئمة الأعلام ، وسائر أهل الإسلام : ورضوا لأنفسهم بأن يكونوا أتباع فرعون اللعين ، وناهيك به في ضلال مبين .

(145/712)

ولما كان كلام الله تعالى – وإن جرى مجرى الشرط والتهديد لا بد أن يقع منه شيء وإن قل ، وكان من سر التعبير بالمضارع " يبايعونك " الإشارة إلى نكث الجد بن قيس أصل بيعته على الإسلام فإنه اختبأ في الحديبية وقت البيعة في وقت من الأوقات ، فلم يبايع ، سبب عن ذلك وفصل ترغيباً وترهيباً ، فقال معبراً بالماضي إيذاناً بأنه لا ينكث أحد من أهل هذه البيعة : ﴿ فمن نكث ﴾ أي نقض في وقت من الأوقات فجعلها كالكساء الخلق والحبل البالي الذي ينقض ﴿ فإنما ينكث ﴾ وعبر بالمضارع إشارة إلى أن من فعل النكث فهو في كل لحظة ناكث نكثاً جديداً ﴿ على نفسه ﴾ لا على غيرها فإنه بمرأى من الله ومسمع وهو قادر عليه جدير بأن يعاقبه بعد ما عجل لنفسه من العار العظيم في الدنيا ويستحل به على نكثه عذاباً أليماً ، ولا يضر ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شيئاً فإن الله ناصره لا محالة ، وكذا كل منكوث به إذا أراد الله نصرته فإن يده سبحانه فوق كل يد .

(146/712)

ولما أتم الترهيب لأنه مقامه للحث على الوفاء الذي به قيام الدين على أبلغ وجه ، أتبعه على عادته الترغيب إتماماً للحث فقال تعالى : ﴿ ومن أوفى ﴾ أي فعل الإتمام والإكثار والإطالة ﴿ بما عهد ﴾ وقدم الظرف اهتماماً به فقال : ﴿ عليه الله ﴾ أي الملك المحيط بكل شيء قدرة وعلماً من هذه المبايعة وغيرها فإنما وفاؤه لنفسه ﴿ فسيؤتيه ﴾ أي بوعد لا خلف فيه ﴿ أجراً عظيماً ﴾ لا يسع عقولكم شرح وصفه ، ومن قرأ بالنون أظهر ما ستر في الجلالة من التعظيم ، والآية من الاحتباك : ذكر أولاً أن النكث عليه دليلاً على أن الوفاء له ثانياً ، وإيتاء الأجر ثانياً دليلاً على إحلال العقاب أولاً وسره أنه بين أن ما يرديه الناكث من الأذى لغيره إنما هو واقع به ، لأن ذلك أعظم في الترهيب عن النكث لما جبل الإنسان عليه من النفرة عن ضر نفسه وبعده عنه ، وذكر الأجر للموفي لأنه أعظم في الترغيب ، وسبب بيعة الرضوان هذه " أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما فهم من بروك ناقته في الحديبية الإشارة من الله سبحانه وتعالى إلى أنه لم يأذن في دخولهم البلد الحرام في هذه السفرة ، فمشى مع إرادته سبحانه وتعالى لأنه ليس فيها مخالفة لما أمر به سبحانه إلى أن وقع الصلح الذي كان الفتح هو بعينه ، وكان في غضون ذلك أن أرسل عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه إلى مكة المشرفة ليخبر قريشاً أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يجئ لقتال وأنه لا يريد إلا الاعتمار ، فأرجف مرجفون بأنه قد قتل ، فعزم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على مناجزتهم فبايع الصحابة ـ رضى الله عنه ـ م على أن لا يفروا عنه ، فبايع كل

من كان معه إلا جد بن قيس ، فإنه اختبأ تحت إبط بعيره فلم يبايع ، وقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : "كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 192 . 195 ﴾

(147/712)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (8) ﴾

قال المفسرون : ﴿ شاهدا ﴾ على أمتك بما يفعلون كما قال تعالى : ﴿ وَيَكُونَ الرسول عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : 143] والأولى أن يقال إن الله تعالى قال : ﴿ إِنَّا أرسلناك شَاهِداً ﴾ وعليه يشهد أنه لا إله إلا الله كما قال تعالى : ﴿ شَهِدَ الله أَنَّهُ لا إله إِلاَّ هُوَ والملائكة وَأُوْلُواْ العلم ﴾ [آل عمران : 18] وهم الأنبياء عليهم السلام ، الذين آتاهم الله علماً من عنده وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ، ولذلك قال تعالى : ﴿ فاعلم أَنَّهُ لاَ إِله إِلا الله ﴾ [محمد : 19] أي فاشهد وقوله ﴿ وَمُبَشِّراً ﴾ لمن قبل شهادته وعمل بها ويوافقه فيها ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ لمن رد شهادته ويخالفه فيها ثم بيّن فائدة الإرسال على الوجه الذي ذكره

فقال : ﴿ لِّتُؤْمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ وهذا يحتمل وجهين : أحدهما : أن تكون الأمور الأربعة المذكورة مرتبة على الأمور المذكورة من قبل فقوله ﴿ لِّتُؤْمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ مرتب على قوله ﴿ إِنَّا أرسلناك ﴾ لأن كونه مرسلاً من الله يقتضي أن يؤمن المكلف بالله والمرسل وبالمرسل وقوله ﴿ شاهدا ﴾ يقتضي أن يعزر الله ويقوي دينه لأن قوله ﴿ شاهدا ﴾ على ما بينا معناه أنه يشهد أنه لا إله إلا هو فدينه هو الحق وأحق أن يتبع وقوله ﴿ مُبَشِّرًا ﴾ يقتضي أن يوقر الله لأن تعظيم الله عنده على شبه تعظيم الله إياه .

(148/712)

وقوله ﴿ نَذِيراً ﴾ يقتضي أن ينزه عن السوء والفحشاء مخافة عذابه الأليم وعقابه الشديد ، وأصل الإرسال مرتب على أصل الإيمان ووصف الرسول يترتب عليه وصف المؤمن وثانيهما : أن يكون كل واحد مقتضياً للأمور الأربعة فكونه مرسلاً يقتضي أن يؤمن المكلف بالله ورسوله ويعزره ويوقره ويسبحه ، وكذلك كونه ﴿ شاهدا ﴾ بالوحدانية يقتضي الأمور المذكورة ، وكذلك كونه ﴿ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ لا يقال إن اقتران اللام بالفعل يستدعي فعلاً مقدماً يتعلق به ولا يتعلق بالوصف وقوله ﴿ لِّتُؤْمِنُواْ ﴾ يستدعي فعلاً وهو قوله ﴿ إِنَّا

أرسلناك ﴾ فكيف تترتب الأمور على كونه ﴿ شَاهِداً وَمُبَشّراً ﴾ لأنا نقول يجوز الترتيب عليه معنى لا لفظاً ، كما أن القائل إذا قال بعثت إليك عالماً لتكرمه فاللفظ ينبىء عن كون البعث سبب الإكرام ، وفي المعنى كونه عالماً هو السبب للإكرام ، ولهذا لو قال بعثت إليك جاهلاً لتكرمه كان حسناً ، وإذا أردنا الجمع بين اللفظ والمعنى نقول : الإرسال الذي هو إرسال حال كونه شاهداً كما تقول بعث العالم سبب جعله سبباً لا مجرد البعث ، ولا مجرد العالم ، في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

(149/712)

قال في الأحزاب ﴿ إِنَّا أرسلناك شَاهِداً وَمُبَشّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى الله بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً ﴾ [الأحزاب : 45 ، 46] وههنا اقتصر على الثلاثة من الخمسة فما الحكمة فيه ؟ نقول الجواب عنه من وجهين أحدهما : أن ذلك المقام كان مقام ذكره لأن أكثر السورة في ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم وأحواله وما تقدمه من المبايعة والوعد والدخول ففصل هنالك ، ولم يفصل ههنا ثانيهما : أن نقول الكلام مذكور ههنا لأن قوله ﴿ شاهدا ﴾ لما لم يقتض أن يكون داعياً لجواز أن يقول مع نفسه أشهد أن لا إله إلا الله ، ولا يدعو الناس قال

هناك وداعياً لذلك ، وههنا لما لم يكن كونه ﴿ شاهدا ﴾ منبئاً عن كونه داعياً قال : ﴿ لِّتُؤْمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ دليل على كونه سراجاً لأنه أتى بما يجب من التعظيم والاجتناب عما يحرم من السوء والفحشاء بالتنزيه وهو التسبيح .

المسألة الثانية :

قد ذكرنا مراراً أن اختيار البكرة والأصيل يحتمل أن يكون إشارة إلى المداومة ، ويحتمل أن يكون أمراً بخلاف ما كان المشركون يعملونه فإنهم كانوا يجتمعون على عبادة الأصنام في الكعبة بكرةً وعشية فأمروا بالتسبيح في أوقات كانوا يذكرون فيها الفحشاء والمنكر .

المسألة الثالثة :

الكنايات المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ راجعة إلى الله تعالى أو إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ؟ والأصح هو الأول .

إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (10)

(150/712)

لما بيّن أنه مرسل ذكر أن من بايعه فقد بايع الله ، وقوله تعالى : ﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ يحتمل وجوهاً ، وذلك أن اليد في الموضعين إما أن تكون بمعنى واحد ، وإما أن تكون بمعنيين ، فإن قلنا إنها بمعنى واحد ، ففيه وجهان أحدهما : ﴿ يَدُ اللهِ ﴾ بمعنى نعمة الله عليهم فوق إحسانهم إلى الله كما قال تعالى : ﴿ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلأِيمَانِ ﴾ [الحجرات : 17] وثانيهما : ﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي نصرته إياهم أقوى وأعلى من نصرتهم إياه ، يقال : اليد لفلان ، أي الغلبة والنصرة والقهر .

وأما إن قلنا إنها بمعنيين ، فنقول في حق الله تعالى بمعنى الحفظ ، وفي حق المبايعين بمعنى الجارحة ، واليد كناية عن الحفظ مأخوذ من حال المتبايعين إذا مد كل واحد منهما يده إلى صاحبه في البيع والشراء ، وبينهما ثالث متوسط لا يريد أن يتفاسخا العقد من غير إتمام البيع ، فيضع يده على يديهما ، ويحفظ أيديهما إلى أن يتم العقد ، ولا يترك أحدهما يترك يد الآخر ، فوضع اليد فوق الأيدي صار سبباً للحفظ على البيعة ، فقال تعالى : ﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ يحفظهم على البيعة كما يحفظ ذلك المتوسط أيدي المتبايعين ، وقوله تعالى : ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ أما على قولنا المراد من اليد النعمة أو الغلبة والقوة ، فلأن من نكث فوت على نفسه الإحسان الجزيل في مقابلة العمل القليل ، فقد خسر ونكثه على نفسه ، وأما على قولنا المراد الحفظ ، فهو عائد إلى قوله ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ ﴾

يعني من يبايعك أيها النبي إذا نكث لا يكون نكثه عائداً إليك ، لأن البيعة مع الله ولا إلى الله ، لأنه لا يتضرر بشيء ، فضرره لا يعود إلا إليه .

(151/712)

قال : ﴿ وَمَنْ أوفى بِمَا عاهد عَلَيْهِ الله فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ وقد ذكرنا أن العظم في الأجرام ، لا يقال إلا إذا اجتمع فيه الطول البالغ والعرض الواسع والسمك الغليظ ، فيقال في الجبل الذي هو مرتفع ، ولا اتساع لعرضه جبل عال أو مرتفع أو شاهق ، فإذا انضم إليه الاتساع في الجوانب يقال عظيم ، والأجر كذلك ، لأن مآكل الجنة تكون من أرفع الأجناس ، وتكون في غاية الكثرة ، وتكون ممتدة إلى الأبد لا انقطاع لها ، فحصل فيه ما يناسب أن يقال له عظيم والعظيم في حق الله تعالى إشارة إلى كماله في صفاته ، كما أنه في الجسم إشارة إلى كماله في جهاته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 74 . 76 ﴾

(152/712)

وقال ابن عطية :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (8) ﴾

من جعل الشاهد محصل الشهادة من يوم يحصلها ، فقوله : ﴿ شاهداً ﴾ حال واقعة . ومن جعل الشاهد مؤدي الشهادة ، فهي حال مستقبلة . وهي التي يسميها النحاة المقدرة ، المعنى : ﴿ شاهداً ﴾ على الناس بأعمالهم وأقوالهم حين بلغت إليهم الشرع ﴿ ومبشراً ﴾ معناه : أهل الطاعة برحمة الله ﴿ ونذيراً ﴾ معناه : أهل الكفر تنذرهم من عذاب الله .

وقرأ جمهور الناس في كل الأمصار : " لتؤمنوا بالله " على مخاطبة الناس ، على معنى قل لهم ، وكذلك الأفعال الثلاثة بعد ، وقرأ أبو عمرو بن العلاء وابن كثير وابو جعفر : " ليؤمنوا " بالياء على استمرار خطاب محمد عليه السلام ، وكذلك الأفعال الثلاثة بعد . وقرأ الجحدري : " وتَعْزُروه " بفتح التاء وسكون العين وضم الزاي . وقرأ محمد بن السميفع اليماني وابن عباس : " وتعززوه " بزاءين ، من العزة . وقرأ جعفر بن محمد : " وتَعْزِروه " بفتح التاء وسكون العين وكسر الزاي ومعنى : ﴿ تعزروه ﴾ تعظموه وتكبروه ، قاله ابن عباس : وقال قتادة معناه : تنصروه بالقتال وقال بعض المتأولين : الضمائر في قوله : ﴿ وتعزروه وتوقروه وتسبحوه ﴾ هي كلها لله تعالى . وقال الجمهور : ﴿ تعزروه وتوقروه ﴾ هما للنبي عليه السلام ، ﴿ وتسبحوه ﴾ هي لله ، وهي صلاة البردين .

وقرأ عمر بن الخطاب : " وتسبحوا الله " ، وفي بعض ما حكى أبو حاتم : " وتسبحون الله " ، بالنون ، وقرأ ابن عباس : " ولتسبحوا الله " . والبكرة : الغدو . والأصيل : العشي .

وقوله تعالى : ﴿ إن الذين يبايعونك ﴾ يريد في بيعة الرضوان ، وهي بيعة الشجرة حين أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الأهبة لقتال قريش لما بلغه قتل عثمان بن عفان رسوله إليهم ، وذلك قبل أن ينصرف من الحديبية ، وكان في ألف وأربعمائة رجل . قال النقاش : وقيل كان في ألف وثمانمائة ، وقيل وسبعمائة ، وقيل وستمائة ، وقيل ومائتين .

(153/712)

قال القاضي أبو محمد : وبايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصبر المتناهي في قتال العدو إلى أقصى الجهد ، حتى قال سلمة بن الأكوع وغيره : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الموت ، وقال عبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا نفر .

والمبايعة في هذه الآية مفاعلة من البيع ، لأن الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، وبقي اسم البيعة بعد معاقدة الخلفاء والملوك ، وعلى هذا سمت الخوارج أنفسهم الشراة ، أي اشتروا بزعمهم الجنة بأنفسهم . ومعنى : ﴿ إنما يبايعون الله ﴾ أن صفقتهم

إنما يمضيها ويمنح ثمنها الله تعالى .

وقرأ تمام بن العباس بن عبد المطلب : ﴿ إنما يبايعون الله ﴾ . قال أبو الفتح : ذلك على حذف المفعول لدلالة الأول عليه وقربه منه .

وقوله تعالى : ﴿ يد الله ﴾ قال جمهور المتأولين : اليد ، بمعنى : النعمة ، أي نعمة الله في نفس هذه المبايعة لما يستقبل من محاسنها . ﴿ فوق أيديهم ﴾ التي مدوها لبيعتك . وقال آخرون : ﴿ يد الله ﴾ هنا ، بمعنى : قوة الله فوق قواهم ، أي في نصرك ونصرهم ، فالآية على هذا تعديد نعمة عليهم مستقبلة مخبر بها ، وعلى التأويل الأول تعديد نعمة حاصلة تشرف بها الأمر . قال النقاش ﴿ يد الله ﴾ في الثواب .

وقوله : ﴿ فمن نكث ﴾ أي فمن نقض هذا العهد فإنما يجني على نفسه وإياها يهلك ، فنكثه عليه لا له .

وقرأ جمهور القراء : " بما عاهد عليه الله " بالنصب على التعظيم . وقرأ ابن أبي إسحاق : " ومن أوفى بما عاهد عليه اللهُ " بالرفع ، على أن الله هو المعاهد . وقرأ حفص عن عاصم : " عليهُ " مضمومة الهاء ، وروي ذلك عن ابن أبي إسحاق . والأجر العظيم : الجنة ، لا يفنى نعيمها ولا ينقضي أمرها .

وقرأ عاصم وأبو عمرو وحمزة والكسائي والعامة : " فسيؤتيه " بالياء . وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر : " فسنؤتيه " بالنون . وفي مصحف ابن مسعود : " فسيؤتيه الله " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز جـ 5 صـ ﴾

(155/712)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً ﴾

قال قتادة : على أمتك بالبلاغ .

وقيل : شاهداً عليهم بأعمالهم من طاعة أو معصية .

وقيل : مُبَيِّناً لهم ما أرسلناك به إليهم .

وقيل : شاهداً عليهم يوم القيامة .

فهو شاهد أفعالهم اليوم ، والشهيد عليهم يوم القيامة .

وقد مضى في "النساء" عن سعيد بن جبير هذا المعنى مبيَّناً .

﴿ وَمُبَشِّراً ﴾ لمن أطاعه بالجنة .

﴿ وَنَذِيراً ﴾ من النار لمن عصى ؛ قاله قتادة وغيره .

وقد مضى في "البقرة" اشتقاق البشارة والنذارة ومعناهما .

وانتصب "شَاهِداً وَمُبَشّراً وَنَذِيراً" على الحال المقدرة .

حكى سيبويه : مررت برجل معه صقر صائداً به غداً ؛ فالمعنى : إنا أرسلناك مقدرين بشهادتك يوم القيامة .

وعلى هذا تقول : رأيت عمراً قائماً غداً .

﴿ لِّتُؤْمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ قرأ ابن كثير وابن مُحَيْصن وأبو عمرو "لِيُؤْمِنُوا" بالياء ، وكذلك "يُعَزِّرُوهُ وَيُوَقِّرُوهُ وَيُسَبِّحُوهُ" كله بالياء على الخبر .

واختاره أبو عبيد لذكر المؤمنين قبله وبعده ؛ فأما قبله فقوله : "لِيُدْخِلَ" وأما بعده فقوله : ﴿ إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ ﴾ الباقون بالتاء على الخطاب ، واختاره أبو حاتم .

﴿ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ أي تعظموه وتفخّموه ؛ قاله الحسن والكلبي .

والتعزير : التعظيم والتوقير .

وقال قتادة : تنصروه وتمنعوا منه .

ومنه التعزير في الحدّ ؛ لأنه مانع .

قال القَطَامِيّ :

ألا بَكَرَتْ مَيٌّ بغير سَفَاهةٍ . . .

تُعاتِبُ والْمَوْدُودُ ينفعه العَزْر

وقال ابن عباس وعكرمة : تقاتلون معه بالسيف .

وقال بعض أهل اللغة : تطيعوه .

﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ أي تسوِّدُوه ؛ قاله السدي .

وقيل تعظموه .

والتوقير : التعظيم والتَّرْزِين أيضاً .

والهاء فيهما للنبيّ صلى الله عليه وسلم .

وهنا وقف تام ، ثم تبتدىء "وَتُسَبِّحُوهُ" أي تسبحوا الله ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ أي عَشِيًّا .

(156/712)

وقيل : الضمائر كلّها للّه تعالى ؛ فعلى هذا يكون تأويل "تُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ" أي تُثبتوا له صحة الربوبية وتَنفوا عنه أن يكون له ولد أو شريك .

واختار هذا القول القشيري .

والأوّل قول الضحاك ، وعليه يكون بعض الكلام راجعاً إلى الله سبحانه وتعالى وهو "وَتُسَبِّحُوهُ" من غير خلاف .

وبعضه راجعاً إلى رسوله صلى الله عليه وسلم وهو "وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ" أي تدعوه بالرسالة والنبوّة لا بالاسم والكُنْيَة .

وفي "تُسَبِّحُوهُ" وجهان : أحدهما تسبيحه بالتنزيه له سبحانه من كل قبيح .

والثاني هو فعل الصلاة التي فيها التسبيح .

"بُكْرَةً وَأَصِيلاً" أي غُدْوة وعَشِيًّا .

وقد مضى القول فيه .

وقال الشاعر :

لَعَمْرِي لأنت البيتُ أُكْرِمُ أهْلَهُ . . .

وأجلس في أفْيَائه بالأصائل

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ ﴾ بالحديبية يا محمد .

﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ ﴾ بيّن أن بيعتهم لنبيّه صلى الله عليه وسلم إنما هي بيعة الله ؛ كما قال تعالى : ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ﴾ [النساء : 80] .

وهذه المبايعة هي بيعة الرضوان ؛ على ما يأتي بيانها في هذه السورة إن شاء الله تعالى .

﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ قيل : يده في الثواب فوق أيديهم في الوفاء ، ويده في المِنّة عليهم بالهداية فوق أيديهم في الطاعة .

وقال الكلبيّ : معناه نعمة الله عليهم فوق ما صنعوا من البَيعة .

وقال ابن كَيْسان : قوّة الله ونصرته فوق قوّتهم ونصرتهم .

﴿ فَمَن نَّكَثَ ﴾ بعد البيعة .

﴿ فَإِنَّمَا يَنكُثُ على نَفْسِهِ ﴾ أي يرجع ضرر النكث عليه ؛ لأنه حَرَمَ نفسَه الثواب وألزمها العقاب .

﴿ وَمَنْ أوفى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ الله ﴾ قيل في البيعة .

وقيل في إيمانه .

﴿ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ يعني في الجنة .

وقرأ حفص والزهريّ "عليهُ" بضم الهاء .

وجرّها الباقون .

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر "فَسَنُؤْتِيهِ" بالنون .

(157/712)

واختاره الفرّاء وأبو معاذ .

وقرأ الباقون بالياء .

وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم ؛ لقرب اسم الله منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(158/712)

وقال ابن كثير :

يقول تعالى لنبيه محمد - صلوات الله وسلامه عليه ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا ﴾ أي : على الخلق ، ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ أي : للمؤمنين ، ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ أي : للكافرين . وقد تقدم تفسيرها في سورة "الأحزاب" .

﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ ، قال ابن عباس وغير واحد : يعظموه ، ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام ، ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ أي : يسبحون الله ، ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلا ﴾ أي : أول النهار وآخره .

ثم قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم تشريفا له وتعظيما وتكريما : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ كقوله ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء : 80] ، ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي : هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم ، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم ، فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسوله

صلى الله عليه وسلم كقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : 111] .

وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا الفضل بن يحيى الأنباري ، حدثنا علي بن بكار ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من سل سيفه في سبيل الله ، فقد بايع الله" (1) .

وحدثنا أبي ، حدثنا يحيى بن المغيرة ، أخبرنا جرير ، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحجر : "والله ليبعثه الله يوم القيامة له عينان ينظر بهما ، ولسان ينطق ، به ويشهد على من استلمه بالحق ، فمن استلمه فقد بايع الله" ، ثم قرأ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ (2) .

ولهذا قال هاهنا : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ أي : إنما يعود وبال ذلك على

الناكث ، والله غني عنه ، ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أي : ثوابًا جزيلا . وهذه البيعة هي بيعة الرضوان ، وكانت تحت شجرة سَمُر بالحديبية ، وكان الصحابة الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ قيل : ألف وثلثمائة . وقيل : أربعمائة . وقيل : وخمسمائة . والأوسط أصح .

ذكر الأحاديث الواردة في ذلك :

قال البخاري : حدثنا قتيبة ، حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن جابر قال : كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة .

---

(1) ورواه ابن مردويه كما في الجامع الصغير ، ورمز له السيوطي بالضعف .

(2) ورواه الترمذي في السنن برقم (961) من طريق قتيبة عن جرير بإسناده إلى قوله : "يشهد على من استلمه بالحق" ولم يذكر الآية ، وقال الترمذي : "هذا حديث حسن" .

(160/712)

ورواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة ، به (1) . وأخرجاه أيضا من حديث الأعمش ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن جابر قال : كنا يومئذ ألفا وأربعمائة ، ووضع يده في ذلك الماء ، فنبع الماء من بين أصابعه ، حتى رووا كلهم (2) .

وهذا مختصر من سياق آخر حين ذكر قصة عطشهم يوم الحديبية ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاهم سهما من كنانته ، فوضعوه في بئر الحديبية ، فجاشت بالماء ، حتى كفتهم ، فقيل لجابر : كم كنتم يومئذ ؟ قال : كنا ألفا وأربعمائة ، ولو كنا مائة ألف لكفانا (3) . وفي رواية [في] الصحيحين عن جابر : أنهم كانوا خمس عشرة مائة (4) .

---

(1) صحيح البخاري برقم (4840) وصحيح مسلم برقم (1856) .

(2) صحيح البخاري برقم (4154) وصحيح مسلم برقم (1856) .

(3) رواه البخاري في صحيحه برقم (5639) .

(4) صحيح البخاري برقم (4152) وصحيح مسلم برقم (1856) .

(161/712)

وروى البخاري من حديث قتادة ، قلت لسعيد بن المسيب : كم كان الذين شهدوا بيعة الرضوان ؟ قال : خمس عشرة مائة .

قلت : فإن جابر بن عبد الله ، رضي الله عنهما ، قال : كانوا أربع عشرة مائة . قال رحمه الله : وهم ، هو حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة (1) .

قال البيهقي : هذه الرواية تدل على أنه كان في القديم يقول : خمس عشرة مائة ، ثم ذكر

الوهم فقال : أربع عشرة مائة (2) .

وروى العوفي عن ابن عباس : أنهم كانوا ألفا وخمسمائة وخمسة وعشرين . والمشهور الذي رواه غير واحد عنه : أربع عشرة مائة ، وهذا هو الذي رواه البيهقي ، عن الحاكم ، عن الأصم ، عن العباس الدوري ، عن يحيى بن معين ، عن شبابة بن سوار ، عن شعبة ، عن قتادة ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبيه قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة ألفا وأربعمائة (3) . وكذلك هو في رواية سلمة بن الأكوع ، ومعقل بن يسار ، والبراء بن عازب . وبه يقول غير واحد من أصحاب المغازي والسير . وقد أخرج صاحبا الصحيح من حديث شعبة ، عن عمرو بن مرة قال : سمعت عبد الله بن أبي أوفى يقول : كان أصحاب الشجرة ألفا وأربعمائة ، وكانت أسلم يومئذ ثمن المهاجرين (4) .

وروى محمد بن إسحاق في السيرة ، عن الزهري ، عن عروة بن الزبير ، عن المسور بن مخرمة ، ومروان بن الحكم ، أنهما حدثاه قالا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية يريد زيارة البيت ، لا يريد قتالا وساق معه الهدي سبعين بدنة ، وكان الناس سبعمائة رجل ، كل بدنة عن عشرة نفر ، وكان جابر بن عبد الله فيما بلغني عنه يقول : كنا أصحاب الحديبية أربع عشرة مائة (5) .

كذا قال ابن إسحاق وهو معدود من أوهامه ، فإن المحفوظ في الصحيحين أنهم كانوا بضع عشرة مائة .

ذكر سبب هذه البيعة العظيمة :

---

(1) صحيح البخاري برقم (4153) .

(2) دلائل النبوة للبيهقي (97/4) .

(3) دلائل النبوة للبيهقي (98/4) .

(4) صحيح البخاري برقم (4155) وصحيح مسلم برقم (1857) .

(5) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (308/2) .

(162/712)

قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة : ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له ، فقال : يا رسول الله ، إني أخاف قريشا على نفسي ، وليس بمكة من بني عدي بن كعب من يمنعني ، وقد عرفت قريش عداوتي إياها ، وغلظي عليها ، ولكني أدلك على رجل أعز بها مني ، عثمان بن عفان ، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش ، يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وأنه جاء زائرا لهذا البيت ومعظما لحرمته .

فخرج عثمان إلى مكة ، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة ، أو قبل أن يدخلها ، فحمله بين يديه ، ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله [صلى الله عليه وسلم] ما أرسله به ، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف . فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول صلى الله عليه وسلم . واحتبسته قريش عندها ، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين أن عثمان قد قتل .

قال ابن إسحاق : فحدثني عبد الله بن أبي بكر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين بلغه أن عثمان قد قتل : "لا نبرح حتى نناجز القوم" . ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى البيعة . فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، فكان الناس يقولون : بايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الموت . وكان جابر بن عبد الله يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبايعهم على الموت ، ولكن بايعنا على ألا نفر .

فبايع الناس ، ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس أخو بني سلمة ،

فكان جابر يقول : والله لكأني أنظر إليه لاصقا بإبط ناقته ، قد ضبأ إليها يستتر بها من الناس ، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الذي كان من أمر عثمان باطل . (1)

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام (315/2) .

(164/712)

وذكر ابن لهيعة عن الأسود . عن عروة بن الزبير قريبا من هذا السياق ، وزاد في سياقه : أن قريشا بعثوا وعندهم عثمان [بن عفان] سهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى ، ومكرز بن حفص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينما هم عندهم إذ وقع كلام بين بعض المسلمين وبعض المشركين ، وتراموا بالنبل والحجارة ، وصاح الفريقان كلاهما ، وارتهن كل من الفريقين من عنده من الرسل ، ونادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا إن روح القدس قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمر بالبيعة ، فاخرجوا على اسم الله فبايعوا ، فسار المسلمون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تحت الشجرة فبايعوه على ألا يفروا أبدا ، فأرعب ذلك المشركين ، وأرسلوا من كان عندهم من المسلمين ، ودعوا إلى الموادعة والصلح .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي : أخبرنا علي بن أحمد بن عبدان ، أخبرنا أحمد بن عبيد

الصفار ، حدثنا تمتام ، حدثنا الحسن بن بشر ، حدثنا الحكم بن عبد الملك ، عن قتادة ، عن أنس بن مالك قال : لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان [رضي الله عنه] رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل مكة ، فبايع الناس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اللهم إن عثمان في حاجة الله وحاجة رسوله" . فضرب بإحدى يديه على الأخرى ، فكانت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان خيرا من أيديهم لأنفسهم (1) .

---

(1) لم أجده في دلائل النبوة ولعله في غيره .

(165/712)

قال ابن هشام : حدثني من أثق به عمن حدثه بإسناد له ، عن أبي مليكة ، عن ابن عمر قال : بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان ، فضرب بإحدى يديه على الأخرى .

وقال عبد الملك بن هشام النحوي : فذكر وكيع ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن الشعبي : أن أول من بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان أبو سنان الأسدي (1) .

وقال أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي : حدثنا سفيان ، حدثنا ابن أبي خالد ، عن الشعبي ، قال : لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى البيعة ، كان أول من

انتهى إليه أبو سنان [الأسدي رضي الله عنه] ، فقال : ابسط يدك أبايعك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "علام تبايعني ؟" . فقال أبو سنان : على ما في نفسك . هذا أبو سنان [بن] وهب الأسدي [رضي الله عنه] (2) .

وقال البخاري : حدثنا شجاع بن الوليد ، سمع النضر بن محمد : حدثنا صخر [بن الربيع] ، عن نافع ، قال : إن الناس يتحدثون أن ابن عمر أسلم قبل عمر ، وليس كذلك ، ولكن عمر يوم الحديبية أرسل عبد الله إلى الفرس له عند رجل من الأنصار أن يأتي به ليقاتل عليه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يبايع عند الشجرة ، وعمر لا يدري بذلك ، فبايعه عبد الله ، ثم ذهب إلى الفرس فجاء به إلى عمر ، وعمر يستلئم للقتال ، فأخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يبايع تحت الشجرة ، فانطلق ، فذهب معه حتى بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي التي يتحدث الناس أن ابن عمر أسلم قبل عمر .

---

(1) السيرة النبوية (316/2) .

(2) ورواه البيهقي في دلائل النبوة (137/4) من طريق الحميدي به .

ثم قال البخاري : وقال هشام بن عمار : حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا عمر بن محمد العمري ، أخبرني نافع ، عن ابن عمر ، أن الناس كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية قد تفرقوا في ظلال الشجر ، فإذا الناس محدقون بالنبي صلى الله عليه وسلم فقال – يعني عمر – : يا عبد الله ، انظر ما شأن الناس قد أحدقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم . فوجدهم يبايعون ، فبايع ثم رجع إلى عمر فخرج فبايع .

وقد أسنده البيهقي عن أبي عمرو الأديب ، عن أبي بكر الإسماعيلي ، عن الحسن بن سفيان ، عن دحيم : حدثني الوليد بن مسلم فذكره (1) .

وقال الليث ، عن أبي الزبير ، عن جابر ، قال : كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة فبايعناه ، وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهي سمرة ، وقال : بايعناه على ألا نفر ، ولم نبايعه على الموت . رواه مسلم عن قتيبة عنه (2) .

وروى مسلم عن يحيى بن يحيى ، عن يزيد بن زريع ، عن خالد ، عن الحكم بن عبد الله بن الأعرج ، عن معقل بن يسار ، قال : لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي صلى الله عليه وسلم يبايع الناس ، وأنا رافع

---

(1) صحيح البخاري برقم (4187) .

(2) صحيح مسلم برقم (1856) .

غصنا من أغصانها عن رأسه ، ونحن أربع عشرة مائة ، قال : ولم نبايعه على الموت ، ولكن بايعناه على ألا نفر (1) .

وقال البخاري : حدثنا المكي بن إبراهيم ، عن يزيد بن أبي عبيد ، عن سلمة بن الأكوع ، قال : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة . قال يزيد : قلت : يا أبا مسلم ، على أي شيء كنتم تبايعون يومئذ ؟ قال : على الموت (2) .

وقال البخاري أيضا : حدثنا أبو عاصم ، حدثنا يزيد بن أبي عبيد عن سلمة ، قال : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ثم تنحيت ، فقال : "يا سلمة ألا تبايع ؟" قلت : بايعت ، قال : "أقبل فبايع" . فدنوت فبايعته . قلت : علام بايعته يا سلمة ؟ قال : على الموت . وأخرجه مسلم من وجه آخر عن يزيد بن أبي عبيد (3) . وكذا روى البخاري عن عباد بن تميم ، أنهم بايعوه على الموت (4) .

---

(1) صحيح مسلم برقم (1858) .

(2) صحيح البخاري برقم (2960) .

(3) صحيح مسلم برقم (1860) .

(4) صحيح البخاري برقم (2959) .

(168/712)

وقال البيهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرنا أبو الفضل بن إبراهم ، حدثنا أحمد بن سلمة ، حدثنا إسحاق بن إبراهم ، حدثنا أبو عامر العقدي عبد الملك بن عمرو ، حدثنا عكرمة بن عمار اليمامي ، عن إياس بن سلمة ، عن أبيه سلمة بن الأكوع قال : قدمنا الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن أربع عشرة مائة ، وعليها خمسون شاة لا ترويها ، فقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على جباها - يعني الركي - فإما دعا وإما بصق فيها ، فجاشت ، فسقينا واستقينا . قال : ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا إلى البيعة في أصل الشجرة . فبايعته أول الناس ، ثم بايع وبايع ، حتى إذا كان في وسط الناس قال صلى الله عليه وسلم : "بايعني يا سلمة" . قال : قلت : يا رسول الله ، قد بايعتك في أول الناس . قال : "وأيضا" . قال : ورآني رسول الله صلى الله عليه وسلم عزلا فأعطاني حجفة - أو درقة - ثم بايع حتى إذا كان في آخر الناس قال صلى الله عليه وسلم : "ألا تبايع يا سلمة ؟" قال : قلت : يا رسول الله ، قد بايعتك في أول الناس وأوسطهم .

قال : "وأيضا" . فبايعته الثالثة ، فقال : "يا سلمة ، أين حجفتك أو درقتك التي أعطيتك ؟" . قال : قلت : يا رسول الله ، لقيني عامر عزلا فأعطيتها إياه : فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : "إنك كالذي قال الأول : اللهم أبغني حبيبا هو أحب إلي من نفسي" قال : ثم إن المشركين من أهل مكة راسلونا في الصلح حتى مشى بعضنا في بعض فاصطلحنا . قال : وكنت خادما لطلحة بن عبيد الله ، رضي الله عنه ، أسقي فرسه وأحسه وآكل من طعامه ، وتركت أهلي ومالي مهاجرا إلى الله ورسوله . فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة ، واختلط بعضنا ببعض ، أتيت شجرة فكسحت شوكها ، ثم اضطجعت في أصلها في ظلها ، فأتاني أربعة من مشركي أهل مكة ، فجعلوا يقعون في رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبغضتهم ، وتحولت إلى شجرة أخرى فعلقوا سلاحهم واضطجعوا

(169/712)

، فبينما هم كذلك إذ نادى مناد من أسفل الوادي : يا للمهاجرين ، قتل ابن زنيم .

فاخترطت سيفي ، فشددت على أولئك الأربعة وهم

(170/712)

رقود ، فأخذت سلاحهم وجعلته ضغثا في يدي ، ثم قلت : والذي كرم وجه محمد صلى الله عليه وسلم ، لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه ، قال : ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : وجاء عمي عامر برجل من العَبَلات يقال له : "مكرز" من المشركين يقوده ، حتى وقفنا بهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبعين من المشركين ، فنظر إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : "دعوهم يكن لهم بدء الفجور وثناه" ، فعفا عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنزل الله [عز وجل] : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ الآية [الفتح : 24] .

وهكذا رواه مسلم عن إسحاق بن إبراهيم بن راهويه بسنده نحوه ، أو قريبا منه (1) .

وثبت في الصحيحين من حديث أبي عوانة ، عن طارق ، عن سعيد بن المسيب ، قال : كان أبي ممن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة . قال : فانطلقنا من قابل حاجين ، فخفي علينا مكانها ، فإن كان تبينت لكم ، فأنتم أعلم (2) .

وقال أبو بكر الحميدي : حدثنا سفيان ، حدثنا أبو الزبير ، حدثنا جابر ، قال : لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى البيعة ، وجدنا رجلا منا يقال له "الجد بن قيس" مختبئا تحت إبط بعيره" .

رواه مسلم من حديث ابن جريج ، عن ابن الزبير ، به (3) .

وقال الحميدي أيضا : حدثنا سفيان ، عن عمرو ، سمع جابرا ، قال : كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة ، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم "أنتم خير أهل الأرض اليوم" . قال جابر : لو كنت أبصر لأريتكم موضع الشجرة . قال سفيان : إنهم اختلفوا في موضعها . أخرجاه من حديث سفيان (4) .

---

(1) دلائل النبوة للبيهقي (138/4) ، وصحيح مسلم برقم (1807) .

(2) صحيح البخاري برقم (4164) وصحيح مسلم برقم (1859) واللفظ لمسلم .

(3) مسند الحميدي (537/2) وصحيح مسلم برقم (1856) .

(4) مسند الحميدي (514/2) وصحيح البخاري برقم (4154) وصحيح مسلم برقم (1856) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يونس ، حدثنا الليث . عن أبي الزبير ، عن جابر ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة" (1) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن هارون الفلاس المخرمي ، حدثنا سعد بن عمرو

الأشعثي ، حدثنا محمد بن ثابت العبدي ، عن خداش بن عياش ، عن أبي الزبير ، عن جابر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يدخل من بايع تحت الشجرة كلهم الجنة إلا صاحب الجمل الأحمر" . قال : فانطلقنا نبتدره فإذا رجل قد أضل بعيره ، فقلنا : تعال فبايع . فقال : أصيب بعيري أحب إلي من أن أبايع (2) .

---

(1) المسند (350/3) .

(2) وفي إسناده محمد بن ثابت العبدي ، ضعفه ابن معين وشيخه خداش بن عياش وثقه ابن حبان ، وقال الترمذي : "لا نعرف خداشا هذا من هو" .

(172/712)

وقال عبد الله بن أحمد : حدثنا عبيد الله بن معاذ ، حدثنا أبي حدثنا قرة ، عن أبي الزبير ، عن جابر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من يصعد الثنية ، ثنية المرار ، فإنه يحط عنه ما حط عن بني إسرائيل" . فكان أول من صعد خيل بني الخزرج ، ثم تبادر الناس بعد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر" . فقلنا : تعال يستغفر لك رسول الله [صلى الله عليه وسلم] . فقال : والله لأن أجد ضالتي أحب إلي من أن يستغفر لي صاحبكم . فإذا هو رجل ينشد ضالة . رواه

مسلم عن عبيد الله ، به (1) .

وقال ابن جريج : أخبرني أبو الزبير ، أنه سمع جابرا يقول : أخبرتني أم مبشر أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عند حفصة : "لا يدخل النار – إن شاء الله – من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها أحد" . قالت : بلى يا رسول الله . فانتهرها ، فقالت لحفصة : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلا وَارِدُهَا ﴾ [مريم : 71] ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "قد قال الله : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم : 72] ، رواه مسلم (2) .

وفيه أيضا عن قتيبة ، عن الليث ، عن أبي الزبير ، عن جابر ؛ أن عبدًا لحاطب بن أبي بلتعة جاء يشكو حاطبا ، فقال : يا رسول الله ، ليدخلن حاطب النار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كذبت ، لا يدخلها ؛ فإنه قد شهد بدرا والحديبية" (3) .

---

(1) صحيح مسلم برقم (2780) .

(2) صحيح مسلم برقم (2496) .

(3) صحيح مسلم برقم (2494) .

ولهذا قال تعالى في الثناء عليهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح : 10] ، كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح : 18] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 7 صـ 326.329 ﴾

(174/712)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1) ﴾

هذه السورة مدنية ، وعن ابن عباس أنها نزلت بالمدينة ، ولعل بعضاً منها نزل ، والصحيح أنها نزلت بطريق منصرفه (صلى الله عليه وسلم) من الحديبية ، سنة ست من الهجرة ، فهي تعد في المدني .

ومناسبتها لما قبلها أنه تقدم : ﴿ وإن تتولوا ﴾ الآية ، وهي خطاب لكفار قريش ، أخبر رسوله بالفتح العظيم ، وأنه بهذا الفتح حصل الاستبدال ، وآمن كل من كان بها ، وصارت مكة دار إيمان .

ولما قفل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من صلح الحديبية، تكلم المنافقون وقالوا: لو كان محمد نبياً ودينه حق، ما صد عن البيت، ولكان فتح مكة.

فأكذبهم الله تعالى، وأضاف عز وجل الفتح إلى نفسه، إشعاراً بأنه من عند الله، لا بكثرة عدد ولا عدد، وأكده بالمصدر، ووصفه بأنه مبين، مظهر لما تضمنه من النصر والتأييد.

والظاهر أن هذا الفتح هو فتح مكة.

وقال الكلبي، وجماعة: وهو المناسب لآخر السورة التي قبل هذه لما قال: ﴿ ها أنتم هؤلاء تدعون ﴾ الآية، بين أنه فتح لهم مكة، وغنموا وحصل لهم أضعاف ما أنفقوا؛ ولو بخلوا، لضاع عليهم ذلك، فلا يكون بخلهم إلا على أنفسهم.

وأيضاً لما قال: ﴿ وأنتم الأعلون والله معكم ﴾ بين برهانه بفتح مكة، فإنهم كانوا هم الأعليين.

وأيضاً لما قال: ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم ﴾ كان فتح مكة حيث لم يلحقهم وهن، ولا دعوا إلى صلح، بل أتى صناديد قريش مستأمنين مستسلمين مسلمين.

وكانت هذه البشرى بلفظ الماضي، وإن كان لم يقع، لأن إخباره تعالى بذلك لا بد من وقوعه، وكون هذا الفتح هو فتح مكة بدأ به الزمخشري.

وقال الجمهور: هو فتح الحديبية؛ وقاله: السدي، والشعبي، والزهري.

قال ابن عطية: وهو الصحيح. انتهى.

ولم يكن فيه قتال شديد ، ولكن ترام من القوم بحجارة وسهام .

وعن ابن عباس : رموا المشركين حتى أدخلوهم ديارهم .

(175/712)

وعن الكلبي : ظهروا عليهم حتى سألوه الصلح .

قال الشعبي : بلغ الهدى محله ، وظهرت الروم على فارس ، ففرح المسلمون بظهور أهل الكتاب على المجوس ، وأطعموا كل خبير .

وقال الزهري : لم يكن فتح أعظم من فتح الحديبية ، اختلط المشركون بالمسلمين وسمعوا كلامهم ، وتمكن الإسلام من قلوبهم ، وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير ، وكثر بهم سواد الإسلام .

قال القرطبي : فما مضت تلك السنون إلا والمسلمون قد جاءوا إلى مكة في عشرة آلاف .

وقال موسى بن عقبة : قال رجل منصرفهم من الحديبية : ما هذا الفتح ؟ لقد صدونا عن البيت .

فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " بل هو أعظم الفتوح ، قد رضي المشركون أن يدفعوكم عن بلادكم بالراح ، ويسألونكم القضية ، ويرغبوا إليكم في الأمان ، ورأوا منكم ما

كرهوا " وكان في فتحها آية عظيمة وذلك أنه نزح ماؤها حتى لم يبق فيها قطرة ، فتمضمض رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ثم مجه فيها ، فدرت بالماء حتى شرب جميع من كان معه .

وقيل : فجاش الماء حتى امتلأت ، ولم ينفد ماؤها بعد .

وقال الزمخشري : فإن قلت : كيف يكون فتحاً ، وقد أحصروا فنحروا وحلقوا بالحديبية ؟ قلت : كان ذلك قبل الهدنة ، فلما طلبوها وتمت كان فتحاً مبنياً . انتهى .

وفي هذا الوقت اتفقت بيعة الرضوان ، وهو الفتح الأعظم ، قاله جابر بن عبد الله والبراء بن عازب ، وفيه استقبل فتح خيبر وامتلأت أيدي المؤمنين خيراً ، ولم يفتحها إلا أهل الحديبية ، ولم يشركهم أحد من المتخلفين عن الحديبية .

وقال مجاهد : هو فتح خيبر .

وفي حديث مجمع بن جارية : شهدنا الحديبية ، فلما انصرفنا ، إذ الناس يهزون الأباعر ، فقيل : ما بال الناس ؟ قالوا : أوحى الله للنبي (صلى الله عليه وسلم) ، قال : فخرجنا نرجف ، فوجدنا النبي (صلى الله عليه وسلم) عند كراع الغميم ، فلما اجتمع الناس ، قرأ النبي (صلى الله عليه وسلم) : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ .

قال عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه : أوفتح هو يا رسول الله ؟ قال : " نعم ، والذي نفسي بيده إنه لفتح " فقسمت خيبر على أهل الحديبية ، ولم يدخل فيها أحد إلا من شهد الحديبية .

وقال الضحاك : الفتح : حصول المقصود بغير قتال ، وكان الصلح من الفتح ، وفتح مكة بغير قتال ، فتناول الفتحين : الحديبية ومكة .

وقيل : فتح الله تعالى له بالإسلام والنبوّة والدعوة بالحجة والسيف ، ولا فتح أبين منه وأعظم ، وهو رأس الفتوح كلها ، إذ لا فتح من فتوح الإسلام إلا وهو تحته ومتشعب منه .

وقيل : قضينا لك قضاءً بيناً على أهل مكة أن تدخلها أنت وأصحابك من قابل ، ليطوفوا بالبيت من الفتاحة ، وهي الحكومة ، وكذا عن قتادة .

قال الزمخشري : فإن قلت : كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة ؟ قلت : لم يجعل علة للمغفرة ، ولكن لاجتماع ما عدد من الأمور الأربعة وهي : المغفرة ، وإتمام النعمة ، وهداية الصراط المستقيم ، والنصر العزيز ؛ كأنه قيل : يسرنا لك فتح مكة ، ونصرناك على عدوّك ، لنجمع لك بين عز الدارين وأغراض العاجل والآجل .

ويجوز أن يكون فتح مكة من حيث أنه جهاد للعدوّ ، وسبب للغفران والثواب والفتح والظفر بالبلد عنوة أو صلحاً ، بحرب أو بغير حرب ، لأنه منغلق ما لم يظفر ، فإذا ظفر به

وحصل في اليد فقد فتح . انتهى .

وقال ابن عطية : المراد هنا : أن الله فتح لك لكي يجعل ذلك علامة لغفرانه لك ، فكأنها صيرورة ، ولهذا قال عليه السلام : " لقد أنزلت عليّ الليلة سورة هي أحب إليّ من الدنيا " انتهى .

ورد بأن لام القسم لا تكسر ولا ينصب بها ، ولو جاز بحال لجاز : ليقوم زيد ، في معنى : ليقومّن زيد . انتهى .

(177/712)

أما الكسر ، فقد علل بأنه شبهت تشبيهاً بلام كي ، وأما النصب فله أن يقول : ليس هذا نصباً ، لكنها الحركة التي تكون مع وجود النون ، بقيت بعد حذفها دلالة على الحذف ، وبعد هذا ، فهذا القول ليس بشيء ، إذ لا يحفظ من لسانهم : والله ليقوم ، ولا بالله ليخرج زيد ، بكسر اللام وحذف النون ، وبقاء الفعل مفتوحاً .

﴿ ويتم نعمته عليك ﴾ ، بإظهارك على عدوّك ورضاه عنك ، وبفتح مكة والطائف وخيبر ﴿ نصراً عزيزاً ﴾ ، أي بالظفر والتمكن من الأعداء بالغنيمة والأسر والقتل نصراً فيه عز ومنعة .

وأسندت العزة إليه مجازاً ، والعزيز حقيقة هو المنصور (صلى الله عليه وسلم) .

وأعيد لفظ الله في : ﴿ وينصرك ألله نصراً ﴾ ، لما بعد عن ما عطف عليه ، إذ في الجملتين قبله ضمير يعود على الله ، وليكون المبدأ مسنداً إلى الاسم الظاهر والمنتهى كذلك .

ولما كان الغفران وإتمام النعمة والهداية والنصر يشترك في إطلاقها الرسول (صلى الله عليه وسلم) وغيره بقوله تعالى : ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ وقوله : ﴿ إنهم لهم المنصورون ﴾ وكان الفتح لم يبق لأحد إلا للرسول (صلى الله عليه وسلم) ، أسنده تعالى إلى نون العظمة تفخيماً لشأنه ، وأسند تلك الأشياء الأربعة إلى الاسم الظاهر ، واشتركت الخمسة في الخطاب له (صلى الله عليه وسلم) ، تأنيساً له وتعظيماً لشأنه .

ولم يأت بالاسم الظاهر ، لأن في الإقبال على المخاطب ما لا يكون في الاسم الظاهر .

﴿ هو الذين أنزل السكينة ﴾ : وهي الطمأنينة والسكون ؛ قيل : بسبب الصلح والأمن ، فيعرفون فضل الله عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف ، والهدنة بعد القتال ، فيزدادوا يقيناً إلى يقينهم .

وقيل : السكينة إشارة إلى ما جاء به الرسول (صلى الله عليه وسلم) من الشرائع ، ليزدادوا إيماناً بها إلى إيمانهم ، وهو التوحيد ؛ روي معناه عن ابن عباس .

وقيل : الوقار والعظمة لله ولرسوله .

وقيل : الرحمة ليتراحموا ، وقاله ابن عباس .

﴿ ولله جنود السموات والأرض ﴾ : إشارة إلى تسليم الأشياء إليه تعالى ، ينصر من شاء ، وعلى أي وجه شاء ، ومن جنده السكينة ثبتت قلوب المؤمنين .

﴿ ليدخل ﴾ : هذه اللام تتعلق ، قيل : بإنا فتحنا لك .

وقيل : بقوله : ﴿ ليزدادوا ﴾ .

فإن قيل : ﴿ ويعذب ﴾ عطف عليه ، والازدياد لا يكون سبباً لتعذيب الكفار ، أجيب عن هذا بأنه ذكر لكونه مقصوداً للمؤمن ، كأنه قيل : بسبب ازديادكم في الأيمان يدخلكم الجنة ويعذب الكفار بأيديكم في الدنيا .

وقيل : بقوله : ﴿ وينصرك الله ﴾ : أي بالمؤمنين .

وهذه الأقوال فيها بعد .

وقال الزمخشري : ﴿ ولله جنود السموات والأرض ﴾ ، يسلط بعضها على بعض ، كما يقتضيه علمه وحكمته .

ومن قضيته أن صلح قلوب المؤمنين بصلح الحديبية ، وإن وعدهم أن يفتح لهم ، وإنما قضى ذلك ليعرف المؤمنون نعمة الله فيه ويشكرون ، فيستحقوا الثواب ، فيثيبهم ، ويعذب

الكافرين والمنافقين ، لما غاظهم من ذلك وكرهوه . انتهى .

ولا يظهر من كلامه هذا ما تتعلق به اللام ؛ والذي يظهر أنها تتعلق بمحذوف يدل عليه الكلام ، وذلك أنه قال : ﴿ ولله جنود السموات والأرض ﴾ .

كان في ذلك دليل على أنه تعالى يبتلي بتلك الجنود من شاء ، فيقبل الخير من قضى له بالخير ، والشر من قضى له بالشر .

﴿ ليدخل المؤمنين ﴾ جنات ، ويعذب الكفار .

فاللام تتعلق بيبتلي هذه ، وما تعلق بالابتلاء من قبول الإيمان والكفر .

﴿ ويكفر ﴾ : معطوف على ليدخل ، وهو ترتيب في الذكر لا ترتيب في الوقوع .

وكان التبشير بدخول الجنة أهم ، فبدئ به .

ولما كان المنافقون أكثر ضرراً على المسلمين من المشركين ، بدئ بذكرهم في التعذيب .

(179/712)

﴿ الظانين بالله السوء ﴾ : الظاهر أنه مصدر أضيف إلى ما يسوء المؤمنين ، وهو أن المشركين يستأصلونهم ولا ينصرون ، ويدل عليه : ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ ، و ﴿ بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول المؤمنون إلى أهليكم أبداً ﴾ وقيل : ﴿ ظن السوء ﴾ : ما

يسوء المشركين من إيصال الهموم إليهم ، بسبب علو كلمة الله ، وتسليط رسوله قتلاً وأسراً ونهباً .

ثم أخبر أنهم يستعلي عليهم السوء ويحيط بهم ، فاحتمل أن يكون خبراً حقيقة ، واحتمل أن يكون هو وما بعده دعاء عليهم .

وتقدم الكلام على هذه الجملة في سورة براءة .

وقيل : ﴿ ظن السوء ﴾ يشمل ظنونهم الفاسدة من الشرك ، كما قال : ﴿ إن يتبعون إلا الظن ﴾ ومن انتفاء رؤية الله تعالى الأشياء وعلمه بها كما قال : ﴿ ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً ﴾ بطلان خلق العالم ، كما قال : ﴿ ذلك ظن الذين كفروا ﴾ وقيل : السوء هنا كما تقول : هذا فعل سوء .

وقرأ الحسن : السوء فيهما بضم السين .

﴿ وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ : لما تقدم تعذيب الكفار والانتقام منهم ، ناسب ذكر العزة .

ولما وعد تعالى بمغيبات ، ناسب ذكر العلم ، وقرن باللفظتين ذكر جنود السموات والأرض ؛ فمنها السكينة التي للمؤمنين والنقمة للمنافقين والمشركين ، ومن جنود الله الملائكة في السماء ، والغزاة في سبيل الله في الأرض .

وقرأ الجمهور : ﴿ لتؤمنوا ﴾ ، وما عطف عليه بتاء الخطاب ؛ وأبو جعفر ، وأبو حيوة ،

وابن كثير ، وأبو عمرو : بياء الغيبة ؛ والجحدري : بفتح التاء وضم الزاي خفيف ؛ وهو أيضاً ، وجعفر بن محمد كذلك ، إلا أنهم كسروا الزاي ؛ وابن عباس ، واليماني : بزاءين من العزة ؛ وتقدم الكلام في وعزّروه في الأعراف .

والظاهر أن الضمائر عائدة على الله تعالى ، وتفريق الضمائر يجعلها للرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وبعضها لله تعالى ، حيث يليق قول الضحاك .

﴿ بكرة وأصيلاً ﴾ ، قال ابن عباس : صلاة الفجر وصلاة الظهر والعصر .

(180/712)

﴿ إن الذين يبايعونك ﴾ : هي بيعة الرضوان وبيعة الشجرة ، حين أخذ الرسول (صلى الله عليه وسلم) الأهبة لقتال قريش ، حين أرجف بقتل عثمان بن عفان ، فقد بعثه إلى قريش يعلمهم أنه جاء معتمراً لا محارباً ، وذلك قبل أن ينصرف من الحديبية ، بايعهم على الصبر المتناهي في قتال العدو إلى أقصى الجهد ، ولذلك قال سلمة بن الأكوع وغيره : بايعنا على الموت .

وقال ابن عمر ، وجابر : على أن لا نفر .

والمبايعة : مفاعلة من البيع ، ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة

﴿ وبقي اسم البيعة بعد على معاهدة الخلفاء والملوك .

﴿ إنما يبايعون الله ﴾ أي صفقتهم ، إنما يمضيها ويمنح الثمن الله عز وجل .

وقرأ تمام بن العباس بن عبد المطلب : إنما يبايعون لله ، أي لأجل الله ولوجهه ؛ والمفعول محذوف ، أي إنما يبايعونك لله .

﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ .

قال الجمهور : اليد هنا النعمة ، أي نعمة الله في هذه المبايعة ، لما يستقبل من محاسنها ، فوق أيديهم التي مدوها لبيعتك .

وقيل : قوة الله فوق قواهم في نصرك ونصرهم .

وقال الزمخشري : لما قال : ﴿ إنما يبايعون الله ﴾ ، أكد تأكيداً على طريقة التخييل فقال : ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ ، يريد أن يد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) التي تعلو يدي المبايعين ، هي يد الله ، والله تعالى منزه عن الجوارح وعن صفات الأجسام .

وإنما المعنى : تقرير أن عقد الميثاق مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) كعقده مع الله تعالى من غير تفاوت بينهما ، كقوله تعالى : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ و ﴿ من نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ ، فلا يعود ضرر نكثه إلا على نفسه . انتهى .

وقرأ زيد بن علي : ينكث ، بكسر الكاف .

وقال جابر بن عبد الله : ما نكث أحد منا البيعة إلا جد بن قيس ، وكان منافقاً ، اختباً

تحت إبط بعيره ، ولم يسر مع القوم فحرم .

وقرأ الجمهور : ﴿ عليه الله ﴾ : بنصب الهاء .

وقرىء : بما عهد ثلاثياً .

(181/712)

وقرأ الحميدي : ﴿ فسيؤتيه ﴾ ؛ بالياء ؛ والحرميان ، وابن عامر ، وزيد بن علي : بالنون .

﴿ أجراً عظيماً ﴾ : وهي الجنة ، وأو في لغة تهامه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(182/712)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1) ﴾

فتحُ البلدِ عبارةٌ عن الظَّفرِ به عُنوةً أو صُلحاً بحِراب أو بدونِه فإنَّه ما لم يُظفرْ به منغلقٌ ،

مأخوذٌ من فتحِ بابِ الدارِ . وإسنادُه إلى نونِ العظمةِ لاستنادِ أفعالِ العبادِ إليه تعالى خلقاً وإيجاداً ، والمرادُ به فتحُ مكةَ شرّفها الله وهو المرويُّ عن أنسٍ رضيَ الله عنه ، بُشّر به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عند انصرافه من الحديبيةِ ، والتعبيرُ عنه بصيغةِ الماضِي على سَنَنِ سائِرِ الأخبارِ الربانيةِ للإيذانِ بتحققهِ لا محالةَ تأكيداً للتبشيرِ كما أنَّ تصديرَ الكلامِ بحرفِ التحقيقِ لذلكَ ، وفيه من الفخامةِ المنبئةِ عن عظمةِ شأنِ المخبِرِ جلَّ جلالُه وعزَّ سلطانُه ما لا يخفى ، وقيلَ هو ما أتيحَ له عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ في تلك السنةِ من فتحِ خيبرَ وهو المرويُّ عن مجاهدٍ وقيل هو صلحُ الحديبيةِ فإنَّه وإن لم يكُن فيه حِرابٌ شديدٌ بل ترامٍ بين الفريقينِ بسهامٍ وحجارةٍ لكن لما كان الظهورُ للمسلمين حيثُ سألهم المشركون الصُّلحَ كان فتحاً بلا ريبَ ، ورُويَ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما : رَمَوا المشركين حتى أدخلُوهم ديارَهُم . وعن الكلبيِّ ظهرُوا عليهم حتى سألُوا الصُّلحَ وقد رُويَ أنه عليه الصلاةُ والسلامُ حين بلغه أنَّ رجلاً قال ما هذا بفتحٍ لقد صُدِدْنا عن البيت وصُدّ هدْيُنا قال بل هو أعظمُ الفتوحِ ، وقد رضي المشركون أنْ يدفعوكم بالراحِ ويسألوكم القَضيّةَ ويرغبُوا إليكم في الأمانِ وقد رأوا منكم ما يكرهون . وعن الشعبيِّ نزلتْ بالحديبيةِ وأصاب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في تلك الغزوةِ ما لم يُصِبْ في غزوةٍ حيثُ أصاب أن بويعَ بَيعةَ الرضوانِ وغُفرَ له ما تقدمَ من ذنبه وما تأخرَ وبلغ الهديُ مِحلَّه وأُطعِموا نخلَ خيبرَ وظهرت الرومُ على

فارسَ ففرحَ به المسلمون وكان في فتح الحديبيةِ آيةٌ عظيمةٌ هي أنه نُزِح ماؤها حتى لم يبقَ فيها قطرةٌ فتمضمضَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم

(183/712)

ثم مجَّه فيها فدرَّتْ بالماءِ حتى شربَ جميعُ من كان معه وشبِعَ وقيل : فجاش الماءُ حتى امتلأتْ ولم ينفدْ ماؤها بعدُ ، وقيل هو جميعُ ما فتحَ له عليه الصلاةُ والسلامُ من الفتوحِ وقيل هو ما فتح الله له عليه الصلاةُ والسلامُ من الإسلامِ والنبوةِ والدعوةِ بالحجةِ والسيفِ ولا فتحَ أبينُ منه وأعظمُ وهو رأسُ الفتوحِ كافةً إذ لا فتحَ من فتوحِ الإسلامِ إلا وهو شعبةٌ وفرعٌ من فروعِه وقيل الفتحُ بمعنى القضاءِ ومنه الفتاحةُ للحكومةِ والمعنى قضينا لك على أهلِ مكةَ أنْ تدخلَها من قابلٍ وهو المرويُّ عن قتادةَ رضي الله عنه وأياً ما كان فحذفُ المفعولِ للقصدِ إلى نفسِ الفعلِ والإيذانِ بأن مناطَ التبشيرِ نفسُ الفتحِ الصادرِ عنه سبحانَهُ لا خصوصيةُ المفتوحِ ﴿ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ بيناً ظاهرَ الأمرِ مكشوفَ الحالِ أو فارقاً بين الحقِّ والباطلِ .

وقولُه تعالى :

(184/712)

﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ﴾ غايةٌ للفتحِ منْ حيثُ إنَّه مترتبٌ على سعيهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في إعلاءِ كلمةِ الله تعالى بمكابدةِ مشاقِّ الحروبِ واقتحامِ مواردِ الخطوبِ ، والالتفاتُ إلى اسم الذاتِ المستتبعِ لجميعِ الصفاتِ للإشعارِ بأن كلَّ واحدٍ ممَّا انتظم في سلك الغايةِ من أفعالِه تعالى صادرٌ عنه تعالى من حيثيةٍ غيرِ حيثيةِ الآخرِ مترتبةٍ على صفةٍ من صفاتِه تعالى : ﴿ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ أي جميعَ ما فرَطَ منك من تركِ الأَوْلى ، وتسميتُه ذنباً بالنظرِ إلى منصبه الجليلِ . ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ بإعلاءِ الدّينِ وضمِّ الملكِ إلى النبوةِ وغيرِهما مما أفاضَه عليه من النعمِ الدينيةِ والدنيويةِ . ﴿ وَيَهْدِيَكَ صراطا مُّسْتَقِيماً ﴾ في تبليغِ الرسالةِ وإقامةِ مراسمِ الرياسةِ . وأصلُ الاستقامةِ وإن كانتْ حاصلةً قبلَ الفتحِ لكنْ حصلَ بعد ذلكَ من اتّضاحِ سبلِ الحقِّ واستقامةِ مناهجِه ما لم يكُنْ حاصلاً قبلُ . ﴿ وَيَنصُرَكَ اللهُ ﴾ إظهارُ الاسمِ الجليلِ لكونِه خاتمةَ الغاياتِ ولإظهارِ كمالِ العنايةِ بشأنِ النصرِ كما يعربُ عنه تأكيدُه بقولِه تعالى : ﴿ نَصْراً عَزِيزاً ﴾ أي نصراً فيه عزةٌ أو قوياً منيعاً على وصفِ المصدرِ بوصفِ صاحبِه مجازاً للمبالغةِ أو عزيزاً صاحبُه . ﴿ هُوَ الذى أَنزَلَ السكينة ﴾ بيانٌ لما أفاضَ عليهم منْ مبادِي الفتحِ من الثباتِ والطُّمأنينةِ أي أنزلَها ﴿ فِى قُلُوبِ المؤمنين ﴾ بسببِ الصلحِ والأمنِ إظهاراً لفضلِه تعالى عليهم بتيسيرِ الأمنِ بعد الخوفِ ﴿ لِيَزْدَادُواْ إيمانا مَّعَ إيمانهم ﴾ أي يقيناً مُنضماً إلى يقينِهم أو أنزل فيها

السكونَ إلى ما جاءَ به عليهِ الصلاةُ والسلامُ من الشرائعِ ليزدادُوا إيماناً بها مقروناً مع إيمانِهم بالوحدانيةِ واليومِ الآخرِ عن ابن عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما أنَّ أولَ ما أتاهُم به النبيُّ صلى الله عليه وسلم

(185/712)

التوحيدُ ثم الصلاةُ والزكاةُ ثم الحجُّ والجهادُ فازدادُوا إيماناً معَ إيمانِهم ، أو أنزلَ فيها الوقارَ والعظمةَ لله تعالى ولرسولِه ليزدادوا باعتقادِ ذلك إيماناً إلى إيمانهم . ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السموات والأرض ﴾ يدبرُ أمرَها كيفما يريدُ يسلطُ بعضَها على بعضٍ تارةً ويوقعُ بينهما السلمَ أخرى حسبَما تقتضيهِ مشيئتُه المبنيةُ على الحِكَمِ والمصالحِ ﴿ وَكَانَ الله عَلِيماً ﴾ مُبالغاً في العلمِ بجميعِ الأمورِ ﴿ حَكِيماً ﴾ في تقديرِه وتدبيرِه .

وقولُه تعالى : ﴿ لِّيُدْخِلَ المؤمنين والمؤمنات جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا ﴾ متعلقٌ بما يدلُّ عليهِ ما ذُكِرَ من كونِ جنودِ السمواتِ والأرضِ لهُ تعالى من مَعْنى التصرفِ والتدبيرِ أي دبرَ ما دبرَ من تسليطِ المؤمنينَ ليعرفُوا نعمةَ الله في ذلكَ ويشكرُوها فيدخلَهم الجنةَ ﴿ وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سيئاتهم ﴾ أي يُغطيها ولا يُظهرها . وتقديمُ الإدخالِ في الذكرِ على التكفيرِ مع أن الترتيبَ في الوجودِ على العكسِ للمسارعةِ إلى بيانِ ما هو المطلبُ الأَعْلى

﴿ وَكَانَ ذلك ﴾ أي ما ذُكِرَ من الإدخالِ والتكفيرِ ﴿ عِندَ الله فَوْزاً عَظِيماً ﴾ لا يُقادرُ قدره لأنَّه مُنتهى ما يمتدُّ إليه أعناقُ الهممِ من جلبِ نفعٍ ودفعِ ضُرَ . وعندَ الله حالٌ منْ فوزاً لأنَّه صفتُه في الأصلِ فلمَّا قدمَ عليهِ صارَ حالاً أي كائناً عند الله أي في علمِه تعالى وقضائِه والجملةُ اعتراضٌ مقررٌ لما قبلَهُ .

(186/712)

﴿ ويُعَذّبَ المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ﴾ عطفٌ على يُدخل . وفي تقديمِ المنافقينَ على المشركينَ ما لا يَخفى من الدلالةِ على أنَّهم أحقُّ منهم بالعذابِ . ﴿ الظانين بالله ظَنَّ السوء ﴾ أي ظنَّ الأمرِ السوءِ وهو أنْ لا ينصرَ رسولَه والمؤمنين ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السوء ﴾ أي ما يظنونَهُ ويتربصونَهُ بالمؤمنينَ فهو حائقٌ بهم ودائرٌ عليهم . وقُرِىءَ دائرةُ السُّوء بالضمِّ وهُمَا لُغتانِ من ساءَ ، كالكُره والكَره خلا أنَّ المفتوحَ غلبَ في أنْ يضافَ إليهِ ما يُرادُ ذمُّه من كلِّ شيءٍ وأما المضمومُ فجارٍ مَجْرى الشرِّ ﴿ وَغَضِبَ الله عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ﴾ عطفٌ على ما استحقُّوه في الآخرةِ على ما استوجبُوه في الدُّنيا . والواوُ في الأخيرينِ مع أنَّ حقَّهما الفاءُ المفيدةُ لسببيةِ ما قبلَها لما بعدَها للإيذانِ باستقلالِ كلٍ منهُما في الوعيدِ وأصالتِه من غيرِ اعتبارِ استتباعِ بعضِها لبعضٍ ﴿ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾

أي جهنمُ.

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السموات والأرض وَكَانَ الله عَزِيزاً حَكِيماً ﴾

إعادةٌ لما سبقَ قالُوا فائدتُها التنبيهُ على أنَّ لله تعالى جنودَ الرحمةِ وجنودَ العذابِ وأنَّ المرادَ ههنا جنودُ العذابِ كما ينبىءُ عنه التعرضُ لوصفِ العزةِ. ﴿ إِنَّا أرسلناك شَاهِداً ﴾ أيْ على أُمتكَ لقولِه تعالى: ﴿ وَيَكُونَ الرسول عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ ﴿ وَمُبَشّراً ﴾ على الطاعةِ ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ على المعصيةِ.

(187/712)

﴿ لّتُؤْمِنُواْ بالله وَرَسُولِهِ ﴾ الخطابُ للنبيِّ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ ولأُمَّتِه ﴿ وَتُعَزّرُوهُ ﴾ وتقوُّوه بتقويةِ دينِه ورسولِه ﴿ وَتُوَقّرُوهُ ﴾ وتُعظّمُوه ﴿ وَتُسَبّحُوهُ ﴾ وتنزهوه أو تصلّوا له من السُّبحة. ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ غدوة وعشياً. عن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهُمَا: صلاةُ الفجرِ وصلاةُ الظهرِ وصلاةُ العصرِ. وقُرِىءَ الأفعالُ الأربعةُ بالياءِ التحتانيةِ، وقُرِىءَ وتعزِرُوه بضمِّ التاءِ وتخفيفِ الزَّاي المكسورةِ، وقُرِىءَ بفتحِ التَّاءِ وضمِّ الزَّاي وكسرِها، وتعزروه بزاءينِ، وتوقِروه منْ أوقَرَهُ بمعنى وقَّره.

﴿ إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ ﴾ أيْ على قتالِ قُريشٍ تحتَ الشجرةِ. وقولُه تعالى: ﴿ إِنَّمَا

يُبَايِعُونَ اللهَ ﴾ خبرُ إن يعني أنَّ مبايعتَكَ هي مبايعةُ اللهِ عزَّ وجلَّ لأنَّ المقصودَ توثيقُ العهدِ بمراعاةِ أوامِره ونواهِيه . وقولُه تعالى : ﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ حالٌ أو استئنافٌ مؤكدٌ له على طريقةِ التخييلِ ، والمَعْنى أنَّ عقدَ الميثاقِ مَعِ الرسولِ كعقدِه مع اللهِ تعالى من غيرِ تفاوتٍ بينَهما ، كقولِه تعالى : ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ﴾ وقُرِىءَ إنَّما يُبايعونَ للهِ أي لأجلِه ولوجهِه . ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ على نَفْسِهِ ﴾ أي فمنَ نقضَ عهدَهُ فإنَّما يعودُ ضررُ نكثِه على نفسِه . وقُرِىءَ بكسرِ الكافِ . ﴿ وَمَنْ أوفى بِمَا عاهد عَلَيْهِ اللهَ ﴾ بضمِّ الهاءِ فإنَّه أبقَى بعد حذفِ الواوِ توسلاً بذلكَ إلى تفخيمِ لامِ الجلالةِ . وقُرِىءَ بكسرِها أيْ ومَنْ وفَّى بعهدِه . ﴿ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ هُو الجنةُ . وقُرِىءَ بما عَهد ، وقُرِىءَ فسنؤتيه بنونِ العظمةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(188/712)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّا أرسلناك شاهدا ﴾

أي على امتك لقوله تعالى : ﴿ وَيَكُونَ الرسول عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : 143]

وأخرج عبد بن حميد .

وابن جرير .

عن قتادة شاهداً على أمتك وشاهداً على الأنبياء عليهم السلام أنهم قد بلغوا ﴿ وَمُبَشّراً ﴾ بالثواب على الطاعة ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ بالعذاب على المعصية .

(189/712)

﴿ لّتُؤْمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأمته كقوله سبحانه : ﴿ يأُيُّهَا النبى إِذَا طَلَّقْتُمُ النساء ﴾ [الطلاق : 1] وهو من باب التغليب غلب فيه المخاطب على الغيب فيفيد أن النبي عليه الصلاة والسلام مخاطب بالإيمان برسالته لأمة وهو كذلك ، وقال الواحدي : الخطاب في ﴿ أرسلناك ﴾ [الفتح : 8] للنبي صلى الله عليه وسلم وفي ﴿ لّتُؤْمِنُواْ ﴾ لأمته فعلى هذا إن كان اللام للتعليل يكون المعلل محذوفاً أي لتؤمنوا بالله وكيت وكيت فعل ذلك الإرسال أو للأمر على طريقة ﴿ فبذلك فلتفرحوا ﴾ [يونس : 58] على قراءة التاء الفوقانية فقيل هو على معنى قل لهم : لتؤمنوا الخ ، وقيل : هو للأمة على أن خطابه صلى الله عليه وسلم منزل منزلة خطابهم فهو عينه ادعاء ، واللام متعلقة بأرسلنا ، ولا يعترض عليه بما قرره الرضى وغيره من أنه يمتنع أن يخاطب في كلام واحد اثنان من غير عطف أو تثنية أو جمع لأنه بعد التنزيل لا تعدد ، وجوز أن يكون ذلك لأنهم

حينئذ غير مخاطبين في الحقيقة فخطابهم في حكم الغيبة ، وقيل : الامتناع المذكور مشروط بأن يكون كل من المخاطبين مستقلاً أما إذا كان أحدهما داخلا في خطاب الآخر فلا امتناع كما يعلم من تتبع كلامهم ، وحينئذ يجوز أن يراد خطاب الأمة أيضاً من غير تغليب ، والكلام في ذلك طويل وما ذكر سابقاً سالم عن القال والقيل ﴿ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ أي تنصروه كما روي عن جابر بن عبد الله مرفوعاً وأخرجه جماعة عن قتادة ، والضمير لله عز وجل ، ونصرته سبحانه بنصره دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ أي تعظموه كما قال قتادة وغيره ، والضمير له تعالى أَيضاً ، وقيل : كلا الضميرين للرسول صلى الله عليه وسلم وروي عن ابن عباس ، وزعم بعضهم أنه يتعين كون الضمير في ﴿ تعزروه ﴾ للرسول عليه الصلاة والسلام لتوهم أن التعزير لا يكون له سبحانه وتعالى كما يتعين عند الكل كون

(190/712)

الضمير في قوله تعالى : ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ لله سبحانه وتعالى ، ولا يخفى أن الأول كون المضيرين فيما تقدم لله تعالى أيضاً لئلا يلزم فك الضمائر من غير ضرورة أي وتنزهوا الله تعالى أو تصلوا له سبحانه من السبحة ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ غدوة وعشيا ، والمراد

ظاهرهما أو جميع النهار ويكنى عن جيمع الشيء بطرفيه كما يقال شرقاً وغرباً لجميع الدنيا ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما صلاة الفجر وصلاة الظهر وصلاة العصر ، وقرأ أبو جعفر .

وأبو حيوة .

وابن كثير .

وأبو عمرو الأفعال الأربعة أعني لتؤمنوا وما بعده بياء الغيبة ، وعن ابن مسعود .

وابن جبير كذلك إلا أنهما قرآ ﴿ عَبْدُ الله ﴾ بالاسم الجليل مكان الضمير ، وقرى الجحدري ﴿ تعزروه ﴾ بفتح التاء الفوقية وضم الزاي مخففاً ، وفي رواية عنه فتح الاتء وكسر الزاي مخففاً وروي هذا عن جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه ، وقرىء بضم التاء وكسر الزاي مخففاً ، وقرأ ابن عباس .

ومحمد بن اليماني ﴿ تعززوه ﴾ بزاءين من العزة أي تجعلوه عزيزاً وذلك بالنسبة إليه سبحانه بجعل دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم كذلك .

وقرىء ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ من أوقره بمعنى وقره .

﴿ إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ ﴾

يوم الحديبية على الموت في نصرتك كما روي عن سلمة بن الأكوع وغيره أو على أن لا يفروا من قريش كما روي عن ابن عمر .

وجابر رضي الله تعالى عنهم ، وسيأتي الكلام في تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى ، والمبايعة وقعت قبل نزول الآية فالتعبير بالمضارع لاستحضار الحال الماضية ، وهي مفاعلة من البيع يقال : بايع السلطان مبايعة إذا ضمن بذل الطاعة له بما رضخ له ، وكثيراً ما تقال على البيعة المعروفة للسلاطين ونحوهم وإن لم يكن رضخ ، وما وقع للمؤمنين قيل يشير إلى ما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ ﴾ [التوبة : 111] الآية ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ ﴾ لأن المقصود من بيعة الرسول عليه الصلاة والسلام وإطاعته إطاعة الله تعالى وامتثال أوامره سبحانه لقوله تعالى : ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ﴾ [النساء : 80] فمبايعة الله تعالى بمعنى طاعته سبحانه مشاكلة أو هو صرف مجاز ، وقرىء ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ لِلَّهِ ﴾ أي لأجل الله تعالى ولوجهه ، والمفعول محذوف أي إنما يبايعونك لله ﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ استئناف مؤكد لما قبله لأنه عبارة عن المبايعة ، قال في الكشاف لما قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ ﴾ أكده على طريقة التخييل فقال تعالى : ﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ وانه سبحانه منزه عن الجوارح وصفات الأجسام وإنما المعنى تقرير أن عقد الميثاق مع الرسول صلى الله عليه وسلم كعقده مع الله تعالى من غير تفاوت بينهما .

(192/712)

وفي المفتاح أما حسن الاستعارة التخييلية فبحسب حسن الاستعارة بالكناية متى كانت تابعة لها كما في قولك : فلان بين أنياب المنية ومخالبها ثم إذا انضم إليها المشاكلة كما في ﴿ يَدُ الله ﴾ الخ كانت أحسن وأحسن ، يعني أن في اسم الله تعالى استعارة بالكناية تشبيهاً له سبحانه وتعالى بالمبايع واليد استعارة تخييلية مع أن فيها أيضاف مشاكلة لذكرها مع أيدي الناس ، وامتناع الاستعارة في اسم الله تعالى إنما هو في الاستعارة التصريحية دون المكنية لأنه لا يلزم إطلاق اسمه تعالى على غيره سبحانه ، وروى الواحدي عن ابن كيسان اليد القوة أي قوة الله تعالى ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم أي ثق بنصرة الله تعالى لك لا بنصرتهم وإن بايعوك .

(193/712)

وقال الزجاج : المعنى يد الله في الوفاء فوق أيديهم أو في الثواب فوق أيديهم في الطاعة أو يد الله سبحانه في المنة عليهم في الهداية فوق أيديهم في الطاعة ، وقيل : المعنى نعمة الله تعالى

عليهم بتوفيقهم لمبايعتك فوق نعمتهم وهي مبايعتهم إياك وأعظم منها ، وفيه شيء من قوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ تَمُنُّواْ عَلَيَّ إسلامكم بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ للايمان ﴾ [الحجرات : 17] وكل ذلك تأويلات ارتكبها الخلف وأحسنها ما ذكر أولاً ، والسلف يمرون الآية كما جاءت مع تنزيه الله عز وجل عن الجوارح وصفات الأجسام وكذلك يفعلون في جميع المتشابهات ويقولون : إن معرفة حقيقة ذلك فرع معرفة حقيقة الذات وأنى ذلك وهيهات هيهات ، وجوز أن تكون الجملة خبراً بعد خبر لإن ، وكذا جوز أن تكون حالاً من ضمير الفاعل في ﴿ يُبَايِعُونَكَ ﴾ وفي جواز ذلك مع كونها اسمية غير مقترنة بالواو كلام ﴿ فَمَن نَّكَثَ ﴾ نقض العهد ﴿ فَإِنَّمَا يَنكُثُ على نَفْسِهِ ﴾ فلا يعود ضرر نكثه إلا عليه ، وروى الزمخشري عن جابر بن عبد الله أنه ما نكث أحد البيعة إلا جد بن قيس وكان منافقاً ، والذي نقله الطيبي عن مسلم يدل على أن الرجل لم يبايع لا أنه بايع ونكث قال : سئل جابر كم كانوا يوم الحديبية ؟ قال : كنا أربع عشرة مائة فبايعناه وعمر رضي الله تعالى عنه آخذ بيده صلوات الله تعالى وسلامه عليه تحت الشجرة وهي سمرة فبايعناه غير جد بن قيس الأنصاري اختفى تحت بطن بعيره ولم يسر مع القوم ، ولعل هذا هو الأوفق لظاهر قوله تعالى :

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ المؤمنين إِذْ يُبَايِعُونَكَ ﴾ [الفتح : 18] الآية .

وقرأ زيد بن علي ﴿ يَنكُثُ ﴾ بكسر الكاف ﴿ وَمَنْ أوفى بِمَا عاهد عَلَيْهِ الله فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ هو الجنة وما يكون فيها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ويقال : وفى بالعهد وأوفى به إذا تممه وأوفى لغة تهامة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَوْفُواْ بالعقود ﴾ [المائدة : 1] ﴿ والموفون بِعَهْدِهِمْ ﴾ [البقرة : 177] وقرىء ﴿ بِمَا عاهد ﴾ ثلاثياً .

وقرأ الجمهور ﴿ عَلَيْهِ ﴾ بكسر الهاء كما هو الشائع وضمها حفص هنا ، قيل : وجه الضم أنها هاء هو وهي مضمومة فاستصحب ذلك كما في له وضربه ، ووجه الكسر رعاية الياء وكذا في إليه وفيه وكذا فيما إذا كان قبلها كسرة نحو به ومررت بغلامه لثقل الانتقال من الكسر إلى الضم ، وحسن الضم في الآية التوصل به إلى تفخيم لفظ الجلالة الملائم لتخفيم أمر العهد المشعر به الكلام ، وأيضاً إبقاء ما كان على ما كان ملائم للوفاء بالعهد وإبقائه وعدم نقضه ، وقد سألت كثيراً من الأجلة وأنا قريب عهد بفتح فمي للتكلم عن وجه هذا الضم هنا فلم أجب بما يسكن إليه قلبي ثم ظفرت بما سمعت والله تعالى الهادي إلى ما هو خير منه ، وقرأ ابن كثير .

ونافع .

وابن عامر .

وروح.

وزيد بن علي ﴿ فسنؤتيه ﴾ بالنون. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(195/712)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (8) ﴾

لما أريد الانتقال من الوعد بالفتح والنصر وما اقتضاه ذلك مما اتصل به ذِكره إلى تبيين ما جرى في حادثة الحديبية وإبلاغ كل ذي حظ من تلك القضية نصيبهُ المستحق ثناء أو غيره صدر ذلك بذكر مراد الله من إرسال رسوله صلى الله عليه وسلم ليكون ذلك كالمقدمة للقصة وذكرت حكمة الله تعالى في إرساله ما له مزيد اختصاص بالواقعة المتحدث عنها ، فذكرت أوصاف ثلاثة هي : شاهد ، ومبشر ، ونذير .

وقدم منها وصف الشاهد لأنه يتفرع عنه الوصفان بعده .

فالشاهد : المخبر بتصديق أحدٍ أو تكذيبه فيما ادعاه أو ادُعي به عليه وتقدم في قوله : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ في سورة النساء (41) وقوله : ﴿ ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ في سورة البقرة (143) .

فالمعنى : أرسلناك في حال أنك تشهد على الأمة بالتبليغ بحيث لا يعذر المخالفون عن شريعتك فيما خالفوا فيه ، وتشهد على الأمم وهذه الشهادة حاصلة في الدنيا وفي يوم القيامة ، فانتصب شاهداً ﴾ على أنه حال ، وهو حال مقارنة ويترتّب على التبليغ الذي سيشهد به أنه مبشر للمطيعين ونذير للعَاصين على مراتب العصيان .

والكلام استئناف ابتدائي وتأكيده بحرف التأكيد للاهتمام .

وقوله : ﴿ لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا ﴾ .

قرأ الجمهور الأفعال الأربعة ﴿ لتؤمنوا وتعزروه وتوقروه وتسبحوه ﴾ بالمثناة الفوقية في الأفعال الأربعة فيجوز أن تكون اللام في ﴿ لتؤمنوا ﴾ لام كي مفيدة للتعليل ومتعلقة بفعل ﴿ أرسلناك ﴾ .

والخطاب يجوز أن يكون للنبيء صلى الله عليه وسلم مع أمة الدعوة ، أي لتؤمن أنت والذين أرسلت إليهم شاهداً ومبشراً ونذيراً ، والمقصود الإيمان بالله .

(196/712)

وأقحم ﴿ ورسوله ﴾ لأن الخطاب شامل للأمّة وهم مأمورون بالإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم ولأن الرسول صلى الله عليه وسلم مأمور بأن يؤمن بأنه رسول الله ولذلك

كان يقول في تشهده : " وأشهد أن محمداً عبده ورسوله " وقال يوم حنين : " أشهدُ أني عبد الله ورسوله " وصحّ أنه كان يتابع قول المؤذن " أشهد أن محمداً رسول الله " ويجوز أن يكون الخطاب للناس خاصة ولا إشكال في عطف ﴿ ورسوله ﴾ .

ويجوز أن يكون الكلام قد انتهى عند قوله ﴿ ونذيرا ﴾ وتكون جملة ﴿ لتؤمنوا بالله ﴾ الخ جملة معترضة ، ويكون اللام في قوله ﴿ لتؤمنوا ﴾ لام الأمر وتكون الجملة استئنافاً للأمر كما في قوله تعالى : ﴿ آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ في سورة الحديد (7) .

وقرأه ابن كثير وأبو عمرو بياء الغيبة فيها ، والضمائر عائدة إلى معلوم من السياق لأن الشهادة والتبشير والنذارة متعينة للتعلق بمقدّر ، أي شاهداً على الناس ومبشراً ونذيراً لهم ليُؤمنوا بالله الخ .

والتعزيز : النصر والتأييد ، وتعزيزهم الله كقوله:

﴿ إن تنصروا الله ﴾ [محمد : 7] .

والتوقير : التعظيم .

والتسبيح : الكلام الذي يدل على تنزيه الله تعالى عن كل النقائص .

وضمائر الغيبة المنصوبة الثلاثة عائدة إلى اسم الجلالة لأن إفراد الضمائر مع كون المذكور قبلها اسمين دليل على أن المراد أحدهما .

والقرينة على تعيين المراد ذكر ﴿ وتسبحوه ﴾ ، ولأن عطف ﴿ ورسوله ﴾ على لفظ الجلالة اعتداد بأن الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم إيمان بالله فالمقصود هو الإيمان بالله .

ومن أجل ذلك قال ابن عباس في بعض الروايات عنه : إن ضمير ﴿ تعزروه وتوقروه ﴾ عائد إلى ﴿ رسوله ﴾ .

والبُكرة : أول النهار .

والأصيل : آخره ، وهما كناية عن استيعاب الأوقات بالتسبيح والإكثار منه ، كما يقال : شرقاً وغرباً لاستيعاب الجهات .

وقيل التسبيح هنا : كناية عن الصلوات الواجبة والقول في ﴿ بكرة وأصيلا ﴾ هو هو .

(197/712)

وقد وقع في سورة الأحزاب نظير هذه الآية وهو قوله : ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾ [الأحزاب : 45 ، 46] ، فزيد في صفات النبي صلى الله عليه وسلم هنالك ﴿ وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾ ولم يذكر مثله في الآية هذه التي في سورة الفتح .

ووجه ذلك أن هذه الآية التي في سورة الفتح وردت في سياق إبطال شك الذين شكوا في أمر الصلح والذين كذبوا بوعد الفتح والنصر ، والثناءِ على الذين اطمأنوا لذلك فاقتصر من أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم على الوصف الأصلي وهو أنه شاهد على الفريقين وكونه مبشراً لأحد الفريقين ونذيراً للآخر ، بخلاف آية الأحزاب فإنها وردت في سياق تنزيه النبي صلى الله عليه وسلم عن مطاعن المنافقين والكافرين في تزوجه زينب بنت جحش بعد أن طلقها زيد بن حارثة بزعمهم أنها زوجة ابنه ، فناسب أن يزاد في صفاته ما فيه إشارة إلى التمحيص بين ما هو من صفات الكمال وما هو من الأوهام الناشئة عن مزاعم كاذبة مثل التبنّي ، فزيد كونه ﴿ داعياً إلى الله بإذنه ﴾ ، أي لا يتبع مزاعم الناس ورغباتهم وأنه سراج منير يهتدي به من همتُّه في الاهتداء دون التقعير .

وقد تقدم في تفسير سورة الأحزاب حديث عبد الله بن عَمرو بن العاصي في صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في "التوراة" فارجع إليه .

إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ

شروع في الغرض الأصلي من هذه السورة ، وهذه الجملة مستأنفة ، وأكد بحرف التأكيد للاهتمام ، وصيغة المضارع في قوله : ﴿ يبايعونك ﴾ لاستحضار حالة المبايعة الجليلة لتكون كأنها حاصلة في زمن نزول هذه الآية مع أنها قد انقضت وذلك كقوله تعالى : ﴿ ويَصنع الفلك ﴾ [هود : 38] .

وَالحصر المفاد من ﴿ إنما ﴾ حَصر الفعل في مفعوله ، أي لا يبايعون إلا الله وهو قصر ادعائيّ بادعاء أن غاية البيعة وغرضها هو النصر لدين الله ورسوله فنزل الغرض منزلة الوسيلة فادعى أنهم بايعوا الله لا الرسول .

وحيث كان الحصر تأكيداً على تأكيد ، كما قال صاحب "المفتاح" : "لم أجعل (إنّ) التي في مفتتح الجملة للتأكيدِ لحصول التأكيد بغيرها فجعلتها للاهتمام بهذا الخبر ليحصل بذلك غرضان" .

وانتقل من هذا الادعاء إلى تخيل أن الله تعالى يبايعه المبايعون فأثبتت له اليد التي هي من روادف المبايَع بالفتح على وجه التخييلية مثل إثبات الأظفار للمنية .

وقد هيأت صيغة المبايعة لأن تذكر بعدها الأيدي لأن المبايعة يقارنها وضع المبايع يده في يد المبايَع بالفتح كما قال كعب بن زهير:

حتى وضعتُ يميني لا أُنازعه . . .

في كَفِّ ذي يَسرات قِيلُه القِيل

ومما زاد هذا التخييل حسناً ما فيه من المشاكلة بين يد الله وأيديهم كما قال في "المفتاح" :

والمشاكلة من المحسنات البديعية والله منزّه عن اليد وسمات المحدثات .

فجملة ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ مقررة لمضمون جملة ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ﴾ المفيدة أن بيعتهم النبي صلى الله عليه وسلم في الظاهر ، هي بيعة منهم لله في الواقع فقررته جملة ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ وأكدته ولذلك جردت عن حرف العطف .

وجعلت اليد المتخيلة فوق أيديهم : إمّا لأن إضافتها إلى الله تقتضي تشريفها بالرفعة على أيدي الناس كما وصفت في المعطي بالعليا في قول النبي صلى الله عليه وسلم " اليدُ العليا خيرٌ من اليد السفلى واليد العليا هي المعطية واليد السفلى هي الآخذة " ، وإما لأن المبايعة كانت بأن يمد المبايع كفه أمام المبايَع بالفتح ويضع هذا المبايَع يده على يد المبايع ، فالوصف بالفوقية من تمام التخييلية .

(199/712)

ويشهد لهذا ما في "صحيح مسلم" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بايعه الناس كان عُمر آخذاً بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم أي كان عمر يضع يد رسول الله صلى الله عليه وسلم في أيدي الناس كيلاً يتعب بتحريكها لكثرة المبايعين فدلّ على أن يد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت توضع على يد المبايعين .

وأيًا مَا كان فذكر الفوقية هنا ترشيح للاستعارة وإغراق في التخيل .

والمبايعة أصلها مشتقة من البيع فهي مفاعلة لأن كلا المتعاقدين بائع ، ونقلت إلى معنى العهد على الطاعة والنصرة قال تعالى:

﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعْنَك على أن لا يشركن بالله شيئاً ﴾ [الممتحنة : 12] الآية وهي هنا بمعنى العهد على النصرة والطاعة .

وهي البيعة التي بايعها المسلمون النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية تحت شجرة من السّمُر وكانوا ألفاً وأربعمائة على أكثر الروايات .

وقال جابر بن عبد الله : أو أكثر ، وعنه : أنهم خمس عَشرة مائة .

وعن عبد الله بن أبي أوفى كانوا ثلاث عشرة مائة .

وأول من بايع النبي صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة أبو سنان الأسدي .

وتسمّى بيعة الرضوان لقول الله تعالى ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ [الفتح : 18] .

وكان سبب هذه البيعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل عثمان بن عفان من الحديبية إلى أهل مكة ليفاوضهم في شأن التخلية بين المسلمين وبين الاعتمار بالبيت فأرجف بأن عثمان قتل فعزم النبي صلى الله عليه وسلم على قتالهم لذلك ودعا من معه إلى البيعة على أن لا يرجعوا حتى يناجزوا القوم ، فكان جابر بن عبد الله يقول : بايعوه على

أن لا يَفرّوا ، وقال سلمة بن الأكوع وعبد الله بن زيد : بايعناه على المَوت ، ولا خلاف بين هذين لأن عدم الفرار يقتضي الثبات إلى الموت .

(200/712)

ولم يتخلف أحد ممن خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى الحديبيّة عن البيعة إلا عثمان إذ كان غائباً بمكة للتفاوض في شأن العمرة ، ووضع النبي صلى الله عليه وسلم يده اليمنى على يده اليسرى وقال : "هذه يد عثمان" ثم جاء عثمان فبايع ، وإلا الجد بن قيس السلمى اختفى وراء جَمَلِهِ حتّى بايع الناسُ ولم يكن منافقاً ولكنّه كان ضعيف العزم .

وقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم أنتم خير أهل الأرض .

وفرع قوله : ﴿ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ على جملة ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ﴾ ، فإنه لما كَشف كنه هذه البيعة بأنها مبايعة لله ضرورة أنها مبايعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم باعتبار رسالته عن الله صار أمر هذه البيعة عظيماً خطيراً في الوفاء بما وقع عليه التبايع وفي نكث ذلك .

والنكث : كالنقض للحبل .

قال تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ﴾ [النحل : 92] .

وغلب النكث في معنى النقض المعنوي كإبطال العهد .

والكلام تحذير من نكث هذه البيعة وتفظيع له لأن الشرط يتعلق بالمستقبل .

ومضارع ﴿ ينكث ﴾ بضم الكاف في المشهور واتفق عليه القرّاء .

ومعنى ﴿ فإنما ينكث على نفسه ﴾ : أن نكثه عائد عليه بالضرّ كما دلّ عليه حرف على .

و ﴿ إنما ﴾ للقصر وهو لقصر النكث على مدلول ﴿ على نفسه ﴾ ليراد لا يضر بنكثه إلا نفسه ولا يضر الله شيئاً فإن نكث العهد لا يخلو من قصد إضرار بالمنكوث ، فجيء بقصر القلب لقلب قصد الناكث على نفسه دون على النبي صلى الله عليه وسلم ويقال : أوفى بالعهد وهي لغة تهامة ، ويقال : وفي بدون همز وهي لغة عامة العرب ، ولم تجيء في القرآن إلا الأولى .

قالوا : ولم ينكث أحد ممن بايع .

والظاهر عندي : أن سبب المبايعة قد انعدم بالصلح الواقع بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين أهل مكة وأن هذه الآية نزلت فيما بين ساعة البيعة وبين انعقاد الهدنة وحصل أجر الإيفاء بالنية عدمه لو نزل ما عاهدوا الله عليه .

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر ورويس عن يعقوب ﴿ فسنؤتيه ﴾ بنون العظمة على الالتفات من الغيبة إلى التكلم .

وقرأه الباقون بياء الغيبة عائداً ضميره على اسم الجلالة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(202/712)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث عشر بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/713)

الجزء الثالث عشر بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 11 ﴾ من سورة الفتح

وحتى الآية ﴿ 17 ﴾ من السورة

(4/713)

قوله تعالى ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (11) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (12) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ

بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (13) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر سبحانه وتعالى أهل بيعة الرضوان ، وأضافهم إلى حضرة الرحمن ، تشوف السامع إلى الخبر عمن غاب عن ذلك الجناب ، وأبطأ عن حضرة تلك العمرة ، فاستؤنف الإخبار عما ينافقون به بقوله تعالى : ﴿ سيقول ﴾ أي بوعد لا خلف فيه ، وأكد أمر نفاقهم تنبيهاً على جلدهم فيه ووقاصهم به ولطف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وشدة رحمته ورفقه وشفقته فقال : ﴿ لك ﴾ أي لأنهم يعلمون أنك ألطف الخلق عشرة وأعظمهم شفقة على عباد الله ، فهم يطمعون في قبولك من فساد عذرهم ما لا يطمعون فيه من غيرك من خلص المؤمنين ، وغاب عنهم – لما عندهم من غلظ الأكباد أن الكذب بحضرتك في غاية القباحة لأنك أعظم الخلق وأفطنهم ، مع ما يأتيك من الأنباء عن علام الغيوب ، وحقر أمرهم بسلب العقل عنهم وجعلهم مفعولين لا فاعلين إشارة إلى أنهم طردوا عن هذا المقام ، لأنهم أشرار لئام ، فقال تعالى ﴿ المخلفون ﴾ أي الذين – خلفهم الله عنك ولم يرضهم لصحبتك في هذه العمرة ، فجعلهم كالشيء التافه الذي يخلفه الإنسان ، لأنه لا فائدة فيه فلا يؤبه له ولا يعبأ به ، وذلك إنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما أراد الاعتمار ندب أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين لذلك ، وندب من الأعراب الذين حول المدينة الشريفة من كان قد أقر بالإسلام ،

فلم يرد الله حضورهم لأن إسلامهم لم يكن خالصاً فلو حضروا لفسد بهم الحال ، وإن حفظ الله بحوله وقوته من الفساد ، أعقب ذلك فساداً آخر وهو أن يقال : إنه لم يكف عنهم الأعداء إلا الكثرة ، فتخلفوا لما علم الله في تخلفهم من الحكم .

(5/713)

ولما كان قد تخلف بالجسد من خلص الأنصار وغيرهم من كان حاضراً معه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالقلب أخرجهم بقوله : ﴿ من الأعراب ﴾ أي أهل البادية كذباً وبهتاناً جرأة على الله ورسوله ﴿ شغلتنا ﴾ أي عن إجابتك في هذه العمرة ﴿ أموالنا وأهلونا ﴾ أي لأنا لو تركناها ضاعت ، لأنه لم يكن لنا من يقوم بها وأنت قد نهيت عن إضاعة المال والتفريط في العيال ، ثم سببوا عن هذا القول المراد به السوء قولهم : ﴿ فاستغفر ﴾ أي اطلب المغفرة ﴿ لنا ﴾ من الله إن كنا أخطأنا أو قصرنا .

ولما كان هذا ربما يغتر به من لا خبرة له ، رده تعالى بقوله منبهاً على أن من صدق مع الله لم يشغله عن شاغل ، ومن شغله عنه شيء كان شوماً عليه : ﴿ يقولون ﴾ وعبر بالمضارع إشارة إلى أن هذا ديدن لهم لا ينفكون عنه .

ولما صح بعد ذلك إيمان ، لم يعبر بالأفواه دأبه ، في المنافقين ، بل قال : ﴿ بألسنتهم ﴾ أي في

الشغل والاستغفار ، وأكد ما أفهمه ذكر اللسان من أنه قول ظاهري نفياً للكلام الحقيقي الذي هو النفسي بكل اعتبار بقوله : ﴿ ما ليس في قلوبهم ﴾ لأنهم لم يكن شغل ولا كانت لهم نية في سؤال الاستغفار .

(6/713)

ولما كان فعلهم هذا من تخلفهم واعتلالهم وسؤالهم الاستغفار ظناً منهم أنهم يدفعون عن أنفسهم بذلك المكروه ويحصلون لها المحبوب وكان كأنه قيل : قد علم كذبهم ، فماذا يقال لهم ؟ استأنف سبحانه الجواب بقوله : ﴿ قل ﴾ أي لهؤلاء الأغبياء واعظاً لهم مسبباً عن مخادعتهم لمن لا يخفى عليه خافية إشارة إلى أن العاقل يقبح عليه أن يقدم على ما هو بحيث تخشى عاقبته : ﴿ فمن يملك لكم ﴾ أيها المخادعون ﴿ من الله ﴾ أي الملك الذي لا أمر لأحد معه لأنه لا كفوء له ﴿ شيئاً ﴾ يمنعكم منه ﴿ إن أراد بكم ﴾ أي خاصة ﴿ ضراً ﴾ أي نوعاً من أنواع الضرر عظيماً أو حقيراً ، فأهلك الأموال والأهلين وأنتم محتاطون في حفظهما فلا ينفعها حضوركم أو أهلككم أنتم ﴿ أو أراد بكم نفعاً ﴾ بحفظهما به مع غيبتكم فلا يضرها بعدكم عنها ، ويحفظكم في أنفسكم ، وقد علم من تصنيفه سبحانه حالهم إلى صنفين مع الإبهام أنه يكون لبعضهم الضر لأن منهم من ارتد في

زمن الردة ، ولبعضهم النفع لأنه ثبت على الإسلام .

ولما كان التقدير قطعاً : لا أحد يملك منه سبحانه لهم شيئاً من ذلك بل هو قادر على كل ما يريد منه ، فعلكم لما عندكم من الجلافة والغباوة والكثافة فعل من يظن أنه لا يقدر عليكم ولا يعلم كثيراً مما تعملون ، فيخفى عليه كذبكم ، وليس الأمر كما ظننتم فإنه لا يخفى عليه شيء من أعمالكم ، بنى عليه ما أرشد إلى تقديره فقال تعالى : ﴿ بل كان الله ﴾ أي المحيط أزلاً وأبداً بكل شيء قدرة علماً ﴿ بما تعملون ﴾ أي الجهلة ﴿ خبيراً ﴾ أي يعلم بواطن أموركم هذه وغيرها كما يعلم ظواهرها .

(7/713)

ولما أضرب عن ظنهم أن كذبهم يخفى عليه بأمر عام ، وقدمه لأنه أعم نفعاً بما فيه من الشمول ، أتبعه الإضراب عن مضمون كلامهم فقال : ﴿ بل ﴾ أي ليس تخلفكم لما أخبرتم به من الاشتغال بالأهل والأموال ﴿ ظننتم ﴾ وأنتم واقفون مع الظنون الظاهرة ، ليس لكم نفوذ إلى البواطن ، وأشار إلى تأكد ظنهم على زعمهم فقال : ﴿ أن لن ينقلب ﴾ ولما كان الكلام فيما هو شأن الرسول من الانبعاث والمسير ، قال مشيراً إلى أن من أرسل رسولاً إلى شيء وهو لا يقدر على نصره ليبلغ ذلك الشيء إلى الغاية التي أرادها منه كان عاجزاً عما

يريد : ﴿ الرسول ﴾ وعظم التابعين فقال : ﴿ والمؤمنون ﴾ معبراً بما يحق لهم من الوصف المفهم للرسوخ وأفهم تأكيد ذلك عندهم بقوله تعالى : ﴿ إلى أهليهم أبداً ﴾ أي لما في قلوبكم من عظمة المشركين وحقارة المؤمنين فحملكم ذلك على أن قلتم : ما هم في قريش إلا أكلة رأس .

ولما كان الإنسان قد يظن ما لا يجب ، قال مشيراً بالبناء للمفعول إلى أن ما حوته قلوبهم مما ينبغي أن ينزه سبحانه وتعالى عن نسبته إليه وإن كان هو الفاعل له في الحقيقة : ﴿ وزين ذلك ﴾ أي الأمر القبيح الذي خراب الدنيا ﴿ في قلوبكم ﴾ حتى أحببتموه .

ولما علم أن ذلك سوء ، صرح به على وجه يعم غيره فقال : ﴿ وظننتم ﴾ أي بذلك وغيره مما يترتب عليه من إظهار الكفر وما يتفرع منه ﴿ ظن السوء ﴾ أي الذي لم يدع شيئاً مما يكره غاية الكراهة إلا أحاط به .

ولما انكشف جميع أمره كشف أثره فقال : ﴿ وكنتم ﴾ أي بالنظر إلى جمعكم من حيث هو جمع في علمنا قبل ذلك بما جبلناكم عليه وعلى ما كشفه الحال عنه من له بصيرة ﴿ قوماً ﴾ أي مع قوتكم على ما تحاولونه ﴿ بوراً ﴾ أي في غاية الهلاك والكساد والفساد ، وعدم الخير لأنكم جبلتم على ذلك الفساد ، فلا انفكاك لهم عنه ، وهذا كما مضى بالنظر إلى الجميع من حيث هو جمع لا بالنسبة إلى كل فرد فإنه قد أخلص منهم بعد ذلك كثير ، وثبتوا فلم يرتدوا .

ولما كان التقدير : ذلك لأنكم لم تؤمنوا ، فمن آمن منكم ومن غيركم وأخلص ، أبجناه جنة وحريراً ، عطف عليه قوله معمماً : ﴿ ومن لم يؤمن ﴾ منكم ومن غيركم ﴿ بالله ﴾ أي الذي لا موجود في الحقيقة سواه ﴿ ورسوله ﴾ أي الذي أرسله لإظهار دينه وهو الحقيق بالإضافة إليه ، معبراً عنه بالاسم الأعظم ، وللزيادة في تعظيمه وتحقير شانئه وتوهية كيد التفت إلى مقام التكلم بمظهر العظمة فقال : ﴿ فإنا ﴾ أي على ما لنا من العظمة ﴿ أعتدنا ﴾ له أو لهم هكذا كان الأصل ، ولكنه قال معلقاً للحكم بالوصف إيذاناً بأن من لم يجمع الإيمان بهما فهو كافر ، وإن السعير لمن كان كفره راسخاً فقال تعالى : ﴿ للكافرين ﴾ أي الذين لا يجمعون الإيمان بالمرسل والرسول فيكونون بذلك كفاراً ، ويستمرون على وصف الكفر لأنهم جبلوا عليه ﴿ سعيراً ﴾ أي ناراً شديدة الإيقاد والتلهب ، فهي عظيمة الحر توجب الجنون وإيقاد الباطن بالجوع بحيث لا يشبع صاحبه والانتشار بكل شر ، فإن التنكير هنا للتهويل والتعظيم ، وهذه الآية مع ما أرشد السياق إلى عطفها عليه ممن يؤمن دالة – وإن كانت في سياق الشرط – على أن أكثرهم يخلص إيمانه بعد ذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 196 . 198 ﴾

(9/713)

فصل

قال الفخر :

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾

(10/713)

لما بيّن حال المنافقين ذكر المتخلفين ، فإن قوماً من الأعراب امتنعوا عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لظنهم أنه يهزم ، فإنهم قالوا أهل مكة يقاتلون عن باب المدينة ، فكيف يكون حالهم إذا دخلوا بلادهم وأحاط بهم العدو فاعتذروا ، وقولهم ﴿ شَغَلَتْنَا أموالنا وَأَهْلُونَا ﴾ فيه أمران يفيدان وضوح العذر أحدهما : (قولهم) ﴿ أَمْوَالُنَا ﴾ ولم يقولوا شغلتنا الأموال ، وذلك لأن جمع المال لا يصلح عذراً (لأنه) لا نهاية له ، وأما حفظ ما جمع من الشتات ومنع الحاصل من الفوات يصلح عذراً ، فقالوا ﴿ شَغَلَتْنَا أموالنا ﴾ أي ما صار مالاً لنا لا مطلق الأموال وثانيهما : قوله تعالى : ﴿ وَأَهْلُونَا ﴾ وذلك لو أن قائلاً قال

لهم : المال لا ينبغي أن يبلغ إلى درجة يمنعكم حفظه من متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم لكان لهم أن يقولوا : فالأهل يمنع الاشتغال بهم وحفظهم عن أهم الأمور ، ثم إنهم مع العذر تضرعوا وقالوا ﴿ فاستغفر لَنَا ﴾ يعني فنحن مع إقامة العذر معترفون بالإساءة ، فاستغفر لنا واعف عنا في أمر الخروج ، فكذبهم الله تعالى فقال : ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ وهذا يحتمل أمرين أحدهما : أن يكون التكذيب راجعاً إلى قولهم ﴿ فاستغفر لَنَا ﴾ وتحقيقه هو أنهم أظهروا أنهم يعتقدون أنهم مسيئون بالتخلف حتى استغفروا ، ولم يكن في اعتقادهم ذلك ، بل كانوا يعتقدون أنهم بالتخلف محسنون ثانيهما : قالوا ﴿ شَغَلَتْنَا ﴾ إشارة إلى أن امتناعنا لهذا لا غير ، ولم يكن ذلك في اعتقادهم ، بل كانوا يعتقدون امتناعهم لاعتقاد أن النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون يقهرون ويغلبون ، كما قال بعده ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرسول والمؤمنون إلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً ﴾ [الفتح : 12] وقوله ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُمْ مِّنَ الله شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً ﴾ معناه أنكم تحترزون عن

الضرر .

وتتركون أمر الله ورسوله ، وتقعدون طلباً للسلامة ، ولو أراد بكم الضرر لا ينفعكم قعودكم من الله شيئاً ، أو معناه أنكم تحترزون عن ضرر القتال والمقاتلين وتعتقدون أن أهليكم وبلادكم تحفظكم من العدو ، فهب أنكم حفظتم أنفسكم عن ذلك ، فمن يدفع عنكم عذاب الله في الآخرة ، مع أن ذلك أولى بالاحتراز ، وقد ذكرنا في سورة ياس في قوله تعالى : ﴿ إِن يُرِدْنِ الرحمن بِضُرّ ﴾ [ياس : 23] أنه في صورة كون الكلام مع المؤمن أدخل الباء على الضر ، فقال : ﴿ إِنْ أَرَادَنِيَ الله بِضُرّ ﴾ [الزمر : 38] وقال : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ الله بِضُرّ ﴾ [الأنعام : 17] وفي صورة كون الكلام مع الكافر أدخل الباء عل الكافر ، فقال ههنا ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً ﴾ وقال : ﴿ مَن ذَا الذي يَعْصِمُكُمْ مّنَ الله إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً ﴾ [الأحزاب : 17] وقد ذكرنا الفرق الفائق هناك ، ولا نعيده ليكون هذا باعثاً على مطالعة تفسير سورة يّس ، فإنها درج الدرر اليتيمة ، ﴿ بَلْ كَانَ الله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ أي بما تعملون من إظهار الحرب وإضمار غيره .

بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا

(12/713)

يعني لم يكن تخلفكم لما ذكرتم ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ﴾ وأن مخففة من الثقيلة ، أي ظننتم أنهم لا ينقلبون ولا يرجعون ، وقوله ﴿ وزين ذلك في قلوبكم ﴾ يعني ظننتم أولاً ، فزين الشيطان ظنكم عندكم حتى قطعتم به ، وذلك لأن الشبهة قد يزينها الشيطان ، ويضم إليها مخايلة يقطع بها الغافل ، وإن كان لا يشك فيها العاقل ، وقوله تعالى : ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السوء ﴾ يحتمل وجهين أحدهما : أن يكون هذا العطف عطفاً يفيد المغايرة ، فقوله ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السوء ﴾ غير الذي في قوله ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ ﴾ وحينئذ يحتمل أن يكون الظن الثاني معناه : وظننتم أن الله يخلف وعده ، أو ظننتم أن الرسول كاذب في قوله وثانيهما : أن يكون قوله ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السوء ﴾ هو ما تقدم من ظن أن لا ينقلبوا ، ويكون على حد قول القائل : علمت هذه المسألة وعلمت كذا ، أي هذه المسألة لا غيرها ، وذلك كأنه قال : بل ظننتم ظن أن لن ينقلب .

وظنكم ذلك فاسد ، وقد بينا التحقيق في ظن السوء ، وقوله تعالى : ﴿ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً ﴾ يحتمل وجهين أحدهما : وصرتم بذلك الظن بائرين هالكين وثانيها : أنتم في الأصل بائرون وظننتم ذلك الظن الفاسد .

وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (13)

على قولنا : ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السوء ﴾ [الفتح : 12] ظن آخر غير ما في قوله ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ ﴾ ظاهر ، لأنا بينا أن ذلك ظنهم بأن الله يخلف وعده أو ظنهم بأن الرسول كاذب

فقال : ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ويظن به خلفاً وبرسوله كذباً فإنا أعتدنا له سعيراً ، وفي قوله ﴿ للكافرين ﴾ بدلاً عن أن يقول فإنا أعتدنا له فائدة وهي التعميم كأنه تعالى قال : ومن لم يؤمن بالله فهو من الكافرين وإنا أعتدنا للكافرين سعيراً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 76 . 78 ﴾

(13/713)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ المخلفون مِنَ الأعراب ﴾

قال مجاهد وابن عباس : يعني أعراب غِفار ومُزَيْنة وجُهينة وأَسْلم وأَشْجَع والدِّيل ؛ وهم الأعراب الذين كانوا حول المدينة ؛ تخلّفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد السفر إلى مكة عام الفتح ، بعد أن كان استنفرهم ليخرجوا معه حَذَراً من قريش ، وأحرم بعُمْرَةٍ وساق معه الهَدْيَ ؛ ليعلم الناس أنه لا يريد حرباً فتثاقلوا عنه واعتلّوا بالشّغل ؛ فنزلت .

وإنما قال : "الْمُخَلّفُونَ" لأن الله خلّفهم عن صحبة نبيّه .

والمخلَّف المتروك .

وقد مضى في "براءة" .

﴿ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ أي ليس لنا من يقوم بهما .

﴿ فاستغفر لَنَا ﴾ جاءوا يطلبون الاْستغفار واعتقادهم بخلاف ظاهرهم ؛ ففضحهم الله تعالى بقوله : ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ وهذا هو النفاق المحض .

﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُمْ مِّنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً ﴾ قرأ حمزة والكسائي "ضُرًّا" بضم الضاد هنا فقط ؛ أي أمراً يضركم .

وقال ابن عباس : الهزيمة .

الباقون بالفتح ؛ وهو مصدر ضررته ضَرًّا .

وبالضم اسم لما ينال الإنسان من الهزال وسوء الحال .

والمصدر يؤدّي عن المرّة وأكثر .

واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، قالا : لأنه قابله بالنفع وهو ضدّ الضرّ .

وقيل : هما لغتان بمعنًى ؛ كالفَقْر والفُقْر والضَّعْف والضُّعْف .

﴿ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً ﴾ أي نصراً وغَنِيمة .

وهذا ردّ عليهم حين ظنوا أن التخلف عن الرسول يدفع عنهم الضر ويعجّل لهم النفع .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرسول والمؤمنون إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً ﴾

وذلك أنهم قالوا : إن محمداً وأصحابه أَكَلَة رأس لا يرجعون .

﴿ وَزُيِّنَ ذَلِكَ ﴾ أي النفاق .

﴿ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ وهذا التزيين من الشيطان ؛ أو يخلق الله ذلك في قلوبهم .

(14/713)

﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السوء ﴾ أن الله لا ينصر رسوله .

﴿ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً ﴾ أي هَلْكَى ؛ قاله مجاهد .

وقال قتادة : فاسدين لا يصلحون لشيء من الخير .

قال الجَوْهرِيّ : البور : الرجل الفاسد الهالك الذي لا خير فيه .

قال عبد الله بن الزِّبَعْرى السَّهْمِي :

يا رسول المليك إن لساني . . .

راتِق ما فَتَقْتُ إذ أنا بُور

وامرأة بُور أيضاً ؛ حكاه أبو عبيد .

وقوم بُورٌ هَلْكَى .

قال تعالى : ﴿ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً ﴾ وهو جمع بائر ؛ مثل حائل وحُول .

وقد بار فلان أي هلك .

وأباره الله أي أهلكه .

وقيل : "بُوراً" أشراراً ؛ قاله ابن بحر .

وقال حسان بن ثابت :

لا ينفع الطُّول من نُوكِ الرجال وقد . . .

يهدي الإله سبيل المَعْشَر البور

أي الهالك .

وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (13)

وعيد لهم ، وبيان أنهم كفروا بالنفاق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ

﴾

(15/713)

وقال الآلوسى :

﴿ سَيَقُولُ لَكَ المخلفون مِنَ الأعراب ﴾

قال مجاهد . وغيره ودخل كلام بعضهم في بعض المخلفون من الأعراب هم جهينة .

ومزينة .

وغفار .

وأشجع .

والديل .

وأسلم استنفرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً ليخرجوا معه حذراً من قريش أني عرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت وأحرم هو صلى الله عليه وسلم وساق معه الهدى ليعلم أنه لا يريد حرباً ورأى أولئك الأعراب أنه عليه الصلاة والسلام يستقبل عدداً عظيماً من قريش .

وثقيف .

وكنانة .

والقبائل المجاورين مكة وهم الأحابيش ولم يكن الإيمان تمكن من قلوبهم فقعدوا عن النبي صلى الله عليه وسلم وتخلفوا وقالوا : نذهب إلى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه فنقاتلهم وقالوا : لن يرجع محمد عليه الصلاة والسلام ولا أصحابه من هذه السفرة ففضحهم الله تعالى في هذه الآية وأعلم رسوله صلى الله عليه وسلم بقولهم واعتذارهم قبل أن يصل إليهم فكان كذلك ، و ﴿ المخلفون ﴾ جمع مخلف ، قال الطبرسي : هو المتروك في المكان خلف الخارجين من البلد مأخوذ من الخلف وضده المقدم ، و ﴿ الاعراب ﴾ في المشهور سكان البادية من العرب لا واحد له أي سيقول لك المتروكون الغير الخارجين معك

معتذرين إليك ﴿ شَغَلَتْنَا ﴾ عن الذهاب معك ﴿ أموالنا وَأَهْلُونَا ﴾ إذ لم يكن لنا من يقوم بحفظ ذلك ويحميه عن الضياع ، ولعل ذكر الأهل بعد الأموال من باب الترقي لأن حفظ الأهل عند ذوي الغيرة أهم من حفظ الأموال .

(16/713)

وقرأ إبراهيم بن نوح بن بازان ﴿ شَغَّلَتْنَا ﴾ بتشديد الغين المعجمة للتكثير ﴿ فاستغفر لَنَا ﴾ الله تعالى ليغفر لنا تخلفنا عنك حيث لم يكن عن تكاسل في طاعتك بل لذلك الداعي ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ أي إن كلامهم من طرف اللسان غير مطابق لما في الجنان ، وهو كناية عن كذبهم ، فالجملة استئناف لتكذيبهم وكونها بدلاً من ﴿ سَيَقُولُ ﴾ غير ظاهر ، والكذب راجع لما تضمنه الكلام من الخبر عن تخلفهم بأنه لضرورة داعية له وهو القيام بمصالحهم التي لا بد منها وعدم من يقوم بها لو ذهبوا معه عليه الصلاة والسلام ، وكذا راجع لما تضمنه ﴿ أَسْتَغْفِرُ ﴾ الإنشاء من اعترافهم بأنهم مذنبون وأن دعاءه صلى الله عليه وسلم لهم يفيدهم فائدة لازمة لهم ، أو تسمية ذلك كذباً ليس لعدم مطابقة نسبة الاعتقاد على ما ذهب إليه النظام بل لعدم مطابقته الواقع بحسب الاعتقاد وفرق بين الأمرين ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ

بِكُمْ نَفْعاً ﴾ أمر له صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم بذلك عند اعتذارهم بتلك الأباطيل ، والملك إمساك بقوة لأنه بمعنى الضبط وهو حفظ عن حزم ، ومنه لا أملك رأس البعير وملكت العجيب إذا شددت عجنته ، وملكت الشيء إذا دخل تحت ضبطك دخولاً تاماً ، وإذا قلت : لا أملك كان نفياً للاستطاعة والطاقة إمساكاً ومنعاً ، فأصل المعنى هنا فمن يستطيع لكم إمساك شيء من قدرة الله تعالى إن أراد بكم الخ ، واللام من ﴿ لَكُمْ ﴾ إما للبيان أو من صلة الفعل لأن هذه الاستطاعة مختصة بهم ولأجلهم ، و ﴿ مِنَ الله ﴾ حال من النكرة أعني شيئاً مقدمة ، وتفسير الملك بالمنع بيان لحاصل المعنى لأنه إذا لم يستطع أحد الإمساك والدفع فلا يمكنه المنع وليس ذلك لجعله مجازاً عنه أو مضمناً إياه واللام زائدة كما في

(17/713)

﴿ رَدِفَ لَكُم ﴾ [النمل : 72] و ﴿ مِنْ ﴾ متعلقة بيملك كما قيل ، والمراد بالضر والنفع ما يضر وما ينفع فهما مصدران مراد بهما الحاصل بالمصدر أو مؤولان بالوصف .

وقرأ حمزة .

والكسائي ﴿ ضَرّا ﴾ بضم الضاد وهو لغة فيه ، وحاصل معنى الآية قل لهم إذ لا أحد

يدفع ضره ولا نفعه تعالى فليس الشغل بالأهل والمال عذراً فلا ذاك يدفع الضر إن أراده عز وجل ولا مغافصة العدو تمنع النفع إن أراد بكم نفعاً ، وهذا كلام جامع في الجواب فيه تعريض بغيرهم من المبطلين وبجلالة محل المحقين ثم ترقى سبحانه منه إلى ما يتضمن تهديداً بقوله تعالى : ﴿ بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي بكل ما تعملونه ﴿ خَبِيراً ﴾ فيعلم سبحانه تخلفكم وقصدكم فيه ويجازيكم على ذلك ، ثم ختم جل وعلا بمكنون ضمائرهم ومخزون ما أعد لهم عنده تعالى بقوله سبحانه :

(18/713)

﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ بُوراً ﴾ وفي الانتصاف أن في قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَمْلِكُ ﴾ [الفتح : 11] الخ لفاً ونشراً والأصل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو من يحرمكم النفع أن أراد بكم نفعاً لأن من يملك يستعمل في الضر كقوله تعالى : ﴿ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ المسيح ﴾ [المائدة : 17] ﴿ وَمَن يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً ﴾ [المائدة : 41] ﴿ فَلاَ تَمْلِكُونَ لِى مِنَ اللهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [الأحقاف : 8] ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في بعض الحديث : " إني لا أملك لكم شيئاً " يخاطب عشيرته وأمثاله كثير ، وسر اختصاصه بدفع

المضرة أن الملك مضاف في هذه المواضع باللام ودفع المضرة نفع يضاف للمدفوع عنه وليس كذلك حرمان المنفعة فإنه ضرر عائد عليه لا له فإذا ظهر ذلك فإنما انتظمت الآية على هذا الوجه كذلك لأن القسمين يشتركان في أن كل واحد منهما نفى لدفع المقدور من خير وشر فلما تقاربا أدرجا في عبارة واحدة ؛ وخص عبارة دفع الضر لأنه هو المتوقع لهؤلاء إذ الآية في سياق التهديد والوعيد الشديد وهي نظير قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن ذَا الذى يَعْصِمُكُمْ مِّنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ [الأحزاب : 17] فإن العصمة إنما تكون من السوء لا من الرحمة ، فهاتان الآيتان توأمتان في التقرير المذكور انتهى ، والوجه ما ذكرناه أولاً في الآية ، وفي تسمية مثل هذا لفاً ونشراً نظر ، ثم إن الظاهر عموم الضر والنفع ، وقال شيخ الإسلام أبو السعود : المراد بالضر ما يضر من هلاك الأهل والمال وضياعهما وبالنفع ما ينفع من حفظ المال والأهل وتعميمهما يرده قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَانَ اللهِ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ [الفتح : 11] فإنه إضراب عما قالوه وبيان لكذبه بعد بيان

(19/713)

فساده على تقدير صدقه انتهى ، وهو كلام أو هي من بيت العنكبوت لأن في التعميم إفادة لما ذكر وزيادة تفيد قوة وبلاغة ، والظاهر أن كلاً من الإضرابات الثلاثة مقصودة ، وقال

شيخ الإسلام : إن قوله تعالى : ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ ﴾ الخ بدل من ﴿ كَانَ الله ﴾ الخ مفسر لما فيه من الإبهام .

وفي "البحر" أنه بيان للعلة في تخلفهم أي بل ظننتم ﴿ أَن لَّن يَنقَلِبَ ﴾ أي لن يرجع من ذلك السفر ﴿ الرسول والمؤمنون إلى أَهْلِيهِمْ ﴾ أي عشائرهم وذوي قرباهم ﴿ أَبَدًا ﴾ بأن يستأصلهم المشركون بالمرة فحسبتم إن كنتم معهم أن يصيبكم ما يصيبهم فلأجل ذلك تخلفتم لا لما ذكرتم من المعاذير الباطلة .

والأهلون جمع أهل وجمعه جمع السلامة على خلاف القياس لأنه ليس بعلم ولا صفة من صفات من يعقل ويجمع على أهلات بملاحظة تاء التأنيث في مفرده تقديراً فيجمع كتمرة وتمرات ونحوه أرض وأرضات ، وقد جاء على ما في "الكشاف" أهلة بالتاء ويجوز تحريك عينه أيضاً فيقال : اهلات بفتح الهاء ، وكذا يجمع على أهال كليال ، وأطلق عليه الزمخشري اسم الجمع ؛ وقيل : وهو إطلاق منه في الجمع الوارد على خلاف القياس وإلا فاسم الجمع شرطه عند النحاة أن يكون على وزن المفردات سواء كان له مفرد أم لا .

وقرأ عبد الله ﴿ إلى أَهْلِهِمْ ﴾ بغير ياء ، والآية ظاهرة في أن ﴿ لَنْ ﴾ ليست للتأبيد ومن زعم إفادتها إياه جعل ﴿ أَبَدًا ﴾ للتأكيد ﴿ وَزُيِّنَ ﴾ أي حسن ﴿ ذلك ﴾ أي الظن المفهوم من ظننتم ﴿ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ فلم تسعوا في إزالته فتمكن فيكم فاشتغلتم بشأن أنفسكم غير مبالين بالرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ؛ وقيل : الإشارة إلى المظنون

وهو عدم انقلاب الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين إلى أهليهم أبداً أي حسن ذلك في قلوبكم فأحببتموه والمراد من ذلك تقريعهم ببغضهم الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين والمناسب للسياق ما تقدم .

(20/713)

وقرىء ﴿ زُيِّنَ ﴾ بالبناء للفاعل بإسناده إلى الله تعالى أو إلى الشيطان ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السوء ﴾ وهو ظنهم السابق فتعريفه للعهد الذكرى وأعيد لتشديد التوبيخ والتسجيل عليه بالسوء أو هو عام فيشمل ذلك الظن وسائر ظنونهم الفاسدة التي من جملتها الظن بعدم رسالته عليه الصلاة والسلام فإن الجازم بصحتها لا يحوم فكره حول ما ذكر من الاستئصال فذكر ذلك للتعميم بعد التخصيص .

﴿ وَكُنتُمْ ﴾ في علم الله تعالى الأزلي ﴿ قَوْماً بُوراً ﴾ أي هالكين لفساد عقيدتكم وسوء نيتكم مستوجبين سخطه تعالى وعقابه جل شأنه ، وقيل : أي فاسدين في أنفسكم وقلوبكم ونياتكم لا خير فيكم ، والظاهر على ما في "البحر" أن بوراً في الأصل مصدر كالهلك ولذا وصف به المفرد المذكر في قول ابن الزبعرى :

يا رسول المليك إن لساني . . .

راتق ما فتقت إذ أنا بور

والمؤنث حكى أبو عبيدة امرأة بور والمثنى والمجموع ، وجوز أن يكون جمع بائر كحائل وحول وعائذ وعوذ وبازل وبزل ، وعلى المصدرية هو مؤول باسم الفاعل ، وجوز أن تكون كان بمعنى صار أي وصرتم بذلك الظن قوماً هالكين مستوجبين السخط والعقاب والظاهر إبقاؤها على بابها والمضي باعتبار العلم كما أشرنا إليه ، وقيل : أي كنتم قبل الظن فاسدين .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ الخ كلام مبتدأ من جهته عز وجل غير داخل في الكلام الملقن مقرر لبوارهم ومبين لكيفيته أي ومن لم يصدق بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم كدأب هؤلاء المخلفين ﴿ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا ﴾ هيأنا ﴿ لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً ﴾ ناراً مسعورة موقدة ملتهبة وكان الظاهر لهم فعدل عنه إلى ما ذكر إيذاناً بأن من لم يجمع بين الإيمان بالله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام فهو كافر وأنه مستوجب للسعير بكفره لمكان التعليق بالمشتق .

(21/713)

وتنكير سعير للتهويل لما فيه من الإشارة إلى أنها لا يمكن معرفتها واكتناه كنهها ، وقيل : لأنها نار مخصوصة فالتنكير للتنويع و ﴿ مِنْ ﴾ يحتمل أن تكون موصولة وأن تكون شرطية والعائد من الخبر أو من جواب الشرط هو الظاهر القائم مقام المضمر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(22/713)

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ لِّيُدْخِلَ المؤمنين والمؤمنات جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ الله فَوْزاً عَظِيماً وَيُعَذِّبَ المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظَّآنِّينَ بالله ظَنَّ السوء ﴾ .

أظهر الأقوال وأصحها في الآية أن اللام في قوله : ﴿ لِّيُدْخِلَ ﴾ متعقه بقوله ﴿ هُوَ الذي أَنزَلَ السكينة فِي قُلُوبِ المؤمنين ليزدادوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ [الفتح : 4] .

وإيضاح المعنى ﴿ هُوَ الذي أَنزَلَ السكينة ﴾ أي السكون والطمأنينة إلى الحق ، في قلوب المؤمنين ، ليزدادوا بذلك إيماناً لأجل أن يدخلهم بالطمأنينة إلى الحق ، وازدياد الإيمان جنات تجري من تحتها الأنهار .

ومفهوم المخالفة في قوله : ﴿ فِي قُلُوبِ المؤمنين ﴾ أن قلوب غير المؤمنين ليست كذلك وهو كذلك ولذا كان جزاؤهم مخالفاً لجزاء المؤمنين كما صرح تعالى بذلك في قوله : ﴿ وَيُعَذِّبَ المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظَنَّ السوء ﴾ .

وإيضاح المعنى أنه تعالى وفق المؤمنين بإنزال السكينة ، وازدياد الإيمان وأشقى غيرهم من المشركين والمنافقين فلم يوفقهم بذلك ليجازي كلا بمقتضى عمله .

وهذه الآية شبيهة في المعنى بقوله تعالى في آخر الأحزاب : ﴿ وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً لِّيُعَذِّبَ الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات وَيَتُوبَ الله عَلَى المؤمنين والمؤمنات ﴾ [الأحزاب : 72 - 73] .

قوله تعالى : ﴿ وَغَضِبَ الله عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرا ﴾

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، أنه يجازي المشركين والمشركات والمنافقين والمنافقات بثلاث عقوبات وهي غضبه ، ولعنته ، ونار جهنم .

(23/713)

وقد بين في بعض الآيات بعض نتائج هذه الأشياء الثلاثة ، كقوله في الغضب : ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هوى ﴾ [طه : 81] . وقوله في اللعنة ، ﴿ وَمَن يَلْعَنِ الله فَلَن تَجِدَ لَهُ

نَصِيراً ﴾ [النساء : 52] وقوله في نار جهنم : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النار فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ﴾ [آل عمران : 192] الآية .

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (8)

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، أنه أرسل نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم شاهداً ومبشراً ونذيراً .

وقد بين تعالى أنه يبعثه صلى الله عليه وسلم يوم القيامة شاهداً على أمته ، وأنه مبشر للمؤمنين ومنذر للكافرين . قال تعالى في شهادته صلى الله عليه وسلم يوم القيامة على أمته ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ على هؤلاء شَهِيداً ﴾ [النساء : 41] وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً على هؤلاءآء ﴾ [النحل : 89] .

فآية النساء وآية النحل المذكورتان الدالتان على شهادته صلى الله عليه وسلم يوم القيامة على أمته تبينان آية الفتح هذه .

وما ذكرنا من أنه مبشر للمؤمنين ونذير للكافرين أوضحه في قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ المتقين وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً ﴾ [مريم : 97] .

وقد أوضحنا هذا في أول سورة الكهف ، وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، ذكره وزيادة في سورة الأحزاب في قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً

وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً ﴾ [الأحزاب : 45 - 46] .

وقله هنا : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ حال مقدرة . وقوله : مبشراً ونذيراً كلاهما حال معطوف على حال .

(24/713)

قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُمْ مِّنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً ﴾ .

أمر الله جل وعلا نبيه أن يقول للمنافقين الذين تخلفوا عنه واعتذروا بأعذار كاذبة : ﴿ فَمَن يَمْلِكُ لَكُمْ مِّنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً ﴾ أي لا أحد يملك دفع الضر الذي أراد الله إنزاله بكم ولا منع النفع الذي أراد نفعكم به فلا نافع إلا هو ولا ضار إلا هو تعالى ، ولا يقدر أحد على دفع ضر أراده ولا منع نفع أراده .

وهذا الذي تضمنته هذه الآية الكريمة ، ما جاء موضحاً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى في الأحزاب ﴿ قُلْ مَن ذَا الذِي يَعْصِمُكُمْ مِّنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سواءا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِّن دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً ﴾ [الأحزاب : 17] .

وقوله تعالى في آخر يونس ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ ﴾ [يونس : 107] الآية .

وقوله في الأنعام : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام : 17] .

وقوله تعالى في المائدة : ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ ﴾ [فاطر : 2] الآية .

وقوله تعالى في الملك ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الكافرين مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الملك : 28] .

(25/713)

وقد ذكرنا بعض الآيات الدالة على هذا في أول سورة فاطر في الكلام على قوله تعالى ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ ﴾ الآية . وفي سورة الأحقاف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِ افتريته فَلاَ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئاً ﴾ [الأحقاف : 8] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(26/713)

وقال ابن عاشور :

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ﴾

لَمَّا حَذر من النكث ورغَّب في الوفاء أتبع ذلك بذكر التخلف عن الانضمام إلى جيش النبي صلى الله عليه وسلم حين الخروج إلى عمرة الحديبية وهو ما فعله الأعراب الذين كانوا نازلين حول المدينة وهم ست قبائل : غفار ومُزْينة وجُهينة وأشْجَع وأسْلَمَ والدِّيل بعد أن بايعوه على الخروج معه فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد المسير إلى العمرة استنفر مَن حول المدينة منهم ليخرجوا معه فيرهبه أهل مكة فلا يصدّوه عن عمرته فتثاقل أكثرهم عن الخروج معه .

وكان من أهل البيعة زيدُ بن خالد الجهني من جهينة وخرج معَ النبي صلى الله عليه وسلم من أسْلم مائةُ رجل منهم مِرْدَاس بن مالك الأسلمي والدُ عبَّاس الشاعر وعبدُ الله بن أبي أوفى وزاهرُ بن الأسود ، وأهبانُ بضم الهمزة بنُ أوس ، وسلَمةُ بن الأكْوَع الأسلمي ، ومن غفار خُفَافُ بضم الخاء المعجمة بن أيْمَاء بفتح الهمزة بعدها تحتية ساكنة ، ومن مزينة عَائذ بن عَمرو .

وتخلف عن الخروج معه معظمهم وكانوا يومئذٍ لم يتمكن الإيمان من قلوبهم ولكنهم لم يكونوا منافقين ، وأعَدّوا للمعذرة بعد رجوع النبي صلى الله عليه وسلم أنهم شغلتهم أموالهم وأهلوهم ، فأخبر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بما بيتوه في قلوبهم وفضح أمرهم من قَبْلِ

أن يعتذروا .

وهذه من معجزات القرآن بالأخبار التي قبل وقوعه .

فالجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً لمناسبة ذكر الإيفاء والنكث ، فكُمل بذكر من تخلفوا عن الداعي للعهد .

والمعنى : أنهم يقولون ذلك عند مرجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة معتذرين كاذبين في اعتذارهم .

والمخلّفون بفتح اللام هم الذين تخلّفوا .

وأطلق عليهم المخلفون أي غيرهم خلفهم وراءه ، أي تركهم خلفه ، وليس ذلك بمقتض أنهم مأذون لهم بل المخلف هو المتروك مطلقاً .

(27/713)

يقال : خلفنا فلاناً ، إذا مَرّوا به وتركوه لأنهم اعتذروا من قبل خُروج النبي صلى الله عليه وسلم فعذرهم بخلاف الأعراب فإنهم تخلف أكثرهم بعد أن استُنفروا ولم يعتذروا حينئذٍ .

والأموال : الإبل .

وأهلون : جمع أهل على غير قياس لأنه غير مستوفي لشروط الجمع بالواو والنون أو الياء والنون ، فعُدّ مما ألحق بجمع المذكر السالم .

ومعنى فاستغفر لنا : اسألْ لنا المغفرة من الله إذ كانوا مؤمنين فهو طلب حقيقي لأنهم كانوا مؤمنين ولكنهم ظنوا أن استغفار النبي صلى الله عليه وسلم لهم يمحو ما أضمروه من النكث وذهلوا عن علم الله بما أضمروه كدأب أهل الجهالة فقد قتل اليهود زكرياء مخافة أن تصدر منه دعوة عليهم حين قتلوا ابنه يحيى ولذلك عقب قولهم هنا بقوله تعالى : ﴿ بل كان الله بما تعملون خبيراً ﴾ الآية .

وجملة ﴿ يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ﴾ في موضع الحال .

ويجوز أن تكون بدل اشتمال من جملة ﴿ سيقول لك المخلفون ﴾ .

والمعنى : أنهم كاذبون فيما زعموه من الاعتذار ، وإنما كان تخلفهم لظنهم أن النبي صلى الله عليه وسلم يقصد قتال أهل مكة أو أن أهل مكة مقاتلوه لا محالة وأن الجيش الذين كانوا مع النبي صلى الله عليه وسلم لا يستطيعون أن يغلبوا أهل مكة ، فقد روي أنهم قالوا : يذهب إلى قوم غزَوْهُ في عُقر داره بالمدينة يعنون غزوة الأحزاب وقتلوا أصحابه فيقاتلهم وظنوا أنه لا ينقلب إلى المدينة وذلك من ضعف يقينهم .

﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ما فيه ردّ أمرهم إلى الله ليُعلمهم أن استغفاره الله لهم لا يُكره الله على المغفرة بل الله يفعل ما يشاء إذا أراده فإن كان أراد بهم نفعاً نفعهم وإن كان أراد بهم ضَرا ضرهم فما كان من النصح لأنفسهم أن يتورطوا فيما لا يرضي الله ثم يستغفرونه .

فلعله لا يغفر لهم ، فالغرض من هذا تخويفهم من عقاب ذنبهم إذ تخلفوا عن نفير النبي صلى الله عليه وسلم وكذبوا في الاعتذار ليُكثروا من التوبة وتدارك الممكن كما دل عليه قوله تعالى بعده ﴿ قل للمخلفين من الأعراب ستُدعون إلى قوم ﴾ [الفتح : 16] الآية .

فمعنى ﴿ إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً ﴾ هنا الإرادة التي جرت على وفق علمه تعالى من إعطائه النفع إياهم أو إصابته بضرّ وفي هذا الكلام توجيه بأن تخلّفهم سبب في حرمانهم من فضيلة شهود بيعة الرضوان وفي حرمانهم من شهود غزوة خيبر بنهيه عن حضورهم فيها .

ومعنى الملك هنا : القدرة والاستطاعة ، أي لا يقدر أحد أن يغير ما أراده الله وتقدم نظير هذا التركيب في قوله تعالى : ﴿ قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أنْ يُهلك المسيحَ ابن

مريم ﴾ في سورة العقود (17) .

والغالب في مثل هذا أن يكون لنفي القدرة على تحويل الشر خيراً كقوله : ﴿ ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً ﴾ [المائدة : 41] .

فكان الجري على ظاهر الاستعمال مقتضياً الاقتصار على نفي أن يملك أحد لهم شيئاً إذا أراد الله ضرهم دون زيادة أو أرادَ بكم نفعاً ، فتوجه هذه الزيادة أنها لقصد التتميم والاستيعاب ، ونظيرُه ﴿ قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رَحمة ﴾ في سورة الأحزاب (17) .

وقد مضى قريب من هذا في قوله تعالى:

﴿ قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ﴾ في سورة الأعراف (188) فراجعه .

(29/713)

وقرأ الجمهور ضَرا ﴾ بفتح الضاد ، وقرأه حمزة والكسائي بضمها وهما بمعنى ، وهو مصدر فيجوز أن يكون هنا مرادا به معنى المصدر ، أي إن أراد أن يضركم أو ينفعكم . ويجوز أن يكون بمعنى المفعول كالخَلق بمعنى المخلوق ، أي إن أراد بكم ما يُضركم وما

ينفعكم .

ومعنى تعلق ﴿ أراد ﴾ به أنه بمعنى أراد إيصال ما يضركم أو ما ينفعكم .

وهذا الجواب لا عِدة فيه من الله بأن يغفر لهم إذ المقصود تركهم في حالة وَجَل ليستكثروا من فِعل الحسنات .

وقُصدت مفاتحتهم بهذا الإبهام لإلقاء الوجل في قلوبهم أن يُغفر لهم ثم سيتبعه بقوله : ﴿ ولله ملك السماوات والأرض ﴾ [آل عمران : 189] الآية الذي هو أقرب إلى الإطماع .

و ﴿ بل ﴾ في قوله : ﴿ بل كان الله بما تعملون خبيرا ﴾ إضراب لإبطال قولهم ﴿ شغلتنا أموالُنا وأهلونا ﴾ .

وبه يزداد مضمون قوله : ﴿ يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ﴾ تقريراً لأنه يتضمن إبطالاً لعذرهم ، ومن معنى الإبطال يحصل بيان الإجمال الذي في قوله : ﴿ كان الله بما تعملون خبيراً ﴾ إذ يفيد أنه خبير بكذبهم في الاعتذار فلذلك أبطل اعتذارهم بحرف الإبطال .

وتقديم ﴿ بما تعملون ﴾ على متعلَّقه لقصد الاهتمام بذكر عملهم هذا .

وما صُدِق ﴿ ما تعملون ﴾ ما اعتقدوه وما ماهوا به من أسباب تخلفهم عن نفير الرسول وكثيراً ما سمّى القرآن الاعتقاد عملاً .

وفي قوله : ﴿ وكان بما تعملون خبيراً ﴾ تهديد ووعيد .

بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ

السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (12)

هذه الجملة بدل اشتمال من جملة ﴿ بل كان الله بما تعملون خبيرا ﴾ [الفتح : 11] ، أي خبيراً بما علمتم ، ومنه ظنكم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون .

وأعيد حرف الإبطال زيادة لتحقيق معنى البدلية كما يكرر العامل في المبدل منه والانقلاب : الرجوع إلى المأوى .

(30/713)

و ﴿ أنْ ﴾ مخففة من (أنَّ) المشددة واسمها ضمير الشأن وسدّ المصدر مسدّ مفعولي ﴿ ظننتم ﴾ ، وجيء بحرف ﴿ لن ﴾ المفيد استمرار النفي .

وأكد بقوله : ﴿ أبداً ﴾ لأن ظنهم كان قوياً .

والتزيين : التحسين ، وهو كناية عن قبول ذلك وإنما جعل ذلك الظن مزيناً في اعتقادهم لأنهم لم يفرضوا غيره من الاحتمال ، وهو أن يرجع الرسول صلى الله عليه وسلم سالماً .

وهكذا شأن العقول الواهية والنفوسُ الهاوية أن لا تأخذ من الصور التي تتصور بها الحوادث إلا الصورةَ التي تلوح لها في بادىء الرأي .

وإنما تلوح لها أول شيء لأنها الصورة المحبوبة ثم يعتريها التزيين في العقل فتلهو عن فرض

غيرها فلا تستعد لحَدثانه ، ولذلك قيل : حبك الشيء يُعمي ويُصم .

كانوا يقولون بين أقوالهم : إن محمداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه أَكَلَة بفتحات ثلاث رأس كناية عن القلة ، أي يشبعهم رأس بعير لا يرجعون ، أي هم قليل بالنسبة لقريش والأحابيش وكنانة ، ومن في حلفهم .

و﴿ ظن السَّوء ﴾ أعم من ظنهم أن لا يرجع الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ، أي ظننتم ظن السوء بالدين وبمن بقي من الموقنين لأنهم جزموا باستئصال أهل الحديبيّة وأنّ المشركين ينتصرون ثم يغزون المدينة بمن ينضمّ إليهم من القبائل فيُسقط في أيدي المؤمنين ويرتدون عن الدين فذلك ظن السوء .

والسَّوء بفتح السين تقدم آنفاً في قوله : ﴿ الظانين بالله ظن السوء ﴾ [الفتح : 6] .

والبُور : مصدر كالهُلْك بناءً ومعنى ، ومثله البوار بالفتح كالهلاك ولذلك وقع وصفاً بالإفراد وموصوفه في معنى الجمع .

والمراد الهلاك المعنوي ، وهو عدم الخير والنفع في الدين والآخرة نظير قوله تعالى : ﴿ يُهلكون أنفسهم ﴾ في سورة براءة (42) .

وإقحام كلمة قوماً ﴾ بين ﴿ كنتم ﴾ و ﴿ بُوراً ﴾ لإفادة أن البوار صار من مقوّمات قوميتهم لشدة تلبسه بجميع أفرادهم كما تقدم عند قوله تعالى ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾ في سورة البقرة (164) .

وقوله : ﴿ وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ في سورة يونس (101) .

وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (13)

جملة معترضة بين أجزاء القول المأمور به في قوله : ﴿ قل فمن يملك لكم من الله شيئاً ﴾ [الفتح : 11] الآيات وقوله : ﴿ ولله ملك السماوات والأرض ﴾ [آل عمران : 189] وهذا الاعتراض للتحذير من استدراجهم أنفسهم في مدارج الشك في إصابة أعمال الرسول صلى الله عليه وسلم أن يفضي بهم إلى دركات الكفر بعد الإيمان إذ كان تخلفهم عن الخروج معه وما عللوا به تثاقلهم في نفوسهم وإظهار عذر مكذوب أضمروا خلافه ، كل ذلك حوماً حول حمى الشك يوشكون أن يقعوا فيه .

و﴿ مَن ﴾ شرطية .

وإظهار لفظ الكافرين في مقام أن يقال : اعتدنا لهم سعيراً ، لزيادة تقرير معنى ﴿ من لم يؤمن بالله ورسوله ﴾ .

والسعير : النار المسعرة وهو من أسماء جهنم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (14) سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (15) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما انقضى حديث الجنود عامة ثم خاصة من المنتدبين والمخلصين وختم بعذاب الكافرين ، وكان المتصرف في الجنود ربما كان بعض خواص الملك ، فلا يكون تصرفه فيهم تاماً ، وكان الملك قد لا يقدر على عذاب من أراد من جنوده ، وكان إذا قدر قد لا يقدر على العذاب بكل ما يريده من السعير الموصوف وغيره لعدم عموم ملكه قال تعالى عاطفاً على آية الجنود : ﴿ ولله ﴾ أي الملك الأعظم وحده ﴿ ملك السماوات والأرض ﴾ أي من الجنود وغيرها ، يدبر ذلك كله كيف يشاء لا راد لحكمه ولا معقب .

ولما لم يكن في هؤلاء من عذب بما عذب الأمم الماضية من الريح وغيرها ، لم يذكر ما بين

الخافقين ، وذكر نتيجة التفرد بالملك بما يقتضيه الحال من الترغيب والترهيب : ﴿ يغفر لمن يشاء ﴾ أي لا اعتراض لأحد عليه بوجه ما ﴿ ويعذب من يشاء ﴾ أي لأنه لا يجب عليه شيء ولا يكافيه شيء ، وليس هو كالملوك الذين لا يتمكنون من مثل ذلك لكثرة الأكفاء المعارضين لهم في الجملة ، وعلم من هذا التقسيم المبهم أيضاً أن منهم من يرتد فيعذبه ، ومنهم من يثبت على الإسلام فيغفر له لأنه لا يعذب بغير ذنب وإن كان له أن يفعل ذلك ، لأنه لا يسأل عما يفعل وملكه تام ، فتصرفه فيه عدل كيفما كان .

ولما كان من يفعل الشيء في وقت قد لا يستمر على وصف القدرة عليه قال تعالى :

﴿ وكان الله ﴾ أي المحيط بصفات الكمال أزلاً وأبداً ، لم يتجدد له شيء لم يكن .

ولما ابتدأ الآية بالمغفرة ترغيباً في التوبة ، ختم بذلك لأن المقام له ، وزاد الرحمة تشريفاً لنبي المرحمة بالترغيب والدلالة على أن رحمته غلبت غضبه فقال : ﴿ غفوراً ﴾ أي لذنوب المسيئين ﴿ رحيماً ﴾ أي مكرماً بعد الستر بما لا تسعه العقول ، وقدرته على الإنعام كقدرته على الانتقام .

ولما ذم المخلفين بما منه – أي من الذم – أنهم هالكون بعد أن قدم أنه لعنهم ، وكان قد وعد سبحانه أهل الحديبية فتح خيبر جبراً لهم بما منعهم من الاستيلاء على مكة المشرفة لما له في ذلك من الحكم البالغة الدقيقة ، وختم بأنه نافذ الأمر ، وكان ذلك مستلزماً لإحاطة

العلم ، دل على كلا الأمرين بقوله استئنافاً ، جواباً لمن كأنه قال : هل يغفر للمخلفين حتى يكونوا كأنهم ما تخلفوا ؟ : ﴿ سيقول ﴾ أي بوعد لا خلف فيه .

(33/713)

ولما كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بحيث لا مطمع لأحد في أن يظفر منه بشيء من خلاف الأمر الله ، أسقط ما عبر به في ذكرهم أولاً من خطابه وقال : ﴿ المخلفون ﴾ أي لمن يطمعون فيه من الصحابة أن يسعى في تمكينهم من المسير في جيشه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لخفاء الحكم عليه ونحو ذلك ، ولم يقيدهم بالأعراب ليعم كل من كان يتخلف من غيرهم ﴿ إذا انطلقتم ﴾ بتمكين الله لكم ﴿ إلى مغانم ﴾ .

ولما أفهم اللفظ الأخذ ، والتعبير بصيغة منتهى الجموع كثرتها ، صرح بالأول رفعاً للمجاز فقال : ﴿ لتأخذوها ﴾ أي من خيبر ﴿ ذرونا ﴾ أي على أي حالة شئتم من الأحوال الدنية ﴿ نتبعكم ﴾ ولما كان يلزم من تمكينهم من ذلك إخلاف وعد الله بأنها تخص أهل الحديبية ، وأنه طرد المنافقين وخيب قصدهم ، علل تعالى قولهم بقوله : ﴿ يريدون ﴾ أي بذهابكم معكم ﴿ أن يبدلوا كلام الله ﴾ أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً في الإخبار بلعنهم وإبارتهم ، وأن فتح خيبر مختص بأهل الحديبية ، لا يشركهم فيه إلا من وافقهم في النية

والهجرة ، ليتوصلوا بذلك إلى تشكيك أهل الإسلام فيه ، والمراد أن فعلهم فعل من يريد ذلك ، ولا يبعد أن يكونوا صنفين : منهم من يريد ذلك ، ومنهم من لم يرده ولكن فعل من يريده .

ولما كان السامع جديراً بأن يسأل عما يقال لهم ، قال مخاطباً لأصدق الخلق عليه الصلاة والسلام : ﴿ قل ﴾ أي يا حبيب لهم إذا بلغك كلامهم أنت بنفسك ، فإن غيرك لا يقوم مقامك في هذا الأمر المهم ، قولاً مؤكداً : ﴿ لن تتبعونا ﴾ وإن اجتهدتم في ذلك ، وساقه مساق النفي وإن كان المراد به النهي ، لأنه مع كونه آكد يكون علماً من أعلام النبوة ، وهو أزجر وأدل على الاستهانة .

(34/713)

ولما أذن هذا التأكيد أنه من عند من لا يخالف أصلاً في مراده ، بينه تعالى بقوله :

﴿ كذلكم ﴾ أي مثل هذا القول البديع الشأن العلي الرتبة ﴿ قال الله ﴾ أي الذي لا يكون إلا ما يريد وليس هو كالملوك الذين لا قدرة لهم على الغفران لمن شاؤوا والعقاب لمن شاؤوا ﴿ من قبل ﴾ هذا الوقت ، وهو الذي لا يمكن الخلف في قوله ، فإنه قضى أن لا يحضر " خيبر " المرادة بهذه الغنائم إلا من حضر الحديبية ، وأمر بذلك فكان ما قال بعد اجتهاد

بعض المخلفين في إخلافه فإنهم غيّرهم الطمع بعد سماعهم قول الله هذا ، فطلبوا أن يخرجوا معه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمنعوا فلم يحضرها غيرهم أحد ، وذلك أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجع من الحديبية في ذي الحجة سنة ست ، فأقام إلى أثناء محرم سنة سبع ، وخرج بأهل الحديبية إلى خيبر ففتحها الله عليه ، وأخذ جميع أموالها من المنقولات والعقارات ، وأتى إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو بها بعد فتحها ابن عمه جعفر بن أبي طالب ـ رضى الله عنه ـ وبعض من معهم من مهاجرة الحبشة ، فأشركهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع أهل الحديبية لأنهم لم يكونوا مخلفين بل كانوا متخلفين لعذر عدم الإدراك . ولما كانوا منافقين لا يعتقدون شيئاً من هذه الأقوال ، بل يظنون أنها حيل على التوصل إلى المرادات الدنيوية ، سبب عن قولهم له ذلك تنبيهاً على جلافتهم وفساد ظنونهم :

﴿ فسيقولون ﴾ : ليس الأمر كما ذكر مما ادعى أنه قول الله ﴿ بل ﴾ إنما ذلكم لأنكم ﴿ تحسدوننا ﴾ فلا تريدون أن يصل إلينا من مال الغنائم شيء .

ولما كان التقدير : وليس الأمر كما زعموا ، رتب عليه قوله : ﴿ بل كانوا ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ لا يفقهون ﴾ أي لا يفهمون فهم الحاذق الماهر ﴿ إلا قليلاً ﴾ في أمر دنياهم ، ومن ذلك إقرارهم بالإيمان لأجلها ، وأما أمور الآخرة فلا يفهمون منها شيئاً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 198 . 200 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾

بعد ما ذكر من له أجر عظيم من المبايعين ومن له عذاب أليم من الظانين الضالين ، أشار إلى أنه يغفر للأولين بمشيئته ويعذب الآخرين بمشيئته ، وغفرانه ورحمته أعم وأشمل وأتم وأكمل ، وقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ يفيد عظمة الأمرين جميعاً لأن من عظم ملكه يكون أجره وهبته في غاية العظم وعذابه وعقوبته كذلك في غاية النكال والألم .

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ

ثم قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ المخلفون إِذَا انطلقتم إلى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ .

أوضح الله كذبهم بهذا حيث كانوا عندما يكون السير إلى مغانم يتوقعونها يقولون من تلقاء أنفسهم ﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ فإذا كان أموالهم وأهلوهم شغلتهم يوم دعوتكم إياهم إلى أهل مكة ، فما بالهم لا يشتغلون بأموالهم يوم الغنيمة ، والمراد من المغانم مغانم أهل خيبر وفتحها وغنم المسلمون ولم يكن معهم إلا من كان معه في المدينة ، وفي قوله ﴿ سَيَقُولُ المخلفون ﴾ وعد المبايعين الموافقين بالغنيمة والمتخلفين المخالفين بالحرمان .

وقوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كلام الله قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كذلكم قَالَ الله مِن قَبْلُ ﴾ .

يحتمل وجوهاً أحدها : هو ما قال الله إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية وعاهد بها لا غير وهو الأشهر عند المفسرين ، والأظهر نظراً إلى قوله تعالى : ﴿كذلكم قَالَ اللهُ مِن قَبْلُ﴾ ، ثانيها : يريدون أن يبدلوا كلام الله وهو قوله ﴿وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح : 6] وذلك لأنهم لو اتبعوكم لكانوا في حكم بيعة أهل الرضوان الموعودين بالغنيمة فيكونون من الذين رضي الله عنهم كما قال تعالى : ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ المؤمنين إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشجرة﴾ [الفتح : 18] فلا يكونون من الذين غضب الله عليهم فيلزم تبديل كلام الله ثالثها : هو أن النبي صلى الله عليه وسلم لما تخلف القوم أطلعه الله على باطنهم وأظهر له نفاقهم وأنه يريد أن يعاقبهم وقال للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿فَقُلْ لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تقاتلوا مَعِيَ عَدُوّا﴾ [التوبة : 83] فأرادوا أن يبدلوا ذلك الكلام بالخروج معه ، لا يقال فالآية التي ذكرتم واردة في غزوة تبوك لا في هذه الواقعة ، لأنا نقول قد وجد ههنا بقوله ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ على صيغة النفي بدلاً عن قوله : لا تتبعونا ، على صيغة النهي معنى لطيف وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم بنى على إخبار الله تعالى عنهم النفي لوثوقه وقطعه بصدقه فجزم وقال : ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ يعني لو أذنتكم ولو أردتم واخترتم لا يتم لكم

ذلك لما أخبر الله تعالى .

ثم قال تعالى : ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ .

(37/713)

رداً على قوله تعالى : ﴿ كذلكم قَالَ اللهُ مِن قَبْلُ ﴾ كأنهم قالوا : ما قال الله كذلك من قبل ، بل تحسدوننا ، وبل للاضراب والمضروب عنه محذوف في الموضعين ، أما ههنا فهو بتقدير ما قال الله وكذلك ، فإن قيل بماذا كان الحسد في اعتقادهم ؟ نقول كأنهم قالوا نحن كنا مصيبين في عدم الخروج حيث رجعوا من الحديبية من غير حاصل ونحن استرحنا ، فإن خرجنا معهم ويكون فيه غنيمة يقولون هم غنموا معنا ولم يتعبوا معنا .

ثم قال تعالى رداً عليهم كما ردوا ﴿ بَلْ كَانُوا لاَ يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أي لم يفقهوا من قولك لا تخرجوا إلا ظاهر النهي ولم يفهموا من حكمه إلا قليلاً فحملوه على ما أرادوه وعللوه بالحسد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 78 . 79 ﴾

(38/713)

وقال القرطبى :

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

أي هو غنيٌّ عن عباده ، وإنما ابتلاهم بالتكليف ليثيب من آمن ويعاقب من كفر وعصى .

قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ المخلفون إِذَا انطلقتم إلى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ﴾

يعني مغانم خيبر ؛ لأن الله عز وجل وعد أهل الحديبية فتح خَيْبَر ، وأنها لهم خاصّةً من غاب منهم ومن حضر .

ولم يَغِب منهم عنها غير جابر بن عبد الله فقسم له رسول الله صلى الله عليه وسلم كَسَهْمِ مَن حضر .

قال ابن إسحاق : وكان المتولّي للقسمة بخيبر جَبّار بن صخر الأنصاري من بني سلمة ، وزيد بن ثابت من بني النجار ؛ كانا حاسبين قاسمين .

﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ أي دعونا .

تقول : ذَرْه ، أي دعه .

وهو يَذَرُه ، أي يَدَعُه .

وأصله وذِرَه يَذَرُه مثال وسِعَه يَسَعُه .

وقد أُمِيت صدره ، لا يقال : وذَره ولا واذر ، ولكن تركه وهو تارك .

قال مجاهد : تخلفوا عن الخروج إلى مكة ، فلما خرج النبي صلى الله عليه وسلم وأخذ قوماً

ووجّه بهم قالوا ذَرُونا نتّبعكم فنقاتل معكم .

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلاَمَ اللّهِ ﴾ أي يغيّروا .

قال ابن زيد : هو قوله تعالى : ﴿ فاستأذنوكِ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوّاً ﴾ [التوبة : 83] الآية .

وأنكر هذا القول الطبري وغيره ؛ بسبب أن غزوة تَبُوك كانت بعد فتح خَيْبَر وبعد فتح مكة .

وقيل : المعنى يريدون أن يغيّروا وعد الله الذي وعد لأهل الحُدَيْبِيَة ؛ وذلك أن الله تعالى جعل لهم غنائم خيبر عِوَضاً عن فتح مكة إذ رجعوا من الحديبية على صلح ؛ قاله مجاهد وقتادة ، واختاره الطبري وعليه عامة أهل التأويل .

وقرأ حمزة والكسائي "كَلِمَ" بإسقاط الألف وكسر اللام جمع كلمة ؛ نحو سَلِمة وسَلِم .

الباقون "كَلاَمَ" على المصدر .

(39/713)

واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، اعتبارا بقوله : ﴿ إِنِّي اصطفيتك عَلَى الناس بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي ﴾ [الأعراف : 144] .

والكلام : ما استقل بنفسه من الجمل .

قال الجوهري : الكلام اسم جنس يقع على القليل والكثير .

والكَلِم لا يكون أقل من ثلاث كلمات لأنه جمع كلمة ؛ مثل نَبِقة ونَبِق .

ولهذا قال سيبويه : "هذا بابُ عِلْم مَا الكَلِمُ من العربية" ولم يقل ما الكلام ؛ لأنه أراد نفس ثلاثة أشياء : الاْسم والفعل والحرف ؛ فجاء بما لا يكون إلا جمعاً ، وترك ما يمكن أن يقع على الواحد والجماعة .

وتميم تقول : هي كِلْمة ، بكسر الكاف ، وقد مضى في "براءة" القول فيها .

﴿ كَذَلِكُمْ قَالَ اللهُ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل رجوعنا من الحديبية إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية خاصة .

﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ أن نُصيب معكم من الغنائم .

وقيل : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن خرجتم لم أمنعكم إلا أنه لا سهم لكم " فقالوا : هذا حسد .

فقال المسلمون : قد أخبرنا الله في الحديبية بما سيقولونه وهو قوله تعالى : ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ فقال الله تعالى : ﴿ بَلْ كَانُواْ لاَ يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ يعني لا يعلمون إلا أمر الدنيا .

وقيل : لا يفقهون من أمر الدين إلا قليلاً ؛ وهو ترك القتال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(40/713)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض ﴾

فهو عز وجل المتصرف في الكل كما يشاء ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء ﴾ أن يغفر له ﴿ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء ﴾ أن يعذبه من غير دخل لأحد في شيء من غفرانه تعالى وتعذيبه جل وعلا وجوداً وعدماً ﴿ وَكَانَ الله غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ مبالغاً في المغفرة لمن يشاء ولا يشاء سبحانه إلا لمن تقتضي الحكمة المغفرة له ممن يؤمن به سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم وأما من عداه من الكافرين المجاهرين والمنافقين فهم بمعزل من ذلك قطعاً وفي تقديم المغفرة والتذييل بكونه تعالى غفوراً بصيغة المبالغة وضم رحيماً إليه الدال على المبالغة أيضاً دون التذييل بما يفيد كونه سبحانه معذباً مما يدل على سبق الرحمة ما فيه .

(41/713)

وفي الحديث "كتب ربكم على نفسه بيده قبل أن يخلق الخلق رحمتي سبقت غضبي "
وهذا السبق على ما أشار إليه في أنوار التنزيل ذاتي وذلك لأن الغفران والرحمة بحسب الذات والتعذيب بالعرض وتبعيته للقضاء والعصيان المقتضى لذلك وقد صرح غير واحد بأن الخير هو المقضي بالذات والشر بالعرض إذ لا يوجد شر جزئي ألا وهو متضمن لخير كلي ، وفصل ذلك في شرح الهياكل ، وقال بعض الأجلة : المراد بالسبق في الحديث كثرة الرحمة وشمولها وكذا المراد بالغلبة الواقعة في بعض الروايات ، وذلك نظير ما يقال : غلب على فلان الكرم ومن جعل الرحمة والغضب من صفات الأفعال لم يشكل عليه أمر السبق ولم يحتج إلى جعله ذاتياً كما لا يخفى والآية على ما قال أبو حيان لترجية أولئك المنافقين بعض الترجية إذا آمنوا حقيقة ، وقيل : لحسم أطماعهم الفارغة في استغفاره عليه الصلاة والسلام لهم ، وفسر الزمخشري ﴿ مَن يَشَآء ﴾ الأول بالتائب والثاني بالمصر ثم قال : يكفر سبحانه السيآت باجتناب الكبائر ويغفر الكبائر بالتوبة وهو اعتزال منه مخالف لظاهر الآية ، وقال الطيبي يمكن أن يقال : إن قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السموات ﴾ الخ موقعه موقع التذييل لقوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بالله وَرَسُولِهِ ﴾ (الفتح ؛ 13) الآية على أن يقدر له ما يقابله من قوله ومن آمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا لمؤمنين الجنان مثلاً فلا يقيد شيء مما قيده ليؤذن بالتصرف التام والمشيئة النافذة والغفران الكامل والرحمة

الشاملة فتأمل ولا تغفل .

﴿ سَيَقُولُ المخلفون ﴾

(42/713)

المذكورون من الأعراب فاللام للعهد وقوله تعالى : ﴿ إِذَا انطلقتم إلى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ﴾ ظرف لما قبله لا شرط لما بعده والمراد بالمغانم مغانم خيبر كما عليه عامة المفسرين ولم نقف على خلاف في ذلك وأيد بأن السين تدل على القرب وخيبر أقرب المغانم التي انطلقوا إليها من الحديبية كما علمت فإرادتها كالمتعينة ، وقد جاء في الأخبار الصحيحة أن الله تعالى وعد أهل الحديبية أن يعوضهم من مغانم مكة خيبر إذا قفوا موادعين لا يصيبون شيئاً وخص سبحانه ذلك بهم أي سيقولون عند إطلاقكم إلى مغانم خيبر لتأخذوها حسبما وعدكم الله تعالى إياها وخصكم بها طمعاً في عرض الدنيا لما أنهم يرون ضعف العدو ويتحققون النصرة ﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ إلى خيبر ونشهد معكم قتال أهلها ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كلام الله ﴾ بأن يشاركوا في الغنائم التي خصها سبحانه بأهل الحديبية وحاصله يريدون الشركة التي لا تحصل لهم دون نصرة الدين وإعلاء كلمة الله تعالى ، والجملة استئناف لبيان مرادهم بذلك القول ، وقيل : يجوز أن تكون حالاً من المخلفين وهو خلاف

الظاهر ولا ينافي خبر التخصيص إعطاؤه عليه الصلاة والسلام بعض مهاجري الحبشة القادمين مع جعفر وبعض الدوسيين والأشعريين من ذلك وهم أصحاب السفينة كما في "البخاري" فإنه كان استنزالاً للمسلمين عن بعض حقوقهم لهم أو أن بعضها فتح صلحاً وما أعطاه عليه الصلاة والسلام فهو بعض مما صالح عليه وكل هذا مذكور في السير لكن الذي صححه المحدثون أنه لا صلح فيها .

وقال الكرماني : إنما أعطاهم صلى الله عليه وسلم برضا أصحاب الوقعة أو أعطاهم من الخمس الذي هو حقه عليه الصلاة والسلام ، وميل البخاري إلى الثاني وحمل كلام الله تعالى على وعده بتلك الغنائم لهم خاصة هو الذي عليه مجاهد .

(43/713)

وقتادة وعامة المفسرين ، وقال ابن زيد : كلام الله قوله سبحانه وتعالى : ﴿ قُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبداً ﴾ [التوبة : 83] ووافقه الجبائي على ذلك وشنع عليهما غير واحد بأن ذلك نازل في المخلفين في غزوة تبوك من المنافقين وكانت تلك الغزوة يوم الخميس في رجب سنة تسع بلا خلاف كما قال القسطلاني والحديبية في سنة ست كما قاله ابن الجوزي .

وغيره وهذه إنما نزلت بعيد الانصراف من الحديبية كما علمت وأيضاً قال في "البحر" : قد

غزت مزينة وجهينة من هؤلاء المخلفين بعد هذه المدة معه عليه الصلاة والسلام وفضلهم صلى الله عليه وسلم بعد ذلك على تميم .

وغطفان .

وغيرهم من العرب ، وفي "الكشف" لعل القائل بذلك أراد أن هؤلاء المخلفين لما كانوا منافقين مثل المخلفين عن تبوك كان حكم الله تعالى فيهم واحداً ، ألا ترى أن المعنى الموجب مشترك وهو رضاهم بالقعود أول مرة ، فكلام الله تعالى أريد به حكمه السابق وهو أن المنافق لا يستصحب في الغزو ، ولم يرد أن هذا الحكم منقاس على ذلك الأصل أو الآية نازلة فيهم أيضاً فهذا ما يمكن في تصحيحه انتهى ، ويقال عما في "البحر" : إن الذين غزوا بعد لم يغزوا حتى أخلصوا ولم يبقوا منافقين والله تعالى أعلم .

وقرأ حمزة .

(44/713)

والكسائي ﴿ يَسْمَعُونَ كلام الله ﴾ وهو اسم جنس جمعي واحده كلمة ﴿ قُلْ ﴾ أقناطاً لهم ﴿ لَّن تَتَّبِعُونَا ﴾ أي لا تتبعونا فإنه نفى في معنى النهي للمبالغة ، والمراد نهيهم عن الاتباع فيما أرادوا الاتباع فيه في قولهم : ﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ وهو الانطلاق إلى خيبر

كما نقل عن محيي السنة عليه الرحمة ، وقيل : المراد ولا تتبعونا ما دمتم مرضى القلوب ، وعن مجاهد كان الموعد أي الموعد الذي تغييره تبديل كلام الله تعالى وهو موعده سبحانه لأهل الحديبية أنهم لا يتبعون رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا متطوعين لا نصيب لهم في المغنم فكأنه قيل : لن تتبعونا إلا متطوعين ، وقيل : المراد التأبيد ، وظاهر السياق الأول ﴿ كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللهُ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل أن تهيأتم للخروج معنا وذلك عند الانصراف من الحديبية ﴿ فَسَيَقُولُونَ ﴾ للمؤمنين عند سماع هذا النهي ﴿ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ أن نشارككم في الغنائم ، وهو إضراب عن كونه بحكم الله تعالى أي بل إنما ذلك من عند أنفسكم حسداً .

وقرأ أبو حيوة ﴿ تَحْسُدُونَنَا ﴾ بكسر السين ﴿ بَلْ كَانُواْ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ لا يفهمون ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أي إلا فهماً قليلاً وهو فهمهم لأمور الدنيا ، وهو رد لقولهم الباطل في المؤمنين ووصف لهم بما هو أعظم من الحسد وأطم وهو الجهل المفرط وسوء الفهم في أمور الدين ، وفيه إشارة إلى ردهم حكم الله تعالى وإثباتهم الحسد لأولئك السادة من الجهل وقلة التفكر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(45/713)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (8) ﴾

قوله : ﴿ إِنَّا أرسلناك شَاهِداً ﴾ أي : على أمتك بتبليغ الرسالة إليهم ﴿ وَمُبَشّراً ﴾ بالجنة للمطيعين ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ لأهل المعصية ﴿ لّتُؤْمِنُواْ بالله وَرَسُولِهِ ﴾ قرأ الجمهور ﴿ لتؤمنوا ﴾ بالفوقية .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو بالتحتية ، فعلى القراءة الأولى : الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأمته ، وعلى القراءة الثانية المراد : المبشرين والمنذرين ، وانتصاب ﴿ شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ على الحال المقدرة ﴿ وَتُعَزّرُوهُ وَتُوَقّرُوهُ وَتُسَبّحُوهُ ﴾ الخلاف بين القراء في هذه الثلاثة الأفعال كالخلاف في : ﴿ لّتُؤْمِنُواْ ﴾ كما سلف ، ومعنى تعزروه : تعظموه وتفخموه ؛ قاله الحسن ، والكلبي ، والتعزير : التعظيم والتوقير .

وقال قتادة : تنصروه وتمنعوا منه .

وقال عكرمة : تقاتلون معه بالسيف ، ومعنى توقروه : تعظموه .

وقال السديّ : تسوّدوه ، قيل : والضميران في الفعلين للنبي صلى الله عليه وسلم وهنا وقف تام ، ثم يبتدىء : وتسبحوه أي : تسبحوا الله عزّ وجل ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ أي : غدوة وعشية ، وقيل : الضمائر كلها في الأفعال الثلاثة لله عزّ وجلّ ، فيكون معنى تعزروه وتوقروه : تثبتون له التوحيد ، وتنفون عنه الشركاء ، وقيل : تنصروا دينه وتجاهدوا مع

رسوله .

وفي التسبيح وجهان ، أحدهما : التنزيه له سبحانه من كل قبيح ، والثاني : الصلاة .

(46/713)

﴿ إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ ﴾ يعني : بيعة الرضوان بالحديبية ، فإنهم بايعوا تحت الشجرة على قتال قريش ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله ﴾ أخبر سبحانه أن هذه البيعة لرسوله صلى الله عليه وسلم هي بيعة له كما قال : ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله ﴾ [النساء : 80] وذلك لأنهم باعوا أنفسهم من الله بالجنة ، وجملة : ﴿ يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ مستأنفة لتقرير ما قبلها على طريق التخييل ، في محل نصب على الحال ، والمعنى : أن عقد الميثاق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كعقده مع الله سبحانه من غير تفاوت .

وقال الكلبي : المعنى : إن نعمة الله عليهم في الهداية فوق ما صنعوا من البيعة .

وقيل : يده في الثواب فوق أيديهم في الوفاء .

وقال ابن كيسان : قوّة الله ونصرته فوق قوّتهم ونصرتهم ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ على نَفْسِهِ ﴾ أي : فمن نقض ما عقد من البيعة ، فإنما ينقض على نفسه ؛ لأن ضرر ذلك راجع إليه لا يجاوزه إلى غيره ﴿ وَمَنْ أوفى بِمَا عاهد عَلَيْهِ الله ﴾ أي : ثبت على الوفاء بما

عاهد الله عليه في البيعة لرسوله .

قرأ الجمهور ﴿ عليه ﴾ بكسر الهاء وقرأ حفص ، والزهري بضمها ﴿ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ وهو الجنة .

قرأ الجمهور ﴿ فسيؤتيه ﴾ بالتحتية ، وقرأ نافع ، وقرأ كثير ، وابن عامر بالنون ، واختار القراءة الأولى أبو عبيد ، وأبو حاتم ، واختار القراءة الثانية الفراء .

﴿ سَيَقُولُ لَكَ المخلفون مِنَ الأعراب ﴾ هم الذين خلفهم الله عن صحبة رسوله حين خرج عام الحديبية .

قال مجاهد ، وغيره يعني : أعراب غفار ، ومزينة ، وجهينة ، وأسلم ، وأشجع ، والدئل ، وهم الأعراب الذين كانوا حول المدينة .

(47/713)

وقيل : تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سافر إلى مكة عام الفتح بعد أن كان قد استنفرهم ليخرجوا معه ، والمخلف : المتروك ﴿ شَغَلَتْنَا أموالنا وَأَهْلُونَا ﴾ أي : منعنا عن الخروج معك ما لنا من الأموال ، والنساء ، والذراري ، وليس لنا من يقوم بهم ، ويخلفنا عليهم ﴿ فاستغفر لَنَا ﴾ ليغفر الله لنا ما وقع منا من التخلف عنك بهذا السبب

، ولما كان طلب الاستغفار منهم ليس عن اعتقاد بل على طريقة الاستهزاء ، وكانت بواطنهم مخالفة لظواهرهم ، فضحهم الله سبحانه بقوله : ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ وهذا هو صنيع المنافقين ، والجملة مستأنفة لبيان ما تنطوي عليه بواطنهم ، ويجوز أن تكون بدلاً من الجملة الأولى .

ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيب عنهم ، فقال : ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُمْ مِّنَ اللهِ شَيْئاً ﴾ أي : فمن يمنعكم مما أراده الله بكم من خير وشرّ ، ثم بيّن ذلك ، فقال : ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً ﴾ أي : إنزال ما يضركم من ضياع الأموال وهلاك الأهل .

قرأ الجمهور ﴿ ضرًّا ﴾ بفتح الضاد ، وهو مصدر ضررته ضرًّا .

وقرأ حمزة ، والكسائي بضمها وهو اسم ما يضرّ ، وقيل : هما لغتان ﴿ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً ﴾ أي : نصراً وغنيمة ، وهذا ردّ عليهم حين ظنوا أن التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفع عنه الضرّ ، ويجلب لهم النفع .

(48/713)

ثم أضرب سبحانه عن ذلك ، وقال : ﴿ بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ أي : إن تخلفكم ليس لما زعمتم ، بل كان الله خبيراً بجميع ما تعملونه من الأعمال التي من جملتها تخلفكم ،

وقد علم أن تخلفكم لم يكن لذلك ، بل للشك والنفاق ، وما خطر لكم من الظنون الفاسدة الناشئة عن عدم الثقة بالله ، ولهذا قال : ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرسول والمؤمنون إلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً ﴾ وهذه الجملة مفسرة لقوله : ﴿ بَلْ كَانَ الله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ لما فيها من الإبهام ، أي : بل ظننتم أن العدوّ يستأصل المؤمنين بالمرة ، فلا يرجع منهم أحد إلى أهله ، فلأجل ذلك تخلفتم لا لما ذكرتم من المعاذير الباطلة ﴿ وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ أي : وزين الشيطان ذلك الظن في قلوبكم فقبلتموه .

قرأ الجمهور : " وزين " مبنياً للمفعول ، وقرىء مبنياً للفاعل ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السوء ﴾ أن الله سبحانه لا ينصر رسوله ، وهذا الظن إما هو الظنّ الأوّل ، والتكرير للتأكيد والتوبيخ ، والمراد به : ما هو أعمّ من الأوّل ، فيدخل الظنّ الأوّل تحته دخولاً أوّلياً ﴿ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً ﴾ أي : هلكى ، قال الزجاج : هالكين عند الله ، وكذا قال مجاهد .

قال الجوهري : البور : الرجل الفاسد الهالك الذي لا خير فيه .

قال أبو عبيد ﴿ قَوْماً بُوراً ﴾ : هلكى ، وهو جمع بائر ، مثل حائل وحول ، وقد بار فلان ، أي : هلك ، وأباره الله : أهلكه .

﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً ﴾ هذا الكلام مستأنف من جهة الله سبحانه غير داخل تحت ما أمر الله سبحانه رسوله أن يقوله ، أي : ومن لم يؤمن بهما ، كما صنع هؤلاء المخلفون ، فجزاؤهم ما أعدّه الله لهم من عذاب السعير ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ يتصرّف فيه كيف يشاء لا يحتاج إلى أحد من خلقه ، وإنما تعبدهم بما تعبدهم ليثيب من أحسن ويعاقب من أساء ، ولهذا قال : ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء ﴾ أن يغفر له ﴿ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء ﴾ أن يعذبه ﴿ لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ [الأنبياء : 23] ﴿ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ أي : كثير المغفرة والرحمة ، بليغها يخص بمغفرته ورحمته من يشاء من عباده .

﴿ سَيَقُولُ المخلفون إِذَا انطلقتم إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ﴾ المخلفون هؤلاء المذكورون سابقاً ، والظرف متعلق بقوله : ﴿ سَيَقُولُ ﴾ والمعنى : سيقولون عند انطلاقكم أيها المسلمون ﴿ إِلَى مَغَانِمَ ﴾ يعني : مغانم خيبر ﴿ لِتَأْخُذُوهَا ﴾ لتحوزوها ﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ أي : اتركونا نتبعكم ونشهد معكم غزوة خيبر .

وأصل القصة أنه لما انصرف النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين من الحديبية وعدهم الله فتح خيبر ، وخصّ بغنائمها من شهد الحديبية ، فلما انطلقوا إليها قال هؤلاء المخلفون : ذرونا نتبعكم ، فقال الله سبحانه : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كلام الله ﴾ أي : يغيروا كلام الله ، والمراد بهذا الكلام الذي أرادوا أن يبدّلوه : هو مواعيد الله لأهل الحديبية

خاصة بغنيمة خيبر .

وقال مقاتل : يعني : أمر الله لرسوله أن لا يسير معه أحد منهم .

(50/713)

وقال ابن زيد : هو قوله تعالى : ﴿ فإذا اسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تقاتلوا مَعِيَ عَدُوًّا ﴾ [التوبة : 83] واعترض هذا ابن جرير وغيره بأن غزوة تبوك كانت بعد فتح خيبر ، وبعد فتح مكة ، والأوّل أولى ، وبه قال مجاهد ، وقتادة ، ورجحه ابن جرير ، وغيره .

قرأ الجمهور ﴿ كلام الله ﴾ وقرأ حمزة ، والكسائي (كلم الله) قال الجوهري : الكلام اسم جنس يقع على القليل والكثير ، والكلم لا يكون أقلّ من ثلاث كلمات ؛ لأنه جمع كلمة مثل نبقة ونبق ، ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يمنعهم من الخروج معه ، فقال : ﴿ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا ﴾ هذا النفي هو في معنى النهي ، والمعنى : لا تتبعونا ﴿ كَذَلِكُمْ قَالَ اللهُ مِن قَبْلُ ﴾ أي : من قبل رجوعنا من الحديبية أن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية خاصة ليس لغيرهم فيها نصيب ﴿ فَسَيَقُولُونَ ﴾ يعني : المنافقين عند سماع هذا القول ، وهو قوله : ﴿ لَن تَتَّبِعُونَا ﴾ بل ﴿ تَحْسُدُونَنَا ﴾ أي : بل ما يمنعكم من خروجنا معكم

إلاّ الحسد ؛ لئلا نشارككم في الغنيمة ، وليس ذلك بقول الله كما تزعمون ، ثم ردّ الله سبحانه عليهم بقوله : ﴿ بَلْ كَانُواْ لاَ يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أي : لا يعلمون إلاّ علماً قليلاً ، وهو علمهم بأمر الدنيا ، وقيل : لا يفقهون من أمر الدين إلاّ فقهاً قليلاً ، وهو ما يصنعونه نفاقاً بظواهرهم دون بواطنهم .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ يعني : الإجلال ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ يعني : التعظيم ، يعني : محمداً صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، والحاكم ، وابن مردويه ، والضياء في المختارة عنه في قوله : ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ قال : تضربوا بين يديه بالسيف .

(51/713)

وأخرج ابن عديّ ، وابن مردويه ، والخطيب ، وابن عساكر في تاريخه عن جابر بن عبد الله قال : لما أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ قال لأصحابه : " ما ذاك " ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : " لتنصروه " وأخرج أحمد ، وابن مردويه عن عبادة بن الصامت قال : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، وعلى النفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر ، وعلى أن نقول في الله لا تأخذنا فيه لومة لائم ، وعلى أن ننصره إذا قدم علينا يثرب ، فنمنعه مما نمنع منه أنفسنا ، وأزواجنا ، وأبناءنا ، ولنا الجنة ، فمن وفى وفى الله له ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه .

وفي الصحيحين من حديث جابر : أنهم كانوا في بيعة الرضوان خمس عشرة مائة .

وفيهما عنه : أنهم كانوا أربع عشرة مائة .

وفي البخاري من حديث قتادة عن سعيد بن المسيب أنه سأله كم كانوا في بيعة الرضوان ؟ قال : خمس عشرة مائة ، فقال له : إن جابراً قال : كانوا أربع عشرة مائة ، قال رحمه الله : وهِم ، هو حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 49.47 ﴾

(52/713)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

عطف على جملة ﴿ فمن يملك لكم من الله شيئاً ﴾ [الفتح : 11] فهو من أجزاء القول ، وهذا انتقال من التخويف الذي أوهمه ﴿ فمن يملك لكم من الله شيئا ﴾ إلى إطماعهم

بالمغفرة التي سألوها ، ولذلك قدم الضر على النفع في الآية الأولى فقيل ﴿ إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا ﴾ [الفتح : 11] ليكون احتمال إرادة الضر بهم أسبق في نفوسهم .

وقدمت المغفرة هنا بقوله : ﴿ يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ ليتقرر معنى الإطماع في نفوسهم فيبتدروا إلى استدراك ما فاتهم .

وهذا تمهيد لوعدهم الآتي في قوله : ﴿ قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد إلى قوله : ﴿ فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً ﴾ [الفتح : 16] .

وزاد رجاءَ المغفرة تأكيداً بقوله : ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ أي الرحمة والمغفرة أقرب من العقاب ، وللأمرين مواضع ومراتب في القرب والبعد ، والنوايا والعوارض ، وقيمة الحسنات والسيئات ، قد أحاط الله بها وقدرها تقديراً .

ولفظ ﴿ من يشاء ﴾ في الموضعين إجمال للمشيئة وأسبابها وقد بينت غير مرة في تضاعيف القرآن والسنة ومن ذلك قوله : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [النساء : 48] .

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ

هذا استئناف ثان بعد قوله : ﴿ سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا ﴾ [الفتح : 11] .

وهو أيضاً إعلام للنبيء صلى الله عليه وسلم بما سيقوله المخلفون عن الحديبيّة يتعلّق بتخلّفهم عن الحديبية وعذرهم الكاذب ، وأنهم سيندمون على تخلفهم حين يرون اجتناء أهل الحديبيّة ثمرة غزوهم ، ويتضمن تأكيد تكذيبهم في اعتذارهم عن التخلف بأنهم حين يعلمون أن هنالك مغانم من قتال غير شديد يحرصون على الخروج ولا تشغلهم أموالهم ولا أهاليهم ، فلو كان عذرهم حقاً لما حرصوا على الخروج إذا توقعوا المغانم ولأقبلوا على الاشتغال بأموالهم وأهليهم .

ولكون هذه المقالة صدرت منهم عن قريحة ورغبة لم يؤت معها بمجرور ﴿ لك ﴾ كما أُتي به في قوله : ﴿ سيقول لك المخلفون ﴾ آنفاً لأن هذا قولُ راغب صادق غير مزوّرٍ لأجل الترويج على النبي صلى الله عليه وسلم كما علمت ذلك فيما تقدم .

واستُغني عن وصفهم بأنهم من الأعراب لأن تعريف ﴿ المخلفون ﴾ تعريف العهد ، أي المخلفون المذكورون .

وقوله : ﴿ إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ﴾ متعلق بـ ﴿ سيقول المخلَّفون ﴾ وليس هو مقول القول .

و ﴿ إذا ﴾ ظرف للمستقبل ، ووقوع فعل المضي بعده دون المضارع مستعار لمعنى التحقيق ، و ﴿ إذا ﴾ قرينة على ذلك لأنها خاصة بالزمن المستقبل .

والمراد بالمغانم في قوله : ﴿ إذا انطلقتم إلى مغانم ﴾ : الخروج إلى غزوة خيبر فأطلق عليها اسم مغانم مجازا لعلاقة الأوْل مثل إطلاق خَمراً في قوله : ﴿ إني أرانيَ أعصر خمراً ﴾ [يوسف : 36] .

وفي هذا المجاز إيماء إلى أنهم منصورون في غزوتهم .

وأن النبي صلى الله عليه وسلم لما رجَع من الحديبيّة إلى المدينة أقام شهر ذي الحجة سنة وست وأياماً من محرم سنة سبع ثم خرج إلى غزوة خيبر ورام المخلفون عن الحديبيّة أن يخرجوا معه فمنعهم لأن الله جعلَ غزوة خيبر غنيمة لأهل بيعة الرضوان خاصة إذ وعدهم بفتح قريب .

وقوله : ﴿ لتأخذوها ﴾ ترشيح للمجاز وهو إيماء إلى أن المغانم حاصلة لهم لا محالة .

(54/713)

وذلك أن الله أخبر نبيئه صلى الله عليه وسلم أنه وعد أهل الحديبيّة أن يعوضهم عن عدم دخول مكة مغانم خيبر .

و ﴿ مغانم ﴾ : جمع مغنم وهو اسم مشتق من غَنم إذا أصاب ما فيه نفع له كأنهم سموه مغنماً باعتبار تشبيه الشيء المغنوم بمكان فيه غنم فصيغ له وزن المَفْعَل .

وأشعر قوله : ﴿ ذَرُونا ﴾ بأن النبي صلى الله عليه وسلم سيمنعهم من الخروج معه إلى غزو خيبر لأن الله أمره أن لا يُخرج معه إلى خيبر إلا من حضر الحديبيّة ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ وقال فرعون ذروني أقتل موسى ﴾ في سورة غافر (26) .

وقوله : نتبعكم ﴾ حكاية لمقالتهم وهو يقتضي أنهم قالوا هذه الكلمة استنزالاً لإجابة طلبهم بأن أظهروا أنهم يخرجون إلى غزو خيبر كالأتباع ، أي أنهم راضِون بأن يكونوا في مؤخرة الجيش فيكون حظهم في مغانمه ضعيفاً .

وتبديل كلام الله : مخالفة وحيه من الأمر والنهي والوعد كرامة للمجاهدين وتأديباً للمخلفين عن الخروج إلى الحديبيّة .

فالمراد بكلام الله ما أوحاه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم من وعد أهل الحديبيّة بمغانم خيبر خاصة لهم ، وليس المراد بكلام الله هنا القرآن إذ لم ينزل في ذلك قرآن يومئذٍ .

وقد أشرك مع أهل الحديبية من ألحق بهم من أهل هجرة الحبشة الذين أعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم بوحي .

وأما ما روي عن عبد الله بن زيد بن أسلم أن المراد بكلام الله قوله تعالى : ﴿ فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً ﴾ [التوبة : 83] فقد رده ابن عطية بأنها نزلت بعد هذه السورة وهؤلاء المخلفون لم يمنعوا منعاً مؤبداً بل منعوا من المشاركة في غزوة خيبر لئلا يشاركوا في مغانمها فلا يلاقي قوله فيها ﴿ لن تخرجوا معي أبداً ﴾ وينافي قوله في هذه

السورة ﴿ قُل للمخلَّفين من الأعراب ستُدَعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم ﴾ [الفتح : 16] الآية ، فإنها نزلت في غزوة تبوك وهي بعد الحديبيّة بثلاث سنين .

(55/713)

وجملة ﴿ يريدون أن يُبدّلِوا كلام الله ﴾ في موضع الحال .

والإرادة في قوله : ﴿ يُريدون أن يُبدلوا كلام الله ﴾ على حقيقتها لأنهم سيعلمون حينئذٍ يقولون : ﴿ ذرونا نتبعكم ﴾ أن الله أوحَى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم بمنعهم من المشاركة في فتح خيبر كما دل عليه تنازلهم في قولهم : ﴿ ذرونا نتبعكم ﴾ فهم يريدون حينئذٍ أن يغيروا ما أمر الله به رسوله حين يقولون ﴿ ذرونا نتبعكم ﴾ إذ اتباع الجيش والخروج في أوله سواء في المقصود من الخروج .

وقرأ الجمهور ﴿ كلام الله ﴾ .

وقرأه حمزة والكسائي وخلف ﴿ كَلِم الله ﴾ اسم جمع كَلمة .

وجيء بـ ﴿ لن ﴾ المفيدة تأكيد النفي لقطع أطماعهم في الإذن لهم باتباع الجيش الخارج إلى خيبر ولذلك حذف متعلق ﴿ تتبعونا ﴾ للعلم به .

و ﴿ مِن قبلُ ﴾ تقديره : من قبل طلبكم الذي تطلبونه وقد أخبر الله عنهم بما سيقولونه إذ

قال : ﴿ فسيقولون بل تحسدوننا ﴾ ، وقد قالوا ذلك بعد نحو شهر ونصف فلما سمع المسلمون المتأهبون للخروج إلى خيبر مقالتهم قالوا : قد أخبرنا الله في الحديبية بأنهم سيقولون هذا .

و﴿ بل ﴾ هنا للإضراب عن قول الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ لن تتبعونا ﴾ وهو إضراب إبطال نشأ عن فورة الغضب المخلوط بالجهالة وسوء النظر ، أي ليس بكم الحفاظ على أمر الله ، بل بكم أن لا نقاسمكم في المغانم حسداً لنا على ما نصيب من المغانم .

والحسد : كراهية أن ينال غيرُك خيراً معيَّناً أو مطلقاً سواء كان مع تمني انتقاله إليك أو بدون ذلك ، فالحسد هنا أريد به الحرص على الانفراد بالمغانم وكراهية المشاركة فيها لئلا ينقص سهام الكارهين .

وتقدم الحسد عند قوله تعالى:

﴿ بَغياً أن ينزل الله من فضله ﴾ [البقرة : 90] وعند قوله : ﴿ حسداً من عند أنفسهم ﴾ [البقرة : 109] كلاهما في سورة البقرة .

وضمير الرفع مراد به أهل الحديبية ، نسبوهم إلى الحسد لأنهم ظنوا أن الجواب بمنعهم لعدم رضى أهل الحديبية بمشاركتهم في المغانم .

ولا يظن بهم أن يريدوا بذلك الضميرِ شمولَ النبي صلى الله عليه وسلم لأن المخلفين كانوا مؤمنين لا يتهمون النبي صلى الله عليه وسلم بالحسد ولذلك أبطل الله كلامهم بالإضراب الإبطالي فقال : ﴿ بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً ﴾ ، أي ليس قولك لهم ذلك لقصد الاستبشار بالمغانم لأهل الحديبية ولكنه أمر الله وحقه لأهل الحديبية وتأديب للمخلفين ليكونوا عبرة لغيرهم فيما يأتي وهم ظنوه تمالؤًا من جيش الحديبية لأنهم لم يفهموا حكمته وسببهم .

وإنّما نفى الله عنهم الفهم دون الإيمان لأنهم كانوا مؤمنين ولكنهم كانوا جاهلين بشرائع الإسلام ونظمه .

وأفاد قوله : ﴿ لا يفقهون ﴾ انتفاء الفهم عنهم لأن الفعل في سياق النفي كالنكرة في سياق النفي يعم ، فلذلك استثنى منه بقوله : ﴿ إلا قليلاً ﴾ أي إلا فهماً قليلاً وإنما قَلّلَهُ لكون فهمهم مقتصراً على الأمور الواضحة من العاديات لا ينفذ إلى المهمات ودقائق المعاني ، ومن ذلك ظنهم حرمانهم من الالتحاق بجيش غزوة خيبر منبعثاً على الحسد .

وقد جروا في ظنهم هذا على المعروف من أهل الأنظار القاصرة والنفوس الضئيلة من التوسم في أعمال أهل الكمال بمنظار ما يجدون من دواعي أعمالهم وأعمال خلطائهم .

و﴿ قليلاً ﴾ وصف للمستثنى المحذوف ، والتقدير : إلا فقهاً قليلاً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(57/713)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى بل)

وقد ورد فى القرآن على وجهين .

الأَوّل : للتأْكيد نيابة عن إِنَّ : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ أَى إِنَّ الذين .

الثانى : لاستدراك ما بعده ، أَو للإِضراب عما قبله : ﴿ بَلْ أَنتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ﴾ ، ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُواْ لاَ يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ ، ﴿ بَلْ أَنتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ .

قال الراغب : بَلْ كلمة للتدارك .

وهو ضربان .

ضرب يُناقض ما بعده ما قبله ؛ لكن ربّما يقصد لتصحيح الحكم الَّذى بعده ، وإِبطال ما

قبله ، وربّما يقصد تصحيح الَّذى قبله ، وإبطال الثانى ، نحو قوله – تعالى – : ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ ، ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أَىْ ليس الأَمر كما قالوا ، بل جهلوا .

فنبّه بقوله : ﴿ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ على جهلهم .

وعلى هذا قوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا ﴾ وممّا قُصِد به تصحيح الأَوّل وإبطال الثانى قولُه – تعالى – : ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ ﴾ إلى قوله : ﴿ كَلاَّ بَلْ لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴾ أَى ليس إعطاؤهم من الإِكرام ، ولا منعْهم من الإِهانة ، لكن جهلوا ذلك بوضعهم المال فى غير موضعهِ .

وعلى ذلك قوله – تعالى – : ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ بَلِ الذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ فإنه دلّ بقوله : (والقرآن) أَنَّ القرآن مَقَرّ للتذكر ، وأَن ليس امتناع الكفَّار من الإِصغاءِ إليه أَنَّه ليس موضعاً للذكر ، بل لتعزُّزهم ومشاقَّتهم .

وعلى هذا ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ بَلْ عَجِبُوا ﴾ أَى ليس امتناعهم من الإِيمان بالقرآن أَن لا مَجْد (فى القرآن) ، ولكن لجهلهم .

ونبّه بقوله : (بل عجبوا) على جهلهم ؛ لأَنَّ التعجّب من الشئِ يقتضى الجهل بسببه .

وعلى هذا قوله : ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ إلى قوله : ﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾ ، كأَنه قيل : ليس ههنا ما يقتضى أَن يَغُرّهم به – تعالى ولكن تكذيبهم هو الَّذى حملهم على ما ارتكبوه .

والضَّرب الثانى من بل هو أَن يكوم مبيّناً للحكم الأَوّل ، وزائداً عليه بما بعد بل ، نحو قوله – تعالى – : ﴿ بَلْ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ فإِنَّه نبّه أَنهم يقولون : أَضغاث أَحلام ، بل افتراه (يزيدون على ذلك بأَن الذى أَتى به مفترى افتراه ، بل يزيدون) فيدّعون أَنَّه كذَّاب ؛ فإِن الشَّاعر فى القرآن عبارة عن الكاذب بالطَّبع .

وعلى هذا قوله : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ ﴾ إلى قوله : ﴿ بل تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً ﴾ أَى لو يعلمون ما يعلمون ما هو زائد على الأَوّل ، وأَعظم منه وهو أَن تأْتيهم بغتة .

وجميع ما فى القرآن من لفظ (بل) لا يخرج من أَحد هذين الوجهين ، وإِن دَقَّ الكلام فى بعضه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 269 . 271 ﴾

قوله تعالى ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (16) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (17) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان ذلك يوقع في نفس السامع السؤال عن هذا الطرد : هل يستمر ؟ أجيب بأنهم سيمتحنون بأمر شاق يحدثه الله للتمييز بين الخلص وغيرهم ، فقال مكرراً لوصفهم بالتخلف إعلاماً بأنهم في الحقيقة ما تخلفوا ، بل منعوا طرداً لهم وإبعاداً معذباً لهم بما خلفهم عن اتباع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في هذه العمرة من الخوف من قتال قريش لشدة بأسهم كما أثاب المحبين له ـ صلى الله عليه وسلم ـ بضد ما عزموا عليه من القتال إلى النصر أو الموت من كف أيديهم عنهم بما جعله الله سبباً للفتح الأعظم والتفرغ لفتح خيبر وأخذ غنائمها الكثيرة من غير كبير كلفة ﴿ قل ﴾ يا أعظم الخلف ﴿ للمخلفين ﴾ وزاد في ذمهم بنسبتهم إلى الجلافة فقال : ﴿ من الأعراب ﴾ أي أهل غلظ الأكباد ، ويجوز أن يكون هذا القيد للاحتراز عن المخلفين من أهل المدينة فيكون إشارة إلى أن الأعراب ينقسمون عند هذا الدعاء إلى مطيع وعاص – كما أشار إليه تقسيمه سبحانه لهم – وأن المخلفين من

أهل المدينة لمثل ما اعتل به الأعراب لا مطمع في صلاحهم : ﴿ ستدعون ﴾ بوعد لا خلف فيه بإخبار محيط العلم والقدرة دعوة محيطة ونفيراً عاماً لما أفهمه الإسناد إلى جميعهم من داع صحت إمامته فوجبت طاعته ، ودل على بعدهم من أرضهم بقوله تعالى : ﴿ إلى قوم ﴾ .

(60/713)

ولما أفهم التعبير بذلك أن لهم قوة وشدة على ما يحاولونه ، أوضح المعنى بقوله : ﴿ أولي بأس ﴾ أي شدة في الحرب وشجاعة مع مكر ودهاء ﴿ شديد ﴾ .

(61/713)

ولما كان المعنى كأنه قيل : لماذا ؟ قال تعالى : ﴿ تقاتلونهم ﴾ أي بأمر إمامكم ﴿ أو يسلمون ﴾ أي يدعوكم إليهم ليكون أحد الأمرين المظهرين لأن كلمة الله هي العليا : المقاتلة منكم أو الإسلام منهم ، فإن لم يسلموا كان القتال لا غير ، وإن أسلموا لم يكن قتال ، لأن الإمام لا غرض له إلا إعلاء كلمة الله ، ولا يكون شيء غير هذين الأمرين من إبقاء بجزية أو

مصالحة أو متاركة إلى مدة ، ونحو ذلك ، وهذا الداعي هو أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ والقوم بنو حنيفة وغيرهم من أهل الردة الذين كان الدعاء لهم أول خلافة الصديق ـ رضى الله عنه ـ ، وأما قول من قال : إنهم ثقيف ، فضعيف ، لأن الدعاء لم يكن إليهم إنما كان المقصود بالذات فتح مكة ، وكان أمر هوازن وثقيف وغيرهما تبعاً له في غزوته ، لم يكن بينهم شيء ، وأيضاً فإن ثقيف لما عسر أمرهم تركهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى أسلموا بعد ذلك ، وترك أيضاً فلاّل هوازن فلم يتبعهم ولم يؤمر باتباعهم ، فظاهر الآية أنه إذا انتشب القتال لم يترك إلا أن حصل الإسلام ، والقول بأنهم فارس والروم ضعيف أيضاً ، فإن كلاًّ منهم تقبل منه الجزية ، وتأويله بأنه إسلام لغوي لا داع له مع إمكان الحقيقة ، وقد كان ما أشار إليه التقسيم فإنهم لما دعوا إليهم انقسموا إلى مجيب وهم الأكثر ، وقد آتاهم الله الأجر الحسن في الدنيا بالغنيمة والذكر الجميل وهو المرجو في الآخرة ، ومرتد وهم قليل وقد أذاقهم الله العذاب الأليم في الدنيا بالقتل على أقبح حال ، وهو يذيقهم في الآخرة أعظم النكال ، وأما قتال غير العرب فأطاع فيه الكل ولم يحصل فيه ما أشير إليه من التقسيم ، فتحقق بهذا أنهم أهل الردة – والله الموفق ، ولذلك سبب عن دعوة الحق قوله مردداً القول في حالهم مبهماً له إشارة إلى أنهم عند الدعاء ينقسمون إلى مقبل ومتول : ﴿ فإن تطيعوا ﴾ أي توقعوا الطاعة للداعي إلى ذلك ، وهو أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ ﴿ يؤتكم الله ﴾ أي

الذي له الإحاطة والقدرة على الإعطاء والمنع ، لا راد لأمره ﴿ أجراً حسناً ﴾ دنيا وأخرى ، جعل الله طاعة أبي بكر ـ رضى الله عنه ـ في هذا الأمر بالخصوص كطاعة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي طاعته طاعة الله ، جزاء له على خصوصه في مزيد تسليمه لما فعله النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الصلح وثباته بما أجاب به عمر ـ رضى الله عنهما ـ بمثل جواب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من غير أن يكون حاضراً له كما هو معلوم من السيرة .

ولما كانت مخالفة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن يقوم مقامه لا تكون إلا من منازعة في الفطرة الأولى ومعالجة لها ، عبر بالتفعل فقال : ﴿ وإن تتولوا ﴾ عن قبول دعوته عصياناً ﴿ كما توليتم ﴾ أي عالجتم أنفسكم وكلفتموها التولي بالتخلف عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ من قبل ﴾ أي بعض الأزمان التي تقدمت على هذا الدعاء ، وذلك في الحديبية ﴿ يعذبكم ﴾ أي يخالطكم بعقوبة تزيل العذوبة في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما ﴿ عذاباً أليماً ﴾ لأجل تكرر ذلك منكم .

ولما توعد المتخلفين بتخلفهم عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم توعدهم في التقاعد

عن هذا الإمام القائم بعده بالحق ، وكان أهل الأعذار لا يتيسر لهم ما أريد بهذا الدعاء ، وكان الدين مبنياً على الحنيفية السمحة ، استأنف قوله تعالى مسكناً لما اشتثاره الوعيد من روعهم : ﴿ ليس على الأعمى ﴾ أي في تخلفه عن الدعاء إلى الخروج مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو مع غيره من أئمة الدعاء ﴿ حرج ﴾ أي ميل بثقل الإثم لأجل أن عماه موهن لسعيه وجميع بطشه ، ولأجل تأكيد المعنى تسكيناً لما ثار من روع المؤمن كرر النافي والحرج في كل جملة مستقلة تأكيداً لهذا الأمر فقال : ﴿ ولا على الأعرج ﴾ وإن كان نقصه أدنى من نقص العمى ﴿ حرج ﴾ وجعل كل جملة مستقلة تأكيداً لهذا الحكم .

(63/713)

ولما ذكر هذين الأثرين الخاصين المزيد ضررهما في العاقة عن كمال الجهاد ، عم بقوله : ﴿ ولا على المريض ﴾ أي بأيّ مرض ﴿ حرج ﴾ فلم يخرج أهل هذه الأعذار الذين لم يمنعهم إلا إعذارهم عن أهل الحديبية ، وأطلب الحرج المنفي ليقبل التقدير بالتخلف ولا حاجة لأن حضورهم لا يخلو عن نفع في الجهاد ، وذكر هكذا دون أسلوب الاستثناء إيذاناً بأنهم لم يدخلوا في الوعيد أصلاً حتى يخرجوا منه .

ولما بشر المطيعين لتلك الدعوة وتوعد القاعدين عنها وعذر المعذورين ، وكانت إجابة

المعذورين جائزة ، بل أرفع من قعودهم ، ولذلك لم ينف إجابتهم إنما نفى الحرج ، قال معمماً عاطفاً على ما تقديره : فمن تخلف منهم فتخلفه مباح له : ﴿ ومن يطع الله ﴾ أي المحيط بجميع صفات الكمال المفيض من آثار صفاته على من يشاء ولو كان ضعيفاً ، المانع منها من يشاء وإن كان قوياً ﴿ ورسوله ﴾ من المعذورين وغيرهم فيما ندبا إليه من أي طاعة كانت إجابته ﴿ يدخله ﴾ أي الله الملك الأعظم جزاء له ﴿ جنات تجري ﴾ ونبه على قرب منال الماء بإثبات الجار في قوله : ﴿ من تحتها الأنهار ﴾ أي ففي أي موضع أردت أجريت نهراً ﴿ ومن يتول ﴾ أي كائناً من كان من المخاطبين الآن وغيرهم ، عن طاعة من الطاعات التي أمرا بها من أي طاعة كانت ﴿ يعذبه ﴾ أي على توليه في الدارين أو إحداهما ﴿ عذاباً أليماً ﴾ وقراءة أهل المدينة والشام ﴿ ندخله ونعذبه ﴾ بالنون أظهر في إرادة العظمة لأجل تعظيم النعمة والنقمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 203.201 ﴾

(64/713)

فصل

قال الفخر :

﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾

(65/713)

لما قال النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا ﴾ [الفتح : 15] وقال : ﴿ فَقُلْ لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا ﴾ [التوبة : 83] فكان المخلفون جمعاً كثيراً ، من قبائل متشعبة ، دعت الحاجة إلى بيان قبول توبتهم فإنهم لم يبقوا على ذلك ولم يكونوا من الذين مردوا على النفاق ، بل منهم من حسن حاله وصلح باله فجعل لقبول توبتهم علامة ، وهو أنهم يدعون إلى قتال قوم أولي بأس شديد ويطيعون بخلاف حال ثعلبة حيث امتنع من أداء الزكاة ثم أتى بها ولم يقبل منه النبي صلى الله عليه وسلم واستمر عليه الحال ولم يقبل منه أحد من الصحابة ، كذلك كان يستمر حال هؤلاء لولا أنه تعالى بيّن أنهم يدعون فإن كانوا يطيعون يؤتون الأجر الحسن وما كان أحد من الصحابة يتركهم يتبعونه ، والفرق بين حال ثعلبة وبين حال هؤلاء من وجهين أحدهما : أن ثعلبة جاز أن يقال حاله لم يكن يتغير في علم الله ، فلم يبين لتوبته علامة ، والأعراب تغيرت ، فإن بعد النبي صلى الله عليه وسلم لم يبق من

المنافقين على النفاق أحد على مذهب أهل السنة وثانيهما : أن الحاجة إلى بيان حال الجمع الكثير والجم الغفير أمس ، لأنه لولا البيان لكان يفضي الأمر إلى قيام الفتنة بين فرق المسلمين ، وفي قوله ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ وجوه أشهرها وأظهرها أنهم بنو حنيفة حيث تابعوا مسيلمة وغزاهم أبو بكر وثانيها : هم فارس والروم غزاهم عمر ثالثها : هوازن وثقيف غزاهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وأقوى الوجوه هو أن الدعاء كان من النبي صلى الله عليه وسلم وإن كان الأظهر غيره ، أما الدليل على قوة هذا الوجه هو أن أهل السنة اتفقوا على أن أمر العرب في زمان النبي صلى الله عليه وسلم ظهر ولم يبق إلا كافر مجاهر ، أو مؤمن تقي طاهر ، وامتنع النبي صلى الله عليه وسلم من الصلاة على موتى المنافقين ، وترك المؤمنون مخالطتهم حتى إن عبادة بن كعب مع كونه بين المؤمنين لم

يكلمه المؤمنون مدة ، وما ذكره الله علامة لظهور حال من كان منافقاً ، فإن كان ظهر حالهم بغير هذا ، فلا معنى لجعل هذا علامة وإن ظهر بهذا الظهور كان في زمان النبي صلى الله عليه وسلم ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام لو امتنع من قبولهم لاتباعه لامتنع أبو بكر وعمر لقوله تعالى : ﴿ واتبعوه ﴾ [الأعراف : 158] وقوله ﴿ فاتبعوني ﴾ [مريم : 43]

فإن قيل هذا ضعيف لوجهين أحدهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ لَّن تَتَّبِعُونَا ﴾ [الفتح : 15] وقال : ﴿ لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا ﴾ [التوبة : 83] فكيف كانوا يتبعونه مع النفي ؟ الثاني : قوله تعالى : ﴿ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ ولم يبق بعد ذلك للنبي عليه الصلاة والسلام حرب قوم أولي بأسٍ شديد فإن الرعب استولى على قلوب الناس ولم يبق الكفار بعده شدة وبأس ، واتفاق الجمهور يدل على القوة والظهور ، نقول أما الجواب عن الأول فمن وجهين أحدهما : أن يكون ذلك مقيداً ، تقديره : لن تخرجوا معي أبداً وأنتم على ما أنتم عليه ، ويجب هذا التقييد لأنا أجمعنا على أن منهم من أسلم وحسن إسلامه بل الأكثر ذلك ، وما كان يجوز للنبي صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم لستم مسلمين لقوله تعالى :

(67/713)

﴿ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السلام لَسْتَ مُؤْمِناً ﴾ [النساء : 94] ومع القول بإسلامهم ما كان يجوز أن يمنعهم ما كان من الجهاد في سبيل الله مع وجوبه عليهم وكان ذلك مقيداً ، وقد تبيّن حسن حالهم ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم دعاهم إلى جهاد فأطاعه قوم وامتنع آخرون ، وظهر أمرهم وعلم من استمر على الكفر ممن استقر قلبه على الإيمان

الثاني : المراد من قوله ﴿ لَّن تَتَّبِعُونَا ﴾ [الفتح : 15] في هذا القتال فحسب وقوله ﴿ لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ ﴾ [التوبة : 83] كان في غير هذا وهم المنافقون الذين تخلفوا في غزوة تبوك ، وأما اتفاق الجمهور فنقول لا مخالفة بيننا وبينهم لأنا نقول النبي صلى الله عليه وسلم دعاهم أولاً ، وأبو بكر رضي الله عنه أيضاً دعاهم بعد معرفته جواز ذلك من فعل النبي صلى الله عليه وسلم ، إنما نحن نثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم دعاهم فإن قالوا أبو بكر رضي الله عنه دعاهم لم يكن بين القولين تناف ، وإن قالوا لم يدعهم النبي صلى الله عليه وسلم فالنفي والجزم به في غاية البعد لجواز أن يكون ذلك قد وقع ، وكيف لا والنبي عليه الصلاة والسلام قال من كلام الله ﴿ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ الله فاتبعوني ﴾ [آل عمران : 31] وقال : ﴿ واتبعون هذا صراط مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [الزخرف : 61] ومنهم من أحب الله واختار اتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم لأن بقاء جمعهم على النفاق والكفر بعد ما اتسعت دائرة الإسلام واجتمعت العرب على الإيمان بعيد ، ويوم قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ لَّن تَتَّبِعُونَا ﴾ كان أكثر العرب على الكفر والنفاق ، لأنه كان قبل فتح مكة وقبل أخذ حصون كثيرة .

وأما قوله لم يبق للنبي صلى الله عليه وسلم حرب مع أولي بأس شديد ، قلنا لا نسلم ذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم عام الحديبية دعاهم إلى الحرب لأنه خرج محرماً ومعه الهدي ليعلم قريش أنه لا يطلب القتال وامتنعوا فقال ستدعون إلى الحرب ولا شك أن من يكون خصمه مسلحاً محارباً أكثر بأساً ممن يكون على خلاف ذلك فكان قد علم من حال مكة أنهم لا يوقرون حاجاً ولا معتمراً فقوله ﴿ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ يعني أولي سلاح من آلة الحديد فيه بأس شديد ، ومن قال بأن الداعي أبو بكر وعمر تمسك بالآية على خلافتهما ودلالتها ظاهرة ، وحينئذ ﴿ تقاتلونهم أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ إشارة إلى أن أحدهما يقع ، وقرىء ﴿ أَوْ يسلموا ﴾ بالنصب بإضمار أن على معنى تقاتلونهم إلى أن يسلموا ، والتحقيق فيه هو أن ﴿ أَوْ ﴾ لا تجيء إلا بين المتغايرين وتنبىء عن الحصر فيقال العدد زوج أو فرد ، ولهذا لا يصح أن يقال هو زيد أو عمرو ، ولهذا يقال العدد زوج أو خمسة أو غيرهما ، إذا علم هذا فقال القائل لألزمنك أو تقضيني حقي يفهم منه أن الزمان انحصر في قسمين : قسم يكون فيه الملازمة ، وقسم يكون فيه قضاء الحق ، فلا يكون بين الملازمة وقضاء الحق زمان لا يوجد فيه الملازمة ولا قضاء الحق ، فيكون في قوله لألزمنك أو تقضيني ، كما حكي في قول القائل ، لألزمنك إلى أن تقضيني ، لامتداد زمان الملازمة إلى القضاء ، وهذا ما يضعف قول القائل الداعي هو عمر والقوم فارس والروم لأن الفريقين يقران بالجزية ، فالقتال معهم لا

يمتد إلى الإسلام لجواز أن يؤدوا الجزية ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْراً حَسَناً وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ ﴾ فيه فائدة لأن التولي إذا كان بعذر كما قال تعالى :

(69/713)

﴿ لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ ﴾ [النور : 61] لا يكون للمتولي عذاب أليم ، فقال : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُمْ ﴾ يعني إن كان توليكم بناء على الظن الفاسد والاعتقاد الباطل كما كان حيث قلتم بألسنتكم لا بقلوبكم ﴿ شَغَلَتْنَا أموالنا ﴾ [الفتح : 11] فالله يعذبكم عذاباً أليماً .

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ

بين من يجوز له التخلف وترك الجهاد وما بسببه يجوز ترك الجهاد وهو ما يمنع من الكر والفر وبين ذلك ببيان ثلاثة أصناف الأول : ﴿ الأعمى ﴾ فإنه لا يمكنه الإقدام على العدو والطلب ولا يمكنه الاحتراز والهرب ، والأعرج كذلك والمريض كذلك ، وفي معنى الأعرج الأقطع والمقعد ، بل ذلك أولى بأن يعذر ، ومن به عرج لا يمنعه من الكر والفر لا يعذر ، وكذلك المرض القليل الذي لا يمنع من الكر والفر كالطحال والسعال إذ به يضعف وبعض أوجاع المفاصل لا يكون عذراً وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

أن هذه أعذار تكون في نفس المجاهد ولنا أعذار خارجة كالفقر الذي لا يتمكن صاحبه من استصحاب ما يحتاج إليه والاشتغال بمن لولاه لضاع كطفل أو مريض ، والأعذار تعلم من الفقه ونحن نبحث فيما يتعلق بالتفسير في بيان مسائل :

المسألة الأولى :

ذكر الأعذار التي في السفر ، لأن غيرها ممكن الإزالة بخلاف العرج والعمى .

المسألة الثانية :

اقتصر منها على الأصناف الثلاثة ، لأن العذر إما أن يكون بإختلال في عضو أو بإخلال في القوة ، والذي بسبب إخلال العضو ، فإما أن يكون بسبب اختلال في العضو الذي به الوصول إلى العدو والانتقال في مواضع القتال ، أو في العضو الذي تتم به فائدة الحصول في المعركة والوصول ، والأول : هو الرجل ، والثاني : هو العين ، لأن بالرجل يحصل الانتقال ، وبالعين يحصل الانتفاع في الطلب والهرب .

(70/713)

وأما الأذن والأنف واللسان وغيرها من الأعضاء ، فلا مدخل لها في شيء من الأمرين ، بقيت اليد ، فإن المقطوع اليدين لا يقدر على شيء ، وهو عذر واضح ولم يذكره ، نقول : لأن فائدة الرجل وهي الانتقال تبطل بالخلل في إحداهما ، وفائدة اليد وهي الضراب والبطش لا تبطل إلا ببطلان اليدين جميعاً ، ومقطوع اليدين لا يوجد إلا نادراً ، ولعل في جماعة النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن أحد مقطوع اليدين فلم يذكره ، أو لأن المقطوع ينتفع به في الجهاد ، فإنه ينظر ولولاه لاستقل به مقاتل فيمكن أن يقاتل ، وهو غير معذور في التخلف ، لأن المجاهدين ينتفعون به بخلاف الأعمى ، فإن قيل كما أن مقطوع اليد الواحدة لا تبطل منفعة بطشه كذلك الأعور لا تبطل منفعة رؤيته ، وقد ذكر الأعمى ، وما ذكر الأشل وأقطع اليدين ، قلنا لما بينا أن مقطوع اليدين نادر الوجود والآفة النازلة بإحدى اليدين لا تعمهما والآفة النازلة بالعين الواحدة تعم العينين لأن منبع النور واحد وهما متجاذبان والوجود يفرق بينهما ، فإن الأعمى كثير الوجود ومقطوع اليدين نادر .

المسألة الثالثة :

قدم الآفة في الآلة على الآفة في القوة ، لأن الآفة في القوة تزول وتطرأ ، والآفة في الآلة إذ طرأت لا تزول ، فإن الأعمى لا يعود بصيراً فالعذر في محل الآلة أتم .

المسألة الرابعة :

قدم الأعمى على الأعرج ، لأن عذر الأعمى يستمر ولو حضر القتال ، والأعرج إن حضر

راكباً أو بطريق آخر يقدر على القتال بالرمي وغيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 79.82 ﴾

(71/713)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾

﴿ المخلفون من الأعراب ﴾ قال مجاهد وغيره : هم جهينة ومزينة ومن كان حول المدينة من القبائل ، فإنهم في خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عمرته عام الحديبية رأوا أنه يستقبل عدواً عظيماً من قريش وثقيف وكنانة والقبائل المجاورة لمكة ، وهم الأحابيش ، ولم يكن تمكن إيمان أولئك الأعراب المجاورين للمدينة فقعدوا عن النبي عليه السلام وتخلفوا ، وقالوا لن يرجع محمد ولا أصحابه من هذه السفرة ، ففضحهم الله في هذه الآية ، وأعلم محمد بقولهم واعتذارهم قبل أن يصل إليهم ، فكان كذلك ، قالوا : شغلتنا الأموال والأهلون فاستغفر لنا ، وهذا منهم خبث وإبطال ، فلذلك قال تعالى : ﴿ يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ﴾ قال الرماني : لا يقال أعرابي إلا لأهل البوادي خاصة ، ثم قال لنبيه عليه السلام ﴿ قل ﴾ لهم : ﴿ فمن يملك لكم من الله شيئاً ﴾ أي من يحمي منه أموالكم

وأهليكم إن أراد بكم فيها سوءاً .

وقرأ جمهور القراء : " إن أراد بكم ضَراً " بفتح الضاد . وقرأ حمزة والكسائي : " ضُراً " بالضم ، ورجحها أبو علي وهما لغتان . وفي مصحف ابن مسعود . " إن أراد بكم سوءاً " . ثم رد عليهم بقوله : ﴿ بل كان الله بما تعملون خبيراً ﴾ ، ثم فسر لهم العلة التي تخلفوا من أجلها بقوله : ﴿ بل ظننتم ﴾ الآية ، وفي قراءة عبد الله : " إلى أهلهم " بغير ياء . و: ﴿ بوراً ﴾ معناه : فاسدين هلكى بسبب فسادهم . والبوار : الهلاك . وبارت السلعة ، مأخوذ من هذا . وبور : يوصف به الجمع والإفراد ، ومنه قول ابن الزبعرى : [الخفيف]

يا رسول المليك إن لساني . . . راتق ما فتقت إذ أنا بور

والبور في لغة أزد عمان : الفاسد ، ومنه قول أبي الدرداء : فأصبح ما جمعوا بوراً ، أي فاسداً ذاهباً ، ومنه قول حسان بن ثابت :

(72/713)

لا ينفع الطول من نوك القلوب وقد . . . يهدي الإله سبيل المعشر البور

وقال الطبري في قوله تعالى : ﴿ يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ﴾ يعني به قولهم : ﴿ فاستغفر لنا ﴾ لأنهم قالوا ذلك مصانعة من غير توبة ولا ندم ، قال وقوله تعالى : ﴿ قل

فمن يملك ﴾ الآية ، معناه : وما ينفعكم استغفاري ، وهل أملك لكم شيئاً والله قد أراد ضركم بسبب معصيتكم كما لا أملك إن أراد بكم النفع في أموالكم وأهليكم .

وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (13)

لما قال لهم : ﴿ وكنتم قوماً بوراً ﴾ [الفتح : 12] توعدهم بعد ذلك بقوله : ﴿ ومن لم يؤمن بالله ورسوله ﴾ الآية ، وأنتم هكذا فأنتم ممن أعدت لهم السعير ، وهي النار المؤججة . والمسعر : ما يحرك به النار ، ومنه قوله عليه السلام : " ويل من مسعر حرب " .

ثم رجى بقوله تعالى : ﴿ ولله ملك السماوات والأرض ﴾ ، الآية : لأن القوم لم يكونوا مجاهرين بالكفر ، فلذلك جاء وعيدهم وتوبيخهم ممزوجاً فيه بعض الإمهال والترجية ، لأن الله تعالى قد كان علم منهم أنهم سيؤمنون ، ثم إن الله تعالى أمر نبيه على ما روي بغزو خيبر ووعده بفتحها ، وأعلمه أن المخلفين إذا رأوا مسير رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يهود وهم عدو مستضعف ، طلبوا الكون معه رغبة في عرض الدنيا والغنيمة فكان كذلك .

(73/713)

وقوله تعالى : ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ معناه : يريدون أن يغيروا وعده لأهل الحديبية بغنيمة خيبر . وقال عبد الله بن زيد بن أسلم ﴿ كلام الله ﴾ قوله تعالى : ﴿ قل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً ﴾ [التوبة : 83] وهذا قول ضعيف ، لأن هذه الآية نزلت في رجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك ، وهذا في آخر عمره ، وآية هذه السورة نزلت سنة الحديبية ، وأيضاً فقد غزت جهينة ومزينة بعد هذه المدة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد فضلهم رسول الله بعد ذلك على تميم وغطفان وغيرهم من العرب ، الحديث المشهور فأمره الله تعالى أن يقول لهم في هذه الغزوة إلى خيبر : ﴿ لن تتبعونا ﴾ وخص الله بها أهل الحديبية .

وقوله تعالى : ﴿ كذلكم قال الله من قبل ﴾ يريد وعده قبل باختصاصهم بها ، وقول الأعراب : ﴿ بل تحسدوننا ﴾ معناه : بل يعز عليكم أن نصيب مغنماً ومالاً ، فرد الله على هذه المقالة بقوله : ﴿ بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً ﴾ أي لا يفقهون من الأمور مواضع الرشد ، وذلك هو الذي خلفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان ذلك سبباً إلى منعهم من غزوة خيبر .

وقرأ أبو حيوة : " تحسِدوننا " بكسر السين . وقرأ الجمهور من القراء : "كلام" قال أبو علي : هو أخص بما كان مفيداً حديثاً . وقرأ الكسائي وحمزة وابن مسعود وطلحة وابن وثاب : "كلم" والمعنى فيهما متقارب .

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ

أمر الله نبيه عليه السلام بالتقدمة إلى هؤلاء المخلفين بأنهم سيؤمرون بقتال عدو بئيس ، وهذا يدل على أنهم كانوا يظهرون الإسلام ، وإلا فلم يكونوا أهلاً لهذا الأمر ، واختلف الناس من القوم المشار إليهم في قوله : ﴿ إلى قوم أولي بأس شديد ﴾ فقال عكرمة وابن جبير وقتادة : هم هوازن ومن حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم في حنين .

(74/713)

قال القاضي أبو محمد : ويندرج في هذا القول عندي من حورب وغلب في فتح مكة . وقال كعب : هم الروم الذين خرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عام تبوك والذين بعث إليهم في غزوة مؤتة . وقال الزهري والكلبي : هم أهل الردة وبنو حنيفة باليمامة . وقال منذر بن سعيد : يتركب على هذا القول أن الآية مؤذنة بخلافة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، يريد لما كشف الغيب أنهما دعوا إلى قتال أهل الردة . وحكى الثعلبي عن رافع بن خديج أنه قال : والله لقد كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى ولا نعلم من هم ، حتى دعا أبو بكر إلى قتال بني حنيفة فعلمنا أنهم أريدوا . وقال ابن عباس وابن أبي ليلى : هم الفرس . وقال الحسن : هم فارس والروم . وقال أبو هريرة : هم قوم لم يأتوا

بعد ، والقولان الأولان حسنان ، لأنهما الذي كشف الغيب وباقيهما ضعيف . وقال منذر بن سعيد : رفع الله في هذه الجزية ، وليس إلا القتال أو الإسلام ، وهذا لا يوجد إلا في أهل الردة .

قال القاضي أبو محمد : وهو من حورب في فتح مكة . وقرأ الجمهور من القراء : " أو يسلمون " على القطع ، أي أو هم يسلمون دون حرب . وقرأ أبيّ بن كعب فيما حكى الكسائي : " أو يسلموا " بنصب الفعل على تقدير : أو يكون أن يسلموا ، ومثله من الشعر قول امرئ القيس : [الطويل]

فقلت له لا تبك عيناك إنما . . . نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا

يروى : " نموتَ " بالنصب . و " نموتُ " بالرفع ، فالنصب على تقدير : أو يكون أن نموت ، والرفع على القطع ، أو نحن نموت .

وقوله : ﴿ فإن تطيعوا ﴾ معناه : فيما تدعون إليه ، والعذاب الذي توعدهم : يحتمل أن يريد به عذاب الدنيا ، وأما عذاب الآخرة فبين فيه .

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ

(75/713)

لما بالغ عز وجل في عتب هؤلاء المتخلفين من القبائل المجاورة للمدينة لجهينة ومزينة وغفار وأسلم وأشجع ، عقب ذلك بأن عذر أهل الأعذار من العرج والعمى والمرض جملة ورفع الحرج عنهم والضيق والمأثم ، وهذا حكم هؤلاء المعاذير في كل جهاد إلى يوم القيامة ، إلا أن يحزب حازب في حضرة ما ، فالفرض متوجه بحسب الوسع ، ومع ارتفاع الحرج فجائز لهم الغزو وأجرهم فيه مضاعف ، لأن الأعرج أحرى الناس بالصبر وأن لا يفر ، وقد غزا ابن أم مكتوم ، وكان يمسك الراية في بعض حروب القادسية ، وقد خرج النسائي هذا المعنى وذكر ابن أم مكتوم رحمه الله .

وقرأ الجمهور من القراء : " يدخله " بالياء . وقرأ ابن عامر ونافع وأبو جعفر والأعرج والحسن وشيبة وقتادة : " ندخله " بالنون ، وكذلك " نعذبه " و: " يعذبه " . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(76/713)

وقال القرطبى :

﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأعراب ﴾ أي قل لهؤلاء الذين تخلّفوا عن الحديبية ﴿ سَتُدْعَوْنَ إلى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ قال ابن عباس وعطاء بن أبي رباح ومجاهد وابن أبي لَيْلَى وعطاء الخراساني : هم فارس .

وقال كعب والحسن وعبد الرحمن بن أبي لَيْلَى : الروم .

وعن الحسن أيضاً : فارس والروم .

وقال ابن جُبَير : هوازن وثقيف .

وقال عكرمة : هوازن .

وقال قتادة : هوازن وغَطَفان يوم حُنين .

وقال الزُّهْري ومقاتل : بنو حنيفة أهل اليمامة أصحاب مُسَيْلِمة .

وقال رافع بن خَدِيج : والله لقد كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى ﴿ سَتُدْعَوْنَ إلى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ فلا نعلم مَن هم حتى دعانا أبو بكر إلى قتال بني حنيفة فعلمنا أنهم هم .

وقال أبو هريرة : لم تأت هذه الآية بعدُ .

وظاهر الآية يردّه .

الثانية في هذه الآية دليل على صحة إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ؛ لأن أبا بكر دعاهم إلى قتال بني حنيفة ، وعمر دعاهم إلى قتال فارس والروم .

وأما قول عكرمة وقتادة إن ذلك في هوازن وغطفان يوم حنين فلا ، لأنه يمتنع أن يكون

الداعي لهم الرسول عليه السلام ، لأنه قال : " لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا " فدلّ على أن المراد بالداعي غير النبي صلى الله عليه وسلم .

ومعلوم أنه لم يدع هؤلاء القوم بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما .

الزَّمَخْشَرِي : فإن صحّ ذلك عن قتادة فالمعنى لن تخرجوا معي أبداً ما دمتم على ما أنتم عليه من مرض القلوب والاضطراب في الدِّين .

أو على قول مجاهد كان الموعد أنهم لا يتبعون رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا متطوّعين لا نصيب لهم في المغنم .

(والله أعلم) .

(77/713)

الثالثة قوله تعالى : ﴿ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ هذا حكم من لا تؤخذ منهم الجِزية ، وهو معطوف على "تُقَاتِلُونَهُمْ" أي يكون أحد الأمرين : إما المقاتلة وإما الإسلام ، لا ثالث لهما .

وفي حرف أُبَيّ "أَوْ يُسْلِمُوا" بمعنى حتى يُسْلِمُوا ، كما تقول : كُلْ أو تشبع ، أي حتى تشبع .

قال :

فقلت له لا تَبْكِ عَيْنُك إنما . . .

نحاوِل مُلْكاً أو نموت فنُعذَرا

وقال الزجاج: قال "أَوْ يُسْلِمُونَ" لأن المعنى أو هم يسلِمون من غير قتال.

وهذا في قتال المشركين لا في أهل الكتاب.

الرابعة قوله تعالى: ﴿ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْراً حَسَناً ﴾ الغنيمة والنصر في الدنيا، والجنة في الآخرة.

﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ ﴾ عام الحُدَيْبِيَة.

﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ وهو عذاب النار.

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ

قال ابن عباس لما نزلت: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ قال أهل الزَّمانة: كيف بنا يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿ لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأعرج حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المريض حَرَجٌ ﴾ أي لا إثم عليهم في التخلف عن الجهاد لعماهم وزمانتهم وضعفهم.

وقد مضى في "براءة" وغيرها الكلام فيه مُبَيَّناً.

والعَرَج: آفة تعرض لرِجْل واحدة، وإذا كان ذلك مؤثّراً فخلل الرّجْلين أولى أن يؤثر.

وقال مقاتل: هم أهل الزمانة الذين تخلفوا عن الحديبية وقد عذرهم.

أى من شاء أن يسير منهم معكم إلي خَيْبَرَ فليفعل ﴿ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فيما أمره .

﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ قرأ نافع وابن عامر "نُدخْلهُ" بالنون على التعظيم .

الباقون بالياء ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لتقدّم اسم اللّه أوّلا .

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(78/713)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾

قال مجاهد وغيره : ودخل كلام بعضهم في بعض .

﴿ المخلفون من الأعراب ﴾ : هم جهينة ، ومزينة ، وغفار ، وأشجع ، والديل ، وأسلم .

استنفرهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً ، ليخرجوا معه حذراً من قريش أن يعرضوا له بحرب ، أو يصدوه عن البيت ؛ وأحرم هو (صلى الله عليه وسلم) ، وساق معه الهدى ليعلم أنه لا يريد حرباً ، ورأى أولئك الأعراب أنه يستقبل عدواً عظيماً من قريش وثقيف وكنانة والقبائل والمجاورين بمكة

، وهو الأحابيش ؛ ولم يكن الإيمان تمكن من قلوبهم ، فقعدوا عن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وتخلفوا وقالوا : لن يرجع محمد ولا أصحابه من هذه السفرة ، ففضحهم الله عز وجل في هذه الآية ، وأعلم رسوله (صلى الله عليه وسلم) بقولهم واعتذارهم قبل أن يصل إليهم ، فكان كذلك .

﴿ شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا ﴾ : وهذا اعتلال منهم عن تخلفهم ، أي لم يكن لهم من يقوم بحفظ أموالهم وأهليهم غيرهم ، وبدؤا بذكر الأموال ، لأن بها قوام العيش ؛ وعطفوا الأهل ، لأنهم كانوا يحافظون على حفظ الأهل أكثر من حفظ المال .

وقرئ : شغلتنا ، بتشديد الغين ، حكاه الكسائي ، وهي قراءة إبراهيم بن نوح بن باذان ، عن قتيبة .

ولما علموا أن ذلك التخلف عن الرسول كان معصية ، سألوا أن يستغفر لهم .

﴿ يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ﴾ : الظاهر أنه راجع إلى الجملتين المقولتين من الشغل وطلب الاستغفار ، لأن قولهم : شغلتنا ، كذب ؛ وطلب الاستغفار : خبث منهم وإظهار أنهم مؤمنون عاصون .

وقال الطبري : هو راجع إلى قولهم : فاستغفر لنا ، يريد أنهم قالوا ذلك مصانعة من غير توبة ولا ندم .

﴿ قل فمن يملك ﴾ : أي من يمنعكم من قضاء الله ؟ ﴿ إن أراد بكم ضراً ﴾ : من قتل أو هزيمة ، ﴿ أو أراد بكم نفعاً ﴾ ، من ظفر وغنيمة ؟ أي هو تعالى المتصرف فيكم ، وليس حفظكم أموالكم وأهليكم بمانع من ضياعها إذا أراده الله تعالى .

وقرأ الجمهور : ضراً ، بفتح الضاد ؛ والإخوان : بضمها ، وهما لغتان .

ثم بين تعالى لهم العلة في تخلفهم ، وهي ظنهم أن الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه لا يرجعون إلى أهليهم .

وتقدم الكلام على أهل ، وكيف جمع بالواو والنون في قوله : ﴿ ما تطعمون أهليكم ﴾

وقرأ عبد الله : إلى أهلهم ، بغير ياء ؛ وزين ، قراءة الجمهور مبنياً للمفعول ، والفاعل هو الله تعالى .

وقيل غيره ممن نسب إليه التزيين مجازاً .

وقرىء : وزين مبنياً للفاعل .

﴿ وظننتم ظن السوء ﴾ : احتمل أن يكون هو الظن السابق ، وهو ظنهم أن لا ينقلبوا ، ويكون قد ساءهم ذلك الظن وأحزنهم حيث أخلف ظنهم .

ويحتمل أن يكون غيره لأجل العطف ، أي ظننتم أنه تعالى يخلف وعده في نصر دينه وإعزاز رسوله (صلى الله عليه وسلم) .

﴿ بوراً ﴾ : هلكى ، والظاهر أنه مصدر كالهلك ، ولذلك وصف به المفرد المذكر ، كقول ابن الزبعري :

يا رسول المليك إن لساني . . .

راتق ما فتقت إذ أنا بور

والمؤنث ، حكى أبو عبيدة : امرأة بور ، والمثنى والمجموع .

وقيل : يجوز أن يكون جمع بائر ، كحائل ، وحول هذا في المعتل ، وباذل وبذل في الصحيح ، وفسر بوراً : بفاسدين هلكى .

وقال ابن بحر : أشرار .

واحتمل وكنتم ، أي يكون المعنى : وصرتم بذلك الظن ، وأن يكون وكنتم على بابها ، أي وكنتم في الأصل قوماً فاسدين ، أي الهلاك سابق لكم على ذلك الظن .

ولما أخبر تعالى أنهم قوم بور ، ذكر ما يدل على أنهم ليسوا بمؤمنين فقال : ﴿ ومن لم يؤمن بالله ورسوله ﴾ ، فهو كافر جزاؤه السعير .

ولما كانوا ليسوا مجاهدين بالكفر ، ولذلك اعتذروا وطلبوا الاستغفار ، مزج وعيدهم وتوبيخهم ببعض الإمهال والترجئة .

وقال الزمخشري : ﴿ ولله ملك السموات والأرض ﴾ ، يدبره تدبير قادر حكيم ، فيغفر ويعذب بمشيئته ، ومشيئته تابعة لحكمته ، وحكمته المغفرة للتائب وتعذيب المصر .

﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ ، رحمته سابقة لرحمته ، حيث يكفر السيئات باجتناب الكبائر بالتوبة . انتهى .

وهو على مذهب الاعتزال .

﴿ سيقول المخلفون ﴾ : روي أن الله تعالى أمر نبيه (صلى الله عليه وسلم) يغزو خيبر ، ووعده بفتحها ، وأعلمه أن المخلفين إذا رأوا مسيره إلى خيبر ، وهم عدو مستضعف ، طلبوا الكون معه رغبة في عرض الدنيا من الغنيمة ، وكان كذلك .

﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ : معناه أن يغيروا وعده لأهل الحديبية بغنيمة خيبر ، وذلك أنه وعدهم أن يعوضهم من مغانم مكة خيبر ، إذا قفلوا موادعين لا يصيبون منها شيئاً ، قاله مجاهد وقتادة ، وعليه عامة أهل التأويل .

وقال ابن زيد : ﴿ كلام الله ﴾ : قوله تعالى : ﴿ قل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً ﴾ وهذا لا يصح ، لأن هذه الآية نزلت مرجع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من تبوك في آخر عمره .

وهذه السورة نزلت عام الحديبية ، وأيضاً فقد غزت مزينة وجهينة بعد هذه المدة معه عليه

الصلاة والسلام ، وفضلهم بعد على تميم وغطفان وغيرهم من العرب .

وقرأ الجمهور : كلام الله ، بألف ؛ والإخوان : كلم الله ، جمع كلمة ، وأمره تعالى أن يقول لهم : ﴿ لن تتبعونا ﴾ ، وأتى بصيغة لن ، وهي للمبالغة في النفي ، أي لا يتم لكم ذلك ، إذ قد وعد تعالى أن ذلك لا يحضرها إلا أهل الحديبية فقط .

﴿ كذلكم قال الله من قبل ﴾ : يريد وعده قبل اختصاصهم بها .

﴿ بل تحسدوننا ﴾ : أي يعز عليكم أن نصيب مغنماً معكم ، وذلك على سبيل الحسد أن نقاسمكم فيما تغنمون .

(81/713)

وقرأ أبو حيوة : بكسر السين ، ثم رد عليهم تعالى كلامهم هذا فقال : ﴿ بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً ﴾ من أمور الدنيا ، وظاهره ليس لهم فكر إلا فيها ، كقوله : ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ﴾ والإضراب الأول رد أن يكون حكم الله أن لا يتبعوهم وإثبات الحسد . والثاني ، إضراب عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين إلى ما هو أطم منه ، وهو الجهل وقلة الفقه .

﴿ قل للمخلفين من الأعراب ﴾ : أمر تعالى نبيه (صلى الله عليه وسلم) أن يقول لهم ذلك

، ودل على أنهم كانوا يظهرون الإسلام ، ولو لم يكن الأمر كذلك ، لم يكونوا أهلاً لذلك الأمر .

وأبهم تعالى في قوله : ﴿ إلى قوم إولي بأس شديد ﴾ .

فقال عكرمة ، وابن جبير ، وقتادة : هم هوازن ومن حارب الرسول (صلى الله عليه وسلم) في حنين .

وقال كعب : الروم الذين خرج إليهم عام تبوك ، والذين بعث إليهم في غزوة مؤتة .

وقال الزهري ، والكلبي : أهل الردة ، وبنو حنيفة باليمامة .

وعن رافع بن خديج : إنا كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى ، ولا نعلم من هم حتى دعا أبو بكر ، رضي الله تعالى عنه ، إلى قتال بني حنيفة ، فعلمنا أنهم أريدوا بها .

وقال ابن عباس ، وعطاء بن أبي رباح ، ومجاهد ، وعطاء الخراساني ، وابن أبي ليلى : هم الفرس .

وقال الحسن : فارس والروم .

وقال أبو هريرة : قوم لم يأتوا بعد .

وظاهر الآية يرد هذا القول .

والذي أقوله : إن هذه الأقوال تمثيلات من قائليها ، لا أن المعنى بذلك ما ذكروا ، بل أخبر بذلك مبهماً دلالة على قوة الإسلام وانتشار دعوته ، وكذا وقع حسن إسلام تلك الطوائف ، وقاتلوا أهل الردة زمان أبي بكر ، وكانوا في فتوح البلاد أيام عمر وأيام غيره من الخلفاء .

والظاهر أن هؤلاء المقاتلين ليسوا ممن تؤخذ منهم الجزية ، إذ لم يذكر هنا إلا القتال أو الإسلام .

(82/713)

ومذهب أبي حنيفة ، رحمه الله تعالى ورضي عنه : أن الجزية لا تقبل من مشركي العرب ، ولا من المرتدين ، وليس إلا الإسلام أو القتل ؛ وتقبل ممن عداهم من مشركي العجم وأهل الكتاب والمجوس .

ومذهب الشافعي ، رحمه الله تعالى : لا تقبل إلا من أهل الكتاب والمجوس ، دون مشركي العجم والعرب .

وقال الزمخشري : وهذا دليل على إمامة أبي بكر الصديق ، رضي الله تعالى عنه ، فإنهم لم يدعوا إلى حرب في أيام الرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ولكن بعد وفاته . انتهى .

وهذا ليس بصحيح ، فقد حضر كثير منهم مع جعفر في موتة ، وحضروا حرب هوازن معر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وحضروا معه في سفرة تبوك .

ولا يتم قول الزمخشري : إلا على قول من عين أنهم أهل الردة .

وقرأ الجمهور : أو يسلمون ، مرفوعاً ؛ وأبي ، وزيد بن علي : بحذف النون منصوباً بإضمار

أن في قول الجمهور من البصريين غير الجرمي ، وبها في قول الجرمي والكسائي ، وبالخلاف في قول الفراء وبعض الكوفيين .

فعلى قول النصب بإضمار أن هو عطف مصدر مقدر على مصدر متوهم ، أي يكون قتال أو إسلام ، أي أحد هذين ، ومثله في النصب قول امرىء القيس :

فقلت له لا تبك عينك إنما . . .

نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا

والرفع على العطف على تقاتلونهم ، أو على القطع ، أي أو هم يسلمون دون قتال .

﴿ فإن تطيعوا ﴾ : أي فيما تدعون إليه .

﴿ كما توليتم من قبل ﴾ : أي في زمان الخروج مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، في زمان الحديبية .

﴿ يعذبكم ﴾ : يحتمل أن يكون في الدنيا ، وأن يكون في الآخرة .

﴿ ليس على الأعمى حرج ﴾ : نفي الحرج عن هؤلاء من ذوي العاهات في التخلف عن الغزو ، ومع ارتفاع الحرج ، فجائز لهم الغزو ، وأجرهم فيه مضاعف ، والأعرج أحرى بالصبر وأن لا يفر .

وقد غزا ابن أم مكتوم ، وكان أعمى ، في بعض حروب القادسية ، وكان رضي الله عنه يمسك الراية ، فلو حضر المسلمون ، فالغرض متوجه بحسب الوسع في الغزو .

(83/713)

وقرأ الجمهور : يدخله ويعذبه ، بالياء ؛ والحسن ، وقتادة ، وأبو جعفر ، والأعرج ، وشيبة ، وابن عامر ، ونافع : بالنون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(84/713)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ سَيَقُولُ لَكَ المخلفون مِنَ الأعراب ﴾

هم أعرابُ غِفارٍ ومُزينةَ وجُهينةَ وأشجعَ وأسلمَ والدّيلِ تخلفُوا عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم حينَ استنفرَ من حولَ المدينةِ من الأعرابِ وأهلِ البوادِي ليخرجُوا معه عند إرادتِه المسيرَ إلى مكةَ عامَ الحديبيةِ معُتمراً حذراً من قريشٍ أنْ يتعرضُوا له بحربٍ أو يصدُّوه عن البيتِ وأحرمَ عليه الصلاةُ والسلامُ وساقَ معه الهديَ ليعلم أنَّه لا يريدُ الحربَ وتثاقلُوا عن الخروجِ وقالُوا نذهبُ إلى قومٍ قد غزَوه في عقرِ دارِه بالمدينةِ وقتلُوا أصحابَه قتلاتُهم فأَوْحَى الله تعالى إليه عليهِ الصلاةُ والسلامُ بأنَّهم سيعتلونَ ويقولونَ ﴿ شَغَلَتْنَا

أموالنا وَأَهْلُونَا ﴾ ولم يكُن لنا مَنْ يخلفنَا فيهم ويقومُ بمصالحِهم ويحميهمِ من الضياعِ. وقُرِىءَ شَغَّلتنَا بالتشديدِ للتكثيرِ ﴿ فاستغفر لَنَا ﴾ الله تعالى ليغفرَ لنَا تخلفنَا عنْكَ حيثُ لم يكن ذلكَ باختيارٍ بلْ عنِ اضطرارٍ ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ بدلٌ من سيقولُ أو استئنافٌ لتكذيبِهم في الاعتذارِ والاستغفارِ.

(85/713)

﴿ قُلْ ﴾ ردّاً لهم عندَ اعتذارِهم إليكَ بأباطيلِهم. ﴿ فَمَن يَمْلِكُ لَكُمْ مِّنَ اللهِ شَيْئاً ﴾ أي فَمنْ يقدر لأجلكم منْ مشيئةِ الله تعالى وقضائِه على شيءٍ من النفعِ ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً ﴾ أيْ مَا يُضرُّكم من هلاكِ الأهلِ والمالِ وضياعِهما حتَّى تتخلفُوا عنِ الخروجِ لحفظِهما ودفعِ الضررِ عنهُما وقُرِىءَ ضُراً بالضمِّ. ﴿ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً ﴾ أيْ ومَنْ يقدرُ على شيءٍ من الضررِ إنْ أرادَ بكُم ما يُنفعكُم من حفظِ أموالِكم وأهليكِم فأيُّ حاجةٍ إلى التخلفِ لأجلِ القيامِ بحفظِهما وهذا تحقيقٌ للحقِّ وردٌّ لهم بموجبِ ظاهرِ مقالتِهم الكاذبةِ، وتعميمُ الضرِّ والنفعِ لما يُتوقع على تقديرِ الخروجِ من القتلِ والهزيمةِ والظفرِ والغنيمةِ يردُّه قولُه تعالى: ﴿ بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ فإنه إضرابٌ عمَّا قالُوا وبيانٌ لكذبِه بعدَ بيانِ

فسادِه عَلى تقديرِ صدقهِ أي ليسَ الأمرُ كَما تقولونَ بلْ كانَ الله خبيراً بجميعِ ما تفعلون من الأعمالِ التي من جُملتها تخلفُكم وما هُو من مباديه .

(86/713)

وقولُه تعالى : ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ ﴾ الخ بدلٌ من كانَ الله الخ مفسرٌ لما فيه من الإبهامِ أي بل ظننتُم ﴿ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرسول والمؤمنون إلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً ﴾ بأن يستأصلَهم المشركون بالمرة فخشِيتم إنْ كنتُم معهم أنْ يصيبَكم ما أصابهم فلأجلِ ذلك تخلفتُم لا لما ذكرتُم من المعاذير الباطلةِ . والأهلونَ جمعُ أهلٍ وقد يُجمع على أهلاتٍ كأرضاتٍ على تقديرِ تاءِ التأنيثِ ، وأمَّا الأهالي فاسمُ جمعٍ كالليالي . وقُرِىءَ إلى أهلِهم ﴿ وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ وقبلتموه واشتغلتُم بشأنِ أنفسِكم غيرَ مُبالينَ بهم . وقُرِىءَ زَيَّنَ على البناءِ للفاعلِ بإسنادِه إلى الله سبحانَهُ أو إلى الشيطانِ ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السوء ﴾ المرادُ به إما الظنُّ الأولُ ، والتكريرُ لتشديدِ التوبيخِ والتسجيلِ عليه بالسوءِ أو ما يعمُّه وغيرَهُ من الظنونِ الفاسدةِ التي من جُمْلتها الظنُّ بعدمِ صحةِ رسالتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فإنَّ الجازمَ بصحتِها لا يحومُ حولَ فكرِه وما ذُكِرَ من الاستئصال . ﴿ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً ﴾ أي هالكينَ عند الله مستوجبينَ لسخطِه وعقابِه على أنه جمعُ بائرٍ كعائذٍ وعوذٍ أو فاسدينَ في أنفسِكم وقلوبِكم ونياتِكم لا

خيرَ فيكُم ، وقيلَ البُور من بارَ كالهُلك من هلكَ بناءً ومَعنًى ولذلك وصفَ به الواحدُ والجمعُ والمذكرُ والمؤنثُ .

﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بالله وَرَسُولِهِ ﴾ كلامٌ مبتدأٌ من جهتِه تعالى غيرُ داخلٍ في الكلامِ الملقنِ مقررٌ لبوارهم ومبينٌ لكيفيتِه أي ومَنْ لم يؤمنْ بهما كدأبِ هؤلاءِ المخلفينَ . ﴿ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا للكافرين سَعِيراً ﴾ أي لَهم ، وإنما وضعَ موضعَ الضميرِ الكافرونَ إيذاناً بأنَّ منْ لم يجمعْ بينَ الإيمانِ بالله وبرسولِه فهو كافرٌ وأنه مستوجبٌ للسعيرِ بكفرِه ، وتنكيرُ سعيراً للتهويلِ أو لأنَّها نارٌ مخصوصةٌ .

(87/713)

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ وما فيهما ينصرفُ في الكلِّ كيفَ يشاءُ . ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء ﴾ أنْ يغفرَ له ﴿ وَيُعَذّبُ مَن يَشَاء ﴾ أنْ يعذبَهُ من غيرِ دخلٍ لأحدٍ في شيءٍ منهُمَا وجُوداً وعدماً ، وفيه حسمٌ لأطماعِهم الفارغةِ في استغفارِه عليه الصلاةُ والسلامُ لهم ﴿ وَكَانَ الله غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ مُبالغاً في المغفرةِ والرحمةِ لمن يشاءُ ، ولا يشاءُ إلا لمن تقتضِي الحكمةُ مغفرتَهُ ممن يؤمنُ به وبرسولِه وأما من عداهُ من الكافرينَ فهمُ بمعزلٍ من ذلك قطعاً ﴿ سَيَقُولُ المخلفون ﴾ أي المذكورونَ وقوله تعالى : ﴿ إِذَا انطلقتم إلى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ﴾

ظرفٌ لما قبله لا شرطٌ لما بعدَهُ أي سيقولونَ عند انطلاقِكم إلى مغانمِ خيبرَ لتحوزُوها حسبما وعدكُم إيَّاها وخصّكم بها عوضاً مما فاتكُم من غنائمِ مكةَ ﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ إلى خيبرَ ونشهدْ معكم قتالَ أهلها ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلامَ اللهِ ﴾ بأنْ يشاركُوا في الغنائمِ التي خصَّها بأهلِ الحديبيةِ فإنه عليه الصلاةُ والسلامُ رجعَ من الحديبيةِ في ذي الحجةِ من سنة ستَ وأقام بالمدينةِ بقيتها وأوائلَ المحرمِ من سنة سبعٍ ثم غزا خيبرَ بمن شهدَ الحديبيةَ ففتحَها وغنم أموالاً كثيرةً فخصَّها بهم حسبما أمره اللهُ عزَّ وجلَّ وقُرِىءَ كلمَ اللهِ وهو جُمع كِلمةٍ وأيّاً ما كانَ فالمرادُ ما ذُكِرَ من وعدِه تعالى غنائمَ خيبرَ لأهلِ الحديبيةِ خاصَّةً لا قولُه تعالى : ﴿ لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا ﴾ فإنَّ ذلكَ في غزوةِ تبوكَ .

(88/713)

﴿ قُلْ ﴾ إقناطاً لهم ﴿ لَّن تَتَّبِعُونَا ﴾ أي لا تتبعونا فإنه نفيٌ في مَعْنى النهي للمبالغةِ ﴿ كَذَلِكُمْ قَالَ اللهُ مِن قَبْلُ ﴾ أي عندَ الانصرافِ من الحديبيةِ ﴿ فَسَيَقُولُونَ ﴾ للمؤمنين عند سماعِ هَذا النهي ﴿ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ أي ليسَ ذلكَ النهيُ حكمَ اللهِ بل تحسدوننا أن نشارككم في الغنائمِ وقرىء تحسدوننا بكسر السين وقوله تعالى ﴿ بَلْ كَانُواْ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ أي لا يفهمونَ ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ إلا فهماً قليلاً وهو فطنتُهم لأمورِ الدُّنيا ، ردٌّ لقولِهم الباطلِ

ووصفٌ لهم بما هُو أعظمُ من الحسدِ وأَطمُّ من الجهلِ المفرطِ وسوءِ الفهمِ في أمورِ الدينِ .

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأعراب ﴾

كررَ ذكرَهُم بهذا العنوانِ مبالغةً في ذمّهم ﴿ سَتُدْعَوْنَ إلى قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ هم بنُو حنيفةَ قومُ مسيلمةَ الكذابِ ، أو غيرُهم ممن ارتدُّوا بعد رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، أو المشركونَ لقولِه تعالى ﴿ تقاتلونهم أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ أي يكونُ أحدُ الأمرينِ إما المقاتلةُ أبداً أو الإسلامُ لا غيرُ ، كما يفصحُ عنه قراءةُ أو يسلمُوا . وأما من عداهُم فينتهي قتالَهم بالجزيةِ كما ينتهِي بالإسلامِ . وفيه دليلٌ على إمامةِ أبي بكر رضيَ الله عنه إذا لم تتفقْ هذه الدعوةُ لغيرِه إلا إذا صحَّ أنهم ثقيفٌ وهوزانُ فإنَّ ذلك كان في عهدِ النبوةِ فيخصَّ دوامُ نفي الاتباعِ بَما في غزوةِ خيبرَ كما قالَهُ محي السنةِ وقيلَ هم فارسُ والرومُ ومعنى يُسلمون ينقادونَ فإنَّ الرومَ نَصَارى وفارسَ مجوسٌ يُقبل منهم الجزيةُ . ﴿ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ الله أَجْراً حَسَناً ﴾ هو الغنيمةُ في الدنيا والجنةُ في الآخرةِ ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ ﴾ عن الدعوةِ ﴿ كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ ﴾ في الحديبيةِ ﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ لتضاعفِ جُرمكم .

(89/713)

﴿ لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأعرج حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المريض حَرَجٌ ﴾ أي في التخلفِ عنِ الغزوِ لما بِهِمْ من العُذرِ وَالعاهةِ فإنَّ التَّكليفَ يدورُ على الاستطاعةِ . وفى نفي الحرجِ عن كلِّ من الطوائفِ المعدودةِ مزيدُ اعتناءٍ بأمرِهم وتوسيعٌ لدائرةِ الرُّخصةِ . ﴿ وَمَن يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ ﴾ فيما ذُكِرَ من الأوامرِ والنَّواهِي ﴿ يُدْخِلْهُ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهر ﴾ . وقُرِىءَ نُدخلْه بنونِ العظيمةِ ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ أي عن الطاعةِ ﴿ يُعَذِّبْهُ ﴾ وقرىء بالنونِ ﴿ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ لا يُقادرُ قدرُهُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(90/713)

وقال الآلوسى :

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأعراب ﴾

كرر ذكرهم بهذا العنوان مبالغة في الذم وإشعاراً بشناعة التخلف ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ ذوي نجدة وشدة قوية في الحرب ، وهم على ما أخرج ابن المنذر . والطبراني عن الزهري بنو حنيفة مسيلمة وقومه أهل اليمامة ، وعليه جماعة ، وفي رواية عنه زيادة أهل الردة وروي ذلك عن الكلبي ، وعن رافع بن خديج إنا كنا نقرأ هذه الآية فيما

مضى ولا نعلم من هم حتى دعا أبو بكر رضي الله تعالى عنه إلى قتال بني حنيفة فعلمنا أنهم أريدوا بها ، وعن عطاء بن أبي رباح .

ومجاهد في رواية .

وعطاء الخراساني .

وابن أبي ليلى هم الفرس ، وأخرجه ابن جرير .

والبيهقي في الدلائل .

وغيرهما عن ابن عباس ، وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال في الآية : دعا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لقتال فارس أعراب المدينة جهينة .

ومزينة الذين كان النبي صلى الله عليه وسلم دعاهم للخروج إلى مكة ، وقال عكرمة .

وابن جبير .

وقتادة : هم هوازن ومن حارب الرسول صلى الله عليه وسلم في حنين ، وفي رواية ابن جرير .

وعبد بن حميد عن قتادة التصريح بثقيف مع هوازن ، وفي رواية الفريابي .

وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال : هم هوازن وبنو حنيفة ، وقال كعب : هم الروم الذي خرج إليهم صلى الله عليه وسلم عام تبوك والذين بعث إليهم في غزوة موتة ، وأخرج سعيد بن منصور .

وابن جرير .

وابن المنذر عن الحسن قال : هم فارس والروم ، وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : البارز يعني الأكراد كما في "الدر المنثور" ، وأخرج ابن المنذر .

(91/713)

والطبراني في الكبير عن مجاهد قال : أعراب فارس وأكراد العجم ، وظاهر العطف أن أكراد العجم ليسوا من أعراب فارس ، وظاهر إضافا أكراد إلى العجم يشعر بأن من الأكراد ما يقال لهم أكراد العرب ، ولا نعرف هذا التقسيم وإنما نعرف جيلاً من الناس يقال لهم أكراد من غير إضافة إلى عرب أو عجم ، وللعلماء اختلاف في كونهم في الأصل عرباً أو غيرهم فقيل : ليسوا من العرب ، وقيل منهم ، قال القاضي شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان في ترجمة المهلب بن أبي صفرة ما نصه : حكى أبو عمر بن عبد البر صاحب كتاب الاستيعاب في كتابه القصد والأمم في أنساب العرب والعجم أن الأكراد من نسل عمرو مزيقيا بن عامر بن ماء السماء وأنهم وقعوا إلى أرض العجم فتناسلوا بها وكثر ولدهم فسموا الأكراد ، وقال بعض الشعراء في ذلك وهو يعضد ما قاله ابن عبد البر :

لعمرك ما الأكراد أبناء فارس . . .

ولكنه كرد بن عمرو بن عامر

انتهى ، وفي "القاموس" الكرد بالضم جيل من الناس معروف والجمع أكراد وجدهم كرد بن عمرو مزيقيا بن عامر ماء السماء انتهى ، وعامر هذا من العرب بلا شبهة فإنه ابن حارثة الغطريق بن امرء القيس البطريق بن ثعلبة بن مازن بن الأزد ويقال له الأسد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ويسمى عامراً وهو عند الأكثر ابن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح ، وقيل : من ولد هود ، وقيل : هو هود نفسه ، وقيل : ابن أخيه ، وذهب الزبير بن بكار إلى أن قحطان من ذرية إسماعيل عليه السلام وأنه قحطان بن الهميسع بن تيم بن نبت بن إسماعيل ، والذي رجحه ابن حجر أن قبائل اليمن كلها ومنها قبيلة مزيقيا من ولد إسماعيل عليه السلام ، ويدل له تبويب البخاري باب نسبة اليمن إلى إسماعيل عليه السلام ذكر ذلك السيد نور الدين على السمهودي في تاريخ المدينة ، وفيه أن الأنصار الأوس .

(92/713)

والخزرج من أولاد ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقيا المذكور وكان له ثلاثة عشر ولداً ذكوراً منهم ثعلبة المذكور .

وحارثة والد خزاعة .

وجفنة والد غسان .

ووداعة .

وأبو حارثة .

وعوف .

وكعب .

ومالك .

وعمران .

وكرد كما في "القاموس" انتهى .

وفائدة الخلاف تظهر في أمور منها الكفاءة في النكاح والعامة لا يعدونهم من العرب فلا تغفل ، والذي يغلب على ظني أن هؤلاء الجيل الذين يقال لهم اليوم أكراد لا يبعد أن يكون فيهم من هو من أولاد عمرو مزيقيا وكذا لا يبعد أن يكون فيهم من هو من العرب وليس من أولاد عمرو المذكور إلا أن الكثير منهم ليسوا من العرب أصلاً ، وقد انتظم في سلك هذا الجيل أناس يقال : إنهم من ذرية خالد بن الوليد ، وآخرون يقال : إنهم من ذرية معاذ بن جبل ؛ وآخرون يقال : إنهم من ذرية العباس بن عبد المطلب ، وآخرون يقال : إنهم من بني أمية ولا يصح عندي من ذلك شيء بيد أنه سكن مع الأكراد طائفة من السادة أبناء الحسين رضي

الله تعالى عنهم يقال لهم البرزنجية لا شك في صحة نسبهم وكذا في جلالة حسبهم ، وبالجملة الأكراد مشهور باليأس وقد كان منهم كثير من أهل الفضل بل ثبت لبعضهم الصحبة ، قال الحافظ ابن حجر في الإصابة في تمييز الصحابة في حرف الجيم : جابان والد ميمون روى ابن منده من طريق أبي سعيد مولى بني هاشم عن أبي خلدة سمعت ميمون بن جابان الكردي عن أبيه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم غير مرة حتى بلغ عشراً وذكر الحديث ، وقد أخرج نحوه الطبراني في المعجم الصغير عن ميمون الكردي عن أبيه أيضاً وهو أتم منه ولفظه

(93/713)

" سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أيما رجل تزوج امرأة على ما قل من المهر أو كثر ليس في نفسه أن يؤدي إليها حقها خدعها فمات ولم يؤد إليها حقها لقي الله يوم القيامة وهو زان وأيما رجل استدان ديناً لا يريد أن يؤدي إلى صاحبه حقه خدعه حتى أخذ ماله فمات ولم يؤد إليه دينه لقي الله وهو سارق " ويكنى ميمون هذا بأبي بصير بفتح الموحدة ، وقيل : بالنون ، وهو كما في التقريب مقبول ، هذا وأشهر الأقوال في تعيين هؤلاء القوم أنهم بنو حنيفة .

وقال أبو حيان : الذي أقوله إن هذه الأقوال تمثيلات من قائلها لا تعيين القوم ، وهذا وإن حصل به الجمع بين تلك الأقوال خلاف الظاهر ، وقوله تعالى : ﴿ تقاتلونهم أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ على معنى يكون أحد الأمرين إما المقاتلة أو الإسلام لا ثالث لهما ، فأو للتنويع والحصر لا للشك وهو كثير ، ويدل لذلك قراءة أبي .

وزيد بن علي ﴿ أَوْ ﴾ بحذف النون لأن ذلك للناصب وهو يقتضي أن أو بمعنى إلا أي إلا أن يسلموا فيفيد الحصر أو بمعنى إلى أي إلى أن يسلموا ، والغاية تقتضي أنه لا ينقطع القتال بغير الإسلام فيفيده أيضاً كما قيل : والجملة مستأنفة للتعليل كما في قولك : سيدعوك الأمير يكرمك أو يكبت عدوك ، قال في "الكشف" : ولا يجوز أن تكون صفة لقوم لأنهم دعوا إلى قتال القوم لا أنهم دعوا إلى قوم موصوف بالمقاتلة أو الإسلام .

وجوز بعضهم كونها حالية وحاله كحال الوصفية ، وأصل الكلام ستدعون إلى قوم أولي بأس لتقاتلوهم أو يسلموا فعدل إلى الاستئناف لأنه أعظم الوصلين ، ثم فيه أنهم فعلوا ذلك وحصلوا الغرض فهو يخبر عنه واقعاً .

(94/713)

والاعتراض بأنه يلزم أن لا ينفك الوجود عن أحدهما لصدق إخباره تعالى ونحن نرى الانفكاك بأن يتركوا سدى أو بالهدنة فينبغي أن يؤول بأنه في معنى الأمر على ما في أمالي ابن الحاجب غير سديد لأن القوم مخصوصون لا عموم فيهم ، وكان الواقع أنهم قوتلوا إلى أن أسلموا سواء فسر القوم ببني حنيفة أو بثقيف .

وهوازن أو فارس والروم على أن الإسلام الانقياد فما انفك الوجود عن أحدهما بل وقعا ، وأما امتناع الانفكاك فليس من مقتضى الوضع ولا الاستعمال بل ذلك في الكلام الاستدلالي قد يتفق .

وأطال الطيبي الكلام في هذا المقام ثم قال : الذي يقتضيه المقام ما ذهب إليه صاحب التحبير من أن ﴿ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ عطف على ﴿ تقاتلونهم ﴾ أما على الظاهر أو بتقديرهم يسلمون ليكون من عطف الاسمية على الفعلية وحينئذٍ تكون المناسبة أكثر إذ تخرج الجملة إلى باب الكناية ، والمعنى تقاتلونهم أو لا تقاتلونهم لأنهم يسلمون ، وقد وضع فيه ﴿ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ موضع أولاً تقاتلونهم لأنهم إذا أسلموا سقط عنهم قتالهم ضرورة ، والاستدعاء عليه ليس إلا للاختبار ، و ﴿ أَوْ ﴾ للترديد على سبيل الاستعارة وفيه ما فيه ، وشاع الاستدلال بالآية على صحة إمامة أبي بكر رضي الله تعالى عنه ، ووجه ذلك الإمام فقال : الداعي في قوله تعالى : ﴿ سَتُدْعَوْنَ ﴾ لا يخلو من أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم أو الأئمة الأربعة أو من بعدهم لا يجوز الأول لقوله سبحانه :

﴿ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا ﴾ [الفتح : 15] الخ ولا أن يكون علياً رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه لأنه إنما قاتل البغاة والخوارج وتلك المقاتلة للإسلام لقوله عز وجل : ﴿ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ ولا من ملك بعدهم لأنهم عندنا على الخطأ وعند الشيعة على الكفر ولما بطلت الأقسام تعين أن يكون المراد بالداعي أبا بكر .

وعمر وعثمان .

(95/713)

رضي الله تعالى عنهم ، ثم إنه تعالى أوجب طاعته وأورعد على مخالفته وذلك يقتضي إمامته وأي الثلاثة كان ثبت المطلوب ، أما إذا كان أبا بكر فظاهر ، وأما إذا كان عمر أو عثمان فلأن إمامته فرع إمامته رضي الله تعالى عنه .

وتعقب بأن الداعي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ويشعر بذلك السين قوله : لا يجوز لقوله سبحانه : لن ﴿ تَتَّبِعُونَا ﴾ الخ فيه أن ﴿ لَنْ ﴾ لا تفيد التأبيد على الصحيح وظاهر السياق يدل على أن المراد به لن تتبعونا في الانطلاق إلى خيبر كما سمعت عن محيى السنة أو هو مقيد بما روى عن مجاهد أو بما حكى عن بعض ، وقال أبو حيان : القول بأنهم لم يدعوا إلى حرب في أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ليس بصحيح فقد حضر كثير منهم

مع جعفر في موتة وحضروا حرب هوازن معه عليه الصلاة والسلام وحضروا معه صلى الله عليه وسلم أيضاً في سفرة تبوك انتهى ، ولا يخفى أن هذا إذا صح ينفي حمل النفي على التأبيد .

ومن الشيعة من اقتصر في رد الاستدلال على الدعوة في تبوك .

(96/713)

وتعقب بأنه لم يقع فيها ما أخبر الله تعالى به في قوله سبحانه : ﴿ تقاتلونهم أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ ومنهم من زعم أن الداعي علي كرم الله تعالى وجهه وزعم كفر البغاة والخوارج عليه رضي الله تعالى عنه وأنه لو سلم إسلامهم يراد بالإسلام في الآية الانقياد إلى الطاعة وموالاة الأمير ، وفيه ما لا يخفى ، والانصاف أن الآية لا تكاد تصح دليلاً على إمامة الصديق رضي الله تعالى عنهإلا إن صح خبر مرفوع في كون المراد بالقوم بني حنيفة ونحوهم ودون ذلك خرط القتاد ، ونفى بعضهم صحة كون المراد بالقوم فارساً والروم لأن المراد في قوله تعالى : ﴿ تقاتلونهم أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ على ما سمعت وفارس مجوس والروم نصارى فلا يتعين فيهم أحد الأمرين من المقاتلة والإسلام إذ يقبل منهم الجزية ، وكذا اليهود ومشركو العجم والصابئة عند أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه وقال : يتعين كونهم مرتدين أو مشركي العرب لأنهم

الذين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف ، ومثل مشركي العرب مشركو العجم عند الشافعي رضي الله تعالى عنه فعنده لا تقبل إلا من أهل الكتاب والمجوس ، وأنت تعلم أن من فسر القوم بذلك يفسر الإسلام بالانقياد وهو يكون بقبول الجزية فلا يتم له أمر النفي فلا تغفل ﴿ فَإِن تُطِيعُواْ ﴾ الدعي فيما دعاكم إليه ﴿ يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْراً حَسَناً ﴾ هو على ما قيل الغنيمة في الدنيا والجنة في الأخرى ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ ﴾ عن الدعوة ﴿ كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ ﴾ في الحديبية ﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ لتضاعف جرمكم ، وهذا التعذيب قال في "البحر" : يحتمل أن يكون في الدنيا وأن يكون في الآخرة ، ويحتمل عندي وهو الأوفق بما قبله على ما قيل كونه فيهما ولا بأس بكون كل من الإيتاء والتعذيب في الآخرة بل لعله المتبادر لكثرة استعمالهما في ذلك ، ولا يحسن كون الأمرين في الدنيا ولا كون الأول في الآخرة أو فيها وفي الدنيا والثاني في الدنيا فقط .

(97/713)

﴿ لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ ﴾

أي إثم ﴿ وَلاَ عَلَى الاعرج حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المريض حَرَجٌ ﴾ أي في التخلف عن الغزو لما بهم من العذر والعاهة ، وفي نفي الحرج عن كل من الطوائف المعدودة مزيد اعتناء بأمرهم

وتوسيع لدائرة الرخصة ، وليس في نفي ذلك عنهم نهي لهم عن الغزو بل قالوا : إن أجرهم مضاعف في الغزو ، وقد غزا ابن أم مكتوم وكان أعمى رضي الله تعالى عنه وحضر في بعض حروب القادسية وكان يمسك الراية .

وفي "البحر" لو حصر المسلمون فالفرض متوجه بحسب الوسع في الجهاد ﴿ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فيما ذكر من الأوامر والنواهي .

﴿ يُدْخِلْهُ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ عن الطاعة ﴿ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ لا يقادر قدره والمعنى بالوعد والوعيد هنا أعم من المعنى بهما فيما سبق كما ينبىء عن ذلك التعبير بمن هنا وبضمير الخطاب هناك ، وقيل في الوعيد ﴿ يُعَذِّبْهُ ﴾ الخ دون يدخله ناراً ونحوه مما هو أظهر في المقابلة لقوله تعالى : ﴿ يُدْخِلْهُ جنات ﴾ الخ اعتناء بأمره من حيث أن التعذيب يوم القيامة عذاباً أليماً يستلزم إدخال النار وإدخالها لا يستلزم ذلك ، واعتنى به لأن المقام يقتضيه ولذا جيء به كالمكرر مع الوعيد السابق ، ويكفي في الإشارة إلى سبق الرحمة إخراج الوعد ههنا كالتفصيل لما تقدم والتعبير هناك بإيتاء الأجر الحسن الظاهر في الاستحقاق مع إسناد الايتاء إلى الاسم الجليل نفسه فتأمل فلمسلك الذهن اتساع .

وقرأ الحسن .

وقتادة .

وأبو جعفر .

والأعرج .

وشيبة .

وابن عامر .

ونافع ﴿ ندخله ونعذبه ﴾ بالنون فيهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ

﴾

(98/713)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾

انتقال إلى طمأنة المخلفين بأنهم سينالون مغانم في غزوات آتية ليعلموا أن حرمانهم من الخروج إلى خيبر مع جيش الإسلام ليس لانسلاخ الإسلام عنهم ولكنه لِحكمة نوط المسبّبات بأسبابها على طريقة حكمة الشريعة فهو حرمان خاص بوقعة معينة كما تقدم آنفاً ، وأنهم سيدعون بعد ذلك إلى قتال قوم كافرين كما تُدعى طوائف المسلمين ، فذِكر هذا في هذا المقام إدخال للمسرة بعد الحزن ليزيل عنهم انكسار خواطرهم من جراء

الحرمان .

وفي هذه البشارة فرصة لهم ليستدركوا ما جنوه من التخلف عن الحديبية وكل ذلك دال على أنهم لم ينسلخوا عن الإيمان ، ألا ترى أن الله لم يعامل المنافقين المبطنين للكفر بمثل هذه المعاملة في قوله : ﴿ فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تَخْرجُوا معي أبداً ولن تقاتلوا معِي عدوّاً إنكم رضِيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين ﴾ [التوبة : 83] .

وكرر وصف من ﴿ الأعراب ﴾ هنا ليظهر أن هذه المقالة قصد بها الذين نزل فيهم قوله : ﴿ سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا ﴾ [الفتح : 11] فلا يتوهم السامعون أن المعنى بالمخلفين كل من يقع منه التخلف .

وأسند ﴿ تدعون ﴾ إلى المجهول لأنّ الغرض الأمر بامتثال الدّاعي وهو وليّ أمر المسلمين بقرينة قوله بعد في تذييله ﴿ ومن يطع الله ورسوله ﴾ [الفتح : 17] ودعوة خلفاء الرّسول صلى الله عليه وسلم من بعده ترجع إلى دعوة الله ورسوله لقوله : (ومن أطاع أمري فقد أطاعني) .

وعدي فعل ﴿ ستدعون ﴾ بحرف ﴿ إلى ﴾ لإفادة أنها مضمنة معنى المشي ، وهذا فرق دقيق بين تعدية فعل الدعوة بحرف ﴿ إلى ﴾ وبين تعديته باللام نحو قولكَ : دعوت فلاناً لما نَابني ، قال طرفة:

وإن أُدْعَ للجُلَّى أكن من حُماتِهَا . . .

وقد يتعاقب الاستعمالان بضربٍ من المجاز والتسامح .

(99/713)

والقوم أولو البأس الشديد يتعين أنهم قوم من العرب لأن قوله تعالى : ﴿ تقاتلونهم أو يسلمون ﴾ يشعر بأن القتال لا يرفع عنهم إلا إذا أسلموا ، وإنما يكون هذا حُكماً في قتال مشركي العرب إذ لا تقبل منهم الجزية .

فيجوز أن يكون المراد هوازنَ وثقيف .

وهذا مروي عن سعيد بن جُبير ، وعكرمة وقتادة ، وذلك غزوة حنين وهي بَعد غزوة خيبر ، وأما فتح مكة فلم يكن فيه قتال .

وعن الزهري ومقاتل : أنهم أهل الردة لأنهم من قبائل العرب المعروفة بالبأس ، وكان ذلك صدرَ خلافة أبي بكر الصديق .

وعن رافع بن خديج أنه قال : والله لقد كنا نقرأ هذه الآية ﴿ ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد ﴾ فلا نعلم من هم حتى دَعَانَا أبو بكر إلى قتال بني حنيفة فعلمنا أنهم هم ، وعن ابن عباس وعطاء بن أبي رباح ، وعطاء الخراساني ، والحسن هم فارس والروم .

وجملة ﴿ تقاتلونهم أو يسلمون ﴾ إمّا حال من ضمير ﴿ تدعون ﴾ ، وإما بدل اشتمال من مضمون ﴿ تدعون ﴾ .

و ﴿ أو ﴾ للترديد بين الأمرين والتنويع في حالة تُدعون ، أي تدعون إلى قتالهم وإسلامهم ، وذلك يستلزم الإمعان في مقاتلتهم والاستمرار فيها ما لم يسلموا ، فبذلك كان ﴿ أو يسلمون ﴾ حالاً معطوفاً على جملة ﴿ تقاتلونهم ﴾ وهو حال من ضمير ﴿ تدعون ﴾ .

وقوله : ﴿ وإن تتولوا كما توليتُم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً ﴾ تَعبير بالتوالي الذي مضى ، وتحذير من ارتكاب مثله في مثل هذه الدعوة بأنه تَوَلٍّ يوقع في الإثم لأنه تولَ عن دعوة إلى واجب وهو القتال للجهاد .

فالتشبيه في قوله : ﴿ كما توليتم من قبل ﴾ تشبيه في مطلق التولّي لقصد التشويه وليس تشبيهاً فيما يترتب على ذلك التولي .

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ

(100/713)

جملة معترضة بين جملة ﴿ وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً ﴾ [الفتح : 16] وبين جملة ﴿ ومن يطع الله ورسوله ﴾ الآية قصد منها نفي الوعيد عن أصحاب

الضَّرارة تنصيصاً على العذر للعناية بحكم التولّي والتحذير منه .

وجملة ﴿ من يطع الله ﴾ الخ تذييل لجملة ﴿ فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً ﴾ [الفتح : 16] الآية لما تضمنته من إيتاء الأجر لكل مطيع من المخاطبين وغيرهم ، والتعذيب لكل متول كذلك ، مع ما في جملة ﴿ ومن يطع اللَّه ﴾ من بيان أن الأجر هو إدخال الجنات ، وهو يفيد بطريق المقابلة أن التعذيب الأليم بإدخالهم جهنم .

وقرأ نافع وابن عامر ﴿ ندخلْه ﴾ و ﴿ نعذبْه ﴾ بنون العظمة على الالتفات من الغيبة إلى التكلم .

وقرأ الجمهور ﴿ يدخله ﴾ بالياء التحتية جرياً على أسلوب الغيبة بعود الضمير إلى اسم الجلالة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(101/713)

فائدة

قال الإمام السبكى :

قَوْله تَعَالَى ﴿ إنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَك إنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾

قَدْ يُؤْخَذُ مِنْهُ أَنَّ " إنَّمَا " لِلْحَصْرِ ، لِأَنَّهَا لَوْ لَمْ تَكُنْ لِلْحَصْرِ لَمْ تَفْدِ هُنَا إلَّا مُجَرَّدَ التَّأْكِيدِ وَقَدْ

اُسْتُفِيدَ مِنْ " إنْ " الْأُولَى وَيَحْتَاجُ إلَى أَنْ تَسْتَقْرِئَ هَلْ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ إنْ زَيْدًا إنَّهُ قَائِمٌ : فَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَسْمُوعًا صَحَّ مَا قُلْنَاهُ مِنْ إفَادَتِهَا الْحَصْرَ ؛ وَإِنْ كَانَ مَسْمُوعًا فَتَتَوَقَّفُ الدَّلَالَةُ لِأَنَّهُ يُقَالُ إنَّهَا لِلتَّأْكِيدِ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انْتَهَى . انتهى . ا هـ ﴿ فتاوى السبكى حـ 1 صـ 117 ﴾

(102/713)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (8) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ إنا أرسلناك شاهداً ﴾ قال : شاهداً على أمته وشاهداً على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنهم قد بلّغوا ﴿ ومبشراً ﴾ يبشر بالجنة من أطاع الله ﴿ ونذيراً ﴾ ينذر الناس من عصاه ﴿ ليؤمنوا بالله ورسوله ﴾ قال : بوعده وبالحساب وبالبعث بعد الموت ﴿ وتعزروه ﴾ قال : تنصروه ﴿ وتوقروه ﴾ قال : أمر الله بتسويده وتفخيمه وتشريفه وتعظيمه ، قال : وكان في بعض القراءة " ويسبحوا الله بكرة وأصيلا " .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه : " ويعزروه " قال : لينصروه " ويوقروه " أي ليعظموه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وتعزروه ﴾ يعني الإِجلال ﴿ وتوقروه ﴾ يعني التعظيم يعني محمداً صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وتعزروه ﴾ قال : تضربوا بين يديه بالسيف .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عكرمة رضي الله عنه في قوله ﴿ وتعزروه ﴾ قال : تقاتلوا معه بالسيف .

وأخرج ابن عدي وابن مردويه والخطيب وابن عساكر في تاريخه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : " لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ وتعزروه ﴾ قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : " ما ذاك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : ﴿ لتنصروه ﴾ " " .

وأخرج ابن مردويه عن عكرمة رضي الله عنه قال : كان ابن عباس يقرأ هذه الآية ﴿ تؤمنون بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً ﴾ قال : فكان يقول : إذا أشكل ياء أو تاء فاجعلوها على ياء فإن القرآن كله على ياء .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ ويسبحوه ﴾ قال : يسبحوا الله ، رجع إلى نفسه .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن هرون رضي الله عنه قال : في قراءة ابن مسعود " ويسبحوا الله بكرة وأصيلاً " .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير رضي الله عنه أنه كان يقرأ " ويسبحوا الله بكرة وأصيلاً " .

إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ

أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ إن الذين يبايعونك ﴾ قال : يوم الحديبية .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ إن الذين يبايعونك ﴾ قال : هم الذين بايعوه زمن الحديبية .

وأخرج ابن مردويه عن إبراهيم بن محمد بن المنتشر عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال : كانت بيعة النبي صلى الله عليه وسلم حين أنزل عليه ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ﴾ الآية فكانت بيعة النبي صلى الله عليه وسلم التي بايع عليها الناس البيعة لله والطاعة للحق . وكانت بيعة أبي بكر رضي الله عنه بايعوني ما أطعت الله ، فإذا عصيته فلا طاعة

لي عليكم . وكانت بيعة عمر بن الخطاب رضي الله عنه البيعة لله والطاعة للحق . وكانت بيعة عثمان بن عفان رضي الله عنه البيعة لله والطاعة للحق .

وأخرج عبد بن حميد عن الحكم بن الأعرج رضي الله عنه ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ قال : أن لا يفروا .

وأخرج أحمد وابن مردويه عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، وعلى النفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى أن نقول في الله لا تأخذنا في الله لومة لائم ، وعلى أن ننصره إذا قدم علينا يثرب ، فنمنعه مما نمنع منه أنفسنا وأزواجنا وأبناءنا ، ولنا الجنة ، فمن وفى وفى الله له ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه .

(104/713)

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا

أخرج عبد بن حميد عن جويبر رضي الله عنه في قوله ﴿ سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا ﴾ قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم حين انصرف من الحديبية وسار إلى خيبر تخلف عنه أناس من الأعراب فلحقوا بأهاليهم ، فلما

بلغهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد افتتح خيبر ساروا إليه ، وقد كان الله أمره أن لا يعطي أحداً تخلف عنه من مغنم خيبر ، ويقسم مغنمها من شهد الفتح ، وذلك قوله : ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ يعني ما أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن لا يعطي أحداً تخلف عنه من مغنم خيبر شيئاً .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الدلائل عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ سيقول لك المخلفون من الأعراب ﴾ قال : أعراب المدينة جهينة ومزينة استنفرهم لخروجه إلى مكة ، فقالوا : نذهب معه إلى قوم جاؤوه فقتلوا أصحابه فنقاتلهم في ديارهم ، فاعتلوا له بالشغل ، فأقبل معتمراً فأخذ أصحابه أناساً من أهل الحرم غافلين فأرسلهم النبي صلى الله عليه وسلم ، فذلك الأظفار ببطن مكة ، ورجع محمد صلى الله عليه وسلم فوعد مغانم كثيرة فجعلت له خيبر ، فقال المخلفون : ﴿ ذرونا نتبعكم ﴾ وهي المغانم التي قال الله ﴿ إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ﴾ وعرض عليهم قتال قوم أولي بأس شديد فهم فارس والمغانم الكثيرة التي وعدوا ما يأخذون حتى اليوم .

بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (12)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء ﴾ قال : ظنوا بنبي الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أنهم لن يرجعوا من وجههم ذلك ، وأنهم سيهلكون ، فذلك الذي خلفهم عن نبي الله صلى الله عليه وسلم وهم كاذبون بما يقولون ﴿ سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ﴾ قال : هم الذين تخلفوا عن النبي صلى الله عليه وسلم زمن الحديبية كذلكم قال الله من قبل قال : إنما جعلت الغنيمة لأجل الجهاد إنما كانت غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية ليس لغيرهم فيها نصيب ﴿ قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد ﴾ قال : فدعوا يوم حنين إلى هوازن وثقيف فمنهم من أحسن الإِجابة ، ورغب في الجهاد ، ثم عذر الله أهل العذر من الناس ، فقال : ﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ﴾ [النور : 61] .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه ﴿ بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول ﴾ قال : نافق القوم ﴿ وظننتم ظن السوء ﴾ أن لن ينقلب الرسول .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ قال : كتاب الله كانوا يبطئون المسلمين عن الجهاد ويأمرونهم أن يفروا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ أولي بأس شديد ﴾ يقول : فارس .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر عن الحسن رضي الله عنه قال : هم فارس والروم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله ﴿ أولي بأس شديد ﴾ قال : هم البآرز يعني الأكراد .

وأخرج ابن المنذر والطبراني في الكبير عن مجاهد رضي الله عنه في الآية قال : أعراب فارس وأكراد العجم .

وأخرج ابن المنذر والطبراني عن الزهري رضي الله عنه قال : هم بنو حنيفة .

(106/713)

وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه ﴿ ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد ﴾ قال : لم يأتِ أولئك بعد .

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (16)

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم ﴾ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : دعا أعراب المدينة جهينة ومزينة الذين كان النبي صلى الله عليه وسلم دعاهم إلى خروجه إلى مكة دعاهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى قتال فارس قال : فإن تطيعوا إذا دعاكم عمر تكن توبة لتخلفكم عن النبي صلى الله عليه وسلم يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تتولوا إذا دعاكم عمر كما توليتم من قبل إذ دعاكم النبي صلى الله عليه وسلم يعذبكم عذاباً أليماً .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد ﴾ قال : فارس والروم .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد ﴾ قال : أهل الأوثان .

وأخرج الفريابي وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد ﴾ قال : هوازن وبني حنيفة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر والبيهقي عن عكرمة وسعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد ﴾ قال : هوازن يوم حنين .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ 516 . 520 ﴾

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾

يعني : قضينا لك قضاء بيناً .

أكرمناك بالإسلام ، والنبوة ، وأمرناك بأن تدعو الخلق إليه .

قال مقاتل : وذلك أنه لما نزل بمكة ﴿ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلاَ بِكُمْ ﴾ وكان المشركون يقولون : لم تتبعون رجلاً لا يدري ما يفعل به ، ولا بمن تابعه .

فلما قدم المدينة ، عيّرهم بذلك المنافقون أيضاً .

فعلم الله تعالى ما في قلوب المؤمنين من الحزم ، وما في قلوب الكافرين من الفرح .

فنزل ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ يعني : : قضينا لك قضاء بيناً ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ فقال المؤمنون : هذا لك فما لنا ؟ فنزل ﴿ لِّيُدْخِلَ المؤمنين والمؤمنات جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سيئاتهم وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللهِ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ [الفتح : 5] الآية .

فقال المنافقون فما لنا ؟ فنزل ﴿ وَيُعَذِّبَ المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظَّآنِّينَ بالله ظَنَّ السوء عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السوء وَغَضِبَ الله عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ

وَسَآءَتْ مَصِيراً ﴾ [الفتح : 6] الآية .

وقال الزجاج : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ ﴾ يعني : فتح الحديبية ، والحديبية بئر سمي المكان بها .

والفتح هو الظفر بالمكان ، كان بحرب أو بغير حرب .

قال : ومعنى الفتح الهداية إلى الإسلام .

وكان في فتح الحديبية ، معجزة من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنها بئر فاستسقى جميع ما فيها من الماء ، ولم يبق فيها شيء ، فمضمض رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مجه فيها ، فدرّت البئر بالماء .

ثم قال : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ﴾ قال بعضهم : هذه لام كي .

(108/713)

فكأنه قال : لكي يغفر لك ﴿ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ ﴾ يعني : ذنب آدم ﴿ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ يعني : ذنب أمتك .

وقال القتبي : هذه لام القسم فكأنه قال : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾

ويقال : ما كان قبل نزول الوحي ، وما كان بعده .

قوله تعالى : ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ بالنبوة ، وبإظهار الدين ﴿ وَيَهْدِيَكَ صراطا

مُّسْتَقِيماً ﴾ يعني : يثبتك على الهدى ، وهو طريق الأنبياء ﴿ وَيَنصُرَكَ اللهُ ﴾ يعني : لكي ينصرك الله على عدوك ﴿ نَصْراً عَزِيزاً ﴾ بإظهار الإسلام .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذى أَنزَلَ السكينة فِى قُلُوبِ المؤمنين ﴾ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم تجهز في سنة ست في ذي القعدة ، فخرج إلى العمرة معه ألف وستمائة رجل ، ويقال : ألف وأربعمائة ، وساق سبعين بدنة .

فبلغ قريشاً خبر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فبعثوا خالد بن الوليد في عصابة منهم ليصدوا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن البيت ؟ فلما نزل النبي صلى الله عليه وسلم بعسفان قال : " إِنَّ قُرَيْشاً جَعَلَتْ لِي عُيُوناً ، فَمَنْ يَدُلُّنِي عَلَى طَرِيقِ الثَّنِيَّةِ " .

فقال رجل من المسلمين : أنا يا رسول الله فخرج بهم ، وانتهوا إلى الثنية ، وصعدوا فيها .

فلما هبط رسول الله صلى الله عليه وسلم من الثنية ، بركت ناقته القصواء ، فلم تنبعث ، فزجرَها ، وزجرها الناس ، وضربوها ، فلم تنبعث .

فقال الناس : خلأت القصواء أي : صارت حروناً .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " ما خَلأَتِ القَصْوَاءُ ، وَمَا كَانَ ذلك لَهَا بِخُلُقٍ ، ولكن حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيلِ " ثم قال : " لا يَسْأَلُونَنِي فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ شَيْئاً يُعَظِّمُونَ بِهِ حُرُمَاتِهِمْ ، إِلاَّ قَبِلْتُهُ مِنْهُمْ " ثم زجرها ، فانبعثت .

فلما نزلوا على القليب بالحديبية ، لم يكن في البئر إلا ماء وشيك .

يعني : قليل متغير ، فاستسقوا فلم يبق في البئر ماء .

فقال : مَن رجل يهيج لنا الماء ؟ فقال رجل : أنا يا رسول الله .

فقال : " ما اسمك " قال : مرة .

فقال : " تأخر " فقال رجل آخر أنا يا رسول الله ، فقال : " مَا اسْمُكَ ؟ " .

قال : ناجيه .

فقال : " أُنْزِلْ " .

فنزل ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم مشقصاً ، فبحت به البئر ، فنبع الماء .

وقال في رواية عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر قال : كان ماء الحديبية قد قل .

فأتى بدلو من ماء ، فتوضأ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعل منه في فيه ، ثم مجه في الدلو ، ثم أمرهم بأن يجعلوه في البئر ، ففعلوا ، فامتلأت البئر حتى كادوا يغرقون منها وهم جلوس .

ففزع المشركون لنزول النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في الحديبية ، فجاؤوه ، واستعدوا ليصدوه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر : " يا عُمَرُ اذْهَبْ فَاسْتَأْذِنْ لَنَا عَلَيْهِمْ حَتَّى نَعْتَمِرَ ، ويُخْلُوا بَيْنِي وَبَيْنَ الْبَيْتِ ، لا أُرِيدُ مِنْهُمْ غَيْرَهُ " .

فقال عمر : يا رسول الله ليس ثم أحد من قومي يمنعني .

فأرسل عثمان ، فإن هناك ناساً من بني عمه ، يمنعونه ، فذهب عثمان ، فتلقاه أبان بن سعيد بن العاص ، فقال له : أجرني من قومك حتى أبلغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأجاره ، وحمله على فرسه ورائه ، ودخل به مكة فاستأذن عثمان قريشاً ، فأبوا أن يأذنوا له .

فقال : أبان لعثمان طف أنت إن شئت .

فقال : لما كنت لأتقدم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبقي هناك ثلاثة أيام ، فذكر للنبي صلى الله عليه وسلم أن عثمان قد قتل .

فقال لأصحابه : بايعوني على الموت .

فجلس النبي صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة ، فبايعه أصحابه على الموت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إِنِّي أَخَافُ أَلَّا يُدْرِكَ عُثْمَانَ هَذِهِ الْبَيْعَةَ ، فَأَنَا أُبَايِعُ لَهُ بِيَمِينِي بِشِمَالِي " .

(110/713)

ثم رجع عثمان ، فأخبر أنهم قد أبوا ذلك ، وبلغت قريشاً البيعة ، فكبرت تلك البيعة عندهم ، وقالوا ليزيد بن الحارث الكناني : أردده عنا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " ابْعَثُوا الهَدْيَ فِي وَجْهِهِ يَرَاهَا ، فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ يُعَظِّمُونَ الهَدْيَ " .

فبعثوا الهدي في وجهه ، فلما رأى يزيد بن الحارث الهدي قال : ما أرى أحداً يفلح بردّ هذا الهدي ، ورجع إلى قريش .

فقال لهم : لا تردوا هذا الهدي فإني أخشى أن يصيبكم عذاب من السماء .

فأرسلوا عروة بن مسعود الثقفي ، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فجلس إليه ، فقال : يا محمد ارجع عن قومك هذه المرة ، فجعل يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويومىء بيديه إلى لحيته ، وكان المغيرة قائماً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضربه بالسوط على يده ، وقال : اكفف يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يصل إليك ما تكره .

فقال عروة : من هذا يا محمد ؟ فقال : ابن أخيك المغيرة بن شعبة .

فقال : يا غدر ما غسلت سلحتك عني بعد .

أفتضرب يدي ؟ قال : اكففها قبل أن لا تصل إليك .

فرجع عروة إلى قريش ، فقالوا له : ما ورائك يا أبا يعقوب ؟ فقال : خلوا سبيل الرجل يعتمر

، فإني حضرت كسرى ، وقيصر ، والنجاشي ، فما رأيت ملكاً قط أصحابه أطوع من هذا الملك .

والله إنه ليتنخم فيبتدرون نخامته ، والله إنه ليجلس فيبتدرون التراب الذي يجلس عليه ، وإنه ليتوضأ فيبتدرون وضوءه .

فقالوا : جبنت ، وانتفخ سحرك .

ثم قالوا لسهيل بن عمرو : اذهب واردده عنا ، وصالحه .

فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قَدْ سَهُلَ أَمْرُهُمْ " فجاءه سهيل في نفر من قريش فقال : يا محمد ارجع عن قومك هذه المرة ، على أن لك أن تأتيهم من العام المقبل ، فتعتمر أنت ، وأصحابك ، ويدخل كل إنسان منكم بسلاحه راكباً ، فتصالحنا على أن لا تقاتلنا ، ولا نقاتلك سنتين .

فرضي رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك .

(111/713)

فقال : اكتب بيننا وبينك كتاباً ، فأمر علياً رضي الله عنه أن يكتب ، فكتب : بسم الله الرحمن الرحيم .

فقال سهيل : لا أعرف الرحمن .

قال : فكيف أكتب ؟ قال : اكتب باسمك اللهم ؛ فكتب باسمك اللهم ، هذا ما صالح عليه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال سهيل : لو أعلم أنك رسول الله ، لاتبعتك .

أفترغب عن اسم أبيك ؟ فقال علي رضي الله عنه : فوالله إنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم على رغم أنفك .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنا مَحَمَّدٌ رَسُولُ الله ، وَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله ، اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله " لأنه كان عهد أن لا يسألوه عن شيئاً يعظمون به حرماتهم إلا قبله .

فكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، ألاّ تقاتلنا ، ولا نقاتلك سنتين ، وندخل في حلفنا من نشاء ، وتدخلوا في حلفكم من شئتم ، وعلى أنكم تأتون من العام المقبل ، وتقيمون ثلاثة أيام ، ثم ترجعون ، وعلى أن ما جاء منا إليكم لا تقبلوه ، وتردوه إلينا ، ومن جاء منكم إلينا فهو منا ، فلا نرده إليكم ، فشق ذلك الشرط على المسلمين ، فقالوا : يا رسول الله من لحق بنا منهم لم نقبله ، ومن لحق بهم منا فهو لهم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فأَمَّا مَنْ لَحِقَ بِهِمْ مِنَّا فَأَبْعَدَهُ الله وَأَوْلَى بِمَنْ كَفَر . وَأَمَّا مَنْ أَرَادَ أَنْ يَلْحَقَ بِنَا مِنْهُمْ فَسَيَجْعَلُ الله لَهُ مَخْرِجاً " .

فجاء أبو جندل بن سهيل يوسف في الحديد ، يعني : يمشي مشي الأعرج قد أسلم ، فأوثقه أبوه حين خشي أن يذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما وقع في ظهراني المسلمين ، قال : إني مسلم .

فجاء أبوه فقال : إنما كتبنا الكتاب الساعة .

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا رسول الله أليس الله حق وأنت نبيه ؟ قال : " بَلَى " .

قال : ونحن قوم مؤمنون ؟ وهم كفار ؟ قال : " بَلَى " .

(112/713)

قال : فلم نُعْطِي الدنية في ديننا ؟ قال : " إِنَّمَا كَتَبْنَا الكِتَابَ السَّاعَةَ " .

فتحول عمر إلى أبي جندل فقال : يا أبا جندل إن الرجل يقتل أباه في الله ، وإن دم الكافر لا يساوي دم كلب ، وجعل عمر يقرب إليه سيفه كيما يأخذه ، ويضرب به أباه .

فقال أبو جندل : ما لك لا تقتله أنت ؟ فقال عمر : نهاني رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال : ما أنت بأحق بطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم مني ، لا أقتل أبي ، فأخذ سهيل بن عمرو غصناً من أغصان تلك الشجرة ، فضرب به وجه أبي جندل ، والمسلمون

يبكون .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " خَلُّوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ابْنِهِ ، فَإِنْ يَعْلَمِ اللهُ مِنْ أَبِي جَنْدَلٍ الصِّدْقَ يُنْجِهِ مِنْهُمْ " .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسهيل : " هَبْهُ لِي " فقال سهيل : لا .

فقال : مكرز بن حفص : قد أجرته .

يعني : أمنته فآمنه حتى رده إلى مكة ، فأنجى الله تعالى أبا جندل من أيديهم بعد ما رجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، فخرج إلى شط البحر ، واجتمع إليه قريباً من سبعين رجلاً ، كرهوا أن يقيموا مع المشركين ، وعلموا أن النبي صلى الله عليه وسلم لن يقبلهم حتى تنقضي المدة ، فعمدوا إلى عير لقريش مقبلة إلى الشام ، أو مدبرة فأخذوها ، وجعلوا يقطعون الطريق على المشركين ، فأرسل المشركون إلى النبي صلى الله عليه وسلم يناشدونه إلا قبضهم إليه ، وقالوا له : أنت في حلٍ منهم .

فالتحقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعلم الذين كرهوا الصلح ، أن الخير فيما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه أن ينحروا البدن ، ويحلقوا الرؤوس ، فلم يفعل ذلك منهم أحد .

فدخل النبي صلى الله عليه وسلم على أم سلمة فقال : ألا تعجبين ؟ أمرت الناس أن

ينحروا البدن ، ويحلقوا .

فلم يفعل أحد منهم .

(113/713)

فقالت أم سلمة : قم أنت يا رسول الله وانحر بدنك ، واحلق رأسك ، فإنهم سيقتدون بك .

فنحر رسول الله صلى الله عليه وسلم البدن ، وحلق رأسه ، ففعل القوم كلهم ، فحلق بعضهم ، وقصر بعضهم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يَرْحَمُ اللهُ المُحَلِّقِينَ" .

فقالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ فقال : "يَرْحَمُ اللهُ المُحَلِّقِينَ ، وَالمُقَصِّرِينَ" .

فرجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، فنزل ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ إلى قوله : ﴿ هُوَ الذى أَنزَلَ السكينة فِى قُلُوبِ المؤمنين ﴾ يعني : السكون ، والطمأنينة في البيعة ، في قلوب المؤمنين .

﴿ لِيَزْدَادُواْ إِيمانا مَّعَ إِيمانهم ﴾ يعني : تصديقاً مع تصديقهم الذي هم عليه .

ويقال : تصديقاً بما أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في البيعة .

ويقال : يعني : إقراراً بالفرائض ، مع إقرارهم بالله تعالى .

وروي عن علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ هُوَ الذى أَنزَلَ السكينة ﴾ قال : يعني : الرحمة ﴿ فِى قُلُوبِ المؤمنين لِيَزْدَادُواْ إِيمانا ﴾ .

قال : إن الله تعالى بعث رسوله صلى الله عليه وسلم بشهادة أن لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، كما قال : ﴿ قُلْ هُوَ الله أَحَد الله الصمد لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ [الاخلاص : 1 ، 4] فلما صدقوا بها ، زادهم الصلاة .

فلما صدقوا بها زادهم الزكاة .

فلما صدقوا بها زادهم الصوم .

فلما صدقوا بها زادهم الحج .

فلما صدقوا به زادهم الجهاد .

يعني : إن في كل ذلك يزيد تصديقاً مع تصديقهم .

﴿ وَلِلَّهِ جُنُود السموات والأرض ﴾ فجنود السموات الملائكة ، وجنود الأرض المؤمنون من الجن والإنس ﴿ وَكَانَ الله عَلِيماً ﴾ بخلقه ﴿ حَكِيماً ﴾ في أمره حيث حكم بالنصر للمؤمنين يوم بدر .

قوله عز وجل : ﴿ لِّيُدْخِلَ المؤمنين والمؤمنات ﴾ يعني : المصدقين والمصدقات ﴿ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ يعني : من تحت غرفها ، وأشجارها ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ يعني : دائمين مقيمين ، لا يموتون ، ولا يخرجون منها ﴿ وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سيئاتهم ﴾ يعني : يمحو ، ويتجاوز عن سيئاتهم .

يعني : عن ذنوبهم ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ الله فَوْزاً عَظِيماً ﴾ في الآخرة .

أي : نجاة وافرة من العذاب .

ثم قال : ﴿ وَيُعَذِّبَ المنافقين والمنافقات ﴾ يعني : ولكن يعذب المنافقين ، والمنافقات ، من أهل المدينة ﴿ والمشركين ﴾ من أهل مكة ﴿ والمشركات ﴾ الذين أقاموا على عبادة الأصنام .

قوله : ﴿ الظانين بالله ظَنَّ السوء ﴾ وظنهم ترك التصديق بالله تعالى ورسوله ، مخافة ألا ينصر محمد صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى : ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرسول والمؤمنون إلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السوء وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً ﴾ [الفتح : 12] .

ثم قال : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السوء ﴾ يعني : عاقبة العذاب والهزيمة ﴿ وَغَضِبَ الله عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ﴾ في الآخرة ﴿ وَسَاءتْ مَصِيراً ﴾ يعني : بئس

المصير الذي صاروا إليه .

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السموات والأرض وَكَانَ الله عَزِيزاً ﴾ بالنقمة لمن مات على كفره ، ونفاقه .

﴿ حَكِيماً ﴾ في أمره ، وقضائه ، حكم بالنصرة للنبي صلى الله عليه وسلم .

(115/713)

ثم قال : ﴿ إِنَّا أرسلناك شَاهِداً ﴾ يعني : بعثناك شاهداً بالبلاغ إلى أمتك ﴿ وَمُبَشّراً ﴾ لمن أجابك بالجنة ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ يعني : مخوفاً للكفار بالنار ﴿ لّتُؤْمِنُواْ بالله وَرَسُولِهِ ﴾ يعني : لتصدقوا بالله فيما يأمركم ، وتصدقوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَتُعَزّرُوهُ ﴾ يعني : لكي تعينوه ، وتنصروه على عدوه بالسيف ، ﴿ وَتُوَقّرُوهُ ﴾ أي : تعظموا النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَتُسَبّحُوهُ ﴾ يعني : تصلوا لله تبارك وتعالى ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ يعني : غدوة وعشياً .

فكأنه قال : لتؤمنوا بالله وتسبحوه ، وتؤمنوا برسوله ، وتعزروه ، وتوقروه .

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : ﴿ لِيُؤْمِنُواْ بالله وَرَسُولِهِ ﴾ كلها بالياء على معنى الخبر عنهم ، وقرأ الباقون : بالتاء على معنى المخاطبة ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : ﴿ بِكُمُ الدوائر

عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السوء ﴾ بضم السين .

وقرأ الباقون : بالنصب ، كقولك رجل سوء ، وعمل سوء ، وقد روي عن ابن كثير ، وأبي عمرو : بالنصب أيضاً .

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ ﴾ يعني : يوم الحديبية تحت الشجرة ، وهي بيعة الرضوان ، قال الكلبي : بايعوا تحت الشجرة ، وهي شجرة السَّمرة ، وهم يومئذٍ ألف وخمسمائة وأربعون رجلاً .

وروى هشام عن محمد بن الحسن قال : كانت الشجرة أم غيلان .

﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله ﴾ يعني : كأنهم يبايعون الله ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم إنما بايعهم بأمر الله تعالى .

ويقال : ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله ﴾ أي : لأجله ، وطلب رضاه .

ثم قال : ﴿ يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ يعني : يد الله بالنصرة ، والغلبة ، والمغفرة ، ﴿ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ بالطاعة .

وقال الزجاج : ﴿ يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه .

أحدها ﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ بالوفاء ، ويحتمل ﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ بالثواب ، فهذان وجهان جاءا في التفسير ، ويحتمل أيضاً ﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ في المِنَّة عليهم ، وفي الهداية فوق أيديهم في الطاعة .

﴿ فَمَن نَّكَثَ ﴾ يعني : نقض العهد ، والبيعة ﴿ فَإِنَّمَا يَنكُثُ على نَفْسِهِ ﴾ يعني : عقوبته على نفسه .

﴿ وَمَنْ أوفى بِمَا عاهد عَلَيْهِ الله ﴾ قرأ حفص : برفع الهاء .

أي : وفى بما عاهد عليه من البيعة ، فيتم ذلك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني : أوفى بما عاهد الله عليه من البيعة ، والتمام في ذلك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ في الجنة .

قرأ نافع ، وابن كثير ، وابن عامر : ﴿ فَسَنُؤْتِيهِ ﴾ بالنون .

والباقون : بالياء .

وكلاهما يرجع إلى معنى واحد .

يعني : سيؤتيه الله ثواباً عظيماً .

قوله تعالى : ﴿ عَظِيماً سَيَقُولُ لَكَ المخلفون مِنَ الاعراب ﴾ وهم أسلم ، وأشجع ، وغفار ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حين خرج إلى مكة عام الحديبية ، فاستتبعهم ، وكانت منازلهم بين مكة والمدينة .

فقالوا فيما بينهم : نذهب معه إلى قوم جاؤوه فقتلوا أصحابه ، فقاتلهم ، فاعتلوا عليه بالشغل ، حتى رجع ، فأخبر الله تعالى رسوله قبل ذلك ، أنه إذا رجع إليهم استقبلوه بالعذر ، وهم كاذبون .

فقال : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ المخلفون مِنَ الاعراب ﴾ يعني : الذين تخلفوا عن بيعة الحديبية ﴿ شَغَلَتْنَا أموالنا وَأَهْلُونَا ﴾ يعني : خفنا عليهم الضيعة ، ولولا ذلك لخرجنا معك .

﴿ فاستغفر لَنَا ﴾ في التخلف .

﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ يعني : من طلب الاستغفار وهم لا يبالون ، استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم .

(117/713)

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ فَمَن يَمْلِكُ لَكُمْ مِّنَ الله شَيْئاً ﴾ يعني : من يقدر أن يمنع عنكم من عذاب الله شيئاً ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً ﴾ يعني : قتلاً ، أو هزيمة ، ﴿ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً ﴾ يعني : النصرة .

قرأ حمزة والكسائي ﴿ ضَرّا ﴾ بضم الضاد ، وهو سوء الحال والمرض ، وما أشبه ذلك .

والباقون : بالنصب .

وهو ضد النفع .

اللفظ لفظ الاستفهام ، والمراد به التقرير .

يعني : لا يقدر أحد على دفع الضر ، ومنع النفع غير الله .

ثم استأنف الكلام فقال : ﴿ بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ يعني : عالماً بتخلفكم ، ومرادكم .

قوله عز وجل : ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرسول ﴾ يعني : بل منعكم من السير معه ، لأنكم ظننتم أن لن ينقلب الرسول ﴿ والمؤمنون ﴾ من الحديبية ﴿ إلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ يعني : حُسِّن التخلف في قلوبكم ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السوء ﴾ يعني : حسبتم الظن القبيح ﴿ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً ﴾ يعني : هلكى .

وروي عن ابن عباس أنه قال : البور في لغة أزد عمان : الشيء الفاسد .

والبور في كلام العرب : لا شيء .

يعني : أعمالهم بور أي : مبطلة .

قوله عز وجل : ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بالله وَرَسُولِهِ ﴾ يعني : من لم يصدق بالله في السر ، كما صدقه في العلانية ﴿ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا للكافرين سَعِيراً ﴾ يعني : هيأنا لهم عذاب السعير .

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ يعني : خزائن السموات والأرض .

ويقال : ونفاذ الأمر في السموات والأرض .

﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء ﴾ وهو فضل ، منه المغفرة ، ويعذب من يشاء على الذنب الصغير ، وهو عدل منه ﴿ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً ﴾ لذنوبهم ﴿ رَّحِيماً ﴾ بهم .

(118/713)

ثم قال عز وجل : ﴿ سَيَقُولُ المخلفون ﴾ يعني : الذين تخلفوا عن الحديبية ﴿ إِذَا انطلقتم إلى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ﴾ يعني : إلى غنائم خيبر ﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ يعني : اتركونا نتّبعكم في ذلك الغزو ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كلام الله ﴾ يعني : يغيروا كلام الله .

يعني : ما قاله الله لرسوله صلى الله عليه وسلم : لا تأذن لهم في غزاة أخرى .

قرأ حمزة والكسائي : وهو جمع كلمة .

والباقون ﴿ كَلاَمَ الله ﴾ والكلام اسم لكل ما يتكلم به .

﴿ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا ﴾ في المسير إلى خيبر إلاَّ متطوعين ، من غير أن يكون لكم شرك في الغنيمة .

﴿ كَذَلِكُمْ قَالَ اللهُ مِن قَبْلُ ﴾ يعني : من قبل الحديبية .

﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ يعني : يقولون للمؤمنين : إن الله لم ينهكم عن ذلك ، بل تحسدوننا على ما نصيب معكم من الغنائم .

قال الله تعالى : ﴿ بَلْ كَانُواْ لاَ يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أي : لا يعقلون ، ولا يرغبون في ترك النفاق ، لا قليلاً ، ولا كثيراً .

ويقال : بل كانوا لا يفقهون النهي من الله تعالى إلا قليلاً منهم .

قوله عز وجل : ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الاعراب ﴾ يعني : الذين تخلفوا عن الحديبية ، مخافة القتال ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ يعني : قتال شديد .

قال بعضهم : يعني : قتال أهل اليمامة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قاتلهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

وقال مجاهد : ﴿ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ يعني : أهل الأوثان .

وقال أيضاً : هم أهل فارس ، وكذا قال عطاء ، وقال سعيد بن جبير : هوازن ، وثقيف .

وقال الحسن : فارس ، والروم .

﴿ تقاتلونهم أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ قرأ بعضهم (أَوْ يُسْلِمُوا) بألف من غير نون ، وقراءة العامة بالنون .

فمن قرأ : ﴿ أَوْ ﴾ يعني : حتى يسلموا ، أو إلى أن يسلموا .

ومن قرأ : بالنون .

فمعناه : تقاتلونهم أو هم يسلمون ﴿ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُواْ ﴾ يعني : تجيبوا ، وتوقعوا القتال ، وتخلصوا لله تعالى .

﴿ يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْراً حَسَناً ﴾ يعني : ثواباً حسناً في الآخرة .

﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ ﴾ يعني : تعرضوا عن الإجابة كما أعرضتم يوم الحديبية .

﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ يعني : شديداً دائماً ، فلما نزلت هذه الآية ، قال أهل الزمانة والضعفاء : فكيف بنا إذا دعينا إلى قتالهم ، ولا نستطيع الخروج ، فيعذبنا الله ؟ فنزل قوله : ﴿ لَّيْسَ عَلَى الاعمى حَرَجٌ ﴾ وهذا قول الكلبي .

وقال مقاتل : نزل العذر في الذين تخلفوا عن الحديبية .

﴿ لَّيْسَ عَلَى الاعمى حَرَجٌ ﴾ يعني : ليس عليهم إثم في التخلف ﴿ وَلاَ عَلَى الاعرج حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المريض حَرَجٌ ﴾ يعني : إثم .

﴿ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ في الغزو ويقال : ومن يطع الله ورسوله في الغزو ، في السر ، والعلانية ﴿ يُدْخِلْهُ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الانهر ﴾ وقد ذكرناه .

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ يعني : يعرض عن ذلك .

يعني : عن طاعة الله ، ورسوله ، بالتخلف ﴿ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ يعني : شديداً دائماً .

قرأ نافع : وابن عامر ﴿ نُدْخِلْهُ وَنُعَذِّبْهُ ﴾ كلاهما بالنون .

والباقون : كلاهما بالياء .

وكلاهما يرجع إلى معنى واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 293 .

298 ﴾

(120/713)

وقال الثعلبى :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾

أخبرنا عبيد الله بن محمّد الزاهد ، أخبرنا أبو العبّاس السرّاج ، حدّثنا هنّاد بن السري ، حدّثنا يونس بن بكير ، حدّثنا علي بن عبد الله التيمي يعني أبا جعفر الرازي ، عن قتادة ، عن أنس ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ قال : فتح مكّة ، وقال مجاهد والعوفي : فتح خيبر ، وقال الآخرون : فتح الحديبية .

روى الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن جابر ، قال : ما كنّا نعدّ فتح مكّة إلاّ يوم الحديبية .

وروى إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن البراء ، قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكّة ، وقد كان فتح مكّة فتحاً ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية ، كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع عشرة مائة . والحديبية بئر .

أخبرنا عقيل بن محمّد الفقيه أنّ أبا الفرج القاضي البغدادي ، أخبرهم ، عن محمّد بن جرير ، حدّثنا موسى بن سهل الرملي ، حدّثنا محمّد بن عيسى ، حدّثنا مجمع بن يعقوب الأنصاري ، قال : سمعت أبي يحدّث ، عن عمّه عبد الرّحمن بن يزيد ، عن عمّه ، مجمع بن حارثة الأنصاري وكان أحد القرّاء الذين قرأوا القرآن قال : " شهدنا الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلمّا انصرفنا عنها ، إذا الناس يهزون الأباعر ، فقال بعض النّاس لبعض : ما بال النّاس ؟ قالوا : أُوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فخرجنا نوجف ، فوجدنا النبي (عليه السلام) واقفاً على راحلته عند كراع العميم ، فلمّا اجتمع إليه الناس ، قرأ ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ . فقال عمر : أو فتح هو يا رسول الله ؟ قال : " نعم والّذي نفسي بيده إنّه لفتح " . فقسم صلى الله عليه وسلم الخمس بخيبر على أهل الحديبية ، لم يدخل فيها أحد إلاّ من شهد الحديبية " .

(121/713)

أخبرنا الحسين بن محمّد بن منجويه العدل ، حدّثنا أبو محمّد عبد الله بن محمّد بن شنبه ، حدّثنا عبيد الله بن أحمد الكسائي ، حدّثنا الحارث بن عبد الله ، أخبرنا هشيم ، عن مغيرة ، عن الشعبي في قوله : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ قال : فتح الحديبية ، غفر له

ما تقدّم من ذنبه ، وما تأخّر ، وأطعموا نخل خيبر ، وبلغ الهدي محلّه ، وظهرت الروم على فارس ، وفرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس .

وقال مقاتل بن حيان : يسّرنا لك يُسراً بيّناً ، وقال مقاتل بن سليمان : لمّا نزل قوله : ﴿ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾ [الأحقاف : 9] فرح بذلك المشركون ، والمنافقون ، وقالوا : كيف نتّبع رجلاً لا يدري ما يفعل به وبأصحابه ، ما أمرنا وأمره إلاّ واحد ، فأنزل الله تعالى بعد ما رجع من الحديبية ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ أي قضينا لك قضاءً بيّناً . ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ فنسخت هذه الآية تلك الآية ، وقال صلى الله عليه وسلم

" لقد نزلت عليَّ آية ما يسرّني بها حمر النعم " .

وقال الضحاك : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ بغير قتال ، وكان الصلح من الفتح ، وقال الحسن : فتح الله عليه بالإسلام .

(122/713)

﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ﴾ قال أبو حاتم : هذه (لام) القسم ، لما حذفت (النون) من فعله كسرت اللام ونُصبَ فعلها بسببها بلام كي ، وقال الحسين بن الفضيل : هو مردود إلى قوله :

﴿ واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ [محمد : 19] ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ و ﴿ لِّيُدْخِلَ المؤمنين والمؤمنات جَنَّاتٍ تَجْرِي ﴾ وقال محمّد بن جرير : هو راجع إلى قوله : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ والفتح * وَرَأَيْتَ الناس يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ واستغفره ﴾ [النصر : 1-3] ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ ﴾ قبل الرسالة ﴿ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ إلى وقت نزول هذه السورة .

أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن محمّد بن عبد الله الحافظ ، حدّثنا أبو عمرو عثمان بن عمر ابن حقيف الدرّاج ، حدّثنا حامد بن شعيب ، حدّثنا شريح بن يونس ، حدّثنا محمّد بن حميد ، عن سفيان الثوري ﴿ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ ﴾ ما عملت في الجاهلية ﴿ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ كلّ شيء لم تعمله .

وقال عطاء بن أبي مسلم الخرساني : ﴿ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِك ﴾ يعني ذنب أبويك آدم وحوّاء ببركتك ﴿ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ ديوان أُمّتك بدعوتك . سمعت الطرازي يقول : سمعت أبا القاسم النصر آبادي يقول : سمعت أبا علي الرودباري بمصر يقول : في قول الله تعالى : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ ، قال : لو كان لك ذنب قديم أو حديث لغفرناه .

﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾ أي ويثبتك عليه ، وقيل : يهدي بك .

﴿ وَيَنصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً ﴾ غالباً . وقيل : مُعزّاً . ﴿ هُوَ الذي أَنزَلَ السكينة ﴾ الرحمة ، والطمأنينة ﴿ فِي قُلُوبِ المؤمنين ﴾ قال ابن عبّاس : كلّ سكينة في القرآن فهي الطمأنينة إلاّ التي في البقرة .

﴿ ليزدادوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ قال ابن عبّاس : بعث الله نبيّه صلى الله عليه وسلم بشهادة أن لا إله إلاّ الله ، فلمّا صدّقوا فيها زادهم الصلاة ، فلمّا صدّقوا زادهم الصيام ، فلمّا صدّقوا زادهم الزّكاة ، فلمّا صدّقوا زادهم الحجّ ، ثمّ زادهم الجهاد ، ثمّ أكمل لهم دينهم بذلك ، وقوله تعالى : ﴿ ليزدادوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ أي تصديقاً بشرائع الإيمان مع تصديقهم بالإيمان .

وقال الضحاك : يقيناً مع يقينهم ، وقال الكلبي : هذا في أمر الحديبية حين صدق الله رسوله الرؤيا بالحقّ .

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السماوات والأرض وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ أخبرنا عبيد الله بن محمّد الزاهد ، أخبرنا أبو العبّاس السرّاج ، حدّثنا محمّد بن عبد الله بن المبارك ، حدّثنا يونس بن محمّد ، حدّثنا شيبان ، عن قتادة في قوله سبحانه : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ قال أنس بن مالك : إنّها نزلت على النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد مرجعه من

الحديبية ، وأصحابه مخالطو الحزن والكآبة ، قد حيل بينهم وبين مناسكهم ونحروا بالحديبية ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم

(124/713)

" لقد أُنزلت عليَّ آية هي أحبُّ إليَّ من الدُّنيا جميعاً " فقرأها على أصحابه ، فقالوا : هنيئاً مريئاً يا رسول الله ، قد بيّن الله تعالى ما يفعل بك ، فماذا يفعل بنا ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ لِّيُدْخِلَ المؤمنين والمؤمنات جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ قال أهل المعاني : وإنّما كرّر (اللام) في قوله : ﴿ لِّيُدْخِلَ المؤمنين والمؤمنات ﴾ بتأويل تكرير الكلام مجازه ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً لِّيَغْفِرَ لَكَ الله مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ إنّا فتحنا لك ﴿ لِّيُدْخِلَ المؤمنين والمؤمنات جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ الله فَوْزاً عَظِيماً * وَيُعَذِّبَ المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظآنين بالله ظَنَّ السوء عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السوء ﴾ أي لن ينصر الله محمّداً صلى الله عليه وسلم والمؤمنين .

﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السوء ﴾ بالذلّ والعذاب ﴿ وَغَضِبَ الله عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيراً * وَلِلَّهِ جُنُودُ السماوات والأرض وَكَانَ الله عَزِيزاً حَكِيماً * إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ

شَاهِداً وَمُبَشّراً وَنَذِيراً * لِّتُؤْمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو أربعتها (بالياء) واختاره أبو عبيد ، قال : لذكر الله المؤمنين قبله ، وبعده ، فأمّا قبله فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ ﴾ وقرأها الآخرون (بالتاء) واختاره أبو حاتم .

(125/713)

﴿ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ وقرأ محمّد بن السميفع (بزايين) ، وغيره (بالراء) أي لتعينوه ، وتنصروه . قال عكرمة : تقاتلون معه بالسيف ، أخبرنا علي بن محمّد بن محمّد بن أحمد البغدادي ، أخبرنا أبو محمّد عبد الله بن محمّد الشيباني ، أخبرنا عيسى بن عبد الله البصري بهراة ، حدّثنا أحمد بن حرب الموصلي ، حدّثنا القاسم بن يزيد الحرمي ، حدّثنا سفيان بن سعيد الثوري ، عن يحيى بن سعيد القطان ، حدّثنا سفيان بن عينية ، عن عمرو بن دينار ، عن جابر بن عبد الله ، قال : لمّا نزلت على النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ ، قال لنا : ماذا كُم ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم .

قال : لتنصروه وَتُوَقِّرُوهُ وتعظّموه وتفخموه . وها هنا وقف تام .

﴿ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ أي وتسبحوا الله بالتنزيه والصلاة . ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ .

﴿ إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ ﴾ يا محمّد بالحديبية على أن لا يفروا ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللّهَ ﴾ .

أخبرنا ابن منجويه ، حدّثنا ابن حبش المقري ، حدّثنا محمّد بن عمران ، حدّثنا أبو عبد الله المخزومي ، حدّثنا سفيان بن عيينة ، عن " عمرو بن دينار إنّه سمع جابراً يقول : كنّا يوم الحديبية ألف وأربعمائة ، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم " أنتم اليوم خير أهل الأرض " قال : وقال لنا جابر : لو كنت أبصر لأريتكم موضع الشجرة ، وقال : بايعنا رسول الله تحت السمّرة على الموت على أن لا نفرّ ، فما نكث أحد منّا البيعة ، إلاّ جد بن قيس وكان منافقاً ، اختبأ تحت أبط بعيره ، ولم يسر مع القوم . ﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ قال ابن عبّاس : ﴿ يَدُ اللهِ ﴾ بالوفاء لما وعدهم من الخير ﴿ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ بالوفاء .

وقال السدي : ﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ وذلك إنّهم كانوا يأخذون بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويبايعونه ، و ﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ عند المبايعة .

(126/713)

وقال الكلبي : معناه نعمة الله عليهم فوق ما صنعوا من البيعة ، وقال ابن كيسان : قوّة الله ونصرته فوق قوّتهم ونصرتهم .

﴿ فَمَن نَّكَثَ ﴾ يعني البيعة ﴿ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ عليه وباله ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ ﴾ قرأ أهل العراق (بالياء) ، وغيرهم (بالنون) .

﴿ أَجْراً عَظِيماً ﴾ وهو الجنّة ﴿ سَيَقُولُ لَكَ المخلفون مِنَ الأعراب ﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد : يعني أعراب غفار ، ومزينة ، وجهينة ، وأشجع ، وأسلم ، والديك ، وذلك أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم حين أراد المسير إلى مكّة عام الحديبية معتمراً استنفر من حول المدينة من الأعراب ، وأهل البوادي ليخرجوا معه حذراً من قريش أن يعرضوا له بحرب ويصدّوه عن البيت ، وأحرم هو صلى الله عليه وسلم وساق معه الهدي ليعلم النّاس أنّه لا يريد حرباً ، فتثاقل عنه كثير من الأعراب ، وقالوا : نذهب معه إلى قوم ، قد جاؤوه ، فقتلوا أصحابه ، فنقاتلهم ، فتخلّفوا عنه . واعتلّوا بالشغل ، فأنزل الله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ المخلفون مِنَ الأعراب ﴾ الّذين خلّفهم الله عن صحبتك ، وخدمتك في حجّتك ، وعمرتك إذا انصرفت إليهم ، فعاتبتهم على التخلّف عنك .

﴿ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فاستغفر لَنَا ﴾ ثمّ كذّبهم في اعتذارهم واستغفارهم وأخبر عن إسرارهم وإضمارهم ، فقال : ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُمْ مِّنَ الله شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بضمّ (الضادّ) والباقون بالفتح ، واختاره أبو عبيد ، وأبو حاتم ، قالا : لأنّه قابله بالنفع ضدّ الضرّ .

(127/713)

﴿ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً * بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرسول والمؤمنون إلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السوء ﴾ وذلك بأنّهم قالوا : إنّ محمّداً وأصحابه أكلة رأس فلا يرجعون ، فأين تذهبون ؟ انتظروا ما يكون من أمرهم . ﴿ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً ﴾ هالكين ، فاسدين ، لا تصلحون لشيء من الخير . ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً * وَلِلَّهِ مُلْكُ السماوت والأرض يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً * سَيَقُولُ المخلفون ﴾ عن الحديبية ﴿ إِذَا انطلقتم إلى مَغَانِمَ ﴾ يعني غنائم خيبر ﴿ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ إلى خيبر فنشهد معكم ، فقال أهلها : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلاَمَ اللهِ ﴾ قرأ حمزة والكسائي (كلم الله) بغير (ألف) ، وغيرهم (كلام الله) ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، قال الفرّاء : الكلام مصدر ، والكلم جمع الكلمة ، ومعنى الآية يريدون أن يغيّروا وعد الله الذي وعد أهل الحديبية ، وذلك أنّ الله تعالى جعل غنائم خيبر لهم عوضاً من غنائم أهل مكّة ، إذا انصرفوا عنهم على صلح ، ولم يصيبوا منهم شيئاً ، وقال ابن زيد : هو قوله تعالى : ﴿ فاستأذنوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوّاً ﴾ [التوبة : 83] . والقول الأوّل أصوب ، وإلى الحقّ أقرب ، لأنّ عليه عامّة أهل التأويل ، وهو أشبه بظاهر التنزيل لأنّ قوله : ﴿ فَقُلْ لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً ﴾ [التوبة : 83] نزلت في غزوة تبوك . ﴿ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا

﴿ إلى خيبر . ﴿ كذلكم قَالَ اللهُ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل مرجعنا إليكم : إنّ غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية ، ليس لغيرهم فيها نصيب .

(128/713)

﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ أن نصيب معكم من الغنائم . ﴿ بَلْ كَانُوا لاَ يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً * قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأعراب سَتُدْعَوْنَ إلى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ قال ابن عبّاس ، وعطاء بن أبي رباح ، وعطاء الخراساني ، وعبد الرحمن بن أبي ليلى ، ومجاهد : هم فارس . كعب : الروم . الحسن : فارس ، والروم . عكرمة : هوازن . سعيد بن جبير : هوازن ، وثقيف . قتادة : هوازن وغطفان يوم حنين . الزهري ، ومقاتل : بنو حنيفة أهل اليمامة ، أصحاب مُسيلمة الكذّاب .

قال رافع بن جريج : والله لقد كنّا نقرأ هذه الآية فيما مضى ﴿ سَتُدْعَوْنَ إلى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ فلا نعلم من هم حتّى دعا أبو بكر رضي الله عنه إلى قتال بني حنيفة ، فعلمنا أنّهم هم ، وقال أبو هريرة : لم تأت هذه الآية بعد .

﴿ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ قرأ العامّة يسالمون في محل الرفع عطفاً على قوله : ﴿ تُقَاتِلُونَهُمْ ﴾ ، وفي حرف أُبي (أو يسلموا) بمعنى حتّى يسلموا ، كقول امرئ القيس : أو يموت

فنعذرا .

﴿ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْراً حَسَناً وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ ﴾ يعني عام الحديبية ﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ وهو النّار . قال ابن عبّاس : فلمّا نزلت هذه الآية قال أهل الزمانة : فكيف بنا رسول الله ؟ فأنزل الله سبحانه وتعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ ﴾ في التخلّف عن الجهاد ، والقعود عن الغزو .

(129/713)

﴿ وَلاَ عَلَى الأعرج حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المريض حَرَجٌ ﴾ في ذلك . ﴿ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ قرأ أهل المدينة والشام (يدخله) (ويعذّبه) فيهما (بالنون) فيهما وقرأ الباقون (بالياء) فيهما ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، قالا : لِذِكر الله تعالى قبل ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 9 صـ 40.46 ﴾

(130/713)

وقال الزمخشري :

سورة الفتح

مدنية [نزلت في الطريق عند الانصراف من الحديبية] وآياتها 29 [نزلت بعد الجمعة] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الفتح (48) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (1) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً (2) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً (3)

هو فتح مكة ، وقد نزلت مرجع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن مكة عام الحديبية عدة له

(131/713)

بالفتح ، وجيء به على لفظ الماضي على عادة رب العزة سبحانه في أخباره ، لأنها في تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة ، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر «1» ما لا يخفى «2» .

فإن قلت : كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة ؟ قلت : لم يجعل علة للمغفرة ، ولكن لاجتماع ما عدّد من الأمور الأربعة : وهي المغفرة وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز ، كأنه قيل : يسرنا لك فتح مكة ، ونصرناك على عدوّك ، لنجمع لك بين عز الدارين وأغراض العاجل والآجل . ويجوز أن يكون فتح مكة – من حيث إنه جهاد للعدوّ – سببا للغفران والثواب والفتح والظفر بالبلد عنوة أو صلحا بحرب أو بغير حرب ، لأنه منغلق ما لم يظفر به ، فإذا ظفر به وحصل في اليد فقد فتح . وقيل : هو فتح الحديبية ، ولم يكن فيه قتال شديد ، ولكن ترام بين القوم بسهام وحجارة . وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : رموا المشركين حتى أدخلوهم ديارهم .

وعن الكلبي : ظهروا عليهم حتى سألوا الصلح . فإن قلت : كيف يكون فتحا وقد أحصروا فنحروا وحلقوا بالحديبية ؟ قلت : كان ذلك قبل الهدنة ، فلما طلبوها وتمت كان فتحا مبينا . وعن موسى بن عقبة : أقبل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من الحديبية راجعا ، فقال رجل من أصحابه :

ما هذا بفتح ، لقد صدّونا عن البيت وصد هدينا ، فبلغ النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال : «بئس الكلام هذا ، بل هو أعظم الفتوح ، وقد رضى المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح ، «3» ويسألوكم القضية ، ويرغبوا إليكم في الأمان ، وقد رأوا منكم ما كرهوا» «4» وعن الشعبي :

نزلت بالحديبية وأصاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في تلك الغزوة ما لم يصب في غزوة أصاب :

أن بويع بيعة الرضوان ، وغفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر ، وظهرت الروم على فارس ، وبلغ الهدى محله ، وأطعموا نخل خيبر ، وكان في فتح الحديبية آية عظيمة . وذلك أنه نزح ماؤها حتى لم يبق فيها قطرة ، فتمضمض رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ثم مجه فيها ، فدرت بالماء حتى

---

(1) . قوله «علو شأن المخبر» لعله : المخبر به . وعبارة النسفي : المخبر عنه . (ع)

(2) . قال محمود : «جاء الاخبار بالفتح على لفظ الماضي وإن لم يقع بعد ، لأن المراد فتح مكة ، والآية نزلت حين رجع عليه الصلاة والسلام من الحديبية قبل عام الفتح ، وذلك على عادة رب العزة في أخباره ، لأنها كانت محققة نزلت منزلة الكائنة الموجودة ، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر ما لا يخفى» قال أحمد : ومن الفخامة الالتفات من التكلم إلى الغيبة .

(3) . قوله «عن بلادهم بالراح» في الصحاح «الراح» : الخمر ، والراح : جمع راحة وهي الكف . والراح :

الارتياح اه والظاهر هنا الثالث . (ع)

(4) . هكذا هو في مغازي موسى بن عقبة عن الزهري وأخرجه البيهقي في الدلائل من طريقه ومن طريق أبى الأسود عن عروة أيضا نحوه مطولا

(132/713)

شرب جميع من كان معه ، وقيل : فجاش الماء حتى امتلأت ولم ينفد ماؤها «1» بعد - وقيل : هو فتح خيبر ، وقيل : فتح الروم . وقيل : فتح اللّه له بالإسلام والنبوّة والدعوة بالحجة والسيف ، ولا فتح أبين منه وأعظم ، وهو رأس الفتوح كلها ، إذ لا فتح من فتوح الإسلام إلا وهو تحته ومتشعب منه . وقيل : معناه قضينا لك قضاء بينا على أهل مكة أن تدخلها أنت وأصحابك من قابل لتطوفوا بالبيت : من الفتاحة وهي الحكومة ، وكذا عن قتادة ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ يريد : جميع ما فرط منك . وعن مقاتل : ما تقدم في الجاهلية وما بعدها . وقيل :

ما تقدم من حديث مارية وما تأخر من امرأة زيد نَصْراً عَزِيزاً فيه عز ومنعة - أو وصف بصفة المنصور إسنادا مجازيا أو عزيزا صاحبه .

[سورة الفتح (48) : الآيات 4 إلى 7]

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ

وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (4) لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَكانَ ذلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً (5) وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً (6) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (7)

السَّكِينَةَ السكون كالبهيتة للبهتان ، أى : أنزل اللّه في قلوبهم السكون والطمأنينة بسبب

---

(1) . متفق عليه . من حديث البراء مطولا باللفظ الأول . ولمسلم من حديث سلمة بن الأكوع . قال «قدمنا المدينة ونحن أربع عشرة مائة وعليها خمسون شاة لا ترويها . فقعد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على جنب الركية فاما دعا وإما بصق ، قال فجاشت . فسقينا واستقينا . وعند البخاري في الحديث الطويل عن المسور بن مخرمة ومروان : فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء . فلم يلبث الناس أن سرحوه . وشكوا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم العطش فانتزع سهما من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه . فو اللّه ما زال يجيش لهم بالري ولا مخالفة في هذا لحديث البراء . لما رواه الواقدي من طريق عطاء بن أبى مروان . عن أبيه . حدثني أربعة عشر رجلا من أسلم صحابة . أن ناجية بن الأعجم . قال «دعاني رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . حين شكا إليه من قلة الماء فدفع إلى سهما من كنانته وأمر بدلو من مائها . فمضمض فاه منه ثم

مجه في الدلو . وقال لي : انزل الماء فصبه في البئر وفتحت الماء بالسهم . ففعلت . فو الذي بعثه بالحق . ما كدت أخرج حتى كاد يغمرني» . وروى أيضا من حديث قتادة . قال : لما دعا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الرجل . فنزل بالسهم وتوضأ . ومج فاه منه ، ثم رده في البئر : جاشت بالرواء .

(133/713)

الصلح والأمن ، ليعرفوا فضل اللّه عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف ، والهدنة غب القتال ، فيزدادوا يقينا إلى يقينهم ، وأنزل فيها السكون إلى ما جاء به محمد عليه السلام من الشرائع لِيَزْدادُوا إِيماناً بالشرائع مقرونا إلى إيمانهم وهو التوحيد . عن ابن عباس رضى اللّه عنهما : أن أوّل ما أتاهم به النبي صلى اللّه عليه وسلم التوحيد ، فلما آمنوا باللّه وحده أنزل الصلاة والزكاة ، ثم الحج ، ثم الجهاد ، فازدادوا إيمانا إلى إيمانهم . أو أنزل فيها الوقار والعظمة للّه عزّ وجل ولرسوله ، ليزدادوا باعتقاد ذلك إيمانا إلى إيمانهم . وقيل : أنزل فيها الرحمة ليتراحموا فيزداد إيمانهم وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يسلط بعضها على بعض كما يقتضيه علمه وحكمته ، ومن قضيته أن سكن قلوب المؤمنين بصلح الحديبية ووعدهم أن يفتح لهم ، وإنما قضى ذلك ليعرف المؤمنون نعمة اللّه فيه ويشكروها فيستحقوا الثواب ،

فيثيبهم ويعذب الكافرين والمنافقين لما غاظهم من ذلك وكرهوه. وقع السوء: عبارة عن رداءة الشيء وفساده، والصدق عن جودته وصلاحه، فقيل في المرضى الصالح من الأفعال: فعل صدق، وفي المسخوط الفاسد منها: فعل سوء. ومعنى ظَنَّ السَّوْءِ ظنهم أن اللّه تعالى لا ينصر الرسول والمؤمنين، ولا يرجعهم إلى مكة ظافرين فاتحيها عنوة وقهرا عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ أى: ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم - والسوء: الهلاك والدمار. وقرئ: دائرة السوء «1» بالفتح، أى.

الدائرة التي يذمونها ويسخطونها، فهي عندهم دائرة سوء، وعند المؤمنين دائرة صدق.

فإن قلت: هل من فرق بين السوء والسوء؟ قلت: هما كالكرة والكره والضعف والضعف، من ساء، إلا أنّ المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذمه من كل شيء. وأما السوء بالضم فجار مجرى الشر الذي هو نقيض الخير. يقال: أراد به السوء وأراد به الخير، ولذلك أضيف الظن إلى المفتوح لكونه مذموما، وكانت الدائرة محمودة فكان حقها أن لا تضاف إليه إلا على التأويل الذي ذكرنا وأما دائرة السوء بالضم، فلأن الذي أصابهم مكروه وشدة، فصح أن يقع عليه اسم السوء، كقوله عزّ وعلا إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً.

[سورة الفتح (48): الآيات 8 إلى 9]

إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (8) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ

بُكْرَةً وَأَصِيلاً (9)

شاهِداً تشهد على أمّتك ، كقوله تعالى وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً . لِتُؤْمِنُوا الضمير للناس وَتُعَزِّرُوهُ ويقووه بالنصرة وَتُوَقِّرُوهُ ويعظموه وَتُسَبِّحُوهُ من التسبيح . أو من

---

(1) . قوله «و قرئ دائرة السوء بالفتح ، يفيد أن القراءة المشهورة . دائرة السوء . بالضم . (ع)

(134/713)

السبحة ، والضمائر للّه عز وجلّ والمراد بتعزير اللّه : تعزير دينه ورسوله صلى اللّه عليه وسلم .

ومن فرق الضمائر فقد أبعد . وقرئ : لتؤمنوا وتعزروه « 1 » وتوقروه وتسبحوه ، بالتاء ، والخطاب لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ولأمّته . وقرئ : وتعزروه بضم الزاى وكسرها .

وتعزروه بضم التاء والتخفيف ، وتعززوه بالزاءين . وتوقروه من أوقره بمعنى وقره .

وتسبحوا اللّه بُكْرَةً وَأَصِيلًا عن ابن عباس رضى اللّه عنهما : صلاة الفجر وصلاة الظهر والعصر .

[سورة الفتح (48) : آية 10]

إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (10)

لما قال إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ أكده تأكيدا على طريق التخييل «2» فقال يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ يريد أن يد رسول اللّه التي تعلو أيدى المبايعين : هي يد اللّه ، واللّه تعالى منزه عن الجوارح وعن صفات الأجسام ، وإنما المعنى : تقرير أن عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع اللّه من غير تفاوت بينهما ، كقوله تعالى مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ والمراد : بيعة الرضوان فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ فلا يعود ضرر نكثه إلا عليه . قال جابر بن عبد اللّه رضى اللّه عنه : بايعنا رسول اللّه تحت الشجرة على الموت ، وعلى أن لا نفرّ ، فما نكث أحد منا البيعة إلا جد بن قيس وكان منافقا ، اختبأ تحت إبط بعيره ولم يسر مع القوم «3» . وقرئ : إنما يبايعون للّه ، أى :

لأجل اللّه ولوجهه ، وقرئ : ينكث بضم الكاف وكسرها ، وبما عاهد وعهد فَسَيُؤْتِيهِ بالنون والياء ، يقال : وفيت بالعهد وأوفيت به ، وهي لغة تهامة . ومنها قوله تعالى أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ، وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ .

[سورة الفتح (48) : آية 11]

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَأَهْلُونا فَاسْتَغْفِرْ لَنا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما

لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (11)

---

(1) . قوله «قرئ لتؤمنوا وتعزروه» يفيد أن قراءة الياء هي المشهورة ، وقد تشير إلى تفريق الضمائر قراءة :

وتسبحوا اللّه . . . الآية . (ع) [. . . . .]

(2) . قال محمود : «لما قال إنما يبايعون اللّه أكده تأكيدا على طريق التخييل . . . الخ» قال أحمد : كلام حسن بعد إسقاط لفظ التخييل وإبداله بالتمثيل ، وقد تقدمت أمثاله .

(3) . لم أجده هكذا بل في حديث جابر «أنه سئل كم كانوا يوم الحديبية ؟ قال : كنا أربعة عشر مائة فبايعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة . وهي سمرة . فبايعناه . وجد بن قيس اختبأ تحت بطن بعيره» أخرجه مسلم . ولأبي يعلى من هذا الوجه «لم نبايعه على الموت وإنما بايعناه على أن لا نفر ، بايعناه كلنا . إلا الجد بن قيس ، فانه اختبأ تحت بطن بعيره» فهذا ليس فيه أنه بايع ونكث ، بل فيه أنه لم يبايع أصلا .

(135/713)

هم الذين خلفوا عن الحديبية ، وهم أعراب غفار ومزينة وجهينة وأشجع وأسلم والديل . وذلك أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمرا استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي ليخرجوا معه حذرا من قريش «1» أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت ، وأحرم هو صلى اللّه عليه وسلم وساق معه الهدى ، ليعلم أنه لا يريد حربا ، فتثاقل كثير من الأعراب وقالوا : يذهب إلى قوم قد غزوه في عقر «2» داره بالمدينة وقتلوا أصحابه ، فيقاتلهم ، وظنوا أنه يهلك فلا ينقلب إلى المدينة واعتلوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم وأنه ليس لهم من يقوم بأشغالهم . وقرئ : شغلتنا ، بالتشديد يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ تكذيب لهم في اعتذارهم . وأن الذي خلفهم ليس بما يقولون ، وإنما هو الشك في اللّه والنفاق ، وطلبهم للاستغفار أيضا ليس بصادر عن حقيقة فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ فمن يمنعكم من مشيئة اللّه وقضائه إِنْ أَرادَ بِكُمْ ما يضركم من قتل أو هزيمة أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً من ظفر وغنيمة «3» وقرئ : ضرا ، بالفتح والضم . الأهلون : جمع أهل . ويقال : أهلات ، على تقدير تاء التأنيث . كأرض وأرضات ، وقد جاء أهلة . وأمّا أهال ، فاسم جمع ، كليال .

[سورة الفتح (48) : آية 12]

بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً (12)

(1) . أخرجه البيهقي في الدلائل من رواية آدم عن ورقاء . عن ابن نجيح عن مجاهد نحوه

(2) . قوله «قد غزوه في عقر داره» في المصباح : عقر الدار أصلها ، وهو محلة القوم .

وأهل المدينة يقولون :

عقر الدار ، بالضم . (ع)

(3) . قال محمود : «أى قتلا وهزيمة أو أراد بكم نفعا أى ظفرا وغنيمة» قال أحمد : لا تخلو الآية من الفن المعروف عند علماء البيان باللف ، وكان الأصل – والله أعلم – : فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا ، ومن يحرمكم النفع إن أراد بكم نفعا ، لأن مثل هذا النظم يستعمل في الضر ، وكذلك ورد في الكتاب العزيز مطردا ، كقوله فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ . وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في بعض الحديث «إنى لا أملك لكم شيئا» يخاطب عشيرته وأمثاله كثيرة ، وسر اختصاصه بدفع المضرة : أن الملك مضاف في هذه المواضع باللام ودفع المضرة نفع يضاف للمدفوع عنه ، وليس كذلك حرمان المنفعة ، فانه ضرر عائد عليه لا له ، فإذا ظهر ذلك فإنما انتظمت الآية على هذا الوجه ، لأن القسمين يشتركان في أن كل واحد منهما نفى لدفع المقدر من خير وشر ، فلما تقاربا أدرجهما في عبارة واحدة ، وخص عبارة دفع الضر ، لأنه هو المتوقع لهؤلاء ، إذ الآية في سياق التهديد أو الوعيد الشديد ، وهي نظير قوله قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي

يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً فان العصمة إنما تكون من السوء لا من الرحمة. فهاتان الآيتان يرامان في التقرير الذي ذكرته، والله أعلم.

(136/713)

وقرئ: إلى أهلهم. وزين، على البناء للفاعل وهو الشيطان، أو الله عز وجل، وكلاهما جاء في القرآن وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ، زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ والبور: من بار، كالهلك: من هلك، بناء ومعنى ولذلك وصف به الواحد والجمع والمذكر والمؤنث. ويجوز أن يكون جمع بائر كعائذ وعوذ. والمعنى: وكنتم قوما فاسدين في أنفسكم وقلوبكم ونياتكم لا خير فيكم. أو هالكين عند الله مستوجبين لسخطه وعقابه.

[سورة الفتح (48): آية 13]

وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيراً (13)

لِلْكافِرِينَ مقام مقام لهم، للإيذان بأنّ من لم يجمع بين الإيمانين الإيمان بالله وبرسوله فهو كافر، ونكر سَعِيراً لأنها نار مخصوصة، كما نكر ناراً تَلَظَّى.

[سورة الفتح (48): آية 14]

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً

(14)

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يدبره تدبير قادر حكيم ، فيغفر ويعذب بمشيئته «1» ، ومشيئته تابعة لحكمته ، وحكمته المغفرة للتائب وتعذيب المصر وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً رحمته سابقة لغضبه ، حيث يكفر السيئات باجتناب الكبائر ، ويغفر الكبائر بالتوبة .

[سورة الفتح (48) : آية 15]

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا كَذلِكُمْ قالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنا بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً

(15)

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ الذين تخلفوا عن الحديبية إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ إلى غنائم خيبر أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ وقرئ كلم اللّه ، أن يغيروا موعد اللّه لأهل الحديبية ، وذلك أنه وعدهم أن يعوّضهم من مغانم مكة مغانم خيبر «2» إذا قفلوا موادعين لا يصيبون منهم شيئا . وقيل :

---

(1) . قال محمود : «يغفر ويعذب بمشيئته . . . الخ» قال أحمد : قد تقدمت أمثالها ، والقول بأن موجب الحكمة ما ذكر تحكم . هذا وأدلة الشرع القاطعة تأتى على ما يعتقده فلا تبقى ولا تذر ، فكم من دليل على أن المغفرة لا تقف على التوبة ، وكم يروم إتباع القرآن للرأى الفاسد فيقيد مطلقا ويحجر واسعا ، واللّه الموفق .

(2) . قال محمود : «المراد بكلام اللّه وعده أهل الحديبية بغنائم خيبر عوضا عما يفوتهم

من غنائم مكة . . . الخ» قال أحمد : فالاضراب الأول إذا هو المعروف ، والثاني هو المستغرب المستعذب الذي ليس فيه مباينة بين الأول والثاني ، بل زيادة بينة ومبالغة متمكنة ، وإنما كان المنسوب إليهم ثانيا أشد من المنسوب إليهم أولا ، لأن الأول نسبة إلى جهل في شيء مخصوص ، وهو نسبتهم الحسد إلى المؤمنين ، والثاني يعتبر بجهل على الإطلاق . وقلة فهم على الاسترسال .

(137/713)

هو قوله تعالى لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً . تَحْسُدُونَنا أن نصيب معكم من الغنائم . قرئ بضم السين وكسرها لا يَفْقَهُونَ لا يفهمون إلا فهما قَلِيلًا وهو فطنتهم لأمور الدنيا دون أمور الدين ، كقوله تعالى يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا فإن قلت : ما الفرق بين حرفى الإضراب ؟ قلت . الأوّل إضراب معناه : ردّ أن يكون حكم اللّه أن لا يتبعوهم وإثبات الحسد . والثاني إضراب عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين ، إلى وصفهم مما هو أطم منه ، وهو الجهل وقلة الفقه .

[سورة الفتح (48) : آية 16]

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ

تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً (16)

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ هم الذين تخلفوا عن الحديبية إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ يعنى بنى حنيفة قوم مسيلمة ، وأهل الردّة الذين حاربهم أبو بكر الصديق رضى اللّه عنه لأن مشركي العرب والمرتدين هم الذين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف عند أبى حنيفة ومن عداهم من مشركي العجم وأهل الكتاب . والمجوس تقبل منهم الجزية ، وعند الشافعي لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب والمجوس دون مشركي العجم والعرب . وهذا دليل على إمامة أبى بكر الصديق رضى اللّه عنه ، فإنهم لم يدعوا إلى حرب في أيام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ولكن بعد وفاته . وكيف يدعوهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مع قوله تعالى فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا وقيل : هم فارس والروم . ومعنى يُسْلِمُونَ ينقادون ، لأنّ الروم نصارى ، وفارس مجوس يقبل منهم إعطاء الجزية . فإن قلت : عن قتادة أنهم ثقيف وهوازن ، وكان ذلك في أيام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ؟ قلت : إن صح ذلك فالمعنى :

لن تخرجوا معى أبدا ما دمتم على ما أنتم عليه من مرض القلوب والاضطراب في الدين . أو على قول مجاهد : كان الموعد أنهم لا يتبعون رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلا متطوعين لا نصيب لهم في المغنم كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يريد في غزوة الحديبية . أو يسلمون . معطوف

على تقاتلونهم ، أى : يكون أحد الأمرين : إما المقاتلة ، أو الإسلام ، لا ثالث لهما . وفي قراءة أبىّ : أو يسلموا ، بمعنى : إلى أن يسلموا .

(138/713)

[سورة الفتح (48) : آية 17]

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً (17)

نفى الحرج عن هؤلاء من ذوى العاهات في التخلف عن الغزو . وقرئ : ندخله ونعذبه ، بالنون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 331.339﴾

(139/713)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾

فيه قولان :

أحدهما : إنا أعلمناك علماً مبيناً فيما أنزلناه عليك من القرآن وأمرناك به من الدين . وقد يعبر عن العلم بالفتح كقوله ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ﴾ [الأنعام : 59] أي علم الغيب ، قاله ابن بحر . وكقوله ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ [الأنفال : 19] أي إن أردتم العلم فقد جاءكم العلم .

الثاني : إنا قضينا لك قضاء بيناً فيما فتحناه عليك من البلاد .

وفي المراد بهذا الفتح قولان :

أحدهما : فتح مكة ، وعده الله عام الحديبية عند انكفائه منها .

الثاني : هو ما كان من أمره بالحديبية . قال الشعبي : نزلت ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ [الفتح : 1] في وقت الحديبية أصاب فيها ما لم يصب في غيرها . بويع بيعة الرضوان ، وأطعموا نخل خيبر ، وظهرت الروم على فارس تصديقاً لخبره ، وبلغ الهدي محله ، فعلى هذا في الذي أراده بالفتح يوم الحديبية ، قال جابر : ما كنا نعد فتح مكة إلا يوم الحديبية .

الثاني : أنه بيعة الرضوان . قال البراء بن عازب : انتم تعدون الفتح فتح مكة ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية .

الثالث : أنه نحره وحلقه يوم الحديبية حتى بلغ الهدي محله بالنحر .

والحديبية بئر ، وفيها تمضمض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد غارت فجاشت بالرواء .

﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ليغفر لك الله استكمالاً لنعمه عندك .

الثاني : يصبرك على أذى قومك .

وفيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : ما تقدم قبل الفتح وما تأخر بعد الفتح .

الثاني : ما تقدم قبل النبوة وما تأخر بعد النبوة .

الثالث : ما وقع وما لم يقع على طريق الوعد بأنه مغفور إذا كان .

ويحتمل رابعاً : ما تقدم قبل نزول هذه الآية وما تأخر بعدها .

﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : بفتح مكة والطائف وخيبر .

الثاني : بخضوع من استكبر . وطاعة من تجبر .

﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أنه الأسر والغنيمة كما كان يوم بدر .

الثاني : أنه الظفر والإسلام وفتح مكة .

وسبب نزول هذه الآية ، ما حكاه الضحاك عن ابن عباس أنه لما نزل قوله : ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾ قال أهل مكة : يا محمد كيف ندخل في دينك وأنت لا تدري ما يفعل بك ولا بمن اتبعك فهلا أخبرك بما يفعل بك وبمن اتبعك كما أخبر عيسى ابن مريم ؟ فاشتد ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه حتى قدم المدينة ، فقال عبد الله بن أبي بن سلول – رأس المنافقين – للأنصار : كيف تدخلون في دين رجل لا يدري ما يفعل به ولا بمن اتبعه ؟ هذا والله الضلال المبين . فقال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، يا رسول الله ألا تسأل ربك يخبرك بما يفعل بك وبمن اتبعك ؟ فقال : إن له أجلاً فأبشرا بما يقر الله به أعينكما . إلى أن نزلت عليه هذه الآي وهو في دار أبي الدحداح على طعام مع أبي بكر وعمر فخرج وقرأها على أصحابه ، قال قائل منهم : هنيئاً مريئاً يا رسول الله قد بين الله لنا ما يفعل بك ، فماذا يفعل بنا ؟ فأنزل الله ﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ الآية .

قوله عز وجل : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فيها ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه الصبر على أمر الله .

الثاني : أنها الثقة بوعد الله .

الثالث : أنها الرحمة لعباد الله .

﴿ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه :

أحدها : ليزدادوا عملاً مع تصديقهم .

الثاني : ليزدادوا صبراً مع اجتهادهم .

الثالث : ليزدادوا ثقة بالنصر مع إيمانهم بالجزاء .

(141/713)

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يكون معناه : ولله ملك السموات والأرض ترغيباً للمؤمنين في خير الدنيا وثواب الآخرة .

الثاني : معناه : ولله جنود السموات والأرض إشعاراً للمؤمنين أن لهم في جهادهم أعواناً على طاعة ربهم .

قوله عز وجل : ﴿ الظَّآنِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : هو ظنهم أن لله شريكاً .

الثاني : هو ظنهم أنه لن يبعث الله أحداً .

الثالث : هو ظنهم أن يجعلهم الله كرسوله .

الرابع : أن سينصرهم على رسوله .

قال الضحاك : ظنت أسد وغطفان في رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج إلى الحديبية أنه سيقتل أو ينهزم ولا يعود إلى المدينة سالماً ، فعاد ظافراً .

﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : عليهم يدور سوء اعتقادهم .

الثاني : عليهم يدور جزاء ما اعتقدوه في نبيهم .

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : شاهداً على أمتك بالبلاغ ، قاله قتادة .

الثاني : شاهداً على أمتك بأعمالهم من طاعة أو معصية .

الثالث : مبيناً ما أرسلناك به إليهم .

﴿ وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : مبشراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين .

الثاني : مبشراً بالجنة لمن أطاع ونذيراً بالنار لمن عصى ، قاله قتادة ، والبشارة والإنذار معاً خير لأن المخبر بالأمر السار مبشر والمحذر من الأمر المكروه منذر . قال النابغة الذبياني :

تناذرها الراقون من سوء سعيها . . . تطلقها طوراً وطوراً تراجع

قوله عز وجل : ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : تطيعوه ، قاله بعض أهل اللغة .

الثاني : تعظموه ، قاله الحسن والكلبي .

الثالث : تنصروه وتمنعوا منه ، ومنه التعزير في الحدود لأنه مانع ، قاله القطامي :

ألا بكرت مي بغير سفاهة . . . تعاتب والمودود ينفعه العزر

وفي ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ وجهان :

أحدهما : تسودوه ، قاله السدي .

(142/713)

الثاني : أن تأويله مختلف بحسب اختلافهم فيمن أشير إليه بهذا الذكر : فمنهم من قال أن المراد بقوله : ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ أي تعزروا الله وتوقروه لأن قوله : ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ راجع إلى الله وكذلك ما تقدمه ، فعلى هذا يكون تأويل قوله : ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ أي تثبتوا له صحة الربوبية وتنفوا عنه أن يكون له ولد أو شريك .

ومنهم من قال : المراد به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعزروه ويوقروه لأنه قد تقدم ذكرها ، فجاز أن يكون بعض الكلام راجعاً إلى الله وبعضه راجعاً إلى رسوله ، قاله الضحاك . فعلى هذا يكون تأويل ﴿ تُوَقِّرُوهُ ﴾ أي تدعوه بالرسالة والنبوة لا بالاسم

والكنية .

﴿ وتُسَبِّحُوهُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : تسبيحه بالتنزيه له من كل قبيح .

الثاني : هو فعل الصلاة التي فيها التسبيح .

﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ أي غدوة وعشياً . قال الشاعر :

لعمري لأنت البيت أكرم أهله . . . وأجلس في أفيائه بالأصائل

قوله عز وجل : ﴿ وكُنتُمْ قَوْماً بُوراً ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : فاسدين قاله قتادة .

الثاني : هالكين ، قاله مجاهد . قال عبد الله بن الزبعرى :

يا رسول المليك إن لساني . . . راتق ما فتقت إذ أنا بور

الثالث : أشرار ، قاله ابن بحر . وقال حسان بن ثابت :

لا ينفع الطول من نوك الرجال وقد . . . يهدي الإله سبيل المعشر البور

قوله عز وجل : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلاَمَ اللَّهِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ما وعد الله نبيّه من النصرة والفتح حين ظنوا ظن السوء بأنه يهلك أو لا يظفر ، قاله مجاهد وقتادة .

الثاني : قوله : ﴿ لَن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً ﴾ حين سألوه الخروج معه لأجل المغانم بعد امتناعهم منه وظن السوء ، قاله ابن زيد .

(143/713)

قوله عز وجل : ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ ﴾ وهؤلاء المخلفون هم أحد أصناف المنافقين ، لأن الله تعالى صنف المنافقين من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ثلاثة أصناف ، منهم من أعلم أنه لا يؤمن وأوعدهم العذاب في الدنيا مرتين ثم العذاب العظيم في الآخرة وذلك قوله ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ ﴾ [التوبة : 101] الآية . ومنهم من اعترف بذنبه وتاب ، وهم من قال الله فيهم : ﴿ وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَءَاخَرَ سَيِّئاً ﴾ [التوبة : 102] الآية . ومنهم من وقفوا بين الرجاء لهم والخوف عليهم بقوله تعالى : ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : 106] فهؤلاء المخاطبون بقوله : ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ دون الصنفين المتقدمين لترددهم بين أمرين .

قوله عز وجل : ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ . . . ﴾ الآية . فيهم خمسة أوجه :

أحدها : أنهم أهل فارس ، قاله ابن عباس .

الثاني : الروم ، قاله الحسن وعبد الرحمن بن أبي ليلى .

الثالث : هوازن وغطفان بحنين ، قاله سعيد بن جبير وقتادة .

الرابع : بنو حنيفة مع مسيلمة الكذاب ، قاله الزهري .

الخامس : أنهم قوم لم يأتوا بعد ، قاله أبو هريرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 5 صـ 309.316 ﴾

(144/713)

وقال ابن الجوزى :

سورة الفتح

قوله تعالى : ﴿ إِنّا فَتَحْنا لك فَتْحاً مُبِيناً ﴾ [الآية]

سبب نزولها : أنه لمَا نزل قوله : ﴿ وما أَدري ما يُفْعَلُ بِي ولا بِكُم ﴾ [الأحقاف : 9] قال اليهود : كيف نتَّبع رجُلاً لا يَدري ما يُفْعَلُ به ؟ ! فاشتدَّ ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت هذه الآية ، رواه عطاء عن ابن عباس .

وفي المراد بالفتح أربعة أقوال .

أحدها : أنه كان يومَ الحديبية ، قاله الأكثرون .

قال البراء بن عازب : نحن نَعُدُّ الفتح بَيْعةَ الرِّضْوان .

وقال الشعبي : هو فتح الحديبية ، غُفِر له ما تقدَّم من ذنْبه وما تأخَّر ، وأُطعموا نخل خيبر ، وبلغ الهَدْيُ مَحِلَّه ، وظَهرت الرُّومَ على فارس ، ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس قال الزهري : لم يكن فتحٌ أعظمَ من صُلح الحديبية ، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم فتمكَّن الإِسلامُ في قلوبهم ، وأسلم في ثلاث سنين خَلْقٌ كثير ، وكَثُر بهم سواد الإِسلامُ .

قال مجاهد : يعني بالفتح ما قضى اللهُ له من نحر الهَدْي بالحديبية وحَلْق رأسه .

وقال ابن قتيبة : " إِنّا فَتَحْنا لك فتحاً مُبيناً " أي : قَضَيْنا لك قضاءً عظيماً ، ويقال للقاضي : الفتَّاح .

قال الفراء : والفتح قد يكون صُلحاً ، ويكون أَخْذَ الشيء عَنْوةً ، ويكون بالقتال .

وقال غيره : معنى الفتح في اللغة : فتح المنغلق ، والصُّلْح الذي جُعل مع المشركين بالحديبية كان مسدوداً متعذِّراً حتى فتحه الله تعالى .

الإِشارة إِلى قصة الحديبية :

روت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في النَّوم كأن قائلاً يقول [له] لَتَدْخُلُنْ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين ، فأصبح فحدَّث الناس برؤياه ، وأمرهم بالخروج للعُمْرة ؛ فذكر أهل العِلْم بالسِّيَر أنَّه خرج واستنفر أصحابَه للعمرة ، وذلك في سنة ست ، ولم يخرج بسلاح إلاّ السيوف في القُرُب ، وساق هو وأصحابُه البُدْنَ ، فصلَّى الظُّهر ب " ذي الحُلَيْفة " ، ثم دعا بالبُدْنِ فجُلِّلَتْ ، ثم أشعرها وقلَّدها ، فعل ذلك أصحابه ، وأحرم ولبَّى .

فبلغ المشركينَ خروجُه فأجمع رأيهم على صدِّه عن المسجد الحرام ، وخرجوا حتى عسكروا ب " بَلْدَح " وقدَّموا مائتي فارس إلى كُراع الغميم ، وسار رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حتى دنا من الحديبية ؛ قال الزجاج : وهي بئر ، فسمِّي المكان باسم البئر ؛ قالوا : وبينها وبين مكة تسعة أميال ، فوقفت يَدَا راحلته فقال المسلمون : حَلْ حَلْ ، يزجرونها ، فأبَتْ فقالوا : خَلأَتْ القصْواءُ والخِلاءُ في النّاقة مثل الحِران في الفَرَس .

فقال : " ما خَلأَتْ ، ولكن حَبَسها حابسَ الفِيلِ ، أما والله لا يسألوني خُطَّةً فيها تعظيمُ حُرْمة الله إلاّ أعطيتُهم إيّاها " ، ثم جرَّها فقامت ، فولَّى راجعاً عَوْده على بَدْئه حتى نزل على ثمد من أثماد الحديبية قليلِ الماء ، فانتزع سهماً من كنانته فغرزه فيها ، فجاشت لهم بالرَّواء ، وجاءه بُدَيْل بن ورقاء في ركب فسلَّموا وقالوا : جئناك من عند قومك وقد

استنفروا لك الأحابيش ومن أطاعهم ، يُقْسِمون ، لا يُخَلُّون بينك وبين البيت حتى تُبيد خَضْراءَهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(146/713)

" لَمْ نأتِ لقتال أحَد إنما جئنا لنطوف بهذا البيت ، فمن صدَّنا عنه قاتلْناه " فرجعَ [بديل] فأخبر قريشاً ، فبعثوا عروة بن مسعود ، فكلَّمه بنحو ذلك ، فأخبر قريشاً ، فقالوا : نَرُدُّه مِن عامِنا هذا ويَرْجِع من قابِل فيَدْخُل مكة ويطوف بالبيت ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمانَ بن ع فإن قال : " اذْهَبْ إلى قريش فأَخْبِرْهم أنّا لَمْ نأتِ لقتالِ أحَدٍ ، وإنما جئنا زُوّاراً لهذا البيت ، معنا الهدي ننحره وننصرف " ، فأتاهم فأخبرهم ، فقالوا : لا كان هذا أبداً ، ولا يَدخُلها العامَ ، وبَلَغَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أنَّ عثمان قد قُتل ، فقال : " لا نَبْرَحُ حتى نُناجِزَهم " ، فذاك حين دعا المسلمين إلى بيعة الرّضوان ، فبايعهم تحت الشجرة .

وفي عددهم يومئذ أربعة أقوال .

أحدها : ألف وأربعمائة ، قاله البراء ، وسلمة بن الأكوع ، وجابر ، ومعقل بن يسار .

والثاني : ألف وخمسمائة ، روي عن جابر أيضاً ، وبه قال قتادة .

والثالث : ألف وخمسمائة وخمس وعشرون ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والرابع : ألف وثلاثمائة ، قاله عبد الله بن أبي أوفى .

قال : وضَرَبَ يومئذ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بشماله على يمينه لعثمان ، وقال : إنه ذهب في حاجة الله ورسوله ، وَجعَلَت الرُّسُل تختلف بينهم ، فأجمعوا على الصُّلح ، فبعثوا سهيل بن عمرو في عِدَّة رجال ، فصالحه كما ذكرنا في [براءة : 7] فأقام بالحديبية بضعة عشر يوماً ، ويقال : عشرين ليلة ، ثم انصرف ، فلمّا كان ب ﴿ ضَجَنَان ﴾ نزل عليه : ﴿ إنّا فَتَحْنا لك فَتْحاً مبيناً ﴾ ، فقال جبريل : يَهنيك يا رسول الله ، وهنّأه المسلمون .

والقول الثاني : أن هذا الفتح فتح مكة ، رواه مسروق عن عائشة وبه قال السدي .

وقال بعض مَن ذَهَب إلى هذا : إنما وُعِد بفتح مكة بهذه الآية .

والثالث : أنه فتح خيبر ، قاله مجاهد ، والعوفي وعن أنس بن مالك كالقولين .

(147/713)

والرابع : أنه القضاء له بالإسلام ، قاله مقاتل .

وقال غيره : حَكَمْنا لك بإظهار دِينك والنُّصرة على عدوِّك .

قوله تعالى : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ﴾ قال ثعلب : اللام لام "كي" ، والمعنى : لكي يجتمع لك [مع] المغفرة تمام النِّعمة في الفتح ، فلمّا انضمَّ إلى المغفرة شيءٌ حادِثٌ ، حَسُنَ معنى "كي" .

وغَلِط من قال : ليس .

الفتح سببَ المغفرة .

قوله تعالى ﴿ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وما تأخَّرَ ﴾ قال ابن عباس : والمعنى "ما تقدَّم" في الجاهلية ، و "ما تأخَّر" ما لم تعلمه ، وهذا على سبيل التأكيد ، كما تقول : فلان يَضْرِب من يلقاه ومن لا يلقاه .

قوله تعالى : ﴿ ويُتِمَّ نعمتَه عليك ﴾ فيه أربعة أقوال .

أحدها : أن ذلك في الجنة .

والثاني : أنه بالنُبُوَّة والمغفرة ، رويا عن ابن عباس .

والثالث : بفتح مكة والطائف وخيبر حكاه الماوردي .

والرابع : بإظهار دِينك على سائر الأديان ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : ﴿ ويَهْدِيَكَ صراطاً مستقيماً ﴾ أي : ويُثَبِّتك عليه ؛ وقيل : ويَهدي بك ، ﴿ ويَنْصُرَكَ اللهُ ﴾ على عدوِّك ﴿ نَصْراً عزيزاً ﴾ قال الزجاج : أي : نَصْراً ذا عِزٍّ لا يقع معه ذُلٌّ .

قوله تعالى : ﴿ هو الذي أنزل السّكينة ﴾ أي : السُّكون والطُّمأنينة ﴿ في قلوب المؤمنين ﴾ لئلاّ تنزعج قلوبُهم لِمَا يَرِد عليهم ، فسلَّموا لقضاء الله ، وكانوا قد اشتد عليهم صَدُّ المشركين لهم عن البيت ، حتى قال عمر : علامَ نُعطي الدَّنِيَّة في ديننا ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم " أنا عَبْدُ الله ورسوله ، لن أُخالِف أمره ولن يُضَيِّعني " ، ثم أَوْقَعَ اللهُ الرِّضى بما جرى في قلوب المسلمين ، فسلَّموا وأطاعوا .

﴿ لِيَزدادوا إيماناً ﴾ وذلك أنه كلَّما نزلت فريضة زاد إيمانُهم .

(148/713)

﴿ ولله جُنودُ السموات والأرضَ ﴾ يريد : أن جميع أهل السموات والأرض مُلْكٌ له لو أراد نُصرة نبيِّه بغيركم لَفَعَل ، ولكنه اختاركم لذلك ، فاشكُروه .

قوله تعالى : ﴿ لِيُدْخِلَ المؤمنين . . .

﴾ الآية .

سبب نزولها أنه لمّا نزل قوله ﴿ إنّا فَتَحْنا لك ﴾ قال أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم : هنيئاً لك يا رسول الله بما أعطاك الله ، فما لَنا ؟ فنزلت هذه الآية ، قاله أنس بن مالك .

قال مقاتل : فلمّا سمع عبد الله بن أُبيّ بذلك ، انطلق في نَفَرٍ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : ما لَنا عند الله ؟ فنزلت ﴿ ويُعذِّبَ المنافقين . . .

﴾ الآية .

قال ابن جرير : كُرِّرت اللاّمُ في "لِيُدْخِلَ" على اللام في "لِيَغْفِرَ" ، فالمعنى : إنّا فَتَحْنا لك لِيَغْفِرَ لك اللهُ لِيُدْخِلَ المؤمنين ، ولذلك لم يُدخِل بينهما واو العطف ، والمعنى : لِيُدْخِل ولِيُعَذِّب .

قوله تعالى : ﴿ عليهم دائرةُ السَّوْء ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : بضم السين ؛ والباقون بفتحها .

قوله تعالى : ﴿ وكان ذلك ﴾ أي : ذلك الوَعْد بإدخالهم الجنة وتكفير سيِّئاتهم ﴿ عِنْدَ الله ﴾ أي : في حُكمه ﴿ فَوزاً عظيماً ﴾ لهم ؛ والمعنى : أنه حكم لهم بالفَوْز ، فلذلك وعدهم إدخال الجنة .

قوله تعالى : ﴿ الظانِّين بالله ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ فيه خمسة أقوال :

أحدها : أنهم ظنُّوا أن لله شريكاً .

والثاني : أن الله لا ينصُر محمداً وأصحابه .

والثالث : أنهم ظنُّوا به حين خرج إلى الحديبية أنه سيُقْتَل أو يُهْزَمُ ولا يعود ظافراً .

والرابع : أنهم ظنُّوا أنهم ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمنزلة واحدة عند الله .

والخامس : ظنُّوا أن الله لا يبعث الموتى وقد بيَّنَّا معنى " دائرة السّوء في [براءة : 98] .

(149/713)

وما بعد هذا قد سبق بيانه [الفتح : 4] [الاحزاب : 45] إلى قوله : ﴿ لِيؤْمِنوا بالله ورسوله ﴾ قرأ ابن كثير " ، وأبو عمرو : " لِيُؤْمِنوا " بالياء " ويُعزِّروه ويُوقِّروه ويُسبِّحوه " كلُّهن بالياء ، والباقون : بالتاء ؛ على معنى : قل لهم : إنّا أرسلناك ، لتؤمنوا .

وقرأ علي بن أبي طالب : وابن السميفع : ﴿ ويُعَزِّزوه ﴾ بزاءين وقد ذكرنا في [الأعراف : 157] معنى " ويُعَزِّروه " عند قوله : ﴿ وعزَّروه ونصروه ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ويوقِّروه ﴾ أي : يعظِّموه ويبجِّلوه .

واختار كثير من القرّاء الوقف هاهنا ، لاختلاف الكناية فيه وفيما بعده .

قوله تعالى : ﴿ ويسبِّحوه ﴾ هذه الهاء ترجع إلى الله عز وجل .

والمراد بتسبيحه هاهنا : الصلاةُ له .

قال المفسرون : والمراد بصلاة البُكرة الفجر ، وبصلاة الأصيل باقي الصلوات الخمس .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين يبايعونك ﴾ يعني بَيْعة الرّضوان بالحديبية .

وعلى ماذا بايعوه؟ فيه قولان :

أحدهما : أنهم بايعوه على الموت ، قاله عبادة بن الصامت .

والثاني : على أن لا يفِرُّوا ، قاله جابر بن عبد الله .

ومعناهما متقارب ، لأنه أراد : على أن لا تَفرُّوا ولو متُّم ، وسمِّيتْ بَيْعة ، لأنهم باعوا أنفُسهم من الله بالجنة ، وكان العَقْد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكأنهم بايَعوا اللهَ عز وجل ، لأنه ضَمِن لهم الجنة بوفائهم .

﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أيديهم ﴾ فيه أربعة أقوال .

أحدها : يد الله في الوفاء فوق أيديهم .

والثاني : يد الله في الثواب فوق أيديهم .

والثالث : يد الله عليهم في المنّة بالهداية فوق أيديهم بالطاعة ، ذكر هذه الأقوال الزجاج .

والرابع : قُوَّة الله ونُصرته فوق قُوَّتهم ونُصرتهم ، ذكره ابن جرير وابن كيسان .

(150/713)

قوله تعالى : ﴿ فمَنْ نَكَثَ ﴾ أي : نقض ما عقده من هذه البَيْعة ﴿ فإنَّما يَنْكُثُ على نَفْسه ﴾ أي : يَرْجِع ذلك النَّقْضُ عليه ﴿ ومن أوفى بما عاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ ﴾ من البَيْعة ﴿

فسنُؤتيه ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبان عن عاصم: ﴿ فسنُؤتيه ﴾ بالنون.

وقرأ عاصم، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: بالياء ﴿ أجْراً عظيماً ﴾ وهو الجنة.

قال ابن السائب: فلم ينكُث العهد منهم غير رجل واحد يقال له: الجدّ بن قيس، وكان منافقاً.

قوله تعالى: ﴿ سيقول لك المُخلَّفون من الأعراب ﴾ قال ابن إسحاق: لما أراد العمرة استنفرَ مَنْ حَوْلَ المدينة من أهل البوادي والأعراب ليخرجوا معه، خوفاً من قومه أن يَعْرِضوا له بحرب أو بصَدٍّ، فتثاقل عنه كثير منهم، فهم الذين عنى الله بقوله: ﴿ سيقول لك المُخلَّفون من الأعراب ﴾ قال أبو صالح [عن ابن عباس]: وهم غفار ومزينة وجهينة وأشجع والدِّيل وأسلم.

قال يونس النحوي: الدِّيل في عبد القيس ساكن الياء، والدُّول من حنيفة ساكن الواو، والدِّئل في كنانة رهط أبي الأسود الدُّؤَلي.

فأمّا المخلَّفون فإنهم تخلَّفوا مخافة القتل.

﴿ شَغَلَتْنا أموالُنا وأهلونا ﴾ أي: خِفْنا عليهم الضَّيْعة ﴿ فاستَغْفِرْ لنا ﴾ أي: ادْعُ [الله] أنْ يَغفِر لنا تخلُّفنا عنك ﴿ يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ﴾ أي: ما يبالون استغفرتَ لهم أم لم تستغفر لهم.

قوله تعالى : ﴿ فمَنْ يَمْلِكُ لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضَرّاً ﴾ قرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف : ﴿ ضُراً ﴾ بضم الضاد ؛ والباقون : بالفتح .

(151/713)

قال أبو علي : " الضَّرُّ " بالفتح : خلاف النفع ، وبالضم : سوء الحال ، ويجوز أن يكونا لغتين كالفَقْر والفُقْر ، وذلك أنهم ظنُّوا أن تخلُّفهم يدفع عنهم الضَّرَّ ، ويعجِّل لهم النفع بسلامة أنفسهم وأموالهم فأخبرهم الله تعالى أنه إن أراد بهم شيئاً ، لم يَقْدِر أحد على دفعه [عنهم] ، ﴿ بل كان الله بما تعملون خبيرا ﴾ من تخلُّفهم وقولهم عن المسلمين أنهم سيهلكون ، وذلك قوله : ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ ﴾ أي : توهَّمتم ﴿ أنْ لن يَنْقَلِبَ الرَّسولُ والمؤمنون إلى أهليهم ﴾ أي : لا يَرْجِعون إلى المدينة ، لاستئصال العدوِّ إيّاهم ، ﴿ وزُيِّن ذلك في قُلوبكم ﴾ وذلك من تزيين الشيطان .

قوله تعالى : ﴿ وكنتم قَوْماً بوراً ﴾ قد ذكرناه في [الفرقان : 18] .

وما بعد هذا ظاهر إلى قوله : ﴿ سيقول المُخلَّفون ﴾ الذين تخلَّفُوا عن الحديبية ﴿ إذا انطلقتم إلى مَغانِمَ ﴾ وذلك أنهم لمّا انصرفوا عن الحديبية بالصُّلح وعَدَهم اللهُ فَتْحَ خيبر ، وخصَّ بها من شَهِد الحديبية فانطلقوا إليها ، فقال هؤلاء المخلَّفون : ﴿ ذَرونا نتَّبعْكم ﴾

، قال الله تعالى : ﴿ يريدون أن يبدّلوا كلام الله ﴾ وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف : " أن يبدّلوا كَلِمَ الله " بكسر اللام .

وفي المعنى قولان :

أحدهما : أنه مواعيد الله بغنيمة خيبر لأهل الحديبية خاصة ، قاله ابن عباس .

والثاني : أمْرُ الله نبيَّه أن لا يسير معه منهم أحد ، وذلك أن الله وعده وهو بالحديبية أن يفتح عليه خيبر ، ونهاه أن يسير معه أحد من المتخلِّفين ، قاله مقاتل .

وعلى القولين : قصدوا أن يجيز لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يخالِف أمْرَ الله ، فيكون تبديلاً لأمره .

قوله تعالى : ﴿ كذلكم قال اللهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ فيه قولان .

أحدهما : قال إن غنائم خيبر لِمَن شَهِد الحديبية ، وهذا على القول الأول .

والثاني : قال لن تتَّبعونا ، وهذا قول مقاتل .

(152/713)

﴿ فسيقولون بل تحسُدوننا ﴾ أي : يمنعُكم الحسد من أن نُصيب معكم الغنائم .

قوله تعالى : ﴿ ستُدْعَون إلى قَوْم ﴾ المعنى : إن كنتم تريدون الغزو والغنيمة فستُدْعَون

إِلى جهاد قوم ﴿ أُولِي بأسٍ شديدٍ ﴾ .

وفي هؤلاء القوم ستة أقوال :

أحدها : أنهم فارس ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال عطاء بن أبي رباح ، وعطاء الخراساني ، وابن أبي ليلى ، وابن جريج في آخرين .

والثاني : فارس والروم ، قاله الحسن ، و رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد .

والثالث : أنهم أهل الأوثان ، رواه ليث عن مجاهد .

والرابع : أنهم الروم ، قاله كعب .

والخامس : أنهم هوازن وغطفان ، وذلك يوم حنين ، قاله سعيد بن جبير ، وقتادة .

والسادس : بنو حنيفة يوم اليمامة ، وهم أصحاب مسيلمة الكذَّاب ، قاله الزهري ، وابن السائب ، ومقاتل .

قال مقاتل : خِلافةُ أبي بكر في هذه بيِّنةٌ مؤكدة .

وقال رافع بن خديج : كنّا نقرأ هذه الآية ولا نَعْلَم مَنْ هُمْ حتى دُعِيَ أبو بكر إِلى قتال بني حنيفة ، فعَلِمنا أنهم هُمْ .

وقال بعض أهل العِلْم : لا يجوز أن تكون هذه الآية إِلاّ في العرب ، لقوله : ﴿ تُقاتِلونهم أو يُسْلِمُونَ ﴾ ، وفارس والروم إِنما يقاتَلون حتى يُسْلِموا أو يؤدُّوا الجزية ، وقد استدلَّ جماعةٌ من العلماء على صِحَّة إِمامة أبي بكر وعمر بهذه الآية ، لأنه إِن أُريدَ بها بنو حنيفة ، فأبو

بكر دعا إلى قتالهم ، وإن أُريدَ بها فارس والروم ، فعمر دعا إلى قتالهم ، والآية تُلْزِمهم اتباع طاعة من يدعوهم وتتوعَّدهم على التخلُّف بالعقاب .

قال القاضي أبو يعلى : وهذا يدُلُّ على صِحَّة إمامتها إذا كان المتولِّي عن طاعتهما مستحقاً للعقاب .

قوله تعالى : ﴿ فإن تُطيعوا ﴾ قال ابن جريج : فإن تُطيعوا أبا بكر وعمر ، ﴿ وإن تتولَّوا ﴾ عن طاعتهما ﴿ كما تولَّيتم ﴾ عن طاعة محمد صلى الله عليه وسلم في المسير إلى الحديبية .

(153/713)

وقال الزجاج : المعنى : إن تُبتم وتركتم نفاقكم وجاهدتم ، يؤتكم اللهُ أجْراً حسناً ، وإن تولَّيتم فأقمتم على نفاقكم ، وأعرضتم عن الإيمان والجهاد كما تولَّيتم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يعذِّبكم عذاباً أليماً .

قوله تعالى : ﴿ ليس على الأعمى حَرَجٌ ﴾ قال المفسرون : عَذَرَ اللهُ أهل الزَّمانة الذين تخلَّفوا عن المسير إلى الحديبية بهذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ يُدْخِلْه جناّتٍ ﴾ قرأ نافع ، وابن عامر : " نُدْخِلْه " و " نُعْذِّبْه " بالنون فيهما ؛ والباقون : بالياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 7 صـ 418.433 ﴾

(154/713)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾

الخطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) وحده والمعنى إنا قضينا وحكمنا لك فتحاً مبيناً ظاهراً بغير قتال ولا تعب .

واختلفوا في هذا الفتح فروى قتادة عن أنس أنه فتح مكة وقال مجاهد : إنه فتح خيبر .

وقيل : هو فتح فارس والروم وسائر بلاد الإسلام التي يفتحها الله له .

فإن قلت على هذه الأقوال هذه البلاد مكة وغيرها لم تكن قد فتحت بعد فكيف قال تعالى : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ بلفظ الماضي .

قلت : وعد الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وسلم) بالفتح وجيء به بلفظ الماضي جرياً على عادة الله تعالى في أخباره ، لأنها في تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة كأنه تعالى قال : إنا فتحنا لك في حكمنا وتقديرنا وما قدره وحكم به فهو كائن لا محالة .

وقال أكثر المفسرين : إن المراد بهذا الفتح صلح الحديبية وهو الأصح ، وهو رواية عن أنس .

ومعنى الفتح : فتح المغلق المستصعب وكان الصلح مع المشركين يوم الحديبية مستصعباً متعذراً حتى فتحه الله ويسره وسهله بقدرته ولطفه .

عن البراء قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة ولقد كان فتح مكة فتحاً ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية كنا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أربع عشرة مائة والحديبية بئر فنزحناها ولم نترك فيها قطرة فبلغ ذلك النبي (صلى الله عليه وسلم) فأتاها فجلس على شفيرها ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ ثم تمضمض ودعا ثم صبه فيها فتركناها غير بعيد ثم إنها أصدرتنا وماشيتنا وركابنا .

(155/713)

وقال الشعبي في قوله ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ قال : فتح الحديبية وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وأطعموا نخل خيبر وبلغ الهدي محله وظهرت الروم على فارس ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس وقال الزهري : لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم فتمكن الإسلام في قلوبهم

فأسلم في ثلاث سنين خلق كثير ، فعز الإسلام بذلك وأكرم الله رسوله (صلى الله عليه وسلم) .

وقوله : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ قيل اللام في قوله ليغفر لك الله لام كي والمعنى فتحنا لك فتحاً مبيناً لكي يجتمع لك مع المغفرة تمام النعمة بالفتح ، وقال الحسن بن الفضل : هو مردود إلى قوله تعالى : ﴿ واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر وليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات " وقال ابن جريج : هو راجع إلى قوله في سورة النصر ﴿ واستغفره إنه كان تواباً ﴾ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك .

قوله تعالى : ﴿ هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ﴾ يعني الطمأنينة والوقار في قلوبهم لئلا تنزعج نفوسهم .

قال ابن عباس : كل سكينة في القرآن طمأنينة إلا التي في سورة البقرة وقد تقدم تفسيرها في موضعها .

ولما قال الله تعالى : ﴿ وينصرك الله نصراً عزيزاً ﴾ ، بيّن وجه هذا النصر كيف هو ، وذلك أنه تعالى جعل السكينة التي هي الطمأنينة والثبات في قلوب المؤمنين ويلزم من ذلك ثبات الأقدام عند اللقاء في الحروب وغيرها فكان ذلك من أسباب النصر الذي وعد الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وسلم) ثم قال تعالى : ﴿ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ وذلك

أنه تعالى جعل السكينة والطمأنينة في قلوب المؤمنين سبباً لزيادة الإيمان في قلوبهم ، وذلك أنه كلما ورد عليهم أمر أو نهي ، آمنوا به وعملوا بمقتضاه ، فكان ذلك زيادة في إيمانهم .

(156/713)

وقال ابن عباس : بعث الله رسوله (صلى الله عليه وسلم) بشهادة أن لا إله إلا الله فلما آمنوا به وصدقوه زادهم الصلاة ثم الزكاة ثم الصوم ثم الحج ثم الجهاد حتى أكمل دينهم ، فكلما أمروا بشيء وصدقوه ، ازدادوا تصديقاً إلى تصديقهم ، وقال الضحاك : يقيناً مع يقينهم .

وقال الكلبي : هذا في أمر الحديبية حين صدق الله رسوله الرؤيا بالحق .

وقيل : لما آمنوا بالأصول وهو التوحيد وتصديق الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيما أخبر به عن الله وآمنوا بالبعث بعد الموت والجنة والنار وآمنوا بالفروع وهي جميع التكاليف البدنية والمالية كان ذلك زيادة في إيمانهم ﴿ ولله جنود السموات والأرض ﴾ لما قال الله : وينصرك الله نصراً عزيزاً ، وكان المؤمنون في قلة من العدد والعدد ، فكأن قائلاً قال : كيف ينصره ؟ فأخبره الله أن له جنود السموات والأرض وهو قادر على نصر رسوله (صلى الله عليه وسلم) ببعض جنوده بل هو قادر على أن يهلك عدوه بصيحة ورجفة وصاعقة

ونحو ذلك فلم يفعل بل أنزل سكينة في قلوبكم أيها المؤمنون ليكون نصر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وإهلاك أعدائه على أيديكم فيكون لكم الثواب ولهم العقاب وفي جنود السموات والأرض وجوه : الأول : إنهم ملائكة السموات والأرض .

الثاني : أن جنود السموات الملائكة وجنود الأرض جميع الحيوانات الثالث أن جنود السموات مثل الصاعقة والصيحة والحجارة وجنود الأرض مثل الزلال والخسف والغرق ونحو ذلك ﴿ وكان الله عليماً ﴾ يعني بجميع جنوده الذين في السموات والأرض ﴿ حكيماً ﴾ يعني في تدبيره وقيل : عليماً بما في قلوبكم أيها المؤمنون حكيماً حيث جعل النصر لكم على أعدائكم .

قوله : ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ يستدعي سابقاً تقديره هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليدخلهم جنات .

(157/713)

﴿ ولله جنود السموات والأرض ﴾ تقدم تفسيره بقي ما فائدة التكرير ولم قدم ذكر جنود السموات والأرض على إدخال المؤمنين الجنة ولم أخر ذكر جنود السموات والأرض هنا بعد تعذيب المنافقين والكافرين ، فنقول : فائدة التكرار للتأكيد وجنود السموات والأرض

منهم من هو للرحمة ومنهم من هو للعذاب فقدم ذكر جنود السموات والأرض قبل إدخال المؤمنين الجنة ليكون مع المؤمنين جنود الرحمة فيثبتوهم على الصراط وعند الميزان فإذا دخلوا الجنة أفضوا إلى جوار الله تعالى ورحمته والقرب منه ، فلا حاجة لهم بعد ذلك إلى شيء ، وأخر ذكر جنود السموات والأرض بعد تعذيب الكافرين والمنافقين ليكون معهم جنود السخط فلا يفارقوهم أبداً .

فإن قلت : قال في الآية الأولى : ﴿ وكان الله عليماً حكيماً ﴾ ، وقال في هذه الآية ﴿ وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ فما معناه ؟ قلت : لما كان في جنود السموات والأرض من هو للرحمة ومن هو للعذاب وعلم الله ضعف المؤمنين ، ناسب أن تكون خاتمة الآية الأولى ﴿ وكان الله عليماً حكيماً ﴾ ، ولما بالغ في وصف تعذيب الكافر والمنافق وشدته ، ناسب أن تكون خاتمة الآية الثانية ﴿ وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ فهو كقوله : ﴿ أليس الله بعزيز ذي انتقام ﴾ وقوله ﴿ أخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴾ قوله تعالى : ﴿ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ الخطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) ذكره في معرض الامتنان عليه حيث شرفه بالرسالة وبعثه إلى الكافة شاهداً على أعمال أمته ومبشراً يعني لمن آمن به وأطاعه بالثواب ونذيراً يعني لمن خالفه وعصى أمره بالعقاب ثم بين فائدة الإرسال فقال تعالى : ﴿ لتؤمنوا بالله ورسوله ﴾ فالضمير فيه للناس المرسل إليهم ﴿ وتعزروه ﴾ يعني ويقووه وينصروه .

والتعزير : نصر مع تعظيم ﴿ وتوقروه ﴾ يعني وتعظموه والتوقير : التعظيم والتبجيل ﴿ وتسبحوه ﴾ من التسبيح الذي هو التنزيه من جميع النقائص أو من السبحة وهي الصلاة .

(158/713)

قال الزمخشري : والضمائر لله تعالى والمراد بتعزير الله تعالى .

تعزير دينه ورسوله (صلى الله عليه وسلم) .

ومن فرق الضمائر فقد أبعد وقال غيره : الكنايات في قوله ويعزروه ويوقروه راجعة إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعندها تم الكلام فالوقف عليّ ويوقروه وقف تام ثم يبتدئ بقوله ويسبحوه ﴿ بكرة وأصيلاً ﴾ على أن الكناية في ويسبحوه راجعة إلى الله تعالى يعني ويصلوا الله أو يسبحوا بالغداة والعشي .

قوله : ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ﴾ يعني إن الذين يبايعونك يا محمد بالحديبية على أن لا يفروا إنما يبايعون الله لأنهم باعوا أنفسهم من الله بالجنة وأصل البيعة : العقد الذي يعقده الإنسان على نفسه من بذل الطاعة للإمام ، والوفاء بالعهد الذي التزمه له ، والمراد بهذه البيعة بيعة الرضوان بالحديبية ، وهي قرية ليست بكبيرة بينها وبين مكة أقل من مرحلة أو مرحلتين سميت ببئر هناك .

قوله تعالى : ﴿ سيقول لك المخلفون من الأعراب ﴾ قال ابن عباس ومجاهد يعني أعراب غفار ومزينة وجهينة وأشجع والنخع وأسلم وذلك أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً ، استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي ليخرجوا معه حذراً من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت فأحرم بالعمرة وساق الهدى ليعلم الناس أنه لا يريد حرباً ، فتثاقل عنه كثير من الأعراب ، وتخلفوا ، واعتلّوا بالشغل ، فأنزل الله تعالى فيهم سيقول لك يا محمد المخلفون من الأعراب الذين خلفهم الله عن صحبتك ، إذا رجعت إليهم من عمرتك هذه وعاتبتهم على التخلف عنك ﴿ شغلتنا أموالنا وأهلونا ﴾ يعني النساء والذراري .

(159/713)

يعني : لم يكن لنا من يخلفنا فيهم : فلذا تخلفنا عنك ﴿ فاستغفر لنا ﴾ أي إنا مع عذرنا معترفون بالإساءة فاستغفر لنا بسبب تخلفنا عنك فأكذبهم الله تعالى فقال الله تعالى : ﴿ يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ﴾ يعني أنهم في طلب الاستغفار كاذبون لأنهم لا يبالون استغفر لهم النبي (صلى الله عليه وسلم) أم لا ﴿ قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً ﴾ يعني سوءاً ﴿ أو أراد بكم نفعاً ﴾ وذلك أنهم ظنوا أن تخلفهم عن النبي (

صلى الله عليه وسلم) يدفع عنهم الضر أو يجعل لهم النفع بالسلامة في أنفسهم وأموالهم فأخبرهم الله أنه إن أراد شيئاً من ذلك لم يقدر أحد على دفعه ﴿ بل كان الله بما تعملون خبيراً ﴾ يعني من إظهاركم الاعتذار وطلب الاستغفار وإخفائكم النفاق ﴿ بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً ﴾ يعني ظننتم أن العدو يستأصلهم فلا يرجعون إلى أهليهم ﴿ وزين ذلك في قلوبكم ﴾ يعني زيَّن الشيطان ذلك الظن عندكم حتى قطعتم به ، حتى صار الظن يقيناً عندكم ، وذلك أن الشيطان قد يوسوس في قلب الإنسان بالشيء ويزينه له حتى يقطع به ﴿ وظننتم ظن السوء ﴾ يعني وظننتم أن الله يخلف وعده وذلك أنهم قالوا : إن محمداً وأصحابه أكلة رأس ، يريدون بذلك قتلهم فلا يرجعون فأين تذهبون معهم انظروا ما يكون من أمرهم ﴿ وكنتم قوماً بوراً ﴾ يعني وصرتم بسبب ذلك الظن الفاسد قوماً بائرين هالكين ﴿ ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا اعتدنا للكافرين سعيراً ﴾ .

(160/713)

لما بين الله تعالى حال المخلفين عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وبين حال ظنهم الفاسد وإن ذلك يفضي بصاحبه إلى الكفر حرضهم على الإيمان والتوبة من ذلك الظن

الفاسد فقال تعالى : ﴿ ومن لم يؤمن بالله ورسوله ﴾ وظن أن الله يخلف وعده فإنه كافر وإنا أعتدنا للكافرين سعيراً ﴿ ولله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ لما ذكر الله تعالى حال المؤمنين المبايعين لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) وحال الظانين ظن السوء أخبر أن له ملك السموات والأرض ومن كان كذلك فهو يغفر لمن يشاء بمشيئته ويعذب من يشاء ولكن غفرانه ورحمته أعم وأشمل وأتم وأكمل وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ قوله : ﴿ سيقول المخلفون ﴾ يعني الذين تخلفوا عن الحديبية ﴿ إذا انطلقتم ﴾ يعني إذا سرتم وذهبتم أيها المؤمنون ﴿ إلى مغانم لتأخذوها ﴾ يعني غنائم خيبر وذلك أن المؤمنين لما انصرفوا من الحديبية على صلح من غير قتال ولم يصيبوا من الغنائم شيئاً وعدهم الله فتح خيبر وجعل غنائمها لمن شهد الحديبية خاصة عوضاً عن غنائم أهل مكة حيث انصرفوا عنهم ولم يصيبوا منهم شيئاً ﴿ ذرونا نتبعكم ﴾ يعني إلى خيبر فنشهد معكم قتال أهلها وفي هذا بيان كذب المتخلفين عن الحديبية حيث قالوا : شغلتنا أموالنا وأهلونا إذ لم يكن لهم هناك طمع في غنيمة وهنا قالوا : ذرونا نتبعكم حيث كان لهم طمع في الغنيمة ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ يعني يريدون أن يغيروا ويبدلوا مواعيد الله لأهل الحديبية حيث وعدهم غنيمة خيبر لهم خاصة وهذا قول جمهور المفسرين .

قوله : ﴿ قل للمخلفين من الأعراب ﴾ لما قال الله للنبي (صلى الله عليه وسلم) : قل لن تتبعونا ، وكان المخلفون جمعاً كثيراً من قبائل متشعبة ، وكان فيهم من ترجى توبته وخيره بخلاف الذين مردوا على النفاق واستمروا عليه ، فجعل الله لقبول توبتهم علامة ، وهي أنهم يدعون إلى قوم أولى بأس شديد ، فإن أطاعوا ، كانوا من المؤمنين ويؤتيهم الله أجراً حسناً وهو الجنة ، وإن تولوا وأعرضوا عما دعوا إليه ، كانوا من المنافقين ويعذبهم عذاباً أليماً .

واختلفوا في المشار إليهم بقوله ﴿ ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد ﴾ من هم فقال ابن عباس ومجاهد : هم أهل فارس .

وقال كعب : هم الروم .

وقال الحسن : هم فارس والروم .

وقال سعيد بن جبير : هوازن وثقيف .

وقال قتادة : هوازن وغطفان يوم حنين .

وقال الزهري وجماعة : هم بنو حنيفة أهل اليمامة أصحاب مسيلمة الكذاب .

وقال رافع بن خديج : كنا نقرأ هذه الآية ولا نعلم من هم حتى دعا أبو بكر رضي الله تعالى عنه إلى قتال بني حنيفة فعلمنا أنهم هم .

وقال ابن جريج : دعاهم عمر إلى قتال فارس .

وقال أبو هريرة : لم يأت تأويل هذه الآية بعد ، وأقوى هذه الأقوال ، قول من قال إنهم هوازن وثقيف ، لأن الداعي هو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

وأبعدها قول من قال إنهم بنو حنيفة أصحاب مسيلمة الكذاب أما الدليل على صحة القول الأول فهو أن العرب كان قد ظهر أمرهم في آخر الأمر على عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) فلم يبق إلا مؤمن تقي طاهر أو كافر مجاهر .

وأما المنافقون ، فكان قد علم حالهم لامتناع النبي (صلى الله عليه وسلم) من الصلاة عليهم ، وكان الداعي هو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى حرب من خالفه من الكفار .

وكانت هوازن وثقيف من أشد العرب بأساً وكذلك غطفان فاستنفر النبي (صلى الله عليه وسلم) العرب لغزوة حنين وبني المصطلق ، فصح بهذا البيان أن الداعي هو النبي (صلى الله عليه وسلم) .

(162/713)

فإن قيل : هذا ممتنع لوجهين : أحدهما أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : لن تتبعونا ، وقال : لن تخرجوا معي أبداً ، فكيف كانوا يتبعونه مع هذا النهي ؟ الوجه الثاني : قوله ﴿ أولي بأس شديد ﴾ ، ولم يبق للنبي (صلى الله عليه وسلم) حرب مع قوم أولي بأس شديد ، لأن الرعب كان قد دخل قلوب العرب كافة فنقول : الجواب عن الوجه الأول من وجهين : أحدهما : أن يكون قوله : قل لن تتبعونا ولن تخرجوا معي أبداً مقيد بقيد وهو أن يكون تقديره : قل لن تتبعونا ولن تخرجوا معي أبداً ما دمتم على ما أنتم عليه من النفاق والمخالفة وهذا القيد لا بد منه لأن من أسلم وحسن إسلامه وجب عليه الجهاد ولا يجوز منعه من الخروج إلى الجهاد مع النبي (صلى الله عليه وسلم) .

الوجه الثاني : في الجواب عن الوجه الأول أن المراد من قوله لن تتبعونا ولن تخرجوا معي أبداً يعني في غزوة خيبر لأنها كانت مخصوصة بمن شهد بيعة الرضوان بالحديبية دون غيرهم . ثم نقول : إن النبي (صلى الله عليه وسلم) لو لم يدعهم إلى الجهاد معه أو منعهم من الخروج إلى الجهاد معهما لامتنع أبو بكر وعمر من الإذن لهم في الخروج إلى الجهاد معهما كما امتنعا من أخذ الزكاة من ثعلبة لامتناع النبي (صلى الله عليه وسلم) من أخذها وأما الجواب عن الوجه الثاني وهو أن النبي (صلى الله عليه وسلم) لم يبق له حرب مع قوم أولي بأس شديد فغير مسلم لأن الحرب كانت باقية مع قريش وغيرهم من العرب وهم أولو بأس شديد فثبت بهذا البيان أن الداعي للمخلفين هو النبي (صلى الله عليه وسلم) وأما قول من قال إن أبا

بكر دعاهم إلى قتال بني حنيفة أصحاب مسيلمة الكذاب وإن عمر دعاهم إلى قتال فارس والروم فظاهر في الدلالة وفيه دليل على صحة خلافتهما لأن الله تعالى وعد على طاعتهما الجنة وعلى مخالفتهما النار .

(163/713)

وقوله تعالى : ﴿ تقاتلونهم أو يسلمون ﴾ فيه إشارة إلى وقوع أحد الأمرين إما الإسلام أو القتل ﴿ فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً ﴾ يعني الجنة ﴿ وإن تتولوا ﴾ يعني تعرضوا عن الجهاد ﴿ كما توليتم من قبل ﴾ يعني عام الحديبية ﴿ يعذبكم عذاباً أليماً ﴾ يعني النار ولما نزلت هذه الآية قال أهل الزمانة والأعذار كيف حالنا يا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأنزل الله ﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ﴾ يعني في التخلف عن الجهاد وهذه أعذر ماهرة في جواز ترك الجهاد ، لأن أصحابها لا يقدرون على الكر والفر ، لأن الأعمى لا يمكنه الإقدام على العدو والطلب ، ولا يمكنه الاحتراز منه والهرب ، وكذلك الأعرج ، والمريض .

وفي معنى الأعرج : الزمن المقعد والأقطع .

وفي معنى المريض : صاحب السعال الشديد والطحال الكبير .

والذين لا يقدرون على الكر والفر : فهذه أعذار مانعة من الجهاد ظاهرة ومن وراء ذلك أعذار أخر دون ما ذكر وهي : الفقر الذي لا يمكن صاحبه أن يستصحب معه ما يحتاج إليه من مصالح الجهاد والاشغال التي تعوق عن الجهاد كتمريض المريض الذي ليس له من قوم مقامه عليه ونحو ذلك وإنما قدم الأعمى على الأعرج ، لأن عذر الأعمى مستمر لا يمكن الانتفاع به في حرس ولا غيره بخلاف الأعرج لأنه يمكن الانتفاع به في الحراسة ونحوها وقدم الأعرج على المريض لأن عذره أشد من عذر المريض لإمكان زوال المرض عن قريب ﴿ ومن يطع الله ورسوله ﴾ يعني في أمر الجهاد وغيره ﴿ يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتول ﴾ يعني يعرض عن الساعة ويستمر على الكفر والنفاق ﴿ يعذبه عذاباً أليماً ﴾ يعني في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 6 صـ 187 . 195 ﴾

(164/713)

وقال النسفى :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾

الفتح الظفر بالبلد عنوة أو صلحاً بحرب أو بغير حرب ، لأنه مغلق ما لم يظفر به فإذا ظفر به فقد فتح ، ثم قيل هو فتح مكة وقد نزلت مرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مكة

عام الحديبية عدة له بالفتح .

وجيء به على لفظ الماضي لأنها في تحققها بمنزلة الكائنة وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر عنه وهو الفتح ما لا يخفى .

وقيل : هو فتح الحديبية ولم يكن فيه قتال شديد ولكن ترامٍ بين القوم بسهام وحجارة ، فرمى المسلمون المشركين حتى أدخلوهم ديارهم وسألوا الصلح فكان فتحاً مبيناً وقال الزجاج : كان في فتح الحديبية آية للمسلمين عظيمة ، وذلك أنه نزح ماؤها ولم يبق فيها قطرة فتمضمض رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مجه في البئر فدرت بالماء حتى شرب جميع الناس .

وقيل : هو فتح خيبر .

وقيل : معناه قضينا لك قضاء بيناً على أهل مكة أن تدخلها أنت وأصحابك من قابل لتطوفوا بالبيت من الفتاحة وهي الحكومة .

﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ﴾ قيل : الفتح ليس بسبب للمغفرة والتقدير : إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً فاستغفر ليغفر لك الله ومثله ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ والفتح ﴾ إلى قوله ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ واستغفره ﴾ [النصر : 1 ، 3] ويجوز أن يكون فتح مكة من حيث إنه جهاد للعدو سبباً للغفران .

وقيل : الفتح لم يكن ليغفر له بل لإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز ، ولكنه لما عدد عليه هذه النعم وصلها بما هو أعظم النعم كأنه قيل : يسرّنا لك فتح مكة أو كذا لنجمع لك بين عز الدارين وأغراض العاجل والآجل ﴿ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ يريد جميع ما فرط منك أو ما تقدم من حديث مارية وما تأخر من امرأة زيد ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ بإعلاء دينك وفتح البلاد على يدك ﴿ وَيَهْدِيَكَ صراطا مُّسْتَقِيماً ﴾ ويثبتك على الدين المرضي ﴿ وَيَنصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً ﴾ قوياً منيعاً لا ذل بعده أبداً .

﴿ هُوَ الذى أَنزَلَ السكينة فِى قُلُوبِ المؤمنين لِيَزْدَادُوا آيمانا مَّعَ إِيمانهم ﴾ السكينة للسكون كالبهيتة للبهتان أي أنزل الله في قلوبهم السكون والطمأنينة بسبب الصلح ليزدادوا يقيناً إلى يقينهم .

وقيل : السكينة الصبر على ما أمر الله والثقة بوعد الله والتعظيم لأمر الله ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السماوات والأرض وَكَانَ الله عَلِيماً حَكِيماً لِّيُدْخِلَ المؤمنين والمؤمنات جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سيئاتهم وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ الله فَوْزاً عَظِيماً وَيُعَذِّبَ المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ﴾ أي ولله جنود السماوات والأرض يسلط بعضها على بعض كما يقتضيه علمه وحكمته ، ومن قضيته أن سكن قلوب المؤمنين بصلح الحديبية ووعدهم أن يفتح لهم ، وإنما قضى ذلك ليعرف المؤمنون نعمة الله فيه ويشكروها

فيثيبهم ويعذب الكافرين والمنافقين لما غاظهم من ذلك وكرهوه ﴿ الظآنين بالله ظَنَّ السوء ﴾ وقع السوء عبارة عن رداءة الشيء وفساده .

(166/713)

يقال : فعل سوء أي مسخوط فاسد ، والمراد ظنهم أن الله تعالى لا ينصر الرسول والمؤمنين ولا يرجعهم إلى مكة ظافرين فاتحيها عنوة وقهراً ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السوء ﴾ مكي وأبو عمرو أي ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم ، والسوء الهلاك والدمار وغيرهما ﴿ دَائِرَة السوء ﴾ بالفتح إلا أن المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذمه من كل شيء ، وأما السوء فجار مجرى الشر الذي هو نقيض الخير ﴿ وَغَضِبَ الله عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيراً ﴾ جهنم ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السماوات والأرض ﴾ فيدفع كيد من عادى نبيه عليه السلام والمؤمنين بما شاء منها ﴿ وَكَانَ الله عَزِيزاً ﴾ غالباً فلا يرد بأسه ﴿ حَكِيماً ﴾ فيما دبر .

﴿ إِنَّآ أرسلناك شَاهِداً ﴾ تشهد على أمتك يوم القيامة وهذه حال مقدرة ﴿ وَمُبَشِّراً ﴾ للمؤمنين بالجنة ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ للكافرين من النار ﴿ لِّتُؤْمِنُواْ بالله وَرَسُولِهِ ﴾ والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأمته ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ وتقووه بالنصر ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾

وتعظموه ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ من التسبيح أو من السبحة ، والضمائر لله عز وجل .

والمراد بتعزيز الله تعزيز دينه ورسوله ، ومن فرق الضمائر فجعل الأولين للنبي صلى الله عليه وسلم فقد أبعد ﴿ لِيُؤْمِنُواْ ﴾ مكي وأبو عمرو والضمير للناس وكذا الثلاثة الأخيرة بالياء عندهما ﴿ بُكْرَةً ﴾ صلاة الفجر ﴿ وَأَصِيلاً ﴾ الصلوات الأربع ﴿ إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ ﴾ أي بيعة الرضوان .

(167/713)

ولما قال ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله ﴾ أكده تأكيداً على طريقة التخييل فقال ﴿ يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ يريد أن يد رسول الله صلى الله عليه وسلم التي تعلو أيدي المبايعين هي يد الله والله منزه عن الجوارح وعن صفات الأجسام ، وإنما المعنى تقرير أن عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما كقوله ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله ﴾ [النساء : 80] و ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله ﴾ خبر "إن" ﴿ فَمَن نَّكَثَ ﴾ نقض العهد ولم يف بالبيعة ﴿ فَإِنَّمَا يَنكُثُ على نَفْسِهِ ﴾ فلا يعود ضرر نكثه إلا عليه .

قال جابر بن عبد الله : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة على الموت وعلى أن لا نفر فما نكث أحد منا البيعة إلا جد بن قيس وكان منافقاً اختبأ تحت بطن

بعيره ولم يسر مع القوم ﴿ وَمَنْ أوفى بِمَا عاهد ﴾ يقال : وفيت بالعهد وأوفيت به ومنه قوله ﴿ أَوْفُواْ بالعقود ﴾ [المائدة : 1] ﴿ والموفون بِعَهْدِهِمْ ﴾ [البقرة : 177] ﴿ عَلَيْهِ الله ﴾ حفص ﴿ فَسَيُؤْتِيهِ ﴾ وبالنون حجازي وشامي ﴿ أَجْراً عَظِيماً ﴾ الجنة .

(168/713)

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ﴾ إذا رجعت من الحديبية ﴿ المخلفون مِنَ الأعراب ﴾ هم الذين خلّفوا عن الحديبية وهم أعراب غفار ومزينة وجهينة وأسلم وأشجع والدئل ، وذلك أنه عليه السلام حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي ليخرجوا معه حذراً من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت ، وأحرم هو صلى الله عليه وسلم وساق معه الهدي ليعلم أنه لا يريد حرباً ، فتثاقل كثير من الأعراب وقالوا : يذهب إلى قوم غزوه في عقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه فيقاتلهم وظنوا أنه يهلك فلا ينقلب إلى المدينة ﴿ شَغَلَتْنَآ أموالنا وَأَهْلُونَا ﴾ هي جمع أهل اعتلوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم وأنه ليس من يقوم بأشغالهم ﴿ فاستغفر لَنَا ﴾ ليغفر لنا الله تخلفنا عنك ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ تكذيب لهم في اعتذارهم وأن الذي خلفهم ليس

ما يقولون ، وإنما هو الشك في الله والنفاق فطلبهم الاستغفار أيضاً ليس بصادر عن حقيقة ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُمْ مِّنَ اللهِ شَيْئاً ﴾ فمن يمنعكم من مشيئة الله وقضائه ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً ﴾ ما يضركم من قتل أو هزيمة ﴿ ضَرّا ﴾ حمزة وعلي ﴿ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً ﴾ من غنيمة وظفر .

(169/713)

﴿ بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرسول والمؤمنون إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذلك فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ زينه الشيطان ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السوء ﴾ من علو الكفر وظهور الفساد ﴿ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً ﴾ جمع بائر كعائذ وعوز من بار الشيء هلك وفسد أي وكنتم قوماً فاسدين في أنفسكم وقلوبكم ونياتكم لا خير فيكم ، أو هالكين عند الله مستحقين لسخطه وعقابه ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا للكافرين ﴾ أي لهم فأقيم الظاهر مقام الضمير للإيذان بأن من لم يجمع بين الإيمانين : الإيمان بالله والإيمان برسوله ، فهو كافر ونكّر ﴿ سَعِيراً ﴾ لأنها نار مخصوصة كما نكر ﴿ نَاراً تلظى ﴾ [الليل : 14] ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض ﴾ يدبره تدبير قادر حكيم ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ

مَن يَشَآءُ ﴾ يغفر ويعذب بمشيئته وحكمته وحكمته المغفرة للمؤمنين والتعذيب للكافرين ﴿ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ سبقت رحمته غضبه .

(170/713)

﴿ سَيَقُولُ المخلفون ﴾ الذين تخلفوا عن الحديبية ﴿ إِذَا انطلقتم إلى مَغَانِمَ ﴾ إلى غنائم خيبر ﴿ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كلام الله ﴾ ﴿ كَلِمَ الله ﴾ : حمزة وعلي أي يريدون أن يغيروا موعد الله لأهل الحديبية ، وذلك أنه وعدهم أن يعوضهم من مغانم مكة مغانم خيبر إذا قفلوا موادعين لا يصيبون منهم شيئاً ﴿ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا ﴾ إلى خيبر وهو إخبار من الله بعدم اتباعهم ولا يبدل القول لديه ﴿ كَذَلِكُمْ قَالَ اللهُ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل انصرافهم إلى المدينة إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية دون غيرهم ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ أي لم يأمركم الله به بل تحسدوننا أن نشارككم في الغنيمة ﴿ بَلْ كَانُواْ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ من كلام الله ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ إلا شيئاً قليلاً يعني مجرد القول .

والفرق بين الإضرابين أن الأول رد أن يكون حكم الله أن لا يتّبعوهم وإثبات الحسد ، والثاني إضراب عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين إلى وصفهم بما هو أطم منه وهو الجهل وقلة الفقه .

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأعراب ﴾ هم الذين تخلفوا عن الحديبية ﴿ سَتُدْعَوْنَ إلى قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ يعني بني حنيفة قوم مسيلمة وأهل الردة الذين حاربهم أبو بكر رضي الله عنه لأن مشركي العرب والمرتدين هم الذين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف .

وقيل : هم فارس وقد دعاهم عمر رضي الله عنه ﴿ تقاتلونهم أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ أي يكون أحد الأمرين إما المقاتلة أو الإسلام .

(171/713)

ومعنى يسلمون على هذا التأويل ينقادون لأن فارس مجوس تقبل منهم الجزية ، وفي الآية دلالة صحة خلافة الشيخين حيث وعدهم الثواب على طاعة الداعي عند دعوته بقوله ﴿ فَإِن تُطِيعُواْ ﴾ من دعاكم إلى قتاله ﴿ يُؤْتِكُمُ الله أَجْراً حَسَناً ﴾ فوجب أن يكون الداعي مفترض الطاعة ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ ﴾ أي عن الحديبية ﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ في الآخرة ﴿ لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأعرج حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المريض حَرَجٌ ﴾ نفي الحرج عن ذوي العاهات في التخلف عن الغزو ﴿ وَمَن يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ ﴾ في الجهاد وغير ذلك ﴿ يُدْخِلْهُ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار وَمَن يَتَوَلَّ ﴾

يعرض عن الطاعة ﴿ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ ﴿ ندخله ﴾ و ﴿ نُعَذِّبُهُ ﴾ مدني وشامي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 160.156 ﴾

(172/713)

وقال ابن جزى :

سورة الفتح

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾

يحتمل هذا الفتح في اللغة أن يكون بمعنى الحكم ، أي حكمنا لك على أعدائك ، أو من الفتح بمعنى العطاء كقوله : ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ ﴾ [فاطر : 2] أو من فتح البلاد ، واختلف في المراد بهذا الفتح على أربعة أقوال : الأول أنه فتح مكة وعده الله به قبل أن يكون ، وذِكرُه بلفظ الماضي لتحققه ، وهو على هذا بمعنى فتح البلاد ، الثاني أنه ما جرى في الحديبية من بيعة الرضوان ، ومن الصلح الذي عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قريش ، وهو على هذا بمعنى الحكم ، أو بمعنى العطاء ، ويدل على صحة هذا القول : أنه لما وقع صلح الحديبية ، شق ذلك على بعض المسلمين لشروط كانت فيه ، حتى أنزل الله هذه السورة ، ويتبين أن ذلك الصلح له عاقبة محمود ، وهذا هو الأصح ؛ لأنه رُوي

أنها لما نزلت قال بعض الناس : " ما هذا الفتح وقد صدنا المشركون عن البيت ؟ فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : بل هو أعظم الفتوح ، وقد رضي المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالروح ، ورغبوا إليكم في الأمان " ، الثالث أنه ما أصاب المسلمون بعد الحديبية من الفتوح كفتح خيبر وغيرها ، الرابع أنه الهداية إلى الإسلام ودليل هذا القول قوله : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ﴾ فجعل الفتح علة للمغفرة ، ولا حجة في ذلك إذ يتصور في الجهاد وغيره أن يكون علة للمغفرة أيضاً ، أو تكون اللام ، للصيرورة والعاقبة لا للتعليل ؛ فيكون المعنى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ فكان عاقبة أمرك أن جمع الله لك بين سعادة الدنيا والآخرة ؛ بأن غفر لك ، وأتم نعمته عليك ، وهداك ونصرك .

﴿ هُوَ الذي أَنزَلَ السكينة ﴾ أي السكون والطمأنينة ، يعني سكونهم في صلح الحديبية وتسليمهم بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل : معناه الرحمة .

(173/713)

﴿ الظانين بالله ظَنَّ السوء ﴾ معناه أنهم ظنوا أن الله يخذل المؤمنين وقالوا : لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً . وقيل : معناه أنهم لا يعرفون الله بصفاته ، فذلك هو ظن السوء به ، والأول أظهر بدليل ما بعده ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السوء ﴾ يحتمل أن يكون خبراً أو

دعاء .

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً ﴾ أي تشهد على أمتك ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ أي تعظموه وقيل : تنصرونه ، وقرئ تعززوه بزايين منقوطتين ، والضمير في ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم وفي تسبحوه لله تعالى ، وقيل : الثلاثة لله .

﴿ إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله ﴾ هذا تشريف للنبي صلى الله عليه وسلم حيث جعل مبايعته بمنزلة مبايعة الله ، ثم أكد هذا المعنى بقوله : ﴿ يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ وذلك على وجه التخييل والتمثيل ، يريد أن يد رسول الله صلى الله عليه وسلم التي تعلو يد المبايعين له هي يد الله في المعنى ، وإن لم تكن كذلك في الحقيقة . وإنما المراد أن عقد ميثاق البيعة مع الرسول عليه الصلاة والسلام ، كعقدة مع الله كقوله : ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله ﴾ [النساء : 80] وتأوّل المتأوّلون ذلك بأن يد الله معناها النعمة أو القوة ، وهذا يعيد هنا ونزلت الآية في بيعة الرضوان تحت الشجرة وسنذكرها بعد ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ على نَفْسِهِ ﴾ يعني أن ضرر نكثه على نفسه ويراد بالنكث هنا نقض البيعة .

(174/713)

﴿ سَيَقُولُ لَكَ المخلفون مِنَ الأعراب ﴾ الآية : سماهم بالمخلفين ، لأنهم تخلفوا عن عزوة الحديبية ، والأعراب هم أهل البوادي من العرب ، لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة يعتمر ، رأوا أنه يستقبل عدواً كثيراً من قريش وغيرهم ، فقعدوا عن الخروج معه ، ولم يكن إيمانهم متمكناً ، فظنوا أنه لا يرجع هو والمؤمنون من ذلك السفر ففضحهم الله في هذه السورة ، وأعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقولهم واعتذارهم قبل أن يصل إليهم ، وأعلمه أنهم كاذبون في اعتذارهم ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ يحتمل أن يريد قولهم : ﴿ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ لأنهم كذبوا في ذلك ، أو قولهم : ﴿ فاستغفر لَنَا ﴾ لأنهم قالوا ذلك رياء من غير صدق ولا توبة ﴿ قَوْماً بُوراً ﴾ أي هالكين من البوار ، وهو الهلاك ويعني به الهلاك في الدين .

(175/713)

﴿ سَيَقُولُ المخلفون ﴾ الآية : أخبر الله رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المخلفين عن غزوة الحديبية يريدون الخروج معه إذا خرجوا إلى غزوة أخرى ، وهي غزوة خيبر ، فأمر الله بمنعهم من ذلك ، وأن يقول لهم : ﴿ لَّن تَتَّبِعُونَا ﴾ ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلاَمَ الله ﴾ أي يريدون أن يبدلوا وعد الله لأهل الحديبية ، وذلك أن الله وعدهم أن يعوضهم من غنيمة

مكة غنيمة خيبر وفتحها ، وأن يكون ذلك مختصاً بهم دون غيرهم ، وأراد المخلفون أن يشاركوهم في ذلك ، فهذا هو ما أرادوا من التبديل . وقيل : كلام الله قوله : ﴿ لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوّاً ﴾ [التوبة : 83] . وهذا ضعيف ؛ لأن هذه الآية نزلت بعد رجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك بعد الحديبية بمدة ﴿ كذلكم قَالَ اللهُ مِن قَبْلُ ﴾ يريد وعده باختصاصه أهل الحديبية بغنائم خيبر ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ معناه يعز عليكم أن نصيب معكم مالاً وغنيمة ، وبل هنا للإضراب عن الكلام المتقدم وهو قوله : ﴿ لَّن تَتَّبِعُونَا كذلكم قَالَ اللهُ مِن قَبْلُ ﴾ فمعناها : ردٌّ أن يكون الله حكم بأن لا يتبعوهم . وأما بل في قوله تعالى ﴿ بَلْ كَانُواْ لاَ يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ فهي إضراب عن وصف المؤمنين بالحسد ، وإثبات لوصف المخلفين بالجهل .

(176/713)

﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ اختُلف في هؤلاء القوم على أربعة أقوال الأول : أنهم هوازن ومن حارب النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة خيبر والثاني أنهم الروم إذ دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قتالهم في غزوة تبوك والثالث أنهم أهل الردة من بني حنيفة وغيرهم الذين قاتلهم أبو بكر الصديق والرابع أنهم الفرس ويتقوى الأول والثاني بأن

ذلك ظهر في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقوّى المنذر بن سعيد القول الثالث بأن الله جعل حكمهم القتل أو الإسلام ولم يذكر الجزية ، قال : وهذا لا يوجد إلا في أهل الردّة ، قلت : وكذلك هو موجود في كفار العرب ، إذ لا تؤخذ منهم الجزية فيقوّي ذلك أنهم هوازن أو يسلمون عطف على تقاتلونهم وقال ابن عطية : هو مستأنف ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ ﴾ يريد في غزوة الحديبية .

﴿ لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ ﴾ الآية معناها أن الله تعالى عذر الأعمى والأعرج والمريض في تركهم للجهاد ؛ لسبب أعذارهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التسهيل حـ 4 صـ 51.

﴿ 53

(177/713)

وقال البيضاوى :

سورة الفتح

مدنية نزلت في مرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية وآيها تسع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾

وعد بفتح مكة ، والتعبير عنه بالماضي لتحققه أو بما اتفق له في تلك السنة كفتح خيبر وفدك ، أو إخبار عن صلح الحديبية وإنما سماه فتحاً لأنه كان بعد ظهوره على المشركين حتى سألوا الصلح وتسبب لفتح مكة ، وفرغ به رسول الله صلى الله عليه وسلم لسائر العرب فغزاهم وفتح مواضع وأدخل في الإِسلام خلقاً عظيماً ، وظهر له في الحديبية آية عظيمة وهي أنه نزح ماؤها بالكلية فتمضمض ثم مجه فيها فدرت بالماء حتى شرب جميع من كان معه ، أو فتح الروم فإنهم غلبوا الفرس في تلك السنة . وقد عرفت كونه فتحاً للرسول عليه الصلاة والسلام في سورة "الروم" . وقيل الفتح بمعنى القضاء أي قضينا لك أن تدخل مكة من قابل .

﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ﴾ علة للفتح من حيث إنه مسبب عن جهاد الكفار والسعي في إزاحة الشرك وإعلاء الدين وتكميل النفوس الناقصة قهراً ليصير ذلك بالتدريج اختياراً ، وتخليص الضعفة عن أيدي الظلمة . ﴿ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ جميع ما فرط منك مما يصح أن تعاتب عليه . ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ بإعلاء الدين وضم الملك إلى النبوة .

﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾ في تبليغ الرسالة وإقامة مراسم الرئاسة .

﴿ وَيَنصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً ﴾ نصراً فيه عز ومنعة ، أو يعز به المنصور فوصف بوصفه مبالغة .

﴿ هُوَ الذى أَنزَلَ السكينة ﴾ الثبات والطمأنينة . ﴿ فِى قُلُوبِ المؤمنين ﴾ حتى ثبتوا حيث تقلق النفوس وتدحض الأقدام . ﴿ لِيَزْدَادُواْ إيمانا مَّعَ إيمانهم ﴾ يقيناً مع يقينهم برسوخ العقيدة واطمئنان النفس عليها ، أو نزل فيها السكون إلى ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ليزدادوا إيماناً بالشرائع مع إيمانهم بالله واليوم الآخر . ﴿ لِلَّهِ جُنُودُ السموات والأرض ﴾ يدبر أمرها فيسلط بعضها على بعض تارة ويوقع فيما بينهم السلم أخرى كما تقتضيه حكمته . ﴿ وَكَانَ الله عَلِيماً ﴾ بالمصالح . ﴿ حَكِيماً ﴾ فيما يقدر ويدبر .

﴿ لِّيُدْخِلَ المؤمنين والمؤمنات جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا ﴾ علة بما بعده لما دل عليه قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السموات والأرض ﴾ من معنى التدبير ، أي دبر ما دبر من تسليط المؤمنين ليعرفوا نعمة الله فيه ويشكروها فيدخلهم الجنة ويعذب الكفار والمنافقين لما غاظهم من ذلك ، أو ﴿ فَتَحْنَا ﴾ أو ﴿ أَنزَلَ ﴾ أو جميع ما ذكر أو ﴿ لِيَزْدَادُواْ ﴾ ، وقيل إنه بدل منه بدل الاشتمال . ﴿ وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ يغطيها ولا يظهرها . ﴿ وَكَانَ ذلك ﴾ أي الإدخال والتكفير . ﴿ عِندَ الله فَوْزاً عَظِيماً ﴾ لأنه منتهى ما يطلب من جلب نفع أو دفع ضر ، وعند حال من الفوز .

﴿ وَيُعَذِّبَ المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ﴾ عطف على ﴿ يَدْخُلِ ﴾ إلا إذا جعلته بدلاً فيكون عطفاً على المبدل منه . ﴿ الظانين بالله ظَنَّ السوء ﴾ ظن الأمر السوء وهو أن لا ينصر رسوله والمؤمنين . ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السوء ﴾ دائرة ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين لا يتخطاهم ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ دَائِرَةُ السوء ﴾ بالضم وهما لغتان ، غير أن المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذمه والمضموم جرى مجرى الشر وكلاهما في الأصل مصدر ﴿ وَغَضِبَ الله عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ﴾ عطف لما استحقوه في الآخرة على ما استوجبوه في الدنيا ، والواو في الأخيرين والموضع موضع الفاء إذ اللعن سبب للاعداد ، والغضب سبب له لاستقلال الكل في الوعيد بلا اعتبار النسبية . ﴿ وَسَاءتْ مَصِيراً ﴾ جهنم . ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السموات والأرض وَكَانَ الله عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ .

﴿ إِنَّا أرسلناك شَاهِداً ﴾ على أمتك . ﴿ وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ على الطاعة والمعصية . ﴿ لِّتُؤْمِنُواْ بالله وَرَسُولِهِ ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والأمة ، أو لهم على أن خطابه منزل منزلة خطابهم . ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ وتقووه بتقوية دينه ورسوله ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾

وتعظموه . ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ وتنزهوه أو تصلوا له . ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ غدوة وعشياً أو دائماً . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو الأفعال الأربعة بالياء ، وقرىء " تعزروه " بسكون العين و "تعزروه" بفتح التاء وضم الزاي وكسرها و "تعززوه" بالزاءين "وَتُوَقِّرُوهُ" من أوقره بمعنى وقره .

(180/713)

﴿ إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله ﴾ لأنه المقصود ببيعته . ﴿ يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ حال أو استئناف مؤكد له على سبيل التخييل . ﴿ فَمَن نَّكَثَ ﴾ نقض العهد . ﴿ فَإِنَّمَا يَنكُثُ على نَفْسِهِ ﴾ فلا يعود ضرر نكثه إلا عليه . ﴿ وَمَنْ أوفى بِمَا عاهد عَلَيْهِ الله ﴾ في مبايعته ﴿ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ هو الجنة ، وقرىء "عهد" وقرأ حفص ﴿ عَلَيْهِ ﴾ بضم الهاء وابن كثير ونافع وابن عامر وروح "فسنؤتيه" بالنون . والآية نزلت في بيعة الرضوان .

﴿ سَيَقُولُ لَكَ المخلفون مِنَ الأعراب ﴾ هم أسلم وجهينة ومزينة وغفار استنفرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية فتخلفوا واعتلوا بالشغل بأموالهم وأهاليهم ، وإنما خلفهم الخذلان وضعف العقيدة والخوف من مقاتلة قريش إن صدوهم . ﴿ شَغَلَتْنَا

أموالنا وَأَهْلُونَا ﴾ إذ لم يكن لنا من يقوم بأشغالهم ، وقرىء بالتشديد للتكثير . ﴿ فاستغفر لَنَا ﴾ من الله على التخلف . ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ تكذيب لهم في الاعتذار والاستغفار . ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُمْ مِّنَ اللهِ شَيْئاً ﴾ فمن يمنعكم من مشيئته وقضائه . ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً ﴾ ما يضركم كقتل أو هزيمة أو خلل في المال والأهل عقوبة على التخلف ، وقرأ حمزة والكسائي بالضم . ﴿ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً ﴾ ما يضاد ذلك ، وهو تعريض بالرد . ﴿ بَلْ كَانَ اللهِ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ فيعلم تخلفكم وقصدكم فيه .

(181/713)

﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرسول والمؤمنون إلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً ﴾ لظنكم أن المشركين يستأصلونهم ، وأهلون جمع أهل وقد يجمع على أهلات كأرضات على أن أصله أهلة وأما أهال فاسم جمع كليال . ﴿ وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ فتمكن فيها ، وقرىء على البناء للفاعل وهو الله أو الشيطان . ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السوء ﴾ الظن المذكور ، والمراد التسجيل عليه ب ﴿ السوء ﴾ أو هو وسائر ما يظنون بالله ورسوله من الأمور الزائغة . ﴿ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً ﴾ هالكين عند الله لفساد عقيدتكم وسوء نيتكم .

﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً ﴾ وضع الكافرين موضع الضمير إيذاناً بأن من لم يجمع بين الإيمان بالله ورسوله فهو كافر وأنه مستوجب للسعير بكفره ، وتنكير سعيراً للتهويل أو لأنها نار مخصوصة .

(182/713)

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ يدبره كيف يشاء . ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء ﴾ إذ لا وجوب عليه . ﴿ وَكَانَ الله غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ فإن الغفران والرحمة من ذاته والتعذيب داخل تحت قضائه بالعرض ، ولذلك جاء في الحديث الإلهي " سبقت رحمتي غضبي " ﴿ سَيَقُولُ المخلفون ﴾ يعني المذكورين . ﴿ إِذَا انطلقتم إلى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ﴾ يعني مغانم خيبر فإنه عليه الصلاة والسلام رجع من الحديبية في ذي الحجة من سنة ست وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل المحرم ، ثم غزا خيبر بمن شهد الحديبية ففتحها وغنم أموالاً كثيرة فخصها بهم . ﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كلام الله ﴾ أن يغيروه وهو وعده لأهل الحديبية أن يعوضهم من مغانم مكة مغانم خيبر ، وقيل قوله تعالى : ﴿ لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا ﴾ والظاهر أنه في تبوك . والكلام اسم للتكليم غلب في الجملة المفيدة وقرأ حمزة والكسائي "كلم الله" وهو جمع كلمة . ﴿ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا ﴾ نفي في معنى النهي .

﴿ كَذَلِكُمْ قَالَ اللهُ مِن قَبْلُ ﴾ .

من قبل تهيئهم للخروج إلى خيبر . ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ أن يشاركم في الغنائم ، وقرىء بالكسر . ﴿ بَلْ كَانُواْ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ لا يفهمون . ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ إلا فهما قليلاً وهو فطنتهم لأمور الدنيا ، ومعنى الإِضراب الأول رد منهم أن يكون حكم الله أن لا يتبعوهم وإثبات للحسد ، والثاني رد من الله لذلك وإثبات لجهلهم بأمور الدين .

(183/713)

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأعراب ﴾ كرر ذكرهم بهذا الاسم مبالغة في الذم وإشعاراً بشناعة التخلف . ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ بني حنيفة أو غيرهم ممن ارتدوا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو المشركين فإنه قال : ﴿ تقاتلونهم أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ أي يكون أحد الأمرين إما المقاتلة أو الإِسلام لا غير كما دل عليه قراءة "أو يسلموا" ، ومن عداهم يقاتل حتى يسلم أو يعطي الجزية . وهو يدل على إمامة أبي بكر رضي الله عنه إذا لم تتفق هذه الدعوة لغيره إلا إذا صح أنهم ثقيف وهوازن فإن ذلك كان في عهد النبوة . وقيل فارس والروم ومعنى ﴿ يُسْلِمُونَ ﴾ ينقادون ليتناول تقبلهم الجزية . ﴿ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْراً حَسَناً ﴾ هو الغنيمة في الدنيا والجنة في الآخرة . ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ

﴿ عن الحديبية . ﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ لتضاعف جرمكم .

﴿ لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأعرج حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المريض حَرَجٌ ﴾ لما أوعد على التخلف نفي الحرج عن هؤلاء المعذورين استثناء لهم عن الوعيد . ﴿ وَمَن يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهر ﴾ فصل الوعد وأجمل الوعيد مبالغة في الوعد لسبق رحمته ، ثم جبر ذلك بالتكرير على سبيل التعميم فقال : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ إذ الترهيب ها هنا أنفع من الترغيب ، وقرأ نافع وابن عامر "ندخله" و"نُعَذِّبُهُ" بالنون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 199 . 204 ﴾

(184/713)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1) ﴾

(185/713)

التفسير : الفتح في باب الجهاد هو الظفر بالبلد بصلح أو حرب لأنه منغلق ما لم يظفر به . والجمهور على أن المراد به ما جرى يوم الحديبية . عن أنس قال : لما رجعنا عن الحديبية وقد حيل بيننا وبين نسكنا فنحن بين الحزن والكآبة ، أنزل الله ﴿ إنا فتحنا ﴾ فقال صلى الله عليه وسلم : " لقد أنزل عليّ آية هي أحب إليّ من الدنيا كلها " والحديبية بئر سمي المكان بها وكان قد غاض ماؤها فتمضمض فيها النبي صلى الله عليه وسلم فجاء بالماء حتى عمهم . وعن ابن شهاب : لم يكن في الإسلام فتح أعظم من فتح الحديبية وضعت الحرب وأمن الناس . وقال الشعبي : أصاب النبي صلى الله عليه وسلم في تلك الغزوة ما لم يصب في غيرها ، بويع فيها بيعة الرضوان تحت الشجرة ، وغفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر ، وظهرت الروم على فارس ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وعد به فصح صدقه وأطعم نخل خيبر . وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هجرته إلى المدينة أحب أن يزور بيت الله الحرام بمكة فخرج قاصداً نحوه في سنة ست من الهجرة ، وخرج معه أولو البصيرة وتخلف من كان في قلبه مرض ظناً منه أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً . واستصحب سبعين بدنة لينحرها بمكة ، ولما كان بذي الحليفة قلد الهدي وأحرم بالعمرة لتعلم قريش أنه لم يأت لقتال وكانوا ألفاً وثلثمائة أو أربعمائة أو خمسمائة فبايعوه إلا جد بن قيس فإنه اختبأ تحت إبطي ناقته ، فجاءه عروة بن مسعود لإيقاع صلح . فلما رأية أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أي محمد أرأيت إن

استأصلت قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله على أني أرى وجوهاً وأسراباً خليقاً أن يفروا ويدعوك ؟ فشتمه أبو بكر فلما عاد إلى قريش قال : لقد وفدت على كسرى وقيصر والنجاشي وغيرهم من الملوك وما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً . والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم

(186/713)

ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلموا عنده خفضوا أصواتهم ، وما يحدّون النظر إليه تفخيماً ، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها منه . فلما اتفقوا على الصلح جاء سهيل بن عمرو والمخزومي وتصالحوا على أن لا يدخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة سنته بل يعود في القابل ويقيم ثلاثة أيام ثم ينصرف ، فلما كتب علي بن أبي طالب رضي الله عنه " بسم الله الرحمن الرحيم " . قال سهيل : ما نعرف " الرحمن الرحيم " اكتب في قضيتنا ما نعرف " باسمك اللهم " .

(187/713)

ولما كتب " هذا ما صالح محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم " . قال : لو علمنا أنك رسول الله ما قاتلناك ، اكتب محمد بن عبد الله . فتنازع المسلمون وقريش في ذلك وكادوا يتواثبون ، فمنعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمرهم بالإجابة فكتب " هذا ما صالح محمد بن عبد الله قريشاً على أنه من قدم مكة من أصحاب محمد حاجاً أو معتمراً أو يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله ، ومن قدم المدينة مجتازاً إلى مصر والشام أو يبتغي من فضل الله فهو على دمه وأهله آمن ، وعلى أنه من جاء محمداً من قريش فهو إليهم ردّ ، ومن جاءهم من أصحاب محمد فهو لهم " فاشتدّ ذلك على المسلمين فقال النبي صلى الله عيله وسلم : من جاءهم منا فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم رددناه إليهم ، فإن علم الله منه الإسلام جعل له مخرجاً . فلما فرغوا من الهدنة نحر النبي صلى الله عليه وسلم وحلق وفعل أصحابه ذلك فنزل عليه في طريقه في هذا الشأن ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ يريد ما كان من أمر الحديبية والفتح قد يكون بالصلح . وقيل : كان ذلك بلفظ الماضي على عادة إخبار الله . وقال ابن عيسى : الفتح الفرج المزيل للهم ومنه فتح المسألة إذا انفرجت عن بيان يؤدّي إلى الثقة . وقيل وهو قول قتادة : الفتح القضاء والحكم ، والفتاح القاضي ، والفتاحة الحكومة أي حكما لك بهذه المهادنة وأرشدناك إلى الإسلام ليغفر لك الله . قال أهل النظم : لأوّل هذه السورة مناسبة تامة مع آخر السورة المتقدّمة وذلك أنه قال ﴿ ما

أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا ﴾ [محمد : 38] إلى آخره فبين بعد ذلك أنه فتح لهم مكة وغنموا ديارهم وحصل لهم أضعاف ما أنفقوا ولو بخلوا لضاعت عنهم هذه الفوائد .

وأيضاً لما قال ﴿ وأنتم الأعلون ﴾ [محمد : 35] بين برهانه بصلح الحديبية أو بفتح مكة وكان في قوله ﴿ وتدعوا إلى السلم ﴾ [محمد : 35] إشارة إلى ما جرى يوم الحديبية من أن المسلمين صبروا إلى أن طلب المشركون الصلح .

(188/713)

سؤال : ما المناسبة بين الفتح والمغفرة حتى جعلت غاية له ؟ الجواب الغاية هي مجموع المغفرة وما ينعطف عليها كأنه قيل : يسرنا لك فتح مكة وغيره من الفتوح ليجمع لك بين عز الدارين وأغراض العاجل والآجل . ويجوز أن تكون الفتوح من حيث إنها جهاد للعدّو سبباً للغفران والثواب . قال جار الله : وقيل : تقدير الكلام إنا فتحنا لك فاستغفره ليغفر لك كقوله ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ إلى قوله ﴿ واستغفروه ﴾ [النصر : 1-3] وقيل : إن فتح مكة كان سبباً لتطهير البيت من رجس الأوثان ، وتطهير بيته سبب لتطهير عبده . وأيضاً بالفتح يحصل الحج وبالحج تحصل المغفرة كما ورد في الأخبار " خرج كيوم ولدته أمه "

وأيضاً إن الناس قد علموا عام الفيل أن مكة لا يتسلط عليها عدواً لله ، فلما فتحت للرسول صلى الله عليه وسلم عرف أنه حبيب الله المغفور له . أما الذنب فقيل : أراد به ذنب المؤمنين من أمته ، أو أريد به ترك الأفضل والصغائر سهواً أو عمداً . ومعنى ﴿ ما تأخر ﴾ أي عن الفتح أو ما تقدم عن النبوّة وتأخر عنها . وقيل ﴿ ما تقدم ﴾ ذنب أبويه آدم وحواء ﴿ وما تأخر ﴾ ذنب أمته . وقيل : أراد جميع الذنوب فحدّ أوّلها وآخرها ، أو هو على وجه المبالغة كما تقول : أعطى من رأى ومن لم يره . وقيل : ما تقدم من أمر مارية وما تأخر من أمر زينب وهو قول سخيف لعدم التئام الكلام ظاهراً . والأولى أن يقال : ما تقدم النبوّة بالعفو وما تأخر عنها بالعصمة ﴿ ويتم نعمته عليك ﴾ بإعلاء دينك وفتح البلاد على يدك لقوله ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ﴾ [المائدة : 3] ومن إتمام النعمة تكليف الحج وقد تم يومئذ ولم يبق للنبي صلى الله عليه وسلم عدوّ من قريش ، فإن كثيراً منهم وقد أهلكوا يوم بدر ، والباقين آمنوا واستأمنوا يوم الفتح . وقيل : إتمام النعمة في الدنيا باستجابة الدعاء في طلب الفتح وفي الآخرة بقبول الشفاعة ﴿ ويهديك صراطاً مستقيماً ﴾ أي يثبتك ويهديك عليه فإن الفتح لا يكون إلا لمن هو على

صراط الله ، ولعل المراد بهذا الخطاب هو أمته . والنصر العزيز ذو العزة وهو الذي لا ذل بعده ، أو هو بمعنى المعز أو الممتنع على الغير وهو النفيس الذي لا يناله كل أحد . وفي الآية تفخيم شأن الفتح والنصر من وجوه : أحدها لفظ (إنا) الدال على التعظيم . وثانيها لفظ (لك) الدال على الاختصاص . ثالثها إعادة اسم الله في الموضعين أوّلاً وآخراً . ثم بين سبب النصر بقوله ﴿ هو الذي أنزل السكينة ﴾ وهي السكون والوقار والطمأنينة والثقة بوعد الله كما مر في " البقرة " وفي " التوبة " ﴿ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ أي يقيناً مع يقينهم أو إيماناً بالشرائع مع إيمانهم

(190/713)

بالله . وعن ابن عباس أو أول ما أتاهم به النبي صلى الله عليه وسلم التوحيد ، فلما آمنوا بالله وحده أنزل الصلاة ثم الزكاة ثم الجاد ثم الحج ، أو ازدادوا إيماناً استدلالياً مع إيمانهم الفطري . وعلى هذا ففائدة قوله ﴿ مع إيمانهم ﴾ أن الفطرة تشهد بالإيمان ، فلما عرفوا صحة الإيمان بالنظر والاستدلال انضم هذا الثاني إلى الأول . وجنود السموات والأرض ملائكتهما ، ويمكن أن يراد بمن في الأرض الثقلان والحيوان غير الإنسان . ويحتمل أن يراد بالجنود معنى أعم وهو الأسباب الأرضية والسماوية فيدخل فيهما الصيحة والرجفة .

وظن السوء هو ظنهم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم ، أو أن الله تعالى لا ينصرهم على أعدائهم ، أو أن الله شريكاً ، أو أنه لا يقدر على إحياء الموتى .

(191/713)

ومعنى دائرة السوء أن ضرر ظنهم يعود إليهم ويدور عليهم وقد مر في سورة التوبة . قال بعض العلماء : ضم المؤمنات ههنا إلى المؤمنين بخلاف قوله ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ [المؤمنون : 1] ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ [الأحزاب : 47] ونحو ذلك . والسر فيه أن كل موضع يوهم اختصاص الرجال به مع كون النساء مشاركات لهم ذكرهن صريحاً نفياً لهذا التوهم ، وكل موضع لا يوهم ذلك اكتفى فيه بذكر الرجال لأنهم الأصل في أكثر الأحكام والتكاليف . مثلاً من المعلوم أن البشارة والنذارة عامة للناس قاطبة فلم يحتج فيهما إلى ذكر النساء بخلاف هذه الآية فإن إدخال الجنة يوهم أنه لأجل الجهاد مع العدوّ والفتح على أيديهم والمرأة لا جهاد عليها ، فكان يظن أنهن لا يدخلن الجنات فنفى الله تعالى هذا الوهم ، وكذا الكلام في تعذيب المنافقات والمشركات . نكتة الجنود المذكورة أوّلاً هي جنود الرحمة فكانوا سبباً لإدخال المؤمنين الجنة بالإكرام والتعظيم ثم إلباسهم خلع الكرامة لقوله ﴿ ويكفر عنهم سيئاتهم ﴾ ثم تشريفهم بالفوز العظيم من الله كما قال ﴿ وكان ذلك عند

الله فوزاً عظيماً ﴾ وأما الكافر فعكس منه الترتيب : أخبر بتعذيبهم أوّلاً على الإطلاق ، ثم فصل بأنه يغضب عليهم أوّلاً ثم يوبقهم في خبر اللعن والبعد عن الرحمة ، ثم يسلط عليهم ملائكة العذاب الذين هم جنوده كما قال ﴿ عليها ملائكة غلاظ شداد ﴾ [التحريم : 6] ولا ريب أن كل ذلك على قانون الحكمة إلا أنه قرن العلم في الأول إلى الحكمة تنبيهاً على أن إنزال السكينة وازدياد إيمان المؤمنين وترتيب الفتح على ذلك كانت كلها ثابتة في علم الله ، جارية على وفق الحكمة . وقرن العز بالحكمة ثانياً لأن العذاب والغضب وسلب الأموال والغنائم يناسب ذكر العزة والغلبة والقهر زادنا الله إطلاعاً على أسرار قرآنه الكريم وفرقانه العظيم .

(192/713)

ثم مدح رسول صلى الله عيله وسلم وذكر فائدة بعثته ليرتب عليه ذكر البيعة فقال ﴿ إنا أرسلناك شاهداً ﴾ على أمتك ﴿ ومبشراً ونذيراً ﴾ وقد مر في سورة الأحزاب مثله إلا أن قوله ﴿ لتؤمنوا بالله ورسوله ﴾ قائم مقام قوله هناك ﴿ وداعياً إلى الله بإذنه ﴾ [الآية : 46] من قرأ على الغيبة فظاهر ، وأما من قرأ على الخطاب فلتنزيل خطاب النبي منزلة خطاب المؤمنين . وقوله ﴿ وتعزروه وتوقروه ﴾ كلاهما بمعن التعظيم من العز والوقار

ينوب منابه . قوله هناك ﴿ وسراجاً منيراً ﴾ وذلك أن النور متبع والتبجيل والتعظيم دليل المتبوعية . وقال جار الله : الضمائر كلها لله عز وجل وتعظيم الله تعظيم دينه روسوله . وقوله ﴿ وتسبحوه ﴾ من التسبيح أو من السبحة وهي صلاة التطوع . و ﴿ بكرة وأصيلاً ﴾ للدوام أو المراد صلاة الفجر والعصر وحدها أو مع الظهر قاله ابن عباس . ﴿ إن الذين يبايعونك ﴾ هي بيعة الرضوان تحت الشجرة كام يجيء في السورة . وقيل : ليلة العقبة وفيه بعد . وسماها مبايعة تشبيهاً بعقد البيع نظيره

(193/713)

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ﴾ [التوبة : 111] ﴿ إنما يبايعون الله ﴾ لأن طاعة الرسول هي طاعة الله في الحقيقة . ثم أكد هذا المعنى بقوله ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ قال أهل المعاني : هذا تمثيل وتخييل ولا جارحة هناك . وقيل : اليد النعمة أي نعمة الله عليهم بالهداية فوق إحسانهم إلى الله بإجابة البيعة كما قال ﴿ يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا عليّ إسلامكم بل الله يمنّ عليكم أن هداكم ﴾ [الحجرات : 17] قال القفال : هو من قوله صلى الله عليه وسلم : " اليد العليا خير من اليد السفلى " يريد بالعليا المعطية أي الله يعطيهم ما يكون له به الفضل عليهم . وقيل : اليد القوة أي نصرته إياهم فوق نصرتهم

لرسوله . وقيل : يد الله بمعنى الحفظ فإن المتوسط بين المتبايعين يضع يده فوق يدهما فلا يترك أن تتفارق أيديهما حتى يتم البيع ، والمراد أن الله تعالى يحفظهم على بيعتهم . ثم زجرهم من نقض العهد وحثهم على الوفاء بقوله ﴿ فمن نكث ﴾ إلى آخره . والنكث والنقض أخوان . وقوله ﴿ فإنما ينكث على نفسه ﴾ أي لا يعود ضرر نكثه إلا عليه . قال جابر بن عبد الله : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة على الموت وعلى أن لا نفر ، فما نكث أحد منا البيعة إلا جد بن قيس ، وكان منافقاً اختبأ تحت إبط ناقته ولم يثر مع القوم . ثم بين ما يعلم منه إعجاز القرآن لأنه أخبر عن الغيب وقد وقع مطابقاً وله في السورة نظائر فقال ﴿ سيقول لك المخلفون ﴾ هم أسلم ومزينة وجهينة وغفار . وقيل : سموا مخلفين لأن التوفيق خلفهم ولم يعتدّ بهم . والظاهر أنهم سموا بذلك لأنه صلى الله عليه وسلم حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً استنفر الأعراب وأهل البوادي حذراً من قريش أن يصدّوه عن البيت ، فتثاقل كثير من الأعراب وقالوا : يذهب إلى قوم قصدوه في داره بالمدينة وظنوا أنه يهلك فلا ينقلب إلى المدينة فاعتلوا . فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتذروا

وقالوا ﴿ شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا ﴾ سل الله أن يغفر لنا تخلفنا عنك وإن كان من عذر فكذبهم الله بقوله ﴿ يقولون بألسنتهم ﴾ وقوله شيئاً من الضر كقتل وهزيمة ولا يوصل إليهم نفعاً إلا ما شاء الله . وإنما قال ههنا بزيادة لفظة ﴿ لكم ﴾ لأنه في قوم بأعيانهم بخلاف " المائدة " فإنه عام لقوله ﴿ أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً ﴾ [المائدة : 17] ثم ردّ قولهم اللساني فقال ﴿ بل كان الله بما تعملون خبيراً ﴾ ثم ردّ اعتذراهم الواهي بقوله ﴿ بل ظننتم ﴾ الآية . والبور جمع بائر أي هالك والباقي واضح إلى قوله ﴿ رحيماً ﴾ وفيه بيان كمال قدرته على تعذيب الكافرين مع أن مغفرته ذاتيه ورحمته سابقة .

وقوله ﴿ سيقول المخلفون ﴾ إنما لم يقل هنا لك لأن المخاطبين هم المؤمنون كلهم لا النبي وحده . وجمهور المفسرين على أن هؤلاء هم المخلفون المذكورون فيما تقدم .

(195/713)

وقوله ﴿ إلى مغانم ﴾ هي مغانم خيبر ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعد أهل الحديبية أن غنائم أهل خيبر لهم خصوصاً من غاب منهم زمن حضر بدل تعب السفر في العمرة التي صدّهم المشركون عنها . وزاد الزهري فقال : وإن حضرها من غيرهم من

الناس . قالوا : ولم يغب منهم عنها أحد إلا جابر ابن عبد الله ، فقسم له رسول الله صلى الله عليه وسلم كسهم من حضر . وكان انصراف النبي صلى الله عليه وسلم في ذي الحجة فأقام بالمدينة بقية ذي الحجة وبعض المحرم ، ثم خرج إلى خيبر وخرج معه من شهد الحديبية ففتحها وغنم أموالاً كثيرة وجعلها لهم خاصة ، وكان قبل ذلك وعد النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه غنائم خيبر فسمع المنافقون ذلك فقالوا للمؤمنين ﴿ ذرونا نتبعكم ﴾ فمنعهم النبي صلى الله عليه وسلم لأن أمره أن لا يخرج إلى خيبر إلا أهل الحديبية وذلك قوله ﴿ يريدون أن يبدّلوا كلام الله ﴾ فقال الله لنبيه ﴿ قل لنا تتبعونا ﴾ أي في خيبر . وقيل : عامّ في غزواته ﴿ كذلكم قال الله من قبل ﴾ أي قبل انصرافهم إلى المدينة ﴿ فسيقولون ﴾ ردّاً على النبي والمؤمنين إن الله لم يأمركم به ﴿ بل تحسدوننا ﴾ أن نشارككم في الغنيمة فرد الله عليهم ردّهم بقوله ﴿ بل كانوا لا يفقهون إلا ﴾ فهماً ﴿ قليلاً ﴾ وهو فطنتهم لأمور الدنيا دون أمور الدين ، أو هو فهمهم من قوله ﴿ قل لن تتبعونا ﴾ مجرد النهي فحملوه على الحسد ولم يعلموا أن المراد هو أن هذا الاتباع لا يقع أصلاً لأن الصادق قد أخبر بنفيه . وذهب جماعة من المفسرين منهم الزجاج إلى أن كلام الله ههنا هو قوله في سورة براءة ﴿ لن تخرجوا معي أبداً ﴾ [الآية : 83] واعترض بأن هذا في قصة تبوك التي كانت بعد الحديبية بسنتين بإجماع من أهل المغازي . وأجاب بعضهم بأن هذ الآية أعني ﴿

سيقول المخلفون ﴾ نزلت في غزوة تبوك أيضاً . وعندي أن الاعتراض غير وارد ولا حاجة إلى الجواب المذكور . ثم إن الله سبحانه أخبر عن مخلفي الحديبية

(196/713)

بأنهم سيدعون إلى قوم أولي قوة ونجدة في الحروب . وقيل : هم هوازن وغطفان . وقيل : هم الروم ، غزاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في تبوك . والأكثرون على أن القوم أولي البأس الشديد هم بنو حنيفة قوم مسيلمة وأهل الردة الذين حاربهم أبو بكر الصدّيق لأنه تعالى قال ﴿ تقاتلونهم أو يسلمون ﴾ ومشركو العرب والمرتدون هم الذين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف ، ومن عداهم من مشركي العجم وأهل الكتاب والمجوس تقبل منهم الجزية . هذا عند أبي حنيفة ، وأما الشافعي فعنده لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب ، والمجوس دون مشركي العجم والعرب .

(197/713)

وقد يستدل بهذا على إمامة أبي بكر فإنهم لم يدعوا إلى حرب في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن بعد وفاته ولا سيما فيمن يزعم أنه نزل فيهم ﴿ لن تخرجوا معي أبداً ﴾ [التوبة : 83] اللهم إلا أن يقال : المراد لن تخرجوا معي ما دمتم على حالكم من مرض القلوب والاضطراب في الدين ، أو أنهم لا يتبعون الرسول إلا متطوّعين لا نصيب لهم في المغنم قاله مجاهد . وقوله ﴿ أو يسلمون ﴾ رفع على الاستئناف يعني أو هم يسلمون . ويجوز أن يراد إلى أن يسلموا ، فحين حذف " أن " رفع الفعل . وقيل : الإسلام ههنا الانقياد فيشمل إعطاء الجزية أيضاً . والأجر الحسن في الدنيا الغنيمة ، وفي الآخرة الجنة . وقيل : الغنيمة فقط بناء على أن الآية في المنافقين ، وعلى هذا لا يتم الاستدلال على إمامة الخلفاء . وقوله ﴿ من قبل ﴾ أي في الحديبية . قال ابن عباس : إن أهل الزمانة قالوا : يا رسول الله كيف بنا ؟ فأنزل الله تعالى ﴿ ليس على الأعمى حرج ﴾ أي إثم في التخلف لأنه كالطائر الذي قص جناحه لا يمتنع على من قصده . وقدم الأعمى لأن عذره مستمر ولو حضر القتال ، والأعرج قد يمكنه الركوب والرمي وغير ذلك . نعم يتعسر عليه الحرب ماشياً وكذا جودة الكر والفر راكباً . وقد يقاس الأقطع على الأعرج ، ويمكن أن لا يكون الأقطع معذوراً لأنه نادر الوجود . والأعذار المانعة من الجهاد أكثر من هذا وقد ضبطها الفقهاء بأن المانع إما عجز حسي أو عجز حكمي . فمن الأول الصغر والجنون والأنوثة والمرض المانع من الركوب للقتال لا كالصداع ووجع السن ، ومنه العرج البين وإن قدر على

الركوب لأن الدابة قد تهلك . وعند أبي حنيفة لا أثر للعرج في رجل واحدة ، ومنه فقد البصر ولا يلحق به العور والعشي ، ومنه عدم وجدان السلاح وآلات القتال . ومن الثاني الرق والدين الحالّ بلا إذن رب الدين ومن أحد أبويه في الحياة ليس له الجهاد لا بإذنه إلا إذا كان كافراً . والباقي واضح إلى قوله ﴿ لقد رضى الله ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 142.149 ﴾

(198/713)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الفتح

مكية وهي تسع وعشرون آية وخمسمائة وستون كلمة وألفان وأربعمائة وثمانية وثلاثون حرفا

﴿ بسم الله ﴾ أي : المحيط بكل شيء قدرة وعلما ﴿ الرحمن ﴾ الذي عم خلقه بنعمه ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص أهل وداده بمزيد فضله روى زيد بن أسلم عن أبيه أنّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كان يسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره فسأله عمر عن شيء فلم يجبه . ثم سأله فلم يجبه قال عمر فحركت بعيري حتى تقدّمت

أمام الناس وخشيت أن يكون نزل فيّ قرآن فما نشبت أن سمعت صارخاً يصرخ بي فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه فقال : "لقد أنزلت عليّ الليلة سورة هي أحبّ إليّ مما طلعت عليه الشمس ثم قرأ" .

﴿ إنا فتحنا لك ﴾ أي : بما لنا من العظمة التي لا تثبت لها الجبال ﴿ فتحناً مبينا ﴾ أي : لا لبس فيه على أحد . واختلفوا في هذا الفتح فروى عن أنس أنه فتح مكة . وقال مجاهد : فتح خيبر . والأكثرون على أنه صلح الحديبية . قال أنس : نزلت على النبيّ صلى الله عليه وسلم إنا فتحنا لك إلى آخر الآية عند مرجعه من الحديبية وأصحابه مخالطوا الحزن والكآبة فقال : "نزلت علي آية هي أحب إليّ من الدنيا جميعها" فلما تلاها نبيّ الله صلى الله عليه وسلم قال رجل من القوم هنيأً مريئاً قد بين الله لك ما يفعل بك فماذا يفعل بنا فأنزل الله تعالى : ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنّات تجري من تحتها الأنهار ﴾ حتى ختم الآية . وقيل : فتح الروم . وقيل : فتح الإسلام بالحجة والبرهان والسيف واللسان . وقيل : الفتح الحكم لقوله تعالى ﴿ فافتح بيننا وبين قومنا بالحق ﴾ (سورة الأعراف ، آية :) وقوله تعالى ﴿ ثم يفتح بيننا بالحق ﴾ (سورة سبأ ، آية :)

فمن قال هو فتح مكة قال لأنه مناسب لآخر السورة التي قبلها من وجوه أحدها أنه تعالى لما قال ﴿ ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله ﴾ إلى أن قال ﴿ ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ﴾ بين تعالى أنه فتح لهم مكة وغنموا ديارهم وحصل لهم أضعاف ما أنفقوا ولو بخلوا لضاع عليهم ذلك فلا يكون بخلهم إلا على أنفسهم .

ثانيها : لما قال تعالى : ﴿ والله معكم ﴾ (محمد :)

وقال تعالى ﴿ وأنتم الأعلون ﴾ (محمد :)

بين برهانه بفتح مكة فإنهم كانوا هم الأعلون . ثالثها لما قال تعالى ﴿ فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم ﴾ (محمد :)

وكان معناه لا تسألوا الصلح بل اصبروا فإنكم تسألوا الصلح كما كان يوم الحديبية فكان المراد فتح مكة حيث أتى صناديد قريش مستأمنين ومؤمنين ومسلمين ومستسلمين فإن قيل : إن كان المراد فتح مكة فمكة لم تكن فتحت . فكيف قال تعالى : ﴿ فتحنا ﴾ بلفظ الماضي أجيب من وجهين : أحدهما فتحنا في حكمنا وتقديرنا .

(200/713)

ثانيهما : ما قدّره الله تعالى فهو كائن فأخبر بصيغة الماضي إشارة إلى أنه أمر واقع لا دافع له . وأمّا حجة قول الأكثرين على أنه صلح الحديبية فلما روى البراء قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحاً ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم أربع عشرة مائة والحديبية بئر فنزحناها فلم نترك فيها قطرة فبلغ ذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم فأتاها فجلس على شفيرها فدعا بإناء فتوضأ ثم تمضمض ودعا وصبه فيها فدرت بالماء حتى شرب جميع من كان معه" وقيل : جاش حتى امتلأت ولم ينفد ماؤها بعد وقال الشعبي في قوله تعالى : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ قال فتح الحديبية غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر واطعموا نخل خيبر وبلغ الهدي محله وظهرت الروم على فارس ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس . قال الزهري : ولم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية . وذلك أنّ المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم فتمكن الإسلام في قلوبهم وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير وكثر سواد الإسلام .

وقال البغوى : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ أي : قضينا لك قضاءً مبيناً . وقال الضحاك : أي بغير مال وكان الصلح من الفتح . واختلف قول المفسرين في معنى اللام في قوله تعالى:

﴿ ليغفر لك الله ﴾ أي : الملك الأعظم . فقال البيضاوي : علة للفتح من حيث إنه مسبب عن جهاد الكفار والسعي في إعلاء الدين وإزاحة الشرك وتكميل النفوس الناقصة وقال البغوي : قيل : اللام لام كي معناه ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ لكي يجتمع لك مع المغفرة تمام النعمة في الفتح . وقال الجلال المحلي : اللام للعلة الغائية فمدخولها مسبب لا سبب . وقال بعضهم : إنها لام القسم . والأصل ليغفرن فكسرت اللام تشبيهاً بلام كي وحذفت النون وردّ هذا : بأنّ اللام لا تكسر وبأنها لا تنصب المضارع ، قال ابن عادل : وقد يقال إنّ هذا ليس بنصب ، وإنما هو بقاء الفتح الذي كان قبل نون التوكيد بقي ليدل عليها ولكنه قول مردود . وقال الزمخشري : فإن قلت : كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة ؟ قلت : لم يجعل علة للمغفرة ولكن لاجتماع ما عدد من الأمور الأربعة وهي المغفرة ، وإتمام النعمة ، وهداية الصراط المستقيم ، والنصر العزيز ، كأنه قال يسرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوّك لنجمع لك بين عز الدارين وأغراض الآجل والعاجل ويجوز أن يكون فتح مكة من حيث إنه جهاد للعدو سبباً للمغفرة والثواب ا . ه قال ابن عادل : وهذا الذي قاله مخالف لظاهر الآية ، فإنّ اللام داخلة على المغفرة فتكون المغفرة علة للفتح والفتح معلل بها فكان ينبغي أن يقول : كيف جعل فتح مكة معللاً بالمغفرة ثم يقول لم يجعل معللاًا . ه وقيل غير ذلك والأسلم ما اقتصر عليه الجلال المحلي واختلف أيضاً في الذنب في قوله تعالى : ﴿ ما تقدّم من ذنبك ﴾ فقال البقاعي : أيّ الذي تقدّم في القتال أمرك بالاستغفار له وهو ما تنتقل عنه

من مقام كامل إلى مقام فوقه أكمل منه فتراه بالنسبة إلى أكملية المقام الثاني ذنباً . وكذا قوله تعالى : ﴿ وما تأخر ﴾ وقال الرازي : المغفرة المعتبرة لها درجات كما أن الذنوب لها درجات حسنات الأبرار سيئات المقرّبين ، وقال عطاء الخراساني : ﴿ ما تقدّم من ذنبك ﴾ يعني ذنب أبويك آدم وحوّاء ببركتك وما تأخر

(202/713)

ذنوب أمّتك بدعوتك .

وقال سفيان الثوري : ﴿ ما تقدّم ﴾ ما عملت في الجاهلية ﴿ وما تأخر ﴾ كل شيء لم تعمله . قال البغوي : ويذكر مثل ذلك على سبيل التأكيد ، كما يقال أعطى من رآه ومن لم يره . وقيل : ما تقدّم من حديث مارية وما تأخر من امرأة زيد .

وقيل : المراد به ترك الأفضل . وقيل : الصغائر على طريق من جوّز الصغائر على الأنبياء وقيل المراد بالمغفرة : العصمة ومعنى قوله تعالى : ﴿ وما تأخر ﴾ قيل : إنه وعد للنبي صلى الله عليه وسلم بأنه لا يذنب بعد النبوّة . وقيل : ما تقدم على الفتح وما تأخر عنه وقيل : المراد ذنب المؤمنين . وقيل : غير ذلك . والأولى في ذلك : هو الأوّل واختلف أيضاً في النعمة في قوله تعالى ﴿ ويتم نعمته عليك ﴾ فقال البقاعي : بنقلتك من عالم الشهادة إلى

عالم الغيب ومن عالم الكون والفساد إلى عالم الثبات والصلاح الذي هو أخص بحضرته وأولى برحمته وإظهار أصحابك من بعدك على جميع أهل الملل .

وقال البيضاوي : بإعلاء الدين وضم الملك إلى النبوّة . وقال الجلال المحلي : بالفتح المذكور . وقيل : إن التكاليف عند الفتح تمت حيث وجب الحج وهو آخر التكاليف والتكليف نعمة . وقيل : بإجلاء الأرض لك عن معانديك فإنّ من يوم الفتح لم يبق للنبيّ صلى الله عليه وسلم عدو فإنّ بعضهم قتل يوم بدر والباقون آمنوا واستأمنوا يوم الفتح . وقيل ويتمّ نعمته عليك في الدنيا والآخرة .

أما في الدنيا فباستجابة دعائك في طلب الفتح .

وفي الآخرة بقبول شفاعتك . وقيل غير ذلك والأوّل أولى واختلف أيضاً في معنى الهداية في قوله تعالى : ﴿ ويهديك صراطاً ﴾ أي : طريقاً ﴿ مستقيماً ﴾ أي : واضحاً جلياً . فقال البقاعي : أي بهداية جميع قومك .

(203/713)

ولما كانت هدايتهم من هدايته أضافها سبحانه إليه إعلاماً له أنها هداية تليق بجنابه الشريف سروراً له وقال البيضاوي : في تبليغ الرسالة وإقامة مراسم الرياسة . وقيل :

يهدي بك . وقيل : يديمك على الصراط المستقيم . وقيل : جعل الفتح سبب الهداية إلى الصراط المستقيم لأنه سهل على المؤمنين الجهاد لعلمهم بفوائده العاجلة والآجلة . وقيل : المراد التعريف ، أي لتعرف أنك على صراط مستقيم .

﴿ وينصرك الله ﴾ أي : على ملوك الأمم نصراً يليق إسناده إلى اسمه المحيط بسائر العظم ﴿ نصراً عزيزاً ﴾ أي : يغلب المنصور به كل من ناوأه ولا يغلبه شيء مع دوامه فلا ذلّ بعده لأنّ الأمّة التي تتصف به لا يظهر عليها أحد والدين الذي قضاه لأجله لا ينسخه شيء ، فإن قيل : إنّ الله تعالى وصف النصر بكونه عزيزاً والعزيز من له النصر أجيب من وجهين: أحدهما : قال الزمخشري : إنه يحتمل وجوهاً ثلاثة:

الأوّل : معناه نصراً ذا عزة كقولك في عيشة راضية أي ذات رضا ثانيها : وصف النصر بما يوصف به المنصور إسناداً مجازياً يقال له : كلام صادق . كما يقال له متكلم صادق . ثالثها : المراد نصراً عزيزاً صاحبه .

الوجه الثاني : أن يقال إنما يلزم ما ذكره الزمخشري إذا قلنا العزة في الغلبة والعزيز الغالب ، وأما إذا قلنا العزيز هو النفيس القليل النظير أو المحتاج إليه القليل الوجود يقال عز الشيء في سوق كذا أي قل وجوده مع أنه محتاج إليه فالنصر كان محتاجاً إليه ومثله لم يوجد وهو أخذ بيت الله تعالى من الكفار المقيمين فيه من غير عدد ولا عدد .

﴿ هو ﴾ أي : وحده ﴿ الذي أنزل ﴾ أي : في يوم الحديبية وغيره ﴿ السكينة ﴾ أي : الثبات على الدين والطمأنينة ﴿ في قلوب المؤمنين ﴾ أي : الراسخين في الإيمان وهم أهل الحديبية بعد أن دهمهم فيها ما من شأنه أن يزعج النفوس ويزيغ القلوب من صدّ الكفار ورجوع الصحابة دون بلوغ مقصودهم فلم يرجع أحد منهم عن الإيمان بعد أن هاج الناس وزلزلوا حتى عمر مع أنه فاروق ومع وصفه في الكتب السالفة بأنه قرن من حديد فما الظنّ بغيره ، وكان عند الصديق من القدم الثابت والأصل الراسخ ما علم به أنه لم يسابق ثم ثبتهم الله تعالى أجمعين . وقال الرازي : السكينة الثقة بوعد الله والصبر على حكم الله . وقيل : السكينة ههنا معنى يجمع فوزاً وقوة وروحاً يسكن إليه الخائف ويتسلى به الحزين .

وأثر هذه السكينة غير السكينة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم ﴾ (البقرة :)

ويحتمل أن تكون هي تلك لأنّ المقصود منها على جميع الوجوه اليقين وثبات القلب

﴿ ليزدادوا ﴾ أي بتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال لهم : إنه لا بدّ أن تدخلوا مكة وتطوفوا بالبيت ﴿ إيماناً ﴾ عند التصديق بالغيب ﴿ مع إيمانهم ﴾ الثابت من قبل هذه الواقعة أو بشرائع الدين مع إيمانهم بالله واليوم الآخر وقال القشيري : بطلوع أقمار عين اليقين على نجوم علم اليقين ثم بطلوع شمس حق اليقين على بدر عين اليقين .

وقال ابن عباس : بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم بشهادة أن لا إله إلا الله ، فلما صدّقوا زادهم الصلاة ، ثم الزكاة ، ثم الصيام ، ثم الحج ، ثم الجهاد ، حتى أكمل لهم دينهم فكلما أمروا بشيء فصدقوه ازدادوا تصديقاً إلى تصديقهم . وقال الضحاك : يقيناً مع يقينهم وقيل : ازدادوا إيماناً استدلالاً مع إيمانهم الفطري . فإن قيل : ما الحكمة في قوله تعالى في حق الكفار ﴿ إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ﴾ (آل عمران :)

ولم يقل مع كفرهم ، وقال في حق المؤمنين ﴿ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ ؟

(205/713)

أجيب بأنّ كفر الكافر عنادي وليس في الوجود كفر فطري ولا في الإمكان كفر غير عنادي لينضم إلى الكفر العنادي بل الكفر ليس إلا عناداً وكذلك الكفر بالفروع ، لا يقال انضم إلى الكفر بالأصول ، لأنّ من ضرورة الكفر بالأصول الكفر بالفروع وليس من ضرورة الإيمان بالأصول الإيمان بالفروع بمعنى الطاعة والانقياد . ولهذا قال تعالى ﴿ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ .

﴿ ولله ﴾ أي : الملك الأعظم الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ﴿ جنود السموات والأرض ﴾ فهو قادر على إهلاك عدوّه بجنوده بل بصيحة ولم يفعل بل أنزل السكينة على

المؤمنين ليكون إهلاك أعدائه بأيديهم فيكون لهم الثواب وجنود السموات والأرض الملائكة . وقيل : جنود السموات الملائكة وجنود الأرض الجنّ والحيوانات . وقيل : الأسباب السماوية والأرضية ﴿ وكان الله ﴾ أي : الملك الأعظم أزلاً وأبداً ﴿ عليماً ﴾ أي : بالذوات والمعاني ﴿ حكيماً ﴾ في إتقان ما يصنع . وقوله تعالى:

﴿ ليدخل ﴾ متعلق بمحذوف أي : أمر بالجهاد ليدخل ﴿ المؤمنين والمؤمنات ﴾ الذين جبلتهم جبلة خير بجهاد بعضهم ودخول بعضهم في الدين بجهاد المجاهدين ، ولو سلط على الكفار جنوده من أوّل الأمر فأهلكوهم أو دمّر عليهم بغير واسطة لفات دخول أكثرهم الجنة ، وهم من آمن منهم بعد صلح الحديبية ﴿ جنات ﴾ أي بساتين لا يصل إلى عقولكم من وصفها إلا ما تعرفونه بعقولكم وإن كان الأمر أعظم من ذلك ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ فأي موضع أردت أن تجري منه نهراً قدرت على ذلك ؛ لأنّ الماء قريب من وجه الأرض مع صلابتها وحسنها ﴿ خالدين فيها ﴾ أي لا إلى آخر ، فإن قيل : ما الحكمة في أنه تعالى ذكر في بعض المواضع المؤمنين والمؤمنات وفي بعضها اكتفى بذكر المؤمنين ودخلت المؤمنات فيهم كقوله تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ (المؤمنون :)

وقوله تعالى : ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ (البقرة :)

أجيب بأنه في المواضع التي فيها ما يوهم اختصاص المؤمنين بالخير الموعود به مع مشاركة المؤمنات لهم ذكرهنّ الله تعالى صريحاً وفي المواضع التي فيها ما لا يوهم ذلك اكتفى بدخولهم في المؤمنين كقوله تعالى : ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ ولما كان ههنا قوله تعالى : ﴿ ليدخل المؤمنين ﴾ متعلقاً بالأمر بالقتال والمرأة لا تقاتل فلا تدخل الجنة الموعود بها فصرح الله تعالى بذكرهنّ ﴿ ويكفر ﴾ أي يستر ستراً بليغاً ﴿ عنهم سيئاتهم ﴾ فلا يظهرها ، فإن قيل : تكفير السيئات قبل الإدخال فكيف ذكره بعده أجيب بأنّ الواو لا تقتضي الترتيب بأنّ تكفير السيئات والمغفرة من توابع كون المكلف من أهل الجنة فقدم الادخال في الذكر بمعنى أنه من أهل الجنة ﴿ وكان ذلك ﴾ أي : الإدخال والتكفير ﴿ عند الله ﴾ أي : الملك الأعظم ذي الجلال والإكرام ﴿ فوزاً عظيماً ﴾ لأنه منتهى ما يطلب من جلب نفع ودفع ضر .

تنبيه : ﴿ عند ﴾ متعلق بمحذوف على أنه حال من ﴿ فوزاً ﴾ ولما كان من أعظم الفوز إقرار العين بالانتقام من العدوّ وكان العدوّ الكاتم أشدّ من المجاهر المراغم . قال تعالى: ﴿ ويعذب المنافقين ﴾ المخفين للكفر المظهرين الإيمان أي : فيزيل كل ما لهم من العذوبة ﴿ والمنافقات ﴾ لما غاظهم من ازدياد الإيمان ﴿ والمشركين والمشركات ﴾ أي : المظهرين الكفر للمؤمنين وقدّم المنافقين على المشركين في كثير من المواضع ؛ لأنهم كانوا أشدّ

على المؤمنين من الكفار المجاهرين ؛ لأن المؤمن كان يتوقى المشرك المجاهر ويخالط المنافق لظنه إيمانه وكان يفشي أسراره وإلى هذا أشار النبي صلى الله عليه وسلم بقوله "أعدى عدوّك نفسك التي بين جنبيك" ولهذا قال الشاعر:

*احذر عدوّك مرّة ** واحذر صديقك ألف مرّة*

*فلربما انقلب الصدي ** ق فكان أخبر بالمضرّة*

(207/713)

وقوله تعالى: ﴿ الظانين بالله ﴾ أي: المحيط بصفات الكمال صفة للفريقين وأما قوله تعالى ﴿ ظنّ السوء ﴾ فقال أكثر المفسرين: هو أن لا ينصر محمداً صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، ولا يرجعهم إلى مكة ظافرين ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ أي: دائرة ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم لا يتخطاهم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: بضم السين والباقون بالفتح. وهما لغتان كالكره والكره والضعف والضعف من ساء إلا أنّ المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذمّه من كل شيء، وأمّا السوء فجار مجرى الشرّ الذي هو نقيض الخير ﴿ وغضب الله ﴾ أي: الملك الأعظم بما له من صفات الجلال والجمال فاستعلى غضبه ﴿ عليهم ﴾ وهو أنه تعالى يعاملهم معاملة الغضبان بما لا طاقة

لهم به ﴿ ولعنهم ﴾ أي : طردهم طرداً أنزلوا به أسفل السافلين فبعدوا به عن كل خير ﴿ وأعد ﴾ أي : هيأ ﴿ لهم ﴾ الآن ﴿ جهنم ﴾ تلقاهم بالعبوسة والتغيظ والزفير والتجهم كما كانوا يتجهمون عباد الله مع ما فيها من العذاب والحرّ والبرد والإحراق وغير ذلك من أنواع المشاق ﴿ وساءت ﴾ أي : جهنم ﴿ مصيراً ﴾ أي : مرجعاً . وقوله تعالى: ﴿ ولله ﴾ أي : الملك الأعظم ﴿ جنود السموات والأرض ﴾ تقدم تفسيره .

وفائدة الإعادة التأكيد وجنود السموات والأرض منهم من هو للرحمة ، ومنهم من هو للعذاب وقدّم ذكر جنود السموات والأرض قبل إدخال المؤمنين الجنة ليكون مع المؤمنين ملائكة الرحمة فتبشرهم على الصراط وعند الميزان ، فإذا دخلوا الجنة أفضوا إلى جوار الله تعالى ورحمته والقرب منه فلا حاجة لهم بعد ذلك إلى شيء وأخرّ ذكر جنود السموات والأرض بعد ذكر تعذيب الكفار والمنافقين ليكون معهم جنود السخط فلا يفارقونهم أبداً كما قال تعالى ﴿ عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ﴾ (التحريم :)

فإن قيل : قال الله تعالى ﴿ وكان الله عليماً حكيماً ﴾ (النساء :)

(208/713)

وقال هنا ﴿ وكان الله ﴾ أي : الملك الذي لا أمر لأحد معه أزلاً وأبداً ﴿ عزيزاً ﴾ أي : يغلب ولا يغلب ﴿ حكيماً ﴾ أي : يضع الشيء في أحكم مواضعه فلا يستطاع نقض شيء مما ينسب إليه أجيب : بأنه لما كان في جنود السموات والأرض من هو للرحمة ومن هو للعذاب وعلم الله تعالى ضعف المؤمنين ناسب أن تكون خاتمة الآية الثانية ﴿ وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ .

﴿ إنا ﴾ أي : بما لنا من العز والحكمة ﴿ أرسلناك ﴾ أي : بما لنا من العظمة إلى الخلق كافة ﴿ شاهداً ﴾ على أفعالهم من كفر وإيمان وطاعة وعصيان من كان بحضرتك فبنفسك ومن كان بعد موتك أو غائباً عنك فبكتابك مع ما أيدناك به من الحفظة من الملائكة الكرام ﴿ ومبشراً ﴾ أي : لمن أطاع بأنواع البشائر ﴿ ونذيراً ﴾ أي مخوّفاً لمن خالفك وعصى أمرك بالنار . ثم بين تعالى فائدة الإرسال .

(209/713)

بقوله سبحانه : ﴿ ليؤمنوا بالله ﴾ أي : لا يسوغ لأحد من خلقه . والكل خلقه التوجه إلى غيره ﴿ ورسوله ﴾ أي : الذي أرسله من له كل شيء ملكاً وخلقاً إلى جميع خلقه ﴿ ويعزروه ﴾ أي يعينوه وينصرونه والتعزير نصر مع تعظيم ﴿ ويوقروه ﴾ أي : يعظموه

والتوقير التعظيم والتبجيل ﴿ ويسبحوه ﴾ من التسبيح الذي هو التنزيه عن جميع النقائص أو من السبحة وهي الصلاة . قال الزمخشري : والضمائر لله عز وجلّ : والمراد بتعزير الله تعزير دينه ورسوله ومن فرّق الضمائر فقد أبعد . وقال غيره : الكنايات في قوله ﴿ ويعزروه ويوقروه ﴾ راجعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندها تم الكلام فالوقف على ﴿ ويوقروه ﴾ وقف تامّ ثم يبتدئ بقوله تعالى : ﴿ ويسبحوه ﴾ ﴿ بكرةً وأصيلاً ﴾ أي غدوةً وعشياً أي دائماً وعن ابن عباس صلاة الفجر وصلاة الظهر والعصر على أنّ الكناية في ﴿ ويسبحوه ﴾ راجعة إلى الله عز وجلّ وقال البقاعي : الأفعال الثلاثة يحتمل أن يراد بها الله تعالى لأنّ من سعى في قمع الكفار فقد فعل فعل المعزر الموقر ، فيكون إما عائداً على المذكور وإمّا أن يكون جعل الأسمين واحداً إشارة إلى اتحاد المسميين في الأمر فلما اتحد أمرهما وحد الضمير إشارة إلى ذلك ا . ه فعنده أنه يصح رجوع الثلاثة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه فسر ﴿ ويسبحوه ﴾ بقوله ينزهوه عن كل وخيمة باختلاف الوعد بدخول مكة والطواف بالبيت الحرام ونحو ذلك . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : بالياء في الأربعة على الغيبة رجوعاً إلى قوله تعالى ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات ﴾ والباقون بالتاء على الخطاب ولما بين تعالى أنه مرسل ذكر أنّ من بايع رسوله فقد بايعه . فقال تعالى:

﴿ إنّ الذين يبايعونك ﴾ يا أشرف الرسل بالحديبية على أن لا يفروا ﴿ إنما يبايعون الله ﴾ أي : الملك الأعظم لأنّ عملك كله من قول أو فعل له تعالى وما ينطق عن الهوى وسميت مبايعة لأنهم باعوا أنفسهم فيها من الله تعالى بالجنة قال الله تعالى : ﴿ إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة ﴾ (التوبة :)

الآية "وروى يزيد بن أبي عبيد قال : قلت لسلمة بن الأكوع على أيّ شيء بايعتم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية قال : على الموت" وعن معقل بن يسار قال : "لقد رأيتني يوم الشجرة والنبيّ صلى الله عليه وسلم يبايع الناس وأنا رافع غصناً من أغصانها عن رأسه ونحن أربعة عشر مائة قال : لم نبايعه على الموت ولكن بايعناه على أن لا نفرّ" قال أبو عيسى : معنى الحديثين صحيح بايعه جماعة على الموت . أي لا نزال نقاتل بين يديك ما لم نقتل وبايعه آخرون وقالوا : لا نفر . وقوله تعالى : ﴿ يد الله ﴾ أي : المتردّي بالكبرياء ﴿ فوق أيديهم ﴾ أي : في المبايعة يحتمل وجوهاً وذلك أنّ اليد في الموضعين إما أن تكون بمعنى واحد وإمّا أن تكون بمعنيين فإن كانت بمعنى واحد ففيه وجهان : أحدهما قال الكلبي : نعمة الله عليهم في الهداية فوق ما صنعوا من البيعة كما قال تعالى : ﴿ بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان ﴾ (الحجرات :)

ثانيهما : قال ابن عباس ومجاهد : يد الله بالوفاء بما وعدهم من النصر والخير أقوى وأعلى من نصرتهم إياه . يقال : اليد لفلان أي الغلبة والقوة . وإن كانت بمعنيين ففي حق الله تعالى بمعنى الحفظ . وفي حق المبايعين بمعنى الجارحة . قال السدّي : كانوا يأخذون بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويبايعونه ويد الله تعالى فوق أيديهم في المبايعة وذلك أنّ المتبايعين إذا مدّ أحدهما يده إلى الآخر في البيع وبينهما ثالث يضع يده على أيديهما ويحفظ أيديهما إلى أن يتم العقد ولا يترك أحدهما يترك يد الآخر لكي يلزم العقد ولا يتفاسخان فصار وضع اليد فوق الأيدي سبباً لحفظ البيعة فقال تعالى : ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ يحفظهم على البيعة كما يحفظ المتوسط أيدي المتبايعين . قال البقاعي : فلعنة الله على من حمله على الظاهر من أهل العناد ببدعة الاتحاد وعلى من تبعهم على ذلك من الذين شاقوا الله ورسوله عليه الصلاة والسلام وسائر الأئمة الأعلام ورضوا لأنفسهم بأن يكونوا أتباع فرعون اللعين وناهيك به من ضلال مبين ا . ه وقد مرّ أنّ التأويل في الآيات المتشابهات مذهب الخلف ، ومذهب السلف السكوت عن التأويل وإمرار الصفات على ما جاءت وتفسيرها قراءتها والإيمان بها من غير تشبيه ولا تكييف ولا تعطيل . ﴿ فمن نكث ﴾

أي : نقض البيعة في وقت من الأوقات فجعلها كالكساء والحبل البالي الذي ينقض ﴿ فإنما ينكث ﴾ أي : يرجع وبال نقضه ﴿ على نفسه ﴾ أي : فلا يضرّ إلا هي ﴿ ومن أوفى ﴾ أي : فعل الإتمام والإكثار والإطالة ﴿ بما عاهد ﴾ وقدم الظرف في قوله ﴿ عليه الله ﴾ أي الملك المحيط بكل شيء قدرة وعلماً من هذه المبايعات وغيرها اهتماماً به . وقرأ حفص بضم الهاء قبل الاسم الجليل والباقون بكسر الهاء والترقيق ﴿ فسيؤتيه ﴾ بوعد مؤكد لا خلف فيه ﴿ أجراً عظيماً ﴾ لا تسع عقولكم شرح وصفه . قال ابن عادل : والمراد به الجنة وقرأ أبو عمرو والكوفيون بالياء التحتية والباقون بالنون .

(212/713)

ولما ذكر تعالى أهل بيعة الرضوان وأضافهم إلى حضرة الرحمن ذكر من غاب عن ذلك الجناب وأبطأ عن حضرة تلك العمرة . بقوله تعالى:

(213/713)

﴿ سيقول ﴾ أي : بوعد لا خلف فيه ﴿ لك ﴾ أي : لأنهم يعلمون شدّة رحمتك ورفقك وشفقتك على عباد الله فهم يطمعون في قبولك من فاسد عذرهم ما لا يطمعون فيه من غيرك من خلص المؤمنين ﴿ المخلفون ﴾ أي : الذين خلفهم الله تعالى عنك فلم يرضهم لصحبتك في هذه العمرة فجعلهم كالشيء التافه الذي يخلفه الإنسان لأنه لا فائدة فيه فلا يعبأ به . وقال تعالى : ﴿ من الأعراب ﴾ ليخرج من تخلف بالجسد من خلص الأنصار وغيرهم ممن كان حاضراً معه صلى الله عليه وسلم بالقلب . قال ابن عادل وابن عباس ومجاهد : يعني بالأعراب أعراب غفار ومزينة وجهينة وأشجع وأسلم . "وذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً استنفر من حول المدينة من الأعراب والبوادي ليخرجوا معه حذراً من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدّوه عن البيت فأحرم بالعمرة وساق معه الهدي ليعلم الناس أنه لا يريد حرباً فتثاقل كثير من الأعراب وتخلفوا واعتلوا بالشغل فأنزل الله تعالى فيهم ﴿ سيقول لك المخلفون ﴾ " أي : الذي خلفهم الله تعالى من الأعراب عن صحبتك إذا رجعت إليهم من عمرتك وعاتبتهم على التخلف ﴿ شغلتنا ﴾ أي : عن إجابتك في هذه العمرة ﴿ أموالنا وأهلونا ﴾ أي : النساء والذراري فأنا لو تركناهم لضاعوا لأنه لم يكن لنا من يقوم بهم وأنت قد نهيت عن ضياع المال والتفريط في العيال ثم سببوا عن هذا القول المراد به السوء قولهم

﴿ فاستغفر ﴾ أي اطلب المغفرة ﴿ لنا ﴾ من الله تعالى إن كنا أخطأنا وقصرنا فكذبهم

الله تعالى في اعتذارهم بقوله سبحانه وتعالى ﴿ ويقولون بألسنتهم ﴾ أي : في الشغل والاستغفار وأكد ما أفهمه ذكر اللسان من أنه قول ظاهري نفياً للكلام الحقيقي الذي هو النفسي بكل اعتبار بقوله تعالى : ﴿ ما ليس في قلوبهم ﴾ لأنهم لم يكن لهم شغل ولا كانت لهم نية في سؤال

(214/713)

الاستغفار فإنهم لا يبالون استغفر لهم الرسول أم لا ﴿ قل ﴾ يا أشرف الرسل لهؤلاء الأغبياء واعظاً لهم مسبباً عن مخادعتهم لمن لا تخفى عليه خافية إشارة إلى أنّ العاقل يقبح عليه أن يقدم على ما هو بحيث تخشى عواقبه ﴿ فمن يملك لكم ﴾ أي : أيها المخادعون ﴿ من الله ﴾ أي : الملك الذي لا أمر لأحد معه لأنه لا كفء له ﴿ شيأً ﴾ يمنعكم ﴿ إن أراد بكم ضرّاً ﴾ أي : نوعاً من أنواع الضرّ عظيماً أو حقيراً فأهلك الأموال والأهلين وأنتم محتاطون في حفظها فلم ينفعها حضوركم وأهلككم أنتم . m

وقرأ حمزة والكسائي : بضم الضاد والباقون بفتحها ﴿ أو أراد بكم نفعاً ﴾ يحفظهما به في غيبتكم فلا يضرّهم بعدكم عنهم ويحفظكم في أنفسكم ﴿ بل كان الله ﴾ أي : المحيط أزلاً وأبداً بكل شيء قدرةً وعلماً ﴿ بما تعملون ﴾ أي أيها الجهلة ﴿ خبيراً ﴾ يعلم بواطن

أموركم هذه وغيرها كما يعلم ظواهرها .

﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَالِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا * وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا * وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا * سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَالِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(215/713)

﴿ بل ظننتم ﴾ أي : فأنتم واقفون مع الظنون الظاهرة ليس لكم نفوذ إلى البواطن . وقرأ الكسائي : بإدغام اللام في الظاء والباقون بالإظهار وأشار إلى تأكد ظنهم على زعمهم بقوله تعالى ﴿ أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً ﴾ أي : ظننتم أنّ العدوّ يستأصلهم ولا يرجعون لما في قلوبكم من عظمة المشركين وحقارة المؤمنين فحملكم ذلك على أن قلتم ما هم في قريش إلا أكلة رأس ، فإن قيل : ما الفرق بين حرفي الإضراب أجيب : بأنّ الإضراب الأول إضراب معناه ردّ أن يكون حكم الله أن لا يتبعوه وإثبات الحسد

والثاني إضراب عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين أي وصفهم بما هو أعمّ منه وهو الجهل وقلة الفقه ﴿ وزين ذلك ﴾ أي : الأمر القبيح الذي هو خراب الدنيا ﴿ في قلوبكم ﴾ حتى قلتموه ﴿ وظننتم ﴾ أي : بذلك وغيره مما يترتب عليه من إظهار الكفر وما يتفرّع عنه ﴿ ظنّ السوء ﴾ أي : الذي لم يدع شيئاً مما يكره غاية الكراهة إلا أحاط به وقوله تعالى : ﴿ وكنتم قوماً بوراً ﴾ جمع بائر أي هالكين عند الله تعالى بهذا الظنّ وهذا بالنظر إلى الجمع من حيث هو جمع لا بالنسبة إلى كل فرد فإنه قد أخلص منهم بعد ذلك كثير وثبتوا ولم يرتدّوا .

﴿ ومن لم يؤمن ﴾ أي : منكم ومن غيركم ﴿ بالله ﴾ أي : الذي لا موجود على الحقيقة سواه ﴿ ورسوله ﴾ أي : الذي أرسله لإظهار دينه ﴿ فإنا ﴾ على ما لنا من العظمة ﴿ اعتدنا ﴾ أي : له هكذا كان الأصل ولكنه قال تعالى معللاً للحكم بالوصف ﴿ للكافرين ﴾ إيذاناً بأنه لم يجمع الإيمان بهما فهو كافر وأعدّ له ﴿ سعيراً ﴾ أي : ناراً شديدة .

(216/713)

﴿ ولله ﴾ أي : الملك الأعظم وحده ﴿ ملك السموات والأرض ﴾ أي : من الجنود وغيرها يدبر ذلك كله كيف يشاء ﴿ يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ أي : لا اعتراض لأحد عليه لأنه لا يجب عليه شيء ولا يكافئه أحد وليس هو كالملوك الذين لا يتمكنون من مثل ذلك لكثرة الأكفاء المعارضين لهم في الجملة وعلم من هذا أنّ منهم من يرتدّ فيعذبه ومنهم من يثبت على الإسلام فيغفر له لأنه لا يعذب بغير ذنب وإن كان له أن يفعل ذلك لأنه لا يسئل عما يفعل وملكه تامّ فتصرفه فيه عدل كيف كان ﴿ وكان الله ﴾ أي : المحيط بصفات الكمال أزلاً وأبداً لم يتجدّد له شيء لم يكن ﴿ غفوراً ﴾ أي : لذنوب المسيئين ﴿ رحيماً ﴾ أي : مكرماً ما بعد الستر بما لا تسعه العقول وقدرته على الإنعام كقدرته على الانتقام .

﴿ سيقول ﴾ أي : بوعد لا خلف فيه ﴿ المخلفون ﴾ أي : الذين تخلفوا عن الحديبية ﴿ إذا انطلقتم ﴾ أي : سرتم أيها المؤمنون ﴿ إلى مغانم لتأخذوها ﴾ أي : مغانم خيبر . وذلك أنّ المؤمنين لما انصرفوا من الحديبية على صلح من غير قتال ولم يصيبوا من المغانم شيئاً وعدهم الله تعالى فتح خيبر وجعل غنائمها لم شهد الحديبية خاصة عوضاً عن غنائم أهل مكة حيث انصرفوا عنهم ولم يصيبوا منهم شيئاً ﴿ ذرونا ﴾ أي : على أيّ حالة شئتم من الأحوال الدنيئة ﴿ نتبعكم ﴾ أي : إلى خيبر لنشهد معكم قتال أهلها وفي هذا بيان كذب المخلفين عن الحديبية حيث قالوا شغلتنا أموالنا وأهلونا إذ لم يكن لهم هناك طمع

في الغنيمة وهنا قالوا ذرونا نتبعكم حيث كان لهم طمع في الغنيمة ﴿ يريدون ﴾ أن بذهابهم معكم ﴿ أن يبدّلوا كلام الله ﴾ أي : يريدون أن يغيروا مواعيد الملك الأعظم لأهل الحديبية بغنيمة خيبر خاصة وهذا قول جمهور المفسرين .

(217/713)

وقال مقاتل : يعني أمر الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم حيث أمره أن لا يسير معه منهم أحد إلى خيبر . وقال ابن زيد : هو أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لما تخلف القوم أطلعه الله تعالى على ظنهم وأظهر له نفاقهم وقال للنبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ فإذا استأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً ﴾ (التوبة :)

وقرأ حمزة والكسائي : بكسر اللام بعد الكاف ولا ألف بعد اللام والباقون بفتح اللام وألف بعدها ﴿ قل ﴾ يا أشرف الخلق لهؤلاء المبعدين إذا بلغك كلامهم أنت بنفسك فإنّ غيرك لا يقوم مقامك في هذا الأمر المهمّ قولاً مؤكداً ﴿ لن تتبعونا ﴾ أي : وإن اجتهدتم في ذلك وساقه مساقه النفي وإن كان المراد به النهي مع كونه آكد ليكون علماً من أعلام النبوّة وهو أزجر وأدل على استهانتهم ﴿ كذلكم ﴾ أي مثل هذا القول البديع الشأن العالي الرتبة ﴿ قال الله ﴾ أي : الذي لا يكون إلا ما يريد وليس هو كالملوك الذين لا قدرة لهم على

الغفران لمن شاؤوا والعقاب لمن شاؤوا ﴿ من قبل ﴾ أي : من قبل مرجعنا إليكم أن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية ليس لغيرهم فيها نصيب ولما كانوا منافقين لا يعتقدون شيئاً من هذه الأقوال بل يظنون أنها حيل على التوصل إلى المرادات الدنيوية سبب عن قوله لهم ذلك قوله تعالى تنبيهاً على جلافتهم وفساد ظنونهم ﴿ فسيقولون ﴾ ليس الأمر كما ذكر مما ادعى أنه قول الله تعالى ﴿ بل ﴾ إنما قلتم ذلك لأنكم ﴿ تحسدوننا ﴾ فلا تريدون أن يصل إلينا من مال الغنائم شيء وقرأ هشام وحمزة والكسائي بإدغام اللام في التاء والباقون بالإظهار . ﴿ بل كانوا ﴾ أي : جبلة وطبعاً ﴿ لا يفقهون ﴾ أي : لا يفهمون فهم الحاذق الماهر ﴿ إلا قليلاً ﴾ أي : في أمر دنياهم ومن ذلك اقرارهم باللسان لأجلها ، وأمّا أمور الآخرة فلا يفهمون منها شيئاً .

(218/713)

﴿ قل ﴾ أي : يا أشرف الرسل ﴿ للمخلفين ﴾ وزاد في ذمّهم بنسبتهم إلى الجلافة بقوله تعالى ﴿ من الأعراب ﴾ أي : أهل غلظ الأكباد ﴿ ستدعون ﴾ بوعد لا خلف فيه ﴿ إلى قوم أولي ﴾ أي : أصحاب ﴿ بأس شديد ﴾ أي : شدّة في الحرب وشجاعة قال ابن عباس ومجاهد : هم أهل فارس . وقال كعب : الروم . وقال الحسن : فارس والروم .

وقال : سعيد بن جبير : هوازن وثقيف . وقال قتادة : هوازن وغطفان قوم حنين . وقال الزهري ومقاتل وجماعة : هم بنو حنيفة أصحاب اليمامة أصحاب مسيلمة الكذاب .

وقال رافع بن خديج : كنا نقرأ هذه الآية ولا نعلم من هم حتى دعا أبو بكر إلى قتال بني حنيفة فعلمنا أنهم هم . وقال أبو هريرة : لم يأت تأويل هذه الآية بعد قال ابن الخازن : وأقوى هذه الأقوال قول من قال أنهم هوازن وثقيف ، لأنّ الداعي هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعده قول من قال أنهم بنو حنيفة أصحاب مسيلمة الكذاب وقوله تعالى ﴿ تقاتلونهم أو يسلمون ﴾ فيه إشارة إلى وقوع أحد الأمرين إما المقاتلة منكم وإمّا الإسلام منهم فإن لم يسلموا كان القتال لا غير وإن أسلموا لم يكن قتال لأنّ الغرض ليس إلا إعلاء كلمة الله تعالى ﴿ فإن تطيعوا ﴾ أي : توقعوا الطاعة للداعي إلى ذلك ﴿ يؤتكم الله ﴾ أي : الذي له الإحاطة ﴿ أجراً حسناً ﴾ دنيا وهو الغنيمة وأخرى وهي الجنة ﴿ وإن تتولوا ﴾ أي تعرضوا عن الجهاد ﴿ كما توليتم من قبل ﴾ أي عام الحديبية ﴿ يعذبكم ﴾ أي يخالطكم بعقوبة تزيل العذوبة في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما ﴿ عذاباً أليماً ﴾ لأجل تكرّر ذلك منكم فلما أنزلت هذه الآية ، قال أهل الزمانة كيف بنا يا رسول الله فأنزل الله عز وجلّ .

﴿ ليس على الأعمى ﴾ أي : في تخلفه عن الدعاء إلى الخروج مع النبيّ صلى الله عليه وسلم أو مع غيره من أئمة الهدى ﴿ حرج ﴾ أي : ميل بثقل الإثم لأنه لا يمكنه الإقدام على العدوّ والطلب ولا يمكنه الاحتراز منه ولا الهرب ﴿ ولا على الأعرج ﴾ وإن كان نقصه أدنى من نقص الأعمى ﴿ حرج ﴾ وفي معنى الأعرج الزمن المقعد والأقطع ﴿ ولا على المريض ﴾ أي : بأي مرض كان يمنعه ﴿ حرج ﴾ وفي معناه صاحب السعال الشديد والطحال الكبير والذين لا يقدرون على الكرّ والفرّ فهذه أعذار مانعة من الجهاد ظاهرة ، ومن وراء ذلك أعذار أخر دون ما ذكر كتمريض المريض الذي ليس له من يقوم مقامه عليه .

تنبيه : جعل تعالى كل جملة مستقلة تأكيداً لهذا الحكم وقدم الأعمى على الأعرج لأنّ عذر الأعمى مستمر لا يمكن الانتفاع به في حرس ولا غيره بخلاف الأعرج وقدم الأعرج على المريض لأنّ عذره أشد من عذر المريض لإمكان زوال المرض عن قرب .

﴿ ومن يطع الله ﴾ أي : المحيط بجميع صفات الكمال المفيض من آثار صفاته على من يشاء ولو كان ضعيفاً . المانع منها من يشاء وإن كان قوياً ﴿ ورسوله ﴾ من المعذورين وغيرهم فيما ندبا إليه بأيّ طاعة كانت ﴿ يدخله ﴾ أي : الله الملك الأعظم جزاء له ﴿ جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي : من أيّ موضع أردت أجريت نهراً ﴿ ومن

يتولّ ﴾ أي يعرض عن الطاعة ويستمّر على الكفر والنفاق ﴿ يعذبه ﴾ أي على توليه في الدارين أو إحداهما ﴿ عذاباً أليماً ﴾ أي مؤلماً وقرأ نافع وابن عامر ندخله ونعذبه بالنون فيهما والباقون بالياء التحتية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 7 صـ 58.72 ﴾

(220/713)

وقال القاسمى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الفتح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾

قال الرازي : في الفتح وجوه :

أحدها - فتح مكة ، وهو ظاهر .

وثانيها - فتح الروم وغيرها .

وثالثها - المراد من الفتح ، صلح الحديبية .

ورابعها - فتح الإسلام بالحجة والبرهان ، والسيف والسنان .

وخامسها – المراد منه الحكم ، كقوله : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾ [الأعراف : 89] ، وقوله : ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾ [سبأ : 26] . انتهى .

ولا يخفى أن الوجوه المذكورة كلها ، مما يصدق عليها الفتح الرباني ، وجميعها مما تحقق مصداقه . إلا أن سبب نزول الآية ، الذي حفظ الثقات زمنه ، يبين المراد من الفتح بياناً لا خلاف معه ، وهو أنه الوجه الثالث المذكور .

(221/713)

قال الإمام ابن كثير : نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية ، في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة ، حين صدّه المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام ، ليقضي عمرته فيه ، وحالوا بينه وبين ذلك ، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة ، وأن يرجع عامه هذا ، ثم يأتي من قابل ، فأجابهم إلى ذلك ، على تكرّهٍ من جماعة من الصحابة ، منهم عُمَر بن الخطاب ، رضي الله عنهم كما سيأتي تفصيله في موضعه من تفسير هذه السورة إن شاء الله تعالى . فلما نحر رسول الله صلى الله عليه وسلم هديه حيث أُحصر ورجع ، أنزل الله عز وجل هذه السورة ، فيما كان من أمره وأمرهم ، وجعل ذلك الصلح فتحاً ، باعتبار ما فيه من المصلحة ، وما آل الأمر إليه ، كما روي عن ابن

مسعود رضي الله عنه وغيره أنه قال : إنكم تعدون الفتح فتح مكة ، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية . وعن جابر رضي الله عنه قال : ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية . روى البخاري عن البراء رضي الله عنه قال : تعدون أنتم الفتح فتحَ مكة ، وقد كان فتح مكة فتحاً ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان ، يوم الحديبية .

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ مرجعه من الحديبية . قال النبي صلى الله عليه وسلم : < لقد أنزلت علي آية أحب إلي مما على الأرض > ، ثم قرأها عليهم النبي صلى الله عليه وسلم – أخرجاه في " الصحيحين " من رواية قتادة به – .

(222/713)

وروى الإمام أحمد عن مجمع بن جارية الأنصاري رضي الله عنه – وكان أحد القراء الذين قرأوا القرآن – قال : شهدنا الحديبية ، فلما انصرفنا عنها ، إذا الناس ، ينفرون الأباعر . فقال الناس بعضهم لبعض : ما للناس ؟ قالوا : أوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرجنا مع الناس نرجف ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته عند كراع الغميم ، فاجتمع الناس عليه ، فقرأ عليهم : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ .

قال ، فقال رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي : رسول الله ! أو فتح هو ؟ قال صلى الله عليه وسلم : أي : والذي نفس محمد بيده ! إنه لفتح . ورواه أبو داود في الجهاد .

ثم قال ابن كثير : فالمراد بقوله : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ - أي : بيناً ظاهراً - هو صلح الحديبية ، فإنه حصل بسببه خير جزيل ، وأَمِن الناس ، واجتمع بعضهم ببعض ، وتكلم المؤمن مع الكافر ، وانتشر العلم النافع والإيمان . انتهى .

وقال الإمام ابن القيم في " زاد المعاد " في الكلام على ما في غزوة الحديبية من الفقه واللطائف ، ما مثاله :

(223/713)

كان صلح الحديبية مقدمة وتوطئة بين يدي هذا الفتح العظيم ، أمن الناس به ، وكلّم بعضهم بعضاً ، وناظره في الإسلام ، وتمكّن من اختفى من المسلمين بمكة من إظهار دينه ، والدعوة إليه ، والمناظرة عليه ، ودخل بسببه بشرٌ كثيرٌ في الإسلام ؛ ولهذا سماه الله فتحاً في قوله : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ نزلت في الحديبية ، فقال عمر : يا رسول الله ! أو فتح هو ؟ قال : نعم . وأعاد سبحانه ذكر كون ذلك فتحاً قريباً . وهذا شأنه سبحانه أن يقدم بين

يدي الأمور العظيمة مقدمات تكون كالمدخل إليها , المنبئة لها وعليها ، كما قدم بين يدي قصة المسيح ، وخلقه من غير أب ، قصة زكريا ، وخلق الولد له ، مع كونه كبيراً ، لا يولد لمثله . وكما قدم بين يدي نسخ القبلة ، قصة البيت ، وبنائه ، وتعظيمه ، والتنويه به ، وذكر بانيه ، وتعظيمه ومدحه . ووطأ قبل ذلك كله بذكر النسخ ، وحكمته المقتضية له ، وقدرته الشاملة له . وهكذا ما قدم بين يدي مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من قصة الفيل ، وبشارات الكهان به ، وغير ذلك . وكذلك الرؤيا الصالحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كانت مقدمة بين يدي الوحي في اليقظة . وكذلك الهجرة ، كانت مقدمة بين يدي الأمر بالجهاد . ومن تأمّل أسرار الشرع والقدر ، رأى من ذلك ما تبهر حكمته أولي الألباب . انتهى . وقوله تعالى :

﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾ [2] .

﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ﴾ قال أبو السعود : غاية للفتح ، من حيث إنه مترتب على سعيه عليه الصلاة والسلام في إعلاء كلمة الله تعالى ، بمكابدة مشاقّ الحروف ، واقتحام موارد الخطوب ﴿ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ أي : جميع ما فرط منك ، من ترك الأولى . وتسميته ذنباً ، بالنظر إلى منصبه الجليل .

قال ابن كثير : هذا من خصائصه صلى الله عليه وسلم التي لا يشاركه فيها غيره ، وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال كغيره ، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . وهذا فيه تشريف عظيم لرسول اله صلى الله عليه وسلم في جميع أموره على الطاعة والبرّ والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه ، لا من الأولين ، ولا من الآخرين . وهو صلى الله عليه وسلم أكمل البشر على الإطلاق ، وسيدهم في الدنيا والآخرة . ولما كان أطوع خلق الله تعالى لله ، وأشدهم تعظيماً لأوامره ونواهيه ، قال حين بركت به الناقة : حبسها حابس الفيل . ثم قال صلى الله عليه وسلم : < والذي نفسي بيده ! لا يسألوني اليوم شيئاً يعظمون به حرمات الله إلا أجبتهم إليها ، فلما أطاع الله في ذلك ، وأجاب إلى الصلح ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ الآيات > .

وقوله تعالى : ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ أي : بإظهاره إياك على عدوّك ، ورفعه ذكرك ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾ أي : ويرشدك طريقاً من الدين لا عوج فيه . قال أبو السعود : أصل الاستقامة ، وإن كانت حاصلة قبل الفتح ، لكن حصل بعد ذلك من اتضاح سبيل الحق ، واستقامة مناهجه ، ما لم يكن حاصلاً قبل .

﴿ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً ﴾ [3] .

﴿ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً ﴾ أي : قوياً منيعاً ، لا يغلبه غالب ، ولا يدفعه دافع ، للبأس

الذي يؤيدك الله به ، والظفر الذي يمدك به .

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ [4] .

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : السكون ، والطمأنينة إلى الإيمان ، والحق ﴿ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ أي : يقيناً منضماً إلى يقينهم .

(225/713)

قال القاشاني : السكينة نور في القلب يسكن به إلى شاهده ويطمئن . وهو من مبادئ عين اليقين ، بعد علم اليقين ، كأنه وجدانٌ يقينيّ معه لذة وسرور .

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : أنصار ينتقم بهم ممن يشاء من أعدائه ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ أي : في تقديره وتدبيره .

﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ [5] .

واللام في قوله تعالى : ﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ متعلق بمحذوف ، نحو : أمر بالجهاد ليُدخل . . . الخ . أو دبّر ما دبّر مما

ذكر لذلك ، أو متعلق بـ : ﴿ فَتَحْنَا ﴾ على تعلق الأول به مطلقاً ، وهذا مقيداً ، أو بقوله : ﴿ لِيَزْدَادُواْ ﴾ ﴿ وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ .

﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً ﴾ [6] .

(226/713)

﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ أي : ظن الأمر السوء ، وهو أن لا ينصر تعالى رسوله والمؤمنين : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ أي : بالتعذيب في الدنيا بأنواع الوقائع ، كالقتل ، والإهانة ، والإذلال . وقرئ : ﴿ دَائِرَةُ السُّوْءِ ﴾ بالضم , وهما لغتان من ساء كالكُره والكَره : ﴿ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : بالقهر ، والحجب : ﴿ وَلَعَنَهُمْ ﴾ أي : بالطرد ، والإبعاد في الآخرة : ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً ﴾ .

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ [7] .

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ قيل في سر التكرير : إنه ذكر سابقاً على أن المراد به أنه المدبر لأمر المخلوقات بمقتضى حكمته ، فلذلك ذيله بقوله : ﴿

عَلِيماً حَكِيماً ﴾ ، وهنا أريد به التهديد بأنهم في قبضة قدرة المنتقم ، فلذا ذيله بقوله : ﴿ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ فلا تكرار . وقيل : إن الجنود جنود رحمة ، وجنود عذاب ، وأن المراد هنا الثاني ، ولذا تعرّض لوصف العزة . وقال القاشاني : كررها ليفيد تغليب الجنود الأرضية على السماوية في المنافقين والمشركين ، بعكس ما فعل بالمؤمنين . وبدّل : ﴿ عَلِيماً ﴾ بقوله : ﴿ عَزِيزاً ﴾ ليفيد معنى القهر والقمع ؛ لأن العلم من باب اللطف ، والعزة من باب القهر .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ [8] .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً ﴾ أي : على أمتك بما أجابوك فيما دعوتهم إليه : ﴿ وَمُبَشِّراً ﴾ أي : لمن استجاب لك بالجنة : ﴿ وَنَذِيراً ﴾ أي : لمن خالفك بالنار .

﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [9] .

(227/713)

﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ أي : تؤيدوا دينه ، وتقرّوه : ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ أي : تعظّموه : ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ أي : غدوة وعشياً - على ظاهره - أو دائماً ، بجعل طرفي النهار كناية عن الجميع ، كما يقال : شرقاً وغرباً ، لجميع الدنيا . والضمائر كلها

- على ما ذكرنا - لله ، وجوّز إعادة الأولين للرسول ، والأخير لله إلا أن فيه تفكيكاً .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [10] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ ﴾ أي : على قتال قريش تحت الشجرة ، وأن لا يفرّوا عند لقاء العدو ، ولا يولوهم الأدبار ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ أي : لأن عقد الميثاق مع رسول الله ، كعقده مع الله ، من غير تفاوت ؛ لأن المقصود من توثيق العهد مراعاة أوامره تعالى ، ونواهيه ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ تأكيد لما قبله . أي : أن يد الله عند البيعة فوق أيديهم ، كأنهم يبايعون الله ببيعتهم نبيَّه صلى الله عليه وسلم . وقال القاشاني : أي : قدرته البارزة في يد الرسول ، فوق قدرتهم البارزة في صور أيديهم ، فيضرهم عند النكث ، وينفعهم عند الوفاء .

﴿ فَمَن نَّكَثَ ﴾ أي : نقض عهده : ﴿ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ أي : لعود ضرر ذلك عليه خاصة ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ وهو الجنة .

تنبيه :

هذه البيعة هي بيعة الرضوان . وكانت تحت شجرة سمرة بالحديبية . وكان الصحابة الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ألفاً وأربعمائة ، وقيل : وثلاثمائة ، وقيل : خمسمائة . والأول أصح – على ما قاله ابن كثير – وقد اقتص سيرتها غير واحد من الأئمة . ولما كانت هذه السورة الجليلة كلها في شأنها ، لزم إيرادها مفصلة .

قال ابن إسحاق : خرج النبي صلى الله عليه وسلم في ذي القعدة معتمراً ، لا يريد حرباً . واستنفر العرب ، ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه ، وهو يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب ، أو يصدوه عن البيت . فأبطأ عليه كثير من الأعراب . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن معه من المهاجرين والأنصار ، ومن لحق به من العرب ، وساق معه الهدي ، وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه ، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ، ومعظماً له .

وقال الإمام ابن القيم : قصة الحديبية كانت سنة ست في ذي القعدة . وكان معه ألف وخمسمائة . هكذا في " الصحيحين " عن جابر . وفيهما عن عبد الله بن أبي أوفى : كنا ألفاً وثلاثمائة . وعن جابر فيهما : كانوا ألفاً وأربعمائة – والقلب إلى هذا أميل – وهو قول البراء بن عازب ، ومعقل بن يسار ، وسلمة بن الأكوع . ثم لما كانوا بذي الحليفة قلّد رسول الله صلى الله عليه وسلم الهدي ، وأشعر ، وأحرم بالعمرة ، وبعث عيناً له بين يديه من خزاعة ، يخبره عن قريش ، حتى إذا كان قريباً من عسفان ، أتاه عينه فقال : إني تركت

كعب بن لؤي ، قد جمعوا لك الأحابيش ، وجمعوا لك جموعاً ، وهم مقاتلوك ، وصادوك عن البيت .

(229/713)

واستشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه وقال : < أترون أن نميل إلى ذراري هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم ، فإن قعدوا قعدوا موتورين محزونين ، وإن نجوا تكن عنقاً قطعها الله ؟ أم ترون أن نؤم البيت ، فمن صدنا عنه قاتلناه ؟ > [وفي المطبوع : وإن نجوا يكن عنق] قال أبو بكر : الله ورسوله أعلم ! إنما جئنا معتمرين ، ولم نجئ لقتال أحد . ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : < فروحوا إذن > . فراحوا ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : < إن خالد بن الوليد بالغميم ، في خيل قريش ، فخذوا ذات اليمين > فوالله ! ما شعر بهم خالد حتى إذا هو بقترة [في المطبوع : بعترة] الجيش . فانطلق يركض نذيراً لقريش . وسار النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم ، بركت راحلته . فقال الناس : حَلْ حَلْ ، فألحّت : فقالوا : خلأت القصواء ! خلأت القصواء ! فقال النبي صلى الله عليه

وسلم : < ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخُلُق ، ولكن حبسها حابس الفيل ! ثم قال : والذي نفسي بيده ! لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتموها > .

(230/713)

ثم زجرها فوثبت به ، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء إنما يتبرضه الناس نبرضاً ، فلم يلبث الناس أن نزحوه ، فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العطش ، فانتزع سهماً من كنانته ، ثم أمرهم أن يجعلوها فيه . قال : فوالله ! ما زال يجيش لهم بالريّ ، حتى صدروا عنه . وفزعت قريش لنزوله عليهم ، فأحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليهم رجلاً من أصحابه ، فدعا عُمَر بن الخطاب ليبعثه إليهم ، فقال : يا رسول الله ! ليس بمكة أحد من بني كعب يغضب لي إن أوذيت ، فأرسل عثمان بن عفان فإن عشيرته بها ، وإنه مبلغ ما أردت ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان ، فأرسله إلى قريش وقال : < أخبرهم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عماراً ، وادعهم إلى الإسلام . – وأمره أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات ، فيدخل عليهم – ويبشرهم بالفتح ، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهرٌ دينه بمكة ، حتى لا يستخفي فيها بالإيمان > .

فانطلق عثمان ، فمر على قريش ببلدح ، فقالوا : أين تريد ؟ فقال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أدعوكم إلى الله والإسلام ، ونخبركم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عماراً . فقالوا : قد سمعنا ما تقول ، فانفذ لحاجتك . وقام إليه أَبَان بن سعيد بن العاص ، فرحب به ، وأسرج فرسه . فحمل عثمانَ على الفرس وأجاره ، وأردفه أَبَان حتى جاء مكة . وقال المسلمون قبل أن يرجع عثمان : خلص عثمان قبلنا إلى البيت وطاف به . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون ! > فقالوا : وما يمنعه يا رسول الله ، وقد خلص ؟ قال : < ذاك ظني به أن لا يطوف بالكعبة حتى نطوف معاً > واختلط المسلمون بالمشركين في أمر الصلح ، فرمى رجل من أحد الفريقين رجلاً من الآخر ، وكانت معركة ، وتراموا بالنبل والحجارة ، وصاح الفريقان كلاهما ، وارتهن كل واحد من الفريقين بمن فيهم . وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عثمان قد قتل . فدعا إلى البيعة ، فثار المسلمون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تحت الشجرة ، فبايعوه على أن لا يفروا . فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد نفسه وقال : < هذه عن عثمان > .

ولما تمت البيعة رجع عثمان . فقال المسلمون : اشتفيت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت ؟ فقال : بئس ما ظننتم بي ! والذي نفسي بيده ! لو مكثت بها سنة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مقيم بالحديبية ، ما طفت بها ، حتى يطوف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولقد دعتني قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت ! فقال المسلمون : رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أعلمنا بالله ! وأحسننا ظنّاً . وكان عمر أخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم للبيعة تحت الشجرة ، فبايعه المسلمون كلهم ، إلا الجد [في المطبوع : الحر] بن قيس ، وكان مَعْقِل بن يسار آخذاً بغصنها يرفعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان أول من بايعه أبو سنان الأسدي ، وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرات ، في أول الناس وأوسطهم وآخرهم .

فبينا هم كذلك إذ جاء بديل [بن] ورقاء الخُزَاعِي في نفر من خزاعة ، وكانوا عيبة نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل تهامة فقال : إني تركت كعب بن لؤي ، وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية ، معهم العوذ المطافيل ، وهم مقاتلوك ، وصادوك عن البيت . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < إنا لم نجئ لقتال أحد ، ولكن جئنا معتمرين ،

وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب ، وأضرت بهم : فإن شاؤوا أمادهم ويخلّوا بيني وبين الناس . وإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، وإلا فقد جموا . وإن أبوا إلا القتال ، فوالذي نفسي بيده ! لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي ، أو لينفذن الله أمره .

(233/713)

قال بديل : سأبلغهم ما تقول . فانطلق حتى أتى قريشاً فقال : إني قد جئتكم من عند هذا الرجل ، وسمعته يقول قولاً ، فإن شئتم عرضته عليكم . فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن تحدثنا عنه بشيء . وقال ذوو الرأي منهم : هات ما سمعته . قال سمعته يقول كذا وكذا . فقال عروة بن مسعود الثقفي : إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ، ودعوني آته . فقالوا : ائته . فأتاه ، فجعل يكلمه . فقال النبي صلى الله عليه وسلم نحواً من قوله لبديل . فقال له عروة عند ذلك : أي : محمد ! أرأيت لو استأصلت قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح [في المطبوع : اجناح] أهله قبلك ؟ وإن تكن أخرى ، فوالله إني لأرى وجوهاً ، وأرى أوشاباً من الناس ، خليقاً أن يفروا ويدعوك ! فقال له أبو بكر : امصص بظر اللات ! أنحن نفر عنه وندعه ! قال : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر . قال : أما

والذي نفسي بيده ! لولا يد كانت لك عندي لم أَجزك بها ، لأجبتك ! وجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم ، وكلما كلمه أخذ بلحيته . والمغيرة بن شعبة على رأس النبي صلى الله عليه وسلم ومعه السيف ، وعليه المغفر . فكلما أهوى عروة إلى لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب يده بنعل السيف وقال : أخر يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرفع عروة رأسه وقال : من ذا ؟ قال : المغيرة بن شعبة . فقال : أي : غدر ! أو لست أسعى في غدرتك ؟ وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية . فقتلهم ، وأخذ أموالهم ، ثم جاء فأسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : < أما الإسلام فأقبل ، وأما المال فلست منه في شيء > .

(234/713)

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فوالله ! ما تنخم النبي صلى الله عليه وسلم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم ، فدلك بها جلده ووجهه ، وإذا أمرهم ابتدروا إلى أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له . فرجع عروة إلى أصحابه فقال : أي : قوم ! لقد وفدت على الملوك : على كسرى وقيصر والنجاشي ، والله ما رأيت ملكاً

يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً . والله ! إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له . وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها . فقال رجل من بني كنانة : دعوني آته . فقالوا : ائته . فلما أشرف على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < هذا فلان ، وهو من قوم يعظمون البدن ، فابعثوها له > فبعثوها له ، واستقبله القوم يلبون ، فلما رأى ذلك قال : سبحان الله ! ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت ، فرجع إلى أصحابه فقال : رأيت البدن قد قلدت وأشعرت ، وما أرى أن يصدوا عن البيت . فقام مكرز بن حفص ، فقال : دعوني آته . فقالوا : ائته . فلما أشرف عليهم قال النبي صلى الله عليه وسلم : < هذا مكرز بن حفص ، وهو رجل فاجر > فجعل يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينا هو يكلمه ، إذ جاء سهيل بن عَمْرو ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : < قد سهل لكم من أمركم > فقال : هات اكتب بيننا وبينكم كتاباً . فدعا الكاتب ، فقال : < اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم > . فقال سهيل : أما الرحمن فوالله ما ندري ما هو ، ولكن اكتب : باسمك اللهم ، كما كنت تكتب . فقال المسلمون : والله لا نكتبها إلا باسم الله الرحمن الرحيم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : < اكتب : باسمك

اللهم > . ثم قال : < اكتب : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله > فقال سهيل : فو الله ! لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب : محمد بن عبد الله . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : < إني رسول الله وإن كذبتموني ! اكتب : محمد بن عبد الله > . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : < على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به > فقال سهيل : والله ! لا تتحدث العرب أننا أُخذنا ضغطةً ، ولكن لك من العام المقبل ، فكتب فقال سهيل : على أن لا يأتيك منا رجل ، وإن كان على دينك ، إلا رددته إلينا . فقال المسلمون سبحانه الله ! كيف يرد إلى المشركين ، وقد جاء مسلماً ؟ !

فبينا هم كذلك إذ جاء أبو جندل ابن سهيل يرسف في قيوده ، قد خرج من أسفل مكة ، حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين . فقال سهيل : هذا يا محمد أول من قاضيتك عليه أن ترده ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : < إنا لم نقض الكتاب بعد > فقال : فو الله ! إذن لا أصالحك على شيء أبداً . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : < فأجزه لي > [في المطبوع : فأجره] قال : ما أنا بمجيزه [في المطبوع : بمجيره] لك ، قال : < بلى ، فافعل > . قال : ما أنا بفاعل . قال مكرز : قد أجزناه لك . فقال أبو جندل : يا معشر المسلمين !

أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً ، ألا ترون ما لقيت – وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله – .

(236/713)

قال عمر ابن الخطاب : والله ! ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ ، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله ! ألست نبي الله ؟ قال : < بلى ! > قلت : ألسنا على الحق ، وعدونا على الباطل ؟ قال : < بلى ! > فقلت : على ما نعطي الدنية في ديننا ، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا ؟ فقال : < إني رسول الله ، وهو ناصري ، ولست أعصيه > . قلت : أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال : < بلى ! أفأخبرتك أنك تأتيه العام ؟ > قلت : لا ! قال : < فإنك آتيه ، وتطوف به ! > قال فأتيت أبو بكر ، فقلت له كما قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورد عليه أبو بكر كما رد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم سواء ، وزاد : فاستمسك بغرزه حتى تموت فوالله ! إنه لعلى الحق . قال عمر فعملت لذلك أعمالاً .

فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < قوموا وانحروا ثم احلقوا > . فوالله ! ما قام منهم رجل حتي قال ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحد قام

فدخل على أم سلمة ، فذكر لها ما لقي من الناس ، فقالت أم سلمة : يا رسول الله ! أتحب ذلك ؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً كلمة حتى تنحر بُدنك ، وتدعو حالقك فيحلق لك . فقام فخرج فلم يكلم أحداً منهم ، حتى فعل ذلك ؛ نحر بدنه ، ودعا حالقه فحلقه . فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّاً .

(237/713)

ثم جاءت نسوة مؤمنات ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ ﴾ [الممتحنة : 10] ، حتى بلغ : ﴿ بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك . فتزوج إحداهما معاوية ، والأخرى صفوان بن أمية . ثم رجع إلى المدينة ، وفي مرجعه أنزل الله عليه : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ﴾ الآيات . فقال لعمر : أفتح هو يا رسول الله ؟ قال : < نعم ! > فقال الصحابة : هنيئاً لك يا رسول الله ! فمالنا ! فأنزلنا الله عز وجل : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح : 4] ، الآية .

ولما رجع إلى المدينة جاءه أبو بصير – رجل من قريش – مسلماً ، فأرسلوا في طلبه رجلين ، وقالوا : العهد الذي جعلت لنا ! فدفعه إلى الرجلين ، فخرجا به ، حتى بلغا ذا الحليفة ،

فنزلوا يأكلون من تمر لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إني لأرى سيفك هذا جيداً ، فاستله الآخر ، فقال : أجل ! والله إنه لجيد ، لقد جربت به ثم جربت . فقال أبو بصير أرني أنظر إليه ، فأمكنه منه ، فضربه حتى برد ، وفرّ الآخر يعدو ، حتى بلغ المدينة ، فدخل المسجد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآه : < لقد رأى هذا زعراً > . فلما انتهى إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : قُتل والله ! صاحبي ، وإني لمقتول . وجاء أبو بصير فقال : يا نبي الله ! قد أوفى الله ذمتك ، وقد رددتني إليهم ، فأنجاني الله منهم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : < ويل أمه ! مسعر حرب لو كان له أحد > .

(238/713)

فلما سمع ذلك علم أنه سيرده إليهم ، فخرج حتى أتى سيف البحر ، وتفلّت منهم أبو جندل بن سهيل ، فلحق بأبي بصير ، فلا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة . فوالله ! لا يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم ، وأخذوا أموالهم . وأرسلت قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم ، فمن أتاه فهو آمن ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ﴾ [الفتح : 24] الآية .

وجرى الصلح بين المسلمين ، وأهل مكة على وضع الحرب عشر سنين ، وأن يأمن الناس بعضهم من بعض ، وأن يرجع عنهم عامهم ذلك ، حتى إذا كان العام المقبل ، قدمها ، وخلّوا بينه وبين مكة ، فأقام بها ثلاثاً ، وأنه لا يدخلها إلا سلاح الراكب ، والسيوف في القرب ، وأن من أتانا من أصحابكم لم نرده عليك ، ومن أتاك من أصحابنا رددته علينا ، وأن بيننا وبينك عيبةً مكفوفة ، وأنه لا إسلال ولا إغلال . فقالوا : يا رسول الله ! نعطيهم هذا ؟ فقال : من أتاهم منا ، فأبعده الله ، ومن أتانا منهم فرددناه إليهم ، جعل الله له فرجاً ومخرجاً .

هذا ولنظر تتمة ما في فوائد هذه الغزوة ولطائفها في " زاد المعاد " .

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [11] .

(239/713)

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾ قال مجاهد : هم أعراب المدينة ، كجهينة ومزينة ، استتبعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لخروجه

إلى مكة ، فقالوا : نذهب معه إلى قوم قد جاؤوه ، فقتلوا أصحابه ، فنقاتلهم . فاعتلوا بالشغل . أي : سيقولون لك إذا عاتبتهم على التخلف عنك : شغلنا عن الخروج معك معالجة أموالنا ، وإصلاح معايشنا ، والخوف على أهلنا من الضيعة ، فاستغفر لنا ربنا . وقوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ تكذيب لهم في اعتذارهم ، وأن الذي خلفهم ليس بما يقولون ، وإنما هو الشك في الله ، والنفاق . وكذا طلبهم للاستغفار أيضاً ، ليس بصادر عن حقيقة ؛ لأنه بغير توبة منهم ، ولا ندم على ما سلف منهم من معصية التخلف . وفيه إيذان بأن اللسان لا عبرة به ، ما لم يكن مترجماً عن الاعتقاد الحق

.

﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾ أي : لا أحد يمنعه تعالى من ذلك ؛ لأنه لا يغالبه غالب . إشارة إلى عدم فائدة استغفاره لهم ، مع بقائهم على كذبهم ونفاقهم ، ولذا هددهم بقوله سبحانه : ﴿ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ أي : فيجازيكم عليه .

لطيفة :

قال الناصر : لا تخلو الآية من الفن المعروف عند علماء البيان باللف . وكان الأصل – والله أعلم – : فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أرد بكم ضراً ، ومن يحرمكم النفع إن أراد بكم نفعاً ؛ لأن مثل هذه النظم يستعمل في الضر . وكذلك ورد في الكتاب العزيز مطرداً ، كقوله : ﴿ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة : 17] ، ﴿ وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ﴾ [المائدة : 41] ، ﴿ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [الأحقاف : 8] . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في بعض الحديث : < إني لا أملك لكم شيئاً > – يخاطب عشيرته – وأمثاله كثيرة .

وسر اختصاصه بدفع المضرة أن الملك مضاف في هذه المواضع باللام ، ودفع المضرة نفع يضاف للمدفوع عنه ، وليس كذلك حرمان المنفعة ، فإنه ضرر عائد عليه ، لا له . فإذا ظهر ذلك ، فإنما انتظمت الآية على هذا الوجه ، لأن القسمين يشتركان في أن كل واحد منهما نفي لدفع المقدر من خير وشر ، فلما تقاربا أدرجهما في عبارة واحدة ، وخص عبارة دفع الضر ؛ لأنه هو المتوقع لهؤلاء ؛ إذ الآية في سياق التهديد ، أو الوعيد الشديد . وهي نظير قوله : ﴿ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ [الأحزاب : 17] ، فإن العصمة إنما تكون من السوء لا من الرحمة . فهاتان الآيتان يرامان في التقرير الذي ذكرته – والله أعلم – .

﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً * وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً ﴾ [12، 13] .

﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ﴾ أي : اعتقدتم أنه لن يرجع : ﴿ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً ﴾ أي : بل تستأصلهم قريش ﴿ وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أي : حسّن الشيطان ذلك وصححه ، حتى حبب لكم التخلف ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ وهو عدم نصر الرسول ، وعدم رجوعهم من سفرهم هذا ﴿ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً ﴾ هالكين ، مستوجبين لسخط الله ، أو فاسدين في أعمالكم ونياتكم ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً ﴾ أي : من النار تستعر [في المطبوع : تسعتر] عليهم .

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [14] .

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ قال ابن جرير : هذا من الله جل ثناؤه حثٌّ لهؤلاء الأعراب المتخلفين عن رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، على التوبة ، والمراجعة إلى أمر الله ، في طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم . يقول لهم : بادروا بالتوبة من تخلفكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن الله يغفر للتائبين ؛ لأنه لم يزل ذا عفو عن عقوبة التائبين إليه من ذنوبهم ، ومعاصيهم من عباده ، وذا رحمة بهم أن يعاقبهم على ذنوبهم بعد توبتهم منها .

(242/713)

﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [15] .

﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ ﴾ أي : بعذر الاشتغال بأموالهم ، وأهليهم بعد طلبهم الاستغفار لهم : ﴿ إِذَا انطَلَقْتُمْ ﴾ أي : قصدتم السير : ﴿ إِلَى مَغَانِمَ ﴾ أي : أماكنها . قال ابن جرير : وذلك ما كان الله وعد [في المطبوع : وعد الله] أهل الحديبية من غنائم خيبر : ﴿ ذَرُونَا ﴾ أي : اتركونا في الانطلاق إليها : ﴿ نَتَّبِعْكُمْ ﴾ أي : نشهد معكم قتال أهلها : ﴿ يُرِيدُونَ ﴾ أي : بعد ظهور كذبهم في الاعتذار ، وطلب الاستغفار : ﴿ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ قال ابن جرير : أي : وعد الله الذي وعد أهل الحديبية ، وذلك أن الله جعل غنائم

خيبر لهم ، ووعدهم ذلك عوضاً من غنائم أهل مكة ؛ إذ انصرفوا عنهم [في المطبوع : عنها] على صلح ، ولم يصيبوا منهم شيئاً .

وقال آخرون : بل عنى بقوله : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ إرادتهم الخروج مع نبي الله صلى الله عليه وسلم في غزوة . وقد قال الله تبارك وتعالى في سورة التوبة : ﴿ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ﴾ [التوبة : 83] ، والأكثرون على الأول . وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم رجع من الحديبية في ذي الحجة سنة ست ، وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل المحرم ، ثم غزا خيبر بمن شهد الحديبية ، ففتحها وغنم أموالاً كثيرة ، فخصها بهم .

(243/713)

قال الشراح : وكان ذلك بوحي . ثم كانت غزوة تبوك بعد فتح خيبر ، وبعد فتح مكة أيضاً . وفي منصرفه من تبوك نزل قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ ﴾ [التوبة : 83] الآية . فكيف يحمل على ما كان في غزوة الحديبية ، وقد نزل بعدها بكثير ؟ - والله أعلم - ﴿ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا ﴾ أي : إلى خيبر إذا أردنا السير إليها . وهو نفي في معنى النهي . قال الشهاب : فالخبر مجاز عن النهي الإنشائي ، وهو أبلغ .

﴿ كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ قال ابن جرير : أي : من قبل مرجعنا إليكم . إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية معنا ، ولستم ممن شهدها ، فليس لكم أن تتبعونا إلى خيبر ، لأن غنيمتها لغيركم : ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ أي : أن نصيب معكم مغنماً إن نحن شهدنا معكم ، فلذلك تمنعوننا من الخروج معكم . قال الشهاب : وهو إضراب عن كونه بحكم الله . أي : بل إنما ذلك من عند أنفسكم حسداً .

﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أي : عن الله تعالى ما لهم وما عليهم من أمر الدين : ﴿ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ أي : فهماً قليلاً ، وهو ما كان في أمور الدنيا ، كقوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الروم : 7] .

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾ أي : عن المسير معك : ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أي : يفوق قتال من أقاتلهم ، بحيث لا دخل للصلح والأمن فيه ، بل : ﴿ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ أي : يدخلون في الدنيا من غير حرب ولا قتال . وقرئ شاذاً : ﴿ أو يسلموا ﴾ بمعنى إلا أن يسلموا ، أو حتى يسلموا ﴿ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً ﴾ يعني الغنيمة في الدنيا ، والجنة في الآخرة : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ ﴾ أي : عن الحديبية : ﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ أي : لتضاعف جرمكم .

ثم خص من هذا الوعيد أصحاب الأعذار ، وإن حدثت بعد التخلف الأول ، بقوله سبحانه :

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ ﴾ قال المهايمي : وإن أمكنه القتال بإحساس صوت مشي العدو ، ومشي فرسه ، لكن يصعب عليه حفظ نفسه عنه ﴿ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ ﴾ أي : وإن أمكنه القتال قاعداً ، لكن لا يمكنه الكرّ والفرّ ، ولا يقوى قوة القائم : ﴿ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ أي : فإنه وإن أمكنه الإبصار والقيام ، فلا قوة له في دفع العدو ، فضلاً عن الغلبة عليه .

ثم أشار تعالى إلى أن هؤلاء ، وإن فاتهم الجهاد ، لا ينقص ثوابهم إذا أطاعوا الله ورسوله ، بقوله سبحانه : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ أي عن إطاعتهما ، وإن كان أعمىً ، أو أعرجاً [في المطبوع : أعرج] ، أو مريضاً : ﴿ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ أي : بالمذلة دنيا ، والنار أخرى .

تنبيه :

اختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذين هم أولو بأس شديد – على أقوال :

أحدها – أنهم هوزان .

الثاني – ثقيف ، وكلاهما غزاه النبي صلى الله عليه وسلم .

الثالث – بنو حنيفة الذين تابعوا مسيلمة الكذاب ، وغزاهم أبو بكر رضي الله عنه .

الرابع – أهل فارس والروم ، الذين غزاهم عمر رضي الله عنه .

ومثار الخلاف هو عموم ظاهر الآية ، وشمول مصداقها لكل الغزوات المذكورة . ولو عد من الأوجه كفار مكة ، لم يبعد ، بل عندي هو الأقرب ، لأن السين للاستقبال القريب ؛ فإن هذه السورة نزلت عِدةً بفتح مكة ، منصرفه صلى الله عليه وسلم من الحديبية ، وعلى أثرها كانت غزوة الفتح الأعظم ، التي لم يتخلف عنها من القبائل الشهيرة أحد ، إذ دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى قتال قريش أو يسلموا ، فكان ما كان من إسلامهم طوعاً أو كرهاً – والله أعلم – . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 15 صـ 381.

398 ﴾

(245/713)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1) ﴾

كما جاء في الافتتاح ، الامتنان على المؤمنين بالسكينة ، والاعتراف لهم بالإيمان السابق وتبشيرهم بالمغفرة والثواب ، وعون السماء بجنود الله : ﴿ هو الذي أنزل السكينة ، في

قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً – مع إيمانهم – ولله جنود السماوات والأرض ، وكان الله عليماً حكيما ، ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ويكفر عنهم سيئاتهم ، وكان ذلك عند الله فوزاً عظيما ﴾ . . ذلك مع ما أعده لأعدائهم من المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات من غضب وعذاب : ﴿ ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، الظانين بالله ظن السوء ، عليهم دائرة السوء ، وغضب الله عليهم ولعنهم ، وأعد لهم جهنم ، وساءت مصيراً ﴾ . .

ثم التنويه ببيعة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واعتبارها بيعة لله ؛ وربط قلوب المؤمنين مباشرة بربهم عن هذا الطريق ، بهذا الرباط المتصل مباشرة بالله الحي الباقي الذي لا يموت : ﴿ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، لتؤمنوا بالله ورسوله وتُعزِّروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً . إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما ﴾ .

وبمناسبة البيعة والنكث يلتفت – قبل إكمال الحديث عن المؤمنين ومواقفهم في الحديبية – إلى الأعراب الذين تخلفوا عن الخروج ، فيفضح معاذيرهم ، ويكشف ما جال في خواطرهم من سوء الظن بالله ، ومن توقع السوء للرسول - صلى الله عليه وسلم - ومن معه .

ويوجه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى ما ينبغي أن يكون موقفه منهم في المستقبل .

وذلك في أسلوب يوحي بقوة المسلمين وضعف المخلفين ، كما يوحي بأن هنالك غنائم وفتوحاً قريبة يسيل لها لعاب المخلفين المتباطئين :

(246/713)

﴿ سيقول لك المخلفون من الأعراب : شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا ، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، قل : فمن يملك لكم من الله شيئاً ، إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً ؟ بل كان الله بما تعملون خبيرا . بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً ، وزين ذلك في قلوبكم ، وظننتم ظن السوء ، وكنتم قوماً بوراً . ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا . ولله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء ، وكان الله غفوراً رحيما . سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها : ذرونا نتبعكم ، يريدون أن يبدلوا كلام الله ، قل : لن تتبعونا . كذلكم قال الله من قبل . فسيقولون : بل تحسدوننا . بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً . قل للمخلفين من الأعراب : ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون ، فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسنا ، وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليما ﴾ .

وفي هذا الصدد يبين المعذورين إذا تخلفوا ، والمعفين من الجهاد لعجزهم عنه ، وهو العذر

الوحيد : ﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ، ومن يتول يعذبه عذاباً أليما ﴾ . .

(247/713)

وبعد هذه اللفتة يعود سياق السورة للحديث عن المؤمنين ومواقفهم وخوالج نفوسهم ؛ حديثاً كله رضى وشفافية ووضاءة وتكريم ؛ وكله بشريات لهذه النفوس الخالصة القوية ، البائعة المتجردة . حديثاً يتجلى فيه الله جل جلاله على هذه المجموعة المختارة من البشر . يتجلى عليهم برضوانه وبشرياته وامتنانه وتثبيته . ويبلغهم بأشخاصهم وأعيانهم أنه عنهم راض ، وأنه كان حاضرهم وهم يبايعون في مكة بعينه : " تحت الشجرة " وأنه اطلع على ما في نفوسهم . وأنه رضيهم ورضي عنهم ، وأنه كتب لهم النصر في المستقبل والغنائم والفتوح ، وربط هذا كله بناموس الوجود وسنة الوجود . وهو أمر يقف له الوجود كله يشهد ويرقب ويتأثر ويسجل في أطوائه ذلك الحادث العظيم الفريد : ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما في قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحاً قريبا . ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيما . وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ، فعجل لكم هذه ، وكف أيدي الناس عنكم ، ولتكون آية للمؤمنين ، ويهديكم

صراطاً مستقيماً ، وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديرا . ولو قاتلكم الذين كفروا لوَلَّوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيرا . سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾

(248/713)

ويمتن عليهم بأخذ عدوهم النفر الذين أرادوا بهم الأذى ؛ ويندد بأعدائهم الذين صدوهم عن المسجد الحرام ، وصدوا الهدي أن يبلغ محله ، ويتلطف معهم فيكشف لهم عن حكمته في كفهم هذا العام عنهم ؛ وفضله في ترضيتهم بما كان ، وإنزال سكينته في قلوبهم ، لأمر يراه ، وهو أعظم مما يرون . وهو فتح مكة ثم هيمنة هذا الدين على الدين كله بأمر الله وتدبيره : ﴿ وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم ، وكان الله بما تعملون بصيرا . هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محله . ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم ، أن تطؤوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ، ليدخل الله في رحمته من يشاء ، لو تَزَيَّلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليما . إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وألزمهم كلمة التقوى ، وكانوا أحق بها وأهلها ، وكان الله بكل

شيء عليما . لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون . فعلم ما لم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحاً قريبا . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيدا ﴾ وتختم السورة بالصفة الكريمة الوضيئة التي تميز هذه المجموعة المختارة من البشر ، وتفردها بسمتها الخاصة ، وتنوه بها في الكتب السابقة : التوراة والإنجيل . وبوعد الله الكريم بالمغفرة والأجر العظيم : ﴿ محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم رُكعاً سُجَّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، سيماهم في وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم في التوراة . ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره ، فاستغلظ ، فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ، ليغيظ بهم الكفار . وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما ﴾ وهكذا تصبح

(249/713)

نصوص السورة مفهومة واضحة ، تعيش في جوها الذي نزلت فيه ، وتصوره أقوى تصوير ، بأسلوب القرآن الخاص الذي لا يفصل الحوادث بترتيبها وتسلسلها ؛ ولكنه يأخذ منها لمحات توجيهية وتربوية ؛ ويربط الحادثة المفردة بالقاعدة الشاملة . والموقف الخاص

بالأصل الكوني العام . ويخاطب النفوس والقلوب بطريقته الفذة ومنهجه الفريد .

ومن سياق السورة وجوها ، وبالموازنة بينها وبين إيحاءات سورة محمد التي قبلها في ترتيب المصحف ؛ يتبين مدى ما طرأ على الجماعة المسلمة في موقفها كله من تغيرات عميقة ، في مدى السنوات الثلاث ، التي نرجح أنها تفرق بين السورتين في زمن النزول . ويتبين مدى فعل القرآن الكريم ، وأثر التربية النبوية الرشيدة لهذه الجماعة التي سعدت بالنشوء والنمو في ظلال القرآن ، وفي رعاية النبوة .

فكانت ما كانت في تاريخ البشرية الطويل .

واضح في جو سورة الفتح وإيحاءاتها أننا أمام جماعة نضج إدراكها للعقيدة ، وتجانست مستوياتها الإيمانية ، واطمأنت نفوسها لتكاليف هذا الدين ؛ ولم تعد محتاجة إلى حوافز عنيفة الوقع كي تنهض بهذه التكاليف في النفس والمال ؛ بل عادت محتاجة إلى من يخفض حميتها ، وينهنه حدتها ، ويأخذ بزمامها لتستسلم للهدوء ، والمهادنة بعض الوقت ، وفق حكمة القيادة العليا للدعوة .

(250/713)

لم تعد الجماعة المسلمة تواجه بمثل قوله تعالى : ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم ﴾ ولا بمثل قوله تعالى : ﴿ ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ، والله الغني وأنتم الفقراء ، وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ ولم تعد في حاجة إلى حوافز قوية للجهاد بالحديث عن الشهداء وما أعد الله لهم عنده من الكرامة ؛ ولا بيان حكمة الابتلاء بالقتال ومشقاته كما في سورة محمد إذ يقول الله تعالى : ﴿ ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض ، والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم ، ويدخلهم الجنة عرفها لهم ﴾ إنما صار الحديث عن السكينة التي أنزلها الله في قلوب المؤمنين ، أو أنزلها عليهم . والمقصود بها تهدئة فورتهم ، وتخفيض حميتهم ، واطمئنان قلوبهم لحكم الله وحكمة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في المهادنة والملاينة ، وعن رضى الله عن المبايعين تحت الشجرة . وكانت هذه الصورة الوضيئة في نهاية السورة للرسول ومن معه .

أما الحديث عن الوفاء بالبيعة والنكث فيها في قوله تعالى : ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما ﴾ فالإيحاء فيه أكثر إلى تكريم المبايعين وتعظيم شأن البيعة . والإشارة إلى النكث جاءت بمناسبة الحديث عن الأعراب المتخلفين ، وكذلك الإشارة إلى المنافقين والمنافقات فهي إشارة عابرة ، تدل على ضعف موقف هذه الطائفة ، وعلى خلوص الجماعة المسلمة بالمدينة ونضوجها وتجانسها . وهي على كل حال إشارة عابرة لا تشغل من السورة شيئاً مما شغله الحديث عن المنافقين في سورة محمد ، حيث كان للمنافقين شأنهم هم وحلفاؤهم اليهود . وهذا تطور آخر في موقف الجماعة المسلمة من ناحية موقفها الخارجي يساير ذلك التطور الذي تم في نفوسها من الداخل .

وواضح كذلك قوة المسلمين بالقياس إلى قوة المشركين في جو السورة كلها وفي آيات بنصها ؛ والإشارات إلى الفتوح المقبلة ، وإلى رغبة المخلفين في الغنائم السهلة واعتذارهم ، وإلى ظهور هذا الدين على الدين كله . . كلها تشي بما بلغت إليه قوة المسلمين في هذه الفترة بين نزول السورتين .

ففي حقيقة النفوس ، وفي حال الجماعة ، وفي الظروف المحيطة بها ، حدث تطور واضح ، يدركه من يتلمس خط السيرة في النصوص القرآنية .

ولهذا التطور قيمته كما أن له دلالته على أثر المنهج القرآني والتربية المحمدية ، لهذه الجماعة السعيدة الفريدة في التاريخ . ثم إن لهذا التطور إيحاءه للقائمين على الجماعات البشرية . فلا تضيق صدورهم بالنقص فيها والضعف ورواسب الماضي ومخلفاته ، وآثار البيئة والوسط ، وجواذب الأرض ، وثقلة اللحم والدم . . وكلها تبدو في أول العهد قوية عميقة عنيفة . ولكنها مع المثابرة والحكمة والصبر على العلاج ، تأخذ في التحسن والتطور . والتجارب والابتلاءات تعين على التحسن والتطور ، حين تتخذ فرصة للتربية والتوجيه . وشيئاً فشيئاً تخف ثقلة الطين ، وتشف كثافة اللحم والدم ، وتتوارى آثار البيئة ، وتصفو رواسب الماضي ، وتستشرف القلوب آفاقاً أعلى فأعلى ، حتى ترى النور هنالك على الأفق الوضيء البعيد . ولنا في رسول الله أسوة حسنة ، ولنا في المنهج القرآني صراط مستقيم .

﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطاً مستقيماً ، وينصرك الله نصراً عزيزا ﴾ . .

(253/713)

تفتتح السورة بهذا الفيض الإلهي على رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : فتح مبين . ومغفرة شاملة . ونعمة تامة . وهداية ثابتة . ونصر عزيز . . إنها جزاء الطمأنينة التامة لإلهام الله وتوجيهه . والاستسلام الراضي لإيحائه وإشارته . والتجرد المطلق من كل إرادة ذاتية . والثقة العميقة بالرعاية الحانية . . يرى الرؤيا فيتحرك بوحيها . وتبرك الناقة ، ويتصايح الناس : خلأت القصواء . فيقول : " ما خلأت . وما هو لها بخلق . ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة . لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها " . ويسأله عمر بن الخطاب في حمية : فلم نعطي الدنية في ديننا ؟ فيجيبه : " أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني " . ذلك وحين يشاع أن عثمان قتل يقول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " لا نبرح حتى نناجز القوم " . ويدعو الناس إلى البيعة ، فتكون بيعة الرضوان التي فاض منها الخير على الذين فازوا بها وسعدوا .

وكان هذا هو الفتح ؛ إلى جانب الفتح الآخر الذي تمثل في صلح الحديبية ، وما أعقبه من فتوح شتى في صور متعددة :

كان فتحاً في الدعوة . يقول الزهري : فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه . إنما كان القتال حيث التقى الناس . فلما كانت الهدنة ، ووضعت الحرب ، وأمن الناس بعضهم بعضاً ، والتقوا ، فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، ولم يكلم أحد في الإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه . ولقد دخل في تينك السنتين (بين صلح الحديبية وفتح مكة) مثل من كان في

الإسلام قبل ذلك أو أكثر .

قال ابن هشام : والدليل على قول الزهري أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خرج إلى الحديبية في ألف وأربع مائة في قول جابر بن عبد الله .

ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف .

وكان ممن أسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص .

(254/713)

وكان فتحاً في الأرض . فقد أمن المسلمون شر قريش ، فاتجه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى تخليص الجزيرة من بقايا الخطر اليهودي – بعد التخلص من بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة – وكان هذا الخطر يتمثل في حصون خيبر القوية التي تهدد طريق الشام . وقد فتحها الله على المسلمين ، وغنموا منها غنائم ضخمة ، جعلها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيمن حضر الحديبية دون سواهم .

وكان فتحاً في الموقف بين المسلمين في المدينة وقريش في مكة وسائر المشركين حولها . يقول الأستاذ محمد عزة دروزة بحق في كتابه : " سيرة الرسول . صور مقتبسة من القرآن الكريم " :

" ولا ريب في أن هذا الصلح الذي سماه القرآن بالفتح العظيم يستحق هذا الوصف كل الاستحقاق . بل إنه ليصح أن يعد من الأحداث الحاسمة العظمى في السيرة النبوية ، وفي تاريخ الإسلام وقوته وتوطده ، أو بالأحرى من أعظمها . فقد اعترفت قريش بالنبي والإسلام وقوتهما وكيانهما ، واعتبرت النبي والمسلمين أنداداً لها ، بل دفعتهم عنها بالتي هي أحسن ، في حين أنها غزت المدينة في سنتين مرتين ، وكانت الغزوة الأخيرة قبل سنة من هذه الزيارة وبحشد عظيم مؤلف منها ومن أحزابها لتستأصل شأفتهم ، وبعثت هذه الغزوة في نفوس المسلمين أشد الاضطراب والهلع لضعفهم وقلتهم إزاء الغزاة . ولهذا شأن عظيم في نفوس العرب ، الذين كانوا يرون في قريش الإمام والقدوة ، والذين كانوا متأثرين بموقفهم الجحودي كل التأثر . وإذا لوحظ أن الأعراب كانوا يقدرون أن النبي والمسلمين لن يعودوا سالمين من هذه الرحلة ، وأن المنافقين كانوا يظنون أسوأ الظنون . بدت لنا ناحية من نواحي خطورة هذا الفتح وبعد مداه .

(255/713)

" ولقد أثبتت الأحداث صدق إلهام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما فعل ، وأيده في القرآن ، وأظهرت عظم الفوائد المادية والمعنوية والسياسية والحربية والدينية التي عادت

على المسلمين منه . إذ قووا في عيون القبائل ، وبادر المتخلفون من الأعراب إلى الاعتذار ، وازداد صوت المنافقين في المدينة خفوتاً وشأنهم ضآلة ، وإذ صار العرب يفدون على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أنحاء قاصية ، وإذ تمكن من خضد شوكة اليهود في خيبر وغيرها من قراهم المتناثرة على طريق الشام ، وإذ صار يستطيع أن يبعث بسراياه إلى أنحاء قاصية كنجد واليمن والبلقاء ، وإذ استطاع بعد سنتين أن يغزو مكة ويفتحها ، وكان في ذلك النهاية الحاسمة ، ﴿ إذ جاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ﴾ ونحن نعود فنؤكد أنه كان هناك – إلى جانب هذا كله – فتح آخر .

فتح في النفوس والقلوب ، تصوره بيعة الرضوان ، التي رضي عنها الله وعن أصحابها ذلك الرضى الذي وصفه القرآن . ورسم لهم على ضوئه تلك الصورة الوضيئة الكريمة في نهاية السورة : ﴿ محمد رسول الله . والذين معه . . . ﴾ فهذا فتح في تاريخ الدعوات له حسابه ، وله دلالته ، وله آثاره بعد ذلك في التاريخ .

(256/713)

ولقد فرح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذه السورة . فرح قلبه الكبير بهذا الفيض الرباني عليه وعلى المؤمنين معه . فرح بالفتح المبين . وفرح بالمغفرة الشاملة ، وفرح بالنعمة

التامة ، وفرح بالهداية إلى صراط الله المستقيم . وفرح بالنصر العزيز الكريم . وفرح برضى الله عن المؤمنين ووصفهم ذلك الوصف الجميل . وقال – في رواية – : " نزل عليّ البارحة سورة هي أحب إليّ من الدنيا وما فيها " . وفي رواية : " لقد أنزلت عليّ الليلة سورة هي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس " . وفاضت نفسه الطيبة بالشكر لربه على ما أولاه من نعمته . فاضت بالشكر في صورة صلاة طويلة مديدة ، تقول عنها عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا صلى قام حتى تنفر رجلاه ، فقالت له عائشة – رضي الله عنها – يا رسول الله أتصنع هذا وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " يا عائشة ، أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ " .

ذلك الافتتاح كان نصيب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة ؛ ثم مضى السياق يصف نعمة الله على المؤمنين بهذا الفتح ، ومس يده لقلوبهم بالسكينة ، وما ادخره لهم في الآخرة من غفران وفوز ونعيم :

﴿ هو الذى أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ، ولله جنود السماوات والأرض ، وكان الله عليماً حكيماً . ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، ويكفر عنهم سيئاتهم ، وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً ﴾ . .

والسكينة لفظ معبر مصور ذو ظلال ؛ والسكينة حين ينزلها الله في قلب ، تكون طمأنينة وراحة ، ويقيناً وثقة ، ووقاراً وثباتاً ، واستسلاماً ورضى .

(257/713)

ولقد كانت قلوب المؤمنين في هذه الواقعة تجيش بمشاعر شتى ، وتفور بانفعالات متنوعة . كان فيها الانتظار والتطلع إلى تصديق رؤيا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدخول المسجد الحرام ؛ ثم مواجهة موقف قريش وقبول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ للرجوع عن البيت فى هذا العام ، بعد الإحرام ، وبعد إشعار الهدي وتقليده . كان هذا أمراً شاقاً على نفوسهم ما في ذلك ريب . وقد روي " عن عمر – رضي الله عنه – أنه جاء أبا بكر وهو مهتاج ، فكان مما قال له " – غير ما أثبتناه في صلب رواية الحادث – :

" أو ليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال أبو بكر – " الموصول القلب بقلب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي ينبض قلبه على دقات قلب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " بلى . أفأخبرك أنك تأتيه العام ؟ قال : لا . قال : فإنك تأتيه وتطوف به . فتركه عمر – رضي الله عنه – إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له فيما قال : أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال – صلى الله عليه وسلم : " بلى .

أفأخبرتك أنا نأتيه العام؟ " . قال : لا . قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم : فإنك آتيه ومطوف به " . فهذه صورة مما كان يجيش في القلوب . .

وكان المؤمنون ضيقي الصدور بشروط قريش الأخرى ، من رد من يسلم ويأتي محمداً بغير إذن وليه . ومن حميتهم الجاهلية في رد اسم الرحمن الرحيم . وفي رد صفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد روي أن علياً – رضي الله عنه – أبى أن يمحو هذه الصفة كما طلب سهيل بن عمرو بعد كتابتها ، فمحاها رسول الله بنفسه وهو يقول : " اللهم إنك تعلم أني رسولك "

(258/713)

وكانت حميتهم لدينهم وحماستهم للقاء المشركين بالغة ، يبدو هذا في بيعتهم الإجماعية ؛ ثم انتهى الأمر إلى المصالحة والمهادنة والرجوع . فلم يكن هيناً على نفوسهم أن تنتهي الأمور إلى ما انتهت إليه . يبدو هذا في تباطئهم في النحر والحلق ، حتى قالها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثلاثاً . وهم من هم طاعة لأمر رسول الله وامتثالاً . كالذي حكاه عنهم لقريش عروة ابن مسعود الثقفي . ولم ينحروا ويحلقوا أو يقصروا إلا حين رأوا رسول الله يفعل هذا بنفسه ، فهزتهم هذه الحركة العملية ما لم يهزهم القول ، وثابوا إلى الطاعة كالذي

كان فى دهشة المأخوذ !

وهم كانوا قد خرجوا من المدينة بنية العمرة ، لا ينوون قتالاً ، ولم يستعدوا له نفسياً ولا عملياً . ثم فوجئوا بموقف قريش ، وبما شاع من قتلها لعثمان ، وبإرسال النفر الذين رموا فى عسكر المسلمين بالنبل والحجارة . فلما عزم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على المناجزة وطلب البيعة أعطوها له عن بكرة أبيهم . ولكن هذا لا ينفي موقف المفاجأة على غير ما كانت نفوسهم قد خرجت له . وهو بعض ما كان يجيش في قلوبهم من انفعالات وتأثرات . وهم ألف وأربعمائة وقريش في دارها ، ومن خلفهم الأعراب والمشركون .

وحين يسترجع الإنسان هذه الصور يدرك معنى قوله تعالى : ﴿ هو الذى أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ﴾ . . ويذوق طعم اللفظ وطعم العبارة ، ويتصور الموقف يومئذ ويعيش فيه مع هذه النصوص ، ويحس برد السكينة وسلامها في تلك القلوب .

ولما كان الله يعلم من قلوب المؤمنين يومئذ ، أن ما جاش فيها جاش عن الإيمان ، والحمية الإيمانية لا لأنفسهم ، ولا لجاهلية فيهم . فقد تفضل عليهم بهذه السكينة : ﴿ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ والطمأنينة درجة بعد الحمية والحماسة ، فيها الثقة التي لا تقلق ، وفيها الرضى المطمئن باليقين .

ومن ثم يلّوح بأن النصر والغلب لم يكن عسيراً ولا بعيداً ، بل كان هيناً يسيراً على الله لو اقتضت حكمته يومئذ أن يكون الأمر كما أراده المؤمنون ، فإن لله جنوداً لا تحصى ولا تغلب ، تدرك النصر وتحقق الغلب وقتما يشاء : ﴿ ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليماً حكيما ﴾ . . فهي حكمته وهو علمه ، تسير الأمور وفقهما كما يريد .

وعن العلم والحكمة : ﴿ أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ .

ليحقق لهم ما قدره من فوز ونعيم :

﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، ويكفر عنهم سيئاتهم ، وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً ﴾ . .

وإذا كان هذا في حساب الله فوزاً عظيماً ، فهو فوز عظيم ! فوز عظيم في حقيقته ، وفوز عظيم في نفوس من ينالونه من عند الله مقدراً بتقديره ، موزوناً بميزانه . . ولقد فرح المؤمنون يومها بما كتب الله لهم ؛ وكانوا قد تطلعوا بعد ما سمعوا افتتاح السورة ، وعلموا منه ما أفاض الله على رسوله . تطلعوا إلى نصيبهم هم ، وسألوا عنه ، فلما سمعوا وعلموا فاضت نفوسهم بالرضى والفرح واليقين .

ثم أنبأهم بجانب آخر من جوانب حكمته فيما قدر في هذا الحادث ؛ وهو مجازاة المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، بما يصدر عنهم من عمل وتصرف :

﴿ ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، الظانين بالله ظن السوء ، عليهم دائرة السوء . وغضب الله عليهم ولعنهم ، وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً . ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزاً حكيما ﴾ . .

(260/713)

وقد جمع النص بين المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات في صفة ظن السوء بالله ؛ وعدم الثقة بنصرته للمؤمنين . وفي أنهم جميعاً ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ فهم محصورون فيها ، وهي تدور عليهم وتقع بهم . وفي غضب الله عليهم ولعنته لهم ، وفيما أعده لهم من سوء المصير . . ذلك أن النفاق صفة مرذولة لا تقل عن الشرك سوءاً ، بل إنها أحط ؛ ولأن أذى المنافقين والمنافقات للجماعة المسلمة لا يقل عن أذى المشركين والمشركات ، وإن اختلف هذا الأذى وذاك في مظهره ونوعه .

وقد جعل الله صفة المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات هي ظن السوء بالله .

فالقلب المؤمن حسن الظن بربه ، يتوقع منه الخير دائماً . يتوقع منه الخير في السراء والضراء . ويؤمن بأن الله يريد به الخير في الحالين . وسر ذلك أن قلبه موصول بالله . وفيض الخير من الله لا ينقطع أبداً . فمتى اتصل القلب به لمس هذه الحقيقة الأصيلة ، وأحسها

إحساس مباشرة وتذوق .

فأما المنافقون والمشركون فهم مقطوعو الصلة بالله . ومن ثم لا يحسون تلك الحقيقة ولا يجدونها ، فيسوء ظنهم بالله ؛ وتتعلق قلوبهم بظواهر الأمور ، ويبنون عليها أحكامهم . ويتوقعون الشر والسوء لأنفسهم وللمؤمنين ، كلما كانت ظواهر الأمور توحي بهذا ؛ على غير ثقة بقدر الله وقدرته ، وتدبيره الخفي اللطيف .

وقد جمع الله في الآية أعداء الإسلام والمسلمين من شتى الأنواع ؛ وبين حالهم عنده ، وما أعده لهم في النهاية . ثم عقب على هذا بما يفيد قدرته وحكمته :

﴿ ولله جنود السماوات والأرض ، وكان الله عزيزاً حكيما ﴾ . .

فلا يعييه من أمرهم شيء ، ولا يخفى عليه من أمرهم شيء ، وله جنود السماوات والأرض ، وهو العزيز الحكيم .

(261/713)

ثم عاد بالخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منوهاً بوظيفته ، مبيناً للغاية منها ، موجهاً المؤمنين إلى واجبهم مع ربهم بعد تبليغهم رسالته ، مع ردهم في بيعتهم إلى الله مباشرة ، وعقد العقدة معه جل جلاله ، وذلك حين يبايعون الرسول - صلى الله عليه وسلم

ـ ويتعاقدون معه . وفي ذلك تشريف لبيعة الرسول وتكريم واضح لهذا التعاقد :

﴿ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتُعزِّروه وتوقروه ، وتسبحوه بكرة وأصيلا ، إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً ﴾ . .

فالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ شاهد على هذه البشرية التى أرسل إليها ، يشهد أنه بلغها ما أمر به ، وأنها استقبلته بما استقبلته ، وأنه كان منها المؤمنون ، ومنها الكافرون ، ومنها المنافقون . وكان منها المصلحون ومنها المفسدون . فيؤدي الشهادة كما أدى الرسالة . وهو مبشر بالخير والمغفرة والرضى وحسن الجزاء للمؤمنين الطائعين ، ونذير بسوء المنقلب والغضب . واللعنة والعقاب للكافرين والمنافقين والعصاة والمفسدين . .

هذه وظيفة الرسول . ثم يلتفت بالخطاب إلى المؤمنين ، يكشف لهم عن الغاية المرجوة لهم من الرسالة . إنها الإيمان بالله ورسوله ، ثم النهوض بتكاليف الإيمان ، فينصرون الله بنصرة منهجه وشريعته ويوقرونه في نفوسهم بالشعور بجلاله ؛ وينزهونه بالتسبيح والتحميد طرفي النهار في البكور والأصيل ، وهي كناية عن اليوم كله ، لأن طرفي النهار يضمان ما بينهما من آونة . والغرض هو اتصال القلب بالله في كل آن . فهذه هي ثمرة الإيمان المرجوة للمؤمنين من إرسال الرسول شاهداً ومبشراً ونذيراً .

وقد جاء ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليصلهم بالله ، ويعقد بينهم وبينه بيعة ماضية لا تنقطع بغيبة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنهم . فهو حين يضع يده في أيديهم مبايعاً ، فإنما يبايع عن الله : ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله . يد الله فوق أيديهم ﴾ . . وهو تصوير رهيب جليل للبيعة بينهم وبين رسول الله – صل الله عليه وسلم – والواحد منهم يشعر وهو يضع يده في يده ، أن يد الله فوق أيديهم .

فالله حاضر البيعة . والله صاحبها . والله آخذها . ويده فوق أيدي المتبايعين . . ومن ؟ الله ! يا للهول ! ويا للروعة ! ويا للجلال !

وإن هذه الصورة لتستأصل من النفس خاطر النكث بهذه البيعة – مهما غاب شخص رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فالله حاضر لا يغيب . والله آخذ في هذه البيعة ومعط ، وهو عليها رقيب .

﴿ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ . .

فهو الخاسر في كل جانب . هو الخاسر في الرجاع عن الصفقة الرابحة بينه وبين الله تعالى . وما من بيعة بين الله وعبد من عباده إلا والعبد فيها هو الرابح من فضل الله ، والله هو الغني عن العالمين . وهو الخاسر حين ينكث وينقض عهده مع الله فيتعرض لغضبه وعقابه على النكث الذى يكرهه ويمقته ، فالله يحب الوفاء ويحب الأوفياء .

﴿ ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما ﴾ . .

هكذا على إطلاقه : ﴿ أجراً عظيماً ﴾ . . لا يفصله ولا يحدده . فهو الأجر الذي يقول عنه الله إنه عظيم .

عظيم بحساب الله وميزانه ووصفه الذي لا يرتقي إلى تصوره أبناء الأرض المقلون المحدودون الفانون !

(263/713)

وعندما يصل إلى حقيقة البيعة ، وإلى خاطر النكث وخاطر الوفاء ، يلتفت بالحديث إلى المخلفين من الأعراب ، الذين أبوا أن يخرجوا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لسوء ظنهم بالله ، ولتوقعهم الشر والضر للمؤمنين الخارجين ، الذاهبين إلى قريش في عقر دارها ، وهي غزت المدينة قبل ذلك عامين متوالين . . يلتفت إليهم لينبئ الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما سيعتذرون به إليه بعد عودته سالماً هو ومن معه ، وقد هادنته قريش ولم تقاتله ، وعقدت معه معاهدة يبدو فيها - مهما كان شروطها - التراجع من قريش ، واعتبار محمد - صلى الله عليه وسلم - نداً لها تهادنه وتتقي خصومته . ويكشف له عن الأسباب الحقيقية لعدم خروجهم معه ، ويفضحهم ويقفهم مكشوفين أمام رسول الله - صلى الله عليه

وسلم - وأمام المؤمنين . كما ينبئه بما فيه البشرى له وللخارجين معه ؛ وهو أنهم سيخرجون إلى مغانم قريبة ميسورة ، وأن المخلفين من الأعراب سيطلبون الخروج معه لينالوا من هذه الغنائم السهلة . ويلقنه طريقة معاملتهم حينئذ والرد عليهم . فلا يقبل منهم الخروج معه في هذا الوجه القريب الميسور الذي سيقتصر على من خرجوا من قبل وحضروا الحديبية . إنما ينبئهم بأن هنالك وجهاً آخر فيه مشقة وفيه قتال مع قوم أولي بأس شديد . فإن كانوا حقاً يريدون الخروج فليخرجوا يومئذ ، حيث يقسم الله لهم بما يريد . فإن أطاعوا كان لهم الأجر الكبير ، وإن عصوا كما عصوا من قبل كان لهم العذاب الشديد :

﴿ سيقول لك المخلَّفون من الأعراب : شغلتنا أموالنا وأهلونا ، فاستغفر لنا ، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم .

(264/713)

قل : فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً ؟ بل كان الله بما تعملون خبيرا . بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً ، وزين ذلك في قلوبكم ، وظننتم ظن السوء ، وكنتم قوماً بورا . ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا . ولله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، وكان الله غفوراً

رحيما . سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها : ذرونا نتَّبِعكم . يريدون أن يبدّلوا كلام الله . قل : لن تَتَّبِعونا . كذلكم قال الله من قبل . فسيقولون : بل تحسدوننا . بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا . قل للمخلفين من الأعراب : ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد ، تقاتلونهم أو يسلمون ، فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً ، وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليما ﴾ . .

والقرآن لا يكتفي بحكاية أقوال المخلفين والرد عليها ؛ ولكنه يجعل من هذه المناسبة فرصة لعلاج أمراض النفوس ، وهواجس القلوب ، والتسلل إلى مواطن الضعف والانحراف لكشفها تمهيداً لعلاجها والطب لها . ثم لإقرار الحقائق الباقية والقيم الثابتة ، وقواعد الشعور والتصور والسلوك .

فالمخلفون من الأعراب – وكانوا من أعراب غفار ومزينة وأشجع وأسلم وغيرهم ممن حول المدينة – سيقولون اعتذاراً عن تخلفهم : ﴿ شغلتنا أموالنا وأهلونا ﴾ . . وليس هذا بعذر . فللناس دائماً أهل وأموال . ولو كان مثل هذا يجوز أن يشغلهم عن تكاليف العقيدة ، وعن الوفاء بحقها ما نهض أحد قط بها . . وسيقولون ﴿ فاستغفر لنا ﴾ . . وهم ليسوا صادقين في طلب الاستغفار كما ينبئ الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - " يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم " .

هنا يرد عليهم بتقرير حقيقة القدر الذي لا يدفعه تخلف ، ولا يغيره إقدام ؛ وبحقيقة القدرة

التي تحيط بالناس وتتصرف في أقدارهم كما تشاء . وبحقيقة العلم الكامل الذي يصرف الله قدره على وفقه :

(265/713)

﴿ قل : فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً ؟ بل كان الله بما تعملون خبيراً ﴾ . .

وهو سؤال يوحي بالاستسلام لقدر الله ؛ والطاعة لأمره بلا توقف ولا تلكؤ . فالتوقف أو التلكؤ لن يدفع ضرراً ، ولا يؤخر نفعاً . وانتحال المعاذير لا يخفى على علم الله . ولا يؤثر في جزائه وفق علمه المحيط . وهو توجيه تربوي في وقته وفي جوه وفي مناسبته على طريقة القرآن .

﴿ بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً ، وزُيِّن ذلك في قلوبكم ، وظننتم ظن السوء ، وكنتم قوماً بورا ﴾ . .

وهكذا يقفهم عرايا مكشوفين ، وجهاً لوجه أمام ما أضمروا من نية ، وما ستروا من تقدير ، وما ظنوا بالله من السوء . وقد ظنوا أن الرسول من معه ومن المؤمنين ذاهبون إلى حتفهم ، فلا يرجعون إلى أهليهم بالمدينة ؛ وقالوا : يذهب إلى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة ،

وقتلوا أصحابه فيقاتلهم ! يشيرون إلى أحد والأحزاب ولم يحسبوا حساباً لرعاية الله وحمايته للصادقين المتجردين من عباده .

كما أنهم – بطبيعة تصورهم للأمور وخلو قلوبهم من حرارة العقيدة – لم يقدروا أن الواجب هو الواجب ، بغض النظر عن تكاليفه كائنة ما كانت ؛ وأن طاعة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجب أن تكون بدون النظر إلى الربح الظاهري والخسارة الشكلية ، فهي واجب مفروض يؤدى دون نظر إلى عاقبة أخرى وراءه .

لقد ظنوا ظنهم ، وزين هذا الظن في قلوبهم ، حتى لم يروا غيره ، ولم يفكروا في سواه . وكان هذا هو ظن السوء بالله ، الناشئ من أن قلوبهم بور . وهو تعبير عجيب موح . فالأرض البور ميتة جرداء . وكذلك قلوبهم . وكذلك هم بكل كيانهم . بور . لا حياة ولا خصب ولا إثمار . وما يكون القلب إذ يخلو من حسن الظن بالله ؟ لأنه انقطع عن الاتصال بروح الله ؟ يكون بوراً . ميتاً أجرد نهايته إلى البوار والدمار .

(266/713)

وكذلك يظن الناس بالجماعة المؤمنة . الناس من أمثال أولئك الأعراب المنقطعين عن الله . البور الخالية قلوبهم من الروح والحياة . هكذا يظنون دائماً بالجماعة المؤمنة عندما يبدو أن

كفة الباطل هي الراجحة ، وأن قوى الأرض الظاهرة في جانب أهل الشر والضلال ؛ وأن المؤمنين قلة في العدد ، أو قلة فى العدة ، أو قلة في المكان والجاه والمال . هكذا يظن الأعراب وأشباههم في كل زمان أن المؤمنين لا ينقلبون إلى أهليهم أبداً إذا هم واجهوا الباطل المنتفش بقوته الظاهرة . ومن ثم يتجنبون المؤمنين حباً للسلامة ؛ ويتوقعون في كل لحظة أن يستأصلوا وأن تنتهي دعوتهم فيأخذون هم بالأحوط ويبعدون عن طريقهم المحفوف بالمهالك ! ولكن الله يخيب ظن السوء هذا ؛ ويبدل المواقف والأحوال بمعرفته هو ، وبتدبيره هو ، وحسب ميزان القوى الحقيقية . الميزان الذى يمسكه الله بيده القوية ، فيخفض به قوماً ويرفع به آخرين ، من حيث لا يعلم المنافقون الظانون بالله ظن السوء في كل مكان وفي كل حين !

إن الميزان هو ميزان الإيمان . ومن ثم يرد الله أولئك الأعراب إليه ؛ ويقرر القاعدة العامة للجزاء وفق هذا الميزان ، مع التلويح لهم برحمة الله القريبة والإيحاء إليهم بالمبادرة إلى اغتنام الفرصة ، والتمتع بمغفرة الله ورحمته :

﴿ ومن لم يؤمن بالله ورسوله ، فإنا أعتدنا للكافرين سعيراً . ولله ملك السماوات والأرض ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ . .

لقد كانوا يعتذرون بأموالهم وأهليهم . فماذا تنفعهم أموالهم وأهلوهم في هذه السعير المعدة لهم إذا لم يؤمنوا بالله ورسوله ؟ إنهما كفتان فليختاروا هذه أو تلك على يقين . فإن الله

الذي يوعدهم هذا الإيعاد ، هو مالك السماوات والأرض وحده . فهو الذي يملك المغفرة لمن يشاء ، وهو الذي يملك العذاب لمن يشاء .

(267/713)

والله يجزي الناس بأعمالهم ولكن مشيئته مطلقة لا ظل عليها من قيد ، وهو يقرر هذه الحقيقة هنا لتستقر في القلوب . غير متعارضة مع ترتيب الجزاء على العمل ، فهذا الترتيب اختيار مطلق لهذه المشيئة .

ومغفرة الله ورحمته أقرب . فليغتنمها من يريد ، قبل أن تحق كلمة الله بعذاب من لم يؤمن بالله ورسوله ، بالسعير الحاضرة المعدة للكافرين .

ثم يلوح ببعض ما قدر الله للمؤمنين ، مخالفاً لظن المخلفين . بأسلوب يوحي بأنه قريب :

﴿ سيقول المخلَّفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها : ذرونا نتَّبِعكم . يريدون أن يبدلوا كلام الله . قل : لن تتَّبِعونا ؟ كذلكم قال الله من قبل . فسيقولون : بل تحسدوننا . بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا ﴾ . .

أغلب المفسرين يرون أنها إشارة إلى فتح خيبر . وقد يكون هذا . ولكن النص يظل له إيحاؤه ولو لم يكن نصاً في خيبر . فهو يوحي بأن المسلمين سيفتح عليهم فتح قريب يسير .

وأن هؤلاء المخلفين سيدركون هذا ، فيقولون : ﴿ ذرونا نتبعكم ﴾ . .

ولعل الذي جعل المفسرين يخصصون خيبر ، أنها كانت بعد قليل من صلح الحديبية . إذ كانت في المحرم من سنة سبع . بعد أقل من شهرين من صلح الحديبية . وأنها كانت وافرة الغنائم . وكانت حصون خيبر آخر ما بقي لليهود في الجزيرة من مراكز قوية غنية . وكان قد لجأ إليها بعض بني النضير وبني قريظة ممن أجلوا عن الجزيرة من قبل .

وتتواتر أقوال المفسرين أن الله وعد أصحاب البيعة في الحديبية أن تكون مغانم خيبر لهم لا يشركهم فيها أحد . ولم أجد في هذا نصاً . ولعلهم يأخذون هذا مما وقع فعلاً . فقد جعلها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أصحاب الحديبية . ولم يأخذ معه أحداً غيرهم .

(268/713)

وعلى أية حال فقد أمر الله نبيه أن يرد المخلفين من الأعراب إذا عرضوا الخروج للغنائم الميسرة القريبة . وقرر أن خروجهم مخالف لأمر الله . وأخبر نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنهم سيقولون إذا منعوا من الخروج : ﴿ بل تحسدوننا ﴾ . . فتمنعوننا من الخروج لتحرمونا من الغنيمة . ثم قرر أن قولهم هذا ناشئ عن قلة فقههم لحكمة الله وتقديره .

فجزاء المتخلفين الطامعين أن يحرموا ، وجزاء الطائعين المتجردين أن يعطوا من فضل الله ،

وأن يختصوا بالمغنم حين يقدره الله ، جزاء اختصاصهم بالطاعة والإقدام ، يوم كانوا لا يتوقعون إلا الشدة في الجهاد .

ثم أمر الله نبيه أن يخبرهم أنهم سيبتلون بالدعوة إلى جهاد قوم أشداء . يقاتلونهم على الإسلام ، فإذا نجحوا في هذا الابتلاء كان لهم الأجر ، وإن هم ظلوا على معصيتهم وتخلفهم فذلك هو الامتحان الأخير :

﴿ قل للمخلفين من الأعراب : ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد ، تقاتلونهم أو يسلمون ، فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً ، وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً ﴾ .

وتختلف الأقوال كذلك في من هم القوم أولو البأس الشديد .

(269/713)

وتختلف الأقوال كذلك في من هم القوم أولو البأس الشديد . وهل كانوا على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أم على عهود خلفائه . والأقرب أن يكون ذلك في حياة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليمحص الله إيمان هؤلاء الأعراب من حول المدينة .

والمهم أن نلحظ طريقة التربية القرآنية , وطريقة علاج النفوس والقلوب . بالتوجيهات القرآنية , والابتلاءات الواقعية . وهذا كله ظاهر في كشف نفوسهم لهم وللمؤمنين , وفي

توجيههم إلى الحقائق والقيم وقواعد السلوك الإيماني القويم .

ولما كان المفهوم من ذلك الابتلاء فرض الخروج على الجميع , فقد بين الله أصحاب الأعذار الحقيقية الذين يحق لهم التخلف عن الجهاد , بلا حرج ولا عقاب:

ليس على الأعمى حرج , ولا على الأعرج حرج , ولا على المريض حرج . ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار , ومن يتول يعذبه عذابا أليما . .

فالأعمى والأعرج معهما عذر دائم هو العجز المستمر عن تكاليف الخروج والجهاد .

والمريض معه عذر موقوت بمرضه حتى يبرأ .

والأمر في حقيقته هو أمر الطاعة والعصيان . هو حالة نفسية لا أوضاع شكلية . فمن يطع الله ورسوله فالجنة جزاؤه . ومن يتول فالعذاب الأليم ينتظره . ولمن شاء أن يوازن بين مشقات الجهاد وجزائه , وبين راحة القعود وما وراءه . . ثم يختار ! . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الظلال حـ 6 صـ 3316 . 3324 ﴾

(270/713)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع عشر بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الرابع عشر بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 18 ﴾ من سورة الفتح

وحتى الآية ﴿ 28 ﴾ من السورة

قوله تعالى ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (18) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (19) وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (20) وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (21) وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (22) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (23) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما وعد المطيع وأوعد العاصي ، وكانت النفوس إلى الوعد أشد التفاتاً ، دل عليه بثواب عظيم منه أمر محسوس يعظم جذبه للنفوس القاصرة عن النفوذ في عالم الغيب ، فقال مؤكداً لأن أعظم المراد به المذبذبون ، مفتتحاً بقد لأن السياق موجب للتوقع لما جرى من السنة الإلهية أنها إذا شوقت إلى شيء دلت عليه بمشهود يقرب الغائب الموعود : ﴿ لقد رضي الله ﴾ أي الذي له الجلال والجمال ﴿ عن المؤمنين ﴾ أي الراسخين في الإيمان ، أي فعل معهم فعل الراضي بما جعل لهم من الفتح وما قدر له من الثواب ، وأفهم ذلك أنه لم يرض عن

الكافرين فخذلهم في الدنيا مع ما أعد لهم في الآخرة ، فالآيات تقرير لما ذكر من جزاء الفريقين بأمور مشاهدة .

(5/714)

ولما ذكر الرضى ، ذكر وقته للدلالة على سببه فقال : ﴿ إذ ﴾ أي حين ، وصور حالهم إعلاماً بأنها سارة معجبة شديدة الرسوخ في الرضى فقال : ﴿ يبايعونك ﴾ في عمرة الحديبية لما صد المشركون عن الوصول إلى البيت ، فبعثت عثمان ـ رضى الله عنه ـ إليهم ليخبرهم بأنك لم تجيء لقتال وإنما جئت للعمرة ، فبلغك أنهم قتلوه فندبت إلى البيعة لمناجزتهم فبايعك كل من كان معك على أن لا يفروا لتناجز بهم القوم ؛ وزاد الأمر بياناً وقيده تفضيلاً لأهل البيعة بقوله : ﴿ تحت الشجرة ﴾ واللام للعهد الذهني ، وكانت شجرة في الموضع الذي كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نازلاً به في الحديبية ، ولأجل هذا الرضى سميت بيعة الرضوان ، وروى البغوى من طريق الثعلبي عن جابر ـ رضى الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة " .

ولما دل على إخلاصهم بما وصفهم ، سبب عنه قوله : ﴿ فعلم ﴾ أي لما له من الإحاطة ﴿ ما في قلوبهم ﴾ أي من مطابقته لما قالوا بألسنتهم في البيعة ، وأن ما حصل لبعضهم من

الاضطراب في قبول الصلح والكآبة منه إنما هو لمحبة الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإيثار ما يريد من إعلاء دينه وإظهاره لا عن شك في الدين ، وسبب عن هذا العلم ترغيباً في مثل هذا المحدث عنهم قوله : ﴿ فأنزل السكينة ﴾ أي بثبات القلوب وطمأنيتها في كل حالة ترضي الله ورسوله ، ودل على عظمها بحيث إنها تغلب الخوف وإن عظم بقوله : ﴿ عليهم ﴾ فأثر ذلك أنهم لم يخافوا عاقبة القتال لما ندبوا إليه وإن كانوا في كثرة الكفار كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود ، لا أثر الصلح بما يتراءى فيه من الضعف وغيره من مخايل النقص في قلوبهم في ذلك المقام الدحض والمواطن الضنك إلا ريثما رأوا صدق عزيمة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومضى أمره في ذلك بما يفعل ويقول .

(6/714)

ولما ذكر منّه سبحانه وتعالى عليهم بما هو الأصل الذي لا يبنى إلا عليه ، أتبعه آثاره فقال : ﴿ وأثابهم ﴾ أي أعطاهم جزاء لهم على ما وهبهم من الطاعة والسكينة فيها جزاء ، مقبلاً عليهم ، يملأ مواضع احتياجهم ، هو أهل لأن يقصده الإنسان ويتردد في طلبه لما له من الإقبال والمكنة والشمول ﴿ فتحاً ﴾ بما أوقع سبحانه من الصلح المترتب على تعجيز قريش عن القتال ﴿ قريباً ﴾ بترك القتال الموجب بعد راحتهم وقوتهم وجمومهم لاختلاط

بعض الناس ببعض فيدخل في الدين من كان مباعداً له لما يرى من محاسنه ، فسيكون الفتح الأعظم فتح المكة المشرفة الذي هو سبب لفتح جميع البلاد .

ولما ذكر الفتح ذكر بعض ثمرته فقال : ﴿ ومغانم ﴾ فنبه بصيغة منتهى الجموع إلى أنها عظيمة ، ثم صرح بذلك في قوله : ﴿ كثيرة ﴾ ولما كان الشيء ربما أطلق على ما هو بالقوة دون الفعل ، أزال ذلك بقوله تعالى ﴿ يأخذونها ﴾ وهي خيبر .

ولما كان ذلك مستبعداً لكثرة الكفار وقلة المؤمنين ، بين سببه فقال عاطفاً على ما تقديره : بعزة الله وحكمته : ﴿ وكان الله ﴾ أي الذي لا كفوء له ﴿ عزيزاً ﴾ أي يغلب ولا يغلب ﴿ حكيماً ﴾ يتقن ما يريد فلا ينقض .

(7/714)

ولما قرب ذلك وتأكد وتحرر وتقرر ، أقبل سبحانه وتعالى عليهم بالخطاب تأكيداً لمسامعهم فقال مزيلاً لكل احتمال يتردد في خواطر المخلفين : ﴿ وعدكم الله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ مغانم ﴾ وحقق معناها بقوله : ﴿ كثيرة تأخذونها ﴾ أي فيما يأتي من بلدان شتى لا تدخل تحت حصر ، ثم سبب عن هذا الوعد قوله : ﴿ فعجل لكم ﴾ أي منها ﴿ هذه ﴾ أي القضية التي أوقعها بينكم وبين قريش من وضع الحرب عشر سنين ، ومن أنكم تأتون في

العام المقبل في مثل هذا الشهر معتمرين فإنها سبب ذلك كله ، عزاه أبو حيان لابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وهو في غاية الظهور ، ويمكن أن يكون المعنى : التي فتحها عليكم من خيبر من سببها وأموالها المنقولات وغيرها ﴿ وكف أيدي الناس ﴾ أي من أهل خيبر وحلفائهم أسد وغطفان أن يعينوا أهل خيبر أو يغيروا على عيالاتكم بعد ما وهموا بذلك بعد ما كف أيدي قريش ومن دخل في عهدهم بالصلح ﴿ عنكم ﴾ على ما أنتم فيه من القلة والضعف .

(8/714)

ولما كان التقدير : رحمة لكم على طاعتكم لله ورسوله وجزاء لتقوى أيديكم ، وتروا أسباب الفتح القريبة بما يدخل من الناس في دينكم عند المخاطبة بسبب الإيمان ، عطف عليه قوله : ﴿ ولتكون ﴾ أي هذه الأسباب من الفتح والإسلام ﴿ آية ﴾ أي علامة هي في غاية الوضوح ﴿ للمؤمنين ﴾ أي منكم على دخول المسجد الحرام آمنين في العمرة ثم في الفتح ومنكم ومن غيركم من الراسخين في الإيمان إلى يوم القيامة على جميع ما يخبر الله به على ما وقع التدريب عليه في هذا التدبير الذي دبره لكم من أنه لطيف يوصل إلى الأشياء العظيمة بأضداد أسبابها فيما يرى الناس فلا يرتاع مؤمن لكثرة المخالفين وقوة المنابذين

أبداً ، فإن سبب كون الله مع العبد هو الاتباع بالإحسان الذي عماده الرسوخ في الإيمان الذي علق الحكم به ، فحيث ما وجد عليه وجد المعلق وهو النصر بأسباب جلية أو خفية ﴿ ويهديكم ﴾ في نحو هذا الأمر الذي دهمكم فأزعجكم بالثبات عند سماع الموعد والوعيد والثقة بمضمونه لأنه قادر حكيم ، فهو لا يخلف الميعاد بأن يهديكم ﴿ صراطاً مستقيماً ﴾ أي طريقاً واسعاً واضحاً موصلاً إلى الكرامة من غير شك ، وهذا من أعلام النبوة فإنه لم يزغ أحد من المخاطبين بهذه الآية وهم أهل الحديبية وكأنه والله أعلم لذلك لم يقل : ويهديهم – بالغيب على ما اقتضاه السياق لئلا يغم غيرهم ممن يظهر صدقه في الإيمان ثم يزيغ ، ولذا أكثر تفاصيل هذه السورة من أعلام النبوة ، فإنه وقع الإخبار به قبل وقوعه .

ولما سرهم سبحانه بما بشرهم به من كون القضية فتحاً ومن غنائم خيبر ، أتبع ذلك البشارة دالاً على أنها لا مطمع لهم في حوزه ولا علاجه لولا معونته فقال : ﴿ وأخرى ﴾ أي ووعدكم مغانم كثيرة غير هذه وهي – والله أعلم – مغانم هوازن التي لم يحصل قبلها ما يقاربها .

(9/714)

ولما كان في علمه سبحانه وتعالى أن الصحابة رضي الله تعالى عنهم مقرون فيها إلا من لا يمكنه في العادة أن يهزمهم ليحوي الغنائم ، فكان ما في علمه تعالى لتحققه كالذي وقع وانقضى ، قال تعالى : ﴿ لم تقدروا ﴾ أي بما علمتم من قراركم ﴿ عليها ﴾ ولما توقع السامع بعد علمه بعجزهم عنها الإخبار عن السبب الموصل إلى أخذها بما تقرر عند من صدق الوعد بها ، قال مفتتحاً بحرف التوقع : ﴿ قد أحاط الله ﴾ أي المحيط بكل شيء علماً وقدرة ﴿ بها ﴾ فكانت بمنزلة ما أدير عليه سورة مانع من أن يغلب منها شيء عن حوزتكم أو يقدر غيركم أن يأخذ منها شيئاً ، ولذلك وللتعميم ختم الآية بقوله : ﴿ وكان الله ﴾ أي المحيط بجميع صفات الكمال أزلاً وأبداً ﴿ على كل شيء ﴾ منها ومن غيرها ﴿ قديراً ﴾ بالغ القدرة لأنه بكل شيء عليم .

ولما قدم سبحانه أنه كف أيدي الناس عنكم أجمعين ، ذكر حكمهم لو وقع قتال ، فقال مقرراً لقدرته عاطفاً على نحو : فلو أراد لمكنكم من الاعتمار ، مؤكداً لأجل استبعاد من يستبعد ذلك من الأعراب وغيرهم : ﴿ ولو قاتلكم ﴾ أي في هذا الوجه ﴿ الذين كفروا ﴾ أي أوقعوا هذا الوصف من الناس عموماً الراسخ فيه ومن دونه ، وهم أهل مكة ومن لاقهم ، وكانوا قد اجتمعوا وجمعوا الأحابيش ومن أطاعهم وقدموا خالد بن الوليد طليعة لهم إلى كراع الغميم ، ولم يكن أسلم بعد ﴿ لولوا ﴾ أي بغاية جهدهم ﴿ الأدبار ﴾ منهزمين .

ولما كان عدم نصرهم بعد التولية مستبعداً أيضاً لما لهم من كثرة الإمداد وقوة الحمية ، قال معبراً بأداة البعد : ﴿ ثم ﴾ أي بعد طول الزمان وكثرة الأعوان ﴿ لا يجدون ﴾ في وقت من الأوقات ﴿ ولياً ﴾ أي يفعل معهم فعل القريب من الحياطة والشفقة والحراسة من عظيم ما يحصل من رعب تلك التولية ﴿ ولا نصيراً ﴾ .

(10/714)

ولما كانت هذه عادة جارية قديمة مع أولياء الله تعالى حيثما كانوا من الرسل وأتباعهم ، وأن جندنا لهم الغالبون ، قال تعالى : ﴿ سنة الله ﴾ أي سن المحيط بهذا الخلق في هذا الزمان وما بعده كما كان محيطاً بالخلق في قديم الدهر ، ولذلك قال : ﴿ التي قد خلت ﴾ أي سنة مؤكدة لا تتغير ، وأكد الجار لأجل أن القتال ما وقع الزمان الماضي إلا بعد نزول التوراة فقال : ﴿ من قبل ﴾ وأما قبل ذلك فإنما كان يحصل الهلاك بأمر من عند الله بغير أيدي المؤمنين ﴿ ولن تجد ﴾ أيها السامع ﴿ لسنة الله ﴾ الذي لا يخلف قولاً لأنه محيط بجميع صفات الكمال ﴿ تبديلاً ﴾ أي تغيراً من مغير ما ، يغيرها بما يكون بدلها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 203 . 207 ﴾

(11/714)

فصل

قال الفخر :

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾

اعلم أن طاعة كل واحد منهما طاعة الآخر فجمع بينهما بياناً لطاعة الله ، فإن الله تعالى لو قال : ومن يطع الله ، كان لبعض الناس أن يقول : نحن لا نرى الله ولا نسمع كلامه ، فمن أين نعلم أمره حتى نطيعه ؟ فقال طاعته في طاعة رسوله وكلامه يسمع من رسوله .

ثم قال : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ أي بقلبه ، ثم لما بيّن حال المخلفين بعد قوله ﴿ إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله ﴾ [الفتح : 10] عاد إلى بيان حالهم وقال : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ الله عَنِ المؤمنين إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشجرة فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ من الصدق كما علم ما في قلوب المنافقين من المرض ﴿ فَأَنزَلَ السكينة عَلَيْهِمْ ﴾ حتى بايعوا على الموت ، وفيه معنى لطيف وهو أن الله تعالى قال قبل هذه الآية ﴿ وَمَن يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جنات ﴾ [الفتح : 17] فجعل طاعة الله والرسول علامة لإدخال الله الجنة في تلك الآية ، وفي هذه الآية بيّن أن طاعة الله والرسول وجدت من أهل بيعة الرضوان ، أما طاعة الله فالإشارة إليها بقوله ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ الله عَنِ المؤمنين ﴾ وأما طاعة الرسول فبقوله ﴿ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشجرة ﴾ بقي الموعود به وهو إدخال الجنة أشار إليه بقوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ

الله عَنِ المؤمنين ﴾ لأن الرضا يكون معه إدخال الجنة كما قال تعالى : ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جنات تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا رَضِيَ الله عَنْهُمْ ﴾ [المجادلة : 22] .

(12/714)

ثم قال تعالى : ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ والفاء للتعقيب وعلم الله قبل الرضا لأنه علم ما في قلوبهم من الصدق فرضي عنهم فكيف يفهم التعقيب في العلم ؟ نقول قوله ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ متعلق بقوله ﴿ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشجرة ﴾ كما يقول القائل فرحت أمس إذ كلمت زيداً فقام إليّ ، أو إذ دخلت عليه فأكرمني ، فيكون الفرح بعد الإكرام ترتيباً كذلك ، ههنا قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ الله عَنِ المؤمنين إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشجرة فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ من الصدق إشارة إلى أن الرضا لم يكن عند المبايعة فحسب ، بل عند المبايعة التي كان معها علم الله بصدقهم ، والفاء في قوله ﴿ فَأَنزَلَ السكينة عَلَيْهِمْ ﴾ للتعقيب الذي ذكرته فإنه تعالى رضي عنهم فأنزل السكينة عليهم ، وفي علم بيان وصف المبايعة بكونها معقبة بالعلم بالصدق الذي في قلوبهم وهذا توفيق لا يتأتى إلا لمن هداه الله تعالى إلى معاني كتابه الكريم وقوله تعالى : ﴿ وأثابهم فَتْحاً قَرِيباً ﴾ هو فتح خيبر ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾ مغانمها وقيل مغانم هجر ﴿ وَكَانَ الله عَزِيزاً ﴾ كامل القدرة غنياً عن

إعانتكم إياه ﴿ حَكِيماً ﴾ حيث جعل هلاك أعدائه على أيديكم ليثيبكم عليه أو لأن في ذلك إعزاز قوم وإذلال آخرين ، فإنه يذل من يشاء بعزته ويعز من يشاء بحكمته .

وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (20)

(13/714)

إشارة إلى أن ما أتاهم من الفتح والمغانم ليس هو كل الثواب بل الجزاء قدامهم ، وإنما هي لعاجلة عجل بها ، وفي المغانم الموعود بها أقوال ، أصحها أنه وعدهم مغانم كثيرة من غير تعيين وكل ما غنموه كان منها والله كان عالماً بها ، وهذا كما يقول الملك الجواد لمن يخدمه : يكون لك مني على ما فعلته الجزاء إن شاء الله ، ولا يريد شيئاً بعينه ، ثم كل ما يأتي به ويؤتيه يكون داخلاً تحت ذلك الوعد ، غير أن الملك لا يعلم تفاصيل ما يصل إليه وقت الوعد ، والله عالم بها ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ الناس عَنْكُمْ ﴾ لإتمام المنة ، كأنه قال رزقتكم غنيمة باردة من غير مس حر القتال ولو تعبتم فيه لقلتم هذا جزاء تعبنا ، وقوله تعالى : ﴿ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ عطف على مفهوم لأنه لما قال الله تعالى : ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هذه ﴾ واللام ينبىء عن النفع كما أن علي ينبىء عن الضر القائل لا علي ولا ليا بمعنى

لا ما أتضرر به ولا ما أنتفع به ولا أضر به ولا أنفع ، فكذلك قوله ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هذه ﴾ لتنفعكم ﴿ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وفيه معنى لطيف وهو أن المغانم الموعود بها كل ما يأخذه المسلمون فقوله ﴿ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعني لينفعكم بها وليجعلها لمن بعدكم آية تدلهم على أن ما وعدهم الله يصل إليهم كما وصل إليكم ، أو نقول : معناه لتنفعكم في الظاهر وتنفعكم في الباطن حيث يزداد يقينكم إذا رأيتم صدق الرسول في إخباره عن الغيوب فتجمل أخباركم ويكمل اعتقادكم ، وقوله ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صراطا مُّسْتَقِيماً ﴾ وهو التوكل عليه والتفويض إليه والاعتزاز به .

وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (21)

(14/714)

قيل غنيمة هوازن ، وقيل غنائم فارس والروم وذكر الزمخشري في أخرى ثلاثة أوجه أن تكون منصوبة بفعل مضمر يفسره ﴿ قَدْ أَحَاطَ ﴾ و ﴿ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا ﴾ صفة لأخرى كأنه يقول وغنيمة أخرى غير مقدورة ﴿ قَدْ أَحَاطَ الله بِهَا ﴾ ثانيها : أن تكون مرفوعة ، وخبرها ﴿ قَدْ أَحَاطَ الله بِهَا ﴾ وحسن جعلها مبتدأ مع كونه نكرة لكونها موصوفة بلم تقدروا وثالثها : الجر بإضمار رب ويحتمل أن يقال منصوبة بالعطف على منصوب وفيه

وجهان أحدهما : كأنه تعالى قال : ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هذه ﴾ وأخرى ما قدرتم عليها وهذا ضعيف لأن أخرى لم يعجل بها وثانيهما : على مغانم كثيرة تأخذونها ، وأخرى أي وعدكم الله أخرى ، وحينئذ كأنه قال : وعدكم الله مغانم تأخذونها ومغانم لا تأخذونها أنتم ولا تقدرون عليها ، وإنما يأخذها من يجيء بعدكم من المؤمنين وعلى هذا تبين لقول الفرّاء حسن ، وذلك لأنه فسر قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا ﴾ أي حفظها للمؤمنين لا يجري عليها هلاك إلى أن يأخذها المسلمون كإحاطة الحراس بالخزائن .

وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (22)

وهو يصلح جواباً لمن يقول : كف الأيدي عنهم كان أمراً اتفاقياً ، ولو اجتمع عليهم العرب كما عزموا لمنعوهم من فتح خيبر واغتنام غنائمها ، فقال ليس كذلك ، بل سواء قاتلوا أو لم يقاتلوا لا ينصرون ، والغلبة واقعة للمسلمين ، فليس أمرهم أمراً اتفاقياً ، بل هو إلهي محكوم به محتوم .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً ﴾ .

قد ذكرنا مراراً أن دفع الضرر عن الشخص إما أن يكون بولي ينفع باللطف ، أو بنصير يدفع بالعنف ، وليس للذين كفروا شيء من ذلك ، وفي قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ﴾ لطيفة وهي أن من يولي دبره يطلب الخلاص من القتل بالالتحاق بما ينجيه ، فقال وليس إذا ولوا الأدبار يتخلصون ، بل بعد التولي الهلاك لاحق بهم .

سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (23)

جواب عن سؤال آخر يقوم مقام الجهاد وهو أن الطوالع لها تأثيرات ، والاتصالات لها تغيرات ، فقال ليس كذلك (بل) سنة الله نصرة رسوله ، وإهلاك عدوه .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾ .

بشارة ودفع وهن يقع بسبب وهم ، وهو أنه إذا قال الله تعالى ليس هذا بالتأثيرات فلا يجب وقوعه ، بل الله فاعل مختار ، ولو أراد أن يهلك العباد لأهلكهم ، بخلاف قول المنجم بأن الغلب لمن له طالع وشواهد تقتضي غلبته قطعاً ، فقال الله تعالى : ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾ يعني أن الله فاعل مختار يفعل ما يشاء ويقدر على إهلاك أصدقائه ، ولكن لا يبدل سنته ولا يغير عادته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 82.84 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ المؤمنين إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشجرة ﴾

هذه بيعة الرضوان ، وكانت بالحديبِية ، وهذا خبر الحديبية على اختصار : وذلك " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أقام مُنْصَرَفه من غَزْوة بني المُصْطَلِق في شوّال ، وخرج في ذي القعدة مُعْتَمِراً ، واستنفر الأعراب الذين حول المدينة فأبطأ عنه أكثرهم ، وخرج النبيّ صلى الله عليه وسلم بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن اتبعه من العرب ، وجميعهم نحو ألف وأربعمائة .

وقيل : ألف وخمسمائة .

وقيل غير هذا ، على ما يأتي .

وساق معه الْهَدْيَ ، فأحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعلم الناسُ أنه لم يخرج لحرب ، فلما بلغ خروجه قريشاً خرج جمْعُهم صادّين لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الحرام ودخول مكة ، وإنه إن قاتلهم قاتلوه دون ذلك ، وقدّموا خالد بن الوليد في خيل إلى "كُرَاع الغَمِيم" فورد الخبر بذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو "بعُسْفان" وكان المخبر له بشر بن سفيان الكَعْبِي ، فسلك طريقاً يخرج به في ظهورهم ، وخرج إلى الحديبية من أسفل مكة ، وكان دليله فيهم رجل من أسلم ، فلما بلغ ذلك خيلَ قريش التي مع خالد جرت إلى قريش تُعلمهم بذلك ، فلما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية

بركت ناقته صلى الله عليه وسلم فقال الناس : خلأت ! خلأت ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "ما خَلأَتْ وما هو لها بخُلُق ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة .

لا تدعوني قريش اليوم إلى خُطّة يسألوني فيها صلة رَحِم إلا أعطيتهم إياها" .

ثم نزل صلى الله عليه وسلم هناك ؛ فقيل : يا رسول الله ، ليس بهذا الوادي ماء ! فأخرج عليه الصلاة والسلام سهماً من كِنَانته فأعطاه رجلاً من أصحابه ، فنزل في قَلِيب من تلك القُلُب فغرزه في جوفه فجاش بالماء الرَّواء حتى كفى جميع الجيش .

(17/714)

وقيل : إن الذي نزل بالسّهم في القليب ناجية بن جُنْدب بن عمير الأسلمي وهو سائق بُدْن النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ .

وقيل : نزل بالسّهم في القَليب البَراء بن عازب ، ثم جرت السُّفَراء بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين كفار قريش ، وطال التراجع والتنازع إلى أن جاء سُهيل بن عمرو العامري ، فقاضاه على أن ينصرف عليه الصلاة والسلام عامَه ذلك ، فإذا كان من قابل أتى مُعْتَمِراً ودخل هو وأصحابه مكة بغير سلاح ، حاشا السيوف في قُرَبها فيقيم بها ثلاثاً ويخرج ، وعلى أن يكون بينه وبينهم صلح عشرة أعوام ، يتداخل فيها الناس ويأمن بعضهم بعضاً ،

وعلى أن من جاء من الكفار إلى المسلمين مسلماً من رجل أو امرأة رُدّ إلى الكفار ، ومن جاء من المسلمين إلى الكفار مرتدًّا لم يردوه إلى المسلمين ؛ فعظُم ذلك على المسلمين حتى كان لبعضهم فيه كلام ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم بما علّمه الله من أنه سيجعل للمسلمين فرجاً ، فقال لأصحابه : "اصبروا فإن الله يجعل هذا الصلح سبباً إلى ظهور دينه" فأَنِس الناس إلى قوله هذا بعد نفار منهم ، وأَبَى سهيل بن عمرو أن يكتب في صدر صحيفة الصلح : من محمد رسول الله ، وقالوا له : لو صدقناك بذلك ما دفعناك عما تريدا فلا بد أن تكتب : باسمك اللهم .

فقال لعليّ وكان يكتب صحيفة الصلح : "امح يا عليّ ، واكتب باسمك اللهم" فأبى عليّ أن يمحو بيده "محمد رسول الله" .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اعرضه عليّ" فأشار إليه فمحاه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ، وأمره أن يكتب "من محمد بن عبد الله" "

وأتى أبو جَنْدل بن سهيل يومئذ بأثر كتاب الصلح وهو يَرْسُف في قيوده ، فرده رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبيه ؛ فعظُم ذلك على المسلمين ، فأخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبر أبا جندل "أنّ الله سيجعل له فرجاً ومخرجاً" .

(18/714)

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الصلح قد بعث عثمان بن عفان إلى مكة رسولاً ، فجاء خبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن أهل مكة قتلوه ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ إلى المبايعة له على الحرب والقتال لأهل مكة ؛ فرُوِي أنه بايعهم على الموت .

وروي أنه بايعهم على ألاَّ يَفِرّوا .

وهي بيعة الرضوان تحت الشجرة ، التي أخبر الله تعالى أنه رضي عن المبايعين لرسول الله صلى الله عليه وسلم تحتها .

وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم لا يدخلون النار .

وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيمينه على شماله لعثمان ؛ فهو كمن شهدها .

وذكر وكيع عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي قال : أوّل من بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية أبو سفيان الأسدي .

وفي صحيح مسلم عن أبي الزبير عن جابر قال : كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة ؛ فبايعناه وعمر آخِذ بيده تحت الشجرة وهي سَمُرَة ، وقال : بايعناه على ألاّ نفرّ ولم نبايعه على الموت

وعنه أنه سمع جابراً يسأل : كم كانوا يوم الحديبية ؟ قال : كنا أربع عشرة مائة ؛ فبايعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهي سَمُرة ؛ فبايعناه ، غيرَ جدّ بن قيس الأنصاري اختبأ

تحت بطن بعيره .

وعن سالم بن أبي الجَعْد قال : سألت جابر بن عبد الله عن أصحاب الشجرة .

فقال : لو كنا مائةَ ألفٍ لكفانا ، كنا ألفاً وخمسمائة .

وفي رواية : كنا خمس عشرة مائة .

وعن عبد الله بن أبي أَوْفى قال : كان أصحاب الشجرة ألفاً وثلثمائة ، وكانت أسْلَم ثُمُن المهاجرين .

وعن يزيد بن أبي عبيد قال : قلت لسلمة : على أي شيء بايعتم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ؟ قال : على الموت .

(19/714)

وعن البَرَاء بن عازب قال : كتب عليٌّ رضي الله عنه الصلح بين النبيّ صلى الله عليه وسلم وبين المشركين يوم الحديبية ؛ فكتب : هذا ما كاتب عليه محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالوا : لا تكتب رسول الله ، فلو نعلم أنك رسول الله لم نقاتلك .

فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم لعليّ : "امحه" .

فقال : ما أنا بالذي أمحاه ؛ فمحاه النبيّ صلى الله عليه وسلم بيده .

وكان فيما اشترطوا : أن يدخلوا مكة فيقيموا فيها ثلاثاً ، ولا يدخلها بسلاح إلا جُلُبّان السلاح.

قلت لأبي إسحاق : وما جُلُبّان السلاح؟ قال : القراب وما فيه .

وعن أنس : " أن قريشاً صالحوا النبيّ صلى الله عليه وسلم فيهم سهيل بن عمرو ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم لعليّ : "اكتب بسم الله الرحمن الرحيم" فقال سهيل بن عمرو : أما باسم الله ، فما ندري ما بسم الله الرحمن الرحيم ! ولكن اكتب ما نعرف : باسمك اللّهُم .

فقال : "اكتب من محمد رسول الله" قالوا : لو علمنا أنك رسوله لاتّبعناك ! ولكن اكتب اسمك واسم أبيك .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "اكتب من محمد بن عبد الله" فاشترطوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم : أن من جاء منكم لم نردّه عليكم ، ومن جاءكم منا رددتموه علينا .

فقالوا : يا رسول الله ، أنكتب هذا قال : "نعم إنه مَن ذهب منا إليهم فأبعده الله ومن جاءنا منهم فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً" " وعن أبي وائل قال : قام سهل بن حُنيف يوم صِفِّين فقال يا أيها الناس ، اتهموا أنفسَكم ، لقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين .

فجاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، ألسنا على حق وهم على باطل ؟ قال "بلى" قال : أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ قال "بلى" قال ففيم نعطي الدِّنِيّة في ديننا ونرجعُ ولمّا يحكم الله بيننا وبينهم ؟ فقال " يا بن الخطاب إني رسول الله ولن يُضَيِّعَني الله أبداً " قال : فانطلق عمر ، فلم يصبر مُتَغَيِّظاً فأتى أبا بكر فقال : يا أبا بكر ، ألسنا على حق وهم على باطل ؟ قال بلى ؛ قال : أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ قال بلى .

قال : فعلام نعطي الدِّنِيّة في ديننا ونرجع ولمّا يحكم الله بيننا وبينهم ؟ فقال : يا بن الخطاب ، إنه رسول الله ولن يُضيعه الله أبداً .

قال : فنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفتح ؛ فأرسل إلى عمر فأقرأه إياه ، فقال : يا رسول الله ، أوَفَتْحٌ هو ؟ قال "نعم" .

فطابت نفسه ورجع .

قوله تعالى : ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ من الصدق والوفاء ؛ قاله الفراء .

وقال ابن جريج وقتادة : من الرضا بأمر البيعة على ألا يفرّوا .

وقال مقاتل : من كراهة البيعة على أن يقاتلوا معه على الموت ﴿ فَأَنزَلَ السكينة عَلَيْهِمْ ﴾ حتى بايعوا .

وقيل : "فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ" من الكآبة بصدّ المشركين إياهم وتخلف رؤيا النبيّ صلى الله عليه وسلم عنهم ؛ إذا رأى أنه يدخل الكعبة ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما ذلك رؤيا منام " وقال الصدّيق : لم يكن فيها الدخول في هذا العام .

والسكينة : الطمأنينة وسكون النفس إلى صدق الوعد .

وقيل الصبر .

﴿ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ قال قتادة وابن أبي ليلى : فتح خيبر .

وقيل فتح مكة .

وقرىء "وَآتَاهُمْ" ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾ يعني أموال خيبر ؛ وكانت خيبر ذات عقار وأموال ، وكانت بين الحديبية ومكة .

ف "مَغَانِمَ" على هذا بدل من "فَتْحاً قَرِيباً" والواو مقحمة .

(21/714)

وقيل "وَمَغَانِمَ" فارس والروم .

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ قال ابن عباس ومجاهد .

إنها المغانم التي تكون إلى يوم القيامة .

وقال ابن زيد : هي مغانم خيبر .

﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هذه ﴾ أي خيبر ؛ قاله مجاهد .

وقال ابن عباس : عجّل لكم صلح الحديبية .

﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ الناس عَنْكُمْ ﴾ يعني أهل مكة ؛ كفّهم عنكم بالصلح .

وقال قتادة : كفّ أيدي اليهود عن المدينة بعد خروج النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية وخيبر .

وهو اختيار الطبري ؛ لأن كف أيدي المشركين بالحديبية مذكور في قوله : ﴿ وَهُوَ الذي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ .

وقال ابن عباس : في "كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ" يعني عُيَيْنة بنِ حصْن الفَزَارِي وعوف بن مالك النَّضْريّ ومن كان معهما ؛ إذ جاءوا لينصروا أهل خيبر والنبي صلى الله عليه وسلم محاصر لهم ؛ فألقى الله عز وجل في قلوبهم الرعب وكَفّهم عن المسلمين ﴿ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي ولتكون هزيمتهم وسلامتكم آية للمؤمنين ؛ فيعلموا أن الله يحرسهم في مشهدهم ومَغيبهم .

وقيل : أي ولتكون كف أيدِيَهُمْ عنكم آية للمؤمنين .

وقيل : أي ولتكون هذه التي عجلها لكم آية للمؤمنين على صدقك حيث وعدتهم أن يصيبوها .

والواو في "وِلتَكُونَ" مقحمة عند الكوفيين .

وقال البصريون : عاطفة على مضمر ؛ أي وكف أيدي الناس عنكم لتشكروه ولتكون آية للمؤمنين .

﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾ أي يزيدكم هُدًى ، أو يثبّتكم على الهداية .

قوله تعالى : ﴿ وأخرى ﴾ "أُخْرَى" معطوفة على "هذِهِ" ؛ أي فعجّل لكم هذه المغانم ومغانم أخرى .

﴿ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللّهُ بِهَا ﴾ قال ابن عباس : هي الفتوح التي فتحت على المسلمين ؛ كأرض فارس والروم ، وجميع ما فتحه المسلمون .

وهو قول الحسن ومقاتل وابن أبي ليلى .

(22/714)

وعن ابن عباس أيضاً والضحاك وابن زيد وابن إسحاق : هي خيبر ، وعدها الله نبيّه قبل أن يفتحها ، ولم يكونوا يرجونها حتى أخبرهم الله بها .

وعن الحسن أيضاً وقتادة : هو فتح مكة .

وقال عكرمة : حُنين ؛ لأنه قال : "لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا" .

وهذا يدل على تقدم محاولة لها وفوات درك المطلوب في الحال كما كان في مكة؛ قاله القشيري.

وقال مجاهد: هي ما يكون إلى يوم القيامة.

ومعنى "قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا": أي أعدّها لكم؛ فهي كالشيء الذي قد أحيط به من جوانبه، فهو محصور لا يفوت، فأنتم وإن لم تقدروا عليها في الحال فهي محبوسة عليكم لا تفوتكم.

وقيل: "أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا" علم أنها ستكون لكم؛ كما قال: ﴿ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَا ﴾ [الطلاق: 12].

وقيل: حفظها الله عليكم؛ ليكون فتحها لكم.

﴿ وَكَانَ اللهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الذين كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ الأدبار ﴾ قال قتادة: يعني كفار قريش في الحديبية.

وقيل: "وَلَوْ قَاتَلَكُمُ" غَطَفان وأسد والذين أرادوا نُصرة أهل خيبر؛ لكانت الدائرة عليهم.

﴿ ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً سُنَّةَ اللهِ التي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ﴾ يعني طريقة الله وعاداته السالفة نصر أوليائه على أعدائه.

وانتصب "سُنَّةَ" على المصدر.

وقيل : "سُنَّةَ اللَّهِ" أي كسنة الله .

والسنة الطريقة والسِّيرة .

قال :

فلا تَجزَعَن من سِيرة أنت سِرْتَها . . .

فأوّلُ راضٍ سُنَّةً من يَسيرها

والسُّنة أيضاً : ضرب من تمر المدينة .

﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(23/714)

وقال الآلوسى :

ولما ذكر سبحانه حال من تخلف عن السفر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر عز وجل حال المؤمنين الخلص الذين سافروا معه عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى :

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ الله عَنِ المؤمنين إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشجرة ﴾

وهم أهل الحديبية إلا جد بن قيس فإنه كان منافقاً ولم يبايع .

(24/714)

وأصل هذه البيعة وتسمى بيعة الرضوان لقول الله تعالى فيها : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ﴾ الخ أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزل الحديبية بعث خراشاً بكسر الخاء المعجمة وفتح الراء المهملة وألف بعدها شين معجمة ابن أمية الخزاعي رسولاً إلى أهل مكة وحمله على جمل له يقال له : الثعلب يعلمهم أنه جاء معتمراً لا يريد قتالاً فلما أتاهم وكلمهم عقروا جمله وأرادوا قتله فمنعه الأحابيش فخلوا سبيله حتى أتى الرسول صلى الله عليه وسلم فدعا عمر رضي الله تعالى عنه ليبعثه فقال : يا رسول الله إن القوم قد عرفوا عداوتي لهم وغلظي عليهم وإني لا آمن وليس بمكة أحد من بني عدي يغضب لي إن أوذيت فأرسل عثمان بن عفان فإن عشيرته بها وهم يحبونه وأنه يبلغ ما أردت فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان فأرسله إلى قريش وقال : أخبرهم أنا لم نأت بقتال وإنما جئنا عماراً وادعهم إلى الإسلام وأمره عليه الصلاة والسلام أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات فيبشرهم بالفتح ويخبرهم أن الله تعالى قريباً يظهر دينه بمكة فذهب عثمان رضي الله تعالى عنه إلى قريش وكان قد لقيه أبان بن سعيد بن العاص فنزل عن دابته وحمله عليها وأجاره فأتى قريشاً فأخبرهم فقالوا له إن شئت فطف بالبيت وأما دخولكم علينا فلا سبيل إليه فقال رضي الله تعالى عنه : ما كنت لأطوف به حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحتبسوه فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين أن عثمان قد قتل فقال عليه

الصلاة والسلام : لا نبرح حتى نناجز القوم ونادى مناديه عليه الصلاة والسلام إلا أن روح القدس قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمره بالبيعة فأخرجوا على اسم الله تعالى فبايعوه فثار المسلمون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبايعوه ، قال جابر كما في "صحيح مسلم" وغيره : بايعناه صلى الله عليه وسلم على أن لا نفر ولم نبايعه على الموت .

(25/714)

وأخرج البخاري عن سلمة بن الأكوع قال : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة ، قيل : على أي شيء تبايعون يومئذ ؟ قال : على الموت ، وأخرج مسلم عن معقل بن يسار أنه كان آخذاً بأغصان الشجرة عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبايع الناس وكان أول من بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ أبا سنان وهو وهب بن محصن أخو عكاشة بن محصن ، وقيل : سنان بن أبي سنان ، وروى الأول البيهقي في "الدلائل" عن الشعبي وأنه قال للنبي عليه الصلاة والسلام : ابسط يدك أبايعك فقال النبي صلى الله عليه وسلم : علام تبايعني ؟ قال : على ما في نفسك .

وفي حديث جابر الذي أخرجه مسلم أنه قال : بايعناه عليه الصلاة والسلام وعمر رضي الله تعالى عنه آخذ بيده ، ولعل ذلك ليس في مبدأ البيعة وإلا ففي "صحيح البخاري" عن

نافع أن عمر رضي الله تعالى عنه يوم الحديبية أرسل ابنه عبد الله إلى فرس له عند رجل من الأنصار أن يأتي به ليقاتل عليه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يبايع عند الشجرة وعمر لا يدري بذلك فبايعه عبد الله ثم ذهب إلى الفرس فجاء به إلى عمر وعمر رضي الله تعالى عنه يستلئم للقتال فأخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يبايع تحت الشجرة فانطلق فذهب معه حتى بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وصح أنه صلى الله عليه وسلم ضرب بيده اليمنى على يده الأخرى وقال : هذه بيعة عثمان ولما سمع المشركون بالبيعة خافوا وبعثوا عثمان رضي الله تعالى عنه وجماعة من المسلمين وكانت عدة المؤمنين ألفاً وأربعمائة على الأصح عند أكثر المحدثين ورواه البخاري عن جابر ، وروى عن سعيد بن قتادة قال : قلت لسعيد بن المسيب بلغني أن جابر بن عبد الله كان يقول : كانوا أربع عشرة مائة فقال لي سعيد : حدثني جابر كانوا خمس عشرة مائة الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتابعه أبو داود .

(26/714)

وروى أيضاً عن عبد الله بن أوفى قال : كان أصحاب الشجرة ألفاً وثلثمائة ، وعند أبي شيبة من حديث سلمة بن الأكوع أنهم كانوا ألفاً وسبعمائة ، وجزم موسى بن عقبة بأنهم

كانوا ألفاً وستمائة ، وحكى ابن سعد أنهم ألف وخمسمائة وخمسة وعشرون ، وجمع بين الروايات بأنها بناء على عد الجميع أو ترك الأصاغر والأتباع والأوساط أو نحو ذلك ؛ وأما قول ابن إسحاق : إنهم كانوا سبعمائة فلم يوافقه أحد عليه لأنه قاله استنباطاً من من قول جابر : تنحر البدنة عن عشرة وكانوا نحروا سبعين بدنة ، وهذا لا يدل على أنهم ما كانوا نحروا غير البدن مع أن بعضهم كأبي قتادة لم يكن أحرم أصلاً ، والشجرة كانت سمرة ، والمشهور أن الناس كانوا يأتونها فيصلون عندها فبلغ ذلك عمر رضي الله تعالى عنه فأمر بقطعها خشية الفتنة بها لقرب الجاهلية وعبادة غير الله تعالى فيهم .

(27/714)

وفي "الصحيحين" من حديث طارق بن عبد الرحمن قال : انطلقت حاجاً فمررت بقوم يصلون قلت : ما هذا المسجد ؟ قالوا : هذه الشجرة حيث بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته فقال : حدثني أبي أنه كان ممن بايع رسول الله عليه الصلاة والسلام تحت الشجرة قال : فلما كان من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها ثم قال سعيد : إن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لم يعلموها وعلمتموها أنتم فأيكم أعلم ، والرضا يقابل السخط وقد يستعمل بعن والباء ويعدي بنفسه وهو مع

عن إنما يدخل على العين لا المعنى ولكن باعتبار صدور معنى منه يوجب الرضا وما في الآية من هذا القسم ، والمعنى الموجب للرضا فيها هو المبايعة ، وإذا ذكر مع العين معنى الباء فقيل رضيت عن زيد بإحسانه كانت الباء للسببية وجاز أن تكون صلة وتتعين للسببية مع مقابلة نحو سخطت عليه بإساءته وهو مع الباء نحو رضيت به يجب دخوله على المعنى إلا إذا دخل على الذات تمهيداً للمعنى ليكون أبلغ فتقول رضيت بقضاء الله تعالى ورضيت بالله تعالى رباً وقاضياً ، وإذا عدى بنفسه جاز دخوله على الذات نحو رضيت زيداً وإن كان باعتبار المعنى تنبيهاً على أن كله مرضي بتلك الخصلة ، وفيه مبالغة ، وجاز دخوله على المعنى كرضيت إمارة فلان ، والأول أكثر استعمالاً ، وإذا استعمل مع اللام تعدى بنفسه كقولك : رضيت لك التجارة ، وفيه تجوز إما لجعل الرضا مجازاً عن الاستحماد وإما لأنك جعلت كونه مرضياً له بمنزلة كونه مرضياً لك مبالغة في أنه في نفسه مرضي محمود وإنك تختار له ما تختار لنفسك وهذا أبلغ ، ثم هو في حق الحق تعالى شأنه محال عند الخلف قالوا : لأنه سبحانه لا تحدث له صفة عقيب أمر البتة ، فهو عندهم مجاز إما من أسماء الصفات إذا فسر بإرادة أن يثيبهم إثابة من رضي عمن تحت يده ، وأما من أسماء الأفعال إذا فسر بالإثابة وكذا إذا أريد الاستحماد ؛ وفي "البحر" أن العامل بإذ في

الآية هو رضي وهو هنا بمعنى إظهار النعم عليهم فهو صفة فعل لا صفة ذات ليتقيد بالزمان ، وأنت تعلم أن السلف لا يؤولون مثل ذلك ويثبتونه له تعالى على الوجه اللائق به سبحانه ويصرفون الحدوث الذي يستدعيه التقييد بالزمان إلى التعلق ، ثم إن تقييد الرضا بزمان المبايعة يشعر بعليتها له فلا حاجة إلى جعل إذ للتعليل ، والتعبير بالمضارع لاستحضار صورة المبايعة ، وقوله سبحانه : ﴿ تَحْتَ الشجرة ﴾ إما متعلق بيبايعونك أو بمحذوف هو حال من مفعوله ، وفي التقييد بذلك إشارة إلى مزيد وقع تلك المبايعة وإنها لم تكن عن خوف منه عليه الصلاة والسلام ولذا استوجب رضا الله تعالى الذي لا يعادله شيء ويستتبع ما لا يكاد يخطر على بال ويكفي فيما ترتب على ذلك ما أخرج أحمد عن جابر .

ومسلم عن أم بشر عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة "

وقد قال عليه الصلاة والسلام ذلك عند حفصة فقالت : بلى يا رسول الله فانتهرها فقالت : ﴿ وَإِن مّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ [مريم : 71] فقال عليه الصلاة والسلام قد قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجّى الذين اتقوا وَّنَذَرُ الظالمين فِيهَا جِثِيّاً ﴾ [مريم : 72] .

وصح برواية الشيخين وغيرهما في أولئك المؤمنين من حديث جابر أنه صلى الله عليه

وسلم قال لهم : " أنتم خير أهل الأرض " فينبغي لكل من يدعي الإسلام حبهم وتعظيمهم والرضا عنهم وإن كان غير ذلك لا يضرهم بعد رضا الله تعالى عنهم ، وعثمان منهم بل كان يد رسول الله صلى الله عليه وسلم له رضي الله تعالى عنه كما قال أنس خيراً من أيديهم أنفسهم ﴿ فَعَلَىَّ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ أي من الصدق والإخلاص في مبايعتهم ، وروى نحو ذلك عن قتادة .

وابن جريج .

وعن الفراء ، وقال الطبري .

ومنذر بن سعيد : من الايمان وصحته وحب الدين والحرص عليه ، وقيل : من الهم والأنف من لين الجانب للمشركين وصلحهم ، واستحسنه أبو حيان والأول عندي أحسن .

(29/714)

وهو عطف على ﴿ يُبَايِعُونَكَ ﴾ لما عرفت من أنه بمعنى بايعوك ، وجوز عطفه على ﴿ رّضِىَ ﴾ بتأويله بظهر علمه فيصير مسبباً عن الرضا مترتباً عليه ﴿ فَأَنزَلَ السكينة عَلَيْهِمْ ﴾ أي الطمأنينة والأمن وسكون النفس والربط على قلوبهم بالتشجيع ، وقيل :

بالصلح وليس بذاك ، والظاهر أنه عطف على ﴿ عِلْمٍ ﴾ .

وفي الإرشاد أنه عطف على ﴿ رَضِيَ ﴾ وظاهر كلام أبي حيان الأول وحيث استحسن تفسير ما في القلوب بما سمعت آنفاً قال : إن السكينة هنا تقرير قلوبهم وتذليلها لقبول أمر الله تعالى ، وقال مقاتل : فعلم الله ما في قلوبهم من كراهة البيعة على أن يقاتلوا معه صلى الله عليه وسلم على الموت فأنزل السكينة عليهم حتى بايعوا وتفسر ﴿ السكينة ﴾ بتذليل قلوبهم ورفع كراهة البيعة عنها ، ولعمري أن الرجل لم يعرف للصحابة رضي الله تعالى عنهم حقهم وحمل كلام الله تعالى على خلاف ظاهره ﴿ وأثابهم فَتْحاً قَرِيباً ﴾ قال ابن عباس .

وعكرمة .

وقتادة .

وابن أبي ليلى .

وغيرهم : هو فتح خيبر وكان غب انصرافهم من الحديبية ، وقال الحسن : فتح هجر ، والمراد هجر البحرين وكان فتح في زمانه صلى الله عليه وسلم بدليل كتابه إلى عمرو بن حزم في الصدقات والديات .

وفي "صحيح البخاري" أنه صلى الله عليه وسلم صالح أهل البحرين وأخذ الجزية من مجوس هجر والفتح لا يستدعي سابقة الغزو كما علمت مما سبق في تفسيره فسقط قول

الطيبي معترضاً على الحسن : إنه لم يذكر أحد من الأئمة أنه صلى الله عليه وسلم غزا هجراً .

نعم إطلاق الفتح على مثل ذلك قليل غير شائع بل قيل هو معنى مجازي له ، وقيل : هو فتح مكة والقرب أمر نسبي ، وقرأ الحسن .

ونوح القاري ﴿ وأتاهم ﴾ أي أعطاهم .

﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾ هي مغانم خيبر كما قال غير واحد ، وقسمها عليه الصلاة والسلام كما في حديث أحمد .

وأبي داود .

والحاكم .

(30/714)

وصححه عن مجمع بن جارية الأنصاري فأعطى للفارس سهمين وكان منهم ثلثمائة فارس وللراجل سهماً ، وقيل : مغانم هجر ، وقرأ الأعمش .

وطلحة .

ورويس عن يعقوب ، ودلبة عن يونس عن ورش .

وأبو دحية .

وسقلاب عن نافع .

والانطاكي عن أبي جعفر ﴿ تَأْخُذُونَهَا ﴾ بالتاء الفوقية والالتفات إلى الخطاب لتشريفهم في الامتنان ﴿ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً ﴾ غالباً ﴿ حَكِيماً ﴾ مراعياً لمقتضى الحكمة في أحكامه تعالى وقضاياه جل شأنه .

﴿ وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً ﴾

هي على ما قال ابن عباس .

ومجاهد .

وجمهور المفسرين ما وعد الله تعالى المؤمنين من المغانم إلى يوم القيامة ﴿ تَأْخُذُونَهَا ﴾ في أوقاتها المقدرة لكل واحدة منها ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هذه ﴾ أي مغانم خيبر ﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ الناس عَنْكُمْ ﴾ أيدي أهل خيبر وحلفائهم من بني أسد .

وغطفان حين جاءوا لنصرتهم فقذف الله تعالى في قلوبهم الرعب فنكصوا ، وقال مجاهد : كف أيدي أهل مكة بالصلح ، وقال الطبري : كف اليهود عن المدينة بعد خروج الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية وإلى خيبر ، وقال زيد بن أسلم وابنه .

المغانم الكثيرة الموعودة مغانم خيبر والمعجلة البيعة والتخلص من أمر قريش بالصلح ، والجمهور على ما قدمناه ، والمناسبة لما مر من ذكر النبي صلى الله عليه وسلم بطريق الخطاب وغيره بطريق الغيبة كقوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ المؤمنين إِذْ يُبَايِعُونَكَ ﴾ [الفتح : 18] تقتضي على ما نقل عن بعض الأفاضل أن هذا جار على نهج التغليب وإن احتمل تلوين الخطاب فيه ، وذكر الجلبي في قوله تعالى : ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هذه ﴾ الخ إنه إن كان نزولها بعد فتح خيبر كما هو الظاهر لا تكون السورة بتمامها نازلة في مرجعه صلى الله عليه وسلم من الحديبية وإن كان قبله على أنها من الأخبار عن الغيب فالإشارة بهذه لتنزيل المغانم منزلة الحاضرة المشاهدة والتعبير بالمضي للتحقق انتهى ، واختير الشق الأولى ، وقولهم : نزلت في مرجعه عليه الصلاة والسلام من الحديبية باعتبار الأكثر أو على ظاهره لكن يجعل المرجع اسم زمان ممتد .

وتعقب بأن ظاهر الأخبار يقتضي عدم الامتداد وأنها نزلت من أولها إلى آخرها بين مكة والمدينة فلعل الأولى اختيار الشق الثاني ، والإشارة بهذه إلى المغانم التي أثابها إياها المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وأثابهم فَتْحاً قَرِيباً وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾ [الفتح : 18 ، 19] وهي مغانم خيبر ، وإذا جعلت الإشارة إلى البيعة كما سمعت عن زيد وابنه وروى ذلك عن ابن عباس لم يحتج إلى تأويل نزولها في مرجعه عليه الصلاة والسلام من الحديبية ﴿

وَلِتَكُونَ ءَايَةً ﴾ الضمير المستتر ، قيل : للكف المفهوم من ﴿ الذى كَفَّ ﴾ والتأنيث باعتبار الخبر ، وقيل : للكفة فأمر التأنيث ظاهر .

(32/714)

وجوز أن يكون لمغانم خيبر المشار إليها بهذه والآية الأمارة أي ولتكون أمارة للمؤمنين يعرفون بها أنهم من الله تعالى بمكان أو يعرفون بها صدق الرسول صلى الله عليه وسلم في وعده إياهم فتح خيبر وما ذكر من المغانم وفتح مكة ودخول المسجد الحرام ، واللام متعلقة إما بمحذوف مؤخر أي ولتكون آية لهم فعل ما فعل أو بما تعلق به علة أخرى محذوفة من أحد الفعلين السابقين أي فعجل لكم هذه أو كف أيدي الناس عنكم لتنتفعوا بذلك ولتكون آية ، فالواو كما في الإرشاد على الأول اعتراضية وعلى الثاني عاطفة ، وعند الكوفيين الواو زائدة واللام متعلقة بكف أو بعجل ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ ﴾ بتلك الآية ﴿ صراطا مُّسْتَقِيماً ﴾ هو الثقة بفضل الله تعالى والتوكل عليه في كل ما تأتون وتذرون .

وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (21)

(33/714)

﴿ وأخرى ﴾ عطف على ﴿ هذه ﴾ في ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هذه ﴾ [الفتح : 20] فكأنه قيل فعجل لكم هذه المغانم وعجل لكم مغانم أخرى وهي مغانم هوازن في غزوة حنين ، والتعجيل بالنسبة إلى ما بعد فيجوز تعدد المعجل كالابتداء بشيئين ، وقوله تعالى : ﴿ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا ﴾ في موضع الصفة ووصفها بعدم القدرة عليها لما كان فيها من الجولة قبل ذلك لزيادة ترغيبهم فيها ، وقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا ﴾ في موضع صفة أخرى لأخرى مفيدة لسهولة تأتيها بالنسبة إلى قدرته عز وجل بعد بيان صعوبة منالها بالنظر إلى قدرتهم ، والأحاطة مجاز عن الاستيلاء التام أي قد قدر الله تعالى عليها واستولى فيه في قبض قدرته تعالى يظهر عليها من أراد ، وقد أظهركم جل شأنه عليها وأظفركم بها ، وقيل : مجاز عن الحفظ أي قد حفظها لكم ومنعها من غيركم ، والتذييل بقوله سبحانه : ﴿ وَكَانَ اللهُ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيراً ﴾ أوفق بالأول ، وعموم قدرته تعالى لكونها مقتضى الذات فلا يمكن أن تتغير ولا أن تتخلف وتزول عن الذات بسبب ما كما تقرر في موضعه ، فتكون نسبتها إلى جميع المقدورات على سواء من غير اختصاص ببعض منها دون بعض وإلا كانت متغايرة بل مختلفة ، وجوز كون ﴿ أخرى ﴾ منصوبة بفعل يفسره قد أحاط الله بها مثل قضى .

وتعقب بأن الأخبار بقضاء الله تعالى بعد اندراجها في جملة الغنائم الموعود بها بقوله تعالى : ﴿ وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ [الفتح : 20] ليس فيه مزيدة فائدة وإنما الفائدة في بيان تعجيلها ، وأورد عليه أن المغانم الكثيرة الموعودة ليست معينة ليدخل فيها الأخرى ، ولو سلم فليس المقصودة بالإفادة كونها مقضية بل ما بعده فتدبر ، وجوز كونها مرفوعة بالابتداء والجملة بعدها صفة وجملة قد أحاط الخ خبرها ، واستظهر هذا الوجه أبو حيان ، وقال بعض الخبر محذوف تقديره ثمت أو نحوه ، وجوز الزمخشري كونها مجرورة باضمار رب كما في قوله :

وليل كموج البحر أرخى سدوله . . .

وتعقبه أبو حيان بأن فيه غرابة لأن رب لم تأت في القرآن العظيم جارة مع كثرة ورود ذلك في كلام العرب فكيف تضمر هنا ، وأنت تعلم أن مثل هذه الغرابة لا تضر ، هذا وتفسير الأخرى بمغانم هوازن قد أخرجه عبد بن حميد عن عكرمة عن ابن عباس واختاره غير واحد ، وقال قتادة .

والحسن : هي مكة وقد حاولوها عام الحديبية ولم يدركوها فأخبروا بأن الله تعالى

سيظفرهم بها ويظهرهم عليها ، وفي رواية أخرى عن ابن عباس .

والحسن ، ورويت عن مقاتل أنها بلاد فارس والروح وما فتحه المسلمون ، وهو غير ظاهر على تفسير المغانم الكثيرة الموعودة فيما سبق بما وعد الله تعالى به المسلمين من المغانم إلى يوم القيامة ، وأيضاً تعقبه بعضهم بأن ﴿ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا ﴾ يشعر بتقدم محاولة لتلك البلاد وفوات دركها المطلوب مع أنه لم تتقدم محاولة .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال : هي خيبر ، وروى ذلك عن الضحاك .

وإسحق .

وابن زيد أيضاً ، وفيه خفاء فلا تغفل .

(35/714)

﴿ وَلَوْ قاتلكم الذين كفَرُواْ ﴾ أي من أهل مكة ولم يصالحوكم كما روى عن قتادة ، وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنهم حليفا أهل خيبر أسد : وغطفان ، وقيل : اليهود وليس بذاك ﴿ لَوَلَّوُاْ الادبار ﴾ أي لانهزموا فتولية الدبر كناية عن الهزيمة ﴿ ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيّاً ﴾ يحرسهم ، وذكر الخفاجي أن الحارس أحد معاني الولي ، وتفسيره هنا بذلك بمناسبته

للمنهزم ، وقال الراغب : كل من ولي أمر آخر فهو وليه ، وعليه فالحارس ولي لأنه يلي أمر المحروس ، والتنكير للتعميم أي لا يجدون فرداً ما من الأولياء ﴿ وَلاَ نَصِيراً ﴾ ولا فرداً ما من الناصرين ينصرهم ، وقال الإمام : أريد : بالولي من ينفع باللطف وبالنصير من ينفع بالعنف .

﴿ سُنَّةَ اللهِ التى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ﴾ نصب على المصدرية بفعل محذوف أي سن سبحانه غلبة أنبيائه عليهم السلام سنة قديمة فيمن مضى من الأمم كما قال سبحانه : ﴿ لاَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِى ﴾ [المجادلة : 12] على ما هو المتبادر من معناه ، ولعل المراد أن سنته تعالى أن تكون العاقبة لأنبيائه عليهم السلام لا أنهم كلما قاتلوا الكفار غلبوهم وهزموهم ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾ تغييراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(36/714)

وقال ابن عاشور :

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾

عود إلى تفصيل ما جازى الله به أصحاب بيعة الرضوان المتقدم إجماله في قوله : ﴿ إن

الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ﴾ [الفتح : 10] ، فإن كون بيعتهم الرسول صلى الله عليه وسلم تعتبر بيعة لله تعالى أوْمأ إلى أن لهم بتلك المبايعة مكانة رفيعة من خير الدنيا والآخرة ، فلما قطع الاسترسال في ذلك بما كان تحذيراً من النكث وترغيباً في الوفاء ، بمناسبة التضاد وذكر ما هو وسط بين الحالين وهو حال المخلَّفين ، وإبطال اعتذارهم وكشف طويتهم ، وإقصائهم عن الخير الذي أعده الله للمبايعين وأرجائهم إلى خير يسنح من بعدُ إن هم صدقوا التوبة وأخلصوا النية .

فقد أنال الله المبايعين رضوانَه وهو أعظم خير في الدنيا والآخرة قال تعالى : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ [التوبة : 72] والشهادة لهم بإخلاص النية ، وإنزاله السكينة قلوبهم ووعدهم بثواب فتح قريب ومغانم كثيرة .

وفي قوله : ﴿ عن المؤمنين إذ يبايعونك ﴾ إيذان بأن من لم يبايع ممن خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم ليس حينئذٍ بمؤمن وهو تعريض بالجدّ بن قيس إذ كان يومئذٍ منافقاً ثم حَسن إسلامه .

وقد دعيت هذه البيعة بيعةَ الرضوان من قوله تعالى : ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ .

و﴿ إذ يبايعونك ﴾ ظرف متعلّق بـ ﴿ رضي ﴾ ، وفي تعليق هذا الظرف بفعل الرضى ما يفهم أن الرضى مسبب عن مفاد ذلك الظرف الخاص بما أضيف هو إليه ، مع ما يعطيه

توقيت الرضى بالظرف المذكور من تعجيل حصول الرضى بحدثان ذلك الوقت ، ومع ما في جعل الجملة المضاف إليها الظرفُ فِعليةً مضارعيّةً من حصول الرضى قبل انقضاء الفعل بل في حال تجدده .

(37/714)

فالمضارع في قوله ﴿ يبايعونك ﴾ مستعمل في الزمان الماضي لاستحضار حالة المبايعة الجليلة ، وكون الرضى حصل عند تجديد المبايعة ولم ينتظر به تمامها ، فقد علمت أن السورة نزلت بعد الانصراف من الحديبية .

والتعريف في ﴿ الشجرة ﴾ تعريف العهد وهي : الشجرة التي عهدها أهل البيعة حين كان النبي صلى الله عليه وسلم جالساً في ظلها ، وهي شجرة من شجر السَّمُر بفتح السين المهملة وضم الميم وهو شجر الطلح .

وقد تقدم أن البيعة كانت لما أُرجف بقتل عثمان بن عفان بمكة فعن سلمة بن الأكوع وعبد الله بن عمر ، يزيدُ أحدهما على الآخر "بينما نحن قائلون يوم الحديبية وقد تفرق الناس في ظلال الشجر إذ نادى عمر بن الخطاب : أيها الناس البيعةَ البيعةَ ، نَزَل روحُ القدُس فاخرُجوا على اسم الله وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي دعا الناس إلى

البيعة فثار الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تحت الشجرة فبايعوه كلهم إلا الجدَّ بن قيس" .

وعن جابر بن عبد الله بعدَ أن عمي لو كنت أبصر لأريتكم مكان الشجرة .

وتواتر بين المسلمين علم مكان الشجرة بصلاة الناس عند مكانها .

وعن سعيد بن المسيب عن أبيه المسيب أنه كان فيمن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة قال : فلما خرجنا من العام المقبل أي في عمرة القضية نسيناها فلم نقدر عليها وعن طارق بن عبد الرحمان قال : انطلقت حاجا فمررت بقوم يصلون قلت : ما هذا المسجد ؟ قالوا : هذه الشجرة حيث بايع رسولُ الله بيعة الرضوان .

فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته فقال سعيد : إن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لم يعلموها وعلمتموها أنتم أفأنتم أعلم" .

(38/714)

والمراد بقول طارق : ما هذا المسجد : مكانُ السجود ، أي الصلاة ، وليس المراد البيت الذي يبني للصلاة لأن البناء على موضع الشجرة وقع بعد ذلك الزمن فهذه الشجرة كانت معروفة للمسلمين وكانوا إذا مروا بها يصلون عندها تيمنا بها إلى أن كانت خلافة عمر فأمر

بقطعها خشية أن تكون كذاتِ أنواط التي كانت في الجاهلية ، ولا معارضة بين ما فعله المسلمون وبين ما رواه سعيد بن المسيب عن أبيه أنه وبعض أصحابه نسوا مكانها لأن الناس متفاوتون في توسُّم الأمكنة واقتفاء الآثار .

والمروي أن الذي بنى مسجداً على مكان الشجرة أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي ولكن في المسجد المذكور حجر مكتوب فيه "أمر عبد الله أمير المؤمنين أكرمه الله ببناء هذا المسجد مسجد البيعة وأنه بني سنة أربع وأربعين ومائتين ، وهي توافق مدة المتوكّل جعفر بن المعتصم وقد تخرب فجدده المستنصر العباسي سنة 629 ثم جدده السلطان محمود خان العثماني سنة 1254 وهو قائم إلى اليوم .

وذكر ﴿ تحت الشجرة ﴾ لاستحضار تلك الصورة تنويهاً بالمكان فإن لذكر مواضع الحوادث وأزمانها معاني تزيد السامع تصوراً ولما في تلك الحوادث من ذكرى مثل مواقع الحروب والحوادث كقول عبد الله بن عباس "ويوم الخميس وما يوم الخميس اشتد برسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه" الحديث .

ومواقع المصائب وأيامها .

و﴿ إذ ﴾ ظرف يتعلق بفعل ﴿ رضي ﴾ ، أي رضي الله عنهم في ذلك الحين .

وهذا رضى خاص ، أي تعلّق رضى الله تعالى عنهم بتلك الحالة .

والفاء في قوله : ﴿ فعلم ما في قلوبهم ﴾ ليست للتعقيب لأن علم الله بما في قلوبهم ليس

عقب رضاه عنهم ولا عقب وقوع بيعتهم فتعين أن تكون فاء فصيحة تفصح عن كلام مقدر بعدها .

والتقدير : فلما بايعوك علم ما في قلوبهم من الكآبة ، ويجوز أن تكون الفاء لتفريع الأخبار بأن الله علم ما في قلوبهم بعد الإخبار برضى الله عنهم لما في الإخبار بعلمه ما في قلوبهم من إظهار عنايته بهم .

(39/714)

ويجوز أن يكون المقصود من التفريع قوله : ﴿ فأنزل السكينة عليهم ﴾ ويكون قوله : ﴿ فعلم ما في قلوبهم ﴾ توطئة له على وجه الاعتراض .

والمعنى : لقد رضي الله عن المؤمنين من أجل مبايعتهم على نصرك فلما بايعوا وتحفزوا لقتال المشركين ووقع الصلح حصلت لهم كآبة في نفوسهم فأعلمهم الله أنه اطلع على ما في قلوبهم من تلك الكآبة ، وهذا من علمه الأشياء بعد وقوعها وهو من تعلق علم الله بالحوادث بعد حدوثها ، أي علمه بأنها وقعت وهو تعلق حادث مثل التعلقات التنجيزية .

والمقصود بإخبارهم بأن الله علم ما حصل في قلوبهم الكآبة عن أنه قَدَر ذلك لهم وشكرهم على حبهم نصر النبي صلى الله عليه وسلم بالفعل ولذلك رتب عليه قوله : ﴿ فأنزل

السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ .

والسكينة هنا هي : الطمأنينة والثقة بتحقيق ما وعدهم الله من الفتح والارتياض على ترقبه دون حسرة فترتب على علمه ما في قلوبهم إنزاله السكينة عليهم ، أي على قلوبهم فعبر بضميرهم عوضاً عن ضمير ﴿ قلوبهم ﴾ لأن قلوبهم هي نفوسهم .

وعطف ﴿ أثابهم ﴾ على فعل ﴿ رضي اللَّه ﴾ .

ومعنى أثابهم : أعطاهم ثواباً ، أي عوضاً ، كما يقال في هبة الثواب ، أي عوضهم عن المبايعة بفتح قريب .

والمراد : أنه وعدهم بثواب هو فتح قريب ومغانم كثيرة ، ففعل ﴿ أثابهم ﴾ مستعمل في المستقبل .

وهذا الفتح هو فتح خيبر فإنه كان خاصاً بأهل الحديبية وكان قريباً من يوم البيعة بنحو شهر ونصف .

والمغانم الكثيرة المذكورة هنا هي : مغانم أرض خيبر والأنعام والمتاع والحوائط فوصفت بـ ﴿ كثيرة ﴾ لتعدّد أنواعها وهي أول المغانم التي كانت فيها الحوائط .

وفائدة وصف المغانم بجملة ﴿ يأخذونها ﴾ تحقيق حصول فائدة هذا الوعد لجميع أهل البيعة قبل أن يقع بالفعل ففيه زيادة تحقيق لكون الفتح قريباً وبشارةٌ لهم بأنهم لا يهلك منهم أحد قبل رؤية هذا الفتح .

وجملة ﴿ وكان اللَّه عزيزاً حكيماً ﴾ معترضة ، وهي مفيدة تذييل لجملة ﴿ وأثابهم فتحاً قريباً ومغانم كثيرة يأخذونها ﴾ لأن تيسير الفتح لهم وما حصل لهم فيه من المغانم الكثيرة من أثر عزة الله التي لا يتعاصى عليها شيء صعب ، ومن أثر حكمته في ترتيب المسببات على أسبابها في حالة ليظن الرائي أنها لا تيسّر فيها أمثالها .

﴿ وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ ﴾

هذه الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً نشأ عن قوله : ﴿ وأثابهم فتحاً قريبا ومغانم كثيرة يأخذونها ﴾ [الفتح : 18 ، 19] إذ علم أنهُ فتحُ خيبر ، فحق لهم ولغيرهم أن يخطر ببالهم أن يترقبوا مغانم أخرى فكان هذا الكلام جواباً لهم ، أي لكم مغانم أخرى لا يُحرم منها من تخلفوا عن الحديبية وهي المغانم التي حصلت في الفتوح المستقبلة .

فالخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم وللمسلمين تبعاً للخطاب الذي في قوله : ﴿ إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ [الفتح : 18] وليس خاصاً بالذين بايعوا .

والوعد بالمغانم الكثيرة واقع في ما سبق نزوله من القرآن وعلى لسان الرسول صلى الله عليه وسلم مما بلغه إلى المسلمين في مقامات دعوته للجهاد .

ووصف ﴿ مغانم ﴾ بجملة ﴿ تأخذونها ﴾ لتحقيق الوعد .

وبناء على ما اخترناه من أن هذه السورة نزلت دفعة واحدة يكون فعل ﴿ فعجّل ﴾ مستعملاً في الزمن المستقبل مجازاً تنبيهاً على تحقيق وقوعه ، أي سيعجل لكم هذه .

وإنما جعل نوالهم غنائم خيبر تعجيلاً ، لقرب حصوله من وقت والوعد به .

ويحتمل أن يكون تأخّر نزول هذه الآية إلى ما بعد فتح خيبر على أنها تكملة لآية الوعد التي قبلها ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بوضعها عقبها وقد أشرنا إلى ذلك في الكلام على أول هذه السورة ولكن هذا غير مروي .

(41/714)

والإشارة في قوله : ﴿ هذه ﴾ إلى المغانم في قوله : ﴿ ومغانم كثيرة يأخذونها ﴾ [الفتح : 19] وأشير إليها على اختلاف الاعتبارين في استعمال فعل ﴿ فعجل لكم هذه ﴾ .

﴿ هذه وكَفَّ أَيدِيَ الناس ﴾ .

امتنان عليهم بنعمة غفلوا عنها حين حزنوا لوقوع صلح الحديبية وهي نعمة السلم ، أي كف أيدي المشركين عنهم فإنهم لو واجهوهم يوم الحديبية بالقتال دون المراجعة في سبب قدومهم لرجع المسلمون بعد القتال متعبين .

ولَما تهيأ لهم فتح خيبر ، وأنهم لو اقتتلوا مع أهل مكّة لدُحِض في ذلك مؤمنون ومؤمنات كانوا في مكة كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ ولولا رجال مؤمنون ﴾ [الفتح : 25] الآية .

فالمراد بـ ﴿ الناس ﴾ : أهل مكة جرياً على مصطلح القرآن في إطلاق هذا اللفظ غالباً .

وقيل : المراد كف أيدي الأعراب المشركين من بني أسد وغطفان وكانوا أحلافاً ليهود خيبر وجاءوا لنصرتهم لما حاصر المسلمون خيبر فألقى الله في قلوبهم الرعب فنكصوا .

وقيل : إن المشركين بعثوا أربعين رجلاً ليصيبوا من المسلمين في الحديبية فأسرهم المسلمون ، وهو ما سيجيء في قوله : ﴿ وأيدِيَكم عنهم ﴾ [الفتح : 24] .

وقيل : كفّ أيدي اليهود عنكم ، أي عن أهلكم وذراريكم إذ كانوا يستطيعون أن يهجموا على المدينة في مدة غيبة معظم أهلها في الحديبية ، وهذا القول لا يناسبه إطلاق لفظ ﴿ الناس ﴾ في غالب مصطلح القرآن .

والكف : منع الفاعل من فعل أراده أو شرع فيه ، وهو مشتق من اسم الكف التي هي اليد لأن أصل المنع أن يكون دفعاً باليد ، ويقال : كف يده عن كذا ، إذا منعه من تناوله بيده .

(42/714)

وأطلق الكف هنا مجازاً على الصرف ، أي قدّر الله كف أيدي الناس عنكم بأن أوجد أسباب صرفهم عن أن يتناولوكم بضر سواء نووه أو لم ينووه ، وإطلاق الفعل على تقديره كثير في القرآن حين لا يكون للتعبير عن المعاني الإلهية فعل مناسب له في كلام العرب ، فإن اللغة بينت على متعارف الناس مخاطباتهم وطرأت معظم المعاني الإلهية بمجيء القرآن فتغير عن الشأن الإلهي بأقرب الأفعال إلى معناه .

﴿ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا ﴾ .

الظاهر أن الواو عاطفة وأن ما بعد الواو علة كما تقتضي لام كي فتعين أنه تعليل لشيء مما ذكر قبله في اللفظ أو عطف على تعليل سبقه .

فيجوز أن يكون معطوفاً على بعض التعليلات المتقدمة من قوله : ﴿ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ [الفتح : 4] أو من قوله : ﴿ ليُدخل المؤمنين والمؤمنات جنات ﴾ [الفتح : 5] وما بينهما اعتراضاً وهو وإن طال فقد اقتضته التنقلات المتناسبات .

والمعنى أن الله أنزل السكينة في قلوب المؤمنين لمصالح لهم منها ازدياد إيمانهم واستحقاقهم الجنة وتكفير سيئاتهم واستحقاق المنافقين والمشركين العذابَ ، ولتكون السكينة آية للمؤمنين ، أي عبرة لهم واستدلالاً على لطف الله بهم وعلى أن وعده لا تأويل فيه .

ومعنى كون السكينة آيةً أنها سبب آية لأنهم لما نزلت السكينة في قلوبهم اطمأنت نفوسهم فخلصت إلى التدبر والاستدلال فبانت لها آيات الله فتأنيث ضمير الفعل لأن معاده

السكينة .

ويجوز أن يكون معطوفاً على تعليل محذوف يُثَار من الكلام السابق ، حذف لتذهب نفس السامع كل مذهب ممكن في تقديره توفيراً للمعنى .

والتقدير : فعجّل لكم هذهِ لغايات وحِكم ولتكون آية .

فهو من ذكر الخاص بعد العام المقدر .

(43/714)

فالتقدير مثلاً : ليحصل التعجيل لكم بنفع عوضاً عما ترقبتموه من منافع قتال المشركين ، ولتكون هذه المغانم آية للمؤمنين منكم ومَن يعرِفون بها أنهم من الله بمكان عنايته وأنه مُوفٍ لهم ما وعدهم وضامن لهم نصرهم الموعود كما ضمن لهم المغانم القريبة والنصر القريب .

وتلك الآية تزيد المؤمنين قوة إيمان .

وضمير ﴿ لتكون ﴾ على هذه راجع إلى قوله : ﴿ هذه ﴾ على أنها المعللة .

ويجوز أن يكون الضمير للخصال التي دل عليها مجموع قوله : ﴿ فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ﴾ فيكون معنى قوله : ﴿ ولتكون آية للمؤمنين ﴾ لغايات جمة منها ما ذكر آنفاً ومنها سلامة المسلمين في وقت هم أحوج فيه إلى استبقاء قوتهم مِنْهم إلى قتال

المشركين ادخاراً للمستقبل .

وجعل صاحب "الكشاف" جملة ﴿ ولتكون آية للمؤمنين ﴾ معترضة ، وعليه فالواو اعتراضية غير عاطفة وأن ضمير ﴿ لتكون ﴾ عائداً إلى المرة من فِعل كَف : أي الكَفة .

وعطف عليه ﴿ ويهديكم صراطاً مستقيماً ﴾ وهو حكمة أخرى ، أي ليزول بذلك ما خامركم من الكآبة والحزن فتتجرد نفوسكم لإدراك الخير المحض الذي في أمر الصلح وإحالتكم على الوعد فتوقنوا أن ذلك هو الحق فتزدادوا يقيناً .

ويجوز أن يكون فعل ﴿ ويهديكم ﴾ مستعملاً في معنى الإدامة على الهدى وهو : الإيمان الحاصل لهم من قبل على حد قوله : ﴿ يا أيها الذين آمَنوا آمِنوا ﴾ [النساء : 136] على أحد تأويلين .

وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (21)

هذا من عطف الجملة على الجملة فقوله : ﴿ أخرى ﴾ مبتدأ موصوف بجملة ﴿ لم تقدروا عليها ﴾ والخبر قوله : ﴿ قد أحاط الله بها ﴾ .

ومجموع الجملة عطف على جملة ﴿ وعدكم اللَّه مغانم كثيرة ﴾ [الفتح : 20] فلفظ ﴿ أخرى ﴾ صفة لموصوف محذوف دل عليه ﴿ مغانم ﴾ الذي في الجملة قبلها ، أي هي نوع آخر من المغانم صعبة المنال ، ومعنى المغانم يقتضي غانمين فعلم أنها لهم ، أي غير التي وعدهم الله بها ، أي هذه لم يعدهم الله بها ، ولم نجعل ﴿ وأخرى ﴾ عطفا على قوله ﴿ هذه ﴾ [الفتح : 20] عطف المفرد على المفرد إذ ليس المراد غنيمة واحدة بل غنائم كثيرة .

ومعنى ﴿ لم تقدروا عليها ﴾ : أنها موصوفة بعَدم قدرتكم عليها ، فلما كانت جملة ﴿ لم تقدروا عليها ﴾ صفة ل ﴿ أخرى ﴾ لم يقتض مدلول الجملة أنهم حاولوا الحصول عليها فلم يقدروا ، وإنّما المعنى : أن صفتها عدم قدرتكم عليها فلم تتعلّق أطماعكم بأخذها .

والإحاطة بالهمز : جعل الشيء حائطاً أي حافظاً ، فأصل همزته للجعل وصار بالاستعمال قاصراً ، ومعناه : احتوى عليه ولم يترك له منصرفاً فول على شدة القدرة عليه قال تعالى : ﴿ لتأتنني به إلا أن يُحاط بكم ﴾ [يوسف : 66] أي إلا أن تغلَبوا غلباً لا تستطيعون معه الإتيان به .

فالمعنى : أن الله قدَر عليها ، أي قدر عليها فجعلها لكم بقرينة قوله قبله ﴿ لم تقدروا عليها ﴾ .

والمعنى : ومغانم أخرى لم تقدروا على نيلها قد قدر الله عليها ، أي فأنا لكُمْ إيّاها .

وإلا لم يكن لإعلامهم بأن الله قدر على ما لم يقدروا عليه جدوى لأنهم لا يجهلون ذلك ، أي أحاط الله بها لأجلكم ، وفي معنى الإحاطة إيماء إلى أنها كالشيء المحاط به من جوانبه فلا يفوتهم مكانه ، جعلت كالمخبوء لهم .

ولذلك ذُيل بقوله : ﴿ وكان اللَّه على كل شيء قديراً ﴾ إذ هو أمر مقرر في علمهم .

(45/714)

فعلم أن الآية أشارت إلى ثلاثة أنواع من المغانم : نوع من مغانم موعودة لهم قريبة الحصول وهي مغانم خيبر ، ونوع هو مغانم مرجوة كثيرة غير معين وقت حصولها ، ومنها مغانم يوم حنين وما بعده من الغزوات ، ونوع هو مغانم عظيمة لا يَخطر ببالهم نوالها قد أعدها الله للمسلمين ولعلها مغانم بلاد الروم وبلاد الفرس وبلاد البربر .

وفي الآية إيماء إلى أن هذا النوع الأخير لا يناله جميع المخاطبين لأنه لم يأت في ذكره بضميرهم ، وهو الذي تأوله عُمر في عدم قسمة سواد العراق وقرأ قوله تعالى : ﴿ والذين جاءوا من بعدهم ﴾ [الحشر : 10] .

وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (22)

هذا عطف على قوله : ﴿ وكف أيدي الناس عنكم ﴾ [الفتح : 20] على أن بعضه

متعلق بالمعطوف عليه ، وبعضه معطوف على المعطوف عليه فما بينهما ليس من الاعتراض .

والمقصود من هذا العطف التنبيه على أن كف أيدي الناس عنهم نعمة على المسلمين باستبقاء قوتهم وعدتهم ونشاطهم .

وليس الكف لدفع غلبة المشركين إياهم لأن الله قدَّر للمسلمين عاقبة النصر فلو قاتلهم الذين كفروا لهزمهم المسلمون ولم يجدوا نصيراً ، أي لم ينتصروا بجمعهم ولا بمن يعينهم .

والمراد بالذين كفروا ما أريد بالناس في قوله : ﴿ وكف أيدي الناس عنكم ﴾ .

وكان مقتضى الظاهر الإتيان بضمير الناس بأن يقال : ولو قاتلوكم ، فعدل عنه إلى الاسم الظاهر لما في الصلة من الإيماء إلى وجه بناء الخبر وهو أن الكفر هو سبب تولية الإدبار في قتالهم للمسلمين تمهيداً لقوله : ﴿ سنة اللَّه التي قد خلت من قبل ﴾ .

و﴿ الأدبار ﴾ منصوب على أنه مفعول ثان لِ ﴿ ولَّوا ﴾ ومفعوله الأول محذوف لدلالة ضمير ﴿ قاتلكم الذين كفروا ﴾ عليه .

والتقدير : لولوكم الأدبار .

وأل للعهد ، أي أدبارهم ، ولذلك يقول كثير من النحاة إن أل في مثله عوض عن المضاف إليه وهو تعويض معنوي .

والتولية : جعل الشيء والياً ، أي لجعلوا ظهورهم تَليكم ، أي ارتدوا إلى ورائهم فصُرتم وراءهم .

و﴿ ثم ﴾ للتراخي الرتبي فإن عدم وجدان الولي والنصير أشد على المنهزم من انهزامه لأن حين ينهزم قد يكون له أمل بأن يستنصر من ينجده فيكُرّ بِهِ على الذين هزموه فإذا لم يجد ولياً ولا نصيراً تحقق أنه غير منتصر وأصل الكلام لولوا الأدبار وما وجدوا ولياً ولا نصيراً .

والولي : المُوالي والصديق ، وهو أعم من النصير إذ قد يكون الوَلي غير قادر على إيواء وليه وإسعافه .

والسنة : الطريقة والعادة .

وانتصب ﴿ سنة اللَّه ﴾ نِيابة عن المفعول المطلق الآتي بدلاً من فعله لإفادة معنى تأكيد الفعل المحذوف .

والمعنى : سن الله ذلك سُنة ، أي جعله عادة له ينصر المؤمنين على الكافرين إذا كانت نية المؤمنين نصر دين الله كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ [محمد : 7] وقال : ﴿ ولينصرن الله من ينصره ﴾ [الحج : 40] ، أي أنّ الله ضمن النصر للمؤمنين بأن تكون عاقبة حروبهم نصراً وإن كانوا قد يُغلبون في بعض المواقع كما وقع يوم أحد وقد قال تعالى : ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ [القصص : 83] وقال :

﴿ والعاقبة للتقوى ﴾ [طه : 132] .

وإنما يكون كمال النصر على حسب ضرورة المؤمنين وعلى حسب الإيمان والتقوى ، ولذلك كان هذا الوعد غالباً للرسُول ومن معه فيكون النصر تاماً في حالة الخطر كما كان يوم بدر ، ويكون سجالاً في حالة السعة كما في وقعة أحد وقد دل على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر :

(47/714)

" اللهم إن تَهلِك هذه العصابة لا تعبَد في الأرض " وقال الله تعالى : ﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ [الأعراف : 128] ، ويكون لمن بعد الرسول صلى الله عليه وسلم من جيوش المسلمين على حسب تمسكهم بوصايا الرسول صلى الله عليه وسلم ففي "صحيح البخاري" عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم " يأتي زمان يغزُو فئامٌ من الناس فيقال : فيكم من صحب النبي ؟ فيقال : نعم ، فيفتحُ عليه ، ثم يأتي زمان فيُقال : فيكم من صحب أصحاب النبي ؟ فيقال : نعم فيفتح ثم يأتي زمان فيقال : فيكم من صَحِب من صَاحَبَ النبي ؟ فيقال : نعم فيُفتحُ "

ومعنى ﴿ خلت ﴾ مضت وسبقت من أقدم عصور اجتلاد الحق والباطل ، والمضاف إليه ﴿ قبلُ ﴾ محذوف نُوِي معناه دون لفظه ، أي ليس في الكلام دال على لفظه ولكن يدل عليه معنى الكلام ، فلذلك بُني ﴿ قبلُ ﴾ على الضم .

وفائدة هذا الوصف الدلالة على اطرادها وثباتها .

والمعنى : أن ذلك سنة الله مع الرسل قال تعالى : ﴿ كتب الله لأغلِبنّ أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ﴾ [المجادلة : 21] .

ولما وصف تلك السنة بأنها راسخة فيما مضى أعقب ذلك بوصفها بالتحقق في المستقبل تعميماً للأزمنة بقوله : ﴿ ولن تجد لسنة اللَّه تبديلاً ﴾ لأن اطراد ذلك النصر في مختلف الأمم والعصور وإخبارَ الله تعالى به على لسان رسله وأنبيائه يدل على أن الله أراد تأييد أحزابه فيعلم أنه لا يستطيع كائن أن يحول دون إرادة الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(48/714)

قوله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (24) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (25) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (26) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تقرر أن الكفار مغلوبون وإن قاتلوا ، وكان ذلك من خوارق العادات مع كثرتهم دائماً وقلة المؤمنين حتى يأتي أمر الله موقعاً للعلم القطعي بأنه ما دبره إلا الواحد القهار القادر المختار ، عطف عليه عجباً آخر وهو عدم تغير أهل مكة في هذه العمرة للقتال بعد تعاهدهم وتعاقدهم عليه مع ما لهم من قوة العزائم وشدة الشكائم ، فقال عاطفاً على ما تقديره : هو الذي سن هذه السنة العامة : ﴿ وهو الذي كف ﴾ أي وحده من غير معين له على ذلك ﴿ أيديهم ﴾ أي الذين كفروا من أهل مكة وغيرهم ، فإن الكل شرع واحد ﴿ عنكم وأيديكم ﴾ أيها المؤمنون ﴿ عنهم ﴾ .

ولما كان الكفار لو بسطوا أيديهم مع ما حتمه الله وسنه من تولية الكفار دخلوا مكة قال : ﴿ ببطن مكة ﴾ أي كائناً كل منكم ومنهم في داخل مكة هم حالاً وأنت مآلاً ، وعن القفال

أنه قال : يجوز أن يراد به الحديبية لأنها من الحرم – انتهى .

وعبر بالميم دون الباء كما في آل عمران إشارة إلى أنه فعل هنا ما اقتضاه مدلول هذا الاسم من الجمع والنقض والتنقية ، فسبب لهم أسباب الاجتماع والتنقية من الذنوب – بما أشارت إليه آية العمرة حالاً وآيات الفتح مآلاً ، ووفى بما يدل عليه اسمها من الأهل على خلاف القياس .

ولما كان هذا ليس مستغرقاً لجميع الزمان الآتي ، بل لا بد أن يبسط أيدي المؤمنين بها يوم الفتح ، أدخل الجار فقال تعالى : ﴿ من بعد أن أظفركم ﴾ أي أوجد فوزكم بكل ما طلبتم منهم وجعل لكم الطول والعز ﴿ عليهم ﴾ وذلك فيما رواه أصحاب .

(49/714)

السير قالوا : ودعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خراش بن أمية الخزاعي ـ رضى الله عنه ـ فبعثه إلى قريش بمكة وحمله على بعير له فقال له التغلب : ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له فعقروا جمل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأرادوا قتله ، فمنعه الأحابيش فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبعثت قريش أربعين رجلاً منهم أو خمسين وأمروهم أن يطوفوا بعسكر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليصيبوا لهم من

أصحابه أحداً فأخذوا أخذاً فأتى بهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعفا عنهم وخلى سبيلهم ، وقد كانوا رموا في عسكره بالحجارة والنبل ، ثم ذكروا إرساله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعثمان ـ رضى الله عنه ـ إلى مكة ثم إرسال قريش لسهيل بن عمرو في الصلح ، وروى مسلم في صحيحه عن سلمة بن الأكوع ـ رضى الله عنه ـ قال : لما اصطلحنا واختلط بعضنا ببعض أتيت شجرة فاضطجعت في أصلها فأتاني أربعة من المشركين من أهل مكة ، فجعلوا يقعون في النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأبغضتهم ، فتحولت إلى شجرة أخرى ، وعلقوا سلاحهم واضطجعوا ، فبينما هم كذلك إذ نادى مناد من أسفل الوادي : يا آل المهاجرين : قتل ابن زنيم ، فاخترطت سيفي ثم شددت على أولئك الأربعة وهم رقود فأخذت سلاحهم ، فجعلته ضغثاً في يدي ، ثم قلت والذي كرم وجه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ! لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجاء عمي عامر ـ رضى الله عنه ـ برجل من العبلات يقال له مكرز يقوده إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على فرس مجفف في سبعين من المشركين ، فنظر إليهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : دعوهم يكن لهم بدء الفجور وثناه ، فعفا عنهم فأنزل الله تعالى ﴿ وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ﴾ الآية – انتهى .

وروى مسلم والنسائي عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قبل التنعيم متسلحين ، يريدون غرة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ـ رضى الله عنه ـ م ، وفي رواية النسائي : قالوا : نأخذ محمداً – ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ، فأخذهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سلماً فاستحياهم فأنزل الله عز وجل ﴿ وهو الذي كف أيديهم عنكم ﴾ الآية .

ولما كان هذا ونحوه من عنف أهل مكة وغلظتهم وصلابتهم وشدتهم ورفق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولينه لهم مما أحزن أغلب الصحابة رضي الله تعالى عنهم قال تعالى يسليهم : ﴿ وكان الله ﴾ أي المحيط بالجلال والإكرام ﴿ بما يعملون ﴾ أي الكفار – على قراءة أبي عمرو بالغيب ، وأنتم – على قراءة الباقين بالخطاب في ذلك الوقت وفيما بعده كما كان قبله ﴿ بصيراً ﴾ أي محيط العلم ببواطن ذلك كما هو محيط بظواهره فهو يجريه في هذه الدار التي ربط فيها المسببات بأسبابها على أوثق الأسباب في نصركم وغلبكم لهم وقسركم ، وستعلمون ما دبره من دخولكم مكة المشرفة آمنين لا تخافون في عمرة القضاء صلحاً ثم في الفتح بجحفل جرار قد نيطت أظفار المنايا بأسنة رماحه ، وعادت كؤوس الحمام طوعاً لبيض صفاحه ، فيؤمن أكثر أهل مكة وغيرهم ممن هو الآن جاهد عليكم ، ويصيرون

أحب الناس فيكم يقدمون أنفسهم في جهاد الكفار دونكم ، فيفتح الله بكم البلاد ، ويظهركم - وهو أعظم المحامين عنكم - على سائر العباد .

(51/714)

ولما كان ما مضى من وصفهم على وجه يشمل غيرهم من جميع الكفار ، عينهم مبيناً لسبب كفهم عنهم مع استحقاقهم في ذلك الوقت للبوار والنكال والدمار فقال : ﴿ هم ﴾ أي أهل مكة ومن لافهم ﴿ الذين كفروا ﴾ أي أوغلوا في هذا الوصف بجميع بواطنهم وتمام ظواهرهم ﴿ وصدوكم ﴾ زيادة على كفرهم في عمرة الحديبية هذه ﴿ عن المسجد الحرام ﴾ أي مكة ، ونفس المسجد الحرام ، والكعبة ، للإخلال بما أنتم فيه من شعائر الإحرام بالعمرة ﴿ والهدي ﴾ أي وصدوا ما أهديتموه إلى مكة المشرفة لتذبحوه بها وتفرقوه على الفقراء ، ومنه أربعون ، وفي رواية : سبعون بدنة ، كان أهداها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ معكوفاً ﴾ أي حال كونه مجموعاً محبوساً مع رعيكم له وإصلاحه لما أهدى لأجله ﴿ أن يبلغ محله ﴾ أي الموضع الذي هو أولى المواضع لنحره ، وهو الذي إذا أطلق انصرف الذهن إليه ، وهو في العمرة المروة ، ويجوز الذبح في الحج والعمرة في أي موضع

كان من الحرم ، فالموضع الذي نحر فيه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في هذه المرة عند الإحصار ليس محله المطلق .

(52/714)

ولما كان التقدير : فلولا ما أشار إليه من ربط المسببات بأسبابها لسلطكم عليهم فغلبتموهم على المسجد وأتممتم عمرتكم على ما أردتم ، ثم عطف عليه أمراً أخص منه فقال : ﴿ ولولا رجال ﴾ أي مقيمون بين أظهر الكفار بمكة ﴿ مؤمنون ﴾ أي عريقون في الإيمان فكانوا لذلك أهلاً للوصف بالرجولية ﴿ ونساء مؤمنات ﴾ أي كذلك حبس الكل عن الهجرة العذر لأن الكفار لكثرتهم استضعفوهم فمنعوهم الهجرة ، على أن ذلك شامل لمن جبله الله على الخير وعلم منه الإيمان وإن كان في ذلك الوقت مشركاً ﴿ لم تعلموهم ﴾ أي لم يحط علمكم بهم من جميع الوجوه لتميزوهم بأعيانهم عن المشركين لأنهم ليس لهم قوة التمييز زمنهم بأنفسهم وأنتم لا تعرفون أماكنهم لتعاملوهم بما هم له أهل ولا سيما في حال الحرب والطعن والضرب ، ثم أبدل من " الرجال والنساء " قوله : ﴿ أن تطؤهم ﴾ أي تؤذوهم بالقتل أو ما يقاربه من الجراح والضرب والنهب ونحوه من الوطء الذي هو الإيقاع بالحرب منه قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

" آخر وطأة وطئها الله بوج " يكون ذلك الأذى منكم لهم على ظن أنهم مشركون أذى الدائس لمدوس وتضغطوهم وتأخذوهم أخذاً شديداً بقهر وغلبة تصيرون به لا تردون يد لامس ولا تقدرون على مدافعة ﴿ فتصيبكم ﴾ أي فيتسبب عن هذا الوطء أن يصيبكم ﴿ منهم ﴾ أي من جهتهم وبسببهم ﴿ معرة ﴾ أي مكروه وأذى هو كالحرب في انتشاره وأذاه ، وإثم وخيانة بقتال دون إذن خاص ، وبعدم الإمعان في البحث ، وغرم وكفارة ودية وتأسف وتعيير ممن لا علم له ، ثم علق بالوطء المسبب عنه إصابة المعرة إتماماً للمعنى قوله : ﴿ بغير علم ﴾ أي بأنهم من المؤمنين .

(53/714)

ولما دل السياق على أن جواب " لولا " محذوف تقديره : لسلطكم عليهم وما كف أيديكم عنهم ، ولكنه علم ذلك ، وعلم أنه سيؤمن ناس من المشركين فمن عليكم بأن رفع حرج إصابتهم بغير علم عنكم ، وسبب لكم أسباب الفتح الذي كان يتوقع بسبب تسليطكم عليهم بأمر سهل ، وكف أيديكم ولم يسلطكم عليه ﴿ ليدخل الله ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال ﴿ في رحمته ﴾ أي إكرامه وإنعامه ﴿ من يشاء ﴾ من المشركين بأن يعطفهم إلى الإسلام ، ومن المؤمنين بأن يستنقذهم منهم على أرفق وجه ، ولما كان ذلك ،

أنتج قوله تعالى : ﴿ لو تزيلوا ﴾ أي تفرقوا فزال أحد الفريقين عن الآخر زوالاً عظيماً بحيث لا يختلط صنف بغيره فيؤمن وطء المؤمنين له بغير علم ﴿ لعذبنا ﴾ أي بأيديكم بتسليطنا أبو بمجرد أيدنا من غير واسطة ﴿ الذين كفروا ﴾ أي أوقعوا ستر الإيمان .

ولما كان هذا عاماً لجميع من اتصف بالكفر من أهل الأرض ، صرح بما دل عليه السياق فقال : ﴿ منهم ﴾ أي الفريقين وهم الصادون ﴿ عذاباً أليماً ﴾ أي شديد الإيجاع بأيديكم أو من عندنا لتوصلكم إلى قصدكم من الاعتمار والظهر على الكفار ، ففيه اعتذار وتدريب على تأدب بعضهم مع بعض ، وفي الإشارة إلى بيان سر من أسرار منع الله تعالى لهم من التسليط عليهم حث للعبد على أن لا يتهم الله في قضائه فربما عسر عليه أمراً يظهر له أن السعادة كانت فيه وفي باطنه سم قاتل ، فيكون منع الله له منه رحمة في الباطن وإن كان نقمة في الظاهر ، فألزم التسليم مع الاجتهاد في الخير والحرص عليه والندم على فواته وإياك والاعتراض ، وفي الآية أيضاً أن الله تعالى قد يدفع عن الكافر لأجل المؤمن .

(54/714)

ولما بين شرط استحقاقهم للعذاب ، بين وقته ، وفيه بيان لعلته ، فقال : ﴿ إذ ﴾ أي حين ﴿ جعل الذين كفروا ﴾ أي ستروا ما تراءى من الحق في مرأى عقولهم ﴿ في قلوبهم ﴾ أي

قلوب أنفسهم ﴿ الحمية ﴾ أي المنع الشديد والأنفة والإباء الذي هو في شدة حره ونفوذه في أشد الأجسام كالسم والنار ، ولما كان مثل هذه الحمية قد تكون موجبة للرحمة بأن تكون لله ، قال مبيناً معظماً لجرمها ، ﴿ حمية الجاهلية ﴾ التي مدارها مطلق المنع أي سواء كان بحق أو بباطل ، فتمنع من الإذعان للحق ، ومبناها التشفي على مقتضى الغضب لغير الله فتوجب تخطي حدود الشرع ، ولذلك أنفوا من دخول المسلمين مكة المشرفة لزيارة البيت العتيق الذي الناس فيه سواء ، ومن الإقرار بالبسملة ، فأنتجت لهم هذه الحمية أن تكبروا عن كلمة التقوى وطاشوا وخفوا إلى الشرك الذي هو أبطل الباطل .

(55/714)

ولما كانت هذه الحمية مع الكثرة موجبة ولا بد ذل من تصوب إليه ولا سيما إن كان قليلاً ، بين دلالة على أن الأمر تابع لمشيئته لا لجاري العادة أنه تأثر عنها ضد ما تقتضيه عادة ، فقال مسبباً عن هذه الحمية : ﴿ فأنزل الله ﴾ أي الذي لا يغلبة شيء وهو يغلب كل شيء بسبب حميتهم ﴿ سكينته ﴾ أي الشيء اللائق إضافته إليه سبحانه من الفهم عن الله والروح الموجب لسكون القلب المؤثر للإقدام على العدو والنصر عليه ، إنزالاً كائناً ﴿ على رسوله ﴾ ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي عظمته من عظمته ، ففهم عن الله مراده في هذه

القضية فجرى على أتم ما يرضيه ﴿ وعلى المؤمنين ﴾ رضي الله تعالى عنهم العريقين في الإيمان لأنهم أتباع رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنصار دينه فألزمهم قبول أمره الذي فهمه عن الله وخفي عن أكثرهم حتى فهمتموه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند نزول سورة محمد وحماهم عن همزات الشياطين ، ولم يدخلهم ما دخل الكفار من الحمية ليقاتلوا غضباً لأنفسهم فيتعدوا حدود الشرع ﴿ وألزمهم ﴾ أي المؤمنين إلزام إكرام أو تشريف ، لا إلزام إهانة وتعنيف ﴿ كلمة التقوى ﴾ وهي كل قول أو فعل ناشىء عن التقوى وإعلاء كلمة الإخلاص المتقدم في سورة القتال وهي لا إله إلا الله التي هي أحق الحق ، يقتضي التحقق بمدلولها من أنه لا فاعل إلا الله الثبات على كل ما أخبر به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من التوحيد والبسملة والرسالة مع تغيير الكتابة بكل منهما لأجل الكفار في ذلك المقام الدحض الذي لا يكاد يثبت فيه قدم ، وأضافها إلى التقوى التي هي اتخاذ ساتر يقي حر النار فجعلها وصفاً لازماً لهم غير منفك عنهم لأنها سببها الحامل عليها ، ويجمع الحامل على التقوى اعتقاد الوحدانية وهي لا إلا الله فإنها كلمة – كما قال الرازي – أولها نفي الشرك وآخرها تعلق بالإلهية ، وهذا من أعلام النبوة ، فإن أهل الحديبية الذين ألزموا هذه الكلمة ماتوا كلهم على الإسلام ﴿ وكانوا ﴾ أي جبلة

وطبعاً .

ولما كان من الكفار من يستحقها في علم الله فيصير مؤمناً ، عبر فأفعل التفضيل فقال تعالى : ﴿ أحق بها ﴾ أي كلمة التقوى من الكفار والأعرب وغيرهم من جميع الخلق ، ولمثل هذا التعميم أطلق الأمر بحذف المفضل عليه .

ولما كان الأحق بالشيء قد لا يكون أهله من أول الأمر قال تعالى : ﴿ وأهلها ﴾ أي ولاتها والملازمون لها ملازمة العشير بعشيره والدائنون لها والآلفون لها .

ولما كان الحكم بذلك لا يكون إلا لعالم قال عاطفاً على ما تقديره : لما علم الله من صلاح قلوبهم وصفائها : ﴿ وكان الله ﴾ أي المحيط بالكائنات كلها علماً وقدرة ﴿ بكل شيء ﴾ من ذلك وغيره ﴿ عليماً ﴾ أي محيط العلم الدقيق والجلي ، والآية من الاحتباك : ذكر حمية الجاهلية أولاً دليلاً على ضدها ثانياً ، وكلمة التقوى ثانياً دليلاً على ضدها أولاً ، وسره أنه ذكر مجمع الشر أولاً ترهيباً منه ومجمع الخير ثانياً ترغيباً فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 207.212 ﴾

(57/714)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ تبييناً لما تقدم من قوله ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ﴾ [الفتح : 22] أي هو بتقدير الله ، لأنه كف أيديهم عنكم بالفرار ، وأيديكم عنهم بالرجوع عنهم وتركهم ، وقوله تعالى : ﴿ بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ إشارة إلى أمر كان هناك يقتضي عدم الكف ، ومع ذاك وجد كف الأيدي ، وذلك الأمر هو دخول المسلمين ببطن مكة ، فإن ذلك يقتضي أن يصبر المكفوف على القتال لكون العدو دخل دارهم طالبين ثأرهم ، وذلك مما يوجب اجتهاد البليد في الذب عن الحريم ، ويقتضي أن يبالغ المسلمون في الاجتهاد في الجهاد لكونهم لو قصروا لكسروا وأسروا لبعد مأمنهم ، فقوله ﴿ بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ إشارة إلى بعد الكف ، ومع ذلك وجد بمشيئة الله تعالى ، وقوله تعالى : ﴿ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ صالح لأمرين أحدهما : أن يكون منة على المؤمنين بأن الظفر كان لكم ، مع أن الظاهر كان يستدعي كون الظفر لهم لكون البلاد لهم ، ولكثرة عددهم الثاني : أن يكون ذكر أمرين مانعين من الأمرين الأولين ، مع أن الله حققهما مع المنافقين ، أما كف أيدي الكفار ، فكان بعيداً لكونهم في بلادهم ذابين عن أهليهم وأولادهم ، وإليه أشار بقوله ﴿ بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ وأما كف أيدي المسلمين ، فلأنه كان بعد أن ظفروا بهم ، ومتى ظفر الإنسان بعدوه الذي لو ظفر هو به

لاستأصله ببعد انكفافه عنه ، مع أن الله كف اليدين .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللهِ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ﴾ .

(58/714)

يعني كان الله يرى فيه من المصلحة ، وإن كنتم لا ترون ذلك ، وبينه بقوله تعالى : ﴿ هُمُ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ المسجد الحرام والهدى مَعْكُوفاً ﴾ إلى أن قال : ﴿ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مؤمنات ﴾ [الفتح : 25] يعني كان الكف محافظة على ما في مكة من المسلمين ليخرجوا منها ، ويدخلوها على وجه لا يكون فيه إيذاء من فيها من المؤمنين والمؤمنات ، واختلف المفسرون في ذلك الكف منهم من قال المراد ما كان عام الفتح ، ومنهم من قال ما كان عام الحديبية ، فإن المسلمين هزموا جيش الكفار حتى أدخلوهم بيوتهم ، وقيل إن الحرب كان بالحجارة .

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

وقوله تعالى : ﴿ هُمُ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ المسجد الحرام والهدى مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ .

إشارة إلى أن الكف لم يكن لأمر فيهم لأنهم كفروا وصدوا وأحصروا ، وكل ذلك يقتضي

قتالهم ، فلا يقع لأحد أن الفريقين اتفقوا ، ولم يبق بينهما خلاف واصطلحوا ، ولم يبق بينهما نزاع ، بل الاختلاف باق والنزاع مستمر ، لأنهم هم الذين كفروا وصدوكم ومنعوا فازدادوا كفراً وعداوة ، وإنما ذلك للرجال المؤمنين والنساء المؤمنات ، وقوله ﴿ والهدى ﴾ منصوب على العطف على كم في ﴿ صَدُّوكُمْ ﴾ ويجوز الجر عطفاً على المسجد ، أي وعن الهدي .

و ﴿ مَعْكُوفاً ﴾ حال و ﴿ أَن يَبْلُغَ ﴾ تقديره على أن يبلغ ، ويحتمل أن يقال ﴿ أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ رفع ، تقديره معكوفاً بلوغه محله ، كما يقال : رأيت زيداً شديداً بأسه ، ومعكوفاً ، أي ممنوعاً ، ولا يحتاج إلى تقدير عن على هذا الوجه .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مؤمنات لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِّنْهُمْ مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ .

(59/714)

وصف الرجال والنساء ، يعني لولا رجال ونساء يؤمنون غير معلومين ، وقوله تعالى : ﴿ أَن تَطَئُوهُمْ ﴾ بدل اشتمال ، كأنه قال : رجال غير معلومي الوطء فتصيبكم منهم معرة عيب أو إثم ، وذلك لأنكم ربما تقتلونهم فتلزمكم الكفارة وهي دليل الإثم ، أو يعيبكم الكفار

بأنهم فعلوا بإخوانهم ما فعلوا بأعدائهم ، وقوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ قال الزمخشري : هو متعلق بقوله ﴿ أَن تَطَئُوهُمْ ﴾ يعني تطئوهم بغير علم ، وجاز أن يكون بدلاً عن الضمير المنصوب في قوله ﴿ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ ولقائل أن يقول : يكون هذا تكراراً ، لأن على قولنا هو بدل من الضمير يكون التقدير : لم تعلموا أن تطئوهم بغير علم ، فيلزم تكرار بغير علم الحصول بقوله ﴿ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ فالأولى أن يقال ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ هو في موضعه تقديره : لم تعلموا أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ، من يعركم ويعيب عليكم ، يعني إن وطأتموهم غير عالمين يصبكم مسبة الكفار ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي بجهل لا يعلمون أنكم معذورون فيه ، أو نقول تقديره : لم تعلموا أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ، أي فتقتلوهم بغير علم ، أو تؤذوهم بغير علم ، فيكون الوطء سبب القتل ، والوطء غير معلوم لكم ، والقتل الذي هو بسبب المعرة وهو الوطء الذي يحصل بغير علم .

(60/714)

أو نقول : المعرة قسمان أحدهما : ما يحصل من القتل العمد ممن هو غير العالم بحال المحل والثاني : ما يحصل من القتل خطأ ، وهو غير عدم العلم ، فقال : تصيبكم منهم معرة غير معلومة ، لا التي تكون عن العلم وجواب : لولا محذوف تقديره : لولا ذلك لما كف أيديكم

عنهم ، هذا ما قاله الزمخشري وهو حسن ، ويحتمل أن يقال جوابه : ما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ هُمُ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ المسجد الحرام ﴾ يعني قد استحقوا لأن لا يهملوا ، ولولا رجال مؤمنون لوقع ما استحقوه ، كما يقول القائل : هو سارق ولولا فلان لقطعت يده ، وذلك لأن لولا لا تستعمل إلا لامتناع الشيء لوجود غيره ، وامتناع الشيء لا يكون إلا إذا وجد المقتضي له فمنعه الغير فذكر الله تعالى أولاً المقتضي التام البالغ وهو الكفر والصد والمنع ، وذكر ما امتنع لأجله مقتضاه وهو وجود الرجال المؤمنين .

وقوله تعالى : ﴿ لِّيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ فيه أبحاث :

(61/714)

الأول : في الفعل الذي يستدعي اللام الذي بسببه يكون الإدخال وفيه وجوه أحدها : أن يقال هو قوله ﴿ كَفَّ أَيْدِيكُم عَنْهُمْ ﴾ ليدخل ، لا يقال بأنك ذكرت أن المانع وجود رجال مؤمنين فيكون كأنه قال : كف أيديكم لئلا تطئوا فكيف يكون لشيء آخر ؟ نقول الجواب عنه من وجهين أحدهما : أن نقول كف أيديكم لئلا تطئوا لتدخلوا كما يقال أطعمته ليشبع ليغفر الله لي أي الإطعام للشابع كان ليغفر الثاني : هو أنا بينا أن لولا جوابه ما دل عليه قوله

﴿ هُمُ الذين كَفَرُواْ ﴾ فيكون كأنه قال هم الذين كفروا واستحقوا التعجل في إهلاكهم ، ولولا رجال لعجل بهم ولكن كف أيديكم ليدخل ثانيها : أن يقال فعل ما فعل ليدخل لأن هناك أفعالاً من الألطاف والهداية وغيرهما ، وقوله ﴿ لِّيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ ليؤمن منهم من علم الله تعالى أنه يؤمن في تلك السنة أو ليخرج من مكة ويهاجر فيدخلهم في رحمته وقوله تعالى : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُواْ ﴾ أي لو تميزوا ، والضمير يحتمل أن يقال هو ضمير الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات ، فإن قيل كيف يصح هذا وقد قلتم بأن جواب لولا محذوف وهو قوله لما كف أو لعجل ولو كان ﴿ لَوْ تَزَيَّلُواْ ﴾ راجعاً إلى الرجال لكان لعذبنا جواب لولا ؟ نقول وقد قال به الزمخشري فقال : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُواْ ﴾ يتضمن ذكر لولا فيحتمل أن يكون لعذبنا جواب لولا ، ويحتمل أن يقال هو ضمير من يشاء ، كأنه قال ليدخل من يشاء في رحمته لو تزيلوا هم وتميزوا وآمنوا لعذبنا الذين كتب الله عليهم أنهم لا يؤمنون ، وفيه أبحاث :

البحث الأول : وهو على تقدير نفرضه فالكلام يفيد أن العذاب الأليم اندفع عنهم ، إما بسبب عدم التزييل ، أو بسبب وجود الرجال وعلم تقدير وجود الرجال والعذاب الأليم لا يندفع عن الكافر ، نقول المراد عذاباً عاجلاً بأيديكم يبتدىء بالجنس إذ كانوا غير مقرنين ولا منقلبين إليهم فيظهرون ويقتدرون يكون أليماً .

البحث الثاني : ما الحكمة في ذكر المؤمنين والمؤمنات مع أن المؤنث يدخل في ذكر المذكر عند الاجتماع ؟ قلنا الجواب عنه من وجهين أحدهما : ما تقدم يعني أن الموضع موضع وهم اختصاص الرجال بالحكم لأن قوله ﴿ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ ﴾ معناه تهلكوهم والمراد لا تقاتل ولا تقتل فكان المانع وهو وجود الرجال المؤمنين فقال : والنساء المؤمنات أيضاً لأن تخريب بيوتهن ويتم أولادهن بسبب رجالهن وطأة شديدة وثانيهما : أن في محل الشفقة تعد المواضع لترقيق القلب ، يقال لمن يعذب شخصاً لا تعذبه وارحم ذله وفقره وضعفه ، ويقال أولاده وصغاره وأهله الضعفاء العاجزين ، فكذلك ههنا قال : ﴿ لَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مؤمنات ﴾ لترقيق قلوب المؤمنات ورضاهم بما جرى من الكف بعد الظفر .

إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ

(63/714)

﴿ إِذْ ﴾ يحتمل أن يكون ظرفاً فلا بد من فعل يقع فيه ويكون عاملاً له ، ويحتمل أن يكون مفعولاً به ، فإن قلنا إنه ظرف فالفعل الواقع فيه يحتمل أن يقال هو مذكور ، ويحتمل أن يقال

هو مفهوم غير مذكور ، فإن قلنا هو مذكور ففيه وجهان أحدهما : هو قوله تعالى : ﴿ وَصَدُّوكُمْ ﴾ [الفتح : 25] أي وصدوكم حين جعلوا في قلوبهم الحمية وثانيها : قوله تعالى : ﴿ لَعَذَّبْنَا الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ ﴾ [الفتح : 25] أي لعذبناهم حين جعلوا في قلوبهم الحمية والثاني : أقرب لقربه لفظاً وشدة مناسبته معنى لأنهم إذا جعلوا في قلوبهم الحمية لا يرجعون إلى الاستسلام والانقياد ، والمؤمنون لما أنزل الله عليهم السكينة لا يتركون الاجتهاد في الجهاد والله مع المؤمنين فيعذبونهم عذاباً أليماً أو غير المؤمنين ، وأما إن قلنا إن ذلك مفهوم غير مذكور ففيه وجهان أحدهما : حفظ الله المؤمنين عن أن يطئوهم وهم الذين كفروا الذين جعل في قلوبهم الحمية وثانيها : أحسن الله إليكم إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية ، وعلى هذا فقوله تعالى : ﴿ فَأَنزَلَ الله سَكِينَتَهُ ﴾ تفسير لذلك الإحسان ، وأما إن قلنا إنه مفعول به ، فالعامل مقدر تقديره أذكر ، أي : أذكر ذلك الوقت ، كما تقول أتذكر إذ قام زيد ، أي أتذكر وقت قيامه كما تقول أتذكر زيداً ، وعلى هذا يكون الظرف للفعل المضاف إليه عاملاً فيه ، وفي .

لطائف معنوية ولفظية : الأولى : هو أن الله تعالى أبان غاية البون بين الكافر والمؤمن ، فأشار إلى ثلاثة أشياء أحدها : جعل ما للكافرين بجعلهم فقال : ﴿ إِذْ جَعَلَ الذين كَفَرُواْ ﴾ وجعل ما للمؤمنين بجعل الله ، فقال : ﴿ فَأَنزَلَ الله ﴾ وبين الفاعلين ما لا يخفى ثانيها : جعل للكافرين الحمية وللمؤمنين السكينة وبين المفعولين تفاوت على ما سنذكره ثالثها : أضاف الحمية إلى الجاهلية وأضاف السكينة إلى نفسه حيث قال : حمية الجاهلية ، وقال : سكينته ، وبين الإضافتين ما لا يذكر الثانية : زاد المؤمنين خيراً بعد حصول مقابلة شيء بشيء فعلهم بفعل الله والحمية بالسكينة والإضافة إلى الجاهلية بالإضافة إلى الله تعالى : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التقوى ﴾ وسنذكر معناه ، وأما اللفظية فثلاث لطائف الأولى : قال في حق الكافر (جعل) وقال في حق المؤمن (أنزل) ولم يقل خلق ولا جعل سكينته إشارة إلى أن الحمية كانت مجعولة في الحال في العرض الذي لا يبقى ، وأما السكينة فكانت كالمحفوظة في خزانة الرحمة معدة لعباده فأنزلها الثانية : قال الحمية ثم أضافها بقوله ﴿ حَمِيَّةَ الجاهلية ﴾ لأن الحمية في نفسها صفة مذمومة وبالإضافة إلى الجاهلية تزداد قبحاً ، وللحمية في القبح درجة لا يعتبر معها قبح القبائح كالمضاف إلى الجاهلية .

وأما السكينة في نفسها وإن كانت حسنة لكن الإضافة إلى الله فيها من الحسن ما لا يبقى معه لحسن اعتبار ، فقال ﴿ سَكِينَتَهُ ﴾ اكتفاه بحسن الإضافة الثالثة : قوله ﴿ فَأَنزَلَ ﴾ بالفاء لا بالواو إشارة إلى أن ذلك كالمقابلة تقول أكرمني فأكرمته للمجازاة والمقابلة ولو قلت أكرمني وأكرمته لا ينبىء عن ذلك ، وحينئذ يكون فيه لطيفة : وهي أن عند اشتداد غضب أحد العدوين فالعدو الآخر إما أن يكون ضعيفاً أو قوياً ، فإن كان ضعيفاً ينهزم وينقهر ، وإن كان قوياً فيورث غضبه فيه غضباً ، وهذا سبب قيام الفتن والقتال فقال في نفس الحركة عند حركتهم ما أقدمنا وما انهزمنا ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَنزَلَ اللهُ ﴾ بالفاء يدل تعلق الإنزال بالفاء على ترتيبه على شيء ، نقول فيه وجهان : أحدهما : ما ذكرنا من أن إذ ظرف كأنه قال أحسن الله ﴿ إِذْ جَعَلَ الذين كَفَرُواْ ﴾ وقوله ﴿ فَأَنزَلَ ﴾ تفسير لذلك الإحسان كما يقال أكرمني فأعطاني لتفسير الإكرام وثانيهما : أن تكون الفاء للدلالة على أن تعلق إنزال السكينة بجعلهم الحمية في قلوبهم على معنى المقابلة ، تقول أكرمني فأثنيت عليه ، ويجوز أن يكونا فعلين واقعين من غير مقابلة ، كما تقول جاءني زيد وخرج عمرو ، وهو هنا كذلك لأنهم لما جعلوا في قلوبهم الحمية فالمسلمون على مجرى العادة لو نظرت إليهم لزم أن يوجد منهم أحد الأمرين : إما إقدام ، وإما انهزام لأن أحد العدوين إذا اشتد غضبه فالعدو الآخر إن كان مثله في القوة يغضب أيضاً وهذا يثير الفتن ، وإن كان أضعف منه ينهزم أو ينقاد له فالله تعالى أنزل في مقابلة حمية الكافرين على المؤمنين سكينته حتى لم يغضبوا ولم

ينهزموا بل يصبروا ، وهو بعيد في العادة فهو من فضل الله تعالى ، قوله تعالى : ﴿ على رَسُولِهِ وَعَلَى المؤمنين ﴾ فإنه هو الذي أجاب الكافرين إلى الصلح ، وكان في نفس المؤمنين أن لا يرجعوا إلا بأحد الثلاثة بالنحر في المنحر ، وأبوا أن لا يكتبوا محمداً رسول الله

(66/714)

وبسم الله ، فلما سكن رسول الله صلى الله عليه وسلم سكن المؤمنون ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التقوى ﴾ فيه وجوه أظهرها أنه قول لا إله إلا الله فإن بها يقع الاتقاء عن الشرك ، وقيل هو بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله فإن الكافرين أبوا ذلك والمؤمنون التزموه ، وقيل هي الوفاء بالعهد إلى غير ذلك ونحن نوضح فيه ما يترجح بالدليل فنقول ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ ﴾ يحتمل أن يكون عائداً إلى النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين جميعاً يعني ألزم النبي والمؤمنين كلمة التقوى ، ويحتمل أن يكون عائداً إلى المؤمنين فحسب ، فإن قلنا إنه عائد إليهما جميعاً نقول هو الأمر بالتقوى فإن الله تعالى قال للنبي صلى الله عليه وسلم :

﴿ يا أيها النبي اتق الله وَلاَ تُطِعِ الكافرين ﴾ [الأحزاب : 1] وقال للمؤمنين ﴿ يا أيها الذين ءَامَنُواْ اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾

[آل عمران : 102] والأمر بتقوى الله حتى تذهله تقواه عن الالتفات إلى ما سوى الله ، كما قال في حق النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ اتق الله وَلاَ تُطِعِ الكافرين ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَتَخْشَى الناس والله أَحَقُّ أَن تخشاه ﴾ [الأحزاب : 77] ثم بيّن له حال من صدقه بقوله ﴿ الذين يُبَلِّغُونَ رسالات الله وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ الله ﴾ [الأحزاب : 39] أما في حق المؤمنين فقال : ﴿ يا أيها الذين ءَامَنُواْ اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ وقال : ﴿ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ واخشوني ﴾ [البقرة : 150] وإن قلنا بأنه راجع إلى المؤمنين فهو قوله تعالى : ﴿ وَمَا ءاتاكم الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نهاكم عَنْهُ فانتهوا ﴾ [الحشر : 7] ألا ترى إلى قوله ﴿ واتقوا الله ﴾ [الحجرات : 1] وهو قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ الله وَرَسُولِهِ ﴾ وفي معنى قوله تعالى : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التقوى ﴾ على هذا معنى لطيف وهو أنه تعالى إذا قال : (اتقوا) يكون الأمر وارداً ثم إن من الناس من يقبله بتوفيق الله ويلتزمه ومنهم من لا يلتزمه ، ومن التزمه فقد التزمه بإلزام الله إياه فكأنه قال تعالى : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التقوى ﴾ وفي هذا المعنى رجحان من حيث إن التقوى وإن كان كاملاً ولكنه أقرب إلى الكلمة ، وعلى هذا فقوله ﴿ وَكَانُواْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ معناه أنهم كانوا

عند الله أكرم الناس فألزموا تقواه ، وذلك لأن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ اللهِ أتقاكم ﴾ [الحجرات : 13] يحتمل وجهين أحدهما : أن يكون معناه أن من يكون تقواه أكثر يكرمه الله أكثر والثاني : أن يكون معناه أن من سيكون أكرم عند الله وأقرب إليه كان أتقى ، كما في قوله " والمخلصون على خطر عظيم " وقوله تعالى : ﴿ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ﴾ [المؤمنون : 57] وعلى الوجه الثاني يكون معنى قوله ﴿ وَكَانُواْ

(68/714)

أَحَقَّ بِهَا ﴾ لأنهم كانوا أعلم بالله لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء ﴾ [فاطر : 28] وقوله ﴿ وَأَهْلَهَا ﴾ يحتمل وجهين أحدهما : أنه يفهم من معنى الأحق أنه يثبت رجحاناً على الكافرين إن لم يثبت الأهلية ، كما لو اختار الملك اثنين لشغل وكل واحد منهما غير صالح له ولكن أحدهما أبعد عن الاستحقاق فقال في الأقرب إلى الاستحقاق إذا كان ولا بد فهذا أحق ، كما يقال الحبس أهون من القتل مع أنه لا هين هناك فقال : ﴿ وَأَهْلَهَا ﴾ دفعاً لذلك الثاني : وهو أقوى وهو أن يقال قوله تعالى : ﴿ وَأَهْلَهَا ﴾ فيه وجوه نبينها بعد ما نبين معنى الأحق ، فنقول هو يحتمل وجهين أحدهما : أن يكون الأحق بمعنى الحق لا للتفضيل كما في قوله تعالى : ﴿ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً ﴾ [مريم :

73] إذ لا خير في غيره والثاني : أن يكون للتفضيل وهو يحتمل وجهين أحدهما : أن يكون بالنسبة إلى غيرهم أي المؤمنون أحق من الكافرين والثاني : أن يكون بالنسبة إلى كلمة التقوى من كلمة أخرى غير تقوى ، تقول زيد أحق بالإكرام منه بالإهانة ، كما إذا سأل شخص عن زيد إنه بالطب أعلم أو بالفقه ، تقول هو بالفقه أعلم أي من الطب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 85.90 ﴾

(69/714)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

وقوله تعالى : ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾

تشريف وإعلام برضاه عنهم حين البيعة ، وبهذا سميت بيعة الرضوان . والرضى بمعنى الإرادة ، فهو صفة ذات . ومن جعل ﴿ إذ ﴾ مسببة بمعنى لأنهم بايعوا تحت الشجرة ، جاز أن يجعل ﴿ رضي ﴾ بمعنى إظهار النعم عليهم بسبب بيعتهم ، فالرضى على هذا صفة فعل ، وقد تقدم القول في المبايعة ومعناها .

(70/714)

وكان سبب هذه المبايعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يبعث إلى مكة رجلاً يبين على قريش أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يريد حرباً ، وإنما جاء معتمراً ، فبعث إليهم خراش بن أمية الخزاعي وحمله على جمل يقال له الثعلب ، فلما كلمهم ، عقروا الجمل ، وأرادوا قتل خراش ، فمنعه الأحابيش ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأراد بعث عمر بن الخطاب ، فقال له عمر : يا رسول الله أنا قد علمت فظاظتي على قريش وهم يبغضونني ، وليس هناك من بني عدي بن كعب من يحميني ، ولكن ابعث عثمان بن عفان ، فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذهب فلقيه أبان بن سعيد بن العاصي ، فنزل عن دابته فحمله عليها وأجاره ، حتى إذا جاء قريشاً فأخبرهم ، فقالوا له : إن شئت يا عثمان أن تطوف بالبيت فطف ، وأما دخولكم علينا فلا سبيل إليه ، فقال عثمان : ما كنت لأطوف به حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم إن بني سعيد بن العاصي حبسوا عثمان على جهة المبرة ، فأبطأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت الحديبية من مكة على عشرة أميال ، فصرخ صارخ من عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحمى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ، وقالوا : لا نبرح إن كان هذا حتى نلقى القوم ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البيعة ، ونادى مناديه : أيها الناس ، البيعة البيعة ، نزل روح القدس ، فما تخلف عن البيعة أحد ممن شهد الحديبية

إلا الجد بن قيس المنافق ، وحينئذ جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على يده وقال :

" هذه يد لعثمان ، وهي خير من يد عثمان ثم جاء عثمان بعد ذلك سالماً " .

و﴿ الشجرة ﴾ سمرة كانت هنالك ، ذهبت بعد سنين ، فمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته فاختلف أصحابه في موضعها ، فقال عمر سيروا هذا التكلف .

(71/714)

وقوله تعالى : ﴿ فعلم ما في قلوبهم ﴾ قال قوم معناه : من كراهة البيعة على الموت ونحوه وهذا ضعيف ، فيه مذمة للصحابة . وقال الطبري ومنذر بن سعيد معناه : من الإيمان وصحته والحب في الدين والحرص عليه ، وهذا قول حسن ، لكنه من كانت هذه حاله فلا يحتاج إلى نزول ما يسكنه ، أما أنه يحتمل أن يجازى ب ﴿ السكينة ﴾ والفتح القريب والمغانم .

وقال آخرون معناه : من الهم بالانصراف عن المشركين والأنفة في ذلك على نحو ما خاطب فيه عمر وغيره ، وهذا تأويل حسن يترتب معه نزول ﴿ السكينة ﴾ والتعريض بالفتح القريب . و﴿ السكينة ﴾ هنا تقرير قلوبهم وتذليلها لقبول أمر الله تعالى والصبر له .

وقرأ الناس : " وأثابهم " قال هارون وقد قرئت : " وأتابهم " بالتاء بنقطتين والفتح القريب : خيبر ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف بالمؤمنين إلى المدينة وقد وعده الله بخيبر وخرج إليها لم يلبث ، قال أبو جعفر النحاس ، وقد قيل : الفتح القريب : فتح مكة ، والمغانم الكثيرة : فتح خيبر .

وقرأ يعقوب في رواية رويس : " تأخذونها " على مخاطبتهم بالتاء من فوق . وقرأ الجمهور : " يأخذونها " على الغيبة .

واختلف في عدة المبايعين فقيل : ألف وخمسمائة ، قاله قتادة ، وقيل : وأربعمائة قاله جابر بن عبد الله ، وقيل : وخمسمائة وخمسة وعشرون ، قاله ابن عباس ، وقيل : وثلاثمائة قاله ابن أبي أوفى ، وقيل غير هذا مما ذكرناه من قبل ، وأول من بايع في ذلك رجل من بني أسد يقال له أبو سنان بن وهب قاله الشعبي .

قوله تعالى : ﴿ وعدكم الله ﴾ الآية مخاطبة للمؤمنين ووعد بجميع المغانم التي أخذها المسلمون ويأخذونها إلى يوم القيامة ، قاله مجاهد وغيره .

(72/714)

وقوله : ﴿ فعجل لكم هذه ﴾ يريد خيبر ، وقال زيد بن أسلم وابنه ، المغانم الكثيرة : خيبر ، و: ﴿ هذه ﴾ إشارة إلى البيعة والتخلص من أمر قريش ، وقاله ابن عباس : وقوله ﴿ وكف أيدي الناس عنكم ﴾ يريد من ولي عورة المدينة بعد خروج النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين منها ، وذلك أنه كان من أحياء العرب ومن اليهود من يعادي وكانت قد أمكنتهم فرصة فكفهم الله عن ذراري المسلمين وأموالهم ، وهذه للمؤمنين العلامة على أن الله ينصرهم ويلطف لهم ، قاله قتادة . وحكى الثعلبي أنه قال : كف الله غطفان ومن معها عن النبي صلى الله عليه وسلم حين جاؤوا لنصر أهل خيبر ، وذكره النقاش وقال الثعلبي أيضاً عن بعضهم إنه أراد كف قريش .

وقوله : ﴿ وأخرى لم تقدروا عليها ﴾ قال عبد الله بن عباس : الإشارة إلى بلاد فارس والروم . وقال الضحاك : الإشارة إلى خيبر . وقال قتادة والحسن : الإشارة إلى مكة ، وهذا هو القول الذي يتسق معه المعنى ويتأيد .

وقوله : ﴿ قد أحاط الله بها ﴾ معناه بالقدرة والقهر لأهلها ، أي قد سبق في علمه ذلك وظهر فيها أنهم لم يقدروا عليها .

وقوله : ﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ﴾ إشارة إلى قريش ومن والاها في تلك السنة ، قاله قتادة ، وفي هذا تقوية لنفوس المؤمنين ، وقال بعض المفسرين : أراد الروم وفارس .

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف ، وإنما الإشارة إلى العدو الأحضر .

وقوله : ﴿ سنة الله ﴾ إشارة إلى وقعة بدر ، وقيل إشارة إلى عادة الله من نصر الأنبياء قديماً ، ونصب ﴿ سنة ﴾ على المصدر ، ويجوز الرفع ولم يقرأ به .

(73/714)

وقوله تعالى : ﴿ وهو الذي كف أيديهم ﴾ الآية ، روي في سببها أن قريشاً جمعت جماعة من فتيانها وجعلوهم مع عكرمة بن أبي جهل وخرجوا يطلبون غرة في عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واختلف الناس في عدد هؤلاء اختلافاً متفاوتاً ، فلذلك اختصرته فلما أحس بهم المسلمون بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في أثرهم خالد بن الوليد وسماه حينئذ سيف الله في جملة من المسلمين ، ففروا أمامهم حتى أدخلوهم بيوت مكة وأسروا منهم جملة ، فسيقوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن عليهم وأطلقهم ، فهذا هو أن كف الله أيديهم عن المسلمين بالرعب وكف أيدي المسلمين عنهم بالنهي في بيوت مكة وغيرها وذلك هو " بطن مكة " . وقال قتادة : أسر النبي الله صلى الله عليه وسلم هذه الجملة بالحديبية عند عسكره ومن عليهم ، وذلك هو " بطن مكة " . قال النقاش : الحرام كله ﴿ مكة ﴾ ، والظفر عليهم هو أسر من أسر منهم ، وباقي الآية

تحريض على العمل الصالح ، لأن من استشعر أن الله يبصر عمله أصلحه .

وقرأ الجمهور من القراء : " بما تعملون " بالتاء على الخطاب . وقرأ أبو عمرو وحده : " بما يعملون " بالياء على ذكر الكفار وتهددهم .

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ

(74/714)

يريد بقوله تعالى : ﴿ هم الذين كفروا ﴾ أهل مكة الذين تقدم ذكرهم . وقوله ﴿ وصدوكم عن المسجد الحرام ﴾ هو منعهم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من العمرة عام الحديبية ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من المدينة في ذي القعدة سنة ست من الهجرة يريد العمرة وتعظيم البيت ، وخرج معه بمائة بدنة ، قاله النقاش ، وقيل بسبعين ، قاله المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ، فلما دنا من مكة ، قال أهل مكة هذا محمد الذي قد حاربنا وقتل فينا ، يريد أن يدخل مكة مراغمة لنا ، والله لا تركناه حتى نموت دون ذلك ، فاجتمعوا لحربه ، واستنجدوا بقبائل من العرب وهم الأحابيش وبعثوا فغوروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم المياه التي تقرب من مكة ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل على بئر الحديبية ، وحينئذ وضع سهمه في الماء

فجرى غمراً حتى كفى الجيش ، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى مكة عثمان ، وبعث أهل مكة إليه رجالاً منهم : عروة بن مسعود ، وبديل بن ورقاء ، وتوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم هناك أياماً حتى سفر سهيل بن عمرو ، وبه انعقد الصلح على أن ينصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم ويعتمر من العام القادم ، فهذا كان صدهم إياه وهو مستوعب في كتب السير ، فلذلك اختصرناه .

(75/714)

وقرأ الجمهور : " والهدْي " بسكون الدال . . وقرأ الأعرج والحسن بن أبي الحسن : " والهدِيّ " بكسر الدال وشد الياء ، وهما لغتان ، وهو معطوف على الضمير في قوله : ﴿ وصدوكم ﴾ أي وصدوا الهدي . و : ﴿ معكوفاً ﴾ حال ، ومعناه : محبوساً ، تقول : عكفت الرجل عن حاجته إذا حبسته ، وقد قال أبو علي : إن عكف لا يعرفه متعدياً ، وحكى ابن سيده وغيره : تعديه ، وهذا العكف الذي وقع للهدي كان من قبل المشركين بصدهم ، ومن قبل المسلمين لرؤيتهم ونظرهم في أمرهم فحبسوا هديهم . و ﴿ أن ﴾ في قوله : ﴿ أن يبلغ ﴾ يحتمل أن يعمل فيها الصد ، كأنه قال : وصدوا الهدي كراهة أن أو عن أن ، ويحتمل أن يعمل فيها العكف فتكون مفعولاً من أجله ، أي الهدي المحبوس لأجل

﴿ أن يبلغ محله ﴾ ، و﴿ محله ﴾ مكة .

وذكر الله تعالى العلة في أن صرف المسلمين ولم يمكنهم من دخول مكة في تلك الوجهة ، وهو أنه كان بمكة مؤمنون ومن رجال ونساء خفي إيمانهم ، فلو استباح المسلمون بيضتها أهلكوا أولئك المؤمنين . قال قتادة : فدفع الله عن المشركين ببركة أولئك المؤمنين ، وقد يدفع بالمؤمنين عن الكفار .

وقوله تعالى : ﴿ لم تعلموهم ﴾ صفة للمذكورين . وقوله : ﴿ أن تطؤوهم ﴾ يحتمل أن تكون ﴿ أن ﴾ بدلاً من ﴿ رجال ﴾ ، كأنه قال : ولولا قوم مؤمنون أن تطؤوهم ، أي لولا وطئكم قوماً مؤمنين ، فهو على هذا في موضع رفع ، ويحتمل أن تكون في موضع نصب بدلاً من الضمير في قوله : ﴿ لم تعلموهم ﴾ كأنه قال : لم تعلموا وطأهم أنه وطء المؤمنين ، والوطء هنا : الإهلاك بالسيف وغيره على وجه التشبيه ، ومنه قول الشاعر [زهير] : [الكامل]

ووطئتنا وطئاً على حنق . . . وطء المقيد ثابت الهرم

(76/714)

ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " اللهم اشدد وطأتك على مضر " ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم " إن آخر وطأة الرب يوم وج بالطائف " لأنها كانت آخر وقعة للنبي صلى الله عليه وسلم ، فيها ذكر هذا المعنى النقاش : و" المعرة " السوء والمكروه اللاصق ، مأخوذ من العر والعرة وهي الجرب الصعب اللازم . واختلف الناس في تعيين هذه المعرة ، فقال ابن زيد : هي المأثم وقال ابن إسحاق : هي الدية .

قال القاضي أبو محمد : وهذان ضعيفان ، لأنه لا إثم ولا دية في قتل مؤمن مستور الإيمان من أهل الحرب .

وقال الطبري حكاه الثعلبي : هي الكفارة . وقال منذر : المعرة : أن يعيبهم الكفار ويقولوا قتلوا أهل دينهم . وقال بعض المفسرين : هي الملام والقول في ذلك ، وتألم النفس منه في باقي الزمن .

قال القاضي أبو محمد : وهذه أقوال حسان . وجواب ﴿ لولا ﴾ محذوف تقديره : لمكناكم من دخول مكة وأيدناكم عليهم .

وقرأ الأعمش : " فتنالكم منه معرة " .

واللام في قوله : ﴿ ليدخل ﴾ يحتمل أن يتعلق بمحذوف من القول ، تقديره : لولا هؤلاء لدخلتم مكة ، لكن شرفنا هؤلاء المؤمنين بأن رحمناهم ودفعنا بسببهم عن مكة ﴿ ليدخل الله ﴾ : أي ليبين للناظر أن الله تعالى يدخل من يشاء في رحمته ، أو ليقع دخولهم

في رحمة الله ودفعه عنهم ، ويحتمل أن تتعلق بالإيمان المتقدم الذكر ، فكأنه قال : ولولا قوم مؤمنون آمنوا ليدخل الله من يشاء في رحمته ، وهذا مذكور ، لكنه ضعيف ، لأن قوله : ﴿ من يشاء ﴾ يضعف هذا التأويل .

ثم قال تعالى : ﴿ لو تزيلوا ﴾ أي لو ذهبوا عن مكة ، تقول : أزلت زيداً عن موضعه إزالة ، أي أذهبته ، وليس هذا الفعل من زال يزول ، وقد قيل هو منه .

وقرأ أبو حيوة وقتادة : بألف بعد الزاي ، أي " لو تزايلوا " ، أي ذهب هؤلاء عن هؤلاء وهؤلاء عن هؤلاء .

(77/714)

وقوله : ﴿ منهم ﴾ لبيان الجنس إذا كان الضمير في ﴿ تزيلوا ﴾ للجميع من المؤمنين والكافرين وقال النحاس : وقد قيل إن قوله : ﴿ ولولا رجال مؤمنون ﴾ الآية . يريد من في أصلاب الكافرين من سيؤمن في غابر الدهر ، وحكاه الثعلبي والنقاش عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم مرفوعاً . والعامل في قوله : ﴿ إذ جعل ﴾ قوله : ﴿ لعذبنا ﴾ ويحتمل أن يكون المعنى : أذكر إذ جعلنا .

و : ﴿ الحمية ﴾ التي جعلوها هي حمية أهل مكة في الصد ، قال الزهري : وحمية سهيل

ومن شاهد عقد الصلح في أن منعوا أن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، ولجوا حتى كتب باسمك اللهم ، وكذلك منعوا أن يثبت : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله . ولجوا حتى قال صلى الله عليه وسلم لعلي : " امح واكتب " هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله الحديث وجعلها تعالى " حمية جاهلية " ، لأنها كانت بغير حجة وفي غير موضعها ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لو جاءهم محارباً لعذرهم في حميتهم ، وإنما جاء معظماً للبيت لا يريد حرباً ، فكانت حميتهم جاهلية صرفاً . والسكينة هي الطمأنينة إلى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم والثقة بوعد الله والطاعة وزوال الأنفة التي لحقت عمر وغيره .

و: ﴿ كلمة التقوى ﴾ قال الجمهور : هي لا إله إلا الله ، وروي ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقال عطاء بن أبي رباح : هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . وقال أبو هريرة وعطاء الخراساني : هي لا إله إلا الله محمد رسول الله . وقال علي بن أبي طالب : هي لا إله إلا الله والله أكبر ، وحكاه الثعلبي عن ابن عمر .

قال القاضي أبو محمد : وهذه كلها أقوال متقاربة حسان ، لأن هذه الكلمة تقي النار ، فهي ﴿ كلمة التقوى ﴾ .

وقال الزهري عن المسور ومروان : ﴿ كلمة التقوى ﴾ المشار إليها هي بسم الله الرحمن الرحيم وهي التي أباها كفار قريش ، فألزمها الله المؤمنين وجعلهم ﴿ أحق بها ﴾

قال القاضي أبو محمد : ولا إله إلا الله أحق باسم : ﴿ كلمة التقوى ﴾ . من : بسم الله الرحمن الرحيم .

وفي مصحف ابن مسعود : " وكانوا أهلها وأحق بها " . والمعنى : كانوا أهلها على الإطلاق في علم الله وسابق قضائه لهم ، وقيل ﴿ أحق بها ﴾ من اليهود والنصارى في الدنيا ، وقيل أهلها في الآخرة بالثواب .

وقوله تعالى : ﴿ وكان الله بكل شيء عليماً ﴾ إشارة إلى علمه بالمؤمنين الذين دفع عن كفار قريش بسببهم وإلى علمه بوجه المصلحة في صلح الحديبية ، فيروى أنه لما انعقد ، أمن الناس في تلك المدة الحرب والفتنة ، وامتزجوا ، وعلت دعوة الإسلام ، وانقاد إليه كل من كان له فهم من العرب ، وزاد عدد الإسلام أضعاف ما كان قبل ذلك .

قال القاضي أبو محمد : ويقتضي ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في عام الحديبية في أربع عشرة مائة ، ثم سار إلى مكة بعد ذلك بعامين في عشرة آلاف فارس صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾

وهي الحديبية .

﴿ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ روى يزيد بن هارون قال : أخبرنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس : أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم من جبل التَّنعيم متسلحين يريدون غِرّة النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؛ فأخذناهم سَلْماً فاستحييناهم ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفتح : 24] .

" وقال عبد الله بن مُغَفّل المُزَني : كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم بالحديبية في أصل الشجرة التي قال الله في القرآن ؛ فبينما نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح فثاروا في وجوهنا فدعا عليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخذ الله بأبصارهم ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هل جئتم في عهد أحد أو هل جعل لكم أحد أماناً" .

قالوا : اللهم لا ، فخلّى سبيلهم " فأنزل الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾

الآية .

وذكر ابن هشام عن وكيع : وكانت قريش قد جاء منهم نحو سبعين رجلاً أو ثمانين رجلاً للإيقاع بالمسلمين وانتهاز الفرصة في أطرافهم ؛ ففطن المسلمون لهم فأخذوهم أسرى ، وكان ذلك والسفراء يمشون بينهم في الصلح ، فأطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم الذين يُسَمَّوْنَ العُتَقَاء ، ومنهم معاوية وأبوه .

وقال مجاهد : " أقبل النبيّ صلى الله عليه وسلم مُعْتَمِراً ، إذ أخذ أصحابه ناساً من الحرم غافلين فأرسلهم النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فذلك الإظفار ببطن مكة .

(80/714)

وقال قتادة : ذكر لنا أن رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقال له زُنيم ، اطلع الثَنِيّة من الحديبية فرماه المشركون بسهم فقتلوه ؛ فبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم خيلاً فأتوا باثني عشر فارساً من الكفار ، فقال لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم : "هل لكم عليّ ذمّة" ؟ قالوا لا ؟ فأرسلهم فنزلت .

وقال ابن أبزى والكلبي : هم أهل الحديبية ، كفّ الله أيديهم عن المسلمين حتى وقع الصلح ، وكانوا خرجوا بأجمعهم وقصدوا المسلمين ، وكف أيدي المسلمين عنهم .

وقد تقدّم أن خالد بن الوليد كان في خيل المشركين .

قال القشيري : فهذه رواية ، والصحيح أنه كان مع النبيّ صلى الله عليه وسلم في ذلك الوقت .

وقد قال سلمة بن الأَكْوَع : كانوا في أمر الصلح إذ أقبل أبو سفيان ، فإذا الوادي يسير بالرجال والسلاح ، قال : فجئت بستة من المشركين أسوقهم متسلحين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ؛ فأتيت بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان عمر قال في الطريق : يا رسول الله ، نأتي قوماً حَرْباً وليس معنا سلاح ولا كُراع ؟ فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة من الطريق فأتوه بكل سلاح وكراع كان فيها ، وأخبِر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عكرمة بن أبي جَهْل خرج إليك في خمسمائة فارس ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخالد بن الوليد : "هذا ابن عمك أتاك في خمسمائة" "

فقال خالد : أنا سيف الله وسيف رسوله ، فيومئذ سُمِّي بسيف الله ، فخرج ومعه خيل وهزم الكفار ودفعهم إلى حوائط مكة .

وهذه الرواية أصح ، وكان بينهم قتال بالحجارة ، وقيل بالنَّبل والظُّفْر .

وقيل : أراد بكف اليد أنه شرط في الكتاب أن من جاءنا منهم فهو رَدٌّ عليهم ، فخرج أقوام من مكة مسلمون وخافوا أن يردّهم الرسول عليه السلام إلى المشركين فلحقوا بالساحل ، ومنهم أبو بَصير ، وجعلوا يغيرون على الكفار ويأخذون عيرهم ، حتى جاء كبار قريش إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وقالوا : اضممهم إليك حتى نأمن ؛ ففعل .

وقيل : هَمَّت غَطَفان وأسد منع المسلمين من يهود خَيْبر ؛ لأنهم كانوا حلفاءهم فمنعهم الله عن ذلك ؛ فهو كف اليد .

﴿ بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ فيه قولان : أحدهما يريد به مكة .

الثاني الحديبية ، لأن بعضها مضاف إلى الحرم .

قال الماوردي : وفي قوله : ﴿ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ بفتح مكة .

وتكون هذه نزلت بعد فتح مكة ، وفيها دليل على أن مكة فُتحت صلحاً ، لقوله عز وجل : ﴿ كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم ﴾ .

قلت : الصحيح أن هذه الآية نزلت في الحديبية قبل فتح مكة ، حسب ما قدمناه عن أهل التأويل من الصحابة والتابعين .

وروى الترمذي قال : حدثنا عبد بن حُميد قال حدثني سليمان بن حرب قال حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس : أن ثمانين هبطوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم

وأصحابه من جبل التَّنعيم عند صلاة الصبح وهم يريدون أن يقتلوه ؛ فأخِذوا أخذاً فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم ﴾ الآية .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح ، وقد تقدّم .

وأما فتح مكة فالذي تدل عليه الأخبار أنها إنما فُتحت عنوة ، وقد مضى القول في ذلك في "الحج" وغيرها .

﴿ وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ هُمُ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ المسجد الحرام والهدي مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

(82/714)

الأولى قوله تعالى : ﴿ هُمُ الذين كَفَرُواْ ﴾ يعني قريشاً ، منعوكم دخول المسجد الحرام عامَ الحُدَيْبِيَة حين أحرم النبيّ صلى الله عليه وسلم مع أصحابه بعُمْرة ، ومنعوا الهَدْيَ وحبسوه عن أن يبلغ مَحِلّه .

وهذا كانوا لا يعتقدونه ، ولكنه حملتهم الأَنَفة ودعتهم حَمِيَّة الجاهلية إلى أن يفعلوا ما لا يعتقدونه دِيناً ، فوبّخهم الله على ذلك وتوعّدهم عليه ، وأدخل الأُنس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيانه ووعده .

الثانية قوله تعالى : ﴿ والهدي مَعْكُوفاً ﴾ أي محبوساً .

وقيل موقوفاً .

وقال أبو عمرو بن العلاء : مجموعاً .

الجوهري : عكفه أي حبسه ووقفه ، يَعْكِفه ويَعْكُفه عَكْفاً ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ والهدي مَعْكُوفاً ﴾ ؛ يقال : ما عكفك عن كذا .

ومنه الاْعتكاف في المسجد وهو الاحتباس .

﴿ أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ أي منحره ؛ قاله الفراء .

وقال الشافعي رضي الله عنه : الحَرَم .

وكذا قال أبو حنيفة رضي الله عنه ، المُحْصَر محلّ هَدْيه الحَرَم .

والمَحِلّ (بكسر الحاء) : غاية الشيء .

(وبالفتح) : هو الموضع الذي يحله الناس .

وكان الهَدْيُ سبعين بَدَنة ، ولكن الله بفضله جعل ذلك الموضع له مَحِلاً .

وقد اختلف العلماء في هذا على ما تقدّم بيانه في "البقرة" عند قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ

أُحْصِرْتُمْ ﴾ [البقرة : 196] والصحيح ما ذكرناه .

وفي صحيح مسلم عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال : نَحَرْنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عامَ الحديبية البَدَنَة عن سبعة ، والبقرةَ عن سبعة .

وعنه قال : اشتركنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحج والعُمْرة كلُّ سبعة في بدنة .

فقال رجل لجابر : أَيشْتَرَك في البدنة ما يشترك في الجَزُور ؟ قال : ما هي إلا من البُدْن .

وحضر جابر الحديبية قال : ونحرنا يومئذ سبعين بدنة ، اشتركنا كل سبعة في بدنة .

(83/714)

وفي البخاري عن ابن عمر قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم معتمرين ؛ فحال كفار قريش دون البيت ، فنحر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدنة وحلق رأسه .

قيل : إن الذي حلق رأسه يومئذ خِراش بن أميّة بن أبي العيص الخزاعي ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين أن ينحروا ويحلّوا ؛ ففعلوا بعد توقُّف كان منهم أغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقالت له أم سلمة : لو نحرت لنحروا ؛ فنحر رسول الله صلى الله عليه وسلم هَدْيه ونحروا بنحره ، " وحلق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه ودعا للمُحَلِّقين ثلاثاً وللمقصِّرين

مرة .

ورأى كعب بن عُجْرَة والقَمْل يسقط على وجهه ؛ فقال : "أيؤذيك هوامّك" ؟ قال نعم ؛ فأمره أن يحلق وهو بالحديبية " خرجه البخاري والدّارَقُطْنِي .

وقد مضى في "البقرة" .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ والهدي ﴾ الْهَدْيُ والهَدِيّ لغتان .

وقرىء "حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُّ مَحِلّه" بالتخفيف والتشديد ؛ الواحدة هَدْيَة .

وقد مضى في "البقرة" أيضاً .

وهو معطوف على الكاف والميم من "صَدُّوكُمْ" .

و ﴿ مَعْكُوفاً ﴾ حال ، وموضع "أنْ" من قوله : ﴿ أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ نصب على تقدير الحمل على "صَدُّوكُمْ" أي صدّوكم وصدّوا الهَدْي عن أن يبلغ .

ويجوز أن يكون مفعولاً له ؛ كأنه قال : وصَدُّوا الهَدْي كراهية أن يبلغ محله .

أبو علي : لا يصح حمله على العكف ؛ لأنّا لا نعلم "عكف" جاء متعدّياً ، ومجيء "مَعْكُوفاً" في الآية يجوز أن يكون محمولاً على المعنى ؛ كأنه لما كان حَبْساً حُمِل المعنى على ذلك ، كما حُمِل الرَّفَث على معنى الإفضاء فَعُدِّيَ بإلى ، فإن حُمل على ذلك كان موضعه نصباً على قياس قول سيبويه ، وجَرًّا على قياس قول الخليل .

أو يكون مفعولاً له ؛ كأنه قال : محبوساً كراهية أن يبلغ محله .

ويجوز تقدير الجر في "أن" لأن عن تقدمت ؛ فكأنه قال : وصدُّوكم عن المسجد الحرام ، وصدُّوا الهَدْيَ "عن" أن يبلغ محله .

ومثله ما حكاه سيبويه عن يونس : مررت برجل إنْ زيدٍ وإن عمرٍو ؛ فأضمر الجار لتقدم ذكره .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِّنْهُمْ مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ ﴾ يعني المستضعفين من المؤمنين بمكة وسط الكفار ؛ كمسلمة بن هشام وعَيّاش بن أبي ربيعة وأبي جَنْدل بن سهيل ، وأشباهِهم .

﴿ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ أي تعرفوهم .

وقيل لم تعلموهم أنهم مؤمنون .

﴿ أَن تَطَئُوهُمْ ﴾ بالقتل والإيقاع بهم ؛ يقال : وطِئت القوم ؛ أي أوقعت بهم .

و "أَنْ" يجوز أن يكون رفعاً على البدل من "رجالٌ ، ونساءٌ" كأنه قال ولولا وطؤكم رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمنات .

ويجوز أن يكون نصباً على البدل من الهاء والميم في "تَعْلَمُوهُمْ"؛ فيكون التقدير: لم تعلموا وطأهم؛ وهو في الوجهين بدل الاشتمال.

و"لَمْ تَعْلَمُوهُمْ" نعت ل "رجالٌ" و "نساءٌ".

وجواب "لَوْلاَ" محذوف؛ والتقدير: ولو أن تطئوا رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمنات لم تعلموهم لأذن الله لكم في دخول مكة، ولسلطكم عليهم؛ ولكنا صُنَّا من كان فيها يكتم إيمانه.

وقال الضحاك: لولا من في أصلاب الكفار وأرحام نسائهم من رجال مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموا أن تطئوا آباءهم فتهلك أبناؤهم.

الثانية قوله تعالى: ﴿ فَتُصِيبَكُمْ مِّنْهُمْ مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ الْمعَرَّة العيب، وهي مفعلة من العُرّ وهو الجَرَب؛ أي يقول المشركون: قد قتلوا أهل دينهم.

(85/714)

وقيل: المعنى يصيبكم من قتلهم ما يلزمكم من أجله كفارة قتل الخطأ؛ لأن الله تعالى إنما أوجب على قاتل المؤمن في دار الحرب إذا لم يكن هاجر منها ولم يعلم بإيمانه الكفارةَ دون الدية في قوله: ﴿ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ قاله الكلبي ومقاتل وغيرهما.

وقد مضى في "النساء" القول فيه .

وقال ابن زيد : "مَعَرَّةٌ" إثم .

وقال الجوهري وابن إسحاق : غُرْم الدِّيَة .

قطرب : شدّة .

وقيل غَمّ .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ تفضيل للصحابة وإخبار عن صفتهم الكريمة من العفة عن المعصية والعصمة عن التعدّي ، حتى لو أنهم أصابوا من ذلك أحداً لكان عن غير قصد .

وهذا كما وصفت النملة عن جند سليمان عليه السلام في قولها : ﴿ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل : 18] .

قوله تعالى : ﴿ لِّيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُواْ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ لِّيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُواْ ﴾ اللام في "لِيُدْخِلَ" متعلقة بمحذوف ؛ أي لو قتلتموهم لأدخلهم الله في رحمته .

ويجوز أن تتعلق بالإيمان .

ولا تحمل على مؤمنين دون مؤمنات ولا على مؤمنات دون مؤمنين ؛ لأن الجميع يدخلون في الرحمة .

وقيل : المعنى لم يأذن الله لكم في قتال المشركين ليسلم بعد الصلح من قضى أن يسلم من أهل مكة ؛ وكذلك كان أسلم الكثير منهم وحسن إسلامه ، ودخلوا في رحمته ؛ أي جنته .

الثانية قوله تعالى : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُواْ ﴾ أي تميّزوا ؛ قاله القُتَبي .

وقيل : لو تفرقوا ؛ قاله الكلبي .

وقيل : لو زال المؤمنون من بين أظهر الكفار لعذب الكفار بالسيف ؛ قاله الضحاك .

ولكن الله يدفع بالمؤمنين عن الكفار .

(86/714)

" وقال عليّ رضي الله عنه : سألت النبيّ صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ﴿ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا الذين كَفَرُواْ ﴾ فقال : "هم المشركون من أجداد نبيّ الله ومن كان بعدهم وفي عصرهم كان في أصلابهم قوم مؤمنون فلو تزيّل المؤمنون عن أصلاب الكافرين لعذب الله تعالى الكافرين عذاباً أليماً" " .

الثالثة هذه الآية دليل على مراعاة الكافر في حرمة المؤمن ؛ إذ لا يمكن أذية الكافر إلا بأذية المؤمن .

قال أبو زيد قلت لابن القاسم : أرأيت لو أن قوماً من المشركين في حصن من حصونهم ،

حصرهم أهل الإسلام وفيهم قوم من المسلمين أسارى في أيديهم ، أيحرق هذا الحصن أم لا ؟

قال : سمعت مالكاً وسئل عن قوم من المشركين في مراكبهم : أنرمي في مراكبهم بالنار ومعهم الأسارى في مراكبهم ؟ قال : فقال مالك لا أرى ذلك ؛ لقوله تعالى لأهل مكة : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ .

وكذلك لو تَتَرّس كافر بمسلم لم يُجز رميه .

وإن فعل ذلك فاعل فأتلف أحداً من المسلمين فعليه الدية والكفارة .

فإن لم يعلموا فلا ديّة ولا كفارة ؛ وذلك أنهم إذا علموا فليس لهم أن يرموا ، فإذا فعلوه صاروا قَتَلَة خطأ والدِّيَة على عواقلهم .

فإن لم يعلموا فلهم أن يرموا .

وإذا أبيحوا الفعل لم يجز أن يبقى عليهم فيها تِبَاعة .

قال ابن العربي : وقد قال جماعة إن معناه لو تزيّلوا عن بطون النساء وأصلاب الرجال .

وهذا ضعيف ؛ لأن مَن في الصلب أو في البطن لا يوطأ ولا تصيب منه معرّة .

وهو سبحانه قد صرح فقال : ﴿ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ ﴾ وذلك لا ينطلق على مَن في بطن المرأة وصُلب الرجال ، وإنما ينطلق على مثل الوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعياش بن أبي ربيعة ، وأبي جندل بن سهيل .

وكذلك قال مالك : وقد حاصرنا مدينة الروم فحبس عنهم الماء ، فكانوا يُنزلون الأسارى يستقون لهم الماء ، فلا يقدر أحد على رميهم بالنبل ، فيحصل لهم الماء بغير اختيارنا .

وقد جوّز أبو حنيفة وأصحابه والثَّوْريّ الرّمي في حصون المشركين وإن كان فيهم أسارى من المسلمين وأطفالهم .

ولو تَتَرّس كافر بولد مسلم رمي المشرك ، وإن أصيب أحد من المسلمين فلا دِيّة فيه ولا كفارة .

وقال الثوري : فيه الكفارة ولا دية .

وقال الشافعي بقولنا .

وهذا ظاهر ؛ فإن التوصل إلى المباح بالمحظور لا يجوز ؛ سِيَّما بروح المسلم ؛ فلا قول إلا ما قاله مالك رضي الله عنه .

والله أعلم .

قلت : قد يجوز قتل التُّرْس ، ولا يكون فيه اختلاف إن شاء الله ، وذلك إذا كانت المصلحة ضرورية كليّة قطعية .

فمعنى كونها ضرورية : أنها لا يحصل الوصول إلى الكفار إلا بقتل الترس .

ومعنى أنها كلية : أنها قاطعة لكل الأمة ، حتى يحصل من قتل الترس مصلحة كل المسلمين

؛ فإن لم يفعل قتل الكفار الترس واستولوا على كل الأمة .

ومعنى كونها قطعية : أن تلك المصلحة حاصلة من قتل الترس قطعاً .

قال علماؤنا : وهذه المصلحة بهذه القيود لا ينبغي أن يختلف في اعتبارها ؛ لأن الفرض أن الترس مقتول قطعاً ؛ فإما بأيدي العدوّ فتحصل المفسدة العظيمة التي هي استيلاء العدوّ على كل المسلمين .

وإما بأيدي المسلمين فيهلك العدو وينجو المسلمون أجمعون .

ولا يتأتى لعاقل أن يقول : لا يقتل الترس في هذه الصورة بوجه ؛ لأنه تلزم منه ذهاب الترس والإسلام والمسلمين ، لكن لما كانت هذه المصلحة غير خالية من المفسدة ، نفرت منها نفس من لم يمعن النظر فيها ؛ فإن تلك المفسدة بالنسبة إلى ما يحصل منها عدم أو كالعدم .

والله أعلم .

الرابعة قراءة العامة "لَوْ تَزَيَّلُوا" إلا أبا حَيْوَة فإنه قرأ "تَزَايَلُوا" وهو مثل "تَزَيَّلُوا" في المعنى .

والتزايل : التباين .

و"تَزَيَّلُوا" تفعّلوا ، من زِلْت .

(88/714)

وقيل : هي تَفَيْعَلُوا .

"لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا" قيل : اللام جواب لكلامين ؛ أحدهما "لَوْلاَ رِجَالٌ" والثاني "لَوْ تَزَيَّلُوا" .

وقيل جواب "لَوْلاَ" محذوف ؛ وقد تقدّم .

"وَلَوْ تَزَيَّلُوا" ابتداء كلام .

إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ

العامل في "إِذْ" قوله تعالى : "لَعَذَّبْنَا" أي لعذبناهم إذ جعلوا هذا .

أو فعل مضمر تقديره واذكروا .

﴿ الحمية ﴾ فِعيلة وهي الأَنَفة .

يقال : حَمِيت عن كذا حَمِيّة (بالتشديد) ومَحْمِيّة إذا أَنِفْت منه وداخلك عار وأنفة أن تفعله .

ومنه قول المتلمّس :

أَلاَ إنني منهم وعِرْضِي عِرْضُهم . . .

كذِي الأُنْفِ يحمي أنفَه أن يُكَشّمَا

أي يمنع .

قال الزهريّ : حَمِيَّتُهم أنفتهم من الإقرار للنبيّ صلى الله عليه وسلم بالرسالة والاستفتاح

ببسم الله الرحمن الرحيم ، ومنعهم من دخول مكة .

وكان الذي امتنع من كتابة بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله : سهيل بن عمرو ؛ على ما تقدّم .

وقال ابن بحر : حِمِيّتهم عصبيّتهم لآلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى ، والأنفة من أن يعبدوا غيرها .

وقيل : "حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ" إنهم قالوا : قتلوا أبناءنا وإخواننا ثم يدخلون علينا في منازلنا ؛ واللات والعُزَّى لا يدخلها أبداً .

﴿ فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ ﴾ أي الطمأنينة والوقار ﴿ على رَسُولِهِ وَعَلَى المؤمنين ﴾ .

وقيل : ثبتهم على الرضا والتسليم ، ولم يدخل قلوبهم ما أدخل قلوب أولئك من الحمية ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التقوى ﴾ قيل : لا إله إلا الله .

روي مرفوعاً من حديث أُبَيّ بن كعب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وهو قول عليّ وابن عمر وابن عباس ، وعمرو بن ميمون ومجاهد وقتادة وعكرمة والضحاك ، وسلمة بن كُهيل وعبيد بن عمير وطلحة بن مُصَرِّف ، والربيع والسّدي وابن زيد .

وقاله عطاء الخراساني ، وزاد "محمد رسول الله" .

وعن عليّ وابن عمر أيضاً هي لا إله إلا الله والله أكبر .

وقال عطاء بن أبي رباح ومجاهد أيضاً : هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وقال الزهريّ : بسم الله الرحمن الرحيم .

يعني أن المشركين لم يُقِرّوا بهذه الكلمة ؛ فخص الله بها المؤمنين .

و"كَلِمَةَ التَّقْوَى" هي التي يتَّقى بها من الشرك .

وعن مجاهد أيضاً أن "كَلِمَةَ التَّقْوَى" الإخلاص .

﴿ وكانوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ أي أحق بها من كفار مكة ؛ لأن الله تعالى اختارهم لدينه وصحبة نبيه .

﴿ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(90/714)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾

لما ذكر تعالى حال من تخلف عن السفر مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ذكر حال المؤمنين الخلص الذين سافروا معه .

والآية دالة على رضا الله تعالى عنهم ، ولذا سميت : بيعة الرضوان ؛ وكانوا فيما روي ألفاً وخمسمائة وعشرين .

وقال ابن أبي أوفى : وثلاثمائة .

وأصل هذه البيعة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين نزل الحديبية ، بعث جواس بن أمية الخزاعي رسولاً إلى أهل مكة ، وحمله على جمل له يقال له : الثعلب ، يعلمهم أنه جاء معتمراً ، لا يريد قتالاً .

فلما أتاهم وكلمهم ، عقروا جمله وأرادوا قتله ، فمنعته الأحابيش ، وبلغ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فأراد بعث عمر .

فقال : قد علمت فظاظتي ، وهم يبغضوني ، وليس هناك من بني عدي من يحميني ، ولكن أدلك على رجل هو أعز مني وأحب إليهم ، عثمان بن عفان .

فبعثه ، فأخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وإنما جاء زائراً لهذا البيت ، معظماً لحرمته .

وكان أبان بن سعيد بن العاصي حين لقيه ، نزل عن دابته وحمله عليها وأجاره ، فقالت له قريش : إن شئت فطف بالبيت ، وأما دخولكم علينا فلا سبيل إليه .

فقال : ما كنت لأطوف به حتى يطوف به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

وكانت الحديبية من مكة على عشرة أميال ، فصرخ صارخ من العسكر : قتل عثمان ، فحمي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنون وقالو : لا نبرح إن كان هذا حتى نلقى القوم .

فنادى منادي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : البيعة البيعة ، فنزل روح القدس ، فبايعوا كلهم إلا الجد بن قيس المنافق .

وقال الشعبي : أول من بايع أبو سنان بن وهب الأسدي ، والعامل في إذ رضي .

(91/714)

والرضا على هذا بمعنى إظهار النعم عليهم ، فهو صفة فعل ، لا صفة ذات لتقييده بالزمان وتحت ، يحتمل أن يكون معمولاً ليبايعونك ، أو حالاً من المفعول ، لأنه (صلى الله عليه وسلم) كان تحتها جالساً في أصلها .

قال عبد الله بن المغفل : وكنت قائماً على رأسه ، وبيدي غصن من الشجرة أذب عنه ، فرفعت الغصن عن ظهره .

بايعوه على الموت دونه ، وعلى أن لا يفروا ، فقال لهم : " أنتم اليوم خير أهل الأرض " وكانت الشجرة سمرة .

قال بكير بن الأشجع : يوم فتح مكة .

قال نافع : كان الناس يأتون تلك الشجرة يصلون عندها ، فبلغ عمر ، فأمر بقطعها .

وكانت هذه البيعة سنة ست من الهجرة .

وفي الحديث عنه (صلى الله عليه وسلم) : " لا يدخل النار من شهد بيعة الرضوان "

﴿ فعلم ما في قلوبهم ﴾ ، قال قتادة ، وابن جريج : من الرضا بالبيعة أن لا يفروا .

وقال الفراء : من الصدق والوفاء .

وقال الطبري ، ومنذر بن سعيد : من الإيمان وصحته ، والحب في الدين والحرص عليه .

وقيل : من الهم والانصراف عن المشركين ، والأنفة من ذلك ، على نحو ما خاطب به عمر وغيره ؛ وهذا قول حسن يترتب معه نزول السكينة والتعريض بالفتح القريب .

والسكينة تقرير قلوبهم وتذليلها لقبول أمر الله تعالى ، وعلى الأقوال السابقة قيل هذا القول ، لا يظهر احتياج إلى إنزال السكينة إلا أن يجازي بالسكينة والفتح القريب والمغانم .

وقال مقاتل : فعلم ما في قلوبهم من كراهة البيعة على أن يقاتلوا معه على الموت ، ﴿ فأنزل السكينة عليهم ﴾ حتى بايعوا .

قال ابن عطية : وهذا فيه مذمة للصحابة ، رضي الله تعالى عنهم . انتهى .

﴿ وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ قال قتادة ، وابن أبي ليلى : فتح خيبر ، وكان عقب انصرافهم من مكة .

وقال الحسن : فتح هجر ، وهو أجل فتح اتسعوا بثمرها زمناً طويلاً .

وقيل : فتح مكة والقرب أمر نسبي ، لكن فتح خيبر كان أقرب .

وقرأ الحسن ، ونوح القارىء : وآتاهم ، أي أعطاهم ؛ والجمهور : وأثابهم من الثواب .

(92/714)

﴿ ومغانم كثيرة ﴾ : أي مغانم خيبر ، وكانت أرضاً : ذات عقار وأموال ، فقسمها عليهم .

وقيل : مغانم هجر .

وقيل : مغانم فارس والروم .

وقرأ الجمهور : يأخذونها بالياء على الغيبة في وأثابهم ، وما قبله من ضمير الغيبة .

وقرأ الأعمش ، وطلحة ، ورويس عن يعقوب ، ودلبة عن يونس عن ورش ، وأبو دحية ، وسقلاب عن نافع ، والأنطاكي عن أبي جعفر : بالتاء على الخطاب .

كما جاء بعد ﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة ﴾ بالخطاب .

وهذه المغانم الموعود بها هي المغانم التي كانت بعد هذه ، وتكون إلى يوم القيامة ، قاله ابن عباس ومجاهد وجمهور المفسرين .

ولقد اتسع نطاق الإسلام ، وفتح المسلمون فتوحاً لا تحصى ، وغنموا مغانم لا تعد ، وذلك في شرق البلاد وغربها ، حتى في بلاد الهند ، وفي بلاد السودان في عصرنا هذا .

وقدم علينا حاجاً أحد ملوك غانة من بلاد التكرور ، وذكر عنه أنه استفتح أزيد من خمسة وعشرين مملكة من بلاد السودان ، وأسلموا ، وقدم علينا ببعض ملوكهم يحج معه .

وقيل : الخطاب لأهل البيعة ، وأنهم سيغنمون مغانم كثيرة .

وقال زيد بن أسلم وابنه : المغانم الكثيرة مغانم خيبر ؛ ﴿ فعجل لكم هذه ﴾ : الإشارة بهذه إلى البيعة والتخلص من أمر قريش بالصلح ، قاله ابن عباس وزيد بن أسلم وابنه .

وقال مجاهد : مغانم خيبر .

﴿ وكف أيدي الناس عنكم ﴾ : أي أهل مكة بالصلح .

وقال ابن عباس عيينة بن حصن الفزاري ، وعوف بن مالك النضري ، ومن كان معهم : إذ جاءوا لينصروا أهل خيبر ، والرسول عليه الصلاة والسلام محاصر لهم ، فجعل الله في قلوبهم الرعب وكفهم عن المسلمين .

وقال ابن عباس أيضاً : أسد وغطفان حلفاء خيبر .

وقال الطبري : كف اليهود عن المدينة بعد خروج الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى الحديبية وإلى خيبر .

﴿ ولتكون ﴾ : أي هذه الكفة آية للمؤمنين ، وعلامة يعرفون بها أنهم من الله تعالى بمكان ، وأنه ضامن نصرهم والفتح عليهم .

(93/714)

وقيل : رأى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فتح مكة في منامه ، ورؤيا الأنبياء حق ، فتأخر ذلك إلى السنة القابلة ، فجعل فتح خيبر علامة وعنواناً لفتح مكة ، فيكون الضمير في ولتكون عائداً على هذه ، وهي مغانم خيبر ، والواو في ولتكون زائدة عند الكوفيين وعاطفة على محذوف عند غيرهم ، أي ليشكروه ولتكون ، أو وعد فعجل وكف لينفعكم بها ولتكون ، أو يتأخر ، أو يقدر ما يتعلق به متأخراً ، أي فعل ذلك .

﴿ ويهديكم صراطاً مستقيماً ﴾ : أي طريق التوكل وتفويض الأمور إليه .

وقيل : بصيرة واتقاناً .

﴿ وأخرى لم تقدروا عليها ﴾ ، قال ابن عباس ، والحسن ، ومقاتل : بلاد فارس والروم وما فتحه المسلمون .

وقال الضحاك ، وابن زيد ، وابن اسحاق : خيبر .

وقال قتادة ، والحسن : مكة ، وهذا القول يتسق معه المعنى ويتأيد .

وفي قوله : ﴿ لم تقدروا عليها ﴾ دلالة على تقدم محاولة لها ، وفوات درك المطلوب في الحال ، كما كان في مكة .

وقال الزمخشري : هي مغانم هوازن في غزوة حنين .

وقال : ﴿ لم تقدروا عليها ﴾ ، لما كان فيها من الجولة ، وجوز الزمخشري في : ﴿ وأخرى ﴾ ، أن تكون مجرورة بإضمار رب ، وهذا فيه غرابة ، لأن رب لم تأت في القرآن جارة ، مع كثرة ورود ذلك في كلام العرب ، فكيف يؤتى بها مضمرة ؟ وإنما يظهر أن ﴿ وأخرى ﴾ مرفوع بالابتداء ، فقد وصفت بالجملة بعدها ، وقد أحاط هو الخبر .

ويجوز أن تكون في موضع نصب بمضمر يفسره معنى ﴿ قد أحاط الله بها ﴾ : أي وقضى الله أخرى .

وقد ذكر الزمخشري هذين الوجهين ومعنى ﴿ قد أحاط الله بها ﴾ بالقدرة والقهر لأهلها ، أي قد سبق في علمه ذلك ، وظهر فيها أنهم لم يقدروا عليها .

﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا ﴾ : هذا ينبني على الخلاف في قوله تعالى : ﴿ وكف أيدي الناس عنكم ﴾ ، أهم مشركو مكة ، أو ناصروا أهل خيبر ، أو اليهود ؟ ﴿ لولوا الأدبار ﴾ : أي لغلبوا وانهزموا .

﴿ سنة الله ﴾ : في موضع المصدر المؤكد لمضمون الجملة قبله ، أي سن الله عليه أنبياءه سنة ، وهو قوله : ﴿ لأغلبن أنا ورسلي ﴾ ﴿ وهو الذي كف أيديهم ﴾ : أي قضى بينكم المكافة والمحاجزة ، بعد ما خولكم الظفر عليهم والغلبة .

" وروي في سببها أن قريشاً جمعت جماعة من فتيانها ، وجعلوهم مع عكرمة بن أبي جهل ، وخرجوا يطلبون غرة في عسكر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

فلما أحس بهم المسلمون ، بعث عليه الصلاة والسلام خالد بن الوليد ، وسماه حينئذ سيف الله ، في جملة من الناس ، ففروا أمامهم حتى أدخلوهم بيوت مكة ، وأسروا منهم جملة ، وسيقوا إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فمنّ عليهم وأطلقهم .

وقال قتادة : كان ذلك بالحديبية عند معسكره ، وهو ببطن مكة .

وعن أنس : هبط ثمانون رجلاً من أهل مكة على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من جبل التنعيم مسلحين يريدون غرته ، فأخذناهم فاستحياهم .

وفي حديث عبد الله بن معقل أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) دعا عليهم ، فأخذ الله أبصارهم ، فقال لهم : "هل جئتم في عهد ؟ وهل جعل لكم أحد أماناً" ؟ قالوا : اللهم لا ، فخلي سبيلهم "

وقال الزمخشري كان يعني هذا الكف يوم الفتح ، وبه استشهد أبو حنيفة ، على أن مكة

فتحت عنوة لا صلحاً .

وقيل : كان ذلك في غزوة الحديبية ، لما روي أن عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائة ، فبعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من هزمه وأدخله حيطان مكة .

وعن ابن عباس : أظهر الله المسلمين عليهم بالحجارة حتى أدخلوهم البيوت . انتهى .

وقرأ الجمهور : بما تعملون ، على الخطاب ؛ وأبو عمرو : بالياء ، وهو تهديد للكفار .

﴿ هم الذين كفروا ﴾ : يعني أهل مكة .

قال ابن خالوية : يقال الهدي والهدى والهداء ، ثلاث لغات . انتهى .

(95/714)

وقرأ الجمهور : الهدي ، بسكون الدال ، وهي لغة قريش ؛ وابن هرمز ، والحسن ، وعصمة عن عاصم ، واللؤلؤي ، وخارجة عن أبي عمرو : والهدي ، بكسر الدال وتشديد الياء ، وهما لغتان ، وهو معطوف على الضمير في صدّوكم ؛ ومعكوفاً : حال ، أي محبوساً .

عكفت الرجل عن حاجته : حبسته عنها .

وأنكر أبو عليّ تعدية عكف ، وحكاه ابن سيدة والأزهري وغيرهما .

وهذا الحبس يجوز أن يكون من المشركين بصدهم ، أو من جهة المسلمين لتردّدهم ونظرهم

في أمرهم .

وقرأ الجعفي ، عن أبي عمرو : والهدي ، بالجر معطوفاً على المسجد الحرام : أي وعن نحر الهدي .

وقرأ : بالرفع على إضمار وصد الهدي ، وكان خرج عليه ومعه مائة بدنة ، قاله مقاتل .

وقيل : بسبعين ، وكان الناس سبعمائة رجل ، فكانت البدنة عن عشرة ، قاله المسور بن مخرمة وأبيّ بن الحكم .

﴿ أن يبلغ محله ﴾ ، قال الشافعي : الحرم ، وبه استدل أبو حنيفة أن محل هدي المحصر الحرم ، لا حيث أحصر .

وقال الفراء : حيث يحل نحره ، و ﴿ أن يبلغ ﴾ : يحتمل أن يتعلق بالصد ، أي وصدوا الهدى ، وذلك على أن يكون بدل اشتمال ، أي وصدوا بلوغ الهدي محله ، أو على أنه مفعول من أجله ، أي كراهة أن يبلغ محله .

ويحتمل أن يتعلق بمعكوفاً ، أي محبوساً لأجل أن يبلغ محله ، فيكون مفعولاً من أجله ، ويكون الحبس من المسلمين .

أو محبوساً عن أن يبلغ محله ، فيكون الحبس من المشركين ، وكان بمكة قوم من المسلمين مختلطين بالمشركين ، غير متميزين عنهم ، ولا معروفي الأماكن ؛ فقال تعالى : ولولا كراهة أن يهلكوا أناساً مؤمنين بين ظهراني المشركين وأنتم غير عارفين لهم ، فيصيبكم بإهلاكهم

مكروه ومشقة ، ما كف أيديكم عنهم ؛ وحذف جواب لولا لدلالة الكلام عليه .

قال الزمخشري : ويجوز أن يكون : ﴿ لو تزيلوا ﴾ ، كالتكرير للولا رجال مؤمنون ، لمرجعهما إلى معنى واحد ، ويكون : ﴿ لعذبنا ﴾ ، هو الجواب . انتهى .

(96/714)

وقوله : لمرجعهما إلى معنى واحد ليس بصحيح ، لأن ما تعلق به لولا الأولى غير ما تعلق به الثانية .

فالمعنى في الأولى : ولولا وطء قوم مؤمنين ، والمعنى في الثانية : لو تميزوا من الكفار ؛ وهذا معنى مغاير للأول مغايرة ظاهرة .

و ﴿ أن تطؤهم ﴾ : بدل اشتمال من رجال وما بعده .

وقيل : بدل من الضمير في ﴿ تعلموهم ﴾ ، أي لم تعلموا وطأتهم ، أي أنه وطء مؤمنين .

وهذا فيه بعد .

والوطء : الدوس ، وعبر به عن الإهلاك بالسيف وغيره .

قال الشاعر :

ووطئتنا وطأ على حنق . . .

وطء المقيد ثابت الهرم

وفي الحديث : " اللهم اشدد وطأتك على مضر " و ﴿ لم تعلموهم ﴾ : صفة لرجال ونساء غلب فيها المذكر ؛ والمعنى : لم تعرفوا أعيانهم وأنهم مؤمنون .

وقال ابن زيد : المعرة : المأثم .

وقال ابن إسحاق : الدية .

وقال ابن عطية : وهذا ضعيف ، لأنه لا إثم ولا دية في قتل مؤمن مستور الإيمان بين أهل الحرب .

وقال الطبري : هي الكفارة .

وقال القاضي منذر بن سعيد : المعرة : أن يعنفهم الكفار ، ويقولون قتلوا أهل دينهم .

وقيل : الملامة وتألم النفس منه في باقي الزمن .

ولفق الزمخشري من هذه الأقوال سؤالاً وجواباً على عادته في تلفق كلامه من أقوالهم وإيهامه أنها سؤالات وأجوبة له فقال : فإن قلت : أي معرة تصيبهم إذا قتلوهم وهم لا يعلمون ؟ قلت : يصيبهم وجوب الدية والكفارة ، وسوء مقالة المشركين أنهم فعلوا بأهل دينهم ما فعلوا بنا من غير تمييز ، والمأثم إذا جرى منهم بعض التقصير . انتهى .

﴿ بغير علم ﴾ : أخبار عن الصحابة وعن صفتهم الكريمة من العفة عن المعصية والامتناع من التعدى حتى أنهم لو أصابوا من ذلك أحداً لكان من غير قصد ، كقول النملة

عن جند سليمان : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ وبغير علم متعلق بأن تطؤهم .

وقيل : متعلق بقوله : ﴿ فتصيبكم منهم معرّة ﴾ من الذين بعدكم ممن يعتب عليكم .

(97/714)

وقرأ الجمهور : لو تزيلوا ؛ وابن أبي عبلة ، وابن مقسم ، وأبو حيوة ، وابن عون : لو تزايلوا ، على وزن تفاعلوا ، ليدخل متعلق بمحذوف دل عليه المعنى ، أي كان انتفاء التسليط على أهل مكة ، وانتفاء العذاب .

﴿ ليدخل الله في رحمته من يشاء ﴾ : وهذا المحذوف هو مفهوم من جواب لو ، ومعنى تزيلوا : لو ذهبوا عن مكة ، أي لو تزيل المؤمنون من الكفار وتفرقوا منهم ، ويجوز أن يكون الضمير للمؤمنين والكفار ، أي لو افترق بعضهم من بعض .

﴿ إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ﴾ : إذ معمول لعذبنا ، أو لو صدوكم ، أو لا ذكر مضمرة .

والحمية : الأنفة ، يقال : حميت عن كذا حمية ، إذا أنفت عنه وداخلك عار وأنفة لفعله ، قال المتلمس :

إلا أنني منهم وعرضي عرضهم . . .

كذا الرأس يحمي أنفه أن يهشما

وقال الزهري : حميتهم : أنفتهم عن الإقرار لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالرسالة والاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم ، والذي امتنع من ذلك هو سهيل بن عمرو .

وقال ابن بحر : حميتهم : عصبيتهم لآلهتهم ، والأنفة : أن يعبدوا وغيرها .

وقيل : قتلوا آباءنا وإخواننا ثم يدخلون علينا في منازلنا ، واللات والعزى لا يدخلها أبداً ؛ وكانت حمية جاهلية لأنها بغير حجة وفي غير موضعها ، وإنما ذلك محض تعصب لأنه (صلى الله عليه وسلم) إنما جاء معظماً للبيت لا يريد حرباً ، فهم في ذلك كما قال الشاعر في حمية الجاهلية :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت . . .

غوين وإن ترشد غزية أرشد

وحمية : بدل من الحمية والسكينة الوقار والاطمئنان ، فتوقروا وحلموا ؛ و ﴿ كلمة التقوى ﴾ : لا إله إلا الله .

روي ذلك عن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وبه قال علي ، وابن عباس ، وابن عمر ، وعمرو بن ميمون ، وقتادة ، ومجاهد ، وعكرمة ، والضحاك ، وسلمة بن كهيل ، وعبيد بن عمير ، وطلحة بن مصرف ، والربيع ، والسدي ، وابن زيد .

وقال عطاء بن أبي رباح ومجاهد أيضاً : هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وقال علي بن أبي طالب ، وابن عمر ، رضي الله تعالى عنهما : لا إله إلا الله ، والله أكبر .

وقال أبو هريرة ، وعطاء الخراساني : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وأضيفت الكلمة إلى التقوى لأنها سبب التقوى وأساسها .

وقيل : هو على حذف مضاف ، أي كلمة أهل التقوى .

وقال المسور بن مخرمة ، ومروان بن الحكم : كلمة التقوى هنا هي بسم الله الرحمن الرحيم ، وهي التي أباها كفار قريش ، فألزمها الله المؤمنين وجعلهم أحق بها .

وقيل : قولهم سمعاً وطاعة .

والظاهر أن الضمير في : ﴿ وكانوا ﴾ عائد على المؤمنين ، والمفضل عليهم محذوف ، أي ﴿ أحق بها ﴾ من كفار مكة ، لأن الله تعالى اختارهم لدينه وصحبة نبيه (صلى الله عليه وسلم) .

وقيل : من اليهود والنصارى ، وهذه الأحقية هي في الدنيا .

وقيل : أحق بها في علم الله تعالى .

وقيل : ﴿ وأهلها ﴾ في الآخرة بالثواب .

وقيل : الضمير في وكانوا عائد على كفار مكة لأنهم أهل حرم الله ، ومنهم رسوله لولا ما سلبوا من التوفيق .

﴿ وكان الله بكل شيء عليماً ﴾ ، إشارة إلى علمه تعالى بالمؤمنين ورفع الكفار عنهم ، وإلى علمه بصلح الكفار في الحديبية ، إذ كان سبباً لامتزاج العرب وإسلام كثير منهم ، وعلو كلمة الإسلام ؛ وكانوا عام الحديبية ألفاً وأربعمائة ، وبعده بعامين ساروا إلى مكة بعشرة آلاف .

وقال أبو عبد الله الرازي : في هذه الآية لطائف معنوية ، وهو أنه تعالى أبان غاية البون بين الكافر والمؤمن .

باين بين الفاعلين ، إذ فاعل جعل هو الكفار ، وفاعل أنزل هو الله تعالى ؛ وبين المفعولين ، إذ تلك حمية ، وهذه سكينة ؛ وبين الإضافتين ، أضاف الحمية إلى الجاهلية ، وأضاف السكينة إلى الله تعالى .

(99/714)

وبين الفعل جعل وأنزل ؛ فالحمية مجعولة في الحال في العرض الذي لا يبقى ، والسكينة كالمحفوظة في خزانة الرحمة فأنزلها .

والحمية قبيحة مذمومة في نفسها وازدادت قبحاً بالإضافة إلى الجاهلية ، والسكينة حسنة في نفسها وازدادت حسناً بإضافتها إلى الله تعالى .

والعطف في فأنزل بالفاء لا بالواو يدل على المقابلة ، تقول : أكرمني فأكرمته ، فدلت على المجازاة للمقابلة ، ولذلك جعل فأنزل .

ولما كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) هو الذي أجاب أولاً إلى الصلح ، وكان المؤمنون عازمين على القتال ، وأن لا يرجعوا إلى أهلهم إلا بعد فتح مكة أو النحر في المنحر ، وأبوا إلا أن يكتبوا محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وباسم الله ، قال تعالى : ﴿ على رسوله ﴾ .

ولما سكن هو (صلى الله عليه وسلم) للصلح ، سكن المؤمنون ، فقال : ﴿ وعلى المؤمنين ﴾ .

ولما كان المؤمنون عند الله تعالى ، ألزموا تلك الكلمة ، قال تعالى : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ وفيه تلخيص ، وهو كلام حسن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(100/714)

وقال الثعالبى :

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ . . . ﴾ الآية ، رُوِيَ في سببها أَنَّ قريشاً جمعت جماعة من فتيانها ، وجعلوهم مع عِكْرِمَةَ بن أبي جهل ، وخرجوا يطلبون غرَّةً في عسكر النبيِّ صلى الله عليه وسلم واختلف الناسُ في عدد هؤلاء اختلافاً متفاوتاً ؛ فلذلك اختصرته ، فلمَّا أَحَسَّ بهم المسلمون بعث رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم في أَثَرِهِمْ خالدَ بنَ الوليد ، وسَمَّاهُ يومئذٍ سَيْفَ اللَّه في جملة من الناس ، فَفَرُّوا أمامهم ، حَتَّى أدخلوهم بُيُوتَ مَكَّةَ ، وأَسَرُوا منهم جملة ، فَسِيقُوا إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فَمَنَّ عليهم وأطلقهم ؛ قال الوَاحِدِيُّ : وكان ذلك سَبَبَ الصلح بينهم ، انتهى .

(101/714)

وقوله سبحانه : ﴿ هُمُ الذين كَفَرُواْ ﴾

يعني : أهل مكة ﴿ وَصَدُّوكُمْ عَنِ المسجد الحرام ﴾ أي : منعوكم من العمرة ، وذلك أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم خرج من المدينة إلى الحديبية في ذي القعدة سنة ست يريد العمرة وتعظيم البيت وخرج معه بمائة بدنة وقيل بسبعين فأجمعت قريش لحربه وغوروا المياه التي تقرب من مكة فجاء صلى الله عليه وسلم حتى نزل على بئر الحديبية وحينئذ

وضع سهمه في الماء فجرى غمراً حتى كفى الجيش ثم بعث صلى الله عليه وسلم إليهم عثمان كما تقدم وبعثوا هم رجالاً آخرهم سهيل بن عمرو وبه انعقد الصلح على أن ينصرف صلى الله عليه وسلم ويعتمر من قابل فهذا صدهم إياه وهو مستوعب في السير ، ﴿ والهدي ﴾ معطوف على الضمير في «صدوكم» [أي] وصدوا الهدي ، «ومعكوفاً» حال ، ومعناه : محبوساً ، تقول عكفت الرجل عن حاجته إذا حبسته ، وحبس الهدي من قبل المشركين هو بصدهم ، ومن قبل المسلمين لرؤيتهم ونَظَرِهِمْ في أَمرهم ؛ لأجل أَنْ يبلغَ الهَدْيُ مَحِلَّهُ ، وهو مَكَّةُ والبَيْتُ ، وهذا هو حَبْسُ المسلمين ، وذكر تعالى العِلَّةَ في أَنْ صَرَفَ المسلمين ، ولم يمكنهم من دخول مَكَّةَ في تلك الوجهة ، وهي أَنَّهُ كان بمكة مؤمنون من رجال ونساء خَفِيَ إيمانهم ، فَلَوِ استباح المسلمون بيضتها أهلكوا أولئك المؤمنين ؛ قال قتادة : فدفع اللَّه عن المشركين بأولئك المؤمنون ، والوَطْءُ هنا : الإهلاك بالسيف وغيره ؛ ومنه قوله صلى الله عليه وسلم

(102/714)

" اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ "

قال أبو حيَّان : ﴿ وَلَوْلاَ رِجَالٌ ﴾ جوابها محذوف ؛ لدلالة الكلام عليه ، أي : ما كَفَّ

أيديَكم عنهم ، انتهى ، والمَعَرَّةُ : السوء والمكروه اللاحق ؛ مأخوذ من العُرِّ والعُرَّة وهو الجَرَبُ الصَّعْبُ اللاَّزِمُ ، واختلف في تعيين هذه المَعَرَّةِ ، فقال الطبريُّ : وَحَكَاهُ الثعلبيُّ : هي الكَفَّارة ، وقال مُنْذِرٌ : المَعَرَّة : أنْ يعيبهم الكُفَّار ، ويقولوا : قتلوا أهل دينهم ، وقال بعضُ المفسِّرين : هي المَلاَمُ ، والقولُ في ذلك ، وتألُّمَ النفْسِ في باقي الزمان ، وهذه أقوالٌ حِسَانٌ ، وجواب «لولا» محذوفٌ ، تقديره : لولا هؤلاءِ لدخلتم مكَّةَ ، لكن شرَّفْنَا هؤلاءِ المؤمِنِينَ بأنْ رَحِمْنَاهُمْ ، ودفعنا بسببهم عن مَكَّةَ ليدخل اللَّه ، أي : لِيُبَيِّنَ للناظر أنَّ اللَّه يدخُلَ من يشاء في رحمته أو ، أي : لِيقعَ دخولهم في رحمة اللَّه ودفعه عنهم .

* ت * : وقال الثَّعْلَبِيُّ : قوله : «بِغَيْرِ عِلْمٍ» يحتمل أنْ يريد بغير علم مِمَّنْ تكلَّم بهذا ، والمَعَرَّةُ : المشقة «لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ» أي : في دين الإِسلام «مَنْ يَشَاءُ» : من أهل مكة قبل أن تدخلوها ، انتهى .

(103/714)

وقوله تعالى : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُواْ ﴾ أي : لو ذهبوا عن مَكَّةَ ؛ تقول : زِلْتُ زيداً عن موضعه إزالة ، أي : أذهبته ، وليس هذا الفعل من «زَالَ يَزُولُ» ، وقد قيل : هو منه ، وقرأ أبو حياةَ وقتادة : «تَزَايَلُوا» بألف ، أي : ذهب هؤلاء عن هؤلاء ، وقال النَّحَّاس : وقد قيل : إنَّ قوله : ﴿

وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ . . . ﴾ الآية : يريدُ : مَنْ في أصلاب الكافرين مِمَّنْ سيُؤْمِنُ في غابر الدهر ، وحكاه الثعلبيُّ والنَّقَّاش عن عليِّ بْنِ أبي طالب رضي اللَّه عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم مرفوعاً ، والحَمِيَّةُ التي جعلوها هي حَمِيَّةُ أَهل مكة في الصَّدّ ؛ قال الزُّهْرِيُّ : وهي حمية سُهَيْلٍ ومَنْ شَاهَدَ مِنْهُمْ عقدَ الصُّلْحِ ، وجعلها سبحانه حَمِيَّةً جاهلية ، لأَنَّها كانت منهم بغير حُجَّةٍ ، إذ لم يأت صلى الله عليه وسلم مُحارباً لهم ، وإنما جاء معتمراً معظِّماً لبيت اللَّه ، والسكينة : هي الطَّمْأَنِينَةُ إلى أَمْرِ رسُولِ اللَّه صلى الله عليه وسلم ، والثقةُ بوعد اللَّه ، والطاعةُ ، وزوالُ الأَنَفَةِ التي لحقت عُمَرَ وغيره ، «وكَلِمَةُ التَّقْوَى» : قال الجمهور : هي لا إله إلا اللَّه ، ورُوِيَ ذلك عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم وفي مصحف ابن مسعود : " وَكَانُوا أَهْلَهَا [وَأَحَقَّ بِهَا " والمعنى : كانوا أهلها] على الإطلاق في علم اللَّه وسابق قضائه لهم ، وروى أبو أمامة عن النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ :

(104/714)

" إِذَا نَادَى المُنَادِي فُتِحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، واسْتُجِيبَ الدُّعَاءُ ، فَمَنْ نَزَلَ بِهِ كَرْبٌ أَوْ شِدَّةٌ فَلْيَتَحَيَّنِ المُنَادِيَ ، فَإِذَا كَبَّرَ كَبَّرَ ، وَإِذَا تَشَهَّدَ تَشَهَّدَ ، وَإِذَا قَالَ : حَيَّ عَلَى الصَّلاَةِ ، قَالَ : حَيَّ عَلَى الصَّلاَةِ ، وَإِذَا قَالَ : حَيَّ عَلَى الْفَلاَحِ ، قَالَ : حَيَّ عَلَى الفَلاَحِ ، ثُمَّ يَقُولُ : رَبِّ

هَذِهِ الدَّعْوَةِ الصادِقَةِ المُسْتَجَابِ لَهَا ، دَعُوَةِ الحَقّ وَكَلِمَةِ التقوى ، أَحْيِنَا عَلَيْهَا ، وَأَمِتْنَا عَلَيْهَا ، وَابْعَثْنَا عَلَيْهَا ، وَاجْعَلْنَا مِنْ خِيَارِ أَهْلِهَا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً ، ثُمَّ يَسْأَلُ اللَّهَ حَاجَتَهُ " رواه الحاكم في «المُسْتَدْرَكِ» ، وقال : صحيح الإسناد ، انتهى من «السِّلاَح» .

فقد بَيَّنَ صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث معنى «كلمة التقوى» على نحو ما فسرَ به الجمهور ، والصحيحِ أنه يعوض عن الحَيْعَلَةِ الحَوْقَلَةُ ؛ ففي صحيح مسلم : " ثُمَّ قَالَ : حَيَّ عَلَى الصَلاَةِ ، قَالَ : لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ، ثُمَّ قَالَ : حَيَّ عَلَى الْفَلاَحِ ، قَالَ : لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ " الحديث ، انتهى .

(105/714)

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ إشارة إلى علمه بالمؤمنين الذين دفع عن كفار قريش بسببهم ، وإلى علمه بوجه المصلحة في صلح الحديبية ؛ فيُرْوَى أَنَّهُ لما انعقد الصلحُ أَمِنَ الناسُ في تلك المُدَّةِ الحربَ والفتنةَ ، وامتزجوا وعَلَتْ دعوةُ الإسلام ، وانقاد إلى الإسلام كُلُّ مَنْ له فهم ، وزاد عدد الإسلام في تلك المدة أَضعافَ ما كان قبلَ ذلك ؛ قال * ع * : ويقتضى ذلك أَنَّ النبي صلى الله عليه وسلم ، كان في عام الحديبيةِ في أَرْبَعَ عَشْرَةَ مائة ، ثم سار إلى مَكَّةَ بعد ذلك بعامين في عَشَرَةِ آلاف فارس صلى الله عليه وسلم .

* ت * : المعروف عَشَرَةُ آلاف ، وقوله فارس ما أَظُنُّهُ يَصِحُّ فتأمله في كتب السيرة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 4 صـ ﴾

(106/714)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ المؤمنين ﴾

هم الذينَ ذُكِرَ شأنُ مبايعتِهم . وبهذِهِ الآيةِ سُميتْ بَيعةَ الرضوانِ . وقولُه تعالى ﴿ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشجرة ﴾ منصوبٌ برضي . وصيغةُ المضارعِ لاستحضارِ صورتِها ، وتحتَ الشجرةِ متعلقٌ به أو بمحذوفٍ هو حالٌ من مفعولِه . رُوِيَ أَنَّه عليه الصلاةُ والسَّلامُ لما نزلَ الحديبية بعثَ خراشَ بنَ أميةَ الخزاعيَّ رسولاً إلى أهلِ مكةَ فهمُّوا بِهِ فمنَعُه الأحابيشُ فرجعَ فبعثَ عثمانَ بنَ عفانَ رضيَ اللهُ عنه فأخبرَهُم أَنَّه عليه الصلاةُ والسلامُ لم يأتِ لحربٍ وإنما جاء زائراً لهذا البيتِ مَعظماً لحرمتِه فوقّرُوه وقالُوا إنْ شئتَ أنْ تطوفَ بالبيتِ فافعلْ فقالَ ما كنتُ لأطوفَ قبلَ أنْ يطوفَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم واحتبسَ عندهُم فأُرْجِفَ بأَنَّهم قتلُوه فقالَ عليه الصلاةُ والسلامُ : " لا نبرحُ حتى نناجزَ القومَ " ودعا الناسَ إلى البيعةِ فبايعُوه تحتَ الشجرةِ وكانتْ سَمُرةً وقيلَ : سِدرةً على أن

يقاتِلُوا قريشاً ولا يفرُّوا . ورُوِيَ على الموتِ دونَهُ وأنْ لا يفرُّوا فقالَ لهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أنتمُ اليومَ خيرُ أهلِ الأرضِ وكانُوا ألفاً وخمسَمائةٍ وخمسةً وعشرينَ .

وقيلَ : ألفاً وأربعمائةٍ . وقيلَ ألفاً : وثلثَمائةٍ . وقولُه تعالى : ﴿ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ عطفٌ على يُبايعونك لما عرفتَ من أنَّه بمعنى بايعوكَ لا على رضيَ فإن رضاهُ تعالى عنهم مترتبٌ على علمِه تعالى بما في قلوبِهم من الصدقِ والإخلاصِ عند مبايعتِهم له صلى الله عليه وسلم . وقولُه تعالَى ﴿ فَأَنزَلَ السكينة عَلَيْهِمْ ﴾ عطفٌ على رضيَ أي فأنزلَ عليهم الطُّمأنينةَ والأمنَ وسكونَ النفسِ بالربطِ على قلوبِهم وقيلَ : بالصلحِ . ﴿ وأثابهم فَتْحاً قَرِيباً ﴾ هو فتحُ خيبرَ غِبَّ انصرافِهم من الحديبيةِ كما مرَّ تفصيلُه . وقُرِىءَ وآتاهُم .

(107/714)

﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾ أي مغانمَ خيبرَ . والالتفاتُ إلى الخطابِ على قراءةِ الأعمشِ وطلحةَ ونافعٍ لتشريفِهم في مقامِ الامتنانِ . ﴿ وَكَانَ الله عَزِيزاً ﴾ غالباً ﴿ حَكِيماً ﴾ مراعياً لمقتضَى الحكمةِ في أحكامِه وقضاياهُ .

(108/714)

﴿ وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً ﴾ هي ما يُفيؤُه على المؤمنينَ إلى يومِ القيامةِ . ﴿ تَأْخُذُونَهَا ﴾ في أوقاتِها المقدرةِ لكلِّ واحدةٍ منها . ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هذه ﴾ أي غنائمَ خيبرَ ﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ ﴾ أي أيدِي أهلِ خيبرَ وحلفائِهم من بني أسدٍ وغطفانَ حيثُ جاءُوا لنُصرتِهم فقذفَ اللهُ في قلوبِهم الرعبَ فنكصُوا وقيلَ : أيدِيَ أهلِ مكةَ بالصلحِ ﴿ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أمارةً يعرفونَ بها صدقَ الرسولِ صلى اللهُ عليه وسلم في وعدِه إيَّاهُم عندَ رجوعِه من الحديبيةِ ما ذُكِرَ من المغانمِ وفتحِ مكةَ ودخولِ المسجدِ الحرامِ . واللامُ متعلقةٌ إمَّا بمحذوفٍ مؤخرٍ أي ولتكونَ آيةً لهم فعلَ ما فُعلَ من التعجيلِ والكفِّ أو بما تعلقَ به علةٌ أُخرى محذوفةٌ من أحدِ الفعلينِ أي فعّجل لكم هذه أو كفَّ أيديَ الناسِ لتغتنمُوها ولتكونَ الخ فالواوُ على الأولِ اعتراضيةٌ وعلى الثانِي عاطفةٌ ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ ﴾ بتلك الآيةِ ﴿ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ هو الثقةُ بفضلِ اللهِ تعالى والتوكل عليه في كل ما تذرزن . ﴿ وأخرى ﴾ عطف على هذه أي فعجلَ لكم هذه المغانمَ ومغانمَ أُخرى ﴿ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا ﴾ وهي مغانمُ هوازنَ في غزوةِ حُنينٍ ووصفُها بعدمِ القدرةِ عليها لما كانَ فيها من الجولةِ قبل ذلكَ لزيادةِ ترغيبِهم فيها وقولُه تعالى : ﴿ قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا ﴾ صفةٌ أُخرى لأُخرى مفيدةٌ لسهولةِ تأتِّيها بالنسبةِ إلى قُدرتِه تعالى بعد بيانِ صعوبةِ منالها بالنظرِ إلى قدرتِهم أي قدرَ اللهُ عليها واستولَى وأظهركُم عليها وقيل : حفظَها لكُم ومنعها من غيرِكم

هذا وقد قيلَ : إنَّ أُخرى منصوبٌ بمضمرٍ يُفسرِه قد أحاطَ اللهُ بها أي وقضى اللهُ أُخرى ولا ريبَ في أن الإخبارَ بقضاءِ اللهِ إيَّاها بعد اندراجِها في جُملةِ المغانمِ الموعودةِ بقولِه تعالى : ﴿ وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً

(109/714)

تَأْخُذُونَهَا ﴾ ليس فيه مزيدُ فائدةٍ وإنما الفائدةُ في بيانِ تعجيلِها . ﴿ وَكَانَ اللهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ﴾ لأن قدرتَهُ تعالى ذاتيةٌ لا تختصُّ بشيءٍ دونَ شيءٍ .

﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الذين كَفَرُواْ ﴾ أي أهلُ مكةَ ولم يُصالِحوكُم ، وقيلَ : حلفاءُ خيبرَ ﴿ لَوَلَّوُاْ الأدبار ﴾ مُنهزمينَ ﴿ ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيّاً ﴾ يحرسُهم ﴿ وَلاَ نَصِيراً ﴾ ينصرُهم ﴿ سُنَّةَ اللهِ التى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ﴾ أي سنَّ اللهُ غلبةَ أنبيائِه سنةً قديمةً فيمَنْ مَضَى من الأممِ .

﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾ أي تغييراً ﴿ وَهُوَ الذى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ ﴾ أي أيدي كُفارِ مكةَ ﴿ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ أي في داخِلِها ﴿ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ وذلكَ (أنَّ عكرمةَ بنَ أبي جهلٍ خرجَ في خمسمائةٍ إلى الحديبيةِ فبعثَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم خالدَ بنَ الوليدِ على جندٍ فهزَمَهُم حتى أدخلَهُم حيطانَ مكةَ ثم عادَ) وقيلَ : كانَ يومَ الفتحِ وبه استشهدَ أبو حنيفةَ على أنَّ مكةَ فتحتْ عنوةً لا صُلحاً . ﴿

وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من مقاتَلتهم وهزمِهم أولاً والكفِّ عنهم ثانياً لتعظيمِ بيتِه الحرامِ.
وقُرِئَ بالياءِ. ﴿ بَصِيراً ﴾ فيجازيكُم بذلكَ أو يجازِيهم ﴿ هُمُ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ المسجد الحرام والهدى ﴾ بالنصبِ عطفاً على الضميرِ المنصوبِ في صدُّوكم.
وقُرِئَ بالجرِّ عطفاً على المسجدِ بحذفِ المضافِ أي ونحرِ الهَدْي، وبالرفعِ على معنى وصُدَّ الهَدْيُ، وقولُه تعالَى ﴿ مَعْكُوفاً ﴾ حالٌ من الهَدْي أي محبوساً.

(110/714)

وقولُه تعالَى: ﴿ أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ بدلُ اشتمالٍ من الهَدْي أو منصوبٌ بنزعِ الخافضِ أي محبوساً من أنْ يبلغَ مكانَهُ الذي يحلُّ فيهِ نحرُه، وبه استدلَّ أبو حنيفةَ رحمَهُ اللهُ تعالى على أنَّ المُحصَرَ مَحِلُّ هديِهِ الحرمُ، قالُوا بعضُ الحديبيةِ منَ الحرمِ. ورَوَيَ أنَّ خيامَهُ صلى الله عليه وسلم كانت في الحلِّ ومصلاَّهُ في الحرمِ. وهناكَ نحرتْ هداياهُ صلى الله عليه وسلم والمرادُ صدُّها عن محلِّها المعهودِ الذي هُو منىً.
﴿ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مؤمنات لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ لم تعرفُوهم بأعيانِهم لاختلاطِهم وهو صفةٌ لرجالٌ ونساءٌ. وقولُه تعالى: ﴿ أَن تَطَئُوهُمْ ﴾ أي توقعوا بهم وتُهلكوهُم بدلُ اشتمالٍ منهُم أو من الضميرِ المنصوبِ في تعلمُوهم ﴿ فَتُصِيبَكُمْ مِّنْهُمْ ﴾ أي من جهتِهم ﴿

مَّعَرَّةٌ ﴾ أي مشقةٌ ومكروهٌ كوجوبِ الديةِ أو الكفارةِ بقتلِهم والتأسفِ عليهم وتعييرِ الكفارِ وسوءِ قالتِهم والإثمِ بالتقصيرِ في البحثِ عنهم وهي مَفْعَلَةٌ من عَرَّهُ إذا عَرَاهُ ودَهَاهُ ما يكرهُهُ. ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ متعلقٌ بأنْ تطؤهم أي غيرَ عالمينَ بهم وجوابُ لَولا محذوفٌ لدلالةِ الكلامِ عليهِ، والمَعْنى لولا كراهةُ أن تُهلكُوا ناساً مؤمنينَ بين الكافرينَ غبرَ عالمينَ بهم فيصيبَكُم بذلكَ مكروهٌ لَمَا كفَّ أيديَكُم عنْهم. وقوله تعالى ﴿ لِّيُدْخِلَ اللهُ فِى رَحْمَتِهِ ﴾ متعلقٌ بما يدلُّ عليهِ الجوابُ المحذوفُ كأنَّه قيل عَقِيبَهُ لكن كفَّها عنهُم ليُدخلَ بذلك الكفِّ المؤدِّي إلى الفتحِ بلا محذورٍ في رحمتِه الواسعةِ بقسميَها.

(111/714)

﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ وهم المؤمنونَ فإنَّهم كانُوا خارجينَ من الرحمةِ الدنيويةِ التي منْ جُمْلتِها الأمنُ مستضعفينَ تحت أيدِي الكفرةِ، وأما الرحمةُ الأخرويةُ فهم وإن كانُوا غيرَ محرومينَ منها بالمرةِ لكنهم كانُوا قاصرينَ في إقامةِ مراسمِ العبادةِ كما ينبغي فتوفيقُهم لإقامتِها على الوجهِ الأتمِّ إدخالٌ لهم في الرحمةِ الأخرويةِ وقد جُوِّزَ أنْ يكونَ من يشاءُ عبارةً عمنْ رغبَ في الإسلامِ من المشركينَ ويأباهُ قولُه تعالَى ﴿ لَوْ تَزَيَّلُواْ ﴾ الخ فإن فرضَ التنزيلِ وترتيبَ التعذيبِ عليه يقتضي تحققَ المباينةِ بين الفريقينِ بالإيمانِ والكفرِ قبلَ التزيلِ حتماً أي لو تفرقُوا

وتميَّز بعضُهم من بعضٍ . وقُرِىءَ لو تزايلُوا ﴿ لَعَذَّبْنَا الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ بقتلِ مقاتِلتهم وسبيِ ذراريهم . والجملةُ مُستأنفةٌ مقررةٌ لما قبلَها .

(112/714)

﴿ إِذْ جَعَلَ الذين كَفَرُواْ ﴾ منصوبٌ باذكُرْ على المفعوليةِ ، أو بعذَّبنَا على الظرفيةِ ، وقيلَ : بمضمرٍ هو أحسنَ اللهُ إليكم وأياً ما كان فوضعُ الموصولِ موضعَ ضميرِهم لذمّهم بما في حيزِ الصلةِ وتعليلِ الحكمِ بهِ . والجعلُ إمَّا بمعنى الإلقاءِ فقولُه تعالى : ﴿ فِى قُلُوبِهِمُ الحمية ﴾ أي الأنفةَ والتكبرَ متعلقٌ بهِ أو بمعنى التصييرِ فهوُ متعلقٌ بمحذوفٍ هو مفعولٌ ثانٍ له أي جعلُوها ثابتةً راسخةً في قلوبِهم ﴿ حَمِيَّةَ الجاهلية ﴾ بدلٌ من الحميةَ أي حميةِ الملَّةِ الجاهليةِ أو الحميةَ الناشئةَ من الجاهليةِ . وقولُه تعالَى : ﴿ فَأَنزَلَ الله سَكِينَتَهُ على رَسُولِهِ وَعَلَى المؤمنين ﴾ على الأولِ عطفٌ على جعلَ والمرادُ تذكيرُ حسنِ صنيعِ الرسولِ صلى الله عليه وسلم والمؤمنينَ بتوفيقِ الله تعالَى وسوءِ صنيعِ الكفرةِ وعلى الثَّاني على ما يدلُّ عليهِ الجملةُ الامتناعيةُ كأنَّه قيلَ : لم يتزيّلوا فلمْ نعذبْ فأنزلَ إلخ . وعلى الثالثِ على المضمرِ تفسيرٌ له . والسكينةُ الثباتُ والوقارُ . يُروى أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم لما نزلَ الحديبيةَ بعثتْ قريشٌ سهيلَ بْنَ عمروٍ القُرشيَّ وحُويطبَ بنَ عبدِ العُزَّى ومكرزَ بنَ حفصٍ

بنِ الأحنفِ على أنْ يعرضُوا على النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنْ يرجعَ من عامهِ ذلكَ عَلى أنْ تخليَ له قريشٌ مكةَ من العامِ القابلِ ثلاثةَ أيامٍ ففعلَ ذلكَ وكتبُوا بينهم كتاباً فقالَ عليه الصلاةُ والسلامُ لعليَ رضيَ الله عنْهُ اكتبْ بسمِ الله الرَّحمنِ الرَّحيمِ فقالُوا ما نعرفُ ما هَذا اكتبْ باسمِك اللَّهم ثم قالَ اكتبُ هذا ما صالحَ عليه رسولُ الله أهلَ مكةَ فقالُوا لو كُنَّا نعلمُ أنَّك رسولُ الله ما صددناكَ عن البيتِ وما قاتلناكَ اكتُبْ هَذا ما صالحَ عليه محمدُ بن عبدِ اللَّهِ أهلَ مكةَ فقال صلى الله عليه وسلم اكتُبْ ما يُريدونَ فهمَّ المؤمنونَ أن يأْبُوا ذلكَ

(113/714)

ويبطشُوا بهم فأنزلَ الله السكينةَ عليهم فتوقَّروا وحَلِمُوا . ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التقوى ﴾ أي كلمةَ الشهادةِ ، أو بسْم الله الرَّحمنِ الرَّحيمِ ، أو محمدُ رسولُ الله وقيلَ : كلمةُ التَّقوى هي الوفاءُ بالعهدِ والثباتُ عليهِ وإضافتُها إلى التَّقوى لأنَّها سببُ التَّقوى وأساسُها أو كلمةُ أهلِها . ﴿ وَكَانُواْ أَحَقَّ بِهَا ﴾ متصفينَ بمزيدِ استحقاقٍ لَها على أنَّ صيغةَ التفصيلِ للزيادة مُطلقاً ، وقيلَ أحقُّ بها منَ الكُفارِ ﴿ وَأَهْلَهَا ﴾ أي المستأهلَ لها ﴿ وَكَانَ الله بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيماً ﴾ فيعلم حقَّ كلِّ شيءٍ فيسوقه إلى مستحقِّهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَهُوَ الذى فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾

أي أيدي كفار مكة ، وفي التعبير بكف دون منع ونحوه لطف لا يخفى ﴿ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ يعني الحديبية كما أخرج ذلك عبد بن حميد .

وابن جرير عن قتادة .

وقد تقدم أن بعضها من حرم مكة ، وأن لم يسلم فالقرب التام كاف ويكون إطلاق ﴿ بَطْنَ مَكَّةَ ﴾ عليها مبالغة ﴿ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ ﴾ مظهراً لكم ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ فتعدية الفعل بعلى لتضمنه ما يتعدى به وهو الإظهار والإعلاء أي جعلكم ذوي غلبة تامة .

أخرج الإمام أحمد .

وابن أبي شيبة .

وعبد بن حميد .

ومسلم .

وأبو داود .

والترمذي .

والنسائي في آخرين عن أنس قال : لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة في السلاح من قبل جبل التعيم يريدون غرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا عليهم فأخذوا فعفا عنهم فنزلت هذه الآية ﴿ وَهُوَ الذى كَفَّ ﴾ الخ ، وأخرج أحمد .

والنسائي .

والحاكم وصححه .

وابن مردويه .

وأبو نعيم في "الدلائل" عن عبد الله بن معقل قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصل الشجرة التي قال الله تعالى في القرآن إلى أن قال : فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح فثاروا إلى وجوهنا فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ الله تعالى بأسماعهم ولفظ الحاكم بأبصارهم فقمنا إليهم فأخذناهم فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل جئتم في عهد أحد أو هل جعل لكم أحد أماناً ؟ فقالوا : لا ف خلي سبيلهم فأنزل الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ الخ .

وأخرج أحمد .

وغيره عن سلمة بن الأكوع قال : قدمنا الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن أربع عشرة مائة ثم إن المشركين من أهل مكة راسلونا إلى الصلح فلما اصطلحنا واختلط بعضنا ببعض أتيت شجرة فاضطجعت في ظلها فأتاني أربعة من مشركي مكة فجعلوا يقعون في رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبغضتهم وتحولت إلى شجرة أخرى من مشركي أهل مكة فجعلوا يقعون في رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبغضتهم وتحولت إلى شجرة أخرى فعلقوا سلاحهم واضطجعوا فبينما هم كذلك إذ نادى مناد من أسفل ما للمهاجرين قتل بن زنيم فاخترطت سيفي فاشتدت على أولئك الأربعة وهم رقود فأخذت سلاحهم وجعلته في يدي ثم قلت : والذي كرم وجه محمد لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء عمي عامر برجل يقال له مكرز من المشركين يقوده حتى وقفنا بهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبعين من المشركين فنظر إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : دعوهم يكون لهم بدء الفجور وثناه فعفا عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنزل الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى كَفَّ ﴾ الخ ، وهذا كله يؤيد ما قلناه ، وأخرج ابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن ابن أبزى قال : لما خرج النبي صلى الله عليه وسلم بالهدي وانتهى إلى

ذي الحليفة قال له عمي : يا نبي الله تدخل على قوم لك حرب بغير سلاح ولا كراع فبعث إلى المدينة فلم يدع فيها كراعاً ولا سلاحاً إلا حمله فلما دنا من مكة منعوه أن يدخل فسار حتى أتى مني فنزل بها فأتاه عينه أن عكرمة ابن أبي جهل قد جمع عليك في خمسمائة فقال لخالد بن الوليد : يا خالد هذا ابن عمك قد أتاك في الخيل فقال خالد : أنا سيف الله وسيف رسوله فيومئذ سمي سيف الله يا رسول الله ارم بي إن شئت فبعثه على خيل فلقيه عكرمة في الشعب فهزمه حتى أدخله حيطان مكة فأنزل الله تعالى ﴿ وَهُوَ الذى ﴾ الآية .

(116/714)

وفي "البحر" أن خالداً هزمهم حتى دخلوا بيوت مكة وأسر منهم جملة فسيقوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن عليهم وأطلقهم ، والخبر غير صحيح لأن إسلام خالد رضي الله تعالى عنه بعد الحديبية قبل عمرة القضاء ، وقيل بعدها وهي في السنة السابعة .

وروى ابن إسحق .

وغيره أن خالداً كان يوم الحديبية على خيل قريش في مائتي فارس قدم بهم إلى كراع الغميم فدنا حتى نظر إلى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عباد بن بشر فتقدم بخيله فقام بإزائه وصف أصحابه وحانت صلاة الظهر فصلى

رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه صلاة الخوف ، وعن ابن عباس أن أهل مكة أرسلوا جملة من الفوارس في الحديبية يريدون الوقيعة بالمسلمين فأظهرهم الله تعالى عليهم بالحجارة حتى أدخلوهم البيوت ، وأنكر بعضهم ذلك والله تعالى أعلم بصحة الخبر .

وقيل : كان هذا الكف يوم فتح مكة ، واستشهد الإمام أبو حنيفة بما في الآية من قوله تعالى : ﴿ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ ﴾ بناء على هذا القول لفتح مكة عنوة .

واعترض القول المذكور والاستشهاد بالآية بناء عليه ، أما الأول فلأن الآية نزلت قبل فتح مكة .

وتعقب بأنه إن أريد أنها نزلت بتمامها قبله فليس بثابت بل بعض الآثار يشعر بخلافه وإلا فلا يفيد مع أنه يجوز أن يكون هذا إخباراً عن الغيب كما قيل ذلك في غيره من بعض آيات السورة ، وأما الثاني فلأن دلالتها على العنوة ممنوعة ، فقد قال الزمخشري : الفتح هو الظفر بالشيء سواء كان عنوة أو صلحاً ، والفرق بين الظفر على الشيء والظفر به من حيث الاستعلاء وهو كائن لأنهم اصطلحوا وهم مضطرون ورسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه مختارون ، وفيه دغدغة لا تخفى ؛ وكذا فيما تعقب به الأول .

(117/714)

وبالجملة هذا القول وكذا الاستشهاد بما في الآية بناء غير بعيد إلا أن أكثر الأخبار الصحيحة وكذا ما بعد يؤيد ما قلناه أولاً في تفسير الآية ﴿ وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ بعملكم أو بجميع ما تعملونه ومنه العفو ومنه العفو بعد الظفر .

﴿ بَصِيراً ﴾ فيجازيكم عليه .

وقرأ أبو عمرو ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ بياء الغيبة فالكلام عليه تهديد للكفار .

﴿ هُمُ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ المسجد الحرام ﴾

أن تصلوا إليه وتطوفوا به ﴿ والهدى ﴾ بالنصب عطف على الضمير المنصوب في ﴿ صَدُّوكُمْ ﴾ أي وصدوا الهدي وهو ما يهدي إلى البيت ، قال الأخفش : الواحدة هدية ويقال للأنثى هدى كأنه مصدر وصف به .

وفي "البحر" إسكان داله لغة قريش وبها قرأ الجمهور ، وقرأ ابن هرمز .

والحسن .

وعصمة عن عاصم .

واللؤلوى .

وخارجة عن أبي عمرو وبكسر الدال وتشديد الياء وذلك لغة ، وهو فعيل بمعنى مفعول على ما صرح به غير واحد ، وكان هذا الهدي سبعين بدنة على ما هو المشهور ، وقال مقاتل : كان مائة بدنة .

وقرأ الجعفي عن أبي عمرو ﴿ الهدى ﴾ بالجر على أنه عطف على المسجد الحرام بحذف المضاف أي ونحر الهدي .

وقرىء بالرفع على إضمار وصد الهدي ، وقوله سبحانه : ﴿ مَعْكُوفاً ﴾ حال من ﴿ الهدى ﴾ على جميع القراآت ، وقيل : على قراءة الرفع يجوز أن يكون ﴿ الهدى ﴾ مبتدأ والكلام نحو حكمك مسمطاً ، وقوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ [يوسف : 8] على قراءة النصب وهو كما ترى ، والمعكوف المحبوس يقال : عكفت الرجل عن حاجته حبسته عنها ، وأنكر أبو علي تعدية عكف وحكاها ابن سيده .

والأزهري .

(118/714)

وغيرهما ، وظاهر ما في الآية معهم ، وقوله تعالى : ﴿ أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ بدل اشتمال من ﴿ الهدى ﴾ كأنه قيل : وصدوا بلوغ الهدى محله أو صدوا عن بلوغ الهدي أو وصد بلوغ الهدي حسب اختلاف القراآت ، وجوز أن يكون مفعولاً من أجله للصد أي كراهة أن يبلغ محله ، وأن يكون مفعولاً من أجله مجروراً بلام مقدرة لمعكوفاً أي محبوساً لأجل أن يبلغ محله ويكون الحبس من المسلمين ، وأن يكون منصوباً بنزع الخافض وهو من أو عن أي محبوساً

من أو عن أن يبلغ محله فيكون الحبس من المشكرين على ما هو الظاهر ، ومحل الهدي مكان يحل فيه نحره أي يسوغ أو مكان حلوله أي وجوه ووقوعه كما نقل عن الزمخشري ، والمراد مكانه المعهود وهو مني ، أما على رأي الشافعي رضي الله تعالى عنه فلأن مكانه لمن منع حيث منع فيكون قد بلغ محله بالنسبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه ولذا نحروا هناك أعني في الحديبية ، وأما على رأي أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه فلأن مكانه الحرم مطلقاً وبعض الحديبية حرم عنده ؛ وقد رووا أن مضارب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت في الحل منها ومصلاه في الحرم والنحر قد وقع فيما هو حرم فيكون الهدي بالغاً محله غير معكوف عن بلوغه فلا بد من إرادة المعهود ليتسنى ذلك ، وزعم الزمخشري أن الآية دليل لأبي حنيفة على أن الممنوع محل هديه الحرم ثم تكلم بما لا يخفى حاله على من راجعه .

ومن الناس من قرر الاستدلال بأن المسجد الحرام يكون بمعنى الحرم وهم لما صدوهم عنه ومنعوا هديهم أن يدخله فيصل إلى محله دل بحسب الظاهر على أنه محله ، ثم قال : ولا ينافيه أنه عليه الصلاة والسلام نحر في طرف منه كما لا ينافي الصد عنه كون مصلاه عليه الصلاة والسلام فيه لأنهم منعوهم فلم يمتنعوا بالكلية وهو كما ترى .

والإنصاف أنه لا يتم الاستدلال بالآية على هذا المطلب أصلاً .

وطعن بعض أجلة الشافعية في كون شيء من الحديبية من الحرم فقال : إنه خلاف ما عليه الجمهور وحدود الحرم مشهورة من زمن إبراهيم عليه السلام ، ولا يعتد برواية شذبها الواقدي كيف وقد صرح بخلافها البخاري في صحيحه عن الثقات ، والرواية عن الزهري ليست بثبت انتهى ، ولعل من قال : بأن بعضها من الحرم استند في ذلك إلى خبر صحيح .

ومن قواعدهم أن المثبت مقدم على النافي والله تعالى أعلم ﴿ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مؤمنات لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ صفة ﴿ رِجَالٌ وَنِسَاء ﴾ على تغليب المذكر على المؤنث .

وكانوا على ما أخرج أبو نعيم بسند جيد .

وغيره عن أبي جمعة جنبذ بن سبع تسعة نفر سبعة رجال وهو منهم وامرأتين ، وقوله تعالى : ﴿ إن ﴾ بدل اشتمال منهم وجوز كونه بدلاً من الضمير المنصوب في ﴿ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ واستبعده أبو حيان ، والوطء الدوس واستعير هنا للإهلاك وهي استعارة حسنة واردة في كلامهم قديماً وحديثاً ، ومن ذلك قول الحرث بن وعلة الذهلي :

ووطئتنا وطأً على حنق . . .

وطء المقيد نابت الهرم

وقوله : صلى الله عليه وسلم من حديث : " وإن آخر وطأة وطئها الله تعالى بِوَجّ " وقوله عليه الصلاة والسلام : " اللهم اشدد وطأتك على مضر " ﴿ فَتُصِيبَكُمْ مِّنْهُمْ ﴾ أي من

جهتهم ﴿ مَّعَرَّةٌ ﴾ أي مكروه ومشقة مأخوذ من العر والعرة هو الجرب الصعب اللازم ، وقال غير واحد : هي مفعلة من عره إذا عراه ودهاه ما يكره ، والمراد بها هنا على ما روي عن منذر بن سعيد تعيير الكفار وقولهم في المؤمنين : أنهم قتلوا أهل دينهم ، وقيل : التأسف عليهم وتألم النفس مما أصابهم .

وقال ابن زيد : المأثم بقتلهم .

وقال ابن إسحاق : الدية ، قال ابن عطية : وكلا القولين ضعيف لأنه لا إثم ولا دية في قتل مؤمن مستور الإيمان بين أهل الحرب : وقال الطبري ، هي الكفارة .

وتعقب بعضهم هذا أيضاً بأن في وجوب الكفارة خلافاً بين الأئمة .

(120/714)

وفي الفصول العمادية ذكر في تأسيس النظائر في الفقه قال أصحابنا : دار الحرب تمنع وجوب ما يندرىء بالشبهات لأن أحكامنا لا تجري في دارهم وحكم دارهم لا يجري في دارنا ، وعند الشافعي دار الحرب لا تمنع وجوب ما يندرىء بالشبهات ، بيان ذلك حربي أسلم في دار الحرب وقتل مسلماً دخل دارهم بأمان لا قصاص عليه عندنا ولا دية وعند الشافعي عليه القصاص وعلى هذا لو أن مسلمين متسامنين دخلا دار الحرب وقتل أحدهما

صاحبه لا قصاص عليه عندنا وعند الشافعي عليه ذلك ، ثم ذكر مسألة مختلفاً فيها بين أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد فقال : إذا قتل أحد الأسيرين صاحبه في دار الحرب لا شيء عليه عند أبي حنيفة وأبي يوسف إلا الكفارة لأنه تبع لهم فصار كواحد من أهل الحرب ، وعند محمد تجب الدية لأن له حكم نفسه فاعتبر حكم نفسه على حدة انتهى . ونقل عن الكافي أن من أسلم في دار الحرب ولم يهاجر إلينا وقتله مسلم عمداً أو خطأ وله ورثة مسلمون ثم لا يضمن شيئاً إن كان عمداً وإن كان خطأ ضمن الكفارة دون الدية انتهى وتمام الكلام في هذا المقام يطلب في محله ، والزمخشري فسر المعرة بوجوب الدية والكفارة وسوء قالة المشركين والمأثم إذا جرى منهم بعض التقصير وهو كما ترى .

(121/714)

﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ في موضع الحال من ضمير المخاطبين في ﴿ فاسمعون قِيلَ ﴾ ولا تكرار مع قوله تعالى : ﴿ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ سواء كان ﴿ إن ﴾ بدل اشتمال من ﴿ رِجَالٌ وَنِسَاء ﴾ أو بدلاً من المنصوب في ﴿ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ أما على الثاني فلأن حاصل المعنى ولولا مؤمنون لم تعلموا وطأتهم وإهلاكهم وأنتم غير عالمين بإيمانهم لأن احتمال أنهم يهلكون من غير شعور مع إيمانهم سبب الكف فيعتبر فيه العلمان فمتعلق العلم في الأول : الوطأة وفي

الثاني : أنفسهم باعتبار الإيمان ، وأما على الأول فلأن قوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ لما كان حالاً من فاعل ﴿ تطؤهم ﴾ كان العلم بهم راجعاً إلى العلم باعتبار الإهلاك كما تقول أهلكته من غير علم فلا الإهلاك من غير شعور ولا العلم بإيمانهم حاصل والأمران لكونهما مقصودين بالذات صرح بهما وإن تقاربا أو تلازماً في الجملة .

وجوز أن يجعل ﴿ مؤمنات لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ كناية عن الاختلاط كما يلوح إليه كلام الكشاف ، وفيه ما يدفع التكرار أيضاً ، وفي ذلك بحث يدفع بالتأمل وجوز أن يكون حالاً من ضمير ﴿ مِنْهُمْ ﴾ وأن يكون متعلقاً بتصيبكم أو صفة لمعرة قيل : وهو على معنى فتصيبكم منهم معرة بغير علم من الذي يعركم ويعيب عليكم ، يعني إن وطئتموهم غير عالمين لزمكم سبة من الكفار بغير علم أي لا يعلمون أنكم معزورون فيه أو على معنى لم تعلموا أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم منكم أي فتقتلوهم بغير علم منكم أو تؤذوهم بغير علم فافهم ولا تغفل .

وجواب ﴿ لَوْلاَ ﴾ محذوف لدلالة الكلام عليه ، والمعنى على ما سمعت أولاً لولا كراهة أن تهلكوا أناساً مؤمنين بين ظهراني الكفار جاهلين بهم فيصيبكم بإهلاكهم مكروه لما كف أيديكم عنهم ، وحاصله أنه تعالى ولو لم يكف أيديكم عنهم لانجر الأمر إلى إهلاك مؤمنين بين ظهرانيهم فيصيبكم من ذلك مكروه وهو عز وجل يكره ذلك .

وقال ابن جريج : دفع الله تعالى عن المشركين يوم الحديبية بأناس من المسلمين بين أظهرهم ، وظاهر الأول على ما قيل أن علة الكف صون المخاطبين عن إصابة المعرة ، وظاهر هذا أن علته صون أولئك المؤمنين عن الوطء والأمر فيه سهل ، وقوله تعالى : ﴿ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِى رَحْمَتِهِ ﴾ علة لما يدل عليه الجواب المحذوف على ما اختاره في "الإرشاد" كأنه قيل : لكنه سبحانه كفها عنهم ليدخل بذلك الكف المؤدي إلى الفتح بلا محذور في رحمته الواسعة ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ وهم أولئك المؤمنون وذلك بأمنهم وإزالة استضعافهم تحت أيدي المشركين وبتوفيقهم لإقامة مراسم العبادة على الوجه الأتم ، والتعبير عنهم بمن يشاء دون الضمير بأن يقال : ليدخلهم الله رحمته للإشارة إلى أن علة الإدخال المشيئة المبنية على الحكم الجمة والمصالح ، وجعله بعضهم علة لما يفهم من صون من بمكة من المؤمنين والرحمة توفيقهم لزيادة الخير والطاعة بإبقائهم على عملهم وطاعتهم ، وجوز أن يراد بمن يشاء بعض المشركين ويراد بالرحمة الإسلام فإن أولئك المؤمنين إذا صانهم الكف المذكور أظهروا إيمانهم لمعاينة قوة الدين فيقتدي بهم الصائرون للإسلام ، واستحسن بعضهم كونه علة للكف المعلل بالصون .

وجوز أن يراد بمن يشاء المؤمنون فيراد بالرحمة التوفيق لزيادة الخير ، والمشركون فيراد بها الإسلام ، وبين وجه التعليل بأنهم إذا شاهدوا منع تعذيبهم بعد الظفر عليهم لاختلاط المؤمنين بهم اعتناءً بشأنهم رغبوا في الإسلام والانخراط في سلك المرحومين وأن المؤمنين إذا علموا منع تعذيب المشركين بعد الظفر عليهم لاختلاطهم بهم أظهروا إيمانهم فيقتدى بهم ، وقال : لا وجه لجعل اللام مستعارة من معنى التعليل لما يترتب على الشيء لأنه عدول عن الحقيقة المتبادرة من غير داع ، وما يظن من أن تعليل الكف بما ذكر مع أنه معلل بالصون فاسد لما فيه من اجتماع علتين على معلول واحد شخصي فاسد لأن العلل إذا لم تكن تامة حقيقة لا يضر تعددها وما هنا كذلك .

هذا وجعل ذلك علة لما دل عليه الجواب على ما سمعت أولاً أولى عندي لما فيه من شدة التحام النظم الجليل ، وحمل ﴿ مَن يَشَآء ﴾ على المؤمنين المستضعفين دون بعض المشركين أوفق بقوله تعالى : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ والتزيل التفرق والتميز ، وجوز في ضمير ﴿ تَزَيَّلُواْ ﴾ كونه للمؤمنين المذكورين فيما سبق أي لو تفرق أولئك المؤمنون والمؤمنات وتميزوا عن الكفار وخرجوا من مكة ولم يبقوا بينهم لعذبنا الخ ، وكونه للمؤمنين والكفار أي لو افترق بعضهم من بعض ولم يبقوا مختلطين لعذبنا الخ .

واختار غير واحد الأول فمنهم للبيان ، والمراد تعذيبهم في الدنيا بالقتل والسبي كما قال

مجاهد وغيره وإلا لم يكن للو موقع .

والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها ، وجوز الزمخشري أن يكون قوله تعالى : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُواْ ﴾ كالتكرار لقوله تعالى : ﴿ لَوْلاَ رِجَالٌ ﴾ لأن مرجعهما في المعنى شيء واحد ويكون لعذبنا هو الجواب للولا السابقة .

واعترضه أبو حيان بأن التغاير ظاهر فلا يكون تكراراً ولا مشابهاً .

(124/714)

وأجيب بأن كراهة وطئهم لعدم تميزهم عن الكفار الذي هو مدلول الثاني فيكون كبدل الاشتمال ويكفي ذلك في كونه كالتكرار ، وقال ابن المنير : إنما كان مرجعهما واحداً وإن كانت ﴿ لَوْلاَ ﴾ تدل على امتناع لوجود و ﴿ لَوْ ﴾ تدل على امتناع لامتناع وبين هذين تناف ظاهر لأن ﴿ لَوْلاَ ﴾ ههنا دخلت على وجود ولو دخلت على ﴿ تَزَيَّلُواْ ﴾ وهو راجع إلى عدم وجودهم وامتناع عدم الوجود ثبوت فآلا إلى آمر واحد من هذا الوجه قال : وكان جدي يختار هذا الوجه ويسميه تطرية وأكثر ما يكون إذا تطاول الكلام وبعد عهد أوله واحتيج إلى بناء الآخر على الأول فمرة يطري بلفظه ومرة بلفظ آخر يؤدي مؤداه انتهى .

وأنت تعلم أن في حذف الجواب دليلاً على شدة غضب الله تعالى وأنه لولا حق المؤمنين لفعل بهم ما لا يدخل تحت الوصف ولا يقاس ، ومنه يعلم أن ذلك الوجه أرجح من جعل ﴿ لَوْ تَزَيَّلُواْ ﴾ بمنزلة التكرار للتطرية فتطرية الجواب وتقويته أولى وأوفق لمقتضى المقام ، واختار الطيبي الأول أيضاً معللاً له بأنه حينئذٍ يقرب من باب الطرد والعكس لأن التقدير لولا وجود مؤمنين مختلطين بالمشركين غير متميزين منهم لوقع ما كان جزاء لكفرهم وصدهم ولو حصل التمييز وارتفع الاختلاط لحصل التعذيب ، ثم إن تقدير الجواب ما تقدم عند القائلين بالحذف هو الذي ذهب إليه كثير ، وجوز بعضهم تقديره لعجل لهم ما يستحقون وجعل قوله تعالى : ﴿ هُمُ الذين كَفَرُواْ ﴾ الخ فكأنه قيل : هم الذين كفروا واستحقوا التعجيل في إهلاكهم ولولا رجال مؤمنون الخ لعجل لهم ذلك وهو أيضاً أولى من حديث التكرار ، وقرأ ابن أبي عبلة .

وابن مقسم .

وأبو حيوة .

وابن عون ﴿ لَوْ ﴾ على وزن تفاعلوا .

وفي الآية على ما قال الكيا دليل على أنه لا يجوز خرق سفينة الكفار إذا كان فيها أسرى من المسلمين وكذلك رمى الحصون إذا كانوا بها والكفار إذا تترسوا بهم ، وفيه كلام في كتب الفروع .

(125/714)

﴿ إِذْ جَعَلَ الذين كَفَرُواْ ﴾

منصوب باذكر على المفعولية أو بعذبنا على الظرفية أو بصدوكم كذلك ، وقيل : بمضمر هو أحسن الله تعالى إليكم .

وأياً ما كان فالذين فاعل ﴿ جَعَلَ ﴾ ووضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بما في حيز الصلة وتعليل الحكم به ، والجعل إما بمعنى الإلقاء فقوله تعالى : ﴿ فِى قُلُوبِهِمُ الحمية ﴾ متعلق به أو بمعنى التصيير فهو متعلق بمحذوف هو مفعول ثان له أي جعلوا الحمية راسخة في قلوبهم ولكونها مكتسبة لهم من وجه نسب جعلها إليهم ، وقال النيسابوري : يجوز أن يكون فاعل ﴿ جَعَلَ ﴾ ضمير الله تعالى و ﴿ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ بيان لمكان الجعل ومآل المعنى إذ جعل الله في قلوبهم الذين كفروا الحمية وهو كما ترى ، والحمية الآنفة يقال : حميت عن كذا حمية إذا أنفت منه وداخلك عار منه .

(126/714)

وقال الراغب : عبر عن القوة الغضبية إذا ثارت وكثرت بالحمية فقيل : حميت على فلان أي غضبت عليه ، وقوله تعالى : ﴿ حَمِيَّةَ الجاهلية ﴾ بدل من الحمية أي حمية الملة الجاهلية أو الحمية الناشئة من الجاهلية لأنها بغير حجة وفي غير موضعها ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَنزَلَ الله سَكِينَتَهُ على رَسُولِهِ وَعَلَى المؤمنين ﴾ عطف على ﴿ جَعَلَ ﴾ على تقدير جعل ﴿ إِذْ ﴾ معمولاً لأذكر ، والمراد تذكير حسن صنيع الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين بتوفيق الله تعالى وسوء صنيع المشركين وعلى ما يدل عليه الجملة الامتناعية على تقدير جعلها طرفاً لعذبنا كأنه قيل : فلم يتزيلوا فلم نعذب فأنزل الخ ، وعلى مضمر عامل فيها على الوجه الأخير المحكي ويكون هذا كالتفسير لذاك ، وأما على جعلها ظرفاً لصدوكم فقيل : العطف على ﴿ جَعَلَ ﴾ وقيل : على ﴿ صَدُّوكُمْ ﴾ وهو نظير الطائر فيغضب زيد الذباب ؛ والأولى من هذه الأوجه لا يخفى ، والسكينة الاطمئنان والوقار ، روى غير واحد أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج بمن معه إلى الحديبية حتى إذا كان بذي الحليفة قلد الهدى وأشعره وأحرم بالعمرة وبعث بين يديه عيناً من خزاعة يخبره عن قريش وسار عليه الصلاة والسلام حتى كان بغدير الأشطاط قريباً من عسفان أتاه عينه فقال : إن قريشاً جمعوا لك جموعاً وقد جمعوا لك الأحابيش وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت فاستشار الناس في الإغارة على ذراري من أعانهم فقال أبو بكر : الله تعالى ورسوله أعلم يا نبي الله إنما جئنا معتمرين ولم نجيء لقتال أحد ولكن من حال بيننا

وبين البيت قاتلناه فقال صلى الله عليه وسلم : امضوا على اسم الله فسار حتى نزل بأقصى الحديبية فجاءه بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه فقال له إني قد تركت كعب بن لؤي ، وعامر بن لؤي نزلوا قريباً معهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت فقال عليه الصلاة والسلام : إنا لم نجيء لقتال أحد ولكن معتمرين وإن

(127/714)

قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم فماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا وأن أظهرني الله تعالى عليهم دخلوا في الإسلام وافرين وإن لم يفعلوا قاتلتهم وبهم قوة فما تظن قريش فوالله لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله تعالى به حتى يظهره الله تعالى أو تنفرد هذه السالفة فقال بديل : سأبلغهم ما تقول فبلغهم فقال عروة بن مسعود الثقفي لهم : دعوني آته فأتاه عليه الصلاة والسلام فقال له نحو ما قال لبديل وجرى من الكلام ما جرى ورأى من احترام الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيمهم إياه ما رأى فرجع إلى أصحابه فأخبرهم بذلك وقال لهم : إنه قد عرض عليكم خطة رشد فأقبلوها فقال رجل من بني كنانة : دعوني آته فلما أشرف على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه قال عليه الصلاة والسلام : هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن

فابعثوها له فبعثت واستقبله القوم يلبون فلما رأى ذلك قال : سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت فرجع وأخبر أصحابه فقال رجل يقال له مكرز بن حفص : دعوني آته فلما أشرف قال عليه الصلاة والسلام : هذا مكرز وهو رجل فاجر فجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو أخو بني عامر بن لؤي فقال صلى الله عليه وسلم : قد سهل لكم من أمركم وكان قد بعثه قريش وقالوا له : ائت محمداً فصالحه ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا فوالله لا تتحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة أبداً فلما انتهى إليه عليه الصلاة والسلام تكلم فأطال وانتهى الأمر إلى الصلح وكتابة كتاب في ذلك فدعا النبي صلى الله عليه وسلم علياً كرم الله تعالى وجهه فقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل : لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتب باسمك اللهم فكتبها ثم قال : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو فقال سهيل : لو كنا نعلم

(128/714)

أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فقال عليه الصلاة والسلام : والله إني لرسول الله وإن كذبتموني اكتب هذا ما صالح عليه محمد

بن عبد الله سهيل بن عمرو صلحاً على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه وأن بيننا عيبة مكفوفة وأنه لا أسلال ولا أغلال وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه وأن محمداً يرجع عن مكة عامه هذا فلا يدخلها وأنه إذا كان عام قابل خرج أهل مكة فدخلها بأصحابه فأقام بها ثلاثاً معه سلاح الراكب السيوف في القرب لا يدخلها بغيرها .

وظاهر هذا الخبر أن سهيلاً لم يرض أن يكتب محمد رسول الله قبل أن يكتب ؛ وجاء في رواية أنه كتب فلم يرض فقال النبي عليه الصلاة والسلام لعلي كرم الله تعالى وجهه : امحه فقال : ما أنا بالذي امحاه ، وجاء هذا في رواية للبخاري ، ولمسلم وفي رواية للبخاري في المغازي فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب وليس يحسن يكتب فكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله ، وكذا أخرجه النسائي .

وأحمد ولفظه فأخذ الكتاب وليس يحسن أن يكتب فكتب مكان رسول الله هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله ، وتمسك بظاهر هذه الرواية كما في "فتح الباري" أبو الوليد الباجي على أن النبي عليه الصلاة والسلام كتب بعد إن لم يكن يحسن أن يكتب ووافقه

على ذلك شيخه أبو ذر الهروي .

وأبو الفتح النيسابوري .

(129/714)

وآخرون من علماء أفريقية ، والجمهور على أنه عليه الصلاة والسلام لم يكتب ، وأن قوله : وأخذ الكتاب وليس يحسن أن يكتب لبيان أنه عليه الصلاة والسلام احتاج لأن يريه علي كرم الله تعالى وجهه موضع الكلمة التي امتنع من محوها لكونه كان لا يحسن الكتابة ، وقوله : فكتب بتقدير فمحاها فأعاد الكتاب لعلي فكتب أو أطلق فيه كتب على أمر بالكتابة ، وتمام الكلام في محله فكانت حميتهم على ما في "الدر المنثور" عن جماعة أنهم لم يقروا أنه صلى الله عليه وسلم رسول ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم وحالوا بين المسلمين والبيت وقدهم المؤمنون لذلك أن يبطشوا بهم فأنزل الله تعالى سكينته عليهم فتوقروا وحلموا .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال في حمية الجاهلية : حمت قريش أن يدخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : لا يدخلها علينا أبداً ، وقال ابن بحر : كما في "البحر" حميتهم عصبيتهم لآلهتهم والانفة أن يعبدوا غيرها ، وفي توسيط علي بين الرسول والمؤمنين إيماءً إلى أنه سبحانه أنزل على كل سكينة لائقة به .

ووجه تقديم الإنزال على الرسول عليه الصلاة والسلام لا يخفى ؛ وقال الإمام : في هذه الآية لطائف معنوية وهو أنه تعالى أبان غاية البون بين المؤمنين والكافرين حيث باين بين الفاعلين إذ فاعل ﴿ جَعَلَ ﴾ هو الكفار وفاعل ﴿ أَنزَلَ ﴾ هو الله تعالى ، وبين المفعولين إذ تلك حمية وهذه سكينة .

(130/714)

وبين الإضافتين إضافة الحمية إلى الجاهلية وإضافة السكينة إليه تعالى ، وبين الفعلين ﴿ جَعَلَ وَأَنزَلَ ﴾ فالحمية مجعولة في الحال كالعرض الذي لا يبقى والسكينة كالمحفوظة في خزانة الرحمة فأنزلها والحمية قبيحة مذمومة في نفسها وازدادت قبحاً بالإضافة إلى الجاهلية والسكينة حسنة في نفسها وازدادت حسناً بإضافتها إلى الله عز وجل ، والعطف في فأنزل بالفاء لا بالواو يدل على المقابلة والمجازاة تقول : أكرمني زيد فأكرمته فيدل على أن إنزال السيكنة لجعلهم الحمية في قلوبهم حتى أن المؤمنين لم يغضبوا ولم ينهزموا بل صبروا ، وهو بعيد في العادة فهو من فضل الله تعالى انتهى وهو مما لا بأس به ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التقوى ﴾ هي لا إله إلا الله كما أخرج ذلك الترمذي .

وعبد الله بن أحمد .

والدارقطني .

وغيرهم عن أبي بن كعب مرفوعاً وكما أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة .

وسلمة بن الأكوع كذلك ؛ وأخرج أحمد .

وابن حبان .

والحاكم عن حمران أن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه قال : " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقاً من قلبه إلا حرم على النار فقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : أنا أحدثكم ما هي كلمة الإخلاص التي ألزمها الله سبحانه محمداً وأصحابه وهي كلمة التقوى التي ألاص عليها نبي الله صلى الله عليه وسلم عمه أبا طالب عند الموت شهادة أن لا إله إلا الله " وروي ذلك أيضاً عن علي كرم الله تعالى وجهه على ما نقل أبو حيان .

وابن عمر .

وابن عباس .

وعكرمة .

ومجاهد .

والحسن .

وقتادة .

وسعيد بن جبير في آخرين ، وأخرج ذلك عبد بن حميد .

وابن جرير عن عطاء الخراساني بزيادة محمد رسول الله ، وأضيفت إلى التقوى لأنها بها يتقي الشرك ومن هنا قال ابن عباس فيما أخرجه ابن المنذر .

(131/714)

وغيره : هي رأس كل تقوى ، وظاهر كلام عمر رضي الله تعالى عنه أن ضمير هم في ﴿ ألزمهم ﴾ للرسول عليه الصلاة والسلام ومن معه وإلزامهم إياها بالحكم والأمر بها ،

وأخرج عبد الرزاق .

والحاكم وصححه .

والبيهقي في الأسماء والصفات .

وجماعة عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قال : هي لا إله إلا الله والله أكبر ، وروي عن ابن عمر أيضاً نحوه ؛ وأخرج ابن أبي حاتم .

والدارقطني في الإفراد عن المسور بن مخرمة قال : هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،

وعن عطاء بن أبي رباح .

ومجاهد أيضاً أنها لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء

قدير ، وأخرج عبد بن حميد .

وابن جرير .

وغيرهما عن الزهري قال : هي بسم الله الرحمن الرحيم ، وضم بعضهم إلى هذا محمد رسول الله ، والمراد بإلزامهم إياها اختيارها لهم دون من عدل عنها إلى باسمك اللهم ومحمد بن عبد الله ، وقيل : هي الثبات والوفاء بالعهد ، ونسبه الخفاجي إلى الحسن ، وإلزامهم إياه أمرهم به ، وإطلاق الكلمة على الثبات على العهد والوفاء به قيل : لما أن كلا يتوصل به إلى الغرض وهو نظير ما قيل في إطلاق الكلمة على عيسى عليه السلام من أن ذلك لأن كلاً منهما يهتدى به ، وجعلت الإضافة على كونها بمعنى الثبات من باب إضافة السبب إلى المسبب فهي إضافة لأدنى ملابسة ، وجوز أن تكون اختصاصية حقيقية بتقدير مضاف أي كلمة أهل التقوى ، وأريد بالعهد على ما يقتضيه ظاهر سبب النزول عهد الصلح الذي وقع بينه صلى الله عليه وسلم وبين أهل مكة ؛ وقيل : ما يعم ذلك وسائر عهودهم معه عز وجل .

(132/714)

وأنت تعلم أن الوجه المذكور في نفسه غير ظاهر ، ومثله ما قيل : المراد بالكلمة قولهم في الأصلاب : بلى مقرين بوحدانيته جل شأنه ، وبالإلزام الأمر بالثبات والوفاء بها ، وقيل : هي قول المؤمنين سمعاً وطاعة حين يؤمرون أو ينهون ، والظاهر عليه كون الضمير للمؤمنين ، وأرجح الأقوال في هذه الكلمة ما روي مرفوعاً وذهب إليه الجم الغفير ، ولعل ما ذكر في الأخبار السابقة من باب الاكتفاء ، والمراد لا إله إلا الله محمد رسول الله .

﴿ التقوى وَكَانُواْ ﴾ عطف على ما تقدم أو حال من المنصوب في ﴿ ألزمهم ﴾ بتقدير قد أو بدونه والظاهر في الضمير عوده كسابقه كما اقتضاه كلام عمر رضي الله تعالى عنه على الرسول والمؤمنين ، واستظهر بعضهم عوده على المؤمنين وكأنه اعتبر الأول عائداً عليهم أيضاً وهو مما لا بأس فيه ، ولعله اعتبر الأقربية ، فالمعنى وكان المؤمنون في علم الله تعالى ﴿ وَكَانُواْ أَحَقَّ بِهَا ﴾ أي بكلمة التقوى ، وأفعل لزيادة الحقية في نفسها أي متصفين بمزيد استحقاق لها أو على ما هو المشهور فيه والمفضل عليه محذوف أي أحق بها من كفار مكة لأن الله تعالى اختارهم لدينه وصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم وقيل : من اليهود والنصارى ، وقيل من جميع الأمم لأنهم خير أمة أخرجت للناس .

(133/714)

وحكى المبرد أن الذين كانوا قبلنا لم يكن لأحد منهم أن يقول : لا إله إلا الله في اليوم والليلة إلا مرة واحدة لا يستطيع أن يقولها أكثر من ذلك ، وكان قائلها يمد بها صوته إلى أن ينقطع نفسه تبركاً بذكر الله تعالى ، وقد جعل الله عز وجل لهذه الأمة أن يقولوها متى شاءوا وهو قوله تعالى : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التقوى ﴾ أي ندبهم إلى ذكرها ما استطاعوا وكانوا أحق بها ، وهذا مما لم يثبت ، وجوز الإمام كون التفضيل بالنسبة إلى غير كلمة التقوى أي أحق بها من كلمة غير كلمة تقوى وقال : وهذا كما تقول زيد أحق بالإكرام منه بالإهانة ، وقولك إذا سئل شخص عن زيد بالطب أعلم أو بالفقه : زيد أعلم بالفقه أي من الطب ، وفيه غفلة لا تخفى ﴿ وَأَهْلَهَا ﴾ أي المستأهل لها وهو أبلغ من الأحق حتى قيل بينه وبين الأحق كما بين الأحق والحق ، وقيل : إن أحقيتهم بها من الكفار تفهم رجحانهم رجحاناً ما عليهم ولا تثبت الأهلية كما إذا اختار الملك اثنين لشغل وكل واحد منهما غير صالح له لكن أحدهما أبعد عن الاستحقاق فيقال للأقرب إليه إذا كان ولا بد فهذا أحق كما يقال : الحبس أهون من القتل ، ولدفع توهم مثل هذا فيما نحن فيه قال سبحانه : ﴿ وَأَهْلَهَا ﴾ وقيل : أريد أنهم أحق بها في الدنيا وأهلها بالثواب في الآخرة ، وقيل : في الآية تقديم وتأخير والأصل وكانوا أهلها وأحق بها ، وكذلك هي في مصحف الحرث بن سويد صاحب ابن مسعود وهو الذي دفن مصحفه لمخالفته الإمام أيام الحجاج وكان من كبار تابعي الكوفة وثقاتهم ، وقيل : ضمير ﴿ كَانُواْ ﴾ عائد على كفار مكة أي وكان أولئك الكفار الذين جعلوا في

قلوبهم الحمية أحق بكلمة التقوى لأنهم أهل حرم الله تعالى ومنهم رسوله صلى الله عليه وسلم وقد تقدم إنذارهم لولا ما سلبوا من التوفيق ، وفيه ما فيه سواء رجع ضمير ﴿ ألزمهم ﴾ إلى كفار مكة أيضاً أم لا ، وأظن في قائله نزغة رافضية دعته إلى ذلك لكنه لا يتم به غرضه ،

(134/714)

وقيل : ضمير ﴿ وَلَوْ كَانُواْ ﴾ للمؤمنين إلا أن ضميري ﴿ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ للسكينة ، وفيه ارتكاب خلاف الظاهر من غير داع ، وقيل : هما لمكة أي وكانوا أحق بمكة أن يدخلوها وأهلها ، وأشعر بذكر مكة ذكر المسجد الحرام في قوله تعالى :

﴿ وَصَدُّوكُمْ عَنِ المسجد الحرام ﴾ [الفتح : 25] وكذا محل الهدى في قوله سبحانه : ﴿ والهدى مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ [الفتح : 25] وفيه ما لا يخفى ﴿ وَكَانَ الله بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيماً ﴾ فيعلم سبحانه حق كل شيء واستئهاله لما يستأهله فيسوق عز وجل الحق إلى مستحقه والمستأهل إلى مستأهله أو فيعلم هذا ويعلم ما تقتضيه الحكمة والمصلحة من إنزال السكينة والرضا بالصلح فيكون تذييلاً لجميع ما تقدم . انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأعراب ﴾

هم المذكورون سابقاً ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ قال عطاء بن أبي رباح ، ومجاهد ، وابن أبي ليلى ، وعطاء الخراساني : هم فارس .

وقال كعب ، والحسن : هم الروم .

وروي عن الحسن أيضاً أنه قال : هم فارس ، والروم .

وقال سعيد بن جبير : هم هوازن ، وثقيف .

وقال عكرمة : هوازن .

وقال قتادة : هوازن وغطفان يوم حنين .

وقال الزهري ، ومقاتل : هم بنو حنيفة أهل اليمامة أصحاب مسيلمة ، وحكى هذا القول الواحدي عن أكثر المفسرين ﴿ تقاتلونهم أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ أي : يكون أحد الأمرين : إما المقاتلة ، أو الإسلام لا ثالث لهما ، وهذا حكم الكفار الذين لا تؤخذ منهم الجزية .

قال الزجاج : التقدير : أو هم يسلمون ، وفي قراءة أبيّ (أو يسلموا) أي : حتى يسلموا ﴿

فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْراً حَسَناً ﴾ وهو الغنيمة في الدنيا ، والجنة في الآخرة ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ ﴾ أي : تعرضوا ﴿ كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ ﴾ وذلك عام الحديبية ﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ بالقتل والأسر والقهر في الدنيا ، وبعذاب النار في الآخرة ؛ لتضاعف جرمكم .

﴿ لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأعرج حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المريض حَرَجٌ ﴾ أي : ليس على هؤلاء المعذورين بهذه الأعذار حرج في التخلف عن الغزو ؛ لعدم استطاعتهم .

قال مقاتل : عذر الله أهل الزمانة الذين تخلفوا عن المسير إلى الحديبية بهذه الآية ، والحرج : الإثم ﴿ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فيما أمراه به ونهياه عنه ﴿ يُدْخِلْهُ جنات تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهر ﴾ قرأ الجمهور ﴿ يدخله ﴾ بالتحتية ، واختار هذه القراءة أبو حاتم ، وأبو عبيد ، وقرأ نافع ، وابن عامر بالنون ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ أي : ومن يعرض عن الطاعة يعذبه الله عذاباً شديد الألم .

(136/714)

ثم ذكر سبحانه الذين أخلصوا نياتهم ، وشهدوا بيعة الرضوان ، فقال : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ المؤمنين إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشجرة ﴾ أي : رضي الله عنهم وقت تلك البيعة ، وهي بيعة الرضوان ، وكانت بالحديبية ، والعامل في ﴿ تَحْتِ ﴾ إما يبايعونك ، أو محذوف

على أنه حال من المفعول ، وهذه الشجرة المذكورة هي شجرة كانت بالحديبية وقيل : سدرة ، وكانت البيعة على أن يقاتلوا قريشاً ، ولا يفرّوا .

وروي أنه بايعهم على الموت ، وقد تقدّم ذكر عدد أهل هذه البيعة قريباً ، والقصة مبسوطة في كتب الحديث والسير .

﴿ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ معطوف على يبايعونك ، قال الفراء : أي : علم ما في قلوبهم من الصدق والوفاء .

وقال قتادة ، وابن جريج : من الرضى بأمر البيعة على أن لا يفرّوا .

وقال مقاتل : من كراهة البيعة على الموت ﴿ فَأَنزَلَ السكينة عَلَيْهِمْ ﴾ معطوف على رضي ، والسكينة : الطمأنينة وسكون النفس ، كما تقدّم ، وقيل : الصبر ﴿ وأثابهم فَتْحاً قَرِيباً ﴾ هو فتح خيبر عند انصرافهم من الحديبية ، قاله قتادة ، وابن أبي ليلى ، وغيرهما ، وقيل : فتح مكة ، والأوّل أولى .

﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾ أي : وأثابكم مغانم كثيرة ، أو وآتاكم ، وهي غنائم خيبر ، والالتفات لتشريفهم بالخطاب ﴿ وَكَانَ الله عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ أي : غالباً مصدراً أفعاله وأقواله على أسلوب الحكمة .

﴿ وَعَدَكُمُ الله مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ في هذا وعد منه سبحانه لعباده المؤمنين بما سيفتحه عليهم من الغنائم إلى يوم القيامة يأخذونها في أوقاتها التي قدّر وقوعها فيها ﴿

فَعَجَّلَ لَكُمْ هذه ﴾ أي : غنائم خيبر ، قاله مجاهد وغيره ، وقيل : صلح الحديبية ﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ الناس عَنْكُمْ ﴾ أي : وكفّ أيدي قريش عنكم يوم الحديبية بالصلح ، وقيل : كفّ أيدي أهل خيبر ، وأنصارهم عن قتالكم ، وقذف في قلوبهم الرعب .

(137/714)

وقال قتادة : كفّ أيدي اليهود عن المدينة بعد خروج النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية ، وخيبر ، ورجح هذا ابن جرير ، قال : لأن كف أيدي الناس بالحديبية مذكور في قوله : ﴿ وَهُوَ الذى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ وقيل : كَفَّ أَيْدِيَهُمْ الناس عَنْكُمْ يعني : عيينة بن حصن الفزاري ، وعوف بن مالك النضري ومن كان معهما ، إذ جاءوا لينصروا أهل خيبر عند حصار النبيّ صلى الله عليه وسلم لهم ﴿ وَلِتَكُونَ ءايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ اللام يجوز أن تتعلق بفعل محذوف يقدّر بعده ، أي : فعل ما فعل من التعجيل والكفّ ؛ لتكون آيةً ، أو على علة محذوفة تقديرها : وعد فعجل وكفّ ؛ لتنتفعوا بذلك ؛ ولتكون آية .

وقيل : إن الواو مزيدة ، واللام لتعليل ما قبله ، أي : وكفّ لتكون ؛ والمعنى : ذلك الكفّ آية يعلم بها صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع ما يعدكم به ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صراطا مُّسْتَقِيماً ﴾ أي : يزيدكم بتلك الآية هدى ، أو يثبتكم على الهداية إلى طريق الحقّ ﴿

وأخرى لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا ﴾ معطوف على هذه ، أي : فعجل لكم هذه المغانم ، ومغانم أخرى لم تقدروا عليها ، وهي الفتوح التي فتحها الله على المسلمين من بعد كفارس والروم ونحوهما ، كذا قال الحسن ، ومقاتل ، وابن أبي ليلى ، وقال الضحاك ، وابن زيد ، وابن أبي إسحاق : هي خيبر وعدها الله نبيه قبل أن يفتحها ، ولم يكونوا يرجونها ، وقال قتادة : فتح مكة ، وقال عكرمة : حنين ، والأوّل أولى ﴿ قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا ﴾ صفة ثانية لأخرى .

(138/714)

قال الفراء : أحاط الله بها لكم حتى تفتحوها وتأخذوها ، والمعنى : أنه أعدّها لهم ، وجعلها كالشيء الذي قد أحيط به من جميع جوانبه ، فهو محصور لا يفوت منه شيء ، فهم وإن لم يقدروا عليها في الحال فهي محبوسة لهم لا تفوتهم ، وقيل : معنى ﴿ أحاط ﴾ : علم أنها ستكون لهم ﴿ وَكَانَ اللهُ على كُلّ شَىْءٍ قَدِيراً ﴾ لا يعجزه شيء ، ولا تختصّ قدرته ببعض المقدورات دون بعض .

﴿ وَلَوْ قاتلكم الذين كفَرُواْ لوَلَّوُاْ الأدبار ﴾ قال قتادة : يعني : كفار قريش بالحديبية ، وقيل : أسد وغطفان الذين أرادوا نصر أهل خيبر ، والأوّل أولى .

﴿ ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيّاً ﴾ يواليهم على قتالكم ﴿ وَلاَ نَصِيراً ﴾ ينصرهم عليكم .

﴿ سُنَّةَ اللهِ التى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ﴾ أي : طريقته وعادته التي قد مضت في الأمم من نصر أوليائه على أعدائه ، وانتصاب ﴿ سنة ﴾ على المصدرية بفعل محذوف ، أي : بيّن الله سنة الله ، أو هو مصدر مؤكد لمضمون الجملة المتقدّمة ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾ أي : لن تجد لها تغييراً ، بل هي مستمرّة ثابتة ﴿ وَهُوَ الذى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : كفّ أيدي المشركين عن المسلمين ، وأيدي المسلمين عن المشركين لما جاءوا يصدّون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن معه عن البيت عام الحديبية ، وهي المراد ببطن مكة .

وقيل : إن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على النبيّ من قبل جبل التنعيم متسلحين يريدون غرّة النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخذهم المسلمون ، ثم تركوهم .

وفي الرواية اختلاف سيأتي بيانه آخر البحث إن شاء الله ﴿ وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ﴾ لا يخفى عليه من ذلك شيء .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله : ﴿ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ يقول : فارس .

(139/714)

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أنهم الأكراد .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : فارس ، والروم .

وأخرج الفريابي ، وابن مردويه عنه قال : هوازن ، وبني حنيفة .

وأخرج الطبراني ، قال السيوطي : بسند حسن عن زيد بن ثابت قال : كنت أكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإني لواضع القلم على أذني إذ أمر بالقتال إذ جاء أعمى ، فقال : كيف لي وأنا ذاهب البصر ؟ فنزلت ﴿ لَّيْسَ عَلَى الاعمى حَرَجٌ ﴾ الآية .

قال : هذا في الجهاد ، وليس عليهم من جهاد إذا لم يطيقوا .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن سلمة بن الأكوع قال : بينا نحن قائلون إذ نادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيها الناس البيعة البيعة نزل روح القدس ، فثرنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو تحت شجرة سمرة ، فبايعناه ، فذلك قول الله تعالى : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ الله عَنِ المؤمنين إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشجرة ﴾ فبايع لعثمان إحدى يديه على الأخرى ، فقال الناس : هنيئاً لابن عفان يطوف بالبيت ، ونحن ها هنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف "

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن نافع قال : بلغ عمر بن الخطاب أن ناساً يأتون الشجرة التي بويع تحتها ، فأمر بها فقطعت .

وأخرج البخاري عن سلمة بن الأكوع قال : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت

الشجرة ، قيل : على أي شيء كنتم تبايعونه يومئذ ؟ قال : على الموت .

وأخرج مسلم ، وغيره عن جابر قال : بايعناه على أن لا نفرّ ، ولم نبايعه على الموت .

وأخرج أحمد ، وأبو داود ، والترمذي عن جابر ، عن النبي قال : " لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة " وأخرج مسلم من حديثه مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ فَأَنزَلَ السكينة عَلَيْهِمْ ﴾ قال : إنما أنزلت السكينة على من علم منه الوفاء .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه عنه ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هذه ﴾ يعني : الفتح .

(140/714)

وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هذه ﴾ يعني : خيبر ﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ الناس عَنْكُمْ ﴾ يعني : أهل مكة أن يستحلوا حرم الله ، ويستحلّ بكم وأنتم حرم ﴿ وَلِتَكُونَ ءايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال : سنة لمن بعدكم .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عنه أيضاً في قوله : ﴿ وأخرى لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا ﴾ قال : هذه الفتوح التي تفتح إلى اليوم .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه عنه أيضاً ﴿ وأخرى لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا ﴾ قال : هي

خيبر .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن أنس قال : لما كان يوم الحديبية ، هبط على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة في السلاح من قبل جبال التنعيم يريدون غرّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعا عليهم فأخذوا فعفا عنهم ، فنزلت هذه الآية : ﴿ وَهُوَ الذى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ .

وفي صحيح مسلم ، وغيره : أنها نزلت في نفر أسرهم سلمة بن الأكوع يوم الحديبية .

وأخرج أحمد ، والنسائي ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الدلائل في سبب نزول الآية : أن ثلاثين شاباً من المشركين خرجوا يوم الحديبية على المسلمين في السلاح ، فثاروا في وجوههم ، فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ الله بأسماعهم ولفظ الحاكم بأبصارهم ، فقام إليهم المسلمون فأخذوهم ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هل جئتم في عهد أحد ، أو هل جعل لكم أحد أماناً " ؟ فقالوا : لا ، فخلى سبيلهم ، فنزلت هذه الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 50 .

53 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾

عطف على جملة ﴿ وكفّ أيدي الناس عنكم ﴾ [الفتح : 20] وهذا كفّ غير الكف المراد من قوله : ﴿ وكفَّ أيدي الناس عنكم ﴾ .

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي لإفادة التخصيص ، أي القصر ، أي لم يكفّهم عنكم ولا كفكم عنهم إلا الله تعالى ، لا أنتم ولا هم فإنهم كانوا يريدون الشر بكم وأنتم حين أحطتم بهم كنتم تريدون قتلهم أو أسرهم فإن دواعي امتداد أيديهم إليكم وامتداد أيديكم إليهم متوفرة فلولا أن الله قدّر موانع لهم ولكم لاشتبكتم في القتال ، فكفَّ أيديهم عنكم بأن نبهكم إليهم قبل أن يفاجئوكم وكف أيديكم عنهم حين أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يعفو عنهم ويطلقهم .

وتقدم الكلام على معنى ﴿ كف ﴾ في قوله آنفاً ﴿ وكف أيديَ الناس عنكم ﴾ .

والمعنى : أنه لم يترك أحد من الفريقين الاعتداء على الفريق الآخر من تلقاء نفسه ولكن ذلك كان بأسباب أوجدها الله تعالى لإرادته عدم القتال بينهم ، وهي منّة ثانية مثل المنة المذكورة في قوله : ﴿ وكف أيدي الناس عنكم .

وهذه الآية أشارت إلى كف عن القتال يسّره الله رفقاً بالمسلمين وإبقاء على قوتهم في وقت

حاجتهم إلى ذلك بعد وقعة بدر ووقعة أحد ، واتفق المفسرون الأولون على أن هذا الكف وقع في الحديبية .

وهذا يشير إلى ما روي من طرق مختلفة وبعضها في سنن الترمذي وقال : هو حديث صحيح ، وفي بعضها زيَادة على بعض أن جمعاً من المشركين يُقدر بستة أو باثني عشر أو بثلاثين أو سبعين أو ثمانين مسلحين نزلوا إلى الحديبية يريدون أن يأخذوا المسلمين على غرة ففطن لهم المسلمون فأخذوهم دون حرب النبي بإطلاقهم وكان ذلك أيام كان السفراء يمشون بين النبي وبين أهل مكة ولعل النبي أطلقهم تجنباً لما يعكر صفو الصلح .

(142/714)

وضمائر الغيبة راجعة للذين كفروا في قوله : ﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا ﴾ [الفتح : 22] ووجه عوده إليه مع أن الذين كف الله أيديهم فريق غير الفريق الذي في قوله : ﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا ﴾ هو أن عرف كلام العرب جار على أن ما يصدر من بعض القوم ينسب إلى القوم بدون تمييز كما تقدم في سورة البقرة (63) في قوله : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ﴾

وقوله : ببطن مكة ﴾ ظاهر كلام الأساس : أن حقيقة البطن جوف الإنسان والحيوان وأن

استعماله في معاني المنخفض من الشيء أو المتوسط مجاز ، قال الراغب : ويقال للجهة السفلى بطن ، وللعليا ظهر .

ويقال : بطن الوادي لوسطه .

والمعروف من إطلاق لفظ البطن إذا أضيف إلى المكان أن يراد به وسط المكان كما في قول كعب بن زهير:

في فتية من قريش قال قائلهم . . .

ببطن مكةَ لما أسلموا زُولوا

أي في وسط البلد الحرام فإن قائل : زولوا ، هو عمر بن الخطاب أو حمزة بن عبد المطلب ، غير أن محمل ذلك في هذه الآية غير بيّن لأنه لا يعرف وقوع اختلاط بين المسلمين والمشركين في وسط مكة يفضي إلى القتال حتى يُمتنّ عليهم بكف أيدي بعضهم عن بعض وكل ما وقع مما قد يفضي إلى القتال فإنما وقع في الحديبيّة .

فجمهور المفسّرين حَملوا بطن مكة في الآية على الحديبيّة من إطلاق البطن على أسفل المكان ، والحديبيّة قريبة من مكة وهي من الحِل وبعض أرضها من الحرم وهي على الطريق بين مكة وجدة وهي إلى مكة أقرب وتعرف اليوم باسم الشميسي ، وجعلوا الآية تشير إلى القصة المذكورة في "جامع الترمذي" وغيره بروايات مختلفة وهي ما قدمناه آنفاً .

ومنهم من زاد في تلك القصّة : أن جيش المسلمين اتبعوا العدوّ إلى أن دخلوا بيوت مكة

وقتلوا منهم وأسروا فيكون بطن مكة محمولاً على مشهور استعماله ، وهذا خبر مضطرب ومناف لظاهر قوله : ﴿ كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ﴾ .

(143/714)

ومنهم من أبعد المحمل فجعل الآية نازلة في فتح مكة وهذا لا يناسب سياق السورة ويخالف كلام السلف من المفسّرين وهم أعلم بالمقصود ، هذا كلّه بناء على أن الباء في قوله : ﴿ ببطن مكة ﴾ متعلقة بفعل ﴿ كف ﴾ ، أي كان الكف في بطن مكة .

ويجوز عندي أن يكون ﴿ ببطن مكة ﴾ ظرفاً مستقِرّاً هو حال من ضميري ﴿ عنكم ﴾ و ﴿ عنهم ﴾ وهو حال مقدرة ، أي لو كنتم ببطن مكة ، أي لو لم يقع الصلح فدخلتم محاربين كما رغب المسلمون الذين كرهوا الصلح كما تقدم فيكون إطلاق ﴿ بطن مكة ﴾ جارياً على الاستعمال الشائع ، أي في وسط مدينة مكة .

ولهذا أوثرت مادة الظفر في قوله : ﴿ من بعد أن أظفركم عليهم ﴾ دون أن يقال : من بعد أن نصركم عليهم ، لأن الظفر هو الفوز بالمطلوب فلا يقتضي وجود قتال فالظفر أعم من النصر ، أي من بعد أن أنالكم ما فيه نفعكم وهو هدنة الصلح وأن تعودوا إلى العمرة في العام القابل .

ومناسبة تعريف ذلك المكان بهذه الإضافة الإشارة إلى أن جمع المشركين نزلوا من أرض الحرم المكي إذ نزلوا من جبل التنعيم وهو من الحرم وكانوا أنصاراً لأهل مكة .

ويتعلّق قوله : ﴿ من بعد أن أظفركم عليهم ﴾ بفعل ﴿ كف ﴾ باعتبار تعديته إلى المعطوف على مفعوله ، أعني : ﴿ وأيديكم عنهم ﴾ لأنه هو الكف الذي حصل بعد ظفر المسلمين بفئة المشركين عل حسب تلك الرواية والقرينة ظاهرة من قوله : ﴿ من بعد أن أظفركم عليهم ﴾ .

وهذا إشارة إلى أن كف أيدي بعضهم عن بعض كان للمسلمين إذا مَنُّوا على العدوّ بعد التمكن منه .

فعُدي ﴿ أظفركم ﴾ بـ (على) لتضمينه معنى أيَّدكُم وإلا فحقه أن يعدى بالباء .

وجملة ﴿ وكان اللَّه بما تعملون بصيراً ﴾ تذييل للتي قبلها ، والبصير بمعنى العليم بالمرئيّات ، أي عليماً بعملكم حين أحطتم بهم وسُقتموهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم تظنون أنكم قاتلوهم أو آسروهم .

وقرأ الجمهور ﴿ تعملون ﴾ بتاء الخطاب .

(144/714)

وقرأه أبو عمرو وحده بياء الغيبة ، أي عليماً بما يعملون من انحدارهم على غرة منكم طامعين أن يتمكنوا من أن يغلبوكم وفي كلتا القراءتين اكتفاء ، أي كان الله بما تعملون ويعملون بصيرا ، أو بما يعملون وتعملون بصيرا ، لأن قوله : ﴿ كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ﴾ يفيد عملاً لكل فريق ، أي علم نواياكم فكفها لحكمة استبقاء قوتكم وحسن سمعتكم بين قبائل العرب وأن لا يجد المشركون ذريعة إلى التظلم منكم بالباطل .

﴿ هُمُ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ المسجد الحرام والهدى مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ .

استئناف انتقل به من مقام الثناء على المؤمنين الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما اكتسبوا بتلك البيعة من رضى الله تعالى وجزائه ثواب الآخرة وخير الدنيا عاجله وآجله ، وضمان النصر لهم في قتال المشركين ، ومَا هَيَّأ لهم من أسباب النصر إلى تعيير المشركين بالمذمة التي أتوا بها وهي صد المسلمين عن المسجد الحرام وصد الهدْي عن أن يبلغ به إلى أهله ، فإنها سبة لهم بين العرب وهم أولى الناس بالحفاوة بمن يعتمرون ، وهم يزعمون أنهم أهل حرم الله زواره ومعظّميه ، وقد كان من عادتهم قبول كل زائر للكعبة من جميع أهل الأديان ، فلا عذر لهم في منع المسلمين ولكنهم حملتهم عليه الحمية .

وضمير الغيبة المفتتح به عائد إلى الذين كفروا من قوله : ﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ﴾ [الفتح : 22] الآية .

والمقصود بالافتتاح بضميرهم هنا لاسترعاء السمع لما يرد بعده من الخبر كما إذا جره حديث عن بطل في يوم من أيام العرب ثم قال قائل عثرة هو البطن المحامي .

(145/714)

والمقصود من الصلة هو جملة ﴿ صدوكم عن المسجد الحرام ﴾ وذكر ﴿ الذين كفروا ﴾ إدماج للنداء عليهم بوصف الكفر ولهذا الإدماج نكتة أيضاً ، وهي أن وصف الذين كفروا بمنزلة الجنس صار الموصول في قوة المعرف بلام الجنس فتفيد جملة ﴿ هم الذين كفروا ﴾ قصر جنس الكفر على هذا الضمير لقصد المبالغة لكمالهم في الكفر بصدهم المعتمرين عن المسجد الحرام وصد الهدي عن أن يبلغ محله .

والهديُ : ما يهدى إلى الكعبة من الأنعام ، وهو من التسمية باسم المصدر ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع كحكم المصدر قال تعالى : ﴿ والهَدْي والقلائد ﴾ [المائدة : 97] أي الأنعام المهدية وقلائدها وهو هنا الجمع .

والمعكوفُ : اسم مفعول عَكَفه ، إذ ألزمَه المكث في مكان ، يقال : عكفه فعكَف فيستعمل قاصراً ومتعدياً عن ابن سِيده وغيره كما يقال : رجَعه فرجَع وجَبره فجَبر .

وقال أبو علي الفارسي : لا أعرف عكف متعدياً ، وتأول صيغة المفعول في قوله تعالى : ﴿

معكوفاً ﴾ على أنها لتضمين عكَف معنى حبس .

وفائدة ذكر هذا الحال التشنيع على الذين كفروا في صدهم المسلمين عن البيت بأنهم صدوا الهدايا أن تبلغ محلها حيث اضطّر المسلمون أن ينحروا هداياهم في الحديبية فقد عطلوا بفعلهم ذلك شعيرة من شعائر الله ، ففي ذكر الحال تصوير لهيئة الهدايا وهي محبوسة .

ومعنى صدهم الهدي : أنهم صدوا أهل الهدي عن الوصول إلى المنحر من منى .

وليس المراد : أنهم صدوا الهدايا مباشرة لأنه لم ينقل أن المسلمين عرضوا على المشركين تخلية من يذهب بهداياهم إلى مكةِ لتُنحر بها .

وقوله : ﴿ أن يبلغ محله ﴾ أن يكون بدل اشتمال من ﴿ الهدي ﴾ ويجوز أن يكون معمولاً لِحرف جر محذوف وهو (عن) ، أي عن أن يبلغ محله .

(146/714)

والمحِلّ بكسر الحاء : محلّ الحِل مشتق من فعل حَلّ ضد حرُم ، أي المكان الذي يحِلّ فيه نحر الهدي ، وهو الذي لا يُجزئُ غيره ، وذلك بمكة بالمروة بالنسبة للمعتمر ، ولذلك لما أُحصروا أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينحروا هديهم في مكانهم إذ تعذر

إبلاغه إلى مكة لأن المشركين منعوهم من ذلك .

ولم يثبت في السنة أن النبي صلى الله عليه وسلم أمرهم بتوخّي جهة معينة للنحر من أرض الحديبية ، وذلك من سماحة الدين فلا طائل من وراء الخوض في اشتراط النحر في أرض الحرم للمحصرَ .

﴿ مَحِلَّهُ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مؤمنات لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِّنْهُمْ مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللهُ فِى رَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَاباً ﴾ .

أتبع النعي على المشركين سُوءَ فعلهم من الكفر والصد عن المسجد الحرام وتعطيل شعائر الله وَعْدَهُ المسلمين بفتح قريب ومغانم كثيرة ، بما يدفع غرور المشركين بقوتهم ، ويسكن تطلع المسلمين لتعجيل الفتح ، فبيّن أن الله كف أيدي المسلمين عن المشركين مع ما قرره آنفاً من قوله : ﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً ﴾ [الفتح : 22] أنه إنما لم يأمر المسلمين بقتال عدوهم لمّا صدوهم عن البيت لأنه أراد رحمة جمع من المؤمنين والمؤمنات كانوا في خلال أهل الشرك لا يَعلمونهم ، وعصم المسلمين من الوقوع في مصائب من جراء إتلاف إخوانهم ، فالجملة معطوفة على جملة ﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ﴾ أو على جملة ﴿ وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ﴾ [الفتح : 24] الخ .

وأيًّا مَا كان فهي كلام معترض بين جملة ﴿ هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام ﴾ الخ وبين جملة ﴿ إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية ﴾ [الفتح : 26] .

(147/714)

ونظم هذه الآية بديع في أسلوبي الإطناب والإيجاز والتفنن في الانتقال ورشاقة كلماته .

و ﴿ لولا ﴾ دالة على امتناعٍ لوجودٍ ، أي امتنع تعذيبُنا الكافرين لأجل وجود رجال مؤمنين ونساء مؤمنات بينهم .

وما بعد ﴿ لولا ﴾ مبتدأ وخبره محذوف على الطريقة المستعملة في حذفه مع ﴿ لولا ﴾ إذا كان تعليق امتناع جوابها على وجود شرطها وجوداً مطلقاً غير مقيد بحال ، فالتقدير : ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات موجودون ، كما يدل عليه قوله بعده ﴿ لو تزيَّلوا ﴾ ، أي لو لم يكونوا موجودين بينهم ، أي أن وجود هؤلاء هو الذي لأجله امتنع حصول مضمون جواب ﴿ لولا ﴾ .

وإجراء الوصف على رجال ونساء بالإيمان مشير إلى أن وجودهم المانع من حصول مضمون الجواب هو الوجود الموصوف بإيمان أصحابه ، ولكن الامتناع ليس معلقاً على وجود الإيمان بل على وجود ذوات المؤمنين والمؤمنات بينهم .

وكذلك قوله : ﴿ لم تعلموهم ﴾ ليس هو خبراً بل وصفاً ثانياً إذ ليس محط الفائدة .

ووجه عطف ﴿ نساء مؤمنات ﴾ مع أن وجود ﴿ رجال مؤمنون ﴾ كاف في ربط امتناع الجواب بالشرط ومع التمكن من أن يقول : ولولا المؤمنُون ، فإن جمع المذكر في اصطلاح القرآن يتناول النساء غالباً ، أن تخصيص النساء بالذكر أنسب بمعنى انتفاء المعرة بقتلهن وبمعنى تعلق رحمة الله بهن .

ومعنى ﴿ لم تعلموهم ﴾ لم تعملوا إيمانهم إذ كانوا قد آمنوا بعد خروج النبي صلى الله عليه وسلم مهاجراً .

(148/714)

فعن جُنْبُذٍ بجيم مضمومة ونون ساكنة وموحدة مضمومة وذال معجمة بن سَبُع بسين مهملة مفتوحة وموحدة مضمومة ، ويقال : سِباع بكسر السين يقال : إنه أنصاري ، ويقال : قاري صاحبي قال : هم سبعة رجال سمي منهم الوليد بن الوليد بن المغيرة ، وسلمة بن هشام ، وعياش بن أبي ربيعة وأبو جندل بن سُهيل وأبو بَصِير القرشي ولم أقف على اسم السابع وعُدَّتْ أمّ الفضل زوجُ العباس بن عبد المطلب ، وأحسب أن ثانيتهما أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط التي لحقت بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد أن رجع إلى المدينة .

وعن حَجَر بن خلف : ثلاثة رجال وتسع نسوة ، ولفظ الآية يقتضي أن النساء أكثر من اثنتين .

والظاهر أن المراد بقوله : ﴿ لم تعلموهم ﴾ ما يشمل معنى نفي معرفة أشخاصهم ومعنى نفي العلم بما في قلوبهم ، فيفيد الأول أنهم لا يعلمهم كثير منكم ممن كان في الحديبيّة من أهل المدينة ومن معهم من الأعراب فهم لا يعرفون أشخاصهم فلا يعرفون من كان منهم مؤمناً إن كان يعرفهم المهاجرون ، ويفيد الثاني أنهم لا يعلمون ما في قلوبهم من الإيمان أو ما أحدثوه بعد مفارقتهم من الإيمان ، أي لا يعلم ذلك كله الجيش من المهاجرين والأنصار .

و﴿ أن تطأوهم ﴾ بدل اشتمال من ﴿ رجال ﴾ ومعطوفه ، أو من الضمير المنصوب في ﴿ لم تعلموهم ﴾ أي لولا أن تطئوهم .

والوطء : الدوس بالرِجل ، ويستعار للإبادة والإهلاك ، وقد جمعهما الحارث بن وعْلَة الذُهلي في قوله:

ووطِئْتَنا وَطْأً على حَنَق . . .

وَطْءَ المقيَّدِ نَابتَ الهِرْم

والإصابة : لحاق ما يصيب .

و(مِن) في قوله : ﴿ منهم ﴾ للابتداء المجازي الراجع إلى معنى التسبب ، أي فتلحقكم من جرائهم ومن أجلهم مَعرة كنتم تتقون لحاقها لو كنتم تعلمونهم .

والمعرة : مصدر ميمي من عَرّه ، إذا دهاه ، أي أصابه بما يكرهه ويشق عليه من ضر أو غرم أو سوء قالة ، فهي هنا تجمع ما يلحقهم إذا ألحقوا أضراراً بالمسلمين من دِيَاتتِ قتْلَى ، وغُرم أضرار ، ومن إثم يلحق القاتلين إذا لم يتثبَّتوا فيمن يقتلونه ، ومن سوء قالة يقولها المشركون ويشيعونها في القبائل أن محمداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم ينج أهل دينهم من ضرهم ليُكَرِّهُوا العرب في الإسلام وأهله .

والباء في ﴿ بغير علم ﴾ للملابسة ، أي ملابسين لانتفاء العلم .

والمجرور بها متعلق بـ ﴿ تصيبكم ﴾ ، أي فتلحقكم من جرّائهم مَكاره لا تعلمونها حتى تَقعوا فيها .

وهذا نفي علم آخر غير العلم المنفي في قوله : ﴿ لم تعلموهم ﴾ لأن العلم المنفي في قوله : ﴿ لم تعلموهم ﴾ هو العلم بأنهم مؤمنون بالذي انتفاؤه سبب إهلاك غير المعلومين الذي تسبب عليه لحاق المعرة .

والعلم المنفي ثانياً في قوله : ﴿ بغير علم ﴾ هو العلم بلحاق المعرة من وطأتهم التابع لعدم العلم بإيمان القوم المهلَكين وهو العلم الذي انتفاؤه يكون سبباً في الإقدام على إهلاكهم .

واللام في قوله : ﴿ ليدخل اللَّه في رحمته من يشاء ﴾ للتعليل والمعلل واقع لا مفروض ، فهو وجود شرط ﴿ لولا ﴾ الذي تسبب عليه امتناع جوابها فالمعلل هو ربط الجواب بالشرط ، أي لولا وجود رجال مؤمنين ونساء مؤمنات لعذبنا الذين كفروا وأن هذا الربط لأجل رحمة الله من يشاء من عباده إذ رحم بهذا الامتناع جيش المسلمين بأن سلمهم من معرة تلحقهم وأن أبقى لهم قوتهم في النفوس والعدة إلى أمد معلوم ، ورحم المؤمنين والمؤمنات بنجاتهم من الإهلاك ، ورحم المشركين بأن استبقاهم لعلهم يسلمون أو يسلم أكثرهم كما حصل بعد فتح مكة ، ورحم من أسلموا منهم بعد ذلك بثواب الآخرة ، فالرحمة هنا شاملة لرحمة الدنيا ورحمة الآخرة .

و﴿ من يشاء ﴾ يعمّ كل من أراد الله من هذه الحالة رحمته في الدنيا والآخرة أو فيهما معاً .

(150/714)

وعبر بـ ﴿ من يشاء ﴾ لما فيه من شمول أصناف كثيرة ولما فيه من الإيجاز ولما فيه من الإشارة إلى الحكمة التي اقتضت مشيئة الله رحمة أولئك .

وجواب ﴿ لولا ﴾ يجوز اعتباره محذوفاً دل عليه جواب ﴿ لو ﴾ المعطوفة على ﴿ لولا

﴿ في قوله : ﴿ لو تزيلوا ﴾ ، ويجوز اعتبار جواب ﴿ لو ﴾ مرتبطاً على وجه تشبيه التنازع بين شرطي ﴿ لولا ﴾ و ﴿ لو ﴾ لمرجع الشرطين إلى معنى واحد وهو الامتناع فإن ﴿ لولا ﴾ حرف امتناع لوجود أي تدلّ على امتناع جوابها لوجود شرطها .

و ﴿ لو ﴾ حرف امتناع لامتناع ، أي تدل على امتناع جوابها لامتناع شرطها فحكم جوابيهما واحد ، وهو الامتناع ، وإنما يَختلف شرطاهما فشرط ﴿ لو ﴾ منتف وشرط ﴿ لولا ﴾ مثبت .

وضمير ﴿ تزيلوا ﴾ عائد إلى ما دل عليه قوله : ﴿ ولولا رجال مؤمنون ﴾ الخ من جمع مختلط فيه المؤمنون والمؤمنات مع المشركين كما دل عليه قوله : ﴿ لم تعلموهم ﴾ .

والتزَيّل : مطاوع زيَّله إذا أبعده عن مكان ، وزيلهم ، أي أبعد بعضهم عن بعض ، أي فرقهم قال تعالى : ﴿ فزيلنا بينهم ﴾ [يونس : 28] وهو هنا بمعنى التفرق والتميز من غير مراعاة مطاوعة لفعل فاعل لأن أفعال المطاوعة كثيراً ما تطلق لإرادة المبالغة لدلالة زيادة المبنى على زيادة المعنى وذلك أصل من أصول اللغة .

والمعنى : لو تفرق المؤمنون والمؤمنات عن أهل الشرك لسلَّطنْا المسلمين على المشركين فعذّبوا الذين كفروا عذاب السيف .

فإسناد التعذيب إلى الله تعالى لأنه يأمر به ويقدر النصر للمسلمين كما قال تعالى : ﴿ قاتلوهم يعذبْهم بأيديكم ﴾ في سورة براءة (14) .

و(مِن) في قوله : منهم ﴾ للتبعيض ، أي لعذبنا الذين كفروا من ذلك الجمع المتفرق المتميز مؤمنهم عن كافرهم ، أي حين يصير الجمع مشركين خلّصا وحدهم .

(151/714)

وجملة ﴿ لو تزيلوا ﴾ إلى آخرها بيان لجملة ﴿ ولولا رجال مؤمنون ﴾ إلى آخرها ، أي لولا وجود رجال مؤمنين الخ مندمجين في جماعة المشركين غير مفترقين لو افترقوا لعذبنا الكافرين منهم .

وعدل عن ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم في قوله : ﴿ لعذبنا الذين كفروا ﴾ على طريقة الالتفات .

إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (26)

ظرف متعلق بفعل ﴿ صدوكم ﴾ [الفتح : 25] أي صدوكم صدًّا لا عذر لهم فيه ولا داعي إليه إلا حميةَ الجاهلية ، وإلا فإن المؤمنين جاءوا مسالمين معظمين حُرمة الكعبة سائقين الهدايا لنفع أهل الحرم فليس من الرشد أن يمنعوا عن العمرة ولكن حمية الجاهلية

غطّت على عقولهم فصمّموا على منع المسلمين ، ثم آل النزاع بين الطائفتين إلى المصالحة على أن يرجع المسلمون هذا العام وعلى أن المشركين يمكنوهم من العمرة في القابل وأن العامين سواء عندهم ولكنهم أرادوا التشفي لما في قلوبهم من الإحن على المسلمين .

فكان تعليق هذا الظرف بفعل ﴿ وصدوكم ﴾ مشعراً بتعليل الصَّد بكونه حمية الجاهلية ليفيد أن الحمية مُتَمَكنة منهم تظهر منها آثارها فمنها الصد عن المسجد الحرام .

والحمية : الأنفة ، أي الاستنكاف من أمرٍ لأنه يراه غضاضة عليه وأكثر إطلاق ذلك على استكبار لا موجب له فإن كان لموجب فهو إباء الضيم .

ولما كان صدهم الناس عن زيارة البيت بلا حق لأن البيت بيت الله لا بيتهم كان داعي المنع مجرد الحمية قال تعالى : ﴿ وما كانوا أولياءه ﴾ [الأنفال : 34] .

و﴿ جعل ﴾ بمعنى وضع ، كقول الحريري في المقامة الأخيرة "اجعل الموت نصب عينك" ، وقول الشاعر :

وإثمد يجعل في العين . . .

وضمير ﴿ جعل ﴾ يجوز أن يكون عائداً إلى اسم الجلالة في قوله : ﴿ ليدخل الله في رحمته ﴾ [الفتح : 25] من قوله : ﴿ لعذبنا الذين كفروا ﴾ [الفتح : 25] والعدول عن ضمير المتكلم إلى ضمير الغيبة التفات .

و ﴿ الذين كفروا ﴾ مفعول أول ل ﴿ جعل ﴾ .

و ﴿ الحمية ﴾ بدل اشتمال من ﴿ الذين كفروا ﴾ ، و ﴿ في قلوبهم ﴾ في محل المفعول الثاني ل ﴿ جعل ﴾ ، أي تخلّقُوا بالحمية فهي دافعة بهم إلى أفعالهم لا يراعون مصلحة ولا مفسدة فكذلك حين صدّوكم عن المسجد الحرام .

و ﴿ في قلوبهم ﴾ متعلق بـ ﴿ جعل ﴾ ، أي وضع الحمية في قلوبهم .

وقوله : ﴿ حمية الجاهلية ﴾ عطف بيان للحمية قُصد من إجماله ثم تفصيله تقريرُ مدلوله وتأكيده مَا يحصل لو قال : ﴿ إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم حميةَ الجاهلية ﴾ .

وإضافة الحمية إلى الجاهلية لقصد تحقيرها وتشنيعها فإنها من خلق أهل الجاهلية فإن ذلك انتساب ذم في اصطلاح القرآن كقوله : ﴿ يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ﴾ [آل عمران : 154] وقوله : ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ﴾ [المائدة : 50] .

ويعكس ذلك إضافة السكينة إلى ضمير الله تعالى إضافة تشريف لأن السكينة من الأخلاق الفاضلة فهي موهبة إلهاية .

وتفريع ﴿ فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ﴾ ، على ﴿ إذ جعل الذين

كفروا ﴾ ، يؤذن بأن المؤمنين ودُّوا أن يقاتلوا المشركين وأن يدخُلوا مكة للعمرة عنوة غضباً من صدّهم عنها ولكن الله أنزل عليهم السكينة .

والمراد بالسكينة : الثبات والأناة ، أي جعل في قلوبهم التأنّي وصرف عنهم العجْلة ، فعصمهم من مقابلة الحَمِية بالغضب والانتقامِ فقابلوا الحمية بالتعقل والتثبت فكان في ذلك خير كثير .

(153/714)

وفي هذه الآية من النكت المعنوية مقابلة ﴿ جعل ﴾ بـ ﴿ أنزل ﴾ في قوله : ﴿ إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية ﴾ وقوله : ﴿ فأنزل الله سكينته ﴾ فدلّ على شرف السكينة على الحمية لأن الإنزال تخييل للرفعة وإضافة الحمية إلى الجاهلية ، وإضافة السكينة إلى اسم ذاته .

وعُطف على إنزال الله سكينته ﴿ ألزمهم كلمة التقوى ﴾ [الفتح : 26] ، أي جعل كلمة التقوى لازمة لهم لا يفارقونها ، أي قرن بينهم وبين كلمة التقوى ليكون ذلك مقابلَ قوله : ﴿ وصدوكم عن المسجد الحرام ﴾ [الفتح : 25] فإنه لما ربط صدهم المسلمين عن المسجد الحرام بالظرف في قوله : ﴿ إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية الجاهلية ﴾

رَبْطاً يفيد التعليل كما قدمناه آنفاً رَبَطَ ملازمة المسلمين كلمة التقوى بإنزال السكينة في قلوبهم ، ليكون إنزال السكينة في قلوبهم ، وهو أمر باطني ، مؤثراً فيهم عملاً ظاهرياً وهو ملازمتهم كلمة التقوى كما كانت حمية الجاهلية هي التي دفعت الذين كفروا إلى صد المسلمين عن المسجد الحرام .

وضمير النصب في ﴿ وألزمهم ﴾ عائد إلى ﴿ المؤمنين ﴾ لأنهم هم الذين عوّض الله غضبهم بالسكينة ولم يكن رسول الله مفارقاً السكينة من قبل .

و ﴿ كلمة التقوى ﴾ إن حملت على ظاهرِ معنى ﴿ كلمة ﴾ كانت من قبيل الألفاظ وإطلاق الكلمة على الكلام شائع ، قال تعالى : ﴿ إنها كلمة هو قائلها ﴾ [المؤمنون : 100] ففسرت الكلمة هنا بأنها قول : لا إله إلا الله .

وروي هذا عن أُبيّ بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذي ، وقال : هو حديث غريب .

قلت : في سنده : ثوير ، ويقال : ثور بن أبي فاختة قال فيه الدارقطني : هو متروك ، وقال أبو حاتم : هو ضعيف .

وروى ابن مردوية عن أبي هريرة وسلمةَ بن الأكوع مثله مرفوعاً وكلها ضعيفة الأسانيد .

وروي تفسيرها بذلك عند عدد كثير من الصحابة ومعنى إلزامه إياهم كلمة التقوى : أنه قدَّر لهم الثبات عليها قولاً بلفظها وعملاً بمدلولها إذ فائدة الكلام حصول معناه ، فإطلاق (الكلمة) هنا كإطلاقه في قوله تعالى : ﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴾ [الزخرف : 28] يعني بها قول إبراهيم لأبيه وقومه ﴿ إنني بَراء مما تعبدون إلا الذي فطرني فإنه سيهدين ﴾ [الزخرف : 26 ، 27] .

وإضافة ﴿ كلمة ﴾ إلى ﴿ التقوى ﴾ على هذا التفسير إضافة حقيقية .

ومعنى إضافتها : أن كلمة الشهادة أصل التقوى فإن أساس التقوى اجتناب عبادة الأصنام ، ثم تتفرع على ذلك شعب التقوى كلها .

ورويت أقوال أخرى في تفسير ﴿ كلمة التقوى ﴾ بمعنى كلام آخر من الكلم الطيب وهي تفاسير لا تلائم سياق الكلام ولا نظمه .

ويجوز أن تحتمل ﴿ كلمة ﴾ على غير ظاهر معناها فتكون مقحمة وتكون إضافتها إلى التقوى إضافة بيانية ، أي كلمة هي التقوى ، ويكون المعنى : وألزمهم التقوى على حد إقحام لفظ اسم في قول لبيد :

إلى الحول ثم اسمُ السلام عليكما

ومنه قوله تعالى : ﴿ تبارك اسمُ ربك ﴾ [الرحمن : 78] على أحد التفسيرين فيه .

ويدخل في التقوى ابتداءً توحيدُ الله تعالى .

ويجوز أن يكون لفظ ﴿ كلمة ﴾ مطلقاً على حقيقة الشيء .

وجُماع معناه كإطلاق الاسم في قول النابغة:

نبئت زرعة والسفاهة كاسمِها . . .

يُهدي إلى غرائب الأشعار

ويؤيد هذا الوجه ما نقل عن مجاهد أنه قال : كلمة التقوى : الإخلاص .

فجعل (الكلمة) معنى من التقوى .

فالمعنى على هذين التوجهين الأخيرين : أنهم تخلقوا بالتقوى لا يفارقونها فاستعير الإلزام لدوام المقارنة .

وهذان الوجهان لا يعارضان تفسير كلمة (التقوى) بكلمة (الشهادة) المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يكون ذلك تفسيراً بجزئي من التقوى هو أهمّ جزئياتها ، أي تفسير مثال .

(155/714)

وعن الحسن : أن كلمة ﴿ التقوى ﴾ الوفاء بالعهد ، فيكون الإلزام على هذا بمعنى الإيجاب ، أي أمرهم بأن يفوا بما عاهدوا عليه للمشركين ولا ينقضوا عهدهم ، فلذلك لم ينقض المسلمون العهد حتى كان المشركون هم الذين ابتدأوا بنقضه .

والواو في ﴿ وكانوا أحق بها ﴾ واو الحال ، والجملة حال من الضمير المنصوب ، أي ألزمهم تلك الكلمة في حال كانوا فيه أحق بها وأهلها ممن لم يلزموها وهم الذين لم يقبلوا التوحيد على نحو قوله تعالى : ﴿ وإن كانت لكبيرة إلاّ على الذين هدى الله ﴾ [البقرة : 143] .

وجيء بفعل كانوا لدلالتها على أن هذه الأحقية راسخة فيهم حاصلة في الزمن الماضي ، أي في قدر الله تعالى .

والمعنى : أن نفوس المؤمنين كانت متهيئة لقبول كلمة التقوى والتزامها بما أرشدها الله إليه .

والمفضل عليه مقدر دلّ عليه ما تقدم ، أي أحق بها من الذين كفروا والذين جعل الله في قلوبهم الحمية لأن الله قدّر لهم الاستعداد للإيمان دون الذين أصروا على الكفر .

وأهل الشيء مستحقُه ، والمعنى أنهم كانوا أهل كلمة التقوى لأنها تناسب ضمائرهم وما انطوت عليه قلوبهم .

وهذه الأهلية مثل الأحقية متفاوتة في الناس وكلما اهتدى أحد من المشركين إلى الإسلام دلّ اهتداؤه على أنه حصلت له هذه الأهلية للإسلام .

وجملة ﴿ وكان اللَّه بكل شيء عليماً ﴾ تذييل ، أي وسبق في علم الله ذلك في عموم ما

أحاط به علم الله من الأشياء مجرى تكوينه على نحو علمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(156/714)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾

أخرج الطبراني بسند حسن عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : كنت أكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإني لواضع القلم على أذني إذ أمر بالقتال إذ جاء أعمى فقال : كيف بي وأنا ذاهب البصر فنزلت ﴿ ليس على الأعمى حرج ﴾ الآية قال : هذا في الجهاد ليس عليهم من جهاد إذا لم يطيقوا .

أما قوله تعالى : ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين ﴾ .

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه " عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : بينا نحن قائلون إذ نادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيها الناس البيعة البيعة نزل روح القدس فثرنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه

فذلك قول الله تعالى : ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ فبايع لعثمان رضي الله عنه إحدى يديه على الأخرى ، فقال الناس : هنيئاً لابن عفان رضي الله عنه يطوف بالبيت ونحن ههنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف " " .

وأخرج البخاري وابن مردويه عن طارق بن عبد الرحمن رضي الله عنه قال : انطلقت حاجاً فمررت بقوم يصلون فقلت : ما هذا المسجد ؟ قالوا : هذه الشجرة حيث بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان . فأتيت سعيد بن المسيب رضي الله عنه فأخبرته ، فقال سعيد : حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة ، فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها ، فقال سعيد رضي الله عنه : إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعلموها وعلمتموها أنتم فأنتم أعلم .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن نافع رضي الله عنه قال : بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن ناساً يأتون الشجرة التي بويع تحتها فأمر بها فقطعت .

(157/714)

وأخرج البخاري وابن مردويه عن قتادة رضي الله عنه قال : قلت لسعيد بن المسيب : كم كان الذين شهدوا بيعة الرضوان ؟ قال : خمس عشرة مائة قلت : فإن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : كانوا أربع عشرة مائة . قال : يرحمه الله وهم ، هو حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة .

وأخرج البخاري ومسلم وابن جرير وابن مردويه عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال : كان أصحاب الشجرة ألفاً وثلثمائة .

وأخرج سعيد بن منصور والبخاري ومسلم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل " عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنتم خير أهل الأرض " " .

وأخرج البيهقي عن سعيد بن المسيب والبخاري ومسلم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل " عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة ، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنتم خير أهل الأرض " " .

وأخرج البيهقي عن سعيد بن المسيب عن أبيه رضي الله عنه قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة ألفاً وأربعمائة .

وأخرج البخاري عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة قيل : على أي شيء كنتم تبايعون ؟ قال : على الموت .

وأخرج البيهقي عن عروة رضي الله عنه قال : " لما نزل النبي صلى الله عليه وسلم الحديبية فزعت قريش لنزوله عليهم فأحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليهم رجلاً من أصحابه فدعا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليبعثه إليهم ، فقال : يا رسول الله إني لا آمن ، وليس بمكة أحد من بني كعب يغضب لي إن أوذيت فأرسل عثمان بن عفان فإن عشيرته بها وإنه يبلغ لك ما أردت . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان رضي الله عنه فأرسله إلى قريش وقال : أخبرهم أنا لم نأتِ لقتال وإنما جئنا عماراً وادعهم إلى الإِسلام وأمره أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات فيدخل عليهم ويبشرهم بالفتح . ويخبرهم أن الله وشيك أن يظهر دينه بمكة حتى لا يستخفى فيها بالإِيمان فانطلق عثمان رضي الله عنه إلى قريش فأخبرهم ، فارتهنه المشركون ، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البيعة ونادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا إن روح القدس قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمره بالبيعة فأخرجوا على اسم الله فبايعوه ، فثار المسلمون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تحت الشجرة فبايعوه على أن لا يفروا أبداً فرعبهم الله فأرسلوا من كانوا ارتهنوا من المسلمين ودعوا إلى الموادعة والصلح " .

وأخرج مسلم وابن جرير وابن مردويه عن جابر رضي الله عنه قال : كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة فبايعناه وعمر رضي الله عنه آخذ بيده تحت الشجرة وهي سمرة وقال : بايعناه على أن لا نفر ولم نبايعه على الموت .

وأخرج عبد بن حميد ومسلم وابن مردويه عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال : لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي صلى الله عليه وسلم يبايع الناس وأنا رافع غصناً من أغصانها عن رأسه ونحن أربع عشرة مائة ، ولم نبايعه على الموت ، ولكن بايعناه على أن لا نفر .

(159/714)

وأخرج البيهقي في الدلائل عن الشعبي قال : " لما دعا النبي صلى الله عليه وسلم الناس إلى البيعة كان أول من انتهى إليه أبو سنان الأسدي فقال : أبسط يدك أبايعك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : علام تبايعني ؟ قال : على ما في نفسك " .

وأخرج البيهقي عن أنس قال : " لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل مكة ، فبايع الناس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم إن عثمان في حاجة الله وحاجة رسوله فضرب بإحدى يديه على الأخرى فكانت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان خيراً من

أيديهم لأنفسهم " .

وأخرج أحمد عن جابر ومسلم عن أم بشر عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم ﴾ قال : إنما أنزلت السكينة على من علم منه الوفاء .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي عن عبد الرحمن بن أبي أوفى في قوله ﴿ وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ قال : خيبر .

وأخرج عبد الرزاق وأبو داود في مراسيله عن الزهري قال : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقسم لغائب في مقسم لم يشهده إلا يوم خيبر قسم لغيب أهل الحديبية من أجل أن الله كان أعطى أهل خيبر المسلمين من أهل الحديبية ، فقال ﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه ﴾ وكانت لأهل الحديبية من شهد منهم ومن غاب .

(160/714)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم ﴾ قال : الوقار والصبر وهم الذين

بايعوا زمان الحديبية وكانت الشجرة فيما ذكر لنا سمرة بايع النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه تحتها ، وكانوا يومئذ خمس عشرة مائة فبايعوه على أن لا يفروا ، ولم يبايعوه على الموت ، ﴿ وأثابهم فتحاً قريباً ومغانم كثيرة ﴾ قال : هي مغانم خيبر وكانت عقاراً ومالاً فقسمها نبي الله بين أصحابه .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية إلى المدينة حتى إذا كان بين المدينة ومكة نزلت عليه سورة الفتح فقال : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ إلى قوله ﴿ عزيزاً ﴾ ثم ذكر الله الأعراب ومخالفتهم للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ سيقول لك المخلفون من الأعراب ﴾ إلى قوله ﴿ خبيراً ﴾ ثم قال للأعراب ﴿ بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون ﴾ إلى قوله ﴿ سعيراً ﴾ ثم ذكر البيعة فقال : ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين ﴾ إلى قوله ﴿ وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ لفتح الحديبية .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين ﴾ قال : كان أهل البيعة تحت الشجرة ألفاً وخمسمائة وخمساً وعشرين .

وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن أبي أمامة الباهلي قال : لما نزلت ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ قال : يا أبا أمامة أنت مني وأنا منك .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة ﴿ وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ قال : خيبر

حيث رجعوا من صلح الحديبية .

وأخرج عبد بن حميد عن الشعبي ﴿ وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ قال : فتح خيبر .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد ﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ﴾ قال : المغانم الكثيرة التي وعدوا ما يأخذون حتى اليوم ﴿ فعجل لكم هذه ﴾ قال : عجلت لهم خيبر .

(161/714)

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس ﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه ﴾ يعني الفتح .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه ﴾ يعني خيبر ﴿ وكف أيدي الناس عنكم ﴾ يعني أهل مكة أن يستحلوا ما حرم الله أو يستحل بكم وأنتم حرم ﴿ ولتكون آية للمؤمنين ﴾ قال : سنة لمن بعدكم .

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن مروان والمسور بن مخرمة قالا : انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية فنزلت عليه سورة الفتح فيما بين مكة والمدينة فأعطاه الله فيها خيبر ﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه ﴾ خيبر فقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة في ذي الحجة فقام بها حتى سار إلى خيبر في المحرم

فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرجيع ، وادٍ بين غطفان وخيبر ، فتخوّف أن تمدهم غطفان ، فبات به حتى أصبح فغدا عليهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ فعجل لكم هذه ﴾ قال : خيبر ﴿ وكف أيدي الناس عنكم ﴾ قال : عن بيضتهم وعن عيالهم بالمدينة حين ساروا عن المدينة إلى خيبر .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عطية ﴿ فعجل لكم هذه ﴾ قال : فتح خيبر .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ وكف أيدي الناس عنكم ﴾ قال : الحليفان أسد وغطفان عليهم عيينة بن حصن معه مالك بن عوف النصري أبو النضر وأهل خيبر على بئر معونة فألقى الله في قلوبهم الرعب فانهزموا ولم يلقوا النبي صلى الله عليه وسلم .

وفي قوله ﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا ﴾ هم أسد وغطفان ﴿ لولوا الأدبار حتى لا تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ يقول سنة الله في الذين خلوا من قبل أنه لن يقاتل أحد نبيه إلا خذله الله فقتله أو رعبه فانهزم ولن يسمع به عدو إلا انهزموا واستسلموا .

(162/714)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس ﴿ وأخرى لم تقدروا عليها ﴾ قال : هذه الفتوح التي تفتح إلى اليوم .

وأخرج البيهقي عن ابن عباس ﴿ قد أحاط الله بها ﴾ أنها ستكون لكم بمنزلة قوله أحاط الله بها علماً أنها لكم .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي الأسود الديلمي أن الزبير بن العوام لما قدم البصرة دخل بيت المال فإذا هو بصفراء وبيضاء فقال : يقول الله ﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها ﴾ فقال : هذا لنا .

وأخرج ابن عساكر عن علي وابن عباس قالا في قوله تعالى : ﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة ﴾ فتوح من لدن خيبر ﴿ تأخذونها ﴾ تلونها وتغنمون ما فيها ﴿ فعجل لكم ﴾ من ذلك خيبر ﴿ وكف أيدي الناس ﴾ قريشاً ﴿ عنكم ﴾ بالصلح يوم الحديبية ﴿ ولتكون آية للمؤمنين ﴾ شاهداً على ما بعدها ودليلاً على إنجازها ﴿ وأخرى لم تقدروا عليها ﴾ على علم وفيها أقسمها بينكم فارس والروم ﴿ قد أحاط الله بها ﴾ قضى الله بها أنها لكم .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ﴿ وأخرى لم تقدروا عليها ﴾ قال : فارس والروم .

وأخرج عبد بن حميد عن عطية ﴿ وأخرى لم تقدروا عليها ﴾ قال : فتح فارس .

وأخرج عبد بن حميد عن جويبر ﴿ وأخرى لم تقدروا عليها ﴾ قال : يزعمون أنها قرى عربية ويزعم آخرون أنها فارس والروم .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ وأخرى لم تقدروا عليها ﴾ قال : بلغنا أنها مكة .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة ﴿ وأخرى لم تقدروا عليها ﴾ قال : يوم حنين .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس ﴿ وأخرى لم تقدروا عليها ﴾ قال : هي خيبر .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ﴾ يعني أهل مكة ، والله أعلم .

(163/714)

وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (24)

أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أنس قال : لما كان يوم الحديبية هبط

على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ثمانون رجلا من أهل مكة في السلاح من قبل جبل التنعيم يريدون غرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا عليهم فأخذوا فعفا عنهم فنزلت هذه الآية وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة قال : بطن مكة الحديبية ذكر لنا أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقال له زنيم أطلع الثنية زمان الحديبية فرماه المشركون فقتلوه فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خيلا فأتوا بأثني عشر فارسا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل لكم عهد أو ذمة ؟ قالوا لا

فأرسلهم فأنزل الله في ذلك وهو الذي كف أيديهم عنكم الآية

وأخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد والبخاري وأبو داود والنسائي وابن جرير وابن المنذر عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم زمن الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه حتى إذا كانوا بذي الحليفة قلد رسول الله صلى الله عليه وسلم الهدي وأشعره وأحرم بالعمرة وبعث بين يديه عينا له من خزاعة يخبره عن قريش وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بغدير الأشطاط

قريبا من عسفان أتاه عينه الخزاعي فقال : إني قد تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي قد جمعوا لك الأحابيش وجمعوا لك جموعا وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت

(164/714)

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أشيروا علي أترون أن نميل إلى ذراري هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم فإن قعدوا قعدوا موثورين محزونين وإن لحوا تكن عنقا قطعها الله أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه ؟ فقال أبو بكر : الله ورسوله أعلم يا رسول اللهن إنما جئنا معتمرين ولم نجيء لقتال أحد ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : فروحوا إذن

فراحوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين

فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هو بقترة الجيش فانطلق يركض نذيرا لقريش

وسار النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته فقال النبي صلى الله عليه وسلم : حل حل فألحت فقالوا : خلأت القصواء

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق ولكن حبسها

حابس الفيل

ثم قال : والذي نفس محمد بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها

ثم زجرها فوثبت فعدل بهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء إنما يتربضه الناس تربضا فلم يلبث الناس أن نزحوه فشكي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العطش فانتزع سهما من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه

قال : فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه

(165/714)

فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة وكانوا عيبة نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل تهامة فقال : إني قد تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا لم نجيء لقتال أحد ولكن جئنا معتمرين وإن قريشا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم فإن شاؤوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد جموا وإن هم أبوا

فوالذي نفسي بيده لأقاتلهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو لينفذن الله أمره

فقال بديل سأبلغهم ما تقول

فانطلق حتى أتى قريشا فقال : إنا قد جئناكم من عند الرجل وسمعناه يقول قولا فإن شئتم نعرضه عليكم فعلنا

فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا في أن تحدثنا عنه بشيء

وقال ذو الرأي منهم هات ما سمعته يقول

قال : سمعته يقول : كذا وكذا فحدثهم بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقام عروة بن مسعود الثقفي فقال : أي قوم ألستم بالولد ؟ قالوا : بلى

قال : ألست بالوالد ؟ قالوا : بلى

قال : فهل تتهموني ؟ قالوا : لا

قال : ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ فلما بلحوا علي جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني ؟ قالوا : بلى

قال : فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني آته

قالوا : ائته ؟

فأتاه فجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم نحوا من قوله لبديل فقال عروة عند ذلك : أي محمد أرأيت إن استأصلت قومك هل سمعت أحدا من

العرب اجتاح أهله قبلك وإن تكن الأخرى فوالله إني لأرى وجوها وأرى أوباشا من الناس خليقا أن يفروا ويدعوك

فقال له أبو بكر : أمصص بظر اللات أنحن نفر عنه وندعه ؟ فقال : من ذا ؟ قال : أبو بكر

قال : أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك

(166/714)

قال : وجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم فكلما كلمه أخذ بلحيته والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي صلى الله عليه وسلم ومعه السيف وعليه المغفر فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي صلى الله عليه وسلم ضرب المغيرة يده بنعل السيف وقال : أخر يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم

فرفع عروة رأسه فقال : من هذا ؟ قالوا : المغيرة بن شعبة

قال : أي غدر ألست أسعى في غدرتك ؟ وكان المغيرة صحب قوما في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أما الإسلام فأقبل وأما المال فلست منه في شيء

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعينيه

قال : فوالله ما تنخم رسول الله صلى الله عليه وسلم نخامة إلا وقعت في كف واحد منهم فدلك بها وجهه وجلده وإذا أمرهم ابتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون إليه النظر تعظيما له

فرجع عروة إلى أصحابه فقال : أي قوم ! والله لقد وفدت على الملوك وفدت على قيصر وكسرى والنجاشي والله إن رأيت ملكا يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا والله إن يتنخم نخامة إلا وقعت في كف واحد منهم فدلك بها وجهه وجلده وإذا أمرهم إبتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون إليه النظر تعظيما له وإنه عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها

فقال رجل من بني كنانة : دعوني آته

فقالوا : ائته ؟

فلما أشرف على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له فبعثت له واستقبله القوم يلبون

فلما رأى ذلك قال : سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت

فلما رجع إلى أصحابه قال : رأيت البدن قد قلدت وأشعرت فما أرى أن يصدوا عن البيت

فقام رجل يقال له مكرز بن حفص فقال : دعوني آته فقالوا : ائته ؟

فلما أشرف عليهم قال النبي صلى الله عليه وسلم : هذا مكرز وهو رجل فاجر

فجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو فقال النبي

صلى الله عليه وسلم : قد سهل لكم من أمركم

فجاء سهيل فقال هات أكتب بيننا وبينك كتابا

فدعا الكاتب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم

قال سهيل : أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو ولكن اكتب " باسمك اللهم "كما كنت تكتب

فقال المسلمون : والله ما نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اكتب " باسمك اللهم "

ثم قال : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله

فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ولكن

اكتب : محمد بن عبد الله

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : والله إني لرسول الله وإن كذبتموني اكتب : هذا ما

قاضى عليه محمد بن عبد الله

قال الزهري وذلك لقوله : لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به

قال سهيل : والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة ؟ ولكن لك من العام المقبل فكتب

فقال سهيل : وعلى أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا

فقال المسلمون : سبحان الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلما ؟ فبينما هم كذلك

إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى

بنفسه بين أظهر المسلمين فقال سهيل : هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترد إلي

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إنا لم نقض الكتاب بعد

قال : فوالله لا أصالحك على شيء أبدا

قال النبي صلى الله عليه وسلم : فأجزه لي

قال : ما أنا بمجيزه

قال : بلى فافعل

قال : ما أنا بفاعل

فقال أبو جندل : أي معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلما ألا ترون ما لقيت

في الله ؟ وكان قد عذب عذابا شديدا في الله

فقال عمر بن الخطاب : والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : ألست نبي الله ؟ قال : بلى

فقلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى

قلت : فلم نعطى الدنية في ديننا إذن ؟ قال : إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري

قلت : أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال : بلى أفأخبرتك أنك تأتيه العام ؟ قلت : لا

قال : فإنك آتيه ومطوف به

فأتيت أبا بكر فقلت يا أبا بكر : أليس هذا نبي الله حقا ؟ قال : بلى

قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى

قلت : فلم نعطي الدنية في ديننا إذن ؟ قال : أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصي ربه وهو ناصره فاستمسك بغرزه تفز حتى تموت فوالله إنه لعلى الحق

قلت : أوليس كان يحدثنا إنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال : بلى أفأخبرك أنك تأتيه العام ؟ قلت : لا

قال : فإنك آتيه ومطوف به

قال عمر : فعملت لذلك أعمالا

فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : قوموا فانحروا ثم احلقوا

فوالله ما قام رجل منهم حتى قال ذلك ثلاث مرات فلما لم يقم منهم أحد قام فدخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس فقالت أم سلمة : يا نبي الله أتحب ذلك ؟ قال : نعم

قالت : فاخرج ثم لا تكلم أحدا منهم حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك

فقام النبي صلى الله عليه وسلم فخرج فلم يكلم أحدا منهم كلمة حتى فعل ذلك : نحر بدنه ودعا بحالقه فحلقه

فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما

ثم جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات الممتحنة 10 حتى بلغ بعصم الكوافر فطلق عمر رضي الله عنه يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان والأخرى صفوان بن أمية

(169/714)

ثم رجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا : العهد الذي جعلته لنا ! فدفعه النبي صلى الله عليه وسلم

إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا به ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيدا

فاستله الآخر وقال : أجل والله إنه لجيد لقد جربت به وجربت

فقال له أبو بصير : أرني أنظر إليه

فأمكنه منه فضربه حتى برد وفر الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآه : لقد رأى هذا ذعرا

فلما انتهى إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : قد قتل والله صاحبي وإني لمقتول فجاء أبو بصير فقال يا نبي الله : قد أوفى الله بذمتك قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ويل أمه ! مسعر حرب لو كان له أحد ! فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم فخرج حتى أتى سيف البحر

قال : وينفلت منهم أبو جندل فلحق بأبي بصير فجعل لا يخرج رجل من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة

قال : فوالله ما يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم

فأرسلت قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم تناشده الله والرحمن لما أرسل إليهم فمن أتاه منهم فهو آمن فأرسل إليهم النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله وهو الذي كف أيديهم

عنكم وأيديكم عنهم حتى بلغ حمية الجاهلية وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبي ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم وحالوا بينه وبين البيت

وأخرج عبد الرزاق عن ابن عباس قال : كاتب الكتاب يوم الحديبية علي بن أبي طالب .

(170/714)

وأخرج أحمد وعبد بن حميد ومسلم والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل " عن سلمة بن الأكوع قال : قدمنا الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن أربع عشرة مائة ، ثم إن المشركين من أهل مكة راسلونا في الصلح فلما اصطلحنا واختلط بعضنا ببعض ، أتيت شجرة فاضطجعت في ظلها فأتاني أربعة من مشركي أهل مكة فجعلوا يقعون في رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمعضتهم ، وتحوّلت إلى شجرة أخرى ، فعلقوا سلاحهم واضطجعوا ، فبينما هم كذلك إذ نادى منادٍ من أسفل الوادي : يا للمهاجرين قتل ابن زنيم ، فاخترطت سيفي فاشتددت على أولئك الأربعة وهم رقود فأخذت سلاحهم وجعلته في يدي ، ثم قلتُ : والذي أكرم وجه محمد لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه ، ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء عمي عامر برجل من العبلات يقال له مكرز من المشركين يقوده حتى وقفنا

بهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبعين من المشركين ، فنظر إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : دعوهم يكون لهم بدء الفجور ومنتهاه ، فعفا عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنزل الله ﴿ وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم ﴾ " .

(171/714)

وأخرج أحمد والنسائي والحاكم وصححه وابن جرير وأبو نعيم في الدلائل وابن مردويه عن عبد الله بن مغفل قال : "كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصل الشجرة التي قال الله في القرآن ، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي بن أبي طالب وسهيل بن عمرو بين يديه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فأخذ سهيل بيده ، قال : ما نعرف الرحمن ولا الرحيم ، أكتب في قضيتنا ما نعرف . قال : أكتب : باسمك اللهم وكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة ، فأمسك سهيل بيده وقال : لقد ظلمناك إن كنت رسوله ، أكتب في قضيتنا ما نعرف ، فقال : أكتب هذا ما صالح محمد بن عبد الله ، فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح ، فثاروا في وجوهنا ، فدعا عليهم رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ الله بأسماعهم . ولفظ الحاكم : بأبصارهم . فقمنا إليهم فأخذناهم فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل جئتم في عهد أحد ، أو هل جعل لكم أحد أماناً فقالوا : لا . فخلى سبيلهم فأنزل الله ﴿ وهو الذي كف أيديهم عنكم ﴾ " .

(172/714)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن أبزى قال : " لما خرج النبي صلى الله عليه وسلم بالهدي ، وانتهى إلى ذي الحليفة قال له عمر : يا نبي الله تدخل على قوم لك حرب بغير سلاح ولا كراع ، فبعث إلى المدينة فلم يدع فيها سلاحاً ولا كراعاً إلا حمله ، فلما دنا من مكة منعوه أن يدخل ، فسار حتى أتى منى ، فنزل بمنى ، فأتاه عيينة بن عكرمة بن أبي جهل قد خرج عليه في خمسمائة ، فقال لخالد بن الوليد : يا خالد هذا ابن عمك قد أتاك في الخيل ، فقال خالد : أنا سيف الله وسيف رسوله ، فيومئذ سمي سيف الله ، يا رسول الله إرمِ بي أين شئت ، فبعثه على خيل فلقيه عكرمة في الشعب ، فهزمه حتى أدخله حيطان مكة ، ثم عاد في الثانية حتى أدخله حيطان مكة ، ثم عاد في الثالثة فهزمه حتى أدخله حيطان مكة ، فأنزل الله ﴿ وهو الذي كف أيديهم عنكم ﴾ الآية "

قال : فكف الله النبي عنهم من بعد أن أظفره عليهم لبقايا من المسلمين كانوا بقوا فيها كراهية أن تطأهم الخيل .

أخرج ابن المنذر عن الضحاك وسعيد بن جبير ﴿ والهدي معكوفاً ﴾ قال : محبوساً .

وأخرج أحمد والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نحروا يوم الحديبية سبعين بدنة ، فلما صدت عن البيت حنت كما تحن إلى أولادها .

وأخرج الطبراني " عن مالك بن ربيعة السلولي رضي الله عنه أنه شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الشجرة ويوم رد الهدي معكوفاً قبل أن يبلغ محله ، وأن رجلاً من المشركين قال يا محمد : ما يحملك على أن تدخل هؤلاء علينا ونحن كارهون ؟ فقال : " هؤلاء خير منك ومن أجدادك يؤمنون بالله واليوم الآخر والذي نفسي بيده لقد رضي الله عنهم " " .

قوله تعالى : ﴿ ولولا رجال مؤمنون ﴾ الآية .

(173/714)

أخرج الحسن بن سفيان وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن قانع والباوردي والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم بسند جيد عن أبي جمعة حنيبذ بن سبيع قال : قاتلت

النبي صلى الله عليه وسلم أول النهار كافراً ، وقاتلت معه آخر النهار مسلماً ، وفينا نزلت ﴿ ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات ﴾ وكنا تسعة نفر سبعة رجال وامرأتين .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم ﴾ قال : حين ردوا النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ أن تطؤهم ﴾ بقتلهم إياهم ﴿ لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً ﴾ يقول لو تزيل الكفار من المؤمنين لعذبهم الله عذاباً أليماً بقتلهم إياهم .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ ولولا رجال مؤمنون ﴾ قال : دفع الله عن المشركين يوم الحديبية بأناس من المؤمنين كانوا بين أظهرهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في الآية قال : هم أناس كانوا بمكة تكلموا بالإِسلام كره الله أن يؤذوا وأن يوطأوا حين رد محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه يوم الحديبية ، فتصيب المسلمين منهم معرة يقول ذنب بغير علم .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد ﴿ فتصيبكم منهم معرة بغير علم ﴾ قال : إثم ﴿ لو تزيلوا ﴾ قال : لو تفرقوا .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً ﴾ قال : هو القتل والسبي .

وأخرج ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً

﴿ قال : إن الله عز وجل يدفع بالمؤمنين عن الكفار .

إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ

(174/714)

أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن جرير والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل " عن سهل بن حنيف أنه قال يوم صفين : اتهموا أنفسكم فلقد رأيتنا يوم الحديبية نرجىء الصلح الذي كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين المشركين ، ولو نرى قتالاً لقاتلنا ، فجاء عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله : ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ قال : بلى . قال : أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ قال : بلى . قال ففيم نعطي الدنية في ديننا ونرجع لما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ فقال يا ابن الخطاب : إني رسول الله ولن يضيعني الله أبداً . فرجع متغيظاً لم يصبر حتى جاء أبا بكر ، فقال يا أبا بكر : ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ قال : بلى . قال : أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ قال : بلى . قال : فلمَ نعطي الدنية في ديننا ؟ قال : يا ابن الخطاب إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبداً . فنزلت سورة الفتح ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه

وسلم إلى عمر رضي الله عنه فأقرأه إياها . قال يا رسول الله : أو فتح هو ؟ قال : نعم " .

وأخرج النسائي والحاكم وصححه من طريق أبي إدريس عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه أنه كان يقرأ [إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ولو حميتم كما حموا لفسد المسجد الحرام فأنزل الله سكينته على رسوله] فبلغ ذلك عمر فاشتد عليه ، فبعث إليه فدخل عليه ، فدعا ناساً من أصحابه فيهم زيد بن ثابت ، فقال : من يقرأ منكم سورة الفتح ؟ فقرأ زيد على قراءتنا اليوم ، فغلظ له عمر فقال أبيّ أأتكلم ؟ قال : تكلم . فقال : لقد علمت أني كنت أدخل على النبي صلى الله عليه وسلم ويقرئني ، وأنت بالباب ، فإن أحببت أن أقرىء الناس على ما أقرأني أقرأت ، وإلا لم أقرىء حرفاً ما حييت . قال : بل أقرىء الناس .

(175/714)

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ حمية الجاهلية ﴾ قال : حميت قريش أن يدخل عليهم محمد صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : لا يدخلها علينا أبداً ، فوضع الله الحمية عن محمد وأصحابه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الأجلح قال : كان حمزة بن عبد المطلب رجلاً حسن الشعر ،

حسن الهيئة ، صاحب صيد ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على أبي جهل فولع به وآذاه ، فرجع حمزة من الصيد وامرأتان تمشيان خلفه ، فقالت إحداهما لو علم ذا ما صنع بابن أخيه أقصر عن مشيته ، فالتفت إليهما ، فقال : وما ذاك ؟ قالت : أبو جهل فعل بمحمد كذا وكذا ، فدخلته الحمية فجاء حتى دخل المسجد وفيه أبو جهل فعلا رأسه بقوسه ، ثم قال : ديني دين محمد إن كنتم صادقين فامنعوني ، فقامت إليه قريش فقالوا يا أبا يعلى ، فأنزل الله ﴿ إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية ﴾ إلى قوله ﴿ وألزمهم كلمة التقوى ﴾ قال : حمزة بن عبد المطلب .

أما قوله تعالى : ﴿ وألزمهم كلمة التقوى ﴾ .

أخرج الترمذي وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند وابن جرير والدارقطني في الأفراد وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبيّ بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وألزمهم كلمة التقوى ﴾ قال : لا إله إلا الله .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ وألزمهم كلمة التقوى ﴾ قال : لا إله إلا الله " .

وأخرج ابن مردويه عن سلمة بن لأكوع " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قول الله ﴿ وألزمهم كلمة التقوى ﴾ قال : لا إله إلا الله " .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم

والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ﴿ وألزمهم كلمة التقوى ﴾ قال : لا إله إلا الله .

وأخرج ابن جرير وأبو الحسين بن مروان في فوائده عن علي رضي الله عنه ﴿ وألزمهم كلمة التقوى ﴾ قالا : لا إله إلا الله والله أكبر .

(176/714)

وأخرج أحمد عن حمران مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : " سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقّاً من قلبه إلا حرمه الله على النار فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنا أحدثكم ما هي كلمة الإِخلاص التي ألزمها الله محمداً وأصحابه وهي كلمة التقوى التي حض عليها نبي الله عمه أبا طالب عند الموت شهادة أن لا إله إلا الله " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وألزمهم كلمة التقوى ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله ، وهي رأس كل تقوى .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي عن

علي الأزدي قال : كنت مع ابن عمر رضي الله عنه بين مكة ومنى فسمع الناس يقولون لا إله إلا الله والله أكبر ، فقال : هي هي ، فقلت : ما هي هي ؟ قال ﴿ وألزمهم كلمة التقوى ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم والدارقطني في الأفراد عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ﴿ وألزمهم كلمة التقوى ﴾ قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

وأخرج ابن جرير من طريق ابن جريج عن مجاهد وعطاء في قوله ﴿ وألزمهم كلمة التقوى ﴾ قال أحدهما : الاخلاص ، وقال الآخر : كلمة التقوى لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد ﴿ وألزمهم كلمة التقوى ﴾ قال : كلمة الاخلاص .

وأخرج ابن جرير عن عمرو بن ميمون ﴿ وألزمهم كلمة التقوى ﴾ قال : لا إله إلا الله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ وألزمهم كلمة التقوى ﴾ قال : لا إله إلا الله .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد والحسن وقتادة وإبراهيم التيمي وسعيد بن جبير مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عطاء الخراساني رضي الله عنه ﴿ وألزمهم كلمة التقوى ﴾ قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الزهري رضي الله عنه ﴿ وألزمهم كلمة التقوى ﴾ قال : بسم الله الرحمن الرحيم .

وأخرج ابن جرير عن قتادة ﴿ وكانوا أحق بها وأهلها ﴾ وكان المسلمون أحق بها ، وكانوا أهلها والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ 521.537 ﴾

(178/714)

قوله تعالى ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (27) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (28) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قرر سبحانه وتعالى علمه بالعواقب لإحاطة علمه ووجه أسباب كفه أيدي الفريقين وبين ما فيه من المصالح وما في التسليط من المفاسد من قتل من حكم بإيمانه من المشركين

وإصابة من لا يعلم من المؤمنين – وغير ذلك إلى ختم بإحاطة علمه المستلزم لشمول قدرته .

أنتج ذلك قوله لمن توقع الإخبار عن الرؤيا التي أقلقهم أمرها وكاد بعضهم أن يزلزله ذكرها على سبيل التأكيد : ﴿ لقد ﴾ .

(179/714)

ولما كان للنظر إلى الرؤيا اعتباران : أحدهما من جهة الواقع وهو غيب عن الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين : والآخر من جهة الإخبار وهو مع الرؤيا شهادة بالنسبة إليه سبحانه وتعالى ، عبر بالصدق والحق فقال تعالى : ﴿ صدق الله ﴾ أي الملك الذي لا كفوء له المحيط بجميع صفات الكمال ﴿ رسوله ﴾ ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي هو أعز الخلائق عنده وهو غني عن الإخبار عما لا يكون أنه يكون ، فكيف إذا كان المخبر رسوله ﴿ الرؤيا ﴾ التي هي من الوحي لأنه سبحانه يرى الواقع ويعلم مطابقتها في أنكم تدخلون المسجد الحرام آمنين يحلق بعض ويقصر آخرون ، متلبساً خبره ورؤيا رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ بالحق ﴾ لأن مضمون الخبر إذا وقع فطبق بين الواقع وبينه ، وكان الواقع يطابقه لا يخرم شيء منه عن شيء منه ، والحاصل أنك إذا نسبتها للواقع طابقته فكان

صدقاً ، وإذا نسبت الواقع إليها طابقها فكانت حقاً .

ولما أقسم لأجل التأكيد لمن كان يتزلزل ، أجابه بقوله مؤكداً بما يفهم القسم أيضاً إشارة إلى عظم الزلزال : ﴿ لتدخلن ﴾ أي بعد هذا دخولاً قد تحتم أمره ﴿ المسجد ﴾ أي الذي يطاف فيه بالكعبة ولا يكون دخوله إلى بدخول الحرم ﴿ الحرام ﴾ أي الذي أجاره الله من امتهان الجبابرة ومنعه من كل ظالم .

ولما كان لا يجب عليه سبحانه وتعالى شيء وإن وعد به ، أشار إلى ذلك بقوله تأديباً لهم أن يقول منهم بعد ذلك : ألم يقل أننا ندخل البيت ونحو ذلك ، ولغيرهم أن يقول : نحن ندخل : ﴿ إن شاء الله ﴾ أي الذي له الإحاطة بصفات الكمال ، حال كونكم ﴿ آمنين ﴾ لا تخشون إلا الله منقسمين بحسب التحليق والتقصير إلى قسمين ﴿ محلقين رءوسكم ﴾ ولعله أشار بصيغة التفعيل إلى أن فاعل الحق كثير ، وكذا ﴿ ومقصرين ﴾ غير أن التقديم يفهم أن الأول أكثر .

ولما كان الدخول حال الأمن لا يستلزم الأمن بعده قال تعالى : ﴿ لا تخافون ﴾ أي لا يتجدد لكم خوف بعد ذلك إلى أن تدخلوا عليهم عام الفتح قاهرين لهم بالنصر .

(180/714)

ولما كان من المعلوم أن سبب هذا الإخبار إحاطة العلم ، فكان التقدير ، هذا أمر حق يوثق غاية الوثوق لأنه إخبار عالم الغيب والشهادة ، صدق سبحانه فيه ، وما ردكم عنه هذه الكرة على هذا الوجه إلا لأمور دبرها وشؤون أحكمها وقدرها ، قال عاطفاً على ﴿ صدق ﴾ مسبباً عنه أو معللاً : ﴿ فعلم ﴾ أي بسبب ، أو لأنه علم من أسباب الفتح وموانعه وبنائه على الحكمة ﴿ ما لم تعلموا ﴾ أي أيها الأولياء ﴿ فجعل ﴾ أي بسب إحاطة علمه ﴿ من دون ﴾ أي أدنى رتبة من ﴿ ذلك ﴾ أي الدخول العظيم في هذا العام ﴿ فتحاً قريباً ﴾ يقويكم به من فتح خيبر ووضع الحرب بين العرب بهذا الصلح ، واختلاط بعض الناس بسبب ذلك ببعض ، الموجب لإسلام بشر كثير تتقوون بهم ، فتكون تلك الكثرة والقوة سبب هيبة الكفار المانعة لهم من القتال ، فتقل القتلى رفقاً بأهل حرم الله تعالى إكراماً لهذا النبي الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن إغارة وإصابة من عنده من المسلمين المستضعفين من غير علم .

(181/714)

ولما أخبر بهذه الأمور الجليلة الدقيقة المبنية على إحاطة العلم ، عللها سبحانه وبين الصدق فيها بقوله تعالى : ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ الذي أرسل رسوله ﴾ أي الذي لا

رسول أحق منه بإضافته إليه - ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ بالهدى ﴾ الكامل الذي يقتضي أن يستقيم به أكثر الناس ، ولو أنه أخبر بشيء يكون فيه أدنى مقال لم يكن الإرسال بالهدى ﴿ ودين الحق ﴾ أي الأمر الثابت الكامل في الثبات الذي يطابقه الواقع ﴿ ليظهره ﴾ أي دينه ﴿ على الدين كله ﴾ دين أهل مكة والعرب عباد الأصنام ، الذي يقتضي إظهاره عليه دخوله إليه آمناً ، وإظهاره على من سواهم من أهل الأديان الباطلة بأيدي صحابته الأبرار والتابعين لهم بإحسان إظهاراً يتكامل بنزول عيسى عليه الصلاة والسلام مع الرفق بالخلق والرحمة لهم ، فلا يقتل إلا من لا صلاح له أصلاً ، وعلى قدر الجبروت يحصل القهر ، فلأجل ذلك هو يدبر أمره بمثل هذه الأمور التي توجب نصره وتعلي قدره مع الرفق بقومه وجميل الصنع لأتباعه ، فلا بد أن تروا من فتوح أكثر البلاد وقهر الملوك الشداد ما تعرفون به قدرة الله سبحانه وتعالى .

ولما كان في سياق إحاطة العلم ، وكان التقدير : شهد ربه سبحانه بتصديقه في كل ما قاله بإظهار المعجزات على يده ، بنى عليه قوله تعالى ﴿ وكفى بالله ﴾ أي الذي له الإحاطة بجميع صفات الكمال ﴿ شهيداً ﴾ أي ذا رؤية وخبرة بطية كل شيء ودخلته لما له الغنى في أمره ، ولا شهيد في الحقيقة إلا هو سبحانه لأنه لا إحاطة وخبرة ورقبة إلا له سبحانه ، وهو يشهد بكل ما أخبر به رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في هذه الصورة خصوصاً وفي غيرها عموماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 212 . 214 ﴾

(182/714)

فصل

قال الفخر :

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ﴾

(183/714)

بيان لفساد ما قاله المنافقون بعد إنزال الله السكينة على رسوله وعلى المؤمنين ووقوفهم عند ما أمروا به من عدم الإقبال على القتال وذلك قولهم ما دخلنا المسجد الحرام ولا حلقنا ولا قصرنا حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم رأى في منامه أن المؤمنين يدخلون مكة ويتمون الحج ولم يعين له وقتاً فقص رؤياه على المؤمنين ، فقطعوا بأن الأمر كما رأى النبي صلى الله عليه وسلم في منامه وظنوا أن الدخول يكون عام الحديبية ، والله اعلم أنه لا يكون إلا عام الفتح فلما صالحوا ورجعوا قال المنافقون استهزاء ما دخلنا ولا حلقنا فقال تعالى : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ الله رَسُولَهُ الرؤيا بالحق ﴾ وتعدية صدق إلى مفعولين يحتمل أن يكون

بنفسه ، وكونه من الأفعال التي تتعدى إلى المفعولين ككلمة جعل وخلق ، ويحتمل أن يقال عدى إلى الرؤيا بحرف تقديره صدق الله رسوله في الرؤيا ، وعلى الأول معناه جعلها واقعة بين صدق وعده إذ وقع الموعود به وأتى به ، وعلى الثاني معناه ما أراه الله لم يكذب فيه ، وعلى هذا فيحتمل أن يكون رأى في منامه أن الله تعالى يقول ستدخلون المسجد الحرام فيكون قوله ﴿ صَدَقَ ﴾ ظاهراً لأن استعمال الصدق في الكلام ظاهر ، ويحتمل أن يكون عليه الصلاة والسلام رأى أنه يدخل المسجد فيكون قوله ﴿ صَدَقَ الله ﴾ معناه أنه أتى بما يحقق المنام ويدل على كونه صادقاً يقال صدقني سن بكره مثلاً وفيما إذا حقق الأمر الذي يريه من نفسه ، مأخوذ من الإبل إذا قيل له هدع سكن فحقق كونه من صغار الإبل ، فإن هدع كلمة يسكن بها صغار الإبل وقوله تعالى : ﴿ بالحق ﴾ قال الزمخشري هو حال أو قسم أو صفة صدق ، وعلى كونه حال تقديره صدقه الرؤيا ملتبسة بالحق وعلى تقدير كونه صفة تقديره صدقه صدقاً ملتبساً بالحق وعلى تقدير كونه قسماً ، إما أن يكون قسماً بالله فإن الحق من أسمائه ، وإما أن يكون قسماً بالحق الذي هو نقيض الباطل هذا ما قاله ، ويحتمل أن يقال (إن) فيه وجهين آخرين :

أحدهما : أن يقال فيه تقديم تأخير تقديره : صدق الله رسوله بالحق الرؤيا ، أي الرسول الذي هو رسول بالحق وفيه إشارة إلى امتناع الكذب في الرؤيا لأنه لما كان رسولاً بالحق فلا يرى في منامه الباطل والثاني : أن يقال بأن قوله ﴿ لَتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام ﴾ إن قلنا بأن الحق قسم فأمر اللام ظاهر ، وإن لم يقل به فتقديره : لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، والله لتدخلن ، وقوله : والله لتدخلن ، جاز أن يكون تفسيراً للرؤيا يعني الرؤيا هي : والله لتدخلن ، وعلى هذا تبين أن قوله ﴿ صَدَقَ الله ﴾ كان في الكلام لأن الرؤيا كانت كلاماً ، ويحتمل أن يكون تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ صَدَقَ الله رَسُولَهُ ﴾ يعني والله ليقعن الدخول وليظهرن الصدق فلتدخلن ابتداء كلام وقوله تعالى : ﴿ إِن شَاءَ الله ﴾ فيه وجوه أحدها : أنه ذكره تعليماً للعباد الأدب وتأكيداً لقوله تعالى :

﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذلك غَداً * إِلاَّ أَن يَشَاء الله ﴾ [الكهف : 23 ، 24]

الثاني : هو أن الدخول لما لم يقع عام الحديبية ، وكان المؤمنون يريدون الدخول ويأبون الصلح قال : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ﴾ ولكن لا بجلادتكم ولا بإرادتكم ، إنما تدخلون بمشيئة الله تعالى

الثالث : هو أن الله تعالى لما قال في الوحي المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ﴾ ذكر أنه بمشيئة الله تعالى ، لأن ذلك من الله وعد ليس عليه دين ، ولا حق واجب ، ومن وعد بشيء لا يحققه إلا بمشيئة الله تعالى وإلا فلا يلزمه به أحد ، وإذا كان هذا حال الموعود به في الوحي المنزّل صريحاً في اليقظة فما ظنكم بالوحي بالمنام وهو

يحتمل التأويل أكثر مما يحتمله الكلام ، فإذا تأخر الدخول لم يستهزئون ؟ الرابع : هو أن ذلك تحقيقاً للدخول وذلك لأن أهل مكة قالوا لا تدخلوها إلا بإرادتنا ولا نريد دخولكم في هذه السنة ، ونختار دخولكم في السنة القابلة ، والمؤمنون أرادوا الدخول في عامهم ولم يقع .

(185/714)

فكان لقائل أن يقول بقي الأمر موقوفاً على مشيئة أهل مكة إن أرادوا في السنة الآتية يتركوننا ندخلها وإن كرهوا لا ندخلها فقال لا تشترط إرادتهم ومشيئتهم ، بل تمام الشرط بمشيئة الله ، وقوله ﴿ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تخافون ﴾ إشارة إلى أنكم تتمون الحج من أوله إلى آخره ، فقوله ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ﴾ إشارة إلى الأول وقوله ﴿ مُحَلِّقِينَ ﴾ إشارة إلى الآخر ، وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

﴿ مُحَلِّقِينَ ﴾ حال الداخلين والداخل لا يكون الآن محرماً ، والمحرم لا يكون محلقاً ، فقوله ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ ينبىء عن الدوام فيه إلى الحلق فكأنه قال : تدخلونها آمنين متمكنين من أن تتموا الحج محلقين .

المسألة الثانية :

قوله تعالى : ﴿ لاَ تخافون ﴾ أيضاً حال معناه غير خائفين ، وذلك حصل بقوله تعالى : ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ فما الفائدة في إعادتها ؟ نقول : فيه بيان كمال الأمن ، وذلك لأن بعد الحلق يخرج الإنسان عن الإحرام فلا يحرم عليه القتال ، وكان عند أهل مكة يحرم قتال من أحرم ومن دخل الحرم فقال : تدخلون آمنين ، وتحلقون ، ويبقى أمنكم بعد خروجكم عن الإحرام ، وقوله تعالى : ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ ﴾ أي من المصلحة وكون دخولكم في سنتكم سبباً لوطء المؤمنين والمؤمنات أو ﴿ فَعَلِمَ ﴾ للتعقيب ، ﴿ فَعَلِمَ ﴾ وقع عقيب ماذا ؟ نقول إن قلنا المراد من ﴿ فَعَلِمَ ﴾ وقت الدخول فهو عقيب صدق ، وإن قلنا المراد ﴿ فَعَلِمَ ﴾ المصلحة فالمعنى علم الوقوع والشهادة لا علم الغيب ، والتقدير يعني حصلت المصلحة في العام القابل ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ ﴾ من المصلحة المتجددة ﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ إما صلح الحديبية ، وإما فتح خيبر ، وقد ذكرناه وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ الله بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ يدفع وهم حدوث علمه من قوله ﴿ فَعَلِمَ ﴾ وذلك لأن قوله ﴿ وَكَانَ الله بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ يفيد سبق علمه العام لكل علم محدث .

(186/714)

ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهدى وَدِينِ الحق لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ وكفى بالله شَهِيداً ﴾ .

(187/714)

تأكيداً لبيان صدق الله في رسوله الرؤيا ، وذلك لأنه لما كان مرسلاً لرسوله ليهدي ، لا يريد ما لا يكون مهدياً للناس فيظهر خلافه ، فيقع ذلك سبباً للضلال ، ويحتمل وجوهاً أقوى من ذلك ، وهو أن الرؤيا بحيث توافق الواقع تقع لغير الرسل ، لكن رؤية الأشياء قبل وقوعها في اليقظة لا تقع لكل أحد فقال تعالى : ﴿ هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهدى ﴾ وحكى له ما سيكون في اليقظة ، ولا يبعد من أن يريه في المنام ما يقع فلا استبعاد في صدق رؤياه ، وفيها أيضاً بيان وقوع الفتح ودخول مكة بقوله تعالى : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ ﴾ أي من يقويه على الأديان لا يستبعد منه فتح مكة له و (الهدى) يحتمل أن يكون هو القرآن كما قال تعالى : ﴿ أُنزِلَ فِيهِ القرآن هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [البقرة : 185] وعلى هذا ﴿ دِينَ الحق ﴾ هو ما فيه من الأصول والفروع ، ويحتمل أن يكون الهدى هو المعجزة أي أرسله بالحق أي مع الحق إشارة إلى ما شرع ، ويحتمل أن يكون الهدى هو الأصول و ﴿ دِينَ الحق ﴾ هو الأحكام ، وذلك لأن من الرسل من لم يكن له أحكام بل بين الأصول فحسب ، والألف

واللام في الهدى يحتمل أن تكون للاستغراق أي كل ما هو هدى ، ويحتمل أن تكون للعهد وهو قوله تعالى : ﴿ ذلك هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاء ﴾ [الزمر : 23] وهو إما القرآن لقوله تعالى : ﴿ كتابا متشابها مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ ﴾ [الزمر : 23] إلى أن قال : ﴿ ذلك هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاء ﴾ [الزمر : 23] وإما ما اتفق عليه الرسل لقوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ الذين هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ [الأنعام : 90] والكل من باب واحد لأن ما في القرآن موافق لما اتفق عليه الأنبياء وقوله تعالى : ﴿ وَدِينِ الحق ﴾ يحتمل وجوهاً : أحدها : أن يكون الحق اسم الله تعالى فيكون كأنه قال : بالهدى ودين الله ، وثانيها : أن يكون الحق نقيض الباطل فيكون كأنه قال : ودين الأمر الحق وثالثها : أن يكون

المراد به الانقياد إلى الحق والتزامه ﴿ لِيُظْهِرَهُ ﴾ أي أرسله بالهدى وهو المعجز على أحد الوجوه ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ ﴾ أي جنس الدين ، فينسخ الأديان دون دينه ، وأكثر المفسرين على أن الهاء في قوله ﴿ لِيُظْهِرَهُ ﴾ راجعة إلى الرسول ، والأظهر أنه راجع إلى دين الحق أي أرسل الرسول بالدين الحق ليظهره أي ليظهر الدين الحق على الأديان ، وعلى هذا فيحتمل أن يكون الفاعل للاظهار هو الله ، ويحتمل أن يكون هو النبي أي ليظهر النبي دين

الحق ، وقوله تعالى : ﴿ وكفى بالله شَهِيداً ﴾ أي في أنه رسول الله وهذا مما يسلي قلب المؤمنين فإنهم تأذوا من رد الكفار عليهم العهد المكتوب ، وقالوا لا نعلم أنه رسول الله فلا تكتبوا محمد رسول الله بل اكتبوا محمد بن عبد الله ، فقال تعالى : ﴿ وكفى بالله شَهِيداً ﴾ في أنه رسول الله ، وفيه معنى لطيف وهو أن قول الله مع أنه كاف في كل شيء ، لكنه في الرسالة أظهر كفاية ، لأن الرسول لا يكون إلا بقول المرسل ، فإذا قال ملك هذا رسولي ، لو أنكر كل من في الدنيا أنه رسول فلا يفيد إنكارهم فقال تعالى أي خلل في رسالته بإنكارهم مع تصديقي إياه بأنه رسولي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 90. 93 ﴾

(189/714)

وقال القرطبى :

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ﴾

قال قتادة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في المنام أنه يدخل مكة على هذه الصفة ؛ فلما صالح قريشاً بالحُدَيْبِيَة ارتاب المنافقون حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه يدخل مكة ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرؤيا بالحق ﴾

فأعلمهم أنهم سيدخلون في غير ذلك العام ، وأن رؤياه صلى الله عليه وسلم حق .

وقيل : إن أبا بكر هو الذي قال إن المنام لم يكن مؤقتاً بوقت ، وأنه سيدخل .

وروي أن الرؤيا كانت بالحديبية ، وأنّ رؤيا الأنبياء حق .

والرؤيا أحد وجوه الوحي إلى الأنبياء .

﴿ لَتَدْخُلُنَّ ﴾ أي في العام القابل ﴿ المسجد الحرام إِن شَآءَ الله ﴾ قال ابن كيسان : إنه حكاية ما قيل للنبي صلى الله عليه وسلم في منامه ؛ خوطب في منامه بما جرت به العادة ؛ فأخبر الله عن رسوله أنه قال ذلك ولهذا استثنى ؛ تأدّب بأدب الله تعالى حيث قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذلك غَداً إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله ﴾ [الكهف : 23] .

وقيل : خاطب الله العباد بما يجب أن يقولوه ، كما قال : "وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ" .

وقيل : استثنى فيما يعلم ليستثني الخلق فيما لا يعلمون ، قاله ثعلب .

وقيل : كان الله علم أنه يميت بعض هؤلاء الذين كانوا معه بالحديبية فوقع الاستثناء لهذا المعنى ، قاله الحسين بن الفضل .

وقيل : الاستثناء من "آمِنِينَ" ، وذلك راجع إلى مخاطبة العباد على ما جرت به العادة .

وقيل : معنى "إِنْ شَاءَ اللَّهُ" إن أمركم الله بالدخول .

وقيل : أي إن سهل الله .

وقيل : "إِنْ شَاءَ اللَّهُ" أي كما شَاء الله .

(190/714)

وقال أبو عبيدة : "إِنْ" بمعنى "إذ" أي إذ شاء الله ، كقوله تعالى : ﴿ اتقوا الله وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الربا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : 278] أي إذ كنتم .

وفيه بعد ، لأن "إذ" في الماضي من الفعل ، و "إذا" في المستقبل ، وهذا الدخول في المستقبل ، فوعدهم دخول المسجد الحرام وعلّقه بشرط المشيئة ، وذلك عام الحديبية ؛ فأخبر أصحابه بذلك فاستبشروا ؛ ثم تأخر ذلك عن العام الذي طمعوا فيه فساءهم ذلك واشتدّ عليهم وصالحهم ورجع ؛ ثم أذن الله في العام المقبل فأنزل الله : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ الله رَسُولَهُ الرؤيا بالحق ﴾ .

وإنما قيل له في المنام : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام إِن شَآءَ الله ﴾ فحكى في التنزيل ما قيل له في المنام ؛ فليس هنا شك كما زعم بعضهم أن الاستثناء يدل على الشك ، والله تعالى لا يشك ، و "لَتَدْخُلُنَّ" تحقيق فكيف يكون شك .

ف "إن" بمعنى "إذا" .

﴿ آمِنِينَ ﴾ أي من العدوّ .

﴿ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ والتحليق والتقصير جميعاً للرجال ، ولذلك غلب المذكر على المؤنث .

والحلق أفضل ، وليس للنساء إلا التقصير .

وقد مضى القول في هذا في "البقرة" .

وفي الصحيح أن معاوية أخذ من شعر النبي صلى الله عليه وسلم على المَرْوَة بمِشْقَص .

وهذا كان في العمرة لا في الحج ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم حلق في حجته .

﴿ لاَ تَخَافُونَ ﴾ حال من المحلقين والمقصّرين ، والتقدير : غير خائفين .

﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ ﴾ أي علم ما في تأخير الدخول من الخير والصلاح ما لم تعلموه أنتم .

وذلك أنه عليه السلام لما رجع مضى منها إلى خَيْبر فافتتحها ، ورجع بأموال خيبر وأخذ من العدة والقوة أضعاف ما كان فيه في ذلك العام ، وأقبل إلى مكة على أهبة وقوّة وعُدَّة بأضعاف ذلك .

وقال الكلبي : أي علم أن دخولها إلى سنة ولم تعلموه أنتم .

وقيل : علم أن بمكة رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموهم .

﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ أي من دون رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم فتح خيبر ؛ قاله ابن زيد والضحاك .

وقيل فتح مكة .

وقال مجاهد : هو صلح الحديبية ؛ وقاله أكثر المفسرين .

قال الزهري : ما فتح الله في الإسلام كان أعظم من صلح الحديبية ؛ لأنه إنما كان القتال حين تلتقي الناس ، فلما كانت الهدنة وضعت الحرب أوزارها وأمن الناس بعضهم بعضاً ؛ فالتقوا وتفاوضوا الحديث والمناظرة .

فلم يُكَلَّم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه ، فلقد دخل في تينك السنتين في الإسلام مثلُ ما كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر .

يدلّك على ذلك أنهم كانوا سنة ستٍّ يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة ، وكانوا بعد عام الحديبية سنة ثمان في عشرة آلاف .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ ﴾

يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ بالهدى وَدِينِ الحق لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ ﴾ أي يُعْليه على كل الأديان .

فالدين اسم بمعنى المصدر ، ويستوي لفظ الواحد والجمع فيه .

وقيل : أي ليظهر رسوله على الدين كله ؛ أي على الدين الذي هو شَرْعه بالحجة ثم باليد والسيف ؛ ونسخ ما عداه .

﴿ وكفى بالله شَهِيداً ﴾ "شَهِيداً" نصب على التفسير ، والباء زائدة ؛ أي كفى الله شهيداً لنبيّه صلى الله عليه وسلم ؛ وشهادته له تبيّن صحة نبوّته بالمعجزات .

وقيل : "شَهِيداً" على ما أرسل به ؛ لأن الكفار أَبَوْا أن يكتبوا : "هذا ما صالح عليه محمد رسول الله" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(192/714)

وقال الثعالبى :

وقوله سبحانه : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرؤيا بالحق . . . ﴾ الآية : « رُوِيَ فِي تفسيرها أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى في مَنَامِهِ عِنْدَ خُرُوجِهِ إِلَى الْعُمْرَةِ أَنَّهُ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ ، بَعْضُهُمْ مُحَلِّقُونَ ، وَبَعْضُهُمْ مُقَصِّرُونَ » وقال مجاهد : رأى ذلك بالحديبية فأخبر الناسَ بهذه الرؤيا ، فَوَثِقَ الجميعُ بأَنَّ ذلك يكون في وجهتهم تلك ، وقد كان سَبَقَ في علم اللَّه أَنَّ ذلك يكون ، لكن ليس في تلك الوجهة ، فَلَمَّا صَدَّهُمْ أهلُ مَكَّةَ قال المنافقون : وأين الرؤيا ؟ ووقع في نفوس بعض المسلمين شيء من ذلك ، فأجابهم النبي صلى

الله عليه وسلم بأَنْ قَالَ : « وَهَلْ قُلْتُ لَكُمْ : يَكُونُ ذَلِكَ فِي عَامِنَا هَذَا » ، أَوْ كَمَا قَالَ ، ونطق أبو بكر قبل ذلك بنحوه ، ثم أنزل اللَّه عز وجل : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرؤيا بالحق . . . ﴾ الآية ، واللام في : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ﴾ لامُ القَسَمِ .

وقوله : ﴿ إِن شَاءَ اللهُ ﴾ اخْتُلِفَ في هذا الاستثناء ، فقال بعض العلماء : إنَّما استثنى من حيثُ إنَّ كل واحد من الناس متى رَدَّ هذا الوعد إلى نفسه ، أمكن أَنْ يتمّ الوعد فيه وأَلاَّ يتمّ ؛ إذ قد يموت الإنسان أو يمرض لحينه ، فلِذلك استثنى عز وجل في الجملة ؛ إذ فيهم ولاَ بُدَّ مَنْ يموتُ أو يمرض .

* ت * : وقد وقع ذلك حسبما ذكر في السِّيَرِ ، وقال آخرون : هو أخذ من اللَّه تعالى [على عباده] بأدبه في استعمال الاستثناء في كل فعل .

* ت * : قال ثعلب : استثنى اللَّه تعالى فيما يعلم ؛ ليستثنيَ الخَلْقُ فيما لا يعلمون ، وقيل غير هذا ، ولما نزلت هذه الآية عَلِمَ المسلمون أَنَّ تلك الرؤيا ستخرج فيما يستأنفونه من الزمان ، فكان كذلك ، فخرج صلى الله عليه وسلم في العام المُقْبِلِ واعتمر .

(193/714)

وقوله سبحانه : ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ ﴾ يريد ما قَدَّرَهُ من ظهور الإسلام في تلك المدة ودخول الناس فيه .

وقوله : ﴿ مِن دُونِ ذَلِكَ ﴾ أي : من قبل ذلك ، وفيما يدنو إليكم ، واختلف في الفتح القريب ، فقال كثير من العلماء : هو بيعة الرضوان وصُلْحُ الحديبية ، وقال ابن زيد : هو فتح خيبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 4 صـ ﴾

(194/714)

وقال الآلوسى :

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرءيا ﴾

رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام قبل خروجه إلى الحديبية ، وأخرج ابن المنذر .

وغيره عن مجاهد أنه عليه الصلاة والسلام رأي وهو في الحديبية والأول أصح أنه هو وأصحابه دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا فقص الرؤيا على أصحابه ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم وقالوا : إن رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم حق فلما تأخر ذلك قال على طريق الاعتراض عبد الله بن أبي .

وعبد الله بن نفيل .

ورفاعة بن الحرث : والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام فنزلت .

وقد روي عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه قال نحوه على طريق الاستكشاف ليزداد يقينه ، وفي رواية أن رؤياه صلى الله عليه وسلم أنما كانت إن ملكاً جاءه فقال له : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ﴾ الخ ، والمعنى لقد صدقه سبحانه في رؤياه على أنه من باب الحذف والإيصال كما في قولهم : صدقني سن بكره ، وتحقيقه أنه تعالى أراه الرؤيا الصادقة .

وقال الراغب : الصدق يكون بالقول ويكون بالفعل وما في الآية صدق بالفعل وهو التحقيق أي حقق سبحانه رؤيته .

وفي شرح الكرماني كذب يعتدي إلى مفعولين يقال : كذبني الحديث وكذا صدق كما في الآية ، وهو غريب لتعدي المثقل لواحد والمخفف لمفعولين انتهى .

وفي "البحر" صدق يتعدى إلى اثنين الثاني منهما بنفسه وبحرف الجر تقول صدق يتعدى إلى اثنين الثاني منهما بنفسه وبحرف الجر تقول صدقت زيداً الحديث وصدقته في الحديث ، وقد عدها بعضهم في أخوات استغفر .

(195/714)

وأمر والمشهور ما أشرنا إليه أولاً ﴿ بالحق ﴾ صفة لمصدر محذوف أي صدقاً ملتبساً بالحق أي بالفرض الصحيح والحكمة البالغة وهو ظهور حال المتزلزل في الإيمان والراسخ فيه ، ولأجل ذلك أخر وقوع الرؤيا إلى العام القابل أو حال من الرؤيا أي ملتبسة بالحق ليست من قبيل أضغاث الأحلام ، وجوز كونه حالاً من الاسم الجليل وكونه حالاً من ﴿ رَسُولِهِ ﴾ وكونه ظرفاً لغواً لصدق وكونه قسماً بالحق الذي هو من أسمائه عز وجل أو بنقيض الباطل ، وقوله تعالى : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام ﴾ عليه جواب القسم والوقف على ﴿ الرءيا ﴾ وهو على جميع ما تقدم جواب قسم مقدر والوقف على ﴿ الحق ﴾ أي والله لتدخلن الخ ، وقوله سبحانه : ﴿ إِن شَاء الله ﴾ تعليق للعدة بالمشيئة لتعليم العباد ، وبه ينحل ما يقال : إنه تعالى خالق للأشياء كلها وعالم بها قبل وقوعها فكيف وقع التعليق منه سبحانه بالمشيئة ، وفي معنى ما ذكر قول ثعلب : استثنى سبحانه وتعالى فيما يعلم ليستثني الخلق فيما لا يعلمون .

وفيه تعريض بأن وقوع الدخول من مشيئته تعالى لا من جلادتهم وتدبيرهم ، وذكر الخفاجي أنه قد وضع فيه الظاهر موضع الضمير وأصله لتدخلنه لا محالة إلا إن شاء عدم الدخول فهو وعد لهم عدل به عن ظاهره لأجل التعريض بهم والإنكار على المعترضين على الرؤيا فيكون من باب الكناية انتهى .

وقد أجيب عن السؤال بغير ذلك فقيل : الشك راجع إلى المخاطبين ، وفيه شيء ستعلمه

قريباً إن شاء الله تعالى ؛ وقال الحسين بن الفضل : إن التعليق راجع إلى دخولهم جميعاً وحكى ذلك عن الجبائي ، وقيل : إنه ناظر إلى الأمن فهو مقدم من تأخير أي لتدخلنه حال كونكم ﴿ ءامِنِينَ ﴾ من العدو إن شاء الله .

(196/714)

وردهما في "الكشف" فقال : أما جعله قيد دخولهم بالأسر أو الأمن ففيه أن السؤال بعد باق لأن الدخول المخصوص أيضاً خبر من الله تعالى وهو يناف بالشك ، وليس نظير قول يوسف عليه السلام : ﴿ ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾ [يوسف : 99] إذ لا يبعد أن لا يعرف عليه السلام مستقر الأمر من الأمن أو الخوف فأما أن يؤول بأن الشك راجع إلى المخاطبين أو بأنه تعليم ، والثاني أولى لأن تغليب الشاكين لا يناسب هذا المساق بل الأمر بالعكس .

ودفع وروده على الحسين بأن المراد أنه في معنى ليدخلنه من شاء الله دخوله منكم فكيون كناية عن أن منهم من لا يدخله لأن أجله يمنعه منه فلا يلزم الرجوع لما ذكر .

وقيل : هو حكاية لما قاله ملك الرؤيا له صلى الله عليه وسلم وإليه ذهب ابن كيسان أو لما قاله هو عليه الصلاة والسلام لأصحابه .

ورد "صاحب التقريب" بأنه كيف يدخل في كلامه تعالى ما ليس منه بدون حكاية .

ودفع بأن المراد أن جواب القسم بيان للرؤيا وقائلها في المنام الملك وفي اليقظة الرسول صلى الله عليه وسلم فهي في حكم المحكي في دقيق النظر كأنه قيل : وهي قول الملك أو الرسول لتدخلن الخ ، وأنت تعلم أن هذا وإن صحح النظم الكريم لا يدفع البعد ، وقد اعترض به على ذلك "صاحب الكشف" لكنه ادعى إن كونه حكاية ما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام أقل بعداً من جعله من قول الملك ، وقال أبو عبيدة .

(197/714)

وقوم من النحاة : ﴿ إن ﴾ بمعنى إذ وجعلوا من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : 139] وقوله صلى الله عليه وسلم في زيادة القبور : " أنتم السابقون وأنا إن شاء الله بكم لاحقون " والبصريون لا يرتضون ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ حال كآمنين من الواو المحذوفة لالتقاء الساكنين من قوله تعالى : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ﴾ إلا أن آمنين حال مقارنة وهذا حال مقدرة لأن الدخول في حال الإحرام لا في حال الحلق والتقصير ، وجوز أن يكون حالاً من ضمير ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ والمراد محلقاً بعضكم رأس بعض ومقصراً آخرون ففي الكلام تقدير أو فيه نسبة ما للجزء إلى الكل

، والقرينة عليه أنه لا يجتمع الحلق وهو معروف والتقصير وهو أخذ بعض الشعر فلا بد من نسبة كل منهما لبعض منهم ، وقوله تعالى : ﴿ لاَ تخافون ﴾ حال من فاعل ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ﴾ أيضاً لبيان الأمن بعد تمام الحج و ﴿ ءامِنِينَ ﴾ فيما تقدم لبيان الأمن وقت الدخول فلا تكرار أو حال من الضمير المستتر في ﴿ ءامِنِينَ ﴾ فإن أريد به معنى آمنين كان حالاً مؤكدة ، وإن أريد لا تخافون تبعة في إلحاق أو التقصير ولا نقص ثواب فهو حال مؤسسة ، ولا يخفى الحال إذا جعل حالاً من الضمير في ﴿ مُحَلِّقِينَ ﴾ أو ﴿ مقصرين ﴾ ، وجوز أن يكون استئنافاً بيانياً في جواب سؤال مقدر كأنه قيل : فكيف الحال بعد الدخول ؟ فقيل : لا تخافون أي بعد الدخول .

واستدل بالآية على أن الحلق غير متعين في النسك بل يجزىء عنه التقصير ، وظاهر تقديمه عليه أنه أفضل منه وهو الذي دلت عليه الأخبار في غير النساء .

أخرج الشيخان .

وأحمد .

وابن ماجه عن أبي هريرة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم اغفر للمحلقين قالوا : يا رسول الله والمقصرين قال : اللهم اغفر للمحلقين ثلاثاً قالوا : يا رسول الله والمقصرين قال : والمقصرين " وأما في النساء فقد أخرج أبو داود .

والبيهقي في "سننه" عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليس على النساء حلق وإنما على النساء التقصير " والسنة في الحاق أن يبدأ بالجانب الأيمن ، فقد أخرج ابن أبي شيبة عن أنس أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم قال للحلاق هكذا وأشار بيده إلى جانب الأيمن وإن يبلغ به إلى العظمين كما قال عطاء .

وأخرج ابن أبي شيبة أيضاً عن ابن عباس .

وابن عمر رضي الله تعالى عنهم أنهما كانا يقولان للحلاق أبدأ بالأيمن وأبلغ بالحلق العظمين ، واستدل بالآية أيضاً على أن التقصير بالرأس دون اللحية وسائر شعر البدن إذ الظاهر أن المراد ومقصرين رؤسكم أي شعرها لظهور أن الرؤس أنفسها لا تقصر ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ ﴾ الظاهر عطفه على ﴿ عَلِيماً لَّقَدْ صَدَقَ ﴾ فالترتيب باعتبار التعلق الفعلي بالمعلوم أي فعلم عقيب ما أراه الرؤيا الصادقة ما لم تعلموا من الحكمة الداعية لتقديم ما يشهد للصدق علماً فعلياً ، وقيل : الفاء للتركيب الذكري ﴿ فَجَعَلَ ﴾ لأجل هذا العلم ﴿ مِن دُونِ ذَلِكَ ﴾ أي من دون تحقق مصداق ما أراه من دخول المسجد الحرام آمنين الخ ، وقيل : أي من دون فتح مكة ، والأول أظهر ، وهذا أنسب بقوله تعالى : ﴿ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ وهو فتح خيبر كما قال ابن زيد .

وغيره ، والمراد بجعله وعده تعالى وإنجازه من غير تسويف ليستدل به على صدق الرؤيا

وتستروح قلوب المؤمنين إلى تيسر وقوعها .

وقال في "الكشاف" : ﴿ مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ ﴾ أي من الحكمة في تأخير فتح مكة إلى العام القابل ، وفيه أمران .

الأول : أن فتح مكة لم يقع في العام الذي قاله بل في السنة الثامنة ، والتجوز في العام القابل أو تأويل الفتح بدخول المؤمنين مكة معتمرين لا يخفى حاله .

الثاني : إباء الفاء عما ذكر لأن علمه تعالى بذلك متقدم على إراءة الرؤيا قطعاً .

وأجيب عن هذا بالتزام كون الفاء للترتيب الذكري أو كون المراد فأظهر معلومه لكم وهو الحكمة فتدبر .

(199/714)

ونقل عن كثير من الصحابة رضي الله تعالى عنهم أن الفتح القريب في الآية هو بيعة الرضوان ، وقال مجاهد .

وابن إسحاق : هو فتح الحديبية ، ومن الغريب ما قيل : إن المراد به فتح مكة مع أنه لم يكن دخول الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه دون مكة على أنه مناف للسياق كما لا

يخفى .

﴿ هُوَالذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهدى ﴾

(200/714)

أي ملتبساً به على أن الباء للملابسة ، والجار والمجرور في موضع الحال من المفعول ، والتباسه بالهدي بمعنى أنه هاد ، وقيل : أي مصاحباً للهدي ، والمراد به الدليل الواضح والحجة الساطعة أو القرآن ، وجوز أن تكون الباء للسببية أو للتعليل وهما متقاربان ، والجار والمجرور متعلق بأرسل أي أرسله بسبب الهدي أو لأجله ﴿ وَدِينِ الحق ﴾ وبدين الإسلام ، والظاهر أن المراد به ما يعم الأصول والفروع ، وجوز أن يراد بالهدي الأصول وبدين الحق الفروع فإن من الرسل عليهم السلام من لم يرسل بالفروع وإنما أرسل بالأصول وتبيانها ، والظاهر أن المراد بالحق نقيض الباطل ، وجوز أن يراد به ما هو من أسمائه تعالى أي ودين الله الحق ، وجوز الإمام غير ذلك أيضاً ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ ﴾ ليعليه على جنس الدين بجميع أفراده أي ما يدان به من الشرائع والملل فيشمل الحق والباطل ، وأصل الإظهار جعل الشيء على الظهر فلذا كني به عن الإعلاء وعن جعله بادياً للرائي ثم شاع في ذلك حتى صار حقيقة عرفية ، وإظهاره على الحق بنسخ بعض أحكامه المتبدلة بتبدل

الاعصار ، وعلى الباطل ببيان بطلانه ، وجوز غير واحد ولعله الأظهر بحسب المقام أن يكون إظهاره على الدين بتسليط المسلمين على جميع أهل الأديان وقالوا : ما من أهل دين حاربوا المسلمين إلا وقد قهرهم المسلمون ، ويكفي في ذلك استمرار ما ذكر زماناً معتداً به كما لا يخفى على الواقفين على كتب التواريخ والوقائع ، وقيل : إن تمام هذا الإعلاء عند نزول عيسى عليه السلام وخروج المهدي رضي الله تعالى عنه حيث لا يبقى حينئذ دين سوى الإسلام ، ووقوع خلاف ذلك بعد لا يضر إما لنحو ما سمعت وإما لأن الباقي من الدنيا إذ ذاك كلا شيء ، وفي الجملة فضل تأكيد لما وعد الله تعالى به من الفتح وتوطين لنفوس المؤمنين على أنه تعالى سيفتح لهم من البلاد ويتيح لهم من الغلبة على الأقاليم ما يستقلون بالنسبة إليه فتح مكة ﴿ وكفى

(201/714)

بالله شَهِيداً ﴾ على أن ما عده عز وجل من إظهار دينه على جميع الأديان أو الفتح كائن لا محالة أو كفى بالله شهيداً على رسالته صلى الله عليه وسلم لأنه عليه الصلاة والسلام ادعاها وأظهر الله تعالى المعجزة على يده وذلك شهادة منه تعالى عليها ، واقتصر على هذا الوجه الرازي وجعل ذلك تسلية عما وقع من سهيل بن عمرو إذ لم يرض بكتابة محمد

رسول الله وقال ما قال .

وجعل بعض الأفاضل إظهار المعجزة شهادة منه تعالى على تحقق وعده عز وجل أيضاً ولا يظهر إلا بضم إخبار عليه الصلاة والسلام به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(202/714)

وقال ابن عاشور :

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ﴾

استئناف بياني ناشىء عن قوله : ﴿ فأنزل اللَّه سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ﴾ [الفتح : 26] ودحض ما خامر نفوس فريق من الفشل أو الشك أو التحير وتبيين ما أنعم الله به على أهل بيعة الرضوان من ثواب الدنيا والآخرة إلى كشف شبهة عرضت للقوم في رؤيا رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رؤيا قبل خروجه إلى الحديبية ، أو وهو في الحديبية : كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين وحَلَقوا وقصَّروا .

هكذا كانت الرؤيا مُجملة ليس فيها وقوع حجّ ولا عمرة ، والحلاق والتقصير مناسب

لكليهما .

وقصَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤياه على أصحابه فاستبشروا بها وعبَّروها أنهم داخلون إلى مكة بعمرتهم التي خرجوا لأجلها ، فلما جرى الصلح وتأهب الناس إلى القفول أثار بعض المنافقين ذكر الرؤيا فقالوا : فأين الرؤيا فوالله ما دخلنا المسجد الحرام ولا حلقنا وقصرنا ؟ فقال لهم أبو بكر رضي الله عنه : إن المنام لم يكن موقتا بوقت وأنه سيدخل وأنزل الله تعالى هذه الآية .

والمعنى أن رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم حق وأن الله أوحى إليه بها وأنها وإن لم تقع في تلك القضية فستحقق بعد ذلك وكأنَّ الحكمة في إراءة الله رسوله صلى الله عليه وسلم لك الرؤيا أيامئذٍ وفي إخبار الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه بها : أن الله أدخل بذلك على قلوبهم الثقة بقوتهم وتربية الجراءة على المشركين في ديارهم فتسلم قلوبهم من ماء الجبن فإن الأمراض النفسية إذا اعترت النفوس لا تلبث أن تترك فيها بقايا الداء زماناً كما تبقى آثار المرض في العضو المريض بعد النقاهة زماناً حتى ترجع إلى العضو قوته الأولى بعد مدة مناسبة .

وتوكيد الخبر بحرف (قد) لإبطال شبهة المنافقين الذين قالوا : فأين الرؤيا ؟

ومعنى ﴿ صدق اللَّه رسوله الرؤيا ﴾ أنه أراه رؤيا صادقة لأن رؤيا الأنبياء وحي فآلت إلى معنى الخبر فوصفت بالصدق لذلك .

وهذا تطْمين لهم بأن ذلك سيكون لا محالة وهو في حين نزول الآية لمَّا يحصل بقرينة قوله : ﴿ إن شاء اللَّه ﴾ .

وتعدية ﴿ صدق ﴾ إلى منصوب ثان بعد مفعوله من النصب على نزع الخافض المسمّى بالحذف والإيصال ، أي حذف الجار وإيصال الفعل إلى المجرور بالعمل فيه النصب .

وأصل الكلام : صدق الله رسوله في الرؤيا كقوله تعالى : ﴿ صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ [الأحزاب : 23] .

والباء في ﴿ بالحق ﴾ للملابسة وهو ظرف مستقر وقع صفة لمصدر محذوف ، أي صدقاً ملابسا الحق ، أو وقوع حالا صفة لمصدر محذوف ، أي صدقا ملابساً وقع حالاً من الرؤيا .

والحق : الغرض الصحيح والحكمة ، أي كانت رؤيا صادقة وكانت مَجْعُولة محكمة وهي ما قدمناه آنفاً .

وجملة ﴿ لتدخلن المسجد الحرام ﴾ إلى آخرها يجوز أن يكون بياناً لجملة ﴿ صدق اللَّه ﴾ لأن معنى ﴿ لتدخلن ﴾ تحقيق دخول المسجد الحرام في المستقبل فيعلم منه أن الرؤيا

إخبار بدخول لم يعين زمنه فهي صادقة فيما يتحقق في المستقبل .

وهذا تنبيه للذين لم يتفطنوا لذلك فجزموا بأن رؤيا دخول المسجد تقتضي دخولهم إليه أيامئذٍ وما ذلك بمفهوم من الرؤيا وكان حقهم أن يعلموا أنها وعد لم يعين إبان موعوده وقد فهم ذلك أبو بكر إذ قال لهم : إن المنام لم يكن موقتاً بوقت وأنه سيدخل .

وقد جاء في سورة يوسف (100) ﴿ وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل ﴾ وليست هذه الجملة بياناً للرؤيا لأن صيغة القسم لا تلائم ذلك .

والأحسن أن تكون جملة لتدخلن المسجد الحرام ﴾ استئنافاً بيانياً عن جملة ﴿ صدق اللَّه رسوله ﴾ أي سيكون ذلك في المستقبل لا محالة فينبغي الوقف عند قوله : ﴿ بالحق ﴾ ليظهر معنى الاستئناف .

(204/714)

وقوله : ﴿ إن شاء اللَّه ﴾ من شأنه أن يذيل به الخبر المستقبل إذا كان حصوله متراخياً ، ألا ترى أن الذي يقال له : افعل كذا ، فيقول : أفعل إن شاء الله ، لا يفهم من كلامه أنه يفعل في الحال أو في المستقبل القريب بل يفعله بعد زمن ولكن مع تحقيق أنه يفعله .

ولذلك تأولوا قوله تعالى في سورة يوسف (99) ﴿ وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين

أنّ إن شاء اللَّه ﴾ للدخول مع تقدير الأمن لأنه قال ذلك حين قد دخلوا مصر .

أما ما في هذه الآية فهو من كلام الله فلا يناسبه هذا المحمل .

وليس المقصود منه التنصل من التزام الوعد ، وهذا من استعمالات كلمة ﴿ إن شاء اللَّه ﴾ .

فليس هو مثل استعمالها في اليمين فإنها حينئذٍ للثُّنْيا لأنها في موضع قولهم : إلا أن يشاء الله ، لأن معنى : إلا أن يشاء الله : عدم الفعل ، وأما إن شاء الله ، التي تقع موقع : إلا أن يشاء الله ، فمعناه إن شاء الله الفعلَ .

والموعود به صادق بدخولهم مكة بالعمرة سنة سبع وهي عمرة القضية ، فإنهم دخلوا المسجد الحرام آمنين وحَلق بعضهم وقصّر بعض غير خائفين إذ كان بينهم وبين المشركين عهد ، وذلك أقرب دخول بعد هذا الوعد ، وصادق بدخولهم المسجد الحرام عام حجة الوداع ، وعدمُ الخوف فيه أظهر .

وأما دخولهم مكة يوم الفتح فلم يكونوا فيه محرمين .

قال مالك في "الموطأ" بعد أن ساق حديث قتل ابن خطل يومَ الفتح (ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذٍ محرماً والله أعلم) .

و ﴿ محلقين رؤوسكم ﴾ حال من ضمير ﴿ آمنين ﴾ وعطف عليه ﴿ ومقصرين ﴾ والتحليق والتقصير كناية عن التمكن من إتمام الحج والعمرة وذلك من استمرار الأمن على

أن هذه الحالة حكت ما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم في رؤياه ، أي يحلق من رام الحلق ويقصر من رام التقصير ، أي لا يعجلهم الخوف عن الحلق فيقتصروا على التقصير .

(205/714)

وجملة ﴿ لا تخافون ﴾ في موضع الحال فيجوز أن تكون مؤكدة ل ﴿ آمنين ﴾ تأكيداً بالمرادف للدلالة على أن الأمن كامل محقق ، ويجوز أن تكون حالاً مؤسسة على أن ﴿ آمنين ﴾ معمول لفعل ﴿ تدخلُنّ ﴾ وأن ﴿ لا تخافون ﴾ معمول ل ﴿ ءامنين ﴾ ، أي آمنين أمن مَن لا يخاف ، أي لا تخافون غدراً .

وذلك إيماء إلى أنهم يكونون أشد قوة من عدوّهم الذي أمنهم ، وهذا يُومِئُ إلى حكمة تأخير دخولهم مكة إلى عام قابل حيث يزدادون قوة واستعداداً وهو أظهر في دخولهم عام حجة الوداع .

والفاء في قوله : ﴿ فعلم ما لم تعلموا ﴾ لتفريع الأخبار لا لتفريع المخبر به لأن علم الله سابق على دخولهم وعلى الرؤيا المؤذنة بدخولهم كما تقدم في قوله : ﴿ فعلم ما في قلوبهم ﴾ [الفتح : 18] .

وفي إيثار فعل ﴿ جعل ﴾ في هذا التركيب دون أن يقول : فتح لكم من دون ذلك فتحاً

قريباً أو نحوه إفادة أن هذا الفتح أمره عجيب ما كان ليحصل مثله لولا أن الله كونه .

وصيغة الماضي في ﴿ جعل ﴾ لتنزيل المستقبل المحقق منزلة الماضي ، أو لأن ﴿ جعل ﴾ بمعنى قدر .

ودون هنا بمعنى غير ، ومِن (م) ابتدائية أو بيانية .

والمعنى : فجعل فتحاً قريباً لكم زيادة على ما وعدكم من دخول مكة آمنين .

وهذا الفتح أوله هو فتح خيبر الذي وقع قبل عمرة القضية وهذا القريب من وقت الصلح .

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (28)

زيادة تحقيق لصدق الرؤيا بأن الذي أرسل رسوله صلى الله عليه وسلم بهذا الدين ما كان ليريه رؤيا صادقة .

فهذه الجملة تأكيد للتحقيق المستفاد من حرف (قد) ولام القسم في قوله : ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ﴾ [الفتح : 27] .

وبهذا يظهر لك حسن موقع الضمير والموصولِ في قوله : ﴿ هو الذي أرسل رسوله ﴾ لأن الموصول يفيد العلم بضمون الصلة غالباً .

والضمير عائد إلى اسم الجلالة في قوله : ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا ﴾ ، وهم يعلمون أن رؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم وحي من الله فهو يذكرهم بهاتين الحقيقتين المعلومتين عندهم حين لم يجروا على موجَب العلم بهما فخامرتهم ظنون لا تليق بمن يعلم أن رؤيا الرسول وحي وأن الموحي له هو الذي أرسله فكيف يريه رؤيا غير صادقة .

وفي هذا تذكير ولَوْم للمؤمنين الذين غفلوا عن هذا وتعريض بالمنافقين الذين أدخلوا التردد في قلوب المؤمنين .

والباء في ﴿ بالهدى ﴾ للمصاحبة وهو متعلق بـ ﴿ أرسل ﴾ والهدى أطلق على ما به الهدى ، أي كقوله تعالى : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾ [البقرة : 2] ، وقوله : ﴿ شهرُ رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس ﴾ [البقرة : 185] .

وعطف ﴿ دين الحق ﴾ على الهدى ليشمل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من الأحكام أصولها وفروعها مما أوحي به إلى الرسول صلى الله عليه وسلم سوى القرآن من كل وحي بكلام لم يقصد به الإعجاز أو كان من سُنّة الرسول صلى الله عليه وسلم

ويجوز أن يكون المراد ﴿ بالهدى ﴾ أصول الدين من اعتقاد الإيمان وفضائل الأخلاق التي بها تزكية النفس ، و ﴿ بدين الحق ﴾ : شرائع الإسلام وفروعه .

واللام في ﴿ ليظهره ﴾ لتعليل فعل ﴿ أرسل ﴾ ومتعلقاته ، أي أرسله بذلك ليظهر هذا الدين على جميع الأديان الإلهية السالفة ولذلك أكد بـ ﴿ كله ﴾ لأنه في معنى الجمع .

ومعنى ﴿ يظهره ﴾ يُعْلِيه .

والإظهار : أصله مشتق من ظهر بمعنى بدا ، فاستعمل كناية عن الارتفاع الحقيقي ثم أطلق مجازاً عن الشرف فصار أظهره بمعنى أعلاه ، أي ليشرفه على الأديان كلها ، وهذا كقوله في حق القرآن ﴿ مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ﴾ [المائدة : 48] .

(207/714)

ولما كان المقصود من قوله : ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى الخ الشهادة بأن الرؤيا صدْق ذيّل الجملة بقوله : وكفى بالله شهيداً ﴾ أي أجزأتكم شهادة الله بصدق الرؤيا إلى أن تروا مَا صدْقَها في الإبان .

وتقدم الكلام على نظير ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ في آخر سورة النساء (79) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(208/714)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس عشر بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/715)

الجزء الخامس عشر بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 29 ﴾ من سورة الفتح

وحتى الآية ﴿ 29 ﴾ نفس الآية (آخر السورة)

(4/715)

قوله تعالى ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (29) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ختم سبحانه بإحاطة العلم بالخفايا والظواهر في الإخبار بالرسالة ، عينها في قوله جواباً لمن يقول : من الرسول المنوه باسمه : ﴿ محمد رسول الله ﴾ أي الملك الذي لا كفوء له ، فهو الرسول الذي لا رسول يساويه لأنه رسول إلى جميع الخلق ممن أدرك زمانه بالفعل في

الدنيا ومن تقدمه بالقوة فيها وبالفعل في الآخرة يوم يكون الكل تحت لوائه ، وقد أخذ على الأنبياء كلهم الميثاق بأن يؤمنوا به إن أدركوه ، وأخذ ذلك الأنبياء على أممهم ، لا يكتب الرحمة التي وسعت كل شيء إلا لمن وقع العلم بالمحيط بإنه يؤمن به ، فما عمل عامل عملاً صالحاً إلا كان له مثل أجره ، تقدم ذلك العامل أو تأخر ، كان من أهل السماء أو من أهل الأرض ، وهذا أمر لا يحصيه إلا الله سبحانه وتعالى ، وأشار بذلك إلى هذا الاسم بخصوصه في سورة محمد إلى أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الخاتم – بما أشارت إليه الميم التي مخرجها ختام المخارج ، وهي محيطة بما أشارة إليه صورته ، وكررت في الاسم بعده غاية التأكيد ، وهو ثلاث – كما أشار إليه اسمه : أحمد – إلى أنه مع كونه خاتماً فهو فاتح بما أشار إليه قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ "كنت أولهم خلقاً وآخرهم بعثاً " واختصت به سورة الصف ليعادل ذلك بتصريح المبشر به عليه الصلاة والسلام بالبعدية في قوله ﴿ برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ [الصف : 6] وأشارت الميم أوله أيضاً إلى بعثه عند الأربعين ، وما بقي من حروفه وهي حمد يفيد له كمال الحمد بالفعل في السنة الثانية والخمسين من عمره وهي الثانية عشرة من نبوته ببيعة الأنصار ـ رضى الله عنه ـ م ، وقد أشارت هذه السورة إلى كلمة الإخلاص تلويحاً مما ذكرت من كلمة الرسالة تصريحاً وبطنت سطوة الإلهية وظهرت الرحمة المحمدية – كما أشارت القتال إلى الرسالة تلويحاً وصرحت

بسطوة الإلهية بكلمة الإخلاص والناشئة عن القتال تصريحاً ، وقد تقدم في القتال نبذة من أسرار الكلمتين .

(5/715)

ولما ذكر الرسول ذكر المرسل إليهم فقال تعالى : ﴿ والذين معه ﴾ أي بمعية الصحبة من أصحابه وحسن التبعية من التابعين لهم بإحسان : ولما كان شرف القوم شرفاً لرئيسهم ، مدحهم بما يشمله فقال تعالى : ﴿ أشداء على الكفار ﴾ فهم لا تأخذهم بهم رأفة بل هم معهم كالأسد على فريسته ، لأن الله أمرهم بالغلظة عليهم ﴿ رحماء بينهم ﴾ كالوالد مع الولد ، لأن الله تعالى أمرهم باللين للمؤمنين ، ولا مؤمن في زمانهم إلا من كان من أهل دينهم ، فهو يحبهم ويحبونه بشهادة آية المائدة .

ولما كان هذا بخلاف ما وصفت به الأمم الماضية من أنهم ما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ، فكان عجباً ، بين الحامل عليه بقوله : ﴿ تراهم ﴾ أي أيها الناظر لهم ﴿ ركعاً سجداً ﴾ أي دائمي الخضوع فأكثر أوقاتهم صلاة قد غلبت صفة الملائكة على صفاتهم الحيوانية ، فكانت الصلاة آمرة لهم بالخير مصفية عن كل نقص وضير .

ولما كانت الصلاة مما يدخله الرياء ، بين إخلاصهم بقوله : ﴿ يبتغون ﴾ أي يطلبون بذلك

وغيره من جميع أحوالهم بغاية جهدهم وتغليباً لعقولهم على شهواتهم وحظوظهم

﴿ فضلاً ﴾ أي زيادة في الخير ﴿ من الله ﴾ أي الذي له الإحاطة بصفات الكمال والجمال الذي أعطاهم ملكة الغلظة على الكفار بما وهبهم من جلاله والرقة على أوليائه بما أعطاهم من رحمته التي هيأهم بها للإحسان إلى عياله فنزعوا الهوى من صدورهم فصاروا يرونه وحده سيدهم المحسن إليهم لا يرون سيداً غيره ، ولا محسن سواه .

ولما ذكر عبادتهم وطلبهم الزيادة منها ومن غيرها من فضل الله الذي لا يوصل إلى عبادته إلا بمعونته ، أتبعه المطلوب الأعلى فقال : ﴿ ورضواناً ﴾ أي رضاء منه عظيماً .

(6/715)

ولما ذكر كثرة عبادتهم إخلاصهم فيها اهتماماً به لأنه لا يقبل عملاً بدونه ، دل على كثرتها بقوله : ﴿ سيماهم ﴾ أي علامتهم التي لا تفارقهم ﴿ في وجوههم ﴾ ثم بين العلامة بقوله : ﴿ من أثر السجود ﴾ فهي نور يوم القيامة – رواه الطبراني عن أبي بن كعب ـ رضى الله عنه ـ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ – هذا مع ما لهم من مثل ذلك في الدنيا من أثر الخشوع والهيبة بحيث إنه إذا رئي أحدهم أورث لرائيه ذكر الله ، وإذا قرأ أورثت قراءته حزناً وخشوعاً وإخباتاً وخضوعاً ، وإن كان رث الحال رديء الهيئة ، ولا يظن أن من السيما ما

يصنعه بعض المرائين من هيئة أثر سجود في جبهته ، فإذا ذلك من سيما الخوارج ، وفي نهاية ابن الأثير في تفسير الثفن : ومنه حديث أبي الدرداء ـ رضى الله عنه ـ : رأى رجلاً بين عينيه مثل ثفنة العنز ، فقال : لو لم يكن هذا لكان خيراً – يعني كان على جبهته أثر السجود ، وإنما كرهها خوفاً من الرياء بها ، وقد روى صاحب الفردوس عن أنس ـ رضى الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : " إني لأبغض الرجل وأكرهه إذا رأيت بين عينيه أثر السجود " .

ولما أتم وصفهم بهذا الأمر الذي لا يقدر عليه أحد إلا من صفاه الله من جميع حظوظه وشهواته ، أشار إلى علوه فقال : ﴿ ذلك ﴾ أي هذا الوصف العالي جداً البديع المثال البعيد المنال ﴿ مثلهم في التوراة ﴾ فإنه قال فيها : أتانا ربنا من سيبنا وشرق لنا من جبل ساعير ، وظهر لنا من جبل فاران ، معه ربوات الأطهار على يمينه ، أعطاهم وحببهم إلى الشعوب وبارك على جميع أطهاره وهم يتبعون آثارك .

(7/715)

فظهوره من فاران صريح في نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإنه لم يأت منها – وهي جبال مكة باتفاقهم – بعد نزول التوراة بالنبوة غيره ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وربوات

الأطهار إشارة إلى كثرة أمته ، وأنهم في الطهارة كالملائكة ، وأيد ذلك جعلهم من أهل اليمين ، ووصفهم بالتحبيب إلى الشعوب ، فكل ذلك دال على ما وصفوا به منا من شهادة الوجود – هذا مع ما وجدته في التوراة بعد تبديلهم لما بدلوا منها وإخفائهم كما قال الله تعالى لكثير ، وروى أصحاب فتوح البلاد في فتح بيت المقدس عن كعب الأحبار أن سبب إسلامه أن أباه كان أخبره أنه ذخر عنه ورقتين جعلهما في كوة وطين عليهما ، وأمره أن يعمل بهما بعد موته ، قال : فلما مات فتحت عنهما فإذا فيهما : محمد رسول الله صلى الله خاتم النبيين لا نبي بعده مولده بمكة ومهاجرة بطيبة ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ، ولا يجزي السيئة بالسيئة ، ولكن يجزي بالسيئة الحسنة ويعفو ويغفر ويصفح ، وإن أمته الحمادون الذين يحمدون الله على كل شيء وعلى كل حال ، ويذلل ألسنتهم بالتكبير ، وينصر الله نبيهم على كل من ناواه ، يغسلون فروجهم بالماء ، ويؤثرون على أواسطهم ، وأناجيلهم في صدورهم ، يأكلون قربانهم في بطونهم ويؤجرون عليها ، تراحمهم بينهم تراحم بين الأم والأب ، وهم أول من يدخل الجنة يوم القيامة من الأمم ، هم السابقون المقربون والشافعون والمشفع لهم .

(8/715)

وأصله في الصحيح عن عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ وفي الدارمي عن كعب هذا ، ولأصحاب الفتوح عن سمرة بن حوشب عن كعب قال : قلت لعمر ـ رضى الله عنه ـ وهو بالشام عند انصرافه : يا أمير المؤمنين ! إنه مكتوب في كتاب الله " إن هذه البلاد التي كان فيها بنو إسرائيل وكانوا أهلها مفتوحة على رجل من الصالحين ، رحيم بالمؤمنين شديد على الكافرين ، سره مثل علانيته ، وعلانيته مثل سره ، وقوله لا يخالف فعله ، والقريب والبعيد عنده في الحق سواء ، أتباعه رهبان بالليل أسد بالنهار ، متراحمون متباذلون " فقال عمر : ثكلتك أمك أحق ما تقول ؟ قلت : أي والذي أنزل التوراة على موسى والذي يسمع ما نقول ! إنه لحق ، فقال عمر : فالحمد لله الذي أعزنا وشرفنا وأكرمنا ورحمنا بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورحمته التي وسعت كل شيء – هذا على أن المراد بالمثل الوصف ، ويمكن أن يكون على حقيقته ، ويكون الذي في التوراة ما ترجمته " هم على أعدائهم كقرن الحديد وفيما بينهم في النفع والتواصل كالماء والصعيد ، ولربهم كخامة الزرع مع الريح والصديق النصيح ، وفي الإقبال على الآخرة كالمسافر الشاحب والباكي الناحب " فعبر عنه في كتابنا بما ذكر .

ولما ذكر مثلهم في الكتاب الأول ، أتبعه الكتاب الثاني الذي هو ناسخ ليعلم أنه قد أخذ على كل ناسخ لشريعته أن يصفهم لأمته ليتبعوهم إذا دعوهم فقال : ﴿ ومثلهم في الإنجيل ﴾ أي

الذي نسخ الله به بعض أحكام التوراة ﴿كزرع﴾ أي مثل زرع ﴿أخرج شطأه﴾ أي فراخه وورقه وما خرج حول أصوله ، فكان ذلك كله مثله .

(9/715)

ولما ذكر هذا الإخراج سبب عنه قوله ﴿فآزره﴾ أي فأحاط به الشطأ ، فقواه وطهره من غير نبتة نبتت عنه فتضعفه وساواه وحاذاه وعاونه ، ويظهر أن قراءة الهمزة بالمد على المفاعلة أبلغ من قراءة ابن عامر بالقصر ، لأن الفعل إذا كان بين اثنين يتجاذبانه كان الاجتهاد فيه أكثر ، ثم سبب عن المؤازرة قوله : ﴿فاستغلظ﴾ أي فطلب المذكور من الزرع والشطأ الغلظ وأوجده فتسبب عن ذلك اعتداله ﴿فاستوى﴾ أي وجد فيه القيام العدل وجوداً عظيماً كأنه كان بغاية الاجتهاد والمعالجة ﴿على سوقه﴾ أي قصبه ، جمع ساق ، وهو ما قام عليه الشيء ، حال كون هذا المذكور من الزرع والشطأ ﴿يعجب الزراع﴾ ويجوز كونه استئنافاً للتعجب منه والمبالغة في مدحه وإظهار السرور في أمره ، وإذا أعجبهم وهم في غاية العناية بأمره والتفقد لحاله والملابسة له ومعرفة معانيه كان لغيرهم أشد إعجاباً ، ومثل لأنهم يكونون قليلين ثم يكثرون مع البهجة في عين الناظر لما لهم من الرونق الذي منشؤه نور الإيمان وثبات الطمأنينة والإيقان وشدة الموافقة من بعضهم

لبعض ، ونفي المخالف لهم وإبعاده ، وقد تقدم في هذا الكتاب في آخر المائدة أمثال ضربت في الإنجيل بالزرع أقربها إلى هذا مثل حبة الخردل فراجعه .

(10/715)

ولما أنهى سبحانه مثلهم ، ذكر الثمرة في جعلهم كذلك فقال : ﴿ ليغيظ ﴾ معلقاً له بما يؤخذ من معنى الكلام وهو جعلهم كذلك لأجل أن يغيظ ﴿ بهم ﴾ أي غيظاً شديداً بالغ القوة والإحكام ﴿ الكفار ﴾ وذلك أنهم لما كانوا أول الأمر قليلاً ، كان الكفار طامعين في أن لا يتم لهم أمر ، فكلما ازدادوا كثرة مع تمادي الزمان زاد غيظ الكفار منهم ، فكيف إذا رأوا مع الزيادة والقوة منهم حسناً ونضارة ورونقاً وبهجة ، فهو في الغيظ مما لو كانوا في أول الأمر كثيراً لأنه كان يكون دفعه ويقصر زمنه ، فمن أبغض صحابياً خيف عليه الكفر لأنهم أول مراد بالآية ، وغيرهم بالقصد الثاني وبالتبع ، ومن أبغضهم كلهم كان كافراً ، وإذا حملناه على غيرهم كان دليلاً على أن كل من خالف الإجماع كفر - قاله القشيري .

ولما ثم مثلهم وعلة جعلهم كذلك ، بشرهم فقال في موضع وعدهم لتعليق الوعد بالوصف على عادة القرآن ترغيباً في التمسك به وترهيباً من مجانبته : ﴿ وعد الله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ الذين آمنوا ﴾ ولما كان الكلام في الذين معه - صلى الله عليه وسلم - ، وكانت

المعية ظاهرة في الاتحاد في الدين لم تكن شاملة للمنافقين ، فلم يكن الاهتمام بالتقييد بمنهم هنا كالاهتمام به في سورة النور ، فأخره وقدم العمل لأن العناية به هنا أكثر ، لأنه من سيماهم المذكورة فقال : ﴿ وعملوا ﴾ أي تصديقاً لدعواهم الكون معه في الدين ﴿ الصالحات ﴾ ولما كان قوله " معه " يعم كما مضى من بعد الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، وكان الخلل فيمن بعدهم كثيراً ، قيد بقوله : ﴿ منهم ﴾ أي من الذين معه ـ صلى الله عليه وسلم ـ سواء كانوا من أصل الزرع أو فراخه التي أخرجها وهم التابعون لهم بإحسان .

(11/715)

ولما كان الإنسان وإن اجتهد مقصراً عن بلوغ ما يحق له من العبادة ، أشار إلى ذلك بقوله : ﴿ مغفرة ﴾ أي لما يقع منهم من الهفوات أو الذنوب والسيئات ﴿ وأجراً عظيماً ﴾ بعد ذلك الستر ، وقد جمعت هذه الآية الخاتمة لهذه السورة جميع حروف المعجم بشارة تلويحية مع ما فيها من البشائر التصريحية باجتماع أمرهم وعلو نصرهم ، وذلك أنه لما كانت هذه العمرة قد حصل لهم فيها كسر لرجوعهم قبل وصولهم إلى قصدهم من الدخول إلى مكة المشرفة والطواف بالبيت العتيق ، ولم يكن ذلك بسبب خلل أتى من قبلهم كما كان في غزوة

أحد على ما مضى من بيانه في آل عمران التي هي سورة التوحيد الذي كلمته كلمة التقوى عند الآية الثانية لهذه ، بشرهم سبحانه بما في هذه السورة من البشائر الظاهرة تصريحاً وبما في هذه الآية الخاتمة من جمعها لجميع حروف المعجم تلويحاً إلى أن أمرهم لا بد من تمامه ، واشتداد سلكه وانبرامه ، واتساق شأنه وانتظامه ، وخفوق ألويته وأعلامه ، وافتتحها بميم " محمد " وهي مضمومة ، وختمها بميم " عظيماً " المنصوبة إشارة بما للميم من الختام بمخرجها إلى أن تمام الأمر قد دنا جداً إبانه ، وحضر زمانه ، وبما في أولها من الضم إلى رفعة دائمة في حمد كثير ، وبما في آخرها من النصب إلى تمام الفتح وانتشاره ، وقربه واشتهاره ، على وجه عظيم ، وشرف في علو جسيم ، وأوماً تدويرها إلى أنه أمر لا انتهاء له ، بل كلما ختم ابتدأ ، وقد ظهر من هذا وما في صريح الآية من القوة المعزة للمؤمنين المذلة للكافرين رد مقطعها على مطلعها بالفتح للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتسكين العظيم لأصحابه ـ رضى الله عنه ـ م ، والرحمة والمغفرة والفوز العظيم لجميع أتباعه وأنصاره وأشياعه رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، وجعلنا بمنه وكرمه منهم ، وهذا آخر القسم الأول من القرآن ، وهو المطول ، وقد ختم – كما ترى – بسورتين هما في الحقيقة للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وحاصلهما الفتح له

بالسيف والنصر على من قاتله ظاهراً كما ختم الثاني المفصل بسورتين هما نصرة له ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحال على من قصده بالضر باطناً – والله الهادي للصواب وإليه المرجع والمآب وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 214.219 ﴾

(13/715)

فصل

قال الفخر :

وقوله ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ ﴾ فيه وجوه

أحدها : خبر مبتدأ محذوف تقديره هو محمد الذي سبق ذكره بقوله ﴿ أَرْسَلَ رَسُولَهُ ﴾ ورسول الله عطف بيان وثانيها : أن محمداً مبتدأ خبره رسول الله وهذا تأكيد لما تقدم لأنه لما قال : ﴿ هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ ﴾ ولا تتوقف رسالته إلا على شهادته ، وقد شهد له بها محمد رسول الله من غير نكير وثالثها : وهو مستنبط وهو أن يقال ﴿ مُحَمَّدٌ ﴾ مبتدأ و ﴿ رَسُولِ اللهِ ﴾ عطف بيان سيق للمدح لا للتمييز ﴿ والذين مَعَهُ ﴾ عطف على

محمد ، وقوله ﴿ أَشِدَّاءُ ﴾ خبره ، كأنه تعالى قال : ﴿ والذين مَعَهُ ﴾ جميعهم ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الكفار رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ لأن وصف الشدة والرحمة وجد في جميعهم ، أما في المؤمنين فكما في قوله تعالى :

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى المؤمنين أَعِزَّةٍ عَلَى الكافرين ﴾ [المائدة : 54] وأما في حق النبي صلى الله عليه وسلم فكما في قوله ﴿ واغلظ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : 73] وقال في حقه ﴿ بالمؤمنين رَءوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : 128] وعلى هذا قوله ﴿ تَرَاهُمْ ﴾ لا يكون خطاباً مع النبي صلى الله عليه وسلم بل يكون عاماً أخرج مخرج الخطاب تقديره أيها السامع كائناً من كان ، كما قلنا إن الواعظ يقول انتبه قبل أن يقع الانتباه ولا يريد به واحداً بعينه ، وقوله تعالى :

﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مّنَ الله وَرِضْوَاناً ﴾ لتمييز ركوعهم وسجودهم عن ركوع الكفار وسجودهم ، وركوع المرائي وسجوده ، فإنه لا يبتغي به ذلك .

(14/715)

وفيه إشارة إلى معنى لطيف وهو أن الله تعالى قال الراكعون والساجدون ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مّن فَضْلِهِ ﴾ [فاطر : 30] وقال الراكع يبتغي الفضل ولم يذكر الأجر لأن الله تعالى إذا قال لكم أجر كان ذلك منه تفضلاً ، وإشارة إلى أن عملكم جاء على ما

طلب الله منكم ، لأن الأجرة لا تستحق إلا على العمل الموافق للطلب من المالك ، والمؤمن إذا قال أنا أبتغي فضلك يكون منه اعترافاً بالتقصير فقال : ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ ﴾ ولم يقل أجراً .

وقوله تعالى : ﴿ سيماهم فِى وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السجود ﴾ فيه وجهان أحدهما : أن ذلك يوم القيامة كما قال تعالى :

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران : 106] وقال تعالى : ﴿ نُورُهُمْ يسعى ﴾ [التحريم : 8] وعلى هذا فنقول نورهم في وجوههم بسبب توجههم نحو الحق كما قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وجهي للذي فطر السموات والارض ﴾ [الأنعام : 79] ومن يحاذي الشمس يقع شعاعها على وجهه ، فيتبين على وجهه النور منبسطاً ، مع أن الشمس لها نور عارضي يقبل الزوال ، والله نور السموات والأرض فمن يتوجه إلى وجهه يظهر في وجهه نور يبهر الأنوار وثانيهما : أن ذلك في الدنيا وفيه وجهان أحدهما : أن المراد ما يظهر في الجباه بسبب كثرة السجود والثاني : ما يظهره الله تعالى في وجوه الساجدين ليلاً من الحسن نهاراً ، وهذا محقق لمن يعقل فإن رجلين يسهران بالليل أحدهما قد اشتغل بالشراب واللعب والآخر قد اشتغل بالصلاة والقراءة واستفادة العلم فكل أحد في اليوم الثاني يفرق بين الساهر في الشرب واللعب ، وبين الساهر في الذكر والشكر .

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التوراة ﴾ فيه ثلاثة أوجه مذكورة أحدها : أن يكون ﴿ ذلك ﴾ مبتدأ ، و ﴿ مَثَلُهُمْ فِي التوراة وَمَثَلُهُمْ فِي الإنجيل ﴾ خبراً له ، وقوله تعالى : ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ خبراً مبتدأ محذوف تقديره ومثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع وثانيها : أن يكون خبر ذلك هو قوله ﴿ مَثَلُهُمْ فِي التوراة ﴾ وقوله ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الإنجيل ﴾ مبتدأ وخبره كزرع وثالثها : أن يكون ذلك إشارة غير معينة أوضحت بقوله تعالى : ﴿ كَزَرْعٍ ﴾ كقوله ﴿ ذَلِكَ الأمر أَنَّ دَابِرَ هَؤُلآء مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ [الحجر : 66] وفيه وجه رابع : وهو أن يكون ذلك خبراً له مبتدأ محذوف تقديره هذا الظاهر في وجوههم ذلك يقال ظهر في وجهه أثر الضرب ، فنقول أي والله ذلك أي هذا ذلك الظاهر ، أو الظاهر الذي تقوله ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِى الإنجيل كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فاستغلظ فاستوى على سُوقِهِ يُعْجِبُ الزراع ﴾ .

أي وصفوا في الكتابين به ومثلوا بذلك وإنما جعلوا كالزرع لأنه أول ما يخرج يكون ضعيفاً وله نمو إلى حد الكمال ، فكذلك المؤمنون ، والشطء الفرخ و ﴿ فَآزَرَهُ ﴾ يحتمل أن يكون المراد أخرج الشطء وآزر الشطء ، وهو أقوى وأظهر والكلام يتم عند قوله ﴿ يُعْجِبُ الزراع ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكفار ﴾ أي تنمية الله ذلك ليغيظ أو يكون الفعل المعلل هو .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ الله الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ أي وعد ليغيظ بهم الكفار يقال رغماً لأنفك أنعم عليه .

(16/715)

وقوله تعالى : ﴿ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ لبيان الجنس لا للتبعيض ، ويحتمل أن يقال هو للتبعيض ، ومعناه : ليغيظ الكفار والذين آمنوا من الكفار لهم الأجر العظيم ، والعظيم والمغفرة قد تقدم مراراً والله تعالى أعلم ، وههنا لطيفة وهو أنه تعالى قال في حق الراكعين والساجدين إنهم ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مّنَ الله ﴾ وقال : لهم أجر ولم يقل لهم ما يطلبونه من ذلك الفضل وذلك لأن المؤمن عند العمل لم يلتفت إلى عمله ولم يجعل له أجراً يعتد به ، فقال لا أبتغي إلا فضلك ، فإن عملي نزر لا يكون له أجر والله تعالى آتاه ما آتاه من الفضل وسماه أجراً إشارة إلى قبول عمله ووقوعه الموقع وعدم كونه عند الله نزراً لا يستحق عليه المؤمن أجراً ، وقد علم بما ذكرنا مراراً أن قوله ﴿ وَعَدَ الله الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ لبيان ترتب المغفرة على الإيمان فإن كل مؤمن يغفر له كما قال تعالى :

﴿ إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ [النساء : 48] والأجر

العظيم على العمل الصالح ، والله أعلم .

قال المصنف رحمه الله تعالى : تمّ تفسير هذه السورة يوم الخميس السابع عشر من شهر ذي الحجة سنة ثلاث وستمائة من الهجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، والحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 93.94 ﴾

(17/715)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ﴾

روي في تفسير هذه الآية ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في منامه عند خروجه إلى العمرة أنه يطوف بالبيت هو وأصحابه ، بعضهم محلقون وبعضهم مقصرون . وقال مجاهد : أرى ذلك بالحديبية ، فأخبر الناس بهذه ﴿ الرؤيا ﴾ ، ووثق الجميع بأن ذلك يكون في وجهتهم تلك ، وقد كان سبق في علم الله تعالى أن ذلك يكون . لكن ليس في تلك الجهة . وروي أن رؤياه إنما كانت أن ملكاً جاءه فقال له : ﴿ لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين ﴾ ، وإنه بهذا أعلم الناس فلما قضى الله في

الحديبية بأمر الصلح ، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصد ، وقال المنافقون : وأين الرؤيا ؟ ووقع في نفوس المسلمين شيء من ذلك ، فأنزل الله تعالى : ﴿ لقد صدق الله ورسوله الرؤيا بالحق ﴾ . و: ﴿ صدق ﴾ هذه تتعدى إلى مفعولين ، تقول صدقت زيداً الحديث . واللام في : ﴿ لتدخلن ﴾ لام القسم الذي تقتضيه ﴿ صدق ﴾ لأنها من قبيل تبين وتحقق ، ونحوها مما يعطي القسم .

(18/715)

واختلف الناس في معنى الاستثناء في هذه الآية ، فقال بعض المتأولين هو استثناء من الملك المخبر للنبي عليه السلام في نومه ، فذكر الله تعالى مقالته كما وقعت ، وقال آخرون هو أخذ من الله تعالى عباده بأدبه في استعماله في كل فعل يوجب وقوعه ، كان ذلك مما يكون ولا بد ، أو كان مما قد يكون وقد لا يكون ، وقال بعض العلماء : إنما استثنى من حيث كل واحد من الناس متى رد هذا الوعد إلى نفسه أمكن أن يتم الوعد فيه وأن لا يتم ، إذ قد يموت الإنسان أو يمرض أو يغيب ، وكل واحد في ذاته محتاج إلى الاستثناء ، فلذلك استثنى عز وجل في الجملة ، إذ فيهم ولا بد من يموت أو يمرض . وقال آخرون : استثنى لأجل قوله : ﴿ آمنين ﴾ لأجل إعلامه بالدخول ، فكأن الاستثناء مؤخر عن موضعه ، ولا فرق بين الاستثناء

من أجل الأمن أو من أجل الدخول ، لأن الله تعالى قد أخبر بهما ووقت الثقة بالأمرين ، فالاستثناء من أيهما كان فهو استثناء من واجب . وقال قوم : ﴿ إن ﴾ بمعنى إذ فكأنه قال : إذ شاء الله .

قال القاضي أبو محمد : وهذا حسن في معناه ، ولكن كون ﴿ إن ﴾ بمعنى إذ غير موجود في لسان العرب ، وللناس بعد في هذه الاستثناء أقوال مخلطة غير هذه ، اختصرت ذكرها ، لأنها لا طائل فيها .

وقرأ ابن مسعود : " إن شاء الله لا تخافون " بدل ﴿ آمنين ﴾ .

ولما نزلت هذه الآية ، علم المسلمون أن تلك الرؤيا فيما يستأنفون من الزمن ، واطمأنت قلوبهم بذلك وسكنت ، وخرجت في العام المقبل ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة في ذي القعدة سنة سبع ، ودخلها ثلاثة أيام هو وأصحابه ، وصدقت رؤياه صلى الله عليه وسلم .

وقوله : ﴿ فعلم ما لم تعلموا ﴾ يريد ما قدره من ظهور الإسلام في تلك المدة ودخول الناس فيه ، وما كان أيضاً بمكة من المؤمنين دفع الله بهم . وقوله تعالى : ﴿ من دون ذلك ﴾ ، أي من قبل ذلك وفيما يدنو إليكم .

(19/715)

واختلف الناس في الفتح القريب ، فقال كثير من الصحابة : هو بيعة الرضوان وروي عن مجاهد وابن إسحاق . أنه الصلح بالحديبية . وقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم : أو فتح هو يا رسول الله ؟ قال : " نعم " وقال ابن زيد : الفتح القريب : خيبر حسبما تقدم من ذكر انصراف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فتحها . وقال قوم : الفتح القريب : فتح مكة ، وهذا ضعيف ، لأن فتح مكة لم يكن من دون دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مكة ، بل كان بعد ذلك بعام ، لأن الفتح كان سنة ثمان من الهجرة ويحسن أن يكون الفتح هنا اسم جنس يعم كل ما وقع مما للنبي صلى الله عليه وسلم فيه ظهور وفتح عليه . وقد حكى مكي في ترتيب أعوام هذه الأخبار عن قطرب قولاً خطأ جعل فيه الفتح سنة عشر ، وجعل حج أبي بكر قبل الفتح ، وذلك كله تخليط وخوض فيما لم يتقنه معرفة .

وقوله عز وجل : ﴿ هو الذي أرسل رسوله ﴾ الآية تعظيم لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وإعلام بأنه يظهره على جميع الأديان . ورأى بعض الناس لفظة : ﴿ ليظهره ﴾ تقتضي محو غيره به ، فلذلك قالوا : إن هذا الخبر يظهر للوجود عند نزول عيسى ابن مريم عليه السلام ، فإنه لا يبقى في وقته غير دين الإسلام وهو قول الطبري والثعلبي . ورأى قوم أن الإظهار هو الإعلاء وإن بقي من الدين الآخر أجزاء ، وهذا موجود الآن في دين الإسلام ،

فإنه قد عم أكثر الأرض وظهر على كل دين .

وقوله تعالى : ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ معناه : شاهداً ، وذلك يحتمل معنيين : أحدهما شاهداً عندكم بهذا الخبر ومعلماً به . والثاني : شاهداً على هؤلاء الكفار المنكرين أمر محمد الرادين في صدره ومعاقباً لهم بحكم الشهادة ، والآية على هذا وعيد للكفار الذين شاحوا في أن يكتب محمد رسول الله ، فرد عليهم بهذه الآية كلها .

(20/715)

وقوله تعالى : ﴿ محمد رسول الله ﴾ قال جمهور الناس : هو ابتداء وخبر استوفي فيه تعظيم منزلة النبي صلى الله عليه وسلم . وقوله : و ﴿ الذين معه ﴾ ابتداء وخبره : ﴿ أشداء ﴾ و ﴿ رحماء ﴾ خبر ثان . وقال قوم من المتأولين : ﴿ محمد ﴾ "ابتداء" و: ﴿ رسول الله ﴾ صفة له ﴿ والذين ﴾ عطف عليه . و: ﴿ أشداء ﴾ خبر وهؤلاء بوصفهم ، وفي القول الثاني اشترك الجميع في الشدة والرحمة .

قال القاضي أبو محمد : والأول عندي أرجح ، لأنه خبر مضاد لقول الكفار لا نكتب محمد رسول الله .

وقوله : ﴿ والذين معه ﴾ إشارة إلى جميع الصحابة عند الجمهور ، وحكى الثعلبي عن

ابن عباس أن الإشارة إلى من شهد الحديبية : ب ﴿ الذين معه ﴾ . و: ﴿ أشداء ﴾ جمع شديد ، أصله : أشدداء ، أدغم لاجتماع المثلين .

وقرأ الجمهور : " اشداءُ " " رحماءُ " بالرفع ، وروى قرة عن الحسن : " أشداءَ " رحماءَ " بنصبهما قال أبو حاتم : ذلك على الحال والخبر : ﴿ تراهم ﴾ . قال أبو الفتح : وإن شئت نصبت " أشداءَ " على المدح . وقوله : ﴿ تراهم ركعاً سجداً ﴾ ، أي ترى هاتين الحالتين كثيراً فيهم . و: ﴿ يبتغون ﴾ معناه يطلبون . وقرأ عمر وابن عبيد : " ورُضواناً " بضم الراء .

وقوله : ﴿ سيماهم ﴾ معناه : علامتهم . واختلف الناس في تعيين هذه السيما ، فقال مالك بن أنس : كانت جباههم متربة من كثرة السجود في التراب ، كان يبقى على المسح أثره ، وقاله عكرمة . وقال أبو العالية : يسجدون على التراب لا على الأثواب . وقال ابن عباس وخالد الحنفي وعطية : هو وعد بحالهم يوم القيامة من أن الله تعالى يجعل لهم نوراً ﴿ من أثر السجود ﴾ .

(21/715)

قال القاضي أبو محمد : كما يجعل غرة من أثر الوضوء الحديث ، ويؤيد هذا التأويل اتصال القول بقوله : ﴿ فضلاً من الله ورضواناً ﴾ كأنه قال : علامتهم في تحصيلهم الرضوان يوم القيامة : ﴿ سيماهم في وجوههم من أثر السجود ﴾ . ويحتمل أن تكون السيما بدلاً من قوله : ﴿ فضلاً ﴾ . وقال ابن عباس : السمت الحسن : هو السيما ، وهو الخشوع خشوع يبدو على الوجه .

قال القاضي أبو محمد : وهذه حالة مكثري الصلاة ، لأنها تنهاهم عن الفحشاء والمنكر ، وتقل الضحك وترد النفس بحالة تخشع معها الأعضاء .

وقال الحسن بن أبي الحسن وشمر بن عطية : السيما : بياض وصفرة وبهيج يعتري الوجوه من السهر . وقال منصور : سألت مجاهداً : أهذه السيما هي الأثر يكون بين عيني الرجل ؟ فقال : لا ، وقد تكون مثل ركبة البعير ، وهو أقسى قلباً من الحجارة . وقال عطاء بن أبي رباح والربيع بن أنس : السيما : حسن يعتري وجوه المصلين .

قال القاضي أبو محمد : وذلك لأن الله تعالى يجعل لها في عين الرأي حسناً تابعاً للإجلال الذي في نفسه ، ومتى أجل الإنسان أمراً حسناً عنده منظره ، ومن هذا الحديث الذي في الشهاب : " من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار " .

قال القاضي أبو محمد : وهذا حديث غلط فيه ثابت بن موسى الزاهد ، سمع شريك بن عبد الله يقول : حدثنا الأعمش عن أبي سفيان عن جابر ثم نزع شريك لما رأى ثابت

الزاهد فقال : يعنيه من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار ، فظن ثابت أن هذا الكلام متركب على السند المذكور فحدث به عن شريك .

وقرأ الأعرج : " من إثْر " بسكون الثاء وكسر الهمزة . قال أبو حاتم هما بمعنى . وقرأ قتادة : " من آثار " ، جمعاً .

(22/715)

وقوله تعالى : ﴿ ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل ﴾ الآية ، المثل هنا الوصف أو الصفة . وقال بعض المتأولين : التقدير الأمر ﴿ ذلك ﴾ وتم الكلام . ثم قال : ﴿ مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع ﴾ . وقال مجاهد وجماعة من المتأولين : المعنى ﴿ ذلك ﴾ الوصف هو ﴿ مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل ﴾ وتم القول ، و: ﴿ كزرع ﴾ ابتداء تمثيل يختص بالقرآن . وقال الطبري وحكاه عن الضحاك المعنى : ﴿ ذلك ﴾ الوصف هو ﴿ مثلهم في التوراة ﴾ وتم القول ، ثم ابتدأ ﴿ ومثلهم في الإنجيل كزرع ﴾ .

وقال آخرون : المثلان جميعاً هي في التوراة وهي في الإنجيل .

وقوله تعالى : ﴿ كزرع ﴾ ، هو على كل الأقوال وفي أي كتاب منزل : فرض مثل للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، في أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث وحده ، فكان كالزرع

حبة واحدة ، ثم كثر المسلمون فهم كالشطء : وهو فراخ السنبلة التي تنبت حول الأصل ، يقال : أشطأت الشجرة إذا خرجت غصونها ، وأشطأ الزرع : إذا خرج شطأه .

وقرأ ابن كثير وابن ذكوان عن ابن عامر : " شَطأ " بفتح الطاء والهمز دون مد ، وقرأ الباقون بسكون الطاء ، وقرأ عيسى بن عمر : " شطاه " بفتح الطاء دون همز ، وقرأ أبو جعفر : " شطه " رمى بالهمزة وفتح الطاء ، ورويت عن نافع وشيبة . وروي عن عيسى : " شطاءه " بالمد والهمز ، وقرأ الجحدري : " شطوه " بالواو . قال أبو الفتح هي لغة أو بدل من الهمزة ، ولا يكون الشطو إلا في البر والشعير ، وهذه كلها لغات . وحكى النقاش عن ابن عباس أنه قال : الزرع : النبي صلى الله عليه وسلم ، ﴿ فآزره ﴾ . علي بن أبي طالب رضي الله عنه ﴿ فاستغلظ ﴾ بأبي بكر ، ﴿ فاستوى على سوقه ﴾ : بعمر بن الخطاب .

وقوله تعالى : ﴿ فآزره ﴾ وزنه : أفعله ، أبو الحسن ورجحه أبو علي . وقرأ ابن ذكوان عن ابن عامر : " فأزره " على وزن : فعله دون مد ، ولذلك كله معنيان : أحدهما ساواه طولاً ، ومنه قول امرئ القيس : [الطويل]

بمحنية قد آزر الضال نبتها . . . بجر جيوش غانمين وخيب

أي هو موضع لم يزرع فكمل نبته حتى ساوى شجر الضال ، فالفاعل على هذا المعنى : الشطء والمعنى الثاني : إن آزره وأزره بمعنى : أعانه وقواه ، مأخوذ ذلك من الأزر وشده ، فيحتمل أن يكون الفاعل الشطء ، ويحتمل أن يكون الفاعل الزرع ، لأن كل واحد منهما يقوي صاحبه وقال ابن مجاهد وغيره " آزره " وزنه : فاعله ، والأول أصوب أن وزنه : أفعله ، ويدلك على ذلك قول الشاعر : [المنسرح]

لا مال إلا العطاف تؤزره . . . أم ثلاثين وابنة الجبل

وقرأ ابن كثير : " على سؤقه " بالهمز ، وهي لغة ضعيفة ، يهمزون الواو التي قبلها ضمة ومنه قول الشاعر [جرير] :

وجعدة إذا أضاءهما الوقود . . . و: ﴿ يعجب الزراع ﴾ جملة في موضع الحال ، وإذا أعجب ﴿ الزراع ﴾ ، فهو أحرى أن يعجب غيرهم لأنه لا عيب فيه ، إذ قد أعجب العارفين بالعيوب ولو كان معيباً لم يعجبهم ، وهنا تم المثل .

وقوله تعالى : ﴿ ليغيظ بهم الكفار ﴾ ابتداء كلام قبله محذوف تقديره : جعلهم الله بهذه الصفة ﴿ ليغيظ بهم الكفار ﴾ ، و﴿ الكفار ﴾ هنا المشركون . قال الحسن : من غيظ الكفار قول عمر بمكة : لا عبد الله سراً بعد اليوم .

وقوله تعالى : ﴿ منهم ﴾ هي لبيان الجنس وليست للتبعيض ، لأنه وعد مرجٍّ للجميع .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(24/715)

وقال القرطبى :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ ﴾ "مُحَمَّدٌ" مبتدأ و "رَسُولُ" خبره .

وقيل : "مُحَمَّدٌ" ابتداء و "رَسُولُ اللَّهِ" نعته .

﴿ والذين مَعَهُ ﴾ عطف على المبتدأ ، والخبر فيما بعده ؛ فلا يوقف على هذا التقدير على "رَسُولُ اللَّهِ" .

وعلى الأول يوقف على "رَسُولُ اللَّهِ" ؛ لأن صفاته عليه السلام تزيد على ما وصف أصحابه ؛ فيكون "مُحَمَّدٌ" ابتداء و "رَسُولُ اللَّهِ" الخبر "وَالَّذِينَ مَعَهُ" ابتداء ثان .

و "أَشِدَّاءُ" خبره و "رُحَمَاءُ" خبر ثان .

وكون الصفات في جملة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم هو الأشبه .

قال ابن عباس : أهل الحديبية أشداء على الكفار ؛ أي غلاظ عليهم كالأسد على فريسته .

وقيل : المراد ب "الَّذِينَ مَعَهُ" جميع المؤمنين .

﴿ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي يرحم بعضهم بعضاً .

وقيل : متعاطفون متوادّون .

وقرأ الحسن "أشداء على الكفار رحماء بينهم" بالنصب على الحال ، كأنه قال : والذين معه في حال شدّتهم على الكفار وتراحمهم بينهم .

﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً ﴾ إخبار عن كثرة صلاتهم .

﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً ﴾ أي يطلبون الجنة ورضا الله تعالى .

الثانية قوله تعالى : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السجود ﴾ السيما العلامة ؛ وفيها لغتان : المد والقصر ؛ أي لاحت علامات التهجُّد بالليل وأمارات السهر .

وفي سنن ابن ماجه قال : حدّثنا إسماعيل بن محمد الطلخي قال حدّثنا ثابت بن موسى أبو يزيد عن شريك عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار " وقال ابن العربي : ودَسّه قوم في حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم على وجه الغلط ، وليس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيه ذكر بحرف .

وقد روى ابن وهب عن مالك "سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ" ذلك مما يتعلق بجباههم من الأرض عند السجود ؛ وبه قال سعيد بن جبير .

وفي الحديث الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : صلى صبيحة إحدى وعشرين من رمضان وقد وَكَفَ المسجد وكان على عريش ؛ فانصرف النبيّ صلى الله عليه وسلم من صلاته وعلى جبهته وأرنبته أثر الماء والطين .

وقال الحسن : هو بياض يكون في الوجه يوم القيامة .

وقاله سعيد بن جبير أيضاً ، ورواه العَوْفي عن ابن عباس ، قاله الزهري .

وفي الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة ، وفيه : " حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يُخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار مَن كان لا يشرك بالله شيئاً ممن أراد الله أن يرحمه ممن يقول لا إله إلا الله فيعرفونهم في النار بأثر السجود تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود حرّم الله على النار أن تأكل أثر السجود "

وقال شهر بن حَوشب : يكون موضع السجود من وجوههم كالقمر ليلة البدر .

وقال ابن عباس ومجاهد : السيما في الدنيا وهو السَّمْت الحسن .

وعن مجاهد أيضاً ؛ هو الخشوع والتواضع .

قال منصور : سألت مجاهداً عن قوله تعالى : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ ﴾ أهو أثر يكون بين عيني الرجل ؟ قال لا ؛ ربما يكون بين عيني الرجل مثل رُكْبة العنز وهو أقسى قلباً من الحجارة ولكنه نور في وجوههم من الخشوع .

وقال ابن جُرَيج : هو الوقار والبهاء .

وقال شَمِر بن عطية : هو صفرة الوجه من قيام الليل .

قال الحسن : إذا رأيتهم حسبتهم مرضى وما هم بمرضى .

وقال الضحاك : أمَا إنه ليس بالنَّدْب في وجوههم ولكنه الصفرة .

وقال سفيان الثَّوْرِيّ : يصلّون بالليل فإذا أصبحوا رؤي ذلك في وجوههم ؛ بيانه قوله صلى الله عليه وسلم : " من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار " وقد مضى القول فيه آنفاً .

(26/715)

وقال عطاء الخراساني : دخل في هذه الآية كل من حافظ على الصلوات الخمس .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التوراة وَمَثَلُهُمْ فِي الإنجيل ﴾ قال الفرّاء : فيه وجهان ، إن شئت قلت المعنى ذلك مثلهم في التوراة وفي الإنجيل أيضاً ؛ كمثلهم في القرآن ؛ فيكون الوقف على "الْإِنْجِيلِ" وإن شئت قلت : تمام الكلام ذلك مثلهم في التوراة ، ثم ابتدأ فقال : ومثلهم في الإنجيل .

وكذا قال ابن عباس وغيره : هما مثلان ، أحدهما في التوراة والآخر في الإنجيل ؛ فيوقف على هذا على "التَّوْرَاةِ" .

وقال مجاهد : هو مثل واحد ؛ يعني أن هذه صفتهم في التوراة والإنجيل ، فلا يوقف على "التَّوْرَاةِ" على هذا ، ويوقف على "الْإِنْجِيلِ" ، ويبتدىء ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ على معنى وهم كزرع .

و"شَطْأَهُ" يعني فراخه وأولاده ، قاله ابن زيد وغيره .

وقال مقاتل : هو نبت واحد ، فإذا خرج ما بعده فقد شَطَأَه .

قال الجوهري : شَطْءُ الزرع والنبات فراخه ، والجمع أشطاء .

وقد أشطأ الزرعُ خرج شَطْؤه .

قال الأخفش في قوله : "أَخْرَجَ شَطْأَهُ" أي طَرَفَه .

وحكاه الثعلبي عن الكسائي .

وقال الفراء : أشطأ الزرعُ فهو مُشْطِىء إذا خرج.

قال الشاعر :

أخرج الشطء على وجه الثرى . . .

ومن الأشجار أفنان الثمر

الزجاج : أخرج شطأه أي نباته .

وقيل : إن الشطء شوك السُّنْبُل ، والعرب أيضاً تسميه : السَّفَا ، وهو شَوْك البُهْمَى ، قاله قُطْرُب .

وقيل : إنه السنبل ، فيخرج من الحبة عشر سنبلات وتسع وثمان ؛ قاله الفراء ، حكاه الماوردي .

وقرأ ابن كثير وابن ذكوان "شَطَأَه" بفتح الطاء ؛ وأسكن الباقون .

وقرأ أنس ونصر بن عاصم وابن وَثَّاب "شَطَاه" مثل عصاه .

وقرأ الجحدريّ وابن أبي إسحاق "شَطَه" بغير همز ؛ وكلها لغات فيها .

(27/715)

وهذا مثل ضربه الله تعالى لأصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ يعني أنهم يكونون قليلاً ثم يزدادون ويكثرون ؛ فكان النبيّ صلى الله عليه وسلم حين بدأ بالدعاء إلى دينه ضعيفاً فأجابه الواحد بعد الواحد حتى قَوِيَ أمره ؛ كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفاً فيقوى حالاً بعد حال حتى يغلظ نباتُه وأفراخُه .

فكان هذا من أصح مَثَل وأقوى بيان .

وقال قتادة : مثل أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في الإنجيل مكتوب أنه سيخرج من قوم ينبتون نبات الزرع ، يأمرون بالمعروف ويَنْهَوْن عن المنكر .

﴿ فَآزَرَهُ ﴾ أي قوّاه وأعانه وشدّه ؛ أي قوّى الشطءُ الزرع .

وقيل بالعكس ، أي قوّى الزرع الشطء .

وقراءة العامة "آزَرَهُ" بالمدّ .

وقرأ ابن ذكوان وأبو حَيْوَة وحُميد بن قيس "فَأَزَرَهُ" مقصورة ، مثل فَعَلَه .

والمعروف المدّ .

قال امرؤ القيس :

بمَحْنِيَة قد آزر الضّال نَبْتُها . . .

مَجَرّ جيوش غانمين وخُيَّبِ

﴿ فاستوى على سُوقِهِ ﴾ على عوده الذي يقوم عليه فيكون ساقاً له .

والسوق : جمع الساق .

﴿ يُعْجِبُ الزراع ﴾ أي يعجب هذا الزرع زرّاعه .

وهو مَثَلٌ كما بيّنا ، فالزرع محمد صلى الله عليه وسلم ، والشطء أصحابه ، كانوا قليلاً فكثروا ، وضعفاء فقَوُوا ، قاله الضحاك وغيره .

﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكفار ﴾ اللام متعلقة بمحذوف ؛ أي فعل الله هذا لمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ليغيظ بهم الكفار .

الرابعة قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ الله الذين آمَنُواْ ﴾ أي وعد الله هؤلاء الذين مع محمد ، وهم المؤمنون الذين أعمالهم صالحة .

﴿ مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ أي ثواباً لا ينقطع وهو الجنة .

(28/715)

وليست "مِن" في قوله : "منهم" مبعّضة لقوم من الصحابة دون قوم ، ولكنها عامة مجنّسة ، مثل قوله تعالى : ﴿ فاجتنبوا الرجس مِنَ الأوثان ﴾ [الحج : 30] لا يقصد للتبعيض لكنه يذهب إلى الجنس ، أي فاجتنبوا الرجس من جنس الأوثان ، إذ كان الرجس يقع من أجناس شتَّى ، منها الزنى والربا وشرب الخمر والكذب ، فأدخل "مِن" يفيد بها الجنس

وكذا "منهم" ، أي من هذا الجنس ، يعني جنس الصحابة .

ويقال : أنفق نفقتك من الدراهم ، أي اجعل نفقتك هذا الجنس .

وقد يخصص أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بوعد المغفرة تفضيلاً لهم ، وإن وعد الله جميع المؤمنين المغفرة .

وفي الآية جواب آخر : وهو أن "من" مؤكدة للكلام ؛ والمعنى وعدهم الله كلَّهم مغفرة وأجراً عظيماً .

فجرى مجرى قول العربي : قطعت من الثوب قميصاً ؛ يريد قطعت الثوب كله قميصاً .

و"من" لم يبعض شيئاً .

وشاهد هذا من القرآن ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ ﴾ [الإسراء : 82] معناه وننزل القرآن شفاء ؛ لأن كل حرف منه يشفي ، وليس الشفاء مختصًّا به بعضه دون بعض .

على أن من اللغويين من يقول : "من" مجنسة ؛ تقديرها ننزل الشفاء من جنس القرآن ، ومن جهة القرآن ، ومن ناحية القرآن .

قال زهير :

أمن أمّ أوْفَى دِمْنَةٌ لم تَكَلَّم . . .

أراد من ناحية أمّ أَوْفَى دِمْنَةٌ ، أم من منازلها دِمْنَة .

وقال الآخر :

أَخُورغائبَ يعطيها ويسألها . . .

يأبى الظُّلامةَ منه النَّوْفَلُ الزُّفَرُ

ف "من" لم تُبَعِّض شيئاً ، إذ كان المقصد يأبى الظلامة لأنه نَوْفَلٌ زُفَرُ .

والنَّوْفَل : الكثير العطاء .

والزُّفَر : حامل الأثقال والمؤن عن الناس .

الخامسة روى أبو عروة الزبيريّ من ولد الزبير : كنا عند مالك بن أنس ، فذكروا رجلاً ينتقص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأ مالك هذه الآية ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ والذين مَعَهُ ﴾ حتى بلغ ﴿ يُعْجِبُ الزراعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكفار ﴾ .

(29/715)

فقال مالك : مَن أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أصابته هذه الآية ؛ ذكره الخطيب أبو بكر .

قلت : لقد أحسن مالك في مقالته وأصاب في تأويله .

فمن نقص واحداً منهم أو طعن عليه في روايته فقد ردّ على الله رَبِّ العالمين ، وأبطل شرائع المسلمين ؛ قال الله تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ والذين مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار ﴾ الآية .

وقال : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ المؤمنين إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشجرة ﴾ [الفتح : 18] إلى غير ذلك من الآي التي تضمنت الثناء عليهم ، والشهادةَ لهم بالصدق والفلاح ؛ قال الله تعالى : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ اللهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب : 23] .

وقال : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً إلى قوله أولئك هُمُ الصادقون ﴾ [الحشر : 8] ، ثم قال عز من قائل : ﴿ والذين تَبَوَّءُوا الدار والإيمان مِن قَبْلِهِمْ إلى قوله فأولئك هُمُ المفلحون ﴾ [الحشر : 9] .

وهذا كله مع علمه تبارك وتعالى بحالهم ومآل أمرهم ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خَيْرُ الناسِ قَرْنِي ثم الذين يلونهم " وقال : " لا تَسُبُّوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهباً لم يدرك مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفه " خرجهما البخاري .

وفي حديث آخر : " فلو أن أحدكم أنفق ما في الأرض لم يدرك مُدّ أحدهم ولا نَصيفه " قال أبو عبيد : معناه لم يدرك مدّ أحدهم إذا تصدق به ولا نصف المد ؛ فالنصيف هو النصف هنا .

وكذلك يقال للعُشْر عَشِير ، وللخُمس خميس ، وللتسع تَسيع ، وللثّمن ثَمين ، وللسّبع سَبيع ، وللسّدس سَدِيس ، وللرّبع رَبيع .

ولم تقل العرب للثلث ثليث .

وفي البَزّار عن جابر مرفوعاً صحيحاً : " إن الله اختار أصحابي على العالمين سِوى النبيّين والمرسلين واختار لي من أصحابي أربعة يعني أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً فجعلهم أصحابي " وقال : " في أصحابي كلِّهم خير " وروى عُوَيم بن ساعدة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله عزّ وجل اختارني واختار لي أصحابي فجعل لي منهم وزراء وأختاناً وأصهاراً فمن سَبَّهم فعليه لعنة الله والملائكة والناسِ أجمعين ولا يقبل الله منه يوم القيامة صَرْفاً ولا عَدْلاً " والأحاديث بهذا المعنى كثيرة ، فَحذَارِ من الوقوع في أحد منهم ، كما فعل مَن طعن في الدين فقال : إن الْمُعَوِّذَتَيْن ليستا من القرآن ، وما صحّ حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تثبيتهما ودخولهما في جملة التنزيل إلا عن عقبة بن عامر ، وعقبة بن عامر ضعيف لم يوافقه غيره عليها ، فروايته مطّرحة .

وهذا ردّ لما ذكرناه من الكتاب والسنّة ، وإبطال لما نقلته لنا الصحابة من المِلّة .

فإن عقبة بن عامر بن عيسى الجُهَني ممن روى لنا الشريعة في الصحيحين البخاري ومسلم وغيرهما ، فهو ممن مدحهم الله ووصفهم وأثنى عليهم ووعدهم مغفرة وأجراً عظيماً .

فمن نسبه أو واحداً من الصحابة إلى كذب فهو خارج عن الشريعة ، مبطل للقرآن طاعن على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومتى ألحِق واحد منهم تكذيباً فقد سُبّ ؛ لأنه لا عار ولا عَيْب بعد الكفر بالله أعظمُ من

الكذب ، وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من سَبّ أصحابه ؛ فالمكذّب لأصغرهم ولا صغير فيهم داخلٌ في لعنة الله التي شهد بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وألزمها كلّ مَن سب واحداً من أصحابه أو طعن عليه .

(31/715)

وعن عمر بن حبيب قال : حضرت مجلس هارون الرشيد فجرت مسألة تنازعها الحضور وعلت أصواتهم ؛ فاحتج بعضهم بحديث يرويه أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فرفع بعضهم الحديث وزادت المدافعة والخصام حتى قال قائلون منهم : لا يُقبل هذا الحديث على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن أبا هريرة مُتَّهَم فيما يرويه ، وصَرّحوا بتكذيبه ، ورأيت الرشيد قد نحا نحوهم ونَصَر قولهم فقلت أنا : الحديث صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو هريرة صحيح النقل صدوق فيما يرويه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وغيره ؛ فنظر إليّ الرشيد نظر مُغْضِب ، وقمت من المجلس فانصرفت إلى منزلي ، فلم ألبث حتى قيل : صاحب البريد بالباب ، فدخل فقال لي : أجب أمير المؤمنين إجابة مقتول ، وتحنّط وتكفّن ! فقلت : اللَّهُم إنك تعلم أني دفعت عن صاحب نبيّك ، وأجللت نبيّك أن يطعن على أصحابه ، فَسلِّمني منه .

فأدخلت على الرشيد وهو جالس على كرسي من ذهب ، حاسر عن ذراعيه ؛ بيده السيف وبين يديه النِّطْع ؛ فلما بَصُرَ بي قال لي : يا عمر بن حبيب ما تلقّاني (أحد) من الرد والدفع (لقولي بمثل) ما تلقّيتني به ! فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن الذي قلتَه وجادلت عنه فيه ازدراء على رسول الله صلى الله عليه وسلم (وعلى ما جاء به) ؛ إذا كان أصحابه كذابين فالشريعة باطلة ، والفرائض والأحكام في الصيام والصلاة والطلاق والنكاح والحدود كلّه مردود غير مقبول ! فرجع إلى نفسه ثم قال : أحييتني يا عمر بن حبيب أحياك الله ؛ وأمر لي بعشرة آلاف درهم .

قلت : فالصحابة كلّهم عدول ، أولياء الله تعالى وأصفياؤه ، وخِيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله .

هذا مذهب أهل السنة ، والذي عليه الجماعة من أئمة هذه الأمة .

وقد ذهبت شِرذمة لا مبالاة بهم إلى أن حال الصحابة كحال غيرهم ، فيلزم البحث عن عدالتهم .

(32/715)

ومنهم من فرق بين حالهم في بُداءة الأمر فقال : إنهم كانوا على العدالة إذ ذاك ؛ ثم تغيّرت بهم الأحوال فظهرت فيهم الحروب وسفك الدماء ؛ فلا بُدّ من البحث .

وهذا مردود ؛ فإن خيار الصحابة وفضلاءهم كعليّ وطلحة والزبير وغيرهم رضي الله عنهم ممن أثنى الله عليهم وزكّاهم ورضي عنهم وأرضاهم ووعدهم الجنة بقوله تعالى : ﴿ مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ .

وخاصة العشرة المقطوع لهم بالجنة بإخبار الرسول هم القدوة مع علمهم بكثير من الفتن والأمور الجارية عليهم بعد نبيّهم بإخبارهم لهم بذلك .

وذلك غير مسقط من مرتبتهم وفضلهم ، إذ كانت تلك الأمور مبنية على الاجتهاد ، وكل مجتهد مصيب .

وسيأتي الكلام في تلك الأمور في سورة "الحجرات" مبيّنة إن شاء الله تعالى . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(33/715)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ﴾

رأى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قبل خروجه إلي الحديبية .

وقال مجاهد : كانت الرؤيا بالحديبية أنه وأصحابه دخلوا مكة آمنين ، وقد حلقوا وقصروا .

فقص الرؤيا على أصحابه ، ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم ، وقالوا : إن رؤيا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حق .

فلما تأخر ذلك ، قال عبد الله أبيّ ، وعبد الله بن نفيل ، ورفاعة بن الحرث : والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام .

فنزلت .

وروي أن رؤياه كانت : أن ملكاً جاءه فقال له : ﴿ لتدخلنّ ﴾ .

الآية ومعنى ﴿ صدق الله ﴾ : لم يكذبه ، والله تعالى منزه عن الكذب وعن كل قبيح .

وصدق يتعدى إلى اثنين ، الثاني بنفسه وبحرف الجر .

تقول : صدقت زيداً الحديث ، وصدقته في الحديث ؛ وقد عدها بعضهم في أخوات استغفر وأمر .

وقال الزمخشري : فحذف الجار وأوصل الفعل لقوله تعالى : ﴿ صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ انتهى .

فدل كلامه على أن أصله حرف الجر .

وبالحق متعلق بمحذوف ، أي صدقاً ملتبساً بالحق .

﴿ لتدخلن ﴾ : اللام جواب قسم محذوف ، ويبعد قول من جعله جواب بالحق ؛ وبالحق قسم لا تعلق له بصدق ، وتعليقه على المشيئة ، قيل : لأنه حكاية قول الملك للرسول (صلى الله عليه وسلم) ، قاله ابن كيسان .

وقيل : هذا التعليق تأدب بآداب الله تعالى ، وإن كان الموعود به متحقق الوقوع ، حيث قال تعالى : ﴿ ولا تقولنّ لشيء إن فاعل غداً إلا أن يشاء الله ﴾ وقال ثعلب : استثنى فيما يعلم ليستثنى الخلق فيما لا يعلمون .

وقال الحسن بن الفضل : كأن الله علم أن بعض الذين كانوا بالحديبية يموت ، فوقع الاستثناء لهذا المعنى .

وقال أبو عبيدة : وقوم إن بمعنى إذ ، كما قيل في قوله : ﴿ وإنا أن شاء الله بكم لاحقون ﴾ .

وقيل : هو تعليق في قوله : ﴿ آمنين ﴾ ، لا لأجل إعلامه بالدخول ، فالتعليق مقدم على موضعه .

(34/715)

وهذا القول لا يخرج التعليق عن كونه معلقاً على واجب ، لأن الدخول والأمن أخبر بهما تعالى ، ووقعت الثقة بالأمرين وهما الدخول والأمن الذي هو قيد في الدخول .

و ﴿ آمنين ﴾ : حال مقارنة للدخول .

ومحلقين ومقصرين : حال مقدرة ؛ ولا تخافون : بيان لكمال الأمن بعد تمام الحج .

ولما نزلت هذه الآية علم المسلمون أنهم يدخلونها فيما يستأنف ، واطمأنت قلوبهم ودخلوها معه عليه الصلاة والسلام في ذي القعدة سنة سبع وذلك ثلاثة أيام هو وأصحابه ، وصدقت رؤياه (صلى الله عليه وسلم) .

﴿ فعلم ما لم تعلموا ﴾ : أي ما قدره من ظهور الإسلام في تلك المدة ، ودخول الناس فيه ، وما كان أيضاً بمكة من المؤمنين الذين دفع الله بهم ، قاله ابن عطية .

وقال الزمخشري : فعلم ما لم تعلموا من الحكمة والصواب في تأخير فتح مكة إلى العام القابل . انتهى .

ولم يكن فتح مكة في العام القابل ، إنما كان بعد ذلك بأكثر من عام ، لأن الفتح إنما كان ثمان من الهجرة .

﴿ فجعل من دون ذلك ﴾ : أي من قبل ذلك ، أي من زمان دون ذلك الزمان الذي وعدوا فيه بالدخول .

فتحاً قريباً ، قال كثير من الصحابة : هذا الفتح القريب هو بيعة الرضوان .

وقال مجاهد وابن إسحاق : هو فتح الحديبية .

وقال ابن زيد : خيبر ، وضعف قول من قال إنه فتح مكة ، لأن فتح مكة لم يكن دون دخول الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه مكة ، بل كان بعد ذلك .

﴿ هو الذي أرسل رسوله ﴾ : فيه تأكيد لصدق رؤياه (صلى الله عليه وسلم) ، وتبشير بفتح مكة لقوله تعالى : ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ ، وتقدم الكلام على معظم هذه الآية .

﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ على أن ما وعده كائن .

وعن الحسن : شهيداً على نفسه أنه سيظهر دينك .

والظاهر أن قوله : ﴿ محمد رسول الله ﴾ مبتدأ وخبر .

وقيل : رسوله الله صفة .

وقال الزمخشري : عطف بيان ، ﴿ والذين ﴾ معطوف ، والخبر عنه وعنهم أشداء .

(35/715)

وأجاز الزمخشري أن يكون محمد خبر مبتدأ محذوف ، أي هو محمد ، لتقدم قوله : ﴿ هو الذي أرسل رسوله ﴾ .

وقرأ ابن عامر في رواية : رسوله الله بالنصب على المدح ، والذين معه هم من شهد الحديبية ، قاله ابن عباس .

وقال الجمهور : جميع أصحابه أشداء ، جمع شديد ، كقوله : ﴿ أعزة على الكافرين ﴾ ﴿ رحماء بينهم ﴾ ، كقوله : ﴿ أذلة على المؤمنين ﴾ وكقوله : ﴿ وأغلظ عليهم ﴾ وقوله : ﴿ بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ وقرأ الحسن : أشداء رحماء بنصبهما .

قيل : على المدح ، وقيل : على الحال ، والعامل فيهما العامل في معه ، ويكون الخبر عن المتبدأ المتقدم : تراهم .

وقرأ يحيى بن يعمر : أشدا ، بالقصر ، وهي شاذة ، لأن قصر الممدود إنما يكون في الشعر ، نحو قوله :

لا بد من صنعا وإن طال السفر . . .

وفي قوله : ﴿ تراهم ركعاً سجداً ﴾ دليل على كثرة ذلك منهم .

وقرأ عمرو بن عبيد : ورضواناً ، بضم الراء .

وقرىء : سيمياهم ، بزيادة ياء والمد ، وهي لغة فصيحة كثيرة في الشعر ، قال الشاعر :

غلام رماه الله بالحسن يافعا . . .

له سيمياء لا تشق على البصر

وهذه السيما ، قال مالك بن أنس : كانت جباههم منيرة من كثرة السجود في التراب .

وقال ابن عباس ، وخالد الحنفي ، وعطية : وعد لهم بأن يجعل لهم نوراً يوم القيامة من أثر السجود .

وقال ابن عباس أيضاً : السمت : الحسن وخشوع يبدو على الوجه .

وقال الحسن ، ومعمر بن عطية : بياض وصفرة وبهيج يعتري الوجه من السهر .

وقال عطاء ، والربيع بن أنس : حسن يعتري وجوه المصلين .

وقال منصور : سألت مجاهداً : هذه السيما هي الأثر يكون بين عيني الرجل ؟ قال : لا ، وقد تكون مثل ركبة البعير ، وهي أقسى قلباً من الحجارة .

وقال ابن جبير : ذلك مما يتعلق بجباههم من الأرض عند السجود .

وقال الزمخشري : المراد بها السمة التي تحدث في جبهة السجاد من كثرة السجود .

وقوله : ﴿ من أثر السجود ﴾ يفسرها : أي من التأثير الذي يؤثره السجود .

(36/715)

وكان كل من العليين ، علي بن الحسين زين العابدين ، وعلي بن عبد الله بن العباس أبي الملوك ، يقال له ذو الثفنات ، لأن كثرة سجودهما أحدثت في مواقعه منهما أشباه ثفنات البعير . انتهى .

وقرأ ابن هرمز : إثر ، بكسر الهمزة وسكون الثاء ، والجمهور بفتحهما .

وقرأ قتادة : من آثار السجود ، بالجمع .

﴿ ذلك ﴾ : أي ذلك الوصف من كونهم أشداء رحماء مبتغين سيماهم في وجوههم صفتهم في التوراة .

قال مجاهد والفراء : هو مثل واحد ، أي ذلك صفتهم في التوراة والإنجيل ، فيوقف على الإنجيل .

وقال ابن عباس : هما مثلان ، فيوقف على ذلك في التوراة ؛ وكزرع : خبر مبتدأ محذوف ، أي مثلهم كزرع ، أو هم كزرع .

وقال الضحاك : المعنى ذلك الوصف هو مثلهم في التوراة وتم الكلام ، ثم ابتدأ ومثلهم في الإنجيل كزرع ، فعلى هذا يكون كزرع خبر ومثلهم .

وقال قتادة : مثل أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) في الإنجيل مكتوب أنه سيخرج من أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) قوم ينتبون نباتاً كالزرع ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون ذلك إشارة مبهمة أوضحت بقوله : ﴿ كزرع أخرج شطأه ﴾ ، كقوله : ﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء ﴾ وقال ابن عطية : وقوله : كزرع ، هو على كلا الأقوال ، وفي أي كتاب أنزل ، فرض مثل للنبي (صلى الله عليه وسلم)

وأصحابه في أن النبي (صلى الله عليه وسلم) بعث وحده ، فكان كالزرع حبة واحدة ، ثم كثر المسلمون فهم كالشطء ، وهو فراخ السنبلة التي تنبت حول الأصل . انتهى .

وقال ابن زيد : شطأه : فراخه وأولاده .

وقال الزجاج : نباته .

وقال قطرب : شتول السنبل يخرج من الحبة عشر سنبلات وتسع وثمان ، قاله الفراء .

وقال الكسائي والأخفش : طرفه ، قال الشاعر :

أخرج الشطء على وجه الثرى . . .

ومن الأشجار أفنان الثمر

(37/715)

وقرأ الجمهور : شطأه ، بإسكان الطاء والهمزة ؛ وابن كثير ، وابن ذكوان : بفتحهما ؛ وكذلك : وبالمدّ ، أبو حيوة وابن أبي عبلة وعيسى الكوفي ؛ وبألف بدل الهمزة ، زيد بن علي ؛ فاحتمل أن يكون مقصوراً ، وأن يكون أصله الهمز ، فنقل الحركة وأبدل الهمزة ألفاً . كما قالوا في المرأة والكمأة : المراة والكماة ، وهو تخفيف مقيس عند الكوفيين ، وهو عند البصريين شاذ لا يقاس عليه .

وقرأ أبو جعفر : شطه ، بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على الطاء .

ورويت عن شيبة ، ونافع ، والجحدري ، وعن الجحدري أيضاً : شطوه بإسكان الطاء وواو بعدها .

وقال أبو الفتح : هي لغة أو بدل من الهمزة ، ولا يكون الشط إلا في البر والشعير ، وهذه كلها لغات .

وقال صاحب اللوامح : شطأ الزرع وأشطأ ، إذا أخرج فراخه ، وهو في الحنطة والشعير وغيرهما .

وقرأ ابن ذكوان : فأزره ثلاثياً ؛ وباقي السبعة : فآزره ، على وزن أفعله .

وقرىء : فازّره ، بتشديد الزاي .

وقول مجاهد وغيره : آزره فاعله خطأ ، لأنه لم يسمع في مضارعه إلا يؤزر ، على وزن يكرم ؛ والضمير المنصوب في آزره عائد على الزرع ، لأن الزرع أول ما يطلع رقيق الأصل ، فإذا خرجت فراخه غلظ أصله وتقوى ، وكذلك أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كانوا أقلة ضعفاء ، فلما كثروا وتقووا قاتلوا المشركين .

وقال الحسن : آزره : قواه وشدّ أزره .

وقال السدي : صار مثل الأصل في الطول .

﴿ فاستغلظ ﴾ : صار من الرقة إلى الغلظ .

﴿ فاستوى ﴾ : أي تم نباته .

﴿ على سوقه ﴾ : جمع ساق ، كناية عن أصوله .

وقرأ ابن كثير : على سؤقه بالهمز .

قيل : وهي لغة ضعيفة يهمزون الواو الذي قبلها ضمة ، ومنه قول الشاعر :

أحب المؤقدين إليّ مؤسي . . .

﴿ يعجب الزراع ﴾ : جملة في موضع الحال ؛ وإذا أعجب الزراع ، فهو أحرى أن يعجب غيرهم لأنه لا عيب فيه ، إذ قد أعجب العارفين بعيوب الزرع ، ولو كان معيباً لم يعجبهم ، وهنا تم المثل .

(38/715)

و ﴿ ليغيظ ﴾ : متعلق بمحذوف يدل عليه الكلام قبله تقديره : جعلهم الله بهذه الصفة ﴿ ليغيظ بهم الكفار ﴾ .

وقال الزمخشري : فإن قلت : ليغيظ بهم الكفار تعليل لماذا ؟ قلت : لما دل عليه تشبيههم بالزرع من نمائهم وترقيهم في الزيادة والقوّة ، ويجوز أن يعلل به .

﴿ وعد الله الذين آمنوا ﴾ : لأن الكفار إذا سمعوا بما أعدّ لهم في الآخرة مع ما يعزهم به

في الدنيا غاظهم ذلك .

ومعنى : ﴿ منهم ﴾ : للبيان ، كقوله تعالى : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ وقال ابن عطية : وقوله منهم ، لبيان الجنس وليست للتبعيض ، لأنه وعد مدح الجميع .

وقال ابن جرير : منهم يعني : من الشطء الذي أخرجه الزرع ، وهم الداخلون في الإسلام بعد الزرع إلى يوم القيامة ، فأعاد الضمير على معنى الشطء لا على لفظة .

والأجر العظيم : الجنة .

وذكر عند مالك بن أنس رجل ينتقص الصحابة ، فقرأ مالك هذه الآية وقال : من أصبح بين الناس في قلبه غيظ من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فقد أصابته هذه الآية ، والله الموفق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(39/715)

وقال الثعالبى :

وقوله تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ﴾

قال جمهور الناس : هو ابتداء وخبر ، استوفى فيه تعظيمَ منزلة النبي صلى الله عليه وسلم .

وقوله: ﴿ والذين مَعَهُ ﴾ ابتداء، وخبره: ﴿ أَشِدَّاءُ ﴾ و ﴿ رُحَمَاءُ ﴾ خبر ثانٍ، وهذا هو الراجح؛ لأَنَّهُ خبر مضاد لقول الكفار: «لا تكتب مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ»، ﴿ والذين مَعَهُ ﴾ إشارة إلى جميع الصحابة عند الجمهور، وحكى الثعلبيُّ عن ابن عباس أَنَّ الإشارة إلى مَنْ شَهِدَ الحديبية.

(40/715)

---

* ت *: ووصف تعالى الصحابة بأَنَّهُمْ رحماء بينهم، وقد جاءت أحاديثُ صحيحةٌ في تراحم المؤمنين؛ حدثنا الشيخ وليُّ الدين العراقيُّ بسنده عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاصي أَنَّ رسولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم قال: " الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرحمن؛ ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ " وأخرج الترمذيُّ من طريق أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قال: " لاَ تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إِلاَّ مِنْ [قَلْبٍ] شَقِيٍّ " وخَرَّجَ عن جرير بن عبد اللَّه قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم: " مَنْ لاَ يَرْحَمِ النَّاسَ، لاَ يَرْحَمْهُ اللَّهُ " قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وهذا الحديث خَرَّجه مسلم عن جرير، وخَرَّجَ مسلم أيضاً من طريق أبي هريرةَ: " مَنْ لاَ يَرْحَمْ لاَ يُرْحَمْ " انتهى، وبالجملة: فأسباب الألفة والتراحم بين المؤمنين كثيرةٌ، ولو بأَنْ تَلْقَى أخاك بوجه طَلْقٍ، وكذلك بَذْلُ السلام وَطِيبُ

الكلام ، فالمُوَفَّقُ لا يحتقر من المعروف شيئاً ، وقد روى الترمذي الحكيم في كتاب «ختم الأولياء» له بسنده عن عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه قال : سمعتُ رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم يقول : " إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ كَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَحْسَنُهُمَا بِشْراً بِصَاحِبِهِ " أَوْ قَالَ : " أَكْثَرُهُمَا [بِشْراً] بِصَاحِبِهِ ، فَإِذَا تَصَافَحَا ، أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا مِائَةَ رَحْمَةٍ ، تِسْعُونَ مِنْهَا لِلَّذِي بَدَأَ ، وَعَشَرَةٌ لِلَّذِي صُوفِحَ " انتهى .

وقوله : ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً ﴾ أي : ترى هاتين الحالتين كثيراً فيهم و ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ : معناه : يطلبون .

(41/715)

وقوله سبحانه : ﴿ سيماهم فِى وُجُوهِهِمْ ﴾ قال مالك بن أنس : كانت جِبَاهُهُم مَتْرِبَةً من كثرة السجود في التراب ؛ وقاله عِكْرِمَةُ ، ونحوه لأبي العالية ، وقال ابن عباس وخالد الحنفي وعطية : هو وعد بحالهم يومَ القيامة من اللَّه تعالى ، يجعل لهم نوراً من أَثَر السجود ، قال *ع* : كما يجعل غُرَّةً من أثر الوضوء ، حسبما هو في الحديث ، ويؤيد هذا التأويلَ اتصالُ القولِ بقوله : «فَضْلاً مِنَ اللَّهِ» وقال ابن عباس : السَّمْتُ الحَسَنُ هو السيما ، وهو خشوع يبدو على الوجه ، قال *ع* : وهذه حالة مُكْثِري الصلاةَ ؛ لأَنَّها تنهاهم عن

الفحشاء والمنكر ، وقال الحسن بن أبي الحسن ، وشِمْرُ بن عَطِيَّةَ : «السيما» : بَيَاضٌ وصُفْرَةٌ وتَبْهِيجٌ يعتري الوجوهَ من السَّهَرِ ، وقال عطاء بن أبي رباح ، والربيع بن أنس : «السِّيمَا» : حُسْنٌ يعتري وُجُوهَ المُصَلِّينَ ، قال *ع* : ومن هذا الحديثُ الذي في «الشِّهاب» :

(42/715)

" مَنْ كَثُرَتْ صَلاَتُهُ بِاللَّيْلِ حَسُنَ وَجْهُهُ بِالنَّهَارِ " قال *ع* : وهذا حديث غَلِطَ فيه ثابت بن موسى الزاهد ، سَمِعَ شَرِيكَ بنَ عبد اللَّه يقول : حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ عن أبي سفيانِ ، عن جابر ، ثم نزع شريك لما رأى ثابتاً الزاهد فقال يعنيه : مَنْ كَثُرَتْ صَلاَتُهُ بِاللَّيْلِ ، حَسُنَ وَجْهُهُ بِالنَّهَارِ ، فَظَنَّ ثابت أَنَّ هذا الكلام حديث متركّب على السند المذكور ، فَحَدَّثَ به عن شريك .

(43/715)

---

* ت * : واعلم أَنَّ اللَّه سبحانه جعل حُسْنَ الثناء علامةً على حسن عُقْبَى الدار ، والكون في الجنة مع الأبرار ، جاء بذلك صحيح الآثار عن النبي المختار ؛ ففي «صحيح البخاريّ» «ومسلم» عن أنس قال : " مَرُّوا بِجَنَازَةٍ فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا خَيْراً ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : وَجَبَتْ ، ثُمَّ مَرُّوا بأخرى فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا شَرًّا ، فَقَالَ : وَجَبَتْ ، فَقَالَ عُمَرُ : مَا وَجَبَتْ ؟ فَقَالَ : هَذا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْراً فَوَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ ، وَهَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الأَرْضِ " ، انتهى ، ونقل صاحب «الكوكب الدُّرِّيِّ» من مسند البَزَّارِ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّه قال : "يُوشِكُ أَنْ تَعْرِفُوا أَهْلَ الجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، بِمَ ؟ قَالَ : بالثَّنَاءِ الحَسَنِ وَالثَّنَاءِ السَّيِّىءِ " ، انتهى ، ونقله صاحب كتاب «التشوُّف إلى رجال التصوُّف» وهو الشيخ الصالح أبو يعقوب يوسف بن يحيى التالي ، عن ابن أبي شيبةَ ، ولفظه : وخَرَّجَ أبو بكر بن أبي شيبة أَنَّهُ قال صلى الله عليه وسلم في خُطْبَتِهِ : " تُوشِكُوا أَنْ تَعْرِفُوا أَهْلَ الجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، أَوْ قَالَ : خِيَارَكُمْ مِنْ شِرَارِكُمْ ، قَالُوا : بِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : بِالثَّنَاءِ الحَسَنِ ، وَبِالثَّنَاءِ السَّيِّىءِ ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ " ومن كتاب «التشوُّف» قال : وخَرَّجَ البزَّارُ عن أنس قال : " قيل : يا رَسُولَ اللَّهِ ، مَنْ أَهْلُ الجَنَّةِ ؟ قال : مَنْ لاَ يَمُوتُ حتى تَمْلأَ مَسَامِعُهُ مِمَّا يُحِبُّهُ ، قِيلَ : فَمَنْ أَهْلُ النَّارِ ؟ قَالَ : مَنْ لاَ يَمُوتُ حَتَّى تَمْلأَ مَسَامِعُهُ مِمَّا يَكْرَهُ "

قال : وخَرَّجَ البَزَّارُ عن أبي هريرةَ " أَنَّ رجلاً قال : يا رَسُولَ اللَّهِ ، دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ أَدْخُلُ بِهِ الجَنَّةَ ، قَالَ : لاَ تَغْضَبْ ، وَأَتَاهُ آخَرُ ، فَقَالَ : متى أَعْلَمُ أَنِّي مُحْسِنٌ ؟ قَالَ : إذَا قَالَ جِيرَانُكَ : إنَّكَ مُحْسِنٌ ، فَإنَّكَ مُحْسِنٌ ، وَإذَا قَالُوا : إنَّكَ مُسِيءٌ ، فَإنَّكَ مُسِيءٌ " انتهى ، ونقل القرطبي في «تذكرته» عن عبد اللَّه بن السائب قال : مَرَّتْ جنازةٌ بابن مسعود فقال لرجُلٍ : قُمْ فانظرْ أَمِنْ أهل الجَنَّةِ هُوَ أَمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، فقال الرجل : ما يُدْرِينِي أمِنْ أهل الجنة هو أَمْ مِنْ أهل النار ؟ قال : انظر ما ثَنَاءُ الناسِ عليه ، فأنتم شهداءُ اللَّه في الأرض ، انتهى وباللَّه التوفيق ، وإياه نستعين .

(45/715)

وقوله سبحانه : ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التوراة . . . ﴾ الآية : قال مجاهد وجماعة من المتأولين : المعنى : ذلك الوصف هو مَثَلُهُمْ في التوراة ومثلهم في الإنجيل ، وتم القول ، و ﴿ كَزَرْعٍ ﴾ ابتداءُ تمثيل ، وقال الطبريُّ وحكاه عن الضَّحَّاك : المعنى : ذلك الوصف هو مثلهم في التوراة ، وتَمَّ القولُ ، ثم ابتدأ ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِى الإنجيل كَزَرْعٍ ﴾ .

* ت * : وقيل غير هذا ، وأبينها الأَوَّلُ ، وما عداه يفتقر إلى سند يقطع الشكِ .

وقوله تعالى: ﴿ كَزَرْعٍ ﴾ على كل قول هو مَثَلٌ للنبيِّ عليه السلام وأصحابِهِ في أَنَّ النبي عليه السلام بُعِثَ وَحْدَهُ فكان كالزرع حَبَّةً واحدة، ثم كَثُرَ المسلمون فهم كالشطء، وهو فراخ السُّنْبُلَةِ التي تنبت حول الأصل؛ يقال: أشطأتِ الشجرةُ: إذا أخرجت غُصُونَها، وأشطأ الزرع: إذا أخرج شطأه، وحكى النقاش عن ابن عباس أَنَّهُ قال: الزَّرْعُ: النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم، ﴿ فَآزَرَهُ ﴾: عليُّ بن أبي طالب، ﴿ فاستغلظ ﴾ بأبي بكر، ﴿ فاستوى على سُوقِهِ ﴾ بعمر بن الخطاب.

* ت *: وهذا لَيِّنُ الإسناد والمتن، كما ترى، واللَّه أعلم بِصِحَّتِهِ.

وقوله تعالى: ﴿ فَآزَرَهُ ﴾ له معنيان:

أحدهما: ساواه طولاً.

والثَّاني: أنَّ: «آزره» و«وَازَرَهُ» بمعنى: أعانه وَقَوَّاهُ؛ مأخوذٌ من الأَزَرِ، وفَاعِلُ «آزر» يحتمل أَنْ يكون الشَّطْءَ، ويحتمل أَنْ يكون الزَّرْعَ.

وقوله تعالى: ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكفار ﴾ ابتداء كلام قبله محذوف، تقديره: جعلهم اللَّه بهذه الصفة؛ ليغيظ بهم الكفار، قال الحسن: مِنْ غَيْظِ الكُفَّارِ قولُ عُمَرَ بِمَكَّةَ: لاَ يُعْبَدُ اللَّهُ سِرّاً بَعْدَ الْيَوْمِ.

وقوله تعالى: ﴿ مِنْهُمْ ﴾ هي لبيان الجنس، وليست للتبعيض؛ لأَنَّه وعد مرجٍ للجميع.

انتهى انتهى. اهـ ﴿الجواهر الحسان حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرؤيا ﴾

رَأَى رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم قبلَ خروجِه إلى الحُديبيةِ كأنَّه وأصحابَهُ قد دخلُوا مكةَ آمنينَ وقد حلقُوا رؤوسَهُم وقصَّروا فقصَّ الرؤيا على أصحابِه ففرحوا واستبشرُوا وحسبُوا أنَّهم داخلُوها في عامِهم فلمَّا تأخرَ ذلكَ قال عبدُ اللَّهِ بنُ أُبيَ وعبدُ اللَّهِ بن نُفيلٍ ورفاعةُ بنُ الحارثِ واللهِ ما حلقنَا ولا قصَّرنَا ولا رأينا المسجد الحرامَ فنزلتْ أي صدقَه صلى الله عليه وسلم في رُؤياهُ كما في قولِهم صَدَقَنِي سِنُّ بَكْرِهِ وتحقيقُه أراهُ الرؤيا الصادقةَ . وقوله تعالى : ﴿ بالحق ﴾ إما صفةٌ لمصدرٍ مؤكدٍ محذوفٍ أي صدقاً ملتبساً بالحقِّ أي بالغرضِ الصحيحِ والحكمةِ البالغةِ التي هيَ التمييزُ بين الراسخِ في الإيمانِ والمتزلزلِ فيه ، أو حالٌ من الرُّؤيا أي ملتبسةً بالحقِّ ليستْ من قبيلِ أضغاثِ الأحلامِ وقد جُوِّزَ أن يكونَ قسماً بالحقِّ الذي هُو من أسماءِ الله تعالى أو بنقيضِ الباطلِ . وقولُه تعالَى : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام ﴾ جوابُه وهو عَلى الأولينِ جوابُ قسمٍ محذوفٍ أيْ واللهِ لتدخلنَّ إلخ . وقولُه تعالَى : ﴿ إِن شَاءَ الله ﴾ تعليقٌ للعِدَةِ بالمشيئةِ لتعليمِ العبادِ للإشعارِ بأنَّ

بعضَهُم لا يدخلونَهُ لموتٍ أو غَيبةٍ أو غيرِ ذلكَ أو هيَ حكايةٌ لما قالَهُ ملكُ الرُّؤيا لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم أو لما قالَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لأصحابِه ﴿ ءامِنِينَ ﴾ حالٌ من فاعلِ لتدخُلنَّ والشرطُ معترضٌ وكذا قولُه تعالَى : ﴿ مُحَلِّقِينَ رُءوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ أي مُحلِّقاً بعضُكم ومُقصِّراً آخرونَ ، وقيلَ : مُحلِّقينَ حالٌ منْ ضميرِ آمنينَ فتكون متداخلةً ﴿ لاَ تخافون ﴾ حالٌ مؤكدةٌ من فاعلِ لتدخُلنَّ إو آمنينَ أو محلِّقينَ أو مقصِّرينَ ، أو استئنافٌ أيْ لا تخافونَ بعدَ ذلكَ ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ ﴾ عطفٌ على صدقَ ، والمرادُ بعلمِه تعالَى العلمُ الفعليُّ المتلعقُ

(47/715)

بأمرٍ حادثٍ بعد المعطوفِ عليه ، أي فعلمَ عَقيبَ ما أراهُ الرؤيا الصادقةَ ما لم تعلمُوا منَ الحكمةِ الداعيةِ إلى تقديمِ ما يشهدُ بالصدقِ علماً فعلياً ﴿ فَجَعَلَ ﴾ لأجلِه ﴿ مِن دُونِ ذَلِكَ ﴾ أي من دونِ تحققِ مصداقِ ما أراهُ من دخولِ المسجدِ الحرامِ إلخ ﴿ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ وهُو فتحُ خيبرَ ، والمرادُ بجعلِه وعدُه وإنجازُه من غيرِ تسويفٍ ليستدل به على صدقِ الرُّؤيا حسبمَا قالَ ولتكونَ آيةً للمؤمنينَ . وأمَّا جعلُ ما في قولِه تعالى ما لم تعلمُوا عبارةً عن الحكمةِ في تأخيرِ فتحِ مكةَ إلى العامِ القابلِ كما جنحَ إليه الجمهورُ فتأباه الفاءُ فإن علمَه تعالَى بذلكَ

متقدمٌ على إراءةِ الرؤيا قطعاً .

﴿ هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهدى ﴾ أي ملتبساً به أو بسببهِ ولأجلِه ﴿ وَدِينِ الحق ﴾ وبدينِ الإسلامِ ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ ﴾ ليُعْليه على جنسِ الدينِ بجميعِ أفرادِه التي هي الأديانُ المختلفةُ بنسخِ ما كان حقاً من بعضِ الأحكامِ المتبدلةِ بتبدلِ الأعصارِ وإظهارِ بُطلانِ ما كانَ باطلاً أو بتسليطِ المسلمينَ على أهلِ سائرِ الأديانِ إذْ مَا من أهلِ دينٍ إلا وقد قهرهُم المسلمونَ ، وفيه فضل تأكيد لما وعد من الفتح وتوطين لنفوس المؤمنين على أنه سبحانه سيفتحُ لهم من البلادِ ويتيحُ لهم من الغلبةِ على الأقاليمِ ما يستقلُّون إليه فتحَ مكةَ ﴿ وكفى بالله شَهِيداً ﴾ على أنَّ ما وعده كائنٌ لا محالةَ أو على نبوتِه عليه الصلاةُ والسلامُ بإظهارِ المعجزاتِ .

(48/715)

﴿ مُحَمَّدٌ ﴾ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ . وقولُه تعالى ﴿ رَسُولُ الله ﴾ بدلٌ أو بيانٌ أو نعتٌ ، أيْ ذلكَ الرسولُ المرسلُ بالهُدَى ودينِ الحقِّ محمدٌ رسولُ الله ، وقيلَ : محمدٌ ، مبتدأ ، رسولُ الله خبرُهُ والجملةُ مبينةٌ للمشهودِ بهِ . وقولُه تعالَى ﴿ والذين مَعَهُ ﴾ مبتدأٌ خبرُهُ ﴿ أَشِدَّاء عَلَى الكفار رُحَمَاء بَيْنَهُمْ ﴾ وأشداءُ جمعُ شديدٍ ، ورحماءُ جمع رحيمٍ ،

والمعنى أنَّهم يُظهرونَ لمن خالفَ دينَهُم الشدةَ والصَّلابةَ ولمن وافقَهُم في الدِّينِ الرحمةَ والرأفةَ ، كقولِه تعالى : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى المؤمنين أَعِزَّةٍ عَلَى الكافرين ﴾ وقُرِىءَ أشداءَ ورحماءَ بالنَّصبِ على المدحِ أو على الحالِ من المستكنِّ في معه لوقوعِه صلةً فالخبرُ حينئذٍ قولُه تعالى ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً ﴾ أي تشاهدُهم حالَ كونِهم راكعينَ ساجدينَ لمواظبتِهم على الصَّلواتِ ، وهُو على الأولِ خبرٌ آخرُ ، أو استئنافٌ . وقولُه تعالَى : ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً ﴾ أي ثواباً ورضاً إما خبرٌ آخرُ ، أو حالٌ من ضميرِ تراهُم أو من المستترِ في ركَّعاً سُجَّداً أو استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأَ من بيانِ مواظبتِهم على الركوعِ والسجودِ كأنَّه قيلَ ماذَا يردونَ بذلكَ فقيلَ يبتغُون فضلاً من اللهِ إلخ ﴿ سيماهم ﴾ أي سَمْتُهم .

وقُرِىءَ سيماؤُهم بالياءِ بعد الميمِ والمدِّ وهما لغتانِ ، وفيها لغةٌ ثالثةٌ هي السيماءُ بالمدِّ وهُو مبتدأٌ خبرُهُ ﴿ فِى وُجُوهِهِمْ ﴾ أيْ في جبَاهِهم . وقوله تعالى ﴿ مِّنْ أَثَرِ السجود ﴾ حالٌ من المستكنِّ في الجارِّ أي من التأثيرِ الذي يُؤثره كثرةُ السجودِ وما رُويَ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم من قولُه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ " لا تقلبوا صوركم " أي لا تَسِمُوها إنَّما هُو فيما إذا اعتمدَ بجبهته على الأرضِ ليحدثَ فيها تلكَ السمةَ وذلك محضُ رياءٍ ونفاقٍ والكلامُ فيما حدثَ في

جبهةِ السَّجَّادِ الذي لا يسجدُ إلا خالصاً لوجهِ الله عزَّ وجلَّ وكان الإمامُ زينُ العابدينَ وعليٌّ بنُ عبد اللَّهِ بنِ العباسِ رضيَ الله عنهُمَا يقالُ لهما ذُو الثفناتِ لما أحدثتْ كثرةُ سجودِهما في مواقعهِ منهما أشباهَ ثفناتِ البعيرِ قالَ قائلُهم

دِيارُ عَليَ والحُسينِ وجَعْفر . . . وَحمزةَ والسَّجَّادِ ذِي الثَّفِنَاتِ

وقيلَ : صفرةُ الوجهِ من خشيةِ الله تعالى وقيلَ : نَدى الطُّهورِ وترابُ الأرضِ ، وقيل : استنارةُ وجوهِهم من طولِ ما صلَّوا بالليلِ قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : " من كثُرتْ صلاتُه بالليلِ حسُن وجهُه بالنهارِ " وقُرِىءَ من آثارِ السجودِ ، ومن إثْرِ السجودِ بكسرِ الهمزةِ ﴿ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ من نعوتِهم الجليلةِ وما فيه من مَعْنى البعدِ مع قُربِ العهدِ بالمشارِ إليه للإيذانِ بعلوّ شأنِه وبُعد منزلتِه في الفضلِ وهو مبتدأٌ خبرُهُ قولُه تعالى ﴿ مَّثَلُهُمْ ﴾ أي وصفُهم العجيبُ الشأنِ الجاري في الغرابةِ مَجْرى الأمثالِ . وقولُه تعالَى ﴿ فِي التوراة ﴾ حالٌ من مثلُهم والعاملُ مَعْنى الإشارةِ .

(50/715)

وقولُه تعالى ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِى الإنجيل ﴾ عطفٌ على مثلُهم الأولِ كأنَّه قيلَ : ذلكَ مثلُهم في التوراةِ والإنجيلِ ، وتكريرُ مثلُهم لتأكيدِ غرابتِه وزيادةِ تقريرِها . وقولُه تعالى ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ الخ تمثيلٌ مستأنفٌ أي هُم كزرعٍ أخرجَ فراخَهُ وقيل : هو تفسيرٌ لذلك على أنه إشارةٌ مبهمةٌ وقيل : خبرٌ لقولِه تعالى ومثلُهم في الإنجيلِ على أنَّ الكلامَ قد تمَّ عند قولِه تعالى مثلُهم في التوراةِ وقرىء شَطَأَه بفتحات . وقرىء شَطَاه بفتح الطاء وتخفيف الهمزة وشَطَاءَهُ بالمدِّ وشَطَه بحذفِ الهمزةِ ونقل حركتِها إلى ما قبلَها وشَطْوَه بقلبِها واواً ﴿ فَآزَرَهُ ﴾ فقوّاهُ مِن المؤازرةِ بمعنى المعاونةِ أو من الإيزارِ وهي الإعانةُ وقُرِىءَ فأزَرَه بالتخفيف وأَزَّرهُ بالتشديدِ أي شدَّ أزْرَهُ . وقولُه تعالى ﴿ فاستغلظ ﴾ فصارَ غليظاً بعد ما كانَ دقيقاً ﴿ فاستوى على سُوقِهِ ﴾ فاستقامَ على قَصَبِهِ جمع ساقٍ وقُرِىءَ سُؤقِهِ بالهمزةِ . ﴿ يُعْجِبُ الزراع ﴾ بقوتِه وكثافتِه وغلظِه وحسنِ منظرِه وهو مثلٌ ضربَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ لأصحابِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قلُّوا في بدءِ الإسلامِ ثم كثروا واستحكمُوا فترقَّى أمرُهم يوماً فيوماً بحيثُ أعجبَ الناسَ وقيلَ : مكتوبٌ في الإنجيلِ سيخرُجُ قومٌ ينبُتون نباتَ الزرعِ يأمرونَ بالمعروفِ وينهونَ عن المنكرِ . وقولُه تعالى : ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكفار ﴾ علةٌ لما يعربُ عنه الكلامُ من تشبيههم بالزرعِ في زكائِه واستحكامِه أو لما بعده من قولِه تعالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ فإنَّ الكفارَ إذا سمعُوا بما أُعدَّ للمؤمنينَ في الآخرةِ مع ما لهُم في الدُّنيا من العزةِ غاظَهُم ذلكَ أشدَّ غيظٍ ومنُهم للبيانِ .

(51/715)

عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم : " مَنْ قَرأَ سُورةَ الفتحِ فكأَنَّما كانَ مِمَّن شهدَ معَ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فتحَ مكةَ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(52/715)

وقال الآلوسى :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ الله ﴾

أي هو أو ذلك الرسول المرسل بالهدي ودين الحق محمد على أن الاسم الشريف خبر مبتدأ محذوف و ﴿ رَسُولِ الله ﴾ عطف بيان أو نعت أو بدل ، والجملة استئناف مبين لقوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ ﴾ [الفتح : 28] وهذا هو الوجه الأرجح الأنسب بالمساق كما في الكشف ويؤيده نظراً إلى بعض ما يأتي من الأوجه إن شاء الله تعالى قراءة ابن عامر في رواية ﴿ رَّسُولٍ ﴾ بالنصب على المدح ، وقوله تعالى : ﴿ والذين مَعَهُ ﴾ مبتدأ خبره قوله سبحانه : ﴿ أَشِدَّاء عَلَى الكفار رُحَمَاء بَيْنَهُمْ ﴾ وقال أبو حيان :

الظاهر أن ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ ﴾ مبتدأ وخبر والجملة عليه مبنية للمشهود به ، أما على كونه الرسالة فظاهر ، وأما على كونه محقق الوعد فقيل : لأن كينونة ما وعده لازمة لكونه عليه الصلاة والسلام رسول الله إذ هو لا يوعد إلا بما هو محقق ولا يخبر إلا عن كل صدق .

وجوز كون ﴿ مُحَمَّدٌ ﴾ مبتدأ و ﴿ رَّسُولٍ ﴾ تابعاً له ﴿ والذين مَعَهُ ﴾ عطفاً عليه والخبر عنه وعنهم قوله تعالى : ﴿ أَشِدَّاء ﴾ الخ .

وقرأ الحسن ﴿ أَشِدَّاء رُحَمَاء ﴾ بنصبهما فقيل على المدح وقيل على الحال ، والعامل فيهما العامل في ﴿ مَعَهُ ﴾ فيكون الخبر على هذا الوجه جملة ﴿ تَرَاهُمْ ﴾ الآتي وكذا خبر ﴿ الذين ﴾ على الوجه الأول ، والمراد بالذين معه عند ابن عباس من شهد الحديبية ، وقال الجمهور : جميع أصحابه صلى الله عليه وسلم ورضي الله تعالى عنهم .

(53/715)

و ﴿ أَشِدَّاء ﴾ جمع شديد و ﴿ رُحَمَاء ﴾ جمع رحيم ، والمعنى أن فيهم غلظة وشدة على أعداء الدين ورحمة ورقة على إخوانهم المؤمنين ، وفي وصفهم بالرحمة بعد وصفهم بالشدة تكميل واحتراس فإنه لو اكتفى بالوصف الأول لربما توهم أن مفعوم القيد غير معتبر فيتوهم الفظاظة والغلظة مطلقاً فدفع بأرداف الوصف الثاني ، ومآل ذلك أنهم مع كونهم

أشداء على الأعداء رحماء على الإخوان ، ونحوه قوله تعالى : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى المؤمنين أَعِزَّةٍ عَلَى الكافرين ﴾ [المائدة : 54] وعلى هذا قوله :

حليم إذا ما الحلم زين أهله . . .

على أنه عند العدو مهيب

وقد بلغ كما روى عن الحسن من تشددهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم ومن أبدانهم أن تمس أبدان وبلغ من ترحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمناً إلا صافحه وعانقه .

والمصافحة لم يختلف فيها الفقهاء .

أخرج أبو داود عن البراء قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا التقى المسلمان فتصافحا وحمداً الله واستغفراه غفر لهما " وفي رواية الترمذي " ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان ألا غفر لهما قبل أن يتفرقان "

(54/715)

وفي الأذكار النووية أنها مستحبة عند كل لقاء وأما ما اعتاده الناس بعد صلاتي الصبح والعصر فلا أصل له ولكن لا بأس به ، فإن أصل المصافحة سنة وكونهم محافظين عليها في

بعض الأحوال ومفرطين في كثير منها لا يخرج ذلك البعض عن كونه من المصافحة التي ورد الشرع بأصلها ، وجعل ذلك العز بن عبد السلام في قواعده من البدع المباحة ، وأطال الشيخ إبراهيم الكوراني قدس سره الكلام في ذلك ، وأما المانقة فقال الزمخشري : كرهها أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه وكذلك التقبيل قال : لا أحب أن يقبل الرجل من الرجل وجهه ولا يده ولا شيئاً من جسده ، ورخص أبو يوسف عليه الرحمة المعانقة ؛ ويؤيد ما روى عن الإمام ما أخرجه الترمذي عن أنس قال : " سمعت رجلاً يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله الرجل منا يلقى أخاه أينحني له ؟ قال : لا قال : أفيلتزمه ويقبله ؟ قال : لا قال : أياخذ بيده ويصافحه ؟ قال : نعم " وفي "الأذكار" التقبيل وكذا المعانقة لا بأس به عند القدم من سفر ونحوه ، ومكروه كراهة تنزيه في غيره ، وللأمرد الحسن حرام بكل حال .

أخرج الترمذي وحسنه عن عائشة قالت : قدم زيد بن خالد بن حارثة المدينة ورسول الله في بيتي فقرع الباب فقام إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يجر ثوبه فاعتنقه وقبله ، وزاد رزين في حديث أنس السابق بعد قوله : ويقبله قال : "لا إلا أن يأتي من سفره" وروى أبو داود سئل أبو ذكر هل كان صلى الله عليه وسلم يصافحكم إذا لقيتموه ؟ قال : ما لقيته قط إلا صافحني وبعث إلي ذات يوم ولم أكن في أهلي فجئت فأخبرت أنه صلى الله عليه وسلم أرسل إلى فاتيته وهو على سريره فالتزمني فكانت أجود أجود ، وهذا يؤيد الإطلاق

المحكي عن أبي يوسف ؛ وينبغي التأسي بهم رضي الله تعالى عنهم في التشدد على أعداء الدين والرحمة على المؤمنين .

وقد أخرج ابن أبي شيبة .

(55/715)

وأبو داود عن عبد الله بن عمر مرفوعاً " من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا فليس منا " وإخراجاً هما .

وأحمد .

وابن حبان .

والترمذي وحسنه عن أبي هريرة قال : " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا تنزع الرحمة إلا من شقي " ولا بأس بالبر والإحسان على عدو الدين إذا تضمن مصلحة شرعية كما أفاد ذلك ابن حجر في "فتاويه" الحديثية فليراجع .

وقرأ يحيى بن يعمر ﴿ أشدا ﴾ بالقصر وهي قراءة شاذة لأن قصر الممدود في الشعر نحو قوله :

لا بد من صنعاً وإن طال السفر . . .

وقوله تعالى : ﴿ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً ﴾ خبر آخر للدين أو استئناف ويجوز فيه غير ذلك على ما لا يخفى ، والرؤية بصرية ، والخطاب لكل من تتأتى منه ، و ﴿ رُكَّعاً سُجَّداً ﴾ حال من المفعول ، والمراد تراهم مصلين ، والتعبير بالركوع والسجود عن الصلاة مجاز مرسل ، والتعبير بالمضارع للاستمرار وهو استمرار عرفي ، ومن هنا قال في "البحر" : هذا دليل على كثرة الصلاة منهم ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً ﴾ أي ثواباً ورضا ، والجملة إما خبر آخر أو حال من مفعول ﴿ تَرَاهُمْ ﴾ أو من المستتر في ﴿ رُكَّعاً سُجَّداً ﴾ أو استئناف مبني على سؤال نشأ من بيان مواظبتهم على الركوع والسجود كأنه قيل : ماذا يريدون بذلك ؟ فقيل : يبتغون فضلاً الخ .

وقرأ عمرو بن عبيد ﴿ وَرِضْوَاناً ﴾ بضم الراء ﴿ سيماهم ﴾ أي علامتهم وقرىء ﴿ سيمياؤهم ﴾ بزيادة ياء بعد الميم والمد وهي لغة فصيحة كثيرة في الشعر قال الشاعر :

غلام رماه الله بالحسن يافعا . . .

له سيمياء لا تشق على البصر

(56/715)

وجاء سيما بالمد واشتقاقها من السومة بالضم العلامة تجعل على الشاة والياء مبدلة من الواو ، وهي مبتدأ خبره قوله تعالى : ﴿ سيماهم فِى وُجُوهِهِمْ ﴾ أي في جباههم أو هي على ظاهرها ، وقوله سبحانه : ﴿ مّنْ أَثَرِ السجود ﴾ حال من المستكن في الجار والمجرور الواقع خبراً لسيماهم أو بيان لها أي سيماهم التي هي أثر السجود ، ووجه إضافة الأثر إلى السجود أنه حادث من التأثير الذي يؤثره السجود ، وشاع تفسير ذلك بما يحدث في جبهة السجاد مما يشبه أثر الكي وثفنة البعير وكان كل من العليين علي بن الحسين زين العابدين وعلي بن عبد الله بن عباس أبي الأملاك رضي الله تعالى عنهما يقال له ذو الثفنات لأن كثرة سجودهما أحدث في مواقعه منهما أشباه ثفنات البعير وهي ما يقع على الأرض من أعضائه إذا غلظ ، وما روى من قوله صلى الله عليه وسلم : "لا تعلبوا صوركم " أي لا تمسوها من العلب بفتح العين المهملة وسكون اللام الأثر ، وقول ابن عمر وقد رأى رجلاً بأنفه أثر السجود : أن صورة وجهك أنفك فلا تعلب وجهك ولا تسن صورتك فذلك إنما هو إذا اعتمد بجبهته وأنفه على الأرض لتحدث تلك السمة وذاك محض رياء ونفاق يستعاذ بالله تعالى منه ، والكلام فيما حدث في وجه السجاد الذي لا يسجد إلا خالصاً لوجه الله عز وجل ، وأنكر بعضهم كون المراد بالسيما ذلك .

أخرج الطبراني .

والبيهقي في "سننه" عن حميد بن عبد الرحمن قال : كنت عند السائب بن يزيد إذ جاء

رجل وفي وجهه أثر السجود فقال : لقد أفسد هذا وجهه إما والله ما هي السيما التي سمي الله تعالى ولقد صليت على وجهي منذ ثمانين سنة ما أثر السجود بين عيني ، وربما يحمل على أنه استشعر من الرجل تعمداً لذلك فنفى أن يكون ما حصل به هو السيما التي سمي الله تعالى ، ونظيره ما حكى عن بعض المتقدمين قال : كنا نصلي فلا يرى بين أعيننا شيء ونرى أحدنا الآن يصلي فترى بين عينيه ركبة البعير فما ندري أثقلت إلا رؤس أم خشنت الأرض .

(57/715)

وأخرج ابن جرير .

وجماعة عن سعيد بن جبير أنه قال : هذه السيما ندى الطهور وتراب الأرض ، وروى نحوه عن سعيد بن المسبب .

وأخرج سعيد بن منصور .

وعبد بن حميد .

وابن جرير عن مجاهد أنه قال : ليس له أثر في الوجه ولكنه الخشوع ، وفي رواية هي الخشوع والتواضع ، وقال منصور : سألت مجاهداً أهذه السيما هي الأثر يكون بين عيني الرجل قال

: لا وقد يكون مثل ركبة البعير وهو أقسى قلباً من الحجارة ، وقيل : هي صفرة الوجه من سهر الليل وروى ذلك عن عكرمة .

والضحاك ، وروى السلمي عن عبد العزيز المكي ليس ذاك هو النحول والصفرة ولكنه نور يظهر على وجوه العابدين يبدو من باطنهم على ظاهرهم يتبين ذلك للمؤمنين ولو كان في زنجي أو حبشي ، وقال عطاء : والربيع بن أنس : هو حسن يعتري وجوه المصلين ، وأخرج ابن المنذر .

وابن جرير .

وابن أبي حاتم .

والبيهقي في "سننه" عن ابن عباس قال : السمت الحسن ، وعن بعضهم ترى على وجوههم هيبة لقرب عهدهم بمناجاة سيدهم ، والذاهبون إلى هذه الأقوال قائلون : إن المراد علامتهم في وجوههم وهم في الدنيا ، وقال غير واحد : هذه السيما في الآخرة ، أخرج البخاري في "تاريخه" .

وابن نصر عن ابن عباس أنه قال في الآية : بياض يغشى وجوههم يوم القيامة .

وأخرج ابن نصر .

وعبد بن حميد .

وابن جرير عن الحسن مثله ، وأخرجوا عن عطية العوفي قال : موضع السجود أشد

وجوههم بياضاً ، وأخرج الطبراني في "الأوسط" والصغير .

وابن مردويه بسند حسن عن أبي بن كعب قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ سيماهم فِى وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السجود ﴾ النور يوم القيامة " ولا يبعد أن يكون النور علامة في وجوههم في الدنيا والآخرة لكنه لما كان في الآخرة أظهر وأتم خصه النبي صلى الله عليه وسلم بالذكر ، وإذا صح الحديث فهو مذهبي .

وقرأ ابن هرمز ﴿ أَثَرِ ﴾ بكسر الهمزة وسكون الثاء وهو لغة في أثر .

(58/715)

وقرأ قتادة من ﴿ ءاثار ﴾ بالجمع ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من نعوتهم الجليلة ؛ وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان بعلو شأنه وبعد منزلته في الفضل ، وقيل : البعد باعتبار المبتدأ أعني ﴿ أَشِدَّاء ﴾ ولو قيل هذا لتوهم أن المشار إليه هو النعت الأخير أعني ﴿ سيماهم فِى وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السجود ﴾ وهو مبتدأ خبره قوله تعالى : ﴿ مَّثَلُهُمْ ﴾ أي وصفهم العجيب الشأن الجاري في الغرابة مجرى الأمثال ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ فِي التوراة ﴾ حال من ﴿ مَّثَلُهُمْ ﴾ والعامل معنى الإشارة ؛ وقوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِى الإنجيل ﴾ عطف على ﴿ مَّثَلُهُمْ ﴾ الأول كأنه قيل : ذلك مثلهم في

التوراة والإنجيل ، وتكرير ﴿ مَّثَلُهُمْ ﴾ لتأكيد غرابته وزيادة تقريرها ، وقرىء ﴿ الإنجيل ﴾ بفتح الهمزة ، وقوله عز وجل : ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ ﴾ الخ تمثيل مستأنف أي هم أو مثلهم كزرع الخ فالوقف على ﴿ أَهْلُ الإنجيل ﴾ وهذا مروي عن مجاهد ، وقيل : ﴿ مَّثَلُهُمْ ﴾ الثاني مبتدأ وقوله تعالى : ﴿ كَزَرْعٍ ﴾ الخ خبره فالوقف على ﴿ التوراة ﴾ وهذا مروي عن الضحاك .

وأبي حاتم .

وقتادة ، وجوز أن يكون ذلك إشارة مبهمة أوضحت بقوله تعالى : ﴿ كَزَرْعٍ ﴾ الخ كقوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ الأمر أَنَّ دَابِرَ هَؤُلآء مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ [الحجر : 66] فعلى الأول والثالث ﴿ مَثَلُهُمْ فِى التوراة وَمَثَلُهُمْ فِى الإنجيل ﴾ [الفتح : 92] شيء واحد إلا أنه على الأول ﴿ أَشِدَّاء عَلَى الكفار رُحَمَاء بَيْنَهُمْ ﴾ الخ ، وعلى الثالث ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ الخ وعلى الثاني ﴿ مَثَلُهُمْ فِى التوراة ﴾ شيء وهو ﴿ أَشِدَّاء ﴾ الخ ومثلهم في الإنجيل شيء آخر وهو ﴿ كَزَرْعٍ ﴾ الخ .

(59/715)

واعترض الوجه الثالث بأن الأصل في الإشارة أن تكون لمتقدم وإنما يشار إلى المتأخر إذا كان نعتاً لاسم الإشارة نحو ﴿ ذلك الكتاب ﴾ [البقرة : 2] ، وفيه أن الحصر ممنوع ، والشطء فروخ الزرع كما قال غير واحد وهو ما خرج منه وتفرع في شاطئيه أي في جانبيه ؛ وجمعه كما قال الراغب أشطاء ، وقال قطرب : شوك السنبل يخرج من الحبة عشر سنبلات وتسع وثمان ، وقال الكسائي .

والأخفش : طرفه ، وأنشدوا :

أخرج الشطء على وجه الثرى . . .

ومن الأشجار أفنان الثمر

وزعم أبو الفتح أن الشطء لا يكون إلا في البر والشعير ، وقال "صاحب اللوامح" : شطأ الزرع وأشطأ إذا أخرج فراخه وهو في الحنطة والشعير وغيرهما ، وفي "البحر" اشطأ الزرع افرخ والشجرة أخرجت غصونها .

وفي "القاموس" الشطء فراخ النخل والزرع أو ورقه ، جمعه شطوء ، وشطأ كمنح شطأً وشطوأً أخرجها ، ومن الشجر ما خرج حول أصله وجمعه أشطاء ، وأشطأ اخرجها اه ، وفيه ما يرد به على أبي الفتح مع زيادة لا تخفى فائدتها فلا تغفل .

وقرأ ابن كثير .

وابن ذكوان ﴿ شَطْأَهُ ﴾ بفتح الطاء .

وقرأ أبو حيوة .

وابن أبي عبلة .

وعيسى الكوفي كذلك وبالمد .

وقرأ زيد بن علي كذلك أيضاً وبالف بدل الهمزة فاحتمل أن يكون مقصوراً وإن يكون أصله الهمز فنقل الحركة وأبدل الهمزة ألفاً كما قالوا في المرأة والكمأة المراة والكماة ، وهو تخفيف مقيس عند الكوفيين وعند البصريين شاذ لا يقاس عليه ، وقرأ أبوجعفر ﴿ شطه ﴾ بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على الطاء ، ورويت عن شيبة .

ونافع .

والجحدري ، وعن الجحدري أيضاً ﴿ شطوه ﴾ بإسكان الطاء وواو بعدها ، قال أبو الفتح : هي لغة أو بدل من الهمزة ﴿ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ ﴾ أي أعانه وقواه قاله الحسن .

وغيره ، قال الراغب : وأصله من شد الإزار يقال : أزرته أي شددت إزاره ويقال : آزرت البناء وأزرته قويت أسافله ، وتأزر النبات طال وقوي .

وذكر غير واحد أنه اما من المؤازرة بمعنى المعاونة أو من الإيزار وهي الإعانة .

(60/715)

وفي "البحر" ﴿ ءازَرَ ﴾ أفعل كما حكى عن الأخش ، وقول مجاهد .

وغيره فاعل خطأ لأنه لم يسمع في مضارعه ألا يؤزر على وزن يكرم دون يوازر .

وتعقب بأن هذه شهادة نفي غير مسموعة على أنه يجوز أن يكون ورد من بابين واستغنى بأحدهما عن الآخر ومثله كثير ، مع أن السرقسطي نقله عن المازني لكنه قال : يقال آزر الشيء غيره أي ساواه وحاذاه ، وأنشد لامرىء القيس :

بمحنية قد آزر الضال نبتها . . .

بجر جيوش غانمين وخيب

وجعل ما في الآية من ذلك ، وهو مروي أيضاً عن السدي قال : آزره صار مثل الأصل في الطول ، والجمهور على ما نقل أولاً ، والضمير المرفوع في ﴿ آزره ﴾ للشطء والمنصوب للزرع أي فقوي ذلك الشطء الزرع ، والظاهر أن الإسناد في ﴿ أَخْرَجَ ﴾ مجازي وكون ذلك من الإسناد إلى الموجب ، وهو حقيقة على ما ذهب إليه السالكوتي في "حواشيه" على المطول حيث قال في قولهم : سرتني رؤيتك .

هذا القول مجاز إذا أريد منه حصول السرور عند الرؤية أما إذا أريد منه أن الرؤية موجبة للسرور فهو حقيقة لا يخفى حاله .

وقرأ ابن ذكوان ﴿ شَطْأَهُ فَازَرَهُ ﴾ ثلاثياً .

وقرىء ﴿ فَازَرَهُ ﴾ بشد الزاي أي فشد أزره وقواه ﴿ فاستغلظ ﴾ فصار من الدقة

إلى الغلظ ، وهو من باب استنوق الجمل ، ويحتمل أن يراد المبالغة في الغلظ كما في استعصم ونحوه ، وأوثر الأول لأن المساق ينبىء عن التدرج ﴿ فاستوى على سُوقِهِ ﴾ فاستقام على قصبه وأصوله جمع ساق نحو لابة ولوب وقارة وقور .

وقرأ ابن كثير ﴿ سُوقِهِ ﴾ بإبدال الواو المضموم ما قبلها همزة ، قيل : وهي لغة ضعيفة ، ومن ذلك قوله :

أحب المؤقدين إلى موسى . . .

(61/715)

﴿ يُعْجِبُ الزراع ﴾ بوقته وكثافته وغلظه وحسن منظره ، والجملة في موضع الحال أي معجباً لهم ، وخصهم تعالى بالذكر لأنه إذا أعجب الزراع وهم يعرفون عيوب الزرع فهو أحرى أن يعجب غيرهم ، وهنا تم المثل وهو مثل ضربه الله تعالى للصحابة رضي الله تعالى عنهم قلوا في بدء ازسلام ثم كثروا واستحكموا فترقى أمرهم يوماً فيوماً بحيث أعجب الناس ، وهذا ما اختاره بعضهم وقد أخرجه ابن جرير .

وابن المنذر ، عن الضحاك .

وابن جرير .

وعبد بن حميد عن قتادة ، وذكراً عنه قال أيضاً : مكتوب في الإنجيل سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يخرج منهم قوم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

وفي "الكشاف" هو مثل ضربه الله تعالى لبدء ملة الإسلام وترقيه في الزيادة إلى أن قوي واستحكم لأن النبي صلى الله عليه وسلم قام وحده ثم قواه الله تعالى بمن معه كما يقوي الطاقة الأولى ما يحتف بها مما يتولد منها ، وظاهره أن الزرع هو النبي صلى الله عليه وسلم والشطء أصحابه رضي الله تعالى عنهم فيكون مثلاً له عليه الصلاة والسلام وأصحابه لا لأصحابه فقط كما في الأول ولكل وجهة ، وروي الثاني عن الواقدي ، وفي خبر أخرجه ابن جرير .

وابن مردويه عن ابن عباس ما يقتضيه .

(62/715)

وقوله تعالى : ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكفر ﴾ علة لما يعرب عنه الكلام من إيجاده تعالى لهم على الوجه الذي تضمنه التمثيل ، وظاهر كلام بعضهم أنه علة للتمثيل وليس بذاك ، وقيل : علة لما بعده من قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ الله الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ فإن الكفار إذا سمعوا بما أعد الله تعالى للمؤمنين في الآخرة مع ما لهم في الدنيا من

العزة غاظهم ذلك ، وهو مع توقف تماميته بحسب الظاهر على كون الكفار مستيقنين بالآخرة ومتحققين كون الوعد منه عز وجل بعيد ، وضمير ﴿ مِنْهُمْ ﴾ لمن عاد عليه الضمائر السابقة ، و﴿ مِنْ ﴾ للبيان مثلها في قوله تعالى : ﴿ فاجتنبوا الرجس مِنَ الاوثان ﴾ [الحج : 30] وليس مجيئها كذلك مخصوصاً بما إذا كانت داخلة على ظاهره كما توهم صاحب التحفة الإثني عشرية في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ الله الذين ءامَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأرض ﴾ [النور : 55] فقال : حمل ﴿ مِنْ ﴾ للبيان إذا كان داخلاً على الضمير مخالف لاستعمال العرب ، وأنكر ذلك عليه صاحب الترجمة لكن قال : لو ادعى هذا الخلاف في ضميري الخطاب والتكلم لم يبعد .

(63/715)

ومن مجيئها للبيان داخلة على ضمير الغائب قوله تعالى : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ ﴾ [الفتح : 25] عند القائلين بأن ضمير ﴿ تَزَيَّلُواْ ﴾ للمؤمنين لا للتبعيض كما يقوله الشيعة الزاعمون ارتداد أكثر الصحابة رضي الله تعالى عنهم من أهل بيعة الرضوان وغيرهم ، فإن مدحهم الساق بما يدل على الاستمرار التجدي كقوله تعالى : ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً ﴾ ووصفهم بما يدل على الدوام والثبات كقوله سبحانه : ﴿ والذين مَعَهُ

أَشِدَّاء عَلَى الكفار ﴾ يأبى التبعيض والارتداد الذين زعموه عند من له أدنى إنصاف وشمة من دين ، ويزيد زعمهم هذا سقوطاً عن درجة الاعتبار أن مدحهم ذاك قد كتبه الله تعالى في التوراة قبل أن يخلق السموات والأرض ، ولا يكاد عاقل يقبل أنه تعالى أطلق المدح وكتبه لأناس لم يثبت على تلك الصفة إلا قليل منهم ، وإذا قلنا : إن هؤلاء الممدوحين هم أهل بيعة الرضوان الذين بايعوه عليه الصلاة والسلام في الحديبية كما يشعر به ﴿ الذين مَعَهُ ﴾ لا سيما على القول بأن السورة بتمامها نزلت عند منصرفه عليه الصلاة والسلام من الحديبية قبل أن يتفرقوا عنه صلى الله عليه وسلم كان سقوط ذلك الزعم أبين وأبين لأن الارتداد الذي يزعمونه كان لترك مبايعة علي كرم الله تعالى وجهه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع العلم بالنص على خلافته بزعمهم ومبايعة أبي بكر رضي الله تعالى عنه ، وكيف يكون ذاك ارتداداً والله عز وجل حين رضي عنهم علم أنهم يفعلونه ، والقول بأنه سبحانه إنما رضي عن مبايعتهم أو عنهم من حيث المبايعة ولم يرض سبحانه عنهم مطلقاً لأجلها خلاف ظاهر الآية ، والظاهر ما نفي ، ولا يعكر عليه صدور بعض المعاصي من بعضهم بعد وإنما يعكر صدور ما لا يجامع الرضا أصلاً كالارتداد والعياذ بالله تعالى ، وبالجملة جعل ﴿ مِنْ ﴾ للتبعيض ليتم للشيعة ما زعموه مما يأباه الكتاب والسنة وكلام العترة .

وفي التحفة الإثني عشرية من ذلك ما تنشرح له الصدور وتزداد به قلوب المؤمنين نوراً على نور ، ويا سبحان الله أين جعل ﴿ مِنْ ﴾ للتبعيض من دعوى الارتداد ، ولكن من يضلل الله فما له من هاد ، وتأخير ﴿ مِنْهُمْ ﴾ هنا عن ﴿ عَمِلُواْ الصالحات ﴾ وتقديم ﴿ مّنكُمْ ﴾ عليه في آية النور التي ذكرناها آنفاً لأن عمل الصالحات لا ينفك عنهم ، وذلك ثمت لبيان الخلفاء والعمل الصالح ليس موقوفاً عليه لاستمرار صحة خلافتهم حتى لا ينعزلوا بالفسق ، وقال ابن جرير : "منهم" يعني من الشطء الذي أخرجه الزرع وهم الداخلون في الإسلام إلى يوم القيامة فأعاد الضمير على معنى الشطء وكذلك فعل البغوي ولا يخفى بعده .

هذا وفي "المواهب" أن الإمام مالكاً قد استنبط من هذه الآية تكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، فإنهم يغيظونهم ومن غاظه الصحابة فهو كافر ، ووافقه كثير من العلماء انتهى .

وفي "البحر" ذكر عند مالك رجل ينتقص الصحابة فقرأ مالك هذه الآية فقال : من أصبح من الناس في قلبه غيظ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أصابته هذه الآية ، ويعلم تكفير الرافضة بخصوصهم ، وفي كلام عائشة رضي الله تعالى عنها ما يشير إليه أيضاً ، فقد أخرج الحاكم وصححه عنها في قوله تعالى : ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكفار ﴾

قالت : أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أمروا بالاستغفار لهم فسبوهم ، وعن بعض السلف جعل جمل الآية كل جملة مشيرة إلى معين من الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، فعن عكرمة أنه قال : ﴿ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ بأبي بكر ﴿ فَآزَرَهُ ﴾ بعمر ﴿ فاستغلظ ﴾ بعثمان ﴿ فاستوى على سُوقِهِ ﴾ بعلي رضي الله تعالى عنهم أجمعين .

وأخرج ابن مردويه .

والقاضي أحمد بن محمد الزهري في فضائل الخلفاء الأربعة .

(65/715)

والشيرازي في الألقاب عن ابن عباس ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ الله والذين مَعَهُ ﴾ أبو بكر ﴿ أَشِدَّاء عَلَى الكفار ﴾ عمر ﴿ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ ﴾ عثمان ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً ﴾ على كرم الله تعالى وجهه ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ الله وَرِضْوَاناً ﴾ طلحة والزبير ﴿ سيماهم فِى وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السجود ﴾ عبد الرحمن بن عوف .

وسعد بن أبي وقاص .

وأبو عبيدة بن الجراح ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِى الإنجيل كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ ﴾ بأبي بكر ﴿ فاستغلظ ﴾ بعمر ﴿ فاستوى على سُوقِهِ ﴾ بعثمان ﴿ يُعْجِبُ الزراع لِيَغِيظَ بِهِمُ

الكفار ﴾ بعلي كرم الله تعالى وجهه ﴿ وَعَدَ اللهُ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ جميع أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن مردويه .

والخطيب .

وابن عساكر عنه رضي الله تعالى عنه أيضاً في قوله تعالى : ﴿ كَزَرْعٍ قَالَ أَصْلِ الزرع عَبْدُ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فَآزَرَهُ ﴾ بأبي بكر ﴿ فاستغلظ ﴾ بعمر ﴿ فاستوى على سُوقِهِ ﴾ بعثمان ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكفار ﴾ بعلي رضي الله تعالى عنه ، وكل هذه الأخبار لم تصح فيما أرى ولا ينبغي تخريج ما في الآية عليها ، وأعتقد أن لكل من الخلفاء رضي الله تعالى عنهم الحظ الأوفى مما تضمنته ، ومتى أريد بالزرع النبي عليه الصلاة والسلام كان حظ علي كرم الله تعالى وجهه من شطأه أوفى من حظ سائر الخلفاء رضي الله تعالى عنه ، ولعل مؤازرته ومعاونته البدنية بقتل كثير من الكفرة أعدائه عليه الصلاة والسلام أكثر من مؤازرة غيره من الخلفاء أيضاً ، ومع هذا لا ينخدش ما ذهب إليه محققو أهل السنة والجماعة في مسألة التفضيل كما لا يخفى على النبيه النبيل ، فتأمل والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل .

ومن باب الاشارة في بعض الآيات : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ [الفتح : 1] يشير عندهم إلى فتح مكة العماء بادخال الأعيان الثابتة ظاهره بنور الوجود فيها أي اظهارها للعيان لأجله عليه الصلاة والسلام على أن لام ﴿ لَكَ ﴾ للتعليل ، وحاصله أظهرنا العالم لأجلك وهو في معنى ما يروونه من قوله سبحانه : ﴿ لولاك لولاك ما خلقت إلا فلان ﴾ وقيل : يشير إلى فتح باب قلبه عليه الصلاة والسلام إلى حضرة ربوبيته عز وجل بتجلي صفات جماله وجلاله وفتح ما انغلق على جميع القلوب من الأسرار وتفصيل شرائع الإسلام وغير ذلك من فتوحات قلبه صلى الله عليه وسلم ﴿ أمثالكم إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ ليستر وجودك في جميع الأزمنة بوجوده جل وعلا ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ بإثبات جميع حسنات العالم في صحيفتك إذ كنت العلة في إظهاره ﴿ وَيَهْدِيَكَ صراطا مُّسْتَقِيماً ﴾ [الفتح : 2] بدعوة الخلق على وجه الجمع والفرق ﴿ وَيَنصُرَكَ اللهُ ﴾ على النفوس الأمارة ممن تدعوهم إلى الحق ﴿ نَصْراً عَزِيزاً ﴾ [الفتح : 3] قلما يشبهه نصر ، ومن هنا كان صلى الله عليه وسلم أكثر الأنبياء عليهم السلام تبعاً ، وكان علماء أمته كأنبياء بني إسرائيل إلى غير ذلك مما حصل لأمته بواسطة تربيته على الصلاة والسلام لهم وإفاضة الأنوار والأسرار على نفوسهم وأزواجهم ، والمراد ليجمع لك هذه الأمور فلا تغفل ﴿ هُوَ الذى أَنزَلَ السكينة فِى قُلُوبِ المؤمنين ﴾ فسروها

بشيء يجمع نوراً وقوة وروحاً بحيث يسكن إليه ويتسلى به الحزين والضجر ويحدث عنده القيام بالخدمة ومحاسبة النفس وملاطفة الخلق ومراقبة الحق والرضا بالقسم والمنع من الشطح الفاحش ، وقالوا : لا تنزل السكينة إلا في قلب نبي أو ولى

(67/715)

﴿ لِيَزْدَادُواْ إِيمانا مَّعَ إِيمانهم ﴾ [الفتح : 4] فيحصل لهم الإيمان العياني والإيمان الاستدلالي البرهاني ﴿ إِنَّا أرسلناك شَاهِداً ﴾ على جميع المخلوقات إذ كنت أول مخلوق ، ومن هنا أحاط صلى الله عليه وسلم علما بما لم يحط به غيره من المخلوقات لأنه عليه الصلاة والسلام شاهد خلق جميعها ، ومن هذا المقام قال عليه الصلاة والسلام : "كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد " ﴿ وَمُبَشّراً وَنَذِيراً ﴾ [الفتح : 8] إذ كنت أعلم الخلق بصفات الجمال والجلال ﴿ إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله ﴾ يشير عندهم إلى كمال فناء وجوده صلى الله عليه وسلم وبقائه بالله عز وجل ، أيد ذلك بقوله سبحانه : ﴿ يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح : 10] ﴿ سَيَقُولُ لَكَ المخلفون ﴾ المتخلفون عن السير إلى قتال الأنفس الامارة ﴿ مّنَ الاعراب ﴾ من سكان بوادي الطبيعة ﴿ شَغَلَتْنَا أموالنا وَأَهْلُونَا ﴾ العوائق والعلائق ﴿ فاستغفر لَنَا ﴾ اطلب من الله عز وجل ستر ذلك عنا

ليتأتى لنا السير ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ لتمكن حب ذلك في قلوبهم

وعدم استعدادهم لدخول غيره فيها :

رضوا بالأماني وابتلوا بحظوظهم . . .

وخاضوا بحار الحب دعوى فما ابتلوا

(68/715)

﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُمْ مِّنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً ﴾ أي إن هاتيك العوائق والعلائق لا تجديكم شيئاً ﴿ بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْلَمُونَ خَبِيراً ﴾ [الفتح : 11] فيجازيكم عليها حسبما تقتضي الحكمة ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرسول والمؤمنون إلى أَهْلِيهِمْ ﴾ بل حسبتم أن لا يرجع العقل والقوى الروحانية من السالكين السائرين إلى جهاد النفس وطلب مغانم التجليات والانس إلى ما كانوا عليه من ادراك المصالح وتدبير حال المعاش وما تقتضيه هذه النشأة ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السوء ﴾ بالله تعالى وشؤنه عز وجل ﴿ وَكُنتُمْ ﴾ في نفس الأمر ﴿ قَوْماً بُوراً ﴾ [الفتح : 12] هالكين في مهالك الطبيعة وسوء الاستعداد ﴿ سَيَقُولُ المخلفون إِذَا انطلقتم إلى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ﴾ وهي مغانم التجليات ومواهب الحق لأرباب الحضرات ﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ دعونا نسلك مسلككم لتنال

منالكم ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كلام الله ﴾ في حقهم من حرمانهم المغانم لسوء استعدادهم ﴿ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ الله ﴾ حكم وقضى ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ إذ كنتم في عالم الأعيان الثابتة ﴿ فَسَيَقُولُونَ ﴾ منكرين لذلك ﴿ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ ولهذا تمنعوننا عن الاتباع

(69/715)

﴿ بَلْ كَانُواْ لاَ يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الفتح : 15] ولذلك نسبوا الحسن وهو من أقبح الصفات إلى ذوي النفوس القدسية المطهرة عن جميع الصفات الردية ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الاعراب سَتُدْعَوْنَ ﴾ ولا تتركون سدى ﴿ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ وهم النفس وقواها ﴿ تقاتلونهم أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ ينقادون لحكم رسول العقل المنزه عن شوائب الوهم ﴿ فَإِن تُطِيعُواْ ﴾ الداعي ﴿ يُؤْتِكُمُ الله ﴾ تعالى : ﴿ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ من أنواع المعارف والتجليات ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيماً ﴾ [الفتح : 16] وهو عذاب الحرمان والحجاب ﴿ لَّيْسَ عَلَى الاعمى ﴾ وهو من لم ير في الدار غيره ديارا "حرج" في ترك السلوك والجهاد المطلوب منكم لأنه وراء ذلك ﴿ وَلاَ عَلَى الاعرج ﴾ وهو من فقد شيخاً كاملاً سالماً عن عيب في كيفية التسليك والإيصال ﴿ حَرَجٌ ﴾ في ترك السلوك أيضاً ، وهو إشارة إلى ما قالوا من أن ترك السلوك خير من السوك على يد ناقص

﴿ وَلاَ عَلَى المريض ﴾ بمرض العشق والهيام ﴿ حَرَجٌ ﴾ [الفتح : 17] في ذاك أيضاً لأنه مجذوب والجذبة خير من السلوك ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ الله عَنِ المؤمنين إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشجرة ﴾ يشير إلى المعاهدين على القتل بسيف المجاهدة تحت سمرة الانفراد عن الأهل والمال ، ويقال في أكثر الآيات الآتية نحو هذا ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ الله والذين مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الكفار ﴾ أعداء الله عز وجل في مقام الفرق ﴿ رُحَمَاء فِيمَا بَيْنَهُمْ ﴾ لقوة مناسبة بعضهم بعضاً فهم جامعون لصفتي الجلال والجمال ﴿ سيماهم فِى وُجُوهِهِمْ مّنْ أَثَرِ السجود ﴾ له عز وجل وعدم السجود لشيء من الدنيا والأخرى وتلك السيما خلع الأنوار الإلهية ، قال عامر بن عبد قيس : كاد وجه المؤمن يخبر عن مكنون عمله وكذلك وجه الكافر ﴿ وَعَدَ الله الذين ءامَنُواْ

(70/715)

وَعَمِلُواْ الصالحات مِنْهُم مَّغْفِرَةً ﴾ ستراً لصفاتهم بصفاته عز وجل ﴿ وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ [الفتح : 29] وهو أن يتجلى سبحانه لهم بأعظم تجلياته وإلا فكل شيء دونه جل جلاله ليس بعظيم ، وسبحانه من إله رحيم وملك كريم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

قوله : ﴿ هُمُ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ المسجد الحرام ﴾

يعني : كفار مكة ، ومعنى : صدّهم عن المسجد الحرام : أنهم منعوهم أن يطوفوا به ، ويحلوا عن عمرتهم ﴿ والهدى مَعْكُوفاً ﴾ قرأ الجمهور بنصب ﴿ الهدي ﴾ عطفاً على الضمير المنصوب في ﴿ صدّوكم ﴾ ، وقرأ أبو عمرو في رواية عنه بالجرّ عطفاً على المسجد ، ولا بدّ من تقدير مضاف ، أي : عن نحر الهدي ، وقرىء بالرفع على تقدير : وصدّ الهدي ، وقرأ الجمهور بفتح الهاء من الهدي وسكون الدال ، وروي عن أبي عمرو ، وعاصم بكسر الدال وتشديد الياء ، وانتصاب ﴿ معكوفاً ﴾ على الحال من الهدي ، أي : محبوساً .

قال الجوهري : عكفه أي : حبسه ووقفه ، ومنه ﴿ والهدى مَعْكُوفاً ﴾ ومنه الاعتكاف في المسجد ، وهو الاحتباس .

وقال أبو عمرو بن العلاء : معكوفاً مجموعاً ، وقوله : ﴿ أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ أي : عن أن يبلغ محله ، أو هو مفعول لأجله ، والمعنى : صدّوا الهدي كراهة أن يبلغ محله ، أو هو بدل من

الهدي بدل اشتمال ، ومحله : منحره ، وهو حيث يحل نحره من الحرم ، وكان الهدي سبعين بدنة ، ورخّص الله سبحانه لهم بجعل ذلك الموضع الذي وصلوا إليه ، وهو الحديبية محلاً للنحر .

(72/715)

وللعلماء في هذا كلام معروف في كتب الفروع ﴿ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مؤمنات لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ يعني : المستضعفين من المؤمنين بمكة ، ومعنى ﴿ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ : لم تعرفوهم وقيل : لم تعلموا أنهم مؤمنون ﴿ أَن تَطَئُوهُمْ ﴾ يجوز أن يكون بدلاً من رجال ونساء ، ولكنه غلب الذكور ، وأن يكون بدلاً من مفعول ﴿ تعلموهم ﴾ ، والمعنى : أن تطئوهم بالقتل والإيقاع بهم ، يقال : وطئت القوم ، أي : أوقعت بهم ، وذلك أنهم لو كسبوا مكة ، وأخذوها عنوة بالسيف لم يتميز المؤمنون الذين هم فيها من الكفار ، وعند ذلك لا يأمنوا أن يقتلوا المؤمنين ، فتلزمهم الكفارة ، وتلحقهم سبة ، وهو معنى قوله : ﴿ فَتُصِيبَكُمْ مِّنْهُمْ ﴾ أي : من جهتهم ، و ﴿ مَّعَرَّةٌ ﴾ أي : مشقة بما يلزمهم في قتلهم من كفارة وعيب ، وأصل المعرّة : العيب ، مأخوذة من العرّ ، وهو الجرب ، وذلك أن المشركين سيقولون : إن المسلمين قد قتلوا أهل دينهم .

قال الزجاج : لولا أن تقتلوا رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات ، فتصيبكم منهم معرّة أي : إثم ، وكذا قال الجوهري ، وبه قال ابن زيد .

وقال الكلبي ، ومقاتل ، وغيرهما : المعرّة : كفارة قتل الخطأ ، كما في قوله : ﴿ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ [النساء : 92] وقال ابن إسحاق : المعرّة : غرم الدية .

(73/715)

وقال قطرب : المعرّة : الشدّة ، وقيل : الغمّ ، و ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ متعلق بأن تطئوهم ، أي : غير عالمين ، وجواب " لولا " محذوف ، والتقدير : لأذن الله لكم ، أو لما كفّ أيديكم عنهم ، واللام في : ﴿ لِّيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ متعلقة بما يدلّ عليه الجواب المقدّر ، أي : ولكن لم يأذن لكم ، أو كف أيديكم ليدخل الله في رحمته بذلك من يشاء من عباده وهم المؤمنون والمؤمنات الذين كانوا في مكة ، فيتمم لهم أجورهم بإخراجهم من بين ظهراني الكفار ، ويفكّ أسرهم ، ويرفع ما كان ينزل بهم من العذاب .

وقيل : اللام متعلقة بمحذوف غير ما ذكر ، وتقديره : لو قتلتموهم لأدخلهم الله في رحمته ، والأوّل أولى .

وقيل : إن ﴿ من يشاء ﴾ : عباده ممن رغب في الإسلام من المشركين ﴿ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ التّزيّل : التميز ، أي : لو تميز الذين آمنوا من الذين كفروا منهم ؛ لعذبنا الذين كفروا ، وقيل التّزيّل : التفرق ، أي : لو تفرّق هؤلاء من هؤلاء ، وقيل : لو زال المؤمنون من بين أظهرهم ، والمعاني متقاربة ، والعذاب الأليم : هو القتل والأسر والقهر ، والظرف في قوله : ﴿ إِذْ جَعَلَ الذين كَفَرُواْ ﴾ منصوب بفعل مقدّر ، أي : اذكر وقت جعل الذين كفروا ﴿ فِى قُلُوبِهِمُ الحمية حَمِيَّةَ الجاهلية ﴾ .

وقيل : متعلق بعذبنا ، والحميّة : الأنفة ، يقال : فلان ذو حميّة ، أي : ذو أنفة وغضب ، أي : جعلوها ثابتة راسخة في قلوبهم ، والجعل بمعنى الإلقاء ، وحميّة الجاهلية بدل من الحميّة .

قال مقاتل بن سليمان ، ومقاتل بن حيان : قال أهل مكة : قد قتلوا أبناءنا ، وإخواننا ، ويدخلون علينا في منازلنا ، فتتحدّث العرب أنهم قد دخلوا علينا على رغم أنفنا ، واللات والعزّى لا يدخلونها علينا ، فهذه الحميّة هي حميّة الجاهلية التي دخلت قلوبهم .

(74/715)

وقال الزهري : حميّتهم : أنفتهم من الإقرار للنبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة .

قرأ الجمهور ﴿ لو تزيلوا ﴾ وقرأ ابن أبي عبلة ، وأبو حيوة ، وابن عون (لو تزايلوا) .

والتزايل : التباين ﴿ فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ على رَسُولِهِ وَعَلَى المؤمنين ﴾ أي : أنزل الطمأنينة والوقار على رسوله وعلى المؤمنين حيث لم يدخلهم ما دخل أهل الكفر من الحميّة ، وقيل : ثبتهم على الرضى والتسليم ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التقوى ﴾ وهي : "لا إله إلاَّ الله" كذا قال الجمهور ، وزاد بعضهم : "محمد رسول الله" وزاد بعضهم : "وحده لا شريك له" .

وقال الزهري هي : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم ﴾ وذلك أن الكفار لم يقرّوا بها ، وامتنعوا من كتابتها في كتاب الصلح الذي كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما ثبت ذلك في كتب الحديث والسير ، فخص الله بهذه الكلمة المؤمنين وألزمهم بها .

والأوّل أولى ؛ لأن كلمة التوحيد هي التي يتقى بها الشرك بالله ، وقيل : كلمة التقوى : هي الوفاء بالعهد والثبات عليه ﴿ وَكَانُواْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ أي : وكان المؤمنون أحقّ بهذه الكلمة من الكفار والمستأهلين لها دونهم ؛ لأن الله سبحانه أهلهم لدينه ، وصحبة رسوله صلى الله عليه وسلم .

(75/715)

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرؤيا بالحق ﴾ قال الواحدي : قال المفسرون : إن الله سبحانه أرى نبيه في المدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية ، كأنه هو وأصحابه حلقوا وقصروا ، فأخبر

بذلك أصحابه ، ففرحوا وحسبوا أنهم سيدخلون مكة عامهم ذلك ، فلما رجعوا من الحديبية ، ولم يدخلوا مكة قال المنافقون : والله ما حلقنا ولا قصرنا ، ولا دخلنا المسجد الحرام ، فأنزل الله هذه الآية ، وقيل : إن الرؤيا كانت بالحديبية ، وقوله : ﴿ بالحق ﴾ صفة لمصدر محذوف أي : صدقاً ملتبساً بالحقّ ، وجواب القسم المحذوف المدلول عليه باللام الموطئة هو قوله : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام ﴾ أي : في العام القابل ، وقوله : ﴿ إِن شَاء الله ﴾ تعليق للعدة بالمشيئة لتعليم العباد لما يجب أن يقولوه ، كما في قوله :

﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذلك غَداً * إِلاَّ أَن يَشَاء الله ﴾ [الكهف : 23 ، 24]

قال ثعلب : إن الله استثنى فيما يعلم ليستثني الخلق فيما لا يعلمون .

وقيل : كان الله سبحانه علم أنه يموت بعض هؤلاء الذين كانوا معه في الحديبية ، فوقع الاستثناء لهذا المعنى ، قاله الحسن بن الفضل .

وقيل : معنى إن شاء الله : كما شاء الله .

(76/715)

وقال أبو عبيدة : إن بمعنى إذ ، يعني : إذ شاء الله حيث أرى رسوله ذلك ، وانتصاب ﴿ ءامِنِينَ ﴾ على الحال من فاعل لتدخلنّ ، وكذا ﴿ مُحَلِّقِينَ رُءوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ أي :

آمنين من العدوّ ، ومحلقاً بعضكم ومقصراً بعضكم ، والحلق والتقصير خاصّ بالرجال ، والحلق أفضل من التقصير ، كما يدلّ على ذلك الحديث الصحيح في استغفاره صلى الله عليه وسلم للمحلقين في المرة الأولى والثانية ، والقائل يقول له : وللمقصرين ، فقال في الثالثة : وللمقصرين ، وقوله : ﴿ لاَ تخافون ﴾ في محل نصب على الحال أو مستأنف ، وفيه زيادة تأكيد لما قد فهم من قوله : ﴿ ءامِنِينَ ﴾ ، ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ ﴾ أي : ما لم تعلموا من المصلحة في الصلح لما في دخولكم في عام الحديبية من الضرر على المستضعفين من المؤمنين ، وهو معطوف على صدق ، أي : صدق رسوله الرؤيا ، فعلم ما لم تعلموا به ﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ أي : فجعل من دون دخولكم مكة كما أرى رسوله ، فتحاً قريباً .

قال أكثر المفسرين : هو صلح الحديبية .

وقال ابن زيد ، والضحاك : فتح خيبر .

وقال الزهري : لا فتح في الإسلام كان أعظم من صلح الحديبية ، ولقد دخل في تلك السنتين في الإسلام مثل من كان قد دخل فيه قبل ذلك بل أكثر ، فإن المسلمين كانوا في سنة ستّ ، وهي سنة الحديبية ألفاً وأربعمائة وكانوا في سنة ثمان عشرة آلاف .

﴿ هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهدى ﴾ أي : إرسالاً ملتبساً بالهدى ﴿ وَدِينِ الحق ﴾ وهو الإسلام ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ ﴾ أي : يعليه على كل الأديان ، كما يفيده تأكيد الجنس ، وقيل : ليظهر رسوله ، والأوّل أولى .

وقد كان ذلك بحمد الله ، فإن دين الإسلام قد ظهر على جميع الأديان ، وانقهر له كل أهل الملل ﴿ وكفى بالله شَهِيداً ﴾ الباء زائدة كما تقدّم في غير موضع ، أي : كفى الله شهيداً على هذا الإظهار الذي وعد المسلمين به ، وعلى صحة نبوّة نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ الله ﴾ محمد مبتدأ ، ورسول الله خبره ، أو هو خبر مبتدأ محذوف ، ورسول الله بدل منه ، وقيل : محمد مبتدأ ، ورسول الله نعت له ﴿ والذين مَعَهُ ﴾ معطوف على المبتدأ وما بعده الخبر ، والأوّل أولى ، والجملة مبينة لما هو من جملة المشهود به .

﴿ والذين مَعَهُ ﴾ قيل : هم أصحاب الحديبية ، والأولى الحمل على العموم ﴿ أَشِدَّاء عَلَى الكفار ﴾ أي : غلاظ عليهم ، كما يغلظ الأسد على فريسته ، وهو جمع شديد ﴿ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ ﴾ أي : متوادّون متعاطفون ، وهو جمع رحيم ، والمعنى : أنهم يظهرون لمن خالف دينهم الشدّة والصلابة ، ولمن وافقه الرحمة والرأفة .

قرأ الجمهور برفع ﴿ أشداء ﴾ ، و ﴿ رحماء ﴾ على أنه خبر للموصول ، أو خبر لمحمد ، وما عطف عليه ، كما تقدّم .

وقرأ الحسن بنصبهما على الحال ، أو المدح ، ويكون الخبر على هذه القراءة ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً ﴾ أي : تشاهدهم حال كونهم راكعين ساجدين ، وعلى قراءة الجمهور هو خبر آخر ، أو استئناف : أعني قوله : ﴿ تَرَاهُمْ ﴾ ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً ﴾ أي : يطلبون ثواب الله لهم ورضاه عنهم ، وهذه الجملة خبر ثالث على قراءة الجمهور ، أو في محل نصب على الحال من ضمير تراهم ، وهكذا ﴿ سيماهم فِى وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السجود ﴾ السيما : العلامة ، وفيها لغتان المدّ والقصر ، أي : تظهر علامتهم في جباههم من أثر السجود في الصلاة ، وكثرة التعبد بالليل والنهار .

وقال الضحاك : إذا سهر الرجل أصبح مصفراً ، فجعل هذا هو السيما .

وقال الزهري : مواضع السجود أشدّ وجوههم بياضاً يوم القيامة .

(78/715)

وقال مجاهد : هو الخشوع والتواضع ، وبالأوّل – أعني : كونه ما يظهر في الجباه من كثرة السجود – قاله سعيد بن جبير ، ومالك .

وقال ابن جريج : هو الوقار .

وقال الحسن : إذا رأيتهم مرضى وما هم بمرضى ، وقيل : هو البهاء في الوجه وظهور الأنوار

عليه ، وبه قال سفيان الثوري ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما تقدّم من هذه الصفات الجليلة ، وهو مبتدأ ، وخبره قوله : ﴿ مَثَلُهُمْ فِى التوراة ﴾ أي : وصفهم الذي وصفوا به في التوراة ، ووصفهم الذي وصفوا به ﴿ فِى الإنجيل ﴾ وتكرير ذكر المثل لزيادة تقريره ، وللتنبيه على غرابته ، وأنه جار مجرى الأمثال في الغرابة ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ إلخ ، كلام مستأنف ، أي : هم كزرع إلخ ، وقيل : هو تفسير لذلك على أنه إشارة مبهمة لم يرد به ما تقدّم من الأوصاف ، وقيل : هو خبر لقوله : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِى الإنجيل ﴾ أي : ومثلهم في الإنجيل كزرع .

قال الفراء : فيه وجهان : إن شئت قلت ذلك مثلهم في التوراة ، ومثلهم في الإنجيل يعني : كمثلهم في القرآن ، فيكون الوقف على الإنجيل ، وإن شئت قلت ذلك مثلهم في التوراة ، ثم تبتدىء ومثلهم في الإنجيل كزرع .

قرأ الجمهور : ﴿ شطأه ﴾ بسكون الطاء ، وقرأ ابن كثير ، وابن ذكوان بفتحها ، وقرأ أنس ، ونصر بن عاصم ، ويحيى بن وثاب : ﴿ شطاه ﴾ كعصاه .

وقرأه الجحدري ، وابن أبي إسحاق : (شطه) بغير همزة ، وكلها لغات ، قال الأخفش والكسائي : ﴿ شطأه ﴾ أي : طرفه .

قال الفراء : شطأ الزرع فهو مشطىء : إذا خرج .

قال الزجاج : ﴿ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ أي : نباته .

وقال قطرب : الشطأ : سوى السنبل ، وروي عن الفراء أيضاً أنه قال : هو السنبل ، وقال الجوهري : شطأ الزرع والنبات ، والجمع أشطاء ، وقد أشطأ الزرع : خرج شطؤه ﴿ فَآزَرَهُ ﴾ أي : قوّاه وأعانه وشده ، قيل المعنى : إن الشطأ قوّى الزرع ، وقيل : إن الزرع قويّ الشطأ ، ومما يدلّ على أن الشطأ خروج النبات .

قول الشاعر :

(79/715)

أخرج الشطأ على وجه الثرى . . . ومن الأشجار أفنان الثمر

قرأ الجمهور ﴿ فآزره ﴾ بالمد .

وقرأ ابن ذكوان ، وأبو حيوة ، وحميد بن قيس بالقصر ، وعلى قراءة الجمهور قول امرىء القيس :

بمحنية قد آزر الضالّ نبتها . . . مجرّ جيوش غانمين وخيب

قال الفراء : آزرت فلاناً آزره أزراً : إذا قوّيته ﴿ فاستغلظ ﴾ أي : صار ذلك الزرع غليظاً بعد أن كان دقيقاً ﴿ فاستوى على سُوقِهِ ﴾ أي : فاستقام على أعواده ، والسوق جمع ساق .

وقرأ قنبل : (سؤقه) بالهمزة الساكنة ﴿ يُعْجِبُ الزراع ﴾ أي : يعجب هذا الزرع زارعه لقوّته وحسن منظره ، وهذا مثل ضربه الله سبحانه لأصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأنهم يكونون في الابتداء قليلاً ، ثم يزدادون ويكثرون ويقوون كالزرع ، فإنه يكون في الابتداء ضعيفاً ، ثم يقوى حالاً بعد حال حتى يغلظ ساقه .

قال قتادة : مثل أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في الإنجيل ، أنه سيخرج من قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ثم ذكر سبحانه علة تكثيره لأصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم وتقويته لهم فقال : ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكفار ﴾ أي : كثرهم وقوّاهم ، ليكونوا غيظاً للكافرين ، واللام متعلقة بمحذوف ، أي : فعل ذلك ليغيظ ﴿ وَعَدَ الله الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ أي : وعد سبحانه هؤلاء الذين مع محمد صلى الله عليه وسلم أن يغفر ذنوبهم ، ويجزل أجرهم بإدخالهم الجنة التي هي أكبر نعمة وأعظم منّة .

وقد أخرج أحمد ، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : نحروا يوم الحديبية سبعين بدنة ، فلما صدّت عن البيت حنّت كما تحنّ إلى أولادها .

وأخرج الحسن بن سفيان ، وأبو يعلى ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن قانع ، والباوردي ، والطبراني ، وابن مردويه .

قال السيوطي : بسند جيد عن أبي جمعة حنيذ بن سبع قال : قاتلت رسول الله صلى الله عليه وسلم أوّل النهار كافراً ، وقابلت معه آخر النهار مسلماً وفينا نزلت : ﴿ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مؤمنات ﴾ وكنا تسعة نفر سبعة رجال وامرأتان ، وفي رواية عند ابن أبي حاتم : كنا ثلاثة رجال وتسع نسوة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس ﴿ لَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مؤمنات لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ قال : حين ردّوا النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ أَن تَطَئُوهُمْ ﴾ بقتلكم إياهم ﴿ لَوْ تَزَيَّلُواْ ﴾ يقول : لو تزيّل الكفار من المؤمنين لعذبهم الله عذاباً أليماً بقتلكم إياهم .

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن سهل بن حنيف أنه قال يوم صفين : اتهموا أنفسكم ، فلقد رأيتنا يوم الحديبية ، يعني : الصلح الذي كان بين النبي صلى الله عليه وسلم ، وبين المشركين ، ولو نرى قتالاً لقاتلنا ، فجاء عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ألسنا على الحق ، وهم على الباطل ؟ أليس قتلانا في الجنة ، وقتلاهم في النار ؟ قال : " بلى " .

قال : ففيم نعطي الدنية في ديننا ، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ قال : " يا ابن الخطاب إني رسول الله ، ولن يضيعني الله أبداً " ، فرجع متغيظاً ، فلم يصبر حتى جاء أبا بكر ، فقال : يا أبا بكر ألسنا على الحق ، وهم على الباطل ؟ قال : بلى ، قال : أليس قتلانا

في الجنة ، وقتلاهم في النار ؟ قال : بلى ، قال : ففيم نعطي الدنية في ديننا ؟ قال : يا ابن الخطاب إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولن يضيعه الله أبداً ، فنزلت سورة الفتح ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عمر ، فأقرأه إياها ، قال : يا رسول الله أفتح هو ؟ قال : " نعم " .

(81/715)

وأخرج الترمذي ، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند ، وابن جرير ، والدارقطني في الأفراد ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن أُبيّ بن كعب ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التقوى ﴾ قال : "لا إله إلاّ الله" وفي إسناده الحسن بن قزعة ، قال الترمذي بعد إخراجه : حديث غريب لا نعرفه إلاّ من حديثه ، وكذا قال أبو زرعة .

وأخرج ابن مردويه عن سلمة بن الأكوع مرفوعاً مثله .

وأخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن عليّ بن أبي طالب مثله من قوله .

وأخرج أحمد ، وابن حبان ، والحاكم من قول عمر بن الخطاب نحوه .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس نحوه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، والدارقطني في الأفراد عن المسور بن مخرمة ، ومروان نحوه ، وروي عن جماعة من التابعين نحو ذلك .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرؤيا بالحق ﴾ قال : هو دخول محمد البيت ، والمؤمنين محلقين ومقصرين ، وقد ورد في الدعاء للمحلقين والمقصرين في الصحيحين ، وغيرهما أحاديث منها ما قدّمنا الإشارة إليه ، وهو في الصحيحين من حديث ابن عمر ، وفيهما من حديث أبي هريرة أيضاً .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ سيماهم فِى وُجُوهِهِمْ ﴾ قال : أما إنه ليس الذي يرونه ، ولكنه سيما الإسلام ، وسمته وخشوعه .

وأخرج محمد بن نصر في كتاب الصلاة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في الآية قال : هو السمت الحسن .

وأخرج الطبراني في الأوسط والصغير ، وابن مردويه ، قال السيوطي : بسند حسن عن أُبيّ بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ سيماهم فِى وُجُوهِهِمْ مّنْ أَثَرِ السجود ﴾ قال : " النور يوم القيامة " وأخرج البخاري في تاريخه ، وابن نصر عن ابن عباس في الآية قال : بياض يغشى وجوههم يوم القيامة .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن ابن عباس ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التوراة ﴾ يعني : نعتهم مكتوب في التوراة والإنجيل قبل أن يخلق الله السموات والأرض .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن أنس ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ قال : نباته : فروخه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 53 . 58 ﴾

(83/715)

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ فَأَنزَلَ الله سَكِينَتَهُ على رَسُولِهِ وَعَلَى المؤمنين ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه أنزل السكينة على رسوله وعلى المؤمنين .

والسكينة تشمل الطمأنينة والسكون إلى الحق والثبات والشجاعة عند البأس .

وقد ذكر جل وعلا إنزاله السيكينة على رسوله وعلى المؤمنين في براءة في قوله تعالى : ﴿

ثُمَّ أَنزلَ اللهُ سَكِينَتَهُ على رَسُولِهِ وَعَلَى المؤمنين ﴾ [التوبة : 26] وذكر إنزال سكينته على رسوله في قوله في براءة : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ﴾ [التوبة : 40] الآية .

وذكر إنزاله سكينته على المؤمنين في قوله ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السكينة عَلَيْهِمْ ﴾ [الفتح : 18] الآية .

وهذه الآيات كلها لم يبين فيها موضع إنزال السكينة ، وقد بين في هذه السورة الكريمة أن محل إنزال السكينة هو القلوب ، وذلك في قوله : ﴿ هُوَ الذي أَنزَلَ السكينة فِي قُلُوبِ المؤمنين ﴾ [الفتح : 4] الآية .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهدى وَدِينِ الحق لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ ﴾ .

ما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة ذكره في سورة التوبة وسورة الصف وزاد فيهما أنه فاعل ذلك ، ولو كان المشركون يكرهونه ، فقال في الموضعين ﴿ هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهدى وَدِينِ الحق لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المشركون ﴾ [التوبة : 33] .

قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الإنجيل كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فاستغلظ فاستوى على سُوقِهِ يُعْجِبُ الزراع ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة المائدة في الكلام على قوله تعالى ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى المؤمنين أَعِزَّةٍ عَلَى الكافرين ﴾ المائدة : 54] .

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ فِي التوراة وَمَثَلُهُمْ فِي الإنجيل كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فاستغلظ فاستوى على سُوقِهِ يُعْجِبُ الزراع ﴾ .

قرأ هذا الحرف ابن كثير وابن ذكوان وابن عامر شطأه بفتح الطاء ، والباقون من السبعة بسكون الطاء .

وقرأ عامة السبعة غير ابن ذكوان : فآزره بألف بعد الهمزة .

وقرأه ابن ذكوان عن عامر فأزره بلا ألف بعد الهمزة مجرداً .

وقرأ عامة السبعة غير قنبل على سوقه بواو ساكنة بعد السين .

وقرأه قنبل عن ابن كثير بهمزة ساكنة بدلاً من الواو وعنه ضم الهمزة بعد السين بعدها واو ساكنة .

وهذه الآية الكريمة قد بين الله فيها أنه ضرب المثل في الإنجيل للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بأنهم كالزرع يظهر في أول نباته رقيقاً ضعيفاً متفرقاً ، ثم ينبت بعضه حول بعض ، ويغلظ ويتكامل حتى يقوى ويشتد وتعجب جودته أصحاب الزراعة ، العارفين بها ، فكذلك النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا في أول الإسلام في قولة وضعف ثم لم

يزالوا يكثرون ويزدادون قوة حتى بلغوا ما بلغوا .

وقوله تعالى : ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ أي فراخه فنبت في جوانبه . وقوله ﴿ فَآزَرَهُ ﴾ على قراءة الجمهور من المؤازرة ، بمعنى المعاونة والتقوية ، وقال بعض العلماء : ﴿ فَآزَرَهُ ﴾ أي ساواه في الطول ، وبكل واحد من المعنيين فسر قول امرئ القيس :

بمحنية قد آزر الصال نبتها . . . مجر جيوش غانمين وخيب

وأما على قراءة ابن ذكوان ﴿ فَآزَرَهُ ﴾ بلا ألف ، فالمعنى شد أزره أي قواه .

ومنه قوله تعالى عن موسى ﴿ واجعل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشدد بِهِ أَزْرِي ﴾ [طه : 29 - 31] الآية . وقوله ، ﴿ فاستغلظ ﴾ أي صار ذلك الزرع غليظاً بعد أن كان رقيقاً ، وقوله : ﴿ فاستوى ﴾ أي استتم وتكامل على سوقه أي على قصبه .

(85/715)

وما تضمنته الآية الكريمة من المثل المذكور في الإنجيل المضروب للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بأنهم يكونون في مبدأ أمرهم في قوله وضعف ، ثم بعد ذلك يكثرون ويقوون .

جاء موضحاً في آيات من كتاب الله تعالى كقوله ﴿ واذكروا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأرض تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ الناس فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ ﴾ [الأنفال : 26] الآية .

وقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران : 123] وقوله تعالى ﴿ اليوم يَئِسَ الذين كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ واخشون ﴾ [المائدة : 3] الآية . إلى غير ذلك من الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(86/715)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ ﴾

بهذه الآية الكريمة تختم سورة « الفتح » .

وبهذا الفتح الذي وعد اللّه المؤمنين تقوم دولة المسلمين ، ويأخذ مجتمعهم مكانه فى الحياة ، ويرى الناس وجه الإسلام فى هذا المجتمع .

والصفة التي تغلب على هذا المجتمع ، ويعرف بها فى الناس ، أنه مجتمع شديد الغلظة على الكفار ، الذين يحادّون اللّه ورسوله ، فلا يكون بينه وبين الكافرين ولاء أو مودة يجار فيها على دين اللّه ، أو ينتقص بها حق من حقوق المسلمين .

هذا حالهم مع أعداء اللّه . . أما هم فيما بينهم فهم رحماء ، تفيض قلوبهم حفانا ورحمة ومودة ، تجمعهم أخوة بارّة فى اللّه ، وفى دين اللّه . .

هذا ما تنطوى عليه صدورهم ، وتفيض به مشاعرهم ، نحو أعداء اللّه ، وأوليائه . .

أما ما يراه الناس من ظاهر أمرهم ، فهو اجتماعهم فى الصلاة ، وتولية وجوههم جميعا للّه . . يركعون معا ، ويسجدون معا . . يريدون بذلك مرضاة اللّه ، ويبتغون فضله وإحسانه . .

فإذا لم يرهم الرائي فى مقام الصلاة ، رأى منهم أثر هذه الصلاة ، وما يترك السجود على جباههم من آثار ، هى سمة المسلم المصلّى ، وهى الشارة التي تشير إليه ، وإلى الدين الذي يدين به . .

وهذا يعنى أن الصلاة هى شعار المسلم ، وأن من لا يؤديها لا نظهر عليه سمة الإسلام ، ومن هنا كانت الصلاة الركن الأول الذي يقوم عليه الإسلام بعد الإيمان باللّه . . وفى الحديث : « بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة » .

.

وفى الحديث أيضا : « العهد بيننا وبينكم الصلاة فمن تركها فقد كفر » .

.

يريد تركها عامدا منكرا .

وقوله تعالى : « ذِلكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ » أي هذه الصفة هى صفة المسلمين التي وصفهم اللّه بها فى التوراة . .

والإشارة : إما أن تكون إلى جميع هذه الأوصاف ، وإما أن تكون إشارة إلى قوله تعالى : « سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ » .

.

وقوله تعالى : « وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً » .

.

الشطء : أول ما يبدو من النبات على ظاهر الأرض ، وشاطىء الشيء ، حافته . . أي ومثل المؤمنين الذين مثّلهم اللّه سبحانه وتعالى به ، فى الإنجيل ، هو الزرع ، يبدأ بذرة هامدة فى الثرى ، فإذا أصابها الماء ، اهتز كيانها ، ودبّ دبيب الحياة فيها ، وأخذت بهذا الرصيد القليل من الحياة التي سرت فيها . أخذت تحاول جاهدة أن تصافح النور ، وأن تلتمس لها طريقا إليه ، من بين هذا الظلام المطبق عليها ، ثم سرعان ما يطلع لها لسان تتحسس به الطريق إلى النور ، وتتذوق به نسمة الحياة ، وإذ شيء أخضر صغير ، لا يكاد

يرى ، يطل على الحياة فى استحياء ثم لا يلبث أن يؤازره آخر مثله ، ثم ثالث ورابع . .

وهذا هو الشط ، وجمعه شطآن . .

وشيئا فشيئا تنمو هذه الشطآن ، وتعلو ، ويتخلّق لها ساق تقوم عليه ، وأوراق تكسو هذا الساق ، وفروع وأغصان ، وأزهار وثمار ، حتى يكون من ذلك نخلة باسقة ، أو دوحة عظيمة ! .

وهكذا المسلمون ، بدءوا بذورا كهذه البذور التي طال حبسها عن الأرض ، حتى إذا امتدت إليها يد الزارع فغرسها فى الأرض ، وساق إليها الماء ،

(88/715)

وتعهدها بالرعاية والري ، طالت ، وانداحت ، وأزهرت ، وأثمرت ، وملأت وجه الأرض المغبرّة ، حسنا ، وجمالا ، وخيرا . .

وشبه المسلمون بالزرع لأنهم كثير ، ولأن كل واحد منهم له ذاتيته إلى جانب هذه الشجيرات الكبيرة التي يضمها الحقل . .

وقوله تعالى : « لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ » . هو إشارة إلى هذا الزرع الطيب ، الذي يملأ العين سرورا ورضا ، وهو فى الوقت نفسه يملأ قلوب الكافرين حسرة وحسدا . .

وقوله تعالى : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً » إشارة إلى أن وصف المؤمنين لا يتم إلا بالعمل الصالح وأن الذين لهم المغفرة والأجر العظيم من اللّه ، هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، لا المؤمنون على إطلاقهم . . وهذا هو السر فى قوله تعالى : « مِنْهُمْ » الذي يعزل الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، عن الذين آمنوا ولم يعملوا الصالحات . . فهؤلاء غير أولئك . .

« هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ » . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 13 صـ 429. 431 ﴾

(89/715)

وقال ابن عاشور :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ ﴾

لما بيّن صدق الرسول صلى الله عليه وسلم في رؤياه واطمأنت نفوس المؤمنين أعقب ذلك بتنويه شأن الرسول صلى الله عليه وسلم والثناء على المؤمنين الذين معه .

و﴿ محمد ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : هو محمد يعود هذا الضمير المحذوف على قوله : ﴿ رسوله ﴾ [الفتح : 28] في الآية قبلها .

وهذا من حذف المسند الذي وصفه السكاكي بالحذف الذي الاستعمال وارد على ترك المسند إليه وترك نظائره .

قال التفتازاني في "المطول" "ومنه قولهم بعد أن يذكروا رجلاً : فتى من شأنه كذا وكذا ، وهو أن يذكروا الديار أو المنازل ربع كذا وكذا" .

ومن أمثلة "المفتاح" لذاك قوله : (فراجعهما) أي العقل السليم والطبع المستقيم في مثل : قوله

سأشكر عمراً إن تراخَتْ منيتي . . .

أياديَ لم تُمنن وإنْ هيَ جلّت

فتى غير محجوب الغنى عن صديقه . . .

ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت

إذ لم يقل : هو فتى .

وهذا المعنى هو الأظهر هنا إذ ليس المقصود إفادة أن محمداً رسول الله وإنما المقصود بيان رسول الله من هو بعد أن أجرى عليه من الأخبار من قوله : ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ﴾ [الفتح : 27] إلى قوله : ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ [الفتح : 28] فيعتبر السامع كالمشتاق إلى بيان : مَنْ هذا المتحدث عنه بهذه الأخبار ؟ فيقال له : محمد رسول الله ، أي هو محمد رسول الله .

وهذا من العناية والاهتمام بذكر مناقبه صلى الله عليه وسلم فتعتبر الجملةُ المحذوفُ مبتدؤها مستأنفةً استئنافاً بيانياً .

وفيه وجوه أخر لا تخفى ، والأحسن منها هذا .

وفي هذا نداء على إبطال جحود المشركين رسالته حين امتنعوا من أن يكتب في صحيفة الصلح "هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله .

وقالوا : لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت" .

وقوله : ﴿ والذين معه ﴾ يجوز أن يكون مبتدأ و ﴿ أشداء ﴾ خبراً عنه وما بعده إخبار .

(90/715)

والمقصود الثناء على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعنى ﴿ معه ﴾ : المصاحَبة الكاملة بالطاعة والتأييد كقوله تعالى : ﴿ وقال الله إني معكم ﴾ .

والمراد : أصحابه كلهم لا خصوص أهل الحديبية .

وإن كانوا هم المقصود ابتداء فقد عُرفوا بصدق ما عاهدوا عليه الله ، ولذلك لما انهزم المسلمون يوم حنين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس بن عبد المطلب نادِ يا أصل

السَّمُرة .

ويجوز أن يكون ﴿ والذين معه ﴾ عطفاً على ﴿ رسولَه ﴾ من قوله : ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ﴾ [التوبة : 33] .

والتقدير : وأرسل الذين معه ، أي أصحابه على أن المراد بالإرسال ما يشمل الإذن لهم بواسطة الرسول صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى : ﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين ﴾ [يس : 14] الآية فإن المرسلين إلى أهل أنطاكية كانوا من الحواريين ، أمرهم عيسى بنشر الهدى والتوحيد .

فيكون الإرسال البعث له في قوله تعالى : ﴿ بعثنا عليكم عبادا لَنَا ﴾ وعلى هذا يكون ﴿ أرسلنا ﴾ في هذه الآية مستعملاً في حقيقته ومجازه .

و ﴿ أشداء ﴾ : جمع شديد ، وهو الموصوف بالشدة المعنوية وهي صلابة المعاملة وقساوتها ، قال تعالى في وصف النار ﴿ عليها ملائكة غلاظٌ شداد ﴾ [التحريم : 6] .

(91/715)

والشدة على الكفار : هي الشدة في قتالهم وإظهار العداوة لهم ، وهذا وصف مدح لأن المؤمنين الذين مع النبي صلى الله عليه وسلم كانوا هم فئة الحق ونشر الإسلام فلا يليق بهم إلا إظهار الغضب لله والحب في الله والبغض في الله من الإيمان ، وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أقوى المؤمنين إيماناً من أجْل إشراق أنوار النبوءة على قلوبهم فلا جرم أن يكونوا أشد على الكفار فإن بين نفوس الفريقين تمام المضادة وما كانت كراهيتهم للصلح مع الكفار يوم الحديبية ورغبتهم في قتل أسراهم الذين ثقفوهم يوم الحديبية وعفا عنهم النبي صلى الله عليه وسلم إلا من آثار شدتهم على الكفار ولم تكن لاحت لهم المصلحة الراجحة على القتال وعلى القتل التي آثرها النبي صلى الله عليه وسلم ولذلك كان أكثرهم محاورة في إباء الصلح يومئذٍ أشد أشدّائهم على الكفار وهو عمر بن الخطاب وكان أفهمهم للمصلحة التي توخاها النبي صلى الله عليه وسلم في إبرام الصلح أبا بكر .

وقد قال سهل بن حنيف يوم صفين : أيها الناس اتهموا الرأي فلقد رأيتنا يوم أبي جندل ، ولو نستطيع أن نرد على رسول الله فعله لرددناه .

والله ورسوله أعلم .

ثم تكون أحكام الشدة على الكفار من وجوب وندب وإباحة وأحكام صحبتهم ومعاملتهم جارية على مختلف الأحوال ولعلماء الإسلام فيها مقال ، وقد تقدم كثير من ذلك في سورة آل عمران وفي سورة براءة .

والشدة على الكفار اقتبسوها من شدة النبي صلى الله عليه وسلم في إقامة الدين قال تعالى ﴿ بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ [التوبة : 128] .

وأما كونهم رحماء بينهم فذلك من رسوخ أخوة الإيمان بينهم في نفوسهم .

وقد وردت أخبار أخوتهم وتراحمهم في مواضع كثيرة من القرآن وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم

(92/715)

وفي الجمع لهم بين هاتين الخلتين المتضادتين الشدّةِ والرحمة إيماء إلى أصالة آرائهم وحكمة عقولهم ، وأنهم يتصرفون في أخلاقهم وأعمالهم تصرف الحكمة والرشد فلا تغلب على نفوسهم محمدة دون أخرى ولا يندفعون إلى العمل بالجبلة وعدم الرؤية .

وفي معنى هذه الآية قوله تعالى : ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعِزّة على الكافرين ﴾ في سورة العقود (54) .

وفي تعليق رحماء ﴾ مع ظرف (بين) المفيد للمكان الداخل وسط ما يضاف هو إليه تنبيه على انبثاث التراحم فيهم جميعاً قال النبي صلى الله عليه وسلم " تجد المسلمين في توادِّهم وتراحمهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو اشتكى له جميع الجسد بالسهر والحمى "

والخطاب في ﴿ تراهم ﴾ لغير معين بل لكل من تتأتى رؤيته إياهم ، أي يراهم الرائي .

وإيثار صيغة المضارع للدلالة على تكرر ذلك ، أي تراهم كلما شئت أن تراهم ركعاً سجداً .

وهذا ثناء عليهم بشدة إقبالهم على أفضل الأعمال المزكية للنفس ، وهي الصلوات مفروضُها ونافلتها وأنهم يتطلبون بذلك رضى الله ورضوانه .

وفي سوق هذا في مساق الثناء إيماء إلى أن الله حقق لهم ما يبتغونه .

والسيما : العلامة ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ تعرفهم بسيماهم ﴾ في البقرة (273)

وهذه سيما خاصة هي من أثر السجود .

واختلف في المراد من السيما التي وصفت بأنها من أثر السجود ﴾ على ثلاثة أنحاء الأول : أنها أثر محسوس للسجود ، الثاني أنها من الأثر النفسي للسجود ، الثالث أنها أثر يظهر في وجوههم يوم القيامة .

فبالأول فسر مالك بن أنس وعكرمة وأبو العالية قال مالك : السيما هي ما يتعلق بجباههم من الأرض عند السجود مثل ما تعلق بجبهة النبي صلى الله عليه وسلم من أثر الطين والماء لما وَكَف المسجد صبيحة إحدى وعشرين من رمضان .

وقال السعيد وعكرمة : الأثر كالغدة يكون في جبهة الرجل .

وليس المراد أنهم يتكلفون حدوث ذلك في وجوههم ولكنه يحصل من غير قصد بسبب تكرر مباشرة الجبهة للأرض وبشرات الناس مختلفة في التأثر بذلك فلا حرج على من حصل له ذلك إذا لم يتكلفه ولم يقصد به رياء .

وقال أبو العالية : يسجدون على التراب لا على الأثواب .

وإلى النحو الثاني فسر الأعمش والحسن وعطاء والربيع ومجاهد عن ابن عباس وابن جزء والضحاك .

فقال الأعمش : مَن كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار .

وقريب منه عن عطاء والربيع بن سليمان .

وقال ابن عباس : هو حسن السمت .

وقال مجاهد : هو نور من الخشوع والتواضع .

وقال الحسن والضحاك : بياض وصفرة وتهيج يعتري الوجوه من السهر .

وإلى النحو الثالث فسر سعيد بن جبير أيضاً والزهري وابن عباس في رواية العوفي والحسن أيضاً وخالد الحنفي وعطية وشهر بن حوشب : أنها سِيما تكون لهم يوم القيامة ، وقالوا : هي بياض يكون في الوجه يوم القيامة كالقمر ليلة البدر يجعله الله كرامة لهم .

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن أُبيّ بن كعب قال : قال رسول الله في قوله تعالى : ﴿

سيماهم في وجوههم من أثر السجود ﴾ [الفتح : 29] : النور يوم القيامة ، قيل وسنده حسن وهو لا يقتضي تعطيل بقية الاحتمالات إذ كل ذلك من السيما المحمودة ولكنّ النبي صلى الله عليه وسلم ذَكر أعلاها .

وضمائر الغيبة في قوله : ﴿ تراهم ﴾ و ﴿ يبتغون ﴾ و ﴿ سيماهم في وجوههم ﴾ عائدة إلى ﴿ الذين معه ﴾ على الوجه الأول ، وإلى كل من ﴿ محمد رسول اللَّه والذين معه ﴾ على الوجه الثاني .

﴿ السجود ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ﴾ .

الإشارة بـ ﴿ ذلك ﴾ إلى المذكور من صفات الذين مع النبي صلى الله عليه وسلم لأن السابق في الذكر بمنزلة الحاضر فيشار إليه بهذا الاعتبار فاسم الإشارة مبتدأ و ﴿ مثلهم ﴾ خبره .

(94/715)

والمَثل يطلق على الحالة العجيبة ، ويطلق على النظير ، أي المُشابه فإن كان هنا محمولاً على الحالة العجيبة فالمعنى : أن الصفات المذكورة هي حالهم الموصوف في "التوراة" .

وقوله : ﴿ في التوراة ﴾ متعلق بـ ﴿ مثلهم ﴾ أو حال منه .

فيحتمل أن في "التوراة" وصف قوم سيأتون ووصفوا بهذه الصفات ، فبيّن الله بهذه الآية أن الذين مع النبي صلى الله عليه وسلم هم المقصود بتلك الصفة العجيبة التي في "التوراة" ، أي أن "التوراة" قد جاءت فيها بشارة بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم ووصف أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والذي وقفنا عليه في "التوراة" مما يصلح لتطبيق هذه الآية هو البشارة الرمزية التي في الإصحاح الثالث والثلاثين من "سفر التثنية" من قول موسى عليه السلام : "جاء الربُ من سينا وأشرقَ لهم من سَعير وتلألأ من جبل فاران ، وأتى من ربوات القُدُس وعن يمينه نار شريعة لهم فأحبّ الشعب جميع قديسيه وهم جالسون عند قدمك يتقبلون من أقوالك" فإن جبل فاران هو جِبال الحجاز .

وقوله : "فأحب الشعب جميع قديسيه" يشير إليه قوله : ﴿ رحماءُ بينهم ﴾ [الفتح : 29] ، وقد تقدم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ما ينطبق على هذا من سورة الفتح وقوله : قديسيه يفيد معنى ﴿ تراهم رُكَّعا سُجَّدا ﴾ [الفتح : 29] ومعنى ﴿ سِيماهم في وجوههم من أثر السجود ﴾ [الفتح : 29] .

وقوله في "التوراة" "جالسون عند قدمك" يفيد معنى قوله تعالى : ﴿ يبتغون فضلاً من الله ورضوانا ﴾ [الحشر : 8] .

ويكون قوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الوصف .

﴿ التوراة وَمَثَلُهُمْ فِى الإنجيل كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فاستغلظ فاستوى على سُوقِهِ

يُعْجِبُ ﴾ .

ابتداء كلام مبتدأ .

ويكون الوقف على قوله : ﴿ في التوراة ﴾ والتشبيه في قوله : ﴿ كزرع ﴾ خبره ، وهو المثَل .

(95/715)

وهذا هو الظاهر من سياق الآية فيكون مشيراً إلى نحو قوله في "إنجيل متى" الإصحاح 13 فقرة 3 "هو ذا الزَارع قد خرج ليزرع يعني عيسى عليه السّلام وفيما هو يزرع سقط بعض على الطريق فجاءت الطيور وأكلته" إلى أن قال "وسقط الآخر على الأرض الجيدة فأعطى ثمره بعض مائة وآخر ستين وآخر ثلاثين" .

قال فقرة ، ثم قال : "وأما المزروع على الأرض الجيدة فهو الذي يسمع الكلمة ويفهم ، وهو الذي يأتي بثَمر فيصنع بعضٌ مائةً وبعضٌ ستين وآخر ثلاثين" .

وهذا يتضمن نماء الإيمان في قلوبهم وبأنهم يدعون الناس إلى الدين حتى يكثر المؤمنون كما تنبت الحبة مائة سنبلة وكما تنبت من النواة الشجرة العظيمة .

وفي قوله : ﴿ أخرج شطأه ﴾ استعارة الإخراج إلى تفرع الفراخ من الحبة لمشابهة التفرع

بالخروج ومشابهة الأصل المتفرع عنه بالذي يخرج شيئاً من مكان .

والشطْءُ بهمزة في آخره وسكون الطاء : فراخ الزرع وفروع الحبّة .

ويقال : أشطأ الزرع ، إذا أخرج فروعا .

وقرأه الجمهور بسكون الطاء وبالهمز وقرأه ابن كثير ﴿ شَطأه ﴾ بفتح الطاء بعدها ألف على تخفيف الهمزة ألفا .

و ﴿ آزره ﴾ قوّاه ، وهو من المؤازرة بالهمز وهي المعاونة وهو مشتق من اسم الإزار لأنه يشد ظهر المتّزر به ويعينه شدهُ على العمل والحَمل كذا قيل .

والأظهر عندي عكس ذلك وهو أن يكون الإزار مشتقاً اسمه من : آزر ، لأن الاشتقاق من الأسماء الجامدة نادر لا يصار إلى ادعائه إلا إذا تعين .

وصيغة المفاعلة في ﴿ آزره ﴾ مستعارة لقوة الفعل مثل قولهم : عافاك الله ، وقوله تعالى : ﴿ وبارك فيها ﴾ [فصلت : 10] .

والضمير المرفوع في ﴿ آزره ﴾ للشطء ، والضمير المنصوب للزرع ، أي قوّى الشطء أصله .

وقرأ الجمهور ﴿ فآزره ﴾ .

وقرأه ابن ذكوان عن ابن عامر ﴿ فأَزَّره ﴾ بدون ألف بعد الهمزة والمعنى واحد .

ومعنى ﴿ استغلظ ﴾ غلظ غلظاً شديداً في نوعه ، فالسين والتاء للمبالغة مثل : استجاب .

(96/715)

والضميران المرفوعان في ﴿ استغلظ ﴾ و ﴿ استوى ﴾ عائدان إلى الزرع .

والسُوق : جمع ساق على غير قياس لأن ساقا ليس بوصف وهو اسم على زِنة فَعَل بفتحتين .

وقراءة الجميع ﴿ على سوقه ﴾ بالواو بعد الضمة .

وقال ابن عطية : قرأ ابن كثير ﴿ سُؤقه ﴾ بالهمزة أي همزة ساكنة بعد السين المضمومة وهي لغة ضعيفة يهْمزون الواو التي قبلها ضمة ومنه قول الشاعر :

لحب المؤقِدان إلى مؤسى

وتنسب لقنبل عن ابن كثير ولم يذكرها المفسّرون ولم يذكرها في "حرز الأماني" وذكرها النوري في كتاب "غيث النفع" وكلامه غير واضح في صحة نسبة هذه القراءة إلى قنبل .

وساق الزرع والشجرة : الأصل الذي تخرج فيه السنبل والأغصان .

ومعنى هذا التمثيل تشبيه حال بدء المسلمين ونمائهم حتى كثروا وذلك يتضمن تشبيه بدء

دين الإسلام ضعيفاً وتقويه يوماً فيوماً حتى استحكم أمره وتغلب على أعدائه .

وهذا التمثيل قابل لاعتبار تجزئة التشبيه في أجزائه بأن يشبه محمد صلى الله عليه وسلم بالزارع كما مثل عيسى غلب الإسلام في الإنجيل ، ويشبه المؤمنون الأولون بحبات الزرع التي يبذرها في الأرض مثل : أبي بكر وخديجة وعلي وبلال وعمّار ، والشطْء : من أيدوا المسلمين فإن النبي صلى الله عليه وسلم دعا إلى الله وحده وانضم إليه نفر قليل ثم قواه الله بمن ضامن معه كما يقوي الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف بها مما يتولد منها حتى يعجب الزرّاع .

وقوله : ﴿ يعجب الزراع ﴾ تحسين للمشبّه به ليفيد تحسين المشبه .

﴿ الزراع لِيَغِيظَ بِهِمُ ﴾ .

تعليل لما تضمنه تمثيلهم بالزرع الموصوف من نمائهم وترقيهم في الزيادة والقوة لأن كونهم بتلك الحالة من تقدير الله لهم أن يكونوا عليها فمثل بأنه فعل ذلك ليغيظ بهم الكفار .

(97/715)

قال القرطبي : قال أبو عروة الزبيري : كنا عند مالك بن أنس فذكروا عنده رجلاً ينتقص أصحاب رسول الله فقرأ مالك هذه الآية ﴿ محمد رسول الله ﴾ إلى أن بلغ قوله : ﴿

ليغيظ بهم الكفار ﴾ فقال مالك : من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أصابته هذه الآية .

وقلت : رحم الله مالك بن أنس ورضي عنه ما أدق استنباطه .

﴿ الكفار وَعَدَ الله الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً ﴾ .

أعقب تنويه شأنهم والثناء عليهم بوعدهم بالجزاء على ما اتصفوا به من الصفات التي لها الأثر المتين في نشر ونصر هذا الدين .

وقوله : ﴿ منهم ﴾ يجوز أن تكون (من) للبيان كقوله ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ [الحج : 30] وهو استعمال كثير ، ويجوز إبقاؤه على ظاهر المعنى من التبعيض لأنه وعد لكل من يكون مع النبي صلى الله عليه وسلم في الحاضر والمستقبل فيكون ذكر (من) تحذيراً وهو لا ينافي المغفرة لجميعهم لأن جميعهم آمنوا وعملوا الصالحات وأصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم هم خيرة المؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(98/715)

فائدة

قال الإمام السبكى :

قَالَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى قَوْله تَعَالَى ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ بَعْدَ قَوْلِهِ ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ﴾ الْآيَةُ خَطَرَ لِي فِي أَنَّهُ رَدٌّ ﴿ لِقَوْلِ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو وَمَنْ مَعَهُ فِي قِصَّةِ الْحُدَيْبِيَةِ لَوْ نَعْلَمُ أَنَّك رَسُولُ اللَّهِ مَا قَاتَلْنَاك ﴾ كَأَنَّهُ بِلِسَانِ الْحَالِ يَقُولُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ بِشَهَادَةِ اللَّهِ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ شَهَادَةٍ وَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ ، وَبِهَذَا يَتَرَجَّحُ أَنْ يَكُونَ (رَسُولُ اللَّهِ) خَبَرًا وَلَا يَكُونُ صِفَةً وَإِنْ كَانَ الزَّمَخْشَرِيُّ لَمْ يَذْكُرْ هَذَا الْإِعْرَابَ ؛ وَإِنَّمَا جَعَلَهُ خَبَرَ مُبْتَدَأٍ أَوْ مُبْتَدَأً وَمَا بَعْدَهُ عَطْفُ بَيَانٍ . انْتَهَى . انتهى . اهـ

﴿ فتاوى السبكى حـ 1 صـ 117 ﴾

(99/715)

فصل

قال المقريزى :

فصل في ذكر أسمائه صلّى الله عليه وسلّم

اعلم أن لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم عدة أسماء : منها ما سماه الله – عزل وجل – به

في القرآن الكريم ، ومنها ما سمي به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نفسه ، وقد سمّي بعدة أسماء كثيرة .

فذكر الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن بن وهبة بن عساكر - رحمه الله - عشرين اسما .

وذكر الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي - رحمه الله - ثلاثة وعشرين اسما [1] وقال الحافظ أبو الخطاب عمر بن حسن بن دحية - رحمه الله - ثلاثمائة اسم في كتابه (المستوفي في أسماء المصطفى) [وقال] [2] : أنه إذا فحص عن جملتها من الكتب المتقدمة والقرآن العظيم والحديث النبوي بلغت ثلاثمائة اسم .

وذكر أبو الحسن علي بن أحمد بن الحسن الحرالّي تسعة وتسعين اسما .

وذكر القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربيّ المعافري في شرح جامع الترمذي عن بعض الصوفية : أن للَّه تعالى ألف اسم ، وللنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ألف اسم ، عرف منها أربعة وستون اسما فذكرها .

---

[1] (صفة الصفوة لابن الجوزي) ج 1 ص 54 ، 55 باب ذكر أسماء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم .

[2] زيادة للسياق .

وأشهر أسمائه صلّى الله عليه وسلّم (محمد) و(أحمد) ، وهما اسمان من أسماء الأعلام التي يراد بها التمييز بين الأشخاص ، وكل منهما ومن بقية أسمائه يشتمل على معنى من معاني الفضل .

ومن تأمل علم أنه ليس من أسماء الناس اسم يجمع من [معاني صفات الحمد] [1] ما يجمعه هذان الاسمان ، فأحمد اسم منقول من صفة لأفعل ، وتلك الصفة – أفعل – التي يراد بها التفضيل ، فمعنى أحمد : أي أحمد الحامدين لربه .

والأنبياء عليهم السلام كلهم حامدون للَّه تعالى ، إلا أن نبينا صلّى الله عليه وسلّم أكثرهم حمدا ، فيكون هو الأحق بالحمد ، ومحمد هو البليغ في الحمد ، فمن سمّي بهذين الاسمين فقد سمّي بأجمع الأسماء لمعاني الفضل .

يقال رجل محمد ومحمود ، إذا كثرت خصاله المحمودة ، ومعنى الاسمين واحد ، فإنّ وصف الشخص بأنه أحق بالحمد مبالغة في حمده ، والمبالغة في حمده تقدير له في الحمد على من لا يبالغ في حمده ، فأحمد على هذا هو محمد ، ومحمد أحمد .

وقد ذكر الله جل جلاله هذين في كتابه فقال تعالى مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ 48 : 29 [2] ، وقال : وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ من قَبْلِهِ الرُّسُلُ 3 : 144 [3] ، وقال : وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي من بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ 61 : 6 [4] .

وخرّج الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري - رحمه الله - في صحيحه من حديث سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه : قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم ؟ - يشتمون مذمما ، ويلعنون مذمما ، وأنا محمد [5] . وخرّج النسائي أيضا ، وذكر أبو الربيع بن سالم أنه روي عن عبد المطلب إنما سماه صلّى الله عليه وسلّم محمدا لرؤيا رآها ، زعموا أنه رأى في منامه سلسلة من فضة خرجت من ظهره لها طرف في السماء وطرف في الأرض ، وطرف المشرق وطرف في

---

[1] ما بين القوسين غير واضح في التصوير من النسخة (خ) ولعل ما أثبتناه هو المناسب .

[2] من الآية 29/ الفتح .

[3] من الآية 144/ آل عمران .

[4] من الآية 6/ الصف .

[5] (صحيح البخاري) ج 2 ص 270 باب ما جاء في أسماء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم .

المغرب ، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها في نور وإذا أهل المشرق والمغرب يتعلقون بها فقصها . فعبّرت له بمولود يكون من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب ، ويحمده أهل السماء والأرض ، فلذلك سماه محمدا ، مع ما حدثته آمنة به [1] .

وقال أبو القاسم السهيليّ [2] : لا يعرف في العرب من تسمى بهذا الاسم قبله صلّى الله عليه وسلّم إلا ثلاثة طمع آباؤهم حيث سمعوا بذكر محمد وبقرب زمانه وأنه يبعث بالحجاز ، أن يكون ولدا لهم ، ذكرهم ابن فورك في كتاب الفصول ، وهم : محمد ابن سفيان بن مجاشع جد [3] الفرزدق الشاعر ، والآخر : محمد بن أحيحة بن الجلاح ابن الحريش بن جمحي بن كلفة بن عوف بن عمرو بن مالك بن الأوس ، والآخر :

محمد بن حمران بن ربيعة .

وكان آباؤهم الثلاثة قد وفدوا على بعض الملوك ، وكان عنده علم من الكتاب الأول ، فأخبرهم بمبعث النبي صلّى الله عليه وسلّم وباسمه ، وكان كل واحد منهم قد خلّف امرأته حاملا ، فنذر كل واحد منهم : إن ولد له ذكر أن يسميه محمدا ، ففعلوا ذلك .

وذكر القاضي عياض : من تسمي بمحمد في الجاهلية فبلغوا ستة ، ثم قال في هذين الاسمين من عجائب خصائصه وبدائع آياته شيء آخر ، هو أن الله جلّ اسمه حمى أن يسمّى بهما أحد قبل زمانه ، أما أحمد الّذي أتى في الكتاب وبشرت به الأنبياء . فمنع الله تعالى بحكمته أن يسمّى به أحد غيره ، ولا يدعى به مدعو قبله ، حتى لا يدخل لبس على

ضعيف القلب ، أو شك [4] .

وكذلك محمد أيضا لم يسمّ به أحد من العرب ولا غيرهم إلى أن شاع قبيل وجوده صلّى الله عليه وسلّم وميلاده ، أن نبيا يبعث اسمه محمد ، فسمّى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك ، رجاء أن يكون أحدهم هو ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، وهم : محمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسي ، ومحمد بن مسلمة الأنصاري ، ومحمد بن برّاء البكري ، ومحمد بن سفيان بن مجاشع ، ومحمد بن حمران الجعفي ، ومحمد

---

[1] (الروض الأنف) ج 1 ص 182 «مع ما حدثته به أمه حين قيل لها : إنك حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وضعتيه فسميه محمد» .

[2] (المرجع السابق) ج 1 ص 182 .

[3] في (خ) «جد الفرزدق» وما أثبتناه من (السهيليّ) ج 1 ص 182 .

[4] (الشفاء للقاضي عياض) ج 1 ص 145 .

ابن خزاعيّ السلمي ، لا سابع لهم .

ويقال : أول من سمى محمدا ، محمد بن سفيان ، واليمن تقول : بل محمد ابن اليحمد من

الأزد ، ثم حمى الله كل من تسمى به أن يدّعي النبوة ، أو يدعيها أحد له ، أو يظهر عليه سبب يشك أحدا في أمره حتى تحققت السمتان له صلّى الله عليه وسلّم ولم ينازع فيهما . قال كاتبه . وذكر محمد بن مسلمة الأنصاري فيهم ، فيه نظر من حيث أنه ولد بعد ولادة النبي صلّى الله عليه وسلّم بنحو عشر سنين ، ولكنه صحيح من حيث أنه لم تكن النبوة ظهرت – والله أعلم .

وذكر ابن سعد فيهم : محمد الجشمي في بني سراة ، ومحمد الأسيدي ، ومحمد الفقيمي .

وقال أبو العباس المبرد : فتش المفتشون فما وجدوا بعد نبينا صلّى الله عليه وسلّم من اسمه أحمد قبل أبي الخليل بن أحمد .

وللبخاريّ من حديث الزهري ، أخبرني محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول [1] : إن لي أسماء ، أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الّذي يمحو الله بي الكفر ، وأنا الحاشر الّذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب الّذي ليس بعدي أحد ، وقد سماه الله رءوفا رحيما ، ذكره البخاري في التفسير ، وانتهى حديثه عند قوله : وأنا العاقب .

وذكره مسلم أيضا من حديث عقيل ، قال : قلت : لابن شهاب وما العاقب ؟ قال : الّذي ليس بعده نبي [2] .

ومن حديث معمر وعقيل : وأنا الماحي الّذي يمحو الله بي الكفر [3] ، وللبخاريّ من

حديث مالك عن ابن شهاب عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : لي خمسة أسماء : أنا محمد وأحمد ، وأنا الماحي الّذي

---

[1] في رواية (البخاري) ج 2 ص 220 «سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : لي أسماء» .

[2] (مسلم بشرح النووي) ج 15 ص 106 .

[3] في (خ) «الكفرة» .

(103/715)

يمحو الله بي الكفر ، وأنا الحاشر الّذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب . وذكره البخاري في المناقب في باب ما جاء في أسماء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر : تفرد برفعه عن مالك جويرية بن أسماء ، ورواه عبد الله ابن وهب ، وبشر بن عمرو الزهراني ، ويحيى بن عبد الله بن بكير المصري عن مالك مرسلا لم يذكر فيه جبيرا ، ورفعه صحيح عن الزهري ، فقد وصله عنه يونس ابن زيد ، وشعيب بن أبي حمزة الحمصي ، وسفيان بن عيينة (انتهى) .

وقد رفعه عن مالك غير جويرية بن أسماء قال الحافظ أبو عمر بن عبد البر :

وقد ذكر حديث مالك عن ابن شهاب عن محمد بن جبير بن مطعم أن النبي هكذا روي هذا الحديث [رواه] [1] يحيى مرسلا لم يقل عن أبيه ، وتابعه على ذلك أكثر رواة الموطأ ، وممن تابعه على ذلك القيعي وابن بكير ، وابن وهب وابن القاسم ، وعبد الله بن يوسف ، وابن أبي أويس ، وعبد الله بن مسلم الدمشقيّ ، وأسنده عن مالك معن بن عيسى ، ومحمد بن المبارك الصوري ، ومحمد بن عبد الرحيم ، وابن شروس الصنعاني ، وإبراهيم بن طهمان ، وحبيب ومحمد بن وهب ، وأبو حذافة ، وعبد الله بن نافع ، وأبو المعتب الزهري ، كل هؤلاء رواه عن مالك مسندا عن ابن شهاب عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه .

وخرجه مسلم من حديث سفيان عن الزهري ، سمع محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه : أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال : أنا أحمد ، وأنا محمد ، وأن الماحي الّذي يمحي بي الكفر ، وأنا الحاشر الّذي يحشر الناس على عقبي ، وأنا العاقب ، والعاقب الّذي ليس بعده نبي [2] . وخرجه عبد الرزاق ، أخبرنا معمر عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : إن لي أسماء : أنا أحمد وأنا محمد ، وأنا الماحي الّذي يمحو الله بي الكفر ، وأنا الحاشر يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب ، قال : قلت للزهري : وما العاقب ؟ قال : الّذي ليس بعده نبي .

وخرجه مسلم أيضا عن عبد بن حميد عن عبد الرزاق ، وأخرجه أيضا من

[1] زيادة للسياق .

[2] (مسلم بشرح النووي) ج 15 ص 104 .

حديث يونس بن يزيد عن الزهري ، وقال في الحديث : وأنا العاقب الّذي ليس بعده أحد ، وقد سمّاه الله رءوفا رحيما [1] ، ويحتمل أن تكون تفسير العاقب من قول محمد بن شهاب الزهري ، كما بينه معمر ، وقوله : وقد سماه الله رءوفا رحيما ، من قول الزهري ، والله أعلم .

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : سألت سفيان - يعني ابن عيينة - عن العاقب فقال لي : آخر الأنبياء .

قال أبو عبيد : وكذلك كل شيء خلف بعد شيء فهو عاقب ، وقد عقب يعقب عقبا ، ولهذا قيل : ولد الرجل بعده عقبة ، وكذلك آخر كل شيء عقبه .

وقوله يحشر الناس على قدمي : أي قدّامي وأمامي . أي أنهم مجتمعون إليه ، وينضمون حوله ، ويكونون أمامه يوم القيامة ووراءه .

وقال الخليل بن أحمد حشرتهم السنة : إذا ضمتهم من البوادي ، وهذا الحديث مطابق

لقوله تعالى : ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ من رِجالِكُمْ ولَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخاتَمَ النَّبِيِّينَ 33 : 40 [2] .

وقد روي : يحشر الناس على قدمي بالإفراد مخفف الياء ، وروي بتشديد الياء على التثنية [3] .

وقيل معناه أنه أول من يبعث من القبر ، وكل من عداه إنما يبعثون بعده ، وهو أول من يذهب به من المحشر ثم الناس في إثره .

وقيل معنى قوله وأنا الماحي ، يعني تمحى به سيئات من اتبعه .

وخرج أبو داود الطيالسي من حديث جابر [عن] نافع بن جبير بن مطعم عن أبيه قال : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : أنا محمد وأنا أحمد والحاشر ونبي التوبة ونبي الملحمة . ولمسلم من حديث الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يسمي لنا نفسه أسماء فقال :

---

[1] المرجع السابق ص 105 .

[2] من الآية 40/ الأحزاب .

[3] (مسلم بشرح النووي) ج 15 ص 105 .

أنا محمد وأحمد [1] والمقفي والحاشر ونبي التوبة ونبي الملحمة [2] . وقد روي من عدة طرق عن الليث بن سعد رحمه الله قال : حدثني خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن عتبة عن مسلم عن نافع بن جبير بن مطعم أنه دخل على عبد الملك بن مروان فقال له عبد الملك : أتحصي أسماء رسول الله التي كان جبير بن مطعم يعدها ؟ قال نعم ، قال هي ستة : محمد وأحمد وخاتم وحاشر وعاقب وماحي ، فأما حاشر : فبعث مع الساعة نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، وأما عاقب ، فإنه عقب الأنبياء ، وأما ماحي ، فإن الله عزّ وجلّ محا به سيئات من اتبعه .

وذكره الحاكم في المستدرك وقال : حديث صحيح على شرط الشيخين ، وقد قيل إنه إنّما سمي نبي التوبة لأنه أخبر أن الله يقبل التوبة من عباده إذا تابوا ، وسمي نبي الملحمة لأن الله فرض عليه قتل الكفار ، وجعله شرعا باقيا إلى قيام الساعة ، فما فتح مصرا من الأمصار إلا بالسيف أو خوفا من السيف ، إلا المدينة النبويّة فإنّها فتحت بالقرآن .

وقيل معنى المقفى : المتبع للأنبياء عليهم السلام ، يقال قفوته أقفوه ، وقفيته أقفيه إذا اتبعته ، وقافية كل شيء آخره ، وقيل لأنه قفي إبراهيم عليه السلام .

وقيل المقفي لموسى وعيسى عليهما السلام ، لنقل قومهما من اليهودية والنصرانية إلى الحنفية .

وقيل إنما اقتصر صلّى الله عليه وسلّم على هذه الأسماء مع أن له أسماء غيرها ، لأنها موجودة في الكتب المتقدمة ، وعند الأمم السالفة .

وروى الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : إنما أنا رحمة مهداة ، ورواه وكيع عن الأعمش عن أبي صالح منقطعا . وروي الكلبي عن أبي صالح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قول الله سبحانه : طه ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى 20 : 1 - 2 [3] ، يا رجل ما أنزلنا عليك

---

[1] في (خ) «أنا محمد ومحمد وأحمد» .

[2] ونحوه (في سنن الترمذي) ج 4 ص 214 حديث رقم 2996 وفي (الشمائل المحمدية للترمذي) ص 196 ، 197 .

[3] أول سورة طه .

القرآن لتشقى ، وكان يقوم الليل على رجليه ، فهي لعلك [1] ، إن قلت لعكيّ يا رجل ، لم يلتفت ، فإذا قلت له طه ، التفت إليك [2] .

وقال الخليل بن أحمد : خمسة من الأنبياء ذوو اسمين : محمد وأحمد نبينا صلّى الله عليه وسلّم ، وعيسى والمسيح ، وإسرائيل ويعقوب ، ويونس وذو النون ، وإلياس وذو الكفل ، عليهم السلام [3] .

وقال أبو زكريا بن محمد العنبري : ولنبينا محمد صلّى الله عليه وسلّم خمسة أسماء في القرآن :

محمد ، وأحمد ، وعبد الله ، وطه ويس ، قال الله تعالى في ذكر محمد صلّى الله عليه وسلّم : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ 48 : 29 وقال : وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي من بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ 61 : 6 [4] وقال :

وَأَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ 72 : 19 [5] : يعني النبي صلّى الله عليه وسلّم ليلة الجن كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً 72 : 19 [5] . وإنما كانوا يقعون بعضهم على بعض كما أن اللبد تتخذ من الصوف فيوضع بعضه على بعض فيصير لبدا .

قال تعالى : طه ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى 20 : 1 – 2 ، والقرآن إنما نزل على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دون غيره .

وقال تعالى : يس 36 : 1 يعني يا إنسان ، والإنسان ها هنا : هو محمد صلّى الله عليه

وسلّم ، إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ 36 : 3 ، وقد سماه الله تعالى في القرآن الكريم رسولا ونبيا أميا ، وسماه شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، وسماه رءوفا رحيما ، وسماه نذيرا مبينا ، وسماه مذكّرا ، وجعله رحمة [للعالمين صلّى الله عليه وسلّم] [6].

وعن كعب الأحبار قال : قال الله تعالى لمحمد صلّى الله عليه وسلّم : عبدي المختار .

وعن سفيان بن عيينة قال : سمعت على بن زيد يقول : اجتمعوا فتذاكروا أي بيت أحسن فيما قالت العرب ؟ قالوا : الّذي قال أبو طالب ، للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم :

---

[1] لعلك : قبيلة يضاف إليها مخلاف باليمن (معجم البلدان) ج 4 ص 142 .

[2] وفي (تفسير الطبري) في معنى قوله تعالى : طه ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى 20 : 1 - 2 : «والّذي هو أولى بالصواب عندي من الأقوال فيه قول من قال : معناه : يا رجل ، لأنها كلمة معروفة في لعك فيما بلغني ، وأن معناها فيهم : يا رجل» (تفسير الطبري) ج 16 ص 136 .

[3] ذكره (القرطبي) في (الجامع لأحكام القرآن) ج 1 ص 281 .

[4] من الآية 6/ الصف .

[5] آية 19/ الجن .

[6] ما بين القوسين مطموس في (خ) بقدر كلمتين أو ثلاثة ولعل ما أثبتناه هو المناسب .

(107/715)

وشق له من اسمه يجله فذو العرش محمود وهذا محمد

ومن أسمائه : الضحوك القتال ، والأمين ، والقثم ، وأحيد ، لأنه يحيد أمته عن نار جهنم ، فهو محمد وأحمد والأمين ، والأمي والحاشر والخاتم ، والرسول ، ورسول الله والشاهد والضحوك ، والعاقب والفاتح ، والقتال والقثم ، والماحي والمصطفى ، والمتوكل والمقفي ، والنبي والنذير ، ونبي الرحمة ، ونبي الملاحم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إمتاع الأسماع حـ 2 صـ 146.138﴾

(108/715)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ﴾

أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الدلائل عن مجاهد قال :

رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالحديبية أنه يدخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين ، فلما نحر الهدي بالحديبية قال له أصحابه : أين رؤياك يا رسول الله ؟ فأنزل الله ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ﴾ إلى قوله ﴿ فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ﴾ فرجعوا ففتحوا خيبر ، ثم اعتمر بعد ذلك فكان تصديق رؤياه في السنة المقبلة .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ﴾ قال : كان تأويل رؤياه في عمرة القضاء .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ﴾ قال : هو دخول محمد صلى الله عليه وسلم البيت والمؤمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ﴾ قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يطوف بالبيت وأصحابه ، فصدق الله رؤياه بالحق .

وأخرج ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ﴾ قال : رأى في المنام أنهم يدخلون المسجد الحرام وأنهم آمنون محلقين رؤوسهم ومقصرين .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ﴾ إلى آخر الآية . قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم لهم : " إني قد رأيت أنكم ستدخلون المسجد الحرام محلقين رؤوسكم ومقصرين " فلما نزلت بالحديبية ولم يدخل ذلك العام طعن المنافقون في ذلك ، فقال الله ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ﴾ إلى قوله ﴿ لا تخافون ﴾ أي لم أره أنه يدخله هذا العام ، وليكونن ذلك ، ﴿ فعلم ما لم تعلموا ﴾ قال : رده لمكان من بين أظهرهم من المؤمنين والمؤمنات وأخره ليدخل الله في رحمته من يشاء ممن يريد الله أن يهديه ﴿ فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ﴾ قال : خيبر حين رجعوا من الحديبية فتحها الله عليهم ، فقسمها على أهل الحديبية كلهم إلا رجلاً واحداً من الأنصار يقال له أبو دجانة سماك بن خرشة كان قد شهد الحديبية وغاب عن خيبر .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عطاء قال : خرج النبي صلى الله عليه وسلم معتمراً في ذي القعدة معه المهاجرون والأنصار حتى أتى الحديبية ، فخرجت إليه قريش ، فردوه عن البيت حتى كان بينهم كلام وتنازع حتى كاد يكون بينهم قتال ، فبايع النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه وعدتهم ألف وخمسمائة تحت الشجرة ، وذلك يوم بيعة الرضوان ،

فقاضاهم النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت قريش : نقاضيك على أن تنحر الهدي مكانه وتحلق وترجع ، حتى إذا كان العام المقبل نخلي لك مكة ثلاثة أيام ، ففعل ، فخرجوا إلى عكاظ فأقاموا فيها ثلاثة أيام واشترطوا عليه أن لا يدخلها بسلاح إلا بالسيف ، ولا يخرج بأحد من أهل مكة إن خرج معه ، فنحر الهدي مكانه وحلق ورجع حتى إذا كان في قابل من تلك الأيام دخل مكة ، وجاء بالبدن معه ، وجاء الناس معه ، فدخل المسجد الحرام فأنزل الله عليه ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين ﴾ وأنزل عليه

(110/715)

﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص ﴾ [البقرة : 194] الآية .

أما قوله تعالى : ﴿ محلقين رؤوسكم ومقصرين ﴾ .

أخرج مالك والطيالسي وابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة " عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " رحم الله المحلقين " قالوا : والمقصرين يا رسول الله ، قال : " رحم الله المحلقين " قالوا : والمقصرين يا رسول الله ، قال : " والمقصرين " " .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وابن ماجة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اللهم اغفر للمحلقين قالوا يا رسول الله والمقصرين قال : اللهم اغفر للمحلقين ثلاثاً قالوا يا رسول الله والمقصرين قال والمقصرين " .

وأخرج الطيالسي وأحمد وأبو يعلى عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حلقوا رؤوسهم يوم الحديبية إلا عثمان بن عفان وأبا قتادة فاستغفر رسول الله صلى الله عليه وسلم للمحلقين ثلاثاً وللمقصرين مرة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن حبشي بن جنادة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اللهم اغفر للمحلقين قالوا يا رسول الله والمقصرين قال اللهم اغفر للمحلقين قالوا يا رسول الله والمقصرين قال اللهم اغفر للمقصرين " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن يزيد بن أبي مريم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " اللهم اغفر للمحلقين ثلاثاً قالوا يا رسول الله والمقصرين قال والمقصرين " وكنت يومئذ محلوق الرأس فما يسرني بحلق رأسي حمر النعم .

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم عن يحيى بن أبي الحصين عن جدته أنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم دعا للمحلقين ثلاثاً وللمقصرين مرة في حجة الوداع .

وأخرج أحمد عن مالك بن ربيعة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " اللهم اغفر للمحلقين ثلاثاً قال رجل : والمقصرين فقال في الثالثة أو الرابعة وللمقصرين " .

وأخرج البيهقي في الدلائل عن ابن عباس أنه قيل له لم ظاهر رسول الله صلى الله عليه وسلم للمحلقين ثلاثاً وللمقصرين مرة فقال : " إنهم لم يشكوا " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اللهم اغفر للمحلقين قالها ثلاثاً فقالوا يا رسول الله ما بال المحلقين ظاهرت لهم الترحم قال : إنهم لم يشكوا " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن إبراهيم قال : كانوا يستحبون للرجل أول ما يحج أن يحلق وأول ما يعتمر أن يحلق .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عمر أنه كان يقول للحلاق إذا حلق في الحج والعمرة أبلغ للعظمين .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عطاء قال : السنة أن يبلغ بالحلق إلى العظمين .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أنس أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم قال للحلاق هكذا ، وأشار بيده إلى الجانب الأيمن .

وأخرج أبو داود والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : " ليس على النساء حلق إنما على النساء التقصير " .

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ

أخرج الخطيب في رواية مالك بسند ضعيف عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ والذين معه – إلى – مثلهم في التوراة ﴾ إلى قوله ﴿ كزرعٍ أخرج شطأه ﴾ قال مالك : نزل في الإنجيل نعت النبي وأصحابه .

وأخرج ابن سعد في الطبقات وابن أبي شيبة عن عائشة قالت : لما مات سعد بن معاذ حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر فوالذي نفس محمد بيده إني لأعرف بكاء أبي بكر من بكاء عمر وأنا في حجرتي ، وكانوا كما قال الله ﴿ رحماء بينهم ﴾ قيل فكيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع فقالت : كانت عينه لا تدمع على أحد ولكنه كان إذا وجد فإنما هو آخذ بلحيته .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والترمذي عن جرير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يرحم الله من لا يرحم الناس " .

(112/715)

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود عن عبد الله بن عمرو يرويه قال : " من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا فليس منا " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا تنزع الرحمة إلا من شقي " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما يرحم الله من عباده الرحماء " .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ سيماهم في وجوههم ﴾ قال : أما إنه ليس بالذين ترون ، ولكنه سيما الإِسلام وسحنته وسمته وخشوعه .

وأخرج محمد بن نصر في كتاب الصلاة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله : ﴿ سيماهم في وجوههم ﴾ قال السمت الحسن .

وأخرج الطبراني في الأوسط والصغير وابن مردويه بسند حسن عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ سيماهم في وجوههم من أثر السجود ﴾ قال : " النور يوم القيامة " " .

وأخرج البخاري في تاريخه وابن نصر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ سيماهم في وجوههم من أثر السجود ﴾ قال : بياض يغشى وجوههم يوم القيامة .

وأخرج عبد بن حميد وابن نصر وابن جرير عن الحسن رضي الله عنه مثله .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن نصر وابن جرير عن عطية العوفي رضي الله عنه قال : موضع السجود أشد وجوههم بياضاً يوم القيامة .

وأخرج الطبراني عن سمرة بن جندب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " إن الأنبياء عليهم السلام يتباهون أيهم أكثر أصحاباً من أمته فأرجو أن أكون يومئذ أكثرهم كلهم واردة ، وإن كل رجل منهم يومئذ قائم على حوض ملآن معه عصا يدعو من عرف من أمته ولكل أمة سيما يعرفهم بها نبيهم " .

(113/715)

وأخرج الطبراني والبيهقي في سننه عن حميد بن عبد الرحمن قال : كنت عند السائب بن يزيد إذ جاء رجل في وجهه أثر السجود فقال : لقد أفسد هذا وجهه أما والله ما هي السيما التي سمّى الله ، ولقد صليت على وجهي منذ ثمانين سنة ما أثّر السجود بين عينيّ .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن نصر وابن جرير عن مجاهد ﴿ سيماهم في وجوههم ﴾ قال : ليس الأثر في الوجه ولكن الخشوع .

وأخرج ابن المبارك وعبد بن حميد وابن جرير وابن نصر عن مجاهد ﴿ سيماهم في وجوههم ﴾ قال : الخشوع والتواضع .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن نصر عن سعيد بن جبير في الآية ، قال : ندى الطهور وثرى الأرض .

وأخرج ابن نصر وابن المنذر عن الضحاك في الآية ، قال : هو السهر إذا سهر الرجل من الليل أصبح مصفرّاً .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن نصر عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ سيماهم في وجوههم ﴾ قال : السهر .

وأخرج ابن مردويه " عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ سيماهم في وجوههم ﴾ قال : إن جبريل قال : إذا نظرت إلى الرجل من أمتك عرفت أنه من أهل الصلاة بأثر الوضوء ، وإذا أصبحت عرفت أنه قد صلى من الليل ، وهو يا محمد العفاف في الدين والحياء وحسن السمت " .

وأخرج ابن إسحق وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : "كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يهود خيبر " بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله صاحب موسى وأخيه المصدق لما جاء به موسى ، ألا إن الله قد قال لكم يا معشر أهل التوراة وإنكم تجدون ذلك في كتابكم ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ إلى آخر السورة " " .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ذلك مثلهم في التوراة ﴾ يعني مكتوب في التوراة والإِنجيل قبل أن يخلق السموات والأرض .

(114/715)

وأخرج أبو عبيد وأبو نعيم في الحلية وابن المنذر عن عمار مولى بني هاشم قال : سألت أبا هريرة رضي الله عنه عن القدر قال : إكتف منه بآخر سورة الفتح ﴿ محمد رسول الله والذين معه ﴾ إلى آخر السورة ، يعني أن الله نعتهم قبل أن يخلقهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ رحماء بينهم ﴾ قال : جعل الله في قلوبهم الرحمة بعضهم لبعض ﴿ سيماهم في وجوههم من أثر السجود ﴾ قال : علامتهم الصلاة ﴿ ذلك مثلهم في التوراة ﴾ قال : هذا المثل في التوراة ﴿ ومثلهم في الإِنجيل ﴾ قال : هذا مثل آخر ﴿ كزرعٍ أخرج شطأه ﴾ قال : هذا نعت أصحاب محمد في الإِنجيل .

قيل له : أنه سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يخرج منهم قوم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ سيماهم في

وجوههم من أثر السجود ﴾ قال : صلاتهم تبدو في وجوههم يوم القيامة ﴿ ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإِنجيل كزرع أخرج شطأه ﴾ قال : سنبله حين يبلغ نباته عن حباته ﴿ فآزره ﴾ يقول : نباته مع التفافه حين يسنبل ، فهذا مثل ضربه الله لأهل الكتاب إذا خرج قوم ينبتون كما ينبت الزرع فيهم رجال يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ثم يغلظ فيهم الذين كانوا معهم ، وهو مثل ضربه لمحمد يقول : يبعث الله النبي وحده ثم يجتمع إليه ناس قليل يؤمنون به ثم يكون القليل كثيراً وسيغلظون ، ويغيظ الله بهم الكفار يعجب الزراع من كثرته وحسن نباته .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ كزرعٍ أخرج شطأه ﴾ قال : يقول حب بر متفرقاً فأنبتت كل حبة واحدة ثم أنبتت من حولها مثلها حتى استغلظ واستوى على سوقه يقول : كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم قليلاً ثم كثروا واستغلظوا .

(115/715)

وأخرج ابن مردويه والخطيب وابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ كزرعٍ ﴾ قال : أصل الزرع عبد المطلب أخرج شطأه محمداً صلى الله عليه وسلم فآزره

بأبي بكر فاستغلظ بعمر فاستوى بعثمان على سوقه بعلي ليغيظ بهم الكفار .

وأخرج ابن مردويه والقلطي وأحمد بن محمد الزهري في فضائل الخلفاء الأربعة والشيرازي في الألقاب عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ محمد رسول الله والذين معه ﴾ أبو بكر ﴿ أشداء على الكفار ﴾ عمر ﴿ رحماء بينهم ﴾ عثمان ﴿ تراهم ركعاً سجداً ﴾ علي ﴿ يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ﴾ طلحة والزبير ﴿ سيماهم في وجوههم من أثر الشجود ﴾ عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وأبو عبيدة بن الجراح ﴿ ومثلهم في الإنجيل كزرعٍ أخرج شطأه فآزره ﴾ بأبي بكر ﴿ فاستغلظ ﴾ بعمر ﴿ فاستوى على سوقه ﴾ بعثمان ﴿ يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ﴾ بعلي ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ جميع أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ كزرعٍ أخرج شطأه ﴾ قال : نباته .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أنس رضي الله عنه ﴿ كزرعٍ أخرج شطأه ﴾ قال : نباته فروخه .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ كزرعٍ أخرج شطأه ﴾ قال : حين تخرج منه الطاقة ﴿ فآزره ﴾ قواه ﴿ فاستغلظ فاستوى على سوقه ﴾ قال : على مثل المسلمين .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ كزرعٍ أخرج شطأه ﴾

قال : ما يخرج بجنب كتابه الجعلة فيتم وينمو . ﴿ فآزره ﴾ قال : فشده وأعانه ﴿ على سوقه ﴾ قال : على أصوله .

(116/715)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن خيثمة قال : قرأ رجل على عبد الله سورة الفتح فلما بلغ ﴿ كزرعٍ أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ﴾ قال : ليغيظ الله بالنبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه الكفار ، ثم قال : أنتم الزرع وقد دنا حصاده .

وأخرج الحاكم وصححه عن عائشة في قوله ﴿ ليغيظ بهم الكفار ﴾ قالت : أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أمروا بالإِستغفار لهم فسبوهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ 538 . 545 ﴾

(117/715)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ المؤمنين إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشجرة ﴾

يعني : شجرة السمرة .

ويقال : أم غيلان .

قال قتادة : بايعوهُ يومئذٍ وهم ألف وأربعمائة رجل .

وكان عثمان يومئذٍ بمكة .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إِنَّ عُثْمَانَ فِي حَاجَةِ اللهِ وَحَاجَةِ رَسُولِهِ ، وَحَاجَةِ المُؤْمِنِينَ .

ثُمَّ وضع إحدى يديه على الأخرى ، وقال : هذه بَيْعَةُ عُثْمَان " .

﴿ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ أي : ما في قلوبهم من الصدق والوفاء .

وهذا قول ابن عباس .

وقال مقاتل : ﴿ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ من الكراهية للبيعة على أن يقتلوا ، ولا يفروا .

﴿ فَأَنزَلَ ﴾ الله ﴿ السكينة عَلَيْهِمْ ﴾ يعني : أنزل الله تعالى الطمأنينة ، والرضى عليهم .

﴿ وأثابهم ﴾ يعني : أعطاهم .

﴿ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ يعني : فتح خيبر .

﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾ يعني : يغنمونها ﴿ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ حكم عليهم بالقتل ، والسبي .

ويقال : حكم الغنيمة للمؤمنين ، والهزيمة للكافرين .

ثم قال : ﴿ وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ يعني : تغنمونها ، وهو ما أصابوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعده إلى يوم القيامة .

وقال ابن عباس : هي هذه الفتوح التي تفتح لكم ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هذه ﴾ يعني : فتح خيبر ، قرأ بعضهم ﴿ وأتاهم ﴾ أي : أعطاهم وقراءة العامة ﴿ وأثابهم ﴾ يعني : كافأهم .

قوله تعالى : ﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ ﴾ يعني : أيدي أهل مكة .

ويقال : أسد وغطفان أرادوا أن يعينوا أهل خيبر ، فدفعهم الله عن المؤمنين ، فصالحوا النبي صلى الله عليه وسلم على ألا يكونوا له ، ولا عليه .

ثم قال : ﴿ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وهو فتح خيبر ، لأن المسلمين كانوا ثمانية آلاف ، وأهل خيبر كانوا سبعين ألفاً .

(118/715)

ثم قال : ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صراطا مُّسْتَقِيماً ﴾ يعني : يرشدكم ديناً قيماً ، وهو دين الإسلام .

ثم قال : ﴿ وأخرى لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا ﴾ يعني : وعدكم الله غنيمة أخرى لم تقدروا عليها .

يعني : لم تملكوها بعد ، وهو فتح مكة .

ويقال : هو فتح قرى فارس ، والروم .

﴿ قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا ﴾ يعني : علم الله أنكم ستفتحونها ، وستغنمونها ، فجمعها ، وأحرزها لكم .

﴿ وَكَانَ الله على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيراً ﴾ من الفتح وغيره ﴿ وَلَوْ قاتلكم الذين كَفَرُواْ ﴾ يعني : كفار مكة يوم الحديبية .

ويقال : أسد وغطفان يوم خيبر .

﴿ لَوَلَّوُاْ الادبار ﴾ منهزمين ﴿ ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً ﴾ يعني : قريباً ينفعهم ، ولا مانعاً يمنعهم من الهزيمة .

قوله عز وجل : ﴿ سُنَّةَ الله التى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ﴾ يعني : هكذا سنة الله بالغلبة ، والنصرة لأوليائه ، والقهر لأعدائه .

﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً ﴾ يعني : تغييراً ، وتحويلاً .

﴿ وَهُوَ الذى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ يعني : أيدي أهل مكة ، ﴿ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم ﴾ يعني : أيديكم عن أهل مكة من بعد أن أظفركم عليهم .

وذلك أن جماعة من أهل مكة ، خرجوا يوم الحديبية يرمون المسلمين ، فرماهم المسلمون بالحجارة حتى أدخلوهم بيوت مكة .

وروى حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس قال : طلع قوم وهم ثمانون رجلاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل التنعيم عند صلاة الصبح ليأخذوه ، فأخذهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخلى سبيلهم .

فأنزل الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم ﴾ ﴿ بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ يعني : بوسط مكة ﴿ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ يعني : سلطكم عليهم ﴿ وَكَانَ الله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ﴾ بحرب بعضكم بعضاً .

(119/715)

قوله تعالى : ﴿ هُمُ الذين كَفَرُواْ ﴾ يعني : جحدوا بوحدانية الله تعالى ﴿ وَصَدُّوكُمْ عَنِ المسجد الحرام ﴾ أن تطوفوا به ﴿ والهدى مَعْكُوفاً ﴾ يعني : محبوساً .

يقال : عكفته عن كذا إذا حبسته .

ومنه العاكف في المسجد لأنه حبس نفسه .

يعني : صيروا الهدي محبوساً عن دخول مكة ، وهي سبعون بدنة .

ويقال : مائة بدنة .

﴿ أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ يعني : منحره ، ومنحرة منى للحاج ، وعند الصفا للمعتمر .

ثم قال : ﴿ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مؤمنات ﴾ بمكة ﴿ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ أنهم مؤمنون .

يعني : لم تعرفوا المؤمنين من المشركين ﴿ أن ﴾ يعني : تحت أقدامكم .

ويقال : فتضربوهم بالسيف ﴿ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِّنْهُمْ مَّعَرَّةٌ ﴾ يعني : تلزمكم الدية ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ يعني : بغير علم منكم لهم ، ولا ذنب لكم .

وذلك أن بعض المؤمنين كانوا مختلطين بالمشركين ، غير متميزين ، ولا معروفي الأماكن .

ثم قال : ﴿ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مؤمنات لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن ﴾ لو دخلتموها أن تقتلوهم ﴿ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللهُ فِى رَحْمَتِهِ مَن يَشَاء ﴾ لو فعلتم فيصيبكم من قتلهم معرة .

يعني : يعيركم المشركون بذلك ، ويقولون : قتلوا أهل دينهم كما قتلونا ، فتلزمكم الديات .

ثم قال : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُواْ ﴾ أي : تميزوا من المشركين ﴿ لَعَذَّبْنَا الذين كَفَرُواْ ﴾ يعني : لو تميزوا بالسيف .

وقال القتبي : صار قوله : ﴿ لَعَذَّبْنَا ﴾ جواباً لكلامين أحدهما ، لولا رجال مؤمنون ، والآخر ﴿ لَوْ تَزَيَّلُواْ ﴾ يعني : لو تفرقوا ، واعتزلوا .

يعني : المؤمنين من الكافرين ﴿ لَعَذَّبْنَا الذين كَفَرُواْ ﴾ ﴿ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ يعني :

شديداً وهو القتل .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَعَلَ الذين كَفَرُواْ ﴾ يعني : أهل مكة ﴿ فِى قُلُوبِهِمُ الحمية حَمِيَّةَ الجاهلية ﴾ وذلك أنهم قالوا : قتل آباءنا ، وإخواننا .

(120/715)

ثم أتانا يدخل علينا في منازلنا .

والله لا يدخل علينا ، فهذه الحمية التي في قلوبهم .

﴿ فَأَنزَلَ الله سَكِينَتَهُ ﴾ يعني : طمأنينته ﴿ على رَسُولِهِ وَعَلَى المؤمنين ﴾ فأذهب عنهم الحمية ، حتى اطمأنوا ، وسكتوا .

﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التقوى ﴾ يعني : ألهمهم كلمة لا إله إلا الله حتى قالوا : ﴿ وَكَانُواْ أَحَقَّ بِهَا ﴾ يعني : كانوا في علم الله تعالى أحق بهذه الكلمة من كفار مكة ﴿ وَأَهْلَهَا ﴾ يعني : وكانوا أهل هذه الكلمة عند الله تعالى ﴿ وَكَانَ الله بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيماً ﴾ يعني : عليماً بمن كان أهلاً لذلك وغيره .

قوله عز وجل : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ الله رَسُولَهُ الرؤيا بالحق ﴾ يعني : حقق الله تعالى رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالوفاء ، والصدق ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم

رأى في المنام قبل الخروج إلى الحديبية ، أنهم يدخلون المسجد الحرام .

فأخبر الناس بذلك ، فاستبشروا .

فلما صدهم المشركون ، قالت المنافقون في ذلك ما قالت .

فنزل ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرؤيا بالحق ﴾ يعني : يصدق رؤياه بالحق ﴿ لَتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام ﴾ يعني : ما أخبر أصحابه أنهم يدخلون المسجد الحرام في العام الثاني .

ويقال : نزلت الآية بعد ما دخلوا في العام الثاني ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرؤيا بالحق لَتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام ﴾ يعني : ما أخبر أصحابه أنهم يدخلون المسجد الحرام ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ على يُوسُفَ ﴾ يعني : لتدخلن ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ على يُوسُفَ ﴾ يعني : بإذن الله ، وأمره .

ويقال : هذا اللفظ حكاية الرؤيا .

(121/715)

وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حين رأى في المنام ، رأى كأن ملكاً ينادي وهو يقول : لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله ، فأنزل الله تعالى ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرؤيا بالحق ﴾ وهو قول الملك ﴿ لَتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام إِن شَاء الله ءامِنِينَ ﴾ من العدو ﴿

مُحَلِّقِينَ رُءوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ يعني : منهم من يحلق ، ومنهم من يقصر ﴿ لاَ تخافون ﴾ العدو ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ ﴾ قال مقاتل : فعلم أن يفتح عليهم خيبر قبل ذلك ، فوعد لهم الفتح ، ثم دخول مكة ، ففتحوا خيبر ، ثم رجعوا ، ثم دخلوا مكة ، وأتوا عمرة القضاء .

وقال الكلبي في قوله : ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ ﴾ يعني : علم الله أنه سيكون في السنة الثانية ، ولم تعلموا أنتم ، فلذلك وقع في أنْفسكم ما وقع ﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ يعني : فتح خيبر .

ثم قال عز وجل : ﴿ هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهدى ﴾ يعني : بالتوحيد شهادة أن لا إله إلا الله ﴿ وَدِينِ الحق ﴾ وهو الإسلام ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ ﴾ يعني : على الأديان كلها قبل أن تقوم الساعة .

فلا يبقى أهل دين إلا دخلوا في الإسلام ﴿ وكفى بالله شَهِيداً ﴾ بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن لم يشهد كفار مكة ، وذلك حين أراد أن يكتب محمد رسول الله ، فقال سهيل بن عمرو : إنا لا نعرف بأنك رسول الله ولا نشهد .

قال الله عز وجل : ﴿ وكفى بالله شَهِيداً ﴾ وإن لم يشهد سهيل ، وأهل مكة .

قال عز وجل : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ الله والذين مَعَهُ ﴾ من المؤمنين ﴿ أَشِدَّاء عَلَى الكفار ﴾ بالغلظة ﴿ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ ﴾ يعني : متوادّين فيما بينهم ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً ﴾ يعني : يكثرون الصلاة ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ الله وَرِضْوَاناً ﴾ يعني : يلتمسون من الحلال .

وقال بعضهم : ﴿ والذين مَعَهُ ﴾ يعني : أبا بكر ﴿ أَشِدَّاء عَلَى الكفار ﴾ يعني : عمر ﴿ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ ﴾ يعني : عثمان ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً ﴾ يعني : عليّاً رضوان الله عليهم أجمعين ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ الله وَرِضْوَاناً ﴾ يعني : الزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ﴿ سيماهم فِى وُجُوهِهِمْ ﴾ يعني : علاماتهم ، وهي الصفرة في وجوههم ﴿ مِّنْ أَثَرِ السجود ﴾ يعني : من السهر بالليل .

ويقال : يعرفون غُرّاً محجلين يوم القيامة ، من أثر الوضوء .

وقال مجاهد : ﴿ سيماهم فِى وُجُوهِهِمْ ﴾ قال : الخشوع ، والوقار .

وقال منصور : قلت لمجاهد : أهذا الذي يكون بين عيني الرجل ؟ قال : إن ذلك قد يكون للرجل ، وهو أقسى قلباً من فرعون .

ثم قال : ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التوراة ﴾ يعني : هذا الذي ذكره من نعتهم ، وصفتهم في التوراة .

ثم ذكر نعتهم في الإنجيل فقال : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِى الإنجيل ﴾ يعني : مثل محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ .

روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : مثلهم في التوراة ، والإنجيل واحد .

قال : ﴿ مَثَلُهُمْ فِى التوراة وَمَثَلُهُمْ فِى الإنجيل كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ قرأ ابن كثير ، وابن عامر : ﴿ شَطْأَهُ ﴾ بنصب الشين ، والطاء .

والباقون : بنصب الشين ، وجزم الطاء .

ومعناهما واحد .

وهو فراخ الزرع .

وقال مجاهد : ﴿ شَطْأَهُ ﴾ يعني : قوائمه .

قرأ ابن عامر : ﴿ فَازَرَهُ ﴾ بغير مد .

والباقون بالمد ومعناهما واحد .

يعني : قواه .

ومنه قوله عز وجل : ﴿ اشدد بِهِ أَزْرِى ﴾ [طه : 31] يعني : أقوي به ظهري .

ويقال : ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ يعني : سنبله ﴿ فَازَرَهُ ﴾ يعني : أعانه وقواه .

﴿ فاستغلظ ﴾ يعني : غلظ الزرع ، واستوى .

﴿ فاستوى على سُوقِهِ ﴾ وهو جماعة الساق ﴿ يُعْجِبُ الزراع ﴾ يعني : الزارع إذا نظر في زرعه بعدما استغلظ ، واستوى ، يعجبه ذلك .

فكذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، تبعه أبو بكر ، ثم تبعه عمر ، ثم تبعه واحد بعد واحد من أصحابه ، حتى كثروا ففرح النبي صلى الله عليه وسلم بذلك لكثرتهم .

﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكفار ﴾ يعني : أهل مكة يكرهون ذلك لما رأوا من كثرة المسلمين ، وقوتهم .

وروى خيثمة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقرئهم القرآن في المسجد ، فأتى على هذه الآية : ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ فقال : أنتم الزرع ، وقد دنا حصادكم .

ويقال : ﴿ كَزَرْعٍ ﴾ يعني : محمداً صلى الله عليه وسلم .

﴿ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ يعني : أبا بكر ﴿ فَآزَرَهُ ﴾ يعني : أعانه عمر على كفار مكة ﴿ فاستغلظ ﴾ يعني : تقوى بنفقة عثمان ﴿ فاستوى على سُوقِهِ ﴾ يعني : قام على أمره علي بن أبي طالب يعينه ، وينصره على أعدائه .

﴿ يُعْجِبُ الزراع لِيَغِيظَ بِهِمُ الكفار ﴾ يعني طلحة ، والزبير .

وكان الكفار يكرهون إيمان طلحة والزبير لشدة قوتهما ، وكثرة أموالهما .

﴿ وَعَدَ الله الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات مِنْهُم ﴾ يعني : لهم .

ويقال : فيما بينهم ، وبين ربهم .

ويقال : مِنْ هاهنا لإبانة الجنس .

يعني : ﴿ وَعَدَ اللهُ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات مِنْهُم ﴾ أي : من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ مَغْفِرَةً ﴾ لذنوبهم ﴿ وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ يعني : ثواباً وافراً في الجنة .

روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الفَتْحِ فَكَأَنَّمَا شَهِدَ فَتْحَ مَكَّةَ مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم " .

والله سبحانه أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 298 . 305 ﴾

(124/715)

وقال الثعلبى :

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ المؤمنين إِذْ يُبَايِعُونَكَ ﴾

بالحديبية على أن يناجزوا قريشاً ، ولا يفروا . ﴿ تَحْتَ الشجرة ﴾ وكانت سمرة ، ويروى أنّ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه مرّ بذلك المكان بعد أن ذهبت الشجرة ، فقال : أين كانت ؟ فجعل بعضهم يقول : ها هنا ، وبعضهم ها هنا ، فلمّا كثر اختلافهم قال : سيروا ، هذا التكلف ، وقد ذهبت الشجرة ، أما ذهب بها سيل وأمّا شيء سوى ذلك . "

وكان سبب هذه البيعة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا خراش بن أُمية الخزاعي ، فبعثه إلى قريش بمكّة ، وحمله على جمل له يقال له : الثعلب ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له ،

وذلك حين نزل الحديبية .

فعقروا له جمل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرادوا قتله فمنعه الأحابيش ، فخلّوا سبيله حتّى أتى رسول الله ، فدعا رسول الله (عليه السلام) عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ليبعثه إلى مكّة ، فقال : يا رسول الله إنّي أخاف قريشاً على نفسي ، وليس بمكّة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني ، وقد عرفت قريش عداوتي إيّاها ، وغلظتي عليهم ، ولكنّي أدُلّك على رجل هو أعزّ بها منّي ، عثمان بن عفّان ، فدعا رسول الله عثمان ، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنّه لم يأت لحرب ، وإنّما جاء زائراً لهذا البيت ، معظّماً لحرمته ، فخرج عثمان إلى مكّة ، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكّة ، أو قبل أن يدخلها ، فنزل عن دابّته وحمله بين يديه ، ثمّ ردفه وأجازه حتّى بلّغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عظماء قريش لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به ، فقال : ما كنت لأفعل حتّى يطوف به رسول الله .

(125/715)

فاحتبسته قريش عندهم ، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين أنّ عثمان قد قُتل ، فقال رسول الله : " لا نبرح حتّى نناجز القوم " . ودعا الناس إلى البيعة ، فكانت بيعة

الرضوان تحت الشجرة ، فكان الناس يقولون : بايعهم رسول الله على الموت ، وقال بكير بن الأشج : بايعوه على الموت ، فقال رسول الله (عليه السلام) : " بل على ما استطعتم " " .

وقال عبد الله بن معقل : كنت قائماً على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك اليوم ، وبيدي غصن من السمرة ، أذبّ عنه ، وهو يبايع النّاس ، فلم يبايعهم على الموت ، وإنّما بايعهم على أن لا يفرّوا ، وقال جابر بن عبد الله : فبايع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم النّاس ولم يتخلّف عنه أحد من المسلمين حضرها إلاّ الجد بن قيس أخو بني سلمة ، لكأنّي أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته مستتراً بها من النّاس .

وكان أوّل من بايع بيعة الرضوان رجل من بني أسد يقال له : أبو سنان بن وهب . ثمّ أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم إنّ الّذي ذُكر من أمر عثمان باطل ، واختلفوا في مبلغ عدد أهل بيعة الرضوان ، فروى شعبة ، عن عمرو بن مُرّة ، قال : سمعت عبد الله بن أبي أوفى يقول : كنّا يوم الشجرة ألف وثلاثمائة ، وكانت أسلم يومئذ من المهاجرين .

وقال قتادة : كانوا خمسة عشر ومائة . وروى العوفي عن ابن عبّاس ، قال : كان أهل البيعة تحت الشجرة ألفاً وخمسمائة وخمسة وعشرون . وقال آخرون : كانوا ألفاً وأربعمائة .

أخبرنا الحسين بن محمّد بن منجويه ، حدّثنا علي بن أحمد بن نصرويه ، حدّثنا أبو عمران موسى بن سهل بن عبد الحميد الخولي ، حدّثنا محمّد بن رمح ، حدّثنا الليث بن سعد ،

عن أبي الزبير ، عن جابر بن عبد الله ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يدخل النّار أحدٌ ممّن بايع تحت الشجرة " .

(126/715)

﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ من الصدق ، والصبر ، والوفاء . ﴿ فَأَنزَلَ السكينة عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ وهو خيبر ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾ وكانت خيبر ذات عقار وأموال . فاقتسمها رسول الله بينهم .

﴿ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً * وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ وهي الفتوح التي تفتح لهم إلى يوم القيامة ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هذه ﴾ يعني يوم خيبر . ﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ الناس عَنْكُمْ ﴾ أهل مكّة عنكم بالصلح ، وقال قتادة : يعني وكفّ اليهود من خيبر ، وحلفاءهم من أسد ، وغطفان ، عن بيضتكم ، وعيالكم ، وأموالكم بالمدينة ، وذلك أنّ مالك بن عوف النصري ، وعيينة بن حصن الفزاري ، ومن معهما من بني أسد وغطفان جاءوا لنصرة أهل خيبر فقذف الله تعالى في قلوبهم الرعب فانصرفوا .

﴿ وَلِتَكُونَ ﴾ هزيمتهم ، وسلامتكم ﴿ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ليعلموا أنّ الله هو المتولّي حياطتهم ، وحراستهم في مشهدهم ومغيبهم . ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾ طريق

التوكّل ، والتفويض حتّى تثقوا في أُموركم كلّها بربّكم ، وتتوكّلوا عليه ، وقيل : يثبتكم على الإسلام ، ويزيدكم بصيرة ويقيناً بصلح الحديبية ، وفتح خيبر ، وذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من غزوة الحديبية إلى المدينة ، أقام بها بقيّة ذي الحجّة ، وبعض المحرم ، ثمّ خرج في بقيّة المحرم سنة سبع إلى خيبر ، واستخلف على المدينة سماع بن عرفطة الغفاري .

(127/715)

أخبرنا عبد الله بن محمّد بن عبد الله الزاهد ، قرأه عليه ، أخبرنا أبو العبّاس محمّد بن إسحاق السرّاج ، حدّثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدّثنا عثمان بن عمر ، أخبرنا ابن عون ، عن عمرو ابن سعيد ، عن أنس بن مالك ، أخبرنا عبيد الله بن محمّد ، أخبرنا أبو العبّاس السرّاج ، حدّثنا عبد الأعلى بن حمّاد أبو يحيى الباهلي ، حدّثنا يزيد بن زريع ، حدّثنا عن ابن أبي عروبة ، قال : أخبرنا عبيد الله بن محمّد ، حدّثنا أبو العبّاس السرّاج ، حدّثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري ، حدّثنا روح ، عن سعيد ، عن قتادة ،

" عن أنس ، قال : كنت رديف أبي طلحة يوم أتينا خيبر ، فصبّحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أخذوا مساحيهم ، وفؤوسهم ، وغدوا على حرثهم ، وقالوا : محمّد

والخميس . فقال رسول الله : " الله أكبر هلكت خيبر ، إنّا إذا نزلنا ساحة قوم فساء صباح المنذرين " . ثمّ نكصوا ، فرجعوا إلى حصونهم " .

أخبرنا عبيد الله بن محمّد بن عبد الله بن محمّد ، حدّثنا أبو العبّاس السرّاج ، حدّثنا قتيبة بن سعيد ، حدّثنا حاتم بن إسماعيل ، عن يزيد بن أبي عبيد ، عن سلمة بن الأكوع .

وأخبرنا عبيد الله بن محمّد ، أخبرنا أبو العبّاس السرّاج ، حدّثنا أحمد بن يوسف السلمي ، حدّثنا النضر بن محمّد ، حدّثنا عكرمة بن عمّار ، حدّثنا سلمة بن الأكوع ، عن أبيه ، قال : وحدّثت عن محمّد بن جرير ، عن محمّد بن حميد ، عن سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن رحالة ، قال : وعن ابن جرير ، حدّثنا ابن بشار ، حدّثنا محمّد بن جعفر ، حدّثنا عوف ، عن ميمون أبي عبد الله ، عن عبد الله بن بريدة ، عن أبيه ، دخل حديث بعضهم في بعض ، قالوا : " خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خيبر يسير بنا ليلاً ، وعامر بن الأكوع معنا ، فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع : ألا تسمعنا من هينهاتك ؟ وكان عامر شاعراً فنزل يحدو بالقوم وهو يرجز لهم :

* اللهُمَّ لولا أنتَ ما اهتدينا * ولا تصدّقنا ولا صلّينا *

* انّ الذين هم بغوا علينا * ونحن عن فضلك ما استغنينا *

* فاغفر فداء لك ما اقتفينا * وثبّت الأقدام إن لاقينا *

* وألقينْ سكينةً علينا * إنّا إذا صيح بنا أتينا *

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " مَنْ هذا ؟ " . قالوا : عامر بن الأكوع . فقال : "غفر لك ربّك" . فقال رجل من القوم : وجبت يا نبي الله ، لو امتعتنا به . وذلك أنّ رسول الله (عليه السلام) ما استغفر قطّ لرجل يخصّه إلاّ استشهد . قالوا : فلمّا قدمنا خيبر وتصافّ القوم ، خرج يهودي ، فبرز إليه عامر ، وقال : قد علمت خيبر إنّي عامر شاك السلاح بطل مغامر فاختلفا ضربتين ، فوقع سيف اليهودي في ترس عامر ، ووقع سيف عامر عليه ، وأصاب ركبة نفسه ، وساقه ، فمات منها ، قال سلمة بن الأكوع : فمررت على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يقولون : بطل عمل عامر ، فأتيت نبي الله وأنا شاحب أبكي ، فقلت : يا رسول الله أبطلَ عمل عامر ؟ فقال : " ومَنْ قال ذاك ؟ " قلت : بعض أصحابك . قال : "كذب من قال ، بل له أجره مرّتين ، إنّه لجاهد مجاهد " .

قال : فحاصرناهم حتّى أصابتنا مخمصة شديدة ثمّ إنّ الله تعالى فتحها علينا ، وذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى اللواء عمر بن الخطّاب ، ونهض من نهض معه من

الناس ، فلقوا أهل خيبر ، فانكشف عمر ، وأصحابه ، فرجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يجبنه أصحابه ، ويجبنهم ، وكان رسول الله قد أخذته الشقيقة ، فلم يخرج إلى النّاس ، فأخذ أبو بكر راية رسول الله ، ثمّ نهض فقاتل قتالاً شديداً ، ثمّ رجع ، فأخذها عمر ، فقاتل قتالاً شديداً ، وهو أشدّ من القتال الأوّل ، ثمّ رجع ، فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " أما والله لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحبّ الله ، ورسوله ، ويحبّه الله ، ورسوله يأخذها عنوة " .

(129/715)

وليس ثَمّ علي ، فلمّا كان الغد تطاول لها أبو بكر وعمر وقريش رجاء كلّ واحد منهم أن يكون صاحب ذلك ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمة بن الأكوع إلى علي ، فدعاه ، فجاء علي على بعير له حتّى أناخ قريباً من خباء رسول الله ، وهو أرمد قد عصب عينيه بشقة برد قطري ، قال سلمة : فجئت به أقوده إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله : " ما لكَ ؟ " . قال : رمدت . فقال : "إدن منّي" . فدنا منه فتفل في عينيه ، فما وجعهما بعد حتّى مضى لسبيله ، ثمّ أعطاه الراية ، فنهض بالراية وعليه حلّة أُرجوان حمراء ، قد أخرج حملها ، فأتى مدينة خيبر ، وخرج مرحب صاحب

الحصن وعليه مغفر معصفر ، وحجر قد ثقبه مثل البيضة على رأسه ، وهو يقول : * قد علمت خيبر أنّي مرحب * شاكي السلاح بطلٌ مجرّب *

* أطعن أحياناً * وحيناً أضرب *

*إذا الحروب أقبلت تلهّب * كان حمائي كالحمى لا يقرب *

فبرز إليه علي رضي الله عنه ، وقال :

* أنا الّذي سمّتني أُمّي حيدره * كليثِ غابات شديد قسوره *

* أكيلكم بالسيف كيل السندره *

فاختلفا ضربتين ، فبدره علي ، فضربه ، فقدَّ الحجر والمغفرة ، وفلق رأسه حتّى أخذ السيف في الأضراس ، وأخذ المدينة ، وكان الفتح على يديه ، ثمّ خرج بعد مرحب أخوه ياسر بن نحر ، وهو يقول :

* قد علمت خيبر أنّي ياسر * شاكي السلاح بطل مغاور *

* إذا الليوث أقبلت تبادر * وأحجمت عن صولتي المغاور *

* إنّ حمائي فيه موت حاضر *

وهو يقول : هل من مبارز ؟ فخرج إليه الزبير بن العوّام ، وهو يقول :

* قد علمت خيبر أنّي زبار * قرم لقرم غير نكس فرار *

* ابن حماة المجد ابن الأخيار * ياسر لا يغررْك جمع الكفّار *

* وجمعهم مثل السراب الحبار *

(130/715)

فقالت أُمّه صفية بنت عبد المطّلب : أيقتل ابني يا رسول الله ؟ فقال : " بل ابنك يقتله إن شاء الله " ثمّ التقيا ، فقتله الزبير ، فقال أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجنا مع علي بن أبي طالب حين بعثه رسول الله (عليه السلام) برايته ، فلمّا دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم ، فضربه رجل من اليهود ، فطرح ترسه من يده ، فتناول علي باباً كان عند الحصن ، فتترّس به عن نفسه ، فلم يزل في يده ، وهو يقاتل حتّى فتح الله تعالى عليه ، ثمّ ألقاه من يده حين فرغ ، فلقد رأيتني في نفر سبعة أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب ، فما نقلبه .

ثمّ لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتح الحُصون حُصناً حُصناً ، ويجوز الأموال حتّى انتهوا إلى حُصن الوطيح والسلالم ، وكان آخر حصون خيبر افتتح ، فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بضع عشرة ليلة ، فلمّا أمسى النّاس يوم الفتح أوقدوا نيراناً كثيرة ، فقال رسول الله : " على أيّ شيء توقدون ؟ " قالوا : على لحم ، قال : " على أيّ لحم ؟ "

قالوا : لحم الحمر الأنسية . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اهريقوها واكسروها " . فقال رجل : أَوَنهرّقها ونغسلها ؟ فقال : " أو ذاك " " .

قال ابن إسحاق : " ولمّا افتتح رسول الله (عليه السلام) القموص حصن بني أبي الحقيق أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفية بنت حي بن أحطب ، وبأُخرى معها ، فمرّ بهما بلال ، وهو الذي جاء بهما على قتلى من قُتل من اليهود ، فلمّا رأتهما التي مع صفية ، صاحت ، وصكّت وجهها ، وحثت التراب على رأسها ، فلمّا رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أغربوا عنّي هذه الشيطانة " . وأمر بصفية ، فجرت خلفه وألقى عليها رداءه ، فعلم المسلمون أنّ رسول الله قد اصطفاها لنفسه .

(131/715)

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبلال لمّا رأى من تلك اليهودية ما رأى : " أَنُزعت منك الرحمة يا بلال حيث تمرّ بامرأتين على قتلى رجالهما ؟ " وكانت صفية قد رأت في المنام ، وهي عروس بكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق أنّ قمراً وقع في حجرها ، فعرضت رؤيتها على زوجها ، فقال : ما هذا إلاّ أنّك تمنين مَلِك الحجاز محمّداً ، فلطم وجهها لطمة اخضّرت عينها منها ، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وبها أثر منها .

فسألها : " ما هو ؟ " فأخبرته هذا الخبر ، وأتى رسول الله بزوجها كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ، وكان عنده كنز بني النضير ، فسأله ، فجحده أن يكون يعلم مكانه ، فأتى رسول الله برجل من اليهود ، فقال لرسول الله (عليه السلام) : إنّي قد رأيت كنانة يطيف هذه الخزنة كلّ غداة ، فقال رسول الله لكنانة : " أرأيت إن وجدناه عندك أقتلك " . قال : نعم . فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخزنة ، فحفرت ، فأخرج منها بعض كنزهم ، ثمّ سأله ما بقي ، فأبى أن يؤدّيه ، فأمر به رسول الله الزبير بن العوّام . فقال : " عذّبه حتّى تستأصل ما عنده " .

فكان الزبير يقدح بزنده في صدره حتّى أشرف على نفسه ، ثمّ دفعه رسول الله إلى محمّد ابن مسلمة ، فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة ، وكانت اليهود ألقت عليه حجراً عند حصن ناعم ، فقتله ، كان أوّل حصن افتتح من حصون خيبر .

قالوا : فلمّا سمع أهل فدك بما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر ، بعثوا إلى رسول الله أن يسترهم ويحقن لهم دماءهم ويخلّوا له الأموال ، ففعل ، ثمّ إنّ أهل خيبر سألوا رسول الله أن يعاطيهم الأموال على النصف ففعل على إنّا إن شئنا فخرجنا أخرجناكم ، وصالحه أهل فدك على مثل ذلك ، وكانت خيبر فيئاً للمسلمين ، وكانت فدك خالصة لرسول الله (عليه السلام) لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب .

فلما اطمئنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم ، شاة مصلية ، وقد سألت ، أي عضو من الشاة أحبّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقيل لها : الذراع ، فأكثرت فيها السمّ ، وسمّت سائر الشاة ، ثمّ جاءت بها ، فلمّا وضعتها بين يدي رسول الله ، تناول الذراع ، فأخذها ، فلاك منها مضغة ، فلم يسغها ، ومعه بشر بن البراء بن معرور ، وقد أخذ منها كما أخذ منها رسول الله ، فأما بشر فأساغها ، وأمّا رسول الله فلفظها ، ثمّ قال : " إنّ هذا العظم ليخبرني أنّه مسموم " . ثمّ دعاها ، فاعترفت ، فقال : " ما حملك على ذلك ؟ " قالت : بلغت من قومي ما لم يخف عليك ، فقلت : إن كان نبيّاً فسيخبر ، وإن كان ملكاً استرحت منه . قال : فتجاوز عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ومات بشر بن البراء من أكلته التي أكل .

قال : ودخلت أُم بشر بن البراء على رسول الله صلى الله عليه وسلم تعوده في مرضه الذي توفى فيه ، فقال : " يا أُمّ بشر ما زالت أكلة خيبر التي أكلت بخيبر مع ابنك تعادني ، فهذا أوان انقطاع أبهري " " .

وكان المسلمون يرون أنّ رسول الله مات شهيداً مع ما أكرمه الله تعالى به من النبوّة . ﴿ وأخرى ﴾ أي وعدكم فتح بلدة أُخرى . ﴿ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا ﴾ حتّى يفتحها عليكم ، وقال ابن عبّاس : علم الله أنّه يفتحها لكم . واختلفوا فيها ، فقال ابن

عبّاس وعبد الرّحمن بن أبي ليلى والحسن ومقاتل : هي فارس والروم .

وقال الضحّاك وابن زيد وابن إسحاق : هي خيبر ، وعدها الله تعالى نبيّه قبل أن يصيبها ، ولم يكونوا يذكرونها ولا يرجونها ، حتّى أخبرهم الله تعالى بها . وهي رواية عطية ، وماذان ، عن ابن عبّاس ، وقال قتادة : هي مكّة . عكرمة : هي خيبر . مجاهد : ما فتحوا حتّى اليوم . ﴿ وَكَانَ اللهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ﴾ .

(133/715)

﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الذين كَفَرُواْ ﴾ يعني أسد ، وغطفان ، وأهل خيبر ، وقال قتادة : يعني كفّار قريش ﴿ لَوَلَّوُاْ الأدبار ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً * سُنَّةَ الله ﴾ أي كسنّة الله ﴿ التي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ﴾ في نصرة أوليائه ، وقهر أعدائه ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً * وَهُوَ الذي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ وهو الحديبية ﴿ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ﴾ (الياء) أبو عمرو ، وغيره (بالتاء) ، واختلفوا فيهم ، فقال أنس : إنّ ثمانين رجلاً من أهل مكّة هبطوا على رسول الله وأصحابه من جبل التنعيم عند صلاة الفجر عام الحديبية ليقتلوهم ، فأخذهم رسول الله سلماً ، وأعتقهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ . . . الآية . عكرمة ، عن ابن

عبّاس ، قال : إنّ قريشاً كانوا بعثوا أربعين رجلاً منهم أو خمسين ، وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله عام الحديبية ليصيبوا من أصحابه أحداً ، وأُخذوا أخذاً ، فأتى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فعفا عنهم ، وخلّى سبيلهم ، وقد كانوا يرمون عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجارة ، والنّبل فأنزل الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي كَفَّ أَيدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ . . . الآية .

وقال عبد الله بن المغفل : كنّا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم بالحديبية في أصل الشجرة وعلى ظهره غصنٌ من أغصان تلك الشجرة ، فرفعته عن ظهره ، وعليّ بن أبي طالب بين يديه يكتب كتاب الصُلح ، وسهيل بن عمرو ، فخرج علينا ثلاثون شابّاً عليهم السّلاح ، فثاروا في وجوهنا ، فدعا رسول الله (عليه السلام) ، فأخذ الله بأبصارهم ، فقمنا إليهم ، فأخذناهم ، فخلّى عنهم رسول الله ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

(134/715)

وقال مجاهد : أقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم معتمراً ، وأخذ أصحابه ناساً من أهل الحرم غافلين ، فأرسلهم النبيّ صلى الله عليه وسلم فذلك الإظفار ببطن مكّة ، " وقال قتادة : ذُكر لنا أنَّ رجلاً من أصحاب رسول الله يقال له : زنيم اطّلع الثنية من الحديبيّة ،

فرماه المشركون بسهم ، فقتلوه ، فبعث رسول الله خيلاً ، فأتوا باثني عشر فارساً من الكفّار ، فقال لهم نبيّ الله : " هل لكم عليَّ عهد ؟ هل لكم عليَّ ذمّة ؟ " . قالوا : لا ، فأرسلهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية " .

وقال ابن ايزي ، والكلبي : هم أهل الحديبية ، وذلك " أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لمّا خرج بالهدي وانتهى إلى ذي الحليفة ، فقال له عمر رضي الله عنه : يا نبي الله تدخل على قوم لك حرب بغير سلاح ، ولا كراع ؟ قال : فبعث إلى المدينة ، فلم يدع فيها كراعاً ولا سلاحاً إلاّ حمله ، فلمّا دنا من مكّة منعوه أن يدخل ، فسار حتّى أتى منى ، فنزل منى ، فأتاه عينه أنّ عكرمة بن أبي جهل قد خرج عليك في خمسمائة ، فقال لخالد بن الوليد : " يا خالد هذا ابن عمّك قد أتاك في الخيل " .

فقال خالد : أنا سيف الله ، وسيف رسوله ، يا رسول الله ، أرمِ بي حيث شئت ، فيومئذ سمّي سيف الله ، فبعثه على خيل ، فلقي عكرمة في الشعب فهزمه حتّى أدخله حيطان مكّة ، ثمّ عادوا في الثانية ، فهزمه حتّى أدخله حيطان مكّة ، ثمّ عاد في الثالثة فهزمه حتّى أدخله حيطان مكّة ، فأنزل الله تعالى هذه الآية : ﴿ وَهُوَ الذي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ فكفّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لبقايا من المسلمين كانوا بقوا فيها من بعد أن أظفره عليهم كراهية ، أن تطأهم الخيل بغير علم "

﴿ هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهدى وَدِينِ الحق لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ وكفى بالله شَهِيداً ﴾ أنّك نبي صادق فيما تخبر ، ونصب ﴿ شَهِيداً ﴾ على التفسير وقيل : على الحال ، والقطع ، ثمّ قال : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ الله ﴾ تمّ الكلام هاهنا ، ثمّ قال مبتدئاً : ﴿ والذين مَعَهُ ﴾ (الواو) فيه (واو) الاستئناف ﴿ والذين ﴾ في محل الرفع على الابتداء ﴿ أَشِدَّآءُ ﴾ غلاظ ﴿ عَلَى الكفار ﴾ لا تأخذهم فيهم رأفة . ﴿ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ متعاطفون متوادّون بعضهم على بعض كقوله تعالى : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى المؤمنين أَعِزَّةٍ عَلَى الكافرين ﴾ [المائدة : 54] . ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ الله ﴾ أن يدخلهم جنّته ﴿ وَرِضْوَاناً ﴾ أن يرضى عنهم . ﴿ سِيمَاهُمْ ﴾ علامتهم ﴿ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السجود ﴾ واختلف العلماء في هذه السيماء ، فقال قوم : هو نور وبياض في وجوههم يوم القيامة ، يعرفون بتلك العلامة ، أنّهم سجدوا في الدُّنيا ، وهي رواية العوفي ، عن ابن عبّاس ، وقال عطاء بن أبي رباح والربيع بن أنس : استنارت وجوههم من كثرة ما صلّوا .

وقال شهر بن حوشب : تكون مواضع السجود من وجوههم ، كالقمر ليلة البدر . قال آخرون : السمتُ الحسن ، والخشوع ، والتواضع ، وهو رواية الوالبي عن ابن عبّاس ، قال : أما إنّه ليس بالذي ترون ، ولكنّه سيماء الإسلام وسجيّته ، وسمته وخشوعه ، وقال منصور : سألت مجاهداً عن قوله سبحانه وتعالى : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ ﴾ ، أهو الأثر يكون بين عينيّ الرجل ؟ قال : لا ربّما يكون بين عينيّ الرجل ، مثل ركبة العنز ، وهو أقسى قلباً من الحجارة ، ولكنّه نور في وجوههم من الخشوع ، وقال ابن جريج : هو الوقار ، والبهاء ، وقال سمرة بن عطية : هو البهج ، والصُفرة في الوجوه ، وأثر السهرة . قال الحسن : إذا رأيتهم حسبتهم مرضى ، وما هم بمرضى ، وقال الضحّاك : أمّا إنّه ليس بالندب في الوجوه ، ولكنّه الصُفرة .

وقال عكرمة ، وسعيد بن جبير : هو أثر التراب على جباههم . قال أبو العالية : يسجدون على التراب لا على الأثواب ، وقال سفيان الثوري : يصلّون بالليل ، فإذا أصبحوا رؤي ذلك في وجوههم ، بيانه قوله : صلّى الله عليه وسلّم : " من كثر صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار " .

قال الزهري : يكون ذلك يوم القيامة ، وقال بعضهم : هو ندب السجود ، وعلته في الجبهة من كثرة السجود .

وبلغنا في بعض الأخبار إنّ الله تعالى يقول يوم القيامة : يا نار أنضجي ، يا نار أحرقي ،

وموضع السجود فلا تقربي ، وقال عطاء الخراساني : دخل في هذه الآية كلّ من حافظ على الصلوات الخمسة .

﴿ ذَلِكَ ﴾ الذي ذكرت ﴿ مَثَلُهُمْ ﴾ صفتهم ﴿ فِي التوراة ﴾ وهاهنا تمّ الكلام ، ثمّ قال : ﴿ وَمَثَلُهُمْ ﴾ صفتهم ﴿ فِي الإنجيل ﴾ فهما مثلان ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ قرأه العامّة بجزم (الطاء) ، وقرأ بعض أهل مكّة ، والشام بفتحه ، وقرأ أنس ، والحسن ، ويحيى بن وثاب (شطاه) مثل عصاه .

(137/715)

وقرأ الجحدري (شطه) بلا همزة ، وكلّها لغات . قال أنس : (شطأه) نباته ، وقال ابن عبّاس : سنبلة حين يلسع نباته عن جنانه . ابن زيد : أولاده . مجاهد ، والضحّاك : ما يخرج بجنب الحقلة فينمو ويتمّ عطاء جوانبه . مقاتل : هو نبت واحد ، فإذا خرج ما بعده ، فهو (شطأه) . السدّي : هو أن يخرج معه ألطافه الأخرى . الكسائي : طرفه . الفراء : شطأ الزرع أن ينبت سبعاً ، أو ثمانياً ، أو عشراً . قال الأخفش : فراخة يقال : أشطأ الزرع ، فهو مشطي إذا أفرخ ، وقال الشاعر :

أخرج الشطأ على وجه الثرى . . . ومن الأشجار أفنان الثمر

وهذا مثل ضربه الله تعالى لأصحاب محمّد (عليه السلام) يعني أنّهم يكونون قليلاً، ثمّ يزدادون، ويكثرون، ويقوون، وقال قتادة: مثل أصحاب محمّد (عليه السلام) في الإنجيل مكتوب أنّه سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر. ﴿ فَآزَرَهُ ﴾ قوّاه وأعانه وشد أزره ﴿ فاستغلظ ﴾ فغلظ، وقوى ﴿ فاستوى ﴾ نما وتلاحق نباته، وقام ﴿ على سُوقِهِ ﴾ أُصوله ﴿ يُعْجِبُ الزراعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكفار ﴾ يعني أنّ الله تعالى فعل ذلك بمحمّد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكفار ﴾.

(138/715)

أخبرنا عبد الخالق بن علي بن عبد الخالق، أخبرنا أبو بكر محمّد بن يوسف بن حاتم بن نصر، حدّثنا الحسن بن عثمان، حدّثنا أحمد بن منصور الحنظلي، المعروف بزاج المروزي، حدّثنا سلمة بن سليمان، حدّثنا عبد الله بن المبارك، حدّثنا مبارك بن فضلة، عن الحسن في قوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ الله ﴾ قال: هو محمّد صلّى الله عليه وسلّم ﴿ والذين مَعَهُ ﴾ أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار ﴾ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ﴿ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ عثمان بن عفّان رضي الله عنه ﴿ تَرَاهُمْ

رُكَّعاً سُجَّداً ﴾ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً ﴾ طلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد ، وسعيد ، وأبو عبيدة الجرّاح ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السجود ﴾ قال : المبشَّرون عشرة أوّلهم أبو بكر ، وآخرهم أبو عبيدة الجراح ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التوراة وَمَثَلُهُمْ فِي الإنجيل ﴾ قال : نعتهم في التوراة والإنجيل ﴿ كَزَرْعٍ ﴾ قال : الزرع محمّد صلى الله عليه وسلم ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ﴾ أبو بكر الصدّيق ، ﴿ فَآزَرَهُ ﴾ عمر بن الخطّاب ﴿ فاستغلظ ﴾ عثمان بن عفّان ، يعني استغلظ بعثمان الإسلام ﴿ فاستوى على سُوقِهِ ﴾ علي بن أبي طالب يعني استقام الإسلام بسيفه ﴿ يُعْجِبُ الزراع ﴾ قال : المؤمنون ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكفار ﴾ قال : قول عمر لأهل مكّة : لا نعبد الله سرّاً بعد هذا اليوم .

أخبرنا ابن منجويه الدينوري ، حدّثنا عبد الله بن محمّد بن شنبه ، حدّثنا أحمد بن جعفر بن حمدان ، حدّثنا محمّد بن مسلم بن واره ، حدّثنا الحسين بن الربيع ، قال : قال ابن إدريس ما آمن بأن يكونوا قد ضارعوا الكفّار ، يعني الرافضة ، لأنّ الله تعالى يقول : ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكفار ﴾ .

(139/715)

أخبرنا الحسين بن محمّد العدل ، حدّثنا محمّد بن عمر بن عبد الله بن مهران ، حدّثنا أبو مسلم الكجي ، حدّثنا عبد الله بن رجاء ، أخبرنا عمران ، عن الحجّاج ، عن ميمون بن مهران ، عن ابن عبّاس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

" يكون في آخر الزمان قوم ينبزون أو يلمزون الرافضة يرفضون الإسلام ويلفظونه ، فاقتلوهم فإنّهم مشركون " .

أخبرنا الحسين بن محمّد ، حدّثنا أبو حذيفة أحمد بن محمّد بن علي ، حدّثنا زكريا بن يحيى بن يعقوب المقدسي ، حدّثنا أبي ، حدّثنا أبو العوام أحمد بن يزيد الديباجي ، حدّثنا المدني ، عن زيد ، عن ابن عمر ، قال : " قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لعليّ : يا علي أنت في الجنّة وشيعتك في الجنّة ، وسيجيء بعدي قوم يدّعون ولايتك ، لهم لقب يقال له : الرافضة ، فإن أدركتهم فاقتلوهم فإنّهم مشركون " .

قال : يا رسول الله ما علامتهم ؟ قال : " يا علي إنّهم ليست لهم جمعة ، ولا جماعة يسبّون أبا بكر ، وعمر " .

﴿ وَعَدَ الله الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ أي الطاعات ، وقد مرّ تأويله ، وقال أبو العالية في هذه الآية : ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ يعني الذين أحبّوا أصحاب رسول الله المذكورين فيها فبلغ ذلك الحسن ، فارتضاه ، فاستصوبه منهم ، قال ابن جرير : يعني من الشطأ الذي أخرجه الزرع ، وهم الداخلون في الإسلام بعد الزرع إلى يوم القيامة رد (الهاء

) و (الميم) على معنى الشطأ لا على لفظه ، لذلك قال : ﴿ مِنْهُم ﴾ ولم يقل : منه . ﴿ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ .

(140/715)

(في فَضلِ المُفَضَل) ، حدّثنا الشيخ أبو محمّد المخلدي ، إملاء يوم الجمعة في شعبان سنة أربع وثمانين وثلاثمائة ، قال : أخبرنا أبو بكر محمّد بن حمدون بن خالد ، وعبد الله بن محمّد بن مسلم ، قالا : حدّثنا هلال بن العلاء ، قال : حدّثنا حجّاج بن محمّد ، عن أيّوب بن عتبة ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن شداد بن عبد الله ، عن أبي أسماء الرجبي ، عن ثوبان ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنّ الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة ، وأعطاني المئين مكان الإنجيل ، وأعطاني مكان الزبور المثاني ، وفضّلني بالمُفَضَل " .

وأخبرنا أبو الحسن الحباري ، قال : حدّثنا أبو الشيخ الأصبهاني ، قال : أخبرنا ابن أبي عاصم ، قال : حدّثنا هشام بن عمّار ، قال : حدّثنا محمّد بن شعيب بن شابور ، قال : حدّثنا سعد ابن قيس ، عن قتادة ، عن أبي الملح الهذلي ، عن واثلة بن الأسقع ، أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أُعطيت السبع الطوال مكان التوراة ، وأعطيت المثاني مكان

الإنجيل ، وأعطيت المئين مكان الزبور ، وفُضلت بالمُفَضَل " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 9 صـ 47. 68 ﴾

(141/715)

وقال الزمخشرى :

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً (18) ﴾

هي بيعة الرضوان ، سميت بهذه الآية ، وقصتها : أنّ النبي صلى اللّه عليه وسلم حين نزل الحديبية بعث جوّاس «1» بن أمّية الخزاعي رسولا إلى أهل مكة ، فهموا به فمنعه الأحابيش ، فلما رجع دعا بعمر رضى اللّه عنه ليبعثه فقال : إنى أخافهم على نفسي ، لما عرف من عداوتي إياهم وما بمكة عدوىّ يمنعني ، ولكنى أدلك على رجل هو أعز بها منى وأحب إليهم : عثمان بن عفان فبعثه فخبرهم أنه لم يأت بحرب ، وإنما جاء زائرا لهذا البيت معظما لحرمته ، فوقروه وقالوا :

إن شئت أن تطوف بالبيت فافعل ، فقال : ما كنت لأطوف قبل أن يطوف رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم واحتبس عندهم ، فأرجف بأنهم قتلوه ، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه

وسلم :

لا نبرح حتى نناجز القوم . ودعا الناس إلى البيعة فبايعوه تحت الشجرة وكانت سمرة . قال جابر ابن عبد اللّه : لو كنت أبصر لأريتكم مكانها «2» . وقيل : كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم جالسا في أصل الشجرة وعلى ظهره غصن من أغصانها . قال عبد اللّه بن المغفل : وكنت قائما

---

(1) . «جواس» الذي في أبى السعود وفي الشهاب : خراش ، بالخاء والراء والشين اه ملخصا من هامش ، وكذا في النسفي والخازن . (ع)

(2) . أخرجه أحمد من رواية عروة عن المسور ومروان . قالا : «خرج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عام الحديبية يريد زيارة البيت» فذكر الحديث مطولا . وفيه هذه القصة دون قصة جابر وروى الطبري من رواية عكرمة مولى ابن عباس قال «دعا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم جواس بن أمية الخزاعي فذكره ومن طريق أبى إسحاق حدثني عبد اللّه بن أبى بكر «بلغ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن عثمان قتل فقال : لا نبرح حتى نناجز القوم .

ودعا الناس إلى البيعة . فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، فكان الناس يقولون : بايعهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على الموت ، وجابر يقول : لم يبايعنا على الموت ولكن بايعنا على أن لا نفر ، إلى أن قال : وبلغ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن الذي ذكر من

أمر عثمان باطل» وقوله وكانت سمرة. رواه مسلم من حديث جابر قال «فبايعناه وأخذ عمر بيده تحت الشجرة وكانت سمرة» وقول جابر: لو كنت أبصر الخ: متفق عليه من حديثه.

(142/715)

على رأسه وبيدي غصن من الشجرة أذب عنه، فرفعت الغصن عن ظهره فبايعوه على الموت دونه، وعلى أن لا يفروا، فقال لهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «أنتم اليوم خير أهل الأرض» «1» وكان عدد المبايعين ألفا وخمسمائة وخمسة وعشرين «2» وقيل: ألفا وأربعمائة:

وقيل: ألفا وثلاثمائة فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ من الإخلاص وصدق الضمائر فيما بايعوا عليه فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ أي: الطمأنينة والأمن بسبب الصلح على قلوبهم وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً وقرئ: وآتاهم، وهو فتح خيبر غب انصرافهم من مكة. وعن الحسن: فتح هجر، وهو أجلّ فتح:

اتسعوا بثمرها زمانا مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها هي مغانم خيبر، وكانت أرضا ذات عقار «3» وأموال، فقسمها رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وآله وسلم عليهم، ثم أتاه عثمان

بالصلح فصالحهم وانصرف بعد أن نحر بالحديبية وحلق .

[سورة الفتح (48) : آية 20]

وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً (20)

وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً وهي ما يفيء على المؤمنين إلى يوم القيامة فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ المغانم يعنى مغانم خيبر وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ يعنى أيدى أهل خيبر وحلفاؤهم من أسد وغطفان حين جاءوا لنصرتهم ، فقذف اللّه في قلوبهم الرعب فنكصوا . وقيل : أيدى أهل مكة بالصلح وَلِتَكُونَ هذه الكفة آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وعبرة يعرفون بها أنهم من اللّه تعالى بمكان ،

---

(1) . قوله «و قيل كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم جالسا في ظل الشجرة وعلى ظهره غصن من أغصانها . قال عبد اللّه بن مغفل : كنت قائما على رأسه وبيدي غصن من الشجرة أذب عنه ، فرفعت الغصن عن ظهره وبايعوه على الموت دونه ، وعلى أن لا يفروا ، فقال لهم : أنتم اليوم خير أهل الأرض «أخرجه النسائي من رواية ثابت عن عبد اللّه بن مغفل . قال «كنا مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالحديبية في أصل الشجرة وعلى رأسه غصن إلى قوله عن ظهره» . وفي حديث معقل بن يسار «لقد رأيتنى يوم الشجرة والنبي صلى اللّه عليه وسلم يبايع الناس وأنا رافع غصنا من أغصانها - الحديث» . وأما قوله «بايعوه . . . الخ» فهو في حديث جابر .

(2) . أما الأولى فمتفق عليها من حديث سالم بن أبى الجعد عن جابر . دون قوله «و خمسا وعشرين» وأما الثانية ففي رواية عمرو بن مرة عن جابر في الصحيحين . وفي رواية أبى الزبير عنه ومسلم وعندهما عن قتادة . قلت : لسعيد ابن المسيب «لم كان عدد الذين شهدوا بيعة الرضوان ؟ قال : خمس عشرة مائة قال : قلت : فان جابرا قال : كانوا أربع عشرة مائه قال : رحمه اللّه لقد وهم ، هو واللّه حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة» قال البيهقي في الدلائل :

كأن جابرا رجع عن رواية خمس عشرة . إلى ألف وأربعمائة . وكذلك قال البراء ومعقل بن يسار . وسلمة بن الأكوع . انتهى . والرواية الثالثة في الصحيحين من رواية عمرو بن مرة عن عبد اللّه بن أبى أوفى . قال «كان أصحاب الشجرة ألفا وثلاثمائة وكان من أسلم من المهاجرين . قلت والرواية التي فيها ألفا وخمسمائة وخمسا وعشرين .

أخرجها ابن مردويه في تفسيره من حديث ابن عباس موقوفا . وفي عددهم أقوال غير هذه بسطنها في شرح البخاري

(3) . قوله «ذات عقار» في الصحاح «العقار» بالفتح : الأرض والضياع والنخل . (ع)

وأنه ضامن نصرهم والفتح عليهم. وقيل: رأى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فتح مكة في منامه، ورؤيا الأنبياء صلوات اللّه عليهم وحى، فتأخر ذلك إلى السنة القابلة، فجعل فتح خيبر علامة وعنوانا لفتح مكة وَيَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً ويزيدكم بصيرة ويقينا، وثقة بفضل اللّه.

[سورة الفتح (48): آية 21]

وَأُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (21)

وَأُخْرى معطوفة على هذه، أى: فعجل لكم هذه المغانم ومغانم أخرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها وهي مغانم هوازن في غزوة حنين، وقال: لم تقدروا عليها لما كان فيها من الجولة قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها أى قدر عليها واستولى وأظهركم عليها وغنمكموها. ويجوز في أُخْرى النصب بفعل مضمر، يفسره قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها تقديره: وقضى اللّه أخرى قد أحاط بها. وأما لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها فصفة لأخرى، والرفع على الابتداء لكونها موصوفة بلم تقدروا، وقد أحاط اللّه بها: خبر المبتدإ، والجرّ بإضمار رب. فإن قلت: قوله تعالى وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ كيف موقعه؟ قلت: هو كلام معترض. ومعناه: ولتكون الكفة آية للمؤمنين فعل ذلك. ويجوز أن يكون المعنى:

وعدكم المغانم، فعجل هذه الغنيمة وكف الأعداء لينفعكم بها، ولتكون آية للمؤمنين إذا وجدوا وعد اللّه بها صادقا، لأنّ صدق الإخبار عن الغيوب معجزة وآية، ويزيدكم بذلك

هداية وإيقانا .

[سورة الفتح (48) : الآيات 22 إلى 23]

وَلَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (22) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (23)

وَلَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا من أهل مكة ولم يصالحوا . وقيل : من حلفاء أهل خيبر لغلبوا وانهزموا سُنَّةَ اللَّهِ في موضع المصدر المؤكد ، أى : سن اللّه غلبة أنبيائه سنه ، وهو قوله تعالى لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي .

[سورة الفتح (48) : آية 24]

وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً (24)

أَيْدِيَهُمْ أيدى أهل مكة ، أى : قضى بينهم وبينكم المكافة والمحاجزة بعد ما خولكم الظفر عليهم والغلبة ، وذلك يوم الفتح . وبه استشهد أبو حنيفة رحمه اللّه ، على أنّ مكة فتحت عنوة لا صلحا . وقيل : كان ذلك في غزوة الحديبية لما روى أنّ عكرمة بن أبى جهل خرج في خمسمائة ، فبعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من هزمه وأدخله حيطان «1» مكة . وعن ابن

---

(1) . أخرجه الطبري عن شيخه محمد بن حميد عن يعقوب القمي عن جعفر هو ابن أبى

المغيرة عن ابن أبزى .

قال «لما خرج النبي صلى اللّه عليه وسلم بالهدى وانتهي إلى ذى الحليفة : قال له نمر : يا نبى اللّه تدخل على حرب قوم حرب لك بغير سلاح ولا كراع . قال : فبعث إلى المدينة فلم يدع فيها كراعا ولا سلاحا إلا حمله . فلما دنا من مكة منعوه أن يدخل فسار حتى أتى منى فنزل بها . فأتاه عتبة بن عكرمة بن أبى جهل ، قد خرج عليه في خمسمائة .

فقال لخالد بن الوليد : يا خالد هذا ابن عمك قد أتاك في الخيل . فقال خالد : أنا سيف اللّه ورسوله فيومئذ سمى سيف اللّه ، يا رسول اللّه ارم بن أين شئت ، فبعثه على خيل ، فلقى عكرمة في الشعب ، فهزمه ، حتى أدخله حيطان مكة - الحديث» وأخرجه ابن أبى حاتم من هذا الوجه وفي صحته نظر ، لأن خالدا لم يكن أسلم في الحديبية وظاهر السياق أن هذه القصة كانت في الحديبية . فلو كانت في عمرة القضية لأمكن ، مع أن المشهور أنهم فيها لم يمانعوه ولم يقاتلوه .

(144/715)

عباس رضى اللّه عنه : أظهر اللّه المسلمين عليهم بالحجارة حتى أدخلوهم البيوت . وقرئ :

تعملون ، بالتاء والياء .

[سورة الفتح (48) : آية 25]

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِساءٌ مُؤْمِناتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً (25)

وقرئ : والهدى ، والهدى : بتخفيف الياء وتشديدها ، وهو ما يهدى إلى الكعبة : بالنصب عطفا على الضمير المنصوب في صدّوكم . أى : صدّوكم وصدّوا الهدى وبالجر عطفا على المسجد الحرام . بمعنى : وصدّوكم عن نحر الهدى مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ محبوسا عن أن يباع ، وبالرفع على : وصدّ الهدى . ومحله : مكانه الذي يحل فيه نحره ، أى يجب . وهذا دليل لأبى حنيفة على أن المحصر محل هديه الحرم . فإن قلت : فكيف حل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ومن معه وإنما نحر هديهم بالحديبية ؟ قلت : بعض الحديبية من الحرم «1» . وروى أن مضارب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كانت في الحل ، ومصلاه في الحرم «2» . فإن قلت :

فإذن قد نحر في الحرم ، فلم قيل : مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ؟ قلت : المراد المحل المعهود وهو منى لَمْ تَعْلَمُوهُمْ صفة الرجال والنساء جميعا . وأَنْ تَطَؤُهُمْ بدل اشتمال منهم أو من الضمير

(1) . أخرجه البخاري من حديث ابن عمر قال : «خرج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم معتمرا فحال كفار قريش بينه وبين البيت ، فنحر هديه وحلق رأسه بالحديبية» وفيه من رواية المسور ومروان «أنه صلى اللّه عليه وسلم قال لأصحابه : قوموا فانحروا ثم احلقوا» قال البخاري : والحديبية خارج الحرم . [. . . . .]

(2) . أخرجه أحمد من رواية المسور ومروان . في أثناء الحديث الطويل . قال «وكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يصلى في الحرم . وهو مضطرب في الحل»

(145/715)

المنصوب في تعلموهم . والمعرة : مفعلة ، من عره بمعنى عراه إذا دهاه «1» ما يكره ويشق عليه .

وبِغَيْرِ عِلْمٍ متعلق بأن تطؤهم ، يعنى : أن تطئوهم غير عالمين بهم . والوطء والدوس : عبارة عن الإيقاع والإبادة . قال :

ووطئتنا وطأ على حنق وطأ المقيّد نابت الهرم «2»

وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «وأن آخر وطأة وطئها اللّه بوج» «3» والمعنى : أنه كان بمكة قوم من المسلمين مختلطون بالمشركين غير متميزين منهم ولا معروفى الأماكن

فقيل :

ولو لا كراهة أن تهلكوا ناسا مؤمنين بين ظهراني المشركين وأنتم غير عارفين بهم ، فتصيبكم بإهلاكهم مكروه ومشقة : لما كف أيديكم عنهم ، وحذف جواب «لولا» لدلالة الكلام عليه «4» . ويجوز أن يكون لَوْ تَزَيَّلُوا كالتكرير للولا رجال مؤمنون ، لمرجعهما إلى معنى واحد ، ويكون لَعَذَّبْنَا هو الجواب . فإن قلت : أى معرة تصيبهم إذا قتلوهم وهم لا يعلمون . قلت : يصيبهم وجوب الدية والكفارة ، وسوء قالة المشركين أنهم فعلوا بأهل دينهم مثل ما فعلوا بنا من غير تمييز ، والمأثم إذا جرى منهم بعض التقصير . فإن قلت : قوله تعالى لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ تعليل لما ذا ؟ قلت : لما دلت عليه الآية وسيقت له :

---

(1) . قوله «بمعنى عراه إذا دهاه» عبارة الصحاح بلفظها : هو يعر قومه : أى يدخل عليهم مكروها يلطخهم به .

والمعرة : الإثم . (ع)

(2) ووطئتنا وطأ على حنق وطأ المقيد نابت الهرم

وتركتنا لحما على وضم لو كنت تستبقى من اللحم

للحرث بن وعلة الذهلي . والوطء : وضع القدم فوق الشيء بشدة . وهو كناية عن الإهلال . والحنق - كسبب ، الحقد والغيظ . والهرم - بالسكون - : ضرب من الحمض ترعاه الإبل ، وبعير هارم : يرعى الهرم . يقول : أتيتنا مرتفعا علينا بقوتك وشدة بطشك

كوطء الجمل المقيد للهرم النابت : أي الحديث النبات . ويروى : يابس الهرم فيهلكه لعظمه وقوته ، مع رطوبة ذلك النبات وضعفه ، أو مع يبسه فيتفتت ، فجعله مقيدا لتكون بطشته قوية ، حيث يرفع رجليه معا ويضربها عند الوثوب . أو جعله مقيدا ، لأن الذليل إذا قدر لا يعفو . والوضم : خوان الجزار الذي يقطع عليه اللحم . و«لو» شرطية ، جوابها دل عليه قوله «تركتنا» أي : على فرض أنك تركت هنا بقية تركتنا كهذا اللحم الذي يهيأ للأكل .

وفي التعبير بلو : دلالة على أنه لم يستبق منهم .

(3) . تقدم في آخر براءة .

(4) . قال محمود : «يجوز أن يكون جواب لولا محذوفا . . . الخ» قال أحمد : وإنما كان مرجعهما هاهنا واحدا وإن كانت لولا تدل على امتناع لوجود ، و«لو» تدل على امتناع لامتناع ، وبين هذين تناف ظاهر ، لأن لولا هاهنا دخلت على وجود ، ولو دخلت على قوله تزيلوا وهو راجع إلى عدم وجودهم وامتناع عدم الوجود وجود ، فآلا إلى أمر واحد من هذا الوجه . وكان جدي رحمه اللّه يختار هذا الوجه الثاني ويسميه تطرية ، وأكثر ما تكون إذا تطاول الكلام وبعد عهد أوله واحتيج إلى رد الآخر على الأول ، فمرة يطرى بلفظه ، ومرة بلفظ آخر يؤدي مؤداه . وقد تقدمت لها أمثال ، واللّه أعلم . وهو الموفق .

من كف الأيدى عن أهل مكة ، والمنع من قتلهم ، صونا لمن بين أظهرهم من المؤمنين ، كأنه قال : كان الكف ومنع التعذيب ليدخل اللّه في رحمته ، أى : في توفيقه لزيادة الخير والطاعة مؤمنيهم . أو ليدخل في الإسلام من رغب فيه من مشركيهم لَوْ تَزَيَّلُوا لو تفرقوا وتميز بعضهم من بعض : من زاله يزيله . وقرئ : لو تزايلوا .

[سورة الفتح (48) : آية 26]

إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى وَكانُوا أَحَقَّ بِها وَأَهْلَها وَكانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (26)

إِذْ يجوز أن يعمل فيه ما قبله . أى : لعذبناهم أو صدوهم عن المسجد الحرام في ذلك الوقت ، وأن ينتصب بإضمار اذكر . والمراد بحمية الذين كفروا وسكينة المؤمنين - والحمية الأنفة والسكينة الوقار - ما روى أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لما نزل بالحديبية بعثت قريش سهيل بن عمرو القرشي وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص بن الأخيف ، على أن يعرضوا على النبي صلى اللّه عليه وسلم أن يرجع من عامه ذلك على أن تخلى له قريش مكة من العام القابل ثلاثة أيام ، ففعل ذلك ، «1» وكتبوا بينهم كتابا ، فقال عليه الصلاة والسلام لعلى رضى اللّه عنه : اكتب بسم اللّه الرحمن الرحيم ، فقال سهيل

وأصحابه : ما نعرف هذا ، ولكن اكتب : باسمك اللهم ، ثم قال : اكتب «هذا ما صالح عليه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أهل مكة» فقالوا : لو كنا نعلم أنك رسول اللّه ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد اللّه أهل مكة ، فقال عليه الصلاة والسلام : اكتب ما يريدون ، فأنا أشهد أنى رسول اللّه وأنا محمد بن عبد اللّه ، فهمّ المسلمون أن يأبوا ذلك ويشمئزوا منه ، فأنزل اللّه على رسوله السكينة فتوقروا وحلموا . وكَلِمَةَ التَّقْوى بسم اللّه الرحمن الرحيم ومحمد رسول اللّه : قد اختارها اللّه لنبيه وللذين معه أهل الخير ومستحقيه ومن هم أولى بالهداية من غيرهم . وقيل : هي كلمة الشهادة . وعن الحسن رضى اللّه عنه : كلمة التقوى هي الوفاء بالعهد . ومعنى إضافتها إلى التقوى : أنها سبب التقوى وأساسها . وقيل : كلمة أهل التقوى . وفي مصحف الحرث بن سويد صاحب عبد اللّه : وكانوا أهلها وأحق بها ، وهو الذي دفن مصحفه أيام الحجاج .

---

(1) . أخرجه البيهقي في الدلائل من رواية عروة في قصة الحديبية . وفيه ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو الخ مطولا . والقصة في الصحيح من رواية البراء بن عازب ومن رواية مروان والمسور . وفي النسائي مختصرة من رواية ثابت اليماني عن عبد اللّه بن مغفل .

[سورة الفتح (48) : آية 27]

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً (27)

رأى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قبل خروجه إلى الحديبية كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا ، فقصّ الرؤيا على أصحابه ، ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم ، وقالوا : إن رؤيا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حق ، فلما تأخر ذلك قال عبد اللّه بن أبىّ وعبد اللّه بن نفيل ورفاعة بن الحرث : واللّه ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام «1» فنزلت . ومعنى صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا صدقه في رؤياه ولم يكذبه - تعالى اللّه عن الكذب وعن كل قبيح علوا كبيرا - فحذف الجارّ وأوصل الفعل ، كقوله تعالى : صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه . فإن قلت : بم تعلق بِالْحَقِّ ؟ قلت : إمّا بصدق ، أى : صدقه فيما رأى ، وفي كونه وحصوله صدقا ملتبسا بالحق : أى بالغرض الصحيح والحكمة البالغة ، وذلك ما فيه من الابتلاء والتمييز بين المؤمن المخلص ، وبين من في قلبه مرض . ويجوز أن يتعلق بالرؤيا حالا منها أى : صدقه الرؤيا ملتبسا «2» بالحق ، على معنى أنها لم تكن من أضغاث الأحلام . ويجوز أن يكون بِالْحَقِّ قسما : إمّا بالحق الذي هو نقيض الباطل . أو بالحق الذي هو من أسمائه .

ولَتَدْخُلُنَّ جوابه . وعلى الأوّل هو جواب قسم محذوف . فإن قلت : ما وجه دخول إِنْ شاءَ اللَّهُ في أخبار اللّه عز وجل ؟ قلت : فيه وجوه : أن يعلق عدته بالمشيئة تعليما لعباده أن يقولوا في عداتهم مثل ذلك ، متأدّبين بأدب اللّه ، ومقتدين بسنته ، وأن يريد : لتدخلنّ جميعا إن شاء اللّه ولم يمت منكم أحدا ، أو كان ذلك على لسان ملك ، فأدخل الملك إن شاء اللّه .

أو هي حكاية ما قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لأصحابه وقصّ عليهم . وقيل : هو متعلق بآمنين فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا من الحكمة والصواب في تأخير فتح مكة إلى العام القابل

---

(1) . لم أجده هكذا مفسرا وروى الطبري من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ – الآية فقال لهم النبي صلى اللّه عليه وسلم «إنى قد رأيت أنكم ستدخلون المسجد الحرام محلقين رؤسكم ومقصرين . فلما ترك الحديبية ولم يدخل ذلك العام طعن المنافقون في ذلك . فقالوا : أين رؤياه ، فقال اللّه لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا – الآية وروى الطبري من طريق ابن أبى نجيح عن مجاهد قال «أرى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهو بالحديبية أنه يدخل في أهل مكة هو وأصحابه محلقين فلما نحر الهدى وهو بالحديبية قال أصحابه : أين رؤياك يا رسول اللّه ؟ فنزلت» وبه قال وقوله فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً قال : النحر بالحديبية ، فرجعوا ففتحوا خيبرا . وقال : ثم

اعتمر بعد ذلك فكان تصديق رؤياه في السنة المقبلة» .

(2) . قوله «أى صدقه الرؤيا ملتبسا» لعله : ملتبسة . (ع)

(148/715)

فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذِلِكَ أى من دون فتح مكة فَتْحاً قَرِيباً وهو فتح خيبر ، لتستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر الفتح الموعود .

[سورة الفتح (48) : آية 28]

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً (28)

بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ بدين الإسلام لِيُظْهِرَهُ ليعليه عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ على جنس الدين كله ، يريد : الأديان المختلفة من أديان المشركين والجاحدين من أهل الكتاب : ولقد حقق ذلك سبحانه ، فإنك لا ترى دينا قط إلا وللإسلام دونه العز والغلبة . وقيل : هو عند نزول عيسى حين لا يبقى على وجه الأرض كافر . وقيل : هو إظهاره بالحجج والآيات . وفي هذه الآية تأكيد لما وعد من الفتح وتوطين لنفوس المؤمنين على أنّ اللّه تعالى سيفتح لهم من البلاد ويقيض لهم من الغلبة على الأقاليم ما يستقلون إليه فتح مكة وَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً على أنّ ما وعده كائن . وعن الحسن رضى اللّه عنه : شهد على نفسه أنه سيظهر دينك «1»

[سورة الفتح (48) : آية 29]

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْواناً سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (29)

مُحَمَّدٌ إما خبر مبتدإ ، أى : هو محمد لتقدّم قوله تعالى هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ وإما مبتدأ ، ورسول اللّه : عطف بيان . وعن ابن عامر أنه قرأ : رسول اللّه ، بالنصب على المدح وَالَّذِينَ مَعَهُ أصحابه أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ جمع شديد ورحيم . ونحوه أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ ، وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ . بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ وعن الحسن رضى اللّه عنه : بلغ من تشدّدهم على الكفار : أنهم كانوا يتحرّزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم ، ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم ، وبلغ من ترحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمنا إلا صافحه وعانقه ، والمصافحة لم تختلف فيها الفقهاء . وأما المعانقة فقد كرهها أبو حنيفة رحمه اللّه ، وكذلك

---

(1) . قوله «إنه سيظهر دينك» لعله : دينه ، كعبارة النسفي . (ع)

التقبيل . قال لا أحب أن يقبل الرجل من الرجل وجهه ولا يده ولا شيئا من جسده . وقد رخص أبو يوسف في المعانقة . ومن حق المسلمين في كل زمان أن يراعوا هذا التشدّد وهذا التعطف :

فيتشدّدوا على من ليس على ملتهم ودينهم ويتحاموه ، ويعاشروا إخوتهم في الإسلام متعطفين بالبر والصلة . وكف الأذى ، والمعونة ، والاحتمال ، والأخلاق السجيحة «1» . ووجه من قرأ : أشداء ، ورحماء - بالنصب - : أن ينصبهما على المدح ، أو على الحال بالمقدّر في مَعَهُ ، ويجعل تَراهُمْ الخبر سِيماهُمْ علامتهم . وقرئ سيماؤهم ، وفيها ثلاث لغات : ها تان . والسيمياء ، والمراد بها السمة التي تحدث في جبهة السجاد من كثرة السجود ، وقوله تعالى مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ يفسرها ، أى :

من التأثير الذي يؤثره السجود ، وكان كل من العليين : علىّ بن الحسين زين العابدين ، وعلىّ بن عبد اللّه بن عباس أبى الأملاك ، يقال له : ذو الثفنات ، لأنّ كثرة سجودهما أحدثت في مواقعه منهما أشباه ثفنات «2» البعير . وقرئ : من أثر السجود ، ومن آثار السجود ، وكذا عن سعيد ابن جبير : هي السمة في الوجه . فإن قلت : فقد جاء عن النبي صلى اللّه عليه وسلم «لا تعلبوا «3» صوركم «4»» وعن ابن عمر رضى اللّه عنه أنه رأى رجلا قد أثر في وجهه السجود فقال : إن صورة وجهك أنفك ، فلا تعلب وجهك ، ولا تشن

صورتك «5» . قلت : ذلك إذا اعتمد بجبهته على الأرض لتحدث فيه تلك السمة . وذلك رياء ونفاق يستعاذ بالله منه ، ونحن فيما حدث في جبهة السجاد الذي لا يسجد إلا خالصا لوجه الله تعالى . وعن بعض المتقدّمين : كنا نصلى فلا يرى بين أعيننا شيء ، ونرى أحدنا الآن يصلى فيرى بين عينيه ركبة البعير ، فما ندرى أثقلت الأرؤس أم خشنت الأرض وإنما أراد بذلك من تعمد ذلك للنفاق . وقيل : هو صفرة الوجه من خشية الله . وعن الضحاك : ليس بالندب «6» في الوجوه ، ولكنه صفرة . وعن سعيد بن المسيب : ندى الطهور وتراب الأرض . وعن عطاء رحمه الله : استنارت وجوههم من طول

---

(1) . قوله «و الأخلاق السجبحة» أى السهلة . أفاده الصحاح . (ع)

(2) . قوله «ثفنات البعير» في الصحاح : هي ما يقع على الأرض من أعضائه إذا استناخ . (ع)

(3) . قوله «لا تعلبوا صوركم» في الصحاح : علبته أعلبه - بالضم - : إذا وسمته أو خدشته ، أو أثرت فيه . (ع)

(4) . لم أجده مرفوعا وهو في الذي بعده موقوف .

(5) . أخرجه عبد الرزاق عن الثوري . عن الأعمش عن حبيب عن أبى الثعثاء . عن ابن عمر «أنه رأى رجلا ينتحز إذا سجد فقال : لا تقلب صورتك» يقول لا تؤثرها . قلت : ما تقلب صورتك ؟ قال : لا تغير لا تشن» ورواه إبراهيم الحربي من رواية أبى معاوية عن

الأعمش عن حبيب عن عطاء عن عمر «أنه رأى رجلا قد أثر السجود بوجهه فقال: لا تقلب صورتك. ثم قال: قلبت الشيء إذا أثرت فيه. [. . . . .]

(6). قوله «ليس بالندب في الوجوه» في الصحاح «الندب»: أثر الجرح إذا لم يرتفع عن الجلد. (ع)

(150/715)

ما صلوا بالليل، كقوله «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار» «1» ذِلكَ الوصف مَثَلُهُمْ أى وصفهم العجيب الشأن في الكتابين جميعا، ثم ابتدأ فقال كَزَرْعٍ يريد: هم كزرع. وقيل: تم الكلام عند قوله ذِلكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ ثم ابتدئ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ ويجوز أن يكون ذلك إشارة مبهمة أوضحت بقوله كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ كقوله تعالى وَقَضَيْنا إِلَيْهِ ذِلكَ الْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ. وقرئ: الإنجيل، بفتح الهمزة شَطْأَهُ فراخه. يقال: أشطا الزرع إذا فرخ. وقرئ: شطأه، بفتح الطاء. وشطأه، بتخفيف الهمزة: وشطاءه، بالمدّ. وشطه، بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى ما قبلها. وشطوه، بقلبها واوا فَآزَرَهُ من المؤازرة وهي المعاونة. وعن الأخفش: أنه أفعل. وقرئ: فأزره بالتخفيف والتشديد، أى: فشدّ أزره وقوّاه. ومن جعل آزر أفعل، فهو في معنى القراءتين فَاسْتَغْلَظَ

فصار من الدقة إلى الغلظ فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ فاستقام على قصبه جمع ساق .

وقيل : مكتوب في الإنجيل سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . وعن عكرمة : أخرج شطأه بأبى بكر ، فآزره بعمر ، فاستغلظ بعثمان ، فاستوى على سوقه بعلىّ . وهذا مثل ضربه اللّه لبدء أمر الإسلام وترقيه في الزيادة إلى أن قوى واستحكم ، لأنّ النبي صلى اللّه عليه وسلم ، قام وحده . ثم قوّاه اللّه بمن آمن معه كما يقوى الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف بها مما يتولد منها حتى يعجب الزرّاع . فإن قلت : قوله لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ تعليل لما ذا ؟ قلت : لما دل عليه تشبيههم بالزرع من نمائهم وترقيهم في الزيادة والقوّة ، ويجوز أن يعلل به وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لأنّ الكفار إذا سمعوا بما أعدّ لهم في الآخرة مع ما يعزهم به في الدنيا غاظهم ذلك . ومعنى مِنْهُمْ البيان ، كقوله تعالى فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم «من قرأ سورة الفتح فكأنما كان ممن شهد مع محمد فتح مكة» «2» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 4 صـ 339 . 348 ﴾

---

(1) . أخرجه ابن ماجة عن إسماعيل الطلحي عن ثابت بن موسى عن شريك عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر مرفوعا بهذا واتفق أئمة الحديث وابن عدى والدارقطني والعقيلي وابن حبان والحاكم على أنه من قول شريك قاله لثابت لما دخل . وقال ابن عدى سرقه جماعة من ثابت كعبد اللّه بن شبرمة الشريكى وعبد الحميد بن بحر

وغيرهما وأورده صاحب مسند الشهاب من رواية عبد الرزاق عن الثوري وابن جريج عن أبي الزبير عن جابر وهو موضوع على هذا الاسناد . وكذا من رواية الحسين بن حفص عن الثوري عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر والأمر فيه كذلك . ومن طرق أخرى واهية . قال ابن طاهر : ظن القضاعي أن الحديث صحيح ، لكثرة طرقه . وهو معذور لأنه لم يكن حافظا . وله طرق أخرى من غير رواية جابر أخرجه ابن جميع في معجمه من حديث أنس وابن الجوزي من وجه آخر عنه وهو باطل أيضا من الوجهين .

(2) . أخرجه ابن مردويه والواحدي بالإسناد إلى أبي بن كعب .

(151/715)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾

كانت سبب هذه البيعة وهي بيعة الرضوان تأخر عثمان رضي الله عنه بمكة حين أنفذه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية رسولاً إلى الإسلام فأبطأ وأرجف بقتله ، فبايع أصحابه وبايعوه على الصبر والجهاد ، وكانوا فيما رواه ابن عباس ألفاً وخمسمائة ، وقال جابر : كانوا ألفاً وأربعمائة وقال عبد الله بن أبي أوفى : ألفاً وثلاثمائةً .

وكانت البيعة تحت الشجرة بالحديبية والشجرة سمرة . وسميت بيعة الرضوان ، لقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ . رضي الله عنR>> ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : من صدق النية ، قاله الفراء .

الثاني : من كراهة البيعة على أن يقاتلوا معه على الموت ، قاله مقاتل .

﴿ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فتح خيبر لقربها من الحديبية ، قاله قتادة .

الثاني : فتح مكة .

قوله عز وجل : ﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ فيه قولان :

أحدهما : هي مغانم خيبر ، قاله ابن زيد .

الثاني : هو كل مغنم غنمه المسلمون ، قاله مجاهد .

﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : مغانم خيبر ، قاله مجاهد .

الثاني : صلح الحديبية ، قاله ابن عباس .

﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : اليهود كف أيديهم عن المدينة عند خروجهم إلى الحديبية .

الثاني : قريش كف أيديهم عن المدينة عند خروجهم إلى الحديبية .

الثالث : أسد وغطفان الحليفان عليهم عيينة بن حصن ومالك بن عوف جاءوا لينصروا أهل خيبر ، فألقى الله في قلوبهم الرعب فانهزموا .

﴿ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ليكون كف أيديهم عنكم آية للمؤمنين .

(152/715)

الثاني : ليكون فتح خيبر آية أي علامة لصدق الله تعالى في وعده وصدق رسوله في خبره .

قيل لتكون البيعة آية لهم .

قوله عز وجل : ﴿ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾ فيها ثلاثة أقاويل :

أحدها : هي أرض فارس والروم وجميع ما فتحه المسلمون ، قاله ابن عباس .

الثاني : هي مكة ، قاله قتادة .

الثالث : هي أرض خيبر ، قاله الضحاك .

في قوله : ﴿ قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾ وجهان :

أحدهما : قدر الله عليها ، قاله ابن بحر .

الثاني : حفظها عليكم ليكون فتحها لكم .

قوله عز وجل : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ يعني طريقة الله وعادته السالفة نصر رسله وأوليائه على أعدائه .

وفي قوله : ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ وجهان :

أحدهما : ولن تتغير سنة الله وعادته في نصرك على أعدائك وأعدائه .

الثاني : لن تجد لعادة الله في نصر رسله مانعاً من الظفر بأعدائه وهو محتمل .

قوله عز وجل : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : كف أيديهم عنكم بالرعب وأيديكم عنهم بالنهي .

الثاني : كف أيديهم عنكم بالخذلان ، وأيديكم عنهم بالاستبقاء لعلمه بحال من يسلم منهم .

الثالث : كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم بالصلح عام الحديبية .

﴿ بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : يريد به مكة .

الثاني : يريد به الحديبية لأن بعضها مضاف إلى الحرام .

وفي قوله : ﴿ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيهِمْ ﴾ ثلاثة أقاويل :

أحدها : أظفركم عليهم بفتح مكة وتكون هذه نزلت بعد فتح مكة ، وفيها دليل على أن مكة فتحت صلحاً لقوله ﴿ كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وأَيْدِيَكُمْ عَنهُم ﴾ .

الثاني : أظفركم عليهم بقضاء العمرة التي صدوكم عنها .

(153/715)

الثالث : أظفركم عليهم بما روي ثابت عن أنس أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه من قبل التنعيم عند صلاة الفجر ليقتلوا من ظفروا به ، فأخذهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعتقهم ، فأنزل الله هذه الآية ، فكان هذا هو الظفر .

قوله عز وجل : ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ يعني قريشاً .

﴿ وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ يعني منعوكم عن المسجد الحرام عام الحديبية حين أحرم النبي صلى الله علي وسلم مع أصحابه بعمرة .

﴿ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : محبوساً .

الثاني : واقفاً .

الثالث : مجموعاً ، قاله أبو عمرو بن العلاء .

﴿ أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : منحره ، قاله الفراء .

الثاني : الحرم ، قال الشافعي ، والمِحِل بكسر الحاء هو غاية الشيء ، وبالفتح هو الموضع الذي يحله الناس ، وكان الهدي سبعين بدنة .

﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ أي لم تعلموا إيمانهم .

﴿ أَن تَطَئُوهُمْ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن تطئوهم بخيلكم وأرجلكم فتقتلوهم ، قاله ابن عباس .

الثاني : لولا من في أصلاب الكفار وأرحام نسائهم من رجال مؤمنين ونساء مؤمنات لم يعلموهم أن يطئوا آباءهم فيهلك أبناؤهم ، قاله الضحاك .

﴿ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ ﴾ فيها ستة أقاويل :

أحدها : الإثم ، قاله ابن زيد .

الثاني : غرم الدية ، قاله ابن إسحاق .

الثالث : كفارة قتل الخطأ ، قاله الكلبي .

الرابع : الشدة ، قاله قطرب .

الخامس : العيب .

السادس : الغم .

قوله عز وجل : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُواْ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : لو تميزوا ، قاله ابن قتيبة .

الثاني : لو تفرقوا ، قاله الكلبي .

الثالث : لو أزيلوا ، قاله الضحاك حتى لا يختلط بمشركي مكة مسلم .

(154/715)

﴿ لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ وهو القتل بالسيف لكن الله يدفع بالمؤمنين عن الكفار .

قوله عز وجل : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ يعني قريشاً . وفي حمية الجاهلية قولان :

أحدهما : العصبية لآلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله ، والأنفة من أن يعبدوا غيرها ، قاله ابن بحر .

الثاني : أنفتهم من الإقرار له بالرسالة والاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم على عادته في الفاتحة ، ومنعهم له من دخول مكة ، قال الزهري .

ويحتمل ثالثاً : هو الاقتداء بآبائهم ، وألا يخالفوا لهم عادة ، ولا يلتزموا لغيرهم طاعة كما أخبر الله عنهم ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا أَبَاءنا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : 23] .

﴿ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤمِنِينَ ﴾ يعني الصبر الذي صبروا والإجابة إلى ما سألوا ، والصلح الذي عقدوه حتى عاد إليهم في مثل ذلك الشهر من السنة الثانية قاضياً لعمرته ظافراً بطلبته .

﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ﴾ فيها أربعة أوجه :

أحدها : قول لا إله إلا الله ، قاله ابن عباس ، وهو يروي عن النبي صلى الله عليه وسلم .

الثاني : الإخلاص ، قاله مجاهد .

الثالث : قول بسم الله الرحمن الرحيم ، قاله الزهري .

الرابع : قولهم سمعنا وأطعنا بعد خوضهم . وسميت كلمة التقوى لأنهم يتقون بها غضب الله .

﴿ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : وكانوا أحق بكلمة التقوى أن يقولوها .

الثاني : وكانوا أحق بمكة أن يدخلوها .

وفي من كان أحق بكلمة التقوى قولان :

أحدهما : أهل مكة كانوا أحق بكلمة التقوى أن يقولوها لتقدم إنذارهم لولا ما سلبوه من التوفيق .

الثاني : أهل المدينة أحق بكلمة التقوى حين قالوها ، لتقدم إيمانهم حين صحبهم التوفيق .

(155/715)

قوله عز وجل : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ قال قتادة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رأى في المنام ، أنه يدخل مكة على هذه الصفة ، فلما صالح قريشاً بالحديبية ، ارتاب المنافقون ، حتى قال صلى الله عليه وسلم : " فَمَا رَأَيْتُ فِي هذَا العَامِ "

ثم قال : ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : علم أن دخولها إلى سنة ولم تعلموه أنتم ، قاله الكلبي .

الثاني : علم أن بمكة رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموهم ؛ الآية .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه الصلح الذي جرى بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وقريش بالحديبية ، قاله مجاهد .

الثاني : فتح مكة ، قاله ابن زيد والضحاك .

وفي قوله : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه خارج مخرج الشرط والاستثناء .

الثاني : أنه ليس بشرط وإنما خرج مخرج الحكاية على عادة أهل الدين ، ومعناه لتدخلونه بمشيئة الله .

الثالث : إن شاء الله في دخول جميعكم أو بعضكم ، ولأنه علم أن بعضهم يموت .

قوله عز وجل : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ فيه ستة تأويلات :

أحدها : أنه ثرى الأرض وندى الطهور ، قاله سعيد بن جبير .

الثاني : أنها صلاتهم تبدوا في وجوههم ، قاله ابن عباس .

الثالث : أنه السمت ، قاله الحسن .

الرابع : الخشوع ، قاله مجاهد .

الخامس : هو أن يسهر الليل فيصبح مصفراً ، قاله الضحاك .

السادس : هو نور يظهر على وجوههم يوم القيامة ، قاله عطية العوفي .

﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطَأَهُ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن مثلهم في التوراة بأن سيماهم في وجوههم . ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه .

الثاني : أن كلا الأمرين مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل .

وقوله : ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن الشطأ شوك السنبل ، والعرب أيضاً تسميه السفا والبهمي ، قاله قطرب .

الثاني : أنه السنبل ، فيخرج من الحبة عشر سنبلات وتسع وثمان ، قاله الكلبي والفراء .

الثالث : أنه فراخه التي تخرج من جوانبه ، ومنه شاطىء النهر جانبه ، قاله الأخفش .

﴿ فَآزَرَهُ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : فساواه فصار مثل الأم ، قاله السدي .

الثاني : فعاونه فشد فراخ الزرع أصول النبت وقواها .

﴿ فَاسْتَغْلَظَ ﴾ يعني اجتماع الفراخ مع الأصول .

﴿ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ ﴾ أي على عوده الذي يقوم عليه فيكون ساقاً له .

﴿ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ يعني النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم ، لأن ما أعجب المؤمنين من قوتهم كإعجاب الزراع بقوة رزعهم هو الذي غاظ الكفار منهم .

ووجه ضرب المثل بهذا الزرع الذي أخرج شطأه ، هو أن النبي صلى الله عليه وسلم حين بدأ بالدعاء إلى دينه كان ضعيفاً ، فأجابه الواحد بعد الواحد حتى كثر جمعه وقوي أمره ، كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفاً فيقوى حالا بعد حال يغلظ ساقه وأفراخه فكان هذا من أصح مثل وأوضح بيان ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 5 صـ 324.316 ﴾

(157/715)

وقال ابن الجوزى :

ثم ذكر الذين أخلصوا نِيَّتهم وشَهِدوا بَيْعة الرّضوان بقوله : ﴿ لقد رضِيَ اللهُ عن المؤمِنين ﴾

وقد ذكرنا سبب هذه البَيْعة آنفاً ، وإنما سمّيتْ بَيْعةَ الرّضوان ، لقوله : ﴿ لقد رَضِيَ اللهُ عن المؤمنين إذ يُبايعونك تحت الشجرة ﴾ روى إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه ، قال : بينما نحن قائلون زمن الحديبية ، نادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيها الناس ، البَيْعةَ البَيْعةَ ، نَزَل روح القُدُس قال : فثُرنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تحت شجرة سَمُرة ، فبايَعْناه ، وقال عبد الله بن مغفَّل : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم

تحت الشجرة يبايع الناس ، وإنّي لأرفع أغصانَها عن رأسه .

وقال بكير بن الأشج : كانت الشجرة بفجٍّ نحو مكة .

قال نافع : كان الناس يأتون تلك الشجرة فيصلُّون عندها ، فبلغ ذلك عمرَ بن الخطاب فأوعدهم فيها وأمر بها فقُطِعتْ .

قوله تعالى : ﴿ فَعَلِمَ ما في قُلوبهم ﴾ أي : من الصّدق والوفاء ، والمعنى : علم أنهم مُخْلِصون ﴿ فأنزل السّكينة عليهم ﴾ يعني الطُّمأنينة والرِّضى حتى بايَعوا على أن يقاتِلوا ولا يَفِرُّوا ﴿ وأثابهم ﴾ أي : عوَّضهم على الرِّضى بقضائه والصَّبر على أمره ﴿ فَتْحاً قريباً ﴾ وهو خيبر ، ﴿ ومَغانِمَ كثيرةً يأخذونها ﴾ أي : من خيبر ، لأنها كانت ذات عَقار وأموال ، فأمّا قوله بعد هذا : ﴿ وعَدَكم اللهُ مَغانِمَ كثيرة تأخذونها ﴾ فقال المفسرون : هي الفُتوح التي تُفْتَح على المسلمين إلى يوم القيامة .

﴿ فعجَّل لكم هذه ﴾ فيها قولان .

أحدهما : أنها غنيمة خيبر ، قاله مجاهد ، وقتادة ، والجمهور .

والثاني : أنه الصُّلح الذي كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش ، رواه العوفي عن ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ وكَفَّ أيديَ الناس عنكم ﴾ فيهم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم اليهود همُّوا أن يغتالوا عيال المسلمين الذين خلّفوهم في المدينة ، فكفَّهم اللهُ عن ذلك ، قاله قتادة .

والثاني : أنهم أسد وغطفان جاؤوا لينصروا أهل خيبر ، فقَذَفَ اللهُ في قلوبهم الرُّعب ، فانصرفوا عنهم ، قاله مقاتل .

وقال الفراء : كانت أسد وغطفان [مع أهل خيبر ، فقصدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فصالحوه وخلَّوا بينه وبين خيبر .

وقال غيرهما : بل همَّت أسد وغطفان] باغتيال [أهل] المدينة ، فكفَّهم اللهُ عن ذلك .

والثالث : أنهم أهل مكة كفَّهم اللهُ بالصلح ، حكاهما الثعلبي وغيره .

ففي قوله " عنكم " قولان .

أحدهما : أنه على أصله ، قاله الأكثرون .

والثاني : عن عيالكم ، قاله ابن قتيبة ، وهو مقتضى قول قتادة .

﴿ ولِتَكون آيةً للمؤمنين ﴾ في المشار إليها قولان .

أحدهما : أنها الفَعْلة التي فَعَلها بكم من كَفِّ أيديهم عنكم كانت آيةً للمؤمنين ، فعَلِموا أن الله تعالى متولِّي حراستهم في مَشهدهم ومَغيبهم .

والثاني : أنها خيبر كان فتحها علامةً للمؤمنين ، في تصديق رسول الله صلى الله عليه

وسلم فيما وعدهم به .

قوله تعالى : ﴿ ويَهْدِيَكم صراطاً مستقيماً ﴾ فيه قولان .

أحدهما : طريق التوكُّل عليه والتفويض إليه ، وهذا على القول الأول .

والثاني : يَزيدكم هُدىً بالتصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من وعد الله تعالى بالفتح والغنيمة .

قوله تعالى : ﴿ وأُخرى ﴾ المعنى : وعدكم الله مَغانمَ أُخرى ؛ وفيها أربعة أقوال .

أحدها : أنها ما فُتح للمسلمين بعد ذلك .

روى سماك الحنفي عن ابن عباس ﴿ وأُخرى لَمْ تَقْدِروا عليها ﴾ قال : ما فتح لكم من هذه الفتوح ، وبه قال مجاهد .

والثاني : أنها خيبر ، رواه عطية ، والضحاك عن ابن عباس ، وبه قال ابن زيد .

والثالث : فارس والروم ، روي عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال الحسن ، وعبد الرحمن بن أبي ليلى .

والرابع : مكة ، ذكره قتادة ، وابن قتيبة .

قوله تعالى : ﴿ قد أحاط اللهُ بها ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أحاط بها عِلْماً أنها ستكون من فُتوحكم .

والثاني : حَفِظها لكم ومَنَعها من غيركم حتى فتحتموها .

قوله تعالى : ﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا ﴾ هذا خطاب لأهل الحديبية ، قاله قتادة ؛ ﴿ والذين كفروا ﴾ مشركو قريش .

فعلى هذا يكون المعنى لو قاتلوكم يومَ الحديبية ﴿ لولَّوُا الأدبار ﴾ لِما في قلوبهم من الرُّعب ﴿ ثم لا يجدون وليّاً ﴾ لأن لله قد خذلهم .

قال الزجاج : المعنى : لو قاتلك من لم يقاتِلْك لنُصِرْتَ عليه ، لأن سُنَّة الله النُّصرةُ لأوليائه .

و" سُنَّةَ الله " منصوبة على المصدر ، لأن قوله : " لولَّوُا الأدبار " معناه : سَنَّ اللهُ عز وجل خِذلانهم سُنَّةً ، وقد مَرَّ مِثْلُ هذا في قوله : ﴿ كتابَ اللهِ عليكم ﴾ [النساء : 24] وقوله : ﴿ صُنْع اللهِ ﴾ [النمل : 88] .

قوله تعالى : ﴿ وهُو الذي كَفَّ أيديَهم عنكم ﴾ روى أنس بن مالك أن ثمانين رجلاً من أهله مكة هبطوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من جبل التنعيم متسلِّحين يريدون غِرَّةَ النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابِه ، فأخذهم سِلْماً ، فاستحياهم ، وأنزل الله هذه الآية .

وروى عبد الله بن مغفَّل قال : "كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية في أصل

الشجرة ، فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابّاً ، فثاروا في وُجوهنا ، فدعا عليهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فأخذ الله بأبصارهم ، فقمنا إليهم فأخذناهم ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هل جئتم في عهد ؟ " أو " هل جعل لكم أحد أماناً ؟ " قالوا : اللهم لا ، فخلَّى سبيلهم ، ونزلت هذه الآية " وذكر قتادة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث خَيْلاً فأتَوه باثني عشر فارساً من الكفار ، فأرسلهم .

وقال مقاتل : خرجوا يقاتِلون رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فهزمهم النبي صلى الله عليه وسلم بالطَّعن والنَّبل حتى أدخلهم بيوت مكة .

(160/715)

قال المفسرون : ومعنى الآية : إن الله تعالى ذكر مِنَّته إذ حجز بين الفريقين فلم يقتتلا حتى تم الصلح بينهم .

وفي بطن مكة ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الحديبية ، قاله أنس .

والثاني : وادي مكة ، قاله السدي .

والثالث : التنعيم ، حكاه أبو سليمان الدمشقي .

فأمّا " مكة " فقال الزجاج : " مكة " لا تنصرف لأنها مؤنَّثة ، وهي معرفة ، ويصلُح أن يكون اشتقاقها كاشتقاق " بكة " ، والميم تُبدل من الباء ، يُقال : ضَرْبة لازم ، ولازب ، ويصلُح أن يكون اشتقاقها من قولهم : امْتَكَّ الفَصيل ما في ضرع النّاقة : إذا مَصَّ مَصّاً شديداً حتى لا يُبْقي فيه شيئاً .

فيكون سمّيتْ بذلك لشِدَّة الازدحام فيها ؛ قال : والقول الأول أحسن .

وقال قطرب : مكة من تَمَكَّكْتُ المُخَّ : إذا أكلتَه .

وقال ابن فارس : تَمَكَّكْتُ العظم : إذا أخرجتَ مُخَّه ؛ والتمكُّكُ : الاستقصاء ؛ وفي الحديث : " لا تُمَكِّكوا على غُرَمائكم " .

وفي تسمية " مكة " أربعة أقوال .

أحدها : لأنها مَثَابَةٌ يؤمُّها الخَلْقُ مِنْ كُلِّ فَجٍّ ، وكأنها هي التي تجذِبُهم إليها ، وذلك من قول العرب : امْتَكَّ الفَصيلُ ما في ضَرْع النّاقة .

والثاني : أنها سمّيتْ (مكة) من قولك : بَكَكْتُ الرجُل : إذا وضَعْتَ منه وَرَدَدْتَ نَخْوتَه فكأنها تَمُكُّ مَنْ ظلم فيها ، أي تُهلكه وتُنْقِصه ، وأنشدوا :

يا مَكَّةُ ، الفاجرَ مُكّي مَكّا . . .

ولا تَمُكّي مَذْحِجاً وعَكّا

والثالث : [أنها] سمّيتْ بذلك لجَهْد أهلها .

والرابع : لِقلَّة الماء بها .

وهل مكة وبكة واحد ؟ قد ذكرناه في [آل عمران : 96] .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ أن أَظفركم عليهم ﴾ أي : بهم ؛ يقال : ظَفِرْتُ بفلان ، وظَفِرْتُ عليه .

قوله تعالى : ﴿ وكان اللهُ بما تعلمون بصيراً ﴾ قرأ أبو عمرو : ﴿ يعملون ﴾ بالياء والباقون : بالتاء .

(161/715)

قوله تعالى : ﴿ هُمُ الذين كفَروا ﴾ يعني أهل مكة ﴿ وصدُّوكم عن المسجد الحرام ﴾ أن تطوفوا به وتحلّوا من عُمرتكم ﴿ والهَدْيَ ﴾ قال الزَّجاج : أي : وصدُّوا الهدي ﴿ معكوفاً ﴾ أي : محبوساً ﴿ أن يبلُغَ ﴾ أي : عن أن يبلُغَ ﴿ مَحِلَّه ﴾ قال المفسرون : " مَحِلّه " مَنْحَره ، وهو حيث يَحِلُّ نَحْرُه ﴿ ولولا رجالٌ مؤمنون ونساءٌ مؤمنات ﴾ وهم المستَضعفون بمكة ﴿ لم تَعْلَموهم ﴾ أي : لم تعرفوهم ﴿ أن تطؤُوهم ﴾ بالقتل .

ومعنى الآية : لولا أن تطؤوا رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمنات بالقتل ، وتُوقِعوا بهم ولا تعرفونهم ، ﴿ فتُصيبَكم منهم مَعَرَّةٌ ﴾ وفيها أربعة أقوال .

أحدهما : إِثم ، قاله ابن زيد .

والثاني : غُرم الدِّيَة ، قاله ابن إِسحاق .

والثالث : كفّارة قتل الخطأ ، قاله ابن السائب .

والرابع : عيب بقتل مَنْ هو على دينكم ، حكاه جماعة من المفسرين .

وفي الآية محذوف ، تقديره : لأدخلتُكم من عامكم هذا ؛ وإنما حُلْتُ بينكم وبينهم ﴿ لِيُدْخِلَ اللهُ في رحمته ﴾ أي : في دينه ﴿ من يشاء ﴾ من أهل مكة ، وهم الذين أسلموا بعد الصُّلح ﴿ لو تزيَّلوا ﴾ قال ابن عباس : لو تفرَّقوا .

وقال ابن قتيبة ، والزجاج : لو تميَّزوا .

قال المفسرون : لو انماز المؤمنون من المشركين ﴿ لعذَّبْنا الذين كفروا ﴾ بالقتل والسَّبْي بأيديكم .

وقال قوم : لو تزيَّل المؤمنون من أصلاب الكُفّار لعذَّبْنا الكفار .

وقال بعضهم : قوله : " لعذَّبْنا " جواب لكلامين .

أحدهما : " لولا رجال " ،

والثاني : " لو تزيَّلوا " وقوله ﴿ إِذ جَعَل ﴾ من صلة قوله ﴿ لعذَّبْنا ﴾ .

والحميَّة : الأَنَفَة والجَبَرِيَّة .

قال المفسرون : وإنما أخذتهم الحمية حين أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم دخول مكة ، فقالوا : يدخلون علينا [وقد قتلوا] أبناءنا وإخواننا فتتحدَّث العربُ بذلك ! والله لا يكون ذلك ، ﴿ فأَنْزَلَ اللهُ سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ﴾ فلم يَدخُلْهم ما دخل أولئك فيخالفوا الله في قتالهم .

وقيل : الحميَّةُ ما تداخل سهيلَ بن عمرو من الأَنَفَة أن يكتُب في كتاب الصُّلح ذِكْر " الرحمن الرحيم " وذِكْر " رسول الله " صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ وألزَمَهم كَلِمةَ التَّقوى ﴾ فيه خمسة أقوال .

أحدهما : " لا اله إلا الله " ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، وقتادة ، والضحاك ، والسدي ، وابن زيد في آخرين ، وقد روي مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فعلى هذا يكون معنى : " ألزَمَهم " : حَكَمَ لهم بها ، وهي التي تَنفي الشِّرك .

والثاني : " لا إله إلا الله والله أكبر " ، قاله ابن عمر .

وعن علي بن أبي طالب كالقولين .

والثالث : " لا إله إلا الله وحده لا شريك له له المُلك وله الحمد وهو على كل شيء قدير " ، قاله عطاء بن أبي رباح .

والرابع : " لا إله إلا الله محمد رسول الله " ، قاله عطاء الخراساني .

والخامس : " بسم الله الرحمن الرحيم " ، قاله الزهري .

فعلى هذا يكون المعنى : أنه لمّا أبى المشركون أن يكتُبوا هذا في كتاب الصُّلح ، ألزمه اللهُ المؤمنين .

﴿ وكانوا أحقَّ بها ﴾ من المشركين ﴿ و ﴾ كانوا ﴿ أهلَها ﴾ في عِلْم الله تعالى .

(163/715)

قوله تعالى : ﴿ لقد صَدَقَ اللهُ رسولَه الرُّؤيا بالحق ﴾ قال المفسرون : سبب نزولها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أُري في المنام قبل خروجه إلى الحديبية قائلاً يقول له : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام ﴾ إلى قوله ﴿ لا تَخافونَ ﴾ ورأى كأنه هو وأصحابه يدخُلون مكة وقد حَلَقوا وقصَّروا ، فأخبر بذلك أصحابَه ففرِحوا ، فلمّا خرجوا إلى الحديبية حَسِبوا أنهم يدخُلون مكة في عامهم ذلك ، فلمّا رجعوا ولم يدخُلوا قال المنافقون : أين رؤياه التي رأى ؟ ! فنزلت هذه الآية ، فدخلوا في العام المقبل .

وفي قوله : ﴿ إنْ شاء اللهُ ﴾ ستة أقوال .

أحدها : أن " إن " بمعنى " إذ " ، قاله أبو عبيدة ، وابن قتيبة .

والثاني : أنه استثناء من الله ، وقد عَلِمه ، والخَلْق يستثنون فيما لا يَعْلَمون ، قاله ثعلب ؛

فعلى هذا يكون المعنى أنه عَلِم أنهم سيدخُلونه ، ولكن استثنى على ما أُمر الخَلْق به من الاستثناء .

والثالث : أن المعنى : لتدخُلُنَّ المسجد الحرام إن أمركم اللهُ به ، قاله الزجاج .

والرابع : أن الاستثناء يعود إلى دخول بعضهم أو جميعهم ، لأنه عَلِم أن بعضهم يموت ، حكاه الماوردي .

والخامس : أنه على وجه الحكايةِ لما رآه النبيُّ صلى الله عليه وسلم في المنام أن قائلاً يقول ﴿ لَتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين ﴾ ، حكاه القاضي أبو يعلى .

والسادس : أنه يعود إلى الأمن والخوف ، فأمّا الدُّخول ، فلا شَكَّ فيه ، حكاه الثعلبي .

قوله تعالى : ﴿ آمنين ﴾ من العَدُوِّ ﴿ محلِّقين رؤوسكم ومقصِّرين ﴾ من الشَّعر ﴿ لا تَخافونَ ﴾ عدُوّاً .

﴿ فعَلِم ما لم تَعْلَموا ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : عَلِم أن الصَّلاح في الصُّلح .

والثاني : أن في تأخير الدُّخول صلاحاً .

والثالث : فعلم أن يفتح عليكم خيبر قبل ذلك .

قوله تعالى : ﴿ فجَعَلَ مِنْ دون ذلك فتحاً قريباً ﴾ فيه قولان .

أحدهما : فتح خيبر ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال عطاء ، وابن زيد ، ومقاتل .

والثاني : صلح الحديبية ، قاله مجاهد ، والزهري ، وابن إسحاق وقد بيَّنّا كيف كان فتحاً في أول السورة .

وما بعد هذا مفسر في [براءة : 33] إلى قوله : ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ وفيه قولان .

أحدهما : أنه شَهِدَ له على نَفْسه أنه يُظْهِره على الدِّين كُلِّه ، قاله الحسن .

والثاني : كفى به شهيداً أن محمداً رسوله قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ محمدٌ رسولُ الله ﴾ وقرأ الشعبي ، وأبو رجاء ، وأبو المتوكل ، والجحدري : " محمداً رسولُ الله " بالنصب فيهما .

قال ابن عباس شَهِد : له بالرِّسالة .

قوله تعالى : ﴿ والذين معه ﴾ يعني أصحابه والأشدّاء : جمع شديد .

قال الزجاج : والأصل أَشْدِدَاءُ ، نحو نصيب وأنصباء ، ولكن الدّالَين تحركتا ، فأُدغمت الأولى في الثانية ، [ومثله] ﴿ مَنْ يَرْتَدَّ منكم ﴾ [المائدة : 54] .

قوله تعالى : ﴿ رُحَماءُ بينَهم ﴾ الرُّحَماء جمع رحيم ، والمعنى : أنهم يُغْلِظون على الكفار ، ويَتوادُّون بينَهم ﴿ تَراهم رُكَّعاً سُجَّداً ﴾ يَصِفُ كثرة صَلاتهم ﴿ يبتغون فَضْلاً من الله ﴾ وهو الجنة ﴿ ورِضواناً ﴾ وهو رضى الله عنهم .

وهذا الوصف لجميع الصحابة عند الجُمهور وروى مبارك بن فضاله عن الحسن البصري أنه قال : " والذين معه " أبو بكر " أشداء على الكفار " عمر " رحماء بينهم " عثمان " تراهم رُكَّعاً سُجَّداً " عليّ بن أبي طالب " يبتغون فضلاً من الله ورضواناً " طلحة والزبير وعبد الرحمن وسعد وسعيد وأبو عبيدة .

قوله تعالى : ﴿ سِيماهم ﴾ أي : علامتهم ﴿ في وُجوههم ﴾ ، وهل هذه العلامة في الدنيا ، أم في الآخرة ؟ فيه قولان .

أحدهما : في الدنيا .

ثم فيه ثلاثة أقوال :

(165/715)

أحدها : أنها السَّمْت الحسن ، قاله ابن عباس في رواية ابن أبي طلحة ؛ وقال في رواية مجاهد : أما إنه ليس بالذي ترون ، ولكنه سيما الإسلام وسَمْتُه وخُشوعُه ، وكذلك قال مجاهد : ليس بِنَدَبِ التراب في الوجه ، ولكنه الخُشوع والوَقار والتواضع .

والثاني : أنه نَدَى الطَّهور وتَرَى الأرض ، قاله سعيد بن جبير .

وقال أبو العالية : لأنهم يسجُدون على التراب لا على الأثواب .

وقال الأوزاعي : بلغني أنه ما حمَلَتْ جباهُهم من الأرض .

والثالث : أنه السُّهوم ، فإذا سهم وجه الرجُل من الليل أصبح مُصفارّاً .

قال الحسن البصري : " سيماهم في وجوههم " : الصُّفرة ؛ وقال سعيد بن جبير : أثر السهر ؛ وقال شمر بن عطية : هو تهيُّج في الوجه من سهر الليل .

والقول الثاني : أنها في الآخرة .

ثم فيه قولان .

أحدهما : أن مواضع السجود من وجوههم يكون أشدَّ وجوههم بياضاً يوم القيامة ، قاله عطية العوفي ، وإلى نحو هذا ذهب الحسن ، والزهري .

وروى العوفي عن ابن عباس قال : صلاتهم تبدو في وجوههم يوم القيامة .

والثاني : أنهم يُبْعَثون غُراً محجَّلين من أثر الطَّهور ، ذكره الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ ذلك مَثَلُهم ﴾ أي : صِفَتُهم والمعنى أن صفة محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ﴿ في التوراة ﴾ هذا .

فأما قوله : ﴿ ومَثَلُهم في الإنجيل ﴾ ففيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن هذا المَثَل المذكور أنه في التوراة هو مَثَلُهم في الإنجيل .

قال مجاهد : مَثَلُهم في التوراة والإنجيل واحد .

والثاني : أن المتقدِّم مَثَلُهم في التوراة ، فأمّا مَثَلُهم في الإنجيل فهو قوله : ﴿ كزرعٍ ﴾ ، وهذا

قول الضحاك ، وابن زيد .

والثالث : أن مَثَلَهُم في التوراة والإنجيل كزرع ، ذكر هذه الأقوال أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : ﴿ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ وقرأ ابن كثير ، وابن عامر : [" شَطَأَهُ " بفتح الطاء والهمزة .

وقرأ نافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : ﴿ شطْأه ﴾ بسكون الطاء .

(166/715)

وكلهم يقرأ بهمزة مفتوحة .

وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وأبو العالية ، وابن أبي عبلة] : ﴿ شَطاءَهُ ﴾ بفتح الطاء [وبالمد] والهمزة وبألف .

قال أبو عبيدة : أي فِراخه يقال أشطأ الزَّرعُ فهو مُشْطِئُ : إذا أفرخ ﴿ فآزره ﴾ أي : ساواه ، وصار مثل الأُمّ .

وقرأ ابن عامر : " فأَزَرَهُ " مقصورة الهمزة مثل فَعَلَهُ .

وقال ابن قتيبة : آزره أعانه وقوّاه ﴿ فاستغلظ ﴾ أي : غَلُظ ﴿ فاستوى على سُوقِهِ ﴾ وهي جمع " ساق " ، وهذا مَثَلٌ ضربه اللهُ عز وجل للنبيِّ صلى الله عليه وسلم إذ خرج

وحده ، فأيَّده بأصحابه ، كما قوَّى الطَّاقة من الزَّرع بما نبت منها حتى كَبُرتْ وغَلُظت واستحكمت .

وقرأ ابن كثير : على " سُؤْقه " مهموزة ؛ والباقون بلا همزة .

وقال قتادة : في الإِنجيل : سيَخْرج قومٌ ينبتون نبات الزَّرع .

وفيمن أُريدَ .

بهذا المثَل قولان .

أحدهما : أن أصل الزَّرع : عبد المطلب " أخرج شطأه " أخرج محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ فآزره ﴾ : بأبي بكر ﴿ فاستغلظ ﴾ : بعمر ﴿ فاستوى ﴾ : بعثمان ﴿ على سوقه ﴾ : عليّ بن أبي طالب ، رواه سعيد ابن جبير عن ابن عباس .

والثاني : أن المراد بالزَّرع محمد صلى الله عليه وسلم " أخرج شطأه " أبو بكر " فآزره " بعمر " فاستغلظ " بعثمان " فاستوى على سوقه " : بعليّ ﴿ يُعْجِبُ الزُّرّاعَ ﴾ : يعني المؤمنين " لِيَغيظَ بهم الكُفّار " وهو قول عمر لأهل مكة : لا يُعْبَدُ اللهُ سِرَاً بعد اليوم ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، ومبارك عن الحسن .

قوله تعالى : ﴿ لِيَغيظَ بهم الكُفّار ﴾ أي : إِنَّما كثَّرهم وقوّاهم لِيَغيظ بهم .

الكُفّار .

وقال مالك بن أنس : من أصبح وفي قلبه غيظ على أصحاب رسول الله صلى الله عليه

وسلم فقد أصابته هذه الآية .

وقال ابن إدريس : لا آمَنُ أن يكونوا قد ضارعوا الكُفّار ، يعني الرّافضة ، لأن الله تعالى يقول : " لِيَغيظَ بهم الكُفّار " .

(167/715)

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحات منهم مغفرةً وأجراً عظيماً ﴾ قال الزجاج : في " مِنْ " قولان .

أحدهما : أن يكون تخليصاً للجنس من غيره ، كقوله ﴿ فاجتَنِبوا الرِّجْسَ من الأوثان ﴾ [الحج : 30] ، ومثله أن تقول : أَنْفِقْ من الدَّراهم ، أي : اجعل نفقتك من هذا الجنس .

قال ابن الأنباري : معنى الآية : وَعَدَ اللهُ الذين آمَنوا من هذا الجنس ، أي من جنس الصحابة .

والثاني : أن يكون [هذا] الوعْدُ لِمن أقام منهم على الإيمان والعمل الصالح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 7 صـ 433.450 ﴾

(168/715)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك ﴾

يعني بالحديبية على أن يناجزوا قريشاً ولا يفروا ﴿ تحت الشجرة ﴾ وكانت هذه الشجرة سمرة (ق) عن طارق بن عبد الرحمن قال انطلقت حاجاً ، فمررت بقوم يصلون ، فقلت : ما هذا المسجد ؟ قالوا : هذه الشجرة حيث بايع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بيعة الرضوان فأتيت ابن المسيب فأخبرته فقال سعيد : كان أبي ممن بايع تحت الشجرة قال : فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فعميت علينا فلم نقدر عليها .

قال سعيد : فأصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لم يعلموها وعلمتموها فأنتم أعلم فضحك .

وفي رواية ، عن سعيد بن المسيب عن أبيه ، قال : لقد رأيت الشجرة ثم أتيتها بعد عام فلم أعرفها ، وروي أن عمر مر بذلك المكان بعد أن ذهبت الشجرة ، فقال : أين كانت ؟ فجعل بعضهم يقول ها هنا وبعضهم يقول ها هنا فلما كثر اختلافهم قال : سيروا . ذهبت الشجرة .

﴿ خ ﴾ عن ابن عمر قال رجعنا من العام المقبل فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها وكانت رحمة من الله تعالى (م) عن أبي الزبير ، أنه سمع جابراً يسأل : كم كانوا

يوم الحديبية ؟ قال : كنا أربع عشرة مائة فبايعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهي سمرة فبايعناه جميعاً غير جد بن قيس الأنصاري اختفى تحت بطن بعيره .

زاد في رواية قال : بايعناه على أن لا نفر .

ولم نبايعه على الموت .

وأخرجه الترمذي عن جابر في قوله تعالى : ﴿ لقد رضي الله تعالى عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ .

قال : بايعنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على أن لا نفر ولم نبايعه على الموت .

(ق) عن عمرو بن دينار قال : سمعت جابر بن عبد الله يقول : قال لنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوم الحديبية .

" أنتم اليوم خير أهل الأرض " وكنا ألفاً وأربعمائة قال : ولو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة .

(169/715)

وروى سالم عن جابر قال : كنا خمس عشرة مائة (ق) عن عبد الله بن أبي أوفى قال : كان أصحاب الشجرة ألفاً وثلثمائة وكانت أسلم ثمن المهاجرين وهذه البيعة تسمى بيعة

الرضوان لهذه الآية وكان سبب هذه البيعة على ما ذكر محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم ، أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) دعا خراش بن أمية الخزاعي حين نزل الحديبية فبعثه إلى قريش بمكة وحمله على جمل يقال له " الثعلب " ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له فعقروا جمل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأرادوا قتله فمنعتهم الأحابيش ، فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأخبره ، فدعا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة فقال : يا رسول الله إني أخاف على نفسي قريشاً وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها ولكن أدلك على رجل هو أعزبها مني عثمان بن عفان فدعا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عثمان فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب إنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحرمته فخرج عثمان إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها فنزل عن دابته وحمله بين يديه ثم أردفه وأجاره حتى بلغ رسالة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال عظماء قريش لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : إن شئت أن تطوف بالبيت ، فطف به .

فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فاحتبسته قريش عندها فبلغ ، رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والمسلمين أن عثمان قد قتل فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " لا نبرح حتى نناجز القوم " ودعا الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة وكان الناس يقولون : بايعهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على الموت قال بكير بن الأشج : بايعوه على الموت ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " بل على ما استطعتم " وقد تقدم عن جابر ومعقل بن يسار أنهما قالا : لم نبايعه على الموت ، ولكن بايعناه على أن لا نفر .

وقد تقدم أيضاً الجمع بين هذا وبين قول سلمة بن الأكوع بايعناه على الموت وكان أول من بايع بيعة الرضوان رجلاً من بني أسد يقال له أبو سنان بن وهب ، ولم يتخلف عن بيعة الرضوان أحد من المسلمين حضرها إلا جد بن قيس أخو بني سلمة قال جابر : فكأني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته يستتر بها من الناس ثم أتى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن الذي ذكر من أمر عثمان باطل (م) عن جابر قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة " عن جابر قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " ليدخلن الجنة من بايع تحت الشجرة إلا صاحب الجمل الأحمر " أخرجه الترمذي وقال حديث غريب .

وقوله تعالى : ﴿ فعلم ما في قلوبهم ﴾ يعني من الصدق والإخلاص والوفاء كما علم ما في قلوب المنافقين من المرض والنفاق ﴿ فأنزل السكينة ﴾ يعني الطمأنينة ﴿ عليهم ﴾ يعني على المؤمنين المخلصين حتى ثبتوا وبايعوك على الموت وعلى أن لا يفروا وفي هذه الآية لطيفة ، وهي أن هذه البيعة كانت فيها طاعة الله وطاعة رسوله (صلى الله عليه وسلم) وذلك موجب لرضوان الله وهو موجب لدخول الجنة ويدل عليه قوله تعالى في الآية المتقدمة ﴿ ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ فثبت بهذا البيان أن أهل بيعة الرضوان من أهل الجنة ، ويشهد لصحة ما قلناه الحديث المتقدم .

﴿ ومغانم كثيرة يأخذونها ﴾ يعني من أموال أهل خيبر وكانت خيبر ذات نخيل وعقار وأموال فقسمها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بينهم ﴿ وكان الله عزيزاً ﴾ يعني منيعاً كامل العزة غنياً عن إعانتكم ﴿ حكيماً ﴾ حيث حكم لكم بالغنائم ولأعدائكم بالهلاك على أيديكم .

قوله تعالى : ﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ﴾ يعني المغانم التي تغنمونها من الفتوحات التي تفتح لكم إلى يوم القيامة ﴿ فعجل لكم هذه ﴾ يعني مغانم خيبر وفيه إشارة

إلى كثرة الفتوحات والغنائم التي يعطيهم الله في المستقبل وإنما عجل لهم هذه كعجالة الراكب أعجلها الله لكم وهي في جنب ما وعدكم الله به من الغنائم كالقليل من الكثير ﴿ وكف أيدي الناس عنكم ﴾ وذلك أن النبي (صلى الله عليه وسلم) لما قصد خيبر وحاصر أهلها ، همت قبائل من بني أسد وغطفان أن يغيروا على عيال المسلمين وذراريهم بالمدينة ، فكف الله أيديهم بإلقاء الرعب في قلوبهم .

وقيل : المعنى إن الله كف أيدي أهل مكة بالصلح عنكم لتمام المنّة عليكم ﴿ ولتكون آية للمؤمنين ﴾ هو عطف على ما تقدم تقديره ، فعجل لكم الغنائم لتنتفعوا بها ، ولتكون آية للمؤمنين .

يعني : ولتحصل من بعدكم آية تدلهم على أن ما وهبكم الله يحصل مثله لهم .

(172/715)

وقيل : لتكون آية للمؤمنين دالة على صدق الرسول (صلى الله عليه وسلم) في إخباره عن الغيوب ، فيزدادوا يقيناً إلى يقينهم ويعلموا أن الله هو المتولي حياطتهم وحراستهم في مشهدهم ومغيبهم ﴿ ويهديكم صراطاً مستقيماً ﴾ يعني ويهديكم إلى دين الإسلام ويثبتكم عليه ويزيدكم بصيرة ويقيناً بصلح الحديبية وفتح خيبر .

(ذكر غزوة خيبر)

وذلك أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لما رجع من الحديبية أقام بالمدينة بقية ذي الحجة وبعض المحرم ثم خرج إلى خيبر في بقية المحرم سنة سبع (ق) .

عن أنس أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان إذا غزا قوماً لم يكن يغزو بنا حتى يصبح وينظر فإن سمع أذاناً كف عنهم .

وإن لم يسمع أذاناً أغار عليهم .

قال : فخرجنا إلى خيبر فلما انتهينا إليهم ليلاً فلما أصبح ولم يسمع أذاناً ركب وركبت خلف أبي طلحة وإن قدمي لتمس قدم النبي (صلى الله عليه وسلم) قال فخرجوا علينا بمكاتلهم ومساحيهم فلما رأوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قالوا محمد والخميس فلما رآهم النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين " (م) عن سلمة بن الأركع قال : خرجنا إلى خيبر مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فجعل عمي عامر يرتجز بالقوم :

تالله لولا الله ما اهتدينا . . .

ولا تصدقنا ولا صلينا

ونحن عن فضلك ما استغنينا . . .

فثبت الأقدام إن لاقينا

وأنزلن سكينة علينا . . .

فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " من هذا ؟ " قال : أنا عامر .

قال : " غفر لك ربك " قال : وما استغفر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لإنسان يخصه إلا استشهد .

قال : فنادى عمر بن الخطاب وهو على جمل له : يا نبي الله لولا متعتنا بعامر .

قال : فلما قدمنا خيبر خرج ملكهم مرحب يخطر بسيفه يقول :

قد علمت خيبر أني مرحب . . .

شاكي السلاح بطل مجرب

إذا الحروب أقبلت تلتهب . . .

قال : وبرز له عمي عامر فقال :

(173/715)

قد علمت خيبر أني عامر . . .

شاكي السلاح بطل مغامر

قال : فاختلفا بضربتين فوقع سيف مرحب في ترس عامر ، وذهب عامر يسفل له ، فرجع

سيفه على نفسه فقطع أكحله ، فكانت فيها نفسه .

قال سلمة : فخرجت فإذا نفر من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقولون : بطل عمل عامر قتل نفسه فأتيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأنا أبكي فقلت : يا رسول الله بطل عمل عمي عامر قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : من قال ذلك ؟ فقت : ناس من أصحابك .

قال : كذب من قال ذلك بل له أجره مرتين .

ثم أرسلني إلى علي وهو أرمد فقال : لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله .

قال : فأتيت علياً فجئت به أقوده وهو أرمد حتى أتيت به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

فبصق في عينيه فبرأ ، وأعطاه الراية فخرج مرحب فقال :

قد علمت خيبر أني مرحب . . .

شاكي السلاح بطل مجرب

إذا الحروب أقبلت تلتهب . . .

فقال علي :

أنا الذي سمتني أمي حيدره . . .

كليث غابات كريه المنظره

أوفيهم بالصاع كيل السندره . . .

قال فضرب مرحباً فقتله ثم كان الفتح على يده .

(174/715)

أخرجه مسلم بهذا اللفظ وقد أخرج البخاري طرفاً منه قال البغوي وقد روى حديث فتح خيبر جماعة منهم سهل بن سعد وأنس بن مالك وأبو هريرة يزيدون وينقصون فيه " أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان قد أخذته الشقيقة فلم يخرج إلى الناس ، فأخذ أبو بكر راية رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثم نهض فقاتل قتالاً شديداً ، ثم رجع فأخذها عمر فقاتل قتالاً شديداً هو أشد من القتال الأول ، ثم رجع فأخبر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بذلك ، فقال : لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ويفتح الله على يديه ، فدعا علياً فأعطاه الراية وقال له : امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك فأتى خيبر فخرج مرحب صاحب الحصن وعلى رأسه مغفر من حجر قد نقبه مثل البيضة وهو يرتجز ، فخرج إليه علي بن أبي طالب ، فضربه فقد الحجر والمغفر وفلق رأسه حتى أخذ السيف في الأضراس ، ثم خرج بعد مرحب أخوه ياسر وهو يرتجز

، فخرج إليه الزبير بن العوام فقالت أمه صفية بنت عبد المطلب : يقتل ابني يا رسول الله ؟

قال : ابنك يقتله إن شاء الله .

ثم التقيا ، فقتله الزبير .

ثم كان الفتح ثم لم يزل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يفتح الحصون ويقتل المقاتلة ويسبي الذرية ويحوز الأموال "

(175/715)

قال محمد بن إسحاق : فكان أول حصونهم افتتح حصن ناعم وعنده قتل محمود بن مسلمة ألقت اليهود عليه حجراً فقتله ثم فتح حصن ابن أبي الحقيق فأصاب سبايا منهم صفية بنت حيي بن أخطب جاء بها بلال وبأخرى معها فمر بها على قتلى من قتلى يهود ، فلما رأتهم التي مع صفية ، صاحت وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها ، فلما رآها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " اعزبوا عني هذه الشيطانة " وأمر بصفية فجهزت خلفه وألقى عليها رداءه ، فعرف المسلمون أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد اصطفاها لنفسه وقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لبلال لما رأى من تلك اليهودية ما رأى أنزعت منك الرحمة يا بلال حيث تمر بامرأتين على قتلى رجالهما وكانت

صفية قد رأت في المنام وهي عروس بكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق أن قمراً وقع في حجرها ، فعرضت رؤياها على زوجها فقال : ما هذا إلا أنك تتمنين ملك الحجاز محمداً ثم لطم وجهها لطمة اخضرت منها عينها ، فأتى بها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وبها أثر منها فسألها عن ذلك ما هو ، فأخبرته الخبر ، وأتى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بزوجها كنانة بن الربيع وكان عنده كنز بني النضير فسأله ، فجحد أن يكون يعلم مكانه ، فأتى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) برجل من اليهود فقال لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) : إني رأيت كنانة يطوف بهذه الخربة كل غداة فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لكنانة : أرأيت إن وجدناه عندك أنقتلك قال : نعم فأمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالخربة فحفرت فأخرج منها بعض كنزهم ثم سأله ما بقي ، فأبى أن يؤديه إليه فأمر به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى الزبير بن العوام أن يعذبه حتى يستأصل ما عنده فكان الزبير يقدح بزنده على صدره حتى أشرف على نفسه ثم دفعه إلى محمد بن مسلمة فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة " (ق) عن أنس بن مالك ، أن رسول الله (صلى الله

(176/715)

عليه وسلم) غزا خيبر فصلينا عندها صلاة الغداة بغلس فركب نبي الله (صلى الله عليه وسلم) وركب أبو طلحة وأنا رديف أبي طلحة فأجرى نبي الله (صلى الله عليه وسلم) في زقاق خيبر وإن ركبتي لتمس فخذ نبي الله (صلى الله عليه وسلم) ثم حسر الإزار عن فخذه حتى إني أنظر بياض فخذ النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فلما دخل القرية قال : الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين قالها ثلاثاً .

قال : وخرج القوم إلى أعمالهم فقالوا محمد والخميس يعني الجيش .

قال : فأصبناها عنوة فجمع السبي فجاء دحية فقال : يا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أعطني جارية من السبي .

قال : اذهب فخذ جارية ، فأخذ صفية بنت حيي فجاء رجل إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال : يا نبي الله أعطيت دحية صفية بنت حيي سيدة قريظة والنضير لا تصلح إلا لك قال : ادعوها فجاء بها ، فلما نظر إليها النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : خذ جارية من السبي غيرها ، فأعتقها النبي (صلى الله عليه وسلم) وتزوجها .

فقال له ثابت : يا أبا حمزة ما أصدقها قال نفسها أعتقها وتزوجها ، حتى إذا كان بالطريق ، جهزتها له أم سليم ، فأهدتها له من الليل وأصبح النبي (صلى الله عليه وسلم) عروساً فقال : من كان عنده شيء فليجئ به .

وبسط نطعاً فجعل الرجل يجيء بالتمر وجعل الآخر يجيء بالسمن قال : وأحسبه ذكر

السويق .

قال : فحاسوا حيساً فكانت وليمة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " (ق) .

عن عبد الله بن أبي أوفى قال : " أصابتنا مجاعة ليالي خيبر ، فلما كان يوم خيبر وقعنا في الحمر الأهلية فانتحرناها فلما غلت بها القدور نادى منادي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن أكفئوا القدور ولا تأكلوا من لحوم الحمر شيئاً " .

(177/715)

فقال أناس : نهى عنها لأنها لم تخمس وقال آخرون : إنما نهى عنها البتة (ق) عن أنس : " أن امرأة يهودية أتت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بشاة مسمومة فجيء بها إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فسألها عن ذلك فقالت : أردت لأقتلك فقال : ما كان الله ليسلطك على ذلك .

أو قال علي قالوا أنقلتها قال لا فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " .

قال محمد بن إسماعيل قال يونس عن الزهري قال عروة قالت عائشة : كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يقول في مرضه الذي مات فيه : " يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي

أكلت بخيبر فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم " (خ) .

عن عائشة قالت : " لما فتحت خيبر قلنا الآن نشبع من التمر " (ق) عن ابن عمر " أن عمر أجلى اليهود والنصارى من أرض الحجاز وأن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لما ظهر على خيبر أراد إخراج اليهود منها وكانت الأرض لما ظهر عليها لله ولرسوله (صلى الله عليه وسلم) وللمسلمين فأراد إخراج اليهود منها فسألت اليهود رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يقرهم بها على أن يكفوا العمل ولهم نصف التمر ، فقال لهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : نقركم بها على ذلك ما شئنا فقروا بها .

قوله تعالى : ﴿ وأخرى لم تقدروا عليها ﴾ يعني وعدكم الله فتح بلدة أخرى لم تقدروا عليها ﴿ قد أحاط الله بها ﴾ يعني حفظها لكم حتى تفتحوها ومنعها من غيركم حتى تأخذوها ، وقال ابن عباس : علم الله أن يفتحها لكم واختلفوا فيها فقال ابن عباس : هي فارس والروم وما كانت العرب تقدر على قتال فارس والروم بل كانوا خولاً لهم حتى أقدرهم الله عليها بشرف الإسلام وعزه .

وقيل : هي خيبر وعدها الله نبيه (صلى الله عليه وسلم) قبل أن يصيبها ولم يكونوا يرجونها ففتحها الله لهم .

وقيل : هي مكة .

وقيل : هو كل فتح فتحه المسلمون أو يفتحونه إلى آخر الزمان ﴿ وكان الله على كل شيء قديراً ﴾ أي : من فتح القرى والبلدان لكم وغير ذلك ﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا ﴾ أي أسد وغطفان وأهل خيبر ﴿ لَوَلّوا الأدبار ﴾ أي لانهزموا عنكم ﴿ ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً ﴾ يعني من تولى الله خلذلانه فلا ناصر له ولا مساعد ﴿ سنة الله التي قد خلت من قبل ﴾ يعني هذه سنة الله في نصر أوليائه وقهر أعدائه ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾

قوله : ﴿ وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ﴾ سبب نزول هذه الآية ما روي عن أنس بن مالك : " أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من جبل التنعيم متسلحين يريدون غدر النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه ؛ فأخذهم سبايا فاستحياهم فأنزل الله تعالى وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أطفركم عليهم " انفرد بإخراجه مسلم وقال عبد الله بن مغفل المزني : " كنا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالحديبية في أصل الشجرة التي قال الله في القرآن وعلى ظهره غصن من أغصان تلك الشجرة فرفعته عن ظهره وعلي بن أبي طالب بين يديه يكتب كتاب الصلح فخرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح فثاروا في وجوهنا فدعا عليهم نبي الله (صلى الله عليه وسلم) فأخذ الله بأبصارهم فقمنا إليهم فأخذناهم فقال لهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : جئتم في عهد أو هل جعل لكم أحد أماناً

قالوا اللهم لا فخلى سبيلهم " .

ومعنى الآية ، أن الله تعالى ذكر منته بحجزه بين الفريقين حتى لم يقتلوا وحتى اتفق بينهم الصلح الذي كان أعظم من الفتح وهو قوله تعالى : ﴿ وهو الذي كف أيديهم عنكم ﴾ يعني أيدي أهل مكة ﴿ وأيديكم عنهم ﴾ أي قضى بينهم وبينكم بالمكافة والمحاجرة ﴿ ببطن مكة ﴾ قيل : أراد به الحديبية .

(179/715)

وقيل : التنعيم وقيل : وادي مكة ﴿ من بعد أن أظفركم عليهم ﴾ أي مكنكم منهم حتى ظفرتم بهم ﴿ وكان الله بما تعملون بصيراً ﴾ قوله :

﴿ هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام ﴾ (ذكر صلح الحديبية)

روى الزهري عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه قالا : " خرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من المدينة عام الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه يريد زيارة البيت لا يريد قتالاً وساق معه سبعين بدنة والناس سبعمائة رجل وكانت كل بدنة عن عشرة نفر فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدي وأشعره وأحرم منها بعمرة وبعث عيناً له من خزاعة يخبره عن قريش .

وسار النبي (صلى الله عليه وسلم) حتى إذا كان بغدير الأشطاط قريباً من عسفان أتى عتبة الخزاعي .

وقال : إن قريشاً قد جمعوا لك جموعاً وقد جمعوا لك الأحابيش وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت .

فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : أشيروا عليّ أيها الناس أترون أن أميل على ذراري هؤلاء الذين عاونوهم فنصيبهم فإن قعدوا قعدوا موتورين وإن نجوا تكن عنقاً قطعها الله أو ترون أن نؤم البيت لا نريد قتال أحد ولا حرباً فمن صدنا عنه قاتلناه .

فقال أبو بكر : يا رسول الله إنما جئت عامداً لهذا البيت لا تريد قتال أحد ولا حرباً فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه قال : امضوا على اسم الله فنفذوا .

قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هو بقترة الجيش فانطلق يركض نذيراً لقريش .

وسار النبي (صلى الله عليه وسلم) حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت راحلته فقال الناس : حل حل .

فألحت فقالوا خلأت القصواء فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) من خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل ثم قال : والذي نفسي بيده لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يعظمون فيها حرمات الله وفيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها ثم زجرها فوثبت .

قال : فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتربضه الناس تربضاً فلم يلبث الناس أن نزحوه .

وشكا الناس إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) العطش ، فنزع سهماً من كنانته وأعطاه رجلاً من أصحابه يقال له ناجية بن عمير وهو سائق بدن النبي (صلى الله عليه وسلم) فنزل في البئر فغرزه في جوفه .

فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه ، فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه وكانت خزاعة عيبة نصح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من أهل تهامة فقال : إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا على أعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : " إنا لم نجيء لقتال أحد ولكنا جئنا معتمرين وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم فإن شاؤوا ماددتهم ويخلوا بيني وبين الناس فإن أظهر .

فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل الناس فيه فعلوا وإلا فقد جموا وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي ولينفذن الله أمره .

فقال بديل : سأبلغهم ما تقول .

فانطلق حتى أتى قريشاً ، فقال إنا قد جئناكم من عند هذا الرجل وسمعناه يقول قولاً فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء .

وقال ذوو الرأي منهم : هات ما سمعته .

قال : سمعته يقول كذا وكذا فحدثهم بما قال النبي (صلى الله عليه وسلم) فقام عروة بن مسعود الثقفي ، فقال : أي قوم ، ألستم بالولد ؟ قالوا : بلى .

قال : أولست بالوالد ؟ قالوا : بلى .

(181/715)

قال : فهل تتهموني ؟ قالوا : لا قال : ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ ؟ فلما ألّحوا عليّ جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني ؟ قالوا : بلى .

قال : فإن هذا الرجل قد عرض عليكم خطة رشد فأقبلوها ودعوني آتية قالوا ائته فأتاه فجعل يكلم النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) نحواً من قوله

لبديل ، فقال عروة عند ذلك : يا محمد أرأيت إن استأصلت قومك فهل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك وإن تكن الأخرى فإني والله لأرى وجوهاً وإني لأرى أشواباً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك فقال له أبو بكر : امصص بظر اللات أنحن نفرُّ عنه وندعه ؟ فقال : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر .

قال : أما والذي نفسي بيده لولا يد لك عندي ولم أجزك بها لأجبتك .

قال وجعل يكلم النبي (صلى الله عليه وسلم) فكلما كلمه أخذ بلحيته والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي (صلى الله عليه وسلم) ومعه السيف وعليه المغفر ، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ضرب يده بنصل السيف .

وقال : أخر يدك عن لحية رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

فرفع عروة رأسه ، فقال : من هذا قالوا المغيرة بن شعبة فقال : أي غدر ألست أسعى في غدرتك ؟ وكان المغيرة قد صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : أما الإسلام فأقبل وأما المال فلست منه في شيء .

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) بعينه قال : فوالله ما تنخم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده وإذا أمر ابتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون في وضوئه وإذا تكلم خفضوا

أصواتهم عنده وما يحدون النظر إليه تعظيماً له فرجع عروة إلى أصحابه وقال : أي قوم .

والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي .

(182/715)

والله إن رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً والله ما تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده وإذا أمرهم ابتدروا أمره .

وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه .

وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون النظر إليه تعظيماً له وقد عرض عليكم خطة رشد فأقبلوها فقال رجل من كنانة : دعوني آته .

فقالوا : ائته .

فلما أشرف على النبي (صلى الله عليه وسلم) : وأصحابه قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هذا فلان من قوم يعظمون البدن فابعثوها له فبعث له واستقبله الناس يلبون

فلما رأى ذلك قال : سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت .

فلما رجع إلى أصحابه قال : رأيت البدن قد قلدت وأشعرت فما أرى أن يصدوا عن البيت .

ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة وكان يومئذ سيد الأحابيش فلما رآه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : إن هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه ، فلما رأى الهدي يسيل إليه من عرض الوادي في قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله ، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إعظاماً لما رأى فقال : يا معشر قريش إني قد رأيت ما لا يحل صد الهدى في قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله قالوا له : اجلس فإنما أنت رجل أعرابي لا علم لك .

فغضب الحليس عند ذلك وقال : يا معشر قريش والله ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم أيصد عن بيت الله من جاءه معظماً له ؟ والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرن بالأحبيش نفرة رجل واحد .

فقالوا : مه كفَّ عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص فقال : دعوني آته .

(183/715)

فقال : ائته فلما أشرف عليهم قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : هذا مكرز وهو رجل فاجر فجعل يكلم النبي (صلى الله عليه وسلم) فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو

قال معمر فأخبرني أيوب عن عكرمة أنه لما جاء سهيل قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : قد سهل لكم من أمركم قال معمر قال الزهري في حديثه فجاء سهيل بن عمرو فقال هات أكتب بيننا وبينكم كتاباً فدعا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) علي بن أبي طالب فقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم .

فقال سهيل : أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب فقال المسلمون والله ما نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) لعلي : اكتب باسمك اللهم .

ثم قال له : اكتب هذا ما قضى عليه محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : فقال سهيل لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن هذا البيت ولا قاتلناك ولكن اكتب محمد بن عبد الله .

فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : والله إني لرسول الله وإن كذبتموني اكتب محمد بن عبد الله .

قال الزهري وذلك لقوله (صلى الله عليه وسلم) لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها فكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض .

فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : وعلي أن يخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به فقال سهيل : والله لأتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة ولكن ذلك من العام المقبل فكتب فقال سهيل وعلي أن لا يأتيك منا رجلاً وإن كان على دينك إلا رددته إلينا .

فقال المسلمون : سبحان الله كيف يرد إلى المشركين من جاء مسلماً .

وروي عن البراء قصة الصلح وفيها قالوا : لو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئاً ولكن أنت محمد بن عبد الله قال : أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله ثم قال لعلي : امحِ رسول الله .

(184/715)

قال : لا والله لا أمحوك أبداً قال : فأرنيه ، فأراه إياه فمحاه النبي (صلى الله عليه وسلم) بيده .

وفي رواية ، فأخذ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الكتاب وليس يحسن أن يكتب فكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله قال البراء : على ثلاثة أشياء على أن من أتاه من المشركين رده إليهم ومن أتاه من المسلمين لم يردوه وعلى أن يدخلها من قابل ويقيم ثلاثة أيام ولا يدخلها بجلباب السلاح السيف والقوس ونحوه .

وروى ثابت عن أنس أن قريشاً صالحوا النبي (صلى الله عليه وسلم) فاشترطوا أن من

جاءنا منكم لم نرده عليكم ومن جاءكم منا رددتموه علينا فقالوا يا رسول الله أنكتب هذا ؟

قال : نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً .

(رجعنا إلى حديث الزهري)

قال بينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده قد انفلت وخرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين فقال سهيل هذا : يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إليّ فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : إنا لم نقض الكتاب بعد قال فوالله إذا لا أصالحك على شيء أبداً .

قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : فأجره لي .

قال : ما أنا بمجيره لك .

قال : بلى فافعل .

قال : ما أنا بفاعل .

ثم جعل سهيل يجره ليرده إلى قريش .

فقال أبو جندل : أي معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً ألا ترون ما لقيت ، وكان قد عذب في الله عذاباً شديداً ، وفي الحديث ، أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : يا أبا جندل احتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك في المستضعفين فرجاً

ومخرجاً إنَّا قد قعدنا بيننا وبين القوم عقداً وصلحاً وإنا لا نغدر ، فوثب عمر إلى جنب أبي جندل وجعل يقول : اصبر يا أبا جندل فإنما هم المشركون ودم أحدهم دم كلب ويدني السيف منه .

(185/715)

قال عمر : ورجوت أن يأخذ السيف فيضربه به فضن الرجل بأبيه وقد كان أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) خرجوا وهم لا يشكون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فلما رأوا ذلك ، دخل الناس أمر عظيم حتى كادوا يهلكون وزادهم أمر أبي جندل شرّاً إلى ما بهم .

قال عمر : والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ قال الزهري في حديثه عن مروان والمسور وروى أبو وائل عن سهل بن حنيف قال عمر بن الخطاب فأتيت النبي (صلى الله عليه وسلم) ؛ فقلت : ألست نبي الله حقاً ؟ قال : بلى .

قلنا : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل .

قال : بلى .

قلت : أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار .

قال : بلى .

قلت : فلم نعط الدنية في ديننا إذا قال إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري قلت أولست كنت تحدثنا إنّا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال : بلى .

أفأخبرتك أنك تأتيه العام ؟ قلت : لا .

قال : فإنك آتيه وتطوف به .

قال : فأتيت أبا بكر فقلت : يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقاً ؟ قال : بلى قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى .

قلت : فلم نعطى الدنية في ديننا ؟ قال : أيها الرجل إنه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وليس يعصي ربه وهو ناصره فاستمسك بغرزه ، فوالله إنه على الحق .

قلت : أليس كان يحدثنا أنه سيأتي البيت ويطوف به ؟ قال : بلى .

أفأخبرك أنه آتيه العام ؟ قلت : لا .

قال : فإنك تأتيه وتطوف به .

قال عمر : فعملت لذلك أعمالاً ، فلما فرغ من قضية الكتاب .

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه : قوموا فانحروا ثم احلقوا فوالله ما قام رجل منهم حتى قال ذلك ثلاث مرات فلما لم يقم أحد منهم قام النبي (صلى الله عليه وسلم) فدخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس .

قالت أم سلمة : يا نبي الله أتحب ذلك اخرج ثم لا تكلم منهم أحداً كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك ونحر بدنة ودعا حالقاً فحلقه ، فلما رأوا ذلك ، قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً قال ابن عمر وابن عباس : حلق رجال يوم الحديبية وقصر آخرون فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : يرحم الله المحلقين .

قالوا : يا رسول الله والمقصرين ؟ قال : يرحم المحلقين .

قالوا : يا رسول الله والمقصرين ؟ قال : يرحم الله المحلقين والمقصرين قالوا : يا رسول الله فلم ظاهرت الترحم للمحلقين دون المقصرين .

قال : لأنهم لم يشكوا .

قال ابن عمر : وذلك أنه تربص قوم وقالوا : لعلنا نطوف بالبيت .

قال ابن عباس : وأهدي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عام الحديبية في هداياه جملاً لأبي جهل في رأسه برة من فضة ليغيظ المشركين بذلك .

قال الزهري في حديثه : ثم جاء نسوة مؤمنات فأنزل الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا

جاءكم المؤمنات مهاجرات ﴾ حتى بلغ ﴿ بعصم الكوافر ﴾ فطلق عمر امرأتين يومئذ كانتا في الشرك فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان والأخرى صفوان بن أمية قال : فنهاهم أن يردوا النساء وأمرهم أن يردوا الصداق .

(187/715)

قال : ثم رجع النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة فجاءه أبو بصير عتبة بن أسيد رجل من قريش وهو مسلم ؛ وكان ممن حبس بمكة فكتب فيه أزهر بن عبد عوف والأخنس بن شريق الثقفي إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وبعثا في طلبه رجلاً من بني عامر بن لؤي ومعه مولى لهم فقدما على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقالا : العهد الذي جعلت لنا فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ولا يصلح في ديننا الغدر وإن الله تعالى جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ثم دفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى إذا بلغا ذا الحليفة نزلوا يأكلون من تمر لهم .

فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إني لأرى سيفك هذا جيد ، فاستله الآخر ، فقال : أجل والله إنه لجيد لقد جربت به ثم جربت به .

فقال أبو بصير : أرني أنظر إليه فأخذه ، منه فضربه حتى برد وفر الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين رآه : لقد رأى هذا ذعراً .

فلما انتهى إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : ويلك ما لك ؟ قال : قتل والله صاحبي وإني لمقتول فوالله ما برح حتى طلع أبو بصير متوشح السيف حتى وقف على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : يا نبي الله أوفى الله ذمتك قد رددتني إليهم فأنجاني الله تعالى منهم فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : ويل أمه مسعر حرب لو كان معه أحد " .

(188/715)

فلما سمع ذلك ، عرف أن يرده إليهم ، فخرج حتى أتى سيف البحر وبلغ المسلمين الذين كانوا حبسوا بمكة قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأبي بصير ويل أمه مسعر حرب لو كان معه أحد فخرج عصابة منهم إليه فانفلت أبو جندل فلحق بأبي بصير حتى اجتمع إليه قريب من سبعين رجلاً فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم فأرسلت قريش إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) تناشده

الله والرحم لما أرسلت إليهم فمن أتاه فهو آمن فأرسل إليهم النبي (صلى الله عليه وسلم) فقدموا إليه المدينة وأنزل الله : ﴿ وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ﴾ حتى بلغ ﴿ حمية الجاهلية ﴾ وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبي الله ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم وحالوا بينه وبين هذا البيت أخرجه البخاري بطوله سوى ألفاظ منه وهي مستثناة في الحديث .

منها قوله : فنزع سهماً من كنانته ، وأعطاه رجلاً من أصحابه ، إلى قوله : فوالله ما زال يجيش لهم بالري ومنها قوله ثم بعثوا الحليس بن علقمة إلى قوله فقالوا كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا بما نرضى به ومنها قوله هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله ، إلى قوله : وعليّ أن يخلوا بيننا وبين البيت .

ومنها قوله : وروي عن البراء قصة الصلح ، إلى قوله : رجعنا إلى حديث الزهري .

ومنها قوله : وفي الحديث أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : يا أبا جندل ، إلى قوله : قال عمر فأتيت النبي (صلى الله عليه وسلم) فقلت ألست نبي الله حقاً ؟ ومنها قوله : قال ابن عمر وابن عباس ، إلى قوله : وقال الزهري في حديثه ثم جاء نسوة مؤمنات فهذه الألفاظ لم يخرجها البخاري في صحيحه .

(شرح غريب ألفاظ الحديث)

قوله : بضع عشرة ، البضع : في العدد بالكسر وقد يفتح هو ما بين الثلاثة إلى التسعة .

وقيل : ما بين الواحد إلى العشرة .

قوله : وبعث عيناً له أي جاسوساً .

(189/715)

قوله : وقد جمعوا لك الأحابيش : هم أحياء من القارة انضموا إلى بني ليث في محاربتهم قريشاً .

وقيل : هم حلفاء قريش وهم بنو الهون بن خزيمة وبنو الحارث بن عبد مناة وبنو المصطلق من خزاعة تحالفوا تحت جبل يقال له : حبش فسموا بذلك .

وقيل : هو اسم واد بأسفل مكة .

وقيل : سموا بذلك لتجمعهم .

والتحبيش : التجمع .

قوله : فإن قعدوا قعدوا موتورين ، أي منقوصين .

قوله : فنفذوا : أي مضوا وتخلصوا .

قوله : إن خالد بن الوليد بالغميم ، اسم موضع ومنه كراع الغميم .

وقوله : طليعة الطليعة ، الجماعة يبعثون بين يدي الجيش ليطلعوا على أخبار العدو .

قوله : وقترة الجيش : هو الغبار الساطع معه سواد .

قوله : يركض نذير ، النذير : الذي يعلم القوم بالأمر الحادث .

قوله : حلَ حل : هو زجر للناقة .

قوله خلأت القصوا : يعني أنها لما توقفت عن المشي وتقهقرت ظنوا ذلك خللاً في خلقها وهو كالحران للفرس فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : ما خلأت أي ليس ذلك من خلقها ولكن حبسها حابس الفيل ، أي منعها عن المسير .

والذي منع الفيل عن مكة هو الله تعالى والقصوا اسم ناقة النبي (صلى الله عليه وسلم) ولم تكن قصوا وهو شق الأذن .

قوله : خطة ، أي حالة وقضية يعظمون فيها حرمات الله جمع حرمة وهي فروضه وما يجب القيام به يريد بذلك حرمة الحرم ونحوه .

قوله : حتى نزل بأقصى الحديبية بتخفيف الياء وتشديدها ، وهي قرية ليست بالكبيرة سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة وبين الحديبية ومكة مرحلة وبينها وبين المدينة تسع مراحل .

وقال مالك : هي من الحرم .

وقال ابن القصار : بعضها من الحل حكاه في المطالع .

والثمد : الماء القليل الذي لا مادة له .

والتربض : أخذ الشيء قليلاً قليلاً .

وقوله : فما زال يجيش بالري ، يقال : جاشت البئر بالماء إذا ارتفعت وفاضت .

والري ضد العطش ، والصد الرجوع بعد الورود .

(190/715)

وقوله : وكانت خزاعة عيبة ، نصح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقال فلان عيبة نصح فلان إذا كان موضع سره وثقته في ذلك .

قوله : نزلوا على أعداد مياه الحديبية ، الماء العد : الكثير الذي لا انقطاع له كالعيون وجمعه أعداد .

قوله : ومعهم العوذ المطافيل ، العوذ : جمع عائذ وهي الناقة إذا وضعت إلى أن يقوى ولدها ، وقيل : هي كل أنثى لها سبع ليال منذ وضعت .

والمطافيل : جمع مطفل وهي الناقة معها فصيلها وهذه استعارة استعار ذلك للناس وأراد بهم أن معهم النساء والصبيان .

قوله : وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب أي ، أضرت بهم وأثَّرت فيهم .

وقوله : ماددتهم أي جعلت بيني وبينهم مدة .

قوله : وإلا فقد جموا ، أي : استراحوا .

والجمام : بالجيم الراحة بعد التعب .

قوله : تنفرد سالفتي السالفة الصفحة والسالفتان صفحتا العنق .

وقيل : السالفة حبل العنق وهو ما بينه وبين الكتف وهو كناية عن الموت لأنها لا تنفرد عنه إلا بالموت .

قوله : إني استنفرت ، يقال : استنفر القوم إذا دعاهم إلى قتال العدو ، وعكاظ : اسم سوق كانت في الجاهلية معروفة .

وقوله : بلحوا على فيه لغتان التخفيف والتشديد وأصل التبليح : الإعياء والفتور .

والمراد : امتناعهم من إجابته وتقاعدهم عنه .

قوله : استأصلت قومك .

واجتاح : أصله من الاجتياح إيقاع المكروه بالإنسان ومنه الجائحة والاستئصال والاجتياح متقاربان في مبالغة الأذى .

قوله : إني لأرى وجوهاً وأشواباً : الأشواب ، مثل الأوباش وهم الأخلاط من الناس والرعاع .

يقال : فلان خليق بذلك أي جدير لا يبعد ذلك من خلقه قوله امصص بظر اللات وهي اسم

صنم لهم كانوا يعبدونه والبظر ما تقطعه الخافضة وهي الخاتنة من الهنة التي تكون في فرج المرأة وكان هذا اللفظ شتماً لهم يدور في ألسنتهم .

(191/715)

﴿ هم الذين كفروا ﴾ ، يعني كفار مكة ، ﴿ وصدوكم ﴾ أي منعوكم ﴿ عن المسجد الحرام ﴾ أن تطوفوا به ﴿ والهدي ﴾ أي وصدوا الهدي وهو البدن التي ساقها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكانت سبعين بدنة ﴿ معكوفاً ﴾ أي محبوساً ﴿ أن يبلغ محله ﴾ أي منحره وحيث يحل نحره وهو الحرم ﴿ ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات ﴾ يعني المستضعفين بمكة ﴿ لم تعلموهم ﴾ أي لم تعرفوهم ﴿ أن تطؤوهم ﴾ أي بالقتل وتوقعوا بهم ﴿ فتصيبكم منهم معرة بغير علم ﴾ أي إثم وقيل : غرم الدية ، وقيل : كفارة قتل الخطأ ، لأن الله أوجب على قاتل المؤمن في دار الحرب إذا لم يعلم إيمانه الكفارة دون الدية .

وقيل : هو أن المشركين يعتبونكم ويقولون : قتلوا أهل دينهم .

والمعرة : المشقة يقول : لولا أن تطؤوا رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموهم فيلزمكم به كفارة أو سيئة وجواب لولا محذوف تقديره لأذن لكم في دخول مكة ولكنه حال بينكم وبين

ذلك لهذا السبب ﴿ ليدخل الله في رحمته من يشاء ﴾ أي في دين الإسلام من يشاء من أهل مكة بعد الصلح وقيل دخولها ﴿ لو تزيلوا ﴾ أي لو تميزوا المؤمنين من الكفار ﴿ لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً ﴾ أي بالسبي والقتل بأيديكم وقيل : لعذبنا جواب لكلامين أحدهما لولا رجال .

والثاني : لو تزيلوا .

ثم قال : ليدخل الله في رحمته من يشاء يعني المؤمنين والمؤمنات في رحمته أي في جنته .

قال قتادة : في الآية إن الله تعالى يدفع بالمؤمنين عن الكفار كما دفع بالمستضعفين من المؤمنين عن مشركي مكة .

قوله تعالى : ﴿ إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية ﴾ أي الأنفة والغضب وذلك حين صدوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه عن البيت ومنعوا الهدي محله ولم يقروا بسم الله الرحمن الرحيم وأنكروا أن يكون محمد رسول الله .

(192/715)

وقيل : قال أهل مكة قد قتلوا أبناءنا وإخواننا ثم يدخلون علينا ، فتحدث العرب أنهم دخلوا علينا رغماً منا واللات والعزى لا يدخلونها علينا فكانت هذه ﴿ حمية الجاهلية

﴿ التي دخلت قلوبهم ﴾ فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ﴾ أي : حتى لا يدخلهم ما دخلهم في الحمية فيعصون الله في قتالهم ﴿ وألزمهم كلمة التقوى ﴾ .

قال ابن عباس : "كلمة التقوى لا إله إلا الله" وأخرجه الترمذي .

وقال : حديث غريب .

وقال علي وابن عمر : كلمة التقوى لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وقال عطاء الخراساني : هي لا إله إلا الله محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

وقال الزهري : هي بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ وكانوا أحق بها ﴾ أي من كفار مكة ﴿ وأهلها ﴾ أي كانوا أهلها في علم الله ، لأن الله تعالى اختار لدينه وصحبة نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) أهل الخير والصلاح ﴿ وكان الله بكل شيء عليماً ﴾ يعني من أمر الكفار وما كانوا يستحقونه من العقوبة وأمر المؤمنين وما كانوا يستحقونه من الخير .

قوله تعالى : ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ﴾ سبب نزول هذه الآية أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رأى في المنام وهو بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية أنه يدخل المسجد الحرام هو وأصحابه آمنين ويحلقوا رؤوسهم فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا وحسبوا أنهم داخلو مكة عامهم ذلك ، فلما انصرفوا ولم يدخلوا ، شق عليهم ذلك وقال المنافقون : أين رؤياه التي رآها ؟ فأنزل الله هذه الآية ودخلوا في العام المقبل .

وروي عن مجمع بن حارثة الأنصاري قال : " شهدنا الحديبية مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فلما انصرفنا عنها إذا الناس يهزون الأباعر فقال بعضهم : ما بال الناس ؟ قال : أوحي إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

(193/715)

قال : فخرجنا نرجف فوجدنا النبي (صلى الله عليه وسلم) واقفاً على راحلته عند كراع الغميم فلما اجتمع الناس قرأ ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ فقال عمر : أهو فتح يا رسول الله ؟ قال : نعم والذي نفسي بيده " ففيه دليل على أن المراد من الفتح هو صلح الحديبية ، وتحقيق الرؤيا كان في العام المقبل .

وقوله : لقد صدق الله ورسوله الرؤيا بالحق ، أخبر أن الرؤيا التي أراه إياها في مخرجه إلى الحديبية أنه يدخل هو وأصحابه المسجد حق وصدق بالحق أي الذي رآه حق وصدق وقيل : يجوز أن يكون بالحق قسماً لأن الحق من أسماء الله تعالى أو قسماً بالحق الذي هو ضد الباطل وجوابه ﴿ لتدخلن المسجد الحرام ﴾ وقيل : لتدخلن من قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه حكاية عن رؤياه فأخبر الله أن رسول الله (صلى الله

عليه وسلم) أنه قال ذلك ﴿ إن شاء الله آمنين ﴾ قيل : إنما استثني مع علمه بدخوله تعليماً لعباده الأدب وتأكيداً لقوله :

﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ﴾ هذا البيان صدق الرؤيا وذلك أن الله تعالى لا يرى رسوله (صلى الله عليه وسلم) ما لا يكون فيحدث الناس فيقع خلافه فيكون سبباً للضلال فحقق الله أمر الرؤيا بقوله : ﴿ لقد صدق الله ورسوله الرؤيا بالحق ﴾ وبقوله ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ﴾ وفيه بيان وقوع الفتح ودخول مكة وهو قوله تعالى : ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ أي يعليه ويقويه على الأديان كلها فتصير الأديان كلها دونه ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ أي في أنه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وفيه تسلية لقلوب المؤمنين وذلك أنهم تأذوا من قول الكفار لو نعلم أنه رسول الله ما صددناه عن البيت فقال الله تعالى : وكفى بالله شهيداً .

أي : في أنه رسول الله ، ثم قال تعالى : ﴿ محمد رسول الله ﴾ أي هو محمد رسول الله الذي سبق ذكره في قوله أرسل رسوله .

(194/715)

قال ابن عباس : شهد له بالرسالة ثم ابتدأ فقال ﴿ والذين معه ﴾ يعني أصحابه المؤمنين ﴿ أشداء على الكفار ﴾ أي غلاظ أقوياء كالأَسَد على فريسته لا تأخذهم فيهم رأفة ﴿ رحماء بينهم ﴾ أي : متعاطفون متوادّون بعضهم لبعض كالولد مع الوالد .

كما قال في حقهم : ﴿ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾ ﴿ تراهم ركّعاً سجداً ﴾ أخبر عن كثرة صلاتهم ومداومتهم عليها ﴿ يبتغون ﴾ أي يطلبون ﴿ فضلاً من الله ﴾ يعني الجنة ﴿ ورضواناً ﴾ أي أن يرضى عنهم .

وفيه لطيفة وهو أن المخلص بعمله لله يطلب أجره من الله تعالى والمرائي بعمله لا يبتغي له أجراً وذكر بعضهم في قوله : والذين معه يعني أبا بكر الصديق أشداء على الكفار عمر بن الخطاب رحماء بينهم عثمان بن عفان تراهما ركعاً سجداً علي بن أبي طالب يبتغون فضلاً من الله ورضواناً بقية الصحابة ﴿ سيماهم ﴾ أي علامتهم ﴿ في وجوههم من أثر السجود ﴾ واختلفوا في هذه السيما على قولين : أحدهما : أن المراد في يوم القيامة قيل : هي نور وبياض في وجوههم يعرفون به يوم القيامة أنهم سجدوا لله في الدنيا وهي رواية عن ابن عباس .

وقيل : تكون مواضع السجود في وجوههم كالقمر ليلة البدر .

وقيل : يبعثون غراً محجلين يوم القيامة يعرفون بذلك .

والقول الثاني : إن ذلك في الدنيا وذلك أنهم استنارت وجوههم بالنهار من كثرة صلاتهم

بالليل .

وقيل : هو السمت الحسن والخشوع والتواضع .

قال ابن عباس : ليس بالذي ترون ولكنه سيما الإسلام وسجيته وسمته وخشوعه .

والمعنى : أن السجود أورثهم الخشوع والسمت الحسن يعرفون به وقيل هو صفوة الوجه من سهر الليل ويعرف ذلك في رجلين أحدهما سهر الليل في الصلاة والعبادة والآخر في اللهو واللعب فإذا أصبحا ظهر الفرق بينهما فيظهر في وجه المصلي نور وضياء وعلى وجه اللاعب ظلمة .

وقيل : هو أثر التراب على الجباه لأنهم كانوا يصلّون على التراب لا على الأثواب .

(195/715)

قال عطاء الخراساني : دخل في هذه الآية كل من حافظ على الصلوات الخمس ﴿ ذلك مثلهم في التوراة ﴾ يعني ذلك الذي ذكر صفتهم في التوراة وتم الكلام ها هنا ثم ابتدأ بذكر نعتهم وصفتهم في الإنجيل فقال تعالى : ﴿ ومثلهم ﴾ أي صفتهم ﴿ في الإنجيل كزرع أخرج شطأه ﴾ أي إفراطه قبل فراخه .

قيل : هو نبت فما خرج بعده شطؤه ﴿ فآزره ﴾ أي : قوّاه وأعانه وشد أزره ﴾

فاستغلظ ﴾ أي غلظ ذلك الزرع وقوي ﴿ فاستوى ﴾ أي تم وتلاحق نباته وقام ﴿ على سوقه ﴾ جمع ساق أي على أصوله ﴿ يعجب الزراع ﴾ أي يعجب ذلك الزرع زراعه وهو مثل ضربه الله لأصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم) مكتوب في الإنجيل أنهم يكونون قليلاً ثم يزدادون ويكثرون قال قتادة : مثل أصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم) مكتوب في الإنجيل أنه سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر قيل الزرع محمد (صلى الله عليه وسلم) والشطء أصحابه والمؤمنون وقيل : الزرع هو محمد (صلى الله عليه وسلم) شطأه أبو بكر فآزره عمر فاستغلظ عثمان فاستوى على سوقه علي بن أبي طالب يعجب الزراع يعني جميع المؤمنين ﴿ ليغيظ بهم الكفار ﴾ قيل : هو قول عمر بن الخطاب لأهل مكة بعد ما أسلم لا يبعد الله سراً بعد اليوم .

وقيل : قوتهم وكثرتهم ليغيظ بهم الكفار .

قال مالك بن أنس : من أصبح وفي قلبه غيظ على أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقد أصابته هذه الآية .

(فصل في فضل أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم))

(ق) عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " قال خير الناس قرني ثم الذين يلونهم " (م) .

عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : " سأل رجل النبي (صلى الله عليه وسلم) أي الناس خير ؟ قال : القرن الذي أنا فيه ثم الثاني ثم الثالث " قوله : خير الناس قرني ثم الذين يلونهم يعني الصحابة ثم التابعين وتابعيهم والقرن كل أهل زمان قيل هو أربعون سنة وقيل ثمانون وقيل مائة سنة عن عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " أبو بكر في الجنة وعمر بن الخطاب في الجنة وعثمان بن عفان في الجنة وعلي بن أبي طالب في الجنة وطلحة في الجنة والزبير في الجنة وعبد الرحمن بن عوف في الجنة وسعد بن أبي وقاص في الجنة وسعيد بن زيد في الجنة وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة " أخرجه الترمذي .

وأخرج عن سعيد بن زيد نحوه وقال : هذا أصح من الحديث الأول عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

" أرحم أمتي بأمتي أبو بكر وأشدهم في أمر الله عمر وأشدهم حياء عثمان وأقضاهم علي وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل وأفرضهم زيد بن ثابت وأقرؤهم أبي بن كعب ولكل قوم أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح وما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر أشبه عيسى في ورعه قال عمر فنعرف له ذلك يا رسول الله ؟ قال نعم " أخرجه الترمذي مفرقاً في موضعين ، أحدهما : إلى قوله أبو عبيدة بن الجراح ، والآخر إلى

أبي ذر (خ) .

عن أنس أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) صعد أحداً أبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فقال : " اثبت أحد أراه ضربه برجله فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان " .

عن ابن مسعود : " عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : اقتدوا بالذين بعدي من أصحابي أبي بكر وعمر واهتدوا بهدى عثمان وتمسكوا بعهد عبد الله بن مسعود " أخرجه الترمذي وقال حديث غريب .

(197/715)

(ق) عن عمرو بن العاص أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعثه في جيش ذات السلاسل قال : فأتيته فقلت : أي الناس أحب إليك ؟ قال " عائشة فقلت من الرجال قال أبوها قلت ثم من ؟ قال ثم عمر بن الخطاب فعد رجالاً " عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " رحم الله أبا بكر زوجني ابنته وحملني إلى دار الهجرة وصحبني في الغار وأعتق بلالاً من ماله رحم الله عمراً يقول الحق وإن كان مراً تركه الحق وما له من صديق .

رحم الله عثمان تستحي منه الملائكة ، رحم الله علياً اللهم أدر الحق معه حيث دار "

أخرجه الترمذي وقال حديث غريب .

(م) عن زر بن حبيش قال : سمعت علياً يقول : والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد النبي الأمي إلي أنه لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق .

عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " ما من أحد يموت من أصحابي بأرض إلا بعثه الله قائداً ونوراً لهم يوم القيامة " أخرجه الترمذي وقال حديث غريب وقد روي عن أبي بريدة مرسلاً وهو أصح .

(ق) عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه " وعن أبي هريرة نحوه أخرجه مسلم عن عبد الله بن مغفل المزني قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً من بعدي فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله فيوشك أن يأخذه " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 6 صـ 195 .

﴿ 217

وقال النسفى :

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ المؤمنين إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشجرة ﴾

هي بيعة الرضوان سميت بهذه الآية .

وقصتها أن النبي صلى الله عليه وسلم حين نزل بالحديبية بعث خراش بن أمية الخزاعي رسولاً إلى مكة فهموا به فمنعه الأحابيش ، فلما رجع دعا بعمر ليبعثه فقال : إني أخافهم على نفسي لما عرف من عداوتي إياهم ، فبعث عثمان بن عفان فخبرهم أنه لم يأت لحرب وإنما جاء زائراً للبيت فوقروه واحتبس عندهم فأرجف بأنهم قتلوه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا نبرح حتى نناجز القوم " ودعا الناس إلى البيعة فبايعوه على أن يناجزوا قريشاً ولا يفروا تحت الشجرة ، وكانت سمرة وكان عدد المبايعين ألفاً وأربعمائة ﴿ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ من الإخلاص وصدق الضمائر فيما بايعوا عليه ﴿ فَأَنزَلَ السكينة عَلَيْهِمْ ﴾ أي الطمأنينة والأمن بسبب الصلح على قلوبهم ﴿ وأثابهم ﴾ وجازاهم ﴿ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ هو فتح خيبر غب انصرافهم من مكة ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾ هي مغانم خيبر وكانت أرضاً ذات عقار وأموال فقسمها عليهم ﴿ وَكَانَ الله عَزِيزاً ﴾ منيعاً فلا يغالب ﴿ حَكِيماً ﴾ فيما يحكم فلا يعارض ﴿ وَعَدَكُمُ الله مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ هي ما أصابوه مع النبي صلى الله عليه وسلم وبعده إلى يوم القيامة ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هذه ﴾ المغانم يعني مغانم خيبر ﴿ وَكَفَّ أَيْدِىَ الناس عَنْكُمْ ﴾

يعني أيدي أهل خيبر وحلفائهم من أسد وغطفان حين جاءوا لنصرتهم فقذف الله في قلوبهم الرعب فانصرفوا .

وقيل : أيدي أهل مكة بالصلح ﴿ وَلِتَكُونَ ﴾ هذه الكفة ﴿ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وعبرة يعرفون بها أنهم من الله عز وجل بمكان وأنه ضامن نصرتهم والفتح عليهم فعل ذلك ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صراطا مُّسْتَقِيماً ﴾ ويزيدكم بصيرة ويقيناً وثقة بفضل الله .

(199/715)

﴿ وأخرى ﴾ معطوفة على ﴿ هذه ﴾ أي فعجل لكم هذه المغانم و ﴿ مَغَانِمَ أخرى ﴾ هي مغانم هوازن في غزوة حنين ﴿ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا ﴾ لما كان فيها من الجولة ﴿ قَدْ أَحَاطَ الله بِهَا ﴾ أي قدر عليها واستولى وأظهركم عليها ، ويجوز في ﴿ أخرى ﴾ النصب بفعل مضمر يفسره ﴿ قَدْ أَحَاطَ الله بِهَا ﴾ تقديره : وقضى الله أخرى قد أحاط بها ، وأما ﴿ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا ﴾ فصفة ل ﴿ أخرى ﴾ والرفع على الابتداء لكونها موصوفة ب ﴿ لَمْ تَقْدِرُواْ ﴾ ، و ﴿ قَدْ أَحَاطَ الله بِهَا ﴾ خبر المبتدأ ﴿ وَكَانَ الله على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيراً ﴾ قادراً ﴿ وَلَوْ قاتلكم الذين كَفَرُواْ ﴾ من أهل مكة ولم يصالحوا أو من حلفاء أهل خيبر ﴿ لَوَلَّوُاْ الأدبار ﴾ لغلبوا وانهزموا ﴿ ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيّاً ﴾ يلي أمرهم

﴿ وَلاَ نَصِيراً ﴾ ينصرهم ﴿ سُنَّةَ الله ﴾ في موضع المصدر المؤكد أي سن الله غلبة أنبيائه سنة وهو قوله ﴿ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِى ﴾ [المجادلة : 21] ﴿ التى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً ﴾ تغييراً .

﴿ وَهُوَ الذى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ أي أيدي أهل مكة ﴿ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم ﴾ عن أهل مكة يعني قضى بينهم وبينكم المكافة والمحاجزة بعد ما خولكم الظفر عليهم والغلبة ، وذلك يوم الفتح وبه استشهد أبو حنيفة رضي الله عنه على أن مكة فتحت عنوة لا صلحاً .

وقيل : كان في غزوة الحديبية لما رُوي أن عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من هزمه وأدخله حيطان مكة .

(200/715)

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أظهر المسلمين عليهم بالحجارة حتى أدخلوهم البيوت ﴿ بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ أي بمكة أو بالحديبية لأن بعضها منسوب إلى الحرم ﴿ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي أقدركم وسلطكم ﴿ وَكَانَ الله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ﴾ وبالياء : أبو عمرو ﴿ هُمُ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ المسجد الحرام والهدى ﴾ هو ما يهدي إلى الكعبة .

ونصبه عطفاً على "كم" في ﴿ صَدُّوكُمْ ﴾ أي وصدوا الهدي ﴿ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ ﴾ محبوساً أن يبلغ ، و ﴿ مَعْكُوفاً ﴾ حال .

وكان عليه السلام ساق سبعين بدنة ﴿ مَحِلَّهُ ﴾ مكانه الذي يحل فيه نحره أي يجب ، وهذا دليل على أن المحصر محل هديه الحرم والمراد المعهود وهو منى ﴿ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مؤمنات ﴾ بمكة ﴿ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ صفة للرجال والنساء جميعاً ﴿ أَن تَطَئُوهُمْ ﴾ بدل اشتمال منهم أو من الضمير المنصوب في ﴿ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ ﴿ فَتُصِيبَكُمْ مِّنْهُمْ مَّعَرَّةٌ ﴾ إثم وشدة وهي مفعلة من عره بمعنى عراه إذا دهاه ما يكرهه ويشق عليه وهو الكفارة إذا قتله خطأ ، وسوء قالة المشركين أنهم فعلوا بأهل دينهم مثل ما فعلوا بنا من غير تمييز والإثم إذا قصر .

﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ متعلق ب ﴿ أَن تَطَئُوهُمْ ﴾ يعني أن تطئوهم غير عالمين بهم .

والوطء عبارة عن الإيقاع والإبادة .

والمعنى أنه كان بمكة قوم من المسلمين مختلطون بالمشركين غير متميزين منهم فقيل : ولولا كراهة أن تهلكوا ناساً مؤمنين بين ظهراني المشركين وأنتم غير عارفين بهم فيصيبكم بإهلاكهم مكروه ومشقة لما كف أيديكم عنهم .

وقوله ﴿ لِّيُدْخِلَ اللهُ فِى رَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ ﴾ تعليل لما دلت عليه الآية وسيقت له من كف الأيدي عن أهل مكة والمنع عن قتلهم صوناً لمن بين أظهرهم من المؤمنين كأنه قال : كان الكف ومنع التعذيب ليدخل الله في رحمته أي في توفيقه لزيادة الخير والطاعة مؤمنيهم ، أو ليدخل في الإسلام من رغب فيه من مشركيهم ﴿ لَوْ تَزَيَّلُواْ ﴾ لو تفرقوا وتميز المسلمون من الكافرين ، وجواب "لولا" محذوف أغنى عنه جواب "لو" ، ويجوز أن يكون لو تزيلوا كالتكرير ل ﴿ لَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ ﴾ لمرجعهما إلى معنى واحد ، ويكون ﴿ لَعَذَّبْنَا الذين كَفَرُواْ ﴾ هو الجواب تقديره ولولا أن تطئوا رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات ولو كانوا متميزين لعذبناهم بالسيف ﴿ مِنْهُمْ ﴾ من أهل مكة ﴿ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ .

والعامل في ﴿ إِذْ جَعَلَ الذين كَفَرُواْ ﴾ أي قريش لعذبنا أي لعذبناهم في ذلك الوقت أو اذكر ﴿ فِى قُلُوبِهِمُ الحمية حَمِيَّةَ الجاهلية فَأَنزَلَ الله سَكِينَتَهُ على رَسُولِهِ وَعَلَى المؤمنين ﴾ المراد بحمية الذين كفروا وهي الأنفة وسكينة المؤمنين وهي الوقار ما يُروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل بالحديبية بعث قريش سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزي ومكرز بن حفص على أن يعرضوا على النبي صلى الله عليه وسلم أن يرجع من عامه ذلك على أن تخلي له قريش مكة من العام القابل ثلاثة أيام ففعل ذلك وكتبوا بينهم كتاباً .

فقال عليه السلام لعلي رضي الله عنه : " اكتب بسم الله الرحمن الرحيم " فقال سهيل

وأصحابه : ما نعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم .

ثم قال : " اكتب هذا ما صالح عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل مكة " فقالوا : لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة .

(202/715)

فقال عليه السلام : " اكتب ما يريدون فأنا أشهد أني رسول الله وأنا محمد بن عبد الله "

فهمّ المسلمون أن يأبوا ذلك ويشمئزوا منه فأنزل الله على رسوله السكينة فتوقروا وحلموا ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التقوى ﴾ الجمهور على أنها كلمة الشهادة .

وقيل : بسم الله الرحمن الرحيم .

والإضافة إلى التقوى باعتبار أنها سبب التقوى وأساسها .

وقيل : كلمة أهل التقوى ﴿ وَكَانُواْ ﴾ أي المؤمنون ﴿ أَحَقَّ بِهَا ﴾ من غيرهم ﴿ وَأَهْلَهَا ﴾ بتأهيل الله إياهم ﴿ وَكَانَ الله بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيماً ﴾ فيجري الأمور على مصالحها .

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ الله رَسُولَهُ الرءيا ﴾ أي صدقه في رؤياه ولم يكذبه تعالى الله عن الكذب

فحذف الجار وأوصل الفعل كقوله : ﴿ صَدَقُواْ مَا عاهدوا اللهَ عَلَيْهِ ﴾ [الاحزاب : 23] .

(203/715)

رُوي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى قبل خروجه إلى الحديبية كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا ، فقص الرؤيا على أصحابه ففرحوا وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم وقالوا : إن رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم حق ، فلما تأخر ذلك قال عبد الله بن أبيّ وغيره : والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام فنزلت ﴿ بالحق ﴾ متعلق ب ﴿ صَدَقَ ﴾ أي صدقه فيما رأى وفي كونه وحصوله صدقاً ملتبساً بالحق أي بالحكمة البالغة وذلك ما فيه من الابتلاء والتمييز بين المؤمن الخالص وبين من في قلبه مرض ، ويجوز أن يكون بالحق قسماً إما بالحق الذي هو نقيض الباطل أو بالحق الذي هو من أسمائه ، وجوابه ﴿ لَتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام ﴾ وعلى الأول هو جواب قسم محذوف ﴿ إِن شَآءَ الله ﴾ حكاية من الله تعالى ما قال رسوله لأصحابه وقص عليهم ، أو تعليم لعباده أن يقولوا في عداتهم مثل ذلك متأدبين بأدب الله ومقتدين بسنته ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ حال والشرط معترض ﴿ مُحَلِّقِينَ ﴾ حال من الضمير في ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ ﴿

رُءُوسَكُمْ ﴾ أي جميع شعورها ﴿ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ بعض شعورها ﴿ لاَ تخافون ﴾ حال مؤكدة ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ ﴾ من الحكمة في تأخير فتح مكة إلى العام القابل ﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ ﴾ أي من دون فتح مكة ﴿ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ وهو فتح خيبر ليستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر الفتح الموعود .

﴿ هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهدى ﴾ بالتوحيد ﴿ وَدِينِ الحق ﴾ أي الإسلام ﴿ لِيُظْهِرَهُ ﴾ ليعليه ﴿ عَلَى الدين كُلِّهِ ﴾ على جنس الدين يريد الأديان المختلفة من أديان المشركين وأهل الكتاب ، ولقد حقق ذلك سبحانه فإنك لا ترى ديناً قط إلا وللإسلام دونه العزة والغلبة .

وقيل : هو عند نزول عيسى عليه السلام حين لا يبقى على وجه الأرض كافر .

(204/715)

وقيل : هو إظهاره بالحجج والآيات ﴿ وكفى بالله شَهِيداً ﴾ على أن ما وعده كائن ، وعن الحسن : شهد على نفسه أنه سيظهر دينه والتقدير وكفاه الله شهيداً و ﴿ شَهِيداً ﴾ تمييز أو حال ﴿ مُحَمَّدٌ ﴾ خبر مبتدأ أي هو محمد لتقدم قوله ﴿ هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ ﴾ أو مبتدأ خبره ﴿ رَسُولِ الله ﴾ وقف عليه نصير ﴿ والذين مَعَهُ ﴾ أي

أصحابه مبتدأ والخبر ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار ﴾ أو ﴿ مُحَمَّدٌ ﴾ مبتدأ و ﴿ رَسُول الله ﴾ عطف بيان و ﴿ الذين مَعَهُ ﴾ عطف على المبتدأ و ﴿ أَشِدَّاء ﴾ خبر عن الجميع ومعناه غلاظ ﴿ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ متعاطفون وهو خبر ثانٍ وهما جمعاً شديد ورحيم ونحوه

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى المؤمنين أَعِزَّةٍ عَلَى الكافرين ﴾ [المائدة : 54] وبلغ من تشددهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم ، ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم ، وبلغ من ترحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمناً إلا صافحه وعانقه .

﴿ تراهم رُكَّعاً ﴾ راكعين ﴿ سُجَّدًا ﴾ ساجدين ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ حال كما أن ركعاً وسجداً كذلك ﴿ فَضْلاً مِّنَ الله وَرِضْوَاناً سيماهم ﴾ علامتهم ﴿ فِى وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السجود ﴾ أي من التأثير الذي يؤثره السجود .

وعن عطاء : استنارت وجوههم من طول ما صلوا بالليل لقوله عليه السلام : " من كثر صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار " ﴿ ذلك ﴾ أي المذكور ﴿ مَثَلُهُمْ ﴾ صفتهم ﴿ فِي التوراة ﴾ وعليه وقف ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِى الإنجيل ﴾ مبتدأ خبره ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ ﴾ فراخه .

يقال : أشطأ الزرع إذا فرخ ﴿ فَآزَرَهُ ﴾ قواه ، ﴿ فَأَزره ﴾ شامي ﴿ فاستغلظ ﴾ فصار من الرقة إلى الغلظ ﴿ فاستوى على سُوقِهِ ﴾ فاستقام على قصبه جمع ساق ﴿

يُعْجِبُ الزراع ﴾ يتعجبون من قوته .

وقيل : مكتوب في الإنجيل : سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

(205/715)

وعن عكرمة : أخرج شطأه بأبي بكر فآزره بعمر فاستغلظ بعثمان فاستوى على سوقه بعلي رضوان الله عليهم .

وهذا مثل ضربه الله تعالى لبدء الإسلام وترقيه في الزيادة إلى أن قوي واستحكم ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قام وحده ثم قواه الله تعالى بمن آمن معه كما يقوي الطاقة الأولى من الزرع ما يحتفّ بها مما يتولد منها حتى يعجب الزراع ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكفار ﴾ تعليل لما دل عليه تشبيههم بالزرع من نمائهم وترقيهم في الزيادة والقوة .

ويجوز أن يعلل به ﴿ وَعَدَ الله الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ لأن الكفار إذا سمعوا بما أعد لهم في الآخرة مع ما يعزهم به في الدنيا غاظهم ذلك .

و"من" في ﴿ مِنْهُمْ ﴾ للبيان كما في قوله : ﴿ فاجتنبوا الرجس مِنَ الأوثان ﴾ [الحج : 30] يعني فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان ، وقولك "أنفق من الدراهم" أي اجعل

نفقتك هذا الجنس .

وهذه الآية ترد قول الروافض إنهم كفروا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم إذ الوعد لهم بالمغفرة والأجر العظيم إنما يكون أن لو ثبتوا على ما كانوا عليه في حياته . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 160.165 ﴾

(206/715)

وقال ابن جزى :

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ المؤمنين إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشجرة ﴾

(207/715)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يدخل النار إن شاء الله أحد من أهل الشجرة الذين بايعوا تحتها " وفي الحديث أنهم كانوا ألفاً وأربعمائة ، وقيل : ألفاً وخمسمائة . وسبب هذه البيعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغ الحديبية ، وهي موضع على نحو عشرة أميال من مكة ، أرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه رسولاً إلى أهل مكة ،

يخبرهم أنه إنما جاء ليعتمر ، وأنه لا يريد حرباً . فلما وصل إليهم عثمان حبسه أقاربه كرامة له ، فصرخ صارخ أن عثمان قد قتل . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى البيعة على القتال وأن لا يفر أحد . وقيل : بايعوه على الموت ثم جاء عثمان بعد ذلك سالماً ، وانعقد الصلح بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أهل مكة ؛ على أن يرجع ذلك العام ويعتمر في العام القابل ، والشجرة المذكورة كانت سمرة هنالك ثم ذهبت بعد سنين . فمر عمر بن الخطاب بالموضع في خلافته ، فاختلف الصحابة في موضعها ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ يعني من صدق الإيمان وصدق العزم على ما بايعوا عليه ، وقيل : من كراهة البيعة على الموت وهذا باطل . لأنه ذم للصحابة وقد ذكرنا السكينة ﴿ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ يعني : فتح خيبر وقيل : فتح مكة والأول أشهر ، أي جعل الله ذلك ثواباً لهم على بيعة الرضوان ، زيادة على ثواب الآخرة . وأما المغانم المذكورة أوّلاً فهي غنائم خيبر ، وهي المعطوفة على الفتح القريب وأما المغانم الكثيرة التي وعدهم الله وهي المذكورة ثانياً فهي : كل ما يغنم المسلمون إلى يوم القيامة ، والإشارة بقوله ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هذه ﴾ إلى خيبر . وقيل : إن المغانم التي وعدهم هي خيبر والإشارة بهذه إلى صلح الحديبية ﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ ﴾ أي كف أهل مكة عن قتالكم في الحديبية . وقيل : كف اليهود وغيرهم عن إضرار نسائكم وأولادكم بينما خرجتم إلى الحديبية ﴿ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي

تكون هذه الفعلة وهي كف أيدي الناس عنكم آية للمؤمنين ، يستدلون بها على النصر ، واللام تتعلق بفعل محذوف تقديره : فعل الله ذلك لتكون آية ﴿ وأخرى لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا ﴾ يعني فتح مكة ، وقيل : فتح بلاد فارس والروم وقيل : مغانم هوازن في حنين ، والمعنى لم تقدروا أنتم عليها ، وقد أحاط الله بها بقدرته ووهبها لكم ، وإعراب أخرى عطف على عجل لكم هذه أو مفعول بفعل مضمر تقديره : أعطاكم أخرى أو مبتدأ ﴿ وَلَوْ قاتلكم الذين كَفَرُواْ ﴾ يعني أهل مكة ﴿ سُنَّةَ الله ﴾ أي عادته والإشارة إلى يوم بدر ، وقيل : الإشارة إلى نصر الأنبياء قديماً .

﴿ وَهُوَ الذي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم ﴾ روي في سببها أن جماعة من فتيان قريش خرجوا إلى الحديبية ، ليصيبوا من عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد في جماعة من المسلمين فهزموهم وأسروا منهم قوماً ، وساقوهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأطلقهم ، فكفُّ أيدي الكفار هو أن هزموا وأسروا . وكفُّ أيدي المؤمنين عن الكفار هو أطلاقهم من الأسر ،

وسلامتهم من القتل ، وقوله : ﴿ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ يعني من بعد ما أخذتموهم أُسارى .

(209/715)

﴿ هُمُ الذين كَفَرُواْ ﴾ يعني أهل مكة ﴿ وَصَدُّوكُمْ عَنِ المسجد الحرام ﴾ يعني أنهم منعونهم عن العمرة بالمسجد الحرام عام الحديبية ﴿ والهدي مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ الهدي ما يهدى إلى البيت من الأنعام ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ساق حينئذ مائة بدنة وقيل : سبعين ليهديها والمعكوف المحبوس ، ومحله موضع نحره يعني : مكة والبيت ، وإعراب الهدي عطف على الضمير المفعول في صدّوكم ومعكوفاً حال من الهدي ، وأن يبلغ مفعول بالعكف فالمعنى : صدوكم عن المسجد الحرام ، وصدوا الهدي عن أن يبلغ محله ، والعكف المذكور يعني به منع المشركين للهدي عن بلوغ مكة ، أو حبس المسلمين بالهدي بينما ينظرون في أمورهم .

(210/715)

﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ الآية تعليل لصرف الله المؤمنين عن استئصال أهل مكة بالقتل ، وذلك أنه كان بمكة رجال مؤمنون ونساء مؤمنات يخفون إيمانهم ، فلو سلط الله المسلمين على أهل مكة ، ولقتلوا أولئك المؤمنين وهم لا يعرفونهم ، ولكن كفَّهم رحمة للمؤمنين الذين كانوا بين أظهرهم ، وجواب لولا محذوف تقديره : لولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لسلطناكم عليهم ﴿ أَن تَطَئُوهُمْ ﴾ في موضع بدل من رجال ونساء ، أو بدل من الضمير المفعول في لم تعلموهم والوطء هنا الإهلاك بالسيف وغيره ﴿ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ ﴾ أي تصيبكم من قتلهم مشقة وكراهة ، واختلف هل يعني الإثم في قتلهم أو الدية أو الكفارة أو الملامة ، أو عيب الكفار لهم بأن يقولوا : قتلوا أهل دينهم ، أو تألم نفوسهم من قتل المؤمنين ، وهذا أظهر لأن قتل المؤمن الذي لا يعلم إيمانه وهو بين أهل الحرب لا إثم فيه ولا دية ، ولا ملامة ، ولا عيب ، ﴿ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ يعني رحمة للمؤمنين الذين كانوا بين أظهر الكفار ، بأن كف سيوف المسلمين عن الكفار من أجلهم أو رحمة لمن شاء من الكفار بأن يسلموا بعد ذلك ، واللام تتعلق بمحذوف يدل على سياق الكلام تقديره : كان كف القتل عن أهل مكة ليدخل الله في رحمته من يشاء ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الذين كَفَرُوا ﴾ معنى تزيلوا تميزوا عن الكفار ، والضمير للمؤمنين المستوري الإيمان ، أي لو انفصلوا عن الكفار لعذبنا الكفار فقوله : ﴿ لَعَذَّبْنَا ﴾ جواب لو الثانية ، وجواب الأولى محذوف كما ذكرنا ، ويحتمل أن يكون لعذبنا

جواب لو الأولى : وكررت لو الثانية تأكيداً ﴿ إِذْ جَعَلَ الذين كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الحمية ﴾ يعني أنفه الكفر وهي منعهم للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين عن العمرة ، ومنعهم من أن يكتب في كتاب الصلح بسم الله الرحمن الرحيم

(211/715)

، ومنعهم من أن يكتب محمد رسول الله ، وقولهم : لو نعلم أنك رسول الله لاتبعناك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، والعامل في إذ جعل محذوف تقديره : اذكر أو قوله ﴿ لَعَذَّبْنَا ﴾ والسكينة هي سكون المسلمين ووقارهم حين جرى ذلك ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التقوى ﴾ قال الجمهور وهي : لا إله إلا الله وقد رُوي ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل : لا إله إلا الله محمد رسول الله وقيل : لا إله إلا الله والله أكبر ، وهذه كلها متقاربة وقيل : هي بسم الله الرحمن الرحيم التي أبى الكفار أن تكتب ﴿ وكانوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ أي كانوا كذلك في علم الله وسابق قضائه لهم ، وقيل : أحق بها من اليهود والنصارى .

(212/715)

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرءيا بالحق ﴾ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رأى في منامه عند خروجه إلى العمرة ؛ أنه يطوف بالبيت هو وأصحابه بعضهم محلقون وبعضهم مقصرون ورُوي أنه أتاه ملك في النوم فقال له : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام ﴾ الآية : فأخبر الناس برؤياه : ذلك ، فظنوا أن ذلك يكون في ذلك العام ، فلما صده المشركون عن العمرة عام الحديبية قال المنافقون : أين الرؤيا ، ووقع في نفوس المسلمين شيء من ذلك ، فأنزل الله تعالى : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرءيا بالحق ﴾ أي تلك الرؤيا صادقة ، وسيخرج تأويلها بعد ذلك ، فاطمأنت قلوب المؤمنين وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في العام المقبل ، هو وأصحابه فدخلوا مكة واعتمروا ، وأقاموا بمكة ثلاثة أيام ، وظهر صدق رؤياه وتلك عُمرة القضية [القضاء] ثم فتح مكة بعد ذلك ، ثم حج هو وأصحابه ، وصدق في هذا الموضع يتعدى إلى مفعولين ، وبالحق يتعلق بصدق ، أو بالرؤيا على أن يكون حالاً منها ﴿ إِن شَآءَ اللهُ ﴾ لما كان الاستثناء بمشيئة الله يقتضي الشك في الأمر ، وذلك محال على الله ، اختلف في هذا الاستثناء على خمسة أقوال : الأول أنه استثناء قاله الملك الذي رآه النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، فحكى الله مقالته كما وقعت والثاني : أنه تأديب من الله لعباده ليقولوا إن شاء الله في كل أمر مستقبل ، والثالث أنه استثناء بالنظر إلى كل إنسان على حدته ؛ لأنه يمكن أن يتم له الأمر أو يموت ، أو يمرض فلا يتم له ، والرابع أن الاستثناء راجع إلى قوله آمنين لا لدخول المسجد ، والخامس أن إن شاء الله بمعنى إذا شاء الله ﴿

مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ الحلق والتقصير من سنة الحج والعمرة ، والحلق أفضل من التقصير ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رحم الله المحلقين ثلاثاً ثم قال في المرة الأخيرة والمقصرين " ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ ﴾ يريد

(213/715)

ما قدره من ظهور الإسلام في تلك المدّة ، فإنه لما انقعد الصلح ، وارتفعت الحرب ورغب الناس في الإسلام ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة الحديبية في ألف وخمسمائة ، وقيل ألف وأربعمائة وغزا غزوة الفتح بعدها بعامين ومعه عشرة آلاف ﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ يعني فتح خيبر ، وقيل بيعة الرضوان وقيل صلح الحديبية ، وهذا هو الأصح " لأن عمر قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أفتح هو يا رسول الله ؟ قال : نعم " وقيل : هو فتح مكة وهذا ضعيف ، لأن معنى قوله : ﴿ مِن دُونِ ذَلِكَ ﴾ قبل دخول المسجد الحرام ، وإنما كان فتح مكة بعد ذلك ، فإن الحديبية كانت عام ستة من الهجرة وعمرة القضية عام سبعة ، وفتح مكة عام ثمانية ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ ﴾ ذكره في براءة [33] ﴿ وكفى بالله شَهِيداً ﴾ أي شاهداً بأن محمداً رسول الله ، أو شاهداً بإظهار دينه .

﴿ والذين مَعَهُ ﴾ يعني جميع أصحابه وقيل : من شهد معه الحديبية ، وإعراب الذين معطوف على محمد رسول الله صفته وأشداء خبر عن الجميع ، وقيل : الذين معه مبتدأ وأشداء خبره ورسول الله خبر محمد ورجح ابن عطية هذا . والأول عندي أرجح ؛ لأن الوصف بالشدة والرحمة يشمل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، واما على ما اختاره ابن عطية ؛ فيكون الوصف بالشدة والرحمة مختصاً بالصحابة دون النبي صلى الله عليه وسلم ، وما أحق النبي صلى الله عليه وسلم بالوصف بذلك لأن الله قال فيه : ﴿ بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : 128] ، وقال ﴿ جَاهِدِ الكفار والمنافقين واغلظ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : 73 ، والتحريم : 9] فهذه هي الشدة على الكفار والرحمة بالمؤمنين ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ ﴾ السيما العلامة وفيه ستة أقوال ، الأول أنه الأثر الذي يحدث في جبهة المصلى من كثرة السجود والثاني أنه أثر التراب في الوجه الثالث أنه صفرة الوجه من السهر والعبادة ، الرابع حسن الوجه لما ورد في الحديث وهذا الحديث غير صحيح ، بل وقع فيه غلط من الراوي فرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو غير مروي عنه ، الخامس أنه الخشوع ، السادس : أن ذلك يكون في الآخرة يجعل الله لهم نوراً من أثر السجود

كما يجعل غرة من أثر الوضوء وهذا بعيد لأن قوله : ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً ﴾ وصف حالهم في الدنيا فكيف يكون سيماهم في وجوههم كذلك ، والأول أظهر ، وقد كان بوجه علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وعلي بن عبد الله بن العباس أثر ظاهر من أثر السجود ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التوراة ﴾ أي وصفهم فيها وتم الكلام هنا ، ثم ابتدأ قوله ومثلهم في الإنجيل ، كزرع ، وقيل : إن ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الإنجيل ﴾ عطف على ﴿ مَثَلُهُمْ فِي التوراة ﴾ ثم ابتدأ قوله : ﴿ كَزَرْعٍ ﴾ وتقديره هم كزرع ، والأول أظهر ، ليكون وصفهم في التوراة بما تقدم من الأوصاف الحسان ، وتمثيلهم في

(215/715)

الإنجيل بالزرع المذكور بعد ذلك ، وعلى هذا يكون ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الإنجيل ﴾ بمعنى التشبيه والتمثيل . وعلى القول الآخر يكون المثل بمعنى الوصف كمثلهم في التوراة ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ هذا مثل ضربه الله للإسلام حيث بدأ ضعيفاً ، ثم قوي وظهر . وقيل : الزرع مثل للنبي صلى الله عليه وسلم لأنه بعث وحده وكان الزرع حبة واحدة ، ثم كثر المسلمون فهم كالشطء ، وهو فراخ السنبلة التي تنبت حول الأصل ، ويقال : بإسكان الطاء وفتحها بمد وبدون مد وهي لغات ﴿ فَآزَرَهُ ﴾ أي قوّاه وهو من الموازرة بمعنى

المعاونة ويحتمل أن يكون الفاعل الزرع ، والمفعول شطأه أو بالعكس ؛ لأن كل واحد منهما يقوّي الآخر ، وقيل : معناه ساواه طولاً فالفاعل على هذا الشطأ ووزن آزره فاعله وقيل أفعله ، وقرئ بقصر الهمزة على وزن فعل ﴿ فاستغلظ ﴾ أي صار غليظاً ﴿ فاستوى على سُوقِهِ ﴾ جميع ساق أي قام الزرع على سوقه ، وقيل : قوله : ﴿ كَزَرْعٍ ﴾ يعني النبي صلى الله عليه وسلم أخرج شطأه بأبي بكر فآزره بعمر فاستغلظ بعثمان فاستوى على سوقه بعليّ بن أبي طالب ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكفار ﴾ تعليل لما دل عليه المثل المتقدم من قوّة المسلمين فهو يتعلق بفعل يدل عليه الكلام تقديره : جعلهم الله كذلك ليغيظ بهم الكفار ، وقيل : يتعلق بوعد وهو بعيد ﴿ مِنْهُم ﴾ لبيان الجنس لا للتبعيض لأنه وعد عم جميعهم رضي الله عنهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 53 ـ 57 ﴾

(216/715)

وقال البيضاوى :

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ المؤمنين إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشجرة ﴾

روي : أنه صلى الله عليه وسلم لما نزل الحديبية بعث جواس بن أمية الخزاعي إلى أهل مكة ، فهموا به فمنعه الأحابيش فرجع ، فبعث عثمان بن عفان رضي الله عنه فحبسوه

فأرجف بقتله ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه وكانوا ألفاً وثلثمائة أو وأربعمائة أو وخمسمائة ، وبايعهم على أن يقاتلوا قريشاً ولا يفروا عنهم وكان جالساً تحت سمرة أو سدرة . ﴿ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ من الإخلاص . ﴿ فَأَنزَلَ السكينة عَلَيْهِمْ ﴾ الطمأنينة وسكون النفس بالتشجيع أو الصلح . ﴿ وأثابهم فَتْحاً قَرِيباً ﴾ فتح خيبر غب انصرافهم ، وقيل مكة أو هجر .

﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾ يعني مغانم خيبر . ﴿ وَكَانَ الله عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ غالباً مراعياً مقتضى الحكمة .

﴿ وَعَدَكُمُ الله مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ وهي ما يفيء على المؤمنين إلى يوم القيامة . ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هذه ﴾ يعني مقام خيبر . ﴿ وَكَفَّ أَيْدِىَ الناس عَنْكُمْ ﴾ أي أيدي أهل خيبر وخلفائهم من بني أسد وغطفان ، أو أيدي قريش بالصلح . ﴿ وِلَتَكُونَ ﴾ هذه الكفة أو الغنيمة . ﴿ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أمارة يعرفون بها أنهم من الله بمكان ، أو صدق الرسول في وعدهم فتح خيبر في حين رجوعه من الحديبية ، أو وعد المغانم أو عنواناً لفتح مكة والعطف على محذوف هو علة ل ﴿ كَفَّ ﴾ ، أو "عجل" مثل لتسلموا ، أو لتأخذوا أو العلة لمحذوف مثل فعل ذلك . ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صراطا مُّسْتَقِيماً ﴾ هو الثقة بفضل الله والتوكل عليه .

﴿ وأخرى ﴾ ومغانم أخرى معطوفة على هذه ، أو منصوبة بفعل يفسره ﴿ قَدْ أَحَاطَ الله بِهَا ﴾ مثل قضى ، ويحتمل رفعها بالابتداء لأنها موصوفة وجرها بإضمار رب . ﴿ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا ﴾ بعد لما كان فيها من الجولة . ﴿ قَدْ أَحَاطَ الله بِهَا ﴾ استولى فأظفركم بها وهي مغانم هوازن أو فارس . ﴿ وَكَانَ الله على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيراً ﴾ لأن قدرته ذاتية لا تختص بشيء دون شيء .

﴿ وَلَوْ قاتلكم الذين كَفَرُواْ ﴾ من أهل مكة ولم يصالحوا . ﴿ لَوَلَّوُاْ الأدبار ﴾ لانهزموا . ﴿ ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيّاً ﴾ يحرسهم . ﴿ وَلاَ نَصِيراً ﴾ ينصرهم .

﴿ سُنَّةَ الله التى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ﴾ أي سنَّ غُلَّبة أنبيائه سنة قديمة فيمن مضى من الأمم كما قال تعالى : ﴿ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِى ﴾ ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً ﴾ تغييراً . ﴿ وَهُوَ الذى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ أي أيدي كفار مكة . ﴿ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ في داخل مكة . ﴿ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ أظهركم عليهم ، وذلك أن عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائة إلى الحديبية ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد على جند فهزمهم حتى أدخلهم حيطان مكة ثم عاد . وقيل كان ذلك يوم الفتح واستشهد به على أن مكة فتحت عنوة وهو ضعيف إذ السورة نزلت قبله . ﴿ وَكَانَ الله

بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من مقاتلتهم أولاً طاعة لرسوله وكفهم ثانياً لتعظيم بيته ، وقرأ أبو عمرو بالياء ﴿ بَصِيراً ﴾ فيجازيهم عليه .

(218/715)

﴿ هُمُ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ المسجد الحرام والهدي مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ يدل على أن ذلك كان عام الحديبية ، والهدي ما يهدى إلى مكة . وقرىء ﴿ الهدي ﴾ وهو فعيل بمعنى مفعول ، ومحله مكانه الذي يحل فيه نحره والمراد مكانه المعهود وهو منى لا مكانه الذي لا يجوز أن ينحر في غيره ، وإلا لما نحره الرسول صلى الله عليه وسلم حيث أحصر فلا ينتهض حجة للحنفية على أن مذبح هدي المحصر هو الحرم . ﴿ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مؤمنات لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ لم تعرفوهم بأعيانهم لاختلاطهم بالمشركين .

﴿ أَن تطؤهم ﴾ أن توقعوا بهم وتبيدهم قال :

وَوَطِئْتَنَا وَطْأً عَلَى حَنَقٍ . . . وَطْءَ المُقَيَّدِ ثَابِتَ الهَرَمِ

(219/715)

وقال عليه الصلاة والسلام " إن آخر وطأة وطئها الله بوج " وهو وادٍ بالطائف كان آخر وقعة للنبي صلى الله عليه وسلم بها ، وأصله الدوس وهو بدل الاشتمال من ﴿ رِجَالٌ ﴾ ﴿ وَنِسَاء ﴾ أو من ضميرهم في ﴿ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ . ﴿ فَتُصِيبَكُمْ مِّنْهُمْ ﴾ من جهتهم . ﴿ مَّعَرَّةٌ ﴾ مكروه كوجوب الدية والكفارة بقتلهم وللتأسف عليهم ، وتعيير الكفار بذلك والإثم بالتقصير في البحث عنهم مفعلة عن عره إذا أعراه ما يكرهه . ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ متعلق ب ﴿ أَن تَطَؤُهُمْ ﴾ أي تطؤوهم غير عالمين بهم ، وجواب ﴿ لَوْلاَ ﴾ محذوف لدلالة الكلام عليه ، والمعنى ﴿ لَوْلاَ ﴾ كراهة أن تهلكوا أناساً مؤمنين بين أظهر الكافرين جاهلين بهم يصيبكم بإهلاكهم مكروه لما كف أيديكم عنهم . ﴿ لِّيُدْخِلَ اللهُ فِى رَحْمَتِهِ ﴾ علة لما دل عليه كف الأيدي عن أهل مكة صوناً لمن فيها من المؤمنين ، أي كان ذلك ليدخل الله في رحمته أي في توفيقه لزيادة الخير أو للإسلام . ﴿ مَن يَشَآء ﴾ من مؤمنيهم أو مشركيهم . ﴿ لَوْ تَزَيَّلُواْ ﴾ لو تفرقوا وتميز بعضهم من بعض ، وقرىء "تزايلوا" . ﴿ لَعَذَّبْنَا الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ بالقتل والسبي .

(220/715)

﴿ إِذْ جَعَلَ الذين كَفَرُواْ ﴾ مقدر باذكر أو ظرف ﴿ لَعَذَّبْنَا ﴾ أو ﴿ صَدُّوكُمْ ﴾ .
﴿ فِى قُلُوبِهِمُ الحمية ﴾ الأنفة . ﴿ حَمِيَّةَ الجاهلية ﴾ التي تمنع إذعان الحق . ﴿ فَأَنزَلَ الله سَكِينَتَهُ على رَسُولِهِ وَعَلَى المؤمنين ﴾ فأنزل عليهم الثبات والوقار وذلك ما روي "أنه عليه الصلاة والسلام لما هم بقتالهم بعثوا سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص ليسألوه أن يرجع من عامه على أن يخلي له قريش مكة من القابل ثلاثة أيام ، فأجابهم وكتبوا بينهم كتاباً ، فقال عليه الصلاة والسلام لعلي رضي الله عنه : "اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فقالوا ما نعرف هذا اكتب باسمك اللهم ثم قال : اكتب هذا ما صالح عليه رسول الله أهل مكة فقالوا : لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت وما قاتلناك ، اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة ، فقال عليه الصلاة والسلام : اكتب ما يريدون " فَهَمَّ المؤمنون أن يأبوا ذلك ويبطشوا عليهم فأنزل الله السكينة عليهم فتوقروا وتحملوا . ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التقوى ﴾ كلمة الشهادة أو بسم الله الرحمن الرحيم محمد رسول الله اختارها لهم ، أو الثبات والوفاء بالعهد وإضافة ال ﴿ كَلِمَةَ ﴾ إلى ﴿ التقوى ﴾ لأنها سببها أو كلمة أهلها . ﴿ وَكَانُواْ أَحَقَّ بِهَا ﴾ من غيرهم . ﴿ وَأَهْلَهَا ﴾ والمستأهلين لها . ﴿ وَكَانَ الله بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيماً ﴾ فيعلم أهل كل شيء وييسره له .
﴿ لَّقَدْ صَدَقَ الله رَسُولَهُ الرؤيا ﴾ رأى عليه الصلاة والسلام أنه وأصحابه دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا ، فقص الرؤيا على أصحابه ففرحوا وحسبوا أن ذلك يكون في

عامهم ، فلما تأخر قال بعضهم والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا البيت فنزلت والمعنى صدقة في رؤياه .

(221/715)

﴿ بالحق ﴾ ملتبساً به فإن ما رآه كائن لا محالة في وقته المقدر له وهو العام القابل ، ويجوز أن يكون ﴿ بالحق ﴾ صفة مصدر محذوف أي صدقاً ملتبساً ﴿ بالحق ﴾ وهو القصد إلى التمييز بين الثابت على الإيمان والمتزلزل فيه ، وأن يكون قسماً إما باسم الله تعالى أو بنقيض الباطل وقوله : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام ﴾ جوابه وعلى الأولين جواب قسم محذوف . ﴿ إِن شَاءَ الله ﴾ تعليق للعدة . بالمشيئة تعليماً للعباد ، أو إشعاراً بأن بعضهم لا يدخل لموت أو غيبة أو حكاية لما قاله ملك الرؤيا ، أو النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه . ﴿ ءامِنِينَ ﴾ حال من الواو والشرط معترض . ﴿ مُحَلِّقِينَ رُءوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ أي محلقاً بعضكم ومقصراً آخرون . ﴿ لاَ تخافون ﴾ حال مؤكدة أو استئناف أي لا تخافون بعد ذلك . ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ ﴾ من الحكمة في تأخير ذلك . ﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ ﴾ من دون دخولكم المسجد أو فتح مكة . ﴿ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ هو فتح خيبر ليستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر الموعود .

﴿ هُوَالذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهدى ﴾ ملتبساً به أو بسببه أو لأجله . ﴿ وَدِينِ الحق ﴾ وبدين الإِسلام . ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ ﴾ ليغلبه على جنس الدين كله بنسخ ما كان حقاً وإظهار فساد ما كان باطلاً ، أو بتسليط المسلمين على أهله إذ ما من أهل دين إلا وقد قهرهم المسلمون ، وفيه تأكيد لما وعده من الفتح . ﴿ وكفى بالله شَهِيداً ﴾ على أن ما وعده كائن أو على نبوته بإظهار المعجزات .

(222/715)

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ الله ﴾ جملة مبينة للمشهود به ، ويجوز أن يكون ﴿ رَسُولِ الله ﴾ صفة و ﴿ مُحَمَّدٌ ﴾ خبر محذوف أو مبتدأ : ﴿ والذين مَعَهُ ﴾ معطوف عليه وخبرهما . ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الكفار رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ و ﴿ أَشِدَّاء ﴾ جمع شديد و ﴿ رُحَمَاء ﴾ جمع رحيم ، والمعنى أنهم يغلظون على من خالف دينهم ويتراحمون فيما بينهم كقوله : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى المؤمنين أَعِزَّةٍ عَلَى الكافرين ﴾ ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً ﴾ لأنهم مشتغلون بالصلاة في أكثر أوقاتهم . ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ الله وَرِضْوَاناً ﴾ الثواب والرضا . ﴿ سيماهم فِى وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السجود ﴾ يريد السمة التي تحدث في جباههم من كثرة السجود ، فعلى من سامه إذا أعلمه وقد قرئت ممدودة و ﴿ مِّنْ أَثَرِ السجود ﴾ بيانها أو

حال من المستكن في الجار . ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى الوصف المذكور . أو إشارة مبهمة يفسرها ﴿ كَزَرْعٍ ﴾ . ﴿ مَثَلُهُمْ فِى التوراة ﴾ صفتهم العجيبة الشأن المذكورة فيها . ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِى الإنجيل ﴾ عطف عليه أن ذلك مثلهم في الكتابين وقوله : ﴿ كَزَرْعٍ ﴾ تمثيل مستأنف أو تفسير أو مبتدأ و ﴿ كَزَرْعٍ ﴾ خبره .

(223/715)

﴿ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ فراخه يقال أشطأ الزرع إذا فرخ ، وقرأ ابن كثير وابن عامر برواية ابن ذكوان ﴿ شَطْأَهُ ﴾ بفتحات وهو لغة فيه ، وقرىء "شطاه" بتخفيف الهمزة و"شطاءه" بالمد و"شطه" بنقل حركة الهمزة وحذفها و"شطوه" بقلبها واواً . ﴿ فَآزَرَهُ ﴾ فقواه من المؤازرة وهي المعاونة أو من الإيزار وهي الإعانة وقرأ ابن عامر برواية ابن ذكوان ﴿ فَأَزَرَهُ ﴾ كأجره في آجره . ﴿ فاستغلظ ﴾ فصار من الدقة إلى الغلظ . ﴿ فاستوى على سُوقِهِ ﴾ فاستقام على قصبه جمع ساق ، وعن ابن كثير "سؤقه" بالهمزة . ﴿ يُعْجِبُ الزراع ﴾ بكثافته وقوته وغلظه وحسن منظره ، وهو مثل ضربه الله تعالى للصحابة قلوا في بدء الإسلام ثم كثروا واستحكموا فترقى أمرهم بحيث أعجب الناس . ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكفار ﴾ علة لتشبيههم بالزرع في زكاته واستحكامه أو لقوله : ﴿ وَعَدَ الله الذين ءامَنُواْ

وَعَمِلُواْ الصالحات مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ فإن الكفار لما سمعوه غاظهم ذلك ومنهم للبيان .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة الفتح فكأنما كان ممن شهد مع محمد عليه الصلاة والسلام فتح مكة " . (1) انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 204 ـ 210 ﴾.

---

(1) حديث موضوع .

(224/715)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين ﴾

وبه سميت بيعة الرضوان ويبايعونك حكاية الحال الماضية والشجرة كانت سمرة . وقيل : سدرة روي أنها عميت عليهم من قابل فلم يدروا أين ذهبت . وعن جابر بن عبد الله : لو كنت أبصر لأريتكم مكانها ﴿ فعلم ما في قلوبهم ﴾ من خلوص النية ﴿ فأنزل السكينة ﴾ الطمأنينة والأمن عليهم ﴿ وأثابهم ﴾ جازاهم عن الإخلاص في البيعة ﴿ فتحاً قريباً ﴾ هو فتح خيبر غب انصرافه من الحديبية كما ذكرناه . وقيل : هو فتح مكة ﴿

ومغانم كثيرة يأخذونها ﴾ هي مغانم خيبر وكانت أرضاً ذات عقار وأموال فقسمها عليهم ﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة ﴾ هي التي أصابوها مع النبي صلى الله عليه وسلم أو بعده إلى يوم ﴿ فعجل لكم هذه ﴾ يعني غنيمة خيبر ﴿ وكف أيدي الناس عنكم ﴾ يعني أيدي أهل خيبر وحلفائهم من أسد وغطفان جاؤا لنصرتهم فقذف الله الرعب في قلوبهم وقيل : أيدي أهل مكة بالصلح ، وقيل : أيدي اليهود حين خرجتم وخلفتم عيالكم بالمدينة وهمت اليهود بهم فمنعهم الله قوله ﴿ ولتكون آية ﴾ أي لتكون هذه الغنيمة المعجلة دلالة على ما وعدهم الله من الغنائم ، أو دلالة على صحة النبوة من حيث إنه أخبر بالفتح القريب وقد وقع مطابقاً .

وقيل : الضمير للكف والتأنيث لأجل التأنيث الخبر ، أو بتقدير الكفة ويهديكم ويثبتكم ويزيدكم بصيرة .

(225/715)

قوله ﴿ وأخرى ﴾ أي وعدكم الله مغانم أخرى . عن ابن عباس : هي فتوح فارس والروم . أو يقال : مغانم هوازن في غزوة حنين لم يظنوا أن يقدروا عليها لما فيها من الهزيمة ، ثم الرجوع مرة بعد أخرى قد أحاط الله بها علماً أنها ستصير لكم . قال جار الله : يجوز

في ﴿ أخرى ﴾ النصب بفعل مضمر يفسره ﴿ قد أحاط ﴾ أي وقضى الله أخرى قد أحاط بها . ويجوز فيها الرفع على الابتداء لكونها موصوفة بالجملة و ﴿ قد أحاط ﴾ خبره . وجوز الجر بإضمار " رب " . ثم بين أن نصر الله إياهم في صلح الحديبية أو في فتح خيبر لم يكن اتفاقياً بل كان إلهياً سماوياً فقال ﴿ ولو قاتلكم ﴾ إلى آخره . والسر فيه أن الله كتب وأوجب غلبة حزبه ونصر رسله كما قال ﴿ سنة الله ﴾ إلى آخره . عن أنس أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على النبي صلى الله عليه وسلم من جبل التنعم متسلحين يريدون غرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فأخذهم واستحياهم فأنزل الله تعالى ﴿ وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة ﴾ وهو الحديبية لأنها من أرض الحرم . وقيل : هو التنعيم . وقيل : إظفاره دخوله بلادهم بغير إذنهم . وعن عبد الله بن مغفل المزني قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم بالحديبية في أصل الشجرة التي ذكرها الله في القرآن ، فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح فثاروا في وجوهنا فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ الله تعالى بأبصارهم فقمنا إليهم فأخذناهم فقال لهم صلى الله عليه وسلم : هل كنتم في عهد أحد وهل جعل لكم أحد أماناً فقالوا : اللهم لا ، فخلى سبيلهم فأنزل الله الآية . وإنما قدم كف أيدي الكفار عن المؤمنين لأنهم أهم . وقيل : كف أيديكم بأن أمركم أن لا تحاربوا ، وكف أيديهم بإلقاء الرعب أو بالصلح وقيل : إن عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائة رجل فقال النبي صلى

الله عليه وسلم لخالد بن الوليد : هذا ابن عمك قد أتاك في الخيل . فقال خالد : أنا سيف الله

(226/715)

وسيف رسوله ارم بي حيث شئت .

(227/715)

فبعثه على خيل فلقي عكرمة في الشعب فهزمه حتى أدخله حيطان مكة ، ثم عاد فهزمه حتى أدخله جوف مكة . فأنزلت الآية . وسمي خالد يومئذ سيف الله . وروي أن كفار مكة خرجوا يوم الحديبية يرمون المسلمين فرماهم المسلمون بالحجارة حتى أدخولهم بيوت مكة . ثم ذم قريشاً بقوله ﴿ هم الذين كفروا وصدّوكم ﴾ يعني يوم الحديبية ﴿ عن المسجد الحرام ﴾ أن تطوفوا به للعمرة ﴿ و ﴾ صدّوا ﴿ الهدى ﴾ أو صدّوكم مع الهدى حال كونه ﴿ معكوفاً ﴾ أي محبوساً ممنوعاً موقوفاً عن ﴿ أن يبلغ محله ﴾ المعهود وهو مني وقد مر تفسير الهدي ومحله والبحث عنه في " البقرة " . ثم بين حكمة المصالحة

بقوله ﴿ ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات ﴾ وقوله ﴿ لم تعلموهم ﴾ سفة الرجال والنساء جميعاً على جهة التغليب . و ﴿ أن تطؤهم ﴾ بدل الاشتمال منهم أو من الضمير المنصوب في ﴿ تعلموهم ﴾ والوطء كالدّوس عبارة عن الإيقاع والإهلاك . وقوله ﴿ فتصيبكم ﴾ جواب النفي أو عطف على ﴿ أن تطؤهم ﴾ والمعرة " مفعلة " ممن العر العيب كالجرب ونحوه . وقوله ﴿ بغير علم ﴾ متقدم في النية متعلق ب ﴿ أن تطؤهم ﴾ والفحوى أنه كان بمكة ناس من المسلمين فقال سبحانه : ولولا كراهة أن تهلكوا ناساً من المؤمنين فيما بين المشركين وأنتم غير عالمين بحالهم فتصيبكم بإهلاكهم تبعة في الدين لوجوب الدية والكفارة أو عيب بسوء قاله أهل الشرك ، إنهم فعلوا بأهل دينهم مثل ما فعلوا بنا ، أو أثم إذا جرى دينهم منكم بعض التقصير لما كف أيديكم عنهم ، والكلام يدل على هذا الجواب وفي حذفه فخامة وذهاب للوهم كل مذهب ، ويعلم منه أنه يفعل بهم إذ ذاك ما لا يدخل تحت الوصف . وجوّزوا أن يكون ﴿ لو تزيلوا ﴾ كالتكرير لقوله ﴿ ولولا رجال ﴾ لرجعهما إلى معنى واحد . والتنزيل التميز والتفرق ويكون ﴿ لعذبنا ﴾ هو الجواب . وقوله ﴿ ليدخل ﴾ تعليل لما دلت عليه الآية من كف الأيدي عن قريش صوناً لأهل الإيمان المختلطين بهم كأنه قيل : كان الكف ومنع التعذيب

ليدخل الله مؤمنيهم في حيز توفيق الخير والطاعة ، أو ليدخل في الإسلام من رغب فيه من المشركين . وحكى القفال أن اللام متصل بالمؤمنين والمؤمنات أي آمنوا لكذا . وقوله ﴿ إذ جعل ﴾ يجوز أن ينتصب بإضمار " اذكر " أو يكون ظرفاً ﴿ لعذبنا ﴾ أول ﴿ صدّوكم ﴾ وفاعل ﴿ جعل ﴾ يجوز أن يكون ﴿ الله ﴾ وقوله ﴿ في قلوبهم ﴾ بيان لمكان الجعل كما مر في قوله ﴿ وأشربوا في قلوبهم العجل ﴾ [البقرة : 93] ويجوز أن يكون ﴿ الذين كفروا ﴾ ومفعولاه الحمية والظرف فيكون جعلهم في قلبهم بإزاء أنزل الله . والحمية في مقابلة السكينة ، والحمية الأنفة والاستكبار الذي كان عليها أهل الجاهلية ، ومن ذلك عدم إقرارهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ومنه ما جرى في قصة الحديبية من إبائهم أن يكتب في كتاب العهد " بسم الله الرحمن الرحيم " وأن يكتب " محمد رسول الله " يقال : حميت أنفي حمية كأنها " فعلية " بمعنى " مفعول " من الحماية اسم أقيم مقام المصدر كالسكينة بمعنى السكون فأنزل الله على رسوله السكينة والوقار حتى أعطاهم ما أرادوا .

(229/715)

وكلمة التقوى التسمية والتوحيد والاعتراف برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، اختارها الله للمؤمنين . ومعنى الإضافة إنها سبب التقوى وأساسها ، أو المراد كلمة أهل التقوى الذين يتقون بها غضب الله . ﴿ وكانوا أحق بها وأهلها ﴾ لأنهم خيار الأمم . وقيل : أراد وكانوا يعني أهل مكة أحق بهذه الكلمة لتقدّم إنذارهم إلا أن بعضهم سلبوا التوفيق . وحكى المبرد أن الذين كانوا قبلنا لم يكن لأحد أن يقول " لا إله إلا الله " في اليوم والليلة إلا مرة واحدة لا يستطيع أن يقول أكثر من ذلك . وكان قائلها يمدّ بها صوته إلى أن ينقطع نفسه تبركاً بذكر الله ، وقد جعل الله لهذه الأمة أن يقولوها متى شاؤا وهو قوله ﴿ وألزمهم كلمة التقوى ﴾ أي ندبهم إلى ذكرها ما استطاعوا . ثم قص رؤيا نبيه صلى الله عليه وسلم بياناً لإعجازه فإن الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة .

(230/715)

وقصته أنه رأى في المنام أن ملكاً قال له ﴿ لتدخلن ﴾ إلى قوله ﴿ لا تخافون ﴾ فأخبر أصحابه بها ففرحوا وجزموا بأنهم داخلوها في عامهم ، فلما صدّوا عن البيت واستقر الأمر على الصلح قال بعض الضعفة : أليس كان يعدنا النبي صلى الله عليه وسلم أن نأتي البيت فنطوف به ؟ فقال لهم أهل البصيرة : هل أخبركم أنكم تأتونه العام ؟ فقالوا : لا . قال

: فإنكم تأتونه وتطوفون بالبيت فأنزل الله تصديقه . ومعنى ﴿ صدق الله رسوله الرؤيا ﴾ صدقه في رؤياه ولم يكذبه . وقوله ﴿ بالحق ﴾ إما أن يكون متعلقاً ب ﴿ صدق ﴾ أي صدقه فيما رأى صدقاً متلبساً بالحق وهو أن يكون ما أراه كما أراه ، وإما أن يكون حالاً من الرؤيا أي متلبسة بالحق يعني بالغرض الصحيح وهو الإبتلاء ، وتميز المؤمن المخلص من المنافق المرائي . وجوّز أن يكون ﴿ بالحق ﴾ قسماً لأنه إسم من أسماء الله سبحانه ، أو لأن المراد الحق الذي هو نقيض الباطل فتكون اللام في ﴿ لتدخلنّ ﴾ جواب القسم لا للابتداء فيحسن الوقف على ﴿ الرؤيا ﴾ . والبحث علن الحلق والتقصير وسائر أركان الحج والعمرة وشرائطهما استوفيناها في سورة البقرة فليتذكر . وفي ورود ﴿ إن شاء الله ﴾ في خبر الله عز وجل أقوال أحدها : أنه حكاية قول الملك كما روينا . والثاني أن ذلك خارج على عادة القرآن من ذكر المشيئة كقوله ﴿ يغفر لمن يشاء ﴾ ﴿ ويعذب المنافقين إن شاء ﴾ والمعنى إن الله يفعل بالعباد ما هو الصلاح فيكون استثناء تحقيق لا تعليق . والثالث أنه أراد لتدخلن جميعاً إن شاء ولم يمت أحد أو لم يغب .

(231/715)

والرابع أنه تأديب وإرشاد إلى استعمال الاستثناء في كل موضع لقوله صلى الله عليه وسلم وقد دخل البقيع " وأنا إن شاء الله بكم لاحقون " وليس في فروع الموت استثناء . الخامس أنه راجع إلى حالة الأمن وعدم الخوف . ثم رتب على الصدق وعلى سوء ظن القوم قوله ﴿ فعلم ما لم تعلموا ﴾ من الحكمة في تأخير الفتح إلى العام القابل ﴿ فجعل من دون ذلك ﴾ الفتح ﴿ فتحاً قريباً ﴾ وهو فتح خيبر . ثم أكد صدق الرؤيا بل صدق الرسول في كل شيء بقوله ﴿ هو الذي أرسل ﴾ الآية . وذلك أنه كذب رسوله كان مضلاً ولم يكن إرساله سبباً لظهور دينه وقوة ملته . وقد مر نظير الآية في سورة التوبة . ومن استعلاء هذا الدين أنه لا ترى أهل ملة إلا والمسلم غالب عليه إلا أن يشاء الله . وقد يقال : إن كمال العز والغلبة عند نزول عيسى عليه السلام فلا يبقى على الأرض كافر ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ على أن هذا الدين يعلو ولا يعلى .

(232/715)

ثم أكد الشهادة وأرغم أنف قريش الذين لمن يرضوا بهذا التعريف في كتاب العهد فقال ﴿ محمد رسول الله ﴾ فهو مبتدأ وخبر . وجوز أهل الإعراب أن يكون المبتدأ محذوفاً لتقدم ذكره في قوله ﴿ أرسل رسوله ﴾ أي هو محمد فيكون ﴿ رسول الله ﴾ صفة أو عطف

بيان ، وجوزوا أن يكون ﴿ محمد ﴾ مبتدأ و ﴿ رسول الله ﴾ صفته أو بياناً . وقوله ﴿ والذين معه ﴾ وهم الصحابة عطفاً على ﴿ محمد ﴾ وخبر الجميع ﴿ أشداء على الكفار ﴾ جمع شديد كما قال ﴿ وأغلظ عليهم ﴾ [التحريم : 9] ﴿ أعزة على الكافرين ﴾ [المائدة : 54] عن الحسن : بلغ من تشدّدهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم فكيف بأبدانهم ، وبلغ من ترحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمناً إلا صحافه وعانقه . والمصافحة جائزة بالاتفاق ، وأما المعانقة والتقبيل فقد كرههما أبو حنيفة رضي الله عنه وإن كان التقبيل على اليد . ومن حق المؤمنين أن يراعوا هذه السنة أبداً فيتشدّدوا على مخالفيهم ويرحموا أهل دينهم ﴿ تراهم ﴾ يا محمد أو يا له أهلية الخطاب ﴿ ركعاً سجداً ﴾ راكعين ساجدين ﴿ يبتغون فضلاً من الله ﴾ بالعفو عن تقصيرهم ﴿ ورضواناً ﴾ منه عن أعمالهم الصالحة بأن يتقبلها الله منهم ﴿ سيماهم ﴾ علامتهم ﴿ في وجوههم من أثر السجود ﴾ فيجوز أن تكون العلامة أمراً محسوساً وأن السجود بمعنى حقيقة وضع الجبهة على الأرض ، وكان كل من عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام وعليّ بن عبد الله بن عباس أبي الأملاك يقال له ذو الثفنات ، لأن كثرة سجودهما أحدثت في مواضع السجود منهما أشباه ثفنات البعير . والذي جاء في الحديث " لا تعلبوا صوركم " أي لا تخدشوها . وعن ابن عمر أنه رأى رجلاً

أثر في وجهه السجود فقال : إن صورة وجهك أنفك فلا تعلب وجهك ولا تشن صورتك محمول على التعمد رياء وسمعة .

(233/715)

وعن سعيد بن المسيب هي ندى الطهور وتراب الأرض . ويجوز أن يكون أمراً معنوياً من البهاء والنور . وعن عطاء : استنارت وجوههم من التهجد كما قيل " من كثر صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار " وإن الذي يبيت شارباً يتميز عند أراب البصيرة من الذي يبيت مصلياً وفيه قال بعضهم :

عيناك قد حكتا مبي . . . تك كيف كنت وكيف كانا

ولرب عين قد أرت . . . ك مبيت صاحبها عياناً

(234/715)

قال المحققون : إن من توجه إلى شمس الدنيا لا بد من أن يقع شعاعها على وجهه ، فالذي أقبل على شمس عالم الوجود وهو الله سبحانه كيف لا يستنير ظاهره وباطنه ولا سيما يوم

تبلى السرائر ويكشف الغطاء ﴿ ذلك مثلهم ﴾ أي ذلك الوصف وصفهم العجيب الشأن في الكتابين : ويجوز أن يكون ذلك إشارة مبهمة أوضحت بقوله ﴿ كزرع ﴾ إلى آخره . كقوله ﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع ﴾ [الحجر : 66] وقد يقال : تم الكلام عند قوله ﴿ ذلك مثلهم في التوراة ﴾ ثم ابتدأ ﴿ مثلهم في الإنجيل كزرع ﴾ لما روى أنه مكتوب في الإنجيل : سيرخج قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر عرفوا إلى بني إسرائيل بهذا الوصف ليعرفوهم إذا أبصروهم . والشطء بالتسكين والتحريك فراخ الزرع التي تنبت إلى جانب الأصل ، ومنه شاطىء النهر . ﴿ فآزره ﴾ من المؤازره المعاونة . ويجوز أن يكون أفعل من الأزر القوة أي أعان الزرع الشطء أو بالعكس . ﴿ فاستغلظ ﴾ الزرع أو الشطء أي صار من الرقة إلى الغلظ ﴿ فاستوى على سوقه ﴾ فاستقام على قصبته أي تناهى وصار كالأصل بحيث يعجب الزارعين . والسوق جمع ساق وقد يخص الساق بالشجر فيكون ساق الزرع مجازاً مستعاراً . ووجه التشبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج وحده ثم أتبعه من ههنا قليل ومن ههنا حتى كثروا وقوي أمرهم . وقوله ﴿ ليغيظ بهم الكفار ﴾ تعليل لوجه التشبيه أو للتشبيه أي ضرب الله ذلك المثل وقضى وحكم بذلك ليغيظ بمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه كفار مكة والعجم . وقيل : هذا الزرع يغيظ بكثرته الكفار أي سائر الزرّاع الذين ليس لهم مثل زرعهم وفيه بعد ، ولكن الكلام لا يخلو عن فصاحة لفيظة من قبل المناسبة بين الزراع

والكفار لاشتراكهما بالجملة في معنى من المعاني وإن لم يكن مقصوداً ههنا . وذهب بعض المفسرين إلأى أن قوله ﴿ والذين معه ﴾ أبو بكر ﴿ أشداء على الكفار ﴾ عمر ﴿ رحماء بينهم ﴾ عثمان ﴿ نراهم ركعاً سجداً ﴾ علي عليه

(235/715)

السلام ﴿ يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ﴾ طلحة والزبير ﴿ سيماهم في وجوههم ﴾ سعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة ابن الجراح. وعن عكرمة : أخرج شطأة بأبي بكر فآزره بعمر فاستغلظ بعثمان فاستوى على سوقه بعليّ . وقوله ﴿ منهم ﴾ لبيان الجنس . ويجوز أن يكون قوله ﴿ ليغيظ ﴾ تعليلاً للوعد لان الكفار إذا سمعوا بما أعدّ لهم في الآخرة مع ما حصل لهم في الدنيا من الغلبة والاستعلاء غاظهم ذلك والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 149. 154 ﴾

(236/715)

وقال الخطيب الشربيني :

ولما بين تعالى حال المخلفين بعد قوله تعالى ﴿ إنّ الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ﴾ عاد إلى حال بيان المبايعين . بقوله تعالى:

﴿ لقد رضي الله ﴾ أي : الذي له الجلال والكمال ﴿ عن المؤمنين ﴾ أي : الراسخين في الإيمان أي فعل بهم فعل الراضي بما جعل لهم من الفتح وما قدّر لهم من الثواب وأفهم ذلك أنه لم يرض عن الكافرين فخذلهم في الدنيا مع ما أعدّ لهم في الآخرة فالآية تقرير لما ذكر من جزاء الفريقين بأمور مشاهدة وقوله تعالى ﴿ إذ ﴾ أي : حين ﴿ يبايعونك ﴾ منصوب برضى واللام في قوله تعالى ﴿ تحت الشجرة ﴾ للعهد الذهني وكانت شجرة في الموضع الذي كان النبيّ صلى الله عليه وسلم نازلاً به في الحديبية ولأجل هذا الرضا سميت بيعة الرضوان وقصتها "أنّ النبيّ عليه الصلاة والسلام حين نزل الحديبية بعث جواس بن أمية الخزاعي رسولاً إلى أهل مكة فهموا به فمنعه الأحابيش واحدها حبوش وهو الفوج من قبائل شتى فلما رجع دعا عمر ليبعثه فقال : إني أخافهم على نفسي لما أعرف من عدواتي إياهم وما بمكة عدوي يمنعني ولكن أدلك على رجل هو أعز بها مني وأحب إليهم عثمان بن عفان فبعثه فخبرهم أنه لم يأت لحرب وإنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحرمته فوقروه وقالوا : إن شئت أن تطوف بالبيت فافعل فقال ما أفعل قبل أن يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحتبس عندهم فأرجف أنهم قتلوه فقال رسول الله صلى الله عليه

وسلم لا نبرح حتى نناجز القوم ودعا الناس إلى البيعة فبايعوه تحت الشجرة" روى البغوي من طريق الثعلبي "أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة" وقال سعيد بن المسيب : حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة قال فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها . وروي أنّ عمر مرّ بذلك المكان بعد أن ذهبت الشجرة فقال : أين كانت فجعل بعضهم يقول ههنا وبعضهم يقول ههنا فلما كثر اختلافهم قال سيروا قد ذهبت الشجرة . وروى جابر بن عبد الله قال : "قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية أنتم خير أهل الأرض وكنا ألفاً

(237/715)

وأربعمائة

ولو كنت اليوم مبصراً لأريتكم مكان الشجرة" .

وقيل : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً في أصل الشجرة وعلى ظهره غصن من أغصانها قال عبد الله بن المغفل : وكنت قائماً على رأسه وبيدي غصن من الشجرة أذب عنه فرفعت الغصن عن ظهره وبايعوه على الموت دونه على أن يفرّوا فقال لهم رسول

الله صلى الله عليه وسلم أنتم اليوم خير أهل الأرض" وكان عدد المبايعين ألفاً وخمسمائة وخمسة وعشرين . وروى سالم عن جابر قال : كنا خمس عشرة مائة . وقال عبد الله بن أبي أوفى : كنا أصحاب الشجرة ألفاً وثلاثمائة . ولما دل على إخلاصهم بما وصفهم سبب عنه قوله تعالى ﴿ فعلم ﴾ أي : بما له من الإحاطة ﴿ ما في قلوبهم ﴾ أي : من الصدق والوفاء فيما بايعوا عليه ﴿ فأنزل السكينة ﴾ أي الطمأنينة والأمن بسبب الصلح ﴿ عليهم ﴾ أو بالتشجيع وسكون النفس في كل حالة ترضي الله ورسوله فلم يخافوا عاقبة القتال لما ندبوا إليه وإن كانوا في كثرة الكفار كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود ﴿ وأثابهم ﴾ أي : أعطاهم جزاء لهم على ما وهبوه من الطاعة ﴿ فتحاً قريباً ﴾ هو فتح خيبر عقب انصرافهم . وعن الحسن : فتح هجر ، ونبه تعالى بصيغة منتهى الجموع في قوله تعالى .

﴿ ومغانم ﴾ على أنها عظيمة ثم صرّح بذلك بقوله تعالى ﴿ كثيرة تأخذونها ﴾ وهي مغانم خيبر وكانت أرضاً ذات عقار وأموال ، فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم ﴿ وكان الله ﴾ أي : الذي لا كفء له ﴿ عزيزاً ﴾ يغلب ولا يغلب ﴿ حكيماً ﴾ أي : يقضي ما يريد فلا ينقض فحكم لكم بالغنائم ولإعدائكم بالهلاك على أيديكم ليثيبكم عليه .

﴿ وعدكم الله ﴾ أي : الملك الأعظم ﴿ مغانم ﴾ وحقق معناها بقوله تعالى : ﴿ كثيرة تأخذونها ﴾ أي : فيما يأتي من بلدان شتى لا تدخل تحت حصر . وليس المغانم كل الثواب بل الجنة والنظر إلى وجهه الكريم قدّامهم . وإنما هي كعاجلة عجل بها ولهذا قال تعالى : ﴿ فعجل لكم ﴾ أي : من الغنائم ﴿ هذه ﴾ أي : مغانم خيبر ﴿ وكف أيدي الناس عنكم ﴾ "وذلك أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لما قصد خيبر وحاصر أهلها همت قبائل من أسد وغطفان أن يغيروا على عيال المسلمين وذراريهم بالمدينة فكف الله تعالى أيديهم بإلقاء الرعب في قلوبهم فنكصوا" وقيل : أيدي أهل مكة بالصلح . وقوله تعالى : ﴿ ولتكون ﴾ أي : هذه المعجلة عطف على مقدّر أي لتشكروه ولتكون ﴿ آية ﴾ أي : علامة في غاية الوضوح ﴿ للمؤمنين ﴾ أي : أنهم من الله تعالى بمكان أو صدق الرسول صلى الله عليه وسلم في وعدهم فتح خيبر في حين رجوعه من الحديبية أو وعدهم الغنم أو عنواناً لفتح مكة .

(239/715)

﴿ ويهديكم صراطاً ﴾ أي : طريقاً ﴿ مستقيماً ﴾ أي : يثبتكم على الإسلام ويزيدكم بصيرة ويقيناً بصلح الحديبية وفتح خيبر . "وذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من الحديبية أقام بالمدينة بقية ذي الحجة وبعض المحرّم ثم خرج في سنة سبع إلى خيبر" روى أنس بن مالك "أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا غزا بنا قوماً لم يكن يغزو بنا حتى يصبح ينظر فإن سمع أذاناً كف عنهم وإن لم يسمع أذاناً أغار عليهم قال فخرجنا إلى خيبر فانتهينا إليهم ليلاً فلما أصبح ولم يسمع أذاناً ركب وركبنا وركبت خلف أبي طلحة وإن قدمي لتمس قدم النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : فخرجوا إلينا بمكاتلهم ومساحيهم فلما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : والله محمد والخميس أي الجيش فلما رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين" وروى إياس بن سلمة قال : حدّثني أبي قال : "خرجنا إلى خيبر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فجعل عمي عامر يرتجز بالقوم ثم قال:

*تالله لولا الله ما اهتدينا ** ولا تصدّينا ولا صلينا *

*ونحن عن فضلك ما استغنينا ** فثبت الأقدام إن لاقينا *

* ** وأنزلن سكينة علينا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا ، قال : أنا عامر فقال : غفر لك ربك وما استغفر رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحد إلا استشهد قال : فنادى عمر بن الخطاب

وهو على جمل له يا نبيّ الله لولا متعتنا بعامر قال فلما قدمنا خيبر خرج ملكهم مرحب يخطر بسيفه ويقول:

*قد علمت خيبر أني مرحب ** شاكي السلاح بطل مجرب*

* ** إذا الحروب أقبلت تلتهب

قال : فبرز له عامر بن عثمان فقال:

*قد علمت خيبر أني عامر ** شاكي السلاح بطل مقامر*

(240/715)

فاختلفا ضربتين فوقع سيف مرحب في ترس عامر فرجع سيف عامر على نفسه فقطع أكحله فكانت فيها نفسه قال : فأتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم وأنا أبكي فقلت : يا رسول الله بطل عمل عامر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال ذلك قلت ناس من أصحابك قال : من قال ذلك بل له أجره مرتين ثم أرسلني إلى عليّ وهو أرمد فقال : لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله فأتيت علياً فجئت به أقوده وهو أرمد حتى أتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فبصق في عينيه فبرئ وأعطاه الراية وخرج مرحب وقال:

*أنا الذي سمتني أمي مرحب ** شاكي السلاح بطل مجرّب*

فقال علي كرّم الله تعالى وجهه:

*أنا الذي سمتني أمي حيدره ** كليث غابات كريه المنظرة*

* أكيلكم بالسيف كيل السندرة*

قال: فضرب رأس مرحب فقتله. ثم كان الفتح على يديه" ومعنى أكيلكم بالسيف كيل السندره أي: أقتلكم قتلاً واسعاً ذريعاً. والسندرة مكيال واسع. قيل: يحتمل أن يكون اتخذ من السندرة وهي شجرة يعمل منها النبل والقسي. والسندرة أيضاً العجلة والنون زائدة قال ابن الأثير وذكرها الجوهري في هذا الباب ولم ينبه على زيادتها. وروي فتح خيبر من طرق أخر في بعضها زيادات وفي بعضها نقصان عن بعض. وقوله تعالى:

(241/715)

﴿ وأخرى ﴾ صفة مغانم مقدّراً مبتدأ وقيل: هي مبتدأ والخبر ﴿ لم تقدروا عليها ﴾ وهي كما قال ابن عباس: فارس والروم وما كانت العرب تقدر تقاتل فارس والروم بل كانوا خولاً لهم حتى قدروا عليهما بالإسلام. وقال الضحاك: هي خيبر وعدها الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم قبل أن يصيبها ولم يكونوا يرجونها. وقال قتادة: هي مكة. وقال

عكرمة : حنين . وقال البقاعي : هي والله أعلم غنائم هوازن التي لم يحصل قبلها ما يقاربها . ﴿ قد أحاط الله ﴾ أي : المحيط بكل شيء قدرةً وعلماً ﴿ بها ﴾ أي : علم أنها ستكون لكم ﴿ وكان الله ﴾ أي : المحيط بجميع صفات الكمال أزلاً وأبداً ﴿ على كل شيء ﴾ منها ومن غيرها ﴿ قديراً ﴾ أي : بالغ القدرة لأنه بكل شيء عليم .

﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا ﴾ وهم أهل مكة ومن وافقهم وكانوا قد اجتمعوا وجمعوا الأحابيش ومن أطاعهم وقدّموا خالد بن الوليد طليعة لهم إلى كراع الغميم ولم يكن أسلم بعد ﴿ لولوا ﴾ أي : بغاية جهدهم ﴿ الأدبار ﴾ منهزمين ﴿ ثم ﴾ أي : بعد طول الزمان وكثرة الأعوان ﴿ لا يجدون ﴾ أي : في وقت من الأوقات ﴿ ولياً ﴾ أي : من يفعل معهم فعل القريب من الشفقة ﴿ ولا نصيراً ﴾ ينصرهم ولما كانت هذه عادة جارية قديمة مع أولياء الله تعالى حيثما كانوا من الرسل وأتباعهم ﴿ وإنّ جندنا لهم الغالبون ﴾ (الصافات :)

قال تعالى : ﴿ سنة الله ﴾ أي : سنّ المحيط بكل شيء علماً غلبة أنبيائه وأتباعهم ﴿ التي قد خلت من قبل ﴾ أي : فيمن مضى من الأمم . كما قال تعالى : ﴿ لأغلبنّ أنا ورسلي ﴾ (المجادلة :)

﴿ ولن تجد ﴾ أيها السامع ﴿ لسنة الله ﴾ أي : الذي لا يخلف قوله ، لأنه محيط بجميع

صفات الكمال ﴿ تبديلاً ﴾ أي : تغييراً من مغيّر ما يغيرها بما يكون بدلها ثم عطف على ما تقديره هو الذي سنّ هذه السنة العامة .

(242/715)

قوله تعالى : ﴿ وهو الذي كف ﴾ أي : وحده ﴿ أيديهم ﴾ أي : الذين كفروا من أهل مكة وغيرهم . فإنّ الكف مشروع لكل أحد ﴿ عنكم وأيديكم ﴾ أيها المؤمنون ﴿ عنهم ببطن مكة ﴾ أي : بالحديبية وقيل التنعيم . وقيل وادي مكة . وقيل : داخل مكة ﴿ من بعد أن أظفركم ﴾ أي : أظهركم ﴿ عليهم ﴾ وهذا تبيين لما تقدّم من قوله تعالى : ﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ﴾ (الفتح :)

بتقدير أنه كما كف أيديهم عنكم بالفرار وأيديكم عنهم بالرجوع عنهم وتركهم روى ثابت عن أنس بن مالك "أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من جبل التنعيم متسلحين يريدون غرّة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فأخذهم سلماً فاستحياهم فنزلت هذه الآية" . وقال عبد الله بن مغفل المزني : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم بالحديبية في أصل الشجرة التي قال الله في القرآن وعلى ظهره غصن من أغصان تلك الشجرة فرفعته عن ظهره وعلي بن أبي طالب بين يديه يكتب كتاب

الصلح فخرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح فثاروا في وجوهنا فدعا عليهم نبيّ الله صلى الله عليه وسلم فأخذ الله أبصارهم فقمنا إليهم فأخذناهم فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم جئتم في عهد أو هل جعل لكم أحد أماناً قالوا : اللهم لا فخلى سبيلهم فأنزل الله تعالى هذه الآية وعن ابن عباس أظهر الله المسلمين عليهم بالحجارة حتى أدخلوهم البيوت وقيل : إن ذلك كان يوم فتح مكة وبه استشهد أبو حنيفة على أنّ مكة فتحت عنوة لا صلحاً ﴿ وكان الله ﴾ أي : المحيط بالجلال والإكرام أزلاً وأبداً وقرأ ﴿ بما يعملون ﴾ أبو عمرو : بالياء التحتية أي الكفار .

والباقون بالتاء الفوقية ، أي : أنتم ﴿ بصيرا ﴾ أي : محيط العلم ببواطن ذلك كما هو محيط بظواهره ولما كان ما مضى من وصف الكفار يشمل كفار مكة وغيرهم عينهم بسبب كفهم النبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عن البيت الحرام .

(243/715)

بقوله تعالى : ﴿ هم ﴾ أي : أهل مكة ومن لاقهم ﴿ الذين كفروا ﴾ أي : أوغلوا في هذا الوصف ببواطنهم وظواهرهم ﴿ وصدّوكم ﴾ زيادة على كفرهم في عمرة الحديبية ﴿ عن المسجد الحرام ﴾ أي : منعوكم الوصول إلى مكة ونفس المسجد والكعبة للإحلال

مما أنتم فيه من شعائر الإحرام بالعمرة .

روى الزهري عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم كل منهما يصدق حديث صاحبه قالا : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة عام الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه يريد زيارة البيت لا يريد قتالاً وساق معه سبعين بدنة والناس سبعمائة رجل وكانت كل بدنة عن عشرة نفر فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدي وأشعره وأحرم منها بعمرة وبعث عيناً له من خزاعة يخبره عن قريش فسار النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بغدير الإشطاط قريباً من عسفان أتاه عتبة الخزاعي .

وقال : إنّ قريشاً قد جمعوا لك جموعاً وقد جمعوا لك الأحابيش ، وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت الحرام .

فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم أشيروا عليّ أيها الناس أترون أني أميل على ذراري هؤلاء الذين عاونوهم فنصيبهم فإن قعدوا قعدوا موتورين وإن لجوا تكن عنقاً قطعها الله أو ترون نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه فقال أبو بكر يا رسول الله إنما جئت عامداً لهذا البيت لا نريد قتال أحد ولا حرباً فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه قال امضوا على اسم الله فنفروا قال النبيّ صلى الله عليه وسلم إنّ خالداً بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بغبرة الجيش فانطلق يركض نذيراً لقريش

وسار النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته . فقال الناس : حل حل فألحت فقالوا : خلأت أي حرنت القصواء .

(244/715)

فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل ، ثم قال : والذي نفسي بيده لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يعظمون فيها حرمات الله وفيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها ثم زجرها فوثبت . قال : فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل من الماء يتبرضه الناس تبرضاً فلم تلبث الناس أن نزحوه وشكا الناس إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم العطش فنزع سهماً من كنانته وأعطاه رجلاً من أصحابه يقال له ناجية بن عمير وهو سائق بدن النبيّ صلى الله عليه وسلم فنزل في البئر فغرزه في جوفه ، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه وكانت خزاعة عيبة نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل تهامة فقال : إني تركت كعب ابن لؤي وعامر بن لؤي نزلا مع جمع أعداد مياه الحديبية ومعهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت الحرام فقال النبي صلى الله عليه وسلم إنا لم نجئ لقتال أحد ولكنا جئنا معتمرين وإنّ قريشاً قد نهكتهم

الحرب وأضرت بهم فإن شاؤوا ماددتهم مدّة ويخلوا بيني وبين الناس فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد جموا وإن أبوا فو الذي نفسي بيده لاقاتلنهم على أمري . هذا حتى تنفرد سالفتي ولينفذن الله أمره فقال بديل : سأبلغهم ما تقول فانطلق حتى أتى قريشاً فقال : إنا قد جئناكم من هذا الرجل وسمعناه يقول قولاً فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا . فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء . وقال ذو الرأي منهم : هات ما سمعته يقول قال : سمعته يقول كذا وكذا فحدثهم بما قال النبي صلى الله عليه وسلم فقام عروة بن مسعود الثقفي فقال : أي قوم ألستم بالوالد . قالوا : بلى قال : أولست بالولد . قالوا بلى . فقال فهل تتهموني قالوا : لا قال : ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ فلما بلحوا عليّ جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني .

(245/715)

قالوا : بلى . قال:

فإنّ هذا الرجل قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني آته قالوا : ائته فأتاه فجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم نحواً من قوله لبديل فقال عروة عند ذلك : أي محمد أرأيت إن استأصلت قومك فهل سمعت أحداً من العرب

اجتاح أصله قبلك وإن تكن الأخرى فو الله إني أرى وجوهاً وأشواباً من الناس خليقاً أن يفرّوا ويدعوك . فقال له أبو بكر الصدّيق : امصص بظر اللات والعزى أنحن نفر عنه وندعه . فقال : من ذا . قالوا : أبو بكر فقال : أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك . قال : وجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم فكلما كلمه أخذ بلحيته والمغيرة قائم على رأس النبيّ صلى الله عليه وسلم ومعه السيف وعليه المغفر فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي صلى الله عليه وسلم ضرب يده بنعل السيف وقال : أخر يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفع عروة رأسه وقال : من هذا قالوا : المغيرة بن شعبة فقال : أي غدر ألست أسعى في غدرتك . وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم .

(246/715)

فقال النبي صلى الله عليه وسلم أمّا الإسلام فهدم ما قبله وأمّا المال فلست منه في شيء ثم إنّ عروة جعل يرمق أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم بعينيه قال : فو الله ما تنخم رسول الله صلى الله عليه وسلم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم

خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون النظر إليه تعظيماً له . فرجع عروة إلى أصحابه فقال : أي قوم والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي والله إن أي ما رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً والله إن أي ما تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده وإذا أمرهم ابتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم وما يحدون النظر إليه تعظيماً له وأنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها فقال رجل من بني كنانة دعوني آته فقالوا : ائته فلما أشرف على النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه قال النبيّ صلى الله عليه وسلم هذا فلان من قوم يعظمون البدن فابعثوها له فبعثوها له واستقبله الناس يلبون فلما رأى ذلك قال : سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدّوا عن البيت فلما رجع إلى أصحابه قال رأيت البدن قد قلدت وأشعرت فما أرى أن يصدّوا عن البيت .

ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة وكان يومئذ سيد الأحابيش . فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنّ هذا من قوم يتألهون فابعثوا بالهدي في وجهه حتى يراه فلما رأى الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده قد أكل أوتاده من طول الحبس عن محله رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إعظاماً لما رأى فقال : يا معشر قريش إني قد رأيت ما لا يحل صدّه . الهدي في قلائده قد أكل أوتاده من طول الحبس عن محله .

قالوا له : اجلس فإنما أنت رجل أعرابيّ لا علم لك فغضب الحليس عند ذلك ، وقال : يا معشر قريش والله ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم أن تصدّوا عن بيت الله من جاءه معظماً له والذي نفس الحليس بيده لتخلنّ بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد .

فقالوا : مه كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به فقام رجل يقال له مكرز بن حفص . فقال : دعوني آته فقالوا له ائته فلما أشرف عليهم قال النبيّ صلى الله عليه وسلم هذا مكرز وهو رجل فاجر فجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم فبينما هو يكلمه إذ جاءه سهيل بن عمر . وقال عكرمة : لما رآه النبي صلى الله عليه وسلم قال : قد سهل لكم من أمركم قال الزهري في حديثه فجاء سهيل بن عمرو فقال : هات نكتب بيننا وبينك كتاباً فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب فقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل : أمّا الرحمن فلا أدري من هو ولكن اكتب باسمك اللهمّ كما كنت تكتب فقال المسلمون : والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم لعلي : اكتب باسمك اللهمّ . ثم قال : اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله . فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت وما

قاتلناك ولكن اكتب محمد بن عبد الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أني لرسول الله وإن كذبتموني اكتب محمد بن عبد الله .

(248/715)

قال الزهري : وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم "لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها" . فكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو واصطلحا على وضع الحرب عشر سنين يأمن الناس فيه ويكف بعضهم عن بعض فقال له النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به فقال سهيل : والله لا تتحدّث العرب أنا أخذنا ضغطة ولكن ذاك من العام المقبل . فكتب فقال سهيل : وعلى أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا فقال المسلمون : سبحان الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً . وروى ابن إسحاق عن البراء قصة الصلح وفيها قالوا : لو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئاً ولكن أنت محمد بن عبد الله قال : أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله ثم قال لعلي : امح رسول الله فقال : والله لا أمحوك أبداً فقال فأرنيه فأراه إياه فمحاه النبيّ صلى الله عليه وسلم بيده .

وفي رواية فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب وليس يحسن يكتب فكتب هذا

ما قاضى محمد بن عبد الله قال البراء : صالح على ثلاثة أشياء على أنّ من أتى من المشركين يردّه إليهم ومن أتاهم من المسلمين لم يردوه على أن يدخلها من قابل ويقيم بها ثلاثة أيام ولا يدخلها بجلبان السلاح السيف والقوس ونحوه . وروى في صلح الحديبية طرق أخر في بعضها زيادات وفي بعضها نقصان عن بعض . وقوله تعالى ﴿ والهدي ﴾ معطوف على كم من صدوكم أي وصدوا الهدي وهو البدن التي ساقها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت سبعين .

(249/715)

وقوله تعالى : ﴿ معكوفاً ﴾ أي : محبوساً حال وقوله تعالى : ﴿ أن يبلغ محله ﴾ أي : مكانه الذي ينحر فيه عادة وهو الحرم بدل اشتمال ﴿ ولولا رجال ﴾ أي : مقيمون بين أظهر الكفار بمكة ﴿ مؤمنون ﴾ أي : غريقون في الإيمان فكانوا لذلك أهلاً للوصف بالرجولية ﴿ ونساء مؤمنات ﴾ أي : كذلك حبس الكل عن الهجرة العذر لأنّ الكفار لكثرتهم استضعفوهم فمنعوهم الهجرة ، على أنّ ذلك شامل لمن جبله الله تعالى على الخير وعلم منه الإيمان وإن كان في ذلك الوقت كافراً ﴿ لم تعلموهم ﴾ أي : لم يحط علمكم بهم من جميع الوجوه لتميزوهم بأعيانهم عن المشركين لأنهم ليس لهم قوّة التمييز منهم وأنتم لا تعرفون

أماكنهم لتعاملوهم بما هم له أهل ولا سيما في حال الحرب والطعن والضرب ثم أبدل من الرجال والنساء قوله تعالى : ﴿ أن تطؤهم ﴾ أي تؤذوهم بالقتل أو ما يقاربه من الجراح والضرب والنهب ونحو ذلك .

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم "اللهمّ أشدد وطأتك على مضر" ﴿ فتصيبكم ﴾ أي : فيتسبب عن هذا الوطء أن تصيبكم ﴿ منهم ﴾ أي : من جهتهم وبسببهم ﴿ معرّة ﴾ أي : مكروه كوجوب الدية والكفارة بقتلهم والتأسف عليهم وتغيير الكفار بذلك والإثم بالتقصير في البحث مفعلة من عرّه إذا عراه ما يكرهه وقوله تعالى : ﴿ بغير علم ﴾ متعلق بأن تطؤوهم أي : غير عالمين بهم وجواب لولا محذوف لدلالة الكلام عليه .

والمعنى ولولا كراهة أن تهلكوا أناساً مؤمنين بين أظهر الكافرين جاهلين بهم فيصيبكم بإهلاكهم مكروه لما كف أيديكم عنهم .

فإن قيل : أي : معرة تصيبهم إذا قتلوهم وهم لا يعلمون ، أجيب : بأنهم يصيبهم وجوب الدية والكفارة وسوء قالة المشركين إنهم فعلوا بأهل دينهم مثل ما فعلوا بنا من غير تمييز والمأثم إذا جرى منهم بعض التقصير .

(250/715)

وقوله تعالى : ﴿ ليدخل الله ﴾ أي : الذي له جميع صفات الكمال متعلق بمقدّر أي كان انتفاء التسليط على أهل مكة وانتفاء العذاب ليدخل الله . قال البغوي : اللام في ﴿ ليدخل ﴾ متعلق بمحذوف دل عليه معنى الكلام يعني ليدخل الله ﴿ في رحمته ﴾ أي : في إكرامه وإنعامه ﴿ من يشاء ﴾ بعد الصلح قبل أن يدخولها من المشركين بأن يعطفهم إلى الإسلام ، ومن المؤمنين بأن يستنقذهم منهم على أرفق وجه . وقوله تعالى : ﴿ لو تزيلوا ﴾ يجوز أن يعود على المؤمنين فقط أو على الكافرين أو على الفريقين والمعنى لو تميز هؤلاء من هؤلاء ﴿ لعذبنا ﴾ أي : بأيديكم بتسليطنا لكم عليهم بالقتل والسبي ﴿ الذين كفروا ﴾ أي : أوقعوا ستر الإيمان ﴿ منهم ﴾ أي : أهل مكة ﴿ عذاباً أليماً ﴾ أي شديد الإيجاع . قال قتادة : في الآية أنّ الله تعالى يدفع بالمؤمنين عن الكافرين كما دفع بالمستضعفين من المؤمنين عن مشركي مكة ولما بين شرط استحقاقهم للعذاب بين وقته وفيه بيان العلة . فقال تعالى : ﴿ إذ ﴾ أي : حين ﴿ جعل الذين كفروا ﴾ أي : ستروا ما تراءى من الحق في مرائي عقولهم وقوله تعالى : ﴿ في قلوبهم ﴾ أي : في قلوب أنفسهم يجوز أن يتعلق بجعل على أنها بمعنى ألقى فتتعدّى لواحد أي إذ ألقى الكافرون في قلوبهم الحمية وأن يتعلق بمحذوف على أنه مفعول ثان قدّم على أنها بمعنى صير ﴿ الحمية ﴾ أي : المنع الشديد والإباء الذي هو في شدّة حرّه ونفوذه في أشدّ الأجسام كالسمّ والنار وأنشدوا :

*إلا إنني منهم وعرضي عرضهم ** كذا الرأس يحمي أنفه أن يهشما *

(251/715)

وقرأ أبو عمر وفي الوصل بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائي : بضم الهاء والميم والباقون : بكسر الهاء وضم الميم وأظهر الذال عند الجيم نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم وأدغمها الباقون وقوله تعالى : ﴿حمية الجاهلية﴾ بدل من الحمية قبلها ووزنها فعلية وهي مصدر يقال حميت من كذا حمية وحمية الجاهلية : هي التي مدارها مطلق المنع سواء كان بحق أم باطل فتمنع من الإذعان للحق ومبناها على التشفي على مقتضى الغضب لغير الله فتوجب تخطي حدود الشرع ولذلك أنفوا من دخول المسلمين مكة المشرّفة لزيارة البيت العتيق الذي الناس فيه سواء . قال مقاتل : قال أهل مكة قتلوا أبناءنا وإخواننا ثم يدخول علينا فتتحدّث العرب أنهم دخلوا علينا على رغم أنفنا واللات والعزى لا يدخلونها علينا فهذه حمية الجاهلية التي دخلت قلوبهم .

(252/715)

﴿ فأنزل الله ﴾ أي : الذي لا يغلبه شيء وهو يغلب كل شيء بسبب حميتهم ﴿ سكينته ﴾ أي : الشيء اللائق إضافته إليه سبحانه من الفهم عن الله والروح الموجب لسكون القلب المؤثر للإقدام على العدوّ والنصر عليه انزالاً كافياً ﴿ على رسوله ﴾ الذي عظمته من عظمته ففهم عن الله مراده في هذه القضية فجرى على أتم ما يرضيه ﴿ وعلى المؤمنين ﴾ أي : الغريقين في الإيمان لأنهم أتباع رسوله وأنصار دينه فألزمهم قبول أمره وحماهم من همزات الشياطين ولم يدخلهم ما دخل الكفار من الحمية فيقاتلوا غضباً لأنفسهم فيتعدوا حدود الشرع ﴿ وألزمهم ﴾ أي : المؤمنين إلزام إكرام وتشريف لا إلزام إهانة وتعنيف ﴿ كلمة التقوى ﴾ فإنها السبب الأقوى وهي كل قول أو فعل ناشىء عن التقوى وأعلاه كلمة الإخلاص المتقدّمة في القتال وهي لا إله إلا الله التي هي أحق الحق ولا بدّ من قول محمد رسول الله وإلا لم يتم إسلامه وعن الحسن : كلمة التقوى هي الوفاء بالعهد . ومعنى إضافتها إلى التقوى إنها سبب التقوى وأساسها ، وقيل : كلمة أهل التقوى وقيل هي بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله ﴿ وكانوا ﴾ أي : جبلة وطبعاً ﴿ أحق بها ﴾ أي : كلمة التقوى من الكفار ﴿ وأهلها ﴾ أي : وكانوا أهلها في علم الله تعالى لأنّ الله تعالى اختار لدينه وصحبة نبيه أهل الخير ﴿ وكان الله ﴾ أي : المحيط علماً وقدرةً ﴿ بكل شيء ﴾ من ذلك وغيره ﴿ عليماً ﴾ أي : محيط العلم وروي "أنه صلى الله عليه وسلم رأى في المنام في المدينة عام الحديبية قبل خروجه أنه يدخل مكة هو

وأصحابه آمنين ويحلقون ويقصرون فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا فلما خرجوا معه وصدّهم الكفار بالحديبية رجعوا وشق عليهم ذلك وراب بعض المنافقين فأنزل الله" .

(253/715)

قوله تعالى : ﴿ لقد صدق الله ﴾ أي : الذي لا كفؤ له المحيط بجميع صفات الكمال ﴿ رسوله ﴾ الذي هو أعز الخلائق عنده وهو غني عن الأخبار عما لا يكون أنه يكون فيكف إذا كان المخبر رسوله ﴿ الرؤيا ﴾ التي هي من الوحي أي صدقه في رؤياه ولم يكذبه تعالى الله عن الكذب وعن كل قبيح علوّاً كبيراً . فحذف الجار وأوصل الفعل . كقوله تعالى : ﴿ صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ (الأحزاب :)

وروي عن مجمع بن حارثة الأنصاري "قال شهدنا الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما انصرفنا عنها إذا الناس يهزون الأباعر فقال بعضهم : ما بال الناس قالوا : أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فخرجنا نرجف فوجدنا النبيّ صلى الله عليه وسلم واقفاً على راحلته على كراع الغميم فلما اجتمع عليه الناس قرأ ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ فقال عمر : أو فتح هو يا رسول الله قال نعم والذي نفسي بيده" ففيه دليل على أن المراد بالفتح صلح الحديبية وتحقيق الرؤيا كان في العام المقبل فقال جل ذكره ﴿ لقد

صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ﴾ أخبر أن الرؤيا التي أراه إياها في مخرجه إلى الحديبية أنه يدخل هو وأصحابه المسجد الحرام صدق وحق وقوله تعالى ﴿ بالحق ﴾ فيه أربعة أوجه.

أحدها : أنه يتعلق بصدق. ثانيها : أن يكون صفة مصدر محذوف أي صدقاً ملتبساً بالحق أي بالغرض الصحيح والحكمة البالغة وذلك ما فيه من الابتلاء والتمييز بين المؤمن المخلص وبين من في قلبه مرض. ثالثها : أن يتعلق بمحذوف على أنه حال من الرؤيا أي ملتبسة بالحق. رابعها : له قسم وجوابه ﴿ لتدخلن ﴾ أي بعد هذا دخولاً قد تحتم أمره ﴿ المسجد ﴾ أي : الذي يطاف فيه بالكعبة ولا يكون دخوله إلا بدخول الحرم ﴿ الحرام ﴾ أي : الذي أجاره من امتهان الجبابرة ومنعه من كل ظالم. قال الزمخشري : وعلى تقديره قسماً إمّا أن يكون قسماً بالله تعالى فإنّ الحق من أسمائه تعالى وأمّا أن يكون قسماً بالحق الذي هو نقيض الباطل.

(254/715)

فإن قيل : ما وجه دخول ﴿ إن شاء الله ﴾ أي : الذي له الإحاطة بصفات الكمال أجيب بأوجه

أحدها : أنه تعالى ذكره تعليماً لعباده الأدب لأن يقولوا في غداتهم مثل ذلك متأدبين بآداب الله ومقتدين بسنته لقوله تعالى ﴿ ولا تقولنّ لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ﴾ (الكهف : ـ)

ثانيها : أن يريد لتدخلنّ جميعاً إن شاء الله . ولم يمت منكم أحد .

ثالثها : أن ذلك كان على لسان ملك فأدخل الملك إن شاء الله .

رابعها : إنها حكاية ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه وقص عليهم . وقال أبو عبيدة : أن بمعنى إذ مجازه إذ شاء الله . كقوله تعالى ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ (الجمعة :)

خامسها : إنها للتبرّك وقيل هي متعلقة بآمنين فالاستثناء مواقع على الأمن لا على الدخول لأن الدخول لم يكن فيه شك كقوله صلى الله عليه وسلم عند دخول المقبرة وإنا إن شاء الله بكم لاحقون فالاستثناء راجع إلى اللحوق لا إلى الموت . وقوله تعالى : ﴿ آمنين ﴾ حال من فاعل لتدخلن وكذا ﴿ محلقين رؤوسكم ﴾ أي : كلها ﴿ ومقصرين ﴾ أي : بعضها أي منقسمين بحسب التحليق والتقصير إلى قسمين لا تخشون إلا الله تعالى وفيه إشارة إلى أنهم يتمون الحج من أوّله إلى آخره فقوله ﴿ لتدخلن ﴾ فيه إشارة إلى الأوّل وقوله ﴿ محلّقين ﴾ ﴿ ومقصرين ﴾ إشارة إلى الآخر فإن قيل محلقين حال الداخلين والداخل لا يكون إلا محرماً والمحرم لا يكون محلقاً أجيب بأنّ قوله آمنين معناه متمكنين من أن تتموا الحج محلقين ومقصرين وأشار بصيغة التفعيل إلى الكثرة فيهما غير أن التقديم يفهم أنّ الأول أكثر .

وقوله تعالى : ﴿ لا تخافون ﴾ أي : لا يتجدّد لكم خوف بعد ذلك يجوز أن يكون مستأنفاً وأن يكون حالاً ثالثة أمّا من فاعل لتدخلنّ أو من ضمير آمنين أو محلقين أو مقصرين فإن كانت حالاً من آمنين أو حالاً من فاعل لتدخلنّ فهي حال للتوكيد وآمنين حال مقارنة وما بعدها حال مقدّرة إلا قوله ﴿ لا تخافون ﴾ إذا جعل حالاً فإنها مقدّرة أيضاً فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ لا تخافون ﴾ معناه غير خائفين وذلك يحصل بقوله تعالى : ﴿ آمنين ﴾ أجيب : بأنّ فيه كمال الأمن لأنّ بعد الحلق يخرج الإنسان عن الإحرام فلا يحرم عليه القتال وكان عند أهل مكة يحرم قتال من أحرم ومن دخل الحرم . فقال تدخلون آمنين وتحلقون ويبقى أمنكم بعد خروجكم من الإحرام ﴿ فعلم ﴾ أي : الله في الصلح من المصلحة ﴿ ما لم تعلموا ﴾ من المصالح فإنّ الصلاح كان في الصلح وإنّ دخولكم في سنتكم سبب لوطء المؤمنين والمؤمنات وهو قوله تعالى : ﴿ ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات ﴾ (الفتح :) الآية .

فإن قيل : الفاء في قوله تعالى : ﴿ فعلم ﴾ فاء التعقيب فقوله تعالى : ﴿ فعلم ﴾ وقع عقب ماذا أجيب : بأنه إن كان المراد من ﴿ فعلم ﴾ وقت الدخول فهو عقب صدق وإن كان

المراد فعلم المصلحة فالمراد علم الوقوع والشهادة لا علم الغيب والتقدير لما حصلت المصلحة في العام القابل فعلم ما لم تعلموا من المصلحة المتجدّدة ﴿ فجعل ﴾ أي : بسبب إحاطة علمه ﴿ من دون ﴾ أي : أدنى رتبة من ﴿ ذلك ﴾ أي : الدخول العظيم في هذا العام ﴿ فتحاً قريباً ﴾ يقويكم به من فتح خيبر ووضع الحرب بين العرب بهذا الصلح واختلاط بعض الناس بسبب ذلك ببعض الموجب لإسلام ناس كثيرة تتقوون بهم فتكون تلك الكثرة والقوّة بسبب هيبة الكفار المانعة لهم من القتال فقتل القتلى ترفقاً بأهل حرم الله إكراماً لهذا النبيّ الكريم صلى الله عليه وسلم

u

وقوله تعالى:

(256/715)

﴿ هو الذي أرسل رسوله ﴾ أي : الذي لا رسول أحق منه بإضافته إليه ﴿ بالهدى ﴾ أي : الكامل الذي يقتضي أن يهتدي به أكثر الناس تأكيداً لبيان صدق الله تعالى للرّؤيا لأنه لما كان مرسلاً لرسوله ليهدي لا يريه ما لا يكون فيحدث الناس فيظهر خلافه فيكون ذلك سبباً للضلال .

فإن قيل : الرؤيا للواقع قد تقع لغير المرسل أجيب : بأنّ ذلك قليل لا يقع لكل أحد تنبيه الهدي يحتمل أن يكون هو القرآن كقوله تعالى : ﴿ أنزل فيه القرآن هدى للناس ﴾ (البقرة :)

وعلى هذا قوله تعالى : ﴿ ودين الحق ﴾ هو ما فيه من الأصول والفروع ويحتمل أن يكون الهدي هو المعجزة أي أرسله بالمعجزة فيكون قوله تعالى ﴿ ودين الحق ﴾ إشارة إلى ما شرع والألف واللام في الهدى يحتمل أن تكون للعهد وهو قوله تعالى : ﴿ ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ﴾ وأن تكون للتعريف أي كل ما هو هدى تنبيه دين الحق يحتمل أن يكون المراد دين الله لأنّ الحق من أسماء الله تعالى ويحتمل أن يكون الحق نقيض الباطل فكأنه قال ودين الأمر الحق ﴿ ليظهره ﴾ أي : دينه ﴿ على الدين كله ﴾ أي : جميع باقي الأديان ﴿ وكفى بالله ﴾ أي : الذي له الإحاطة بجميع صفات الكمال ﴿ شهيداً ﴾ أي : على أنك مرسل بما ذكر كما قال تعالى .

(257/715)

﴿ محمد رسول الله ﴾ أي : الملك الذي لا كفؤ له فهو الرسول الذي لا رسول يساويه فإنه رسول إلى جميع الخلق من أدرك زمانه بالفعل في الدنيا ومن تقدّمه بالقوّة فيها وبالفعل في

الآخرة يوم يكون الكل تحت لوائه وقد أخذ على الأنبياء كلهم الميثاق بأن يؤمنوا به إن أدركوه وأخذ ذلك الأنبياء على أممهم وأشار بذكر هذا الاسم بخصوصه في سورة الفتح إلى أنه صلى الله عليه وسلم هو الخاتم بما أشارت إليه الميم التي مخرجها ختام المخارج واستنبط بعض العلماء من محمد ثلاثمائة وأربعة عشر رسولاً فقال فيه ثلاث ميمات وإذا بسطت كل منهما قلت فيه م ي م وعدّتها بحساب الجمل الكبير تسعون فيحصل منها مائتان وسبعون وإذا بسطت الحاء والدال قلت دال بخمسة وثلاثين ، وحاء بتسعة فالجملة ما ذكر والاسم واحد فتم عدد الرسل كما قيل أنهم ثلاثمائة وخمسة عشر وقد تقدّم الكلام على أولي العزم منهم في سورة الأحقاف .

تنبيه : يجوز أن يكون محمد خبر مبتدأ مضمر لأنه لما تقدّم هو الذي أرسل رسوله دل على ذلك المقدّر أي هو أي الرسول بالهدى محمد . ورسول الله بدل أو بيان أو نعت وأن يكون محمد مبتدأ وخبره رسول الله وقيل غير ذلك .

ولما ذكر الرسول ذكر المرسل إليهم فقال تعالى ﴿ والذين معه ﴾ أي : بمعية الصحبة من الصحابة وحسن التبعية من التابعين لهم بإحسان ﴿ أشدّاء ﴾ أي : غلاظ ﴿ على الكفار ﴾ منهم لا تأخذهم بهم رأفة بل هم معهم كالأسد على فريسته لأنّ الله تعالى أمرهم بالغلظة عليهم لا يرحمونهم ﴿ رحماء بينهم ﴾ أي : متعاطفون متوادّون كالوالد مع الولد . كما قال تعالى ﴿ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾ (المائدة :)

وعن الحسن بلغ من تشددهم على الكفار أنهم كانوا يتحرّزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم وبلغ من تراحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمناً إلا صافحه وعانقه ، ومن حق المسلمين في كل زمان أن يراعوا هذا التذلل وهذا التعطف فيشددوا على من ليس من دينهم ويتحاموه ويعاشروا إخوانهم المؤمنين في الإسلام متعطفين بالبر والصلة والمعونة وكف الأذى والاحتمال منهم .

تنبيه : والذين معه مبتدأ خبره أشدّاء على الكفار ورحماء بينهم خبر ثان وقيل غير ذلك .

ثم بين تعالى الحامل لهم على ذلك بقوله سبحانه وتعالى ﴿ تراهم ﴾ أي : أيها الناظر لهم ﴿ ركعاً سجداً ﴾ أي : دائمين الخشوع فأكثر أوقاتهم صلاة قد غلبت صفة الملكية على صفاتهم الحيوانية فكانت الصلاة آمرة بالخير مصينة عن كل نقص وضير .

ثم أشار إلى إخلاصهم بقوله تعالى ﴿ يبتغون ﴾ أي : يطلبون بذلك وغيره من جميع أحوالهم بغاية جهدهم تغليباً لعقولهم على شهواتهم وحظوظهم ﴿ فضلاً ﴾ أي : زيادة من الخير ﴿ من الله ﴾ أي : الذي له الإحاطة بصفات الكمال من الجلال والجمال الذي أعطاهم ملكة العظمة على الكفار بما وهبهم من جلاله والرأفة على أوليائه

﴿ ورضواناً ﴾ أي : رضاً منه عظيماً بما نالهم من رحمته التي هيأهم بها للإحسان إلى عياله فنزعوا الهوى من صدورهم فصاروا يرونه وحده سيدهم المحسن إليهم لا يرون سيداً غيره ولا محسن سواه .

ثم بين كثرة صلاتهم . بقوله تعالى : ﴿ سيماهم ﴾ أي : علامتهم التي لا تفارقهم ﴿ في وجوههم ﴾ ثم بين تعالى العلامة بقوله ﴿ من أثر السجود ﴾ وهو نور وبياض في وجوههم يوم القيامة كما قال تعالى ﴿ يوم تبيض وجوه وتسودّ وجوه ﴾ (آل عمران :)

(259/715)

رواه عطية العوفيّ عن ابن عباس . وعن أنس هو استنارة وجوههم من كثرة صلاتهم . وقال شهر بن حوشب : تكون مواضع السجود من وجوههم كالقمر ليلة البدر . وقال مجاهد هو السمت الحسن والخشوع والتواضع والمعنى أنّ السجود أورثهم الخشوع والسمت الحسن الذي يعرفون به . وقال الضحاك : هو صفرة الوجه . وقال الحسن : إذا رأيتهم حسبتهم مرضى وما هم بمرضى . وقال عكرمة : هو أثر التراب على الجباه . قال أبو العالية : لأنهم يسجدون على التراب لا على الثياب . وقال عطاء : استنارت وجوههم من طول ما صلوا بالليل لأنّ من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار .

قال بعضهم : دخل في هذه الآية كل من حافظ على الصلوات الخمس . قال البقاعي : ولا يظن أنّ من السيما ما يصنعه بعض المرائين من أثر هيئة السجود في جبهته فإنّ ذلك من سيما الخوارج . وفي نهاية ابن الأثير في تفسير الثقات ومنه حديث أبي الدرداء أنه رأى رجلاً بين عينيه مثل ثفنة البعير فقال : لو لم يكن هذا كان خيراً يعني كان على جبهته أثر السجود وإنما كرهها خوفاً من الرياء عليه . وعن أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إني لأبغض الرجل وأكرهه إذا رأيت بين عينيه أثر السجود" وعن بعض المتقدّمين : كنا نصلي فلا يرى بين أعيننا شيء ونرى أحدنا الآن يصلي فيرى بين عينيه ركبة البعير فلا ندري أثقلت الرؤوس أم خشنت الأرض . وإنما أراد بذلك من تعمد ذلك للنفاق ثم أشار تعالى إلى علو مرتبة ذلك الوصف بقوله سبحانه:

﴿ ذلك ﴾ أي : هذا الوصف العالي جداً البديع المثال البعيد المنال ﴿ مثلهم ﴾ أي : صفتهم ﴿ في التوراة ﴾ وههنا تم الكلام فإن مثلهم : مبتدأ وخبره في التوراة وقوله تعالى : ﴿ ومثلهم في الإنجيل ﴾ أي : الذي نسخ الله تعالى به بعض أحكام التوراة مبتدأ وخبره ﴿ كزرع ﴾ أي : مثل زرع ﴿ أخرج شطأه ﴾ أي : فراخه يقال أشطأ الزرع إذا فرخ وهل يختص ذلك بالحنطة فقط أو بها وبالشعير أو لا يختص خلاف مشهور قال الشاعر :

*أخرج الشطأ على وجه الثرى

** ومن الأشجار أفنان الثمر

وقرأ ابن كثير وابن ذكوان : بفتح الطاء والباقون بإسكانها . وهما لغتان كالنهر والنهر وأدغم أبو عمرو الجيم في الشين بخلاف عنه ثم سبب عن هذا الإخراج قوله تعالى : ﴿ فآزره ﴾ أي : قواه وأعانه . وقرأ ابن ذكوان : بقصر الهمزة بعد الفاء والباقون بالمدّ . ﴿ فاستغلظ ﴾ أي : فطلب المذكور من الزرع والشطء الغلظ وأوجده فتسبب عن ذلك اعتداله ﴿ فاستوى ﴾ أي : قوى واستقام وقوله تعالى : ﴿ على سوقه ﴾ متعلق باستوى ويجوز أن يكون حالاً أي كائناً على سوقه أي قائماً عليها ، هذا مثل ضربه الله تعالى لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في الإنجيل أنهم يكونون قليلاً ثم يزدادون ويكثرون . قال قتادة : مثل أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في الإنجيل مكتوب أنه سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . وقيل : الزرع محمد صلى الله عليه وسلم والشطء : أصحابه والمؤمنون . وروى مبارك بن فضالة عن الحسن قال محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين معه أبو بكر الصدّيق . أشدّاء على الكفار : عمر بن الخطاب . رحماء بينهم : عثمان بن عفان . تراهم ركعاً سجداً : علي بن أبي طالب يبتغون فضلاً من الله العشرة المبشرون بالجنة كمثل زرع محمد صلى الله عليه وسلم أخرج

شطأه أبو بكر فآزره عمر ، فاستغلظ عثمان يعني استغلظ عثمان بالإسلام ، فاستوى على سوقه علي بن أبي طالب رضى الله عنه استقام الإسلام بسيفه .

(261/715)

﴿ يعجب الزرّاع ﴾ قال : المؤمنون ﴿ ليغيظ بهم الكفار ﴾ قول عمر لأهل مكة بعد ما أسلم : لا يعبد الله سراً بعد اليوم روى أنس بن مالك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "أرحم أمّتي أبو بكر ، وأشدّهم في أمر الله عمر ، وأصدقهم حياء عثمان ، وأفرضهم زيد ، وأقرؤهم أبيّ ، وأعلمهم بالحرام والحلال معاذ بن جبل ، ولكل أمّة أمين وأمين هذه الأمّة أبو عبيدة بن الجرّاح" وفي رواية أخرى وأقضاهم علي وروى بريدة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من مات من أصحابي بأرض كان نورهم وقائدهم يوم القيامة" .

تنبيه : يعجب حال أي معجباً وهنا تم الكلام .

وقوله تعالى ﴿ ليغيظ بهم الكفار ﴾ فيه أوجه : أحدها : أنه متعلق بمحذوف دل عليه تشبيههم بالزرع في نمائهم وقوّتهم . قال الزمخشري : أي شبههم الله تعالى بذلك ليغيظ . ثانيها : أنه متعلق بما دل عليه قوله تعالى ﴿ أشدّاء ﴾ متعلق على الكفار الخ أي : جعلهم بهذه الصفات ليغيظ . ثالثها : أنه متعلق بقوله تعالى : ﴿ وعد الله ﴾ أي : الملك الأعظم

﴿ الذين آمنوا ﴾ لأنّ الكفار إذا سمعوا بعزة المؤمنين في الدنيا وما أعدّ الله لهم في الآخرة غاظهم ذلك . وقوله تعالى : ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ فيه إشارة إلى تصديق دعواهم ومن في قوله تعالى : ﴿ منهم ﴾ للبيان لا للتبعيض لأنهم كلهم كذلك فهي كقوله تعالى :

﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ (الحج :)

ولما كان الإنسان وإن اجتهد مقصراً عما يجب لله تعالى من العبادة . أشار إلى ذلك بقوله تعالى : ﴿ مغفرة ﴾ أي : لما يقع منهم من الذنوب والهفوات ﴿ وأجراً عظيماً ﴾ بعد ذلك الستر وهو الجنة . وهما أيضاً لمن بعدهم ممن يأتي .

فائدة قد جمعت هذه الآية الخاتمة لهذه السورة جميع حروف المعجم وفي ذلك بشارة تلويحية مع ما فيها من البشائر التصريحية باجتماع أمرهم وعلوّ نصرهم رضى الله عنهم وحشرنا معهم نحن ووالدينا ومحبينا وجميع المسلمين بمنه وكرمه .

(262/715)

قال : وهذا آخر القسم الأوّل من القرآن ، وهو المطوّل وقد ختم كما ترى بسورتين هما في الحقيقة للنبيّ صلى الله عليه وسلم وحاصلهما : الفتح بالسيف والنصر على من قاتله ظاهراً . كما ختم القسم الثاني المفصل بسورتين هما : نصره له صلى الله عليه وسلم بالحال

على من قصده بالضر باطناً وما رواه البيضاوي تبعاً للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة الفتح فكأنما كان ممن شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة" حديث موضوع . وقال ابن عادل : روى أنّ من قرأ في أوّل ليلة من رمضان ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ في التطوّع حفظ في ذلك العام ولم أره لغيره . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ السراج المنير حـ 7 صـ 72.90 ﴾

(263/715)

وقال القاسمي :

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾

يعني بيعة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية ، حين بايعوه على مناجزة قريش الحرب ، وعلى أن لا يفرّوا ، ولا يولوهم الدبر ، تحت شجرة هناك .

وقد أجمع الرواة في " الصحاح " على أن الشجرة لم تُعْلَمْ بعد . ففي " الصحيحين " من حديث أبي عوانة عن طارق ، عن سعيد بن المسيب قال : كان أبي ممن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة . قال : فانطلقنا من قابل حاجّين ، فخفي علينا مكانها ، وإن كانت بينت لكم ، فأنتم أعلم . وفيهما أيضاً عن سفيان قال : إنهم اختلفوا

في موضعها .

وروى ابن جرير عن قتادة ، عن سعيد بن المسيب قال : كان جدي يقال له حَزْن ، وكان ممن بايع تحت الشجرة ، فأتيناها من قابل ، فعمّيت علينا .

ثم قال ابن جرير : وزعموا أن عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه مر بذلك المكان بعد أن ذهبت الشجرة فقال : أين كانت ؟ فجعل بعضهم يقول : هنا ، وبعضهم يقول : ها هنا ! فلما كثر اختلافهم قال : سيروا ، هذا التكلّف ، فذهبت الشجرة ، وكانت سمرة ، إما ذهب بها سيل ، وإما شيء سوى ذلك . انتهى .

وقال الحافظ ابن حجر في " الفتح " : روى ابن سعد بإسناد صحيح عن نافع أن عمر بلغه أن قوماً يأتون الشجرة ، فيصلّون عندها ، فتوعدهم ، ثم أمر بقطعها ، فقطعت ! .

ولا ينافي ما تقدم ، لاحتمال أن هؤلاء علموا مكانها ، أو توهّموها ، فاتخذوها مسجداً ، ومكاناً مقدساً ، فقطعها عمر حالتئذ ، صوناً لعقيدتهم من الشرك ، لأن الاجتماع على العبادة حولها يفضي إلى عبادتها بعد ، كما أفضى نصب الأوثان إلى عبادتها ، وكان أول أمرها لتعظيم مسمياتها ، وإجلال مثال أصحابها .

وقال في " الفتح " أيضاً في شرح ابن عمر ، وقوله : رجعنا من العام المقبل ، فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها . كانت رحمة من الله ، ما مثاله :

وقد وافق المسيب بن حَزْن ، والد سعيد ، ما قاله ابن عمر من خفاء الشجرة . والحكمة في ذلك أن لا يحصل بها افتتان ، لما وقع تحتها من الخير ، فلو بقيت لما أمن تعظيم بعض الجهال لها ، حتى ربما أفضى بهم إلى اعتقاد أن لها قوة نفع أو ضر ، كما نراه الآن مشاهداً فيما هو دونها . وإلى ذلك أشار ابن عمر بقوله "كانت رحمة من الله . أي : كان خفاؤها عليهم ، بعد ذلك ، رحمة من الله تعالى . انتهى .

وهذه البيعة تسمى بيعة الرضوان ، سميت لهذه الآية ، وتقدمت قصتها مفصلة .

﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ أي : من الصدق والعزيمة على الوفاء بالعهد : ﴿ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : في الصبر والطمأنينة والوقار ﴿ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ قال ابن جرير : أي : وعوّضهم في العاجل مما رجوا الظفر به من غنائم أهل مكة ، بقتالهم أهلها ﴿ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ ، وذلك – فيما قيل – فتح خيبر .

﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ [19] .

﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾ وهي مغانم خيبر ، وكانت أرضاً ذات عقّار وأموال ، فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل بيعة الرضوان خاصة ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ أي : ذا عزة في انتقامه من أعدائه ، وحكمه في تدبير خلقه .

﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾ [20] .

(265/715)

﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ يعني ما يفيء عليهم من غنائم الكفار في سبيل الجهاد ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ يعني غنائم خيبر . وأما الغنائم المؤخرة فسائر فتوح المسلمين بعد ذلك الوقت ، إلى قيام الساعة . وقيل : المعجلة هي صلح الحديبية . والصواب هو الأول ، كما قاله ابن جرير ؛ لأن المسلمين لم يغنموا بعد الحديبية غنيمة ، ولم يفتحوا فتحاً أقرب من بيعتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية إليها ، من فتح خيبر وغنائمها ﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ ﴾ أي : أيدي أهل خيبر ، فانتصرتم عليهم ، أو أيدي المشركين من قريش عنكم في الحديبية . واختار ابن جرير الأول . قال : لأن الثاني سيذكر في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ﴾ الآية . أي : والتأسيس خير من التأكيد . ولك أن تقول : لا مانع من التأكيد ، لاسيما في مقام التذكير بالنعم ، والتنويه بشأنها . وتكون الآية الثانية بمثابة التفسير للأولى ، والتبيين لمطلقها – والله أعلم – ﴿ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : ولتكون تلك الكفة أو الغنيمة عبرة للمؤمنين ، يعرفون بها أنهم

من الله تعالى بمكان ، وأنه ضامن نصرهم ، والفتح لهم ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾ أي : ويزيدكم بصيرة ويقيناً وثقة بفضل الله . وقوله تعالى :

﴿ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ﴾ [21]

.

(266/715)

﴿ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾ معطوف على : ﴿ هَذِهِ ﴾ أي : فيجّعل لكم هذه المغانم ، ومغانم أخرى ، وهي مغانم هوزان في غزوة حنين ، لأنه قال : ﴿ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا ﴾ وهذا يدل على ما تقدم محاولة لها . وقال الحسن : هي فارس والروم . قال القرطبي : وكونها معجلة ، وإن كانت لم تحصل إلا في عهد عمر ، بالنسبة لما بعدها من الغنائم الإسلامية .

وعن قتادة : هي مكة . قال ابن جرير : وهذا القول الذي قاله قتادة ، أشبه بما دل عليه ظاهر التنزيل . وذلك أن الله أخبر هؤلاء الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة أنه محيط بقرية لم يقدروا عليها ، ومعقول أنه لا يقال لقوم ، لم يقدروا على هذه المدينة ، إلا أن يكونوا قد راموها فتعذرت عليهم . فأما وهم لم يرموها فتتعذر عليهم ، فلا

يقال إنهم لم يقدروا عليها . فإذا كان ذلك كذلك ، وكان معلوماً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقصد قبل نزول هذه الآية عليه ، خيبرَ لحرب ، ولا وجّه إليها لقتال أهلها جيشاً ولا سرية ، علم أن المعنى بقوله : ﴿ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا ﴾ غيرها ، وأنها هي التي عالجها ورامها فتعذرت ، فكانت مكة وأهلها كذلك ، وأخبر الله تعالى نبيه والمؤمنين ، أنه أحاط بها وبأهلها ، وأنه فاتحها عليهم . انتهى .

وقال القرطبي : معنى : ﴿ قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾ أي : أعدها لكم ، فهي كالشيء الذي أحيط به من جميع جوانبه ، فهو محصور لا يفوت . فأنتم ، وإن لم تقدروا عليها في الحال ، فهي محبوسة عليكم لا تفوتكم . وقيل : ﴿ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾ علم أنها ستكون لكم ، كما قال : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ . وقيل : حفظها الله عليكم ، ليكون فتحها لكم . انتهى .

(267/715)

وقد جوز في : ﴿ أُخْرَى ﴾ أن تكون معطوفة على : ﴿ مَغَانِمَ ﴾ المنصوب بـ : ﴿ وَعَدَكُمْ ﴾ وأن تكون مرفوعة بالابتداء و : ﴿ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهَا ﴾ صفتها و : ﴿ قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾ خبر . وأوجه أخر .

﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ﴾ أي : لا يبعد عليه إذا شاءه .

ثم أشار تعالى إلى تبشير أهل بيعة الرضوان بالظفر ، والنصر المستمر ، لصدق إيمانهم ، [و] إخلاصهم في ثباتهم ، وإيثارهم مرضاة الله ورسوله على كل محبوب ، بقوله :

﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً * سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [22 ، 23] .

﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ ﴾ أي : بعد هذا الفتح ، والنصر المعجل : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ﴾ أي ولوهم أعجازهم في الحرب ، فعل المنهزم من قرنه في الحرب ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً ﴾ أي : من يواليهم على حربكم ، وينصرهم عليكم ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ﴾ أي : مضت في كفار الأمم السالفة مع مؤمنيها ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ أي : تغييراً .

قال ابن جرير : بل ذلك دائم . للإحسان جزاؤه من الإحسان ، وللإساءة ، والكفر العقاب ، والنكال .

﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ﴾ [24] .

﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾

أي : قضى بينهم وبينكم المكافّة والمحاجزة ، بعد ما خولكم الظفر عليهم والغلبة ، إشارة إلى منة الصلح ونعمته في الحديبية ، وأن ذلك عناية منه تعالى بما حفظ من أنفسهم وأموالهم ، ولطف بهم يومئذ لما ادخر لهم بعده .

وقد ذهب بعضهم إلى أنه عنى بهذا الكف ، ما كان يوم الفتح ، ونظر فيه بأن السورة نزلت قبله .

وقال ابن إسحاق : حدثني من لاأتهم عن عِكْرِمَة مولى ابن عباس أن قريشاً كانوا بعثوا أربعين رجلاً منهم أو خمسين ، وأمروهم أن يطوفوا بعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصيبوا من أصحابه أخذاً ، فأخذوا أخذاً . فأتى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعفا عنهم ، وخلى سبيلهم . وقد كانوا رموا في عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجارة والنبل . قال ابن إسحاق : ففي ذلك قال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ الآية .

وروى ابن جرير عن مجاهد قال : أقبل معتمراً نبي الله صلى الله عليه وسلم . فأخذ أصحابه ناساً من أهل الحرم غافلين ، فأرسلهم النبي صلى الله عليه وسلم . فذلك الإظفار ببطن مكة .

قال قتادة : بطن مكة ، الحديبية .

﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ﴾ أي : فيجازيكم عليه .

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاء لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ [25]

.

(269/715)

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي : هؤلاء المشركون من قريش ، هم الذين جحدوا توحيد الله :

﴿ وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ ﴾ أي : وصدوا الهدي أيضاً ، وهو ما يهدى إلى مكة من النعم : ﴿ مَعْكُوفاً ﴾ أي : محبوساً . قال السمين : يقال : عكفت الرجل عن حاجته إذا حبسته عنها . وأنكر الفارسي تعدية عكف بنفسه ، وأثبتها ابن سيده ، والأزهري وغيرهما ، وهو ظاهر القرآن ، لبناء اسم المفعول منه . انتهى .

وقوله تعالى : ﴿ أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ قال ابن جرير : أي : محل نحره . وذلك دخول الحرم ، والموضع الذي إذا صار إليه حلّ نحره ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ساق معه

حين خرج إلى مكة في سفرته تلك ، سبعين بدنة .

وفي الآية دليل على أن محل ذبح الهدي ، الحرم .

﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ ﴾ أي : موجودون بمكة مع الكفار : ﴿ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ أي : بصفة الإيمان وهم بمكة ، حبسهم المشركون بها عنكم ، فلا يستطيعون من أجل ذلك الخروج إليكم ﴿ أَن تَطَؤُوهُمْ ﴾ أي : تقتلوهم مع الكفار ، لو أذن لكم في الفتح بدل الصلح . قال السمين : ﴿ أَن تَطَؤُوهُمْ ﴾ يجوز أن يكون بدلاً من رجال ونساء ، غلب الذكور ، وأن يكون بدلاً من مفعول : ﴿ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ . فالتقدير على الأول : ولولا وطء رجال ونساء غير معلومين . وتقدير الثاني : لم تعلموا وطأهم ، والخبر محذوف تقديره : ولولا رجال ونساء موجودون ، أو بالحضرة . انتهى .

﴿ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ ﴾ أي : إثم وغرامة . من عرّه إذا عراه ما يكرهه . وقوله : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ حال من الضمير المرفوع في : ﴿ تَطَؤُوهُمْ ﴾ أي : تطؤوهم غير عالمين بهم .

وفي جواب : ﴿ لَوْلَا ﴾ أقوال :

أحدها – أنه محذوف لدلالة الكلام عليه . والمعنى : ولولا كراهة أن تهلكوا ناساً مؤمنين بين ظهراني المشركين ، وأنتم غير عارفين بهم ، فيصيبكم بإهلاكهم مكروه ومشقة ، لما كف أيديكم عنهم ، ولأذن لكم في دخول مكة مقاتليهم .

والثاني – أنه مذكور ، وهو : ﴿ لَعَذَّبْنَا ﴾ وجواب لو هو المحذوف . فحذف من الأول لدلالة الثاني ، ومن الثاني لدلالة الأول .

والثالث – أن قوله : ﴿ لَعَذَّبْنَا ﴾ جوابهما معاً ، وهو بعيد إن أريد حقيقة ذلك .

وذكر الزمخشري قريباً من هذا فإنه قال : ويجوز أن يكون : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا ﴾ كالتكرير لـ : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ ﴾ لمرجعهما لمعنى واحد ، ويكون : ﴿ لَعَذَّبْنَا ﴾ هو الجواب .

ومنع الشيخ رجوعهما لمعنى واحد ، قال : لأن ما تعلق به الأول غير ما تعلق به الثاني – أفاده السمين – .

وأجاب الناصر بقوله : وإنما كان مرجعهما ههنا واحدا ، وإن كانت لولا تدل على امتناع لوجود ، ولو تدل على امتناع لامتناع . وبين هذين تناف ظاهر ؛ لأن لولا ههنا دخل على وجود ، ولو دخلت على قوله : ﴿ تَزَيَّلُوا ﴾ وهو راجع إلى عدم وجودهم . وامتناع عدم الوجود وجود . فآلا إلى أمر واحد من هذا الوجه . قال : وكان جدي رحمه الله يختار هذا الوجه الثاني ، ويسميه تطرية . وأكثر ما تكون إذا تطاول الكلام ، وبعد عهد أوله ، واحتيج إلى رد الآخر على الأول ، فمرة يطري بلفظه ، ومرة بلفظ آخر يؤدي مؤادّه وقد

تقدمت لهما أمثال .

تنبيه :

(271/715)

فسر ابن إسحاق المعرة بالدية ، ذهاباً إلى أن دار الحرب لا تمنع من ذلك . وهو مذهب الشافعي . وذهب غيرهما إلى أنها تمنع من ذلك ، ومنهم ابن جرير ، حيث قال : المعرة هي كفارة قتل الخطأ ، وذلك عتق رقبة مؤمنة لمن أطاق ذلك ، ومن لم يطق فصيام شهرين . قال : وإنما اخترت هذا القول ، دون القول الذي قاله ابن إسحاق ، لأن الله إنما أوجب على قاتل المؤمن في دار الحرب – إذا لم يكن هاجر منها ، ولم يكن قاتِله علم إيمانه – الكفارةَ دون الدية فقال : ﴿ فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾ لم يوجب على قاتله خطأً ديته ، فلذلك قلنا : عنى بالمعرة في هذا الموضع الكفارة . انتهى .

﴿ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاء ﴾ متعلق بما يدل عليه الجواب المحذوف ، كأنه قيل عقيبه : لكن كفها عنهم ، ولم يأذن لكم في مقاتلتهم ، ليدخلكم في رحمته الكاملة بحفظكم من المعرة . وقد جوّز أن يكون : ﴿ مَن يَشَاءُ ﴾ عبارة عمن رغب في الإسلام من المشركين ، وعليه اقتصر ابن جرير ، قال : أي : ليدخل الله في الإسلام من أهل مكة من

يشاء ، قبل أن تدخلوها . وناقش فيه أبو السعود بأن ما بعده من فرض التنزيل ، وترتيب التعذيب عليه ، يأباه .

﴿ لَوْ تَزَيَّلُواْ ﴾ أي : لو تميز مشركو مكة من الرجال المؤمنين ، والنساء المؤمنات ، الذين لم تعلموهم منهم : ﴿ لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ أي : بالقتل ، أو الأسر ، أو نوع آخر من العذاب الآجل .

تنبيه :

قال إلكيا الهراسي : في الآية دليل على أنه لا يجوز حرق سفينة الكفار ، إذا كان فيهم أسرى من المسلمين ، وكذلك رمي الحصون إذا كانوا بها ، والكفار إذا تترسوا بهم .

(272/715)

﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ [26] .

﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ قال ابن جرير : وذلك حين جعل سهيل بن عَمْرو في قلبه الحمية ، فامتنع أن يكتب في كتاب المقاضاة الذي كتب بين

رسول الله صلى الله عليه وسلم والمشركين : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ، وأن يكتب فيه : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ وامتنع هو وقومه من دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم عامه ذلك . والعامل في الظرف إما لعذبنا ، أو صدوكم ، أو اذكر مقدراً ، فيكون مفعولاً به . والحمية الأنفة ، وهي الاستكبار والاستنكاف ، مصدر من حمى من كذا حمية .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ عطف على منويّ . أي : فهم المسلمون أن يأبوا ذلك ، ويقاتلوا عليهم ، فأنزل الله سكينته على رسوله ، وعلى المؤمنين . يعني : الوقار والتثبيت ، حتى صالحوهم على أن يعودوا من قابل ، وعلى ما تقدم .

﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ﴾ أي : اختارها لهم ، فالإلزام مجاز عما ذكر من اختيارها لهم ، وأمرهم بها . : ﴿ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا ﴾ قال أبو السعود : أي : متصفين بمزيد استحقاق لها . على أن صيغة التفضيل للزيادة مطلقاً . وقيل : أحق بها من الكفار ﴿ وَأَهْلَهَا ﴾ أي : المستأهل لها ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ . قال أبو السعود : أي : فيعلم حق كل شيء ، فيسوقه إلى مستحقه .

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ [27] .

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ﴾ .

قال ابن جرير : أي : لقد صدق الله رسوله محمداً رؤياه التي أرها إياه أنه يدخل هو وأصحابه بيت الله الحرام آمنين ، لا يخافون أهل الشرك ، مقصراً بعضهم رأسه ، ومحلقاً بعضهم . ثم روي عن مجاهد أنه قال : أُري بالحديبية أنه يدخل مكة وأصحابه محلقين ، فقال أصحابه حين نحر بالحديبية : أين رؤيا محمد صلى الله عليه وسلم ؟

وعن ابن زيد قال : قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : إني قد رأيت أنكم ستدخلون المسجد الحرام محلقين رؤوسكم مقصرين ، فلما نزل بالحديبية ، ولم يدخل ذلك العام ، طعن المنافقون في ذلك فقالوا : أين رؤياه ؟ فقال الله : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﴾ الآية ، إني لم أُره يدخلها هذا العام ، وليكونن ذلك . و : ﴿ الرُّؤْيَا ﴾ منصوب بنزع الخافض ، أي : صدقه في رؤياه . أي : حقق صدقها عنده ، كما هو عادة الأنبياء عليهم السلام ، ولم يجعلها أضغاث أحلام . أو منصوب على أنه مفعول ثان ، وهو ما قاله الكرماني ، وعبارته

: كذب ، يتعدى إلى مفعولين ، يقال : كذبني الحديث ، وكذا صدق ، كما في الآية . وهو غريب لتعدي المثقل لواحد ، والمخفف لمفعولين .

وقوله : ﴿ بِالْحَقِ ﴾ حال من الرؤيا ؛ أي : متلبسة بالحق ، ليست من قبيل أضغاث الأحلام .

وقوله : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ﴾ جواب قسم محذوف ؛ أي : والله ! لتدخلن .

(274/715)

وقوله : ﴿ إِن شَاءَ اللَّهُ ﴾ تعليق للعدة بالمشيئة ، لتعليم العباد ، أو للإشعار بأن بعضهم لا يدخل ، فهو في معنى : ليدخلنّه من شاء الله دخوله منكم . أو حكاية لما قاله ملك الرؤيا ، أو النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه .

وقوله : ﴿ مُحَلِّقِينَ ﴾ حال مقدرة ، لأن الدخول في حال الإحرام ، لا في حال الحلق والتقصير . وفي الكلام تقدير ، أو هو من نسبة ما للجزء إلى الكل . والمعنى : محلقاً بعضكم ، ومقصراً آخرون . والقرينة عليه : أنه لا يجتمع الحلق والتقصير ، فلا بد من نسبة كل منهما لبعض منهم .

وثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : < رحم الله المحلقين ! >

قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : < رحم الله المحلقين ؟ > قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : < رحم الله المحلقين ! > قالوا : والمقصرين يا رسول الله ! قال : < والمقصرين ! >

وقوله تعالى : ﴿ لاَ تَخَافُونَ ﴾ حال مؤكدة لقوله : ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ أو مؤسسة ، لأن اسم الفاعل للحال والمضارع للاستقبال ، فيكون أثبت لهم الأمن حال الدخول . ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد ، لا يخافون من أحد .

قال الحافظ ابن كثير : وهذا كان في عَمْرة القضاء ، في ذي القعدة سنة سبع ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما رجع من الحديبية في ذي القعدة ، رجع إلى المدينة ، فأقام بها ذا الحجة ومحرم ، وخرج في صفر إلى خيبر ، ففتحها الله عليه ، بعضها عنوة ، وبعضها صلحاً ، وهي إقليم عظيم ، كثير النخل والزروع ، فاستخدم من فيها من اليهود عليها ، على الشطر ، وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم ، ولم يشهدها أحد غيرهم ، إلا الذين قدموا من الحبشة : جعفر بن أبي طالب ، وأصحابه ، وأبو موسى الأشعري ، وأصحابه رضي الله عنهم ، ولم يغب منهم أحد .

قال ابن زيد : إلا أبا دجانة سِمَاك بن خرشة ، كما هو مقرر في موضعه . ثم رجع المدينة ، فلما كان في ذي القعدة من سنة سبع ، خرج صلى الله عليه وسلم إلى مكة معتمراً ، هو وأهل الحديبية ، فأحرم من ذي الحليفة ، ساق معه الهدي . قيل : كان ستين بدنة . فلبى ، وسار وأصحابه يلبون ، قريباً من مر الظهران ، بعث محمد بن سلمة بالخيل والسلاح أمامه ، فلما رآه المشركون رعبوا رعباً شديداً ، وظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزوهم ، وأنه قد نكث العهد الذي بينهم وبينه ، من وضع القتال عشر سنين ، فذهبوا فأخبروا أهل مكة . فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل بمر الظهران ، حيث ينظر إلى أنصاب الحرم ، بعث السلاح من القسي ، والنبل ، والرماح إلى بطن يأجج ، وسار بالسيوف إلى مكة مغمدة في قربها ، كما شارطهم عليه . فلما كان في أثناء الطريق ، بعثت قريش مكرز بن حفص فقال : يا محمد ! ما عرفناك تنقض العهد ! فقال صلى الله عليه وسلم : < وما ذاك ؟ > قال : دخلت علينا بالسلاح ، القسي والرماح ! فقال صلى الله عليه وسلم : < لم يكن ذلك ، وقد بعثنا به إلى يأجج ؟ > فقال : بهذا عرفناك ، بالبر والوفاء . وخرجت رؤوس الكفار من مكة ، لئلا ينظروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلى أصحابه رضي الله عنهم [في المطبوع : عنه] ، غيظاً وحنقاً . وأما بقية أهل مكة من الرجال ، والنساء ، والولدان فجلسوا في الطرق ، وعلى البيوت ، ينظرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه ، فدخلها عليه الصلاة والسلام ، وبين يديه

أصحابه يلبون ، والهدي قد بعثه إلى ذي طوى ، وهو راكب ناقته القصواء ، التي كان راكبها يوم الحديبية ، وعبد الله بن رواحة الأنصاري آخذ بزمام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول :

~بِاسْمِ الَّذِيْ لَا دِيْنَ إِلَّا دِيْنُهُ بِاسْمِ الَّذِيْ مُحَمَّدٌ رَسُوْلُهُ

(276/715)

~خَلُّوْا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيْلِهِ الْيَوْمَ نَضْرِبُكُمْ عَلَى تَأْوِيْلِهِ

~كَمَا ضَرَبْنَاكُمْ عَلَى تَنْزِيْلِهِ ضَرْبًا يُزِيْلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيْلِهِ

~وَيُذْهِلُ الْخَلِيْلَ عَنْ خَلِيْلِهِ قَدْ أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ فِيْ تَنْزِيْلِهِ

~فِيْ صُحُفٍ تُتْلَى عَلَى رَسُوْلِهِ بِأَنَّ خَيْرَ الْقَتْلِ فِيْ سَبِيْلِهِ

~يَا رَبِّ ! إِنِّيْ مُؤْمِنٌ بِقِيْلِهِ

وروى الإمام أحمد من طريق أبي الطفيل عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل مرّ الظهران في عمرته ، بلغ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قريشاً تقول : ما يتباعثون من العجف ؟ فقال أصحابه : لو انتحرنا ، من ظهرنا ، فأكلنا من لحمه ، وحسونا من مرقه ، وأصبحنا غداً حين ندخل على القوم ، وبنا جمامة . قال صلى الله

عليه وسلم : < لا تفعلوا ، ولكن اجمعوا لي من أزوادكم > فجمعوا له ، وبسطوا الأنطاع ، فأكلوا حتى تولوا ، وحثا كل واحد منهم في جرابه . ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل المسجد ، وقعدت قريش نحو الحِجر فاضطبع صلى الله عليه وسلم بردائه ، ثم قال : < لا يرى القوم فيكم غميزة > فاستلم الركن ، ثم دخل حتى إذا تغيب بالركن اليماني مشى إلى الركن الأسود ، فقالت قريش : ما يرضون بالمشي إنهم لينقزون نقز الظباء ؟ ففعل ذلك ثلاثة أطواف ، فكانت سنّة .

(277/715)

قال أبو الطفيل : فأخبرني ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك في حجة الوداع . وروى أحمد من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مكة ، وقد وهنتهم حمى يثرب ، ولقوا منها سوءاً ، فقال المشركون : إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب ، ولقوا منها شراً ، وجلس المشركون من الناحية التي تلي الحجر ، فأطلع الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم على ما قالوا ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُرملوا الأشواط الثلاثة ، ليرى المشركون جلدهم . قال ، فرملوا ثلاثة أشواط ، وأمرهم أن يمشوا بين الركنين ، حيث لا

يراهم المشركون . وفي رواية : ولم يمنع النبي صلى الله عليه وسلم أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم .

وفي ابن كثير زيادة من الأحاديث في هذا الباب ، فليراجعها من أحب الزيادة .

وقوله تعالى : ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا ﴾ أي : من الخيرة ، والمصلحة في صرفكم عن مكة ، ودخولكم إليها ، عامكم ذلك .

(278/715)

قال ابن جرير : وذلك علمه تعالى ذكره بما بمكة من الرجال ، والنساء المؤمنين لم يعلمهم المؤمنون ، ولو دخلوها في ذلك العام لوطئوهم بالخيل والرجل ، فأصابهم منهم معرة بغير علم ، فردهم الله عن مكة من أجل ذلك . وليدخل في رحمته من يشاء ممن يريد أن يهديه ﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ ﴾ أي : قبل دخولكم الذي وعدتم به في رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ يعني الصلح الذي جرى بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين مشركي قريش ، أو فتح خيبر ، لتستروح إليه قلوب المؤمنين ، إلى أن يتيسر الفتح الموعود . وإلى الأول ذهب الزهري ، قال : يعني صلح الحديبية . وما فتح في الإسلام فتح كان أعظم منه ، إنما كان القتال حيث التقى الناس . فلما كانت الهدنة ، وضعت الحرب ،

وأمن الناس كلهم بعضهم بعضاً ، فالتقوا ، فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، فلم يكلم أحد بالإسلام ، يعقل شيئاً ، إلا دخل فيه . فلقد دخل في تينك السنتين في الإسلام مثل من كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر . ووافقه مجاهد ، وإلى الثاني ذهب ابن زيد .

قال ابن جرير : والصواب أن يعم فيقال : جعل الله من دون ذلك كليهما .

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ [28] .

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى ﴾ أي : البيان الواضح : ﴿ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ أي : الإسلام . وقال المهايمي : ﴿ بِالْهُدَى ﴾ أي : الدلائل القطعية : ﴿ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ أي : الاعتقادات الصائبة المطابقة لما هو الواقع أشد مطابقة .

(279/715)

وقال ابن كثير : أي : بالعلم النافع ، والعمل الصالح ، فإن الشريعة تشتمل على شيئين : علم وعمل . فالعلم الشرعي صحيح ، والعمل الشرعي مقبول ، فإخباراتها حق ، وإنشاءاتها عدل ﴿ لِيُظْهِرَهُ ﴾ أي : ليعليه : ﴿ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ قال ابن جرير : أي : ليبطل به الملل كلها ، حتى لا يكون دين سواه . وذلك حين ينزل عيسى ابن مريم ، فيقتل الدجال ،

فحينئذ تبطل الأديان كلها ، غير دين الله الذي بعث به محمداً صلى الله عليه وسلم ، ويظهر الإسلام على الأديان كلها . انتهى .

وقال ابن تيمية : قد أظهره الله علماً ، وحجةً ، وبياناً على كل دين ، كما أظهره قوة ونصراً وتأييداً ، وقد امتلأت الأرض منه ، ومن أمته في مشارق الأرض ، ومغاربها ، وسلطانهم دائم لا يقدر أحد أن يزيله ، كما زال ملك اليهود ، وزال ملك من بعدهم عن خيار الأرض ، وأوسطها . انتهى .

﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ أي : على أن ما وعده من إظهار دينه على جميع الأديان ، أو الفتح أو المغانم كائن . قال الحسن : شهد لك على نفسه أنه سيظهر دينك على الدين كله . قال ابن جرير : وهذا إعلام من الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ، والذين كرهوا الصلح يوم الحديبية من أصحابه أن الله فاتح عليهم مكة ، وغيرها من البلدان ، مسلّيهم بذلك عما نالهم من الكآبة والحزن ، بانصرافهم عن مكة قبل دخولها ، وقبل طوافهم بالبيت .

(280/715)

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ

وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ [29] .

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ أي : أصحابه : ﴿ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ ﴾ أي : لهم شدة وغلظة على الكفار المحاربين لهم ، الصادّين عن سبيل الله ، وعندهم تراحم فيها بينهم ، كقوله تعالى : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة : 54] .

لطائف :

الأولى – جوز في : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ﴾ أن يكونا مبتدأ وخبراً ، وأن يكون : ﴿ رَّسُولُ اللَّهِ ﴾ صفة ، أو عطف بيان ، أو بدلاً ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ عطف عليه . وخبرهما : ﴿ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ ﴾ .

الثانية – قال الشهاب : قوله تعالى : ﴿ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ ﴾ تكميل ، لو لم يذكر لربما توهم أنهم لاعتيادهم الشدة على الكفار قد صار ذلك لهم سجية في كل حال ، وعلى كل أحد . فلما قيل : ﴿ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ ﴾ اندفع ذلك التوهم ، فهو تكميل واحتراس ، كما في الآية المتقدمة ، فإنه لما قيل : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ربما توهم أن مفهوم القيد غير معتبر ، وأنهم موصوفون بالذل دائماً ، وعند كل أحد ، فدفع بقوله : ﴿ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

فهو كقوله :

~حَلِيْمٌ إِذَا مَا الْحُلْمُ زَيَّنَ أَهْلَهُ عَلَى أَنَّهُ عِنْدَ الْعَدُوِّ مَهِيْبُ

(281/715)

الثالثة – قال المهايمي : تفيد الآية أن دين الحق قد ظهر في أصحابه صلوات الله عليه ، إذ اعتدلت قوتهم الغضبية ! بتبعية اعتدال المفكرة والشهوية ؛ إذ هم أشداء على الكفار ، لرسوخهم في صحة الاعتقاد ، بحيث يغارون على من لم يصح اعتقاده ، رحماء بينهم ، لعدم ميلهم إلى الشهوات . هذا باعتبار الأخلاق ، وأما باعتبار الأعمال ، فأنت : ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً ﴾ قال ابن كثير : وصفهم بكثرة العمل ، وكثرة الصلاة ، وهي خير الأعمال . ووصفهم بالإخلاص فيها لله عز وجل ، والاحتساب عند الله تعالى جزيل الثواب ، وهو الجنة المشتملة على فضل الله عز وجل ، وهو سعة الرزق عليهم ورضاه تعالى عنهم ! وهو أكبر من الأولى ، كما قال جل وعلا : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة : 72] انتهى .

﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم ﴾ مبتدأ وخبر ، أي : علامتهم كائنة فيها . وقوله تعالى : ﴿ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ بيان للسيما ، كأنه قيل : سيماهم التي هي أثر السجود ، أو حال من

المستكن في وجوههم .

قال الشهاب : وهي على ما قبله خبر مبتدأ تقديره : هي من أثر السجود . انتهى . وهل الوجوه مجاز عن الذوات ، أو حقيقة ؟ في معناها تأويلان للسلف ، فعن ابن عباس : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم ﴾ يعني السمت الحسن . وقال مجاهد وغير واحد ، يعني الخشوع والتواضع . وقال منصور لمجاهد : ما كنت أراه إلا هذا الأثر في الوجه ، فقال مجاهد ، ربما كان بين عيني من هو أقسى قلباً من فرعون .

وقال بعض السلف : من كثرت صلاته بالليل ، حسن وجهه بالنهار . وقد رفعه ابن ماجه . والصحيح أنه موقوف . وقال بعضهم : عن للحسنة لنوراً في القلب ، وضياء في الوجه ، وسعة في الرزق ، ومحبة في قلوب الناس . وقال أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه : ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه ، وفلتات لسانه .

(282/715)

وروى الطبراني مرفوعا : < ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله تعالى رداءها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر > وإسناده واه ؛ لأن فيه العرزمي [في المطبوع : العزرمي] وهو متروك .

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : < لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ، ليس لها باب ولا كوة ، لخرج عمله للناس كائناً ما كان > .

وأخرج أيضاً عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : < إن الهدى الصالح ، والسمت الصالح والاقتصاد ، جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة > . ورواه أبو داود أيضاً .

والتأويل الثاني في الآية ، أن ذلك آثار ترى في الوجه من ثرى الأرض ، أو ندى الطهور . روي ذلك عن ابن جبير وعكرمة . وقد كان ذلك في العهد النبوي ، حيث لا فراش للمسجد إلا ترابه وحصباؤه .

وكل من المعنيين من سيماهم رضي الله عنهم وأرضاهم .

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي : الوصف : ﴿ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ﴾ أي : صفتهم العجيبة فيها : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ أي : فراخه ، أو سنبله ، أو نباته : ﴿ فَآزَرَهُ ﴾ أي : قواه : ﴿ فَاسْتَغْلَظَ ﴾ أي : فغلظ الزرع واشتد . فالسين للمبالغة في الغلظ ، أو صار من الدقة إلى الغلظ : ﴿ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ ﴾ أي : استقام على قصبه . والسوق جمع ساق : ﴿ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ﴾ أي : يعجب هذا الزرع الذي استغلظ فاستوى على سوقه في تمامه ، وحسن نباته ، وبلوغه وانتهائه ، الذين زرعوه . وقوله تعالى

: ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ تعليل لما دل عليه تشبيههم بالزرع من نمائهم وقوتهم ، كأنه قيل : إنما قوّاهم وكثّرهم ليغيظ بهم الكفار .

لطائف :

الأولى : يجوز في قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ ﴾ وجهان :

أحدهما – أنه مبتدأ ، وخبره : ﴿ كَزَرْعٍ ﴾ فيوقف على قوله : ﴿ فِي التَّوْرَاةِ ﴾ فهما مثلان ، وإليه ذهب ابن عباس .

(283/715)

والثاني – أنه معطوف على : ﴿ مَثَلُهُمْ ﴾ الأول ، فيكون مثلاً واحداً في الكتابين ، ويوقف حينئذ على : ﴿ فِي الْإِنجِيلِ ﴾ ، وإليه نحا مجاهد والفراء ، ويكون قوله : ﴿ كَزَرْعٍ ﴾ في هذا فيه أوجه :

أحدهما – أنه خبر مبتدأ مضمر . أي : مثلهم كزرع ، فسر به المثل المذكور في الإنجيل .

الثاني – أنه حال من الضمير في : ﴿ مَثَلُهُمْ ﴾ أي : مماثلين زرعاً هذه صفته .

الثالث – أنه نعت مصدر محذوف ، أي : تمثيلاً كزرع – ذكره أبو البقاء – .

قال الزمخشري : ويجوز أن يكون : ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة مبهمة أوضحت بقوله : ﴿ كَزَرْعٍ

﴿ كقوله : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ ﴾ [الحجر : 66] ، - أفاده السمين - .

الثانية - قال السمين : الضمير المستتر في : ﴿ فَآزَرَهُ ﴾ للزرع ، والبارز للشطء .

وعكس النسفي ، فجعل المستتر للشط ، والبارز للزرع . أي : فقوي الشطء بكثافة الزرع وكثافته كثرة فروعه وأوراقه . قال الجمل : وما صنعه النسفي أنسب ؛ فإن العادة أن الأصل يتقوى بفروعه ، فهي تعينه وتقويه .

الثالثة - قال السمين : ﴿ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ﴾ حال . أي : حال كونه معجباً ، وهنا تمّ المثل

.

الرابعة - قال الزمخشري : هذا مثل ضربه الله لبدء أمر الإسلام ، وترقّيه في الزيادة ، إلى أن قوي واستحكم ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قام وحده ، ثم قوّاه الله بمن آمن معه ، كما يقوّي الطاقة الأولى من الزرع ، ما يحتف بها مما يتولد منها حتى يعجب الزراع . وهذا ما قاله البغوي من أن الزرع : محمد ، والشطء : أصحابه والمؤمنون ، فجعلا التمثيل للنبي صلى الله عليه وسلم وأمته .

وأما القاضي فجعله مثالاً للصحابة فقط . وعبارته : وهو مثل ضربه الله تعالى للصحابة ، قلّوا في بدء الإسلام ، ثم كثروا واستحكموا ، فترقّى أمرهم ، بحيث أعجب الناس .

قال الشهاب : ولكل وجهة .

الخامسة – قال ابن كثير : من هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمة الله عليه ، في رواية عنه ، تكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة رضي الله عنهم . قال : لأنهم يغيظونهم ، ومن غاظ الصحابة ، فهو كافر لهذه الآية . ووافقه طائفة من العلماء على ذلك – انتهى كلام ابن كثير – .

ولا يخفاك أن هذا خلاف ما اتفق عليه المحققون من أهل السنة والجماعة من أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة ، كما بسط في كتاب العقائد ، وأوضحه النووي في " شرح مقدمة مسلم " ، وقبله الإمام الغزالي في كتابه " فيصل التفرقة " . وقد كان من جملة البلاء في القرون الوسطى التسرع من الفقهاء بالتفكير والزندقة . وكم أريقت دماء في سبيل التعصب لذلك ، كما يمر كثير منهم بقارئ التاريخ . على أن كلمة الأصوليين اتفقت على أن المجتهد كيفما كان ، مأجور غير مأزور ، ناهيك بمسألة عد التهم المتعددة أقوالها ، حتى في أصغر كتاب في الأصول كمثل " جمع الجوامع " . نعم ، إن التطرف والغلوّ في المباحث ليس من شأن الحكماء المنصفين . وإذا اشتد البياض صار برصاً .

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي : صدقوا الله ورسوله : ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم

مَّغْفِرَةً ﴾ أي : عفواً عما مضى من ذنوبهم ، وسيء أعمالهم بحسنها ﴿ وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ أي : ثواباً جزيلاً ، وهو الجنة انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 15 صـ 398. 414 ﴾

(285/715)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾

هذا الدرس كله حديث عن المؤمنين ، وحديث مع المؤمنين . مع تلك المجموعة الفريدة السعيدة التي بايعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تحت الشجرة . والله حاضر البيعة وشاهدها وموثقها ، ويده فوق أيديهم فيها . تلك المجموعة التي سمعت الله تعالى يقول عنها لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما في قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريبا ﴾ . . وسمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول لها : " أنتم اليوم خير أهل الأرض " .

حديث عنها من الله سبحانه وتعالى إلى رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحديث معها من الله سبحانه وتعالى : يبشرها بما أعد لها من مغانم كثيرة وفتوح ؛ وما أحاطها به من رعاية

وحماية في هذه الرحلة ، وفيما سيتلوها ؛ وفيما قدر لها من نصر موصول بسنته التي لا ينالها التبديل أبداً . ويندد بأعدائها الذين كفروا تنديداً شديداً . ويكشف لها عن حكمته في اختيار الصلح والمهادنة في هذا العام . ويؤكد لها صدق الرؤيا التي رآها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند دخول المسجد الحرام . وأن المسلمين سيدخلونه آمنين لا يخافون . وأن دينه سيظهر على الدين كله في الأرض جميعاً .

ويختم الدرس والسورة بتلك الصورة الكريمة الوضيئة لهذه الجماعة الفريدة السعيدة من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصفتها في التوراة وصفتها في الإنجيل ، ووعد الله لها بالمغفرة والأجر العظيم . .

﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما في قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحاً قريباً ، ومغانم كثيرة يأخذونها ، وكان الله عزيزاً حكيما ﴾ . .

(286/715)

وإنني لأحاول اليوم من وراء ألف وأربعمائة عام أن أستشرف تلك اللحظة القدسية التي شهد فيها الوجود كله ذلك التبليغ العلوي الكريم من الله العلي العظيم إلى رسوله الأمين عن

جماعة المؤمنين . أحاول أن أستشرف صفحة الوجود في تلك اللحظة وضميره المكنون ؛ وهو يتجاوب جميعه بالقول الإلهي الكريم ، عن أولئك الرجال القائمين إذ ذاك في بقعة معينة من هذا الوجود . وأحاول أن أستشعر بالذات شيئاً من حال أولئك السعداء الذين يسمعون بآذانهم ، أنهم هم ، بأشخاصهم وأعيانهم ، يقول الله عنهم . لقد رضي عنهم . ويحدد المكان الذي كانوا فيه ، والهيئة التي كانوا عليها حين استحقوا هذا الرضى : ﴿ إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ . . يسمعون هذا من نبيهم الصادق المصدوق ، على لسان ربه العظيم الجليل . .

يا لله ! كيف تلقوا – أولئك السعداء – تلك اللحظة القدسية وذلك التبليغ الإلهي ؟ التبليغ الذي يشير إلى كل أحد ، في ذات نفسه ، ويقول له : أنت .

أنت بذاتك . يبلغك الله . لقد رضي عنك . وأنت تبايع . تحت الشجرة ! وعلم ما في نفسك . فأنزل السكينة عليك !

إن الواحد منا ليقرأ أو يسمع ﴿ الله ولي الذين آمنوا ﴾ فيسعد . يقول في نفسه : ألست أطمع أن أكون داخلاً في هذا العموم ؟ ويقرأ أو يسمع : ﴿ إن الله مع الصابرين ﴾ فيطمئن . يقول في نفسه : ألست أرجو أن أكون من هؤلاء الصابرين ؟ وأولئك الرجال يسمعون ويبلغون . واحداً واحداً . أن الله يقصده بعينه وبذاته . ويبلغه : لقد رضي عنه ! وعلم ما في نفسه . ورضي عما في نفسه !

يا لله ! إنه أمر مهول !

﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ . . ﴿ فعلم ما في قلوبهم . فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريبا ﴾ . .

علم ما في قلوبهم من حمية لدينهم لا لأنفسهم . وعلم ما في قلوبهم من الصدق في بيعتهم . وعلم ما في قلوبهم من كظم لانفعالاتهم تجاه الاستفزاز ، وضبط لمشاعرهم ليقفوا خلف كلمة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - طائعين مسلمين صابرين .

(287/715)

﴿ فأنزل السكينة عليهم ﴾ . . بهذا التعبير الذي يرسم السكينة نازلة في هينة وهدوء ووقار ، تضفي على تلك القلوب الحارة المتحمسة المتأهبة المنفعلة ، برداً وسلاماً وطمأنينة وارتياحاً .

﴿ وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ . . هو هذا الصلح بظروفه التي جعلت منه فتحاً ، وجعلته بدء فتوح كثيرة . قد يكون فتح خيبر واحداً منها . وهو الفتح الذي يذكره أغلب المفسرين على أنه هو هذا الفتح القريب الذي جعله الله للمسلمين . .

﴿ ومغانم كثيرة يأخذونها ﴾ . . إما مع الفتح إن كان المقصود هو فتح خيبر . وإما تاليا له

، إن كان الفتح هو هذا الصلح ، الذي تفرغ به المسلمون لفتوح شتى .

﴿ وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ . . وهو تعقيب مناسب للآيات قبله . ففي الرضى والفتح والوعد بالغنائم تتجلى القوة والقدرة ، كما تتجلى الحكمة والتدبير . وبهما يتم تحقيق الوعد الإلهي الكريم .

وبعد ذلك التبليغ العلوي الكريم للرسول الأمين عن المؤمنين المبايعين يتجه بالحديث إلى المؤمنين أنفسهم . الحديث عن هذا الصلح ، أو عن هذا الفتح ، الذي تلقوه صابرين مستسلمين :

﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ، فجعل لكم هذه ، وكف أيدي الناس عنكم ، ولتكون آية للمؤمنين ، ويهديكم صراطاً مستقيماً . وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها ، وكان الله على كل شيء قديرا ﴾ . .

وهذه بشرى من الله للمؤمنين سمعوها وأيقنوها ، وعلموا أن الله أعد لهم مغانم كثيرة ، وعاشوا بعد ذلك ما عاشوا وهم يرون مصداق هذا الوعد الذي لا يخلف . وهنا يقول لهم : إنه قد عجل لهم هذه . وهذه قد تكون صلح الحديبية – كما روي عن ابن عباس – لتأكيد معنى أنه فتح ومغنم . وهو في حقيقته كذلك كما أسلفنا من قول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن وقائع الحال الناطقة بصدق هذا الاعتبار . كما أنها قد تكون فتح

خيبر - كما روي عن مجاهد - باعتبار أنها أقرب غنيمة وقعت بعد الحديبية .

والأول أقرب وأرجح .

(288/715)

ويمن الله عليهم بأنه كف أيدي الناس عنهم . وقد كف الله عنهم أيدي المشركين من قريش كما كف أيدي سواهم من أعدائهم الذين يتربصون بهم الدوائر . وهم قلة على كل حال ، والناس كثرة . ولكنهم وفوا ببيعتهم ، ونهضوا بتكاليفهم ، فكف الله أيدي الناس عنهم ، وأمنهم .

﴿ ولتكون آية للمؤمنين ﴾ . . هذه الوقعة التي كرهوها في أول الأمر ، وثقلت على نفوسهم . فالله ينبئهم أنها ستكون آية لهم ، يرون فيها عواقب تدبير الله لهم . وجزاء طاعتهم لرسول الله واستسلامهم . مما يثبت في نفوسهم أنها شيء عظيم ، وخير جزيل ، ويلقي السكينة في قلوبهم والاطمئنان والرضى واليقين .

﴿ ويهديكم صراطاً مستقيماً ﴾ . . جزاء طاعتكم وامتثالكم وصدق سريرتكم . وهكذا يجمع لهم بين المغنم ينالونه ، والهداية يرزقونها . فيتم لهم الخير من كل جانب . في كل جانب . في الأمر الذي كرهوه واستعظموه . وهكذا يعلمهم أن اختيار الله لهم هو الاختيار

؛ ويربي قلوبهم على الطاعة المطلقة والامتثال .

كذلك يمن عليهم ويبشرهم بأخرى غير هذه . لم يقدروا عليها بقوتهم ، ولكن الله تولاها عنهم بقدرته وتقديره : ﴿ وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها ، وكان الله على كل شيء قديرا ﴾ . .

وتختلف الروايات في هذه الأخرى . أهي فتح مكة ؟ أهي فتح خيبر ؟ أهي فتوح مملكتي كسرى وقيصر ؟ أهي فتوح المسلمين التي تلت هذه الوقعة جميعاً ؟

وأقرب ما يناسب السياق أن تكون هي فتح مكة . بعد صلح الحديبية وبسبب من هذا الصلح . الذي لم يدم سوى عامين ، ثم نقضه المشركون ، ففتح الله مكة للمسلمين بلا قتال تقريباً . وهي التي استعصت عليهم من قبل ، وهاجمتهم في عقر دارهم ، وردتهم عام الحديبية . ثم أحاط الله بها ، وسلمها لهم بلا قتال - ﴿ وكان الله على كل شيء قديراً ﴾ . . فهذه بشرى ملفوفة في هذا الموضع ، لم يحددها لأنها كانت عند نزول هذه الآية غيباً من غيب الله . أشار إليه هذه الإشارة لبث الطمأنينة والرضى والتطلع والاستبشار .

وبمناسبة هذه الإشارة إلى الغنيمة الحاضرة ، والغنيمة التي قد أحاط الله بها ، وهم في انتظارها ، يقرر لهم أنهم منصورون ؛ وأن الصلح في هذا العام لم يكن لأنهم ضعاف . أو لأن المشركين أقوياء . ولكنه تم لحكمة يريدها . ولو قاتلهم الذين كفروا لهزموا . فتلك سنة الله حيثما التقى المؤمنون والكافرون في موقعة فاصلة :

﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ، ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً . سنة الله التي قد خلت من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ . .

وهكذا يربط نصرهم وهزيمة الكفار بسنته الكونية الثابتة التي لا تتبدل . فأية سكينة ؟ وأية ثقة ؟ وأي تثبيت يجده أولئك المؤمنون في أنفسهم ؛ وهم يسمعون من الله أن نصرهم وهزيمة أعدائهم سنة من سننه الجارية في هذا الوجود ؟

وهي سنة دائمة لا تتبدل .

ولكنها قد تتأخر إلى أجل . ولأسباب قد تتعلق باستواء المؤمنين على طريقهم واستقامتهم الاستقامة التي يعرفها الله لهم . أو تتعلق بتهيئة الجو الذي يولد فيه النصر للمؤمنين والهزيمة للكافرين ، لتكون له قيمته وأثره . أو لغير هذا وذلك مما يعلمه الله . ولكن السنة لا تتخلف . والله أصدق القائلين : ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ . . .

كذلك يمن عليهم بكف أيدي المشركين عنهم ، وكف أيديهم عن المشركين من بعد ما أظفرهم على من هاجموهم . مشيراً إلى ذلك الحادث الذي أراد أربعون من المشركين أو

أكثر أو أقل أن ينالوا من معسكر المسلمين . فأخذوا وعفا عنهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

﴿ وهو الذي كف أيديهم عنكم ، وأيديكم عنهم ببطن مكة . من بعد أن أظفركم عليهم . وكان الله بما تعملون بصيراً ﴾ . .

(290/715)

وهو حادث وقع ، يعرفه السامعون ؛ والله يذكره لهم في هذا الأسلوب ، ليرد كل حركة وكل حادث وقع لهم إلى تدبيره المباشر ؛ وليوقع في قلوبهم هذا الإحساس المعين بيد الله سبحانه وهي تدبر لهم كل شيء ، وتقود خطاهم ، كما تقود خواطرهم ، ليسلموا أنفسهم كلها لله ، بلا تردد ولا تلفت ، ويدخلوا بهذا في السلم كافة ، بكل مشاعرهم وخواطرهم ، واتجاههم ونشاطهم ؛ موقنين أن الأمر كله لله ، وأن الخيرة ما اختاره الله ، وأنهم مسيرون بقدره ومشيئته فيما يختارون وفيما يرفضون . وأنه يريد بهم الخير . فإذا استسلموا له تحقق لهم الخير كله من أيسر طريق . وهو بصير بهم ، ظاهرهم وخافيهم ، فهو يختار لهم عن علم وعن بصر . ولن يضيعهم ، ولن يضيع عليهم شيئاً يستحقونه : ﴿ وكان الله بما تعملون بصيراً ﴾ . .

ثم يحدثهم عن خصومهم ، من هم في ميزان الله ؟ وكيف ينظر إلى أعمالهم وصدهم للمؤمنين عن بيته الحرام . وكيف ينظر إليهم هم عكس ما ينظر إلى خصومهم المعتدين :

﴿ هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام ، والهدي معكوفاً أن يبلغ محله ، ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم ، أن تطئوهم ، فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء . لو تَزَيَّلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليما . إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ؛ فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وألزمهم كلمة التقوى ، وكانوا أحق بها وأهلها ، وكان الله بكل شيء عليما ﴾

هم في ميزان الله واعتباره ، الكافرون حقاً ، الذين يستحقون هذا الوصف الكريه : ﴿ هم الذين كفروا ﴾ . . يسجله عليهم كأنهم متفردون به ، عريقون في النسبة إليه ، فهم أكره شيء إلى الله الذي يكره الكفر والكافرين ! كذلك يسجل عليهم فعلهم الكريه الآخر ، وهو صدهم للمؤمنين عن المسجد الحرام ، وصد الهدي وتركه محبوساً عن الوصول إلى محل ذبحه المشروع :

﴿ وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محله ﴾ .

(291/715)

.

وهي كبيرة في الجاهلية وفي الإسلام . كبيرة في الأديان كلها التي يعرفونها في الجزيرة من لدن أبيهم إبراهيم . كريهة في عرفهم وفي عقيدتهم وفي عقيدة المؤمنين . . فلم يكن إذن كف الله للمؤمنين عنهم بقيا عليهم لأن جرمهم صغير . كلا ! إنما كان ذلك لحكمة أخرى يتلطف الله سبحانه فيكشف عنها للمؤمنين :

﴿ ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم ، أن تطئوهم ، فتصيبكم منهم معرة بغير علم ﴾ . .

فلقد كان هنالك بعض المستضعفين من المسلمين في مكة لم يهاجروا ، ولم يعلنوا إسلامهم تقية في وسط المشركين . ولو دارت الحرب ، وهاجم المسلمون مكة ، وهم لا يعرفون أشخاصهم ، فربما وطأوهم وداسوهم وقتلوهم . فيقال : إن المسلمين يقتلون المسلمين ! ويلزمون بدياتهم حين يتبين أنهم قتلوا خطأً وهم مسلمون . .

ثم هنالك حكمة أخرى وهي أن الله يعلم أن من بين الكافرين الذين صدوهم عن المسجد الحرام ، من قسمت له الهداية ، ومن قدر له الله الدخول في رحمته ، بما يعلمه من طبيعته وحقيقته ؛ ولو تميز هؤلاء وهؤلاء لأذن الله للمسلمين في القتال ، ولعذب الكافرين العذاب الأليم :

﴿ ليدخل الله في رحمته من يشاء . لو تَزَيَّلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليما ﴾ . .

وهكذا يكشف الله للجماعة المختارة الفريدة السعيدة عن جانب من حكمته المغيبة وراء تقديره وتدبيره . ويمضي في وصف الذين كفروا . وصف نفوسهم من الداخل . بعد تسجيل صفتهم وعملهم الظاهر :

﴿ إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ﴾ . .

(292/715)

حمية لا لعقيدة ولا منهج . إنما هي حمية الكبر والفخر والبطر والتعنت . الحمية التي جعلتهم يقفون في وجه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه ، يمنعونهم من المسجد الحرام ، ويحبسون الهدي الذي ساقوه ، أن يبلغ محله الذي ينحر فيه . مخالفين بذلك عن كل عرف وعن كل عقيدة . كي لا تقول العرب ، إنه دخلها عليهم عنوة . ففي سبيل هذه النعرة الجاهلية يرتكبون هذه الكبيرة الكريهة في كل عرف ودين ؛ وينتهكون حرمة البيت الحرام الذي يعيشون على حساب قداسته ؛ وينتهكون حرمة الأشهر الحرم التي لم تنتهك في جاهلية ولا إسلام ! وهي الحمية التي بدت في تجبيههم لكل من أشار عليهم – أول الأمر – بخطة مسالمة ، وعاب عليهم صدّ محمد ومن معه عن بيت الله الحرام . وهي كذلك التي تبدت في رد سهيل بن عمرو لاسم الرحمن الرحيم ، ولصفة رسول الله ـ صلى الله عليه

وسلم ـ في أثناء الكتابة . وهي كلها تنبع من تلك الجاهلية المتعجرفة المتعنتة بغير حق .

وقد جعل الله الحمية في نفوسهم على هذا النحو الجاهلي ، لما يعلمه في نفوسهم من جفوة عن الحق والخضوع له . فأما المؤمنون فحماهم من هذه الحمية . وأحل محلها السكينة ، والتقوى :

﴿ فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين .

وألزمهم كلمة التقوى . وكانوا أحق بها وأهلها ﴾ . .

والسكينة الوقورة الهادئة ، كالتقوى المتحرجة المتواضعة كلتاهما تليق بالقلب المؤمن الموصول بربه ، الساكن بهذه الصلة . المطمئن بما فيه من ثقة . المراقب لربه في كل خالجة وكل حركة ، فلا يتبطر ولا يطغى ؛ ولا يغضب لذاته ، إنما يغضب لربه ودينه . فإذا أمر أن يسكن ويهدأ خشع وأطاع . في رضى وطمأنينة .

ومن ثم كان المؤمنون أحق بكلمة التقوى ، وكانوا أهلها . وهذا ثناء آخر من ربهم عليهم . إلى جانب الامتنان عليهم بما أنزل على قلوبهم من سكينة ، وما أودع فيها من تقوى . فهم قد استحقوها في ميزان الله ، وبشهادته ؛ وهو تكريم بعد تكريم ، صادر عن علم وتقدير :

﴿ وكان الله بكل شيء عليماً ﴾ . .

ولقد مر بنا أن بعض المؤمنين الذين خرجوا مستبشرين برؤيا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد هالهم ألا تتحقق الرؤيا هذا العام ؛ وأن يردوا عن المسجد الحرام . فالله يؤكد لهم صدق هذه الرؤيا ، وينبئهم أنها منه ، وأنها واقعة ولا بد . وأن وراءها ما هو أكبر من دخول المسجد الحرام أيضاً :

﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق : لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون . فعلم ما لم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيدا ﴾ . .

فأما البشرى الأولى . بشرى تصديق رؤيا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودخولهم المسجد الحرام آمنين ، وتحليقهم وتقصيرهم بعد انتهاء شعائر الحج أو العمرة ، لا يخافون . . فأما هذه فقد تحققت بعد عام واحد . ثم تحققت بصورة أكبر وأجلى بعد عامين اثنين من صلح الحديبية . إذ تم لهم فتح مكة ، وغلبة دين الله عليها .

ولكن الله سبحانه يؤدب المؤمنين بأدب الإيمان ؛ وهو يقول لهم : ﴿ لتدخلن المسجد الحرام - إن شاء الله ﴾ . . فالدخول واقع حتم ، لأن الله أخبر به . ولكن المشيئة يجب أن تظل في نفوس المسلمين في صورتها الطليقة لا يقيدها شيء ، حتى تستقر هذه الحقيقة في القلوب ، وتصبح هي قاعدة التصور للمشيئة الإلهية . والقرآن يتكئ على هذا المعنى ، ويقرر هذه

الحقيقة ، ويذكر هذا الاستثناء في كل موضع ، حتى المواضع التي يذكر فيها وعد الله . ووعد الله لا يخلف . ولكن تعلق المشيئة به أبداً طليق . إنه أدب يلقيه الله في روع المؤمنين ، ليستقر منهم في أعماق الضمير والشعور .

(294/715)

ونعود إلى قصة تحقيق هذا الوعد ؛ فقد ذكرت الروايات أنه لما كان ذو القعدة من سنة سبع – أي العام التالي لصلح الحديبية – خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى مكة معتمراً هو وأهل الحديبية . فأحرم من ذي الحليفة ، وساق معه الهدي – كما وأحرم وساق الهدي في العام قبله – وسار أصحابه يلبون .

فلما كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ قريباً من مر الظهران بعث محمد بن مسلمة بالخيل والسلاح أمامه . فلما رآه المشركون رعبوا رعباً شديداً ، وظنوا أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يغزوهم ، وأنه قد نكث العهد الذي بينهم وبينه من وضع القتال عشر سنين ، فذهبوا فأخبروا أهل مكة . فلما جاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم ، بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن ياجج ، وسار إلى مكة بالسيوف مغمدة في قُرُبها كما شارطهم عليه . فلما كان في أثناء الطريق

بعثت قريش مكرز بن حفص ، فقال : يا محمد ، ما عرفناك تنقض العهد . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " وما ذاك ؟ " قال : دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " لم يكن ذلك ، وقد بعثنا به إلى ياجج " فقال : بهذا عرفناك ، بالبر والوفاء !

وخرجت رؤوس الكفار من مكة لئلا ينظروا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإلى أصحابه – رضي الله عنهم – غيظاً وحنقاً . وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه . فدخلها ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين يديه أصحابه يلبون ، والهدي قد بعثه إلى ذي طوى ، وهو راكب ناقته القصواء التي كان راكبها يوم الحديبية ، وعبد الله بن رواحة الأنصاري آخذ بزمام الناقة يقودها .

(295/715)

وهكذا صدقت رؤيا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتحقق وعد الله . ثم كان الفتح في العام الذي يليه . وظهر دين الله في مكة . ثم ظهر في الجزيرة كلها بعد . ثم تحقق وعد الله وبشراه الأخيرة حيث يقول :

﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيدا ﴾ . .

فلقد ظهر دين الحق ، لا في الجزيرة وحدها ، بل ظهر في المعمور من الأرض كلها قبل مضي نصف قرن من الزمان . ظهر في امبراطورية كسرى كلها ، وفي قسم كبير من امبراطورية قيصر ، وظهر في الهند وفي الصين ، ثم في جنوب آسيا في الملايو وغيرها ، وفي جزر الهند الشرقية (أندونيسيا) . . وكان هذا هو معظم المعمور من الأرض في القرن السادس ومنتصف القرن السابع الميلادي .

وما يزال دين الحق ظاهراً على الدين كله – حتى بعد انحساره السياسي عن جزء كبير من الأرض التي فتحها ، وبخاصة في أوربا وجزر البحر الأبيض . وانحسار قوة أهله في الأرض كلها بالقياس إلى القوى التي ظهرت في الشرق والغرب في هذا الزمان .

أجل ما يزال دين الحق ظاهراً على الدين كله ، من حيث هو دين .

فهو الدين القوي بذاته ، القوي بطبيعته ، الزاحف بلا سيف ولا مدفع من أهله ! لما في طبيعته من استقامة مع الفطرة ومع نواميس الوجود الأصيلة ؛ ولما فيه من تلبية بسيطة عميقة لحاجات العقل والروح ، وحاجات العمران والتقدم ، وحاجات البيئات المتنوعة ، من ساكني الأكواخ إلى سكان ناطحات السحاب !

وما من صاحب دين غير الإسلام ، ينظر في الإسلام نظرة مجردة من التعصب والهوى حتى

يقر باستقامة هذا الدين وقوته الكامنة ، وقدرته على قيادة البشرية قيادة رشيدة ، وتلبية حاجاتها النامية المتطورة في يسر واستقامة . . ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ . .

(296/715)

فوعد الله قد تحقق في الصورة السياسية الظاهرة قبل مضي قرن من الزمان بعد البعثة المحمدية . ووعد الله ما يزال متحققاً في الصورة الموضوعية الثابتة ؛ وما يزال هذا الدين ظاهراً على الدين كله في حقيقته . بل إنه هو الدين الوحيد الباقي قادراً على العمل ، والقيادة ، في جميع الأحوال .

ولعل أهل هذا الدين هم وحدهم الذين لا يدركون هذه الحقيقة اليوم ! فغير أهله يدركونها ويخشونها ، ويحسبون لها في سياساتهم كل حساب !

والآن نجيء إلى ختام السورة . ختامها بتلك الصورة الوضيئة التي يرسمها القرآن لواقع صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبذلك الثناء الكريم على تلك الجماعة الفريدة السعيدة التي رضي الله عنها ، وبلغها رضاه فرداً فرداً :

﴿ محمد رسول الله . والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم رُكَّعاً سُجَّداً ، يبتغون فضلاً من الله ورضوانا ، سيماهم في وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم في

التوراة . ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه ، فآزره ، فاستغلظ ، فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ، ليغيظ بهم الكفار . وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما ﴾ .

إنها صورة عجيبة يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع . صورة مؤلفة من عدة لقطات لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة ، حالاتها الظاهرة والمضمرة . فلقطة تصور حالتهم مع الكفار ومع أنفسهم : ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ ولقطة تصور هيئتهم في عبادتهم : ﴿ تراهم ركعاً سجداً ﴾ . . ولقطة تصور قلوبهم وما يشغلها ويجيش بها : ﴿ يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ﴾ . . ولقطة تصور أثر العبادة والتوجه إلى الله في سمتهم وسحنتهم وسماتهم : ﴿ سيماهم في وجوههم من أثر السجود ﴾ . . ﴿ ذلك مثلهم في التوراة ﴾ . . وهذه صفتهم فيها . . ولقطات متتابعة تصورهم كما هم في الإنجيل . . ﴿ كزرع أخرج شطأه ﴾ ﴿ فآزره ﴾ . . ﴿ فاستغلظ ﴾ ﴿ فاستوى على سوقه ﴾ . ﴿ يعجب الزراع ﴾ . . : ﴿ ليغظ بهم الكفار ﴾ . .

(297/715)

وتبدأ الآية بإثبات صفة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ صفته التي أنكرها سهيل بن عمرو ومن وراءه من المشركين : ﴿ محمد رسول الله ﴾ . . ثم ترتسم تلك الصورة الوضيئة بذلك الأسلوب البديع .

والمؤمنون لهم حالات شتى . ولكن اللقطات تتناول الحالات الثابتة في حياتهم ، ونقط الارتكاز الأصيلة في هذه الحياة .

وتبرزها وتصوغ منها الخطوط العريضة في الصور الوضيئة . . وإرادة التكريم واضحة في اختيار هذه اللقطات ، وتثبيت الملامح والسمات التي تصورها . التكريم الإلهي لهذه الجماعة السعيدة .

إرادة التكريم واضحة ، وهو يسجل لهم في اللقطة الأولى أنهم : ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ . . أشداء على الكفار وفيهم آباؤهم وإخوتهم وذوو قرابتهم وصحابتهم ، ولكنهم قطعوا هذه الوشائج جميعاً . رحماء بينهم وهم فقط إخوة دين . فهي الشدة لله والرحمة لله . وهي الحمية للعقيدة ، والسماحة للعقيدة . فليس لهم في أنفسهم شيء ، ولا لأنفسهم فيهم شيء . وهم يقيمون عواطفهم ومشاعرهم ، كما يقيمون سلوكهم وروابطهم على أساس عقيدتهم وحدها . يشتدون على أعدائهم فيها ، ويلينون لإخوتهم فيها . قد تجردوا من الأنانية ومن الهوى ، ومن الانفعال لغير الله ، والوشيجة التي تربطهم بالله .

وإرادة التكريم واضحة وهو يختار من هيئاتهم وحالاتهم ، هيئة الركوع والسجود وحالة

العبادة : ﴿ تراهم ركعاً سجداً ﴾ . . والتعبير يوحي كأنما هذه هيئتهم الدائمة التي يراها الرائي حيثما رآهم . ذلك أن هيئة الركوع والسجود تمثل حالة العبادة ، وهي الحالة الأصيلة لهم في حقيقة نفوسهم ؛ فعبر عنها تعبيراً يثبتها كذلك في زمانهم ، حتى لكأنهم يقضون زمانهم كله ركعاً سجداً .

(298/715)

واللقطة الثالثة مثلها . ولكنها لقطة لبواطن نفوسهم وأعماق سرائرهم : ﴿ يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ﴾ . . فهذه هي صورة مشاعرهم الدائمة الثابتة . كل ما يشغل بالهم ، وكل ما تتطلع إليه أشواقهم ، هو فضل الله ورضوانه . ولا شيء وراء الفضل والرضوان يتطلعون إليه ويشتغلون به .

واللقطة الرابعة تثبت أثر العبادة الظاهرة والتطلع المضمر في ملامحهم ، ونضحها على سماتهم : ﴿ سيماهم في وجوهم من أثر السجود ﴾ . . سيماهم في وجوههم من الوضاءة والإشراق والصفاء والشفافية ، ومن ذبول العبادة الحي الوضيء اللطيف .

وليست هذه السيما في النكتة المعروفة في الوجه كما يتبادر إلى الذهن عند سماع قوله : ﴿ من أثر السجود ﴾ . . فالمقصود بأثر السجود هو أثر العبادة . واختار لفظ السجود

لأنه يمثل حالة الخشوع والخضوع والعبودية لله في أكمل صورها . فهو أثر هذا الخشوع . أثره في ملامح الوجه ، حيث تتوارى الخيلاء والكبرياء والفراهة . ويحل مكانها التواضع النبيل ، والشفافية الصافية ، والوضاءة الهادئة ، والذبول الخفيف الذي يزيد وجه المؤمن وضاءة وصباحة ونبلاً .

وهذه الصورة الوضيئة التي تمثلها هذه اللقطات ليست مستحدثة . إنما هي ثابتة لهم في لوحة القدر ، ومن ثم فهي قديمة جاء ذكرها في التوراة : ﴿ ذلك مثلهم في التوارة ﴾ . . وصفتهم التي عرفهم الله بها في كتاب موسى ، وبشر الأرض بما قبل أن يجيئوا إليها . ﴿ ومثلهم في الإنجيل ﴾ . . وصفتهم في بشارته بمحمد ومن معه ، أنهم : ﴿ كزرع أخرج شطأه ﴾ . . فهو زرع نام قوي ، يخرج فرخه ، من قوته وخصوبته . ولكن هذا الفرخ لا يضعف العود بل يشده . ﴿ فآزره ﴾ . أو أن العود آزر فرخه فشده . ﴿ فاستغلظ ﴾ الزرع وضخمت ساقه وامتلأت . ﴿ فاستوى على سوقه ﴾ لا معوجا ومحنيا .

(299/715)

ولكن مستقيما قويا سويا . .

هذه صورته في ذاته . فأما وقعه في نفوس أهل الخبرة في الزرع , العارفين بالنامي منه والذابل

. المثمر منه والبائر . فهو وقع البهجة والإعجاب: (يعجب الزراع) . وفي قراءة يعجب(الزارع) . . وهو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) صاحب هذا الزرع النامي القوي المخصب البهيج . . وأما وقعه في نفوس الكفار فعلى العكس . فهو وقع الغيظ والكمد : (ليغيظ بهم الكفار) . . وتعمد إغاظة الكفار يوحي بأن هذه الزرعة هي زرعة الله . أو زرعة رسوله , وأنهم ستار للقدرة وأداة لإغاظة أعداء الله !

وهذا المثل كذلك ليس مستحدثا , فهو ثابت في صفحة القدر . ومن ثم ورد ذكره قبل أن يجيء محمد ومن معه إلى هذه الأرض . ثابت في الإنجيل في بشارته بمحمد ومن معه حين يجيئون .

وهكذا يثبت الله في كتابه الخالد صفة هذه الجماعة المختارة . . صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . . فتثبت في صلب الوجود كله , وتتجاوب بها أرجاؤه , وهو يتسمع إليها من بارىء الوجود . وتبقى نموذجا للأجيال , تحاول أن تحققها , لتحقق معنى الإيمان في أعلى الدرجات .

وفوق هذا التكريم كله , وعد الله بالمغفرة والأجر العظيم: (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما) . . وهو وعد يجيء في هذه الصيغة العامة بعد ما تقدم من صفتهم , التي تجعلهم أول الداخلين في هذه الصيغة العامة .

مغفرة وأجر عظيم . . وذلك التكريم وحده حسبهم . وذلك الرضى وحده أجر عظيم . ولكنه الفيض الإلهي بلا حدود ولا قيود , والعطاء الإلهي عطاء غير مجذوذ .

(300/715)

ومرة أخرى أحاول من وراء أربعة عشر قرنا أن أستشرف وجوه هؤلاء الرجال السعداء وقلوبهم . وهم يتلقون هذا الفيض الإلهي من الرضى والتكريم والوعد العظيم . وهم يرون أنفسهم هكذا في اعتبار الله , وفي ميزان الله , وفي كتاب الله . وأنظر إليهم وهم عائدون من الحديبية , وقد نزلت هذه السورة , وقد قرئت عليهم . وهم يعيشون فيها بأرواحهم وقلوبهم ومشاعرهم وسماتهم . وينظر بعضهم في وجوه بعض فيرى أثر النعمة التي يحسها هو في كيانه .

وأحاول أن أعيش معهم لحظات في هذا المهرجان العلوي الذي عاشوا فيه . . ولكن أنى لبشر لم يحضر هذا المهرجان أن يتذوقه . إلا من بعيد ؟ !

اللهم إلا من يكرمه الله إكرامهم: فيقرب له البعيد ؟ !

فاللهم إنك تعلم أنني أتطلع لهذا الزاد الفريد ! ! ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3333.3325 ﴾

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

وَمِنْ سُورَةِ الْفَتْحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَوْلُهُ - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ رُوِيَ أَنَّهُ أَرَادَ فَتْحَ مَكَّةَ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : " قَضَيْنَا لَكَ قَضَاءً مُبِينًا " وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ فَتْحُ مَكَّةَ بِالْغَلَبَةِ وَالْقَهْرِ ؛ لِأَنَّ الْقَضَاءَ لَا يَتَنَاوَلُهُ الْإِطْلَاقُ ، وَإِذَا كَانَ الْمُرَادُ فَتْحَ مَكَّةَ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ فَتَحَهَا عَنْوَةً ؛ إذْ كَانَ الصُّلْحُ لَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ اسْمُ الْفَتْحِ ، وَإِنْ كَانَ قَدْ يُعَبَّرُ مُقَيَّدًا ؛ لِأَنَّ مَنْ قَالَ : " فَتَحَ بَلَدَ كَذَا عُقِلَ بِهِ الْغَلَبَةُ وَالْقَهْرُ دُونَ الصُّلْحِ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ فِي نَسَقِ التِّلَاوَةِ : ﴿ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ .

وَفِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ فَتْحُ مَكَّةَ وَأَنَّهُ دَخَلَهَا عَنْوَةً ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْله تَعَالَى : ﴿ إذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ لَمْ يَخْتَلِفُوا أَنَّ الْمُرَادَ فَتْحُ مَكَّةَ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنَّا فَتَحْنَا لَك ﴾ وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وَذِكْرُهُ ذَلِكَ فِي سِيَاقِ

الْقِصَّةِ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى : سُكُونُ النَّفْسِ إلَى الْإِيمَانِ بِالْبَصَائِرِ الَّتِي بِهَا قَاتَلُوا عَنْ دِينِ اللَّهِ حَتَّى فَتَحُوا مَكَّةَ .

(302/715)

وقَوْله تَعَالَى - : ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنْ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ رُوِيَ أَنَّ الْمُرَادَ فَارِسُ وَالرُّومُ ، وَرُوِيَ أَنَّهُمْ بَنُو حَنِيفَةَ فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى صِحَّةِ إمَامَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ؛ لِأَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ دَعَاهُمْ إلَى قِتَالِ بَنِي حَنِيفَةَ وَدَعَاهُمْ عُمَرُ إلَى قِتَالِ فَارِسَ وَالرُّومِ ، وَقَدْ أَلْزَمَهُمْ اللَّهُ اتِّبَاعَ طَاعَةِ مَنْ يَدْعُوهُمْ إلَيْهِ بِقَوْلِهِ : ﴿ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ فَأَوْعَدَهُمْ اللَّهُ عَلَى التَّخَلُّفِ عَمَّنْ دَعَاهُمْ إلَى قِتَالِ هَؤُلَاءِ ، فَدَلَّ عَلَى صِحَّةِ إمَامَتِهِمَا ، إذْ كَانَ الْمُتَوَلِّي عَنْ طَاعَتِهِمَا مُسْتَحِقًّا لِلْعِقَابِ فَإِنْ قِيلَ : قَدْ رَوَى قَتَادَةُ أَنَّهُمْ هَوَازِنُ وَثَقِيفٌ يَوْمَ حُنَيْنٍ قِيلَ لَهُ : لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الدَّاعِي لَهُمْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ : ﴿ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِي أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِي عَدُوًّا ﴾ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالدُّعَاءِ لَهُمْ غَيْرُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يَدْعُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَّا

أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ .

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

(303/715)

وقَوْله تَعَالَى - : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ ؛ إذْ يُبَايِعُونَك تَحْتَ الشَّجَرَة ﴾ فِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى صِحَّةِ إيمَانِ الَّذِينَ بَايَعُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ بِالْحُدَيْبِيَةِ وَصِدْقِ بَصَائِرِهِمْ ، فَهُمْ قَوْمٌ بِأَعْيَانِهِمْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : "كَانُوا أَلْفَيْنِ وَخَمْسَمِائَةٍ" ، وَقَالَ جَابِرٌ : "أَلْفًا وَخَمْسَمِائَةٍ" ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ عَلَى الْحَقِيقَةِ أَوْلِيَاءَ لِلَّهِ ؛ إذْ غَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يُخْبِرَ اللَّهُ بِرِضَاهُ عَنْ قَوْمٍ بِأَعْيَانِهِمْ إلَّا وَبَاطِنُهُمْ كَظَاهِرِهِمْ فِي صِحَّةِ الْبَصِيرَةِ وَصِدْقِ الْإِيمَانِ ، وَقَدْ أَكَّدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ أَخْبَرَ أَنَّهُ عَلِمَ مِنْ قُلُوبِهِمْ صِحَّةَ الْبَصِيرَةِ وَصِدْقَ النِّيَّةِ ، وَأَنَّ مَا أَبْطَنُوهُ مِثْلُ مَا أَظْهَرُوهُ .

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ يَعْنِي الصَّبْرَ بِصِدْقِ نِيَّاتِهِمْ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ التَّوْفِيقَ يَصْحَبُ صِدْقَ النِّيَّةِ ، وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ : ﴿ إنْ يُرِيدَا إصْلَاحًا يُوَفِّقْ اللَّهُ بَيْنَهُمَا .

﴾

وقَوْله تَعَالَى - : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ ﴾ الْآيَةَ .

رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي قِصَّةِ الْحُدَيْبِيَةِ ، ﴿ وَذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَدْ كَانُوا بَعَثُوا أَرْبَعِينَ رَجُلًا لِيُصِيبُوا مِنْ الْمُسْلِمِينَ ، فَأُتِيَ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْرَى فَخَلَّى سَبِيلَهُمْ ﴾ وَرُوِيَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي فَتْحِ مَكَّةَ حِينَ دَخَلَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْوَةً فَإِنْ كَانَتْ نَزَلَتْ فِي فَتْحِ مَكَّةَ فَدَلَالَتُهَا ظَاهِرَةٌ عَلَى أَنَّهَا فُتِحَتْ عَنْوَةً ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى - : ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ ، وَمُصَالَحَتُهُمْ لَا ظَفَرَ فِيهَا لِلْمُسْلِمِينَ ، فَاقْتَضَى ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ فَتْحُهَا عَنْوَةً .

وقَوْله تَعَالَى - : ﴿ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ يَحْتَجُّ بِهِ مَنْ يُجِيزُ ذَبْحَ هَدْيِ الْإِحْصَارِ فِي غَيْرِ الْحَرَمِ ، لِإِخْبَارِهِ بِكَوْنِهِ مَحْبُوسًا عَنْ بُلُوغِ مَحِلِّهِ ، وَلَوْ كَانَ قَدْ بَلَغَ الْحَرَمَ وَذَبَحَ فِيهِ لَمَا كَانَ مَحْبُوسًا عَنْ بُلُوغِ الْمَحِلِّ .

وَلَيْسَ هَذَا كَمَا ظَنُّوا ؛ لِأَنَّهُ قَدْ كَانَ مَمْنُوعًا بَدِيًّا عَنْ بُلُوغِ الْمَحِلِّ ثُمَّ لَمَّا وَقَعَ الصُّلْحُ زَالَ الْمَنْعُ فَبَلَغَ مَحِلَّهُ وَذُبِحَ فِي الْحَرَمِ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ إذَا حَصَلَ الْمَنْعُ فِي أَدْنَى وَقْتٍ فَجَائِزٌ أَنْ يُقَالَ قَدْ مُنِعَ كَمَا قَالَ - تَعَالَى - : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾ وَإِنَّمَا مُنِعَ فِي وَقْتٍ وَأُطْلِقَ فِي وَقْتٍ آخِرَ وَفِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْمَحِلَّ هُوَ الْحَرَمُ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ : ﴿ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ فَلَوْ كَانَ مَحِلُّهُ غَيْرَ الْحَرَمِ لَمَا كَانَ مَعْكُوفًا عَنْ بُلُوغِهِ ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْمَحِلُّ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴾ هُوَ الْحَرَمُ .

(306/715)

قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَبُو يُوسُفَ وَزُفَرُ وَمُحَمَّدٌ وَالثَّوْرِيُّ : " لَا بَأْسَ بِرَمْيِ حُصُونِ الْمُشْرِكِينَ ، وَإِنْ كَانَ فِيهَا أُسَارَى وَأَطْفَالٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَا بَأْسَ بِأَنْ يُحَرِّقُوا الْحُصُونَ وَيَقْصِدُوا بِهِ الْمُشْرِكِينَ ، وَكَذَلِكَ إنْ تَتَرَّسَ الْكُفَّارُ بِأَطْفَالِ الْمُسْلِمِينَ رُمِيَ الْمُشْرِكُونَ ، وَإِنْ أَصَابُوا أَحَدًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ فِي ذَلِكَ فَلَا دِيَةَ وَلَا كَفَّارَةَ " وَقَالَ الثَّوْرِيُّ : " فِيهِ الْكَفَّارَةُ وَلَا دِيَةَ فِيهِ " وَقَالَ مَالِكٌ : " لَا تُحَرَّقُ سَفِينَةُ الْكُفَّارِ إذَا كَانَ فِيهَا أُسَارَى مِنْ الْمُسْلِمِينَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى - : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ إنَّمَا صُرِفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْهُمْ لَمَّا كَانَ فِيهِمْ مِنْ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَوْ تَزَيَّلَ الْكُفَّارُ عَنْ الْمُسْلِمِينَ لَعَذَّبَ الْكُفَّارَ " .

وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ : " إذَا تَتَرَّسَ الْكُفَّارُ بِأَطْفَالِ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يُرْمَوْا ؛ لِقَوْلِهِ : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ ﴾ الْآيَةَ " قَالَ : " وَلَا يُحَرَّقُ الْمَرْكَبُ فِيهِ أُسَارَى الْمُسْلِمِينَ ، وَيُرْمَى الْحِصْنُ بِالْمَنْجَنِيقِ ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ أُسَارَى مُسْلِمُونَ ، فَإِنْ أَصَابَ أَحَدًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَهُوَ خَطَأٌ ، وَإِنْ جَاءُوا يَتَتَرَّسُونَ بِهِمْ رُمِيَ وَقُصِدَ الْعَدُوُّ " ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : " لَا بَأْسَ بِأَنْ يُرْمَى الْحِصْنُ ، وَفِيهِ أُسَارَى أَوْ أَطْفَالٌ ، وَمَنْ أُصِيبَ فَلَا شَيْءَ فِيهِ ، وَلَوْ تَتَرَّسُوا فَفِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : يُرْمَوْنَ .

(307/715)

وَالْآخَرُ : لَا يُرْمَوْنَ إلَّا أَنْ يَكُونُوا مُلْتَحِمِينَ ، فَيُضْرَبُ الْمُشْرِكُ وَيَتَوَقَّى الْمُسْلِمُ جَهْدَهُ ، فَإِنَّ أَصَابَ فِي هَذِهِ الْحَالِ مُسْلِمًا فَإِنْ عَلِمَهُ مُسْلِمًا فَالدِّيَةُ مَعَ الرَّقَبَةِ ، وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْهُ مُسْلِمًا فَالرَّقَبَةُ وَحْدَهَا " قَالَ أَبُو بَكْرٍ : نَقَلَ أَهْلُ السِّيَرِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَاصَرَ أَهْلَ الطَّائِفِ وَرَمَاهُمْ

بِالْمَنْجَنِيقِ مَعَ نَهْيِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ﴾ ، وَقَدْ عَلِمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَدْ يُصِيبُهُمْ وَهُوَ لَا يَجُوزُ تَعَمُّدُهُمْ بِالْقَتْلِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ كَوْنَ الْمُسْلِمِينَ فِيمَا بَيْنَ أَهْلِ الْحَرْبِ لَا يَمْنَعُ رَمْيَهُمْ ؛ إذْ كَانَ الْقَصْدُ فِيهِ الْمُشْرِكِينَ دُونَهُمْ وَرَوَى الزُّهْرِيُّ عَنْ

عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ قَالَ ﴿ : سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَهْلِ الدِّيَارِ مِنْ الْمُشْرِكِينَ يُبَيَّتُونَ فَيُصَابُ مِنْ ذَرَارِيِّهِمْ وَنِسَائِهِمْ ، فَقَالَ هُمْ مِنْهُمْ ﴾ .

﴿ وَبَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ فَقَالَ : أَغِرْ عَلَى أُبْنَى صَبَاحًا وَحَرِّقْ ، وَكَانَ يَأْمُرُ السَّرَايَا بِأَنْ يَنْتَظِرُوا بِمَنْ يَغْزُو بِهِمْ ، فَإِنْ أَذَّنُوا لِلصَّلَاةِ أَمْسَكُوا عَنْهُمْ ، وَإِنْ لَمْ يَسْمَعُوا أَذَانًا أَغَارُوا ﴾ وَعَلَى ذَلِكَ مَضَى الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ .

(308/715)

وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ أَغَارَ عَلَى هَؤُلَاءِ لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يُصِيبَ مِنْ ذَرَارِيِّهِمْ وَنِسَائِهِمْ الْمَحْظُورِ قَتْلُهُمْ ، فَكَذَلِكَ إذَا كَانَ فِيهِمْ مُسْلِمُونَ وَجَبَ أَنْ لَا يَمْنَعَ ذَلِكَ مِنْ شَنِّ الْغَارَةِ عَلَيْهِمْ وَرَمْيِهِمْ بِالنَّشَّابِ وَغَيْرِهِ ، وَإِنْ خِيفَ عَلَيْهِ إصَابَةُ الْمُسْلِمِ فَإِنْ قِيلَ : إنَّمَا جَاءَ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ ذَرَارِيَ الْمُشْرِكِينَ مِنْهُمْ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ قِيلَ لَهُ : لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُرَادُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذَرَارِيِّهِمْ أَنَّهُمْ مِنْهُمْ فِي الْكُفْرِ ؛ لِأَنَّ الصِّغَارَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونُوا كُفَّارًا فِي الْحَقِيقَةِ وَلَا يَسْتَحِقُّونَ الْقَتْلَ وَلَا الْعُقُوبَةَ لِفِعْلِ آبَائِهِمْ فِي بَابِ سُقُوطِ الدِّيَةِ وَالْكَفَّارَةِ .

وَأَمَّا احْتِجَاجُ مَنْ يَحْتَجُّ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ ﴾ الْآيَةَ ، فِي مَنْعِ رَمْيِ

(309/715)

الْكُفَّارِ ؛ لِأَجْلِ مَنْ فِيهِمْ مِنْ الْمُسْلِمِينَ ، فَإِنَّ الْآيَةَ لَا دَلَالَةَ فِيهَا عَلَى مَوْضِعِ الْخِلَافِ وَذَلِكَ ؛ لِأَنَّ أَكْثَرَ مَا فِيهَا أَنَّ اللَّهَ كَفَّ الْمُسْلِمِينَ عَنْهُمْ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ فِيهِمْ قَوْمٌ مُسْلِمُونَ لَمْ يَأْمَنْ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ دَخَلُوا مَكَّةَ بِالسَّيْفِ أَنْ يُصِيبُوهُمْ وَذَلِكَ إنَّمَا يَدُلُّ عَلَى إبَاحَةِ تَرْكِ رَمْيِهِمْ وَالْإِقْدَامِ عَلَيْهِمْ ، فَلَا دَلَالَةَ عَلَى حَظْرِ الْإِقْدَامِ عَلَيْهِمْ مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ فِيهِمْ مُسْلِمِينَ ؛ لِأَنَّهُ جَائِزٌ أَنْ يُبِيحَ الْكَفَّ عَنْهُمْ ؛ لِأَجْلِ الْمُسْلِمِينَ وَجَائِزٌ أَيْضًا إبَاحَةُ الْإِقْدَامِ عَلَى وَجْهِ التَّخْيِيرِ ، فَإِذَا لَا دَلَالَةَ فِيهَا عَلَى حَظْرِ الْإِقْدَامِ فَإِنْ قِيلَ : فِي فَحْوَى الْآيَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى الْحَظْرِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ فَلَوْلَا الْحَظْرُ مَا أَصَابَتْهُمْ مَعَرَّةٌ مِنْ قَتْلِهِمْ بِإِصَابَتِهِمْ إيَّاهُمْ قِيلَ لَهُ : قَدْ اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي مَعْنَى الْمَعَرَّةِ هَهُنَا .

(310/715)

فَرُوِيَ عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ أَنَّهُ غُرْمُ الدِّيَةِ ، وَقَالَ غَيْرُهُ : الْكَفَّارَةُ ، وَقَالَ غَيْرُهُمَا : الْغَمُّ بِاتِّفَاقِ قَتْلِ الْمُسْلِمِ عَلَى يَدِهِ ؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ يَغْتَمُّ لِذَلِكَ ، وَإِنْ لَمْ يَقْصِدْهُ وَقَالَ آخَرُونَ : الْعَيْبُ وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ : " الْمَعَرَّةُ الْإِثْمُ " ، وَهَذَا بَاطِلٌ ؛ لِأَنَّهُ - تَعَالَى - قَدْ أَخْبَرَ أَنَّ ذَلِكَ لَوْ وَقَعَ كَانَ بِغَيْرِ عِلْمٍ مِنَّا ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى - : ﴿ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ، وَلَا مَأْثَمَ عَلَيْهِ فِيمَا لَمْ يَعْلَمْهُ ، وَلَمْ يَضَعْ اللَّهُ عَلَيْهِ دَلِيلًا ، قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ فَعَلِمْنَا أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ الْمَأْثَمَ .

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ كَانَ خَاصًّا فِي أَهْلِ مَكَّةَ لِحُرْمَةِ الْحَرَمِ ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْمُسْتَحِقَّ لِلْقَتْلِ إذَا لَجَأَ إلَيْهَا لَمْ يُقْتَلْ عِنْدَنَا ؟ وَكَذَلِكَ الْكَافِرُ الْحَرْبِيُّ إذَا لَجَأَ إلَى الْحَرَمِ لَمْ يُقْتَلْ ، وَإِنَّمَا يُقْتَلُ مَنْ انْتَهَكَ حُرْمَةَ الْحَرَمِ بِالْجِنَايَةِ فِيهِ فَمَنْعُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ الْإِقْدَامِ عَلَيْهِمْ خُصُوصِيَّةٌ لِحُرْمَةِ الْحَرَمِ .

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ : وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٍ قَدْ عُلِمَ أَنَّهُمْ سَيَكُونُونَ مِنْ أَوْلَادِ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ إذَا لَمْ يُقْتَلُوا فَمَنَعَنَا قَتْلَهُمْ لِمَا فِي مَعْلُومِهِ مِنْ حُدُوثِ أَوْلَادِهِمْ مُسْلِمِينَ .

(311/715)

وَإِذَا كَانَ فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنَّهُ إِذَا أَبْقَاهُمْ كَانَ لَهُمْ أَوْلَادٌ مُسْلِمُونَ أَبْقَاهُمْ وَلَمْ يَأْمُرْ بِقَتْلِهِمْ وَقَوْلُهُ : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا ﴾ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ ، لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ فِي أَصْلَابِهِمْ قَدْ وَلَدُوهُمْ وَزَايَلُوهُمْ لَقَدْ كَانَ أَمَرَ بِقَتْلِهِمْ ، وَإِذَا ثَبَتَ مَا ذَكَرْنَا مِنْ جَوَازِ الْإِقْدَامِ عَلَى الْكُفَّارِ مَعَ الْعِلْمِ بِكَوْنِ الْمُسْلِمِينَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ وَجَبَ جَوَازُ مِثْلِهِ إِذَا تَتَرَّسُوا بِالْمُسْلِمِينَ ؛ لِأَنَّ الْقَصْدَ فِي الْحَالَيْنِ رَمْيُ الْمُشْرِكِينَ دُونَهُمْ وَمَنْ أُصِيبَ مِنْهُمْ فَلَا دِيَةَ فِيهِ وَلَا كَفَّارَةَ ، كَمَا أَنَّ مَنْ أُصِيبَ بِرَمْيِ حُصُونِ الْكُفَّارِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ فِي الْحِصْنِ لَمْ تَكُنْ فِيهِ دِيَةٌ وَلَا كَفَّارَةٌ وَلِأَنَّهُ قَدْ أُبِيحَ لَنَا الرَّمْيُ مَعَ الْعِلْمِ بِكَوْنِ الْمُسْلِمِينَ فِي تِلْكَ الْجِهَةِ ، فَصَارُوا فِي الْحُكْمِ بِمَنْزِلَةِ مَنْ أُبِيحَ قَتْلُهُ فَلَا يَجِبُ بِهِ شَيْءٌ ، وَلَيْسَتْ الْمَعَرَّةُ الْمَذْكُورَةُ دِيَةً وَلَا كَفَّارَةً ؛ إذْ لَا دَلَالَةَ عَلَيْهِ مِنْ لَفْظِهِ وَلَا مِنْ غَيْرِهِ .

وَالْأَظْهَرُ مِنْهُ مَا يُصِيبُهُ مِنْ الْغَمِّ وَالْحَرَجِ بِاتِّفَاقِ قَتْلِ الْمُؤْمِنِ عَلَى يَدِهِ عَلَى مَا جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ مِمَّنْ يَتَّفِقُ عَلَى يَدِهِ ذَلِكَ وَقَوْلُ مَنْ تَأَوَّلَهُ عَلَى الْعَيْبِ مُحْتَمَلٌ أَيْضًا ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يُعَابُ فِي الْعَادَةِ

بِاتِّفَاقِ قَتْلِ الْخَطَإِ عَلَى يَدِهِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الْعُقُوبَةِ .

(312/715)

قَوْله تَعَالَى - : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمْ الْحَمِيَّةَ ﴾ قِيلَ إنَّهُ ﴿ لَمَّا أَرَادَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَكْتُبَ صُلْحَ الْحُدَيْبِيَةِ أَمَرَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَكَتَبَهُ ، وَأَمْلَى عَلَيْهِ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هَذَا مَا اصْطَلَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَسُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو ، فَأَبَتْ قُرَيْشٌ أَنْ يَكْتُبُوا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَمُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَقَالُوا : نَكْتُبُ بِاسْمِك اللَّهُمَّ وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ﴾ ، وَمَنَعُوهُ دُخُولَهُ مَكَّةَ فَكَانَتْ أَنَفَتُهُمْ مِنْ الْإِقْرَارِ بِذَلِكَ مِنْ حَمِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ .

وَقَوْله تَعَالَى - : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ﴾ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : " لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ " ، وَعَنْ قَتَادَةَ مِثْلُهُ وَقَالَ مُجَاهِدٌ : " كَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ " وَحَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ قَالَ : أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ الزُّهْرِيِّ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ﴾ قَالَ : " بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ " .

قَوْله تَعَالَى - : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : الْمَقْصِدُ إخْبَارُهُمْ بِأَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ آمِنِينَ مُتَقَرِّبِينَ بِالْإِحْرَامِ ، فَلَمَّا ذَكَرَ مَعَهُ الْحَلْقَ وَالتَّقْصِيرَ دَلَّ عَلَى أَنَّهُمَا قُرْبَةٌ فِي الْإِحْرَامِ ، وَأَنَّ الْإِحْلَالَ بِهِمَا يَقَعُ ، لَوْلَا ذَلِكَ مَا كَانَ لِلذِّكْرِ هَهُنَا وَجْهٌ .

وَرَوَى جَابِرٌ وَأَبُو هُرَيْرَةَ : ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَا لِلْمُحَلِّقِينَ ثَلَاثًا وَلِلْمُقَصِّرِينَ مَرَّةً ﴾ ، وَهَذَا أَيْضًا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمَا قُرْبَةٌ وَنُسُكٌ عِنْدَ الْإِحْلَالِ مِنْ الْإِحْرَامِ .

آخِرُ سُورَةِ الْفَتْحِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(314/715)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الْفَتْحِ

[فِيهَا خَمْسُ آيَاتٍ]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنْ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ ﴾ قِيلَ : هُمْ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ الْحُدَيْبِيَةِ ، وَهُمْ خَمْسُ قَبَائِلَ : جُهَيْنَةَ ، وَمُزَيْنَةَ ، وَأَشْجَعَ ، وَغِفَارَ ، وَأَسْلَمَ : ﴿

سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فِي تَعْيِينِهِمْ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ :

أَحَدُهَا أَنَّهُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ .

الثَّانِي أَنَّهُمْ بَنُو حَنِيفَةَ مَعَ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ .

الثَّالِثُ أَنَّهُمْ هَوَازِنُ وَغَطَفَانُ يَوْمَ حُنَيْنٍ ؛ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ؛ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ بِالْيَمَامَةِ لَا بِفَارِسَ وَلَا بِالرُّومِ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : لِأَنَّ الَّذِي تَعَيَّنَ عَلَيْهِ الْقِتَالُ حَتَّى يُسْلِمَ مِنْ غَيْرِ قَبُولِ جِزْيَةٍ هُمْ الْعَرَبُ فِي أَصَحِّ الْأَقْوَالِ وَالْمُرْتَدُّونَ .

(315/715)

فَأَمَّا فَارِسُ وَالرُّومُ فَلَا يُقَاتَلُونَ حَتَّى يُسْلِمُوا ؛ بَلْ إنْ بَذَلُوا الْجِزْيَةَ قُبِلَتْ مِنْهُمْ ، وَجَاءَتْ الْآيَةُ مُعْجِزَةً لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِخْبَارًا بِالْغَيْبِ الْآتِي ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : وَدَلَّتْ عَلَى إمَامَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ لِأَنَّ الدَّاعِي لَهُمْ كَانَ أَبَا بَكْرٍ فِي قِتَالِ بَنِي حَنِيفَةَ ، وَهُوَ اسْتَخْلَفَ عُمَرُ ، وَعُمَرُ كَانَ الدَّاعِي لَهُمْ إلَى قِتَالِ فَارِسَ وَالرُّومِ ، وَخَرَجَ عَلِيٌّ تَحْتَ لِوَائِهِ [وَأَخَذَ سَهْمَهُ مِنْ غَنِيمَتِهِ وَاسْتَوْلَدَ حَنِيفَةَ الْحَنَفِيَّةَ وَلَدَهُ مُحَمَّدًا] ، وَلَوْ كَانَتْ إمَامَةٌ بَاطِلَةً وَغَنِيمَةٌ حَرَامًا لَمَا جَازَ عِنْدَهُمْ وَطْءُ عَلِيٍّ لَهَا ؛ لِأَنَّهُ عِنْدَهُمْ مَعْصُومٌ مِنْ جَمِيعِ الذُّنُوبِ .

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ النُّورِ بَيَانُهَا ، وَالْمُرَادُ بِهَا هَاهُنَا الْجِهَادُ .

الْآيَةُ الثَّالِثَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

(316/715)

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يَعْنِي قُرَيْشًا بِغَيْرِ خِلَافٍ ؛ لِأَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِمْ ، وَالْقِصَّةَ مَخْصُوصَةٌ بِهِمْ ؛ فَلَا يَدْخُلُ غَيْرُهُمْ مَعَهُمْ ؛ مَنَعُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ دُخُولِ مَكَّةَ فِي غَزْوَةِ الْحُدَيْبِيَةِ ، وَمَنَعُوا الْهَدْيَ وَحَبَسُوهُ عَنْ أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ؛ وَهَذَا كَانُوا لَا يَعْتَقِدُونَهُ ، وَلَكِنَّهُمْ حَمَلَتْهُمْ الْأَنَفَةُ ، وَدَعَتْهُمْ حَمِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ إلَى أَنْ يَفْعَلُوا مَا لَا يَعْتَقِدُونَ دِينًا ، فَوَبَّخَهُمْ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ ، وَتَوَعَّدَهُمْ عَلَيْهِ ، وَأَدْخَلَ الْأُنْسَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِبَيَانِهِ وَوَعْدِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا مَنْحَرُهُ .

الثَّانِي : الْحَرَمُ ؛ قَالَهُ الشَّافِعِيُّ .

وَكَانَ الْهَدْيُ سَبْعِينَ بَدَنَةً ، وَلَكِنَّ اللَّهَ بِفَضْلِهِ جَعَلَ ذَلِكَ الْمَوْضِعَ مَحِلًّا لِلْعُذْرِ ، وَنَحَرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ فِيهِ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى وَقَبُولِهِ وَإِبْقَائِهِ سُنَّةً بَعْدَهُ لِمَنْ حُبِسَ عَنْ الْبَيْتِ وَصُدَّ كَمَا صُدَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ .

(317/715)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قَوْله تَعَالَى ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ بِمَكَّةَ ، فَخِيفَ وَطْؤُكُمْ لَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَأَدْخَلْنَاكُمْ عَلَيْهِمْ عَنْوَةً ، وَمَلَكْنَاكُمْ الْبَلَدَ قَسْرًا ، وَلَكِنَّا صُنَّا مَنْ كَانَ [فِيهَا] يَكْتُمُ إيمَانَهُ خَوْفًا ، وَهَذَا حُكْمُ اللَّهِ وَحِكْمَتُهُ ، وَلَا اعْتِرَاضَ عَلَيْهِ فِيهِ فَإِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَإِذَا فَعَلَ بَعْضَهُ لَمْ يَكُنْ عَنْ عَجْزٍ ؛ وَإِنَّمَا هُوَ عَنْ حِكْمَةٍ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ تَفْصِيلٌ لِلصَّحَابَةِ ، وَإِخْبَارٌ عَنْ صِفَتِهِمْ الْكَرِيمَةِ مِنْ الْعِفَّةِ عَنْ الْمَعْصِيَةِ ، وَالْعِصْمَةِ عَنْ التَّعَدِّي ، حَتَّى إنَّهُمْ لَوْ أَصَابُوا مِنْ أُولَئِكَ أَحَدًا لَكَانَ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ ، وَهَذَا كَمَا وُصِفَتْ النَّمْلَةُ عَنْ جُنْدِ سُلَيْمَانَ فِي قَوْلِهَا : ﴿ لَا

يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي سُورَةِ النَّمْلِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا ﴾ يَعْنِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

تَنْبِيهٌ عَلَى مُرَاعَاةِ الْكَافِرِ فِي حُرْمَةِ الْمُؤْمِنِ إذَا لَمْ تُمْكِنْ إذَايَةُ الْكَافِرِ إلَّا بِإِذَايَةِ الْمُؤْمِنِ .

(318/715)

وَقَالَ أَبُو زَيْدٍ : قُلْت لِابْنِ الْقَاسِمِ : أَرَأَيْت لَوْ أَنَّ قَوْمًا فِي الْمُشْرِكِينَ فِي حِصْنٍ مِنْ حُصُونِهِمْ حَصَرَهُمْ أَهْلُ الْإِسْلَامِ ، وَفِيهِمْ قَوْمٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ أُسَارَى فِي أَيْدِيهِمْ ؛ أَيُحْرَقُ هَذَا الْحِصْنُ أَمْ لَا يُحْرَقُ ؟ قَالَ : سَمِعْت مَالِكًا وَسَأَلَ عَنْ قَوْمٍ مِنْ الْمُشْرِكِينَ [يَرْمُونَ] فِي مَرَاكِبِهِمْ أَخَذُوا أُسَارَى مِنْ الْمُسْلِمِينَ [وَأَدْرَكَهُمْ أَهْلُ الْإِسْلَامِ فَأَرَادُوا أَنْ يُحَرِّقُوهُمْ وَمَرَاكِبَهُمْ بِالنَّارِ] وَمَعَهُمْ الْأُسَارَى فِي مَرَاكِبِهِمْ ، وَقَالَ : فَقَالَ مَالِكٌ : لَا أَرَى ذَلِكَ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى لِأَهْلِ مَكَّةَ : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

وَقَالَ جَمَاعَةٌ : إنَّ مَعْنَاهُ لَوْ تَزَيَّلُوا عَنْ بُطُونِ النِّسَاءِ وَأَصْلَابِ الرِّجَالِ .

وَهَذَا ضَعِيفٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ وَهُوَ فِي صُلْبِ الرَّجُلِ لَا يُوطَأُ وَلَا تُصِيبُ مِنْهُ مَعَرَّةٌ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ صَرَّحَ فَقَالَ : ﴿ وَلَوْلَا

رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ ﴾ وَذَلِكَ لَا يَنْطَلِقُ عَلَى مَا فِي بَطْنِ الْمَرْأَةِ وَصُلْبِ الرَّجُلِ ؛ وَإِنَّمَا يَنْطَلِقُ عَلَى مِثْلِ الْوَلِيدِ بْنِ الْوَلِيدِ ، وَسَلَمَةَ بْنِ هِشَامٍ ، وَعَيَّاشِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ ، وَأَبِي جُنْدُلِ بْنِ سُهَيْلٍ ، وَكَذَلِكَ قَالَ مَالِكٌ .

(319/715)

وَقَدْ حَاصَرْنَا مَدِينَةً لِلرُّومِ ، فَحَبَسَ عَنْهُمْ الْمَاءَ ، فَكَانُوا يُنْزِلُونَ الْأُسَارَى يَسْتَقُونَ لَهُمْ الْمَاءَ ، فَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى رَمْيِهِمْ بِالنَّبْلِ ، فَيَحْصُلُ لَهُمْ الْمَاءُ بِغَيْرِ اخْتِيَارِنَا .

وَقَدْ جَوَّزَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ وَالثَّوْرِيُّ

الرَّمْيَ فِي حُصُونِ الْمُشْرِكِينَ ، وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ أُسَارَى الْمُسْلِمِينَ وَأَطْفَالُهُمْ ، وَلَوْ تَتَرَّسَ كَافِرٌ بِوَلَدِ مُسْلِمٍ رُمِيَ الْمُشْرِكُ وَإِنْ أُصِيبَ أَحَدٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَلَا دِيَةَ فِيهِ وَلَا كَفَّارَةَ .

وَقَالَ الثَّوْرِيُّ : فِيهِ الْكَفَّارَةُ وَلَا دِيَةَ لَهُ .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ بِقَوْلِنَا .

وَهَذَا ظَاهِرٌ ؛ فَإِنَّ التَّوَصُّلَ إلَى الْمُبَاحِ بِالْمَحْظُورِ لَا يَجُوزُ ، وَلَا سِيَّمَا بِرُوحِ الْمُسْلِمِ ، فَلَا قَوْلَ إلَّا مَا قَالَهُ مَالِكٌ ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

الْآيَةُ الرَّابِعَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ

إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ .

(320/715)

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ﴾ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرَى أَنَّهُ يَدْخُلُ مَكَّةَ وَيَطُوفُ ، فَأَنْذَرَ أَصْحَابَهُ بِالْعُمْرَةِ ، وَخَرَجَ فِي أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَمِائَتَيْ قُرَشِيٍّ ، حَتَّى أَتَى أَصْحَابُهُ ، وَبَلَغَ الْحُدَيْبِيَةَ فَصَدَّهُ الْمُشْرِكُونَ وَصَالَحُوهُ أَنْ يَدْخُلَ مَكَّةَ مِنْ الْعَامِ الْمُقْبِلِ بِسِلَاحِ الرَّاكِبِ بِالسَّيْفِ وَالْفَرَسِ ، وَفِي رِوَايَةٍ : بِجُلُبَّانِ السِّلَاحِ وَهُوَ السَّيْفُ فِي قِرَابِهِ ، فَسُمِّيَتْ عُمْرَةُ الْقَضِيَّةِ ، لِمَا كَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَهُمْ مِنْ الْقَضِيَّةِ ، وَسُمِّيَتْ عُمْرَةَ الْقَضَاءِ ؛ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضَاهَا مِنْ قَابِلٍ .

وَسُمِّيَتْ مَرَّةً عُمْرَةَ الْقِصَاصِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ﴾ أَيْ اقْتَصَصْتُمْ مِنْهُمْ كَمَا صَدُّوكُمْ : فَارْتَابَ الْمُنَافِقُونَ ، وَدَخَلَ الْهَمُّ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنْ الرُّفَعَاءِ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَجَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ

عَنْهُمَا ، فَقَالَ لَهُ : أَلَمْ يَقُلْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّهُ دَاخِلٌ الْبَيْتَ فَمُطَوِّفٌ بِهِ ، قَالَ : نَعَمْ ، وَلَكِنْ لَمْ يَقُلْ الْعَامَ ، وَإِنَّهُ آتِيه فَمَطُوفٌ بِهِ .

(321/715)

وَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ ، وَرَاجَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمُرَاجَعَةِ أَبِي بَكْرٍ .

قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : فَعَمِلْت لِذَلِكَ أَعْمَالًا يَعْنِي مِنْ الْخَيْرِ

كَفَّارَةً لِذَلِكَ التَّوَقُّفِ الَّذِي دَاخَلَهُ حِينَ رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ صُدَّ عَنْ الْبَيْتِ ، وَلَمْ تَخْرُجْ رُؤْيَاهُ فِي ذَلِكَ الْعَامِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ فَلَمَّا كَانَ فِي الْعَامِ الْقَابِلِ دَخَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ آمِنِينَ فَحَلَّقُوا وَقَصَّرُوا .

وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ مُعَاوِيَةَ ﴿ أَخَذَ مِنْ شَعْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمَرْوَةِ بِمِشْقَصٍ ﴾ وَهَذَا كَانَ فِي الْعُمْرَةِ لَا فِي الْحَجِّ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَلَقَ فِي حَجَّتِهِ ، وَأَقَامَ بِهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، فَلَمَّا انْقَضَتْ الثَّلَاثُ أَرَادَ أَنْ يَبْنِيَ بِمَيْمُونَةَ بِمَكَّةَ فَأَبَوْا ذَلِكَ عَلَى

رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَنَى بِهَا بِسَرِفَ ، وَكَذَلِكَ رَوَى ابْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ فِي ذِكْرِ مَيْمُونَةَ خَاصَّةً مِمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ .

(322/715)

الْآيَةُ الْخَامِسَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمْ الْكُفَّارُ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى يَعْنِي عَلَامَتَهُمْ ، وَهِيَ سِيمَا وَسِيمِيَا ، وَفِي الْحَدِيثِ ﴿ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَكُمْ سِيمَا لَيْسَتْ لِغَيْرِكُمْ مِنْ الْأُمَمِ ؛ تَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ .

﴾ رَوَيْت فِي هَذَا الْحَدِيثِ بِالْمَدِّ وَالْقَصْرِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ فِي تَأْوِيلِهَا : وَقَدْ تُؤُوِّلَتْ عَلَى سِتَّةِ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ .

الثَّانِي : ثَرَى الْأَرْضِ ؛ قَالَهُ ابْنُ جُبَيْرٍ .

الثَّالِثُ تَبْدُو صَلَاتُهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ ؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ .

الرَّابِعُ أَنَّهُ السَّمْتُ الْحَسَنُ ؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ .

الْخَامِسُ أَنَّهُ الْخُشُوعُ ؛ قَالَهُ مُجَاهِدٌ .

السَّادِسُ أَنَّهُ مَنْ صَلَّى بِاللَّيْلِ أَصْبَحَ وَجْهُهُ مُصْفَرًّا ؛ قَالَهُ الضَّحَّاكُ .

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : مَنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ بِاللَّيْلِ حَسُنَ وَجْهُهُ بِالنَّهَارِ .

(323/715)

وَدَسَّهُ قَوْمٌ فِي حَدِيثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى وَجْهِ الْغَلَطِ ، وَلَيْسَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ ذِكْرٌ بِحَرْفٍ .

وَقَدْ قَالَ مَالِكٌ فِيمَا رَوَى ابْنُ وَهْبٍ عَنْهُ : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِجِبَاهِهِمْ مِنْ الْأَرْضِ عِنْدَ السُّجُودِ ؛ وَبِهِ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ .

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى الصُّبْحَ صَبِيحَةَ إحْدَى وَعِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ ، وَقَدْ وَكَفَ الْمَسْجِدُ ، وَكَانَ عَلَى عَرِيشٍ ، فَانْصَرَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ صَلَاتِهِ وَعَلَى جَبْهَتِهِ وَأَرْنَبَتِهِ أَثَرُ الْمَاءِ وَالطِّينِ ﴾ .

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ ﴿ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَأْمُرُ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ أَنْ

يُخْرِجُوا مِنْ النَّارِ مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهَ ، فَيَعْرِفُونَهُمْ بِعَلَامَةِ أَثَرِ السُّجُودِ وَحَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ ابْنِ آدَمَ آثَارَ السُّجُودِ ﴾ .

وَقَدْ رَوَى مَنْصُورٌ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ : هُوَ الْخُشُوعُ .

قُلْت : هُوَ أَثَرُ السُّجُودِ ، فَقَالَ : إنَّهُ يَكُونُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ مِثْلَ رُكْبَةِ الْعَنْزِ ، وَهُوَ كَمَا شَاءَ اللَّهُ .

وَقَالَ عُلَمَاءُ الْحَدِيثِ : مَا مِنْ رَجُلٍ يَطْلُبُ الْحَدِيثَ إلَّا كَانَ عَلَى وَجْهِهِ نَضْرَةٌ ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ : نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا ﴾ الْحَدِيثَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(324/715)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة الفتح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ﴾ : متعلقٌ بفَتَحْنا ، وهي لامُ العلةِ . وقال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : كيف جُعِل فتحُ مكةَ علةً للمغفرة ؟ قلت : لم يُجْعَلْ علةً للمغفرةِ ، ولكن لما عَدَّد من

الأمور الأربعة وهي : المغفرةُ ، وإتمامُ النعمةِ ، وهدايةُ الصراطِ المستقيمِ ، والنصرُ العزيزُ ؛ كأنه قال : يَسَّرْنا لك فتح مكة ونَصَرْناك على عدوِّك ؛ لنجمعَ لك بين عِزِّ الدارَيْن وأغراضِ العاجلِ والآجل . ويجوز أَنْ يكونَ فَتْحُ مكةَ من حيث إنَّه جهادٌ للعدو وسبباً للغفران والثواب " . وهذا الذي قاله مخالِفٌ لظاهرِ الآية ؛ فإنَّ اللامَ داخلةٌ على المغفرة ، فتكونُ المغفرةُ علةً للفتح ، والفتحُ مُعَلَّلٌ بها ، فكان ينبغي أَنْ يقولَ : كيف جُعِل فتحُ مكةَ مُعَلَّلاً بالمغفرةِ ؟ ثم يقول : لم يُجْعَلْ مُعَلَّلاً . وقال ابنُ عطية : " المرادُ هنا أنَّ اللَّهَ تعالى فَتَح لك لكي يجعلَ الفتح علامةً لغفرانه لك ، فكأنها لامُ صيرورة " وهذا كلامٌ ماشٍ على الظاهر . وقال بعضُهم : إنَّ هذه اللامُ لامُ القسمِ والأصلُ : لَيَغْفِرَنَّ فكُسِرَتْ اللامُ تشبيهاً ب لام كي ، وحُذِفَتْ النونُ . ورُدَّ هذا : بأنَّ اللامَ لا تُكْسَرُ . وبأنَّها لا تَنْصِبُ المضارعَ . وقد يقال : إنَّ هذا ليس بنصبٍ ، وإنما هو بقاءُ الفتحِ الذي كان قبل نونِ التوكيد ، بقي ليدُلَّ عليها ، ولكنه قولٌ مردودٌ .

لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (5)

قوله : ﴿ لِّيُدْخِلَ ﴾ : في متعلَّق هذه اللامِ أربعةُ أوجهٍ ، أحدها : محذوفٌ تقديرُه : يَبْتَلي بتلك الجنود مَنْ شاء فيقبلُ الخيرَ مِمَّنْ أهَّله له ، والشرَّ مِمَّنْ قضى له به ليُدْخِلَ ويُعَذِّب . الثاني : أنها متعلقةٌ بقولِه : " إنَّا فَتَحْنا " . الثالث : أنَّها متعلقةٌ ب "يَنْصُرَكَ" . الرابع : أنها متعلقة ب "يَزْدادوا" . واسْتُشْكل هذا : بأنَّ قولَه تعالى : " ويُعَذِّبَ " عطفٌ عليه ، وازديادُهم الإيمانَ ليس مُسَبَّباً عن تعذيبِ اللَّهِ الكفارَ . وأجيب : بأنَّ اعتقادَهم أنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ الكفارَ يزيدُ في إيمانِهم لا محالة . وقال الشيخ : " والازديادُ لا يكونُ سبباً لتعذيب الكفارِ . وأُجيب : بأنَّه ذُكِر لكونِه مقصوداً للمؤمنِ . كأنه قيل : بسببِ ازديادِكم في الإيمانُ يُدْخِلُكم الجنة ، ويُعَذِّبُ الكفار بأيديكم في الدنيا " . وفيه نظرٌ ؛ كان ينبغي أن يقولَ : لا يكونُ مُسَبَّباً عن تعذيب الكفارِ ، وهذا يُشْبِهُ ما تقدَّم في ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ﴾ [الفتح : 2] .

قوله : " عندَ اللَّه " متعلقٌ بمحذوفٍ ، على أنه حال مِنْ " فوزاً " لأنَّه صفتُه في الأصل . وجَوَّز أبو البقاء أَنْ يكون ظرفاً لمكان ، وفيه خلافٌ ، وأَنْ يكونَ ظرفاً لمحذوفٍ دَلَّ عليه الفوز أي : يفوزون عند اللَّهِ . ولا يتعلَّق ب " فَوْزاً " لأنَّه مصدرٌ ؛ فلا يتقدَّم معمولُه عليه . ومَنْ اغْتَفَر ذلك في الظرفِ جَوَّزَه .

وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (6)

قوله : ﴿ الظآنين بالله ﴾ : صفةٌ للفريقَيْن . وتقدَّم الخلافُ في " السوء " في التوبة . وقرأ الحسن " السُّوء " بالضم فيهما .

(326/715)

لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (9)

قوله : ﴿ لِّتُؤْمِنُواْ ﴾ : قرأ " ليؤمنوا " وما بعده بالياء مِنْ تحت ابنُ كثير وأبو عمرو رُجوعاً إلى قولِه : " المؤمنين والمؤمنات " . والباقون بتاءِ الخطاب . وقرأ الجحدري " تَعْزُرُوْه " بفتح التاء وضمِّ الزاي . وهو أيضاً وجعفر بن محمد كذلك إلاَّ أنهما كسرا الزاي . وابنُ عباس واليماني " ويُعَزِّرُوه " كالعامَّةُ ، إلاَّ أنه بزاءَيْن من العزَّة . والضمائر المنصوبةُ راجعةٌ إلى الله تعالى . / وقيل : على الرسول إلاَّ الأخيرَ .

إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (10)

قوله : ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله ﴾ : خبرُ " إن الذين " . و ﴿ يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ جملةٌ حاليةٌ ، أو خبرٌ ثانٍ . وهو ترشيحٌ للمجاز في مبايعةِ الله . وقرأ تمام بن العباس " يُبايعون الله " . والمفعولُ محذوفٌ أي : إنما يبايعونك لأجل الله .

قوله : يَنْكُثُ " قرأ زيد بن علي "يَنْكِثُ" بكسر الكاف . والعامَّةُ على نصب الجلالة المعظمة . ورَفَعَها ابنُ أبي إسحاق على أنَّه تعالى عاهدهم . وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر " فَسَنُؤْتيه " بنون العظمة . والباقون بالياءِ مِنْ تحت . وقرئ " عَهِد عليه " ثلاثياً .

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (11)

(327/715)

قوله : ﴿ شَغَلَتْنَآ ﴾ : حكى الكسائيُّ عن ابن نُوح أنه قرأ " شَغَّلَتْنا " بالتشديد .

قوله : " ضَرّاً " قرأ الأخَوان بضم الضاد . والباقون بفتحها فقيل : لغتان بمعنى كالفُقْر والفَقْر ، والضُّعْف والضَّعْف . وقيل : بالفتح ضد النفع ، وبالضم سوءُ الحال .

بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (12)

وقرأ عبد الله " إلى أهلِهم " دونَ ياءٍ ، بل أضاف الأهل مفرداً . وقُرِئ " وزَيَّنَ " مبنياً للفاعل أي : الشيطان أو فِعْلُكم . و ﴿ كُنتُمْ قَوْماً بُوراً ﴾ أي : صِرْتُم . وقيل : على بابها

من الإِخبار بكونِهم في الماضي كذا . والبُوْرُ : الهَلاك . وهو يحتمل أن يكونَ هنا مصدراً أُخْبر به عن الجمع كقولِه :

4077 يا رسولَ الإِلهِ إنَّ لساني . . . راتِقٌ ما فَتَقْتُ إذ أنا بُوْرُ

ولذلك يَسْتوي فيه المفردُ والمذكرُ وضدُّهما . ويجوز أن يكون جمع بائرٍ كحائل وحُوْل في المعتلِّ . وبازل وبُزْل في الصحيح .

وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (13)

قوله : ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن ﴾ : يجوز أَنْ تكونَ شرطيةً أو موصولةً . والظاهرُ قائمٌ مقامَ العائدِ على كلا التقديرَيْن أي : فإنَّا أَعْتَدْنا لهم .

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (15)

قوله : ﴿ يُرِيدُونَ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ مستأنفاً ، وأَنْ يكونَ حالاً من " المخلَّفون " ، وأن يكونَ حالاً من مفعول " ذَرُوْنا " .

قوله : "كلامَ الله" قرأ الأخَوان "كَلِمَ" جمع كِلْمة . والباقون "كلامَ" . وقرأ أبو حيوة "تَحْسِدُوْننا" بكسرِ السين .

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (16)

قوله : ﴿ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ : العامَّةُ على رَفْعِه بإثبات النون عطفاً على "تُقاتلونهم" أو على الاستئنافِ أي : أو هم يُسْلِمون . وقرأ أُبَيٌّ وزيد بن علي بحذفِ النون نَصَباه بحذفِها . والنصبُ بإضمارِ "أَنْ" عند جمهور البصريين وب "أو" نفسِها عند الجرميِّ والكسائي ، ويكون قد عَطَفَ مصدراً مؤولاً على مصدر متوهَّم . كأنه قيل : يكنْ قتال أو إسلامٌ . ومثلُه في النصبِ قولُ امرئ القيس :

4078 فقلتُ له لا تَبْكِ عَيْنُك إنما . . . نُحاول مُلْكاً أو نموتَ فَنُعْذَرا

وقال أبو البقاء : "أو بمعنى : إلاَّ أَنْ ، أو حتى" .

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (18)

قوله : ﴿ إِذْ يُبَايِعُونَكَ ﴾ : منصوبٌ ب "رَضي" و "تحت الشجرة" يجوزُ أَنْ يكونَ متعلِّقاً ب "يُبايعونك" ، وأنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنه حالٌ من المفعول . وفي التفسيرِ : أنه

عليه السلام كان جالساً تحتها .

وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (19)

(329/715)

قوله : ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً ﴾ : أي : وآتاكم مغانمَ ، أو آتاهم مغانمَ ، أو أثابَهم مغانم ، أو أثابكم مغانمَ ، وإنما قدَّرْتُ الخطابَ والغَيْبَة ؛ لأنه يُقرأ "يَأْخُذونها " بالغيبة – وهي قراءة العامَّةِ – " وتَأْخُذونها " بالخطاب ، وهي قراءةُ الأعمشِ وطلحةَ ونافعٍ في رواية سقلاب .

وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (20)

قوله : ﴿ وَلِتَكُونَ ﴾ : يجوز فيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : أنه متعلّقٌ بفعلٍ مقدرٍ بعده ، تقديرُه : ولِتَكونَ فَعَلَ ذلك . الثاني : أنَّه معطوفٌ على علةٍ محذوفةٍ ، تقديرُه : وَعَدَ فعجَّل وكَفَّ لتنتَفِعوا ولتكونَ ، أو لتشكروه ولتكونَ . الثالث : أنَّ الواوَ مزيدةٌ ، والتعليلُ لما قبلَه أي : وكَفَّ لتكونَ .

وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (21)

(330/715)

قوله: ﴿ وأخرى ﴾: يجوزُ فيها أوجهٌ، أحدها: أَنْ تكونَ مرفوعةً بالابتداءِ، و ﴿ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا ﴾ صفتُها. و ﴿ قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا ﴾ خبرُها. الثاني: أنَّ الخبرَ محذوفٌ، مقدَّرٌ قبلها أي: وثَمَّ أُخْرى لم تَقْدِروا عليها. الثالث: أَنْ تكونَ منصوبةً بفعلٍ مضمرٍ على شريطةِ التفسيرِ، فيُقَدَّرُ الفعلُ مِنْ معنى المتأخِّر، وهو قد أحاط اللَّهُ بها أي: وقَضى اللَّهُ أخرى. الرابع: أَنْ تكونَ منصوبةً بفعلٍ مضمرٍ لا على شريطةِ التفسير، بل لدلالةِ السِّياقِ أي: ووعَد أخرى، أو وآتاكم أخرى. الخامس: أنْ تكونَ مجرورةً ب "رُبَّ" مقدرةً، وتكونَ الواوُ واوَ "رُبَّ"، ذكره الزمخشريُّ. وفي المجرورِ بعد الواوِ المذكورة خلافٌ مشهورٌ: هو برُبَّ مضمرةً أم بنفسِ الواو. إلاَّ أنَّ الشيخ قال: "ولم تَأْتِ رُبَّ جارَّةً في القرآنِ على كثرةِ دَوْرِها" يعني جارَّةً لفظاً، وإلاَّ فقد قيل: إنها جارَّةٌ تقديراً هنا وفي قولِه: "رُبَما" على قولنا: إنَّ "ما" نكرةٌ موصوفة.

قوله: ﴿ قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا ﴾ / يجوزُ أَنْ يكونَ خبراً ل "أُخْرى" كما تقدَّم، أو صفةً ثانيةً إذا قيل: بأنَّ "أُخْرى" مبتدأٌ، وخبرُها مضمرٌ أو حال أيضاً.

سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (23)

قوله: ﴿ سُنَّةَ اللهِ ﴾: مصدرٌ مؤكِّد لمضمونِ الجملةِ المتقدمة أي: سَنَّ اللَّهُ ذلك سُنَّةَ.

وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (24)

(331/715)

قوله : ﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ : قرأ أبو عمرو "يَعْلمون" بالياء مِنْ تحتُ ، رجوعاً إلى الغَيْبة في " أيديهم " و " عنهم " والباقون بالخطاب ، رجوعاً إلى الخطاب في قوله : " أيديكم " و " عنكم " .

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (25)

قوله : ﴿ والهدي ﴾ : العامَّةُ على نصبه . والمشهورُ أنَّه نسقٌ على الضميرِ المنصوبِ في " صَدُّوكم " . وقيل : نُصِبَ على المعيَّةِ . وفيه ضَعْفٌ لإمكان العطفِ . وقرأ أبو عمروٍ في روايةٍ بجرِّه عطفاً على " المسجد الحرام " ، ولا بُدَّ مِنْ حذفِ مضافٍ أي : وعن نَحْرِ الهَدْي . وقُرِئ برفعِه على أنه مرفوعٌ بفعلٍ مقدرٍ لم يُسَمَّ فاعلُه أي : وصُدَّ الهَدْيُ . والعامة على فتحِ الهاءِ وسكونِ الدالِ ورُوي عن أبي عمروٍ وعاصم وغيرِهما كسرُ الدالِ وتشديدُ

الياء . وحكى ابن خالويه ثلاثَ لغاتٍ : الهَدْيُ وهي الشهيرةُ لغةُ قريشٍ والهَدِيُّ والهَدَى .

قوله : " مَعْكوفاً " حالٌ من الهدي أي : محبوساً يُقال : عَكَفْتُ الرجلَ عن حاجتِه . وأنكر الفارسيُّ تعديةَ " عَكَفَ " بنفسِه وأثبتَها ابنُ سيده والأزهريُّ وغيرُهما ، وهو ظاهرُ القرآنِ لبناء اسمِ المفعول منه .

(332/715)

قوله : " أَنْ يَبْلُغَ " فيه أوجهٌ ، أحدها : أنَّه على إسقاطِ الخافضِ أي : عَنْ أَنْ ، أو مِنْ أَنْ . وحينئذٍ يجوزُ في هذا الجارِّ المقدرِ أن يتعلَّقَ ب " صَدُّوكم " ، وأن يتعلَّقَ بمعكوفاً أي : مَحْبوساً عن بلوغِ محلِّه أو من بلوغِ مَحِلِّه . الثاني : أنه مفعولٌ مِنْ أجله ، وحينئذٍ يجوز أن يكونَ علةً للصدّ ، والتقدير : صَدُّوا الهَدْيَ كراهةَ أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّه ، وأن يكون علةً لمعكوفاً أي : لأجل أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّه ، ويكون الحبسُ من المسلمين . الثالث : أنه بدلٌ من الهَدْي بدلُ اشتمالٍ أي : صَدُّوا بلوغَ الهَدْيِ مَحِلَّه .

قوله : " لم تَعْلَموهم " صفةٌ للصِّنفَيْن وغَلَّب الذكورَ .

قوله : " أَنْ تَطَؤُوْهم " يجوز أَنْ يكونَ بدلاً مِنْ رجال ونساء ، وغَلَّبَ الذكورَ كما تقدَّمَ ، وأن يكونَ بدلاً مِنْ مفعول " تَعْلَموهم " فالتقدير على الأول : ولولا وَطْءُ رجالٍ ونساءٍ غيرِ

معلومين ، وتقدير الثاني : لم تعلموا وَطْأَهم ، والخبرُ محذوفٌ تقديره : ولولا رجالٌ ونساء موجودون أو بالحضرة . وأمَّا جوابُ "لولا" ففيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : أنَّه محذوفٌ لدلالةِ جواب لو عليه . والثاني : أنه مذكورٌ . وهو "لَعَذَّبْنا" ، وجوابُ "لو" هو المحذوفُ ، فَحَذَفَ من الأول لدلالةِ الثاني ، ومن الثاني لدلالةِ الأول . والثالث : أنَّ "لَعَذَّبْنا" جوابُهما معاً وهو بعيدٌ إن أرادَ حقيقة ذلك . وقال الزمخشري قريباً مِنْ هذا ، فإنَّه قال : "ويجوز أَنْ يكونَ "لو تَزَيَّلوا" كالتكرير ل ﴿ لَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ ﴾ لمَرْجِعِهما إلى معنىً واحدٍ ، ويكون "لَعَذَّبْنا" هو الجوابَ" . ومنع الشيخ مرجِعَهما لمعنى واحدٍ قال : "لأنَّ ما تعلَّق به الأولُ غيرُ ما تعلَّق به الثاني" .

(333/715)

قوله : "فتُصيبَكم" نَسَقٌ على "أَنْ تَطَؤُوهم" . وقرأ ابن أبي عبلةَ وأبو حيوة وابنُ عونٍ "لو تَزايَلوا" على تفاعَلوا .

والضمير في "تَزَيَّلوا" يجوز أَنْ يعودَ على المؤمنين فقط ، أو على الكافرين أو على الفريقين أي : لو تَمَيَّز هؤلاء مِنْ هؤلاء لَعَذَّبْنا .

والوَطْءُ هنا : عبارةٌ عن القتلِ والدَّوْسِ . قال عليه السلام : "اللَّهم اشدُدْ وَطْأَتك على

مُضَرَ" ، وأنشدوا :

4079 ووَطِئْتَنا وَطْئاً على حَنَق . . . وَطْءَ المقيَّدِ ثابتَ الهَرْمِ

والمَعَرَّة : الإثم .

قوله : " بغيرِ عِلْمٍ " يجوز أَنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنه صفةٌ ل " مَعَرَّةٍ " ، أو أَنْ يكونَ حالاً مِنْ مفعول " تُصيبكم " . وقال أبو البقاء : " من الضمير المجرورِ " يعني في " منهم " ولا يَظْهر معناه ، أو أن يتعلَّقَ ب " يُصيبكم " ، أو أن يتعلَّقَ ب " تَطَؤُوْهم " .

قوله : " لِيُدْخِلَ اللَّهُ " متعلقٌ بمقدرٍ أي : كان انتفاءُ التسليطِ على أهلِ مكةَ وانتفاءُ العذابِ لِيُدْخِلَ اللَّهُ .

إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (26)

قوله : ﴿ إِذْ جَعَلَ ﴾ : العاملُ في الظرفِ : إما " لَعَذَّبْنا " أو " صَدُّوكم " أو اذكُرْ ، فيكونُ مفعولاً به .

قوله : " في قلوبهم " يجوز أَنْ يتعلَّقَ ب جَعَلَ على أنها بمعنى أَلْقى فتتعدَّى لواحدٍ أي : إذ ألقى الكافرونَ في قلوبِهم الحميةَ ، وأن يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أَنَّه مفعولٌ ثانٍ قُدِّمَ على أنها بمعنى صَيَّرَ .

قوله : " حَمِيَّةَ الجاهليةِ " بدلٌ مِنْ " الحميةَ " قبلها . والحميَّةُ : الأَنَفَةُ من الشيءِ . وأنشد للمتلمِّس :

(334/715)

4080 ألا إنني منهمْ وعِرْضي عِرْضُهُمْ . . . كذا الرأسُ يَحْمي أنفَه أَنْ يُهَشَّما

وهي المَنْعُ ، ووزنُها فعيلة ، وهي مصدرٌ يقال : حَمَيْتُ عن كذا حَمِيَّةً .

قوله : " وكانوا أحَقَّ " الضميرُ يجوزُ أَنْ يعودَ على المؤمنين ، وهو الظاهر أي : أحقَّ بكلمةِ التقوى من الكفار . وقيل : يعودُ على الكفار / أي : كانت قُرَيْشٌ أَحَقَّ بها لولا حِرْمانُهم .

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (27)

قوله : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ﴾ : صَدَقَ يتعدَّى لاثنين ثانيهما بحرفِ الجرِّ يقال : صَدَقْتُكَ في كذا . وقد يُحْذَفُ كهذه الآيةِ .

قوله : " بالحَقِّ " فيه أوجهٌ ، أحدُها : أَنْ يتعلَّق ب " صدق " . الثاني : أَنْ يكونَ صفةً لمصدرٍ محذوفٍ أي : صِدْقاً مُلْتَبساً بالحق . الثالث : أَنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنه حالٌ من " الرؤيا " أي : مُلْتبسةً بالحق . الرابع : أَنَّه قسمٌ وجوابُه " لَتَدْخُلُنَّ " فعلى هذا يُوقف على

" الرؤيا " ويُبْتَدَأُ بما بعدَها .

قوله : " لَتَدْخُلُنَّ " جوابُ قسمٍ مضمرٍ ، أو لقوله : " بالحق " على ذلك القولِ . وقال أبو البقاء : " و " لَتَدْخُلُنَّ " تفسيرٌ للرؤيا أو مستأنَفٌ أي : والله لَتَدْخُلُنَّ " ، فجعل كونَه جوابَ قسمٍ قسيماً لكونِه تفسيراً للرؤيا . وهذا لا يَصِحُّ البتةَ ، وهو أَنْ يكونَ تفسيراً للرؤيا غيرَ جوابٍ لقسم ، إلاَّ أَنْ يريدَ أنه جوابُ قسمٍ ، لكنه يجوز أَنْ يكونَ هو مع القسم تفسيراً ، وأن يكونَ مستأنفاً غيرَ تفسيرٍ وهو بعيدٌ من عبارته .

(335/715)

قوله : " آمِنين " حالٌ مِنْ فاعل " لَتَدْخُلُنَّ " وكذا " مُحَلِّقين ومُقَصِّرِين " ، ويجوز أَنْ يكونَ " مُحَلِّقين " حالاً مِنْ " آمِنين " فتكونَ متداخلةً .

قوله : " لا تَخافون " يجوز أَنْ يكونَ مستأنفاً ، وأَنْ يكونَ حالاً ثالثةً ، وأَنْ يكونَ حالاً : إمَّا مِنْ فاعل " لَتَدْخُلُنَّ " أو مِنْ ضميرِ " آمنين " أو " مُحَلِّقين " أو " مقصِّرين " . فإن كانَتْ حالاً مِنْ " آمِنين " أو حالاً من فاعل " لَتَدْخُلُنَّ " فهي حالٌ للتوكيد و " آمنين " حالٌ مقاربةٌ ، وما بعدها حالٌ مقدرةٌ إلاَّ قولَه : " لا تَخافون " إذا جُعِل حالاً فإنها مقارنةٌ أيضاً .

قوله : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ خبرَ مبتدأ مضمرٍ ، لأنه لَمَّا تقدَّمَ : ﴿ هُوَ

الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ ﴾ دَلَّ على ذلك المقدَّرِ أي : هو أي : الرسولُ بالهدى محمدٌ ، و " رسولُ " بدلٌ أو بيانٌ أو نعتٌ ، وأن يكونَ مبتدأً أو خبراً ، وأن يكونَ مبتدأً و " رسولُ اللَّهِ " على ما تقدَّمَ من البدلِ والبيانِ والنعتِ . و " الذين معه " عطفٌ على " محمدٌ " والخبرُ عنهم قوله : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار ﴾ . وابن عامر في روايةٍ " رسولَ الله " بالنصبِ على الاختصاصِ ، وهي تؤيِّدُ كونَه تابعاً لا خبراً حالةَ الرفعِ . ويجوزُ أَنْ يكونَ " والذين " على هذا الوجه مجروراً عطفاً على الجلالة أي : ورسولُ الذين آمنوا معه ؛ لأنه لَمَّا أُرْسِل إليهم أُضيف إليهم فهو رسولُ اللَّهِ بمعنى : أنَّ اللَّهَ أرسله ، ورسولُ أُمتِه بمعنى : أنه مُرْسَلٌ إليهم ، ويكون " أشدَّاءُ " حينئذٍ خبرَ مبتدأ مضمر أي : هم أشدَّاء . ويجوزُ أَنْ يكونَ تَمَّ الكلام على " رسولُ الله " و " الذين معه " مبتدأٌ و " أشدَّاءُ " خبره .

(336/715)

وقرأ الحسن " أشداءَ ، رحماءَ " بالنصبِ : إمَّا على المدحِ ، وإمَّا على الحال من الضميرِ المستكنِّ في " معه " لوقوعِه صلةً ، والخبرُ حينئذٍ عن المبتدأ .

قوله : ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً ﴾ حالان ؛ لأنَّ الرؤيةَ بَصَرِيَّةٌ ، وكذلك " يَبْتَغُون " يجوزُ أَنْ يكونَ مستأنفاً ، وإذا كانَتْ حالاً فيجوزُ أَنْ تكونَ حالاً ثالثةً مِنْ مفعول " تَراهم " وأن تكونَ

من الضمير المستتر في " رُكَّعاً سجداً " . وجَوَّز أبو البقاء أَنْ يكونَ " سُجَّداً " حالاً مِنَ الضمير في " رُكَّعاً " حالاً مقدرة . فعلى هذا يكونُ " يَبْتَغون " حالاً من الضميرِ في " سُجَّداً " فتكونُ حالاً مِنْ حال ، وتلك الحالُ الأولى حالٌ مِنْ حال أخرى .

وقرأ ابن يعمر " أَشِدَّا " بالقصرِ ، والقصرُ مِنْ ضرائر الأشعار كقوله :

4081 لا بدَّ مِنْ صَنْعا وإنْ طالَ السَّفرْ . . . فلذلك كانَتْ شاذَّةً . قال الشيخ : " وقرأ عمرو بن عبيد " ورُضوانا " بضم الراء " . قلت : هذه قراءةٌ متواترةٌ قرأها عاصمٌ في روايةِ أبي بكرٍ عنه قَدَّمْتها في سورة آل عمران ، واستثنيتُ له حرفاً واحداً وهو ثاني المائدة .

وقُرِئ " سِيْمِياؤهم " بياء بعد الميمِ والمدّ ، وهي لغةٌ فصيحةٌ وأُنْشِد :

4082 غلامٌ رَماه اللَّهُ بالحُسْن يافعاً . . . له سِيْمِياءُ لا تَشُقُّ على البصَرْ

وتقدَّم الكلامُ عليها وعلى اشتقاقِها في آخر البقرة . و " في وجوهِهم " خبرُ " سِيماهم " .

قوله : ﴿ مِّنْ أَثَرِ السجود ﴾ حال من الضمير المستتر في الجارّ ، وهو " في وجوههم " .

والعامَّةُ " مِنْ أَثَرِ " بفتحتين ، وابن هرمز بكسرٍ وسكون ، وقتادة " مِنْ آثارَ " جمعاً .

قوله : " ذلك مَثَلُهم " " ذلك " إشارةٌ إلى ما تقدَّم من وَصْفِهم بكونهم أَشِدَّاءَ رُحَماءَ لهم سِيما في وجوههم ، وهو مبتدأ خبرُه " مَثَلُهم " و " في التوراة " حالٌ مِنْ مَثَلُهم " والعاملُ معنى الإِشارة .

قوله : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الإنجيل ﴾ يجوزُ فيه وجهان ، أحدُهما : أنَّه مبتدأٌ وخبرُه "كزَرْعٍ" فيُوقَفُ على قولِه : "في التوراة" فهما مَثَلان . وإليه ذهب ابن عباس . والثاني : أنه معطوفٌ على "مَثَلُهم" الأولِ ، فيكونُ مَثَلاً/ واحداً في الكتابَيْن ، ويُوْقَفُ حينئذٍ على "الإنجيل" وإليه نحا مجاهدٌ والفراء ، ويكون قولُه على هذا : "كزَرْع" فيه أوجهٌ ، أحدها : أنه خبرُ مبتدأ مضمرٍ أي : مَثَلُهم كزَرْعٍ ، فَسَّر بها المثل المذكور . الثاني : أنه حالٌ من الضمير في "مَثَلُهم" أي : مُماثِلين زَرْعاً هذه صفتُه . الثالث : أنها نعتُ مصدرٍ محذوفٍ أي : تمثيلاً كزرع ، ذكره أبو البقاء . وليس بذاك . وقال الزمخشريُّ : "ويجوزُ أَنْ يكونَ" ذلك "إشارةً مُبْهَمَةً أُوْضِحَتْ بقولِه : "كَزَرْع" كقوله : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأمر أَنَّ دَابِرَ ﴾ " .

قوله : "أَخْرَجَ شَطْأَه" صفةٌ لزرع . وقرأ ابن كثير وابن ذكوان بفتح الطاء ، والباقون بإسكانها ، وهما لغتان . وفي الحرف لغاتٌ أخرى قُرِئَ بها في الشاذِّ : فقرأ أبو حيوةَ "شَطاءَه" بالمدِّ ، وزيد بن علي "شَطاه" بألفٍ صريحةٍ بعد الطاءِ ، فاحتملَتْ أَنْ تكونَ بدلاً من الهمزةِ بعد نقلِ حركتِها إلى الساكنِ قبلَها على لغةِ مَنْ يقولُ : المَراةُ والكَماةُ بعد النقلِ ، وهو مقيسٌ عند الكوفيين ، واحتمل أَنْ يكونَ مقصوراً من الممدود . وأبو جعفر ونافعٌ في روايةٍ "شَطَه" بالنقل والحَذْفِ وهو القياسُ . والجحدري "شَطْوَه" أبدل الهمزة واواً ، إذ

تكونُ لغةً مستقلةً . وهذه كلُّها لغاتٌ في فراخِ الزَّرْع . يقال : شَطَأَ الزَّرْعُ وأَشْطَأَ أي : أخرجَ فِراخَه . وهل يختصُّ ذلك بالحِنْطة فقط ، أو بها وبالشعيرِ فقط ، أو لا يختصُّ ؟ خلاف مشهور قال :

4083 أَخْرجَ الشَّطْءَ على وجهِ الثَّرى . . . ومنَ الأشجارِ أفنانَ الثمرْ

(338/715)

قوله : " فآزَرَه " العامَّةُ على المدّ وهو على أَفْعَل . وغَلَّطوا مَنْ قال : إنه فاعَل كمجاهدٍ وغيرِه بأَنَّه لم يُسْمَعْ في مضارعه يُؤَازِرُ بل يُؤْزِرُ . وقرأ ابن ذكوان " فَأَزَره " مقصوراً جعله ثلاثياً . وقُرِئ " فأَزَّرَه " بالتشديدِ والمعنى في الكلِّ : قوّاه .

وقيل : ساواه . وأُنْشد :

4084 بمَحْنِيَةٍ قد آزَرَ الضالَّ نَبْتَها . . . مَجَرَّ جُيُوشٍ غانِمِيْنَ وخُيَّبِ

قوله : " على سُوْقِه " متعلِّقٌ ب " اسْتوى " ، ويجوز أَنْ يكونَ حالاً أي : كائناً على سُوْقِه أي : قائماً عليها . وقد تقدَّم في النمل أن قنبلاً يقرأ " سُؤْقِه " بالهمزةِ الساكنة كقولِه :

4085 أحَبُّ المُؤْقِدين إليَّ موسى . . . . . .

. . . . . .

وبهمزةٍ مضمومةٍ بعدها واوٌ كقُرُوْح، وتوجيهُ ذلك . والسُّوْق : جمع ساق .

قوله : "يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ" حالٌ أي : مُعْجِباً ، وهنا تَمَّ المَثَلُ .

قوله : "لِيَغيظَ" فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنه متعلّقٌ ب "وَعَدَ" ؛ لأنَّ الكفارَ إذا سَمِعوا بعِزِّ المؤمنين في الدنيا وما أُعِدَّ لهم في الآخرة غاظَهم ذلك . الثاني : أَنْ يتعلَّق بمحذوفٍ دَلَّ عليه تشبيهُهم بالزَّرْعِ في نَمائِهم وتَقْويتِهم . قاله الزمخشري أي : شَبَّهَهم اللَّهُ بذلك لِيَغيظَ . الثالث : أنه متعلّقٌ بما دَلَّ عليه قولُه : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار ﴾ إلى آخره أي : جعلهم بهذه الصفاتِ لِيَغيظَ .

قوله : "مِنْهم" "مِنْ" هذه للبيانِ لا للتبعيضِ ؛ لأنَّ كلَّهم كذلك فهي كقولِه : ﴿ فاجتنبوا الرجس مِنَ الأوثان ﴾ [الحج : 30] . وقال الطبري : "منهم أي : من الشَّطْء الذي أخرجه الزرعُ ، وهم الداخلون في الإِسلامِ إلى يومِ القيامة" ، فأعاد الضميرَ على معنى الشَّطْءِ ، لا على لفظِه ، وهو معنى حسنٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 725.709 ﴾

(339/715)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة الفتح

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " تشير إلى سموه في أزله ، وعلوه في أبده ، وسموه يفي أوله نفى البداية عنه بحق القدم ، وعلوه في أبده نفى الانتهاء عنه باستحالة العدم ، فمعرفة سموه توجب للعبد سموا ، ومعرفة علوه توجب للعبد علوا .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ .

قضينا لك قضاءَ بَيِّناً ، وحكمنا لك بتقويةِ دينِ الإسلام ، والنصرةِ على عدوِّك ، وأكرمناكَ بفتح ما انغلق على قلبِ مَنْ هو غيرك – مِنْ قِبْلِك – بتفصيلِ شرائعِ الإسلام ، وغير ذلك من فتوحات قلبه صلوات الله عليه .

نزلت الآيةُ في فتحِ مكة ، ويقال في فتح الحُديبية .

ويقال : هديناك إل شرائع الإسلام ، ويَسَّرْنا لك أمورَ الدين .

قوله جلّ ذكره : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ .

كلا القسمين – المتقدّمِ والمتأخّر – كان قبلَ النبوة .

ويقال : ﴿ مَا تَقَدَّمَ ﴾ من ذَنْبِ آدمِ بحُرْمتك ، ﴿ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ : من ذنوب أُمَّتك .

وإذا حُمِلَ على تَرْكِ الأَوْلَى فقد غفر له جميع ما فعل من قبيل ذلك ، قبل النبوة وبعدها .

ولَمَّا نزلت هذه الآية قالوا : هنيئاً لك ! فأنزل الله تعالى : ﴿ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ . . . ويقال . حسناتُ الأبرارِ سيئاتُ المقربين .

﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾ .

يتم نعمته عليك بالنبوة ، وبوفاء العاقبة ، وببسط الشريعة ، وبشفاعته لأمته ، وبرؤية الله غداً ، وبإظهار دينه على الأديان ، وبأنه سيد ولد آدم ، وبأنه أَقْسَمَ بحياتِهِ ، وخصَّه بالعيان . وبسماعِ كلامه سبحانه ليلةَ المعراج ، وبأن بَعَثَه إلى سائِرِ الأمم . . وغير ذلك من مناقبه .

(340/715)

﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾ يثبتك على الصراط المستقيم ، ويزيدك هدايةً على هداية ، ويهدي بك الخَلْقَ إلى الحقِّ .

ويقال : يهديك صراطاً مستقيماً بترك حَظِّك .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً ﴾ .

لا ذُلَّ فيه ، وتكون غالباً لا يَغْلِبُكَ أحَدٌ :

ويقال : ينصرك على هواك ونَفْسِك ، وينصرك بحُسْنِ خُلُقِك ومقاساةِ الأذى من قومك .

ويقال نصراً عزيزاً : مُعِزّاً لك ولمن آمن بك .

وهكذا اشتملت هذه الآية على وجوهٍ من الأفضال أكْرَمَ بها نبيَّه – صلى الله عليه وسلم – وخصَّه بها من الفتح والظَّفَرِ على النَّفْس والعدو ، وتيسير ما انغلق على غيره ، والمغفرة ، وإتمام النعمة والهداية والنصرة . . ولكلٍّ من هذه الأشياء خصائصُ عظيمةٌ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ السكينةُ ما يسكن إليه القلبُ من البصائر والحُجَج ، فيرتقي القلبُ بوجودِها عن حدِّ الفكرة إلى رَوْحِ اليقين وثَلَج الفؤاد ، فتصير العلومُ ضروريةٌ . . . وهذا للخواصّ .

فأمّا عوامُّ المسلمين فالمرادُ منها : السكون والطمأنينةُ واليقين .

ويقال : من أوصافِ القلب في اليقين المعارف والبصائر والسكينة .

وفي التفاسير : السكينة ريح هفَّافة . وقالوا : لها وجهٌ كوجه الإنسان . وقيل لها جناحان .

﴿ لِيَزْدَادُواْ إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ .

أي يقيناً مع يقينهم وسكوناً مع سكونهم . تطلع أقمارُ عين اليقين على نجوم علم اليقين ، ثم تطلع شمسُ حقِّ اليقين على بَدْرِ عين اليقين .

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ .

﴿ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ وقيل : هي جميع القلوب الدالَّةِ على وحدانية الله .

ويقال : مُلْكُ السمواتِ والأَرضِ وما به من قوىً تقهر أعداءَ اللَّهِ .

ويقال : هم أنصارُ دينه .

(341/715)

ويقال : ما سلَّطه الحقُّ على شيءٍ فهو من جنوده ، سواء سلَّطَه على وليِّه في الشدة والرخاء ، أو سلَّطَه على عدوِّه في الراحة والبلاء .

لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (5)

يَسْتُرُ ذنوبَهم ويحطها عنهم . . وذلك فوزٌ عظيم ، وهو الظَّفَرُ بالبغية .

وسُؤْلُ كلِّ أحدٍ ومأمولُه ، ومُبْتغاه ومقصودُه مختلِفٌ . . . وقد وَعَدَ الجميعَ ظَفَراً به قوله جلّ ذكره : ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ .

يعذبهم في الآجل بعذابهم وسوء عقابهم .

و﴿ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ : هو ما كان بغير الإذن ؛ ظنوا أَنَّ الله لا ينصر دينَه ونَبيَّه عليه السلام .

﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ ﴾ : عاقبته تدور عليهم وتحيقُ بهم .

﴿ وَلَعَنَهُمْ ﴾ : أبعدهم عن فضله ، وحقت فيهم كلمتُه ، وما سبقت لهم – من الله سبحانه – قِسْمَتُه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ .

﴿ أَرْسَلْناكَ شَاهِداً ﴾ : على أُمَّتِكَ يوم القيامة . ويقال : شاهداً على الرُّسُلِ والكتب . ويقال : شاهداً بوحدانيتنا وربوبيتنا . ويقال : شاهداً لأمتك بتوحيدنا . ﴿ وَمُبَشِّراً ﴾ : لهم مِنَّ بالثواب ، ﴿ وَنَذِيراً ﴾ للخَلْق ؛ زاجراً ومُحَذِّراً من المعاصي والمخالفات . ويقال : شاهداً مِنْ قِبَلنا ، ومُبَشِّراً بأمرنا ، ونذيراً من لَدُنَّا ولنا ومِنَّا .

قوله جلّ ذكره : ﴿ لِّتُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ .

(342/715)

قرئ : " ليؤمنوا " بالياء ؛ لأن ذكر المؤمنين جرى ، أي ليؤمن المؤمنون بالله ورسوله ويعزروه وينصروه أي الرسول ، ويوقروه : أي : يُعَظِّموا الرسولَ . وتُسَبِّحوه : أي تُسَبِّحوا الله وتنزهوه بكرة وأصيلاً .

وقرئ : " لتؤمنوا " – بالتاء – أيها المؤمنون بالله ورسوله وتُعَزروه – على المخاطَبة .

وتعزيرُه يكون بإيثاره بكلِّ وجه على نَفْسك ، وتقديمِ حُكْمِهِ على حُكمِك . وتوقيرُه يكون باتباع سُنَّتِه ، والعلم بأنه سيّدُ بَرِيَّته .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ .

وهذه البيعة هي بيعة الرضوان بالحديبية تحت سَمُرَة .

وذلك أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعث عثمانَ رضي الله عنه إلى قريش ليُكلِّمَهم فأرجفوا بقَتْلِه . وأتى عروة بن مسعود إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – وقال : جئتَ بأوشاب الناس لتفضَّ بَيْضَتَكَ بيدك ، وقد استعدت قريش لقتالك ، وكأنّي بأصحابك قد انكشفوا عنك إذا مسَّهم حرُّ السلاح ! فقال أبو بكر : أتظن أنَّ نسلم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ؟

فبايعهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم على ان يُقاتِلوا وألا يهربوا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ : أي عقْدُك عليهم هو عقد الله .

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ .

أي ﴿ يَدُ اللَّهِ ﴾ : في المنة عليهم بالتوفيق والهداية : ﴿ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ بالوفاء حين بايعوك .

ويقال : قدرة الله وقوته في نصرة دينه ونصرة نبيِّه صلى الله عليه وسلم فوقَ نَصْرِهم لدين

الله ولرسوله .

وفي هذه الآية تصريحٌ بعين الجمع كما قال : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ [الأنفال : 17] .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ .

أي عذابُ النكثِ عائدٌ عليه .

(343/715)

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ .

أي من قام بما عاهد الله عليه على التمام فسيؤتيه أجراً عظيماً .

وإذا كان العبد بوصف إلخلاصِه ، ويعامِل اللَّهَ في شيءٍ هو به متحقّقٌ ، وله بقلبه شاهدٌ فإنَّ الوسائطَ التي تُظْهِرُها أماراتُ التعريفاتِ تجعله محواً في أسرارِه . . . والحكم عندئذ راجعٌ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ .

لَمَّا قَصَدَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية تخلَّفَ قومٌ من الأعراب عنه . قيل :

هم أسلم وجهينة وغفار ومزينة واشجع ، وقالوا : ﴿ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ وليس لنا مَنْ يقوم بشأننا وقالوا : انظروا ماذا يكون ؛ فما هم من قريش إلاَّ أَكَلَةُ رأسٍ . فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءوه مُعْتَذِرين بأنه لم يكن لهم أحدٌ يقوم بأَمورهم ! وقالوا : استغفر لنا .

فأطلعه الله –سبحانه– على كذبهم ونفاقهم ؛ وأنهم لا يقولون ذلك إخلاصاً ، وعندهم سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، فإنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ .

فضَحَهم . ويقال : ما شغل العبد عن الله شُؤْمٌ عليه .

ويقال : عُذْرُ المماذِقِ وتوبةُ المنافِق كلاهما ليس حقائق .

قوله جلّ ذكره : ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ .

حسبتم أن لن يرجعَ الرسول والمؤمنون من هذه السفرة إلى اهليهم أبداً ، وزَيَّنتْ لكم الأماني ألا يعودوا ، وأنَّ الله لن ينصرهم . ﴿ وَكُنتُمْ قَوْمَا بُوراً ﴾ أي هالكين فاسدين .

ويقال : إنَّ العدوَّ إذا لم يقدر أن يكيدَ بيده يتمنَّى ما تتقاصر عنه مُكنتُهُ ، وتلك صفةُ كلِّ عاجز ، ونعتُ كلِّ لئيم ، ثم إن الله – سبحانه – يعكس ذلك عليه حتى لا يرتفع مراده ﴿ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر : 43] .

ويقال : من العقوبات الشديدة التي يعاقِبُ اللَّهُ بها المُبْطِل أنْ يتصوَّرَ شيئاً يتمنَّاه يوطّن نَفْسَه عليه لفرط جَهْله . ويُلقى الحقُّ في قلبه ذلك التمني حتى تسول له نفسهُ أن ذلك كالكائن . . ثم يعذبه الله بامتناعه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً ﴾ .

وما هو آتٍ فقريب . . . وإنَّ الله ليرخي عنانَ الظَّلَمةِ ثم لا يفلتون من عقابه . وكيف – وفي الحقيقة – ما يحصل منهم هو الذي يجريه عليهم ؟

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ .

يغفرُ – وليس له شريك يقول له : لا تفعل ، ويعذّب من يشاء – وليس هناك مانعٌ عن فعله يقول له : لا تفعل .

قوله جلّ ذكره : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا ﴾ .

(345/715)

وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لما رجعوا من الحديبية وعدهم اللَّهُ خيبرَ ، وأنَّ فيها سيظفرُ بأعدائه ، فلمَّا هَمَّ بالخروج أراد هؤلاء المخلفون أن يتبعوه لما علموا في ذلك من الغنيمة ، فقال النبي صلى الله عليه ويسلم : " إنما يخرج معي إلى خيبر من خرج إلى الحديبية والله بذلك حكم ألا يخرجوا معنا " .

فقال المتخلفون : إنما يقول المؤمنون ذلك حَسداً لنا ؛ وليس هذا من قول الله ! فأنزل اللَّهُ تعالى ذلك لتكذيبهم ، ولبيان حكمه ألا يستصحبَهم فهم أهل طمع ، وكانت عاقبتُهم أنهم لم يجدوا مرادَهم ورُدُّوا بالمذلة وافتضح أمرهم .

قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (16) لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (17)

جاء في التفاسير انهم أهلُ اليمامة أصحاب مسيلمة – وقد دعاهم أبو بكر وحاربهم ، فالآية تدل على إمامته . . . وقيل هم أهل فارس – دعاهم عمر بن الخطاب وحاربهم ؛ فالآيةُ تدل عل صحة إمامته . وصحة إمامته تدل على صحة إمامة أبي بكر . ﴿ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أولى شدَّة . فإنْ أطعتُم استوجبتم الثواب ، وإن تخلَّفْتم استحققْتُم العقاب . ودلت الآيةُ على أن يجوز ان تكون للعبد بدايةٌ غيرُ مُرضية ثم يتغير بعدها إلى الصلاح – كما كان لهؤلاء وأنشدوا :

إذا فَسَدَ الإنسانُ بعد صلاحه . . . فَرِّجْ له عَوْدَ الصلاح . . لعلَّه

(346/715)

قوله جلّ ذكره : ﴿ لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيماً ﴾ .

وهؤلاء اصحاب الأعذار . . . رفع عنهم الحَرَج في تخلفهم عن الوقعة في قتال المشركين . وكذلك مَنْ كان لهُ عذرٌ في المجاهدة مع النفس . " فإنَّ اللهَ يحُبُّ أن تؤتى رُخصَهُ كما يحب أن تؤتى عزائمه " (1)

قوله جلّ ذكره : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ .

هذا بيعة الرضوان ، وهي البيعة تحت الشجرة بالحديبية ، وسميت بيعة الرضوان لقوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عِنِ . . . الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وكانوا ألفاً وخمسمائة وقيل وثلاثمائة وقيل وأربعمائة . وكانوا قصدوا دخولَ مكة ، فلما بلغ ذلك المشركين قابلوهم صادّين لهم عن المسجد الحرام مع أنه لم يكن خارجاً لحرب ، فقصده المشركون ، ثم صالحوه على أن ينصرفَ هذا العام ، ويقيم بها ثلاثاً ثم يخرج ، (وأن يكون بينه وبينهم صلح عشرة أعوام يتداخل فيها الناس ويأمن بعضهم بعضا) وكان النبي قد رأى في منامه أنهم يدخلون المسجد الحرام آمنين ، فبشر بذلك أصحابه ، فلما صدهم المشركون خامر قلوبَهم ، وعادت إلى قلوب بعضهم تهمةٌ حتى قال الصَّدّيقُ : لم يَقُلْ العام ! فسكنت قلوبهم بنزول الآية ؛ لأن الله سبحانه علم في قلوبهم من الاضطراب والتشكك . فأنزل السكينة في قلوبهم . وثبّتهم باليقين . ﴿ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ هو فتحُ خيبر بعد مدة يسيرة ، وما حصلوا عليه من مغانم كثيرةٍ من خيبر . وقيل ما يأخذونه إلى يوم القيامة .

---

(1) هذه لفتة هامة جدا ، حيث لم تتعود من القشيري في سائر مصنفاته أن يستجيز الرخصة . وربما هو يتحدث هنا عن عامة المسلمين ، ولكن حينما يتحدث عن الصوفية يعتبر اللجوء إلى الرخصة بمثابة فسخ عقد الإرادة (أنظر الرسالة ص 199) .

وفي الآية دليلٌ على أنه قد تخطر ببال الإنسان خواطرُ مُشكِّكة ، وفي الرَّيب موقعة ولكن لا عبرة بها ؛ فإنّ الله سبحانه إذا أراد بعبد خيراً لازم التوحيدُ قلبَه ، وقارن التحقيق سِرَّه فلا يضرُّه كيدُ الشيطان ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : 201] .

﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ ويدخل في ذلك جميعُ ما يغنمه المسلمون إلى القيامة فعجَّل لكم هذه – يعني خيبر ، وقيل : الحديبية .

﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ ﴾ لما خرجوا من المدينة حرسهم اللَّهُ ، وحفظ عيالهم ، وحمى بَيْضَتهم حين هبَّ اليهود في المدينة بعد خروج المسلمين ، فمنعهم اللَّهُ عنهم . أويقال : كفَّ أيدي الناس من أهل الحديبية .

﴿ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾ .

لتكون هذه آيةٌ للمؤمنون وعلامةٌ يَسْتدلُّون بها على حراسة الله لهم .

﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾ : في التوكل على الله والثقة به .

ويقال : كفُّ أيدي الناس عن العبد هو أنْ يَرْزُقَه من حيث لا يحتسب ، لئلا يحتاجَ إلى أن

يتكفَّفَ الناس .

ويقال : أنْ يَرْفَعَ عنه أيدي الظَّلَمة .

ويقال : ألا تحمله المطالبةُ بسبب كثرة العيال ونفقتهم الكبيرة على الخطر بدينه ؛ فيأخذ من الأشياء – برخصة التأويل – ما ليس بطيّب .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ﴾ .

قيل : فتح الروم وفارس . وقيل : فتح مكة .

وكان الله على كل شيءٍ قديراً : فلا تُعلّقوا بغيره قلوبكم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً ﴾ .

(348/715)

يعني : خيبر وأسد وغطفان وغيرهم – لو قاتلوكم لانهزموا ، ولا يجدون من دون الله ناصراً .

قوله جلّ ذكره : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ .

أي سُنَّةُ اللَّهِ خذلانُهم ولن تَجد لسنة الله تحويلاً .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ﴾ .

قيل إن سبعين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من جبل التنعيم متسلحين يريدون قتله (فأخذناهم سِلْماً فاستحييناهم) فأنزل اللَّهُ هذه الآيةَ في شأنهم .

وقيل أخذ اثنى عشر رجلاً من المشركين – بلا عَهْدٍ – فَمنَّ عليهم الرسولُ صلى الله عليه وسلم وقيل : هم أهل الحديبية كانوا قد خرجوا لمنع المسلمين ، وحصل ترامي الأحجار بينهم ؛ فاضطرهم المسلمون إلى بيوتهم ، فأنزل اللَّهُ هذه الآية يمن عليهم حيث كف أيدي بعضهم عن بعض عن قدرة المسلمين ، لا من عجزٍ ؛ فأما الكفار فكفُّوا أيديهم رُعْباً وخوفاً ؛ وأمَّا المسلمون فَنَهياً مِنْ قِبَلِ الله ، لما في أصلابهم من المؤمنين_ أراد الله أن يخرجوا ، أو لِمَا عَلِمَ أن قوماً منهم يؤمنون .

والإشارة فيه : أن من الغنيمة الباردة والنعم السنية أن يَسْلَم الناسُ منك ، وتسلم منهم . وإن الله يفعل بأولياءه ذلك ، فلا من أَحد عليهم حَيف ، ولا منهم على أحد حيفٌ ولا حسابٌ ولا مطالبة ولا صلحٌ ولا معاتبة ، ولا صداقة ولا عداوة . وكذا من كان بالحق – وأنشدوا :

فلم لي يبْقَ وقتٌ لِذكرِ مُخَالِفٍ . . . ولم يبق لي قلبٌ لذكر موافق

قوله جلّ ذكره : ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ .

(349/715)

﴿ كَفَرُواْ ﴾ وجحدوا ، ﴿ وَصَدُّكُمْ ﴾ ومنعوكم عن المسجد الحرام سنة الحديبية .

﴿ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً ﴾ : أي منعوا الهَدْيَ أن يبلغَ مَنحرَه ، فمعكوفاً حالٌ من الهدي أي محبوساً .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد ساق تلك السَّنَة سبعين بَدَنَةٌ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ ﴾ .

لو تسلطتم عليهم لأصابتهم معرة ومضرَّة منكم بغير علم لَسَلَّطناكم عليهم ولأظفرناكم بهم .

وفي هذا تعريفٌ للعبد بأن أموراً قد تنغلق وتَتَعَسّر فيضيق قلب الإنسان . . ولله في ذلك سِرٌّ ، ولا يعدم ما يجري من الأمر أن يكون خيراً للعبد وهو لا يدري . . . كما قالوا :

كم مرة حفَّت بك المكاره . . . خير لك اللَّهُ . . . وأنت كاره

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ

سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُواْ أَحقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ .

يعني الأنفة ؛ أي دَفَعْتهم أنفةُ الجاهليه أن يمنعوكم عن المسجد الحرام سَنَةَ الحديبية ، فأنزل اللَّهُ سكينته في قلوب المؤمنين حيث لم يقابلوهم بالخلاف والمحاربة ، ووقفوا واستقبلوا الأمر بالحِلْم .

﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ﴾ وهي كلمةُ التوحيد تَصْدُرُ عن قلبِ صادق : فكلمةُ التقوى يكون معها الاتقاءُ من الشَّرْك .

﴿ وَكَانُواْ أَحَقَّ بِهَا ﴾ حسب سابق حُكْمِه وقديم علمه . . . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ .

ويقال : الإلزامُ في الآية هو إلزامُ إكرامٍ ولطف ، لا الإلزام إكراهٍ وعُنْفٍ ؛ وإلزامُ برٍّ لا إلزام جبر . . .

(350/715)

وكم باسطين إلى وَصْلنا . . . أكفهمو . . لم ينالوا نصيبا !

ويقال كلمة التقوى : التواصي بينهم بحفظ حق الله .

ويقال : هي أن تكون لك حاجةٌ فتسأل الله ولا تُبديها للناس .

ويقال : هي سؤالك من الله أن يحرُسَك من المطامع .

قوله جلّ ذكره : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَآءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ .

أي صدقه في رؤياه ولم يكذبه ؛ صدقه فيما أره من دخول مكة ﴿ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ كذلك أراه لما خرج إلى الحديبية وأَخبر أصحابه . فوطَّن أصحابه نفوسهم على دخول مكة في تلك السنة . فلمَّا كان من امر الحديبية عاد إلى قلوب بعض المسلمين شيء ، حتى قيل لهم لم يكن في الرؤيا دخولهم في هذا العام ، ثم أَذن الله في العام القابل ، فأنزل الله : ﴿ لَّقَدَ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ ﴾ فكان ذلك تحقيقاً لما أراه ، فرؤياه صلوات الله حق ؛ لأن رؤيا الأنبياء حق .

وكان في ذلك نوعُ امتحانٍ لهم : ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ ﴾ أنتم من الحكمة في التأخير .

وقوله : ﴿ إِن شَآءَ اللَّهُ ﴾ معناه إذا شاء الله كقوله : ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

وقيل قالها على جهة تنبيههم إلى التأدُّب بتقديم المشيئة في خطابهم .

وقيل يرجع تقديم المشيئة إلى : إن شاء الله آمنين أو غير آمنين .

وقيل : يرجع تقديم المشيئة إلى دخول كلِّهم أو دخول بعضهم ؛ فإنْ الدخول كان بعد سنة ،

ومات منهم قومٌ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ .

(351/715)

أرسل رسولَه محمداً صلى الله عليه وسلم بالدين الحنفي ، وشريعة الإسلام ليظهره على كل ما هو دين ؛ فما من دينٍ لقوم إلا ومنه في أيدي المسلمين سِرٌّ ؛ وللإسلام العزة والغلبة عليه بالحجج والآيات . وقيل : ليظهره وقت نزول عيسى عليه السلام .

وقيل : في القيامة حيث يظهر الإسلامُ على كل الأديان .

وقيل : ليظهره على الدين كله بالحجة والدليل .

قوله جلّ ذكره : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ .

﴿ أَشِدَّآءُ ﴾ جمع شديد ، أي فيهم صلابةٌ مع الكفار .

﴿ رُحَمَآءُ ﴾ جمع رحيم ، وصَفَهَم بالرحمة والتوادّ فيما بينهم .

﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً ﴾ .

تراهم راكعين ساجدين يطلبون من الله الفضل والرضوان .

﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ .

أي علامة التخشع التي على الصالحين .

ويقال : هي في القيامة يوم تَبْيَضُّ وجوهٌ ، وأنهم يكونون غداً محجلين .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : " من كثرت صلاته بالليل حَسُنَ وجههُ بالنهار "

ويقال في التفسير : " معه " أبو بكر ، و ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ ﴾ عمر ؛ و ﴿ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ عثمان ، و ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً ﴾ عليٌّ رضي الله عنهم .

وقيل : الآيةُ عامةٌ في المؤمنين .

﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِى الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَئَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ .

هذا مثلهم في التوراة ، وأما مثلهم في الإنجيل فكزرع أخرج شطأه أي : فراخه .

يقال : أشطأ الزرعُ إذا أخرج صغاره على جوانبه . ﴿ فَئَازَرَهُ ﴾ أي عاونه .

(352/715)

﴿ فَاسْتَغْلَظَ ﴾ أي غلظُ واستوى على سوقه ؛ وآزرت الصغار الكبار حتى استوى بعضه مع بعض . يعجب هذا الزرعُ الزرَّاع ليغيظ بالمسلمين الكفار ؛ شَبَّهَ النبي (صلى الله

عليه وسلم) بالزرع حين تخرج طاقة واحدة ينبت حولها فتشتد ، كذلك كان وحده في تقوية دينه بمن حوله من المسلمين .

فمَنْ حمل الآية على الصحابة : فمن أبغضهم دخل في الكفر ، لأنه قال : ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ أي بأصحابه الكفارَ . ومَنْ حمله على لمسلمين ففيه حُجَّة على الإجماع ، لأنَّ من خالف الإجماع – فالله يغايظ به الكفارَ – فمخالفُ الإجماع كافرٌ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ وَعد المؤمنين والمؤمنات مغفرة للذنوب ، وأجراً عظيماً في الجنه فقوله : " منهم " للجنس أو للذين ختم لهم منهم بالإيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 437.417 ﴾

(353/715)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الفتح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (1) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً (2) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً (3)

الإعراب :

(لك) متعلّق بـ (فتحنا) ، (اللام) للتعليل (يغفر) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (لك) متعلّق بفعل (يغفر) (ما) موصول في محلّ نصب مفعول به (من ذنبك) متعلّق بحال من فاعل تقدّم (ما تأخّر) معطوف على ما تقدّم . .

والمصدر المؤوّل (أن يغفر . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (فتحنا) " 1 " .

(يتمّ) مضارع منصوب معطوف على (يغفر) ، (عليك) متعلّق بـ (يتمّ) ، (يهديك ، ينصرك) معطوفان على (يغفر) .

---

(1) قال ابن هشام في الشذور : " فإن قلت : ليس فتح مكّة علّة للمغفرة ، قلت : هو كما ذكرت ولكنّه لم يجعل علّة لها وإنّما جعل علة لاجتماع الأمور الأربعة للنبي صلى اللّه عليه وسلم وهي المغفرة ، وإتمام النعمة ، والهداية ، وحصول النصر العزيز . . . ولا شكّ أنّ اجتماعها له عليه السلام حصل حين فتح اللّه تعالى مكّة عليه " أ ه .

جملة : " إنّا فتحنا . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " فتحنا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " يغفر لك اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " تقدّم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الأول .

وجملة : " تأخّر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) الثاني .

وجملة : " يتمّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يغفر .

وجملة : " يهديك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يغفر .

وجملة : " ينصرك اللّه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يغفر .

البلاغة

(355/715)

التعبير بالماضي : في قوله تعالى " إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً " .

حيث جاء الإخبار بالفتح على لفظ الماضي وإن لم يقع بعد ، لأن المراد فتح مكة ، والآية نزلت حين رجع عليه الصلاة والسلام من الحديبية قبل عام الفتح ، وذلك على عادة ربّ العزة سبحانه وتعالى في أخباره ، لأنها كانت محققة ، نزلت منزلة الكائنة الموجودة ، وفي

ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر ما لا يخفى .

2 – الالتفات : في قوله تعالى " لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ " .

حيث التفت في هذه الآية الكريمة من التكلم إلى الغيبة ، تفخيما لشأنه عز وجل .

وفي إسناد المغفرة إليه تعالى بالاسم الأعظم بعد إسناد الفتح إليه تعالى بنون العظمة إيماء إلى أن المغفرة مما يتولاها سبحانه بذاته ، وأن الفتح مما يتولاه جل شأنه بالوسائط .

3 – الاسناد المجازي : في قوله تعالى " نَصْراً عَزِيزاً " .

حيث أسند العز والمنعة إلى النصر ، أي : قويا منيعا على وصف المصدر بوصف صاحبه مجازا للمبالغة . وهذه الصفات في الأصل للمنصور وليست للنصر .

الفوائد

الفتح المبين . .

(356/715)

اختلف العلماء في هذا الفتح ، فروى قتادة عن أنس أنّه فتح مكة ، وقال مجاهد : إنه فتح خيبر ، وقيل : هو فتح فارس والروم ، وسائر بلاد الإسلام التي يفتحها اللّه عز وجل له فإن قيل هذه البلاد لم تكن قد فتحت بعد ، فكيف ذكر ذلك بصيغة الماضي . والجواب : ذلك

بصيغة الماضي للدلالة على حتمية الوقوع والحدوث ، وقال أكثر المفسرين : أن المراد بهذا الفتح " صلح الحديبية " وهو الأصح وهو رواية عن أنس ، فكان الصلح مع المشركين يوم الحديبية مستصعبا حتّى فتحه اللّه عز وجل ويسره . قال الزهري : لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم ، فتمكن الإسلام في قلوبهم فأسلم في ثلاث سنين خلق كثير ، فعز الإسلام في ذلك ، وأكرم اللّه عز وجل رسوله محمدا صلى اللّه عليه وسلم

[سورة الفتح (48) : آية 4]

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (4)

الإعراب :

(في قلوب) متعلّق بـ (أنزل) ، (اللام) للتعليل (يزدادوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (إيمانا) تمييز منصوب (مع) ظرف منصوب متعلّق بنعت لـ (ايمانا) . .

جملة : " هو الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أنزل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " يزدادوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

والمصدر المؤوّل (أن يزدادوا . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (أنزل) .

(الواو) عاطفة في الموضعين (للّه) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ (جنود) ، (الواو) استئنافيّة . .

وجملة : "للّه جنود . . . "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : "كان اللّه عليما . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

[سورة الفتح (48) : الآيات 5 إلى 7]

(357/715)

لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَكانَ ذلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً (5) وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً (6) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (7)

الإعراب :

(اللام) للتعليل (يدخل) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (من تحتها) متعلّق بـ (تجري) . "1" .

(1) أو بمحذوف حال من الأنهار . [. . . . .]

(358/715)

والمصدر المؤوّل (أن يدخل . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بفعل محذوف تقديره أمر اللّه بالجهاد . .

(خالدين) حال منصوبة من مفعول يدخل (فيها) متعلّق بـ (خالدين) (يكفّر) مضارع منصوب معطوف على (يدخل) بالواو (عنهم) متعلّق بـ (يكفّر) ، (الواو) اعتراضيّة (عند) ظرف منصوب متعلّق بحال من الخبر (فوزا) .

جملة : " (أمر اللّه) ليدخل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يدخل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " تجري من تحتها الأنهار " في محلّ نصب نعت لجنّات .

وجملة : " يكفّر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يدخل .

وجملة : " كان ذلك . . . فوزا " لا محلّ لها اعتراضيّة .

(359/715)

6 - (الواو) عاطفة في المواضع السبعة (يعذّب) مضارع منصوب معطوف على (يدخل) ، (الظانّين) نعت للمنافقين وما عطف عليه (باللّه) متعلّق بـ (الظانّين) (ظن) مفعول مطلق منصوب عامله اسم الفاعل (الظانّين) ، (عليهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (دائرة) ، والثاني متعلّق بـ (غضب) ، (لهم) متعلّق بـ (أعدّ) ، (ساءت) ماض لإنشاء الذمّ والفاعل ضمير مستتر تقديره هو " 1 " ، (مصيرا) تمييز الضمير فاعل ساءت ، والمخصوص بالذمّ محذوف أي جهنّم .

وجملة : " يعذّب . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يدخل .

وجملة : " عليهم دائرة . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " غضب اللّه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة عليهم دائرة .

---

(1) فعل المدح أو الذمّ المؤنّث يجوز في فاعله أن يكون مذكّرا أو مؤنّثا .

وجملة : " لعنهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة عليهم دائرة .

وجملة : " أعدّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة عليهم دائرة .

وجملة : " ساءت مصيرا " لا محلّ لها استئنافيّة .

(الواو) استئنافيّة (للّه جنود . .) مرّ إعرابها " 1 " .

الصرف :

(6) المنافقين : جمع المنافق ، اسم فاعل من الرباعيّ نافق ، وزنه مفاعل .

(المنافقات) ، جمع المنافقة مؤنّث المنافق . . .

(الظانين) ، جمع الظانّ ، اسم فاعل من الثلاثيّ ظنّ وزنه فاعل ، والعين واللام من حرف واحد .

(دائرة) ، مصدر بزنة اسم الفاعل المؤنث . . أو هو اسم فاعل من دار سمّي به حادثة الزمان والدائرة اسم للخط المحيط بالمركز وقد يستعمل مجازا للحادثة المحيطة . . والهمزة في (دائرة) منقلبة عن واو ، أصله داورة ، جاءت الواو بعد ألف فاعل قلبت همزة .

[سورة الفتح (48) : الآيات 8 إلى 9]

إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (8) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (9)

الإعراب :

(1) في الآية (4) مفردات وجملا.

(اللام) للتعليل (تؤمنوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (باللّه) متعلّق بـ (تؤمنوا) ،

جملة: "إنّا أرسلناك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "أرسلناك . . . " في محلّ رفع خبر إنّ.

والمصدر المؤوّل (أن تؤمنوا . .) في محلّ جرّ متعلّق بـ (أرسلناك) .

9 - (الواو) عاطفة في المواضع الخمسة (تعزّروه ، توقّروه ، تسبّحوه) أفعال مضارعة منصوبة معطوفة على (تؤمنوا) ، (بكرة) ظرف منصوب متعلّق بـ (تسبّحوه) . .

وجملة: " تؤمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر.

وجملة: " تعزّروه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تؤمنوا.

وجملة: " توقّروه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تؤمنوا.

وجملة: " تسبّحوه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تؤمنوا.

[سورة الفتح (48) : آية 10]

إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وَمَنْ

أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتيهِ أَجْراً عَظِيماً (10)

الإعراب :

(إنّما) كافّة ومكفوفة في الموضعين (فوق) ظرف منصوب متعلّق بخبر المبتدأ (يد) (الفاء) عاطفة (من) اسم شرط جازم في محلّ رفع مبتدأ (الفاء) رابطة لجواب الشرط (على نفسه) متعلّق بـ (ينكث) ، (من أوفى) مثل من نكث ، الفعل فيهما في محلّ جزم فعل الشرط (بما) متعلّق بـ (أوفى) ، عليه) متعلّق بـ (عاهد) ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط الثاني (السين) للاستقبال (أجرا) مفعول به ثان منصوب . .

جملة : " إنّ الذين يبايعونك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يبايعونك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " إنّما يبايعون . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

(362/715)

وجملة : " يد اللّه فوق أيديهم " في محلّ نصب حال من فاعل يبايعون " 1 " .

وجملة : " من نكث . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " نكث . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 2 " .

وجملة : " إنّما ينكث . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " أوفى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة من نكث .

وجملة : " من أوفى . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) الثاني " 3 " .

وجملة : " عاهد . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " سيؤتيه . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

البلاغة

الاستعارة التصريحية : في قوله تعالى " إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ " .

حيث أطلق سبحانه وتعالى اسم المبايعة على هذه المعاهدة على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

الفوائد :

- بيعة الرضوان . .

كانت هذه البيعة بالحديبية ، وهي قرية ليست بكبيرة ، بينها وبين مكة أقل من مرحلة ، سميت ببئر هناك ، ويجوز في لفظها تخفيف الياء وهو الأفصح ، ويجوز تشديدها ، وكان سبب البيعة أنّه أشيع مقتل عثمان رضي اللّه عنه في مكة ، حيث بعثه رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) بمهمة . عن يزيد بن عبيدة قال : قلت لسلمة بن الأكوع على أي شيء بايعتم رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) قال : على الموت .

عن معقل بن يسار قال : لقد رأيتني يوم الشجرة (وكانت البيعة تحتها)

---

(1) أو لا محلّ لها تعليليّة .

(2 ، 3) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(363/715)

والنبي (صلى اللّه عليه وسلم) يبايع الناس ، وأنا رافع غصنا من أغصانها عن رأسه ، ونحن أربع عشرة مائة ، قال : لم نبايعه على الموت ولكن بايعناه على ألا نفر . قال العلماء : لا منافاة بين الحديثين ، ومعناهما صحيح . بايعه جماعة منهم سلمة بن الأكوع على الموت ، وبايعه جماعة منهم معقل بن يسار على ألا يفروا .

]

سورة الفتح (48) : الآيات 11 إلى 14]

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَأَهْلُونا فَاسْتَغْفِرْ لَنا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (11) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً (12) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا

أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيراً (13) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (14)

الإعراب :

(لك) متعلّق بـ (يقول) ، (من الأعراب) حال من (المخلّفون) ، (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (لنا) متعلّق بـ (استغفر) ، (بألسنتهم) متعلّق بحال من فاعل يقولون (ما) موصول في محلّ نصب مفعول به " 1 " (في قلوبهم) متعلّق بخبر ليس (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (من)

---

(1) أو نكرة موصوفة في محلّ نصب .

اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ (لكم) متعلّق بـ (يملك) وكذلك (من اللّه) بحذف مضاف بتضمين يملك معنى يمنع (أراد) ماض في محلّ جزم فعل الشرط (بكم) متعلّق بحال من (ضرّا) ، والثاني متعلّق بحال من (نفعا) ، (بل) للإضراب (ما) حرف مصدريّ . . والمصدر المؤوّل (ما تعملون) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بالخبر (خبيرا) .

جملة : " سيقول لك المخلّفون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " شغلتنا أموالنا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " استغفر . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي تنبّه فاستغفر .

(365/715)

وجملة : " يقولون " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " ليس في قلوبهم " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) " 1 " .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " من يملك . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن أراد اللّه إهلاككم فمن يملك . . وجملة الشرط المقدّرة في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يملك . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " أراد بكم ضرّا . . . " لا محلّ لها تفسيريّة .

وجملة : " أراد بكم نفعا . . . " لا محلّ لها معطوفة على التفسيريّة . .

وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله .

وجملة : " كان اللّه . . . خبيرا " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تعملون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

(1) أو في محلّ نصب نعت لـ (ما) .

(366/715)

---

12 - (بل) للإضراب (أن) مخفّفة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف (إلى أهليهم) متعلّق بـ (ينقلب) ، (أبدا) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (ينقلب) ، (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (في قلوبكم) متعلّق بـ (زيّن) (ظنّ) مفعول مطلق منصوب . . .

وجملة : " ظننتم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ينقلب الرسول . . . " في محلّ رفع خبر (أن) المخفّفة .

والمصدر المؤوّل (أن لن ينقلب . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي ظننتم .

وجملة : " زيّن ذلك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ظننتم .

وجملة : " ظننتم (الثانية) . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ظننتم الأولى .

وجملة : " كنتم قوما . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ظننتم الأولى .

13 - (الواو) عاطفة (من) اسم شرط جازم في محلّ رفع مبتدأ (لم) للنفي فقط (باللّه) متعلّق بـ (يؤمن) ، (الفاء) رابطة لجواب شرط جازم - أو تعليليّة - (للكافرين) متعلّق بحال من (سعيرا) " 1 " .

وجملة : " من لم يؤمن . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة "

.

وجملة : " لم يؤمن . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 3 " .

وجملة : " إنّا أعتدنا . . . " في محلّ جزم جواب الشرط " 4 " .

وجملة : " أعتدنا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

---

(1) أو متعلّق بـ (أعتدنا) .

(2) أو هي استئنافيّة غير داخلة في الكلام الملقّن الذي نقله الرسول إلى الكافرين .

(3) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(4) أو هي تعليل للجواب المقدّر أي من لم يؤمن فإنّا نعذّبه لأنّا أعتدنا للكافرين سعيرا .

(367/715)

---

14 - (الواو) عاطفة في المواضع الأربعة (للّه) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (ملك) (لمن) متعلّق بـ (يغفر) . .

وجملة : " للّه ملك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة من لم يؤمن .

وجملة : " يغفر . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يشاء (الأولى) " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الأول .

وجملة : " يعذّب . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يغفر .

وجملة : " يشاء (الثانية) " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني .

وجملة : " كان اللّه غفورا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة للّه ملك . .

البلاغة

(368/715)

فن اللف : في قوله تعالى " فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً " في هذه الآية الكريمة فن اللف . وكان الأصل : فمن يملك لكم من اللّه شيئا إن أراد بكم ضرّا ، ومن يحرمكم النفع إن أراد بكم نفعا لأن مثل هذا النظم يستعمل في الضر ، وكذلك ورد في الكتاب العزيز مطردا ، كقوله " فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ " . " وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً " وأمثاله كثيرة ، وسر اختصاصه بدفع المضرة : أن الملك مضاف في هذه المواضع باللام ، ودفع المضرة نفع يضاف للمدفوع عنه ، وليس كذلك حرمان المنفعة ، فإنه ضرر عائد عليه لا له فإذا ظهر ذلك فإنما انتظمت الآية على هذا الوجه ، لأن القسمين يشتركان في أن كل واحد منهما نفي لدفع

المقدر من خير وشر ، فلما تقاربا أدرجهما في عبارة واحدة ، وخص عبارة دفع الضر ، لأنه هو المتوقع لهؤلاء ، إذ الآية في سياق التهديد أو الوعيد الشديد ، وهي نظير قوله تعالى : " قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً " فإن العصمة تكون من السوء لا من الرحمة .

[سورة الفتح (48) : آية 15]

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا كَذلِكُمْ قالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنا بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً (15)

الإعراب :

(369/715)

(إذا) ظرف مجرّد من الشرط متعلّق بـ (سيقول) ، (إلى مغانم) متعلّق بـ (انطلقتم) ، (اللام) للتعليل (تأخذوها) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (نتبعكم) مضارع مجزوم جواب الأمر . . .

والمصدر المؤوّل (أن تأخذوها) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (انطلقتم) .

والمصدر المؤوّل (أن يبدّلوا . .) في محلّ نصب مفعول به لفعل الإرادة .

(كذلكم) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله قال (قبل) اسم ظرفيّ مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (قال) ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (بل) للإضراب في الموضعين (لا) نافية (إلّا) للحصر (قليلا) مفعول به منصوب أي قليلا من أمور الدين .

جملة : " سيقول المخلّفون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " انطلقتم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " تأخذوها . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " ذرونا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " نتّبعكم . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء أي إن تذرونا نتّبعكم

وجملة : " يريدون . . . " في محلّ نصب حال من ضمير المفعول في ذرونا " 1 " .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " لن تتّبعونا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قال اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة – أو اعتراضيّة – وجملة : " سيقولون . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن سمعوا ذلك فسيقولون . . ومقول القول محذوف تقديره : ليس ذلك النهي حكما من اللّه .

وجملة: "تحسدوننا . . . "لا محلّ لها استئناف في حيّز القول.

وجملة: "كانوا لا يفقهون" لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "لا يفقهون . . . "في محلّ نصب خبر كانوا.

[سورة الفتح (48): الآيات 16 إلى 17]

---

(1) أو من (المخلّفون) . . . ويجوز أن تكون استئنافيّة لا محلّ لها.

(370/715)

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً (16) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً (17)

الإعراب:

(للمخلّفين) متعلّق بـ (قل) ، (من الأعراب) متعلّق بحال من المخلّفين ، و(الواو) في (تدعون) نائب الفاعل (إلى قوم) متعلّق بـ (تدعون) بحذف مضاف أي إلى قتال قوم (الفاء) عاطفة وكذلك (الواو) (ما) حرف مصدريّ.

والمصدر المؤوّل (ما تولّيتم) في محلّ جرّ بالكاف متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله تتولّوا " 1 " .

(قبل) اسم ظرفيّ مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (تولّيتم) ، (عذابا) مفعول مطلق منصوب . .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ستدعون . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " تقاتلونهم . . . " في محلّ نصب حال من نائب الفاعل " 2 " .

وجملة : " يسلمون . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة تقاتلونهم " 3 " .

وجملة : " إن تطيعوا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة ستدعون .

وجملة : " يؤتكم . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " إن تتولّوا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة إن تطيعوا .

وجملة : " تولّيتم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) . .

وجملة : " يعذّبكم . . . " لا محلّ لها جواب الشرط الثاني غير مقترنة بالفاء .

---

(1) أو متعلّق بحال من فاعل تتولّوا .

(2) أو في محلّ جرّ نعت لقوم .

(3) جاء في حاشية الجمل ما يلي : " وعبارة السمين (يسلمون) على رفعه بإثبات النون عطفا على (تقاتلونهم) أو على الاستئناف أي : أو هم يسلمون " اه . . . وهذا يعني أنّ الحرف (أو) يمكن أن يكون حرف استئناف شأنه شأن الواو والفاء وثمّ . . . [. . . . .]

17 – (على الأعمى) متعلّق بمحذوف خبر ليس ، وكذلك (على الأعرج ، على المريض) ، (الواو) عاطفة في المواضع الخمسة (لا) زائدة لتأكيد النفي في الموضعين و(حرج) الثاني والثالث معطوفان على – الأول (من) اسم شرط جازم في محلّ رفع مبتدأ (يطع) مجزوم فعل الشرط وحرّك بالكسر لالتقاء الساكنين (من تحتها) متعلّق بـ (تجري) " 1 " (من يتولّ) مثل من يطع ، وعلامة جزم الفعل حذف حرف العلّة . .

وجملة : " ليس على الأعمى حرج . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " من يطع اللّه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ليس . . .

وجملة : " يطع . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 2 " وجملة : " يدخله . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " تجري . . . الأنهار " في محلّ نصب نعت لجنّات .

وجملة : " من يتولّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة من يطع .

وجملة : " يتولّ . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 3 " .

وجملة : " يعذّبه . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

البلاغة

التكرير : في قوله تعالى " قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ " .

فقد تكرر ذكر القبائل المتخلفة حيث جاء في الآية السابقة قوله تعالى " سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ "

وهذا التكرير لذكرهم مبالغة في الذم وإشعارا بشناعة التخلف .

الفوائد

- امتحان الاعراب . . .

بينت هذه الآية أن الأعراب في المستقبل ، سيدعون لقتال قوم أشداء ، فإن

---

(1) أو متعلّق بحال من الأنهار .

(2 ، 3) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

أطاعوا آتاهم اللّه أجرهم ، وإن تولّوا عذبهم عذابا أليما . وقد اختلف العلماء من هم القوم أولو البأس الشديد ، فقال ابن عباس ومجاهد : هم أهل فارس ، وقال كعب : هم

الروم ، وقال الحسن : هم فارس والروم ، وقال سعيد بن جبير :

هوازن وثقيف ، وقال قتادة : هوازن وثقيف وغطفان يوم حنين ، وقال الزهري وجماعة :

هم بنو حنيفة أهل اليمامة أصحاب مسيلمة الكذاب ، وأقوى هذه الأقوال قول من قال :

إنهم هوازن وثقيف ، لأن الداعي هو رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) وأبعدها قول من

قال : إنهم بنو حنيفة أصحاب مسيلمة الكذاب . أما الدليل على صحة القول الأول ، فهو

أن العرب كان قد ظهر أمرهم في آخر الأمر على عهد النبي (صلى اللّه عليه وسلم) فلم يبق

إلا مؤمن أو كافر مجاهر ، وأما المنافقون فكان قد علم حالهم لامتناع النبي (صلى اللّه عليه

وسلم) من الصلاة عليهم ، وكان الداعي هو رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) إلى حرب

من خالفه من الكفار ، وكانت هوازن وثقيف من أشد العرب بأسا ، وكذلك غطفان ،

فاستنفر النبي (صلى اللّه عليه وسلم) العرب لغزو حنين وبني المصطلق . فصحّ بهذا البيان

أن الداعي هو النبي (صلى اللّه عليه وسلم) .

[سورة الفتح (48) : الآيات 18 إلى 21]

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً (18) وَمَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (19) وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً (20) وَأُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (21)

الإعراب :

(اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (عن المؤمنين) متعلّق بـ (رضي) ، (إذ) ظرف في محلّ نصب متعلّق بـ (رضي) ، (تحت) ظرف منصوب متعلّق بـ (يبايعونك) ، (الفاء) عاطفة في الموضعين (ما) موصول في محلّ نصب مفعول به (في قلوبهم) متعلّق بمحذوف صلة ما (عليهم) متعلّق بـ (أنزل) ، (فتحا) مفعول به ثان منصوب .

جملة : " رضي اللّه . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر .

وجملة : " يبايعونك . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " علم . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة يبايعونك " 1 " .

وجملة : " أنزل . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة علم .

وجملة : " أثابهم . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة أنزل .

19 - (الواو) عاطفة (مغانم) معطوف على (فتحا) منصوب (الواو) استئنافيّة . .

وجملة : "يأخذونها . . . "في محلّ نصب نعت لمغانم " 2 " .

وجملة : "كان اللّه عزيزا . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

20 - (الفاء) عاطفة (لكم) متعلّق بـ (عجّل) ، (عنكم) متعلّق بـ (كفّ) ، (الواو) عاطفة في الموضعين (اللام) للتعليل (تكون) مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، واسمه ضمير يعود على المغانم (للمؤمنين) متعلّق بنعت لـ (آية) .

---

(1) فعل المبايعة ماض في معناه ، والعطف على (رضي) لا يستقيم .

(2) أو في محلّ نصب حال من مغانم لكونه موصوفا .

والمصدر المؤوّل (أن تكون) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (كفّ) ، والجارّ والمجرور معطوف على تعليل مقدّر أي : كفّ أيدي الناس عنكم لتشكروه ولتكون آية . .

وجملة : " وعدكم اللّه . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تأخذونها . . . "في محلّ نصب نعت لمغانم (الثاني) " 1 " .

وجملة : " عجّل . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة وعدكم .

وجملة : "كفّ . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة عجّل .

وجملة : " تكون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " يهديكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تكون . . .

21 - (الواو) عاطفة (أخرى) مفعول به لفعل محذوف تقديره وعدكم أو أثابكم - وهو نعت لمنعوت مقدّر أي مغانم أخرى " 2 " - (عليها) متعلّق بـ (تقدروا) المنفيّ (قد) حرف تحقيق (بها) متعلّق بـ (أحاط) ، (على كلّ) متعلّق بخبر كان (قديرا) .

وجملة : " (عدكم) أخرى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كفّ - أو وعدكم -

وجملة : " لم تقدروا عليها . . . " في محلّ نصب نعت لأخرى .

وجملة : " قد أحاط اللّه بها . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " كان اللّه . . . قديرا " لا محلّ لها استئنافيّة .

البلاغة

في قوله تعالى " إِذْ يُبايِعُونَكَ " :

تعبير بصيغة المضارع عن الماضي لاستحضار صورة المبايعة .

---

(1) في محلّ نصب حال من مغانم لكونه موصوفا .

(2) أو مبتدأ مرفوع ، موصوف بالجملة ، والخبر جملة أحاط اللّه بها أو مقدّر .

الفوائد

1 – (ال) وأقسامها . .

1 – أن تكون حرف تعريف وهي نوعان : عهدية وجنسية وكل منهما ثلاثة أقسام :

– فالعهدية : إما أن يكون مصحوبها معهودا ذكريا ، كما في قوله تعالى كَما أَرْسَلْنا إِلى فِرْعَوْنَ رَسُولًا فَعَصى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ وفِيها مِصْباحٌ الْمِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ .

أو معهودا ذهنيا كقوله تعالى : إِذْ هُما فِي الْغارِ وإِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ .

أو معهودا حضوريا ، قال ابن عصفور : ولا تقع هذه إلا بعد أسماء الإشارة ، نحو : جاءني هذا الرجل ، أو أيّ في النداء ، نحو (يا أيها الرجل) ، أو إذا الفجائية نحو : (خرجت فإذا الأسد) ، أو في اسم الزمان الحاضر نحو : " الآن " وقوله تعالى : الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ .

– والجنسية : إما لاستغراق الأفراد ، وهي التي تخلفها كل حقيقة ، كقوله تعالى : وَخُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً وإِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ أي كل الإنسان .

أو لاستغراق خصائص الأفراد : نحو (زيد الرجل علما) أي الكامل في هذه الصفة ، ومنه قوله تعالى : ذلِكَ الْكِتابُ .

أو لتعريف الماهية : وهي التي لا تخلفها (كلّ) حقيقة ولا مجازا كقوله تعالى :

وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ وقولك (واللّه لا أتزوج النساء) أو (لا ألبس الثياب) ولهذا يقع الحنث بالواحد منها . .

2 - أسباب بيعة الرضوان . .

سميت بيعة الرضوان لأن اللّه عز وجل قد رضي عن الذين بايعوا النبي (صلى اللّه عليه وسلم) هذه البيعة .

عن جابر رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) : ليدخلنّ الجنّة من بايع تحت الشجرة ، إلا صاحب الجمل الأحمر . أخرجه الترمذي .

وصاحب الجمل الأحمر هو جد بن قيس ، اختبأ تحت الجمل ولم يبايع . وسبب البيعة

أن النبي (صلى اللّه عليه وسلم) ، حين نزل بالحديبية ، بعث خراش بن أمية الخزاعي ، رسولا إلى مكة ، فهمّوا به ، فمنعه الأحابيش ، فلما رجع دعا بعمر ليبعثه ، فقال : إني أخافهم على نفسي ، لما عرفوا من عداوتي إياهم . فبعث عثمان بن عفان ، فخبّرهم أنه لم يأت لحرب ، وإنما جاء زائرا للبيت ، فوقروه . واحتبس عندهم ، فأرجف بأنهم قتلوه ، فقال رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) : لا نبرح حتى نناجز القوم . ودعا الناس إلى البيعة

، فبايعوه تحت الشجرة ، على الموت وعدم الفرار .

وكان الحجاج فيما بعد يصلون عند هذه الشجرة ، فأمر عمر رضي اللّه عنه بقطعها ، كي لا يفتتن بها الناس .

3 – غزوة خيبر . .

حدثت بعد الحديبية سنة سبع . و

خرج (صلى اللّه عليه وسلم) صباحا قبل الفجر ، فوصل إليهم ، ولم يسمع أذانا ، فسار إليهم ، فلما رأوه ولوا مدبرين ، وقالوا : محمد والخميس أي (الجيش) . فقال (صلى اللّه عليه وسلم) اللّه أكبر ، خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين .

فلما قدم المسلمون خيبر ، خرج ملكهم مرحب ، يخطر بسيفه ويرتجز ، فبرز له عامر ، فاختلفا بضربتين ، وارتد سيف عامر عليه فاستشهد رضي اللّه عنه ، وكان (صلى اللّه عليه وسلم) قد أخذته الشقيقة ، فلم يخرج إلى الناس ، فحمل الراية أبو بكر ، وقاتل قتالا شديدا ، ثمّ رجع ، فأخذ الراية عمر ، وقاتل قتالا أشد ، ثم تراجع ، فقال (صلى اللّه عليه وسلم) : لأعطين الراية غدا رجلا يحب اللّه رسوله ويحبه اللّه ورسوله ، فدعا بعلي ، وكان أرمد ، فتفل في عينيه ، فبرئ حالا ، وحمل الراية ، فخرج إليه مرحب على رأسه مغفر من حجر ، قد نقبه مثل البيضة ، فكاله ضربة قدّت الحجر ، وفلقت هامه ، حتى أخذ السيف في الأضراس ، ثم خرج أخوه ياسر ، فقتله الزبير . ثم كان الفتح ، وفتحت

حصونهم واحدا واحدا ، ثم سألت اليهود رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) أن يتركهم في خيبر ، يعملون في الأرض ، ولهم نصف

(377/715)

التمر ، فتركهم رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) ، على أن يخرجهم المسلمون متى شاؤوا ، فأخرجهم عمر رضي اللّه عنه عند ما طهر الجزيرة منهم ، عن عائشة قالت لما فتحت خيبر قلنا : الآن نشبع التمر .

[سورة الفتح (48) : الآيات 22 إلى 23]

وَلَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (22) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (23)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لو) حرف شرط غير جازم (اللام) واقعة في جواب لو (ولّوا) ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين (الأدبار) مفعول به ثان منصوب ، والمفعول الأول محذوف تقديره ولّوكم (ثمّ) حرف عطف (لا) نافية ، والثانية زائدة لتأكيد النفي (نصيرا) معطوف على (وليّا) بالواو .

جملة : " قاتلكم الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " ولّوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " لا يجدون " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط .

23 - (سنّة) مفعول مطلق لفعل محذوف ، منصوب " 1 " ، (التي) موصول في محلّ نصب نعت لسنّة (قبل) اسم ظرفيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (خلت) ، (الواو) عاطفة (لسنّة) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان . .

---

(1) أو مفعول به لفعل محذوف . . .

وجملة : " (سنّ) اللّه سنّة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قد خلت . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

وجملة : " لن تجد . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة (سنّ) اللّه سنّة .

[سورة الفتح (48) : آية 24]

وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ

بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً (24)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (عنكم) متعلّق بـ (كفّ) ، ومثله (عنهم) ، (ببطن) متعلّق بحال من الضميرين في (عنكم وعنهم) " 1 " ، (من بعد) متعلّق بـ (كفّ) ، (عليهم) متعلّق بـ (أظفركم) . . (ما) حرف مصدريّ " 2 " .

والمصدر المؤوّل (أن أظفركم) في محلّ جرّ مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل (ما تعملون) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بخبر كان (بصيرا) .

جملة : " هو الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كفّ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " أظفركم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " كان اللّه . . . بصيرا " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " تعملون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

الصرف :

(مكة) اسم علم للمدينة التي ولد فيها النبي صلى اللّه عليه وسلم وزنه فعلة بفتح فسكون .

---

(1) يجوز أن يتعلّق بـ (كفّ) .

(2) أو اسم موصول في محلّ جرّ ، والعائد محذوف ، والجملة بعده صلة .

[سورة الفتح (48) : الآيات 25 إلى 26]

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِساءٌ مُؤْمِناتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً (25) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى وَكانُوا أَحَقَّ بِها وَأَهْلَها وَكانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (26)

الإعراب :

(الواو) عاطفة في المواضع الأربعة في الآية (عن المسجد) متعلّق بـ (صدّوكم) ، (الهدي) معطوف على ضمير المفعول في (صدّوكم) ، (معكوفا) حال من الهدي منصوبة (أن) حرف مصدريّ ونصب . .

والمصدر المؤوّل (أن يبلغ . .) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف متعلّق بـ (صدّوكم) ، أي صدّوكم عن بلوغ الهدي - أو من بلوغ الهدي - محلّه " 1 " .

(لولا) حرف شرط غير جازم (رجال) مبتدأ مرفوع . . والخبر محذوف تقديره موجودون

قدّر كذلك للتغليب .

---

(1) يجوز أن يكون المصدر المؤوّل بدل اشتمال من الهدي أي صدّوا بلوغ الهدي . . . كما يجوز أن يكون مفعولا لأجله بحذف مضاف أي : صدّوا الهدي كراهة أن يبلغ محلّه .

(380/715)

والمصدر المؤوّل (أن تطؤوهم . .) في محلّ رفع بدل من رجال ونساء " 1 " ، أي : ولولا وطء رجال ونساء . . .

(الفاء) عاطفة (تصيبكم) مضارع منصوب معطوف على (تطؤوهم) ، (منهم) متعلّق بـ (تصيبكم) ، (بغير) حال من الكاف في (تصيبكم) " 2 " ، (اللام) للتعليل (يدخل) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (في رحمته) متعلّق بـ (يدخل) .

والمصدر المؤوّل (أن يدخل . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بفعل محذوف أي : لم يأذن اللّه بالفتح ليدخل . .

(لو) حرف شرط غير جازم (اللام) واقعة في جواب لو (منهم) متعلّق بحال من فاعل كفروا (عذابا) مفعول مطلق منصوب . .

جملة : " هم الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كفروا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : "صدّوكم . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : "يبلغ . . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : "لولا رجال . . . "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة . .

وجواب الشرط محذوف تقديره لأذن لكم في الفتح . . أو لما كفّ أيديكم عنهم .

وجملة : "لم تعلموهم . . . "في محلّ رفع نعت لرجال ونساء .

وجملة : "تطؤوهم . . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

---

(1) أو في محلّ نصب بدل من ضمير الغائب المفعول في (تعلموهم) ، أي : لم تعلموا وطأهم .

(2) أو متعلّق بمحذوف نعت لمعرة . . .

وجملة : "تصيبكم منهم معرّة . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة تطؤوهم .

وجملة : "يدخل اللّه . . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : "يشاء . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : "تزيّلوا . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " عذّبنا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم (لو) .

وجملة : "كفروا (الثانية) . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

26 - (إذ) ظرف للزمن الماضي في محلّ نصب متعلّق بـ (عذّبنا) " 1 " ، (في قلوبهم) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (حميّة) بدل من الحميّة منصوب (الفاء) عاطفة (على رسوله) متعلّق بـ (أنزل) وكذلك (على المؤمنين) فهو معطوف عليه (بها) متعلّق بـ (أحقّ) ، والضمير فيه يعود على كلمة التوحيد (أهلها) معطوف على أحقّ ، والضمير فيه يعود على التقوى (الواو) استئنافيّة (بكلّ) متعلّق بخبر كان (عليما) .

---

(1) أو هو اسم ظرفي مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر .

وجملة : " جعل الذين . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : "كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " أنزل . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي : فهمّ المسلمون مخالفة رسول اللّه فأنزل اللّه سكينته . . .

وجملة : " ألزمهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أنزل .

وجملة : "كانوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أنزل .

وجملة : "كان اللّه . . . عليما " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(25) معكوفا : اسم مفعول من عكفه بمعنى حبسه ، وزنه مفعول .

(رجال) ، جمع رجل ، اسم للذكر من الإنسان ، وزنه فعل بفتح فضمّ ، ووزن رجال فعال بكسر الفاء .

(معرّة) ، مصدر ميميّ ، و(التّاء) زائدة للمبالغة . . أو هو اسم فعله عرّ بمعنى ساء باب نصر ، والمعرّة الإثم والمساءة ، وزنه مفعلة بفتح الميم والعين ، وسكّنت الراء الأولى لمناسبة التضعيف .

(26) الحميّة : مصدر حميت من كذا أي أنفت ، وزنه فعيلة وقد أدغمت فيها ياء فعيلة مع لام الكلمة .

البلاغة

قال تعالى : " إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ " .

في هذه الآية الكريمة لطيفة معنوية رائعة ، وهو أنه تعالى أبان غاية البون بين الكافر والمؤمن ، باين بين الفاعلين ، إذ فاعل جعل هو الكفار ، وفاعل أنزل هو اللّه تعالى وبين المفعولين ، إذ تلك حمية وهذه سكينة وبين الإضافتين أضاف الحمية إلى الجاهلية وأضاف السكينة إلى اللّه تعالى وبين الفعل جعل وأنزل ، فالحمية مجعولة في الحال والسكينة كالمحفوظة في خزانة الرحمة فأنزلها ، والحمية قبيحة مذمومة في نفسها ، وازدادت قبحا بالإضافة إلى الجاهلية ، والسكينة حسنة في نفسها ، وازدادت حسنا بإضافتها إلى اللّه تعالى . والعطف في فأنزل بالفاء لا بالواو يدل على المقابلة ، تقول : أكرمني زيد فأكرمته ، فدلّت على المجازاة للمقابلة .

[سورة الفتح (48) : الآيات 27 إلى 28]

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً (27) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً (28)

الإعراب :

(اللام) لام القسم لقسم مقدّر (الرؤيا) مفعول به ثان منصوب (بالحقّ) متعلّق بحال من (الرؤيا) " 1 " ، (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (تدخلنّ) مضارع مرفوع للتجرّد وعلامة

الرفع ثبوت النون ، وقد حذفت لتوالي الأمثال ، و(الواو) المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل ، و(النون) نون التوكيد (شاء) ماض في محلّ جزم فعل الشرط " 2 " ، (آمنين) حال من فاعل تدخلنّ ، وكذلك (محلّقين) ، ، (رؤوسكم) مفعول به لاسم الفاعل محلّقين (لا) نافية (الفاء) عاطفة في الموضعين (ما) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به ، والعائد محذوف " 3 " ، (من دون) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان . .

---

(1) أو متعلّق بـ(صدق) . . . وهو قسم إن وقف على الرؤيا . [. . . . .]

(2) قال الكوفيون (إن) غير شرطيّة لأنّ المشيئة محقّقة ، و(إن) تقتضي الشكّ . . . وعند الجمهور هي شرطيّة للتعليم .

(3) أو نكرة موصوفة في محلّ نصب ، والجملة بعدها نعت لها .

جملة : " قد صدق اللّه . . . " لا محلّ لها جواب قسم . . وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تدخلنّ . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر الثاني . . . وجملة القسم المقدّرة الثانية استئناف مفسّر للرؤيا .

وجملة : " إن شاء اللّه . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله .

وجملة : " لا تخافون " في محلّ نصب حال من الضمير في مقصّرين " 1 " .

وجملة : " علم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة صدق اللّه .

وجملة : " لم تعلموا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " جعل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة علم .

28 - (بالهدى) متعلّق بحال من رسوله (دين) معطوف على الهدى بالواو مجرور (اللام) للتعليل (يظهره) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (على الدين) متعلّق بـ (يظهره) ، (كلّه) توكيد معنوي للدين مجرور مثله .

والمصدر المؤوّل (أن يظهره . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (أرسل) .

(الواو) استئنافيّة (اللّه) لفظ الجلالة مجرور لفظا بالباء مرفوع محلّا فاعل كفى (شهيدا) حال منصوبة - أو تمييز - .

وجملة : " هو الذي . . . " لا محلّ لها استئناف بياني .

وجملة : " أرسل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " يظهره . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " كفى باللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(محلّقين) جمع محلّق ، اسم فاعل من الرباعي حلّق - أي قصّ شعره - وزنه مفعّل بضم الميم وكسر العين المشددة .

---

(1) أو هي استئنافيّة لا محلّ لها .

(385/715)

(مقصّرين) ، جمع مقصّر - أي مقصّر شعره - اسم فاعل من الرباعيّ قصّر ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وكسر العين المشدّدة .

[سورة الفتح (48) : آية 29]

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْواناً سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (29)

الإعراب :

(رسول) خبر المبتدأ (محمّد) " 1 " ، (الواو) عاطفة في المواضع الخمسة (الذين) موصول

في محلّ رفع مبتدأ (معه) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة الذين (أشدّاء) خبر المبتدأ الذين (على الكفّار) متعلّق بـ (أشدّاء) (رحماء) خبر ثان مرفوع (بينهم) ظرف منصوب متعلّق بـ (رحماء) (ركعا) حال من مفعول تراهم ، وكذلك سجّدا (من اللّه) متعلّق بـ (يبتغون) " 2 " ، (في وجوههم) متعلّق بخبر المبتدأ (سيماهم) ، (من أثر) متعلّق بحال من ضمير الاستقرار الذي هو خبر " 3 " ، (ذلك) اسم إشارة مبتدأ ، والإشارة إلى الوصف المذكور ، (مثلهم) مبتدأ ثان خبره (في التوراة) " 4 " ،

---

(1) أو هو نعت لمحمّد ، (الذين) معطوف على المبتدأ (محمّد) ، وخبر المبتدأ وما عطف عليه هو أشداء .

(2) أو متعلّق بمحذوف نعت لـ (فضلا) .

(3) أو متعلّق بالخبر .

(4) أو خبر المبتدأ ذلك ، و(في التوراة) حال من مثلهم . . .

(مثلهم في الإنجيل) مثل مثلهم في التوراة (كزرع) متعلّق بخبر لمبتدأ محذوف تقديره هو أي المثل كزرع " 1 " ، (الفاء) عاطفة في المواضع الثلاثة (على سوقه) متعلّق بـ (استوى) ،

(اللام) للتعليل (يغيظ) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (بهم) متعلّق بـ (يغيظ) ، (منهم) متعلّق بحال من فاعل عملوا (مغفرة) مفعول ثان .

جملة : " محمّد رسول اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " الذين معه أشدّاء . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " تراهم . . . " في محلّ رفع خبر ثالث للمبتدأ (الذين) " 2 " .

وجملة : " يبتغون . . . " في محلّ رفع خبر رابع للمبتدأ (الذين) " 3 " .

وجملة : " سيماهم في وجوههم . . . " في محلّ رفع خبر خامس للمبتدأ (الذين) " 4 " .

وجملة : " ذلك مثلهم في التوراة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " مثلهم في التوراة . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (ذلك) .

وجملة : " مثلهم في الإنجيل . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة الخبر .

وجملة : " (هو) كزرع . . . " لا محلّ لها استئناف بياني .

وجملة : " أخرج شطأه . . . " في محلّ جرّ نعت لزرع .

وجملة : " آزره . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة أخرج .

وجملة : " استغلظ . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة آزره .

وجملة : " استوى . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة استغلظ .

---

(1) ويجوز أن يكون خبرا لـ (مثلهم) الثاني ، وفي الإنجيل حالا من الضمير في مثلهم . . .

ويجوز أن يكون (كزرع) حالا من الضمير في مثلهم .

(2) يجوز أن تكون استئنافيّة .

(3 ، 4) يجوز أن تكون استئنافا بيانيا .

(387/715)

وجملة : " يعجب . . . " في محلّ نصب حال من فاعل استوى .

وجملة : " يغيظ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

والمصدر المؤوّل (أن يغيظ . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بفعل محذوف تقديره قوّاهم اللّه ، أو شبّهوا بذلك ، أو جعلهم بهذه الصفات " 1 " .

وجملة : " وعد اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

الصرف :

(شطأه) ، اسم بمعنى فراخ النخل أو الزرع أو بمعنى ورقه ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(آزره) ، أصل المدة همزة وألف الأولى مفتوحة والثانية ساكنة أي أأزره ، وزنه فاعل .

(الزرّاع) ، جمع الزارع ، اسم فاعل من الثلاثي زرع ، وزنه فاعل .

البلاغة

التشبيه التمثيلى : في قوله تعالى " سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ " .

شبههم بالزرع الذي يستمر في نمائه حتّى يستوي على سوقه ، يعجب الزراع فيغيظ الكافر الحاسر ، فوجه الشبه مركب من التدرج في النمو ، والتحول من القلة إلى الكثرة إلى الاستحكام والقوة .

الفوائد :

من (لبيان الجنس) . .

تأتي (من) لبيان الجنس ، وكثيرا ما تقع بعد (ما) و(مهما) وهما بها أولى ،

---

(1) أو متعلّق بـ (وعد) الآتي . .

لإفراط إيهامها ، كقوله تعالى : ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ . ومن وقوعها بعد غيرهما قوله تعالى يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ . وفي كتاب المصاحف لابن الأنباري أن بعض الزنادقة تمسك بقوله تعالى : وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً في الطعن على بعض الصحابة ، لأن منهم – بزعمه – تفيد التبعيض ، وهي ليست كذلك ، بل هي للتبيين ، أي الذين آمنوا هم هؤلاء .

ومثله : (الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ ما أَصابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ) وكلهم محسن ومتق ، وقوله تعالى : وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فالقول فيهم ذلك كلهم كفار . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 26 صـ 241.273 ﴾

(389/715)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(48) سورة الفتح

مدنية وآياتها تسع وعشرون

[سورة الفتح (48) : الآيات 1 إلى 9]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (1) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً (2) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً (3) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (4)

لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَكانَ ذلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً (5) وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً (6) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (7) إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (8) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (9)

الإعراب :

)

إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً) إن واسمها وجملة فتحنا خبرها ولك متعلقان بفتحنا وفتحا مفعول مطلق ومبينا صفة والمراد بالفتح فتح مكة وقيل هو صلح الحديبية والصلح قد يسمى فتحا ، وعبر بالماضي مع أن الفتح لم يقع بعد لأن إخبار اللّه تعالى في تحققها وتيقنها بمنزلة الكائن الموجود وسيأتي مزيد بيان لهذا الإخبار في باب البلاغة (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ) اللام للتعليل ويغفر فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام والجار والمجرور متعلقان بفتحنا وسيأتي سر جعل فتح مكة علّة للمغفرة في باب البلاغة ، ولك متعلقان بيغفر واللّه فاعل وما مفعول به وجملة تقدم صلة ومن ذنبك حال وما تأخر عطف على ما تقدم (وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً) ويتم عطف على ليغفر ونعمته مفعول به وعليك متعلقان بنعمته أو بيتم ويهديك عطف أيضا والكاف مفعول به أول وصراطا مستقيما مفعول به ثان أو منصوب بنزع الخافض (وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً) عطف على ما تقدم ونصرا مفعول مطلق وعزيزا نعت وسيأتي سر هذا الإسناد في باب البلاغة (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ) هو مبتدأ والذي خبر وجملة أنزل السكينة صلة وفي قلوب المؤمنين متعلقان بأنزل ، وليزدادوا : اللام للتعليل ويزدادوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام وإيمانا تمييز ومع ظرف مكان

متعلق بمحذوف نعت لإيمانا (وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً)
الواو عاطفة ولله خبر مقدم وجنود السموات والأرض مبتدأ مؤخر وكان الله كان

(391/715)

واسمها وعليما خبرها الأول وحكيما خبرها الثاني (لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها) اللام للتعليل ويدخل فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والجار والمجرور متعلقان بمحذوف قدره الجلال أمر بالجهاد ليدخل وعبارة أبي حيان " والذي يظهر أنها تتعلق بمحذوف يدل عليه الكلام وذلك أنه قال : ولله جنود السموات والأرض كان في ذلك دليل على أنه تعالى يبتلي بتلك الجنود من شاء فيقبل الخير من قضى له بالخير والشر من قضى له بالشر ليدخل المؤمنين جنات ويعذب الكفّار فاللام تتعلق بيبتلي هذه وما تعلق بالابتلاء من قبول الإيمان والكفر " والمؤمنين مفعول به ليدخل والمؤمنات عطف على المؤمنين وجنات مفعول به ثان ليدخل على السعة وجملة تجري من تحتها الأنهار صفة لجنات وخالدين فيها حال (وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَكانَ ذلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً) عطف على ما تقدم وسيئاتهم مفعول يكفر وكان واسمها وفوزا عظيما خبر وعند الله ظرف مكان متعلق بمحذوف حال لأنه كان في الأصل صفة لفوزا

وتقدم عليه (وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ) عطف أيضا والظانّين نعت للمنافقين والمشركين وبالله متعلقان بالظانّين وظن السوء مفعول مطلق والسوء بفتح السين ومعناه الذم وبضمها معناه العذاب والهزيمة والشر وقيل هما لغتان غير أن المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذمّه والمضموم جرى مجرى الشر وكلاهما في الأصل مصدر والإضافة ليست من قبيل إضافة الموصوف إلى صفته فإنها غير جائزة عند البصريين لأن الصفة والموصوف عبارة عن شيء واحد فإضافة أحدهما إلى الآخر إضافة الشيء إلى نفسه بل السوء صفة لموصوف محذوف أي ظن الأمر

(392/715)

السوء فحذف المضاف إليه وأقيمت صفة مقامه . وعليهم خبر مقدم ودائرة السوء مبتدأ مؤخر والجملة دعائية لا محل لها والدائرة

في الأصل عبارة عن الخطر المحيط بالمركز ثم استعملت في الحادثة المحيطة بمن وقعت عليه إلا أن الغالب في استعمالها للمكروه وإضافة الدائرة إلى السوء من إضافة العام إلى الخاص فهي للبيان كخاتم فضة والمراد الإحاطة والشمول بحيث لا يتخطاهم السوء ولا يتجاوزهم

(وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً) الواو حرف عطف وغضب اللّه فعل وفاعل وعليهم متعلقان بغضب ولعنهم عطف أيضا وأعدّ لهم جهنم عطف أيضا وساءت مصيرا عطف أيضا ومصيرا تمييز (وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً) الواو استئنافية

وللّه خبر مقدّم وجنود السموات والأرض مبتدأ مؤخر وكان اللّه عزيزا حكيما تقدم إعرابها قريبا وسيأتي سرّ التكرير في باب البلاغة (إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً) إن واسمها وجملة أرسلناك خبرها وشاهدا حال ومبشرا ونذيرا عطف على شاهدا

(لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) اللام للتعليل وتؤمنوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام والجار والمجرور متعلقان بأرسلناك لأنه علّة الإرسال وباللّه متعلقان بتؤمنوا ورسوله عطف على اللّه وتعزروه وما بعده عطف على لتؤمنوا والتعزير النصر والتوقير الاحترام والتعظيم وقرئت كلها بالياء والضمير للناس وبكرة وأصيلا ظرفان لتسبّحوه أي بالغداة والعشي ، وعن ابن عباس رضي اللّه عنهما صلاة الفجر وصلاة الظهر والعصر .

البلاغة :

في هذه الآيات أفانين رفيعة من علوم البلاغة فأولها :

1- التعبير بالماضي : في قوله إنّا فتحنا ، فقد جاء الإخبار بالفتح على لفظ الماضي لأنها نزلت حين رجع عليه الصلاة والسلام من

الحديبية قبل عام الفتح والسرّ في ذلك أن أخبار اللّه تعالى لما كانت محققة نزلت منزلة الكائنة الموجودة وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر وصدقه ما لا يخفى على من له مسكة من عقل .

2- التعليل : وجعل تعالى فتح مكة علة للمغفرة لأن الفتح من حيث كونه جهادا وعبادة سبب للغفران وقيل السرّ فيه اجتماع ما عدد من الأمور الأربعة وهي المغفرة وإتمام النعمة والهداية والنصر العزيز كأنه قيل يسّرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوك لتجمع لك عزّ الدارين وأغراض العاجلة والآجلة .

3- الإسناد المجازي : وذلك في قوله تعالى " وينصرك اللّه نصرا عزيزا " فقد أسند العزّ والمنعة إلى النصر وهو للمنصور فإن صيغة فعيل هنا للنسبة فالعزيز بمعنى ذي العزة .

4- التكرير : فقد قال تعالى أولا " وكان اللّه عليما حكيما " وقال ثانيا " وكان اللّه عزيزا حكيما " لأنه ذكر قبل الآية الأولى " وللّه جنود السموات والأرض " ولما كان فيهم من هو أهل للرحمة ومن هو أهل للعذاب ناسب أن يكون خاتمة الأولى " وكان اللّه عليما حكيما " ولما بالغ تعالى في تعذيب المنافق والكافر وشدّته ناسب أن يكون خاتمة الثانية " وكان اللّه

عزيزا حكيما " فالأولى دلّت على أنه المدبّر لأمر المخلوقات بمقتضى حكمته والثانية دلّت على التهديد والوعيد وأنهم في قبضة المنتقم وقد حاول بعضهم أن ينفي التكرير ولا داعي لذلك لأن للتكرير أسرارا مرّ بعضها وسيأتي منها ما هو أوغل في الإعجاب وأدعى إلى التأمل.

[سورة الفتح (48) : الآيات 10 إلى 12]

(394/715)

إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (10) سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَأَهْلُونا فَاسْتَغْفِرْ لَنا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (11) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً (12)

اللغة:

(يُبايِعُونَكَ) يعاهدونك، سمّيت المعاهدة بالمبايعة التي هي مبادلة المال بالمال تشبيها لها

بالمبايعة في اشتمال كل واحدة منهما على معنى المبادلة لأن المعاهدة أيضا مشتملة على المبادلة بين التزام الثبات في محاربة الكافرين وبين ضمانه عليه السلام لمرضاة اللّه عنهم وإثابته إياهم بجنّات النعيم في مقابلة محاربة الكافرين وسيأتي مزيد من التفصيل في باب البلاغة.

(بُوراً) البور الهلاك وهو يحتمل أن يكون مصدرا أخبر به عن الجمع ويجوز أن يكون جمع بائر كحائل وحول وبازل وبزل والأول أرجح ويوصف به المفرد المذكر والمفردة المؤنثة والمثنى والجمع منهما قال ابن الزبعرى:

يا رسول المليك إن لساني راتق ما فتقت إذ أنا بور

والبور من الأرض ما لم يزرع.

الإعراب:

(إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ) كلام مستأنف مسوق لبيان أن من بايع الرسول عليه الصلاة والسلام صورة فقد بايع اللّه حقيقة.

(395/715)

وإن واسمها وجملة يبايعونك صلة الموصول وإنما كافّة ومكفوفة وجملة إنما يبايعون اللّه خبران والمراد بهذه البيعة بيعة الرضوان في الحديبية (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ) يد اللّه مبتدأ وفوق أيديهم ظرف متعلق بمحذوف خبر يد اللّه والجملة خبر ثان لإن ويجوز أن تكون حالية من ضمير الفاعل في يبايعونك ويجوز أن تكون مستأنفة أيضا ، فمن : الفاء استئنافية ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ ونكث فعل ماض في محل جزم فعل الشرط والفاء رابطة وإنما كافّة ومكفوفة وينكث فعل مضارع مرفوع والفاعل مستتر تقديره هو وعلى نفسه متعلقان بينكث والجملة في محل جزم جواب الشرط (وَمَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً) الواو حرف عطف ومن اسم شرط جازم مبتدأ وأوفى فعل الشرط وهو بمعنى وفي يقال وفى بالعهد وأوفى به وهي لغة تهامة وبما متعلقان بأوفى وجملة عاهد صلة وعليه متعلقان بعاهد وضمّت الهاء مع أنها تكسر بعد الهاء لمجيء سكون بعدها فيجوز الضم والكسر ولفظ الجلالة مفعول به والفاء رابطة لجواب الشرط ويؤتيه فعل وفاعل مستتر ومفعول به وأجرا مفعول به ثان وعظيما نعت (سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَأَهْلُونا فَاسْتَغْفِرْ لَنا) السين حرف استقبال ويقول فعل مضارع مرفوع ولك متعلقان بيقول والمخلفون فاعل ومن الأعراب حال وجملة شغلتنا أموالنا مقول القول وأهلونا عطف على أموالنا وعلامة رفعه الواو لأنه ملحق بجمع المذكر

السالم أي عن الخروج معك ، فاستغفر الفاء عاطفة واستغفر فعل أمر ولنا متعلقان باستغفر ومفعول استغفر محذوف أي الله (يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ) الجملة مقول قوله تعالى ويقولون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل وبألسنتهم متعلقان بيقولون وما مفعول به وليس فعل ماض ناقص واسمها مستتر تقديره هو وفي قلوبهم خبر والجملة صلة ما (قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً) قل فعل أمر والفاء عاطفة ومن اسم استفهام معناه النفي في محل رفع مبتدأ ويملك فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره هو والجملة خبر من والجملة مقول قل ولكم متعلقان بيملك ومن الله حال وشيئا مفعول يملك وإن حرف شرط وأراد فعل الشرط والجواب محذوف دلّ عليه ما قبله أي فمن يملك وبكم متعلقان بأراد وخيرا مفعول أراد وجملة أو أراد بكم نفعا عطف على الجملة السابقة (بَلْ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً) بل حرف إضراب انتقالي من موضوع إلى آخر وكان واسمها وبما متعلقان بخبيرا وجملة تعملون صلة وخبيرا خبر كان (بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً) بل حرف إضراب انتقالي أيضا ، أضرب عن بيان بطلان اعتذارهم إلى بيان الحامل لهم على التخلّف ، وظننتم فعل وفاعل وأن وما في

حيزها سدّت مسدّ مفعولي ظننتم وأن مخفّفة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن ولن حرف نفي ونصب واستقبال وينقلب فعل مضارع منصوب بلن والرسول فاعل وا

البلاغة :

1 - في قوله " إن الذين يبايعونك إنما يبايعون اللّه " استعارة تصريحية ت

ع إن أراد بكم نفعا لأن مثل هذا النظم يستعمل في الضرّ وقد ورد في الكتاب العزيز مطّردا كذلك قال :

"

(397/715)

فمن يملك من اللّه شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم " وقوله " ومن يرد اللّه فتنته فلن تملك له من اللّه شيئا " ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في بعض الحديث " إنني لا أملك شيئا " يخاطب عشيرته وسرّ اختصاصه بدفع المضرّة أن الملك مضاف في هذه المواضع باللام ودفع المضرّة نفع يضاف للمدفوع عنه وليس كذلك حرمان المنفعة فإنه ضرر عائد عليه لا له ، فإذا ظهر ذلك فإنما انتظمت الآية على هذا الوجه لأن القسمين يشتركان في أن كل واحد منهما نفي لدفع المقدّر من خير وشر فلما تقاربا أدرجهما في عبارة واحدة وخصّ

عبارة دفع الضرّ لأنه هو المتوقع لهؤلاء إذ الآية في سياق التهديد أو الوعيد الشديد وهي نظير قوله : " قل من ذا الذي يعصمكم من اللّه إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة " فإن العصمة إنما تكون من السوء لا من الرحمة .

الفوائد :

الأهلون : جمع أهل ويقال أهلات على تقدير تاء التأنيث كأرض وأرضات ، والذي حسن جمع أهل هذا الجمع كونه يرد بمعنى الوصف كقولهم الحمد للّه أهل الحمد وكونه في الواقع للعقلاء .

[سورة الفتح (48) : الآيات 13 إلى 16]

(398/715)

وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيراً (13) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (14) سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا كَذلِكُمْ قالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنا بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً (15) قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا

يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً (16)

الإعراب :

(وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيراً) الواو عاطفة لتقرير بوارهم وبيان كيفيته ، ومن اسم شرط جازم أو موصولة في محل رفع مبتدأ ولم حرف نفي وقلب وجزم ويؤمن فعل مضارع مجزوم

(399/715)

بلم وبالله متعلقان بيؤمن ورسوله عطف على الله وجواب الشرط محذوف أي فإنه كافر والفاء عاطفة على الجواب وإن واسمها وجملة أعتدنا خبر إن وللكافرين متعلقان بأعتدنا وسعيرا مفعول به وجملة الشرط والجواب خبر من إن كانت شرطية وجملة فإنّا أعتدنا هي الخبر إن كانت موصولة ودخلت الفاء لما في الموصول من معنى الشرط (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً) الواو عاطفة ولله خبر مقدم وملك السموات والأرض مبتدأ مؤخر وجملة يغفر حالية ، ولمن متعلقان بيغفر وجملة يشاء صلة ويعذب من يشاء عطف على جملة الصلة وكان واسمها وخبراها (سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ) السين حرف

استقبال ويقول المخلفون فعل مضارع وفاعل وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط متعلق بيقول أي سيقولون وقت انطلاقكم وجملة انطلقتم في محل جر بإضافة الظرف إليها وإلى مغانم متعلقان بانطلقتم وجملة ذرونا مقول قولهم أي دعونا وقد تقدم أن العرب ماتوا ماضيه ومصدره واسم فاعله ، وتتبعكم فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب (يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ) جملة يريدون حالية من الفاعل وهو المخلفون ولك أن تجعلها مستأنفة وجعلها أبو البقاء حالا من ضمير المفعول به في ذرونا وفيه تكلّف وبعد ، وأن وما بعدها مفعول يريدون وكلام اللّه مفعول يبدلوا وفي قراءة كلم اللّه جمع كلمة (قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا كَذلِكُمْ قالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ) قل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت ولن حرف نفي ونصب واستقبال وتتبعونا فعل مضارع منصوب بلن وعلامة نصبه حذف النون والواو فاعل ونا مفعول به والجملة مقول القول وكذلكم نعت لمصدر محذوف أي قولا مثل هذا القول الصادر عنّي وهو لن تتبعونا (

(400/715)

فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنا بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا) الفاء عاطفة والسين حرف استقبال ويقولون فعل مضارع مرفوع وبل حرف إضراب أو عطف والإضراب عن

أن يكون حكم اللّه أن لا يتبعوهم وإثبات ما هو شر من ذلك وهو الحسد ، وتحسدوننا عطف على سيقولون وهو فعل مضارع مرفوع وفاعل ومفعول به وبل إضراب ثان عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين إلى ما أطمّ منه وهو الجهل وقلة الفقه ، وسيأتي مزيد منه في باب البلاغة ، وكان واسمها وجملة لا يفقهون خبرها وإلا أداة حصر وقليلا نعت لمصدر محذوف أي إلا فهما قليلا فلا معنى لقول الجلال " إلا قليلا منهم " لأنهم جميعا مشتركون في الوصف بالغباء والبلادة (قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ) قل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وللمخلفين متعلقان بقل ومن الأعراب حال وجملة ستدعون مقول القول ، وسيأتي سرّ التكرير ، وإلى قوم متعلقان بتدعون وأولي بأس شديد نعت لقوم وجملة تقاتلونهم نعت ثان أو حال ولك أن تجعلها مستأنفة وأو حرف عطف ويسلمون عطف على تقاتلونهم ولك أن ترفع الفعل المضارع على الاستئناف والتقدير أو هم يسلمون أي ينقادون . (

(401/715)

فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً) الفاء عاطفة وإن شرطية وتطيعوا فعل الشرط وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل ويؤتكم جواب الشرط والكاف مفعول به أول

والله فاعل وأجرا مفعول به ثان وحسنا نعت لأجرا (وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً) الواو عاطفة وإن شرطية وتتولوا فعل الشرط وكما نعت لمصدر محذوف وما مصدرية وقد تقدم هذا الإعراب كثيرا وإن جنح سيبويه إلى إعراب الكاف في مثل هذا التركيب حالا ، ومن قبل متعلقان بتوليتم وبنى قبل على الضم لانقطاعه عن الإضافة لفظا لا معنى ويعذبكم جواب الشرط والكاف مفعوله وعذابا مفعول مطلق وأليما نعت لعذابا .

البلاغة :

1- المبالغة : في قوله تعالى " فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا " فالإضراب الأول معروف وهو ديدنهم ودليل لجاجهم وتماديهم في التعنّت والإصرار على السفه ، أما الإضراب الثاني فهو الذي تتجسد فيه بلادتهم وغباؤهم لأن الإضراب الأول فيه نسبة إلى جهل في شيء مخصوص وهو نسبتهم الحسد إلى المؤمنين والثاني فيه نسبة إلى جهل عام على الإطلاق .

2- التكرير : وكرر ذكر القبائل الذين تخلفوا بهذا الاسم مبالغة في الذم وإظهارا لبشاعة التخلف كأن الذم يتوالى عليهم كلما تكرر ذكرهم به ووسمهم بميسمه ، واختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذين دعوا إلى محاربتهم والموصوفين بالبأس الشديد ، فقيل هم هوازن ومن حارب الرسول في حنين ، وقيل هم الروم الذين خرج إليهم عام تبوك ، وقيل هم أهل الردّة

الذين حاربهم أبو بكر . والتفاصيل يرجع إليها في مظانها .

[سورة الفتح (48) : الآيات 17 إلى 21]

(402/715)

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً (17) لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً (18) وَمَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (19) وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً (20) وَأُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (21)

الإعراب :

)

(403/715)

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ) كلام مستأنف مسوق لبيان حكم الزمنى وذوي العاهات بالنسبة للجهاد ونفي الحرج عنهم في التخلّف عنه . وليس فعل ماض ناقص وعلى الأعرج خبر ليس المقدم وحرج اسمها المؤخر وما بعده عطف عليه وقد روعي في الترتيب أي هؤلاء أولى برفع الحرج عنه فقدّم الأعمى لأن عذره واضح مستمر والانتفاع منه معدوم البتة وقدّم الأعرج على المريض لأن عاهة العرج قد يمكن الانتفاع منها في حالات معينة كالحراسة ونحوها أما المريض فإن إمكان زوال المرض عنه متوقع في كل وقت (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ) الواو حرف عطف ومن شرطية في محل رفع مبتدأ ويطع اللّه ورسوله فعل الشرط ويدخله جوابه وجنات مفعول به ثان على السعة وجملة تجري من تحتها الأنهار صفة لجنات (وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً) عطف على ما تقدم (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ) كلام مستأنف لتقرير الرضا عن المبايعين ولذلك سمّيت بيعة الرضوان وتفاصيلها في كتب السير والتاريخ ، واللام موطئة للقسم وقد حرف تحقيق ورضي اللّه فعل وفاعل وعن المؤمنين متعلقان برضي

وإذ ظرف ماض متعلق برضي وجملة يبايعونك مضاف إليها الظرف ، وكان مقتضى المقام أن يأتي بالماضي ولكنه عدل عنه لسر يأتي في باب البلاغة ، وتحت الشجرة ظرف متعلق بيبايعونك (فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً) الفاء عاطفة وعلم فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو يعود على اللّه تعالى والجملة معطوفة على يبايعونك لما تقدم من أنه بمعنى الماضي وما موصول مفعول به وفي قلوبهم متعلقان بمحذوف صلة ما ، فأنزل عطف على فعلم والسكينة مفعول به وأثابهم عطف أيضا والهاء مفعول به أول وفتحا مفعول به ثان وقريبا نعت (وَمَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً) الواو حرف عطف ومغانم عطف على فتحا قريبا وجملة يأخذونها صفة لمغانم وكان واسمها وخبرها (وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها) كلام مستأنف على طريق الالتفات ووعدكم اللّه فعل ماض ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر ومغانم مفعول به ثان وكثيرة صفة وجملة تأخذونها صفة ثانية (فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ) الفاء عاطفة وعجّل فعل ماض والفاعل مستتر يعود على اللّه ولكم متعلقان بعجل وهذه مفعول به وكفّ أيدي الناس عنكم عطف على ما سبق (وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً) الواو عاطفة على مقدّر أي لتشكروه وهي مقحمة عند الكوفيين واسم تكون ضمير مستتر تقديره هي وآية خبرها وللمؤمنين نعت لآية ويهديكم عطف على ولتكون والكاف مفعول

به أول وصراطا مستقيما مفعول به ثان (وَأُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً) وأخرى الواو حرف عطف وأخرى معطوفة على هذه أي فعجّل لكم هذه المغانم ومغانم أخرى وأجازوا أن تكون أخرى مبتدأ وجملة لم

(405/715)

تقدروا عليها صفتها وجملة قد أحاط اللّه بها خبرها وقال الزمخشري : " ويجوز في أخرى النصب بفعل مضمر يفسره قد أحاط اللّه بها تقديره وقضى اللّه أخرى قد أحاط بها " وأجازوا أيضا أن تكون

مجرورة بربّ مقدرة وتكون الواو واو ربّ وفي المجرور بعد واو ربّ خلاف مشهور أهو بربّ مقدرة أو بنفس الواو ، وقال أبو حيان في معرض ردّه على هذا الإعراب : " وهذا فيه غرابة لأن رب لم تأت في القرآن جارّة مع كثرة ورود ذلك في كلام العرب فكيف يؤتى بها مضمرة " واقتصر القرطبي على الوجه الأول وعبارة أبي البقاء : " وأخرى أي ووعدكم أخرى أو أثابكم أخرى ويجوز أن تكون مبتدأ ولم تقدروا صفة وقد أحاط الخبر " وكان واسمها وخبرها وعلى كل شيء متعلقان بقديرا .

البلاغة :

في قوله " إذ يبايعونك " عدول عن المضارع إلى الماضي والسرّ فيه استحضار صورة المبايعة لأنها جديرة بالتجسيد لتكون عبرة الأجداد للأحفاد ، وخلاصة قصتها أن النبي صلى اللّه عليه وسلم حين نزل الحديبية بعث خراش بن أمية الخزاعي لما رأى إخفاق سفراء قريش في مساعيهم وضياع نصائحهم إلى قومهم رسولا إلى مكة فانبعث أشقى قريش وقتئذ عكرمة بن أبي جهل فعقر ناقة السفير وهمّ بقتله لو لا أن تداركه بعضهم فأنقذوه وردّوه إلى قومه فلما رآه النبي صلى اللّه عليه وسلم دعا بعمر رضي اللّه عنه ليبعثه فقال : إني أخافهم على نفسي لما عرف من عذوتي إياهم ولكني أدلك على رجل هو أعزّ بها منّي وأحبّ إليهم عثمان بن عفان فبعثه وزوده بكتاب من لدنه يشرح فيه الغرض من مجيئه وأوصاه أن يزور مسلمي مكة المستضعفين معزيا ومصبّرا حتى يأتي نصر اللّه والفتح ، لم تثن سفارة عثمان رضي اللّه عنه من عزم قريش فأصرّت على عنادها مقررة منع الرسول وأصحابه من الطواف مهما كانت النتيجة ، وغاية ما سمحت به أنها أذنت لعثمان وحده أن يطوف بالبيت فأبى عثمان إلا أن يكون في صحبته رسول اللّه صلى اللّه

عليه وسلم فغاظ هذا القول قريشا وهاج حفيظتها فأمرت بسجن عثمان ثلاثة أيام حتى تنظر في أمره فتناقل الناس الخبر مكبّرا حتى وصل معسكر الرسول أن عثمان قد قتل ، هنا قام النبي صلى اللّه عليه وسلم خطيبا قائلا : ان كان حقا ما سمعنا فلن نبرح حتى نناجز القوم ، البيعة البيعة أيّها الناس ، فتوافد الناس يبايعون رسول اللّه تحت الشجرة وكانت سمرة وكان أول من بايعه سنان الأسدي فقال له وهو يبايعه : أبايعك على ما في نفسي فقال له النبي صلى اللّه عليه وسلم : وما في نفسك ؟

قال سنان : أضرب بسيفي بين يديك حتى يظهرك اللّه أو اقتل وبايعه الناس على ما بايعه سنان وكان عدد المبايعين ألفا وخمسمائة وخمسة وعشرين إلى آخر تلك القصة الممتعة التي يرجع إليها من شاء في كتب السير .

الفوائد :

روى ابن سعد بإسناد صحيح عن نافع أن عمر بلغه أن قوما يأتون الشجرة يصلّون عندها فتوعدهم ثم أمر بقطعها فقطعت والحكمة في ذلك أن لا يحصل الافتتان بها .

[سورة الفتح (48) : الآيات 22 إلى 26]

وَلَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (22) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (23) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً (24) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِساءٌ مُؤْمِناتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً (25) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى وَكانُوا أَحَقَّ بِها وَأَهْلَها وَكانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (26)

اللغة :

(الْهَدْيَ) تقدم تفسيره وفيه ثلاث لغات حكاها ابن خالويه :

الهدي وهي الشهيرة ، والهدي بتشديد الياء ، والهداء وهو ما يهدى إلى الكعبة .

(

مَعْكُوفاً) محبوسا يقال عكفت الرجل عن حاجته إذا حبسته عنها ، وأنكر الفارسي تعدية عكف بنفسه وهو محجوج كما يقول الأزهري وابن سيده ببناء اسم المفعول منه .

(مَعَرَّةٌ) مفعلة من عره بمعنى عراه إذا داهاه ما يكره وفي القاموس واللسان : المعرة المساءة والإثم والأذى والجناية والعيب والأمر القبيح والشدّة والمسبة وتلوّن الوجه غضبا وكوكب

دون الحجرة وبلد معروف .

الإعراب :

)

(408/715)

وَلَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً) الواو استئنافية ولو شرطية وقاتلكم فعل ومفعول به مقدّم والذين فاعل وجملة كفروا صلة ، ولولّوا اللام واقعة في جواب لو وولّوا فعل وفاعل والجملة لا محل لها لأنها جواب لو والأدبار مفعول به وثم حرف عطف ولا نافية ويجدون فعل مضارع مرفوع وفاعل ووليّا مفعول به ولا نصيرا عطف عليه (سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا) سنّة مفعول مطلق لأنه مصدر مؤكد أي سنّ اللّه غلبة أنبيائه سنّة ، والتي صفة لسنّة اللّه وجملة قد خلت صلة التي ومن قبل متعلقان بخلت والواو عاطفة ولن حرف نفي ونصب واستقبال وتجد فعل مضارع منصوب بلن ولسنّة اللّه متعلقان بتجد وتبديلا مفعول به (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ) كلام مستأنف وهو مبتدأ والذي خبره وجملة كفّ صلة وأيديهم مفعول به وعنكم متعلقان بكفّ وأيديكم

عنهم عطف على أيديهم عنكم وببطن مكة بيان للموقع وهو الحديبية فهو متعلق بمحذوف حال أي كائنين ببطن مكة والحديبية ملاصقة للحرم ومن بعد متعلقان بكف أيضا وأن وما في حيزها في محل جر بالإضافة إلى الظرف وعليهم متعلقان بأظفركم (وَكانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً) كان واسمها وبصيرا خبرها وبما تعملون متعلقان ببصيرا (هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ) كلام مستأنف لبيان الذين صدّوا النبي صلى اللّه عليه وسلم عن المسجد الحرام ، وهم مبتدأ والذين خبره وجملة كفروا صلة وصدّوكم عطف على الصلة وعن المسجد متعلقان بصدّوكم والحرام نعت والهدي عطف على الضمير

(409/715)

المنصوب في صدّوكم وهو الكاف ويجوز أن تكون مفعولا معه والواو للمعية ومعكوفا حال ، وأن يبلغ أن وما في حيزها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض أي عن أن يبلغ أو من أن يبلغ وحينئذ يجوز في هذا الجار المقدّر أن يتعلق بصدّوكم وأن يتعلق بمعكوفا أي محبوسا عن بلوغ محله ويجوز أن يكون المصدر المؤول في موضع نصب على أنه مفعول من أجله لأنه علة الصدّ والتقدير صدّوا الهدي كراهة أن يبلغ محله أو هو علة لمعكوفا أي لأجل

أن يبلغ محله ، وأعربه بعضهم بدل اشتمال من الهدي أي مسددا بلوغ الهدي محله (وَلَوْلا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِساءٌ مُؤْمِناتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ) الواو عاطفة ولو لا حرف امتناع لوجود ورجال مبتدأ خبره محذوف تقديره موجودون بمكة ومؤمنون نعت رجال ونساء مؤمنات عطف على رجال مؤمنون وجملة لم تعلموهم صفة للرجال والنساء جميعا وأن وما في حيزها في تأويل مصدر بدل اشتمال منهم أو من الضمير المنصوب في تعلموهم (فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ) الفاء سببية وتصيبكم فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية والكاف مفعول به ومنهم متعلقان بتصيبكم ومعرّة فاعل تصيبكم وبغير علم متعلقان بمحذوف حال من الكاف أو بمحذوف صفة لمعرّة وسيأتي الكلام في جواب لو لا (لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً) اللام للتعليل ويدخل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازا بعد اللام والجار والمجرور متعلقان بمقدر أي كان انتفاء التسليط على أهل مكة وانتفاء العذاب ليدخل اللّه فهو علّة لما دلّ عليه كفّ الأيدي المفهوم من السياق عن أهل مكة صونا لمن فيها من المؤمنين وفي رحمته متعلقان بيدخل ومن يشاء مفعول به وجملة يشاء صلة ولو شرطية وتزيلوا فعل ماض وفاعل أي لو تميز

بعضهم من بعض واللام رابطة وجملة عذبنا لا محل لها لأنها جواب لو وقد دلّ على جواب لو لا وسيأتي مزيد من هذا البحث في باب البلاغة وعذبنا فعل وفاعل والذين كفروا مفعول به ومنهم حال وعذابا مفعول

مطلق وأليما صفة (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ) إذ ظرف لما مضى من الزمن متعلق بعذبنا أو بصدّوهم عن المسجد الحرام ولك أن تنصبه بإضمار اذكر وجملة جعل في محل جر بإضافة الظرف إليها و

الذين فاعل وجملة كفروا صلة وفي قلوبهم متعلقان بجعل إذا كانت بمعنى ألقى أو بمحذوف مفعول به ثان لجعل إن كانت بمعنى صيّر والحمية مفعول به أول وحمية الجاهلية بدل والحمية الأنفة يقال حميت عن كذا حمية إذا أنفت عنه وداخلك عار وأنفة لفعله ، قال المتلمس :

ألا إنني منهم وعرضي عرضهم كذا الرأس يحمي أنفه أن يهشما

(فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى وَكانُوا أَحَقَّ بِها وَأَهْلَها) الفاء عاطفة على مقدّر لا بدّ منه يفهم من السياق أي فهمّ المسلمون أن يخالفوا كلام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في الصلح ودخلوا من ذلك في أمر موبق أو يساور قلوبهم الشك فأنزل . واللّه فاعله وسكينته مفعول به وعلى رسوله متعلقان بأنزل وعلى المؤمنين عطف على ما تقدم وألزمهم عطف أيضا والهاء مفعول أول وكلمة التقوى مفعول به

ثان وسيأتي المراد بها في باب الفوائد وكانوا عطف على ما تقدم وأحقّ خبر كانوا وبها متعلقان بأحق وأهلها عطف على أحق عطف تفسير (وَكانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً) كان واسمها وبكل شيء متعلقان بعليما وعليما خبرها .

البلاغة :

(411/715)

في هذه الآية لطائف معنوية وهو أنه تعالى أبان غاية البون بين الكافر والمؤمن ، باين بين الفاعلين إذ فاعل جعل هو الكفار وفاعل أنزل هو اللّه تعالى ، وبين المفعولين إذ تلك حمية وهذه سكينة ، وبين

الإضافتين أضاف الحمية إلى الجاهلية وأضاف السكينة إلى اللّه تعالى ، وبين الفعل جعل وأنزل فالحمية مجعولة في الحال في العرض الذي لا يبقى والسكينة كالمحفوظة في خزانة الرحمة فأنزلها والحمية قبيحة مذمومة في نفسها وازدادت قبحا بالإضافة إلى الجاهلية والسكينة حسنة في نفسها وازدادت حسنا بإضافتها إلى اللّه تعالى والعطف في فأنزل بالفاء لا بالواو يدل على المقابلة تقول أكرمني زيد فأكرمته فدلّت على المجازاة للمقابلة ولذلك جعل فأنزل ، ولما كان الرسول صلى اللّه عليه وسلم هو الذي أجاب أولا إلى الصلح وكان المؤمنون

عازمين على القتال لا يرجعوا إلى أهلهم إلا بعد فتح مكة أو النحر في المنحر وأبوا إلا أن يكتبوا محمد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وباسم اللّه قال تعالى " على رسوله " ولما سكن هو صلى اللّه عليه وسلم للصلح سكن المؤمنون فقال " وعلى المؤمنين " ولما كان المؤمنون عند اللّه تعالى ألزموا تلك الكلمة قال تعالى " إن أكرمكم عند اللّه أتقاكم " .

[سورة الفتح (48) : الآيات 27 إلى 29]

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِ

خرج شطؤه " وفي القاموس : الشطء فراخ النخل والزرع أو ورقه وشطأ كمنع شطئا وشطوءا أخرجها ومن الشجرة ما خرج حول أصله والجمع أشطاء وأشطأ أخرجها والرجل بلغ ولده فصار مثله .

الإعراب :

)

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ) اللام موطئة للقسم وقد حرف تحقيق وصدق اللّه فعل وفاعل ورسوله مفعول به والرؤيا منصوب بنزع الخافض أي في رؤياه وقيل كذب يتعدى إلى

مفعولين يقال كذبني الحديث وكذا صدق كما في الآية لكنه غريب لأنه لم يعهد تعدّي المخفف إلى مفعولين والمشدد إلى واحد وعبارة أبي حيان " وصدق يتعدى إلى اثنين الثاني بنفسه وبحرف الجر تقول صدقت زيدا الحديث وصدقته في الحديث " وهذا ما جرى عليه في القاموس وعبارة الزمخشري " صدقه في رؤياه ولم يكذبه تعالى اللّه عن الكذب وعن كل قبيح علوّا كبيرا فحذف الجار وأوصل الفعل كقوله تعالى : صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه " وبالحق متعلق بصدق أو حال من الرؤيا (لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ)

اللام جواب لقسم محذوف وتدخلن فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال لأنه من الأفعال الخمسة والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل والنون نون التوكيد الثقيلة والمسجد مفعول به على السعة والحرام صفة وإن شرطية وشاء اللّه فعل الشرط والجواب محذوف لدلالة ما قبله ، وفي تعليق بالوعد بالمشيئة مع أنه تعالى خالق للأشياء كلها وعالم بها قبل وقوعها أقوال نلخصها فيما يلي : 1 - أنه حكاية قول الملك للرسول صلى اللّه عليه وسلم ، قاله ابن كيسان .

2- هذا التعليق تأدب بآداب اللّه تعالى وإن كان الموعود به محقق الوقوع حيث قال تعالى " ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء اللّه " . 3- وقال ثعلب استثنى فيما يعلم ليستثني الخلق فيما لا يعلمون . 4- وزعم الكوفيون أن إن هنا بمعنى إذ التي تذكر لتعليل ما قبلها ، قالوا وليست شرطية لأن الشرط مستقبل وهذه القصة قد مضت ، وأصح ما يقال ما أورده الزمخشري ونصه : " فإن قلت ما وجه دخول إن شاء اللّه في إخبار اللّه عزّ وجلّ قلت فيه وجوه : أن يعلق عدّته بالمشيئة تعليما لعباده أن يقولوا في عداتهم مثل ذلك متأدبين بأدب اللّه ومقتدين بسنّته " وآمنين حال من الواو المحذوفة من لتدخلن لالتقاء الساكنين أي حال مقارنة للدخول والشرط معترض والمعنى آمنين في حال الدخول ومحلقين حال ثانية متداخلة ورؤوسكم مفعول به ولا نافية وتخافون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والجملة مستأنفة أو حالية من فاعل لتدخلن أو من الضمير في آمنين أو في محلقين (فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً) الفاء عاطفة على جملة صدق اللّه وعلم فعل ماض وفاعل مستتر تقديره هو وما مفعول به وجملة لم تعلموه صلة ما ، فجعل : الفاء عاطفة ومن دون ذلك متعلقان بجعل وفتحا مفعول به وقريبا نعت (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)

هو مبتدأ والذي خبره وجملة أرسل رسوله صلة الموصول وبالهدى متعلقان بمحذوف حال من المفعول به أي ملتبسا بالهدى ودين الحق عطف على الهدى واللام للتعليل ويظهره فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام والجار والمجرور متعلقان بأرسل أي ليعليه على الدين كله ، وكله تأكيد للدين وأل في الدين للجنس يريد الأديان المختلفة (وَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً) كفى فعل ماض والباء حرف جر زائد ولفظ الجلالة مجرور لفظا فاعل كفى محلا وشهيدا تمييز (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ) محمد مبتدأ ورسول اللّه خبره والذين مبتدأ ومعه ظرف متعلق بمحذوف هو الصلة وأشداء خبر وعلى الكفار متعلقان بأشداء ورحماء خبر ثان وبينهم ظرف متعلق برحماء جمع رحيم (تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْواناً) الجملة خبر ثالث ولك أن تجعلها مستأنفة وتراهم فعل مضارع وفاعل مستتر تقديره أنت والهاء مفعول به وركّعا سجّدا حالان وجملة يبتغون مستأنفة كأنها جواب لسؤال نشأ عن مواظبتهم على الركوع والسجود كأنه قيل ماذا يريدون بذلك فقيل يبتغون أو حال ثالثة وفضلا مفعول به ومن اللّه متعلقان بيبتغون ورضوانا عطف على فضلا (سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ) سيماهم مبتدأ وفيها ثلاث لغات السيما والسيماء والسيمياء وهي العلامة وفي وجوههم خبر ومن أثر السجود حال (ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ) ذلك مبتدأ والإشارة إلى الوصف الآنف وهو

كونهم أشدّاء رحماء وسيماهم في وجوههم ، ومثلهم خبره وفي التوراة حال (وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ) ومثلهم مبتدأ وفي الإنجيل حال وكزرع خبر مثلهم وجملة أخرج شطأه صفة لزرع وهناك أعاريب أخرى ستأتي الإشارة إليها في

(415/715)

باب الفوائد ، فآزره عطف على أخرج وكذلك فاستغلظ وقوله فاستوى وعلى سوقه متعلقان باستوى أو بمحذوف حال أي كائنا على

سوقه قائما عليها والسوق جمع ساق (يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ) الجملة حالية أي حال كونه معجبا والزراع مفعول يعجب ، وليغيظ : اللام للتعليل والفعل المضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والجار والمجرور متعلقان بفعل دلّ عليه السياق أي شبّهوا بذلك فالتعليل للتشبيه ، قال الزمخشري : " فإن قلت قوله ليغيظ بهم الكفار تعليل لما ذا ؟ قلت لما دلّ عليه تشبيههم بالزرع من نمائهم وترقيهم في الزيادة والقوة ويجوز أن يعلل به وعد اللّه الذين آمنوا " فهو متعلق بوعد (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً) وعد فعل ماض واللّه فاعل والذين مفعوله وجملة آمنوا صلة وجملة وعملوا

الصالحات عطف على الصلة ومنهم حال ومغفرة مفعول به ثان أو منصوب بنزع الخافض

يقال : وعده الأمر وبه ، وأجرا عطف على مغفرة وعظيما نعت . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ إعراب القرآن وبيانه حـ 9 صـ 230. 255 ﴾

(416/715)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس عشر بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/716)

الجزء السادس عشر بعد السبعمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الحجرات)

(4/716)

(سورة الحجرات)

(5/716)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة الحجرات

مقصودها الإرشاد إلى مكارم الأخلاق بتوقير النبي (صلى الله عليه وسلم) بالأدب معه في نفسه وفي أمته ، وحفظ ذلك من إجلاله بالظاهر ليكون دليلا على الباطن فيسمى إيمانا ، كما أن الإيمان بالله يشترط فيه فعل الأعمال الظاهرة والإذعان لفعلها بشرائطها وأركانها وحدودها لتكون بينة على الباطن وحجة شاهدة له) الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) [العنكبوت : 2] فحاصل مقصودها مراقبة النبي (صلى الله عليه وسلم) في الأدب مغعه لأنها أول المفصل الذي هو ملخص القرآن كما كان مقصود الفاتحة التي هي أول القرآن مراقبة الله ، وابتدئ ثاني المفصل بحرف منن الحروف المقطعة كما ابتدئ ثاني ما عداه بالحروف المقطعة ، واسمها الحجرات واضح الدلالة على ذلك بما دلت عليه آيته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 220 ﴾

(6/716)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا)

السّورة مَدَنِيّة .

وآياتها ثمان عشرة .

وكلماتها ثلاثمائة وثلاث وأَربعون .

وحروفها أَلف وأَربعمائة وأَربع وسبعون .

مجموع فواصل آياتها (من) سمّيت سورة الحُجُرات لقوله فيها : ﴿يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ الْحُجُرَاتِ﴾ .

معظم مقصود السورة : محافظة أَمر الحقّ تعالى ، ومراعاة حُرْمة الأَكابر ، والتُّؤدة فى الأُمور ، والاجتناب عن التَّهور ، والكوْن فى إِغاثة المظلوم ، والاحتراز عن السخرية بالخَلْق ، والحذر عن التجسّس والغِيبة ، وترك الفخر بالأَحساب والأَنساب ، والتحاشى عن المنّة على الله بالطَّاعة ، وإِحالة علم الغَيْب إِلى الله – تعالى – فى قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ .

السّورة محكمة خالية عن النَّاسخ والمنسوخ :

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ مذكور فى السّورة خمس مرات ، والمخاطبون المؤمنون ، والمخاطب به أَمر ونهى ، وذكر فى السّادس ﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ فعمّ المؤمنين والكافرين ، والمخاطب به قوله ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى ﴾ لأَن النَّاس كلَّهم فى ذلك شَرع سواء .

فضل السّورة

فيه حديث أُبىّ الضَّعيف جِدًّا : من قرأَ سورة الحُجُرات أُعطى من الأَجر عشر حسنات ، بعدد مَنْ أَطاع الله وعصاه ، وحديث علىّ : يا علىّ مَن قرأَها كان فى الجنَّة رفيق سليمان بن داود ، وله بكلّ آية قرأَها مثل ثُواب المحسنين إِلى عيالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 435.436 ﴾

(7/716)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الحجرات

سميت في جميع المصاحف وكتب السنة والتفسير سورة الحجرات وليس لها اسم غيره ، ووجه تسميتها أنها ذكر فيها لفظ الحجرات .

ونزلت في قصة نداء بني تميم رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء حجراته ، فعرفت بهذه الإضافة .

وهي مدنية باتفاق أهل التأويل ، أي مما نزل بعد الهجرة ، وحكى السيوطي في الإتقان قولا شاذا أنها مكية ولا يعرف قائل هذا القول .

وفي أسباب النزول للواحدي أن قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ﴾ [الحجرات : من الآية13] الآية نزلت بمكة في يوم فتح مكة كما سيأتي ، ولم يثبت أن تلك الآية نزلت بمكة كما سيأتي .

ولم يعدها في الإتقان في عداد السور المستثنى بعض آياتها .

وهي السورة الثامنة بعد المائة في ترتيب نزول السور ، نزلت بعد سورة المجادلة وقبل سورة التحريم وكان نزول هذه السورة سنة تسع ، وأول آيها في شأن وفد بني تميم كما سيأتي عند قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [الحجرات : من الآية1] وقوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحجرات : 4] وعد جميع العادين آيها ثمان عشرة آية .

أغراض هاته السورة

تتعلق أغراضها بحوادث جدت متقاربة كانت سببا لنزول ما فيها من أحكام وآداب .

وأولها تعليم المسلمين بعض ما يجب عليهم من الأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم في معاملته وخطابه ونداءه ، دعا إلى تعليمهم إياها ما ارتكبه وفد بني تميم من جفاء الأعراب لما نادوا الرسول صلى الله عليه وسلم من بيوته كما سيأتي عند قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحجرات : 4] ووجوب صدق المسلمين فيما يخبرون به ، والتثبت في

(8/716)

نقل الخبر مطلقا وأن ذلك من خلق المؤمنين ، ومجانبة أخلاق الكافرين والفاسقين ، وتطرق إلى ما يحدث من التقاتل بين المسلمين ، والإصلاح بينهم لأنهم إخوة ، وما أمر الله به من آداب حسن المعاملة بين المسلمين في أحوالهم في السر والعلانية ، وتخلص من ذلك إلى التحذير من بقايا خلق الكفر في بعض جفاة الأعراب تقويما لأود نفوسهم .

وقال فخر الدين عند تفسير قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ [الحجرات : من الآية6] : هذه السورة فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق ، وهي إما مع الله أو مع رسوله صلى الله عليه وسلم أو مع غيرهما من أبناء الجنس ، وهم

على صنفين : إما أن يكونوا على طريقة المؤمنين وداخلين في رتبة الطاعة أو خارجين عنها وهو الفسوق ، والداخل في طائفتهم : إما أن يكون حاضرا عندهم أو غائبا عنهم فهذه خمسة أقسام ، قال : فذكر الله في هذه السورة خمس مرات ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وأرشد بعد كل مرة إلى مكرمة من قسم من الأقسام الخمسة ، وسنأتي على بقية كلامه عند تفسير الآية الأولى من هذه السورة .

وهذه السورة هي أول سور المفصل بتشديد الصاد ويسمى المحكم على أحد أقوال في المذهب ، وهو الذي ارتضاه المتأخرون من الفقهاء وفي مبدأ المفصل عندنا أقوال عشرة أشهرها قولان قيل : إن مبدأه سورة ق وقيل سورة الحجرات ، وفي مبدأ وسط المفصل قولان أصحهما أنه سورة عبس ، وفي قصاره قولان أصحهما أنها من سورة والضحى .

واختلف الحنفية في مبدأ المفصل على أقوال اثني عشر ، والمصحح أن أوله من الحجرات ، وأول وسط المفصل سورة الطارق ، وأول القصار سورة ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ ﴾ [الزلزلة : من الآية1] .

وعند الشافعية قيل : أول المفصل سورة الحجرات ، وقيل سورة ق ، ورجحه ابن كثير في التفسير كما سيأتي .

وعند الحنابلة أول المفصل سورة ق .

والمفصل هو السور التي تستحب القراءة ببعضها في بعض الصلوات الخمس على ما هو مبين في كتب الفقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ 178 . 179 ﴾

(9/716)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة الحجرات

هذه السورة التي لا تتجاوز ثماني عشرة آية ، سورة جليلة ضخمة ، تتضمن حقائق كبيرة من حقائق العقيدة والشريعة ، ومن حقائق الوجود والإنسانية . حقائق تفتح للقلب وللعقل آفاقاً عالية وآماداً بعيدة ؛ وتثير في النفس والذهن خواطر عميقة ومعاني كبيرة ؛ وتشمل من مناهج التكوين والتنظيم ، وقواعد التربية والتهذيب ، ومبادئ التشريع والتوجيه ، ما يتجاوز حجمها وعدد آياتها مئات المرات !

وهي تبرز أمام النظر أمرين عظيمين للتدبر والتفكير .

وأول ما يبرز للنظر عند مطالعة السورة ، هو أنها تكاد تستقل بوضع معالم كاملة ، لعالم رفيع كريم نظيف سليم ؛ متضمنة القواعد والأصول والمبادئ والمناهج التي يقوم عليها هذا العالم ؛ والتي تكفل قيامه أولاً ، وصيانته أخيراً . . عالم يصدر عن الله ، ويتجه إلى الله ، ويليق أن

ينتسب إلى الله . . علم نقي القلب ، نظيف المشاعر ، عف اللسان ، وقبل ذلك عف السريرة . . عالم له أدب مع الله ، وأدب مع رسوله ، وأدب مع نفسه ، وأدب مع غيره . أدب في هواجس ضميره ، وفي حركات جوارحه . وفي الوقت ذاته له شرائعه المنظمة لأوضاعه ، وله نظمه التي تكفل صيانته . وهي شرائع ونظم تقوم على ذلك الأدب ، وتنبثق منه ، وتتسق معه ؛ فيتوافى باطن هذا العالم وظاهره . وتتلاقى شرائعه ومشاعره . وتتوازن دوافعه وزواجره ؛ وتتناسق أحاسيسه وخطاه ، وهو يتجه ويتحرك إلى الله . . ومن ثم لا يوكل قيام هذا العالم الرفيع الكريم النظيف السليم وصيانته ، لمجرد أدب الضمير ونظافة الشعور ؛ ولا يوكل كذلك لمجرد التشريع والتنظيم . بل يلتقي هذا بذلك في انسجام وتناسق . كذلك لا يوكل لشعور الفرد وجهده ، كما لا يترك لنظم الدولة وإجراءاتها . بل يلتقي فيه الأفراد بالدولة ، والدولة بالأفراد ، وتتلاقى واجباتهما ونشاطهما في تعاون واتساق .

(10/716)

هو عالم له أدب مع الله ، ومع رسول الله . يتمثل هذا الأدب في إدراك حدود العبد أمام الرب ، والرسول الذي يبلغ عن الرب : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ،

واتقوا الله ، إن الله سميع عليم ﴾ . . فلا يسبق العبد المؤمن إلهه في أمر أو نهي ، ولا يقترح عليه في قضاء أو حكم ؛ ولا يتجاوز ما يأمر به وما ينهى عنه ؛ ولا يجعل لنفسه إرادة أو رأياً مع خالقه . . تقوى منه وخشية ، وحياء منه وأدباً . . وله أدب خاص فيه خطاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتوقيره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي . ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون . إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة وأجر عظيم . إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم ، والله غفور رحيم ﴾ .

(11/716)

وهو عالم له منهجه في التثبت من الأقوال والأفعال ، والاستيثاق من مصدرها ، قبل الحكم عليها . يستند هذا المنهج إلى تقوى الله ، وإلى الرجوع بالأمر إلى رسول الله ، في غير ما تقدم بين يديه ، ولا اقتراح لم يطلبه ولم يأمر به : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة ، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ؛ واعلموا أن فيكم رسول الله ، لو يطيعكم في كثير من الأمر لَعَنِتُّم . ولكن الله حبَّبَ إليكم الإيمان ، وزينه في قلوبكم ، وكرَّه

إليكم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون ، فضلاً من الله ونعمة ، والله عليم حكيم ﴾ . .

وهو عالم له نظمه وإجراءاته العملية في مواجهة ما يقع فيه من خلاف وفتن وقلاقل واندفاعات ، تخلخل كيانه لو تركت بغير علاج . وهو يواجهها بإجراءات عملية منبثقة من قاعدة الأخوة بين المؤمنين ، ومن حقيقة العدل والإصلاح ، ومن تقوى الله والرجاء في رحمته ورضاه : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ؛ فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ؛ فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون إخوة ، فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾ . .

وهو عالم له آدابه النفسية في مشاعره تجاه بعضه البعض ؛ وله آدابه السلوكية في معاملاته بعضه مع بعض : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ؛ ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ؛ ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب . بئس الاسم : الفسوق بعد الإيمان . ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾

(12/716)

وهو عالم نظيف المشاعر ، مكفول الحرمات ، مصون الغيبة والحضرة ، لا يؤخذ فيه أحد بظنه ، ولا تتبع فيه العورات ، ولا يتعرض أمن الناس وكرامتهم وحريتهم فيه لأدنى مساس : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضاً . أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً ؟ فكرهتموه ! واتقوا الله ، إن الله تواب رحيم . ﴾

وهو عالم له فكرته الكاملة عن وحدة الإنسانية المختلفة الأجناس المتعددة الشعوب ، وله ميزانه الواحد الذي يقوّم به الجميع . إنه ميزان الله المبرأ من شوائب الهوى والاضطراب : ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ﴾ . .

والسورة بعد عرض هذه الحقائق الضخمة التي تكاد تستقل برسم معالم ذلك العالم الرفيع الكريم النظيف السليم ، تحدد معالم الإيمان ، الذي باسمه دُعي المؤمنون إلى إقامة ذلك العالم . وباسمه هُتف لهم ليلبوا دعوة الله الذي يدعوهم إلى تكاليفه بهذا الوصف الجميل ، الحافز إلى التلبية والتسليم : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ . . ذلك النداء الحبيب الذي يخجل من يدعى به من الله أن لا يجيب ؛ والذي ييسر كل تكليف ويهون كل مشقة ، ويشوق كل قلب فيسمع ويستجيب : ﴿ قالت الأعراب : آمنا .

قل : لم تؤمنوا ، ولكن قولوا : أسلمنا . ولما يدخل الإيمان في قلوبكم . وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً ، إن الله غفور رحيم . إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون . قل : أتُعلِّمون الله بدينكم ، والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ، والله بكل شيء عليم ﴾ . .

وتكشف السورة في ختامها عن ضخامة الهبة الإلهية للبشر . هبة الإيمان التي يمن بها على من يشاء ، وفق ما يعلمه فيه من استحقاق : ﴿ يمنون عليك أن أسلموا . قل : لا تمنوا عليّ إسلامكم . بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين . إن الله يعلم غيب السماوات والأرض والله بصير بما تعملون ﴾ . .

فأما الأمر الثاني الذي يبرز للنظر من خلال السورة ، ومن مراجعة المناسبات الواقعية التي صاحبت نزول آياتها ، فهو هذا الجهد الضخم الثابت المطرد ، الذي تمثله توجيهات القرآن الكريم والتربية النبوية الحكيمة ، لإنشاء وتربية تلك الجماعة المسلمة ، التي تمثل ذلك العالم الرفيع الكريم النظيف السليم ، الذي وجدت حقيقته يوماً على هذه الأرض ؛ فلم يعد منذ ذلك الحين فكرة مثالية ، ولا حلماً طائراً ، يعيش في الخيال !

هذه الجماعة المثالية التي تمثلت حقيقة واقعة في فترة من فترات التاريخ لم تنبت فجأة ولم توجد مصادفة ؛ ولم تخلق بين يوم وليلة . كذلك لم تظهر نتيجة نفحة تغير طبائع الأشياء كلها في لحظة أو ومضة . بل نمت نمواً طبيعياً بطيئاً كما تنمو الشجرة الباسقة العميقة الجذور . وأخذت الزمن اللازم لنموها ، كما أخذت الجهد الموصول الثابت المطرد الضروري لهذا النمو . واحتاجت إلى العناية الساهرة ، والصبر الطويل ، والجهد البصير في التهذيب والتشذيب ، والتوجيه والدفع ، والتقوية والتثبيت . واحتاجت إلى معاناة التجارب الواقعية المريرة والابتلاءات الشاقة المضنية ؛ مع التوجيه لعبرة هذه التجارب والابتلاءات . . وفي هذا كله كانت تتمثل الرعاية الإلهية لهذه الجماعة المختارة – على علم – لحمل هذه الأمانة الكبرى ؛ وتحقيق مشيئة الله بها في الأرض . وذلك مع الفضائل الكامنة والاستعدادات المكنونة في ذلك الجيل ؛ وفي الظروف والأحوال المهيأة له على السواء . . وبهذا كله أشرقت تلك الومضة العجيبة في تاريخ البشرية ؛ ووجدت هذه الحقيقة التي تتراءى من بعيد وكأنها حلم مرفرف في قلب ، أو رؤيا مجنحة في خيال ! . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3335 . 3337 ﴾

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الحجرات

مدنية وآياتها ثمان عشرة آية

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة مدنية ، وهي على وجازتها سورة جليلة ضخمة ، تتضمن حقائق التربية الخالدة ، وأسس المدنية الفاضلة ، حتى سماها بعض المفسرين " سورة الأخلاق

* ابتدأت السورة الكريمة بالأدب الرفيع الذي أدب الله به المؤمنين ، تجاه شريعة الله وأمر رسوله ، وهو ألا يبرموا أمرا ، أو يبدوا رأيا ، أو يقضوا حكما في حضرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، حتى يستشيروه ، ويستمسكوا بارشاداته الحكيمة [يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم] .

*ثم انتقلت إلى أدب آخر وهو خفض الصوت إذا تحدثوا مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) تعظيما لقدره الشريف ، واحتراما لمقامه السامي ، فإنه ليس كعامة الناس بل هو رسول الله ، ومن واجب المؤمنين أن يتأدبوا معه في الخطاب مع التوقير والتعظيم والإجلال [

يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي . .] الآيات .

*ومن الأدب الخاص إلى الأدب العام ، تنتقل السورة لتقرير دعائم المجتمع الفاضل ، فتأمر المؤمنين بعدم السماع للإشاعات ، وتأمر بالتثبت من الأنباء والأخبار ، لاسيما إن كان الخبر صادرا عن شخص غير عدل أو شخص متهم ، فكم من كلمة نقلها فاجر فاسق ، سببت كارثة من الكوارث ، وكم من خبر لم يتثبت منه سامعه ، جر وبالا ، وأحدث انقساما [يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا . .] الآيات .

* ودعت السورة إلى الإصلاح بين المتخاصمين ، ودفع عدوان الباغين [وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما . .] الآيات .

(16/716)

---

* وحذرت السورة من السخرية والهمز واللمز ، ونفرت من الغيبة والتجسس ، والظن السيىء بالمؤمنين ، ودعت إلى مكارم الأخلاق ، والفضائل الاجتماعية ، وحين حذرت من الغيبة جاء النهي في تعبير رائع عجيب ، أبدعه القرآن غاية الإبداع ، صورة رجل يجلس إلى جنب أخ له ميت ينهش منه ويأكل لحمه [ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه] الآية ويا له من تنفير عجيب إ ! .

* وختمت السورة بالحديث عن الأعراب الذين ظنوا الايمان كلمة تقال باللسان ، وجاءوا يمنون على الرسول إيمانهم ، وقد وضحت حقيقة الإيمان ، وحقيقة الإسلام ، وشروط المؤمن تلكامل ، وهو الذي جمع الإيمان ، والإخلاص والجهاد ، وتلعمل تلصالح [إنما المؤمنون الذي آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون . .] إلى آخر السورة الكريمة .

التسمية :

سميت (سورة الحجرات) لأن الله تعالى ذكر فيها حرمة بيوت النبي (صلى الله عليه وسلم) وهي الحجرات التي كان يسكنها أمهات المؤمنين الطاهرات رضوان الله عليهن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 230 . 231 ﴾

(17/716)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الحجرات

لا تقدموا : أي لا تتقدموا ، من قولهم مقدمة الجيش لمن تقدم منهم ، قال أبو عبيدة : العرب

تقول : لا تقدّم بين يدى الإمام وبين يدى الأب : أي لا تعجل بالأمر دونه ، وقيل إن المراد لا تقولوا بخلاف الكتاب والسنة ، ورجّح هذا ، لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي : أي إذا كلمتموه ونطق ونطقتم فلا تبلغوا بأصواتكم وراء

الحد الذي يبلغه بصوته ، يغضون أصواتهم : أي يخفضونها ويلينونها ، امتحن اللّه قلوبهم : أي طهّرها ونقاها كما يمتحن الصائغ الذهب بالإذابة والتنقية من كل غشّ .

من وراء الحجرات : أي من خارجها سواء كان من خلفها أو من قدامها ، إذ أنها من المواراة وهى الاستتار ، فما استتر عنك فهو وراء ، خلفا كان أو قداما ، فإذا رأيته لا يكون وراءك . ويرى بعض أهل اللغة أن وراء من الأضداد فتطلق تارة على ما أمامك ، وأخرى على ما خلفك ، والحجرات (بضم الجيم وفتحها وتسكينها) واحدها حجرة : وهى القطعة من الأرض المحجورة أي الممنوعة عن الدخول فيها بحائط ونحوه ، والمراد بها حجرات نسائه عليه الصلاة والسلام ، وكانت تسعة لكل منهن حجرة من جريد النخل على أبوابها المسوح من شعر أسود ، وكانت غير مرتفعة يتناول سقفها باليد ، وقد أدخلت فى عهد الوليد بن عبد الملك بأمره فى مسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فبكى الناس لذلك .

وقال سعيد بن المسيّب يومئذ : لوددت أنهم تركوها على حالها لينشأ ناس من أهل المدينة

ويقدم القادم من أهل الآفاق فيرى ما اكتفى به رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فى حياته ، فيكون ذلك مما يزهد الناس فى التفاخر والتكاثر فيها .

(18/716)

الفاسق : هو الخارج عن حدود الدين ، من قولهم : فسق الرطب إذا خرج من قشره والتبين : طلب البيان ، والنبأ : الخبر ، قال الراغب : ولا يقال للخبر نبأ إلا إذا كان ذا فائدة عظيمة وبه يحصل علم أو غلبة ظن بجهالة : أي جاهلين حالهم ، فتصبحوا : أي فتصيروا ، نادمين : أي مغتمّين غما لازما متمنين أنه لم يقع فإن الندم الغم على وقوع شىء مع تمنى عدم وقوعه ، لعنتّم : أي لوقعتم فى الجهد والهلاك ، والكفر : تغطية نعم اللّه تعالى بالجحود لها ، الفسوق : الخروج عن الحد كما علمت ، والعصيان : عدم الانقياد ، من قولهم : عصت النواة : أي صلبت واشتدت ، والرشاد : إصابة الحق واتباع الطريق السوىّ .

الطائفة : الجماعة أقل من الفرقة بدليل قوله : " فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ " فأصلحوا بينهما : أي فكفوهما عن القتال بالنصيحة أو بالتهديد والتعذيب ، بغت : أي تعدّت وجارت ، تفيء : أي ترجع ، وأمر اللّه : هو الصلح ، لأنه مأمور به فى قوله : " وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ " فأصلحوا بينهما بالعدل : أي بإزالة آثار القتال بضمان المتلفات

بحيث يكون الحكم عادلا حتى لا يؤدى النزاع إلى الاقتتال مرة أخرى ، وأقسطوا : أي واعدلوا فى كل شأن من شئونكم وأصل الإقساط : إزالة القسط (بالفتح) وهو الجور ، والقاسط : الجائز كما قال : " أَمَّا الْقاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً "

والإخوة فى النسب ، والإخوان فى الصداقة ، واحدهم أخ ، وقد جعلت الأخوّة فى الدين كالأخوّة فى النسب وكأن الإسلام أب لهم قال قائلهم :

أبى الإسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

(19/716)

السخرية : الاحتقار وذكر العيوب والنقائص على وجه يضحك منه ، يقال سخر به وسخر منه ، وضحك به ومنه ، وهزىء به ومنه والاسم السخرية والسخرى (بالضم والكسر) وقد تكون بالمحاكاة بالقول أو بالفعل أو بالإشارة أو بالضحك على كلام المسخور منه إذا غلط فيه ، أو على صنعته ، أو على قبح صورته .

والقوم : شاع إطلاقه على الرجال دون النساء كما في الآية وكما قال زهير :

وما أدرى وسوف إخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء

ولا تلمزوا أنفسكم : أي لا يعب بعضكم بعضا بقول أو إشارة باليد أو العين أو نحوهما ،

والمؤمنون كنفس واحدة فمتى عاب المؤمن المؤمن فكأنما عاب نفسه ، والتنابز : التعاير والتداعي بما يكرهه الشخص من الألقاب ، والاسم : الذكر والصيت ، من قولهم : طار اسمه بين الناس بالكرم أو اللؤم .

اجتنبوا : أي تباعدوا ، وأصل اجتنبته : كنت منه على جانب ، ثم شاع استعماله فى التباعد اللازم له ، والإثم : الذنب ، والتجسس : البحث عن العورات والمعايب والكشف عما ستره الناس ، والغيبة : ذكر الإنسان بما يكره فى غيبته ،

فقد روى مسلم وأبو داود والترمذي " أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا اللّه ورسوله أعلم ، قال : ذكرك أخاك بما يكره ، قيل : أفرأيت لو كان فى أخى ما أقول ؟

قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتّه " .

من ذكر وأنثى : أي من آدم وحواء ، قال إسحاق الموصلي :

الناس فى عالم التمثيل أكفاء أبوهم آدم والأم حوّاء

فإن يكن لهم فى أصلهم شرف يفاخرون به فالطين والماء

والشعوب : واحدهم شعب (بفتح الشين وسكون العين) وهو الحي العظيم المنتسب إلى أصل واحد كربيعة ومضر ، والقبيلة دونه كبكر من ربيعة ، وتميم من مضر .

وحكى أبو عبيدة أن طبقات النسل التي عليها العرب سبع : الشعب ، ثم القبيلة ، ثم العمارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة ، ثم العشيرة ، وكل واحد منها يدخل فيما قبله ، فالقبائل تحت الشعوب ، والعمائر تحت القبائل ، والبطون تحت العمائر ، والأفخاذ تحت البطون ، والفصائل تحت الأفخاذ ، والعشائر تحت الفصائل ، فخزيمة شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة (بفتح العين وكسرها) وقصيّ بطن ، وعبد مناف فخذ ، وهاشم فصيلة ، والعباس عشيرة ، وسمى الشعب شعبا لتشعب القبائل منه كتشعب أغصان الشجرة .

الأعراب : سكان البادية ، آمنّا : أي صدقنا بما جئت به من الشرائع ، وامتثلنا ما أمرنا به ، فالإيمان هو التصديق بالقلب . أسلمنا : أي انقدنا لك ، ودخلنا فى السّلم وهو ضد الحرب : أي فلسنا حربا للمؤمنين ، ولا عونا للمشركين ، لا يلتكم : أي لا ينقصكم ، يقال : لاته يليته إذا نقصه ، حكى الأصمعى عن أم هشام السلولية " الحمد للّه الذي لا يفات ولا يلات ولا تصمّه الأصوات " يمنون عليك : أي يذكرون ذلك ذكر من اصطنع لك صنيعة ، وأسدى إليك نعمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 26 صـ 119 . 145 ﴾ . باختصار .

(21/716)

وقال الفراء :

سورة (الحجرات)

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

قوله جل وعز: ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُقَدِّمُواْ . . . ﴾ .

اتفق عليها القراء ، ولو قرأ قارىء: (لا تَقْدَموا) لكان صواباً ؛ يقال: قَدَمت فى كذا وكذا ، وتقدَّمت .

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَرْفَعُواْ أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُواْ لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ لاَ تَرْفَعُواْ أَصْوَاتَكُمْ . . . ﴾ .

وفى قراءة عبد الله "بأصواتكم" ، ومثله فى الكلام: تكلم كلاماً حسناً ، وتكلم بكلام حسن .

وقوله: ﴿ وَلاَ تَجْهَرُواْ لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ . . . . ﴾ :

يقول: لا تقولوا: يا محمد ، ولكن قولوا: يا نبى الله ـ يا رسول الله ، يا أبا القاسم .

وقوله: ﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ . . . ﴾ .

معناه: لا تحبطُ وفيه الجزم والرفع إذا وضعت (لا) مكان (أن) ، وقد فُسر في غير موضع ،

وهى فى قراءة عبد الله: فتحبطَ أعمالكم ، وهو دليل على جواز الجزم فيه .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

وقوله: ﴿ أُوْلَائِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى . . . ﴾ .

أخلصها للتقوى كما يمتحن الذهب بالنار ، فيخرج جيده ، ويسقط خبثه .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾

وقوله: ﴿ مِن وَرَآءِ الْحُجُرَاتِ . . . ﴾ .

(22/716)

وجه الكلام أن تضم الحاءَ والجيم ، وبعض العرب يقول: الْحُجَرات والرُّكَبات وكل جمع كأن يقال في ثلاثةٍ إلى عشرةٍ: غرف ، وحجر ، فإذا جمعته بالتاء نصبت ثانية ، فالرفع [/ب] أجودُ من ذلك .

وقوله: ﴿ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ . . . ﴾ .

أتاه وفد بنى تميم فى الظهيرة ، وَهو راقد صلى الله عليه ، فجعلوا ينادون: يا محمد ، اخرج إلينا ، فاستيقظ فخرج ، فنزل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ الْحُجُرَاتِ ﴾ إلى آخر الآية

، وَأذِن بعد ذلك لهم ؛ فقام شاعرهم ، وشاعر المسلمين ، وخطيب منهم ، وخطيب المسلمين ، فعلت أصواتهم بالتفاخر ، فأنزل الله جل وَعز فيه: ﴿ لاَ تَرْفَعُواْ أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ .

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُواْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾

وقوله: ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَثَبَّتُوا . . . ﴾ .

قراءة أصحاب عبد الله ، ورأيتها فى مصحف عبد الله بالثاء ، وَقراءة الناس: (فَتَبَيَّنُوا) وَمعناهما متقارب ؛ لأن قوله: (فَتَبَيَّنُوا) أمهلوا حتى تعرفوا ، وَهذا معنى تثبتوا . وَإنما كان ذلك أن النبى صلى الله عليه بعث عاملاً على بنى المصطلق ليأخذ صدقاتهم ، فلما توجه إليهم تلقوه ليعظموه ، فظن أنهم يريدون قتاله ، فرجع إلى النبى صلى الله عليه فقال: إنهم قاتلونى ، وَمنعونى أداء ما عليهم فبينما هم كذلك وقد غضب النبى صلى الله عليه قدم عليه وَفد بنى المصطلق فقالوا: أردنا تعظيم رسول رسول الله ، وَأداء الحق إليه ، فاتهمهم رسول الله صلى الله عليه وَلم يصدقهم ؛ فأنزل الله: " يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَثَبَّتُوا " إلى أخر الآية ، وَالآية التى بعدها .

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُواْ الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُواْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُواْ . . . ﴾ .

ولم يقل: اقتتلتا ، وَهى فى قراءة عبد الله: فخذوا بينهم . مكان فأصلحوا بينهم ، وَفى قراءته: حتى يَفِيئُوا إلى أمر الله فإن فاءوا فخذوا بينهم .

وقوله: ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ . . . ﴾ .

ولم يقل: بين إخوتكم ، وَلا إخوانكم ، وَلو قيل ذلك كان صوابا .

وَنزلت فى رهط عبد الله بن أبى ، وَرهط عبد الله بن رواحة الأنصارى ، فمر رسول الله صلى الله عليه على حِمار فوقف على عبد الله بن أبى فى مجلس قومه ، فراث حمار رسول الله ، فوضع عبد الله يده على أنفه وَقال: إليك حمارك فقد آذانى ، فقال له ابن روَاحة: أَلِحِمارِ رسول الله تقول هذا ؟ فوالله لهو أطيب عِرضا منك وَمن أبيك ، فغضب قوم هذا ، وَقوم هذا ، حتى اقتتلوا بالأيدى وَالنعال ، فنزلت هذه الآية .

وَقوله ﴿ فَقَاتِلُواْ الَّتِي تَبْغِي . . . ﴾ التى لا تقبل الصلح ، فأصلح النبى صلى الله عليه بينهم .

(24/716)

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُواْ أَنفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُواْ بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَائِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اجْتَنِبُواْ كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُواْ وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ * يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُواْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

وقوله: ﴿ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ . . . ﴾ .

نزلت فى أن ثابت بن قيس الأنصارى كان ثقيل السمع ، فكان يدنو من النبى صلى الله عليه ليسمع حديثه ، فجاء بعد ما قضى ركعة من الفجر ، وَقد أخذ الناس أماكنهم من رسول الله فجعل يتخطى ويَقول: تفسحوا حتى انتهى إلى رجل دون النبى صلى الله عليه ، فقال: تفسح ، فقال له الرجل: قد أصبت مكانا فاقعد ، فلما أسفر قال: من الرجل ؟ قال: فلان

بن فلان ، قال: أنت ابن هَنَةٍ لأُمٍّ له ، قد كان يعير بها ؛ فشق على الرجل ، فأنزل الله عز وجل: ﴿ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ ﴾ وهى فى قراءة عبد الله فيما أعلم: عَسَوا أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسَين أن يكنّ خيراً منهن .

(25/716)

ونزل أيضاً فى هذه القصة: [/1] ﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً . . . ﴾ . والشعوب أكبر من القبائل ، وَالقبائل أكبر من الأفخاذ ﴿ لِتَعَارَفُواْ ﴾ : ليعرف بعضكم بعضا فى النسب ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ ﴾ مكسورة لم يقع عليها التعارف ، وهى قراءة عبد الله: لتعارفوا بينكم ، وخيركم عند الله أتقاكم ؛ فقال ثابت: والله لا أفاخر رجلاً فى حسبه أبداً .

وقوله: ﴿ وَلاَ تَلْمِزُواْ أَنفُسَكُمْ . . . ﴾ .

لا يَعب بعضكم بعضاً ، ولا تنابزوا بالألقاب: كان الرجل يقول للرجل من اليهود وقد أسلم: يا يهودى ! فنُهوا عن ذلك ؛ وَقال فيه: ﴿ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ ﴾ ومن فتح: أن أكرمكم فكأنه قال: لتعارفوا أن الكريم المتقِى ، ولو كان كذلك لكانت: لتعرفوا أن أكرمكم ، وجاز لتعارفوا ليعرِّف بعضكم بعضا أن أكرمكم عند الله أتقاكم .

وقوله: ﴿ وَلاَ تَجَسَّسُواْ . . . ﴾ .

القُراء مجتمعون على الجيم ؛ نزلت خاصة فى سلمان ، وكانوا نالوا منه .

وقوله: ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ . . . ﴾ .

قال لهم النبى صلى الله عليه: أكان أحدكم آكلاً لحم أخيه بعد موته ؟ قالوا : لا ! قال: فإن الغيبة أكل لحمه ، وهو أن تقول ما فيه ، وإذا قلت ما ليس فيه فهو البَهْت ليست بغيبة فكرهتموه أى فقد كرهتموه ، فلا تفعلوه .

ومن قرأ : فكُرِّهتموه يقول: قد بُغِّض إليكم والمعنى والله أعلم ـ واحد ، وهو بمنزلة قولك: مات الرجل وأُميت .

وقوله: ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَاكِن قُولُواْ أَسْلَمْنَا . . . ﴾ .

(26/716)

فهذه نزلت فى أعاريب بنى أسد ؛ قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم المدينة بعيالاتهم طمعا فى الصدقة ، فجعلوا يروحون ويغدون ، ويقولون: أعطنا فإنا أتيناك بالعيال والأثقال ، وجاءتك العرب على ظهور رواحلها ؛ فأنزل الله جل وعز ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ . . . ﴾ ؛ (وأن) فى موضع نصب لأنها فى قراءة عبد الله: يمنون عليك

إِسلامهم ، ولو جعلتَ: يَمُنُّونَ عَلَيْك لأنْ أَسْلَمُوا ، فإِذَا ألقيت اللام كان نصباً مخالفا للنصب الأول .

وقوله: ﴿ أَنْ هَداكُمْ . . . ﴾ ، وفى قراءة عبدالله: إذ هداكم .

فـ (أن) فى موضع نصب لا بوقع الفعل ، ولكن بسقوط الصفة .

وقوله: ﴿ لاَ يَلِتْكُمْ . . . ﴾ .

لا ينقصكم ، ولا يظلمكم من أعمالكم شيئاً ، وهى من لات يليتُ ، والقراء مجمعون عليها ، وقد قرأ بعضهم: لا يَأْلِتْكم ، ولست أشتهيها ؛ لأنها بغير ألف كتبت فى المصاحف ، وليس هذا بموضع يجوز فيه سقوط الهمز ؛ ألا ترى قوله: (يأتون) ، و (يأمرون) ، و (يأكلون) لم تلق الألف فى شىء منه لأنها ساكنة ، وإنما تلقى الهمزة إذا سكن ما قبلها ، فإذا سكنت هى تعنى الهمزة ثبتت فلم تسقط ، وإنما اجترأ على قراءتها "يألتكم" أنه وجد ﴿ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ فى موضع ، فأخذ ذا من ذلك ؛ فالقرآن يأتى باللغتين المختلفتين ؛ ألا ترى قوله: ﴿ تُمْلَى عَلَيْهِ ﴾ . وهو فى موضع آخر: ﴿ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلْ ﴾ . ولم تحمل إحداهما على الأخرى فتتفقا ولات يليت ، وألَت يألِتُ لغتان [قال حدثنا محمد بن الجهم بن إبراهيم السمرى قال حدثنا الفراء] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 69.74 ﴾

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة الحجرات

(لا تقدموا) [1] لا تتقدموا ، كما يقال: عجل في الأمر [وتعجل] . وقيل: معناه لا تقدموا أمراً على ما أمركم الله به فحذف المفعول . (أن تحبط/أعمالكم) [2] بمعنى فتحبط أعمالكم ، أو معناه: أن لا تحبط ، أي: لئلا تحبط . الإحباط في الحسنات في مقابلة الغفران للسيئات ، فكما أن المغفرة تستر الذنوب ، حتى كأنه لم يكن ، فكذلك يعمل الإحباط بالطاعات . (امتحن الله قلوبهم للتقوى) [3]

أخلصها . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "أذهب الشهوات عنها" . (الحجرات) [4] والحجرات كلاهما جمع حجرة . ويجوز أن تجمع حجرة على حجر ، ثم الحجرات جمعها .

وذكر الفرزدق هذه الحجرات في شعره ، وعنى به بني هاشم فقال: 1099 - أما كان عباداً كفياً لدرام بلى ولأبيات بها الحجرات . (لعنتم) [7] للقيتم مشقة ، هذا أصله . ثم لفظ المفسرين مختلف: أثمتم ، عن مقاتل .

وهلكتم ، عن مجاهد . وحرجتم ، عن الكلبي . (حتى تفيء إلى أمر الله) [9] ترجع إلى الصلح الذي أمر الله به . وقيل: ترجع إلى كتاب الله . (فأصلحوا بين أخويكم) [10]

لفظها التثنية ، ومعناها الجماعة . أي: كل اثنين فصاعداً من المسلمين ، إذا اقتتلا فأصلحوا بينهما ، ففيه [شيئان:] لفظ التثنية يراد به الجماعة ، ولفظ الإضافة بمعنى الجنس ، وكلاهما جاء ، نحو: لبيك وسعديك ، فليس المراد إجابتين ، ولا إسعادين ، ولكن معناه كما قال الخليل: أي: كلما كنت في أمر فدعوتني له أجبتك إليه ، وساعدتك عليه ، ومنه قول جرير: 1100- وما أنت إن قرما تميم تساميا أخا [التيم] إلا كالوشيظة في العظم 1101- ولو كنت مولى العز أو في [ظلاله] ظلمت ولكن لا يدي لك بالظلم . ومعلوم أنه لا ينفي قوتين اثنتين ، وإنما ينفي جميع قواه . وكذلك/قوله عز وجل: (بل يداه مبسوطتان) فإن نعم الله أكثر من أن تحصى . وفي شعر الهذليين:

(28/716)

1102- إذا شق برد شق بالبرد مثله دواليك حتى ليس للبرد لابس . أي: مداولة ، كما قال العجاج: 1103- ضرباً هذاذيك وطعناً [وخضا] ، أي: هذا بعد هذ ، لا هذين اثنين . وأما إفادة المضاف لمعنى الجنس فكقولهم: "منعت العراق قفيزها ودرهمها" ، أي: قفزانها ودراهمها ، وكذلك قوله: (بل يداه) . (لا يسخر قوم من قوم) [11]

القوم: الرجال خاصة ، كما قال زهير: 1104- وما أدري وسوف إخال أدري أقوم آل

حصن أم نساء . (ولا تلمزوا أنفسكم) لا تعيبوا إخوانكم . قال المبرد : اللمز باللسان وبالإشارة ، والهمز بالإشارة لا باللسان . وقال ثعلب: الهمز في الوجه ، واللمز في القفا ، وأنشد : 1105 - إذا لقيتم عن شحط تكاشرني وإن تغيبت كنت الهامز اللمزة .

(ولا تنابزوا بالألقاب) قيل: إن النبز هو اللقب الثابت . وقيل: [القرف] بالقبيح الذي يثلم العرض . وهذا أصح ، لأن النهي عن التنابز ، لا عن الألقاب ، مثل: [ألقاب] الملوك ، وهذا كالقول: "لا تراموا بالحجارة" لا يكون نهياً عن البناء بالحجارة . (إن بعض الظن إثم) [12] قيل: إنه ظن السوء ، لما يوقع صاحبه فيه من الاهتمام في نفسه ، وإلحاق الضرر بغيره . كما قيل: الحسن الظن مستريح ، يغتم من ظنه قبيح .

وقيل: إنه الظن في موضع إمكان العلم ، وإلا فالظن في موضع [الظن] كالعلم في موضع العلم ، ولهذا قال: (إن بعض/الظن) وقال بلعاء بن قيس في الظن الصائب: 1106 - وأبغي صواب الظن أعلم أنه إذا طاش ظن المرء طاشت مقادر[ه] . وقال أبو الفضة: 1107 - فإن لا يأتكم خبر يقين فإن الظن ينقص أو يزيد .

وقال البرجمي: 1108 - وفي الشك تفريط وفي الحزم قوة ويخطئ في الظن الفتى ويصيب .

(ولا تجسسوا) [12] لا تتبعوا عثرات الناس . وقيل: لا تبحثوا عما خفي ، كما قال الشاعر: 1109 - تجنبت سعدى أن يشيد بذكرها إذا زرت سعدى الكاشح المتجسس . (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا)

أي: كما يكره لحم أخيه الميت بطبعه ، ينبغي أن يكره اغتيابه بعقله ، بل أولى ، لأن داعية الطبع عمياء جاهلة ، وداعية العقل بصيرة عالمة . وفي معناه للمقنع الكندي: 1110- إذا ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم وإن هم هووا غيي هويت لهم رشدا 1111- وإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا . (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) [13] نبه تعالى على علة اختلاف القبائل أنها للتعارف لا للتفاخر .

والشعوب: جمع شعب ، وهو اسم الجنس لأنواع الأحياء ، ثم أخص منها القبائل ، ثم العمائر ، ثم البطون ، ثم الأفخاذ ، ثم الفصائل ، ثم العشائر . فالشعب: مثل مضر ، والقبيلة: مثل كنانة ، والعمارة: [مثل قريش] ، والبطن: مثل هاشم ، والفخذ : مثل بني المطلب ، والفصيلة: مثل العلوية والعباسية ، والعشيرة: مثل الحسنية والحسينية . (قالت الأعراب ءامنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) [14] معناه: أنهم وإن صاروا ذوي سلم ، وخرجوا من أن يكونوا حرباً بإظهار الشهادتين ، فإنهم لم يصدقوا ، ولم يثقوا بما دخلوا/فيه ، فكأن الإسلام من السلم ، والإيمان من الثقة والتصديق . (لا يلتكم) ولا يألتكم ، يقال: ألت يألت ألتاً ، وولت يلت ولتاً ، ولات يليت ليتاً ، وألت

يؤلت إيلاتاً ، ومنه "ليت" للمتمني ، لأنها [تقال عند انتقاص] المراد ، فمعناها : لا ينقصكم ولا يظلمكم من أعمالكم شيئاً .

[تمت سورة الحجرات] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ باهر البرهان صـ 1338.1350 ﴾

(30/716)

وقال الأخفش :

سورة (الحجرات)

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَرْفَعُواْ أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُواْ لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾

قال ﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ ﴾ أي: مخافة أَنْ تَحْبِطَ أَعْمالُكُم . وقد يقال: "اسْمُكِ الحائِطَ أَنْ يَمِيلَ" .

﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُواْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

وقال ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ ﴾ فكسر لأنه ابتداء ولم يحمله على ﴿ لِتَعَارَفُواْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معاني القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 521 ﴾

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الحجرات

مدنية كلها «1»

1 - لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ أي لا تقولوا قبل أن يقول رسول اللّه ، صلّى اللّه عليه وسلّم . يقال : «فلان يقدم بين يدي الإمام وبين يدي أبيه» ، أي يعجل بالأمر والنهي دونه .

2 - وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ ، كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أي لا ترفعوا أصواتكم عليه . كما يرفع بعضكم صوته على بعض «2» . أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ أي لئلا تحبط أعمالكم .

3 - امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى أي اخصلها للتقوى .

5 - إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ واحدها : «حجرة» ، مثل ظلمة وظلمات .

---

(1) أخرج البخاري وغيره من طريق ابن جريج عن ابن أبي مليكة أن عبد اللّه بن الزبير أخبره أنه قدم ركب من بني تميم على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فقال أبو بكر : أمر القعقاع بن معبد ، وقال عمر : بل الأقرع بن حابس ، فقال أبو بكر : ما أرادت إلّا خلافي ، وقال عمر : ما أردت خلافك فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزل قوله تعالى : يا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إلى قوله : وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا .

(2) روي أن بعض الأعراب الجفاة جاءوا إلى حجرات أزواج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فجعلوا ينادونه : يا محمد ، يا محمد أخرج إلينا ، فنزلت الآية .

[. . . . .]

(32/716)

ويقرأ (حجرات) ، كما قيل : ركبات وينشد هذا البيت :

ولما رأونا باديا ركباتنا على موطن لا نخلط الجد بالهزل

7 - لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ من «العنب» وهو :

الضرر والفساد .

9 - حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ أي ترجع .

وَأَقْسِطُوا : اعدلوا .

11 - وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ أي لا تعيبوا إخوانكم من المسلمين .

وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ أي لا تتداعوا بها و «الألقاب» و «الأنبار» واحد .

ومنه قيل في الحديث : «قوم نبزهم الرافضة» ، أي لقبهم . وقوم - من اصحاب الحديث -

يغيرون اللفظ .

13 - و(الشعوب) اكبر من القبائل ، مثل «مضر» و«ربيعة» .

14 - قُولُوا أَسْلَمْنا ، أي استسلمنا من خوف السيف ، وأنقذنا .

لا يَلِتْكُمْ أي لا ينقصكم وهو من «لات يليت [ويلوت]» .

ومنها لغة أخرى : «ألت يألت [التا]» .

وقد جاءت اللغتان جميعا في القرآن ، قال : وَما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ [سورة الطور آية : 21] .

والقرآن يأتي باللغتين المختلفتين ، كقوله [سورة الفرقان آية : 5 وسورة البقرة آية : 282] في موضع : تُمْلى عَلَيْهِ ، وفي موضع آخر : فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ . لا «ظا «لاز الشعوب» .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 358. 359 ﴾

(33/716)

وقال الغزنوى :

سورة الحجرات

1 لا تُقَدِّمُوا : لا تقدّموا ، عجّل في الأمر وتعجل ، ويقال : قدّم وأقدم ، وتقدّم واستقدم ، أو

معنا : لا تقدّموا أمرا على ما أمركم اللّه به ، فحذف المفعول «1» .

2 أَنْ تَحْبَطَ : فتحبط ، أو لأن تحبط ، لام الصّيرورة «2» .

3 امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى : أخلصها «3» ، قال عمر «4» رضي اللّه

---

(1) قال أبو حيان في البحر المحيط : 8/ 105 : «و حذف مفعوله ليتناول كل ما يقع في النفس مما تقدم فلم يقصد لشيء معين ، بل النهي متعلق بنفس الفعل دون تعرض لمفعول معين ، كقولهم : فلان يعطي ويمنع . . .» .

(2) عن معاني القرآن للزجاج : 5/ 32 ، وانظر معاني القرآن للفراء : 3/ 70 ، وتفسير الطبري :

26/ 120 ، وإعراب القرآن للنحاس : 4/ 209 .

(3) هذا قول الفراء في معانيه : 3/ 70 ، ونص كلامه : «أخلصها للتقوى كما يمتحن الذهب بالنار ، فيخرج جيده ، ويسقط خبثه» .

وانظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 415 ، وتفسير الطبري : 26/ 120 ، ومعاني الزجاج : 5/ 33 ، واللسان : 13/ 401 (محن) . [. . . . .]

(4) نص قوله في الكشاف : 3/ 557 ، ولم يعلق عليه الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف وورد في تفسير القرطبي : 16/ 309 بلفظ : «أذهب عن قلوبهم الشهوات» .

عنه : «أذهب الشّبهات عنها» .

4 الْحُجُراتِ : والحجرات جمع «حجرة» .

7 لَعَنِتُّمْ : أثمتم «1» أو حرجتم «2» .

11 لا يَسْخَرْ قَوْمٌ : رجال .

وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ : لا تعيبوا إخوانكم . واللّمز باللّسان ، والهمز بالإشارة ، والنّبز : اللّقب الثابت إذا ثلم العرض «3» .

12 إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ : الذي لصاحبه طريق إلى العلم .

وَلا تَجَسَّسُوا : لا تتبعوا عثرات النّاس ، ولا تبحثوا عما خفي «4» .

والتجسس : التبحّث في الشر ، وبالحاء في الخير «5» .

فَكَرِهْتُمُوهُ : أي : يكره لحم الميّت طبعا فأولى أن يكره الغيبة المحرمة عقلا لأنّ داعي العقل بصير وعالم و[داعي] «6» الطّبع أعمى جاهل .

[90/أ] 13 لِتَعارَفُوا : نبّه أنّ اختلاف/ القبائل للتعارف لا للتفاخر .

والشّعب اسم الجنس لأنواع الأحياء ، ثم أخص منه القبائل ، ثم العمائر ، ثم البطون ، ثم

الأفخاذ ، ثم الفضائل ، ثم

---

(1) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 4/ 71 عن مقاتل . وذكره ابن الجوزي في زاد المسير : 7/ 461 ، والقرطبي في تفسيره : 16/ 314 .

(2) ينظر هذا القول في تفسير الطبري : 26/ 125 ، وتفسير المشكل لمكي : 318 ، وتفسير الماوردي : 4/ 71 .

(3) هذا قول المبرد كما في إعراب القرآن للنحاس : 4/ 213 ، وتفسير الماوردي : 4/ 73 .

(4) عن تفسير الماوردي : 4/ 75 ، وانظر تفسير البغوي : 4/ 215 .

(5) ينظر اللسان : 6/ 50 (حسس) ، وفيه أيضا عن ابن الأعرابي : تجسست الخبر وتحسسته بمعنى واحد .

(6) في الأصل : «دواعي» ، والمثبت في النص عن «ك» و«ج» لأنه أنسب للسياق .

(35/716)

العشائر «1» .

14 قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا : أي : وإن صاروا سلما بالشّهادتين فإنهم لم يصدقوا

ولم يثقوا بما دخلوا فيه.

لا يَلِتْكُمْ: و«لا يألتكم» «2»: لا ينقصكم «3». ألت يألت ألتا، وولت يلت ولتا، ولات يليت ليتا، وألت يولت إيلاتا «4»، [كلها بمعنى النقصان] «5». انتهى انتهى. ا هـ ﴿معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 755. 757﴾

---

(1) ينظر تفسير الطبري: 26/ 139، وتفسير القرطبي: 16/ 344، واللسان: 1/ 500 (شعب).

(2) بالهمز قراءة أبي عمرو، كما في السبعة لابن مجاهد: 606، والتبصرة لمكي: 333، والتيسير للداني: 202.

(3) مجاز القرآن لأبي عبيدة: 2/ 221، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 416، وتفسير المشكل لمكي: 318، وتفسير القرطبي: 16/ 348.

(4) ينظر معاني القرآن للزجاج: 5/ 39، وتفسير البغوي: 4/ 219، وتفسير القرطبي:

16/ 348.

(5) ما بين معقوفين ساقط من الأصل، والمثبت عن «ك».

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الحجرات

عدد 20 - 106 و29

نزلت بالمدينة بعد المجادلة وهي ثمان عشرة آية وثلاثمائة وثلاث وأربعون كلمة والف وأربعمائة وستة وسبعون حرفا ، تقدم بيان السّورة المبدوءة بما بدأت به أول سورة الممتحنة المارة ، ويوجد أربع سور مختومة بما ختمت به هذه النّمل والمنافقون وهود ومثلها في عدد الآي التغابن فقط لا ناسخ ولا منسوخ فيها :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ"

نهى اللّه تعالى عباده ، بعدم التقدم على نبيه لأن التقدم بين يدي رسوله تقدم بين يدي اللّه وقد أراد وهو أعلم بهذا التقدم مطلقه فيشمل التقدم بالقول والفعل وهذا من جملة تأديب اللّه تعالى عباده احتراما لحبيبه صلّى اللّه عليه وسلم الذي قدمه على خلقه أجمع وقد حذر ومنع جل جلاله في هذه الآية من أن يتكلم أحد قبل أن يتكلم أو يمشي إذا كان معه قبل أن يمشي أو يفعل شيئا ما قبل أن يفعل "وَاتَّقُوا اللَّهَ" في محافظة حقوق نبيكم وتأدبوا بين يديه أي بحضوره ، لأن الحاضر أمام الرّجل كأنه واقف أو قاعد بين يديه "إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ" لما

تقولونه "عَلِيمٌ" (1) بما تفعلونه وهذه الآية عامة في جميع الأحوال لا يخصصها ما روي عن جابر بأنها نزلت حينما أراد صلّى اللّه عليه وسلم الذبح يوم الأضحى أي لا تذبحوا قبل أن يذبح لأن أناسا ذبحوا قبله فأمرهم بإعادة الذبح لما روي عن البراء بن عازب قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي ثم نرجع فننحر فمن فعل هذا فقد أصاب سنتنا ومن ذبح قبل أن يصلي فإنما هو لحم عجله لأهله ليس من النّسك في شيء - أخرجه الترمذي .

(37/716)

ولا يقيده أيضا ما روي عن عائشة رضي اللّه عنها من أنها نزلت في النّهي عن صوم يوم الشّك لما جاء عن عمار بن ياسر قال : من صام يوم الشّك أي في اليوم الذي يشك فيه النّاس (هل هو من شعبان أو من رمضان) فقد عصى أبا القاسم .

أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح بل مطلقة جارية على عمومها في كلّ ما من شأنه معنى التقدم عليه صلّى اللّه عليه وسلم ، ومن جملة الآداب التي علمها اللّه لعباده وأمرهم بها تجاه حضرة رسوله الأعظم قوله :

"يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ

لِبَعْضٍ" أي تأدبوا عن هذا أيضا لا تفعلوه لأنه ليس مثلكم إلّا في البشرية ، أما في غيرها فهو فوق خلق اللّه أجمع ، قال البوصيري :

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق اللّه كلهم

دع ما ادعته النّصارى في نبيهم واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

أي اجتنب هذا وقل في مدحه ما شئت ، لذلك يجب عليكم حينما تخاطبونه أن تخاطبوه بصوت منخفض بقدر ما تسمعونه لأن الزيادة على ذلك مخلّة بالأدب معه والاحترام تجاهه والتوقير لمقامه .

واعلموا أن جعل كلامكم أعلى من كلامه أو زيادة على الحاجة المقتضية للاسماع نقص للتعظيم المطلوب منكم أمامه ، وموجب لوصمكم بقلة الأدب وسوء الأخلاق ، ومفض لإحباط أعمالكم ومحق ثوابها ، ولهذا قال تعالى "أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ" (2) بذهاب أجرها بسبب عدم تفخيمكم نبيكم وإخباتكم له ، فلو علمتم أن رفع الصّوت والجهر به أمام رسولكم يذهب ثواب أعمالكم ويصفكم بسوء الأدب وأنه يقضي لإزعاج حضرة الرّسول ويؤدي لكراهته لما فعلتموه ، ولهذا ينهاكم اللّه ويحذركم لتتعظوا وتحترزوا من كل ما يؤدي لعدم توقيره .

فنقيدوا بهذه الآداب ولا تخطرها لتكونوا على بصيرة من أمركم لقاء نبيكم ، لأن هذه الآية تشير إلى ذم من يصدر منهم مثل ذلك ، كما أن قوله جل قوله "إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى " تفيد المدح لمن يغض صوته ويخضع له هؤلاء الّذين اختبرهم اللّه بذلك قد هيأ أفئدتهم لتقراه وجعلها مخلصة له موقنة به "لَهُمْ مَغْفِرَةٌ" لذنوبهم وستر لعيوبهم "وَأَجْرٌ عَظِيمٌ" (3) عند ربهم .

مطلب في خطيب وشاعر بني تميم وما رد عليهما خطيب وشاعر حضرة الرّسول وفي سرية عتبة الفزاري وسرية الوليد بن عقبة :

قال جابر : إن سبب نزول هذه الآيات هو لما جاء بنو تميم نادوا يا محمد أخرج إلينا ، فإن مدحنا زين وذمنا شين ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم إنما ذلكم اللّه الذي مدحه زين وذمه شين ، فقالوا جئنا نشاعرك ونفاخرك ، قال لا بالشعر ولا بالفخر أمرت ، ولكن هاتوا ، فقام منهم عطاء بن حاجب فذكر فضله وفضل قومه ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم لخطيه ثابت بن قيس أجبه ، فأجابه بما أسكته وفند قوله وأثبت أنهم دون ذلك بكثير ، ولم يزل به حتى أفحمه وعرّفه أنه دون ما قال ، ثم قام شاعرهم الزرقاوي وأنشد بإطراء قومه فقال :

أتيناك كيما يعرف النّاس فضلنا إذا خالفونا عند ذكر المكارم

وإن رءوس النّاس من كلّ معشر وأن ليس في أرض الحجاز كدارم

وإن لنا المرباع في كلّ غارة تكون بنجد أو بأرض التهائم

ولما انتهى أمر صلّى اللّه عليه وسلم شاعره حسانا أن يجيب شاعرهم ، فقال :

بني دارم لا تفخروا إن فخركم بصير وبالا عند ذكر المكارم

هبلتم علينا تفخرون وأنتم لنا خول من بين ظئر وخادم

(39/716)

فقال صلّى اللّه عليه وسلم لقد كنت يا أخا دارم غنيا أن يذكر منك ما ظننت أن النّاس قد نسوه ، فكان قوله عليهم أشد من قول حسان الذي ذكرهم بما هو واقع منهم ، ومعلوم لديهم ، لأنه تأييد له وتأكيد ، ثم رجع حسان لشعره فقال :

فإن كنتم جئتم لحقن دمائكم وأموالكم أن يقسموا في المغانم

فلا تجعلوا للّه ندا وأسلموا ولا تفخروا عند النّبيّ بدارم

وإلّا ورب البيت قد مالت القنا على هامكم بالمرهفات الصّوارم

فقام منهم الأقرع بن حابس وقال إن خطيبهم أحسن من خطيبنا وشاعرهم أجود من شاعرنا وأسلم .

ثم أعطاهم رسول اللّه وكساهم وتخلف عنهم عمرو بن الأهشم فأعطاه مثلهم ، فأزرى به

بعضهم بسبب تخلفه وارتفعت أصواتهم وكثر لغطهم عند رسول اللّه ، فنزلت .

واعلم إنما يصح هذا إذا كانت هذه الحادثة قبل إسلام الأقرع وقبل سنة الوفود أما بعدهما فلا يصح أن يكون سببا للنزول لأن إسلام الأقرع كان قبل واقعة حنين والوفود كانوا سنة تسع فليراجع .

روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال : لما نزلت هذه الآية جلس ثابت بن قيس في بيته وقال أنا من أهل النّار ، واحتبس عن النّبي صلّى اللّه عليه وسلم فسأل عنه سعد ابن معاذ فقال يا أبا عمر ما شأن ثابت أيشتكي فقال سعد يا رسول اللّه إنه لجاري وما علمت له شكوى ، قال فأتاه سعد فذكر له قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، فقال ثابت أنزلت هذه ، ولقد علمتم اني من أرفعكم صوتا على رسول اللّه ، فأنا من أهل النّار ، أي ولذلك احتجب عن رؤية حضرة الرّسول لأنه علم أن رفع الصّوت قلة أدب وعدم احترام لحضرته الكريمة ، فذكر ذلك سعد للنبي صلّى اللّه عليه وسلم ، فقال رسول اللّه بل هو من أهل الجنّة ، ثم صار أبو بكر وعمر وغيرهما لا يكلمون حضرة الرّسول إلّا كأخي السّرار

وصار حضرة الرّسول يستفهم مخاطبه من شدة ما يخفض صوته ، ثم أنب اللّه قوما آخرين لم يتقيدوا بآداب اللّه التي يريدها من عباده أمام رسوله ، فقال عز قوله "إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ" (4) إن ذلك سوء أدب منهم وقلة احترام لنبيهم ، وانهم مؤاخذون عليه ، ولكن سفههم وقلة عقولهم وعدم مبالاتهم حدا بهم إلى هذا الحد .

قال تعالى "وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ" ولم يجرءوا على مناداتك كما ينادون أحدهم "لَكانَ" صبرهم مراعاة لحسن الأدب وتوقيرا للمنادى "خَيْراً لَهُمْ" في دنياهم لئلا يوصموا بسوء الأدب تجاه نبيهم المعظم عند اللّه ، وفي دينهم الموجب عليهم احترامه وتمييزه عنهم وفي آخرتهم ، لأن ما وقع منهم من قلة الأدب يدون في صحيفتهم ويعد من جملة سيئاتهم ، وسيذكرون بها يوم الحساب وقد يشملها عفو اللّه "وَاللَّهُ غَفُورٌ" لما وقع منهم لأنه عن جهل لا عن قصد "رَحِيمٌ" (5) بهم إذا تابوا وأنابوا .

قال ابن عباس بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم سرية إلى ابن العنبر وأمر عليهم عيينة بن حصن الفزاري ، فلما بلغهم ذلك تركوا أهلهم وهربوا ، فسباهم عيينة وقدم بهم على رسول اللّه ، فجاء رجالهم ليفدوهم ، فوافقوا رسول اللّه قائلا وصارت ذراريهم تبكي فجعلوا ينادون يا محمد أخرج إلينا ، فخرج إليهم وحكم فيهم الأعور بن يشامّه من أهل دينهم بطلبهم ، فحكم أن يعتق النّصف ويفادي النّصف ، فرضي صلّى اللّه عليه وسلم ورضوا هم أيضا .

قال تعالى "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ" أي خبر سوء وهو المراد به هنا ويكون في الخير كما يكون في الشّر راجع الآية 94 من سورة النّساء المارة "فَتَبَيَّنُوا" أطلبوا البيان لذلك الأمر المخبر به ذلك الفاسق واستكشفوا حقيقته ولا تعتمدوا على قوله فتقعوا في الخطأ إذا نفذتم ما يقتضي لذلك الخبر ، فإياكم أن تعجلوا في إنفاذه واحذروا عاقبته من "أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ" فتضروهم قبل أن تقفوا على جلية أمرهم لما يلحقكم من الغضب الموجب للمسارعة بالانتقام فتندموا من حيث لا ينفع النّدم "فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ" (6) إذ يتبين خطأكم .

وسبب نزول هذه الآية أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق بعد واقعتهم الملح إليها في الآية 8 من سورة المنافقين المارة ، لأخذ صدقاتهم ، وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية ، فخرجوا لملاقاته تعظيما لأمر الرّسول ، فحدثته نفسه أنهم يريدون قتله ، فرجع وقال يا رسول اللّه أرادوا قتلي ، فغضب رسول اللّه وهمّ بغزوهم ، ثم أنهم لمّا رأوا رسول اللّه رجع دون أن يصل إليهم أو يكلمهم ، فطنوا لما كان بينه وبينهم من العداوة فأتوا المدينة ، وقالوا يا رسول اللّه سمعنا بقدوم

رسولك فخرجنا نتلقاه إكراما لك فبدا له الرّجوع قبل أن يلقانا ، وإنا نعوذ باللّه من غضبه وغضبك ، فلما سمع قولهم و

(42/716)

العداوة التي ذكروها زال منه بعض ما كان وبعث معهم خالد بن الوليد وقال له خفية عنهم انظر إذا رأيت ما يدل على أنهم مؤمنين فخذ منهم الزكاة وإلا فالسيف ، فوافاهم مسمع أذان المغرب والعشاء ولم ير إلّا الطّاعة ، فأخذ صدقاتهم وقدم بها على رسول اللّه وأخبره بالأمر الذي رآه منهم فنزلت وهي كالآيات قبلها عامة في معناها تأمر بالتريث والأناة وترك الاستعجال ، والتثبت من الأخبار وعدم الاعتماد على قول الفرد مثل الوليد المذكور ، الذي ظن غير ما في نية القوم وتوهم ما ليس يخطر ببالهم بسبب عداوة تصورها في قلبه كانت قبلا فمحاها الإسلام من قلوبهم فأخطأ عليهم بكلام وفعل لم يصدر منهم ، ولولا تأتي حضرة الرّسول ومجيئهم إليه وإخبارهم بما وقع من رسوله لوقع فيهم ما لا يحمد ظلما . وإذا كان مثل الوليد يقع منه هذا الغلط عند رسول اللّه فغيره من باب أولى عند الغير ولا سيما في هذا الزمن الذي قل فيه الأمن وفقدت منه الثقة ومحي فيه الاعتماد وفقد الصدق ، وإنما سماه اللّه تعالى فاسقا لأنه تسارع وأخبر بما لم يتحققه ، فكان بعمله هذا خارجا عن

الطّمأنينة متجاوزا حدود التأني ، قائلا ما لم يسمع ، وباهنا قوما غافلين عما خطر بباله .

ألا فلينتبه العاقلون ، ولينته الجاهلون عن التسرّع فيما ينقل إليهم ، وليحققوا حتى لا يتسببوا لظلم البريء بإخبار فاسق ، وليسمحوا مهما وجدوا طريقا الصّلح .

واعلم أن لفظ فاسق يطلق على من تعدى الحدود وخرج عن ملاك الأمر .

قال تعالى "وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ" الواجب تعظيمه وتوقيره واحترامه ، فاحذروا أن تخبروه بباطل فإن اللّه مولاه يطلعه على

(43/716)

خبايا الأمور وما تكنه الصّدور فيفضحكم ويكشف ستركم ويظهر ضغائنكم "لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ" الذي تحدثونه به ويأخذ برأيكم دون تأن وتروّ "لَعَنِتُّمْ" أثمتم وهلكتم ، ولكنه ، لم يطعكم ، وذلك أن بعض الناس زينوا لحضرة الرّسول الإيقاع ببني المصطلق بسبب إخبار الوليد بأنهم أرادوا قتله مع أن إخباره غير مرتكز على حقيقة ، وناشىء عن سوء ظنه وعدم ترويه وتصوره ما لم يكن عند القوم من خوفه الذي استولى على قلبه وارجعه عن تنفيذ أمر الرّسول وسول له ما قاله له ، وقد مدح اللّه حبيبه بقوله "وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ" فتربصتم ، ولم تأخذوا بقوله المجرد العاري

عن الصّحة ، وفعلتم ما علمتم به من خطأ المختبر وصواب التروي والأناة في الأمر ، لأن لإيمان الصّادق يمنع صاحبه من العجلة ويأمره بالتأني والمراد بتزيين الإيمان زيادته لأنه يزداد في كلّ لحظة عند المؤمن المخلص حسنا وثباتا ولا يسأم منه بخلاف سائر المحبوبات فإن السّأم قد يلحقها ، مثله مثل كتاب اللّه كلما كررت قراءته ازداد قلبك رغبة فيه بخلاف سائر الكتب ، قال الأبوصيري :

فلا تعد ولا تحصى عجائبها ولا تسأم على الإكثار بالسأم

يريد أن آيات اللّه تعالى لا توصف بالملل ومهما كررتها تزداد رغبة فيها على حد قوله :

يزيدك وجهه حسنا إذا ما زدته نظرا

"وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ" وهذه الجملة فيها من محسنات البديع المقابلة على حد قوله :

ما أحسن الدّين والدّنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس في الرّجل

لأنه قابل كره بحبّب ، وزيّن ، والفسوق والعصيان بالإيمان ، وهذه الكلمات الثلاث جاءت بمقابلة الإيمان الكامل وهو ما اجتمع فيه ثلاثة أمور تصديق بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالأركان فذكر جل ذكره بمقابله حبب إلخ . . .

وهو التصديق بالجنان ، وذكر الفسوق الجامع لأنواع الكذب وغيره بمقابلة الإقرار باللسان وذكر

العصيان بمقابلة العمل بالأركان ، وعليه البيت قابل ما أحسن بقوله وأقبح ، والدّين بالكفر والدّنيا بالإفلاس ، لأن علم البديع كغيره من العلوم التي أخذت من القرآن العظيم فهو أصل لجميعها وهي فرع عنه قال تعالى "أُولَئِكَ" الّذين حبب إليهم الإيمان فأحبوه وتمسكوا به فتغلغل في قلوبهم "هُمُ الرَّاشِدُونَ" (7) المهتدون إلى الأعمال الحسنة والأخلاق الكريمة الّذين يطيعون أوامر اللّه ورسوله ولا يقفون أمام أمره كخالد بن الوليد رضي اللّه عنه إذا تلقى أمر الرّسول برحابة صدره وذهب إلى القوم فوجدهم على غير ما عزي لهم فحقن اللّه دماهم وصان أصحاب الرسول من الوقيعة في إثم قتالهم لأنهم راسخون على إيمانهم وأن خروجهم لم يكن كما زعم الوليد بل احتراما لرسول اللّه الذي أرسله إليهم وتكريما له فكان تحبب الإيمان الذي منه التأني والتروي في الأمور وتكريه الكفر الذي فيه العجلة والمسارعة "فَضْلًا مِنَ اللَّهِ" لكم أيها المؤمنون "وَنِعْمَةً" عليكم زائدة على نعمه في تحسين أخلاقكم وتهذيب آدابكم وخيرا كثيرا وأدبا كريما "وَاللَّهُ عَلِيمٌ" بما بينهما من التفاضل العظيم "حَكِيمٌ" (8) فيما يفعل من تفضيل أناس على آخرين كما هو حكيم في جميع أفعاله وفي جملة تأديب اللّه تعالى نفوس عباده وتهذيبها قوله جل قوله "وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

اقْتَتَلُوا" جمع الضّمير باعتبار معنى الطائفتين على حد قوله تعالى (فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ) الآية 41 من سورة النمل ج 1 ولبحثها صلة في الآية 26 من سورة النّور المارة وما ترشدك اليه من المواضع.

مطلب في الصّلح ومراعاة العدل بين الطّرفين من قبل المصلحين والسّخرية والظّن والتجسس والغيبة والشّعوب وتفرعاتها :

(45/716)

ثم أمرهم جل أمره بما هو من شأن المؤمن وحق المسلم على المسلم بقوله "فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما" أيها المؤمنون لأنّ في قتالهما نقصا من عددكم وإثارة لغرس العداوة فيكم والبغضاء التي يتوارثها الأبناء عن الآباء بينكم "فَإِنْ بَغَتْ" تعدت واستطالت "إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى" فلم تنتصح ولم تقبل الصّلح وأصرت على بغيها ومواصلة عداوتها "فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي" يا أيها الحكام وأديموا مقاتلتكم

لها "حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ" وترجع عن غيها وتسلم لما في كتاب اللّه الموجود بأيديكم من الصّلح وإزالة الشّحناء وقطع مادة البغض "فَإِنْ فاءَتْ" عدلت ورجعت عن مواصلة العداء وجنحت للسلم "فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ" الذي يحملها على الإنصاف والرّضى

بحكم اللّه ، ولا تكتفوا بمجرد متاركتهما القتال لئلا يكون بينهما قتال آخر ، لأن القتال الصّحيح يزيل حزاز الصّدور ويمحو مادة الحقد ، وإنما قيد الصّلح بالعدل ليعلم أنه بعد خضوعهما لحكم اللّه لا يجوز أن يميل المصلحون عليهما أو على أحداهما بسبب عدم قبولهما الصّلح مبدئيا ، لأن تسليمها لأمر اللّه أزال ذلك وأوجب أن تعامل مع الفرقة المقابلة لها معاملة حقية متساوية ، ولهذا أكد اللّه تعالى تلك الجملة بقوله "وَأَقْسِطُوا" أيها الحكام وولاة الأمور والمتوسطون بين النّاس بالصلح بينهما ولا يحملنكم عدم الرّضاء بالصلح أولا أن تحيفوا بهم أو تجوروا عليهم بل يجب عليكم أن تمحوا ذلك من صدوركم ولا تتحظروه بقلوبكم "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ" (9) في أحكامهم وأقوالهم وأعمالهم وسائر أمورهم .

(46/716)

واعلم أن فعل أقسط ضد فعل قسط راجع الآية 23 من سورة الجن في ج 1 ثم بين المادة الموجبة للعدل بقوله "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ" في الدّين والولاية لا فضل لأحد على أحد إلّا بالتقوى فإذا تنازع هؤلاء الاخوة "فَأَصْلِحُوا" أيها الاخوان المؤمنون "بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ" المختلفين وهذه الجملة تقرير للأمر بالصلح بين المتقاتلين ثم أكد تحذيرهم من الميل لطرف دون آخر بقوله "وَاتَّقُوا اللَّهَ" أن ترجحوا أناسا على آخرين ولو كانوا أولي قربى منكم

وأحسنوا نيتكم بالإصلاح بين النّاس كلهم وعاملوهم سواسية "لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ" (10) من قبل اللّه فتنالوا رحمته الواسعة التي حملتكم على التدخل بالإصلاح بين إخوانكم رحمة بكم وبهم من أن يتجاوز أحدهما على الآخر أو يأخذ ماله بغير وجه شرعي لأن الجزاء من جنس العمل .

أخرج به جرير عن السّدى قال .

كان رجل من الأنصار يقال له عمران تحته امرأة يقال لها أم زيد ، فأرادت أن تزور أهلها ، فحبسها في علية ، فبعثت إلى أهلها فجاء قومها فأنزلوها لينطلقوا بها ، وكان الرّجل قد خرج فاستعان بأهله ، فجاء بنو عمهم ليحولوا بين المرأة وأهلها فتراجعوا واجتلدوا بالنعال ، فنزلت فيهم هذه الآية .

وقال قتادة نزلت في رجلين من الأنصار كان بينهما مماراة بحق فقال أحدهما للآخر لآخذن حقي منك عنوة لكثرة عشيرته ، فتدافعوا بينهم وتناولوا بعضهم فنزلت .

وكلّ هذا جائز لأن يكون سببا للنزول ، لأن الآية عامة في جميع المسلمين وحكمها باق إلى يوم القيامة ، وكذلك الآية التي بعدها فهي عامة في كلّ من يقع منه شيء مما نهى عنه فيها وفي كل الآيات لأن العبرة لعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب .

أما ما رواه البخاري ومسلم عن أنس قال : قيل للنبي صلّى اللّه عليه وسلم لو أثبت عبد اللّه بن أبي الحديث إلى أن قال فبلغنا أنها نزلت فيهم .

وما روياه عن أسامة بن زيد أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ركب على حمار إلى أن قال : وذلك قبل أن يسلم عبد اللّه بن سلول قبل واقعة بدر فلا يصحان أن يكونا سببا للنزول .

ومما يدل على ضعف القول الأوّل كلمتا قيل وبلغنا المشيرتان إلى توهين الرّواية ، وعلى ضعف الثاني أنه قبل إسلام عبد اللّه لأن هذه نزلت بعد إسلامه بكثير وعبد اللّه منافق لم يزل على نفاقه وما كان إسلامه إلا صوريّا ومات على نفاقه كما أشرنا إليه آخر سورة المنافقين ، وهو أحقر من أن ينزل اللّه فيه قرآنا أو يسميه مؤمنا ، وقد تسامح من عدّ ما جاء في هذين الحديثين سببا للنزول ، لأن هذه الآية متأخرة عن حادثة بن سلول المارة في سورة المنافقين فظهر أنها نازلة في طائفتين من المؤمنين وفي اقتران هذه الآية بالشرط إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يصدر القتال من المؤمنين لا أن ذلك لم يقع ، بل وقع حقيقة ، وإن المقاتلة تستعمل مجازا المضاربة ولم تزل تستعمل لغة حتى الآن يقول الرّجل لابنه وغيره لأقتلك وهو يريد أضربك ، لا القتل بمعنى الذبح ، من لفظ البغاة يطلق على الخارجين على الإمام والحكم فيهم أن يرسل الإمام إليهم من ينصحهم ويكشف شبهتهم

ويقف على الأسباب الدّاعية لخروجهم ويدعوهم إلى الطّاعة والانقياد لحكم اللّه ، وإذا علم عذرا بخروجهم من ظلم ونحوه وجب على السّلطان إزالته ، فإن لم يكن شيء من ذلك ولا شبهة لهم في شيء من أمر الدّنيا أيضا وأصروا على بغيهم بقصد قلب الحكم أو الانحياز لدولة أخرى فله أن يقاتلهم حتى يركنوا إلى الطّاعة ويسلموا تسليما مطلقا .

واعلم أن قتال الخوارج يمتاز على قتال الكفار بثلاثة أمور ، أن لا يتبع مدبرهم إذا هرب ، ولا

يقتل أسيرهم إذا استسلم ، ولا يذقف أي لا يجهز على جريحهم بأن يقتل أو يضرب مرة أخرى ليموت بل يترك وشأنه حتى يشفى أو يموت .

(48/716)

ومن جملة ما أدب اللّه به هذه الأمة وهذبها وحسن أخلاقها هو قوله تعالى "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ" عند اللّه وبعض خلقه وعدم معرفتكم بالأخيرية لا يكفي "وَلا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ" من حيث لا يعلم السّخر فضيلة المسخور منه ، وقد يعرفها غيره ، قال عليه السّلام إن أحدكم ليرى القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عينه "وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ" لا تطعنوا ولا تحضروا أو

تعيبوا بعضكم بعضا ولو بالاشارة أو الرّمز ، لأن من عاب أخاه فقد عاب نفسه ، ولا يخلو أحد من عيب ، فكيف يعيب المعيب غيره ؟ ورحم اللّه امرأ شغله عيبه عن عيوب النّاس راجع أول السّورة الهمزة في ج 1 .

قال ابن عباس جاء ثابت بن قيس بن شماس حتى انتهى إلى حضرة الرّسول ، فقال لرجل كان بينهما تفسح ، فقال له الرّجل أصبت مجلسا فاجلس ، فسئل عنه فقال الرّجل أنا فلان ، فقال له ثابت بن فلانة وذكر أما له كان يغيرها في الجاهلية ، فاستحى الرّجل ونكس رأسه ، فنزل أول هذه الآية وقال أيضا أن حفصة رضي اللّه عنها قالت إلى صفية بنت حيي رضي اللّه عنها ، يهودية بنت يهوديين ، قال أنس فشكتها إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فقال لها ، إنك لابنة نبي ، يريد اسحق عليه السّلام ، وإن عمك لنبي يريد إسماعيل عليه السّلام وإنك لتحت نبي يريد نفسه صلّى اللّه عليه وسلم ، فكيف تفتخر عليك ؟ فنزل الشّطر الثاني منها .

(49/716)

وقال جبير بن الضّحاك قدم علينا رسول اللّه وليس منا رجل إلّا وله اسمان او ثلاثة ، فجعل رسول اللّه يقول يا فلان فيقولون يا رسول اللّه إنه يغضب من هذا الاسم فنزل آخرها وهو

قوله تعالى "وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ" أي لا يدعون أحد أخاه بلقبه الذي يكرهه ولا ينبغي ان يقال لكتابي أسلم يا يهودي يا نصراني ، وكذلك غير الكتابي فلا يقال يا مشرك يا مجوسي يا بوذي يا صابئي لقوله تعالى "بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ" لكل أحد ويكون أشد قبحا شؤما وأعظم وزرا إذا كان "بَعْدَ الْإِيمانِ" لأن المؤمن لا يليق ان

(50/716)

يدنس إيمانه بما يؤثمه عند ربه ، وإذا وقع منه فعليه ان يسارع للاستغفار والاستسماح ولهذا قال تعالى "وَمَنْ لَمْ يَتُبْ" بعد هذا النّهي فيسخر من أخيه أو يسميه بما يكره أو يعيبه او يحقره فيكون مخالفا لأمر اللّه في ذلك ، وإذا كان له اسمان فليسمه بأحبهما إليه ، ولذلك أتيهم اللّه بقوله "فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ" (11) أنفسهم بتعديهم عليها ومخالفتهم أمر اللّه تعالى وتجاوزهم على إخوانهم لأن من يسمى بما يكره فكأنما عيّره وعابه ، ومن عيّر أخاه فقد ظلم نفسه واستحق العقاب على او العتاب على ذلك وكذلك كلّ ما يحزن المسلم من قول او فعل وعليه ان يسره فمن حسن إسلام المرء إدخال السّرور على أخيه المؤمن ، ومن جملة تأديب اللّه تعالى عباده والسّير بهم إلى المثل الأعلى قوله جل قوله "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ" يوقع صاحبه بالسوء ويستحق العقوبة عليه وإذا

كان بعضه إثما فعليه ان يتباعد عنه كله لأنه لا يعرف الذي يأثم به منه ، وينبغي أن يظن خيرا أو يترك لئلا يقع فيما يكره أو يثلب ولهذا قال تعالى "وَلا تَجَسَّسُوا" على عيوب النّاس ولا تتبعوا عوراتهم التي سترها اللّه عليهم فتفضحوهم واللّه يحب السّتر ، وجاء عنه صلّى اللّه عليه وسلم من كشف ستر أخيه كشف اللّه ستره "وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً" بما فيه وبما ليس فيه لاطلاق النّص ، فليقل أحدكم خيرا أو ليصمت .

وتوجد أشياء مستثناة من هذه الآية سيأتي ذكرها بعد .

ثم إن اللّه تعالى لما مثل لخلقه ما يناله المعتاب من عرض أخيه بقوله "أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً" كأنهم قالوا لا يحب أحدنا ذلك ، فلما استجوبهم واعترفوا بأن أحدا لا يحب جيفة أخيه بغير ضرورة وأنه لا يمكنهم إنكار كراهيته .

(51/716)

قال تعالى "فَكَرِهْتُمُوهُ" كما كرهتم هذا فاجتنبوا ذكره بالسوء "وَاتَّقُوا اللَّهَ" فلا تغتابوا أحدا بما يكره ، ولا تجسسوا عليه ، ولا تظنوا فيه سوء ، وإن ما وقع منكم قبل صدور هذا النّهي توبوا منه ولا تعودوا إليه "إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ" على من تاب يقبل توبته ويعفو عنه "رَحِيمٌ" (12) بعباده يبين لهم مضارهم ومنافعهم ويرشدهم إلى ما فيه خيرهم .

قيل إن رجلين من الأصحاب أرسلا سلمان الفارسي إلى حضرة الرّسول ليطلب لهم طعاما فأرسله الرّسول إلى خادمه أسامة بن زيد ، فذهب فقال ما عندي ؟ فرجع سلمان وأخبرهما فقالا بخل أسامة ، ثم أرسلاه لمكان آخر فلم يأتيهما بشيء ، فقالا لو بعثناه إلى بئر معونة لغار ماؤها ، فانطلقا يتجسسان على أسامة هل عنده شيء أم لا ، فلما جاءا إلى رسول اللّه قال لهما مالي أرى خضرة اللّحم في أفواهكما ؟

قالا يا رسول اللّه ما تناولنا يومنا هذا لحما ، قال ظللتما تأكلون لحم سلمان وأسامة ، فأنزل اللّه هذه الآية .

وهي عامة لم تقيدها هذه الرّواية ولم يخصصها شيء غيرهما ، وباق لحكمها ما بقيت الدّنيا .

وإنما مثل تعالى باللحم وخصه بالأخ ليكون آكد في المنع والكراهية ، لأن العدو قد يحمله الحق على أكل لحم عدوه كما فعلت هند بحمزة رضي اللّه عنه ، ويكون اللّحم على أكل لحم عدوه كما فعلت هند بحمزة رضي اللّه عنه ، ويكون اللّحم ميتا لأنه أبلغ في الزجر لأن النّفس مهما كانت مضطرة لا تميل إليه بخلاف المذبوح .

(52/716)

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال إياكم والظّن ، لأن الظّن أكذب الحديث ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد اللّه إخوانا كما أمركم المسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره ، التقوى ها هنا التقوى ها هنا التقوى ها هنا (كررها صلّى اللّه عليه وسلم ثلاثا وفي كلّ منها يشير إلى صدره الشّريف ، يؤمن بذلك إلى التقوى بالقلب لا بشقشقة اللّسان ، لأن اللّه ينظر إلى القلب لا إلى الصّورة) بحسب امرئ من الشّر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله ، إن اللّه لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم وأعمالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم .

واعلم أن الحكم الشّرعي في هذا هو أنه يحرم على الرّجل أن يغتاب أخاه أو يسمع إلى حديثه بقصد التجسس عليه وأن يظن به سوءا ، ومن أكبر الكبائر وأفظعها التجسس على المسلمين وإفشاء أسرارهم الحربية إلى أعدائهم أو إلى من يوصل إليهم ، ويسن للرجل أن يستر ما يراه من عيوب إخوانه روى مسلم عن أبي هريرة أن النّبي صلّى اللّه عليه وسلم قال لا يستر عبد عبدا في الدّنيا إلّا ستر اللّه عليه يوم القيامة .

وروي عنه قال أتدرون ما الغيبة ؟ قلت اللّه ورسوله أعلم ، قال ذكرك أخاك بما يكره ، قلت وإن كان في أخي ما أقول ؟ قال إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فقد بهته .

وأخرج أبو داود والترمذي عن عائشة قالت

قلت للنبي صلّى اللّه عليه وسلم حسبك من صفية كذا وكذا تعني قصرها ، فقال لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته .

فقال ما أحب أني حكيت له إنسانا ولي كذا وكذا ، ومعنى حكى شبّه الشّيء بغيره فيما يمدح أو يذم ، والظّاهر أن المراد هنا الذم .

(53/716)

وأخرج أبو داود عن أنس قال قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم ولحومهم وصدورهم ، فقلت من هؤلاء يا جبريل ؟

قال هؤلاء الّذين يأكلون لحوم النّاس ويقعون في أعراضهم .

هذا ، وما ورد : احترسوا على أموالكم بسوء الظّن ، وإن سوء الظّن من أزكى الفطن ، هذا مما يعود لنفس الظّان ، لأن من يريد أن يدين أحدا دينا أو يزوجه بنتا أو يعقد معه عقدا فله التبصر بحاله .

قال تعالى (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ) الآية الخامسة من سورة النساء المارة ، فراجعها

ففيها ما تريده في هذا البحث ، ومن أين يعرف السّفيه من غيره إذا لم يحصل له الظّن الموجب للتحقيق عن حاله فهذا من الظّن الجائز حفظا لنفس الرّجل وماله من أن يقع بغير موضعه ، وبنت الرّجل من ماله ووضعها عند من يكرمها خير من وضع المال عند من يرده ، وقد ورد : النكاح رق فلينظر أحدكم أين يضع كريمته .

فيكون التبصر بشأنها ألزم من غيره ، وكذلك يجوز التجسس لمعرفة حال من يريد أن يدينه أو يزوجه ، وأحسن انواع التجسس هو ما يعود لحفظ جيش المسلمين من العدو والتوصل لمباغتة داره وجنده ، لأن حضرة الرّسول كان يرسل العيون في الغزوات ويقول الحرب خدعة ، وأقبحه من يتجسس على المسلمين ليوصل أخبارهم لعدوهم فهذا ممن يخون الله ورسوله والمسلمين اجمع ، وكذلك يجوز غيبة الفاسق المجاهر بفسقه بقصد ردعه وعدم اغترار النّاس فيه لما جاء في الحديث الصّحيح : أذكروا الفاجر بما فيه يحذره النّاس .

(54/716)

وقدمنا ما يتعلق في هذا البحث في الآية 35 من سورة الإسراء ج 1 فراجعها قال تعالى "يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا" فيما بينكم لا لتفاخروا والشّعوب رءوس القبائل مثل ربيعة ومضر والأوس والخزرج ، والقبائل ما تشعب

منها كبكر من ربيعة وتميم من مضر ، والعمائر متفرعة من القبائل كشيبان من بكر ودارم من تميم ، والبطون من العمائر كبني

لؤي وغالب من قريش ، والأفخاذ من البطون كبني هاشم وبني أمية من لؤي ، والفضائل من الأفخاذ كبني العباس من هاشم ، والعشائر من الأفخاذ أيضا ، والبيت من العشيرة فتقول بيت فلان من عشيرة فلان ومن فخذ فلان إلخ وليس بعد هذا شيء يوصف أو ينسب إليه إلّا الجد ، وكلّ من هؤلاء مهما بلغوا من العلو والكثرة في العدد والثروة لا ينبغي أن يتفاضل به إذا كان خاليا من تقوى اللّه القائل "إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ" فلا تفاخر ولا تفاضل بين الناس في الدّنيا إلّا بها ، لأنها تستوجب الكرامة من اللّه عند اللّه في الآخرة لا بالأنساب ولا بالمكاثرة "إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ" بأنسابكم وتكاثركم وغناكم لا حاجة لأن يتطاول بها بعضكم على بعض "خَبِيرٌ" (13) بالأفضل عنده الذي يستحق كرامة .

وعندكم الذي يستوجب احترامكم لما قال ثابت بن قيس للرجل الذي لم يفسح له بين فلانة كما مر في الآية 11 ، قال صلّى اللّه عليه وسلم أنظر في وجوه القوم فنظر فقال ما رأيت يا ثابت ؟ قال رأيت أبيض وأحمر وأسود ، قال فإنك لا تفضلهم إلا بالدين والتقوى فنزلت هذه الآية .

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أي النّاس أكرم ؟ قال أكرمهم عند اللّه أتقاهم ، قالوا ليس عن هذا نسألك ، قال فأكرم النّاس يوسف نبي اللّه بن يعقوب نبي اللّه بن اسحق نبي اللّه بن خليل اللّه ، قالوا ليس عن هذا نسألك ، قال عن معادن العرب تسألون ؟ قالوا نعم قال خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا .

أي تعلموا أحكام الشّرع ، فإذا لم يفقه الخيار انحطت درجتهم عن غيرهم فالعبد التقي خير من الشّريف الشّقي والسّوقة العالم خير من الحسيب الجاهل ، فالعاقل لا يترك التقوى اتكالا على النّسب .

فقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الشّرك الحسيب أبا لهب

ولما قدم نفر من بنى أسد وأظهروا الإسلام لرسول اللّه وصاروا يمنّون عليه بقولهم أتتك العرب على ظهور رواحلها وجئناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كغيرنا وطلبوا منه الصّدقة وكانت سنة مجدبة ، فأنزل اللّه "قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ" لهم يا سيد الرّسل "لَمْ تُؤْمِنُوا" إيمانا حقيقيا "وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا"

أي استسلمنا مخافة الهلاك من الجدب والجلاء والسّبي والقتل ولو كان إيمانكم كاملا لما منتم به عليّ "وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ" دخولا حقيقيا حتى الآن ولم تخلصوا فيه إخلاصا صادقا مع انه لنفعكم "وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ" ظاهرا وباطنا طاعة لا تريدون بها إلّا وجه اللّه و"لا يَلِتْكُمْ" ينقصكم اللّه "مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً" بل يجزيكم ثوابها كاملا ويزيدكم من فضله "إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ" لما بدر منكم "رَحِيمٌ" (14) بجميع عباده يريد لهم الخير ومن الخير عدم المنّة بالإسلام، لأن المنّة للّه الذي اختاركم إليه ولرسوله الذي أرشدكم إليه قال تعالى "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ" إيمانا خالصا لا لغرض ولا لعوض، ولم يقصد به إلّا ابتغاء وجه اللّه "ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا" في أمر دينهم كله "وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ" (15) بإيمانهم لأنهم أيدوه بالجهاد مالا وبدنا، ولا دليل أصدق على الإيمان من الاقتداء باللّه ورسوله، والاقتداء بالنفس والمال، فلما نزلت هاتان الآيتان أتوا إليه وحلفوا أنهم صادقون بإيمانهم، وقد علم اللّه منهم غير ذلك فأنزل جل إنزاله "قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ" الذي أنتم عليه وهو خلاف ما تقولون، فلا تكتموا ما في قلوبكم على اللّه "وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ" وأنتم من جملة من فيها "وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" (16) لا يحتاج إلى أخباركم، فيعلم الصّادق من الكاذب، والمخلص من المنافق، ويخبر رسوله بذلك فيذكره لكم على رؤوس الأشهاد.

قال تعالى "يَمُنُّونَ عَلَيْكَ" يا سيد الرّسل "أَنْ أَسْلَمُوا" بقولهم المار بصدر الآية 14 "قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ" (17) بإيمانكم ولكنكم كاذبون به "إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" لا يخفى عليه شيء مما يقع فيها ومن ما فيها وفوقهما وتحتهما "وَاللَّهُ بَصِيرٌ" بدقائق الأمور خبير "بِما تَعْمَلُونَ" (18) سرا وجهرا ، روى البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص قال أعطى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم رهطا وأنا جالس ، فترك منهم رجلا هو أعجبهم إلي فقلت مالك عن فلان والله أني لأراه مؤمنا ؟

فقال صلّى اللّه عليه وسلم أو مسلما ، ذكر ذلك سعد ثلاثا وأجابه بمثل ذلك ، ثم قال اني لأعطي الرجل وغيره أحبّ إليّ منه خشية أن يكبّ في النّار على وجهه .

الحكم الشّرعي :

يعتبر كلّ من نطق بالشهادتين من الجن والإنس مسلما ويعامل معاملة المسلمين ويدفن في مقابرهم ، وليس لنا أن نقول له انك لست بمؤمن ، لأن العبرة للظاهر وأمر الباطن مفوض إلى اللّه ، ولم يقل الرّسول ما قال إلّا بإخبار اللّه إياه ، أما نحن فليس لنا ذلك ، كما أنه لو فرض أن

هناك مؤمنا سرا ولم يعلن إسلامه ولم ينطق أمام أحد بالشهادتين ، قال نعامله معاملة المسلمين ولا ندفنه في مقابرهم ، وعدم معاملتنا له لا تضره واعلم أن الإسلام والإيمان واحد عند أهل السّنة والجماعة دون خلاف ، ومنهم جعل الإسلام غير الإيمان ، ومنهم على العكس مستدلا بحديث جبريل عليه السّلام إذ فرق فيه بين الإسلام والإيمان .

والإسلام لم يقرّ فيه الزيادة والنّقص بخلاف الإيمان ، راجع الآية الثانية من سورة الأنفال المارة وما ترشدك إليه في هذا البحث ، وله صلة آخر سورة التوبة الآتية .

(58/716)

ومنهم من جعل هذا الاختلاف بالتعبير فقط ، وهو أن تعلم أن بين العام والخاص فرقا ، فالإيمان لا يحصل إلّا بالقلب ، والإسلام الذي هو الانقياد قد يحصل بالقلب وقد يحصل باللسان ، وعليه فإن الإسلام أعم والإيمان أخص ، لأن العام في صورة الخاص متحد مع الخاص ولا يكون أمرا غيره ، فالعام والخاص مختلفان في العموم والخصوص ، متحدان في الوجود ، فذلك المؤمن والمسلم .

هذا ، وإن البغاة المار ذكرهم في الآيتين 9 و10 المارتين الّذين قال فيهم العلماء إن البغي لا يزيل اسم الإيمان ، لأن اللّه تعالى سماهم مؤمنين مع كونهم باغين ، يدل على هذا ما روي عن

علي بن أبي طالب كرم اللّه وجهه وهو القدوة في قتال أهل البغي ، وقد سئل عن أهل الجمل وصفين المشركون هم فقال لا ، إنهم من الشّرك فرّوا ، فقيل أمنافقون هم ؟ فقال لا ، إن المنافقين لا يذكرون اللّه إلّا قليلا (أي وهؤلاء يكثرون من ذكر اللّه تعالى) فقيل ما هم إذا قال إخواننا بغوا علينا .

والباغي في الشرع هو الخارج على الإمام العدل ، فإذا اجتمعت طائفة لهم قوة ومنعة فامتنعوا عن طاعة الإمام العدل بتأويل محتمل ونصبوا لهم ، إما ما يرجعون اليه مع وجود الإمام الذي خرجوا عن طاعته فالحكم فيهم هو ما تقدم آخر الآية العاشرة المارة ص 425 فراجعها تقف على ما تريد مما يجب أن يعاملوا به مما هو موافق للشرع الاسلامي .

هذا واللّه أعلم ، وأستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلّا باللّه العلي العظيم ، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين ، وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدّين ، وعلى من تبعهم بإحسان والحمد للّه رب العالمين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بيان المعاني حـ 6 صـ 231.214 ﴾

(59/716)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الحجرات

مدنية

ورسوله كاف ولك الوقف على واتقوا الله عليم تام وكذا لا تشعرون للتقوى كاف عظيم تام لا يعقلون كاف وكذا الهم رحيم تام نادمين حسن لعنتم صالح والعصيان كاف وكذا ونعمة حكيم تام بينهما كاف إلا أمر الله صالح بالعدل كاف ولك الوقف على وأقسطوا المقسطين تام بين أخويكم كاف ترحمون تام منهن كاف بالألقاب حسن وكذا بعد الإيمان الظالمون تام من الظن صالح اثم كاف وكذا تجسسوا بعضا تام فكرهتموه كاف واتقوا الله صالح رحيم تام وكذا لتعارفوا أتقاكم حسن خبير تام في قلوبكم كاف وكذا من أعمالكم شيئا رحيم تام في سبيل الله صالح الصادقون تام وما في الأرض كاف عليم تام أن أسلموا كاف وكذا اسلامكم صادقين تام والأرض كاف آخر السورة تام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ

﴾

(60/716)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الحجرات

مدنية ثمان عشرة آية وكلمها ثلاثمائة وثلاث وأربعون كلمة وحروفها ألف وأربعمائة وست وسبعون حرفاً 0

ورسوله(حسن)

واتقوا الله (أحسن) منه

عليم (تام)

فوق صوت النبي ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله ومثله في عدم الوقف لبعض لأنَّ قوله أن تحبط أعمالكم موضعه نصب مفعول له أي لخشية حبوطها

لا تشعرون (تام)

عند رسول الله ليس بوقف لأنَّ خبر إنَّ لم يأت بعد

للتقوى (كاف)

عظيم (تام)

لا يعقلون (كاف)

حتى تخرج إليهم ليس بوقف لأنَّ جواب لو لم يأت بعد وهو لكان خيراً لهم وهو كاف

رحيم (تام) دل بقوله غفور أنهم لم ينافقوا وإنما استعملوا سوء الأدب في ندائهم بالنبي أخرج

إلينا

فتبينوا ليس بوقف لأن قوله أن تصيبوا موضعه نصب بما قبله ومثله في عدم الوقف بجهالة لأن فتصبحوا موضعه نصب بالعطف على أن تصيبوا

نادمين (حسن)

لو يطيعكم معناه لو أطاعكم لأن لو تصرف المستقبل إلى المضيّ وذلك أن الوليد بن عقبة بن أبي معيط لما كذب على بني المصطلق حين بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إليهم ليقبض الزكاة فخاف ورجع وقال ارتدوا فهمَّ النبي صلى الله عليه وسلم بغزوهم فنزل الوحي والمعنى واعلموا أنَّ فيكم رسول الله ينزل عليه الوحي ويعرف بالغيوب فاحذروا الكذب . لعنتم وصله أولى لأداة الاستدراك بعده

في قلوبكم (حسن)

والعصيان (كاف)

الراشدون (حسن) إن نصب فضلاً بفعل مقدر تقديره فعل الله بكم هذا فضلاً ونعمة وليس بوقف إن نصب فضلاً مفعولاً من أجله والعامل فيه حبب وعليه فلا يوقف على شيء من حبب إلى هذا الموضع وربما جاز مع اختلاف الفاعل لأن فاعل الرشد غير فاعل الفضل أجاب الزمخشري بأن الرشد لما وقع عبارة عن التحبب وهو مسند إلى أسمائه صار الرشد كأنه فعله انظر السمين

ونعمة (كاف)

حكيم (تام)

بينهما (كاف) ومثله إلى أمر الله

بالعدل (حسن)

وأقسطوا (أحسن) مما قبله

المقسطين (تام)

بين أخويكم (كاف)

ترحمون (تام)

(61/716)

عسى أن يكونوا خيراً منهم ليس بوقف لأن قوله ولا نساء مرفوع بالعطف على قوم كأنه قال

ولا يسخر نساء من نساء وهو من باب عطف المفردات

خيراً منهن (حسن) ومثله أنفسكم وكذا بالألقاب

بعد الإيمان (كاف) عند أبي حاتم للابتداء بالشرط

الظالمون (تام)

من الظن (حسن)

إثم (أحسن) مما قبله

ولا تجسسوا (كاف) بعضاً على استئناف الاستفهام وليس بوقف إن جعل ما بعده متصلاً

بما قبله ومتعلقاً به

فكرهتموه (حسن)

واتقوا الله (كاف)

رحيم (تام)

وأنثى (جائز)

لتعارفوا (كاف) ومثله أتقاكم

خبير (تام)

آمناً (حسن)

أسلمنا (أحسن) مما قبله

في قلوبكم (كاف) عند أبي حاتم للابتداء بالشرط ومثله شيأً

رحيم (تام)

ثم لم يرتابوا (حسن)

في سبيل الله (جائز)

الصادقون (تام) إن جعل الذين خبر المؤمنون فإن جعل نعتاً لم يوقف على شيء إلى

الصادقون لأن أؤلئك يكون خبر المؤمنون

بينكم (حسن)

وما في الأرض (كاف)

عليم (تام) على استئناف ما بعده وجائز إن جعل متصلاً بما قبله

أن أسلموا (كاف) ومثله إسلامكم

للإيمان ليس بوقف لأنَّ الشرط الذي بعده جوابه ما قبله

صادقين (تام)

والأرض (كاف)

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(62/716)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة الحجرات :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ الضحاك ويعقوب : "لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ[1] " .

قال أبو الفتح : أي لا تفعلوا ما تؤثرونه ، وتتركوا ما أمركم الله به . وهذا هو معنى القراءة العامة : ﴿ لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ، أي : لا تقدموا أمرا على ما أمركم الله به ، فالمفعول هنا محذوف كما ترى .

ومن ذلك قراءة زيد بن ثابت وابن مسعود والحسن – بخلاف – وعاصم الجحدري : "فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ[2]" .

قال أبو الفتح : هذه القراءة تدل على أن القراءة العامة التي هي : ﴿ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ لفظها لفظ التثنية ، ومعناها الجماعة ، أي : كل اثنين فصاعدا من المسلمين اقتتلا فأصلحوا بينهما . ألا ترى أن هذا حكم عام في الجماعة ، وليس يختص به منهم اثنان مقصودان ؟ ففيه إذا شيئان :

أحدهما لفظ التثنية يراد به الجماعة .

والآخر لفظ الإضافة لمعنى الجنس ، وكلاهما قد جاء منه قولهم : لبيك وسعديك ، فليس المراد هنا إجابتين ثنتين ، ولا إسعادين اثنين . ألا ترى أن الخليل فسره فقال : معناه كلما

---

1 سورة الحجرات : 1 .

2 سورة الحجرات : 10 .

كانت في أمرين فدعوتني له أجبتك إليه ، وساعدتك عليه1 . فقوله : كلما يؤكد ما نحن عليه ومنه قولهم :

فلو كنت مولى العز أو في ظلاله ظلمت ولكن لا يدي لك بالظلم2

ألا تراه لا ينفي قوتين وثنتين ، وإنما ينفي جميع قواه ؟ وكذلك قول الله تعالى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ3 ﴾ . ونعم الله تعالى أكثر من أن تحصى ، وكذلك قوله :

إذا شق برد شق بالبرد مثله دواليك حتى ليس للبرد لابس4

أي : مداولة بعد مداولة ، وكقول العجاج :

شربا هذا ذيك وطعنا وخضا5

أي : بعد هذ ، ولا هذين اثنين ليس غير ، ونظائره كثيرة .

وأما إفادة المضاف لمعنى الجنسية فقولهم : منعت العراق قفيزها6 ودرهمها ، أي : قفزانها

---

1 روى سيبويه تفسير الخليل "لحنانيك" فقال : وزعم الخليل "رحمه الله" أن معنى التثنية أنه أراد تحننا بعد تحنن ، كأنه قال : كلما كنت في رحمة منك فلا ينقطعن . وليكن موصولا

بآخر من رحمتك. ويفسر سيبويه "لبيك" فيقول: . . . كما أنه أراد بقوله: لبيك وسعديك: إجابة بعد إجابة، كأنه قال: كلما أجبتك في أمر فأنا في الأمر الآخر مجيب. . . فكأن أبا الفتح ينقل من حفظه. وانظر الكتاب: 1: 74، 175.

2 البيت للفرزدق يخاطب عمر بن لجأ، وكان دخل بين الفرزدق وجرير في الهجاء. وانظر الديوان: 825، والخصائص: 1: 339.

3 سورة المائدة: 64.

4 لسحيم عبد بني الحسحاس. ويروى "برقع" مكان "مثله"، و"حتى كلنا غير لابس" مكان "حتى ليس للبرد لابس". وفي البيت اقراء على رواية أبي الفتح، لأن الروي محرك بالكسر في أبيات الشاهد. وكانت العرب تزعم أن المتحابين إذا شق كل واحد منهما ثوب صاحبه دامت مودتهما. وانظر الديوان: 16، والكتاب: 1: 175، والخزانة: 1: 271.

5 من أرجوزة في مدح الحجاج. والهذ: السرعة في القطع وغيره. وضربا هذا ذيك. ضربا يهذ هذا بعد هذ، على التكسير، وصفة للضرب أو بدل منه. والوخض: الطعن الجائف. يريد: ضرب الأعناق وطعن الأجواف. وانظر الديوان: 35، والكتاب: 1: 175، والخزانة: 1: 174.

6 القفيز : مكيال يسع ثمانية مكاكيك ، والمكوك : مكيال يسع صاعا ونصفا ، أو نصف رطل إلى ثمان أواق .

(64/716)

ودراهمها ، ومنعت مصر إردبها ن ، أي : أرادبها ، [150و] ومنه قوله "تعالى" : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ1 ﴾ ، ومنه قولهم : نعم الرجلان الزيدان ، وله أشباه .

ومن ذلك قراءة ابن عباس "لِتَعرفوا2" ، قال أبو الفتح : المفعول هنا محذوف أي : لتعرفوا ما أنتم محتاجون إلى معرفته من هذا الوجه ، وهو كقوله :

وما علم الإنسان إلا ليعلما3

أي ليعلم ما علمه ، أو ليعلم ما يدعو إلى علمه ما علمه . وحذف المفعول كثير جدا ، وما أغربه وأعذبه لمن يعرف مذهبهم4 ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحتسب حـ 2 صـ 277 . 279 ﴾

---

1 سورة المائدة : 64 .

2 سورة الحجرات : 13 .

3 للمتلمس : صدره :

لذي الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا

وانظر الأصمعيات : 286 .

4 انظر الصفحة 125 من الجزء الأول .

(65/716)

وقال العلامة الدمياطى :

سورة الحجرات

مدنية وآيها ثماني عشر القراآت اختلف في ( ) لا تقدموا (الآية 1 فيعقوب بفتح التاء فوق والدال والأصل لا تقدموا حذف إحدى التاءين والباقون بضم التاء وكسر الدال على أنه متعد وحذف مفعوله إما اقتصار نحو يعطي ويمنع وكلوا واشربوا وإما اختصارا للدلالة عليه أي لا تقدموا ما لا يصلح أو أمرا أي لا تقطعوا أمرا قبل أن يحكم به وقيل المراد بين يدي رسول الله وذكر الله تعظيما له وإشعارا بأنه من الله بمكان يوجب إجلاله قال السمين ويحتمل أن يكون الفعل لازما نحو وجه وتوجه وأشار إليه البيضاوي وقال ومنه مقدمة الجيش لمتقدميهم

واختلف في (الحجرات) الآية 4 فأبو جعفر بفتح الجيم والباقون بضمها لغتان في جمع

حجرة وهي القطعة من الأرض المحجورة بحائط ومر ضم هاء إليهم لحمزة ويعقوب

وقرأ ﴿ (فتثبتوا) ﴾ الآية 6 بثاء مثلثة فموحدة ثم مثناة فوقية حمزة والكسائي وخلف

والباقون بموحدة ثم مثناة تحتية فنون من البيان وذكر بالنساء وسهل الثانية كالياء من تفيء

إلى نافع وابن كثير وأبو عمرو وابو جعفر ورويس

واختلف في ( ) بين أخويكم ( ) الآية 10 فيعقوب ﴿ إخوتكم) ﴾ بكسر الهمزة

وسكون الخاء وتاء مثناة من فوق مكسورة بالإضافة وعن الحسن بكسر الهمزة وسكون

الخاء وألف بعد الواو ثم نون بدل الياء جمعا على فعلان والباقون بفتح الهمزة والخاء وياء

ساكنة بعد الواو تثنية أخ وخص الاثنين بالذكر لأنهما أقل من يقع بينهما الشقاق

وأمال عسى حمزة والكسائي وخلف وقللهما الأزرق والدوري عن أبي عمرو بخلفهما

وقرأ ( ) ولا تلمزوا (الآية 11 بضم الميم يعقوب وافقه الحسن وكسرها الباقون لغتان في

المضارع كما مر بالتوبة وتقدم في النقل التنبيه على الابتداء بالاسم من ( ) بئس الاسم (من

جواز الإتيان بالهمز الأول وحذفه كالمنقول وترجيح الأول وأدغم الياء في

الفاء من قوله ( ) يتب فأولئك (أبو عمرو والكسائي وهشام وخلاد بخلفهما ومر تفصيله

وقرأ البزي بخلفه ( ) ولا تنابزوا ( ) ولا تجسسوا ( ) لتعارفوا بتشديد التاء في الثلاثة وصلا

وعن الحسن ولا تحسسوا بالحاء المهملة من الحس الذي هو أثر الحس وغايته وقرأ ميتا

بتشديد الياء نافع وأبو جعفر ورويس ومر بالبقرة

وأمال (أتقاكم) حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه

واختلف في ( ) لا يلتكم ( ) الآية 14 فأبو عمرو ويعقوب بهمزة ساكنة بعد الياء وقبل اللام

وافقهما اليزيدي والحسن ويبدلها أبو عمرو بخلفه على أصله وافقه اليزيدي من ألته بالفتح

يألته بالكسر كصدف يصدق لغة غطفان والباقون بكسر اللام من غير همز من لاته يليته

كباعه يبيعه لغة الحجاز وعليها صريح الرسم

واختلف في ( ) بما تعملون ( ) فابن كثير بالياء من تحت وافقه ابن محيصن والباقون بالتاء

من فوق . انتهى انتهى . اهـ ﴿إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(67/716)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الحجرات "

" تقدموا " قرأ يعقوب بفتح التاء الفوقية والدال ، وغيره بضم الفوقية وكسر الدال ،

" النبي " مغفرة ، خيرا كله جلي .

" الحجرات " قرأ أبو جعفر بفتح الجيم ، وغيره بضمها .

" فتبينوا " قرأ الأخوان وخلف بتاء مثلثة فوقية مفتوحة بعد التاء وبعدها باء موحدة مفتوحة مشددة وبعدها تاء مثناة فوقية مضمومة . والباقون بباء موحدة مفتوحة بعد التاء وبعدها ياء مثناة تحتية مفتوحة مشددة ، وبعدها نون مضمومة .

" تفيء إلى " سهل الهمزة الثانية بين بين المدنيان والمكي والبصري ورويس وحققها الباقون ولا خلاف في تحقيق الأولى .

" أخويكم " قرأ يعقوب بكسر الهمزة وإسكان الخاء وبعد الواو المفتوحة تاء مثناة فوقية مكسورة ، والباقون بفتح الهمزة والخاء وبعد الواو المفتوحة ياء مثناة تحتية ساكنة .

" منهن " وقف يعقوب بهاء السكت .

" تلمزوا " ضم يعقوب الميم ، وكسرها غيره .

" ولا تنابزوا " ولا تجسسوا ؛ قرأ البزي وصلا بتشديد التاء مع المد المشبع لالتقاء الساكنين .

" بئس الاسم " أبدل همزة بئس مطلقا ورش والسوسي وأبو جعفر وفي الوقف حمزة ولو ابتدأت بالاسم فلجميع القراء وجهان: الأول الابتداء بهمزة الوصل مفتوحة . والثاني

الابتداء باللام المكسورة .

" ميتا " شدد الياء المدنيان ورويس ، وخففها الباقون .

" لتعارفوا " شدد التاء وصلا ووقفا البزي ، وخففها غيره كذلك .

" خبير " آخر الربع .

الممال

للتقوى ، وإحداهما ، وأنثى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه .

الأخرى بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش ، جاءكم لابن ذكوان وخلف

وحمزة . عسى معا ، وأتقاكم بالإمالة للأصحاب ، والتقليل لورش بخلف عنه .

المدغم

" الصغير " يتب فأولئك للبصري والكسائي وخلاد بخلف عنه .

" الكبير " الأمر لعنتم ، بالألقاب بئس ، يأكل لحم ، وقبائل لتعارفوا .

(68/716)

" لا يلتكم " قرأ البصريان بهمزة ساكنة . بعد الراء ، وأبدل همزه مطلقا السوسي وحده

والباقون بترك الهمز .

" بصير " رقق الراء ورش .

" تعملون " قرأ المكي بياء الغيبة ، وغيره بتاء الخطاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 307 . 308 ﴾

(69/716)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة الحجرات

قوله تعالى ﴿ فأصلحوا بين أخويكم ﴾ يقرأ بالياء والتاء فالحجة لمن قرأه بالياء أنه رده على اللفظ لا على المعنى والحجة لمن قرأه بالتاء أنه رده على المعنى لا على اللفظ

قوله تعالى ﴿ لا يلتكم ﴾ يقرأ بالهمز وتركه فالحجة لمن همز أنه أخذه من ألت يألت والحجة لمن ترك الهمز انه اخذه من لات يليت ومعناهما لا ينقصكم

قوله تعالى ﴿ لحم أخيه ميتا ﴾ يقرأ بالتشديد والتخفيف وقد تقدم القول فيه ومعناه ان ذاكر اخيه بالسوء في غيبته وهو لا يحس به كآكل لحمه ميتا

قوله تعالى ﴿ والله بصير بما تعملون ﴾ اجماع القراء على التاء خطابا للحاضرين إلا ابن

كثير فانه قرأه بالياء على معنى الغيبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الحجة فى القراءات السبعة صـ 330. 331﴾

(70/716)

وقال ابن زنجلة :

49 - سورة الحجرات

إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم 10

قرأ ابن عامر في رواية الثعلبي فأصلحوا بين إخوتكم بالتاء على الجمع وحجته أن الطائفة جمع وإن كان واحدا في اللفظ كما قال خصمان اختصموا وقال ها هنا قبلها وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا على المعنى لا على اللفظ

وقرأ الباقون بين أخويكم بالياء تثنية أخ لأن كل طائفة جنس واحد فردوه على اللفظ دون المعنى

وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعملكم شيئا 14

قرأ أبو عمرو لا يألتكم من أعمالكم بالألف من ألت يألت ألتا مثل ضرب يضرب ضربا

وحجته إجماع الجميع على قوله وما ألتناهم من عملهم فرد ما اختلف فيه إلى ما أجمع عليه

أولى

وقرأ الباقون يلتكم من لات يليت إذا نقص قال مجاهد لا يلتك أي لا ينقصكم وحجتهم إتباع مرسوم المصاحف وذلك أنها مكتوبة بغير الألف ولو كانت بألف لكتبت الألف كما تكتب في تأمر وتأكل

وأخرى أن في حرف ابن مسعود ما ألتناهم حكاه الكسائي وأخرى وهي أنهم جمعوا بين اللغتين فقرؤوا ها هنا لا يلتكم وفي والطور وما ألتناهم كا قال كيف يبدئ الله الخلق فهذه من أبدأت ثم قال كيف بدأ الخلق فهذه من بدأت ولم يحمل أحد بعض هذه اللغات على بعض فكذلك قوله لا يلتكم من لات وما ألتناهم من ألت و لا يألتكم جزم لأنها جواب الشرط وعلامة الجزم سكون التاء

ومن قرأ لا يلتكم كان الأصل لا يليتكم مثل يضربكم

واستثقلوا الكسرة على الياء فنقلوها إلى اللام ودخل الجزم على التاء فاجتمع ساكنان الياء والتاء فحذفت الياء لاجتماع الساكنين

أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا 12

قرأ نافع لحم أخيه ميتا بالتشديد وقرأ الباقون بالتخفيف وهما لغتان الأصل التشديد ومن خفف استثقل التشديد فحذف الياء كما قالوا هين لين وهين لين قال الشاعر . . . ليس من مات فاستراح بميت . . . إنما الميت ميت الأحياء . . .

فجمع بين اللغتين

والله بصير بما تعملون 18

(71/716)

قرأ ابن كثير والله بصير بما يعملون بالياء وحجته قوله قبلها إنما المؤمنون الذين آمنوا 15 أي

والله بصير بما يعمل المؤمنون

وقرأ الباقون بالتاء وحجتهم قوله قبلها لا تمنوا علي إسلامكم 17 فخاطبهم ثم قال والله

بصير بما تعملون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 675.677 ﴾

(72/716)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة الحجرات 49

مدنية ونظيرتها في المدني الأخير التغابن والمزمل وفي الشامي التغابن واقرأ وفي غيرهما

التغابن فقط

وكلمها ثلاث مئة وثلاث وأربعون كلمة

وحروفها ألف وأربع مئة وستة وسبعون حرفا

وهي ثماني عشرة آية في جميع العدد ليس فيها اختلاف وليس فيها مما يشبه الفواصل شيء

ورؤوس الآي

عليم

1 لا تشعرون

2 عظيم

3 لا يعقلون

4 رحيم

5 نادمين

6 الراشدون

7 حكيم

8 المقسطين

9 ترحمون

10 الظالمون

11 رحيم

12 خبير

13 رحيم

14 الصادقون

15 عليم

16 صادقين

17 تعملون

18 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 230﴾

(73/716)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الحجرات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (لا تقدموا) المفعول محذوف أي لا تقدموا مالا يصلح ، ويقرأ بفتح التاء والدال:

أي تتقدموا .

قوله تعالى (أن تحبط) أي مخافة أن تحبط أو لأن تحبط على أن تكون اللام للعاقبة وقيل لئلا تحبط .

قوله تعالى (أولئك) هو مبتدأ ، و (الذين امتحن) خبره و (لهم مغفرة) جملة أخرى ، ويجوز أن يكون الذين امتحن الله صفة لأولئك ، ولهم مغفرة الخبر والجميع خبران .

قوله تعالى (أن تصيبوا) هو مثل " أن تحبط " .

قوله تعالى (لو يطيعكم) هو مستأنف ، ويجوز أن يكون في موضع الحال والعامل فيه الاستقرار ، وإنما جاز ذلك من حيث جاز أن يقع صفة للنكرة كقولك مررت برجل لو كلمته لكلمني : أي متهيئ لذلك .

قوله تعالى (فضلا) هو مفعول له أو مصدر من معنى ما تقدم ، لأن تزيينه الإيمان تفضل أو هو مفعول ، و (طائفتان) فاعل فعل محذوف (واقتتلوا) جمع على

آحاد الطائفتين .

قوله تعالى (بين أخويكم) بالتثنية والجمع ، والمعنى مفهوم .

قوله تعالى (ميتا) هو حال من اللحم ، أو من أخيه (فكرهتموه) المعطوف عليه محذوف تقديره : عرض عليكم ذلك فكرهتموه ، والمعنى : يعرض عليكم فتكرهونه ، وقيل إن صح ذلك عندكم فأنتم تكرهونه .

قوله تعالى (لتعارفوا) أي ليعرف بعضكم بعضا ، ويقرأ لتعارفوا (إن أكرمكم) بفتح الهمزة وأن وما بعدها هو المفعول .

قوله تعالى (يلتكم) يقرأ بهمزة بعد الياء ، وماضيه ألت ، ويقرأ بغير همز وماضيه لات يليت وهما لغتان ، ومعناهما النقصان ، وفيه لغة ثالثة ألات يليت ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(74/716)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الحجرات

[سورة الحجرات (49) : الآيات 1 الى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (1) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (2) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولئِكَ

الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (3) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (4)

(75/716)

"يا أَيُّهَا" منادى نكرة مقصودة وها للتنبيه "الَّذِينَ" بدل من أيها "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة وجملة النداء ابتدائية "لا تُقَدِّمُوا" مضارع مجزوم بلا الناهية والواو فاعله والجملة ابتدائية لا محل لها "بَيْنَ" ظرف مكان "يَدَيِ" مضاف إليه مجرور بالياء "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "وَرَسُولِهِ" معطوف على ما سبق "وَاتَّقُوا" الواو حرف عطف وأمر مبني على حذف النون والواو فاعله "اللَّهِ" لفظ الجلالة مفعول به "إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" إن واسمها وخبراها والجملة تعليل "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا" إعرابها كسابقتها "أَصْوَاتَكُمْ" مفعول به "فَوْقَ" ظرف مكان "صَوْتِ" مضاف إليه "النَّبِيِّ" مضاف إليه "وَلا" الواو حرف عطف ولا ناهية "تَجْهَرُوا" مضارع مجزوم بلا وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعله "لَهُ" متعلقان بالفعل "بِالْقَوْلِ" متعلقان بالفعل أيضا "كَجَهْرِ" متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف "بَعْضِكُمْ" مضاف إليه "لِبَعْضٍ" متعلقان بجهر "أَنْ تَحْبَطَ" مضارع منصوب بأن "أَعْمالُكُمْ" فاعل والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر بالإضافة لمفعول لأجله

محذوف "وَأَنْتُمْ" مبتدأ والواو حالية "لا" نافية "تَشْعُرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة خبر والجملة الاسمية حال "إِنَّ الَّذِينَ" إن واسمها "يَغُضُّونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة صلة "أَصْوَاتَهُمْ" مفعول به "عِنْدَ" ظرف مكان "رَسُولِ" مضاف إليه "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "أُولَئِكَ الَّذِينَ" مبتدأ وخبره والجملة الاسمية خبر إن وجملة إن مستأنفة "امْتَحَنَ اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة فاعله "قُلُوبَهُمْ" مفعول به "لِلتَّقْوَى" متعلقان بالفعل والجملة صلة الذين "لَهُمْ" جار ومجرور خبر مقدم "مَغْفِرَةٌ" مبتدأ مؤخر "وَأَجْرٌ" معطوف على مغفرة "عَظِيمٌ" صفة والجملة الاسمية

(76/716)

مستأنفة "إِنَّ الَّذِينَ" إن واسمها "يُنَادُونَكَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والكاف مفعول به والجملة صلة "مِنْ وَرَاءِ" متعلقان بالفعل "الْحُجُرَاتِ" مضاف إليه "أَكْثَرُهُمْ" مبتدأ "لا" نافية "يَعْقِلُونَ" مضارع وفاعله والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية خبر إن وجملة إن مستأنفة.

[سورة الحجرات (49) : الآيات 5 الى 7]

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ (6)
وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ
الْإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيانَ أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7)

(77/716)

"وَلَوْ" الواو حرف استئناف ولو شرطية غير جازمة "أَنَّهُمْ" أن واسمها "صَبَرُوا" ماض وفاعله والجملة الفعلية خبر أن والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل رفع فاعل لفعل محذوف "حَتَّى" حرف غاية وجر "تَخْرُجَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى "إِلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر بحتى والجار والمجرور متعلقان بصبروا "لَكانَ" اللام واقعة في جواب لو "كان" ماض ناقص "خَيْراً" خبرها واسم كان مستتر "لَهُمْ" متعلقان بخيرا والجملة الفعلية جواب الشرط لا محل لها "وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ" الواو حرف استئناف ومبتدأ وخبراه والجملة مستأنفة "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا" سبق إعرابها "إِنْ" حرف شرط جازم "جاءَكُمْ" ماض في محل جزم فعل الشرط والكاف مفعول به "فاسِقٌ" فاعل والجملة ابتدائية لا محل لها "بِنَبَإٍ" متعلقان بالفعل "فَتَبَيَّنُوا" الفاء واقعة في جواب الشرط وأمر مبني على حذف النون والواو فاعل والجملة في محل جزم جواب

الشرط "أَنْ تُصِيبُوا" مضارع منصوب بأن والواو فاعل "قَوْماً" مفعول به والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل جر بالإضافة إلى مفعول لأجله محذوف والتقدير كراهة إصابتكم "بِجَهَالَةٍ" حال "فَتُصْبِحُوا" الفاء حرف عطف ومضارع ناقص منصوب وعلامة نصبه حذف النون والواو اسمه "عَلى ما" متعلقان بنادمين "فَعَلْتُمْ" ماض وفاعله والجملة صلة ما "نادِمِينَ" خبر منصوب بالياء "وَاعْلَمُوا" الواو حرف عطف وأمر مبني على حذف النون والواو فاعل "أَنَّ" حرف مشبه بالفعل "فِيكُمْ" متعلقان بخبر مقدم محذوف "رَسُولَ" اسم أن المؤخر "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه والمصدر المؤول من أن وما بعدها سد مسد مفعولي اعلموا "لَوْ" شرطية غير جازمة "يُطِيعُكُمْ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة ابتدائية لا محل لها "فِي كَثِيرٍ" متعلقان بالفعل "مِنَ

(78/716)

الْأَمْرِ" متعلقان بكثير "لَعَنِتُّمْ" اللام واقعة في جواب الشرط وماض وفاعله والجملة جواب الشرط لا محل لها "وَلَكِنَّ" الواو حرف عطف ولكن حرف مشبه بالفعل "اللَّهِ" لفظ الجلالة اسمها "حَبَّبَ" ماض فاعله مستتر والجملة خبر لكن "إِلَيْكُمُ" متعلقان بالفعل "الْإِيمانَ" مفعول به والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها "وَزَيَّنَهُ" معطوف على حبب "فِي قُلُوبِكُمْ"

متعلقان بالفعل "وَكَرَّهَ" معطوف على زين "إِلَيْكُمُ" متعلقان بالفعل "الْكُفْرَ" مفعول به "وَالْفُسُوقَ" معطوف على ما قبله "وَالْعِصْيانَ" معطوفة على ما سبق "أُولئِكَ" مبتدأ "هُمُ" ضمير فصل "الرَّاشِدُونَ" خبر والجملة مستأنفة.

[سورة الحجرات (49) : الآيات 8 الى 10]

فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (8) وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (9) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10)

(79/716)

"فَضْلًا" مفعول لأجله "مِنَ اللَّهِ" متعلقان بفضلا "وَنِعْمَةً" معطوف على فضلا "وَاللَّهُ" الواو استئنافية ولفظ الجلالة مبتدأ "عَلِيمٌ حَكِيمٌ" خبران والجملة مستأنفة "وَإِنْ" الواو حرف استئناف وإن شرطية "طائِفَتانِ" فاعل مرفوع بالألف لفعل محذوف "مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" صفة طائفتان "اقْتَتَلُوا" ماض وفاعله والجملة تفسيرية وجملة الشرط المحذوفة ابتدائية لا محل لها "فَأَصْلِحُوا" الفاء واقعة في جواب الشرط وأمر مبني على حذف النون والواو فاعله

"بَيْنَهُما" ظرف مكان والجملة في محل جزم جواب الشرط "فَإِنْ بَغَتْ" الفاء حرف عطف وإن شرطية وماض "إِحْداهُما" فاعل "عَلَى الْأُخْرى" متعلقان بالفعل والجملة ابتدائية "فَقاتِلُوا" الفاء واقعة في جواب الشرط وأمر مبني على حذف النون والواو فاعله "الَّتِي" مفعول به والجملة في محل جزم جواب الشرط "تَبْغِي" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "حَتَّى تَفِيءَ" حرف غاية وجر ومضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى فاعله مستتر "إِلى أَمْرِ" متعلقان بالفعل "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر بحتى والجار والمجرور متعلقان بقاتلوا "فَإِنْ" حرف عطف وإن شرطية جازمة "فاءَتْ" ماض في محل جزم فعل الشرط "فَأَصْلِحُوا" الفاء واقعة في جواب الشرط وأمر والواو فاعله والجملة في محل جزم جواب الشرط "بَيْنَهُما" ظرف مكان "بِالْعَدْلِ" متعلقان بالفعل "وَأَقْسِطُوا" معطوف على أصلحوا "إِنَّ اللَّهَ" إن واسمها "يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة خبر إن والجملة الاسمية تعليل "إِنَّمَا" كافة ومكفوفة "الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ" مبتدأ وخبره والجملة مستأنفة "فَأَصْلِحُوا" الفاء الفصيحة وأمر مبني على حذف النون والواو فاعله "بَيْنَ" ظرف مكان "أَخَوَيْكُمْ" مضاف إليه مجرور بالياء والجملة جواب شرط لا محل

لها "وَاتَّقُوا" الواو حرف عطف وأمر مبني على حذف النون والواو فاعله "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعوله "لَعَلَّكُمْ" لعل واسمها "تُرْحَمُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة خبر لعل والجملة الاسمية تعليل .

[سورة الحجرات (49) : آية 11]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (11)

"يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا" سبق إعرابها "لا يَسْخَرْ" مضارع مجزوم بلا الناهية "قَوْمٌ" فاعل والجملة ابتدائية "مِنْ قَوْمٍ" متعلقان بالفعل "عَسى" ماض تام "أَنْ يَكُونُوا خَيْراً" مضارع ناقص منصوب بأن والواو

اسمه وخيرا خبره "مِنْهُمْ" متعلقان بخيرا والمصدر المؤول من أن وما بعدها فاعل عسى "وَلا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ" معطوف على ما قبله وجملة عسى مستأنفة "وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ" مضارع مجزوم بلا الناهية والواو فاعله وأنفسكم مفعوله "وَلا تَنابَزُوا" معطوف على ما قبله "بِالْأَلْقابِ" متعلقان بالفعل "بِئْسَ الاسْمُ" ماض جامد للذم وفاعله "الْفُسُوقُ" مبتدأ وجملة بئس خبره "بَعْدَ" ظرف زمان "الْإِيمانِ" مضاف إليه

"وَمَنْ" الواو حرف استئناف ومن اسم شرط جازم مبتدأ "لَمْ يَتُبْ" مضارع مجزوم بلم وهو فعل الشرط والفاعل مستتر "فَأُولئِكَ" الفاء واقعة في جواب الشرط ومبتدأ "هُمُ" ضمير فصل "الظَّالِمُونَ" خبر والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر وجملة من مستأنفة.

[سورة الحجرات (49) : الآيات 12 الى 13]

(81/716)

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (12) يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)

(82/716)

"يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً" سبق إعرابها "مِنَ الظَّنِّ" متعلقان بكثيرا "إِنَّ بَعْضَ" إن واسمها "الظَّنِّ" مضاف إليه "إِثْمٌ" خبرها والجملة الاسمية تعليل "وَلا تَجَسَّسُوا" مضارع مجزوم بلا الناهية والواو فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "وَلا يَغْتَبْ" مضارع مجزوم بلا الناهية "بَعْضُكُمْ" فاعله "بَعْضاً" مفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها "أَيُحِبُّ" الهمزة حرف استفهام وتوبيخ ومضارع مرفوع "أَحَدُكُمْ" فاعل والجملة مستأنفة "أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ" مضارع منصوب بأن ومفعوله والفاعل مستتر "أَخِيهِ" مضاف إليه مجرور بالياء "مَيْتاً" حال والمصدر المؤول من أن والفعل في محل نصب مفعول به "فَكَرِهْتُمُوهُ" الفاء الفصيحة وماض وفاعله ومفعوله والواو للإشباع والجملة الفعلية جواب شرط مقدر لا محل لها "وَاتَّقُوا" حرف استئناف وأمر مبني على حذف النون والواو فاعله "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعوله والجملة مستأنفة "إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ" إن واسمها وخبراها والجملة الاسمية تعليل لا محل لها "يا أَيُّهَا النَّاسُ" سبق إعراب مثيلها "إِنَّا" إن واسمها "خَلَقْناكُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة خبر إن "مِنْ ذَكَرٍ" متعلقان بالفعل "وَأُنْثى" معطوف على ذكر والجملة الاسمية ابتدائية "وَجَعَلْناكُمْ" ماض وفاعله ومفعوله الأول والجملة معطوفة على ما قبلها "شُعُوباً" مفعوله الثاني "وَقَبائِلَ" معطوفة على شعوبا "لِتَعارَفُوا" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والواو فاعله والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بجعلناكم "إِنَّ أَكْرَمَكُمْ" إن واسمها "عِنْدَ" ظرف مكان "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف

إليه "أَتْقاكُمْ" خبر إن والجملة الاسمية تعليلية "إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" إن واسمها وخبراها والجملة

الاسمية مستأنفة.

(83/716)

[سورة الحجرات (49) : الآيات 14 الى 15]

قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (15)

(84/716)

"قالَتِ" ماض "الْأَعْرابُ" فاعل والجملة مستأنفة "آمَنَّا" ماض وفاعله والجملة مقول القول "قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "لَمْ تُؤْمِنُوا" مضارع مجزوم بلم والواو فاعله والجملة

مقول القول "وَلَكِنْ" حرف استدراك "قُولُوا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "أَسْلَمْنا" ماض وفاعله والجملة مقول القول "وَلَمَّا يَدْخُلِ" الواو حالية ومضارع مجزوم بلما "الْإِيمانُ" فاعله "فِي قُلُوبِكُمْ" متعلقان بالفعل والجملة حالية "وَإِنْ" الواو حرف استئناف وإن شرطية جازمة "تُطِيعُوا" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط والواو فاعله وجملة تطيعوا ابتدائية لا محل لها "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعول به "وَرَسُولَهُ" معطوف عليه "لا يَلِتْكُمْ" لا نافية ومضارع مجزوم لأنه جواب الشرط والكاف مفعوله والفاعل مستتر والجملة جواب الشرط لا محل لها "مِنْ أَعْمالِكُمْ" متعلقان بالفعل "شَيْئاً" مفعول به ثان "إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" إن واسمها وخبراها والجملة تعليل لا محل لها "إِنَّمَا" كافة ومكفوفة "الْمُؤْمِنُونَ" مبتدأ "الَّذِينَ" خبره "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "بِاللَّهِ" متعلقان بالفعل "وَرَسُولِهِ" معطوف "ثُمَّ" حرف عطف "لَمْ يَرْتابُوا" مضارع مجزوم بلم والواو فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "وَجاهَدُوا" معطوف على آمنوا "بِأَمْوالِهِمْ" متعلقان بالفعل "وَأَنْفُسِهِمْ" معطوف على أموالهم "فِي سَبِيلِ" متعلقان بالفعل أيضا "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "أُولئِكَ" مبتدأ "هُمُ" ضمير فصل "الصَّادِقُونَ" خبر والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة الحجرات (49) : الآيات 16 الى 18]

قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (16) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (17) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (18)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها "أَتُعَلِّمُونَ" الهمزة حرف استفهام توبيخي ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعول به "بِدِينِكُمْ" متعلقان بالفعل والجملة مقول القول "وَاللَّهُ" الواو حالية ومبتدأ "يَعْلَمُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية حال "ما" مفعول به "فِي السَّماواتِ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول "وَما فِي الْأَرْضِ" عطف على ما قبله "وَاللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ "بِكُلِّ" متعلقان بعليم "شَيْءٍ" مضاف إليه "عَلِيمٌ" خبر والجملة معطوفة على ما قبلها "يَمُنُّونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة مستأنفة "عَلَيْكَ" متعلقان بالفعل "أَنْ" حرف مصدري ونصب "أَسْلَمُوا" ماض وفاعله والمصدر المؤول من أن والفعل منصوب بنزع

الخافض "قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "لا تَمُنُّوا" مضارع مجزوم بلا الناهية والواو فاعله "عَلَيَّ" متعلقان بالفعل "إِسْلامَكُمْ" مفعول به والجملة مقول القول "بَلِ" حرف عطف وإضراب "اللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ "يَمُنُّ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر "عَلَيْكُمْ" متعلقان بيمن "أَنْ" حرف مصدري ونصب "هَداكُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر "لِلْإِيمانِ" متعلقان بالفعل والمصدر المؤول من أن وما بعدها منصوب بنزع الخافض "أَنْ" شرطية جازمة "كُنْتُمْ" ماض ناقص واسمه "صادِقِينَ" خبره والجملة الفعلية ابتدائية لا محل لها وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها "يَعْلَمُ" مضارع فاعله مستتر "غَيْبَ" مفعوله "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" معطوف والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية مستأنفة "وَاللَّهُ بَصِيرٌ" الواو حرف استئناف ومبتدأ وخبره "بِما" متعلقان بما بعدهما "تَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة صلة والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 250. 255﴾

(87/716)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة الحجرات

ذكر فِيهَا سَبْعَة وَعشْرين حَدِيثا

1220 - الحَدِيث الأول

رُوِيَ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بعث سَرِيَّة إِلَى تهَامَة سَبْعَة وَعشْرين رجلا عَلَيْهِم الْمُنْذر بن عَمْرو السَّاعِدِيّ فَقَتلهُمْ بَنو عَامر وَعَلَيْهِم عَامر بن الطُّفَيْل إِلَّا ثَلَاثَة نفر نَجوا فَلَقوا رجلَيْنِ من بني سليم بِقرب الْمَدِينَة فاعتزيا لَهُم إِلَى بني عَامر لأَنهم أعز من بني سليم فَقَتَلُوهُمَا وَسَلَبُوهُمَا ثمَّ أَتَوا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ (بِئْسَمَا صَنَعْتُم) كَانَا من سليم وَالسَّلب مَا كسوتهمَا فَوَدَاهُمَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم

قلت رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الْخَامِس عشر أخبرنَا أَبُو عبد الله الْحَافِظ بِسَنَدِهِ إِلَى مقَاتل بن حَيَّان فِي قَوْله تَعَالَى يأيها الَّذين آمنُوا لَا تقدمُوا بَين يَدي الله وَرَسُوله قَالَ بلغنَا أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بعث سَرِيَّة وَاسْتعْمل عَلَيْهِم الْمُنْذر ابْن عَمْرو الْأَنْصَارِيّ فَذكر قصَّة أَصْحَاب بِئْر مَعُونَة وَرُجُوع ثَلَاثَة نفر مِنْهُم إِلَى الْمَدِينَة وَأَنَّهُمْ لقوا رجلَيْنِ من بني سليم جاءين من عِنْد رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالُوا من أَنْتُمَا

فاعتزيا إِلَى بني عَامر فَقَتَلُوهُمَا وَأتوا النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبروه الْخَبَر فكره النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَتلهمَا فَنزلت الْآيَة انْتَهَى

(88/716)

وَرُوِيَ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة عَن مُوسَى بن عقبَة وَمُحَمّد بن إِسْحَاق قَالَ بعث رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرِيَّة قبل نجد وَفِي لفظ قبل أَرض بني سليم وَهِي يَوْمئِذٍ بِئْر مَعُونَة وَكَانَ أَمِيرهمْ الْمُنْذر بن عَمْرو أَخا بني سَاعِدَة وَرَئِيس الْمُشْركين يَوْمئِذٍ عَامر بن الطُّفَيْل حَتَّى إِذا كَانَ الْمُسلمُونَ ببَعْض الطَّرِيق بعثوا حرَام بن ملْحَان إِلَى الْمُشْركين ليقْرَأ عَلَيْهِم كتَاب رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا أَتَاهُ لم ينظر فِي كِتَابه وَغدا عَلَيْهِ عَامر فَقتله وَاتبع الْمُشْركُونَ أَثَره حَتَّى وجدوا الْقَوْم مُقْبلين هم وَالْمُنْذر وَقَاتل الْقَوْم حَتَّى قتل الْمُسلمُونَ عَن آخِرهم وَارْتثَّ فِي الْقَتْلَى كَعْب بن زيد حَتَّى قتل يَوْم الْخَنْدَق وَكَانَ عَمْرو بن أُمَيَّة الضمري فِي سرح الْقَوْم فَأَخذه عَامر بن الطُّفَيْل فَأَعْتقهُ وَكَانَ ثَلَاثَة نفر من سَرِيَّة الْمُنْذر بن عَمْرو تخلفوا عَلَى ضَالَّة يَبْغُونَهَا فَانْطَلق أحدهم نَحْو الْمُشْركين فَقتل وَأما الْآخرَان فَأَقْبَلَا إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا كَانَ ببَعْض الطَّرِيق لقيا رجلَيْن من بني كلاب كَافِرين قد كَانَا وصلا إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَهْد فَنزلَا منزلا فَنَامَا

فَقَتَلَاهُمَا وَلم يعلمَا أَن لَهما عهدا من النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَلَمَّا قدم عَمْرو بن أُمَيَّة الضمرِي عَلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَخبرهُ الْخَبَر فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام (لآدينهما)

مُخْتَصر من حديثين أَحدهمَا عَن مُوسَى بن عقبَة وَالْآخر عَن ابْن إِسْحَاق

1221 - الْحَدِيث الثَّانِي

(89/716)

عَن مَسْرُوق قَالَ دخلت عَلَى عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْها فِي الْيَوْم الَّذِي يشك فِيهِ فَقَالَت لِلْجَارِيَةِ اسْقِهِ عسلا فَقلت إِنِّي صَائِم فَقَالَت قد نهَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَن صَوْم هَذَا الْيَوْم وَفِيه نزلت يأيها الَّذين آمَنُوا لَا تقدمُوا بَين يَدي الله وَرَسُوله

قلت غَرِيب وَرَوَى الدَّارَقُطْنِيّ فِي كِتَابه المؤتلف والمختلف حَدثنَا إِبْرَاهِيم ابْن حَمَّاد ثَنَا عَبَّاس بن يزِيد ثَنَا بن مهْدي ثَنَا سُفْيَان عَن أبي إِسْحَاق عَن مَالك بن حمرَة عَن مَسْرُوق قَالَ دخلت عَلَى عَائِشَة فِي الْيَوْم الَّذِي يشك فِيهِ أَنه يَوْم عَرَفَة . . . الْحَدِيث انْتَهَى ذكره فِي بَاب حَمْزَة وَحُمرَة وَقَالَ مَالك بن حمرَة هَذَا بِالْحَاء وَالرَّاء الْمُهْمَلَتَيْنِ أَبو عَطِيَّة الْهَمدَانِي رَوَى عَنهُ أَبو إِسْحَاق وَمُحَمّد

ابْن سِيرِين انْتَهَى وَلم يذكرهُ بِجرح وَلَا تَعْدِيل

وَذكره الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره بِلَفْظ الْمُصَنّف من غير سَنَد

1222 - الْحَدِيث الثَّالِث

عَن الْحسن أَن نَاسا ذَبَحُوا يَوْم الْأَضْحَى قبل الصَّلَاة فَأَمرهمْ أَن يُعِيدُوا ذبحا آخر

وَعنهُ لما اسْتَقر رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بِالْمَدِينَةِ أَتَتْهُ الْوُفُود من الْآفَاق وَأَكْثرُوا عَلَيْهِ الْمسَائِل فنهوا أَن يبتدئوه بِالْمَسْأَلَة حَتَّى يكون هُوَ الْمُبْتَدِي

قلت

الأول رَوَاهُ عبد الرَّزَّاق فِي تَفْسِيره أخبرنَا معمر عَن الْحسن فِي قَوْله تَعَالَى يأيها الَّذين آمنُوا لَا تقدمُوا بَين يَدي الله وَرَسُوله قَالَ هم قوم ذَبَحُوا قبل أَن يُصَلِّي النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَأَمرهمْ أَن يُعِيدُوا الذّبْح

(90/716)

وَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ ثَنَا بشر بن معَاذ ثَنَا يزِيد بن هَارُون ثَنَا سعيد عَن قَتَادَة فِي قَوْله تَعَالَى يأيها الَّذين آمنُوا لَا تقدمُوا بَين يَدي الله وَرَسُوله قَالَ ذكر لنا أَن نَاسا كَانُوا يَقُولُونَ لَو أنزل كَذَا لَو صنع كَذَا لَو قيل كَذَا قَالَ وَقَالَ الْحسن هم أَنَاس من الْمُسلمين ذَبَحُوا قبل صَلَاة النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَأَمرهمْ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَن يُعِيدُوا ذبحا آخر انْتَهَى وَالثَّانِي

غَرِيب

1223 - الحَدِيث الرّبع

عَن ابْن عَبَّاس قَالَ لما نزلت هَذِه الْآيَة يَعْنِي وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ) قَالَ أَبُو بكر يَا رَسُول الله وَالله لَا أُكَلّمك إِلَّا السرَار أَو أَخا السرَار حَتَّى أَلْقَى الله وَعَن عمر أَنه كَانَ يكلم النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَأَخِي السرَار وَلَا يسمعهُ حَتَّى يَسْتَفْهِمهُ

وَكَانَ أَبُو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه إِذا قدم عَلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَفد أرسل إِلَيْهِم من يعلمهُمْ كَيفَ يسلمُونَ وَيَأْمُرهُمْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقار عِنْد رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم

قلت

الأول غَرِيب وَذكره الواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول وَفِي الْوَسِيط عَن عَطاء عَن ابْن عَبَّاس قَالَ لما نزلت هَذِه الْآيَة . . . إِلَى آخرِه إِلَّا أَنه قَالَ كَأَخِي السرَار وَلم يصل سَنَده بِهِ

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك من حَدِيث أبي هُرَيْرَة قَالَ لما نزلت إِن الَّذين يَغضُونَ أَصْوَاتهم عِنْد رَسُول الله قَالَ أَبُو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه وَالَّذِي أنزل عَلَيْك الْكتاب يَا رَسُول الله لَا أُكَلّمك إِلَّا كَأَخِي السرَار حَتَّى أَلْقَى الله عَزَّ وَجَلَّ انْتَهَى وَقَالَ حَدِيث صَحِيح عَلَى شَرط مُسلم وَلم يخرجَاهُ انْتَهَى

وَرَوَى الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَأَبُو يعْلى الْموصِلِي فِي مُسْنده من حَدِيث ذَيَّال ابْن عبيد بن حَنْظَلَة حَدثنِي جدي حَنْظَلَة بن حذيم الْمَالِكِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْه قَالَ كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يُعجبهُ أَن يُدعَى الرجل بِأحب أَسْمَائِهِ إِلَيْهِ انْتَهَى

وَرَوَى الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الْحَادِي وَالسِّتِّينَ عَن الْحَاكِم بِسَنَدِهِ إِلَى مُوسَى بن عبد الْملك بن عُمَيْر عَن شيبَة بن عُثْمَان الحَجبي عَن عُثْمَان بن طَلْحَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (ثَلَاث تَصِفِينَ لَك ود أَخِيك تسلم عَلَيْهِ إِذا لَقيته وَتوسع لَهُ فِي الْمجْلس وَتَدْعُوهُ بِأحب أَسْمَائِهِ إِلَيْهِ) انْتَهَى

قَالَ ابْن أبي حَاتِم فِي علله سَأَلت أبي عَن حَدِيث رَوَاهُ مُوسَى بن عبد الْملك ابْن عُمَيْر عَن أَبِيه بِهِ سندا ومتنا فَقَالَ حَدِيث مُنكر ومُوسَى هَذَا ضَعِيف انْتَهَى

وَعَن الْحَاكِم رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي الْمدْخل

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث طَارق بن شهَاب عَن أبي بكر قَالَ لما نزلت يأيها الَّذين آمنُوا لَا ترفعُوا أَصْوَاتكُم فَوق صَوت النَّبِي قلت يَا رَسُول الله آلَيْت أَن لَا أُكَلِّمك إِلَّا كَأَخِي السرَار حَتَّى أَلْقَى الله انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده من حَدِيث حُصَيْن بن عمر عَن مُخَارق عَن طَارق بِهِ قَالَ وحصين حدث بِأَحَادِيث لَا يُتَابع عَلَيْهَا وَكَذَلِك رَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط

وَحَدِيث عمر رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي صَحِيحه عَن ابْن أبي مليكَة قَالَ قَالَ ابْن الزُّبَيْر لما نزلت يأيها الَّذين آمَنُوا لَا ترفعُوا أَصْوَاتكُم فَوق صَوت النَّبِي كَانَ عمر بعد ذَلِك إِذا حدث النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حَدثهُ كَأَخِي السرَار لم يسمعهُ حَتَّى فِي الْكتاب يَسْتَفْهِمهُ مُخْتَصر

وَحَدِيث أبي بكر غَرِيب

1224 - الحَدِيث الْخَامِس

أَنه قَالَ للعَبَّاس بن عبد الْمطلب لما انهزم النَّاس يَوْم أحد (اُصْرُخْ بِالنَّاسِ)

وَكَانَ الْعَبَّاس أَجْهَر النَّاس صَوتا

وَرُوِيَ أَن غَارة أَتَتْهُم يَوْمًا فصاح الْعَبَّاس يَا صَبَاحَاه فَأَسْقطت الْحوَامِل لشدَّة صَوته

وَزَعَمت الرواة أَنه كَانَ يزْجر السبَاع عَن الْغنم فَيفْتق مرَارَة

السَّبع فِي جَوْفه

1225 - الحَدِيث السَّادِس

عَن ابْن عَبَّاس فِي قَوْله تَعَالَى يأيها الَّذين آمَنُوا لَا ترفعُوا أَصْوَاتكُم فَوق صَوت النَّبِي قَالَ

نزلت فِي ثَابت بن قيس بن شماس وَكَانَ فِي أُذُنه وقر وَكَانَ جهوري الصَّوْت وَكَانَ إِذا تكلم

رفع صَوته وَكَانَ يكلم رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَيَتَأَذَّى بِصَوْتِهِ

1226 - الْحَدِيث السَّابِع

وَعَن أنس قَالَ لما نزلت فقد ثَابت فَفَقده رَسُول الله فَأَخْبر بِشَأْنِهِ فَدَعَاهُ فَسَأَلَهُ فَقَالَ يَا رَسُول الله لقد أنزلت هَذِه الْآيَة وَأَنا رجل جهير الصَّوْت فَأَخَاف أَن يكون حَبط عَمَلي فَقَالَ لَهُ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لست هُنَاكَ إِنَّك تعيش بِخَير وَتَمُوت بِخَير وَإِنَّك من أهل الْجنَّة)

(93/716)

قلت أخرجه الْبُخَارِيّ فِي التَّفْسِير وَفِي فَضَائِل النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَمُسلم فِي الْإِيمَان من حَدِيث أنس أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم افْتقدَ ثَابت بن قيس فَقَالَ رجل يَا رَسُول الله أَنا أعلم لَك علمه فَأَتَاهُ فَوَجَدَهُ جَالِسا فِي بَيته مُنَكسًا رَأسه فَقَالَ لَهُ مَا شَأْنك فَقَالَ شَرّ كَانَ يرفع صَوته فَوق صَوت النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فقد حَبط عمله وَهُوَ من أهل النَّار فَأَتَى الرجل النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَأَخْبرهُ أَنه قَالَ كَذَا وَكَذَا فَقَالَ مُوسَى فَرجع إِلَيْهِ الْمرة الْآخِرَة بِبشَارَة عَظِيمَة فَقَالَ (اذْهَبْ إِلَيْهِ فَقل لَهُ لست من أهل النَّار وَلَكِنَّك من أهل الْجنَّة) انْتَهَى

وَزَاد فِيهِ أَحْمد فِي مُسْنده وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَالْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة قَال أنس كُنَّا نرَاهُ يمشي بَين أظهرنَا وَنحن نعلم أَنه من أهل الْجنَّة فَلَمَّا كَانَ يَوْم الْيَمَامَة جَاءَ ثَابت بن قيس وَقد تحنط ولبس أَكْفَانه وَقَال بِئْسَمَا تعودُونَ أَقْرَانكُم ثمَّ تقدم فقاتل حَتَّى قتل انْتَهَى

1227 - الْحَدِيث الثَّامِن

قَال عَلَيْهِ السَّلَام (وَإِن مِمَّا ينْبت الرّبيع لما يقتل حَبطًا أَو يلم)

(94/716)

قلت رَوَاهُ مُسلم فِي صَحِيحه فِي كتاب الزَّكَاة من حَدِيث عِيَاض بن عبد الله عَن أبي سعيد الْخُدْرِيّ قَال إِن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَام فَخطب النَّاس فَقَال (لَا وَالله مَا أَخْشَى عَلَيْكُم أَيهَا النَّاس إِلَّا مَا يخرج الله لكم من زهرَة الدُّنْيَا) فَقَال رجل يَا رَسُول الله أَيَأْتِي الْخَيْر بِالشَّرِّ فَصمت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ثمَّ قَال (كَيفَ قلت) قَال قلت أَيَأْتِي الْخَيْر بِالشَّرِّ قَال (إِن الْخَيْر لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَير أَو خير هُوَ أَن كل مَا ينْبت الرّبيع يقتل حَبطًا أَو يلم إِلَّا آكِلَة الْخضر أكلت حَتَّى امْتَلَأَت خَاصرتهَا اسْتَقْبلت الشَّمْس ثَلَطَتْ أَو بَالَتْ ثمَّ اجْتَرَّتْ فَعَادَت فَأكلت فَمن يَأْخُذ مَالا بِحقّهِ يُبَارك لَهُ فِيهِ وَمن يَأْخُذ مَالا بِغَيْر حَقه فَمثله كَمثل الَّذِي يَأْكُل وَلَا يشْبع)

1228 - الحَدِيث التَّاسِع

رُوِيَ أَن وَفد تَمِيم أَتَوا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَقت الظّهْر وَهُوَ رَاقِد فَجعلُوا يُنَادُونَهُ يَا مُحَمَّد اخْرُجْ إِلَيْنَا فَاسْتَيْقَظَ فَخرج وَنزلت وَلَو أَنهم صَبَرُوا حَتَّى تخرج إِلَيْهِم الْآيَة وَسُئِلَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ (هم جُفَاة بني تَمِيم لَوْلَا أَنهم أَشد قتالا لِلْأَعْوَرِ الدَّجَّال لَدَعَوْت الله عَلَيْهِم أَن يُهْلِكهُمْ)

قلت

(95/716)

الأول رَوَاهُ الواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول والثعلبي فِي تَفْسِيره من حَدِيث يعْلى بن عبد الرَّحْمَن ثَنَا عبد الحميد بن جَعْفَر عَن عمر بن الحكم عَن جَابر بن عبد الله قَالَ جَاءَت بَنو تَمِيم فَدَخَلُوا الْمَسْجد فَنَادوا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من وَرَاء الحجرات أَن اخْرُجْ إِلَيْنَا يَا مُحَمَّد فَأَذَى ذَلِك رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من صِيَاحهمْ فَخرج إِلَيْهِم فَقَالُوا يَا مُحَمَّد جِئْنَاكَ لِنُفَاخِرَكَ فَأْذَن لشَاعِرِنَا وَخَطِيبنَا . . . الحَدِيث بِطُولِهِ قَالَ وَنزل الْقُرْآن فيهم (إِن الَّذين يُنَادُونَك من وَرَاء الحجرات) الْآيَة

وَذكره ابْن هِشَام فِي السِّيرَة فِي آخر غَزْوَة تَبُوك عَن ابْن إِسْحَاق قَالَ قدمت وُفُود الْعَرَب

عَلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . إِلَى أَن قَالَ وَلما قدم وَفد بني تَمِيم دخلُوا الْمَسْجِد فَنَادوا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من وَرَاء الحجرات يَا مُحَمَّد اخْرُج إِلَيْنَا فَأَذَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم صِيَاحهمْ وَخرج إِلَيْهِم فَقَالُوا يَا مُحَمَّد جئْنَاك لِنُفَاخِرَك فَأْذن لشَاعِرنَا وَخَطِيبنَا فَأذن لَهُم فَقَامَ عُطَارِد بن حَاجِب فَخَطب وَأمر النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ثَابت بن قيس أَن يجيبه قَالَ فَأَجَابَهُ ثَابت بِخطْبَة أفْصح مِنْهَا ثمَّ قَامَ شَاعِرهمْ الزِّبْرِقَان بن بدر فَذكر شعرًا فِي الْمُفَاخَرَة فَأمر النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حسان بن ثَابت أَن يجيبه فَأَجَابَهُ ثمَّ عَاد فَذكر شعرًا فَأَجَابَهُ حَتَّى تكَرر ذَلِك مِنْهُمَا . . . بِطُولِهِ وَفِي آخِره وَنزل فيهم الْقُرْآن إِن الَّذين يُنَادُونَك من وَرَاء الحجرات الْآيَة مُخْتَصر

(96/716)

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة فِي بَاب الْوُفُود بِسَنَدِهِ إِلَى ابْن إِسْحَاق فَذكره بِاللَّفْظِ الْمَذْكُور

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من طَرِيق مُحَمَّد بن إِسْحَاق ثني مُحَمَّد بن السَّائِب الْكَلْبِيّ عَن أبي صَالح عَن ابْن عَبَّاس قَالَ قدم وَفد بني تَمِيم وهم سَبْعُونَ رجلا أَو ثَمَانُون رجلا مِنْهُم الزِّبْرِقَان بن بدر وَعُطَارِد بن حَاجِب وَقيس ابْن عَاصِم وَقيس بن الْحَارِث وَعَمْرو بن

الْأَهْتَم الْمَدِينَة فَانْطَلق مَعَهم عُيَيْنَة ابْن حصن الْفَزارِيّ حَتَّى أَتَوا منزل رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَنَادَوْهُ من وَرَاء الحجرات

بِصَوْت جَاف يَا مُحَمَّد اخْرُج إِلَيْنَا يَا مُحَمَّد اخْرُج إِلَيْنَا يَا مُحَمَّد اخْرُج إِلَيْنَا فَخرج إِلَيْهِم فَقَالُوا يَا مُحَمَّد إِن مَدْحنَا زين وَإِن شَتمنَا شين نَحن أَكْرم الْعَرَب فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (كَذَبْتُمْ بل مِدْحَة الله الزين وَشَتمه الشين وَأَكْرم مِنْكُم يُوسُف بن يَعْقُوب بن إِسْحَاق بن إِبْرَاهِيم) فَقَالُوا إِنَّا أَتَيْنَاكَ لِنُفَاخِرَكَ . . . فَذكره بِطُولِهِ وَفِي آخِره فَقَالَ التَّمِيمِيُّونَ فَقَالُوا وَالله إِن خَطِيبه لأخطب من خَطِيبنَا وشاعره أشعر من شَاعِرنَا قَالَ وَفِيهِمْ أنزل الله إِن الَّذين يُنَادُونَك من وَرَاء الحجرات الْآيَة انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن سعد فِي الطَّبَقَات فِي بَاب الْوُفُود أخبرنَا مُحَمَّد بن عمر الْوَاقِدِيّ ثَنَا مُحَمَّد بن عبد الله بن مُسلم عَن الزُّهْرِيّ . . . فَذكره بِلَفْظ ابْن مرْدَوَيْه

(97/716)

وَأَعَادَهُ فِي تَرْجَمَة ثَابت بن قيس وَقَالَ فِيهِ أَتَوا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَقد أذن بِلَال للظهر . . . فَذكره وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الْوَاقِدِيّ فِي كتاب الْمَغَازِي بالسند الْمَذْكُور

وَأما الثَّانِي فَرَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ أَنا أَبُو الْقَاسِم الْحُسَيْن بن مُحَمَّد بن فَنْجَوَيْه ثَنَا عبد الله ابْن

يُوسُف ثَنَا أَحْمد بن عِيسَى بن السكين الْبَلَدِي ثَنَا هَاشم بن الْقَاسِم الْحرَّانِي ثَنَا يعْلى بن الْأَشْدَق ثَنَا سعيد بن عبد الله أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم سُئِلَ عَن قَول الله تَعَالَى إِن الَّذين يُنَادُونَك من وَرَاء الحجرات أَكْثَرهم لَا يعْقلُونَ من هم قَالَ (هم جُفَاة بني تَمِيم) إِلَى آخِره

وَلمُسلم فِي الْفَضَائِل عَن أبي زرْعَة قَالَ قَالَ أَبُو هُرَيْرَة لَا أَزَال أحب بني تَمِيم من ثَلَاث سَمِعتهنَّ من رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم سمعته يَقُول (هم أَشد أمتين عَلَى الدَّجَّال)

1229 - الْحَدِيث الْعَاشِر

رُوِيَ أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بعث الْوَلِيد بن عقبَة أَخا عُثْمَان لأمه وَهُوَ الَّذِي ولاه عُثْمَان الْكُوفَة بعد سعد بن أبي وَقاص فَصَلى بِالنَّاسِ

(98/716)

صَلَاة الْفجْر أَرْبعا وَهُوَ سَكرَان فَقَالَ هَل أَزِيدكُم فَعَزله عُثْمَان عَنْهُم وَبَعثه رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مُصدقا إِلَى بني الْمُصْطَفَى وَكَانَت بَينهم وَبَينه إحْنَة فَلَمَّا شَارف دِيَارهمْ ركبُوا مُسْتَقْبلين لَهُ فحسبهم مُقَاتِليه فَرجع وَقَالَ لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قد ارْتَدُّوا وَمنعُوا الزَّكَاة فَوَرَدُوا وَقَالُوا نَعُوذ بِاللَّه من غَضَبه وَغَضب رَسُوله فَاتَّهمهُمْ فَقَالَ (

لَتَنْتَهُنَّ أَو لَأَبْعَثَن إِلَيْكُم رجلا هُوَ عِنْدِي كنفسي يُقَاتل مُقَاتِلَتكُمْ وَيَسْبِي ذَرَارِيكُمْ) ثمَّ ضرب بِيَدِهِ عَلَى كتف عَلّي رَضِيَ اللَّهُ عَنْه

وَقيل بعث إِلَيْهِم خَالِد بن الْوَلِيد فَوَجَدَهُمْ منادين بِالصَّلَاةِ مُتَهَجِّدِينَ فَسَلمُوا إِلَيْهِ الصَّدَقَات فَرجع

(99/716)

قلت رَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مُسْنده وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه من حَدِيث مُوسَى بن عُبَيْدَة الربذي عَن ثَابت مولَى أم سَلمَة عَن أم سَلمَة أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بعث الْوَلِيد بن عقبَة إِلَى بني المصطلق بعد الْوَقْعَة يَأْخُذ صدقَات أَمْوَالهم فَلَمَّا سمعُوا خرج إِلَيْهِ ركب مِنْهُم يَسْتَقْبِلُونَهُ فَظن أَنهم سَارُوا إِلَيْهِ لِيُقَاتِلُوا فَرجع إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَقَالَ يَا رَسُول الله إِن بني المصطلق مَنَعُونِي صَدَقَاتهمْ وَلما سمعُوا بمرجعه أَقبلُوا حَتَّى قدمُوا الْمَدِينَة وصلوا وَرَاءه فِي الصُّفُوف فَلَمَّا فرغوا قَالُوا إِنَّا نَعُوذ بِاللَّه من غَضَبه وَغَضَب رَسُوله يَا رَسُول الله ذكر لنا أَنَّك أرْسلت لنا رجلا يصدق أَمْوَالنَا فَسُرِرْنَا بذلك وقرت أَعيننَا ثمَّ سمعنَا أَنه رَجَعَ فَخَشِينَا أَن يكون ذكره غَضبا من الله أَو من رَسُوله قَالَت فَمَا زَالُوا يعذرُونَ إِلَيْهِ حَتَّى نزلت فيهم الْآيَة يأيها الَّذين آمنُوا إِن جَاءَكُم فَاسق بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا انْتَهَى

للطبراني

وَزَاد ابْن رَاهَوَيْه قَال فَمَا زَالُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ حَتَّى جَاءَهُ الْمُؤَذّن لصَلَاة الْعَصْر فَصَلى الْمَكْتُوبَة ثمَّ دخل بَيْتِي فَصلي بعْدهَا رَكْعَتَيْن لم يصلهمَا قبل وَلَا بعد قَال فَبعثت إِلَيْهَا عَائِشَة مَا هَذِه الصَّلَاة الَّتِي صلاهَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي بَيْتك فَقَالَت هَذِه سَجْدَتَان كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يُصَلّيهمَا قبل الْعَصْر فَشَغَلهُ بَنو المصطلق فَأنْزل الله يأيها الَّذين آمَنُوا إِن جَاءَكُم فَاسق بِنَبَأٍ انْتَهَى

(100/716)

وَرَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه ثَنَا مُحَمَّد بن سَابق ثَنَا عِيسَى ابْن دِينَار ثني أبي أَنه سمع الْحَارِث بن ضرار الْخُزَاعِيّ يَقُول قدمت عَلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فدعاني إِلَى الْإِسْلَام فَدخلت فِيهِ وَدَعَانِي إِلَى الزَّكَاة فَقلت يَا رَسُول الله أرجع إِلَى قومِي فَأَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَام وَأَدَاء الزَّكَاة وَترسل إِلَيّ رَسُولا لأَبَان كَذَا ليأتك مَا جمعت من الزَّكَاة فَلَمَّا بلغ الأبان الَّذِي بَينه وَبَين رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لم يَأْته الرَّسُول ظن أَنه حدث فِيهِ سخط من الله أَو من رَسُوله فَدَعَا بسَرَوَاتِ قومه وَأَخْبرهمْ بذلك وَقَال لَهُم انْطَلقُوا بِنَا إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَلَمَّا كَانُوا ببَعْض الطَّرِيق وَبعث رَسُول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الْوَلِيد بن عقبَة ليقْبض مَا عِنْده فَلَمَّا رَآهُمْ فرق وَرجع فَأَتَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ يَا رَسُول الله إِن الْحَارِث قَالَ إِلَى من بَعثهمْ قَالُوا إِلَيْك فَلَمَّا دخل عَلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ أَنْت منعت الزَّكَاة وَأَرَدْت قتل رَسُولِي قَالَ لَا وَالَّذِي بَعثك بِالْحَقِّ مَا رَأَيْته وَلَا رَآنِي وَلَكِن لما احْتبس رَسُولك خشيت أَن يكون سخطَة من الله وَرَسُوله فَنزلت يأيها الَّذين آمَنُوا إِن جَاءَكُم فَاسق بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا الْآيَة انْتَهَى

وَبِهَذَا السَّنَد والمتن رَوَاهُ الواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول

وَذكره الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره بِلَفْظ الْمُصَنّف سَوَاء من غير سَنَد

(101/716)

وقصة الْوَلِيد بن عقبَة فِي الصَّلَاة رَوَاهَا مُسلم فِي صَحِيحه فِي كتاب الْحُدُود عَن حُصَيْن بن الْمُنْذر قَالَ شهدت عُثْمَان بن عَفَّان أُتِي الْوَلِيد بن عقبَة وَقد صَلَّى الْغَدَاة بِالْكُوفَةِ رَكْعَتَيْن ثمَّ قَالَ أَزِيدكُم فَشهد عَلَيْهِ رجلَان قَالَ أَحدهمَا رَأَيْته يشْربهَا وَقَالَ الآخر رَأَيْته يتقياها فَقَالَ عُثْمَان إِنَّه لم يتقياها حَتَّى شربهَا فَقَالَ لعَلي أَقِم عَلَيْهِ الْحَد وَقَالَ لِابْنِ أَخِيه عبد الله بن جَعْفَر أَقِم عَلَيْهِ الْحَد فَأَخذ السَّوْط فجلده وَعلي يعد حَتَّى إِذا بلغ أَرْبَعِينَ جلدَة قَالَ لَهُ أمسك جلد النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَرْبَعِينَ وَجلد أَبُو بكر أَرْبَعِينَ

وَجلد عُثْمَان ثَمَانِينَ وكل سنة انْتَهَى هَكَذَا فِي مُسلم وَقد صلي الْغَدَاة رَكْعَتَيْنِ

وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة وَالنَّسَائِيّ فِي سننه الْكُبْرَى وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مُسْنده

وَقَالُوا فِيهِ وَقد صَلَّى الْغَدَاة أَرْبعا فَلْينْظر

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره وَالْحَدِيثَانِ الْمَذْكُورَان عَن الطَّبَرَانِيّ سَنَده وَمَتنه فيهمَا

(102/716)

وَرُوِيَ أَيْضا من حَدِيث عبد الله بن عبد القدوس عَن الْأَعْمَش عَن مُوسَى ابْن الْمسيب

عَن سَالم بن أبي الْجَعْد عَن جَابر بن عبد الله قَالَ بعث رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

الْوَلِيد بن عقبَة إِلَى بني وَلِيعَة وَكَانَت بَينهم شَحْنَاء فِي الْجَاهِلِيَّة فَلَمَّا اسْتَقْبلُوهُ خشِي

وَرجع إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ لَهُ إِن بني وَلِيعَة مَنَعُونِي الصَّدَقَة وَأَرَادُوا

قَتْلِي فَلَمَّا بَلغهُمْ أَتَوا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَذبُوهُ وَقَالُوا إِن بَيْننَا وَبَينه شَحْنَاء

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام (لتَنْتَهُنَّ أَو لأَبْعَثَن إِلَيْكُم رجلا يُقَاتل مُقَاتِلَتكُمْ وَيَسْبِي ذَرَارِيكُمْ هُوَ هَذَا)

وَضرب بِيَدِهِ عَلَى كتف عَلّي وَفِيهِمْ نزلت يأيها الَّذين آمَنُوا إِن جَاءَكُم فَاسق بِنَبَأٍ . . . الْآيَة

1230 - الْحَدِيث الْحَادِي عشر

عَن ابْن عَبَّاس قَالَ وقف رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مجْلِس بعض الْأَنْصَار وَهُوَ

عَلَى حمَار فَبَال الْحمار فَأمْسك عبد الله بن أبي بِأَنْفِهِ وَقَالَ خل سَبِيل حِمَارك فقد آذَانا نَتنه فَقَالَ عبد الله بن رَوَاحَة وَالله إِن بَوْل حِمَاره لَأَطْيَب من مسكك

وَرُوِيَ أَن حِمَاره لأَفْضَل مِنْك وَبَوْل حِمَاره أطيب من مسكك وَمَضَى عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ وَطَالَ الْخَوْض بَينهمَا حَتَّى اسْتَبَّا وتجالدا وَجَاء الْأَوْس والخزرج فتجالدوا بِالْعِصِيِّ وَقيل بِالْأَيْدِي وَالنعال وَالسَّعَف فَرجع إِلَيْهِم رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَأَصْلح بَينهمَا وَنزلت وَإِن طَائِفَتَانِ من الْمُؤمِنِينَ اقْتَتَلُوا الْآيَة

قلت غَرِيب من حَدِيث ابْن عَبَّاس

(103/716)

وَرَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسلم من حَدِيث أنس بتغيير يسير من حَدِيث مُعْتَمر بن سُلَيْمَان عَن أَبِيه عَن أنس قَالَ قيل للنَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لو أتيت عبد الله بن أبي فَانْطَلق إِلَيْهِ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَركب حمارا وَانْطَلق الْمُسلمُونَ يَمْشُونَ مَعَه وَهِي أَرض سبخَة فَلَمَّا أَتَاهُ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بَال الْحمار فَقَالَ عبد الله بن أبي إِلَيْك عني فوَالله لقد آذَانِي نَتن حِمَارك فَقَالَ رجل من الْأَنْصَار مِنْهُم وَالله لِحمَار رَسُول الله أطيب ريحًا مِنْك فَاسْتَبَّا فَغَضب لكل وَاحِد مِنْهُمَا أَصْحَابه وَكَانَ بَينهمَا ضرب بِالْجَرِيدِ وَالْأَيْدِي وَالنعال فَبلغنَا أَنَّهَا

نزلت وَإِن طَائِفَتَانِ من الْمُؤمِنِينَ اقْتَتَلُوا الْآيَة انْتَهَى

رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي الشّهَادَات وَمُسلم فِي الْمَغَازِي فِي غَزْوَة أحد

وَلم يروه ابْن مرْدَوَيْه إِلَّا بلَفْظ الصَّحِيحَيْنِ وسندهما وَكَذَلِكَ الواحدي فِي الْوَسِيط

1231 - الْحَدِيث الثَّانِي عشر

رُوِيَ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ (يَا بن أم عبد هَل تَدْرِي كَيفَ حكم الله فِيمَن بغى من هَذِه الْأمة) قَالَ الله وَرَسُوله أعلم قَالَ (لَا يُجهز عَلَى جَرِيحهَا لَا يقتل أَسِيرهَا لَا يطْلب هَاربهَا وَلَا يقسم فَيْئهَا)

قلت رَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي كتاب قتال أهل الْبَغي من حَدِيث كوثر ابْن حَكِيم عَن نَافِع عَن ابْن عمر أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (يَا بن أم عبد هَل تَدْرِي) إِلَى آخِره سَوَاء وَسكت عَنهُ وَتعقبه الذَّهَبِيّ فِي مُخْتَصره وَقَالَ كوثر بن حَكِيم مَتْرُوك انْتَهَى

(104/716)

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده والْحَارث بن أبي أُسَامَة فِي مُسْنده والثعلبي فِي تَفْسِيره والواحدي فِي الْوَسِيط قَالَ الْبَزَّار لَا نعلم رَوَاهُ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِلَّا ابْن عمر وَلَا طَرِيق لَهُ غير هَذَا الطَّرِيق انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن عدي فِي الْكَامِل وَضعف كوثر بن حَكِيم عَن الْبُخَارِيّ وَالنَّسَائِيّ وَابْن معِين وَقَالُوا إِنَّه مُنكر الحَدِيث وَلَا تحل الرِّوَايَة عَنهُ وَوَافَقَهُمْ عَلَيْهِ

وَعَن الْحَاكِم رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ

قَالَ فِي التَّنْقِيح هَذَا حَدِيث غير ثَابت تفرد بِهِ كوثر بن حَكِيم وَأَحَادِيثه بَوَاطِيل قَالَ الإِمَام أَحْمد وَقَالَ ابْن حبَان فِي كتاب الضُّعَفَاء يروي الْمَنَاكِير عَن الْمَشَاهِير قَالَ ابْن معِين لَيْسَ بشَيْء

1232 - الحَدِيث الثَّالِث عشر

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (الْمُسلم أَخُو الْمُسلم لَا يَظْلمه وَلَا يَخْذُلهُ وَلَا يعِيبهُ وَلَا يَتَطَاوَل عَلَيْهِ فِي الْبُنيان فيستر عَلَيْهِ الرّيح إِلَّا بِإِذْنِهِ وَلَا يُؤْذِيه بِقُتَار قدره) ثمَّ قَالَ (احْفَظُوا وَلَا يحفظه مِنْكُم إِلَّا قَلِيل)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ أَنا أَبُو الْقَاسِم الْحُسَيْن بن مُحَمَّد بن فَنْجَوَيْهِ ثَنَا عمر بن الْخطاب ثَنَا مُحَمَّد بن إِسْحَاق المسوحي ثَنَا عَمْرو بن عَاصِم ثَنَا إِسْمَاعِيل بن رَافع ثَنَا سعيد بن أبي سعيد عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (الْمُسلم أَخُو الْمُسلم) إِلَى آخِره سَوَاء وَزَاد فِيهِ (وَلَا يُؤْذِيه بِقُتَار إِلَّا أَن يغرف لَهُ مِنْهَا وَلَا يَشْتَرِي لِبَنِيهِ الْفَاكِهَة فَيخْرجُونَ مِنْهَا إِلَى صبيان جَاره ثمَّ لَا يُطْعِمُونَهُمْ

مِنْهَا) ثمَّ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (احْفَظُوا) إِلَى آخِره وَفِي الصَّحِيحَيْنِ من حَدِيث أبي هُرَيْرَة مَرْفُوعا (الْمُسلم أَخُو الْمُسلم لَا يَظْلمه وَلَا يَخْذُلُهُ)

1233 - الحَدِيث الرَّابِع عشر

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (النِّسَاء لحم عَلَى وَضم)

قلت غَرِيب مَرْفُوعا

وَرَوَاهُ ابْن الْمُبَارك مَوْقُوفا عَلَى عمر بن الْخطاب من حَدِيث مُحَمَّد بن عَمْرو ابْن عَلْقَمَة عَن يَحْيَى بن عبد الرَّحْمَن بن حَاطِب عَن أَبِيه عَن عمر بن الْخطاب قَالَ إِنَّمَا النِّسَاء لحم عَلَى وَضم إِلَّا مَا ذب عَنهُ فَخذُوا عَلَى أَيدِي نِسَائِكُم حَتَّى يبصر الشَّاب مَوضِع قَدَمَيْهِ انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ أَبُو عبيد الْقَاسِم بن سَلام فِي كِتَابه غَرِيب الحَدِيث بالسند والمتن وَقَالَ الْوَضم مَا يوضع عَلَيْهِ اللَّحْم من خَشَبَة أَو بَارِية أَو غير ذَلِك كَأَنَّهُ يَقُول النِّسَاء فِي الضعْف كَاللَّحْمِ الْمَوْضُوع عَلَى الْوَضم الَّذِي لَا يمْتَنع من أحد إِلَّا أَن يذب عَنهُ

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ أَبُو بكر الْفريَابِيّ فِي سننه

1234 - قَوْله

عَن ابْن مَسْعُود الْبلَاء مُوكل بالْمَنْطق لَو سخرت من كلب لَخَشِيت أَن أَحول كَلْبا

وَعَن عَمْرو بن شُرَحْبِيل لَو رَأَيْت رجلا يرضع عَنْزًا فَضَحكت

مِنْهُ لَخَشِيت أَن أصنع مثل الَّذِي صنع

قلت رَوَاهُمَا ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي كتاب الْأَدَب ثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة عَن الْأَعْمَش عَن إِبْرَاهِيم قَالَ قَالَ عبد الله بن مَسْعُود الْبلَاء مُوكل بالْمَنْطق لَو سخرت من كلب لَخَشِيت أَن أَكون كَلْبا انْتَهَى

(106/716)

وَالثَّانِي أخرجه عَن أبي مُوسَى فَقَالَ ثَنَا عبد الصَّمد بن عبد الْوَارِث عَن عبد الله بن بكر عَن أَبِيه قَالَ قَالَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيّ لَو رَأَيْت رجلا يرضع شَاة فِي الطَّرِيق فسخرت مِنْهُ خفت أَلا أَمُوت حَتَّى أَرْضعهَا انْتَهَى

1235 - الْحَدِيث الْخَامِس عشر

قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (اذْكروا الْفَاجر بِمَا فِيهِ)

قلت رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب التَّاسِع وَالسِّتِّينَ وَأَبُو يعْلى الْموصِلِي فِي مُسْنده وَالتِّرْمِذِيّ الْحَكِيم فِي نَوَادِر الْأُصُول فِي الْأَصْل الثَّامِن وَالسِّتِّينَ بعد الْمِائَة كلهم من حَدِيث الْجَارُود بن يزِيد عَن بهز بن حَكِيم عَن أَبِيه عَن جده قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (أَتَرْعَوْنَ عَن ذكر الْفَاجِر اذْكُرُوهُ بِمَا فِيهِ كي يحذره النَّاس

) انْتَهَى

قَالَ الْبَيْهَقِيّ وَهَذَا يعد فِي أَفْرَاد الْجَارُود وَقد رُوِيَ عَن غَيره وَلَيْسَ بِشَيْء ثمَّ رُوِيَ عَن الْحَاكِم بِسَنَدِهِ إِلَى الْعَلَاء بن بشر ثَنَا سُفْيَان بن عُيَيْنَة عَن بهز بن حَكِيم عَن أَبِيه عَن جده أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (لَيْسَ لِلْفَاسِقِ غيبَة) انْتَهَى ثمَّ قَالَ قَالَ أَبُو عبد الله الْحَاكِم هَذَا غير صَحِيح وَلَا مُعْتَمد قَالَ الْبَيْهَقِيّ وَهَذَا إِن صَحَّ فَإِنَّمَا أَرَادَ بِهِ فَاجِرًا مُعْلنا بفُجُورِهِ أَو هُوَ مِمَّن يشْهد فِي أُمُور النَّاس وَيتَعَلَّق بِهِ شَيْء من الديانَات فَيحْتَاج إِلَى بَيَان حَاله لِئَلَّا يعْتَمد عَلَيْهِ انْتَهَى كَلَامه

وَرَوَاهُ الْعقيلِيّ فِي ضعفَاهُ عَن الْجَارُود بن يزِيد بِهِ وَقَالَ لَيْسَ لَهُ أصل

وَلَا يُتَابع الْجَارُود عَلَيْهِ انْتَهَى

(107/716)

وَرَوَاهُ ابْن عدي فِي الْكَامِل وَابْن حبَان فِي الضُّعَفَاء وَقَالَ الْجَارُود بن يزِيد أَبُو عَلّي النَّيْسَابُورِي يروي عَن الثِّقَات مَا لَا أصل لَهُ كَذَلِك وَأَسْنَدَ إِلَى أَحْمد بن حَنْبَل أَنه قَالَ هَذَا حَدِيث مُنكر وَأَطَال ابْن عدي فِي تَضْعِيفه وَأَخرجه أَيْضا عَن سُلَيْمَان بن عِيسَى بن نجيح السجْزِي عَن سُفْيَان الثَّوْرِيّ عَن بهز بن حَكِيم عَن أَبِيه عَن جده مَرْفُوعا (أَتَرْعَوْنَ عَن ذكر

الْفَاجِر) إِلَى آخِره قَالَ وَسليمَان هَذَا مِمَّن يضع الحَدِيث وَهَذَا عَن الثَّوْرِيّ بَاطِل وَإِنَّمَا يرويهِ الْجَارُود بن يزِيد عَن بهز بِهِ وَأخرجه أَيْضا عَن عَمْرو بن الْأَزْهَر الْعَتكِي الوَاسِطِيّ عَن بهز ابْن حَكِيم وَضعف عَمْرو بن الْأَزْهَر عَن البُخَارِيّ وَالنَّسَائِيّ قَالَ وكل من رَوَى هَذَا الحَدِيث فَهُوَ ضَعِيف انْتَهَى

وَقَالَ الدَّارَقُطْنِيّ فِي علله الحَدِيث من وضع الْجَارُود سَرقه من الْجَارُود جمَاعَة مِنْهُم عَمْرو بن الْأَزْهَر حدث بِهِ عَن بهز وَعَمْرو كَذَّاب وَمِنْهُم سُلَيْمَان بن عِيسَى وَكَانَ دجالًا فَرَوَاهُ عَن الثَّوْرِيّ عَن بهز وَمِنْهُم الْعَلَاء ابْن بشر رَوَاهُ عَن سُفْيَان بن عُيَيْنَة عَن بهز وَابْن عُيَيْنَة لم يسمع من بهز وَغير لَفظه فَقَالَ لَيْسَ لفَاسِق غيبَة انْتَهَى

(108/716)

وَقَالَ ابْن طَاهِر حَدِيث أَتَرْعَوْنَ عَن ذكر الْفَاجِر رَوَاهُ الْجَارُود بن يزِيد عَن بهز بن حَكِيم عَن أَبِيه عَن جده قَالَ الْحَاكِم هَذَا غير صَحِيح وَلَا مُعْتَمد وَكَأَن الْجَارُود أَدخل حَدِيثا فِي حَدِيث فَإِنَّهُ رَوَى عَن بهز أَحَادِيث مُسْتَقِيمَة وَقد رَوَى عَن معمر بن رَاشد عَن بهز وَلَيْسَ بِثَابِت قَالَ الطَّبَرَانِيّ لم يروه عَن معمر إِلَّا عبد الْوَهَّاب بن همام أَخُو عبد الرَّزَّاق قَالَ ابْن مَعِين عبد الْوَهَّاب معضل وَرَوَى عَن عمر بن الْخطاب وَطَرِيقه غير مَعْرُوف رَوَاهُ يُوسُف ابْن

أبان ثَنَا الْأَبْرَد بن حَاتِم أَخْبرنِي منهال السراج عَن عمر بن الْخطاب

وَحَدِيث لَيْس لِلْفَاسِقِ غيبَة رَوَاهُ الْعَلَاء بن بشر عَن سُفْيَان بن عُيَيْنَة عَن بهز بِهِ وَهُوَ حَدِيث مُنكر لم يروه عَن ابْن عُيَيْنَة أحد من أَصْحَابه إِلَّا الْعَلَاء ابْن بشر انْتَهَى

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط ثَنَا عبد الله بن مُحَمَّد بن أبي السّري الْعَسْقَلَانِي ثني أبي ثَنَا عبد الْوَهَّاب بن همام أَخُو عبد الرَّزَّاق أَنا معمر عَن بهز بن حَكِيم بِهِ وَقَالَ لم يروه عَن معمر إِلَّا عبد الْوَهَّاب انْتَهَى

1236 - الْحَدِيث السَّادِس عشر

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (إِن من حق الْمُؤمن عَلَى أَخِيه أَن يُسَمِّيه بِأحب الْأَسْمَاء إِلَيْهِ)

قلت غَرِيب بِهَذَا اللَّفْظ

وَرَوَى الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَأَبُو يعْلى الْموصِلِي فِي مُسْنده من حَدِيث ذَيَّال ابْن عبيد بن حَنْظَلَة حَدثنِي جدي حَنْظَلَة بن حذيم الْمَالِكِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْه قَالَ كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يُعجبهُ أَن يُدعَى الرجل بِأحب أَسْمَائِهِ إِلَيْهِ انْتَهَى

(109/716)

وَرَوَى الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الْحَادِي وَالسِّتِّينَ عَن الْحَاكِم بِسَنَدِهِ إِلَى مُوسَى بن عبد الْملك بن عُمَيْر عَن شيبَة بن عُثْمَان الحَجبي عَن عُثْمَان بن طَلْحَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (ثَلَاث تَصِفِينَ لَك ود أَخِيك تسلم عَلَيْهِ إِذا لَقيته وَتوسع لَهُ فِي الْمجْلس وَتَدْعُوهُ بِأحب أَسْمَائِهِ إِلَيْهِ) انْتَهَى

قَالَ ابْن أبي حَاتِم فِي علله سَأَلت أبي عَن حَدِيث رَوَاهُ مُوسَى بن عبد الْملك ابْن عُمَيْر عَن أَبِيه بِهِ سندا ومتنا فَقَالَ حَدِيث مُنكر ومُوسَى هَذَا ضَعِيف انْتَهَى

وَرَوَى ابْن عدي فِي الْكَامِل عَن الحكم بن عبد الله بن سعد الْأَيْلِي ثني الزُّهْرِيّ عَن سعيد بن الْمسيب عَن عَائِشَة أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (مَكْرُوه أَن يَدْعُو أحدكُم أَخَاهُ يَا هَناه وَيَا هَذَا وَلَكِن ليَدع أحدكُم أَخَاهُ بِأحب أَسْمَائِهِ إِلَيْهِ) انْتَهَى

وَضعف الحكم هَذَا عَن جمَاعَة من غير تَوْثِيق انْتَهَى

1237 - الحَدِيث السَّابِع عشر

عَن ابْن عَبَّاس أَن صَفِيَّة بنت حيي أَتَت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَقَالَت إِن النِّسَاء يُعَيِّرْنَنِي وَيَقُلْنَ يَا يَهُودِيَّة بنت يهوديين فَقَالَ لَهَا عَلَيْهِ السَّلَام (هلا قلت إِن أبي هَارُون وَإِن عمي مُوسَى وَإِن زَوجي مُحَمَّد)

قلت وَرَوَى التِّرْمِذِيّ فِي جَامعه فِي كتاب المناقب من طَرِيق عبد الرازق أَنا معمر عَن ثَابت عَن أنس قَالَ بلغ صَفِيَّة أَن حَفْصَة قَالَت بنت يَهُودِيّ فَبَكَتْ فَدخل عَلَيْهَا النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَهِي تبْكي فَقَالَ (مَا يبكيك) قَالَت قَالَت لِي حَفْصَة إِنِّي ابْنة يَهُودِيّ فَقَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (إِنَّك لابنة نَبِي وَإِن عمك لنَبِيّ وَإِنَّك لتَحْت نَبِي فَفِيمَ تَفْخَر عَلَيْك) ثمَّ قَالَ (اتقِي الله يَا حَفْصَة) انْتَهَى وَقَالَ حَدِيث حسن صَحِيح غَرِيب

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الْخَامِس من الْقسم الْخَامِس وَأحمد فِي مُسْنده وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَأَبُو نعيم فِي الْحِلْية

وَرَوَى التِّرْمِذِيّ من حَدِيث هَاشم بن سعيد الْكُوفِي ثَنَا كنَانَة حَدَّثتنَا صَفِيَّة بنت حيي قَالَت دخل عَلَي النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَقد بَلغنِي عَن عَائِشَة وَحَفْصَة كَلَام فَذكرت ذَلِك لَهُ فَقَالَ (أَلا قلت وَكَيف تَكُونَانِ خيرا مني وَزَوْجي مُحَمَّد وَأبي هَارُون وَعمي مُوسَى) وَكَانَ الَّذِي بلغهَا أَنهم قَالُوا نَحن أَكْرم عَلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مِنْهَا نَحن أَزوَاج النَّبِي وَبَنَات عَمه انْتَهَى وَقَالَ حَدِيث غَرِيب لَا نعرفه إِلَّا من حَدِيث هَاشم الْكُوفِي وَلَيْسَ إِسْنَاده بذلك الْقوي انْتَهَى

وَذكره الثَّعْلَبِيّ عَن عِكْرِمَة عَن ابْن عَبَّاس بِلَفْظ الْمُصَنّف سَوَاء من غير سَنَد

1238 - الْحَدِيث الثَّامِن عشر

رَوَى فِي قَوْله تَعَالَى لَا يسخر قوم من قوم قَالَ نزلت فِي ثَابت بن قيس بن شماس وَكَانَ بِهِ وقر فَكَانُوا يُوسعُونَ لَهُ فِي مجْلِس رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَأَتَى قوما يَقُول تَفَسَّحُوا حَتَّى انْتَهَى إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ لرجل تنَح فَلم يَتَنَحَّ فَقَالَ من هَذَا فَقَالَ الرجل أَنا فلَان فَقَالَ بل أَنْت ابْن فُلَانَة لأم كَانَ يعير بهَا فِي الْجَاهِلِيَّة فَخَجِلَ الرجل فَنزلت فَقَالَ ثَابت لَا أَفْخَر بعْدهَا عَلَى أحد فِي الْحسب

قلت غَرِيب وَذكره الثَّعْلَبِيّ ثمَّ الْبَغَوِيّ والواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول عَن ابْن عَبَّاس هَكَذَا من غير سَنَد

1239 - الْحَدِيث التَّاسِع عشر

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (إِن الله حرم من الْمُسلم دَمه وَعرضه وَأَن نظن بِهِ ظن السوء)

قلت فِي الصَّحِيحَيْنِ عَن أبي هُرَيْرَة مَرْفُوعا (إِيَّاكُمْ وَالظَّن فَإِن الظَّن الْكَذِب) الْحَدِيث زَاد مُسلم (كل الْمُسلم عَلَى الْمُسلم حرَام دَمه وَمَاله وَعرضه إِن الله لَا ينظر إِلَى صوركُمْ وَأَمْوَالكُمْ وَلَكنه ينظر إِلَى قُلُوبكُمْ وَأَعْمَالكُمْ) مُخْتَصر

وَرَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي كتاب الدّيات حَدثنَا عَبدة بن سُلَيْمَان عَن مجَالد عَن الشّعبِيّ عَن ابْن عَبَّاس أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم نَظر إِلَى الْكَعْبَة فَقَالَ (مَا أعظمك وَأعظم حرمتك للْمُسلمِ أعظم حُرْمَة مِنْك حرم الله دَمه وَمَاله وَعرضه وَأَن يظنّ بِهِ ظن السوء) انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الثَّالِث وَالْأَرْبَعِينَ من حَدِيث حَفْص بن عبد الرَّحْمَن عَن شبْل بن عباد عَن ابْن أبي نجيح عَن مُجَاهِد عَن ابْن عَبَّاس مَرْفُوعا نَحوه سَوَاء

(112/716)

وَرَوَى ابْن مَاجَه فِي سننه فِي الْفِتَن من حَدِيث عبد الله بن أبي قيس الْبَصْرِيّ ثَنَا عبد الله بن عمر قَالَ رَأَيْت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يطوف بِالْكَعْبَةِ وَهُوَ يَقُول (مَا أطيبك وَأطيب رِيحك مَا أعظمك وَأعظم حرمتك وَالَّذِي نَفْس مُحَمَّد بِيَدِهِ لحُرْمَة الْمُؤمن أعظم عِنْد الله حُرْمَة مِنْك مَاله وَدَمه وَأَن يظنّ بِهِ إِلَّا خيرا) انْتَهَى

1240 - الْحَدِيث الْعشْرُونَ

رُوِيَ (من أَلْقَى جِلْبَاب الْحيَاء فَلَا غيبَة لَهُ)

قلت رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب التَّاسِع وَالسِّتِّينَ من طَرِيق عُثْمَان ابْن سعيد الدَّارِمِيّ أَنا الرّبيع بن نَافِع أَنا رواد بن الْجراح حَدثهمْ عَن أبي سعد السَّاعِدِيّ عَن أنس أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (من أُلْقِي جِلْبَاب الْحيَاء فَلَا غيبَة لَهُ) انْتَهَى ثمَّ قَالَ فِي إِسْنَاده ضعف وَإِن صَحَّ فَيحمل عَلَى الْفَاسِق الْمُعْلن بِفِسْقِهِ انْتَهَى

وَرَوَاهُ القَاضِي أَبُو عبد الله مُحَمَّد بن سَلامَة الْقُضَاعِي فِي مُسْند الشهَاب عَن إِسْمَاعِيل بن مُحَمَّد الصفار ثَنَا الْعَبَّاس بن عبد الله الترفقي ثَنَا رواد بن الْجراح عَن أبي سعد بِهِ

وَرَوَاهُ ابْن عدي فِي الْكَامِل من حَدِيث الرّبيع بن بدر عَن أبان بن أبي عَيَّاش عَن أنس بن مَالك قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (من خلع جِلْبَاب الْحيَاء فَلَا غيبَة لَهُ) انْتَهَى أعله بِأَبَان بن أبي عَيَّاش وَقَالَ هُوَ مولى لأنس وَهُوَ مَتْرُوك الحَدِيث وَضَعفه عَن جمَاعَة من غير توْثِيق

وَمن طَرِيق ابْن عدي رَوَاهُ ابْن الْجَوْزِيّ فِي الْعِلَل المتناهية وَقَالَ فِيهِ مَتْرُوكَان الرّبيع بن بدر وَأَبَان بن أبي عَيَّاش انْتَهَى

(113/716)

وَذكره ابْن طَاهِر فِي كَلَامه عَن أَحَادِيث الشهَاب من الطَّرِيقَيْنِ الْمَذْكُورين وَقَالَ هما ضعيفان فَفِي الأول أبان بن أبي عَيَّاش وَهُوَ مَتْرُوك وَفِي الثَّانِي رواد بن الْجراح وَهُوَ شَامي ضَعِيف وَأَبُو سعد مثله انْتَهَى

وَقَالَ ابْن حبَان فِي كتَاب الضُّعَفَاء أَبُو سعد السَّاعِدِيّ شيخ يروي عَن أنس ابْن مَالك الْمَنَاكِير الَّتِي لَا يُشَارِكهُ فِيهَا أحد لَا يجوز الِاحْتِجَاج بِهِ بِحَال انْتَهَى

1241 - الْحَدِيث الْحَادِي وَالْعشْرُونَ

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه خطب فَرفع صَوته حَتَّى أسمع الْعَوَاتِق فِي خُدُورهنَّ فَقَالَ (يَا معشر من آمن بِلِسَانِهِ وَلم يخلص الْإِيمَان إِلَى قلبه لَا تتبعوا عورات الْمُسلمين فَإِن من تتبع عورات الْمُسلمين تتبع الله عَوْرَته حَتَّى يَفْضَحهُ وَلَو فِي جَوف بَيته)

قلت رُوِيَ من حَدِيث ابْن عمر وَمن حَدِيث أبي برزَة وَمن حَدِيث الْبَراء ابْن عَازِب وَمن حَدِيث ثَوْبَان وَمن حَدِيث ابْن عَبَّاس وَمن حَدِيث بُرَيْدَة

أما حَدِيث ابْن عمر فَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي جَامعه فِي كتَاب الْبر والصلة من حَدِيث أَوْفَى بن دلهم عَن نَافِع عَن ابْن عمر قَالَ صعد النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الْمِنْبَر فَنَادَى بِصَوْت رفيع قَالَ (يَا معشر من أسلم بِلِسَانِهِ وَلم يفض الْإِيمَان إِلَى قلبه لَا تُؤْذُوا الْمُسلمين وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ وَلَا تتبعوا عَوْرَاتهمْ فَإِنَّهُ من يتبع عَورَة أَخِيه الْمُسلم يتبع الله عَوْرَته وَمن يتبع الله عَوْرَته يَفْضَحهُ وَلَو فِي جَوف رَحْله) انْتَهَى وَقَالَ حَدِيث حسن غَرِيب انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي أول الْقسم الثَّانِي وَهُوَ سَنَد صَحِيح فَإِن أَوْفَى بن دلهم وَثَّقَهُ النَّسَائِيّ وَابْن حبَان وَلَا يضرّهُ تفرد يَحْيَى بن أَكْثَم فَإِنَّهُ مقرون بالجارود بن معَاذ وَقد وَثَّقَهُ النَّسَائِيّ وَقد رَوَى عَنهُ جمَاعَة الْأَئِمَّة وَبَاقِي

رِجَاله رجال الصَّحِيحَيْنِ

وَأما حَدِيث أبي بَرزَة فَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي سننه فِي كتاب الْأَدَب من حَدِيث سعيد بن عبد الله بن جريج عَن أبي بَرزَة الْأَسْلَمِيّ مَرْفُوعا نَحوه

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده عَن أبي بكر بن عَيَّاش عَن الْأَعْمَش عَن سعيد بِهِ

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره وَكَذَلِكَ رَوَاهُ أَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مُسْنده

وَأما حَدِيث الْبَراء بن عَازِب فَرَوَاهُ أَبُو يعْلى الْموصِلِي فِي مُسْنده وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب التَّاسِع وَالسِّتِّينَ وَفِي الْبَاب السَّابِع وَالسبْعين من حَدِيث مُصعب بن سَلام ثَنَا حَمْزَة الزيات عَن أبي إِسْحَاق عَن الْبَراء بن عَازِب مَرْفُوعا نَحوه

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث مُصعب بن سَلام قَالَ خَطَبَنَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّم ذَات يَوْم حَتَّى أسمع الْعَوَاتِق فِي خُدُورهنَّ (يَا معشر من آمن بِلسَانِهِ وَلم يُؤمن بِقَلْبِه لَا تَغْتَابُوا الْمُسلمين وَلَا تتبعوا عَوْرَاتهمْ فَإِنَّهُ من تتبع عَورَة أَخِيه الْمُسلم يتبع الله عَوْرَته وَمن يتبع الله عَوْرَته يَفْضَحهُ وَهُوَ فِي جَوف بَيته) انْتَهَى

وَبِهَذَا اللَّفْظ رَوَاهُ أَبُو يعْلى

(115/716)

وَأما حَدِيث ثَوْبَان فَرَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده ثَنَا مُحَمَّد بن بكر ثَنَا مَيْمُون أَبُو مُحَمَّد الْمرَائِي ثَنَا مُحَمَّد بن عباد الْمَخْزُومِي عَن ثَوْبَان عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (لَا تُؤْذُوا عباد الله وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ وَلَا تَطْلُبُوا عَوْرَاتهمْ فَإِنَّهُ من طلب عَورَة أَخِيه الْمُسلم طلب الله عَوْرَته حَتَّى يَفْضَحهُ فِي بَيته) انْتَهَى

وَأما حَدِيث ابْن عَبَّاس فَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه من حَدِيث قدامَة بن مُحَمَّد الْأَشْجَعِيّ عَن إِسْمَاعِيل بن شبيب الطَّائِفِي عَن ابْن جريج عَن عَطاء عَن ابْن عَبَّاس أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم خطب فَأَسْمع الْعَوَائِق فِي خُدُورهنَّ فَقَالَ (يَا معشر من آمن بِلسَانِهِ) إِلَى آخِره

وَرَوَاهُ ابْن عدي فِي الْكَامِل وَأعله بِقُدَامَة هَذَا وَقَالَ حَدِيث غَيره مَحْفُوظ

وَرَوَاهُ الْعقيلِيّ فِي كِتَابه وَأعله إِسْمَاعِيل الطَّائِي وَقَالَ إِنَّه حَدِيث مُنكر غير مَحْفُوظ انْتَهَى

وَأما حَدِيث بُرَيْدَة فَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه من حَدِيث عبد الله بن بُرَيْدَة عَن أَبِيه مَرْفُوعا نَحوه

(116/716)

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره ثَنَا مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن مَالك ثَنَا إِبْرَاهِيم بن إِسْحَاق الْحَرْبِيّ ثَنَا سعيد بن مُحَمَّد الْجرْمِي ثَنَا أَبُو نميلَة ثني رُمَيْح بن هِلَال الطَّائِي ثَنَا عبد الله بن بُرَيْدَة عَن أَبِيه قَالَ صلينَا الظّهْر خلف النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَلَمَّا انْفَتَل أَقبل علينا غَضْبَان فَنَادَى بِصَوْت أسمع الْعَوَائِق فِي جَوف الْخُدُور (يَا معشر من آمن بِلسَانِهِ وَلم يدْخل الْإِيمَان فِي قلبه لَا تَذمُّوا الْمُسلمين وَلَا تَطْلُبُوا عَوْرَاتهمْ فَإِنَّهُ من يطْلب عَورَة أَخِيه الْمُسلم هتك الله ستره وَأَبْدَى عَوْرَته وَلَو كَانَ فِي جَوف بَيته) انْتَهَى

1242 - قَوْله

عَن زيد بن وهب قَالَ قُلْنَا لِابْنِ مَسْعُود هَل لَك فِي الْوَلِيد بن عقبَة تقطر لحيته خمرًا فَقَالَ ابْن مَسْعُود إِنَّا قد نهينَا عَن التَّجَسُّس وَلَكِن أَن ظهر لنا شَيْء أَخذنَا بِهِ

قلت رَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي سننه فِي كتاب الْأَدَب من حَدِيث أبي مُعَاوِيَة عَن

الْأَعْمَش عَن زيد بن وهب قَالَ أَتَى ابْن مَسْعُود فَقيل هَذَا فلَان تقطر لحيته خمرًا فَقَالَ عبد الله إِنَّا قد نهينَا عَن التَّجَسُّس وَلَكِن إِن ظهر لنا شَيْء نَأْخُذ بِهِ انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي الْأَدَب وَالْبَيْهَقِيّ فِي الشّعب

وَرَوَاهُ عبد الرازق فِي مُصَنفه فِي السّرقَة ثَنَا سُفْيَان بن عُيَيْنَة عَن الْأَعْمَش بِهِ وَمن طَرِيق عبد الرازق رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الثَّانِي وَالْخمسين وَفِي الْبَاب التَّاسِع وَالسِّتِّينَ

(117/716)

وَله طَرِيق آخر رَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي كتاب الْحُدُود وَالتِّرْمِذِيّ فِي علله الْكَبِير عَن أَسْبَاط بن مُحَمَّد الْقرشِي عَن الْأَعْمَش بِهِ وَقَالَ فِيهِ إِن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم نَهَانَا عَن التَّجَسُّس فَإِن يظْهر لنا شَيْء نَأْخُذهُ بِهِ انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده وَقَالَ لَا نعلم أحد أَسْنده عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِلَّا أَسْبَاط وَقد رَوَاهُ غير أَسْبَاط عَن الْأَعْمَش وَقَالَ إِن الله نَهَانَا أَو إِنَّا نهينَا انْتَهَى كَلَامه

وَقَالَ ابْن أبي حَاتِم فِي علله سَأَلت أَبَا زرْعَة عَن حَدِيث رَوَاهُ أَسْبَاط عَن الْأَعْمَش عَن زيد بن وهب قَالَ أَتَى رجل ابْن مَسْعُود . . . إِلَى آخِره بِلَفْظ الْحَاكِم فَقَالَ أَبُو زرعه أَخطَأ

فِيهِ أَسْبَاط إِنَّمَا هُوَ إِن الله نَهَانَا هَكَذَا رَوَاهُ أَبُو مُعَاوِيَة وَغَيره وَهُوَ الصَّحِيح انْتَهَى كَلَامه

وَقَالَ التِّرْمِذِيّ فِي علله الْكَبِير سَأَلت مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيل عَن هَذَا الْحَدِيث فَقَالَ خطأ

وَالصَّحِيح عَن الْأَعْمَش عَن زيد بن وهب عَن عبد الله قَالَ نهينَا عَن التَّجَسُّس انْتَهَى

1243 - الْحَدِيث الثَّانِي وَالْعشْرُونَ

سُئِلَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن الْغَيْبَة فَقَالَ (أَن تذكر أَخَاك بِمَا

يكره فَإِن كَانَ فِيهِ فقد اغْتَبْته وَإِن لم يكن فِيهِ فقد بَهته)

(118/716)

قلت رَوَاهُ الْجَمَاعَة إِلَّا ابْن ماجة فَالْبُخَارِي وَمُسلم وَالتِّرْمِذِيّ فِي كتاب الْبر والصلة وَأَبُو

دَاوُد فِي الْأَدَب وَالنَّسَائِيّ فِي التَّفْسِير كلهم من حَدِيث أَبِي الْعَلَاء عَن أَبِي هُرَيْرَة أَن رَسُول

الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (أَتَدْرُونَ مَا الْغَيْبَة) قَالُوا الله وَرَسُوله أعلم قَالَ (ذكرك

أَخَاك بِمَا يكره قيل أَفَرَأَيْت إِن كَانَ فِي أخي مَا أَقُول قَالَ (إِن كَانَ فِيهِ مَا تَقول فقد اغْتَبْته

وَإِن لم يكن فِيهِ فقد بَهته) انْتَهَى

وَعَزاهُ الْمُنْذِرِيّ فِي مُخْتَصره لمُسلم فَقَط وَكَذَلِكَ عبد الْحق فِي الْجمع بَين الصَّحِيحَيْنِ قَالَ

لم يُخرجهُ الْبُخَارِيّ

1244 - الحَدِيث الثَّالِث وَالْعشْرُونَ

عَن ابْن عَبَّاس أَن سلمَان كَانَ يخْدم رجلَيْن من الصَّحَابَة ويُسَوِّي لَهما طَعَاما فَنَامَ عَن شَأْنه يَوْمًا فبعثاه إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَبْغِي لَهما إِدَامًا وَكَانَ أُسَامَة عَلَى طَعَام النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ مَا عِنْدِي شَيْء فَأَخْبرهُمَا سلمَان فَعِنْدَ ذَلِك قولا لَو بَعَثْنَاهُ إِلَى بِئْر سَمْحَة لغَار مَاؤُهَا فَلَمَّا رَاحا إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ لَهما (مَالِي أرَى خضرَة اللَّحْم فِي أَفْوَاهكُمَا فَقَالَا مَا تناولنا لَحْمًا فَقَالَ إِنَّكُمَا قد اغْتَبْتُمَا) وَنزلت أَيُحِبُّ أَحدكُم أَن يَأْكُل لحم أَخِيه مَيتا

(119/716)

قلت غَرِيب وَبِمَعْنَاهُ مَا رَوَاهُ أَبُو الْقَاسِم الْأَصْبَهَانِيّ فِي كتاب التَّرْغِيب والترهيب من حَدِيث عَفَّان ثَنَا حَمَّاد بن سَلمَة ثَنَا ثَابت بن عبد الرَّحْمَن بن أبي لَيْلَى أَن الْعَرَب كَانَت تخْدم بَعضهم بَعْضًا فِي الْأَسْفَار وَكَانَ مَعَ أبي بكر وَعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهما رجل يَخْدُمهُمَا فَاسْتَيْقَظَا ذَات يَوْم وَهُوَ نَائِم لم يُهَيِّئ لَهما طَعَاما فَقَالَ أَحدهمَا لصَاحبه إِن هَذَا ليوائم نوم نَبِيكُم فَأَيْقَظَاهُ ثمَّ أَرْسلَاهُ إِلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يستأدمانه طَعَاما فَقَالَ (اذْهَبْ فَأَخْبرهُمَا أَنَّهُمَا ايتدما) فَأَتيَاهُ فَسَأَلَاهُ عَن ذَلِك

فَقَالَ (قد ايتدمتما بِلَحْم أَخِيكُمَا وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ إِنِّي لأرَى لَحْمه بَين ثَنَايَاكُمَا) قَالَا فَاسْتَغْفر لنا يَا رَسُول الله قَالَ (هُوَ يسْتَغْفر لَكمَا) انْتَهَى

وَذكره الثَّعْلبِيّ ثمَّ الْبَغَوِيّ بِلَفْظ الْمُصَنّف سَوَاء من غير سَنَد وَلَا ذكر فِيهِ ابْن عَبَّاس

1245 - الْحَدِيث الرَّابِع وَالْعشْرُونَ

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه طَاف يَوْم فتح مَكَّة فَحَمدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثمَّ قَالَ (الْحَمد لله الَّذِي أذهب عَنْكُم عَيْبَة الْجَاهِلِيَّة وَتَكَبُّرهَا يَا أَيهَا النَّاس إِنَّمَا النَّاس رجلَانِ مُؤمن تَقِيّ كريم وَفَاجِر شقي هَين عَلَى الله تَعَالَى) ثمَّ قَرَأَ الْآيَة

قلت رُوِيَ من حَدِيث ابْن عمر وَأبي هُرَيْرَة

(120/716)

فَحَدِيث ابْن عمر رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ ثَنَا عَلّي بن حجر أَنا عبد الله بن جَعْفَر عَن عبد الله بن دِينَار عَن ابْن عمر أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم خطب النَّاس يَوْم فتح مَكَّة فَقَالَ (يأيها النَّاس إِن الله قد أذهب عَنْكُم عبيَّة الْجَاهِلِيَّة وَتَعَاظُمهَا بِآبَائِهَا فَالنَّاس رجلَانِ مُؤمن تقى كريم عَلَى الله وَفَاجِر هَين عَلَى الله وَالنَّاس بَنو آدم وَخلق الله آدم من تُرَاب قَالَ الله يأيها النَّاس إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ من ذكر وَأُنْثَى إِلَى قَوْله عليم خَبِير انْتَهَى ثمَّ قَالَ هَذَا حَدِيث غَرِيب لَا

نعرفه من حَدِيث عبد الله بن دِينَار إِلَّا من هَذَا الْوَجْه وَعبد الله بن جَعْفَر يضعف ضعفه يَحْيَى بن معِين وَغَيره وَهُوَ وَالِد عَلّي بن الْمَدِينِيّ وَفِي الْبَاب عَن أبي هُرَيْرَة وَابْن عَبَّاس انْتَهَى

وَله طَرِيق آخر رَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الثَّامِن وَالْعِشْرين من الْقسم الْخَامِس من حَدِيث مُوسَى بن عُبَيْدَة عَن عبد الله بن دِينَار عَن ابْن عمر

مَرْفُوعا بِلَفْظ التِّرْمِذِيّ سَوَاء

(121/716)

وَبِهَذَا الْإِسْنَاد رَوَاهُ عبد بن حميد وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه وَأَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مسانيدهم وَابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي فتح مَكَّة وَابْن أبي حَاتِم فِي تَفْسِيره وَابْن مرْدَوَيْه كلهم عَن مُوسَى بن عُبَيْدَة الربذي عَن عبد الله بن دِينَار عَن ابْن عمر أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَاف يَوْم الْفَتْح عَلَى رَاحِلَته يسْتَلم الْأَرْكان بِمِحْجَنِهِ فَلَمَّا خرج لم يجد مناخًا فنزل عَلَى أَيدي الرِّجَال ثمَّ قَامَ فخطبهم فَحَمدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ (الْحَمد لله الَّذِي اذْهَبْ عَنْكُم عبِّيَّة الْجَاهِلِيَّة وَتَكَبُّرهَا بِآبَائِهَا النَّاس رجلَان) إِلَى آخِره وَقرن ابْن أبي شيبَة مَعَ مُوسَى بن عُبَيْدَة أَخَاهُ عبد الله بن عُبَيْدَة كِلَاهُمَا عَن ابْن دِينَار بِهِ

وَحَدِيث أبي هُرَيْرَة رَوَاهُ أَبو دَاوُد فِي سننه فِي كتاب الْأَدَب من حَدِيث الْمعَافي ابْن عمرَان وَابْن وهب كِلَاهُمَا عَن هِشَام بن سعد عَن سعيد عَن أَبيه عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِن الله قد أذهب عَنْكُم عَيْبَة الْجَاهِلِيَّة وَفَخرهَا بِالْآبَاءِ النَّاس رجلَانِ مُؤمن تَقِيّ وَفَاجِر شقي أَنْتُم بَنو آدم وآدَم من تُرَاب لَيَدَعَن رجال فَخرهمْ بِأَقْوَام إِنَّمَا هم فَحم من فَحم جَهَنَّم أَو لَيَكُونن أَهْون عَلَى الله من الْجعلَان الَّتِي تدفع بِأَنْفِهِ النتن) انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن الْمُبَارك فِي كتاب الْبر والصلة حَدثنَا هِشَام بن سعد عَن سعيد الْمَقْبُري عَن أبي هُرَيْرَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . فَذكره لم يقل فِيهِ عَن أَبيه

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده عَن مُحَمَّد بن عبد الله بن الزُّبَيْر ثَنَا هِشَام ابْن سعد عَن سعيد بن أبي سعيد عَن أبي هُرَيْرَة

(122/716)

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الثَّالِث وَالثَّلَاثِينَ قَالَ الْبَزَّار هَكَذَا رَوَاهُ غير وَاحِد عَن هِشَام بن سعد عَن سعيد عَن أبي هُرَيْرَة وَقد رَوَاهُ الْمعَافي بن عمرَان عَن هِشَام بن سعيد عَن سعد عَن أبي هُرَيْرَة وَتَابعه عَلَيْهِ غَيره

وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَهُوَ آخر حَدِيث فِي كتاب التِّرْمِذِيّ آخر المناقب بِسَنَد أبي دَاوُد وَمَتنه

وَقَالَ حَدِيث حسن ثمَّ قَالَ وَسَعِيد الْمَقْبُري سمع من أبي هُرَيْرَة ويروي عَن أَبِيه كيسَان عَن أبي هُرَيْرَة أَشْيَاء كَثِيرَة انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره أخبرنَا عبد الله بن مُحَمَّد بن عِيسَى ثَنَا عبد الله ابْن مُحَمَّد بن النُّعْمَان ثَنَا عبد الله بن رَجَاء أَنا عبد الْملك بن قدامَة الْحَاطِبِيُّ ثني أبي أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَام فتح مَكَّة صعد الْمِنْبَر فَحَمدَ الله وَأَثْنَى ثمَّ قَالَ (أما بعد يأيها النَّاس فَإِن الله قد أذهب عَنْكُم عبيَّة الْجَاهِلِيَّة وَتَعَظُّمهَا بِآبَائِهَا) إِلَى آخر لفظ التِّرْمِذِيّ فِي حَدِيث ابْن عمر وَقُدَامَة بن حَاطِب الْحَاطِبِيُّ يعد فِي الصَّحَابَة وَالتِّرْمِذِيّ أخرجه عَن أبي عَامر الْعَقدي ثَنَا هِشَام بن سعد عَن سعيد ابْن أبي سعيد عَن أبي هُرَيْرَة . . . فَذكره وَقَالَ حَدِيث حسن وَفِي الْبَاب عَن ابْن عمر وَابْن عَبَّاس وَقد رَوَاهُ سُفْيَان الثَّوْرِيّ وَغَيره عَن هِشَام بن سعد بِنَحْوِ رِوَايَة أبي عَامر ثمَّ أخرجه عَن مُوسَى بن أبي عَلْقَمَة الْفَرْوِي عَن هِشَام ابْن سعد عَن سعيد بن أبي سعيد عَن أبي هُرَيْرَة . . . فَذكره وَقَالَ أَيْضا حَدِيث حسن انْتَهَى

1246 - الْحَدِيث الْخَامِس وَالْعشْرُونَ

(123/716)

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ من سره أَن يكون أَكْرم النَّاس فليتق الله تَعَالَى)

قلت رَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي كتاب الْأَدَب من حَدِيث أبي الْمِقْدَام هِشَام ابْن زِيَاد

عَن مُحَمَّد بن كَعْب الْقرظِيّ ثني ابْن عَبَّاس عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (من أحب

أَن يكون أَقْوَى النَّاس فَلْيَتَوَكَّل عَلَى الله وَمن أحب أَن يكون أَكْرم النَّاس فليتق الله تَعَالَى وَمن

أحب أَن يكون أَغْنَى النَّاس فَلْيَكُن بِمَا فِي يَد الله أوثق مِنْهُ بِمَا فِي يَده) مُخْتَصر وَفِيه طول

وَسكت عَنهُ وَتعقبه الذَّهَبِيّ فِي مُخْتَصره فَقَالَ هِشَام بن زِيَاد مَتْرُوك انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ عبد بن حميد وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه وَأَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مسانيدهم

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه

وَعَن الطَّبَرَانِيّ رَوَاهُ أَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة مُحَمَّد بن كَعْب الْقرظِيّ

وَرَوَاهُ الْعقيلِيّ فِي كِتَابه بِطُولِهِ وَأعله بِهِشَام بن زِيَاد وَقَالَ لَيْسَ لهَذَا الحَدِيث طَرِيق يثبت

انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن عدي وَضعف هِشَام بن زِيَاد عَن البُخَارِيّ وَالنَّسَائِيّ وَأحمد بن حَنْبَل وَابْن معِين

وَوَافَقَهُمْ وَقَالَ إِن الضعْف عَلَى روايا ته بَين انْتَهَى

(124/716)

وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي كتاب الزّهْد عَن الْحَاكِم بِسَنَدِهِ إِلَى هِشَام بِهِ سَوَاء وَقَالَ إِنَّهُم تكلمُوا فِي هِشَام بِسَبَب هَذَا الحَدِيث وَإِنَّهُ كَانَ يَقُول أَولا حَدثنِي يَحْيَى عَن مُحَمَّد بن كَعْب ثمَّ ذكر بعد أَنه سَمعه من مُحَمَّد بن كَعْب وَهَكَذَا وجد فِي كتاب عَفَّان ثمَّ قَالَ أخبرنَا أَبُو عبد الله الْحَافِظ وَأَبُو سعيد مُحَمَّد بن مُوسَى قَالَا ثَنَا أَبُو الْعَبَّاس مُحَمَّد بن يَعْقُوب ثَنَا أَحْمد بن عبد الْجَبَّار العطاردي ثَنَا أبي ثني عبد الرَّحْمَن الضَّبِّيّ عَن الْقَاسِم بن عُرْوَة عَن مُحَمَّد بن كَعْب الْقرظِيّ ثني عبد الله بن عَبَّاس يرفع الحَدِيث إِلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . فَذكره بِنَحْوِهِ إِلَّا أَنه قدم وَأخر بعض الْأَلْفَاظ

1247 - الحَدِيث السَّادِس وَالْعشْرُونَ

عَن يزِيد بن شَجَرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْه قَالَ مر رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي سوق الْمَدِينَة فَرَأَى غُلَاما أسود يُنَادي من يشتريني عَلَى شَرط أَلا يَمْنعنِي الصَّلَوَات الْخمس خلف رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَاشْتَرَاهُ رجل وَكَانَ يُصَلِّي و رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يراهُ عِنْد كل صَلَاة فَفَقدهُ فَسَأَلَ عَنهُ صَاحبه فَقَالَ مَحْمُوم فعاده ثمَّ سَأَلَ عَنهُ بعد ثَلَاثَة أَيَّام فَقيل هُوَ لما بِهِ فَجَاءَهُ وَهُوَ ذمائه فَتَوَلَّى غسله وَدَفنه فَدخل عَلَى الْمُهَاجِرين وَالْأَنْصَار أَمر عَظِيم فَنزلت يَعْنِي قَوْله تَعَالَى إِن أَكْرمكُم عِنْد الله أَتْقَاكُم

قلت هَكَذَا ذكره الثَّعْلَبِيّ والواحدي سَوَاء

1248 - الحَدِيث السَّابِع وَالْعشْرُونَ

(125/716)

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من قَرَأَ سُورَة الحجرات أعطي من الْأَجر بِعَدَد من أَطَاع الله عَزَّ وَجَلَّ وَعَصَاهُ)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث سَلام بن سليم الْمَدَائِنِي ثَنَا هَارُون بن كثير عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من قَرَأَ سُورَة الحجرات) إِلَى آخِره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه الْمُتَقَدّمين فِي آل عمرَان

وَبِسَنَد الثَّعْلَبِيّ رَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 3 صـ 323.353 ﴾

(126/716)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة الحجرات

قوله تعالى : (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) ، الآية/ 1 :

قيل : إنها نزلت في قوم ذبحوا قبل النبي ، فأمرهم أن يعيدوا الذبح .

وعموم الآية النهي عن التعجيل في الأمر والنهي دونه «1» .

ويحتج بهذه الآية في اتباع الشرع في كل ورد وصدر .

وربما احتج به نفاة القياس ، وهو باطل منهم ، فإن ما قامت دلالته فليس في فعله تقدم بين يديه . . وقد قامت دلالة الكتاب والسنة على وجوب القول بالقياس في فروع الشرع ، فليس إذا تقدم بين يديه .

قوله تعالى : (إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ) ، الآية/ 6 :

فيه دليل على أن خبر الفاسق لا يعمل به .

قيل : وقد استثنى الإجماع من جملة ذلك ما لا يتعلق بالدعوى والجحود ، وإثبات حق مقصود على الغير ، مثل قوله : هذا عبدي ، فإنه

---

(1) ذكر ذلك السيوطي في لباب النقول ، والواحدي النيسابوري في أسباب النزول .

يقبل قوله . . وكذلك قوله : وقد أنفذ فلان هذا إليك هدية ، فإنه يقبل ذلك . . كذلك يقبل خبر الكافر في مثله .

قوله تعالى : (فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ) ، الآية/ 9 .

فيه دلالة على جواز قتال البغاة ، وأن ذلك من قبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومنه أخذ علي رضي اللّه عنه قتال الفئة الباغية بالسيف ، وكان معه كبار الصحابة :

وقال صلّى اللّه عليه وسلّم لعمار : «ستقتلك الفئة الباغية» «1» .

والذي ورد في الخبر عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أنه قال :

«ستكون فتنة القائم فيها خير من الماشي والقاعد خير من القائم» .

وإنما أراد به الفئة التي يقتل الناس فيها من جهة الدنيا والعصبية والحمية ، من غير إمام تجب طاعته .

قوله تعالى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ) ، الآية/ 10 .

يعني أنهم إخوة في الدين .

وقوله : (فَأَصْلِحُوا) : يدل على وجوب الإصلاح عند التنازع بين المسلمين .

قوله تعالى : (لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ) ، الآية/ 11 .

نهى اللّه تعالى بهذه الآية عن عيب من لا يستحق أن يعاب تحقيرا له ، لأن ذلك هو معنى السخرية به ، فأخبر أنه وإن كان أرفع حالا منه في الدنيا ، فعسى أن يكون المسخور منه خيرا في الآخرة ، وخيرا عند اللّه تعالى .

---

(1) أخرجه الامام أحمد ، والترمذي ، والطبراني

(128/716)

وقوله تعالى : (وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ) ، الآية/ 11 .

قال أبو بكر رحمه اللّه : هو كقوله تعالى : (وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) «1» أي لا يقتل بعضكم بعضا ولا يلمز بعضكم بعضا لأن المؤمنين كنفس واحدة فكأنه بقتله أخيه قاتل نفسه ، وكقوله : (فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ) «2» أي يسلم بعضكم على بعض .

واللمز : العيب ، يقال لمزه إذا عابه ، ومنه قوله : (وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقاتِ) «3» .

فأما من كان معنيا بالفجور فتعينه بما فيه جائز ، قال الحسن في الحجاج : اللهم إنك أنت أمته فاقطع عنا سنته ، وفي رواية شينه ، فإنه أتانا أخفش أعيمش يمد بيد قصيرة البنان ، واللّه ما عرق فيها عنان في سبيل اللّه تعالى ، برجل جمثه ، ويخطر في مشيته ، ويصعد المنبر فيهذر حتى تفوت الصلاة ، لا من اللّه يتقى ، ولا من الناس يستحي ، فرقه اللّه تعالى وتحته

مائة ألف أو يزيدون ، لا يقول له قائل : الصلاة أيها الرجل . . ثم قال الحسن : هيهات والله ، حال دون ذلك السوط والسيف .

قوله تعالى : (وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ) ، الآية/ 11 .

ذكر عن الحسن أنه كان أبو ذر عند النبي عليه الصلاة والسلام ، وكان بينه وبين رجل منازعة ، فقال له أبو ذر : «يا ابن اليهودية ، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : أما ترى ها هنا بين أحمر وأسود ما أنت

---

(1) سورة النساء آية 29 .

(2) سورة النور آية 61 .

(3) سورة التوبة آية 58 .

أفضل منه إلا بالتقوى» «1» ، قال فنزلت هذه الآية : (وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ) «2» .

قال قتادة : ذلك لأن لا تقول لأخيك المسلم يا فاسق يا منافق .

والنهي يختص بما يكرهه الإنسان ، فأما الأوصاف الجارية غير هذا المجرى فغير مكروهة ، وقد سمى النبي عليه الصلاة والسلام عليا أبا تراب «3» وقال لأنس : يا أبا الأذنين ، وغير

النبي عليه الصلاة والسلام أسماء قوم فسمى العاص عبد اللّه ، وسمى شهابا هشاما ، وسمى حزنا سهلا .

قوله تعالى : (اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ) ، الآية/ 12 .

يدل على أنه لم ينه عن جميعه .

ففي الظنون ما هو محظور ، مثل سوء الظن باللّه تعالى ، وسوء الظن بالمسلمين الذين ظاهرهم العدالة .

وكل ظن استند العلم به إلى دليل يقيني ، فالعمل به واجب ، كالشهادات وقبولها وقيم المتلفات والأقيسة .

وقد يكون الظن مباحا ، كقول أبي بكر لعائشة رضي اللّه عنها : ألقى في روعي أن ذا بطن خارجة جارية ، فاستجاز هذا الظن لما وقع في قلبه .

وأما الظن المندوب إليه ، فهو حسن الظن بالأخ المسلم .

ويجوز أن لا يظن الخير ولا الشر .

---

(1) أخرجه البخاري ومسلم ، والامام أحمد في مسنده .

(2) انظر أسباب النزول للواحدي ، وتفسير ابن كثير سورة الحجرات ج 4 .

(3) كما جاء في الحديث الذي أخرجه الامام أحمد في مسنده ، وابن عساكر في تاريخه والطبراني في معجمه الكبير

قوله تعالى : (وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً) ، الآية/ 12 .

روى أبو هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم عن الغيبة فقال : هي ذكرك أخاك بما يكره . قال : أرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ فقال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته «1» .

وروى أبو هريرة أن الأسلمي جاء إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، وشهد على نفسه بالزنا ، فرجمه رسول اللّه ، فسمع صلّى اللّه عليه وسلم رجلين من أصحابه يقول أحدهما للآخر : انظر إلى هذا الذي ستر اللّه عليه فلم يدع نفسه حتى رجم رجم الكلاب ، فسكت عنهما ثم سار ساعة حتى مر بجيفة حمار شار «2» شائل برجله فقال : أين فلان وفلان ؟ فقالا :

نحن ذا يا رسول اللّه ، فقال : انزلا وكلا من جيفة هذا الحمار . فقالا :

يا رسول اللّه ، من يأكل من هذا ؟ فقال : ما نلتما من عرض أخيكما أشد من الأكل منه والذي نفسي بيده إنه الآن في أنهار الجنة ينغمس فيها «3» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 381. 385﴾

---

(1) أخرجه الحافظ ابن كثير في تفسير عن الامام أحمد في مسنده ، وعن ابن حميد أيضا .

(2) مستخرج من مكانه وهذه اللفظة غير موجودة في كثير من الكتب التي نقلت هذا الحديث ، والحديث أخرجه عبد الرزاق والبخاري في الأدب وأبو يعلى وابن المنذر والبيهقي في شعب الايمان بسند صحيح .

(3) انظر تفسير القرطبي ، وأسباب النزول للواحدي ، وتفسير ابن كثير ج 4 .

(131/716)

وقال السايس :

من سورة الحجرات

قال اللّه تعالى : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ (6) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيانَ أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7) فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (8)

اشتملت سورة الحجرات على إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق ، وبيّنت لهم أقوم الطرق التي يسلكونها في حياتهم الدنيا ، وخير المناهج التي ينتهجونها في معاملتهم ، فبيّنت لهم

أنواعا من الأدب ، تختلف باختلاف من تكون المعاملة معه .

وذلك أنه إمّا أن تكون المعاملة : مع اللّه تعالى ، أو مع الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، أو مع غيرهم من بني آدم وهؤلاء على قسمين ، لأنهم إما مؤمنين ملتزمين الطاعة ، أو خارجين عن حدودها وهؤلاء هم الفاسقون . والمؤمن الذي التزم حدود الطاعة إما أن يكون حاضرا أو غائبا ، فهذه خمسة أصناف .

وقد جاء خطاب المؤمنين ب (يا أيها الذين آمنوا) في هذه السورة خمس مرات ، بيّن تعالى في كلّ مرّة مكرمة تتناسب مع من تكون المعاملة معه .

- فقال في جانب اللّه تعالى : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وذكر الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم إنما جيء به هنا لأنه الذي يوضّح طريق طاعة اللّه تعالى .

- وقال في جانب المعاملة مع الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ .

- وقال في جانب المؤمن الخارج عن حدود الطاعة (الفاسق) : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا .

- وقال في جانب المعاملة مع المؤمنين الحاضرين : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ .

- وقال في جانب الغائب : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ .

ومن أراد أن يقف على المكرمتين الأوليين فليطلبهما في كتب التفسير . ولنبدأ بالآية التي معنا .

قال اللّه تعالى : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ (6) .

يحذّر اللّه المؤمنين في هذه الآية ، ويرشدهم إلى وجوب عدم الاعتماد على أقوال الكذبة الفاسقين ، فإنّ الاستماع إليهم يوقع الفتنة بين المؤمنين ، فيفشلوا ، وتذهب ريحهم ، وتتمكن العداوة والبغضاء من نفوسهم ، وحينئذ يعضّون أصابعهم ندما ، ولا ينفع الندم .

وقد يبدو أنّ مقتضى الترتيب أن تؤخّر آية الفاسق بعد آيات المؤمنين ، ولكن لما كان الاستماع إلى الفاسق والاعتماد عليه قد يؤدي إلى فتنة وفساد كبير قدّم الكلام فيه ، اعتناء بأمر المسلمين ، واهتماما بأمر سلامتهم من الفتن ، التي يجرّها الاعتماد على من يوضعون خلال المؤمنين ، يبغونهم الفتنة .

وقد روي في سبب نزول هذه الآية ما أخرجه أحمد وابن أبي الدنيا والطبراني وغيرهم «1» بسند جيّد عن الحارث بن ضرار الخزاعي قال : قدمت على رسول اللّه صلّى اللّه

عليه وسلّم ، فدعاني إلى الإسلام ، فدخلت فيه ، وأقررت به ، فدعاني إلى الزكاة ، فأقررت بها ، وقلت : يا رسول اللّه أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لي جمعت زكاته ، وترسل إليّ يا رسول اللّه رسولا لإبان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة .

فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له ، وبلغ الإبان الذي أراد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أن يبعث إليه ، احتبس عليه الرسول فلم يأت ، فظنّ الحارث أن قد حدث فيه سخطة من اللّه عزّ وجلّ ورسوله ، فدعا بسروات قومه ، فقال لهم : بأنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم كان وقّت لي وقتا يرسل إليّ رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة ، وليس من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم الخلف ، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة كانت ، فانطلقوا فنأتي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وبعث رسول اللّه الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وهو أخو عثمان رضي اللّه عنه لأمه إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة ، فلما أن سار الوليد إلى أن بلغ بعض الطريق فرق ، فرجع ، فأتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فقال : إنّ الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي . فضرب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم البعث إلى الحارث ، فأقبل الحارث بأصحابه حتّى استقبله البعث ، وقد فصل عن المدينة ، قالوا : هذا الحارث ، فلما غشيهم قال لهم :

إلى من بعثتم ؟

(1) انظر المسند للإمام أحمد بن حنبل (4/ 279) .

(133/716)

قالوا : إليك ، قال : ولم ؟ قالوا : إنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بعث إليك الوليد بن عقبة ، فزعم أنّك منعته الزكاة ، وأردت قتله قال : لا والذي بعث محمدا بالحق ، ما رأيته بتة ، ولا أتاني . فلما دخل الحارث على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «منعت الزكاة ، وأردت قتل رسولي ؟» قال : لا والذي بعثك بالحق ، ما رأيته ولا رآني ، ولا أقبلت إلا حين احتبس عليّ رسول رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم خشية أن تكون سخطة من اللّه عزّ وجلّ ورسوله ، قال :

فنزلت الحجرات : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ .

ولم يختلف الذين رووا أسباب النزول في أنّ الوليد بن عقبة بن أبي معيط كان الشخص الذي جاء بالنبإ ، إنما اختلفوا في أسباب قوله ، فمنهم من روى أنّه خاف وفرق حين رأى جماعة الحارث وقد خرجت في انتظاره ، فظنها خرجت لحربه ، ومنهم من

روى أنّه كان بينه وبينهم موجدة في الجاهلية ، فجاء إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وقال : إنّهم قد تركوا الصلاة ، وارتدوا ، وكفروا باللّه ، فلم يعجل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم

، وبعث خالد بن الوليد إليهم ، وقال : «ارمقهم عند الصلاة ، فإن كان القوم قد تركوا الصلاة فشأنك بهم ، وإلا فلا تعجل عليهم» .

وهنا يختلف الذين رووا سبب النزول مرة أخرى ، فيروي بعضهم ما قدمنا من أنّهم قدموا ، وقابلوا البعث حيث فصل من المدينة .

ويروي بعض آخر أنّ خالد بن الوليد رضي اللّه عنه خرج إليهم ، ودنا منهم عند غروب الشمس ، فكمن حيث يسمع الصلاة ، فرمقهم ، فإذا هو بالمؤذن قد قام حين غربت الشمس ، فأذّن ثم أقام الصلاة ، فصلوا المغرب .

فقال خالد : ما أراهم إلّا يصلون ، فلعلهم تركوا غير هذه الصلاة ، ثم كمن حتى إذا جنح الليل وغاب الشفق أذّن مؤذنهم ، فصلوا . فقال : فلعلهم تركوا صلاة أخرى ، فكمن حتى إذا كان في جوف الليل تقدّم حتى أطل الخيل بدورهم ، فإذا القوم تعلّموا شيئًا من القرآن ، فهم يتهجدون به من الليل ، ويقرؤونه . ثم أتاهم عند الصبح فإذا المؤذن حين طلع الفجر قد أذّن ثم أقام ، فقاموا فصلوا ، فلما انصرفوا وأضاء لهم النهار إذا هم بنواصي الخيل في ديارهم ، فقالوا : ما هذا ؟ قال : خالد بن الوليد .

قال : يا خالد ما شأنك ؟

فقال : واللّه أنتم شأني ، أتي النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فقيل له : إنكم كفرتم باللّه وتركتم الصلاة ، فجعلوا يبكون ، فقالوا : نعوذ باللّه أن نكفر باللّه أبدا ، فصرف الخيل وردّها عنهم

، حتى أتى النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم ، وأنزل اللّه قوله تعالى : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا «1» .

وقد عرفت مرارا أنّ الآية تكون عامة ، وإن نزلت على سبب خاص ، ما دام

---

(1) انظر الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي (6/ 89) .

لفظها عاما ، وقد قال الحسن : فو اللّه لئن كانت نزلت في هؤلاء القوم خاصة إنّها لمرسلة إلى يوم القيامة ما نسخها شيء .

والفاسق : الخارج من حدود الشرع ، من قولهم : فسق الرطب : إذا خرج عن قشره ، وسمي به الفاسق لانسلاخه عن الخير ، والفسق أعمّ من الكفر ، لأنه يقع بالقليل من الذنوب وبالكثير ، ولكن تعورف فيما كان بكثيره ، يكثر ما يقال لمن كان مؤمنا ، ثم أخلّ بجميع الأحكام أو ببعضها .

والتبين : طلب البيان ، وقد قرئ (فتثبتوا) بدل فَتَبَيَّنُوا وهما متقاربان ، إذ التثبت طلب الثبات ، وما كان ثابتا كان قريب المعرفة . ويرى بعض اللغويين أنّه لا يقال للخبر نبأ حتى يكون ذا فائدة عظيمة ، ويكون معنى الآية : إن جاءكم أيّ فاسق بنبإ عظيم ، له نتائج

عظيمة ، فلا تقبلوه بادئ الأمر ، بل توقّفوا فيه ، وتثبتوا ، حتى تأمنوا العاقبة .

والتعبير بكلمة (إن) التي هي (للشك) للإشارة إلى أنّ الغالب في المؤمن أن يكون يقظا ، يعرف مداخل الأمور ، وما يترتّب عليها ، وإذ يكون هذا شأن المؤمنين فلا يجيئهم كاذب يكذب عليهم ، وإن وقع ذلك يكون على ندرة وقلّة .

وقوله تعالى : أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ تعليل للأمر بالتبين ، وهو إمّا مقدّر فيه لام التعليل قبل (إن) و(لا) النافية بعدها ، أي فتبينوا لئلا تصيبوا ، وإما مقدر فيه (الكراهة) أي كراهة أن تصيبوا . وقوله : بِجَهَالَةٍ أي متلبسين بجهالة ، أي جاهلين حالهم ، أو تصيبوهم بسبب جهالتهم أمرهم وما هم عليه .

و(أصبح) هنا بمعنى (صار) والمعنى : فتصيروا من بعد تبيّن الأمر نادمين ، ويستمر معكم هذا الندم .

والندم ضرب من الغم ، وهو أن يلحق النادم الغمّ على ما وقع منه ، يتمنى أنه لم يقع ، وهو غمّ يصحب الإنسان صحبة لها دوام ولزوم ، لأنه كلما تذكر فعله راجعه الندم .

وقد استدلّ بالآية على أنّ الفاسق أهل للشهادة ، وإلا لم يكن للأمر بالتبين فائدة ، قاله الآلوسي ، وقال الأثري : إنّ العبد إذ شهد لا تقبل شهادته ، ولا يحتاج فيها إلى التبيّن .

ومذهب الحنفية «1» أنّ الفاسق لا تقبل شهادته وإن كان أهلا لها ، ولو قضى بها القاضي كان عاصيا ، وينفذ قضاؤه ، وتقبل شهادته عندهم في النكاح ، لأنّ الشهادة من

باب الولاية ، وهو لمّا جاز أن يكون وليا على الزوجة في مالها ، جاز أن يلي عليها في بضعها ، وعبارته في النكاح عبارة ، وتعبير عن ثبوت العقد لا إلزام فيها ، ومن مذهبهم ألا تقبل الشهادة من الفاسق فيما فيه إلزام ، والإلزام الذي في النكاح لم يجئ من الشهادة ، وإنما جاء من التزام المتعاقدين في العقد .

---

(1) انظر الهداية شرح بداية المبتدي للمرغيناني (1 - 2/ 131) .

(135/716)

واستدلّ بالآية أيضا على قبول خبر الواحد العدل ، وتقرير الاستدلال بها من وجهين :

الأول : أنه قد رتب الأمر بالتبين على مجيء الفاسق لنبأ ، فيفيد ذلك أن الفسق علة للتبين ، ومعنى كون الشيء علة لشيء آخر ، أن يكون له تأثير في وجوده ، لا يوجد إلا معه ، وإلا فلو وجد دونه لما كان علة له ، والفرض أنّه العلة .

وقد رد هذا بأنّ إثبات العلية بطريق ترتّب الحكم على الوصف إثبات بظني ، ولا ينهض حجة في إثبات أصل من الأصول ، ولأنّ الاقتصار على شيء لا ينفي ثبوت الحكم فيما عداه .

والثاني أن التبين مشروط بمجيء الفاسق ، ومفهوم هذا الشرط انعدام الأمر بالتبين عند

عدم الشرط ، فيثبت انعدام التبين في خبر الواحد العدل فيكون مقبولا ، وهو مردود ، بأنّ ذلك قول ناشىء من اعتبار مفهوم المخالفة حجة ، وهو مختلف فيه ، فلا يثبت به أصل من الأصول ، لأنّ الظواهر لا تكفي في إثبات المسائل العلمية .

واستدل الحنفية بالآية على قبول خبر الواحد المجهول الحال ، لأنّها دلت على أنّ الفسق شرط وجوب التثبت والتبين ، فيقتصر فيه على محل وروده ، ويبقى ما وراءه على الأصل ، وهو القبول .

وأنت ترى أنّ هذا استدلال مبني على أنّ الأصل العدالة . والخصم ينازعهم فيه ، ويقول : بل الأصل عدمها ، والظاهر أنّ مسألة قبول المجهول مبنية على هذا ، فإن صحّ أنّ الأصل العدالة ، فهو باق على عدالته ، حتى يتبين خلافها ، وإن كان الأصل عدمها ، فهو داخل في الفسق ، ويكون المراد منه من لم تتبيّن عدالته .

واستدلّ بالآية أيضا على أنّ من الصحابة من ليس بعدل ، لأن اللّه تعالى أطلق الفاسق على الوليد بن عقبة ، فإنّها نزلت فيه ، وسبب النزول لا يمكن إخراجه من اللفظ العام ، وهو صحابي بالاتفاق ، وتكون الآية ردّا على قول من ذهب إلى أنهم كلهم عدول ولا نبحث عدالتهم في رواية ولا شهادة .

والمسألة خلافية ، وفيها أقوال كثيرة :

أحدها ، هذا وعليه أكثر العلماء سلفا وخلفا .

والثاني : أنّهم كغيرهم ، فيبحث على العدالة فيهم كما يبحث عنها في غيرهم رواية وشهادة ، إلا من يكون ظاهر العدالة أو مقطوعها كالشيخين أبي بكر وعمر رضي اللّه تعالى عنهما .

وثالثها : أنهم عدول إلى زمن عثمان ، ويبحث عن عدالتهم من مقتله .

ورابعها : أنهم عدول إلا من قاتل عليا والمسألة لها موضع غير هذا ، ولكل أدلته وبراهينه .

(136/716)

ثم إنّ الفاسق قسمان :

قسم فاسق غير متأوّل ، وهذا لا خلاف أنه لا يقبل خبره .

وقسم فاسق متأوّل : كالجبرية والقدرية ، ويقال له : المبتدع بدعة واضحة ، وهذا قد اختلف فيه ، فمن الأصوليين من ردّ شهادته وروايته ، ومنهم من قبلهما .

فأما الشهادة فلأنّ ردها لتهمة الكذب ، والفسق من حيث الاعتقاد لا يدل عليه ، بل قد يكون أمارة الصدق ، لأنّ الذي جعله يذهب مذهبه هو تعمقه في الدين ، والكذب حرام في كلّ الأديان ، ومن المبتدعة من يقول : بكفر الكاذب .

وأما الرواية : فلأنّ من احترز عن الكذب على غير الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم فهو على الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم أشدّ تحرّزا ، فهذا يجب أن يكون حالهم ما لم يظهر منهم ما ينافيه ، وعلى هذا جمهور أهل الفقه والحديث .

وذهب الشافعي وبعض العلماء إلى الأول ، لأنّ الآية إنما دلّت على التثبت من قول يقوله الفاسق ، وظاهر أنّ ذلك إنما كان لأنّ الغالب في الفاسق أن يكذب ، فإذا ظهر أنه ممن لا يكذب ، فالآية لم تعرض له ، والذين تقبل شهادتهم من المبتدعة قوم يتشدّدون في الدين ، لا يبيحون الكذب ، فلم يكونوا ممن تناولته الآية الكريمة .

وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7) فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (8) .

يرى الزمخشري أنّ الجملة المصدّرة (بلو) لا تكون كلاما مستأنفا ، لأدائه إلى تنافر النظم .

ولكن تكون كلاما متصلا بما قبله ، وهي هنا (حال) من أحد الضميرين في (فيكم) المستتر المرفوع ، أو البارز المجرور .

والمعنى : أنّ فيكم رسول اللّه على حال يجب عليكم تغييرها ، وهي أنّكم تحاولون معه أن يعمل في الحوادث على مقتضى ما يعنّ لكم من رأي ، وينزل على إرادتكم فعل المطواع لغيره ، التابع له فيما يرتئيه . وهو لو فعل ذلك لعنتم ، ووقعتم في العنت والهلاك ، يقال : فلان

يتعنّت فلانا ، أي يطلب ما يؤديه إلى الهلاك . ويقال :

أعنت العظم إذا هيض بعد الجبر . وقد يستفاد من هذا أنّ بعض المؤمنين كانوا يزيّنون للرسول صلّى اللّه عليه وسلّم الإيقاع بقوم الحارث وتصديق الوليد في نبئه ، وأنه كانت تفرط منهم نظائر ذلك من الهنات ، وأنّ فريقا منهم كان يتصوّن ، ويزعم إيمانهم ، وجدّهم في التقوى فلا يجسرون على ذلك ، وسيأتي بيان ذلك عند قوله تعالى : وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ .

(137/716)

ويرى بعضهم أنه يجوز أن يكون قوله : لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ كلاما مستأنفا ، وذلك أنّه لما قال اللّه تعالى : إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ثم قال : وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ كان ذلك بمثابة أنّ طريق الكشف والتبيّن سهل وممكن ، وهو الرجوع إلى الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم . لأنه فيكم ، يبيّن لكم ، ويرشدكم ، وفي ذلك تنزيل لهم منزلة الجاهلين بمكان الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم فيهم ، وبوظيفته من البيان والإرشاد بينهم .

فاتجه من ذلك : أن يسأل سائل : ماذا فعلوا حتى نسبوا إلى التفريط ، وقرّعوا بجهل منزلة الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم فيهم ؟

فجاء قوله تعالى : لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ مومئا إلى ما كان منهم من محاولة أن ينزل الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم على رأيهم في الذي يرون ، واتباع إشارتهم فيما يقولون . وذلك أنّه بيّن لهم النتيجة التي تترتب على نزوله على إرادتهم ، والخضوع لإشارتهم ، فقال : لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وأنت ترى أن هذا القول وإن كان حسنا من حيث المعنى ، إلّا أن فيه تغاضيا عن أنّ قوله تعالى : وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ معطوف (بالواو) وهو مرتبط بما قبله ، وفيما ذهب إليه هذا البعض ما يفضي بترك العطف . وظاهر كذلك أنّ ما ذهبوا إليه فيه إضمار لا حاجة إليه ، ولا ضرر في جعل الجملة لَوْ يُطِيعُكُمْ حالا من أحد الضميرين ، على ما ذهب إليه الزمخشري «1» . والمعنى على أحد الوجهين : هو جعلها حالا من الضمير المستتر ، وأمّا الوجه الآخر فالمعنى : (واعلموا أنّ فيكم رسول اللّه) حال كونكم على حال تتنافى مع مقامه بينكم ، تلك الحال هي إرادتكم أن ينزل على إرادتكم ، وذلك ضارّ بكم ، يترتب عليه عنتكم وهلاككم .

وجاء قوله : (لو يطيعكم) على صيغة المضارع بدل الماضي للدلالة على أنهم كانوا يريدون إطاعة الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم لهم إطاعة مستمرة ، بدليل قوله تعالى : فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ وذلك أن صيغة المضارع تفيد التجدد والاستمرار ، تقول : فلان يقري الضيف ويحمي الحريم ، تريد أنّ ذلك شأنه ، وأنّه مستمر على ذلك .

وقوله تعالى : وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ

وَالْعِصْيانَ استدراك على ما يقتضيه الكلام من وقوع العنت بهم . والمعنى : أنّ ما هم عليه كان يقتضي هلاكهم ، ولكن منع من ذلك أنّ اللّه هدى فريقا منهم ، وحبّب إليه الإيمان ، فآمن ، وزينه في قلبه ، فأقام عليه ، فلم يكن شأنه شأن أولئك الذين يريدون قلب الأوضاع ، بأن يتّبعهم الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم في الذي يرون .

---

(1) في تفسيره الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (4/ 361) .

(138/716)

وكان الظاهر على هذا المعنى أن يقول : ولكنّ اللّه حبّب إلى بعضكم الإيمان ، ولكنّه عمّم الخطاب تعريضا بمن فرط منه ذلك ، وإشارة إلى أنهم وقد دخلوا في الإيمان واستقر الإيمان في قلوبهم ما كان ينبغي أن يكون ذلك شأنهم ، فاستغني عن التنصيص على خطاب البعض لذلك ، وأيضا فإنّه لما ذكر الصفة التي تميز هذا الفريق اكتفى بها عن التنصيص على الموصوف ، مراعاة لما في تعميم الخطاب من فائدة التعريض .

ويرى بعضهم أنّ الخطاب لجميع المؤمنين ، والمعنى عليه : أنّه لم يلحقكم العنت ، لأنّه يعلم أنّه لم يدفعكم إلى ما أنتم فيه إلا حبّكم الإيمان ، ومقامه في قلوبكم ، وكرهكم الكفر ، ونفرتكم من الفسوق والعصيان .

ومعنى تحبيب الإيمان إليهم تقريبه لهم ، وإدخاله في قلوبهم ، ومعنى تزيينه في قلوبهم إقامته فيها ، بحيث لا يفارقها ، وذلك أنّ من أحبّ شيئًا فقد يفارقه ، ولكن إذا زيّن له يستمر في الإقامة عليه والمكث فيه .

وقد ذكر اللّه الإيمان ، وقابله بأمور ثلاثة كرهها إليهم ، وهي : الكفر ، والفسوق ، والعصيان . والإيمان اسم لثلاثة أشياء : التصديق بالجنان ، والإقرار باللسان ، والعمل بالجوارح . فالكفر هو الإنكار ، وهو يقابل الإذعان بالجنان . والفسوق يقابل الإقرار باللسان ، وقد سبق إطلاق الفسق على المجيء بالنبإ الكاذب ، وسيجيء إيراده بهذا المعنى في قوله : بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ وذلك يدلّ على استعمال الفسق في الأمر القولي .

وهو في هذا المعنى مناسب لاشتقاق كلمة الفسق ، فإنّها في أصل وضعها تدلّ على الخروج ، مأخوذة من فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها ، فهو يدلّ على الظهور والكذب يظهر ويعرف ، فمن ثمّ صحّ إطلاق الفسق عليه . وأما العصيان فهو ترك العمل .

ويرى بعضهم أنّ الكفر : الشرك ، والفسوق : الكبيرة ، والعصيان : الصغيرة .

وقوله تعالى : أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ الإشارة فيه إلى الفريق الذي حبّب إليه الإيمان ، وزيّن في قلبه ، والخطاب فيه للرسول صلّى اللّه عليه وسلّم وفي تسميتهم بالراشدين إشارة إلى أنهم أقاموا على اتباع أمر الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ووقفوا عند إرشاده ، وعرفوا مقامه

ومكانه بينهم ، فاستحقوا الرشد وكانوا راشدين . وفيه تعريض بالفريق الآخر حيث ابتعدوا عما يوصلهم إلى الرشد .

فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (8) قوله : (فضلا) إما منصوب على أنه مفعول له ، والعامل فيه فعل مفهوم من قوله (الراشدون) أي وفّقهم اللّه إلى الرشد ، فضلا ، منه ونعمة ، والعامل فيه حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ويكون قوله : أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ جملة اعتراضية ، وإما منصوب عل أنّه مصدر من غير لفظ العامل ، وهو الراشدون ،

(139/716)

وذلك أن الرشد فضل ، فكأنه قيل : هم الراشدون رشدا ، أو هو مصدر ، وعامله محذوف ، أي تفضل فضلا ، وأنعم نعمة . والفضل : ما في خزائن اللّه ، وهو مستغن عنه ، والنعمة : ما يصل من الفضل إلى العبد .

وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ يعلم من يتحرّى الخير ومن لا يتحراه ، ومن يريد الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم على ما تقتضي به الحكمة ومن لا يريده ، وهو فوق هذا يعلم الأشياء ، ويعلم الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم بها ، ويأمره منها بما تقضي به الحكمة ، فيجب أن تقفوا عند أمره ، وأن تجتنبوا الاقتراح عليه .

قال اللّه تعالى : وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (9) لما حذّر اللّه المؤمنين نتائج الاستماع لنبأ الفاسق ، أراد أن يبيّن ما يتدارك به الأمر لو وقع ، فقال : وَإِنْ طائِفَتانِ الطائفة : أقل من الفرقة ، بدليل قوله تعالى : فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ [التوبة : 122] كذا قيل ، ولك أن تقول : لولا تقدّم الفرقة ما فهم منه هذا المعنى ، فالطائفة الجماعة ، والفرقة الجماعة ، وقد تكون الجماعة قليلة ، وقد تكون كثيرة .

والتعبير (بإن) للإشارة إلى أنّه لا ينبغي أن يقع القتال بين المسلمين ، وأنه إن وقع فإنما يقع من الندرة والقلة ، التي يشكّ في وجودها ، وجاء اقْتَتَلُوا بلفظ الجمع ، مع أنّ الظاهر مجيئه بلفظ التثنية ، لأن الطائفة وإن كان مفردا في اللفظ فهو جمع في المعنى ، فروعي فيه المعنى أولا ، ثم روعي اللفظ ثانيا ، في قوله : فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما .

(واقتتلوا) بمعنى تقاتلوا ، والمراد بالإصلاح في قوله : فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما الأولى بذل النصح والإرشاد ، وإزالة الشبه التي تكون عند إحداهما ، أو عند كليهما ، ودعوتهما إلى النزول على حكم اللّه .

فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى البغي : العدوان ، والمراد الغلو بغير الحق ، وعدم الإذعان للنصيحة فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ أي استمرّوا في قتالها حتى

ترجع إلى حكم اللّه ، أو إلى ما أمر اللّه به من عدم البغي .

فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ بفصل ما بينهما من أسباب الخصومة ونتائجها ، ولا تكتفوا بمجرد المتاركة والموادعة ، خشية أن تكون إحداهما أو كلاهما تركته تقية ، وانتظارا للفرصة تسنح ، وتقييد الصلح بالعدل هنا لأنه بعد القتال ، وذلك مظنة الحيف ، أي لا يحملنكم ما كان منهم من عناد وبغي على أن تظلموهم ، ولا على أن

(140/716)

تظلموا عدوّهم لضعفه ، بل يجب أن تعدلوا وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى .

وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ أي اعدلوا ، والزموا العدل في كل الأمور ، فإنّ اللّه يحب المقسطين ، فيجازيهم أحسن الجزاء .

سبب النزول : أخرج أحمد والبخاري ومسلم وابن جرير « 1 » وغيرهم في سبب نزول هذه الآية عن أنس رضي اللّه عنه قال : قيل للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم : لو أتيت عبد اللّه بن أبي ، فانطلق إليه ، وركب حمارا ، وانطلق المسلمون يمشون ، وهي أرض سبخة ، فلما انطلق إليه ، قال : إليك عنّي ، فو اللّه لقد آذاني ريح حمارك ، فقال رجل من الأنصار :

واللّه لحمار رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أطيب ريحا منك ، فغضب لعبد اللّه رجال من قومه ، وغضب للأنصاري آخرون من قومه ، فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال ، فأنزل اللّه فيهم : وَإِنْ طائِفَتانِ .

وقيل : كان النبي صلّى اللّه عليه وسلّم متوجها لزيارة سعد بن عبادة في مرضه ، فمر على عبد اللّه بن أبي بن سلول ، فقال ما قال ، فرد عليه عبد اللّه بن رواحة ، فتعصّب لكل أصحابه ، فتقاتلوا ، فنزلت ، فقرأها صلّى اللّه عليه وسلّم فاصطلحوا ، وكان ابن رواحة خزرجيا ، وابن أبي أوسيا .

وقيل : إنّها نزلت في رجل من الأنصار يقال له عمران ، وكان تحته امرأة يقال لها : أم زيد ، وقد أرادت أن تزور أهلها ، فحبسها زوجها ، وجعلها في علية له ، لا يدخل عليها أحد من أهلها ، فبعثت المرأة إلى أهلها ، فجاء قومها ، فأنزلوها لينطلقوا بها ، واستعان الرجل بقومه ، فجاؤوا ليحولوا بين المرأة وأهلها ، فتدافعوا ، وكان بينهم معركة ، فنزلت فيهم هذه الآية ، فبعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فأصلح بينهم ، وفاؤوا إلى أمر اللّه «2» .

والخطاب في الآية الكريمة لولاة الأمور ، والأمر فيها للوجوب ، فيجب الإصلاح بالنصح ، فإن أبت إحداهما إلا البغي ، وجب قتالها ما قاتلت ، فإن رجعت عن بغيها ، والتزمت حكم اللّه تركت .

هذا وقد تمسّك جماعة بما جاء في سبب النزول ، وقالوا : يقتصر في قتال الفئة الباغية على ما دون السلاح ، ولا يجوز مقاتلتهم بالسلاح ، وهو لا يصح أن يتمسّك به . فأنت تعلم أنّ اللّه قال : فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ وهو أمر بالمقاتلة إلى

---

(1) رواه مسلم في الصحيح (3/ 1424) ، 32 - كتاب الجهاد ، 40 - باب حديث رقم (117/ 1799) ، والبخاري في الصحيح (3/ 221) ، 53 - كتاب الصلح ، 1 - باب ما جاء في الإصلاح ، حديث رقم (2691) ، وأحمد في المسند (3/ 157) .

(2) انظر تفسير ابن جرير الطبري المسمى جامع البيان في تفسير القرآن (26/ 81) .

(141/716)

الفيئة ، فإذا كانوا لا يفيئون إلا بالسيف وجب قتالهم به ، لأن الغرض من المقاتلة هو الفيئة ، وهي لا تحصل إلا به ، وقد وقع من الصحابة قتال البغاة بالسيف ، وكفى بهم قدوة ، ونزول آية عامة على واقعة خاصة لا يخصص العام ، على أنّ القتال إنما شرع عند البغي قمعا للفتنة بين المسلمين ، والمفروض أنّ العلاج قد استعصى بالنصح ، ويراد اتخاذ علاج حاسم ، فليترك الأمر لمن يباشر الحسم ، فإن رأى أنّ الدواء يستأصل بما دون السلاح كان مسرفا

في الزيادة ، وإن رأى أنّ الفتنة لا تدفع إلا بالسلاح فعل حتى الفيئة .

واختلفت أقوال الفقهاء في أموال البغاة التي أخذت منهم أثناء قتالهم ، فعن الإمام محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة : أن أموالهم لا تكون غنيمة . وإنما يستعان على حربهم بكراعهم وسلاحهم عند الاستيلاء عليه ، فإذا وضعت الحرب أوزارها ردّ المال عليهم ، وكذا يردّ الكراع والسلاح إذا لم يبق أحد باغيا .

وروي عن أبي يوسف : أن ما وجد في أيدي أهل البغي من كراع وسلاح فهو فيء يقسّم ويخمس ، وإذا تابوا لم يؤخذوا بدم ولا مال استهلكوه .

وروي عن الإمام مالك رضي اللّه عنه : ما استهلكه الخوارج من مال ودم ثم تابوا لم يؤخذوا به ، وما كان قائما بعينه ردّ ، وهو مروي عن الأوزاعي والشافعي .

وقال الحسن بن صالح : إذا قوتل اللصوص المحاربون فقتلوا ، وأخذ ما معهم ، فهو غنيمة لمن قاتلهم بعد إخراج الخمس ، إلا أن يكون شيء قد علم أنّهم سرقوه من الناس ، وعرف أصحابه ، فإنّه يردّ عليهم .

وما استهلك من أموالهم أثناء التجمع للقتال ، والتفريق عند وضع الحرب أوزارها ، لا ضمان فيه بالإجماع .

وقد جاء في حديث أخرجه الحاكم «1» ما يوضّح الحكم في المسألة ، فقد جاء فيه قال عليه الصلاة والسلام : «يا ابن أم عبد هل تدري كيف حكم اللّه فيمن بغى من هذه

الأمة» .

فقال : اللّه ورسوله أعلم . قال : «لا يجهز على جريحها ، ولا يقتل أسيرها ، ولا يطلب هاربها ، ولا يقسّم فيئها» .

وقد روى عكرمة بن عمار بسنده عن ابن عباس أنّ الخوارج نقموا على علي رضي اللّه عنه أنّه لم يسب ولم يغنم ، فحاجّهم قائلا : أفتسبون أمّكم عائشة ، ثم تستحلون منها ما تستحلّون من غيرها ؟ فإن فعلتم لقد كفرتم .

وقد سئل أبو وائل : أخمّس علي أموال أهل الجمل ؟ قال : لا .

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين (2/ 155) . [. . . . .]

وإنما ذكر اللّه العدل في الإصلاح بعد الفيئة ، لأنّ هذا وقت قد غلبت فيه الفئة الباغية على أمرها ، ويغلب أن تظلم ، وتصادر أموالها ، وما أخذ منها لا يردّ إليها .

فالعدل وذكره هنا بمثابة أن يقال : لا يحملنّكم قهركم إياهم على ظلمهم ، فهم طائفة من المؤمنين عصمت دماؤهم ، وعصمت أموالهم ، وما حصل منهم يكفي فيه قهرهم ، وما نالهم من الهزيمة ، فتكون الآية حينئذ ظاهرة في أنّه لا يجوز أسرهم بعد الفيئة ، ولا يكون

مالهم فيئا ولا يضمّنون شيئا .

قال اللّه تعالى : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10)

بيّن اللّه تعالى في الآية السابقة أنّه لو ظهرت بوادر القتال بين طائفتين من المؤمنين ، فالواجب إصلاح ذات البين بالنصح والإرشاد ، فإن جنحا للسلم ، فقد كفى اللّه المؤمنين القتال ، وإن جنحت إحداهما ، وبغت الأخرى ، فالواجب قتال الباغية حتّى تفيء إلى أمر اللّه ، فإن فاءت ورجعت فالواجب الإصلاح بالعدل ، لا يجهز على جريح ، ولا يسبى أحد ، ولا يقسم الفيء ، وهنا بيّن اللّه تعالى أنّ الإصلاح كما يجب بين الجماعات فهو واجب بين الأفراد ، حتّى لا يظنّ ظانّ أنّ الإصلاح إنما يجب عند اختلاف الجماعات والطوائف ، لأنّ اختلاف الجماعات شديد البلاء ، يخشى منه على المسلمين أن تذهب ريحهم ، ويتمكّن منهم عدوّهم . فأمّا إذا كان الخلاف بين فردين فليست له هذه الأهمية ، فلا يجب الإصلاح ، فدفعا لهذا الوهم قال اللّه تعالى : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وقد ذهب بعض أهل اللغة ، إلى أنّ إخوة جمع الأخ من النسب ، وأما الأخ بمعنى الصديق فجمعه إخوان ، فجعل اللّه الإخوة في الإسلام إخوة في النسب ، فأعطاها اسمها توكيدا لأمر المحافظة عليها ، وإشارة إلى أنهم في الإسلام إخوة ، وأن الإسلام ينتمون إليه كما ينتمي الإخوة إلى أبيهم .

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

وزيادة في أمر العناية بالإصلاح بين الأخوين ذيّل اللّه الأمر به بالأمر بالتقوى ، لأنّه لما لم يكن عاما فقد لا يخشى ضرره ، فلا يتسارع الناس إلى إزالته ، فقال : وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ يعني واللّه أعلم : فأصلحوا بينهما ، وليكن رائدكم في هذا الإصلاح تقوى اللّه وخشيته ، والخوف منه ، فالتزموا الحق العدل ، ولا تحيفوا ، ولا يكن منكم ميل لأحد الأخوين ، فإنّهم إخوانكم ، وليس أحدهما بالنسبة إليكم فاضلا والآخر مفضولا ، إذ الذي جمع بينكم وبينهما الإسلام ، وفي الإسلام تذهب الفوارق وتتلاشى .

الحصر (بإنما) يفيد أنّ أمر الإصلاح ووجوبه إنما هو عند وجود الإخوة في الإسلام ، فأما بين الكفار فلا ، وأما بين المسلم والكافر ، فللمسلم علينا النصرة

(143/716)

والإعانة مطلقا إن كان خصمه حربيا . ونصره وإعانته عند وقوع ظلم عليه إن كان خصمه ذميا أو صاحب أمن .

وأما إن كان خصمه ذميا والمسلم ظالم له ، فالواجب علينا وضع الظلم ، فقد استحق بعقد الذمة أن يكون له ما لنا وعليه ما علينا .

قال اللّه تعالى : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِساءٌ

مِنْ نِساءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (11) السخر : الهزء ، قيل : وهو النظر إلى المسخور بعين النقص ، وقال القرطبي : إنّ السخرية وهي اسم منه ، الاستحقار والاستهانة ، والتنبيه على العيوب والنقائص بوجه يضحك منه . والأكثر تعدية فعله (بمن) وهي لغة الكتاب العزيز ، كما تدل عليه الآية التي معنا ، وقوله تعالى : إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ [هود : 38] ويقال : فلان سخرة ، بوزن همزة .

إذا كان يهزأ به الناس ، وقد تكون السخرية بمحاكاة الفعل بالقول والإشارة ، أو الضحك على كلام المسخور منه إذا بدا منه تخبط أو غلط ، أو على صنعته ، أو قبح صورته ، ويرى بعضهم أن السخرية ذكر الشخص بما يكره على وجه مضحك بحضرته . ويرى البعض أنّ المراد منها احتقار القول أو الفعل بحضور صاحبه .

والآية نزلت في قوم بني تميم ، سخروا من بلال وسلمان وعمّار وخباب وصهيب وابن فهيرة وسالم مولى أبي حذيفة « 1 » .

وقد ذكر فيها النهي عن السخرية بالنساء تتميما لبيان الحكم .

وروي أنّها في شأن أمّ سلمة حين سخر منها بعض الصحابيات ، وقيل غير ذلك .

وقوله عزّ وجلّ : عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ تعليل للنهي ، أي عسى أن يكون المسخور منه عند اللّه خيرا من الساخر ، ف «ربّ أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على اللّه لأبرّه»

وقيل : بل المعنى عسى أن يبدّل اللّه الحال ، ويعكس الأمر ، فيصير المسخور منه عزيزا رفيع الجانب ، والساخر ذليلا مهانا ، وهو حينئذ على حد قوله :

لا تهن الفقير علّك أن تركع يوما والدهر قد رفعه

وقد ذكر اللّه تعالى النساء مع القوم في الآية ، فكان ذلك قرينة على أنّ المراد

---

(1) انظر ما رواه السيوطي في كتابه الدر المنثور في التفسير بالمأثور (6/ 91) .

بالقوم الرجال . ويرى بعضهم أنّ القوم اسم خاصّ بالرجال لا يدلّ على النساء إلا من طريق التغليب ، ومنه ما جاء في بيت زهير :

وما أدري وسوف إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء

وكأنّ هذا المعنى يرجع إلى أنّ لفظ القوم مأخوذ من أنّ الرجل قوّام على المرأة ، وهو في الأصل : إما مصدر بمعنى القيام ، ثم استعمل في جماعة الرجال ، وإما اسم جمع لقائم .

وقد جاء النهي عن السخرية موجها إلى جماعة الرجال والنساء ، وإن كان حكم الفرد من الفريقين كذلك ، جريا على ما كان حاصلا ، وما هو الأغلب من وقوع السخرية في المجامع والمحافل . وما دامت علة النهي عامة ، فهو يفيد عموم الحكم لعموم العلة .

وكلمة (عسى) في مثل هذا التركيب الذي أسندت فيه إلى (أن ، والفعل) قيل :

تامة ، لا تحتاج إلى خبر ، و(أن) وما دخلت عليه في محل رفع على الفاعلية . وقيل ناقصة ، وسد ما بعدها مسد جزءيها .

وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ أي لا يعب بعضكم بعضا ، وقد جعل اللّه لمز بعض المؤمنين لمزا للنفس ، لأنهم كنفس واحدة ، فمتى عاب المؤمن أخاه ، فكأنّه عاب نفسه .

وقد ذكر اللّه في الآية النهي عن ثلاثة أشياء : عن السخرية ، وعن اللمز ، وعن التنابز بالألقاب .

أما التنابز بالألقاب : وهو التعاير بها ، فمغايرته للسخرية واللمز ظاهرة .

وأما السخرية واللمز ، فقد ذهب العلماء في المغايرة بينهما إلى وجوه ، فمنهم من يرى أنّ السخرية احتقار الشخص مطلقا على وجه مضحك بحضرته ، واللمز التنبيه على معايبه ، سواء أكان على مضحك أم غيره ، وسواء أكان بحضرته أم لا ، وعلى هذا اللّمز أعم من السخرية ، ويكون من عطف العام على الخاص ، لإفادة الشمول .

ومنهم من يرى السخرية الاحتقار واللمز والتنبيه على المعايب ، أو تتبعها ، وهو يرى أنّ العطف من قبيل عطف العلة على معلولها . كأنّه قيل : لا يحقّر أحد لعيبه ، وهذا الوجه لا يكاد يظهر له كبير معنى .

ومنهم من يرى أنّ اللمز خاص بما كان من السخرية على وجه الخفية ، وعليه العطف من

عطف الخاص على العام ، مبالغة في النهي عنه ، كأنه جنس آخر .

ويرى بعضهم أن المعنى : ولا تأتوا من الأفعال ما يكون سببا لأن يلمزكم الناس ، ويكون المعنى لا يسخر أحد من أحد ، ولا يفعلنّ أحد ما يقتضي أن يلمزه الناس .

وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ التنابز : التعاير ، والتداعي بالألقاب ، وخصّ في العرف

(145/716)

بالمكروه منها ، وقد نقل عن العلماء النصّ على تحريم تلقيب الإنسان بما يكره ، سواء أكان صفة له ، أم لأبيه ، أم لأمه ، أم لكلّ من ينتسب إليه .

بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ تعليل للنهي ، والاسم هنا المراد منه الذكر ، والمراد : ذم أن يجتمع اسم الفسوق الذي يلحق الناس بسبب التنابز مع الإيمان ، وذلك تغليظ شديد ، حيث جعل التنابز فسقا ، وفيه من التنفير منه ما لا يخفى .

وقيل : بل المعنى : لا ينسبن أحدكم غيره إلى الفسق الذي كان فيه بعد اتصافه بالإيمان ، كأنّه قيل : لا تشهّروا بالناس بذكر ما كانوا عليه من فسق بعد ما حصلوا على الإيمان ، ويكون ذلك نهيا عن أن ينادى من دخل الإسلام بصفته التي كان عليها ، وقد استثني من النهي دعاء الرجل بلقب قبيح لا على سبيل الاستخفاف والإهانة ، بأن يكون على قصد

التمييز ، كقول المحدّثين : سليمان الأعمش .

وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ أي من لم يتب عما نهي عنه من الأمور الثلاثة فهو ظالم ، وكأنه لا ظالم سواه ، لأنه وضع العصيان موضع الطاعة ، وعرّض نفسه للعذاب .

قال اللّه تعالى : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (12) يقال اجتنب الشيء أي كان منه على جانب ، ثم استعمل في التباعد مطلقا ، فمعنى قوله تعالى : اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ تباعدوا عن كثير من الظن ، وجيء بلفظ (كثير) منكّرا ، ليحتاط فيه ، فيكون بعيدا عن بعض الظن الذي هو إثم إذا ابتعد عن الكثير منه .

والظن أنواع : منه ما هو محرّم ، ومنه ما هو واجب ومنه ما هو مندوب ، ومنه ما هو مباح .

فالمحرم : كسوء الظن باللّه والعياذ باللّه . وسوء الظن بالمسلم مستور الحال ، ظاهر العدالة

،

فقد ورد عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أنه قال : «لا يموتنّ أحدكم إلا وهو يحسن الظنّ باللّه عزّ وجلّ» «1» .

وعنه أنه قال : «إيّاكم والظنّ ، فإنّ الظنّ أكذب الحديث» «2» .

وقد جاء في القرآن الكريم : إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً [يونس : 36] وقال اللّه تعالى

: وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً [الفتح : 12] وفي الحديث : «إنّ اللّه تعالى حرّم من المسلم دمه وعرضه وأن يظنّ به ظنّ السوء» .

---

(1) رواه مسلم في الصحيح (4/ 2205) ، 51 - كتاب الجنة ، 19 - باب الأمر بحسن الظن حديث رقم (2877) .

(2) انظر الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي (6/ 92) .

(146/716)

وعن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «من أساء بأخيه الظنّ فقد أساء الظنّ بربّه ، إن اللّه تعالى يقول :

اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ .

وقد قدمنا أنّ الممنوع إساءة الظن بالمسلم المستور ظاهر العدالة ، وأما من يتعاطى الرّيب ، والمجاهرة بالخبائث ، فلا يحرم إساءة الظن به ، فليس الناس أحرص منه على نفسه ، وقد أمر أن يتجنب الريب ، وألّا يقف مواقف التّهم ، فمن وقف مواقف التهم اتّهم .

والظن الواجب : يكون فيما تعبّدنا اللّه تعالى بعلمه ، ولم ينصب عليه دليلا قاطعا ، فهنا يجب الظن للوصول إلى المعرفة التي تعبّدنا اللّه بها ، وما غلب على ظنه فهو الذي تعبّدنا اللّه

به . ومن ذلك قبول شهادة العدل ، وتحرّي القبلة ، وتقويم المستهلكات ، وأروش الجنايات التي لم يرد بمقاديرها نصّ عن الشارع .

والمندوب من الظن : ظنّ الخير بالمسلم ، وقد تقول : ما دام سوء الظن محرّما ، فما بال حسن الظن مندوبا ؟

ولكن إذا علمت أنّ هناك واسطة ، وهو ألا يظن شيئًا علمت أنّه لا يلزم التقابل في الحكم .

والظنّ المباح : قد مثّلوا له بالشك في الصلاة ، وكأنهم يريدون من الظنّ استواء الطرفين ، ومثّلوا له أيضا بالظن الذي يعرض في القلب ، مما يوجب الريبة ، وقد قال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «إذا ظننتم فلا تحققوا»

أي لا توجدوا أثرا لهذا الظن .

وحرمة الظن بالناس إنما تكون إذا كان لسوء الظن أثر يتعدّى إلى الغير ، وأمّا أن تظنّ شرا لتتقيه ، ولا يتعدّى ذلك إلى الغير ، فذلك محمود غير مذموم ، وهو محمل ما ورد من أنّ (من الحزم سوء الظن)

. و(احترسوا من الناس بسوء الظن)

. وما جاء في الحكم : (حسن الظنّ ورطة ، وسوء الظنّ عصمة) .

وقوله تعالى : إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ تعليل للأمر باجتناب الظنّ . والإثم الذنب الذي يستحقّ فاعله العقوبة عليه .

وَلا تَجَسَّسُوا أي لا تبحثوا عن عورات المسلمين ومعايبهم ، وتستكشفوا ما ستروه .

والتجسس : تفعل من الجس ، وهو بمعنى التحسس على ما قيل ، وبعضهم يرى أنهما متغايران ، وأن التجسس معرفة الظاهر ، وبالحاء تتبع البواطن ، وقيل :

بالعكس ، والأمر مرجعه إلى اللغة . وقد عدّ العلماء التجسس من الكبائر . وقد أخرج أبو داود وغيره عن أبي برزة الأسلمي قال : خطبنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فقال :

«يا معشر من آمن بلسانه ، ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنّه

(147/716)

من يتّبع عوراتهم يتّبع اللّه عورته ومن يتّبع اللّه عورته يفضحه في بيته» «1» .

وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أي لا يذكر بعضكم بعضا بما يكره .

أخرج مسلم وأبو داود والترمذي «2» وغيرهم عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أنه قال : «أ تدرون ما الغيبة ؟» قالوا : اللّه ورسوله أعلم . قال : «ذكرك أخاك بما يكره» .

قيل :

أفرأيت لو كان في أخي ما أقول ؟ قال : «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما

تقول فقد بهتّه» .

ومعلوم أنّ المراد من هذا النهي النهي عن الإيذاء بتفهيم الغير معايب المغتاب ، وذلك يتناول كلّ طرق الإفهام ، وهو يتناول أيضا كلّ ما يكره ، سواء في دينه أو دنياه ، وفي خلقه أو خلقه ، وفي ماله ، أو ولده ، أو زوجته ، أو مملوكه ، أو خادمه ، أو لباسه ، وخصّه بعضهم بما لا يذمّ شرعا من الصفات ، فمن ذكر الزاني بأنّه زان لا يكون مغتابا ، ولا يحرم عليه هذا الذكر عنده . واستدل لذلك

بقول رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «اذكروا الفاجر بما فيه ، يحذره الناس» .

ولم يرفض الجمهور ذلك ، وقالوا : الحديث ضعيف لا ينهض حجة : قال أحمد : وهو منكر ، وقال البيهقي : ليس بشيء ، ولو صحّ فهو محمول على فاجر متهتّك يعلن فجوره وتهتكه .

ويرى بعضهم أنّ الذكر بالمكروه يحرم مطلقا في الغيبة والحضور ، ونصّ بعض المفسرين على أنه المعتمد ، ويكون التقييد بالغيبة خارج مخرج الغالب ، إذ إنّ الغالب أن الناس تستحي من أن تذكر أحدا بمعايبه في حضرته .

أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ هذا مثال ذكره اللّه تنفيرا من الغيبة ، وتبعيدا منها ، وهو مثل بالغ النهاية في تأدية المراد ، قد وضّح فيه ما يصدر من المغتاب من حيث صدوره عنه ، ومن حيث تعلقه بصاحبه على أفحش وجه تستقبحه العقول ،

وتنفر منه الطباع ، وتنكره الشرائع ، وقد ذكر المثل على سبيل الاستفهام التقريري ، وهو لا يقع إلّا في كلام مسلّم عند السامع ، حقيقة أو ادّعاء ، وقد أسند في المثل الفعل إلى أحد إيذانا بأنّه لا يستقر في طبع أحد كائنا من كان أن يقدم على أن يأكل لحم إنسان ، فضلا عن أن يحبه ، وما بالك به إذا كان المأكول لحم أخيه ؟ لا

---

(1) رواه أبو داود في السنن (4/ 292) ، كتاب الأدب ، باب في الغيبة حديث رقم (4880) ، وأحمد في المسند (4/ 421) .

(2) رواه مسلم في الصحيح (4/ 2001) ، 45 - كتاب البر ، 20 - باب تحريم الغيبة حديث رقم (70/ 2589) ، والترمذي في الجامع الصحيح (4/ 290) ، كتاب البر ، باب الغيبة حديث رقم (1934) ، وأبو داود في السنن (2/ 290) ، كتاب الأدب ، باب في الغيبة حديث رقم (4874) .

(148/716)

شك أنه يكون أشنع ، وماذا تكون الشناعة إذا كان الأخ ميتا ؟ إنّها تكون شناعة ما فوقها شناعة .

فقد بيّن اللّه بهذا المثل أوضح بيان أنّ وقوع المغتاب في عرض الناس بذكر معايبهم يشبه أن

يكون أكلا للحومهم ، وهم إخوته ، وليتهم كانوا حاضرين ، بل هو إنما ينهش أعراضهم وهم غائبون ، فهو كالكلب ينهض لحوم الجيف . ولو عقل الناس هذا المثل ، وما استعمل فيه من طرق التنفير ما أقدموا على الغيبة .

والفاء في قوله تعالى : فَكَرِهْتُمُوهُ فإن الفصيحة مقدّر معها (قد) وهي واقعة في جواب شرط مقدّر ، أي إن عرض لكم هذا فقد كرهتموه ، ولا يمكنكم إنكار كراهته .

وبعضهم : إنّ المعنى فأنتم تكرهونه ، ويكون الكلام تصريحا بجوابهم عن الاستفهام ، كأنّهم قالوا : لا نحب ، فقال اللّه تعالى : فأنتم كرهتموه ، وعبر بالماضي للمبالغة .

وَاتَّقُوا اللَّهَ عطف على مقدّر ، كأنه قيل : امتثلوا ما أمرتم به ، ونهيتم عنه ، واتقوا اللّه إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ تعليل للأمر بالتقوى ، وتوّاب : معناه كثير القبول لتوبة من تاب .

والغيبة محرّمة بنص إلهيّ في الآية الكريمة ، وقد نقل القرطبي «1» الإجماع على أنها من الكبائر . والغزالي : يرى أنّها من الصغائر ، وهو عجيب من عمدة الأخلاق الغزالي ، ولعلّه أراد أن يخفف على الناس لمّا رأى فشوها فيهم ، لا يخلو منهم من لا يرتكبها إلا النادر ، ولكنّا ما علمنا أنّ إطباق الناس على منكر يكون سببا في تخفيفه ولو لم يرد فيها من دلائل التحريم غير ما ذكر في هذه الآية وأنّها من أشنع القبائح لكان ذلك كافيا في كونها من الكبائر .

وليس لأحد أن يتعلّق بما ورد من

قوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه أحمد «2» عن أبي بكرة أنّه قال : بينما أنا أماشي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهو آخذ بيدي ، ورجل عن يساري ، فإذا نحن بقبرين أمامنا ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «إنّهما ليعذبان ، وما يعذبان في كبير» وبكى إلى أن قال : وما يعذبان إلا في الغيبة والبول

إذ المراد أنهما ما كان يكبر عليهما أن يتجنّبا سبب هذا العذاب ، فكان أحدهما لا يستنزه من البول ، وإنّه ليسير ، وكان الآخر لا يبتعد عن الغيبة ، وما هو عليه بعسير .

ولو أنّ الإمام الغزالي رحمه اللّه ذهب إلى أنّ بعضها ليس بكبيرة ، بل هو من الصغائر لكان الأمر هينا فإنّك عرفت أنّ الغيبة إنما نهي عنها من أجل الإيذاء ، وهو مراتب ، فلن يكون ذكر معايب الثوب أو القربة مثلا ببالغ حدّ الخوض في العرض من جهة الإيذاء ، فالغيبة حرام ، ويجب على المغتاب أن يبادر إلى التوبة والاستغفار منها .

---

(1) انظر الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (16/ 337) .

(2) رواه الإمام أحمد في المسند (5/ 39) .

وقد أخرج العلماء أشياء لا يكون لها حكم الغيبة فيما إذا كان العيب لغرض صحيح شرعي لا يتوصل إليه إلا به .

فمن ذلك التظلم : فلمن ظلم أن يشكو لمن يظنّ منه القدرة على إزالة ظلمه .

ومنه الاستعانة على تغيير المنكر بذكره لمن يظن قدرته على تغييره .

ومنه الاستفتاء : كأن يقول للمفتي ظلمني فلان بكذا ، فما طريق الوصول إلى حقي ؟

ومنه أن يكون صاحب العيب مجاهرا بالمعصية ، كشربه الخمر – للذين يتظاهرون – .

ومنه جرح الرواة والمصنفين والمفتين مع عدم الأهلية ، وكلّ ما فيه تحذير المسلمين من الشر ، إذا تعين ذلك طريقا له .

هذا وقد اشتملت الآية الكريمة على الأمر باجتناب الظنّ باجتناب أثره ، ثم النهي عن طلب تحقيق ذلك الظن بقوله : ولا تجسسوا ثم النهي عن ذكر ما عسى أن يكون المتجسس قد وقف عليه ، فهذه ثلاثة مترتبة : ظنّ ، فعلم من طريق التجسس ، فاغتاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير آيات الأحكام / للسايس صـ 713.695 ﴾

(150/716)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة الحجرات» (49)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» (1) تقول العرب : فلان يقدّم بين يدى الإمام وبين يدى أبيه يعجّل بالأمر والنهى دونه . .

«أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى» (3) من المحنة امتحنه اصطفاه . .

«إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ» (4) واحدتها حجرة قال :

أما كان عبّاد كفيّا لدارهم بلى ولأبيات بها الحجرات

«1» «2» [851] يقول بلى ولبنى هاشم والذين نادوه صلى اللّه عليه وسلم من بنى تميم وفى قراءة عبد اللّه بن مسعود : «وأكثرهم بنو تميم لا يعقلون» . .

«حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ» (9) ترجع . .

«لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ» (11) جزم لأنه نهى .

---

(1) . - 851 : هذا البيت منسوب إلى الفرزدق فى الكامل ص 39 ، 268 كما هو مذكور فى حاشية أصل من الأصول ولكنى لم أجده فى ديوانه وهو فى الطبري 26/ 69 ، يعنى بنى هاشم من قوله «ولأبيات بها الحجرات» انظر الكامل ص 268 .

(2) . - 9 «السيد الحميرى» الذي ورد اسمه فى الفروق : أخباره فى الأغانى 7/ 3 وهجوه سوار ابن عبد اللّه العثبرى 7/ 19 ومات سوار سنة 245 وانظره فى النجوم الزاهرة 2/ 321 .

(151/716)

«وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ» (11) أي لا تعيبوا أنفسكم ، و«يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقاتِ» (9/ 59) يعيبك «بِالْأَلْقابِ» (11) والأنباز واحد . .

«وَلا تَجَسَّسُوا» (12) وتجسّسوا سواء والتجسّس التبحث يقال رجل جاسوس وقال رؤبة :

لا تمكن الخنّاعة الناموسا وتحصب اللعّابة الجاسوسا

«1» [852] حصب الغواة العومج المنسوسا الجاسوس والناموس واحد العومج : الحيّة والمنسوس المسيل وإنما سميت عومجا لأنها تعمج أي تجىء على غير قصد ويقال : تعمج السيل قال العجّاج :

تدافع السّيل إذا تعمّجا

«2» [853] .

«وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ» (13) يقال: من أي شعب أنت؟ فيقول من مضر من ربيعة، والقبائل دون ذلك قال ابن أحمر:

من شعب همدان أو سعد العشيرة أو خولان أو مذحج هاجوا له طربا

«3» [854] وقال الكميت بن زيد الأسدىّ:

جمعت نزارا وهى شتّى شعوبها كما جمعت كفّ إليها الأباخسا

«4» [855]

---

(1). - 852: فى ديوانه ص 70 - 71.

(2). - 853: فى ديوانه ص 48 واللسان (عمج).

(3). - 854: فى الطبري 26/ 80.

(4). - 855: فى اللسان (بخس).

(152/716)

«لِتَعارَفُوا» (13) من الآية الأولى ثم ابتدأت «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ» (13) ولو عملت لقلت أن أكرمكم عند اللّه.

«لا يألتكم من أعمالكم شيئا» (14) أي لا ينقصكم «1» لا يحبس وهو من ألت يألت

وقوم يقولون : لات يليت وقال رؤبة :

وليلة ذات ندى سريت ولم يلتنى عن سراها ليت

«2» [856] وبعضهم يقول : ألاتنى حقى وألاتنى عن وجهى وعن حاجتى أي صرفنى عنها قال الحطيئة :

أبلغ سراة بنى كعب مغلغلة جهد الرسالة لا ألتا ولا كذبا

«3» [857].

«ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا» (15) لم يشكّوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 219. 221 ﴾

---

(1) . - 3 - 6 «ينقصكم . . . صرفنى» ، رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 452) . [. . . . .]

(2) . - 856 : لم أجده فى ديوان رؤبة وهو فى الطبري 26/ 82 والمقتضب لابن جنى ص 7 والقرطبي 16/ 349 وفتح الباري 8/ 452 .

(3) . - 857 : من قصيدة فى ديوانه ص 56 ومختارات شعراء العرب ص 128 .

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة القنوجى :

سورة الحجرات

ثمان عشرة آية

وهي مدنية ، قال القرطبي : بالإجماع «1» .

[الآية الأولى]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ (6) .

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا : من التبيين .

وقرأ حمزة والكسائي من التثبيت فتثبتوا . والمراد من التبيين التعرف والتفحص ، ومن التثبيت الأناة وعدم العجلة والتبصر في الأمر الواقع والخبر الوارد حتى يتضح ويظهر «2» .

قال المفسرون : إن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط «3» .

كراهة أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ : أو لئلا تصيبوا ، لأن الخطأ ممن لم يتبين الأمر ولم يتثبت فيه هو الغالب وهو جهالة ، لأنه لم يصدر عن علم .

والمعنى متلبسين بجهالة بحالهم .

فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ : بهم من إصابتهم بالخطأ .

نادِمِينَ (6) : على ذلك مغتمين له مهتمين به .

---

(1) انظره في «تفسيره» (16/ 300) .

(2) انظر القرطبي (16/ 307) .

(3) انظر : مسند أحمد (4/ 279) ، والطبراني في «الكبير» (3/ 274 ، 275) ، (3395) ، والدر للسيوطي (7/ 555 ، 556) ، الفتح الرّباني (18/ 282) ، الطبري (26/ 78) ، زاد المسير (7/ 460) ، اللباب (196) ، القرطبي (16/ 311) .

(154/716)

[الآية الثانية]

وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (9) .

وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا : باعتبار كل فرد من أفراد الطائفتين .

فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما : أي إذا تقاتل فريقان من المسلمين فعلى المسلمين أن يسعوا في الصلح بينهم

ويدعوهم إلى حكم اللّه .

فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ : أي فإن حصل بعد ذلك التعدي من إحدى الطائفتين على الأخرى ولم تقبل الصلح ولا دخلت فيه ، كان على المسلمين أن يقاتلوا هذه الطائفة الباغية ، حتى ترجع إلى أمر اللّه وحكمه فإن رجعت تلك الطائفة الباغية عن بغيها وأجابت الدعوة إلى كتاب اللّه وحكمه ، فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين في الحكم ويتحروا في الصواب المطابق لحكم اللّه ويأخذوا على يد الطائفة الظالمة ، حتى تخرج من الظلم وتؤدي ما يجب عليها للأخرى .

ثم أمر اللّه سبحانه المسلمين أن يعدلوا في كل أمورهم بعد أمرهم بهذا العدل الخاص بالطائفتين المقتتلتين فقال :

وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (9) أي واعدلوا إن اللّه يحب العادلين ، ومحبته لهم تستلزم مجازاتهم بأحسن الجزاء .

وقد أوضح الشوكاني ما هو الحق في هذا المرام في شرحه «نيل الأوطار للمنتقى» «1» ، وبسطنا الكلام على أحكام البغي والبغاة في شرحنا «مسك الختام لبلوغ المرام» فليرجع إليهما . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نيل المرام صـ 425 ـ 426 ﴾

---

(1) انظر : نيل الأوطار (7/ 338 فيما بعدها) .

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الحجرات

من حق الكبار أن يوقَّروا ، وأن توفر لهم شارات الاحترام ، كما أنه من حق الصغار أن يرحموا وأن تحف بهم أسباب العطف . وقد جعل النبى صلى الله عليه وسلم ذلك من أركان المجتمع المسلم " ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه " . والرجل فى سلطانه لا يفتات عليه ولا يجوز أن يجىء أحد فيحاول فى حضرته إثبات نفسه بالأمر والنهى والتقديم والتأخير والاقتراح والاعتراض ! وفى سورة الحجرات جملة من الآداب التى تزين الأمة وتصون كيانها ، أولها أدب المسلمين مع رسولهم ، ثم آداب المسلمين بعضهم مع بعض ، ثم علاقة الأمة كلها بسائر الأمم . فى أدب المسلمين مع رسولهم يقول جل شأنه " يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم * يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض . . . " . وسبق فى سورة النور " لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء

بعضكم بعضا . . " . وللرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أسلوب خاص فى ندائه وفى محادثته يتسم بالتواضع وخفض الصوت والتزام الأدب . إنه مبلغ عن الله ومترجم عن هداه ؟ فتوقيره دين ، وحسبه من المتاعب ما يلقى من الكفار والمنافقين . والذين يلتزمون الأدب مع رسول الله لهم عند الله مكانتهم وأجرهم ، أما الجفاة وفاقدو الخلق فلهم شأن آخر . ومن صدق الإيمان التثبت عند سماع الأخبار ، فرب شائعة لا أصل لها أحدثت فتنة بالغة " يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين " . والمعروف أن الشيطان يرقب أبناء آدم ويستمع إلى حديثهم يحاول أن

ينزغ بينهم ، فإذا وجد خطأ صغيرا حاول تنميته ليكون خطيئة ضخمة ، وليجعل من الشرر التافه نارا مستعرة . وأكثر القتال الذى يدور بين الناس يتولد من هذا البلاء . وعلى جماعة المسلمين أن تسارع إلى تدارك

الموقف وإصلاح ذات البين ، فإذا اعتز أحد بالإثم وحاول البغى تظاهر عليه الجميع ووقفوه عند حده . وقد رأيت معارك نزفت فيها دماء غزيرة وأعقبها خسار واسع لأن

المسلمين ضعفوا عن قول الحق للمعتدى وعجزوا عن رد بغيه فكانت النتيجة أن هانت الأمة كلها وطمع فيها أعداؤها "وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين" . إن ضعف رباط الأخوة الإسلامية نذير شر ، وهو ذريعة إلى تدخل غير المسلمين كي يستغلوا الأوضاع المائلة لمصالحهم الخاصة ، والإسلام هو الخاسر أولا وأخرا . . ! وسورة الحجرات تلفت أنظارنا إلى أخلاق رديئة يجب البعد عنها . فمن الرعونة ومن التطاول الباطل أن تسخر من الآخرين حاسبا نفسك أفضل منهم . إنه لا يعرف حقيقة الفضل إلا الله تعالى . ومكانة أى إنسان تقررها معادلات دقيقة بين وراثته وبيئته ، أو بين طباعه الخاصة والتيارات التى تحيط به وتهب عليه . ومن يدرى ؟ فقد تسخر من امرئ نجح حيث رسبت أنت ! فتقدم وتأخرت ! "يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن . . " . ورفض الإسلام اللمز والتعيير والتجسس وظن السوء والغيبة والنميمة . والمؤسف أن أغلب مجالس الناس لا تخلو من هذه الآفات ، ولو كف الناس عنها لقضوا نصف أعمارهم صامتين . . ! لو غربل الناس كيما يعدموا سقطا لما تحصل شىء فى الغرابيل ! وعلينا نحن المسلمين أن نعرف رسالتنا بين الناس . إننا لم نخلق لننظر إليهم من

أعلى . إننا أصحاب رسالة كلفنا بشرحها بالأدب والحكمة والرحمة والحب . وأخشى أن يكون

(157/716)

فشلنا فى صبغ العالم بها يرجع إلى سؤ عرضنا وفشل أسلوبنا . . ! "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم . . " . وقد ختمت السورة بشرح حالة الأعراب الذين دخلوا فى الإسلام دون أن يتقيدوا بآدابه أو يلتزموا بأحكامه . إنهم نموذج لأقوام ورثوا الإسلام عنوانا ولم يحملوه موضوعا ، فكانت قلوبهم خالية من اليقين ، وكانت أعمالهم بعيدة عن الصلاح .

" قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم . . . " . وقد نبه الله هؤلاء إلى أن عملهم هو الذى يحكم لهم أو عليهم . " وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا . . . " . فإذا خذلوا الإسلام حين يتطلب النصرة أو تركوا شمائله حين يتطلب الأدب أو ضعف يقينهم حين تعرض الأزمات ، فليسوا بمسلمين ! " إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون" . وفى هذا العصر نجد من عامة المسلمين وخاصتهم من يشبهون

أعراب الأمس البعيد ، فهم ينتمون إلى الإسلام ولا يلبون له نداء أو يؤازرونه فى محنة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 404.406 ﴾

(158/716)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

ويُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع عشر بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/717)

الجزء السابع عشر بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة الحجرات

وحتى الآية ﴿ 8 ﴾ من السورة

(4/717)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(5/717)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة الحجرات

لا يخفى تآخي هاتين السورتين الفتح والحجرات مع ما قبلهما ، لكونهما مدنيتين ، ومشتملتين على أحكام فتلك فيها قتال الكفار ، وهذه فيها قتال البغاة وتلك ختمت بالذين آمنوا ، وهذه افتتحت بالذين آمنوا وتلك تضمنت تشريفاً له صلى الله عليه وسلم ، خصوصاً مطلعها ، وهذه أيضاً في مطلعها أنواع من التشريف له صلى الله عليه وسلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 132 ﴾

(6/717)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (1) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (2) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (3) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

(بسم الله) الملك الجبار المتكبر الذي من أخل بتعظيم رسوله (صلى الله عليه وسلم) لم

يرض عنه عملا (الرحمن) الذي من عموم رحمته إقامة الآداب للتوصل إلى حسن المآب (الرحيم) الذي خص أولي الألباب الإقبال على ما يوجب لهم جميل الثواب .

(7/717)

ولما نوه سبحانه في القتال بذكر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في ابتدائها باسمه الشريق وسمى السورة به ، وملأ سورة محمد بتعظيمه ، وختمها باسمه ، ومدح أتباعه لأجله ، افتتح هذه باشتراط الأدب معه في القول والفعل للعد من حزبه والفوز بقربه ، ومدار ذلك معالي الأخلاق ، وهي إما مع الله سبحانه وتعالى أو مع رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو مع غيرهما وإن كان كل قسم لا يخلو عن لحظة الآخر ، وغيرهما إما أن يكون داخلاً مع المؤمنين في رتبة الطاعة أو خارجاً عنها ، وهو الفاسق ، والداخل في طاعة المؤمنين السالك لطريقتهم إما أن يكون حاضراً عندهم أو غائباً عنهم ، فهذه خمسة أقسام ، فصل النداء بسببها خمس مرات ، كل مرة لقسم منها ، وافتتح بالله لأن الأدب معه هو الأصل الجامع للكل والأس الذي لا يبنى إلا عليه ، فقال منادياً للمتسمين بأول أسنان القلوب تنبيهاً على أن سبب نزولها من أفعالهم لا من أفعال أهل الكمال ، فهو هفوة تقال ، وما كان ينبغي أن يقال ، وليشمل الخطاب المعهود للأدنى – ولو مع النفاق – من فوقه من باب الأولى : ﴿ يا

أيها الذين آمنوا ﴾ أي أقروا بالإيمان ﴿ لا تقدموا ﴾ وحذف المفعول ليعم كل ما يصح تقديمه فيذهب الوهم كل مذهب ، ويجوز أن يكون حذفه من قصد إليه أصلاً ، بل يكون النهي موجهاً إلى نفس التقدمة أي لا تتلبسوا بهذا الفعل ، ويجوز أن يكون من قدم – بالتشديد بمعنى أقدم وتقدم أي شجع نفسه على التقدم ، ومنه مقدمة الجيش ، وهم متقدموه ، وأشار إلى تهجين ما نهوا عنه وتصوير شناعته ، وإلى أنهم في القبضة ترهيباً لهم فقال : ﴿ بين يدي الله ﴾ أي الملك الذي لا يطاق انتقامه .

(8/717)

ولما كان السياق للنهي عن التقديم والتقدم ، وكان مقتضى الرسالة إنفاذ الأوامر والنواهي عن الملك من غير أن يكون من المرسل إليهم اعتراض أصلاً ، وبذلك استحق أن لا يتكلم بحضرته في مهم ولا يفعل مهم إلا بإذنه ، لأن العبيد لما لهم من النقص لا استقلال لهم بشيء أصلاً ، عبر بالرسول دون النبي بعد أن ذكر اسمه تعالى الأعظم زيادة في تصوير التعظيم فقال : ﴿ ورسوله ﴾ أي الذي عظمته ظاهرة جداً ، ولذلك قرن اسمه باسمه وذكره بذكره ، فهو تمهيد لما يأتي من تعظيمه ، فالتعبير بذلك إشارة إلى أن النفس إذا خليت وفطرتها الأولى ، امتلأت بمجرد رؤيته هيبة منه ، وإجلالاً له ، فلا يفعل أحد غير ذلك إلا بتشجيع

منه لنفسه وتكليفها ضد ما تدعو إليه الفطرة الأولى القويمة ، فالمعنى : لا تكونوا متقدمين في شيء من الأشياء والله يقول الحق ويهدي السبيل ، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبلغ عنه لا ينطق عن الهوى ، فعلى الغير الاقتداء والاتباع ، لا الابتداء والابتداع ، سواء كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ غائباً أو حاضراً بموت أو غيره .

فإن آثاره كعينه ، فمن بذل الجهد فيها هدي للأصلح ، ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ [العنكبوت : 69] .

ولما استعار للدلالة على القدرة التعبير باليدين وصور البينة ترهيباً من انتقام القادر إذا خولف ، صرح بذلك بقوله تعالى : ﴿ واتقوا الله ﴾ أي اجعلوا بينكم وبين غضب الملك الأعظم وقاية ، فإن التقوى مانعة من أن تضعيوا حقه وتخالفوا أمره وتقدموا على شيء لم تعلموا رضاه فيه .

(9/717)

ولما كان سبحانه مع كل بعلمه ، وأقرب إليه من نفسه ، فكان مع ذلك غيباً محضاً لكونه محتجباً برداء الكبر وإزار العظمة والقهر ، وكان الإنسان لما غاب عنه نساء ، ذكره مرهباً بقوله مستأنفاً أو معللاً مؤكداً تنبيهاً على ما في ذلك من الغرابة والعظمة التي يحق للإنسان

مجاهدة نفسه لأجلها في الإيمان به والمواظبة على الاستمرار على استحضاره ، لأن أفعال العاصي أفعال من ينكره : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له الإحاطة بصفات الكمال .

ولما كان ما يتقدم فيه إما قولاً أو فعلاً قال : ﴿ سميع ﴾ أي لأقوالكم أن تقولوها ﴿ عليم ﴾ أي بأعمالكم قبل أن تعملوها .

(10/717)

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما وصف سبحانه عباده المصطفين صحابه نبيه والمخصوصين بفضيلة مشاهدته وكريم عشرته فقال ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ [الفتح : 29] "إلى آخره" ، فأثنى سبحانه عليهم وذكر وصفه تعالى بذلك في التوراة والإنجيل ، وهذه خصيصة انفردوا بمزية تكريمها وجرت على واضح قوله تعالى ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف ﴾ [آل عمران : 110] إلى آخره ، وشهدت لهم بعظيم المنزلة لديه ، ناسب هذا طلبهم بتوفية العشب الإيمانية قولاً وعملاً ظاهراً وباطناً على أوضح عمل وأخلص نية ، وتنزيههم عما وقع من قبلهم في مخاطبات أنبيائهم كقول بني إسرائيل ﴿ يا موسى ادع لنا ربك ﴾ [الأعراف : 134] إلى ما شهد من هذا الضرب بسوء حالهم فقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا

تقدموا بين يدي الله ورسوله ﴾ الآية و ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول ﴾ - إلى قوله - ﴿ والله غفور رحيم ﴾ فطلبوا بآداب تناسب عليّ إيمانهم وإن اغتفر بعضه لغيرهم من ليس في درجتهم وقد قيل حسنات الأبرار سيئات المقربين فكأن قد قيل لهم : لا تغفلوا ما منح لكم في التوراة والإنجيل ، فإنها درجة لم ينلها غيركم من الأمم فقابلوها بتنزيه أعمالكم عن أن يتوهم في ظواهرها أنها صدرت عن عدم اكتراث في الخطاب ، أو سوء قصد في الجواب ، وطابقوا بين ظواهركم وبواطنكم وليكن علنكم منبئاً بسليم سرائركم ﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ﴾ ثم عرفوا بسوء حال من عدل به عن هذه الصفة فقال تعالى ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ﴾ ثم أمروا بالتثبت عند نزغة الشيطان ، أو تقول ذي بهتان ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ ﴾ الآية ، ثم أمرهم بصلاح ذات بينهم والتعاون في ذلك بقتال الباغين العتاة وتحسين العشرة والتزام ما يثمر الحب والتودد

(11/717)

الإيماني والتواضع ، وأن الخير كله في التقوى ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ وكل ذلك محذر لعلي صفاتهم التي وصفوا بها في خاتمة سورة محمد .

ولما ثبت إعظام الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن لا يفتات عليه بأن يتأهب ما هو وظيفته من التقدم في الأمور وقطع المهمات ، فلا يكلم إلا جواباً أو سؤالاً في أمر ضروري لا يمكن تأخيره ، وكان من يكلمه لذلك ربما رفع صوته رفعاً الأولى به غيره مما هو دونه ، وكان من جملة أحواله أن يوحى إليه بالأمور العظيمة ، وكان رفع الصوت إذ ذاك من المشوشات في حسن التلقي للوحي مع ما فيه من قلة الاحترام والإخلاء بالإجلال والإعظام ، قال ذاكراً لثاني الأقسام ، وهو ما كان النظر فيه إلى مقامه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالقصد الأول ، مستنتجاً مما مضى من وصفه بالرسالة الدالة على النبوة ، آمراً بحفظ حرمته ومراعاة الأدب في خدمته وصحبته بتبجيله وتفخيمه ، وإعزازه وتعظيمه ، مكرراً لندائهم بما ألزموا أنفسهم به من طاعته بتصديقه واستدعاء لتجديد الاستنصار وتطرية الندب إلى الإنصات وإشارة إلى أن المنادى له أمر يستحق أن يفرد بالنداء ويستقل بالتوصية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ مكرراً للتعبير بالأدنى من أسنان القلوب للتنبيه على أن فاعل مثل هذه المنهيات والمحتاج فيها إلى التنبيه بالنهي قد فعل من هذا حاله ﴿ لا ترفعوا أصواتكم ﴾ أي في شيء من الأشياء ﴿ فوق صوت النبي ﴾ أي الذي يتلقى عن الله ، وتلقيه عنه متوقع في كل وقت ، وهذا يدل على أن أذى العلماء الذين هيأهم الله لتلقي فهم دينه عند شديد

جداً ، فإن تكدير أوقاتهم يمنعهم عن كثير من ذلك .

ولما بين ما في ذلك لأجل النبوة ، بين ما ينبغي في نفسه من المزية فقال : ﴿ ولا تجهروا بالقول ﴾ أي إذا كلمتموه سواء كان ذلك بمثل صوته أو أخفض من صوته ، فإن ذلك غير مناسب لما يهاب به العظماء ، ويوقر الكبراء .

(12/717)

ولما شمل هذا كل جهر مخصوص ، وهو ما يكون مسقطاً للمزية ، قال : ﴿ كجهر بعضكم لبعض ﴾ أي فإنكم إن لم تفعلوا ذلك لم يظهر فرق بين النبي - صلى الله عليه وسلم - وبين غيره .

ولما نهى عن ذلك ، بين ضرره فقال مبيناً أن من الأعمال ما يحبط ولا يدرى أنه محبط ، ليكون العامل كالماشي في طريق خطر لا يزال يتوقى خطره ويديم حذره : ﴿ أن ﴾ أي النهي لأجل خشية أن ﴿ تحبط ﴾ أي تفسد فتسقط ﴿ أعمالكم ﴾ أي التي هي الأعمال بالحقيقة وهي الحسنات كلها ﴿ وأنتم لا تشعرون ﴾ أي بأنها حبطت ، فإن ذلك إذا اجترأ الإنسان عليه استخف به وإذا استخف به واظب عليه ، وإذا واظب عليه أوشك أن يستخف بالمخاطب فيكفر وهو لا يشعر .

ولما تقدم سبحانه في الإخلال بشيء من حرمته ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونهى عن رفع الصوت والجهر الموصوف ، أنتج المخافة عنده على سبيل الإجلال ، فبين ما لمن حافظ على ذلك الأدب العظيم ، فقال مؤكداً لأن في المنافقين وغيرهم من يكذب بذلك ، وتنبيهاً . على أنه لمحبة الله له ورضاه به أهل لأن يؤكد أمره ويواظب على فعله : ﴿ إن الذين يغضون ﴾ أي يخفضون ويلينون لما وقع عليهم من السكينة من هيبة حضرته ، قال الطبري : وأصل الغض الكف في لين ﴿ أصواتهم ﴾ تخشعاً وتخضعاً ورعاية للأدب وتوقيراً . ولما كان المبلغ ربما أنساه اللغط ورفع الأصوات ما كان يريد أن يبلغه " إنه بينت لي ليلة القدر فخرجت لأخبركم بها فتلاحى رجلان فأنسيتها وعسى أن يكون خيراً لكم " قال : ﴿ عند رسول الله ﴾ أي الذي من شأنه أن يعلو كلامه على كل كلام ، لأنه مبلغ من الملك الأعظم وعبر بعند التي للظاهر إشارة إلى أن أهل حضرة الخصوصية لا يقع منهم إلا أكمل الأدب .

(13/717)

ولما ابتدأ ذكرهم مؤكداً تنبيهاً على عظيم ما ندبوا إليه ، زاده إعظاماً بالإشارة إليهم بأداة البعد فقال : ﴿ أولئك ﴾ أي العالو الرتب لما لهم من علو الهمم بالخضوع لمن أرسله مولاهم

الذي لا إحسان عندهم إلا منه ﴿ الذين امتحن الله ﴾ أي فعل المحيط بجميع صفات الكمال فعل المختبر بالمخالطة البليغة بالشدائد على وجه يؤدي إلى المنحة باللين والخلوص من كل درن ، والانشراح والاتساع ﴿ قلوبهم ﴾ فأخلصها ﴿ للتقوى ﴾ أي الخوف المؤدي إلى استعداد صاحبه بإقامة ما يقيه من كل مكروه ، والامتحان : اختبار بليغ يؤدي إلى خبر ، فالمعنى أنه طهر قلوبهم ونقاها كما يمتحن الصائغ الذهب والفضة بالإذابة للتنقية والتخليص من كل غش لأجل إظهار ما بطن فيها من التقوى ليصير معلوماً للخلق في عالم الشهادة كما كان معلوماً له سبحانه في عالم الغيب ، وهو خروجهم عن العادات البشرية ومفارقتهم لما توجبه الطبيعة ، وهو حقيقة التوحيد ، فإن التقوى لا تظهر إلا عند المحن والشدائد بالتكليف وغيرها ، ولا تثبت إلا بملازمة الطاعة في المنشط والمكره والخروج عن مثل ذلك .

ولما كان الإنسان وإن اجتهد في الإحسان محلاً للنقصان ، استأنف الإخبار عن جزائهم بقوله : معرباً له من فاء السبب ، إشارة إلى أن ذلك بمحض إحسانه : ﴿ لهم مغفرة ﴾ أي لهفواتهم وزلاتهم ﴿ وأجر عظيم ﴾ أي جزاء لا يمكن وصفه على محاسن ما فعلوه .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 220 . 224 ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

" القراءات : ﴿ لا تقدّموا ﴾ بالفتحات من التقدّم : يعقوب ﴿ الحجرات ﴾ بفتح الجيم : يزيد . ﴿ إخوتكم ﴾ على الجمع : يعقوب وابن مجاهد والنقاش عن ابن ذكوان ﴿ ولا تجسسوا ﴾ ﴿ ولا تنابزوا ﴾ و ﴿ لتعارفوا ﴾ بالتشديدات للإدغام : البزي وابن فليح ﴿ ميتاً ﴾ مشدّداً : أبو جعفر ونافع ﴿ يألتكم ﴾ بالهمز : أبو عمرو وسهل ويعقوب وقد لا يهمز في رواية . الآخرون : بالحذف ﴿ بما يعملون ﴾ على الغيبة : ابن كثير .

الوقوف : ﴿ واتقوا الله ﴾ ط ﴿ عليم ﴾ ه ج ﴿ لا تشعرون ﴾ ه ﴿ للتقوى ﴾ ط ﴿ عظيم ﴾ ه ﴿ لا يعقلون ﴾ ه ﴿ خيراً لهم ﴾ ط ﴿ رحيم ﴾ ه ﴿ نادمين ﴾ ه ﴿ رسول الله ﴾ ط ﴿ والعصيان ﴾ ط ﴿ الراشدون ﴾ ه لأن ﴿ فضلاً ﴾ مفعول له ﴿ ونعمة ﴾ ط ﴿ حكيم ﴾ ه ﴿ بينهما ﴾ ج للشرط مع الفاء ﴿ أمر الله ﴾ ج لذلك ﴿ وأقسطوا ﴾ ط ﴿ المقسطين ﴾ ه ﴿ ترحمون ﴾ ه ﴿ منهن ﴾ ج للعدول عن الغيبة إلى الخطاب ﴿ بالألقاب ﴾ ط ﴿ بعد الإيمان ﴾ ه ج لابتداء الشرط مع احتمال ﴿ ومن لم يتب ﴾ عما ذكر من اللمز والنبز ﴿ الظالمون ﴾ ه ﴿ من الظن ﴾ ز للابتداء بأن إلا إنه للتعليل أي لأن ﴿ بعضاً ﴾ ج ﴿ فكرهتموه ﴾ ط ﴿ واتقوا الله ﴾

ط ﴿ رحيم ﴾ ه ﴿ لتعارفوا ﴾ ط ﴿ أتقاكم ﴾ ط ﴿ خبير ﴾ ه ﴿ آمناً ﴾ ط ﴿ قلوبكم ﴾ ط ﴿ شيئاً ﴾ ط ﴿ رحيم ﴾ ه ﴿ في سبيل الله ﴾ ط ﴿ الصادقون ﴾ ه ﴿ في الأرض ﴾ ط ﴿ عليم ﴾ ه ﴿ أسلموا ﴾ ط ﴿ إسلامكم ﴾ ج لأن " بل " للإضراب عن الأول ﴿ صادقين ﴾ ه ﴿ والأرض ﴾ ط ﴿ تعلمون ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 156 ﴾

(15/717)

فصل

قال الفخر :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

في بيان حسن الترتيب وجوه : أحدها : أن في السورة المتقدمة لما جرى منهم ميل إلى الامتناع مما أجاز النبي صلى الله عليه وسلم من الصلح وترك آية التسمية والرسالة وألزمهم كلمة التقوى كأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم على سبيل العموم : لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ، ولا تتجاوزوا ما يأمر الله تعالى ورسوله الثاني : هو أن الله تعالى لما بيّن محل النبي عليه الصلاة والسلام وعلو درجته بكونه رسوله الذي يظهر دينه وذكره بأنه رحيم

بالمؤمنين بقوله ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : 128] قال لا تتركوا من احترامه شيئاً لا بالفعل ولا بالقول ، ولا تغتروا برأفته ، وانظروا إلى رفعة درجته الثالث : هو أن الله تعالى وصف المؤمنين بكونهم أشداء ورحماء فيما بينهم راكعين ساجدين نظراً إلى جانب الله تعالى ، وذكر أن لهم من الحرمة عند الله ما أورثهم حسن الثناء في الكتب المتقدمة بقوله ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التوراة وَمَثَلُهُمْ فِي الإنجيل ﴾ [الفتح : 29] فإن الملك العظيم لا يذكر أحداً في غيبته إلا إذا كان عنده محترماً ووعدهم بالأجر العظيم ، فقال في هذه السورة لا تفعلوا ما يوجب انحطاط درجتكم وإحباط حسناتكم ولا تقدموا .

وقيل في سبب نزول الآية وجوه : قيل نزلت في صوم يوم الشك ، وقيل نزلت في التضحية قبل صلاة العيد ، وقيل نزلت في ثلاثة قتلوا اثنين من سليم ظنوهما من بني عامر ، وقيل نزلت في جماعة أكثروا من السؤال وكان قد قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وفود والأصح أنه إرشاد عام يشمل الكل ومنع مطلق يدخل فيه كل إثبات وتقدم واستبداد بالأمر وإقدام على فعل غير ضروري من غير مشاورة وفي التفسير مسائل :

المسألة الأولى :

قوله تعالى : ﴿ لَا تُقَدِّمُواْ ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون من التقديم الذي هو متعد ، وعلى هذا ففيه وجهان : أحدهما : ترك مفعوله برأسه كما في قوله تعالى : ﴿ يحيي ويميت ﴾ وقول القائل فلان يعطي ويمنع ولا يريد بهما إعطاء شيء معين ولا منع شيء معين وإنما يريد بهما أن له منعاً وإعطاء كذلك ههنا ، كأنه تعالى يقول لا ينبغي أن يصدر منكم تقديم أصلاً والثاني : أن يكون المفعول الفعل أو الأمر كأنه يقول ﴿ لَا تُقَدِّمُواْ ﴾ يعني فعلاً ﴿ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أو لا تقدموا أمراً الثاني : أن يكون المراد ﴿ لَا تُقَدِّمُواْ ﴾ بمعنى لا تتقدموا ، وعلى هذا فهو مجاز ليس المراد هو نفس التقديم بل المراد لا تجعلوا لأنفسكم تقدماً عند النبي صلى الله عليه وسلم يقال فلان تقدم من بين الناس إذا ارتفع أمره وعلا شأنه ، والسبب فيه أن من ارتفع يكون متقدماً في الدخول في الأمور العظام ، وفي الذكر عند ذكر الكرام ، وعلى هذا نقول سواء جعلناه متعدياً أو لازماً لا يتعدى إلى ما يتعدى إليه التقديم في قولنا قدمت زيداً ، فالمعنى واحد لأن قوله ﴿ لَا تُقَدِّمُواْ ﴾ إذا جعلناه متعدياً أو لازماً لا يتعدى إلى ما يتعدى إليه التقديم في قولنا قدمت زيداً ، فتقديره لا تقدموا أنفسكم في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم أي لا تجعلوا لأنفسكم تقدماً ورأياً عنده ، ولا نقول بأن المراد لا تقدموا أمراً وفعلاً ، وحينئذ تتحد القراءتان في المعنى ، وهما قراءة من قرأ بفتح التاء والدال وقراءة من قرأ بضم التاء وكسر الدال ، وقوله تعالى : ﴿ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي بحضرتهما لأن ما بحضرة الإنسان فهو بين يديه وهو ناظر إليه وهو

نصب عينيه وفي قوله ﴿ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ فوائد : أحدها : أن قول القائل فلان بين يدي فلان ، إشارة إلى كون كل واحد منهما حاضراً عند الآخر مع أن لأحدهما علو الشأن وللآخر درجة العبيد والغلمان ، لأن من يجلس بجنب

(17/717)

الإنسان يكلفه تقليب الحدقة إليه وتحريك الرأس إليه عند الكلام والأمر ، ومن يجلس بين يديه لا يكلفه ذلك ، ولأن اليدين تنبىء عن القدرة يقول القائل هو بين يدي فلان ، أي يقلبه كيف شاء في أشغاله كما يفعل الإنسان بما يكون موضوعاً بين يديه ، وذلك مما يفيد وجوب الاحتراز من التقدم ، وتقديم النفس لأن من يكون كمتاع يقلبه الإنسان بيديه كيف يكون له عنده التقدم وثانيها : ذكر الله إشارة إلى وجوب احترام الرسول عليه الصلاة والسلام والانقياد لأوامره ، وذلك لأن احترام الرسول صلى الله عليه وسلم قد يترك على بعد المرسل وعدم اطلاعه على ما يفعل برسوله فقال : ﴿ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ ﴾ أي أنتم بحضرة من الله تعالى وهو ناظر إليكم ، وفي مثل هذه الحالة يجب احترام رسوله وثالثها : هو أن هذه العبارة كما تقرر النهي المتقدم تقرر معنى الأمر المتأخر وهو قوله ﴿ واتقوا ﴾ لأن من يكون بين يدي الغير كالمتاع الموضوع بين يديه يفعل به ما يشاء يكون جديراً بأن يتقيه ، وقوله تعالى :

﴿ واتقوا الله ﴾ يحتمل أن يكون ذلك عطفاً يوجب مغايرة مثل المغايرة التي في قول القائل لا تتم واشتغل ، أي فائدة ذلك النهي هو ما في هذا الأمر ، وليس المطلوب به ترك النوم كيف كان ، بل المطلوب بذلك الاشتغال فكذلك لا تقدموا أنفسكم ولا تتقدموا على وجه التقوى ، ويحتمل أن يكون بينهما مغايرة أتم من ذلك ، وهي التي في قول القائل احترم زيداً واخدمه ، أي ائت بأتم الاحترام ، فكذلك ههنا معناه لا تتقدموا عنده وإذا تركتم التقدم فلا تتكلوا على ذلك فلا تنتفعوا بل مع أنكم قائمون بذلك محترمون له اتقوا الله واخشوه وإلا لم تكونوا أتيتم بواجب الاحترام وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ يؤكد ما تقدم لأنهم قالوا آمنا ، لأن الخطاب يفهم بقوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فقد يسمع قولهم ويعلم فعلهم وما في قلوبهم من التقوى والخيانة ، فلا ينبغي أن يختلف قولكم وفعلكم وضمير قلبكم ، بل

(18/717)

ينبغي أن يتم ما في سمعه من قولكم آمنا وسمعنا وأطعنا وما في علمه من فعلكم الظاهر ، وهو عدم التقدم وما في قلوبكم من الضمائر وهو التقوى .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ

[الحجرات : 1] نهي عن فعل ينبىء عن كونهم جاعلين لأنفسهم عند الله ورسوله

بالنسبة إليهما وزناً ومقداراً ومدخلاً في أمر من أوامرهما ونواهيهما ، وقوله ﴿ لاَ تَرْفَعُواْ ﴾ نهي عن قول ينبىء عن ذلك الأمر ، لأن من يرفع صوته عند غيره يجعل لنفسه اعتباراً وعظمة وفيه مباحث :

(19/717)

البحث الأول : ما الفائدة في إعادة النداء ، وما هذا النمط من الكلامين على قول القائل ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ تُقَدّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ الله ﴾ [الحجرات : 1] ، و ﴿ لاَ تَرْفَعُواْ أصواتكم ﴾ ؟ نقول في إعادة النداء فوائد خمسة : منها أن يكون في ذلك بيان زيادة الشفقة على المسترشد كما في قول لقمان لابنه ﴿ يا بنى لاَ تُشْرِكْ بالله ﴾ [لقمان : 13] ﴿ يا بنى إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ ﴾ [لقمان : 16] ، ﴿ يا بني أقم الصلاةَ ﴾ [لقمان : 17] لأن النداء لتنبيه المنادى ليقبل على استماع الكلام ويجعل باله منه ، فإعادته تفيد ذلك ، ومنها أن لا يتوهم متوهم أن المخاطب ثانياً غير المخاطب أولاً : فإن من الجائز أن يقول القائل يا زيد افعل كذا وقل كذا يا عمرو ، فإذا أعاده مرة أخرى ، وقال يا زيد قل كذا ، يعلم من أول الكلام أنه هو المخاطب ثانياً أيضاً ومنها أن يعلم أن كل واحد من الكلامين مقصود ، وليس الثاني تأكيداً للأول كما تقول يا زيد لا تنطق ولا تتكلم إلا بالحق فإنه لا

يحسن أن يقال يا زيد لا تنطق يا زيد لا تتكلم كما يحسن عند اختلاف المطلوبين ، وقوله تعالى : ﴿ لاَ تَرْفَعُواْ أصواتكم ﴾ يحتمل وجوهاً : أحدها : أن يكون المراد حقيقته ، وذلك لأن رفع الصوت دليل قلة الاحتشام وترك الاحترام ، وهذا من مسألة حكمية وهي أن الصوت بالمخارج ومن خشي قلبه ارتجف وتضعف حركته الدافعة فلا يخرج منه الصوت بقوة ، ومن لم يخف ثبت قلبه وقوي ، فرفع الهواء دليل عدم الخشية ثانيها : أن يكون المراد المنع من كثر الكلام لأن من يكثر الكلام يكون متكلماً عن سكوت الغير فيكون في وقت سكوت الغير لصوته ارتفاع وإن كان خائفاً إذا نظرت إلى حال غيره فلا ينبغي أن يكون لأحد عند النبي صلى الله عليه وسلم كلام كثير بالنسبة إلى كلام النبي صلى الله عليه وسلم لأن النبي عليه الصلاة والسلام مبلغ ، فالمتكلم عنده إن أراد الإخبار لا يجوز ، وإن استخبر

(20/717)

النبي عليه السلام عما وجب عليه البيان ، فهو لا يسكت عما يسأل وإن لم يسأل ، وربما يكون في السؤال حقيدة برد جواب لا يسهل على المكلف الإتيان به فيبقى في ورطة العقاب ثالثها : أن يكون المراد رفع الكلام بالتعظيم أي لا تجعلوا لكلامكم ارتفاعاً على كلام النبي

صلى الله عليه وسلم في الخطاب كما يقول القائل لغيره أمرتك مراراً بكذا عندما يقول له صاحبه مرني بأمر مثله ، فيكون أحد الكلامين أعلى وأرفع من الآخر ، والأول أصح والكل يدخل في حكم المراد ، لأن المنع من رفع الصوت لا يكون إلا للاحترام وإظهار الاحتشام ، ومن بلغ احترامه إلى حيث تنخفض الأصوات عنده من هيبته وعلو مرتبته لا يكثر عنده الكلام ، ولا يرجع المتكلم معه في الخطاب ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بالقول كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ فيه فوائد :

إحداها : أن بالأول حصل المنع من أن يجعل الإنسان كلامه أو صوته أعلى من كلام النبي صلى الله عليه وسلم وصوته ، ولقائل أن يقول فما منعت من المساواة فقال تعالى : ولا تجهروا له كما تجهرون لأقرانكم ونظرائكم بل اجعلوا كلمته عليا .

(21/717)

والثانية : أن هذا أفاد أنه لا ينبغي أن يتكلم المؤمن عند النبي عليه السلام كما يتكلم العبد عند سيده ، لأن العبد داخل تحت قوله ﴿ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ لأنه للعموم فلا ينبغي أن يجهر المؤمن للنبي صلى الله عليه وسلم كما يجهر العبد للسيد وإلا لكان قد جهر له كما يجهر بعضكم لبعض ، لا يقال المفهوم من هذا النمط أن لا تجعلوه كما يتفق بينكم ، بل تميزوه

بأن لا تجهروا عنده أبداً وفيما بينكم لا تحافظون على الاحترام ، لأنا نقول ما ذكرنا أقرب إلى الحقيقة ، وفيه ما ذكرتم من المعنى وزيادة ، ويؤيد ما ذكرنا قوله تعالى : ﴿ النبى أولى بالمؤمنين مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [الأحزاب : 6] والسيد ليس أولى عند عبده من نفسه حتى لو كانا في مخمصة ووجد العبد ما لو لم يأكله لمات لا يجب عليه بذله لسيده ، ويجب البذل للنبي صلى الله عليه وسلم ، ولو علم العبد أن بموته ينجو سيده لا يلزمه أن يلقى نفسه في التهلكة لإنجاء سيده ، ويجب لإنجاء النبي عليه الصلاة والسلام ، وقد ذكرنا حقيقته عند تفسير الآية ، وأن الحكمة تقتضي ذلك كما أن العضو الرئيس أولى بالرعاية من غيره ، لأن عند خلل القلب مثلاً لا يبقى لليدين والرجلين استقامة فلو حفظ الإنسان نفسه وترك النبي عليه الصلاة والسلام لهلك هو أيضاً بخلاف العبد والسيد .

الفائدة الثانية : أن قوله تعالى : ﴿ لاَ تَرْفَعُواْ أصواتكم ﴾ لما كان من جنس ﴿ لا تَجْهَرُواْ ﴾ لم يستأنف النداء ، ولما كان هو يخالف التقدم لكون أحدهما فعلاً والآخر قولاً استأنف كما في قول لقمان ﴿ يا بني لا تشرك ﴾ [لقمان : 13] وقوله ﴿ يا بني أقم الصلاةَ ﴾ [لقمان : 17] لكون الأول من عمل القلب والثاني من عمل الجوارح ، وقوله ﴿ يابُنَيَّ أَقِمِ الصلاة وَأْمُرْ بالمعروف وانه عَنِ المنكر ﴾ من غير استئناف النداء لأن الكل من عمل الجوارح .

واعلم أنا إن قلنا المراد من قوله ﴿ لاَ تَرْفَعُواْ أصواتكم ﴾ أي لا تكثروا الكلام فقوله ﴿ وَلاَ تَجْهَرُواْ ﴾ يكون مجازاً عن الإتيان بالكلام عن النبي صلى الله عليه وسلم بقدر ما يؤتى به عند غيره ، أي لا تكثروا وقللوا غاية التقليل ، وكذلك إن قلنا المراد بالرفع الخطاب فالمراد بقوله ﴿ لا تَجْهَرُواْ ﴾ أي لا تخاطبوه كما تخاطبون غيره وقوله تعالى : ﴿ أَن تَحْبَطَ أعمالكم ﴾ فيه وجهان مشهوران : أحدهما : لئلا تحبط والثاني : كراهة أن تحبط ، وقد ذكرنا ذلك في قوله تعالى :

(23/717)

﴿ يُبَيِّنُ الله لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ﴾ [النساء : 176] وأمثاله ، ويحتمل ههنا وجهاً آخر وهو أن يقال معناه : واتقوا الله واجتنبوا أن تحبط أعمالكم ، والدليل على هذا أن الإضمار لما لم يكن منه بد فما دل عليه الكلام الذي هو فيه أولى أن يضمر والأمر بالتقوى قد سبق في قوله تعالى : ﴿ واتقوا ﴾ [الحجرات : 1] وأما المعنى فنقول قوله ﴿ أَن تَحْبَطَ ﴾ إشارة إلى أنكم إن رفعتم أصوتكم وتقدمتكم تتمكن منكم هذه الرذائل وتؤدي إلى الاستحقار ، وإنه يفضي إلى الانفراد والارتداد المحبط وقوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ إشارة إلى أن

الردة تتمكن من النفس بحيث لا يشعر الإنسان ، فإن من ارتكب ذنباً لم يرتكبه في عمره تراه نادماً غاية الندامة خائفاً غاية الخوف فإذا ارتكبه مراراً يقل الخوف والندامة ويصير عادة من حيث لا يعلم أنه لا يتمكن ، وهذا التمكن كان في المرة الأولى أو الثانية أو الثالثة أو غيرها ، وهذا كما أن من بلغه خبر فإنه لا يقطع بقول المخبر في المرة الأولى ، فإذا تكرر عليه ذلك وبلغ حد التواتر يحصل له اليقين ويتمكن الاعتقاد ، ولا يدري متى كان ذلك ، وعند أي خبر حصل هذا اليقين ، فقوله ﴿ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ تأكيد للمنع أي لا تقولوا بأن المرة الواحدة تعفي ولا توجب رده ، لأن الأمر غير معلوم فاحسموا الباب ، وفيه بيان آخر وهو أن المكلف إذا لم يحترم النبي صلى الله عليه وسلم ويجعل نفسه مثله فيما يأتي به بناء على أمره يكون كما يأتي به بناء على أمر نفسه ، لكن ما تأمر به النفس لا يوجب الثواب وهو محبط حابط ، كذلك ما يأتي به بغير أمر النبي صلى الله عليه وسلم حينئذ حابط محبط ، والله أعلم .

(24/717)

واعلم أن الله تعالى لما أمر المؤمنين باحترام النبي صلى الله عليه وسلم وإكرامه وتقديمه على أنفسهم وعلى كل من خلقه الله تعالى أمر نبيه عليه السلام بالرأفة والرحمة ، وأن يكون أرأف

بهم من الوالد ، كما قال : ﴿ واخفض جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر : 88] وقال تعالى : ﴿ واصبر نَفْسَكَ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ [الكهف : 28] وقال : ﴿ وَلاَ تَكُن كصاحب الحوت ﴾ [القلم : 48] إلى غير ذلك لئلا تكون خدمته خدمة الجبارين الذين يستعبدون الأحرار بالقهر فيكون انقيادهم لوجه الله .

إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (3)

(25/717)

وفيه الحث على ما أرشدهم إليه من وجهين أحدهما : ظاهر لكل أحد وذلك في قوله تعالى : ﴿ امتحن الله قُلُوبَهُمْ للتقوى ﴾ وبيانه هو أن من يقدم نفسه ويرفع صوته يريد إكرام نفسه واحترام شخصه ، فقال تعالى ترك هذا الاحترام يحصل به حقيقة الاحترام ، وبالإعراض عن هذا الإكرام يكمل الإكرام ، لأن به تتبين تقواكم ، و ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ الله أتقاكم ﴾ [الحجرات : 13] ومن القبيح أن يدخل الإنسان حماماً فيتخير لنفسه فيه منصباً ويفوت بسببه منصبه عند السلطان ، ويعظم نفسه في الخلاء والمستراح وبسببه يهون في الجمع العظيم ، وقوله تعالى : ﴿ امتحن الله قُلُوبَهُمْ للتقوى ﴾ فيه وجوه : أحدها :

امتحنها ليعلم منه التقوى فإن من يعظم واحداً من أبناء جنسه لكونه رسول مرسل يكون تعظيمه للمرسل أعظم وخوفه منه أقوى ، وهذا كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شعائر الله فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى القلوب ﴾ [الحج : 32] أي تعظيم أوامر الله من تقوى الله فكذلك تعظيم رسول الله من تقواه الثاني : امتحن أي علم وعرف ، لأن الامتحان تعرف الشيء فيجوز استعماله في معناه ، وعلى هذا فاللام تتعلق بمحذوف تقديره عرف الله قلوبهم صالحة ، أي كائنة للتقوى ، كما يقول القائل أنت لكذا أي صالح أو كائن الثالث : امتحن : أي أخلص يقال للذهب ممتحن ، أي مخلص في النار وهذه الوجوه كلها مذكورة ويحتمل أن يقال معناه امتحنها للتقوى اللام للتعليل ، وهو يحتمل وجهين أحدهما : أن يكون تعليلاً يجري مجرى بيان السبب المتقدم ، كما يقول القائل : جئتك لإكرامك لي أمس ، أي صار ذلك الإكرام السابق سبب المجيء وثانيها : أن يكون تعليلاً يجري مجرى بيان غاية المقصود المتوقع الذي يكون لاحقاً لا سابقاً كما يقول القائل جئتك لأداء الواجب ، فإن قلنا بالأول فتحقيقه هو أن الله علم ما في قلوبهم من تقواه ، وامتحن قلوبهم للتقوى التي كانت فيها ، ولولا أن قلوبهم كانت مملوءة من التقوى لما

أمرهم بتعظيم رسوله وتقديم نبيه على أنفسهم ، بل كان يقول لهم آمنوا برسولي ولا تؤذوه ولا تكذبوه ، فإن الكافر أول ما يؤمن يؤمن بالاعتراف بكون النبي صلى الله عليه وسلم صادقاً ، وبين من قيل له لا تستهزىء برسول الله ولا تكذبه ولا تؤذه ، وبين من قيل له لا ترفع صوتك عنده ولا تجعل لنفسك وزناً بين يديه ولا تجهر بكلامك الصادق بين يديه ، بون عظيم .

واعلم أن بقدر تقديمك للنبي عليه الصلاة والسلام على نفسك في الدنيا يكون تقديم النبي عليه الصلاة والسلام إياك في العقبى ، فإنه لن يدخل أحد الجنة ما لم يدخل الله أمته المتقين الجنة ، فإن قلنا بالثاني فتحقيقه هو أن الله تعالى امتحن قلوبهم بمعرفته ومعرفة رسوله بالتقوى ، أي ليرزقهم الله التقوى التي هي حق التقاة ، وهي التي لا تخشى مع خشية الله أحداً فتراه آمناً من كل مخيف لا يخاف في الدنيا بخساً ، ولا يخاف في الآخرة نحساً ، والناظر العاقل إذا علم أن بالخوف من السلطان يأمن جور الغلمان ، وبتجنب الأراذل ينجو من بأس السلطان فيجعل خوف السلطان جنة فكذلك العالم لو أمعن النظر لعلم أن بخشية الله النجاة في الدارين وبالخوف من غيره الهلاك فيهما فيجعل خشية الله جنته التي يحس بها نفسه في الدنيا والآخرة .

ثم قال تعالى : ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وقد ذكرنا أن المغفرة إزالة السيئات التي هي في الدنيا لازمة للنفس والأجر العظيم إشارة

إلى الحياة التي هي بعد مفارقة الدنيا عن النفس ، فيزيل الله عنه القبائح البهيمية ويلبسه المحاسن الملكية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 95.100 ﴾

(27/717)

وقال القرطبى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ الله وَرَسُولِهِ ﴾ قال العلماء : كان في العرب جَفاءٌ وسوءُ أدب في خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وتلقيب الناس . فالسورة في الأمر بمكارم الأخلاق ورعاية الآداب .

وقرأ الضحاك ويعقوب الحضرميّ : "لا تَقَدَّمُوا" بفتح التاء والدال من التقدّم .

الباقون "تُقَدِّمُوا" بضم التاء وكسر الدال من التقديم ؛ ومعناهما ظاهر .

أي لا تقدموا قولاً ولا فعلاً بين يدي الله وقول رسوله وفعله فيما سبيلُه أن تأخذوه عنه من أمر الدين والدنيا .

ومن قدّم قولَه أو فعله على الرسول صلى الله عليه وسلم فقد قدّمه على الله تعالى ؛ لأن

الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يأمر عن أمر الله عز وجل .

الثانية واختلف في سبب نزولها على أقوال ستة :

الأول ما ذكره الواحديّ من حديث ابن جريج قال : حدّثني ابن أبي مُليكة أن عبد الله بن الزبير أخبره : أنه قدم ركب من بني تميم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر : أمِّر القَعْقاع بن مَعْبد .

وقال عمر : أمِّر الأقرع بن حابس .

فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافي .

وقال عمر : ما أردتُ خلافك .

فتماديا حتى ارتفعت أصواتهما ؛ فنزل في ذلك : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ إلى قوله وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حتى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ ﴾ .

رواه البخاري عن الحسن بن محمد بن الصباح ؛ ذكره المهدَوِيّ أيضاً .

الثاني ما روي أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أراد أن يستخلف على المدينة رجلاً إذا مضى إلى خَيْبَر ؛ فأشار عليه عمر برجل آخر ؛ فنزل : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ .

ذكره المَهْدَوِيّ أيضاً .

الثالث ما ذكره الماوردِيّ عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنفذ أربعة وعشرين رجلاً من أصحابه إلى بني عامر فقتلوهم ؛ إلا ثلاثة تأخروا عنهم فسلموا وانكفأوا إلى المدينة ؛ فلقوا رجلين من بني سُليم فسألوهما عن نسبهما فقالا : من بني عامر ، لأنهم أعز من بني سليم فقتلوهما ؛ فجاء نفر من بني سليم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن بيننا وبينك عهداً ، وقد قتل منا رجلان ؛ فوداهما النبيّ صلى الله عليه وسلم بمائة بعير ، ونزلت عليه هذه الآية في قتلهم الرجلين .

وقال قتادة : إن ناساً كانوا يقولون لو أنزل فيّ كذا ، لو أنزل فيّ كذا ؟ فنزلت هذه الآية .

ابن عباس : نُهُوا أن يتكلموا بين يدي كلامه .

مجاهد : لا تفتاتوا على الله ورسوله حتى يقضي الله على لسان رسوله ؛ ذكره البخاري أيضاً .

الحسن : نزلت في قوم ذَبَحُوا قبل أن يصلي رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأمرهم أن يعيدوا الذبح .

ابن جريج : لا تقدموا أعمال الطاعات قبل وقتها الذي أمر الله تعالى به ورسوله صلى الله عليه وسلم .

قلت : هذه الأقوال الخمسة المتأخرة ذكرها القاضي أبو بكر بن العربي ، وسردها قبله

الماوردي .

قال القاضي : وهي كلها صحيحة تدخل تحت العموم ؛ فالله أعلم ما كان السبب المثير للآية منها ، ولعلها نزلت دون سبب ؛ والله أعلم .

قال القاضي : إذا قلنا إنها نزلت في تقديم الطاعات على أوقاتها فهو صحيح ؛ لأن كل عبادة مؤقتة بميقات لا يجوز تقديمها عليه كالصلاة والصوم والحج ؛ وذلك بيّن .

إلا أن العلماء اختلفوا في الزكاة ، لما كانت عبادة مالية وكانت مطلوبة لمعنًى مفهوم ، وهو سدّ خَلّة الفقير ، ولأن النبيّ صلى الله عليه وسلم استعجل من العباس صدقة عامين ، ولما جاء من جمع صدقة الفطر قبل يوم الفطر حتى تعطى لمستحقيها يوم الوجوب وهو يوم الفطر ؛ فاقتضى ذلك كله جواز تقديمها العام والاثنين .

(29/717)

فإن جاء رأس العام والنصاب بحاله وقعت موقعها .

وإن جاء رأس العام وقد تغيّر النصاب تبيّن أنها صدقة تطوّع .

وقال أشهب : لا يجوز تقديمها على الحول لحظة كالصلاة ؛ وكأنه طرد الأصل في العبادات فرأى أنها إحدى دعائم الإسلام فوفاها حقها في النظام وحسن الترتيب .

ورأى سائر علمائنا أن التقديم اليسير فيها جائز ؛ لأنه معفوٌّ عنه في الشرع بخلاف الكثير .

وما قاله أشهب أصح ؛ فإن مفارقة اليسير الكثير في أصول الشريعة صحيح ، ولكنه لمعانٍ تختص باليسير دون الكثير .

فأما في مسألتنا فاليوم فيه كالشهر ، والشهر كالسنة .

فإما تقديم كلّي كما قاله أبو حنيفة والشافعيّ ، وإمّا حفظ العبادة على ميقاتها كما قال أشهب .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ ﴾ أصل في ترك التعرّض لأقوال النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وإيجاب اتباعه والاقتداء به ، وكذلك " قال النبيّ صلى الله عليه وسلم في مرضه : "مُرُوا أبا بكر فَلْيُصَلّ بالناس" .

فقالت عائشة لحفصة رضي الله عنهما : قولي له إن أبا بكر رجل أسيف وإنه متى يَقُم مَقامَك لا يُسْمِع الناسَ من البكاء ؛ فَمُرْ عمر فلْيصلّ بالناس .

فقال صلى الله عليه وسلم : "إنكنّ لأنتنّ صواحبُ يوسف .

مُرُوا أبا بكر فليصلّ بالناس" " فمعنى قوله "صواحب يوسف" الفتنة بالردّ عن الجائز إلى غير الجائز .

وربما احتج بُغَات القياس بهذه الآية .

وهو باطل منهم ؛ فإن ما قامت دلالته فليس في فعله تقديم بين يديه .

وقد قامت دلالة الكتاب والسنّة على وجوب القول بالقياس في فروع الشرع ؛ فليس إذاً تقدّم بين يديه .

﴿ واتقوا الله ﴾ يعني في التقدّم المنهي عنه .

﴿ إِنَّ الله سَمِيعٌ ﴾ لقولكم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بفعلكم .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ

فيه ست مسائل :

(30/717)

الأولى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ ترفعوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النبي ﴾ روى البخاريّ والترمذيّ عن ابن أبي مُليكة قال : حدثني عبد الله بن الزبير أن الأقرع بن حابس قدِم على النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فقال أبو بكر : يا رسول الله استعمله على قومه ؛ فقال عمر : لا تستعمله يا رسول الله ؛ فتكلما عند النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى ارتفعت أصواتهما ؛ فقال أبو بكر لعمر : ما أردت إلا خلافي .

فقال عمر : ما أردت خلافك ؛ قال : فنزلت هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ ترفعوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النبي ﴾ قال : فكان عمر بعد ذلك إذا تكلم عند النبيّ صلى الله

عليه وسلم لم يسمع كلامه حتى يُستفهمه .

قال : وما ذكر ابن الزبير جدّه يعني أبا بكر .

قال : هذا حديث غريب حسن .

وقد رواه بعضهم عن ابن أبي مليكة مرسلاً ، لم يذكر فيه عن عبد الله بن الزبير .

قلت : هو البخاري ، قال : عن ابن أبي مُليكة كاد الخيّران أن يهلكا : أبو بكر وعمر ، رفعا أصواتهما عند النبيّ صلى الله عليه وسلم حين قدِم عليه ركب بني تميم ؛ فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مُجاشِع ، وأشار الآخر برجل آخر ؛ فقال نافع : لا أحفظ اسمه ، فقال أبو بكر لعمر : ما أردتَ إلا خلافي .

فقال : ما أردتُ خلافك .

فارتفعت أصواتهما في ذلك ؛ فأنزل الله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ ترفعوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النبي ﴾ الآية .

فقال ابن الزبير : فما كان عمر يُسمع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى يستفهمه .

ولم يذكر ذلك عن أبيه ؛ يعني أبا بكر الصديق .

وذكر المهدويّ عن عليّ رضي الله عنه : نزل قوله : ﴿ لاَ ترفعوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ

النبي ﷺ فينا لما ارتفعت أصواتنا أنا وجعفر وزيد بن حارثة ، تتنازع ابنة حمزة لما جاء بها زيد من مكة ؛ فقضى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم لجعفر ؛ لأن خالتها عنده .

(31/717)

وقد تقدم هذا الحديث في "آل عمران" .

وفي الصحيحين " عن أنس بن مالك : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم افتقد ثابت بن قيس فقال رجل : يا رسول الله ، أنا أعلم لك عِلْمَهُ ؛ فأتاه فوجده جالساً في بيته مُنَكِّساً رأسه ؛ فقال له : ما شأنك ؟ فقال : شَر ! كان يرفع صوته فَوْقَ صوتِ النبيّ صلى الله عليه وسلم فقد حبِط عمله وهو من أهل النار .

فأتى الرجل النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبره أنه قال كذا وكذا .

فقال موسى : فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة ؛ فقال : "اذهب إليه فقل له إنك لستَ من أهل النار ولكنك من أهل الجنة" "

لفظ البخاري وثابت هذا هو ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي يُكْنَى أبا محمد بابنه محمد .

وقيل : أبا عبد الرحمن .

قُتِل له يوم الحرّة ثلاثةٌ من الولد : محمد ، ويحيى ، وعبد الله .

وكان خطيباً بليغاً معروفاً بذلك ، كان يقال له خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ كما يقال لحسان شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما قدِم وفد تميم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلبوا المفاخرة قام خطيبهم فافتخر ، ثم قام ثابت بن قيس فخطب خطبة بليغة جَزْلة فغلبهم ، وقام شاعرهم وهو الأقرع بن حابس فأنشد :

أتيناك كَيْمَا يعرف الناس فضلنا . . .

إذا خالفونا عند ذكر المكارِم

وإنا رؤوس الناس من كل مَعَشَرٍ . . .

وأن ليس في أرض الحجاز كدارِم

وإنّ لنا المِرْباع في كل غارة . . .

تكون بنجد أو بأرض التهائم

فقام حسان فقال :

بَني دارمٍ لا تَفْخَرُوا إن فَخْرَكُمْ . . .

يعود وَبَالاً عند ذكر المكارم

هَبِلتم علينا تفخرون وأنتُم . . .

لنا خَوَلٌ مِن بين ظِئْر وخادِمِ

في أبيات لهما .

فقالوا : خطيبهم أخطب من خطيبنا ، وشاعرهم أشعر من شاعرنا ؛ فارتفعت أصواتهم فأنزل الله تعالى : ﴿ لاَ ترفعوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النبي وَلاَ تَجْهَرُواْ لَهُ بالقول ﴾ .

(32/717)

" وقال عطاء الخراساني : حدّثتني ابنة ثابت بن قيس قالت : لما نزلت ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ ترفعوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النبي ﴾ الآية ، دخل أبوها بيته وأغلق عليه بابه ؛ فَفَقَده النبيّ صلى الله عليه وسلم فأرسل إليه يسأله ما خبره ؛ فقال : أنا رجل شديد الصوت ؛ أخاف أن يكون حبِط عملي .

فقال عليه السلام : "لستَ منهم بل تعيش بخير وتموت بخير" .

قال : ثم أنزل الله : ﴿ إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان : 18] فأغلق بابه وطَفِق يبكي ؛ ففقده النبيّ صلى الله عليه وسلم فأرسل إليه فأخبره ؛ فقال : يا رسول الله ، إني أحب الجمال وأحب أن أسود قومي .

فقال : "لستَ منهم بل تعيش حَمِيداً وتُقتل شهيداً وتدخل الجنة" " قالت : فلما كان يوم

اليمامة خرج مع خالد بن الوليد إلى مُسَيْلِمَة فلما التقَوْا انكشفوا ، فقال ثابت وسالم مولى أبي حذيفة : ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم حفر كل واحد منهما له حفرة فثبتا وقاتلا حتى قُتلا ؛ وعلى ثابت يومئذ درع له نفيسة ؛ فمرّ به رجل من المسلمين فأخذها ؛ فبينما رجل من المسلمين نائم أتاه ثابت في منامه فقال له : أوصيك بوصية ، فإياك أن تقول هذا حُلْم فتضيعه ، إني لما قُتلت أمس مرَّ بي رجل من المسلمين فأخذ درعي ومنزلُه في أقصى الناس ، وعند خبائه فرس يَسْتَنُّ في طِوَله ، وقد كفأ على الدّرع بُرْمَةً ، وفوق البرمة رَحْل ؛ فَأْتِ خالداً فمُرْه أن يبعث إلى درعي فيأخذها ، وإذا قدمتَ المدينة على خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني أبا بكر فقل له : إن عليّ من الدَّين كذا وكذا ، وفلان من رقيقي عتيق وفلان ؛ فأتى الرجل خالداً فأخبره ؛ فبعث إلى الدرع فأتي بها وحدّث أبا بكر برؤياه فأجاز وصيته .

قال : ولا نعلم أحداً أجيزت وصيّته بعد موته غير ثابت ، رحمه الله ؛ ذكره أبو عمر في الاستيعاب .

(33/717)

الثانية قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَجْهَرُواْ لَهُ بالقول ﴾ أي لا تخاطبوه : يا محمد ، ويا أحمد .

ولكن : يا نبيّ الله ، ويا رسول الله ؛ توقيراً له .

وقيل : كان المنافقون يرفعون أصواتهم عند النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ ليقتدي بهم ضَعَفة المسلمين فنُهي المسلمون عن ذلك .

وقيل : "لاَ تَجْهَرُوا لَهُ" أي لا تجهروا عليه ، كما يقال : سقط لِفيه ؛ أي على فيه .

﴿ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ الكاف كاف التشبيه في محل النصب ؛ أي لا تجهروا له جهراً مثل جهر بعضكم لبعض .

وفي هذا دليل (على) أنهم لم يُنهوا عن الجهر مطلقاً حتى لا يسوغ لهم إلا أن يكلموه بالهمس والمخافتة ؛ وإنما نُهُوا عن جهر مخصوص مقيّد بصفة ؛ أعني الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منهم فيما بينهم ، وهو الخلو من مراعاة أُبّهة النبوّة وجلالة مقدارها وانحطاط سائر الرتب وإن جلّت عن رتبتها .

﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ أي من أجل أن تحبط ، أي تبطل ؛ هذا قول البصريين .

وقال الكوفيون : أي لئلا تحبط أعمالكم .

الثالثة معنى الآية الأمرُ بتعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوقيره ، وخفضِ الصوت بحضرته وعند مخاطبته ؛ أي إذا نطق ونطقتم فعليكم ألا تبلغوا بأصواتكم وراء الحدّ الذي

يبلغه بصوته ، وأن تغضُّوا منها بحيث يكون كلامه غالباً لكلامكم ، وجهرُه باهراً لجهركم ؛ حتى تكون مزيّته عليكم لائحة ، وسابقته واضحة ، وامتيازه عن جمهوركم كشِيَة الأبلق .

لا أن تغمروا صوته بلغطكم ، وتَبْهَرُوا منطقه بصخبكم .

وفي قراءة ابن مسعود "لاَ تَرْفَعُوا بِأَصْوَاتِكُمْ" .

وقد كره بعض العلماء رفع الصوت عند قبره عليه السلام .

وكره بعض العلماء رفع الصوت في مجالس العلماء تشريفاً لهم ؛ إذ هم ورثة الأنبياء .

(34/717)

الرابعة قال القاضي أبو بكر بن العربي : حرمة النبيّ صلى الله عليه وسلم مَيّتاً كحرمته حيًّا ، وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثال كلامه المسموع من لفظه ، فإذا قرئ كلامه ، وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه ، ولا يَعرض عنه ؛ كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به .

وقد نبّه الله سبحانه على دوام الحرمة المذكورة على مرور الأزمنة بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ القرآن فاستمعوا لَهُ وَأَنصِتُواْ ﴾ [الأعراف : 204] .

وكلامه صلى الله عليه وسلم من الوَحْي ، وله من الحكمة مثل ما للقرآن ؛ إلا معاني مستثناة

، بيانها في كتب الفقه .

الخامسة وليس الغرض برفع الصوت ولا الجهر ما يقصد به الاْستخفاف والاْستهانة ؛ لأن ذلك كفر والمخاطبون مؤمنون .

وإنما الغرض صوت هو في نفسه والمسموع من جَرْسه غير مناسب لما يُهاب به العظماء ويوقّر الكبراء ، فيتكلف الغض منه وردّه إلى حدٍّ يميل به إلى ما يستبين فيه المأمور به من التعزير والتوقير .

ولم يتناول النهي أيضاً رفع الصوت الذي يتأذى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهو ما كان منهم في حرب أو مجادلة معاندٍ أو إرهاب عدوّ أو ما أشبه ذلك ؛ ففي الحديث أنه " قال عليه السلام للعباس بن عبد المطلب لما انهزم الناس يوم حُنين : "اصرخ بالناس" " ، وكان العباس أجهر الناس صوتاً .

يروى أن غارة أتتهم يوماً فصاح العباس : يا صباحاه ! فأسقطت الحوامل لشدّة صوته ، وفيه يقول نابغة بني جعدة :

زَجْرُ أبي عُرْوة السباع إذا . . .

أشفق أن يختلطن بالغنم

زعمت الرواة أنه كان يزجر السباع عن الغنم فيفتق مرارة السبع في جوفه .

السادسة قال الزجاج: ﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ ﴾ التقدير لأن تحبط؛ أي فتحبط أعمالكم، فاللام المقدرة لام الصيرورة وليس قوله: ﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ بموجب أن يكفر الإنسان وهو لا يعلم؛ فكما لا يكون الكافر مؤمناً إلا باختياره الإيمان على الكفر، كذلك لا يكون المؤمن كافراً من حيث لا يقصد إلى الكفر ولا يختاره بإجماع.

كذلك لا يكون الكافر كافراً من حيث لا يعلم.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الذين يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ الله ﴾

أي يخفِضون أصواتهم عنده إذا تكلموا إجلالاً له، أو كلموا غيره بين يديه إجلالاً له.

قال أبو هريرة: لما نزلت ﴿ لاَ ترفعوا أَصْوَاتَكُمْ ﴾ قال أبو بكر رضي الله عنه: والله لا أرفع صوتي إلا كأخي السِّرَار.

وذكر سنيد قال: حدثنا عباد بن العوام عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة قال: لما نزلت: ﴿ لاَ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ الله وَرَسُولِهِ ﴾ قال أبو بكر: والذي بعثك بالحق لا أكلمك بعد هذا إلا كأخي السِّرار.

وقال عبد الله بن الزبير: لما نزلت: ﴿ لاَ ترفعوا أَصْوَاتَكُمْ ﴾ ما حدث عمر عند النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك فسمع كلامه حتى يستفهمه مما يخفض؛ فنزلت: ﴿ إِنَّ

الذين يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللهِ أولئك الذين امتحن الله قُلُوبَهُمْ للتقوى ﴾ .

قال الفراء : أي أخلصها للتقوى .

وقال الأخفش : أي اختصها للتَّقْوَى .

وقال ابن عباس : "امتحن اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى" طهّرهم من كل قبيح ، وجعل في قلوبهم الخوف من الله والتقوى .

وقال عمر رضي الله عنه : أذهب عن قلوبهم الشهوات .

والامتحان افتعال من مَحَنْتُ الأَدِيمَ مَحْناً حتى أوسعته .

فمعنى امتحن الله قلوبهم للتقوى وسّعها وشرحها للتقوى .

وعلى الأقوال المتقدمة : امتحن قلوبهم فأخلصها ؛ كقولك : امتحنت الفضة أي اختبرتها حتى خلصت .

(36/717)

ففي الكلام حذف يدل عليه الكلام ، وهو الإخلاص .

وقال أبو عمرو : كل شيء جَهَدته فقد محنته .

وأنشد :

أتت رذايَا بادِياً كَلالها . . .

قد محنت واضطربت آطالها

﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(37/717)

وقال الآلوسى :

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ تُقَدّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ الله وَرَسُولِهِ ﴾

وتصدير الخطاب بالنداء لتنبيه المخاطبين على أن ما في حيزه أمر خطير يستدعي مزيد اعتنائهم وفرط اهتمامهم بتلقيه ومراعاته ، ووصفهم بالإيمان لتنشيطهم والإيذان بأنه داع للمحافظة عليه ورادع عن الإخلال به .

و ﴿ تُقَدّمُواْ ﴾ من قدم المبتعدى ، ومعناه جل الشيء قدماً أي متقدماً على غيره ، وكان مقتضاه أن يتعدى إلى مفعولين لكن الأكثر في الاستعمال تعديته إلى الثاني بعلى تقول : قدمت فلاناً على فلان ، وهو هنا محتمل احتمالين .

الأول أن يكون مفعوله نسيا والقصد فيه إلى نفس الفعل وهو التقديم من غير اعتبار تعلقه بأمر من الأمور ولا نظر إلى أن المقدم ماذا هو على طريقة قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذى يحي

ويميت ﴾ [غافر : 68] وقولهم : يعطي ويمنع ، فالمعنى لا تفعلوا التقديم ولا تتلبسوا به ولا تجعلوه منكم بسبيل .

والثاني أن يكون قد حذف مفعوله قصداً إلى تعميمه لأنه لاحتماله لأمور لو قدر أحدها كان ترجيحاً بلا مرجح يقدر أمراً عاماً لأنه أفيد مع الاختصار ، فالمعنى لا تقدموا أمراً من الأمور ، والأول قيل أوفى بحق المقام لإفادته النهي عن التبيس بنفس الفعل الموجب لانتفائه بالكلية المستلزم لانتفاء تعلقه بمفعوله بالطريق البرهاني ، ورجح الثاني بأنه أكثر استعمالاً ، وبأن الأول تنزيل المتعدى منزلة اللازم وهو خلاف الأصل والثاني سالم منه ، والحذف وإن كان خلاف الأصل أيضاً أهون من التنزيل المذكور لكثرته بالنسبة إليه ، وبعضهم لم يفرق بينهما لتعارض الترجيح عنده وكون مآل المعنى عليهما العموم المناسب للمقام ، وذكر أن في الكلام تجوزين .

أحدهما في "بين" الخ فإن حقيقة قولهم بين يدي فلان ما بين العضوين فتجوز بذلك عن الجهتين المسامتتين ليمينه وشماله قريباً منه باطلاق اليدين على ما يجاورهما ويحاذيهما فهو من المجاز المرسل .

(38/717)

ثانيهما استعارة الجملة وهي التقدم بين اليدين استعارة تمثيلية للقطع بالحكم بلا اقتداء ومتابعة لمن يلزم متابعته تصوير الهجنته وشناعته بصورة المحسوس فيما نهوا عنه كتقدم الخادم بين يدي شيده في سيره حيث لا مصلحة ، المراد من ﴿ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ لا تقطعوا أمراً وتجزموا به وتجترؤوا على ارتكابه قبل أن يحكم الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم به ويأذنا فيه ، وحاصله النهي عن الأقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة .

وجوز أن يكون ﴿ تُقَدِّمُواْ ﴾ من قدم اللازم بمعنى تقدم كوجه وبين ، ومنه مقدمة الجيش خلاف ساقته وهي الجماعة المتقدمة منه ، ويعضده قراءة ابن عباس .

وأبي حيوة .

والضحاك .

ويعقوب .

وابن مقسم ﴿ لَا تُقَدِّمُواْ ﴾ بفتح التاء والقاف والدال ، وأصله تتقدموا فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً لأنه من التفعل وهو المطاوع اللازم ، ورجح ما تقدم بما سمعت وبأن فيه استعمال أعرف اللغتين وأشهرهما ، لا يقال : الظرف إذا تعلق به العامل قد ينزل منزلة المفعول فيفيد العموم كما قرروه في

﴿ مالك يَوْمِ الدين ﴾ [الفاتحة : 4] فليكن الظرف ههنا بمنزلة مفعول التقدم مغنياً غناءه

، والتقدم بين يدي المرء خروج عن صفة المتابعة حساً فهو أوفق للاستعارة التمثيلية المقصود منها تصوير هجنة الحكم بلا اقتداء ومتابعة لمن يلزم متابعته بصورة المحسوس ، فتخريج ﴿ لَا تُقَدِّمُواْ ﴾ على اللزوم أبلغ ولا يضره عدم الشهرة فإنه لا يقاوم إلا بلغية المطابقة للمقام لما أشار إليه في الكشف من أن المراد النهي عن مخالفة الكتاب والسنة ، والتعدية تفيد أن ذلك بجعل وقصد منه للمخالفة لأن التقديم بين يدي المرى أن تجعل أحداً أما نفسك أو غيرك متقدماً بين يديه وذلك أقوى في الذم وأكثر استهجاناً للدلالة على تعمد عدم المتابعة لا صدورها عنه كيفما اتفق فافهم ولا تغفل .

(39/717)

وجوز أن يكون ﴿ بَيْنَ يَدَىِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ من باب أعجبني زيد وكرمه فالنهي عن التقدم بين يدي الرسول عليه الصلاة والسلام فكأنه قيل : لا تقدموا بين يدي رسول الله ، وذكر الله تعالى لتعظيمه عليه الصلاة والسلام والإيذان بجلالة محله عنده عز وجل ومزيد اختصاصه به سبحانه ، وأمر التجوز عليه على حاله ، وهو كما قال في الكشف أوفق لما يجيء بعده ، فإن الكلام مسوق لاجلاله عليه الصلاة والسلام ، وإذا كان استحقاق هذا الإجلال لاختصاصه بالله جل وعلا ومنزلته منه سبحانه فالتقدم بين يدي الله عز شأنه أدخل في

النهي وأدخل .

وإن جعل مفصوداً بنفسه على ما مر فالنهي عن الاستبداد بالعمل في أمر ديني لا مطلقاً من غير مراجعة إلى الكتاب والسنة ، وعليه تفسير ابن عباس على ما أخرجه ابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

وأبو نعيم في الحلية عنه أنه قال : أي لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة ، وكذا ما أخرجه ابن جرير .

وابن أبي حاتم .

وابن مردويه عنه قال : نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه بل عليهم أن يصغوا ولا يتكلموا .

ووجه الدلالة على هذا أن كلامه عليه الصلاة والسلام أريد به ما ينقله عنه تعالى ولفظه أيضاً ، وما اللفظ من الرسول صلى الله عليه وسلم وإن كان المعنى من الوحي أو أراد كلام كل واحد من الله تعالى والرسول عليه الصلاة والسلام ، وما أخرج عبد بن حميد .

والبيهقي في شعب الإيمان وغيرهما عن مجاهد أنه قال في ذلك : لا تفتاتوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء حتى يقضي الله تعالى على لسانه يخرج على نحو التخريج الأول لكلام ابن عباس ويكون مؤيداً له ، وبعضهم يروى أنه قال : لا تفتاتوا على الله تعالى شيئاً حتى يقصه على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل مؤيداً لكلام ابن

عباس أيضاً ، وفسر التقدم بين يدي الله تعالى لأن التقدم بين يدي الرسول عليه الصلاة والسلام مكشوف المعنى ، ثم إن كل ذلك من باب بيان حاصل المعنى في الجملة .

(40/717)

وفي الدر المنثور بعد ذكر المروى عن مجاهد حسبما ذكرنا قال الحفاظ : هذا التفسير على قراءة ﴿ تُقَدّمُواْ ﴾ بفتح التاء والدال وهي قراءة لبعضهم حكاها الزمخشري وأبو حيان وغيرهما ، وكأن ذلك مبني على أن ﴿ تُقَدّمُواْ ﴾ على هذه القراءة من قدم كعلم إذا مضى في الحرب ويأتي من باب نصر أيضاً إذ الافتيات وهو السبق دون ائتمار من يؤتمر أنسب بذلك .

واختار بعض الأجلة جعله من قدم من سفره من باب علم لا غير كما يقتضيه عبارة القاموس ، وعليه يكون قد شبه تعجيلهم في قطع الحكم في أمر من أمور الدين بقدوم المسافر من سفره إيذاناً بشدة رغبتهم فيه نحو ﴿ وَقَدِمْنَا إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً ﴾ [الفرقان : 23] واختلف في سبب النزول ، فأخرج البخاري .

وابن المنذر .

وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال : "قدم ركب من بني تميم على النبي صلى الله عليه

وسلم فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه : أمّر القعقاع بن معبد ، وقال عمر رضي الله تعالى عنه : بل أمّر الأقرع بن حابس ، فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه : ما أردت إلا خلافي ، فقال عمر رضي الله تعالى عنه : ما أردت خلافك فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فأنزل الله تعالى : ﴿ عَظِيماً يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ تُقَدّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ الله وَرَسُولِهِ ﴾ حتى انقضت الآية" وأخرج عبد بن حميد .

وابن جرير .

(41/717)

وابن المنذر عن الحسن أن أناساً ذبحوا قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر فأمرهم عليه الصلاة والسلام أن يعيدوا ذبحاً فأنزل الله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ الخ ، وفي الكشاف عنه أن أناساً ذبحوا يوم الأضحى قبل الصلاة فنزلت وأمرهم صلى الله عليه وسلم أن يعيدوا ذبحاً آخر ، والأول ظاهر في أن النزول بعد الأمر والذبح قبل الصلاة يستلزم الذبح قبل رسول الله عليه الصلاة والسلام لأنه صلى الله عليه وسلم كان ينحر بعدها كما نطقت به الأخبار ، وإلى عدم الأجزاء قبل ذهب الإمام أبو حنيفة والأخبار تؤيده ، أخرج الشيخان .

والترمذي .

وأبو داود .

والنسائي عن البراء قال : " ذبح بردة بن نيار قبل الصلاة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أبدلها فقال : يا رسول الله ليس عندي إلا جذعة فقال صلى الله عليه وسلم : اجعلها مكانها ولن تجزي عن أحد بعدك " وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال : " أول ما نبدى به في يومنا هذا نصلي ثم نرجع فننحر فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا ومن ذبح قبل فإنما هو لحم قدمه لأهله ليس من النسك في شيء "

وكان أبو بردة بن نيار قد ذبح قبل الصلاة الحديث ، وفي المسألة كلام طويل محله كتب الفروع فراجعه أن أردته ، وعن الحسن أيضاً لما استقر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة أتته الوفود من الآفاق فأكثروا عليه بالمسائل فنهوا أن يبتدءوه بالمسألة حتى يكون عليه الصلاة والسلام هو المبتدىء ، وأخرجّا بن جرير .

وغيره عن قتادة قال : ذكر لنا أن ناساً كانوا يقولون : لو أنزل في كذا وكذا لكان كذا وكذا فكره الله تعالى ذلك وقدم فيه .

(42/717)

وقيل : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تهامة سرية سبعة وعشرين رجلاً عليهم المنذر بن عمرو الساعدي فقتلهم بنو عامر وعليهم عامر بن الطفيل إلا ثلاثة نفر نجوا فلقوا رجلين من بني سليم قرب المدينة فاعتزيا لهم إلى بني عامر لأنهم أعز من سليم فقتلوهما وسلبوهما ثم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : بئسما صنعتم كانا من سليم أي كانا من أهل العهد لأنهم كانوا معاهدين والسلب ما كسوتهما فوداهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ونزلت أي لا تعملوا شيئاً من ذات أنفسكم حتى تستأمروا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج الطبراني في الأوسط .

(43/717)

وابن مردويه عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : إن ناساً كانوا يتقدمون الشهر فيصومون قبل النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى : ﴿ عَظِيماً يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ تُقَدّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ الله وَرَسُولِهِ ﴾ وفي رواية عن مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني الكوفي دخلت على عائشة رضي الله تعالى عنها وكانت قد تبنته في اليوم الذي يشك فيه فقالت للجارية : أسقيه عسلا فقلت : إني صائم فقالت : قد نهى الله تعالى عن صوم هذا

اليوم وفيه نزلت ﴿ عَظِيماً يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ تُقَدّمُواْ ﴾ الخ ، فالمعنى كما في المعالم لا تصوموا قبل صوم نبيكم ، وأول هذا صاحب الكشف فقال : الظاهر عندي أنها استدلت بالآية على أنه ينبغي أن يتمثل أمر النبي صلى الله عليه وسلم ونهيه ، وقد نهى عليه الصلاة والسلام وفيه نزلت أي في مثل هذا لدلالتها على وجوب الاتباع والنهي عن الاستبداد إذ لا يلوح ذلك التفسير على وجه ينطبق على يوم الشك وحده إلا بتكلف ، وهذا نظير ما نقل عن ابن مسعود في جواب المرأة التي اعترضت عليه أنه قرأت كتاب الله وما وجدت اللعن على الواشمة كما ادعاه رضي الله تعالى عنه من قوله : لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه أما رأيت ﴿ وَمَا ءاتاكم الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نهاكم عَنْهُ فانتهوا ﴾ [الحشر : 7] قالت : بلى قال : فإنه نهى عنه .

(44/717)

وأنت تعلم بعد الرواية الأولى عن هذا التأويل ، ويعلم من هذه الروايات وغيرها أنهم اختلفوا أيضاً في تفسير التقدم ، وفي كثير منها تفسيره بخاص ، وقال بعضهم : إن الآية عامة في كل قول وفعل ويدخل فيها أنه إذا جرت مسألة في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسبقوه في الجواب ، وأن لا يمشي بين يديه إلا للحاجة ، وأن يستأني في الافتتاح بالطعام ،

ورجح بأنه الموافق للسياق ولما عرف في الأصول من أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وفي الكلام عليه بناء على ما قاله الطيبي مجاز باعتبار القدر المشترك الصادق على الحقيقة أيضاً دون التمثيل وتشبيه المعقول بالمحسوس ويسمى في الأصول بعمون المجاز وفي الصناعة بالكناية لأنها لا تنافي إرادة الحقيقة أيضاً ؛ ومن هنا يجوز إرادة لا تمشوا بين يديه صلى الله عليه وسلم ؛ وذكر عليه الرحمة أنه لا يقدر على هذا القول مفعول بل يتوجه النهي إلى نفس الفعل فتأمل ، ويحتج بالآية على اتباع الشرع في كل شيء وهو ظاهر مما تقدم ، وربما احتج بها نفاة القياس وهو كما قال الكيا باطل منهم .

نعم قال الجلال السيوطي : يحتج بها على تقديم النص على القياس ، ولعله مبني على أن العمل بالنص أبعد من التقدم بين يدي الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ واتقوا الله ﴾ أي في كل ما تأتون وتذرون من الأقوال والأفعال التي من جملتها ما نحن فيه ﴿ إِنَّ الله سَمِيعٌ ﴾ لكل مسموع ومنه أقوالكم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بكل المعلومات ومنها أفعالكم فمن حقه أن يتقي ويراقب .

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ تَرْفَعُواْ أصواتكم فَوْقَ صَوْتِ النبى ﴾

شروع في النهي عن التجاوز في كيفية القول عند النبي صلى الله عليه وسلم بعد النهي عن التجاوز في نفس القول والفعل ، وإعادة النداء مع قرب العهد به للمبالغة في الايقاظ والتنبيه والإشعار باستقلال كل من الكلامين باستدعاء الاعتناء بشأنه أي لا تبلغوا بأصواتكم وراء حد سيبلغه عليه الصلاة والسلام بصوته .

وقرأ ابن مسعود ﴿ لاَ تَرْفَعُواْ ﴾ بتشديد ﴿ لاَ تَرَّفَعُواْ ﴾ وزيادة الباء وقد شدد الأعلم الهذلي في قوله :

رفعت عيني بالحجا . . .

زالي أناس بالمناقب

والتشديد فيه للمبالغة كزيادة الباء في القراءة إلا أن ليس المعنى فيها أنهم نهوا عن الرفع الشديد تخيلاً أن يكون ما دون الشديد مسوغاً لهم ، ولكن المعنى نهيهم عما كانوا عليه من الجلبة واستجفاؤهم فيما كانوا يفعلون ، وهو نظير قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الربا أضعافا مضاعفة ﴾ [آل عمران : 130] .

(46/717)

﴿ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ أي جهراً كائناً كالجهر لألجاري فيما بينكم ، فالأول نهى عن رفع الصوت فوق صوته صلى الله عليه وسلم وهذا نهى عن مساواة جهرهم لجهره عليه الصلاة والسلام فإنه المعتاد في مخاطبة الأقران والنظراء بعضهم لبعض ، ويفهم من ذلك وجوب الغض حتى تكون أصواتهم دون صوته صلى الله عليه وسلم ، وقيل : الأول مخصوص بمكالمته صلى الله عليه وسلم لهم وهذا بصمته عليه الصلاة والسلام كأنه قيل : لا ترفعوا أصواتكم فوق صوته إذا نطق ونطقتم ولا تجهروا له بالقول إذا سكت وتكلمتم ، ويفهم أيضاً وجوب كون أصواتهم دون صوته عليه الصلاة والسلام ، فأياً ما كان يكون المآل اجعلوا أصواتكم أخفض من صوته صلى الله عليه وسلم وتعهدوا في مخاطبته اللين القريب من الهمس كما هو الدأب عند مخاطبة المهيب المعظم وحافظوا على مراعاة أبهة النبوة وجلالة مقدارها ، ومن هنا قال أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه بعد نزول الآية كما أخرج عبد بن حميد .

والحاكم .

وصححه من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة : ﴿ والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخي السرار حتى ألقى الله تعالى" .

وفي رواية أنه قال : يا رسول الله والله لا أكلمك إلا السرار أو أخا السرار حتى ألقى الله تعالى ، وكان إذا قدم على رسول الله عليه الصلاة والسلام الوفود أرسل إليهم من يعلمهم

كيف يسلمون ويأمرهم بالسكينة والوقار عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عمر رضي الله تعالى عنه كما في صحيح البخاري .

(47/717)

وغيره عن ابن الزبير إذا تكلم عند النبي صلى الله عليه وسلم لم يسمع كلامه حتى يستفهمه ، وقيل : معنى ﴿ ولا تجهروا له بالقول ﴾ الخ ولا تخاطبوه باسمه وكنيته كما يخاطب بعضكم بعضاً وخاطبوه بالنبي والرسول ، والكلام عليه أبعد عن توهم التكرار لكنه خلاف الظاهر لأن ذكر الجهر عليه لا يظهر له وجه ، وكان الظاهر أن يقال مثلاً : ولا تجعلوا خطابه كخطاب بعضكم بعضاً .

﴿ أَن تَحْبَطَ أعمالكم ﴾ تعليل لما قبله من النهيين على طريق التنازع بتقدير مضاف أي كراهة أن تحبط أعمالكم ، والمعنى إني أنهاكم عما ذكر لكراهة حبوط أعمالكم بارتكابه أو تعليل للمنهى عنه ، وهو الرفع والجهر بتقدير اللام أي لأن تحبط ، والمعنى فعلكم ما ذكر لأجل الحبوط منهى عنه ، ولام التعليل المقدرة مستعارة للعاقبة التي يؤدي إليها الفعل لأن الرفع والجهر ليس لأجل الحبوط لكنهما يؤديان إليه على ما تعلمه إن شاء الله تعالى ، وفرق بينهما بما حاصله أن الفعل المنهى معلل في الأول والفعل المعلل منهى في الثاني وأيهما كان

فمرجع المعنى إلى أن الرفع والجهر كلاهما منصوص الاداء إلى حبوط العمل ، وقراءة ابن مسعود .

وزيد بن علي ﴿ فتحبط ﴾ بالفاء أظهر في التنصيص على أدائه إلى الإحباط لأن ما بعد الفاء لا يكون إلا مسبباً عما قبلها ، وقوله تعالى : ﴿ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ حال من فاعل ﴿ تَحْبَطَ ﴾ ومفعول ﴿ تَشْعُرُونَ ﴾ محذوف بقرينة ما قبله أي والحال أنتم لا تشعرون أنها محبطة ، وظاهر الآية مشعر بأن الذنوب مطلقاً قد تحبط الأعمال الصالحة ؛ ومذهب أهل السنة أن المحبط منها الكفر لا غير ، والأول مذهب المعتزلة ولذا قال الزمخشري : قد دلت الآية على أمرين هائلين .

أحدهما أن فيما يرتكب من الآثام ما يحبط عمل المؤمن .

والثاني أن في أعماله ما لا يدري أنه محبطط ولعله عند الله تعالى محبط .

(48/717)

وأجاب عن ذلك ابن المنير عليه الرحمة بأن المراد في الآية النهي عن رفع الصوت على الإطلاق ، ومعلوم أن حكم النهي الحذر مام يتوقع في ذلك من إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم ، والقاعدة المختارة أن إيذاءه عليه الصلاة والسلام يبلغ مبلغ الكفر المحبط للعمل

باتفاق فورد النهي عما هو مظنة لأذى النبي صلى الله عليه وسلم سواء وجد هذا المعنى أولاً حماية للذريعة وحسبما للمادة ، ثم لما كان هذا المنهى عنه منقسماً إلى ما يبلغ مبلغ الكفر وهو المؤذى له عليه الصلاة والسلام وإلى ما لا يبلغ ذلك المبلغ ولا دليل يميز أحد القسمين عن الآخر لزم المكلف أن يكف عن ذلك مطلقاً خوف أن يقع فيما هو محبط للعمل وهو البالغ حد الأذى اذ لا دليل ظاهراً يميزع ، وإن كان فلا يتفق تمييزه في كثير من الأحيان ، وإلى التباس أحد القسمين بالآخر وقعت الإشارة بقوله سبحانه : ﴿ أَن تَحْبَطَ أعمالكم وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ وإلا فلو كان الأمر على ما يعتقده الزمخشري لم يكن لقوله سبحانه : ﴿ وَأَنتُمْ لاَ ﴾ موقع إذ الأمر منحصر بين أن يكون رفع الصوت مؤذياً فيكون كفراً محبطاً قطعاً وبين أن يكون غير مؤذ فيكون كبيرة محبطة على رأيه قطعاً ، فعلى كلا حاليه الإحباط به محقق إذن فلا موقع لادعام الكلام بعدم الشعور مع أن الشعور ثابت مطلقاً ، ثم قال عليه الرحمة : وهذا التقدير يدور على مقدمتين كلتاهما صحيحة .

احداهما أن رفع الصوت من جنس ما يحصل به الأذى وهذا أمر يشهد به النقل والمشاهدة حتى أن الشيخ ليتأذى برفع التلميذ صوته بين يديه فكيف برتبة النبوة وما تستحقه من الاجلال والأعظام .

ثانيتهما أن إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم كفر وهذا ثابت قد نص عليه ائمتنا وأفتوا بقتل من تعرض لذلك كفراً ولا تقبل توبته فما أتاه أعظم عند الله تعالى وأكبر انتهى .

وحاصل الجواب أنه لا دليل في الآية على ما ذهب إليه الزمخشري لأنه قد يؤدي إلى الإحباط إذا كان على وجه الإيذاء أو الاستهانة فنهاهم عز وجل عنه وعلله بأنه قد يحبط وهم لا يشعرون ، وقيل : يمكن نظراً للمقام أن يمنزل إذا هم رسول الله صلى الله عليه وسلم برفع الصوت منزلة الكفر تغليظاً إجلالاً لمجسله صلوات الله تعالى عليه وسلامه ثم يرتب عليه ما يرتب على الكفر الحقيقي من الإحباط كقوله تعالى : ﴿ ءامِناً وَلِلَّهِ عَلَى الناس حِجُّ البيت ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِىٌّ عَنِ العالمين ﴾ [آل عمران : 97] ومعنى ﴿ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ عليه وأنتم لا تسعرون أن ذلك بمنزلة الكفر المحبط وليس كسائر المعاصي ، ولا يتم بدون الأول ، وجاز كما في الكشف أن يكون المراد ما فيه استهانة ويكون من باب ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيراً للكافرين ﴾ [القصص : 86]مما الغرض منه التعريض كيف وهو قول منقول عن الحسن كما حكاه في الكشاف ، وقال أبو حيان : إن كانت الآية بمن يفعل ذلك استخفافاً فذلك كفر يحيط معه العمل حقيقة ، وإن كانت للمؤمن الذي يفعله غلبة وجرياً على عادته فإنما يحبط عمله البر في توقير النبي صلى الله عليه وسلم وغض الصوت عنده أن لو فعل ذلك كأنه قيل : مخافة أن تحبط الأعمال التي هي معدة

أن تعملوها فتؤجروا عليها ، ولا يخفى ما في الشق الثاني من التلكف البارد ، ثم إن من الجهر ما لم يتناوله النهي بالاتفاق وهو ما كان منهم في حرب أو مجادلة معاند أو ارهاب عدو أو ما أشبه ذلك ما لا يتخيل منه تأذ أو استهانة ، ففي الحديث أنه عليه الصلاة والسلام قال للعباس بن عبد المطلب لما ولى المسلمون يوم حنين : ناد أصحاب السمرة فنادى بأعلى صوته أين أصحاب السمرة ، وكان رجلاً صيتا .

يروى أن غارة أتتهم يوماً فصاح العباس يا صباحاه فأسقط الحوامل لشدة صوته ، وفيه يقول نابغة بني جعدة :

زجر أبي عروة السباع إذا . . .

(50/717)

أشفق أن يختلطن بالغنم

زعمت الرواة أنه كان يزجر السباع عن الغنم فيفتق مرارة السبع في جوفه ، وذكروا أنه سئل ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فكيف لا تفتق مرارة الغنم ؟ فقال : لأنها ألفت صوته ، وروى البخاري .

(51/717)

ومسلم عن أنس لما نزلت هذه الآية جلس ثابت بن قيس في بيته وقال : أنا من أهل النار واحتبس فسأل النبي صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ فقال : يا أبا عمرو ما شأن ثابت اشتكى ؟ قال سعد : إنه جاري وما علمت له بشكوى فأتاه سعد فقال : أنزلت هذه الآية ولقد علمتم إني أرفعكم صوتاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنا من أهل النار فذكر ذلك سعد للنبي صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل هو من أهل الجنة ، وفي رواية أنه لما نزلت دخل بيته وأغلق عليه بابه وطفق يبكي فافتقده رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما شأن ثابت ؟ قالوا : يا رسول الله ما ندري ما شأنه غير أنه أغلق باب بيته فهو يبكي فيه فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه فسأله ما شأنك ؟ قال : يا رسول الله أنزل الله عليك هذه الآية وأنا شديد الصوت فأخاف أن أكون قد حبط عملي فقال صلى الله عليه وسلم : لست منهم بل تعيش بخير وتموت بخير ، والظاهر أن ذلك منه رضي الله تعالى عنه كان من غلبة الخوف عليه وإلا فلا حرمة قبل النهي ، وهو أيضاً أجل من أن يكون ممن كان يقصد الاستهانة والإيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم برفع الصوت وهم المنافقون الذين نزلت فيهم الآية على ما روي عن الحسن وإنما كان الرفع منه طبيعة لما أنه كان في أذنه صمم وعادة كثير ممن به ذلك رفع الصوت ، والظاهر أنه بعد نزولها ترك هذه العادة ، فقد أخرج الطبراني والحاكم وصححه أن عاصم

بن عدي بن العجلان أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بحاله فأرسله إليه فلما جاء قال : ما يبكيك يا ثابت ؟ فقال : أنا صيت وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت في فقال له عليه الصلاة والسلام : أما ترضى أن تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة ؟ قال : رضيت ولا أرفع صوتي أبداً على صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(52/717)

واستدل العلماء بالآية على المنع من رفع الصوت عند قبره الشريف صلى الله عليه وسلم ، وعند قراءة حديثه عليه الصلاة والسلام لأن حرمته ميتاً كحرمته حياً .

وذكر أبو حيان كراهة الرفع أيضاً بحضرة العالم ، وغير بعيد حرمته بقصد الإيذاء والاستهانة لمن يحرم إيذاؤه والاستهانة به مطلقاً لكن للحرمة مراتب متفاوتة كما لا يخفى .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يَغُضُّونَ أصواتهم عِندَ رَسُولِ الله ﴾ الخ

ترغيب في الانتهاء عما نهوا عنه بعد الترهيب عن الإخلال به أي يحفظونها مراعاة للأدب أو خشية من مخالفة النهي ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة ، وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد ب المشار إليه لما مر مراراً من تفخيم شأنه ؛ وهو مبتدأ خبره ﴿ الذين امتحن الله قُلُوبَهُمْ للتقوى ﴾ والجملة خبر إن ، وأصل معنى

الامتحان التجربة والاختبار ، والمراد به هنا لاستحالة نسبته إليه تعالى التمرين بعلاقة اللزوم أي أنهم مرن الله تعالى قلوبهم للتقوى .

وفي "الكشف" الامتحان كناية تلويحية عن صبرهم على التقوى وثباتهم عليها وعلى احتمال مشاقها لأن الممتحن جرب وعود منه الفعل مرة بعد أخرى فهو دال على التمرن الموجب للاضطلاع ، والإسناد إليه تعالى للدلالة على التمكين ، ففيه على ما قيل مع الكناية تجوز في الإسناد والأصل امتحنوا قلوبهم للتقوى بتمكين الله تعالى لهم ، وكأنه إنما اعتبر ذلك لأنه لا يجوز إرادة المعنى الموضوع له هنا فلا يصح كونه كناية عند من يشترط فيها إرادة الحقيقة ، ومن اكتفى فيها بجواز الإرادة وإن امتنعت في محل الاستعمال لم يحتج إلى ذلك الاعتبار .

(53/717)

واختار الشهاب كون الامتحان مجازاً عن الصبر بعلاقة اللزوم ، وحاصل المعنى عليه كحاصله على الكناية أي أنهم صبر على التقوى أقوياء على مشاقها أو المراد بالامتحان المعرفة كما حكي عن الجبائي مجازاً من باب إطلاق السبب وإرادة المسبب ، والمعنى عرف الله قلوبهم للتقوى ، وإسناد المعرفة إليه عز وجل بغير لفظها غير ممتنع وهو في القرآن

الكريم شائع ، على أن الصحيح جواز الإسناد مطلقاً لما في "نهج البلاغة" من إطلاق العارف عليه تعالى ، وقد ورد في الحديث أيضاً على ما ادعاه بعض الأجلة ، واللام صلة لمحذوف وقع حالاً من ﴿ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي كائنة للتقوى مختصة بها ، فهو نحو اللام في قوله :

وقصيدة رائقة ضوعتها . . .

أنت لها أحمد من بين البشر

وقوله :

أعداء من لليعملات على الوجى . . .

وأضياف ليل بيتوا للنزول

أو هي صلة لامتحن باعتبار معنى الاعتياد أو المراد ضرب الله تعالى قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الشاقة لأجل التقوى أي لتظهر ويعلم أنهم متقون إذ لا تعلم حقيقة التقوى إلا عند المحن والاصطبار عليها ، وعلى هذا فالامتحان هو الضرب بالمحن ، واللام للتعليل على معنى أن ظهور التقوى وهو الغرض والعلة وإلا فالصبر على المحنة مستفاد من التقوى لا العكس ، أو المراد أخلصها للتقوى أي جعلها خالصة لأجل التقوى أو أخلصها لها فلم يبق لغير التقوى فيها حق كأن القلوب خلصت ملكاً للتقوى ، وهذا أبلغ وهو استعارة من امتحان الذهب وإذابته ليخلص ابريزه من خبثه وينقي أو تمثيل ، وتفسير ﴿ امتحن ﴾ بأخلص رواه ابن جرير .

وجماعة عن مجاهد ، وروي ذلك أيضاً عن الكعبي .

وأبي مسلم ، وقال الواحدي : تقدير الكلام امتحن الله قلوبهم فأخلصها للتقوى فحذف الإخلاص لدلالة الامتحان عليه وليس بذاك .

(54/717)

واختار صاحب الكشف ما نقل عنه أولاً فقال : الأول أرجح الوجوه لكثرة فائدته من الكناية والإسناد والدلالة على أن مثل هذا الغض لا يتأتى إلا ممن هو مدرب للتقوى صبور عليها فتأمل ﴿ لَهُمْ ﴾ في الآخرة ﴿ مَغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم ﴿ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ لغضهم أصواتهم عند النبي عليه الصلاة والسلام ولسائر طاعاتهم ، وتنكير ﴿ مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ ﴾ للتعظيم ، ففي وصف أجر بعظيم مبالغة في عظمه فإنه مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وجملة ﴿ لَهُمْ ﴾ الخ مستأنفة لبيان جزاء الغاضين إحماداً لحالهم كما أخبر عنهم بجملة مؤلفة من معرفتين ، والمبتدأ اسم الإشارة المتضمن لما جعل عنواناً لهم ، والخبر الموصول بصلة دلت على بلوغهم أقصى الكمال مبالغة في الاعتداد بغضهم والارتضاء له وتعريضاً بشناعة الرفع والجهر وإن حال المرتكب لهما على خلاف ذلك ، وقيل الجملة خبر ثان لإن وليس بذاك ، والآية قيل : أنزلت في الشيخين رضي الله تعالى

عنهما لما كان منهما من غض الصوت والبلوغ به أخا السرار بعد نزول الآية السابقة وفي حديث الحاكم.

وغيره عن محمد ثابت بن قيس أنه قال بعد حكاية قصة أبيه وقوله: لا أرفع صوتي أبداً على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ الذين يَغُضُّونَ أصواتهم عِندَ رَسُولِ الله ﴾ الآية.

وأنت تعلم أن حكمها عام ويدخل الشيخان في عمومها وكذا ثابت بن قيس.

وقد أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: لما أنزل الله تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ الذين امتحن الله قُلُوبَهُمْ للتقوى ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: منهم ثابت بن قيس بن شماس.

انتهى انتهى. اهـ ﴿ روح المعاني حـ 26 صـ ﴾

(55/717)

وقال الشيخ الشنقيطي:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ لاَ تُقَدِّمُواْ ﴾ فيه لعلماء التفسير ثلاثة أوجه: الأول منها وهو أصحها وأظهرها أنه مضارع قدم اللازمة بمعنى تقدم.

ومنه مقدمة الجيش ومقدمة الكتاب بكسر الدال فيهما ، وهو اسم فاعل قدم بمعنى تقدم .

ويدل لهذا الوجه قراءة يعقوب من الثلاثة الذين هم تمام العشرة لا تقدموا بفتح التاء والدال المشددة وأصله لا تتقدموا فحذفت إحدى التاءين .

الوجه الثاني : أنه مضارع قدم المتعدي ، والمفعول محذوف لإرادة التعميم أي لا تقدموا قولاً ولا فعلاً بين يدي الله ورسوله بل أمسكوا عن ذلك حتى تصدروا فيه عن أمر الله ورسوله .

الوجه الثالث : أنه مضارع قدم المتعدية ولكنها أجريت مجرى اللازم ، وقطع النظر عن وقوعها على مفعولها ، لأن المراد هو أصل الفعل دون وقوعه على مفعوله .

ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ [المؤمنون : 80] اي هو المتصف بالإحياء والإماتة ، ولا يراد في ذلك وقوعهما على مفعول .

وكقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الذين يَعْلَمُونَ والذين لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو الألباب ﴾ [الزمر : 9] لأن المراد ، أن المتصفين بالعلم لا يستوون مع غير المتصفين به .

ولا يراد هان وقوع العلم على مفعول ، وكذلك على هذا القول : لا تقدموا ، لا تكونوا من المتصفين بالتقديم .

وقد قدمنا في كلامنا الطويل على آية : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن ﴾ [النساء : 82] أن لفظة بين يديه معناها أمامه ، وذكرنا الآيات الدالة على ذلك .

والمعنى لا تتقدموا أمام الله ورسوله : فتقولوا في شيء بغير علم ولا إذن من الله ، وهذه الآية الكريمة فيها التصريح بالنهي عن التقديم بين يدي الله ورسوله ، ويدخل في ذلك دخولاً أولياً تشريع ما لم يأذن به الله وتحريم ما لم يحرمه ، وتحليل ما لم يحلله ، لأنه لا حرام إلا ما حرمه الله ولا حلال إلا ما أحله الله ، ولا دين إلا ما شرعه الله .

وقد أوضحنا هذه بالآيات القرآنية بكثرة في سورة شورى في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَمَا اختلفتم فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى الله ﴾ [الشورى : 10] وفي سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً ﴾ [الكهف : 26] وفي سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا القرآن يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : 9] وفي غير ذلك من المواضع .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ واتقوا الله ﴾ أي بأمتثال أمره واجتناب نهيه .

وقوله ﴿ إِنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ فهو سميع لكل ما تقولون من التقديم بين يديه وغيرهن عليم بكل ما تفعلون من التقديم بين يديه وغيره .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ

سبب نزول هذه الآية الكريمة ، أنه لما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وفد تميم ، أشار عليه أبو بكر رضي الله عنه أن يؤمر عليهم القعقاع بن معبد بن زراره بن عدس ، وأشار عليه عمر أن يؤمر عليه الأقرع بن حابس بن عقال .

فقال له أبو بكر : ما أردت إلا خلافي ، فقال عم : ما اردت خلافك ، فارتفعت أصواتهما فأنزل الله : ﴿ لاَ ترفعوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النبي ﴾ ذكره البخاري في صحيحه وغيره .

(57/717)

وهذه الآية الكريمة علَّم الله فيها المؤمنين أن يعظموا النبي صلى الله عليه وسلم ويحترموه ، ويوقروه ، فنهاهم عن رفع أصواتهم فوق صوته ، وعن أن يجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض ، أي ينادونه باسمه : يا محمد ، يا أحمد ، كما ينادي بعضهم بعضاً .

وإنما أمروا أن يخاطبوه خطاباً يليق بمقامه ليس كخطاب بعضهم لبعض ، كأن يقولوا يا نبي الله أو يا رسول الله ونحو ذلك .

وقوله : ﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ ﴾ أي لا تفعلوا ذلك لئلا تحبط أعمالكم ، أو ينهاكم عن ذلك كراهة أن تحيط أعمالكم وأنتم لا تشعرون أي لا تعلمون بذلك .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة ومن لزوم توقير النبي صلى الله عليه وسلم ، وتعظميه واحترامه جاء مبيناً في مواضع أخر كقوله تعالى : ﴿ لِّتُؤْمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ [الفتح : 9] على القول بأن الضمير في تعزروه وتوقروه للنبي لى الله عليه وسلم وقوله تعالى ﴿ لاَّ تَجْعَلُواْ دُعَآءَ الرسول بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾ [النور : 63] كما تقدم وقوله تعالى ﴿ فالذين آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ ﴾ [الأعراف : 157] الآية .

وقول هنا : ﴿ وَلاَ تَجْهَرُواْ لَهُ بالقول ﴾ [الحجرات : 2] أي لا تنادوه باسمه : كيا محمد .

وقد دلت آيات من كتاب الله على أن الله تعالى لا يخاطبه في كتابه باسمه ، وإنما يخاطبة بما يدل على التعظيم والتوقير ، كقوله : ﴿ يا أيها النبي ﴾ [الأنفال : 64 - 65 - 70] . ﴿ يا أيها الرسول ﴾ [المائدة : 41 - 67] . ﴿ يا أيها المزمل ﴾ [المزمل : 1] . ﴿ يا أيها المدثر ﴾ [المدثر : 1] مع أنه ينادي غيره من الأنبياء بأسمائهم كقوله ﴿ وَقُلْنَا يَاآدَمُ ﴾ [البقرة : 35] . وقوله : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يا إبراهيم ﴾ [الصافات : 104] وقوله : ﴿ قَالَ يا نوح إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِك ﴾ [هود : 46] .

قيل ﴿ قِيلَ يا نوح اهبط بِسَلاَمٍ مِّنَّا ﴾ [هود : 48] . وقوله : ﴿ قَالَ يا موسى إِنِّي اصطفيتك عَلَى الناس ﴾ [الأعراف : 144] وقوله : ﴿ إِذْ قَالَ الله يا عيسى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ [آل عمران : 55] وقوله : ﴿ يا داوود إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً ﴾ [ص : 26] .

أما النبي صلى الله عليه وسلم فلم يذكر اسمه في القرآن في خطاب ، وإنما يذكر في غير ذلك كقوله : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرسل ﴾ [آل عمران : 144] . وقوله : ﴿ وَآمَنُواْ بِمَا نُزِّلَ على مُحَمَّدٍ ﴾ [محمد : 2] . وقوله : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ الله والذين مَعَهُ ﴾ [الفتح : 29] .

وقد بين تعالى أن توقيره واحترامه صلى الله عليه وسلم بغض الصوت عنده لا يكون إلا من الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، أي أخلصها لها وأن لهم بذلك عند الله المغفرة والأجر العظيم ، وذلك في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الذين يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ الله أولئك الذين امتحن الله قُلُوبَهُمْ للتقوى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحجرات : 3] .

وقال بعض العلماء في قوله : ﴿ وَلاَ تَجْهَرُواْ لَهُ بالقول ﴾ أي لا ترفعوا عنده الصوت كرفع بعضكم صوته عند بعض .

قال القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية ما نصه : وفي هذا دليل على أنهم لم ينهوا عن الجهر

مطلقاً ، حتى لا يسوغ لهم إلا أن يكلموه بالهمس والمخافتة ، وإنما نهوا عن جهر مخصوص مقيد بصفة ، أعني الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منهم فيما بينهم ، وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوة ، وجلالة مقدارها وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبتها . انتهى محل الغرض منه .

وظاهر هذه الآية الكريمة أن الإنسان قد يحبط عمله وهو لا يشعر ، وقد قال القرطبي : إنه لا يحبط عمله بغير شعوره وظاهر الآية يرد عليه .

(59/717)

وقد قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية ، ما نصه : وقوله عز وجل : ﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ أي إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك فيغضب الله تعالى لغضبه ، فيحبط عمل من أغضبه وهو لا يدري ، كما جاء في الصحيح " إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى لا يلقى لها بالاً يكتب له بها الجنة ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض " اه محل الغرض منه بلفظه .

ومعلوم أن حرمة النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته كحرمته في أيام حياته ، وبه تعلم أن

ما جرت به العادة اليوم من اجتماع الناس قرب قبره صلى الله عليه وسلم وهم في صخب ولغط . وأصواتهم مرتفعة ارتفاعاً مزعجاً كله لا يجوز ، ولا يليق ، وإقرارهم عليه من المنكر .

وقد شدد عمر رضي الله عنه النكير على رجلين رفعاً أصواتهما في مسجده صلى الله عليه وسلم ، وقال : لو كنتم من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً .

مسألتان

الأولى : اعلم أن عدم احترام النبي صلى الله عليه وسلم المشعر بالغض منه أو تنقيصه صلى الله عليه وسلم والاستخفاف به أو الاستهزاء به ردة عن الإسلام وكفر بالله .

وقد قال تعالى في الذين استهزءوا بالنبي صلى الله عليه وسلم وسخروا منه في غزوة تبك لما ضلت راحلته : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [التوبة : 65 – 66] .

المسألة الثانية

وهي من أهم المسائل ، اعلم أنه يجب على كل غنسان أن يميز بين حقوق الله تعالى التي هي من خصائص ربوبيته ، التي لا يجوز صرفها لغيره ، وبين حقوق خلقه كحق النبي صلى الله عليه وسلم ، ليضع كل شيء في موضعه ، على ضوء ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم في هذا القرآن العظيم والسنة الصحيحة .

وإذا عرفت ذلك فاعلم : أن من الحقوق الخاصة بالله التي هي من خصائص ربوبيته التجاء عبده إليه اذا دهمته الكروب التي لا يقدر على كشفها إلا الله .

فالتجاء المضطر الذي أحاطت به الكروب ودهمته الدواهي لا يجوز إلا الله وحده ، لأنه من خصائص الربوبية فصرف ذلك الحق لله وإخلاصه له هو عين طاعة الله ومرضاته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ومرضاته وهو عين التوقير والتعظيم للنبي صلى الله عليه وسلم لأن أعظم أنواع توقيره وتعظيمه هو اتباعه والاقتداء به في إخلاص التوحيد والعبادة له وحده جل وعلا .

وقد بين جل وعلا في آيات كثيرة من كتابه ، أن التجاء المضطر من عباده إليه وحده ، في أوقات الشدة والكرب من خصائص ربوبيته تعالى .

من أصرح ذلك الآيات التي في سورة النمل أعني قوله تعالى : ﴿ قُلِ الحمد لِلَّهِ وَسَلَامٌ على عِبَادِهِ الذين اصطفى ﴾ [النمل : 59] إلى قوله : ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [النمل : 64] .

فإنه جل وعلا قال في هذه الآيات الكريمات العظيمات : ﴿ قُلِ الحمد لِلَّهِ وَسَلاَمٌ على عِبَادِهِ الذين اصطفى ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل : 59] .

ثم بين خصائص ربوبيته الدالة على أنه المعبود وحده فقال : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ السمآء مَآءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُواْ شَجَرَهَا أإله مَّعَ الله بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [النمل : 60] .

(61/717)

فهذه المذكورات التي هي خلق السماوات والأرض ، وإنزال الماء من السماء وإنبات الحدائق ذات البهجة ، التي لا يقدر على إنبات شجرها إلا الله ، من خصائص ربوبية الله ، ولذا قال تعالى بعدها ﴿ أإله مَّعَ الله ﴾ يقدر على خلق السماوات والأرض وإنزال الماء من السماء وإنبات الحدائق به ، والجواب لا . لأنه لا إله إلا الله وحده .

ثم قال تعالى : ﴿ أَمَّن جَعَلَ الأرض قَرَاراً وَجَعَلَ خِلاَلَهَآ أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ البحرين حَاجِزاً أإله مَّعَ الله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل : 61] .

فهذه المذكورات أيضاً ، التي هي جعل الأرض قراراً ، وجعل الأنهار خلالها ، وجعل الجبال الرواسي فيها ، وجعل الحاجز بين البحرين من خصائص ربوبيته جل وعلا ، ولذا قال بعد

ذكرها أإله مع الله ؟ والجواب لا .

فالاعتراف من خصائص ربوبيته جل وعلا هو الحق ، وهو من طاعة الله ورسوله ، ومن تعظيم الله وتعظيم رسوله بالاقتداء به صلى الله عليه وسلم في تعظيم الله .

ثم قال تعالى وهو محل الشاهد ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل : 62] .

فهذه المذكورات التي هي إجابة المضطر إذا دعا ، وكشف السوء وجعل الناس خلفاء في الأرض من خصائص ربوبيته جل وعلا ، ولذا قال بعدها أإله مع الله قليلاً ما تذكرون .

(62/717)

فتأمل قوله تعالى : ﴿ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ مع قوله : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ [النمل : 62] تعلم أن إجابة المضطرين إذا التجؤوا ودعوا وكشف السوء عن المكروبين ، لا فرق في كونه من خصائص الربوبية ، بينه وبين خلق السماوات والأرض ، وإنزال الماء وإنبات النبات ، ونصب الجبال وإجراء الأنهار ، لأنه جل وعلا ذكر الجميع بنسق واحد في سياق واحد ، وأتبع جميعه بقوله : ﴿ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ [النمل : 60 - 64] .

فمن صرف شيئاً من ذلك لغير الله توجه إليه الإنكار السماوي الذي هو في ضمن قوله : ﴿ أإله مَّعَ الله ﴾ فلا فرق ألبتة بين تلك المذكورات في كونها كلها من خصائص الربوبية .

ثم قال تعالى : ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ البر والبحر وَمَن يُرْسِلُ الرياح بُشْرًى بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أإله مَّعَ الله تَعَالَى الله عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل : 63] .

فهذه المذكورات التي هي هدي الناس في ظلمات البر والبحر ، وإرسال الرياح بشراً ، أي مبشرات ، بين يدي رحمته التي هي المطر ، من خصائص ربوبيته جل وعلا .

ولذا قال تعالى : ﴿ أإله مَّعَ الله ﴾ ، ثم نزه جل وعلا نفسه عن أن يكون معه إله يستحق شيئاً مما ذكر فقال جل وعلا : ﴿ تَعَالَى الله عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ أَمَّن يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السمآء والأرض أإله مَّعَ الله قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [النمل : 64] .

فهذه المذكورات التي هي بدء خلق الناس وإعادته يوم البعث ، ورزقه للناس من السماء بإنزال المطر ، ومن الأرض بإنبات النبات ، من خصائص ربوبيته جل وعلا ولذا قال بعدها ﴿ أإله مَّعَ الله ﴾ .

(63/717)

ثم عجَّز جل وعلا كل من يدعي شيئاً من ذلك كله لغير الله ، فقال آمراً نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يخاطبهم بصيغة التعجيز : ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [النمل : 64] .

وقد اتضح من هذه الآيات القرآنية ، أن إجابة المضطرين الداعين ، وكشف السوء عن المكروبين ، من خصائص الربوبية كخلق السماوات والأرض وإنزال الماء ، وإنبات النبات ، والحجز بين البحرين إلى آخر ما ذكر .

وكون إجابة المضطرين وكشف السوء عن المكروبين من خصائص الروبية ، كما أوضحه تعالى في هذه الآيات من سورة النمل جاء موضحاً في آيات أخر ، كقوله تعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [يونس : 107] .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام : 17] .

وقوله تعالى : ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ ﴾ [فاطر : 2] الآية .

فعلينا معاشر المسلمين أن نتأمل هذه الآيات القرآنية ونعتقد ما تضمنته ونعمل به لنكون بذلك مطيعين لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم معظمين لله ولرسوله ، لأن أعظم

أنواع تعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو اتباعه والاقتداء به ، في إخلاص العبادة لله جل وعلا وحده .

(64/717)

فإخلاص العبادة له جل وعلا وحده ، هو الذي كان يفعله صلى الله عليه وسلم ويأمر به وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ [البينة : 5] وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدين ﴾ [الزمر : 11] إلى قوله : ﴿ قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي فاعبدوا مَا شِئْتُمْ ﴾ [14 - 15] .

والعلم أن الكفار في زمن النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يعلمون علماً يقيناً أن ما ذكر من إجابة المضطر وكشف السوء عن المكروب ، من خصائص الربوبية وكانوا إذا دهمتهم الكروب ، كإحاطة الأمواج بهم في البحر ، في وقت العواصف يخلصون الدعاء لله وحده ، لعلمهم أن كشف ذلك من خصائصه فإذا أنجاهم من الكرب رجعوا إلى الإشراك .

وقد بين الله جل وعلا هذا في آيات من كتابه كقوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي يُسَيِّرُكُمْ فِي البر والبحر حتى إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ الموج مِن كُلِّ مَكَانٍ وظنوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين لَئِنْ أَنجَيْتَنَا

مِنْ هذه لَنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين فَلَمَّا أَنجاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأرض بِغَيْرِ الحق ﴾ [يونس : 22 - 23] .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُمْ مِّن ظُلُمَاتِ البر والبحر تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هذه لَنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ قُلْ هُوَ القادر على أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ [الأنعام : 63 - 65] الآية .

(65/717)

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ الساعة أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : 40 - 41] .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضر فِي البحر ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى البر أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإنسان كَفُوراً أَفَأَمِنْتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ البر أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً أَمْ أَمِنْتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخرى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِّنَ الريح فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً ﴾ [الإسراء : 67 - 68 - 69] .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي الفلك دَعَوُاْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر إِذَا

هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت : 65] .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُاْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ﴾ [لقمان : 32] .

وقد قدمنا في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء : 67] أن سبب إسلام عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه أنه لما فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة ذهب فاراً منه إلى بلاد الحبشة فركب في البحر متوجهاً إلى الحبشة فجاءتهم ريح عاصف .

(66/717)

فقال القوم بعضهم لبعض إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعوا الله وحده . فقال عكرمة في نفسه : والله إن كان لا ينفع في البحر غيره ، فإنه لا ينفع في البر غيره . اللهم لك علي عهد لئن أخرجتني منه لأذهبن فألضعن يدي في يد محمد صلى الله عليه وسلم فلأجدنه رؤوفاً رحيماً ، فخرجوا من البحر فخرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم وحسن إسلامه رضي الله عنه . انتهى .

وقد قدمنا هناك أن بعض المتسمين باسم الإسلام أسوأ حالاً من هؤلاء الكفار المذكورين

لأنهم في وقت الشدائد يلجؤون لغير الله طالبين منه ما يطلب المؤمنون من الله ، وبما ذكر تعلم أن ما انتشر في أقطار الدنيا من الالتجاء في أقوات الكروب والشدائد إلى غير الله جل وعلا كام يفعلون ذلك قرب قبر النبي صلى الله عيه وسلم وعند قبور من يعقتدون فيهم الصلاح زاعمين أن ذلك من دين الله ومحبة الرسول صلى الله عليه وسلم وتعظيمه ومحبة الصالحين كله من أعظم الباطل ، وهو انتهاك لرحمات الله وحرمات رسوله .

لأن صرف الحقوق الخاصة بالخالق التي هي من خصائص ربوبيته إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو غير من يعتقد فيهم الصلاح مستوجب سخط الله وسخط النبي صلى الله عليه وسلم وسخط كل متبع له بالحق .

ومعلوم أنه صلوات الله وسلامه عليه لم يأمر بذلك هو ولا أحد من أصحابه ، وهو ممنوع فقي شريعة كل نبي من الأنبياء ، والله جل وعلا يقول : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : 79 – 80] .

(67/717)

بل الذي كان يأمر به صلى الله عليه وسلم هو ما يأمره الله بالأمر به في قوله تعالى ﴿ قُلْ يا أهل الكتاب تَعَالَوْاْ إلى كَلَمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ الله وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ الله فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشهدوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : 64].

واعلم أن كل عاقل إذا رأى رجلاً متديناً في زعمه مدعياً حب النبي صلى الله عليه وسلم وتعظيمه وهو يعظم النبي صلى الله عليه وسلم ويمدحه بأنه هو الذي خلق السماوات والأرض وأنزل الماء من السماء وأنبت به الحدائق ذات البهجة ، وأنه صلى الله عيله وسلم هو الذي جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً غلى آخر ما تضمنته الآيات المتقدمة ، فإن ذلك العاقل لا يشك في أن ذلك المادح المعظم في زعمه من أعداء الله ورسوله المتعدين لحدود الله .

وقد علمت من الآيات المحكمات أنه لا فرق بين ذلك وبين إجابة المضطرين وكشف السوء عن المكروبين .

فعلينا معاشر المسلمين أن ننتبه من نومه الجهل وأن نعظم ربنا بامتثال أمره واجتناب نهيه ، وإخلاص العبادة له ، وتعظيم نبينا صلى الله عليه وسلم باتباعه والاقتداء به في تعظيم الله والإخلاص له والاقتداء به في كل ما جاء به .

وألا نخالفه صلى الله عليه وسلم ولا نعصيه ، وألا نفعل شيئاً يشعر بعدم التعظيم والاحترام ، كرفع الأصوات قرب قبره صلى الله عليه وسلم ، وقصدنا النصيحة والشفقة لإخواننا المسلمين ليعملوا بكتاب الله ، ويعظموا نبيه صلى الله عليه وسلم تعظيم الموافق لما جاء به صلى الله عليه وسلم ويتركوا ما يسميه الجهلة محبة وتعظيماً وهو في الحقيقة احتقار وازدراء وانتهاك لحرمات الله ، ورسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ ولا أَمَانِيِّ أَهْلِ الكتاب مَن يَعْمَلْ سواءا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ الله وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات مِن ذَكَرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فأولئك يَدْخُلُونَ الجنة وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً ﴾ [النساء : 123 - 124] .

واعلم أيضاً رحمك الله : أنه لا فرق بين ما ذكرنا من إجابة المضطر وكشف السوء عن المكروب ، وبين تحصيل المطالب التي لا يقدر عليها إلا الله ، كالحصول على الأولاد والأموال وسائر أنواع الخير .

فإن التجاء العبد إلى ربه في ذلك أيضاً من خصائص ربوبيته جل وعلا كما قال تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السمآء والأرض ﴾ [يونس : 31] وقال تعالى : ﴿ فابتغوا عِندَ الله الرزق واعبدوه واشكروا لَهُ ﴾ [العنكبوت : 17] . وقال تعالى : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور ﴾ [الشورى : 49] الآية . وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ

أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطيبات ﴾ [النحل : 72] وقال تعالى : ﴿ واسألوا الله مِن فَضْلِهِ ﴾ [النساء : 32] إلى غير ذلك من الآيات .

وفي الحديث " إذا سألت فاسأل الله "

(69/717)

وقد أثنى الله جل وعلا على نبيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالتجائهم إليه وقت الكرب يوم بدر في قوله : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فاستجاب لَكُمْ ﴾ [الأنفال : 9] الآية .

فنبينا صلى الله عليه وسلم كان هو وأصحابه إذا أصابهم أمر أو كرب التجؤوا إلى الله وأخلصوا له الدعاء . فعلينا أن نتبع ولا نبتدع .

تنبيه

اعلم أنه يجب على كل مسلم أن يتأمل في معنى العبادة ، وهي تشمل جميع ما أمر الله أن يتقرب إليه به من جميع القربات فيخلص تقربه بذلك إلى الله ولا يصرف شيئاً منه لغير الله كائناً ما كان .

والظاهر أن ذلك يشمل هيئات العبادة فلا ينبغي للمسلم عليه صلى الله عليه وسلم أن يضع يده اليمنى على اليسرى كهيأة المصلي ، لأن هيأة الصلاة داخلة في جملتها فينبغي أن

تكون خالصة لله ، كما كان صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه يخلصون العبادات وهيئاتها لله وحده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(70/717)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

49 . سورة الحجرات

نزولها : مدينة عدد آياتها : ثمانى عشرة آية . .

عدد كلماتها : ثلاثمائة وأربعون كلمة .

عدد حروفها : ألف وأربعمائة وأربع وسبعون حرفا .

مناسبتها للسورة قبلها

كان صدّ المسلمين عن البيت الحرام ، وقد جاء بهم النبي صلوات اللّه وسلامه عليه إلى مكة معتمرا ، واعدا إياهم أن يدخلوا المسجد الحرام ، وأن يحلقوا ويقصروا ، وقد كان النبي رأى فى منامه رؤيا تأوّلها هذا التأويل وأخبر أصحابه بها . كان هذا الصد داعية إلى إثارة هياج فى نفوس المسلمين ، وإلى جريان كثير من اللغط على ألسنتهم . فجاءت سورة الحجرات ، بعد أن رأوا من آيات اللّه ما رأوا ، وبعد أن صدقت رؤيا الرسول الكريم ،

ودخلوا المسجد الحرام آمنين ومحلقين. جاءت تحمل إليهم هذا الأدب الإلهى الذي يؤدبهم الله سبحانه وتعالى به، ويقيمهم على طريقه، مع النبي الكريم، وفى الإيمان به إيمان يقين، لا يخالطه شىء من ريبة أو شك، كما سنرى ذلك فيما جاء فى مطلع السورة.

(71/717)

التفسير:

قوله تعالى: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»:

التقديم بين يدى الله ورسوله، هو السبق بقطع الأمر دونهما، وبعيدا عن الحكم الذي يقرّره الله سبحانه وتعالى لهم فى كتابه، وسنة رسوله..

وفى الآية الكريمة عتاب للمؤمنين، الذي لغطوا بما لغطوا به فى صلح الحديبية، وهو فى الوقت نفسه تأديب عام لهم، وإقامتهم بالمكان الذي ينبغى أن يكونوا فيه من أمر الله ورسوله.. فإذا قضى الله ورسوله أمرا، لم يكن لمؤمن بالله ورسوله خيار فى هذا الأمر.. فإما المتابعة فى ولاء ورضا وغبطة، وإما حلّ لعقد الإيمان الذي عقدوه مع الله ورسوله.. والله سبحانه وتعالى يقول: «وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ، إِذا قَضَى اللَّهُ

وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِيناً

» .

فقوله تعالى : « لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » أي لا يكن لكم أمر

(72/717)

تنفردون به دون أمر اللّه ورسوله ، فلا تقطعوا أيها المؤمنون أمرا يقوم على خلاف ما أمر به اللّه ورسوله .

وقوله تعالى : « وَاتَّقُوا اللَّهَ » أي استقيموا على تقوى اللّه ، بطاعته وطاعة رسوله ، وامتثال أمره ، ومتابعة رسوله . .

وقوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » أي يسمع ما تقولون ، ويعلم ما لا تقولون مما تخفونه فى صدوركم . . فيجازيكم بما كان منكم من حسن أو سوء . .

قوله تعالى : « يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ » .

هو من تمام أدب المؤمنين مع رسول اللّه ، الذي ينبغى أن يكون صوته أعلى الأصوات ، وكلمته رائدة الكلمات وهاديتها . . ورفع الصوت بين يدى النبي ، فيه استخفاف ، وفيه

تجرد من مشاعر الهيبة والإكبار ، وجفاف من عواطف الحب والولاء . . فالكلمات التي تصدر فى مقام الجلال والإكبار ، كلمات ضامرة ضاوية ، أمام ما يروعها من هيبة وجلال . . والكلمات التي تخرج من أفواه المحبين كلمات مستحيية ضارعة بين يدى من يحبّون . . والمسلمون فى حضرة النبي الكريم ، يشهدون أروع آيات العظمة والجلال ، وحديثهم إليه ، إنما هو حديث يفيض من قلوب ملكها الحب ، وخالط شغافها . .

وإنه لا يجتمع مع هذا أن يرتفع صوت من مؤمن فى حضرة الرسول ، فإن ارتفع فلن يكون إلا دون صوت النبي . .

وقوله تعالى : « وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ » .

المراد بالقول هنا ، ما يكون بين الأصدقاء والإخوان من معاتبات تنحلّ

فيها عقد ألسنتهم ، ويجهرون فيها بما يتحرجون من الجهر به فى غير خلواتهم مع من يكونون على شاكلتهم ، وفى مستوى مكانتهم بين الناس . .

فالجهر بمثل هذا القول ، وإن لم يرتفع به الصوت فوق صوت النبي ، فيه دلالة على عدم الاحتشام والحياء فى حضرة رسول اللّه ، الأمر الذي لا يليق أن يكون من مؤمن باللّه

ورسوله ، ولا يلتقى مع التوقير لرسول اللّه ، الذي دعا اللّه سبحانه المؤمنين إليه فى قوله سبحانه : « لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا » .

.

وقوله تعالى : « أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ » .

.

حبط الأعمال : إبطالها ، وحرمان أصحابها الثمرة المرجوة منها . .

والسؤال هنا : كيف تحبط أعمالهم بعمل يعملونه ولا يشعرون بالآثار المترتبة عليه ؟ وهل يؤاخذ الإنسان على ما يعمله عن غفلة وجهل ؟ .

والجواب على هذا ـ واللّه أعلم ـ أن هذا تحذير من أن يكون من المؤمنين شىء من هذا المنهىّ عنه ، مستقبلا ، بعد أن نهاهم اللّه سبحانه وتعالى عنه . . فالمؤاخذة على ما نهوا عنه ، إنما تبدأ من بعد تلقّيهم هذا النهى . .

ولأن مثل رفع الصوت ، والجهر بالقول ، مما قد يكون من بعض الناس طبيعة لازمة ، أو عادة متحكمة ، فقد جاء هذا التحذير ليتنبه المؤمنون وهم بين يدى النبي ، وليحرسوا أنفسهم من أن ينزلقوا ، تحت حكم الطبيعة أو العادة ، إلى هذا المنزلق الذي تضيع فيه أعمالهم الطيبة من غير أن يشعروا أنهم يأتون منكرا ، أو يقصدون إساءة أدب فى حضرة الرسول ! .

وهذا ، وإن كان من غير قصد ، هو مزلق إلى ما يكون عن قصد ، ووعى ، بعد أن يصبح ذلك عادة مألوفة . .

(74/717)

قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ » . .

هو بيان لما لهذا الأدب الذي يأخذ به المسلمون أنفسهم بين يدى رسول اللّه ، من ثواب عظيم ، وأجر كبير عند اللّه . .

وقوله تعالى : « يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ » أي يخفضونها حياء وإجلالا . . وفى التعبير عن خفض الصوت بالغض الذي هو من شأن النظر ، إذ يقال غضّ فلان بصره ولا يقال غض صوته . فى هذا التعبير إعجاز من إعجاز النظم القرآنى ، الذي تحمله كلمات اللّه متحدية الجنّ والإنس جميعا . .

ذلك أن خفض الصوت إنما يكون عن مشاعر الحياء ، التي من شأنها أن تنكسر معها حدة البصر ، فلا يستطيع المرء أن يملأ عينيه ممن يهابه ، ويجلّه ، ويوقره . . فهو إذا نظر غضّ بصره ، وإن هذا الغض من البصر يستولى على مخارج الصوت أيضا ، فيحبس الصوت عن

أن ينطلق إلى غاياته ، بل يكسر حدته ، كما كسرّ حدة النظر . .

ففى قوله تعالى : « يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ » إشارة ضمنية إلى غض البصر حياء ، وأن سلطان الحياء هو المتحكم فى هذا المقام . وهكذا يتسلط الغضّ على الأبصار ، والأفواه جميعا .

وقوله تعالى : « أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى » إشارة إلى أن قلوب هؤلاء المؤمنين الذين يغضون أصواتهم عند رسول اللّه قد أعدها اللّه سبحانه وتعالى وأرادها لتكون مستقرا ومستودعا للتقوى ، وهذا هو السر فى تعدية الفعل « امتحن » باللام ، فى قوله تعالى « لِلتَّقْوَى » مع أن الأصل فى فعل الامتحان أن يتعدى بالباء ، فيقال : « امتحنه بكذا ، لا لكذا » .

(75/717)

وفى هذا ما يشير إلى أن تلك القلوب التي يغضّ أصحابها أبصارهم عند رسول اللّه ، قد امتحنت فعلا بالتقوى ، وقد نجحت فى هذا الامتحان ، فأصبحت قابلة للتقوى ، متجاوبة معها . . فقد يمتحن الإنسان بالشيء ، ولا يقبله ، ولا يتجاوب معه . . أما إذا امتحن للشيء ، واختير له ، فإن ذلك يعنى أنه أهل لهذا الامتحان ، وخاصة إذا كان المتخيّر له ، هو الحكيم العليم ، رب العالمين . .

ولهذا ، فإن قوله تعالى : « أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى » هو خبر لقوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ » بمعنى أن الذين يغضون أصواتهم عند رسول اللّه هم من أهل التقوى . . فهذا هو حكمهم عند اللّه . .

وقوله تعالى : « لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ » خبر ثان لقوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ » بمعنى أنهم أهل التقوى ، وأنهم مجزّيون من اللّه سبحانه وتعالى بالمغفرة والأجر العظيم . .

وفى الآيات الكريمة ما يكشف عن جانب عظيم من أخلاقيات الإسلام ، وآدابه العالية ، فيما يعرف اليوم بالدبلوماسية السياسية ، التي تفرض على الناس مراسم من الأدب فى حضرة الملوك ، والرؤساء ، والقادة ، والزعماء ، وأصحاب السيادة والسلطان . .

ولكن شتان بين أدب الإسلام ، الذي ينبع من مشاعر صادقة ، ويفيض من قلوب عامرة بالحب ، خفّاقة بالولاء ، وبين هذا الأدب التمثيلى المصطنع ، الذي لا يتجاوز الكلمات التي ترددها الألسنة ، والحركات التي تصطنعها الأجسام ! ! إنه أدب أشبه بأدب القرود بين يدى مؤدبها ! .

وألا فلتخضع الرقاب ، وتنخفض الجباه أمام هذا الأدب الإسلامى ، ولتخرس الألسنة التي ترمى بالتهم فى وجه هذا الدين الذي جمع الفضائل كلها ، والذي يقود ركب الحضارة فى أعلى مستوياتها ، وأروع مظاهرها . .

إنه ليس دين بداوة جافية غليظة ، كما يتخرص المتخرصون ، بل إنه دين المدنية الخالصة من شوائب الزيف ، وطلاء الخداع ! ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 13 صـ 432.438 ﴾

(77/717)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

الافتتاح بنداء المؤمنين للتنبيه على أهمية ما يرد بعد ذلك النداء لتترقبه أسماعهم بشوق .

ووَصْفُهم بـ ﴿ الذين آمنوا ﴾ جار مجرى اللقب لهم مع ما يؤذِن به أصله من أهليتهم لتلقي هذا النهي بالامتثال .

وقد تقدم عند الكلام على أغراض السورة أن الفخر ذكر أن الله أرشد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق ، وهي إما في جانب الله أو جانب رسوله صلى الله عليه وسلم أو بجانب

الفساق أو بجانب المؤمن الحاضر أو بجانب المؤمن الغائب ، فهذه خمسة أقسام ، فذكر الله في هذه السورة خمس مرات ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فأرشد في كل مرة إلى مكرمة مع قسم من الأقسام الخمسة إلخ ، فهذا النداء الأول اندرج فيه واجب الأدب مع الله ورسوله صلى الله عليه وسلم تعرض الغفلة عنها .

رضي الله عن

والتقدم حقيقته : المشي قبل الغير ، وفعله المجرد : قَدُم من باب نصر قال تعالى : ﴿ يَقْدُمُ قومه يوم القيامة ﴾ [هود : 98] .

وحق قدم بالتضعيف أن يصير متعدياً إلى مفعولين لكن ذلك لم يرد وإنما يعدّى إلى المفعول الثاني بحرف على .

ويقال : قدَّم بمعنى تَقدم كأنه قدّم نفسه ، فهو مضاعف صار غير متعد .

فمعنى ﴿ لا تقدموا ﴾ لا تتقدموا .

ففعل ﴿ لا تقدموا ﴾ مضارع قَدَّم القاصر بمعنى تقدم على غيره وليس لهذا الفعل مفعول ، ومنه اشتقت مقدمة الجيش للجماعة المتقدمة منه وهي ضد الساقة .

ومنه سميت مقدمةَ الكتاب الطائفةُ منه المتقدمة على الكتاب .

ومادة فَعَّل تجيء بمعنى تفعّل مثل وجّه بمعنى توجّه وبَيَّن بمعنى تبيّن ، ومن أمثالهم بَيّن الصبح لذي عينين .

والتركيب تمثيل بتشبيه حال من يفعل فعلاً دون إذن مِن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بحال من يتقدم مُماشِيَه في مَشيه ويتركه خلفه .

ووجه الشبه الانفراد عنه في الطريق .

والنهي هنا للتحذير إذ لم يسبق صدور فعل من أحد افتياتا على الشرع .

(78/717)

ويستروح من هذا أن هذا التقدم المنهي عنه هو ما كان في حالة إمكان الترقب والتمكن من انتظار ما يبرمه الرسول صلى الله عليه وسلم بأمر الله فيومىء إلى أن إبرام الأمر في غيبة الرسول صلى الله عليه وسلم لا حرج فيه .

وهذه الآية تؤيد قول الفقهاء : إن المكلف لا يقدِم على فعل حتى يعلم حكم الله فيه .

وعدّ الغزالي العلمَ بحكم ما يُقدم عليه المكلف من قسم العلوم التي هي فرض على الأعيان الذين تعرض لهم .

والمقصود من الآية النهي عن إبرام شيء دون إذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر قبله اسم الله للتنبيه على أن مراد الله إنما يعرف من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم وقد حصل من قوله : ﴿ لا تقدموا ﴾ الخ معنى اتبعوا الله ورسوله .

وسبب نزول هذه الآية ما رواه البخاري في "صحيحه" في قصة وفد بني تميم بسنده إلى ابن الزبير قال "قدم ركب من بني تميم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر : أمَّرْ عليهم القعقاع بن معبد بن زُرارة .

وقال عُمر : بل أمِّر الأقرعَ بن حابس .

قال أبو بكر : ما أردت إلاّ خلافي أو إلَى خلافي قال عمر : ما أردت خِلافك أو إلى خلافك فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما في ذلك فنزل ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ [الحجرات : 1 ، 2] .

فهذه الآية توطئة للنهي عن رفع الأصوات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم والجهرِ له بالقول وندائه من وراء الحجرات .

(79/717)

وعن الضحاك عن ابن عباس أنها نزلت بسبب بَعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سَرية فقتلتْ بنُو عامر رجالَ السرية إلا ثلاثة نَفرٍ نَجَوا فلقُوا رجلين من بين سُليم فسألوهما

عن نسبتهما فاعتزيا إلى بني عامر ظنّاً منهما أن هذا الاعتزاء أنجى لهما من شر توقعاه لأن بني عامر أعزُّ من بني سليم ، فقتلوا النفر الثلاثة وسلبوهما ثم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال : " بئسما صنعتم كانَا من بني سليم ، والسلَب ما كَسَوْتُهما " أي عرف ذلك لما رأى السلب فعَرَفه بأنه كساهما إياه وكانت تلك الكسوة علامة على الإسلام لئلا يتعرض لهم المسلمون فوادهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا ﴾ الآية ، أي لا تعملوا شيئاً من تلقاء أنفسكم في التصرف من الأمة إلا بعد أن تستأمروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى هذه الرواية تكون القصة جرت قبيل قصة بني تميم فقرنت آيتاهما في النزول .

وهنالك روايات أخرى في سبب نزولها لا تناسب موقع الآية مع الآيات المتصلة بها .

وأيًا مَا كان سبب نزولها فهي عامة في النهي عن جميع أحوال التقدم المراد .

وجعلت هذه الآية في صدر السورة مقدَّمة على توبيخ وفد بني تميم حين نادوا النبي صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات لأن ما صدر من بني تميم هو من قبيل رفع الصوت عند النبي صلى الله عليه وسلم ولأن مماراة أبي بكر وعمرَ وارتفاع أصواتهما كانت في قضية بني تميم فكانت هذه الآية تمهيداً لقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي الآية ، لأن من خصه الله بهذه الحظوة ، أي جعل إبرام العمل بدون أمره كإبرامه بدون أمر الله حقيق بالتهيب والإجلال أن يخفض الصوت لديه .

وإنما قدم هذا على توبيخ الذين نادوا النبي لأن هذا أولى بالاعتناء إذ هو تأديب من هو أولى بالتهذيب .

وقرأه الجمهور تقدموا ﴾ بضم الفوقية وكسر الدال مشددة .

(80/717)

وقرأه يعقوب بفتحهما على أن أصله : لا تتقدموا .

وقال فخر الدين عند الكلام على قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنَبإ فتبيّنوا ﴾ [الحجرات : 6] في هذه السورة : إن فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق وهي : إما مع الله أو مع رسوله صلى الله عليه وسلم أو مع غيرهما من أبناء الجنس وهم على صنفين لأنهم : إما أن يكونوا على طريقة المؤمنين من الطاعة ، وإمّا أن يكونوا خارجين عنها بالفسق ؛ والداخل في طريقتهم : إما حاضر عندهم ، أو غائب عنهم ، فذكر الله في هذه السورة خمس مرات ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ وأرشد بعد كل مرة إلى مكرمة من قسم من الأقسام الخمسة .

فقال أولاً : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بي يدي اللَّه ورسوله ﴾ وهي تشمل طاعة الله تعالى ، وذُكر الرسول معه للإشارة إلى أن طاعة الله لا تعلم إلا بقول الرسول فهذه طاعة

للرسول تابعة لطاعة الله .

وقال ثانياً : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ [الحجرات : 2] لبيان الأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم لذاته في باب حسن المعاملة .

وقال ثالثاً : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ ﴾ الآية للتنبيه على طريقة سلوك المؤمنين في معاملة من يعرف بالخروج عن طريقتهم وهي طريقة الاحتراز منه لأن عمله إفساد في جماعتهم ، وأعقبه بآية ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾ [الحجرات : 9] .

وقال رابعاً ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم ﴾ [الحجرات : 11] إلى قوله : ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾ [البقرة : 229] فنهى عما يكثر عدم الاحتفاظ فيه من المعاملات اللسانية التي قلّما يقام لها وزن .

وقال خامساً : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إلى قوله : تواب رحيم ﴾ [الحجرات : 12] أهـ .

(81/717)

ويريد : أن الله ذكر مثالاً من كل صنف من أصناف مكارم الأخلاق بحسب ما اقتضته المناسبات في هذه السورة بعد الابتداء بما نزلت السورة لأجله ابتداء ليكون كل مثال منها دالاً على بقية نوعه ومرشداً إلى حكم أمثاله دون كلفة ولا سآمة .

وقد سلك القرآن لإقامة أهم حُسن المعاملة طريقَ النهي عن أضدادها من سوء المعاملة لأن درء المفسدة مقدم في النظر العقلي على جلب المصلحة .

وعَطْف ﴿ واتقوا اللَّه ﴾ تكملة للنهي عن التقدم بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم ليدل على أن ترك إبرام شيء دون إذن الرسول صلى الله عليه وسلم من تقوى الله وحده ، أي ضده ليس من التقوى .

وجملة ﴿ إن اللَّه سميع عليم ﴾ في موضع العلة للنهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله وللأمر بتقوى الله .

والسميع : العليم بالمسموعات ، والعليم أعم وذكرها بين الصفتين كناية عن التحذير من المخالفة ففي ذلك تأكيد للنهي والأمر .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ

إعادة النداء ثانياً للاهتمام بهذا الغرض والإشعار بأنه غرض جدير بالتنبيه عليه بخصوصه حتى لا ينغمر في الغرض الأول فإن هذا من آداب سلوك المؤمنين في معاملة النبي صلى الله عليه وسلم ومقتضى التأدب بما هو آكد من المعاملات بدلالة الفحوى .

وهذا أيضاً توطئة لقوله : ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ﴾ [الحجرات : 4] وإلقاءٌ لتربية ألقيت إليهم لمناسبة طرف من أطراف خبر وفد بني تميم .

والرفع : مستعار لجهر الصوت جهراً متجاوزاً لمعتاد الكلام ، شبه جهر الصوت بإعلاء الجسم في أنه أشدّ بلوغاً إلى الأسماع كما أن إعلاء الجسم أوضح له في الإبصار ، على طريقة الاستعارة المكنية ، أو شبه إلقاء الكلام بجهر قويّ بإلقائه من مكان مرتفع كالمئذنة على طريقة الاستعارة التبعية .

و﴿ فوق صوت النبي ﴾ ترشيح لاستعارة ﴿ لا ترفعوا ﴾ وهو فوْق مجازي أيضاً .

(82/717)

وموقع قوله : ﴿ فوق صوت النبي ﴾ موقع الحال من ﴿ أصواتكم ﴾ ، أي متجاوزة صوت النبي صلى الله عليه وسلم أي متجاوزة المعتاد في جهر الأصوات فإن النبي صلى الله عليه وسلم يتكلم بجهر معتاد .

ولا مفهوم لهذا الظرف لأنه خارج مخرج الغالب ، إذ ليس المراد أنه إذا رفع النبي صلى الله عليه وسلم صوته فارفعوا أصواتكم بمقدار رفعه .

والمعنى : لا ترفعوا أصواتكم في مجلسه وبحضرته إذا كلم بعضُكم بعضاً كما وقع في سُورة

سبب النزول .

ولقد تحصل من هذا النهي معنى الأمر بتخفيض الأصوات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ليس المراد أن يكونوا سكوتا عنده .

وفي "صحيح البخاري" : قال ابن الزبير فما كان عُمر يُسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى يستفهمه .

ولم يذكر أي ابن الزبير ذلك عن أبيه يعني أبا بكر ولكن أخرج الحاكم وعبد بن حُميد عن أبي هريرة : أن أبا بكر قال بعد نزول هذه الآية (والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلاّ كأخِي السِّرَار حتى ألقى الله) .

وفي "صحيح البخاري" قال ابن أبي مليكة "كاد الخَيران أن يهلكا أبو بكر وعمر رفعا أصْوَاتَهما عند النبي صلى الله عليه وسلم .

وهذا النهي مخصوص بغير المواضع التي يؤمر بالجهر فيها كالأذان وتكبير يوم العيد ، وبغير ما أذِن فيه النبي صلى الله عليه وسلم إذناً خاصاً كقوله للعباس حين انهزم المسلمون يوم حنين "نَادِ يا أصحابَ السَّمُرة" وكان العباس جهير الصوت .

وقوله : ﴿ ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ﴾ نهي عن جهر آخر وهو الجهر بالصوت عند خطابهم الرسول صلى الله عليه وسلم لوجوب التغاير بين مقتضَى قوله : ﴿ لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ ومقتضَى ﴿ ولا تجهروا له بالقول ﴾ .

واللام في ﴿ له ﴾ لتعدية ﴿ تجهروا ﴾ لأن ﴿ تجهروا ﴾ في معنى : تقولوا ، فدلت اللام على أن هذا الجهر يتعلق بمخاطبته ، وزاده وضوحاً التشبيه في قوله : ﴿ كجهر بعضكم لبعض ﴾ .

(83/717)

وفي هذا النهي ما يشمل صنيع الذين نادَوا النبي صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات فيكون تخلصاً من المقدمة إلى الغرض المقصود ، ويظهر حسن موقع قولِه بعده ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ﴾ [الحجرات : 4] .

و ﴿ أن تحبط أعمالكم ﴾ في محل نصب على نزع الخافض وهو لام التعليل وهذا تعليل للمنهي عنه لا للنهي ، أي أن الجهر له بالقول يفضي بكم إن لم تكفوا عنه أن تحبط أعمالكم ، فحبط الأعمال بذلك ما يحذر منه فجعله مدخولاً للام التعليل مصروف عن ظاهر .

فالتقدير : خشية أن تحبط أعمالكم ، كذا يقدّر نحاة البصرة في هذا وأمثاله .

والكوفيون يجعلونه بتقدير (لا) النافية فيكون التقدير : أنْ لا تحبَط أعمالكم فيكون تعليلاً للنهي على حسب الظاهر .

والحَبْط : تمثيل لعدم الانتفاع بالأعمال الصالحة بسبب ما يطرأ عليها من الكفر مأخوذ من

حَبِطَت الإبل إذا أكلت الخضر فنفخ بطونها وتعتّل وربما هلكت .

وفي الحديث " وإن مما يُنبت الربيعُ لَمَا يقتل حَبطاً أو يُلمّ " وتقدم في سورة المائدة قوله تعالى :

﴿ ومن يكفر بالإيمان فقد حَبط عملُه ﴾ [المائدة : 5] .

وظاهر الآية التحذير من حبط جميع الأعمال لأن الجمع المضاف من صيغ العموم ولا يكون حبط جميع الأعمال إلا في حالة الكفر لأن الأعمال الإيمان فمعنى الآية : أن عدم الاحتراز من سوء الأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم بعد هذا النهي قد يفضي بفاعله إلى إثم عظيم يأتي على عظيم من صالحاته أو يفضي به إلى الكفر .

قال ابن عطية : أي يكون ذلك سبباً إلى الوحشة في نفوسكم فلا تزال معتقداتكم تتدرج القهقرى حتى يؤول ذلك إلى الكفر فحَبط الأعمال .

وأقول : لأن عدم الانتهاء عن سوء الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم يعود النفس بالاسترسال فيه فلا تزال تزداد منه وينقص توفير الرسول صلى الله عليه وسلم من النفس وتتولى من سيّىء إلى أشد منه حتى يؤول إلى عدم الاكتراث بالتأدب معه وذلك كفر .

(84/717)

وهذا معنى ﴿ وأنتم لا تشعرون ﴾ لأن المنتقل من سيّىء إلى أسوأ لا يشعر بأنه آخذ في التملّي من السوء بحكم التعوّد بالشيء قليلاً قليلاً حتى تغمره المعاصي وربّما كان آخرها الكفر حين تضْرَى النفس بالإقدام على ذلك .

ويجوز أن يراد حبط بعض الأعمال على أنه عام مراد به الخصوص فيكون المعنى حصول حطيطة في أعمالهم بغلبة عظم ذنب جهرهم له بالقول ، وهذا مجمل لا يعلم مقدار الحبط إلا الله تعالى .

ففي قوله : ﴿ وأنتم لا تشعرون ﴾ تنبيه إلى مزيد الحذر من هذه المهلكات حتى يصير ذلك دُربة حتى يصل إلى ما يحبط الأعمال ، وليس عدم الشعور كائناً في إتيان الفعل المنهي عنه لأنه لو كان كذلك لكان صاحبه غير مكلف لامتناع تكليف الغافل ونحوه .

إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (3)

عن ابن عباس لما نزل قوله تعالى : ﴿ لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ [الحجرات : 2] كان أبو بكر لا يكلم رسولَ الله إلا كأخي السِّرار ، أي مصاحب السرِّ من الكلام ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ﴾ الآية .

فهذه الجملة استئناف بياني لأن التحذير الذي في قوله : ﴿ أن تحبط أعمالكم ﴾ [الحجرات : 2] الخ يثير في النفس أن يسأل سائل عن ضد حال الذي يرفع صوته .

وافتتاح الكلام بحرف التأكيد للاهتمام بمضمونه من الثناء عليهم وجزاء عملهم ، وتفيد الجملة تعليلَ النهيين بذكر الجزاء عن ضد المنهي عنهُما وأكد هذا الاهتمام باسم الإشارة في قوله : ﴿ أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ﴾ مع ما في اسم الإشارة من التنبيه على أن المشار إليهم جديرون بالخبر المذكور بعده لأجلِ ما ذكر من الوصف قبل اسم الإشارة .

(85/717)

وإذ قد علمت آنفاً أن محصل معنى قوله : ﴿ لا ترفعوا أصواتكم ﴾ وقوله : ﴿ ولا تجهروا ﴾ [الحجرات : 2] الأمر بخفض الصوت عند النبي صلى الله عليه وسلم يتضح لك وجهُ العدول عن نوط الثناء هنا بعدم رفع الصوت وعدم الجهر عند الرسول صلى الله عليه وسلم إلى نوطه بغض الصوت عنده .

والغض حقيقته : خفض العين ، أي أن لا يُحدق بها إلى الشخص وهو هنا مستعارٌ لخفض الصوت والميلِ به إلى الإسرار .

والامتحان : الاختبار والتجربة ، وهو افتعال من مَحَنه ، إذا اختبره ، وصيغة الافتعال فيه للمبالغة كقولهم : اضطره إلى كذا .

واللام في قوله : للتقوى لام العلة ، والتقدير : امتحن قلوبهم لأجل التقوى ، أي لتكون فيها التقوى ، أي ليكونوا أتقياء ، يقال : امتحَن فلان للشيء الفلاني كما يقال : جرب للشيء ودُرب للنهوض بالأمر ، أي فهو مضطلع به ليس بِوانٍ عنه فيجوز أن يجعل الامتحان كناية على تمكّن التقوى من قلوبهم وثباتهم عليها بحيث لا يوجدون في حال مَّا غيرَ متقين وهي كناية تلويحية لكون الانتقال بعدة لوازم ، ويجوز أن يجعل فعل ﴿ امتحن ﴾ مجازاً مرسلاً عن العلم ، أي علم الله أنهم متقون ، وعليه فتكون اللام من قوله : ﴿ للتقوى ﴾ متعلّقة بمحذوف هو حال من قلوب ، أي كائنة للتقوى ، فاللام للاختصاص .

وجملة ﴿ لهم مغفرة ﴾ خبر ﴿ إنّ ﴾ وهو المقصود من هذه من الجملة المستأنفة وما بينهما اعتراض للتنويه بشأنه .

وجعل في "الكشاف" خبر ﴿ إنَّ ﴾ هو اسم الإشارة مع خبره وجعل جملة ﴿ لهم ﴾ مستأنفة ولكل وجه فانظره .

وقال : "وهذه الآية بنظمها الذي رتبت عليه من إيقاع الغاضين أصواتهم اسماً ل ﴿ إنّ ﴾ المؤكّدة وتصيير خبرها جملة من مبتدأ وخبر معرفتين معاً .

(86/717)

والمبتدأ اسم الإشارة ، واستئناف الجملة المستودَعة ما هو جزاؤهم على عملهم ، وإيراد الجزاء نكرة مبهماً أمره ناظرة في الدلالة على غاية الاعتداد والارتضاء لما فعَل الذين وقَّروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي الإعلام بمبلغ عزة رسول الله وقدر شرف منزلته" أ هـ .

وهذا الوعد والثناء يشملان ابتداءً أبا بكر وعمر إذ كان كلاهما يكلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم كأخي السِّرار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(87/717)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (4) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (6) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما نهى سبحانه عن الإخلال بالأدب ، وأمر بالمحافظة على التعظيم ، وذكر وصف المطيع ، أتبع ذلك على سبيل النتيجة وصف من أخل به ، فقال مؤكداً لأجل أن حالهم كان حال

من يدع عقلاً تاماً : ﴿ إن الذين ينادونك ﴾ أي يجددون نداءك من غير توبة والحال أن نداءهم إياك كائن ﴿ من وراء ﴾ إثبات هذا الجار يدل على أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان داخلها ، ولو سقط لم يفد ذلك ، بل كان يفيد أن نسبة الأماكن التي وراءها الحجرات كلها بالنسبة إليه وإليهم على حد سواء ، وذلك بأن يكون الكل خارجها ، والوراء : الجهة التي تواريك وتواريها من خلف أو قدام .

ولما كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من العظمة في نفسه وفي تبليغ رسالات الله في هيئتها بمكان من العظمة بحيث لا يخفى على أحد .

(88/717)

فليس لأحد أن يفتات فيها عليه ولا أن يعجله عن شيء ، وكان نداؤه لذلك من وراء حجرته واحدة كندائه من وراء كل حجرة جمع فقال : ﴿ الحجرات ﴾ ولم يضفها إليه إجلالاً له ، وليشمل كوني في غيرها أيضاً ، والمعنى : مبتدئين النداء من جهة تكون الحجرات فيها بينك وبينهم فتكون موازية لك منهم ولهم منك ، وهي جمع حجرة ، وهي ما حوط من قطع الأرض بحائط يمنع ممن يكون خارجه من أذى من يكون داخله بقول أو فعل ، فإنه يكون فيما يختص به من الاجتماع بنسائه أو إصلاح شيء من حاله ، لا يتهيأ له بحضور

الناس فيما يتقاضاه المروءة ، وأسند الفعل إلى الجمع وإن كان المنادي بعضهم للرضى به أو السكوت عن النهي .

ولما كان الساكت قد لا يكون راضياً قال : ﴿ أكثرهم ﴾ أي المنادي والراضي دون الساكت لعذر ﴿ لا يعلقون ﴾ لأنهم لم يصبروا ، بل فعلوا معه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما يفعل بعضهم مع من يماثله ، والعقل يمنع من مثل ذلك لمن اتصف بالرئاسة فكيف إذا كانت رئاسة النبوة والرسالة عن الملك الجبار الواحد القهار .

ولما ذمهم بسوء عملهم ، أرشدهم إلى ما يمدحون به من حسنه فقال : ﴿ ولو أنهم ﴾ أي المنادي والراضي ﴿ صبروا ﴾ أي حبسوا أنفسهم ومنعوها عن مناداتهم ، والصبر حبس النفس عن أن تنازع إلى هواها وهو حبس فيه شدة ، وصبر عن كذا – محذوف الفعل لكثرة دوره ، أي نفسه ﴿ حتى تخرج ﴾ من تلقاء نفسك عند فراغ ما أنت فيه مما يهمك من واردات الحق ومصالح الخلق .

ولما كان الخروج قد يكون إلى غيرهم من المصالح ، فلا يسوغ في الأدب أن يقطع ذاك عليه قال : ﴿ إليهم ﴾ أي ليس لهم أن يكلموك حتى تفرغ لهم فتقصدهم فإنك لا تفعل شيئاً في غير حينه بمقتضى أمر الرسالة ﴿ لكان ﴾ أي الصبر .

ولما كان العرب أهل معال فهم بحيث لا يرضون إلا الأحسن فقال : ﴿ خيراً لهم ﴾ أي من استعجالهم في إيقاظك وقت الهاجرة وما لو قرعوا الباب بالأظافير كما كان يفعل غيرهم من الصحابة ـ رضى الله عنه ـ م ، وهذا على تقدير أن يكون ما ظنوا من أن فيه خيراً فكانوا يعقلون ، ففي التعبير بذلك مع الإنصاف بل الإغضاء والإحسان هز لهم إلى المعالي وإرشاد إلى ما يتفاخرون به من المحاسن ، قال الرازي : قال أبو عثمان : الأدب عند الأكابر يبلغ بصاحبه إلى الدرجات العلى والخير في الأولى والعقبى – انتهى .

وأخيرية صبر في الدين معروفة ، وأما في الدنيا فإنهم لو تأدبوا لربهم زادهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الفضل فأعتق جميع سبيهم وزادهم ، والآية في الاحتباك : حذف التعليل بعدم الصبر أولاً لما دل عليه ثانياً ، والعقل ثانياً لما دل عليه من ذكره أولاً .

ولما ذكر التقدير تأديباً لنا وتدريباً على الصفح عن الجاهل وعذره وتعليمه : ولكنهم لم يصبروا وأساؤوا الأدب فكان ذلك شراً لهم والله عليم بما فعلوا حليم حيث لم يعاجلهم بالعقوبة لإساءتهم الأدب على رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، عطف عليه استعطافاً لهم مع إفهامه الترهيب : ﴿ والله ﴾ أي المحيط بصفات الكمال ﴿ غفور ﴾ أي ستور لذنب من تاب من جهله ﴿ رحيم ﴾ يعامله معاملة الراحم فيسبغ عليه نعمه .

ولما تابوا ، أعتبهم الله في غلظتهم على خير خلقه أن جعلهم أغلظ الناس على شر الناس : الدجال ، فإن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " إنهم أشد الناس عليه " .

(90/717)

ولما أنهى سبحانه ما أراد من النهي عن أذى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في نفسه ، وكان من ذلك أذاه في أمته ، فإنه عزيز عليه ما عنتوا وكان من آذاه فيهم فاسقاً ، وكان أعظم الأذى فيهم ما أورث كرباً فأثار حرباً ، وكان ربما اتخذ أهل الأغراض هذه الآداب ذريعة إلى أذى بعض المسلمين فقذفوهم بالإخلال بشيء منها فوقعوا هم فيها فيما قذفوا به غيرهم من الإخلال بحقه والتقيد بولائه ورقه ، وكان لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الأخلاق الطاهرة والمعالي الظاهرة ما يؤمن معه أن يوقع شيئاً في غير محله ، أن يأمر بأمر من غير حله – هذا مع ما له من العصمة ، قال منبهاً على ما في القسم الثالث من مكارم الأخلاق من ترك العجز بالاعتماد على أخبار الفسقة ، تخاطباً لكل من أقر بالإيمان على طريق الاستنتاج مما مضى ، نادباً إلى الاسترشاد بالعقل الذي نفاه عن أهل الآية السالفة ، والعفو عن المذنب والرحمة لعباد الله ، منادياً بأداة البعد إشارة إلى أن من احتاج إلى التصريح بمثل هذا التنبيه غير مكتف بما أفاده من قواعد الشرع وضع نفسه في محل بعيد ،

وتنبيهاً على أن ما في حيزها كلام له خطب عظيم ووقع جسيم : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ وعبر بالفعل الماضي الذي هو لأدنى أسنان القلوب ، وعبر بأداة الشك إيذاناً بقلة الفاسق فيهم وقلة مجيئه إليهم بخبر له وقع ، فقال : ﴿ إن جاءكم ﴾ أي في وقت من الأوقات ﴿ فاسق ﴾ أي خارج من ربقة الديانة أيّ فاسق كان ﴿ بنبأ ﴾ أي خبر يعظم خطبه فيؤثر شراً ، أيّ خير كان مما يكون كذلك ؟ ﴿ فتبينوا ﴾ أي عالجوا البيان وهو فصل الخطأ من الصواب ، استعمالاً لغريزة العقل المنفي عن المنادين واتصافاً بالغفران والرحمة ليرحمكم الله ويغفر لكم ، وهذه القراءة غاية لقراءة حمزة والكسائي بالمثلثة ثم المثناة الفوقية ، والسياق مرشد إلى أن خبر الفاسق كالنمام والساعي بالفساد كما أنه لا يقبل فلذلك لا يرد حتى يمتحن ، وإلى أن خبر العدل لا وقفة

(91/717)

فيه ، وإلا لاستوى مع الفاسق ، فالتثبت معلل بالفسق ، فإذا انتفى ولم توجد علة أخرى توجب التثبت وجب القبول ، والمعلق على شيء بكلمة " إن " عدم عند عدمه ، والتبين بأحد شيئين : بمراجعة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن كان حاضراً ، وبمراجعة آثاره من كتاب الله وسنته إلى أن تبين الأمر منهما إن كان غائباً ، فإنه لا تكون أبداً كائنة إلا وفي

الكتاب والسنة المخرج منها .

ولما أمر بالتبين ، ذكر علته فقال : ﴿ أن ﴾ أي لأجل كراهة أن ﴿ تصيبوا ﴾ أي بأذى ﴿ قوماً ﴾ أي هم مع قوتهم النافعة لأهل الإسلام براء مما نسب إليهم ﴿ بجهالة ﴾ أي مع الجهل بحال استحاقهم ذلك .

ولما كان الإنسان إذا وضع شيئاً في غير موضعه جديراً بالندم ، سبب عن ذلك قوله : ﴿ فتصبحوا ﴾ أي فتصيروا ، ولكنه عبر بذلك لأن أشنع الندم ما استقبل الإنسان صباحاً وقت انتباهه وفراغه وإقباله على لذاته ﴿ على ما فعلتم ﴾ أي من إصابتهم ﴿ نادمين ﴾ أي عريقين في الأسف على ما فات مما يوقع الله في نفوسكم من أمور ترجف القلوب وتخور الطباع ، وتلك سنته في كل باطل ، فإنه لكونه مزلزلاً في نفسه لا ينشأ عنه إلا الزلزال والندم على ما وقع من تمني أنه لم يقع ، وهو غم يصحب الإنسان صحبة لها دوام بما تدور مادته عليه مما يرشد إليه مدن ودمن ، وهو ينشأ من تضييع أثقال الأسباب التي أمر الإنسان بالسعي فيها كما أشار إليه حديث " احرص على ما ينفعك ولا تعجز فإن غلبك أمر فقل : قدر الله وما شاء فعل ، ولا تقل : لو أني فعلت كذا ، فإن " لو " تفتح عمل الشيطان " والفاسق المذكور في الآية المراد به الجنس ، والذي نزل ذلك بسببه هو الوليد بن عقبة ، ولم يزل كذلك حتى أن عثمان ـ رضى الله عنه ـ ولاه الكوفة فصلى بالناس وهو

سكران صلاة الفجر أربعاً ثم قال : هل أزيدكم فعزله عثمان رضى الله عنه . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 225.228 ﴾

(92/717)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (4) ﴾

(93/717)

بياناً لحال من كان في مقابلة من تقدم فإن الأول غض صوته والآخر رفعه ، وفيه إشارة إلى أنه ترك لأدب الحضور بين يديه وعرض الحاجة عليه ، وأما قول القائل للملك يا فلان من سوء الأدب ، فإن قلت كل أحد يقول يا الله مع أن الله أكبر ، نقول النداء على قسمين أحدهما : لتنبيه المنادى وثانيهما : لإظهار حاجة المنادي مثال الأول : قول القائل لرفيقه أو غلامه : يا فلان ومثال الثاني : قول القائل في الندبة : يا أمير المؤمنيناه أو يا زيداه ، ولقائل أن

يقول : إن كان زيد بالمشرق لا تنبيه فإنه محال ، فكيف يناديه وهو ميت ؟ فنقول قولنا يا الله لإظهار حاجة الأنفس لا لتنبيه المنادى ، وإنما كان في النداء الأمران جميعاً لأن المنادي لا ينادي إلا لحاجة في نفسه يعرضها ولا ينادي في الأكثر إلا معرضاً أو غافلاً ، فحصل في النداء الأمران ونداؤهم كان للتنبيه وهو سوء أدب وأما قول أحدنا للكبير يا سيدي ويا مولاي فهو جار مجرى الوصف والإخبار الثاني : النداء من وراء الحجرات فإن من ينادي غيره ولا حائل بينهما لا يكلفه المشي والمجيء بل يجيبه من مكانه ويكلمه ولا يطلب المنادي إلا لالتفات المنادى إليه ومن ينادي غيره من وراء الحائل فكأنه يريد منه حضوره كمن ينادي صاحب البستان من خارج البستان الثالث : قوله ﴿ الحجرات ﴾ إشارة إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم في خلوته التي لا يحسن في الأدب إتيان المحتاج إليه في حاجته في ذلك الوقت ، بل الأحسن التأخير وإن كان في ورطة الحاجة ، وقوله تعالى : ﴿ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ فيه بيان المعايب بقدر ما في سوء أدبهم من القبائح ، وذلك لأن الكلام من خواص الإنسان ، وهو أعلى مرتبة من غيره ، وليس لمن دونه كلام ، لكن النداء في المعنى كالتنبيه ، وقد يحصل بصوت ، يضرب شيء على شي وفي الحيوانات العجم ما يظهر لكل أحد كالنداء ، فإن الشاة تصيح وتطلب ولدها وكذلك غيرها من الحيوانات ، والسخلة كذلك فكأن النداء حصل

في المعنى لغير الآدمي ، فقال الله تعالى في حقهم ﴿ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ يعني النداء الصادر منهم لما لم يكن مقروناً بحسن الأدب كانوا فيه خارجين عن درجة من يعقل وكان نداؤهم كصياح صدر من بعض الحيوان ، وقوله تعالى : ﴿ أَكْثَرُهُمْ ﴾ فيه وجهان أحدهما : أن العرب تذكر الأكثر وتريد الكل ، وإنما تأتي بالأكثر احترازاً عن الكذب واحتياطاً في الكلام ، لأن الكذب مما يحبط به عمل الإنسان في بعض الأشياء فيقول الأكثر وفي اعتقاده الكل ، ثم إن الله تعالى مع إحاطة علمه بالأمور أتى بما يناسب كلامهم ، وفيه إشارة إلى لطيفة وهي أن الله تعالى يقول : أنا مع إحاطة علمي بكل شيء جريت على عادتكم استحساناً لتلك العادة وهي الاحتراز عن الكذب فلا تتركوها ، واجعلوا اختياري ذلك في كلامي دليلاً قاطعاً على رضائي بذلك وثانيهما : أن يكون المراد أنهم في أكثر أحوالهم لا يعقلون ، وتحقيق هذا هو أن الإنسان إذا اعتبر مع وصف ثم اعتبر مع وصف آخر يكون المجموع الأول غير المجموع الثاني ، مثاله الإنسان يكون جاهلاً وفقيراً فيصير عالماً وغنياً فيقال في العرف زيد ليس هو الذي رأيته من قبل بل الآن على أحسن حال ، فيجعله كأنه ليس ذلك إشارة إلى ما ذكرنا .

إذا علم هذا فهم ، في بعض الأحوال إذا اعتبرتهم مع تلك الحالة ، مغايرون لأنفسهم إذا اعتبرتهم مع غيرها فقال تعالى : ﴿ أَكْثَرُهُمْ ﴾ إشارة إلى ما ذكرناه ، وفيه وجه ثالث وهو

أن يقال لعل منهم من رجع عن تلك الأهواء ، ومنهم من استمر على تلك العادة الرديئة فقال أكثرهم إخراجاً لمن ندم منهم عنهم .

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5)

(95/717)

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حتى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ ﴾ إشارة إلى حسن الأدب الذي على خلاف ما أتوا به من سوء الأدب فإنهم لو صبروا لما احتاجوا إلى النداء ، وإذا كنت تخرج إليهم فلا يصح إتيانهم في وقت اختلائك بنفسك أو بأهلك أو بربك ، فإن للنفس حقاً وللأهل حقاً ، وقوله تعالى : ﴿ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ ﴾ يحتمل وجهين أحدهما : أن يكون المراد أن ذلك هو الحسن والخير كقوله تعالى : ﴿ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً ﴾ [الفرقان : 24] ، وثانيهما : أن يكون المراد هو أن بالنداء وعدم الصبر يستفيدون تنجيز الشغل ودفع الحاجة في الحال وهو مطلوب ، ولكن المحافظة على النبي صلى الله عليه وسلم وتعظيمه خير من ذلك ، لأنها تدفع الحاجة الأصلية التي في الآخرة وحاجات الدنيا فضلية ، والمرفوع الذي يقتضيه كلمة كان إما الصبر وتقديره لو أنهم صبروا لكان الصبر خيراً ، أو الخروج من غير نداء وتقديره لو صبروا حتى تخرج إليهم لكان خروجك من غير نداء خيراً لهم ، وذلك

مناسب للحكاية ، لأنهم طلبوا خروجه عليه الصلاة والسلام ليأخذوا ذراريهم ، فخرج وأعتق نصفهم وأخذوا نصفهم ، ولو صبروا لكان يعتق كلهم والأول أصح .

(96/717)

ثم قال تعالى : ﴿ واللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ تحقيقاً لأمرين أحدهما : لسوء صنيعهم في التعجل ، فإن الإنسان إذا أتى بقبيح ولا يعاقبه الملك أو السيد يقال ما أحلم سيده لا لبيان حلمه ، بل لبيان عظيم جناية العبد وثانيهما : لحسن الصبر يعني بسبب إتيانهم بما هو خير ، يغفر الله لهم سيئاتهم ويجعل هذه الحسنة كفارة لكثير من السيئات ، كما يقال للآبق إذا رجع إلى باب سيده أحسنت في رجوعك وسيدك رحيم ، أي لا يعاقبك على ما تقدم من ذنبك بسبب ما أتيت به من الحسنة ويمكن أن يقال بأن ذلك حث للنبي صلى الله عليه وسلم على الصفح ، وقوله تعالى : ﴿ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ كالعذر لهم ، وقد ذكرنا أن الله تعالى ذكر في بعض المواضع الغفران قبل الرحمة ، كما في هذه السورة وذكر الرحمة قبل المغفرة في سورة سبأ في قوله ﴿ وَهُوَ الرحيم الغفور ﴾ [سبأ : 2] فحيث قال : غفور رحيم أي يغفر سيئاته ثم ينظر إليه فيراه عارياً محتاجاً فيرحمه ويلبسه لباس الكرامة وقد يراه مغموراً في السيئات فيغفر سيئاته ، ثم يرحمه بعد المغفرة ، فتارة تقع الإشارة إلى الرحمة التي بعد

المغفرة فيقدم المغفرة ، وتارة تقع الرحمة قبل المغفرة فيؤخرها ، ولما كانت الرحمة واسعة توجد قبل المغفرة وبعدها ذكرها قبلها وبعدها .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (6)

(97/717)

هذه السورة فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق ، وهي إما مع الله تعالى أو مع الرسول صلى الله عليه وسلم أو مع غيرهم من أبناء الجنس ، وهم على صنفين ، لأنهم إما أن يكونوا على طريقة المؤمنين وداخلين في رتبة الطاعة أو خارجاً عنها وهو الفاسق والداخل في طائفتهم السالك لطريقتهم إما أن يكون حاضراً عندهم أو غائباً عنهم فهذه خمسة أقسام أحدها : يتعلق بجانب الله وثانيها : بجانب الرسول وثالثها : بجانب الفساق ورابعها : بالمؤمن الحاضر وخامسها : بالمؤمن الغائب فذكرهم الله تعالى في هذه السورة خمس مرات ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ وأرشدهم في كل مرة إلى مكرمة مع قسم من الأقسام الخمسة فقال أولاً : ﴿ يا أيها الذين ءَامَنُواْ لاَ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [الحجرات : 1] وذكر الرسول كان لبيان طاعة الله لأنها لا تعلم إلا بقول رسول الله ، وقال ثانياً : ﴿ يا

أيها الذين ءَامَنُواْ لاَ تَرْفَعُواْ أصواتكم فَوْقَ صَوْتِ النبي ﴾ [الحجرات : 2] لبيان وجوب احترم النبي صلى الله عليه وسلم وقال ثالثاً : ﴿ يا أيها الذين ءَامَنُواْ إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ ﴾ لبيان وجوب الاحتراز عن الاعتماد على أقوالهم ، فإنهم يريدون إلقاء الفتنة بينكم وبين ذلك عند تفسير قوله ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا ﴾ [الحجرات : 9] وقال رابعاً : ﴿ يا أيها الذين ءَامَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مّن قَوْمٍ ﴾ [الحجرات : 11] وقال : ﴿ وَلاَ تَنَابَزُواْ ﴾ [الحجرات : 11] لبيان وجوب ترك إيذاء المؤمنين في حضورهم والازدراء بحالهم ومنصبهم ، وقال خامساً : ﴿ يا أيها الذين ءَامَنُواْ اجتنبوا كَثِيراً مّنَ الظن إِنَّ بَعْضَ الظن إِثْمٌ ﴾ [الحجرات : 12] وقال : ﴿ وَلاَ تَجَسَّسُواْ ﴾ [الحجرات : 12] وقال : ﴿ وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً ﴾ [الحجرات : 12] لبيان وجوب الاحتراز عن إهانة جانب المؤمن حال غيبته ، وذكر ما لو كان

(98/717)

حاضراً لتأذى ، وهو في غاية الحسن من الترتيب ، فإن قيل : لم لم يذكر المؤمن قبل الفاسق لتكون المراتب متدرجة الابتداء بالله ورسوله ، ثم بالمؤمن الحاضر ، ثم بالمؤمن الغائب ، ثم بالفاسق ؟ نقول : قدم الله ما هو الأهم على ما دونه ، فذكر جانب الله ، ثم ذكر جانب

الرسول ، ثم ذكر ما يفضي إلى الاقتال بين طوائف المسلمين بسبب الإصغاء إلى كلام الفاسق والاعتماد عليه ، فإنه يذكر كل ما كان أشد نفاراً للصدور ، وأما المؤمن الحاضر أو الغائب فلا يؤذي المؤمن إلى حد يفضي إلى القتل ، ألا ترى أن الله تعالى ذكر عقيب نبأ الفاسق آية الاقتتال ، فقال : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا ﴾ وفي التفسير مسائل :

المسألة الأولى :

في سبب نزول هذه الآية ، هو أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة ، وهو أخو عثمان لأمه إلى بني المصطلق ولياً ومصدقاً فالتقوه ، فظنهم مقاتلين ، فرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : إنهم امتنعوا ومنعوا ، فهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالإيقاع بهم ، فنزلت هذه الآية ، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم لم يفعلوا من ذلك شيئاً ، وهذا جيد إن قالوا بأن الآية نزلت في ذلك الوقت ، وأما إن قالوا بأنها نزلت لذلك مقتصراً عليه ومتعدياً إلى غيره فلا ، بل نقول هو نزل عاماً لبيان التثبت ، وترك الاعتماد على قول الفاسق ، ويدل على ضعف قول من يقول : إنها نزلت لكذا ، أن الله تعالى لم يقل إني أنزلتها لكذا ، والنبي صلى الله عليه وسلم لم ينقل عنه أنه بين أن الآية وردت لبيان ذلك فحسب ، غاية ما في الباب أنها نزلت في ذلك الوقت ، وهو مثل التاريخ لنزول الآية ، ونحن نصدق ذلك ، ويتأكد ما ذكرنا أن إطلاق لفظ الفاسق على الوليد سيء بعيد ، لأنه توهم وظن فأخطأ ،

والمخطىء لا يسمى فاسقاً ، وكيف والفاسق في أكثر المواضع المراد به من خرج عن ربقة الإيمان لقوله تعالى :

(99/717)

﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين ﴾ [المنافقون : 6] وقوله تعالى : ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ [الكهف : 50] وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الذين فَسَقُواْ فَمَأْوَاهُمُ النار كُلَّمَا أَرَادُواْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ [السجدة : 20] إلى غير ذلك .

المسألة الثانية :

قوله تعالى : ﴿ إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ ﴾ إشارة إلى لطيفة ، وهي أن المؤمن كان موصوفاً بأنه شديد على الكافر غليظ عليه ، فلا يتمكن الفاسق من أن يخبره بنبأ ، فإن تمكن منه يكون نادراً ، فقال : ﴿ إِن جَاءَكُمْ ﴾ بحرف الشرط الذي لا يذكر إلا مع التوقع ، إذ لا يحسن أن يقال : إن احمر البسر ، وإن طلعت الشمس .

المسألة الثالثة :

(100/717)

النكرة في معرض الشرط تعم إذا كانت في جانب الثبوت ، كما أنها تعم في الإخبار إذا كانت في جانب النفي ، وتخص في معرض الشرط إذ كانت في جانب النفي ، كما تخص في الإخبار إذا كانت في جانب الثبوت ، فلنذكر بيانه بالمثال ودليله ، أما بيانه بالمثال فنقول : إذا قال قائل لعبده : إن كلمت رجلاً فأنت حر ، فيكون كأنه قال : لا أكلم رجلاً حتى يعتق بتكلم كل رجل ، وإذا قال : إن لم أكلم اليوم رجلاً فأنت حر ، يكون كأنه قال : لا أكلم اليوم رجلاً حتى لا يعتق العبد بترك كلام كل رجل ، كما لا يظهر الحلف في كلامه بكلام كل رجل إذا ترك الكلام مع رجل واحد ، وأما الدليل فلأن النظر أولاً إلى جانب الإثبات ، ألا ترى أنه من غير حرف لما أن الوضع للاثبات والنفي بحرف ، فقول القائل : زيد قائم ، وضع أولاً ولم يحتج إلى أن يقال مع ذلك حرف يدل على ثبوت القيام لزيد ، وفي جانب النفي احتجنا إلى أن نقول : زيد ليس بقائم ، ولو كان الوضع والتركيب أولاً للنفي ، لما احتجنا إلى الحرف الزائد اقتصاراً أو اختصاراً ، وإذا كان كذلك فقول القائل : رأيت رجلاً ، يكفي فيه ما يصحح القول وهو رؤية واحد ، فإذا قلت : ما رأيت رجلاً ، وهو وضع لمقابلة قوله : رأيت رجلاً ، وركب لتلك المقابلة ، والمتقابلان ينبغي أن لا يصدقا ، فقول القائل : ما رأيت رجلاً ، لو كفى فيه انتفاء الرؤية عن غير واحد لصح قولنا : رأيت رجلاً ، وما رأيت رجلاً ، فلا يكونان متقابلين ، فيلزمنا من الاصطلاح الأول الاصطلاح الثاني ، ولزم منه العموم في جانب

النفي ، إذا علم هذا فنقول : الشرطية وضعت أولاً ، ثم ركبت بعد الجزمية بدليل زيادة الحرف وهو في مقابلة الجزمية ، وكان قول القائل : إذا لم تكن أنت حراً ما كلمت رجلاً يرجع إلى معنى النفي ، وكما علم عموم القول في الفاسق علم عمومه في النبأ فمعناه : أي فاسق جاءكم بأي نبأ ، فالتثبت فيه واجب .

المسألة الرابعة :

(101/717)

متمسك أصحابنا في أن خبر الواحد حجة ، وشهادة الفاسق لا تقبل ، أما في المسألة الأولى فقالوا علل الأمر بالتوقف بكونه فاسقاً ، ولو كان خبر الواحد العدل لا يقبل ، لما كان للترتيب على الفاسق فائدة ، وهو من باب التمسك بالمفهوم .

وأما في الثانية فلوجهين : أحدهما : أمر بالتبين ، فلو قبل قوله لما كان الحاكم مأموراً بالتبين ، فلم يكن قول الفاسق مقبولاً ، ثم إن الله تعالى أمر بالتبين في الخبر والنبأ ، وباب الشهادة أضيف من باب الخبر والثاني : هو أنه تعالى قال : ﴿ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَاً بِجَهَالَةٍ ﴾ والجهل فوق الخطأ ، لأن المجتهد إذ أخطأ لا يسمى جاهلاً ، والذي يبني الحكم على قول الفاسق إن

لم يصب جهل فلا يكون البناء على قوله جائزاً .

المسألة الخامسة :

(102/717)

﴿ أن ﴾ ذكرنا فيها وجهين أحدهما : مذهب الكوفيين ، وهو أن المراد لئلا تصيبوا ، وثانيها : مذهب البصريين ، وهو أن المراد كراهة أن تصيبوا ، ويحتمل أن يقال : المراد فتبينوا واتقوا ، وقوله تعالى : ﴿ أن تصيبوا قَوْماً ﴾ يبين ما ذكرنا أن يقول الفاسق : تظهر الفتن بين أقوام ، ولا كذلك بالألفاظ المؤذية في الوجه ، والغيبة الصادرة من المؤمنين ، لأن المؤمن يمنعه دينه من الإفحاش والمبالغة في الإيحاش ، وقوله ﴿ بِجَهَالَةٍ ﴾ في تقدير حال ، أي أن تصيبوهم جاهلين وفيه لطيفة ، وهي أن الإصابة تستعمل في السيئة والحسنة ، كما في قوله تعالى : ﴿ مَّا أصابك مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ الله ﴾ [النساء : 79] لكن الأكثر أنها تستعمل فيما يسوء ، لكن الظن السوء يذكر معه ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ [النساء : 78] ثم حقق ذلك بقوله ﴿ فَتُصْبِحُواْ على مَا فَعَلْتُمْ نادمين ﴾ بياناً لأن الجاهل لا بد من أن يكون على فعله نادماً ، وقوله ﴿ فَتُصْبِحُواْ ﴾ معناه تصيروا ، قال النحاة : أصبح يستعمل على ثلاثة أوجه أحدها : بمعنى دخول الرجل في الصباح ، كما

يقول القائل : أصبحنا نقضي عليه وثانيها : بمعنى كان الأمر وقت الصباح كذا وكذا ، كما يقول : أصبح اليوم مريضنا خيراً مما كان ، غير أنه تغير ضحوة النهار ، ويريد كونه في الصبح على حاله ، كأنه يقول : كان المريض وقت الصبح خيراً وتغير ضحوة النهار وثالثها : بمعنى صار يقول القائل أصبح زيد غنياً ويريد به صار من غير إرادة وقت دون وقت ، والمراد ههنا هو المعنى الثالث وكذلك أمسى وأضحى ، ولكن لهذا تحقيق وهو أن نقول لا بد في اختلاف الألفاظ من اختلاف المعاني واختلاف الفوائد ، فنقول الصيرورة قد تكون من ابتداء أمر وتدوم ، وقد تكون في آخر بمعنى آل الأمر إليه ، وقد تكون متوسطة .

مثال الأول : قول القائل صار الطفل فاهماً أي أخذ فيه وهو في الزيادة .

(103/717)

مثال الثاني : قول القائل صار الحق بيناً واجباً أي انتهى حده وأخذ حقه .

مثال الثالث : قول القائل صار زيد عالماً وقوياً إذا لم يرد أخذه فيه ، ولا بلوغه نهايته بل كونه متلبساً به متصفاً به ، إذا علمت هذا فأصل استعمال أصبح فيما يصير الشيء آخذاً في وصف ومبتدئاً في أمر ، وأصل أمسى فيما يصير الشيء بالغاً في الوصف نهايته ، وأصل أضحى التوسط لا يقال أهل الاستعمال لا يفرقون بين الأمور ويستعملون الألفاظ الثلاثة

بمعنى واحد ، نقول إذا تقاربت المعاني جاز الاستعمال ، وجواز الاستعمال لا ينافي الأصل ، وكثير من الألفاظ أصله مضى واستعمل استعمالاً شائعاً فيما لا يشاركه ، إذا علم هذا فنقول قوله تعالى : ﴿ فَتُصْبِحُواْ ﴾ أي فتصيروا آخذين في الندم متلبسين به ثم تستديمونه وكذلك في قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ﴾ أي أخذتم في الأخوة وأنتم فيها زائدون ومستمرون ، وفي الجملة اختار في القرآن هذه اللفظة لأن الأمر المقرون به هذه اللفظة ، إما في الثواب أو في العقاب وكلاهما في الزيادة ، ولا نهاية للأمور الإلهية وقوله تعالى : ﴿ نادمين ﴾ الندم هم دائم والنون والدال والميم في تقاليبها لا تنفك عن معنى الدوام ، كما في قول القائل : أدمن في الشرب ومدمن أي أقام ، ومنه المدينة .

وقوله تعالى : ﴿ فَتُصْبِحُواْ على مَا فَعَلْتُمْ نادمين ﴾ فيه فائدتان :

إحداهما : تقرير التحذير وتأكيده ، ووجهه هو أنه تعالى لما قال : ﴿ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَا بِجَهَالَةٍ ﴾ قال بعده وليس ذلك مما لا يلتفت إليه ، ولا يجوز للعاقل أن يقول : هب أني أصبت قوماً فماذا علي ؟ بل عليكم منه الهم الدائم والحزن المقيم ، ومثل هذا الشيء واجب الاحتراز منه .

والثانية : مدح المؤمنين ، أي لستم ممن إذا فعلوا سيئة لا يلتفتون إليها بل تصبحون نادمين عليها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 100 . 105 ﴾

وقال القرطبى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (4) ﴾

قال مجاهد وغيره : نزلت في أعراب بني تميم ؛ قدم الوفد منهم على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فدخلوا المسجد ونادَوُا النبيّ صلى الله عليه وسلم من وراء حجرته أن اخرج إلينا ، فإن مَدْحَنَا زَيْنٌ وَذَمّنَا شَيْنٌ .

وكانوا سبعين رجلاً قدّموا الفداءَ ذَرارِيَ لهم ؛ وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم نام للقائلة .

" وروي أن الذي نادى الأقرع بن حابس ، وأنه القائل : إن مَدْحِيَ زَيْنٌ وإنّ ذَمّيَ شَيْن ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ذاك الله" " ذكره الترمذي عن البَرَاء بن عازب أيضاً .

وروى زيد بن أرقم فقال : أتى أناس النبي صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا إلى هذا الرجل ، فإن يكن نبيّاً فنحن أسعد الناس باتباعه ، وإن يكن مَلِكاً نَعِشْ في جنابه .

فأتُوا النبي صلى الله عليه وسلم فجعلوا ينادونه وهو في حجرته : يا محمد ، يا محمد ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

قيل : إنهم كانوا من بني تميم .

قال مقاتل كانوا تسعة عشر : قيس بن عاصم ، والزِّبْرِقَان بن بَدْر ، والأَقْرَع بن حابس ،

وسُويد بن هاشم ، وخالد بن مالك ، وعطاء بن حابس ، والقَعْقاع بن مَعْبَد ، ووَكِيع بن وكيع ، وعُيَيْنَة بن حِصْن وهو الأحمق المطاع ، وكان من الجرّارين يجر عشرة آلاف قناة ، أي يتبعه ، وكان اسمه حذيفة وسمي عُيْيَنةِ لِشَتَرٍ كان في عينيه ذكر عبد الرزاق في عُيينة هذا : أنه الذي نزل فيه ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا ﴾ [الكهف : 28] .

وقد مضى في آخر "الأعراف" من قوله لعمر رضي الله عنه ما فيه كفاية ؛ ذكره البخاري .

وروي أنهم وَفَدوا وقت الظَّهِيرة ورسول الله صلى الله عليه وسلم راقد ؛ فجعلوا ينادونه : يا محمد يا محمد ، اخرج إلينا ؛ فاستيقظ وخرج ، ونزلت .

(105/717)

" وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "هم جُفاة بني تميم لولا أنهم من أشدّ الناس قتالاً للأعور الدجال لدعوت الله عليهم أن يهلكهم" " والحُجُرات جمع حُجْرة ؛ كالغُرُفات جمع غُرْفة ، والظّلمات جمع ظُلْمة .

وقيل : الحجرات جمع الحُجَر ، والحُجَر جمع حُجْرة ، فهو جمع الجمع .

وفيه لغتان : ضمّ الجيم وفتحها .

قال :

ولما رأونا باديا ًركَباتنا . . .

على موطن لا نخلط الجِدَّ بالهَزْلِ

والحجرة : الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها .

وحَظيرة الإبل تسمى الحجرة ، وهي فُعْلة بمعنى مفعولة .

وقرأ أبو جعفر بن القَعْقَاع "الحُجَرات" بفتح الجيم استثقالاً للضمتين .

وقرىء "الحُجْرات" بسكون الجيم تخفيفاً .

وأصل الكلمة المنع .

وكل ما منعت أن يوصل إليه فقد حَجَرت عليه .

ثم يحتمل أن يكون المنادى بعضاً من الجملة فلهذا قال : ﴿ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ أي إن الذين ينادونك من جملة قوم الغالب عليهم الجهل .

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5)

أي لو انتظروا خروجك لكان أصلح لهم في دينهم ودنياهم .

وكان صلى الله عليه وسلم لا يحتجب عن الناس إلا في أوقات يشتغل فيها بمهمات نفسه ؛ فكان إزعاجه في تلك الحالة من سوء الأدب وقيل : كانوا جاءوا شفعاء في أسارى بني عنبر فأعتق رسول الله صلى الله عليه وسلم نصفهم ، وفادى على النصف .

ولو صبروا لأعتق جميعهم بغير فداء .

﴿ واللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (6)

فيه سبع مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُ بِنَبَإٍ ﴾ قيل : إن هذه الآية نزلت في الوليد بن عُقبة بن أبي مُعَيْط .

(106/717)

وسبب ذلك ما رواه سعيد عن قتادة : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عُقبة مُصَدِّقاً إلى بني المُصْطَلِق ؛ فلما أبصروه أقبلوا نحوه فهابهم في رواية : لإحْنَة كانت بينه وبينهم ؛ فرجع إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبره أنهم قد ارتدّوا عن الإسلام .

فبعث نبي الله صلى الله عليه وسلم خالدَ بن الوليد وأمره أن يتثبّت ولا يَعْجَل ؛ فانطلق خالد حتى أتاهم ليلاً ؛ فبعث عُيُونَه فلما جاءوا أخبروا خالداً أنهم متمسكون بالإسلام ، وسمعوا أذانهم وصلاتهم ؛ فلما أصبحوا أتاهم خالد ورأى صحة ما ذكروه ؛ فعاد إلى نبيّ الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فنزلت هذه الآية ؛ فكان يقول نبي الله صلى الله عليه

وسلم : " التأنِّي من الله والعجلة من الشيطان " وفي رواية : أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه إلى بني المُصْطَلِق بعد إسلامهم ؛ فلما سمعوا به ركبوا إليه ، فلما سمع بهم خافهم ؛ فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره أن القوم قد همّوا بقتله ، ومنعوا صدقاتهم .

فهمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بغزوِهم ، فبينما هم كذلك إذ قدم وفدهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ، سمعنا برسولك فخرجنا إليه لنكرمه ، ونؤدي إليه ما قِبَلَنَا من الصدقة ، فاستمر راجعاً ، وبلغنا أنه يزعم لرسول الله أنا خرجنا لنقاتله ، واللّهِ ما خرجنا لذلك ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ؛ وسُمِّيَ الوليدُ فاسقاً أي كاذباً .

قال ابن زيد ومقاتل وسهل بن عبد الله : الفاسق الكذاب .

وقال أبو الحسن الوراق : هو المعلن بالذنب .

وقال ابن طاهر : الذي لا يستحي من الله .

وقرأ حمزة والكسائي "فتثبتوا" من التثبت .

الباقون "فَتَبَيَّنُوا" من التبيين ﴿ أَن تُصِيبُواْ ﴾ أي لئلا تصيبوا ، ف "أن" في محل نصب بإسقاط الخافض .

﴿ قَوْمَا بِجَهَالَةٍ ﴾ أي بخطأ .

﴿ فَتُصْبِحُواْ على مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ على العجلة وترك التأّني .

(107/717)

الثانية في هذه الآية دليلٌ على قبول خبر الواحد إذا كان عَدْلاً ، لأنه إنما أمر فيها بالتثبت عند نقل خبر الفاسق .

ومن ثبت فسقه بطل قوله في الأخبار إجماعاً ؛ لأن الخبر أمانة والفسق قرينة يبطلها .

وقد استثنى الإجماع من جملة ذلك ما يتعلق بالدعوى والجحود ، وإثبات حق مقصود على الغير ؛ مثل أن يقول : هذا عبدي ؛ فإنه يقبل قوله .

وإذا قال : قد أنفذ فلان هذا لك هدية ؛ فإنه يقبل ذلك .

وكذلك يقبل في مثله خبر الكافر .

وكذلك إذا أقرّ لغيره بحق على نفسه فلا يبطل إجماعاً .

وأما في الإنشاء على غيره فقال الشافعي وغيره : لا يكون وِلِيًّا في النكاح .

وقال أبو حنيفة ومالك : يكون وِلِيًّا ؛ لأنه يَلِي ما لها فيلي بُضْعَها .

كالعدل ، وهو وإن كان فاسقاً في دينه إلا أن غيرَتْه موفّرة وبها يحمي الحريم ، وقد يبذل المال

ويصون الحرمة ؛ وإذا وَلِيَ المال فالنكاح أوْلَى .

الثالثة قال ابن العربي : ومن العَجَب أن يجوّز الشافعي ونظراؤه إمامة الفاسق .

ومن لا يؤتمن على حبة مالٍ (كيف) يصحّ أن يؤتمن على قنطار دَيْن .

وهذا إنما كان أصله أن الولاة الذين كانوا يصلّون بالناس لما فسدت أديانهم ولم يمكن ترك الصلاة وراءهم ، ولا اسْتُطِيعت إزالتهم صُلِّيَ معهم ووراءهم ؛ كما قال عثمان : الصلاة أحسن ما يفعل الناس ؛ فإذا أحسنوا فأحسن ، وإذا أساءوا فاجتنب إساءتهم .

ثم كان من الناس من إذا صلّى معهم تَقِيّةً أعادوا الصلاة للّه ، ومنهم من كان يجعلها صلاته .

وبوجوب الإعادة أقول ؛ فلا ينبغي لأحد أن يترك الصلاة مع من لا يرضى من الأئمة ، ولكن يعيد سِرًّا في نفسه ، ولا يؤثر ذلك عند غيره .

الرابعة وأما أحكامه إن كان والياً فينفذ منها ما وافق الحق ويردّ ما خالفه ، ولا ينقض حكمه الذي أمضاه بحال ؛ ولا تلتفتوا إلى غير هذا القول من رواية تؤثر أو قول يحكى ؛ فإن الكلام كثير والحق ظاهر .

(108/717)

الخامسة لا خلاف في أنه يصح أن يكون رسولاً عن غيره في قول يبلغه أو شيء يوصله ، أو إذن يعلمه ؛ إذا لم يخرج عن حق المرسِل والمبلِّغ ؛ فإن تعلّق به حق لغيرهما لم يقبل قوله .

وهذا جائز للضرورة الداعية إليه ؛ فإنه لو لم يتصرف بين الخلق في هذه المعاني إلا العدول لم يحصل منها شيء لعدمهم في ذلك .

والله أعلم .

السادسة وفي الآية دليل على فساد قول من قال : إن المسلمين كلهم عدول حتى تثبت الجُرحة ؛ لأن الله تعالى أمر بالتثبت قبل القبول ، ولا معنى للتثبت بعد إنفاذ الحكم ؛ فإن حكم الحاكم قبل التثبت فقد أصاب المحكوم عليه بجهالة .

السابعة فإن قضى بما يغلب على الظن لم يكن ذلك عملاً بجهالة ؛ كالقضاء بالشاهدين العدلين ، وقبول قول العالم المجتهد .

وإنما العمل بالجهالة قبول قول من لا يحصل غلبة الظن بقبوله .

ذكر هذه المسألة القُشَيْرِي ، والذي قبلها المَهْدَوِي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(109/717)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ الذين يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الحجرات ﴾

من خارجها خلفها أو قدامها على أن ﴿ وَرَاء ﴾ من المواراة والاستتار فما استتر عنك فهو وراء خلفاً كان أو قداماً إذا لم تره فإذا رأيته لا يكون وراءك ، فالوارء بالنسبة إلى من في الحجرات ما كان خارجها لتواريه عمن فيها ، وقال بعض أهل اللغة إن وراء من الأضداد فهو مشترك لفظي عليه ومشترك معنوي على الأول وهو الذي ذهب إليه الآمدي .

وجماعة .

و ﴿ الحجرات ﴾ جمع حجرة على وزن فعلة بضم الفاء وسكون العين وهي القطعة من الأرض المحجورة أي الممنوعة عن الدخول فيها بحائط ، وتسمى حظيرة الإبل وهي ما تجمع فيه وتكون محجورة بحطب ونحوه حجرة أيضاً فهي بمعنى اسم المفعول كالغرفة لما يغرف باليد من الماء ، وفي جمعها هنا ثلاثة أوجه ، ضم العين اتباعاً للفاء كقراءة الجمهور ،

وفتحها وبه قرأ أبو جعفر .

وشيبة ، وتسكينها للتخفيف وبه قرأ ابن أبي عبلة .

وهذه الأوجه جائزة في جمع كل اسم جامد جاء على هذا الومن ، والمراد حجرات نسائه عليه الصلاة والسلام وكانت تسعة لكل منهن حجرة ، وكانت كما أخرج ابن سعد عن عطاء الخراساني من جريد النخل على أبوابها المسوح من شعر أسود .

وأخرج البخاري في الأدب .

وابن أبي الدنيا .

والبيهقي عن داود بن قيس قال : رأيت الحجرات من جريد النخل مغشى من خارج بمسوح الشعر ، وأظن عرض البيت من باب الحجرة إلى باب البيت ست أو سبع أذرع ، وأحرز البيت الداخل عشرة أذرع ، وأظن السمك بين الثمان والسبع .

(110/717)

وأخرجوا عن الحسن أنه قال : كنت أدخل بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في خلافة عثمان بن عفان فأتناول سقفها بيدي ، وقد أدخلت في عهد الوليد بن عبد الملك بأمره في مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام وبكى الناس لذلك ، وقال سعيد بن المسيب يومئذٍ : والله لوددت أنهم تركوها على حالها لينشو أناس من أهل المدينة ويقدم القادم من أهل الآفاق فيرى ما اكتفى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته فيكون ذلك مما يزهد الناس في التكاثر والتفاخر فيها ، وقال نحو ذلك أبو أمامة بن سهل بن حنيف ، وفي ذكر ﴿ الحجرات ﴾ كناية عن خلوته عليه الصلاة والسلام بنسائه لأنها معدة لها ، ولم يقل : حجرات نسائك ولا حجراتك توقيراً له صلى الله عليه وسلم وتحاشياً عما يوحشه

عليه الصلاة والسلام ، ومناداتهم من ورائها إما بأنهم أتوها حجرة حجرة فنادوه من ورائها فيكون القصد إلى الاستغراق العرفي أي جميع حجرات نسائه صلى الله عليه وسلم أو بأنهم تفرقوا على الحجرات متطلبين له عليه الصلاة والسلام على أن الاستغراق إفرادي لا شمولي مجموعي ولا أنه من مقابلة الجمع بالجمع المقتضية لانقسام الآحاد على الآحاد لأن من ناداه صلى الله عليه وسلم من وراء حجرة منها فقد ناداه من وراء الجميع على ما قيل ، وعلى هذا يكون إسناد النداء من إسناد فعل الإبعاض إلى الكل ، وقيل : إن الذي نادى رجل واحد كما هو ظاهر خبر أخرجه الترمذي وحسنه .

وجماعة عن البراء بن عازب ، وما أخرجه أحمد .

وابن جرير .

وأبو القاسم البغوي .

والطبراني .

(111/717)

وابن مردويه بسند صحيح من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن عن الأقرع بن حابس أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد أخرج إلينا فلم يجبه عليه الصلاة والسلام

فقال : يا محمد إن حمدي زين وإن ذمي شين فقال : ذاك الله فأنزل الله تعالى ﴿ إِنَّ الذين يُنَادُونَكَ ﴾ الخ ، وعليه يكون الإسناد إلى الكل لأنهم رضوا بذلك وأمروا به أو لأنه وجد فيما بينهم ، وظاهر الآية أن المنادي جمع وكذا جمع من الأخبار ، وسنذكر إن شاء الله تعالى بعضاً منها ، وحمل ﴿ الحجرات ﴾ على الجمع الحقيقي هو الظاهر الذي عليه غير واحد من المفسرين ، وجوز كون الحجرة واحدة وهي التي كان فيها الرسول عليه الصلاة والسلام وجمعت إجلالاً له صلى الله عليه وسلم على أسلوب حرمت النساء سواكم ، وأيضاً لأن حجرته عليه الصلاة والسلام لأنها أم الحجرات وأشرفها بمنزلة الكل على نحو أحد الوجهين في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مساجد الله ﴾ [البقرة : 114] .

وفرق الزمخشري بين ﴿ مِن وَرَاء الحجرات ﴾ بإثبات ﴿ مِنْ ﴾ وراء الحجرات بإسقاطها بأنه على الثاني يجوز أن يجمع المنادي والمنادي الوراء ، وعلى الأول لا يجوز ذلك ، وعلله بأن الوراء يصير بدخول من مبتدأ الغاية ولا يجتمع على الجهة الواحدة أن تكون مبتدأ ومنتهى لفعل واحد .

واعترضه في "البحر" بأنه قد صرح الأصحاب في معاني ﴿ مِنْ ﴾ أنها تكون لابتداء الغاية وانتهائها في فعل واحد وأن الشيء الواحد يكون محلاً لهما ونسبوا ذلك إلى سيبويه وقالوا : إن منه قولهم : أخذت الدرهم من زيد فزيد محل لابتداء الأخذ منه وانتهائه معاً

قالوا : فمن تكون في أكثر المواضع لابتداء الغاية فقط ، وفي بعض المواضع لابتداء الغاية وانتهائها معاً .

(112/717)

وصاحب التقريب بقوله : فيه نظر لأن المبدأ والمنتهى إما المنادى والمنادى على ما هو التحقيق أو الجهة ، فإن كان الأول جاز أن يجمعها الوراء في إثبات ﴿ مِنْ ﴾ وفي إسقاطها لتغاير المبدأ والمنتهى ، وإن كان الثاني فالجهة إما ذات أجزاء أو عديمتها ، فإن كان الأول جاز أن يجمعهما في إثبات من أيضاً باعتبار أجزاء الجهة ، وإن كان الثاني لم يجز أن يجمعهما لا في إثبات من ولا في إسقاطها لاتحاد المورد .

ورد الأول بأن محل الانتهاء هو المتكلم ليس إلا كما ذكره ابن هشام في "المغني" ، وذكر أن ابن مالك قال : إن ﴿ مِنْ ﴾ في المثال للمجاوزة ، والثاني غير قادح في الفرق على ما ذكره صاحب الكشف قال : الحاصل أن المبدأ الجهة باعتبار تلبسها بالفاعل لأن حرف الابتداء دخل على الجهة والفعل مما ليست المسافة داخلة في مفهومه فيعتبر الأمران تحقيقاً لمقتضى الفعل والحرف ، ولما أوقع جميع الجهة مبدأ لم يجز أن يكون منتهى سواء كان منقسماً أو لا ، ثم لما كان الوراء مبهماً لم يكن مثل سرت من البصرة إلى جامعها إذ لا يتعين بعضها

مبدأ وبعضها منتهى ، على أن ذلك أيضاً إذا أطلق يجب أن يحمل على أن المنتهى غير البصرة ، أما إذا عينت فيجوز مع تجوز والأصل عدمه إلا بدليل ، ثم هذا الجواز فيما كانت النهاية مكاناً أيضاً أما إذا اعتبرت باعتبار التلبس بالمفعول فلا ، وإذا لم يذكر حرف الابتداء لم يؤد هذا المعنى .

(113/717)

فهذا فرق محقق ومنه يظهر أن المذكور في التقريب من النظر غير قادح ، وما ذكر من أن التحقيق أن الفعل يبتدىء من الفاعل وينتهي إلى المفعول ويقع في الظرف وأن ﴿ مِن وَرَاء الحجرات ﴾ ووراءها كلاهما ظرف كصليت من خلف الإمام وخلفه ومن قبل اليوم وقبله ومعنى الابتداء غير محقق والفرق تعسف ظاهر في أن من زائدة لا فرق بين دخولها وخروجها وهو خلاف الظاهر وإلا لما اختلفوا في زيادتها في الإثبات لشيوع نحو هذا الكلام فيما بينهم ، ومتى لم تكن زائدة فلا بد من الفرق بين الكلامين لا سيما إذا كانا من كلامه عز وجل فتدبر .

والتعبير عن النداء بصيغة المضارع مع تقدمه على النزول لاستحضار الصورة الماضية لغرابتها .

والموصول اسم إن ، وجملة قوله تعالى : ﴿ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ خبرها وتكرار الإسناد للمبالغة ، والمراد أنهم لا يجرون على مقتضى العقل من مراعاة الأدب لا سيما مع أجل خلق الله تعالى وأعظمهم عنده سبحانه صلى الله عليه وسلم وكثيراً ما ينزل وجود الشيء منزلة عدمه لمقتض ، والحكم على الأكثر دون الكل بذلك لأن منهم من لم يقصد ترك الأدب بل نادى لأمر ما على ما قيل ، وجوز أن يكون المراد بالقلة التي يدل عليها نفي الكثرة العدم فإنه يكنى بها عنه ، وتعقبه أبو حيان بأن ذلك في صريح القلة لا في المفهوم من نفي الكثرة ، وكان هؤلاء من بني تميم كما صرح به أكثر أهل السير .

أخرج ابن إسحاق .

وابن مردويه عن ابن عباس قال : قدم وفد بني تميم وهم سبعون رجلاً أو ثمانون رجلاً منهم

الزبرقان بن بدر .

وعطارد بن حاجب بن زرارة .

وقيس بن عاصم .

وقيس بن الحرث .

وعمرو بن الأهتم المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلق معهم عيينة بن حصن بن بدر الفزاري وكان يكون في كل سوأة حتى أتوا منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فنادوه من وراء الحجرات بصوت جاف يا محمد أخرج إلينا ثلاثاً فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد إن مدحنا زين وإن شتمنا شين نحن أكرم العرب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كذبتم بل مدح الله تعالى الزين وشتمه الشين وأكرم منكم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم فقالوا : إنا أتيناك لنفاخرك فذكره بطوله وقال في آخره : فقال التميميون والله إن هذا الرجل لمصنوع له لقد قام خطيبه فكان أخطب من خطيبنا وفاه شاعره فكان أشعر من شاعرنا وفيهم أنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الحجرات ﴾ من بني تميم ﴿ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ هذا في القراءة الأولى .

وذكر ابن هشام في سيرته عن ابن إسحاق الخبر بطوله وعد منهم الأقرع بن حابس وذكر أنه وعيينة شهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة وحنيناً والطائف ؛ وأن عمرو بن الأهتم خلفه القوم في ظهرهم وأن خطيبهم عطارد بن حاجب وخطيبه صلى الله عليه وسلم ثابت بن قيس بن شماس وشاعرهم الزبرقان بن بدر وشاعره عليه الصلاة والسلام حسان بن ثابت وذكر الخطبتين وما قيل من الشعر وأنه لما فرغ حسان قال الأقرع : وأبى أن هذا الرجل لمؤتى له لخطيبه أخطب من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا ولأصواتهم

أعلى من أصواتنا ، وأنه لما فرغوا أسلموا وجوزهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحسن جوائزهم وأرسل لعمرو جائزته كالقوم ، وتعقب ابن هشام الشعر بعض التعقب . وفي "البحر" أيضاً ذكر الخبر بطوله مع مخالفة كلية لما ذكره ابن إسحاق ، وفيه أن الأقرع قام بعد أن أنشد الزبرقان ما أنشد وأجابه حسان بما أجاب فقال : إني والله لقد جئت لأمر وقد قلت شعراً فاسمعه فقال :

أتيناك كيما يعرف الناس فضلنا . . .

(115/717)

إذا خالفونا عند ذكر المكارم

وأنا رؤوس الناس من كل معشر . . .

وأن ليس في أرض الحجاز كدارم

وأن لنا المرباع في كل غارة . . .

تكون بنجد أو بأرض التهائم

فقال النبي صلى الله عليه وسلم لحسان : قم فأجبه فقال :

بني دارم لا تفخروا إن فخركم . . .

يصير وبالاً عند ذكر المكارم

هبلتم علينا تفخرون وأنتم . . .

لنا خول من بين ظئر وخادم

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لقد كنت يا أخا دارم غنياً أن يذكر منك ما ظننت أن الناس قد نسوه فكان قوله عليه الصلاة والسلام : أشد عليهم من جميع ما قال حسان ثم رجع حسان إلى شعره فقال :

فإن كنتم جئتم لحقن دمائكم . . .

وأموالكم أن يقسموا في المقاسم

فلا تجعلوا لله نداً وأسلموا . . .

ولا تفخروا عند النبي بدارم

وإلا ورب البيت قد مالت القنا . . .

على هامكم بالمرهفات الصوارم

فقال الأقرع بن حابس : والله ما أدري ما هذا الأمر تكلم خطيبنا فكان خطيبهم أحسن قولاً وتكلم شاعرنا فكان شاعرهم أشعر وأحسن قولاً ، ثم دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فقال النبي عليه الصلاة والسلام : ما يضرك ما كان قبل هذا انتهى ، وهذا ظاهر في أن إسلام الأقرع يومئذٍ ، ومعلوم أن سنة

الوفود سنة تسع والطائف وحنين كانتا قبل ذلك ، وتقدم عن ابن إسحاق أن الأقرع شهدهما مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتوهم منه أنه كان مسلماً إذ ذاك فيتناقض مع هذا بل في أول كلام ابن إسحاق وآخره ما يوهم التناقض ، والمذكور في "الصحاح" أنه وكذا عيينة كان إذ ذاك من المؤلفة قلوبهم .

(116/717)

وقد روى ابن إسحاق نفسه عن محمد بن إبراهيم أن قائلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه يوم قسمة ما أفاء الله تعالى عليه يوم حنين : يا رسول الله أعطيت عيينة والأقرع مائة وتركت جعيل بن سراقة الضمري فقال : أما والذي نفس محمد بيده لجعيل خير من طلاع الأرض كلهم مثل عيينة والأقرع ولكن تألفتهما ليسلما ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه ، وجاء ما يدل على أنهم من بني تميم مرفوعاً .

أخرج ابن مردويه من طريق يعلى بن الأشدق عن سعد بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يُنَادُونَكَ ﴾ الخ فقال : هم الجفاة من بني تميم لولا أنهم من أشد الناس قتالاً للأعور الدجال لدعوت الله تعالى عليهم أن يهلكهم ، وفي "الصحيحين" ما يشهد بأنهم من أشد الأمة على الدجال وجعله أبو هريرة أحد أسباب

حبهم ، وظاهر كثير من الأخبار أن سبب وفودهم المفاخرة ، وقال الواقدي وهو حاطب ليل : إن سببه هو أنهم كانوا قد جهروا السلاح على خزاعة فبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عيينة بن بدر في خمسين ليس فيهم أنصاري ولا مهاجري فأسر منهم أحد عشر رجلاً وإحدى عشرة امرأة وثلاثين صبياً فقدم رؤساؤهم بسبب أسرائهم ويقال : قدم منهم سبعون أو ثمانون رجلاً في ذلك منهم عطارد .

والزبرقان .

وقيس بن عاصم .

وقيس بن الحرث .

ونعيم بن سعد .

والأقرع بن حابس .

ورياح بن الحرث .

(117/717)

وعمرو بن الأهتم فدخلوا المسجد وقد أذن بلال الظهر والناس ينتظرون رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخرج إليهم فعجل هؤلاء فنادوه من وراء الحجرات فنزل فيهم ما نزل ، ثم

ذكر أنه صلى الله عليه وسلم أجازهم كل رجل اثنيت عشرة أوقية وكساء ولعمرو بن الأهتم خمس أواق لحداثة سنه انتهى ، ولعل زيادة جائزته لما نيل منه أيضاً فقد ذكر ابن إسحاق أن عاصم بن قيس كان يبغض عمراً فقال : يا رسول الله إنه قد كان رجل منا في رحالنا وهو غلام حدث وازرى به فقال لما بلغه ذلك يخاطب قيساً :

ظللت مفترش الهلباء تشتمني . . .

عند الرسول فلم تصدق ولم تصب

سدناكم سؤدداً رهواً وسؤددكم . . .

باد نواجذه مقع على الذنب

وروي عن عكرمة عن ابن عباس أنهم ناس من بني العنبر أصاب النبي صلى الله عليه وسلم من ذراريهم فأقبلوا في فدائهم فقدموا المدينة ودخلوا المسجد وعجلوا أن يخرج إليهم النبي عليه الصلاة والسلام فجعلوا يقولون : يا محمد اخرج إلينا ، وذكر الخفاجي أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث إلى قوم من العرب هم بنو العنبر سرية أميرها عيينة بن حصن فهربوا وتركوا النساء والذراري فسباهم وقدم بهم عليه عليه الصلاة والسلام فجاء رجالهم راجين إطلاق الأسارى فنادوا من وراء الحجرات فخرج صلى الله عليه وسلم فأطلق النصف وفادى الباقي ، وظاهر كلامه أنهم ليسوا من بني تميم وإن كانت هذه السرية متحدة مع السرية التي أشار إليها الواقدي فيما تقدم ، ويقال : إن عيينة في الكلامين هو

عيينة بن حصن بن بدر إلا أنه نسب هناك إلى جده وهنا إلى أبيه كان ذلك الكلام ظاهراً في أن القوم كانوا من بني تميم لا أناساً آخرين ، وفي "القاموس" العنبر أبو حي من تميم فبنو العنبر عليه منهم فلم يخرج الأمر عنهم .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حتى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ ﴾

(118/717)

أي ولو ثبت صبرهم وانتظارهم حتى تخرج لكان الصبر خيراً لهم من الاستعجال لما فيه من حفظ الأدب وتعظيم النبي صلى الله عليه وسلم الموجبين للثناء والثواب أو لذلك والإسعاف بالمسؤول على أوفق وجه وأوقعه عندهم بناءً على حديث الأسارى بأن يطلق عليه الصلاة والسلام الجميع من غير فداء ، فإن المفتوحة المؤولة بالمصدر هنا فاعل فعل مقدر وهو ثبت كما اختاره المبرد والقرينة عليه معنى الكلام ، فإن أن تدل على الثبوت وهو إنما يكون في الماضي حقيقة ولذا يقدر الفعل ماضياً .

وضمير ﴿ كَانَ ﴾ للمصدر الدال عليه ﴿ صَبَرُواْ ﴾ كما في قولك : من كذب كان شراً له أي الكذب ومذهب سيبويه أن المصدر في موضع المبتدأ فقيل : خبره مقدر أي لو صبرهم ثابت وقيل : لا خبر له ؛ وأنت تعلم أن في تقدير الفعل إبقاء ﴿ لَوْ ﴾ على

ظاهرها من دخولها على الفعل فإنها في الأصل شرطية مختصة به ، وجوز كون ضمير ﴿ كَانَ ﴾ لمصدر الفعل المقدر أي لكان ثبوت صبرهم ، وصنيع الزمخشري يقتضي أولويته .

وأوثرت ﴿ حتى ﴾ هنا على إلى لأنها موضوعة لما هو غاية في نفس الأمر ويقال له الغاية المضروبة أي المعينة وإلى لما هو غاية في نفس الأمر أو بجعل الجاعل ، وإليه يرجع قول المغاربة وغيرهم : إن مجرور حتى دون مجرور إلى لا بد من كونه آخر جزء نحو أكلت السمكة حتى رأسها أو ملاقياً له نحو ﴿ سلام هِيَ حتى مَطْلَعِ الفجر ﴾ [القدر : 5] ولا يجوز سهرت البارحة حتى ثلثيها أو نصفها فيفيد الكلام معها أن انتظارهم إلى أن يخرج صلى الله عليه وسلم أمر لازم ليس لهم أن يقطعوا أمراً دون الانتهاء إليه ، فإن الخروج لما جعله الله تعالى غاية كان كذلك في الواقع ، وإلى هذا ذهب الزمخشري ، وتوهم ابن مالك أنه لم يقل به أحد غيره ، واعترض عليه بقوله :

عينت ليلة فما زلت حتى . . .

نصفها راجياً فعدت يؤسا

(119/717)

وأجيب بأنه على تسليم أنه من كلام من يعتد به مع أنه نادر شاذ لا يرد مثله نقضاً مدفوع بأن معنى عينت ليلة عينت وقتاً للزيارة وزيارة الأحباب يتعارف فيها أن تقع في أول الليل فقوله : حتى نصفها بيان لغاية الوقت المتعارف للزيارة الذي هو أول الليل والنصف ملاق له ، وهو أولى من قول ابن هشام في "المغني" : إن هذا ليس محل الاشتراط إذ لم يقل : فما زلت في تلك الليلة حتى نصفها وإن كان المعنى عليه ، وحاصله أن الاشتراط مخصوص فيما إذا صرح بذي الغاية إذ لا دليل على هذا التخصيص ، وخفاء عدم الاكتفاء بتقديم ليلة في صدر البيت .

(120/717)

نعم ما ذكر من أصله لا يخلو عن كلام كما يشير إليه كلام صاحب الكشف ، ولذا قال اوظهر : إنه أوثر حتى تخرج اختصاراً لوجوب حذف أن ووجوب الإظهار في إلى مع أن حتى أظهر دلالة على الغاية المناسبة للحكم وتخالف ما بعدها وما قبلها ولهذا جاءت للتعليل دون إلى ، وفي قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِمُ ﴾ إشعار بأنه عليه الصلاة والسلام لو خرج لا لأجلهم ينبغي أن يصروا حتى يفاتحهم بالكلام أو يتوجه إليهم فليس زائداً بل قيد لا بد منه ﴿ واللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ بليغ المغفرة والرحمة فلذا اقتصر سبحانه على النصح والتقريع

لهؤلاء المسيئين الأدب التاركين تعظيم رسوله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان مقتضى ذلك أن يعذبهم أو يهلكهم أو فلم تضق ساحة مغفرته ورحمته عز وجل عن هؤلاء إن تابوا وأصلحوا ، ويشير إلى هذا قوله صلى الله عليه وسلم للأقرع بعد أن دنا منه عليه الصلاة والسلام وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله : " ما يضرك ما كان قبل هذا " ، وفي الآيات من الدلالة على قبح سوء الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى ، ومن هذا وأمثاله تقتطف ثمر الألباب وتقتبس محاسن الآداب كما يحكى عن أبي عبيد وهو في الفضل هو أنه قال : ما دققت باباً على عالم حتى يخرج في وقت خروجه ، ونقله بعضهم عن القاسم بن سلام الكوفي ، ورأيت في بعض الكتب أن الحبر ابن عباس كان يذهب إلى أبي في بيته لأخذ القرن العظيم عنه فيقف عند الباب ولا يدق الباب عليه حتى يخرج فاستعظم ذلك أبي منه فقال له يوماً : هلا دققت الباب يا ابن عباس ؟ فقال : العالم في قومه كالنبي في أمته وقد قال الله تعالى في حق نبيه عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حتى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ ﴾ وقد رأيت هذه القصة صغيراً فعملت بموجبها مع مشايخي والحمد لله تعالى على ذلك .

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ إِن جَاءكُمْ فَاسِقُ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُواْ ﴾

أخرج أحمد . وابن أبي الدنيا . والطبراني . وابن منده . وابن مردويه بسند جيد عن الحرث بن أبي ضرار الخزاعي قال : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاني إلى الإسلام فدخلت فيه وأقررت به ودعاني إلى الزكاة فمن استجاب لي جمعت زكاته وترسل إلي يا رسول الله رسولاً لإبان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة فلما جمع الحرث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليه احتبس الرسول فلم يأت فظن الحرث أن قد حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام فدعا سروات قومه فقال لهم : رسول الله صلى الله عليه وسلم كان وقت لي وقتاً يرسل إلى رسوله ليقبض ما كان عندنا من الزكاة وليس من رسول الله عليه الصلاة والسلام الخلف ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة فانطلقوا بنا نأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة بن أبي معيط وهو أخو عثمان رضي الله تعالى عنه لأمه إلى الحري ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة فلما إن سار الوليد إلى أن بلغ بعض الطريق فرق فرجع فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن الحرث منعني الزكاة وأراد قتلي فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم البعث إلى الحرث فأقبل الحرث بأصحابه حتى إذا استقبله الحرث وقد فصل عن المدينة قالوا : هذا الحرث فلما غشيهم قال لهم : إلى من بعثتم ؟ قالوا : إليك قال : ولم ؟ قالوا : إن رسول الله

صلى الله عليه وسلم بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله قال : لا والذي بعث محمداً بالحق ما رأيته بتة ولا أتاني فلما دخل الحرث على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : منعت الزكاة وأردت قتل رسولي ؟ قال : لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا رآني ولا أقبلت إلا حين احتبس على رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم خشية أن يكون سخطة من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فنزل : ﴿ يا أيها

(122/717)

الذين ءامَنُواْ إِن جَاءَكُمْ ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ حَكِيمٌ ﴾ [الحجرات : 86] وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال : أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبي الله إن بني فلان حياً من أحياء العرب وكان في نفسه عليهم شيء وكار حديث عهد بالإسلام قد تركوا الصلاة وارتدوا وكفروا بالله تعالى فلم يعجل رسول الله عليه الصلاة والسلام ودعا خالد بن الوليد فبعثه إليهم ثم قال : ارمقهم عند الصلوات فإن كان القوم قد تركوا الصلاة فشأنك بهم وإلا فلا تعجل عليهم فدنا منهم عند غروب الشمس فكمن حتى يسمع الصلاة فرمقهم فإذا هو بالمؤذن قد قام عند غروب الشمس فأذن ثم أقام الصلاة فصلوا صلاة المغرب فقال خالد : ما أراهم إلا يصلون فلعلهم تركوا صلاة غير هذه ثم كمن حتى إذا جنح الليل وغاب

الشفق أذن مؤذنهم فصلوا فقال : لعلهم تركوا صلاة أخرى فكمن حتى إذا كان في جوف الليل تقدم حتى أطل الخيل بدورهم فإذا القوم تعلموا شيئاً من القرآن فهم يتهجدون به من الليل ويقرؤنه ثم أتاهم عند الصبح فإذا المؤذن حين طلع الفجر قد أذن وأقام فقاموا وصلوا فلما انصرفوا وأضاء لهم النهار إذا هم بنواصي الخيل في ديارهم فقالوا : ما هذا ؟ قالوا : خالد بن الوليد قالوا : يا خالد ما شأنك ؟ قال : أنتم والله شأني أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقيل له : إنكم تركتم الصلاة وكفرتم بالله تعالى فجثوا يبكون فقالوا : نعوذ بالله تعالى أن نكفر أبداً فصرف الخيل وردها عنهم حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم وأنزل الله تعالى ﴿ يا ايها الذين آمنوا ﴾ الآية قال الحسن : فوالله لئن كانت نزلت في هؤلاء القوم خاصة إنها المرسلة إلى يوم القيامة ما نسخها شيء ، والرواية السابقة أصح وأشهر ، وكلام صاحب الكشف مصرح بأن بعث خالد بن الوليد كان في قضية الوليد بن عقبة ، وأن النبي عليه الصلاة والسلام بعثه إلى أولئك الحي من خزاعة بعد رجوع الوليد وقوله ما قال ، والقائل بذلك قال : إنهم سلموا

(123/717)

إليه الصدقات فرجع ، والخطاب بقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ شامل للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من أمته الكاملين منهم محاسن آداب وغيرهم ، وتخصيص الخطاب بحسب ما يقع من الأمر بعد إذ يليق بحال بعضهم لا يخرجه عن العموم لوجوده فيما بينهم فلا تغفل ، والفاسق الخارج عن حجر الشرع من قولهم : فسق الرطب إذا خرج عن قشره ، قال الراغب : والفسق أعم من الكفر ويقع بالقليل من الذنوب وبالكثير لكن تعورف فيما كانت كثيرة ، وأكثر ما يقال الفاسق لمن التزم حكم الشرع وأقربه ثم أخل بجميع أحكامه أو ببعضها ، وإذا قيل للكافر الأصلي فاسق فلأنه أخل بحكم ما ألزمه العقل واقتضته الفطرة .

ووصف الإنسان به على ما قال ابن الأعرابي لم يسمع في كلام العرب ، والظاهر أن المراد به هنا المسلم المخل بشيء من أحكام الشرع أو المروءة بناءً على مقابلته بالعدل وقد اعتبر في العدالة عدم الإخلال بالمروءة ، والمشهور الاقتصار في تعريفه على الإخلال بشيء من أحكام الشرع فلا تغفل ، والتبين طلب البيان والتعرف ؛ وقريب منه التثبت كما في قراءة ابن مسعود .

وحمزة .

والكسائي ﴿ فتثبتوا ﴾ وهو طلب الثبات والتأني حتى يتضح الحال .

وقد أخرج عبد بن حميد .

وابن جرير عن قتادة : " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم نزلت الآية : التثبت من الله تعالى والعجلة من الشيطان " وتنكير ﴿ فَاسِقٌ ﴾ للتعميم لأنه نكرة في سياق الشرط وهي كالنكرة في سياق النفي تفيد العموم كما قرر في الأصول وكذا نبأ ، وهو كما في "القاموس" الخبر ، وقال الراغب : لا يقال للخبر في الأصل نبأ حتى يكون ذا فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن ، وقوله تعالى : ﴿ إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ تنبيه على أنه إذا كان الخبر شيئاً عظيماً وماله قدر فحقه أن يتوقف فيه وإن علم أو غلب صحته على الظن حتى يعاد النظر فيه ويتبين فضل تبين ، ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين معه بالمنزلة التي لا يجسر أحد أن يخبرهم بكذب وما كان يقع مثل ما فرط من الوليد إلا في الندرة قيل : ﴿ أَن جَاءَكُمْ ﴾ بحرف الشك ، وفي النداء ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ دلالة على أن الإيمان إذا اقتضى التثبت في نبأ الفاسق فأولى أن يقتضي عدم الفسق ، وفي إخراج الفاسق عن الخطاب ما يدل على تشديد الأمر عليه من باب "لا يزني الزاني وهو مؤمن" والمؤمن لا يكذب ، واستدل بالآية على أن الفاسق أهل للشهادة وإلا لم يكن

للأمر بالتبين فائدة ، ألا ترى أن العبد إذا شهد ترد شهادته ولا يتثبت فيها خلافاً للشافعي ، وعلى جواز قبول خبر العدل الواحد ، وقرره الأصوليون بوجهين .

(125/717)

أحدهما : أنه لو لم يقبل خبره لما كان عدم قبوله معللاً بالفسق ، وذلك لأن خبر الواحد على هذا التقدير يقتضي عدم القبول لذاته وهو كونه خبر واحد فيمتنع تعليل عدم قبوله بغيره لأن الحكم المعلل بالذات لا يكون معللاً بالغير إذ لو كان معللاً به اقتضى حصوله به مع أنه حاصل قبله لكونه معللاً بالذات وهو باطل لأنه تحصيل للحاصل أو يلزم توارد علتين على معلول واحد في خبر الفاسق ، وامتناع تعليله بالفسق باطل للآية فإن ترتب الحكم على الوصف المناسب يغلب على الظن أنه علة له والظن كاف هنا لأن المقصود هو العمل فثبت أن خبر الواحد ليس مردوداً وإذا ثبت ذلك ثبت أنه مقبول يعمل به .

ثانيهما : أن الأمر بالتبين مشروط بمجيء الفاسق ومفهوم الشرط معتبر على الصحيح فيجب العمل به إذا لم يكن فاسقاً لأن الظن يعمل به هنا ، والقول بالواسطة منتف ؛ والقول بأنه يجوز اشتراك أمور في لازم واحد فيعلق بكل منهما بكلمة إن مع أنه لا يلزم من انتفاء ذلك الملزوم انتفاء اللازم غير متوجه لأن الشرط مجموع تلك الأمور وكل واحد منها لا يعد شرطاً

على ما قرر في الأصول .

نعم قال ابن الحاجب .

وعضد الدين : قد استدل من قبلنا على وجوب العمل بخبر الواحد بظواهر لا تفيد إلا الظن ولا يكفي في المسائل العلمية وذكراً من ذلك الآية المذكورة ، ثم إن للقائلين بوجوب العمل به اختلافاً كثيراً مذكوراً في محله .

واستدل الحنفية بها على قبول خبر المجهول الذي لا تعلم عدالته وعدم وجوب التثبت لأنها دلت على أن الفسق شرط وجوب التثبت فإذا انتفى الفسق انتفى وجوبه وههنا قد انتفى الفسق ظاهراً ونحن نحكم به فلا يجب التثبت .

(126/717)

وتعقب بأنا لا نسلم أنه ههنا انتفى الفسق بل انتفى العلم به ولا يلزم من عدم العلم بالشيء عدمه والمطلوب العلم بانتفائه ولا يحصل إلا بالخبرة به أو بتزكية خبير به له ، قال العضد : إن هذا مبني على أن الأصل الفسق أو العدالة والظاهر أنه الفسق لأن العدالة طارئة ولأنه أكثر .

واستدل بها على أن من الصحابة رضي الله تعالى عنهم من ليس بعدل لأن الله تعالى أطلق

الفاسق على الوليد بن عقبة فيها ، فإن سبب النزول قطعي الدخول وهو صحابي بالاتفاق فيرد بها على من قال : إنهم كلهم عدول ولا يبحث عن عدالتهم في رواية ولا شهادة ، وهذا أحد أقوال في المسألة وقد ذهب إليه الأكثر من العلماء السلف والخلف .

وثانيهما : أنهم كغيرهم فيبحث عن العدالة فيهم في الرواية والشهادة إلا من يكون ظاهرها أو مقطوعها كالشيخين .

وثالثها : أنهم عدول إلى قتل عثمان رضي الله تعالى عنه ويبحث عن عدالتهم من حين قتله لوقوع الفتن من حينئذٍ وفيهم الممسك عن خوضها .

ورابعها : أنهم عدول إلا من قاتل علياً كرم الله تعالى وجهه لفسقه بالخروج على الإمام الحق وإلى هذا ذهبت المعتزلة .

(127/717)

والحق ما ذهب إليه الأكثرون وهم يقولون : إن من طرأ له منهم قادح ككذب أو سرقة أو زنا عمل بمقتضاه في حقه إلا أنه لا يصر على ما يخل بالعدالة بناءً على ما جاء في مدحهم من الآيات والأخبار وتواتر من محاسن الآثار ، فلا يسوغ لنا الحكم على من ارتكب منهم مفسقاً بأنه مات على الفسق ، ولا ننكر أن منهم من ارتكب في حياته مفسقاً لعدم القول

بعصمتهم وأنه كان يقال له قبل توبته فاسق لكن لا يقال باستمرار هذا الوصف فيه ثقة ببركة صحبة النبي صلى الله عليه وسلم ومزيد ثناء الله عز وجل عليهم كقوله سبحانه : ﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة : 143] أي عدولاً وقوله سبحانه : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : 110] إلى غير ذلك ، وحينئذٍ أن أريد بقوله : إن من الصحابة من ليس بعدل إن منهم من ارتكب في وقت ما ما ينافي العدالة فدلالة الآية عليه مسلمة لكن ذلك ليس محل النزاع ، وإن أريد به أن منهم من استمر على ما ينافي العدالة فدلالة الآية عليه غير مسلمة كما لا يخفى فتدبر فالمسألة بعد تتحمل الكلام وربما تقبل زيادة قول خامس فيها .

هذا ثم اعلم أن الفاسق قسمان فاسق غير متأول وهو ظاهر ولا خلاف في أنه لا يقبل خبره وفاسق متأول كالجبري والقدري ويقال له المبتدع بدعة واضحة ، فمن الأصوليين من رد شهادته وروايته للآية ومنهم الشافعي .

(128/717)

والقاضي ، ومنهم من قبلهما ، أما الشهادة فلأن ردها لتهمة الكذب والفسق من حيث الاعتقاد لا يدل عليه بل هو إمارة الصدق لأن موقعه فيه تعمقه في الدين ، والكذب حرام في

كل الأديان لا سيما عند من يقول بكفر الكاذب أو خروجه من الإيمان وذلك يصده عنه إلا من يدين بتصديق المدعي المتحلي بحليته كالخطابية ، وكذا من اعتقد بحجية الإلهام ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : " نحن نحكم بالظاهر " وأما الرواية فلأن من احترز عن الكذب على غير الرسول صلى الله عليه وسلم فاحترازه من الكذب عليه صلى الله عليه وسلم أولى إلا من يعتقد حل وضع الأحاديث ترغيباً أو ترهيباً كالكرامية أو ترويجاً لمذهبه كابن الراوندي ، وأصحابنا الحنفية قبلوا شهادتهم لما مر دون روايتهم إذا دعوا الناس إلى هواهم ، وعلى هذا جمهور أئمة الفقه والحديث لأن الدعوة إلى ذلك داعية إلى النقول فلا يؤتمنون على الرواية ولا كذلك الشهادة .

ورجح ما ذهب إليه الشافعي والقاضي بأن الآية تقتضيه والعمل بها أولى من العمل بالحديث لتواترها وخصوصها ، والعام يحتمل التخصيص ولأنها لم تخصص إذ كل فاسق مردود ، والحديث خص منه خبر الكافر .

وأجيب بأن مفهومها أن الفسق هو المقتضي للتثبت فيراد به ما هو إمارة الكذب لا ما هو إمارة الصدق فافهم ، وليس من الفسق نحو اللعب بالشطرنج من مجتهد يحله أو مقلد له صوبنا أو خطأنا لوجوب العمل بموجب الظن ولا تفسيق بالواجب .

وحد الشافعي عليه الرحمة شارب النبيذ ليس لأنه فاسق بل لزجره لظهور التحريم عنده ،

ولذا قال : أحده وأقبل شهادته ، وكذا الحد في شهادة الزنا لعدم تمام النصاب لا يدل على الفسق بخلافه في مقام القذف فليحفظ .

(129/717)

﴿ أَنْ تُصِيبُواْ ﴾ تعليل للأمر بالتبين أي فتبينوا كراهة أن تصيبوا أو لئلا تصيبوا ﴿ بَعْدَهَا قَوْماً ﴾ أي قوم كانوا ﴿ بجهالة ﴾ ملتبسين بجهالة لحالهم ، ومآله جاهلين حالهم ، ﴿ فَتُصْبِحُواْ ﴾ فتصيروا بعد ظهور براءتهم عما رموا به ﴿ على مَا فَعَلْتُمْ ﴾ في حقهم ﴿ نادمين ﴾ مغتمين غماً لازماً متمنين أنه لم يقع ، فإن الندم الغم على وقوع شيء مع تمني عدم وقوعه ، ويشعر باللزوم وكذا سائر تصاريف حروفه وتقاليبها كمدن بمعنى لزم الإقامة ومنه المدينة وأدمن الشيء أدام فعله ، وزعم بعضهم أن في الآية إشارة إلى أنه يجب على الإنسان تجديد الندم كلما ذكر الذنب ونسب إلى الزمخشري وليس بشيء ، وفي "الكشف" التحقيق أن الندم غم خاص ولزومه قد يقع لقوته في أول الأمر وقد يكون لعدم غيبة موجبه عن الخاطر ، وقد يكون لكثرة تذكره ولغير ذلك من الأسباب ، وأن تجديد الندم لا يجب في التوبة لكن التائب الصادق لا بد له من ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (4) ﴾

هذه الجملة بيان لجملة ﴿ ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ﴾ [الحجرات : 2] بياناً بالمثال وهو سبب النزول .

فهذا شروع في الغرض والذي نشأ عنه ما أوجب نزول صدر السورة فافتتح به لأن التحذير والوعد اللذين جعلا لأجله صالحان لأن يكونا مقدمة للمقصود فحصل بذلك نسج بديع وإيجاز جليل وإن خالف ترتيب ذكره ترتيبَ حصوله في الخارج ، وقد صادف هذا الترتيب المحز أيضاً إذ كان نداؤهم من وراء الحجرات من قبيل الجهر للرسول صلى الله عليه وسلم بالقول كجهر بعضهم لبعض فكان النهي عن الجهر له بالقول تخلصاً لذكر ندائه من وراء الحجرات .

والمراد بالذين ينادون النبي صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات جماعة من وفد بني تميم جاؤوا المدينة في سنة تسع وهي سنة الوفود وكانوا سبعين رجلاً أو أكثر .

وكان سبب وفود هذا الوفد إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن بني العنبر منهم كانوا قد

شهروا السلاح على خزاعة ، وقيل كانوا منعوا إخوانهم بني كعب بن العنبر بن عمرو بن تميم من إعطاء الزكاة ، وكان بنو كعب قد أسلموا من قبلُ ولم أقف على وقت إسلامهم ، والظاهر أنهم أسلموا في سنة الوفود فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر بن سفيان ساعياً لقبض صدقات بني كعب ، فمنعهم بنو العنبر فبعث النبي صلى الله عليه وسلم عُيينة بنَ حصن في خمسين من العرب ليس فيهم أنصاري ولا مهاجري فأسر منهم أحد عشر رجلاً وإحدى عشرة امرأة وثلاثين صبياً .

فجاء في أثرهم جماعة من رؤسائهم لفدائهم فجاؤوا المدينة .

(131/717)

وكان خطيبهم عطارد بن حاجب بن زراره ، وفيهم سادتهم الزبرقان بن بدر ، وعمرو بن الأهتم ، والأقْرع بن حابس ، ومعهم عيينة بن حصن الفزاري الغَطفاني وكان هذان الأخيران أسلما من قبل وشهدا مع النبي صلى الله عليه وسلم غزوة الفتح ، ثم جاء معهم الوفد فلما دخل الوفد المسجد وكان وقت القائلة ورسول الله صلى الله عليه وسلم نائم في حجرته ، نَادوا جميعاً وراء الحجرات : يا محمد اخرُج إلينا ثلاثاً ، فإن مَدحَنا زَين ، وإن ذمنا شَيْن ، نحن أكرم العرب سلكوا في عملهم هذا مسلك وفود العرب على الملوك والسادة

، كانوا يأتون بيت الملك أو السيد فيطيفون به يُنادون ليؤذن لهم كما ورد في قصة ورود النابغة على النعمان بن الحارث الغسَاني .

وقولهم : إن مدحنا زيْن ، طريقة كانوا يستدرون بها العظماء للعطاء فإضافة : مدحنا وذمنا إلى الضمير من إضافة المصدر إلى فاعله .

فلما خرج إليهم رسول الله قالوا : جئناك نفاخرك فَأذَنْ لشاعرنا وخطِيبنا إلى آخر القصة .

وقولهم : نفاخرك ، جروا فيه على عادة الوفود من العرب أن يذكروا مفاخرهم وأيامهم ، ويذكرَ الموفُودُ عليهم مفاخرَهم ، وذلك معنى صيغة المفاعلة في قولهم : نفاخرك ، وكان جمهورهم لم يزالوا كفاراً حينئذٍ وإنما أسلموا بعد أن تفاخروا وتناشدوا الأشعار .

فالمراد بـ ﴿ الذين ينادونك ﴾ رجال هذا الوفد .

وإسناد فعل النداء إلى ضمير ﴿ الذين ﴾ لأن جميعهم نادوه ، كما قال ابن عطية .

ووقع في حديث البراء بن عازب أن الذي نادى النداء هو الأقرع بن حابس ، وعليه فإسناد فعل ﴿ ينادونك ﴾ إلى ضمير الجماعة مجاز عقلي عن نسبة فعل المتبوع إلى أتباعه إذ كان الأقرع بن حابس مقدَّم الوفد ، كما يقال : بنو فلان قتلوا فلاناً .

وإنما قتله واحد منهم ، قال تعالى : ﴿ وإذ قتلتم نفساً ﴾ [البقرة : 72] .

ونفي العقل عنهم مراد به عقل التأدب الواجب في معاملة النبي صلى الله عليه وسلم أو عقل التأدب المفعول عنه في عادتهم التي اعتادوها في الجاهلية من الجفاء والغلظة والعنجهية ، وليس فيها تحريم ولا ترتب ذنب .

وإنما قال الله تعالى : ﴿ أكثرهم لا يعقلون ﴾ لأن منهم من لم يناد النبي صلى الله عليه وسلم مثلَ ندائهم ، ولعل المقصود استثناء اللذيْن كانا أسلما من قبل .

فهذه الآية تأديب لهم وإخراج لهم من مذام أهل الجاهلية .

والوراء : الخلف ، وهو جهة اعتبارية بحسب موقع ما يضاف إليه .

والمعنى : أن الحجرات حاجزة بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم فهم لا يرونه فعبر عن جهة من لا يرى بأنها وراء .

و﴿ من ﴾ للابتداء ، أي ينادونك نداء صادراً من وراء الحجرات فالمنادون بالنسبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم كانوا وراء حجراته فالذي يقول : ناداني فلان وراء الدار ، لا يريد وراء مفتح الدار ولا وراء ظهرها ولكن أيَّ جهة منها وكان القوم المنادون في المسجد فهم تجاه الحجرات النبوية ، ولو قال : ناداني فلان وراء الدار ، دون حرف ﴿ مِن ﴾ ، لكان محتمِلاً لأن يكون المنادي والمنادَى كلاهما في جهة وراء الدار ، وأنَّ المجرور ظرف مستقر في موضع الحال من الفاعل أو المفعول ولهذا أوثر جلب ﴿ مِن ﴾ ليدل بالصراحة

على أن المنادَى كان داخل الحجرات لأن دلالة ﴿ مِن ﴾ على الابتداء تستلزم اختلافاً بين المبدإ والمنتهَى كذا أشار في "الكشاف" ، ولا شك أنه يعني أن اجتلاب حرف ﴿ مِن ﴾ لدفع اللبس فلا ينافي أنه لم يُثبت هذا الفرق في قوله تعالى : ﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ﴾ في سورة الأعراف (17) وقوله : ﴿ ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض ﴾ في سورة الروم (25) .

وفيما ذكرنا ما يدفع الاعتراضات على صاحب الكشاف ﴾ .

فلفظ ﴿ وراء ﴾ هنا مجاز في الجهة المحجوبة عن الرؤية .

(133/717)

والحُجُرات ، بضمتين ويجوز فتح الجيم : جمع حُجْرة بضم الحاء وسكون الجيم وهي البقعة المحجورة ، أي التي منعت من أن يستعملها غير حاجرها فهي فُعلة بمعنى مفعولة كغُرفة ، وقُبضة .

وفي الحديث : أيقظوا صواحب الحجر يعني أزواجه ، وكانت الحجرات تفتح إلى المسجد .

وقرأ الجمهور ﴿ الحجرات ﴾ بضمتين .

وقرأه أبو جعفر بضم الحاء وفتح الجيم .

وكانت الحجرات تِسعاً وهي من جريد النخل ، أي الحواجز التي بين كل واحدة والأخرى ، وعلى أبوابها مُسوح من شعر أسود وعَرض البيت من باب الحجرة إلى باب البيت نحو سبعة أذرع ، ومساحة البيت الداخل ، أي الذي في داخل الحجرة عشرة أذرع ، أي فتصير مساحة الحجرة مع البيت سبعة عشر ذراعاً .

قال الحسن البصري : كنت أدخل بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في خلافة عثمان بن عفان فأتناول سُقْفها بيدي .

وإنما ذكر الحجرات دون البيوت لأن البيت كان بيتاً واحداً مقسماً إلى حجرات تسع .

وتعريف ﴿ الحجرات ﴾ باللام تعريف العهد ، لأن قوله : ﴿ ينادونك ﴾ مؤذن بأن الحجرات حجراته فلذلك لم تعرف بالإضافة .

وهذا النداء وقع قبل نزول الآية فالتعبير بصيغة المضارع في ﴿ ينادونك ﴾ لاستحضار حالة ندائهم .

ومعنى قوله : ﴿ ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم ﴾ أنه يكسبهم وقارا بين أهل المدينة ويستدعي لهم الإقبال من الرسول صلى الله عليه وسلم إذ يخرج إليهم غير كاره لندائهم إياه ، ورفع أصواتهم في مسجده فكان فيما فعلوه جلافة .

فقوله : ﴿ خيراً ﴾ يجوز أن يكون اسم تفضيل ، ويكون في المعنى : لكان صبرهم أفضل من العجلة .

ويجوز أن يكون اسما ضدّ الشر ، أي لكان صبرهم خيراً لما فيه من محاسن الخُلق بخلاف ما فعلوه فليس فيه خير ، وعلى الوجهين فالآية تأديب لهم وتعليمهم محاسن الأخلاق وإزالة لعوائد الجاهلية الذميمة .

(134/717)

وإيثار ﴿ حتى ﴾ في قوله : ﴿ حتى تخرج إليهم ﴾ دون (إلى) لأجل الإيجاز بحذف حرف (أن) فإنه ملتزم حذفه بعد ﴿ حتّى ﴾ بخلافه بعد (إلى) فلا يجوز حذفه .

وفي تعقيب هذا اللوم بقوله : ﴿ والله غفور رحيم ﴾ إشارة إلى أنه تعالى لم يُحْص عليهم ذنباً فيما فعلوا ولا عَرّض لهم بتوبة .

والمعنى : والله شأنه التجاوز عن مثل ذلك رحمة بالناس لأن القوم كانوا جاهلين .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (6)

هذا نداء ثالث ابتدىء به غرض آخر وهو آداب جماعات المؤمنين بعضهم مع بعض وقد تضافرت الروايات عند المفسرين عن أم سلمة وابن عباس والحارث بن ضرارة الخزاعي أن هذه الآية نزلت عن سبب قضية حدثت .

ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث الويد بن عقبة بن أبي مُعيط إلى بني المصطلق من خزاعة ليأتي بصدقاتهم فلمّا بلغهم مجيئه ، أو لمّا استبطأُوا مجيئه ، فإنهم خرجوا لتلقيه أو خرجوا ليبلغوا صدقاتهم بأنفسهم وعَليهم السلاح ، وأن الوليد بلغه أنهم خرجوا إليه بتلك الحالة وهي حالة غير مألوفة في تلقي المصدقين وحدثته نفسه أنهم يريدون قتله ، أو لما رآهم مقبلين كذلك على اختلاف الروايات خاف أن يكونوا أرادوا قتله إذ كانت بينه وبينهم شحناء من زمن الجاهلية فولّى راجعاً إلى المدينة .

(135/717)

هذا ما جاء في روايات أربع متفقة في صفة خروجهم إليه مع اختلافها في بيان الباعث لهم على ذلك الخروج وفي أن الوليد أُعلم بخروجهم إليه أو رآهم أو استشعرت نفسه خوفاً وأن الوليد جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن بني المصطلق أرادوا قتلي وأنهم منعوا الزكاة فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهمّ أن يبعث إليهم خالدَ بن الوليد لينظر في أمرهم ، وفي رواية أنه بعث خالداً وأمره بأن لا يغزوهم حتى يستثبت أمرهم وأن خالداً لما بلغ ديار القوم بعث عيناً له ينظر حالهم فأخبره أنهم يقيمون الأذان والصلاة فأخبرهم بما بلغ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عنهم وقبض زكاتهم وقفل راجعاً .

وفي رواية أخرى أنهم ظنوا من رجوع الوليد أن يُظن بهم منع الصدقات فجاؤوا النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يخرج خالد إليهم متبرئين من منع الزكاة ونية الفتك بالوليد بن عقبة .

وفي رواية أنهم لما وصلوا إلى المدينة وجدوا الجيش خارجاً إلى غزوهم .

فهذا تلخيص هذه الروايات وهي بأسانيد ليس منها شيء في "الصحيح" .

وقد روي أن سبب نزول هذه الآية قضيتان أخريان ، وهذا أشهر .

ولنشتغل الآن ببيان وجه المناسبة لموقع هذه الآية عقب التي قبلها فإن الانتقال منها إلى هذه يقتضي مناسبة بينهما ، فالقصتان متشابهتان إذ كان وفد بني تميم النازلة فيهم الآية السابقة جاؤوا معتذرين عن ردهم ساعي رسول الله صلى الله عليه وسلم لقبض صدقات بني كعب بن العنبر من تميم كما تقدم ، وبنو المصطلق تبرَّؤوا من أنهم يمنعون الزكاة إلا أن هذا يُناكِده بُعد ما بين الوقتين إلا أن يكون في تعيين سنة وفد بني تميم وَهَم .

وإعادة الخطاب بـ ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ وفصله بدون عاطف لتخصيص هذا الغرض بالاهتمام كما علمت في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ .

فالجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً للمناسبة المتقدم ذكرها .

ولا تعلق لهذه الآية بتشريع في قضية بني المصطلق مع الوليد بن عقبة لأنها قضية انقضت وسُويت .

والفاسق : المتصف بالفسوق ، وهو فعل ما يحرمه الشرع من الكبائر .

وفسر هنا بالكاذب قاله ابن زيد ومقاتل وسهل بن عبد الله .

وأوثر في الشرط حرف ﴿ إن ﴾ الذي الأصل فيه أن يكون للشرط المشكوك في وقوعه للتنبيه على أن شأن فعل الشرط أن يكون نادر الوقوع لا يقدم عليه المسلمون .

واعلم أن ليس الآية ما يقتضي وصف الوليد بالفاسق تصريحاً ولا تلويحاً .

وقد اتفق المفسرون على أن الوليد ظنّ ذلك كما في "الإصابة" عن ابن عبد البر وليس في الروايات ما يقتضي أنه تعمد الكذب .

قال الفخر : "إن إطلاق لفظ الفاسق على الوليد شيء بعيد لأنه توهَّم وظن فأخطأ ، والمخطىء لا يسمى فاسقاً" .

قلت : ولو كان الوليد فاسقاً لما ترك النبي صلى الله عليه وسلم تعنيفه واستتابته فإنه روى أنه لم يزد على قوله له "التبيّن من الله والعجلة من الشيطان" ، إذ كان تعجيل الوليد الرجوع عجلة .

وقد كان خروج القوم للتعرض إلى الوليد بتلك الهيئة مثار ظنّه حقاً إذ لم يكن المعروف

خروج القبائل لتلقّي السعاة .

وأنا أحسب أن عملهم كان حيلة من كبرائهم على انصراف الوليد عن الدخول في حيّهم تعيُّراً منهم في نظر عامتهم من أن يدخل عدوّ لهم إلى ديارهم ويتولى قبض صدقاتهم فتُعيرهم أعداؤهم بذلك يمتعض منهم دهماؤهم ولذلك ذهبوا بصدقاتهم بأنفسهم في رواية أو جاؤوا معتذرين قبل مجيء خالد بن الوليد إليهم في رواية أخرى .

ويؤيد هذا ما جاء في بعض روايات هذا الخبر أن الوليد أعلم بخروج القوم إليه ، وسَمع بذلك فلعل ذلك الإعلام موعَز به إليه ليخاف فيرجع .

وقد اتفق من ترجموا للوليد بن عقبة على أنه كان شجاعاً جواداً وكان ذا خلق ومروءة .

واعلم أن جمهور أهل السنة على اعتبار أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عدولاً وإن كل من رأى النبي صلى الله عليه وسلم وآمن به فهو من أصحابه .

(137/717)

وزاد بعضهم شرط أن يروي عنه أو يلازمه ومال إليه المازري .

قال في "أماليه" في أصول الفقه "ولسنا نعني بأصْحَاب النبي كل من رآه أو زاره لماماً إنما نريد أصحابه الذين لازموه وعززوه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه وأولئك هم المفلحون

شهد الله لهم بالفلاح" أ هـ .

وإنما تلقف هذه الأخبار الناقمون على عثمان إذ كان من عداد مناقمهم الباطلة أنه أولى الوليد بن عقبة إمارة الكوفة فحملوا الآية على غير وجهها وألصقوا بالوليد وصف الفاسق ، وحاشاه منه لتكون ولايته الإمارة باطلاً .

وعلى تسليم أن تكون الآية إشارة إلى فاسق معين فلماذا لا يحمل على إرادة الذي أعلم الوليدَ بأن القوم خرجوا له ليصدّوه عن الوصول إلى ديارهم قصداً لإرجاعه .

وفي بعض الروايات أن خالداً وصل إلى ديار بني المصطلق .

وفي بعضها أن بني المصطلق وردوا المدينة معتذرين ، واتفقت الروايات على أن بين بني المصطلق وبين الوليد بن عقبة شَحناء من عهد الجاهلية .

وفي الرواية أنهم اعتذروا للتسلح بقصد إكرام ضيفهم .

وفي السيرة الحلبية أنهم قالوا : خشِينا أن يبادئنا بالذي كان بيننا من شحناء .

وهذه الآية أصل في الشهادة والرواية من وجوب البحث عن دخيلة من جُهل حال تقواه .

وقد قال عمر بن الخطاب لا يُؤسر أحد في الإسلام بغير العدول ، وهي أيضاً أصل عظيم في تصرفات ولاة الأمور وفي تعامل الناس بعضهم مع بعض من عدم الإصغاء إلى كل ما يروى ويخبر به .

والخطاب بـ ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ مراد به النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه ويشمل

الوليد بن عقبة إذ صدق من أخبره بأن بني المصطلق يريد له سوءاً ومن يأتي من حكام المؤمنين وأمرائهم لأن المقصود منه تشريع تعديل من لا يعرف بالصدق والعدالة .

ومجيء حرف ﴿ إن ﴾ في هذا الشرط يومىء إلى أنه مما ينبغي أن لا يقع إلا نادراً .

والتبين : قوة الإبانة وهو متعد إلى مفعول بمعنى أبان ، أي تأملوا وأبينوا .

(138/717)

والمفعول محذوف دل عليه قوله بنبإ أي تبينوا ما جاء به وإبانة كل شيء بحسبها .

والأمر بالتبيّن أصل عظيم في وجوب التثبت في القضاء وأن لا يتتبع الحاكم القيل والقال ولا ينصاع إلى الجولان في الخواطر من الظنون والأوهام .

ومعنى ﴿ فتبينوا ﴾ تبينوا الحق ، أي من غير جهة ذلك الفاسق .

فخبر الفاسق يكون داعياً إلى التتبع والتثبت يصلح لأن يكون مستنداً للحكم بحال من الأحوال وقد قال عمر بن الخطاب "لا يؤسر أحد في الإسلام بغير العدول" .

وإنما كان الفاسق معرَّضاً خبره للريبة والاختلاق لأن الفاسق ضعيف الوازع الديني في نفسه ، وضعف الوازع يجرئه على الاستخفاف بالمحظور وبما يخبر به في شهادة أو خَبَر يترتب عليهما إضرار بالغير أو بالصالح العام ويقوي جُرأته على ذلك دوماً إذا لم يتب ويندم

على ما صدر منه ويقلع عن مثله .

والإشراك أشد في ذلك الاجتراء لقلة مراعاة الوازع في أصول الإشراك .

وتنكير ﴿ فاسق ﴾ ، و ﴿ نَبإ ﴾ ، في سياق الشرط يفيد العموم في الفساق بأي فسق اتصفوا ، وفي الأنباء كيف كانت ، كأنه قيل : أيّ فاسق جاءكم بأيّ نبَإ فتوقفوا فيه وتطلبوا بيان الأمر وانكشافه .

وقرأ الجمهور ﴿ فتبينوا ﴾ بفوقية فموحدة فتحتية فنون من التبيّن ، وقرأ حمزة والكسائي وخلَف فتثبتوا بفوقية فمُثلثَة فموحدة ففوقية من التثبت .

والتبيّن : تطلب البيان وهو ظهور الأمر ، والتثبت التحري وتطلب الثبات وهو الصدق .

ومآل القراءتين واحد وإن اختلف معناهما .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم " التثبّتُ من الله والعجلة من الشيطان "

وموقع ﴿ أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا ﴾ الخ نصباً على نزع الخافض وهو لام التعليل محذوفة .

ويجوز كونه منصوباً على المفعول لأجله .

والمعلل باللام المحذوفة أو المقدرة هو التثبت ، فمعنى تعليله بإصابة يقع إثرها الندم هو التثبت .

فمعنى تعليله بإصابة يقع آخرها الندم أن الإصابة علة تحمل على التثبت للتفادي منها فلذلك كان معنى الكلام على انتفاء حصول هذه الإضافة لأن العلة إذا صلحت لإثبات الكف عن فعل تصلح للإتيان بضده لتلازم الضد .

وتقدم نظير هذا التعليل في قوله : ﴿ أن تحبط أعمالكم ﴾ [الحجرات : 2] في هذه السورة .

وهذا التحذير من جراء قبول خبر الكاذب يدل على تحذير من يخطر له اختلاق خبر مما يترتب على خبره الكاذب من إصَابة الناس .

وهذا بدلالة فحوى الخطاب .

والجهالة : تطلق بمعنى ضد العلم ، وتطلق بمعنى ضد الحِلم مثل قولهم : جَهْل كجهل السيف ، فإن كان الأول ، فالباء للملابسة وهو ظرف مستقر في موضع الحال ، أي متلبسين أنتم بعدم العلم بالواقع لتصديقكم الكاذب ، ومتعلق ﴿ تصيبوا ﴾ على هذا الوجه مَحذوف دل عليه السياق سابقاً ولاحقاً ، أي أن تصيبوهم بضرّ ، وأكثر إطلاق الإصابة على إيصال الضرّ وعلى الإطلاق الثاني الباء للتعدية ، أي أن تصيبوا قوماً بفعل من أثر الجهالة ، أي بفعل من الشدة والإضرار .

ومعنى ﴿ فتصبحوا ﴾ فتصيروا لأن بعض أخوات (كان) تستعمل بمعنى الصيرورة .

والندم : الأسف على فعل صدر .

والمراد به هنا الندم الديني ، أي الندم على التورط في الذنب للتساهل وترك تطلب وجوه الحق .

وهذا الخطاب الذي اشتمل عليه قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ موجه ابتداء للمؤمنين المخبَرين بفتح الباء كل بحسب أثره بما يبلغ إليه من الأخبار على اختلاف أغراض المخبِرين بكسر الباء .

ولكنّ هذا الخطاب لا يترك المخبِرين بكسر الباء بمعزل عن المطالبة بهذا التبيّن فيما يتحملونه من الأخبار وبتوخّي سوء العاقبة فيما يختلقونه من المختلقات ولكن هذا تبيّن وتثبت يخالف تبيُّن الآخر وتثبته ، فهذا تثبت من المتلقي بالتمحيص لما يتلقاه من حكاية أو يطرق سمعه من كلام والآخر تمحيص وتمييز لحال المخبر .

(140/717)

واعلم أن هذه الآية تتخرج منها أربع مسائل من الفقه وأصوله:

المسألة الأولى : وجوب البحث عن عدالة من كان مجهول الحال في قبول الشهادة أو الرواية عند القاضي وعند الرواة .

وهذا صريح الآية وقد أشرنا إليه آنفاً .

المسألة الثانية : أنها دالة على قبول خبر الواحد الذي انتفت عنه تهمة الكذب في شهادته أو روايته وهو الموسوم بالعدالة ، وهذا من مدلول مفهوم الشرط في قوله : ﴿ إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ وهي مسألة أصولية في العمل بخبر الواحد .

المسألة الثالثة : قيل إن الآية تدل على أن الأصل في المجهول عدم العدالة ، أي عدم ظن عدالته فيجب الكشف عن مجهول الحال فلا يعمل بشهادته ولا بروايته حتى يبحث عنه وتثبت عدالته .

وهذا قول جمهور الفقهاء والمحدثين وهو قول مالك .

وقال بعضهم : الأصل في الناس العدالة وينسب إلى أبي حنيفة فيقبل عنده مجهول الباطن ويعبر عنه بمستور الحال .

أما المجهول باطنُه وظاهره معاً فحكي الاتفاق على عدم قبول خبره ، وكأنهم نظروا إلى معنى كلمة الأصل العقلي دون الشرعي ، وقد قيل : إن عمر بن الخطاب كان قال : "المسلمون عدول بعضهم عن بعض" وأنه لما بلغه ظهور شهادة الزور رَجع فقال : "لا يؤسر أحد في الإسلام بغير العدول" .

ويستثنى من هذا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فإن الأصل أنهم عدول حتى يثبت

خلاف ذلك بوجه لا خلاف فيه في الدين ولا يختلف فيه اجتهاد المجتهدين .

وإنما تفيد الآية هذا الأصل إذا حُمل معنى الفاسق على ما يشمل المتهم بالفسق .

(141/717)

المسألة الرابعة : دل قوله : ﴿ فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ أنه تحذير من الوقوع فيما يوجب الندم شرعاً ، أي ما يوجب التوبة من تلك الإصابة ، فكان هذا كناية عن الإثم في تلك الإصابة فحُذر ولاة الأمور من أن يصيبوا أحداً بضر أو عقاب أو حد أو غرم دون تبيّن وتحقق توجه ما يوجب تسليط تلك الإصابة عليه بوجه يوجب اليقين أو غلبة الظن وما دون ذلك فهو تقصير يؤاخذ عليه ، وله مراتب بينها العلماء في حكم خطها القاضي وصِفةِ المخطىء وما ينقض من أحكامه .

وتقديم المجرور على متعلَّقه في قوله : ﴿ على ما فعلتم نادمين ﴾ للاهتمام بذلك الفعل ، وهو الإصابة بدون تثبت والتنبيه على خطر أمره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير جـ 26 صـ ﴾

(142/717)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ ﴾

قوله تعالى ﴿ وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم ﴾ الآية

وقوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ ﴾ الآية فإن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط لما بعثه رسول الله إلى بني المصطلق بعد الوقعة مصدقا وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية فلما سمع القوم بمقدمه تلقوه تعظيما لأمر رسول الله فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله فهابهم فرجع من الطريق إلى رسول الله فقال إن بني المصطلق منعوا صدقاتهم وأرادوا قتلى فغضب رسول الله وهم أن يغزوهم فبلغ القوم رجوعه فأتوا رسول الله فقالوا يا رسول الله سمعنا برسولك فخرجنا نتلقاه ونكرمه ونؤدي إليه ما قبلنا من حق الله فبدا له في الرجوع فخشينا أنه إنما رده من الطريق كتاب جاء منك لغضب غضبته علينا وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله فاتهمهم رسول الله وبعث خالد بن الوليد خفية في عسكر وأمره أن يخفي عليهم قدومه وقال له انظر فإن رأيت منهم ما يدل على إيمانهم فخذ منهم زكاة أموالهم وإن لم تر ذلك فاستعمل فيهم ما تستعمل في الكفار ففعل ذلك خالد ووافاهم فسمع منهم أذان صلاتي المغرب والعشاء فأخذ منهم صدقاتهم ولم ير

منهم إلا الطاعة والخير فرجع إلى رسول الله وأخبره الخبر فنزل يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا الآية

والنبأ هو الخبر الغائب عن المخبر إذا كان له شأن والتبين طلب بيان حقيقة والإحاطة بها علما

(143/717)

وههنا فائدة لطيفة وهي أنه سبحانه لم يأمر برد خبر الفاسق وتكذيبه ورد شهادته جملة وإنما أمر بالتبين فإن قامت قرائن وأدلة من خارج تدل على صدقه عمل بدليل الصدق ولو أخبر به من أخبر فهكذا ينبغي الإعتماد في رواية الفاسق وشهادته وكثير من الفاسقين يصدقون في أخبارهم ورواياتهم وشهاداتهم بل كثير منهم يتحرى الصدق غاية التحري وفسقه من جهات أخر فمثل هذا لا يرد خبره ولا شهادته ولو ردت شهادة مثل هذا وروايته لتعطلت أكثر الحقوق وبطل كثير من الأخبار الصحيحة ولا سيما من فسقه من جهة الإعتقاد والرأي وهو متحر للصدق فهذا لا يرد خبره ولا شهادته

وأما من فسقه من جهة الكذب فإن كثر منه وتكرر بحيث يغلب كذبه على صدقه فهذا لا يقبل خبره ولا شهادته وإن ندر منه مرة ومرتين ففي رد شهادته وخبره بذلك قولان للعلماء

وهما روايتان عن الإمام أحمد رحمه الله

والمقصود ذكر الفسوق الذي لا يخرج إلى الكفر

والفسوق الذي تجب التوبة منه أعم من الفسوق الذي ترد به الرواية والشهادة وكلامنا الآن فيما تجب التوبة منه وهو قسمان فسق من جهة العمل وفسق من جهة الإعتقاد

ففسق العمل نوعان مقرون بالعصيان ومفرد

فالمقرون بالعصيان هو ارتكاب ما نهى الله عنه والعصيان هو عصيان أمره كما قال الله تعالى لا يعصون الله ما أمرهم وقال موسى لأخيه هرون عليهما السلام ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعني أفعصيت أمري وقال الشاعر

أمرتك أمرا جازما فعصيتني . . . فأصبحت مسلوب الإمارة نادما

فالفسق أخص بارتكاب النهى ولهذا يطلق عليه كثيرا كقوله تعالى وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم والمعصية أخص بمخالفة الأمر كما تقدم ويطلق كل منهما على صاحبه كقوله تعالى إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه

فسمى مخالفته للأمر فسقا وقال وعصى آدم ربه فغوى فسمى ارتكابه للنهي معصية فهذا عند الإفراد فإذا اقترنا كان أحدهما لمخالفة الأمر والآخر لمخالفة النهي

والتقوى اتقاء مجموع الأمرين وبتحقيقها تصح التوبة من الفسوق والعصيان بأن يعمل العبد بطاعة الله على نور من الله يرجو ثواب الله ويترك معصية الله على نور من الله يخاف عقاب الله

وفسق الإعتقاد كفسق أهل البدع الذين يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر ويحرمون ما حرم الله ويوجبون ما أوجب الله ولكن ينفون كثيرا مما أثبت الله ورسوله جهلا وتأويلا وتقليدا للشيوخ ويثبتون ما لم يثبته الله ورسوله كذلك

وهؤلاء كالخوارج المارقة وكثير من الروافض والقدرية والمعتزلة وكثير من الجهمية الذين ليسوا غلاة في التجهم

وأما غالية الجهمية فكغلاة الرافضة ليس للطائفتين في الإسلام نصيب

ولذلك أخرجهم جماعة من السلف من الثنتين والسبعين فرقة وقالوا هم مباينون للملة

وليس مقصودنا الكلام في أحكام هؤلاء وإنما المقصود تحقيق التوبة من هذه الأجناس العشرة

فالتوبة من هذا الفسوق بإثبات ما أثبته الله لنفسه ورسوله من غير تشبيه ولا تمثيل وتنزيهه عما نزه نفسه عنه ونزهه عنه رسوله من غير تحريف ولا تعطيل وتلقى النفي والإثبات من مشكاة الواحي لا من آراء الرجال ونتائج أفكارهم التي هي منشأ البدعة والضلالة

فتوبة هؤلاء الفساق من جهة الإعتقادات الفاسدة بمحض اتباع السنة ولا يكتفى منهم بذلك أيضا حتى يبينوا فساد ما كانوا عليه من البدعة إذ التوبة من ذنب هي بفعل ضده ولهذا شرط الله تعالى في توبة الكاتمين ما أنزل الله من البينات والهدى البيان لأن ذنبهم لما كان بالكتمان كانت توبتهم منه بالبيان قال الله تعالى إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم وذنب المبتدع فوق ذنب الكاتم لأن ذاك كتم الحق وهذا كتمه ودعا إلى خلافه فكل مبتدع كاتم ولا ينعكس

(145/717)

وشرط في توبة المنافق الإخلاص لأن ذنبه بالرياء فقال تعالى إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ثم قال إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتي الله المؤمنين أجرا عليما ولذلك كان الصحيح من القولين أن توبة القاذف إكذابه نفسه لأنه ضد الذنب الذي ارتكبه وهتك به عريض المسلم المحصن فلا تحصل التوبة منه إلا بإكذابه نفسه لينتفي عن المقذوف العار الذي ألحقه به بالقذف وهو مقصود التوبة

وأما من قال إن توبته أن يقول أستغفر الله من القذف ويعترف بتحريمه فقول ضعيف لأن هذا لا مصلحة فيه للمقذوف ولا يحصل له به براءة عرضه مما قذفه به فلا يحصل به مقصود التوبة من هذا الذنب فإن فيه حقين حقا لله وهو تحريم القذف فتوبته منه باستغفاره واعترافه بتحريم القذف وندمه عليه وعزمه على أن لا يعود وحقا للعبد وهو إلحاق العار به فتوبته منه بتكذيبه نفسه فالتوبة من هذا الذنب بمجموع الأمرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مدارج السالكين حـ 1 صـ 360 . 364 ﴾

(146/717)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

أخرج البخاري وابن المنذر وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال : قدم ركب من بني تميم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر : أمر القعقاع بن معبد ، وقال عمر : بل أمر الأقرع بن حابس ، فقال أبو بكر ما أردت إلا خلافي ، فقال عمر : ما أردت خلافك ، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما ، فأنزل الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي

الله ورسوله ﴾ حتى انقضت الآية .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس في قوله ﴿ لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ﴾ قال : لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال : ذكر لنا أن ناساً كانوا يقولون : لو أنزل في كذا وكذا الوضع كذا وكذا ، فكره الله ذلك وقدم فيه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ﴾ قال : نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الحسن رضي الله عنه أن ناساً ذبحوا قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر ، فأمرهم أن يعيدوا ذبحاً فأنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ﴾ .

وأخرج ابن أبي الدنيا في الأضاحي عن الحسن رضي الله عنه قال : ذبح رجل قبل الصلاة فنزلت .

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله في قوله ﴿ لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ﴾ قال : لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم .

وأخرج ابن النجار في تاريخه عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان أناس يتقدمون بين

يدي رمضان بصيام يعني يوماً أو يومين فأنزل الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ﴾ .

(147/717)

وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها أن ناساً كانوا يتقدمون الشهر فيصومون قبل النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور عن الضحاك أنه قرأ ﴿ لا تقدموا ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في شعب الإِيمان عن مجاهد في قوله ﴿ لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ﴾ قال : لا تفتاتوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء حتى يقضي الله على لسانه . قال الحفاظ : هذا التفسير على قراءة " تقدموا " بفتح التاء والدال .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ

أخرج البخاري وابن المنذر والطبراني عن ابن أبي مليكة قال : كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر رفعا أصواتهما عند النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم عليه ركب بني تميم فأشار

أحدهما بالأقرع بن حابس وأشار الآخر برجل آخر ، فقال أبو بكر لعمر : ما أردت إلا خلافي ، قال : ما أردت خلافك ، فارتفعت أصواتهما في ذلك فأنزل الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ الآية . قال ابن الزبير : فما كان عمر يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى يستفهمه .

وأخرجه الترمذي من طريق ابن أبي مليكة قال : حدثني عبد الله بن الزبير به .

(148/717)

وأخرج ابن جرير والطبراني من طريق ابن أبي مليكة عن عبد الله بن الزبير أن الأقرع بن حابس قدم على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر : يا رسول الله استعمله على قومه ، فقال عمر : لا تستعمله يا رسول الله . فتكلما عند النبي صلى الله عليه وسلم حتى ارتفعت أصواتهما ، فقال أبو بكر لعمر : ما أردت الا خلافي ، قال : ما أردت خلافك ، فنزلت هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ فكان عمر بعد ذلك إذا تكلم عند النبي صلى الله عليه وسلم لم يسمع كلامه حتى يستفهمه .

وأخرج البزار وابن عدي والحاكم وابن مردويه عن أبي بكر الصديق قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ قلت يا رسول الله : والله

لا أكلمك إلا كأخي السرار .

وأخرج عبد بن حميد والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة قال : لما نزلت ﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ﴾ قال أبو بكر : والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخي السرار حتى ألقى الله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : كانوا يجهرون له بالكلام ويرفعون أصواتهم ، فأنزل الله ﴿ لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان عن مجاهد في قوله ﴿ ولا تجهروا له بالقول ﴾ الآية قال : لا تنادوه نداء ولكن قولوا قولاً ليناً يا رسول الله .

(149/717)

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم وأبو يعلى والبغوي في معجم الصحابة وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أنس قال : " لما نزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ إلى قوله ﴿ وأنتم لا تشعرون ﴾ وكان ثابت بن قيس بن شماس رفيع الصوت فقال : أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم حبط عملي أنا من أهل النار ، وجلس في بيته حزيناً ففقده رسول الله صلى

الله عليه وسلم فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له : فقدك رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لك ؟ قال : أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم وأجهر له بالقول ، حبط عملي ، أنا من أهل النار ، فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه بذلك فقال : لا بل هو من أهل الجنة ، فلما كان يوم اليمامة قتل " .

وأخرج ابن جرير والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه عن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس قال : " لما نزلت هذه الآية ﴿ لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول ﴾ قعد ثابت رضي الله عنه في الطريق يبكي فمرّ به عاصم بن عدي بن العجلان فقال : ما يبكيك يا ثابت ؟ قال : هذه الآية أتخوف أن تكون نزلت فيَّ وأنا صيّت رفيع الصوت ، فمضى عاصم بن عدي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره خبره فقال : اذهب فأدعه لي فجاء فقال : ما يبكيك يا ثابت ؟ فقال : أنا صيّت وأتخوّف أن تكون هذه الآية نزلت فيّ ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما ترضى أن تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة ؟ قال : رضيت ولا أرفع صوتي أبداً على صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : وأنزل الله تعالى ﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ﴾ " الآية .

وأخرج ابن حبان والطبراني وأبو نعيم في المعرفة عن إسمعيل بن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري " أن ثابت بن قيس قال : يا رسول الله : لقد خشيت أن أكون قد هلكت . قال : لِمَ ؟ قال : يمنع الله المرء أن يحمد بما لم يفعل وأجدني أحب الحمد ، وينهى عن الخيلاء وأجدني أحب الجمال ، وينهى أن نرفع أصواتنا فوق صوتك وأنا جهير الصوت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا ثابت أما ترضى أن تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة ؟ " قال الحافظ ابن حجر في الأطراف : هكذا أخرجه ابن حبان بهذا السياق وليس فيه ما يدل على أن إسمعيل سمعه من ثابت ، فهو منقطع ، ورواه مالك رضي الله عنه في الموطأ عن ابن شهاب عن إسمعيل عن ثابت أنه قال فذكره ولم يذكره من رواة الموطأ أحد إلا سعيد بن عفير وحده وقال : قال مالك : قتل ثابت بن قيس يوم اليمامة . قال ابن حجر رضي الله عنه : فلم يدركه إسمعيل ، فهو منقطع قطعاً ، إنتهى .

وأخرج ابن جرير عن شمر بن عطية رضي الله عنه قال : " جاء ثابت بن قيس بن شماس إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو محزون ، فقال : يا ثابت ما الذي أرى بك ؟ قال : آية قرأتها الليلة فأخشى أن يكون قد حبط عملي ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ وكان في أذنه صمم ، فقال : أخشى أن أكون قد رفعت صوتي وجهرت لك بالقول ، وأن أكون قد حبط عملي وأنا لا أشعر . فقال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : إمشِ على الأرض نشيطاً فإنك من أهل الجنة " .

وأخرج البغوي وابن قانع في معجم الصحابة عن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس عن ثابت بن قيس بن شماس قال : " لما نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ قعدت في بيتي ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : تعيش حميداً وتقتل شهيداً ، فقتل يوم اليمامة " .

(151/717)

وأخرج البغوي وابن المنذر والطبراني والحاكم وابن مردويه والخطيب في المتفق والمفترق عن عطاء الخراساني قال : قدمت المدينة فلقيت رجلاً من الأنصار . قلت : حدثني حديث ثابت بن قيس بن شماس . قال : قم معي فانطلقت معه حتى دخلت على امرأة ، فقال الرجل : هذه ابنة ثابت بن قيس بن شماس فاسألها عما بدا لك . فقلت : حدثيني . قالت : سمعت أبي يقول : لما أنزل الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ الآية دخل بيته وأغلق عليه بابه وطفق يبكي ، ففقده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما شأن ثابت ؟ فقالوا : يا رسول الله ما ندري ما شأنه غير أنه قد أغلق عليه باب بيته فهو يبكي فيه . فأرسل رسول الله صلى الله

عليه وسلم فسأله : ما شأنك ؟ قال : يا رسول الله : أنزل الله عليك هذه الآية ، وأنا شديد الصوت فأخاف أن أكون قد حبط عملي . فقال : لست منهم ، بل تعيش بخير وتموت بخير . قالت : ثم أنزل الله على نبيه ﴿ إن الله لا يحب كل مختالٍ فخور ﴾ ، فأغلق عليه بابه وطفق يبكي فيه فافتقده رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : ثابت ما شأنه ؟ قالوا : يا رسول الله ، والله ما ندري ما شأنه غير أنه قد أغلق عليه بابه وطفق يبكي فأرسل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما شأنك ؟ قال : يا رسول الله : أنزل الله عليك ﴿ إن الله لا يحب كل مختالٍ فخورٍ ﴾ والله إني لأحب الجمال وأحب أن أسود قومي ، قال : لست منهم بل تعيش حميداً وتقتل شهيداً ويدخلك الله الجنة بسلام . قالت : فلما كان يوم اليمامة خرج مع خالد بن الوليد إلى مسيلمة الكذاب فلما لقي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد انكشفوا فقال ثابت لسالم مولى أبي حذيفة ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم حفر كل منهما لنفسه حفرة ، وحمل عليهم القوم ، فثبتا حتى قتلا وكانت على ثابت يومئذ درع له نفيسة فمر به رجل من المسلمين

(152/717)

فأخذها فبينا رجل من المسلمين نائم إذ أتاه ثابت بن قيس في منامه فقال له : إني أوصيك بوصية إياك أن تقول هذا حلم فتضيعه إني لما قتلت أمس مر بي رجل من المسلمين فأخذ درعي ومنزله في أقصى العسكر وعند خبائه فرس يستن في طوله وقد كفا على الدرع برمة وجعل فوق البرمة رحلاً فائتِ خالد بن الوليد فمره أن يبعث إلى درعي فيأخذها ، وإذا قدمت على خليفة رسول الله فأخبره أن عليَّ من الدين كذا وكذا ولي من الدين كذا وكذا ، وفلان من رقيقي عتيق ، وفلان فإياك أن تقول هذا حلم فتضيعه .

فأتى الرجل خالد بن الوليد فأخبره ، فبعث إلى الدرع فنظر إلى خباء في أقصى العسكر فإذا عنده فرس يستن في طوله فنظر في الخباء فإذا ليس فيه أحد فدخلوا فدفعوا الرجل فإذا تحته برمة ثم رفعوا البرمة فإذا الدرع تحتها ، فأتوا به خالد بن الوليد . فلما قدموا المدينة حدّث الرجل أبا بكر برؤياه فأجاز وصيته بعد موته ، ولا يعلم أحد من المسلمين جوّزت وصيته بعد موته غير ثابت بن قيس بن شماس .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله ﴿ لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ الآية ، قال : نزلت في قيس بن شماس .

وأخرج الترمذي وابن حبان وابن مردويه " عن صفوان بن عسال رضي الله عنه أن رجلاً من أهل البادية أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يناديه بصوت له جهوري : يا محمد يا محمد ، فقلنا : ويحك أخفض من صوتك فإنك قد نهيت عن هذا ، قال : لا والله

حتى أسمعه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هاؤم ، قال : أرأيت رجلاً يحب قوماً ولم يلحق بهم ، قال : المرء مع من أحب " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما أنزل الله ﴿ أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : منهم ثابت بن قيس بن شماس " .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير والبيهقي في شعب الإِيمان عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ امتحن ﴾ قال : أخلص .

(153/717)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في الآية قال : أخلص الله قلوبهم فيما أحب .

وأخرج أحمد في الزهد عن مجاهد قال : كتب إلى عمر رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين رجل لا يشتهي المعصية ولا يعمل بها أفضل أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها ؟ فكتب عمر رضي الله عنه : إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿ أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾ .

وأخرج الحكيم الترمذي عن مكحول قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نفس ابن آدم شابة ولو التقت ترقوتاه من الكبر إلا من امتحن الله قلبه للتقوى وقليل ما هم " .

وأخرج ابن المبارك في الزهد عن أبي الدرداء قال : لا تزال نفس أحدكم شابة من حب الشيء ولو التقت ترقوتاه من الكبر إلا الذين امتحن الله قلوبهم وقليل ما هم .

إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (4)

أخرج أحمد وابن جرير وأبو القاسم البغوي وابن مردويه والطبراني بسند صحيح من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن " عن الأقرع بن حابس أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد أخرج إلينا ، فلم يجبه ، فقال : يا محمد إن حمدي زين ، وإن ذمي شين . فقال : ذاك الله ، فأنزل الله ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات ﴾ " قال ابن منيع : لا أعلم روي للأقرع سند غير هذا .

وأخرج الترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم " عن البراء بن عازب في قوله ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ﴾ قال : جاء رجل فقال : يا محمد إن حمدي زين وإن ذمي شين ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " ذاك الله " " .

وأخرج ابن راهويه ومسدد وأبو يعلى والطبراني وابن جرير وابن أبي حاتم بسند حسن عن زيد بن أرقم قال : " اجتمع ناس من العرب فقالوا : انطلقوا إلى هذا الرجل فإن يك نبياً فنحن أسعد الناس به ، وإن يك ملكاً نعش بجناحه ، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته بما قالوا فجاؤوا إلى حجرته ، فجعلوا ينادونه : يا محمد فأنزل الله ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ﴾ فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذني ، وجعل يقول : لقد صدق الله قولك يا زيد ، لقد صدق الله قولك " .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه " أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد إن مدحي زين وإن شتمي شين ، فقال صلى الله عليه وسلم : " ذاك هو الله " فنزلت ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ﴾ " .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : أخبرت عن سعيد بن جبير رضي الله عنه أن تميماً ورجلاً من بني أسد بن خزيمة إستبّا فقال الأسدي : ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات ﴾ أعراب بني تميم فقال سعيد رضي الله عنه : لو كان التميمي فقيهاً إن أولها في بني تميم وآخرها في بني أسد .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن حبيب بن أبي عمرة قال : كان بيني وبين رجل من بني أسد كلام ، فقال الأسدي ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات ﴾ بني تميم ﴿

أكثرهم لا يعقلون ﴾ فذكرت ذلك لسعيد بن جبير قال : أفلا تقول لبني أسد قال الله ﴿ يمنون عليك أن أسلموا ﴾ فإن العرب لم تسلم حتى قوتلت ، ونحن أسلمنا بغير قتال فأنزل الله هذا فيهم .

(155/717)

وأخرج عبد بن حميد من طريق قتادة عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال : قال رجل من بني أسد لرجل من بني تميم وتلا هذه الآية ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم ﴾ بني تميم ﴿ لا يعقلون ﴾ فلما قام التميمي وذهب قال سعيد بن جبير : أما إن التميمي لو يعلم ما أنزل في بني أسد لتكلم ، قلنا : ما أنزل فيهم ؟ قال : جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنا قد أسلمنا طائعين ، وإن لنا حقاً فأنزل الله ﴿ يمنون عليك أن أسلموا ﴾ الآية .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير والبيهقي في شعب الإِيمان عن مجاهد ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات ﴾ قال : أعراب من بني تميم .

وأخرج ابن منده وابن مردويه من طريق يعلى بن الأشدق عن سعد بن عبد الله " أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن قوله : ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا

يعقلون ﴾ قال : " هم الجفاة من بني تميم لولا أنهم من أشد الناس قتالاً للأعور الدجال لدعوت الله عليهم أن يهلكهم " " .

(156/717)

وأخرج ابن إسحق وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " قدم وفد بني تميم وهم سبعون رجلاً أو ثمانون رجلاً منهم الزبرقان بن بدر وعطارد بن معبد وقيس بن عاصم وقيس بن الحارث وعمرو بن أهتم المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانطلق معهم عيينة بن حصن بن بدر الفزاري وكان يكون في كل سدة حتى أتوا منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فنادوه من وراء الحجرات بصوت جافٍ يا محمد أخرج إلينا يا محمد أخرج إلينا يا محمد أخرج إلينا ، فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا محمد إن مدحنا زين وإن شتمنا شين ، نحن أكرم العرب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كذبتم بل مدحة الله الزين وشتمه الشين وأكرم منكم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم " فقالوا : إنا أتيناك لنفاخرك ، فذكره بطوله وقال في آخره : فقام التميميون ، فقالوا : والله إن هذا الرجل لمصنوع له ، لقد قام خطيبه فكان أخطب من خطيبنا ، وقال شاعره فكان أشعر من شاعرنا قال : ففيهم أنزل الله ﴿ إن الذين ينادونك

من وراء الحجرات ﴾ من بني تميم ﴿ أكثرهم لا يعقلون ﴾ قال : هذا كان في القراءة الأولى ﴿ ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم ﴾ " .

وأخرج ابن سعد والبخاري في الأدب وابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإِيمان عن الحسن رضي الله عنه قال : كنت أدخل بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه فأتناول سقفها بيدي .

وأخرج البخاري في الأدب وابن أبي الدنيا والبيهقي عن داود بن قيس قال : رأيت الحجرات من جريد النخل مغشى من خارج بمسوح الشعر ، وأظن عرض البيت من باب الحجرة إلى باب البيت نحواً من ستة أو سبعة أذرع واحزر البيت الداخل عشرة أذرع ، وأظن سمكه بين الثمان والسبع .

(157/717)

وأخرج ابن سعد عن عطاء الخراساني قال : أدركت حجر أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من جريد النخل على أبوابها المسوح من شعر أسود فحضرت كتاب الوليد بن عبد الملك يقرأ يأمر بإدخال حجر أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فما رأيت يوماً أكثر باكياً من ذلك اليوم ، فسمعت سعيد

بن المسيب رضي الله عنه يقول يومئذ : والله لوددت أنهم تركوها على حالها ينشأ ناس من أهل المدينة ويقدم القادم من أهل الأفق فيرى ما اكتفى به رسول الله في حياته ، فيكون ذلك مما يزهد الناس في التكاثر والتفاخر فيها ، وقال يومئذ أبو أمامة بن سهل بن حنيف : ليتها تركت فلم تهدم حتى يقصر الناس عن البناء ويرون ما رضي الله لنبيه ومفاتيح خزائن الدنيا بيده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المنثور حـ 7 صـ 546.555 ﴾

(158/717)

قوله تعالى ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7) فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (8) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان إقدامهم على كثير من الأمور من غير مشاورة لمن أرسله الله رحمة لعباده ليعلمهم ما يأتون وما يذرون عمل من لا يعلم أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قريب منه ، وكان الإعراض عنه حياً وعن بذل الجهد في استخراج الأمور من شريعته بعد موته أمراً مفسداً

للبين إن لم يعتبر ويتنبه له غاية التنبه ، أخبرهم به منزلاً لهم منزلة من لا يعلم أنه موجود معه مشيراً بكلمة التنبيه إلى أن من أخل بمراعاة ذلك في عداد الغافلين فقال : ﴿ واعلموا ﴾ أي أيها الأمة ، وقدم الخبر إيذاناً بأن بعضهم باعتراضه أو بإقدامه على ما لا علم له به يعمل علم من لا يعلم مقدار ما خصه الله به من إنعامه عليه به ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فهو يفيد توبيخ من فعل ذلك : ﴿ أن فيكم ﴾ أي على وجه الاختصاص لكم ويا له من شرف ﴿ رسول الله ﴾ أي الملك الأعظم المتصف بالجلال والإكرام على حال هي أنكم تريدونه أن يتبع أذاكم ، وذلك أمر شنيع جداً ، فإنه لا يليق أن يتحرك إلا بأمر من أرسله ، فيجب عليكم الرجوع عن تلك الحالة ، فإنك تجهلون أكثر مما تعلمون ، ولإرادتهم إن لا يطيعهم في جميع الأمور عبر بالمضارع فقال : ﴿ لو يطيعكم ﴾ وهو لا يحب عنتكم ولا شيئاً يشق عليكم ﴿ في كثير من الأمر ﴾ أي الذي تريدونه على فعله من أنه يعمل في الحوادث على مقتضى ما يعن لكم وتستصوبونه ليكون فعله معكم فعل المطواع لغيره التابع له ، فينقلب حينئذ الحال ، ويصير المبتوع تابعاً والمطاع طائعاً ﴿ لعنتم ﴾ أي لاءمتم وهلكتم ، ومن أراد دائماً أن يكون أمر الرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تابعاً لأمره فقد زين له الشيطان الكفران ، فأولئك هم الغاوون ، وسياق " لو " معلم قطعاً أن التقدير : ولكنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يطيعكم لكراهة لما يشق عليكم لما هو متخلق به من طاعة الله والوقوف عند حدوده

والتقيد في جميع الحركات والسكنات بأمره ، مع ما له من البصرة في التمييز بين الملبسات والخبرة التامة

(159/717)

بالأمور المشتبهات ، التي هي سبب هلاك الأغلب لكونها لا يعلمها كثير من الناس ، والتقييد بالكثير معلم بأنهم يصيبون وجه الرشاد في كثير من الأمور .

ولما كان التقدير حتماً بما هدى إليه السياق : ولو خالفتموه في الأمور التي لا يطيعكم فيها لعنتم ، استدرك عنه قوله : ﴿ ولكن الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي يفعل ما يريد ﴿ حبب إليكم الإيمان ﴾ فلزمتم طاعته وعشقتم متابعته .

ولما كان الإنسان قد يحب شيئاً وهو يعلم فيه عيباً ، فيكون جديراً بأن يتزلزل فيه ، نفى ذلك بقوله : ﴿ وزينه في قلوبكم ﴾ أي فلا شيء عندكم أحسن منه ولا يعادله ولا يقاربه بوجه ﴿ وكره إليكم الكفر ﴾ وهو تغطية ما أدت إليه الفطرة الأولى والعقول المجردة عن الهوى من الحق بالجحود ﴿ والفسوق ﴾ وهو المروق من ربقة الدين ، ولو من غير تغطية بل بغير تأمل ﴿ والعصيان ﴾ وهو الامتناع من الانقياد عامة فلم تخالفوه ، ورأيتم خلافه هلاكاً ، فصرتم والمنة لله أطوع شيء للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فعلم من هذا أن الله

تعالى هو الفاعل وحده لجميع الأفعال من الطاعات والمعاصي والعادات والعبادات ، لأنه خالق لكل ، ومدحوا لفعل الله بهم لأنهم الفاعلون في الظاهرة فهو واقع موقع : أطعتم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم تخالفوه ، وإنما وضع فعل الله وهولا يمدحون عليه موضع فعلهم الذي يمدحون عليه للحث على الشكر والإنسلاخ من العجب .

ولما أرشد السياق إلى متابعتهم على هذا الوجه ، أنتج قوله مادحاً لهم ثانياً الكلام عن خطابهم إلى خطابه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليدل على عظم هذه الأوصاف وبينه بأداة البعد على علو مقام المتصف : ﴿ أولئك ﴾ أي الذين أعلى الله القادر على كل شيء مقاديرهم ﴿ هم ﴾ أي خاصة ﴿ الراشدون ﴾ أي الكاملون في الرشد وهو الهدى على أحسن سمت وتقدير ، وفي تفسير الأصبهاني : الرشد الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه – انتهى .

(160/717)

والذي أنتج الرشاد متابعة الحق ، فإن الله تكفل لمن تعمد الخير وجاهد نفسه على البر بإصابة الصواب وإحكام المساعي المنافي للندم ، ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ وقد دل السياق على أنهم كانوا في خبر الوليد صنفين : صنف

صدقه وأراد غزوة بني المصطلق وأشار به ، وصنف توقف ، وأن الصنفين سلموا آخر الأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهدوا ، فالآية من الاحتباك وهي شبيهة به : دلت الشرطية في ﴿ لو يطيعكم ﴾ على الاستدراكية ، والاستدراكية في ﴿ ولكن الله ﴾ على تقدير الشرطية دلالة ظاهرة .

ولما ذكر التحبيب والتزيين والتكريه وما أنتجه من الرشاد ، ذكر علته إعلاماً بأنه تعالى لا يجب عليه شيء حثاً على الشكر فقال : ﴿ فضلاً ﴾ أي زيادة وتطولاً وامتناناً عظيماً جسيماً ودرجة عالية من الله الملك الأعظم الذي بيده كل شيء ﴿ ونعمة ﴾ أي وعيشاً حسناً ناعماً وخفضاً ودعة وكرامة .

ولما كان التقدير : فالله منعم بفضل ، بيده كل ضر ونفع ، عطف عليه قوله : ﴿ والله ﴾ أي المحيط بصفات الكمال ﴿ عليم ﴾ أي محيط العلم ، فهو يعلم أحوال المؤمنين وما بينهم من التفاضل ﴿ حكيم ﴾ بالغ الحكمة ، فهو يضع الأشياء في أوفق محالها وأتقنها ، فلذلك وضع نعمته من الرسالة والإيمان على حسب علمه وحكمته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 228 . 230 ﴾

(161/717)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﴾

ولنذكر في تفسير هذه الآية ما قيل وما يجوز أن يقال ، أما ما قيل فلنختر أحسنه وهو ما اختاره الزمخشري فإنه بحث في تفسير هذه الآية بحثاً طويلاً ، فقال قوله تعالى : ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ الأمر لَعَنِتُّمْ ﴾ ليس كلاماً مستأنفاً لأدائه إلى تنافر النظم ، إذ لا تبقى مناسبة بين قوله ﴿ واعلموا ﴾ وبين قوله ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ ﴾ ثم وجه التعلق هو أن قوله ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ ﴾ في تقدير حال من الضمير المرفوع في قوله ﴿ فيكُمْ ﴾ كان التقدير كائن فيكم ، أو موجود فيكم ، على حال تريدون أن يطيعكم أو يفعل باستصوابكم ، ولا ينبغي أن يكون في تلك الحال ، لأنه لو فعل ذلك ﴿ لَعَنِتُّمْ ﴾ أو لوقعتم في شدة أو أولمتم به .

(162/717)

ثم قال تعالى : ﴿ ولكن الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمان ﴾ خطاباً مع بعض من المؤمنين غير المخاطبين بقوله ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ ﴾ قال الزمخشري اكتفى بالتغاير في الصفة واختصر ولم يقل حبب إلى بعضكم الإيمان ، وقال أيضاً بأن قوله تعالى : ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ ﴾ دون أطاعكم يدل

على أنهم كانوا يريدون استمرار تلك الحالة ، ودوام النبي صلى الله عليه وسلم على العمل باستصوابهم ، ولكن يكون ما بعدها على خلاف ما قبلها ، وههنا كذلك وإن لم يكن تحصل المخالفة بتصريح اللفظ لأن اختلاف المخاطبين في الوصف يدلنا على ذلك لأن المخاطبين أولاً بقوله ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ ﴾ هم الذين أرادوا أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم يعمل بمرادهم ، والمخاطبين بقوله ﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمان ﴾ هم الذين أرادوا عملهم بمراد النبي صلى الله عليه وسلم ، هذا ما قاله الزمخشري واختاره وهو حسن ، والذي يجوز أن يقال وكأنه هو الأقوى أن الله تعالى لما قال : ﴿ إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ [الحجرات : 6] أي فتثبتوا واكشفوا قال بعده : ﴿ واعلموا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ الله ﴾ أي الكشف سهل عليكم بالرجوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فإنه فيكم مبين مرشد ، وهذا كما يقول القائل عند اختلاف تلاميذ شيخ في مسألة : هذا الشيخ قاعد لا يريد بيان قعوده ، وإنما يريد أمرهم بالمراجعة إليه ، وذلك لأن المراد منه أنه لا يطيعكم في كثير من الأمر ، وذلك لأن الشيخ فيما ذكرنا من المثال لو كان يعتمد على قول التلاميذ لا تطمئن قلوبهم بالرجوع إليه ، أما إذا كان لا يذكر إلا من النقل الصحيح ، ويقرره بالدليل القوي يراجعه كل أحد ، فكذلك ههنا قال استرشدوه فإنه يعلم ولا يطيع أحداً فلا يوجد فيه حيف ولا يروج عليه زيف ، والذي يدل على أن المراد من قوله ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ الأَمر لَعَنِتُّمْ ﴾ بيان أنه لا يطيعكم هو أن الجملة الشرطية في كثير من المواضع ترد لبيان

امتناع لشرط لامتناع الجزاء كما في قوله تعالى :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : 82] فإنه لبيان أنه ليس فيهما آلهة وأنه ليس من عند غير الله .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ إشارة إلى جواب سؤال يرد على قوله ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴾ وهو أن يقع لواحد أن يقول إنه لا حاجة إلى المراجعة وعقولنا كافية بها أدركنا الإيمان وتركنا العصيان فكذلك نجتهد في أمورنا ، فقال ليس إدراك الإيمان بالاجتهاد ، بل الله بين البرهان وزين الإيمان حتى حصل اليقين ، وبعد حصول اليقين لا يجوز التوقف والله إنما أمركم بالتوقف عند تقليد قول الفاسق ، وما أمركم بالعناد بعد ظهور البرهان ، فكأنه تعالى قال : توقفوا فيما يكون مشكوكاً فيه لكن الإيمان حببه إليكم بالبرهان فلا تتوقفوا في قبوله ، وعلى قولنا المخاطب بقوله ﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ﴾ هو المخاطب بقوله ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ ﴾ إذا علمت معنى الآية جملة ، فاسمعه مفصلاً ولنفصله في مسائل :

المسألة الأولى : لو قال قائل إذا كان المراد بقوله ﴿ واعلموا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ ﴾ الرجوع إليه والاعتماد على قوله ، فلم لم يقل بصريح اللفظ فتبينوا وراجعوا النبي صلى الله عليه وسلم ؟ وما الفائدة في العدول إلى هذا المجاز ؟ نقول الفائدة زيادة التأكيد وذلك لأن قول القائل فيما ذكرنا من المثال هذا الشيخ قاعد آكد في وجوب المراجعة إليه من قوله راجعوا شيخكم ، وذلك لأن القائل يجعل وجوب المراجعة إليه متفقاً عليه ، ويجعل سبب عدم الرجوع عدم علمهم بقعوده ، فكأنه يقول : إنكم لا تشكون في أن الكاشف هو الشيخ ، وأن الواجب مراجعته فإن كنتم لا تعلمون قعدوه فهو قاعد فيجعل حسن المراجعة أظهر من أمر القعود كأنه يقول خفي عليكم قعوده فتركتم مراجعته ، ولا يخفى عليكم حسن مراجعته ، فيجعل حسن مراجعته أظهر من الأمر الحسي ، بخلاف ما لو قال راجعوه ، لأنه حينئذ يكون قائلاً بأنكم ما علمتم أن مراجعته هو الطريق ، وبين الكلامين بون بعيد ، فكذلك قوله تعالى : ﴿ واعلموا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ ﴾ يعني لا يخفى عليكم وجوب مراجعته ، فإن كان خفي عليكم كونه فيكم ، فاعلموا أنه فيكم فيجعل حسن المراجعة أظهر من كونه فيهم حيث ترك بيانه وأخذ في بيان كونه فيهم ، وهذا من المعاني العزيزة التي

توجد في المجازات ولا توجد في الصريح .

المسألة الثانية : إذا كان المراد من قوله ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ ﴾ بيان كونه غير مطيع لأحد بل هو متبع للوحي فلم لم يصرح به ؟ نقول بيان نفي الشيء مع بيان دليل النفي أتم من بيانه من غير دليل ، والجملة الشرطية بيان النفي مع بيان دليله فإن قوله (ليس فيهما آلهة) لو قال قائل : لم قلت إنه ليس فيهما آلهة يجب أن يذكر الدليل فقال :

(165/717)

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] فكذلك ههنا لو قال لا يطيعكم ، وقال قائل لم لا يطيع لوجب أن يقال لو أطاعكم لأطاعكم لأجل مصلحتكم ، لكن لا مصلحة لكم فيه لأنكم تعنتون وتأثمون وهو يشق عليه عنتكم ، كما قال تعالى : ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ [التوبة : 128] فإن طاعتكم لا تفيده شيئاً فلا يطيعكم ، فهذا نفي الطاعة بالدليل وبين نفي الشيء بدليل ونفيه بغير دليل فرق عظيم .

المسألة الثالثة :

قال ﴿ فِى كَثِيرٍ مِّنَ الأمر ﴾ ليعلم أنه قد يوافقهم ويفعل بمقتضى مصلحتهم تحقيقاً لفائدة قوله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى الأمر ﴾ [آل عمران : 159] .

المسألة الرابعة :

إذا كان المراد بقوله تعالى ﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمان ﴾ ، فلا تتوقفوا فلم لم يصرح به ؟ قلنا لما بيناه من الإشارة إلى ظهور الأمر يعني أنتم تعلمون أن اليقين لا يتوقف فيه ، إذ ليس بعده مرتبة حتى يتوقف إلى بلوغ تلك المرتبة لأن من بلغ إلى درجة الظن فإنه يتوقف إلى أن يبلغ درجة اليقين ، فلما كان عدم التوقف في اليقين معلوماً متفقاً عليه لم يقل فلا تتوقفوا بل قال حبب إليكم الإيمان ، أي بينه وزينه بالبرهان اليقيني .

المسألة الخامسة :

ما المعنى في قوله ﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمان وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ نقول قوله تعالى : ﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ﴾ أي قربه وأدخله في قلوبكم ثم زينه فيها بحيث لا تفارقونه ولا يخرج من قلوبكم ، وهذا لأن من يحب أشياء فقد يمل شيئاً منها إذا حصل عنده وطال لبثه والإيمان كل يوم يزداد حسناً ، ولكن من كانت عبادته أكثر وتحمله لمشاق التكليف أتم ، تكون العبادة والتكاليف عنده ألذ وأكمل ، ولهذا قال في الأول : ﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ﴾ وقال ثانياً : ﴿ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ كأنه قربه إليهم ثم أقامه في قلوبهم .

المسألة السادسة :

ما الفرق بين الأمور الثلاثة وهي الكفر والفسوق والعصيان ؟ فنقول هذه أمور ثلاثة في مقابلة الإيمان الكامل لأن الإيمان الكامل المزين ، هو أن يجمع التصديق بالجنان والإقرار باللسان والعمل بالأركان أحدها : قوله تعالى : ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكفر ﴾ وهو التكذيب في مقابلة التصديق بالجنان والفسوق هو الكذب وثانيها : هو ما قبل هذه الآية وهو قوله تعالى : ﴿ إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ ﴾ [الحجرات : 6] سمي من كذب فاسقاً فيكون الكذب فسوقاً ثالثها : ما ذكره بعد هذه الآية ، وهو قوله تعالى : ﴿ بِئْسَ الاسم الفسوق بَعْدَ الإيمان ﴾ [الحجرات : 11] فإنه يدل على أن الفسوق أمر قولي لاقترانه بالاسم ، وسنبين تفسيره إن شاء الله تعالى ورابعها : وجه معقول وهو أن الفسوق هو الخروج عن الطاعة على ما علم في قول القائل : فسقت الرطبة إذا خرجت ، وغير ذلك لأن الفسوق هو الخروج زيد في الاستعمال كونه الخروج عن الطاعة ، لكن الخروج لا يكون له ظهور بالأمر القلبي ، إذ لا اطلاع على ما في القلوب لأحد إلا لله تعالى ، ولا يظهر بالأفعال لأن الأمر قد يترك إما لنسيان أو سهو ، فلا يعلم حال التارك والمرتكب أنه مخطىء أو متعمد ، وأما الكلام فإنه حصول العلم بما عليه حال المتكلم ، فالدخول في الإيمان والخروج منه يظهر بالكلام فتخصيص الفسوق بالأمر القولي أقرب ، وأما العصيان فترك الأمر وهو بالفعل أليق ، فإذا علم هذا ففيه ترتيب في غاية الحسن ، وهو أنه تعالى كره إليكم الكفر وهو الأمر

الأعظم كما قال تعالى :

﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] .

ثم قال تعالى : ﴿ والفسوق ﴾ يعني ما يظهر لسانكم أيضاً ، ثم قال : ﴿ والعصيان ﴾ وهو دون الكل ولم يترك عليكم الأمر الأدنى وهو العصيان ، وقال بعض الناس الكفر ظاهر والفسوق هو الكبيرة ، والعصيان هو الصغيرة ، وما ذكرناه أقوى .

ثم قال تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الرشدون ﴾ .

(167/717)

خطاباً مع النبي صلى الله عليه وسلم وفيه معنى لطيف : وهو أن الله تعالى في أول الأمر قال : ﴿ واعلموا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ الله ﴾ أي هو مرشد لكم فخطاب المؤمنين للتنبيه على شفقته بالمؤمنين ، فقال في الأول كفى النبي مرشداً لكم ما تسترشدونه فأشفق عليهم وأرشدهم ، وعلى هذا قوله ﴿ الرشدون ﴾ أي الموافقون للرشد يأخذون ما يأتيهم وينتهون عما ينهاهم .

فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (8)

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

نصب فضلاً لأجل أمور ، إما لكونه مفعولاً له ، وفيه وجهان أحدهما : أن العامل فيه هو الفعل الذي في قوله ﴿ الرشدون ﴾ فإن قيل : كيف يجوز أن يكون فضل الله الذي هو فعل الله مفعولاً له بالنسبة إلى الرشد الذي هو فعل العبد ؟ نقول لما كان الرشد توفيقاً من الله كان كأنه فعل الله فكأنه تعالى أرشدهم فضلاً ، أي يكون متفضلاً عليهم منعماً في حقهم والوجه الثاني : هو أن العامل فيه هو قوله ﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمان . . . وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكفر ﴾ [الحجرات : 7] فضلاً وقوله ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الرشدون ﴾ [الحجرات : 7] جملة اعترضت بين الكلامين أو يكون العامل فعلاً مقدراً ، فكأنه قال تعالى جرى ذلك فضلاً من الله ، وإما لكونه مصدراً ، وفيه وجهان أحدهما : أن يكون مصدراً من غير اللفظ ولأن الرشد فضل فكأنه قال أولئك هم الراشدون رشداً وثانيهما : هو أن يكون مصدراً لفعل مضمر ، كأنه قال حبب إليكم الإيمان وكره إليكم الكفر فأفضل فضلاً وأنعم نعمة ، والقول بكونه منصوباً على أنه مفعول مطلق وهو المصدر ، أو مفعول له قول الزمخشري ، وإما أن يكون فضلاً مفعولاً به ، والفعل مضمراً دل عليه قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الرشدون ﴾ أي يبتغون فضلاً من الله ونعمة .

المسألة الثانية :

ما الفرق بين الفضل والنعمة في الآية ؟ نقول فضل الله إشارة إلى ما عنده من الخير وهو مستغن عنه ، والنعمة إشارة إلى ما يصل إلى العبد وهو محتاج إليه ، لأن الفضل في الأصل ينبىء عن الزيادة ، وعنده خزائن من الرحمة لا لحاجة إليها ، ويرسل منها على عباده ما لا يبقون معه في ورطة الحاجة بوجه من الوجوه ، والنعمة تنبىء عن الرأفة والرحمة وهو من جانب العبد ، وفيه معنى لطيف وهو تأكيد الإعطاء ، وذلك لأن المحتاج يقول للغني : أعطني ما فضل عنك وعندك ، وذلك غير ملتفت إليه وأنا به قيامي وبقائي ، فإذن قوله ﴿ فَضْلاً مِّنَ اللهِ ﴾ إشارة إلى ما هو من جانب الله الغني ، والنعمة إشارة إلى ما هو من جانب العبد من اندفاع الحاجة ، وهذا مما يؤكد قولنا فضلاً منصوب بفعل مضمر ، وهو الابتغاء والطلب .

المسألة الثالثة :

(169/717)

ختم الآية بقوله ﴿ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ فيه مناسبات عدة منها أنه تعالى لما ذكر نبأ الفاسق ، قال إن يشتبه على المؤمن كذب الفاسق فلا تعتمدوا على ترويجه عليكم الزور ،

فإن الله عليم ، ولا تقولوا كما كان عادة المنافق لولا يعذبنا الله بما نقول ، فإن الله حكيم لا يفعل إلا على وفق حكمته وثانيها : لما قال الله تعالى : ﴿ واعلموا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ ﴾ [الحجرات : 7] بمعنى لا يطيعكم ، بل يتبع الوحي ، قال فإن الله من كونه عليماً يعلمه ، ومن كونه حكيماً يأمره بما تقتضيه الحكمة فاتبعوه ثالثها : المناسبة التي بين قوله تعالى : ﴿ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ وبين قوله ﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ ﴾ أي حبب بعلمه الإيمان لأهل الإيمان ، واختار له من يشاء بحكمته رابعها : وهو الأقرب ، وهو أنه سبحانه وتعالى قال : ﴿ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ ولما كان الفضل هو ما عند الله من الخير المستغني عنه ، قال تعالى هو عليم بما في خزائن رحمته من الخير ، وكانت النعمة هو ما يدفع به حاجة العبد ، قال هو حكيم ينزل الخير بقدر ما يشاء على وفق الحكمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب جـ 28 صـ 105 . 109 ﴾

(170/717)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ واعلموا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﴾

فلا تكذبوا ؛ فإن الله يُعلمه أنباءكم فتفتضحون .

﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأمر لَعَنِتُّمْ ﴾ أي لو تسارع إلى ما أردتم قبل وضوح الأمر لنا لكم مشقة وإثم ؛ فإنه لو قتل القومَ الذين سعى بهم الوليد بن عُقبة إليه لكان خطأً ، ولَعَنَتَ مَن أراد إيقاع الهلاك بأولئك القوم لعداوة كانت بينه وبينهم .

ومعنى طاعة الرسول لهم : الائْتمارُ بما يأمر به فيما يبلّغونه عن الناس والسماع منهم .

والعَنت الإثم ؛ يقال : عنِت الرجل .

والعنت أيضاً الفجور والزنى ؛ كما في سورة "النساء" .

والعنت أيضاً الوقوع في أمر شاق ؛ وقد مضى في آخر "براءة" القول في "عَنِتُّمْ" بأكثر من هذا .

﴿ ولكن الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الأيمان ﴾ هذا خطاب للمؤمنين المخلصين الذين لا يكذبون النبيّ صلى الله عليه وسلم ولا يخبرون بالباطل ؛ أي جعل الإيمان أحبّ الأديان إليكم .

﴿ وَزَيَّنَهُ ﴾ بتوفيقه .

﴿ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أي حسّنه إليكم حتى اخترتموه .

وفي هذا ردّ على القدرية والإمامية وغيرهم ، حسب ما تقدّم في غير موضع .

فهو سبحانه المنفرد بخلق ذوات الخلق وخلق أفعالهم وصفاتهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم ، لا شريك له .

﴿ وكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكفر والفسوق والعصيان ﴾ قال ابن عباس : يريد به الكذب خاصة .

وقاله ابن زيد .

وقيل : كل ما خرج عن الطاعة ؛ مشتقٌ من فَسَقتِ الرُّطَبَةُ خرجت من قشرها .

والفأرة من جُحرها .

وقد مضى في "البقرة" القول فيه مستوفى .

والعصيان جمع المعاصي .

ثم انتقل من الخطاب إلى الخبر فقال : ﴿ أولئك ﴾ يعني هم الذين وفقهم الله فحبّب إليهم الإيمان وكرّه إليهم الكفر أي قبحه عندهم ﴿ هُمُ الراشدون ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَمَآ آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ الله فأولئك هُمُ المضعفون ﴾ [الروم : 39] .

قال النابعة :

يا دارَ مَيَّةَ بالعَلْياء فالسَّندِ . . .

(171/717)

أَقْوَتْ وطال عليها سالِفُ الأَمَدِ

والرَّشَد الاْستقامة على طريق الحق مع تَصَلُّب فيه ؛ من الرَّشاد وهي الصخرة .

قال أبو الوازع : كل صخرة رشادة وأنشد :

وغير مُقَلَّد ومُوَشّمات . . .

صَلِينَ الضّوءَ من صُمّ الرشاد

﴿ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَنِعْمَةً ﴾ أي فعل الله ذلك بكم فضلاً ؛ أي الفضل والنعمة ، فهو مفعول له .

﴿ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ "عَلِيمٌ" بما يصلحكم "حَكِيمٌ" في تدبيركم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(172/717)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

هذه السورة مدنية .

ومناسبتها لآخر ما قبلها ظاهرة ، لأنه ذكر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه ، ثم قال : ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعلموا الصالحات ﴾ فربما صدر من المؤمن عامل الصالحات بعض شيء مما ينبغي أن ينهى عنه ، فقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ﴾ .

وكانت عادة العرب ، وهي إلى الآن الاشتراك في الآراء ، وأن يتكلم كل بما شاء ويفعل ما أحب ، فجرى من بعض من لم يتمرن على آداب الشريعة بعض ذلك .

قال قتادة : فربما قال قوم : ينبغي أن يكون كذا لو أنزل في كذا .

وقال الحسن : ذبح قوم ضحايا قبل النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وفعل قوم في بعض غزواته شيئاً بآرائهم ، فنزلت هذه الآية ناهية عن جميع ذلك .

فقال ابن عباس : نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه .

وتقول العرب : تقدمت في كذا وكذا ، وقدمت فيه إذ قلت فيه .

وقرأ الجمهور : لا تقدموا ، فاحتمل أن يكون متعدياً ، وحذف مفعوله ليتناول كل ما يقع في النفس مما تقدم ، فلم يقصد لشيء معين ، بل النهي متعلق بنفس الفعل دون تعرض لمفعول معين ، كقولهم : فلان يعطي ويمنع .

واحتمل أن يكون لازماً بمعنى تقدم ، كما تقول : وجه بمعنى توجه ، ويكون المحذوف مما يوصل إليه بحرف ، أي لا تتقدّموا في شيء مّا من الأشياء ، أو بما يحبون .

ويعضد هذا الوجه قراءة ابن عباس وأبي حيوة والضحاك ويعقوب وابن مقسم .

لا تقدموا ، بفتح التاء والقاف والدال على اللزوم ، وحذفت التاء تخفيفاً ، إذ أصله لا تتقدموا .

وقرأ بعض المكيين : تقدموا بشد التاء ، أدغم تاء المضارعة في التاء بعدها ، كقراءة البزي .

(173/717)

وقرىء : لا تقدموا ، مضارع قدم ، بكسر الدال ، من القدوم ، أي لا تقدموا إلى أمر من أمور الدين قبل قدومها ، ولا تعجلوا عليها ، والمكان المسامت وجه الرجل قريباً منه .

قيل : فيه بين يدي المجلوس إليه توسعاً ، لما جاور الجهتين من اليمين واليسار ، وهي في قوله : ﴿ بين يدي الله ﴾ ، مجاز من مجاز التمثيل .

وفائدة تصوير الهجنة والشناعة فيها ؛ نهوا عنه من الإقدام على أمر دون الاهتداء على أمثلة الكتاب والسنة ؛ والمعنى : لا تقطعوا أمراً إلا بعدما يحكمان به ويأذنان فيه ، فتكونوا عاملين بالوحي المنزل ، أو مقتدين برسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وهذا ، وعلى هذا مدار تفسير ابن عباس .

وقال مجاهد : لا تفتاتوا على الله شيئاً حتى يقصه الله على لسان رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، وفي هذا النهي توطئة لما يأتي بعد من نهيهم عن رفع أصواتهم .

ولما نهى أمر بالتقوى ، لأن من التقوى اجتناب المنهي عنه .

﴿ إن الله سميع ﴾ لأقوالكم ، ﴿ عليم ﴾ بنياتكم وأفعالكم .

ثم ناداهم ثانياً ، تحريكاً لما يلقيه إليهم ، واستعباداً لما يتجدد من الأحكام ، وتطرية للإنصات .

ونزلت بسبب عادة الأعراب من الجفاء وعلو الصوت .

﴿ لا ترفعوا أصواتكم ﴾ : أي إذا نطق ونطقتم ، ﴿ ولا تجهروا بالقول ﴾ إذا كلمتموه ، لأن رتبة النبوة والرسالة يجب أن توقر وتجل ، ولا يكون الكلام مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) كالكلام مع غيره .

ولما نزلت ، قال أبو بكر رضي الله عنه : لا أكلمك يا رسول الله إلا السرار أو أخا السرار حتى ألقى الله .

وعن عمر رضي الله عنه ، أنه كان يكلم النبي (صلى الله عليه وسلم) كأخي السرار ، لا يسمعه حتى يستفهمه .

(174/717)

وكان أبو بكر ، إذا قدم على الرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، قوم أرسل إليهم من يعلمهم كيف يسلمون ، ويأمرهم بالسكينة والوقار عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم

) ، ولم يكن الرفع والجهر إلا ما كان في طباعهم ، لا أنه مقصود بذلك الاستخفاف والاستعلاء ، لأنه كان يكون فعلهم ذلك كفراً ، والمخاطبون مؤمنون .

﴿ كجهر بعضكم لبعض ﴾ : أي في عدم المبالاة وقلة الاحترام ، فلم ينهوا إلا عن جهر مخصوص .

وكره العلماء رفع الصوت عند قبر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وبحضرة العالم ، وفي المساجد .

وعن ابن عباس : " نزلت في ثابت بن قيس بن شماس ، وكان في أذنه وقر ، وكان جهير الصوت ، وحديثه في انقطاعه في بيته أياماً بسبب ذلك مشهور ، وأنه قال : يا رسول الله ، لما أنزلت ، خفت أن يحبط عملي ، فقال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : "إنك من أهل الجنة" .

وقال له مرة : "أما ترضى أن تعيش حميداً وتموت شهيداً" ؟ فعاش كذلك ، ثم قتل باليمامة ، رضي الله تعالى عنه يوم مسيلمة " ﴿ أن تحبط أعمالكم ﴾ : إن كانت الآية معرضة بمن يجهر استخفافاً ، فذلك كفر يحبط معه العمل حقيقة ؛ وإن كانت للمؤمن الذي يفعل ذلك غفلة وجرياً على عادته ، فإنما يحبط عمله البر في توقير النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وغض الصوت عنده ، أن لو فعل ذلك ، كأنه قال : مخافة أن تحبط الأعمال التي هي معدة أن تعملوها فتؤجروا عليها .

وأن تحبط مفعول له ، والعامل فيه ولا تجهروا ، على مذهب البصريين في الاختيار ، ولا ترفعوا على مذهب الكوفيين في الاختيار ، ومع ذلك ، فمن حيث المعنى حبوط العمل علة في كل من الرفع والجهر .

وقرأ عبد الله وزيد بن علي : فتحبط بالفاء ، وهو مسبب عن ما قبله .

﴿ إن الذين يغضون أصواتهم ﴾ ، قيل : نزلت في أبي بكر وعمر ، رضي الله تعالى عنهما ، لما كان منهما من غض الصوت والبلوغ به أخا السرار .

(175/717)

﴿ امتحن الله قلوبهم للتقوى ﴾ : أي جربت ودربت للتقوى ، فهي مضطلعة بها ، أو وضع الامتحان موضع المعرفة ، لأن تحقيق الشيء باختباره ، أي عرف قلوبهم كائنة للتقوى في موضع الحال ، أو ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن لأجل التقوى ، أي لتثبت وتظهر تقواها .

وقيل : أخلصها للتقوى من قولهم : امتحن الذهب وفتنة إذا أذابه ، فخلص إبريزه من خبثه .

وجاءت في هذه الآية إن مؤكدة لمضمون الجملة ، وجعل خبرها جملة من اسم الإشارة

الدال على التفخيم والمعرفة بعده ، جائياً بعد ذكر جزائهم على غض أصواتهم .

وكل هذا دليل على أن الارتضاء بما فعلوا من توقير النبي (صلى الله عليه وسلم) ، بغض أصواتهم ، وفيها تعريض بعظيم ما ارتكب رافعو أصواتهم واستجابهم ضد ما استوجبه هؤلاء .

﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات ﴾ : نزلت في وفد بني تميم الأقرع بن حابس ، والزبرقان بن بدر ، وعمرو بن الأهتم وغيرهم .

وفدوا ودخلوا المسجد وقت الظهيرة ، والرسول (صلى الله عليه وسلم) راقد ، فجعلوا ينادونه بجملتهم : يا محمد ، أخرج إلينا .

فاستيقظ فخرج ، فقال له الأقرع بن حابس : يا محمد ، إن مدحي زين وذمي شين ، فقال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : "ويلك ذلك الله تعالى" .

فاجتمع الناس في المسجد فقالوا : نحن بني تميم بخطيبنا وشاعرنا ، نشاعرك ونفاخرك ؛ فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : "ما بالشعر بعثت ، ولا بالفخار أمرت ، ولكن هاتوا" .

فقال الزبرقان لشاب منهم : فخروا ذكر فضل قومك ، فقال : الحمد لله الذي جعلنا خير خلقه ، وآتانا أموالاً نفعل فيها ما نشاء ، فنحن من خير أهل الأرض ، من أكثرهم عدداً

ومالاً وسلاحاً ، فمن أنكر علينا فليأت بقول هو أحسن من قولنا ، وفعل هو أحسن من فعلنا .

(176/717)

فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، لثابت بن قيس بن شماس ، وكان خطيبه : "قم فأجبه" ، فقال : "الحمد لله أحمده وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، دعا المهاجرين من بني عمه أحسن الناس وجوهاً وأعظمهم أحلاماً فأجابوه ، والحمد لله الذي جعلنا أنصار دينه ووزراء رسوله وعزاً لدينه ، فنحن نقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا أله إلا الله ، فمن قالها منع نفسه وماله ، ومن أباها قتلناه وكان رغمه علينا هيناً ، أقول قولي هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات" .

وقال الزبرقان لشاب : قم فقل أبياتاً تذكر فيها فضل قومك ، فقال :

نحن الكرام فلا حي يعادلنا . . .

فينا الرؤوس وفينا يقسم الربع

ونطعم النفس عند القحط كلهم . . .

من السيف إذا لم يؤنس الفزع

إذا أبينا فلا يأبى لنا أحد . . .

إنا كذلك عند الفخر نرتفع

فأمر النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فدعا حسان بن ثابت ، فقال له : "أعد لي قولك فأسمعه" ، فأجابه :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم . . .

قد شرعوا سنة للناس تتبع

يوصي بها كل من كانت سريرته . . .

تقوى الإله فكل الخير يطلع

ثم قال حسان في أبيات :

نصرنا رسول الله والدين عنوة . . .

على رغم غاب من معد وحاضر

بضرب كأنواع المخاض مشاشة . . .

وطعن كأفواه اللقاح المصادر

وسل أحداً يوم استقلت جموعهم . . .

بضرب لنا مثل الليوث الخوادر

ألسنا نخوض الموت في حومة الوغا . . .

إذا طاب ورد الموت بين العساكر

فنضرب هاماً بالذراعين ننتمي . . .

إلى حسب من جذع غسان زاهر

فلولا حياء الله قلنا تكرماً . . .

على الناس بالحقين هل من منافر

فأحياؤنا من خير من وطىء الحصا . . .

وأمواتنا من خير أهل المقابر

قال : فقام الأقرع بن حابس فقال : إني والله لقد جئت لأمر ، وقد قلت شعراً فاسمعه ،

وقال :

أتيناك كيما يعرف الناس فضلنا . . .

إذا خالفونا عند ذكر المكارم

وإنا رؤوس الناس في كل غارة . . .

(177/717)

تكون بنجد أو بأرض التهائم

وإن لنا المرباع في كل معشر . . .

وأن ليس في أرض الحجاز كدارم

فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) لحسان : "قم فأجبه" ، فقام وقال :

بني درام لا تفخروا إن فخركم . . .

يصير وبالاً عند ذكر المكارم

هبلتم علينا تفخرون وأنتم . . .

لنا خول من بين ظئر وخادم

فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : "لقد كنت غنياً يا أخا دارم أن يذكر منك ما ظننت أن الناس قد لتنوه" .

فكان قوله عليه الصلاة والسلام أشد عليهم من جميع ما قاله حسان ، ثم رجع حسان إلى شعره فقال :

فإن كنتم جئتم لحقن دمائكم . . .

وأموالكم أن تقسموا في المقاسم

فلا تجعلوا الله نداً وأسلموا . . .

ولا تفخروا عند النبي بدارم

وإلا ورب البيت قد مالت القنا . . .

على هامكم بالمرهفات الصوارم

فقال الأقرع بن حابس : والله ما أدري ما هذا الأمر ، تكلم خطيبنا ، فكان خطيبهم أحسن قولاً ، وتكلم شاعرنا ، فكان شاعرهم أشعر وأحسن قولاً ، ثم دنا من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : "ما يضرك ما كان قبل هذا" ، ثم أعطاهم وكساهم .

ومناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة ، وذلك أن المناداة من وراء الحجرات فيها رفع الصوت وإساءة الأدب ، والله قد أمر بتوقير رسوله وتعظيمه .

والوراء : الجهة التي يواريها عنك الشخص من خلف أو قدام ، ومن لابتداء الغاية ، وإن المناداة نشأت من ذلك المكان .

وقال الزمخشري : فإن قلت : أفرق بين الكلامين ، بين ما تثبت فيه وما تسقط عنه .

قلت : الفرق بينهما : أن المنادى والمنادي في أحدهما يجوز أن يجمعهما الوراء ، وفي الثاني لا يجوز ، لأن الوراء تصير بدخول من مبتدأ الغاية ، ولا يجتمع على الجهة الواحدة أن يكون مبتدأ ومنتهى لفعل واحد .

والذي يقول : ناداني فلان من وراء الدار ، لا يريد وجه الدار ولا دبرها ، ولكن أي قطر من أقطارها ، كان مطلقاً بغير تعين ولا اختصاص .

انتهى .

وقد أثبت أصحابنا في معاني من أنها تكون لابتداء الغاية وانتهائها في فعل واحد ، وأن الشيء الواحد يكون محلاً لهما .

وتأولوا ذلك على سيبويه وقالوا من ذلك قولهم : أخذت الدرهم من زيد ، فزيد محل لابتداء الأخذ منه وانتهائه معاً .

قالوا : فمن تكون لابتداء الغاية فقط في أكثر المواضع ، وفي بعض المواضع لابتداء الغاية وانتهائها معاً .

وهذه المناداة التي أنكرت ، ليس إنكارها لكونها وقعت في إدبار الحجرات أو في وجوهها ، وإنما أنكر ذلك لأنهم نادوه من خارج ، مناداة الأجلاف التي ليس فيها توقير ، كما ينادي بعضهم بعضاً .

والحجرات : منازل الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وكانت تسعة .

والحجرة : الرفعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها .

وحظيرة الإبل تسمى حجرة ، وهي فعلة بمعنى مفعولة ، كالغرفة والقبضة .

وقرأ الجمهور : الحجرات ، بضم الجيم اتباعاً للضمة قبلها ؛ وأبو جعفر ، وشيبة : بفتحها ؛ وابن أبي عبلة : بإسكانها ، وهي لغى ثلاث ، في كل فعلة بشرطها المذكور في علم النحو .

والظاهر أن من صدر منه النداء كانوا جماعة .

وذكر الأصم أن من ناداه كان الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن ، فإن صح ذلك ، كان الإسناد إلى الجماعة ، لأنهم راضون بذلك ؛ وإذا كانوا جماعة ، احتمل أن يكونوا تفرقوا ، فنادى بعض من وراء هذه الحجرة ، وبعض من وراء هذه ، أو نادوه مجتمعين من وراء حجرة حجرة ، أو كانت الحجرة واحدة ، وهي التي كان فيها الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وجمعت إجلالاً له ؛ وانتفاء العقل عن أكثرهم دليل على أن فيهم عقلاً .

وقال الزمخشري : ويحتمل أن يكون الحكم بقلة العقلاء فيهم قصداً إلى نفي أن يكون فيهم من يعقل ، فإن القلة تقع موقع النفي في كلامهم . انتهى .

(179/717)

وليس في الآية الحكم بقلة العقل منطوقاً به ، فيحتمل النفي ، وإنما هو مفهوم من قوله : ﴿ أكثرهم لا يعقلون ﴾ .

والنفي المحض المستفاد إنما هو من صريح لفظ التقليل ، لا من المفهوم ، فلا يحمل قوله : ﴿

ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾ النفي المحض للشكر ، لأن النفي لم يستفد من صريح التقليل .

وهذه الآية سجلت على الذين نادوه بالسفه والجهل .

وابتدأ أول السورة بتقديم الأمور التي تنتمي إلى الله تعالى ورسوله على الأمور كلها ، ثم على ما نهى عنه من التقديم بالنهي عن رفع الصوت والجهر ، فكان الأول بساطاً للثاني ، ثم يلي بما هو ثناء على الذين امتنعوا من ذلك ، فغضوا أصواتهم دلالة على عظم موقعه عند الله تعالى .

ثم جيء على عقبه بما هو أفظع ، وهو الصياح برسول الله (صلى الله عليه وسلم) في حال خلوته ببعض حرمه من وراء الجدار ، كما يصاح بأهون الناس ، ليلبيه على فظاعة ما جسروا عليه ، لأن من رفع الله قدره عن أن يجهر له بالقول ، كان صنيع هؤلاء معه من المنكر المتفاحش .

ومن هذا وأمثاله تقتبس محاسن الآداب .

كما يحكى عن أبي عبيد ومحله من العلم والزهد وثقة الرواية ما لا يخفى أنه قال : ما دققت باباً على عالم قط حتى يخرج في وقت خروجه .

﴿ ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم ﴾ ، قال الزمخشري : ﴿ أنهم صبروا ﴾ في موضع الرفع على الفاعلية ، لأن المعنى : ولو ثبت صبرهم .

انتهى ، وهذا ليس مذهب سيبويه ، أن أن وما بعدها بعد لو في موضع مبتدأ ، لا في موضع

فاعل .

ومذهب المبرد أنها في موضع فاعل بفعل محذوف ، كما زعم الزمخشري .

واسم كان ضمير يعود على المصدر المفهوم من صبروا ، أي لكان هو ، أي صبرهم خيراً لهم .

وقال الزمخشري : في كان ، إما ضمير فاعل الفعل المضمر بعد لو .

(180/717)

انتهى ، لأنه قدر أن وما بعدها فاعل بفعل مضمر ، فأعاد الضمير على ذلك الفاعل ، وهو الصبر المنسبك من أن ومعمولها خيراً لهم في الثواب عند الله ، وفي انبساط نفس الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقضائه لحوائجهم .

وقد قيل : إنهم جاءوا في أسارى ، فأعتق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) النصف وفادى على النصف ، ولو صبروا لأعتق الجميع بغير فداء .

وقيل : لكان صبرهم أحسن لأدبهم .

﴿ والله غفور رحيم ﴾ ، لن يضيق غفرانه ورحمته عن هؤلاء إن تابوا وأنابوا .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة ﴾ الآية ، حدث

الحرث بن ضرار قال : قدمت على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فدعاني إلى الإسلام ، فأسلمت ، وإلى الزكاة فأقررت بها ، فقلت : أرجع إلى قومي وأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة ، فمن أجابني جمعت زكاته ، فترسل من يأتيك بما جمعت .

فلما جمع ممن استجاب له ، وبلغ الوقت الذي أراد الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يبعث إليه ، واحتبس عليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، قال لسروات قومه : كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقت لي وقتاً إلى من يقبض الزكاة ، وليس من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الخلف ، ولا أرى حبس الرسول إلا من سخطه .

فانطلقوا بها إليه ، وكان عليه السلام البعث بعث الوليد بن الحارث ، ففرق ، فرجع فقال : منعني الحارث الزكاة وأراد قتلي ، فضرب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى الحارث ، فاستقبل الحارث البعث وقد فصل من المدينة ، فقالوا : هذا الحارث ، إلى من بعثتم ؟ قالوا : إليك قال : ولم ؟ فقالوا : بعث إليك الوليد ، فرجع وزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله ، قال : لا والذي بعث محمداً بالحق ما رأيت رسولك ، ولا أتاني ، وما أقبلت إلا حين احتبس عليّ رسولك خشية أن يكون سخطة من الله ورسوله ، قال : فنزلت هذه الآية .

(181/717)

وفاسق وبنبأ مطلقان ، فيتناول اللفظ كل واحد على جهة البدل ، وتقدم قراءة فتبينوا وفتثبتوا في سورة النساء ، وهو أمر يقتضي أن لا يعتمد على كلام الفاسق ، ولا يبنى عليه حكم .

وجاء الشرط بحرف إن المقتضي للتعليق في الممكن ، لا بالحرف المقتضي للتحقيق ، وهو إذا ، لأن مجيء الرجل الفاسق للرسول وأصحابه بالكذب ، إنما كان على سبيل الندرة .

وأمروا بالتثبت عند مجيئه لئلا يطمع في قبول ما يلقيه إليهم ، ونبا ما يترتب على كلامه .

فإذا كانوا بمثابة التبين والتثبت ، كف عن مجيئهم بما يريد .

﴿ أن تصيبوا ﴾ : مفعول له ، أي كراهة أن يصيبوا ، أو لئلا تصيبوا ، ﴿ بجهالة ﴾ حال ، أي جاهلين بحقيقة الأمر معتمدين على خبر الفاسق ، ﴿ فتصبحوا ﴾ : فتصيروا ، ﴿ على ما فعلتم ﴾ : من إصابة القوم بعقوبة بناء على خبر الفاسق ، ﴿ نادمين ﴾ : مقيمين على فرط منكم ، متمنين أنه لم يقع .

ومفهوم ﴿ إن جاءكم فاسق ﴾ : قبول كلام غير الفاسق ، وأنه لا يتثبت عنده ، وقد يستدل به على قبول خبر الواحد العدل .

وقال قتادة : لما نزلت هذه الآية ، قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " التثبت من الله والعجلة من الشيطان " وقال مقلد بن سعيد : هذه الآية ترد علي من قال : إن المسلمين كلهم عدول حتى تثبت الجرحة ، لأن الله تعالى أمر بالتبين قبل القبول . انتهى .

وليس كما ذكر ، لأنه ما أمر بالتبيين إلا عند مجيء الفاسق ، لا مجيء المسلم ، بل بشرط الفسق .

والمجهول الحال يحتمل أن يكون فاسقاً ، فالاحتياط لازم .

﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله ﴾ : هذا توبيخ لمن يكذب للرسول عليه الصلاة والسلام ، ووعيد بالنصيحة .

ولا يصدر ذلك إلا ممن هو شاك في الرسالة ، لأن الله تعالى لا يترك نبيه (صلى الله عليه وسلم) يعتمد على خبر الفاسق ، بل بين له ذلك .

(182/717)

والظاهر أن قوله : ﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله ﴾ كلام تام ، أمرهم بأن يعلموا أن الذي هو بين ظهرانيكم هو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فلا تخبروه بما لا يصح ، فإنه رسول الله يطلعه على ذلك .

ثم أخبر تعالى أن رسوله (صلى الله عليه وسلم) لو أطاعكم في كثير من الأمر الذي يؤدي إليه اجتهادكم وتقدمكم بين يديه ﴿ لعنتم ﴾ : أي لشق عليكم .

وقال مقاتل : لأثمتم .

وقال الزمخشري : والجملة المصدرة بلو لا تكون كلاماً مستأنفاً لأدائه إلى تنافر النظم ، ولكن متصلاً بما قبله حالاً من أحد الضميرين في فيكم المستتر المرفوع ، أو البارز المجرور ، وكلاهما مذهب سديد ، والمعنى : أن فيكم رسول الله ، وأنتم على حالة يجب عليكم تغييرها ، وهو أنكم تحاولون منه أن يعمل في الحوادث على مقتضى ما يعن لكم من رأي واستصواب فعل المطواع لغيره ، والتابع له فيما يرتئيه المحتذي على أمثلته ، ولو فعل ذلك ﴿ لعنتم ﴾ : أي لوقعتم في الجهد والهلاك .

وهذا يدل على أن بعض المؤمنين زينوا لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) الإيقاع ببني المصطلق ، وتصديق قول الوليد ، وأن نظائر ذلك من الهنات كانت تفرط منهم ، وأن بعضهم كانوا يتصونون ، ويزعهم جدهم في التقوى عن الجسارة على ذلك ، وهم الذين استثناهم بقوله : ﴿ ولكن الله حبب أليكم الإيمان ﴾ : أي إلى بعضكم ، ولكنه أغنت عن ذكر البعض صفتهم المفارقة لصفة غيرهم ، وهذا من إيجازات القرآن ولمحاته اللطيفة التي لا يفطن إليها إلا الخواص .

وعن بعض المفسرين : هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى .

انتهى ، وفيه تكثير .

ولا بعد أن تكون الجملة المصدرة بلو مستأنفة لا حالاً ، فلا تعلق لها بما قبلها من جهة الإعراب .

وتقديم خبر أن على اسمها قصد إلى توبيخ بعض المؤمنين على ما استهجن من استتباعهم رأي الرسول (صلى الله عليه وسلم) لآرائهم ، فوجب تقديمه لانصباب الغرض إليه .

(183/717)

وقيل : يطيعكم دون أطاعكم ، للدلالة على أنه كان في إرادتهم استمرار عملهم على ما يستصوبونه ، وأنه كلما عنّ لهم رأي في أمر كان معمولاً عليه بدليل قوله في كثير من الأمر ، وشريطة لكن مفقودة من مخالفة ما بعدها لما قبلها من حيث اللفظ ، حاصلة من حيث المعنى ، لأن الذين حبب إليهم الإيمان قد غايرت صفتهم صفة المتقدم ذكرهم فوقعت لكن في حاق موقعها من الاستدراك .

انتهى ، وهو ملتقط من كلام الزمخشري .

وقال الزمخشري أيضاً : ومعنى تحبيب الله وتكريهه اللطف والإمداد بالتوفيق وسبيله الكناية ، كما سبق وكل ذي لب ، وراجع إلى بصيرة وذهن لا يغبا عليه أن الرجل لا يمدح بفعل غيره .

وحمل الآية على ظاهرها يؤدي إلى أن يثني عليهم بفعل الله ، وقد نفى الله هذا عن الذين أنزل فيهم ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا .

انتهى ، وهي على طريق الاعتزال .

وعن الحسن : حبب الإيمان بما وصف من الثناء عليه ، وكره الثلاثة بما وصف من العقاب . انتهى .

﴿ أولئك هم الراشدون ﴾ : التفات من الخطاب إلى الغيبة .

﴿ فضلاً من الله ونعمة ﴾ ، قال ابن عطية : مصدر مؤكد لنفسه ، لأن ما قبله هو بمعناه ، هذ التحبيب والتزيين هو نفس الفضل .

وقال الحوفي : فضلاً نصب على الحال .

انتهى ، ولا يظهر هذا الذي قاله .

وقال أبو البقاء : مفعول له ، أو مصدر في معنى ما تقدم .

وقال الزمخشري : فضلاً مفعول له ، أو مصدر من غير فعله .

فإن قلت : من أين جاز وقوعه مفعولاً له ، والرشد فعل القوم ، والفضل فعل الله تعالى ، والشرط أن يتحد الفاعل ؟ قلت : لما وقع الرشد عبارة عن التحبيب والتزيين والتكريه مسندة إلى اسمه ، تقدست أسماؤه ، وصار الرشد كأنه فعله ، فجاز أن ينتصب عنه ولا ينتصب عن الراشدون ، ولكن عن الفعل المسند إلى اسم الله تعالى .

والجملة التي هي ﴿ أولئك هم الراشدون ﴾ اعتراض ، أو عن فعل مقدر ، كأنه قيل : جرى ذلك ، أو كان ذلك فضلاً من الله .

(184/717)

وأما كونه مصدراً من غير فعله ، فأن يوضع موضع رشداً ، لأن رشدهم فضل من الله لكونهم موفقين فيه ، والفضل والنعمة بمعنى الأفضال والأنعام .

﴿ والله عليم ﴾ بأحوال المؤمنين وما بينهم من التمايز والتفاضل ، ﴿ حكيم ﴾ حين يفضل وينعم بالتوفيق على أفاضلهم . انتهى .

أما توجيهه كون فضلاً مفعولاً من أجله ، فهو على طريق الاعتزال .

وأما تقديره أو كان ذلك فضلاً ، فليس من مواضع إضمار كان ، ولذلك شرط مذكور في النحو . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(185/717)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ ﴾

تصديرُ الخطابِ بالنداءِ لتنبيهِ المخاطبينَ عَلى أنَّ مَا في حيزهِ أمرٌ خطيرٌ يستدعِي مزيدَ

اعتنائِهم بشأنِه وفرطَ اهتمامِهم بتلقّيهِ ومراعاتِه ، ووصفهُمْ بالإيمانِ لتنشيطِهمْ والإيذانِ بأنَّه داعٍ إلى المحافظةِ عليهِ ووازعٌ عن الإخلالِ بهِ ﴿ لاَ تُقَدّمُواْ ﴾ أيْ لا تفعلُوا التقديمَ عَلى أنَّ تركَ المفعولِ للقصدِ إلى نفسِ الفعلِ منْ غيرِ اعتبارِ تعلقِه بأمرٍ منَ الأمورِ عَلى طريقةِ قولِهم فلانٌ يُعطِي ويمنعُ أيْ يفعلُ الإعطاءَ والمنعَ ، أو لا تقدّمُوا أمراً منَ الأمورِ عَلى أنَّ حذفَ المفعولِ للقصدِ إلى تعميمِهِ ، والأولُ أَوفى بحقِّ المقامِ لإفادتِه النهيَ عنِ التلبسِ بنفسِ الفعلِ الموجبِ لانتفائِه بالكليةِ المستلزِمِ لانتفاءِ تعلقِهِ بمفعولِه بالطريقِ البرهانيِّ وقدْ جُوّزَ أنْ يكونَ التقديمُ بمعَنى التقدمِ ومنْهُ مقدمةُ الجيشِ للجماعةِ المتقدمةِ ويعضُده قراءةُ منْ قرأَ لا تَقدّمُوا بحذفِ إحْدَى التاءينِ منْ تتقدمُوا منَ القدومِ وقوله تعالى : ﴿ بَيْنَ يَدَىِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ مستعارٌ مِمَّا بينَ الجهتينِ المسامتتينِ ليدي الإنسانِ تهجيناً لِما نُهوا عنْهُ ، والمَعْنى لا تقطعُوا أمراً قبلَ أنْ يحكُمَا بهِ وقيلَ المرادُ بين يدي رسولِ اللهِ وذكرُ اللهِ تعَالى لتعظيمِهِ والإيذانِ بجلالةِ محلِه عندَهُ عزَّ وجلَّ . قيلَ نزلَ فيما جَرى بينَ أبي بكرٍ وعمرَ رَضِيَ اللهُ عنهمَا لَدَى النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم في تَأْميرِ الأَقْرعِ بنِ حَابسٍ أَوِ القعقاعِ بنِ مَعْبدٍ ﴿ واتقوا اللهَ ﴾ في كُلِّ ما تأتونَ وما تذرونَ منَ الأقوالِ والأفعالِ التي منْ جُملتِها مَا نحنُ فيهِ ﴿ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ ﴾ لأقوالِكم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأفعالِكم فمِنْ حَقِّه أنْ يُتقَّى ويُراقبَ .

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ تَرْفَعُواْ أصواتكم فَوْقَ صَوْتِ النبى ﴾

(187/717)

شروعٌ في النَّهي عنِ التجاوزِ في كيفيةِ القولِ عندَ النبيِّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ بعدَ النَّهي عنِ التجاوزِ في نفسِ القولِ والفعلِ ، وَإعادةُ النداءِ معَ قُربِ العَهْدِ بهِ للمبالغةِ في الإيقاظِ والتنبيهِ والإشعارِ باستقلالِ كُلَ مِنَ الكلامينِ باستدعاءِ الاعتناءِ بشأنِه أَيْ لاَ تبلُغوا بأصواتِكم وراءَ حدَ يبلُغه عليهِ الصَّلاةُ والسلامُ بصوتِه وقُرِىءَ لا ترفعُوا بأصواتِكم عَلى أنَّ الباءَ زائدةٌ ﴿ وَلاَ تَجْهَرُواْ لَهُ بالقول ﴾ إذا كلمتُموه ﴿ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ أيْ جهراً كَائناً كالجهرِ الجَارِي فيمَا بينكُم بلْ اجعلُوا صوتَكُم أخفضَ منْ صوتِه عليهِ الصلاةُ والسلامُ وتعهّدُوا في مخاطبتِه اللينَ القريبَ منَ الهمسِ كَما هُو الدأبُ عندَ مخاطبةِ المَهيبِ المُعظمِ وحَافظُوا عَلى مُراعاةِ أُبَّهةِ النبوةِ وجَلالةِ مقدارِها ، وَقيلَ مَعنْى لاَ تجهرُوا لهُ بالقولِ كجهرِ بعضِكُم لبعضٍ لا تقولُوا لهُ يَا محمدُ يَا أحمدُ وخَاطِبُوه بالنبوةِ قالَ ابْنُ عباسٍ ، رضيَ اللهُ عنُهمَا لما نزلتْ هذهِ الآيةُ قالَ أبُو بكرٍ يا سولَ اللهِ واللهِ لاَ أكلمكَ إلاَّ السِّرارَ أَوْ أخَا السرارِ حَتَّى ألقى اللهَ تعالَى وعن عمَر رضيَ اللهُ عنْهُ أَنَّه كانَ يكلمُه عليهِ الصلاةُ والسلامُ كأخِي

السِّرارِ لا يسمعُهُ حَتَّى يستفهمَهُ وكانَ أبُو بكرٍ رضيَ اللهُ عنْهُ إذا قدمَ على رسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَم الوفودُ أرسلَ إليهمْ منْ يعلمهُمْ كيفَ يسلّمونَ ويأمرُهُم بالسكينةِ والوقارِ عندَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وقولُه تعالَى : ﴿ أَن تَحْبَطَ أعمالكم ﴾ إمَّا علةٌ للنَّهي أيْ لا تجهرُوا خشيةَ أنْ تحبطَ أوْ كراهةَ أنْ تحبطَ كَما فِي قولِه تعالَى : ﴿ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ﴾ أوْ للنهيّ أيْ لا تجهرُوا لأجلِ الحبوطِ فإنَّ الجهرَ حيثُ كانَ بصددِ الأداءِ إلى الحبوطِ

(188/717)

فكأنَّهُ فعلَ لأجلِه عَلى طريقةِ التمثيلِ كقولِه تعالى : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ وليسَ المرادُ بما نُهيَ عنْهُ منْ الرَّفعِ والجَهْرِ ما يقارنُه الاستخفافُ والاستهانةُ فإنَّ ذلكَ كفرٌ بلْ مَا يتُوهم أنْ يؤديَ إليهِ مما يجري بينَهمْ في أثناءِ المحاورةِ منَ الرَّفعِ والجهرِ حسَبما يعربُ عنْهُ قولُه تعالَى : ﴿ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ خَلاَ أنَّ رفعَ الصوتِ فوقَ صوتِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لَمَّا كانَ منكراً محضاً لَمْ يُقيدْ بشيءٍ ولا ما يقعُ منهما في حربٍ أو مجادلةِ معاندٍ أو إرهابِ عدوٍ أو نحوِ ذلكَ وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنُهما نزلتْ في ثَابتِ بنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ وكانَ في أُذنِه وَقْرٌ وكانَ جَهْوريَّ الصوتِ وربَّما كانَ يكلمُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فيتأذى

بصوتِه وعنْ أنسٍ رضيَ اللهُ عَنْهُ أنهُ لمَّا نزلتْ الآيةُ فُقِدَ ثابتٌ وتفقدَهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ فأخبرَ بشأنِهِ فدعاهُ فسألَهُ فقالَ يَا رسولَ اللهِ لقدْ أنزلتْ إليكَ هذهِ الآيةُ وإنّي رجلٌ جهيرُ الصوتِ فأخافُ أنْ يكونَ عَمَلِي قدْ حَبِطَ فقالَ لَهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ لستَ هناكَ إنكَ تعيشُ بخيرٍ وتموتُ بخيرٍ وإنكَ منْ أهلِ الجنةِ وأمَّا مَا يُروى عنِ الحسنِ منْ أنَّها نزلتْ في بعضِ المنافقينَ الذينَ كانُوا يرفعونَ أصواتَهُم فوقَ صوتِه عليهِ الصلاةُ والسلامُ فقدْ قيلَ محملُه أنَّ نهيَهُم مندرجٌ تحتَ نهيِ المؤمنينَ بدلالةِ النصِّ ﴿ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ حالٌ منْ فاعِلِ تحبطُ أيْ وَالحالُ أنكُم لاَ تشعرونَ بحبوطِها وفيهِ مزيدُ تحذيرٍ مما نُهوا عنْهُ .

وقولُه تعَالَى :

﴿ إِنَّ الذين يَغُضُّونَ أصواتهم عِندَ رَسُولِ الله ﴾ الخ

(189/717)

ترغيبٌ في الانتهاءِ عمَّا نُهوا عنْهُ بعدَ الترهيبِ عنِ الإخلالِ بهِ أيْ يخفِضونَها مراعاةً للأدبِ أوْ خشيةً منْ مخالفةِ النَّهي ﴿ أولئك ﴾ إشارةٌ إلى الموصولِ باعتبارِ اتصافِه بمَا فِي حيزِ الصلةِ ، وما فيهِ منْ مَعنى البعدِ مَعَ قُربِ العهدِ بالمشارِ إليهِ لمَا مرَّ مِراراً منْ تفخيمِ شأنِه وهُوَ مُبتدأٌ خبرُهُ ﴿ الذين امتحن اللهُ قلُوبَهُمْ للتقوى ﴾ أيْ جرّبَها للتَّقوى ومرَّنَها عليهَا أو عَرفَها

كائنةً للتَّقوى خالصةً لهَا فإنَّ الامتحانَ سببُ المعرفةِ ، واللامُ صلةٌ لمحذوفٍ أَوْ للفعلِ باعتبارِ الأصلِ أوْ ضربَ قلوبَهُم بضروبِ المحنِ والتكاليفِ الشاقَّةِ لأجلِ التَّقوى فإنَّها لا تظهرُ إلا بالاصطبارِ عليَها أو أخلصَها للتَّقوى من امتحنَ الذهبَ إذا أذابَهُ وميزَ إبريزَهُ منْ خبثِهِ . وعنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنْهُ أذهبَ عَنْها الشهواتِ ﴿ لَهُمْ ﴾ في الآخرةِ ﴿ مَغْفِرَةٌ ﴾ عظيمةٌ لذنوبِهم ﴿ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ لا يقادرُ قدرُهُ ، والجملةُ إمَّا خبرٌ آخرُ لإنَّ كالجملةِ المصدرةِ باسمِ الإشارةِ أو استئنافٌ لبيانِ جزائِهم إحماداً لحالِهم وتعريضاً بسوءِ حالِ منْ ليسَ مثلَهُم ﴿ إِنَّ الذين يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الحجرات ﴾ أيْ منْ خارجِها منْ خلفِها أوْ قُدَّامِها ، ومِن ابتدائيةٌ دالةٌ عَلى أنَّ المناداةَ نشأتْ منْ جهةِ الوراءِ وأنَّ المُنَادَى داخلُ الحُجرةِ لوجوبِ اختلافِ المبدأِ والمُنتهى بحسبِ الجهةِ بخلافِ ما لَوْ قيلَ ينادونَكَ وراءَ الحجراتِ وَقُرِىءَ الحُجَرَاتِ بفتحِ الجيمِ وبسكونِها وثلاثتُها جمعُ حُجْرةٍ وهَي القطعةٌ منَ الأرضِ المحجورةِ بالحائطِ ولذلكَ يقالُ لحظيرةِ الإبلِ حُجْرةٌ وهيَ فُعْلةٌ منَ الحَجْرِ بمَعْنى مفعول كالغُرفةِ والقُبضةِ والمرادُ بَها حجراتُ أمهاتِ المؤمنينَ ومناداتُهم منْ ورائِها إمَّا بأنَّهم أتوهَا حجرةً حجرةً فنادَوهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ

(190/717)

منْ ورائِها أَوْ بأَنَّهم تفرقُوا عَلى الحجراتِ متطلبينَ لهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ فناداهُ بعضٌ منْ وراءِ هذهِ وبعضٌ منْ وراءِ تلكَ فأسندَ فعلَ الأبعاضِ إلى الكُلِّ وقدْ جُوِّزَ أنْ يكُونوا قدْ نادَوُه منْ وراءِ الحجرةِ التّي كانَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ فيَها ولَكنَّها جُمعتْ إجلالاً لهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ وقيلَ إنَّ الذي ناداهُ عُيينَةُ بنُ حِصْنٍ الفزاريُّ والأقرعُ بْنُ حابسٍ وَفَدا عَلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في سبعينَ رجُلاً منْ بِني تميمٍ وقتَ الظهيرةِ وهُوَ راقدٌ فقالاَ يا محمدُ اخرجْ إلينَا وإنَّما أسندَ النداءَ إلى الكُلِّ لأنَّهم رضُوا بذلكَ أوْ أُمروا بهِ أوْ لأنَّه وجدَ فيَما بينَهمْ ﴿ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ إذْ لَوْ كانَ لهُم عقلٌ لَمَا تجاسرُوا عَلى هذهِ المرتبةِ منْ سُوءِ الأدبِ.

(191/717)

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حتى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ ﴾ أيْ وَلَوْ تحققَ صبرُهُم وانتظارُهُم حتَّى تخرجَ إليهمْ فإنَّ "أَنَّ" وَإِنْ دلت بَما في حيزهَا عَلى المصدرِ لكِنَّها تفيدُ بنفسِها التحققَ والثبوتَ للفرقِ البينِ بينَ قولِك بَلَغني قيامُك وبلغني أَنَّك قائمٌ وحَتَّى تفيدُ أنَّ الصبرَ ينبغِي أنْ يكونَ مُغياً بخروجِهِ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ فإنَّها مختصةٌ بمَا هُوَ غايةٌ للشيءِ في نفسِه ولذلكَ تقولُ أكلتُ السمكةَ حتَّى رأْسَهَا ولا تقولُ حتَّى نصفَها أو ثلثَها بخلافِ إلى فإنَّها عامَّةٌ وفي إليهمْ إشعارٌ

بأنَّه لوْ خرجَ لاَ لأجلِهم ينبغِي أَنْ يصبرُوا حَتَّى يفاتحَهم بالكلامِ أوْ يتوجَّهَ إليهم ﴿ لَكَانَ ﴾ أي الصبرُ المذكورُ ﴿ خَيْراً لَّهُمْ ﴾ من الاستعجالِ لما فيهِ منْ رعايةِ حُسنِ الأدبِ وتعظيمِ الرسولِ الموجبَينِ للثناءِ والثوابِ والإسعافِ بالمسؤولِ إذْ رُوي أنَّهم وفدُوا شافعينَ في أُسارَى بني العَنْبرِ فأطلقَ النصفَ وفادَى النصفَ ﴿ واللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ بليغُ المغفرةِ والرحمةِ واسعُهما فلنْ يضيقَ ساحتُهما عنْ هؤلاءِ إنْ تابُوا وأَصلحُوا .

(192/717)

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ إِن جَاءكُمْ فَاسِقُ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ أيْ فتعرفُوا وتفحصُوا (رُوِيَ أنَّه عليهِ الصلاةُ والسلامُ بعثَ الوليدَ بنَ عُقبةَ أخَا عُثْمانَ رضيَ اللهُ عنْهُ لأُمهِ مُصدّقاً إلى بَني المُصطلِق وكانَ بينَهُ وبينَهمْ إِحْنَةٌ فلمَّا سمعُوا بهِ استقبلُوه فحسبَ أنَّهم مقاتلُوه فرجعَ وقالَ لرسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قدِ ارتدُوا ومنعُوا الزكاةَ فهمَّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ بقتالِهم فنزلتْ) وقيلَ : (بعثَ إليهم خالدَ بنَ الوليدَ فوجدهُم منادينَ بالصلاةِ متهجدينَ فسلمُوا إليهِ الصدقاتِ فرجعَ) . وفي ترتيبِ الأمرِ بالتبينِ عَلى فسقِ المُخبرِ إشارةٌ إلى قبولِ خبرِ الواحدِ العدلِ في بعضِ الموادّ وقُرِىءَ فتثبتُوا أيْ توقفُوا إلى أنْ يتبينَ لكُم الحالُ ﴿ أَن تُصِيبُواْ ﴾ حِذارَ أنْ تصيبُوا ﴿ قَوْمَا بِجَهَالَةٍ ﴾ ملتبسينَ بجهالةِ حالِهم ﴿ فَتُصْبِحُواْ ﴾ بعدَ

ظهورِ براءتِهم عَمَّا أُسندَ إليهمْ ﴿ على مَا فَعَلْتُمْ ﴾ في حَقّهم ﴿ نادمين ﴾ مغتمينَ غماً لازماً متمنينَ أنَّه لم يقعْ فإنَّ تركيبَ هذهِ الأَحْرُفِ الثلاثةِ يدورُ معَ الدوامِ.

(193/717)

﴿ واعلموا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ الله ﴾ أنَّ بما في حيزِهَا سادٌّ مسدَّ مفعولَي اعلمُوا باعتبارِ ما بعدَهُ منْ قولِه تعالى: ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ الأمر لَعَنِتُّمْ ﴾ فإنَّهُ حالٌ منْ أحدِ الضميرينِ في فيكُم والمَعنْى أنَّ فيكُم رسولَ الله كائناً عَلى حالةٍ يجبُ عليكُم تغييرُهَا أوْ كائنينَ على حالةٍ الخ وهي أنكُم تريدونَ أنْ يتبعَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ رأيَكُم في كثيرٍ منَ الحوادثِ ولَوْ فعلَ ذلكَ لوقعتُم في الجهدِ والهلاكِ، وفيه إيذانٌ بأنَّ بعضَهُم زينُوا لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم الإيقاعَ ببني المصطلقِ تصديقاً لقولِ الوليدِ وأنَّه عليهِ الصلاةُ والسلامُ لَمْ يُطعْ أمرَهُم، وأما صيغةُ المضارعِ فقدْ قيلَ إنَّها للدلالةِ عَلى أنَّ امتناعَ عَنَتِهم لامتناعِ استمرارِ طاعتِه عليهِ الصلاةُ والسلامُ لهُم لأنَّ عنتَهُم إنما يلزمُ منَ استمرارِ الطاعةِ فيما يعِنُّ لَهُمُ منَ الأمورِ إذْ فيهِ اختلالُ أمرِ الإيالةِ وانقلابُ الرئيسِ مَرْءوساً لا منْ إطاعتِه في بعضِ ما يرونَهُ نادراً بلْ فيها استمالتُهم بلا معرةٍ، وقيل: إنَّها للدلالةِ عَلى أنَّ امتناعَ عنتِهم لاستمرارِ امتناعِ طاعتِه عليهِ الصلاةُ والسلامُ لهُم في ذلكَ فإنَّ المضارعَ المنفيَّ قَدْ يدلُّ على استمرارِ النَّفي بحسبِ

المقامِ كما في نظائرِ قولِه تعالَى ولا هُم يحزنونَ ، والتحقيقُ أنَّ الاستمرارَ الذي تفيدُه صيغةُ المضارعِ يعتبرُ تارةً بالنسبةِ إلى ما يتعلقُ بالفعلِ منَ الأمورِ الزمانيةِ المتجددةِ وذلكَ بأنْ يعتبرَ الاستمرارُ في نفسِ الفعلِ على الإبهامِ ثم يعتبرُ تعلقُ ما يتعلقُ به بياناً لما فيهِ الاستمرارُ ، وأُخرى بالنسبةِ إلى ما يتعلقُ به من نفسِ الزمانِ المتجددِ وذلكَ إذا اعتبر تعلقُه بما يتعلقُ به أولاً ثم اعتبرَ استمرارُه ، فيتعينُ أن يكونَ ذلك بحسبِ الزمانِ فإنْ أُريدَ باستمرارِ الطَّاعةِ

(194/717)

استمرارُها وتجددُها بحسبِ تجددِ مواقعِها الكثيرةِ التي يفصحُ عنه قولُه تعالَى في كثيرٍ من الأمرِ فالحقُّ هو الأولُ ضرورةَ أنَّ مدارَ امتناعِ العنَتِ هو امتناعُ ذلك الاستمرارِ سواءٌ كان ذلكَ الامتناعُ بعدمِ وقوعِ الطاعةِ في أمرٍ ما من تلكَ الأمورِ الكثيرةِ أصلاً أو بعدمِ وقوعِها في كلِّها مع وقوعِها في بعضٍ يسيرٍ منها ، حتَّى لو لم يمتنعْ ذلكَ الاستمرارُ بأحدِ الوجهينِ المذكورينِ بل وقعتْ الطاعةُ فيما ذُكِرَ من كثيرٍ من الأمرِ في وقتٍ من الأوقاتِ وقعَ العنتُ قطعاً وإنْ أُريدَ به استمرارُ الطَّاعةِ الواقعةِ في الكلِّ وتجدّدُها بحسبِ تجددِ الزمانِ واستمرارِه فالحقُّ هو الثانِي ، فإنَّ مناطَ امتناعِ العنتِ حينئذٍ ليسَ امتناعَ استمرارِ الطاعةِ المذكورةِ ضرورةَ أنَّه موجبٌ لوقوعِ العنتِ بل هُو الاستمرارُ الزمانيُّ لامتناعِ تلك الطاعةِ

الواقعةِ في تلكَ الأمورِ الكثيرةِ بأحدِ الوجهينِ المذكورينِ حتَّى لو لم يستمرَّ امتناعُها بأنْ وقعتْ تلك الطاعةُ في وقتٍ من الأوقاتِ وقعَ العنتُ حتماً واعلمْ أنَّ الأحقَّ بالاختيارِ والأَولى بالاعتبارِ هو الوجهُ الأول لأنَّه أوفقُ بالقياسِ المُقتضِي لاعتبارِ الامتناعِ وارداً على الاستمرارِ حسبَ ورودِ كلمةِ لو المفيدةِ للأولِ على صيغةِ المضارعِ المفيدةِ للثانِي ، على أنَّ اعتبارَ الاستمرار وارداً على النَّفي على خلافِ القياسِ بمعونةِ المقامِ ، إنَّما يصارُ إليهِ إذا تعذرَ الجريانُ على موجبِ القياسِ أو لم يكنْ فيه مزيدُ مزيةٍ كما في قولِه تعالى : ﴿ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ حيثُ حملَ على استمرارِ نفي الحزنِ عنهم إذْ ليسَ في استمرارِ الحزنِ مزيدُ فائدةٍ .

(195/717)

وأمَّا إذَا انتظمَ الكلامُ مع مراعاةِ موجبِ القياسِ حقَّ الانتظامِ فالعدولُ عنه تمحلٌ لا يخفَى وقولُه تعالى : ﴿ ولكن الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمان ﴾ الخ تجريدٌ للخطابِ وتوجيهُ لهُ إلى بعضِهم بطريقِ الاستدراكِ بياناً لبراءتِهم عنْ أوصافِ الأولينَ وإحماداً لأفعالِهم أيْ ولكنَّهُ تعالَى جعلَ الإيمانَ محبوباً لديكم .

﴿ فَضْلاً مِّنَ الله وَنِعْمَةً ﴾ أيْ وإنعاماً تعليلٌ لحببَ أو كرَّه ، وما بينَهمَا اعتراضٌ وقيلَ

نصبُهمَا بفعلٍ مضمرٍ أيْ جَرى ذلكَ فضلاً وقيلَ يبتغونَ فضلاً ﴿ واللهُ عَلِيمٌ ﴾ مبالغٌ في العلمِ فيعلمُ أحوالَ المؤمنينَ وما بينَهم من التفاضلِ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يفعلُ كُلَّ ما يفعلُ بموجبِ الحكمةِ. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(196/717)

وقال الآلوسى :

﴿ واعلموا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ ﴾

عطف على ما قبله ، و﴿ إن ﴾ بما في حيزها سادّ مسدّ مفعولي ﴿ اعلموا ﴾ باعتبار ما قيد به من الحال وهو قوله عز وجل : ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ الأمر لَعَنِتُّمْ ﴾ أي لوقعتم في الجهد والهلاك فإنه حال من أحد الضميرين في ﴿ فيكُمْ ﴾ الضمير المستتر المرفوع وهو ضمير الرسول أو البارز المجرور وهو ضمير المخاطبين ، وتقديم خبر أن للحضر المستتبع زيادة التوبيخ ، وصيغة المضارع للاستمرار فلولا امتناع استمرار طاعته عليه الصلاة والسلام لهم في كثير مما يعن لهم من الأمور ، وكون المراد استمرار الامتناع نظير ما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : 38] من أن المراد استمرار النفي ليس بذاك ، وفي الكلام إشعار بأنهم زينوا بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم الإيقاع

بالحرث وقومه وقد أريد أن ينعى عليهم ذلك بتنزيلهم منزلة من لا يعلم أنه عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم .

فقيل : واعلموا أنه فيكم لا في غيركم كأنهم حسبوه لعدم تأدبهم وما بدر منهم الفرطة بين أظهر أقوام آخرين كائناً على حال يجب عليكم تغييرها أو وأنتم على كذلك وهو ما تريدون من استتباع رأيه لرأيكم وطاعته لكم مع أن ذلك تعكيس وموجب لوقوعكم في العنت ، وفيه مبالغات من أوجه : أحدها : إيثار ﴿ لَوْ ﴾ ليدل على الفرض والتقدير وأن ما بدر من من التزيين كان من حقه أن يفرض كما يفرض الممتنعات ، والثاني : ما في العدول إلى المضارع من تصوير ما كانوا عليه وتهجينه مع التوبيخ بإرادة استمرار ما حقه أن يكون مفروضاً فضلاً عن الوقوع ، والثالث : ما في العنت من الدلالة على أشد المحذور فإنه الكسر بعد الجبر والرمز الخفي على أنه ليس بأول بادرة .

(197/717)

والرابع : ما في تعميم الخطاب والحري به غير الكمل من التعريض ليكون أردع لمرتكبه وأزجر لغيره كأنه قيل : يا أيها الذين آمنوا تبينوا إن جاءكم فاسق ولا تكونوا أمثال هؤلاء ممن استفزه النبأ قبل تعرف صدقه ثم لا يقنعه ذلك حتى يريد أن يستتبع رأي من هو المتبوع على

الإطلاق فيقع هو ويقع غيره في العنت والإرهاق واعلموا جلالة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفادوا عن أشباه هذه الهنات ، وقوله عز وجل :

(198/717)

﴿ ولكن الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الايمان وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكفر والفسوق والعصيان ﴾ استدراك على ما يقتضيه الكلام فإن ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ ﴾ خطاب كما سمعت للبعض الغير الكمل عمم للفوائد المذكورة والمحبب إليهم الإيمان هم الكمل فكأنه قيل : ولكن الله حبب إلى بعضكم الإيمان وعدل عنه لنداء الصفة به ، وعليه قول بعض المفسرين هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، والإشارة بقوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الرشدون ﴾ إليهم ، وفيه نوع من الالتفات ، والخطاب فيه للرسول صلى الله عليه وسلم كأنه تعالى يبصره عليه الصلاة والسلام ما هم فيه من سبق القدم في الرشاد أي إصابة الطريق السوي ، فحاصل المعنى أنتم على الحال التي ينبغي لكم تغييرها وقد بدر منكم ما بدر ولكن ثم جمعا عما أنتم عليه من تصديق الكاذب وتزيين الإيقاع بالبرىء وإرادة أن يتبع الحق أهواءكم برآء لأن الله تعالى حبب إليهم الإيمان الخ ، وهذا أولى من جعل ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ ﴾ الخ في معنى ما حبب إليهم الإيمان تغليظاً لأن من تصدى للإيقاع بالبرىء بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم وجسر

على ارتكاب تلك العظيمة لم يكن محبوباً إليه الإيمان وإن كان ذلك أيضاً سديد الشيوع التصرف في الأواخر في مثله ، وجعله بعضهم استدراكاً ببيان عذرهم فيما بدر منهم ، ومآل المعنى لم يحملكم على ما كان منكم اتباع الهوى ومحبة متابعة النبي صلى الله عليه وسلم لآرائكم بل محبة الإيمان وكراهة الكفر هي الداعية لذلك ، والمناسب لما بعد ما ذكرناه .

(199/717)

وجوز غير واحد من المعربين أن ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ ﴾ استئناف على معنى أنه لما قيل ﴿ واعلموا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ الله ﴾ دالاً على أنهم جاهلون بمكانه عليه الصلاة والسلام مفرطون فيما يجب من تعظيم شأنه أعلى الله تعالى شأنه اتجه لهم أن يسألوا ماذا فعلوا حتى نسبوا إلى التفريط وماذا ينتج من المضرة ؟ فأجيبوا بما يصرح بالنتيجة لخفائها ويومىء إلى ما فيها من المعرة من وقوعهم في العنت بسبب استتباع من هو في علو المنصب اقتداء يتخطى أعلى المجرة ، وهو حسن لولا أن ﴿ واعلموا ﴾ كلام من تتمة الأول كما يؤذن به العطف لا وارد تقريعاً على الاستقلال فيأبى التقدير المذكور لتعين موجب التفريط ، وأيضاً يفوت التعريض وأن ذلك بادرة من بعضهم في قصة ابن عقبة ويتنافر الكلام ، هذا ﴿ وَكَرَّهَ

﴿ يتعدى بنفسه إلى واحد وإذا شدد زاد له آخر لكنه ضمن في الآية معنى التبغيض فعومل معاملته وحسنه مقابلته لحبب أو نزل ﴿ إِلَيْكُمْ ﴾ منزلة مفعول آخر ، و ﴿ الكفر ﴾ تغطية نعم الله تعالى بالجحود ، و ﴿ الفسوق ﴾ الخروج عن القصد ومأخذه ما تقدم ، ﴿ والعصيان ﴾ الامتناع عن الانقياد ، وأصله من عصت النواة صلبت واشتدت ، والكلام أعني قوله تعالى : ﴿ ولكن الله ﴾ الخ ثناء عليهم بما يردف التحبيب المذكور والتكريه من فعل الأعمال المرضية والطاعات والتجنب عن الأفعال القبيحة والسيآت على سبيل الكناية ليقع التقابل موقعه على ما سلف آنفاً ، وقيل : الداعي لذلك ما يلزم على الظاهر من المدح بفعل الغير مع أن الكلام مسوق للثناء عليهم وهو في إيثارهم الإيمان وإعراضهم عن الكفر وأخويه لا في تحبيب الله تعالى الإيمان لهم وتكريهه سبحانه الكفر وما معه إليهم .

(200/717)

وأنت تعلم أن الثناء على صفة الكمال اختيارية كانت أولاً شائع في عرف العرب والعجم ، والمنكر معاند على أن ذلك واقع على الجماد أيضاً ، والمسلم الضروري أنه لا يمدح الرجل بما لم يفعله على أنه فعله ، وإليه الإشارة في قوله تعالى : ﴿ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ

﴾ [آل عمران : 188] أما أنه لا يمدح به على أنه صفة له فليس بمسلم فلا تغفل .

﴿ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَنِعْمَةً ﴾

تعليل للأفعال المستندة إليه عز وجل في قوله سبحانه : ﴿ ولكن الله حَبَّبَ ﴾ [الحجرات : 7] الخ وما في البين اعتراض ؛ وجوز كونه تعليلاً للراشدين ، وصح النصب على القول باشتراط اتحاد الفاعل أي من قام به الفعل وصدر عنه موجداً له أولاً لما أن الرشد وقع عبارة عن التحبيب والتزيين والتكريه مسندة إلى اسمه تبارك اسمه فإنه لو قيل مثلاً حبب إليكم الإيمان فضلاً منه وجعل كناية عن الرشد لصح فيحسن أن يقال : أولئك هم الراشدون فضلاً ويكون في قوة أولئك هم المحببون فضلاً أو لأن الرشد ههنا يستلزم كونه تعالى شأنه مرشداً إذ هو مطاوع أرشد ، وهذا نظير ما قالوا من أن الإراءة تستلزم رؤية في قوله سبحانه : ﴿ يُرِيكُمُ البرق خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ [الرعد : 12] فيتحد الفاعل ويصح النصب ، وجوز كونه مصدراً لغير فعله فهو منصوب إما بحبب أو بالراشدين فإن التحبيب والرشد من فضل الله تعالى وإنعامه ، وقيل : مفعول به لمحذوف أي يبتغون فضلاً ﴿ والله عَلِيمٌ ﴾ مبالغ في العلم فيعلم أحوال المؤمنين وما بينهم من التفاضل ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يفعل كل ما يفعل من أفضال وأنعام وغيرهما بموجب الحكمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

قوله : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ لاَ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ الله وَرَسُولِهِ ﴾

قرأ الجمهور ﴿ تقدّموا ﴾ بضم المثناة الفوقية ، وتشديد الدال مكسورة ، وفيه وجهان : أحدهما : أنه متعدّ ، وحذف مفعوله لقصد التعميم ، أو ترك المفعول للقصد إلى نفس الفعل كقولهم : هو يعطي ويمنع ، والثاني : أنه لازم نحو : وجه وتوجه ، ويعضدّه قراءة ابن عباس ، والضحاك ، ويعقوب (تقدموا) بفتح التاء والقاف والدال .

قال الواحدي : قدم ها هنا بمعنى تقدّم ، وهو لازم .

قال أبو عبيدة : العرب تقول : لا تقدّم بين يدي الإمام وبين يدي الأب ، أي : لا تعجل بالأمر دونه والنهي ؛ لأن المعنى : لا تقدّموا قبل أمرهما ونهيهما ، وبين يدي الإمام عبارة عن الإمام لا ما بين يدي الإنسان ، ومعنى الآية : لا تقطعوا أمراً دون الله ورسوله ، ولا تعجلوا به .

وقيل : المراد معنى بين يدي فلان : بحضرته ؛ لأن ما يحضره الإنسان ، فهو بين يديه ﴿ واتقوا الله ﴾ في كلّ أموركم ، ويدخل تحتها الترك للتقدّم بين يدي الله ورسوله دخولاً أوّلياً .

ثم علل ما أمر به من التقوى بقوله : ﴿ إِنَّ الله سَمِيعٌ ﴾ لكلّ مسموع ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بكل معلوم ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ لاَ تَرْفَعُواْ أصواتكم فَوْقَ صَوْتِ النبى ﴾ يحتمل أن المراد حقيقة رفع الصوت ؛ لأن ذلك يدلّ على قلة الاحتشام وترك الاحترام ؛ لأن خفض الصوت

وعدم رفعه من لوازم التعظيم والتوقير .

ويحتمل أن يكون المراد : المنع من كثرة الكلام ومزيد اللغط ، والأوّل أولى .

والمعنى : لا ترفعوا أصواتكم إلى حدّ يكون فوق ما يبلغه صوت النبيّ صلى الله عليه وسلم .

قال المفسرون : المراد من الآية : تعظيم النبي وتوقيره ، وأن لا ينادوه كما ينادي بعضهم بعضاً ﴿ وَلاَ تَجْهَرُواْ لَهُ بالقول كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ أي : لا تجهروا بالقول إذا كلمتموه ، كما تعتادونه من الجهر بالقول إذا كلم بعضكم بعضاً .

(202/717)

قال الزجاج : أمرهم الله بتجليل نبيه ، وأن يغضوا أصواتهم ، ويخاطبوه بالسكينة والوقار ، وقيل : المراد بقوله ﴿ وَلاَ تَجْهَرُواْ لَهُ بالقول ﴾ : لا تقولوا يا محمد ويا أحمد ؛ ولكن يا نبيّ ، الله ويا رسول الله ، توقيراً له ، والكاف في محل نصب على أنها نعت مصدر محذوف ، أي : جهراً مثل جهر بعضكم لبعض ، وليس المراد برفع الصوت وبالجهر في القول هو ما يقع على طريقة الاستخفاف ، فإن ذلك كفر ، وإنما المراد أن يكون الصوت في نفسه غير مناسب لما يقع في مواقف من يجب تعظيمه وتوقيره .

والحاصل أن النهي هنا وقع عن أمور ، الأوّل : عن التقدّم بين يديه بما لا يأذن به من الكلام .

والثاني : عن رفع الصوت البالغ إلى حدّ يكون فوق صوته ، سواء كان في خطابه ، أو في خطاب غيره .

والثالث : ترك الجفاء في مخاطبته ، ولزوم الأدب في مجاورته ؛ لأن المقاولة المجهورة إنما تكون بين الأكفاء الذين ليس لبعضهم على بعض مزية توجب احترامه وتوقيره .

ثم علل سبحانه ما ذكره بقوله : ﴿ أَن تَحْبَطَ أعمالكم ﴾ قال الزجاج : أن تحبط أعمالكم التقدير : لأن تحبط أعمالكم ، أي : فتحبط ، فاللام المقدرة لام الصيرورة كذا قال ، وهذه العلة يصح أن تكون للنهي ، أي : نهاكم الله عن الجهر خشية أن تحبط ، أو كراهة أن تحبط ، أو علة للمنهي أي : لا تفعلوا الجهر فإنه يؤدّي إلى الحبوط ، فكلام الزجاج ينظر إلى الوجه الثاني لا إلى الوجه الأوّل ، وجملة : ﴿ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ في محل نصب على الحال ، وفيه تحذير شديد ووعيد عظيم .

قال الزجاج : وليس المراد وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ يوجب أن يكفر الإنسان وهو لا يعلم ، فكما لا يكون الكافر مؤمناً إلاّ باختياره الإيمان على الكفر ، كذلك لا يكون الكافر كافراً من حيث لا يعلم .

ثم رغب سبحانه في امتثال ما أمر به ، فقال : ﴿ إِنَّ الذين يَغُضُّونَ أصواتهم عِندَ رَسُولِ الله ﴾ أصل الغض : النقص من كل شيء .

ومنه نقص الصوت ﴿ أُوْلَئِكَ الذين امتحن الله قُلُوبَهُمْ للتقوى ﴾ قال الفراء : أخلص قلوبهم للتقوى ، كما يمتحن الذهب بالنار ، فيخرج جيده من رديئه ، ويسقط خبيثه .

وبه قال مقاتل ، ومجاهد وقتادة .

وقال الأخفش : اختصها للتقوى ، وقيل : طهرها من كلّ قبيح ، وقيل : وسعها وسرّحها ، من محنت الأديم : إذا وسعته .

وقال أبو عمرو : كلّ شيء جهدته فقد محنته ، واللام في ﴿ للتقوى ﴾ متعلقة بمحذوف ، أي : صالحة للتقوى كقولك أنت صالح لكذا ، أو للتعليل الجاري مجرى بيان السبب ، كقولك جئتك لأداء الواجب ، أي : ليكون مجيئي سبباً لأداء الواجب ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ أي : أولئك لهم ، فهو خبر آخر لاسم الإشارة ، ويجوز أن يكون مستأنفاً لبيان ما أعدّ الله لهم في الآخرة .

﴿ إِنَّ الذين يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الحجرات أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ هم جفاة بني تميم كما سيأتي بيانه ، و ﴿ وراء الحجرات ﴾ : خارجها وخلفها ، والحجرات : جمع حجرة ، كالغرفات جمع غرفة ، والظلمات جمع ظلمة ، وقيل : الحجرات جمع حجرة ، والحجر جمع

حجرة ، فهو جمع الجمع ، الحجرة : الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوّط عليها ، وهي فعيلة بمعنى مفعولة .

قرأ الجمهور : ﴿ الحجرات ﴾ بضم الجيم .

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع ، وشيبة بفتحها تخفيفاً ، وقرأ ابن أبي عبلة بإسكانها ، وهي لغات ، و "من" في ﴿ من وراء ﴾ لابتداء الغاية ، ولا وجه للمنع من جعلها لهذا المعنى ﴿ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ لغلبة الجهل عليهم ، وكثرة الجفاء في طباعهم .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حتى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ ﴾ أي : لو انتظروا خروجك ، ولم يعجلوا بالمناداة لكان أصلح لهم في دينهم ودنياهم ، لما في ذلك من رعاية حسن الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورعاية جانبه الشريف والعمل بما يستحقه من التعظيم والتجليل .

(204/717)

وقيل : إنهم جاءوا شفعاء في أسارى ، فأعتق رسول الله صلى الله عليه وسلم نصفهم ، وفادى نصفهم ، ولو صبروا لأعتق الجميع ، ذكر معناه مقاتل ﴿ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ كثير المغفرة والرحمة بليغهما لا يؤاخذ مثل هؤلاء فيما فرط منهم من إساءة الأدب ﴿ يا أَيُّهَا

الذين ءامَنُواْ إِن جَاءَكُمْ فَاسِقُ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ قرأ الجمهور ﴿ فتبينوا ﴾ من التبين ، وقرأ حمزة ، والكسائي (فتثبتوا) من التثبت ، والمراد من التبين : التعرّف والتفحص ، ومن التثبت : الأناة وعدم العجلة والتبصر في الأمر الواقع والخبر الوارد حتى يتضح ويظهر .

قال المفسرون : إن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله .

وقوله : ﴿ إِن تُصِيبُواْ قَوْمَا بِجَهَالَةٍ ﴾ مفعول له ، أي : كراهة أن تصيبوا ، أو لئلا تصيبوا ؛ لأن الخطأ ممن لم يتبين الأمر ، ولم يتثبت فيه هو الغالب وهو جهالة ؛ لأنه لم يصدر عن علم ، والمعنى : ملتبسين بجهالة بحالهم ﴿ فَتُصْبِحُواْ على مَا فَعَلْتُمْ ﴾ بهم من إصابتهم بالخطأ ﴿ نادمين ﴾ على ذلك مغتمين له مهتمين به .

(205/717)

ثم وعظهم الله سبحانه ، فقال : ﴿ واعلموا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ الله ﴾ فلا تقولوا قولاً باطلاً ، ولا تتسرّعوا عند وصول الخبر إليكم من غير تبين ، و " أن " وما في حيزها سادة مسدّ مفعولي اعلموا ، وجملة : ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ الأمر لَعَنِتُّمْ ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير فيكم ، أو مستأنفة ، والمعنى : لو يطيعكم في كثير مما تخبرونه به من الأخبار

الباطلة ، وتشيرون به عليه من الآراء التي ليست بصواب ؛ لوقعتم في العنت ، وهو التعب والجهد والإثم والهلاك ، ولكنه لا يطيعكم في غالب ما تريدون قبل وضوح وجهه له ، ولا يسارع إلى العمل بما يبلغه قبل النظر فيه ﴿ ولكن الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمان ﴾ أي : جعله أحبّ الأشياء إليكم ، أو محبوباً لديكم ، فلا يقع منكم إلاّ ما يوافقه ، ويقتضيه من الأمور الصالحة ، وترك التسرع في الأخبار ، وعدم التثبت فيها ، قيل : والمراد بهؤلاء : من عدا الأوّلين ؛ لبيان براءتهم عن أوصاف الأوّلين ، والظاهر أنه تذكير للكل بما يقتضيه الإيمان ، وتوجبه محبته التي جعلها الله في قلوبهم ﴿ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ أي : حسنه بتوفيقه حتى جروا على ما يقتضيه في الأقوال والأفعال ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكفر والفسوق والعصيان ﴾ أي : جعل كل ما هو من جنس الفسوق ، ومن جنس العصيان مكروهاً عندكم ، وأصل الفسق : الخروج عن الطاعة ، والعصيان : جنس ما يعصى الله به ، وقيل : أراد بذلك الكذب خاصة ، والأوّل أولى ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الرشدون ﴾ أي : الموصوفون بما ذكرهم الراشدون .

(206/717)

والرشد : الاستقامة على طريق الحق مع تصلب ، من الرشادة : وهي الصخرة ﴿ فَضْلاً مّنَ اللهِ وَنِعْمَةً ﴾ أي : لأجل فضله وإنعامه ، والمعنى : أنه حبّب إليكم ما حبَّب ، وكرّه ما كرّه ؛ لأجل فضله وإنعامه ، أو جعلكم راشدين لأجل ذلك ، وقيل : النصب بتقدير فعل ، أي : تبتغون فضلاً ونعمة ﴿ واللهُ عَلِيمٌ ﴾ بكل معلوم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في كل ما يقضي به بين عباده ويقدّره لهم .

وقد أخرج البخاري وغيره ، عن عبد الله بن الزبير قال : قدم ركب من بني تميم على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر : أمر القعقاع بن معبد ، وقال عمر : بل أمر الأقرع بن حابس ، فقال أبو بكر : ما أردت إلاّ خلافي ، فقال عمر : ما أردت خلافك ، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما ، فأنزل الله : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ لاَ تُقَدّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ حتى انقضت الآية .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ لاَ تُقَدّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ قال : نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة في الآية قالت : لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم .

وأخرج البخاري في تاريخه عنها قالت : كان أناس يتقدّمون بين يدي رمضان بصيام ، يعني : يوماً أو يومين ، فأنزل الله : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ لاَ تُقَدّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ .

وأخرج الطبراني ، وابن مردويه عنها أيضاً : أن ناساً كانوا يتقدّمون الشهر ، فيصومون قبل النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ الآية .

(207/717)

وأخرج البزار ، وابن عدي ، والحاكم ، وابن مردويه عن أبي بكر الصديق قال : أنزلت هذه الآية ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ لاَ تَرْفَعُواْ أصواتكم فَوْقَ صَوْتِ النبى ﴾ قلت : يا رسول الله ، والله لا أكلمك إلاّ كأخي السرار ، وفي إسناده حصين بن عمر ، وهو ضعيف ؛ ولكنه يؤيده ما أخرجه عبد بن حميد ، والحاكم وصححه من طريق أبي سلمة ، عن أبي هريرة قال : لما نزلت : ﴿ إِنَّ الذين يَغُضُّونَ أصواتهم عِندَ رَسُولِ الله ﴾ قال أبو بكر : والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلاّ كأُخي السرار حتى ألقى الله .

وأخرج البخاري ، ومسلم وغيرهما عن أنس قال : لما نزلت : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ لاَ تَرْفَعُواْ أصواتكم فَوْقَ صَوْتِ النبى ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ وكان ثابت بن قيس بن شماس رفيع الصوت فقال : أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حبط عملي ، أنا من أهل النار ، وجلس في بيته حزيناً ، ففقده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانطلق بعض القوم إليه ، فقالوا : فقدك رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، ما لك ؟ قال : أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبيّ ، وأجهر له بالقول ، حبط عملي ، أنا من أهل النار ، فأتوا النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فأخبروه بذلك ، فقال : " لا ، بل هو من أهل الجنة "

؛ فلما كان يوم اليمامة قتل .

وفي الباب أحاديث بمعناه .

(208/717)

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة في قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ الذين امتحن الله قُلُوبَهُمْ للتقوى ﴾ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " منهم ثابت بن قيس بن شماس " وأخرج أحمد ، وابن جرير ، وأبو القاسم البغوي ، والطبراني ، وابن مردويه ، قال السيوطي : بسند صحيح من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن الأقرع بن حابس ، أنه أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد اخرج إلينا ، فلم يجبه ، فقال : يا محمد إن حمدي زين ، وإن ذمي شين ، فقال : " ذاك الله " ، فأنزل الله : ﴿ إِنَّ الذين يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الحجرات ﴾ ، قال ابن منيع : لا أعلم روى الأقرع مسنداً غير هذا .

وأخرج الترمذي وحسنه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن

البراء بن عازب في قوله : ﴿ إِنَّ الذين يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الحجرات ﴾ قال : جاء رجل فقال : يا محمد إن حمدي زين ، وإن ذمي شين ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ذاك الله " .

وأخرج ابن راهويه ، ومسدد ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه قال السيوطي : بإسناد حسن عن زيد بن أرقم قال : اجتمع ناس من العرب فقالوا : انطلقوا إلى هذا الرجل فإن يك نبياً فنحن أسعد الناس به ، وإن يك ملكاً نعش بجناحه ، فأتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبرته بما قالوا ، فجاءوا إلى حجرته ، فجعلوا ينادونه : يا محمد يا محمد فأنزل الله : ﴿ إِنَّ الذين يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الحجرات أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذني ، وجعل يقول : " لقد صدّق الله قولك يا زيد ، لقد صدق الله قولك يا زيد " وفي الباب أحاديث .

(209/717)

وأخرج أحمد ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن منده ، وابن مردويه ، قال السيوطي : بسند جيد عن الحارث بن ضرار الخزاعي قال : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعاني إلى الإسلام ، فدخلت فيه وأقررت به ، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها ،

وقلت : يا رسول الله أرجع إلى قومي ، فأدعوهم إلى الإسلام ، وأداء الزكاة ، فمن استجاب لي جمعت زكاته ، وترسل إليّ يا رسول الله رسولاً لإبان كذا وكذا ؛ ليأتيك ما جمعت من الزكاة ، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له ، وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليه احتبس الرسول ، فلم يأت ، فظنّ الحارث أن قد حدث فيه سخطة من الله ورسوله ، فدعا سروات قومه ، فقال لهم : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان وقت لي وقتاً يرسل إليّ رسوله ؛ ليقبض ما كان عندي من الزكاة وليس من رسول الله الخلف ، ولا أرى حبس رسوله إلاّ من سخطة ، فانطلقوا فنأتي رسول الله ، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة إلى الحارث ؛ ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة ، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فَرَقَ فرجع ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إن الحارث منعني الزكاة ، وأراد قتلي ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم البعث إلى الحارث ، فأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقلّ البعث ، وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا : هذا الحارث ؟ فلما غشيهم قال لهم : إلى من بعثتم ؟ قالوا : إليك ، قال : ولم ؟ قالوا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إليك الوليد بن عقبة ، فزعم أنك منعته الزكاة ، وأردت قتله ، قال : لا ، والذي بعث محمداً بالحقّ ما رأيته بتة ، ولا أتاني ، فلما دخل الحارث على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" منعت الزكاة ، وأردت قتل رسولي " ؟ قال : لا والذي بعثك بالحقّ ما رأيته ، ولا رآني ، وما أقبلت إلاّ حين احتبس عليّ رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم خشيت أن تكون كانت سخطة من الله ورسوله ، فنزل : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ إِن جَاءَكُمْ فَاسِقُ بِنَبَإٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ حَكِيمٌ ﴾ قال ابن كثير : هذا من أحسن ما روي في سبب نزول الآية . وقد رويت روايات كثيرة متفقة على أنه سبب نزول الآية ، وأنه المراد بها وإن اختلفت القصص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 58.62 ﴾

(211/717)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﴾

عطف على جملة ﴿ إن جاءكم فاسق بنبأ ﴾ [الحجرات : 6] عطفَ تشريع على تشريع وليس مضمونها تكملة لمضمون جملة ﴿ إن جاءكم فاسق ﴾ الخ بل هي جملة مستقلة .

وابتداء الجملة بـ ﴿ اعلموا ﴾ للاهتمام ، وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ واعلموا أن الله يعلم

ما في أنفسكم فاحذروه ﴾ في سورة البقرة (235) .

وقوله : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء ﴾ في الأنفال (41) .

وقوله : أن فيكم رسول اللَّه ﴾ إن خبر مستعمل في الإيقاظ والتحذير على وجه الكِنَاية .

فإن كون رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم أمر معلوم لا يخبر عنه .

فالمقصود تعليم المسلمين باتباع ما شرع لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأحكام ولو كانت غير موافقة لرغباتهم .

وجملة ﴿ لو يطيعكم في كثير من الأمر ﴾ الخ يجوز أن تكون استئنافاً ابتدائياً .

فضميرا الجمع في قوله : ﴿ يطيعكم ﴾ وقوله : ﴿ لعنتم ﴾ عائدان إلى الذين آمنوا على توزيع الفعل على الأفراد فالمطاع بَعض الذين آمنوا وهم الذين يبتغون أن يعمَل الرسولُ صلى الله عليه وسلم بما يطلبون منه ، والعانِت بعض آخر وهم جمهور المؤمنين الذين يجري عليهم قضاء النبي صلى الله عليه وسلم بحسب رغبة غيرهم .

ويجوز أن تكون جملة ﴿ لو يطيعكم ﴾ الخ في موضع الحال من ضمير ﴿ فيكم ﴾ لأن مضمون الجملة يتعلق بأحوال المخاطبين ، من جهة أن مضمون جواب ﴿ لو ﴾ عَنَتٌ يحصل للمخاطبين .

ومآل الاعتبارين في موقع الجملة واحد وانتظام الكلام على كلا التقديرين غير منثلم .

والطاعة : عمل أُحد يُؤمَر به وما يُنهى عنه وما يشار به عليه ، أي لو أطاعكم فيما

ترغبون .

و﴿ الأمر ﴾ هنا بمعنى الحادث والقضية النازلة .

والتعريف في الأمر تعريف الجنس شامل لجميع الأمور ولذلك جيء معه بلفظ ﴿ كثير من ﴾ أي في أحداث كثيرة مما لكم رغبة في تحصيل شيء منها فيه مخالفة لما شرعه .

(212/717)

وهذا احتراز عن طاعته إياهم في بعض الأمر مما هو غير شؤون التشريع كما أطاعهم في نزول الجيش يوم بدر على جهة يستأثِرون فيها بماء بدر .

والعنت : اختلال الأمر في الحاضر أو في العاقبة .

وصيغة المضارع في قوله : ﴿ لو يطيعكم ﴾ مستعملة في الماضي لأن حرف ﴿ لو ﴾ يفيد تعليق الشرط في الماضي ، وإنما عدل إلى صيغة المضارع لأن المضارع صالح للدلالة على الاستمرار ، أي لو أطاعكم في قضية معينة ولو أطاعكم كلما رغبتم منه أو أشرتم عليه لعنتُّم لأن بعض ما يطلبونه مضر بالغير أو بالراغب نفسه فإنه قد يحب عاجِل النفع العائدَ عليه بالضر .

وتقديم خبر (أنَّ) على اسمها في قوله : ﴿ أن فيكم رسولَ الله ﴾ للاهتمام بهذا الكون

فيهم وتنبيهاً على أن واجبهم الاغتباط به والإخلاص له لأن كونه فيهم شرف عظيم لجماعتهم وصلاح لهم .

والعَنت : المشقة ، أي لأصاب الساعين في أن يعمل النبي صلى الله عليه وسلم بما يرغبون العنتُ .

وهو الإثم إذا استغفلوا النبي صلى الله عليه وسلم ولأصاب غيرهم العنت بمعنى المشقة وهي ما يلحقهم من جريان أمر النبي صلى الله عليه وسلم على ما يلائم الواقع فيضر ببقية الناس وقد يعود بالضر على الكاذب المتشفي برغبته تارة فيلحق عنت من كذب غيره تارة أخرى .

﴿ لَعَنِتُّمْ ولكن الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الايمان وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكفر والفسوق والعصيان أولئك هُمُ ﴾ ﴿ الراشدون * فَضْلاً مِّنَ الله وَنِعْمَةً والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

الاستدراك المستفاد من ﴿ لكنَّ ﴾ ناشىء عن قوله : ﴿ لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ﴾ لأنه اقتضى أن لبعضهم رغبة في أن يطيعهم الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يرغبون أن يفعله مما يبتغون مما يخالونه صالحاً بهم في أشياء كثيرة تعرِض لهم .

والمعنى : ولكن الله لا يأمرُ رسوله إلا بما فيه صلاح العاقبة وإن لم يصادف رغباتكم العاجلة وذلك فيما شرعه الله من الأحكام ، فالإيمان هنا مراد منه أحكام الإسلام وليس مراداً منه الاعتقاد ، فإن اسم الإيمان واسم الإسلام يتواردان ، أي حبب إليكم الإيمان الذي هو الدين الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وهذا تحريض على التسليم لما يأمر به الرسول صلى الله عليه وسلم وهو في معنى قوله تعالى : ﴿ حتى يُحَكِّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ [النساء : 65] ، ولذا فكونه حبّب إليهم الإيمان إدماج وإيجاز .

والتقدير : ولكن الله شرع لكم الإسلام وحببه إليكم أي دعاكم إلى حبه والرضى به فامتثلتم .

وفي قوله : ﴿ وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ﴾ تعريض بأن الذين لا يطيعون الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم بقية من الكفر والفسوق ، قال تعالى : ﴿ وإذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون إلى قوله : ﴿ هم الظالمون ﴾ [النور : 48 50] .

والمقصود من هذا أن يتركوا ما ليس من أحكام الإيمان فهو من قبيل قوله ﴿ بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ﴾ [الحجرات : 11] تحذيراً لهم من الحياد عن مَهْيَعِ الإيمان وتجنيباً لهم ما هو من شأن أهل الكفر .

فالخبر في قوله : ﴿ حبب إليكم الإيمان ﴾ إلى قوله : ﴿ والعصيان ﴾ مستعمل في الإلهاب وتحريك الهِمم لمراعاة محبة الإيمان وكراهة الكفر والفسوق والعصيان ، أي إن كنتم أحببتم الإيمان وكرهتم الكفر والفسوق والعصين فلا ترغبوا في حصول ما ترغبونه إذا كان الدين يصد عنه وكان الفسوق والعصيان يدعو إليه .

[وفي هذا إشارة إلى أن الاندفاع إلى تحصيل المرغوب من الهوى دون تمييز بين ما يرضي الله وما لا يرضيه أثر من آثار الجاهلية مِن آثار الكفر والفسوق والعصيان .

(214/717)

وذكر اسم الله في صدر جملة الاستدراك دون ضمير المتكلم لما يشعر به اسم الجلالة من المهابة والروعة .

وما يقتضيه من واجب اقتبال ما حَبّب إليه ونبذِ ما كَرَّه إليه .

وعدي فعلاً ﴿ حبب ﴾ و ﴿ كَرَّه ﴾ بحرف (إلى) لتضمينهما معنى بَلَّغَ ، أي بلغ إليكم حب الإيمان وكُره الكفر .

ولم يعدّ فعل ﴿ وزينه ﴾ بحرف (إلى) مثل فعلي ﴿ حبّب ﴾ و ﴿ كرّه ﴾ ، للإيماء إلى أنه لما رغّبهم في الإيمان وكرههم الكفر امتثلوا فأحبّوا الإيمان وزان في قلوبهم .

والتزيين : جعل الشيء زَينا ، أي حسناً قال عمر بن أبي ربيعة:

أجمعتْ خُلتي مع الفجر بَينا . . .

جَلل الله ذلك الوجه زَيْنا

وجملة ﴿ أولئك هم الراشدون ﴾ معترضة للمدح.

والإشارة بـ ﴿ أولئك ﴾ إلى ضمير المخاطبين في قوله : ﴿ إليكم ﴾ مرتين وفي قوله : ﴿ قلوبكم ﴾ أي الذين أحبّوا الإيمان وتزينت به قلوبهم ، وكَرِهُوا الكفر والفسوقَ والعصيان هم الراشدون ، أي هم المستقيمون على طريق الحق .

وأفاد ضمير الفصلِ القصرَ وهو قصر إفراد إشارة إلى أن بينهم فريقا ليسوا براشدين وهم الذين تلبسوا بالفسق حين تلبسهم به فإن أقلعوا عنه التحقوا بالراشدين .

وانتصب ﴿ فضلاً من اللَّه ونعمة ﴾ على المفعول المطلق المبين للنوع من أفعال ﴿ حَبَّب ﴾ ﴿ وزَيَّن ﴾ ﴿ وكرَّه ﴾ لأن ذلك التحبيب والتزّيين والتّكريه من نوع الفضل والنعمة .

وجملة ﴿ واللَّه عليم حكيم ﴾ تذييل لجملة ﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله ﴾ إلى آخرها إشارة إلى أن ما ذكر فيها من آثار علم الله وحكمته .

والواو اعتراضية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن عشر بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثامن عشر بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 9 ﴾ من سورة الحجرات

وحتى الآية ﴿ 14 ﴾ من السورة

(4/718)

قوله تعالى ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (9) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كانت النميمة ونقل الأخبار الباطلة الذميمة ربما جرت فتناً وأوصلت إلى القتال ، وكان العليم الحكيم لا ينصب سبباً إلا ذكر مسببه وأشار إلى دوائه ، وكان لا ينهى عن الشيء إلا من كان متهيئاً له لما في جبلته من الداعي إليه ، فكان قد يواقعه ولو في وقت ، قال تعالى معلماً لنا طريق الحكمة في دفع ما جرت إليه الأخبار الباطلة من القتال ، معبراً بأداة

الشك إشارة إلى أن ما في حيزها لا ينبغي أن يقع بينهم ، ولا أن يذكروه إلا على سبيل الفرض : ﴿ وإن طائفتان ﴾ أي جماعتان بالفعل أو القوة جدير كل جماعة منهما بأن يجتمع على ما دهمها من الأمير بحيث تصير من شدة مراعاته كالطائفة حوله والمتحلقة به ، بحيث لا يدرى من شدة اجتماعها على ذلك أولها من آخرها ﴿ من المؤمنين ﴾ أي ممن هو معدود في عداد العريقين في الإيمان سواء كان هو عريقاً أو فاعلاً ما يطلق عليه به الاسم فقط .

(5/718)

ولما كانت الشناعة والفساد في قتال الجماعة أكثر ، عبر بضمير الجمع دون التثنية تصويراً لذلك بأقبح صورة فقال : ﴿ اقتتلوا ﴾ أي فاختلطوا بسبب القتال حتى كانوا كالفرقة الواحدة ﴿ فأصلحوا ﴾ أي فأوقعوا الإصلاح ليحصل الصلح .

ولما كانت العبرة في الصلح إذا وقع بين الطائفتين ما يسكن به الشر وإن تخلف شذان من الجانبين لا يعبأ بهم ، عبر بالتثنية دون الجمع فقال : ﴿ بينهما ﴾ أي بالوعظ والإرشاد الدنيوي والأخروي ، ولا تظنوا أن الباغي غير مؤمن فتتجاوزوا فيه أمر الله .

ولما كان البغي من أشنع الأمور فكان ينبغي أن لم يلم به أحد ، عبر بأداة الشك إرشاداً إلى

ذلك فقال : ﴿ فإن بغت ﴾ أي أوقعت الإرادة السيئة الكائنة من النفوس التي لا تأمر بخير ﴿ إحداهما ﴾ أي الطائفتين ﴿ على الأخرى ﴾ فلم ترجع إلى حكم الله الذي خرجت عنه ولم تقبل الحق .

ولما كان الإضمار هنا ربما أوهم لبساً فتمسك به متعنت في أمر فساد ، أزال بالإظهار كل لبس فقال : ﴿ فقاتلوا ﴾ أي أوجدوا واطلبوا مقاتلة ﴿ التي ﴾ .

ولما كان القتال لا يجوز إلا بالاستمرار على البغي ، عبر بالمضارع إفهاماً لأنه متى زال البغي ولو بالتوبة من غير شوكة حرم القتال فقال : ﴿ تبغي ﴾ أي توقع الإرادة وتصر عليها ، وأديموا القتال لها ﴿ حتى تفيء ﴾ أي ترجع مما صارت إليه من جر القطيعة الذي كأنه حر الشمس حين نسخه الظل إلى ما كانت فيه من البر والخير الذي هو كالظل الذي ينسخ الشمس ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ إلى أمر الله ﴾ أي التزام ما أمر به الملك الذي لا يهمل الظالم ، بل لا بد أن يقاصصه وأمره ما كانت عليه من العدل قبل البغي .

ولما كانت مقاتلة الباغي جديرة بترجيعه ، أشار إلى ذلك بقوله : ﴿ فإن فاءت ﴾ أي رجعت إلى ما كانت عليه من التمسك بأمر الله الذي هو العدل ﴿ فأصلحوا ﴾ أي أوقعوا الإصلاح ﴿ بينهما ﴾ .

ولما كان الخصام يجر في الغالب من القول والفعل ما يورث للمصلحين إحنة على بعض المتخاصمين ، فيحمل ذلك على الميل مع بعض على بعض ، قال : ﴿ بالعدل ﴾ ولا يحملكم القتال على الحقد على المتقاتلين فتحيفوا .

ولما كان العدل في مثل ذلك شديداً على النفوس لما تحملت من الضغائن قال تعالى : ﴿ وأقسطوا ﴾ أي وأزيلوا القسط - بالفتح وهو الجور - بأن تفعلوا القسط بالكسر وهو العدل العظيم الذي لا جور فيه ، في ذلك وفي جميع أموركم ، ثم علله ترغيباً فيه بقوله مؤكداً تنبيهاً على أنه من أعظم ما يتمادح به ، وردّاً على من لعله يقول : إنه لا يلزم نفسه الوقوف عنده إلا ضعيف : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي بيده النصر والخذلان ﴿ يحب المقسطين ﴾ أي يفعل مع أهل العدل من الإكرام فعل المحب .

ولما أمر بما قد يفضي إلى القتال ، وكان الباغي ربما كان أقرب إلى الصلح من جهة النسب من المبغيّ عليه فروعي ، وكان القتال أمراً شاقاً ربما حمل على الإحجام عن الإصلاح ، علل ذلك سبحانه بما قدم فيه قرابة الدين على قرابة النسب ، وكشف كشفاً تاماً عن أنه لا يسوغ له تركه لما يؤدي إليه من تفريق الشمل المؤدي إلى وهن الإسلام وأهله المؤدي إلى ظهور الباطل المؤدي إلى الفساد الأعظم الذي لا تدارك له فقال تعالى : ﴿ إنما المؤمنون ﴾ أي كلهم وإن تباعدت أنسابهم وأغراضهم وبلادهم ﴿ إخوة ﴾ لانتسابهم إلى أصل واحد

وهو الإيمان ، لا بعد بينهم ، ولا يفضل أحد منهم على أحد بجهة غير جهة الإيمان .

ولما كانت الأخوة داعية ولا بد إلى الإصلاح ، سبب عنها قوله : ﴿ فأصلحوا ﴾ .

(7/718)

ولما كانت الطائفة قد تطلق على ما هو أصل لأن يطاف حوله كما يطلق على ما فيه أهلية التحليق والطواف ، وكان أقل ما يكون ذلك في الأثنين ، وأن مخاصمتهما يجر إلى مخاصمة طائفتين بأن يغضب لكل ناس من قبيلته وأصحابه ، قال واضعاً الظاهر موضع المضمر مبالغة في تقرير الأمر وتأكيده ، وإعلاماً بأن المراد بالطائفة القوة لا الفعل بحيث يكون ذلك شاملاً للاثنين فما فوقهما : ﴿ بين أخويكم ﴾ أي المختلفين بقتال أو غيره كما تصلحون بين أخويكم من النسب ، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ، بل الأمر كما نقل عن أبي عثمان الحيري أن أخوة الدين أثبت من أخوة النسب ، وقرأ يعقوب ﴿ إخوتكم ﴾ بالجمع ، وقراءة الجماعة أبلغ لدلالتها على الاثنين فما فوقهما بالمطابقة ﴿ واتقوا الله ﴾ أي الملك الأعظم الذين هم عباده في الإصلاح بينهما بالقتال وغيره ، لا تفعلوا ما صورته إصلاح وباطنه إفساد ، وأشار إلى سهولة الأمور عنده ونفوذ أمره وأن النفوس إنما تشوفها إلى الإكرام لا إلى كونه من معين ، فبنى للمفعول قوله تعالى : ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ أي لتكونوا إذا

فعلتم ذلك على رجاء عند أنفسكم ومن ينظركم من أن يكرمكم الذي لا قادر في الحقيقة على الإكرام غيره بأنواع الكرامات كما رحمتم إخوتكم بإكرامهم عن إفساد ذات البين التي هي الحالقة ، وقد دلت الآية أن الفسق بغير الكفر لا يخرج عن الإيمان ، وعلى أن الإصلاح من أعظم الطاعات ، وعلى وجوب نصر المظلوم لأن القتال لا يباح بدون الوجوب ، قال القشيري : وذلك يدل على عظم وزر الواشي والنمام والمضرب في إفساد ذات البين ، وقال : من شرط الأخوة أن لا تحوج أخاك إلى الاستعانة بك والتماس النصرة منك ، ولا تقصر في تفقد أحواله بحيث يشكل عليك موضع حاجته فيحتاج إلى مسألتك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 230.232 ﴾

(8/718)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾

لما حذر الله المؤمنين من النبأ الصادر من الفاسق ، أشار إلى ما يلزم منه استدراكاً لما يفوت ، فقال فإن اتفق أنكم تبنون على قول من يوقع بينكم ، وآل الأمر إلى اقتتال طائفتين من

المؤمنين ، فأزيلوا ما أثبته ذلك الفاسق وأصلحوا بينهما ﴿ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا على الأخرى فقاتلوا التى تَبْغِى ﴾ أي الظالم يجب عليكم دفعه عنه ، ثم إن الظالم إن كان هو الرعية ، فالواجب على الأمير دفعهم ، وإن كان هو الأمير ، فالواجب على المسلمين منعه بالنصيحة فما فوقها ، وشرطه أن لا يثير فتنة مثل التي في اقتتال الطائفتين أو أشد منهما ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قوله تعالى : ﴿ وإِنْ ﴾ إشارة إلى ندرة وقوع القتال بين طوائف المسلمين ، فإن قيل فنحن نرى أكثر الاقتتال بين طوائفهم ؟ نقول قوله تعالى : ﴿ وإِنْ ﴾ إشارة إلى أنه ينبغي أن لا يقع إلا نادراً ، غاية ما في الباب أن الأمر على خلاف ما ينبغي ، وكذلك ﴿ إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ ﴾ [الحجرات : 6] إشارة إلى أن مجيء الفاسق بالنبأ ينبغي أن يقع قليلاً ، مع أن مجيء الفاسق بالنبأ كثير ، وقول الفاسق صار عند أولي الأمر أشد قبولاً من قول الصادق الصالح .

المسألة الثانية :

قال تعالى : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ ﴾ ولم يقل وإن فرقتان تحقيقاً للمعنى الذي ذكرناه وهو التقليل ، لأن الطائفة دون الفرقة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ [التوبة

: 122] .

المسألة الثالثة :

(9/718)

قال تعالى : ﴿ مِنَ المؤمنين ﴾ ولم يقل منكم ، مع أن الخطاب مع المؤمنين لسبق قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين ءَامَنُواْ إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ ﴾ [الحجرات : 6] تنبيهاً على قبح ذلك وتبعيداً لهم عنهم ، كما يقول السيد لعبده : إن رأيت أحداً من غلماني يفعل كذا فامنعه ، فيصير بذلك مانعاً للمخاطب عن ذلك الفعل بالطريق الحسن ، كأنه يقول : أنت حاشاك أن تفعل ذلك ، فإن فعل غيرك فامنعه ، كذلك ههنا قال : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ المؤمنين ﴾ ولم يقل منكم لما ذكرنا من التنبيه مع أن المعنى واحد .

المسألة الرابعة :

قال تعالى : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا ﴾ ولم يقل : وإن اقتتل طائفتان من المؤمنين ، مع أن كلمة ﴿ إن ﴾ اتصالها بالفعل أولى ، وذلك ليكون الابتداء بما يمنع من القتال ، فيتأكد معنى النكرة المدلول عليها بكلمة ﴿ إن ﴾ وذلك لأن كونهما طائفتين مؤمنتين يقتضي أن لا يقع القتال منهما ، فإن قيل فلم لم يقل : يا أيها الذين آمنوا إن فاسق جاءكم ، أو إن أحد من

الفساق جاءكم ، ليكون الابتداء بما يمنعهم من الإصغاء إلى كلامه ، وهو كونه فاسقاً ؟

نقول المجيء بالنبأ الكاذب يورث كون الإنسان فاسقاً ، أو يزداد بسببه فسقه ، فالمجيء به سبب الفسق فقدمه .

وأما الاقتتال فلا يقع سبباً للإيمان أو الزيادة ، فقال : ﴿ إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ ﴾ أي سواء كان فاسقاً أو لا أو جاءكم بالنبأ فصار فاسقاً به ، ولو قال : وإن أحد من الفساق جاءكم ، كان لا يتناول إلا مشهور الفسق قبل المجيء إذا جاءهم بالنبأ .

المسألة الخامسة :

قال تعالى : ﴿ اقتتلوا ﴾ ولم يقل : يقتتلوا ، لأن صيغة الاستقبال تنبىء عن الدوام والاستمرار ، فيفهم منه أن طائفتين من المؤمنين إن تمادى الاقتتال بينهما فأصلحوا ، وهذا لأن صيغة المستقبل تنبىء عن ذلك ، يقال فلان يتهجد ويصوم .

المسألة السادسة :

(10/718)

قال : ﴿ اقتتلوا ﴾ ولم يقل اقتتلا ، وقال : ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾ ولم يقل بينهم ، ذلك لأن عند الاقتتال تكون الفتنة قائمة ، وكل أحد برأسه يكون فاعلاً فعلاً ، فقال : ﴿ اقتتلوا ﴾

وعند العود إلى الصلح تتفق كلمة كل طائفة ، وإلا لم يكن يتحقق الصلح فقال : ﴿ بَيْنَهُمَا ﴾ لكون الطائفتين حينئذ كنفسين .

(11/718)

ثم قال تعالى : ﴿ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا ﴾ إشارة إلى نادرة أخرى وهي البغي ، لأنه غير متوقع ، فإن قيل كيف يصح في هذا الموضع كلمة ﴿ إن ﴾ مع أنها تستعمل في الشرط الذي لا يتوقع وقوعه ، وبغي أحدهما عند الاقتتال لا بد منه ، إذ كل واحد منهما لا يكون محسناً ، فقوله ﴿ إن ﴾ تكون من قبيل قول القائل : إن طلعت الشمس ، نقول فيه معنى لطيف ، وهو أن الله تعالى يقول : الاقتتال بين طائفتين لا يكون إلا نادر الوقوع ، وهو كما تظن كل طائفة أن الأخرى فيها الكفر والفساد ، فالقتال واجب كما سبق في الليالي المظلمة ، أو يقع لكل واحد أن القتال جائز بالاجتهاد ، وهو خطأ ، فقال تعالى : الاقتتال لا يقع إلا كذا ، فإن بان لهما أو لأحدهما الخطأ واستمر عليه فهو نادر ، وعند ذلك يكون قد بغى فقال : ﴿ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا على الأخرى ﴾ يعني بعد استبانة الأمر ، وحينئذ فقوله ﴿ فَإِن بَغَتْ ﴾ في غاية الحسن لأنه يفيد الندرة وقلة الوقوع ، وفيه أيضاً مباحث الأول : قال : ﴿ فَإِن بَغَتْ ﴾ ولم يقل فإن تبغ لما ذكرنا في قوله تعالى : ﴿ اقتتلوا ﴾ ولم يقل يقتتلوا الثاني :

قال : ﴿ حتى تَفِيءَ ﴾ إشارة إلى أن القتال ليس جزاء للباغي كحد الشرب الذي يقام وإن ترك الشرب ، بل القتال إلى حد الفيئة ، فإن فاءت الفئة الباغية حرم قتالهم الثالث : هذا القتال لدفع الصائل ، فيندرج فيه وذلك لأنه لما كانت الفيئة من إحداهما ، فإن حصلت من الأخرى لا يوجد البغي الذي لأجله حلَّ القتال الرابع : هذا دليل على أن المؤمن بالكبيرة لا يخرج عن كونه مؤمناً لأن الباغي جعله من إحدى الطائفتين وسماهما مؤمنين الخامس : قوله تعالى : ﴿ إلى أَمْرِ الله ﴾ يحتمل وجوهاً أحدها : إلى طاعة الرسول وأولي الأمر لقوله تعالى : ﴿ أَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول وَأُوْلِي الأمر مِنْكُمْ ﴾ [النساء : 59] .

(12/718)

وثانيها : إلى أمر الله ، أي إلى الصلح فإنه مأمور به يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ ﴾ [الأنفال : 1] ، ثالثها : إلى أمر الله بالتقوى ، فإن من خاف الله حق الخوف لا يبقى له عداوة إلا مع الشيطان كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشيطان لَكُمْ عَدُوٌّ فاتخذوه عَدُوّاً ﴾ [فاطر : 6] ، السادس : لو قال قائل قد ذكرتم ما يدل على كون الشرط غير متوقع الوقوع وقلتم بأن القتال والبغي من المؤمن نادر ، فإذن تكون الفئة متوقعة فكيف قال :

﴿ فَإِن فَاءتْ ﴾ ؟ نقول قول القائل لعبده : إن مت فأنت حر ، مع أن الموت لا بد من وقوعه ، لكن لما كان وقوعه بحيث يكون العبد محلاً للعتق بأن يكون باقياً في ملكه حياً يعيش بعد وفاته غير معلوم فكذلك ههنا لما كان الواقع فيئتهم من تلقاء أنفسهم فلما لم يقع دل على تأكيد الأخذ بينهم فقال تعالى : ﴿ فَإِن فَاءَتْ ﴾ بقتالكم إياهم بعد اشتداد الأمر والتحام الحرب فأصلحوا ، وفيه معنى لطيف وهو أنه تعالى أشار إلى أن من لم يخف الله وبغى لا يكون رجوعه بقتالكم إلا جبراً السابع : قال ههنا : ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بالعدل ﴾ ولم يذكر العدل في قوله ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا فَأَصْلِحُواْ ﴾ نقول لأن الإصلاح هناك بإزالة الاقتتال نفسه ، وذلك يكون بالنصيحة أو التهديد والزجر والتعذيب ، والإصلاح ههنا بإزالة آثار القتل بعد اندفاعه من ضمان المتلفات وهو حكم فقال : ﴿ بالعدل ﴾ فكأنه قال : واحكموا بينهما بعد تركهما القتال بالحق وأصلحوا بالعدل مما يكون بينهما ، لئلا يؤدي إلى ثوران الفتنة بينهما مرة أخرى الثامن : إذا قال : ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بالعدل ﴾ فأية فائدة في قوله ﴿ وَأَقْسِطُواْ ﴾ نقول قوله فأصلحوا بينهما بالعدل كان فيه تخصيص بحال دون حال فعمم الأمر بقوله ﴿ وَأَقْسِطُواْ ﴾ أي في كل أمر مفض إلى أشرف درجة وأرفع منزلة وهي محبة الله ، والإقساط إزالة القسط وهو الجور

والقاسط هو الجائر ، والتركيب دال على كون الأمر غير مرضي من القسط والقاسط في القلب وهو أيضاً غير مرضي ولا معتد به فكذلك القسط .

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10)

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ تتميماً للإرشاد وذلك لأنه لما قال : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا ﴾ [الحجرات : 9] كان لظان أن يظن أو لمتوهم أن يتوهم أن ذلك عند اختلاف قوم ، فأما إذا كان الاقتتال بين اثنين فلا تعم المفسدة فلا يؤمر بالإصلاح ، وكذلك الأمر بالإصلاح هناك عند الاقتتال ، وأما إذا كان دون الاقتتال كالتشاتم والتسافه فلا يجب الإصلاح فقال : ﴿ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ وإن لم تكن الفتنة عامة وإن لم يكن الأمر عظيماً كالقتال بل لو كان بين رجلين من المسلمين أدنى اختلاف فاسعوا في الإصلاح .

وقوله ﴿ واتقوا الله لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ فيه مسائل :

المسألة الأولى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ ﴾ قال بعض أهل اللغة الأخوة جمع الأخ من النسب والإخوان جمع الأخ من الصداقة ، فالله تعالى قال : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ ﴾ تأكيداً للأمر وإشارة إلى أن ما بينهم ما بين الأخوة من النسب والإسلام كالأب ، قال قائلهم :

أبي الإسلام لا أب (لي) سواه . . إذا افتخروا بقيس أو تميم

المسألة الثانية :

(14/718)

عند إصلاح الفريقين والطائفتين لم يقل اتقوا ، وقال ههنا اتقوا مع أن ذلك أهم ؟ نقول الفائدة هو أن الاقتتال بين طائفتين يفضي إلى أن تعم المفسدة ويلحق كل مؤمن منها شيء وكل يسعى في الإصلاح لأمر نفسه فلم يؤكد بالأمر بالتقوى ، وأما عند تخاصم رجلين لا يخاف الناس ذلك وربما يزيد بعضهم تأكد الخصام بين الخصوم لغرض فاسد فقال : ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ واتقوا الله ﴾ أو نقول قوله ﴿ فَأَصْلِحُواْ ﴾ إشارة إلى الصلح ، وقوله ﴿ واتقوا الله ﴾ إشارة إلى ما يصونهم عن التشاجر ، لأن من اتقى الله شغله تقواه عن الاشتغال بغيره ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : " المسلم من سلم الناس من لسانه و (يده) " لأن المسلم يكون منقاداً لأمر الله مقبلاً على عباد الله فيشغله عيبه عن عيوب الناس ويمنعه أن يرهب الأخ المؤمن ، وإليه أشار النبي صلى الله عليه وسلم : " المؤمن من يأمن جاره بوائقه " يعني اتق الله فلا تتفرغ لغيره .

المسألة الثالثة :

﴿ إِنَّمَا ﴾ للحصر أي لا أخوة إلا بين المؤمنين ، وأما بين المؤمن والكافر فلا ، لأن الإسلام هو الجامع ولهذا إذا مات المسلم وله أخ كافر يكون ماله للمسلمين ولا يكون لأخيه الكافر ، وأما الكافر فكذلك لأن في النسب المعتبر الأب الذي هو أب شرعاً ، حتى أن ولدي الزنا من رجل واحد لا يرث أحدهما الآخر ، فكذلك الكفر كالجامع الفاسد فهو كالجامع العاجز لا يفيد الأخوة ، ولهذا من مات من الكفر وله أخ مسلم ولا وارث له من النسب لا يجعل ماله للكفار ، ولو كان الدين يجمعهم لكان مال الكافر للكفار ، كما أن مال المسلم للمسلمين عند عدم الوارث ، فإن قيل قد ثبت أن الأخوة للإسلام أقوى من الأخوة النسبية ، بدليل أن المسلم يرثه المسلمون ولا يرثه الأخ الكافر من النسب ، فلم لم يقدموا الأخوة الإسلامية على الأخوة النسبية مطلقاً حتى يكون مال المسلم للمسلمين لا لأخوته من النسب ؟ نقول هذا سؤال فاسد ، وذلك لأن الأخ المسلم إذا كان أخاً من النسب فقد اجتمع فيه أخوتان فصار أقوى والعصوبة لمن له القوة ، ألا ترى أن الأخ من الأبوين يرث ولا يرث الأخ من الأب معه فكذلك الأخ المسلم من النسب له أخوتان فيقدم على سائر المسلمين ، والله أعلم .

المسألة الرابعة :

قال النحاة (ما) في هذا الموضع كافة تكف إن عن العمل ، ولولا ذلك لقيل : إنما المؤمنين إخوة ، وفي قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [آل عمران : 159] وقوله ﴿ عَمَّا قَلِيلٍ ﴾ [المؤمنون : 40] ليست كافة .

(16/718)

والسؤال الأقوى هو أن رب من حروف الجر والباء وعن كذلك ، وما في رب كافة وفي عما وبما ليست كافة ، والتحقيق فيه هو أن الكلام بعد ربما وإنما يكون تاماً ، ويمكن جعله مستقلاً ولو حذف ربما وإنما لم ضر ، فنقول ربما قام الأمير وربما زيد في الدار ، ولو حذفت ربما وقلت زيد في الدار وقام الأمير لصح ، وكذلك في إنما ولكنما ، وأما عما وبما فليست كذلك ، لأن قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ لو أذهبت بما وقلت رحمة من الله لنت لهم ، لما كان كلاماً فالباء يعد تعلقها بما يحتاج إليها فهي باقية حقيقة ، ولكنما وإنما وربما لما استغنى عنها فكأنها لم يبق حكمها ولا عمل للمعدوم ، فإن قيل إن إذا لم تكف بما فما بعده كلام تام ، فوجب أن لا يكون له عمل تقول إن زيداً قائم ولو قلت زيد قائم لكفى وتم ؟ نقول : ليس كذلك لأن ما بعد إن جاز أن يكون نكرة ، تقول إن رجلاً جاءني وأخبرني بكذا وأخبرني بعكسه ، وتقول جاءني رجل وأخبرني ، ولا يحسن إنما رجل جاءني كما لو

لم تكن هناك إنما ، وكذلك القول في بينما وأينما فإنك لو حذفتهما واقتصرت على ما يكون بعدهما لا يكون تاماً فلم يكف ، والكلام في لعل قد تقدم مراراً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 109.112 ﴾

(17/718)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

كانت عادة العرب وهي إلى الآن الاشتراك في الآراء وأن يتكلم كل بما شاء ويفعل ما أحب ، فمشى بعض الناس ممن لم تتمرن نفسه مع النبي صلى الله عليه وسلم على بعض ذلك ، قال قتادة : فربما قال قوم : لو نزل كذا وكذا في معنى كذا وكذا وينبغي أن يكون كذا ، وأيضاً فإن قوماً ذبحوا ضحاياهم قبل النبي صلى الله عليه وسلم ، حكاه الحسن بن أبي الحسن ، وقوماً فعلوا في بعض حروبه وغزواته أشياء بآرائهم ، فنزلت هذه الآية ناهية عن جميع ذلك ، وحكى الثعلبي عن مسروق أنه قال : دخلت على عائشة في يوم الشك فقالت للجارية : اسقه عسلاً ، فقلت : إني صائم ، فقالت : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صيام هذا اليوم ، وفيه نزلت : ﴿ لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ﴾ . وقال ابن زيد :

معنى ﴿ لا تقدموا ﴾ لا تمشوا " بين يدي رسول الله " ، وكذلك بين يدي العلماء فإنهم ورثة الأنبياء . وتقول العرب : تقدمت في كذا وكذا وتقدمت فيه : إذا قلت فيه .

وقرأ الجمهور من القراء : " تُقدِموا " بضم التاء وكسر الدال . وقرأ ابن عباس والضحاك ويعقوب بفتح التاء والدال على معنى : لا تتقدموا ، وعلى هذا يجيء تأويل ابن زيد في المشي . والمعنى على ضم التاء ﴿ بين يدي ﴾ قول الله ورسوله .

(18/718)

وروي أن سبب هذه الآية هو أن وفد بني تميم لما قدم قال أبو بكر الصديق : يا رسول الله لو أمرت الأقرع بن حابس . وقال عمر بن الخطاب : لا يا رسول الله ، بل أمر القعقاع بن معبد ، فقال له أبو بكر : ما أردت إلى خلافي ، ويروى إلا خلافي ، فقال عمر : ما أردت خلافك ، وارتفعت أصواتهما فنزلت الآية في ذلك . وذهب بعض قائلي هذه المقالة إلى أن قوله : ﴿ لا تقدموا ﴾ معناه : ﴿ لا تقدموا ﴾ ولاة ، فهو من تقديم الأمراء ، وعموم اللفظ أحسن ، أي اجعلوه مبدأً في الأقوال والأفعال . و: ﴿ سميع ﴾ معناه : لأقوالكم . ﴿ عليم ﴾ معناه : بأفعالكم ومقتضى أقوالكم .

وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا ﴾ الآية هي أيضاً في ذلك الفن المتقدم ، وروى

حيح أنها نزلت بسبب عادة الأعراب من الجفاء وعلو الصوت والعنجهية ، وكان ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه في صوته جهارة ، فلما نزلت هذه الآية اهتم وخاف على نفسه وجلس في بيته لم يخرج ، وهو كئيب حزين حتى عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم خبره فبعث فيه فأنسه وقال له : " امش في الأرض بسطاً فإنك من أهل الجنة " . وقال له مرة : " أما ترضى أن تعيش حميداً وتموت شهيداً " فعاش كذلك ، ثم قتل باليمامة يوم مسيلمة .

وفي قراءة ابن مسعود : " لا ترفعوا بأصواتكم " بزيادة الباء .

وقوله : ﴿ كجهر بعضكم لبعض ﴾ أي كحال جهركم في جفائه وكونه مخاطبة بالأسماء والألقاب ، وكانوا يدعون النبي صلى الله عليه وسلم . يا محمد يا محمد ، قاله ابن عباس وغيره ، فأمرهم الله بتوقيره ، وأن يدعوه بالرسالة والنبوءة والكلام اللين ، فتلك حالة الموقر ، وكره العلماء رفع الصوت عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم . وبحضرة العالم وفي المساجد ، وفي هذه كلها آثار .

(19/718)

وقوله تعالى : ﴿ أن تحبط ﴾ مفعول من أجله ، أي مخافة ﴿ أن تحبط ﴾ ، والحبط : إفساد العمل بعد تقرره ، يقال حبِط بكسر الباء وأحبطه الله ، وهذا الحبط إن كانت الآية معرضة بمن يفعل ذلك استخفافاً واستحقاراً وجرأة فذلك كفر . والحبط معه على حقيقته ، وإن كان التعريض للمؤمن الفاضل الذي يفعل ذلك غفلة وجرياً على طبعه ، فإنما يحبط عمله البر في توقير النبي صلى الله عليه وسلم وغض الصوت عنده أن لو فعل ذلك ، فكأنه قال : أن تحبط الأعمال التي هي معدة أن تعملوها فتؤجروا عليها . ويحتمل أن يكون المعنى : أن تأثموا ويكون ذلك سبباً إلى الوحشة في نفوسكم ، فلا تزال معتقداتكم تتجرد القهقرى حتى يؤول ذلك إلى الكفر فتحبط الأعمال حقيقة . وظاهر الآية أنها مخاطبة لفضلاء المؤمنين الذين لا يفعلون ذلك احتقاراً ، وذلك أنه لا يقال لمنافق يعمل ذلك جرأة وأنت لا تشعر ، لأنه ليس له عمل يعتقده هو عملاً . وفي قراءة عبد الله بن مسعود : " فتحبط أعمالكم " .

ثم مدح الصنف المخالف لمن تقدم ذكره ، وهم ﴿ الذين يغضون أصواتهم ﴾ عند النبي صلى الله عليه وسلم . وغض الصوت : خفضه وكسره ، وكذلك البصر ، ومنه قول جرير : [الوافر]

فغض الطرف إنك من نمير . . . وروي أن أبا بكر وعمر كانا بعد ذلك لا يكلمان رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا كأخي السرار ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحتاج مع عمر

بعد ذلك إلى استعادة اللفظ ، لأنه كان لا يسمعه من إخفائه إياه . و: ﴿ امتحن الله ﴾ معناه اختبر وظهر كما يمتحن الذهب بالنار فيسرها وهيأها للتقوى . وقال عمر بن الخطاب : امتحن للتقوى أذهب عنها الشهوات .

قال القاضي أبو محمد : من غلب شهوته وغضبه ، فذلك الذي ﴿ امتحن الله ﴾ قلبه للتقوى ، وبذلك تكون الاستقامة .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين ينادونك ﴾ إلى قوله ﴿ رحيم ﴾

(20/718)

نزلت في وفد بني تميم حيث كان الأقرع بن حابس والزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم وغيرهم ، وذلك أنهم وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخلوا المسجد ودنوا من حجر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وهي تسعة ، فجعلوا ولم ينتظروا ، فنادوا بجملتهم : يا محمد اخرج إلينا يا محمد اخرج إلينا فكان في فعلهم ذلك جفاء وبداوة وقلة توقير ، فتربص رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرج إليهم ، فقال له الأقرع بن حابس : يا محمد ، إن مدحي زين وذمي شين ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ويلك ، ذلك الله تعالى " واجتمع الناس في المسجد ، فقام خطيبهم وفخر ، فأمر رسول الله صلى

الله عليه وسلم ثابت بن قيس بن شماس فخطب وذكر الله والإسلام ، فأربى على خطيبهم ، ثم قام شاعرهم فأنشد مفتخراً ، فقام حسان بن ثابت ففخر بالله وبالرسول وبالبسالة ، فكان أشعر من شاعرهم ، فقال بعضهم لبعض : والله إن هذا الرجل لمؤتى له ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ثم نزلت فيهم هذه الآية .

هذا تلخيص ما تظاهرت به الروايات في هذه الآية ، وقد رواه موسى بن عقبة عن أبي سلمة عن الأقرع بن حابس ، وفي مصحف ابن مسعود : " أكثرهم بنو تميم لا يعقلون " ، و:

﴿ الحجرات ﴾ : جمع حجرة .

وقرأ جمهور القراء : " الحُجُرات " بضم الحاء والجيم ، وقرأ أبو جعفر القاري وحده : " الحُجَرات " بضم الحاء وفتح الجيم .

وقوله تعالى : ﴿ لكان خيراً لهم ﴾ يعني في الثواب عند الله وفي انبساط نفس النبي صلى الله عليه وسلم وقضائه لحوائجهم ووده لهم ، وذلك كله خير ، لا محالة أن بعضه انزوى بسبب جفائهم .

وقوله تعالى : ﴿ والله غفور رحيم ﴾ ترجية لهم وإعلام بقبوله توبة التائب وغفرانه ورحمته لمن أناب ورجع .

وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ ﴾ سببها أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق مصدقاً ، فروي أنه كان معادياً لهم فأراد إذايتهم ، فرجع من بعض طريقه وكذب عليهم ، قاله الضحاك ، وقال للنبي صلى الله عليه وسلم : إنهم منعوني الصدقة وطردوني وارتدوا ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم بغزوهم ، ونظر في ذلك ، وبعث خالد بن الوليد إليهم ، فورده وفدهم منكرين لذلك ، وروي عن أم سلمة وابن عباس أن الوليد بن عقبة لما قرب منهم خرجوا إليه متلقين له ، فرآهم على بعد ، ففزع منهم ، وظن بهم الشر وانصرف ، فقال ما ذكرناه ، وروي أنه لما قرب منهم بلغه عنهم أنهم قالوا : لا نعطيه الصدقة ولا نعطيه ، فعمل على صحة هذا الخبر وانصرف ، فقال ما ذكرناه فنزلت الآية بهذا السبب ، والوليد على ما ذكر مجاهد هو المشار إليه بالفاسق وحكى الزهراوي قالت أم سلمة : هو الوليد بن عقبة .

قال القاضي أبو محمد : ثم هي باقية فيمن اتصف بهذه الصفة غابر الدهر .

والفسق : الخروج عن نهج الحق ، وهو مراتب متباينة ، كلها مظنة للكذب وموضع تثبت وتبين ، وتأنس القائلون بقبول خبر الواحد بما يقتضيه دليل خطاب هذه الآية ، لأنه يقتضي أن غير الفاسق إذا جاء بنبإ أن يعمل بحسبه ، وهذا ليس باستدلال قوي وليس هذا موضع الكلام على مسألة خبر الواحد .

وقرأ الجمهور من القراء : " فتبينوا " من التبين . وقرأ الحسن وابن وثاب وطلحة والأعمش وعيسى : " فتثبتوا " .

و﴿ أن ﴾ في قوله : ﴿ أن تصيبوا ﴾ مفعول من أجله ، كأنه قال : مخافة ﴿ أن تصيبوا ﴾ . قال قتادة : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما نزلت هذه الآية : " التثبت من الله والعجلة من الشيطان " قال منذر بن سعيد هذه الآية ترد على من قال : إن المسلمين كلهم عدول حتى تثبت الجرحة ، لأن الله تعالى أمر بالتبين قبل القبول .

(22/718)

قال القاضي أبو محمد : فالمجهول الحال يخشى أن يكون فاسقاً والاحتباط لازم . قال النقاش " تبينوا " أبلغ ، لأنه قد يتثبت من لا يتبين .

وقوله تعالى : ﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله ﴾ توبيخ للكذبة ووعيد للفضيحة ، أي فليفكر الكاذب في أن الله عز وجل يفضحه على لسان رسوله ؛ ثم قال : ﴿ لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ﴾ أي لشقيتم وهلكتم ، والعنت : المشقة ، أي لو يطيعكم أيها المؤمنون في كثير مما ترونه باجتهادكم وتقدمكم بين يديه .

وقوله تعالى : ﴿ ولكن الله حبب إليكم ﴾ الآية كأنه قال : ولكن الله أنعم بكذا وكذا ،

وفي ذلك كفاية وأمر لا تقومون بشكره فلا تتقدموا في الأمور ، واقنعوا بإنعام الله عليكم ، وحبب الله تعالى الإيمان وزينه بأن خلق في قلوب المؤمنين حبه وحسنه ، وكذلك تكريه الكفر والفسق والعصيان ، وحكى الرماني عن الحسن أنه قال : حبب الإيمان بما وصف من الثواب عليه وكره الثلاثة المقابلة للإيمان بما وصف من العقاب عليها .

وقوله تعالى : ﴿ أولئك هم الراشدون ﴾ رجوع من الخطاب إلى ذكر الغيب ، كأنه قال : ومن فعل هذا وقبله وشكر عليه فأولئك هم الراشدون .

وقوله تعالى : ﴿ فضلاً من الله ونعمة ﴾ مصدر مؤكد لنفسه ، لأن ما قبله هو بمعناه ، إن التحبيب والتزيين هو نفس الفضل ، وقد يجيء المصدر مؤكداً لما قبله إذا لم يكن هو نفس ما قبله ، كقولك جاءني زيد حقاً ونحوه وكان قتادة رحمه الله يقول : قد قال الله تعالى لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ﴾ ، وأنتم والله أسخف الناس رأياً ، وأطيش أحلاماً ، فليتهم رجل نفسه ، ولينتصح كتاب الله تعالى .

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا

(23/718)

﴿ طائفتان ﴾ مرفوع بإضمار فعل . والطائفة : الجماعة . وقد تقع على الواحد ، واحتج لذلك بقوله تعالى : ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ﴾ [التوبة : 122] . ورأى بعض الناس أن يشهد حداً لزناة رجل واحد . فهذه الآية الحكم فيها في الأفراد وفي الجماعات واحد .

واختلف الناس في سبب هذه الآية . فقال أنس بن مالك والجمهور سببها : ما وقع بين المسلمين والمتحزبين منهم مع عبد الله بن أبي ابن سلول حين مر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوجه إلى زيارة سعد بن عبادة في مرضه . فقال عبد الله بن أبيّ لما غشيه حمار رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تغبروا علينا ولقد آذانا نتن حمارك . فرد عليه عبد الله بن رواحة الحديث بطوله . فتلاحى الناس حتى وقع بينهم ضرب بالجريد ، ويروى بالحديد . وقال أبو مالك والحسن سببها : أن فرقتين من الأنصار وقع بينهما قتال . فأصلحه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد جهد ونزلت الآية في ذلك وقال السدي : كانت بالمدينة امرأة من الأنصار يقال لها أم بدر ولها زوج من غيرهم . فوقع بينهما شيء أوجب أن يأنف لها قومها وله قومه . فوقع قتال نزلت الآية بسببه .

و: ﴿ بغت ﴾ معناه : طلبت العلو بغير الحق ، ومدافعة الفئة الباغية متوجه في كل حال وأما التهيؤ لقتالها فمع الولاة . وقيل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : أمشركون أهل صفين والجمل ؟ قال : لا . من الشرك فروا . قيل أفمنافقون ؟ قال : لا . لأن المنافقين لا

يذكرون الله إلا قليلاً . قيل فما حالهم ؟ قال : إخواننا بغوا علينا . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " حكم الله في الفئة الباغية أن لا يجهز على جريح . ولا يطلب هارب . ولا يقتل أسير " و: ﴿ تفيء ﴾ معناه : ترجع . والإقساط : الحكم بالعدل .

(24/718)

وقوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ يريد إخوة الدين . وقرأ الجمهور من القراء : " بين أخويكم " وذلك رعاية لحال أقل عدد يقع فيه القتال والتشاجر والجماعة متى فصل الإصلاح فإنما هو بين رجلين رجلين . وقرأ ابن عامر والحسن بخلاف عنه : " بين إخوتكم " .

وقرأ ابن سيرين وزيد بن ثابت وابن مسعود والحسن وعاصم الجحدري وحماد بن سلمة : " بين إخوانكم " . وهي حسنة . لأن الأكثر من جمع الأخ في الدين ونحوه من النسب إخوان . والأكثر في جمعه من النسب إخوة وإخاء . قال الشاعر : [الطويل]

وجدتم أخاكم دوننا إذ نسيتم . . . وأي بني الإخاء تنبو مناسبه

وقد تتداخل هذه الجموع في كتاب الله . فمنه : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ أو بيوت إخوانكم فهذا جاء على الأقل من الاستعمال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾ روَى الْمُعْتَمِر بن سليمان عن أنس بن مالك قال : قلت : يا نبيّ الله ، لو أتيت عبد الله ابن أُبَيّ ؟ فانطلق إليه النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فركب حماراً وانطلق المسلمون يمشون ، وهي أرض سَبِخة ؛ فلما أتاه النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : إليك عني ! فوالله لقد أذاني نَتْن حمارك .

فقال رجل من الأنصار : والله لحمار رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيب ريحاً منك .

فغضب لعبد الله رجل من قومه ، وغضب لكل واحد منهما أصحابه ؛ فكان بينهم حرب بالجريد والأيدي والنعال ؛ فبلغنا أنه أنزل فيهم هذه الآية .

وقال مجاهد : نزلت في الأوس والخزرج .

قال مجاهد : تقاتل حيّان من الأنصار بالعصي والنعال فنزلت الآية .

ومثله عن سعيد بن جبير : أن الأوس والخزرج كان بينهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قتال بالسَّعف والنعال ونحوه ؛ فأنزل الله هذه الآية فيهم .

وقال قتادة : نزلت في رجلين من الأنصار كانت بينهما مدارأة في حق بينهما ؛ فقال أحدهما : لآخذن حقي عَنوة ؛ لكثرة عشيرته .

ودعاه الآخر إلى أن يحاكمه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبى أن يتبعه ؛ فلم يزل الأمر بينهما حتى تواقعا وتناول بعضهم بعضاً بالأيدي والنعال والسيوف ، فنزلت هذه الآية .

وقال الكلبي : نزلت في حرب سُمير وحاطب ، وكان سُمير قتل حاطباً ، فاقتتل الأوس والخزرج حتى أتاهم النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فنزلت .

وأمر الله نبيّه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن يصلحوا بينهما .

(26/718)

وقال السُّدّي : كانت امرأة من الأنصار يقال لها : "أم زيد" تحت رجل من غير الأنصار ، فتخاصمت مع زوجها ، أرادت أن تزور قومها فحبسها زوجها وجعلها في عُلِّيّة لا يدخل عليها أحد من أهلها ، وأن المرأة بعثت إلى قومها ، فجاء قومها فأنزلوها لينطلقوا بها ،

فخرج الرجل فاستغاث أهله فخرج بنو عمه ليحولوا بين المرأة وأهلها ، فتدافعوا وتجالدوا بالنعال ؛ فنزلت الآية .

والطائفة تتناول الرجل الواحد والجمع والاْثنين ، فهو مما حمل على المعنى دون اللفظ ، لأن الطائفتين في معنى القوم والناس .

وفي قراءة عبد الله "حَتَّى يَفِيئُوا إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءُوا فخذوا بينهم بِالقِسطِ" .

وقرأ ابن أبي عَبْلَة "اقتتلتا" على لفظ الطائفتين .

وقد مضى في آخر "براءة" القول فيه .

وقال ابن عباس في قوله عز وجل : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ المؤمنين ﴾ [النور : 2] قال : الواحد فما فوقه ، والطائفة من الشيء القطعة منه .

﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾ بالدعاء إلى كتاب الله لهما أو عليهما ﴿ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا على الأخرى ﴾ تعدّت ولم تجب إلى حكم الله وكتابه .

والبغي : التطاول والفساد .

﴿ فَقَاتِلُواْ التي تَبْغِي حتى تفياء إلى أَمْرِ الله ﴾ أي ترجع إلى كتابه ﴿ فَإِن فَآءَتْ ﴾ رجعت ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بالعدل ﴾ أي احملوهما على الإنصاف .

﴿ وأقسطوا ﴾ أيها الناس فلا تقتتلوا .

وقيل : أقسطوا أي اعدلوا .

﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المقسطين ﴾ أي العادلين المحقين .

الثانية قال العلماء : لا تخلو الفئتان من المسلمين في اقتتالهما ، إما أن يقتتلا على سبيل البغي منهما جميعاً أو لا .

فإن كان الأوّل فالواجب في ذلك أن يُمْشَى بينهما بما يصلح ذات البين ويُثمر المكافّة والموادعة .

فإن لم يتحاجزا ولم يصطلحا وأقامتا على البغي صِير إلى مقاتلتهما .

(27/718)

وأما إن كان الثاني وهو أن تكون إحداهما باغيةً على الأخرى ، فالواجب أن تقاتل فئة البغي إلى أن تكف وتتوب ، فإن فعلت أصلح بينها وبين المبغيّ عليها بالقسط والعدل .

فإن التحم القتال بينهما لشبهة دخلت عليهما وكلتاهما عند أنفسهما محقة ، فالواجب إزالة الشبهة بالحجة النيّرة والبراهين القاطعة على مراشد الحق .

فإن ركبتا متن اللّجاج ولم تعملا على شاكلة ما هُدِيَتَا إليه ونُصحتا به من اتباع الحق بعد وضوحه لهما فقد لحقتا بالفئتين الباغيتين .

والله أعلم .

الثالثة في هذه الآية دليل على وجوب قتال الفئة الباغية المعلوم بغيها على الإمام أو على أحد من المسلمين .

وعلى فساد قول من منع من قتال المؤمنين ، واحتج بقوله عليه السلام : " قتال المؤمن كفر " ولو كان قتال المؤمن الباغي كفراً لكان الله تعالى قد أمر بالكفر ، تعالى الله عن ذلك ! وقد قاتل الصدّيق رضي الله عنه : من تمسك بالإسلام وامتنع من الزكاة ؛ وأمر ألا يُتبع مُوَلٍّ ، ولا يُجهز على جريح ، ولم تحل أموالهم ، بخلاف الواجب في الكفار .

وقال الطبري : لو كان الواجب في كل اختلاف يكون بين الفريقين الهربَ منه ولزومَ المنازل لما أقيم حدّ ولا أبطل باطل ، ولَوَجد أهل النفاق والفجور سبيلاً إلى استحلال كلّ ما حرم الله عليهم من أموال المسلمين وسَبْي نسائهم وسفك دمائهم ، بأن يتحزّبوا عليهم ، ويكفّ المسلمون أيديهم عنهم ، وذلك مخالف لقوله عليه السلام : " خذوا على أيدي سفهائكم " .

(28/718)

الرابعة قال القاضي أبو بكر بن العربي : هذه الآية أصل في قتال المسلمين ، والعمدة في حرب المتأولين ، وعليها عوّل الصحابة ، وإليها لجأ الأعيان من أهل الملة ، وإياها عنى النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : " تَقْتُل عَمَّاراً الفئةُ الباغية " " وقوله عليه السلام في شأن الخوارج :

"يخرجون على خير فرقة أو على حين فرقة" " ، والرواية الأولى أصح ، لقوله عليه السلام : " تقتلهم أوْلَى الطائفتين إلى الحق " وكان الذي قتلهم عليّ بن أبي طالب ومن كان معه .

فتقرر عند علماء المسلمين وثبت بدليل الدّين أن علياً رضي الله عنه كان إماماً ، وأن كل من خرج عليه باغٍ وأن قتاله واجب حتى يفيء إلى الحق وينقاد إلى الصلح ؛ لأن عثمان رضي الله عنه قُتل والصحابة بُرَآء من دمه ، لأنه مَنع من قتال من ثار عليه وقال : لا أكون أوّل مَن خَلَفَ رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمته بالقتل ، فصبر على البلاء ، واستسلم للمحنة وفدى بنفسه الأمة .

ثم لم يمكن ترك الناس سُدى ، فعرضت على باقي الصحابة الذين ذكرهم (عمر) في الشورى ، وتدافعوها ، وكان عليّ كرّم الله وجهه أحق بها وأهلها ، فقبلها حَوْطة على الأمة أن تسفك دماؤها بالتهارج والباطل ، أو يتخرق أمرها إلى ما لا يتحصل .

فربما تغيّر الدّين وانقض عمود الإسلام .

فلما بويع له طلب أهل الشام في شرط البيعة التمكن من قَتَلة عثمان وأخذ القَوَد منهم ، فقال لهم عليّ رضي الله عنه : ادخلوا في البيعة واطلبوا الحق تصلوا إليه .

فقالوا : لا تستحق بيعةً وقَتَلَة عثمان معك تراهم صباحاً ومَساء .

فكان عليّ في ذلك أسدَّ رأياً وأصوبَ قيلاً ؛ لأن عليًّا لو تعاطى القَوَد منهم لتعصبت لهم

قبائل وصارت حرباً ثالثة ؛ فانتظر بهم أن يستوثق الأمر وتنعقد البيعة ، ويقع الطلب من الأولياء في مجلس الحكم ؛ فيجري القضاء بالحق .

(29/718)

ولا خلاف بين الأمة أنه يجوز للإمام تأخير القصاص إذا أدّى ذلك إلى إثارة الفتنة أو تشتيت الكلمة .

وكذلك جرى لطلحة والزبير ؛ فإنهما ما خلعا عليًّا من ولاية ولا اعترضا عليه في ديانة ؛ وإنما رأَيا أن البُداءة بقتل أصحاب عثمان أولى .

قلت : فهذا قول في سبب الحرب الواقع بينهم .

وقال جلّة من أهل العلم : إن الوقعة بالبصرة بينهم كانت على غير عزيمة منهم على الحرب بل فجأة ، وعلى سبيل دفع كل واحد من الفريقين عن أنفسهم لظنه أن الفريق الآخر قد غدر به ، لأن الأمر كان قد انتظم بينهم ، وتم الصلح والتفرّق على الرضا .

فخاف قَتَلَة عثمان رضي الله عنه من التمكين منهم والإحاطة بهم ، فاجتمعوا وتشاوروا واختلفوا ؛ ثم اتفقت آراؤهم على أن يفترقوا فريقين ، ويبدءوا بالحرب سحرة في العسكرين ، وتختلف السهام بينهم ، ويصيح الفريق الذي في عسكر عليّ : غَدَر طلحة والزبير .

والفريق الذي في عسكر طلحة والزبير : غدر عليّ .

فتم لهم ذلك على ما دبروه ، ونَشِبَت الحرب ، فكان كل فريق دافعاً لمَكْرته عند نفسه ، ومانعاً من الإشاطة بدمه .

وهذا صواب من الفريقين وطاعة للّه تعالى ، إذ وقع القتال والامْتناع منهما على هذه السبيل .

وهذا هو الصحيح المشهور .

والله أعلم .

الخامسة قوله تعالى : ﴿ فَقَاتِلُواْ الَّتِي تَبْغِي حتى تفيء إلى أَمْرِ الله ﴾ أمرٌ بالقتال .

وهو فرضٌ على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، ولذلك تخلّف قوم من الصحابة رضي الله عنهم عن هذه المقامات ، كسعد بن أبي وَقّاص وعبد الله بن عمرو ومحمد بن مسلمة وغيرِهم .

وصوّب ذلك عليُّ بن أبي طالب لهم ، واعتذر إليه كل واحد منهم بعذر قَبِله منه .

ويروى أن معاوية رضي الله عنه لما أفضى إليه الأمر ، عاتب سعداً على ما فعل ، وقال له : لم تكن ممن أصلح بين الفئتين حين اقتتلا ، ولا ممن قاتل الفئة الباغية .

فقال له سعد : ندمتُ على تركي قتالَ الفئةِ الباغية .

فتبيّن أنه ليس على الكل دَرَكٌ فيما فعل ، وإنما كان تصرفاً بحكم الاْجتهاد وإعمالاً بمقتضى الشرع .

والله أعلم .

السادسة قوله تعالى : ﴿ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بالعدل ﴾ ومن العدل في صلحهم ألا يطالَبوا بما جرى بينهم من دمٍ ولا مال ؛ فإنه تَلَف على تأويل .

وفي طلبهم تنفير لهم عن الصلح واستشراءٌ في البغي .

وهذا أصل في المصلحة .

وقد قال لسان الأمة : إن حكمة الله تعالى في حرب الصحابة التعريفُ منهم لأحكام قتال أهل التأويل ، إذ كان أحكام قتال أهل الشرك قد عُرفت على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم وفعله .

السابعة إذا خرجت على الإمام العدل خارجةٌ باغيةٌ ولا حجة لها ، قاتلهم الإمام بالمسلمين كافّة أو بمن فيه كفاية ، ويدعوهم قبل ذلك إلى الطاعة والدخول في الجماعة ، فإن أَبَوْا من الرجوع والصلح قوتلوا .

ولا يُقتل أسيرهم ولا يتبع مُدْبِرهم ولا يُذَفَّف على جريحهم ، ولا تُسْبَى ذراريهم ولا أموالهم .

وإذا قتل العادلُ الباغي ، أو الباغي العادلَ وهو وليّه لم يتوارثا .

ولا يرث قاتلٌ عمداً على حال .

وقيل : إن العادل يرث الباغي ، قياساً على القصاص .

الثامنة وما استهلكه البغاة والخوارج من دم أو مال ثم تابوا لم يؤاخَذوا به .

وقال أبو حنيفة : يضمنون .

وللشافعي قولان .

وجْهُ قول أبي حنيفة أنه إتلاف بُعْد وان فيلزم الضمان .

والمعوّل في ذلك عندنا أن الصحابة رضي الله عنهم في حروبهم لم يتبعوا مُدْبِراً ولا ذَفّفُوا على جريح ولا قتلوا أسيراً ولا ضمنوا نفساً ولا مالاً ؛ وهم القُدْوة .

وقال ابن عمر : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " يا عبد الله أتدري كيف حكم الله فيمن بَغَى من هذه الأمة " ؟ " قال : الله ورسوله أعلم .

فقال : "لا يُجهز على جريحها ولا يُقتل أسيرها ولا يُطلب هاربها ولا يُقسم فَيْؤها " " فأما ما كان قائماً ردّ بعينه .

هذا كله فيمن خرج بتأويل يسوغ له .

(31/718)

وذكر الزَّمَخْشري في تفسيره : إن كانت الباغية من قلة العدد بحيث لا مَنَعة لها ضَمِنَت بعد الفيئة ما جَنَت ، وإن كانت كثيرة ذات مَنَعة وشوكة لم تضمن ؛ إلا عند محمد بن الحسن رحمه الله فإنه كان يُفتي بأن الضمان يلزمها إذا فاءت .

وأما قبل التَّجَمُّع والتّجنُّد أو حين تتفرّق عند وضع الحرب أوزارها ، فما جنته ضمنته عند الجميع .

فَحَمْلُ الإصلاح بالعدل في قوله : ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بالعدل ﴾ [الحجرات : 9] على مذهب محمد واضحٌ منطبق على لفظ التنزيل .

وعلى قول غيره وجْهُه أن يحمل على كون الفئة الباغية قليلة العدد .

والذي ذكروا أن الغرض إماتة الضغائن وسلّ الأحقاد دون ضمان الجنايات ، ليس بحُسن الطباق المأمور به من أعمال العدل ومراعاة القسط .

قال الزمخشري : فإن قلت : لِمَ قُرن بالإصلاح الثاني العدلُ دون الأوّل ؟ قلت : لأن المراد بالاقتتال في أوّل الآية أن يقتتلا باغيتين أو راكبتي شبهة ، وأيتهما كانت فالذي يجب على المسلمين أن يأخذوا به في شأنهما إصلاحُ ذات البَيْن وتسكينُ الدهْماء بإراءة الحق والمواعظ الشافية ونفي الشبهة ؛ إلا إذا أصرّتا فحينئذ تجب المقاتلة ؛ وأما الضمان فلا يتّجه .

وليس كذلك إذا بغت إحداهما ؛ فإن الضمان متّجه على الوجهين المذكورين .

التاسعة ولو تغلّبوا على بلد فأخذوا الصدقات وأقاموا الحدود وحكموا فيهم بالأحكام ، لم تُثَنّ عليهم الصدقات ولا الحدود ، ولا يُنقض من أحكامهم إلا ما كان خلافاً للكتاب أو السنّة أو الإجماع ؛ كما تنقض أحكام أهل العدل والسنّة ؛ قاله مُطَرّف وابن الماجِشون .

وقال ابن القاسم : لا تجوز بحال .

وروي عن أصْبَغ أنه جائز .

وروي عنه أيضاً أنه لا يجوز كقول ابن القاسم .

وبه قال أبو حنيفة ؛ لأنه عمل بغير حق ممن لا تجوز تَوْليته .

فلم يجز كما لو لم يكونوا بغاة .

(32/718)

والعمدة لنا ما قدمناه من أن الصحابة رضي الله عنهم ، لما انجلت الفتنة وارتفع الخلاف بالهدنة والصلح ، لم يعرضوا لأحد منهم في حكم .

قال ابن العربيّ : الذي عندي أن ذلك لا يصلح ؛ لأن الفتنة لما انجلت كان الإمام هو الباغي ، ولم يكن هناك من يعترضه والله أعلم .

العاشرة لا يجوز أن يُنسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوع به ، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه وأرادوا الله عز وجل ، وهم كلهم لنا أئمة ، وقد تعبّدنا بالكف عما شجر بينهم ، وألا نذكرهم إلا بأحسن الذكر ؛ لحرمة الصحبة ولنهي النبيّ صلى الله عليه وسلم عن سَبّهم ، وأن الله غفر لهم ، وأخبر بالرضا عنهم .

هذا مع ما قد ورد من الأخبار من طرق مختلفة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : أن طلحة شهيد يمشي على وجه الأرض ؛ فلو كان ما خرج إليه من الحرب عصياناً لم يكن بالقتل فيه شهيداً .

وكذلك لو كان ما خرج إليه خطأ في التأويل وتقصيراً في الواجب عليه ؛ لأن الشهادة لا تكون إلا بقتل في طاعة ، فوجب حمل أمرهم على ما بيّناه .

ومما يدلّ على ذلك ما قد صح وانتشر من أخبار عليّ بأن قاتل الزبير في النار .

وقوله : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " بشّرِ قاتل ابن صفية بالنار " وإذا كان كذلك فقد ثبت أن طلحة والزبير غير عاصيين ولا آثمين بالقتال ؛ لأن ذلك لو كان كذلك لم يقل النبيّ صلى الله عليه وسلم في طلحة : "شهيد" .

ولم يخبر أن قاتل الزبير في النار .

وكذلك من قعد غير مخطىء في التأويل .

بل صواب أراهم الله الاجتهاد .

وإذا كان كذلك لم يوجب ذلك لعنهم والبراءة منهم وتفسيقَهم ، وإبطالَ فضائلهم وجهادهم ، وعظيمَ غنائهم في الدِّين ، رضي الله عنهم .

وقد سئل بعضهم عن الدماء التي أريقت فيما بينهم فقال : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : 134] .

(33/718)

وسئل بعضهم عنها أيضاً فقال : تلك دماء قد طَهّر الله منها يدي ؛ فلا أخْضِب بها لساني .

يعني في التحرز من الوقوع في خطأ ، والحكم على بعضهم بما لا يكون مصيباً فيه .

قال ابن فُورَك : ومن أصحابنا من قال : إن سبيل ما جرت بين الصحابة من المنازعات كسبيل ما جرى بين إخوة يوسف مع يوسف ؛ ثم إنهم لم يخرجوا بذلك عن حدّ الولاية والنبوّة ؛ فكذلك الأمر فيما جرى بين الصحابة .

وقال المحاسبي : فأما الدماء فقد أشكل علينا القول فيها باختلافهم .

وقد سئل الحسن البصري عن قتالهم فقال : قتال شهده أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وغِبْنا ، وعلموا وجهلنا ، واجتمعوا فاتبعنا ، واختلفوا فوقفنا .

قال المحاسبي : فنحن نقول كما قال الحسن ، ونعلم أن القوم كانوا أعلم بما دخلوا فيه منا ، ونتبع ما اجتمعوا عليه ، ونقف عند ما اختلفوا فيه ولا نبتدع رأياً منا ، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا الله عز وجل ؛ إذ كانوا غير متّهَمين في الدّين ، ونسأل الله التوفيق .

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ ﴾ أي في الدّين والحرمة لا في النسب ؛ ولهذا قيل : أخوّة الدّين أثبت من أخوّة النسب ؛ فإن أخوّة النسب تنقطع بمخالفة الدين ، وأخوّة الدّين لا تنقطع بمخالفة النسب .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تجسّسُوا ولا تحسّسُوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخواناً " وفي رواية : " لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبِعْ بعضكم على بَيْع بعض وكونوا عباد الله إخواناً .

المسلِم أخو المسلم لا يَظْلِمه ولا يَخْذُله ولا يَحْقِره .

التقوى ها هنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات بحَسْبِ امرىء من الشر أن يَحْقِر أخاه المسلم .

كلُّ المسلمِ على المسلم حرامٌ دَمُه ومالُه وعِرْضُه " لفظ مسلم .

وفي غير الصحيحين عن أبي هريرة قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " المسلم أخو المسلم لا يَظْلمه ولا يَعِيبه ولا يَخْذله ولا يتطاول عليه في البنيان فيستر عليه الريح إلا بإذنه ولا يؤذيه بقُتار قِدْره إلا أن يغرف له غرفة ولا يشتري لبنيه الفاكهة فيخرجون بها إلى صبيان جاره ولا يطعمونهم منها " ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : " احفظوا ولا يحفظ منكم إلا قليل "

الثانية قوله تعالى : ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ أي بين كل مسلمين تخاصما .

وقيل : بين الأوس والخزرج ؛ على ما تقدّم .

وقال أبو عليّ : أراد بالأخوين الطائفتين ؛ لأن لفظ التثنية يَرِد والمراد به الكثرة ؛ كقوله تعالى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة : 64] .

وقال أبو عبيدة : أي أصلحوا بين كل أخوين ؛ فهو آت على الجميع .

وقرأ ابن سِيرين ونصر بن عاصم وأبو العالية والجحدريّ ويعقوب "بَيْنَ إِخْوَتِكُم" بالتاء على الجمع .

وقرأ الحسن "إِخْوَانِكُم" الباقون .

"أَخَوَيْكُمْ" بالياء على التثنية .

الثالثة في هذه الآية والتي قبلها دليل على أن البغي لا يزيل اسم الإيمان ؛ لأن الله تعالى سماهم إخوة مؤمنين مع كونهم باغين .

قال الحارث الأعور : سئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو القدوة عن قتال أهل البغي من أهل الجمل وصِفِّين : أمشركون هم ؟ قال : لا ، من الشِّرك فرّوا .

فقيل : أمنافقون ؟ قال : لا ، لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً .

قيل له : فما حالهم ؟ قال إخواننا بَغَوْا علينا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(35/718)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا ﴾

أي تقاتلوا ، وكان الظاهر اقتتلتا بضمير التثنية كما في قوله تعالى : ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾ أي بالنصح وإزالة الشبهة إن كانت والدعاء إلى حكم الله عز وجل ، والعدول إلى ضمير الجمع لرعاية المعنى فإن كل طائفة من الطائفتين جماعة فقد روعي في الطائفتين معناهما أولاً ولفظهما ثانياً على عكس المشهور في الاستعمال ، والنكتة في ذلك ما قيل : إنهم أولاً في

حال القتال مختلطون فلذا جمع أولاً ضميرهم وفي حال الصلح متميزون متفارقون فلذا ثني الضمير .

وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ اقتتلتا ﴾ بضمير التثنية والتأنيث كما هو الظاهر .

وقرأ زيد بن علي .

وعبيد بن عمير ﴿ اقتتلا ﴾ بالتثنية والتذكير باعتبار أن الطائفتين فريقان ﴿ بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا ﴾ تعدت وطلبت العلو بغير الحق ﴿ على الاخرى ﴾ ولم تتأثر بالنصيحة ﴿ فقاتلوا التى تَبْغِى حتى تَفِىء ﴾ أي ترجع ﴿ إلى أَمْرِ الله ﴾ أي إلى حكمه أو إلى ما أمر سبحانه به وقرأ الزهري حتى ﴿ تفي ﴾ بغير همز وفتح الياء وهو شاذ كما قالوا في مضارع جاء يجىء بغير همز فإذا أدخلوا الناصب فتحوا الياء أجروه مجرى بفي مضارع وفي شذوذاً ، وفي تعليق القتال بالموصول للإشارة إلى علية ما في حيز الصلة أي فقاتلوها لبغيها ﴿ الله فَإِن فَاءتْ ﴾ أي رجعت إلى أمره تعالى وأقلعت عن القتال حذراً من قتالكم ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بالعدل ﴾ بفصل ما بينهما على حكم الله تعالى ولا تكتفوا بمجرد متاركتهما عسى أن يكون بينهما قتال في وقت آخر ، وتقييد الإصلاح هنا بالعدل لأنه مظنة الحيف لوقوعه بعد المقاتلة وقد أكد ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَأَقْسِطُواْ ﴾ أي اعدلوا في كل ما تأتون وما تذرون ﴿ إِنَّ الله يُحِبُّ المقسطين ﴾ فيجازيهم أحسن الجزاء .

وفي "الكشاف" في الإصلاح بالعدل والقسط تفاصيل ، إن كانت الباغية من قلة العدد بحيث لا منعة لها ضمنت بعد الفيئة ما جنت ، وإن كانت كثيرة ذات منعة وشوكة لم تضمن إلا عند محمد بن الحسن فإنه كان يفتي بأن الضمان يلزمها إذا فاءت ، وأما قبل التجمع والتجند أو حين تتفرق عند وضع الحرب أوزارها فما جنته ضمنته عند الجميع فمحمل الإصلاح بالعدل على مذهب محمد واضح منطبق على لفظ التنزيل ، وعلى قول غيره وجهه أن يحمل على كون الفئة قليلة العدد ، والذي ذكروا من أن الفرض إماتة الضغائن وسل الأحقاد دون ضمان الجنايات ليس بحسن الطباق للمأمور به من أعمال العدل ومراعاة القسط .

قال في "الكشف" ، لأن ما ذكروه من إماتة الأضغان داخل في قوله تعالى : ﴿ فَإِن فَاءتْ ﴾ لأنه من ضرورات التوبة ، فأعمال العدل والقسط إنما يكون في تدارك الفرطات ثم قال : والأولى على قول الجمهور أن يقال : الإصلاح بالعدل أنه لا يضمن من الطرفين فإن الباغي معصوم الدم والمال مثل العادل لا سيما وقد تاب فكما لا يضمن العادل المتلف لا يضمنه الباغي الفائي ، هذا مقتضى العدل لا تخصيص الضمان بطرف دون آخر .

والآية نزلت في قتال وقع بين الأوس والخزرج.

أخرج أحمد .

والبخاري .

ومسلم .

وابن جرير .

وابن المنذر .

وابن مردويه .

(37/718)

والبيهقي في سننه عن أنس قال : قيل للنبي صلى الله عليه وسلم لو أتيت عبد الله بن أبي فانطلق إليه وركب حماراً وانطلق المسلمون يمشون وهي أرض سبخة فلما انطلق إليه قال : إليك عني فوالله لقد آذاني ريح حمارك فقال رجل من الأنصار : والله لحمار رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيب ريحاً منك فغضب لعبد الله رجال من قومه فغضب لكل منهما أصحابه فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ ﴾ الآية ، وفي رواية أن النبي عليه الصلاة والسلام كان متوجهاً إلى زيارة سعد بن

عبادة في مرضه فمر على عبد الله بن أبي بن سلول فقال ما قال فرد عليه عبد الله بن رواحة رضي الله تعالى عنه فتعصب لكل أصحابه فتقاتلوا فنزلت فقرأها صلى الله عليه وسلم عليهم فاصطلحوا وكان ابن روحة خزرجياً وابن أبي أوسيا .

وأخرج ابن جرير .

وابن أبي حاتم عن السدي قال : كان رجل من الأنصار يقال له عمران تحته امرأة يقال لها أم زيد وأنها أرادت أن تزور أهلها فحبسها زوجها وجعلها في علية له لا يدخل عليها أحد من أهلها وأن المرأة بعثت إلى أهلها فجاء قومها فأنزلوها لينطلقوا بها وكان الرجل قد خرج فاستعان أهله فجاء بنو عمه ليحولوا بين المرأة وأهلها فتدافعوا اجتلدوا بالنعال فنزلت فيهم هذه الآية : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا ﴾ فبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصلح بينهم وفاءوا إلى أمر الله عز وجل ، والخطاب فيها على ما في "البحر" لمن له الأمر وروي ذلك عن ابن عباس وهو للوجوب فيجب الإصلاح ويجب قتال الباغية ما قاتلت وإذا كفت وقبضت عن الحرب تركت ، وجاء في حديث رواه الحاكم .

(38/718)

وغيره حكمها إذا تولت قال عليه الصلاة والسلام : " يا ابن أم عبد هل تدري كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمة ؟ قال : الله تعالى ورسوله أعلم قال : لا يجهز على جريحها ولا يقتل أسيرها ولا يطلب هاربها ولا يقسم فيؤها " وذكروا أن الفئتين من المسلمين إذا اقتتلا على سبيل البغي منهما جميعاً فالواجب أن يمشي بينهما بما يصلح ذات البين ويثمر المكافة والموادعة فإن لم يتحاجزا ولم يصطلحا وأقاما على البغي صيراً إلى مقاتلتهما ، وأنهما إذا التحم بينهما القتال لشبهة دخلت عليهما وكلتاهما عند أنفسهما محقة فالواجب إزالة الشبهة بالحجج النيرة والبراهين القاطعة وإطلاعهما على مراشد الحق فإن ركبتا متن اللجاج ولم تعملا على شاكلة ما هديتا إليه ونصحتا به من اتباع الحق بعد وضوحه فقد لحقتا باللتين اقتتلا على سبيل البغي منهما جميعاً ، والتصدي لإزالة الشبهة في الفئة الباغية إن كانت لازم قبل المقاتلة ، وقيل : الخطاب لمن يتأتى منه الإصلاح ومقاتلة الباغي فمتى تحقق البغي من طائفة كان حكم إعانة المبغي عليه حكم الجهاد ، فقد أخرج الحاكم وصححه .

والبيهقي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه قال : ما وجدت في نفسي من شيء ما وجدت في نفسي من هذه الآية يعني ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ ﴾ الخ إني لم أقاتل هذه الفئة بالباغية كما أمرني الله تعالى يعني بها معاوية ومن معه الباغين على علي كرم الله تعالى وجهه ، وصرح بعض الحنابلة بأن قتال الباغين أفضل من الجهاد احتجاجاً بأن علياً كرم الله تعالى

وجهه اشتغل في زمان خلافته بقتالهم دون الجهاد ، والحق أن ذلك ليس على إطلاقه بل إذا خشي من ترك قتالهم مفسدة عظيمة دفعها أعظم من مصلحة الجهاد ، والحق أن ذلك ليس على إطلاقه بل إذا خشي من ترك قتالهم مفسدة عظيمة دفعها أعظم من مصلحة الجهاد ، وظاهر الآية أن الباغي مؤمن لجعل الطائفتين الباغية والمبغي عليها من المؤمنين .

(39/718)

نعم الباغي على الإمام ولو جائراً فاسق مرتكب لكبيرة إن كان بغيه بلا تأويل أو بتأويل قطعي البطلان .

والمعتزلة يقولون في مثله : إنه فاسق مخلد في النار أن مات بلا توبة ، والخوارج يقولون : إنه كافر ، والإمامية أكفروا الباغي على علي كرم الله تعالى وجهه المقاتل له واحتجوا بما روي من قوله صلى الله عليه وسلم له : " حربك حربي " وفيه بحث .

وقرأ ابن مسعود ﴿ حتى عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فاحكم بَيْنَهُم بالقسط ﴾ .

﴿ إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ ﴾

استئناف مقرر لما قبله من الأمر بالإصلاح ، وإطلاق الأخوة على المؤمنين من باب التشبيه

البليغ وشبهوا بالأخوة من حيث انتسابهم إلى أصل واحد وهو الإيمان الموجب للحياة الأبدية ، وجوز أن يكون هناك استعارة وتشبه المشاركة في الإيمانب المشاركة في أصل التوالد لأن كلاً منهما أصل للبقاء إذ التوالد منشأ الحياة والإيمان منشأ البقاء الأبدي في الجنان ، والفاء في قوله تعالى : ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ للإيذان بأن الأخوة الدينية موجبة للإصلاح ، ووضع الظاهر موضع الضمير مضافاً للمأمورين للمبالغة في تأكيد وجوب الإصلاح والتحضيض عليه ، وتخصيص الاثنين بالذكر لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوق ذلك بطريق الأولوية لتضاعف الفتنة والفساد فيه ، وقيل : المراد بالأخوين الأوس .

والخزرج اللتان نزلت فيهما الآية سمي كلاً منهما أخاً لاجتماعهم في الجد الأعلى .

وقرأ زيد بن ثابت .

وابن مسعود .

والحسن بخلاف عنه ﴿ إخوانكم ﴾ جمعاً على وزن غلمان .

(40/718)

وقرأ ابن سيرين ﴿ أخواتكم ﴾ جمعاً على وزن غلمة ، وروى عبد الوارث عن أبي عمرو القراآت الثلاث ، قال أبو الفتح : وقراءة الجمع تدل على أن قراءة الجمهور لفظها لفظ التثنية ومعناها الجماعة أي كل اثنين فصاعداً من المسلمين اقتتلا ، والإضافة لمعنى الجنس نحو لبيك وسعديك ، ويغلب الاخوان في الصداقة والأخوة في النسب وقد يستعمل كل منهما مكان الآخر ﴿ واتقوا الله ﴾ في كل ما تأتون وما تذرون من الأمور التي من جملتها ما أمرتم به من الإصلاح ، والظاهر أن هذا عطف على ﴿ فَأَصْلِحُواْ ﴾ وقال الطيبي : هو تذييل للكلام كأنه قيل : هذا الإصلاح من جملة التقوى فإذا فعلتم التقوى دخل فيه هذا التواصل ، ويجوز أن يكون عطفاً على ﴿ فَأَصْلِحُواْ ﴾ أي واصلوا بين أخويكم بالصلح واحذروا الله تعالى من أن تتهاونوا فيه ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أي لأجل أن ترحموا على تقواكم أو راجين أن ترحموا عليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(41/718)

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾

نزلت هذه الآية الكريمة في الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وقد أرسله النبي صلى الله عليه

وسلم إلى بني المصطلق من خزاعة ليأتيهم بصدقات أموالهم فلما سمعوا به تلقوه فرحاً به ، فخاف منهم وظن أنهم يريدون قتله ، فرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم وزعم له أنهم منعوا الصدقة وأرادوا قتله ، فقدم وفد منهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه بكذب الوليد فأنزل الله هذه الآية .

وهي تدل على عدم تصديق الفاسق في خبره .

وصرح تعالى في موضع آخر بالنهي عن قبول شهادة الفاسق ، وذلك في قوله : ﴿ والذين يَرْمُونَ المحصنات ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فاجلدوهم ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وأولئك هُمُ الفاسقون ﴾ [النور : 4] ولا خلاف بين العلماء في رد شهادة الفاسق وعدم قبول خبره .

وقد دلت هذه الآية من سروة الحجرات على أمرين :

الأول منهما : أن الفاسق إن جاء بنبإ ممكن معرفة حقيقته ، وهل ما قاله فيه الفاسق حق أو كذب فإنه يجب فيه التثبت .

والثاني : هو ما استدل عليه بها أهل الأصول من قبول خبر العدل لأن قوله تعالى : ﴿ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فتبينوا ﴾ بدل بدليل خطابه ، أعني مفهوم مخالفته أن الجائي بنبإ إن كان غير فاسق بل عدلاً لا يلزم التبين في نبئه على قراءة : فتبينوا . ولا التثبت على قراءة : فتثبتوا ، وهو كذلك .

وأما شهادة الفاسق فهي مردودة كما دلت عليه آية النور المكذورة آنفاً .

وقد قدمنا معنى الفسق وأنواعه في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك .

(42/718)

وقوله ﴿ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَا ﴾ أي لئلا تصيبوا قوماً ، أو كراهة أن تصيبوا قوماً بجهالة ، أي لظنكم انلبأ الذي جاء به الفاسق حقاً فتصبحوا على ما فعتلم من إصابتكم للقوم المذكورين نادمين لظهور كذب الفاسق فيما أنبأ به عنهم ، لأنهم لو لم يتبينوا في نبإ الوليد عن بني المصطلق لعاملوهم معاملة المرتدين ؟ ولو فعلوا ذلك لندموا .

وقرأ هذه الحرف عامة السبعة غير حمزة والكسائي : فتبينوا بالباء التحتية الموحدة بعدها مثناة تحتية مشددة ثم نون . وقرأه حمزة والكسائي : فتثبتوا بالثاء المثلثة بعدها ياء تحتية موحدة مشددة ثم تاء مثناة فوقية .

والأول من التبين ، والثاني من التثبت .

ومعنى القراءتين واحد ، وهو الأمر بالتأني وعدم العجلة حتى تظهر الحقيقة فيما أنبأ به الفاسق .

قوله تعالى : ﴿ ولكن الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الأيمان وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكفر والفسوق

والعصيان ﴾ .

وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من أنه هو الذي حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم ، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، جاء موضحاً في آيات كثيرة مصرح فيها بأنه تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، كقوله تعالى : ﴿ مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المهتد وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً ﴾ [الكهف : 17] الآية .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المهتد وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِ ﴾ [الإسراء : 97] الآية .

وقوله تعالى : ﴿ مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المهتدي وَمَن يُضْلِلْ فأولئك هُمُ الخاسرون ﴾ [الأعراف : 178] .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس : 7 – 8]

والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة ، نرجو الله الكريم أن يهدينا وألا يضلنا .

(43/718)

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ ﴾ .

هذه الأخوة التي أثبت الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة للمؤمنين بعضهم لبعض هي أخوة الدين لا النسب .

وقد بين تعالى أن الأخوة تكون في الدين في قوله تعالى ﴿ فَإِن لَّمْ تعلموا آبَاءَهُمْ فَإِخوَانُكُمْ فِي الدين ﴾ [الأحزاب : 5] الآية .

وقد قدمنا في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا القرآن يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : 9] ، أن الأخوة الدينية أعظم وأقوى من الأخوة النسبية ، وبينا أدلة ذلك من الكتاب والسنة ، فأغنى ذلك عن إعادته هنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(44/718)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾

لما جرى قوله : ﴿ أن تصيبوا قوماً بجهالة ﴾ [الحجرات : 6] الآية كان مما يصدق عليه إصابة قوم أن تقع الإصابة بين طائفتين من المؤمنين لأن من الأخبار الكاذبة أخبار النميمة بين القبائل وخطرها أكبر مما يجري بين الأفراد والتبين فيها أعسر ، وقد لا يحصل التبيّن إلا بعد

أن تستعر نار الفتنة ولا تجدي الندامة .

وفي "الصحيحين" عن أنس بن مالك : أن الآية نزلت في قصة مرور رسول الله صلى الله عليه وسلم على مجلس فيه عبد الله بنُ أبيّ بنُ سلول ورسول الله صلى الله عليه وسلم على حمار فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم وبال الحمار ، فقال عبد الله بن أُبَيّ : خلّ سبيل حمارك فقد آذانا نتنه .

فقال له عبد الله بن رواحة : والله إن بول حماره لأطيَبُ من مسكك فاستَبَّا وتجالدا وجاء قوماهما الأوس والخزرج ، فتجالدوا بالنعال والسعف فرجع إليهم رسول الله فأصلح بينهم . . .

فنزلت هذه الآية .

وفي "الصحيحين" عن أسامة بن زيد : وليس فيه أن الآية نزلت في تلك الحادثة .

ويناكد هذا أن تلك الوقعة كانت في أول أيام قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة .

وهذه السورة نزلت سنة تسع من الهجرة وأن أنس بن مالك لم يجزم بنزولها في ذلك لقوله : فبلغنا أن نزلت فيهم ﴿ وإنْ طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ﴾ .

اللهم أن تكون هذه الآية ألحقت بهذه السورة بعد نزول الآية بمدة طويلة .

وعن قتاده والسدي : أنها نزلت في فتنة بين الأوس والخزرج بسبب خصومة بين رجل وامرأته أحدهما من الأوس والآخر من الخزرج انتصر لكل منهما قومه حتى تدافعوا وتناول

بعضهم بعضاً بالأيدي والنعال والعصيّ فنزلت الآية فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فأصلح بينهما وهذا أظهر من الرواية الأولى فكانت حكماً عاماً نزل في سبب خاص .

(45/718)

و ﴿ إنْ ﴾ حرف شرط يُخلّص الماضي للاستقبال فيكون في قوة المضارع وارتفع ﴿ طائفتان ﴾ بفعل مقدر يفسره قوله : ﴿ اقتتلوا ﴾ للاهتمام بالفاعل .

وإنما عدل عن المضارع بعد كونه الأليق بالشرط لأنه لما أريد تقديم الفاعل على فعله للاهتمام بالمسند إليه جعل الفعل ماضياً على طريقة الكلام الفصيح في مثله مما أولِيَت فيه ﴿ إنْ ﴾ الشرطية الاسم نحو ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك ﴾ [التوبة : 6] ، ﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً ﴾ [النساء : 128] .

قال الرضي "وحق الفعل الذي يكون بعد الاسم الذي يلي (إنْ) أن يكون ماضياً وقد يكون مضارعاً على الشذوذ وإنما ضعف مجيء المضارع لحصول الفصل بين الجازم وبين معموله" .

ويعود ضمير ﴿ اقتتلوا ﴾ على ﴿ طائفتان ﴾ باعتبار المعنى لأن طائفة ذات جمع ، والطائفة الجماعة .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ فلتقم طائفة منهم معك ﴾ في سورة النساء (102) .

والوجه أن يكون فعل اقتتلوا ﴾ مستعملاً في إرادة الوقوع مثل

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة ﴾ [المائدة : 6] ومثل ﴿ والذين يظّاهرون من نسائهم ثم يَعُودون لما قالوا ﴾ [المجادلة : 3] ، أي يريدون العود لأن الأمر بالإصلاح بينهما واجب قبل الشروع في الاقتتال وذلك عند ظهور بوادره وهو أولى من انتظار وقوع الاقتتال ليمكن تدارك الخطب قبل وقوعه على معنى قوله تعالى : ﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصّلحا بينهما صلحاً ﴾ [النساء : 128] .

وبذلك يظهر وجه تفريع قوله : ﴿ فإن بغت إحداهما على الأخرى ﴾ على جملة ﴿ اقتتلوا ﴾ ، أي فإن ابتدأتْ إحدى الطائفتين قتال الأخرى ولم تنصع إلى الإصلاح فقاتلوا الباغية .

والبغي : الظلم والاعتداء على حق الغير ، وهو هنا مستعمل في معناه اللغوي وهو غير معناه الفقهي ف ﴿ التي تبغي ﴾ هي الطائفة الظالمة الخارجة عن الحق وإن لم تقاتل لأن بغيها يحمل الطائفة المبغِي عليها أن تدافع عن حقها .

(46/718)

وإنما جعل حكم قتال الباغية أن تكون طائفة لأن الجماعة يعسر الأخذ على أيدي ظلمهم بأفراد من الناس وأعوانِ الشرطة فتعين أن يكون كفهم عن البغي بالجيش والسلاح.

وهذا في التقاتل بين الجماعات والقبائل، فأما خروج فئة عن جماعة المسلمين فهو أشد وليس هو مورد هذه الآية ولكنها أصل له في التشريع.

وقد بغى أهل الردة على جماعة المسلمين بغياً بغير قتال فقاتلهم أبو بكر رضي الله عنه، وبغى بغاة أهل مصر على عثمان رضي الله عنه فكانوا بغاةً على جماعة المؤمنين، فأبى عثمان قتالهم وكره أن يكون سبباً في إراقة دماء المسلمين اجتهاداً منه فوجب على المسلمين طاعته لأن وليَّ الأمر ولم يَنفُوا عن الثوار حكم البغي.

ويتحقق وصف البغي بإخبار أهل العلم أن الفئة بغت على الأخرى أو بحكم الخليفة العالم العدل، وبالخروج عن طاعة الخليفة وعن الجماعة بالسيف إذا أمر بغير ظلم ولا جور ولم تُخش من عصيانه فتنةٌ لأن ضر الفتنة أشد من شدّ الجور في غير إضاعة المصالح العامة من مصالح المسلمين، وذلك لأن الخروج عن طاعة الخليفة بغي على الجماعة الذين مع الخليفة.

وقد كان تحقيق معنى البغي وصُورهُ غيرَ مضبوط في صدر الإسلام وإنما ضبطه العلماء بعد وقعة الجمل ولم تطل ثم بعد وقعة صفين، وقد كان القتال فيها بين فئتين ولم يكن الخارجون عن علي رضي الله عنه من الذين بايعوه بالخلافة، بل كانوا شرطوا لمبايعتهم إياه أخذ القَوَد من قتلة عثمان منهم، فكان اقتناع أصحاب معاوية مجالاً للاجتهاد بينهم وقد

دارت بينهم كتب فيها حجج الفريقين ولا يعلم الثابت منها والمكذوب إذ كان المؤرخون أصحاب أهواء مختلفة .

وقال ابن العربي : كان طلحة والزبير يريان البداءة بقتل قتلة عثمان أولى ، إلا أن العلماء حققوا بعد ذلك أن البغي في جانب أصحاب معاوية لأن البيعة بالخلافة لا تقبل التقييد بشرط .

(47/718)

وقد اعترف الجميع بأن معاوية وأصحابه كانوا مدافعين عن نظر اجتهادي مخطىء ، وكان الواجب يقضى على جماعة من المسلمين الدعاء إلى الصلح بين الفريقين حسب أمر القرآن وجوب الكفاية فقد قيل : إن ذلك وقع التداعي إليه ولم يتم لانتقاض الحَرورية على أمر التحكيم فقالوا : لا حكم إلا لله ولا نحكم الرجال .

وقيل : كيدت مكيدة بين الحَكَمين ، والأخبار في ذلك مضطربة على اختلاف المتصدين لحكاية القضية من المؤرخين أصحاب الأهواء .

والله أعلم بالضمائر .

وسئل الحسن البصري عن القتال بين الصحابة فقال : شهد أصحاب محمد وغبنا وعلموا

وجهلنا .

وقال المُحاسبي : تَعلّم أن القوم كانوا أعلم بما دخلوا فيه مِنّا .

والأمر في قوله : ﴿ فقاتلوا التي تبغي ﴾ للوجوب ، لأن هذا حُكم بين الخصمين والقضاء بالحق واجب لأنه لحفظ حق المحق ، ولأن ترك قتال الباغية يجرّ إلى استرسالها في البغي وإضاعة حقوق المبغي عليها في الأنفس والأحوال والأغراض والله لا يحب الفساد ، ولأن ذلك يجرىء غيرها على أن تأتي مثل صَنيعها فمقاتلها زجر لغيرها .

وهو وجوب كفاية ويتعين بتعيين الإمام جيشاً يوجهه لقتالها إذ لا يجوز أن يلي قتال البغاة إلا الأيمة والخلفاء .

فإذا اختلّ أمر الإمامة فليتولَّ قتال البغاة السوادُ الأعظم من الأمة وعلماؤها .

فهذا الوجوب مطلق في الأحوال تقيده الأدلة الدالة على عدم المصير إليه إذا علم أن قتالها يجرّ إلى فتنة أشد من بغيها .

(48/718)

وقد تلتبس الباغية من الطائفتين المتقاتلتين فإن أسباب التقاتل قد تتولد من أمور لا يُؤْبَهُ بها في أول الأمر ثم تثور الثائرة ويتجالد الفريقان فلا يضبط أمر الباغي منهما ، فالإصلاح بينهما

يزيل اللبس فإن امتنعت إحداهما تعين البغي في جانبها لأن للإمام والقاضي أن يجبر على الصلح إذا خشي الفتنة ورأى بوارقها ، وذلك بعد أن تُبيَّن لكلتا الطائفتين شبهتها إن كانت لها شبهة وتُزال بالحجة الواضحة والبراهين القاطعة ومن يَأْب منهما فهو أعق وأظلم .

وجعل الفَيْء إلى أمر الله غاية للمقاتلة ، أي يستمر قتال الطائفة الباغية إلى غاية رجوعها إلى أمر الله ، وأمر الله هو ما في الشريعة من العدل والكف عن الظلم ، أي حتى تقلع عن بغيها ، وأُتبع مفهوم الغاية ببيان ما تُعامَل به الطائفتان بعد أن تفي الباغية بقوله : ﴿ فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل ﴾ ، والباء للملابسة والمجرور حال من ضمير ﴿ اصلحوا ﴾ .

والعدل : هو ما يقع التصالح عليه بالتراضي والإنصاف وأن لا يضر بإحدى الطائفتين فإن المتالف التي تلحق كلتا الطائفتين قد تتفاوت تفاوتا شديداً فتجب مراعاة التعديل .

وقُيد الإصلاحُ المأمور به ثانياً بقيد أن تفيء الباغية بقيد ﴿ بالعدل ﴾ ولم يقيد الإصلاح المأمور به ، وهذا القيد يقيد به أيضاً الإصلاح المأمور به أولاً لأن القيد من شأنه أن يعود إليه لاتحاد سبب المطلق والمقيد ، أي يجب العدل في صورة الإصلاح فلا يضيعوا بصورة الصلح منافع عن كلا الفريقين إلا بقدر ما تقتضيه حقيقة الصلح من نزول عن بعض الحق بالمعروف .

ثم أمر المسلمين بالعدل بقوله : ﴿ وأقسطوا ﴾ أمراً عاماً تذييلاً للأمر بالعدل الخاص في الصلح بين الفريقين ، فشمل ذلك هذا الأمر العام أن يعدلوا في صورة ما إذا قاتلوا التي تبغي ،

ثم قال : ﴿ فإن فاءت فأصلحوا بينهما ﴾ .

وهذا إصلاح ثان بعد الإصلاح المأمور به ابتداء .

(49/718)

ومعناه : أن الفِئَة التي خضعت للقوة وألقت السلاح تكون مكسورة الخاطر شاعرة بانتصار الفئة الأخرى عليها فأوجب على المسلمين أن يصلحوا بينهما بترغيبهما في إزالة الإحن والرجوع إلى أُخُوَّة الإسلام لئلا يعود التنكر بينهما .

قال أبو بكر بن العربي : ومن العدل في صلحهم أن لا يطالبوا بما جرى بينهم مدة القتال من دم ولا مال فإنه تلف على تأويل وفي طلبهم به تنفير لهم عن الصلح واستشراء في البغي وهذا أصل في المصلحة أ هـ .

ثم قال : لا ضمان عليهم في نفس ولا مال عندنا المالكية .

وقال أبو حنيفة يضمنون .

وللشافعي فيه قولان .

فأما ما كان قائماً رُدّ بعينه وانظر هل ينطبق كلام ابن العربي على نوعي الباغية أو هو خاص بالباغية على الخليفة وهو الأظهر .

فأما حكم تصرف الجيش المقاتل للبغاة فكأحوال الجهاد إلا أنه لا يقتل أسيرهم ولا يتَّبع مدبرهم ولا يذفّف على جريحهم ولا تسبى ذراريهم ولا تغنم أموالهم ولا تسترق أسراهم .

وللفقهاء تفاصيل في أحوال جبر الأضرار اللاحقة بالفئة المعتدَى عليها والأضرار اللاحقة بالجماعة التي تتولى قتال البغاة فينبغي أن يؤخذ من مجموع أقوالهم ما يرى أولو الأمر المصلحة في الحمل عليها جرياً على قوله تعالى : ﴿ وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾ .

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10)

تعليل لإقامة الإصلاح بين المؤمنين إذا استشرى الحال بينهم ، فالجملة موقعها موقع العلة ، وقد بني هذا التعليل على اعتبار حال المسلمين بعضهم مع بعض كحال الإخوة .

(50/718)

وجيء بصيغة القصر المفيدة لحصر حالهم في حال الإخوة مبالغة في تقرير هذا الحكم بين المسلمين فهو قصر ادعائي أو هو قصر إضافي للرد على أصحاب الحالة المفروضة الذين يبغون على غيرهم من المؤمنين ، وأخبر عنهم بأنهم إخوة مجازاً على وجه التشبيه البليغ زيادة لتقرير معنى الأخوة بينهم حتى لا يحق أن يقرن بحرف التشبيه المشعر بضعف صفتهم عن حقيقة الأُخُوَّة .

وهذه الآية فيها دلالة قوية على تقرر وجوب الأخوة بين المسلمين لأن شأن ﴿ إنما ﴾ أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته أو لما يُنَزّل منزلة ذلك كما قال الشيخ في "دلائل الإعجاز" في الفصل الثاني عشر وساق عليه شواهد كثيرة من القرآن وكلام العرب فلذلك كان قوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ مفيد أن معنى الأخوة بينهم معلوم مقرر .

وقد تقرر ذلك في تضاعيف كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم من ذلك قوله تعالى : ﴿ يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ﴾ في سورة الحشر (10) ، وهي سابقة في النزول على هذه السورة فإنها معدودة الثانية والمائة ، وسورة الحجرات معدودة الثامنة والمائة من السور .

وآخى النبي بين المهاجرين والأنصار حين وروده المدينة وذلك مبدأ الإخاء بين المسلمين .

وفي الحديث لو كنت متّخذاً خليلاً غيرَ ربي لاتخذت أبا بكر ولكن أخوة الإسلام أفضل .

وفي باب تزويج الصغار من الكبار من صحيح البخاري ﴾ "أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب عائشة من أبي بكر .

فقال له أبو بكر : إنما أنا أخوك فقال : أنتَ أخي في دين الله وكتابِه وهي لي حلال " وفي حديث "صحيح مسلم" " المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم " وفي الحديث " لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحب لنفسه " أي يحب للمسلم ما يحب لنفسه .

فأشارت جملة ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ إلى وجه وجوب الإصلاح بين الطائفتين المُتَبَاغِيَتَيْن منهم ببيان أن الإيمان قد عَقَد بين أهله من النسب الموحَى ما لا ينقص عن نسب الأخوة الجسدية على نحو قول عمر بن الخطاب للمرأة التي شكت إليه حاجة أولادها وقالت : أنا بنت خُفاف بن أيمَاء ، وقد شهد أبي مع رسول الله الحديبية فقال عمر "مرحبا بنسب قريب" .

ولما كان المتعارف بين الناس أنه إذا نشبت مشاقّة بين الأخوين لزم بقية الإخوة أن يتناهضوا في إزاحتها مشياً بالصلح بينهما فكذلك شأن المسلمين إذا حدث شقاق بين طائفتين منهم أن ينهض سائرهم بالسعي بالصلح بينهما وبثِّ السفراء إلى أن يرقعوا ما وهى ، ويرفعوا ما أصاب ودهَى .

وتفريع الأمر بالإصلاح بين الأخوين ، على تحقيق كون المؤمنين إخوة تأكيد لما دلت عليه ﴿ إنما ﴾ من التعليل فصار الأمر بالإصلاح الواقع ابتداء دون تعليل في قوله : ﴿ فأصلحوا بينهما ، وقوله : ﴿ فأصلحوا بينهما بالعدل ﴾ [الحجرات : 9] قد أردف بالتعليل فحصل تقريره ، ثم عقب بالتفريع فزاده تقريراً .

وقد حصل من هذا النَظم ما يشبه الدعوى وهي كمطلوب القياس ، ثم ما يشبه الاستدلال بالقياس ، ثم ما يشبه النتيجة .

ولَمَّا تقرر معنى الأخوة بين المؤمنين كمالَ التقرّر عُدل عن أن يقول : فأصلحوا بين الطائفتين ، إلى قوله : ﴿ بين أخويكم ﴾ فهو وصف جديد نشأ عن قوله : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ ، فتعين إطلاقه على الطائفتين فليس هذا من وضع الظاهر موضع الضمير فتأمل .

وأوثرت صيغة التثنية في قوله : ﴿ أخويكم ﴾ مراعاة لكون الكلام جار على طائفتين من المؤمنين فجعلت كل طائفة كالأخ للأخرى .

وقرأ الجمهور ﴿ بين أخويكم ﴾ بلفظ تثنية الأخ ، أي بين الطائفة والأخرى مراعاة لجريان الحديث على اقتتال طائفتين .

وقرأ الجمهور ﴿ بين أخويكم ﴾ بلفظ تثنية الأخ على تشبيه كل طائفة بأخ .

(52/718)

وقرأ يعقوب ﴿ فأصلحوا بين إخوَتكم ﴾ بتاء فوقية بعد الواو على أنه جمع أخ باعتبار كل فرد من الطائفتين كالأخ .

والمخاطب بقوله : ﴿ واتقوا اللَّه لعلكم ترحمون ﴾ جميع المؤمنين فيشمل الطائفتين الباغية

والمبغي عليها ، ويشمل غيرهما ممن أمروا بالإصلاح بينما ومقاتلة الباغية ، فتقوى كلَ بالوقوف عند ما أمر الله به كُلًّا مما يخصه ، وهذا يشبه التذييل .

ومعنى ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ : تُرجى لكم الرحمة من الله فتجري أحوالكم على استقامة وصلاح.

وإنما اختيرت الرحمة لأن الأمر بالتقوى واقع إثر تقرير حقيقة الأخوة بين المؤمنين وشأن تعامل الإخوة الرحمة فيكون الجزاء عليها من جنسها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(53/718)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾

(54/718)

أخرج أحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن منده وابن مردويه بسند جيد " عن الحارث بن ضرار الخزاعي قال : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاني إلى الإِسلام ، فدخلت فيه وأقررت به ، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها ، قلت يا رسول الله : ارجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإِسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لي جمعت زكاته وترسل إليَّ يا رسول الله رسولاً يبان كذا وكذا ليأتيك ما جمعت من الزكاة ، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الابان الذي أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليه إحتبس الرسول فلم يأتِ فظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله ورسوله فدعا بسروات قومه فقال لهم : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان وقت لي وقتاً يرسل إليَّ رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة ، وليس من رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلف ، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطه فانطلقوا فنأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة ، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق فرجع ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم البعث إلى الحارث فأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا : هذا الحارث فلما غشيهم قال لهم : إلى من بعثتم ؟ قالوا : إليك ، قال : ولم ؟ قالوا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إليك الوليد بن عقبة

فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله . قال : لا والذي بعث محمداً بالحق ما رأيته ولا أتاني ، فما دخل الحارث على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : منعت الزكاة وأردت قتل رسولي ؟ قال : لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا رآني وما أقبلت إلا حين احتبس عليَّ رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم خشيت أن تكون كانت سخطة من الله ورسوله ،

(55/718)

فنزل ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبإ فتبينوا ﴾ إلى قوله ﴿ حكيم ﴾ " .

وأخرج الطبراني وابن منده وابن مردويه عن علقمة بن ناجية قال : بعث إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة بن أبي معيط يصدق أموالنا فسار حتى إذا كان قريباً منا وذلك بعد وقعة المريسيع رجع فركبت في أثره فأتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله أتيت قوماً في جاهليتهم أخذوا اللباس ومنعوا الصدقة فلم يغير ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أنزلت الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبإ ﴾ فأتى المصطلقون إلى النبي صلى الله عليه وسلم أثر الوليد بطائفة من صدقاتهم .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن جابر بن عبد الله قال : " بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة إلى بني وكيعة وكانت بينهم شحناء في الجاهلية ، فلما بلغ بني وكيعة

استقبلوه لينظروا ما في نفسه فخشي القوم فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن بني وكيعة أرادوا قتلي ومنعوني الصدقة ، فلما بلغ بني وكيعة الذي قال الوليد أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله لقد كذب الوليد . قال : وأنزل الله في الوليد ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ ﴾ " الآية .

(56/718)

وأخرج ابن راهويه وابن جرير والطبراني وابن مردويه عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : بعث النبي صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق يصدق أموالهم فسمع بذلك القوم فتلقوه يعظمون أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله ، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إن بني المصطلق منعوا صدقاتهم ، فبلغ القوم رجوعه ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : نعوذ بالله من سخط الله وسخط رسوله بعثت إلينا رجلاً مصدقاً فسررنا لذلك وقرت أعيننا ثم إنه رجع من بعض الطريق فخشينا أن يكون ذلك غضباً من الله ورسوله ونزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبإ ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه والبيهقي في سننه وابن عساكر عن ابن عباس قال : كان

رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق ليأخذ منهم الصدقات وأنه لما أتاهم الخبر فرحوا وخرجوا ليتلقوا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه لما حدث الوليد أنهم خرجوا يتلقونه رجع فقال : يا رسول الله إن بني المصطلق قد منعوني الصدقة . فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك غضباً شديداً ، فبينما هو يحدث نفسه أن يغزوهم إذ أتاه الوفد فقالوا : يا رسول الله إنا حدثنا أن رسولك رجع من نصف الطريق ، وأنا خشينا أن يكون إنما رده كتاب جاءه منك لغضب غضبته علينا فأنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبإ ﴾ الآية .

وأخرج آدم وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي عن مجاهد قال : أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق ليصدقهم فتلقوه بالهدنة ، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن بني المصطلق جمعوا لك ليقاتلوك ، فأنزل الله ﴿ إن جاءكم فاسقٌ بنبإ فتبينوا ﴾ .

(57/718)

أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم : الوليد بن عقبة إلى بني وكيعة وكانت بينهم شحناء في الجاهلية فلما بلغ بني وكيعة استقبلوه

لينظروا ما في نفسه فخشي القوم فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن بني وكيعة أرادوا قتلي ومنعوني الصدقة . فلما بلغ بني وكيعة الذي قال لهم الوليد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أتوا رسول الله قالوا : يا رسول الله لقد كذب الوليد ، ولكن كانت بينه وبيننا شحناء فخشينا أن يكافئنا بالذي كان بيننا فأنزل الله في الوليد ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا ﴾ الآية .

(58/718)

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبي الله إن بني فلان – حياً من أحياء العرب – وكان في نفسه عليهم شيء ، وكانوا حديثي عهد بالإِسلام قد تركوا الصلاة وارتدوا وكفروا بالله . قال : فلم يعجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعا خالد بن الوليد ، فبعثه إليهم ثم قال : ارمقهم عند الصلاة فإن كان القوم قد تركوا الصلاة فشأنك بهم وإلا فلا تعجل عليهم . قال : فدنا منهم عند غروب الشمس ، فكمن حيث يسمع الصلاة ، فرمقهم فإذا هو بالمؤذن قد قام حين غربت الشمس فأذن ثم أقام الصلاة فصلوا المغرب ، فقال خالد بن الوليد : ما أراهم إلا يصلون فلعلهم تركوا غير هذه الصلاة ثم كمن حتى إذا الليل وغاب الشفق أذن مؤذنهم فصلوا . قال : فلعلهم تركوا

صلاة أخرى ، فكمن حتى إذا كان في جوف الليل فتقدم حتى أظل الخيل بدورهم فإذا القوم تعلموا شيئاً من القرآن فهم يتهجدون به من الليل ويقرأونه ، ثم أتاهم عند الصبح فإذا المؤذن حين طلع الفجر قد أذن ثم أقام فقاموا فصلوا ، فلما انصرفوا وأضاء لهم النهار إذا هم بنواصي الخيل في ديارهم فقالوا : ما هذا ؟ قالوا : هنا خالد بن الوليد ، وكان رجلاً مشنعاً ، فقالوا يا خالد : ما شأنك ؟ قال : أنتم والله شأني أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل له إنكم كفرتم بالله وتركتم الصلاة ، فجعلوا يبكون ، فقالوا : نعوذ بالله أن نكفر بالله أبداً . قال : فصرف الخيل وردها عنهم حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوماً ﴾ قال الحسن : فوالله لئن كانت نزلت في هؤلاء القوم خاصة إنها المرسلة إلى يوم القيامة ما نسخها شيء .

(59/718)

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق يصدقهم فلم يبلغهم ، ورجع فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنهم عصوا ، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجهز إليهم إذ جاء رجل من بني المصطلق ، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : سمعنا أنك أرسلت إلينا ففرحنا به

واستبشرنا به وإنه لم يبلغنا رسولك ، وكذب .

فأنزل الله فيه وسماه فاسقاً ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ ﴾ الآية .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ ﴾ قال : هو ابن أبي معيط الوليد بن عقبة بعثه نبي الله صلى الله عليه وسلم إلى بني المصطلق مصدقاً ، فلما أبصروه أقبلوا نحوه فهابهم ، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره أنهم قد ارتدوا عن الإِسلام فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد وأمره بأن تثبت ولا تعجل ، فانطلق حتى أتاهم ليلاً فبعث عيونه ، فلما جاءهم أخبروه أنهم متمسكون بالإِسلام وسمع أذانهم وصلاتهم فلما أصبحوا أتاهم خالد فرأى ما يعجبه فرجع إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبره الخبر ، فأنزل الله في ذلك القرآن ، فكان نبي الله صلى الله عليه وسلم يقول : " التأني من الله والعجلة من الشيطان " .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك في قوله ﴿ إن جاءكم فاسق بنبإ ﴾ الآية قال : إذا جاءك فحدثك أن فلاناً إن فلانة يعملون كذا وكذا من مساوىء الأعمال فلا تصدقه .

أما قوله تعالى : ﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ﴾ .

أخرج عبد بن حميد والترمذي وصححه وابن مردويه عن أبي نضرة قال : قرأ أبو سعيد الخدري ﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ﴾ قال : هذا نبيكم يوحى إليه وخيار أمتكم لو أطاعهم في كثير من الأمر لعنتوا فكيف بكم اليوم ؟

وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد قال : لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أنكرنا أنفسنا وكيف لا ننكر أنفسنا والله يقول ﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ﴾ قال : هؤلاء أصحاب نبي الله صلى الله عليه وسلم لو أطاعهم نبي الله في كثير من الأمر لعنتوا فأنتم والله أسخف قلباً وأطيش عقولاً . فاتّهم رجل رأيه ، وانتصح كتاب الله فإن كتاب الله ثقة لمن أخذ به وانتهى إليه وإن ما سوى كتاب الله تغرير .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ﴾ يقول : لأعنت بعضكم بعضاً .

أما قوله تعالى : ﴿ ولكن الله حبب إليكم الإِيمان ﴾ .

أخرج أحمد والبخاري في الأدب والنسائي والحاكم وصححه عن رفاعة بن رافع الزرقي قال :

" لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون قال النبي صلى الله عليه وسلم : " استووا حتى أثني

على ربي ، فصاروا خلفه صفوفاً فقال : اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادي لما أضللت ، ولا مضل لما هديت ، ولا معطي لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا مقرب لما بعدت ، ولا مباعد لما قربت ، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول ، اللهم إني أسألك النعيم يوم العيلة والأمن يوم الخوف ، اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا ، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين ، اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين ، غير خزايا ولا مفتونين ، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك ، واجعل عليهم رجزك وعذابك ، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب يا إله الحق " " .

(61/718)

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا

أخرج أحمد والبخاري ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أنس قال : قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : لو أتيت عبد الله بن أُبي ، فانطلق وركب حماراً ، وانطلق المسلمون يمشون وهي أرض سبخة ، فلما انطلق إليهم قال : إليك عني

فوالله لقد آذاني ريح حمارك ، فقال رجل من الأنصار : والله لحمار رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيب ريحاً منك ، فغضب لعبد الله رجال من قومه ، فغضب لكل منهما أصحابه فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال ، فأنزل فيهم ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر عن أبي مالك قال : تلاحى رجلان من المسلمين ، فغضب قوم هذا لهذا وهذا لهذا فاقتتلوا بالأيدي والنعال فأنزل الله : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : إن الأوس والخزرج كان بينهما قتال بالسيف والنعال ، فأنزل الله ﴿ وإن طائفتان ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : كانت تكون الخصومة بين الحيين فيدعوهم إلى الحكم فيأبون أن يجيؤا ، فأنزل الله ﴿ وإن طائفتان ﴾ الآية .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال : ذكر لنا أن هذه الآية نزلت في رجلين من الأنصار كانت بينهما مماراة في حق بينهما ، فقال أحدهما للآخر : لآخذن عنوة - لكثرة عشيرته - وإن الآخر دعاه ليحاكمه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأبى ، فلم يزل الأمر حتى تدافعوا ، وحتى تناول بعضهم بعضاً بالأيدي والنعال ، ولم يكن قتال بالسيوف .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال : كان رجل من الأنصار يقال له عمران تحته امرأة يقال لها أم زيد ، وأنها أرادت أن تزور أهلها فحبسها زوجها وجعلها في علية له لا يدخل عليها أحد من أهلها ، وإن المرأة بعثت إلى أهلها فجاء قومها فأنزلوها لينطلقوا بها ، وكان الرجل قد خرج فاستعان أهل الرجل ، فجاء بنو عمه ليحولوا بين المرأة وبين أهلها ، فتدافعوا واجتلدوا بالنعال ، فنزلت فيهم هذه الآية ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾ فبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصلح بينهم ، وفاؤوا إلى أمر الله .

وأخرج الحاكم والبيهقي وصححه عن ابن عمر قال : ما وجدت في نفسي من شيء ما وجدت من هذه الآية ، إني لم أقاتل هذه الفئة الباغية كما أمرني الله .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن حبان السلمي قال : سألت ابن عمر عن قوله ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾ وذلك حين دخل الحجاج الحرم فقال لي : عرفت الباغية من المبغي عليها فوالذي نفسي بيده لو عرفت المبغية ما سبقتني أنت ولا غيرك إلى نصرها ، أفرأيت إن كانت كلتاهما باغيتين فدع القوم يقتتلون على دنياهم ، وارجع إلى أهلك ، فإذا استمرت الجماعة فادخل فيها .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال : إن الله أمر النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إذا اقتتلت طائفة من المؤمنين أن يدعوهم إلى حكم الله ،

وينصف بعضهم من بعض ، فإن أجابوا حكم فيهم بكتاب الله حتى ينصف المظلوم من الظالم ، فمن أبى منهم أن يجيب فهو باغ ، وحق على إمام المؤمنين والمؤمنين أن يقاتلوهم حتى يفيئوا إلى أمر الله ويقروا بحكم الله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾ قال : الأوس والخزرج اقتتلوا بينهم بالعصي .

(63/718)

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾ قال : الطائفة من الواحد إلى الألف ، وقال : إنما كانا رجلين اقتتلا .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ﴾ قال : كان قتالهم بالنعال والعصي فأمرهم أن يصلحوا بينهما .

أما قوله تعالى : ﴿ إن الله يحب المقسطين ﴾ .

أخرج ابن أبي شيبة ومسلم والنسائي وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عمر وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور على يمين العرش الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا " .

وأخرج ابن أبي شيبة من وجه آخر عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ يوم القيامة بين يدي الرحمن بما أقسطوا في الدنيا " .

قوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون أخوة ﴾ الآية .

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن سيرين رضي الله عنه أنه كان يقرأ ﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ﴾ بالياء .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم رضي الله عنه أنه قرأ ﴿ فأصلحوا بين أخويكم ﴾ بالياء .

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في سننه عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما رأيت مثل ما رغبت عنه في هذه الآية ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ﴾ الآية .

وأخرج أحمد عن فهيد بن مطرف الغفاري رضي الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأله سائل إن عدا علي عادٍ فأمره أن ينهاه ثلاث مرات ، قال : فإن لم ينته فأمره بقتاله ، قال : فكيف بنا ؟ قال : إن قتلك فأنت في الجنة ، وإن قتلته فهو في النار " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾ إلى قوله ﴿ فقاتلوا التي تبغي ﴾ قال : بالسيف ، قيل : فما قتلاهم ؟ قال : شهداء مرزوقين ، قيل : فما حال الأخرى أهل البغي ؟ قال : من قتل منهم إلى النار .

(64/718)

وأخرج ابن أبي شيبة والطبراني عن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " سيكون بعدي أمراء يقتتلون على الملك يقتل بعضهم بعضاً " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ 555.562 ﴾

(65/718)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى صلح)

الصّلاح والصُّلُوح بمعنى .

وصَلَح - كنصر - وصَلُح - ككرم - فهو صالح وصَلِيح .

ويختصّ الصّلاح بالأَفعال غالبًا .

وقوبل فى القرآن تارة بالفساد وتارة بالسَّيِّئة ، قال تعالى : ﴿ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ

سَيِّئاً ﴾ وقال : ﴿ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ﴾ .

*وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجدْ * ذُخرا يكون كصالح الأَعمالِ*

*والناسُ همُّهم الحياةُ ولا أَرَى * طولَ الحياة يزيد غير خَبالِ*

وقوله تعالى : ﴿ لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً ﴾ ، أَى ولدًا صالحًا صحيح البَدَن تامّ الخَلْق .

وقوله : ﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ ﴾ يعنى (نوحا ولوطا) .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ أَى وَلَدٌ مُعْرِض عن التَّوحيد .

وقوله : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ ﴾ ، يعنى سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلاَّ الله ، والله أَكبر .

وقيل فى قوله تعالى : ﴿ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعنى عمر بن الخطَّاب .

وقوله تعالى : ﴿ وَالشُّهَدَآءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ إشارة إلى عثمان بن عفَّان .

وقوله : ﴿ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾ يعنى وأَصحاب النَّجَاشى .

وقوله : ﴿ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾ يراد بهم جميع المطيعين من الرّجال والنساءِ .

وقوله : ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ ، أَى المتوكّلين عليه .

وقوله : ﴿ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أَى المؤدّين للزَّكاة .

ورفع الخوف عن أَهل الصّلاح فى الدّارين : ﴿ فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

وقال : ﴿ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ﴾ ، وقال : ﴿ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ ﴾ .

(66/718)

وقال : ﴿ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ .

وقال : ﴿ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا ﴾ .

وقال : ﴿ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وقال : ﴿ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ .

وقال : ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ .

وقال : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَآئِهِمْ ﴾ .

وقال : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 433.4311 ﴾

(67/718)

فصل

قال الشيخ الصابونى فى الآيات السابقة :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين (6) ﴾

سورة الحجرات

[1] التثبت من الأخبار

التحليل اللفظي

﴿ فاسق ﴾ : الفاسق : الخارج من حدود الشرع ، والفسق في أصل الاشتقاق موضوع لما يدل على معنى (الخروج) مأخوذ من قولهم : فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها ، وسمي الفاسق فاسقا لانسلاخه عن الخير .

وفي اللسان : الفسق : العصيان والترك لأمر الله عز وجل ، والخروج عن طريق الحق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾ [الكهف : 50] أي خرج من طاعة ربه ، والفواسق من النساء : الفواجر قال الشاعر :

فواسقا من أمره جوائرا . . . قال الراغب : والفسق أعم من الكفر ، لأنه يقع بالقليل والكثير من الذنوب ، ولكن تعورف فيما كان بالكثير ، وأكثر ما يقال لمن كان مؤمنا ثم أخل بجميع الأحكام أو ببعضها .

﴿ بنبإ ﴾ : النبأ في اللغة : الخبر ، والجمع أنباء كذا في " القاموس " و " اللسان " ، ويرى بعض اللغويين أنه لا يقال للخبر : نبأ حتى يكون هاما ، ذا فائدة عظيمة ، فكل خبر هام يسمى (نبأ) قال تعالى : ﴿ وجئتك من سبإ بنبإ يقين ﴾ [النمل : 22] وقال عز وجل ﴿ قل هو نبأ عظيم * أنتم عنه معرضون ﴾ [ص : 67 - 68] وأما إذا لم يكن هاما فلا يقال له نبأ .

قال الراغب : لا يقال للخبر في الأصل (نبأ) حتى يكون ذا فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن .

﴿ فتبينوا ﴾ : التبين : طلب البيان والتعرف ، وقريب من التثبت ، والمراد به هنا التحقق والتثبت من الخبر حتى يكون الإنسان على بصيرة من أمره .

ومعنى الآية الكريمة : إن جاءكم فاسق بنبأ عظيم له نتائج خطيرة ، فلا تقبلوا قوله حتى تتثبتوا وتتحققوا من صدقه ، لتأمنوا العاقبة .

﴿ بجهالة ﴾ : أي جاهلين حالهم ، أو تصيبوهم بسبب جهالتكم أمرهم .

﴿ نادمين ﴾ : الندم : الغم على وقوع شيء مع تمني عدم وقوعه ، يقال : ندم على الشيء ، وندم على ما فعل ندما وندامة ، وتندم أسف ، كذا في " اللسان " .

والمراد بالندم : الهم الدائم ، والنون والدال والميم في تقاليبها لا تنفك عن معنى الدوام كما في قولهم : أدمن في الشرب ، ومدن أي أقام ومنه المدينة .

﴿ لعنتم ﴾ : أي لوقعتم في العنت ، قال ابن الأثير : العنت : المشقة ، والفساد ، والهلاك . وقال في " اللسان " : العنت : الهلاك ، وأعنته : أوقعه في الهلكة ، وقوله تعالى : ﴿ لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ﴾ أي لوقعتم في الفساد والهلاك .

يقال : فلان يتعنت فلانا أي يطلب ما يؤديه إلى الهلاك ، ويقال أعنت العظم إذا كسر بعد الجبر .

﴿ الراشدون ﴾ : جمع راشد ، وهو المهتدي إلى محاسن الأمور ومنه سمي الخلفاء الراشدون ، والرشد الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه ، من الرشاد وهو الصخر .

﴿ بغت ﴾ : البغي : التطاول والفساد قال تعالى : ﴿ إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ﴾

[القصص : 76] . وأصل البغي : مجاوزة الحد في الظلم والطغيان ، والفئة الباغية : هي الظالمة الخارجة عن طاعة الإمام العادل وفي الحديث (ويح عمار تقتله الفئة الباغية) .

قال في اللسان : وكل مجاوزة وإفراط على المقدار الذي هو حد الشيء بغي ، وفي التنزيل : ﴿ بغى بعضنا على بعض ﴾ [ص : 22] .

﴿ تفيء ﴾ : أي ترجع إلى الطاعة ، وفاء إلى الشيء : رجع إليه ومنه قوله تعالى : ﴿ فإن فآءو فإن الله غفور رحيم ﴾ [البقرة : 226] أي رجعوا . والفيء : ما رجع إلى المسلمين من الكفار بدون حرب .

﴿ المقسطين ﴾ : العادلين المحقين ، من الرباعي (أقسط) بمعنى عدل ، وأما (قسط) فمعناه ظلم وقد تقدم .

المعنى الإجمالي

(69/718)

يقول الله تبارك وتعالى ما معناه : يا أيها المؤمنون ، يا من أتصفتم بالإيمان ، وصدقتم بكتاب الله ، وآمنتم برسوله ، وعلمتم علم اليقين أن ما جاءكم به الرسول حق لأنه من عند الله ، لا تسمعوا لكل خبر ، ولا تصدقوا كل إنسان ، بل تحققوا وتثبتوا من الأمر ، قبل أن تصيبوا إخوة لكم مؤمنين ، بسبب خبر لم تتحققوا من صحته ، وكلام لم تتأكدوا من صدقه ، فتندموا على ما فرط منكم ، ولكن لا ينفعكم حينئذ الندم .

واعلموا – أيها المؤمنون – أن فيكم السيد المبجل ، والنبي المعظم (رسول الله صلى الله عليه وسلم) المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ، الذي يطلعه الله على الخفايا ، فلا تحاولوا أن تستميلوه لرأيكم ، ولو أنه استجاب لكم ، وأطاعكم في غالب ما تشيرون به عليه ، لوقعتم في الجهد والهلاك ، ولكن الله – بمنة وفضله – حفظه وحفظكم ، ونور بصائر أتباعه المؤمنين ، وحبب إليهم الإيمان ، وبغض إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، وأرشدهم إلى سبيل الخير والسعادة .

(70/718)

ثم عقب تعالى بما يترتب على سماع مثل هذه (الأنباء المكذوبة) من تخاصم ، وتباغض ، وتقاتل ، فقال : إذا رأيتم أيها المؤمنون طائفتين من إخوانكم جنحتا إلى القتال والعدوان ، فابذلوا جهدكم للتوفيق بينهما ، وادعوهما إلى النزول على حكم الله ، فإن اعتدت إحدى الطائفتين على الأخرى وتجاوزت حدها بالظلم والطغيان ، وأرادت أن تبغي في الأرض ، فقاتلوا تلك الطائفة الباغية ، حتى تثوب إلى رشدها ، وترضى بحكم الله عز وجل ، وتقلع عن البغي والعدوان ، فإذا كفت عن العدوان فأصلحوا بينهما بالعدل ، لأنهم إخوتكم في الدين ، ومن واجب المسلمين أن يصلحوا بين الإخوان ، لا أن يتركوا البغضاء تدب ، والفرقة

تعمل عملها ، لأن المؤمنين جميعا إخوة ، جمعتهم (رابطة الإيمان) وليس ثمة طريق إلى إعادة الصفاء إلا بالإصلاح بين المتخاصمين ، فهو سبيل الفلاح وطريق الفوز والنجاح ، واتقوا الله لتنالكم رحمته ، وتسعدوا بمرضاته ولقائه .

سبب النزول

أولا : روى الإمام أحمد عن الحارث بن ضرار الخزاعي أنه قال :

" قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاني إلى الإسلام ، فدخلت فيه وأقررت به ، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها وقلت : يا رسول الله أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام ، وأداء الزكاة ، فمن استجاب لي جمعت زكاته ، وترسل إلي يا رسول الله رسولا لإبان كذا ، وكذا ، ليأتيك بما جمعت من الزكاة .

. فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له ، وبلغ زمان الوعد الذي أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليه ، احتبس الرسول فلم يأت ، فظن الحارث أن قد حدث فيه سخطه من الله ورسوله ، فدعا سروات قومه فقال لهم : رسول الله صلى الله عليه وسلم كان وقت لي وقتا يرسل إلي رسوله ليقبض ما كان عندنا من الزكاة ، وليس من رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلف ، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة علي ، فانطلقوا بنا نأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

وبعث رسول الله (الوليد بن عقبة) إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة ، فلما سار حتى بلغ بعض الطريق ، فرق فرجع ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم البعث إلى الحارث ، فأقبل الحارث بأصحابه حتى استقبله البعث وقد فصل عن المدينة ، قالوا : هذا الحارث . فلما غشيهم قال إلى أين ؟ قالوا : إليك ، قال : ولم ، قالوا : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : منعت الزكاة وأردت قتل رسولي ؟ قال : لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني ، وما أقبلت إلا حين احتبس علي رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خشية من أن تكون سخطة من الله ورسوله علي ، فنزلت الآية : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا ﴾ .

قال الإمام الفخر : ما ذكره المفسرون من أنها نزلت بسبب (الوليد بن عقبة) حين بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بني المصطلق ليقبض صدقاتهم . . . الخ إن كان مرادهم أن الآية نزلت عامة لبيان وجوب التثبت في خبر الفاسق ، وأنها نزلت في ذلك الحين الذي وقعت فيه حادثة الوليد فهذا جيد ، وإن كان غرضهم أنها نزلت لهذه الحادثة بالذات فهذا ضعيف ، لأن الوليد لم يتقصد الإساءة إليهم ، ورواية الإمام أحمد تدل على أن

الوليد خاف وفرق حين رأى جماعة الحارث – وقد خرجت في انتظاره – فظنها خرجت لحربة فرجع وأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بما أخبره ظنا منه أنهم خرجوا لقتاله .

(72/718)

يقول الإمام الفخر : " ويدل على ضعف قول من يقول إنها نزلت لكذا أن الله تعالى لم يقل : إني أنزلتها لكذا والنبي عليه السلام لم ينقل عنه أنه بين أن الآية وردت لبيان ذلك فحسب ، غاية ما في الباب أنها نزلت في ذلك الوقت وهو مثل التاريخ لنزول الآية ، ويتأكد ما ذكرنا أن اطلاق لفظ (الفاسق) على الوليد شيء بعيد ، لأنه توهم وظن فأخطأ ، والمخطئ لا يسمى فاسقا ، وكيف والفاسق في أكثر المواضع المراد به من خرج من ربقة الإيمان لقوله تعالى :

﴿ إن الله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ [المنافقون : 6] وقوله تعالى : ﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾ [الكهف : 50] وقوله تعالى : ﴿ وأما الذين فسقوا فمأواهم النار ﴾ [السجدة : 20] إلى غير ذلك .

ب – وأما قوله تعالى : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾ فقد ذكر في سبب نزولها ما يأتي :

أولا : أخرج البخاري ومسلم وابن جرير وغيرهم عن أنس رضي الله عنه أنه قال : " قيل للنبي صلى الله عليه وسلم لو أتيت (عبد الله بن أبي) فانطلق إليه وركب حمارا ، وانطلق معه المسلمون يمشون ، فلما أتاه النبي صلى الله عليه وسلم قال : إليك عني ، فوالله لقد آذاني نتن حمارك ، فقال رجل من الأنصار : والله لحمار رسول الله أطيب ريحا منك ، فغضب لعبد الله رجل من قومه ، وغضب للأنصاري آخرون من قومه ، فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال ، فأنزل الله فيهم : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾

.

ثانيا : وروى الشيخان عن أسامة بن زيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يعود (سعد بن عبادة) فمر بمجلس فيهم عبد الله بن أبي ، وعبد الله بن رواحة ، فخمر ابن أبي وجهه برادائه ، وقال : لا تغبروا علينا ، فقال عبد الله بن رواحة : لحمار رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيب ريحا منك ، فتعصب لكل أصحابه فتقاتلوا حتى كان بينم ضرب بالنعال والأيدي والسعف فنزلت الآية .

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : سورة الحجرات تسمى سورة (الأخلاق والآداب) فقد أرشدت إلى مكارم الأخلاق ، وجاء فيها النداء بوصف الإيمان بقوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمنوا ﴾ خمس مرات ، وفي كل مرة إرشاد إلى مكرمة من المكارم ، وفضيلة من الفضائل ، وهذه الآداب الرفيعة نستعرضها في فقرات وهي :

1- وجوب الطاعة والانقياد لأوامر الرسول صلى الله عليه وسلم وعدم التقدم عليه برأي أو قول : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله . . . ﴾ [الحجرات : 1] أي لا تعجلوا بقول أو فعل قبل أن يقول فيه رسول الله أو يفعل .

2- احترام الرسول وتعظيم شأنه وعدم رفع الصوت في حضرته ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي . . . ﴾ [الحجرات : 2] الآية .

3- وجوب التثبت من صحة الأخبار ، وعدم الاعتماد على أقوال الفسقة المفسدين ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا . . . ﴾ الآية .

4- النهي عن السخرية بالناس وعن التنابز بالألقاب ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن . . . ﴾ [الحجرات : 11] الآية .

5- النهي عن التجسس ، والغيبة ، وسوء الظن ، وعن سائر الأخلاق الذميمة ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا

. . . ﴾ [الحجرات : 12] الآية .

فهذه السورة الكريمة التي لا تتجاوز ثماني عشرة آية ، قد جمعت الفضائل والآداب الإنسانية ، فلا عجب أن تسمى (سورة الآداب) أو (سورة الأخلاق) فهي تتناول الأدب مع الله ، والأدب مع الرسول ، والأدب مع النفس ، والأدب مع المؤمنين ، والأدب مع الناس عامة ، وكلها بهذا الشكل الرتيب .

(74/718)

اللطيفة الثانية : تصدير الخطاب بالنداء ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمنوا ﴾ لتنبيه المخاطبين على أنما بعده أمر خطير ، يستدعي مزيد العناية والاهتمام بشأنه ، ووصفهم بالإيمان لتنشيطهم والإيذان بأنه داع للمحافظة عليه ، ووازع عن الإخلال به . أفاده العلامة أبو السعود .

اللطيفة الثالثة : قوله تعالى ﴿ إن جاءكم فاسق بنبإ ﴾ في هذا التعبير إشارة لطيفة إلى أن المؤمن ينبغي أن يكون حذرا يقظا ، لا يقبل كل كلام يلقى على عواهنه ، دون أن يعرف المصدر ، وتنكير (فاسق) للتعميم ، لأنه نكرة في سياق الشرط ، وهي كالنكرة في سياق النفي تفيد العموم كما قرره علماء الأصول ، والمعنى إن جاءكم أي فاسق فتثبتوا من خبره ، وجاء بحرف التشكيك (إن) ولم يقل (إذا) التي تفيد التحقيق ، ليشير إلى أن وقوع مثل

هذا إنما هو على سبيل (الندرة) إذ الأصل في المؤمن أن يكون صادقا ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالمنزلة التي لا يجسر أحد أن يخبرهم بكذب ، وما كان يقع مثل ما فرط من (الوليد بن عقبة) إلا في الندرة قيل : ﴿ إن جاءكم ﴾ بحرف الشك .

فتدبر أسرار الكتاب العزيز .

اللطيفة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله ﴾ تقديم خبر أن على اسمها ليفيد معنى الحصر ، المستتبع لزيادة التوبيخ لهم على ما فرط منهم في حق الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفي الكلام إشعار بأنهم زينوا بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم الايقاع بالحارث وقومه ، وقد أريد أن ينعى عليهم ذلك بتنزيلهم منزلة من لا يعلم أنه عليه السلام بين أظهرهم .

قال الإمام الفخر رحمه الله : " والذي اختاره وكأنه هو الأقوى أن الله تعالى لما قال : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا ﴾ أي فتثبتوا واكشفوا قال بعده : ﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله ﴾ .

(75/718)

أي الكشف سهل عليكم بالرجوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنه فيكم مبين مرشد ، وهذا كما قال القائل عند اختلاف تلاميذ شيخ في مسألة ، هذا الشيخ قاعد . . لا يريد به بيان قعوده ، وإنما يريد أمرهم بالرجوع إليه . فكأن الله تعالى يقول : استرشدوا بالرسول صلى الله عليه وسلم فإن يعلم ولا يطيع أحدا ، فلا يوجد فيه حيف ، ولا يروج عليه زيف ، لأنه لا يعتمد على كثير من آرائكم التي تبدونها ، وإنما يعتمد على الوحي الذي يأتيه من عند الله .

اللطيفة الخامسة : صيغة المضارع تفيد (الاستمرار والتجدد) بخلاف الماضي ، فالعدول عن الماضي إلى المضارع في قوله تعالى : ﴿ لو يطيعكم ﴾ ليفيد هذا المعنى على أنهم كانوا يريدون إطاعة الرسول لهم إطاعة مستمرة بدليل قوله تعالى : ﴿ في كثير من الأمر ﴾ وذلك أن صيغة المضارع تفيد التجدد والاستمرار ، تقول : فلان يقري الضيف ، ويحمي الحريم ، تريد أن ذلك شأنه وأنه مستمر على ذلك .

قال العلامة الألوسي : " وفي هذا التعبير ﴿ لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ﴾ مبالغات من أوجه :

أحدها : إيثار (لو) ليدل على الفرض والتقدير .

والثاني : ما في العدول إلى المضارع من إرادة استمرار ما حقه أن يفرض للتهجين والتوبيخ .

والثالث : ما في لفظ (العنت) من الدلالة على أشد المحذورة ، فإنه الكسر بعد الجبر .

والرابع : ما في الخطاب ، والجدير به غير (الكمل) ليكون أردع لمرتكبه وأزجر .

وكأن الله تعالى يقول : يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ولا تكونوا أمثال هؤلاء الذين استفزهم النبأ قبل التعرف على صدقه ، ثم لم يكتفوا حتى أرادوا أن يحملوا الرسول على رأيهم ، ليوقعوا أنفسهم ويوقعوا غيرهم في العنت والإرهاق ، واعلموا جلالة قدر الرسول صلى الله عليه وسلم وتفادوا عن أمثال هذه الأخطاء .

(76/718)

اللطيفة السادسة : قوله تعالى : ﴿ أولئك هم الراشدون ﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة كقوله تعالى : ﴿ وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾ [الروم : 39] وهذا الالتفات من المحسنات البديعية كما قرره علماء البلاغة ، كما قرره علماء البلاغة ، ويقصد به التعظيم أي هؤلاء الذين حبب الله إليهم الإيمان ، وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق العصيان ، هم الذين بلغوا أرفع الدرجات وأعلى المناصب ، ونالوا هذه الرتبة العظيمة (رتبة الرشاد) فضلا من الله وكرما .

اللطيفة السابعة : قوله تعالى ﴿ وإن طآئفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾ الطائفة في اللفظ مفرد ، وفي المعنى جمع ، لأنها تدل على عدد كبير من الناس ، ولهذا جاء التعبير بقوله (اقتتلوا)

رعاية للمعنى فإن كل طائفة من الطائفتين جماعة ، ثم قال تعالى : ﴿ فأصلحوا بينهما ﴾ ولم يقل بينهم رعاية للفظ ، والنكتة في هذا هو ما قيل : إنهم عند الاقتتال تكون الفتنة قائمة وهم مختلطون فلذا جمع الضمير ، وفي حال الصلح تتفق كلمة كل طائفة حتى يكونوا كنفسين فلذا ثني الضمير .

اللطيفة الثامنة : قال الإمام الفخر رحمه الله : قال تعالى : ﴿ وإن طآئفتان من المؤمنين ﴾ ولم يقل (منكم) مع أن الخطاب مع المؤمنين لسبق قوله : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمنوا ﴾ تنبيها على قبح ذلك ، وتبعيدا لهم عنهم . كما يقول السيد لعبده : إن رأيت أحدا من غلماني يفعل كذا فامنعه ، فيصير بذلك مانعا للمخاطب عن ذلك الفعل بالطريق الحسن ، كأنه يقول : أنت حاشاك أن تفعل ذلك ، فإن فعل غيرك فامنعه ، كذلك ها هنا قال : ﴿ وإن طآئفتان من المؤمنين ﴾ ولم يقل منكم لما ذكرنا من التنبيه مع أن المعنى واحد .

(77/718)

اللطيفة التاسعة : قوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ فيه تشبيه لطيف يسمى (التشبيه البليغ) وأصل الكلام : المؤمنون كالإخوة في وجوب التراحم والتناصر فحذف وجه الشبه وأداة الشبة فأصبح بليغا ، قال بعض أهل اللغة : الإخوة جمع الأخ من النسب ، والإخوان

جمع الأخ من الصداقة ، فالله تعالى قال : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ تأكيدا للأمر وإشارة إلى أن ما بينهم كما بين الإخوة من النسب ، والإسلام لهم كالأب فأخوة (العقيدة) فوق أخوة (الجسد) ورابطة الإيمان أقوى من رابطة النسب ، وقد قال الشاعر العربي :

أبي الإسلام لا أب ليسواه . . . إذا افتخروا بقيس أو تميم

اللطيفة العاشرة : سئل بعض العلماء عما وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم من قتال فقال : تلك دماء قد طهر الله منها أيدينا ، فلا نلوث بها ألسنتنا ، وسبيل ما جرى بينهم كسبيل ما جرى بين يوسف وإخوته . وسئل (الحسن البصري) عن قتالهم فقال : (قتال شهده أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وغبنا ، وعلموا ، وجهلنا ، واجتمعوا فاتبعنا ، واختلفوا فوقفنا) .

وقال المحاسبي : فنحن نقول كما قال الحسن ، ولا نبتدع رأيا منا ، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا وجه الله عز وجل .

وجوه القراءات

1- قوله تعالى : ﴿ إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا ﴾ قرأ الجمهور ﴿ فتبينوا ﴾ من التبين ، وقرأ حمزة والكسائي ﴿ فتثبتوا ﴾ من التثبت ، والمعنى واحد لأن التبين معناه في اللغة التثبت والتحقق .

2- قوله تعالى : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾ قرأ الجمهور ﴿ اقتتلوا ﴾ بصيغة

الجمع ، وقرأ أبي بن كعب ، وابن مسعود ﴿ اقتتلا ﴾ بالتثنية على فعل اثنين مذكرين ، وقرأ أبو المتوكل ، وابن أبي عبلة ﴿ اقتتلتا ﴾ بتاء وألف بعد اللام على فعل اثنتين مؤنثتين .

(78/718)

3- قوله تعالى : ﴿ فأصلحوا بين أخويكم ﴾ قرأ الأكثرون ﴿ بين أخويكم ﴾ بياء التثنية ، وقرأ أبي بن كعب ، وابن جبير ﴿ بين إخوتكم ﴾ بالتاء على الجمع ، وقرأ الحسن وابن سيرين ﴿ بين إخوانكم ﴾ بالنون وألف قبلها ويكون المراد بين الأوس والخزرج .

وجوه الإعراب

1- قوله تعالى : ﴿ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة ﴾ في تقديره وجهان : أحدهما : أن يكون التقدير لئلا تصيبوا وهو مذهب الكوفيين .

والثاني : أن يكون التقدير كراهية أن تصيبوا أو خشية أن تصيبوا وهو مذهب البصريين .

2- قوله تعالى : ﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله ﴾ عطف على ما قبله و (أن) وما بعدها في تأويل مصدر سدت مسد مفعولي (اعلموا) .

3- قوله تعالى : ﴿ فضلا من الله ونعمة ﴾ في إعرابه وجهان :

أحدهما : أن يكون منصوبا على المفعول له .

والثاني : أن يكون مصدرا مؤكدا لما قبله أي تفضلا من الله .

4- قوله تعالى : ﴿ وإن طآئفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾

(إن) شرطية جازمة ، و (طائفتان) فاعل لفعل محذوف يفسره المذكور تقديره : إن اقتتل طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ، وإنما قدرنا ذلك لأن الشرط في (إن) أن يليها الفعل ، فإن وليها اسم قدروا لها فعلا يفسره ما بعده .

قال ابن الأنباري : ولا يجوز أن يحذف الفعل مع شيء من كلمات الشرط العاملة إلا مع (إن) لأنها الأصل في كلمات الشرط ، ويثبت للأصل ما لا يثبت للفرع .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : هل يقبل خبر الواحد إذا كان عدلا ؟

استدل العلماء بهذه الآية الكريمة ﴿ إن جاءكم فاسق بنبإ ﴾ على قبول خبر الواحد إذا كان عدلا ووجه الاستدلال من جهتين :

الأولى : أن الله تعالى أمر بالتثبت في خبر الفاسق ، ولو كان خبر الواحد العدل لا يقبل لم كان ثمة فائدة من ذكر التثبت ، لأن خبر كل من العدل والفاسق مردود ، فلما دل الأمر بالتثبت في خبر الفاسق ، وجب قبول خبر العدل ، وهذا الاستدلال كما يقول علماء الأصول من باب (مفهوم المخالفة) .

الثانية : أن العلة في رد الخبر هي (الفسق) لأن الخبر أمانة ، والفسق يبطلها ، فإذا انتفت العلة انتفى الرد ، وثبت أن خبر الواحد ليس مردودا ، وإذا ثبت ذلك وجب حينئذ قبوله والعمل به .

وأما المجهول : الذي لا تعلم عدالته ولا فسقه فقد استدل فقهاء الحنفية على قبول خبره ، وحجتهم في ذلك أن الآية دلت على أن الفسق شرط وجوب التثبت ، فإذا انتفى الفسق فقد انتفى وجوبه ، ويبقى ما وراءه على الأصل وهو قبول خبره ، لأن الأصل في المؤمن العدالة .

وأنت ترى أن هذا الاستدلال مبي على أن الأصل العدالة ، ولكن بعض الفقهاء يعارض في هذا ويقول : الأصل الفسق لأنه أكثر ، والعدالة طارئة فلا يقبل قوله حتى يثبت من عدالته .

الترجيح : والظاهر أن مسألة قبول خبر المجهول مبنية على هذا ، فإن صح أن الأصل العدالة فهو باق على عدالته حتى يتبين خلافها ، وإن كان الأصل عدمها فهو داخل في حكم الفسق حتى تتبين عدالته ، والمسألة تطلب بالتفصيل من كتب الأصول .

الحكم الثاني : هل يجب البحث عن عدالة الصحابة في الشهادة والرواية ؟

استدل بعض العلماء بالآية الكريمة على أن من الصحابة من ليس بعدل ، لأن الله تعالى أطلق لقب الفاسق على (الوليد بن عقبة) فإنها نزلت فيه ، وسبب النزول لا يمكن إخراجه من اللفظ العام ، وهو صحابي بالاتفاق ، وقد أمر الله بالتثبت من خبره ، فلا بد من البحث عن عدالة الصحابة في الشهادة والرواية .

والمسألة خلافية وفيها أقوال كثيرة نذكرها بإيجاز :

الأول : أن الصحابة كلهم عدول ، ولا يبحث عن عدالتهم في رواية ولا شهادة ، وهذا رأي جمهور العلماء سلفا وخلفا .

الثاني : أن الصحابة كغيرهم يبحث عن العدالة فيهم في الرواية والشهادة إلا من يكون ظاهر العدالة أو مقطوعها كالشيخين (أبي بكر) و (عمر) رضي الله عنهما .

الثالث : أنهم عدول إلى زمن عثمان رضي الله عنه ، ويبحث عن عدالتهم من مقتله ، وهذا رأي طائفة من العلماء .

(80/718)

الرابع : أنهم عدول إلا من قاتل عليا كرم الله وجهه لفسقه بالخروج على الإمام الحق وهذا مذهب المعتزلة .

الترجيح : والحق ما ذهب إليه جمهور العلماء سلفا وخلفا من أن الصحابة كلهم عدول ، ببركة صحبة النبي صلى الله عليه وسلم ، ومزيد ثناء الله عز وجل عليهم في كتابه العزيز كقوله سبحانه : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ [البقرة : 143] أي عدولا ، وقوله سبحانه : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ [آل عمران : 110] وقوله جل ذكره : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ [الفتح : 29] . وقوله جل وعلا : ﴿ يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾ [الحشر : 8] وقوله جل وعلا : ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ [المائدة : 119] إلى آخر ما هناك من الآيات الكثيرة .

وكذلك ما ثبت في السنة المطهرة من مدحهم ، والثناء عليهم ، وبيان أنهم أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإطلاق ، ونحن نذكر بعض هذه الأحاديث الشريفة التي تشير إلى فضيلتهم باختصار .

أ- قال صلى الله عليه وسلم : " خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم " الحديث .

ب- وقال صلى الله عليه وسلم : " لا تسبوا أصحابي فالوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم

أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه " .

ج – وقال صلى الله عليه وسلم : " الله الله في أصحابي ، لا تتخذوهم غرضا بعدي ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه " .

(81/718)

فهذه الأخبار التي وردت في الكتاب والسنة كلها متضافرة على عدالة الصحابة وأفضليتهم على سائر الناس ، وما وقع من بعضهم من مخالفات فليس يسوغ لنا أن نحكم عليهم بالفسق ، لأنهم لا يصرون على الذنب ، وإذا تاب الإنسان رجعت إليه عدالته ولا يحكم بفسقه على التأبيد ، فهذا (ماعز الأسلمي) الذي ارتكب الفاحشة يقول عنه النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أمر برجمه " لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم " .

والقول : بأن بعض الصحابة قد وقع في الذنب والمخالفة – بناء على الاعتقاد بعدم عصمتهم – لا يعني أنهم غير عدول ، لن الفاسق الذي ترد شهادته وروايته هو الذي يصر على الذنب والمعصية ، وليس في الصحابة من يصر على ذلك .

وقد عرفت ما ذكره الإمام الفخر أنها لم تنزل خاصة بسبب (الوليد بن عقبة) وإنما نزلت

عامة في بيان حكم كل فاسق ، وأنها نزلت في ذلك الوقت الذي حدثت فيه تلك القصة ، فهي مثل التاريخ لنزول الآية ، وكلام الإمام الفخر نفيس فارجع إليه .

الحكم الثالث : هل تقبل شهادة الفاسق أو المبتدع ؟

أتفق العلماء على أن شهادة الفاسق لا تقبل عملا بالآية الكريمة ﴿ إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا ﴾ ، وكذلك لا تقبل روايته ، لأن الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمانة ودين ، والفسق يبطلها لاحتمال كذبه على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال القرطبي : " ومن ثبت فسقه بطل قوله في الأخبار إجماعا ، لأن الخبر أمانة ، والفسق قرينة يبطلها " .

وقال الجصاص : " وقوله تعالى : ﴿ فتبينوا ﴾ اقتضى ذلك النهي عن قبول شهادة الفاسق مطلقا ، إذ كان كل شهادة خبرا ، وكذلك سائر أخباره ، فلذلك قلنا : شهادة الفاسق غير مقبولة في شيء من الحقوق ، وكذلك أخباره في الرواية عن النبي صلى الله عليه وسلم وكل ما كان من أمر الدين ، يتعلق به إثبات شرع ، أو حكم ، إو إثبات حق على إنسان " .

وقد استثنى العلماء من قبول خبر الفاسق أمورا تتعلق بالمعاملات وليس فيها شهادة على الغير منها :

أ- قبول قوله في الإقرار على نفسه مثل : لفلان عندي مائة درهم فيقبل قوله كما يقبل في ذلك قول الكافر ، لأنه إقرار لغيره بحق على نفسه فلا تشترط فيه العدالة .

ب- قبول قوله في الهدية والوكالة مثل إذا قال : إن فلانا أهدى إليك هذا ، يجوز له قبوله وقبضه ، ونحوه قوله : وكلني فلان ببيع عبده هذا فيجوز شراؤه منه .

ج- وكذلك في الإذن بالدخول ونحوه كما إذا استأذن إنسان فقال له : ادخل لا تشترط فيه العدالة . ومثل هذا جميع أخبار المعاملات إذا لم يكن فيها شهادة على الغير .

واختلف العلماء في أمر الولاية بالنكاح ، " فذهب الشافعي " وغيره إلى أن الفاسق لا يكون وليا في النكاح ، لأنه يسيء التصرف ، وقد يضر بمن يلي أمر نكاحها بسبب فسوقه .

وقال أبو حنيفة ومالك : تصح ولايته ، لأنه يلي مالها فيلي بضعها كالعدل ، وهو - وإن كان فاسقا - إلا أن غيرته موفرة ، وبها يحمي الحريم ، وقد يبذل المال ويصون الحرمة ، وإذا ولي المال فالنكاح أولى .

أما المبتدع : وهو الفاسق الذي يكون فسقه بسبب الاعتقاد ، وهو متأول للنصوص كالجبرية والقدرية ويقال له : المبتدع بدعة واضحة ، فمن الأصوليين من رد شهادته وروايته كالإمام الشافعي رحمه الله ومنهم من قبلهما ، وفرق الحنفية فقالوا : تقبل منه

الشهادة ، ولا تقبل منه الرواية ، لأن من ابتدع بدعة بسبب الدين فلا يبعد أن ينتصر لهواه ويدعو الناس إلى ذلك فنرد روايته دون شهادته ، لأن الدعوة إلى مذهبه داعية إلى النقل فلا يؤتمن على الرواية . وهذا مذهب جمهور أئمة الفقه والحديث .

الحكم الرابع : هل تصح ولاية الفاسق ؟

(83/718)

قال ابن العربي رحمه الله : " ومن العجب أن يجوز الشافعي ونظراؤه إمامة الفاسق ، ومن لا يؤتمن على حبة مال كيف يصح أن يؤتمن على قنطار دين ؟ ! وهذا إنما كان أصله أن الولاة الذين كانوا يصلون بالناس ، لما فسدت أديانهم ولم يمكن ترك الصلاة وراءهم ، ولا استطيعت إزالتهم صلي معهم ووراءهم ، كما قال عثمان : الصلاة أحسن ما يفعل الناس ، فإذا أحسنوا فأحسن ، وإذا أساءوا فاجتنب إساءتهم .

ثم كان من الناس من إذا صلى معهم تقية أعادوا الصلاة لله ، ومنهم من كان يجعلها صلاته ، وبوجوب الإعادة أقول ، فلا ينبغي لأحد أن يترك الصلاة مع من لا يرضى من الأئمة ، ولكن يعيد سرا في نفسه ، ولا يؤثر ذلك عند غيره .

وأما أحكامه إن كان واليا فينفذ منها ما وافق الحق ، ويرد ما خالفه ، ولا ينقض حكمه

الذي أمضاه بحال ، ولا تلتفتوا إلى غير هذا القول من رواية تؤثر ، أو قول يحكى ، فإن الكلام كثير ، والحق ظاهر " .

الحكم الخامس : هل يجب قتال أهل البغي ؟

ذهب جمهور العلماء إلى وجوب قتال أهل البغي ، الخارجين على الإمام أو أحد المسلمين ، ولكن بعد دعوتهم إلى الوفاق والصلح ، والسير بينهم بما يصلح ذات البين ، فإن أقاموا على البغي وجب قتالهم عملا بقوله تعالى : ﴿ فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ﴾ .

وذهب جماعة منن يدعي العلم إلى عدم جواز قتال البغاة من المؤمنين ، واحتجوا بقوله عليه السلام : " سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر " .

وهذا الحديث لا ينهض حجة لهم ، لأن من بغى من المؤمنين فقد أمر القرآن بقتاله ، فكيف يحتج بمثل هذا الحديث لإبطال حكم الله عز وجل ؟

(84/718)

قال القرطبي : وهذه الآية دليل على فساد قول من منع من قتال المؤمنين ، ولو كان قتال المؤمن الباغي كفرا لكان الله تعالى قد أمر بالكفر ، تعالى الله عن ذلك ! ! وقد قاتل

الصديق رضي الله عنه من تمسك بالإسلام وامتنع من الزكاة ، وأمر ألا يتبع مول ، ولا يجهز على جريح ، ولا تحل أموالهم بخلاف الكفار .

وقال الطبري : " لو كان الواجب في كل اختلاف يكون بين الفريقين الهرب منه ولزوم المنازل ، لما أقيم حد ، ولا أبطل باطل ، ولوجد أهل النفاق والفجور سبيلا إلى استحلال كل ما حرم الله عليهم من أموال المسلمين ، وسبي نسائهم ، وسفك دمائهم ، بأن يتحزبوا عليهم ، ويكف المسلمون أيديهم عنهم ، وذلك مخالف لقوله عليه السلام : " خذوا على أيدي سفهائكم " .

أدلة الجمهور :

استدل الجمهور على وجوب قتال البغاة بعدة أدلة نوجزها فيما يلي :

أ- قوله تعالى : ﴿ فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ﴾ الآية .

ب- حديث : " سيخرج قوم في آخر الزمان ، حدثاء الأسنان ، سفهاء الأحلام ، يقولون من خير البرية ، يقرؤون القرآن ، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم ، فإن في قتلهم أجرا لمن قتلهم عند الله يوم القيامة " .

ج- حديث : " سيكون في أمتي اختلاف وفرقة ، قوم يحسنون القول ويسيئون العمل ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، لا يرجعون حتى يرتد على فوقه ، هم شر

الخلق والخليقة طوبى لمن قتلهم أو قتلوه ، قالوا يا رسول الله : ما سيماهم ؟ قال : التحليق "

د – وقال عليه السلام في عمار : " تقتله الفئة الباغية " .

فهذه الأحاديث صريحة في وجوب قتال أهل البغي ومن شايعهم على باطلهم من أهل الفجور والضلال .

(85/718)

قال الجصاص : " ولم يختلف أصحاب رسول الله في وجوب قتال (الفئة الباغية) بالسيف إذا لم يردعها غيره ، ألا ترى أنهم كلهم رأوا قتال الخوارج ولو لم يروا قتال الخوارج وقعدوا عنهم لتقلوهم وسبوا ذراريهم ونساءهم . فإن قيل قد جلس عن علي جماعة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم منهم : (سعد ، وأسامة بن زيد ، وابن عمر) ! ! قيل له : لم يقعدوا عنه لأنهم لم يروا قتال الفئة الباغية ، وجائز أن يكون قعودهم عنه لأنهم رأوا الإمام مكتفيا بمن معه ، مستغنيا عنهم بأصحابه فاستجازوا القعود عنه لذلك ، ألا ترى أنهم قعدوا عن قتال الخوارج ، لا على أنهم لم يروا قتالهم واجبا ، لكنهم لما وجدوا من كفاهم قتل الخوارج استغنوا عن مباشرة قتالهم " .

الحكم السادس : هل تكون أموال البغاة غنيمة للمسلمين ؟

اختلف العلماء في حكم أموال البغاة هل تكون غنيمة للمسلمين ؟ أم ترد إليهم بعد الصلح وانتهاء الحرب ؟

أ- فقال محمد بن الحسن الشيباني : إن أموالهم لا تكون غنيمة ، وإنما يستعان على حربهم بسلاحهم وخيلهم عند الاستيلاء عليه ، فإذا وضعت الحرب أوزارها رد عليهم السلاح والمال .

ب- وقال أبو يوسف : إن ما وجد في أيدي أهل البغي من سلاح وعتاد فهو (غنيمة) يقسم ويخمس .

ج- وقال مالك : لا تسبى ذراريهم ولا أموالهم ، وهو مذهب الشافعي .

حجة أبي يوسف : أنهم باغون معتدون فيقسم مالهم غنيمة بين المسلمين .

حجة الجمهور : أن بغيهم يحل قتالهم ولا يحل أموالهم وذراريهم لأنهم ليسوا كفارا ، وإنما هم مؤمنون باغون ، أو فاسقون خارجون عن الطاعة ، والأمر بقتالهم من أجل ردهم إلى صف المؤمنين .

واستدلوا بحديث ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يا عبد الله أتدري كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمة ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، فقال : لا يجهز على جريحها ، ولا يقتل أسيرها ، ولا يطلب هاربها ، ولا يقسم فيئها " .

قال القرطبي : " والمعول في ذلك عندنا أن الصحابة رضي الله عنهم في حروبهم لم يتبعوا مدبرا ، ولا ذففوا على جريح ، ولا قتلوا أسيرا ، ولا ضمنوا نفسا ولا مالا ، وهم القدوة " .

الترجيح : والصحيح ما ذهب إليه الجمهور لأنهم ليسوا كفارا ، ولأننا لو أخذنا أموالهم وسبينا ذراريهم بألبوا علينا ولم يمكن ردهم إلى صف المسلمين والله أعلم .

فائدة هامة : حول ما وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

قال العلامة القرطبي رحمه الله : " لا يجوز أن ينسب إلى إحد من الصحابة خطأ مقطوع به ، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه ، وأرادوا الله عز وجل ، وهم كلهم بنا أئمة ، وقد تعبدنا بالكف عما شجر بينهم ، وألا نذكرهم إلا بأحسن الذكر ، لحرمة الصحبة ، ولنهي النبي صلى الله عليه وسلم عن سبهم ، وأن غفر لهم ، وأخبر بالرضا عنهم " .

هذا مع قد ورد من الأخبار من طرق مختلفة عن النبي صلى الله عليه وسلم أن طلحة شهيد يمشي على وجه الأرض ، فلو كان ما خرج إليه من الحرب عصيانا لم يكن بالقتل فيه شهيدا ، لأن الشهادة لا تكون إلا بالقتل في الطاعة .

ومما يدل على ذلك ما قد صح بأن قاتل الزبير في النار ، وقوله عليه السلام : " بشر قاتل ابن صفية بالنار " ، وإذا كان كذلك فقد ثبت أن (طلحة) و (الزبير) غير عاصيين ، ولا آثمين

بالقتال ، وقد سئل بعضهم عن الدماء التي أريقت فيما بينهم فقال : ﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ [البقرة : 134] .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

أولا : وجوب التثبت من الأخبار وعدم الوثوق بخبر الفاسق الخارج عن طاعة الله .

ثانيا : ضرورة التريث قبل الحكم على الأشخاص لمجرد سماع الأنباء خشية الظلم والعدوان عليهم .

ثالثا : الرسول صلى الله عليه وسلم هو المرجع للمؤمنين ، فلا يجوز لأحد من أهل الإيمان أن يقطع بأمر دونه .

(87/718)

رابعا : وجوب الإصلاح بين طوائف المؤمنين عند حصول النزاع خشية تصدع الصف ، وتفرق الكلمة .

خامسا : إذا بغت إحدى الطائفتين على الأخرى ولم يمكن الاصلاح وجب قبر الفتنة بحد السيف .

سادسا : المؤمنون إخوة جمعتهم رابطة (العقيدة والإيمان) وهذه الرابطة أقوى من رابطة

النسب والدم .

سابعا : يجب على المؤمنين مقاومة أهل البغي إبقاء لوحدة الأمة الإسلامية ودفعا للظلم عن المستضعفين .

خاتمة البحث :

حكمة التشريع

يدعو الإسلام إلى التثبت في الخبر ، وأخذ الحيطة والحذر ، في كل أمر من أمور المؤمنين ، ليجتنبوا المزالق التي يدبرها لهم أعداؤهم ، ويكونوا على بينة من أمرهم ، فكم من فتنة حصلت بسبب خبر كاذب ، نقله فاسق فاجر ؟ وكم من دماء أريقت بسبب فتنة هوجاء ، أشعل نارها أناس ماكرون ؟ لا يريدون للأمة الخير ، ولا يضمرون للمسلمين إلا كل شر ، وبلاء ، وفتنة ، ليفسدوا عليهم وحدتهم ، ويكدروا عليهم صفاءهم وسرورهم .

لذلك أمر الإسلام بمبدأ كريم فاضل (مبدأ التمحيص) والتثبت من كل خبر ، وخاصة خبر الفاسق ، الذي لا يقيم حرمة للدين ، ولا يبالي بما يحدث من جراء كذبه وبهتانه ، من أضرار فادحة ، ونتائج وخيمة ، تشل حركة المجتمع ، وقد تفضي إلى فجيعة عظيمة تودي بحياة أناس بريئين ، كما كان سيحدث في قصة (الوليد بن عقبة) لولا أن الله عز وجل أطلع رسوله على جلية الأمر ، بواسطة الوحي المنزل ، فكان في ذلك صيانة الدماء البريئة ، وحفظ وحدة المسلمين . كما أمر الإسلام بمقاومة الظلم والطغيان ، أيا كان مصدره ،

فدعا إلى الإصلاح بين الطوائف المتنازعة ، والفئات المتخاصمة ، فإن لم ينفع الصلح ، ولم تثمر دعوته ، كان السيف هو الحكم الفاصل تقاتل به الفئة الباغية ، حتى ترجع إلى أمر الله ، وتفيء إلى رشدها .

(88/718)

وهذه الخطة الحكيمة التي انتهجها الإسلام قاعدة تشريعية وقائية ، لصيانة المجتمع المسلم من الخصام ، والتفكك ، والاندفاع وراء الأهواء الطائشة ، التي لا تجني منها الأمة إلا كل شر ، وبلاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روائع البيان حـ 2 صـ 470 . 495 ﴾

(89/718)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (11) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما نهى عن الإسراع بالإيقاع بمجرد سماع ما يوجب النزاع ، وختم بما ترجى به الرحمة ، وكان ربما كان الخبر الذي أمر سبحانه بتبينه صريحاً ، نهى عن موجبات الشر التي يخبر بها فتكون سبباً للضغائن التي يتسبب عنها الشر الذي هو سبب للنقمة رحمة لعباد الله وتوقعاً للرحمة منه ، فقال على سبيل النتيجة من ذلك ذاكراً ما في القسم الرابع من الآداب والمنافع من وجوب ترك أذى المؤمنين في حضورهم والإزراء بحالهم المذهب لسرورهم الجالب لشرورهم : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي أوقعوا الإقرار بالتصديق ﴿ لا يسخر ﴾ أي يهزأ ويستذل .

ولما كانت السخرية تكون بحضرة ناس ، قال معبراً بما يفهم أن من شارك أو رضي أو سكت وهو قادر فهو ساخر مشارك للقائل : ﴿ قوم ﴾ أي ناس فيهم قوة المحاولة ، وفي التعبير بذلك هز إلى قيام الإنسان على نفسه وكفها عما تريده من النقائص شكراً لما أعطاه الله من القوة : ﴿ من قوم ﴾ فإن ذلك يوجب الشر لأن أضعف الناس إذا حرك للانتقاص قوي بما يثور عنده من حظ النفس .

ولما كان الذي يقتضيه الرأي الأصيل أنه لا يستذل الإنسان إلا من أمن أن يصير في وقت من الأوقات أقوى منه في الدنيا وفي الآخرة ، علل بقوله : ﴿ عسى ﴾ أي لأنه جدير وخليق لهم ﴿ أن يكونوا ﴾ أي المستهزأ بهم ﴿ خيراً منهم ﴾ فينقلب الأمر عليهم ويكون لهم

سوء العاقبة ، قال ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ : البلاء موكل بالقول ولو سخرت من كلب خشيت أن أحول كلباً ؛ وقال القشيري : ما استضعف أحد أحداً إلا سلط عليه ، ولا ينبغي أن تعتبر بظاهر أحوال الناس ، فإن في الزوايا خبايا ، والحق سبحانه يستر أولياءه في حجاب الظنة ، كذا في الخبر

"كم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره" .

(90/718)

ولما كان إطلاق القوم لمن كان فيه أهلية المقاومة وهم الرجال ، قال معبراً ما هو من النسوة بفتح النون أن ترك العمل : ﴿ ولا نساء من نساء ﴾ ثم علل النهي بقوله : ﴿ عسى ﴾ أي ينبغي أن يخفن من ﴿ أن يكن ﴾ المسخور بهن ﴿ خيراً منهن ﴾ أي الساخرات .

ولما كانت السخرية تتضمن العيب ، ولا يصرح فيها ، وكان اللمز العيب نفسه ، رقي الأمر إليه فقال : ﴿ ولا تلمزوا ﴾ أي تعيبوا على وجه الخفية ﴿ أنفسكم ﴾ بأن يعيب بعضكم بعضاً بإشارة أو نحوها ، فكيف إذا كان على وجه الظهور ، فإنكم في التواصل والتراحم كنفس واحدة ، أو يعمل الإنسان ما يعاب به ، فيكون قد لمز نفسه أو يلمز غيره فيكون لمزه له سبباً لأن يبحث عن عيوبة فيلمزه فيكون هو الذي لمز نفسه ﴿ ولا تنابزوا ﴾ أي ينبز

بعضكم بعضاً ، أي يدعو على وجه التغير والتسفل ﴿ بالألقاب ﴾ بأن يدعو المرء صاحبه بلقب يسوءه سواء كان هو المخترع له أولاً ، وأما ألقاب المدح فنعم هي كالصديق والفاروق .

ولما كان الإيمان قيداً لأوابد العصيان ، وكان النبز والسخرية قطعاً لذلك القيد ، علل بما يؤذن فأنه فسق ، معبراً بالكلمة الجامعة لجميع المذامّ تنفيراً من ذلك فقال : ﴿ بئس الاسم الفسوق ﴾ أي الخروج من ربقة الدين ﴿ بعد الإيمان ﴾ ترك الجارّ إيذاناً بأن من وقع في ذلك أوشك أن يلازمه فيستغرق زمانه فيه فإن النفس عشاقة للنقائص ، ولا سيما ما فيه استعلاء ، فمن فعل ذلك فقد رضي لنفسه أو يوسم بالفسق بعد أن كان موصوفاً بالإيمان .

ولما كان التقدير : فمن تاب فأولئك هم الراشدون ، وكان المقام بالتحذير أليق ، عطف عليه قوله : ﴿ ومن لم يتب ﴾ أي يرجع عما نهى الله عنه ، فخفف عن نفسه ما كان شدد عليها ﴿ فأولئك ﴾ أي البعداء من الله ﴿ هم ﴾ أي خاصة ﴿ الظالمون ﴾ أي العريقون في وضع الأشياء في غير مواضعها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 232 . 233 ﴾

(91/718)

فصل

قال الفخر :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾

(92/718)

وقد بينا أن السورة للإرشاد بعد إرشاد فبعد الإرشاد إلى ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع الله تعالى ومع النبي صلى الله عليه وسلم ومع من يخالفهما ويعصيهما وهو الفاسق ، بين ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع المؤمن ، وقد ذكرنا أن المؤمن إما أن يكون حاضراً وإما أن يكون غائباً ، فإن كان حاضراً فلا ينبغي أن يسخر منه ولا يلتفت إليه بما ينافي التعظيم ، وفي الآية إشارة إلى أمور ثلاثة مرتبة بعضها دون بعض وهي السخرية واللمز والنبز ، فالسخرية هي أن لا ينظر الإنسان إلى أخيه بعين الإجلال ولا يلتفت إليه ويسقطه عن درجته ، وحينئذ لا يذكر ما فيه من المعايب ، وهذا كما قال بعض الناس تراهم إذا ذكر عندهم عدوهم يقولون هو دون أن يذكر ، وأقل من أن يلتفت إليه ، فقال لا تحقروا إخوانكم ولا تستصغروهم الثاني : هو اللمز وهو ذكر ما في الرجل من العيب في غيبته وهذا دون الأول ، لأن في الأول لم يلتفت إليه ولم يرض بأن يذكره أحد وإنما جعله مثل المسخرة الذي لا يغضب

له ولا عليه الثالث : هو النبز وهو دون الثاني ، لأن في هذه المرتبة يضيف إليه وصفاً ثابتاً فيه يوجب بغضه وحط منزلته ، وأما النبز فهو مجرد التسمية وإن لم يكن فيه وذلك لأن اللقب الحسن والاسم المستحسن إذا وضع لواحد وعلق عليه لا يكون معناه موجوداً فإن من يسمى سعداً وسعيداً قد لا يكون كذلك ، وكذا من لقب إمام الدين وحسام الدين لا يفهم منه أنه كذلك وإنما هو علامة وزينة ، وكذلك النبز بالمروان ومروان الحمار لم يكن كذلك وإنما كان ذلك سمة ونسبة ، ولا يكون اللفظ مراداً إذا لم يرد به الوصف كما أن الأعلام كذلك ، فإنك إذا قلت لمن سمي بعبد الله أنت عبد الله فلا تعبد غيره ، وتريد به وصفه لا تكون قد أتيت باسم علمه إشارة ، فقال لا تتكبروا فتستحقروا إخوانكم وتستصغروهم بحيث لا تلتفتوا إليهم أصلاً وإذا نزلتم عن هذا من النعم إليهم فلا تعيبو (هم) طالبين حط درجتهم والغض عن

(93/718)

منزلتهم ، وإذا تركتم النظر في معايبهم ووصفهم بما يعيبهم فلا تسموهم بما يكرهونه ولا تهولوا هذا ليس بعيب يذكر فيه إنما هو اسم يتلفظ به من غير قصد إلى بيان صفة وذكر في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قوله ﴿ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾ القوم اسم يقع على جمع من الرجال ولا يقع على النساء ولا على الأطفال لأنه جمع قائم كصوم جمع صائم ، والقائم بالأمور هم الرجال فعلى هذا الأقوام الرجال لا النساء فائدة : وهي أن عدم الالتفات والاستحقار إنما يصدر في أكثر الأمر من الرجال بالنسة إلى الرجال ، لأن المرأة في نفسها ضعيفة ، فإذا لم يلتفت الرجال إليها لا يكون لها أمر ، قال النبي صلى الله عليه وسلم :

" النساء لحم على وضم إلا ما رددت عنه " وأما المرأة فلا يوجد منها استحقار الرجل وعدم التفاتها إليه لاضطرارها في دفع حوائجها (إليه) ، وأما الرجال بالنسبة إلى الرجال والنساء بالنسبة إلى النساء فيوجد فيهم هذا النوع من القبح وهذا أشهر .

المسألة الثانية :

قال في الدرجة العالية التي هي نهاية المنكر ﴿ عسى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ ﴾ كسراً له وبغضاً لنكره ، وقال في المرتبة الثانية ﴿ لا تَلْمِزُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ جعلهم كأنفسهم لما نزلوا درجة رفعهم الله درجة وفي الأول جعل المسخور منه خيراً ، وفي الثاني جعل المسخور منه مثلاً ، وفي قوله ﴿ عسى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ ﴾ حكمة وهي أنه وجد منهم النكر الذي هو مفض إلى الإهمال وجعل نفسه خيراً منهم كما فعل إبليس حيث لم يلتفت إلى آدم وقال : ﴿ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ [الأعراف : 12] فصار هو خيراً ، ويمكن أن يقال المراد من قوله

﴿ أَن يَكُونُواْ ﴾ يصيروا فإن من استحقر إنساناً لفقره أو وحدته أو ضعفه لا يأمن أن يفتقر هو ويستغني الفقير ، ويضعف هو ويقوى الضعيف .

المسألة الثالثة :

(94/718)

قال تعالى : ﴿ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾ ولم يقل نفس من نفس ، وذلك لأن هذا فيه إشارة إلى منع التكبر والمتكبر في أكثر الأمر يرى جبروته على رؤوس الأشهاد ، وإذا اجتمع في الخلوات مع من لا يلتفت إليه في الجامع يجعل نفسه متواضعاً ، فذكرهم بلفظ القوم منعاً لهم عما يفعلونه .

المسألة الرابعة :

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَلْمِزُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ فيه وجهان أحدهما : أن عيب الأخ عائد إلى الأخ فإذا عاب عائب نفساً فكأنما عاب نفسه وثانيهما : هو أنه إذا عابه وهو لا يخلو من عيب يحاربه المعيب فيعيبه فيكون هو بعيبه حاملاً للغير على عيبه وكأنه هو العائب نفسه وعلى هذا يحمل قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [النساء : 29] أي إنكم إذا قتلتم نفساً قتلتم فتكونوا كأنكم قتلتم أنفسكم ويحتمل وجهاً آخر ثالثاً وهو أن تقول لا تعيبوا أنفسكم

أي كل واحد منكم فإنكم إن فعلتم فقد عبتم أنفسكم ، أي كل واحد عاب كل واحد فصرتم عائبين من وجه معيبين من وجه ، وهذا الوجه ههنا ظاهر ولا كذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ .

المسألة الخامسة :

إن قيل قد ذكرتم أن هذا إرشاد للمؤمنين إلى ما يجب أن يفعله المؤمن عند حضوره بعد الإشارة إلى ما يفعله في غيبته ، لكن قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا ﴾ قيل فيه بأنه العيب خلف الإنسان والهمز هو العيب في وجه الإنسان ، نقول ليس كذلك بل العكس أولى ، وذلك لأنا إذا نظرنا إلى قلب الحروف دللن على العكس ، لأن لمز قلبه لزم وهمز قلبه هزم ، والأول : يدل على القرب ، والثاني : على البعد ، فإن قيل اللمز هو الطعن والعيب في الوجه كان أولى مع أن كل واحد قيل بمعنى واحد .

المسألة السادسة :

(95/718)

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا ﴾ ولم يقل لا تنبزوا ، وذلك لأن اللماز إذا لمز فالملموز قد لا يجد فيه في الحال عيباً يلمزه به ، وإنما يبحث ويتبعه ليطلع منه على عيب فيوجد اللمز من

جانب ، وأما النبز فلا يعجز كل واحد عن الإتيان به ، فإن من نبز غيره بالحمار وهو ينبزه بالثور وغيره ، فالظاهر أن النبز يفضي في الحال إلى التنابز ولا كذلك اللمز .

وقوله تعالى : ﴿ بِئْسَ الاسم الفسوق بَعْدَ الإيمان ﴾ .

قيل فيه إن المراد ﴿ بِئْسَ ﴾ أن يقول للمسلم يا يهودي بعد الإيمان أي بعد ما آمن فبئس تسميته بالكافر ، ويحتمل وجهاً أحسن من هذا : وهو أن يقال هذا تمام للزجر ، كأنه تعالى قال : يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم ولا تلمزوا ولا تنابزوا فإنه إن فعل يفسق بعد ما آمن ، والمؤمن يقبح منه أن يأتي بعد إيمانه بفسوق فيكون قوله تعالى : ﴿ الذين ءامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إيمانهم بِظُلْمٍ ﴾ [الأنعام : 82] ويصير التقدير بئس الفسوق بعد الإيمان ، وبئس أن تسموا بالفاسق بسبب هذه الأفعال بعد ما سميتموهم مؤمنين .

(96/718)

قال تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فأولئك هُمُ الظالمون ﴾ وهذا يحتمل وجهين أحدهما : أن يقال هذه الأشياء من الصغائر فمن يصر عليه يصير ظالماً فاسقاً وبالمرة الواحدة لا يتصف بالظلم والفسق فقال ومن لم يترك ذلك ويجعله عادة فهو ظالم وثانيهما : أن يقال قوله تعالى : ﴿ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ ﴾ ﴿ وَلاَ تَلْمِزُواْ ﴾ ﴿ وَلاَ تَنَابَزُواْ ﴾ منع لهم عن ذلك في المستقبل ،

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ ﴾ أمرهم بالتوبة عما مضى وإظهار الندم عليها مبالغة في التحذير وتشديداً في الزجر ، والأصل في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَنَابَزُواْ ﴾ لا تتنابزوا أسقطت إحدى التاءين ، كما أسقط في الاستفهام إحدى الهمزتين فقال : ﴿ سَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُم ﴾ [البقرة : 6] والحذف ههنا أولى لأن تاء الخطاب وتاء الفاعل حرفان من جنس واحد في كلمة وهمزة الاستفهام كلمة برأسها وهمزة أنذرتهم أخرى واحتمال حرفين في كلمتين أسهل من احتماله في كلمة ، ولهذا وجب الإدغام في قولنا : مد ، ولم يجب في قولنا امدد ، و (في) قولنا : مر ، (دون) قوله : أمر ربنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 112.115 ﴾

(97/718)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عسى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عسى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عسى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ ﴾

قيل عند الله .

وقيل "خَيْراً مِنْهُمْ" أي معتقَداً وأسلم باطناً .

والسُّخْرِية الاْستهزاء .

سَخِرت منه أسْخَر سَخَراً بالتحريك ومَسْخَراً وسُخْراً بالضم .

وحكى أبو زيد سَخِرت به ؛ وهو أردأ اللغتين .

وقال الأخفش : سَخِرْت منه وسَخِرت به ، وضَحِكت منه وضَحكت به ، وهَزِئت منه وهزِئت به ؛ كلٌّ يقال .

والاْسم السُّخْرِية والسُّخْرِي ؛ وقرىء بهما قوله تعالى : ﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً ﴾ [الزخرف : 32] وقد تقدّم .

وفلان سُخْرَة ؛ يُتَسَخَّر في العمل .

يقال : خادم سُخْرة .

ورجل سُخْرة أيضاً يُسخر منه .

وسُخَرة (بفتح الخاء) يسخر من الناس .

الثانية واختلف في سبب نزولها ؛ فقال ابن عباس : نزلت في ثابت بن قيس بن شماس كان في أذنه وَقْر ؛ فإذا سبقوه إلى مجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم أوسعوا له إذا أتى حتى يجلس إلى جنبه ليسمع ما يقول ؛ فأقبل ذات يوم وقد فاتته من صلاة الفجر ركعة مع النبيّ

صلى الله عليه وسلم ، فلما انصرف النبيّ صلى الله عليه وسلم أخذ أصحابه مجالسهم منه ؛ فَرَبَض كل رجل منهم بمجلسه ، وعَضُّوا فيه فلا يكاد يوسع أحد لأحد حتى يَظَل الرجل لا يجد مجلساً فيظل قائماً ؛ فلما انصرف ثابت من الصلاة تخطى رقاب الناس ويقول : تفسّحوا تفسّحوا ؛ ففسحوا له حتى انتهى إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وبينه وبينه رجل فقال له : تفسح .

(98/718)

فقال له الرجل : قد وجدتَ مجلساً فاجلسا فجلس ثابت من خلفه مُغْضَباً ، ثم قال : من هذا ؟ قالوا فلان ؛ فقال ثابت : ابن فلانة يعيّره بها ؛ يعني أُمًّا له في الجاهلية ؛ فاستحيا الرجل ؛ فنزلت .

وقال الضحاك : نزلت في وفد بني تميم الذي تقدم ذكرهم في أوّل "السورة" استهزءوا بفقراء الصحابة ؛ مثل عَمّار وخبّاب وابن فُهيرة وبِلال وصُهيب وسلمان وسالم مَوْلى أبي حُذيفة وغيرِهم ؛ لما رأوا من رثاثة حالهم ؛ فنزلت في الذين آمنوا منهم .

وقال مجاهد : هو سخرية الغني من الفقير .

وقال ابن زيد : لا يسخر من ستر الله عليه ذنوبه ممن كشفه الله ؛ فلعل إظهار ذنوبه في الدنيا

خير له في الآخرة .

وقيل : نزلت في عِكرمة بن أبي جهل حين قدم المدينة مسلماً ؛ وكان المسلمون إذا رأوه قالوا ابن فرعون هذه الأمة .

فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت .

وبالجملة فينبغي ألا يجترىء أحد على الاْستهزاء بمن يقتحمه بعينه إذا رآه رَثّ الحال أو ذا عاهة في بدنه أو غير لَبِيق في محادثته ؛ فلعله أخلص ضميراً وأنقى قلباً ممن هو على ضدّ صفته ؛ فيظلم نفسه بتحقير من وقَّره الله ، والاستهزاء بمن عظّمه الله .

ولقد بلغ بالسّلف إفراط توقّيهم وتصوّنهم من ذلك أن قال عمرو بن شَرَحْبِيل : لو رأيتُ رجلاً يرضع عنزاً فضحكت منه لخشيت أن أصنع مثل الذي صنع .

وعن عبد الله بن مسعود : البلاء مُوَكّل بالقول ؛ لو سخرت من كلب لخشيت أن أحوَّل كلباً .

و"قوم" في اللغة للمذكّرين خاصة .

قال زهير :

وما أدري وسوف إخال أدري . . .

أقوم آلِ حصن أم نساء

وسُمُّوا قوماً لأنهم يقومون مع داعيهم في الشدائد .

وقيل : إنه جمع قائم ، ثم استعمل في كل جماعة وإن لم يكونوا قائِمين .

وقد يدخل في القوم النساء مجازاً ، وقد مضى في "البقرة" بيانه .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عسى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ ﴾ أفرد النساء بالذكر لأن السّخرية منهن أكثر .

(99/718)

وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ ﴾ [نوح : 1] فشمل الجميع .

قال المفسرون : نزلت في امرأتين من أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم سَخِرتا من أمّ سلمة ، وذلك أنها ربطت خَصْرَيْها بسَبِيبة وهو ثوب أبيض ، ومثلها السِّبّ وسدلت طرفيها خلفها فكانت تجرها ؛ فقالت عائشة لحفصة رضي الله عنهما : انظري ! ما تجرُّ خلفها كأنه لسان كلب ؛ فهذه كانت سخريتهما .

وقال أنس وابن زيد : نزلت في نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم ، عَيَّرن أمّ سلمة بالقِصر .

وقيل : نزلت في عائشة ، أشارت بيدها إلى أم سَلمة ، يا نبيّ الله إنها لقصيرة .

وقال عكرمة عن ابن عباس : " إن صفية بنت حُيَيّ بن أخْطب أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إن النساء يُعَيِّرْنَني ، ويقلن لي يا يهودية بنت يهوديّين !

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هَلاّ قلت إن أبي هارون وإن عمي موسى وإن زوجي محمد " " فأنزل الله هذه الآية .

الرابعة في صحيح الترمذي " عن عائشة قالت : حَكَيت للنبيّ صلى الله عليه وسلم رجلاً ؛ فقال : "ما يسرني أني حَكَيت رجلاً وأن لي كذا وكذا" .

قالت فقلت : يا رسول الله ، إن صفية امرأة وقالت بيدها هكذا ؛ يعني أنها قصيرة .

فقال : "لقد مزجت بكلمةٍ لو مُزج بها البحر لمزج" " وفي البخاريّ عن عبد الله بن زَمْعة قال : " نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يضحك الرجل مما يخرج من الأُنْفس .

وقال : "لِم يضربُ أحدكم امرأته ضَرْبَ الفَحْل ثم لعله يعانقها" " وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم " وهذا حديث عظيم يترتب عليه ألا يقطع بعيب أحد لما يرى عليه من صور أعمال الطاعة أو المخالفة ؛ فلعل من يحافظ على الأعمال الظاهرة يعلم الله من قلبه وَصْفاً مذموماً لا تصح معه تلك الأعمال .

(100/718)

ولعل من رأينا عليه تفريطاً أو معصية يعلم الله من قلبه وَصفاً محموداً يغفر له بسببه .

فالأعمال أمارات ظنية لا أدلة قطعية .

ويترتب عليها عدم الغلوّ في تعظيم من رأينا عليه أفعالاً صالحة ، وعدم الاحتقار لمسلم رأينا عليه أفعالاً سيئة .

بل تُحتقر وتُذم تلك الحالة السيئة ، لا تلك الذات المسيئة .

فتدبر هذا ، فإنه نظر دقيق ، وبالله التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تلمزوا أَنفُسَكُمْ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تلمزوا أَنفُسَكُمْ ﴾ اللَّمْزُ : العَيْب ؛ وقد مضى في "براءة" عند قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصدقات ﴾ [التوبة : 58] .

وقال الطبري : اللَّمْزُ باليد والعين واللسان والإشارة .

والْهَمْزُ لا يكون إلا باللسان .

وهذه الآية مثل قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تقتلوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [النساء : 29] أي لا يقتل بعضكم بعضاً ؛ لأن المؤمنين كنفس واحدة ، فكأنه بقتل أخيه قاتل نفسه .

وكقوله تعالى : ﴿ فَسَلِّمُواْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ [النور : 61] يعني يسلّم بعضكم على بعض .

والمعنى : لا يَعِبْ بعضكم بعضاً .

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وسعيد بن جُبير : لا يطعن بعضكم على بعض .

وقال الضحاك : لا يَلْعَن بعضكم بعضاً .

وقرىء : "ولا تَلْمُزُوا" بالضم .

وفي قوله : "أَنْفسَكُم" تنبيه على أن العاقل لا يعيب نفسه ، فلا ينبغي أن يعيب غيره لأنه كنفسه ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " المؤمنون كجسد واحد إن اشتكى عضو منه تداعَى له سائر الجسد بالسَّهَر والحُمَّى " وقال بكر بن عبد الله المزني : إذا أردت أن تنظر العيوب جَمَّةً فتأمل عَيَّاباً ؛ فإنه إنما يعيب الناس بفضل ما فيه من العيب .

وقال صلى الله عليه وسلم : " يبصر أحدكم القَذاة في عين أخيه ويدع الجِذْع في عينه "

وقيل : من سعادة المرء أن يشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره .

قال الشاعر :

المرء إن كان عاقلاً ورِعاً . . .

أشغله عن عيوبه وَرَعُهُ

(101/718)

كما السقِيم المريض يشغله . . .

عن وجع الناس كلهم وَجَعُه

وقال آخر :

لا تكشفن مساوي الناسِ ما ستروا . . .

فيهتك الله ستراً عن مَساوِيكَا

واذكر محاسن ما فيهم إذا ذُكروا . . .

ولا تعب أحداً منهم بما فيكا

الثانية قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَنَابَزُواْ بالألقاب ﴾ النَّبَزُ بالتحريك اللقب ؛ والجمع الأنباز .

والنَّبْزُ بالتسكين المصدر ؛ تقول : نَبَزَه يَنْبِزُه نَبْزاً ؛ أي لَقّبه .

وفلان يُنَبِّز بالصبيان أي يلقبهم ؛ شُدد للكثرة .

ويقال النَّبَزُ والنَّزَب لَقَبُ السوء .

وتنابزوا بالألقاب : أي لَقّب بعضُهم بعضاً .

وفي الترمذيّ عن أبي جُبيرة بن الضحاك قال : كان الرجل منا يكون له الاْسمين والثلاثة فيُدعَى ببعضها فعسى أن يكره ؛ فنزلت هذه الآية : "وَلاَ تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ" .

قال : هذا حديث حسن .

وأبو جُبيرة هذا هو أخو ثابت بن الضحاك بن خليفة الأنصاري .

وأبو زيد سعيد بن الربيع صاحب الهَرَوِي ثقة .

وفي مصنّف أبي داود عنه قال : فينا نزلت هذه الآية ، في بني سلمة ﴿ وَلاَ تَنَابَزُواْ بالألقاب بِئْسَ الاسم الفسوق بَعْدَ الإيمان ﴾ قال : قدِم رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس منا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة ؛ فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يا فلان فيقولون مَهْ يا رسول الله ، إنه يغضب من هذا الاسم ؛ فنزلت هذه الآية : ﴿ وَلاَ تَنَابَزُواْ بالألقاب ﴾ .

فهذا قول .

وقولٌ ثانٍ قال الحسن ومجاهد : كان الرجل يُعَيَّر بعد إسلامه بكفره يا يهوديّ يا نصراني ؛ فنزلت .

وروي عن قَتادة وأبي العالية وعِكْرمة .

وقال قتادة : هو قول الرجل للرجل يا فاسق يا منافق ؛ وقاله مجاهد والحسن أيضاً .

﴿ بِئْسَ الاسم الفسوق بَعْدَ الإيمان ﴾ أي بئس أن يُسَمَّى الرجل كافراً أو زانياً بعد إسلامه وتوبته ؛ قاله ابن زيد .

وقيل : المعنى أن مَن لَقّب أخاه أو سخِر منه فهو فاسق .

وفي الصحيح : " من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال وإلا رجعت عليه " فمن فعل ما نهى الله عنه من السُّخرية والهَمْز والنّبز فذلك فسوق وذلك لا يجوز .

" وقد روي : أن أبا ذرّ رضي الله عنه كان عند النبيّ صلى الله عليه وسلم فنازعه رجل فقال له أبو ذَرٍّ : يا بن اليهودية ! فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ما ترى ها هنا أحمر وأسود ما أنت بأفضل منه " يعني بالتقوى ، ونزلت : ﴿ وَلَا تَنَابَزُواْ بِالْأَلْقَابِ ﴾ .

وقال ابن عباس : التنابز بالألقاب أن يكون الرجل قد عمل السيئات ثم تاب ؛ فنهى الله أن يُعَيَّر بما سلف .

يدلّ عليه ما روي أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من عَيّر مؤمناً بذنب تاب منه كان حقّاً على الله أن يَبْتَلِيه به ويَفْضَحُه فيه في الدنيا والآخرة " .

الثالثة وقع من ذلك مستثنًى مَن غلب عليه الاستعمال كالأعرج والأحدب ولم يكن له فيه كسب يَجِد في نفسه منه عليه ، فجوّزته الأمة واتفق على قوله أهل المِلّة .

قال ابن العربيّ : وقد ورد لَعَمْرُ الله من ذلك في كتبهم ما لا أرضاه في صالح جَزَرة ؛ لأنه صَحّف "خرزة" فلُقّب بها .

وكذلك قولهم في محمد بن سليمان الحضرمي : مُطَيَّن ؛ لأنه وقع في طين ونحو ذلك مما غلب على المتأخرين ، ولا أراه سائغاً في الدِّين .

وقد كان موسى بن عُلَيّ بن رَباح المصريّ يقول : لا أجعل أحداً صغّر اسم أبي في حلّ ، وكان الغالب على اسمه التصغير بضم العين .

والذي يضبط هذا كله : أن كل ما يكرهه الإنسان إذا نودي به فلا يجوز لأجل الإذاية .

والله أعلم .

قلت وعلى هذا المعنى ترجم البخاريّ رحمه الله في كتاب الأدب من الجامع الصحيح .

(103/718)

في "باب ما يجوز من ذكر الناس نحو قولهم الطويل والقصير لا يراد به شَيْن الرجل" قال : وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما يقول ذو اليَدَيْن " قال أبو عبد الله بن خُوَيْزِ مَنْدَاد : تضمنت الآية المنع من تلقيب الإنسان بما يكره ، ويجوز تلقيبه بما يحب ؛ ألا ترى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لَقّب عمر بالفاروق ، وأبا بكر بالصدّيق ، وعثمان بذي النُّورين ، وخُزيمة بذي الشهادتين ، وأبا هريرة بذي الشّمالين وبذي اليدين ؛ في أشباه ذلك .

الزَّمَخْشرِيّ : "روي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من حق المؤمن على المؤمن أن يُسَمِّيَه بأحبّ أسمائه إليه " ولهذا كانت التَّكْنِيَةُ من السنة والأدب الحسن ؛ قال عمر رضي الله عنه : أشيعوا الكُنَى فإنها منبّهة .

ولقد لُقّب أبو بكر بالعتيق والصدّيق ، وعمر بالفاروق ، وحمزة بأسد الله ، وخالد بسيف الله .

وقلّ من المشاهير في الجاهلية والإسلام من ليس له لَقَب .

ولم تزل هذه الألقاب الحسنة في الأمم كلها من العرب والعجم تجري في مخاطباتهم ومكاتباتهم من غير نكير" .

قال الماورديّ : فأما مستحب الألقاب ومستحسنها فلا يكره .

وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم عدداً من أصحابه بأوصاف صارت لهم من أجل الألقاب .

قلت فأما ما يكون ظاهرها الكراهة إذا أريد بها الصفة لا العيب فذلك كثير .

وقد سئل عبد الله بن المبارك عن الرجل يقول : حُميد الطويل ، وسليمان الأعمش ، وحُميد الأعرج ، ومروان الأصغر ، فقال : إذا أردت صفته ولم ترد عيبه فلا بأس به .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن سَرْجِس قال : رأيت الأصلع يعني عمر يقبّل الحجر .

في رواية الأُصَيْلِع .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ ﴾ أي عن هذه الألقاب الذي يتأذى بها السامعون .

﴿ فأولئك هُمُ الظالمون ﴾ لأنفسهم بارتكاب هذه المناهي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾

سبب نزولها ما جرى بين الأوس والخزرج حين أساء الأدب عبد الله بن أبيّ بن سلول على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وهو متوجه إلى زيارة سعد بن عبادة في موضعه ، وتعصب بعضهم لعبد الله ، ورد عبد الله بن رواحة على ابن أبي ، فتجالد الحيان ، قيل : بالحديد ، وقيل : بالجريد والنعال والأيدي ، فنزلت ، فقرأها عليهم ، فاصطلحوا .

وقال السدّي : وكانت بالمدينة امرأة من الأنصار يقال لها أم بدر ، وكان لها زوج من غيرهم ، فوقع بينهم شيء أوجب أن يأنف لها قومها وله قومه ، فوقع قتال ، فنزلت الآية بسببه .

وقرأ الجمهور : ﴿ اقتتلوا ﴾ جمعاً ، حملاً على المعنى ، لأن الطائفتين في معنى القوم والناس .

وقرأ ابن أبي عبلة : اقتتلتا ، على لفظ التثنية ؛ وزيد بن عليّ ، وعبيد بن عمير : اقتتلتا على التثنية ، مراعى بالطائفتين .

الفريقان اقتتلوا ، وكل واحد من الطائفتين باغ ؛ فالواجب السعي بينهما بالصلح ، فإن لم

تصطلحا وأقامتا على البغي قوتلتا ، أو لشبهة دخلت عليهما ، وكل منهما يعتقد أنه على الحق ؛ فالواجب إزالة الشبه بالحجج النيرة والبراهين القاطعة ، فإن لجا ، فكالباغيتين ؛ ﴿ فإن بغت إحداهما ﴾ ، فالواجب أن تقاتل حتى تكف عن البغي .

ولم تتعرض الآية من أحكام التي تبغي لشيء إلا لقتالها ، وإلى الإصلاح إن فاءت .

والبغي هنا : طلب العلو بغير الحق ، والأمر في فأصلحوا وقاتلوا هو لمن له الأمر من الملوك وولاتهم .

وقرأ الجمهور : ﴿ حتى تفيء ﴾ ، مضارع فاء بفتح الهمزة ؛ والزهري : حتى تفي ، بغير همزة وفتح الياء ، وهذا شاذ ، كما قالوا في مضارع جاء يجي بغير همز ، فإذا أدخلوا الناصب فتحوا الياء أجروه مجرى يفي مضارع وفي شذوذاً .

﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ﴾ : أي إخوة في الدين .

(105/718)

وفي الحديث : " المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله " وقرأ الجمهور : ﴿ بين أخويكم ﴾ مثنى ، لأن أقل من يقع بينهم الشقاق إثنان ، فإذا كان الإصلاح لازماً بين اثنين ، فهو ألزم بين أكثر من اثنين .

وقيل : المراد بالأخوين : الأوس والخزرج .

وقرأ زيد بن ثابت ، وابن مسعود ، والحسن : بخلاف عنه ؛ والجحدري ، وثابت البناني ، وحماد بن سلمة ، وابن سيرين : بين إخوانكم جمعاً ، بالألف والنون ، والحسن أيضاً ، وابن عامر في رواية ، وزيد بن عليّ ، ويعقوب : بين إخوتكم جمعاً ، على وزن غلمة .

وروى عبد الوهاب عن أبي عمرو القراءات الثلاث ، ويغلب الأخوان في الصداقة ، والإخوة في النسب ، وقد يستعمل كل منهما مكان الآخر ، ومنه ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ ، وقوله : ﴿ أو بيوت إخوانكم ﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم ﴾ : هذه الآية والتي بعدها تأديب للأمّة ، لما كان فيه أهل الجاهلية من هذه الأوصاف الذميمة التي وقع النهي عنها .

وقيل : نزلت بسبب عكرمة بن أبي جهل ، كان يمشي بالنميمة ، وقد أسلم ، فقال له قوم : هذا ابن فرعون هذه الأمة ، فعز ذلك عليه وشكاهم ، فنزلت .

وقوم مرادف رجال ، كما قال تعالى : ﴿ الرجال قوّامون على النساء ﴾ ولذلك قابله هنا بقوله : ﴿ ولا نساء من نساء ﴾ ، وفي قول زهير :

وما أدري وسوف إخال أدري . . .

أقوم آل حصن أم نساء

وقال الزمخشري : وهو في الأصل جمع قائم ، كصوم وزور في جميع صائم وزائر .

انتهى وليس فعل من أبنية الجموع إلا على مذهب أبي الحسن في قوله : إن ركبا جمع راكب .

وقال أيضاً الزمخشري : وأما قولهم في قوم فرعون وقوم عاد : هم الذكور والإناث ، فليس لفظ القوم بمتعاط للفريقين ، ولكن قصد ذكر الذكور وترك ذكر الإناث ، لأنهن توابع لرجالهن . انتهى .

(106/718)

وغيره يجعله من باب التغليب والنهي ، ليس مختصاً بانصبابه على قوم ونساء بقيد الجمعية من حيث المعنى ، وإن كان ظاهر اللفظ ذلك ، بل المعنى : لا يسخر أحد من أحد ، وإنما ذكر الجمع ، والمراد به كل فرد فرد ممن يتناوله عموم البدل .

فكأنه إذا سخر الواحد ، كان بمجلسه ناس يضحكون على قوله ، أو بلغت سخريته ناساً فضحكوا ، فينقلب الحال إلى جماعة .

﴿ عسى أن يكونوا ﴾ : أي المسخور منهم ، ﴿ خيراً منهم ﴾ : أي من الساخرين بهم .

وهذه الجملة مستأنفة ، وردت مورد جواب المستخبر عن العلة الموجبة لما جاء النهي عنه ، أي ربما يكون المسخور منه عند الله خيراً من الساخر ، لأن العلم بخفيات الأمور إنما هو لله تعالى .

وعن ابن مسعود : لو سخرت من كلب ، خشيت أن أحول كلباً .

﴿ ولا نساء من نساء ﴾ : روي أن عائشة وحفصة ، رضي الله تعالى عنهما ، رأتا أم سلمة ربطت حقويها بثوب أبيض وسدلت طرفه خلفها ، فقالت عائشة لحفصة : انظري إلى ما يجر خلفها ، كأنه لسان كلب .

وعن عائشة ، أنها كانت تسخر من زينب بنت خزيمة الهلالية ، وكانت قصيرة .

وعن أنس : كان نساء النبي (صلى الله عليه وسلم) يعيرن أم سلمة بالقصر .

وقالت صفية لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) : يعيرنني ويقلن يا يهودية بنت يهوديين ، فقال لها : هلا قلت إن أبي هارون ، وإن عمي موسى ، وإن زوجي محمد ؟ وقرأ عبد الله وأبي : عسوا أن يكونوا ، وعسين أن يكن ، فعسى ناقصة ، والجمهور : عسى فيهما تامّة ، وهي لغتان : الإضمار لغة تميم ، وتركه لغة الحجاز .

﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ : ضم الميم في تلمزوا ، الحسن والأعرج وعبيد عن أبي عمرو .

(107/718)

وقال أبو عمرو : هي عربية ؛ والجمهور ؛ بالكسر ، واللمز بالقول والإشارة ونحوه مما يفهمه آخر ، والهمز لا يكون إلا باللسان ، والمعنى : لا يعب بعضكم بعضاً ، كما قال : فاقتلوا

أنفسكم ، كأن المؤمنين نفس واحدة ، إذ هم إخوة كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، وكالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى سائره بالسهر والحمى .

ومفهوم أنفسكم أن له أن يعيب غيره ، مما لا يدين بدينه .

ففي الحديث : " اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس " وقيل : المعنى لا تفعلوا ما تلمزون به ، لأن من فعل ما استحق اللمز ، فقد لمز نفسه .

﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ : اللقب إن دل على ما يكرهه المدعو به ، كان منهياً ، وأما إذا كان حسناً ، فلا ينهى عنه .

وما زالت الألقاب الحسنة في الأمم كلها من العرب والعجم تجري في مخاطباتهم ومكاتباتهم من غير نكير .

وروي أن بني سلمة كانوا قد كثرت فيهم الألقاب ، فنزلت الآية بسبب ذلك .

وفي الحديث : "كنوا أولادكم " قال عطاء : مخافة الألقاب .

وعن عمر : "أشيعوا الكنى فإنها سنة" .

انتهى ، ولا سيما إذا كانت الكنية غريبة ، لا يكاد يشترك فيها أحد مع من تكنى بها في عصره ، فإنه يطير بها ذكره في الآفاق ، وتتهادى أخباره الرفاق ، كما جرى في كنيتي بأبي حيان ، واسمي محمد .

فلو كانت كنيتي أبا عبد الله أو أبا بكر ، مما يقع فيه الاشتراك ، لم أشتهر تلك الشهرة ، وأهل

بلادنا جزيرة الأندلس كثيراً ما يلقبون الألقاب ، حتى قال فيهم أبو مروان الطنبي :

يا أهل أندلس ما عندكم أدب . . .

بالمشرق الأدب النفاخ بالطيب

يدعى الشباب شيوخاً في مجالسهم . . .

والشيخ عندكم يدعى بتلقيب

فمن علماء بلادنا وصالحيهم من يدعى الواعي وباللص وبوجه نافخ ، وكل هذا يحرم تعاطيه .

قيل : وليس من هذا قول المحدثين سليمان الأعمش وواصل الأحدب ونحوه مما تدعو الضرورة إليه ، وليس فيه قصد استخفاف ولا أذى .

قالوا : وقد قال ابن مسعود لعلقمة : وتقول أنت ذلك يا أعور .

(108/718)

وقال ابن زيد : أي لا يقول أحد لأحد يا يهودي بعد إسلامه ، ولا يا فاسق بعد توبته ، ونحو ذلك .

وتلاحى ابن أبي حدرد وكعب بن مالك ، فقال له مالك : يا أعرابي ، يريد أن يبعده من

الهجرة ، فقال له الآخر : يا يهودي ، يريد المخاطبة لليهود في يثرب .

﴿ بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ﴾ : أي بئس اسم تنسبونه بعصيانكم نبزكم بالألقاب ، فتكونون فساقاً بالمعصية بعد إيمانكم ، أو بئس ما يقوله الرجل لأخيه يا فاسق بعد إيمانه .

وقال الرماني : هذه الآية تدل على أنه لا يجتمع الفسوق والإيمان . انتهى .

وقال الزمخشري : نحو قول الرماني ، قال : استقباح الجمع بعد الإيمان ، والفسق الذي يأباه الإيمان ، وهذه نزغة اعتزالية .

وقال الزمخشري : الاسم ههنا بمعنى الذكر من قولهم : طار اسمه في الناس بالكرم أو باللوم ، كما يقال : طار ثناؤه وصيته وحقيقة ما سمي من ذكره وارتفع بين الناس ، كأنه قيل : بئس الذكر المرتفع للمؤمنين بسبب ارتكاب هذه الجرائم أن تذكروا بالفسق .

﴿ ومن لم يتب ﴾ : أي عن هذه الأشياء ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾ : تشديد وحكم بظلم من لم يتب .

﴿ اجتنبوا كثيراً من الظن ﴾ : أي لا تعملوا على حسبه ، وأمر تعالى باجتنابه ، لئلا يجترىء أحد على ظن إلا بعد نظر وتأمل وتمييز بين حقه وباطله .

والمأمور باجتنابه هو بعض الظن المحكوم عليه بأنه إثم ، وتمييز المجتنب من غيره أنه لا يعرف له أمارة صحيحة وسبب ظاهر ، كمن يتعاطى الريب والمجاهرة بالخبائث ، كالدخول

والخروج إلى حانات الخمر ، وصحبة نساء المغاني ، وإدمان النظر إلى المرد .

فمثل هذا يقوي الظن فيه أنه ليس من أهل الصلاح ، ولا إثم فيه ، وإن كنا لا نراه يشرب الخمر ، ولا يزني ، ولا يعبث بالشبان ، بخلاف من ظاهره الصلاح فلا يظن به السوء .

فهذا هو المنهي عنه ، ويجب أن يزيله .

والإثم : الذنب الذي يستحق صاحبه العقاب .

(109/718)

وقال الزمخشري : والهمزة فيه بدل عن الواو ، كأنه يثم الأعمال ، أي يكسرها بإحباطه ، وهذا ليس بشيء ، لأن تصريف هذه الكلمة مستعمل فيه الهمز .

تقول : أثم يأثم فهو آثم ، والإثم والآثام ، فالهمزة أصل وليست بدلاً عن واو .

وأما يثم فأصله يوثم ، وهو من مادة أخرى .

وقيل : الاثم متعلق بتكلم الظان .

أما إذا لم يتكلم ، فهو في فسحة ، لأنه لا يقدر على رفع الخواطر التي يبيحها قول النبي (صلى الله عليه وسلم) : " الحزم سوء الظن " وقرأ الجمهور : ولا تجسسوا بالجيم .

وقرأ الحسن وأبو رجاء وابن سيرين بالحاء وهما متقاربان ، نهى عن تتبع عورات المسلمين

ومعايبهم والاستكشاف عما ستروه .

وقيل لابن مسعود : هل لك في فلان تقطر لحيته خمراً ؟ فقال : إنا قد نهينا عن التجسس ، فإن ظهر لنا شيء أخذنا به .

وفي الحديث : " أن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم " ، وقد وقع عمر رضي الله تعالى عنه في حراسته على من كان في ظاهره ريبة ، وكان دخل عليه هجماً ، فلما ذكر له نهي الله تعالى عن التجسس ، انصرف عمر .

﴿ ولا يغتب بعضكم بعضاً ﴾ ، يقال : غابه واغتابه ، كغاله واغتاله ؛ والغيبة من الاغتياب ، كالغيلة من الاغتيال ، وهي ذكر الرجل بما يكره مما هو فيه .

وفي الحديث : " سئل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما الغيبة فقال : أن تذكر من المرء ما يكره أن يسمع ، فقال : يا رسول الله وإن كان حقاً ؟ قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : "إذا قلت باطلاً فذلك البهتان " ، وفي الصحيحين فقد بهته .

وقال ابن عباس : الغيبة أدام كلاب الناس .

" وقالت عائشة عن امرأة : ما رأيت أجمل منها ، إلا أنها قصيرة .

(110/718)

فقال لها النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : "اغتبتيها ، نظرت إلى أسوأ ما فيها فذكرتيه " وحكى الزهراوي عن جابر ، عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : " الغيبة أشد من الزنا ، لأن الزاني يتوب الله عليه ، والذي يغتاب فلا يتاب عليه حتى يستحل ، وعرض المسلم مثل دمه في التحريم "

وفي الحديث المستفيض : " فإن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم " ولا يباح من هذا المعنى إلا ما تدعو الضرورة إليه ، من تجريح الشهود والرواة ، والخطاب إذا استنصح من يخطب إليه من يعرفهم ، والعرب تشبه الغيبة بأكل اللحم ، ومنه :

وإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم . . .

﴿ أيحب أحدكم ﴾ ، قال الزمخشري : تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفظع وجه وأفحشه ، وفيه مبالغات شتى ، منها : الاستفهام الذي معناه التقرير ، ومنها : جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة ، ومنها : إسناد الفعل إلى أحدكم والإشعار بأن أحداً من الأحدين لا يحب ذلك ، ومنها : أنه لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أخاً ، ومنها : أنه لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعله ميتاً . انتهى .

وقال الرماني : كراهية هذا اللحم يدعو إليه الطبع ، وكراهية الغيبة يدعو إليها العقل ، وهو أحق أن يجاب ، لأنه بصير عالم ، والطبع أعمى جاهل . انتهى .

وقال أبو زيد السهيلي : ضرب المثل لأخذه العرض بأكل اللحم ، لأن اللحم ستر على العظم ، والشاتم لأخيه كأنه يقشر ويكشف ما عليه من ستر .

وقال تعالى : ﴿ ميتاً ﴾ ، لأن الميت لا يحس ، وكذلك الغائب لا يسمع ما يقول فيه المغتاب ، ثم هو في التحريم كآكل لحم الميت . انتهى .

وروي في الحديث : " ما صام من أكل لحوم الناس " وقال أبو قلابة الرياشي : سمعت أبا عاصم يقول : ما اغتبت أحداً منذ عرفت ما في الغيبة .

وقيل : لعمر بن عبيد : لقد وقع فيك فلان حتى رحمناك ، قال : إياه فارحموا .

(111/718)

وقال رجل للحسن : بلغني أنك تغتابني ، قال : لم يبلغ قدرك عندي أن أحكمك في حسناتي .

وانتصب ميتاً على الحال من لحم ، وأجاز الزمخشري أن ينتصب عن الأخ ، وهو ضعيف ، لأن المجرور بالإضافة لا يجيء الحال منه إلا إذا كان له موضع من الإعراب ، نحو : أعجبني ركوب الفرس مسرجاً ، وقيام زيد مسرعاً .

فالفرس في موضع نصب ، وزيد في موضع رفع .

وقد أجاز بعض أصحابنا أنه إذا كان الأول جزأ أو كالجزء ، جاز انتصاب الحال من الثاني ، وقد رددنا عليه ذلك فيما كتبناه في علم النحو .

﴿ فكرهتموه ﴾ ، قال الفراء : أي فقد كرهتموه ، فلا تفعلون .

وقيل : لما وقفهم على التوبيخ بقوله : ﴿ أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً ﴾ ، فأجاب عن هذا : لأنهم في حكم من يقولها ، فخوطبوا على أنهم قالوا لا ، فقيل لهم : فكرهتموه ، وبعد هذا يقدر فلذلك فاكرهوا الغيبة التي هي نظير ذلك .

وعلى هذا التقدير يعطف قوله : ﴿ واتقوا الله ﴾ ، قاله أبو علي الفارسي ، وفيه عجرفة العجم .

وقال الزمخشري : ولما قررهم عز وجل بأن أحداً منهم لا يحب أكل جيفة أخيه ، عقب ذلك بقوله : ﴿ فكرهتموه ﴾ ، أي فتحققت بوجوب الإقرار عليكم بأنكم لا تقدرون على دفعه وإنكاره لإباء البشرية عليكم أن تجحدوا كراهتكم له وتقذركم منه ، فليتحقق أيضاً أن تكرهوا ما هو نظيره من الغيبة والطعن في أعراض المسلمين .

انتهى ، وفيه أيضاً عجرفة العجم .

والذي قدره الفراء أسهل وأقل تكلفاً ، وأجرى على قواعد العربية .

وقيل : لفظه خبر ، ومعناه الأمر ، تقديره : فاكرهوه ، ولذلك عطف عليه ﴿ واتقوا الله ﴾ ، ووضع الماضي موضع الأمر في لسان العرب كثير ، ومنه اتقى الله امرؤ فعل خيراً يثب

عليه ، أي ليتق الله ، ولذلك انجزم يثب على جواب الأمر .

وما أحسن ما جاء الترتيب في هذه الآية .

(112/718)

جاء الأمر أولاً باجتناب الطريق التي لا تؤدي إلى العلم ، وهو الظن ؛ ثم نهى ثانياً عن طلب تحقق ذلك الظن ، فيصير علماً بقوله : ﴿ ولا تجسسوا ﴾ ؛ ثم نهى ثالثاً عن ذكر ذلك إذا علم ، فهذه أمور ثلاثة مترتبة ، ظنّ فعلم بالتجسس فاغتياب .

وضمير النصف في كرهتموه ، الظاهر أنه عائد على الأكل .

وقيل : على الميت .

وقرأ أبو سعيد الخدري ، وأبو حيوة : فكرّهتموه ، الظاهر أنه عائد على الأكل .

وقيل : على الميت .

وقرأ أبو سعيد الخدري ، وأبو حيوة : فكرّهتموه ، بضم الكاف وتشديد الراء ؛ ورواها الخدري عن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، والجمهور : بفتح الكاف وتخفيف الراء ، وكره يتعدى إلى واحد ، فقياسه إذا ضعف أن يتعدى إلى اثنين ، كقراءة الخدري ومن معه ، أي جعلتم فكرهتموه .

فأما قوله : ﴿ وكره إليكم الكفر ﴾ فعلى التضمين بمعنى بغض ، وهو يتعدى لواحد ، وبإلى إلى آخر ، وبغض منقول بالتضعيف من بغض الشيء إلى زيد .

والظاهر عطف ﴿ واتقوا الله ﴾ على ما قبله من الأمر والنهي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(113/718)

وقال الآلوسى :

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ ﴾

أي منكم ﴿ مِن قَوْمٍ ﴾ آخرين منكم أيضاً ، فالتنكير في الموضعين للتبعيض ، والسخر الهزؤ كما في "القاموس" ، وفي "الزواجر" النظر إلى المسخور منه بعين النقص ، وقال القرطبي : السخرية الاستحقار والاستهانة والتنبيه على العيوب والنقائص بوجه يضحك منه وقد تكون بالمحاكاة بالفعل والقول أو الإشارة أو الإيماء أو الضحك على كلام المسخور منه إذا تخبط فيه أو غلط أو على صنعته أو قبح صورته ، وقال بعض : هو ذكر الشخص بما يكره على وجه مضحك بحضرته ، واختير أنه احتقاره قولاً أو فعلاً بحضرته على الوجه المذكور ، وعليه ما قيل المعنى : لا يحتقر بعض المؤمنين بعضاً .

والآية على ما روي عن مقاتل نزلت في قوم من بني تميم سخروا من بلال .

وسلمان .

وعمار .

وخباب .

وصهيب .

وابن نهيرة .

وسالم مولى أبي حذيفة رضي الله تعالى عنهم ، ولا يضر فيه اشتمالها على نهي النساء عن السخرية كما لا يضر اشتمالها على نهي الرجال عنها فيما روي أن عائشة وحفصة رأتا أم سلمة ربطت حقويها بثوب أبيض وسدلت طرفه خلفها فقالت عائشة لحفصة تشير إلى ما تجر خلفها : كأنه لسان كلب فنزلت ، وما روي عن عائشة أنها كانت تسخر من زينب بنت خزيمة الهلالية وكانت قصيرة فنزلت ، وقيل : نزلت بسبب عكرمة بن أبي جهل كان يمشي بالمدينة فقال له قوم : هذا ابن فرعون هذه الأمة فعز ذلك عليه وشكاهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت ، وقيل غير ذلك ؛ وقوله عز وجل : ﴿ عسى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ ﴾ تعليل للنهي أو لموجبه أي عسى أن يكون المسخور منهم خيراً عند الله تعالى من الساخرين فرب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله تعالى لأبره ، وجوز أن يكون المعنى لا يحتقر بعض بعضاً عسى أن يصير المحتقر اسم مفعول عزيز أو يصير

المحتقر ذليلاً فينتقم منه ، فهو نظير قوله :

لا تهين الفقير علك أن . . .

(114/718)

تركع يوماً والدهر قد رفعه

والقوم جماعة الرجال ولذلك قال سبحانه : ﴿ وَلاَ نِسَاء ﴾ أي ولا يسخر نساء من المؤمنات ﴿ مّن نّسَاء ﴾ منهن ﴿ عسى أَن يَكُنَّ ﴾ أي المسخورات ﴿ خَيْراً مّنْهُنَّ ﴾ أي من الساخرات ، وعلى هذا جاء قول زهير :

وما أدري وسوف أخال أدري . . .

أقوم آل حصن أم نساء

وهو إما مصدر كما في قول بعض العرب : إذا أكلت طعاماً أحببت نوماً وأبغضت قوماً أي قياماً نعت به فشاع في جماعة الرجال ، وأما اسم جمع لقائم كصوم لصائم وزور لزائر ، وأطلق عليه بعضهم الجمع مريداً به المعنى اللغوي وإلا ففعل ليس من أبنية الجموع لغلبته في المفردات ، ووجه الاختصاص بالرجال أن القيام بالأمور وظيفتهم كما قال تعالى :

﴿ الرجال قَوَّامُونَ عَلَى النساء ﴾ [النساء : 34] وقد يراد به الرجال والنساء تغليباً

كما قيل في قوم عاد وقوم فرعون أن المراد بهم الذكور والإناث ؛ وقيل : المراد بهم الذكور أيضاً ودل عليهن بالالتزام العادي لعدم الانفكاك عادة ، والنساء على ما قال الراغب وغيره وكذا النسوان والنسوة جمع المرأة من غير لفظها ، وجيء بما يدل على الجمع في الموضعين دون المفرد كأن يقال : لا يسخر رجل من رجل ولا امرأة من امرأة مع أنه الأصل الأشمل الأعم قيل جرياً على الأغلب من وقوع السخرية في مجامع الناس فكم من متلذذ بها وكم من متألم منها فجعل ذلك بمنزلة تعدد الساخر والمسخور منه ، وقيل : لأن النهي ورد على الحالة الواقعة بين الجماعة كقوله تعالى : ﴿ لا تَأْكُلُونَ الربا أضعافا مضاعفة ﴾ [آل عمران : 130] وعموم الحكم لعموم علته ، و ﴿ عَسَى ﴾ في نحو هذا التكريب من كل ما أسندت فيه إلى أن والفعل قيل تامة لا تحتاج إلى خبر وأن وما بعدها في محل رفع على الفاعلية ، وقيل : إنها ناقصة وسد ما بعدها مسد الجزأين وله محلان باعتبارين أو محله الرفع ، والتحكم مندفع بأنه الأصل في منصوبها بناء على أنها من نواسخ المبتدأ والخبر . وقرأ عبد الله .

(115/718)

وأبي ﴿ عسى أَن يَكُونُواْ ﴾ .

﴿ نّسَاء عسى أَن يَكُنَّ ﴾ فعسى عليها ذات خبر على المشهور من أقوال النحاة ، وفيه الأخبار عن الذات بالمصدر أو يقدر مضاف مع الاسم أو الخب ، ر وقيل : هو في مثل ذلك بمعنى قارب وأن وما معها مفعول أو قرب وهو منصوب على إسقاط الجار ﴿ وَلاَ تَلْمِزُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ لا يعب بعضكم بعضاً بقول أو إشارة لأن المؤمنين كنفس واحدة فمتى عاب المؤمن المؤمن فكأنه عاب نفسه ، فضمير ﴿ تَلْمِزُواْ ﴾ للجميع بتقدير مضاف ، و ﴿ أَنفُسَكُمْ ﴾ عبارة عن بعض آخر من جنس المخاطبين وهم المؤمنين جعل ما هو من جنسهم بمنزلة أنفسهم وأطلق الأنفس على الجنس استعارة كما في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة : 128] وقوله سبحانه : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [النساء : 29] وهذا غير النهي السابق وإن كان كل منهما مخصوصاً بالمؤمنين بناء على أن السخرية احتقار الشخص مطلقاً على وجه مضحك بحضرته ، واللمز التنبيه على معايبه سواء كان على مضحك أم لا ؟ وسواء كان بحضرته أم لا كما قيل في تفيسره ، وجعل عطفه عليه من قبيل عطف العام على الخاص لإفادة الشمول كشارب الخمر وكل فاسق مذموم ، ولا يتم إلا إذا كان التنبيه المذكور احتقاراً ، ومنهم يقول ؛ السخرية الاحتقار واللمز التنبيه على المعايب أو تتبعها والعطف من قبيل عطف العلة على المعلول وقيل : اللمز مخصوص بما كان من السخرية على وجه الخفية كالإشارة فهو من قبيل عطف

الخاص على العام لجعل الخاص كجنس آخر مبالغة ، واختار الزمخشري أن المعنى وخصوا أنفسكم أيها المؤمنون بالانتهاء عن عيبها والطعن فيها ولا عليكم أن تعيبوا غيركم ممن لا يدين بدينكم ولا يسير بسيرتكم ، ففي الحديث

" اذكروا الفاجر بما فيه يحذره الناس " وتعقب بأنه لا دليل على الاختصاص .

(116/718)

وقال الطيبي : هو من دليل الخطاب لكن إن في هذا الوجه تعسفاً والوجه الآخر يعني ما تقدم أوجه لموافقته ﴿ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾ و ﴿ إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : 10] و ﴿ وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً ﴾ [الحجرات : 12] وفي "الكشف" أخذ الاختصاص من العدول عن الأصل وهو لا يلمز بعضكم بعضاً كأنه قيل : ولا تلمزوا من هو على صفتكم من الايمان والطاعة فيكون من باب ترتب الحكم على الوصف ، وتعقب قول الطيبي بأن الكلام عليه يفيد العلية والاختصاص معاً فيوافق ما سبق ويؤذن بالفرق بين السخرية واللمز وهو مطلوب في نفسه وكأنه قيل : لا تلمزوا المؤمنين لأنهم أنفسكم ولا تعسف فيه بوجه إلى آخر ما قال فليتأمل ، والانصاف أن المتبادر ما تقدم ، وقيل : المعنى لا تفعلوا ما تلمزون به فإن فعل من فعل ما يستحق به اللمز فقد لمز نفسه فأنفسكم على ظاهره والتجوز في ﴿

تَلْمِزُواْ ﴾ أطلق فيه المسبب على السبب والمراد لا ترتكبوا أمراً تعابون به ، وهو بعيد عن السياق وغير مناسب لقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَنَابَزُواْ ﴾ وكونه من التجوز في الإسناد إذا أسند فيه ما للمسبب إلى السبب تكلف ظاهر ، وكذا كونه كالتعليل للنهي السابق لا يدفع كونه مخالفاً للظاهر ، وكذا كون المراد به لا تتسببوا إلى الطعن فيكم بالطعن على غيركم كما في الحديث ﴿ مِنْ ﴾ وفسر بأنه إن شتم والدي غيره شتم الغير والديه أيضاً .

وقرأ الحسن .

والأعرج ، وعبيد عن أبي عمرو ﴿ لا تَلْمِزُواْ ﴾ بضم الميم ﴿ وَلاَ تَنَابَزُواْ بالالقاب ﴾ أي لا يدع بعضكم بعضاً باللقب ، قال في "القاموس" : التنابز التعاير والتداعي بالألقاب ويقال نبزه ينبزه نبزاً بالفتح والسكون لقبه كنبزه والنبز بالتحريك وكذا النزب اللقب وخص عرفاً بما يكرهه الشخص من الألقاب .

(117/718)

وعن الرضي أن لفظ اللقب في القديم كان في الذم أشهر منه في المدح ، والنبز في الذم خاصة ، وظاهر تفسير التنابز بالتداعي بالألقاب اعتبار التجريد في الآية لئلا يستدرك ذكر الألقاب ، ومن الغريب ما قيل .

التنابز الترامي أي لا تتراموا بالألقاب ويراد به ما تقدم ، والمنهي عنه هو التلقيب بما يتداخل المدعو به كراهة لكونه تقصيراً به وذماً له وشيناً .

قال النووي : اتفق العلماء على تحريم تلقيب الإنسان بما يكره سواء كان صفة له أو لأبيه أو لأمه أو غيرهما فقد روى أن الآية نزلت في ثابت بن قيس وكان به وقر فكانوا يوسعون له في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسمع فأتى يوماً وهو يقول : تفسحوا حتى انتهى إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال لرجل : تنح فلم يفعل فقال : من هذا ؟ فقال الرجل : أنا فلان فقال : بل أنت ابن فلانة يريد أما كان يعير بها في الجاهلية فخجل الرجل فنزلت فقال ثابت : لا أفخر على أحد في الحسب بعدها أبداً .

وأخرج البخاري .

وأبو داود .

والترمذي .

والنسائي .

وابن ماجه .

(118/718)

وجماعة عن ابن جبيرة بن الضحاك قال : فينا نزلت في بني سلمة ﴿ وَلاَ تَنَابَزُواْ بالالقاب ﴾ قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة فكان إذا دعا أحداً منهم باسم من تلك الأسماء قالوا : يا رسول الله إنه يكرهه فنزلت ﴿ وَلاَ تَنَابَزُواْ بالالقاب ﴾ وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال : التنابز بالألقاب أن يكون الرجل عمل السيآت ثم تاب منها وراجع الحق فنهى الله تعالى أن يعير بما سلف من عمله ، وعن ابن مسعود هو أن يقال لليهودي أو النصراني أو المجوسي إذا أسلم يا يهودي أو يا نصراني أو يا مجوسي ، وعن الحسن نحوه ، ولعل مأخذه ما روى أنها نزلت في صفية بنت حيي أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : إن النساء يقلن لي يا يهودية بنت يهوديين فقال لها : هلا قلت : إن أبي هارون وعمي موسى وزوجي محمد صلى الله عليه وسلم .

وأنت تعلم أن النهي عما ذكر داخل في عموم ﴿ لا تَنَابَزُواْ بالالقاب ﴾ على ما سمعت فلا يختص التنابز بقول يا يهودي ويا فاسق ونحوهما ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ بِئْسَ الاسم الفسوق بَعْدَ الايمان ﴾ بئس الذكر المرتفع للمؤمنين بسبب ارتكاب التنابز أن يذكروا بالفسق بعد اتصافهم بالايمان ، وهو ذم على اجتماع الفسق وهو ارتكاب التنابز والايمان على معنى لا ينبغي أن يجتمعا فإن الايمان يأبى الفسق كقولهم : بئس الشأن بعد الكبرة الصبوة يريدون استقباح الجمع بين الصبوة وما يكون في حال الشباب من الميل إلى الجهل وكبر السن .

و﴿ الاسم ﴾ هنا بمعنى الذكر من قولهم : طار اسمه في الناس بالكرم أو اللؤم فلا تأبى هذه الآية حمل ما تقدم على النهي عن التنابز مطلقاً ، وفيها تسميته فسوقاً ، وقيل : ﴿ بَعْدَ الايمان ﴾ أي بدله كما في قولك للمتحول عن التجارة إلى الفلاحة : بئست الحرفة الفلاحة بعد التجارة ، وفيه تغليظ يجعل التنابز فسقاً مخرجاً عن الايمان ، وهذا خلاف الظاهر .

(119/718)

وذكر الزمخشري له مبنى على مذهبه من أن مرتكب الكبيرة فاسق غير مؤمن حقيقة ، وقيل : معنى النهي السابق لا ينسبن أحدكم غيره إلى فسق كان فيه بعد اتصافه بضده ، ومعنى هذا بئس تشهير الناس وذكرهم بفسق كانوا فيه بعد ما اتصفوا بضده ، فيكون الكلام نهياً عن أن يقال ليهودي أسلم يا يهودي أو نحو ذلك ، والأول أظهر لفظاً وسياقاً ومبالغة ، والجملة على كل متعلقة بالنهي عن التنابز على ما هو الظاهر ، وقيل : هي على الوجه السابق متعلقة بقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَلْمِزُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أو بجميع ما تقدم من النهي ، وعلى هذا اقتصر ابن حجر في "الزواجر" .

(120/718)

ويستثنى من النهي الأخير دعاء الرجل الرجل بلقب قبيح في نفسه لا على قصد الاستخفاف به والإيذاء له كما إذا دعت له الضرورة لتوقف معرفته كقول المحدثين : سليمان الأعمش وواصل الأحدب ، وما نقل عن ابن مسعود أنه قال لعلقمة : تقول أنت ذلك يا أعور ظاهر في أن الاستثناء لا يتوقف على دعاء الضرورة ضرورة أنه لا ضرورة في حال مخاطبته علقمة لقوله يا أعور ، ولعل الشهرة مع عدم التأذي وعدم قصد الاستخفاف كافية في الجواز ، ويقال ما كان من ابن مسعود من ذلك ، والأولى أن يقال في الرواية عمن اشتهر بذلك كسليمان المتقدم روى عن سلميان الذي يقال له الأعمش ، هذا وغوير بين صيغتي ﴿ تَلْمِزُواْ ﴾ لأن الملموز قد لا يقدر في الحال على عيب يلمز به لامزه فحيتاج إلى تتبع أحواله حتى يظفر ببعض عيوبه بخلاف النبز فإن من لقب بما يكره قادر على تلقيب الآخر بنظير ذلك حالاً فوقع التفاعل كذا في "الزواجر" ، وقيل : قيل ﴿ وَلَا تَنَابَزُواْ ﴾ لأن النهي ورد على الحالة الواقعة بين القوم ، ويعلم من الآية أن التلقيب ليس محرماً على الإطلاق بل المحرم ما كان بلقب السوء ، وقد صرحوا بأن التلقيب بالألقاب الحسنة مما لا خلاف في جوازه ، وقد لقب أبو بكر رضي الله تعالى عنه بالعتيق لقوله عليه الصلاة والسلام له : " أنت عتيق الله من النار " وعمر رضي الله تعالى عنه بالفاروق لظهور الإسلام يوم إسلامه ، وحمزة رضي الله تعالى عنه بأسد الله لما أن إسلامه كان حمية فاعتز الإسلام به ، وخالد

بسيف الله لقوله صلى الله عليه وسلم : " نعم عبد الله خالد بن الوليد سيف من سيوف الله " إلى غير ذلك من الألقاب الحسنة ، وألقاب علي كرم الله تعالى وجهه أشهر من أن تذكر ، وما زالت الألقاب الحسنة في الأمم كلها من العرب والعجم تجري في مخاطباتهم ومكاتباتهم من غير نكير ، ولا فرق بين اللقب والكنية في أن الدعاء بالقبيح المكروه منها حرام ، وربما يشعر به قول الراغب : اللقب اسم يسمى

(121/718)

به الإنسان سوى اسمه الأول ويراعى فيه المعنى بخلاف العلم ، ولذلك قال الشاعر :

وقلما أبصرت عيناك ذا لقب . . .

إلا ومعناه إن فتشت في لقبه

بدخولها في مفهومه لكن الشائع غير ذلك ، وفي الحديث ﴿ وَلاَ أولادكم ﴾ قال عطاء : مخافة الألقاب وقال عمر رضي الله تعالى عنه : أشيعوا الكنى فإنها سنة ، ولنا في الكنى كلام نفيس ذكرناه في الطراز المذهب فمن أراده فليرجع إليه ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ ﴾ عما نهى عنه من التنابز أو من الأمور الثلاثة السابقة أو مطلقاً ويدخل ما ذكر ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ

الظالمون ﴾ بوضع العصيان موضع الطاعة وتعريض النفس للعذاب ، والأفراد أولاً والجمع ثانياً مراعاة للفظ ومراعاة للمعنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(122/718)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾

لما اقتضت الأخوة أن تَحْسُن المعاملة بين الأخوين كان ما تقرر من إيجاب معاملة الإخوة بين المسلمين يقتضي حسن المعاملة بين آحادهم ، فجاءت هذه الآيات منبهة على أمور من حسن المعاملة قد تقع الغفلة عن مراعاتها لكثرة تفشّيها في الجاهلية لهذه المناسبة ، وهذا نداء رابع أريد بما بَعده أمرُ المسلمين بواجب بعض المجاملة بين أفرادهم .

وعن الضحاك : أن المقصود بنو تميم إذ سخروا من بلال وعَمار وصهيب ، فيكون لنزول الآية سبب متعلق بالسبب الذي نزلت السورة لأجله وهذا من السخرية المنهي عنها .

وروى الواحدي عن ابن عباس أن سبب نزولها : "أن ثابت بن قيس بن شمَّاس كان في سمعه وَقْر وكان إذا أتى مجلس النبي صلى الله عليه وسلم يقول : أوسِعوا له ليجلس إلى جنبه فيسمع ما يقول فجاء يوماً يتخطى رقاب الناس فقال رجل : قد أصبتَ مجلساً

فاجلِس .

فقال ثابت : مَنْ هذا ؟ فقال الرجل : أنا فلان .

فقال ثابت : ابنُ فلانة وذكر أمًّا له كان يُعيّر بها في الجاهلية ، فاستحيا الرجل .

فأنزل الله هذه الآية" ، فهذا من اللمز .

وروي عن عكرمة : "أنها نزلت لما عَيّرت بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أمَّ سلمة بالقِصَر" ، وهذا من السخرية .

وقيل : عير بعضهن صفية بأنها يهودية ، وهذا من اللمز في عرفهم .

وافتتحت هذه الآيات بإعادة النداء للاهتمام بالغرض فيكون مستقلاً غير تابع حسبما تقدم من كلام الفخر .

وقد تعرضت الآيات الواقعة عقب هذا النداء لصنف مُهمّ من معاملة المسلمين بعضهم لبعض مما فشا في الناس من عهد الجاهلية التساهل فيها .

وهي من إساءة الأقوال ويقتضي النهي عنها الأمر بأضدادها .

وتلك المنهيات هي السخرية واللمز والنبز .

(123/718)

والسَّخر ، ويقال السخرية : الاستهزاء ، وتقدم في قوله : ﴿ فيسخرون منهم ﴾ في سورة براءة (79) ، وتقدم وجه تعديته بـ (من) .

والقوم : اسم جمع : جماعة الرجال خاصة دون النساء ، قال زهير :

وما أدري وسوف أخال أدري . . .

أقوم آلُ حصن أم نساء ؟

وتنكير قوم ﴾ في الموضعين لإفادة الشياع ، لئلا يتوهم نهي قوم معينين سخروا من قوم معينين .

وإنما أسند ﴿ يسخر ﴾ إلى ﴿ قوم ﴾ دون أن يقول : لا يسخر بعضُكم من بعض كما قال : ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضاً ﴾ [الحجرات : 12] للنهي عما كان شائعاً بين العرب من سخرية القبائل بعضها من بعض فوجّه النهي إلى الأقوام .

ولهذا أيضاً لم يقل : لا يسخر رجل من رجل ولا امرأة من امرأة .

ويفهم منه النهي عن أن يسخر أحد من أحد بطريق لحن الخطاب .

وهذا النهي صريح في التحريم .

وخص النساء بالذكر مع أن القوم يشملهم بطريق التغليب العرفي في الكلام ، كما يشمل لفظُ ﴿ المؤمنين ﴾ المؤمنات في اصطلاح القرآن بقرينة مقام التشريع ، فإن أصله التساوي في الأحكام إلا ما اقتضى الدليل تخصيص أحد الصنفين به دفعاً لتوهم تخصيص النهي

بسخرية الرجال إذ كان الاستسخار متأصلاً في النساء ، فلأجل دفع التوهم الناشىء من هذين السيئين على نحو ما تقدم في قوله من آية القصاص

﴿ والأنثى بالأنثى ﴾ في سورة العقود (178) .

وجملة عسى أن يكونوا خيراً منهم ﴾ مستأنفة معترضة بين الجملتين المتعاطفتين تفيد المبالغة في النهي عن السخرية بذكر حالة يكثر وجودها في المسخُورية ، فتكون سخرية الساخر أفظع من الساخر ، ولأنه يثير انفعال الحياء في نفس الساخرة بينه وبين نفسه .

وليست جملة ﴿ عسى أن يكونوا خيراً منهم ﴾ صفةً لقوم من قومه : ﴿ من قوم ﴾ وإلا لصار النهي عن السخرية خاصاً بما إذا كان المسخور به مظنة أنه خير من الساخر ، وكذلك القول في جملة ﴿ عسى أن يكُنَّ خيراً منهنّ ﴾ وليست صفة ل ﴿ نسَاء ﴾ من قوله : ﴿ من نسَاء ﴾ .

(124/718)

وتشابه الضميرين في قوله : ﴿ أن يكونوا خيراً منهم ﴾ وفي قوله : ﴿ أنْ يَكُنَّ خيراً منهن ﴾ لا لبس فيه لظهور مرجع كل ضمير ، فهو كالضمائر في قوله تعالى : ﴿ وعَمروها أكثَر مما عمَروها ﴾ في سورة الروم (9) ، وقول عباس بن مرداس:

عُدنا ولولا نحن أحْدَق جمعهم . . .

بالمسلمين وأحرَزُوا ما جَمَّعوا

مِّنْهُنَّ وَلاَ تلمزوا أَنفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُواْ ﴾ .

اللمز : ذكر ما يَعُده الذاكر عيباً لأحد مواجهةً فهو المباشرة بالمكروه .

فإن كان بحق فهو وقاحة واعتداء ، وإن كان باطلاً فهو وقاحة وكذب ، وكان شائعاً بين العرب في جاهليتهم قال تعالى : ﴿ ويل لكلِّ هُمَزة لُمزة ﴾ [الهمزة : 1] يعني نفراً من المشركين كان دأبهم لَمز رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكون بحالة بين الإشارة والكلام بتحريك الشفتين بكلام خفيّ يعرِف منه المواجه به أنه يذمّ أو يتوعد ، أو يتنقص باحتمالات كثيرة ، وهو غير النبز وغير الغِيبة .

وللمفسرين وكتب اللغة اضطراب في شرح معنى اللمز وهذا الذي ذكرته هو المنخول من ذلك .

ومعنى ﴿ لا تلمزوا أنفسكم ﴾ لا يلمز بعضكم بعضاً فَنُزِّلَ البعضُ الملموز نَفْساً للامزه لتقرر معنى الأخوة ، وقد تقدم نظيره عند قوله : ﴿ ولا تخرجونَ أنفسكم من دياركم ﴾ في سورة البقرة (84) .

والتنابز : نبز بعضهم بعضاً ، والنبْز بسكون الباء : ذكر النَبَز بتحريك الباء وهو اللقب السوء ، كقولهم : أنف الناقة ، وقُرْقُور ، وبطَة .

وكان غالب الألقاب في الجاهلية نبزا .

قال بعض الفزاريين:

أكنيه حين أناديه لأكرمه . . .

ولا ألقبه والسَّوْأَةُ اللقب

روي برفع السوأةُ اللقب فيكون جرياً على الأغلب عندهم في اللقب وأنه سوأة .

ورواه ديوان الحماسة ﴿ بنصب السوأةَ على أن الواو واو المعية .

(125/718)

وروي بالسوأة اللقبا أي لا ألقبه لقباً ملابساً للسوءة فيكون أراد تجنب بعض اللقب وهو ما يدل على سُوء ورواية الرفع أرجح وهي التي يقتضيها استشهاد سيبويه ببيت بعده في باب ظن .

ولعل ما وقع في "ديوان الحماسة" من تغييرات أبي تمام التي نسب إليه بعضها في بعض أبيات الحماسة لأنه رأى النصب أصح معنى .

فالمراد بـ ﴿ الألقاب ﴾ في الآية الألقاب المكروهة بقرينة ﴿ ولا تنابزوا ﴾ .

واللقب ما أشعر بخسّة أو شرف سواء كان ملقباً به صاحبه أم اخترعه له النابز له .

وقد خصص النهي في الآية بـ ﴿ الألقاب ﴾ التي لم يتقادم عهدها حتى صارت كالأسماء لأصحابها وتنوسي منها قصد الذم والسب خُصّ بما وقع في كثير من الأحاديث كقول النبي صلى الله عليه وسلم " أصدق ذو اليدين " ، وقوله لأبي هريرة "يا أبا هِرّ" ، ولُقب شاول ملك إسرائيل في القرآن طالوت ، وقول المحدثين الأعرج لعبد الرحمن بن هرمز ، والأعمش لسليمان من مَهران .

وإنما قال ﴿ ولا تلمزوا ﴾ بصيغة الفعل الواقع من جانب واحد وقال : ﴿ ولا تَنابزوا ﴾ بصيغة الفعل الواقع من جانبين ، لأن اللمز قليل الحصول فهو كثير في الجاهلية في قبائل كثيرة منهم بنو سلمة بالمدينة قاله ابن عطية .

﴿ بالالقاب بِئْسَ الاسم الفسوق بَعْدَ الايمان وَمَن لَّمْ يَتُبْ فأولئك هُمُ ﴾ .

تذييل للمنهيات المتقدمة وهو تعريض قوّي بأن ما نُهوا عنه فُسوق وظلم ، إذ لا مناسبة بين مدلول هذه الجملة وبين الجمل التي قبلها لولا معنى التعريض بأن ذلك فسوق وذلك مذموم ومعاقب عليه فدلّ قوله : ﴿ بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ﴾ ، على أن ما نهوا عنه مذموم لأنه فسوق يعاقب عليه ولا تزيله إلا التوبة فوقع إيجاز بحذف جملتين في الكلام اكتفاء بما دل عليه التذييل ، وهذا دال على اللمز والتنابز معصيتان لأنهما فسوق .

وفي الحديث " سباب المسلم فسوق "

ولفظ ﴿ الاسم ﴾ هنا مطلق على الذكر ، أي التسمية ، كما يقال : طار اسمه في الناس بالجود أو باللؤم .

(126/718)

والمعنى : بئس الذِكر أن يذكر أحد بالفسوق بعد أن وُصِف بالإيمان .

وإيثار لفظ الاسم هنا من الرشاقة بمكان لأن السياق تحذير من ذكر الناس بالأسماء الذميمة إذ الألقاب أسماء فكان اختيار لفظ الاسم للفسوق مشاكلة معنوية .

ومعنى البعديَّة في قوله : ﴿ بعد الإيمان ﴾ : بعدَ الاتصاف بالإيمان ، أي أن الإيمان لا يناسبه الفسوق لأن المعاصي من شأن أهل الشرك الذين لا يزعهم عن الفسوق وازع ، وهذا كقول جميلة بنت أُبيّ حين شكت للنبيء صلى الله عليه وسلم أنها تكره زوجها ثابت بن قيس وجاءت تطلب فراقه : "لا أعيب على ثابت في دين ولا في خُلق ولكنّي أكره الكفر بعد الإسلام تريد التعريض بخشية الزنا وإني لا أطيقه بغضاً" .

وإذ كان كل من السخرية واللمز والتنابز معاصي فقد وجبت التوبة منها فمن لم يتب فهو ظالم : لأنه ظلم الناس بالاعتداء عليهم ، وظلم نفسه بأن رضي لها عقاب الآخرة مع التمكن من الإقلاع عن ذلك فكان ظلمه شديداً جداً .

فلذلك جيء له بصيغة قصر الظالمين عليهم كأنه لا ظالم غيرهم لعدم الاعتداد بالظالمين الآخرين في مقابلة هؤلاء على سبيل المبالغة ليزدجروا .

والتوبة واجبة من كل ذنب وهذه الذنوب المذكورة مراتب وإدمان الصغائر كبيرة .

وتوسيط اسم الإشارة لزيادة تمييزهم تفظيعاً لحالهم وللتنبيه ، بل إنهم استحقوا قصر الظلم عليهم لأجل ما ذكر من الأوصاف قبل اسم الإشارة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(127/718)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (12) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13) قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان الإنسان ربما دعا صاحبه بلقب له شيء غير قاصد به عيبه ، أو فعل فعلاً يتنزل على الهزء غير قاصد به الهزء ، نهى تعالى عن المبادرة إلى الظن من غير تثبت لأن ذلك من وضع الأشياء في غير مواضعها ، الذي هو معنى الظلم فقال خاتماً بالقسم الخامس منبهاً على ما فيه من المعالي والنفائس : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي اعترفوا بالإيمان وإن كانوا في أول مراتبه ﴿ اجتنبوا ﴾ أي كلفوا أنفسكم أن تتركوا وتبعدوا وتجعلوا في جانب بعيد عنكم ﴿ كثيراً من الظن ﴾ أي في الناس وغيرهم فاحتاطوا في كل ظن ولا تمادوا معه حتى تجزموا به فتقدموا بسببه على ما يقتضيه من الشر إلا بعد التبين لحقه من باطله بأن يظهر عليه أمارة صحيحة وسبب ظاهر ، والبحث عن ذلك الذي أوجب الظن ليس بمنهيّ عنه كما فتش النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قصة الإفك وتثبت حتى جاءه الخبر اليقين من الله ، وأفهم هذا أن كثيراً منه مجتنب كما في الاجتهاد حيث لا قاطع ، وكما في ظن الخير بالله تعالى ، بل قد يجب كما قال تعالى : ﴿ ولولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ﴾ [النور : 12] وقد أفاد التنكير شياع النهي في كل ظن ، فكان بمعنى " بعض " مع الكفالة بأن كثيراً منه منهيّ عن الإقدام عليه إلا بعد تبين أمره ، ولو عرف لأفهم أنه لا يجتنب إلا إذا اتصف بالكثرة ، قال القشيري : والنفس لا تصدق ، والقلب لا يكذب ، والتمييز بين النفس والقلب مشكل ، ومن بقيت عليه من حظوظة بقية وإن قلت فليس له

أن يدعى بيان القلب ، بل هو بنفسه ما دام عليه شيء من بقيته ، ويجب عليه أن يتهم نفسه في كل ما يقع له من نقصان غيره ، ثم علل ذلك مشيراً إلى أن العاقل من يكف نفسه عن أدنى احتمال من الضرر احتمالاً مؤكداً لأن أفعال الناس عند الظنون أفعال من هو جازم بأنه بريء من الإثم : ﴿ إن بعض الظن إثم ﴾ أي ذنب يوصل صاحبه لاستحقاق العقوبة كالظن في أصول الدين ، وحيث يخالفه قاطع ، قال الزمخشري رحمه

(128/718)

الله تعالى : الهمزة في الإثم عن الواو وكأنه يثم الأعمال أي يكسرها بإحباطه .

ولما نهى عن اتباع الظن ، أتبعه ما يتفرع عنه فقال : ﴿ ولا تجسسوا ﴾ أي تمعنوا في البحث عن العورات ولا يكون ذلك إلا في المستورين .

ولما كانت الغيبة أعم من التجسس ، قال : ﴿ ولا يغتب ﴾ أي يتعمد أن يذكر ﴿ بعضكم بعضاً ﴾ في غيبته بما يكره ، قال القشيري : وليس تحصل الغيبة من الخلق إلا بالغيبة عن الحق ، وقال أبو حيان : قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : الغيبة إدام كلاب الناس .

ولما كان تمزيق عرض الناس كتمزيق أديمهم ولا يكون ذلك ساتر عظمة الذي به قوامه كما أن عرضه ساتر عليه ، وكونه لا يرد عن نفسه بسبب غيبته كموته وأعمال الفم والجوف في

ذلك كله ، وكان هذا لو تأمله العاقل كان منه على غاية النفرة ، ولكنه لخفائه لا يخطر بباله ، جلاه له في قوله تقريراً وتعبيراً بالحب عما هو في غاية الكراهة لما للمغتاب من الشهوة في الغيبة ليكون التصوير بذلك رادّاً له عنها ومكرهاً فيها : ﴿ أيحب ﴾ وعم بقوله : ﴿ أحدكم ﴾ وعبر بأن والفعل تصويراً للفعل فقال : ﴿ أن يأكل ﴾ وزاد في التنفير بجعله في إنسان هو أخ فقال : ﴿ لحم أخيه ﴾ وأنهى الأمر بقوله : ﴿ ميتاً ﴾ .

ولما كان الجواب قطعاً : لا يحب أحد ذلك ، أشار إليه بما سبب من قوله : ﴿ فكرهتموه ﴾ أي بسبب ما ذكر طبعاً فأولى أن تكرهوا الغيبة المحرمة عقلاً ، لأن داعي العقل بصير عالم ، وداعي الطبع أعمى جاهل ، وقد رتب سبحانه هذه الحكم أبدع ترتيب ، فأمر سبحانه بالتثبت .

وكان ربما أحدث ضغينة ، نهى عن العمل بموجبه من السخرية واللمز والنبز والتمادي مع ما ينشره ذلك من الظنون ، فإن أبت النفس إلا تمادياً مع الظن فلا يصل إلى التجسس والبحث عن المعايب ، فإن حصل الاطلاع عليها كف عن ذكرها ، وسعى في سترها ، وفعل ذلك كله لخوف الله ، لا شيء غيره ، فإن وقع في شيء من ذلك بادر المتاب رجاء الثواب .

ولما كان التقدير : فاتركوه بسبب كراهتهم لما صورته ، عطف عليه ما دل على العلة العظمى وهي خوف الله تعالى فقال : ﴿ واتقوا الله ﴾ أي اجعلوا بينكم وبين الملك الأعظم وقاية بترك ذلك وإصلاح ذات البين .

ولما كان التقدير : فإن الله يتوب عليكم إن تركتموه ، علله بما دل على أن ذلك صفة له متكررة التعلق فقال : ﴿ إن الله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ تواب ﴾ أي مكرر للتوبة ، وهي الرجوع عن المعصية إلى ما كان قبلها من معاملة التائب وإن كرر الذنب ، فلا ييأس أحد وإن كثرت ذنوبه وعظمت ﴿ رحيم ﴾ يزيده على ذلك أن يكرمه غاية الإكرام .

ولما ذكر سبحانه الأخوة الدينية تذكيراً بالعاطف الموجب للإكرام ، المانع من الانتقام ، ونهى عن أمور يجر إليها الإعجاب بالنفس من جهة التعظيم بالآباء والعراقة في النسب العالي ، أسقط ذلك مبيناً أن لا نسب إلا ما يثمره الإيمان الي بدأ به من التقوى ، وعبر بما يدل على الذبذبة والاضطراب إشارة إلى سفول رتبة من افتخر بالنسب ، وإلى أن من لم يتعظ بما مضى فيعلو عن رتبة الذين آمنوا فقد سفل سفولاً عظيماً : ﴿ يا أيها الناس ﴾ أي كافة المؤمن وغيره ﴿ إنا ﴾ على عظمتنا وقدرتنا ﴿ خلقناكم ﴾ أي أوجدناكم عن العدم على ما أنتم عليه من المقادير في صوركم وما أنتم عليه من التشعب الذي يفوت الحصر ،

وأخرجنا كل واحد منكم ﴿ من ذكر ﴾ هو المقصود بالعزم والقوة ﴿ وأنثى ﴾ هي موضع الضعف والراحة ، لا مزية لأحد منكم في ذلك على آخر ، ولا فخر في نسب .

(130/718)

ولما كان تفضيلهم إلى فرق لكل منهما تعرف به أمراً باهراً ، عبر فيه بنون العظمة فقال : ﴿ وجعلناكم ﴾ أي بعظمتنا ﴿ شعوباً ﴾ تتشعب من أصل واحد ، جمع شعب بالفتح وهو الطبقة الأولى من الطبقات الست من طبقات النسب التي عليها العرب ﴿ وقبائل ﴾ تحت الشعوب ، وعمائر تحت القبائل ، وبطوناً تحت العمائر ، وأفخاذاً تحت البطون ، وفصائل تحت الأفخاذ ، والعشائر تحت الفصائل ، خزيمة شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة ، وقصيّ بطن ، وعبد مناف فخذ ، وهاشم فصيلة ، والعباس عشيرة ، قال البغوي : وليس بعد العشيرة حي يوصف به - انتهى .

واقتصر على الأولين لأنهما أقصى ما يسهل على الآدمي معرفته فما دونه أولى ، ثم ذكر علة التشعب ليوقف عندها فقال : ﴿ لتعارفوا ﴾ أي ليعرف الإنسان من يقاربه في النسب ليصل من رحمه ما يحق له ، لا لتواصفوا وتفاخروا .

ولما كانت فائدة التفاخر بالتواصف عندهم الإكرام لمن كان أفخر ، فكانت الآية السالفة

التي ترتبت عليها هذه آمرة بالتقوى كان التقدير : فتتقوا الله في أقاربكم وذوي أرحامكم ، فقال مبطلاً للتفاخر بالأنساب معللاً لما أرشد إلى تقديره السياق مؤكداً لأجل ما عندهم من أن الكرم إنما هو بالنسب : ﴿ إن أكرمكم ﴾ أيها المتفاخرون ﴿ عند الله ﴾ أي الملك الذي لا أمر لأحد معه ولا كريم إلا من أكرمكم بكرمه ولا كمال لأحد سواه ﴿ أتقاكم ﴾ فذلك هو الذكر الذي يصح أصله باقتدائه بأبيه آدم عليه السلام فلم يمل إلى الأنوثة وإن كان أدناكم نسباً ولذلك أكده ، وهذا معنى قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا " أي علموا بأن كانت لهم ملكة الفقه فعملوا بما عملوا كما قال الحسن رحمه الله : إنما الفقيه العامل بعلمه .

(131/718)

وقد تقدم أن هذا هو المراد بقوله تعال : ﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ [الزمر : 9] لما دل عليه سياقها وسباقها ، والأتقى لا يفتخر على غيره لأنه لا يعتقد أنه أتقى ، قال الرازي في اللوامع : أكرم الكرم التقوى ، وهو مجمع الفضائل الإنسانية ، وألأم اللؤم الفجور ، وذلك أن الكرم اسم للأفعال المحمودة ، وهذه الأفعال إنما تكون محمودة إذا كانت عن علم ، وقصد بها الله ، وهذا هو التقوى ، فليس التقوى إلا العلم وتحري الأفعال المحمودة

- انتهى .

وذلك لأن التقوى تثبت الكمالات وتنفي النقائص فيصير صاحبها بشرياً ملكياً .

ولما كان هذا مركوزاً في طبائعهم مغروزاً في جبلاتهم متوارثاً عندهم أن الفخر إنما هو بالأنساب ، وأن الكريم إنما هو من طاب أصله ، وكان قلع ذلك من نفوسهم فيما أجرى به سبحانه العادة في دار الأسباب يتوقف على تأكيد ، أكد سبحانه معللاً قوله لإخباره بالأكرم : ﴿ إن الله ﴾ أي المحيط علماً وقدرة ﴿ عليم ﴾ أي بالغ العلم بالظواهر ﴿ خبير ﴾ محيط العلم بالبواطن والسرائر أيضاً ، روى البغوي بسند من طريق عبد الله بن حميد عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - طاف يوم الفتح على راحلته ليستلم الأركان بمحجنه ، فملا خرج لم يجد مناخاً فنزل على أيدي الرجال ، ثم قام فخطبهم ثم حمد الله وأثنى عليه وقال :

(132/718)

" الحمد لله الذي أذهب عنكم عبية الجاهلية وتكبرها بآبائها ، إنما الناس رجلان : برّ تقي كريم على الله ، وفاجر شقي هين على الله - ثم تلا " يا أيها الناس " الآية ، ثم قال : أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم " وأخرجه أبو داود والترمذي وحسنة والبيهقي - قال

المنذري ، بإسناد حسن ، واللفظ له – عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال قال : " إن الله عز وجل أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء ، الناس بنو آدم وآدم من تراب ، مؤمن تقي وفاجر شقي ، لينتهين أقوام يفتخرون برجال إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع النتن بأنفها " .

ولما أمر سبحانه بإجلال رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإعظامه ، ونهى عن أذاه في نفسه أو في أمته ، ونهى عن التفاخر الذي ه وسبب التقاطع والتداحر ، وختم بصفتة الخبر ، دل عليها بقوله مشيراً إلى أنه لا يعتد بشيء مما أمر به أو نهى عنه إلا مع الإخلاص فقال :

﴿ قالت الأعراب ﴾ أي أهل البادية من بني أسد وغيرهم الذين هم معدن الغلظة والجفاء الذين تقدم تأديبهم في سورة محمد ، وألحق التاء في فعلهم إشارة إلى ضعفهم في العزائم ، قال ابن برجان : هم قوم شهدوا شهادة الحق وهم لا يعلمون ما شهدوا به غير أن أنفسهم ليست تنازعهم إلى التكذيب : ﴿ آمنا ﴾ أي بجميع ما جئت به فامتثلنا ما أمرنا به في هذه السورة ولنا النسب الخالص ، فنحن أشرف من غيرنا من أهل المدر .

ولما كان الإيمان التصديق بالقلب فلا اطلاع عليه لآدمي إلا بإطلاعه سبحانه فكانوا كاذبين في دعواه ، قال : ﴿ قل ﴾ أي تكذيباً لهم مع مراعاة الأدب في عدم التصريح بالتكذيب : ﴿ لم تؤمنوا ﴾ أي لم تصدق قلوبكم لأنكم لو أمنتم لم تمنوا بإيمانكم لأن الإيمان التصديق

بجميع ما لله من الكمال الذي منه أنه لولا منه بالهداية لم يحصل الإيمان ، فله ولرسوله – الذي كان ذلك على يديه – المن والفضل .

(133/718)

ولما كان التقدير ما كان الأصل في أن يكون الرد به وهو : فلا تقولوا : آمنا ، فإنه كذب ، وعدل عنه للاحتراز عن النهي عن القول بالإيمان ، عطف عليه قوله : ﴿ ولكن قولوا ﴾ لأنكم أسلمتم للدنيا لا للدين ، وعدل عنه لئلا تكون شهادة لهم بالإسلام في الجملة : ﴿ أسلمنا ﴾ أي أظهرنا الانقياد في الظاهر للأحكام الظاهرة فأمنا من أن نكون حزباً للمؤمنين وعوناً للمشركين ، يقول : أسلم الرجل – إذا دخل في السلم ، كما يقال : أشتى – إذا دخل في الشتاء ، ولم يقل : ولكن أسلمتم ، لما فيه من الشهادة لهم بالإسلام الملازم للإيمان المنفي عنه ، فكان يكون تناقضاً ، والآية من الاحتباك : نفي الإيمان الشرعي أولاً يدل على إثبات الإسلام اللغوي ثانياً ، والأمر بالقول بالإسلام ثانياً يدل على النهي عن القول بالإيمان أولاً .

ولما كانت " لم " غير مستغرقة ، عطف عليها ما يستغرق ما مضى من الزمان كله ليكون الحكم بعدم إيمانهم مكتنفاً بأمرهم بالاقتصاد على الإخبار بإسلامهم ، فقال معلماً بأن ما

يجتهدون في إخفائه منكشف لديه " ألا يعلم من خلق " .

﴿ ولما يدخل ﴾ أي إلى هذا الوقت ﴿ الإيمان ﴾ أي المعرفة التامة ﴿ في قلوبكم ﴾ فلا يعد إقرار اللسان إيماناً إلا بمواطأة القلب ، فعصيتم الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأحبطتم أعمالكم ، والتعبير ب " لما " يفهم أنهم آمنوا بعد ذلك ، ويجوز أن يكون المراد بهذا النفي نفي التمكن في القلب ، لا نفي مطلق الدخول بدليل ﴿ إنما المؤمنون ﴾ دون ﴿ إنما الذين آمنوا ﴾ .

(134/718)

ولما كان التقدير : فإن تؤمنوا يعلم الله ذلك من قلوبكم غنياً عن قولكم ، عطف عليه قوله ترغيباً لهم في التوبة : ﴿ وإن تطيعوا الله ﴾ أي الملك الذي من خالفه لم يأمن عقوبته ﴿ ورسوله ﴾ الذي طاعته من طاعته على ما أنتم عليه من الأمر الظاهري فتؤمن قلوبكم ﴿ لا يلتكم ﴾ أي ينقصكم ويبخسكم من لاته يليته ، وهي لغة أهل الحجاز ، وقرأ البصريان : يألتكم من الألت وهو النقص أيضاً ، وهي لغة أسد وغطفان ، وهما المخاطبون بهذه الآية المعاتبون بها ، قال أبو حيان : قال مجاهد : نزلت في بني أسد بن خزيمة – انتهى . فلذلك اختار أبو عمرو القراءة بها ، وعدل عن لغة الحجاز ﴿ من أعمالكم شيئاً ﴾ فلا

حاجة إلى إخباركم عن إيمانكم بغير ما يدل عليه من الأقوال والأفعال ، قال ابن برجان : فعموم الناس وأكثر أهل الغفلة مسلمون غير مؤمنين ، فإن يعلموا علم ما شهدوا وعقدوا عليه عقداً علماً ويقيناً لهم المؤمنون .

وفي الآية احتباك من وجه آخر : ذكر عدم الإيمان أولاً دليلاً على إثباته ثانياً ، وذكر توفير الأعمال ثانياً دليلاً على بخسها أو إحباطها أولاً ، وسره أنه نفى أساس الخير أولاً ورغب في الطاعة بحفظ ما تعبوا عليه من الأعما ثانياً .

ولما كان الإنسان مبنياً على النقصان ، فلو وكل إلى عمله هلك ، ولذهب عمله فيما يعتريه من النقص ، قال مستعطفاً لهم إلى التوبة ، مؤكداً تنبيهاً على أنه مما يحق تأكيده لأن الخلائق لا يفعلون مثله : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿ غفور ﴾ أي ستور للهفوات والزلات لمن تاب وصحت نيته ، ولغيره إذا أراد ، فلا عتاب ولا عقاب ﴿ رحيم ﴾ أي يزيد على الستر عظيم الإكرام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 234 .

239 ﴾

(135/718)

فصل

قال الفخر :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾

لأن الظن هو السبب فيما تقدم وعليه تبنى القبائح ، ومنه يظهر العدو المكاشح والقائل إذا أوقف أموره على اليقين فقلما يتيقن في أحد عيباً فيلمزه به ، فإن الفعل في الصورة قد يكون قبيحاً وفي نفس الأمر لا يكون كذلك ، لجواز أن يكون فاعله ساهياً أو يكون الرائي مخطئاً ، وقوله ﴿ كَثِيراً ﴾ إخراج للظنون التي عليها تبنى الخيرات قال النبي صلى الله عليه وسلم : " ظنوا بالمؤمن خيراً " وبالجملة كل أمر لا يكون بناؤه على اليقين ، فالظن فيه غير مجتنب مثاله حكم الحاكم على قول الشهود وبراءة الذمة عند عدم الشهود إلى غير ذلك فقوله ﴿ اجتنبوا كَثِيراً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظن إِثْمٌ ﴾ إشارة إلى الأخذ بالأحوط كما أن الطريق المخوفة لا يتفق كل مرة فيه قاطع طريق ، لكنك لا تسلك لاتفاق ذلك فيه مرة ومرتين ، إلا إذا تعين فتسلكه مع رفقة كذلك الظن ينبغي بعد اجتهاد تام ووثوق بالغ .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَجَسَّسُواْ ﴾ إتماماً لما سبق لأنه تعالى لما قال : ﴿ اجتنبوا كَثِيراً مّنَ الظن ﴾ فهم منه أن المعتبر اليقين فيقول القائل أنا أكشف فلاناً يعني أعلمه يقيناً وأطلع على عيبه مشاهدة فأعيب فأكون قد اجتنبت الظن فقال تعالى : ولا تتبعوا الظن ، ولا تجتهدوا في طلب اليقين في معايب الناس .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً ﴾ إشارة إلى وجوب حفظ عرض المؤمن في غيبته وفيه معان أحدها : في قوله تعالى : ﴿ بَّعْضُكُم بَعْضاً ﴾ فإنه للعموم في الحقيقة كقوله ﴿ لا تَلْمِزُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [الحجرات : 11] وأما من اغتاب فالمغتاب أولاً يعلم عيبه فلا يحمل فعله على أن يغتابه فلم يقل ولا تغتابوا أنفسكم لما أن الغيبة ليست حاملة للعائب على عيبه من اغتابه ، والعيب حامل على العيب ثانيها : لو قال قائل هذا المعنى كان حاصلاً بقوله تعالى : لا تغتابوا ، مع الاقتصار عليه نقول لا ، وذلك لأن الممنوع اغتياب المؤمن فقال : ﴿ بَّعْضُكُم بَعْضاً ﴾ وأما الكافر فيعلن ويذكر بما فيه وكيف لا والفاسق يجوز أن يذكر بما فيه عند الحاجة ثالثها : قوله تعالى : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً ﴾ دليل على أن الاغتياب الممنوع اغتياب المؤمن لا ذكر الكافر ، وذلك لأنه شبهه بأكل لحم الأخ ، وقال من قبل ﴿ إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : 10] فلا أخوة إلا بين المؤمنين ، ولا منع إلا من شيء يشبه أكل لحم الأخ ففي هذه الآية نهى عن اغتياب المؤمن دون الكافر رابعها : ما الحكمة في هذا التشبيه ؟ نقول هو إشارة إلى أن عرض الإنسان كدمه ولحمه ، وهذا من باب القياس الظاهر ، وذلك لأن عرض المرء أشرف من لحمه ، فإذا لم يحسن من

العاقل أكل لحوم الناس لم يحسن منه قرض عرضهم بالطريق الأولى لأن ذلك الم ، وقوله ﴿ لَحْمَ أَخِيهِ ﴾ آكد في المنع لأن العدو يحمله الغضب على مضغ لحم العدو ، فقال أصدق الأصدقاء من ولدته أمك ، فأكل لحمه أقبح ما يكون ، وقوله تعالى : ﴿ مَيْتًا ﴾ إشارة إلى دفع وهم ، وهو أن يقال القول في الوجه يؤلم فيحرم ، وأما الاغتياب فلا اطلاع عليه للمغتاب فلا يؤلم ، فقال أكل لحم الأخ وهو ميت أيضاً لا يؤلم ، ومع هذا هو في غاية القبح لما أنه لو اطلع عليه لتألم ، كما أن الميت لو أحس بأكل لحمه لآلمه ،

(137/718)

وفيه معنى : وهو أن الاغتياب كأكل لحم الآدمي ميتاً ، ولا يحل أكله إلا للمضطر بقدر الحاجة ، والمضطر إذا وجد لحم الشاة الميتة ولحم الآدمي الميت فلا يأكل لحم الآدمي ، فكذلك المغتاب أن وجد لحاجته مدفعاً غير الغيبة فلا يباح له الاغتياب ، وقوله تعالى : ﴿ مَيْتًا ﴾ حال عن اللحم أو عن الأخ ، فإن قيل اللحم لا يكون ميتاً ، قلنا بلى قال النبي صلى الله عليه وسلم :

" ما أبين من حي فهو ميت " فسمى الغلفة ميتاً ، فإن قيل إذا جعلناه حال عن الأخ ، لا يكون هو الفاعل ولا المفعول فلا يجوز جعله حال ، كما يقول القائل : مررت بأخي زيد قائماً

، ويريد كون زيداً قائماً ، قلنا يجوز أن يقال من أكل لحمة فقد أكل ، فصار الأخ مأكولاً مفعولاً ، بخلاف المرور بأخي زيد ، فيجوز أن تقول ضربت وجهه آثماً أي وهو آثم ، أي صاحب الوجه ، كما أنك إذا ضربت وجهه فقد ضربته ، ولا يجوز أن تقول مزقت ثوبه آثماً ، فتجعل الآثم حالاً من غيرك ، وقوله تعالى : ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ فيه مسألتان :

المسألة الأولى :

العائد إليه الضمير يحتمل وجوهاً الأول : وهو الظاهر أن يكون هو الأكل ، لأن قوله تعالى : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ ﴾ معناه أيحب أحدكم الأكل ، لأن أن مع الفعل تكون للمصدر ، يعني فكرهتم الأكل الثاني : أن يكون هو اللحم ، أي فكرهتم اللحم الثالث : أن يكون هو الميت في قوله ﴿ مَيْتًا ﴾ وتقديره : أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً متغيراً فكرهتموه ، فكأنه صفة لقوله ﴿ مَيْتًا ﴾ ويكون فيه زيادة مبالغة في التحذير ، يعني الميتة إن أكلت في الندرة لسبب كان نادراً ، ولكن إذا أنتن وأروح وتغير لا يؤكل أصلاً ، فكذلك ينبغي أن تكون الغيبة .

المسألة الثانية :

الفاء في قوله تعالى : ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ تقتضي وجود تعلق ، فما ذلك ؟ نقول فيه وجوه أحدها : أن يكون ذلك تقدير جواب كلام ، كأنه تعالى لما قال : ﴿ أَيُحِبُّ ﴾ قيل في جوابه ذلك وثانيها : أن يكون الاستفهام في قوله ﴿ أَيُحِبُّ ﴾ للانكار كأنه قال : لا يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه إذاً ولا يحتاج إلى إضمار وثالثها : أن يكون ذلك التعلق هو تعلق المسبب بالسبب ، وترتبه عليه كما تقول : جاء فلان ماشياً فتعب ، لأن المشي يورث التعب ، فكذا قوله ﴿ مَيْتًا ﴾ لأن الموت يورث النفرة إلى حد لا يشتهي الإنسان أن يبيت في بيت فيه ميت ، فكيف يقربه بحيث يأكل منه ، ففيه إذاً كراهة شديدة ، فكذلك ينبغي أن يكون حال الغيبة .

ثم قال تعالى : ﴿ واتقوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ عطف على ما تقدم من الأوامر والنواهي ، أي اجتنبوا واتقوا ، وفي الآية لطائف : منها أن الله تعالى ذكر في هذه الآية أمور ثلاثة مرتبة بيانها ، هو أنه تعالى قال : ﴿ اجتنبوا كَثِيراً ﴾ أي لا تقولوا في حق المؤمنين ما لم تعلموه فيهم بناء على الظن ، ثم إذا سئلتم على المظنونات ، فلا تقولوا نحن نكشف أمورهم لنستيقنها قبل ذكرها ، ثم إن علمتم منها شيئاً من غير تجسس ، فلا تقولوه ولا تفشوه عنهم ولا تعيبوا ، ففي الأول نهى عما لم أن يعلم ، ثم نهى عن طلب ذلك العلم ، ثم نهى عن ذكر ما علم ، ومنها أن الله تعالى لم يقل اجتنبوا تقولوا أمراً على خلاف ما تعلمونه ، ولا قال اجتنبوا الشك ، بل أول ما نهى عنه هو القول بالظن ، وذلك لأن القول على خلاف العلم كذب

وافتراء ، والقول بالشك ، والرجم بالغيب سفه وهزء ، وهما في غاية القبح ، فلم ينه عنه اكتفاء بقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ لأن وصفهم بالإيمان يمنعهم من الافتراء والارتياب الذي هو دأب الكافر .

(139/718)

وإنما منعهم عما يكثر وجوده في المسلمين ، لذلك قال في الآية ﴿ لاَ يَسْخَرْ ﴾ ومنها أنه ختم الآيتين بذكر التوبة ، فقال في الأولى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فأولئك هُمُ الظالمون ﴾ [الحجرات : 11] وقال في الأخرى ﴿ إِنَّ الله تَوَّابٌ ﴾ [الحجرات : 12] لكن في الآية الأولى لما كان الابتداء بالنهي في قوله ﴿ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾ ذكر النفي الذي هو قريب من النهي ، وفي الآية الثانية لما كان الابتداء بالأمر في قوله ﴿ اجتنبوا ﴾ ذكر الارتياب الذي هو قريب من الأمر .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)

(140/718)

تبييناً لما تقدم وتقريراً له ، وذلك لأن السخرية من الغير والعيب إن كان بسبب التفاوت في الدين والإيمان ، فهو جائز لما بينا أن قوله ﴿ لا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً ﴾ [الحجرات : 12] وقوله ﴿ وَلاَ تَلْمِزُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [الحجرات : 11] منع من عيب المؤمن وغيبته ، وإن لم يكن لذلك السبب فلا يجوز ، لأن الناس بعمومهم كفاراً كانوا أو مؤمنين يشتركون فيما يفتخر به المفتخر غير الإيمان والكفر ، والافتخار إن كان بسبب الغنى ، فالكافر قد يكون غنياً ، والمؤمن فقيراً وبالعكس ، وإن كان بسبب النسب ، فالكافر قد يكون نسيباً ، والمؤمن قد يكون عبداً أسود وبالعكس ، فالناس فيما ليس من الدين والتقوى متساوون متقاربون ، وشيء من ذلك لا يؤثر مع عدم التقوى ، فإن كل من يتدين بدين يعرف أن من يوافقه في دينه أشرف ممن يخالفه فيه ، وإن كان أرفع نسباً أو أكثر نشباً ، فكيف من له الدين الحق وهو فيه راسخ ، وكيف يرجح عليه من دونه فيه بسبب غيره ، وقوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الناس إِنَّا خلقناكم مّن ذَكَرٍ وأنثى ﴾ فيه وجهان أحدهما : من آدم وحواء ثانيهما : كل واحد منكم أيها الموجودون وقت النداء خلقناه من أب وأم ، فإن قلنا إن المراد هو الأول ، فذلك إشارة إلى أن لا يتفاخر البعض على البعض لكونهم أبناء رجل واحد ، وامرأة واحدة ، وإن قلنا إن المراد هو الثاني ، فذلك إشارة إلى أن الجنس واحد ، فإن كل واحد خلق كما خلق الآخر من أب وأم ، والتفاوت في الجنس دون التفاوت في الجنسين ، فإن من سنن التفاوت أن

لا يكون تقدير التفاوت بين الذباب والذئاب ، لكن التفاوت الذي بين الناس بالكفر والإيمان كالتفاوت الذي بين الجنسين ، لأن الكافر جماد إذ هو كالأنعام ، بل أضل ، والمؤمن إنسان في المعنى الذي ينبغي أن يكون فيه ، والتفاوت في الإنسان تفاوت في الحس لا في الجنس إذ كلهم من ذكر وأنثى ، فلا يبقى لذلك عند هذ اعتبار ، وفيه مباحث :

(141/718)

البحث الأول : فإن قيل هذا مبني على عدم اعتبار النسب ، وليس كذلك فإن للنسب اعتباراً عرفاً وشرعاً ، حتى لا يجوز تزويج الشريفة بالنبطي ، فنقول إذا جاء الأمر العظيم لا يبقى الأمر الحقير معتبراً ، وذلك في الحس والشرع والعرف ، أما الحس فلأن الكواكب لا ترى عند طلوع الشمس ، ولجناح الذباب دوي ولا يسمع عندما يكون رعد قوي ، وأما في العرف ، فلأن من جاء مع الملك لا يبقى له اعتبار ولا إليه التفات ، إذا علمت هذا فيهما ففي الشرع كذلك ، إذا جاء الشرف الديني الإلهي ، لا يبقى الأمر هناك اعتبار ، لا لنسب ولا لنشب ، ألا ترى أن الكافر وإن كان من أعلى الناس نسباً ، والمؤمن وإن كان من أدونهم نسباً ، لا يقاس أحدهما بالآخر ، وكذلك ما هو من الدين مع غيره ، ولهذا يصلح للمناصب الدينية كالقضاء والشهادة كل شريف ووضيع إذا كان ديناً عالماً صالحاً ، ولا يصلح لشيء

منها فاسق ، وإن كان قرشي النسب ، وقاروني النشب ، ولكن إذا اجتمع في اثنين الدين المتين ، وأحدهما نسيب ترجح بالنسب عند الناس لا عند الله لأن الله تعالى يقول ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسانِ إِلاَّ مَا سعى ﴾ [النجم : 39] وشرف النسب ليس مكتسباً ولا يحصل بسعي .

البحث الثاني : ما الحكمة في اختيار النسب من جملة أسباب التفاخر ، ولم يذكر المال ؟ نقول الأمور التي يفتخر بها في الدنيا وإن كانت كثيرة لكن النسب أعلاها ، لأن المال قد يحصل للفقير فيبطل افتخار المفتخر به ، والحسن والسن ، وغير ذلك غير ثابت دائم ، والنسب ثابت مستمر غير مقدور التحصيل لمن ليس له فاختاره الله للذكر وأبطل اعتباره بالنسبة إلى التقوى ليعلم منه بطلان غيره بالطريق الأولى .

(142/718)

البحث الثالث : إذا كان ورود الآية لبيان عدم جواز الافتخار بغير التقوى فهل لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا خلقناكم ﴾ فائدة ؟ نقول نعم ، وذلك لأن كل شيء يترجح على غيره ، فإما أن يترجح بأمر فيه يلحقه ، ويترتب عليه بعد وجوده ، وإما أن يترجح عليه بأمر هو قبله ، والذي بعده كالحسن والقوة وغيرهما من الأوصاف المطلوبة من ذلك الشيء ، والذي قبله

فإما راجع إلى الأصل الذي منه وجد ، أو إلى الفاعل الذي هو له أوجد ، كم يقال في إناءين هذا من النحاس وهذا من الفضة ، ويقال هذا عمل فلان ، وهذا عمل فلان ، فقال تعالى لا ترجيح فيما خلقتم منه لأنكم كلكم من ذكر وأنثى ، ولا بالنظر إلى جاعلين لأنكم كلكم خلقكم الله ، فإن كان بينكم تفاوت يكون بأمور تلحقكم وتحصل بعد وجودكم وأشرفها التقوى والقرب من الله تعالى .

ثم قال تعالى : ﴿ وجعلناكم شُعُوباً وَقَبَائِلَ ﴾ وفيه وجهان : أحدهما : ﴿ جعلناكم شُعُوباً ﴾ متفرقة لا يدري من يجمعكم كالعجم ، وقبائل يجمعكم واحد معلوم كالعرب وبني إسرائيل وثانيهما : ﴿ جعلناكم شُعُوباً ﴾ داخلين في قبائل ، فإن القبيلة تحتها الشعوب ، وتحت الشعوب البطون وتحت البطون الأفخاذ ، وتحت الأفخاذ الفصائل ، وتحت الفصائل الأقارب ، وذكر الأعم لأنه أذهب للافتخار ، لأن لأمر الأعم منها يدخله فقراء وأغنياء كثيرة غير محصورة ، وضعفاء وأقوياء كثيرة غير معدودة ، ثم بيّن فائدة ذلك وهي التعارف وفيه وجهان : أحدهما : أن فائدة ذلك التناصر لا التفاخر وثانيهما : أن فائدته التعارف لا التناكر ، واللمز والسخرية والغيبة تفضي إلى التناكر لا إلى التعارف وفيه معان لطيفة الأولى : قال تعالى : ﴿ إِنَّا خلقناكم ﴾ وقال : ﴿ وجعلناكم ﴾ لأن الخلق أصل تفرع عليه الجعل ﴿ شُعُوباً ﴾ فإن الأول هو الخلق والإيجاد ، ثم الاتصاف بما اتصفوا به ، لكن الجعل شعوباً للتعارف والخلق للعبادة كما قال تعالى :

(143/718)

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] واعتبار الأصل متقدم على اعتبار الفرع ، فاعلم أن النسب يعتبر بعد اعتبار العبادة كما أن الجعل شعوباً يتحقق بعد ما يتحقق الخلق ، فإن كان فيكم عبادة تعتبر فيكم أنسابكم وإلا فلا الثانية : قوله تعالى : ﴿ خلقناكم وجعلناكم ﴾ إشارة إلى عدم جواز الافتخار لأن ذلك ليس لسعيكم ولا قدرة لكم على شيء من ذلك ، فكيف تفتخرون بما لا مدخل لكم فيه ؟ فإن قيل الهداية والضلال كذلك لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا هديناه السبيل ﴾ [الإنسان : 3] ﴿ نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاء ﴾ [الشورى : 52] فنقول أثبت الله لنا فيه كسباً مبنياً على فعل ، كم قال الله تعالى : ﴿ فَمَن شَاء اتخذ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ [المزمل : 19] .

(144/718)

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءونَ إِلاَّ أَن يَشَاء الله ﴾ وأما في النسب فلا الثالثة : قوله تعالى : ﴿ لتعارفوا ﴾ إشارة إلى قياس خفي ، وبيانه هو أنه تعالى قال : إنكم جعلتم قبائل لتعارفوا

وأنتم إذا كنتم أقرب إلى شريف تفتخرون به فخلقكم لتعرفوا ربكم ، فإذا كنتم أقرب منه وهو أشرف الموجودات كان الأحق بالافتخار هناك من الكل الافتخار بذلك الرابعة : فيه إرشاد إلى برهان يدل على أن الافتخار ليس بالأنساب ، وذلك لأن القبائل للتعارف بسبب الانتساب إلى شخص فإن كان ذلك الشخص شريفاً صح الافتخار في ظنكم ، وإن لم يكن شريفاً لم يصح ، فشرف ذلك الرجل الذي تفتخرون به هو بانتسابه إلى فصيلة أو باكتساب فضيلة ، فإن كان بالانتساب لزم الانتهاء ، وإن كان بالاكتساب فالدين الفقيه الكريم المحسن صار مثل من يفتخر به المفتخر ، فكيف يفتخر بالأب وأب الأب على من حصل له من الحظ والخير ما فضل به نفسه عن ذلك الأب والجد ؟ اللّهم إلا أن يجوز شرف الانتساب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن أحداً لا يقرب من الرسول في الفضيلة حتى يقول أنا مثل أبيك ، ولكن في هذا النسب أثبت النبي صلى الله عليه وسلم الشرف لمن انتسب إليه بالاكتساب ، ونفاه لمن أراد الشرف بالانتساب ، فقال : " نحن معاشر الأنبياء لا نورث " وقال : " العلماء ورثة الأنبياء " أي لا نورث بالانتساب ، وإنما نورث بالاكتساب ، سمعت أن بعض الشرفاء في بلاد خراسان كان في النسب أقرب الناس إلى علي عليه السلام غير أنه كان فاسقاً ، وكان هناك مولى أسود تقدم بالعلم والعمل ، ومال الناس إلى التبرك به فاتفق أنه خرج يوماً من بيته يقصد المسجد ، فأتبعه خلق فلقيه الشريف سكران ، وكان الناس يطردون الشريف ويبعدونه عن طريقه ، فغلبهم وتعلق

بأطراف الشيخ وقال له : يا أسود الحوافر والشوافر ، يا كافر ابن كافر ، أنا ابن رسول الله ، أذل وتجل ! وأذم وتكرم ! وأهان وتعان ! فهم الناس بضربه فقال الشيخ : لا

(145/718)

هذا محتمل منه لجده ، وضربه معدود لحده ، ولكن يا أيها الشريف بيضت باطني وسودت باطنك ، فيرى الناس بياض قلبي فوق سواد وجهي فحسنت ، وأخذت سيرة أبيك وأخذت سيرة أبي ، فرآني الخلق في سيرة أبيك ورأوك في سيرة أبي فظنوني ابن أبيك وظنوك ابن أبي ، فعملوا معك ما يعمل مع أبي ، وعملوا معي ما يعمل مع أبيك !

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ اللهِ أتقاكم ﴾ وفيه وجهان : أحدهما : أن المراد من يكون أتقى يكون عند الله أكرم أي التقوى تفيد الإكرام ثانيهما : أن المراد أن من يكون أكرم عند الله يكون أتقى أي الإكرام يورث التقوى كما يقال : المخلصون على خطر عظيم ، والأول أشهر والثاني أظهر لأن المذكور ثانياً ينبغي أن يكون محمولاً على المذكور أولاً في الظاهر فيقال الإكرام للتقي ، لكن ذوا العموم في المشهور هو الأول ، يقال ألذ الأطعمة أحلاها أي اللذة بقدر الحلاوة لا أن الحلاوة بقدر اللذة ، وهي إثبات لكون التقوى متقدمة على كل فضيلة ، فإن قيل التقوى من الأعمال والعلم أشرف ، قال النبي صلى الله عليه

وسلم : " لفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد " نقول التقوى ثمرة العلم قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء ﴾ [فاطر : 28] فلا تقوى إلا للعالم فالمتقي العالم أتم علمه ، والعالم الذي لا يتقي كشجرة لا ثمرة لها ، لكن الشجرة المثمرة أشرف من الشجرة التي لا تثمر بل هو حطب ، وكذلك العالم الذي لا يتقي حصب جهنم ، وأما العابد الذي يفضل الله عليه الفقيه فهو الذي لا علم له ، وحينئذ لا يكون عنده من خشية الله نصاب كامل ، ولعله يعبده مخافة الإلقاء في النار ، فهو كالمكره ، أو لدخول الجنة ، فهو يعمل كالفاعل له أجرة ويرجع إلى بيته ، والمتقي هو العالم بالله ، المواظب لبابه ، أي المقرب إلى جنابه عنده يبيت .

وفيه مباحث :

(146/718)

البحث الأول : الخطاب مع الناس والأكرم يقتضي اشتراك الكل في الكرامة ولا كرامة للكافر ، فإنه أضل من الأنعام وأذل من الهوام .

نقول ذلك غير لازم مع أنه حاصل بدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءادَمَ ﴾ [الإسراء : 70] لأن كل من خلق فقد اعترف بربه ، كأنه تعالى قال من استمر عليه لو زاد زيد في

كرامته ، ومن رجع عنه أزيل عنه أثر الكرامة الثاني : ما حد التقوى ومن الأتقى ؟ تقول أدنى مراتب التقوى أن يجتنب العبد المناهي ويأتي بالأوامر ولا يقر ولا يأمن إلا عندهما فإن اتفق أن ارتكب منهياً لا يأمن ولا يتكل له بل يتبعه بحسنة ويظهر عليه ندامة وتوبة ، ومتى ارتكب منهياً وما تاب في الحال واتكل على المهلة في الأجل ومنعه عن التذاكر طول الأمل فليس بمتق ، أما الأتقى فهو الذي يأتي بما أمر به ويترك ما نهى عنه ، وهو مع ذلك خاش ربه لا يشتغل بغير الله ، فينور الله قلبه ، فإن التفت لحظة إلى نفسه أو ولده جعل ذلك ذنبه ، وللأولين النجاة لقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الذين اتقوا ﴾ [مريم : 72] وللآخرين السوق إلى الجنة لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ الله أتقاكم ﴾ فبين من أعطاه السلطان بستاناً وأسكنه فيه ، وبين من استخلصه لنفسه يستفيد كل يوم بسبب القرب من بساتين وضياعاً بون عظيم .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ الله عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ أي عليم بظواهركم ، يعلم أنسابكم خبير ببواطنكم لا تخفى عليه أسراركم ، فاجعلوا التقوى عملكم وزيدوا في التقوى كما زادكم .

قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ

(147/718)

لما قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أتقاكم ﴾ [الحجرات : 13] والأتقى لا يكون إلا بعد حصول التقوى ، وأصل الإيمان هو الاتقاء من الشرك ، قالت الأعراب لنا النسب الشريف ، وإنما يكون لنا الشرف ، قال الله تعالى : ليس الإيمان بالقول ، إنما هو بالقلب فما آمنتم لأنه خبير يعلم ما في الصدور ، ﴿ ولكن قُولُواْ أَسْلَمْنَا ﴾ أي انقدنا واستسلمنا ، قيل إن الآية نزلت في بني أسد ، أظهروا الإسلام في سنة مجدبة طالبين الصدقة ولم يكن قلبهم مطمئناً بالإيمان ، وقد بينا أن ذلك كالتاريخ للنزول لا للاختصاص بهم ، لأن كل من أظهر فعل المتقين وأراد أن يصير له ما للأتقياء من الإكرام لا يحصل له ذلك ، لأن التقوى من عمل القلب ، وقوله تعالى : ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ﴾ في تفسيره مسائل :

المسألة الأولى :

قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السلام لَسْتَ مُؤْمِناً ﴾ [النساء : 94] وقال ههنا ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ﴾ مع أنهم ألقوا إليهم السلام ، نقول إشارة إلى أن عمل القلب غير معلوم واجتناب الظن واجب ، وإنما يحكم بالظاهر فلا يقال لمن يفعل فعلاً هو مرائي ، ولا لمن أسلم هو منافق ، ولكن الله خبير بما في الصدور ، إذا قال فلان ليس بمؤمن حصل الجزم ، وقوله تعالى : ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ﴾ فهو الذي جوز لنا ذلك القول ، وكان معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم حيث أطلعه الله على الغيب وضمير قلوبهم ، فقال لنا : أنتم لا تقولوا لمن

ألقى إليكم السلام لست مؤمناً لعدم علمكم بما في قلبه .

المسألة الثانية :

(148/718)

لم ولما حرفا نفي ، وما وإن ولا كذلك من حروف النفي ، ولم ولما يجزمان وغيرهما من حروف النفي لا يجزم ، فما الفرق بينهما ؟ نقول لم ولما يفعلان بالفعل ما لا يفعل به غيرهما ، فإنهما يغيران معناه من الاستقبال إلى المضي ، تقول لم يؤمن أمس وآمن اليوم ، ولا تقول لا يؤمن أمس ، فلما فعلا بالفعل ما لم يفعل به غيرهما جزم بهما ، فإن قيل مع هذا لم جزم بهما غاية ما في الباب أن الفرق حصل ، ولكن ما الدليل على وجوب الجزم بهما ؟ نقول لأن الجزم والقطع يحصل في الأفعال الماضية ، فإن من قال قام حصل القطع بقيامه ، ولا يجوز أن يكون ما قام والأفعال المستقبلة إما متوقعة الحصول وإما ممكنة غير متوقعة ، ولا يحصل القطع والجزم فيه ، فإذا كان لم ولما يقلبان اللفظ من الاستقبال إلى المضي كانا يفيدان الجزم والقطع في المعنى فجعل لهما تناسباً بالمعنى وهو الجزم لفظاً ، وعلى هذا نقول السبب في الجزم ما ذكرنا ، وهذا في الأمر يجزم كأنه جزم على المأمور أنه يفعله ولا يتركه ، فأي فائدة في أن اللفظ يجزم مع أن الفعل فيه لا بد من وقوعه وأن في الشرط تغير ، وذلك لأن إن تغير معنى الفعل من

المضي إلى الاستقبال إن لم تغيره من الاستقبال إلى المضي ، تقول : إن جئتني جئتك ، وإن أكرمتني أكرمتك ، فلما كان إن مثل لم في كونه حرفاً ، وفي لزوم الدخول على الأفعال وتغييره معنى الفعل صار جازماً لشبه لفظي ، أما الجزاء فجزم لما ذكرنا من المعنى ، فإن الجزاء يجزم بوقوعه عند وجود الشرط ، فالجزم إذاً إما لمعنى أو لشبه لفظي ، كما أن الجزاء كذلك في الإضافة وفي الجر بحرف .

المسألة الثالثة :

(149/718)

قوله تعالى : ﴿ ولكن قُولُواْ ﴾ يقتضي قولاً سابقاً مخالفاً لما بعده ، كقولنا لا تقدموا آمنا ولكن قولوا أسلمنا وفي ترك التصريح به إرشاد وتأديب كأنه تعالى لم يجز النهي عن قولهم ﴿ آمنا ﴾ فلم يقل لا تقولوا آمنا وأرشدهم إلى الامتناع عن الكذب فقال : ﴿ لَّمْ تُؤْمِنُواْ ﴾ فإن كنتم تقولون شيئاً فقولوا أمراً عاماً ، لا يلزم منه كذبكم وهو كقولهم ﴿ أَسْلَمْنَا ﴾ فإن الإسلام بمعنى الانقياد حصل .

المسألة الرابعة :

المؤمن والمسلم واحد عند أهل السنة ، فكيف يفهم ذلك مع هذا ؟ نقول بين العام والخاص

فرق ، فالإيمان لا يحصل إلا بالقلب وقد يحصل باللسان ، والإسلام أعم لكن العام في صورة الخاص متحد مع الخاص ولا يكون أمراً آخر غيره ، مثاله الحيوان أعم من الإنسان لكن الحيوان في صورة الإنسان ليس أمراً ينفك عن الإنسان ولا يجوز أن يكون ذلك الحيوان حيواناً ولا يكون إنساناً ، فالعام والخاص مختلفان في العموم متحدان في الوجود ، فكذلك المؤمن والمسلم ، وسنبين ذلك في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات : 35-36] إن شاء الله تعالى .

المسألة الخامسة :

(150/718)

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ هل فيه معنى قوله تعالى : ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ﴾ ؟ نقول نعم وبيانه من وجوه الأول : هو أنهم لما قالوا آمنا وقيل لهم ﴿ لَّمْ تُؤْمِنُواْ ولكن قُولُواْ أَسْلَمْنَا ﴾ قالوا إذا أسلمنا فقد آمنا ، قيل لا فإن الإيمان من عمل القلب لا غير والإسلام قد يكون عمل اللسان ، وإذا كان ذلك عمل القلب ولم يدخل في قلوبكم الإيمان لم تؤمنوا الثاني : لما قالوا آمنا وقيل لهم لم تؤمنوا قالوا جدلاً قد آمنا عن صدق نية مؤكدين لما

أخبروا فقال : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ لأن لما يفعل يقال في مقابلة قد فعل ، ويحتمل أن يقال بأن الآية فيها إشارة إلى حال المؤلفة إذا أسلموا ويكون إيمانهم بعده ضعيفاً قال لهم ﴿ لَّمْ تُؤْمِنُواْ ﴾ لأن الإيمان إيقان وذلك بعد لم يدخل في قلوبكم وسيدخل باطلاعكم على محاسن الإسلام ﴿ وَإِن تُطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ يكمل لكم الأجر ، والذي يدل على هذا هو أن لما فيها معنى التوقع والانتظار ، والإيمان إما أن يكون بفعل المؤمن واكتسابه ونظره في الدلائل ، وإما أن يكون إلهاماً يقع في قلب المؤمن فقوله ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ﴾ أي ما فعلتم ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أي ولا دخل الإيمان في قلبكم إلهاماً من غير فعلكم فلا إيمان لكم حينئذ .

ثم إنه تعالى عند فعلهم قال : ﴿ لَّمْ تُؤْمِنُواْ ﴾ بحرف ليس فيه معنى الانتظار لقصور نظرهم وفتور فكرهم ، وعند فعل الإيمان قال لما يدخل بحرف فيه معنى التوقع لظهور قوة الإيمان ، كأنه يكاد يغشي القلوب بأسرها .

(151/718)

ثم إنه تعالى قال : ﴿ وَإِن تُطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُمْ ﴾ أي لا ينقصكم والمراد أنكم إذا أتيتم بما يليق بضعفكم من الحسنة فهو يؤتيكم ما يليق به من الجزاء ، وهذا لأن من حمل إلى

ملك فاكهة طيبة يكون ثمنها في السوق درهماً ، وأعطاه الملك درهماً أو ديناراً ينسب الملك إلى قلة العطاء بل البخل ، فليس معناه أنه يعطي مثل ذلك من غير نقص ، بل المعنى يعطي ما تتوقعون بأعمالكم من غير نقص .

وفيه تحريض على الإيمان الصادق ، لأن من أتى بفعل من غير صدق نية يضيع عمله ولا يعطي عليه أجراً فقال : وإن تطيعوا وتصدقوا لا ينقص عليكم ، فلا تضيعوا أعمالكم بعدم الإخلاص ، وفيه أيضاً تسلية لقلوب من تأخر إيمانه ، كأنه يقول غيري سبقني وآمن حين كان النبي وحيداً وآواه حين كان ضعيفاً ، ونحن آمنا عندما عجزنا عن مقاومته وغلبنا بقوته ، فلا يكون لإيماننا وقع ولا لنا عليه أجر ، فقال تعالى إن أجركم لا ينقص وما تتوقعون تعطون ، غاية ما في الباب أن التقدم يزيد في أجورهم ، وماذا عليكم إذا أرضاكم الله أن يعطي غيركم من خزائن رحمته رحمة واسعة ، وما حالكم في ذلك إلا حال ملك أعطى واحداً شيئاً وقال لغيره ماذا تتمنى ؟ فتمنى عليه بلدة واسعة وأموالاً فأعطاه ووفاه ، ثم زاد ذلك الأول أشياء أخرى من خزائنه فإن تأذى من ذلك يكون بخلاً وحسداً ، وذلك في الآخرة لا يكون ، وفي الدنيا هو من صفة الأرازل ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي يغفر لكم ما قد سلف ويرحمكم بما أتيتم به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 115 . 122 ﴾

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾

هذه الآيات والتي بعدها نزلت في خلق أهل الجاهلية . وذلك لأنهم كانوا يجرون مع الشهوات نفوسهم لم يقومهم أمر من الله ولا نهي . فكان الرجل يسطو ويهمز ويلمز وينبز بالألقاب ويظن الظنون . فيتكلم بها . ويغتاب ويفتخر بنسبه إلى غير ذلك من أخلاق النفوس البطالة . فنزلت هذه الآية تأديباً لأمة محمد صلى الله عليه وسلم . وذكر بعض الناس لهذه الآيات أسباباً . فمما قيل : إن هذه الآية : ﴿ لا يسخر قوم ﴾ نزلت بسبب عكرمة بن أبي جهل وذلك أنه كان يمشي بالمدينة مسلماً ، فقال له قوم : هذا ابن فرعون هذه الأمة ، فعز ذلك عليه وشكاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال القاضي أبو محمد : والقوي عندي أن هذه الآية نزلت تقويماً كسائر أمر الشرع ولو تتبعت الأسباب لكانت أكثر من أن تحصى .

و: ﴿ يسخر ﴾ معناه : يستهزئ . والهزء إنما يترتب متى ضعف امرؤ إما لصغر وإما لعلة حادثة ، أو لرزية أو لنقيصة يأتيها ، فنهي المؤمنون عن الاستهزاء في هذه الأمور وغيرها نهياً عاماً ، فقد يكون ذلك المستهزأ به خيراً من الساخر ، والقوم في كلام العرب : واقع على الذكران ، وهو من أسماء الجمع : كالرهط والنفر . وقول من قال : إنه من القيام أو جمع قائم

ضعيف ، ومنه قول الشاعر وهو زهير : [الوافر]

وما أدري وسوف إخال أدري . . . أقوم آل حصن أم نساء

وهذه الآية أيضاً تقتضي اختصاص القوم بالذكران ، وقد يكون مع الذكران نساء فيقال لهم قوم على تغليب حال الذكور ، ثم نهى تعالى النساء عمّا نهى عنه الرجال من ذلك .

وقرأ أبيّ بن كعب وابن مسعود : " عسوا أن يكونوا " ، " وعسين أن يكن " .

(153/718)

و : ﴿ تلمزوا ﴾ ، معناه : يطعن بعضكم على بعض بذكر النقائص ونحوه ، وقد يكون اللمز بالقول وبالإشارة ونحوه مما يفهمه آخر ، والهمز لا يكون إلا باللسان ، وهو مشبه بالهمز بالعود ونحوه مما يقتضي المماسة ، قال الشاعر [رؤبة] :

ومن همزنا عزه تبركعا . . . وقيل لأعرابي : أتهمز الفأرة ؟ فقال الهر يهمزها . وحكى الثعلبي أن اللمز ما كان في المشهد والهمز ما كان في المغيب . وحكى الزهراوي عن علي بن سليمان عَكَّهُ من ذلك فقال : الهمز أن يعيب حضرة واللمز في الغيبة . ومنه قوله تعالى : ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ [الهمزة : 1] ومنه قوله تعالى : ﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات ﴾ [التوبة : 58] .

وقرأ الجمهور : " تلمِزوا " بكسر الميم . وقرأ الأعرج والحسن : " تلمُزوا " بضم الميم . قال أبو عمرو بن العلاء : هي عربية . قراءتنا بالضم وأحياناً بالكسر .

وقوله تعالى : ﴿ أنفسكم ﴾ معناه : بعضكم بعضاً كما قال : ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ [النساء : 29] كأن المؤمنين كنفس واحدة إذ هم إخوة . فهم كما قال صلى الله عليه وسلم :

(154/718)

" كالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى سائره بالسهر والحمى " وهم كما قال أيضاً : " كالبنيان يشد بعضه بعضاً " . والتنابز : التلقب والنبز واللقب واحد . أو اللقب : هو ما يعرف به الإنسان من الأسماء التي يكره سماعها . وروي أن بني سلمة كانوا قد كثرت فيهم الألقاب ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً منهم فقال له : يا فلان ، فقيل له : إنه يغضب من هذا الاسم ، ثم دعا آخر كذلك . فنزلت الآية في هذا . وليس من هذا قول المحدثين سليمان الأعمش . وواصل الأحدب . ونحوه مما تدعو الضرورة إليه وليس فيه قصد استخفاف وأذى . وقد قال عبد الله بن مسعود لعلقمة : وتقول أنت ذلك يا أعور . وأسند النقاش إلى عطاء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كنوا أولادكم ؟ " قال

عطاء : مخافة الألقاب . وقال ابن زيد . معنى : ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ أي لا يقول أحد لأحد : يا يهودي بعد إسلامه . ولا يا فاسق بعد توبته . ونحو هذا . وحكى النقاش أن كعب بن مالك وابن أبي حدرد تلاحيا ، فقال له كعب : يا أعرابي . يريد أن يبعده من الهجرة . فقال له الآخر : يا يهودي . يريد لمخالطة الأنصار اليهود في يثرب . فنزلت الآية . وقوله تعالى : ﴿ بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ﴾ يحتمل معنيين : أحدهما : بئس اسم تكتسبونه بعصيانكم ونبزكم بالألقاب فتكونون فساقاً بالمعصية بعد إيمانكم . والثاني : بئس ما يقول الرجل لأخيه : يا فاسق بعد إيمانه . وقال الرماني : هذه الآية تدل على أنه لا يجتمع الفسق والإيمان .

قال القاضي أبو محمد : وهذه نزعة اعتزالية .

(155/718)

ثم شدد تعالى عليهم النهي . بأن حكم بظلم من لم يتب ويقلع عن هذه الأشياء التي نهى عنها . ثم أمر تعالى المؤمنين باجتناب كثير من الظن . وأن لا يعملوا ولا يتكلموا بحسبه ، لما في ذلك وفي التجسس من التقاطع والتدابر . وحكم على بعضه بأنه ﴿ إثم ﴾ إذ بعضه ليس بإثم . ولا يلزم اجتنابه وهو ظن الخير بالناس وحسنه بالله تعالى . والمظنون من

شهادات الشهود والمظنون به من أهل الشر . فإن ذلك سقوط عدالته وغير ذلك هي من حكم الظن به . وظن الخير بالمؤمن محمود والظن المنهي عنه : هو أن تظن سوءاً برجل ظاهره الصلاح . بل الواجب تنزيل الظن وحكمه وتتأول الخير . وقال بعض الناس : ﴿ إثم ﴾ معناه : كذب . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث " . وقال بعض الناس . معنى : ﴿ إن بعض الظن إثم ﴾ أي إذا تكلم الظان أثم . وما لم يتكلم فهو في فسحة . لأنه لا يقدر على دفع الخواطر التي يبيحها قول النبي صلى الله عليه وسلم : " الحزم سوء الظن " .

قال القاضي أبو محمد : وما زال أولو العلم يحترسون من سوء الظن ويسدون ذرائعه .

قال سلمان الفارسي : إني لأعد غراف قِدْري مخافة الظن . وذكر النقاش عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " احترسوا من الناس بسوء الظن . " وكان أبو العالية يختم على بقية طعامه مخافة سوء الظن بخادمه .

وقال ابن مسعود : الأمانة خير من الخاتم . والخاتم خير من ظن السوء .

وقوله : ﴿ ولا تجسسوا ﴾ أي لا تبحثوا على مخبآت أمور الناس وادفعوا بالتي هي أحسن . واجتزوا بالظواهر الحسنة .

وقرأ الحسن وأبو رجاء وابن سيرين والهذليون : " لا تحسسوا " بالحاء غير منقوطة . وقال بعض الناس : التجسس بالجيم في الشر . والتحسس بالحاء في الخير . وهكذا ورد القرآن ، ولكن قد يتداخلان في الاستعمال . وقال أبو عمرو بن العلاء : التجسس : ما كان من وراء وراء . والتحسس بالحاء : الدخول والاستعلام . وصح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً " . وذكر الثعلبي حديث حراسة عمرو بن عوف ووجودهما الشرب في بيت ربيعة بن أمية بن خلف . وذكر أيضاً حديثه في ذلك مع أبي محجن الثقفي . وقال زيد بن وهب . قيل لابن مسعود : هل لك في الوليد بن عقبة تقطر لحيته خمراً ؟ فقال : إنا نهينا عن التحسس . فإن يظهر لنا شيء أخذنا به .

﴿ ولا يغتب ﴾ معناه : ولا يذكر أحدكم من أخيه شيئاً هو فيه يكره سماعه . وروي أن عائشة قالت عن امرأة : ما رأيت أجمل منها إلا أنها قصيرة ، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : " اغتبتها ، نظرت إلى أسوأ ما فيها فذكرته " وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا ذكرت ما في أخيك فقد اغتبته . وإذا ذكرت ما ليس فيه فقد بهته " . وفي حديث آخر : " الغيبة أن تذكر المؤمن بما يكره " . قيل : وإن كان حقاً . قال : " إذا قلت باطلاً فذلك هو البهتان " . وقال معاوية بن قرة وأبو إسحاق السبيعي : إذا مر بك رجل اقطع .

فقلت : ذلك الأقطع ، كان ذلك غيب . وحكى الزهراوي عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الغيبة أشد من الزنا ، لأن الزاني يتوب فيتوب الله عليه . والذي يغتاب يتوب فلا يتاب عليه حتى يستحل " .

قال القاضي أبو محمد : وقد يموت من اغتيب ، أو يأبى .

(157/718)

وروي أن رجلاً قال لابن سيرين : إني قد اغتبتك فحللني . فقال له ابن سيرين إني لا أحل ما حرم الله . والغيبة مشتقة من غاب يغيب . وهي القول في الغائب واستعملت في المكروه . ولم يبح في هذا المعنى إلا ما تدعو الضرورة إليه من تجريح في الشهود وفي التعريف لمن استنصح في الخطاب ونحوهم لقول النبي صلى الله عليه وسلم :

" أما معاوية فصعلوك لا مال له " . وما يقال في الفسقة أيضاً وفي ولاة الجور ويقصد به التحذير منه . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " أعن الفاجر ترعون ؟ اذكروا الفاجر بما فيه حتى يعرفه الناس إذا لم تذكروه " ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " بئس ابن العشيرة " . ثم مثل تعالى الغيبة بأكل لحم ابن آدم الميت ، والعرب تشبه الغيبة بأكل اللحم . فمنه قول الشاعر [سويد بن أبي كاهل اليشكري] : [الرمل]

فإذا لاقيته عظّمني . . . وإذا يخلو له لحمي رتع

ويروى فيحييني إذا لاقيته .

ومنه قول الآخر : [المقنع الكندي] .

وإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم . . . وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا

فوقفهم الله تعالى على جهة التوبيخ بقوله : ﴿ أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً ﴾

فالجواب عن هذا : لا . وهم في حكم من يقولها . فخوطبوا على أنهم قالوا لا . فقيل لهم :

﴿ فكرهتموه ﴾ وبعد هذا مقدر تقديره : فكذلك فاكرهوا الغيبة التي هي نظير ذلك .

وعلى هذا المقدر يعطف قوله : ﴿ واتقوا الله ﴾ قاله أبو علي الفارسي . وقال الرماني :

كراهية هذا اللحم يدعو إليها الطبع . وكراهية الغيبة يدعو إليها العقل . وهو أحق أن

يجاب . لأنه بصير عالم . والطبع أعمى جاهل .

وقرأ الجمهور : " ميْتاً " بسكون الياء . وقرأ نافع وابن القعقاع وشيبة ومجاهد : " ميّتاً "

بكسرها والشد . وقرأ أبو حيوة : " فكُرّهتموه " بضم الكاف وشد الراء .

ورواها أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم . ثم أعلم بأنه ﴿ تواب رحيم

﴾ إبقاء منه تعالى وإمهالاً وتمكيناً من التوبة .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى

(159/718)

قوله تعالى : ﴿ من ذكر وأنثى ﴾ يحتمل أن يريد آدم وحواء . فكأنه قال : إنا خلقنا جميعكم من آدم وحواء . ويحتمل أن يريد الذكر والأنثى اسم الجنس . فكأنه قال : إنا خلقنا كل واحد منكم من ماء ذكر وما أنثى . وقصد هذه الآية التسوية بين الناس . ثم قال تعالى : ﴿ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾ أي لئلا تفاخروا ويريد بعضكم أن يكون أكرم من بعض . فإن الطريق إلى الكرم غير هذا : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ وروى بو بكرة : قيل يا رسول الله : من خير الناس ؟ قال : " من طال عمره وحسن عمله " . وفي حديث آخر من خير الناس ؟ قال : " آمرهم بالمعروف . وأنهاهم عن المنكر . وأوصلهم للرحم وأتقاهم " . وحكى الزهراوي أن سبب هذه الآية غضب الحارث بن هشام وعتاب بن أسيد حين أذن بلال يوم فتح مكة على الكعبة ، وحكى الثعلبي عن ابن عباس أن سببها قول ثابت بن قيس لرجل لم يفسح عند النبي صلى الله عليه وسلم : يا ابن فلانة ، فوبخه النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال له : " إنك لا تفضل أحداً إلا في الدين والتقوى " فنزلت هذه

الآية ونزل الأمر بالتفسح في ذلك أيضاً ، والشعوب : جمع شعب وهو أعظم ما يوجد من جماعات الناس مرتبطاً بنسب واحد ، ويتلوه القبيلة ، ثم العمارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الأسرة والفصيلة : وهما قرابة الرجل الأدنون فمضر وربيعة وحمير شعوب ، وقيس وتميم ومذحج ومراد ، قبائل مشبهة بقبائل الرأس ، " لأنها قطع تقابلت " وقريش ومحارب وسليم عمارات ، وبنو قصي وبنو مخزوم بطون ، وبنو هاشم وبنو أمية أفخاذ ، وبنو عبد المطلب أسرة وفصيلة ، وقال ابن جبير : الشعوب : الأفخاذ . وروي عن ابن عباس الشعوب : البطون ، وهذا غير ما تمالأ عليه اللغويون . قال الثعلبي ، وقيل : الشعوب في العجم والقبائل في العرب ، والأسباط في بني إسرائيل . وأما الشعب الذي هو في همدان الذي ينسب إليه الشعبي فهو بطن يقال له الشعب .

(160/718)

قال القاضي أبو محمد : وقيل للأمم التي ليست بعرب : شعوبية ، نسبة إلى الشعوب ، وذلك أن تفصيل أنسابها خفي فلم يعرف أحد منهم إلا بأن يقال : فارسي تركي رومي زناتي . فعرفوا بشعوبهم وهي أعم ما يعبر به عن جماعتهم ، ويقال لهم الشعوبية بفتح الشين ، وهذا من تغيير النسب ، وقد قيل فيهم غير ما ذكرت ، وهذا أولى عندي .

وقرأ الأعمش : " لتتعارفوا " وقرأ عبد الله بن عباس : " لتعرفوا أن " ، على وزن تفعِلوا بكسر العين وفتح الألف من " أن " ، وبإعمال " لتعرفوا " فيها ، ويحتمل على هذه القراءة أن تكون اللام في قوله : " لتعرفوا " لام كي ، ويضطرب معنى الآية مع ذلك ، ويحتمل أن تكون لام الأمر ، وهو أجود في المعنى ، ويحتمل أن يكون المفعول محذوفاً تقديره : الحق ، وإذا كانت لام كي فكأنه قال : يا أيها الناس أنتم سواء من حيث أنتم مخلوقون لأن تتعارفوا ولأن تعرفوا الحقائق ، وأما الشرف والكرم فهو بتقوى الله تعالى وسلامة القلوب .

(161/718)

وقرأ ابن مسعود : " لتعارفوا بينكم وخيركم عند الله أتقاكم " . وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من سره أن يكون أكرم الناس ، فليتق الله " . ثم نبه تعالى على الحذر بقوله : ﴿ إن الله عليم خبير ﴾ أي بالمتقي الذي يستحق رتبة الكرم في الإيمان ، أي لم تصدقوا بقلوبكم ﴿ ولكن قولوا أسلمنا ﴾ . والإسلام يقال بمعنيين ، أحدهما : الدين يعم الإيمان والأعمال ، وهو الذي في قوله : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ [آل عمران : 19] والذي في قوله صلى الله عليه وسلم : " بني الإسلام على خمس " والذي في تعليم النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل حين قال له : ما الإسلام ؟ قال : بأن تعبد الله وحده ولا

تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان ، والذي في قوله لسعد بن أبي وقاص : " أو مسلماً ، إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليَّ منه " الحديث ، فهذا الإسلام ليس هو في قوله : ﴿ ولكن قولوا أسلمنا ﴾ والمعنى الثاني للفظ الإسلام : هو الاستسلام والإظهار الذي يستعصم به ويحقن الدم ، وهذا هو الإسلام في قوله : ﴿ ولكن قولوا أسلمنا ﴾ ، و﴿ الإيمان ﴾ الذي هو التصديق أخص من الأول وأعم بوجه ، ثم صرح لهم بأن ﴿ الإيمان ﴾ لم يدخل قلوبهم ثم فتح لهم باب التوبة بقوله : ﴿ وإن تطيعوا الله ﴾ الآية ، وطاعة الله ورسوله في ضمنها الإيمان والأعمال .

وقرأ جمهور القراء : " لا يلتكم " من لات يليت إذا نقص ، يقال : لاته حقه إذا نقصه منه ، ولت السلطان إذا لم يصدقه فيما سأل عنه . وقرأ أبو عمرو والأعرج والحسن وعمرو : " لا يألتكم " من ألت يألت وهو بمعنى : لات ، وكذلك يقال : ألتِ بكسر اللام يألت ، ويقال أيضاً في معنى لات ، ألت يولت ولم يقرأ بهذه اللغة وباقي الآية ترجية . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(162/718)

وقال القرطبى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ اجتنبوا كَثِيراً مِّنَ الظن ﴾ قيل : إنها : نزلت في رجلين من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم اغتابا رفيقهما .

وذلك " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا سافر ضمّ الرجلَ المحتاج إلى الرجلين الموسِرَيْن فيخدمهما .

فضمّ سلمان إلى رجلين ، فتقدم سلمان إلى المنزل فغلبته عيناه فنام ولم يهيىء لهما شيئاً ، فجاءا فلم يجدا طعاماً وإداماً ، فقالا له : انطلق فاطلب لنا من النبيّ صلى الله عليه وسلم طعاماً وإداماً ؛ فذهب فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : "اذهب إلى أسامة بن زيد فقل له إن كان عندك فضل من طعام فليعطك" وكان أسامة خازن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فذهب إليه ، فقال أسامة : ما عندي شيء ؛ فرجع إليهما فأخبرهما ؛ فقالا : قد كان عنده ولكنه بخل .

ثم بعثا سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئاً ؛ فقالا : لو بعثنا سلمان إلى بئر سُمَيحة لغار ماؤها .

ثم انطلقا يتجسسان هل عند أسامة شيء ؛ فرآهما النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "ما

لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما" فقالا : يا نبي الله ، والله ما أكلنا في يومنا هذا لحماً ولا غيره .

فقال : "ولكنكما ظلتما تأكلان لحم سلمان وأسامة" " فنزلت : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ اجتنبوا كَثِيراً مِّنَ الظن إِنَّ بَعْضَ الظن إِثْمٌ ﴾ ذكره الثعلبيّ .

أي لا تظنوا بأهل الخير سواء إن كنتم تعلمون من ظاهر أمرهم الخير .

الثانية ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تَناجشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً " لفظ البخاري .

قال علماؤنا : فالظن هنا وفي الآية هو التُّهمَة .

(163/718)

ومحل التحذير والنهي إنما هو تُهْمَة لا سبب لها يوجبها ؛ كمن يُتّهم بالفاحشة أو بشرب الخمر مثلاً ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك .

ودليل كون الظن هنا بمعنى التهمة قوله تعالى : "وَلاَ تَجَسَّسُوا" وذلك أنه قد يقع له خاطر التهمة ابتداء ويريد أن يتجسس خبر ذلك ويبحث عنه ، ويتبّصر ويستمع لتحقيق ما وقع

له من تلك التهمة .

فنهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن ذلك .

وإن شئت قلت : والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها ، أن كل ما لم تعرف له أمارة صحيحة وسبب ظاهر كان حراماً واجب الاجتناب .

وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح ، وأُوِنسَت منه الأمانة في الظاهر ، فظنُّ الفساد به والخيانة محرم ؛ بخلاف من اشتهره الناس بتعاطي الريب والمجاهرة بالخبائث .

وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم :

" إن الله حَرّم من المسلم دَمَه وعِرْضَه وأن يُظَن به ظنّ السوء " وعن الحسن : كنا في زمنٍ الظنُّ بالناس فيه حرام ، وأنت اليوم في زمن اعمل واسكت وظُنّ في الناس ما شئت .

الثالثة للظن حالتان : حالة تعرف وتَقْوَى بوجه من وجوه الأدلة فيجوز الحكم بها ، وأكثر أحكام الشريعة مبنية على غلبة الظن ؛ كالقياس وخبر الواحد وغير ذلك من قِيَم المتلفات وأروش الجنايات .

والحالة الثانية أن يقع في النفس شيء من غير دلالة فلا يكون ذلك أولى من ضده ، فهذا هو الشك ، فلا يجوز الحكم به ، وهو المنهي عنه على ما قررناه آنفاً .

وقد أنكرت جماعة من المبتدِعة تعبد الله بالظن وجواز العمل به ؛ تحكُّماً في الدِّين ودعوى

في المعقول .

وليس في ذلك أصل يعوّل عليه ؛ فإن البارىء تعالى لم يذمّ جميعه ، وإنما أورد الذمّ في بعضه .

وربما تعلقوا بحديث أبي هريرة "إياكم والظن" فإن هذا لا حجة فيه ؛ لأن الظن في الشريعة قسمان : محمود ومذموم ؛ فالمحمود منه ما سلم معه دين الظان والمظنون به عند بلوغه .

(164/718)

والمذموم ضدّه ؛ بدلالة قوله تعالى : ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظنِ إِثْمٌ ﴾ ، وقوله : ﴿ لولا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ المؤمنون والمؤمنات بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً ﴾ [النور : 12] ، وقوله : ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السوء وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً ﴾ [الفتح : 12] وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إذا كان أحدكم مادحا أخاه فليقل أحسب كذا ولا أزكّي على الله أحداً " وقال : " إذا ظننت فلا تَحَقَّق وإذا حسدت فلا تَبْغ وإذا تطيّرت فامض " خرّجه أبو داود .

وأكثر العلماء على أن الظن القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز ، وأنه لا حرج في الظن القبيح بمن ظاهره القبح ؛ قاله المهدويّ .

الرابعة قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَجَسَّسُواْ ﴾ وقرأ أبو رجاء والحسن باختلاف وغيرهما "وَلاَ تَحَسَّسُوا" بالحاء .

واختلِف هل هما بمعنًى واحد أو بمعنيين ؛ فقال الأخفش : ليس تبعد إحداهما من الأخرى ؛ لأن التجسس البحث عما يُكتم عنك .

والتحسس (بالحاء) طلب الأخبار والبحث عنها .

وقيل : إن التجسس (بالجيم) هو البحث ؛ ومنه قيل : رجل جاسوس إذا كان يبحث عن الأمور .

وبالحاء : هو ما أدركه الإنسان ببعض حواسه .

وقولٌ ثانٍ في الفرق : أنه بالحاء تطلّبه لنفسه ، وبالجيم أن يكون رسولاً لغيره ؛ قاله ثعلب .

والأوّل أعرف .

جَسَست الأخبار وتجسّستها أي تفحّصت عنها ؛ ومنه الجاسوس .

ومعنى الآية : خذوا ما ظهر ولا تتبعوا عورات المسلمين ؛ أي لا يبحث أحدكم عن عيب أخيه حتى يطّلع عليه بعد أن ستره الله .

وفي كتاب أبي داود عن معاوية قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم " فقال أبو الدرداء : كلمةٌ سمعها معاوية من رسول الله صلى الله عليه وسلم نفعه الله تعالى بها .

وعن المِقدام بن مَعْدِي كَرِب عن أبي أُمامة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم " وعن زيد بن وهب قال : أُتِيَ ابن مسعود فقيل : هذا فلان تقطر لحيته خمراً .

فقال عبد الله : إنا قد نُهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به .

وعن أبي بَرْزة الأسلمي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإن من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته " وقال عبد الرحمن ابن عوف : حَرَست ليلةً مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالمدينة إذ تبيّن لنا سراج في بيت بابُه مُجافٍ على قوم لهم أصوات مرتفعة ولَغَط ؛ فقال عمر : هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف ، وهم الآن شُرّب فما ترى ؟ قلت : أرى أنا قد أتينا ما نهى الله عنه ، قال الله تعالى : ﴿ وَلاَ تَجَسَّسُواْ ﴾ وقد تجسسنا ؛ فانصرف عمر وتركهم .

وقال أبو قِلابة : حُدِّث عمر بن الخطاب أن أبا مِحْجَن الثَّقَفِي يشرب الخمر مع أصحاب له في بيته ؛ فانطلق عمر حتى دخل عليه ، فإذا ليس عنده إلا رجل ؛ فقال أبو مِحْجن : إن هذا لا يحلّ لك ! قد نهاك الله عن التجسس ؛ فخرج عمر وتركه .

وقال زيد بن أسلم : خرج عمر وعبد الرحمن يَعُسّان ، إذ تبيَّنت لهما نار فاستأذنا ففُتح

الباب ؛ فإذا رجل وامرأة تغنّي وعلى يد الرجل قدح ؛ فقال عمر : وأنت بهذا يا فلان ؟ فقال : وأنت بهذا يا أمير المؤمنين ! قال عمر : فمن هذه منك ؟ قال امرأتي ؛ قال فما في هذا القدح ؟ قال ماء زلال ؛ فقال للمرأة : وما الذي تغنين ؟ فقالت :

تطاول هذا الليل واسود جانِبُه . . .

وأرّقني أن لا خليل ألاعِبُهْ

فوالله لولا اللّهُ أني أراقبه . . .

لزُعْزِع من هذا السرير جوانبه

ولكنّ عقلي والحياء يَكُفُّني . . .

وأُكْرِم بَعْلِي أن تُنال مَرَاكِبُهْ

(166/718)

ثم قال الرجل : ما بهذا أمِرْنا يا أمير المؤمنين ! قال الله تعالى : "وَلاَ تَجَسَّسُوا" .

قال صدقت .

قلت : لا يفهم من هذا الخبر أن المرأة كانت غير زوجة الرجل ؛ لأن عمر لا يقرّ على الزنى ، وإنما غنّت بتلك الأبيات تذكاراً لزوجها ، وأنها قالتها في مَغِيبه عنها .

والله أعلم .

وقال عمرو بن دينار : كان رجل من أهل المدينة له أخت فاشتكت ، فكان يعودها فماتت فدفنها .

فكان هو الذي نزل في قبرها ، فسقط من كمه كيس فيه دنانير ، فاستعان ببعض أهله فنبشوا قبرها فأخذ الكيس ثم قال : لأكشفنّ حتى أنظر ما آل حال أختي إليه ؛ فكشف عنها فإذا القبر مشتعل ناراً ، فجاء إلى أمه فقال : أخبريني ما كان عمل أختي ؟ فقالت : قد ماتت أختك فما سؤالك عن عملها فلم يزل بها حتى قالت له : كان من عملها أنها كانت تؤخر الصلاة عن مواقيتها ، وكانت إذا نام الجيران قامت إلى بيوتهم فألقمت أذنها أبوابهم ، فتتجسس عليهم وتُخرج أسرارهم ؛ فقال : بهذا هلكت !

الخامسة قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً ﴾ نهى عز وجل عن الغِيبة ، وهي أن تذكر الرجل بما فيه ، فإن ذكرته بما ليس فيه فهو البهتان .

ثبت معناه في صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " "أتدرون ما الغِيبة" ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : "ذكرك أخاك بما يكره" قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : "إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بَهَتّه" " يقال : اغتابه اغتيابا إذا وقع فيه ؛ والاسم الغِيبة ، وهي ذكر العَيْب بظهر الغَيْب .

قال الحسن : الغِيبة ثلاثة أوجه كلها في كتاب الله تعالى : الغِيبة والإفك والبهتان .

فأما الغِيبة فهو أن تقول في أخيك ما هو فيه .

وأما الإفك فأن تقول فيه ما بلغك عنه .

وأما البهتان فأن تقول فيه ما ليس فيه .

وعن شعبة قال : قال لي معاوية يعني ابن قُرّة : لو مَرّ بك رجل أقطع ؛ فقلت هذا أقطع كان غِيبة .

(167/718)

قال شعبة : فذكرته لأبي إسحاق فقال صدق .

وروى أبو هريرة : " أن الأسلمي ماعزاً جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فشهد على نفسه بالزنى فرجمه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فسمع نبيّ الله صلى الله عليه وسلم رجلين من أصحابه يقول أحدهما للآخر : انظر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رُجِم رَجْمَ الكلب ؛ فسكت عنهما .

ثم سار ساعة حتى مرّ بجِيفة حمار شائل برجله فقال : "أين فلان وفلان" ؟ فقالا : نحن ذا يا رسول الله ؛ قال : "انزلا فَكُلا من جِيفة هذا الحمار" فقالا : يا نبيّ الله ومن يأكل من هذا

قال : "فما نلتما من عرض أخيكما أشدّ من الأكل منه والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها" " .

السادسة قوله تعالى : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً ﴾ مَثّل الله الغِيبة بأكل الميتة ؛ لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه كما أن الحي لا يعلم بغِيبة من اغتابه .

وقال ابن عباس : إنما ضرب الله هذا المثل للغِيبة لأن أكل لحم الميت حرام مستقذر ، وكذا الغِيبة حرام في الدّين وقبيح في النفوس .

وقال قتادة : كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً كذلك يجب أن يمتنع من غِيبته حيًّا .

واستعمِل أكل اللحم مكان الغِيبة لأن عادة العرب بذلك جارية .

قال الشاعر :

فإن أكلوا لحمي وفَرت لحومهم . . .

وإن هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لهم مَجْدا

وقال صلى الله عليه وسلم : " ما صام من ظل يأكل لحوم الناس " فشبّه الوقيعة في الناس بأكل لحومهم .

فمن تنقّص مسلماً أو ثَلَم عرضه فهو كالآكل لحمه حيًّا ، ومن اغتابه فهو كالآكل لحمه ميتاً .

وفي كتاب أبي داود عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما عُرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يَخْمِشُون وجوههم وصدورهم قلت من هؤلاءِ يا جبريل ؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم " وعن المستورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من أكل برجل مسلم أكلة فإن الله يطعمه مثلها من جهنم ومن كُسي ثوباً برجل مسلم فإن الله يكسوه مثله من جهنم ومن أقام برجل مقام سمعة ورياء فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة " وقد تقدّم قوله صلى الله عليه وسلم : " يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين " وقوله للرجلين : "ما لي أرى خُضرة اللحم في أفواهكما " .

وقال أبو قِلابة الرقاشي : سمعت أبا عاصم يقول : ما اغتبت أحداً مذ عرفت ما في الغِيبة .

وكان ميمون بن سِياه لا يغتاب أحداً ، ولا يدع أحداً يغتاب أحداً عنده ؛ ينهاه فإن انتهى وإلا قام .

وذكر الثعلبي من حديث أبي هريرة قال : " قام رجل من عند النبيّ صلى الله عليه وسلم فرأوا في قيامه عجزاً فقالوا : يا رسول الله ما أعجز فلانا فقال : "أكلتم لحم أخيكم واغتبتموه" " وعن سفيان الثورِي قال : أدنى الغِيبة أن تقول إن فلاناً جَعْدٌ قَطَطٌ ؛ إلا أنه

يكره ذلك .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إياكم وذكر الناس فإنه داء ، وعليكم بذكر الله فإنه شفاء .

وسمع علي بن الحسين رضي الله عنهما رجلاً يغتاب آخر ؛ فقال : إياك والغِيبة فإنها إدام كلاب الناس .

وقيل لعمرو بن عبيد : لقد وقع فيك فلان حتى رحمناك ؛ قال : إياه فارحموا .

وقال رجل للحسن : بلغني أنك تغتابني ! فقال : لم يبلغ قدرك عندي أن أحكمك في حسناتي .

السابعة ذهب قوم إلى أن الغِيبة لا تكون إلا في الدِّين ولا تكون في الخِلقة والحسب .

وقالوا : ذلك فعل الله به .

وذهب آخرون إلى عكس هذا فقالوا : لا تكون الغِيبة إلا في الخَلْق والخُلُق والحسب .

(169/718)

والغِيبة في الخَلْق أشدّ ؛ لأن مَن عَيّب صنعة فإنما عيّب صانعها .

وهذا كله مردود .

أما الأوّل فيردّه " حديث عائشة حين قالت في صفية : إنها امرأة قصيرة ؛ فقال لها النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لقد قلت كلمة لو مُزِج بها البحر لمزجته" " خرجه أبو داود .

وقال فيه الترمذي : حديث حسن صحيح ؛ وما كان في معناه حسب ما تقدّم .

وإجماع العلماء قديماً على أن ذلك غِيبة إذا أريد به العيب .

وأما الثاني فمردود أيضاً عند جميع العلماء ؛ لأن العلماء من أوّل الدهر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين بعدهم لم تكن الغيبة عندهم في شيء أعظم من الغيبة في الدِّين ؛ لأن عيب الدين أعظم العيب ؛ فكل مؤمن يكره أن يذكر في دينه أشد مما يكره في بدنه .

وكفى ردًّا لمن قال هذا القول قولُه عليه السلام : " إذا قلت في أخيك ما يكره فقد اغتبته .

. .

" الحديث .

فمن زعم أن ذلك ليس بغيبة فقد ردّ ما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم نصًّا .

وكفى بعموم قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " دماؤكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام " وذلك عام للدِّين والدنيا .

وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من كانت عنده لأخيه مَظْلِمَة في عِرضه أو ماله فليتحلله منه " فعمّ كل عرض ؛ فمن خص من ذلك شيئاً دون شيء فقد عارض ما قال

النبيّ صلى الله عليه وسلم .

الثامنة لا خلاف أن الغيبة من الكبائر ، وأن من اغتاب أحداً عليه أن يتوب إلى الله عز وجل .

وهل يستحلّ المغتاب ؟ اختلف فيه ؛ فقالت فرقة : ليس عليه استحلاله ، وإنما هي خطيئة بينه وبين ربه .

واحتجت بأنه لم يأخذ من ماله ولا أصاب من بدنه ما ينقصه ، فليس ذلك بمَظْلِمَة يستحلها منه ، وإنما المظلمة ما يكون منه البدل والعِوض في المال والبدن .

وقالت فرقة : هي مظلمة ، وكفارتها الاْستغفار لصاحبها الذي اغتابه .

واحتجت بحديث يروى عن الحسن قال : كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته .

وقالت فرقة : هي مظلمة وعليه الاْستحلال منها .

(170/718)

واحتجت بقول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من كانت لأخيه عنده مَظْلِمَة في عِرض أو مال فليتحلله منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم يؤخذ من حسناته فإن لم يكن له حسنات أُخِذ من سيئات صاحبه فزيد على سيئاته " خرّجه البخاري من

حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل ألاّ يكون له دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمِل عليه " وقد تقدّم هذا المعنى في سورة "آل عمران" عند قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الذين قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ ﴾ [آل عمران : 169] .

وقد روي من حديث عائشة أن امرأة دخلت عليها فلما قامت قالت امرأة : ما أطول ذيلها فقالت لها عائشة : لقد اغتبتيها فاستحلّيها .

فدلّت الآثار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنها مظِلمة يجب على المغتاب استحلالها .

وأما قول من قال : إنما الغيبة في المال والبدن ؛ فقد أجمعت العلماء على أن على القاذف للمقذوف مظلمة يأخذه بالحدّ حتى يقيمه عليه ؛ وذلك ليس في البدن ولا في المال ، ففي ذلك دليل على أن الظلم في العِرض والبدن والمال ، وقد قال الله تعالى في القاذف : ﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِالشُّهَدَآءِ فأولئك عِندَ الله هُمُ الكاذبون ﴾ [النور : 13] .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من بَهَتَ مؤمناً بما ليس فيه حبسه الله في طِينة الخبال " وذلك كله في غير المال والبدن .

وأما من قال : إنها مظلمة ؛ وكفارة المظلمة أن يستغفر لصاحبها ؛ فقد ناقض إذ سماها

مظلمة ثم قال : كفارتها أن يستغفر لصاحبها ؛ لأن قوله مظلمة تثبت ظلامة المظلوم ؛ فإذا ثبتت الظلامة لم يزلها عن الظالم إلا إحلال المظلوم له .

(171/718)

وأما قول الحسن فليس بحجة ، وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من كانت له عند أخيه مظلمة في عِرض أو مال فليتحللها منه " وقد ذهب بعضهم إلى ترك التحليل لمن سأله ، ورأى أنه لا يحلّ له ما حرّم الله عليه ؛ منهم سعيد بن المسيّب قال : لا أحلل من ظلمني .

وقيل لابْن سيرين : يا أبا بكر ، هذا رجل سألك أن تحلله من مظلمة هي لك عنده ؛ فقال : إني لم أحرمها عليه فأحلّها ، إن الله حرّم الغِيبة عليه ، وما كنت لأحلّ ما حرّم الله عليه أبداً .

وخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم يدل على التحليل ، وهو الحجة والمبيّن .

والتحليل يدل على الرحمة وهو من وجه العفو ؛ وقد قال تعالى : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ﴾ [الشورى : 40] .

التاسعة ليس من هذا الباب غِيبة الفاسق المعلن به المجاهر ؛ فإن في الخبر : "من ألقى جِلْباب الحياء فلا غِيبة له" .

وقال صلى الله عليه وسلم : " اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس " فالغيبة إذاً في المرء الذي يستر نفسه .

وروي عن الحسن أنه قال : ثلاثة ليست لهم حرمة : صاحب الهوى ، والفاسق المعلن ، والإمام الجائر .

وقال الحسن لما مات الحجاج : اللهم أنت أَمَتّه فاقطع عنا سنته وفي رواية شَيْنه فإنه أتانا أخَيْفِش أُعَيْمِش ، يمدّ بيد قصيرة البنان ، والله ما عَرِق فيها غبار في سبيل الله ، يُرَجِّل جُمّته ويَخْطِر في مِشْيته ، ويَصْعَد المنبر فَيَهْدِر حتى تفوته الصلاة .

لا من الله يَتَّقِي ، ولا من الناس يستحي ؛ فوقه الله وتحته مائة ألف أو يزيدون ، لا يقول له قائل : الصلاة أيها الرجل .

ثم يقول الحسن : هيهات ! حال دون ذلك السيف والسَّوْط .

وروى الربيع بن صبيح عن الحسن قال : ليس لأهل البدع غِيبة .

وكذلك قولك للقاضي تستعين به على أخذ حقك ممن ظلمك فتقول فلان ظلمني أو غضبني أو خانني أو ضربني أو قذفني أو أساء إليّ ؛ ليس بغيبة .

وعلماء الأمة على ذلك مجمعة .

وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لصاحب الحق مقال " وقال : " مَطْلُ الغنِيّ ظلم " وقال : " لَيّ الواجد يُحِلّ عِرْضَه وعقُوبته " ومن ذلك الاستفتاء ؛ "كقول هند للنبيّ صلى الله عليه وسلم : إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي ، فآخذ من غير علمه ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "نعم فخذي" " فذكرته بالشُّحّ والظلم لها ولولدها ، ولم يرها مغتابة ؛ لأنه لم يغيّر عليها ، بل أجابها عليه الصلاة والسلام بالفُتْيا لها .

وكذلك إذا كان في ذكره بالسوء فائدة ؛ كقوله صلى الله عليه وسلم : " أما معاوية فصعلوك لا مال له وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه " فهذا جائز ، وكان مقصوده ألا تغتر فاطمة بنت قيس بهما .

قال جميعه المحاسبي رحمه الله .

العاشرة قوله تعالى : ﴿ مَيْتاً ﴾ وقرىء "ميّتاً" وهو نصب على الحال من اللحم .

ويجوز أن ينصب على الأخ ، ولما قررهم عز وجل بأن أحداً منهم لا يحب أكل جيفة أخيه عَقّب ذلك بقوله تعالى : ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ .

وفيه وجهان : أحدهما فكرهتم أكل الميتة فكذلك فاكرهوا الغِيبة ؛ رُوي معناه عن مجاهد .

الثاني فكرهتم أن يغتابكم الناس فاكرهوا غيبة الناس .

وقال الفراء : أي فقد كرهتموه فلا تفعلوه .

وقيل : لفظه خبر ومعناه أمر ؛ أي اكرهوه .

﴿ واتقوا الله ﴾ عطف عليه .

وقيل : عطف على قوله : ﴿ اجتنبوا كَثِيراً وَلاَ تَجَسَّسُواْ ﴾ .

﴿ إِنَّ الله تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)

فيه سبع مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأنثى ﴾ يعني آدم وحواء .

(173/718)

ونزلت الآية في أَبي هند ؛ ذكره أبو داود في (المراسيل) ؛ حدثنا عمرو بن عثمان وكثير بن عبيد قالا حدّثنا بقيّة بن الوليد قال حدثني الزهري قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بني بَياضة أن يزوّجوا أبا هند امرأة منهم ؛ فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : نزوّج بناتنا موالينا ؟! فأنزل الله عز وجل : "إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً"

الآية .

قال الزهري : نزلت في أبي هند خاصة .

وقيل : إنها نزلت في ثابت بن قيس بن شَمّاس .

وقوله في الرجل الذي لم يتفسح له : ابن فلانة ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " "مَن الذاكر فلانة" ؟ قال ثابت : أنا يا رسول الله ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "انظر في وجوه القوم فنظر ؛ فقال : "ما رأيت" ؟ قال رأيت أبيض وأسود وأحمر ؛ فقال : "فإنك لا تفضلهم إلا بالتقوى" " فنزلت في ثابت هذه الآية .

ونزلت في الرجل الذي لم يتفسح له : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي الْمَجَالِسِ ﴾ [المجادلة : 11] الآية .

قال ابن عباس : لما كان يوم فتح مكة أمر النبي صلى الله عليه وسلم بلالاً حتى علا على ظهر الكعبة فأذّن ؛ فقال عتَّاب بن أسِيد بن أبي العِيص : الحمد لله الذي قبض أبي حتى لا يرى هذا اليوم .

قال الحارث بن هشام : ما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذِّناً .

وقال سهيل بن عمرو : إن يرد الله شيئاً يغيّره .

وقال أبو سفيان : إني لا أقول شيئاً أخاف أن يخبر به رب السماء ؛ فأتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره بما قالوا ؛ فدعاهم وسألهم عما قالوا فأقروا ؛ فأنزل الله تعالى هذه

الآية .

زجرهم عن التفاخر بالأنساب ، والتكاثر بالأموال ، والازدراء بالفقراء ؛ فإن المدار على التقوى .

أي الجميع من آدم وحواء ، إنما الفضل بالتقوى .

(174/718)

وفي الترمذي عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب بمكة فقال : " يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عَيْبَة الجاهلية وتعاظمها بآبائها .

فالناس رجلان : رجل بَرّ تَقِيّ كريم على الله ، وفاجر شقيّ هيّن على الله .

والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأنثى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لتعارفوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ "

خرّجه من حديث عبد الله بن جعفر والد علي بن المديني وهو ضعيف ، ضعّفه يحيى بن مَعِين وغيره .

وقد خرّج الطبري في كتاب (آداب النفوس) وحدّثني يعقوب بن إبراهيم قال حدّثنا إسماعيل قال حدّثنا سعيد الجُرَيري عن أبي نضرة قال : حدّثني أو حدّثنا من شهد

" خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنًى في وسط أيام التشريق وهو على بعير فقال : "يأيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألاَ لا فضل لعربيّ على عجميّ ولا عجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ألا هل بَلّغت ؟ قالوا نعم قال ليبلّغ الشاهدُ الغائب" " وفيه عن (أبي) مالك الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم ولا إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه وإنما أنتم بنو آدم وأحبكم إليه أتقاكم " ولعليّ رضي الله عنه في هذا المعنى وهو مشهور من شعره :

الناس من جهة التمثيل أكفاء . . .

أبوهمُ آدمُ والأمّ حواء

نفسٌ كنفس وأرواحٌ مشاكلةٌ . . .

وأعظمٌ خُلقت فيهم وأعضاء

فإن يكن لهمُ من أصلهم حسبٌ . . .

يفاخرون به فالطين والماء

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهمُ . . .

على الهُدَى لمن استَهْدَى أدِلاّء

وقَدْرُ كلّ امرىء ما كان يحسنه . . .

وللرجال على الأفعال سيماء

وضدُّ كل امرىء ما كان يجهله . . .

(175/718)

والجاهلون لأهل العلم أعداء

الثانية بيّن الله تعالى في هذه الآية أنه خلق الخلق من الذكر والأنثى ، وكذلك في أوّل سورة "النساء" .

ولو شاء لخلقه دونهما كخلقه لآدم ، أو دون ذَكَر كخلقه لعيسى عليه السلام ، أو دون أنثى كخلقه حواء من إحدى الجهتين .

وهذا الجائز في القدرة لم يرد به الوجود .

وقد جاء أن آدم خلق الله منه حوّاء من ضلع انتزعها من أضلاعه ؛ فلعله هذا القسم ؛ قاله ابن العربي .

الثالثة خلق الله الخلق بين الذكر والأنثى أنساباً وأصهاراً وقبائلَ وشعوباً ، وخلق لهم منها التعارف ، وجعل لهم بها التواصل للحكمة التي قدّرها وهو أعلم بها ؛ فصار كل أحد يحوز نسبه ؛ فإذا نفاه رجل عنه استوجب الحدّ بقذفه ؛ مثل أن ينفيه عن رهطه وحسبه ، بقوله

للعربي : يا عجمي ، وللعجمي : يا عربي ؛ ونحو ذلك مما يقع به النفي حقيقة .

انتهى .

الرابعة ذهب قوم من الأوائل إلى أن الجنين إنما يكون من ماء الرجل وحده ، ويتربّى في رحم الأم ، ويستمد من الدم الذي يكون فيه .

واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ [المرسلات : 20 21] .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ [السجدة : 8] .

وقوله : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يمنى ﴾ [القيامة : 37] .

فدلّ على أن الخلق من ماء واحد .

والصحيح أن الخلق إنما يكون من ماء الرجل والمرأة لهذه الآية ؛ فإنها نص لا يحتمل التأويل .

وقوله تعالى :

﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصلب والترآئب ﴾ [الطارق : 76] والمراد منه أصلاب الرجال وترائب النساء ؛ على ما يأتي بيانه .

وأما ما احتجوا به فليس فيه أكثر من أن الله تعالى ذكر خلق الإنسان من الماء والسُّلالةِ والنطفةِ ولم يضفها إلى أحد الأبوين دون الآخر .

فدلّ على أن الماء والسلالة لهما والنطفةَ منهما بدلالة ما ذكرنا .

وبأن المرأة تُمْني كما يُمْنِي الرجل ، وعن ذلك يكون الشبه ؛ حسب ما تقدّم بيانه في آخر الشورى" .

وقد قال في قصة نوح : ﴿ فَالْتَقَى الماء على أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [القمر : 12] وإنما أراد ماء السماء وماء الأرض ؛ لأن الالتقاء لا يكون إلا من اثنين ، فلا ينكر أن يكون "ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ" .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ ويريد ماءين .

والله أعلم .

الخامسة قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لتعارفوا ﴾ الشعوب رؤوس القبائل ؛ مثل ربيعة ومُضَر والأوْس والخَزْرَج ؛ واحدها "شَعْب" بفتح الشين ؛ سُمُّوا به لتشعّبهم واجتماعهم كشعب أغصان الشجرة .

والشَّعْب من الأضداد ؛ يقال شعبته إذا جمعته ؛ ومنه المِشْعَب (بكسر الميم) وهو الإشْفَى ؛ لأنه يجمع به ويشعب .

قال :

فَكَابٍ على حُرّ الجبين ومُتّقٍ . . .

بمَدْرِيَةٍ كأنه ذلْقُ مِشْعَبِ

وشَعَبته إذا فرّقته ، ومنه سُميت المنية شُعوباً لأنها مفرّقة .

فأما الشّعب (بالكسر) فهو الطريق في الجبل ؛ والجمع الشعاب .

قال الجوهري : الشّعب : ما تشعب من قبائل العرب والعجم ؛ والجمع الشعوب .

والشُّعُوبية : فرقة لا تفضّل العرب على العجم .

وأما الذي في الحديث : أن رجلاً من الشعوب أسلم ؛ فإنه يعني من العجم .

والشَّعْب : القبيلة العظيمة ، وهو أبو القبائل الذي ينسبون إليه ، أي يجمعهم ويضمهم .

قال ابن عباس : الشعوب الجمهور ؛ مثل مضر .

والقبائل الأفخاذ .

وقال مجاهد : الشعوب البعيد من النسب ؛ والقبائل دون ذلك .

وعنه أيضاً أن الشعوب النسب الأقرب .

وقاله قتادة .

ذكر الأوّل عنه المهدوِيّ ، والثاني الماوردي .

قال الشاعر :

رأيت سعوداً من شعوب كثيرة . . .

فلم أرَ سعداً مثل سعدِ بن مالك

وقال آخر :

قبائل من شعوب ليس فيهم . . .

كريم قد يُعدّ ولا نجيب

(177/718)

وقيل : إن الشعوب عَرَب اليمن من قحطان ، والقبائل من ربيعة ومضر وسائر عدنان .

وقيل : إن الشعوب بطون العجم ؛ والقبائل بطون العرب .

وقال ابن عباس في رواية : إن الشعوب الموالي ، والقبائل العرب .

قال القُشَيْرِي : وعلى هذا فالشعوب من لا يُعرف لهم أصل نسب كالهند والجبل والترك ؛ والقبائل من العرب .

الماوردي : ويحتمل أن الشعوب هم المضافون إلى النواحي والشعاب ؛ والقبائل هم المشتركون في الأنساب .

قال الشاعر :

وتفرّقوا شُعَباً فكل جزيرة . . .

فيها أمير المؤمنين ومنبر

وحكى أبو عبيد عن ابن الكلبي عن أبيه : الشعب أكبر من القبيلة ثم الفصيلة ثم العِمارة ثم البطن ثم الفَخِذ .

وقيل : الشعب ثم القبِيلة ثم العِمارة ثم البطن ثم الفَخِذ ثم الفصِيلة ثم العَشيرة ؛ وقد نظمها بعض الأدباء فقال :

اِقصد الشَّعب فهو أكثر حَيٍّ . . .

عدداً في الحواء ثم القبِيله

ثم تتلوها العمارة ثم ال . . .

بطن والفخذ بعدها والفصيله

ثم من بعدها العشِيرة لكن . . .

هي في جنب ما ذكرناه قليله

وقال آخر :

قبِيلة قبلها شَعْب وبعدهما . . .

عِمارة ثم بَطْنٌ تلْوُهُ فَخِذُ

وليس يؤوي الفتى إلا فصيلته . . .

ولا سدادِ لِسَهْم ما له قُذَذُ

السادسة قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ وقد تقدّم في سورة "الزخرف" عند قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف : 44] .

وفي هذه الآية ما يدلك على أن التقوى هي المراعي عند الله تعالى وعند رسوله دون الحسب والنسب .

وقرىء "أنّ" بالفتح .

كأنه قيل : لم يتفاخر بالأنساب ؟ قيل : لأن أكرمكم عند الله أتقاكم لا أنسبكم .

وفي الترمذي عن سَمُرَة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " الحسب المال والكرم التقوى " قال : هذا حديث حسن غريب صحيح .

(178/718)

وذلك يرجع إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ ، وقد جاء منصوصاً عنه عليه السلام : " من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله " والتقوى معناه مراعاة حدود الله تعالى أمراً ونهياً ، والاتصاف بما أمرك أن تتصف به ، والتنزه عما نهاك عنه .

وقد مضى هذا في غير موضع .

وفي الخبر من رواية أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى يقول يوم القيامة

إني جعلت نَسَباً وجعلتم نَسَباً فجعلتُ أكرمكم أتقاكم وأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان وأنا اليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم أين المتقون أين المتقون " وروى الطبريّ من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أوليائي المتقون يوم القيامة وإن كان نسب أقرب من نسب .

يأتي الناس بالأعمال وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون يا محمد فأقول هكذا وهكذا " وأعرَض في كُلٍّ عِطْفَيْه .

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم جهاراً غير سرٍّ يقول : " إن آل أبي ليسوا لي بأولياء إنما وَلِيِّيَ الله وصالح المؤمنين "

وعن أبي هريرة : " أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل : من أكرم الناس ؟ فقال : "يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم" قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : "فأكرمهم عند الله أتقاهم" فقالوا : ليس عن هذا نسألك ، فقال : "عن معادن العرب ؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا" " وأنشدوا في ذلك :

ما يصنع العبد بعزّ الغنى . . .

والعزُّ كلّ العِزّ للمُتّقي

من عرف الله فلم تغنه . . .

معرفة الله فذاك الشّقي

السابعة ذكر الطبري حدّثني عمر بن محمد قال حدّثنا عبيد بن إسحاق العطار قال حدّثنا مندل بن علي عن ثور بن يزيد عن سالم بن أبي الجعد قال :

(179/718)

" تزوّج رجل من الأنصار امرأة فطُعِن عليها في حسبها ؛ فقال الرجل : إني لم أتزوّجها لحسبها إنما تزوّجتها لدينها وخُلُقها ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ما يضرّك ألا تكون من آل حاجب بن زُرارة" " ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الله تبارك وتعالى جاء بالإسلام فرفع به الخسيسة وأتم به الناقصة وأذهب به اللوم فلا لوم على مسلم إنما اللّوْم لَوْمُ الجاهلية " وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إني لأرجو أن أكون أخشاكم للّه وأعلمكم بما أتقي " ولذلك كان أكرمَ البشر على الله تعالى .

قال ابن العربي : وهذا الذي لحظ مالك في الكفاءة في النكاح .

روى عبد الله عن مالك : يتزوّج المَوْلى العربية ، واحتج بهذه الآية .

وقال أبو حنيفة والشافعي : يراعي الحسب والمال .

وفي الصحيح عن عائشة أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة وكان ممن شهد بدراً مع النبي صلى الله عليه وسلم تبنّى سالماً وأنكحه هنداً بنت أخيه الوليد بن عتبة بن ربيعة ؛ وهو مولًى

لامْرأة من الأنصار .

وضُباعة بنت الزبير كانت تحت المقداد بن الأسود .

قلت : وأخت عبد الرحمن بن عوف كانت تحت بلال .

وزينب بنت جحش كانت تحت زيد بن حارثة .

فدلّ على جواز نكاح الموالي العربية ، وإنما تراعى الكفاءة في الدِّين .

والدليل عليه أيضاً ما روى سهل بن سعد في صحيح البخاري : " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم مَرّ عليه رجل فقال : "ما تقولون في هذا" ؟ فقالوا : حَرِيٌّ إن خطب أن يُنْكَح ، وإن شَفَع أن يُشَفَّع وإن قال أن يُسْمَع .

قال : ثم سكت ؛ فمر رجل من فقراء المسلمين فقال : "ما تقولون في هذا" قالوا : حَرِيٌّ إن خطب ألا يُنْكَح ، وإن شَفَع ألا يُشَفَّع ، وإن قال ألا يُسْمع .

(180/718)

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هذا خير من مِلء الأرض مثل هذا" " وقال صلى الله عليه وسلم : " تُنكح المرأة لمالها وجمالها ودينها وفي رواية ولحسبها فعليك بذات الدِّين تَرِبَتْ يداك " وقد خطب سلمان إلى أبي بكر ابنته فأجابه ، وخطب إلى عمر ابنته فالتَوى

عليه ، ثم سأله أن ينكحها فلم يفعل سلمان .

وخطب بلال بنت البكير فأبى إخوتها ، فقال بلال : يا رسول الله ، ماذا لقيت من بني البكير ! خطبت إليهم أختهم فمنعوني وآذوني ؛ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل بلال ، فبلغهم الخبر فأتوا أختهم فقالوا : ماذا لقينا من سببك ؟ فقالت أختهم : أمري بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فزوّجوها .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم في أبي هند حين حجمه : " أنكحوا أبا هند وأنكحوا إليه "

وهو مولى بني بياضة .

وروى الدَّارَقُطْنِيّ من حديث الزُّهْرِيّ عن عُرْوَةَ عن عائشة أن أبا هند مولى بني بياضة كان حجاماً فحجم النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من سرّه أن ينظر إلى من صوّر الله الإيمان في قلبه فلينظر إلى أبي هند " وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنكحوه وأنكحوا إليه " قال القشيري أبو نصر : وقد يعتبر النسب في الكفاءة في النكاح وهو الاتصال بشجرة النبوّة أو بالعلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، أو بالمرموقين في الزهد والصلاح .

والتقيّ المؤمن أفضل من الفاجر النسيب ، فإن كانا تَقِيَّيْن فحينئذ يقدّم النسيب منهما ، كما يقدّم الشاب على الشيخ في الصلاة إذا استويا في التقوى .

قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ

نزلت في أعراب من بني أسد بن خُزيمة قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنة جَدْبة وأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين في السرّ .

(181/718)

وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات وأغلوا أسعارها ، وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أتيناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان فأعطنا من الصدقة ؛ وجعلوا يمنُّون عليه فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية .

وقال ابن عباس : نزلت في أعراب أرادوا أن يَتَسمَّوْا باسم الهجرة قبل أن يهاجروا ؛ فأعلم الله أن لهم أسماء الأعراب لا أسماء المهاجرين .

وقال السدّي : نزلت في الأعراب المذكورين في سورة الفتح : أعراب مُزَيْنَة وجُهَيْنة وأسْلَم وغِفارَ والدِّيل وأشجع ؛ قالوا آمنّا ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم ؛ فلما استنفروا إلى المدينة تخلّفوا ؛ فنزلت .

وبالجملة فالآية خاصة لبعض الأعراب ؛ لأن منهم من يؤمن بالله واليوم الآخر كما وصف الله تعالى .

ومعنى "وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا" أي استسلمنا خوف القتل والسّبْي ، وهذه صفة المنافقين ؛ لأنهم أسلموا في ظاهر إيمانهم ولم تؤمن قلوبهم ؛ وحقيقة الإيمان التصديق بالقلب .

وأما الإسلام فقبول ما أتى به النبيّ صلى الله عليه وسلم في الظاهر ، وذلك يَحْقِن الدّم .

﴿ وَإِن تُطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ يعني إن تخلصوا الإيمان ﴿ لاَ يَلِتْكُمْ ﴾ أي لا ينقصكم .

﴿ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً ﴾ لأنه يَلِيته ويلوته : نقصه .

وقرأ أبو عمرو "لا يألِتكم" بالهمزة ، من أَلَت يَأْلِت أَلْتاً ؛ وهو اختيار أبي حاتم ؛ اعتباراً بقوله تعالى : ﴿ وَمَا آلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ [الطور : 21] قال الشاعر :

أبلِغْ بني ثُعَلٍ عني مُغَلْغَلَةً . . .

جَهْد الرِّسَالة لا أَلْتاً ولا كَذِبَا

واختار الأولى أبو عبيد .

قال رؤبة :

وليلةٍ ذاتِ نَدًى سَرَيْتُ . . .

ولم يَلِتْني عن سُرَاها لَيْتُ

أي لم يمنعني عن سُراها مانع ؛ وكذلك ألاته عن وجهه ؛ فعل وأَفْعَل بمعنًى .

ويقال أيضاً : ما ألاته من عمله شيئاً ؛ أي ما نقصه ؛ مثل ألته ؛ قاله الفرّاء .

وأنشد :

(182/718)

ويأكلن ما أعْنَى الوَلِيُّ فلم يَلِتْ . . .

كأن بحافات النّهاء المَزَارعا

قوله : فلم "يَلِتْ" أي لم ينقص منه شيئاً .

و"أَعْنَى" بمعنى أنبت ؛ يقال : ما أَعْنَت الأرض شَيئاً ؛ أي ما أنبتت .

و"الوِلِيّ" المطر بعد الوَسْمِيّ ؛ سُمّي وِلِيًّا لأنه يلي الوسمِيّ .

ولم يقل : لا يألتاكم ؛ لأن طاعة الله تعالى طاعة الرسول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(183/718)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا ﴾

أي تقاتلُوا والجمعُ باعتبارِ المَعْنى ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾ بالنُّصحِ والدعاءِ إلى حُكمِ الله

تعالى ﴿ فَإِن بَغَتْ ﴾ أي تعدتْ ﴿ إِحْدَاهُمَا على الأخرى ﴾ وَلَمْ تتأثرْ بالنصيحةِ ﴿ فقاتلوا التى تَبْغِى حتى تَفِىءَ ﴾ أيْ ترجعَ ﴿ إلى أَمْرِ الله ﴾ إلى حُكمهِ أوْ إلى مَا أمرَ بهِ ﴿ فَإِن فَاءتْ ﴾ إليهِ وأقلعتْ عن القتالِ حذاراً من قتالِكم ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بالعدل ﴾ بفصلِ ما بينَهما على حُكمِ اللهِ تعالى ولا تكتفُوا بمجردِ متاركتِهما عَسى يكونُ بينَهما قتالٌ في وقتٍ آخرَ ، وتقييدُ الإصلاحِ بالعدلِ لأنَّه مظِنةُ الحيفِ لوقوعِه بعدَ المقاتلةِ وقدْ أكَّد ذلكَ حيثُ قيلَ : ﴿ وَأَقْسِطُواْ ﴾ أيْ واعدلُوا في كُلِّ ما تأتونَ وما تذرونَ ﴿ إِنَّ الله يُحِبُّ المقسطين ﴾ فيجازيهُم أحسنَ الجزاءِ والآيةُ نزلتْ في قتالٍ حدثَ بينَ الأوسِ والخزرجِ في عهدِه عليهِ الصلاةُ والسلامُ بالسَعَفِ والنعالِ ، وفيهَا دلالةٌ على أنَّ الباغيَ لا يخرجُ بالبغيِ عنِ الإيمانِ وأنَّه إذَا أمسكَ عنِ الحربِ تُركَ لأنَّه فيءٌ إلى إمرِ اللهِ تعَالى وأنه يجبُ معاونةُ منْ بُغيَ عليهِ بعدَ تقديمِ النُّصحِ والسعْيِ في المصالحةِ .

(184/718)

﴿ إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ ﴾ استئنافٌ مقررٌ لما قبلَهُ منَ الأمرِ بالإصلاحِ أيْ أنهم منتسبونَ إلى أصلٍ واحدٍ هُوَ الإيمانُ الموجبُ للحياةِ الأبديةِ ، والفاءُ في قولِه تعالَى : ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ للإيذانِ بأنَّ الأخوةَ الدينيةَ موجبةٌ للإصلاحِ ، ووضعُ المُظهرِ مقامَ المضمرِ

مُضافاً إلى المأمورينَ للمبالغةِ في تأكيدِ وجوبِ الإصلاحِ والتحضيضِ عليهِ وتخصيصُ الاثنينِ بالذكرِ لإثباتِ وجوبِ الإصلاحِ فيَما فوقَ ذلكَ بطريقِ الأولويةِ لتضاعفِ الفتنةِ والفسادِ فيهِ وقيلَ المرادُ بالأخوينِ الأوسُ والخزرجُ وقُرِىءَ بينَ إخوتِكم وإخوانِكم ﴿ واتقوا الله ﴾ في كُلِّ ما تأتونَ وما تذرونَ من الأمورِ التي منْ جُملتِها ما أُمرتم بهِ منَ الإصلاحِ ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ راجينَ أنْ ترحمُوا عَلى تقواكم.

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ ﴾

(185/718)

أيْ منكُم ﴿ مِن قَوْمٍ ﴾ آخرينَ أيضاً منكُم وقولُه تعالى: ﴿ عسى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ ﴾ تعليلٌ للنّهيِ أو لموجبه أيْ عَسى أنْ يكونَ المسخورُ منْهم خيراً عندَ الله تَعَالى منَ الساخرينَ، والقومُ مختصٌّ بالرجالِ لأنُهم القُوّامُ على النساءِ وهُو في الأصلِ إمَّا جمعُ قائمٍ كصَوْمٍ وزَوْرٍ في جمعِ صائمٍ وزائرٍ أو مصدرٌ نعتَ بهِ فشاعَ في الجمعِ، وأما تعميمُه للفريقينِ في مثلِ قومِ عادٍ وقومِ فرعونَ فإمَّا للتغليبِ أو لأنهنَّ توابعُ، واختيارُ الجمع لغلبةِ وقوعِ السخريةِ في المجامعِ، والتنكيرُ إمَّا للتعميمِ أو للقصدِ إلى نَهْيِ بعضِهم عنْ سُخريةِ بعضٍ لما أنَّها مما يجري بينَ بعضٍ وبعضٍ ﴿ وَلاَ نِسَاء ﴾ أيْ ولا تسخرْ نساءٌ من المؤمناتِ ﴿ مِّن نِّسَاء ﴾ منهنَّ

﴿ عسى أَن يَكُنَّ ﴾ أيْ المسخورُ منهُنَّ ﴿ خَيْراً مِّنْهُنَّ ﴾ أيْ منَ الساخراتِ فإنَّ مناطَ الخيريةِ في الفريقينِ ليسَ ما يظهرُ للناسِ من الصورِ والأشكالِ ولا الأوضاعِ والأطوارِ التي عليَها يدورُ أمرُ السخريةِ غالباً بلْ إنما هُوَ الأمورُ الكامنةُ في القلوبِ فلا يجترىء أحدٌ على استحقارِ أحدٍ فلعلَّهُ أجمعُ منْهُ لما نيطَ بِهِ الخيريةُ عندَ اللهِ تعالَى فيظلَم نفسَهُ بتحقيرِ منْ وقَّره اللهُ تعالَى والاستهانةِ بمنْ عظَّمُه اللهُ تعالَى وقُرِىءَ عَسَوا أنْ يكونُوا وعَسَينَ أنْ يكنَّ فعسَى حينئذٍ هي ذاتُ الخبرِ كما في قولِه تعالَى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ ﴾ وأمَّا على الأولِ فهيَ التي لا خيرَ لها ﴿ وَلاَ تَلْمِزُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أيْ ولا يعبْ بعضُكم بعضاً فإنَّ المؤمنينَ كنفسٍ واحدةٍ أو لا تفعلُوا ما تُلمَزونَ بِهِ فإنَّ منْ فعلَ ما يستحقُّ بِهِ اللمزَ فقدْ لمزَ نفسَهُ واللمزُ الطعنُ باللسانِ وقُرِىءَ بضمِّ الميمِ ﴿ وَلاَ تَنَابَزُواْ بالألقاب ﴾ أيْ ولا يدْعُ بعضُكم بعضاً بلقبِ السوءِ فإنَّ النبزَ مختصٌ بِهِ عُرْفاً ﴾

(186/718)

بِئْسَ الاسم الفسوق بَعْدَ الإيمان ﴾ أي بئسَ الذكرُ المرتفعُ للمؤمنينَ أنْ يُذكرُوا بالفسقِ بعد دخولِهم الإيمانَ أو اشتهارِهم بِهِ فإنَّ الاسمَ هَهُنا بمَعنى الذكرِ منْ قولِهم طارَ اسمُه في الناسِ بالكرمِ أو باللؤمِ ، والمرادُ بِهِ إمَّا تهجينُ نسبةِ الكفرِ والفسوقِ إلى المؤمنينَ خصوصاً إذْ رُوي

أنَّ الآيةَ نزلتْ في صفيةَ بنتِ حُيَيٍّ أتتْ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالتْ إنَّ النساءَ يقُلنَ لِي يَا يهوديةُ بنت يهوديين فقال عليهِ الصلاةُ والسلامُ : هَلاَّ قلتِ إنَّ أبي هارونَ وعَمّي مُوسى وزَوْجي محمدٌ عليهمْ السلامُ أوِ الدلالةُ عَلى أنَّ التنابزَ فسقٌ والجمعُ بينَهُ وبينَ الإيمانِ قبيحٌ ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ ﴾ عَمَّا نُهي عَنْهُ ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظالمون ﴾ بوضعِ العصيانِ موضعَ الطاعةِ وتعريضِ النفسِ للعذاب .

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ اجتنبوا كَثِيراً مّنَ الظن ﴾

(187/718)

أيْ كُونوا على جانبٍ منْهُ ، وإبهامُ الكثيرِ لإيجابِ الاحتياطِ والتأملِ في كُلِّ ظَنٍ ظُنَّ حَتَّى يعلَم أنَّه من أيِّ قبيلٍ ، فإنَّ منَ الظنِّ ما يجبُ اتباعُه كالظنِّ فيَما لا قاطعَ فيهِ من العملياتِ وحسنِ الظنِّ بالله تعَالَى ، ومنْهُ ما يحرمُ كالظنِّ في الإلهياتِ والنبواتِ وحيثُ يخالفُه قاطعٌ وظنِّ السوءِ بالمؤمنينَ ، ومنْهُ ما يباحُ كالظنِّ في الأمورِ المعاشيةِ ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظن * أَثُمَّ ﴾ تعليلٌ للأمرِ بالاجتنابِ أوْ لموجبهِ بطريقِ الاستئنافِ التحقيقيِّ والإثمُ الذنبُ الذي يستحقُّ العقوبةَ عليهِ وهمزتُه منقلبةٌ منَ الواوِ كأنَّه يثمُ الأعمالَ أي يكسرها . ﴿ وَلاَ تَجَسَّسُواْ ﴾ أي ولا تبحثوا عن عوراتِ المسلمين ، تفعّل من الجسِّ لما فيهِ منْ مَعْنى الطلبِ كما أن

التلمسَ بمَعنى التطلبِ لما في اللمسِ من الطلبِ وقد جاءَ بمعنى الطلبِ في قولِه تعالَى : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السماء ﴾ وقُرِئَ بالحاءِ من الحَسِّ الذي هُوَ أثرُ الجَسِّ وغايتُه ولتقاربهِما يقالُ للمشاعرِ الحواسُّ بالحاء والجيم وفي الحديث : " لا تتبعُوا عوراتِ المسلمينَ فإنَّ منْ تتبعَ عوراتِ المسلمينَ تتبعَ اللهُ عورتَهُ حَتَّى يفضَحهُ ولو في جوفِ بيتِه " ﴿ وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً ﴾ أي لا يذكرْ بعضُكم بعضاً بالسوءِ في غِيبتِه " وسُئلَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عن الغِيْبَةِ فقالَ أنْ تذكرَ أخاكَ بما يكرَهُ فإنْ كانَ فيهِ فقدِ اغتبتَهُ وإنْ لمْ يكنْ فيهِ فقدْ بهّتَهُ " وعنِ ابنِ عباسٍ رضي اللهُ عَنْهما الغِيبةُ إدامُ كلابِ الناسِ ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً ﴾ تمثيلٌ وتصويرٌ لما يصدرُ عنِ المغتابِ منْ حيثُ صدورُهُ عنْهُ ومنْ حيثُ تعلقُه بصاحبِه عَلى أفحشِ وجهٍ وأشنعِه طبعاً وعقلاً وشرعاً معَ مبالغاتٍ من فُنونٍ شَتَّى الاستفهامُ التقريري وإسنادُ الفعلِ إلى أحدٍ إيذاناً

(188/718)

بأنَّ أحداً من الأحدينَ لا يفعلُ ذلكَ وتعليقُ المحبةِ بَما هُوَ في غايةِ الكراهةِ وتمثيلُ الاغتيابِ بأكلِ لحمِ الإنسانِ وجعلُ المأكولِ أخاً للآكلِ وميتاً وإخراجُ تماثلها مُخرجَ أمرٍ بينٍ غنيَ عنِ الإخبارِ بهِ وقُرِئَ ميتاً بالتشديدِ وانتصابُه عَلى الحاليةِ من اللحمِ وقيلَ من الأخِ والفاءُ في

قولِه تعالَى : ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ لترتيبِ ما بعدَهَا عَلى ما قبلَها من التمثيلِ كأَنَّه قيلَ وحيثُ كانَ الأمرُ كما ذكرَ فقد كرهتمُوه وقُرِئَ كُرِّهتمُوه أي جُبلتُمْ عَلى كراهتِهِ ﴿ واتقوا الله ﴾ بتركِ ما أمرتمْ باجتنابِهِ والندمِ عَلى مَا صَدرَ عنكُم من قبلُ ﴿ إِنَّ الله تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ مبالغٌ في قبولِ التوبةِ وإفاضةِ الرحمةِ حيثُ يجعلُ التائبَ كمنْ لَمْ يذنبْ ولا يخصُّ ذلكَ بتائبٍ دونَ تائبٍ بَلْ يعمُّ الجميعَ وإنْ كثرتْ ذنوبُهم . (رُوي أنَّ رجلينِ منَ الصحابةِ رضيَ الله عنُهم بعثَا سلمانَ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم يبغِي لهما إدَاماً وكانَ أسامةُ على طعامِه عليهِ الصلاةُ والسلامُ فقالَ ما عندِي شيءٌ فاخبرهما سلمانُ فقالاَ : لو بعثنا سلمانَ إلى بئرٍ سميحةٍ لغارَ ماؤُها فلمَّا رَاحا إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم قالَ لهُما " مَا لي أَرَى خُضرةَ اللحمِ في أفواهِكُمَا " فقالاَ ما تناولنَا لحماً فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ " إنكُما قدِ اغتبتُمَا " .

﴿ يا أَيُّهَا الناس إِنَّا خلقناكم مّن ذَكَرٍ وأنثى ﴾

من آدمَ وحواءَ أوْ خلقنَا كُلَّ واحدٍ منكُم من أبٍ وأمٍ الكُلُّ سواءٌ في ذلكَ فلا وَجْهَ للتفاخرِ بالنسبِ وقَدْ جُوِّزَ أنْ يكونَ تأكيداً للنَّهي السابقِ بتقريرِ الأخوةِ المانعةِ منَ الاغتيابِ ﴿

وجعلناكم شُعُوباً وَقَبَائِلَ ﴾ الشَّعبُ الجمعُ العظيمُ المنتسبونَ إلى أصلٍ واحدٍ وهو يجمعُ القبائلَ ، والقبيلةُ تجمعُ العمائرَ ، والعَمارةُ تجمعُ البطونَ والبطنُ يجمعُ الأفخاذَ والفَخِذُ يجمعُ الفصائلَ فخُزَيمةُ شعبٌ وكنانةُ قبيلةٌ وقريشٌ عمارةٌ وقُصَي بطنٌ وهاشمٌ فخذٌ والعباسُ فصيلةٌ وقيلَ الشعوبُ بطونُ العجمِ والقبائلُ بطونُ العربِ ﴿ لتعارفوا ﴾ ليعرفُ بعضُكم بعضاً بحسبِ الأنسابِ فلاَ يعتزَى أحدٌ إلى غيرِ آبائِه ، لا لتتفاخرُوا بالآباءِ والقبائلِ وتَدَّعُوا التفاوتَ والتفاضلَ في الأنسابِ وقُرِىءَ تتعارفُوا عَلى الأصلِ ولَتّعارفُوا بالإدغامِ ولتعرِفُوا ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ اللهِ أتقاكم ﴾ تعليلٌ للنَّهيِ عنِ التفاخرِ بالأنسابِ المستفادِ من الكلامِ بطريقِ الاستئنافِ التحقيقيِّ كأَنَّه قيلَ إنَّ الأكرمَ عندَهُ تعالَى هُو الأتقَى فإنْ فاخرتُم ففاخِروا بالتَّقوى وقُرِىءَ بأَنَّ المفتوحةِ عَلى حذفِ لامِ التعليلِ كأَنَّه قيلَ لَم لا نتفاخرُ بالأنسابِ فقيلَ لأَنَّ أكرمَكُم عندَ اللهِ أتقاكُم لا أنسبُكم فإنَّ مدارَ كمالِ النفوسِ وتفاوتِ الأشخاسِ هُو التَّقوى فمَنْ رامَ نيلَ الدرجاتِ العُلاَ فعليهِ التَّقوى قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ " مَنْ سَرَّهُ أنْ يكونَ أكرمَ النَّاسِ فليتقِ اللهَ " وقالَ عليه الصلاةُ والسلامُ "يَا أيُّها الناسُ إنَّما الناسُ رجلانِ مؤمنٌ تقيٌ كريمٌ عَلى اللهِ تعَالَى وفاجرٌ شقيٌّ هينٌ على اللهِ تعَالَى " وعنِ ابنِ عباسٍ رضي اللهُ عنهما كرمُ الدُّنيا الغِنى وكرمُ الآخرةِ التَّقوى ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ ﴾ بكُم وبأعمالِكم ﴿ خَبِيرٌ ﴾ ببواطنِ أحوالِكم .

﴿ قَالَتِ الأعراب ءامَنَّا ﴾ نزلتْ في نفرٍ من بَني أَسَدٍ قَدمُوا المدينةَ في سنةِ جَدْبٍ فأظهرُوا الشهادتينَ وكانُوا يقولونَ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم أتيناكَ بالأثقالِ والعيالِ ولمْ نقاتِلْكَ كما قاتلكَ بنُو فلانٍ يريدونَ الصدقةَ ويمنونَ عليهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ما فعلُوا ﴿ قُلْ ﴾ رَدّاً لهُمْ ﴿ لَّمْ تُؤْمِنُواْ ﴾ إذِ الإيمانُ هُوَ التصديقُ المقارنُ للثقةِ وطمأنينةِ القلبِ ولم يحصُلْ لكُم ذلكَ وإلا لِمَا مننتُمْ عليَّ ما ذكرتُم كَما ينبىءُ عَنْه آخرُ السورةِ ﴿ ولكن قُولُواْ أَسْلَمْنَا ﴾ فإنَّ الإسلامَ انقيادٌ ودخولٌ في السلمِ وإظهارُ الشهادةِ وتركُ المحاربةِ مشعرٌ بِه ، وإيثارُ مَا عليهِ النظمُ الكريمُ عَلى أنْ يقالَ لاَ تقولُوا آمنَّا ولكنْ قولُوا أسلمنَا أو لم تُؤمِنوا ولكن أسلمتُم للاحترازِ منِ النَّهي عنِ التلفظِ بالإيمانِ وللتفادِي عنْ إخراجِ قولِهم مُخرجَ التسليمِ والاعتدادِ بِه معَ كونِه تقولاً محضاً ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمان فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ حالٌ من ضميرِ قولُوا أيْ ولكِنْ قولُوا أسلمنَا حالَ عدمِ مواطأةِ قلوبكم لألسنتِكم ، ومَا في لَمَّا مِنْ مَعنْى التوقعِ مشعرٌ بأنَّ هؤلاءِ قَد آمنُوا فيمَا بعدُ ﴿ وَإِن تُطِيعُواْ الله وَرَسُولَهُ ﴾ بالإخلاصِ وتركِ النفاقِ ﴿ لاَ يَلِتْكُمْ مّنْ أعمالكم ﴾ لا ينُقصْكُم ﴿ شَيْئاً ﴾ من أجورِها مِنْ لاتَ يليتُ لَيْتاً إذَا نقصَ وقُرِىءَ لا يألِتكُم من الأَلْتِ وهيَ لغةُ غَطَفانَ أو شيئاً منَ النقصِ ﴿ أَنَّ الله غَفُورٌ ﴾ لِمَا فرطَ منَ المطيعينَ ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بالتفضيلِ عليهمْ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ اجتنبوا كَثِيراً مّنَ الظن ﴾

أي تباعدوا منه ، وأصل اجتنبه كان على جانب منه ثم شاع في التباعد اللازم له ، وتنكيراً ﴿ كَثِيراً ﴾ ليحتاط في كل ظن ويتأمل حتى يعلم أنه من أي القبيل ، فإن من الظن ما يباح اتباعه كالظن في الأمور المعايشة ، ومنه ما يجب كالظن حيث لا قاطع فيه من العمليات كالواجبات الثابتة بغير دليل قطعي وحسن الظن بالله عز وجل ، ومنه ما يحرم كالظن في الإلهيات والنبوات وحيث يخالفوا قاطع وظن السوء بالمؤمنين ، ففي الحديث " أن الله تعالى حرم من المسلم دمه وعرضه وأن يظن به ظن السوء " وعن عائشة مرفوعاً " من أساء بأخيه الظن فقد أساء بربه الظن إن الله تعالى يقول : ﴿ اجتنبوا كَثِيراً مّنَ الظن ﴾ " ويشترط في حرمة هذا أن يكون المظنون به ممن شوهد منه التستر والصلاح وأونست منه الأمانة ، وأما من يتعاطى الريب والمجاهرة بالخبائث كالدخول والخروج إلى حانات الخمر وصحبة الغواني الفاجرات وإدمان النظر إلى المرد فلا يحرم ظن السوء فيه وإن كان الظان لم يره يشرب الخمر ولا يزني ولا يعبث بالشباب .

أخرج البيهقي في "شعب الايمان" عن سعيد بن المسيب قال : كتب إلى بعض إخواني من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ضع أمر أخيك على أحسنه ما لم يأتك ما يغلبك ، ولا تظنن بكلمة خرجت من امرىء مسلم شراً وأنت تجد لها في الخير محملاً ، ومن عرض نفسه للتهم فلا يلومن إلا نفسه ، ومن كتم سره كانت الخيرة في يده ، وما كافيت من عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله تعالى فيه ، وعليك بإخوان الصدق فكن في اكتسابهم فإنهم زينة في الرخاء وعدة عند عظيم البلاء ، ولا تهاون بالحلف فيهينك الله تعالى ، ولا تسألن عما لم يكن حتى يكون ؛ ولا تضع حديثك إلا عند من تشتهيه ، وعليك بالصدق وإن قتلك ، واعتزل عدوك واحذر صديقك إلا الأمين ولا أمين إلا من خشي الله تعالى ، وشاور في أمرك الذين يخشون ربهم بالغيب .

وعن الحسن كنا في زمان الظن بالناس حرام وأنت اليوم في زمان اعلم واسكت وظن بالناس ما شئت ، واعلم أن ظن السوء إن كان اختيارياً فالأمر واضح ، وإذا لم يكن اختيارياً فالمنهى عنه العمل بموجبه من احتقار المظنون به وتنقيصه وذكره بما ظن فيه ، وقد قيل نظير ذلك في الحسد على تقدير كونه غير اختياري ، ولا يضر العمل بموجبه

بالنسبة إلى الظان نفسه كما إذا ظن بشخص أنه ريد به سوءاً فتحفظ من أن يلحقه منه أذى على وجه لا يلحق ذلك الشخص به نقص ، وهو محمل خبر

(193/718)

" إن من الحزم سوء الظن " وخبر الطبراني " احترسوا من الناس بسوء الظن " ، وقيل : المنهي عنه الاسترسال معه وترك إزالته بنحو تأويل سببه من خبر ونحوه ، وإلا فالأمر الغير الاختياري نفسه لا يكون مورد التكليف ، وفي الحديث " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاث لازمات أمتي الطيرة والحسد وسوء الظن فقال رجل : ما يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه ؟ قال : إذا حسدت فاستغفر الله وإذا ظننت فلا تحقق وإذا تطيرت فامض " أخرجه الطبراني عن حارثة بن النعمان ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظنِّ إِثْمٌ ﴾ تعليل بالأمر بالاجتناب أو لموجبه بطريق الاستئناف التحقيقي ، والإثم الذنب الذي يستحق العقوبة عليه ، ومنه قيل لعقوبته الأثام فعال منه كالنكال ، قال الشاعر :

لقد فعلت هذي النوى بي فعلة . . .

أصاب النوى قبل الممات أثامها

والهمزة فيه على ما قال الزمخشري بدل من الواو كأنه يثم الأعمال أي يكسرها لكونه

يضربها في الجملة وإن لم يحبطها قطعاً : وتعقب بأن الهمزة ملتزمة في تصاريفه تقول : إثم يأثم فهو آثم وهذا إثم وتلك آثام ، وأن إثم من باب علم ، ووثم من باب ضرب ، وأنه ذكره في باب الهمزة في الأساس ، والواوي متعد وهذا لازم .

﴿ وَلاَ تَجَسَّسُواْ ﴾ ولا تبحثوا عن عورات المسلمين ومعايبهم وتستكشفوا عما ستروه ، تفعل من الجس باعتبار ما فيه من معنى الطلب كاللمس فإن من يطلب الشيء يجسه ويلمسه فأريد به ما يلزمه ، واستعمال التفعل للمبالغة .

وقرأ الحسن .

وأبو رجاء .

(194/718)

وابن سيرين ﴿ وَلاَ ﴾ بالحاء من الحسن الذي هو أثر الجس وغايته ، ولهذا يقال لمشاعر الإنسان الحواس والجواس بالحاء والجيم ، وقيل التجسس والتحسس متحدان ومعناهما معرفة الأخبار ، وقيل : التجسس بالجيم تتبع الظواهر بالحاء تتبع البواطن ، وقيل : الأول أن تفحص بغيرك والثاني أن تفحص بنفسك ، وقيل : الأول في الشر والثاني في الخير ، وهذا بفرض صحته غير مراد هنا والذي عليه الجمهور أن المراد على القراءتين النهي عن تتبع

العورات مطلقاً وعدوه من الكبائر .

أخرج أبو داود .

وابن المنذر .

وابن مردويه عن أبي برزة الأسلمي قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الايمان قلبه لا تتبعوا عورات المسلمين فإن من تتبع عورات المسلمين فإن من تتبع عورات المسلمين فضحه الله تعالى في قعر بيته " وفي رواية البيهقي عن البراء بن عازب أنه صلى الله عليه وسلم نادى بذلك حتى أسمع العواتق في الخدر .

وأخرج أبو داود .

وجماعة عن زيد بن وهب قلنا لابن مسعود : هل لك في الوليد بن عقبة بن معيط تقطر لحيته خمراً ؟ فقال ابن مسعود : قد نهينا عن التجسس فإن ظهر لنا شيء أخذنا به .

وقد يحمل مزيد حب النهي عن المنكر على التجسس وينسى النهي فيعذر مرتكبه كما وقع ذلك لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه .

(195/718)

أخرج الخرائطي في مكارم الأخلاق عن ثور الكندي أن عمر رضي الله تعالى عنه كان يعس بالمدينة فسمع صوت رجل في بيت يتغني فتسور عليه فوجد عنده امرأة وعنده خمر فقال : يا عدو الله أظننت أن الله تعالى يسترك وأنت على معصية ؟ فقال : وأنت يا أمير المؤمنين لا تعجل علي إن كنت عصيت الله تعالى واحدة فقد عصيت الله تعالى في ثلاث قال سبحانه : ﴿ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُواْ ﴾ وقد تجسست وقال الله تعالى : ﴿ وَأْتُواْ البيوت مِنْ أبوابها ﴾ [البقرة : 189] وقد تسورت وقال جل شأنه : ﴿ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حتى تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ على أَهْلِهَا ﴾ [النور : 27] ودخلت علي بغير إذن قال عمر رضي الله تعالى عنه : فهل عندكم من خير إن عفوت عنك ؟ قال : نعم فعفا عنه وخرج وتركه .

وفي رواية سعيد بن منصور عن الحسن أنه قال رجل لعمر رضي الله تعالى عنه : إن فلاناً لا يصحوا فقال : انظر الساعة التي يضع فيها شرابه فأتني فأتاه فقال : قد وضع شرابه فانطلقا حتى استأذنا عليه فعزل شرابه ثم دخلا فقال عمر : والله إني لأجد ريح شراب يا فلان أنت بهذا فقال : يا ابن الخطاب وأنت بهذا لم ينهك الله تعالى أن تتجسس ؟ فعرفها عمر فانطلق وتركه ، وذكر بعضهم أن انزجار شربة الخمر ونحوهم إذا توقف على التسور عليهم جاز احتجاجاً بفعل عمر رضي الله تعالى عنه السابق وفيه نظر ، وقد جاء في بعض الروايات عنه ما يخالف ذلك .

أخرج عبد الرزاق .

وعبد بن حميد والخرائطي أيضاً عن زرارة بن مصعب بن عبد الرحمن بن عوف عن المسور بن مخرمة عن عبد الرحمن بن عوف أنه حرس مع عمر رضي الله تعالى عنه ليلة المدينة فبينما هم يمشون شب لهم سراج في بيت فانطلقوا يؤمونه فلما دنوا منه إذا باب مجاف على قوم لهم فيه أصوات مرتبعة ولغط فقال عمر : وأخذ بيد عبد الرحمن أتدري بيت من هذا ؟ هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف الآن شرب قال : أرى أن قد أتينا ما نهى الله تعالى عنه قال الله تعالى : ﴿ وَلاَ تَجَسَّسُواْ ﴾ فقد تجسسنا فانصرف عمر رضي الله تعالى عنه عنهم وتركهم ، ولعل القصة إن صحت غير واحدة ، ومن التجسس على ما قال الأوزاعي الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون فهو حرام أيضاً .

﴿ وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً ﴾ أي لا يذكر بعضكم بعضاً بما يكره في غيبته فقد قال صلى الله عليه وسلم : " أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : ذكرك أخاك بما يكره قيل : أفرأيت لو كان في أخي ما أقول قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته "

رواه مسلم .

وأبو داود .

والترمذي .

والنسائي وغيرهم .

(197/718)

والمراد بالذكر الذكر صريحاً أو كناية ويدخل في الأخير الرمز والإشارة ونحوهما إذا أدت مؤدى النطق فإن علة النهي عن الغيبة الإيذاء بتفهيم الغير نقصان المغتاب وهو موجود حيث أفهمت الغير ما يكرهه المغتاب بأي وجه كان من طرق الأفهام ، وهي بالفعل كان تمشي مشية أعظم الأنواع كما قاله الغزالي ، والمراد بما يكره أعم من أن يكون في دينه أو دنياه أو خلقه أو خلقه أو ماله أو ولده أو زوجته أو مملوكه أو خادمه أو لباسه أو غير ذلك مما يتعلق به ، وخصه القفال بالصفات التي لا تذم شرعاً فذكر الشخص بما يكره مما يذم شرعاً ليس بغيبة عنده ولا يحرم ، واحتج على ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم : " اذكروا الفاجر بما فيه يحذره الناس " وما ذكره لا يعول ، عليه والحديث ضعيف وقال أحمد منكر ، وقال البيهقي : ليس بشيء ولو صح فهو محمول على فاجر معلن بفجوره .

(198/718)

والمراد بقولنا : غيبته غيبته عن ذلك الذكر سواء كان حاضراً في مجلس الذكر أولاً ، وفي "الزواجر" لا فرق في الغيبة بني أن تكون في غيبة المغتاب أو بحضرته هو المعتمد ، وقد يقال : شمول الغيبة للذكر بالحضور على نحو شمول سجود السهود لما كان عن ترك ما يسجد له عمداً ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً ﴾ تميل لما يصدر عن المغتاب من حيث صدوره عنه ومن حيث تعلقه بصاحبه على أفحش وجه وأشنعه طبعاً وعقلاً وشرعاً مع مبالغات من فنون شتى ، الاستفهام التقريري من حيث أنه لا يقع إلا في كلام هو مسلم عند كل سامع حقيقة أو ادعاء ، وإسناد الفعل إلى أحد إيذاناً بأن أحداً من الأحديثن لا يفعل ذلك وتعليق المحبة بما هو في غاية الكراهة ، وتمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان ، وجعل المأكول أخاً للآكل وميتاً ، وتعقيب ذلك بقوله تعالى : ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ حملاً على الإقرار وتحقيقاً لعدم محبة ذلك أو لمحبته التي لا ينبغي مثلها ، وفي المثل السائر كنى عن الغيبة بأكل الإنسان للحم مثله لأنها ذكر المثالب وتمزيق الإعراض المماثل لأكل اللحم بعد تمزيقه في استكراه العقل والشرع له ، وجعله ميتاً لأن المغتاب لا يشعر بغيبته ، ووصله بالمحبة لما جبلت عليه النفوس من الميل إليها مع العلم بقبحها ، وقال أبو زيد السهيلي : ضرب المثل لأخذ العرض بأكل اللحم لأن اللحم ستر على العظم والشاتم لأخيه كأنه يقشر ويكشف ما عليه وكأنه أولى مما في المثل ، والفاء في ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ فصيحة في جواب شرط مقدور

ويقدر معه قد أي أن صح ذلك أو عرض عليكم هذا فقد كرهتموه ولا يمكنكم إنكار كراهته ، والجزائية باعتبار التبين ، والضمير المنصوب للأكل وقيل : للحم ، وقيل : للميت وليس بذاك ، وجوز كونه للاغتياب المفهوم مما قبل ، والمعنى فاكرهوه كراهيتكم لذلك الأكل ، وعبر بالماضي للمبالغة ، وإذا أول بما ذكر يكون إنشاء غير محتاج ﴿ لتقدير ﴾ قد ،

(199/718)

وانتصاب ميتاً على الحال من اللحم أو الأخ لأن المضاف جزء من المضاف إليه والحال في مثل ذلك جائز خلافاً لأبي حيان .

وقرأ أبو سعيد الخدري .

والجحدري .

وأبو حيوة ﴿ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ بضم الكاف وشد الراء ، ورواها الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقوله تعالى : ﴿ واتقوا الله ﴾ قيل عطف على محذوف كأنه قيل : امتثلوا ما قيل لكم واتقوا الله .

وقال الفراء : التقدير إن صح ذلك فقد كرهتموه فلا تفعلوه واتقوا الله فهو عطف على النهي المقدر ، وقال أبو علي الفارسي .

لما قيل لهم ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ ﴾ الخ كان لجواب بلا متعيناً فكأنهم قالوا : لا نحب فقيل لهم ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ ويقدر فكذلك فاكرهوا الغيبة التي هي نظيره واتقوا الله فيكون عطفاً على فاكرهوا المقدر ، وقيل : هو عطف على فكرهتموه بناء على أنه خبر لفظاً أمر معنى كما أشير إليه سابقاً ولا يخفى الأولى من ذلك وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ تعليل للأمر أي لأنه تعالى تواب رحيم لمن اتقى واجتنب ما نهى عنه وتاب مما فرط منه ، وتواب أي مبالغ في قبول التوبة والمبالغة إما باعتبار الكيف إذ يجعل سبحانه التائب كمن لم يذنب أو باعتبار الكم لكثرة المتوب عليهم أو لكثرة ذنوبهم .

(200/718)

أخرج ابن أبي حاتم عن السدي أن سلمان الفاسي رضي الله تعالى عنه كان مع رجلين في سفر يخدمهما وينال من طعامهما وأنه نام يوماً فطلبه صاحباه فلم يجداه فضرباه الخباء وقالا : ما يريد سلمان شيئاً غير هذا أن يجيء إلى طعام معدود وخبار مضروب فلما جاء سلمان أرسلاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب لهما إداماً فانطلق فأتاه فقال : يا رسول الله بعثني أصحابي لتؤدمهم إن كان عندك قال : ما يصنع أصحابك بالادام ؟ قد ائتدموا فرجع رضي الله تعالى عنه فخبرهما فانطلقا فأتياه رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقالا : والذي بعثك بالحق ما أصبنا طعاماً منذ نزلنا قال : إنكما قد ائتدمتما بسلمان فنزلت .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال : زعموا أنها نزلت في سلمان الفارسي أكل ثم رقد فنفخ فذكر رجلان أكله ورقاده فنزلت .

وأخرج الضياء المقدسي في المختارة عن أنس قال : كانت العرب تخدم بعضها بعضاً في الأسفار وكان مع أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما رجل يخدمهما فناما فاستيقظا ولم يهيىء لهما طعاماً فقالا : إن هذا لنئوم فأيقظاه فقالا : ائت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقل له أن أبا بكر وعمر يقرآنك السلام ويستأدمانك فقال : إنهما ائتدما فجاءا فقالا : يا رسول الله بأي شيء ائتدمنا قال بلحم أخيكما والذي نفسي بيده إني لأرى لحمه بين ثناياكما فقالا : استغفر لنا يا رسول الله قال : مراه فليستغفر لكما وذا خبر صحيح ولا طعن فيه على الشيخين سواء كان ما وقع منهما قبل النزول أو بعده حيث لم يظنا بناء على حسن الظن فيهما إن تلك الكلمة مما يكرهها ذلك الرجل : هذا والآية دالة على حرمة الغيبة .

وقد نقل القرطبي .

وغيره الإجماع على أنها من الكبائر ، وعن الغزالي وصاحب العدة أنهما صرحا بأنها من الصغائر وهو عجيب منهما لكثرة ما يدل على أنها من الكبائر ، وقصارى ما قيل في وجه القول بأنها صغيرة أنه لو لم تكن كذلك يلزم فسق الناس كلهم إلا الفذ النادر منهم وهذا حرج عظيم .

وتعقب بأن فشوا المعصية وارتكاب جميع الناس لها فضلاً عن الأكثر لا يوجب أن تكون صغيرة ، وهذا الذي دل عليه الكلام من ارتكاب أكثر الناس لها لم يكن قبل .

على أن الإصرار عليها قريب منها في كثرة الفشو في الناس وهو كبيرة بالاجماع ويلزم عليه الحرج العظيم وإن لم يكن في عظم الحرج السابق ، مع أن هذا الدليل لا يقاوم تلك الدلائل الكثيرة ، ولعل الأولى في الاستدلال على ذلك ما رواه أحمد .

وغيره بسند صحيح عن أبي بكرة قال " بينما أنا أماشي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيدي ورجل عن يساري فإذا نحن بقبرين أمامنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنهما ليعذبان وما يعذبان بكبير وبكى إلى أن قال : وما يعذبان إلا في الغيبة والبول " ولا يتم أيضاً ، فقد قال ابن الأثير : المعنى وما يعذبان في أمر كان يكبر عليهما ويشق فعله لو أراداه لا أنه في نفسه غير كبير ، وكيف لا يكون كبيراً وهما يعذبان فيه ، فالحق أنها من الكبائر .

نعم لا يبعد أن يكون منها ما هو من الصغائر كالغيبة التي لا يتأذى بها كثيراً نحو عيب الملبوس والدابة ، ومنها ما لا ينبغي أن يشك في أنه من أكبر الكبائر كغيبة الأولياء والعلماء بألفاظ الفسق والفجور ونحوها من الألفاظ الشديدة الإيذاء ، والأشبه أن يكون حكم السكوت عليها مع القدرة على دفعها حكمها ، ويجب على المغتاب أن يبادر إلى التوبة بشروطها فيقلع ويندم خوفاً من الله تعالى ليخرج من حقه ثم يستحل المغتاب خوفاً ليحله فيخرج عن مظلمته ، وقال الحسن : يكفيه الاستغفار عن الاستحلال ، واحتج بخبر "كفارة من اغتبته أن تستغفر له" ، وأفتى الخياطي بأنها إذا لم تبلغ المغتاب كفاه الندم والاستغفار ، وجزم ابن الصباغ بذلك وقال : نعم إذا كان تنقصه عند قوم رجع إليهم وأعلمهم أن ذلك لم يكن حقيقة وتبعهما كثيرون منهم النووي ، واختاره ابن الصلاح في فتاويه وغيره ، وقال الزركشي : هو المختار وحكاه ابن عبد البر عن ابن المبارك وأنه ناظر سفيان فيه ، وما يستدل به على لزوم التحليل محمول على أنه أمر بالأفضل أو بما يمحو أثر الذنب بالكلية على الفور ، وما ذكر في غير الغائب والميت أما فيهما فينبغي أن يكثر لهما الاستغفار ، ولا اعتبار بتحليل الورثة على ما صرح به الخياطي وغيره ، وكذا الصبي والمجنون بناء على الصحيح من القول بحرمة

غيبتهما .

قال في الخادم : الوجه أن يقال يبقى حق مطالبتهما إلى يوم القيامة أي إن تعذر الاستحلال والتحليل في الدنيا بأن مات الصبي صبياً والمجنون مجنوناً ويسقط حق الله تعالى بالندم ، وهل يكفي الاستحلال من الغيبة المجهولة أم لا ؟ وجهان ، والذي رجحه في الاذكار أنه لا بد من معرفتها لأن الإنسان قد يسمح عن غيبة دون غيبة ، وكلام الحليمي .

(203/718)

وغيره يقتضي الجزم بالصحة لأن من سمح بالعفو من غير كشف فقد وطن نفسه عليه مهما كانت الغيبة ، ويندب لمن سئل التحليل أن يحلل ولا يلزمه لأن ذلك تبرع منه وفضل ، وكان جمع من السلف واقتدى بهم والدي عليه الرحمة والرضوان يمتنعون من التحليل مخافة التهاون بأمر الغيبة ، ويؤيد الأول خبر " أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم كان إذا خرج من بيته قال : إني تصدقت بعرضي على الناس "

ومعناه لا أطلب مظلمة منهم ولا أخاصمهم لا أن الغيبة تصير حلالاً لأن فيها حقاً لله تعالى ولأنه عفو وإباحة للشيء قبل وجوبه ، وسئل الغزالي عن غيبة الكافر فقال : هي في حق المسلم محذورة لثلاث علل الإيذاء .

وتنقيص خلق الله تعالى .

وتضييع الوقت بما لا يعني ، والأولى تقتضي التحريم ، والثانية الكراهة ، والثالثة خلاف الأولى .

وأما الذمي فكالمسلم فيما يرجع إلى المنع عن الإيذاء لأن الشرع عصم عرضه ودمه وماله .

وقد روى ابن حبان في "صحيحه" أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من سمع يهودياً أو نصرانياً فله النار " ومعنى سمعه أسمعه ما يؤذيه ولا كلام بعد هذا في الحرمة .

وأما الحربي فغيبته ليست بحرام على الأولى ونكره على الثانية وخلاف الأولى على الثالثة ، وأما المبتدع فإن كفر فكالحربي وإلا فكالمسلم ؛ وأما ذكره ببدعته فليس مكروهاً .

وقال ابن المنذر في قوله صلى الله عليه وسلم في تفسير الغيبة : " ذكرك أخاك بما يكره " فيه دليل على أن من ليس أخالك من اليهود والنصارى وسائر أهل الملل ومن أخرجته بدعته إلى غير دين الإسلام لا غيبة له ويجري نحوه في الآية ، والوجه تحريم غيبة الذمي كما تقرر وهو وإن لم يعلم من الآية ولا من الخبر المذكور معلوم بدليل آخر ولا معارضة بين ما ذكر وذلك الدليل كما لا يخفى ، وقد تجب الغيبة لغرض صحيح شرعي لا يتوصل إليه إلا بها وتنحصر في ستة أسباب .

الأول : التظلم فلمن ظلم أن يشكو لمن يظن له قدرة على إزالة ظلمه أو تخفيفه .

الثاني : الاستعانة على تغيير المنكر بذكره لمن يظن قدرته على إزالته .

الثالث : الاستفتاء فيجوز للمستفتي أن يقول للمفتي : ظلمني فلان بكذا فهل يجوز له أو ما طريق تحصيل حقي أو نحو ذلك ؛ والأفضل أن يبهمه .

الرابع : تحذير المسلمين من الشر كجرح الشهود والرواة والمصنفين والمتصدين لإفتاء أو إقراء مع عدم أهلية فتجوز إجماعاً بل تجب ، وكأن يشير وإن لم يستشر على مريد تزوج أو مخالطة لغيره في أمر ديني أو دنيوي ويقتصر على ما يكفي فإن كفى نحو لا يصلح لك فذاك وإن احتاج إلى ذكر عيب ذكره أو عيبين فكذلك وهكذا ولا يجوز الزيادة على ما يكفي ، ومن ذلك أن يعلم من ذي ولاية قادحاً فيها كفسق أو تغفل فيجب ذكر ذلك لمن له قدرة على عزله وتولية غيره الخالي من ذلك أو على نصحه وحثه للاستقامة ، والخامس : أن يتجاهر بفسقه كالمكاسين وشربة الخمر ظاهراً فيجوز ذكرهم بما تجاهروا فيه دون غيره إلا أن يكون له سبب آخر مما مر .

السادس : للتعريف بنحو لقب كالأعور .

والأعمش .

فيجوز وإن أمكن تعريفه بغيره .

نعم الأولى ذلك إن سهل ويقصد التعريف لا التنقيص ، وأكثر هذه الستة مجمع عليه ويدل لها من السنة أحاديث صحيحة مذكورة في محلها كالأحاديث الدالة على قبح الغيبة وعظم آثامها وأكثر الناس بها مولعون ويقولون : هي صابون القلوب وأن لها حلاوة كحلاوة التمر وضراوة كضراوة الخمر وهي في الحقيقة كما قال ابن عباس .

وعلي بن الحسين رضي الله تعالى عنهم : الغيبة أدام كلاب الناس نسأل الله تعالى التوفيق لما يحب ويرضى .

(205/718)

وما أحسن ما جاء الترتيب في هذه الآية أعني قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ اجتنبوا كَثِيراً مّنَ الظن ﴾ الخ كما قال أبو حيان وفصله بقوله : جاء الأمر أولاً باجتناب الطريق التي لا تؤدي إلى العلم وهو الظن ثم نهى ثانياً عن طلب تحقيق ذلك الظن ليصير علماً بقوله سبحانه : ﴿ وَلاَ تَجَسَّسُواْ ﴾ ثم نهى ثالثاً عن ذكر ذلك إذا علم فهذه أمور ثلاثة مترتبة ظن فعلم بالتجسس فاغتياب ، وقال ابن حجر عليه الرحمة : إنه تعالى ختم كلاً من الآيتين بذكر التوبة رحمة بعباده وتعطفاً عليهم لكن لما بدئت الأولى بالنهي ختمت بالنفي في ﴿

وَمَن لَّمْ يَتُبْ ﴾ [الحجرات : 11] لتقاربهما ولما بدئت الثانية بالأمر في ﴿ اجتنبوا ﴾ ختمت به في ﴿ فاتقوا الله ﴾ إلى الخ وكان حكمة ذكر التهديد الشديد في الأولى فقط بقوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ ﴾ الخ أن ما فيها أفحش لأنه إيذاء في الحضرة بالخسرية أو اللمز أو النبز بخلافه في الآية الثانية فإنه أمر خفي إذ كل من الظن والتجسس والغيبة يقتضي الإخفاء وعدم العلم به غالباً انتهى فلا تغفل .

﴿ يا أَيُّهَا الناس إِنَّا خلقناكم مّن ذَكَرٍ وأنثى ﴾

من آدم وحواء عليهما السلام فالكل سواء في ذلك فلا وجه للتفاخر بالنسب ومن هذا قوله :

الناس في عالم التمثيل أكفاء . . .

أبوهم آدم والأم حواء

وجوز أن يكون المراد هنا أنا خلقنا كل واحد منكم من أب وأم ، ويبعده عدم ظهور ترتب ذم التفاخر بالنسب عليه والكلام مساق له كما ينبىء عنه ما بعد ، وقيل : هو تقرير للأخوة المانعة عن الاغتياب وعدم ظهور الترتب عليه على حاله مع أن ملاءمة ما بعد له دون ملاءمته للوجه السابق لكن وجه تقريره للأخوة ظاهر .

﴿ وجعلناكم شُعُوباً وَقَبَائِلَ ﴾ الشعوب جمع شعب بفتح الشين وسكون العين وهم الجمع العظيم المنتسبون إلى أصل واحد ، وهو يجمع القبائل ، والقبيلة تجمع العمائر ، والعمارة بفتح العين وقد تكسر تجمع البطون ، والبطن تجمع الأفخاذ ، والفخذ تجمع الفصائل ، فخزيمة شعب وكنانة قبيلة وقريش عمارة وقصى بطن وهاشم فخذ والعباس فضيلة ؛ وسميت الشعوب لأن القبائل تشعبت منها ، وهذا هو الذي عليه أكثر أهل النسب واللغة ، ونظم ذلك بعض الأدباء فقال :

قبيلة فوقها شعب وبعدهما . . .

عمارة ثم بطن تلوه فخذ

وليس يؤوي الفتى إلا فصيلته . . .

ولا سداد لسهم ماله قذذ

وذكر بعضهم العشيرة بعد الفصيلة فقال :

اقصد الشعب فهو أكثر حي . . .

عدداً في الحساب ثم القبيلة

ثم يتلوهما العمارة ثم البطن . . .

ثم الفخذ وبعد الفصيلة

ثم من بعدها العشيرة لكن . . .

هي في جنب ما ذكرنا قليله

وحكى أبو عبيد عن ابن الكلبي عن أبيه تقديم الشعب ثم القبيلة ثم الفصيلة ثم العمارة ثم الفخذ فأقام الفصيلة مقام العمارة والعمارة مقام الفصيلة في ذكرها قبل الفخذ ولم يذكر ما يخالفه ، وقيل : الشعوب في العجم والقبائل في العرب والأسباط في بني إسرائيل ، وأيد كون الشعوب في العجم ما في حديث مسروق أن رجلاً من الشعوب أسلم فكانت تؤخذ منه الجزية ؛ فإن الشعوب فيه فسرت بالعجم لكن قيل : وجهه على ما تقدم أن الشعب ما تشعب منه قبائل العرب والعجم فخص بأحدهما ، ويجوز أن يكون جمع الشعوبي وهو الذي يصغر شأن العرب ولا يرى لهم فضلاً على غيرهم كيهود ومجوس في جمع المجوسي واليهودي ، ومنهم أبو عبيدة وكان خارجياً وقد ألف كتاباً في مثالب العرب ، وابن غرسية وله رسالة فصيحة في تفضيل العجم على العرب ، وقد رد عليه علماء الأندلس برسائل عديدة .

وقيل : الشعوب عرب اليمن من قحطان والقبائل ربيعة ومضر وسائر عدنان ، وقال قتادة .

ومجاهد .

والضحاك : الشعب النسب الأبعد والقبيلة الأقرب ، وقيل : الشعوب الموالي والقبائل العرب ، وقال أبو روق : الشعوب الذين ينتسبون إلى المدائن والقرى والقبائل العرب الذين ينتسبون إلى آبائهم ﴿ لتعارفوا ﴾ علة للجعل أي جعلناكم كذلك ليعرف بعضكم بعضاً فتصلوا الأرحام وتبينوا الأنساب والتوارث لا لتفاخروا بالآباء والقبائل ، والحصر مأخوذ من التخصيص بالذكر والسكوت في معرض البيان .

وقرأ الأعمش ﴿ لتتعارفوا ﴾ بتاءين على الأصل ، ومجاهد .

وابن كثير في رواية .

وابن محيصن بإدغام التاء في التاء ، وابن عباس .

وأبان عن عاصم ﴿ وَقَبَائِلَ لتعارفوا ﴾ بكسر الراء مضارع عرف ، قال ابن جني : والمفعول محذوف أي لتعرفوا ما أنتم محتاجون إليه كقوله :

وما علم الإنسان إلا ليعلما . . .

أي ليعلم ما علمه وما أعذب هذا الحذف وما أغربه لمن يعرف مذهبه .

واختير في المفعول المقدر قرابة بعضكم من بعض ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ اللهِ أتقاكم ﴾ تعليل للنهي عن التفاخر بالأنساب المستفاد من الكلام بطريق الاستئناف الحقيقي كأنه قيل : إن الأكرم عند الله تعالى والأرفع منزلة لديه عز وجل في الآخرة والدنيا

هو الأتقى فإن فاخرتم ففاخروا بالتقوى .

وقرأ ابن عباس ﴿ إن ﴾ بفتح الهمزة على حذف لام التعليل كأنه قيل : لم لا تتفاخروا بالأنساب ؟ فقيل : لأن أكرمكم عند الله تعالى أتقاكم لا أنسبكم فإن مدار كمال النفوس وتفاوت الأشخاص هو التقوى فمن رام نيل الدرجات العلا فعليه بها .

(208/718)

وفي "البحر" أن ابن عباس قرأ ﴿ لتعارفوا وَأَنْ أَكْرَمَكُمْ ﴾ بفتح الهمزة فاحتمل أن يكون ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ ﴾ الخ معمولاً ﴿ لتعارفوا ﴾ وتكون اللام في ﴿ لتعارفوا ﴾ لام الأمر وهو أجود من حيث المعنى ، وأما إن كانت لام كي فلا يظهر المعنى إذ ليس جعلهم شعوباً وقبائل لأن يعرفوا أن أكرمهم عند الله تعالى أتقاهم فإن جعلت مفعولاً ﴿ لتعارفوا ﴾ محذوفاً أي لتعرفوا الحق لأن أكرمكم عند الله أتقاكم ساغ في اللام أن تكون لام كي اه وهو كما ترى .

﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ ﴾ بكم وبأعمالكم ﴿ خَبِيرٌ ﴾ بباطن أحوالكم .

روي أنه لما كان يوم فتح مكة أذن بلال على الكعبة فغضب الحرث بن هشام .

وعتاب بن أسيد وقالا : أهذا العبد الأسود يؤذن على ظهر الكعبة فنزلت .

وعن ابن عباس سبب نزولها قول ثابت بن قيس لرجل لم يفسح له عند النبي صلى الله عليه وسلم يا ابن فلانة فوبخه النبي عليه الصلاة والسلام وقال : إنك لا تفضل أحداً إلا في الدين والتقوى ونزلت .

وأخرج أبو داود في مراسيله .

وابن مردويه .

والبيهقي في سننه عن الزهري قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بني بياضة أن يزوجوا أبا هند امرأة منهم فقالوا : يا رسول الله أنزوج بناتنا موالينا ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الناس إِنَّا خلقناكم مِّن ذَكَرٍ وأنثى رَّحِيمٌ ﴾ الآية .

(209/718)

قال الزهري : نزلت في أبي هند خاصة وكان حجام النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي رواية ابن مردويه من طريق الزهري عن عروة عن عائشة أنه عليه الصلاة والسلام قال : أنكحوا أبا هند وأنكحوا إليه ونزلت : ﴿ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا الناس ﴾ الآية في ذلك ، وعن يزيد بن شجرة مر رسول الله صلى الله عليه وسلم في سوق المدينة فرأى غلاماً أسود يقول : من اشتراني فعلى شرط لا يمنعني عن الصلوات الخمس خلف رسول الله عليه الصلاة والسلام

فاشتراه رجل فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يراه عند كل صلاة ففقده فسأل عنه صاحبه فقال : محموم فعاده ثم سأل عنه بعد أيام فقال : هو لما به فجاءه وهو في ذمائه فتولى غسله ودفنه فدخل على المهاجرين والأنصار أمر عظيم فنزلت ، وفي القلب من صحة هذا شيء والله تعالى أعلم .

وقد دلت على أنه لا ينبغي التفاخر بالأنساب وبذلك نطقت الأخبار .

أخرج ابن مردويه .

والبيهقي في "شعب الإيمان" .

وعبد بن حميد .

والترمذي .

وغيرهم عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم طاف يوم الفتح على راحلته يستلم الأركان بمحجنه فلما خرج لم يجد مناخاً فنزل على أيدي الرجال فخطبهم فحمد الله تعالى وأثنى عليه ، وقال : الحمد لله الذي أذهب عنكم عبية الجاهلية وتكبرها يا أيها الناس الناس رجلان بر تقي كريم على الله وفاجر شقي هين على الله الناس كلهم بنو آدم وخلق الله آدم من تراب قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فِيمَا فَعَلْنَ فِى أَنفُسِهِنَّ بالمعروف والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ثم قال : أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ، وأخرج البيهقي .

وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في وسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال : يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ اللهِ أتقاكم ﴾ ألا هل بلغت ؟ قالوا : بلى يا رسول الله قال : فليبلغ الشاهد الغائب ، وأخرج البيهقي عن أبي أمامة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله أذهب نخوة الجاهلية وتكبرها بآبائها كلكم لآدم وحواء كطف الصاع بالصاع وإن أكرمكم عند الله أتقاكم فمن أتاكم ترضون دينه وأمانته فزوجوه " وأخرج أحمد .

وجماعة نحوه لكن ليس فيه ﴿ فَمَنْ ءاتاكم ﴾ الخ .

وأخرج البزار عن حذيفة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلم بنو آدم وآدم خلق من تراب ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان " وأخرج الطبراني .

وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

" يقول الله يوم القيامة أيها الناس إني جعلت نسباً وجعلتم نسباً فجعلت أكرمكم عند الله

أتقاكم فأبيتم إلا أن تقولوا : فلان بن فلان وفلان أكرم من فلان وإني اليوم أرفع نسبي واضع نسبكم ألا إن أوليائي المتقون " وأخرج الخطيب عن علي كرم الله تعالى وجهه نحوه مرفوعاً .

وأخرج أحمد .

والبخاري في تاريخه .

وأبو يعلى .

والبغوي .

وابن قانع .

والطبراني .

والبيهقي في "شعب الإيمان" عن أبي ريحانة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من انتسب إلى تسعة آباء كفار يريد بهم عزاً وكبراً فهو عاشرهم في النار " وأخرج البخاري .

(211/718)

والنسائي عن أبي هريرة قال : " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الناس أكرم ؟ قال : أكرمهم عند الله أتقاهم قالوا : ليس عن هذا نسألك قال : فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن

نبي الله ابن خليل الله قالوا : ليس عن هذا نسألك قال : فعن معادن العرب تسألوني ؟ قالوا : نعم قال : خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا " والأحاديث في هذا الباب أكثر من أن تحصى .

وفي الآية إشارة إلى وجه رد التفاخر بالنسب حيث أفادت أن شرف النسب غير مكتسب ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسانِ إِلاَّ مَا سعى ﴾ [النجم : 39] وأنه لا فرق بين النسيب وغيره من جهة المادة لاتحاد ما خلقا منه ، ولا من جهة الفاعل لأنه هو الله تعالى الواحد ، فليس للنسب شرف يعول عليه ويكون مداراً للثواب عند الله عز وجل ، ولا أحد أكرم من أحد عنده سبحانه إلا بالتقوى وبها نكمل النفس وتتفاضل الأشخاص ، وهذا لا ينافي كون العرب أشرف من العجم وتفاوت كل من العرب والعجم في الشرف ، فقد ذكروا أن الفرس أشرف من النبط ، وبنو إسرائيل أفضل من القبط .

وأخرج مسلم .

وغيره عن واثلة بن الأسقع قال : " قال صلى الله عليه وسلم إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم " لأن ذلك ليس إلا باعتبار الخصال الحميدة ، فشرف العرب على العجم مثلاً ليس إلا باعتبار أن الله تعالى امتازهم على من سواهم بفضائل جمة وخصال حميدة كما صحت به الأحاديث ، وقد جمع الكثير منها العلامة ابن حجر الهيتمي في كتابه مبلغ الإرب في

فضائل العرب ، ولا نعني بذلك أن كل عربي ممتاز على كل عجمي بالخصال الحميدة بل إن المجموع ممتاز على المجموع ، ثم إن أشرف العرب نسباً أولاد فاطمة رضي الله تعالى عنها لأنهم ينسبون إلى النبي صلى الله عليه وسلم كما صرح به جمع من الفقهاء .

وأخرج الطبراني عن فاطمة رضي الله تعالى عنها قالت :

(212/718)

" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل بني آدم ينتمون إلى عصبة إلا ولد فاطمة فأنا وليهم وأنا عصبتهم " وفي رواية له عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه "كل ابن أنثى كان عصبتهم لأبيهم ما خلا ولد فاطمة فأنا عصبتهم وأنا أبوهم" ونوزع في صحة ذلك ، ورمز الجلال السيوطي للأول بأنه حسن ، وتعقب وليس الأمر موقوفاً على ما ذكر لظهور دليله .

وقد أخرج أحمد .

(213/718)

والحاكم في "المستدرك" عن المسور بن مخرمة ولا كلام فيه قال : " قال صلى الله عليه وسلم فاطمة بضعة مني يقبضني ما يقبضها ويبسطني ما يبسطها وأن الأنساب كلها تنقطع يوم القيامة غير نسبي وسببي وصهري " وحديث بضعية فاطمة رضي الله تعالى عنها مخرج في "صحيح البخاري" أيضاً ، قال الشريف السمهودي : ومعلوم أن أولادها بضعة منها فيكونون بواسطتها بضعة منه صلى الله عليه وسلم ، وهذا غاية الشرف لأولادها ، وعدم انقطاع نسبه صلى الله عليه وسلم جاء أيضاً في حديث أخرجه ابن عساكر عن عمر رضي الله تعالى عنه مرفوعاً بلفظ "كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وصهري " والذهبي وإن تعقبه بقوله : فيه ابن وكيع لا يعتمد لكن استدرك ذلك بأنه ورد فيه مرسل حسن ، ويعلم مما ذكر ونحوه كما قال المناوي عظيم نفع الانتساب إليه صلى الله عليه وسلم ، ولا يعارضه ما في أخبار أخر من حثه عليه الصلاة والسلام لأهل بيته على خشية الله تعالى واتقائه سبحانه وأنه عليه الصلاة والسلام لا يغني عنهم من الله تعالى شيئاً حرصاً على إرشادهم وتحذيراً لهم من أن يتكلوا على النسب فتقصر خطاهم عن اللحوق بالسابقين من المتقين ، وليجتمع لهم الشرفان شرف التقوى وشرف النسب ، ورعاية لمقام التخويف خاطبهم عليه الصلاة والسلام بقوله : " لا أغني عنكم من الله شيئاً " والمراد لا أغنى عنكم شيئاً بمجرد نفسي من غير ما يكرمني الله تعالى به من نحو شفاعة فيكم ومغفرة منه تعالى لكم ، وهو عليه الصلاة والسلام لا يملك لأحد نفعاً ولا ضراً إلا بتمليك

الله تعالى ، والله سبحانه يملكه نفع أمته والأقربون أولى بالمعروف .

فعلى هذا لا بأس بقول الرجل : أنا من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجه التحدث بالنعمة أو نحو ذلك من المقاصد الشرعية .

(214/718)

وقد نقل المناوي عن ابن حجر أنه قال نهيه صلى الله عليه وسلم عن التفاخر بالأنساب موضعه مفاخرة تقتضي تكبراً واحتقار مسلم ، وعلى ما ذكرناه أولاً جاء قوله عليه الصلاة والسلام : " إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل " الحديث ، وقوله صلى الله عليه وسلم : " أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب"

إلى غير ذلك ، ومع شرف الانتساب إليه عليه الصلاة والسلام لا ينبغي لمن رزقه أن يجعله عاطلاً عن التقوى ويدنسه بمتابعة الهوى ، فالحسنة في نفسها حسنة وهي من بيت النبوة أحسن ، والسيئة في نفسها سيئة وهي من أهل بيت النبوة أسوأ ، وقد يبلغ اتباع الهوى بذلك النسيب الشريف إلى حيث يستحي أن ينسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وربما ينكر نسبه .

وعليه قيل لشريف سيء الأفعال :

قال النبي مقال صدق لم يزل . . .

يحلو لدى الأسماع والأفواه

إن فاتكم أصل امرىء ففعاله . . .

تنبيكم عن أصله المتناهي

وأراك تسفر عن فعال لم تزل . . .

بين الأنام عديمة الأشباه

وتقول إني من سلالة أحمد . . .

أفأنت تصدق أم رسول الله

(215/718)

ولا يلومن الشريف إلا نفسه إذا عومل حينئذٍ بما يكره وقدم عليه من هو دونه في النسب بمراحل ، كما يحكي أن بعض الشرفاء في بلاد خراسان كان أقرب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم غير أنه كان فاسقاً ظاهر الفسق وكان هناك موسى أسود تقدم في العلم والعمل فأكب الناس على تعظيمه فاتفق أن خرج يوماً من بيته يقصد المسجد فاتبعه خلق كثير يتبركون به فلقيه الشريف سكران فكان الناس يطردونه عن طريقه فغلبهم وتعلق

بأطراف الشيخ وقال : يا أسود الحوافر والمشافر يا كافر أنا ابن كافر ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذل وأنت تجل وأهان وأنت تعان فهم الناس بضربه فقال الشيخ : لا تفعلوا هذا محتمل منه لجده ومعفو عنه وإن خرج عن حده ، ولكن أيها الشريف بيضت باطني وسودت باطنك فرؤي بياض قلبي فوق سواد وجهي فحسنت وسواد قلبك فوق بياض وجهك فقبحت ؛ وأخذت سيرة أبيك وأخذت سيرة أبي فرآني الخلق في سيرة أبيك ورأوك في سيرة أبي فظنوني ابن أبيك وظنوك ابن أبي فعملوا معك ما يعمل مع أبي وعملوا معي ما يعمل مع أبيك ، ولهذا ونحو قيل :

ولا ينفع الأصل من هاشم . . .

إذا كانت النفس من باهلة

أي لا ينفع في الامتياز على ذوي الخصال السنية إذا كانت النفس في حد ذاتها باهلية ردية ومن الكمالات عرية ، فإن باهلة في الأصل اسم امرأة من همدان كانت تحت معن بن أعصر بن سعد بن قيس عيلان فنسب ولده إليها ، وقيل : بنو باهلة وهم قوم معروفون بالخساسة ، قيل : كانوا يأكلون بقية الطعام مرة ثانية وكانوا يأخذون عظام الميتة يطبخونها ويأخذون دسوماتها فاستنقصتهم العرب جداً حتى قيل لعربي أترضى أن تكون باهلياً وتدخل الجنة فقال : لا إلا بشرط أن لا يعلم أهل الجنة أني باهلي ، وقيل :

إذا قيل للكلب يا باهلي . . .

عوى الكلب من شؤم هذا النسب

(216/718)

ولم يجعلهم الفقهاء لذلك أكفاء لغيرهم من العرب لكن لا يخلو ذلك من نظر ، فإن النص أعني "إن العرب بعضهم أكفاء لبعض" لم يفصل مع أنه صلى الله عليه وسلم كان أعلم بقبائل العرب وأخلاقهم وقد أطلق ؛ وليس كل باهلي كما يقولون بل فيهم الأجواد ، وكون فصيلة منهم أو بطن صعاليك فعلوا ما فعلوا لا يسري في حق الكل اللهم إلا أن يقال : مدار الكفاءة وعدمها على العار وعدمه في المعروف بين الناس فمتى عدوا الباهلية عاراً وشاع استنقاصها فيما بينهم وأبتها نفوسهم اعتبر ذلك وإن لم يكن عن أصل أصيل ، وهذا نظير ما ذكروا فيما إذا اشترى الشخص داراً فتبين أن الناس يستشئمونها أنه بالخيار مع قول الجل من العلماء بنفي الشؤم المتعارف بين الناس اعتباراً لكون ذلك مما ينقص الثمن بين الناس وإن لم يكن له أصل فتأمله ، وبالجملة شرف النسب مما اعتبر جاهلية وإسلاماً ، أما جاهلية فأظهر من أن يبرهن عليه ، وأما إسلاماً فيدل عليه اعتبار الكفاءة في النسب في باب النكاح على الوجه المفصل في كتب الفقه ، ولم يخالف في ذلك فيما نعلم إلا الإمام مالك .

والثوري .

والكرخي من الحنفية ، وبعض ما تقدم من الأخبار يؤيد كلامهم لكن أجيب عنه في محله ، وكذا يدل عليه ما ذكروه في بيان شرائط الإمامة العظمى من أنه يشترط فيها كون الإمام قرشياً ، وقد أجمعوا على ذلك كما قال الماوردي ، ولا اعتبار بضرار .

(217/718)

وأبي بكر الباقلاني حيث شذا فجوزاها في جميع الناس ، وقال الشافعية : فإن لم يوجد قرشي أي مستجمع لشروط الإمامة اعتبر كون الإمام كنانياً من ولد كنانة بن خزيمة ، فإن تعذر اعتبر كونه من بني إسماعيل عليه السلام ، فإن تعذر اعتبر كونه من جرهم لشرفهم بصهارة إسماعيل عليه السلام إلى غير ذلك ، ومع هذا كله فالتقوى التقوى فالاتكال على النسب وترك النفس وهواها من ضعف الرأي وقلة العقل ، ويكفي في هذا الفصل قوله تعالى لنوح عليه السلام في ابنه كنعان : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالح ﴾ [هود : 46] وقوله عليه الصلاة والسلام : " سلمان منا أهل البيت " فالحزم اللائق بالنسيب أن يتقي الله تعالى ويكتسب من الخصال الحميدة ما لو كانت في غير نسيب لكفته ليكون قد زاد على الزبد شهداً وعلق على جيد الحسناء عقداً ؛ ولا يكتفي بمجرد الانتساب إلى

جدود سلفوا ليقال له : نعم الجدود ولكن بئس ما خلفوا ، وقد ابتلى كثير من الناس بذلك فترى أحدهم يفتخر بعظم بال وهو عري كالإبرة من كل كمال .

ويقول : كان أبي كذا وكذا وذاك وصف أبيه فافتخاره به نحو افتخار الكوسج بلحية أخيه ، ومن هنا قيل :

واعجب شيء إلى عاقل . . .

أناس عن الفضل مستأخره

إذا سئلوا ما لهم من علا . . .

أشاروا إلى أعظم ناخره

وقال الفاضل السري عبد الباقي أفندي العمري :

أقول لمن غدا في كل وقت . . .

يباهينا بأسلاف عظام

أتقنع بالعظام وأنت تدري . . .

بأن الكلب يقنع بالعظام

وما ألطف قوله :

لم يجدك الحسب العالي بغير تقى . . .

مولاك شيئاً فحاذر واتق الله

وابغ الكرامة في نيل الفخار به . . .

فأكرم الناس عند الله أتقاها

(218/718)

وأكثر ما رأينا ذلك الافتخار البارد عند أولاد مشايخ الزوايا الصوفية فإنهم ارتكبوا كل رذيلة وتعروا عن كل فضيلة ومع ذلك استطالوا بآبائهم على فضلاء البرية واحتقروا أناساً فاقوهم حسباً ونسباً وشرفوهم أماً وأباً وهذا هو الضلال البعيد والحمق الذي ليس عليه مزيد ، ولولا خشية السأم لأطلقنا في هذا الميدان عنان كميت القلم على أن فيما ذكرنا كفاية لمن أخذت بيده العناية والله تعالى أعلم .

﴿ قَالَتِ الأعراب ءامَنَّا ﴾

قال مجاهد : نزلت في بني إسد بن خزيمة قبيلة تجاور المدينة أظهروا الإسلام وقلوبهم دغلة إنما يحبون المغانم وعرض الدنيا ، ويروى أنهم قدموا المدينة في سنة جدبة فأظهروا الشهادتين وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : جئناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان يريدون بذكر ذلك الصدقة ويمنون به على النبي عليه الصلاة والسلام ، وقيل : هم مزينة .

وجهينة .

وأسلم .

وأشجع .

وغفار قالوا : آمنا فاستحقينا الكرامة فرد الله تعالى عليهم ، وأياً ما كان فليس المراد بالأعراب العموم كما قد صرح به قتادة .

وغيره ، وإلحاق الفعل علامة التأنيث لشيوع اعتبار التأنيث في الجموع حتى قيل :

لا تبالي بجمعهم . . .

كل جمع مؤنث

(219/718)

والنكتة في اعتباره ههنا الإشارة على قلة عقولهم على عكس ما روعي في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ ﴾ [يوسف : 30] ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ﴾ إكذاب لهم بدعوى الإيمان إذ هو تصديق مع الثقة وطمأنينة القلب ولم يحصل لهم وإلا لما منوا على الرسول صلى الله عليه وسلم بترك المقاتلة كما دل عليه آخر السورة ﴿ ولكن قُولُواْ أَسْلَمْنَا ﴾ فإن الإسلام انقياد ودخول في السلم وهو ضد الحرب وما كان من هؤلاء مشعر به ، وكان الظاهر لم تؤمنوا

ولكن أسلمتم أو لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا لتحصل المطابقة لكن عدل عن الظاهر اكتفاء بحصولها من حيث المعنى مع إدماج فوائد زوائد ، بيان ذلك أن الغرض المسوق له الكلام توبيخ هؤلاء في منهم بإيمانهم بأنهم خلوا عنه أولاً وبأنهم الممتنون إن صدقوا ثانياً ، فالأصل في الإرشاد إلى جوابهم قل كذبتم ولكن أخرج إلى ما هو عليه المنزل ليفيد عدم المكافحة بنسبة الكذب ، وفيه حمل له عليه الصلاة والسلام على الأدب في شأن الكل ليصير ملكة لأتباعه وأن لا يلبسوا جلد النمر لمن يخاطبهم به وتلخيص ما كذبوا فيه .

(220/718)

ومن الدليل على أنه الأصل قوله تعالى في الآية التالية : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الصادقون ﴾ [الحجرات : 15] تعريضاً بأن الكذب منحصر فيهم ، وأوثر على لا تقولوا آمنا لاستهجان ذلك لا سيما من النبي صلى الله عليه وسلم المبعوث للدعوة إلى الإيمان ، على أن إفادة ﴿ لَّمْ تُؤْمِنُواْ ﴾ لمعنى كذبتم أظهر من إفادة لا تقولوا آمنا كما لا يخفى ، ثم قوبل بقوله سبحانه : ﴿ ولكن قُولُواْ أَسْلَمْنَا ﴾ كأنه قيل : قل لم تؤمنوا فلا تكذبوا ولكن قولوا أسلمنا لتفوزوا بالصدق إن فاتكم الإيمان والتصديق ولو قيل : ولكن أسلمتم لم يؤد هذا المعنى ، وفيه تلويح بأن إسلامهم وهو خلو عن التصديق غير معتد به ولو قيل ولكن أسلمتم لكان ذلك موهماً

أن ذلك معتد به والمطلوب كماله بالإيمان ولا يحتاج هذا إلى أن يقال : القول في المنزل مستعمل في معنى الزعم ، وقيل : في الآية احتباك والأصل لم تؤمنوا فلا تقولوا آمنا ولكن أسلمتم فقولوا أسلمنا فحذف من كل من الجملتين ما أثبت في الأخرى والأول أبلغ وألطف ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الايمان فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ حال من ضمير ﴿ قُولُواْ ﴾ كأنه قيل : قولوا أسلمنا ما دمتم على هذه الصفة ، وفيه إشارة إلى توقع دخول الإيمان في قلوبهم بعد فليس هذا النفي مكرراً مع قوله تعالى : ﴿ لَّمْ تُؤْمِنُواْ ﴾ وقيل : الجملة مستأنفة ولا تكرار أيضاً لأن لما تفيد النفي الماضي المستمر إلى زمن الحال بالإجماع وتفيد أن منفيها متوقع خلافاً لأبي حيان ولم لا تفيد شيئاً من ذلك بلا خلاف فلا حاجة في دفع التكرار إلى القول بالحالية وجعل الجملة توقيتاً للقول المأمور به ﴿ وَإِن تُطِيعُواْ الله وَرَسُولَهُ ﴾ بالإخلاص وترك النفاق ﴿ لاَ يَلِتْكُمْ مّنْ أعمالكم ﴾ لا ينقصكم ﴿ شَيْئاً ﴾ من أجورها أو شيئاً من النقص يقال لاته يليته ليتاً إذا نقصه ، ومنه ما حكى الأصمعي عن أم هشام السلولية الحمد لله الذي لا يفات ولا يلات ولا تصمه الأصوات .

(221/718)

وقرأ الحسن .

والأعرج.

وأبو عمرو ﴿ لا ﴾ من ألت يألت بضم اللام وكسرها ألتاً وهي لغة أسد وغطفان ، قال الحطيئة :

أبلغ سراة بني سعد مغلغلة . . .

جهد الرسالة لا ألتا ولا كذبا

والأولى لغة الحجاز والفعل عليها أجوف وعلى الثانية مهموز الفاء ، وحكى أبو عبيدة ألات يليت ﴿ واعلموا أَنَّ الله غَفُورٌ ﴾ لما فرط من المطيعين ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بالتفضل عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(222/718)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا ﴾

قرأ الجمهور ﴿ اقتتلوا ﴾ باعتبار كل فرد من أفراد الطائفتين كقوله : ﴿ هذان خَصْمَانِ اختصموا ﴾ [الحج : 19] والضمير في قوله : ﴿ بَيْنَهُمَا ﴾ عائد إلى الطائفتين باعتبار

اللفظ .

وقرأ ابن أبي عبلة : (اقتتلتا) اعتباراً بلفظ طائفتان ، وقرأ زيد بن عليّ ، وعبيد بن عمير : (اقتتلا) وتذكير الفعل في هذه القراءة باعتبار الفريقين ، أو الرهطين .

والبغي : التعدّي بغير حق ، والامتناع من الصلح الموافق للصواب ، والفيء : الرجوع .

والمعنى : أنه إذا تقاتل فريقان من المسلمين ، فعلى المسلمين أن يسعوا بالصلح بينهم ، ويدعوهم إلى حكم الله ، فإن حصل بعد ذلك التعدّي من إحدى الطائفتين على الأخرى ، ولم تقبل الصلح ، ولا دخلت فيه كان على المسلمين أن يقاتلوا هذه الطائفة الباغية حتى ترجع إلى أمر الله وحكمه ، فإن رجعت تلك الطائفة الباغية عن بغيها ، وأجابت الدعوة إلى كتاب الله وحكمه ، فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين في الحكم ، ويتحرّوا الصواب المطابق لحكم الله ، ويأخذوا على يد الطائفة الظالمة حتى تخرج من الظلم ، وتؤدّي ما يجب عليها للأخرى .

ثم أمر الله سبحانه المسلمين أن يعدلوا في كل أمورهم بعد أمرهم بهذا العدل الخاص بالطائفتين المقتتلتين فقال : ﴿ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المقسطين ﴾ أي : واعدلوا إن الله يحب العادلين ، ومحبته لهم تستلزم مجازاتهم بأحسن الجزاء .

قال الحسن ، وقتادة ، والسديّ : ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾ بالدعاء إلى حكم كتاب الله ، والرضى بما فيه لهما وعليهما ﴿ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا ﴾ وطلبت ما ليس لها ، ولم ترجع إلى الصلح ﴿ فقاتلوا التى تَبْغِى ﴾ حتى ترجع إلى طاعة الله ، والصلح الذي أمر الله به ، وجملة : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ ﴾ مستأنفة مقرّرة لما قبلها من الأمر بالإصلاح ، والمعنى : أنهم راجعون إلى أصل واحد ، وهو الإيمان .

قال الزجاج : الدين يجمعهم ، فهم إخوة إذا كانوا متفقين في دينهم ، فرجعوا بالاتفاق في الدين إلى أصل النسب ؛ لأنهم لآدم وحواء ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ يعني : كل مسلمين تخاصما وتقاتلا ، وتخصيص الاثنين بالذكر لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوقهما بطريق الأولى .

قرأ الجمهور : ﴿ بين أخويكم ﴾ على التثنية ، وقرأ زيد بن ثابت ، وعبد الله بن مسعود ، والحسن ، وحماد بن سلمة ، وابن سيرين : ﴿ إخوانكم ﴾ بالجمع ، وروي عن أبي عمرو ، ونصر بن عاصم ، وأبي العالية ، والجحدري ، ويعقوب أنهم قرءوا (بين إخوتكم) بالفوقية على الجمع أيضاً .

قال أبو عليّ الفارسي في توجيه قراءة الجمهور : أراد بالأخوين : الطائفتين ؛ لأن لفظ التثنية قد يرد ، ويراد به الكثرة .

وقال أبو عبيدة : أي : أصلحوا بين كل أخوين ﴿ واتقوا الله ﴾ في كل أموركم ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ بسبب التقوى ، والترجي باعتبار المخاطبين ، أي : راجين أن ترحموا ، وفي هذه الآية دليل على قتال الفئة الباغية إذا تقرّر بغيها على الإمام ، أو على أحد من المسلمين ، وعلى فساد قول من قال بعدم الجواز مستدلاً بقوله صلى الله عليه وسلم :

" قتال المسلم كفر " ، فإن المراد بهذا الحديث ، وما ورد في معناه قتال المسلم الذي لم يبغ .

(224/718)

قال ابن جرير : لو كان الواجب في كلّ اختلاف يكون بين فريقين من المسلمين الهرب منه ، ولزوم المنازل لما أقيم حقّ ، ولا أبطل باطل ، ولوجد أهل النفاق والفجور سبباً إلى استحلال كل ما حرّم الله عليهم من أموال المسلمين ، وسبي نسائهم ، وسفك دمائهم بأن يتحزّبوا عليهم ، ولكفّ المسلمين أيديهم عنهم ، وذلك مخالف لقوله صلى الله عليه وسلم : " خذوا على أيدي سفهائكم " قال ابن العربي : هذه الآية أصل في قتال المسلمين ، وعمدة في حرب المتأوّلين ، وعليها عوّل الصحابة ، وإليها لجأ الأعيان من أهل الملة ، وإياها عنى النبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله : " تقتل عماراً الفئة الباغية " ، وقوله صلى الله عليه وسلم في شأن الخوارج : " يخرجون على حين فرقة من الناس تقتلهم أولى الطائفتين بالحقّ "

﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مّن قَوْمٍ عسى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مّنْهُمْ ﴾ السخرية : الاستهزاء .

وحكى أبو زيد : سخرت به ، وضحكت به ، وهزأت به .

(225/718)

وقال الأخفش : سخرت منه وسخرت به ، وضحكت منه وضحكت به ، وهزأت منه وهزأت به ، كل ذلك يقال ، والاسم السخرية والسخرى ، وقرىء بهما في : ﴿ لّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً ﴾ [الزخرف : 32] ، ومعنى الآية : النهي للمؤمنين عن أن يستهزىء بعضهم ببعض ، وعلل هذا النهي بقوله : ﴿ عسى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مّنْهُمْ ﴾ أي : أن يكون المسخور بهم عند الله خيراً من الساخرين بهم ، ولما كان لفظ قوم مختصاً بالرجال ؛ لأنهم القوّم على النساء أفرد النساء بالذكر فقال : ﴿ وَلاَ نِسَاء مّن نّسَاء ﴾ أي : ولا يسخر نساء من نساء ﴿ عسى أَن يَكُنَّ ﴾ المسخور بهن ﴿ خَيْراً مّنْهُنَّ ﴾ يعني : خيراً من الساخرات منهنّ ، وقيل : أفرد النساء بالذكر ؛ لأن السخرية منهنّ أكثر ﴿ وَلاَ تَلْمِزُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ اللمز العيب ، وقد مضى تحقيقه في سورة براءة عند قوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصدقات ﴾ [التوبة : 58] قال ابن جرير : اللمز باليد والعين واللسان

والإشارة، والهمز لا يكون إلاّ باللسان، ومعنى: ﴿ لا تَلْمِزُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾: لا يلمز بعضكم بعضاً، كما في قوله: ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [النساء: 29] وقوله: ﴿ فَسَلِّمُواْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ [النور: 61].

قال مجاهد، وقتادة، وسعيد بن جبير: لا يطعن بعضكم على بعض.

وقال الضحاك: لا يلعن بعضكم بعضاً ﴿ وَلاَ تَنَابَزُواْ بالألقاب ﴾ التنابز: التفاعل من النبز بالتسكين، وهو المصدر، والنبز بالتحريك اللقب، والجمع أنباز، والألقاب جمع لقب، وهو اسم غير الذي سمي به الإنسان، والمراد هنا لقب السوء، والتنابز بالألقاب أن يلقب بعضهم بعضاً.

قال الواحدي: قال المفسرون: هو أن يقول لأخيه المسلم: يا فاسق يا منافق، أو يقول لمن أسلم: يا يهودي يا نصراني، قال عطاء: هو كلّ شيء أخرجت به أخاك من الإسلام، كقولك: يا كلب يا حمار يا خنزير.

(226/718)

قال الحسن، ومجاهد: كان الرجل يعير بكفره، فيقال له: يا يهودي يا نصراني فنزلت، وبه قال قتادة، وأبو العالية، وعكرمة ﴿ بِئْسَ الاسم الفسوق بَعْدَ الايمان ﴾ أي: بئس

الاسم الذي يذكروا بالفسق بعد دخولهم في الإيمان ، والاسم هنا بمعنى الذكر .

قال ابن زيد : أي : بئس أن يسمى الرجل كافراً أو زانياً بعد إسلامه وتوبته .

وقيل المعنى : أن من فعل ما نهي عنه من السخرية واللمز والنبذ ، فهو فاسق .

قال القرطبي : إنه يستثنى من هذا من غلب عليه الاستعمال كالأعرج والأحدب ، ولم يكن له سبب يجد في نفسه منه عليه ، فجوّزته الأئمة ، واتفق على قوله أهل اللغة .

١ .

٥ .

﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ ﴾ عما نهى الله عنه ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظالمون ﴾ لارتكابهم ما نهى الله عنه ، وامتناعهم من التوبة ، فظلموا من لقبوه ، وظلمهم أنفسهم بما لزمها من الإثم .

﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ اجتنبوا كَثِيراً مِّنَ الظن ﴾ الظنّ هنا : هو مجرد التهمة التي لا سبب لها كمن يتهم غيره بشيء من الفواحش ، ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك ، وأمر سبحانه باجتناب الكثير ؛ ليفحص المؤمن عن كل ظنّ يظنه حتى يعلم وجهه ؛ لأن من الظنّ ما يجب اتباعه ، فإن أكثر الأحكام الشرعية مبنية على الظنّ ، كالقياس وخبر الواحد ودلالة العموم ؛ ولكن هذا الظنّ الذي يجب العمل به قد قوي بوجه من الوجوه الموجبة للعمل به ، فارتفع عن الشكّ والتهمة .

قال الزجاج : هو أن يظنّ بأهل الخير سوءًا ، فأما أهل السوء والفسوق ، فلنا أن نظنّ بهم

مثل الذي ظهر منهم .

قال مقاتل بن سليمان ، ومقاتل بن حيان : هو أن يظنّ بأخيه المسلم سوءًا ، ولا بأس به ما لم يتكلم به ، فإن تكلم بذلك الظنّ وأبداه أثم .

(227/718)

وحكى القرطبي عن أكثر العلماء : أن الظنّ القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز ، وأنه لا حرج في الظنّ القبيح بمن ظاهره القبيح ، وجملة : ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظنِّ إِثْمٌ ﴾ : تعليل لما قبلها من الأمر باجتناب كثير من الظنّ ، وهذا البعض هو ظنّ السوء بأهل الخير ، والإثم هو : ما يستحقه الظانّ من العقوبة .

ومما يدل على تقييد هذا الظنّ المأمور باجتنابه بظنّ السوء قوله تعالى : ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السوء وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً ﴾ [الفتح : 12] فلا يدخل في الظنّ المأمور باجتنابه شيء من الظنّ المأمور باتباعه في مسائل الدين ، فإن الله قد تعبد عباده باتباعه ، وأوجب العمل به جمهور أهل العلم ، ولم ينكر ذلك إلاّ بعض طوائف المبتدعة كياداً للدّين ، وشذوذاً عن جمهور المسلمين ، وقد جاء التعبد بالظنّ في كثير من الشريعة المطهرة بل في أكثرها .

ثم لما أمرهم الله سبحانه باجتناب كثير من الظنّ نهاهم عن التجسس فقال : ﴿ وَلاَ

تَجَسَّسُواْ ﴾ التجسس : البحث عما ينكتم عنك من عيوب المسلمين وعوراتهم ، نهاهم الله سبحانه عن البحث عن معايب الناس ومثالبهم .

قرأ الجمهور ﴿ تجسسوا ﴾ بالجيم ، ومعناه ما ذكرنا .

وقرأ الحسن ، وأبو رجاء ، وابن سيرين بالحاء .

قال الأخفش : ليس يبعد أحدهما من الآخر ؛ لأن التجسس بالجيم : البحث عما يكتم عنك ، والتحسس بالحاء : طلب الأخبار ، والبحث عنها .

وقيل : إن التجسس بالجيم هو البحث ، ومنه قيل : رجل جاسوس : إذا كان يبحث عن الأمور ، وبالحاء : ما أدركه الإنسان ببعض حواسه .

(228/718)

وقيل : إنه بالحاء فيما يطلبه الإنسان لنفسه ، وبالجيم أن يكون رسولاً لغيره ، قاله ثعلب ﴿ وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً ﴾ أي : لا يتناول بعضكم بعضاً بظهر الغيب بما يسوءه ، والغيبة : أن تذكر الرجل بما يكرهه ، كما في حديث أبي هريرة الثابت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ذكرك أخاك بما يكره ، فقيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ فقال : إن كان فيه ما تقول ، فقد

اغتبته ، وإن لم يكن فيه ، فقد بهته " ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً ﴾ مثل سبحانه الغيبة بأكل الميتة ؛ لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه ، كما أن الحيّ لا يعلم بغيبة من اغتابه ، ذكر معناه الزجاج .

وفيه إشارة إلى أن عرض الإنسان كلحمه ، وأنه كما يحرم أكل لحمه يحرم الاستطالة في عرضه ، وفي هذا من التنفير عن الغيبة ، والتوبيخ لها ، والتوبيخ لفاعلها ، والتشنيع عليه ما لا يخفى ، فإن لحم الإنسان مما تنفر عن أكله الطباع الإنسانية ، وتستكرهه الجبلة البشرية ، فضلاً عن كونه محرّماً شرعاً ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ قال الفراء : تقديره : فقد كرهتموه فلا تفعلوا ، والمعنى : فكما كرهتم هذا ، فاجتنبوا ذكره بالسوء غائباً .

قال الرّازي : الفاء في تقدير جواب كلام ؛ كأنه قال : لا يحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ، فكرهتموه إذن .

وقال أبو البقاء : هو معطوف على محذوف تقديره : عرض عليكم ذلك ، فكرهتموه ﴿ واتقوا الله ﴾ بترك ما أمركم باجتنابه ﴿ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ لمن اتقاه ، وتاب عما فرط منه من الذنب ومخالفة الأمر .

(229/718)

وقد أخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن أنس قال : قيل للنبيّ صلى الله عليه وسلم : لو أتيت عبد الله بن أبيّ ، فانطلق إليه وركب حماراً ، وانطلق المسلمون يمشون ، وهي أرض سبخة ، فلما انطلق إليه قال : إليك عني ، فوالله لقد آذاني ريح حمارك ، فقال رجل من الأنصار : والله لحمار رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيب ريحاً منك ، فغضب لعبد الله رجال من قومه ، فغضب لكل منهما أصحابه ، فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال ، فنزلت فيهم : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا ﴾ الآية .

وقد روي نحو هذا من وجوه أخر .

وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقي عن ابن عمر قال : ما وجدت في نفسي من شيء ما وجدت في نفسي من هذه الآية ، إني لم أقاتل هذه الفئة الباغية ، كما أمرني الله .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال : إن الله أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم ، والمؤمنين إذا اقتتلت طائفة من المؤمنين أن يدعوهم إلى حكم الله ، وينصف بعضهم من بعض ، فإذا أجابوا حكم فيهم بحكم كتاب الله حتى ينصف المظلوم ، فمن أبى منهم أن يجيب فهو باغ ، وحقّ على إمام المؤمنين والمؤمنين أن يقاتلوهم حتى يفيئوا إلى أمر الله ، ويقرّوا بحكم الله .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه عن ابن عباس : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا ﴾ الآية قال : كان قتال بالنعال والعصيّ ، فأمرهم أن يصلحوا بينهما .

وأخرج ابن مردويه ، والبيهقي عن عائشة قالت : ما رأيت مثل ما رغبت عنه هذه الأمة في هذه الآية : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في قوله : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مّن قَوْمٍ ﴾ قال : نزلت في قوم من بني تميم استهزءوا من بلال ، وسلمان ، وعمار ، وخباب ، وصهيب ، وابن فهيرة ، وسالم مولى أبي حذيفة .

(230/718)

وأخرج عبد بن حميد ، والبخاريّ في الأدب ، وابن أبي الدنيا في ذم الغيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلاَ تَلْمِزُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ قال : لا يطعن بعضكم على بعض .

وأخرج أحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاريّ في الأدب وأهل السنن الأربع ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن حبان ، والشيرازي في الألقاب ، والطبراني ، وابن السني في عمل يوم وليلة ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن أبي جبيرة بن الضحاك قال : فينا نزلت في بني سلمة : ﴿ وَلاَ تَنَابَزُواْ بالألقاب ﴾ قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، وليس فينا رجل إلاّ وله اسمان ، أو ثلاثة ، فكان إذا دعا واحداً

منهم باسم من تلك الأسماء قالوا : يا رسول الله إنه يكرهه ، فنزلت : ﴿ وَلَا تَنَابَزُواْ بالألقاب ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس نحوه .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : التنابز بالألقاب : أن يكون الرجل عمل السيئات ، ثم تاب منها وراجع الحقّ ، فنهى الله أن يعير بما سلف من عمله .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في الآية قال : إذا كان الرجل يهودياً ، فأسلم ، فيقول : يا يهوديّ ، يا نصرانيّ ، يا مجوسيّ ، ويقول للرجل المسلم : يا فاسق .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ اجتنبوا كَثِيراً مّنَ الظن ﴾ قال : نهى الله المؤمن أن يظنّ بالمؤمن سوءًا .

(231/718)

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إياكم والظنّ ، فإن الظنّ أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ولا تحسسوا ، ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ، وكونوا عباد الله إخواناً ، ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه

حتى ينكح ، أو يترك " وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلاَ تَجَسَّسُواْ ﴾ قال : نهى الله المؤمن أن يتتبع عورات المؤمن .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وأبو داود ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن زيد بن وهب قال : أتى ابن مسعود ، فقيل : هذا فلان تقطر لحيته خمراً ، فقال ابن مسعود : إنا قد نهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذه .

وقد وردت أحاديث في النهي عن تتبع عورات المسلمين ، والتجسس عن عيوبهم .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً ﴾ الآية .

قال : حرم الله أن يغتاب المؤمن بشيء ، كما حرّم الميتة .

والأحاديث في تحريم الغيبة كثيرة جداً معروفة في كتب الحديث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 63 . 66 ﴾

(232/718)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾

أعيد النداء خامس مرة لاختلاف الغرض والاهتمام به وذلك أن المنهيات المذكورة بعد هذا النداء من جنس المعاملات السيئة الخفية التي لا يتفطن لها من عومل بها فلا يدفعها فما يزيلها من نفس من عامله بها .

ففي قوله تعالى : ﴿ اجتنبوا كثيراً من الظن ﴾ تأديب عظيم يبطل ما كان فاشياً في الجاهلية من الظنون السيئة والتهم الباطلة وأن الظنون السيئة تنشأ عنها الغيرة المفرطة والمكائد والاغتيالات ، والطعن في الأنساب ، والمبادأة بالقتال حذراً من اعتداء مظنون ظناً باطلاً ، كما قالوا : خذ اللص قبْلَ أن يَأخُذَك .

وما نجمت العقائد الضالة والمذاهب الباطلة إلا من الظنون الكاذبة قال تعالى : ﴿ يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ﴾ [آل عمران : 154] وقال : ﴿ وقالوا لو شاء الرحمان ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ﴾ [الزخرف : 20] وقال : ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرَّمنا من شيء ﴾ [الأنعام : 148] ثم قال : ﴿ قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون ﴾ [الأنعام : 148] .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم " إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث " ولما جاء الأمر في

هذه الآية باجتناب كثير من الظن علمنا أن الظنون الآثمة غير قليلة ، فوجب التمحيص والفحص لتمييز الظن الباطل من الظن الصادق .

والمراد بـ ﴿ الظن ﴾ هنا : الظن المتعلق بأحوال الناس وحذف المتعلّق لتذهب نفس السامع إلى كل ظن ممكن هو إثم .

(233/718)

وجملة ﴿ إن بعض الظن إثم ﴾ استئناف بياني لأن قوله : ﴿ اجتنبوا كثيراً من الظن ﴾ يستوقف السامع ليتطلب البيان فأعلموا أن بعض الظن جرم ، وهذا كناية عن وجوب التأمل في آثار الظنون ليعرضوا ما تفضي إليه الظنون على ما يعلمونه من أحكام الشريعة ، أو ليسألوا أهل العلم على أن هذا البيان الاستئنافي يقتصر على التخويف من الوقوع في الإثم .

وليس هذا البيان توضيحاً لأنواع الكثير من الظن المأمور باجتنابه ، لأنها أنواع كثيرة فنبه على عاقبتها وتُرك التفصيل لأن في إبهامه بعثاً على مزيد الاحتياط .

ومعنى كونه إثماً أنه : إمّا أن ينشأ على ذلك الظن عمل أو مجرد اعتقاد ، فإن كان قد ينشأ عليه عمل من قول أو فعل كالاغتياب والتجسس وغير ذلك فليقدّرِ الظانّ أن ظنه كاذب ثم لينظر بعدُ في عمله الذي بناه عليه فيجده قد عامل به من لا يستحق تلك المعاملة من

اتهامه بالباطل فيأثم مما طوى عليه قلبه لأخيه المسلم ، وقد قال العلماء : إن الظن القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز .

وإن لم ينشأ عليه إلا مجرد اعتقاد دون عمل فليقدّر أن ظنه كان مخطئاً يجد نفسه قد اعتقد في أحد ما ليس به ، فإن كان اعتقادا في صفات الله فقد افترى على الله وإن كان اعتقاداً في أحوال الناس فقد خسر الانتفاع بمن ظنه ضاراً ، أو الاهتداء بمن ظنه ضالاً ، أو تحصيل العلم ممن ظنه جاهلاً ونحو ذلك .

ووراء ذلك فالظن الباطل إذا تكررت ملاحظته ومعاودة جولانه في النفس قد يصير علماً راسخاً في النفس فتترتب عليه الآثار بسهولة فتصادف من هو حقيق بضدها كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ أن تُصِيبُوا قوما بجهالة فتُصبحُوا على ما فعلتم نادمين ﴾ [الحجرات : 6] .

والاجتناب : افتعال مِن جنَّبه وأجنبه ، إذا أبعده ، أي جعله جانباً آخر ، وفعله يُعدّى إلى مفعولين ، يقال : جَنبه الشرَّ ، قال تعالى : ﴿ واجْنُبْنِي وبَنِيّ أن نعبد الأصنام ﴾ [إبراهيم : 35] .

ومطاوعه اجتَنب ، أي ابتعد ، ولم يسمع له فعل أمر إلا بصيغة الافتعال .

ومعنى الأمر باجتناب كثير من الظن الأمر بتعاطي وسائل اجتنابه فإن الظن يحصل في خاطر الإنسان اضطراراً عن غير اختيار ، فلا يعقل التكليف باجتنابه وإنما يراد الأمر بالتثبت فيه وتمحيصه والتشكك في صدقه إلى أن يتبين موجبه بدون تردد أو برجحان أو يتبين كذبه فتكذب نفسك فيما حدثتك .

وهذا التحذير يراد منه مقاومة الظنون السيئة بما هو معيارها من الأمارات الصحيحة .

وفي الحديث " إذا ظننتم فلا تحققوا " على أن الظن الحسن الذي لا مستند له غير محمود لأنه قد يوقع فيما لا يحد ضره من اغترار في محل الحذر ومن اقتداء بمن ليس أهلاً للتأسي .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لأم عطية حين مات في بيتها عثمان بن مظعون وقال : " رحمة الله عليك أبا السايب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله وما يدريكِكِ أن الله أكرمه . فقالت : يا رسول الله ومن يكرمه الله ؟ فقال : أمَّا هو فقد جاءه اليقين وإنّي أرجو له الخير وإنّي والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي .

فقالت أم عطية : والله لا أزكّي بعده أحداً "

وقد علم من قوله : ﴿ كثيراً من الظن ﴾ وتبيينِه بأن بعض الظن إثم أن بعضاً من الظن ليس إثماً وأنا لم نؤمر باجتناب الظن الذي ليس بإثم لأن ﴿ كثيراً ﴾ وصف ، فمفهوم المخالفة منه يدلّ على أن كثيراً من الظنّ لم نؤمر باجتنابه وهو الذي يبينه ﴿ إن بعض الظن إثم ﴾

أي أن بعض الظن ليس إثماً ، فعلى المُسلم أن يكون معيارُه في تمييز أحد الظنين من الآخر أن يعرضه على ما بينته الشريعة في تضاعيف أحكامها من الكتاب والسنة وما أجمعت عليه علماء الأمة وما أفاده الاجتهاد الصحيح وتتبع مقاصد الشريعة ، فمنه ظن يجب اتباعه كالحَذر من مكائد العدّو في الحرب ، وكالظنّ المستند إلى الدليل الحاصل من دلالة الأدلة الشرعية ، فإن أكثر التفريعات الشرعية حاصلة من الظن المستند إلى الأدلة .

(235/718)

وقد فتح مفهوم هذه الآية باب العمل بالظن غير الإثم إلا أنها لا تقوم حجة إلاّ على الذين يَرون العمل بمفهوم المخالفة وهو أرجح الأقوال فإن معظم دلالات اللغة العربية على المفاهيم كما تقرر في أصول الفقه .

وأما الظن الذي هو فهم الإنسان وزكانته فذلك خاطر في نفسه وهو أدْرَى فمعتاده منه من إصابه أو ضدها قال أوس بن حجر:

الألمعيُ الذي يظن بك الظ . . .

ن كأن قَدْ رأى وقد سمِعا

﴿ إِثْمٌ وَلاَ ﴾ .

التجسس من آثار الظن لأن الظن يبعث عليه حين تدعو الظانَّ نفسُه إلى تحقيق ما ظنه سراً فيسلك طريق التجنيس فحذرهم الله من سلوك هذا الطريق للتحقق ليسلكوا غيره إن كان في تحقيق ما ظن فائدة .

والتجسّس : البحث بوسيلة خفيّة وهو مشتق من الجس ، ومنه سمي الجاسوس .

والتجسّس من المعاملة الخفية عن المتجسس عليه .

ووجه النهي عنه أنه ضرب من الكيد والتطلع على العورات .

وقد يرى المتجسس من المتجسس عليه ما يسوءه فتنشأ عنه العداوة والحقد .

ويدخل صدره الحرج والتخوف بعد أن كانت ضمائره خالصة طيبة وذلك من نكد العيش .

وذلك ثلم للأخوة الإسلامية لأنه يبعث على إظهار التنكر ثم إن اطلع المتجسس عليه على تجسس الآخر ساءه فنشأ في نفسه كره له وانثلمت الأخوة ثلمة أخرى كما وصفنا في حال المتجسِّس ، ثم يبعث ذلك على انتقام كليهما من أخيه .

وإذ قد اعتبر النهي عن التجسس من فروع النهي عن الظن فهو مقيد بالتجسس الذي هو إثم أو يفضي إلى الإثم ، وإذا علم أنه يترتب عليه مفسدة عامة صار التجسس كبيرة .

ومنه التجسس على المسلمين لمن يبتغي الضُرّ بهم .

فالمنهي عنه هو التجسس الذي لا ينجرّ منه نفع للمسلمين أو دفع ضر عنهم فلا يشمل

التجسس على الأعداء ولا تجسس الشُرَط على الجناة واللصوص .

﴿ تَجَسَّسُواْ وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً ﴾ .

الاغتياب : افتعال من غَابه المتعدي ، إذا ذَكره في غيبه بما يسوءه .

(236/718)

فالاغتياب ذكر أحد غائب بما لا يُحب أن يُذكَر به ، والاسم منه الغِيبة بكسر الغين مثل الغِيلة .

وإنما يكون ذكره بما يكره غيبه إذا لم يكن ما ذكره به مما يثلم العِرض وإلا صار قذعا .

وإنما قال : ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضاً ﴾ دون أن يقول : اجتنبوا الغيبة .

لقصد التوطئة للتمثيل الوارد في قوله : ﴿ أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا ﴾ لأنه لما كان ذلك التمثيل مشتملاً على جانب فاعل الاغتياب ومفعوله مُهّد له بما يدلّ على ذاتين لأن ذلك يزيد التمثيل وضوحاً .

والاستفهام في ﴿ أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا ﴾ تقريري لتحقق أن كل أحد يقر بأنه لا يحب ذلك ، ولذلك أجيب الاستفهام بقوله : ﴿ فكرهتموه ﴾ .

وإنما لم يرد الاستفهام على نفي محبة ذلك بأن يقال : ألا يحب أحدكم ، كما هو غالب

الاستفهام التقريري ، إشارة إلى تحقق الإقرار المقرَّر عليه بحيث يترك للمقرّر مجالاً لعدم الإقرار ومع ذلك لا يسعه إلا الإقرار .

مثّلت الغيبة بأكل لحم الأخ الميت وهو يستلزم تمثيل المولوع بها بمحبة أكل لحم الأخ الميت ، والتمثيل مقصود منه استفظاع الممثَّل وتشويهه لإفادة الإغلاظ على المغتابين لأن الغيبة متفشية في الناس وخاصة في أيام الجاهلية .

فشبهت حالة اغتياب المسلم مَن هو أخوه في الإسلام وهو غائب بحالة أكل لحم أخيه وهو ميت لا يدافع عن نفسه ، وهذا التمثيل للهيئة قابل للتفريق بأن يشبه الذي اغتاب بآكل لحم ، ويشبه الذي اغتيب بأخ ، وتشبه غَيْبته بالمَوت .

والفاء في قوله : ﴿ فكرهتموه ﴾ فاء الفصيحة ، وضمير الغائب عائد إلى ﴿ أحدكم ﴾ ، أو يعود إلى ﴿ لحم ﴾ .

والكراهة هنا : الاشمئزاز والتقذر .

والتقدير : إن وقع هذا أو إن عرض لكم هذا فقد كرهتموه .

وفاء الفصيحة تفيد الإلزام بما بعدها كما صرح به الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ فقد كذبوكم بما تقولون ﴾ في سورة الفرقان ، أي تدل على أن لا مناص للمواجه بها من التزام مدلول جواب شرطها المحذوف .

والمعنى : فتعيّن إقراركم بما سئلتم عنه من الممثَّل به (إذ لا يستطاع جَحْدَهُ) تحققتْ كراهتكم له وتقذركم منه ، فليتحقق أن تكرهوا نظيره الممثَّل وهو الغِيبة فكأنه قيل : فاكرهوا الممثل كما كرهتم الممثل به .

وفي هذا الكلام مبالغات : منها الاستفهام التقريري الذي لا يقع إلا على أمر مسلّم عند المخاطب فجعلك للشيء في حيّز الاستفهام التقريري يقتضي أنك تدّعي أنه لا ينكره المخاطب .

ومنها جعل ما هو شديد الكراهة للنفس مفعولاً لفعل المحبة للإشعار بتفظيع حالة ما شبه به وحالة من ارتضاه لنفسه فلذلك لم يقل : أيتحمل أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً ، بل قال : ﴿ أيحب أحدكم ﴾ .

ومنها إسناد الفعل إلى ﴿ احد ﴾ للإشعار بأن أحداً من الأحدين لا يحب ذلك .

ومنها أنه لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتّى جَعل الإنسان أخاً .

ومنها أنه لم يقتصر على كون المأكول لحم الأخ حتى جعل الأخَ ميتاً .

وفيه من المحسنات الطباق بين ﴿ أيحب ﴾ وبين ﴿ فكرهتموه ﴾ .

والغِيبة حرام بدلالة هذه الآية وآثار من السنة بعضها صحيح وبعضها دونه .

وذلك أنها تشتمل على مفسدة ضُعف في أخوة الإسلام .

وقد تبلغ الذي اغتيب فتقدح في نفسه عداوة لمن اغتابه فينثلم بناء الأخوة ، ولأن فيها الاشتغال بأحوال الناس وذلك يلهي الإنسان عن الاشتغال بالمهم النافع له وترك ما لا يعنيه .

وهي عند المالكية من الكبائر وقلّ من صرح بذلك ، لكن الشيخ عليّاً الصعيدي في "حاشية الكفاية" صرح بأنها عندنا من الكبائر مطلقاً .

ووجهُه أن الله نهَى عنها وشنّعها .

ومُقتضى كلام السجلماسي في كتاب "العمل الفاسي" أنها كبيرة .

وجعلها الشافعية من الصغائر لأن الكبيرة في اصطلاحهم فِعل يؤذن بقلة اكتراث فاعله بالدين ورقة الديانة كذا حدّها إمامُ الحرمين .

(238/718)

فإذا كان ذلك لوجه مصلحة مثل تجريح الشهود ورواة الحديث وما يقال للمستشير في مخالطة أو مصاهرة فإن ذلك ليس بغِيبة ، بشرط أن لا يتجاوز الحد الذي يحصل به وصف الحالة المسؤول عنها .

وكذلك لا غيبة في فاسق بذكر فسقه دون مجاهرة له به .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لما استؤذن عنده لعُيينة بن حصن ﴿ بئس أخو

العشيرة ﴾ ليحذّره من سمعه إذ كان عيينة يومئذ منحرفاً عن الإسلام .

وعن الطبري صاحب "العُدة" في فروع الشافعية أنها صغيرة ، قال المحلي وأقره الرافعي ومن تبعه .

قلت : وذكر السجلماسي في نظمه في المسائل التي جرى بها عمل القضاة في فاس فقال:

ولا تجرح شاهداً بالغيبه . . .

لأنها عمت بها المصيبه

وذكر في شرحه : أن القضاة عملوا بكلام الغزالي .

وأما عموم البلوى فلا يوجب اغتفار ما عمّت به إلاّ عند الضرورة والتعذر كما ذكر ذلك عن أبي محمد بن أبي زيد .

وعندي : أن ضابط ذلك أن يكثر في الناس كثرةً بحيث يصير غير دالّ على استخفاف بالوازع الديني فحينئذٍ يفارقها معنى ضعف الديانة الذي جعله الشافعية جزءاً من ماهية الغِيبة .

﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ واتقوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ ﴾ .

عطف على جُمل الطلب السابقة ابتداء من قوله : ﴿ اجتنبوا كثيراً من الظن ﴾ هذا كالتذييل لها إذ أمر بالتقوى وهي جُماع الاجتناب والإمتثال فمن كان سالماً من التلبس بتلك المنهيات فالأمر بالتقوى يجنبه التلبس بشيء منها في المستقبل ، ومن كان متلبساً بها

أو ببعضها فالأمر بالتقوى يجمع الأمر بالكف عما هو متلبس به منها .

وجملة ﴿ إن الله تواب رحيم ﴾ تذييل للتذييل لأن التقوى تكون بالتوبة بعد التلبس بالإثم فقيل : ﴿ إن الله تواب ﴾ وتكون التقوى ابتداء فيرحم الله المتقي ، فالرحيم شامل للجميع .

(239/718)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)

انتقال من واجبات المعاملات إلى ما يجب أن يراعيه المرء في نفسه ، وأعيد النداء للاهتمام بهذا الغرض ، إذ كان إعجابُ كل قبيلة بفضائلها وتفضيل قومها على غيرهم فاشياً في الجاهلية كما ترى بقيته في شعر الفرزدق وجرير ، وكانوا يحقرون بعض القبائل مثل بَاهلة ، وضُبيعة ، وبني عُكل .

سئل أعرابي : أتحب أن تدخل الجنة وأنت باهلي فأطرق حينا ثم قال : على شرط أن لا يعلم أهل الجنة أني باهلى .

فكان ذلك يجرّ إلى الإحن والتقاتل وتتفرع عليه السخرية واللمز والنبز والظن والتجسس

والاغتياب الواردة فيها الآيات السابقة ، فجاءت هذه الآية لتأديب المؤمنين على اجتناب ما كان في الجاهلية لاقتلاع جذوره الباقية في النفوس بسبب اختلاط طبقات المؤمنين بعد سنة الوفود إذ كثر الداخلون في الإسلام .

فعن أبي داود أنه روى في كتابه "المراسيل" عن الزهري قال أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بني بياضة (من الأنصار) أن يزوجوا أبا هند (مولَى بني بياضة قيل اسمه يَسار) امرأةً منهم فقالوا : نزوج بناتنا موالينَا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا ﴾ الآية .

وروي غير ذلك في سبب نزولها .

ونُودوا بعنوان ﴿ الناس ﴾ دون المؤمنين رعيا للمناسبة بين هذا العنوان وبين ما صُدّر به الغرض من التذكير بأن أصلهم واحد ، أي أنهم في الخلقة سواء ليتوسل بذلك إلى أن التفاضل والتفاخر إنما يكون بالفضائل وإلى أن التفاضل في الإسلام بزيادة التقوى فقيل : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ .

فمن أقدم على القول بأن هذه الآية نزلت في مكة دون بقية السورة اغترّ بأن غالِب الخطاب بـ ﴿ يا أيها الناس ﴾ إنما كان في المكي .

والمراد بالذَكَر والأنثى : آدم وحواء أَبوَا البشر ، بقرينة قوله ﴿ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾ .

ويؤيد هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم " أنتم بنو آدم وآدم من تراب " كما سيأتي قريباً .

فيكون تنوين (ذكر وأنثى) لأنهما وصفان لموصوف فقرر ، أي من أب ذكر ومن أم أنثى .

ويجوز أن يراد بـ ﴿ ذكر وأنثى ﴾ صنف الذكر والأنثى ، أي كل واحد مكون من صنف الذكر والأنثى .

وحرف (من) على كلا الاحتمالين للابتداء .

والشعوب : جمع شعب بفتح الشين وهو مجمع القبائل التي ترجع إلى جد واحد من أمة مخصوصة وقد يسمى جذماً ، فالأمة العربية تنقسم إلى شعوب كثيرة فمُضر شعب ، وربيعة شعب ، وأنمار شعب ، وإياد شعب ، وتجمعها الأمة العربية المستعربة ، وهي عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام ، وحمير وسبأ ، والأزدُ شعوب من أمة قحطان .

وكنانة وقيس وتميم قبائل من شعب مضر .

ومَذْحج ، وكِنْدَة قبيلتان من شَعب سَبأ .

والأوسُ والخزرج قبيلتان من شَعب الأزد .

وتحت القبيلة العمارة مثل قريش من كِنانة ، وتحت العمارة البطن مثل قصيّ من قريش ،

وتحت البطن الفخِذ مثل هاشم وأمية من قَصي ، وتحت الفخذ الفصيلة مثل أبي طالب والعباس وأبي سفيان .

واقتُصر على ذكر الشعوب والقبائل لأن ما تحتها داخل بطريق لحن الخطاب .

وتجاوز القرآن عن ذكر الأمم جرياً على المتداول في كلام العرب في تقسيم طبقات الأنساب إذ لا يدركون إلا أنسابهم .

وجعلت علة جَعْل الله إياه شعوباً وقبائل .

وحكمتهُ من هذا الجَعل أن يتعارف الناس ، أي يعرِف بعضهم بعضاً .

والتعارف يحصل طبقة بعد طبقة متدرجاً إلى الأعلى ، فالعائلة الواحدة متعارفون ، والعشيرة متعارفون من عائلات إذ لا يخلون عن انتساب ومصاهرة ، وهكذا تتعارف العشائر مع البطون والبطون مع العمائِر ، والعمائِر مع القبائل ، والقبائل مع الشعوب لأن كل درجة تأتلف من مجموع الدرجات التي دونها .

(241/718)

فكان هذا التقسيم الذي ألهمهم الله إياه نظاماً محكماً لربط أواصرهم دون مشقة ولا تعذر فإن تسهيل حصول العمل بين عدد واسع الانتشار يكون بتجزئة تحصيله بين العدد القليل ثم

ببث عمله بين طوائف من ذلك العدد القليل ثم بينه وبين جماعات أكثر .

وهكذا حتى يعم أمة أو يعم الناس كلهم وما انتشرت الحضارات المماثلة بين البشر إلا بهذا الناموس الحكيم .

والمقصود : أنكم حرَّفتم الفطرة وقلبتم الوضع فجعلتم اختلاف الشعوب والقبائلِ بسبب تناكر وتطاحن وعدوان .

ألا ترى إلى قول الفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب:

مهلاً بني عمنا مهلاً موالِينا . . .

لا تَنْبُشوا بيننا ما كان مدفوناً

لا تطمَعوا أن تُهِينُونا ونكرمَكُم . . .

وأن نَكُفَّ الأذى عنكم وتؤذونا

وقول العُقيلي وحاربه بنو عمه فقَتَل منهم:

ونَبكي حين نقتلكم عليكم . . .

ونَقتلكم كأنَّا لا نبالي

وقول الشَّمَيْذَرِ الحارثي:

وقد ساءِني ما جرَّت الحربُ بيننا . . .

بني عَمّنا لو كان أمراً مُدانيا

وأقوالهم في هذا لا تحصر عدا ما دون ذلك من التفاخر والتطاول والسخرية واللمز والنبز وسوء الظن والغيبة مما سبق ذكره .

وقد جبر الله صدع العرب بالإسلام كما قال تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألَّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾ فردهم إلى الفطرة التي فطرهم عليها وكذلك تصاريف الدين الإسلامي ترجع بالناس إلى الفطرة السليمة .

(242/718)

ولما أمر الله تعالى المؤمنين بأن يكونوا إخوة وأن يصلحوا بين الطوائف المتقاتلة ونهاهم عما يثلم الأخوة وما يَغِين على نُورها في نفوسهم من السخرية واللمز والتنابز والظن السوء والتَجسِس والغيبة ، ذكَّرهم بأصل الأخوة في الأنساب التي أكدتها أخوة الإسلام ووحدة الاعتقاد ليكون ذلك التذكير عوناً على تبصرهم في حالهم ، ولما كانت السخرية واللمز والتنابز مما يحمل عليه التنافس بين الأفراد والقبائل جمع الله ذلك كله في هذه الموعظة الحكيمة التي تدل على النداء عليهم بأنهم عَمدوا إلى هذا التشعيب الذي وضعتْه الحكمة الإلهية فاستعملوه في فاسد لوازمه وأهملوا صالح ما جعل له بقوله : ﴿ لتعارفوا ﴾ ثم وأتبعه بقوله : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ أي فإن تنافستم فتنافسوا في التقوى كما

قال تعالى:

﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ [المطففين : 26] .

والخبر في قوله : ﴿ إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ مستعمل كناية عن المساواة في أصل النوع الإنساني ليتوصل من ذلك إلى إرادة اكتساب الفضائل والمزايا التي ترفع بعض الناس على بعض كناية بمرتبتين .

والمعنى المقصود من ذلك هو مضمون جملة ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ فتلك الجملة تتنزل من جملة ﴿ إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ منزلة المقصد من المقدمة والنتيجةِ من القياس ولذلك فصلت لأنها بمنزلة البيان .

وأما جملة ﴿ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾ فهي معترضة بين الجملتين الأخريين .

والمقصود من اعتراضها : إدماج تأديب آخر من واجب بث التعارف والتواصل بين القبائل والأمم وأن ذلك مراد الله منهم .

ومن معنى الآية ما خطب به رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع إذ قال : " يا أيها الناس ألاَ إن ربكم واحد وأن أباكم واحد لا فضل لعَربي على عجمي ولاِ لعجمي على عربي ولا لأسودَ على أحمرَ ولا لأحمرَ على أسود إلا بالتقوى "

ومن نمط نظم الآية وتبيينها ما رواه الترمذي في تفسير هذه الآية قول النبي صلى الله عليه وسلم " إن الله أذهب عنكم عبيّة الجاهلية وفخرها لا لآباء الناس مؤمن تقي أو فاجر شقي أنتم بنو آدم وآدم من تراب " وفي رواية "أن ذلك مما خطب به يوم فتح مكة (عبية بضم العين المهملة وبكسرها وبتشديد الموحدة المكسورة ثم تشديد المثناة التحتية : الكبر والفخر .

ووزنهما على لغة ضم الفاء فُعولة وعلى لغة كسر الفاء فعلية ، وهي إما مشتقة من التعبية فتضعيف الباء لمجرد الإلحاق مثل نضّ الثوب بمعنى نضى أو مشتقة من عباب الماء فالتضعيف في الباء أصلي) .

وفي رواية ابن أبي حاتم بسنده إلى ابن عمر "طاف رسول الله يوم فتح مكة ثم خطبهم في بطن المسيل فذكر الحديث وزاد فيه أن الله يقول : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ إلى ﴿ إن الله عليم خبير ﴾ .

وجملة ﴿ إن أكرمكم عند اللَّه أتقاكم ﴾ مستأنفة استئنافاً ابتدائياً وإنما أخّرت في النظم عن جملة إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، لتكون تلك الجملة السابقة كالتوطئة لهذه وتتنزل منها منزلة المقدمة لأنهم لما تساوَوا في أصل الخلقة من أب واحد وأم واحدة كان الشأن أن لا يفضُل بعضهم بعضاً إلا بالكمال النفساني وهو الكمال

الذي يرضاه الله لهم والذي جعل التقوى وسيلته ولذلك ناط التفاضل في الكرم بـ ﴿ عند الله ﴾ إذ لا اعتداد بكرم لا يعبأ الله به .

والمراد بالأكرم : الأَنْفَس والأَشرَف ، كما تقدم بيانه في قوله : ﴿ إني ألقي إلى كتاب كريم ﴾

في سورة [النمل : 29] .

والأتقى : الأفضل في التقوى وهو اسم تفضيل صيغ من اتَّقى على غير قياس .

(244/718)

وجملة ﴿ إن الله عليم خبير ﴾ تعليل لمضمون ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ أي إنما كان أكرمكم أتقاكم لأن الله عليم بالكرامة الحق وأنتم جعلتم المكارم فيما دون ذلك من البطش وإفناء الأموال في غير وجه وغير ذلك الكرامة التي هي التقوى خبير بمقدار حظوظ الناس من التقوى فهي عنده حظوظ الكرامة فلذلك الأكرم هو الأتقى ، وهذا كقوله : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ [النجم : 32] أي هو أعلم بمراتبكم في التقوى ، أي التي هي التزكية الحق .

ومن هذا الباب قوله : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالاته ﴾ [الأنعام : 124] .

علم أن قوله : ﴿ إن أكرمكم عند الله اتقاكم ﴾ لا ينافي أن تكون للناس مكارم أخرى في المرتبة الثانية بعد التقوى مما شأنه أن يكون له أثر تزكية في النفوس مثل حسن التربية ونقاء النسب والعرافة في العلم والحضارة وحسن السمعة في الأمم وفي الفصائل ، وفي العائلات ، وكذلك بحسب ما خلده التاريخ الصادق للأمم والأفراد فما يترك آثاراً لأفرادها وخلالاً في سلائلها قال النبي صلى الله عليه وسلم " الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا "

فإن في خلق الأنباء آثاراً من طباع الآباء الأدنَيْن أو الأعَلَيْن تكون مهيئة نفوسهم للكمال أو ضده وأن للتهذيب والتربية آثاراً جمّة في تكميل النفوس أو تقصيرها وللعوائد والتقاليد آثارها في الرفعة والضعة وكل هذه وسائل لإعداد النفوس إلى الكمال والزكاء الحقيقي الذي تخططه التقوى .

وجملة ﴿ إن الله عليم خبير ﴾ تذييل ، وهو كناية عن الأمر بتزكية نواياهم في معاملاتهم وما يريدون من التقوى بأن الله يعلم ما في نفوسهم ويحاسبهم عليه .

قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (14)

كان من بين الوفود التي وفدت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنة تسع المسماة سنةَ الوفود ، وفْدُ بني أسدٍ بنِ خُزيمة وكانوا ينزلون بقرب المدينة ، وكان قدومهم المدينة عقب قدوم وفد بني تميم الذي ذُكر في أول السورة ، ووفَدَ بنُو أسد في عدد كثير وفيهم ضِرار بن الأزْوَر ، وطُلَيْحَة بن عبد الله (الذي ادعى النبوءة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أيام الردة) ، وكانت هذه السنة سنة جدب ببلادهم فأسلموا وكانوا يقولون للنبيء صلى الله عليه وسلم أتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها وجئناك بالأثقال والعيال والذراري ولمْ نقاتلك كما قاتلك محارب خَصَفَةَ وهوازنُ وغَطفانَ .

يفدون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويروحون بهذه المقالة ويمنُّون عليه ويريدون أن يَصرف إليهم الصدقات ، فأنزل الله فيهم هذه الآيات إلى آخر السورة لوقوع القصتين قصة وفد بني تميم وقصة وفد بني أسد في أيام متقاربة ، والأغراض المسكوّة بالجَفاء متناسبة .

وقال السدّي : نزلت في الأعراب المذكورين في سورة الفتح (11) في قوله تعالى : ﴿ سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا ﴾ الآية .

قالوا آمنا ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم فلما استنفروا إلى الحديبية تخلفوا فنزلت هذه الآية .

والأعراب : سكان البادية من العَرب .

وأحسب أنه لا يطلق على أهل البادية من غير العرب ، وهو اسم جمع لا مفرد له فيكون الواحد منه بياء النسبة أعرابي .

وتعريف ﴿ الأعراب ﴾ تعريف العهد لإعراب معينين وهم بنو أسد فليس هذا الحكم الذي في الآية حاقاً على جميع سكان البوادي ولا قال هذا القول غير بني أسد .

(246/718)

وهم قالوا آمنا حين كانوا في شك لم يتمكن الإيمان منهم فأنبأهم الله بما في قلوبهم وأعلمهم أن الإيمان هو التصديق بالقلب لا بمجرد اللسان لقصد أن يخلصوا إيمانهم ويتمكنوا منه كما بينه عقب هذه الآية بقوله : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ﴾ الآية .

والاستدراك بحرف (لكن) لرفع ما يتوهم من قوله : ﴿ لم تؤمنوا ﴾ أنهم جاؤوا مضمرين الغدْر بالنبي صلى الله عليه وسلم وإنما قال : ﴿ ولكن قولوا أسلمنا ﴾ تعليماً لهم بالفرق بين الإيمان والإسلام فإن الإسلام مَقرُّه اللسان والأعمالُ البدنية ، وهي قواعد الإسلام الأربعة : الصلاة والزكاة وصيام رمضان وحج الكعبة الوارد في حديث عمر عن سُؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة "الإسلام أن

تشهد أن لا إله إلا الله محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتأتي الزكاة وتصوم رمضان وتحُجّ البيت إن استطعتَ إليه سبيلا" فهؤلاء الأعراب لما جاءوا مظهرين الإسلام وكانت قلوبهم غير مطمئنة لعقائد الإيمان لأنهم حديثو عهد به كذبهم الله في قولهم ﴿ آمنَّا ﴾ ليعلموا أنهم لم يخف باطنهم على الله ، وأنه لا يتعدّ بالإسلام إلا إذا قارنه الإيمان ، فلا يغني أحدهما بدون الآخر ، فالإيمان بدون إسلام عناد ، والإسلام بدون إيمان نفاق ، ويجمعهما طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم

وكان مقتضى ظاهر نظم الكلام أن يقال : قل لم تؤمنوا ولكن أسلمتم ، أو أن يقال : قل لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا ، ليتوافق المستدرك عنه والاستدراك بحسب النظم المتعارف في المجادلات ، فعدل عن الظاهر إلى هذا النظم لأن فيه صراحة بنفي الإيمان عنهم فلا يحسبوا أنهم غالطوا رسول الله صلى الله عليه وسلم

(247/718)

واستغني بقوله : ﴿ لم تؤمنوا ﴾ عن أن يقال : لا تقولوا آمنا ، لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مُؤدّاه النهي عن الإعلان بالإيمان لأنهم مطالبون بأن يؤمنوا ويقولوا آمنا قولا صادقاً لا كاذباً فقيل لهم ﴿ لم تؤمنو ﴾ تكذيباً لهم مع عدم التصريح بلفظ التكذيب ولكن وقع التعريض

لهم بذلك بعد في قوله : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ﴾ إلى قوله : ﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ أي لا أنتم ولذلك جيء بالاستدراك محمولاً على المعنى .

وعدل عن أن يقال : ولكن أسلمتم إلى ﴿ قولوا أسلمنا ﴾ تعريضاً بوجوب الصدق في القول ليطابق الواقع ، فهم يشعرون بأن كذبهم قد ظهر ، وذلك مما يُتعير به ، أي الشأن أن تقولوا قولاً صادقاً .

وقوله : ﴿ ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ واقع موقع الحال من ضمير ﴿ لم تؤمنوا ﴾ وهو مبيّنٌ لمعنى نفي الإيمان عنهم في قوله : ﴿ لم تؤمنوا ﴾ بأنه ليس انتفاء وجود تصديق باللسان ولكن انتفاء رسوخه وعقد القلب عليه إذ كان فيهم بقية من ارتياب كما أشعر به مقابلته بقوله : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ﴾ .

واستعير الدخول في قوله : ﴿ ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ للتمكن وعدم التزلزل لأن الداخل إلى المكان يتمكن ويَسْتقر والخارج عنه يكون سريع المفارقة له مستوفزاً للانصراف عنه .

و(لمّا) هذه أخت (لم) وتدل على أن النفي بها متصل بزمان التكلم وذلك الفارق بينها وبين (لم) أختها .

وهذه الدلالة على استمرار النفي إلى زمن التكلم تؤذن غالباً ، بأن النمفي بها متوقع الوقوع .

قال في "الكشاف" "وما في (لمّا) من معنى التوقع دال على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد" .

وهي دلالة من مستتبعات التراكيب .

وهذا من دقائق العربية .

وخالف فيه أبو حيان والزمخشري حجة في الذوق لا يدانيه أبو حيان ، ولهذا لم يكن قوله : ﴿ ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ تكريراً مع قوله : ﴿ لم يؤمنوا ﴾ .

(248/718)

وقوله : ﴿ وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً ﴾ إرشاد إلى دواء مرض الحال في قلوبهم من ضعف الإيمان بأنه إن يطيعوا الله ورسوله حَصل إيمانهم فإن مما أمر الله به على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم بيان عقائد الإيمان بأن يقبلوا على التعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة إقامتهم بالمدينة عوضاً عن الاشتغال بالمَنّ والتعريض بطلب الصدقات .

ومعنى ﴿ لا يلتكم ﴾ لا يُنقصكم ، يقال : لاته مثل باعه .

وهذا في لغة أهل الحجاز وبني أسد ، ويقال : التَه أَلَتاً مثل : أمره ، وهي لغة غطفان قال تعالى : ﴿ وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ في سورة الطور (21) .

وقرأ بالأولى جمهور القراء وبالثانية أبو عمرو ويعقوب .

ولأبي عمرو في تحقيق الهمزة فيها وتخفيفها ألفا روايتان فالدُّوري روى عنه تحقيق الهمزة والسوسي روى عنه تخفيفها .

وضمير الرفع في ﴿ يلتكم ﴾ عائد إلى اسم الله ولم يقل : لا يَلِتَاكم بضمير التثنية لأنّ الله هو متولي الجزاء دون الرسول صلى الله عليه وسلم

والمعنى : إن أخلصتم الإيمان كما أمركم الله ورسوله تقبَّل الله أعمالكم التي ذكرتم من أنكم جئتم طائعين للإسلام من غير قتال .

وجملة ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ استئناف تعليم لهم بأن الله يتجاوز عن كذبهم إذا تابوا ، وترغيب في إخلاص الإيمان لأن الغفور كثير المغفرة شديدُها ، ومن فرط مغفرته أنه يجازي على الأعمال الصالحة الواقعة في حالة الكفر غيرَ معتدّ بها فإذا آمن عاملها جوزي عليها بمجرد إيمانه وذلك من فرط رحمته بعباده .

وترتيب ﴿ رحيم ﴾ بعد ﴿ غفور ﴾ لأن الرحمة أصل للمغفرة وشأن العلة أن تورد بعد المعلل بها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(249/718)

فائدة

قال التستري :

قوله : ﴿ اجتنبوا كَثِيراً مِّنَ الظن ﴾ [12]

قال : أي لا تطعنوا على أحد بسوء الظن من غير حقيقة .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أكذب الحديث الظن » ثم قال سهل : الظن السيئ من الجهل من نفس الطبع ، وأجهل الناس من قطع على قلبه من غير علم ، فقد قال الله تعالى : ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الذي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِّنَ الخاسرين ﴾ [فصلت : 23] وإن العبد ليحرم الرزق الهني وصلاته بالليل بسوء الظن .

وقد كان رجل من العباد نام ليلة عن ورده ، فجزع عليه ، فقيل : أتجزع على ما تدركه ؟ قال : لست أجزع عليه ، وإنما أجزع على الذنب الذي به صرت محروماً عن ذلك الخير .

فقيل لسهل : ما معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « احترسوا من الناس بسوء الظن » ، فقال : معنى هذا بسوء الظن بنفسك لا بالناس ، أي اتهم نفسك بأنك لا تنصفهم من نفسك في معاملاتهم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ ﴾ [12] قال : أي لا تبحث عن المعائب التي سترها الله على عباده ، فإنك ربما تبتلى بذلك .

وقد حكي عن عيسى عليه السلام أنه كان يقول : لا تكثروا الكلام في غير ذكر الله عزَّ

وجلَّ ، فتقسوا قلوبكم ، فإن القلب القاسي بعيد من الله ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب ، وانظروا إلى أعمالكم كالعبيد ، واعلموا أن الناس مبتلى ومعافى ، فارحموا أهل البلاء وسلوا الله العافية .

قوله : ﴿ وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً ﴾ [12] قال : من أراد أن يسلم من الغيبة فليسد على نفسه باب الظنون ، فإن من سلم من الظن سلم من الغيبة ، ومن سلم من الغيبة سلم من الزور ، ومن سلم من الزور سلم من البهتان .

قال : وقال ابن عباس رضي الله عنهما : للمنافق غيبة ، وليس للفاسق غيبة ، لأن المنافق كتم نفاقه ، والفاسق افتخر بفسقه .

قال : وهذا إنَّما أراد به فيما أظهره من المعاصي ، فأما ما كتمه من المعاصي ففيه غيبة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التستري صـ 149 . 150 ﴾

(250/718)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ﴾

وهذا من أحسن القياس التمثيلي فإنه شبه تمزيق عرض الأخ بتمزيق لحمه ولما كان المرتاب يمزق عرض أخيه في غيبته كان بمنزلة من يقطع لحمه في حال غيبة روحه عنه بالموت ولما كان المغتاب عاجزا عن دفعه عن نفسه بكونه غائبا عن ذمه كان بمنزلة الميت الذي يقطع لحمه ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه ولما كان مقتضى الأخوة التراحم والتواصل والتناصر فعلق عليها المغتاب ضد مقتضاها من الذم والعيب والطعن كان ذلك نظير تقطيع لحم أخيه والأخوة تقتضي حفظه وصيانته والذب عنه ولما كان المغتاب متمتعا بعرض أخيه متفكها بغيبته وذمه متحليا بذلك شبه بآكل لحم أخيه بعد تقطيعه ولما كان المغتاب محبا لذلك معجبا به شبه بمن يحب أن يأكل لحم أخيه ميتا ومحبته لذلك قدر زائد على مجرد أكله كما أن أكله قدر زائد على تمزيقه

فتأمل هذا التشبيه والتمثيل وحسن موقعه ومطابقة المعقول فيه المحسوس وتأمل إخباره عنهم بكراهة أكل لحم الأخ ميتا ووصفهم بذلك في آخر الآية والإنكار عليهم في أولها أن يحب أحدهم ذلك فكما أن هذا مكروه في طباعهم فكيف يحبون ما هو مثله ونظيره فاحتج عليهم بما كرهوه على ما أحبوه وشبه لهم ما يحبونه بما هو أكره شيء إليهم وهم أشد شيء نفرة عنه فلهذا يوجب العقل والفطرة والحكمة أن يكونوا أشد شيء نفرة عما هو نظيره ومشبهه وبالله التوفيق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أعلام الموقعين حـ 1 صـ 169 .

فائدة أخرى

قوله تعالى ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾

فإن قيل : الجنين قبل نفخ الروح فيه هل كان فيه حركة وإحساس أم لا ؟ قيل كان فيه حركة النمو والاغتذاء كالنبات ولم تكن حركة نموه وإغتذائه بالإرادة فلما نفخت فيه الروح انضمت حركة حسيته وإرادته إلى حركة نموه و اغتذائه

فإن قيل : قد ثبت أو الولد يتخلق من ماء الأبوين فهل يتمازجان ويختلطان حتى يصيرا ماء واحدا أو يكون أحدهما هو المادة والآخر بمنزلة الانفحة التي تعقده ؟ قيل هو موضع اختلف فيه أرباب الطبيعة فقالت طائفة منهم : منى الأب لا يكون جزءا من الجنين وإنما هو مادة الروح الساري في الأعضاء وأجزاء البدن كلها من منى الأم ومنهم من قال بل هو ينعقد من منى الأنثى ثم يتحلل ويفسد

قالوا : ولهذا كان الولد جزءا من أمه ولهذا جاءت الشريعة بتبعيته لها في الحرية والرق

قالوا : ولهذا لو نزى فحل رجل على جارية آخر فأولدها فالولد لمالك الأم دون مالك الفحل لأنه تكون من أجزائها ولحمها ودمها وماء الأب بمنزلة الماء الذي يسقي الأرض

قالوا : والحس يشهد أن الأجزاء التي في المولود من أمه أضعاف أضعاف الأجزاء التي فيه من أبيه فثبت أن تكوينه من منى الأم ودم الطمث ومنى الأب عاقد له كالأنفحة

ونازعهم الجمهور وقالوا : إنه يتكون من مني الرجل والأنثى ثم لهم قولان : أحدهما أن يكون من منى الذكر أعضاؤه وأجزاؤه ومن منى الأنثى صورته والثاني أن الأعضاء والأجزاء والصورة تكونت من مجموع الماءين وأنهما امتزجا واختلطا وصارا ماء واحدا وهذا هو الصواب لأننا نجد الصورة والتشكيل تارة إلى الأب وتارة إلى الأم والله أعلم

وقد دل على هذا قوله تعالى ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾

والأصل هو الذكر فمنه البذر ومنه السقي والأنثى وعاء ومستودع لولده تربيه في بطنها كما تربيه في حجرها ولهذا كان الولد للأب حكما ونسبا

(252/718)

وأما تبعيته للأم في الحرية والرق فلأنه إنما تكون وصار ولدا في بطنها وغذته بلبانها مع الجزء الذي فيه منها وكان الأب أحق بنسبه وتعصيبه لأنه أصله ومادته ونسخته وكان أشرفهما دينا أولى به تغليبا لدين الله وشرعه

فإن قيل : فهلا طردتم هذا وقلتم : لو سقط بذر رجل في أرض آخر يكون الزرع لصاحب

الأرض دون مالك البذر ؟

قيل : الفرق بينهما أن البذر مال متقوم في أرض آخر فهو لمالكه وعليه أجرة الأرض أو هو بينهما بخلاف المنى فإنه ليس بمال ولهذا نهى الشارع فيه عن المعارضة واتفق الفقهاء على أن الفحل لو نزا على رمكة كان الولد لصاحب الرمكة

فإن قيل : فهل يتكون الجنين من ماءين وواطئين ؟ قيل : هذه مسألة شرعية كونية والشرع فيها تابع للتكوين وقد اختلف فيها شرعا وقدرا فمنعت ذلك طائفة وأبته كل الاباء وقالت : الماء إذا استقر في الرحم اشتمل عليه وانضم غاية الانضمام بحيث لا يبقى فيه مقدار رسم رأس إبرة إلا انسد فلا يمكن انفتاحه بعد ذلك لماء ثان لا من الواطئ ولا من غيره

قالوا : وبهذا أجرى الله العادة : أن الولد لا يكون إلا لأب واحد كما لا تكون الأم إلا واحدة وهذا هو مذهب الشافعي

وقالت طائفة : بل يتخلق من ماءين فأكثر قالوا : وانضمام الرحم واشتماله على الماء لا يمنع قبوله الماء الثاني فإن الرحم أشوق شيء وأقبله للمنى

قالوا : ومثال ذلك كمثال المعدة فإن الطعام إذا استقر فيها انضمت عليه غاية الانضمام فإذا ورد عليها طعام فوقه انفتحت له لشوقها إليه

قالوا : وقد شهد بهذا القائف بين يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ولد

ادعاه اثنان فنظر إليهما وإليه وقال : ما أراهما إلا اشتركا فيه فوافقه عمر وألحقه بهما ووافقه على ذلك الإمام أحمد ومالك رضي الله عنهما

(253/718)

قالوا : والحسن يشهد بذلك كما ترى في جراء الكلبة والستور تأتي بها مختلفة الألوان لتعدد آبائها وقد قال النبي ؟ [من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسقى ماءه زرع غيره] يريد وطء الحامل من غير الواطىء قال الإمام أحمد : الوطء يزيد في سمع الولد وبصره هذا بعد انعقاده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التبيان فى أقسام القرآن صـ 352.354 ﴾

(254/718)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ﴾ .

هذه الآية الكريمة تدل على أن خلق الناس ابتداؤه من ذكر وأنثى .

وقد دلت آيات أُخر على خلقهم من غير ذلك كقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ .

والجواب واضح وهو أن التراب هو الطور الأول وقد قال تعالى: ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ وقد بين الله أطوار خلق الإنسان من مبدئه إلى منتهاه بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ إلى آخره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 272 ﴾

(255/718)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع عشر بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/719)

الجزء التاسع عشر بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 15 ﴾ من سورة الحجرات

وحتى الآية ﴿ 18 ﴾ آخر السورة

(4/719)

قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (15) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا

فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (16) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (17) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (18) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما نفى عنهم الإيمان ، وكان ربما غلط شخص في نفسه فظن أنه مؤمن ، وليس كذلك ، أخبر بالمؤمن على سبيل الحصر ذاكراً أمارته الظاهرة الباطنة ، وهي أمهات الفضائل : العلم والعفة والشجاعة ، فقال جواباً لمن قال : فمن الذي آمن ؟ عادلاً عن جوابه إلى وصف الراسخ ترغيباً في الاتصاف بوصفه وإيذاناً بأن المخبر عن نفسه بآية إيمانه لا يريد إلا أنه راسخ : ﴿ إنما المؤمنون ﴾ أي العريقون في الإيمان الذي هو حياة القلوب ، قال القشيري : والقلوب لا تحيا إلا بعد ذبح النفوس ، والنفوس لا تموت ولكنها تعيش ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي صدقوا معترفين ﴿ بالله ﴾ معتقدين جميع ما له من صفات الكمال ﴿ ورسوله ﴾ شاهدين برسالته ، وهذا هو المعرفة التي هي العلم ، وغايتها الحكمة ، وهذا الإثبات هنا يدل على أن المنفي فيما قيل الكمال لا المطلق ، وإلا لقال " إنما الذين آمنوا " .

(5/719)

ولما كان هذا عظيماً والثبات عليه أعظم ، وهو عين الحكمة ، أشار إلى عظيم مزية الثبات بقوله : ﴿ ثم ﴾ أي بعد امتطاء هذه الرتبة العظيمة ﴿ لم يرتابوا ﴾ أي ينازعوا الفطرة الأولى في تعمد التسبب إلى الشك ولم يوقعوا الشك في وقت من الأوقات الكائنة بعد الإيمان ، فلا يزال على تطاوله الأمنة وحصول الفتن وصفهم بعد الريب غضاً جديداً ، ولعله عبر بصيغة الافتعال إشارة إلى العفو عن حديث النفس الذي لا يستطيع الإنسان دفع أصله ويكرهه غاية الكراهة ويجتهد في دفعه ، فإذا أنفس المذموم المشي معه والمطاولة منه حتى يستحكم .

ولما ذكر الأمارة الباطنة على وجه جامع لجميع العبادات المالية والبدنية قال :

﴿ وجاهدوا ﴾ أي أوقعوا الجهاد بكل ما ينبغي أن تجهد النفس فيه تصديقاً لما ادعوه بألسنتهم من الإيمان ﴿ بأموالهم ﴾ وذلك هو العفة ﴿ وأنفسهم ﴾ أعم من النية وغيرها ، وذلك هو الشجاعة ، وقدم الأموال لقلتها في ذلك الزمان عند العرب ﴿ في سبيل الله ﴾ أي طريق الملك الأعظم بقتال الكفار وغيره من سائر العبادات المحتاجة إلى المال والنفس لا الذين يتخلفون ويقولون : شغلتنا أموالنا وأهلونا ، قال القشيري : جعل الله الإيمان مشروطاً بخصال ذكرها ، وذكر بلفظ " إنما " وهي للتحقيق ، تقتضي الطرد والعكس ، فمن أفرد الإيمان عن شرائطه التي جعلها له فمردود عليه قوله ، والإيمان للعبد الأمان ، فإيمان لا

يوجب الأمان لصاحبه فخلافه أولى به .

ولما عرف بهم بذكر أمارتهم على سبيل الحصر ، أنتج ذلك حصراً آخر قطعاً لأطماع المدعين على وجه أثنى عليهم فيه بما تعظم المدحة به عندهم ترغيباً في مثل حالهم فقال : ﴿ أولئك ﴾ أي العالو الرتبة الذين حصل لهم استواء الأخلاق والعدل في الدين بجميع أمهات الأخلاق ﴿ هم ﴾ أي خاصة ﴿ الصادقون ﴾ قالاً وحالاً وفعالاً ، وأما غيرهم فكاذب .

(6/719)

ولما كانوا كأنهم يقولون : نحن كذلك ، أمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالإنكار عليهم والتوبيخ لهم دلالة على ما أشار إليه ختام الآية إحاطة علمه الذي تميز به الصادق من غيره من جميع الخلق فقال : ﴿ قل ﴾ أي لهؤلاء الأعراب مجهلاً لهم مبكتاً : ﴿ أتعلمون ﴾ أي أتخبرون إخباراً عظيماً بلغياً ، كأنهم لما آمنوا كان ذلك إعلاماً منهم ، فلما قالوا آمنا كان ذلك تكريراً ، فكان في صورة التعليم ، فبكتهم بذلك ﴿ الله ﴾ أي الملك الأعظم المحيط قدرة وعلماً ﴿ بدينكم ﴾ فلذلك تقولون : آمنا ، ففي ذلك نوع بشرى لهم لأنه أوجد لهم ديناً وأضافه إليهم – قاله ابن برجان .

ولما أنكر عليهم وبكتهم وصل به ما يشهد له فقال : ﴿ والله ﴾ أي والحال أن الملك المحيط بكل شيء ﴿ يعلم ما في السماوات ﴾ كلها على عظمها وكثرة ما فيها ومن فيها .

ولما كان في سياق الرد عليهم والتبكيت لهم كان موضع التأكيد فقال : ﴿ وما في الأرض ﴾ كذلك .

ولما كان المقام للتعميم ، أظهر ولم يضمر لئلا يوهم الاختصاص بما ذكر من الخلق فقال : ﴿ والله ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة ﴿ بكل شيء ﴾ أي مما ذكر ومما لم يذكر ﴿ عليم ﴾ .

ولما كان قولهم هذا صورته صورة المنة ، قال مترجماً له مبكتاً لهم عليه معبراً بالمضارع تصويراً لحاله في شناعته : ﴿ يمنون عليك ﴾ أي يذكرون ذكر من اصطنع عندك صنيعة وأسدى إليك نعمة ، إنما فعلها لحاجتك إليها لا لقصد الثواب عليها ، لأن المن هو القطع – قال في الكشاف : لأنه إنما يسديها إليه ليقطع بها حاجته لا غير ، من غير أن يعمد لطلب مثوبة ، ثم يقال : من عليه ضيعة – إذا اعتده عليه منة وإنعاماً .

ولما كان الإسلام ظاهراً في الدين الذي هو الانقياد بالظاهر مع إذعان الباطن لم يعبر به ، وقال : ﴿ إن أسلموا ﴾ أي أوقعوا الانقياد للأحكام في الظاهر .

ولما كان المن هو القطع من العطاء الذي لا يراد عليه جزاء ، قال : ﴿ قل ﴾ أي في جواب قولهم هذا : ﴿ لا تمنوا ﴾ معبراً بما من المن إشارة إلى أن الإسلام لا يطلب جزاؤه إلا من الله ، فلا ينبغي عده صنيعة على أحد ، فإن ذلك يفسده ﴿ عليّ إسلامكم ﴾ لو فرض أنكم كنتم مسلمين أي متدينين بدين الإسلام الذي هو انقياد الظاهر مع إذعان الباطن ، أي لا تذكروه على وجه الامتنان أصلاً ، فالفعل وهو ﴿ تمنوا ﴾ مضمن " تذكروا " نفسه لا معناه كما تقدم في ﴿ ولتكبروا الله على ما هداكم ﴾ ﴿ بل الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي له المنة على كل موجود ولا منة عليه بوجه ﴿ يمن عليكم ﴾ أي يذكر أنه أسدى إليكم نعمه ظاهرة وباطنة منها ما هو ﴿ أن ﴾ أي بأن ﴿ هداكم للإيمان ﴾ أي بينة لكم أو وفقكم للاهتداء وهو تصديق الباطن مع الانقياد بالظاهر ، والتعبير عن هذا بالمن أحق مواضعه ، فإنه سبحانه غير محتاج إلى عمل فإنه لا نفع يلحقه ولا ضر ، وإنما طلب الأعمال لنفع العاملين أنفسهم ، ومن عليهم بأن أرسل رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فبين لهم فكذبوه بأجمعهم ، فلم يزل يقويه حتى أظهر فيه آية مجده وأظهر دينه على الدين كله ، ودخل فيه الناس طوعاً وكرهاً على وجوه من المجد يعرفها من استحضر السيرة ولا سيما من عرف أمر بني أسد وغطفان الذين نزلت فيهم هذه الآيات ، وكيف كان حالهم في غزوة خيبر وغيره .

ولما كان المراد بهذا تجهيلهم وتعليمهم حقائق الأمور ، لا الشهادة لهم بالهداية ، قال منبهاً على ذلك : ﴿ إن كنتم ﴾ أي كوناً أنتم عريقون فيه ﴿ صادقين ﴾ في ادعائكم ذلك ، فإنه على تقدير الصدق إنما هو بتوفيق الله وهو الذي خلق لكم قدرة الطاعة ، فهو الفاعل في الحقيقة فله المنة عليكم ، قال الأستاذ أبو القاسم القشيري : من لاحظ شيئاً من أعماله وأحواله فإن رآها دون نفسه كان شركاً ، وإن رآها لنفسه كان مكراً ، فكيف يمن العبد بما هو شرك أو مكر ، والذي يجب عليه قبول المنة كيف يرى لنفسه على غيره منة ، هذا لعمري فضيحة ، والمنة تكدر الصنيعة ، إذا كانت من المخلوقين ، وبالمنة تطيب النعمة إذا كانت من قبل الله .

ولما نفى عنهم ما هو باطن ، وختم جدالهم سبحانه بهذه الشرطية ، فكان ربما توهم قاصر النظر جامد الفكر عدم العلم بما هو عليه ، أزال ذلك على وجه عام ، وأكده لذلك فقال : ﴿ إن الله ﴾ أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ يعلم ﴾ أي بطريق ثبوت الصفة وتجريد التعلق واستمراره كلما تجدد محدث أو كان بحيث يتجدد ﴿ غيب السماوات ﴾ أي كلها ﴿ والأرض ﴾ كذلك .

ولما أريد التعميم من غير تقييد بالخافقين أظهر ولم يضمر قوله : ﴿ والله ﴾ أي الذي له الإحاطة بذلك وبغيره مما لا تعلمون ﴿ بصير ﴾ أي عالم أتم العلم ظاهراً وباطناً ﴿ بما تعملون ﴾ من ظاهر إسلامكم وباطن إيمانكم في الماضي والحاضر والآتي سواء كان ظاهراً أو باطناً سواء كان قد حدث فصار بحيث تعلمونه أنتم أو كان مغروزاً في جبلاتكم وهو خفي عنكم - هذا على قراءة الخطاب التفات إليهم لاستنقاذ من توهم منهم هذا التوهم ، وهي أبلغ ، وعلى قراءة ابن كثير بالغيب يكون على الأسلوب الأول مما أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بإبلاغه لهم ، فهو سبحانه عالم بمن انطوى ضميره على الإيمان ، ومن هو متكيف بالكفران ، ومن يموت على ما هو عليه ، ومن يتحول حاله بإبعاد عنه أو جذب إليه ، قال القشيري رحمه الله تعالى : ومن وقف ههنا تكدر عليه العيش إذ ليس يدري ما غيبه فيه ، وفي المعنى قال :

أبكي وهل تدرين ما يبكيني . . .

أبكي حذاراً أن تفارقيني

وتقطعي حبلي وتهجريني . . .

انتهى .

وفي ذلك أعظم زجر وترهيب لمن قدم بين يدي الله ورسوله ولو أن تقدمه في سره .

فإنه لا تهديد أبلغ من إحاطة العلم ، فكأنه قيل : لا تقدموا بين يديه فإن الله محيط العلم فهو يعلم سركم وجهركم ، فقد رجع هذا الآخر إلى الأول ، والتف به التفاف الأصل بالموصل .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 239 . 242 ﴾

(10/719)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

إرشاداً للأعراب الذين قالوا آمنا إلى حقيقة الإيمان فقال إن كنتم تريدون الإيمان فالمؤمنون من آمن بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، يعني أيقنوا بأن الإيمان إيقان ، وثم للتراخي في الحكاية ، كأنه يقول آمنوا ، ثم أقول شيئاً آخر لم يرتابوا ، ويحتمل أن يقال هو للتراخي في الفعل تقديره آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا فيما قال النبي صلى الله عليه وسلم من الحشر والنشر ،

وقوله تعالى : ﴿ وجاهدوا بأموالهم وَأَنفُسِهِمْ ﴾ يحقق ذلك ، أي أيقنوا أن بعد هذه الدار داراً فجاهدوا طالبين العقبى ، وقوله ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الصادقون ﴾ في إيمانهم ، لا الأعراب الذين قالوا قولاً ولم يخلصوا عملاً .

قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (16)

فإنه عالم به لا يخفى عليه شيء ، وفيه إشارة إلى أن الدين ينبغي أن يكون لله وأنتم أظهرتموه لنا لا لله ، فلا يقبل منكم ذلك .

يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (17)

يقرر ذلك ويبين أن إسلامهم لمن يكن لله ، وفيه لطائف الأولى : في قوله تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ ﴾ زيادة بيان لقبيح فعلهم ، وذلك لأن الإيمان له شرفان أحدهما : بالنسبة إلى الله تعالى وهو تنزيه الله عن الشرك وتوحيده في العظمة ، وثانيهما : بالنسبة إلى المؤمن فإنه ينزه النفس عن الجهل ويزينها بالحق والصدق ، فهم لا يطلبون بإسلامهم جانب الله ولا يطلبون شرف أنفسهم بل منوا ولو علموا أن فيه شرفهم لما منوا به بل شكروا .

اللطيفة الثانية : قال : ﴿ قُل لاَّ تَمُنُّواْ عَلَيَّ إسلامكم ﴾ أي الذي عندكم إسلام ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ولكن قُولُواْ أَسْلَمْنَا ﴾ ولم يقل : لم تؤمنوا ولكن أسلمتم لئلا يكون تصديقاً لهم في الإسلام أيضاً كما لم يصدقوا في الإيمان ، فإن قيل لم لم يجز أن يصدقوا في إسلامهم ، والإسلام هو الانقياد ، وقد وجد منهم قولاً وفعلاً وإن لم يوجد اعتقاداً وعلماً وذلك القدر كاف في صدقهم ؟ نقول التكذيب يقع على وجهين أحدهما : أن لا يوجد نفس المخبر عنه وثانيهما : أن لا يوجد كما أخبر في نفسه فقد يقول ما جئتنا بل جاءت بك الحاجة ، فالله تعالى كذبهم في قولهم آمنا على الوجه الأول ، أي ما آمنتم أصلاً ولم يصدقوا في الإسلام على الوجه الثاني فإنهم انقادوا للحاجة وأخذ الصدقة .

اللطيفة الثالثة : قال : ﴿ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ ﴾ يعني لا منة لكم ومع ذلك لا تسلمون رأساً برأس بحيث لا يكون لكم علينا ولا لنا عليكم منة ، بل المنة عليكم ، وقوله تعالى : ﴿ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ ﴾ حسن أدب حيث لم يقل لا تمنوا علي بل لي المنة عليكم حيث بينت لكم الطريق المستقيم ، ثم في مقابلة هذا الأدب قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : 52] .

اللطيفة الرابعة : لم يقل يمن عليكم أن أسلمتم بل قال : ﴿ أَنْ هَدَاكُمْ للإيمان ﴾ لأن إسلامهم كان ضلالاً حيث كان نفاقاً فما منّ به عليهم ، فإن قيل كيف من عليهم بالهداية إلى الإيمان مع أنه بيّن أنهم لم يؤمنوا ؟ نقول الجواب عنه من ثلاثة أوجه أحدها : أنه تعالى لم يقل : بل الله يمن عليكم أن رزقكم الإيمان ، بل قال : ﴿ أَنْ هَدَاكُمْ لإيمان ﴾ وإرسال الرسل بالآيات البينات هداية ثانيها : هو أنه تعالى يمن عليهم بما زعموا ، فكأنه قال أنتم قلتم آمنا ، فذلك نعمة في حقكم حيث تخلصتم من النار ، فقال هداكم في زعمكم ثالثها : وهو الأصح ، هو أن الله تعالى بيّن بعد ذلك شرطاً فقال : ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ .

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (18)

إشارة إلى أنه لا يخفى عليه أسراركم ، وأعمال قلوبكم الخفية ، وقال : ﴿ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يبصر أعمال جوارحكم الظاهرة ، وآخر السورة مع التئامه بما قبله فيه تقرير ما في أول السورة ، وهو قوله تعالى : ﴿ لا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ واتقوا الله ﴾ [الحجرات : 1] فإنه لا يخفى عليه سر ، فلا تتركوا خوفه في السر ولا يخفى عليه علن فلا تأمنوه في العلانية ، والحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 123 . 124 ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾

قوله تعالى : ﴿ إنما ﴾ في هذه الآية حاصرة يعطي ذلك المعنى . وقوله تعالى : ﴿ ثم لم يرتابوا ﴾ أي لم يشكوا في إيمانهم ولم يداخلهم ريب ﴿ وهم الصادقون ﴾ ، إذ جاء فعلهم مصدقاً لقولهم ، ثم أمره تعالى بتوبيخهم بقوله : ﴿ قل أتعلمون الله بدينكم ﴾ ، أي بقولكم : ﴿ آمنا ﴾ [الحجرات : 14] وهو يعلم منكم خلاف ذلك ، لأنه العليم بكل شيء .

وقوله : ﴿ يمنون عليك أن أسلموا ﴾ نزلت في بني أسد أيضاً ، وذلك أنهم قالوا في بعض الأوقات للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا آمنا بك واتبعناك ولم نحاربك كما فعلت محارب خصفة وهوازن غطفان وغيرهم ، فنزلت هذه الآية ، حكاه الطبري وغيره . وقرأ ابن مسعود : " يمنون عليك إسلامهم " . وقوله يحتمل أن يكون مفعولاً صريحاً . ويحتمل أن يكون مفعولاً من أجله .

وقوله : ﴿ بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان ﴾ بزعمكم إذ تقولون آمنا ، فقد لزمكم أن الله مان عليكم ، ويدلك على هذا المعنى قوله : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فتعلق عليهم

الحكمان هم ممنون عليهم على الصدق وأهل أن يقولوا أسلمنا من حيث هم كذبة .

وقرأ ابن مسعود : " إذ هداكم " .

وقوله تعالى : ﴿ يمن عليكم ﴾ يحتمل أن يكون بمعنى : ينعم كما تقول : من الله عليك ، ويحتمل أن يكون بمعنى : يذكر إحسانه فيجيء معادلاً ل ﴿ يمنون عليك ﴾ ، وقال الناس قديماً : إذا كفرت النعمة حسنت المنة . وإنما المنة المبطلة للصدقة المكروهة ما وقع دون كفر النعمة .

وقرأ أبو جعفر ونافع وشيبة وقتادة وابن وثاب : " تعملون " بالتاء على الخطاب . وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية أبان : " يعملون " بالياء من تحت على ذكر الغيب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(14/719)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون الذين آمَنُواْ بالله وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ ﴾

أي صدّقوا ولم يشكّوا وحققوا ذلك بالجهاد والأعمال الصالحة .

﴿ أولئك هُمُ الصادقون ﴾ في إيمانهم ؛ لا من أسلم خوف القتل ورجاء الكسب .

فلما نزلت حلف الأعراب أنهم مؤمنون في السر والعلانية وكذبوا ؛ فنزلت .

﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ ﴾ الذي أنتم عليه .

﴿ واللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ﴾

إشارة إلى قولهم : جئناك بالأثقال والعيال .

و"أن" في موضع نصب على تقدير لأن أسلموا .

﴿ قُل لاَّ تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ ﴾ أي بإسلامكم .

﴿ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ ﴾ "أن" موضع نصب ، تقديره بأن .

وقيل : لأن .

وفي مصحف عبد الله "إِذْ هَدَاكُمْ" .

﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أنكم مؤمنون .

وقرأ عاصم "إِنْ هَدَاكُمْ" بالكسر ؛ وفيه بُعد ؛ لقوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

ولا يقال يَمُنّ عليكم أن يهديكم إن صدقتم .

والقراءة الظاهرة "أَنْ هَدَاكُمْ" .

وهذا لا يدل على أنهم كانوا مؤمنين ، لأن تقدير الكلام : إن آمنتم فذلك مِنّة الله عليكم .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السماوات والأرض واللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ قرأ ابن كثير وابن

مُحَيْصن وأبو عمرو بالياء على الخبر ، ردًّا على قوله : ﴿ قَالَتِ الأعراب ﴾ .

الباقون بالتاء على الخطاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(15/719)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ﴾

قيل : غضب الحارث بن هشام وعتاب بن أسيد حين أذن بلال يوم فتح مكة على الكعبة ، فنزلت .

وعن ابن عباس ، سببها قول ثابت بن قيس لرجل لم يفسح له عند النبي (صلى الله عليه وسلم) : يا ابن فلانة ؛ فوبخه النبي (صلى الله عليه وسلم) وقال له : "إنك لا تفضل أحداً إلا في الدين والتقوى" .

ونزل الأمر بالتفسح في ذلك أيضاً .

﴿ من ذكر وأنثى ﴾ : أي من آدم وحواء ، أو كل أحد منكم من أب وأم ، فكل واحد منكم مساوٍ للآخر في ذلك الوجه ، فلا وجه للتفاخر .

﴿ وجعلناكم شعوباً وقبائل ﴾ : وتقدم الكلام على شيء من ذلك في المفرادت .

وقيل : الشعوب في العجم والقبائل في العرب ، والأسباط في بني إسرائيل .

وقيل : الشعوب : عرب اليمن من قحطان ، والقبائل : ربيعة ومضر وسائر عدنان .

وقال قتادة ، ومجاهد ، والضحاك : الشعب : النسب الأبعد ، والقبيلة : الأقرب ، قال الشاعر :

قبائل من شعوب ليس فيهم . . .

كريم قد يعدّ ولا نجيب

وقيل : الشعوب : الموالي ، والقبائل : العرب .

وقال أبو روق : الشعوب : الذين ينسبون إلى المدائن والقرى ، والقبائل : الذين ينسبون إلى آبائهم . انتهى .

وواحد الشعوب شعب ، بفتح الشين .

وشعب : بطن من همدان ينسب إليه عامر الشعبي من سادات التابعين ، والنسب إلى الشعوب شعوبية ، بفتح الشين ، وهم الأمم التي ليست بعرب .

وقيل : هم الذين يفضلون العجم على العرب ، وكان أبو عبيدة خارجياً شعوبياً ، وله كتاب في مناقب العرب ، ولابن غرسبة رسالة فصيحة في تفضيل العجم على العرب ، وقد رد عليه ذلك علماء الأندلس برسائل عديدة .

وقرأ الجمهور : ﴿ لتعارفوا ﴾ ، مضارع تعارف ، محذوف التاء ؛ والأعمش : بتاءين ؛ ومجاهد ، وابن كثير في رواية ، وابن محيصن : بإدغام التاء في التاء ؛ وابن عباس ، وأبان عن عاصم : لتعرفوا ، مضارع عرف ؛ والمعنى : أنكم جعلكم الله تعالى ما ذكر ، كي يعرف بعضكم بعضاً في النسب ، فلا ينتمي إلى غير آبائه ، لا التفاخر بالآباء والأجداد ، ودعوى التفاضل ، وهي التقوى .

وفي خطبته عليه الصلاة والسلام يوم فتح مكة : " إنما الناس رجلان ، مؤمن تقي كريم على الله ، وفاجر شقي هين على الله " ، ثم قرأ الآية .

وعنه (صلى الله عليه وسلم) : " من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله " وما زال التفاخر بالأنساب في الجاهلية والإسلام ، وبالبلاد ، وبالبلاد وبالمذاهب وبالعلوم وبالصنائع ، وأكثره بالأنساب :

وأعجب شيء إلى عاقل . . .

فروع عن المجد مستأخره

إذا سئلوا ما لهم من علا . . .

أشاروا إلى أعظم ناخره

ومن ذلك : افتخار أولاد مشايخ الزوايا الصوفية بآبائهم ، واحترام الناس لهم بذلك

وتعظيمهم لهم ، وإن كان الأولاد بخلاف الآباء في الدين والصلاح .

وقرأ الجمهور : إن ، بكسر الهمزة ؛ وابن عباس : بفتحها ، وكان قرأ : لتعرفوا ، مضارع عرف ، فاحتمل أن تكون أن معمولة لتعرفوا ، وتكون اللام في لتعرفوا لام الأمر ، وهو أجود من حيث المعنى .

وأما إن كانت لام كي ، فلا يظهر المعنى أن جعلهم شعوباً وقبائل لأن تعرفوا أن الأكرم هو الأتقى .

فإن جعلت مفعول لتعرفوا محذوفاً ، أي لتعرفوا الحق ، لأن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ساغ في لام لتعارفوا أن تكون لام كي .

﴿ قالت الأعراب آمنا ﴾ ، قال مجاهد : نزلت في بني أسد بن خزيمة ، قبيلة تجاور المدينة ، أظهروا الإسلام وقلوبهم دخلة ، إنما يحبون المغانم وعرض الدنيا .

(17/719)

وقيل : مزينة وجهينة وأسلم وأشجع وغفار قالوا آمنا فاستحققنا الكرامة ، فردّ الله تعالى عليهم بقوله : ﴿ قل لم تؤمنوا ﴾ ، أكذبهم الله في دعوى الإيمان ، ولم يصرح بإكذابهم بلفظه ، بل بما دل عليه من انتفاء إيمانهم ، وهذا في أعراب مخصوصين .

فقد قال الله تعالى : ﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ الآية .

﴿ ولكن قولوا أسلمنا ﴾ ، فهو اللفظ الصادق من أقوالكم ، وهو الاستسلام والانقياد ظاهراً ، ولم يواطىء أقوالكم ما في قلوبكم ، فلذلك قال : ﴿ ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ : وجاء النفي بلما الدالة على انتفاء الشيء إلى زمان الإخبار ، وتبين أن قوله : ﴿ لم تؤمنوا ﴾ لا يراد به انتفاء الإيمان في الزمن الماضي ، بل متصلاً بزمان الإخبار أيضاً ، لأنك إذا نفيت بلم ، جاز أن يكون النفي قد انقطع ، ولذلك يجوز أن تقول : لم يقم زيد وقد قام ، وجاز أن يكون النفي متصلاً بزمن الإخبار .

فإذا كان متصلاً بزمن الإخبار ، لم يجز أن تقول : وقد قام ، لتكاذب الخبرين .

وأما لما ، فإنها تدل على نفي الشيء متصلاً بزمان الإخبار ، ولذلك امتنع لما يقم زيد وقد قام للتكاذب .

والظاهر أن قوله : ﴿ لما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ ليس له تعلق بما قبله من جهة الإعراب .

وقال الزمخشري : فإن قلت : هو بعد قوله : ﴿ قل لم تؤمنوا ﴾ يشبه التكرير من غير استقلال بفائدة متجددة ؛ قلت : ليس كذلك ، فإن فائدة قوله : ﴿ لم تؤمنوا ﴾ هو تكذيب دعواهم ، وقوله : ﴿ ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ توقيت لما أمروا به أن يقولوه ، كأنه قيل لهم : ﴿ ولكن قولوا أسلمنا ﴾ حين لم يثبت مواطأة قلوبكم لألسنتكم ، لأنه

كلام واقع موقع الحال من الضمير في قوله : ﴿ قولوا ﴾ . انتهى .

والذي يظهر أنهم أمروا أن يقولوا : ﴿ قولوا أسلمنا ﴾ غير مقيد بحال ، وأن ﴿ ولما يدخل الإيمان ﴾ إخبار غير قيد في قولهم .

وقال الزمخشري : وما في لما من معنى التوقع دال على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد .

(18/719)

انتهى ، ولا أدري من أي وجه يكون ما نفي بلما يقع بعد ولما ، إنما تنفي ما كان متصلاً بزمان الإخبار ، ولا تدل على ما ذكر ، وهي جواب لقد فعل ، وهب أن قد تدل على توقع الفعل .

فإذا نفي ما دل على التوقع ، فكيف يتوهم أنه يقع بعد : ﴿ وإن تطيعوا الله ورسوله ﴾ بالإيمان والأعمال ؟ وهذا فتح لباب التوبة .

وقرأ الجمهور : ﴿ لا يلتكم ﴾ ، من لات يليت ، وهي لغة الحجاز .

والحسن والأعرج وأبو عمرو : ولا يألتكم ، من ألت ، وهي لغة غطفان وأسد .

﴿ ثم لم يرتابوا ﴾ ، ثم تقتضي التراخي ، وانتفاء الريبة يجب أن يقارن الإيمان ، فقيل : من ترتيب الكلام لا من ترتيب الزمان ، أي ثم أقول لم يرتابوا .

وقيل : قد يخلص الإيمان ، ثم يعترضه ما يثلم إخلاصه ، فنفي ذلك ، فحصل التراخي ، أو أريد انتفاء الريبة في الأزمان المتراخية المتطاولة ، فحاله في ذلك كحاله في الزمان الأول الذي آمن فيه .

﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ : أي في قولهم آمنا ، حيث طابقت ألسنتهم عقائدهم ، وظهرت ثمرة ذلك عليهم بالجهاد بالنفس والمال .

وفي سبيل الله يشمل جميع الطاعات البدنية والمالية ، وليسوا كأعراب بني أسد في قولهم آمنا ، وهم كاذبون في ذلك .

﴿ قل أتعلمون الله بدينكم ﴾ ، هي منقولة من : علمت به ، أي شعرت به ، ولذلك تعدّت إلى واحد بنفسها وإلى الآخر بحرف الجر لما ثقلت بالتضعيف ، وفي ذلك تجهيل لهم ، حيث ظنوا أن ذلك يخفى على الله تعالى .

ثم ذكر إحاطة علمه بما في السموات والأرض .

ويقال : منّ عليهم بيد أسداها إليه ، أي أنعم عليه .

المنة : النعمة التي لا يطلب لها ثواب ، ثم يقال : منّ عليه صنعه ، إذا اعتده عليه منة وإنعاماً ، أي يعتدون عليك أن أسلموا ، فإن أسلموا في موضع المفعول ، ولذلك تعدى إليه في قوله : ﴿ قل لا تمنوا عليّ إسلامكم ﴾ .

ويجوز أن يكون أسلموا مفعولاً من أجله ، أي يتفضلون عليك بإسلامهم .

(19/719)

﴿ أن هداكم للإيمان ﴾ بزعمكم ، وتعليق المن بهدايتهم بشرط الصدق يدل على أنهم ليسوا مؤمنين ، إذ قد بين تعالى كذبهم في قولهم آمنا بقوله : ﴿ قل لم تؤمنوا ﴾ .

وقرأ عبد الله وزيد بن عليّ ، إذ هداكم ، جعلا إذ مكان إن ، وكلاهما تعليل ، وجواب الشرط محذوف ، أي ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ ، فهو المانّ عليكم .

وقرأ ابن كثير وأبان عن عاصم : يعلمون ، بياء الغيبة ، والجمهور : بتاء الخطاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(20/719)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّمَا المؤمنون الذين ءامَنُواْ بالله وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ ﴾

لَمْ يشكُّوا ، من ارتابَ مطاوعُ رَابَهُ إذا أوقعَهُ في الشكِّ مع التهمةِ وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّ فيهمْ ما يوجبُ نَفي الإيمانِ عنهُمْ وثُمَّ للإشعارِ بأنَّ اشتراطَ عدمِ الارتيابِ في اعتبارِ الإيمانِ ليسَ في

حالِ إنشائِه فقطْ بلْ وفيما يُستقبلُ فهيَ كمَا في قولِه تعالَى ثم استقامُوا ﴿ وجاهدوا بأموالهم وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ الله ﴾ في طاعتِه عَلى تكثرِ فنونِها من العباداتِ البدنيةِ المحضةِ والماليةِ الصرفةِ والمشتملةِ عليهَما معاً كالحجِّ والجهادِ ﴿ أولئك ﴾ الموصوفونَ بمَا ذكرَ منَ الأوصافِ الجميلةِ ﴿ هُمُ الصادقون ﴾ أي الذينَ صدقُوا في دَعْوى الإيمانِ لا غيرُهم.

رُوِيَ أنَّه لما نزلتْ الآيةُ جاءُوا وحلفُوا أنهم مؤمنونَ صادقونَ فنزلَ لتكذيبِهم قولُه تعالَى: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ الله بِدِينِكُمْ ﴾ أيْ أتخبرونَهُ بذلكَ بقولِكم آمنَّا والتعبيرُ عَنْهُ بالتعليمِ لغايةِ تشنيعِهم ﴿ والله يَعْلَمُ مَا فِى السموات وَمَا فِى الأرض ﴾ حالٌ منْ مفعولِ تعلمونَ مؤكدةٌ لتشنيعِهم، وقولُه تعالَى: ﴿ والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ تذييلٌ مقررٌ لمَا قبلَهُ أيْ مبالغٌ في العلمِ بجميعِ الأشياءِ التي منْ جُملتِها ما أخفَوهُ من الكفرِ عندَ إظهارِهم الإيمانَ وفيهِ مزيدُ تجهيلٍ وتوبيخٍ لهم ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ﴾ أيْ يعدّونَ إسلامَهم منَّةً عليكَ وهيَ النعمةُ التي لا يطلبُ مُوليها ثواباً ممنْ أنعمَ بَها عليهِ من المَنِّ بمَعنى القطعِ لأنَّ المقصودَ بها قطعُ حاجتِه وقيلَ النعمةُ الثقيلةُ من المَنِّ ﴿ قُل لاَّ تَمُنُّواْ عَلَىَّ إسلامكم ﴾ أيْ لا تعدُوا إسلامَكم منَّةً عليَّ أوْ لا تمنُّوا عليَّ بإسلامِكم فنصبَ بنزعِ الخافضِ ﴿ بَلِ الله يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ للايمان ﴾ عَلى ما زعمتُم مَعَ أنَّ الهدايةَ لا تستلزمُ الاهتداءَ وقُرِئَ إنْ هداكُم وإذْ هداكُم ﴿ إن

كُنتُمْ صادقين ﴾ في ادعاءِ الإيمانِ وجوابُه محذوفٌ يدلُّ عليهِ ما قبلَهُ أيْ فللهِ المنةُ عليكُمْ ، وفي سياقِ النظمِ الكريمِ منَ اللطفِ ما لا يَخْفى فإنَّهمُ لمَّا سمَّوا ما صدرَ عنهم إيماناً ومنُّوا بهِ فنُفي كونُهُ إيماناً وسُمّي إسلاماً قيلَ يمنونَ عليكَ بمَا هُو في الحقيقةِ إسلامٌ وليس بجديرٍ بالمَنِّ بلْ لو صحَّ ادعاؤُهم للإيمانِ فلله المنةُ عليهِمْ بالهدايةِ إليهِ لا لهُمْ . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السموات والأرض ﴾ أيْ ما غابَ فيهمَا ﴿ واللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ في سرِّكم وعلانيتِكم فكيفَ يَخْفَى عليهِ ما في ضمائرِكم وقُرِئَ بالياءِ .

عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم " منْ قرأَ سورةَ الحجراتِ أعطيَ من الأجرِ بعددِ منْ أطاعَ اللهَ وعَصَاهُ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(22/719)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّمَا المؤمنون الذين ءامَنُواْ بالله وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ ﴾

لم يشكوا من ارتاب مطاوع رابه إذا أوقعه في الشك مع التهمة وجعل عدم الارتياب متراخياً عن الإيمان مع أنه لا ينفك عنه لإفادة نفي الشك فيما بعد عند اعتراء شبهة كأنه قيل : آمنوا

ثم لم يعترهم ما يعتري الضعفاء بعد حين ، وهذا لا يدل على أنهم كانوا مرتابين أولاً بل يدل على أنهم كما لم يرتابوا أولاً ثم يحدث لهم ارتياب ثانياً ، والحاصل آمنوا ثم لم يحدث لهم ريبة فالتراخي زماني ، وقال بعض الأجلة : عطف عدم الارتياب على الإيمان من باب ﴿ مَلائكته . . .

(23/719)

وجبريل ﴾ [البقرة : 98] تنبيهاً على أنه الأصل في الإيمان فكأنه شيء آخر أعلى منه كائن فيه ، وأوثر ﴿ ثُمَّ ﴾ على الواو للدلالة على أن هذا الأصل حديث وقديمه سواء في القوة والثبات فهو أبداً على طراوته لا أنه شيء واحد مستمر فيكون كالشيء الخلق بل هو متجدد طري حيناً بعد حين ، ولا بأس بأن يجعل ترشيحاً لما دل عليه معنى العطف لما جعل مغايراً نبه على أنه ليس تغاير ما بين الاستمرار والحدوث بل تغاير شيئين مختلفين ليدل على المعنى المذكور وأنهم في زيادة اليقين آناً فآناً ، أما عند من يقول فيه بالقوة والضعف فظاهر ، وأما من لم يقل به فلانضمام العيان إلى البيان ، والفرق بين الاستمرارين أن الاستمرار على الأول استمرار المجموع نحو قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ [فصلت : 30] أي استمر بذلك إيمانهم مع عدم الارتياب ، وعلى الثاني الاستمرار معتبر

في الجزء الأخير ، وهذا الوجه أوجه ، وأياً ما كان ففي الكلام تعريض بأولئك الأعراب ﴿ وجاهدوا بأموالهم وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ الله ﴾ في طاعته عز وجل على تكثر فنونها من العبادات البدنية المحضة والمالية الصرفة والمشتملة عليهما معاً كالحج والجهاد ، وتقديم الأموال على الأنفس من باب الترقي من الأدنى إلى الأعلى ، ويجوز بأن يقال : قدم الأموال لحرص الكثير عليها حتى أنهم يهلكون أنفسهم بسببها مع أنه أوفق نظراً إلى التعريض بأولئك حيث إنهم لم يكفهم أنهم لم يجاهدوا بأموالهم حتى جاؤا وأظهروا الإسلام حباً للمغانم وعرض الدنيا ومعنى ﴿ جاهدوا ﴾ بذلوا الجهد أو مفعوله مقدر أي العدو أو النفس والهوى ﴿ أولئك ﴾ الموصفون بما ذكر من الأوصاف الجميلة ﴿ هُمُ الصادقون ﴾ أي الذين صدقوا في دعوى الإيمان لا أولئك الأعراب .

روي أنه لما نزلت الآية جاؤا وحلفوا أنهم مؤمنون صادقون فنزل لتكذيبهم قوله تعالى :

﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ الله بِدِينِكُمْ ﴾

(24/719)

أي اتخبرونه سبحانه وتعالى بذلك بقولكم ﴿ آمنا ﴾ [الحجرات : 14] فتعلمون من علمت به فلذا تعدى بالتضعيف لواحد بنفسه وإلى الثاني بحرف الجر ، وقيل : إنه تعدى به

لتضمين معنى الإحاطة أو الشعور فيفيد مبالغة من حيث إنه جار مجرى المحسوس وقوله تعالى : ﴿ والله يَعْلَمُ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ حال من مفعول ﴿ تَعْلَمُونَ ﴾ وفيه من تجهيلهم ما لا يخفى ، وقوله سبحانه : ﴿ والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ تذييل مقرر لما قبله أي مبالغ في العلم بجميع الأشياء التي من جملتها ما أخفوه من الكفر عند إظهارهم الإيمان .

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ﴾

أي يعتدون إسلامهم منة عليك وهي النعمة التي لا يطلب موليها ثواباً ممن أنعم بها عليه من المن بمعنى القطع لأن المقصود بها قطع حاجته ، وقال الراغب : هي النعمة الثقيلة من المن الذي يوزن به وثقلها عظمها أو المشقة في تحملها ، ﴿ وَأَنْ أَسْلَمُواْ ﴾ في موضع المفعول ليمنون لتضمينه معنى الاعتداد أو هو بتقدير حرف الجر فيكون المصدر منصوباً بنزع الخافض أو مجروراً بالحرف المقدر أي يمنون عليك بإسلامهم ، ويقال نحو ذلك في قوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ تَمُنُّواْ عَلَيَّ إسلامكم ﴾ فهو إما على معنى لا تعتدوا إسلامكم منة علي أو لا تمنوا علي بإسلامكم ، وجوز أبو حيان أن يكون ﴿ أَنْ أَسْلَمُواْ ﴾ مفعولاً من أجله أي يتفضلون عليك لأجل إسلامهم ﴿ بَلِ الله يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ يُنَادِى للإيمان ﴾ أي ما زعمتم في قولكم ﴿ آمنا ﴾ [الحجرات : 14] فلا ينافي هذا قوله تعالى : ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ﴾ [

الحجرات : 14] أو الهداية مطلق الدلالة فلا يلزم إيمانهم وينافي نفي الإيمان السابق .

وقرأ عبد الله .

(25/719)

وزيد بن علي ﴿ إِذْ هَداكُمْ ﴾ بإذ التعليلية ، وقرىء ﴿ أَنْ هَداكُمْ ﴾ بإن الشرطية ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ أي في ادعاء الإيمان فهو متعلق الصدق لا الهداية فلا تغفل ؛ وجواب الشرط محذوف يدل عليه ما قبله أي فلله المنة عليكم ، ولا يخفى ما في سياق الآية من اللطف والرشاقة ، وذلك أن الكائن من أولئك الأعراب قد سماه الله تعالى إسلاماً إظهاراً لكذبهم في قولهم : آمنا أي أحدثنا الإيمان في معرض الامتنان ونفى سبحانه أن يكون كما زعموا إيماناً فلما منوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان منهم قال سبحانه لرسوله عليه الصلاة والسلام : يعتدون عليك بما ليس جديراً بالاعتداد به من حديثهم الذي حق تسميته أن يقال له إسلام فقل لهم : لا تعتدوا على إسلامكم أي حديثكم المسمى إسلاماً عندي لا إيماناً ، ثم قال تعالى : بل الله يعتد عليكم أن أمدكم بتوفيقه حيث هداكم للإيمان على ما زعمتم ، وفي قوله تعالى : ﴿ إسلامكم ﴾ بالإضافة ما يدل على أن ذلك غير معتد به وأنه شيء يليق بأمثالهم فأنى يخلق بالمنة ، وللتنبيه على أن المراد

بالإيمان الإيمان المعتد به لم يضفه عز وجل ، ونبه سبحانه بقوله جل وعلا : ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ على أن ذلك كذب منهم ، واللطف في تقديم التكذيب ثم الجواب عن المن مع رعاية النكت في كل من ذلك ، وتمام الحسن في التذييل بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السموات والأرض ﴾

أي ما غاب فيهما ﴿ والله بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي في سركم وعلانيتكم فكيف يخفى عليه سبحانه ما في ضمائركم ، وذلك ليدل على كذبهم وعلى اطلاعه عز وجل خواص عباده من نوأتباعه رضي الله تعالى عنهم .

وقرأ ابن كثير .

وأبان ، عن عاصم ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ بياء الغيبة والله تعالى أعلم .

(26/719)

ومن باب الإشارة في بعض الآيات : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ تُقَدّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ الله وَرَسُولِهِ ﴾ [الحجرات : 1] الخ إشارة إلى لزوم العمل بالشرع ورعاية الأدب وترك مقتضيات الطبع ، وقوله تعالى : ﴿ رَّحِيمٌ يا أيها الذين ءامَنُواْ إِن جَاءكُمْ فَاسِقُ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ يشير إلى أنه إن سولت النفس الأمارة بالسوء وجاءت بنبأ شهوة من شهوات الدنيا ينبغي التثبت

للوقوف على ربحها وخسرانها ﴿ إن بَعْدَهَا قَوْماً ﴾ من القلوب وصفاتها ﴿ بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُواْ ﴾ صباح يوم القيامة ﴿ على مَا فَعَلْتُمْ نادمين ﴾ [الحجرات : 6] فإن ما فيه شفاء النفوس وحياتها فيه مرض القلوب ومماتها ﴿ واعلموا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ الله ﴾ [الحجرات : 7] الخ يشير إلى رسول الإلهام الرباني في الأنفس بلهم فجورها وتقواها ، ويشير قوله تعالى : ﴿ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا على الاخرى فقاتلوا التى تَبْغِى حتى تَفِىء إلى أَمْرِ الله ﴾ [الحجرات : 9] إلى أن النفس إذا ظلمت القلب باستيلاء شهواتها يجب أن تقاتل حتى تثخن بالجراحة بسيوف المجاهدة فإن استجابت بالطاعة عفى عنها لأنها هي المطية إلى باب الله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات : 10] إشارة إلى رعاية حق الأخوة الدينية ومنشأ نطفها صلب النبوة وحقيقتها نور الله تعالى فإصلاح ذات بينهم برفع حجب استار البشرية عن وجوه القلوب ليتصل النور بالنور من روزنة القلب فيصيروا كنفس واحدة ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عسى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ ﴾ [الحجرات : 11] يشير إلى ترك الإعجاب بالنفس والنظر إلى أحد بعين الاحتقار فإن الظاهر لا يعبأ به والباطن لا يطلع عليه فرب أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله تعالى لأبره ﴿ قَالَتِ الاعراب ءامَنَّا ﴾ [الحجرات : 14] إلى آخره فيه إشارة إلى أنه

ينبغي ترك رؤية الأعمال والعلم بأن المنة في الهداية لله الملك المتعال ، وفيه إرشاد إلى كيفية مخاطبة الجاهلين والرد على المحجوبين كما سلفت الإشارة إليه ، هذا ونسأل الله تعالى التوفيق لما يرضاه يوم العرض عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(28/719)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ يأَيُّهَا الناس إِنَّا خلقناكم مّن ذَكَرٍ وأنثى ﴾

هما آدم وحوّاء ، والمقصود أنهم متساوون ؛ لاتصالهم بنسب واحد ، وكونه يجمعهم أب واحد وأمّ واحدة ، وأنه لا موضع للتفاخر بينهم بالأنساب ، وقيل المعنى : أن كل واحد منكم من أب وأمّ ، فالكل سواء ﴿ وجعلناكم شُعُوباً وَقَبَائِلَ ﴾ الشعوب : جمع شعب بفتح الشين ، وهو الحيّ العظيم ، مثل : مضر ، وربيعة ، والقبائل دونها كبني بكر من ربيعة ، وبني تميم من مضر .

قال الواحدي : هذا قول جماعة من المفسرين ، سموا شعباً ، لتشعبهم واجتماعهم كشعب أغصان الشجرة ، والشعب من أسماء الأضداد ، يقال شعبته : إذا جمعته ، وشعبته : إذا

فرّقته ، ومنه سميت المنية شعوباً لأنها مفرّقة ، فأما الشعب بالكسر : فهو الطريق في الجبل .

قال الجوهري : الشعب ما تشعب من قبائل العرب والعجم ، والجمع الشعوب .

وقال مجاهد : الشعوب البعيد من النسب ، والقبائل دون ذلك .

وقال قتادة : الشعوب : النسب الأقرب .

وقيل : إن الشعوب : عرب اليمن من قحطان ، والقبائل من ربيعة ، ومضر ، وسائر عدنان .

وقيل : الشعوب : بطون العجم ، والقبائل : بطون العرب .

وحكى أبو عبيد أن الشعب أكثر من القبيلة ، ثم القبيلة ، ثم العمارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة ، ثم العشيرة .

ومما يؤيد ما قاله الجمهور من أن الشعب أكثر من القبيلة قول الشاعر :

قبائل من شعوب ليس فيهم . . . كريم قد يعدّ ولا نجيب

قرأ الجمهور ﴿ لتعارفوا ﴾ بتخفيف التاء ، وأصله : لتتعارفوا ، فحذفت إحدى التاءين .

وقرأ البزّي بتشديدها على الإدغام .

وقرأ الأعمش بتاءين واللام متعلقة بخلقناكم ، أي : خلقناكم كذلك ليعرف بعضكم بعضاً .

وقرأ ابن عباس (لتعرفوا) مضارع عرف .

والفائدة في التعارف أن ينتسب كل واحد منهم إلى نسبه ، ولا يعتري إلى غيره .

(29/719)

والمقصود من هذا أن الله سبحانه خلقهم كذلك ؛ لهذه الفائدة لا للتفاخر بأنسابهم ، ودعوى أن هذا الشعب أفضل من هذا الشعب ، وهذه القبيلة أكرم من هذه القبيلة ، وهذا البطن أشرف من هذا البطن .

ثم علل سبحانه ما يدل عليه الكلام من النهي عن التفاخر ، فقال : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ اللهِ أتقاكم ﴾ أي : إن التفاضل بينكم إنما هو بالتقوى ، فمن تلبس بها فهو المستحق ؛ لأن يكون أكرم ممن لم يتلبس بها ، وأشرف وأفضل ، فدعوا ما أنتم فيه من التفاخر بالأنساب ، فإن ذلك لا يوجب كرماً ، ولا يثبت شرفاً ، ولا يقتضي فضلاً .

قرأ الجمهور ﴿ إن أكرمكم ﴾ بكسر إن .

وقرأ ابن عباس بفتحها ، أي : لأن أكرمكم ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ ﴾ بكل معلوم ، ومن ذلك أعمالكم ﴿ خَبِيرٌ ﴾ بما تسرّون وما تعلنون لا تخفى عليه من ذلك خافية .

ولما ذكر سبحانه أن أكرم الناس عند الله أتقاهم له ، وكان أصل التقوى الإيمان ذكر ما كانت

تقوله العرب من دعوى الإيمان ؛ ليثبت لهم الشرف والفضل ، فقال : ﴿ قَالَتِ الاعراب ءامَنَّا ﴾ وهم بنو أسد أظهروا الإسلام في سنة مجدبة يريدون الصدقة ، فأمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يردّ عليهم ، فقال : ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ﴾ أي : لم تصدقوا تصديقاً صحيحاً عن اعتقاد قلب ، وخلوص نية ، وطمأنينة ﴿ ولكن قُولُواْ أَسْلَمْنَا ﴾ أي : استسلمنا خوف القتل والسبي ، أو للطمع في الصدقة ، وهذه صفة المنافقين ؛ لأنهم أسلموا في ظاهر الأمر ، ولم تؤمن قلوبهم ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمان فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ أي : لم يكن ما أظهرتموه بألسنتكم عن مواطأة قلوبكم ، بل مجرد قول باللسان من دون اعتقاد صحيح ، ولا نية خالصة ، والجملة إما مستأنفة لتقرير ما قبلها ، أو في محل نصب على الحال ، وفي "لمّا" معنى التوقع .

(30/719)

قال الزجاج : الإسلام : إظهار الخضوع ، وقبول ما أتى به النبيّ ، وبذلك يحقن الدم ، فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد وتصديق بالقلب ، فذلك الإيمان وصاحبه المؤمن .

وقد أخرج هؤلاء من الإيمان بقوله : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمان فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ أي : لم تصدّقوا ، وإنما أسلمتم تعوّذاً من القتل ﴿ وَإِن تُطِيعُواْ الله وَرَسُولَهُ ﴾ طاعة صحيحة صادرة عن

نيات خالصة ، وقلوب مصدقة غير منافقة ﴿ لاَ يَلِتْكُمْ مِّنْ أعمالكم شَيْئاً ﴾ يقال لات يلت : إذا نقص ، ولاته يليته ويلوته : إذا نقصه ، والمعنى : لا ينقصكم من أعمالكم شيئاً .

قرأ الجمهور : ﴿ يلتكم ﴾ من لاته يليته كباع يبيعه .

وقرأ أبو عمرو (لا يألتكم) بالهمز من ألته يألته بالفتح في الماضي ، والكسر في المضارع ، واختار قراءة أبي عمرو ، أبو حاتم لقوله : ﴿ وَمَا أَلَتْناهم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ [الطور : 21] وعليها قول الشاعر :

أبلغ بني أسد عني مغلغلة . . . جهر الرسالة لا ألتا ولا كذبا

واختار أبو عبيدة قراءة الجمهور ، وعليها قول رؤبة بن العجاج :

وليلة ذات ندى سريت . . . ولم يلتني عن سراها ليت

وهما لغتان فصيحتان ﴿ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ ﴾ أي : بليغ المغفرة ؛ لمن فرط منه ذنب ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بليغ الرحمة لهم .

(31/719)

ثم لما ذكر سبحانه أن أولئك الذين قالوا آمنا لم يؤمنوا ، ولا دخل الإيمان في قلوبهم ، بيّن المؤمنين المستحقين لإطلاق اسم الإيمان عليهم ، فقال : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون الذين ءامَنُواْ بالله

وَرَسُولِهِ ﴾ يعني : إيماناً صحيحاً خالصاً عن مواطأة القلب واللسان ﴿ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ ﴾ أي : لم يدخل قلوبهم شيء من الريب ، ولا خالطهم شكّ من الشكوك ﴿ وجاهدوا بأموالهم وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ الله ﴾ أي : في طاعته وابتغاء مرضاته ، ويدخل في الجهاد الأعمال الصالحة التي أمر الله بها ، فإنها من جملة ما يجاهد المرء به نفسه حتى يقوم به ويؤدّيه ، كما أمر الله سبحانه ، والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى الجامعين بين الأمور المذكورة ، وهو مبتدأ ، وخبره قوله : ﴿ هُمُ الصادقون ﴾ أي : الصادقون في الاتصاف بصفة الإيمان ، والدخول في عداد أهله ، لا من عداهم ممن أظهر الإسلام بلسانه ، وادّعى أنه مؤمن ، ولم يطمئن بالإيمان قلبه ، ولا وصل إليه معناه ، ولا عمل بأعمال أهله ، وهم الأعراب الذين تقدّم ذكرهم ، وسائر أهل النفاق .

ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يقول لأولئك الأعراب وأمثالهم قولاً آخر لما ادّعوا أنهم مؤمنون ، فقال : ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ الله بِدِينِكُمْ ﴾ التعليم ها هنا بمعنى الإعلام ، ولهذا دخلت الباء في بدينكم ، أي : أتخبرونه بذلك حيث قلتم آمنا ﴿ والله يَعْلَمُ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ فكيف يخفى عليه بطلان ما تدّعونه من الإيمان ، والجملة في محل النصب على الحال من مفعول تعلمون ﴿ والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية ، وقد علم ما تبطنونه من الكفر ، وتظهرونه من الإسلام ؛ لخوف الضرّاء ورجاء النفع .

ثم أخبر الله سبحانه رسوله بما يقوله لهم عند المنّ عليه منهم بما يدّعونه من الإسلام فقال : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ﴾ أي : يعدّون إسلامهم منّة عليك حيث قالوا : جئناك بالأثقال والعيال ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان ﴿ قُل لاَّ تَمُنُّواْ عَلَيَّ إسلامكم ﴾ أي : لا تعدّوه منّة عليّ ، فإن الإسلام هو المنّة التي لا يطلب موليها ثواباً لمن أنعم بها عليه ، ولهذا قال : ﴿ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ للإيمان ﴾ أي : أرشدكم إليه ، وأراكم طريقه سواءً وصلتم إلى المطلوب أم لم تصلوا إليه ، وانتصاب ﴿ إسلامكم ﴾ إما على أنه مفعول به على تضمين يمنّون معنى يعدّون ، أو بنزع الخافض ، أي : لأن أسلموا ، وهكذا قوله : ﴿ أَنْ هَدَاكُمْ للإيمان ﴾ فإنه يحتمل الوجهين ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ فيما تدّعونه ، والجواب محذوف يدلّ عليه ما قبله ، أي : إن كنتم صادقين ، فللّه المنّة عليكم .

قرأ الجمهور ﴿ أن هداكم ﴾ بفتح "أن" ، وقرأ عاصم بكسرها .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السموات والأرض ﴾ أي : ما غاب فيهما ﴿ والله بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ لا يخفى عليه من ذلك شيء ، فهو مجازيكم بالخير خيراً ، وبالشرّ شرّاً .

قرأ الجمهور : ﴿ تعملون ﴾ على الخطاب ، وقرأ ابن كثير على الغيبة .

وقد أخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الدلائل عن ابن أبي مليكة قال : لما كان يوم الفتح رقى بلال فأذن على الكعبة ، فقال بعض الناس : أهذا العبد الأسود يؤذن على ظهر الكعبة .

وقال بعضهم : إن يسخط الله هذا يغيره ، فنزلت : ﴿ يأَيُّهَا الناس إِنَّا خلقناكم مّن ذَكَرٍ وأنثى ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه .

(33/719)

وأخرج أبو داود في مراسيله ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه عن الزهري قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بني بياضة أن يزوّجوا أبا هند امرأة منهم ، فقالوا : يا رسول الله ، أنزوّج بناتنا موالينا ؟ فنزلت هذه الآية .

وأخرج ابن مردويه عن عمر بن الخطاب أن هذه الآية : ﴿ يأَيُّهَا الناس إِنَّا خلقناكم مّن ذَكَرٍ وأنثى ﴾ هي مكية ، وهي للعرب خاصة الموالي ، أي : قبيلة لهم ، وأي شعاب ، وقوله : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ الله أتقاكم ﴾ فقال : أتقاكم للشرك .

وأخرج البخاري ، وابن جرير عن ابن عباس قال : الشعوب : القبائل العظام ، والقبائل :

البطون .

وأخرج الفريابي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه قال : القبائل : الأفخاذ ، والشعوب : الجمهور مثل مضر .

وأخرج البخاري ، وغيره عن أبي هريرة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أيّ الناس أكرم ؟ قال : " أكرمهم عند الله أتقاهم " قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : " فأكرم الناس يوسف نبيّ الله ابن نبيّ الله ابن نبيّ الله ابن خليل الله " قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : " فعن معادن العرب تسألوني " ؟ قالوا : نعم ، قال : " خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا " وقد وردت أحاديث في الصحيح ، وغيره أن التقوى هي التي يتفاضل بها العباد .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ قَالَتِ الأعراب ءامَنَّا ﴾ قال : أعراب بني أسد ، وخزيمة ، وفي قوله : ﴿ ولكن قُولُواْ أَسْلَمْنَا ﴾ مخافة القتل والسبي .

وأخرج ابن جرير عن قتادة أنها نزلت في بني أسد .

وأخرج ابن المنذر ، والطبراني ، وابن مردويه قال السيوطي : بسند حسن عن عبد الله بن أبي أوفى : أن ناساً من العرب قالوا : يا رسول الله ، أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ، فأنزل الله : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ﴾ .

وأخرج النسائي ، والبزار ، وابن مردويه عن ابن عباس نحوه ، وذكر أنهم بنو أسد . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 67. 69 ﴾

(34/719)

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عسى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عسى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ ﴾

قوله : ﴿ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾ أي لا يستخفوا ولا يستهزؤوا بهم ، والعرب تقول : سخر منه بكسر الخاء ، يسخر بفتح الخاء على القياس ، أذا استهزأ به واستخف .

وقد نهى الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة عن السخرية من الناس ، مبيناً أن المسخور منه قد يكون خيراً من الساخر .

ومن أقبح القبيح استخاف الدنيئ الأرذل بالأكرم الأفضل ، واستهزؤاه به .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من النهي عن السخرية جاء ذم فاعله وعقوبته عند الله في غير هذا الموضع كقوله تعالى : ﴿ الذين يَلْمِزُونَ المطوعين مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ الله مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة

: 79] .

وقد بين تعالى أن الكفار المترفين في الدنيا كانوا يسخرون من ضعاف المؤمنين في دار الدنيا ، وأن أولئك يسخرون من الكفار يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الحياة الدنيا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الذين آمَنُواْ والذين اتقوا فَوْقَهُمْ يَوْمَ القيامة ﴾ [البقرة : 212] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ الذين آمَنُواْ يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ [المطففين : 29 – 30] إلى قوله تعالى : ﴿ فاليوم الذين آمَنُواْ مِنَ الكفار يَضْحَكُونَ عَلَى الأرآئك يَنظُرُونَ هَلْ ثُوِّبَ الكفار مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [المطففين : 34 – 36] .

فلا ينبغي لمن رأى سملماً في حالة رثة تظهر بها عليه آثار الفقر والضعف أن يسخر منه لهذه الآيات التي ذكرنا .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تلمزوا أَنفُسَكُمْ ﴾ .

(35/719)

أي لا يلزم أحدكم أخاه كما تقدم إيضاحه في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا القرآن يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : 9] .

وقد أوعد الله جل وعلا الذين يلمزون الناس في قوله ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ [الهمزة :

1] ، والهمزة كثير الهمز للناس ، واللمز كثير اللمز .

وقال بعض العلماء : الهمز يكون بالفعل كالغمز بالعين احتقاراً وازدراء ، واللمز باللسان ، وتدخل فيه الغيبة .

وقد صرح الله تعالى بالنهي عن ذلك في قوله : ﴿ وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضا ﴾ [الحجرات : 12] ونفر عنه غاية التنفير في قوله تعالى ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ [الحجرات : 12] فيجب على المسلم أن يتباعد كل التباعد من الوقوع في عرض أخيه .

قوله تعالى ﴿ يا أيها الناس إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه خلق الناس من ذكر وأنثى ، ولم يبين هنا كيفية خلقه للذكر والأنثى المذكورين ولكنه بين ذلك في مواضع أخر من كتاب الله .

فبين أنه خلق ذلك الذكر الذي هو آدم من تراب ، وقد بين الأطوار التي مر بها ذلك التراب ، كصيرورته طيناً لازباً وحماً مسنوناً وصلصالاً كالفخار .

وبين أنه خلق تلك الأنثى التي هي حواء من ذلك الذكر الذي هو آدم فقال في سورة النساء : ﴿ يا أيها الناس اتقوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَآءً ﴾ [النساء : 1] وقال تعالى في الأعراف ﴿ هُوَ الذي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف : 189] وقال تعالى : في

الزمر ﴿ خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الزمر : 6] .

وقد قدمنا أنه خلق نوع الإنسان على أربعة أنواع مختلفة :

(36/719)

الأول منها : خلقه لا من أنثى ولا من ذكر وهو آدم عليه السلام .

والثاني : خلقه من ذكر بدون أنثى وهو حواء .

والثالث : خلقه من أنثى بدون ذكر وهو عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام .

الرابع : خلقه من ذكر وأنثى وهو سائر الآدميين ، وهذا يدل على كمال قدرته جل وعلا .

مسألة قد دلت هذه الآيات القرآنية المذكورة على أن المرأة الأولى كان وجودها الأول مستنداً إلى وجود الرجل وفرعاً عنه .

وهذا أمر كوني قدري من الله ، أنشأ المرأة في إيجادها الأول عليه .

وقد جاء الشرع الكريم المنزل من الله ليعمل به في أرضه بمراعاة هذا الأمر الكوني القدري في حياة المرأة في جميع النواحي .

فجعل الرجل قائماً عليها وجعلها مستندة إليه في جميع شؤونها كما قال تعالى : ﴿ الرجال قَوَّامُونَ عَلَى النسآء ﴾ [النساء : 34] .

فمحاولة استواء المرأة مع الرجل في جميع نواحي الحياة لا يمكن أن تتحقق لأن الفوارق بين النوعين كوناً وقدراً أولاً ، وشرعاً منزلاً ثانياً ن تمنع من ذلك منعاً باتاً .

ولقوة الفوارق الكونية والقدرية والشرعية بين الذكر والأنثى ، صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لعن المتشبه من النوعين بالآخر .

ولا شك أن سبب هذا اللعن هو محاولة من أراد التشبه منهم بالآخر ، لتحطيم هذه الفوارق التي لا يمكن أن تتحطم .

وقد ثبت في صحيح البخاري من حيدث ابن عباس رضي الله عنهما قال : " لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المشتبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال " وقد قدمنا هذا الحديث بسنده في سورة بني إسرائيل ، وبينا هناك أن من لعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو ملعون في كتاب الله ، فلو كانت الفوارق بين الذكر والأنثى يمكن تحطيمها وإزالتها لم يستوجب من أراد ذلك اللعن من الله ورسوله .

(37/719)

ولأجل تلك الفوارق العظيمة الكنوية القدرية بين الذكر والأثنى فرق الله جل وعلا بينهما في الطلاق ، فجعله بيد الرجل دون المرأة ، وفي الميراث ، وفي نسبة الأولاد إليه .

وفي تعدد الزوجات دون الأزواج: صرح بأن شهادة امرأتين بمنزلة شهادة رجل واحد في قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وامرأتان ﴾ [البقرة: 282] الآية، فالله الذي خلقهما لا شك أنه أعلم بحقيقتهما، وقد صرح في كتابه بقيام الرجل مقام امرأتين في الشهادة.

وقد قال تعالى: ﴿ أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الأنثى تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضيزى ﴾ [النجم: 21 - 22] أي غير عادلة لعدم استواء النصيبين لفضل الذكر على الأنثى.

ولذلك: وقعت امرأة عمران في مشكلة لما وردت مريم، كما قال تعالى عنها: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أنثى والله أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذكر كالأنثى ﴾ [آل عمران: 36] الآية.

فامرأة عمران تقول: ﴿ وَلَيْسَ الذكر كالأنثى ﴾، وهي صادقة في ذلك بلا شك.

والكفرة وأتباعهم يقولون: إن الذكر والأنثى سواء.

ولا شك عند كل عاقل في صدق هذه السالبة وكذب هذه الموجبة.

وقد أوضحنا في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هذا القرآن يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: 9] وجه الحكمة في جعل الطلاق بيد الرجل وتفضيل الذكر على الأنثى في الميراث وتعدد الزوجات، وكون الولد ينسب إلى الرجل، وذكرنا طرفاً من ذلك في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة:

228] وبينا أن الفوارق الطبيعية بينهما كون الذكورة شرفاً وكمالاً وقوة طبيعية خلقية ، وكون الأنوثة بعكس ذلك .

(38/719)

وبينا أن العقالاء جميعاً مطبقون على الاعتراف بذلك ، وأن من أوضح الأدلة التي بينها القرآن على ذلك اتفاق العقلاء على أن الأنثى من حين نشأتها تجلى بأنواع الزينة من حلي وحلل ، وذلك لجبر النقص الجبلي الخلقي الذي هو الأنوثة كما قال الشاعر :

وما الحلي إلا زينة من نقيصة . . . يتمم من حسن إذا الحسن قصرا

وقد بينا أن الله تعالى أوضح هذا بقوله : ﴿ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الحلية وَهُوَ فِي الخصام غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [الزخرف : 18] ، فأنكر على الكفار أنهم مع ادعاء الولد له تعالى جعلوا له أنقص الولدين وأضعفهما خلقة وجبلة وهو الأنثى .

ولذلك نشأت في الحلية من صغرها ، لتغطية النقص الذي هو الأنوثة وجبره بالزنية ، فهو في الخصام غير مبين .

لأن الأنثى لضعفها الخلقي الطبيعي لا تقدر أن تبين في الخصام إبانة الفحول الذكور ، إذا اهتضمت وظلمت لضعفها الطبيعي .

وإنكار الله تعالى على الكفار انهم مع ادعائهم له الولد جعلوا له أنقص الولدين وأضعفهما كثير في القرآن كقوله تعالى : ﴿ أَصْطَفَى البنات على البنين مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [الصافات : 153 - 154] وقوله : ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بالبنين واتخذ مِنَ الملائكة إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً ﴾

[الإسراء : 40] وقوله تعالى : ﴿ لَّوْ أَرَادَ الله أَن يَتَّخِذَ وَلَداً لاصطفى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الزمر : 4] والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

وأما الذكر فإنه لا ينشأ في الحلية ، لأن كمال ذكورته وشرفها وقوتها الطبيعية التي لا يحتاج معه إلى التزين بالحلية التي تحتاج إليه الأنثى ، لكماله بذكورته ونقصها بأنوثتها .

(39/719)

ومما لا نزاع فيه بين العقلاء أن الذكر والأنثى إذا تعاشرا المعاشرة البشرية الطبيعية التي لا بقاء للبشر دونها ، فإن المرأة تتأثر بذلك تأثراً طبيعياً كونياً قدرياً مانعاً لها من مزاولة الأعمال كالحمل والنفاس وما ينشأ عن ذلك من الضعف والمرض والألم .

بخلاف الرجل فإنه لا يتأثر بشيء من ذلك ، ومع هذه الفوارق لا يتجرأ على القول بمساواتهما في جميع الميادين إلا مكابر في المحسوس ، فلا يدعو إلى المساواة بينهما إلا من

أعمى الله بصيرته .

وقد قدمنا في الموضعين اللذين أشرنا لهما من هذا الكتاب المبارك ما يكفي المنصف ، فأغنى عن إعادته هنا .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتعارفوا ﴾

لما كان قوله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى ﴾ يدل على استواء الناس في الأصل ، لأن أباهم واحد وأمهم واحدة وكان في ذلك أكبر زاجر عن التفاخر بالأنساب وتطاول بعض الناس على بعض ، بين تعالى أنه جعلهم شعوباً وقبائل لأجل أن يتعارفوا أي يعرف بعضهم بعضاً ، ويتميز بعضهم عن بعض لا لأجل أن يفتخر بعضهم على بعض ويتطاول عليه .

وذلك يدل على أن كون بعضهم أفضل من بعض وأكرم منه إنما يكون بسبب آخر غير الأنساب .

وقد بين الله ذلك هنا بقوله : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُم ﴾ فاتضح من هذا أن الفضل والكرم إنما هو بتقوى الله لا بغيره من الانتساب إلى القبائل ، ولقد صدق من قال :

فقد رفع الإسلام سلمان فارس . . . وقد وضع الكفر الشريف أبا لهب

وقد ذكروا أن سلمان رضي الله عنه كان يقول :

أبي الإسلام لا أب ليس سواه . . . إذا افتخروا بقيس أو تميم

وهذه الآيات القرآنية ، تدل على أن دين الإسلام سماوي صحيح ، لا نظر فيه إلى الألوان ولا إلى العناصر ، ولا إلى الجهات ، وإنما المعتبر فيه تقوى الله جل وعلا وطاعته ، فأكرم الناس وأفضلهم أتقاهم لله ، ولا كرم ولا فضل لغير المتقي ، ولو كان رفيع النسب .

(40/719)

والشعوب جمع شعب ، وهو الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب وهي :

الشعب ، والقبيلة ، والعمارة ، والبطن ، والفخذ ، والفصيلة .

فالشعب يجمع القبائل ، والقبيلة تجمع العمائر ، والعمارة تجمع البطون ، والبطن يجمع الأفخاذ والفخذ يجمع الفصائل .

خزيمة شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة ، وقصي بطن ، وهاشم فخذ ، والعباس فصيلة :

وسميت الشعوب ، لأن القبائل تتشعب منها . اه .

ولم يذكر من هذه الست في القرآن إلا ثلاث الشعوب ، والقبائل كما في هذه الآياة ، والفصيلة في المعارج في قوله : ﴿ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴾ [المعارج : 13] وقد قدمنا ما دلت عليه هذه الآيات موضحاً في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا القرآن

يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : 9] .

واعلم أن العرب قد تطلق بعض هذه الست على بعض كإطلاق البطن على القبيلة في قول الشاعر :

وإن كلابا هذه عشر أبطن . . . وأنت بريء من قبائلها العشر

كما قدمناه في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى : ﴿ ثَلاَثَةَ قروء ﴾ [البقرة : 228] .

قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الأعراب آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ولكن قولوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمان فِي قُلُوبِكُم ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن هؤلاء الأعراب وهم أهل البادية من العرب قالوا ءامنا ، وأن الله جل وعلا أمر نبيه أن يقول لهم : ﴿ لَّمْ تُؤْمِنُواْ ولكن قولوا أَسْلَمْنَا ﴾ ، وهذا يدل على نفي الإيمان عنهم وثبوت الإسلام لهم

وذلك يستلزم أن الإيمان أخص من الإسلام لأن نفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم .

(41/719)

وقد قدمنا مراراً أن مسمى الإيمان الشرعي الصحيح ، والإسلام الشرعي الصحيح هو استسلام القلب الاعتقاد واللسان بالإقرار ، والجوارح باعلم ، فمؤداهما واحد كما يدل له قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ المؤمنين فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ المسلمين ﴾ [الذاريات : 35 – 36] .

وإذا كان ذلك كذلك فإنه يحتاج إلى بيان وجه الفرق بين الإيمان والإسلام في هذه الآية الكريمة ، لأن الله نفى عنهم الإيمان دون الإسلام ، ولذلك وجهان معروفان عند العلماء أظهرهما عندي أن الإيمان المنفى عنهم في هذه الآية هو مسماه الشرعي الصحيح ، والإسلام المثبت لهم فيها هو الإسلام اللغوي الذي هو الاستسلام والانقياد بالجوارح دون القلب .

وإما ساغ إطلاق الحقيقة اللغوية هنا على الإسلام مع أن الحقيقة الشرعية مقدمة على اللغوية على الصحيح ، لأن الشرع الكريم جاء باعتبار الظاهر . وأن توكل السرائر إلى الله . فانقياد الجوارح في الظاهر بالعمل واللسان بالإقرار يكتفي به شرعاً ، وإن كان القلب منطوياً على الكفر .

ولهذا ساغ إرادة الحقيقة اللغوية في قوله : ﴿ ولكن قولوا أَسْلَمْنَا ﴾ ، لأن انقياد اللسان والجوارح في الظاهر إسلام لغوي مكتفى به شرعاً عن التنقيب عن القلوب .

وكل انقياد واستسلام وإذعان يسمى إسلاماً لغة . ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل العدوي

مسلم الجاهلية :

وأسلمت وجهي لمن أسلمت . . . له الأرض تحمل صخراً ثقالاً

دحاها فلما استوت شدها . . . جميعاً وأرسى عليها الجبالا

وأسلمت وجهي لمن أسلمت . . . له المزن تحمل عذباً زلالا

إذ هي سقيت إلى بلدة . . . أطاعت صبت عليها سجالا

وأسلمت وجهي لمن أسلمت . . . له اليح تصرف حالاً فحالا

فالمراد بالإسلام في هذه الأبيات : الاستسلام والانقياد ، وإذا حمل الإسلام في قوله : ﴿ ولكن قولوا أَسْلَمْنَا ﴾ أنقذنا واستسلمنا بالألسنة والجوارح . فلا إشكال في الآية .

(42/719)

وعلى هذا القول فالأعراب المذكورون منافقون ، لأنهم مسلمون في الظاهر ، وهم كفار في الباطن .

الوجه الثاني : أن المراد بنفي الإيمان في قوله : ﴿ لَّمْ تُؤْمِنُواْ ﴾ نفي كمال الإيمان ، لا نفيه من أصله .

وعليه فلا إشكال أيضاً ، لأنهم مسلمون مع أن إيمانهم غير تام ، وهذا لا إشكال فيه عند

أهل السنة والجماعة القائلين بأن الإيمان يزيد وينقص .

وإنما استظهرنا الوجه الأول ، وهو أن المراد الإسلام معناه اللغوي دون الشرعي ، وأن الأعراب المذكورين كفار في الباطن وإن أسلموا في الظاهر ، لأن قوله جل وعلا : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمانُ فِي قُلُوبِكُم ﴾ يدل على ذلك دلالة كما ترى ، لأن قوله : ﴿ يَدْخُل ﴾ فعل في سياق النفي وهو من صيغ العموم كما أوضحناه مراراً ، وإليه الإشارة بقول صاحب مراقي السعود :

ونحو لا شربت أو إن شربا . . . واتفقوا إن مصدر قد جلبا

فقوله : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمانُ فِي قُلُوبِكُم ﴾ : في معنى لا دخول للإيمان في قلوبكم .

والذين قالوا بالثاني . قالوا : إن المراد بنفي دخوله نفي كماله ، والأول أظهر كما ترى .

وقوله تعالى : في هذه الآية الكريمة : ﴿ قَالَتِ الأعراب ﴾ : المراد به بعض الأعراب ، وقد استظهرنا لهم منافقون لدلالة القرآن على ذلك ، وهم من جنس الأعراب الذين قال الله فيهم : ﴿ وَمِنَ الأعراب مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدوائر ﴾ [التوبة : 98] ، وإنما قلنا إن المراد بعض الأعرابب في هذه الآية ، لأن الله بين في موضع آخر أن منهم من ليس كذلك ، وذلك في قوله تعالى ﴿ وَمِنَ الأعراب مَن يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخر وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ الله وَصَلَوَاتِ الرسول ألا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ الله فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : 99] .

قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (16)

لما قال هؤلاء الأعراب : آمنا ، وأمر الله نبيه أن يكذبهم في قوله ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا ﴾ [الحجرات : 14] وقوله : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات : 14] أمر نبيهم أن يقول لهم بصيغ الإنكار : ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ ﴾ [الحجرات : 17] وذلك بادعائكم أنكم مؤمنون والله لا يخفى عليه شيء من حالكم ، وهو عالم بأنكم لم تؤمنوا وعالم بكل ما في السموات والأرض وعالم بكل شيء .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تقبيح تزكية النفس بالكذب جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ [النجم : 32] والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (18)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة هود في الكلام على قوله تعالى ﴿ أَلاَ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ

صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ [هود : 5] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(44/719)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

هذا تعليل لقوله : ﴿ لم تؤمنوا ﴾ إلى قوله : ﴿ في قلوبكم ﴾ وهو من جملة ما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقوله للأعراب ، أي ليس المؤمنون إلا الذين آمنوا ولم يخالط إيمانهم ارتياب أو تشكك .

و(إنما) للحصر ، و (إنّ) التي هي جُزء منها مفيدة أيضاً للتعليل وقائمة مقام فاء التفريع ، أي إنما لم تكونوا مؤمنين لأن الإيمان ينافيه الارتياب .

والقصر إضافي ، أي المؤمنون الذين هذه صفاتهم غير هؤلاء الأعراب .

فأفاد أن هؤلاء الأعراب انتفى عنهم الإيمان لأنهم انتفى عنهم مجموع هذه الصفات .

وإذ قد كان القصر إضافياً لم يكن الغرض منه إلاّ إثبات الوصف لغير المقصور لإخراج المتحدث عنهم عن أن يكونوا مؤمنين ، وليس بمقتض أن حقيقة الإيمان لا تتقوم إلا بمجموع

تلك الصفات لأن عد الجِهاد في سبيل الله مع صفتي الإيمان وانتفاء الريب فيه يمنع من ذَلك لأن الذي يقعُد عن الجهاد لا ينتفي عنه وصف الإيمان إذ لا يكفَّر المسلم بارتكاب الكبائر عند أهل الحق .

وما عداه خطأ واضح ، وإلا لانتقضت جامعة الإسلام بأسرها إلا فئة قليلة في أوقات غير طويلة .

والمقصود من إدماج ذكر الجهاد التنويه بفضل المؤمنين المجاهدين وتحريض الذين دخلوا في الإيمان على الاستعداد إلى الجهاد كما في قوله تعالى : ﴿ قل للمخلفين من الأعراب ستُدْعَون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يُسلمون ﴾ الآية [الفتح : 16] .

و(ثم) من قوله : ﴿ ثم لم يرتابوا ﴾ للتراخي الرتبي كشأنها في عطف الجمل .

ففي (ثم) إشارة إلى أن انتفاء الارتياب في إيمانهم أهم رتبةً من الإيمان إذ به قوامُ الإيمان ، وهذا إيماء إلى بيان قوله : ﴿ ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ [الحجرات : 14] ، أي من أجل ما يخالجكم ارتياب في بعض ما آمنتم به مما اطلّع الله عليه .

(45/719)

وقوله : ﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ قصر ، وهو قصر إضافي أيضاً ، أي هم الصادقون لا أنتم في قولكم ﴿ آمناً ﴾ .

قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (16)

أعيد فعل ﴿ قل ﴾ ليدل على أن المقول لهم هذا هم الأعراب الذين أمر أن يقول لهم ﴿ لم تؤمنوا ﴾ إلى آخره ، فأعيد لَمَّا طال الفصل بين القولين بالجمل المتتابعة ، فهذا متصل بقوله : ﴿ ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ اتصالَ البيان بالمبين ، ولذلك لم تعطف جملة الاستفهام .

وجملة ﴿ قل ﴾ معترضة بين الجملتين المبيِّنة والمبَيَّنة .

قيل : إنهم لَمَّا سمعوا قوله تعالى : ﴿ قل لم تؤمنوا ﴾ الآية جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وحلَفوا أنهم مؤمنون فنزل قوله : "قل أتعلمون الله بدينكم ولم يرو بسند معروف وإنما ذكره البغوي تفسيراً ولو كان كذلك لوبَّخهم الله على الأيمان الكاذبة كما وبَّخ المنافقين في سورة براءة (42) بقوله ﴿ وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يُهلكون أنفسهم ﴾ الآية .

ولم أر ذلك بسند مقبول ، فهذه الآية مما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقوله لهم .

والتعليم مبالغة في إيصال العلم إلى المعلَّم لأن صيغة التفعيل تقتضي قوة في حصول الفعل

كالتفريق والتفسير ، يقال : أعْلَمَهُ وعلّمه كما يقال : أنباه ونَبَّأه .

وهذا يفيد أنهم تكلفوا وتعسفوا في الاستدلال على خلوص إيمانهم ليقنعوا به الرسول صلى الله عليه وسلم الذي أبلغهم أن الله نفى عنهم رسوخ الإيمان بمحاولة إقناعه تدل إلى محاولة إقناع الله بما يعلم خلافه .

وباء ﴿ بدينكم ﴾ زائدة لتأكيد لصوق الفعل بمفعوله كقوله تعالى : ﴿ وامسحوا برؤوسكم ﴾ وقول النابغة:

لك الخيران وارتْ بك الأرض واحداً . . .

(46/719)

والاستفهام في ﴿ أتعلمون الله بدينكم ﴾ مستعمل في التوبيخ وقد أيد التوبيخ بجملة الحال في قوله : ﴿ والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ﴾ .

وفي هذا تجهيل إذ حاولوا إخفاء باطنهم عن المطّلع على كل شيء .

وجملة ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ تذييل لأن ﴿ كل شيء ﴾ أعم من ﴿ ما في السماوات وما في الأرض ﴾ فإن الله يعلم صفاته ويعلم الموجودات التي هي أعلى من السماوات كالعرش .

يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (17)

استئناف ابتدائي أريد به إبطال ما أظهره بنو أسد للنبيء صلى الله عليه وسلم من مزيتهم إذ أسلموا من دون إكراه بغزو .

والمنّ : ذكر النعمة والإحسان ليراعيَه المحسَن إليه للذاكر ، وهو يكون صريحاً مثل قول سبرة بن عمرو الفقعسي:

أتنسى دفاعي عنك إذ أنت مُسلم . . .

وقد سال من ذل عليك قراقر

ويكون بالتعريض بأن يذكر المان من معاملته مع الممنون عليه ما هو نافعه مع قرينة تدلّ على أنه لم يرد مجرد الإخبار مثل قول الراعي مخاطباً عبد الملك بن مروان:

فآزرت آل أبي خُبيب وافدا . . .

يوماً أريد لبيعتي تبديلا

أبو خبيب : كنية عبد الله بن الزبير .

وكانت مقالة بني أسد مشتملة على النوعين من المنّ لأنهم قالوا : ولم نقاتلك كما قاتلك محارب وغَطَفان وهوازن وقالوا : وجئناك بالأثقال والعيال .

و﴿ أن أسْلَمُوا ﴾ منصوب بنزع الخافض وهو باء التعدية ، يقال : منّ عليه بكذا ،

وكذلك قوله : ﴿ لا تمنوا على إسلامكم ﴾ إلا أن الأول مطرد مع ﴿ أنْ ﴾ و (أن) والثاني سماعي وهو كثير .

وهم قالوا للنبيء صلى الله عليه وسلم آمنّا كما حكاه الله آنفاً ، وسماه هنا إسلاماً لقوله : ﴿ ولكن قولوا أسلمنا ﴾ [الحجرات : 14] أي أن الذي مَنُّوا به عليك إسلام لا إيمان .

(47/719)

وأثبت بحرف ﴿ بَل ﴾ أن ما مَنُّوا به إن كان إسلاماً حقاً موافقاً للإيمان فالمنّة لله لأنْ هداهم إليه فأسلموا عن طواعية .

وسماه الآن إيماناً مجاراة لزعمهم لأن المقام مقام كون المنّة لله فمناسبة مُسَابَرَة زعمهم أنهم آمنوا ، أي لو فرض أنكم آمنتم كما تزعمون فإن إيمانكم نعمة أنعم الله بها عليكم .

ولذلك ذيله بقوله : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فنفى أولاً أن يكون ما يمنّون به حقاً ، ثم أفاد ثانياً أن يكون الفضل فيما ادعوه لهم لو كانوا صادقين بل هو فضل الله .

وقد أضيف إسلام إلى ضميرهم لأنهم أتوا بما يسمى إسلاماً لقوله : ﴿ ولكن قولوا أسْلَمْنا ﴾ .

وأُتي بالإيمان معرّفا بلام الجنس لأنه حقيقة في حدّ ذاته وأنهم ملابسوها .

وجيء بالمضارع في ﴿ يمنون ﴾ مع أن منَّهم بذلك حصل فيما مضى لاستحضار حالة منّهم كيف يمنون بما لم يفعلوا مثل المضارع في قوله تعالى : ﴿ ويسخرون من الذين آمنوا ﴾ في سورة البقرة (212) .

وجيء بالمضارع في قوله : بل اللَّه يمن عليكم ﴾ لأنه مَنّ مفروض لأن الممنون به لمّا يقع .

وفيه من الإيذان بأنه سيمنّ عليهم بالإيمان ما في قوله : ﴿ ولمَّا يدخُل الإيمان في قلوبكم ﴾ [الحجرات : 14] ، وهذا من التفنن البديع في الكلام ليضع السامع كل فنّ منه في قَراره ، ومثلهم من يتفطن لهذه الخصائص .

وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي لإفادة التقوية مثل : هو يعطي الجزيل ، كما مثَّل به عبد القاهر .

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (18)

ذُيِّل تقويمُهم على الحق بهذا التذييل ليعلموا أن الله لا يُكتم ، وأنه لا يُكذَب ، لأنه يعلم كُلَّ غائبة في السماء والأرض فإنهم كانوا في الجاهلية لا تخطر ببال كثير منهم أصول الصفات الإلهية .

وربما علمها بعضهم مثل زهير في قوله:

فلا تكتمُنّ الله ما في نفوسكم . . .

لِيَخفى فَمَهْمَا يُكْتَم اللهُ يعلَم

ولعل ذلك من آثار تنصره .

(48/719)

وتأكيد الخبر بـ ﴿ إن ﴾ لأنهم بحال من ينكر أن الله يعلم الغيب فكذبوا على النبي صلى الله عليه وسلم مع علمهم أنه مرسل من الله فكان كذبهم عليه مثل الكذب على الله .

وقد أفادت هذه الجملة تأكيد مضمون جملتي ﴿ والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ، والله بكل شيء عليم ﴾ [الحجرات : 16] ولكن هذه زادت بالتصريح بأنه يعلم الأمور الغائبة لئلا يتوهم متوهم أن العمومين في الجملتين قبلها عمومان عرفيان قياساً على عِلم البشر .

وجملة ﴿ والله بصير بما تعملون ﴾ معطوف على جملة ﴿ إن الله يعلم غيب السماوات والأرض ﴾ عطف الأخص على الأعم لأنه لما ذكر أنه يعلم الغيب وكان شأن الغائب أن لا يُرى عطف عليه علمه بالمبصرات احتراساً من أن يتوهّموا أن الله يعلم خفايا النفوس وما يجول في الخواطر ولا يعلم المشاهدات نظير قول كَثير من الفلاسفة : إنّ الخالق يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات ، ولهذا أوثر هنا وصف ﴿ بصير ﴾ .

وقرأ الجمهور ﴿ بما تعملون ﴾ بتاء الخطاب ، وقرأه ابن كثير بياء الغيبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(49/719)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم ﴾ قال : نزلت في قوم من بني تميم استهزأوا من بلال وسلمان وعمار وخباب وصهيب وابن فهيرة وسالم مولى أبي حذيفة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ لا يسخر قوم من قوم ﴾ قال : لا يستهزىء قوم بقوم إن يكن رجلاً غنياً أو فقيراً [7] أو يعقل رجل عليه فلا يستهزىء به .

أما قوله تعالى : ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ .

أخرج عبد بن حميد والبخاري في الأدب وابن أبي الدنيا في ذم الغيبة وابن جرير وابن المنذر

والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإِيمان عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ قال : لا يطعن بعضكم على بعض .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ قال : لا يطعن بعضكم على بعض .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ قال : لا تطعنوا .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم رضي الله عنه أنه قرأ ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ بنصب التاء وكسر الميم .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ قال : اللمز الغيبة .

أما قوله تعالى : ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ .

(50/719)

أخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري في الأدب وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر والبغوي في معجمه وابن حبان والشيرازي في الألقاب

والطبراني وابن السني في عمل اليوم والليلة والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإِيمان عن أبي جبيرة بن الضحاك رضي الله عنه قال : فينا نزلت في بني سلمة ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وليس فينا رجل إلا وله إسمان أو ثلاثة فكان إذا دعا أحدهم باسم من تلك الأسماء قالوا يا رسول الله إنه يكره هذا الإِسم ، فأنزل الله ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ قال : كان هذا الحي من الأنصار قل رجل منهم إلا وله إسمان أو ثلاثة فربما دعا النبي صلى الله عليه وسلم الرجل منهم ببعض تلك الأسماء ، فيقال يا رسول الله إنه يكره هذا الاسم ، فأنزل الله ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عطاء ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ قال : إن يسميه بغير اسم الإِسلام يا خنزير يا كلب يا حمار .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ قال : التنابز بالألقاب أن يكون الرجل عمل السيئات ثم تاب منها وراجع الحق فنهى الله أن يعير بما سلف من عمله .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن مسعود ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ قال : أن يقول إذا كان الرجل يهودياً فأسلم يا يهودي يا نصراني يا مجوسي ، ويقول للرجل المسلم يا فاسق .

وأخرج عبد الرزاق عن الحسن في الآية قال : كان اليهودي يسلم فيقال له يا يهودي ، فنهوا عن ذلك .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ قال : لا تقل لأخيك المسلم يا فاسق يا منافق .

(51/719)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عكرمة ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ قال : هو قول الرجل للرجل يا فاسق يا منافق .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي العالية في الآية ، قال : هو قول الرجل لصاحبه يا فاسق يا منافق .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ قال : يدعى الرجل بالكفر وهو مسلم .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن ﴿ بئس الإِسم الفسوق بعد الإِيمان ﴾ قال : أن يقول الرجل لأخيه يا فاسق .

وأخرج ابن المنذر عن محمد بن كعب القرظي ﴿ بئس الإِسم الفسوق بعد الإِيمان ﴾ قال

: الرجل يكون على دين من هذه الأديان فيسلم فيدعوه بدينه الأول يا يهودي يا نصراني .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عمر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من قال لأخيه كافر فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال وإلا رجعت عليه " .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (12)

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ﴾ قال : نهى الله المؤمن أن يظن بالمؤمن سوءاً .

وأخرج مالك وأحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن المنذر وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخواناً ، ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى ينكح أو يترك " .

(52/719)

وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أساء بأخيه الظن فقد أساء بربه إن الله يقول ﴿ اجتنبوا كثيراً من الظن ﴾ " .

وأخرج ابن مردويه عن طلحة بن عبد الله : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الظن يخطىء ويصيب " .

وأخرج ابن ماجة عن ابن عمر قال : " رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة ويقول : " ما أطيبك وأطيب ريحك ، ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك ، ماله ودمه وأن يظن به إلا خيراً " .

وأخرج أحمد في الزهد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً .

وأخرج البيهقي في الشعب عن سعيد بن المسيب قال : كتب إليَّ بعض إخواني من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ضع أمر أخيك على أحسنه ما لم يأتك ما يغلبك ، ولا تظنن بكلمة خرجت من امرىء مسلم شراً وأنت تجد لها في الخير محملاً ، ومن عرض نفسه للتهم فلا يلومن إلا نفسه ومن كتم سره كانت الخيرة في يده وما كافأت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه ، وعليك بإخوان الصدق فكن في اكتسابهم فإنهم زينة في الرخاء وعدة عند عظيم البلاء ، ولا تهاون بالحق فيهينك الله ، ولا تسألن عما لم يكن حتى يكون ، ولا تضع حديثك إلا عند من يشتهيه ، وعليك بالصدق وإن قتلك الصدق ،

واعتزل عدوك ، واحذر صديقك إلا الأمين ، ولا أمين إلا من يخشى الله وشاور في أمرك الذين يخشون ربهم بالغيب .

(53/719)

وأخرج الزبير بن بكار في الموفقيات عن عمر بن الخطاب قال : من تعرض للتهمة فلا يلومن من أساء به الظن ، ومن كتم سره كان الخيار إليه ومن أفشاه كان الخيار عليه ، وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك منه ما يغلبك ، ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً ، وكن في اكتساب الاخوان فإنهم جنة عند الرخاء وعدة عند البلاء ، وآخِ الإِخوان على قدر التقوى ، وشاور في أمرك الذين يخافون الله .

وأخرج ابن سعد وأحمد في الزهد والبخاري في الأدب عن سلمان قال : إني لأعد العراق على خادمي مخافة الظن .

وأخرج البخاري في الأدب عن أبي العالية قال : كنا نؤمر أن نختم على الخادم ونكيل ونعدها كراهية أن يتعودوا خلق سوء ، ويظن أحدنا ظن سوء .

وأخرج الطبراني عن حارثة بن النعمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " " ثلاث لازمات لأمتي : الطيرة والحسد وسوء الظن " فقال رجل ما يذهبهن يا رسول الله ممن

هن فيه ؟ قال : " إذا حسدت فاستغفر الله ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيرت فامضِ " .

وأخرج ابن النجار في تاريخه عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أساء بأخيه الظن فقد أساء بربه عز وجل ، إن الله تعالى يقول : ﴿ اجتنبوا كثيراً من الظن ﴾ " .

أما قوله تعالى : ﴿ ولا تجسسوا ﴾ .

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإِيمان عن ابن عباس في قوله : ﴿ ولا تجسسوا ﴾ قال : نهى الله المؤمن أن يتبع عورات أخيه المؤمن .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد ﴿ ولا تجسسوا ﴾ قال : خذوا ما ظهر لكم ودعوا ما ستر الله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : هل تدرون ما التجسس ؟ هو أن تتبع عيب أخيك فتطلع على سره .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والخرائطي في مكارم الأخلاق عن زرارة بن مصعب بن عبد الرحمن بن عوف ، عن المسور بن مخرمة ، عن عبد الرحمن بن عوف ، أنه حرس مع عمر بن الخطاب ليلة المدينة ، فبينما هم يمشون شبّ لهم سراج في بيت فانطلقوا يؤمونه فلما دنوا منه إذا باب مجافٍ على قوم لهم فيه أصوات مرتفعة ولغط ، فقال عمر وأخذ بيد عبد الرحمن بن عوف : أتدري بيت من هذا ؟ قال : هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن شرب ، فما ترى ؟ قال : أرى أن قد أتينا ما نهى الله عنه ، قال الله : ﴿ ولا تجسسوا ﴾ فقد تجسسنا ، فانصرف عنهم وتركهم .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن الشعبي أن عمر بن الخطاب فقد رجلاً من أصحابه فقال لابن عوف : انطلق بنا إلى منزل فلان فننظر ، فأتيا منزله فوجدا بابه مفتوحاً وهو جالس وامرأته تصب له في إناء فتناوله إياه ، فقال عمر لابن عوف : هذا الذي شغله عنا ، فقال ابن عوف لعمر وما يدريك ما في الإِناء ؟ فقال عمر : إنا نخاف أن يكون هذا التجسس ، قال : بل هو التجسس ، قال : وما التوبة من هذا ؟ قال : لا تعلمه بما أطلعت عليه من أمره ، ولا يكونن في نفسك إلا خير ، ثم انصرفا .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن الحسن رضي الله عنه قال : أتى عمر بن الخطاب رجل فقال : إن فلاناً لا يصحو ، فدخل عليه عمر رضي الله عنه ، فقال : إني لأجد ريح شراب يا فلان ، أنت بهذا ؟ فقال الرجل : يا ابن الخطاب وأنت بهذا ، ألم ينهك الله أن

تتجسس ؟ فعرفها عمر فانطلق وتركه .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو داود وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في شعب الإِيمان عن زيد بن وهب قال : أتي ابن مسعود رضي الله عنه فقيل : هذا فلان تقطر لحيته خمراً ، فقال عبد الله : إنا قد نهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به .

(55/719)

وأخرج أبو داود وابن المنذر وابن مردويه " عن أبي برزة الأسلمي قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : " يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإِيمان في قلبه لا تتبعوا عورات المسلمين ، فإنه من اتبع عورات المسلمين فضحه الله في قعر بيته " " .

وأخرج الخرائطي في مكارم الأخلاق عن ثور الكندي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يعس بالمدينة من الليل ، فسمع صوت رجل في بيت يتغنى ، فتسوّر عليه ، فوجد عنده امرأة وعنده خمر ، فقال : يا عدو الله أظننت أن الله يسترك وأنت على معصيته ، فقال : وأنت يا أمير المؤمنين لا تعجل على أن أكون عصيت الله واحدة فقد عصيت الله في ثلاث . قال الله : ﴿ ولا تجسسوا ﴾ وقد تجسست ، وقال ﴿ وأتوا البيوت من أبوابها ﴾ [

البقرة : 189] وقد تسوّرت عليَّ ودخلت عليَّ بغير إذن ، وقال الله ﴿ لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ﴾ [النور : 27] قال عمر رضي الله عنه : فهل عندك من خير إن عفوت عنك ؟ قال : نعم ، فعفا عنه وخرج وتركه .

وأخرج ابن مردويه والبيهقي " عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسمع العواتق في الخدر ينادي بأعلى صوته " يا معشر من آمن بلسانه ولم يخلص الإِيمان إلى قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته " " .

وأخرج ابن مردويه " عن بريدة رضي الله عنه قال : صلينا الظهر خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما انفتل أقبل علينا غضبان متنفراً ينادي بصوت يسمع العواتق في جوف الخدور " يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإِيمان قلبه لا تذموا المسلمين ، ولا تطلبوا عوراتهم ، فإنه من يطلب عورة أخيه المسلم هتك الله ستره وأبدى عورته ولو كان في جوف بيته " " .

(56/719)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا معشر من آمن بلسانه ولم يخلص الإِيمان إلى قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته حتى يخرقها عليه في بطن بيته " .

وأخرج البيهقي عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من أشاد على مسلم عورته يشينه بها بغير حق شانه الله بها في الخلق يوم القيامة " .

(57/719)

وأخرج الحاكم والترمذي عن جبير بن نفير قال : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً بالناس صلاة الصبح فلما فرغ أقبل بوجهه على الناس رافعاً صوته حتى كاد يسمع من في الخدور وهو يقول : " يا معشر الذين أسلموا بألسنتهم ، ولم يدخل الإِيمان في قلوبهم لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عثراتهم ، فإنه من يتبع عثرة أخيه المسلم يتبع الله عثرته ، ومن يتبع الله عثرته يفضحه وهو في قعر بيته ، فقال قائل يا رسول الله : وهل على المسلمين من ستر ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : " ستور الله على المؤمن أكثر من أن تحصى ، إن المؤمن ليعمل الذنوب فتهتك عنه ستوره ستراً ستراً حتى لا يبقى عليه منها شيء ، فيقول الله للملائكة استروا على عبدي من الناس فإن الناس يعيرون ولا يغيرون ، فتحف به

الملائكة بأجنحتها يسترونه من الناس ، فإن تاب قبل الله منه ورد عليه ستوره ومع كل ستر تسعة أستار ، فإن تتابع في الذنوب قالت الملائكة : ربنا إنه قد غلبنا واعذرنا فيقول الله استروا عبدي من الناس ، فإن الناس يعيرون ولا يغيرون فتحف به الملائكة بأجنحتها يسترونه من الناس فإن تاب قبل الله منه ورد عليه ستوره ومع كل ستر تسعة أستار ، فإن تتابع في الذنوب قالت الملائكة يا ربنا : إنه قد غلبنا وأعذرنا ، فيقول الله استروا عبدي من الناس فإن الناس يعيّرون ولا يغيّرون ، فتحف به الملائكة بأجنحتها يسترونه من الناس ، فإن تاب قبل الله منه ، وإن عاد قالت الملائكة : ربنا إنه قد غلبنا وأعذرنا ، فيقول الله للملائكة : تخلو عنه فلو عمل ذنباً في بيت مظلم في ليلة مظلمة في حجر أبدى الله عنه وعن عورته " .

(58/719)

وأخرج الحكيم الترمذي عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال : المؤمن في سبعين حجاباً من نور ، فإذا عمل خطيئة ثم تناساها حتى يعمل أخرى هتك عنه حجاب من تلك الحجب ، فلا يزال كلما عمل خطيئة ثم تناساها حتى يعمل أخرى هتك عنه حجاب من تلك الحجب ، فإذا عمل كبيرة من الكبائر هتك عنه تلك الحجب كلها إلا حجاب

الحياء ، وهو أعظمها حجاباً ، فإن تاب تاب الله عليه ورد تلك الحجب كلّها ، فإن عمل خطيئة بعد الكبائر ثم تناساها حتى يعمل الأخرى قبل أن يتوب هتك حجاب الحياء فلم تلقه إلا مقيتاً ممقتاً ، فإذا كان مقيتاً ممقتاً نزعت منه الأمانة ، فإذا نزعت منه الأمانة لم تلقه إلا خائناً مخوناً ، فإذا كان خائناً مخوناً نزعت منه الرحمة ، فإذا نزعت منه الرحمة لم تلقه إلا فظاً غليظاً ، فإذا كان فظاً غليظاً نزعت منه ربقة الإِسلام ، فإذا نزعت منه ربقة الإِسلام لم تلقه إلا لعيناً ملعناً شيطاناً رجيماً .

قوله تعالى : ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضاً ﴾ الآية .

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإِيمان عن ابن عباس في قوله : ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضاً ﴾ الآية قال : حرم الله أن يغتاب المؤمن بشيء كما حرم الميتة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضاً ﴾ الآية قال : زعموا أنها نزلت في سلمان الفارسي أكل ثم رقد فنفخ فذكر رجلان أكله ورقاده فنزلت .

(59/719)

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي أن سلمان الفارسي كان مع رجلين في سفر يخدمهما وينال من طعامهما ، وأن سلمان نام يوماً فطلبه صاحباه فلم يجداه فضربا الخباء وقالا : ما يريد سلمان شيئاً غير هذا أن يجيء إلى طعام معدود وخباء مضروب ، فلما جاء سلمان أرسلاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب لهما إداماً ، فانطلق ، فأتاه فقال : يا رسول الله بعثني أصحابي لتؤدمهم إن كان عندك ، قال : ما يصنع أصحابك بالأدم قد ائتدموا ؟ فرجع سلمان فخبرهما فانطلقا فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا : والذي بعثك بالحق ما أصبنا طعاماً منذ نزلنا . قال : إنكما قد ائتدمتما سلمان بقولكما فنزلت ﴿ أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في قوله ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضاً ﴾ الآية قال : نزلت هذه الآية في رجل كان يخدم النبي صلى الله عليه وسلم ، أرسل بعض الصحابة إليه يطلب منه إداماً فمنع ، فقالوا له : إنه لبخيل وخيم ، فنزلت في ذلك .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك في قوله ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضاً ﴾ قال : أن يقول للرجل من خلفه هو كذا يسيء الثناء عليه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضاً ﴾ قال : ذكر لنا أن الغيبة أن تذكر أخاك بما يشينه وتعيبه بما فيه ، فإن أنت كذبت عليه فذاك البهتان يقول كما أنت كاره لو وجدت جيفة مدودة أن تأكل منها فكذلك فأكره لحمها وهو حي .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو داود والترمذي وصححه وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن أبي هريرة قال :

" قيل يا رسول الله : ما الغيبة ؟ قال " ذكرك أخاك بما يكره " قال يا رسول الله : أرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : " إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته " " .

(60/719)

وأخرج عبد بن حميد والخرائطي في مساوىء الأخلاق عن المطلب بن حنطب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الغيبة أن تذكر المرء بما فيه فقال إنما كنا نرى أن نذكره بما ليس فيه ذاك البهتان " .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة " أن امرأة دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم خرجت ، فقالت عائشة يا رسول الله : ما أجملها وأحسنها لولا أن بها قصراً ، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : اغتبتيها يا عائشة ، فقالت يا رسول الله : إنما قلت شيئاً هو بها . فقال يا عائشة إذا قلت شيئاً بها فهي غيبة ، وإذا قلت ما ليس بها فقد بهتها " .

وأخرج عبد بن حميد عن عون بن عبد الله قال : إذا قلت للرجل بما فيه فقد اغتبته ، وإذا

قلت ما ليس فيه فقد بهته .

وأخرج عبد بن حميد عن معاوية بن قرة قال : لو مر بك أقطع فقلت هذا الأقطع كانت غيبة .

وأخرج عبد بن حميد عن محمد بن سيرين أنه ذكر عنده رجل فقال : ذاك الأسود ، قال : أستغفر الله أراني قد اغتبته .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد ﴿ أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً ﴾ قالوا : نكره ذلك . قال : فاتقوا الله .

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذم الغيبة والخرائطي في مساوىء الأخلاق وابن مردويه والبيهقي في شعب الإِيمان " عن عائشة قالت : لا يغتب بعضكم بعضاً فإني كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فمرت امرأة طويلة الذيل ، فقلت يا رسول الله : إنها الطويلة الذيل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : الفظي فلفظت بضعة لحم " .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رفع الحديث إلى النبي صلى الله عليه وسلم " أنه لحق قوماً فقال لهم : تخللوا ، فقال القوم والله يا نبي الله ما طعمنا اليوم طعاماً ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم والله : إني لأرى لحم فلان بين ثناياكم ، وكانوا قد اغتابوه " .

وأخرج الضياء المقدسي في المختارة عن أنس قال : "كانت العرب يخدم بعضها بعضاً في الأسفار وكان مع أبي بكر وعمر رجل يخدمها فناما فاستيقظا ولم يهيء لهما طعاماً فقالا إن هذا لنؤوم فأيقظاه ، فقالا : إئتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقل له : إن أبا بكر وعمر يقرئانك السلام ويستأذناك ، فقال : إنهما إئتدما فجاءاه ، فقالا يا رسول الله : بأي شيء إئتدمنا ؟ قال : بلحم أخيكما ، والذي نفسي بيده إني لأرى لحمه بين ثناياكما ، فقالا : إستغفر لنا يا رسول الله . قال : مراه فليستغفر لكما " .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول " عن يحيى بن أبي كثير أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان في سفر ومعه أبو بكر وعمر ، فأرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه لحماً ، فقال : أو ليس قد ظللتم من اللحم شباعاً ؟ قالوا : من أين فوالله ما لنا باللحم عهد منذ أيام ، فقال : من لحم صاحبكم الذي ذكرتم . قالوا يا نبي الله : إنما قلنا إنه لضعيف ما يعيننا على شيء . قال : ذلك فلا تقولوا فرجع إليهم الرجل فأخبرهم بالذي قال ، فجاء أبو بكر ، فقال يا نبي الله طاعلى صماخي واستغفر لي ففعل ، وجاء عمر فقال : يا نبي الله طاعلى صماخي واستغفر لي ففعل " .

وأخرج أبو يعلى وابن المنذر وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : " من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب له لحمه في الآخرة فيقال له كله ميتاً كما أكلته حياً فإنه ليأكله ويكلح ويصيح " .

(62/719)

وأخرج أحمد وابن أبي الدنيا وابن مردويه " عن عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجلست إحداهما إلى الأخرى فجعلتا يأكلان لحوم الناس ، فجاء منهما رسول النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال يا رسول الله : إن ههنا امرأتين صامتا وقد كادتا أن تموتا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ائتوني بهما فجاءتا فدعا بعس أو قدح ، فقال لإحداهما قيئي فقاءت من قيح ودم وصديد حتى قاءت نصف القدح ، وقال للأخرى قيئي ، فقاءت من قيح ودم وصديد حتى ملأت القدح ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما جلست إحداهما إلى الأخرى فجعلتا يأكلان لحوم الناس " " .

وأخرج ابن مردويه عن أم سلمة أنها سألت عن الغيبة فأخبرت أنها أصبحت يوم الجمعة وغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة ، وأتتها جارة لها من نساء الأنصار

فاغتابتا وضحكتا برجال ونساء فلم يبرحا على حديثهما من الغيبة حتى أقبل النبي صلى الله عليه وسلم منصرفاً من الصلاة ، فلما سمعتا صوته سكتتا ، فلما قام بباب البيت ألقى طرف ردائه على أنفه ، ثم قال : أفّ أخرجا فاستقيئا ثم طهرا بالماء ، فخرجت أم سلمة فقاءت لحماً كثيراً قد أحيل ، فلما رأت كثرة اللحم تذكرت أحدث لحم أكلته فوجدته في أول جمعتين مضتا ، فسألها عما قاءت فأخبرته ، فقال : ذاك لحم ظللت تأكلينه فلا تعودي أنت ولا صاحبتك فيما ظللتما فيه من الغيبة ، وأخبرتها صاحبتها أنها قاءت مثل الذي قاءت من اللحم .

وأخرج ابن مردويه عن أبي مالك الأشعري عن كعب بن عاصم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " المؤمن حرام على المؤمن لحمه عليه حرام أن يأكله ويغتابه بالغيب ، وعرضه عليه حرام أن يخرقه ، ووجهه عليه حرام أن يلطمه " .

(63/719)

وأخرج عبد الرزاق والبخاري في الأدب وأبو يعلى وابن المنذر والبيهقي في شعب الإِيمان بسند صحيح " عن أبي هريرة أن ماعزاً لما رجم سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلين يقول أحدهما لصاحبه : ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم

الكلب ، فسار النبي صلى الله عليه وسلم ثم مر بجيفة حمار فقال : أين فلان وفلان إنزلا فكلا من جيفة هذا الحمار فقالا : وهل يؤكل هذا ؟ قال : فإنا أكلتكما من أخيكما آنفاً أشد أكلاً منه ، والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد والبخاري في الأدب والخرائطي عن عمرو بن العاص أنه مر على بغل ميت وهو في نفر من أصحابه فقال : والله لأن يأكل أحدكم من هذا حتى يملأ بطنه خير له من أن يأكل من لحم رجل مسلم .

وأخرج البخاري في الأدب وابن أبي الدنيا عن جابر بن عبد الله قال : "كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى على قبرين يعذب صاحباهما فقال : إنهما لا يعذبان في كبير ، وبكى ، أما أحدهما فكان يغتاب الناس ، وأما الآخر فكان لا يتأذى من البول فدعا بجريدة رطبة فكسرها ، ثم أمر بكل كسرة فغرست على قبر فقال : أما إنه سيهون من عذابهما ما كانا رطبتين " .

وأخرج البخاري في الأدب عن ابن مسعود قال : من اغتيب عنده مؤمن فنصره جزاه الله بها خيراً في الدنيا والآخرة ، ومن اغتيب عنده فلم ينصره جزاه الله بها في الدنيا والآخرة شراً ، وما التقم أحد لقمة شراً من اغتياب مؤمن ، إن قال فيه ما يعلم فقد إغتابه ، ومن قال فيه ما لا يعلم فقد بهته .

وأخرج أحمد عن جابر بن عبد الله قال : "كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

فارتفعت ريح جيفة منتنة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتدرون ما هذه الريح هذه ريح الذين يغتابون الناس " " .

(64/719)

وأخرج ابن أبي الدنيا عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا وقع في الرجل وأنت في ملأ فكن للرجل ناصراً وللقوم زاجراً وقم عنهم ، ثم تلا هذه الآية ﴿ أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ﴾ " .

وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الربا نيف وسبعون باباً أهونهن باباً مثل من نكح أمه في الإِسلام ، ودرهم الربا أشد من خمس وثلاثين زنية ، وأشر الربا وأربى وأخبث الربا انتهاك عرض المسلم وانتهاك حرمته " .

وأخرج أحمد وأبو داود والبيهقي عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم " .

وأخرج أحمد وأبو داود والبيهقي وأبو يعلى والطبراني والحاكم عن المستورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من أكل برجل مسلم أكله فإن الله يطعمه مثلها من جهنم ، ومن

كسي برجل مسلم ثوباً فإن الله يكسوه مثله من جهنم ، ومن قام برجل مقام سمعة أو رياء فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة " .

وأخرج ابن مردويه والبيهقي عن أنس " أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أن يصوموا يوماً ولا يفطرن أحد حتى آذن له ، فصام الناس ، فلما أمسوا جعل الرجل يجيء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول : ظللت منذ اليوم صائماً فأذن لي فلأفطرن فيأذن له ، حتى جاء رجل فقال يا رسول الله إن فتاتين من أهلك ظلتا منذ اليوم صائمتين فأذن لهما فليفطرا فأعرض عنه ، ثم أعاد عليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما صامتا ، وكيف صام من ظل يأكل لحوم الناس ، اذهب فمرهما إن كانتا صائمتين أن يستقيئا ففعلتا فقاءت كل واحدة منهما علقمة فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو صامتا وبقي فيهما لأكلتهما النار " .

(65/719)

وأخرج البيهقي عن عائشة رضي الله عنها قالت : لا يتوضأ أحدكم من الكلمة الخبيثة يقولها لأخيه ويتوضأ من الطعام الحلال .

وأخرج البيهقي عن ابن عباس وعائشة رضي الله عنهما قالا : الحدث حدثان حدث من

فيك وحدث من نومك ، وحدث الفم أشد الكذب والغيبة .

وأخرج البيهقي عن إبراهيم قال : الوضوء من الحدث وأذى المسلم .

وأخرج الخرائطي في مساوىء الأخلاق والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما " أن رجلين صليا صلاة الظهر أو العصر وكانا صائمين فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة قال : أعيدا وضوءكما وصلاتكما وأمضيا في صومكما ، واقضيا يوماً آخر مكانه ، قالا : لم يا رسول الله ؟ قال : قد اغتبتما فلاناً " .

وأخرج الخرائطي وابن مردويه والبيهقي عن عائشة رضي الله عنها قالت : " أقبلت امرأة قصيرة والنبي صلى الله عليه وسلم جالس ، قالت : فأشرت بإبهامي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لقد اغتبتها " .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه " أن رجلاً قام من عند النبي صلى الله عليه وسلم فرؤي في مقامه عجز ، فقال بعضهم : ما أعجز فلاناً : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد أكلتم الرجل واغتبتموه " .

وأخرج البيهقي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : " ذكر رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : ما أعجز ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إغتبتم الرجل ، قالوا يا رسول الله : قلنا ما فيه ، قال : لو قلتم ما ليس فيه فقد بهتموه " .

وأخرج ابن جرير عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : "كنا عند رسول الله صلى الله

عليه وسلم فذكر القوم رجلاً فقالوا : ما يأكل إلا ما أطعم ، ولا يرحل إلا ما رحل له ، وما أضعفه ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إغتبتم أخاكم . قالوا يا رسول الله : وغيبة بما يحدث فيه ؟ فقال : بحسبكم أن تحدثوا عن أخيكم بما فيه " .

(66/719)

وأخرج أبو داود والدارقطني في الأفراد والخرائطي والطبراني والحاكم وأبو نعيم والبيهقي عن ابن عمر رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله في أمره ، ومن مات وعليه دين فليس بالدينار والدرهم ، ولكنها الحسنات ، ومن خاصم في باطل وهو يعلمه لم يزل في سخط الله حتى ينزع ، ومن قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال حتى يخرج مما قال وليس بخارج " .

وأخرج البيهقي عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اذكروا الله فإن العبد إذا قال سبحان الله وبحمده كتب الله له بها عشراً ، ومن عشر إلى مائة ، ومن مائة إلى ألف ، ومن زاد زاده الله ، ومن استغفر غفر الله له ، ومن حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله في أمره ، ومن أعان على خصومة بغير علم

فقد باء بسخط من الله ، ومن قذف مؤمناً أو مؤمنة حبسه الله في ردغة الخبال حتى يأتي بالمخرج ، ومن مات وعليه دين اقتص من حسناته ليس ثم دينار ولا درهم " .

وأخرج البيهقي عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من رجل يرمي رجلاً بكلمة تشينه إلا حبسه الله يوم القيامة في طينة الخبال حتى يأتي منها بالمخرج " .

وأخرج البيهقي عن الأوزاعي قال : بلغني أنه يقال للعبد يوم القيامة : قم فخذ حقك من فلان ، فيقول : ما لي قبله حق ، فيقال : بلى ذكرك يوم كذا وكذا بكذا وكذا .

وأخرج ابن مردويه والبيهقي عن أبي سعيد وجابر بن عبد الله رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الغيبة أشد من الزنا ، قالوا يا رسول الله : وكيف الغيبة أشد من الزنا ؟ قال : إن الرجل ليزني فيتوب فيتوب الله عليه ، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفرها له صاحبه " .

(67/719)

وأخرج البيهقي عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الغيبة أشد من الزنا ، فإن صاحب الزنا يتوب وصاحب الغيبة ليس له توبة " .

وأخرج البيهقي من طريق غياث بن كلوب الكوفي عن مطرف عن سمرة بن جندب عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله يبغض البيت اللحم " فسألت مطرفاً ما يعني باللحم ؟ قال : الذي يغتاب فيه الناس . وبإسناده عن أبيه قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل بين يدي حجام ، وذلك في رمضان ، وهما يغتابان رجلاً ، فقال : أفطر الحاجم والمحجوم . قال البيهقي : غياث هذا مجهول .

وأخرج البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أربى الربا إستطالة المرء في عرض أخيه " .

وأخرج البيهقي عن عبد الله بن المبارك قال : إذا اغتاب رجل رجلاً فلا يخبره به ولكن يستغفر الله .

وأخرج البيهقي بسند ضعيف عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته " .

وأخرج البيهقي في الشعب عن شعبة قال : الشكاية والتحذير ليسا من الغيبة .

وأخرج البيهقي عن سفيان بن عيينة رضي الله عنه قال : ثلاثة ليست لهم غيبة الإِمام الجائر ، والفاسق المعلن بفسقه ، والمبتدع الذي يدعو الناس إلى بدعته .

وأخرج البيهقي عن الحسن رضي الله عنه قال : ليس لأهل البدع غيبة .

وأخرج البيهقي عن زيد بن أسلم رضي الله عنه قال : إنما الغيبة لمن لم يعلن بالمعاصي .

وأخرج البيهقي وضعفه عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له " .

وأخرج البيهقي وضعفه من طريق بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أترعون عن ذكر الفاجر ؟ أذكروه بما فيه كي يعرفه الناس ويحذره الناس " .

(68/719)

وأخرج البيهقي عن الحسن البصري قال : ثلاثة ليس لهم حرمة في الغيبة : فاسق معلن الفسق ، والأمير الجائر ، وصاحب البدعة المعلن البدعة .

وأخرج الحكيم الترمذي عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يجاء بالعبد يوم القيامة فتوضع حسناته في كفة وسيئاته في كفة فترجح السيئات ، فتجيء بطاقة فتوضع في كفة الحسنات فترجح بها ، فيقول يا رب ما هذه البطاقة ؟ فما من عمل عملته في ليلي ونهاري إلا وقد استقبلت به ، فقيل : هذا ما قيل فيك وأنت منه بريء فينجو بذلك " .

وأخرج الحكيم الترمذي عن علي بن أبي طالب قال : البهتان على البريء أثقل من

السموات .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن أبي مليكة قال : لما كان يوم الفتح رقي بلال فأذن على الكعبة ، فقال بعض الناس : هذا العبد الأسود يؤذن على ظهر الكعبة ، وقال بعضهم : إن يسخط الله هذا يغيره ، فنزلت ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ الآية .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج وابن مردويه والبيهقي في سننه عن الزهري قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بني بياضة أن يزوّجوا أبا هند امرأة منهم ، فقالوا : يا رسول الله أتزوّج بناتنا موالينا ؟ فأنزل الله ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ الآية قال الزهري : نزلت في أبي هند خاصة . قال : وكان أبو هند حجام النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن مردويه من طريق الزهري عن عروة عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنكحوا أبا هند وانكحوا إليه " قالت : ونزلت ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ الآية .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال : ما خلق الله الولد إلا من نطفة الرجل والمرأة جميعاً ، وذلك أن الله يقول : ﴿ إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن عمر بن الخطاب أن هذه الآية في الحجرات ﴿ إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ هي مكية وهي للعرب خاصة الموالي أي قبيلة لهم وأي شعاب ، وقوله ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ قال : أتقاكم للشرك .

وأخرج البخاري وابن جرير عن ابن عباس ﴿ وجعلناكم شعوباً وقبائل ﴾ قال : الشعوب القبائل العظام ، والقبائل البطون .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الشعوب الجماع ، والقبائل الأفخاذ التي يتعارفون بها .

وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه عن ابن عباس ﴿ وجعلناكم شعوباً وقبائل ﴾ قال : القبائل الأفخاذ ، والشعوب الجمهور مثل مضر .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ وجعلناكم شعوباً وقبائل ﴾ قال : الشعب هو النسب البعيد ، والقبائل كما سمعته يقول فلان من بني فلان .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ﴿ وجعلناكم شعوباً ﴾ قال : النسب البعيد ، ﴿ وقبائل ﴾ قال : دون ذلك جعلنا هذا لتعرفوا فلان ابن فلان من كذا وكذا .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك قال : القبائل رؤوس القبائل ، والشعوب الفصائل والأفخاذ .

(70/719)

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر " أن النبي صلى الله عليه وسلم طاف يوم الفتح على راحلته يستلم الأركان بمحجنه ، فلما خرج لم يجد مناخاً فنزل على أيدي الرجال فخطبهم ، فحمد الله وأثنى عليه وقال : الحمد لله الذي أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتكبرها بآبائها ، الناس رجلان برٌّ تقيّ كريمٌ على الله وفاجرٌ شقيّ هّينٌ على الله ، والناس بنو آدم ، وخلق الله آدم من تراب . قال الله ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ إلى قوله ﴿ خبير ﴾ ثم قال : أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم " .

وأخرج ابن مردويه والبيهقي عن جابر بن عبد الله قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في وسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال : " يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد ، ألا إن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ألا هل بلغت ؟ قالوا : بلى

يا رسول الله . قال : فليبلغ الشاهد الغائب " .

وأخرج البيهقي عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله أذهب نخوة الجاهلية وتكبرها بآبائها ، كلكم لآدم وحواء كطف الصاع بالصاع ، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم ، فمن أتاكم ترضون دينه وأمانته فزوجوه " .

وأخرج أحمد وابن جرير وابن مردويه والبيهقي عن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أنسابكم هذه ليست بمسيئة على أحد ، كلكم بنو آدم طف الصاع لم تملأوه ، ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى إن الله لا يسألكم عن أحسابكم ولا عن أنسابكم يوم القيامة ، أكرمكم عند الله أتقاكم " .

(71/719)

وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله يقول يوم القيامة أمرتكم فضيعتم ما عهدت إليكم ورفعتم أنسابكم فاليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم ، أين المتقون ؟ أين المتقون ؟ إن أكرمكم عند الله أتقاكم " .

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "

يقول الله يوم القيامة : أيها الناس إني جعلت نسباً وجعلتم نسباً فجعلت أكرمكم عند الله أتقاكم فأبيتم إلا أن تقولوا فلان أكرم من فلان وفلان أكرم من فلان ، وإني اليوم أرفع نسبي وأضع نسبكم ، ألا أن أوليائي المتقون " .

وأخرج الخطيب عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا كان يوم القيامة أوقف العباد بين يدي الله تعالى غرلاً بهماً فيقول الله : عبادي أمرتكم فضيعتم أمري ، ورفعتم أنسابكم فتفاخرتم بها اليوم أضع أنسابكم ، أنا الملك الديّان أين المتقون ؟ أين المتقون ؟ إن أكرمكم عند الله أتقاكم " .

وأخرج ابن مردويه عن سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الناس كلهم بنو آدم ، وآدم خلق من التراب ، ولا فضل لعربي على عجمي ولا عجمي على عربي ولا أحمر على أبيض ولا أبيض على أحمر إلا بالتقوى " .

وأخرج الطبراني عن حبيب بن خراش القصري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " المسلمون إخوة لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى " .

وأخرج أحمد عن رجل من بني سليط قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فسمعته يقول : " المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ، التقوى ههنا ، وقال بيده إلى صدره ، وما توادَّ رجلان في الله فيفرق بينهما إلا حدث يحدث أحدهما والمحدث شر والمحدث شر والمحدث شر " .

وأخرج البخاري والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي الناس أكرم ؟ قال : " أكرمهم عند الله أتقاهم ، قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله ، قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : فعن معادن العرب تسألوني ؟ قالوا : نعم . قال : خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإِسلام إذا فقهوا " " .

وأخرج أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : " أنظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى " .

وأخرج البخاري في الأدب عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لا أرى أحداً يعمل بهذه الآية ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ حتى بلغ ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ فيقول الرجل للرجل أنا أكرم منك فليس أحد أكرم من أحد إلا بتقوى الله .

وأخرج البخاري في الأدب عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ما تعدون الكرم وقد بين الله الكرم وأكرمكم عند الله أتقاكم ، وما تعدون الحسب أفضلكم حسباً أحسنكم خلقاً .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن درة بنت أبي لهب قالت : قام رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر ، فقال : يا رسول الله أي الناس خير ؟ فقال : " خير الناس أقرؤهم وأتقاهم لله عز وجل وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم " .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وصححه والطبراني والدارقطني والحاكم وصححه عن سمرة بن جندب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الحسب المال والكرم التقوى " .

وأخرج أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما أعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء من الدنيا ولا أعجبه أحد قط إلا ذو تقوى .

وأخرج الحكيم الترمذي عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من اتقى الله أهاب الله منه كل شيء ، ومن لم يتق الله أهابه الله من كل شيء " .

(73/719)

وأخرج الحكيم الترمذي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الحياء زينة ، والتقى كرم ، وخير المركب الصبر ، وانتظار الفرج من الله

عبادة " .

وأخرج الحكيم الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا أراد الله بعبده خيراً جعل غناه في نفسه وتقاه في قلبه ، وإذا أراد الله بعبده شراً جعل فقره بين عينيه " .

وأخرج ابن الضريس في فضائل القرآن عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : " جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : أوصني ، فقال : " عليك بتقوى الله فإنها جماع كل خير ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية المسلمين ، وعليك بذكر الله وتلاوة كتاب الله فإنه نور لك في الأرض وذكر لك في السماء ، وأخزن لسانك إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان " " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي نضرة رضي الله عنه أن رجلاً رأى أنه دخل الجنة فرأى مملوكه فوقه مثل الكوكب ، فقال والله يا رب إن هذا لمملوكي في الدنيا فما أنزله هذه المنزلة ؟ قال : هذا كان أحسن عملاً منك .

وأخرج الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم ، فإن صلة الرحم محبة في الأهل مثراة في المال منسأة في الأثر .

وأخرج البزار عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله

من الجعلان " .

وأخرج أحمد عن أبي ريحانة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من انتسب إلى تسعة آباء كفار يريد بهم عزاً وكبراً فهو عاشرهم في النار " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أربع من الجاهلية لا تتركهن أمتي : الفخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة " .

(74/719)

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إثنتان في الناس هما بهما كفر : النياحة والطعن في الأنساب " .

قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (14)

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ قالت الأعراب آمنا ﴾ قال : أعراب بني أسد بن خزيمة وفي قوله ﴿ ولكن قولوا أسلمنا ﴾ قال : استسلمنا مخافة القتل والسبي .

وأخرج ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ قالت الأعراب آمنا ﴾ قال : نزلت في بني أسد .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه ﴿ قالت الأعراب آمنا ﴾ الآية ، قال : لم تعم هذه الآية الأعراب ، ولكنها الطوائف من الأعراب .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ﴾ قال : لعمري ما عمت هذه الآية الأعراب ، إن من الأعراب لمن يؤمن بالله واليوم الآخر ، ولكن إنما أنزلت في حيّ من أحياء العرب منوا بالإِسلام على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وقالوا أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ، فقال الله ﴿ لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإِيمان في قلوبكم ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن داود بن أبي هند أنه سئل عن الإِيمان فتلا هذه الآية ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ﴾ قال : الإِسلام الإِقرار ، والإِيمان التصديق .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الزهري في الآية قال : ترى أن الإِسلام الكلمة والإِيمان العمل .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن جرير وابن مردويه " عن سعد بن أبي وقاص أن نفراً أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاهم إلا رجلاً منهم ، فقلت : يا رسول الله : أعطيتهم وتركت فلاناً ، والله إني لأراه مؤمناً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو مسلم قال ذلك ثلاثاً " .

وأخرج ابن قانع وابن مردويه من طريق الزهري " عن عامر بن سعد عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم قسماً فأعطى أناساً ومنع آخرين ، فقلت يا رسول الله : أعطيت فلاناً وفلاناً ومنعت فلاناً وهو مؤمن ، فقال : لا تقل مؤمن ولكن قل مسلم " وقال الزهري ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ﴾ .

وأخرج ابن ماجة وابن مردويه والطبراني والبيهقي في شعب الإِيمان عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الايمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان " .

وأخرج أحمد وابن مردويه عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الإِسلام علانية والإِيمان في القلب ، ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات ، ويقول : التقوى ههنا التقوى ههنا " .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ﴾ الآية

قال : وذلك أنهم أرادوا أن يتسموا باسم الهجرة ولا يتسموا بأسمائهم التي سماهم الله ، وكان هذا أول الهجرة قبل أن تترك المواريث لهم .

قوله تعالى : ﴿ وإن تطيعوا الله ورسوله ﴾ الآية .

أخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ لا يلتكم ﴾ بغير ألف ولا همزة مكسورة اللام .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن شهر رمضان فرض عليكم صيامه والصلاة بالليل بعد الفريضة نافلة لكم والله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً " .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ لا يلتكم ﴾ قال : لا يظلمكم .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد ﴿ لا يلتكم ﴾ لا ينقصكم .

(76/719)

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله ﴿ لا يلتكم ﴾ قال : لا ينقصكم بلغة بني عبس . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت قول الحطيئة العبسي ؟

أبلغ سراة بني سعد مغلغلة . . . جهد الرسالة لا ألتاً ولا كذباً

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ﴿ لا يلتكم ﴾ لا يظلمكم من أعمالكم شيئاً ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ قال : غفور للذنب الكبير رحيم بعباده .

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (15)

أخرج أحمد والحكيم والترمذي عن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء : الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، والذي أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم ، ثم الذي إذا أشرف على طمع تركه لله " .

يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (17) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (18)

أخرج ابن المنذر والطبراني وابن مردويه بسند حسن عن عبد الله بن أبي أوفى أن أناساً من العرب قالوا يا رسول الله : أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ، فأنزل الله ﴿ يمنون عليك أن أسلموا ﴾ الآية .

وأخرج النسائي والبزار وابن مردويه عن ابن عباس قال : جاءت بنو أسد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا يا رسول الله : أسلمنا وقاتلك العرب ولم نقاتلك ، فنزلت هذه الآية ﴿ يمنون عليك أن أسلموا ﴾ .

وأخرج ابن الضريس وابن جرير عن أبي قلابة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أعطيت السبع مكان التوراة ، وأعطيت المثاني مكان الإِنجيل ، وأعطيت كذا وكذا مكان الزبور ، وفضلت بالمفصل " .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن الحسن قال : لما فتحت مكة جاء ناسٌ ، فقالوا يا رسول الله : إنا قد أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ، فأنزل الله ﴿ يمنون عليك أن أسلموا ﴾ .

وأخرج ابن سعد عن محمد بن كعب القرظي قال : قدم عشرة رهط من بني أسد على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول سنة تسع وفيهم حضرمي بن عامر وضرار بن الأزور ووابصة بن معبد وقتادة بن القائف وسلمة بن حبيش ونقادة بن عبد الله بن خلف وطلحة بن خويلد ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد مع أصحابه فسلموا وقال متكلمهم : يا رسول الله إنا شهدنا أن الله وحده لا شريك له ، وأنك عبده ورسوله ، وجئناك يا رسول الله ولم تبعث إلينا بعثاً ، ونحن لمن وراءنا سلم ، فأنزل الله ﴿ يمنون عليك أن أسلموا ﴾ الآية .

وأخرج الطبراني عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أعطاني ربي السبع الطوال مكان التوراة والمئين مكان الإنجيل وفضلت بالمفصل " .

وأخرج ابن الضريس وابن جرير عن أبي قلابة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أعطيت السبع مكان التوراة ، وأعطيت المثاني مكان الإنجيل ، وأعطيت كذا وكذا مكان الزبور ، وفضلت بالمفصل " .

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال : الطوال مكان التوراة ، والمئين كالإنجيل ، والمثاني كالزبور ، وسائر القرآن بعد فضل على الكتب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ 586.563 ﴾

(78/719)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تبارك وتعالى : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ تُقَدّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ الله وَرَسُولِهِ ﴾

يقال : يا نداء ، وها تنبيه ، والَّذِينَ إشارة .

وآمَنُوا مدحه .

روي عن الضحاك أنه كان يقرأ : ﴿ لاَ تُقَدّمُواْ ﴾ بنصب التاء والدال .

وقراءة العامة ﴿ لاَ تُقَدّمُواْ ﴾ برفع التاء ، وكسر الدال .

فمن قرأ بالنصب ، فهو في الأصل لا تتقدموا ، فحذفت إحدى التاءين لتكون أخف .

ومن قرأ بالضم فهو من قدم تقدم .

يقال : فلان تقدم بين يدي أبيه ، وبين يدي الإمام .

يعني : تعجل بالأمر ، وانتهى بدونه .

يعني : : لا تقدموا الكلام بين يدي الله ، ورسوله .

ومعناه : لا تقولوا قبل أن يقول الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويقال : معناه إذا أمرتم بأمر فلا تفعلوه قبل الوقت الذي أمرتم به .

وقال الحسن : إن قوماً ذبحوا قبل أن يصلي النبي صلى الله عليه وسلم يوم النحر ، فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يذبحوا آخر ، فنزل ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ تُقَدّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ وقال مسروق : كنا عند عائشة يوم الشك فأُتي بلبن ، فناولتني ، فقلت : إني صائم .

فقالت عائشة رضي الله عنها : وقد نهي عن هذا .

وقرأت هذه الآية وقالت هذه الآية نزلت في الصوم وغيره .

وقال مقاتل : نزلت الآية في ثلاثة نفر ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث سرية ،

وأمر عليهم المنذر بن عمرو .

فخرج بنو عامر بن صعصعة عند بئر معونة ، فرصدوهم على الطريق ، وقتلوهم .

(79/719)

فرجع ثلاثة منهم ، فلما دنوا إلى المدينة ، خرج رجلان من بني سليم صلحاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان أهداهما ، وكساهما ، فقالا : نحن من بني عامر ، لأن بني عامر كانوا أقرب إلى المدينة ، فقتلوهما ، وأخذوا من ثيابهما ، وجاؤوا بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فنزل ﴿ عَظِيماً يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ تُقَدّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ الله وَرَسُولِهِ ﴾ يعني : لا تعجلوا بقتل ، ولا بأمر ، حتى تستأمروا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروي عن الحسن في رواية أخرى أنه قال : لا تعملوا بخلاف الكتاب والسنة .

ثم قال : ﴿ واتقوا الله ﴾ يعني : اخشوا الله عز وجل فيما يأمركم ، وينهاكم ، ولا تخالفوا أمر الله ورسوله .

وقوله : ﴿ إِنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ يعني : سميع الدعاء ، عليم بخلقه .

ويقال : سميع لقول المستأمنين ، عليم بنيات الذين قتلوهما .

وفي الآية بيان رأفة الله عز وجل على عباده ، حيث سماهم مؤمنين مع معصيتهم .

فقال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ ولم يقل : يا أيها الذين عصوا وقد ذكرنا من قبل أن النداء على ست مراتب ، وهذا نداء مدح .

قوله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ تَرْفَعُواْ أصواتكم فَوْقَ صَوْتِ النبى ﴾ نزلت في وفد بني تميم قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم ، وهم سبعون أو ثمانون ، منهم الأقرع بن حابس ، والزبرقان بن بدر ، وعطارد بن الحجاب ، وذلك حين قالوا : ائذن لشاعرنا ، وخطيبنا في الكلام ، فعلت الأصوات ، واللغط ، فنزلت الآية ﴿ لاَ تَرْفَعُواْ أصواتكم فَوْقَ صَوْتِ النبى ﴾ ويقال : نزلت في ثابت بن قيس بن شماس ، وكان في أذنه وقر ، فكان إذا تكلم ، رفع صوته .

ثم قال : ﴿ تَجْهَرُواْ لَهُ بالقول كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ يعني : لا تدعوه باسمه ، كما يدعو الرجل الرجل منكم باسمه ، ولكن عظموه ، ووقروه ، وقولوا : يا نبي الله ، ويا رسول الله .

(80/719)

ثم قال : ﴿ أَن تَحْبَطَ أعمالكم وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ أن ذلك يحبطها .

يعني : إن فعلتم ذلك ، فتحبط حسناتكم .

وقال بعضهم : من عمل كبيرة من الكبائر حبط جميع ما عمل من الحسنات واحتج بهذه

الآية : ﴿ أَن تَحْبَطَ أعمالكم ﴾ ولكن نحن نقول : الكبيرة لا تبطل العمل ما لم يكفر ، وإنما ذكر هاهنا إبطال العمل ، لأن في ذلك استخفافاً بالنبي صلى الله عليه وسلم .

ومن قصد الاستخفاف بالنبي صلى الله عليه وسلم كفر .

فلما نزلت هذه الآية ، دخل ثابت بن قيس بيته ، وجعل يبكي ، ويقول : أنا من أهل النار .

فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فبعث إليه ، وقال : " إِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ بَلْ غَيْرُكَ مِنْ أَهْلِ النَّار " .

فقال : يا رسول الله لا أتكلم بعد ذلك إلا سراً ، أو ما كان يشبه السر فنزل : ﴿ إِنَّ الذين يَغُضُّونَ أصواتهم عِندَ رَسُولِ الله ﴾ صلى الله عليه وسلم روى ثابت عن أنس قال : لما نزل ﴿ لاَ تَرْفَعُواْ أصواتكم ﴾ وكان ثابت بن قيس رفيع الصوت .

فقال : أنا الذي كنت أرفع صوتي ، وحبط عملي .

أنا من أهل النارِ .

وجلس في بيته يبكي ، ففقده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبروه بما قال ، فقال صلى الله عليه وسلم : " بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ " .

فقال أنس : لكنا نراه يمشي بين أظهرنا ، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة .

فلما كان يوم اليمامة ، فكان فينا بعض الانكشاف ، فجاء ثابت بن قيس وقد تحنط ، ولبس كفنه ، فقال : بئس ما تعودون أقرانكم ، فقاتلهم حتى قتل .

ثم قال : ﴿ إِنَّ الذين يَغُضُّونَ أصواتهم عِندَ رَسُولِ الله ﴾ ﴿ أُوْلَئِكَ الذين امتحن الله قُلُوبَهُمْ للتقوى ﴾ يعني : أخلص الله قلوبهم .

ويقال : أصفى الله عز وجل قلوبهم للتقوى من المعصية .

يعني : يجعل قلوبهم موضعاً للتقوى ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم ﴿ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ أي : ثواب وافر في الجنة .

(81/719)

يعني : يجعل ثوابهم في الدنيا أن يخلص قلوبهم للتقوى ، وفي الآخرة أجر عظيم .

وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الذين يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الحجرات ﴾ فالحجرات جمع الحجرة .

يقال : حجرة وحجرات ، مثل ظلمة وظلمات .

وقرىء في الشاذ : الحجَرات بنصب الجيم .

وقرأه العامة بالضم .

ومعناهما : واحد .

نزلت الآية في شأن نفر من بني تميم ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث أسامة بن زيد ، فانتهى إلى قبيلة ، وكانت تسمى بني العنبر ، فأغار عليهم ، وسبى زراريهم ، فجاء

جماعة منهم ليشتروا أسراهم ، أو يفدوهم ، فنادوه وكان وقت الظهيرة ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم في الحجرة .

فنادوه من وراء الحجرة ، وكان لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم حجرات .

فلما خرج النبي كلموه في أمر الزراري ، فقال لواحد منهم : احكم .

فقال : حكمت أن تخلي نصف الأسارى ، وتبيع النصف منا .

ففعل النبي صلى الله عليه وسلم .

فنزلت الآية ﴿ إِنَّ الذين يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الحجرات ﴾ ﴿ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حتى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ ﴾ لأنهم لو لم ينادوه ، لكان يعتقهم كلهم .

وروى معمر عن قتادة أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فناداه من وراء الحجرات ، فقال : يا محمد إِنَّ مَدْحِي زَيْن ، وإِن شَتْمِي شَيْن .

فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " وَيْلَكَ ذَلِكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ " .

فَنَزل ﴿ إِنَّ الذين يُنَادُونَكَ ﴾ الآية .

ثم قال عز وجل : ﴿ والله غَفُورٌ ﴾ لمن تاب ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بهم بعد التوبة .

قوله عز وجل : ﴿ رَّحِيمٌ يا أيها الذين ءامَنُواْ إِن جَاءكُمْ فَاسِقُ بِنَبَإٍ ﴾ الآية .

نزلت في الوليد بن عقبة بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني المصطلق ليقبض

الصدقات ، فخرجوا إليه ليبجلوه ، ويعظموه ، فخشي منهم ، لأنه كان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية .

(82/719)

فرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : خرجوا إليَّ بأسلحتهم ، ومنعوا مني الصدقات وأطرحوني وأرادوا قتلي فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث لقتالهم ، فجاؤوا إلى المدينة ، وقالوا : يا رسول الله لما بلغنا قدوم رسولك ، خرجنا نبجله ، ونعظمه ، فانصرف عنا ، فاغتم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما فعل الوليد بن عقبة ، فنزل ﴿ رَّحِيمٌ يا أيها الذين ءامَنُواْ إِن جَاءكُمْ فَاسِقُ بِنَبَإٍ ﴾ يعني : بحديث كذب وبخبر كذب ﴿ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ يعني : وتعرفوا ولا تعجلوا ﴿ أن ﴾ يعني : كيلا تصيبوا ﴿ تُصِيبُواْ قَوْمَا بِجَهَالَةٍ ﴾ وأنتم لا تعلمون بأمرهم ﴿ فَتُصْبِحُواْ ﴾ يعني : فتصيروا ﴿ على مَا فَعَلْتُمْ نادمين ﴾ .

قرأ حمزة ، والكسائي : فَتَثَبَّتُوا بالثاء .

وقرأ الباقون : ﴿ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ مثل ما في سورة النساء .

ثم قال للمؤمنين رضي الله عنهم : ﴿ واعلموا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ الله لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ

الأمر ﴾ يعني : ما أمرتم به ، لأن الناس كانوا قد حرضوه على إرسالهم لقتال بني المصطلق ، ﴿ لَعَنِتُّمْ ﴾ يعني : لأثمتم .

وروى أبو نضرة ، عن أبي سعيد الخدري أنه قرأ .

هذه الآية : ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ الأمر لَعَنِتُّمْ ﴾ يعني : هذا نبيكم ، وخياركم ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ الأمر لَعَنِتُّمْ ﴾ فكيف بكم اليوم .

ويقال : ﴿ لَعَنِتُّمْ ﴾ أي : لهلكتم .

وأصله من عنت البعير إذا انكسرت رجله .

ثم ذكر لهم النعم فقال : ﴿ ولكن الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الايمان ﴾ يعني : جعل حب الإيمان في قلوبكم ﴿ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ يعني : حسنه للثواب الذي وعدكم .

ويقال : دلكم عليه بالحجج القاطعة .

ويقال : زينه في قلوبكم بتوفيقه إياكم لقبوله ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكفر والفسوق والعصيان ﴾ يعني : بغض إليكم المعاصي ، والكفر لما بينه من العقوبة .

ثم قال : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الرشدون ﴾ يعني : المهتدون .

فذكر أول الآية على وجه المخاطبة ، وآخر الآية بالمغايبة .

ثم قال : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الرشدون ﴾ ليعلم أن جميع من كان حاله هكذا ، فقد دخل في هذا المدح .

وفي الآية دليل أن من كان مؤمناً ، فإنه لا يحب الفسوق والمعصية ، لأن الله تعالى قال : ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكفر والفسوق والعصيان ﴾ والمؤمن إذا ابتلي بالمعصية ، فإن شهوته وغفلته تحمله على ذلك ، لا لحبه للمعصية .

ثم قال : أي ذلك التحبيب والتبغيض ﴿ فَضْلاً مِّنَ الله وَنِعْمَةً ﴾ يعني : كان الإيمان الذي حببه إليكم ، والكفر الذي بغضه إليكم ، كان ﴿ فَضْلاً مِّنَ الله وَنِعْمَةً ﴾ يعني : رحمة ﴿ والله عَلِيمٌ ﴾ بخلقه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في أمره وقضائه .

قوله عز وجل : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج إلى الأنصار ليكلمهم في أمر من الأمور وهو على حماره ، فبال الحمار وهو راكب عليه يكلم الأنصار .

فقال عبد الله بن أُبيّ المنافق : خل للناس سبيل الريح من نتن هذا الحمار ، ثم قال : أف . وأمسك على أنفه فشق على النبي صلى الله عليه وسلم قوله ، فانصرف عبد الله بن رواحة .

فقال : اتقوا هذا لحمار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله لبوله أطيب ريحاً منك .

فاقتتلا فاجتمع قوم ابن رواحة وهم الأوس ، وقوم عبد الله بن أبي وهم الخزرج ، فكان بينهم ضرب النعال ، والأيدي ، والسعف ، ورجع النبي صلى الله عليه وسلم فأصلح بينهم .

فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾ بالعدل فكره بعضهم الصلح ، فأنزل قوله : ﴿ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا على الاخرى ﴾ يعني : استطالت فلم ترجع إلى الصُّلح ﴿ فقاتلوا التى تَبْغِى ﴾ يعني : تظلم ﴿ حتى تَفِىء إلى أَمْرِ الله ﴾ يعني : ترجع إلى ما أمر الله عز وجل .

(84/719)

وروى أسباط عن السدي قال : كانت امرأة من الأنصار يقال لها أم زيد ، فأبغضت زوجها ، وأرادت أن تلحق بأهلها ، وكان قد جعلها في غرفة له ، وأمر أهله أن يحفظوها ، وخرج إلى حاجة له ، فأرسلت إلى أهلها ، فجاء ناس من أهلها ، وأرادوا أن يذهبوا بها ، فاقتتلوا بالنعال ، والتلاطم .

فنزل قوله تعالى : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا ﴾ الآية .

ثم صارت الآية عامة في جميع المسلمين .

إذا اقتتل فريقان من المسلمين ، وجب على المؤمنين الإصلاح بين الفريقين .

فإن ظهر أن أحد الفريقين ظالم ، فإنه يقاتل ذلك الفريق حتى يرجع إلى حكم الله .

ثم قال : ﴿ فَإِن فَاءتْ ﴾ يعني : رجعت إلى الصلح ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بالعدل ﴾ يعني : بالحق ﴿ وَأَقْسِطُواْ ﴾ يعني : اعدلوا بين الفريقين ، ولا تميلوا ﴿ إِنَّ الله يُحِبُّ المقسطين ﴾ يعني : العادلين .

ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ ﴾ يعني : كالأخوة في التعاون لأنهم على دين واحد .

كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : " المُؤْمِنَ للمُؤْمِن كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعضُهُ بَعْضاً " وَرُوِي عنه أنه قال : " المُؤْمِنُونَ كَعُضْوٍ وَاحِدٍ إِذَا اشْتَكَى عُضْوٌ تَدَاعَى سَائِر الأَعْضَاءِ إِلَى الحُمَّى وَالسَّهَرِ " .

ثم قال : ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ يعني : الفريقين من المؤمنين مثل الأوس والخزرج .

﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ قرأ ابن سيرين : إِخْوَانِكُم بالنون .

وقرأ يعقوب الحضرمي : بَيْنَ إِخْوَتِكُمْ بالتاء .

يعني : جمع الأخ .

وقراءة العامة ﴿ أَخَوَيْكُمْ ﴾ بالياء على تثنية الأخ .

يعني : بين كل أخوين .

ثم قال : ﴿ واتقوا الله لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ يعني : اخشوا الله عز وجل ، ولا تعصوه ، لكي ترحموا ، فلا تعذبوا .

قوله عز وجل : ﴿ تُرْحَمُونَ يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مّن قَوْمٍ ﴾ يعني : لا يستهزىء الرجل من أخيه .

(85/719)

وقال بعضهم : الآية نزلت في ثابت بن قيس ، حيث عيّر الذي لم يوسع له في المكان ، وقال بعضهم : الآية نزلت في الذين ينادونه من وراء الحجرات .

استهزؤوا من ضعفاء المسلمين ، ﴿ عسى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مّنْهُمْ ﴾ يعني : أفضل منهم ، وأكرم على الله تعالى ﴿ وَلاَ نِسَاء مّن نّسَاء ﴾ يعني : لا تستهزىء امرأة من امرأة ، وذلك أن عائشة رضي الله عنها قالت : إن أم سلمة جميلة لولا أنها قصيرة ﴿ عسى أَن يَكُنَّ خَيْراً مّنْهُنَّ ﴾ يعني : أفضل .

ثم صارت الآية عامة في الرجال والنساء ، فلا يجوز أحد أن يسخر من صاحبه ، أو من أحد من خلق الله تعالى .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : البلاء موكل بالقول لو سخرت من كلب خشيت أن أكون مثله .

ثم قال : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ يعني : لا يطعن بعضكم بعضاً .

وقال القتبي : ولا تغتابوا إخوانكم من المسلمين لأنهم كأنفسكم كما قال : ﴿ لولا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ المؤمنون والمؤمنات بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُواْ هاذآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ [النور : 12] .

يعني : بأمثالهم .

ثم قال : ﴿ وَلَا تَنَابَزُواْ بالالقاب ﴾ يعني : لا تسموا باللقب .

وقال محمد بن كعب القرظي : هو الرجل يكون على دين من الأديان ، فيسلم ، فيدعونه بدينه الأول : يا يهودي ، ويا نصراني .

ويقال : لا تعيروا المسلم بالملة التي كان عليها ، ولا تسموه بغير دين الإسلام .

وقال أهل اللغة : الألقاب والأنباز واحد .

ومنه قيل في الحديث : " قومٌ نَبْزُهُمُ الرَّافِضَةُ " أي : لقبهم ﴿ وَلَا تَنَابَزُواْ بالالقاب ﴾ أي : لا تداعوا بها .

ويقال : هو اللقب الذي يكرهه الرجل .

يعني : أنه ينبغي للمؤمن أن يخاطب أخاه بأحب الأسماء إليه .

وقرأ بعضهم ﴿ وَلاَ تَلْمِزُواْ ﴾ بضم الميم .

وقراءة العامة : بالكسر ، وهما لغتان .

يقال : لمز فلان فلاناً ، يلمز ويلمزه إذا عابه .

(86/719)

وذكر في التفسير أن الآية نزلت في مالك بن أبي مالك ، وعبد الله بن أبي حدرد ، وذلك أن أبا مالك كان على المقاسم .

فقال لعبد الله بن أبي حدرد الأسلمي : يا أعرابي .

فقال له عبد الله : يا يهودي .

فأمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدخلا عليه ، حتى تظهر توبتهما ، فنزل ﴿ بِئْسَ الاسم الفسوق بَعْدَ الايمان ﴾ يعني : بئس التسمية لإخوانكم بالكفر وهم مؤمنون ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ ﴾ من قوله ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظالمون ﴾ فأوثقا أنفسهما حتى قبلت توبتهما .

قوله عز وجل : ﴿ الظالمون يا أيها الذين ءامَنُواْ اجتنبوا كَثِيراً مّنَ الظن ﴾ يعني : لا تحققوا الظن ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظن إِثْمٌ ﴾ يعني : معصية أي : إِنَّ ظن السوء بالمسلم معصية .

وقال سفيان الثوري : الظن ظنان .

ظن فيه إثم ، وظن لا إثم فيه .

فالظن الذي فيه إثم ، أن يظن ويتكلم به .

وأما الظن الذي لا إثم فيه ، فهو أن يظن ، ولا يتكلم به ، لأنه قال : ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظن إِثْمٌ ﴾

ولم يقل : جميع الظن إثم .

ثم قال : ﴿ وَلاَ تَجَسَّسُواْ ﴾ يعني : لا تطلبوا ، ولا تبحثوا عن عيب أخيكم ﴿ وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً ﴾ روى أسباط عن السدي قال : كان سلمان الفارسي في سفر مع ناس فيهم عمر ، فنزلوا منزلاً ، فضربوا خيامهم ، وصنعوا طعامهم ، ونام سلمان ، فقال بعض القوم لبعض : ما يريد هذا العبد إلا أن يجد خياماً مضروبة ، وطعاماً مصنوعاً ، فلما استيقظ سلمان ، قالوا له : انطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتمس لنا إداماً نأتدم به .

فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عليه السلام : " أَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ قَدِ ائْتَدَمُوا " .

فأخبرهم .

فقالوا : ما طعمنا بعد ، وما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(87/719)

فأتوه ، فقال : " ائْتَدَمْتُمْ مِنْ صَاحِبِكُمْ ، حِينَ قُلْتُمْ مَا قُلْتُمْ وَهُوَ نَائِمٌ " ثم قرأ : ﴿ وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً ﴾ ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ يعني : فكما تكرهون أكل لحمه ميتاً ، فكذلك اجتنبوا ذكره بالسوء وهو غائب .

ويقال : كان سلمان في سفر مع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وكان يطبخ لهما ، فنزلوا منزلاً ، فلم يجد ما يصلح لهم أمر الطعام ، فبعثاه إلى النبي صلى الله عليه وسلم لينظر عنده شيئاً من الطعام ، فقال أسامة : لم يبق عند النبي صلى الله عليه وسلم شيء من الطعام ، فرجع إليهما ، فقالا : إنه لو ذهب إلى بئر كذا ، ليبس ماؤها ، فنزلت هذه الآية .

ويقال : نزلت في شأن زيد بن ثابت ، وذلك أن نفراً ذكروا فيه شيئاً ، فنزل : ﴿ وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً ﴾ قرأ نافع : مَيِّتاً بتشديد الياء ، والخفض .

والباقون بالجزم .

وقال أهل اللغة : الميت .

والميت واحد مثل ضيق وضيّق ، وهين وهيّن ، ولين وليّن .

ثم قال : ﴿ واتقوا الله ﴾ في الغيبة ، وتوبوا إليه ﴿ إِنَّ الله تَوَّابٌ ﴾ يعني : قابل التوبة ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بهم بعد التوبة .

قوله تعالى : ﴿ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا الناس ﴾ قال مقاتل : وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة ، أمر بلالاً ليؤذن .

فقال الحارث بن هشام .

أما وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم غير هذا الغراب .

يعني : بلال .

فنزل ﴿ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا الناس ﴾ ﴿ إِنَّا خلقناكم مّن ذَكَرٍ وأنثى ﴾ يعني : آدم وحواء ﴿ وجعلناكم شُعُوباً وَقَبَائِلَ ﴾ يعني : رؤوس القبائل ، مثل مضر ، وربيعة ﴿ وَقَبَائِلَ ﴾ يعني : الأفخاذ مثل بني سعد ، وبني عامر .

﴿ لتعارفوا ﴾ في النسب ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ الله أتقاكم ﴾ يعني : وإن كان عبداً حبشياً أسود مثل بلال .

(88/719)

وقال في رواية الكلبي : نزلت في ثابت بن قيس ، كان في أذنيه ثقل ، وكان يدنو من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسمع كلامه فأبطأ يوماً واحداً وقد أخذ الناس مجالسهم فجاء فتخطى رقابهم حتى جلس قريباً من النبي صلى الله عليه وسلم .

فقال رجل من القوم : هذا يتخطى رقابنا ، فلم لا يجلس حيث وجد المكان ؟ فقال ثابت : من هذا ؟ فقالوا : فلان .

فقال ثابت : يا ابن فلانة ، وكان يعيّر بأمه ، فخجل .

فنزلت هذه الآية .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " مَنْ عَيَّرَ فُلاناً بِأُمِّهِ " فقال ثابت بن قيس : أنا قد ذكرت شيئاً .

فقرأ هذه الآية عليه ، فاستغفر ثابت .

وروى سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : القبائل ، والأفخاذ : الصغار ، والشعوب : الجمهور مثل مضر .

وقال الضحاك : الشعوب : الأفخاذ الصغار ، والقبائل مثل بني تميم ، وبني أسد .

وقال القتبي : الشعوب أكثر من القبيلة .

وقال الزجاج : الشعب أعظم من القبيلة ، ومعناه : إني لم أخلقكم شعوباً وقبائل لتتفاخروا ، وإنما خلقناكم كذلك لتعارفوا .

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، يقولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : إِنَّكُمْ جَعَلْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ نَسَباً ، وَجَعَلْتُ لِنَفْسِي نَسَباً ، فَرَفَعْتُم نَسَبَكُم ، وَوَضَعْتُمْ نَسَبِي ، فَالْيَوْمَ أَرْفَعُ نَسَبِي ، وَأَضَعُ نَسَبَكُم .

يعني : قلت : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ اللهِ أتقاكم ﴾ وقلتم : أنتم فلان وفلان " .

ثم قال : ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ ﴾ بأتقيائكم ﴿ خَبِيرٌ ﴾ بافتخاركم ﴿ قَالَتِ الاعراب ءامَنَّا

﴿ قال ابن عباس : نزلت في بني أسد ، قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في قحط أصابهم ، فجاؤوا بأهاليهم ، وذراريهم ، يطلبون الصدقة ، وأظهروا الإسلام ، وقالوا : يا رسول الله نحن أسلمنا طوعاً ، وقدمنا بأهالينا ، فأعطنا من الغنيمة أكثر مما تعطي غيرنا .

(89/719)

ويقال : كانت قبيلتان جهينة ، ومزينة ، قدموا بأهاليهم .

فنزلت الآية ﴿ قَالَتِ الاعراب ءامَنَّا ﴾ يعني : صدقنا ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ﴾ يعني : لم تصدقوا في السر ، كما صدقتم في العلانية ﴿ ولكن قُولُواْ أَسْلَمْنَا ﴾ يعني : دخلنا في الانقياد ، والخضوع .

ويقال : استسلمنا مخافة القتل والسبي ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الايمان فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ يعني : التصديق .

ويقال : لم يدخل حب الإيمان في قلوبكم ﴿ وَإِن تُطِيعُواْ الله وَرَسُولَهُ ﴾ في السر ، كما تطيعونه في العلانية ﴿ لاَ يَلِتْكُمْ مّنْ أعمالكم شَيْئاً ﴾ يعني : لا ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئاً .

قرأ أبو عمرو : ﴿ لا ﴾ بالألف والهمز .

والباقون : ﴿ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُمْ ﴾ بغير ألف ولا همز .

ومعناهما واحد يقال : لاته يلته وألته يألته إذا نقص حقه ﴿ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لو صدقوا بقلوبهم ، ثم بيّن الله عز وجل لهم من المصدق .

فقال عز وجل : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون ﴾ يعني : المصدقون في إيمانهم ﴿ الذين ءامَنُواْ بالله وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ ﴾ يعني : لم يشكوا في إيمانهم ﴿ وجاهدوا ﴾ الأعداء ﴿ بأموالهم وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ الله ﴾ أي : في طاعة الله ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الصادقون ﴾ في إيمانهم .

فلما نزلت هذه الآية ، أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحلفوا بالله أنهم لمصدقوه في السر ، فنزل : ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ ﴾ الذي أنتم عليه ﴿ والله يَعْلَمُ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ يعني : سر أهل السموات ، وسر أهل الأرض ﴿ والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي : يعلم ما في قلوبكم من التصديق وغيره .

(90/719)

قوله عز وجل : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ﴾ يعني : بقولهم جئناك بأهالينا ، وأولادنا ﴿ قُل لاَّ تَمُنُّواْ عَلَىَّ إسلامكم بَلِ الله يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ للايمان ﴾ يعني : وفقكم للإيمان

﴿ إِن كُنتُمْ ﴾ بأنكم مخلصون في السر ، والعلانية .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السموات والأرض ﴾ يعني : سر أهل السموات ، وسر أهل الأرض .

﴿ والله بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ قرأ ابن كثير ، وعاصم ، في رواية إبان ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ بالياء على معنى الخبر عنهم .

وقرأ الباقون : بالتاء على معنى المخاطبة .

أي : بصير بما يعملون من التصديق وغيره ، والخير ، والشر ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 306.314 ﴾

(91/719)

وقال الثعلبى :

﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ الله وَرَسُولِهِ ﴾

قرأ العامة (تُقَدِّمُوا) بضم (التاء) وكسر (الدال) من التقديم ، وقرأ الضحّاك ، ويعقوب بفتحهما من التقدّم . واختلف المفسّرون في معنى الآية ، فروى علي بن أبي طلحة ، عن ابن عبّاس ، قال : لا تقولوا خلاف الكتاب والسنّة . عطية عنه : لا تتكلّموا بين يدي

كلامه .

وأخبرنا عبد الله بن حامد ، قال : أخبرنا أبو الحسين عمر بن الحسن بن مالك الشيباني ، قال : حدّثنا أحمد بن الحسن بن سعيد بن عثمان الخزاز . قال : حدّثنا حسين بن محارق أبو جنادة ، عن عبد الله بن سلامة ، عن السبعي ، عن جابر بن عبد الله ﴿ لاَ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ قال : في الذبح يوم الأضحى ، وإليه ذهب الحسن ، قال : لا تذبحوا قبل أن يذبح النبيّ صلى الله عليه وسلم وذلك أن ناساً من المسلمين ذبحوا قبل صلاة النبي صلى الله عليه وسلم فأمرهم أن يعيدوا الذبح .

وأخبرنا عبد الخالق ، قال : أخبرنا ابن حيي قال : حدّثنا أبو بكر بن أبي العوام الرياحي ، قال : حدّثنا أبي . قال : حدّثنا النعمان بن عبد السّلم التيمي ، عن زفر بن الهذيل ، عن يحيى بن عبد الله التيمي عن حبّال بن رفيدة ، عن مسروق ، عن عائشة رضي الله عنه في قوله : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ قالت : لا تصوموا قبل أن يصوم نبيّكم .

وروي عن مسروق أيضاً ، قال : دخلت على عائشة في اليوم الذي جئت فيه ، فقالت للجارية : اسقيه عسلاً ، فقلت : إنّي صائم . فقالت : قد نهى الله تعالى عن صوم هذا اليوم ، وفيه نزلت ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ وأخبرنا ابن منجويه ، قال : حدّثنا عمر بن الخطّاب . قال : حدّثنا عبد الله بن الفضل . قال : حدّثنا إسحاق بن إبراهيم . قال : حدّثني هشام بن يوسف ، عن ابن جريج ، قال : أخبرني ابن أبي مليكة أنّ عبد الله بن الزبير أخبرهم ، قال : قدم ركب من بني تميم على النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر : أمّر القعقاع بن معبد زرارة ، وقال عمر : بل أمّر الأقرع بن حابس ، فقال أبوبكر : ما أردت إلاّ خلافي ، وقال عمر : ما أردت خلافك ، فتماريا حتّى ارتفعت أصواتهما ، فأنزل الله سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ . . . الآية .

وقال قتادة : نزلت في ناس كانوا يقولون : لو أنزل في كذا ، لوضع كذا . فكره الله ذلك وقدّم فيه . مجاهد : لا تفتاتوا على رسول الله بشيء حتّى يقضيه الله على لسانه .

الضحّاك : يعني في القتال وشرائع الدين يقول : لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله . حيان ، عن الكلبي لا تستبقوا رسول الله بقول ، ولا فعل حتّى يكون هو الذي يأمركم .

وبه قال السدّي ، وقال عطاء الخراساني : " نزلت في قصة بئر معونة ، وقيل في الثلاثة الذين نجّوا الرجلين السَّلميين ، اللذين اعتزما إلى بني عامر وأخْذهم مالهما وكانا من أهل العهد ،

فلمّا أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سبق الخبر إليه ، فقال : " بئس ما صنعتم ، هما من أهل ميثاقي وهذا الذي معكم من نسوتي " ، قالا : يا رسول الله إنّهما زعما أنّهما من بني عامر ، فقلنا : رجلان ممّن قتل إخواننا .

(93/719)

فقلنا : هما لذلك . وأتاه السَّلميون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا قود لهما لأنّهما اعتزما إلى عدوّنا " . ولكنّه أيدهما ، فوادَّهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنزل الله سبحانه في ذلك : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ اللّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ " حين قتلوا الرجلين ، وهذه رواية ماذان عن ابن عبّاس .

وقال ابن زيد : لا تقطعوا أمراً دون رسول الله ، وقيل : لا تمشوا بين يدي رسول الله ، وكذلك بين أيدي العلماء فإنّهم ورثة الأنبياء .

ودليل هذا التأويل ما أخبرنا أبو الحسن الخبازي ، قال : حدّثنا أبو القاسم موسى بن محمّد الدينوري بها ، قال : حدّثنا أحمد بن يحيى ، قال : حدّثنا أحمد بن عبد الله بن يونس ، قال : حدّثنا رجل بمكّة ، عن ابن جريج ، عن عطاء ، " عن أبي الدرداء ، قال : رآني النبيّ صلى الله عليه وسلم أمشي أمام أبي بكر ، فقال : " تمشي أمام من هو خير منك في الدّنيا

والآخرة ، ما طلعت الشمس ، ولا غربت على أحد بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم والمرسلين خيراً وأفضل من أبي بكر " .

وقيل : إنّها نزلت في قوم كانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا سُئل الرسول عن شيء ، خاضوا فيه ، وتقدّموا بالقول ، والفتوى ، فنهوا عن ذلك ، وزجروا عن أن يقول أحد في شيء من دين الله سبحانه ، قبل أن يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل : لا تطلبوا منزلة وراء منزلته . قال الأخفش : تقول العرب : فلان تقدّم بين يدي أبيه ، وأُمّه ، ويتقدّم إذا استبدّ بالأمر دونهما . ﴿ واتقوا الله ﴾ في تضييع حقّه ، ومخالفة أمره . ﴿ إِنَّ الله سَمِيعٌ ﴾ لأقوالكم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأفعالكم ، وأحوالكم .

(94/719)

﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ ترفعوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النبي ﴾ الآية نزلت في ثابت بن قيس ابن شماس ، كان في أذنه وقر ، وكان جهوري الصّوت ، فإذا كلّم إنساناً جهر بصوته ، فربّما كان يكلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم فينادي بصوته ، فأنزل الله سبحانه ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ ترفعوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النبي ﴾ ﴿ وَلاَ تَجْهَرُواْ لَهُ بالقول كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ أي لا تغلظوا له في الخطاب ، ولا تنادوه باسمه يا محمّد ، يا أحمد ، كما ينادي

بعضكم بعضاً ، ولكن فخّموه ، واحترموه ، وقولوا له قولاً ليّناً ، وخطاباً حسناً ، بتعظيم ، وتوقير : يا نبي الله ، يا رسول الله ، نظيره قوله سبحانه :

﴿ لاَّ تَجْعَلُواْ دُعَآءَ الرسول بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾ [النور : 63] .

(95/719)

﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ ﴾ كي لا تبطل حسناتكم . تقول العرب : أسند الحائط أن يميل ﴿ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ " فلمّا نزلت هذه الآية قعد ثابت في الطريق ، فمرّ به عاصم بن عدي ، فقال : ما يبكيك يا ثابت ؟ قال : هذه الآية أتخوّف أن تكون نزلت فيَّ ، وأنا رفيع الصوت ، أخاف أن يحبط عملي ، وأن أكون من أهل النار ، فمضى عاصم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وغلب ثابتاً البكاء ، فأتى امرأته جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول ، فقال لها : إذا دخلت بيت فرسي ، فشدّي على الضبة بمسمار فضربته بمسمار حتى إذا خرجت عطفه ، وقال : لا أخرج حتّى يتوفّاني الله ، أو يرضى عنّي رسول الله ، فأتى عاصم رسول الله ، فأخبره بخبره . فقال : " اذهب ، فادعه لي " . فجاء عاصم إلى المكان الذي رآه فلم يجده ، فجاء إلى أهله ، فوجده في بيت الفرس ، فقال له : إنّ رسول الله يدعوك ، فقال : أكسر الصَبّة ، فأتيا رسول الله ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم "

ما يبكيك يا ثابت ؟ " فقال : أنا صيّت وأتخوّف أن تكون هذه الآية نزلت فيَّ ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم " أما ترضى أن تعيش سعيداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنّة " ، فقال : رضيت ببشرى الله ورسوله ، لا أرفع صوتي أبداً على رسول الله ، فأنزل الله سبحانه : ﴿ إِنَّ الذين يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ الله ﴾ الآية " .

(96/719)

قال أنس : فكنّا ننظر إلى رجل من أهل الجنّة ، يمشي بين أيدينا ، فلمّا كان يوم اليمامة في حرب مسيلمة ، رأى ثابت في المسلمين بعض الانكسار ، وانهزمت طائفة منهم ، فقال : أف لهؤلاء ، وما يصنعون . ثمّ قال ثابت لسالم مولى أبي حذيفة : ما كنا نقاتل أعداء الله مع رسول الله مثل هذا ، ثمّ ثبتا ، ولم يزالا يقاتلان حتّى قُتلا . وثابت بن قيس عليه درع ، فرآه رجل من الصحابة بعد موته في المنام أنّه قال له : اعلم أنّ فلاناً رجلٌ من المسلمين نزع درعي ، فذهب بها وهي في ناحية من العسكر عنده فرس تستر في طوله ، وقد وضع على درعي لرمه ، فأتِ خالد بن الوليد ، فأخبره حتّى يسترد درعي وأتِ أبا بكر خليفة رسول الله وقل له : إنّ عليَّ ديناً حتّى يقضي ، وفلان من رقيقي عتيق .

فأخبر الرجل خالداً فوجد درعه والفرس على ما وصفه ، فاسترد الدرع ، وأخبر خالد

أبا بكر تلك الرؤيا ، فأجاز أبو بكر وصيّته . قال مالك بن أنس : لا أعلم أجيزت بعد موت صاحبها إلاّ هذه .

حدّثنا أبو محمّد المخلدي ، قال : أخبرنا أبو العبّاس السرّاج ، قال : حدّثنا زياد بن أيّوب ، قال : حدّثنا عباد بن العوّام ، ويزيد بن هارون وسعيد بن عادر ، عن محمّد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، قال : حدّثنا سعيد ، عن أبي هريرة .

قال : لمّا نزلت ﴿ لاَ ترفعوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النبي ﴾ . . . الآية ، قال أبو بكر : والله لا أرفع صوتي إلاّ كأخي السِرار .

وروى ابن أبي مليكة عن أبي الزبير ، قال : لمّا نزلت هذه الآية ، ما حدّث عمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد ذلك ، فيسمع النبيّ صلى الله عليه وسلم كلامه حتّى يستفهمه ممّا يخفض صوته ، فأنزل الله سبحانه فيهم : ﴿ إِنَّ الذين يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ الله ﴾ إجلالاً له ﴿ أولئك الذين امتحن الله قُلُوبَهُمْ للتقوى ﴾ أي اختبرها ، فأخلصها ، واصطفاها كما يمتحن الذهب بالنار ، فيخرج خالصه ، وقال ابن عبّاس : أكرمها .

(97/719)

وأخبرنا أبو سعيد محمّد بن موسى بن الفضل النيسابوري ، قال : أخبرنا أبو عبد الله محمّد ابن عبد الله بن أحمد الإصبهاني ، قال : حدّثنا أبو بكر عبد الله بن محمّد بن عبد القريشي ، قال : حدّثنا محمّد بن يحيى بن أبي خاتم ، قال : حدّثني جعفر بن أبي جعفر ، عن أحمد بن أبي الخولدي ، قال : سمعت أبا سلمان يقول : قال عمر بن الخطّاب في قوله : ﴿ الذين امتحن الله قُلُوبَهُمْ للتقوى ﴾ قال : أذهب الشهوات منها ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ ويقال : إنّ هذه الآيات الأربع من قوله : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ ترفعوا أَصْوَاتَكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ نزلت في وفد تميم .

(98/719)

وهو ما أخبرني أبو القاسم الحسن بن محمّد ، قال : حدّثني أبو جعفر محمّد بن صالح بن هاني الورّاق سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة ، قال : حدّثنا الفضل بن محمّد بن المسيب بن موسى الشعراني ، قال : حدّثنا القاسم بن أبي شيبة ، قال : حدّثنا مُعلّى بن عبد الرّحمن ، قال : حدّثنا عبد الحميد بن جعفر بن عمر بن الحكم ، عن جابر بن عبد الله ، قال : " جاءت بنو تميم إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فنادوا على الباب : يا محمّد اخرج علينا ، فإنّ مدحنا زين وذمّنا شين . قال : فسمعها النبيّ صلى الله عليه وسلم صلّى الله عليه

وسلّم ، فخرج عليهم ، وهو يقول : " إنّما ذلكم الله الذي مدحه زين وذمّه شين " . قالوا : نحن ناس من بني تميم ، جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما بالشعر بعثت ، ولا بالفخار أمرت ، ولكن هاتوا " . فقال الزبرقان بن بدر لشاب من شبابهم : قم فاذكر فضلك ، وفضل قومك . فقام ، فقال : الحمد لله الذي جعلنا خير خلقه وآتانا أموالاً نفعل فيها ما نشاء ، فنحن من خير أهل الأرض ، من أكثرهم عدّة ، ومالاً ، وسلاحاً ، فمن أنكر علينا قولنا ، فليأت بقول هو أحسن من قولنا ، وفعال هي خير من فِعالنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لثابت بن قيس بن شماس ، وكان خطيب رسول الله : " قم فأجبه " .

(99/719)

فقام ، فقال : الحمد لله أحمده ، وأستعينه ، وأومن به ، وأتوكّل عليه ، وأشهد أن لا إله إلاّ الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله ، ثمّ دعا المهاجرين من بني عمّه أحسن الناس وجوهاً وأعظمهم أحلاماً . فأجابوه ، فقالوا : الحمد لله الذي جعلنا أنصاره ، ووزراء رسوله ، وعزّاً لدينه ، فنحن نقاتل الناس ، حتّى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله ، فمن قالها منع منّا ماله ، ونفسه ، ومن أبى قتلناه ، وكان زعمه في الله علينا هيناً ، أقول قولي

وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات . فقال الزبرقان بن بدر لشاب من شبابهم : قم يا فلان ، فقل أبياتاً تذكر فيها فضلك ، وفضل قومك . فقام الشاب ، فقال :

* نحن الكرام فلا حيٌّ يعادلنا * فينا الرؤوس وفينا يقسم الربع *

* ونطعم الناس عند القحط كلّهم * من السديف إذا لم يؤنس القزع *

* إذا أبينا فلا يأبى لنا أحد * إنا كذلك عند الفخر نرتفع *

قال : فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حسّان بن ثابت ، فانطلق إليه الرّسول ، فقال : وما تريد منّي وكنت عنده ؟ قال : جاءت بنو تميم بشاعرهم ، وخطيبهم ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت بن قيس ، فأجابه ، وتكلّم شاعرهم ، فأرسل إليك لتجيبه .

وذكر له قول شاعرهم . قال : فجاء حسّان ، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجيبه فقال : يا رسول الله مره ، فليُسمعني ما قال ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم " اسمعه ما قلت " ، فأنشده ما قال ، فقال حسّان :

* إنّ الذوائب من فهر وإخوتهم * قد شرّعوا سُنّة للنّاس تتّبع *

* يرضى بها كلّ من كانت سريرته * تقوى الإله وكلّ الخير يصطنع *

ثمّ قال حسّان :

* نصرنا رسول الله والدين عنوة * على رغم عات من معد وحاضر *

* بضرب كأبزاغ المخاض مشاشه * وطعن كأفواه اللقاح الصوادر *

* وسل أُحداً يوم استقلت شعابه * بضرب لنا مثل الليوث الجواذر *

(100/719)

---

* ألسنا نخوض الموت في حومة الوغى * إذا طاب ورد الموت بين العساكر *

* ونضرب هام الدارعين وننتمي * إلى حسب من جذم غسان قاهر *

* فلولا حياء الله قلنا تكرّماً * على النّاس بالخيفين هل من منافر *

* فأحياؤنا من خير من وطئ الحصى * وأمواتنا من خير أهل المقابر *

قال : فقام الأقرع بن حابس ، فقال : إنّي والله لقد جئت لأمر ما جاء له هؤلاء ، وإنّي قد قلت شعراً ، فاسمعه منّي ، فقال : هات ، فقال :

* أتيناك كيما يعرف الناس فضلنا * إذا خالفونا عند ذكر المكارم *

* وإنّا رؤُس الناس من كلّ معشر * وأنّ ليس في أرض الحجاز كدارم *

* وإنّ لنا المرباع في كلّ غارة * تكون بنجد أو بأرض التهائم *

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " قم يا حسّان فأجبه " . فقام حسّان ، فقال :

* بني دارم لا تفخروا إنّ فخركم * يعود وبالاً عند ذكر المكارم *

* هبلتم علينا تفخرون وأنتمُ * لنا خول من بين ظئر وخادم *

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لقد كنت غنياً يا أخا دارم أن يذكر منك ما قد ظننت أنّ الناس قد نسوه " .

قال : فكان قول رسول الله صلى الله عليه وسلم أشدّ عليهم من قول حسّان . ثمّ رجع حسّان إلى شعره . فقال :

* كأفضل ما نلتم من المجد والعلى * ردافتنا من بعد ذكر الأكارم *

* فإن كنتمُ جئتمْ لحقن دمائكم * وأموالكم أن تقسموا في المقاسم *

* فلا تجعلوا لله نداً وأسلموا * ولا تفخروا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم بدارم *

* وإلاّ وربّ البيت مالت أكفّنا * على هامكم بالمرهفات الصوارم *

قال : فقام الأقرع بن حابس ، فقال : إنّ محمّداً المولى ، إنه والله ما أدري ما هذا الأمر ، تكلّم خطيبنا ، فكان خطيبهم أحسن قولاً ، وتكلّم شاعرنا ، فكان شاعرهم أشعر ، وأحسن قولاً . ثمّ دنا من النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّك رسوله .

(101/719)

فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم " ما يضرّك ما كان قبل هذا " . ثمّ أعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكساهم ، وقد كان يخلف في ركابهم عمرو بن الأهتم ، وكان قيس بن عاصم يبغضه لحداثة سنه ، فأعطاه رسول الله مثل ما أعطى القوم ، فأزرى به قيس ، وقال فيه أبيات شعر وارتفعت الأصوات ، وكثر اللغط عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ ترفعوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النبي ﴾ إلى قوله ﴿ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ "

يعني جزاء وافراً ، وهو الجنّة .

﴿ إِنَّ الذين يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ الحجرات ﴾ يعني أعراب تميم ، حيث نادوا : يا محمّد اخرج علينا ، فإنّ مدحنا زين وذمّنا شين ، قاله قتادة . قال ابن عبّاس : " بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية إلى حي من بني العنبر وأمّر عليهم عُيينة بن حصين الفزاري ، فلمّا علموا أنّه توجّه نحوهم ، هربوا ، وتركوا عيالهم ، فسباهم عُيينة ، وقدم بهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء بعد ذلك رجالهم يفدون الذراري ، فقدموا وقت الظهيرة ، وواقفوا رسول الله في أهله قائلاً ، فلمّا رأتهم الذراري جهشوا إلى آبائهم يبكون ، وكان لكلّ امرأة من نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت ، وحجرة ، فعجلوا أن يخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعلوا ينادون : يا محمّد اخرج إلينا حتّى أيقظوه من نومه ، فخرج إليهم ، فقالوا : يا محمّد فادنا عيالنا .

فنزل جبريل ، فقال : يا محمّد إنّ الله يأمرك أن تجعل بينك ، وبينهم رجلاً ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم " أترضون أن يكون بيني وبينكم سمرة بن عمرو ، وهو على دينكم ؟ " .

فقالوا : نعم . قال سمرة : أنا لا أحكم بينهم وعمّي شاهد ، وهو الأعور بن شامة فرضوا به .

فقال الأعور : أرى أن يفادي نصفهم ، ويعتق نصفهم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم " قد رضيت " .

(102/719)

ففادى نصفهم وأعتق نصفهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من كان عليه محرر من ولد إسماعيل ، فليعتق منهم " . فأنزل الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ الذين يُنَادُونَكَ ﴾ " . . الآية ، وقال زيد بن أرقم : جاء ناس من الغرف إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا إلى هذا الرجل ، فإن يكن نبيّاً فنحن أسعد الناس به ، وأن يكن ملكاً نعشْ في جناحه . فجاءوا إلى حجرة النبيّ صلى الله عليه وسلم فجعلوا ينادونه : يا محمّد ، يا محمّد ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ الحجرات ﴾ وهي جمع

الحجر ، والحجر جمع حجرة ، فهو جمع الجمع ، وفيه لغتان : فتح (الجيم) وهي قراءة أبي جعفر ، كقول الشاعر :

أما كان عباد كفياً لدارم . . . يلي ولأبيات بها الحجرات

يعني يلي ولبني هاشم .

﴿ أَكْثَرُهُمْ ﴾ جهلاء ﴿ لاَ يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حتى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ ﴾ لأنّك كنت تعتقهم جميعاً ، وتطلقهم بلا فداء . ﴿ واللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أخبرنا ابن منجويه ، قال : حدّثنا عبد الله بن يوسف ، قال : حدّثنا أحمد بن عيسى بن السكين البلدي ، قال : حدّثني هاشم بن القاسم الحراني ، قال : حدّثني يعلى بن الأشدق ، قال : حدّثني سعد بن عبد الله ، " أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم سُئل عن قول الله سبحانه : ﴿ إِنَّ الذين يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ الحجرات ﴾ قال : " هم الجفاة من بني تميم ، لولا أنّهم من أشدّ الناس قتالاً للأعور الدجّال ، لدعوت الله عزّ وجلّ أن يهلكهم " .

(103/719)

﴿ يا أيها الذين آمنوا إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ ﴾ الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني المصطلق بعد الوقعة مصدّقاً ، وكان بينه ،

وبينهم عداوة في الجاهلية ، فلمّا سمع به القوم تلقوه تعظيماً لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدّثه الشيطان أنّهم يريدون قتله ، فهابهم ، فرجع من الطريق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " إنّ بني المصطلق ، قد منعوا صدقاتهم وأرادوا قتلي ، فغضب رسول الله ، وهمّ أن يغزوهم ، فبلغ القوم رجوعه ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : يا رسول الله سمعنا برسولك ، فخرجنا نتلقّاه ، ونكرمه ، ونؤدّي إليه ما قِبلنا من حقّ الله ، فبدا له في الرجوع ، فخشينا أن يكون إنّما ردّه من الطريق كتاب جاءه منك لغضب غضبته علينا ، وإنّا نعوذ بالله من غضبه ، وغضب رسوله ، فأبهمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعث خالد بن الوليد إليهم خفية في عسكر ، وأمره أن يخفي عليهم قدومه .

وقال له : " انظر ، فإن رأيت منهم ما يدلّ على إيمانهم ، فخذ منهم زكاة أموالهم ، وإن لم ترَ ذلك ، فاستعمل فيهم ما يُستعمل في الكفّار " " .

ففعل ذلك خالد ووافاهم ، فسمع منهم آذان صلاتي المغرب والعشاء ، فأخذ منهم صدقاتهم ، ولم ير منهم إلاّ الطاعة ، والخير ، فانصرف خالد إلى رسول الله ، وأخبره الخبر ، فأنزل الله سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ ﴾ يعني الوليد بن عقبة بن أبي معيط سمّاه الله فاسقاً ، نظيره ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لاَّ يَسْتَوُونَ ﴾ [السجدة : 18] ، قال سهل بن عبد الله وابن زيد : الفاسق الكذّاب . أبو الحسين الورّاق

: هو المعلن بالذنب ، وقال ابن طاهر وابن زيد : الفاسق الذي لا يستحي من الله سبحانه .

(104/719)

بنباً : بخبر ﴿ فتبينوا أَن تُصِيبُواْ ﴾ كي لا تصيبوا بالقتل ، والقتال . ﴿ قَوْمًا ﴾ براء ﴿ بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُواْ على مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ * واعلموا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ الله ﴾ فاتقوا أن تقولوا الباطل ، وتفتروا الكذب ، فإنّ الله سبحانه يخبره أنباءكم ، ويعرّفه أحوالكم ، فتفتضحوا . ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأمر ﴾ فيحكم برأيكم ، ويقبل قولكم . ﴿ لَعَنِتُّمْ ﴾ لأثمتم وهلكتم . ﴿ ولكن الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمان ﴾ فأنتم تطيعون رسول الله وتأتمّون به ، فيقيكم الله بذلك العنت . ﴿ وَزَيَّنَهُ ﴾ وحسّنه ﴿ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكفر والفسوق والعصيان ﴾ .

ثمّ انتقل من الخطاب إلى الخبر ، فقال عزّ من قائل : ﴿ أولئك هُمُ الراشدون ﴾ نظيرها قوله سبحانه : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ الناس فَلاَ يَرْبُو عِندَ الله وَمَا آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ الله فأولئك هُمُ المضعفون ﴾

[الروم : 39] ، قال النابغة :

يا دارميّة بالعلياء فالسند . . . أقوتْ وطال عليها سالف الأبد

﴿ فَضْلاً ﴾ أي كان هذا فضلاً ﴿ مِّنَ اللهِ وَنِعْمَةً واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا ﴾ قال أكثر المفسّرين : وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم على مجلس من مجالس الأنصار وهو على حماره ، فبال حماره ، فأمسك عبد الله بن أُبي بأنفه وقال : إليك عنّا بحمارك ، فقد آذانا نتنه . فقال عبد الله بن رواحة : والله لحمار رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيب ريحاً منك .

(105/719)

فغضب لعبد الله بن أُبي رجل من قومه ، وغضب لعبد الله بن رواحة رجل من قومه ، فغضب لكلّ واحد منهما أصحابه حتّى استسبّوا ، وتجالدوا بالأيدي ، والجريد ، والنعال ، ولم يقدر رسول الله صلى الله عليه وسلم على إمساكهم ، فأنزل الله سبحانه هذه الآية ، فلمّا نزلت قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم فاصطلحوا ، وكفَّ بعضهم عن بعض ، وأقبل بشير بن النعمان الأنصاري مشتملاً على سيفه ، فوجدهم قد اصطلحوا ، فقال عبد الله بن أُبي : أعليَّ تشتمل بالسيف يا بشير ؟ قال : نعم ، والّذي أحلف به لو جئت قبل أن تصطلحوا لضربتك حتّى أقتلك ، فأنشأ عبد الله بن أُبي يقول :

متى ما يكن مولاك خصمك جاهداً . . . تظلم ويصرعك الذين تصارع

قال قتادة : نزلت في رجلين من الأنصار ، كانت بينهما مذاراة في حقّ بينهما ، فقال أحدهما للآخر : لآخذنّ حقّي منك عنوة ، لكثرة عشيرته ، وإنّ الآخر دعاه ليحاكمه إلى نبيّ الله صلى الله عليه وسلم فأبى أن يتبعه ، فلم يزل الأمر بينهما ، حتّى تدافعوا ، وقد تناول بعضهم بعضاً بالأيدي ، والنعال ، ولم يكن قتال بالسيوف . وروى محمّد بن الفضيل ، عن الكلبي أنّها نزلت في حرب سمير وحاطب ، وكان سمير قتل حاطباً ، فجعل الأوس والخزرج يقتتلون إلى أن أتاهم النبيّ صلى الله عليه وسلم فأنزل الله سبحانه هذه الآية ، وأمر نبيّه ، والمؤمنين أن يصلحوا بينهم .

وروى سفيان عن السدّي ، قال : كانت امرأة من الأنصار يقال لها : أُمّ زيد تحت رجل ، وكان بينها ، وبين زوجها شيء ، فرمى بها إلى عُلية ، وحبسها فيها ، فبلغ ذلك قومها فجاءوا ، وجاء قومه ، فاقتتلوا بالأيدي ، والنعال ، فأنزل الله سبحانه تعالى : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا ﴾ الآية .

(106/719)

﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾ بالدعاء إلى حكم كتاب الله سبحانه ، والرضا بما فيه لهما ، وعليهما . ﴿ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا على الأخرى فَقَاتِلُواْ التي تَبْغِي حتى تفيء ﴾ ترجع ﴿ إلى أَمْرِ الله ﴾ وأبت الإجابة إلى حكم الله تعالى له ، وعليه في كتابه الذي جعله عدلاً بين خلقه . ﴿ فَإِن فَآءَتْ ﴾ رجعت إلى الحقّ ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بالعدل ﴾ بحملهما على الإنصاف والرضى بحكم الله ، وهو العدل ، ﴿ وأقسطوا ﴾ واعدلوا . ﴿ إِنَّ الله يُحِبُّ المقسطين * إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ ﴾ في الدين ، والولاية ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ إذا اختلفا ، واقتتلا ، وقرأ ابن سيرين ، ويعقوب . بين (اخوتكم) (بالتاء) على الجمع ، وقرأ الحسن (إخوانكم) (بالألف) و (النون) .

﴿ واتقوا الله ﴾ فلا تعصوه ولا تخالفوا أمره ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

قال أبو عثمان البصري : أخوة الدّين أثبت من أخوّة النسب ، فإنّ اخوّة النسب تنقطع لمخالفة الدين ، وأُخوّة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب . وسُئل الجنيد عن الأخ ، فقال : هو أنت في الحقيقة إلاّ إنّه غيرك في الشخص . أخبرني ابن منجويه ، قال : حدّثنا عمر بن الخطّاب . قال : حدّثنا محمّد بن إسحاق المسوحي . قال : حدّثنا عمرو بن علي ، قال : حدّثنا أبو عاصم . قال : حدّثنا إسماعيل بن رافع ، عن ابن أبي سعيد ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " المسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يعيبه ، ولا يخذله ، ولا يتطاول عليه في البنيان ، فيستر عليه الريح إلاّ بإذنه ، ولا يؤذيه بقتار قدره إلاّ أن

يعرف له ، ولا يشتري لبنيه الفاكهة ، فيخرجون بها إلى صبيان جاره ، ولا يطعمونهم منها ".

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " احفظوا ، ولا يحفظه منكم إلاّ قليل " .

(107/719)

وفي هاتين الآيتين دليل على انّ البغي لا يزيل اسم الإيمان ، لأنّ الله سبحانه وتعالى سمّاهم أخوة مؤمنين مع كونهم باغين ، عاصين . يدلّ عليه ما روى الأعور أنّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه سُئل وهو القدوة في قتال أهل البغي ، عن أهل الجمل ، وصفّين ، أمشركون هم ؟ فقال : لا ، من الشرك فرّوا . فقيل : أهم منافقون ؟ فقال : إنّ المنافقين لا يذكرون الله إلاّ قليلاً . قيل : فما حالهم ؟ قال : إخواننا بغوا علينا .

وقد أخبرني ابن منجويه ، قال : حدّثنا ابن شنبه ، قال : حدّثنا أحمد بن الحسين بن عبد الجبّار الصوفي قال : حدّثنا أبو نصر التمّار ، قال : حدّثنا كوثر ، عن نافع ، عن ابن عمر أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " يا عبد الله هل تدري كيف حكم الله سبحانه فيمن بغى من هذه الأُمّة ؟ " .

قال : الله ورسوله أعلم . قال : " لا يجهز على جريحها ، ولا يقتل أسيرها ، ولا يطلب

هاربها ، ولا يقسم فيئها " وسُئل محمّد بن كعب القرظي عن هاتين الآيتين ، فقال : جعل النبيّ صلى الله عليه وسلم أجر المصلح بين الناس ، كأجر المجاهد عند الناس ، وقال بكر بن عبد الله : امش ميلاً ، وعد مريضاً ، امش ميلين ، وأصلح بين اثنين ، امش ثلاثة أميال ، وزر أخاك في الله .

(108/719)

﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾ الآية ، قال ابن عبّاس : نزلت في ثابت بن قيس ، وذلك أنّه كان في إذنه وقر ، فكان إذا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سبقوه بالمجلس ، أوسعوا له حتّى يجلس إلى جنبه ، فيسمع ما يقول ، فأقبل ذات يوم ، وقد فاته من صلاة الفجر ركعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلمّا انصرف النبيّ صلى الله عليه وسلم من الصلاة أخذ أصحابه مجالسهم (منه ، فربض) كلّ رجل بمجلسه ، فلا يكاد يوسع أحد لأحد ، فكان الرجل إذا جاء ، فلم يجد مجلساً ، قام قائماً ، كما هو ، فلمّا فرغ ثابت من الصلاة ، وقام منها ، أقبل نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يتخطّى رقاب الناس ، ويقول : تفسحوا تفسحوا ، فجعلوا يتفسحون له حتّى انتهى إلى رسول الله إلى الله عليه وسلم وبينه وبينه رجل .

فقال له : تفسح . فقال له الرجل : قد أصبت مجلساً ، فاجلس ، فجلس ثابت من خلفه مغضباً ، فلمّا ابينت الظلمة ، غمز ثابت الرجل ، وقال : مَنْ هذا ؟ قال : أنا فلان . فقال له ثابت : ابن فلانة . ذكر أُمّاً له كان يعيَّر بها في الجاهلية . فنكس الرجل رأسه واستحيى ، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية .

وقال الضحّاك : نزلت في وفد تميم الذين ذكرناهم في صدر السورة ، استهزءوا بفقراء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل عمّار ، وخباب ، وبلال ، وصهيب ، وسلمان ، وسالم مولى أبي حذيفة ، لما رأوا من رثاثة حالهم ، فأنزل الله سبحانه في الذين آمنوا منهم ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ يَسْخَرْ ﴾ أي رجالٌ من رجال ، والقوم اسم يجمع الرجال والنساء ، وقد يختص بجمع الرجال ، كقول زهير :

وما أدري وسوف إخال أدري . . . أقوم آل حصن أم نساء

(109/719)

﴿ عسى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عسى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ ﴾ نزلت في امرأتين من أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم سخرتا من أُمّ سلمة ، وذلك أنّها ربطت خصريها بسبيبة وهي ثوب أبيض ومثلها السب وسدلت طرفيها خلفها . كانت تجرها .

فقالت عائشة لحفصة : انظري ما تجرّ خلفها كأنّه لسان كلب . فهذا كان سخريتهما .

وقال أنس : نزلت في نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم عيّرن أُمّ سلمة بالقِصَر . ويقال : نزلت في عائشة ، أشارت بيدها في أُمّ سلمة أنّها قصيرة ، وروى عكرمة ، عن ابن عبّاس " أنّ صفية بنت حيي بن أخطب أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إنّ النساء يعيّرني فيقلن : يا يهودية بنت يهوديين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " هلاّ قلت : إنّ أبي هارون ، وابن عمّي موسى ، وإنّ زوجي محمّد " ، فأنزل الله سبحانه هذه الآية .

﴿ وَلاَ تلمزوا أَنفُسَكُمْ ﴾ "

أي لا يعيب بعضكم بعضاً ، ولا يطعن بعضكم على بعض . وقيل : اللمز العيب في المشهد ، والهمز في المغيب ، وقال محمّد بن يزيد : اللمز باللسان ، والعين ، والإشارة ، والهمز لا يكون إلاّ باللسان ، قال الشاعر :

إذا لقيتك عن شخط تكاشرني . . . وإن تغيبتُ كنت الهامز اللمزه

﴿ وَلاَ تَنَابَزُواْ بالألقاب ﴾ قال أبو جبير بن الضحّاك : فينا نزلت هذه الآية في بني سلمة ، قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، وما منّا رجل إلاّ له اسمان أو ثلاثة ، فكان إذا دعا الرجل الرجل باسم ، قلنا : يا رسول الله ، إنّه يغضب من هذا . فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ وَلاَ تَنَابَزُواْ بالألقاب ﴾ .

قال قتادة ، وعكرمة : هو قول الرجل للرجل : يا فاسق ، يا منافق ، يا كافر ، وقال الحسن : كان اليهودي ، والنصراني يُسلم ، فيقال له بعد إسلامه : يا يهودي ، يا نصراني ، فنُهوا عن ذلك ، وقال ابن عبّاس : التنابز بالألقاب أن يكون الرجل عمل السيّئات ، ثمّ تاب منها ، وراجع الحقّ ، فنهى الله أن يعيّر بما سلف من عمله .

﴿ بِئْسَ الاسم الفسوق بَعْدَ الإيمان ﴾ يقول : من فعل ما نهيت عنه من السخرية ، واللمز والنبز ، فهو فاسق ، و ﴿ بِئْسَ الاسم الفسوق بَعْدَ الإيمان ﴾ فلا تفعلوا ذلك ، فتستحقّوا (اسم الفسوق) وقيل : معناه بئس الاسم الذي تسميه ، بقولك فاسق ، بعد أن علمت أنّه آمنَ .

﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فأولئك هُمُ الظالمون * يا أيها الذين آمَنُواْ اجتنبوا كَثِيراً مِّنَ الظن ﴾ . . . الآية نزلت في رجلين من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم اغتابا رفيقيهما ، وذلك " أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا غزا أو سافر ، ضمّ الرجل المحتاج إلى رجلين موسورين يخدمهما ، ويحقب حوائجهما ، ويتقدّم لهما إلى المنزل ، فيهيّئ لهما ما يصلحهما من الطعام ، والشراب ، فضم سلمان الفارسي رضي الله عنه إلى رجلين في بعض أسفاره ، فتقدّم سلمان ، فغلبته عيناه ، فلم يهيّئ لهما شيئاً ، فلمّا قدما ، قالا له : ما صنعت شيئاً ؟ قال : لا . قالا : ولِمَ ؟ قال : غلبتني عيناي ، فقالا له : انطلق إلى رسول

الله صلى الله عليه وسلم واطلب لنا منه طعاماً وإداماً ، فجاء سلمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله طعاماً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " انطلق إلى أُسامة بن زيد وقل له : إن كان عنده فضل من طعام ، وإدام ، فليعطك " .

(111/719)

كان أُسامة خازن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى رحله ، فأتاه ، فقال : ما عندي شيء ، فرجع سلمان إليهما ، وأخبرهما بذلك ، فقالا : كان عند أُسامة ، ولكن بخل ، فبعثا سلمان إلى طائفة من الصحابة ، فلم يجد عندهم شيئاً ، فلمّا رجع سلمان ، قالا : لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها ، ثمّ انطلقا يتجسّسان هل عند أُسامة ما أمر لهما به رسول الله صلى الله عليه وسلم فلمّا جاءا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهما : " ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما " قالا : يا رسول الله ، والله ما تناولنا يومنا هذا لحماً ، فقال : " ظللتم تأكلون لحم سلمان ، وأسامة " .

فأنزل الله سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ اجتنبوا كَثِيراً مِّنَ الظن ﴾ . ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظن إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُواْ ﴾ قرأه العامّة (بالجيم) وقرأ ابن عبّاس ، وأبو رجاء العطاردي (ولا تحسّسوا) (بالحاء) ، قال الأخفش : ليس يبعد أحدهما عن الآخر . إلاّ أنّ التجسّس لما

يُكتم ، ويُوارى ، ومنه الجاسوس ، والتحسس (بالحاء) تجبر الأخبار ، والبحث عنها ، ومعنى الآية خذوا ما ظهر ، ودعوا ما ستر الله ، ولا تتّبعوا عورات المسلمين .

أخبرني ابن منجويه ، قال : حدّثنا ابن شنبه ، قال : حدّثنا الفريابي قال : حدّثنا قتيبة بن سعد ، عن مالك ، عن أبي الزياد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إيّاكم والظنّ ، فإنّ الظنّ أكذب الحديث ، ولا تجسّسوا ، ولا تحسّسوا ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً " .

(112/719)

وأخبرني ابن منجويه ، قال : حدّثنا ابن حبش ، قال : أخبرنا علي بن زنجويه . قال : حدّثنا سلمة ، قال : حدّثنا عبد الرزاق قال : أخبرنا معمر ، عن الزهري ، عن زرارة بن مصعب بن عبد الرّحمن بن عوف ، عن المسوّر بن مخرمة ، عن عبد الرّحمن بن عوف ، أنّه حرس ليلة عمر بن الخطّاب بالمدينة ، فبينا هم يمشون شب لهم سراج في بيت ، فانطلقوا يؤمّونه ، فلمّا دنوا منه ، إذا باب يجاف على قوم لهم أصوات مرتفعة ، ولغط ، فقال عمر ، وأخذ بيد عبد الرّحمن : أتدري بيت من هذا ؟ قال : قلت : لا .

قال : هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف ، وهم الآن بيشرب ، فما ترى ؟ قال عبد الرّحمن :

أرى أنّا قد أتينا ما قد نهى الله سبحانه ، فقال : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ ﴾ فقد تجسسنا ، فانصرف عمر عنهم ، وتركهم .

وبه عن معمر ، قال : أخبرني أيّوب ، عن أبي قلابة أنّ عمر بن الخطّاب ، حُدِّث أنّ أبا محجن الثقفي شرب الخمر في بيته هو وأصحابه ، فانطلق عمر حتّى دخل عليه ، فإذا ليس عنده إلاّ رجل ، فقال أبو محجن : يا أمير المؤمنين إنّ هذا لا يحلّ لك ، فقد نهاك الله عزّ وجلّ عن التجسّس ، فقال عمر : ما يقول هذا ؟ فقال زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الأرقم : صدق يا أمير المؤمنين ، هذا التجسّس ، قال : فخرج عمر رضي الله عنه ، وتركه .

وروى زيد بن أسلم أنّ عمر بن الخطّاب خرج ذات ليلة ، ومعه عبد الرّحمن بن عوف رضي الله عنهما يعسّان إذ شبَّ لهما نار ، فأتيا الباب ، فاستأذنا ، ففتح الباب ، فدخلا ، فإذا رجل ، وامرأة تغنّي ، وعلى يد الرجل قدح ، وقال عمر للرجل : وأنت بهذا يا فلان ؟ فقال : وأنت بهذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال عمر : فمن هذه منك ؟ قال : امرأتي .

قال : وما في القدح ؟ قال : ماء زلال . فقال للمرأة : وما الّذي تغنّين ؟ فقالت : أقول :

تطاول هذا الليل واسودَّ جانبه . . . وأرّقني ألاّ حبيب ألاعبه

فوالله لولا خشية الله والتقى . . . لزُعزع من هذا السرير جوانبه

ولكن عقلي والحياء يكفني . . . وأكرم بعلي أن تنال مراكبه

ثمّ قال الرجل : ما بهذا أُمرنا يا أمير المؤمنين ، قال الله : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ ﴾ فقال عمر : صدقت ، وانصرف . وأخبرنا الحسين ، قال : حدّثنا موسى بن محمّد بن علي . قال : حدّثنا الحسين بن علوية . قال : حدّثنا إسماعيل بن عيسى ، قال : حدّثنا المسيب ، عن الأعمش ، عن زيد بن وهب ، قال : قيل لابن مسعود : هل لك في الوليد بن عقبة تقطر لحيته خمراً ؟ فقال : إنّا قد نهينا عن التجسّس ، فإن يظهر لنا شيئاً نأخذه به .

﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً ﴾ أخبرنا الحسين ، قال : حدّثنا عبيد الله بن أحمد بن يعقوب المقري . قال : حدّثنا أحمد بن محمّد بن زيد أبو بكر السطوي ، قال : حدّثنا علي بن اشكاب ، قال : حدّثنا عمر بن يونس اليمامي ، قال : حدّثنا جهضم بن عبد الله ، عن العلاء بن عبد الرّحمن ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، قال : سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة فقال : " أن يُذكر أخاك بما يكره ، فإمّا إن كان فيه فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهتّه " .

وقال معاذ بن جبل : "كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر القوم رجلاً ، فقالوا : ما يأكل إلاّ ما أطعم ، ولا يرحل إلاّ ما رحّل ، فما أضعفه ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " اغتبتم أخاكم " قالوا : يا رسول الله وغيبة أن نحدّث بما فيه ؟ فقال : " بحسبكم

أن تحدّثوا عن أخيكم بما فيه " .

وروى موسى بن وردان عن أبي هريرة " أنّ رجلاً قام من عند رسول الله ، فرأوا في قيامه عجزاً ، فقالوا : يا رسول الله ما أعجز فلاناً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أكلتم أخاكم واغتبتموه " .

(114/719)

﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً ﴾ ، قال قتادة : يقول : كما أنت كاره أن وجدت جيفة مدودة أن تأكل منها ، فكذلك فاكره لحم أخيك وهو حيّ ، ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ قال الكسائي ، والفراء : معناه ، فقد كرهتموه . وقرأ أبو سعيد الخدري (فكرهتموه) بالتشديد على غير تسمية الفاعل .

أخبرني الحسن ، قال : حدّثنا عمر بن نوح البجلي ، قال : حدّثنا أبو صالح عبد الوهاب بن أبي عصمة . قال : حدّثنا إسماعيل بن يزيد الأصفهاني . قال : حدّثنا يحيى بن سليم ، عن كهمس ، عن ميمون بن سباه ، وكان يفضل على الحسن ، ويقال : قد لقي من لم يلق ، قال : بينما أنا نائم إذا أنا بجيفة زنجي وقائل يقول لي : كُلْ ، قلت : يا عبد الله ، ولِمَ آكل ؟ قال : بما اغتبت عبد فلان ، قلت : والله ما ذكرت منه خيراً ، ولا شرّاً ، قال : لكنّك

استمعت ، ورضيت ، فكان ميمون بعد ذلك لا يغتاب أحداً ، ولا يدع أن يغتاب عنده أحد ، وحُكي عن بعض الصالحين أنّه قال : كنت قاعداً في المقبرة الفلانية ، فاجتازني شاب جلد ، فقلت : هذا ، وأمثاله ، وبالٌ على الناس ، فلمّا كانت تلك الليلة رأيت في المنام أنّه قُدِّم إليَّ جنازة عليها ميّت ، وقيل لي كُلْ من لحم هذا ، وكشف عن وجهه ، فإذا ذلك الشاب ، فقلت : أنا لم آكل من لحم الحيوان الحلال منذ سنين ، فكيف آكل هذا ؟ فقيل : فلِمَ اغتبته إذاً ؟ فانتبهت حزيناً ، فكنت آوي إلى تلك المقبرة سنة واحدة ، فرأيت الرجل ، فقمت إليه لأستحلّ منه ، فنظر إليَّ من بعيد ، فقال : تبت .

قلت : نعم ، قال : ارجع إلى مكانك .

(115/719)

وقد أخبرنا ابن منجويه ، قال : حدّثنا عمر بن الخطّاب . قال : حدّثنا عبد الله بن الفضل . قال : أخبرنا علي بن محمّد . قال : حدّثنا يحيى بن آدم . قال : حدّثنا ابن المبارك ، عن ابن جريج ، عن أبي الزبير ، عن ابن عمر ، لأبي هريرة ، قال : " جاء ماعر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إنّه زنى ، فأعرض عنه ، حتّى أقرّ أربع مرّات ، فأمر برجمه ، فمرّ النبيّ صلى الله عليه وسلم على رجلين يذكران ماعراً ، فقال أحدهما : هذا الذي ستر

عليه ، فلم تدعه نفسه حتّى رُجم برجم الكلب .

قال : فسكت عنهما حتّى مرّا معه على جيفة حمار شائل رجله ، فقال صلى الله عليه وسلم لهما : " انزلا فأصيبا منه " . فقالا : يا رسول الله غفر الله لك ، ونؤكل هذه الجيفة ؟ قال : " ما أصبتما من لحم أخيكما آنفاً أعظم عليكما ، أما إنّه الآن في أنهار الجنّة منغمس فيها " " .

وأخبرني ابن منجويه ، قال : حدّثنا ابن شيبة قال : حدّثنا الفريابي ، قال : حدّثنا محمّد بن المصفى ، قال : حدّثنا أبو المغيرة ، حدّثنا عبد القدوس بن الحجّاج ، قال : حدّثني صفوان بن عمرو ، قال : حدّثنا راشد بن سعد ، وعبد الرّحمن بن جبير ، عن أنس بن مالك ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لمّا عُرج بي مررتُ بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم ، وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم النّاس ، ويقعون في أعراضهم " .

(116/719)

﴿ واتقوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ أخبرني الحسين ، قال : حدّثنا موسى بن محمّد بن علي ، قال : حدّثنا أحمد بن يحيى الحلواني ، قال : حدّثنا يحيى بن أيّوب ، قال : حدّثنا

أسباط ، عن أبي رجاء الخراساني ، عن عبّاد بن كثير ، عن الحريري ، عن أبي نصرة ، عن جابر بن عبد الله ، وأبي سعيد الخُدري ، قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الغيبة أشدّ من الزنا " . قيل : وكيف ؟ قال : " إنّ الرجل يزني ، ثمّ يتوب ، فيتوب الله عليه ، وإنّ صاحب الغيبة لا يُغفر له حتّى يغفر له صاحبه " .

وأخبرني الحسين ، قال : حدّثنا الفضل . قال : حدّثنا أبو عيسى حمزة بن الحسين بن عمر البزاز البغدادي ، قال : حدّثنا محمّد بن علي الورّاق . قال : حدّثنا هارون بن معروق ، قال : حدّثنا ضمرة ، عن ابن شوذي ، قال : قال رجل لابن سيرين : إنّي قد اغتبتك ، فاجعلني في حلّ ، قال : إنّي أكره أن أحلّ ما حرّم الله .

وأخبرنا ابن منجويه ، قال : حدّثنا أبو الطيب بن حفصويه ، قال : حدّثنا عبد الله بن جامع . قال : قرأت على أحمد بن سعيد ، حدّثنا سعيد ، قال : حدّثنا يزيد بن هارون ، عن هشام بن حسّان عن خالد الربعي ، قال : قال عيسى ابن مريم لأصحابه : أرأيتم لو أنّ أحدكم رأى أخاه المسلم قد كشف الريح عن ثيابه ؟ قالوا : سبحان الله إذاً كنّا نردّه . قال : لا ، بل كنتم تكشفون ما بقي ، مثلاً ضربه لهم يسمعون للرجل سيئة أو حسنة ، فيذكرون أكثر من ذلك .

﴿ يا أيها الناس إِنَّا خَلَقْنَاكُم ﴾ الآية . " قال ابن عبّاس : نزلت في ثابت بن قيس وقوله للرجل الذي لم يفسح له : ابن فلانة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من الذاكر

فلانة ؟ " . فقام ثابت ، فقال : أنا يا رسول الله . فقال : " انظر في وجوه القوم " . فنظر إليهم ، فقال : " ما رأيت يا ثابت ؟ " .

(117/719)

قال : رأيت أبيض وأسود وأحمر . قال : " فإنّك لا تفضلهم إلاّ في الدّين والتقوى " ، فأنزل الله سبحانه في ثابت هذه الآية وبالّذي لم يفسح له : ﴿ آمَنُواْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي المجالس فافسحوا . . . ﴾ [المجادلة : 11] الآية .

وقال مقاتل : لمّا كان يوم فتح مكّة ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالاً حتّى علا على ظهر الكعبة وأذّن ، فقال عتاب بن أسد بن أبي العيص : الحمد لله الذي قبض أبي حتّى لم ير هذا اليوم ، وقال الحرث بن هاشم : أما وجد محمّدٌ غير هذا الغراب الأسود مؤذّناً ؟ وقال سهيل بن عمرو : إن يرد الله شيئاً يغيره ، وقال أبو سفيان بن حرب : إنّي لا أقول شيئاً أخاف أن يخبر به ربّ السماء .

فأتى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بما قالوا ، فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألهم عمّا قالوا ، فأقرّوا ، فأنزل الله سبحانه هذه الآية وزجرهم ، عن التفاخر بالأنساب ، والتكاثر بالأموال ، والازدراء للفقراء ، وقال يزيد بن سخرة : " كان

رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم يمرّ ببعض أسواق المدينة ، فإذا غلام أسود قائم ، ينادى عليه ليباع ، فمن يريد .

وكان الغلام قال : من اشتراني فعلي شرط ، قيل : ما هو ، قال : ألا يمنعني عن الصلوات الخمس خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشتراه رجل على هذا الشرط ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يراه عند كلّ صلاة مكتوبة ، ففقده ذات يوم ، فقال لصاحبه : " أين الغلام ؟ " . فقال : محموم يا رسول الله ، فقال لأصحابه : " قوموا بنا نعوده " . فقاموا معه فعادوه ، فلما كان بعد أيّام قال لصاحبه : " ما حال الغلام ؟ " .

(118/719)

قال : يا رسول الله ، إنّ الغلام لما به ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليه وهو في ذهابه ، فقبض على تلك الحال ، فتولّى رسول الله صلى الله عليه وسلم غسله ، وتكفينه ، ودفنه ، فدخل على المهاجرين ، والأنصار من ذلك أمر عظيم ، فقال المهاجرون : هاجرنا ديارنا ، وأموالنا ، وأهالينا ، فلم ير أحد منّا في حياته ومرضه وموته ما لقي منه هذا الغلام ، وقال الأنصار : آويناه ، ونصرناه ، وواسيناه فآثر علينا عبداً حبشيّاً ، فعذر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم فيما تعاطاه من أمر الغلام ، وأراهم فضل التقوى

، فأنزل الله سبحانه : ﴿ يا أيها الناس إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأنثى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً ﴾ "

وهي رؤوس القبائل وجمهورها مثل ربيعة ومضر والأوس والخزرج . واحدها شَعب بفتح الشين ، سُمّوا بذلك لتشعّبهم واجتماعهم ، كتشعّب أغصان الشجر ، والشعب من الأضداد يقال : شعبته إذا جمعته ، وشعبته إذا فرّقته ، ومنه قيل للموت : شعوب .

﴿ وَقَبَآئِلَ ﴾ وهي دون الشعوب ، واحدها قبيلة ، وهم كندة من ربيعة ، وتميم من مضر ، ودون القبائل العمائر ، واحدها عمارة بفتح العين كشيبان من بكر ، ودارم من تميم ، ودون العمائر البطون ، واحدها بطن ، وهم كبني غالب ولؤي من قريش ، ودون البطون الأفخاذ ، واحدها فخذ ، وهم كبني هاشم ، وأمية من بني لؤي ، ثمّ الفصائل ، والعشائر ، واحدتها فصيلة ، وعشيرة ، وقيل : الشعوب من العجم ، والقبائل من العرب ، والأسباط من بني إسرائيل ، وقال أبو رزين وأبو روق : الشعوب الذين لا يصيرون إلى أحد ، بل ينسبون إلى المدائن ، والقرى ، والأرضين ، والقبائل العرب الذين ينسبون إلى آبائهم .

﴿ لتعارفوا ﴾ يعرف بعضكم بعضاً في قرب النسب ، وبعده لا لتفاخروا . وقرأ الأعمش (ليتعارفوا) ، وقرأ ابن عبّاس (ليعرفوا) بغير (ألف) .

(119/719)

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ ﴾ بفتح (الألف) ، وقرأه العامة (إنّ) بكسر (الألف) على الاستئناف ، والوقوف على قوله لتعارفوا إنّ أكرمكم ﴿ عَندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ قال قتادة : في هذه الآية أكرم الكرم التقوى . وألأم اللوم الفجور ، وقال صلى الله عليه وسلم " من سرّه أن يكون أكرم الناس ، فليتّق الله " .

وقال : "كرم الرجل دينه ، وتقواه ، وأصله عقله ، وحسبه خلقه " ، وقال ابن عبّاس : كرم الدنيا الغنى ، وكرم الآخرة التقوى : ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

أخبرنا الحسن ، قال : حدّثنا أبو حذيفة أحمد بن محمّد بن علي ، قال : حدّثنا زكريا بن يحيى بن يعقوب المقدسي ، قال : حدّثنا محمّد بن عبد الله المقري ، قال : حدّثنا ابن رجاء ، عن موسى بن عقبة ، عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر قال : " طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته القصواء يوم الفتح يستلم الركن بمحجنه ، فما وجد لها مناخ في المسجد ، حتّى أخرجنا إلى بطن الوادي ، فأناخت فيه ، ثمّ حمد الله وأثنى عليه ، ثمّ قال : " أمّا بعد أيها الناس ، قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية ، وفخرها بالآباء وفي بعض الألفاظ : وتعظمها بآبائها إنّما الناس رجلان ، برّ تقي كريم على الله ، وفاجر شقيّ هيّن على الله " . ثمّ تلا هذه الآية : ﴿ يا أيها الناس إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأنثى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ ﴾ . . . الآية ، وقال : " أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم " " .

وأخبرني الحسين ، قال : حدّثنا محمّد بن علي بن الحسين الصوفي . قال : حدّثنا أبو

شعيب الحراني . قال : حدّثنا يحيى بن عبد الله الكابلي . قال : حدّثنا الأوزاعي ، قال : حدّثني يحيى بن أبي كثير ، إنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال :

" إنّ الله لا ينظر إلى صوركم ، ولا إلى أموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم ، وأعمالكم ، وإنّما أنتم بنو آدم ﴿ أَكْرَمَكُمْ عَندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ " .

(120/719)

وأخبرنا ابن منجويه ، قال : حدّثنا ابن حفصويه ، قال : حدّثنا عبد الله بن جامع المقري ، قال : حدّثنا أحمد بن خادم . قال : حدّثنا أبو نعيم ، قال : حدّثنا طلحة ، عن عطاء ، عن أبي هريرة ، قال : الله سبحانه يقول يوم القيامة : إنّي جعلت نسباً ، وجعلتم نسباً ، فجعلت ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ فأنتم تقولون : فلان بن فلان ، وأنا اليوم أرفع نسبي ، وأضع أنسابكم ، أين المتّقون ؟ أين المتّقون ؟ إن أكرمكم عند الله أتقاكم .

وأخبرنا ابن منجويه ، قال : حدّثنا عبد الله بن إبراهيم بن أيّوب . قال : حدّثنا يوسف بن يعقوب . قال : حدّثنا محمّد بن أبي بكر . قال : حدّثني يحيى بن سعيد ، عن عبد الله بن عمر ، قال : حدّثني سعيد بن أبي سعيد المقري ، عن أبي هريرة ، قال : " قيل : يا رسول الله من أكرم الناس ؟ قال : " أتقاهم " .

وأنشدني ابن حبيب ، قال : أنشدنا ابن رميح ، قال : أنشدنا عمر بن الفرحان :

ما يصنع العبد بعزّ الغنى . . . والعزّ كُلّ العزّ للمتّقي

من عرف الله فلم تغنه . . . معرفة الله فذاك الشقي

﴿ قَالَتِ الأعراب آمَنَّا ﴾ الآية نزلت في نفر من بني أسد بن خزيمة ، ثمّ من بني الحلاف بن الحارث بن سعيد ، قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة في سنة جدبة ، وأظهروا شهادة أن لا إله إلاّ الله ، ولم يكونوا مؤمنين في السرّ ، وأفسدوا طرق المدينة بالعدوان ، وأغلوا أسعارها ، وكانوا يغدون ، ويروحون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون : أتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها ، وجئناك بالأفعال ، والعيال والذراري ، يمنون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ، وبنو فلان ، ويريدون الصدقة ، ويقولون : أعطنا ، فأنزل الله سبحانه فيهم هذه الآية .

(121/719)

وقال السدي : نزلت في الأعراب الذين ذكرهم الله في سورة الفتح ، وهم أعراب مزينة ، وجهينة ، وأسلم ، وأشجع ، وغفار ، كانوا يقولون : آمنّا بالله ، ليأمنوا على أنفسهم ، وأموالهم ، فلمّا استُنفروا إلى الحديبية تخلّفوا ، فأنزل الله سبحانه : ﴿ قَالَتِ الأعراب آمَنَّا

قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ولكن قولوا أَسْلَمْنَا ﴾ أي انقدنَا واستسلمنا مخافة القتل والسبي . ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمان فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ فأخبر أنّ حقيقة الإيمان التصديق بالقلب ، وأنّ الإقرار به باللسان ، وإظهار شرائعه بالأبدان ، لا يكون إيماناً دون الإخلاص الذي محلّه القلب ، وأنّ الإسلام غير الإيمان .

يدلّ عليه ما أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله الجوزقي ، قرأه عليه محمّد بن زكريا في شهر ربيع الأوّل سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة ، قال : أخبرنا أبو العبّاس محمد بن الدغولي ، قال : حدّثنا محمّد بن الليث المروزي ، قال : حدّثنا عبد الله بن عثمان بن عبدان ، قال : حدّثنا عبد الله ابن المبارك ، قال : أخبرنا يونس ، عن الزهري .

قال : أخبرني عامر ، عن سعد بن أبي وقّاص " أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أُعطي رهطاً ، وسعد جالس فيهم ، فقال سعد : فترك رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً منهم ، فلم يعطه ، وهو أعجبهم إليّ . فقلت : يا رسول الله ما لك عن فلان ؟ فوالله إنّي لأراه مؤمناً ، فقال رسول الله : " أو مُسلماً " .

فسكت قليلاً ، ثمّ غلبني ما أعلم منه ، فقلت : يا رسول الله ما لك عن فلان ، فوالله إنّي لأراه مؤمناً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أو مُسلماً " .

فسكتُ قليلاً ، ثمّ غلبني ما أعلم منه ، فقلت : يا رسول الله ما لك عن فلان ، فوالله إنّي

لأراه مؤمناً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أو مسلماً ، فإنّي لأعطي الرجل ، وغيره أحبّ إليّ منه خشية أن يكبّ في النار على وجهه " " .

(122/719)

فاعلم أنّ الإسلام الدخول في السلم ، وهو الطاعة والانقياد ، والمتابعة ، يقال : أسلم الرجل إذا دخل في السلم وهو الطاعة والانقياد والمتابعة . يقال : أسلم الرجل إذا دخل في السلم ، كما يقال : أشتى الرجل إذا دخل في الشتاء ، وأصاف إذا دخل في الصيف ، وأربع إذا دخل في الربيع ، وأقحط إذا دخل في القحط ، فمن الإسلام ما هو طاعة على الحقيقة باللسان والأبدان فالجنان ، كقوله عزّ وجلّ لإبراهيم : ﴿ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ ﴾ [البقرة : 131] ، وقوله : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ المؤمنين * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ المسلمين ﴾ [الذاريات : 35-36] .

ومنه ما هو انقياد باللسان دون القلب وذلك قوله : ﴿ ولكن قولوا أَسْلَمْنَا ﴾ بيانه قوله سبحانه : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمان فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ .

﴿ وَإِن تُطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ظاهراً وباطناً ، سرّاً وعلانيّةً ﴿ لاَ يَلِتْكُمْ ﴾ (بالألف) أبو عمر ، ويعقوب ، واختاره أبو حاتم اعتباراً بقوله : ﴿ وَمَآ أَلَتْنَاهُمْ ﴾ [الطور : 21]

يقال ألت يألت ألتاً ، قال الشاعر :

أبلغ بني ثعل عني مغلغلة . . . جهد الرسالة لا ألتاً ولا كذبا

وقرأ الآخرون (يلتكم) من لات يليت ليتاً ، كقول رؤبة :

وليلة ذات ندىً سريتُ . . . ولم يلتني عن سراها ليتُ

ومعناهما جميعاً لا ينقصكم ، ولا يظلمكم . ﴿ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ثمّ بيّن حقيقة الإيمان ، فقال : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون الذين آمَنُواْ بالله وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ ﴾ لم يشكّوا في وحدانية الله ، ولا بنبوّة أنبيائه ولا فيما آمنوا به ، بل أيقنوا وأخلصوا .

(123/719)

﴿ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله أولئك هُمُ الصادقون ﴾ في إيمانهم ، لا من أسلم خوف السيف ورجاء الكسب ، فلمّا نزلت هاتان الآيتان ، أتت الأعراب رسول الله صلى الله عليه وسلم فحلفوا بالله إنّهم مؤمنون في السرّ ، والعلانية ، وعرف الله غير ذلك منهم ، فأنزل الله سبحانه ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ الله بِدِينِكُمْ ﴾ الذي أنتم عليه . ﴿ والله يَعْلَمُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لاَّ تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ ﴾ أي بإسلامكم . ﴿ بَلِ الله يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ ﴾ وفي

مصحف عبد الله (إذ هداكم للإيمان) ﴿ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أنّكم مؤمنون . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السماوات والأرض والله بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُون ﴾ قرأ ابن كثير، والأعمش، وطلحة، وعيسى (بالياء)، غيرهم (بالتاء) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 9 صـ 69. 91 ﴾

(124/719)

وقال الزمخشرى :

سورة الحجرات

مدنية، وآياتها 18 [نزلت بعد المجادلة] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الحجرات (49) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (1)

قدّمه وأقدمه : منقولان بتثقيل الحشو والهمزة، من قدمه إذا تقدّمه «1» في قوله تعالى يَقْدُمُ قَوْمَهُ ونظيرهما معنى ونقلا : سلفه وأسلفه . وفي قوله تعالى لا تُقَدِّمُوا من غير ذكر مفعول : وجهان، أحدهما : أن يحذف ليتناول كل ما يقع في النفس مما يقدّم . والثاني :

أن لا يقصد قصد «2» مفعول ولا حذفه ، ويتوجه بالنهى إلى نفس التقدمة ، كأنه قيل : لا تقدموا على التلبس بهذا الفعل ، ولا تجعلوه منكم بسبيل «3» ، كقوله تعالى هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ويجوز أن يكون من قدّم بمعنى تقدّم ، كوجه وبين . ومنه مقدّمة الجيش خلاف ساقته ، وهي الجماعة المتقدّمة منه . وتعضده قراءة من قرأ : لا تقدموا ، بحذف إحدى تاءى تتقدموا ، إلا أن الأوّل أملأ بالحسن وأوجه ، وأشدّ ملاءمة لبلاغة القرآن ، والعلماء له أقبل . وقرئ : لا تقدموا من القدوم ، أى لا تقدموا إلى أمر من أمور الدين قبل قدومها ، ولا تعجلوا عليهما . وحقيقة قولهم : جلست بين يدي فلان ، أن يجلس بين الجهتين المسامتتين ليمينه وشماله قريبا منه ،

---

(1) . قوله «إذا تقدمه في قوله تعالى» لعله كما في قوله تعالى . (ع)

(2) . قوله «أن لا يقصد قصد . . . الخ» عبارة النسفي : أن لا يقصد مفعول . والتهجي متوجه إلى نفس التقدمة . (ع)

(3) . ذكر الزمخشري من النكت : «أنه تعالى ابتدأ السورة بإيجاب أن يكون الأمر الذي ينتهى إلى اللّه ورسوله متقدما على الأمور كلها من غير تقييد ولا تخصيص» قال أحمد : يريد أنه لم يذكر المفعول الذي يتقاضاه تقدموا ، باطراح ذلك المفعول كقوله يُحْيِي وَيُمِيتُ وحلى الكلام بمجاز التمثيل في قوله بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ بفائدة ليست في الكلام العريان ، وهو تصور الهجنة والشناعة فيما نهوا عنه من الاقدام على أمر دون الاحتذاء على أمثلة

الكتاب والسنة ، وجعل صورة ذلك المنهي عنه مثل أن يجلس العبد في الجهتين المسامتتين ليمين سيده ويساره ويوليه دبره ، ومعناه : أن لا تقدموا على أمر حتى يأذن اللّه ورسوله فيه فتكونوا مقتدين فيما تأتون وتذرون بكتاب اللّه وسنة نبيه .

(125/719)

فسميت الجهتان يدين لكونهما على سمت اليدين مع للقرب منهما توسعا ، كما يسمى الشيء باسم غيره إذا جاوره ودانا ه في غير موضع ، وقد جرت هذه العبارة ها هنا على سنن ضرب من المجاز ، وهو الذي يسميه أهل البيان تمثيلا . ولجريها هكذا فائدة جليلة ليست في الكلام العريان : وهي تصوير الهجنة والشناعة فيما نهوا عنه من الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة : والمعنى : أن لا تقطعوا أمرا إلا بعد ما يحكمان به ويأذنان فيه ، فتكونوا إما عاملين بالوحي المنزل ، وإما مقتدين برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . وعليه يدور تفسير ابن عباس رضى اللّه عنه . وعن مجاهد : لا تفتاتوا على اللّه شيئًا حتى يقصه « 1 » على لسان رسوله . ويجوز أن يجرى مجرى قولك : سرني زيد وحسن حاله ، وأعجبت بعمرو وكرمه . وفائدة هذا الأسلوب : الدلالة على قوّة الاختصاص ، ولما كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من اللّه بالمكان الذي لا يخفى :

سلك به ذلك المسلك . وفي هذا تمهيد وتوطئة لما نقم منهم فيما يتلوه من رفع أصواتهم فوق صوته : لأنّ من أحظاه اللّه بهذه الأثرة واختصه هذا الاختصاص القوى : كان أدنى ما يجب له من التهيب والإجلال أن يخفض بين يديه الصوت ، ويخافت لديه بالكلام . وقيل : بعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلى تهامة سرية سبعة وعشرين رجلا وعليهم المنذر بن عمرو الساعدي ، فقتلهم بنو عامر وعليهم عامر بن الطفيل ، إلا ثلاثة نفر نجوا فلقوا رجلين من بنى سليم قرب المدينة ، فاعتزيا لهم إلى بنى عامر ، لأنهم أعز من بنى سليم ، فقتلوهما وسلبوهما ، ثم أتوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال : «بئسما صنعتم كانا من سليم ، والسلب ما كسوتهما» فوداهما رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «2» ونزلت ، أى : لا تعملوا شيئا من ذات أنفسكم حتى تستأمروا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . وعن مسروق : دخلت على عائشة في اليوم الذي يشك فيه ، فقالت للجارية : اسقه عسلا ، فقلت : إنى صائم ، فقالت : قد نهى اللّه عن صوم هذا اليوم «3» . وفيه نزلت . وعن الحسن أنّ أناسا ذبحوا يوم الأضحى قبل الصلاة فنزلت ، وأمرهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن يعيدوا ذبحا «4» آخر . وهذا مذهب أبى حنيفة رحمه

---

(1) . قوله «حتى يقصه على لسان رسوله» لعله : يقضيه . (ع)

(2) . أخرجه البيهقي في الشعب في الخامس عشر من طريق مقاتل بن حيان قال «بلغنا أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بعث سرية واستعمل عليهم المنذر بن عمرو – فذكر

قصة بئر معونة مطولا . وفيه هذا اللفظ . ورو :

الدلائل من طريق ابن إسحاق ، ومن طريق موسى بن عقبة : هذه القصة على غير هذا السياق وأن المقتولين بنى كلاب ، وأن الثلاثة قتل منهم واحد . وهو المحفوظ والمشهور في المغازي

(3) . هكذا ذكره الثعلبي بغير سند . وذكره الدارقطني من رواية مالك بن حمزة بضم المهملة والراء . عن مسروق قال «دخلت على عائشة رضى اللّه عنها في اليوم الذي يشك فيه أنه يوم عرفة» . . . الحديث

(4) . أخرجه عبد الرزاق . حدثنا معمر عن الحسن في قوله تعالى يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ قال : هم قوم ذبحوا قبل أن يصلى النبي صلى اللّه عليه وسلم . فأمرهم أن يعيدوا الذبح» وأخرجه الطبري من رواية سعيد عن قتادة . قال «ذكر لنا أن ناسا كانوا يقولون : لو أنزل كذا ، لو صنع كذا ، لو قبل كذا» قال : وقال الحسن هم أناس ، فذكره .

(126/719)

اللّه ، إلا أن تزول الشمس . وعند الشافعي : يجوز الذبح إذا مضى من الوقت مقدار الصلاة .

وعن الحسن أيضا : لما استقرّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالمدينة أتته الوفود من الآفاق فأكثروا عليه بالمسائل ، فنهوا أن يبتدؤه بالمسئلة حتى يكون هو المبتدئ «1» .

وعن قتادة :

ذكر لنا أنّ ناسا كانوا يقولون : لو أنزل فيه كذا لكان كذا ، فكره اللّه ذلك منهم وأنزلها .

وقيل : هي عامة في كل قول وفعل : ويدخل فيه أنه إذا جرت مسألة في مجلس رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لم يسبقوه بالجواب ، وأن لا يمشى بين يديه إلا لحاجة ، وأن يستأنى «2» في الافتتاح بالطعام وَاتَّقُوا اللَّهَ فإنكم إن اتقيتموه عاقتكم التقوى عن التقدمة المنهي عنها وعن جميع ما تقتضي مراقبة اللّه تجنبه ، فإن التقىّ حذر لا يشافه أمرا «3» إلا عن ارتفاع الريب وانجلاء الشك في أن لا تبعة عليه فيه ، وهذا كما تقول لمن يقارف بعض الرذائل : لا تفعل هذا وتحفظ مما يلصق بك العار ، فتنهاه أوّلا عن عين ما قارفه ، ثم تعم وتشيع وتأمره بما لو امتثل فيه أمرك لم يرتكب تلك الفعلة وكل ما يضرب في طريقها ويتعلق بسببها إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لما تقولون عَلِيمٌ بما تعملون ، وحق مثله أن يتقى ويراقب .

[سورة الحجرات (49) : آية 2]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ

لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (2)

إعادة النداء عليهم : استدعاء منهم لتجديد الاستبصار عند كل خطاب وارد ، وتطرية الإنصات لكل حكم نازل ، وتحريك منهم لئلا يفتروا ويغفلوا عن تأملهم وما أخذوا به عند حضور مجلس رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من الأدب الذي المحافظة عليه تعود عليهم بعظيم الجدوى في دينهم ، وذلك لأنّ في إعظام صاحب الشرع إعظام ما ورد به ، ومستعظم الحق لا يدعه استعظامه أن يألو عملا بما يحدوه «4» عليه ، وارتداعا عما يصده عنه ، وانتهاء إلى كل خير ، والمراد بقوله لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ أنه إذا نطق ونطقتم فعليكم أن

---

(1) . لم أجده .

(2) . قوله «و أن يستأنى في الافتتاح» أى : ينتظر . أفاده الصحاح . (ع)

(3) . قوله «لا يشافه أمرا» أى : لا يتشاغل بأمر ، وفي الصحاح : «الشفه» : الشغل ، يقال : شفهنى عن كذا ، أى : شغلني . (ع)

(4) . قوله «بما يحدوه عليه» أى : يحضه . (ع) [. . . . .]

لا تبلغوا بأصواتكم وراء الحدّ الذي يبلغه بصوته ، وأن تغضوا منها بحيث يكون كلامه عاليا لكلامكم ، وجهره باهرا لجهركم ، حتى تكون مزيته عليكم لائحة ، وسابقته واضحة ، وامتيازه عن جمهوركم كشية الأبلق «1» غير خاف ، لا أن تغمروا صوته بلغطكم وتبهروا منطقه بصخبكم .

وبقوله : ولا تجهروا له بالقول : إنكم إذا كلمتموه وهو صامت فإياكم والعدول عما نهيتم عنه من رفع الصوت ، بل عليكم أن لا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم ، وأن تتعمدوا في مخاطبته القول اللين المقرّب من الهمس الذي يضادّ الجهر ، كما تكون مخاطبة المهيب المعظم ، عاملين بقوله عز اسمه وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وقيل معنى وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ لا تقولوا له : يا محمد ، يا أحمد ، وخاطبوه بالنبوّة . قال ابن عباس : لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر رضى اللّه عنه : يا رسول اللّه ، واللّه لا أكلمك إلا السرار أو أخا السرار حتى ألقى اللّه ، «2» وعن عمر رضى اللّه عنه : انه كان يكلم النبي صلى اللّه عليه وسلم كأخى السرار لا يسمعه حتى يستفهمه «3» ، وكان أبو بكر إذا قدم على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وفد : أرسل إليهم من يعلمهم كيف يسلمون ويأمرهم بالسكينة والوقار عند رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، «4» وليس الغرض برفع الصوت ولا الجهر : ما يقصد به الاستخفاف والاستهانة ، لأنّ ذلك كفر ، والمخاطبون مؤمنون ، وإنما الغرض صوت هو في نفسه والمسموع من جرسه غير مناسب لما يهاب به العظماء ويوقر الكبراء ، فيتكلف

الغض منه ، وردّه إلى حدّ يميل به إلى ما يستبين فيه المأمور به من التعزير والتوقير ، ولم يتناول النهى أيضا رفع الصوت الذي لا يتأذى به رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وهو ما كان منهم في حرب أو مجادلة معاند أو إرهاب عدوّ أو ما أشبه ذلك ، ففي الحديث : أنه قال عليه الصلاة والسلام للعباس بن عبد المطلب لما انهزم الناس يوم حنين :

---

(1) . قوله «كشية الأبلق» في الصحاح «الشية» : لون يخالف معظم لون الفرس وغيره . وفيه أيضا : اللغط الصوت والجلبة . وفيه الصخب : الصياح والجلبة . (ع)

(2) . ذكره الواحدي عن عطاء عن ابن عباس . ولم يسق سنده إليه . وأخرجه البزار وابن مردويه من طريق طارق بن شهاب عن أبى بكر . قال لما نزل يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ قلت :

يا رسول اللّه آليت ألا أكلمك إلا كأخى السرار حتى ألقى اللّه» وأخرجه الحاكم والبيهقي في المدخل من حديث أبى هريرة . قال «لما نزلت إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ - الآية قال أبو بكر . والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول اللّه لا أكلمك إلا كأخى السرار حتى ألقى اللّه عز وجل «و قال صحيح على شرط مسلم

(3) . أخرجه البخاري من حديث أبى الزبير . قال «لما نزلت يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ - الآية كان عمر بعد ذلك إذا حدث النبي صلى اللّه عليه

وسلم حدثه كأخى السرار . لم يسمعه حتى يستفهمه .

(4) . لم أجده

(128/719)

«اصرخ بالناس «1»» وكان العباس أجهر الناس صوتا «2» . يروى : أنّ غارة أتتهم يوما فصاح العباس يا صباحاه ، فأسقطت الحوامل لشدّة صوته «3» . وفيه يقول نابغة بنى جعدة :

زجر أبى عروة السّباع إذا أشفق أن يختلطن بالغنم «4»

زعمت الرواة أنه كان يزجر السباع عن الغنم فيفتق مرارة السبع في جوفه «5» . وفي قراءة ابن مسعود : لا ترفعوا بأصواتكم والباء مزيدة محذوّ بها حذو التشديد في قول الأعلم الهذلي :

رفعت عينى بالحجا ز إلى أناس بالمناقب «6»

وليس المعنى في هذه القراءة أنهم نهوا عن الرفع الشديد ، تخيلا أن يكون ما دون الشديد مسوغا لهم ، ولكن المعنى نهيهم عما كانوا عليه من الجلبة ، واستجفاؤهم فيما كانوا يفعلون . وعن ابن عباس : نزلت في ثابت بن قيس بن شماس ، وكان في أذنه وقر ، وكان

جهوري الصوت ، فكان إذا تكلم رفع صوته ، وربما كان يكلم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فيتأذى بصوته «7» . وعن أنس أن هذه الآية لما نزلت : فقد ثابت ، فتفقده رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فأخبر بشأنه ، فدعاه ، فسأله فقال : يا رسول اللّه ، لقد أنزلت إليك هذه الآية ، وإنى رجل جهير الصوت . فأخاف أن يكون عملى قد حبط ، فقال له رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم :

لست هناك ، إنك تعيش بخير وتموت بخير ، وإنك من أهل الجنة «8» . . وأمّا ما يروى عن الحسن : أنها نزلت فيمن كان يرفع صوته من المنافقين فوق صوت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فمحمله والخطاب للمؤمنين : على أن ينهى المؤمنون ليندرج المنافقون تحت النهى ، ليكون الأمر أغلظ عليهم وأشق . وقيل : كان المنافقون يرفعون أصواتهم ليظهروا قلة مبالاتهم ، فيقتدى بهم ضعفة المسلمين . وكاف التشبيه في محل النصب ،

---

(1) . لم أجده ، وقد تقدم أن ذلك كان يوم حنين ، والعباس لم يشهد أحدا .

(2) . لم أجده

(3) . لم أجده

(4) . تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة 38 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(5) . لم أجده

(6) . للأعلم الهذلي ، يقول : نظرت وأنا في الحجاز إلى من في المناقب . وهذان الموضعان

بينهما مسافة بعيدة ، وهذا من شدة الشوق إلى من في المناقب .

(7) . لم أجده

(8) . متفق عليه من حديث أنس دون قوله «لست هناك ، وزاد أحمد والطبراني فيه : فقال أنس : فكنا نراه يمشى بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة» .

(129/719)

أى : لا تجهروا له جهرا مثل جهر بعضكم لبعض . وفي هذا : أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقا ، حتى لا يسوغ لهم أن يكلموه إلا بالهمس والمخافتة ، وإنما نهوا عن جهر مخصوص مقيد بصفة ، أعنى : الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منهم فيما بينهم ، وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوّة وجلالة مقدارها ، وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبتها أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ منصوب الموضع ، على أنه مفعول له ، وفي متعلقه وجهان ، أحدهما : أن يتعلق بمعنى النهى ، فيكون المعنى : انتهوا عما نهيتم عنه لحبوط أعمالكم ، أى : لخشية حبوطها على تقدير حذف المضاف ، كقوله تعالى يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا والثاني : أن يتعلق بنفس الفعل ، ويكون المعنى : أنهم نهوا عن الفعل الذي فعلوه لأجل الحبوط ، لأنه لما كان بصدد الأداء إلى الحبوط : جعل كأنه فعل لأجله ، وكأنه العلة والسبب في إيجاده على سبيل

التمثيل ، كقوله تعالى لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا .

فإن قلت : لخص الفرق بين الوجهين . قلت : تلخيصه أن يقدر الفعل في الثاني مضموما إليه المفعول له ، كأنهما شيء واحد «1» ، ثم يصب النهى عليهما جميعا صبا . وفي الأوّل يقدر النهى

---

(1) . قال محمود : «إنه مفعول له ومتعلقه إما معنى النهى ، كأنه قال : انتهوا كراهية حبوط أعمالكم على حذف مضاف ، كقوله يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وأما نفس الفعل فهو المنهي عنه ، على معنى تنزيل صيرورة الجهر المنهي عنه إلى الحبوط . منزلة جعل الحبوط علة في الجهر على التمثيل ، من وادي لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً قال : وتلخيص الفرق بينهما أنه على الثاني يقدر انضمام المفعول من أجله إلى الفعل الأول . . . الخ» قال أحمد : هو يحوم على شرعة وبيئة إياك . ورودها : وذلك أنه يعتقد أن ما دون الكفر ولو كبيرة واحدة تحبط العمل وتوجب الخلود في العذاب المقيم ، وتخرج المؤمن من اسم الايمان ورسمه ، ومعاذ اللّه من هذا المعتقد ، فعليك بعقيدة أهل السنة الممهدة في مواضع من هذا المجموع ، فجدد العهد بها : وهي اعتقاد أن المؤمن لا يخلد في النار ، وأن الجنة له بوعد اللّه حتم ولو كانت خطاياه ما دون الشرك أو ما يؤدى إليه كزبد البحر ، وأنه لا تحبط حسنة سيئة طارئة كائنة ما كانت سوى الشرك .

والزمخشري اغتنم الفرصة في ظاهر هذه الآية فنزلها على معتقده ووجه ظهورها فيما

يدعيه : أن رفع الصوت بين يدي رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم معصية لا تبلغ الشرك ، وقد أخاف اللّه عباده من إحباطه الأعمال بها ، ولو كان الإحباط مقطوعا بنفيه : لم تستقم الاخافة به ، وأنى له أن يبلغ من ذلك آماله ، ونظم الكلام يأباه عنده البصر بمعناه ، فنقول : المراد في الآية النهى عن رفع الصوت على الإطلاق ، ومعلوم أن حكم النهي : الحذر مما يتوقع في ذلك من إيذاء النبي عليه السلام ، والقاعدة المختارة أن إيذاءه عليه الصلاة والسلام يبلغ مبلغ الكفر المحبط للعمل باتفاق ، فورد النهى عما هو مظنة لأذى النبي عليه الصلاة والسلام سواء وجد هذا المعنى أولا ، حماية للذريعة وحسما للمادة ، ثم لما كان هذا المنهي عنه وهو رفع الصوت منقسما إلى ما يبلغ ذلك المبلغ أولا ، ولا دليل يميز أحد القسمين عن الآخر : لزم المكلف أن يكف عن ذلك مطلقا ، وخوف أن يقع فيهما هو محبط للعمل ، وهو البالغ حد الإيذاء ، إذ لا دليل ظاهر يميزه ، وإن كان فلا يتفق تمييزه في كثير من الأحيان ، وإلى التباس أحد القسمين بالآخر وقعت الاشارة بقوله أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ وإلا فلو كان الأمر على ما يعتقده الزمخشري : لم يكن لقوله وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ موقع ، إذ الأمر بين أن يكون رفع الصوت مؤذيا فيكون كفرا محبطا قطعا ، وبين أن يكون غير مؤذ فيكون كبيرة محبطة ، على رأيه قطعا ، فعلى كلا حاليه الإحباط به محقق ، إذا فلا موقع لادعام الكلام بعدم الشعور ، مع أن الإحباط ثابت مطلقا ، واللّه أعلم وهذا التقرير الذي ذكرته يدور على مقدمتين كلتا هما صحيحة إحداهما : أن رفع الصوت من جنس ما

يحصل به الإيذاء ، وهذا أمر يشهد به النقل والمشاهدة الآن ، حتى إن الشيخ ليتأذى برفع التلميذ صوته بين يديه ، فكيف برتبة النبوة وما يستحقه من الإجلال والإعظام .

المقدمة الأخرى : أن إيذاء النبي صلى اللّه عليه وسلم كفر ، وهذا أمر ثابت قد نص عليه أئمتنا وأفتوا بقتل من تعرض لذلك كفرا ، ولا تقبل توبته ، فما أتاه أعظم عند اللّه وأكبر ، واللّه الموفق .

(130/719)

موجها على الفعل على حياله ، ثم يعلل له منهيا عنه . فإن قلت : بأى النهيين تعلق المفعول له ؟

قلت : بالثاني عند البصريين ، مقدرا إضماره عند الأوّل ، كقوله تعالى آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً وبالعكس عند الكوفيين ، وأيهما كان فمرجع المعنى إلى أنّ الرفع والجهر كلاهما منصوص أداؤه إلى حبوط العمل : وقراءة ابن مسعود : فتحبط أعمالكم ، أظهر نصا بذلك ، لأنّ ما بعد الفاء لا يكون إلا مسببا عما قبله ، فيتنزل الحبوط من الجهر منزلة الحلول من الطغيان في قوله تعالى فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي والحبوط من حبطت الإبل : إذا أكلت الخضر فنفخ بطونها ، وربما هلكت . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام «وإن مما ينبت الربيع لما يقتل

حبطا أو يلم» «1» ومن أخواته : حبجت الإبل ، إذا أكلت العرفج «2» فأصابها ذلك .

وأحبض عمله : مثل أحبطه . وحبط الجرح وحبر : إذا غفر ، وهو نكسه وتراميه إلى الفساد : جعل العمل السيئ في إضراره بالعمل الصالح كالداء والحرض «3» لمن يصاب به ، أعاذنا اللّه من حبط الأعمال وخيبة الآمال . وقد دلت الآية على أمرين هائلين ، أحدهما : أن فيما يرتكب من يؤمن من الآثام ما يحبط عمله .

والثاني : أن في آثامه ما لا يدرى أنه محبط ، ولعله عند اللّه كذلك ، فعلى المؤمن أن يكون في تقواه كالماشى في طريق شائك لا يزال يحترز ويتوقى ويتحفظ .

[سورة الحجرات (49) : آية 3]

إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (3)

امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى من قولك : امتحن فلان لأمر كذا وجرب له ، ودرب للنهوض به . فهو مضطلع به غير وان عنه . والمعنى أنهم صبر على التقوى ، أقوياء على احتمال مشاقها .

أو وضع الامتحان موضع المعرفة ، لأنّ تحقق الشيء باختباره ، كما يوضع الخبر موضعها ، فكأنه قيل : عرف اللّه قلوبهم للتقوى ، وتكون اللام متعلقة بمحذوف ، واللام هي التي في قولك : أنت لهذا الأمر ، أى كائن له ومختص به قال :

أنت لها أحمد من بين البشر «4»

---

(1) . أخرجه مسلم وغيره . [. . . . .]

(2) . قوله «إذا أكلت العرفج» في الصحاح : شجر ينبت في السهل ، الواحدة : عرفجة .

(ع)

(3) . قوله «كالداء والحرض» أي الفساد . أفاده الصحاح .

(4) . رائعة : خالية من الحشو والتعقيد ، وصوغتها - بالتشديد - : للمبالغة ، وأنت لها

: أي أهل لها وكفؤ ، وأحمد :

منادى ، ومن بين البشر : متعلق بمحذوف حال ، أي : منتخبا من بينهم . ويجوز أن

«أحمد» أفعل تفضيل ، كذا قيل .

(131/719)

أعدّاء من لليعملات على الوجى «1»

وهي مع معمولها منصوبة على الحال . أو ضرب اللّه قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الصعبة

لأجل التقوى ، أي لتثبت وتظهر تقواها ، ويعلم أنهم متقون ، لأن حقيقة التقوى لا تعلم إلا

عند المحن والشدائد والاصطبار عليها . وقيل أخلصها للتقوى . من قولهم : امتحن

الذهب وفتنه ، إذا أذا به فخلص إبريزه من خبشه ونقاه . وعن عمر رضى اللّه عنه : أذهب الشهوات عنها .

والامتحان : افتعال ، من محنه ، وهو اختبار بليغ أو بلاء جهيد . قال أبو عمرو : كل شيء جهدته فقد محنته . وأنشد :

أتت رذايا باديا كلالها قد محنت واضطربت آطالها «2»

قيل : أنزلت في الشيخين رضى اللّه عنهما ، لما كان منهما من غض الصوت والبلوغ به أخا السرار . وهذه الآية بنظمها الذي رتبت عليه من إيقاع الغاضين أصواتهم اسما لإنّ المؤكدة .

وتصيير خبرها جملة من مبتدإ وخبر معرفتين معا . والمبتدأ : اسم الإشارة ، واستئناف الجملة المستودعة ما هو جزاؤهم على عملهم ، وإيراد الجزاء نكرة : مبهما أمره ناظرة في الدلالة على غاية الاعتداد والارتضاء لما فعل الذين وقروا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من خفض أصواتهم ، وفي الإعلام بمبلغ عزة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وقدر شرف منزلته ، وفيها تعريض بعظيم ما ارتكب الرافعون أصواتهم واستيجابهم ضد ما استوجب هؤلاء .

[سورة الحجرات (49) : الآيات 4 إلى 5]

إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (4) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ

إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5)

---

(1) أعداء من لليعملات على الوجا وأضياف بيت بيتوا لنزول

أعداء ما للعيش بعدك لذة ولا لخليل بهجة بخليل

أعداء ما وجدي عليك بهين ولا الصبر إن أعطيته بجميل

لعتبة بن مالك العقيلي ، يرثى عداء صاحبه . والهمزة للنداء . وعداء – كفعال – : على صيغة المبالغة ، أى : يا من كان معدا لاغاثة المطايا الكثيرات العمل ، والسفر مع الوجاء وهو الحفاء في أخفافها من كثرة السير ، واليعملات :

جمع يعملة ، والبعير يعمل ، ومن كان معدا لأضياف بيته الذين يبيتون للنزول والاستراحة عنده . والعيش : الحياة ، أو ما يعاش به . والبهجة : السرور . والوجد : الحزن . وإن أعطيته : اعتراض ، دل على أنه لم يصبر . ونفى جمال الصبر مبالغة في عظم عداء عنده وحبه إياه ، وكرر النداء لإظهار التفجع .

(2) . الرذايا جمع رذية وهي الناقة المهزولة الضعيفة . ومحنته : بلوته . ويقال : محنت ناقتي أجهدتها في السير .

ومحنت الجلد : مددته ووسعته . والآطال : جمع أطل وهو الخاصرة ، كأسباب وسبب .

يقول : أتت المطايا مهازيل ظاهرا ملالها وتعبها من السير ، قد أجهدت تلك النوق بالسير .

أو قد تدلت واضطربت خواصرها من شدة الجوع ويروى : أوصالها ، أى : أعضاؤها .

والوراء : الجهة التي يواريها عنك الشخص بظله من خلف أو قدام «1» . ومن لابتداء الغاية ، وأنّ المناداة نشأت من ذلك المكان . فإن قلت : فرق بين الكلامين بين ما تثبت فيه وما تسقط عنه . قلت : الفرق بينهما أنّ المنادى والمنادى في أحدهما يجوز أن يجمعهما الوراء ، وفي الثاني : لا يجوز لأنّ الوراء تصير بدخول من مبتدأ الغاية ، ولا يجتمع على الجهة الواحدة أن تكون مبتدأ ومنتهى لفعل واحد ، والذي يقول : ناداني فلان من وراء الدار . لا يريد وجه الدار ولا دبرها ، ولكن أى قطر من أقطارها الظاهرة كان مطلقا بغير تعيين واختصاص ، والإنكار لم يتوجه عليهم من قبل أنّ النداء وقع منهم في أدبار الحجرات أو في وجوهها ، وإنما أنكر عليهم أنهم نادوه من البرّ «2» والخارج مناداة الأجلاف بعضهم لبعض ، من غير قصد إلى جهة دون جهة . والحجرة : الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها ، وحظيرة الإبل تسمى الحجرة ، وهي فعلة بمعنى مفعولة ، كالغرفة والقبضة ، وجمعها : الحجرات - بضمتين ، والحجرات - بفتح الجيم ، والحجرات بتسكينها . وقرئ بهنّ جميعا ، والمراد : حجرات نساء رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وكانت لكل واحدة منهنّ حجرة . ومناداتهم من ورائها يحتمل أنهم قد تفرّقوا على الحجرات متطلبين له

، فناداه بعض من وراء هذه ، وبعض من وراء تلك ، وأنهم قد أتوها حجرة حجرة فنادوه من ورائها ، وأنهم نادوه منوراء الحجرة التي كان فيها ، ولكنها جمعت إجلالا لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ولمكان حرمته .

والفعل وإن كان مسندا إلى جميعهم فإنه يجوز أن يتولاه بعضهم ، وكان الباقون راضين ، فكأنهم تولوه جميعا ، فقد ذكر الأصم أنّ الذي ناداه عيينة بن حصن والأقرع بن حابس .

والإخبار عن أكثرهم بأنهم لا يعقلون : يحتمل أن يكون فيهم من قصد بالمحاشاة . ويحتمل أن يكون الحكم بقلة العقلاء فيهم قصدا إلى نفى أن يكون فيهم من يعقل ، فإنّ القلة تقع موقع النفي في كلامهم . وروى أن وفد بنى تميم أتوا رسول اللّه صلى اللّه

---

(1) . قال محمود : «الوراء الجهة التي يواريها عنك الشخص بظله من خلف أو قدام . . . الخ» قال أحمد :

ولقد اغتر بعضهم في تبكيت بنى تميم بما لا تساعده عليه الآية ، فإنها نزلت في المتولين لمناداة النبي عليه الصلاة والسلام ، أو في الحاضرين حينئذ الراضين بفعل المنادين له ، وقد سئل عليه الصلاة والسلام عنهم فقال : هم جفاة بنى تميم ، وعلى الجملة وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى فكيف يسوغ إطلاق اللسان بالسوء في حق أمة عظيمة لأن واحدا منهم أو اثنين ارتكب جهالة وجفاء ، فقد ورد أن المنادى له عليه السلام : هو الأقرع ، هذا مع توارد الأحاديث في فضائل تميم وتخليدها وجوه الكتب الصحاح .

(2) . قوله «أنهم نادوه من البر والخارج» الظاهر أن تفسيره ما بعده . وفي الصحاح «في مادة برر» أن البرية هي الصحراء . وفي مادة ضمن : في تفسير قوله عليه الصلاة والسلام في بعض كتبه : «إن لنا الضاحية من البعل ولكم الضامنة من النخل» ما نصه : فالضاحية : هي الظاهرة التي في البر من النخل ، والضامنة : ما تضمنها أمصارهم وقراهم . (ع)

(133/719)

عليه وسلم وقت الظهيرة وهو راقد ، فجعلوا ينادونه : محمد اخرج إلينا ، فاستيقظ فخرج «1» ونزلت . وسئل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عنهم فقال : «هم جفاة بنى تميم ، لولا أنهم من أشدّ الناس قتالا للأعور الدجال لدعوت اللّه عليهم أن يهلكهم» «2» فورود الآية على النمط الذي وردت عليه فيه ما لا يخفى على الناظر : من بينات إكبار محل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وإجلاله : منها مجيئها على النظم المسجل على الصائحين به بالسفه والجهل ، لما أقدموا عليه . ومنها لفظ الحجرات وإيقاعها كناية عن موضع خلوته . ومقيله مع بعض نسائه .

ومنها : المرور على لفظها بالاقتصار على القدر الذي تبين به ما استنكر عليهم . ومنها : التعريف باللام دون الإضافة . ومنها : أن شفع ذمهم باستجفائهم واستركاك عقولهم وقلة

ضبطهم لمواضع التمييز في المخاطبات ، تهوينا للخطب على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وتسلية له ، وإماطة لما تداخله من إيحاش تعجرفهم وسوء أدبهم ، وهلم جرا : من أوّل السورة إلى آخر هذه الآية ، فتأمّل كيف ابتدئ بإيجاب أن تكون الأمور التي تنتمى إلى اللّه ورسوله متقدّمة على الأمور كلها من غير حصر ولا تقييد ، ثم أردف ذلك النهى عما هو من جنس التقديم من رفع الصوت والجهر . كأن الأوّل بساط للثاني ووطاء لذكره ما هو ثناء على الذين تحاموا ذلك فغضوا أصواتهم ، دلالة على عظيم موقعه عند اللّه ، ثم جيء على عقب ذلك بما هو أطم وهجنته أتم : من الصياح برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في حال خلوته ببعض حرماته من وراء الجدر ، كما يصاح بأهون الناس قدرا ، لينبه على فظاعة من أجروا إليه وجسروا عليه ، لأنّ من رفع اللّه قدره على أن يجهر له بالقول حتى خاطبه جلة المهاجرين «3» والأنصار بأخى السرار ، كان صنيع هؤلاء من المنكر الذي بلغ من التفاحش مبلغا ، ومن هذا وأمثاله يقتطف ثمر الألباب

---

(1) . أخرجه ابن اسحق في السيرة قال : «قدمت وفود العرب على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فذكر القصة قال : ولما قدم وفد بنى تميم دخلوا المسجد . فنادوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من وراء الحجرات يا محمد اخرج إلينا – فذكره إلى آخره» وأخرجه ابن مردويه من رواية ابن إسحاق عن الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس قال «لما قدم وفد بنى تميم وهم سبعون رجلا – فذكره مطولا . وأخرجه ابن مندة في المعرفة . وأورده

الثعلبي من طريق يعلى بن عبد الرحمن عن عبد الحميد بن جعفر عن شمر بن الحكم عن جابر قال «جاءت بنو تميم فدخلوا المسجد فنادوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من وراء الحجرات أن اخرج إلينا يا محمد فآذى ذلك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من صياحهم. فذكره مطولا.

(2). أخرجه الثعلبي من رواية هاشم بن القاسم الحراني عن يعلى بن الأشدق حدثنا سعد بن عبد اللّه: أن النبي صلى اللّه عليه وسلم - فذكره: ولمسلم من حديث أبى هريرة «لا أزال أحب بنى تميم لثلاث - فذكر فيه «وهم أشد أمتى على الدجال».

(3). قوله «حتى خاطبه جلة المهاجرين» معظم المهاجرين. (ع)

(134/719)

وتقتبس محاسن الآداب، كما يحكى عن أبى عبيد - ومكانه من العلم والزهد وثقة الرواية ما لا يخفى - أنه قال: ما دققت بابا على عالم قط حتى يخرج في وقت خروجه أَنَّهُمْ صَبَرُوا في موضع الرفع على الفاعلية، لأنّ المعنى: ولو ثبت صبرهم. والصبر: حبس النفس عن أن تنازع إلى هواها. قال اللّه تعالى وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ وقولهم: صبر عن كذا، محذوف منه المفعول، وهو النفس، وهو حبس فيه شدّة ومشقة على المحبوس،

فلهذا قيل للحبس على اليمين أو القتل : صبر . وفي كلام بعضهم : الصبر مرّ لا يتجرّعه إلا حرّ . فإن قلت :

هل من فرق بين حَتَّى تَخْرُجَ وإلى أن تخرج ؟ قلت : إنّ «حتى» مختصة بالغاية المضروبة . تقول : أكلت السمكة حتى رأسها ، ولو قلت : حتى نصفها ، أو صدرها : لم يجز ، و«إلى» عامّة في كل غاية ، فقد أفادت «حتى» بوضعها : أنّ خروج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إليهم غاية قد ضربت لصبرهم ، فما كان لهم أن يقطعوا أمرا دون الانتهاء إليه . فإن قلت : فأى فائدة في قوله إِلَيْهِمْ ؟ قلت : فيه أنه لو خرج ولم يكن خروجه إليهم ولأجلهم ، للزمهم أن يصبروا إلى أن يعلموا أنّ خروجه إليهم لَكانَ خَيْراً لَهُمْ في «كان» إما ضمير فاعل الفعل المضمر بعد لو ، وإما ضمير مصدر صَبَرُوا ، كقولهم : من كذب كان شرا له وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ بليغ الغفران والرحمة واسعهما ، فلن يضيق غفرانه ورحمته عن هؤلاء إن تابوا وأنابوا .

[سورة الحجرات (49) : الآيات 6 إلى 8]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ (6) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيانَ أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7) فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (8)

بعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الوليد بن عقبة أخا عثمان لأمّه - وهو الذي ولاه عثمان الكوفة بعد سعد بن أبي وقاص ، فصلى بالناس وهو سكران صلاة الفجر أربعا ، ثم قال : هل أزيدكم ، فعزله عثمان «1» عنهم - مصدّقا إلى بني المصطلق ، وكانت بينه وبينهم إحقة ، فلما شارف ديارهم ركبوا مستقبلين له ، فحسبهم مقاتليه ، فرجع وقال لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم :

---

(1) . أخرجه مسلم من طريق أبي ساسان حصين بن منذر قال شهدت عثمان أخى الوليد بن عقبة وقد صلى الغداة بالكوفة أربعا - الحديث بطوله» وأخرجه ابن إسحاق والنسائي من هذا الوجه وقالوا فيه «وقد صلى للغداة أربعا»

قد ارتدوا ومنعوا الزكاة «1» ، فغضب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهمّ أن يغزوهم ، فبلغ القوم فوردوا وقالوا : نعوذ باللّه من غضبه وغضب رسوله ، فاتهمهم فقال : «لتنتهنّ أو لأبعثنّ إليكم رجلا هو عندي كنفسي يقاتل مقاتلتكم ويسبى ذراريكم» ثم ضرب بيده على كتف على رضى اللّه عنه . وقيل : بعث إليهم خالد بن الوليد فوجدهم منادين بالصلوات متهجدين ، فسلموا إليه الصدقات «2» ، فرجع . وفي تنكير الفاسق والنبأ :

شياع في الفساق والأنباء ، كأنه قال : أىّ فاسق جاءكم بأىّ نبإ «3» . فتوقفوا فيه وتطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة ، ولا تعتمدوا قول الفاسق «لأنّ من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذب الذي هو نوع منه .

والفسوق : الخروج من الشيء والانسلاخ منه . يقال : فسقت الرطبة عن قشرها . ومن مقلوبه :

قفست البيضة ، إذا كسرتها وأخرجت ما فيها . ومن مقلوبه أيضا : قفست الشيء إذا أخرجته عن يد مالكه مغتصبا له عليه ، ثم استعمل في الخروج عن القصد والانسلاخ من الحق .

قال رؤبة :

فواسقا عن قصدها جوائرا «4»

وقرأ ابن مسعود : فتثبتوا . والتثبت والتبين : متقاربان ، وهما طلب الثبات والبيان والتعرّف ، ولما كان رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وآله وسلم والذين معه بالمنزلة التي لا يجسر أحد أن يخبرهم بكذب ، وما كان يقع مثل ما فرط من الوليد إلا في الندرة . قيل : إن جاءكم بحرف الشك وفيه أنّ على المؤمنين أن يكونوا على هذه الصفة ، لئلا يطمع فاسق في مخاطبتهم بكلمة زور أَنْ تُصِيبُوا مفعول له ، أى : كراهة إصابتكم قَوْماً بِجَهالَةٍ حال ، كقوله تعالى وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ يعنى جاهلين بحقيقة الأمر وكنه القصة . والإصباح :

بمعنى الصيرورة .

والندم : ضرب من الغم ، وهو : أن تغتمّ على ما وقع منك تتمنى أنه لم يقع ، وهو غم يصحب

---

(1) . أخرجه إسحاق والطبراني من حديث أم سلمة . دون قوله «فاتهمهم فقال لتنتهن أو لأبعثن إليكم رجلا هو عندي كنفسي يقاتل مقاتلتكم الخ» وعندهما بدل ذلك «فما زالوا يعتذرون إليه حتى نزلت فيهم الآية» وفيه موسى بن عبيدة ، وهو ضعيف ونحوه رواه أحمد والطبراني أيضا من حديث الحارث بن دثار الخزاعي أخرجه ابن مردويه من طريق عبد اللّه بن عبد القدوس عن الأعمش عن موسى بن المسيب عن سالم بن أبى الجعد .

عن جابر قال :

بعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الوليد بن عقبة – فذكر الحديث بنحوه وزاد فقال عليه الصلاة والسلام : لتنتهن أو لأبعثن إليكم رجلا – فذكره .

(2) . لم أره .

(3) . قال محمود : «نكر فاسقا ونبأ لقصد الشياع ، فكأنه قيل أىّ فاسق جاء بأى نبأ» قال أحمد : تسامح بلفظ الشياع والمراد الشمول ، لأن النكرة إذا وقعت في سياق الشرط تعم ، كما إذا وقعت في سياق النفي ، واللّه أعلم . [. . . . .]

(4) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 119 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(136/719)

الإنسان صحبة لها دوام ولزام ، لأنه كلما تذكر المتندّم عليه راجعه من الندام : وهو لزام الشريب ودوام صحبته . ومن مقلوباته : أدمن الأمر أدامه . ومدن بالمكان : أقام به . ومنه :

المدينة وقد تراهم يجعلون الهم صاحبا ونجيا وسميرا وضجيعا ، وموصوفا بأنه لا يفارق صاحبه . الجملة المصدّرة بلو لا تكون كلاما مستأنفا ، لأدائه إلى تنافر النظم «1» ، ولكن متصلا بما قبله حالا من أحد الضميرين في فيكم المستتر المرفوع ، أو البارز المجرور .

وكلاهما مذهب سديد . والمعنى :

أن فيكم رسول اللّه على حالة يجب عليكم تغييرها . أو أنتم على حالة يجب عليكم تغييرها : وهي أنكم تحاولون منه أن يعمل في الحوادث على مقتضى ما يعنّ لكم من رأى ، واستصواب فعل المطواع لغيره التابع له فيما يرتئيه ، المحتذى على أمثلته ، ولو فعل ذلك لَعَنِتُّمْ أى لوقعتم في العنت والهلاك . يقال : فلان يتعنت فلانا ، أى : يطلب ما يؤدّيه إلى

الهلاك . وقد أعنت العظم :

إذا هيض «2» بعد الجبر . وهذا يدل على أن بعض المؤمنين زينوا لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الإيقاع ببني المصطلق وتصديق قول الوليد . وأن نظائر ذلك من الهنات كانت تفرط منهم ، وأن بعضهم كانوا يتصوّنون ويزعهم جدّهم في التقوى عن الجسارة على ذلك ، وهم الذين استثناهم بقوله تعالى وَلكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ أى إلى بعضكم ، ولكنه أغنت عن ذكر البعض :

صفتهم المفارقة لصفة غيرهم ، وهذا من إيجازات القرآن ولمحاته اللطيفة ، التي لا يفطن لها إلا الخواص . وعن بعض المفسرين : هم الذين امتحن اللّه قلوبهم للتقوى . وقوله أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ والخطاب لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، أى : أولئك المستثنون هم الراشدون يصدق ما قلته . فإن قلت : ما فائدة تقديم خبر إن على اسمها ؟ قلت : القصد إلى توبيخ بعض المؤمنين على ما استهجن اللّه منهم من استتباع رأى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لآرائهم ، فوجب تقديمه لانصباب الغرض إليه . فإن قلت : فلم قيل يُطِيعُكُمْ دون : أطاعكم ؟ قلت :

للدلالة على أنه كان في إرادتهم استمرار عمله على ما يستصوبونه . وأنه كلما عنّ لهم رأى في أمر كان

---

(1) . قال محمود : «الجملة المصدرة بلولا تكون مستأنفة ، لأدائه إلى تنافر النظم . . .

الخ» قال أحمد : من جملة هنات المعتزلة : ثلبهم على عثمان رضى اللّه عنه ووقوفهم عن الحكم بتعنيف قتلته ، فضم إلى هذا المعتقد غير معرج عليه : ما أورده الزمخشري في هذا الموضع من حكايات تولية عثمان لأخيه الوليد الفاعل تلك الفعلة الشنعاء عوضا عن سعد بن أبى وقاص أحد الصحابة ، وما عرض به من أن بعض الصحابة كان يصدر منهم هنات ، فمنها مطالبتهم النبي صلى اللّه عليه وسلم باتباع آرائهم التي من جملتها تصديق الوليد في الإيقاع ببني المصطلق ، فإذا ضممت هذه النبذة التي ذكرها إرسالا إلى ما علمت من معتقده : تبين لك من حال - أعنى الزمخشري - ما لا أطيق التصريح به ، لأنه لم يصرح وإنما سلكنا معه سبيل الانصاف ومحجة الانتصاف : نص بنص ، وتلويح بتلويح ، فنسأل اللّه العظيم - بعد الصلاة على نبيه محمد خاتم النبيين - أن يرضى عن أصحابه أجمعين ، وعنا بهم آمين .

(2) . قوله «إذا هيض بعد الجبر» في الصحاح : هاض العظم يهيضه هيضا : كسره بعد الجبر . وفيه أيضا :

جبرت العظم جبرا ، وجبر العظم بنفسه جبورا ، أى : انجبر . (ع)

معمولا عليه ، بدليل قوله فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ كقولك : فلان يقرى الضيف ويحمى الحريم ، تريد : أنه مما اعتاده ووجد منه مستمرّا . فإن قلت : كيف موقع لكِنْ وشريطتها مفقودة : من مخالفة ما بعدها لما قبلها نفيا وإثباتا ؟ قلت : هي مفقودة من حيث اللفظ ، حاصلة من حيث المعنى لأن الذين حبب إليهم الإيمان قد غايرت صفتهم صفة المتقدّم ذكرهم ، فوقعت ، لكنّ في حاق موقعها من الاستدراك . ومعنى تحبيب اللّه وتكريهه اللطف والإمداد بالتوفاق «1» ، وسبيله الكناية كما سبق ، وكل ذى لب وراجع إلى بصيرة وذهن لا يغبى عليه أن الرجل لا يمدح بغير فعله ، وحمل الآية على ظاهرها يؤدّى إلى أن يثنى عليهم بفعل اللّه ، وقد نفى اللّه هذا عن الذين أنزل فيهم وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِما لَمْ يَفْعَلُوا فإن قلت : فإنّ العرب تمدح بالجمال وحسن الوجوه ، وذلك فعل اللّه ، وهو مدح مقبول عند الناس غير مردود . قلت : الذي سوّغ ذلك لهم أنهم رأوا حسن الرواء «2» ووسامة المنظر في الغالب ، يسفر عن مخبر مرضى وأخلاق محمودة ومن ثم قالوا : أحسن ما في الدميم وجهه «3» ، فلم يجعلوه من صفات المدح لذاته ، ولكن لدلالته على غيره . على أن من محققة الثقات وعلماء المعاني من دفع صحة ذلك وخطأ المادح به ، وقصر المدح على النعت بأمّهات الخير : وهي الفصاحة والشجاعة والعدل والعفة ، وما يتشعب منها ويرجع إليها ، وجعل الوصف بالجمال والثروة وكثرة الحفدة والأعضاد وغير ذلك مما ليس

(1) . عاد كلامه . قال : «و معنى تحبيب اللّه وتكريهه اللطف والامداد بالتوفيق . . . الخ» قال أحمد : تلجلج والحق أبلج ، وزاغ والسبيل منهج ، وقاس الخلق بالواحد الحق ، وجعل أفعالهم لهم من إيمان وكفر وخير وشر ، اغترارا بحال اعتقد اطراده في الشاهد ، وهو أن الإنسان لا يمدح بفعل غيره ، وقاس الغائب على الشاهد تحكما ، وتغلغل باتباع هوى معجما ، فجره ذلك بل جرأه على تأويل الآية وإبطال ما ذكرته من نسبة تحبيب الايمان إلى اللّه تعالى على حقيقته ، وجعله مجازا لأنه يعتقد أنها لو بقيت على ظاهرها لكان خلق الايمان مضافا إلى اللّه تعالى ، والعبد إذا ممدوح بما ليس من فعله . وهذا عنده محال ، فأتبع الآية رأيه الفاسد ، فإذا عرضت عليه الأدلة العقلية على الوحدانية ، والنقلية على أنه لا خالق إلا اللّه خالق كل شيء ، وطولب بابقاء الآية على ظاهرها المؤيد بالعقل والنقل ، فانه يتمسك في تأويلها بالحبال المذكورة في التحكم بقياس الغائب على الشاهد ، مما له إدلاء إلى تعويج كتاب اللّه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فالذي نعتقده – ثبتنا اللّه على الحق – أن اللّه تعالى منح ومدح وأعطى وامتن ، فلا موجود إلا اللّه وصفاته وأفعاله ، غير أنه تعالى جعل أفعاله بعضها محلا لبعض ، فسمى المحل فاعلا والحال فعلا ، فهذا هو التوحيد الذي لا محيص عنه للمؤمن ولا محيد ، ولا بد أن أطارحه القول فأقول :

أخبرني عن ثناء اللّه على أنبيائه ورسله بما حاصله اصطفاؤه لهم لاختياره إياهم : هل بمكتسب أم بغير مكتسب ، فلا يسعه أن يقول إلا أنه أثنى عليهم بما لم يكتسبوه ، بل بما وهبه

إياهم فاتهبوه . وإن عرج على القسم الآخر وهو دعوى أنهم أثنى عليهم بمكتسب لهم من رسالة أو نبوة ، فقد خرج عن أهل الملة ، وانحرف عن أهل القبلة ، وهذه البذة كفاية إن شاء اللّه تعالى .

(2) . قوله «حسن الرواء» في الصحاح : الرواء - بالضم - : المنظر . (ع)

(3) . قوله «ما في الدميم وجهه» في الصحاح «الدميم» : القبيح . (ع)

(138/719)

للإنسان فيه عمل غلطا ومخالفة عن المعقول والْكُفْرَ تغطية نعم اللّه تعالى وغمطها بالجحود .

والْفُسُوقَ الخروج عن قصد الإيمان ومحجته بركوب الكبائر وَالْعِصْيانَ ترك الانقياد والمضي لما أمر به الشارع . والعرق العاصي : العانذ «1» . واعتصت النواة : اشتدّت . والرشد :

الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه من الرشادة وهي الصخرة : قال أبو الوازع : كل صخرة رشادة . وأنشد :

وغير مقلّد وموشّمات صلين الضّوء من صمّ الرّشاد «2»

وفَضْلًا مفعول له ، أو مصدر من غير فعله «3» . فإن قلت : من أين جاز وقوعه مفعولا له ، والرشد فعل القوم ، والفضل فعل اللّه تعالى ، والشرط أن يتحد الفاعل . قلت : لما وقع الرشد عبارة عن التحبيب والتزيين والتكريه ، مسندة إلى اسمه تقدست أسماؤه : صار الرشد كأنه فعله ، فجاز أن ينتصب عنه أو لا ينتصب عن الراشدون ، ولكن عن الفعل المسند إلى اسم اللّه تعالى ، والجملة التي هي أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ اعتراض . أو عن فعل مقدر ، كأنه قيل : جرى ذلك ، أو كان ذلك فضلا من اللّه . وأما كونه مصدرا من غير فعله ، فأن يوضع موضع رشدا ، لأنّ رشدهم فضل من اللّه لكونهم موفقين فيه ، والفضل والنعمة بمعنى الإفضال والإنعام وَاللَّهُ عَلِيمٌ

---

(1) . قوله «و العرق العاصي : العانذ» في الصحاح : عنذ العرق : سال ولم يرقأ ، فهو عرق عانذ . (ع)

(2) . الظاهر أن الشاعر يصف الديار بأنها لم يبق فيها غير وتد الخباء المقلد بالحبل ، وغير الأثافي المغير لونها بالنار . والوشم والتوشيم : تغيير اللون ، أى : التي احترقت بضوءها أى حرها . ومن صم الرشاد : بيان لها .

والصم : جمع صماء ، أى : صلبة . والرشاد الصخر . واحدة رشادة . وقيل : يصف مطايا بأنها مطبوعة على العمل غير محتاجة الزمام ، وأنها غيرها أثر السير قوية ، بحيث يظهر الشرر من شدة وقع خفافها على الصخر الصلب .

(3) . أعرب الزمخشري فضلا في الآية مفعولا لأجله ، منصبا عن قوله : الراشدون . . . الخ . قال أحمد : أورد الاشكال بعد تقرير أن الرشد ليس من فعل اللّه تعالى ، وإنما هو فعلهم حقيقة على ما هو معتقده ، ونحن بنينا على ما بينا : أن الرشد من أفعال اللّه ومخلوقاته ، فقد وجد شرط انتصاب المفعول له ، وهو اتحاد فاعل الفعلين ، على أن الاشكال وارد نصا على تقريرنا على غير الحد الذي أورده عليه الزمخشري ، بل من جهة أن اللّه تعالى خاطب خلقه بلغتهم المعهودة عندهم . ومما يعهدونه أن الفاعل من نسب إليه الفعل ، وسواء كان ذلك حقيقة أو مجازا حتى يكون زيد فاعلا وانقض الحائط وأشباهه كذلك . وقد نسب الرشد إليهم على طريقة أنهم الفاعلون وإن كانت النسبة مجازية باعتبار المعتقد ، وإذا تقرر وروده على هذا الوجه فلك في الجواب عنه طريقان : إما جواب الزمخشري ، وإما أمكن منه وأبين : وهو أن الرشد هنا يستلزم كونه راشدا ، إذ هو مطاوعه ، لأن اللّه تعالى أرشدهم فرشدوا .

وحينئذ يتحد الفاعل على طريقة الصناعة المطابقة للحقيقة وهو عكس قوله يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً فان الاشكال بعينه وارد فيها ، إذ الخوف والطمع فعلهم ، أى : منسوب إليهم على طريقة أنهم الخائفون الطامعون ، والفعل الأول للّه تعالى ، لأنه مريهم ذلك ، والجواب عنه : أنهم مفعولون في معنى الفاعلين ، بواسطة استلزام المطاوعة ، لأنه إذا أراهم فقد رأوا . وقد سلف هذا الجواب مكانه ، فصححت الكلام ها هنا بتقدير المفعول فاعلا

وعكسه آية الحجرات ، إذ تصحيح الكلام فيها بتقدير الفاعل مفعولا ، وهذا من دقائق العربية فتأمله ، والله الموفق .

(139/719)

بأحوال المؤمنين وما بينهم من التمايز والتفاضل حَكِيمٌ حين يفضل وينعم بالتوفيق على أفاضلهم .

[سورة الحجرات (49) : آية 9]

وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (9)

عن ابن عباس رضى اللّه عنهما قال : وقف رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على مجلس بعض الأنصار وهو على حمار فبال الحمار ، فأمسك عبد اللّه ابن أبىّ بأنفه وقال : خل سبيل حمارك فقد آذانا نتنه . فقال عبد اللّه بن رواحة : واللّه إنّ بول حماره لأطيب من مسكك «1» وروى : حماره أفضل منك ، وبول حماره أطيب من مسكك «2» ، ومضى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وطال الخوض بينهما حتى استبا وتجالدا ، وجاء

قوماهما وهما الأوس والخزرج، فتجالدوا بالعصى، وقيل بالأيدى والنعال والسعف، فرجع إليهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وأصلح بينهم، ونزلت.

وعن مقاتل: قرأها عليهم فاصطلحوا. والبغي: الاستطالة والظلم وإباء الصلح. والفيء: الرجوع، وقد سمى به الظل والغنيمة، لأنّ الظل يرجع بعد نسخ الشمس، والغنيمة: ما يرجع من أموال الكفار إلى المسلمين، وعن أبى عمرو: حتى تفي، بغير همز، ووجهه أنّ أبا عمرو خفف الأولى من الهمزتين الملتقيتين فلطفت على الراوي تلك الخلسة «3»، فظنه قد طرحها. فإن قلت: ما وجه قوله اقْتَتَلُوا والقياس اقتتلتا «4»، كما قرأ ابن أبى عبلة. أو اقتتلا، كما قرأ عبيد بن عمير على تأويل الرهطين أو النفرين؟ قلت: هو مما حمل على المعنى دون اللفظ، لأنّ الطائفتين في معنى القوم والناس. وفي قراءة عبد اللّه: حتى يفيئوا إلى أمر اللّه، فإن فاءوا فخذوا بينهم بالقسط. وحكم الفئة الباغية: وجوب قتالها ما قاتلت. وعن ابن عمر: ما وجدت في نفسي من شيء ما وجدته

---

(1). لم أره عن ابن عباس. وهو في الصحيحين من حديث أنس. وفيه «فبلغنا أنها أنزلت وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ... الآية. دون بول الحمار. وقوله «و اللّه إن بول حماره لأطيب من مسك» وليس فيه أيضا «و إنه صلى اللّه عليه وسلم مضى. ثم نزلت الآية.

(2). لم أره هكذا وحديث أنس في الصحيحين «و اللّه لحمار رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أطيب ريحا منك».

(3) . قوله «تلك الخلسة» في الصحاح : خلست الشيء واختلسته ، إذا استلبته «و الاسم الخلسة - بالضم . (ع)

(4) . قال محمود : «لم قال اقتتلوا عدولا . . . الخ» قال أحمد : قد تقدم في مواضع إنكار النحاة الحمل على لفظ «من» ، بعد الحمل على معناها ، وفي هذه الآية حمل على المعنى بقوله اقْتَتَلُوا ثم على اللفظ بقوله بَيْنَهُما فلا يعتقد أن المقول في «مق» مطرد في هذا ، لأن المانع لزوم الإجمال والإبهام بعد التفسير ، وها هنا لا يلزم ذلك ، إذ لا إبهام في الطائفة ، بل لفظها مفرد أبدا ، ومعناها جمع أبدا ، وكانت كذلك لاختلاف أحوالها من حيث المعنى مرة جمعا ومرة مفردا ، فتأمله ، والله الموفق .

(140/719)

من أمر هذه الآية إن لم أقاتل هذه الفئة الباغية كما أمرني الله عز وجل . قاله بعد أن اعتزل ، فإذا كافت وقبضت عن الحرب أيديها تركت ، وإذا تولت عمل بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «يا ابن أم عبد ، هل تدري كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمّة ؟ قال :

الله ورسوله أعلم قال : لا يجهز على جريحها ، ولا يقتل أسيرها ، ولا يطلب هاربها ولا

يقسم فيؤها» «1» ولا تخلو الفئتان من المسلمين في اقتتالهما : إما أن يقتتلا على سبيل البغي منهما جميعا ، فالواجب في ذلك أن يمشى بينهما بما يصلح ذات البين ويثمر المكافة والموادعة ، فإن لم تتحاجزا ولم تصطلحا وأقامتا على البغي : صير إلى مقاتلتهما ، وإما أن يلتحم بينهما القتال لشبهة دخلت عليهما ، وكلتاهما عند أنفسهما محقة ، فالواجب إزالة الشبهة بالحجج النيرة والبراهين القاطعة ، واطلاعهما على مراشد الحق . فإن ركبتا متن اللجاج ولم تعملا على شاكلة ما هديتا إليه ونصحتا من اتباع الحق بعد وضوحه لهما ، فقد لحقتا بالفئتين الباغيتين . وإما أن تكون إحداهما الباغية على الأخرى ، فالواجب أن تقاتل فئة البغي إلى أن تكف وتتوب ، فإن فعلت أصلح بينهما وبين المبغى عليها بالقسط والعدل ، وفي ذلك تفاصيل : إن كانت الباغية من قلة العدد بحيث لا منعة لها : ضمنت بعد الفيئة ما جنت ، وإن كانت كثيرة ذات منعة وشوكة ، لم تضمن إلا عند محمد بن الحسن رحمه اللّه ، فإنه كان يفتي بأن الضمان يلزمها إذا فاءت . وأمّا قبل التجمع والتجند أو حين تتفرق عند وضع الحرب أوزارها ، فما جنته ضمنته عند الجميع ، فمحمل الإصلاح بالعدل في قوله تعالى فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ على مذهب محمد واضح منطبق على لفظ التنزيل ، وعلى قول غيره : وجهه أن يحمل على كون الفئة قليلة العدد ، والذي ذكروا أن الغرض إماتة الضغائن وسل الأحقاد دون ضمان الجنايات : ليس بحسن الطباق للمأمور به من أعمال العدل ومراعاة القسط .

فإن قلت : فلم قرن بالإصلاح الثاني العدل دون الأوّل ؟ قلت : لأنّ المراد بالاقتتال في أول الآية أن يقتتلا باغيتين معا أو راكبتى شبهة ، وأيتهما كانت ، فالذي يجب على المسلمين أن يأخذوا به في شأنهما : إصلاح ذات البين ، وتسكين الدهماء «2» بإراءة الحق والمواعظ الشافية ، ونفى الشبهة ، إلا إذا أصرتا ، فحينئذ تجب المقاتلة . وأما الضمان فلا يتجه ، وليس كذلك إذا بغت إحداهما ، فإنّ الضمان متجه على الوجهين المذكورين وَأَقْسِطُوا أمر باستعمال القسط على طريق العموم بعد ما أمر به في إصلاح ذات البين ، والقول فيه مثله في

---

(1) . أخرجه الحاكم في المستدرك والبزار والحارث . وابن عدى من رواية كوثر بن حكيم النافع عن نافع عن ابن عمر . وكوثر متروك ، قال فيه أحمد : أحاديثه أباطيل . [. . . . .]

(2) . قوله «الدهماء» اى الجماعة . (ع)

الأمر باتقاء اللّه على عقب النهى عن التقديم بين يديه ، والقسط - بالفتح - : الجور من القسط :

وهو اعوجاج في الرجلين «1» . وعود قاسط : يابس . وأقسطته الرياح . وأمّا القسط بمعنى العدل ، فالفعل منه : أقسط ، وهمزته للسلب ، أى : أزال القسط وهو الجور .

[سورة الحجرات (49) : آية 10]

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10)

هذا تقرير لما ألزمه من تولى الإصلاح بين من وقعت بينهم المشاقة من المؤمنين ، وبيان أن الإيمان قد عقد بين أهله من السبب القريب والنسب اللاصق : ما إن لم يفضل الأخوّة ولم يبرز عليها لم ينقص عنها ولم يتقاصر عن غايتها ، ثم قد جرت عادة الناس على أنه إذا نشب مثل ذلك بين اثنين من إخوة الولاد ، لزم السائر أن يتناهضوا في رفعه وإزاحته ، ويركبوا الصعب والذلول مشيا بالصلح وبثا للسفراء «2» بينهما ، إلى أن يصادف ما وهي من الوفاق من يرقعه ، وما استشن «3» من الوصال من يبله ، فالأخوة في الدين أحق بذلك وبأشدّ منه . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يعيبه ، ولا يتطاول عليه في البنيان فيستر عنه الريح إلا بإذنه ، ولا يؤذيه بقتار قدره» «4» ثم قال «احفظوا ، ولا يحفظ منكم إلا قليل» «5» . فإن قلت : فلم خص الاثنان بالذكر دون الجمع ؟ قلت : لأن أقل من يقع بينهم الشقاق اثنان ، فإذا لزمت المصالحة بين الأقل كانت بين الأكثر ألزم ، لأنّ الفساد في شقاق الجمع أكثر منه في شقاق الاثنين ، وقيل : المراد بالأخوين الأوس والخزرج ، وقرئ : بين إخوتكم وإخوانكم . والمعنى : ليس المؤمنون إلا إخوة ، وأنهم خلص لذلك متمحضون ، قد انزاحت عنهم شبهات الأجنبية ، وأبى لطف حالهم في التمازج والاتحاد أن يقدموا على ما يتولد منه التقاطع ، فبادروا قطع ما يقع

من ذلك إن وقع واحسموه وَاتَّقُوا اللَّهَ فإنكم إن فعلتم لم تحملكم التقوى إلا على التواصل والائتلاف ، والمسارعة إلى إماطة ما يفرط منه ، وكان عند فعلكم ذلك وصول رحمة اللّه إليكم ، واشتمال رأفته عليكم حقيقا بأن تعقدوا به رجاءكم .

---

(1) . قوله «و هو اعوجاج في الرجلين» في الصحاح : القسط - بالتحريك - : انتصاب في رجلي الدابة ، وذلك عيب ، لأنه يستحب فيهما الانحناء والتوقير اه . (ع)

(2) . قوله «و بنا السفراء بينهما . . . الخ» جمع سفير : وهو الرسول والمصلح بين القوم . (ع)

(3) . قوله «استشن» في الصحاح : تشنن الجلد يبس ، واستشن الرجل : هزل . (ع)

(4) . قوله «بقتار قدره» في الصحاح : «القتار» : ريح الشواء . (ع)

(5) . أخرجه الثعلبي من رواية إسماعيل بن رافع عن سعيد عن أبى هريرة به سواء وزاد فيه «و لا يؤذيه بقتار قدره إلا أن يغرف له منها . ولا يشترى لبنيه الفاكهة ، فيخرجون بها إلى صبيان جاره ثم لا يطعمونهم منها» قلت :

وإسناده ضعيف وأول الحديث في الصحيحين» من وجه آخر عن أبى هريرة : وسيأتى في آخر تفسير سورة الواقعة .

[سورة الحجرات (49) : آية 11]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (11)

القوم : الرجال خاصة ، لأنهم القوّام بأمور النساء . قال اللّه تعالى الرِّجالُ قَوّامُونَ عَلَى النِّساءِ وقال عليه الصلاة والسلام : «النساء لحم على وضم «1» إلا ما ذب» عنه» والذابون هم الرجال ، وهو في الأصل جمع قائم ، كصوّم وزوّر : في جمع صائم وزائر . أو تسمية بالمصدر . عن بعض العرب : إذا أكلت طعاما أحببت نوما وأبغضت قوما . أى قياما ، واختصاص القوم بالرجال :

صريح في الآية وفي قول زهير :

أقوم آل حصن أم نساء «3»

وأما قولهم في قوم فرعون وقوم عاد : هم الذكور والإناث ، فليس لفظ القوم بمتعاط للفريقين ، ولكن قصد ذكر الذكور وترك ذكر الإناث لأنهن توابع لرجالهن ، وتنكير القوم والنساء

(1) . قوله «على وضم» الوضم : ما يوضع تحت اللحم من خشب وغيره يوقى به من

الأرض . أفاده الصحاح . (ع)

(2) . لم أره عن على ، وأخرجه ابن المبارك في البر والصلة من قول عمر بن الخطاب ، وكذلك رواه أبو عبيد وابراهيم الحربي في الغريب .

(3) وما أدرى وسوف إخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء

فان تكن النساء مخبآت فحق لكل محصنة اهتداء

لزهير يهجو حصن بن حذيفة الفزاري . والقوم : الرجال فقط ، حتى قيل : إنه جمع قائم ، كصوم وزور ، في صائم وزائر . وقيل إنه في الأصل مصدر ، والهمزة لطلب التعيين ، ولكن الكلام من مجاهل العارف . ونساء : عطف على قوم الوقع خبرا من آل حصن ، أو خبرا لمبتدأ محذوف ، والعطف من عطف الجمل . ويجوز أن الهمزة التسوية كالواقعة بعد سواء ، كأنه . قال : ما أبالى منهم ، سواء أكانوا رجالا أو نساء ، فيتعين أنه من عطف الجمل لأجل التسوية ، ولكن المقام يؤيد الأول ، وفي البيت الاعتراض بين سوف ومدخلها بالفعل الملقى عند المفعول ، والاعتراض أيضا بين ما أدرى وبين الاستفهام بجملة التسويف ، لأن «أدرى» طالب لمفعولين وجملة «أقوم» سادة مسدهما ، وانظر كيف خطر بباله أن ينفى الدراية بحال الآل . ثم قبل أن يكمل ذلك خطر بباله الجزم بأنه سوف يدرى ، ثم قبل أن يكمل ذلك قال : إن حصول الدراية في المستقبل على سبيل التخيل والظن ، فحكى حال النفس عند ترددها في شأنه ، فللّه در العرب ما ألطفهم في حكاية الحال بأبلغ مقال . وروى

لست بدل سوف . وفيه نظر ، واسم تكن ضمير القوم ، والنساء خبرها ومخبآت حال ، أى : فان كن محصنات فحق لهن أن يهدين إلى أزواجهن ، وهدى المرأة إلى زوجها وأهداها إليه إهداء ، بمعنى .

(143/719)

يحتمل معنيين : أن يراد : لا يسخر بعض المؤمنين والمؤمنات «1» من بعض وأن تقصد إفادة الشياع ، وأن تصير كل جماعة منهم منهية عن السخرية ، وإنما لم يقل : رجل من رجل ، ولا امرأة من امرأة على التوحيد ، «2» إعلاما بإقدام غير واحد من رجالهم وغير واحدة من نسائهم على السخرية ، واستفظاعا للشأن الذي كانوا عليه ، ولأنّ مشهد الساخر لا يكاد يخلو ممن يتلهى ويستضحك على قوله ، ولا يأتى ما عليه من النهى «3» والإنكار ، فيكون شريك الساخر وتلوه في تحمل الوزر ، وكذلك كل من يطرق سمعه فيستطيبه ويضحك به ، فيؤدى ذلك - وإن أوجده واحد - إلى تكثر السخرة وانقلاب الواحد جماعة وقوما .

وقوله تعالى عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ كلام مستأنف قد ورد مورد جواب المستخبر «4» عن العلة الموجبة لما جاء النهى «5» عنه ، وإلا فقد كان حقه أن يوصل بما قبله بالفاء . والمعنى وجوب أن يعتقد كل أحد أن المسخور منه ربما كان عند اللّه خيرا من

الساخر ، لأنّ الناس لا يطلعون إلا على ظواهر الأحوال ولا علم لهم بالخفيات ، وإنما الذي يزن «6» عند اللّه : خلوص الضمائر وتقوى القلوب ، وعلمهم من ذلك بمعزل ، فينبغي أن لا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن تقتحمه عينه إذا رآه رث الحال ، أو ذا عاهة في بدنه ، أو غير لبيق في محادثته ، فلعله أخلص ضميرا وأتقى قلبا ممن هو على ضدّ صفته ، فيظلم نفسه بتحقير من وقره اللّه والاستهانة بمن عظمه اللّه ، ولقد بلغ بالسلف إفراط توقيهم وتصونهم من ذلك أن قال عمرو بن شرجيل : لو رأيت رجلا يرضع عنزا فضحكت منه : خشيت أن أصنع مثل الذي صنعه «7» . وعن عبد اللّه بن مسعود : البلاء موكل بالقول ، لو سخرت من كلب لخشيت أن أحوّل كلبا «8» . وفي قراءة عبد اللّه : عسوا أن يكونوا ، وعسين

---

(1) . قال محمود : «لم يقل لا يسخر بعض المؤمنين والمؤمنات . . . الخ» قال أحمد : ولو عرف فقال : لا يسخر المؤمنون بعضهم من بعض : لكانت كل جماعة منهم منهية ضرورة شمول النهى ، ولكن أورد الزمخشري هذا ، وإنما أراد أن في التنكير فائدة : أن كل جماعة منهية على التفصيل في الجماعات والتعرض بالنهى لكل جماعة على الخصوص ، ومع التعريف تحصيل النهي ، لكن لا على التفصيل بل على الشمول ، والنهى على التفصيل أبلغ وأوقع .

(2) . عاد كلامه . قال : «وإنما لم يقل رجل من رجل ولا امرأة من امرأة للاشعار . . .

الخ» قال أحمد :

وهو في غاية الحسن لا مزيد عليه .

(3) . قوله «ولا يأتى ما عليه من النهى» أى يتلهى ولا يفعل ما عليه من نهى الساخر والإنكار عليه . (ع)

(4) . قال محمود : «وقوله عسى أن يكونوا خيرا منهم جواب للمستخبر عن علة النهى . . . الخ» قال أحمد : وهو من الطراز الأول .

(5) . قوله «لما جاء النهى عنه» لعل ما مصدرية ، ولفظ عنه مزيد من ناسخ الأصل ، أى : لمجيء النهى ، وإلا : أى وإلا يكن مستأنفا . (ع) [. . . . .]

(6) . قوله «وإنما الذي يزن عند اللّه» لعله يزين . (ع)

(7) . لم أره عنه ، وفي ابن أبى شيبة عن أبى موسى من قوله نحوه .

(8) . أخرجه ابن أبى شيبة في الأدب المفرد من رواية إبراهيم عن ابن مسعود بهذا .

(144/719)

أن يكن ، فعسى على هذه القراءة هي ذات الخبر كالتي في قوله تعالى فَهَلْ عَسَيْتُمْ وعلى الأولى التي لا خبر لها كقوله تعالى وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً . واللمز : الطعن والضرب

باللسان.

وقرئ: ولا تلمزوا - بالضم. والمعنى: وخصوا أيها المؤمنون أنفسكم بالانتهاء عن عيبها والطعن فيها، ولا عليكم أن تعيبوا غيركم ممن لا يدين بدينكم ولا يسير بسيرتكم، ففي الحديث عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس» «1» وعن الحسن رضى اللّه عنه في ذكر الحجاج: أخرج إلى بنانا قصيرة قلما عرقت فيها الأعنة في سبيل اللّه ثم جعل يطبطب شعيرات له ويقول: يا أبا سعيد يا أبا سعيد، وقال لما مات: اللهم أنت أمته فاقطع سنته، فإنه أتانا أخيفش أعيمش «2» يخطر في مشيته ويصعد المنبر حتى تفوته الصلاة، لا من اللّه يتقى ولا من الناس يستحى: فوقه اللّه وتحته مائة ألف أو يزيدون، لا يقول له قائل:

الصلاة أيها الرجل الصلاة أيها الرجل، هيهات دون ذلك السيف والسوط. وقيل: معناه لا يعب بعضكم بعضا، لأنّ المؤمنين كنفس واحدة، فمتى عاب المؤمن المؤمن فكأنما عاب نفسه. وقيل: معناه لا تفعلوا ما تلمزون به، لأن من فعل ما استحق به اللمز فقد لمز نفسه حقيقة. والتنابز بالألقاب:

التداعي بها: تفاعل من نبزه، وبنو فلان يتنابزون ويتنازبون ويقال: النبز «3» والنزب: لقب السوء والتلقيب المنهي عنه، وهو ما يتداخل المدعوّ به كراهة لكونه تقصيرا به وذمّا له وشينا، فأما ما يحبه مما يزينه وينوّه به فلا بأس به. روى عن النبي صلى اللّه عليه وسلم:

«من حق المؤمن على أخيه أن يسميه بأحب أسمائه إليه» «4» ولهذا كانت التكنية من السنة والأدب الحسن .

---

(1) . أخرجه أبو يعلى والترمذي الحكيم في النوادر في الثامن والستين والعقيلي وابن عدى وابن حبان كلهم من رواية الجارود بن يزيد عن بهز بن حكيم . عن أبيه عن جده مرفوعا أترعوون عن ذكر الفاجر ؟ اذكره بما فيه ، كي يحذره الناس» واتفقوا على أن الجارود غير ثقة ، وقال الدارقطني : هو من وضع الجارود ثم سرقه منه جماعة منهم عمرو بن الأزهر ، وسليمان بن عيسى عن الثوري عن بهز وسليمان وعمرو كذا بان وقد رواه العلاء بن بشر عن ابن عيينة عن بهز : قال الدارقطني : وابن عيينة لم يسمع من بهز وغير لفظه فقال : «ليس للفاسق غيبة» انتهى وهذا أورده البيهقي في الشعب عن الحاكم بسنده إلى العلاء وقال : قال الحاكم : هذا غير صحيح ولا معتمد . وقال ابن طاهر : روى عن معمر عن بهز أيضا أخرجه عبد الوهاب أخو عبد الرزاق . وعبد الوهاب كذاب وأخرجه الطبراني في الأوسط وقال لم يروه عن معمر غيره ، قال : وله طريق أخرى عن عمر بن الخطاب رواه يوسف بن أبان حدثنا الأبرد بن حاتم أخبرنى منهال السراج عن عمر .

(2) . قوله «فانه أتانا أخيفش أعيمش» في الصحاح «الخفش» : صغر في العين ، وضعف في البصر خلقة والرجل أخفش . وفيه : العمش في العين : ضعف الرؤية مع سيلان الدمع . والرجل أعمش اه . وأخيفش وأعيمش تصغير : أخفش وأعمش . (ع)

(3) . قوله «ويقال النبز» في الصحاح «النبز» بالتحريك : اللقب ، وبالتسكين : المصدر . (ع)

(4) . لم أجده هكذا ، وروى البيهقي في الشعب في الحادي والستين عن عثمان بن طلحة الحجى رفعه قال «ثلاث مصفين لك ود أخيك : تسلم عليه إذا لقيته ، وتوسع له في المجلس ، وتدعوه بأحب أسمائه إليه» وفيه موسى بن عبد الملك بن عمير وهو ضعيف . وروى أبو يعلى والطبراني من حديث ذيال بن عبيد بن حنظلة حدثني جدي حنظلة بن جذيم قال : «كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يعجبه أن يدعى الرجل بأحب الأسماء إليه» .

(145/719)

قال عمر رضى اللّه عنه : أشيعوا الكي فإنها منبهة . ولقد لقب أبو بكر بالعتيق والصدّيق ، وعمر بالفاروق ، وحمزة بأسد اللّه ، وخالد بسيف اللّه . وقلّ من المشاهير في الجاهلية والإسلام من ليس له لقب ، ولم تزل هذه الألقاب الحسنة في الأمم كلها من العرب والعجم تجرى في مخاطباتهم ومكاتباتهم من غير نكير . روى عن الضحاك أن قوما من بنى تميم استهزؤا ببلال وخباب وعمار وصهيب وأبى ذرّ وسالم مولى حذيفة ، فنزلت . وعن عائشة رضى اللّه عنها أنها كانت تسخر من زينب بنت خزيمة الهلالية وكانت قصيرة .

وعن ابن عباس أن أمّ سلمة ربطت حقويها بسبيبة ، «1» وسدلت طرفها خلفها وكانت تجرّه ، فقالت عائشة لحفصة : انظري ما تجرّ خلفها كأنه لسان كلب . وعن أنس : عيرت نساء رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أمّ سلمة بالقصر .

وعن عكرمة عن ابن عباس أن صفية بنت حيّى أتت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقالت :

إن النساء يعيرنني ويقلن يا يهودية بنت يهوديين ، فقال لها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «هلا قلت إن أبى هرون وإن عمى موسى وإن زوجي محمد » «2» وروى أنها نزلت في ثابت بن قيس وكان به وقر ، وكانوا يوسعون له في مجلس رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ليسمع ، فأتى يوما وهو يقول : تفسحوا لي ، حتى انتهى إلى رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وعلى آله وسلم ، فقال لرجل : تنح ، فلم يفعل ، فقال : من هذا ؟ فقال الرجل . أنا فلان ، فقال : بل أنت ابن فلانة ، يريد : أمّا كان يعير بها في الجاهلية ، فخجل الرجل فنزلت ، فقال ثابت : لا أفخر على أحد في الحسب بعدها أبدا «3» اِلاسْمُ ها هنا بمعنى الذكر ، من قولهم : طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم ، كما يقال : طار ثناؤه وصيته . وحقيقته : ما سما من ذكره وارتفع بين الناس .

ألا ترى إلى قولهم : أشاد بذكره ، كأنه قيل : بئس الذكر المرتفع للمؤمنين «4» بسبب ارتكاب

(1) . قوله «حقويها بسبيبة» في الصحاح «السب» : شقة كتان : والسبيبة : مثله . (ع)

(2) . ذكره الثعلبي عن عكرمة ، عن ابن عباس بغير إسناد وفي الترمذي من رواية هاشم بن سعيد الكوفي : حدثنا كنانة حدثتنا صفية بنت حيي قالت «دخلت على النبي صلى اللّه عليه وسلم وقد بلغني عن عائشة وحفصة كلام . فذكرت ذلك له فقال : ألا قلت : وكيف تكونا خيرا منى وزوجي محمد صلى اللّه عليه وسلم وأبى هارون وعمى موسى عليهما الصلاة والسلام . وكان الذي بلغها أنهن قلن نحن أكرم على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم منها وخير منها نحن أزواجه وبنات عمه» وقال : غريب . وليس إسناده بذاك . وروى الترمذي وابن حبان وأحمد والطبراني من رواية معمر عن ثابت عن أنس قال . «بلغ صفية أن حفصة قالت بنت يهودى فبكت . . . فذكر معناه .

(3) . ذكره الثعلبي ، ومن تبعه عن ابن عباس بغير سند .

(4) . قال محمود : «الاسم هاهنا الذكر ، من قولهم : طار اسمه في الناس بالكرم . كأنه قال : بئس الذكر المرتفع للمؤمنين . . . الخ» قال أحمد : أقرب الوجوه الثلاثة ملائمة لقاعدة أهل السنة وأولاها : هو أولها ، ولكن بعد صرف الذم إلى نفس الفسق ، وهو مستقيم لأن الاسم هو المسمى . ولكن الزمخشري لم يستطع ذلك : انحرافا إلى قاعدة : يصرف الذم إلى ارتفاع ذكر الفسق من المؤمن ، تحوما على أن الاسم التسمية ، ولا شك أن صرف الذم إلى نفس الفسق أولى . وأما الوجه الثاني ، فأدخله ليتم له حمل الاسم على التسمية صريحا .

وأما الثالث فليتم له أن الفاسق غير مؤمن ، وكلا القاعدتين مخالف للسنة فاحذرهما ، وبالله التوفيق . ولقد كشف الله لي عن مقاصده ، حتى ما تنقلب له كلمة متحيزة إلى فئة البدعة إلا إذا أدركها الحق فكلمها ، ولله الحمد .

(146/719)

هذه الجرائر «1» أن يذكروا بالفسق . وفي قوله بَعْدَ الْإِيمانِ ثلاثة أوجه : أحدها استقباح الجمع بين الايمان وبين الفسق الذي يأباه الإيمان ويحظره ، كما تقول : بئس الشأن بعد الكبرة الصبوة «2» . والثاني : أنه كان في شتائمهم لمن أسلم من اليهود : يا يهودي يا فاسق ، فنهوا عنه ، وقيل لهم : بئس الذكر أن تذكروا الرجل بالفسق واليهودية بعد إيمانه ، والجملة على هذا التفسير متعلقة بالنهي عن التنابز . والثالث : أن يجعل من فسق غير مؤمن ، كما تقول للمتحول عن التجارة إلى الفلاحة : بئست الحرفة الفلاحة بعد التجارة .

[سورة الحجرات (49) : آية 12]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ

(12)

يقال : جنبه الشر إذا أبعده عنه ، وحقيقته : جعله منه في جانب ، فيعدى إلى مفعولين . قال اللّه عز وجل وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ ثم يقال في مطاوعه : اجتنب الشر فتقص المطاوعة مفعولا ، والمأمور باجتنابه هو بعض الظن ، وذلك البعض موصوف بالكثرة : ألا ترى إلى قوله إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ؟ فإن قلت : بين الفصل بين كَثِيراً ، حيث جاء نكرة وبينه لو جاء معرفة . قلت : مجيئه نكرة يفيد معنى البعضية ، وإنّ في الظنون ما يجب أن يجتنب من غير تبيين لذلك ولا تعيين ، لئلا يجترئ أحد على ظنّ إلا بعد نظر وتأمّل ، وتمييز بين حقه وباطله بأمارة بينة ، مع استشعار للتقوى والحذر ، ولو عرف لكان الأمر باجتناب الظنّ منوطا بما يكثر منه دون ما يقل ، ووجب أن يكون كل ظنّ متصف بالكثرة مجتنبا ، وما اتصف منه بالقلة مرخصا في تظننه . والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها : أنّ كل ما لم تعرف له أمارة صحيحة وسبب ظاهر : كان حراما واجب الاجتناب ، وذلك إذا كان المظنون

---

(1) . قوله «هذه الجرائر» جمع جريرة ، وهي الجناية . أفاده الصحاح . (ع)

(2) . قوله «بعد الكبرة الصبوة» الكبرة - بالفتح - : اسم للكبر في السن . والصبوة : الميل إلى الجهل والفتوة . أفاده الصحاح . (ع)

به ممن شوهد منه الستر والصلاح ، وأونست منه الأمانة في الظاهر ، فظنّ الفساد والخيانة به محرّم ، بخلاف من اشتهره الناس بتعاطى الريب والمجاهرة بالخبائث . عن النبي صلى اللّه عليه وسلم :

«إن اللّه تعالى حرّم من المسلم دمه وعرضه وأن يظنّ به ظنّ السوء» «1» وعن الحسن : كنا في زمان الظن بالناس حرام ، وأنت اليوم في زمان اعمل واسكت ، وظنّ بالناس ما شئت .

وعنه : لا حرمة لفاجر . وعنه : إن الفاسق إذا أظهر فسقه وهتك ستره هتكه اللّه ، وإذا استتر لم يظهر اللّه عليه لعله أن يتوب . وقد روى : من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له «2» .

والإثم : الذنب الذي يستحق صاحبه العقاب . ومنه قيل لعقوبته : الأثام ، فعال منه : كالنكال والعذاب والوبال . قال :

لقد فعلت هذى النّوى بى فعلة أصاب النّوى قبل الممات أثامها «3»

والهمزة فيه عن الواو ، كأنه يثم الأعمال : أى يكسرها بإحباطه . وقرئ : ولا تحسسوا بالحاء والمعنيان متقاربان . يقال : تجسس الأمر إذا تطلبه وبحث عنه : تفعل من الجس ، كما أن التلمس بمعنى التطلب من اللمس ، لما في اللمس من الطلب . وقد جاء بمعنى

الطلب في قوله تعالى وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ والتحسس : التعرّف من الحس ، ولتقاربهما قيل لمشاعر الإنسان : الحواس بالحاء والجيم ، والمراد النهى عن تتبع عورات المسلمين ومعايبهم والاستكشاف عما ستروه . وعن مجاهد . خذوا ما ظهر ودعوا ما ستره اللّه . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم ، أنه خطب فرفع صوته حتى أسمع العواتق في خدورهنّ . قال : يا معشر من آمن بلسانه ولم يخلص الإيمان إلى قلبه ، لا تتبعوا عورات المسلمين : فإن من تتبع عورات المسلمين تتبع اللّه عورته حتى يفضحه

---

(1) . أخرجه ابن ماجة . من حديث ابن عمر بإسناد فيه لين ، ولفظه «رأيت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يطوف بالكعبة وهو يقول : ما أطيبك وأطيب ريحك ، ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند اللّه حرمة منك : ماله ودمه وأن يظن به إلا خيرا» وروى ابن أبى شيبة من طريق مجالد عن الشعبي عن ابن عباس أن النبي صلى اللّه عليه وسلم نظر إلى الكعبة فقال «ما أعظمك وأعظم حرمتك والمسلم أعظم حرمة منك . حرم اللّه دمه وماله وعرضه ، وأن يظن به ظن السوء . وروى البيهقي في الشعب من طريق مجاهد عن ابن عباس نحوه . وفيه حفص بن عبد الرحمن .

[. . . . .]

(2) . أخرجه البيهقي في الشعب في التاسع والستين والقضاعي في مسند الشهاب من طريق رواه بن الجراح عن أبى سعد الساعدي عن أنس وإسناده ضعيف . وأخرجه ابن

عدى من رواية الربيع بن بدر عن أبان عن أنس وإسناده أضعف من الأول .

(3) . النوى : نية المسافر من قرب أو بعد ، فهي مؤنثة ، وتستعمل اسم جمع نية ، فيذكر : أى لقد فعلت في هذه النية فعلة مسيئة ، فهي بمعنى في ، ثم دعا عليها بقوله : أصاب النوى التي أذتنى أثامها ، أى : جزاء تلك الفعلة .

أو جزاء النوى التي تستحقه . وقد يسمى الذنب إثما وأثاما ، من إطلاق المسبب على السبب ، وقال قبل الممات ، أى : قبل موته ليتشفى فيها ، فكأنه شبهها بعدو ، ثم دعا عليها .

(148/719)

ولو في جوف بيته «1» . وعن زيد بن وهب : قلنا لا بن مسعود : هل لك في الوليد بن عقبة ابن أبى معيط تقطر لحيته خمرا ؟ فقال ابن مسعود : إنا قد نهينا عن التجسس ، فإن ظهر لنا شيء أخذنا به «2» . غابه واغتابه : كغاله واغتاله . والغيبة من الاغتياب ، كالغيلة من «3» الاغتيال :

وهي ذكر السوء في الغيبة . سئل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن الغيبة فقال : «أن تذكر أخاك بما يكره ، فإن كان فيه فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته» «4» وعن ابن

عباس رضى اللّه عنهما : الغيبة إدام كلاب الناس أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفظع وجه وأفحشه . وفيه مبالغات شتى : منها الاستفهام الذي معناه التقرير .

ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة . ومنها إسناد الفعل إلى أحدكم والإشعار بأن أحدا من الأحدين لا يحب ذلك . ومنها أن لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان ، حتى جعل الإنسان أخا . ومنها أن لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعل ميتا . وعن قتادة :

كما تكره إن وجدت جيفة مدوّدة أن تأكل منها ، كذلك فاكره لحم أخيك وهو حى .

وانتصب مَيْتاً على الحال من اللحم . ويجوز أن ينتصب عن الأخ . وقرئ : ميتا . ولما قرّرهم عز وجل بأنّ أحدا منهم لا يحب أكل جيفة أخيه ، عقب ذلك بقوله تعالى فَكَرِهْتُمُوهُ معناه : فقد كرهتموه واستقرّ ذلك . وفيه معنى الشرط ، أى : إن صحّ هذا فكرهتموه ، وهي الفاء الفصيحة ،

---

(1) . أخرجه الطبراني والعقيلي . وابن عدى من رواية قدامة بن محمد الأشجعى عن إسماعيل بن شبيب الطائفي عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس بهذا وفي الباب عن ابن عمر رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه ولفظه «صعد النبي صلى اللّه عليه وسلم المنبر فنادى بصوت رفيع : قال يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الايمان إلى قلبه لا تؤذوا

المسلمين ولا تعيروهم ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فانه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع اللّه عورته ومن تتبع اللّه عورته يفضحه ، ولو في جوف رحله» وعن أبى بردة عند أبى داود وأحمد والطبراني وأبى يعلى وعن البراء بن عازب عند أبى يعلى والبيهقي في الشعب في التاسع والستين من رواية مصعب بن سلام عن أبى إسحاق عن البراء . وعن ثوبان عند أحمد بلفظ «لا تؤذوا عباد اللّه ولا تعيروهم ولا تطلبوا عوراتهم فانه من طلب عورة أخيه المسلم طلب اللّه عورته حتى يفضحه في بيته» وعن بريدة عند الطبراني وابن مردويه ولفظه «صلينا الظهر خلف النبي صلى اللّه عليه وسلم فلما انفتل أقبل علينا غضبان فنادى بصوت أسمع العواتق في جوف الخدور فذكر نحوه .

(2) . أخرجه أبو داود وابن أبى شيبة وعبد الرزاق والطبراني والبيهقي في الشعب في الثاني والخمسين من طرق عن الأعمش عن زيد بن وهب قال «أتى ابن مسعود قيل له : هذا فلان تقطر لحيته خمرا» لفظ أبى داود والباقين نحوه . ورواه الحاكم والبزار من رواية أسباط عن الأعمش فقال فيه «إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم نهانا عن التجسس» قال البزار تفرد به أسباط وقال ابن أبى حاتم عن أبى زرعة والترمذي عن البخاري : أخطأ فيه أسباط .

والصحيح من رواية أبى معاوية وغيره عن الأعمش «إن اللّه نهانا»

(3) . قوله «كالغيلة من الاغتيال» كذا في الصحاح . وفيه يقال : قتله غيلة ، وهو أن

يخدعه فيذهب به إلى موضع فيقتله فيه . (ع)

(4) . متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(149/719)

أي : فتحققت – بوجوب الإقرار عليكم وبأنكم لا تقدرون على دفعه وإنكاره ، لإباء البشرية عليكم أن تجحدوه – كراهتكم له وتقذركم منه ، فليتحقق أيضا أن تكرهوا ما هو نظيره من الغيبة والطعن في أعراض المسلمين . وقرئ : فكرهتموه . أي : جبلتم على كراهته . فإن قلت : هلا عدّى بإلى كما عدّى في قوله وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وأيهما القياس ؟ قلت : القياس تعدّيه بنفسه ، لأنه ذو مفعول واحد قبل تثقيل حشوه ، تقول : كرهت الشيء ، فإذا ثقل استدعى زيادة مفعول . وأما تعدّيه بإلى ، فتأوّل وإجراء لكره مجرى بغض ، لأنّ بغض منقول من بغض إليه الشيء فهو بغيض إليه ، كقولك : حب إليه الشيء فهو حبيب إليه . والمبالغة في التواب للدلالة على كثرة من يتوب عليه من عباده ، أو لأنه ما من ذنب يقترفه المقترف إلا كان معفوا عنه بالتوبة . أو لأنه بليغ في قبول التوبة ، منزل صاحبها منزلة من لم يذنب قط ، لسعة كرمه .

والمعنى : واتقوا اللّه بترك ما أمرتم باجتنابه والندم على ما وجد منكم منه ، فإنكم إن

اتقيتم تقبل اللّه توبتكم وأنعم عليكم بثواب المتقين التائبين . وعن ابن عباس : أن سلمان كان يخدم رجلين من الصحابة ويسوّى لهما طعامهما ، فنام عن شأنه يوما ، فبعثاه إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يبغى لهما إداما ، وكان أسامة على طعام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال : ما عندي شيء ، فأخبرهما سلمان بذلك ، فعند ذلك قالا : لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها ، فلما راحا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال لهما : مالى أرى خضرة اللحم في أفواهكما ، فقالا : ما تناولنا لحما فقال : إنكما قد اغتبتما «1» فنزلت .

[سورة الحجرات (49) : آية 13]

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)

مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى من آدم وحوّاء . وقيل : خلقنا كل واحد منكم من أب وأمّ ، فما منكم أحد إلا وهو يدلى بمثل ما يدلى به الآخر سواء بسواء ، فلا وجه للتفاخر والتفاضل في النسب . والشعب : الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب ، وهي : الشعب ، والقبيلة ، والعمارة ، والبطن ، والفخذ ، والفصيلة ، فالشعب يجمع القبائل ، والقبيلة تجمع ، العمائر ، والعمارة تجمع البطون ، والبطن تجمع الأفخاذ ، والفخذ تجمع الفصائل : خزيمة شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة ، وقصى بطن ، وهاشم فخذ ، والعباس فصيلة . وسميت

الشعوب ،

---

(1) . هكذا ذكره الثعلبي وربيعة بغير سند ولا راو . وفي الترغيب لأبى القاسم الأصبهانى من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبى ليلة نحوه .

(150/719)

لأنّ القبائل تشعبت منها . وقرئ : لتتعارفوا ، ولتعارفوا بالإدغام . ولتعرفوا ، أى لتعلموا كيف تتناسبون . ولتتعرفوا . والمعنى : أنّ الحكمة التي من أجلها رتبكم على شعوب وقبائل هي أن يعرف بعضكم نسب بعض ، فلا يعتزى إلى غير آبائه ، لا أن تتفاخروا بالآباء والأجداد ، وتدعوا التفاوت والتفاضل في الأنساب . ثم بين الخصلة التي بها يفضل الإنسان غيره ويكتسب الشرف والكرم عند اللّه تعالى فقال : إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ وقرئ : أنّ ، بالفتح ، كأنه قيل : لم لا يتفاخر بالأنساب ؟ فقيل : لأنّ أكرمكم عند اللّه أتقاكم لا أنسبكم . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : أنه طاف يوم فتح مكة ، فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال : «الحمد اللّه الذي أذهب عنكم عبية «1» الجاهلية وتكبرها ، يا أيها الناس ، إنما الناس رجلان : مؤمن تقى كريم على اللّه ، وفاجر شقىّ هين على اللّه» «2» ثم قرأ الآية . وعنه عليه السلام : من سرّه أن يكون أكرم الناس فليتق اللّه «3» . وعن ابن عباس

: كرم الدنيا الغنى ، وكرم الآخرة التقوى .

وعن يزيد بن شجرة : مرّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في سوق المدينة فرأى غلاما أسود يقول :

من اشترانى فعلى شرط لا يمنعني عن الصلوات الخمس خلف رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وآله وسلم ، فاشتراه رجل فكان رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وآله وسلم يراه عند كل صلاة ، ففقده يوما فسأل عنه صاحبه ، فقال : محموم ، فعاده ثم سأل عنه بعد ثلاثة أيام فقال : هو لما به ، فجاءه وهو في ذمائه»

، فتولى غسله ودفنه ، فدخل على المهاجرين والأنصار أمر «5» عظيم ، فنزلت .

---

(1) . قوله «عبية الجاهلية» في الصحاح : رجل فيه عبية ، أى : كبر وتجبر . وعبية الجاهلية : نخوتها . (ع)

(2) . أخرجه الترمذي وابن حبان وأبو يعلى وابن أبى حاتم من رواية عبد اللّه بن دينار عن ابن عمر . وفي الباب عن أبى هريرة أخرجه أبو داود والترمذي وأحمد والبزار وابن المبارك في البر والصلة من رواية سعيد بن أبى سعيد عن أبيه عنه نحوه . ومنهم من قال عن سعيد عن أبى هريرة : وعن عبد الملك بن قدامة الحاطبى . حدثني أبى أن النبي صلى اللّه عليه وسلم عام فتح مكة . صعد المنبر فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال : أما بعد يا أيها الناس» فذكر نحوه وأخرجه .

(3) . أخرجه الحاكم والبيهقي وأبو يعلى وإسحاق وعبد والطبراني وأبو نعيم في الحلية كلهم من طريق هشام ابن زياد أبى المقدام عن محمد بن كعب عن ابن عباس وأتم منه ، قال البيهقي في الزهد : تكلموا في هشام بسبب هذا الحديث ، وأنه كان يقول : حدثني عن محمد بن كعب ثم ادعى أنه سمعه من محمد ، ثم أخرجه البيهقي من طريق عبد الجبار بن محمد العطاردي والد أحمد عن عبد الرحمن الطيبي بن القاسم بن عروة عن محمد بن كعب عن ابن عباس يرفع الحديث نحوه .

(4) . قوله «و هو في ذمائه» في الصحاح «الدماء» : ممدود بقية الروح في المذبوح . (ع)

(5) . هكذا ذكره الثعلبي والواحدي بغير سند .

(151/719)

[سورة الحجرات (49) : آية 14]

قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14)

الإيمان : هو التصديق مع الثقة وطمأنينة النفس . والإسلام : الدخول في السلم . والخروج من أن يكون حربا للمؤمنين بإظهار الشهادتين . ألا ترى إلى قوله تعالى وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي

قُلُوبِكُمْ فاعلم أنّ ما يكون من الإقرار باللسان من غير مواطأة القلب فهو إسلام ، وما واطأ فيه القلب اللسان فهو إيمان . فإن قلت : ما وجه قوله تعالى قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا والذي يقتضيه نظم الكلام أن يقال : قل لا تقولوا آمنا ، ولكن قولوا أسلمنا . أو قل لم تؤمنوا ولكن أسلمتم ؟ قلت : أفاد هذا النظم تكذيب دعواهم أوّلا ، ودفع ما انتحلوه « 1 » ، فقيل : قل لم تؤمنوا . وروعي في هذا النوع من التكذيب أدب حسن حين لم يصرّح بلفظه ، فلم يقل :

كذبتم ، ووضع لَمْ تُؤْمِنُوا الذي هو نفى ما ادعوا إثباته موضعه ، ثم نبه على ما فعل من وضعه موضع كذبتم في قوله في صفة المخلصين أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ تعريضا بأن هؤلاء هم الكاذبون ، ورب تعريض لا يقاومه التصريح ، واستغنى بالجملة التي هي لَمْ تُؤْمِنُوا عن أن يقال : لا تقولوا آمنا ، لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مؤدّاه النهى عن القول بالإيمان ، ثم وصلت بها الجملة المصدّرة بكلمة الاستدراك محمولة على المعنى ، ولم يقل : ولكن أسلمتم ، ليكون خارجا مخرج الزعم والدعوى ، كما كان قولهم آمَنَّا كذلك ، ولو قيل : ولكن أسلمتم ، لكان خروجه في معرض التسليم لهم والاعتداد بقولهم وهو غير معتدّ به . فإن قلت : قوله وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ بعد قوله تعالى قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا يشبه التكرير من غير استقلال بفائدة متجددة .

قلت : ليس كذلك ، فإن فائدة قوله لَمْ تُؤْمِنُوا هو تكذيب دعواهم ، وقوله وَلَمَّا يَدْخُلِ

الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ توقيت لما أمروا به أن يقولوه ، كأنه قيل لهم وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا حين

---

(1) . قال محمود : «وجه هذا النظم تكذيب دعواهم أولا الخ» قال أحمد : ونظير هذا النظم ومراعاة هذه اللطيفة قوله تعالى إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ثم قال : وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ ولما كان مؤدى هذا تكذيب اللّه تعالى لهم في شهادتهم برسالة النبي صلى اللّه عليه وسلم قدم على ذلك مقدمة تلخص المقصود وتخلصه من حوادث الوهم ونوائبه ، فقال بين الكلامين ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ، ثم قال بعد ذلك :

وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ فتلخص من ذلك أنهم كذبوا فيما ادعوه من شهادة قلوبهم الحق ، لأن ذلك حقيقة الشهادة ، لا أنهم كذبوا في أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم رسول من اللّه وكان المخلص من ذلك قوله جل وعلا وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ .

(152/719)

لم تثبت مواطأة قلوبكم لألسنتكم ، لأنه كلام واقع موقع الحال من الضمير في قُولُوا وما في لَمَّا من معنى التوقع : دال على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد لا يَلِتْكُمْ لا ينقصكم ولا يظلمكم . يقال : ألته السلطان حقه أشدّ الألت ، وهي لغة غطفان . ولغة أسد وأهل الحجاز : لاته

ليتا .

وحكى الأصمعى عن أمّ هشام السلولية أنها قالت : الحمد للّه الذي لا يفات ولا يلات ، ولا تصمه الأصوات «1» . وقرئ باللغتين : لا يلتكم ، ولا يألتكم . ونحوه في المعنى فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً .

ومعنى طاعة اللّه ورسوله : أن يتوبوا عما كانوا عليه من النفاق ويعقدوا قلوبهم على الإيمان ويعملوا بمقتضياته ، فان فعلوا ذلك تقبل اللّه توبتهم ، ووهب لهم مغفرته ، وأنعم عليهم بجزيل ثوابه . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما أنّ نفرا من بنى أسد قدموا المدينة في سنة جدبة ، فأظهروا الشهادة ، وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات ، وأغلوا أسعارها ، وهم يغدون ويروحون على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ويقولون : أتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها ، وجئناك بالأثقال والذراري ، يريدون الصدقة ويمنون عليه ، فنزلت .

[سورة الحجرات (49) : آية 15]

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (15)

ارتاب : مطاوع را به إذا أوقعه في الشك مع التهمة . والمعنى : أنهم آمنوا ثم لم يقع في نفوسهم شك فيما آمنوا به ، ولا اتهام لمن صدّقوه واعترفوا بأنّ الحق منه . فإن قلت : ما معنى ثم هاهنا وهي التراخي وعدم الارتياب يجب أن يكون مقارنا للإيمان لأنه وصف فيه ، لما

بينت من إفادة الإيمان معنى الثقة والطمأنينة التي حقيقتها التيقن وانتفاء الريب؟ قلت: الجواب على طريقين، أحدهما أنّ من وجد منه الإيمان ربما اعترضه الشيطان أو بعض المضلين بعد ثلج الصدر فشككه وقذف في قلبه ما يثلم يقينه، أو نظر هو نظرا غير سديد يسقط به على الشك ثم يستمرّ على ذلك راكبا رأسه لا يطلب له مخرجا، فوصف المؤمنون حقا بالبعد عن هذه الموبقات.

ونظيره قوله ثُمَّ اسْتَقامُوا والثاني: أنّ الإيقان وزوال الريب لما كان ملاك الإيمان أفرد بالذكر بعد تقدّم الايمان، تنبيها على مكانه، وعطف على الإيمان بكلمة التراخي إشعارا باستقراره في الأزمنة المتراخية المتطاولة غضا جديدا وَجاهَدُوا يجوز أن يكون المجاهد منويا وهو العدوّ المحارب أو الشيطان أو الهوى، وأن يكون جاهد مبالغة في جهد. ويجوز أن يراد بالمجاهدة بالنفس: الغزو، وأن يتناول العبادات بأجمعها، وبالمجاهدة بالمال: نحو

---

(1). قوله «ولا تصمه الأصوات» إن كان من الوصم فالمعنى: لا تصدعه الأصوات ولا تعيبه، وإن كان من الصمم فالمعنى: لا تجد أصم. وفي الصحاح «الوصم»: الصدع والعيب. وفيه «أصممته»: وجدته أصم. (ع) [.....]

ما صنع عثمان رضى اللّه عنه في جيش العسرة ، وأن يتناول الزكوات وكل ما يتعلق بالمال من أعمال البر التي يتحامل فيها الرجل على ماله لوجه اللّه تعالى أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ الذين صدقوا في قولهم آمنا ، ولم يكذبوا كما كذب أعراب بنى أسد . أو هم الذين إيمانهم إيمان صدق وإيمان حق وجدّ وثبات .

[سورة الحجرات (49) : آية 16]

قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (16)

يقال : ما علمت بقدومك ، أى : ما شعرت به ولا أحطت به . ومنه قوله تعالى أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وفيه تجهيل لهم .

[سورة الحجرات (49) : الآيات 17 إلى 18]

يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (17) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (18)

يقال : منّ عليه بيد أسداها إليه ، كقولك : أنعم عليه وأفضل عليه . والمنة : النعمة التي لا يستثيب مسديها من يزلها إليه «1» ، واشتقاقها من المنّ الذي هو القطع ، لأنه إنما يسديها إليه ليقطع بها حاجته لا غير ، من غير أن يعمد لطلب مثوبة . ثم يقال : منّ عليه صنعه ، إذا اعتده عليه منة وإنعاما . وسياق هذه الآية فيه لطف ورشاقة ، وذلك أنّ الكائن من

الأعاريب قد سماه اللّه إسلاما ، ونفى أن يكون كما زعموا إيمانا ، فلما منوا على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ما كان منهم قال اللّه سبحانه وتعالى لرسوله عليه السلام : إنّ هؤلاء يعتدّون عليك بما ليس جديرا بالاعتداد به من حدثهم الذي حق تسميته أن يقال له إسلام ، فقل لهم : لا تعتدوّا عليّ إسلامكم ، أى حدثكم المسمى إسلاما عندي لا إيمانا . ثم قال : بل اللّه يعتدّ عليكم أن أمدّكم بتوفيقه حيث هداكم للإيمان على ما زعمتم وادعيتم أنكم أرشدتم إليه ووفقتم له إن صحّ زعمكم وصدقت دعواكم ، إلا أنكم تزعمون وتدعون ما اللّه عليم بخلافه . وفي إضافة الإسلام إليهم وإيراد الايمان غير مضاف : ما لا يخفى على المتأمل ، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه ، تقديره : إن كنتم صادقين في ادعائكم الإيمان ، فللّه المنة عليكم . وقرئ : إن هداكم ، بكسر الهمزة .

---

(1) . قوله «من يزلها إليه» في الصحاح : أزللت إليه نعمته ، أى : استديتها إليه . وفي الحديث «من أزلت إليه نعمة فليشكرها» وأزللت شيئا من حقه ، أى : أعطيت اه . (ع)

وفي قراءة ابن مسعود رضى اللّه عنه : إذ هداكم . وقرئ : تعلمون ، بالتاء والياء ، وهذا بيان لكونهم غير صادقين في دعواهم ، يعنى أنه عزّ وجل يعلم كل مستتر في العالم ويبصر كل

عمل تعملونه في سركم وعلانيتكم ، لا يخفى عليه منه شيء ، فكيف يخفى عليه ما في ضمائركم ولا يظهر على صدقكم وكذبكم ، وذلك أنّ خاله مع كل معلوم واحدة لا تختلف .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة الحجرات أعطى من الأجر بعدد من أطاع اللّه وعصاه» «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 4 صـ 349. 379 ﴾

---

(1) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من طرق عن أبى بن كعب به .

(155/719)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

فيه خمسة أقاويل :

أحدها : أن ناساً كانوا يقولون : لو أنزل فيّ كذا ، لو أنزل فيّ كذا ، فنزلت هذه الآية ، قاله قتادة .

الثاني : أنهم نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه ، قاله ابن عباس .

الثالث : معناه ألا يقتاتوا على الله ورسوله ، حتى يقضي الله على لسان رسوله ، قاله

مجاهد .

الرابع : أنها نزلت في قوم ضحوا قبل أن يصلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمرهم أن يعيدوا الذبح ، قاله الحسن .

الخامس : لا تقدموا أعمال الطاعات قبل وقتها الذي أمر به الله تعالى ورسوله ، قال الزجاج .

وسبب نزولها ما حكاه الضحاك عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم أنفذ أربعة وعشرين رجلاً من أصحابه إلى بني عامر فقتلوهم إلا ثلاثة تأخروا عنهم فسلموا وانكفئوا إلى المدينة فلقوا رجلين من بني سليم فسألوهما عن نسبهما فقالا : من بني عامر فقتلوهما ، فجاء بنو سليم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : إن بيننا وبينك عهداً وقد قتل منا رجلان فوداهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بمائة بعير ونزلت عليه هذه الآية في قتلة الرجلين .

﴿ وَاتَّقُواْ اللَّهَ ﴾ يعني في التقدم المنهي عنه .

﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ لقولكم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بفعلكم .

قوله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَرْفَعُواْ أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوتِ النَّبِيِ ﴾ قيل إن رجلين من الصحابة تماريا عنده فارتفعت أصوتهما ، فنزلت هذه الآية ، فقال أبو بكر

رضي الله عنه عند ذلك : والذي بعثك بالحق لا أكلمك بعدها إلا كأخي السرار .

﴿ وَلاَ تَجْهَرُواْ لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ فيه وجهان :

(156/719)

أحدهما : أنه الجهر بالصوت . روي أن ثابت بن قيس بن شماس قال : يا نبي الله والله لقد خشيت أن أكون قد هلكت ، نهانا الله عن الجهر بالقول وأنا امرؤ جهير الصوت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "يَا ثَابِتَ أَمَا تَرْضَى أَن تَعِيشَ حَمِيداً وتُقْتَلَ شَهِيداً وَتَدْخُلَ الْجَنَّةَ " ؟ فعاش حميداً وقتل شهيداً يوم مسيلمة .

الثاني : أن النهي عن هذا الجهر هو المنع من دعائه باسمه أو كنيته كما يدعو بعضهم بعضاً بالاسم والكنية ، وهو معنى قوله ﴿ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ ، ولكنْ دعاؤه بالنبوة والرسالة كما قال تعالى ﴿ لاَ تَجْعَلُواْ دُعَآءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضاً ﴾ [النور : 63] .

﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن معناه فتحبط أعمالكم .

الثاني : لئلا تحبط أعمالكم .

﴿ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ بحبط أعمالكم .

قوله عز وجل : ﴿ . . . أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : معناه أخلصها للتقوى ، قاله الفراء .

الثاني : معناه اختصها للتقوى ، قاله الأخفش .

(157/719)

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ الْحُجُرَاتِ ﴾ الآية . اختلف في سبب نزولها ، فروى معمر عن قتادة أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فناداه من وراء الحجرة : يا محمد ، إن مدحي زين وشتمي شين ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " وَيْلُكَ ذَاكَ اللَّهُ ، ذَاكَ اللَّهُ " فأنزل الله هذه الآية ، فهذا قول . وروى زيد بن أرقم قال : أتى ناس النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : انطلقوا بنا إلى هذا الرجل ، فإن يكن نبياً فنحن أسعد الناس باتباعه وإن يكن ملكاً نعش في جنابه ، فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فجعلوا ينادونه ، وهو في حجرته يا محمد ، فأنزل الله هذه الآية . قيل : إنهم كانوا من بني تميم . قال مقاتل : كانوا تسعة نفر : قيس بن عاصم ، والزبرقان بن بدر ، والأقرع بن حابس ، وسويد بن هشام ، وخالد بن مالك ، وعطاء بن حابس ، والقعقاع بن معبد ، ووكيع بن

وكيع ، وعيينة بن حصن .

وفي قوله : ﴿ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ وجهان :

أحدهما : لا يعلمون ، فعبر عن العلم بالعقل لأنه من نتائجه ، قاله ابن بحر .

الثاني : لا يعقلون أفعال العقلاء لتهورهم وقلة أناتهم ، وهو محتمل .

والحجرات جمع حجر ؛ والحجر جمع حجرة .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لكان أحسن لأدبهم في طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم .

الثاني : لأطلقت أسراهم بغير فداء ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان سبى قوماً من بني العنبر ، فجاءوا في فداء سبيهم وأسراهم .

(158/719)

قوله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ الآية . نزلت هذه الآية في الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وسبب نزولها ما رواه سعيد عن قتادة أن نبي الله صلى الله عليه وسلم بعث الوليد ابن عقبة مصدقاً لبني المصطلق ، فلما أبصروه أقبلوا نحوه ، فهابهم فرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخبره أنهم قد ارتدوا عن الإسلام ،

فبعث نبي الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد وأمره أن يثبت ولا يعجل ، فانطلق خالد حتى أتاهم ليلاً فبعث عيونه ، فلما جاءوا أخبروا خالداً أنهم متمسكون بالإسلام ، وسمعوا أذانهم وصلاتهم ، فلما أصبحوا ، أتاهم خالد ورأى صحة ما ذكروه ، فعادوا إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه ، فنزلت هذه الآية . فكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " التأني من الله والعجلة من الشيطان " وفي هذه الآية دليل على أن خبر الواحد مقبول إذا كان عدلاً .

قوله عز وجل : ﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها : لأثمتم ، قاله مقاتل .

الثاني : لاتهمتم ، قاله الكلبي .

الثالث : لغويتم .

الرابع : لهلكتم .

الخامس : لنالتكم شدة ومشقة .

قال قتادة : هؤلاء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لو أطاعهم في كثير من الأمر لعنتوا ، فأنتم والله أسخف رأياً وأطيش عقولا .

﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : حسنه عندكم ، قاله ابن زيد .

الثاني : قاله الحسن . بما وصف من الثواب عليه .

﴿ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بما وعد عليه في الدنيا من النصر وفي الآخرة من الثواب ، قاله ابن بحر .

الثاني : بالدلالات على صحته .

﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه الكذب خاصة ، قاله ابن زيد .

(159/719)

الثاني : كل ما خرج عن الطاعة .

قوله عز وجل : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾ اختلف في سبب نزولها على أربعة أقاويل :

أحدها : ما رواه عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير أن الأوس والخزرج كان بينهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قتال بالسعف والنعال ونحوه فنزلت هذه الآية فيهم .

الثاني : ما رواه سعيد عن قتادة أنها نزلت في رجلين من الأنصار كانت بينهما مدارأة في

حق بينهما ، فقال أحدهما للآخر : لآخذنه عنوة لكثرة عشيرته ، وأن الآخر دعاه ليحاكمه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبى أن يتبعه ، فلم يزل بهما الأمر حتى تواقعوا وتناول بعضهم بعضاً بالأيدي والنعال ، فنزلت فيهم .

الثالث : ما رواه أسباط عن السدي أن رجلاً من الأنصار كانت له امرأة تدعى أم زيد وأن المرأة أرادت أن تزور أهلها فحبسها زوجها وجعلها في علية له لا يدخل عليها أحد من أهلها ، وأن المرأة بعثت إلى أهلها ، فجاء قومها وأنزلوها لينطلقوا بها ، فخرج الرجل فاستعان أهله ، فجاء بنو عمه ليحولوا بين المرأة وأهلها فتدافعوا واجتلدوا بالنعال ، فنزلت هذه الآية فيهم .

الرابع : ما حكاه الكلبي ومقاتل والفراء أنها نزلت في رهط عبد الله بن أبي بن سلول من الخزرج ورهط عبد الله بن رواحة من الأوس ، وسببه أن النبي صلى الله عليه وسلم وقف على حمار له على عبد الله بن أبي ، وهو في مجلس قومه ، فراث حمار النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمسك عبد الله أنفه وقال : إليك حمارك ، فغضب عبد الله بن رواحة ، وقال : أتقول هذا لحمار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوالله هو أطيب ريحاً منك ومن أبيك ، فغضب قومه ، وأعان ابن رواحة قومه حتى اقتتلوا بالأيدي والنعال فنزلت هذه الآية فيهم ، فأصلح رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم .

﴿ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى ﴾ البغي التعدي بالقوة إلى طلب ما ليس بمستحق .

﴿ فَقَاتِلُواْ الَّتِي تَبْغِي ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : تبغي في التعدي في القتال .

الثاني : في العدول عن الصلح ، قاله الفراء .

﴿ حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ترجع إلى الصلح الذي أمر الله به ، قاله سعيد بن جبير .

الثاني : ترجع إلى كتاب الله وسنة رسوله فيما لهم وعليهم ، قاله قتادة .

﴿ فَإِن فَآءَتْ ﴾ أي رجعت .

﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني بالحق .

الثاني : بكتاب الله ، قاله سعيد بن جبير .

﴿ وَأَقْسِطُواْ ﴾ معناه واعدلوا .

ويحتمل وجهين :

أحدهما : اعدلوا في ترك الهوى والممايلة .

الثاني : في ترك العقوبة والمؤاخذة .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ أي العادلين قال أبو مالك : في القول والفعل .

قوله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾ الآية . أما القوم فهم الرجال خاصة ، لذلك ذكر بعدهم النساء . ويسمى الرجال قوماً لقيام بعضهم مع بعض في الأمور ، ولأنهم يقومون بالأمور دون النساء ، ومنه قول الشاعر :

وما أدري وسوف إخال أدري . . . أقوم آل حصن أم نساء

وفي هذه السخرية المنهي عنها قولان :

أحدهما : أنه استهزاء الغني بالفقير إذا سأله ، قاله مجاهد .

الثاني : أنه استهزاء المسلم بمن أعلن فسقه ، قاله ابن زيد .

ويحتمل ثالثاً : أنه استهزاء الدهاة بأهل السلامة .

﴿ عَسَى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ ﴾ عند الله تعالى . ويحتمل : خيراً منهم معتقداً وأسلم باطناً . ﴿ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ .

﴿ وَلاَ تَلْمِزُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ولا تلمزوا أهل دينكم .

الثاني : لا تلمزوا بعضكم بعضاً : واللمز : العيب .

وفي المراد به هنا ثلاثة أوجه :

أحدها : لا يطعن بعضكم على بعض ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وسعيد ابن جبير .

(161/719)

الثاني : لا تختالوا فيخون بعضكم بعضاً ، قاله الحسن .

الثالث : لا يلعن بعضكم بعضاً ، قاله الضحاك .

﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ في النبز وجهان :

أحدهما : أنه اللقب الثابت ، قاله المبرد .

الثاني : أن النبز القول القبيح ، وفيه هنا أربعة أوجه :

أحدها : أنه وضع اللقب المكروه على الرجل ودعاؤه به . قال الشعبي : روي أن وفد بني سليم قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم وللرجل منهم اسمان وثلاثة فكان يدعوا الرجل بالاسم فيقال إنه يكره هذا ، فنزلت هذه الآية .

الثاني : أنه تسمية الرجل بالأعمال السيئة بعد الإسلام . . . يا فاسق . . . يا سارق ، يا زاني ، قاله ابن زيد .

الثالث : أنه يعيره بعد الإسلام بما سلف من شركه ، قاله عكرمة .

الرابع : أن يسميه بعد الإسلام باسم دينه قبل الإسلام ، لمن أسلم من اليهود . . . يا يهودي ، ومن النصارى . . . يا نصراني ، قاله ابن عباس ، والحسن . فأما مستحب الألقاب ومستحسنها فلا يكره ، وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم عدداً من أصحابه بأوصاف فصارت لهم من أجمل الألقاب .

واختلف في من نزلت فيه هذه الآية على أربعة أقاويل :

أحدها : أنها نزلت في ثابت بن قيس بن شمسان وكان في أذنه ثقل فكان يدنو من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يسمع حديثه ، فجاء ذات يوم وقد أخذ الناس مجالسهم فقال : " تَفَسَّحُواْ " ففعلوا إلا رجلاً كان بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم فإنه لم يفسح وقال : " قَدْ أَصَبْتَ مَوْضِعاً " فنبذه ثابت ، بلقب كان لأمه مكروهاً ، فنزلت ، قاله الكلبي والفراء .

الثاني : أنا نزلت في كعب بن مالك الأنصاري ، وكان على المغنم فقال لعبد الله بن أبي حدرد : يا أعرابي ، فقال له عبد الله : يا يهودي ، فتشاكيا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت فيهما ، حكاه مقاتل .

الثالث : أنها نزلت في الذين نادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات عند استهزائهم بمن مع رسول الله من الفقراء والموالي فنزل ذلك فيهم .

الرابع : أنا نزلت في عائشة وقد عابت أم سلمة .

واختلفوا في الذي عابتها به فقال مقاتل : عابتها بالقصر ، وقال غيره : عابتها بلباس تشهرت به .

قوله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اجْتَنِبُواْ كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ ﴾ يعني ظن السوء . بالمسلم توهماً من غير تعلمه يقيناً .

﴿ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني ظن السوء .

الثاني : أن يتكلم بما ظنه فيكون إثماً ، فإن لم يتكلم به لم يكن إثماً ، قاله مقاتل بن حيان .

﴿ وَلاَ تَجَسَّسُوا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : هو أن يتبع عثرات المؤمن ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة .

الثاني : هو البحث عم خفي حتى يظهر ، قاله الأوزاعي .

وفي التجسس والتحسس وجهان :

أحدهما : أن معناهما واحد ، قاله ابن عباس وقرأ الحسن بالحاء . وقال الشاعر :

تجنبت سعدى أن تشيد بذكرها . . . إذا زرت سعدى الكاشح المتحسس

وقال أبو عمرو الشيباني : الجاسوس : صاحب سر الشر ، والناموس صاحب سر الخير .

والوجه الثاني : أنهما مختلفان . وفي الفرق بينهما وجهان :

أحدهما : أن التجسس بالجيم هو البحث ، ومنه قيل رجل جاسوس إذا كان يبحث عن الأمور وبالحاء هو ما أدركه الإنسان ببعض حواسه .

الثاني : أنه بالحاء أن يطلبه لنفسه وبالجيم أن يكون رسولاً لغيره . والتجسس أن يجس الأخبار لنفسه ولغيره .

﴿ وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً ﴾ والغيبة : ذكر العيب بظهر الغيب ، قال الحسن : الغيبة ثلاثة كلها في كتاب الله : الغيبة والإفك والبهتان ، فأما الغيبة ، فأن تقول في أخيك ما هو فيه . وإما الإفك ، فأن تقول فيه ما بلغك عنه . وأما البهتان فأن تقول فيه ما ليس فيه .

(163/719)

وروى العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة قال : " هُوَ أَن تَقُولَ لأَخِيكَ مَا فِيهِ فَإِن كُنتَ صَادِقاً فَقَدِ اغْتَبْتَهُ ، وَإِن كُنتَ كَاذِباً فَقَدْ بَهَّتَّهُ " .

﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أي كما يحرم أكل لحمه ميتاً يحرم غيبته حياً .

الثاني : كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً كذلك يجب أن يمتنع عن غيبته حياً ، قاله قتادة . واستعمل أكل اللحم مكان الغيبة لأن عادة العرب بذلك جارية قال الشاعر :

فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم . . . وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا

﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فكرهتم أكل الميتة ، كذلك فاكرهوا الغيبة .

الثاني : فكرهتم أن يعلم بكم الناس فاكرهوا غيبة الناس .

قوله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى ﴾ قصد بهذه الآية . النهي عن التفاخر بالأنساب ، وبين التساوي فيها بأن خلقهم من ذكر وأنثى يعني آدم وحواء .

ثم قال : ﴿ وَجَعَلْنَاكُم شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَرَفُواْ ﴾ فبين أن الشعوب والقبائل للتعارف لا للافتخار ، وفيها ثلاثة أوجه :

أحدها : أن الشعوب النسب الأبعد والقبائل النسب الأقرب ، قاله مجاهد ، وقتادة . وقال الشاعر :

قبائل من شعوب ليس فيهم . . . كريم قد يعد ولا نجيب

وسموا شعوباً لأن القبائل تشعبت منها .

الثاني : أن الشعوب عرب اليمن من قحطان ، والقبيلة ربيعة ومضر وسائر عدنان .

الثالث : أن الشعوب بطون العجم ، والقبائل بطون العرب .

ويحتمل رابعاً : أن الشعوب هم المضافون إلى النواحي والشعاب ، والقبائل هم المشتركون في الأنساب ، قال الشاعر :

وتفرقوا شعباً فكل جزيرة . . . فيها أمير المؤمنين ومنبر

(164/719)

والشعوب جمع شَعب بفتح الشين ، والشِّعب بكسر الشين هو الطريق وجمعه شعاب ، فكان اختلاف الجمعين مع اتفاق اللفظين تنبيهاً على اختلاف المعنيين .

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ إن أفضلكم ، والكرم بالعمل والتقوى لا بالنسب .

قوله عز وجل : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَكِن قُولُواْ أَسْلَمْنَا . . . ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنهم أقروا ولم يعملوا ، فالإسلام قول والإيمان عمل ، قاله الزهري .

الثاني : أنهم أرادوا أن يتسموا باسم الهجرة قبل أن يهاجروا فأعلمهم أن اسمهم أعراب ، قاله ابن عباس .

الثالث : أنهم مَنُّوا على رسول الله صلى الله بإسلامهم فقالوا أسلمنا ، لم نقاتلك ، فقال الله

تعالى لنبيه : قل لهم : لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا خوف السيف ، قاله قتادة . لأنا هم آمنوا بألسنتهم دون قلوبهم ، فلم يكونوا مؤمنين ، وتركوا القتال فصاروا مستسلمين لا مسلمين ، فيكون مأخوذاً من الاستسلام لا من الإسلام كما قال الشاعر :

طال النهار على من لا لقاح له . . . إلا الهدية أو ترك بإسلام

ويكون الإسلام والإيمان في حكم الدين على هذا التأويل واحداً وهو مذهب الفقهاء ، لأن كل واحد منهما تصديق وعمل .

وإنما يختلفان من وجهين :

أحدهما : من أصل الاسمين لأن الإيمان مشتق من الأمن ، والإسلام مشتق من السلم .

الثاني : أن الإسلام علم لدين محمد صلى الله عليه وسلم والإيمان لجميع الأديان ، ولذلك امتنع اليهود والنصارى أن يتسموا بالمسلمين ، ولم يمتنعوا أن يتسموا بالمؤمنين . قال الفراء : ونزلت هذه الآية في أعراب بني أسد .

قوله عز وجل : ﴿ . . . لاَ يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لا يمنعكم من ثواب عملكم شيئاً ، قال رؤبة :

وليلة ذات سرى سريت . . . ولم يلتني عن سراها ليت

أي لم يمنعني عن سراها .

الثاني : ولا ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئاً ، قال الحطيئة :

أبلغ سراة بني سعد مغلغلة . . . جهد الرسالة لا ألتاً ولا كذباً

أي لا نقصاً ولا كذباً .

وفيه قراءتان : ﴿ يَلِتْكم ﴾ و ﴿ يألتكم ﴾ وفيها وجهان :

أحدها : [أنهما] لغتان معناهما واحد .

الثاني : يألتكم أكثر وأبلغ من يلتكم .

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُم ﴾ الآية . هؤلاء أعراب حول المدينة أظهروا الإسلام خوفاً ، وأبطنوا الشرك اعتقاداً فأظهر الله ما أبطنوه وكشف ما كتموه ، ودلهم بعلمه بما في السموات والأرض علم علمه بما اعتقدوه ، وكانوا قد منوا بإسلامهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا فضلنا على غيرنا بإسلامنا طوعاً .

فقال تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لاَّ تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ ﴾ وهذا صحيح لأنه إن كان إسلامهم حقاً فهو لخلاص أنفسهم فلا مِنَّةَ فيه لهم ، وإن كان نفاقاً فهو للدفع عنهم ، فالمنة فيه عليهم .

ثم قال : ﴿ بِلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَن هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن الله أحق أن يمن عليكم أن هداكم للإيمان حتى آمنتم . وتكون المنة هي التحمد بالنعمة .

الثاني : أن الله تعالى ينعم عليكم بهدايته لكم ، وتكون المنة هي النعمة . وقد يعبر بالمنة عن النعمة تارة وعن التحمد بها أخرى .

﴿ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ يعني فيما قلتم من الإيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 5 صـ 324. 338 ﴾

(166/719)

وقال ابن الجوزى :

سورة الحجرات

قوله تعالى : ﴿ يا أَيها الذين آمَنوا لا تُقَدِّموا بينَ يَدَيَ الله ورسولِه ﴾

في سبب نزولها أربعة أقوال .

أحدها : أن رَكْباً من بني تميم قَدِموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر : أَمِّرِ القعقاعَ ابنَ معبد ، وقال عمر : أَمِّرِ الأقرعَ بن حابس ، فقال أبو بكر : ما أردتَ إلا خِلافي ، وقال عمر : ما أردتُ خلافَك ، فتماريا حتى ارتفعت أصواتُهما فنزل قوله : ﴿ يا

أيُّها الذين آمَنوا لا تُقَدّموا بين يَدَيِ اللهِ ورسولِه ﴾ إلى قوله : ﴿ ولَوْ أَنَّهم صَبَروا ﴾ فما كان عمرُ يسْمِع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم [بعد هذه الآية] حتى يستفهمه ، رواه عبد الله بن الزبير .

والثاني : أن قوماً ذَبَحوا قبل أن يُصَلِّي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يومَ النَّحر ، فأمرهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أن يُعيدوا الذَّبح ، فنزلت الآية ، قاله الحسن .

والثالث : أنها نزلت في قوم كانوا يقولون : لو أنزَلَ اللهُ فِيّ كذا وكذا ! فكَرِه اللهُ ذلك ، وقدَّم فيه ، قاله قتادة .

والرابع : [أنها] نزلت في عمرو بن أميّة الضّمْري ، وكان قد قتل رجُلين من بني سليم قبل أن يستأذن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، قاله ابن السائب .

وروى ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال : لا تقولوا خلاف الكتاب والسُّنَّة .

وروى العوفي عنه قال : نُهو أن يتكلمّوا بين يَدَيْ كلامه .

وروي عن عائشة رضي الله عنها في هذه الآية قالت : لا تصوموا قبل أن يصومَ نبيُّكم .

ومعنى الآية على جميع الأقوال : لا تعجلوا بقول أو فعل قبل أن يقولَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يفعل .

قال ابن قتيبة : يقال فلانٌ يُقَدِّم بين يَدَيِ الإمام وبين يَدَي أبيه ، أي يُعجِّل بالأمر والنهي دونه .

فأمّا ﴿ تُقدّموا ﴾ فقرأ ابن مسعود وأبو هريرة ، وأبو رزين ، وعائشة ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، وعكرمة ، والضحاك وابن سيرين ، وقتادة ، وابن يعمر ، ويعقوب : بفتح التاء والدال ؛ وقرأ الباقون : بضم التاء وكسر الدال .

قال الفراء : كلاهما صواب ، يقال : قَدَّمْتُ وتَقَدَّمْتُ ؛ وقال الزجاج : كلاهما واحد ؛ فأمّا " بينَ يَدَيِ اللهِ ورسولِهِ " فهو عبارة عن الأمام ، لأن ما بين يَدَيِ الإِنسان أمامَه ؛ فالمعنى : لا تَقَدَّموا قُدّام الأمير .

قوله تعالى : ﴿ لا تَرْفَعوا أصواتَكم ﴾ في سبب نزولها قولان .

أحدهما : أن أبا بكر وعمر رفعا أصواتهما فيما ذكرناه آنفاً في حديث ابن الزبير ، وهذا قول ابن أبي مليكة .

والثاني : [أنها] نزلت في ثابت بن قيس بن شمَّاس ، وكان جَهْوَرِيَّ الصَّوت ، فربما كان إِذا تكلَّم تأذَّى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بصوته ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ ولا تَجهر له بالقَوْلِ ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أن الجهر بالصَّوت في المخاطبة ، قاله الأكثرون .

والثاني : لا تَدْعوه باسمه : يا محمد ، كما يدعو بعضُكم بعضاً ، ولكن قولوا : يا رسول الله ، ويا نبيَّ الله ، وهو معنى قول سعيد بن جبير ، والضحاك ، ومقاتل .

قوله تعالى : ﴿ أن تَحْبَطَ ﴾ قال ابن قتيبة : لئلا تَحْبَطَ .

وقال الأخفش : مَخافة أن تَحْبَطَ .

قال أبو سليمان الدمشقي : وقد قيل معنى الإحباط ها هنا : نقص المَنْزِلة ، لا إِسقاط العمل من أصله كما يسقط بالكفر .

قوله تعالى : ﴿ إِن الذين يَغُضُّونَ أصواتَهم ﴾ قال ابن عباس : لمّا نزل قوله : " لا ترفعوا أصواتكم " تألَّى أبو بكر أن لا يكلِّم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم إلاّ كأخي السّرار ، فأنزل اللهُ في أبي بكر : ﴿ إِنَّ الذين يَغُضُّونَ أصواتَهم ﴾ ، والغَضُّ : النَّقْص كما بيَّنّا عند قوله : ﴿ قُلْ للمؤمنين يَغِضُّوا ﴾ [النور : 30] .

(168/719)

﴿ أولئك الذين امْتَحَنَ اللهُ قلوبَهم ﴾ قال ابن عباس : أخلصها ﴿ للتقوى ﴾ من المعصية .

وقال الزجاج : اختبر قلوبهم فوجدهم مُخلصين ، كما تقول : قد امتحنت هذا الذهب والفضة ، أي : اختبرتهما بأن أذبتهما حتى خَلَصا ، فعلمت حقيقة كل واحد منهما .

وقال ابن جرير : اختبرها بامتحانه إيّاها فاصطفاها وأخلصها للتَّقوى .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين ينادونك مِنْ وراءِ الحُجُرات ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال .

أحدها : " أن بني تميم جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنادَوْا على الباب : يا محمد اخرُجْ إلينا ، فإنَّ مَدْحَنا زَيْن وإن ذَمَّنا شَيْن ، فخرج وهو يقول : " إنما ذلكم الله " ، فقالوا : نحن ناس من بني تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك ، فقال : " ما بالشعر بُعِثْتُ ولا بالفخَار أُمِرْتُ ، ولكن هاتوا " فقال الزبرقان بن بدر لشابٍ منهم قمْ فاذكُر فَضْلك وفَضْل قومك ، فقام فذكر ذلك ، فأمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثابتَ بن قيس ، فأجابه ، وقام شاعرُهم ، فأجابه حسان ، فقال الأقرع بن حابس : والله ما أدري ما هذا الأمر ؟ ! تكلَّم خطيبُنا فكان خطيبُهم أحسنَ قولاً ، وتكلم شاعرُنا فكان شاعرُهم أشعَر ، ثم دنا فأسلم ، فأعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكساهم ، وارتفعت الأصوات وكثر اللَّغَط عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية " ، هذا قول جابر بن عبد الله في آخرين .

وقال ابن اسحاق : نزلت في جُفاة بني تميم ، وكان فيهم الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن ، والزبرقان بن بدر ، [وقيس بن عاصم المنقري] ، وخالد بن مالك ، وسويد بن هشام ، وهما نهشليَّان ، والقعقاع بن معبد ، وعطاء بن حابس ، ووكيع بن وكيع .

والثاني : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سريَّةً إلى بني العنبر ، وأمَّر عليهم عيينة بن حصن الفزاري ، فلما عَلِموا بذلك هربوا وتركوا عيالهم ، فسباهم عيينة ، فجاء رجالُهم يَفْدون الذَّراري ، فقَدِموا وقت الظهيرة ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم قائل ، فجعلوا : ينادون يا محمد اخْرُجِ إلينا ، حتى أيقظوه ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس .

والثالث : أن ناساً من العرب قال بعضهم لبعض : انطلِقوا بنا إلى هذا الرجُل ، فإن يكن نبيّاً نكن أسعد الناس به ، وإن يكن مِلكاً نعش في جناحه ، فجاؤوا ، فجعلوا ينادون : يا محمد ، يا محمد ، فنزلت هذه الآية ، [قاله زيد بن أرقم] .

فأمّا " الحجرات " فقرأ أُبيُّ بن كعب ، وعائشة ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، ومجاهد وأبو العالية ، وابن يعمر ، [وأبو جعفر وشيبة] : بفتح الجيم ؛ وأسكنها أبو رزين ، وسعيد بن المسيب ، وابن أبي عبلة ؛ وضمها الباقون .

قال الفراء : وجه الكلام أن تُضمَّ الحاء والجيم ، وبعض العرب يقول : الحُجُرات والرُّكبات ، وربما خفَّفوا فقالوا : " الحُجْرات " ، والتخفيف في تميم ، والتثقيل في أهل الحجاز .

وقال ابن قتيبة .

واحد الحُجُرات حُجرة ، مثل ظُلْمة وظُلُمات .

قال المفسرون : وإنما نادَوا من وراء الحُجرات ، لأنهم لم يعلموا في أيّ الحُجَر رسولُ الله .

قوله تعالى : ﴿ ولو أَنَّهم صَبَروا حتى تخْرُجَ إِليهم لكان خيراً لهم ﴾ قال الزجاج : أي : لكان الصَّبر خيراً لهم .

وفي وجه كونه خيراً لهم قولان .

أحدهما : لكان خيراً لهم فيما قَدِموا له من فداء ذراريهم ، فلو صَبَروا خلَّى سبيلهم بغير فداءٍ ، قاله مقاتل .

والثاني : لكان أحسنَ لآدابهم في طاعة الله ورسوله ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ واللهُ غفورٌ رحيمٌ ﴾ أي : لمن تاب منهم .

(170/719)

قوله تعالى : ﴿ إِن جاءكم فاسقٌ بنبأٍ فتبيَّنوا ﴾ نزلت في الوليد بن عقبة ، بعثه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إِلى بني المصطلق ليقبِضَ صدقاتهم ، وقد كانت بينه وبينهم عداوة في الجاهلية ، فسار بعضَ الطريق ، ثم خاف فرجع فقال : إِنهم قد منعوا الصدقة وأرادوا قتلي ، فصرف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم البَعْثَ إِليهم ، فنزلت هذه الآية .

وقد ذكرتُ القصد في كتاب " المُغني " وفي " الحدائق " مستوفاة ، وذكرتُ معنى ﴿ فتبيَّنوا ﴾ في سورة [النساء : 94] ، والنَّبأ : الخبر ، و " أنْ " بمعنى " لئلاَّ " ، والجهالة ها هنا :

أن يجهل حال القوم ، ﴿ فتُصْبِحوا على ما فَعَلْتم ﴾ من إصابتهم بالخطأِ ﴿ نادمين ﴾ .

ثم خوّفهم فقال : ﴿ واعْلَموا أن فيكم رسولَ اللهَ ﴾ أي : إن كَذَبتموه أَخبره اللهُ فافتُضِحْتُم ، ثم قال : ﴿ لو يُطِيعُكم في كثيرٍ من الأمر ﴾ أي : ممّا تخبرونه فيه بالباطل ﴿ لَعَنِتُّم ﴾ أي : لَوَقَعْتُم في عَنَتٍ .

قال ابن قتيبة : وهو الضَّرر والفساد .

وقال غيره : هو الإِثم والهلاك وذلك أن المسلمين لمّا سَمِعوا أن أولئك القوم قد كَفَروا قالوا : ابْعَثْ إليهم يا رسولَ الله واغْزُهم واقْتُلهم ؛ ثم خاطب المؤمنين فقال : ﴿ ولكنَّ الله حَبَّب إليكم الإِيمان ﴾ إلى قوله : ﴿ والعِصيانَ ﴾ ، ثم عاد إلى الخبر عنهم فقال : ﴿ أولئك هم الرّاشدون ﴾ أي : المهتدون إلى محاسن الأُمور ، ﴿ فَضْلاً من الله ﴾ قال الزجاج : المعنى : ففعل بكم ذلك فضلاً ، أي : للفضل والنّعمة .

قوله تعالى : ﴿ وإنْ طائفتان . . .

.

﴾ الآية ، في سبب نزولها قولان .

أحدهما : ما روى البخاري ومسلم في " الصحيحين " من حديث أنس بن مالك قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أتيتَ عبدَ الله ابن أُبيٍّ ، فركب حماراً وانطلق معه

المسلمون يمشون ، فلمّا أتاه النبيُّ صلى الله عليه وسلم قال : إِليكَ عنّي ، فوالله لقد آذاني نتن حمارك .

(171/719)

فقال رجل من الأنصار : واللهِ لحمارُ رسولِ الله أطيبُ ريحاً منك ، فغضب لعبد الله رجلٌ من قومه ، وغضب لكل واحد منهما أصحابُه فكان بينهم ضربٌ بالجريد والأيدي والنِّعال ، فبلغَنا أنه أُنزلت فيهم ﴿ وإِن طائفتان . . .

﴾ الآية .

وقد أخرجا جميعاً من حديث أسامة ابن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يعود سعد بن عبادة ، فمرَّ بمجلس فيهم عبدُ الله بن أُبيّ ، وعبدُ الله بن رواحة ، فخمَّر ابنُ أُبيّ وجهه بردائه ، وقال : لا تغبّروا علينا .

فذكر الحديث ، وأن المسلمين والمشركين واليهود استَبُّوا .

وقد ذكرت الحديث بطوله في " المغني " و " الحدائق " .

وقال مقاتل : وقف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على الأنصار وهو على حمار له ، فبال الحمار ، فقال عبد الله بن أُبيٍّ : أف ، وأمسك على أنفه .

فقال عبد الله بن رواحة : واللهِ لَهُوَ أطيبُ ريحاً منك ، فكان بين قوم ابن أُبيٍّ وابن رواحة ضرب بالنِّعال والأيدي والسَّعَف ، ونزلت هذه الآية .

والقول الثاني : أنها نزلت في رجلين من الأنصار كانت بينهما مُماراة في حقٍّ بينهما ، فقال أحدهما : لآخذنَّ حقي عَنوة ، وذلك لكثرة عشيرته ، ودعاه الآخر ليحاكمه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يزل الأمر بينهما حتى تناول بعضهم بعضاً بالأيدي والنعال ، قاله قتادة .

وقال مجاهد : المراد بالطائفتين : الأوس والخزرج ؛ اقتتلوا بالعصي بينهم .

وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وابن مسعود ، وأبو عمران الجوني : " اقتتلا " على فعل اثنين مذكَّرين .

وقرأ أبو المتوكل الناجي ، وأبو الجون ، وابن أبي عبلة ﴿ اقتتلتا ﴾ بتاء وألف بعد اللام على فعل اثنين مؤنثتين .

(172/719)

وقال الحسن وقتادة والسدي ﴿ فأصلِحوا بينهما ﴾ بالدعاء إلى حكم كتاب الله عز وجل والرضى بما فيه لهما وعليها ﴿ فإن بغت إحداهما ﴾ طلبت ما ليس لها ، ولم ترجع إلى الصلح ، ﴿ فقاتِلوا التي تبغي حتى تفيءَ ﴾ أي : تَرْجِع ﴿ إلى أمر الله ﴾ أي :

إِلى طاعته في الصلح الذي أمر به .

قوله تعالى : ﴿ وأَقسِطوا ﴾ أي : اعدلوا في الإِصلاح بينهما .

قوله تعالى : ﴿ إِنما المؤمنون إِخوة ﴾ قال الزجاج : إِذا كانوا متفقين في دينهم رجَعوا باتفاقهم إِلى أصل النسب ، لأنهم لآدم وحواءَ ، فإِذا اختلفت أديانهم افترقوا في النسب .

قوله تعالى : ﴿ فأصلِحوا بين أخويكم ﴾ قرأ الأكثرون " بين أخويكم " بياء على التثنية . وقرأ أُبيُّ بن كعب ، ومعاوية ، وسعيد بن المسيب ، وابن جبير ، [وقتادة] ، وأبو العالية ، وابن يعمر ، وابن أبي عبلة ، ويعقوب : " بين إِخوتكم " بتاء مع كسر الهمزة على الجمع . وقرأ علي بن أبي طالب ، وأبو رزين ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، والحسن ، والشعبي ، وابن سيرين : " بين إخوانكم " بالنون وألف قبلها .

قال قتادة : ويعني بذلك الأوس والخزرج .

قوله تعالى : ﴿ لا يَسْخَر قومٌ من قوم ﴾ هذه الآية نزلت على ثلاثة أسباب ؛ فأما أولها : إلى قوله تعالى : ﴿ خيراً منهم ﴾ فنزلت على سبب وفيه قولان .

أحدهما : أن ثابت بن قيس بن شمَّاس جاء يوماً يريد الدُّنُوَّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان به صمم ، فقال لرجل بين يديه : افسح ، فقال له الرجل : قد أصبتَ مجلساً ، فجلس مُغْضَباً ثم قال للرجل : من أنت ؟ قال أنا فلان .

فقال ثابت : أنت ابن فلانة ! ! فذكر أمّاً له كان يعيَّر بها في الجاهلية ، فأغضى الرجل

ونَكَسَ رأسَه ونزل قوله تعالى : ﴿ لا يَسْخَرَ قومٌ من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ﴾ ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

(173/719)

والثاني : أن وفد تميم استهزؤوا بفقراء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأَوا من رثاثة حالهم ، فنزلت هذه الآية ، قاله الضحاك ومقاتل .

وأما قوله تعالى ﴿ ولا نساءٌ من نساء ﴾ فنزلت على سبب ، وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم عيَّرن أُمَّ سَلَمة بالقِصَر ، فنزلت هذه [الآية] ، قاله أنس بن مالك .

وزعم مقاتل أن عائشة استهزأت من قِصَر أُمِّ سَلَمة .

والثاني : أن امرأتين من أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم سَخِرتا من أم سلمة زوجِ رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت أم سلمة قد خرجت ذات يوم وقد ربطت أحد طرفي جلبابها على حَقْوها ، وأرخت الطرف الآخر خلفها ، ولا تعلم ، فقالت إِحداهما للأخرى : انظُري ما خَلْفَ أم سلمة كأنه لسان كلب ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : " أن صفيَّة بنت حُيَيّ بن أخطب أتت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالت :

إِن النساء يعيِّرنني ويقُلن : يا يهودية بنت يهوديَّين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هلاّ قُلْتِ : إِن أبي هارون ، وإِن عمّي موسى ، وإن زوجي محمد " فنزلت هذه الآية ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

وأما قوله تعالى ﴿ ولا تَلْمِزوا أنفُسَكم ولا تَنابزوا بالألقاب ﴾ فنزلت على سبب ، وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قَدِمَ المدينة ولهم ألقاب يُدْعَون بها ، فجعل الرجل يدعو الرجل بلقَبه ، فقيل له : يا رسول الله : إِنهم يكرهون هذا ، فنزل قوله تعالى : " ولا تَنابزوا بالألقاب " ، قاله أبو جبيرة بن الضحاك .

والثاني : أن أبا ذر كان بينه وبين رجل منازعة ، فقال له الرجل : يا ابن اليهودية ، فنزلت : " ولا تَنابزوا بالألقاب " ، قاله الحسن .

(174/719)

والثالث : أن كعب بن مالك الأنصاري كان بينه وبين عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي كلام ، فقال له : يا أعرابي ، فقال له عبد الله : يا يهودي فنزلت فيهما ﴿ ولا تَلمزوا أنفُسكم ولا تَنابزوا بالألقاب ﴾ قاله مقاتل .

وأمّا التفسير ، فقوله تعالى : ﴿ لا يَسخر قومٌ من قوم ﴾ أي : لا يستهزئ غنيٌّ بفقير ، ولا مستور عليه ذنْبُه بمن لم يُستَر عليه ، ولا ذو حَسَب بلئيم الحَسَب ، وأشباه ذلك ممّا يتنقَّصه به ، عسى أن يكون عند الله خيراً [منه] .

وقد بيَّنّا في [البقرة : 54] أن القوم اسم الرجال دون النساء ، ولذلك قال : " ولا نساءٌ من نساء " و " تَلْمِزوا " بمعنى تَعيبوا ، وقد سبق بيانه [التوبة : 58] .

والمراد بالأنفُس هاهنا : الإِخوان .

والمعنى : لا تَعيبوا إِخوانكم من المسلمين لأنهم كأنفسكم ، والتنابز : التفاعل من النَّبْز ، وهو مصدر ، والنَّبَز الاسم .

﴿ والألقاب ﴾ جمع لقب ، وهو اسم يُدعى به الإنسان سوى الاسم الذي سمِّي به .

قال ابن قتيبة : ﴿ ولا تَنابزوا بالألقابَ ﴾ أي : لا تتداعَوْا بها .

و " الألقاب " و " الأَنْباز " واحد ، ومنه الحديث : " نَبْزُهم الرافضة " أي : لقبُهم .

وللمفسرين في المراد بهذه الألقاب أربعة أقوال .

أحدها : تعيير التائب بسيِّئات قد كان عملها ، رواه عطية العوفي عن ابن عباس .

والثاني : أنه تسميته بعد إسلامه بدينه قبل الإِسلام كقوله لليهودي إِذا أسلم : يا يهودي ، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً .

وبه قال الحسن ، وسعيد ابن جبير ، وعطاء الخراساني ، والقرظي .

والثالث : أنه قول الرجل للرجل : يا كافر ، يا منافق ، قاله عكرمة .

والرابع : أنه تسميته بالأعمال السيئة ، كقوله : يا زاني ؛ يا سارق ، يا فاسق ، قاله ابن زيد .

قال : أهل العلم : والمراد بهذه الألقاب : ما يكرهه المنادَى به ، أو يُعَدُّ ذمَاً له .

(175/719)

فأمّا الألقاب التي تكسب حمداً وتكون صدقاً ، فلا تُكره ، كما قيل لأبي بكر : عتيق ، ولعمر : فاروق ، ولعثمان : ذو النورين ، ولعليّ : أبو تراب ، ولخالد سيف الله ، ونحو ذلك .

وقوله ﴿ بئسَ الاسمُ الفُسوق ﴾ أي : تسميتُه فاسقاً أو كافراً وقد آمن ، ﴿ ومن لم يَتُب ﴾ من التَّنابُز ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾ وفيه قولان .

أحدهما : الضارُّون لأنْفُسهم بمعصيتهم ، قاله ابن عباس .

والثاني : هم أظلم من الذين قالوا لهم ذلك ، قاله ابن زيد .

قوله تعالى : ﴿ اجتنبوا كثيراً من الظَّنِّ ﴾ قال ابن عباس : نهى اللهُ تعالى المؤمنَ أن يظُنَّ بالمؤمن شرّاً .

وقال سعيد بن جبير : هو الرجل يسمع من أخيه كلاماً لا يريد به سوءاً أو يدخُل مَدخلاً لا يريد به [سوءاً] ، فيراه أخوه المسلم فيظُن به سوءاً .

وقال الزجاج : هو أن يظُن بأهل الخير سوءاً ، فأمّا أهل السوء والفسق ، فلنا أن نظُنَّ بهم مِثْل الذي ظهر منهم .

قال القاضي أبو يعلى : هذه الآية تدل على أنه لم يُنْه عن جميع الظَّنّ ؛ والظَّنُّ على أربعة أضرب .

محظور ، ومأمور به ، ومباح ومندوب إليه ، فأمّا المحظور ، فهو سوء الظن بالله تعالى ، والواجب : حُسْنُ الظن بالله ، وكذلك سوء الظن بالمسلمين الذين ظاهرُهم العدالةُ محظور ، وأما الظن المأمور به ، فهو ما لم ينصب عليه دليل يوصل إلى العِلْم به ، وقد تُعُبِّدنا بتنفيذ الحُكم فيه ، والاقتصار على غالب الظن ، وإجراء الحُكم عليه واجب ، وذلك نحو ما تُعُبِّدنا به من قبول شهادة العُدول ، وتحرِّي القِبلة ، وتقويم المستهلَكات ، وأروش الجنايات التي لم يَرِدْ بمقاديرها توقيف ، فهذا وما كان من نظائره قد تُعُبِّدنا فيه بأحكام غالب الظنُّون .

(176/719)

فأمّا الظن المباح : فكالشّاكِّ في الصلاةِ إذا كان إماماً ، أمره النبيُّ صلى الله عليه وسلم بالتحرِّي والعملِ على ما يَغْلِب في ظنّه ، وإن فعله كان مباحاً ، وإن عَدَلَ عنه إلى البناء على اليقين كان جائزاً .

وروى أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا ظَنَنْتُم فلا تحقّقوا " وهذا من الظن الذي يَعْرِض في قلب الإنسان في أخيه فيما يوجب الرِّيبة فلا ينبغي له أن يحقّقه .

وأما الظن المندوب إليه : فهو إحسان الظن بالأخ المسلم يُنْدَب إليه ويُثاب عليه .

فأمّا ما روي في الحديث : " احترِسوا من الناس بسوء الظن " فالمراد : الإحتراس بحفظ المال ، مثل أن يقول : إن تركت بابي مفتوحاً خشيت السُّرّاق .

قوله تعالى : ﴿ إنَّ بعض الظَّنِّ إثم ﴾ قال المفسرون : هو ما تكلم به مما ظنَّه من السُّوءِ بأخيه المسلم ، فإن لم يتكلَّم به فلا بأس ، وذهب بعضهم إلى أنه يأثم بنفس ذلك الظن وإن لم يَنْطِق به .

قوله تعالى : ﴿ ولا تَجَسَّسوا ﴾ وقرأ أبو رزين ، والحسن ، والضحاك ، وابن سيرين ، وأبو رجاء ، وابن يعمر : بالحاء .

قال أبو عبيدة : التجسس والتحسس واحد ، وهو التَّبحُّث ومنه الجاسوس .

وروي عن يحيى بن أبي كثير أنه قال : التجسس ، بالجيم : البحث عن عورات الناس ، وبالحاء : الاستماع لحديث القوم .

قال المفسرون : التجسس : البحث عن عيب المسلمين وعوراتهم ؛ فالمعنى : لا يبحث أحدكم عن عيب أخيه ليطَّلع عليه إذ ستره الله .

وقيل لابن مسعود : هذا الوليد بن عقبة تقطر لحيته خمراً ، فقال : إنا نُهينا عن التجسس ، فإن يَظهرْ لنا شيء نأخذْه به .

قوله تعالى : ﴿ ولا يَغْتَبْ بعضُكم بعضاً ﴾ أي : لا يتناول بعضُكم بعضاً بظَهر الغَيْب بما يَسوؤُه .

(177/719)

وقد روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل ما الغيبة ؟ قال : " ذِكْرُكَ أخاك بما يَكره " ، قال : أرأيتَ إن كان في أخي ما أقول قال : " إن كان في أخيك ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهتَّه " .

ثم ضَرَبَ اللهُ للغِيبة مثلاً فقال : ﴿ أيُحِبُّ أحدُكم أن يأكل لحم أخيه مَيْتاً ﴾ وقرأ نافع " ميّتاً " بالتشديد .

قال الزجاج : وبيانه أن ذِكرك بسوءٍ مَنْ لم يَحْضُر ، بمنزلة أكل لحمه وهو ميت لا يُحِسُّ بذلك .

قال القاضي أبو يعلى : وهذا تأكيد لتحريم الغيبة ، لأن أكل لحم المسلم محظور ، ولأن النُّفوس تَعافُه من طريق الطَّبع ، فينبغي أن تكون الغِيبة بمنزلته في الكراهة .

قوله تعالى : ﴿ فكرِهتموه ﴾ وقرأ الضحاك ، وعاصم الجحدري ﴿ فكُرّهتموه ﴾ برفع الكاف وتشديد الراء .

قال الفراء : أي : وقد كرهتموه فلا تفعلوه ، ومن قرأ " فكُرّهتموه " أي : فقد بُغِّض إليكم ، والمعنى واحد .

قال الزجاج : والمعنى : كما تكرهون أكل لحمه ميتاً ، فكذلك تجنَّبوا ذِكْره بالسُّوء غائباً .

قوله تعالى : ﴿ واتَّقوا الله ﴾ أي : في الغِيبة ﴿ إن الله توّابٌ ﴾ على من تاب ﴿ رحيمٌ ﴾ به .

قوله تعالى : ﴿ يا أيُّها النَّاس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال .

أحدها : نزلت في ثابت بن قيس وقولِه في الرجل الذي لم يفسح له : أنت ابن فلانة ، وقد ذكرناه عن ابن عباس في قوله : ﴿ لا يسخرْ قومٌ من قوم ﴾ [الحجرات : 11] .

والثاني : أنه لمّا كان يوم الفتح أمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بلالاً فصَعِد على ظهر الكعبة فأذَّن ، وأراد أن يُذِلَّ المشركين بذلك ، فلما أذَّن قال عتاب بن أَسِيد : الحمدُ لله الذي قبض أسيداً قبل اليوم ، وقال الحارث بن هشام : أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسودِ مؤذِّناً ؟ ! وقال سهيل بن عمرو : إن يَكْرَهِ اللهُ شيئاً يغيِّره .

وقال أبو سفيان : أمّا أنا فلا أقول شيئاً ، فإِنّي إن قُلتُ شيئاً لَتَشْهَدَنَّ عليَّ السماءُ ، ولَتُخْبِرَنَّ عنّي الأرض ، فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل .

والثالث : أن عبداً أسود مرض فعاده رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قُبض فتولَّى غسله وتكفينه ودفنه ، فأَثَّر ذلك عند الصحابة ، فنزلت هذه الآية ، قاله يزيد بن شجرة .

فأمّا المراد بالذَّكَر والأُنثى ، فآدم وحوّاء .

والمعنى : إِنكم تتساوَوْن في النسب ؛ وهذا زجر عن التفاخر بالأنساب .

فأمّا الشُّعوب ، فهي جمع شَعب .

وهو الحيُّ العظيم ، مثل مضر وربيعة ، والقبائل دونها ، كبَكر من ربيعة ، وتميم من مضر ، هذا قول الجمهور من المفسرين وأهل اللغة .

وروى عطاء عن ابن عباس قال : يريد بالشعوب : الموالي ، وبالقبائل : العرب .

وقال أبو رزين : الشعوب أهل الجبال الذين لا يَعْتَزُون لأحد ، والقبائل : قبائل العرب .

وقال أبو سليمان الدمشقي : وقد قيل : إِن القبائل هي الأصول ، والشُّعوب هي البُطون التي تتشعَّب منها ، وهذا ضد القول الأول .

قوله تعالى : ﴿ لِتَعارفوا ﴾ أي : ليَعْرِفَ بعضُكم بعضاً في قُرب النسب وبُعده .

قال الزجاج : المعنى جعلْناكم كذلك لتَعارفوا ، لا لتَفاخروا .

ثم أعلمهم أن أرفعهم عنده منزلةً أتقاهم .

وقرأ أُبَيُّ بن كعب .

وابن عباس ، والضحاك ، وابن يعمر ، وأبان عن عاصم : "لِتَعْرِفوا " بإسكان العين وكسر الراء من غير ألف .

وقرأ مجاهد ، وأبو المتوكل ، وابن محيصن : ﴿ لِتَّعارَفوا ﴾ بتاء واحدة مشددة وبألف مفتوحة الراء مخففة .

وقرأ أبو نهيك ، والأعمش : "لِتتعرَّفوا " بتاءين مفتوحة الراء وبتشديدها من غيرَ ألف .

(179/719)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أكرمكم ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمي ، ومجاهد ، وأبو الجوزاء : " أنَّ " بفتح الهمزة قال الفراء : من فتح " أنَّ " فكأنه قال : لتعارفوا أنَّ الكريمَ التَّقيُّ ولو كان كذلك لكانت "لِتَعْرِفوا " ، غير أنه يجوز "لِتَعارفوا " على معنى : ليعرِّف بعضُكم بعضاً أن أكرمكم عند الله أتقاكم " .

قوله تعالى : ﴿ قالت الأعراب آمَنّا ﴾ قال مجاهد : نزلت في أعراب بني أسد ابن خزيمة . ووصف غيره حالهم ، فقال : قَدِموا المدينةَ في سنة مُجْدِبة ، فأظهروا الإِسلام ولم يكونوا مؤمنين ، وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات ، وأغلَوا أسعارهم ، وكانوا يُمنُّون على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون : أتيناك بالأثقال والعيال ، ولَمْ نُقاتِلْك ، فنزلت فيهم هذه الآية .

وقال السدي : نزلت في أعراب مزينة وجهينة وأسلم وأشجع وغفار [وهم الذين ذكرهم الله تعالى في سورة (الفتح) وكانوا يقولون : آمنا بالله ليأمنوا على أنفُسهم] ، فلما استُنفروا إِلى الحديبية تخلَّفوا ، فنزلت فيهم هذه الآية .

وقال مقاتل : كانت منازلهم بين مكة والمدينة ، فكانوا إِذا مرَّت بهم سريَّة من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : آمنا ، ليأمنوا على دمائهم وأموالهم ، فلمّا سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إِلى الحديبية استنفرهم فلم يَنْفِروا معه .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَمْ تؤْمِنوا ﴾ أي : لَمْ تصدّقوا ﴿ ولكن قولوا أسلمنا ﴾ قال ابن قتيبة : أي اسْتَسلمنا من خوف السيف ، وانْقَدْنا .

قال الزجاج : الإِسلام : إِظهار الخُضوع والقَبولِ لما أتى به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وبذلك يُحْقَن الدَّم .

فإن كان معه اعتقاد وتصديق بالقلب ، فذلك الإيمان ، فأخْرَجَ اللهُ هؤلاء من الإيمان بقوله : ﴿ ولمّا يَدْخُل الإيمانُ في قُلوبكم ﴾ أي : لَمْ تُصَدّقوا ، إنما أسلمتم تعوُّذاً من القتل .

(180/719)

وقال مقاتل : " ولمّا " بمعنى " ولم " يدخُل التصديقُ في قلوبكم .

قوله تعالى : ﴿ وإن تُطيعوا اللهَ ورسولَه ﴾ قال ابن عباس : إن تُخْلِصوا الإيمان ﴿ لا يأتِكُم ﴾ قرأ أبو عمرو : ﴿ يَأْتِكُم ﴾ بألف وهمز ؛ وروي عنه بألف ساكنة مع ترك الهمزة : وقرأ الباقون : "يَلِتْكُم" بغير ألف ولا همز .

فقراءة أبي عمرو من أَلَتَ يأْلِتُ .

وقراءة الباقين من لاتَ يَلِيتُ ، قال الفراء : وهما لغتان ، قال الزجاج : معناهما واحد .

والمعنى : لا يَنْقُصكم وقال أبو عبيدة : فيها ثلاث لغات : أَلَتَ يأْلِتُ ، تقديرها : أفَكَ يأفِكُ ، وألاتَ يُلِيتُ تقديرها : أقال يُقِيلُ ، ولاتَ يَلِيتُ ، قال رؤبة :

وليلةٍ ذاتِ نَدىً سَرَيْتُ . . .

ولم يَلِتْني عن سُراها لَيْتُ

قوله تعالى : ﴿ مِنْ أعمالكم ﴾ أي : من ثوابها .

ثم نعت الصادقين في إيمانهم بالآية التي تلي هذه .

ومعنى : ﴿ يَرتابوا ﴾ يَشُكُّوا .

وإنما ذكر الجهاد ، لأن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فرضاً في ذلك الوقت ، ﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ [في إيمانهم ، فلمّا نزلت هاتان الآيتان أتوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يحلفون أنهم مؤمنون صادقون] فنزلت [هذه الآية] .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمون اللهَ بدينكم ﴾ و "علَّم" ، بمعنى "أعلم" ، ولذلك دخلت الباء في قوله : ﴿ بدينكم ﴾ والمعنى : أتُخبرون [اللهَ] بالدِّين الذي أنتم عليه ؟ ! ، أي : هو عالِمٌ بذلك لا يحتاج إلى أخباركم ؛ وفيهم نزل قوله تعالى : ﴿ يَمُنُّون عليك أن أَسْلموا ﴾ قالوا : أَسْلَمْنا ولم نُقاتِلْكَ ، [والله أعلم] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 7 صـ 478.451 ﴾

(181/719)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ﴾

من التقديم أي لا ينبغي لكم أن يصدر منكم تقديم أصلاً .

وقيل : لا تقدموا فعلاً بين يدي الله ورسوله .

والمعنى : لا تقدموا بين يدي أمر الله ورسوله ولا نهيهما .

وقيل : لا تجعلوا لأنفسكم تقدماً عند النبي (صلى الله عليه وسلم) وفيه إشارة إلى احترام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والانقياد لأوامره ونواهيه والمعنى : لا تعجلوا بقول أو فعل قبل أن يقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أو قبل أن يفعله .

وقيل : لا تقولوا بخلاف الكتاب والسنة واختلفوا في معنى الآية فروي عن جابر أنه في الذبح يوم الأضحى أي : لا تذبحوا قبل أن يذبح النبي (صلى الله عليه وسلم) وذلك أن أناساً ذبحوا قبل النبي (صلى الله عليه وسلم) فأمروا أن يعيدوا الذبح .

(ق) عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي ثم نرجع فننحر فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا ومن ذبح قبل أن يصلي فإنما هو لحم عجله لأهله ليس من النسك في شيء " زاد الترمذي في أوله : قال خطبنا النبي (صلى الله عليه وسلم) يوم النحر وذكر الحديث .

وروي عن عائشة أنه في النهي عن صوم يوم الشك أي لا تصوموا قبل نبيكم عن عمار بن ياسر قال : " من صام في اليوم الذي يشك فيه فقد عصى أبا القاسم (صلى الله عليه وسلم) " أخرجه أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

وقيل في سبب نزول هذه الآية : ما روي عن عبد الله بن الزبير أنه قدم وفد من بني تميم على

النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال أبو بكر : أمر القعقاع بن معبد بن زرارة .

وقال عمر : بل أمر الأقرع بن حابس .

قال أبو بكر : ما أردت إلا خلافي .

(182/719)

وقال عمر : ما أردت خلافك ، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزل في ذلك ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ﴾ حتى انقضت زاد في رواية فما كان عمر يسمع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعد هذه حتى يستفهمه أخرجه البخاري .

وقيل : نزلت الآية في ناس كانوا يقولون : لو نزل في كذا أو صنع كذا وكذا ، فكره الله ذلك

وقيل في معنى الآية لا تفتئتوا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بشيء حتى يقضيه الله على لسانه .

وقيل في القتال وشرائع الدين : لا تقضوا أمراً من دون الله ورسوله ﴿ واتقوا الله ﴾ أي في تضييع حقه بمخالفة أمره ﴿ إن الله سميع ﴾ أي لأقوالكم ﴿ عليم ﴾ أي بأفعالكم .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ أي لا تجعلوا كلامكم مرتفعاً على كلام النبي (صلى الله عليه وسلم) في الخطاب وذلك ، لأن رفع

الصوت دليل على قلة الاحتشام وترك الاحترام .

وقوله : لا تقدموا نهي عن فعل وقوله لا ترفعوا أصواتكم نهي عن قول ﴿ ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ﴾ أمرهم أن يبجلوه ويفخموه ويعظموه ولا يرفعوا أصواتهم عنده ولا ينادوه كما ينادي بعضهم بعضاً فيقول يا محمد بل يقولون يا رسول الله يا نبي الله ﴿ أن تحبط أعمالكم ﴾ أي لئلا تحبط .

وقيل : مخافة أن تحبط حسناتكم ﴿ وأنتم لا تشعرون ﴾ أي بذلك .

(ق) عن أنس بن مالك قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ الآية جلس ثابت بن قيس في بيته وقال : أنا من أهل النار .

واحتبس عن النبي (صلى الله عليه وسلم) فسأل النبي (صلى الله عليه وسلم) سعد بن معاذ فقال : " يا أبا عمرو ما شأن ثابت أيشتكي " ؟ فقال سعد : إنه لجاري وما علمت له شكوى .

(183/719)

قال : فأتاه سعد فذكر له قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال ثابت : أنزلت هذه الآية ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتاً على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأنا من

أهل النار فذكر ذلك سعد للنبي (صلى الله عليه وسلم) فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " بل هو من أهل الجنة " .

زاد في رواية : فكنا نراه يمشي بين أظهرنا رجل من أهل الجنة مسلم وللبخاري نحوه .

وروي لما نزلت هذه الآية قعد ثابت في الطريق يبكي فمر به عاصم بن عدي فقال : ما يبكيك يا ثابت ؟ قال : هذه الآية أتخوف أن تكون أنزلت فيّ وأنا رفيع الصوت على النبي (صلى الله عليه وسلم) أخاف أن يحبط عملي وأن أكون من أهل النار .

فمضى عاصم إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وغلب ثابتاً البكاء فأتى امرأته جميلة بنت عبد الله بن أبي ابن سلول فقال لها : إذا دخلت بيت فرسي فشدي على الضبة بمسمار فضربتها بمسمار .

وقال : لا أخرج حتى يتوفاني الله أو يرضى عني رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأتى عاصم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأخبره قال اذهب فادعه فجاء عاصم إلى المكان الذي رآه فيه فلم يجده فجاء إلى أهله فوجده في بيت الفرس .

فقال له : إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يدعوك فقال اكسر الضبة فأتيا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " ما يبكيك يا ثابت " ؟ فقال : أنا صيت وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت فيّ فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " أما ترضى أن تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة " ؟ فقال : رضيت

ببشرى الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم) لا أرفع صوتي على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أبداً

﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ﴾ الآية .

(184/719)

قال أنس : فكنا ننظر إلى رجل من أهل الجنة يمشي بين أيدينا فلما كان يوم اليمامة في حرب مسيلمة رأى ثابت من المسلمين بعض انكسار وانهزمت طائفة منهم فقال : أف لهؤلاء . ثم قال ثابت لسالم مولى أبي حذيفة : ما كنا نقاتل أعداء الله مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مثل هذا ثم ثبتا وقاتلا حتى قتلا واستشهد ثابت وعليه درع فرآه رجل من الصحابة بعد موته في المنام وأنه قال له : اعلم أن فلاناً رجلاً من المسلمين نزع درعي فذهب به وهو في ناحية من المعسكر عند فرس يستن في طيله وقد وضع على درعي برمته فأت خالد بن الوليد فأخبره حتى يسترد درعي وأتِ أبا بكر خليفة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقل له : إن علي ديناً حتى يقضيه عني وفلان من رقيقي عتيق فأخبر الرجل خالداً فوجد الدرع والفرس على ما وصفه فاسترد الدرع وأخبر خالد أبا بكر بتلك الرؤيا فأجاز أبو بكر وصيته قال مالك بن أنس : لا أعلم وصية أجيزت بعد موت صاحبها إلا

هذه .

قال أبو هريرة وابن عباس : لما نزلت هذه الآية كان أبو بكر لا يكلم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلا كأخي السرار .

وقال ابن الزبير : لما نزلت هذه الآية ما حدث عمر النبي (صلى الله عليه وسلم) بعد ذلك فسمع النبي (صلى الله عليه وسلم) كلامه حتى يستفهمه مما يخفض صوته فأنزل الله تعالى : ﴿ إن الذين يغضون ﴾ أي يخفضون أصواتهم عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أي إجلالاً له وتعظيماً ﴿ أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ﴾ أي اختبرها وأخلصها كما يمتحن الذهب بالنار ليخرج خالصه ﴿ لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾ قوله : ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات ﴾ .

قال ابن عباس : " بعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سرية إلى بني العنبر وأمر عليهم عيينة بن حصن الفزاري فلما علموا أنه توجه نحوهم ، هربوا وتركوا عيالهم ، فسباهم عيينة وقدم بهم على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

فجاءه بعد ذلك رجالهم يفدون الذراري فقدموا وقت الظهيرة ووافقوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قائماً في أهله ، فلما رأتهم الذراري أجهشوا إلى آبائهم يبكون وكان لكل امرأة من نساء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حجرة فعجلوا قبل أن يخرج إليهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فجعلوا ينادون : يا محمد اخرج إلينا .

حتى أيقظوه من نومه فخرج إليهم ، فقالوا : يا محمد فادنا عيالنا فنزل جبريل عليه السلام فقال : إن الله تعالى يأمرك أن تجعل بينك وبينهم رجلاً .

فقال لهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أترضوا أن يكون بيني وبينكم سبرة بن عمرو وهو على دينكم ؟ قالوا : نعم .

قال سبرة : أنا لا أحكم إلا وعمي شاهد وهو الأعور بن بشامة ، فرضوا به ، فقال الأعور : أرى أن تفادي نصفهم وتعتق نصفهم فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : قد رضيت "

﴿ ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم ﴾ فيه بيان لحسن الأدب وهو خلاف ما جاؤوا به من سوء الأدب وطلب العجلة في الخروج ﴿ لكان خيراً لهم ﴾ أي الصبر لأنك كنت تعتقهم جميعاً وتطلقهم بلا فداء .

وقيل : لكان حسن الأدب في طاعة الله وطاعة رسوله (صلى الله عليه وسلم) خيراً لهم

: وقيل : نزلت الآية في ناس من أعراب تميم وكأن فيهم الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن والزبرقان بن بدر فنادوا على الباب .

(186/719)

ويروى ذلك عن جابر قال : جاءت بنو تميم فنادوا على الباب فقالوا : يا محمد اخرج علينا فإن مدحنا زين وذمنا شين فخرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو يقول : " إنما ذلكم الله الذي مدحه زين وذمه شين " قالوا نحن ناس من تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا جئنا نشاعرك ونفاخرك فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " ما بالشعر بعثت ولا بالفخر أمرت ، ولكن هاتوا " فقام منهم شاب فذكر فضله وفضل قومه فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) لثابت بن قيس بن شماس ، وكان خطيب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " قم فأجبه " فقام فأجابه وقام شاعرهم فذكر أبياتاً فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) لحسان بن ثابت : " أجبه " فأجابه فقام الأقرع بن حابس فقال : إن محمد المؤتى له تكلم خطيبنا فكان خطيبهم أحسن قولاً وتكلم شاعرنا فكان شاعرهم أحسن شعراً وقولاً ثم دنا من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " ما يضرك

ما كان قبل هذا " ثم أعطاهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكساهم وقد كان تخلف في ركابهم عمرو بن الأهتم لحداثة سنه فأعطاه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مثل ما أعطاهم فأزرى به بعضهم وارتفعت الأصوات وكثر اللغط عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فنزل فيهم : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ الآيات إلى قوله ﴿ والله غفور رحيم ﴾ أي لمن تاب منهم .

وقال زيد بن أرقم : جاء ناس من العرب إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : وقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا إلى هذا الرجل فإن يكن نبياً فنحن أسعد الناس به ، وإن يكن ملكاً نعش في جنابه فجاؤوا فجعلوا ينادونه : يا محمد يا محمد .

(187/719)

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط بعثه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى بني المصطلق بعد الوقعة مصدقاً وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية ، فلما سمع به القوم تلقوه تعظيماً لأمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله ، فهابهم فرجع من الطريق

إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقال : إن بني المصطلق قد منعوا صدقاتهم وأرادوا قتلي فغضب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهم أن يغزوهم فبلغ القوم رجوع الوليد فأتوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقالوا : يا رسول الله سمعنا برسولك فخرجنا نتلقاه ونكرمه ونؤدي له ما قبلناه من حق الله فبدا له الرجوع فخشينا أنه إنما رده من الطريق كتاب جاءه منك لغضب غضبته علينا وإنا نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله فاتهمهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وبعث خالد بن الوليد خفية في عسكر وأمره أن يخفي عليهم قدومه ، وقال : انظر فإن رأيت منهم ما يدل على إيمانهم فخذ منهم زكاة أموالهم وإن لم تر ذلك ، فاستعمل فيهم ما تستعمل في الكفار ففعل ذلك خالد .

فوافاهم فسمع منهم أذان المغرب والعشاء فأخذ منهم صدقاتهم ولم ير منهم إلا الطاعة والخير فانصرف إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأخبره الخبر فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق ﴾ يعني الوليد بن عقبة .

وقيل : هو عام نزلت لبيان التثبت وترك الاعتماد على قول الفاسق وهو أولى من حكم الآية على رجل بعينه ، لأن الفسوق خروج عن الحق ولا يظن بالوليد ذلك إلا أنه ظن وتوهم فأخطأ ، فعلى هذا يكون معنى الآية : إن جاءكم فاسق بنبأ ، أي بخبر ، فتبينوا .

وقرىء : فتثبتوا ، أي : فتوقفوا واطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة ولا تعتمدوا على قول الفاسق ﴿ أن تصيبوا ﴾ أي كيلا تصيبوا بالقتل والسبي ﴿ قوماً بجهالة ﴾ أي جاهلين حاله وحقيقة أمرهم ﴿ فتصبحوا على ما فعلتم ﴾ أي من إصابتكم بالخطأ ﴿ نادمين واعلموا أن فيكم رسول الله ﴾ أي : فاتقوا الله أن تقولوا باطلاً أو تكذبوه فإن الله يخبره ويعرفه حالكم فتفتضحوا ﴿ لو يطيعكم ﴾ أي الرسول ﴿ في كثير من الأمر ﴾ أي مما تخبرونه به فيحكم برأيكم ﴿ لعنتم ﴾ أي لأثمتم وهلكتم عن أبي سعيد الخدري " أنه قرأ ﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ﴾ قال : هذا نبيكم يوحى إليه وخيار أئمتكم لو أطاعهم في كثير من الأمر لعنتوا فكيف بكم اليوم " أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح غريب ﴿ ولكن الله حبب إليكم الإيمان ﴾ أي جعله أحب الأديان إليكم ﴿ وزينة ﴾ أي حسنة وقربه منكم وأدخله ﴿ في قلوبكم ﴾ حتى اخترتموه لأن من أحب شيئاً إذا طال عليه قد يسأم منه والإيمان في كل يوم يزداد في القلب حسناً وثباتاً وبذلك تطيعون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ﴿ وكره إليكم الكفر والفسوق ﴾ قال ابن عباس : يريد الكذب ﴿ والعصيان ﴾ جميع معاصي الله تعالى وفي هذه لطيفة ، وهو أن الله تعالى ذكر هذه الثلاثة الأشياء في مقابلة الإيمان الكامل المزين في القلب المحبب إليه .

والإيمان الكامل : ما اجتمع فيه ثلاثة أمور : تصديق بالجنان ، وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان .

فقوله : وكره إليكم الكفر في مقابله .

قوله : حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وهو التصديق بالجنان والفسوق وهو الكذب في مقابلة الإقرار باللسان فكره إلى عبده المؤمن الكذب وهو الجحود وحبب إليه الإقرار بشهادة الحق والصدق وهو : لا إله إلا الله .

(189/719)

والعصيان في مقابلة العمل بالأركان فكره إليه العصيان وحبب إليه العمل الصالح بالأركان ثم قال تعالى : ﴿ أولئك هم الراشدون ﴾ إشارة إلى المؤمنين المحبب إليهم الإيمان المزين في قلوبهم أي : أولئك هم المهتدون إلى محاسن الأعمال ومكارم الأخلاق ﴿ فضلاً من الله ﴾ أي فعل ذلك بكم فضلاً منه ﴿ ونعمة ﴾ عليكم ﴿ والله عليم ﴾ أي بكم وبما في قلوبكم ﴿ حكيم ﴾ في أمره بما تقتضيه الحكمة وقيل عليم بما في خزائنه من الخير والرحمة والفضل والنعمة حكيم بما ينزل من الخير بقدر الحاجة إليه على وفق الحكم .

قوله : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾ .

(ق) عن أنس قال : قيل للنبي (صلى الله عليه وسلم) لو أتيت عبد الله بن أبيّ .

فانطلق إليه النبي (صلى الله عليه وسلم) فركب حماراً وانطلق المسلمون يمشون معه وهي أرض سبخة ، فلما أتاه النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : إليك عني والله لقد آذاني نتن حمارك .

فقال رجل من الأنصار : والله لحمار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أطيب ريحاً منك .

فغضب لعبد الله رجل من قومه ، فتشاتما ، فغضب لكل واحد منهما أصحابه فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال فبلغنا أنها نزلت فيهم : وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما .

ويروى أنها لما نزلت قرأها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عليهم فأصلحوا وكف بعضهم عن بعض .

(ق) عن أسامة بن زيد أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ركب على حمار عليه إكاف تحته قطيفة فدكية وأردف أسامة بن زيد وراءه يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر قال : فسار حتى مر على مجلس فيه عبد الله بن أبي ابن سلول وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبيّ .

وإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأصنام واليهود وفي المسلمين عبد

الله بن رواحة فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر عبد الله بن أبيّ أنفه بردائه ثم قال : لا تغبروا علينا .

(190/719)

﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ أي في الدين والولاية ذلك أن الإيمان وقد عقد بين أهله من السبب والقرابة كعقد النسب الملاصق وإن بينهم ما بين الإخوة من النسب والإسلام لهم كالأب

قال بعضهم :

أبي الإسلام لا أب لي سواه . . .

إذا افتخروا بقيس أو تميم

﴿ فأصلحوا بين أخويكم ﴾ أي إذا اختلفا واقتتلا ﴿ واتقوا الله ﴾ أي فلا تعصوه ولا تخالفوا أمره ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ (ق) .

عن ابن عمر أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يشتمه .

ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته .

ومن فرّج عن مسلم كربة فرج الله بها عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلماً ستره

الله تعالى يوم القيامة " والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده .

(فصل في حكم قتال البغاة)

قال العلماء : في هاتين الآيتين دليل على أن البغي لا يزيل اسم الإيمان ، لأن الله تعالى سماهم إخوة مؤمنين مع كونهم باغين ويدل عليه ما روي عن علي بن أبي طالب ، وهو القدوة في قتال أهل البغي ، وقد سئل عن أهل الجمل وصفين أمشركون هم ؟ فقال : لا إنهم من الشرك فروا .

فقيل : أمنافقون هم ؟ فقال : لا إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً .

قيل : فما حالهم ؟ قال : إخواننا بغوا علينا .

والباغي في الشرع : هو الخارج على الإمام العدل فإذا اجتمعت طائفة لهم قوة ومنعة فامتنعوا عن طاعة الإمام العدل بتأويل محتمل ونصبوا لهم إماماً فالحكم فيهم أن يبعث إليهم الإمام ويدعوهم إلى طاعته ، فإن أظهروا مظلمة أزالها عنهم وإن لم يذكروا مظلمة وأصروا على البغي قاتلهم الإمام حتى يفيئوا إلى طاعته .

ثم الحكم في قتالهم أن لا يتبع مدبرهم ولا يقتل أسيرهم ولا يذفف على جريحهم نادى منادي علي يوم الجمل : ألا لا يتبع مدبر ولا يقتل أسير ولا يذفف على جريح ، وهو بذال معجمة ، وهو الإجهاز على الجريح وتحرير قتله وتتميمه .

وأتي علي يوم صفين بأسير فقال : لا أقتلك صبراً إني أخاف الله رب العالمين .

وما أتلفت إحدى الطائفتين على الأخرى في حال القتال من نفس ومال فلا ضمان عليها

قال ابن شهاب كانت في تلك الفتنة دماء يعرف في بعضها القاتل والمقتول وأتلف فيها أموال ثم صار الناس إلى أن سكنت الحرب بينهم وجرى الحكم عليهم فما رأيته اقتص من أحد ولا أغرم مالاً .

أما من لم تجتمع فيه هذه الشروط الثلاثة : بأن كانوا جماعة قليلين لا منعة لهم ، أو لم يكن لهم تأويل ، أو لم ينصبوا إماماً ، فلا يتعرض لهم إذا لم ينصبوا قتالاً ولم يتعرضوا للمسلمين فإن فعلوا ذلك فهم كقطاع الطريق في الحكم .

وروي أن علياً سمع رجلاً يقول في ناحية المسجد : لا حكم إلا الله .

فقال علي : كلمة حق أريد بها باطل .

لكم علينا ثلاثة : لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله ، ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا ، ولا نبدؤكم بقتال .

قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم ﴾ الآية نزلت في ثلاثة أسباب : السبب الأول : من أولها إلى قوله خيراً منهم .

قال ابن عباس : نزلت في ثابت بن قيس بن شماس وذلك أنه كان في أذنه وقر ، فكان إذا أتى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقد سبقوه بالمجلس أوسعوا له حتى يجلس إلى جنبه فيسمع ما يقول ، فأقبل ذات يوم وقد فاتته ركعة من صلاة الفجر فلما انصرف النبي (صلى الله عليه وسلم) من الصلاة ، أخذ أصحابه مجالسهم فظل كل رجل بمجلسه فلا يكاد يوسع أحد لأحد وكان الرجل إذا جاء فلم يجد مجلساً قام قائماً كما هو فلما فرغ ثابت من الصلاة أقبل نحو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يتخطى رقاب الناس ثم يقول :

تفسحوا تفسحوا .

فجعلوا يتفسحون له حتى انتهى إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وبينه وبينه رجل فقال : تفسح .

فقال له الرجل : أصبت مجلساً فاجلس .

فجلس ثابت خلفه مغضباً ، فلما انجلت الظلمة غمز ثابت الرجل فقال : من هذا ؟ قال أنا فلان .

قال له ثابت : ابن فلانة وذكر أماً له كان يعيَّر بها في الجاهلية .

(192/719)

فنكس الرجل رأسه واستحيا فأنزل الله هذه الآية .

وقال الضحاك : نزلت في وفد بني تميم الذين ذكرناهم وكانوا يستهزئون بفقراء أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مثل عمار وخباب وبلال وصهيب وسلمان وسالم مولى أبي حذيفة لما رأوه من رثاثة حالهم فأنزل الله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم .

أي : لا يستهزىء غني بفقير ولا مستور عليه ذنبه بمن لم يستر ولا ذو حسب بلئيم وأشباه ذلك مما ينتقصه به ولعله عند الله خير منه وهو قوله تعالى : ﴿ عسى أن يكونوا خيراً منهم ﴾ السبب الثاني قوله : ﴿ ولا نساء من نساء ﴾ أي لا يستهزىء نساء من نساء ﴿ عسى أن يكنَّ خيراً منهن ﴾ روي عن أنس أنها نزلت في نساء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عيرن أم سلمة بالقصر .

وعن ابن عباس : " أنها نزلت في صفية بنت حيي قال لها بعض نساء النبي (صلى الله عليه وسلم) : يهودية بنت يهوديين .

عن أنس : بلغ صفية أن حفصة قالت بنت يهودي فبكت فدخل عليها النبي (صلى الله عليه وسلم) وهي تبكي فقال : ما يبكيك ؟ قالت : قالت لي حفصة إني بنت يهودي فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) إنك لابنة نبي وعمك لنبي وإنك لتحت نبي ففيم تفتخر عليك ثم قال : اتقي الله يا حفصة " أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح غريب .

والسبب الثالث قوله تعالى : ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ عن أبي جبيرة بن الضحاك وهو أخو ثابت بن الضحاك الأنصاري قال : فينا نزلت هذه الآية في بني سلمة

(193/719)

قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ﴾ قيل : نزلت في رجلين اغتابا رفيقهما وذلك أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان إذا غزا أو سافر ضم الرجل المحتاج إلى رجلين موسرين يخدمهما ويتقدمهما إلى المنزل فيهيىء لهما ما يصلحهما من الطعام والشراب فضم سلمان الفارسي إلى رجلين في بعض أسفاره ، فتقدم سلمان إلى المنزل فغلبته عيناه فنام ولم يهيىء شيئاً لهما فلما قدما قالا له : ما صنعت شيئاً .

قال : لا غلبتني عيناي فنمت قالا له : انطلق إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فاطلب لنا منه طعاماً فجاء سلمان إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وسأله طعاماً فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) انطلق إلى أسامة بن زيد وقل له : إن كان عنده فضل طعام وأدم فليعطك وكان أسامة خازن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وعلى رحله فأتاه فقال ما عندي شيء فرجع سلمان إليهما فأخبرهما فقالا كان عند أسامة طعام ولكن بخل فبعثا سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئاً فلما رجع قالا

: لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها ثم انطلقا يتجسسان هل عند أسامة ما أمر لهما به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فلما جاء إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال لهما : ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما ؟ قالا : والله يا رسول الله ما تناولنا يومنا هذا لحماً .

(194/719)

قال : ظللتما تأكلان لحم سلمان وأسامة فأنزل الله : يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن يعني أن يظن بأهل الخير سوءاً فنهى الله المؤمن أن يظن بأخيه المؤمن شراً وقيل هو أن يسمع من أخيه المسلم كلاماً لا يريد به سوءاً أو يدخل مدخلاً لا يريد به سوءاً فيراه أخوه المسلم فيظن شراً لأن بعض الفعل قد يكون في الصورة قبيحاً وفي نفس الأمر لا يكون كذلك لجواز أن يكون فاعله ساهياً أو يكون الرائي مخطئاً فأما أهل السوء والفسق المجاهرون بذلك فلنا أن نظن فيهم مثل الذي يظهر منهم ﴿ إن بعض الظن إثم ﴾ .

قال سفيان الثوري : الظن ظنان : أحدهما : إثم ، وهو أن يظن ويتكلم به والآخر ليس بإثم وهو أن يظن ولا يتكلم به .

وقيل : الظن أنواع فمنه واجب ومأمور به وهو الظن الحسن بالله ومنه مندوب إليه وهو

الظن الحسن بالأخ المسلم الظاهر العدالة ومنه حرام محظور وهو سوء الظن بالله وسوء الظن بالأخ المسلم ﴿ ولا تجسسوا ﴾ أي لا تبحثوا عن عيوب الناس نهى الله عن البحث عن المستور من أمور الناس وتتبع عوراتهم حتى يظهر على ما ستره الله منها (ق) .

عن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره التقوى هاهنا التقوى هاهنا ويشير إلى صدره التقوى هاهنا .

التقوى هاهنا بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم وأعمالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم " التجسس بالجيم التفتيش عن بواطن الأمور وأكثر ما يقال في الشر ومنه الجاسوس وبالحاء هو الاستماع إلى حديث الغير .

وقيل : معناهما واحد وهو طلب الأخبار .

(195/719)

وقوله : ولا تنافسوا أي لا ترغبوا فيما يرغب فيه الغير من أسباب الدنيا وحظوظها والحسد تمني زوال النعمة عن صاحبها .

قوله : ولا تدابروا أي لا يعطي كل واحد منكم أخاه دبره وقفاه فيعرض عنه ويهجره .

عن ابن عمر قال : " صعد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) المنبر فنادى بصوت رفيع يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عن عوراتهم فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله " قال نافع : ونظر ابن عمر يوماً إلى الكعبة فقال : ما أعظمك وأعظم حرمتك .

والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك أخرجه الترمذي .

وقال : حديث حسن غريب عن زيد بن وهب .

قال : أتى ابن مسعود فقيل له : هذا فلان تقطر لحيته خمراً .

فقال عبد الله : إنا قد نهينا عن التجسس ولكن إن يظهر إلينا شيء نأخذ به أخرجه أبو داود وله عن عقبة بن عامر أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " من رأى عورة فسترها كان كمن أحيا موءودة " (م) عن أبي هريرة أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : " لا يستر عبد عبداً في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة " .

قوله تعالى : ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضاً ﴾ أي لا يتناول بعضكم بظهر الغيب بما يسوءه مما

هو فيه .

عن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " أتدرون ما الغيبة ؟ قلت الله ورسوله أعلم قال ذكرك أخاك بما يكره قلت وإن كان في أخي ما أقول قال إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه قد بهته " أخرجه مسلم عن عائشة قالت : " قلت للنبي (صلى الله عليه وسلم) حسبك من صفية كذا وكذا قال بعض الرواة تعني قصيرة فقال لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته قالت وحكيت له إنساناً فقال ما أحب أني حكيت إنساناً وإن لي كذا وكذا "

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ قال ابن عباس : نزلت في ثابت بن قيس بن شماس .

(196/719)

وقوله في الرجل الذي لم يفسح له ابن فلانة فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : من الذاكر فلانة ؟ قال ثابت : أنا رسول الله قال انظر في وجوه القوم فنظر فقال ما رأيت يا ثابت ؟ قال رأيت أبيض وأحمر وأسود قال فإنك لا تفضلهم إلا بالدين والتقوى فنزلت في ثابت هذه الآية ونزل في الذي لم يفسح له ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا

﴾ الآية .

وقيل : لما كان يوم فتح مكة أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بلالاً حتى علا على ظهر الكعبة وأذن فقال عتاب بن أسيد الحمد لله الذي قبض أبي ولم ير هذا اليوم وقال الحارث بن هشام أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً وقال سهيل بن عمرو إن يكره الله شيئاً يغيره .

وقال أبو سفيان : إني لا أقول شيئاً أخاف أن يخبره رب السماء فنزل جبريل فأخبر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بما قالوا وسألهم عما قالوا فأقروا فأنزل الله هذه الآية وزجرهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال والإزراء بالفقراء فقال ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ يعني آدم وحواء .

والمعنى : إنكم متساوون في النسب فلا تفاخر لبعض على بعض لكونكم أبناء رجل واحد وامرأة واحدة .

(197/719)

وقيل : يحتمل أن يكون المعنى إنا خلقنا كل واحد منكم أيها الموجودون من أب وأم فإن كل واحد منكم خلق كما خلق الآخر سواء فلا وجه للتفاخر والتفاضل في النسب ﴾

وجعلناكم شعوباً ﴾ جمع شعب بفتح الشين وهي رؤوس القبائل مثل ربيعة ومضر والأوس والخزرج سموا شعوباً لتشعب القبائل منهم وقيل لتجمعهم ﴿ وقبائل ﴾ جمع قبيلة وهي دون الشعوب كبكر من ربيعة وتميم من مضر ودون القبائل العمائر واحدتها عمارة بفتح العين وهم كشيبان من بكر ودارم من تميم ودون العمائر البطون واحدتها بطن وهم كبني غالب ولؤي من قريش ودون البطون الأفخاذ واحدتها فخذ وهم كبني هاشم وبني أمية من لؤي ودون الأفخاذ الفصائل واحدتها فصيلة بالصاد المهملة كبني العباس من بني هاشم ثم بعد ذلك العشائر واحدتها عشيرة وليس بعد العشيرة شيء يوصف .

وقيل : الشعوب للعجم ، والقبائل : للعرب ، والأسباط : من بني إسرائيل .

وقيل : الشعوب الذين لا ينسبون إلى أحد بل ينسبون إلى المدائن والقرى والقبائل الذين ينتسبون إلى آبائهم .

﴿ لتعارفوا ﴾ أي ليعرف بعضكم بعضاً في قرب النسب وبعده لا للتفاخر بالأنساب ثم بين الخصلة التي بها يفضل الإنسان على غيره ويكتسب بها الشرف عند الله تعالى فقال : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ قيل : أكرم الكرم التقوى ، وألأم اللؤم الفجور .

قوله تعالى : ﴿ قالت الأعراب آمنا ﴾ الآية نزلت في نفر من بني أسد بن خزيمة قدموا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في سنة مجدبة فأظهروا الإسلام ، ولم يكونوا مؤمنين في السر ، فأفسدوا طرق المدينة بالقذرات وأغلوا أسعارها وكانوا يغدون ويروحون إلى

رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

ويقولون : أتتك العرب أنفسهم على ظهور رواحلها وجئناك بالأثقال والعيال والذراري ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان ، يمنون على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بذلك ويريدون الصدقة ، ويقولون : أعطنا فأنزل الله فيهم هذه الآية .

(198/719)

وقيل : نزلت في الأعراب الذين ذكرهم الله في سورة الفتح وهم جهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار كانوا يقولون آمنا ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم فلما استنفروا للحديبية تخلفوا عنها فأنزل الله قالت الأعراب آمنا أي صدقنا ﴿ قل لم تؤمنوا ﴾ أي لم تصدقوا بقلوبكم ﴿ ولكن قولوا أسلمنا ﴾ أي استسلمنا وانقدنا مخافة القتل والسبي ﴿ ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ أخبر أن حقيقة الإيمان هو التصديق بالقلب وأن الإقرار باللسان وإظهار شرائعه بالأبدان لا يكون إيماناً دون التصديق بالقلب والإخلاص .

(ق) عن سعد بن أبي وقاص قال : " أعطى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رهطاً وأنا جالس فترك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رجلاً منهم هو أعجبهم إليّ فقلت ما لك عن فلان والله إني لأراه مؤمناً فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أو مسلماً ذكر

ذلك سعد ثلاثاً وأجابه بمثل ذلك ثم قال إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه خشية أن يكب في النار على وجهه " زاد في رواية قال الزهري : " فترى أن الإسلام الكلمة والإيمان العمل الصالح " لفظ الحميدي اعلم أن الإسلام هو الدخول في السلم وهو الانقياد والطاعة فمن الإسلام ما هو طاعة على الحقيقة باللسان والأبدان والجنان لقوله لإبراهيم عليه السلام : ﴿ أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾ ومنه ما هو انقياد باللسان والقلب وذلك قوله : ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم .

" وقيل : الإيمان هو التصديق بالقلب مع الثقة وطمأنينة النفس عليه والإسلام هو الدخول في السلم والخروج من أن يكون حرباً للمسلمين مع إظهار الشهادتين .

فإن قلت : المؤمن والمسلم واحد عند أهل السنة فكيف يفهم ذلك مع هذا القول .

(199/719)

قلت بين العام والخاص فرق فالإيمان لا يحصل إلا بالقلب والانقياد قد يحصل بالقلب وقد يحصل باللسان فالإسلام أعم والإيمان أخص لكن العام في صورة الخاص متحد مع الخاص ولا يكون أمراً غيره فالعام والخاص مختلفان في العموم والخصوص متحدان في الوجود فذلك المؤمن والمسلم .

وقوله تعالى : ﴿ وإن تطيعوا الله ورسوله ﴾ أي ظاهراً وباطناً سراً وعلانية وقال ابن عباس تخلصوا له الإيمان ﴿ لا يلتكم ﴾ أي لا ينقصكم ﴿ من أعمالكم شيئاً ﴾ أي من ثواب أعمالكم ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ ثم بين حقيقة الإيمان

﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ﴾ أي لم يشكوا في دينهم ﴿ وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾ أي في إيمانهم ولما نزلت هاتان الآيتان أتت الأعراب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يحلفون بالله إنهم مؤمنون صادقون وعرف الله منهم غير ذلك فأنزل الله : ﴿ قل أتعلمون الله بدينكم ﴾ أي تخبرون الله بدينكم الذي أنتم عليه ﴿ والله يعلم ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي لا تخفى عليه خافية ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ أي لا يحتاج إلى إخباركم ﴿ يمنون عليك أن أسلموا ﴾ هو قولهم أسلمنا ولم نحاربك يمنون بذلك على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فبين بذلك أن إسلامهم لم يكن خالصاً ﴿ قل لا تمنوا على إسلامكم ﴾ أي لا تعتدوا عليّ بإسلامكم ﴿ بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان ﴾ أي لله المنة عليكم أن أرشدكم وأمدكم بتوفيقه حيث هداكم للإيمان على ما زعمتم وادعيتم وهو قوله تعالى : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أي إنكم مؤمنون ﴿ إن الله يعلم غيب السموات والأرض ﴾ أي إنه سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء في السموات والأرض فكيف يخفى عليه حالكم بل

يعلم سركم وعلانيتكم ﴿ والله بصير بما تعملون ﴾ أي بجوار حكم الظاهرة والباطنة والله سبحانه وتعالى أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 6 صـ 217. 233 ﴾

(200/719)

وقال النسفى :

﴿ يا أيها الذين ءَامَنُواْ لاَ تُقَدِّمُواْ ﴾

قدّمه وأقدمه منقولان بتثقيل الحشو ، والهمزة من قدمه إذا تقدمه في قوله تعالى ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ ﴾ [هود : 98] وحذف المفعول ليتناول كل ما وقع في النفس مما يقدم من القول أو الفعل ، وجاز أن لا يقصد مفعول والنهي متوجه إلى نفس التقدمة كقوله ﴿ هُوَ الذى يُحْيِى وَيُمِيتُ ﴾ [غافر : 68] أو هو من قدّم بمعنى تقدم كوجه بمعنى توجه ومنه مقدمة الجيش وهي الجماعة المتقدمة منه ويؤيده قراءة يعقوب ﴿ لاَ تُقَدِّمُواْ ﴾ بحذف إحدى تاءي تتقدموا ﴿ بَيْنَ يَدَىِ الله وَرَسُولِهِ ﴾ حقيقة قولهم جلست بين يدي فلان أن تجلس بين الجهتين المسامتتين ليمينه وشماله قريباً منه ، فسميت الجهتان يدين لكونهما على سمت اليدين مع القرب منهما توسعاً كما يسمى الشيء باسم غيره إذا جاوره .

وفي هذه العبارة ضرب من المجاز الذي يسمى تمثيلاً ، وفيه فائدة جليلة وهي تصوير الهجنة

والشناعة فيما نهوا عنه من الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة .

ويجوز أن يجري مجرى قولك "سرني زيد وحسن حاله" أي سرني حسن حال زيد .

فكذلك هنا المعنى بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفائدة هذا الأسلوب الدلالة على قوة الاختصاص .

ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من الله بالمكان الذي لا يخفى سلك به هذا المسلك ، وفي هذا تمهيد لما نقم منهم من رفع أصواتهم فوق صوته عليه السلام ، لأن من فضله الله بهذه الأثرة واختصه هذا الاختصاص كان أدنى ما يجب له من التهيب والإجلال أن يخفض بين يديه الصوت .

وعن الحسن أن إناساً ذبحوا يوم الأضحى قبل الصلاة فنزلت ، وأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعيدوا ذبحاً آخر .

وعن عائشة رضي الله عنها أنها نزلت في النهي عن صوم يوم الشك .

(201/719)

﴿ واتقوا الله ﴾ فإنكم إن اتقيتموه عاقتكم التقوى عن التقدمة المنهي عنها ﴿ إِنَّ الله سَمِيعٌ ﴾ لما تقولون ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بما تعملون وحق مثله أن يتقي .

﴿ يأَيُّهَا الذين ءَامَنُواْ ﴾ إعادة النداء عليهم استدعاء منهم لتجديد الاستبصار عند كل خطاب وارد ، وتحريك منهم لئلا يغفلوا عن تأملهم ﴿ لاَ تَرْفَعُواْ أصواتكم فَوْقَ صَوْتِ النبى ﴾ أي إذا نطق ونطقتم فعليكم أن لا تبلغوا بأصواتكم وراء الحد الذي يبلغه بصوته ، وأن تغضوا منها بحيث يكون كلامه عالياً لكلامكم وجهره باهراً لجهركم حتى تكون مزيته عليكم لائحة وسابقته لديكم واضحة ﴿ وَلاَ تَجْهَرُواْ لَهُ بالقول كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ أي إذا كلمتموه وهو صامت فإياكم والعدول عما نهيتم عنه من رفع الصوت بل عليكم أن لا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم ، وأن تتعمدوا في مخاطبته القول اللين المقرب من الهمس الذي يضاد الجهر ، أو لا تقولوا : له يا محمد يا أحمد وخاطبوه بالنبوة والسكينة والتعظيم ، ولما نزلت هذه الآية ما كلم النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر إلا كأخي السرار .

وعن ابن عباس رضي الله عنهم أنها نزلت في ثابت بن قيس بن شماس وكان في أذانه وقر وكان جهوري الصوت ، وكان إذا كلم رفع صوته وربما كان يكلم النبي صلى الله عليه وسلم فيتأذى بصوته ، وكاف التشبيه في محل النصب أي لا تجهروا له جهراً مثل جهر بعضكم لبعض ، وفي هذا أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقاً حتى لا يسوغ لهم إلا أن يكلموه بالمخافتة ، وإنما نهوا عن جهر مخصوص أعني الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منه فيما بينهم وهو

الخلو من مراعاة أبهة النبوة وجلالة مقدارها .

﴿ أَن تَحْبَطَ أعمالكم ﴾ منصوب الموضع على أنه المفعول له متعلق بمعنى النهي ، والمعنى انتهوا عما نهيتم عنه لحبوط أعمالكم أي لخشية حبوطها على تقدير حذف المضاف ﴿ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ .

(202/719)

﴿ إِنَّ الذين يَغُضُّونَ أصواتهم عِندَ رَسُولِ الله ﴾ تم اسم "إن" عند قوله ﴿ رَسُولِ الله ﴾ والمعنى يخفضون أصواتهم في مجلسه تعظيماً له ﴿ أولئك ﴾ مبتدأ خبره ﴿ الذين امتحن الله قُلُوبَهُمْ للتقوى ﴾ وتم صلة ﴿ الذين ﴾ عند قوله ﴿ للتقوى ﴾ و ﴿ أولئك ﴾ مع خبره خبر "إن" .

والمعنى أخلصها للتقوى من قولهم "امتحن الذهب وفتنة" إذا أذابه فخلص ابريزه من خبثه ونقاه ، وحقيقته عاملها معاملة المختبر فوجدها مخلصة وعن عمر رضي الله عنه : أذهب الشهوات عنها .

والامتحان افتعال من محنه وهو اختبار بليغ أو بلاء جهيد ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ جملة أخرى قيل : نزلت في الشيخين رضي الله عنهما لما كان منهما من غض الصوت ،

وهذه الآية بنظمها الذي رتبت عليه من إيقاع الغاضين أصواتهم اسماً ل "إن" المؤكدة وتصيير خبرها جملة من مبتدأ وخبر معرفتين معاً والمبتدأ اسم الإشارة ، واستئناف الجملة المستودعة ما هو جزاؤهم على عملهم ، وإيراد الجزاء نكرة مبهماً أمره دالة على غاية الاعتداد والارتضاء بفعل الخافضين أصواتهم ، وفيها تعريض لعظيم ما ارتكب الرافعون أصواتهم .

﴿ إِنَّ الذين يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ الحجرات ﴾ نزلت في وفد بني تميم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقت الظهيرة وهو راقد وفيهم الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن ، ونادوا النبي صلى الله عليه وسلم من وراء حجراته وقالوا : اخرج إلينا يا محمد فإن مدحنا زين وذمنا شين ، فاستيقظ وخرج .

والوراء الجهة التي يواريها عنك الشخص بظله من خلف أو قدام ، و "من" لابتداء الغاية ، وأن المناداة نشأت من ذلك المكان ، والحجرة الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها وهي فعلة بمعنى مفعولة كالقبضة وجمعها الحجرات بضمتين ، والحجرات بفتح الجيم وهي قراءة يزيد والمراد حجرات نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت لكل منهن حجرة .

ومناداتهم من ورائها لعلهم تفرقوا على الحجرات متطلبين له أو نادوه من وراء الحجرة التي كان عليه السلام فيها ولكنها جمعت إجلالاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

والفعل وإن كان مسنداً إلى جميعهم فإنه يجوز أن يتولاه بعضهم وكان الباقون راضين فكأنهم تولوه جميعاً ﴿ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ يحتمل أن يكون فيهم من قصد استثناؤه ، ويحتمل أن يكون المراد النفي العام إذا القلة تقع موقع النفي .

وورود الآية على النمط الذي وردت عليه فيه ما لا يخفى من إجلال محل رسول الله صلى الله عليه وسلم منها : التسجيل على الصائحين به بالسفه والجهل ، ومنها إيقاع لفظ الحجرات كناية عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه ، ومنها التعريف باللام دون الإضافة ، ولو تأمل متأمل من أول السورة إلى آخر هذه الآية لوجدها كذلك .

فتأمل كيف ابتدأ بإيجاب أن تكون الأمور التي تنتمي إلى الله ورسوله متقدمة على الأمور كلها من غير تقييد ، ثم أردف ذلك النهي عما هو من جنس التقديم من رفع الصوت والجهر كأن الأول بساط للثاني ، ثم أثنى على الغاضين أصواتهم ليدل على عظيم موقعه عند الله ، ثم عقبه بما هو أطم وهجنته أتم من الصياح برسول الله صلى الله عليه وسلم في حال خلوته من وراء الجدر كما يصاح بأهون الناس قدراً لينبه على فظاعة ما جسروا عليه ، لأن من رفع الله قدره عن أن يجهر له بالقول كان صنيع هؤلاء من المنكر الذي بلغ في

التفاحش مبلغاً ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ ﴾ أي ولو ثبت صبرهم ، ومحل ﴿ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ ﴾ الرفع على الفاعلية .

والصبر حبس النفس عن أن تنازع إلى هواها قال الله تعالى : ﴿ واصبر نَفْسَكَ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ [الكهف : 28] .

وقولهم صبر عن كذا محذوف منه المفعول وهو النفس .

وقيل : الصبر مرّ لا يتجرعه إلا حرّ .

(204/719)

وقوله ﴿ حتى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ ﴾ يفيد أنه لو خرج ولم يكن خروجه إليهم ولأجلهم للزمهم أن يصبروا إلى أن يعلموا أن خروجه إليهم ﴿ لَكَانَ ﴾ الصبر ﴿ خَيْراً لَّهُمْ ﴾ في دينهم ﴿ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ بليغ الغفران والرحمة واسعهما فلن يضيق غفرانه ورحمته عن هؤلاء إن تابوا وأنابوا .

﴿ يا أيها الذين ءَامَنُواْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُ بِنَبَإٍ ﴾ أجمعوا أنها نزلت في الوليد بن عقبة وقد بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم مصدقاً إلى بني المصطلق وكانت بينه وبينهم إحنة في الجاهلية ، فلما شارف ديارهم ركبوا مستقبلين إليه فحسبهم مقاتليه فرجع وقال لرسول

الله صلى الله عليه وسلم : قد ارتدوا ومنعوا الزكاة .

فبعث خالد بن الوليد فوجدهم يصلون فسلموا إليه الصدقات فرجع .

وفي تنكير الفاسق والنبأ شياع في الفساق والأنباء كأنه قال أي فاسق جاءكم بأي نبأ ﴿ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ فتوقفوا فيه وتطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة ولا تعتمدوا قول الفاسق ، لأن من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذب الذي هو نوع منه .

وفي الآية دلالة قبول خبر الواحد العدل لأنا لو توقفنا في خبره لسوينا بينه وبين الفاسق ولخلا التخصيص به عن الفائدة ، والفسوق الخروج من الشيء .

يقال : فسقت الرطبة عن قشرها ، ومن مقلوبه : فقست البيضة إذا كسرتها وأخرجت ما فيها ، ومن مقلوبه أيضاً : قفست الشيء إذا أخرجته من يد مالكه مغتصباً له عليه ، ثم استعمل في الخروج عن القصد بركوب الكبائر .

حمزة وعلي ﴿ فتثبتوا ﴾ والتثبت والتبين متقاربان وهما طلب الثبات والبيان والتعرف ﴿ أَن تصيبوا قَوْماً ﴾ لئلا تصيبوا ﴿ بِجَهَالَةٍ ﴾ حال يعني جاهلين بحقيقة الأمر وكنه القصة ﴿ فَتُصْبِحُواْ ﴾ فتصيروا ﴿ على مَا فَعَلْتُمْ نادمين ﴾ الندم ضرب من الغم وهو أن تغتم على ما وقع منك تتمنى أنه لم يقع وهو غم يصحب الإنسان صحبة لها دوام .

﴿ واعلموا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ الله ﴾ فلا تكذبوا فإن الله يخبره فينهتك ستر الكاذب ، أو فارجعوا إليه واطلبوا رأيه .

ثم قال مستأنفاً ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ الأمر لَعَنِتُّمْ ﴾ لوقعتم في الجهد والهلاك ، وهذا يدل على أن بعض المؤمنين زينوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم الإيقاع ببني المصطلق وتصديق قول الوليد ، وأن بعضهم كانوا يتصوّنون ويزعهم جدهم في التقوى عن الجسارة على ذلك وهم الذين استثناهم بقوله ﴿ ولكن الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمان ﴾ وقيل : هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى .

ولما كانت صفة الذين حبب الله إليهم الإيمان غايرت صفة المتقدم ذكرهم وقعت "لكن" في حاقّ موقعها من الاستدراك وهو مخالفة ما بعدها لما قبلها نفياً وإثباتاً ﴿ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكفر ﴾ وهو تغطية نعم الله وغمطها بالجحود ﴿ والفسوق ﴾ وهو الخروج عن محجة الإيمان بركوب الكبائر ﴿ والعصيان ﴾ وهو ترك الانقياد بما أمر به الشارع ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الراشدون ﴾ أي أولئك المستثنون هم الراشدون يعني أصابوا طريق الحق ولم يميلوا عن الاستقامة ، والرشد الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه من الرشادة وهي الصخرة ﴿ فَضْلاً مِّنَ الله وَنِعْمَةً ﴾ الفضل والنعمة بمعنى الإفضال والإنعام ، والانتصاب على المفعول له أي حبب وكره للفضل والنعمة ﴿ والله عَلِيمٌ ﴾ بأحوال المؤمنين وما بينهم

من التمايز والتفاضل ﴿ حَكِيمٌ ﴾ حين يفضل وينعم بالتوفيق على الأفاضل .

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾ وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مجلس بعض الأنصار وهو على حمار فبال الحمار فأمسك ابن أبي بأنفه وقال : خل سبيل حمارك فقد آذانا نتنه .

فقال عبد الله بن رواحة : والله إن بول حماره لأطيب من مسكك .

(206/719)

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وطال الخوض بينهما حتى استبا وتجالدا وجاء قوماهما وهما الأوس والخزرج فتجالدوا بالعصي .

وقيل : بالأيدي والنعال والسعف ، فرجع إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصلح بينهم ونزلت .

وجمع ﴿ اقتتلوا ﴾ حملاً على المعنى لأن الطائفتين في معنى القوم والناس ، وثنى في ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾ نظراً إلى اللفظ ﴿ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا على الأخرى ﴾ البغي الاستطالة والظلم وإباء الصلح ﴿ فقاتلوا التى تَبْغِى حتى تَفِىءَ ﴾ أي ترجع والفيء الرجوع وقد سمى به الظل والغنيمة لأن الظل يرجع بعد نسخ الشمس ، والغنيمة ما يرجع

من أموال الكفار إلى المسلمين ، وحكم الفئة الباغية وجوب قتالها ما قاتلت فإذا كفت وقبضت عن الحرب أيديها تركت ﴿ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ المذكور في كتابه من الصلح وزوال الشحناء ﴿ فَإِن فَآءَتْ ﴾ عن البغي إلى أمر الله ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بالعدل ﴾ بالإنصاف ﴿ وَأَقْسِطُواْ ﴾ واعدلوا وهو أمر باستعمال القسط على طريق العموم بعد ما أمر به في إصلاح ذات البين ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المقسطين ﴾ العادلين والقسط : الجور ، والقسط : العدل ، والفعل منه أقسط وهمزته للسلب أي أزال القسط وهو الجور .

﴿ إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ هذا تقرير لما ألزمه من تولي الإصلاح بين من وقعت بينهم المشاقة من المؤمنين ، وبيان أن الإيمان قد عقد بين أهله من السبب القريب والنسب اللاصق ما إن لم يفضل الإخوة لم ينقص عنها .

(207/719)

ثم قد جرت العادة على أنه إذا نشب مثل ذلك بين الأخوين ولاداً لزم السائر أن يتناهضوا في رفعه وإزاحته بالصلح بينهما فالإخوة في الدين أحق بذلك ، ﴿ أخوتكم ﴾ يعقوب ﴿ واتقوا الله لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أي واتقوا الله ، فالتقوى تحملكم على التواصل والائتلاف وكان عند فعلكم ذلك وصول رحمة الله إليكم مرجواً ، والآية تدل على أن البغي لا يزيل

اسم الإيمان لأنه سماهم مؤمنين مع وجود البغي .

﴿ يا أيها الذين ءَامَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عسى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عسى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ ﴾ القوم : الرجال خاصة لأنهم القوام بأمور النساء قال الله تعالى : ﴿ الرجال قَوَّامُونَ عَلَى النساء ﴾ [النساء : 34] وهو في الأصل جمع قائم كصوم وزور في جمع صائم وزائر .

واختصاص القوم بالرجال صريح في الآية إذ لو كانت النساء داخلة في قوم لم يقل ولا نساء

وحقق ذلك زهير في قوله :

وما أدري ولست إخال أدري . . .

أقوم آل حصن أم نساء ؟

وأما قولهم في قوم فرعون وقوم عاد هم الذكور والإناث فليس لفظ القوم بمتعاط للفريقين ، ولكن قصد ذكر الذكور وترك ذكر الإناث لأنهن توابع لرجالهن .

وتنكير القوم والنساء يحتمل معنيين : أن يراد لا يسخر بعض المؤمنين والمؤمنات من بعض ، وأن يقصد إفادة الشياع وأن يصير كل جماعة منهم منهية عن السخرية .

وإنما لم يقل رجل من رجل ولا امرأة من امرأة على التوحيد إعلاماً بإقدام غير واحد من رجالهم وغير واحدة من نسائهم على السخرية واستفظاعاً للشأن الذي كانوا عليه ، وقوله : ﴿ عسى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ ﴾ .

كلام مستأنف ورد مورد جواب المستخبر عن علة النهي وإلا فقد كان حقه أن يوصل بما قبله بالفاء ، والمعنى وجوب أن يعتقد كل واحد أن المسخور منه ربما كان عند الله خيراً من الساخر إذ لا اطلاع للناس إلا على الظواهر ولا علم لهم بالسرائر ، والذي يزن عند الله خلوص الضمائر فينبغي أن لا يجتريء أحد على الاستهزاء بمن تقتحمه عينه إذا رآه رث الحال أو ذا عاهة في بدنه أو غير لبيق في محادثته ، فلعله أخلص ضميراً وأتقى قلباً ممن هو على ضد صفته فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله تعالى ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه : البلاء موكل بالقول لو سخرت من كلب لخشيت أن أحول كلباً .

﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ ولا تطعنوا أهل دينكم .

واللمز : الطعن والضرب باللسان ﴿ وَلَا تَلْمِزُواْ ﴾ يعقوب وسهل .

والمؤمنون كنفس واحدة فإذا عاب المؤمن المؤمن فكأنما عاب نفسه .

وقيل : معناه لا تفعلوا ما تلمزون به لأن من فعل ما استحق به اللمز فقد لمز نفسه حقيقة ﴿ وَلَا تَنَابَزُواْ بِالْأَلْقَابِ ﴾ التنابز بالألقاب التداعي بها ، والنبز لقب السوء والتلقيب المنهي عنه هو ما يتداخل المدعو به كراهة لكونه تقصيراً به وذماً له ، فأما ما يحبه فلا بأس به .

ورُوي أن قوماً من بني تميم استهزءوا ببلال وخباب وعمار وصهيب فنزلت .

وعن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تسخر من زينب بنت خزيمة وكانت قصيرة ، وعن أنس رضي الله عنه : عيرت نساء النبي صلى الله عليه وسلم أم سلمة بالقصر .

ورُوي أنها نزلت في ثابت بن قيس وكان به وقر فكانوا يوسعون له في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسمع ، فأتى يوماً وهو يقول تفسحوا حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لرجل : تنح فلم يفعل .

فقال : من هذا ؟ فقال الرجل : أنا فلان .

فقال : بل أنت ابن فلانة يريد أماً كان يعير بها في الجاهلية فخجل الرجل فنزلت فقال ثابت : لا أفخر على أحد في الحسب بعدها أبداً .

(209/719)

﴿ بِئْسَ الاسم الفسوق بَعْدَ الإيمان ﴾ الاسم ههنا بمعنى الذكر من قولهم "طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم" وحقيقته ما سما من ذكره وارتفع بين الناس كأنه قيل : بئس الذكر المرتفع للمؤمنين بسبب ارتكاب هذه الجرائم أن يذكروا بالفسق .

وقوله ﴿ بَعْدَ الإيمان ﴾ استقباح للجمع بين الإيمان وبين الفسق الذي يحظره الإيمان كما

تقول "بئس الشأن بعد الكبرة الصبوة" .

وقيل : كان في شتائمهم لمن أسلم من اليهود يا يهودي يا فاسق فنهوا عنه ، وقيل لهم : بئس الذكر أن تذكروا الرجل بالفسق واليهودية بعد إيمانه ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ ﴾ عما نهي عنه ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظالمون ﴾ وحد وجمع للفظ من ومعناه .

﴿ يا أيها الذين ءَامَنُواْ اجتنبوا كَثِيراً مِّنَ الظن ﴾ يقال : جنبه الشر إذا أبعده عنه .

وحقيقته جعله في جانب فيعدى إلى مفعولين قال الله تعالى : ﴿ واجنبنى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ الأصنام ﴾ [إبراهيم : 35] ومطاوعه اجتنب الشر فنقص مفعولاً والمأمور باجتنابه بعض الظن وذلك البعض موصوف بالكثرة ألا ترى إلى قوله ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظن إِثْمٌ ﴾ قال الزجاج : هو ظنك بأهل الخير سوأ ، فأما أهل الفسق فلنا أن نظن فيهم مثل الذي ظهر منهم .

أو معناه اجتنابا كثيراً أو احترزوا من الكثير ليقع التحرز عن البعض ، والإثم : الذنب الذي يستحق صاحبه العقاب ومنه قيل لعقوبته الأثام فعلا منه كالنكال والعذاب ﴿ وَلاَ تَجَسَّسُواْ ﴾ أي لا تتبعوا عورات المسلمين ومعايبهم .

يقال : تجسس الأمر إذا تطلبه وبحث عنه تفعل من الجس .

وعن مجاهد : خذوا ما ظهر ودعوا ما ستر الله .

وقال سهل : لا تبحثوا عن طلب معايب ما ستره الله على عباده ﴿ وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم

بَعْضاً ﴾ الغيبة الذكر بالعيب في ظهر الغيب وهي من الاغتياب كالغيلة من الاغتيال ، وفي الحديث " هو أن تذكر أخاك بما يكره " فإن كان فيه فهو غيبة وإلا فهو بهتان .

وعن ابن عباس : الغيبة إدام كلاب الناس .

(210/719)

﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً ﴾ ﴿ مَيِّتًا ﴾ مدني .

وهذا تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفحش وجه ، وفي مبالغات منها : الاستفهام الذي معناه التقرير ، ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة ، ومنها إسناد الفعل إلى أحدكم والإشعار بأن أحداً من الأحدين لا يحب ذلك ، ومنها أن لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أخاً ، ومنها أن لم يقتصر على لحم الأخ حتى جعل ميتاً .

وعن قتادة : كما تكره إن وجدت جيفة مدودة أن تأكل منها كذلك فاكره لحم أخيك وهو حي ، وانتصب ﴿ مَيْتًا ﴾ على الحال من اللحم أو من أخيه ، ولما قررهم بأن أحداً منهم لا يحب أكل جيفة أخيه عقب ذلك بقوله ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ أي فتحققت كراهتكم له باستقامة العقل فليتحقق أن تكرهوا ما هو نظيره من الغيبة باستقامة الدين ﴿ واتقوا الله

إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ التواب : البليغ في قبول التوبة ، والمعنى واتقوا الله بترك ما أمرتم باجتنابه والندم على ما وجد منكم منه فإنكم إن اتقيتم تقبل الله توبتكم وأنعم عليكم بثواب المتقين التائبين .

ورُوي أن سلمان كان يخدم رجلين من الصحابة ويسوي لهما طعامهما فنام عن شأنه يوماً فبعثاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبغي لهما إداماً وكان أسامة على طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما عندي شيء فأخبرهما سلمان فقالا : لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها .

فلما جاءا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهما : مالي أرى خضرة اللحم في أفواهكما فقالا : ما تناولنا لحماً ، قال : إنكما قد اغتبتما ومن اغتاب مسلماً فقد أكل لحمه .

ثم قرأ الآية ، وقيل : غيبة الخلق إنما تكون من الغيبة عن الحق .

(211/719)

﴿ يَأَيُّهَا الناس إِنَّا خلقناكم مِّن ذَكَرٍ وأنثى ﴾ من آدم وحواء أو كل واحد منكم من أب وأم فما منكم من أحد إلا وهو يدلي بمثل ما يدلي به الآخر سواء بسواء فلا معنى للتفاخر

والتفاضل في النسب ﴿ وجعلناكم شُعُوباً وَقَبَآئِلَ ﴾ الشعب الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب وهي : الشعب والقبيلة والعمارة والبطن والفخذ والفصيلة .

فالشعب يجمع القبائل ، والقبيلة تجمع العمائر ، والعمارة تجمع البطون ، والبطن تجمع الأفخاذ ، والفخذ تجمع الفصائل ، خزيمة شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة ، وقصي بطن ، وهاشم فخذ ، والعباس فصيلة ، وسميت الشعوب لأن القبائل تشعبت منها ﴿ لتعارفوا ﴾ أي إنما رتبكم على شعوب وقبائل ليعرف بعضكم نسب بعض فلا يعتزى إلى غير آبائه ، لا أن تتفاخروا بالآباء والأجداد وتدعوا التفاضل في الأنساب .

ثم بين الخصلة التي يفضل بها الإنسان غيره ويكتسب الشرف والكرم عند الله فقال ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ اللهِ أتقاكم ﴾ في الحديث : " من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله " وعن ابن عباس رضي الله عنهما : كرم الدنيا الغنى وكرم الآخرة التقوى .

ورُوي أنه صلى الله عليه وسلم طاف يوم فتح مكة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : " الحمد لله الذي أذهب عنكم عِبُية الجاهلية وتكبرها .

يا أيها الناس إنما الناس رجلان : مؤمن تقي كريم على الله وفاجر وشقي هين على الله " ثم قرأ الآية .

وعن يزيد بن شجرة مر رسول الله صلى الله عليه وسلم في سوق المدينة فرأى غلاما أسود يقول : من اشتراني فعلى شرط أن لا يمنعني من الصلوات الخمس خلف رسول الله صلى

الله عليه وسلم .

فاشتراه بعضهم فمرض فعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم توفي فحضر دفنه فقالوا في ذلك شيئاً فنزلت ﴿ إِنَّ الله عَلِيمٌ ﴾ كرم القلوب وتقواها ﴿ خَبِيرٌ ﴾ بهمّ النفوس في هواها .

(212/719)

﴿ قَالَتِ الأعراب ﴾ أي بعض الأعراب لأن من الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر وهم أعراب بني أسد قدموا المدينة في سنة جدبة فاظهروا الشهادة يريدون الصدقة ويمنون عليه ﴿ ءَامَنَّا ﴾ أي ظاهراً وباطناً ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد ﴿ لَّمْ تُؤْمِنُواْ ﴾ لم تصدقوا بقلوبكم ﴿ ولكن قُولُواْ أَسْلَمْنَا ﴾ فالإيمان هو التصديق ، والإسلام الدخول في السلم والخروج من أن يكون حرباً للمؤمنين بإظهار الشهادتين ، ألا ترى إلى قوله ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمان فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ فاعلم أن ما يكون من الإقرار باللسان من غير مواطأة القلب فهو إسلام ، وما واطأ فيه القلب اللسان فهو إيمان ، وهذا من حيث اللغة .

وأما في الشرع فالإيمان والإسلام واحد لما عرف ، وفي ﴿ لَّمَّاً ﴾ معنى التوقع وهو دال على أن بعض هؤلاء قد آمنوا فيما بعد .

والآية تنقض على الكرامية مذهبهم أن الإيمان لا يكون بالقلب ولكنّ باللسان ، فإن قلت : مقتضى نظم الكلام أن يقال : قل لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا ، أو قل لم تؤمنوا ولكن أسلمتم .

قلت : أفاد هذا النظم تكذيب دعواهم أولاً فقيل ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ﴾ مع أدب حسن فلم يقل كذبتم تصريحاً ووضع ﴿ لَّمْ تُؤْمِنُواْ ﴾ الذي هو نفي ما ادعوا إثباته موضعه واستغنى بقوله ﴿ لَّمْ تُؤْمِنُواْ ﴾ عن أن يقال لا تقولوا آمنا لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مؤداه النهي عن القول بالإيمان ، ولم يقل ولكن أسلمتم ليكون خارجاً مخرج الزعم والدعوى كما كان قولهم آمنا كذلك .

ولو قيل ولكن أسلمتم لكان كالتسليم والاعتداد بقولهم وهو غير معتد به .

(213/719)

وليس قوله ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ تكريراً لمعنى قوله ﴿ لَّمْ تُؤْمِنُواْ ﴾ فإن فائدة قوله ﴿ لَّمْ تُؤْمِنُواْ ﴾ تكذيب لدعواهم وقوله ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ توقيب لما أمروا به أن يقولوه كأن قيل لهم : ولكن قولوا أسلمنا حين لم تثبت مواطأة قلوبكم لألسنتكم لأنه كلام واقع موقع الحال من الضمير في ﴿ قُولُواْ ﴾ .

﴿ وَإِن تُطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ في السر بترك النفاق ﴿ لاَ يَلِتْكُمْ ﴾ ﴿ لا يألتكم ﴾ : بصري ﴿ مِّنْ أعمالكم شَيْئاً ﴾ أي لا ينقصكم من ثواب حسناتكم شيئاً .

ألت يألت وألات يليت ولات يليت بمعنى وهو النقص ﴿ أَنَّ اللهَ غَفُورٌ ﴾ بستر الذنوب ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بهدايتهم للتوبة عن العيوب .

ثم وصف المؤمنين المخلصين فقال ﴿ إِنَّمَا المؤمنون الذين ءَامَنُواْ بالله وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ ﴾ ارتاب مطاوع رابه إذا أوقعه في الشك مع التهمة ، والمعنى أنهم آمنوا ثم لم يقع في نفوسهم شك فيما آمنوا به ولا اتهام لما صدقوه .

ولما كان الإيقان وزوال الريب ملاك الإيمان أفرد بالذكر بعد تقدم الإيمان تنبيهاً على مكانه ، وعطف على الإيمان بكلمة التراخي إشعاراً باستقراره في الأزمنة المتراخية المتطاولة غضاً جديداً ﴿ وجاهدوا بأموالهم وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ الله ﴾ يجوز أن يكون المجاهد منوياً وهو العدو المحارب أو الشيطان أو الهوى ، وأن يكون جاهد مبالغة في جهد ، ويجوز أن يراد بالمجاهدة بالنفس الغزو وأن يتناول العبادات بأجمعها وبالمجاهدة بالمال نحو صنيع عثمان في جيش العسرة ، وأن يتناول الزكاة وكل ما يتعلق بالمال من أعمال البر .

وخبر المبتدأ الذي هو ﴿ المؤمنون ﴾ ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الصادقون ﴾ أي الذين صدقوا في قولهم آمنا ولم يكذبوا كما كذب أعراب بني أسد أو هم الذين إيمانهم إيمان صدق وحق .

وقوله ﴿ الذين آمَنُواْ ﴾ صفة لهم .

ولما نزلت هذه الآية جاءوا وحلفوا أنهم مخلصون فنزل ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ ﴾ أي أتخبرونه بتصديق قلوبكم ﴿ واللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ من النفاق والإخلاص وغير ذلك ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ ﴾ أي بأن ﴿ أَسْلَمُواْ ﴾ يعني بإسلامهم.

والمن ذكر الأيادي تعريضاً للشكر ﴿ قُل لاَّ تَمُنُّواْ عَلَيَّ إسلامكم بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ ﴾ أي المنة لله عليكم ﴿ أَنْ هَدَاكُمْ ﴾ بأن هداكم أو لأن ﴿ للإيمان إِنْ كُنتُمْ صادقين ﴾ إن صح زعمكم وصدقت دعواكم إلا أنكم تزعمون وتدعون ما الله عليم بخلافه، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه تقديره إن كنتم صادقين في ادعائكم الإيمان بالله فلله المنة عليكم وقرىء ﴿ إِنْ هَدَاكُمْ ﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السماوات والأرض واللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ وبالياء: مكي.

وهذا بيان لكونهم غير صادقين في دعواهم يعني أنه تعالى يعلم كل مستتر في العالم ويبصر كل عمل تعملونه في سركم وعلانيتكم لا يخفي عليه منه شيء فكيف يخفي عليه ما في

ضمائركم وهو علام الغيوب ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 165 .

175 ﴾

(215/719)

وقال ابن جزى :

سورة الحجرات

﴿ لاَ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾

فيه ثلاثة أقوال : أحدها لا تتكلموا بأمر قبل أن يتكلم هو به ، ولا تقطعوا في أمر إلا بنظره والثاني لا تقدموا الولاة بمحضره فإنه يقدم من شاء ، والثالث لا تتقدموا بين يديه إذا مشى ، وهذا إنما يجري على قراءة يعقوب لا تقدموا بفتح التاء والقاف والدال ، والأول هو الأظهر ؛ لأن عادة العرب الاشتراك في الرأي ، وأن يتكلم كل أحد بما يظهر له ، فربما فعل ذلك قوم مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فنهاهم الله عن ذلك ، ولذلك قال مجاهد : معناه لا تفتاتوا على الله شيئاً حتى يذكره على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، وإنما قال : بين يدي الله ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم إنما يتكلم بوحي من الله .

﴿ لاَ ترفعوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النبي ﴾ أمر الله المؤمنين أن يتأدبوا مع النبي صلى الله

عليه وسلم بهذا الأدب ، كرامةً له وتعظيماً ، وسببها أن بعض جفاة الأعراب كانوا يرفعون أصواتهم ﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ ﴾ مفعول من أجله تقديره : مخافة أن تحبط أعمالكم إذا رفعتم أصواتكم فوق صوته ، أو جهرتم له بالقول صلى الله عليه وسلم ، فالمفعول من أجله يتعلق بالفعلين معاً من طريق المعنى ، وأما من طريق الإعراب فيتعلق عند البصريين بالثاني وهو : ﴿ وَلاَ تَجْهَرُواْ ﴾ وعند الكوفيين بالأول وهو ﴿ لاَ ترفعوا أَصْوَاتَكُمْ ﴾ ، وهذا الإحباط ؛ لأن قلة الأدب معه صلى الله عليه وسلم والتقصير في توقيره يحبط الحسنات وإن فعله مؤمن ، لعظيم ما وقع فيه من ذلك . وقيل : إن الآية خطاب للمنافقين وهذا ضعيف ، لقوله في أولها : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ ﴾ وقوله : ﴿ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ فإنه لا يصح أن يقال هذا لمنافق ، فإنه يفعله " جرأة " وهو يقصده .

(216/719)

﴿ إِنَّ الذين يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ الله ﴾ نزلت في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، فإنه لما نزلت الآية قبلها قال أبو بكر : والله يا رسول الله لا أكلمك إلا سراً . وكان عمر يخفي كلامه حين يستفهمه النبي صلى الله عليه وسلم ، ولفظها مع ذلك على عمومه ، ومعنى ﴿ امتحن ﴾ : اختبر فوجدها كما يجب ، مثل ما يُختبر الذهب بالنار ، فيوجدُ

طيباً ، وقيل معناها : دربَّها للتقوى حتى صارت قوية على احتماله بغير تكلف . وقيل : معاه أخلصها الله للتقوى .

﴿ إِنَّ الذين يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ الحجرات أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ الحجرات : جمع حُجْرة وهي قطعة من الأرض يحجر عليها بحائط ، وكان لكل واحدة من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم حجرة . " ونزلت الآية في وفد بني تميم ، قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فادخلوا المسجد ودنَوْا من حجرات أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ووقفوا خارجها ونادَوْا : يا محمد أُخرج إلينا فكان في فعلهم ذلك جفاء وبداوة وقلة توقير ، فتربص رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة ثم خرج إليهم ، فقال له واحد منهم وهو الأقرع بن حابس : يا محمد إنَّ مدحي زَيْن وذمّي شَيْن . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويحك ذلك الله تعالى " ﴿ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما أن يكون فيهم قليل من يعقل ونفي العقل عن أكثرهم لا عن جميعهم ، والآخر أن يكون جميعهم ممن لا يعقل ، وأوقع القلة موضع النفي والأول أظهر في مقتضى اللفظ . والثاني أبلغ في الذم .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حتى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ ﴾ يعني خيراً في الثواب ، وفي انبساط نفس النبي صلى الله عليه وسلم ، وقضائه حوائجهم ، وإنكار فعلهم فيه تأديب لهم ، وتعليم لغيرهم .

﴿ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فتبينوا ﴾ سببها أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق ، ليأخذ زكاتهم ، فروي أنه كان معادياً لهم ، فأراد إذايتهم فرجع من بعض طريقه فكذب عليهم ، وقال للنبي صلى الله عليه وسلم : إنهم قد منعوني الصّدقة و طردوني وارتدوا ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم همَّ بغزوهم ، ونظر في ذلك فورد وفدهم منكرين لذلك ، ورُوي أن الوليد بن عقبة لما قرب منهم خرجوا إليه متلقين له ، فرآهم على بعد ففزع منهم وظنّ بهم الشر ، فانصرف فقال ما قال . وروي أنه بلغه أنهم قالوا : لا نعطيه صدقة ولا نعطيه فانصرف ، وقال ما قال . فالفاسق المشار إليه في الآية هو الوليد بن عقبة ، ولم يزل بنعد ذلك يفعل أفعال الفساق ، حتى صلى بالناس صلاة الصبح أربع ركعات وهو سكران ، ثم قال لهم : أزيدكم إن شئتم ، ثم هي باقية في كل من اتصف بهذه الصفة إلى آخر الدهر ، وقرئ فتبينوا من التبين ، وتثبتوا بالثاء من التثبت ، ويقوي هذه القراءة أنها لما نزلت روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " التثبت من الله والعجلة من الشيطان " ، واستدل بهذه الآية القائلون بقبول خبر الواحد ، لأن دليل الخطاب يقتضي أن خبر غير الفاسق مقبول ، قال المنذر بن سعيد البلوطي : وهذه الآية تردّ على من قال : إن المسلمين كلهم عدول ، لأن الله أمر بالتبين قبل القبول ، فالمجهول الحال يخشى أن يكون فاسقاً ﴿ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ﴾ في موضع المفعول من

أجله تقديره : مخافة أن تصيبوا قوماً بجهالة ، والإشارة إلى قتال بني المصطلق لما ذكر عنهم الوليد ما ذكر .

(218/719)

﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأمر لَعَنِتُّمْ ﴾ أي لشقيتم ، والعنت المشقة ، وإنما قال : لو يطيعكم ولم يقل لو أطاعكم ، للدلالة على أنهم كانوا يريدون استمرار طاعته عليه الصلاة والسلام لهم ، والحق خلاف ذلك ، وإنما الواجب أن يطيعوه هم لا أن يطيعهم هو ، وذلك أن رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم خير وأصوب من رأي غيره ، ولو أطاع الناس في رأيهم لهلكوا ، فالواجب عليهم الانقياد إليه والرجوع إلى أمره ، وإلى ذلك الإشارة بقوله : ﴿ ولكن الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمان ﴾ الآية .

(219/719)

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾ اختلف في سبب نزولها ، فقال الجمهور : هو ما وقع بين المسلمين وبين المتحزبين منهم لعبد الله بن أبيّ بن سلول " حين مر به

رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوجه إلى زيارة سعد بن عبادة في مرضه ، فبال حمار رسول الله صى الله عليه وسلم . فقال عبد الله بن أبيّ للنبي صلى الله عليه وسلم : لقد آذاني نتن حمارك ، فردّ عليه عبد الله بن رواحة وتلاحى الناس حتى وقع بين الطائفتين ضرب بالجريد " وقيل : بالحديد ، وقيل : سببها أن فريقين من الأنصار وقع بينهما قتال ، فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد جهد ، ثم حكمُها باقٍ إلى آخر الدهر .

وإنما قال اقتتلوا ولم يقل اقتتلا لأن الطائفة في معنى القول والناس ، فهي في معنى الجمع ﴿ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا على الأخرى فَقَاتِلُواْ التي تَبْغِي ﴾ أمر الله في هذه الآية بقتال الفئة الباغية ، وذلك إذا تبين أنها باغية ، فأما الفتن التي تقع بين المسلمين ؛ فاختلف العلماء فيها على قولين : أحدهما أنه لا يجوز النهوض في شيء منها ولا القتال ، وهو مذهب سعد بن أبي وقاص وأبي ذر وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم ، وحجتهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قتال المسلم كفر " وأمره عليه الصلاة والسلام بكسر السيوف في الفتن ، والقول الثاني أن النهوض فيها واجبٌ لِتُكفَّ الطائفة الباغية ، وهذا قول علي وعائشة وطلحة والزبير وأكثر الصحابة ، وهو مذهب مالك وغيره من الفقهاء ، وحجتهم هذه الآية فإذا فرَّعنا على القول الأول ، فإن دخل داخل على من اعتزل الفريقين منزلة يريد نفسه أو ماله فليدفعه عن نفسه وإن أدّى ذلك إلى قتله لقوله صلى الله عليه وسلم : " من قتل دون

نفسه أو ماله فهو شهيد " وإذا فرّعنا على القول الثاني فاختلف مع من يكون النهوض في الفتن فقيل : مع السواد الأعظم وقيل : مع العلماء وقيل : مع من يرى أن الحق

(220/719)

معه ، وحكم القتال في الفتن : أن لا يُجهز على جريح ، ولا يُطلب هارب ، ولا يقتل أسير ولا يقسم فيء ﴿ حتى تفيء ﴾ أي ترجع إلى الحق ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ إنما ذكره بلفظ التثنية لأن أقل من يقع بينهم البغي اثنان ، وقيل أراد بالأخوين الأوس والخزرج ، وقرأ ابن عامر بين إخوتكم بالتاء على الجمع ، وقرئ بين إخوانكم بالنون على الجمع أيضاً .

﴿ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾ نهى عن السخرية وهي الاستهزاء بالناس ﴿ عسى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ ﴾ أي لعل المسخور منه خير من الساخر عند الله ، وهذا تعليل للنهي ﴿ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ ﴾ لما كان القوم لا يقع إلا على الذكور عطف النساء عليهم ﴿ وَلاَ تلمزوا أَنفُسَكُمْ ﴾ أي لا يطعن بعضكم على بعض واللمز : العيب ، سواء كان بقول أو إشارة أو غير ذلك ، وسنذكر الفرق بينه وبين الهمز في سورة الهمزة ﴿ أَنفُسَكُمْ ﴾ هنا بمنزلة قوله : ﴿ فَسَلِّمُواْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ [النور : 61] ﴿ وَلاَ تَنَابَزُواْ بالألقاب ﴾ أي لا يدعُ أحد أحداً بلقب ، والتنابز بالألقاب التداعي بها ، وقد أجاز المحدثون أن يقال الأعمش

والأعرج ونحوه إذا دعت إليه الضرورة ولم يقصد النقص والاستخفاف .

﴿ بِئْسَ الاسم الفسوق بَعْدَ الإيمان ﴾ يريد بالاسم أن يسمى الإنسان فاسقاً بعد أن سمي مؤمناً ، وفي ذلك ثلاثة أوجه : أحدها استقباح الجمع بين الفسق وبين الإيمان ، فمعنى ذلك أن من فعل شيئاً من هذه الأشياء التي نهى عنها فهو فاسق وإن كان مؤمناً ، والآخر بئس ما يقوله الرجل للآخر يا فاسق بعد إيمانه ، كقولهم لمن أسلم من اليهود : يا يهودي ، الثالث أن يُعجل من فَسَقَ غير مؤمن وهذا على مذهب المعتزلة .

(221/719)

﴿ اجتنبوا كَثِيراً مِّنَ الظن ﴾ يعني ظن السوء بالمسلمين ، وأما ظن الخير فهو حسن ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظن إِثْمٌ ﴾ قيل : في معنى الإثم هنا الكذب لقوله صلى الله عليه وسلم : " الظن أكذب الحديث " لأنه قد لا يكون مطابقاً للأمر ، وقيل : إنما يكون إثماً إذا تكلم به وأما إذا لم تكلم به فهو في فسحة لأنه لا يقدر على دفع الخواطر ، واستدل بعضهم بهذه الآية على صحة سد الذرائع في الشرع ، لأنه أمر باجتناب كثير من الظن ، وأخبر أن بعضه إثم باجتناب الأكثر من الإثم احترازاً من الوقوع في البعض الذي هو إثم ﴿ وَلاَ تَجَسَّسُواْ ﴾ أي لا تبحثوا عن مخبآت الناس وقرأ الحسن : تحسسوا بالحاء والتجسس بالجيم في الشر

وبالحاء في الخير ، وقيل : التجسس ما كان من وراء والتحسس بالحاء الدخول والاستعلام ﴿ وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً ﴾ المعنى : لا يذكر أحدكم من أخيه المسلم ما يكره لو سمعه ، والغية هي ما يكره الإنسان ذكره من خُلُقه أو خَلْقه أو دينه أو أفعاله أو غير ذلك ، وفي الحديث " أنه عليه الصلاة والسلام قال : الغية أن تذكر أخاك المؤمن بما يكره ، قيل يا رسول الله وإن كان حقاً ، قال إذا قلت باطلاً فذلك بهتان " وقد رُخص في الغيبة في مواضع منها : في التجريح في الشهادة ، والرواية ، والنكاح ، وشبهه وفي التحذير من أهل الضلال ، ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ وقرأ نافع : مَيْتاً شبه الله الغيبة بأكل لحم ابن آدم ميتاً ، والعرب تشبه الغيبة بأكل اللحم ، ثم زاد في تقبيحه أن جعله ميتاً لأن الجيفة مستقذرة ، ويجوز أن يكون ميتاً حال من الأخ أو من لحمه ، وقيل : فكرهتموه إخبار عن حالهم بعد التقرير . كأنه لما قررهم قال : هل يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً أجابوا فقالوا : لا نحب ذلك فقال لهم . فكرهتموه وبعد هذا محذوف تقديره : فكذلك فاكرهوا الغيبة التي هي تشبهه ، وحذف هذا لدلالة الكلام

(222/719)

عليه ، وعلى هذا المحذوف يعطف قوله : ﴿ واتقوا الله ﴾ ، قال أبو علي الفارسي ، وقال الرماني : كراهة هذا اللحم يدعو إليها الطبع ، وكراهة الغيبة يدعو إليها العقل ، وهو أحق أن يجاب لأنه بصير عالم ، والطبع أعمى جاهل ، وقال الزمخشري : في هذه الآية مبالغات كثيرة منها الاستفهام الذي معناه التقرير ، ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة ، ومنها إسناد الفعل إلى أحدكم ، والإشعار بأن أحد من الأحدين لا يحب ذلك ، ومنها أنه لم يقتصر على تمثيل الغيبة بأكل لحم الإنسان حتى جعله ميتاً ، ومنها أنه لم يقتصر على تمثيل الغيبة بأكل لحم الإنسان حتى جعله أخاً له .

﴿ يا أَيُّهَا الناس إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأنثى ﴾ الذكر والأنثى هنا آدم وزوجه قال ابن عطية : ويحتمل أن يريد الجنس كأنه قال : إنا خلقنا كل واحد منكم من ذكر وأنثى ، والأول أظهر وأصلح لقوله صلى الله عليه وسلم : أنتم من آدم وآدم من التراب ومقصود الآية : التسوية بين الناس ، والمنع مما كانت العرب تفعله من التفاخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب ، فبين الله أن الكرم والشرف عند الله ليس بالحسب والنسب ؛ إنما هو بالتقوى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله وروي أن سبب الآية " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بني بياضة أن يزوجوا أبا هند امرأة منهم فقالوا كيف نزوج بناتنا لموالينا " ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لتعارفوا ﴾ الشعوب : جمع شعب بفتح الشين ، وهو أعظم من القبيلة ، وتحته القبيلة ثم البطن ثم الفخذ ثم

الفصيلة ، وهم القرابة الأدنون فمضر وربيعة وأمثالها شعوباً ، وقريش قبيلة ، وبني عبد مناف بطن ، وبنو هاشم فخذ ، ويقال بإسكان الخاء فرقاً بينه وبين الجارحة ، وبنو عبد المطلب فصيلة . وقيل : الشعوب في العجم والقبائل في العرب والأسباط في بني إسرائيل ، ومعنى لتعارفوا ليعرف بعضكم بعضاً .

(223/719)

﴿ قَالَتِ الأعراب آمَنَّا ﴾ نزلت في بني أسد بن خزيمة ، وهي قبيلة كانت تجاور المدينة أظهروا الإسلام ، وكانوا إنما يحبون المغانم وعرض الدنيا ، فأكذبهم الله في قولهم آمنا وصدقهم لو قالوا أسلمنا ، وهذا على أن الإيمان هو التصديق بالقلب ، والإسلام هو الانقياد بالنطق بالشهادتين ، والعمل بالجوارح فالإسلام والإيمان في هذا الموضع متباينان في المعنى ، وقد يكونان متفقان ، وقد يكون الإسلام أعم من الإيمان فيدخل فيه الإيمان حسبما ورد في مواضع أخر ﴿ وَإِن تُطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً ﴾ معنى لا يلتكم لا ينقصكم شيئاً من أجور أعمالكم ، وفيه لغتان يقال لات وعليه قارءة نافع ﴿ لاَ يَلِتْكُمْ ﴾ بغير همز ، ويقال : ألت وعليه قراءة أبو عمر لا يألتكم بهمزة قبل اللام ، فإن قيل : كيف يعطيهم أجور أعمالهم وقد قال : إنهم لم يؤمنوا ولا يقبل إلا من مؤمن ؟ فالجواب

: أن طاعة الله ورسوله تجمع صدق الإيمان وصلاح الأعمال ، فالمعنى إن رجعتم عما أنتم عليه من الإيمان بألسنتكم دون قلوبكم ، وعملتم أعملاً صالحة فإن الله لا ينقصكم منها شيئاً .

﴿ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ ﴾ أي لم يشكوا في إيمانهم وفي ذلك تعريض بالأعراب المذكورين ، بأنهم في شك وكذلك قوله في هؤلاء : ﴿ أولئك هُمُ الصادقون ﴾ تعريض أيضاً بالأعراب إذا كذبوا في قولهم آمنا . وإنما عطف ﴿ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ ﴾ بثم إشعاراً بثبوت إيمانهم في الأزمنة المتراخية المتطاولة ﴿ وَجَاهَدُواْ ﴾ يريد جهاد الكفار ، لأنه دليل على صحة الإيمان ويبعد أن يريد جهاد النفس والشيطان لقوله : ﴿ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله ﴾ .

(224/719)

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ﴾ نزلت في بني أسد أيضاً فإنهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا آمنا بك واتبعناك ولم نحاربك كما فعلت هوازن وغطفان وغيرهم ﴿ بَلِ الله يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ ﴾ أي هداكم للإيمان على زعمكم ، ولذلك قال : ﴿ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ، و ﴿ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ ﴾ يحتمل أن يكون بمعنى ينعم عليكم أو بمعنى :

يذكر إنعامه ، وهذا أحسن لأنه في مقابلة بمنون عليك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 62.57 ﴾

(225/719)

وقال البيضاوى :

سورة الحجرات

مدنية وآيها ثماني عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ تُقَدّمُواْ ﴾ أي لا تقدموا أمراً ، فحذف المفعول ليذهب الوهم إلى كل ما يمكن ، أو ترك لأن المقصود نفي التقديم رأساً أو لا تتقدموا ومنه مقدمة الجيش لمتقدميهم ، ويؤيده قراءة يعقوب "لاَ تُقَدّمُواْ" . وقرىء "لاَ تُقَدّمُواْ" من القدوم . ﴿ بَيْنَ يَدَىِ الله وَرَسُولِهِ ﴾ مستعار مما بين الجهتين المسامتتين ليدي الإنسان تهجيناً لما نهوا عنه ، والمعنى لا تقطعوا أمراً قبل أن يحكما به . وقيل المراد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر الله تعظيم له وإشعار بأنه من الله بمكان يوجب إجلاله . ﴿ واتقوا الله ﴾ في التقديم أو مخالفة الحكم . ﴿ إِنَّ الله سَمِيعٌ ﴾ لأقوالكم . ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأفعالكم .

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ تَرْفَعُواْ أصواتكم فَوْقَ صَوْتِ النبى ﴾ أي إذا كلمتموه فلا تجاوزوا أصواتكم عن صوته . ﴿ وَلاَ تَجْهَرُواْ لَهُ بالقول كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ ولا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم بل اجعلوا أصواتكم أخفض من صوته محاماة على الترحيب ومراعاة للأدب . وقيل معناه ولا تخاطبوه باسمه وكنيته كما يخاطب بعضكم بعضاً وخاطبوه بالنبي والرسول ، وتكرير النداء لاستدعاء مزيد الاستبصار والمبالغة في الاتعاظ والدلالة على استقلال المنادى له وزيادة الاهتمام به . ﴿ أَن تَحْبَطَ أعمالكم ﴾ كراهة أن تحبط فيكون علة للنهي ، أو لأن تحبط على أن النهي عن الفعل المعلل باعتبار التأدية لأن في الجهر والرفع استخفافاً قد يؤدي إلى الكفر المحبط ، وذلك إذا انضم إليه قصد الإهانة وعدم المبالاة .

وقد روي : أن ثابت بن قيس كان في أذنه وقر وكان جهورياً ، فلما نزلت تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فتفقده ودعاه فقال : يا رسول الله لقد أنزلت إليك هذه الآية وإني رجل جهير الصوت فأخاف أن يكون عملي قد حبط ، فقال عليه الصلاة والسلام : " لست هناك إنك تعيش بخير وتموت بخير وإنك من أهل الجنة " ﴿ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ أنها محبطة .

﴿ إِنَّ الذين يَغُضُّونَ أصواتهم ﴾ يخفضونها . ﴿ عِندَ رَسُولِ الله ﴾ مراعاة للأدب أو مخافة عن مخالفة النهي . قيل كان أبو بكر وعمر بعد ذلك يسرانه حتى يستفهمهما . ﴿ أُوْلَئِكَ الذين امتحن الله قُلُوبَهُمْ للتقوى ﴾ جربها للتقوى ومرنها عليها ، أو عرفها كائنة للتقوى خالصة لها ، فإن الامتحان سبب المعرفة واللام صلة محذوف أو للفعل باعتبار الأصل ، أو ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الشاقة لأجل التقوى ، فإنها لا تظهر إلا بالاصطبار عليها ، أو أخلصها للتقوى من امتحن الذهب إذا أذابه وميز إبريزه من خبثه . ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم . ﴿ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ لغضهم وسائر طاعاتهم ، والتنكير للتعظيم والجملة خبر ثان لأن أو استئناف لبيان ما هو جزاء الغاضين إحماداً لحالهم كما أخبر عنهم بجملة مؤلفة من معرفتين ، والمبتدأ إسم الإشارة المتضمن لما جعل عنواناً لهم ، والخبر الموصول بصلة دلت على بلوغهم أقصى الكمال مبالغة في الاعتداد بغضهم والارتضاء له ، وتعريضاً بشناعة الرفع والجهر وأن حال المرتكب لهما على خلاف ذلك .

﴿ إِنَّ الذين يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الحجرات ﴾ من خارجها خلفها أو قدامها ، ومن ابتدائية فإن المناداة نشأت من جهة الوراء ، وفائدتها الدلالة على أن المنادي داخل الحجرة إذ لا بد وأن يختلف المبتدأ والمنتهى بالجهة ، وقرىء "الحجرات" بفتح الجيم ، وسكونها وثلاثتها جمع حجرة وهي القطعة من الأرض المحجورة بحائط ، ولذلك يقال لحظيرة الإِبل حجرة . وهي فعلة بمعنى مفعول كالغرفة والقبضة ، والمراد حجرات نساء النبي عليه الصلاة والسلام وفيها كناية عن خلوته بالنساء ومناداتهم من ورائها إما بأنهم أتوها حجرة حجرة فنادوه من روائها ، أو بأنهم تفرقوا على الحجرات متطلبين له ، فأسند فعل الأبعاض إلى الكل . وقيل إن الذي ناداه عيينة بن حصن والأقرع بن حابس ، وفدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبعين رجلاً من بني تميم وقت الظهيرة وهو راقد فقالا يا محمد اخرج إلينا ، وإنما أسند إلى جميعهم لأنهم رضوا بذلك أو أمروا به ، أو لأنه وجد فيما بينهم . ﴿ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ إذ العقل يقتضي حسن الأدب ومراعاة الحشمة سيما لمن كان بهذا المنصب .

(229/719)

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حتى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ ﴾ أي ولو ثبت صبرهم وانتظارهم حتى تخرج إليهم ، فإن أن وإن دلت بما في حيزها على المصدر دلت بنفسها على الثبوت ، ولذلك وجب إضمار الفعل وحتى تفيد أن الصبر ينبغي أن يكون مغنياً بخروجه ، فإن حتى مختصة بغاية الشيء في نفسه ولذلك تقول : أكلت السمكة حتى رأسها ، ولا تقول حتى نصفها ، بخلاف إلى فإنها عامة ، وفي ﴿ إِلَيْهِمُ ﴾ إشعار بأنه لو خرج لا لأجلهم ينبغي أن يصبروا حتى يفاتحهم بالكلام أو يتوجه إليهم . ﴿ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ ﴾ لكان الصبر خيراً لهم من الاستعجال لما فيه من حفظ الأدب وتعظيم الرسول الموجبين للثناء والثواب ، والإسعاف بالمسؤول إذ روي أنهم وفدوا شافعين في أسارى بني العنبر فأطلق النصف وفادى النصف . ﴿ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ حيث اقتصر على النصح والتقريع لهؤلاء المسيئين الأدب التاركين تعظيم الرسول عليه الصلاة والسلام .

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ إِن جَاءكُمْ فَاسِقُ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ فتعرفوا وتصفحوا ، روي أنه عليه الصلاة والسلام بعث الوليد بن عقبة مصدقاً إلى بني المصطلق وكان بينه وبينهم إحنة ، فلما سمعوا به استقبلوه فحسبهم مقاتليه فرجع وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم قد ارتدوا ومنعوا الزكاة فهم بقتالهم فنزلت . وقيل بعث إليهم خالد بن الوليد فوجدهم منادين بالصلاة متهجدين فسلموا إليه الصدقات فرجع ، وتنكير الفاسق والنبأ للتعميم ، وتعليق الأمر بالتبين على فسق المخبر يقتضي جواز قبول خبر العدل من حيث إن المعلق على

شيء بكلمة إن عدم عند عدمه ، وأن خبر الواحد لو وجب تبينه من حيث هو كذلك لما رتب على الفسق ، إذ الترتيب يفيد التعليل وما بالذات لا يعلل بالغير .

(230/719)

وقرأ حمزة والكسائي فتثبتوا أي فتوقفوا إلى أن يتبين لكم الحال . ﴿ أَنْ تُصِيبُوا ﴾ كراهة إصابتكم . ﴿ قَوْمَاً بِجَهَالَةٍ ﴾ جاهلين بحالهم . ﴿ فَتُصْبِحُواْ ﴾ فتصيروا . ﴿ على مَا فَعَلْتُمْ نادمين ﴾ مغتمين غما لازماً متمنين أنه لم يقع ، وتركيب هذه الأحرف الثلاثة دائر مع الدوام .

﴿ واعلموا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ الله ﴾ أن بما في حيزه ساد مسد مفعولي اعلموا باعتبار ما قيد به من الحال وهو قوله : ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ الأمر لَعَنِتُّمْ ﴾ فإنه حال من أحد ضميري فيكم ، ولو جعل استئنافاً لم يظهر للأمر فائدة . والمعنى أن فيكم رسول الله على حال يجب تغييرها وهي أنكم تريدون أن يتبع رأيكم في الحوادث ، ولو فعل ذلك ﴿ لَعَنِتُّمْ ﴾ أي لوقعتم في الجهد من العنت ، وفيه إشعار بأن بعضهم أشار إليه بالإيقاع ببني المصطلق وقوله : ﴿ ولكن الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمان وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكفر والفسوق والعصيان ﴾ استدراك ببيان عذرهم ، وهو أنه من فرط حبهم للإيمان

وكراهتهم للكفر حملهم على ذلك لما سمعوا قول الوليد ، أو بصفة من لم يفعل ذلك منهم إحماداً لفعلهم وتعريضاً بذم من فعل ويؤيده قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الرشدون ﴾ أي أولئك المستثنون هم الذين أصابوا الطريق السوي ، ﴿ وَكَرَّهَ ﴾ يتعدى بنفسه إلى مفعول واحد فإذا شدد زاد له آخر ، لكنه لما تضمن معنى التبعيض نزل كره منزلة بغض فعدي إلى آخر بإلى ، أو نزل إليكم منزلة مفعول آخر . و ﴿ الكفر ﴾ : تغطية نعم الله بالجحود . ﴿ والفسوق ﴾ : الخروج عن القصد ﴿ والعصيان ﴾ : الامتناع عن الانقياد .

(231/719)

﴿ فَضْلاً مّنَ الله وَنِعْمَةً ﴾ تعليل ل ﴿ كَرِهَ ﴾ أو ﴿ حَبَّبَ ﴾ ، وما بينهما اعتراض لا ل ﴿ الرشدون ﴾ فإن الفضل فعل الله ، والرشد وإن كان مسبباً عن فعله مسند إلى ضميرهم أو مصدر لغير فعله فإن التحبيب والرشد فضل من الله وإنعام . ﴿ والله عَلِيمٌ ﴾ بأحوال المؤمنين وما بينهم من التفاضل ﴿ حَكِيمٌ ﴾ حيث يفضل وينعم بالتوفيق عليهم .

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا ﴾ تقاتلوا والجمع باعتبار المعنى فإن كل طائفة جمع . ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾ بالنصح والدعاء إلى حكم الله تعالى . ﴿ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا

على الأخرى ﴾ تعدت عليها . ﴿ فقاتلوا التى تَبْغِى حتى تَفِىء إلى أَمْرِ الله ﴾ ترجع إلى حكمه أو ما أمر به ، وإنما أطلق الفيء على الظل لرجوعه بعد نسخ الشمس ، والغنيمة لرجوعها من الكفار إلى المسلمين . ﴿ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بالعدل ﴾ بفصل ما بينهما على ما حكم الله ، وتقييد الإِصلاح بالعدل ها هنا لأنه مظنة الحيف من حيث إنه بعد المقاتلة . ﴿ وَأَقْسِطُواْ ﴾ واعدلوا في كل الأمور . ﴿ إِنَّ الله يُحِبُّ المقسطين ﴾ يحمد فعلهم بحسن الجزاء . والآية نزلت في قتال حدث بين الأوس والخزرج في عهده عليه الصلاة والسلام بالسعف والنعال ، وهي تدل على أن الباغي مؤمن وأنه إذا قبض عن الحرب ترك كما جاء في الحديث لأنه فيء إلى أمر الله تعالى ، وأنه يجب معاونة من بغى عليه بعد تقديم النصح والسعي في المصالحة .

(232/719)

﴿ إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ ﴾ من حيث إنهم منتسبون إلى أصل واحد وهو الإِيمان الموجب للحياة الأبدية ، وهو تعليل وتقرير للأمر بالإِصلاح ولذلك كرره مرتباً عليه بالفاء فقال : ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ ووضع الظاهر موضع الضمير مضافاً إلى المأمورين للمبالغة في التقرير والتخصيص ، وخص الإثنين بالذكر لأنهما أقل من يقع بينهم الشقاق . وقيل المراد

بالأخوين الأوس والخزرج. وقرىء "بين إخوتكم" و"إخوانكم". ﴿ واتقوا الله ﴾ في مخالفة حكمه والإهمال فيه. ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ على تقواكم.

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مّن قَوْمٍ عسى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مّنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مّن نّسَاءٍ عسى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنّ ﴾ أي لا يسخر بعض المؤمنين والمؤمنات من بعض إذ قد يكون المسخور منه خيراً عند الله من الساخر، والقوم مختص بالرجال لأنه إما مصدر نعت به فشاع في الجمع أو جمع لقائم كزائر وزور، والقيام بالأمور وظيفة الرجال كما قال تعالى: ﴿ الرجال قَوَّامُونَ عَلَى النساء ﴾ وحيث فسر بالقبيلين كقوم عاد وفرعون، فإما على التغليب أو الاكتفاء بذكر الرجال على ذكرهن لأنهن توابع، واختيار الجمع لأن السخرية تغلب في المجامع و﴿ عَسَى ﴾ باسمها استئناف بالعلة الموجبة للنهي ولا خبر لها لإغناء الاسم عنه. وقرىء "عسوا أن يكونا" و"عسين أن يكن" فهي على هذا ذات خبر. ﴿ وَلاَ تَلْمِزُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي ولا يغتب بعضكم بعضاً فإن المؤمنين كنفس واحدة، أو لا تفعلوا ما تلمزون به فإن من فعل ما يستحق به اللمز فقد لمز نفسه. واللمز الطعن باللسان. وقرأ يعقوب بالضم. ﴿ وَلاَ تَنَابَزُواْ بالألقاب ﴾ ولا يدع بعضكم بعضاً بلقب السوء، فإن النبز مختص بلقب السوء عرفاً.

﴿ بِئْسَ الاسم الفسوق بَعْدَ الإيمان ﴾ أي بئس الذكر المرتفع للمؤمنين أن يذكروا بالفسوق بعد دخولهم الإِيمان واشتهارهم به ، والمراد به إما تهجين نسبة الكفر والفسق وإلى المؤمنين خصوصاً إذ روي أن الآية نزلت في صفية بنت حيي رضي الله عنها ، أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إن النساء يقلن لي يا يهودية بنت يهوديين ، فقال لها " هلا قلت إن أبي هارون وعمي موسى وزوجي محمد عليهم السلام " أو للدلالة على أن التنابز فسق والجمع بينه وبين الإِيمان مستقبح . ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ ﴾ عما نهى عنه . ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظالمون ﴾ بوضع العصيان موضع الطاعة وتعريض النفس للعذاب .

(234/719)

﴿ ا يا أيها الذين ءامَنُواْ اجتنبوا كَثِيراً مّنَ الظن ﴾ كونوا منه على جانب ، وإيهام الكثير ليحتاط في كل ظن ويتأمل حتى يعلم أنه من أي القبيل ، فإن من الظن ما يجب اتباعه كالظن حيث لا قاطع فيه من العمليات وحسن الظن بالله سبحانه وتعالى ، وما يحرم كالظن في الإِلهيات والنبوات وحيث يخالفه قاطع وظن السوء بالمؤمنين ، وما يباح كالظن في الأمور المعاشية . ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظن إِثْمٌ ﴾ مستأنف للأمر ، والإِثم الذنب الذي يستحق العقوبة

عليه . والهمزة فيه بدل من الواو كأنه يثم الأعمال أي يكسرها . ﴿ وَلاَ تَجَسَّسُواْ ﴾ ولا تبحثوا عن عورات المسلمين ، تفعل من الجس باعتبار ما فيه من معنى الطلب كالتلمس ، وقرىء بالحاء من الحس الذي هو أثر الجس وغايته ولذلك قيل للحواس الخمس الجواس . وفي الحديث " لا تتبعوا عورات المسلمين ، فإن من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو في جوف بيته " ﴿ وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً ﴾ ولا يذكر بعضكم بعضاً بالسوء في غيبته . وسئل عليه الصلاة والسلام عن الغيبة فقال : " أن تذكر أخاك بما يكرهه ، فإن كان فيه فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته " ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً ﴾ تمثيل لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفحش وجه مع مبالغات الاستفهام المقرر ، وإسناد الفعل إلى أحد للتعميم وتعليق المحبة بما هو في غاية الكراهة ، وتمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان وجعل المأكول أخاً وميتاً وتعقيب ذلك بقوله : ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ تقريراً وتحقيقاً لذلك . والمعنى إن صح ذلك أو عرض عليكم هذا فقد كرهتموه ولا يمكنكم إنكار كراهته ، وانتصاب ﴿ مَيْتاً ﴾ على الحال من اللحم أو الأخ وشدده نافع . ﴿ واتقوا الله إِنَّ الله تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ لمن اتقى ما نهى عنه وتاب مما فرط منه ، والمبالغة في ال ﴿ تَوَّابٌ ﴾ لأنه بليغ في قبول التوبة إذ يجعل صاحبها كمن لم يذنب ، أو

لكثرة المتوب عليهم أو لكثرة ذنوبهم ، روي : أن رجلين من الصحابة بعثا سلمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبغي لهما إداماً ، وكان أسامة على طعامه فقال : ما عندي شيء فأخبرهما سلمان فقالا : لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها ، فلما راحا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهما : " ما لي أرى حضرة اللحم في أفواهكما " ، فقالا : ما تناولنا لحماً ، فقال : " إنكما قد اغتبتما " فنزلت .

﴿ يأَيُّهَا الناس إِنَّا خلقناكم مّن ذَكَرٍ وأنثى ﴾ من آدم وحواء عليهما السلام ، أو خلقنا كل واحد منكم من أب وأم فالكل سواء في ذلك فلا وجه للتفاخر بالنسب . ويجوز أن يكون تقريراً للأخوة المانعة عن الاغتياب . ﴿ وجعلناكم شُعُوباً وَقَبَائِلَ ﴾ الشعب الجمع العظيم المنتسبون إلى أصل واحد وهو يجمع القبائل . والقبيلة تجمع العمائر . والعمارة تجمع البطون . والبطن تجمع الأفخاذ . والفخذ يجمع الفضائل ، فخزيمة شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة ، وقصي بطن ، وهاشم فخذ ، وعباس فصيلة . وقبل الشعوب بطون العجم والقبائل بطون العرب . ﴿ لتعارفوا ﴾ ليعرف بعضكم بعضاً لا للتفاخر بالآباء والقبائل . وقرىء ﴿ لتعارفوا ﴾ بالإدغام و"لتتعارفوا" و"لتعرفوا" . ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ الله أتقاكم ﴾ فإن التقوى بها تكمل النفوس وتتفاضل بها الأشخاص ، فمن أراد شرفاً فليلتمسه منها كما قال عليه الصلاة والسلام " من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله "

وقال عليه الصلاة والسلام " يا أيها الناس إنما الناس رجلان مؤمن تقي كريم على الله ، وفاجر شقي هين على الله " ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ ﴾ بكم ﴿ خَبِيرٌ ﴾ ببواطنكم .

(236/719)

﴿ قَالَتِ الأعراب ءامَنَّا ﴾ نزلت في نفر من بني أسد قدموا المدينة في سنة جدبة وأظهروا الشهادتين ، وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم أتيناك بالأثقال والعيال ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان يريدون الصدقة ويمنون . ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ﴾ إذ الإيمان تصديق مع ثقة وطمأنينة قلب ، ولم يحصل لكم إلا لما مننتم على الرسول عليه الصلاة والسلام بالإسلام وترك المقاتلة كما دل عليه آخر السورة . ﴿ ولكن قُولُواْ أَسْلَمْنَا ﴾ فإن الإسلام انقياد ودخول في السلم وإظهار الشهادتين وترك المحاربة ، يشعر به وكان نظم الكلام أن يقول لا تقولوا آمنا ﴿ ولكن قُولُواْ أَسْلَمْنَا ﴾ ، أو لم تؤمنوا ولكن أسلمتم فعدل منه إلى هذا النظم احترازاً من النهي عن القول بالإيمان والجزم بإسلامهم ، وقد فقد شرط اعتباره شرعاً . ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمان فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ توقيت ل ﴿ قُولُواْ ﴾ فإنه حال من ضميره أي : ﴿ ولكن قُولُواْ أَسْلَمْنَا ﴾ ولم تواطىء قلوبكم ألسنتكم بعد . ﴿ وَإِن تُطِيعُواْ الله وَرَسُولَهُ ﴾ بالإخلاص وترك النفاق . ﴿ لاَ يَلِتْكُمْ مِّنْ أعمالكم ﴾ لا ينقصكم من

أجورها . ﴿ شَيْئاً ﴾ من لات يليت ليتا إذا نقص ، وقرأ البصريان "لا يألتكم" من الألت وهو لغة غطفان . ﴿ إِنَّ الله غَفُورٌ ﴾ لما فرط من المطيعين . ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بالتفضل عليهم .

﴿ إِنَّمَا المؤمنون الذين ءامَنُواْ بالله وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ ﴾ لم يشكوا من ارتاب مطاوع رابه إذا أوقعه في الشك مع التهمة ، وفيه إشارة إلى ما أوجب نفي الإِيمان عنهم ، و ﴿ ثُمَّ ﴾ للإشعار بأن اشتراط عدم الارتياب في اعتبار الإِيمان ليس حال الإِيمان فقط بل فيه وفيما يستقبل فهي كما في قوله :

﴿ ثُمَّ استقاموا ﴾ ﴿ وجاهدوا بأموالهم وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ الله ﴾ في طاعته والمجاهدة بالأموال والأنفس تصلح للعبادات المالية والبدنية بأسرها . ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الصادقون ﴾ الذين صدقوا في إدعاء الإِيمان .

﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ الله بِدِينِكُمْ ﴾ أتخبرونه به بقولكم ﴿ آمنا ﴾ . ﴿ والله يَعْلَمُ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لا يخفى عليه خافية ، وهو تجهيل لهم وتوبيخ . روي أنه لما نزلت الآية المتقدمة جاؤوا وحلفوا أنهم مؤمنون معتقدون فنزلت هذه

الآية .

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ﴾ يعدون إسلامهم عليك منة وهي النعمة التي لا يستثيب موليها ممن بذلها إليه ، من المن بمعنى القطع لأن المقصود بها قطع حاجته . وقيل النعمة الثقيلة من المن . ﴿ قُل لاَّ تَمُنُّواْ عَلَيَّ إسلامكم ﴾ أي بإسلامكم ، فنصب بنزع الخافض أو تضمين الفعل معنى الاعتدال . ﴿ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ للإيمان ﴾ على ما زعمتم مع أن الهداية لا تستلزم الاهتداء ، وقرىء "إن هَداكُمْ" بالكسر و ﴿ إِذْ هَداكُمْ ﴾ . ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ في ادعاء الإيمان ، وجوابه محذوف يدل عليه ما قبله أي فلله المنة عليكم ، وفي سياق الآية لطف وهو أنهم لما سموا ما صدر عنهم إيماناً ومنوا به فنفى أنه إيمانٌ وسماه إسلاماً بأن قال يمنون عليكم بما هو في الحقيقة إسلام وليس بجدير أن يمن به عليك ، بل لو صح ادعاؤهم للإيمان فلله المنة عليهم بالهداية له لا لهم .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السموات والأرض ﴾ ما غاب فيهما . ﴿ والله بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ في سركم وعلانيتكم فكيف يخفى عليه ما في ضمائركم ، وقرأ ابن كثير بالياء لما في الآية من الغيبة .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة الحجرات أعطي من الأجر بعدد من أطاع الله وعصاه " . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 211.222 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (1) ﴾

التفسير : لما بين محل النبي صلى الله عليه وسلم وعلو منصبه بقوله ﴿ هو الذي أرسل رسوله ﴾ إلى آخر السورة افتتح الآن بقوله ﴿ لا تقدموا ﴾ الآية . ففيه تأكيد لما ذكر هناك من وجوب إتباعه والإذعان له . والأظهر أن هذا إرشاد عام . وذكر المفسرون في أسباب النزول وجوهاً منها ما روي عن ابن أبي مليكة أن عبد الله بن الزبير أخبر أنه قدم ركب من بني تميم على النبي صلى الله عليه فقال أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أمّر القعقاع بن معبد وقال عمر : بل أمر الأقرع بن جابس . فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافي . فقال عمر : ما أردت خلافك . فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فأنزل الله الآية . وقال الحسن والزجاج : نزلت في رجل ذبح الأضحية قبل الصلاة وقبل ذبح النبي صلى الله عليه وسلم فأمره بإعادتها وهو مذهب أبي حنيفة إلى أن تزول الشمس . وعند الشافعي يجوز الذبح إذا مضى من الوقت مقدار الصلاة . وعن عائشة أنها نزلت في صوم يوم الشك . وروي أنها في القتال أي لا تحملوا على الكفار في الحرب قبل أن يأمر النبي صلى الله

عليه وسلم . وقدّم إما متعد وحذف المفعول للعموم حتى يتناول كل فعل وقول ، أو ترك مفعوله كما في قوله " فلان يعطي ويمنع " لأن النظر إلى الفعل لا إلى المفعول كأنه قيل : يجب أن لا يصدر منكم تقدم أصلاً في أيّ فعل كان .

(239/719)

وإما لازم نحو بين وتبين بمعنى يؤيده قراءة يعقوب . قال جار الله : حقيقة قولهم " جلست بين يدي فلان " أن يجلس بين الجهتين المسامتتين ليمينه وشماله حتى ينظر إليك من غير تقليب حدقة وذكر الله للتعظيم . وفيه أن التقديم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم كالتقديم بين يدي الله . قال ابن عباس : نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه بل عليهم أن يصغوا ولا يتكلموا . وقيل : معناه لا تخالفوا كتاب الله وسنة رسوله . وعن الحسن في رواية أخرى : لما استقر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة أتته الوفود من الآفاق فأكثروا عليه بالمسائل فنهوا أن يبتدؤه بالمسألة حتى يكون هو المبتدىء ﴿ واتقوا الله ﴾ في التقديم أو أمرهم بالتقوى ليحملهم على ترك التقدمة فإن المتقي حذر عن كل ما فيه تبعة وريب ﴿ إن الله سميع ﴾ لأقوالكم ﴿ عليم ﴾ بنياتكم وأفعالكم . ثم أعاد النداء عليهم مزيداً للتنبيه ، وفيه نوع تفصيل بعد إجمال وتخصيص بعد تعميم . وعن ابن عباس أن ثابت ابن قيس

بن شماس كان في أذنه وقر وكان جهوريّ الصوت وكان يتأذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصوته إذا كلمه ، فحين نزلت الآية فقد ثابت فتفقده رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذر بأنه رجل جهير الصوت يخاف أن تكون الآية نزلت فيه . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لست هناك إنك تعيش بخير وتموت بخير وإنك من أهل الجنة . وعن الحسن : نزلت في المنافقين كانوا يرفعون بأصواتهم فوق صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم استخفافاً واستهانة وليقتدي بهم ضعفة المسلمين فنهى المؤمنون عن ذلك . وعلى هذا فإما أن يكون الإيمان أعم من أن يكون باللسان أو به وبالقلب ، وإما أن يكون الإيمان حقيقة فيكون تأديباً للمؤمنين الخلص حتى يكون حالهم بخلاف حال أهل النفاق ، ويكون كلامهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم أخفض من كلامه لهم رعاية لحشمته وصيانة على مهابته . قوله ﴿ ولا تجهروا له بالقول كجهر ﴾ أي جهراً مثل جهر ﴾

(240/719)

بعضكم لبعض ﴾ قيل : تكرار للمعنى الأوّل لأجل التأكيد فإن الجهر هو رفع الصوت والجمهور على أن بين النهيين فرقاً . ثم اختلفوا فقيل : الأول فيما إذا نطق ونطقوا أو أنصت ونطقوا في أثناء كلامه فنهوا أن يكون جهرهم باهر الجهر . والثاني فيما إذا سكت ونطقوا

فنهوا عن جهر مقيد بما اعتادوه فيما بينهم وهو الخالي عن مراعاة أبهة النبوّة . وقيل : النهي الأول أعم مما إذا نطق ونطقوا أو أنصت ونطقوا والمراد بالنهي الثاني أن لا ينادي وقت الخطاب باسمه أو كنيته كنداء بعضهم لبعض فلا يقال : يا أحمد يا محمد يا أبا القاسم ولكن يا نبي الله يا رسول الله .

ثم علل كلاً من النهيين بقوله ﴿ أن تحبط ﴾ أي كراهة حبوط أعمالكم وذلك أن الرفع والجهر إذا كان عن استخفاف وإهانة كان كفراً محبطاً للأعمال السابقة . والمفعول له يتعلق بالفعل الأول في الظاهر عند الكوفيين وبالعكس عند البصريين . وجوز في الكشاف أن يقدر الفعل في الثاني مضموماً إليه المفعول له كأنهما شيء واحد ثم يصب عليهما الفعل جميعاً صباً واحداً ، والمعنى أنهم نهوا عن الفعل الذي فعلوه لأجل الحبوط لأنه كان بصدد الأداء إليه فجعل كأنه سبب في إيجاده كقوله ﴿ ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ [القصص : 8] وفي قوله ﴿ وأنتم لا تشعرون ﴾ إشارة إلى أن ارتكاب المآثم يجر الأعمال إلى الحبوط من حيث لا يشعر المرء به . ومثله قول الحكيم : إن كلاً من الأخلاق الفاضلة والرذيلة تكون أوّلاً حالاً ثم تصير ملكة راسخة وعادة مستمرة . ومنه قول أفلاطون : لا تصحب الشرير فإن طبعك يسرق وأنت لا تدري . فالعاقل من يجتهد في الفضائل أن تصير ملكات ، وفي الرذائل أن تزول عنه وهي أحوال .

قال ابن عباس : لما نزلت الآية قال أبو بكر : يا رسول الله والله ولا أكلمك إلا السرار أو كأخي السرار حتى ألقى الله فأنزل الله فيه وفي أمثاله ﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله ﴾ هو افتعل من المحنة وهو اختبار بليغ يقال : امتحن فلان لأمر كذا أي جرب له فوجد قوياً عليه ، أو وضع الامتحان موضع المعرفة لأن تحقق الشيء باختباره فكأنه قيل : عرف الله قلوبهم كائنة للتقوى فاللام متعلقة بالمحذوف كقولك : أنت لهذا الأمر . أو ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف لأجل التقوى وحصولها فيها سابقة ولاحقة ﴿ لهم مغفرة ﴾ لذنوبهم ﴿ وأجر عظيم ﴾ لطاعتهم . وفي تنكير الوعد وغير ذلك من مؤكدات الجملة تعريض بعظم ما ارتكب غيرهم واستحقاقهم أضداد ما استحق هؤلاء . يروى أنه كان إذا قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد أرسل إليهم أبو بكر من يعلمهم كيف يسلمون ويأمرهم بالسكينة والوقار . قال العلماء : إن النهي لا يتناول رفع الصوت الذي ليس باختيار المكلف كما مر في حديث ثابت بن قيس ، ولا الذي نيط به صلاح في حرب أو جدال معاند أو إرهاب عدوّ . ففي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال للعباس ابن عبد المطلب لما انهزم الناس يوم حنين : أصرخ بالناس وكان العباس أجهر الناس صوتاً . وفيه قال نابغة بني جعدة :

زجر أبي عروة السباع إذا . . . أشفق أن يختلطن بالغنم

وأبو عروة كنية العباس . زعمت الرواة أنه كان يزجر السباع عن الغنم فيشق مرارة السبع في جوفه .

(242/719)

ويروى أن غارة أتتهم يوماً فصاح العباس يا صباحاه فأسقطت الحوامل لشدّة صوته . ثم علمهم أدباً أخص فقال : ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات ﴾ أي من جانب البر والخارج مناداة الأجلاف بعضهم لبعض . والحجرة البقعة التي يحجرها المرء لنفسه كيلا يشاركه فيها غيره من الحجر وهو المنع " فعلة " بمعنى مفعولة ، وجمعت لأن كلاً من أمهات المؤمنين لها حجرة . روي أن وفداً من بني تميم قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وهو سبعون رجلاً منهم الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن . فدخلوا المسجد ونادوا النبي صلى الله عليه وسلم من خارج حجراته كأنهم تفرقوا على الحجرات أو أتوها حجرة فنادوه من ورائها أو نادوه من وراء الحجرة التي كان فيها ، ولكنها جمعت إجلالاً له صلى الله عليه وسلم . والفعل وإن كان مستنداً إلى جميعهم فإنه يجوز أن يتولاه بعضهم لأن رضا الباقين به كالتولي له . وحكى الأصم أن الذي ناداه عيينة والأقرع قالا : أخرج إلينا يا محمد فإن مدحنا زين منا شين . فتأذى رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك فخرج إليهم

وهو يقول : إنما ذلكم الله الذي مدحه زين وذمه شين . فقال لهم : فيم جئتم ؟ فقالوا : جئنا بخطيبنا وشاعرنا نفاخرك ونشاعرك . فقال : ما بالشعر بعثت ولا بالفخار أمرت ولكن هاتوا . فقام خطيبهم فخطب وقام شاعرهم وأنشد فأمر النبي صلى الله عليه وسلم ثابت بن قيس فقام وخطب وأمر حساناً فقام وأنشد . فلما فرغوا قام الأقرع وقال : والله ما أدري ما هذا ، تكلم خطيبنا وكان خطيبهم أحسن قولاً ، وأنشد شاعرنا وكان شاعرهم أشعر . ثم دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسوله . وعن زيد بن أرقم أنهم قالوا : نمتحنه فإن يكن ملكاً عشنا في جنابه ، وإن يكن نبياً كان أولى بأن نكون أسعد الناس به . وقيل : إنهم وفدوا شافعين في أسرى بني العنبر . أما إخبار الله تعالى عنهم بأن أكثرهم لا يعقلون فإما لأن الأكثر أقيم مقام الكل على

عادة الفصحاء كيلا يكون الكلام بصدد المنع ، وإما لأن الحكم بقلة العقلاء فيهم عبارة عن العدم فإن القلة تقع موقع النفي في كلامهم ، وإما لأن فيهم من رجع وندم على صنيعه فاستثناه الله تعالى . وإنما حكم عليهم بعدم العقل لأنهم يعقلوا أن هذا النحو من النداء خارج عن قانون الأدب ومنبىء عن عدم الوقار والأناة لا سيما في حق النبي صلى الله عليه

وسلم فإنه لم يكن يحتجب عن الناس إلا عند الخلوة والاشتغال بمهامّ أهل البيت فلذلك قال ﴿ ولو أنهم صبروا حتى تخرج ﴾ وفائدة قوله ﴿ إليهم ﴾ أنه لو خرج لا لأجلهم لزمهم الصبر إلى أن يكون خروجه إليهم لأجلهم ﴿ لكان ﴾ الصبر ﴿ خيراً لهم ﴾ في دينهم وهو ظاهر وفي دنياهم بأن ينسبوا إلى وفور العقل وكمال الأدب .

(244/719)

وقيل : بإطلاق أسرائهم جميعاً فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم أطلق النصف وفادى النصف ﴿ والله غفور ﴾ مع ذلك لمن تاب ﴿ رحيم ﴾ في قبول التوبة . سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وفد بني تميم فقال : إنهم جفاة بني تميم ولولا أنهم من أشد الناس قتلالاً للأعور الدجال لدعوت الله عليهم أن يهلكهم . ويحكى عن أبي عبيدة وهو المشهور بالعلم والزهادة وثقة الرواية أنه قال : ما وقفت بباب عالم قط حتى يخرج في وقت خروجه . ثم أرشدهم إلى أدب آخر فقال ﴿ يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ ﴾ وقد أجمع المفسرون على أنها نزلت في الوليد بن عقبة بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني المصطلق مصدقاً وكان بينهما إحنة ، فلما سمعوا به ركبوا إليه فلما سمع بهم خافهم فرجع فقال : إن القوم هموا بقتلي ومنعوا صدقاتهم . فهم النبي صلى الله عليه وسلم

بغزوهم ، فبيناهم في ذلك إذ قدم وفدهم وقالوا : يا رسول الله سمعنا برسولك فخرجنا نكرمه ونؤدي إليه ما قبلنا من الصدقة فاتهمهم النبي صلى الله عليه وسلم وقال : لتنتهن أو لأبعثن إليكم رجلاً هو عندي كنفسي يقاتل مقاتلتكم ويسبي ذراريكم ، ثم ضرب بيده على كتف علي رضي الله عنه فقالوا : نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله . وقيل : بعث إليهم خالد بن الوليد فوجدهم منادين بالصلاة متهجدين فسلموا إليه الصدقات فرجع .

قال جار الله : في تنكير الفاسق والنبأ عمومم كأنه قيل : أيّ فاسق جاءكم بأيّ نبأ فتوقفوا فيه واطلبوا البيان لأن من لا يتجافى جنس الفسوق ولا يتجافى بعض أنواعه الذي هو الكذب . والفسوق الخروج عن الشيء والانسلاخ منه فسقت الرطبة عن قشرها ، ومن مقلوبه " فقست البيضة " إذا كسرتها وأخرجت ما فيها . ومن تقاليبه أيضاً " قفست الشيء " بتقديم القاف إذا أخرجته من يد مالكه غصباً . والنبأ الخبر الذي يعظم وقعه . واختبر لفظة " إن " التي هي للشك دون " إذا " تنبيهاً على أنه صلى الله عليه وسلم ومن معه بمنزلة

لا يجسر أحد أن يخبرهم بكذب إلا على سبيل الفرض والندرة ، فعلى المؤمنين أن يكونوا بحيث لا يطمع فاسق في مخاطبتهم بكلمة زور . ثم علل التبين بقوله ﴿ أن تصيبوا ﴾ أي كراهة إصابتكم ﴿ قوماً ﴾ حال كونكم جاهلين بحقيقة الأمر . والندم ضرب من الغم وهو أن تغتم على ما وقع منك متمنياً أنه لم يقع ولا يخلو من دوام وإلزام . ومن مقلوباته " أدمن الأمر " إذا دام عليه . ومدن بالمكان أقام به . قال الأصوليون من الأشاعرة : إن خبر الواحد العدل يجب العمل به لأن الله تعالى أمر بالتبيين في خبر الفاسق ، ولو تبينا في خبر العدل لسوّينا بينهما .

(246/719)

وضعف بأنه من باب التمسك بالمفهوم . واتفقوا على أن شهادة الفاسق لا تقبل لأن باب الشهادة أضيق من باب التمسك بمفهوم الخبر . وأكثر المفسرين على أن الوليد كان ثقة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فصار فاسقاً بكذبه . وقيل : إن الوليد لم يقصد الكذب ولكنه ظن حين اجتمعوا لإكرامه أن يكونوا هموا بقتله . ولقائل أن يقول : لفظ القرآن وسبب النزول يدل على خلافه . نعم لو قيل : إنه تاب بعد ذلك لكان له وجه ثم أرشدهم إلى أمر آخر قائلاً ﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله ﴾ وليس هذا الأمر مقصوداً بظاهره لأنه معلوم

مشاهد فلا حاجة إلى التنبيه عليه ، وإنما المراد ما يستلزم كونه فيهم كما يقال من يغلط في مسألة أو يقول فيها برأيه : أعلم أن الشيخ حاضر . ثم قيل : المراد لا تقولوا الباطل والكذب فإن الله يخبره ويوحي إليه . وقيل : أراد أن الرأي رأيه فلا تعدوا رأيه وقد صرح بهذا المعنى في قوله ﴿ لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ﴾ لوقعتم في العسر والمشقة والحرج لأنه أعلم منكم بالحنيفية السهلة السمحاء ، ومن جملة ذلك قصة الوليد فإنه لو أطاعه وقبل قوله لقتل وقتلتم وأخذ المال وأخذتم فاتهمتهم . قال جار الله : الجملة المصدّره بلو ليس كلاماً مستأنفاً لاختلال النظم حينئذ ولكنها حال من أحد الضميرين في ﴿ فيكم ﴾ وهو المستتر المرفوع أو البارز المجرور . والمعنى أن فيكم رسول الله على حالة يجب تغييرها وهي أنكم تطلبون منه اتباع آرائكم . قلت : قد ذكرنا في وجه النظم بياناً آخر . ثم قال : فائدة تقدير خبر " أن " هو أن يعلم أن التوبيخ ينصب إلى هذا الغرض . وفائدة قوله ﴿ يطيعكم ﴾ بلفظ الاستقبال الدلالة على ما أرادوه من استمرار طاعته لهم وأنه لا يخالفهم في كثير مما عنّ لهم من الآراء والأهواء . وفي قوله ﴿ في كثير من الأمر ﴾ مراعاة لجانب المؤمنين حيث لم ينسب جميع آرائهم إلى الخطأ ، وفيه أيضاً تعليم حسن وتأديب جميل في باب التخاطب . ويمكن أن يكون إشارة إلى

تصويب رأي بعضهم لا إلى تصويب بعض رأيهم فقد قيل : إن بعضهم زينوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم الإيقاع ببني المصطلق وتصديق قول الوليد ، وبعضهم كانوا يرون التحلم عنهم إلى أن يتبين أمرهم ، وقد أشار إلى هذا البعض بقوله ﴿ ولكن الله حبب إليكم الأيمان ﴾ أي إلى بعضكم وإلا لم يحسن الاستدراك يعني ب ﴿ لكن ﴾ فإن من شرطه مخالفة ما بعده لما قبله . فلو كان المخاطبون في الطرفين واحداً لم يكن للاستدراك معنى بل يؤدّي إلى التناقض لأنه يكون قد أثبت لهم في ثاني الحال محبة الإيمان وكراهة العصيان ، وذكر أوّلاً أنه توجب إجابتهم الوقوع في العنت .

(248/719)

قال أهل اللغة : الطاعة موافقة الداعي غير أن المستعمل في حق الأكابر الإجابة ، وفي حق الأصاغر الطاعة ، وقد ورد القرآن على أصل اللغة . استدلت الأشاعرة بقوله ﴿ حبب ﴾ و ﴿ كره ﴾ على مسألة خلق الأفعال . وحملها المعتزلة على نصب الأدلة أو اللطف والتوفيق أو الوعد والوعيد . والمعنى ولكن الله حبب إليكم الإيمان فأطعتموه فوقاكم العنت والكفر واضح . وأما الفسوق والعصيان فقيل : الأوّل الكبائر والثاني الصغائر .

ويحتمل أن يكون الكفر مقابل التصديق بالجنان ، والفسوق مقابل الإقرار باللسان لأن الفسق ههنا أمر قولي بدليل قوله ﴿ إن جاءكم فسق بنبإ ﴾ سماه فاسقاً لكذبه والعصيان مقابل العمل بالأركان ﴿ أولئك ﴾ البعض المتبينون ﴿ هم الراشدون ﴾ وهذه جملة معترضة . وقوله ﴿ فضلاً من الله ونعمة ﴾ كل منهما مفعول له والعامل فيهما ﴿ حبب ﴾ و ﴿ كره ﴾ ويجوز أن يكونا منصوبين عن الراشدين لأن الرشد عبارة عن التحبيب والتكريه المستندين إلى الله ، فكأن الرشد أيضاً فعله فاتحد الفاعل في الفعل والمفعول له بهذا الاعتبار . ويجوم أن يكونا مصدرين من غير لفظ الفعل وهو الرشد فكأنه قيل : فأولئك هم الراشدون رشداً لأن رشدهم إفضال وإنعام منه . قال بعض العلماء : الفضل بالنظر إلى جانب الله الغنيّ ، والنعمة بالنظر إلى جانب العبد الفقير ﴿ والله عليم ﴾ بأحوال الخلق وما بينهم من التمايز والتفاضل ﴿ حكيم ﴾ في تدابيره وأفضاله وأنعامه .

(249/719)

ثم علمهم حكماً آخر . في الصحيحين عن أنس أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا نبي الله لو أتيت عبد الله بن أبيّ . فانطلق إليه على حمار وانطلق المسلمون يمشون وهي أرض سبخة فبال الحمار فقال : إليك عني فوالله لقد آذاني نتن حمارك . فقال عبد الله بن

رواحة : والله إن بول حماره أطيب ريحاً منك فغضب لعبد الله رجل من قومه وغضب لكل واحد منهما أصحابه فوقع بينهم حرب بالجريد والأيدي والنعال فأنزل الله فيهم ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾ جمع لأن الطائفتين في معنى القوم ، أو الناس ، أو لأن اقل الجمع اثنان فرجع إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصلح بينهم . وعن مقاتل : قرأها عليهم فاصطلحوا . وقال ابن بحر : القتال لا يكون بالنعام والأيدي وإنما هذا في المنتظر من الزمان . والطائفة الجماعة وهي أقل من الفرقة لقوله ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ﴾ [التوبة : 122] وارتفاعها بمضمر دل عليه ما بعده أي إن اقتتلت طائفتان واختير " أن " دون " إذا " مع كثرة وقوع القتال بين المؤمنين ليدل على أنه مما ينبغي أن لا يقع إلا نادراً وعلى سبيل الفرض والتقدير ، ولهذه النكتة بعينها قال ﴿ طائفتان ﴾ ولم يقل " فريقان " تحقيقاً للتقليل كما قلنا . وفي تقديم الفاعل على الفعل إشارة أيضاً إلى هذا المعنى لأن كونهما طائفتين مؤمنين يقتضي أن لا يقع القتال بينهما ولهذا اختير المضيّ في الفعل ولم يقل يقتتلون لئلا ينبىء عن الاستمرار .

(250/719)

وفيه أيضاً من التقابل ما فيه . وإنما قدم الفعل في قوله ﴿ إن جاءكم فاسق بنبإ ﴾ ليعلم أن المجيء بالنبأ الكاذب يورث كون الجائي به فاسقاً سواء كان قبل ذلك فاسقاً أم لا ، ولو أخر الفعل لم تتناول الآية إلا مشهور الفسق قبل المجيء بالنبأ . قال بعض العلماء : إنما قال ﴿ اقتتلوا ﴾ على الجمع ولم يقل " فأصلحوا بينهم " لأن عند القتال يكون لكل منهم فعل برأسه ، أما عند العود إلى الصلح فإنه تتفق كل طائفة وإلا لم يتحقق الصلح فكان كل من الطائفتين كنفس واحدة فكانت التثنية أقعد . والبغي الاستطالة وإباء الصلح ، والفيء الرجوع وبه سمي الظل لأنه يرجع بعد نسخ الشمس ، أو لأن الناس يرجعون إليه ، والغنيمة لأنها ترجع من الكفار إلى المسلمين . ومعنى قوله ﴿ إلى أمر الله ﴾ قيل : إلى طاعة الرسول أو من قام مقامه من ولاة الأمر بقوله ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ [النساء : 59] وقيل : إلى الصلح لقوله ﴿ وأصلحوا ذات بينكم ﴾ [الأنفال : 1] وقيل : إلى أمر الله بالتقوى فإن من خاف الله حق خشيته لا تبقى له عداوة إلا مع الشيطان . وإنما قال ﴿ فإن بغت ﴾ ولم يقل " فإذا " بناء على أن بغي إحداهما مع صلاح الأخرى كالنادر ، وكذا قوله ﴿ فإن فاءت ﴾ لأن الفئة الباغية مع جهلها وعنادها وإصرارها على حقدها كالأمر النادر نظيره قول القائل لعبده : " إن مت فأنت حر " . مع أن الموت لا بد منه وذلك لأن موته بحيث يكون العبد حياً باقياً في ملكه غير معلوم .

واعلم أن الباغية في اصطلاح الفقهاء فرقة خالفت الإمام بتأويل باطل بطلاناً بحسب الظن لا القطع ، فيخرج المرتد لأن تأويله باطل قطعاً ، وكذا الخوارج وهم صنف من المبتدعة يكفرون من أتى بكبيرة ويسبون بعض الأئمة . وهكذا يخرج مانع حق الشرع لله أو للعباد عناداً لأنه لا تأويل له . ولا بد أن يكون له شوكة وعدد يحتاج الإمام في دفعهم إلى كلفه ببذل مال أو إعداد رجال ، فإن كانوا أفراداً يسهل ضبطهم فليسوا بأهل بغي . والأكثرون على أن البغاة ليسوا بفسقه ولا كفرة لقوله تعالى ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾ وعن عليّ رضي الله عنه : إخواننا بغوا علينا ولكنهم يخطؤن فيما يفعلون ويذهبون إليه من التأويل كما وقع للخارجة عن عليّ رضي الله عنه حيث اعتقدوا أنه يعرف قتلة عثمان ويقدر عليهم ولا يقتص لمواطأته إياهم . وكما قال مانعو الزكاة لأبي بكر : أمرنا بدفع الزكاة إلى من صلاته سكن لنا وصلاة غير النبي صلى الله عليه وسلم ليست بسكن لنا .

(252/719)

واتفقوا على أن معاوية ومن تابعه كانوا باغين للحديث المشهور " إن عماراً تقتله الفئة الباغية " وقد يقال : إن الباغية في حال بغيها ليست بمؤمنة وإنما سماهم المؤمنين باعتبار ما

قبل البغي كقوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه ﴾ [المائدة : 54] والمرتد ليس بمؤمن بالاتفاق . أما الذي يتلفه العادل على الباغي وبالعكس في غير القتال فمضمون على القاعدة الممهدة في قصاص النفوس وغرامة الأموال ، وأما في القتال فلا يضمن العادل لأنه مأمور بالقتال ولا الباغي على الأصح ، لأن في الوقائع التي جرت في عصر الصحابة والتابعين لم يطلب بعضهم بعضاً بضمان نفس ومال ، ولأنه لو وجبت الغرامة لنفرهم ذلك عن العود إلى الطاعة . والأموال المأخوذة في القتال تردّ بعد انقضاء الحرب إلى أربابها من الجانبين . والمراد من متلف القتال ما يتلف بسبب القتال ويتولد منه هلاكه حتى لو فرض إتلاف في القتال من غير ضرورة القتال كان كالإتلاف في غير القتال ، والذين لهم تأويل بلا شوكة لزمهم ضمان ما أتلفوا من نفس ومال وإن كان على صورة القتال ، وحكمهم حكم قطاع الطريق إذا قاتلوا ، ولو أسقطنا الضمان لأبدت كل شرذمة من أهل الفساد تأويلاً وفعلت ما شاءت وفي ذلك إبطال السياسات ، ولهذه النكتة قرن بالإصلاح . والثاني قوله ﴿ بالعدل ﴾ لأن تضمين الأنفس والأموال يحتاج فيه إلى سلوك سبيل العدل والنصفة لئلا يؤدي إلى ثوران الفتنة مرة أخرى . واحتج الشافعي لوجوب الضمان إذا لم يكن قتال بأن ابن ملجم قتل علياً رضي الله عنه زاعماً أن له شبهة وتأويلاً فأمر بحبسه وقال لهم : إن قتلتم فلا تمثلوا به فقتله الحسن بن علي رضي الله عنه وما أنكر عليه أحد . وأما الذين لهم شوكة ولا تأويل فالظاهر عند بعضهم نفي الضمان وعند آخرين الوجوب . وأما كيفية قتال

الباغين فإن أمكن الأسر لم يقتلوا ، وإن أمكن الإثخان فلا يذفف عليه كدفع الصائل إلا إذا التحم القتال وتعسر الضبط . قوله ﴿

(253/719)

وأقسطوا ﴾ أمر باستعمال القسط على طريق العموم بعد ما أمر به في إصلاح ذات البين ، قال أهل اللغة : القسط بالفتح والسكون الجور من القسط بفتحتين وهو اعوجاج في الرجلين . وعود قاسط يابس ، والقسط بالكسر العدل والهمزة في أقسط للسلب أي أزال القسط وهو الجور . وحين بين إصلاح الخلل الواقع بين الطائفتين أراد أن يبين الخلل الواقع بين اثنين بالتشاتم والسباب ونحو ذلك فقال ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ أي حالهم لا يعدوا الأخوة الدينية إلى ما يضادّها ﴿ فأصحلوا بين أخويكم ﴾ بإيصال المظلوم إلى حقه وبدفع إثم الظلم عن الظالم . والتثنية بحسب الأغلب ، ويحتمل أن يقال : إنه شامل لما دون الطائفتين . روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يعيبه ولا يتطاول عليه في البنيان فيستر عنه الريح إلا بإذنه ولا يؤذيه بقتار قدره ثم قال احفظوا ولا يحفظ منكم إلى قليل "

﴿ واتقوا الله ﴾ في سائر الأبواب راجين أن يرحمكم ربكم .

ثم شرع في تأديبات آخر . والقوم الرجال خاصة لقيامهم على الأمور . قال جمهور المفسرين : إن ثابت بن قيس بن شماس كان في أذنيه وقر وكان إذا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أوسعوا له حتى يجلس إلى جنبه فيسمع ما يقول . فجاء يوماً وقد أخذ الناس مجالسهم فجعل يتخطى رقاب الناس ويقول : تفسحوا تفسحوا . فقال له رجل : أصبت مجلساً فاجلس . فجلس ثابت مغضباً ثم قال للرجل : يا فلان ابن فلانه يريد أمّاً كان يعير بها في الجاهلية فسكت الرجل استحياء فنزلت . وقيل : نزلت في الذين نادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات واستهزؤا بالفقراء . وقيل : في كعب بن مالك قال لعبد الله : يا أعرابي . فقال له عبد الله : يا يهودي . وقيل : نزلت ﴿ ولا نساء من نساء ﴾ في عائشة وقد عابت أم سلمة بالقصر . ويروى أنها ربطت حقويها بثوب أبيض وأسدلت طرفها خلفها وكانت تجره فقالت عائشة لحفصة : انظري ماذات تجر خلفها كأنه لسان كلب . وعن عكرمة عن ابن عباس : أن صفية بنت حييّ أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إن النساء يعيرنني ويقلن يا يهودية بنت يهوديين . فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : هلا قلت إن أبي هارون وعمي موسى وزوجي محمد . وتنكير

القوم والنساء للبعضية أو لإفادة الشياع . وإنما لم يقل " رجل من رجل ولا امرأة من امرأة " زيادة للتوبيخ وتنبيهاً على أن السخرية قلما تصدر عن واحد ولكن ليشاركه في ذلك جمع من الحاضرين لأن ميل الطباع لى التلهي والدعابة والازدراء بالضعفاء وأهل السآمة أكثريّ . وإنما لم يقل " رجل من امرأة " وبالعكس لأن سخرية الجنس من الجنس أكثر فاقتصر على ذلك والباقي فيه بالأولى . وقوله ﴿ عسى أن يكونوا ﴾ كلام مستأنف ينبىء عن سبب النهي . عن عبد الله بن مسعود : البلاء موكل بالقول لو سخرت من كلب لخشيت أن أحوّل كلباً . قوله سبحانه ﴿ ولا تلمزوا ﴾ تأديب آخر واللمز الطعن باللسان . والمعنى حضوا أنفسكم بالانتهاء عن الطعن في

(255/719)

أمثالكم من أهل هذا الدين ولا عليكم أن تعيبوا غير أهل دينكم . قيل : اللمز والسب خلف الإنسان ، والهمز العيب في وجهه الإنسان . وقيل : بل الأمر بالعكس لأن من تقاليب همز هزم ، وهو يدل على البعد ، ومن مقلوب اللمز اللزم وهو يدل على القرب فيشمل العيب بالإشارة أيضاً . قوله ﴿ ولا تنابزوا ﴾ تأديب آخر والنبز بالسكون القذف بالمكروه من

الألقاب ، واللقب من الأعلام ما دل على مدح أو ذم ، والنبز بالفتح اللقب القبيح فهو أخص من اللقب كما أن اللقب أخص من العلم .

(256/719)

وإنما قال ﴿ ولا تنابزوا ﴾ ولم يقل ولا تنبزوا على منوال ﴿ ولا تلمزوا ﴾ لأن النبز لا يعجز الإنسان عن جوابه غالباً فمن ينبز غيره بالحمار كان لذلك الغير أن ينبزه بالثور مثلاً ولا كذلك اللمز فإن الملموز كثيراً ما يغفل عن عيب اللامز فلا يحضره في الجواب شيء فيقع اللمز من جانب واحد فقط . ثم أكد النهي عن التنابز بقوله ﴿ بئس الاسم ﴾ أي الذكر ﴿ الفسوق ﴾ وفي قوله ﴿ بعد الإيمان ﴾ وجوه أحدها : استقباح الجمع بين الأمرين كما تقول " بئس الشأن الصبوة بعد الشيخوخة " أي معها . وثانيها بئس الذكر أن يذكروا الرجل بالفسق أو باليهودية بعد إيمانه ، وكانوا يقولون لمن أسلم من اليهود يا يهودي يا فاسق فنهوا عنه . وثالثها أن يجعل الفاسق غير مؤمن كما يقال للمتحوّل عن التجارة إلى الفلاحة " بئست الحرفة الفلاحة بعد التجارة " فمعنى بعد الإيمان بدلاً عن الإيمان ﴿ ومن لم يتب ﴾ عما نهي عنه ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾ لأن الإصرار على المنهي كفر إذ جعل المنهي . كالمأمور فوضع الشيء في غير موضعه قوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ﴾

فيه تأديب آخر . ومعنى اجتنبوا كونوا منه في جانب . وإنما قال ﴿ كثيراً ﴾ ولم يقل الظن مطلقاً لأن منه ما هو واجب كحسن الظن بالله وبالمؤمنين كما جاء في الحديث القدسي " أنا عند ظن عبدي بي " قال النبي صلى الله عليه وسلم " لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله " وقال " إن حسن الظن من الإيمان " ومنه ما هو محظور وهو سوء الظن بالله وبأهل الصلاح . عن النبي صلى الله عليه وسلم " إن الله حرم من المسلم دمه وعرضه وأن يظن به ظن السوء " وهو الذي أمر في الآية باجتنابه . ومنه ما هو مندوب إليه وهو إذا كان المظنون به ظاهر الفسق وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم " من الحزم سوء الظن " وعن النبي صلى الله عليه وسلم " احترسوا من الناس بسوء الظن " ومنه المباح كالظن في المسائل الاجتهادية . قال أهل المعاني :

(257/719)

إنما نكر ﴿ كثيراً ﴾ ليفيد معنى البعضية المصرح بها في قوله ﴿ إن بعض الظن إثم ﴾ ولو عرّف لأوهم أن المنهي عنه هو الظن الموصوف بالكثرة والذي يتصف بالقلة مرخص فيه . والهمزة في الإثم عوض عن الواو كأنه يثم الأعمال أي يكسرها بإحباطه . تأديب آخر ﴿ ولا تجسسوا ﴾ وقد يخص الذي بالحاء المهملة بتطلب الخبر والبحث عنه كقوله ﴿

فتحسسوا من يوسف وأخيه ﴾ [يوسف : 87] فبالجيم تفعل من الجس ، وبالحاء من الحس . قال مجاهد : معناه خذوا ما ظهر ودعوا ما ستره الله .

(258/719)

عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في خطبته " يا معشر من آمن بلسانه ولم يخلص الإيمان إلى قلبه لا تتبعوا عورات المسلمين فإن من تتبع عورات المسلمين تتبع عورته حتى يفضحه ولو كان في جوف بيته " وهذا الأدب كالسبب لما قبله . فلما نهى عن ذلك نهى عن سببه أيضاً . تأديب آخر ﴿ ولا يغتب ﴾ يقال غابه واغتابه بمعنى ، والاسم الغيبة بالكسر وهي ذكر العيب بظهر الغيب ، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فقال " أن تذكر أخاك بما يكره فإن كنت صادقاً اغتبته وإن كانت كاذباً فقد بهته " ثم مثل ما يناله المغتاب من عرض صاحبه على أفظع وجه فقال ﴿ أيحب ﴾ إلى آخره . وفيه أنواع من المبالغة منها الاستفهام للتقرير ومحبة المكروه ، ومنها إسناد الفعل إلى ﴿ أحدكم ﴾ ففيه إشعار بأنه لا أحد يحب ذلك ، ومنها تقييد المكروه بأكل لحم الإنسان ، ومنها تقييد الإنسان بالأخ ، ومنها جعل الأخ أو اللحم ميتاً ففيه مزيد تنفير للطبع . وإنما مثل بالأكل لأن العرب تقول لمن ذكر بالسوء إن الناس يأكلون فلاناً ويمضغونه ، وفلان مضغة للماضغ .

شبهوا إدارة ذكره في الفم بالأكل . والميت لمزيد التنفير كما قلنا ، أو لأن الغائب كالميت من حيث لا يشعر بما يقال فيه . أما الفاء في قوله ﴿ فكرهتموه ﴾ ففصيحة أو نتيجة لأنها للإلزام أي بل عافته نفوسكم فكرهتموه . أو فتحققت بوجوب الإقرار وبحكم العقل وداعي الطبع كراهتكم للأكل أو اللحم أو الميت فليتحق أيضاً أن تكرهوا لما هو نظيره وهي الغيبة . وقال ابن عباس : هي إدام كلاب الناس . وعنه أن سلمان كان يخدم رجلين من الصحابة ويسوّي لهما طعامهما فنام عن شأنه يوماً فبعثاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما عندي شيء فأخبرهما سلمان فعند ذلك قالا : لو بعثناه إلى بئر سميحة " لبئر من آبار مكة " لغار ماؤها . فلما راحا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهما : ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما ؟ فقالا : ما تناولنا لحماً .

(259/719)

فقال : إنكما قد اغتبتما فنزلت . قلت : قد تبين في الحديث أن في الآية مبالغة أخرى وهي أنه أراد باللحم الميت المدوّد المنتن المخضر ، وقد عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر الحسي عن الأمر المعنوي الذي أدركه بنور النبوّة منهما . واعلم أن الغيبة وإن كانت منهية إلا أنها مباحة في حق الفاسق . ففي الحديث " اذكروا الفاسق بما فيه كي يحذره

الناس " وروي " من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له واتقوا الله فيما نهاكم وتوبوا فيما وجد منكم "

وحين علم المؤمنين تلك الآداب الجميلة عمم الخطاب منعاً من السخرية واللمز وغير ذلك على الإطلاق فقال ﴿ يا أيها الناس ﴾ الآية .

(260/719)

قال بعض الرواة : " إن ثابت بن قيس حين قال " فلان ابن فلانة " قال النبي صلى الله عليه وسلم : من الذاكر فلانة ؟ فقام ثابت فقال : أنا يا رسول الله . فقال : انظر في وجوه القوم فنظر فقال : ما رأيت يا ثابت ؟ قال : رأيت أبيض وأسود وأحمر . قال : فإنك لا تفضلهم إلا بالتقوى والدين " ، فأنزل الله هذه الآية . وعن مقاتل : لما كان يوم فتح مكة أمر النبي صلى الله عليه وسلم بلالاً حتى أذن على ظهر الكعبة فقال عتاب بن أسيد : الحمد لله الذي قبض أبي حتى لم ير هذا اليوم . وقال الحرث بن هشام : أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً . وقال سهيل بن عمرو : إن يرد الله شيئاً يغيره . وقال أبو سفيان : إني لا أقول شيئاً أخاف أن يخبر به رب السماء . فأتى جبريل عليه السلام فأخبره . وأقول : الآية تزجرهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال والازدراء بالفقراء . ويروى أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم رأي في سوق المدينة غلاماً أسود يقول : من اشتراني فعلى شرط لا يمنعني عن الصلوات الخمس خلف النبي صلى الله عليه وسلم : فاشتراه رجل وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يراه عند كل صلاة ففقده يوماً فسأل عنه صاحبه فقال : محموم . فعاده ثم سأل عنه بعد أيام فقيل : هو في ذمائه . فجاءه وتولى غسله ودفنه فدخل على المهاجرين والأنصار أمر عظيم فنزلت . وقوله ﴿ من ذكر وأنثى ﴾ فيه وجهان : أحدهما من آدم وحوّاء فيدل على أنه لا تفاخر لبعض على بعض لكونهم أولاد رجل واحد وامرأة واحدة ، والثاني كل واحد منكم أيها الموجودون وقت النداء خلقناه من أب وأم ، والتفاوت في الجنس دون التفاوت في الجنسين كالذباب والذئاب مثلاً ، لكن التفاوت بين الناس بالكفر والإيمان كالتفاوت الذي بين الجنسين ، لأن الكافر كالأنعام بل أضل ، والمؤمن هو الناس وغيره كالنسناس . والحاصل أن الشيء إما أن يترجح على غيره بأمر يلحقه ويترتب عليه بعد وجوده ، وإما أن يترجح عليه بأمر هو قبله . وهذا

(261/719)

القسم إما أن يرجع إلى القابل أو إلى الفاعل كما يقال "كان هذا من النحاس وهذا من الفضة وهذا عمل فلان " فذكر الله سبحانه أنه لا ترجح بحسب الأصل القابل لأنكم كلكم من

ذكر وأنثى ، ولا بحسب الفاعل فإن الله هو خالقكم . فإن كان تفاوت فبأمور لاحقة وأحقها بالتمييز هو التقوى لما قلنا ، ولهذا يصلح للمناصب الدينية كالقضاء والشهادة كل شريف ووضيع إذا كان ديناً عالماً ، ولا يصلح للمناصب الدينية كالقضاء والشهادة كل شريف ووضيع إذا كان ديناً عالماً ، ولا يصلح لشيء منها فاسق وإن كان قرشي النسب قارونيّ النشب . ثم بين الحكمة التي من أجلها رتبهم على شعوب وقبائل وهي أن يعرف بعضهم نسب بعض فلا يعتزى إلى غير آبائه فقال ﴿ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾ أي ليقع بينكم التعارف بسبب ذلك لا أن تتفاخروا بالأنساب .

وقيل : الشعوب بطون العجم ، والقبائل بطون العرب . وقال جار الله : الشعب بالفتح الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب . أوّلها شعب وهي أعم سمي بذلك لأن القبيلة تنشعب منها ، ثم قبيلة ، ثم عمارة ، ثم بطن ، ثم فخذ ، ثم فصيلة وهي الأخص مثال ذلك : خزيمة شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة ، وقصي بطن ، وهاشم فخذ ، والعباس فصيلة .

(262/719)

فائدة : لا ريب أن الخلق يستعمل في الأصول أكثر ، والجعل يستعمل فيما يتفرع عليه ، ولهذا قال ﴿ خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾ [الأنعام : 1] وقال في الآية ﴿ خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل ﴾ ولكنه قال في موضع آخر ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [الذاريات : 56] فبين أن الأصل في الخلق والغرض الأقدم هو العبادة ليعلم منه أن اعتبار النسب وغيره مؤخر عن اعتبار العبادة فلهذا قال ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ وفيه معنيان : أحدهما أن التقوى تفيد الإكرام عند الله . والثاني أن الإكرام في حكم الله يورث التقوى والأول أشهر كما يقال " ألذ الأطعمة أحلاها " أي اللذة بقدر الحلاوة لا أن الحلاوة بقدر اللذة . عن النبي صلى الله عيله وسلم أنه طاف يوم فتح مكة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال " الحمد لله الذي أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتكبرها . يا أيها الناس إنما الناس رجلان : مؤمن تقي كريم على الله وفاجر شقي هين على الله ثم قرأ الآية " وعنه صلى الله عليه وسلم " من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله " قال ابن عباس : كرم الدنيا الغنى وكرم الآخرة التقوى . ﴿ إن الله عليم ﴾ بظواهركم ﴿ خبير ﴾ ببواطنكم وحق مثله أن يخشى ويتقى . وحين حث عموم الناس على تقواه وبخ من في إيمانه ضعف . قال ابن عباس : إن نفراً من بني أسد قدموا المدينة في سنة جدبة وأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين في السر ، وأفسدوا طريق المدينة بالقذاة ، وأغلوا أسعارها وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أتيناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك

كما قاتلك بنو فلان فأعطنا من الصدقة ، وجعلوا يمنون عليه فأنزل الله هذه الآيات . أي قالوا آمنا بشرائطه فأطلع الله نبيه على مكنون ضمائرهم وقال : لن تؤمنوا إيماناً حقيقياً وهو الذي وافق القلب فيه اللسان . ﴿ ولكن قولوا أسلمنا ﴾ يعني إسلاماً لغوياً وهو الخضوع والانقياد خوفاً من القتل ودخولاً في

(263/719)

زمرة أهل الإيمان والسلم . ثم أكد النفي المذكور بقوله ﴿ ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ وفيه فائدة زائدة هي أن يعلم أن الإيمان متوقع منهم لأن " لما " حرف فيه توقع وانتظار .

(264/719)

ثم حثهم على الطاعة بقوله ﴿ وإن تطيعوا الله ورسوله لايلتكم ﴾ أي لا ينقصكم ﴿ من ﴾ ثواب ﴿ أعمالكم شيئاً ﴾ يعني الثواب المضاعف الموعود في نحو قوله ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ [الأنعام : 160] ألت يألت بالهمز إذا نقص وهي لغة غطفان . يقال ألته السلطان حقه أشدّ الألت . ولغة أسد وأهل الحجاز لأته ليتاً . وقال

قطرب : ولته يلته بمعنى صرفه عن وجهه . فيكون ﴿ يلتكم ﴾ على وزن " يعدكم " ، وعلى الوجه المتقدم على وزن " يبعكم " . ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ لمن تاب وأخلص نيته . ثم وصف المؤمنين المحقين بقوله ﴿ إنما المؤمنون ﴾ ومعنى " ثم " في قوله ﴿ ثم لم يرتابوا ﴾ كما في قوله ﴿ ربنا الله ثم استقاموا ﴾ [فصلت : 30] وارتاب مطاوع رابه إذا أوقعه في الشك مع التهمة أي ثم لم يقع في قلوبهم شك فيما آمنوا به ولا إتهام لمن صدّقوه وذلك بتشكيك بعض شياطين الجن والإنس . وقال جار الله : وجه آخر لما كان زوال الريب ملاك الإيمان أفرد بالذكر بعد تقدم الإيمان تنبيهاً على مزيته وإشعاراً بأنهم مستقرون على ذلك في الأزمنة المتطاولة غضاً جديداً . وفي قوله ﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ تعريض بأن المذكورين أولاً كاذبون ولهذا قال ﴿ قل لم تؤمنوا ﴾ إشارة إلى كذبهم في دعواهم ورب تعريض لا يقاومه التصريح . ثم أراد تجهيلهم بقوله ﴿ قل أتعلمون الله بدينكم ﴾ والباء قيل للسببية والأظهر أنه الذي في قولهم ما علمت بقدومك أي ما شعرت ولا أحطت به . وذكر في أسباب النزول أنه لما نزلت الآية الأولى جاءت هؤلاء الأعراب وحلفوا أنهم مؤمنون معتقدون فنزلت هذه الآية . والاستفهام للتوبيخ أي كيف تعلمونه بعقيدتكم وهو عالم بكل خافية والتعليم إفادة العلم على التدريج والمعالجة ؟ وقيل : تعريض من لا يعلم بإفهام المعنى لأن يعلم قوله ﴿ يمنون عليك ﴾ نزلت في المذكورين وفي أمثالهم . يقال : منّ عليه صنعه إذا اعتدّه عليه منة وإنعاماً . قال أهل العربية : اشتقاق المنة من المن الذي

(265/719)

هو القطع لأنه إنما يسدي النعمة إليه ليقطع بها حاجته لا غير من غير أن يعمل لطلب مثوبة وعوض . ثم قال ﴿ بل الله يمن عليكم ﴾ حيث هداكم للإيمان الذي ادّعيتموه . وفي إضافة الإسلام إليهم ازدراء بإسلامهم ، وفي إيراد الإيمان مطلقاً غير مضاف إشارة إلى الإيمان المعهود الذي يجب أن يكون المكلف عليه . وجواب الشرط محذوف أي ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في ادعاء الإيمان الحقيقي فلله المنة عليكم . ثم عرض بأنهم غير صادقين فقال ﴿ إن الله يعلم ﴾ الآية والمراد أنه لا يخفي عليه ضمائرهم والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 156 . 170 ﴾

(266/719)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الحجرات

مدنية وهي : ثمان عشرة آية وثلاثمائة وثلاث وأربعون كلمة وألف وأربعمائة وستة وسبعون

حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ الجبار المتكبر الذي أعز رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ الرحمن ﴾ الذي من عموم رحمته الآداب للتوصل إلى حسن المآب ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص أولي الألباب بالإقبال على ما يوجب لهم دار الثواب .

ولما نوّه سبحانه في القتال بذكر النبيّ صلى الله عليه وسلم وصرّح في ابتدائها باسمه الشريف وسمى السورة به وملأ سورة الفتح بتعظيمه وختمها باسمه ومدح أتباعه لأجله افتتح هذه السورة باشتراط الأدب معه في القول والفعل فقال تعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي : أقرّوا بالإيمان ﴿ لا تقدّموا ﴾ من قدم بمعنى تقدّم أي لا تتقدّموا وحذف المفعول ليعم كل ما يصح تقديمه ، فيذهب الوهم كل مذهب ويجوز أن يكون حذفه من غير قصد إليه أصلاً بل يكون النهي موجهاً إلى نفس التقدمة أي لا تتلبسوا بهذا الفعل ﴿ بين يدي الله ﴾ أي : الملك الأعظم الذي لا يطاق انتقامه ﴿ ورسوله ﴾ أي : الذي عظمته ظاهرة جدّاً لا نهاية له ، لأنّ عظمته من عظمته ، ولذلك قرن اسمه باسمه واختلف في سبب نزول ذلك . فقال الشعبي عن جابر أنه في الذبح يوم الأضحى قبل الصلاة . أي لا تذبحوا قبل أن يذبح النبيّ صلى الله عليه وسلم وذلك "أن أناساً ذبحوا قبله صلى الله عليه وسلم فأمرهم أن يعيدوا الذبح" وقال : "من ذبح قبل الصلاة فإنما هو لحم عجله لأهله ليس من النسك في شيء" .

وعن مسروق عن عائشة رضى الله عنها : أنه في النهي عن صوم يوم الشك . أي لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم . وعن ابن الزبير : "أنه قدم ركب من بني تميم على النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر : أمّر القعقاع بن معبد بن زرارة وقال عمر بل أمر الأقرع بن حابس فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافي . فقال عمر : ما أردت خلافك فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزلت هذه الآية" . قال ابن الزبير : فكان عمر لا يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى يستفهمه . وعن ابن أبي مليكة : نزل ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم ﴾ وهذا أنسب . وقال الضحاك : يعني في القتال وشرائع الدين أي لا تقطعوا أمراً دون الله ورسوله . قال الرازي : والأصح أنه إرشاد عام يشمل الكل ومنع مطلق يدخل فيه كل افتيات وتقدّم واستبداد بالأمر وإقدام على فعل غير ضروري من غير مشاورة .

تنبيه : معنى بين يدي الله ورسوله أي : بحضرتهما لأنّ ما بحضرة الإنسان فهو بين يديه ناظر إليه . وحقيقة قولهم جلست بين يدي فلان أن يجلس بين الجهتين المسامتتين ليمينه وشماله قريباً منه فسميت الجهتان يدين لكونهما على سمت اليدين مع القرب منهما توسعاً . كما

يسمى الشيء باسم غيره إذا جاوره ودانا ه في غير موضع ، وقد جرت هذه العبارة هنا على ضرب من المجاز ، وهو الذي يسميه أهل البيان تمثيلاً .

وقيل : المراد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر الله تعالى تعظيم له وإشعار بأنه من الله تعالى بمكان يوجب إجلاله ﴿ واتقوا الله ﴾ اجعلوا بينكم وبين غضب الملك الأعظم وقاية ، فإنّ التقوى مانعة من أن تضيعوا حقه وتخالفوا أمره أو تقدموا على شيء لم تعلموا رضاه فيه ﴿ إن الله ﴾ أي : الذي له الإحاطة بصفات الكمال ﴿ سميع ﴾ لأقوالكم ﴿ عليم ﴾ بأعمالكم .

ونزل فيمن رفع صوته عند النبيّ عليه الصلاة والسلام .

(268/719)

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم ﴾ أي : في شيء من الأشياء عند النطق إذا نطقتم ﴿ فوق صوت النبيّ ﴾ إذا نطق .

تنبيه : في إعادة النداء فوائد : منها أنّ في ذلك بيان زيادة الشفقة على المسترشد كقول لقمان لابنه : ﴿ يا بنيّ لا تشرك بالله ﴾ (لقمان :) ، ﴿ يا بنيّ إنها إن تك ﴾ (لقمان :) ، ﴿ يا بنيّ أقم الصلاة ﴾ (لقمان :) ، لأنّ النداء تنبيه للمنادي ليقبل على استماع الكلام

ويجعل باله منه ، فإعادته تفيد تجدد ذلك ومنها أن لا يتوهم أن المخاطب ثانياً غير المخاطب أولاً فإن من الجائز أن يقول القائل : يا زيد افعل كذا وكذا يا عمرو . فإذا أعاد مرة أخرى وقال : يا زيد قل يا زيد قل كذا وقل كذا يعلم أن المخاطب أولاً هو المخاطب ثانياً . ومنها أن يعلم أن كل واحد من الكلامين مقصود ليس الثاني تأكيداً للأوّل كقولك : يا زيد لا تنطق ولا تتكلم إلا بالحق وأنه لا يحسن أن يقول يا زيد لا تنطق يا زيد لا تتكلم ، كما يحسن عند اختلاف المطلوبين ﴿ ولا تجهروا له بالقول ﴾ أي : إذا كلمتموه سواء كان ذلك مثل صوته أو أخفض من صوته ، فإنّ ذلك غير مناسب لما يهاب به العظماء ويوقر الكبراء ﴿ كجهر بعضكم لبعض ﴾ أي : ولا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم بل اجعلوا أصواتكم أخفض من ذلك فإنكم إن لم تفعلوا ذلك لم يظهر فرق بين النبيّ صلى الله عليه وسلم وبين غيره .

فإن قيل : ما الفائدة في ولا تجهروا بعد لا ترفعوا ؟ .

(269/719)

أجيب : بأن المنع من رفع الصوت هو أن لا يجعل كلامه أو صوته أعلى من كلام النبيّ صلى الله عليه وسلم وصوته والنهي عن الجهر منع من المساواة . أي لا تجهروا له بالقول كما

تجهرون لنظرائكم بل اجعلوا كلمته عليا ثم حذرهم بقوله تعالى : ﴿ أن ﴾ أي : كراهة أن ﴿ تحبط ﴾ أي : تفسد فتسقط ﴿ أعمالكم ﴾ التي هي الأعمال بالحقيقة ، وهي الحسنات كلها ﴿ وأنتم لا تشعرون ﴾ أي : بأنها حبطت فإنّ ذلك إذا أجترأ الإنسان عليه استخف به وإذا استخف واظب عليه ، وإذا واظب عليه أو شك أن يستخف بالمخاطب فيكفر وهو لا يشعر ، روى أنس بن مالك قال : "لما نزل قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم ﴾ الآية جلس ثابت بن قيس في بيته وقال : أنا من أهل النار واحتبس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فسأل النبيّ صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ فقال : يا أبا عمرو ما شأن ثابت اشتكى فقال سعد : إنه لجاري وما علمت له شكوى قال : فأتاه سعد فذكر له قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ثابت : نزلت هذه الآية وقد علمتم أني من أرفعكم صوتاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنا من أهل النار . فذكر ذلك سعد لنبيّ صلى الله عليه وسلم فقال بل هو من أهل الجنة" .

وروي لما نزلت هذه الآية "قعد ثابت في الطريق يبكي فمّر به عاصم بن عدي فقال : وما يبكيك يا ثابت . قال : هذه الآية أتخوف أن تكون نزلت فيّ وأنا رفيع الصوت أخاف أن يحبط عملي وأكون من أهل النار فمضى عاصم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وغلب ثابتاً البكاء فأتى امرأته جميلة بنت عبد الله بن أبيّ ابن سلول فقال لها : إذا دخلت بيت فرشي فسدّي عليّ الضبة بمسمار فضربت عليه بمسمار وقال لا أخرج حتى يتوفاني

الله أو يرضى عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى عاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره خبره فقال : اذهب فادعه لي فجاءه عاصم إلى المكان الذي رآه فيه فلم يجده ، فجاء إلى أهله فوجده في بيت الفرش .

(270/719)

فقال له : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوك . فقال : اكسر الضبة فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم ما يبكيك يا ثابت فقال : أنا ميت فأخاف أن تكون هذه الآية نزلت فيّ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أما ترضى أن تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة . فقال : رضيت ببشرى الله ورسوله لا أرفع صوتي أبداً على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل .

﴿ إنّ الذين يغضون ﴾ أي : يخفضون ويلينون لما وقع عليهم من السكينة من هيبة حضرته قال الطبريّ وأصل الغض الكف في لين ﴿ أصواتهم ﴾ تخشعاً وتخضعاً ورعايةً للأدب وتوقيراً ﴿ عند رسول الله ﴾ أي الذي من شأنه أن يعلو كلامه على كل كلام ، لأنه مبلغ عن الملك الأعظم وعبر بعند الذي للظاهر إشارة إلى أنّ أهل حضرة الخصوصية لا يقع منهم إلا أكمل الأدب ﴿ أولئك ﴾ أي عالو الرتبة ﴿ الذين امتحن الله ﴾ أي : فعل المحيط بجميع

صفات الكمال فعل المختبر ﴿ قلوبهم للتقوى ﴾ أي : اختبرها وأخلصها لتظهر منهم من امتحن الذهب إذا أذابه وميز إبريزه من خبثه . فإنّ الامتحان اختبار بليغ يؤدّي إلى خبر فالمعنى أنه طهر قلوبهم ونقاها كما يمتحن الصائغ الذهب والفضة بالإذابة والتنقية والتخليص من كل غش لأجل إظهار ما بطن فيها من التقوى ليصير معلوماً للخلق في عالم الشهادة ، كما كان له سبحانه في عالم الغيب . ﴿ لهم مغفرة ﴾ أي : لهفواتهم وزلاتهم ﴿ وأجر عظيم ﴾ لغضهم وسائر طاعاتهم . والتنكير للتعظيم .

(271/719)

قال أنس : فكنا أي بعد نزول هذه الآية في حق ثابت ننظر إلى رجل من أهل الجنة يمشي بين أيدينا فلما كان في يوم حرب مسيلمة رأى ثابت من المسلمين بعض الإنكسار فانهزمت طائفة منهم فقال : أفّ لهؤلاء ، ثم قال ثابت لسالم مولى أبي حذيفة : ما كنا نقاتل أعداء الله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هذا ثم ثبتا وقاتلا حتى قتلا واستشهد ثابت وعليه درع ، فرآه رجل من الصحابة بعد موته في المنام فقال له : اعلم أن فلاناً رجل من المسلمين نزع درعي فذهب بها وهي في ناحية من العسكر عند فرس يستنّ في طوله ، وقد وضع على درعي ثوبه فائت أبا بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقل له : إن

عليّ ديناً حتى يقضيه عني وفلان من رقيقي عتيق ، فأخبر الرجل خالداً فوجد درعه والفرس على ما وصفه فاسترد الدرع وأخبر خالد أبا بكر بتلك الرؤية فأجاز أبو بكر وصيته قال مالك بن أنس : لا أعلم وصية أجيزت بعد موت صاحبها إلا هذه .

واختلف في سبب نزول قوله عز وجل:

﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات ﴾ فقال ابن عباس رضى الله عنهما : "بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية إلى بني النضير وأمر عليهم عتبة بن حصن الغزاوي فلما علموا هربوا وتركوا عيالهم ، فسباهم عتبة وقدم بهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءهم بعد ذلك رجالهم يفدون الذراري فقدموا وقت الظهيرة ووافقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً في أهله ، فلما رأتهم الذراري اجهشوا إلى آبائهم يبكون وكان لكل امرأة من نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم حجرة ، فعجلوا أن يخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعلوا ينادون يا محمد اخرج إلينا حتى أيقظوه من نومه فخرج إليهم .ا

(272/719)

فقالوا : يا محمد فادنا عيالنا . فنزل جبريل عليه السلام فقال إنّ الله تبارك وتعالى يأمرك أن تجعل بينك وبينهم رجلاً . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أترضون أن يكون بيني وبينكم شبرمة بن عمرو وهو على دينكم فقالوا : نعم . فقال شبرمة : أنا لا أحكم بينهم وعمي شاهد وهو الأعور بن بسامة فرضوا به فقال الأعور : أرى أن تفادي نصفهم وتعتق نصفهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رضيت ففادى نصفهم وأعتق نصفهم" فأنزل الله تعالى ﴿ إنّ الذين ينادونك من وراء الحجرات ﴾ جمع حجرة وهي ما تحجره من الأرض بحائط ونحوه . كان كل واحد منهم نادى خلف حجرة لأنهم لم يعلموه في أيها مناداة الأعراب بغلظة وجفاء ﴿ أكثرهم ﴾ أي : المنادي والراضى دون الساكت لعذر ﴿ لا يعقلون ﴾ أي : محلك الرفيع وما يناسبه من التعظيم ، فلم يصبروا بل فعلوا معه صلى الله عليه وسلم كما يفعل بعضهم ببعض .

﴿ ولو أنهم ﴾ أي : المنادي والراضي ﴿ صبروا ﴾ أي : حبسوا أنفسهم ومنعوها من مناداتهم والصبر : حبس النفس عن أن تنازع إلى هواها ، وهو حبس فيه شدّة وصبر . ﴿ حتى تخرج إليهم ﴾ من تلقاء نفسك عند فراغ ما أنت فيه مما يهمك من واردات الحق ومصالح الخلق ﴿ لكان ﴾ أي : الصبر ﴿ خيراً لهم ﴾ أي : من استعجالهم إيقاظك في الهاجرة .

ومما لو قرعوا الباب بالأظافر كما كان يفعل غيرهم من الصحابة . قال أبو عثمان : الأدب عند الأكابر يبلغ بصاحبه إلى الدرجات العلا والخير في الأولى والعقبى ا . ه فإنهم لو تأدّبوا لربهم لزادهم صلى الله عليه وسلم في الفضل فأعتق جميع سبيهم وأطلقهم بلا فداء .

﴿ والله ﴾ أي : المحيط بجميع صفات الكمال ﴿ غفور ﴾ أي : ستور ذنب من تاب من جهله ﴿ رحيم ﴾ أي : يعاملهم معاملة الراحم ، فيسبغ عليهم نعمه . وقال قتادة : "نزلت في ناس من أعراب تميم جاءوا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فنادوا على الباب اخرج إلينا يا محمد فإن مدحنا زين وذمّنا شين فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : إنما ذلكم الله الذي مدحه زين وذمه شين .

فقالوا : نحن ناس من بني تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بالشعر بعثت ولا بالفخار أمرت ولكن هاتوا .

فقام شاب منهم فذكر فضله وفضل قومه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لثابت بن قيس بن شماس وكان خطيب النبيّ صلى الله عليه وسلم قم فأجبه فأجابه . وقام شاعر فذكر أبياتاً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت : أجبه فأجابه . فقام الأقرع بن حابس فقال : إنّ محمداً المولى تكلم خطيبنا فكان خطيبهم أحسن قولاً وتكلم

شاعرنا فكان شاعرهم أشعر وأحسن قولاً ثم دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله .

(274/719)

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يضرّك ما كان من قبل هذا ثم أعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكساهم ، وكان قد تخلف في ركابهم عمرو بن الأهيم لحداثة سنه فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما أعطاهم فأزرى به بعضهم وارتفعت الأصوات وكثر اللغط عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل فيهم ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبيّ ﴾ الآيات الأربع إلى قوله تعالى : ﴿ غفور رحيم ﴾ وقال زيد بن أرقم جاء ناس من العرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا إلى هذا الرجل فإن يكن نبياً فنحن أسعد الناس به ، وإن يكن ملكاً نعش في جناحه . فجاؤوا فجعلوا ينادون من وراء الحجرات يا محمد . فأنزل الله تعالى ﴿ إنّ الذين ينادونك ﴾ الآية وقيل : المراد بأكثرهم كلهم . لأنّ العرب تذكر الأكثر وتريد الكل احتراز عن الكذب واحتياطاً في الكلام . لأنّ الكل ما لا يحيط به علم الإنسان في بعض الأشياء فيقول الأكثر وفي اعتقاده الكل .

ثم إنّ الله تعالى مع إحاطة علمه بالأمور أتى بما يناسب كلامهم وفيه إشارة إلى لطيفة ، وهي أنّ الله تعالى يقول مع إحاطة علمي بكل شيء جريت على عادتكم استحساناً لتلك العادة ، وهي الاحتراز عن الكذب فلا تتركوها واجعلوا اختياري ذلك في كلامي دليلاً قاطعاً على رضاي بذلك منكم .

تنبيه : جعل الزمخشري أنهم من ولو أنهم فاعلاً بفعل مقدر أي ولو ثبت صبرهم وجعل اسم كان ضميراً عائداً على هذا الفاعل . ولكن مذهب سيبويه أنها في محل رفع بالابتداء وحينئذ يكون اسم كان ضميراً عائداً على صبرهم المفهوم وجرى على الأوّل البيضاوي ، وعلى الثاني الجلال المحلى واختلف في سبب نزول قوله تعالى:

(275/719)

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم ﴾ أي : في وقت من الأوقات ﴿ فاسق ﴾ أي : خارج من ربقة الديانة ﴿ بنبأ ﴾ أي : خبر يعظم خطبه فيثير شرّاً ﴿ فتبينوا ﴾ صدقه من كذبه . فقال أكثر المفسرين : نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وهو أخو عثمان لأمه . "وذلك أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم بعثه إلى بني المصطلق بعد الوقعة والياً ومصدقاً أي يأخذ منهم الصدقة وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية ، فلما سمع به القوم تلقوه تعظيماً لأمر

رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله فهابهم فرجع من الطريق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : إنهم منعوا صدقاتهم وأرادوا قتلى . فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهمّ أن يغزوهم فبلغ القوم رجوعه ، فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله سمعنا برسولك فخرجنا نتلقاه ونكرمه ونؤدي إليه ما قبلنا من حق الله فبدا له في الرجوع ، فخشينا أنه إنما رده من الطريق كتاب جاءه منك لغضب غضبته علينا وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله فاتهمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعث خالد بن الوليد خفية في عسكره وأمره أن يخفي عليهم قدومه وقال : انظر فإن رأيت منهم ما يدل على إيمانهم فخذ منهم زكاة أموالهم ، وإن لم تر ذلك فاستعمل فيهم ما تستعمل في الكفار . ففعل ذلك خالد ووافاهم فسمع منهم آذان صلاتي المغرب والعشاء فأخذ منهم صدقاتهم ولم ير منهم إلا الطاعة والخير وانصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر" فنزل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ ﴿ أن تصيبوا ﴾ أي : بأذى ﴿ قوماً ﴾ أي : هم مع قوّتهم النافعة لأهل الإسلام برآء مما نسب إليهم ﴿ بجهالة ﴾ أي : مع الجهل بحال استحقاقهم لذلك ﴿ فتصبحوا ﴾ أي : فتصيروا ولكنه عبر بذلك لأن أشنع الندم ما استقبل الإنسان صباحاً وقت انتباهه وفراغه وإقباله على لذاته ﴿ على ما فعلتم ﴾ أي : من إصابتهم ﴿ نادمين ﴾ أي : غريقين في

الأسف على ما

فات مما يوقع الله تعالى في نفوسكم من أمور ترجف القلوب . وقال الرازي : هذا ضعيف لأنّ الله تعالى لم يقل إني أنزلتها لكذا والنبيّ صلى الله عليه وسلم لم ينقل عنه أنه قال وردت الآية لبيان ذلك حسب غاية ما في الباب أنها نزلت في ذلك الوقت وهو مثل تاريخ نزول الآية مما يصدق ذلك ويؤيده أنّ إطلاق لفظ الفاسق على الوليد بعيد لأنه توهم وظن فأخطأ والمخطئ لا يسمى فاسقاً فكيف والفاسق في أكثر المواضع المراد به من خرج عن رتبة الإيمان كقوله تعالى : ﴿ إنّ الله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ (المنافقون :)

وقوله تعالى : ﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾ (الكهف :)

وقوله تعالى : ﴿ وأما الذين فسقوا فمأواهم النار ﴾ الآية إلى غير ذلك ا . ه وقال ابن الخازن في تفسيره : وقيل هو عام نزلت لبيان التثبيت وترك الاعتماد على قول الفاسق وهذا أولى من حكم الآية على رجل بعينه .

تنبيه : قوله تعالى : ﴿ أن تصيبوا ﴾ مفعول له كقوله تعالى : ﴿ أن تحبط ﴾ (الحجرات :)

قال الرازي : معناه على مذهب الكوفيين لئلا تصيبوا وعلى مذهب البصريين كراهة أن

تصيبوا وقرأ حمزة والكسائي : بعد التاء المثناة بثاء مثلثة وبعد الباء الموحدة بتاء مثناة فوق من التثبت أي : فتوقفوا إلى أن يتبين لكم الحال . والباقون بعد التاء المثناة بباء موحدة وبعدها ياء تحتية وبعدها نون من البيان .

(277/719)

﴿ واعلموا ﴾ أي : أيتها الأمة ﴿ أن فيكم ﴾ أي : على وجه الاختصاص بكم ويا له من شرف ﴿ رسول الله ﴾ أي : الملك الأعظم المتصف بالجلال والإكرام فلا تقولوا الباطل فإنّ الله يخبره بالحال ﴿ لو يطيعكم ﴾ وهو لا يحب عنتكم ولا شيئاً يشق عليكم ﴿ في كثير من الأمر ﴾ أي : الذي تريدونه على فعله من أنه يعمل في الحوادث على مقتضى ما يعنّ لكم ، وتستصوبونه ليكون فعله معكم فعل المطواع لغيره التابع له فينقلب حينئذ الحال ويصير المتبوع تابعاً ، والمطاع طائعاً ، ﴿ لعنتم ﴾ أي : لأثمتم دونه وهلكتم . لأنّ من أراد أن يكون أمر الرسول صلى الله عليه وسلم تابعاً لأمره فقد زين له الشيطان الكفران وقوله تعالى : ﴿ ولكن الله ﴾ أي : الملك الأعظم الذي يفعل ما يريد ﴿ حبب إليكم الإيمان وزينه ﴾ أي : حسنه ﴿ في قلوبكم ﴾ فلزمتم طاعته وعشقتم متابعته استدراك من جهة المعنى لا من جهة اللفظ لبيان عذرهم ، وهو أنه من فرط حبهم للإيمان وكرههم للكفر كما قال تعالى :

﴿ وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ﴾ حملهم على ذلك ما سمعوا قول الوليد أو بصفة من لم يفعل ذلك منهم إخماداً لفعلهم وتعريضاً بذم من فعل . قال الرازي : هذه الأمور الثلاثة في مقابلة الإيمان الكامل المزين وهو التصديق بالجنان والإقرار باللسان والعمل بالأركان فقوله تعالى ﴿ كرّه إليكم الكفر ﴾ وهو التكذيب وهو في مقابلة التصديق بالجنان وأمّا الفسوق فقيل هو الكذب كما قاله ابن عباس قال تعالى ﴿ إن جاءكم فاسق بنبأ ﴾ فسمى الكاذب فاسقاً وقال البيضاوي : الكفر تغطية نعم الله بالجحود والفسوق الخروج عن القصد والعصيان الامتناع عن الانقياد . وقال بعضهم : الكفر ظاهر والفسوق هو الكبيرة والعصيان هو الصغيرة ﴿ أولئك ﴾ أي : الذين أعلى الله تعالى مقاديرهم ﴿ هم الراشدون ﴾ أي : الكاملون في الرشد الثابتون الاستقامة وعلى دينهم وفي تفسير الأصفهاني الرشد هو الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه .

(278/719)

وقوله تعالى : ﴿ فضلاً ﴾ مصدر منصوب بفعله المقدّر أي فضل وقيل : تعليل لكرّه أو حبب ، وما بينهما اعتراض فهو امتنان عظيم ودرجة عالية ﴿ من الله ﴾ أي : الملك الأعظم الذي بيده كل شيء ﴿ ونعمة ﴾ أي : وعيشاً حسناً ناعماً وكرامة ﴿ والله ﴾

أي : المحيط بصفات الكمال ﴿ عليم ﴾ أي : محيط العلم يعلم أحوال المؤمنين وما بينهم من التفاضل . ﴿ حكيم ﴾ أي : بالغ الحكمة ، فهو يضع الأشياء في أوفق محالها وأتقنها فكذلك وضع نعمته من الرسالة والإيمان على حسب علمه وحكمته ونزل في قضية .

﴿ وإن طائفتان من المؤمنين ﴾ الآية وهي أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ركب حماراً ومرّ علي ابن أبيّ فبال الحمار فسدّ ابن أبيّ أنفه فقال ابن رواحة لبول حماره : أطيب ريحاً من مسكك فكان بين قومهما ضرب بالأيدي والنعال والسعف . وعن أنس قال : "قيل للنبيّ صلى الله عليه وسلم لو أتيت عبد الله بن أبيّ فانطلق إليه النبيّ صلى الله عليه وسلم وركب حماراً وانطلق المسلمون يمشون معه وهو بأرض سبخة فلما أتاه النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : إليك عني فوالله لقد أذاني نتن حمارك فقال رجل من الأنصار منهم : والله لحمار رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيب ريحاً منك فغضب لعبد الله رجل من قومه فتشاتما فغضب لكل واحد منهما أصحابه فكان بينهما ضرب بالجريد والأيدي والنعال فبلغنا أنها نزلت فيهم" .

ويروى أنهما لما نزلت قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم فاصطلحوا وكف بعضهم عن بعض . وعن قتادة : نزلت في رجلين من الأنصار كان بينهما مدارأة في حق فقال أحدهما للآخر : لآخذنّ حقي منك عنوة لكثرة عشيرته ، وإنّ الآخر دعاه ليحاكمه إلى النبيّ صلى

الله عليه وسلم فأبى أن يتبعه فلم يزل الأمر بينهما حتى تدافعوا وتناول بعضهم بعضاً بالأيدي والنعال ولم يكن قتال بالسيوف .

(279/719)

وعن سفيان عن السدي قال : كانت امرأة من الأنصار يقال لها أمّ زيد تحت رجل وكان بينهما وبين زوجها شيء فرقى بها إلى علية وحبسها فبلغ ذلك قومها فجاؤوا وجاء قومه واقتتلوا بالأيدي والنعال فنزلت .

وجمع تعالى قوله سبحانه : ﴿ اقتتلوا ﴾ نظراً للمعنى لأنّ كل طائفة جماعة وثنى الضمير في قوله تعالى : ﴿ فأصلحوا ﴾ أي : أوقعوا الإصلاح ليحصل الصلح ﴿ بينهما ﴾ نظراً للفظ أي : أصلحوا بينهما بالنصح والدعاء إلى حكم الله تعالى ﴿ فإن بغت ﴾ أي : أوقعت الإرادات السيئة الكائنة من النفوس التي لا تأمر بخير ﴿ إحداهما ﴾ أي : الطائفتين ﴿ على الأخرى ﴾ فلم ترجع إلى حكم الله الذي خرجت عنه ولم تقبل الحق ﴿ فقاتلوا ﴾ أي : اطلبوا وأوجدوا مقاتلة ﴿ التي تبغي ﴾ أي توقع الإرادة السيئة وتصرّ عليها وأديموا القتال لها ﴿ حتى تفيء ﴾ أي : ترجع عما صارت إليه من حرّ القطيعة الذي كأنه حرّ الشمس حتى نسخه الظل إلى ما كانت فيه من البرد والخير الذي هو كالظل

الذي نسخته الشمس .

وهو معنى قوله تعالى : ﴿ إلى أمر الله ﴾ أي : التزام ما أمر به الملك الذي لا يهمل الظالم بل لا بدّ من أن يقاصصه . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية كالياء والباقون بتحقيقهما ﴿ فإن فاءت ﴾ أي : رجعت إلى ما كانت عليه من التمسك بأمر الله الذي هو العدل ﴿ فأصلحوا ﴾ أي : أوقعوا الإصلاح ﴿ بينهما بالعدل ﴾ أي : بالإنصاف ولا يحملنكم القتال على الحقد على المقاتلين فتحيفوا ﴿ وأقسطوا ﴾ أي : وأزيلوا القسط بالفتح وهو الجور ، بأن تفعلوا القسط بالكسر وهو العدل الذي لا جور فيه في ذلك ، وفي جميع أموركم ثم علله ترغيباً فيه بقوله تعالى مؤكداً تنبيهاً على أنه من أعظم ما يتمادح به ورداً على من لعله يقول أنه لا يلزم نفسه الوقوف عنده الأضعف ﴿ إن الله ﴾ أي : الذي بيده النصر والخذلان ﴿ يحب المقسطين ﴾ أي : يفعل مع أهل العدل من الإكرام فعل المحب .

(280/719)

﴿ إنما المؤمنون ﴾ أي : كلهم وإن تباعدت أنسابهم وبلادهم ﴿ إخوة ﴾ أي : في الدين لانتسابهم إلى أصل واحد هو الإيمان ولما كانت الأخوة داعية ولا بدّ إلى الإصلاح تسبب

عنها قوله تعالى : ﴿ فأصلحوا بين أخويكم ﴾ كما تصلحون بين أخويكم من النسب ووضع الظاهر موضع الضمير مضافاً إلى المأمور مبالغة في التقرير والتحضيض وخص الاثنين بالذكر لأنهما أقل من يقع بينهما الشقاق . وعن أبي عثمان الحيري : أنّ أخوة الدين أثبت من أخوة النسب فإنّ أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب ﴿ واتقوا الله ﴾ أي : الملك الأعظم في مخالفة حكمه والإهمال فيه ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ أي : لتكونوا إذا فعلتم ذلك على رجاء عند أنفسكم أن يكرمكم الذي لا قادر على الإكرام في الحقيقة غيره بأنواع الكرامات كما رحمتم إخوانكم بإكرامكم عن إفساد ذات البين .

وعن الزهري عن سالم عن أبيه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إنّ المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يشتمه فمن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرّج عن مسلم كربة فرّج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة" .

تنبيه : في هاتين الآيتين دليل على أنّ البغي لا يزيل اسم الإيمان لأنّ الله تعالى سماهم أخوة مؤمنين مع كونهم باغين يدل عليه ما روى عن عليّ بن أبي طالب سئل وهو القدوة في قتال أهل البغي عن أهل الجمل وصفين أمشركون . فقال : لا من الشرك فرّوا فقيل : أمنافقون هم فقال : لا إنّ المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً . قيل : فما حالهم قال : إخواننا بغوا علينا .

والباغي في الشرع هو الخارج عن الإمام العدل بتأويل محتمل وشوكة لهم ومطاع تحصل به قوّة الشوكة ، وإن لم يكن لهم إمام والحكم فيهم أن يبعث إليهم الإمام أميناً فطناً ناصحاً ينصحهم

ما ينقمون فإن ذكروا مظلمة أو شبهة أزالها وإن أصروا نصحهم ثم أعلمهم بالقتال ، فإن استمهلوا اجتهد وفعل ما رآه صواباً .

(281/719)

والحكم في قتالهم أن لا يتبع مدبرهم ولا يقتل أسيرهم ويرد سلاحهم وخيلهم إليهم إذا انقضت الحرب وأمنت عائلتهم ولا يستعمل في قتال إلا لضرورة ولا يقاتلون بعظيم كنار ومنجنيق إلا لضرورة ، ولو أقاموا حدّ أو أخذوا زكاة وجزية وخراجاً وفرّقوا أسهم المرتزقة على جندهم صح ما فعلوه ، وما أتلفه باغ على عادل وعكسه إن كان بسبب قتال فلا ضمان على واحد منهما ، وإلا فعلى المتلف الضمان . قال ابن سهل : كانت في تلك الفتنة دماء يغرق في بعضها القاتل والمقتول وأتلف فيها أموال ثم صار الناس إلى أن سكنت الحرب بينهم وجرى الحكم عليهم فما رأيته اقتص من أحد ولا أغرم مالاً أتلفه ولو أظهر قوم رأي الخوارج كترك الجماعات وتكفير ذي كبيرة ولم يقاتلوا فلا نتعرّض لهم .

روي أنّ علياً سمع رجلاً يقول في ناحية المسجد . لا حكم إلا لله تعالى . فقال عليّ رضي الله عنه : كلمة حق أريد بها باطل لكم علينا ثلاثة لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله ولا نمنعكم الفيء ما دام أيديكم مع أيدينا ولا نبدئكم بقتال فإن قاتلوا فحكمهم

حكم قطاع الطريق ، وتفريعات أحكام البغاة مذكورة في الفقه . وفي هذا القدر كفاية .

واختلف في سبب نزول قوله تعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي : أوقعوا الإقرار بالتصديق ﴿ لا يسخر ﴾ أي : لا يهزأ والسخرية : هي أن لا ينظر الإنسان إلى أخيه بعين الإجلال ولا يلتفت إليه ويسقطه عن درجته ﴿ قوم ﴾ أي : ناس فيهم قوة المحاولة وهم الرجال وفي التعبير بذلك تنبيه على قيام الإنسان على نفسه وكفها عما تريده من النقائص منكراً لما أعطاه الله تعالى من القوّة ﴿ من قوم ﴾ أي : من رجال ، فإنّ ذلك يوجب الشرّ لأنّ أضعف الناس إذا استهزئ به قوي لما يثور عنده من حظ النفس .

(282/719)

فقال ابن عباس : "نزلت في ثابت بن قيس كان في أذنه وقر أي ثقل فكان إذا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سبقوه بالمجلس أوسعوا له حتى يجلس إلى جنبه فيسمع ما يقول فأقبل ذات يوم وقد فاتته ركعة من صلاة الفجر فلما انصرف النبيّ صلى الله عليه وسلم من الصلاة أخذ أصحابه مجالسهم فضنّ أي بخل كل رجل منهم بمجلسه فلا يكاد يوسع أحد لأحد فكان الرجل إذا جاء فلم يجد مجلساً قام قائماً فلما فرغ ثابت من صلاته أقبل نحو

رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخطى رقاب الناس ويقول تفسحوا تفسحوا فجعلوا يتفسحون حتى انتهى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبينه وبينه رجل فقال له : تفسح فقال الرجل : قد أصبت مجلساً فاجلس . فجلس ثابت خلفه مغضباً فلما انجلت الظلمة غمز ثابت الرجل فقال : من هذا . فقال له : أنا فلان فقال له ثابت : ابن فلانة ذكر أمّاً له كان يعير بها في الجاهلية فنكس الرجل رأسه فاستحيا فأنزل الله تعالى هذه الآية" .

وقال الضحاك نزلت في وفد تميم كانوا يستهزئون بفقراء أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم مثل عمار وخبيب وبلال وصهيب وسلمان وسالم مولى أبي حذيفة لما رأوا من رثاثة حالهم . ومعنى الآية : لا تحقروا إخوانكم ولا تستصغروهم ثم علل النهي بقوله تعالى : ﴿ عسى ﴾ أي : لأنه جدير وخليق لهم ﴿ أن يكونوا ﴾ أي : المستهزأ بهم ﴿ خيراً منهم ﴾ فينقلب الأمر عليهم وتكون لهم سوء العاقبة . قال ابن مسعود : البلاء موكل بالقول لو سخرت من كلب خشيت أن أحوّل كلباً وقال القشيري : ما استصغر أحد أحداً إلا سلط عليه ولا ينبغي أن يغتر بظاهر أحوال الناس ، فإنّ في الزوايا خبايا . والحق سبحانه يستر أولياءه في حجاب الظنة وكذا في الخبر كم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره .

﴿ ولا ﴾ يسخر ﴿ نساء من نساء ﴾ ثم علل النهي بقوله تعالى : ﴿ عسى ﴾ أي : ينبغي أن يخفن من ﴿ أن يكن ﴾ أي : المسخور بهنّ ﴿ خيراً منهنّ ﴾ أي الساخرات . روي أنها نزلت في نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم عيرن أمّ سلمة بالقصر . وروى عكرمة عن ابن عباس أنها نزلت في صفية بنت حيي بن أخطب قال لها النساء يهودية بنت يهوديين .

تنبيهان : أحدهما : قال الرازي : القوم اسم يقع على جمع من الرجال ولا يقع على النساء ولا على الأطفال لأنه جمع قائم . والقائم بالأمور هم الرجال وعلى هذا ففي أفراد الرجال والنساء .

فائدة : وهي أنّ عدم الالتفات والاستحقار أن يصدر في أكثر الأمر من الرجال بالنسبة إلى الرجال لأنّ المرأة في نفسها ضعيفة ، قال صلى الله عليه وسلم "النساء لحم على وضم" فالمرأة لا يوجد منها استحقار لرجل لأنها مضطرّة إليه في رفع حوائجها ، وأمّا الرجال بالنسبة إلى الرجال والنساء بالنسبة إلى النساء فإنه يوجد فيهنّ ذلك .

الثاني : في حكمه قوله تعالى : ﴿ عسى أن يكونوا خيراً منهم ﴾ هي أنهم إذا وجدوا منهم التكبر المقتضى إلى إحباط العمل جعل نفسه خيراً منهم كما فعل إبليس حيث لم يلتفت إلى آدم ، وقال : أنا خير منه فصار هو خيراً منه . ويحتمل أن يكون المراد بقوله تعالى

﴿ يكونوا ﴾ أي يصيروا فإنّ من استحقر إنساناً لفقره أو ضعفه لا يأمن أن يفتقر هو ويستغني الفقير ويقوى الضعيف ﴿ ولاتلمزوا ﴾ أي تعيبوا على وجه الظهور الخفية ﴿ أنفسكم ﴾ بأن يعيب بعضكم بعضاً بإشارة أو نحوها فكيف إذا كان على وجه فإنّكم في التواصل والتراحم كنفس واحدة أو يعمل الإنسان ما يعاب به فيكون الإنسان قد لمز نفسه أو يلمز غيره فيكون لمزه له سبباً لأن يبحث عن عيوبه فيلمزه فيكون هو الذي لمز نفسه ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ أي : ولا يدع بعضكم بعضاً بلقب السوء فإنّ النبز يختص بلقب السوء .

(284/719)

واختلف في هذا اللقب فقال عكرمة هو قول الرجل للرجل يا فاسق يا منافق يا كافر .

وقال الحسن : كان اليهوديّ والنصرانيّ يسلم فيقال له بعد إسلامه يا يهودي يا نصراني فنهوا عن ذلك . وقال عطاء : هو أن يقول الرجل لأخيه يا حمار يا خنزير

وعن ابن عباس : التنابز بالألقاب : هو أن يكون الرجل عمل السيئات ثم تاب عنها فنهي أن يعير بما سلف من عمله والحاصل أنه يحرم تلقيب الشخص بما يكره وإن كان فيه كالأعور والأعمش ويجوز ذكره بنية التعريف لمن لا يعرفه إلا به وأمّا ألقاب المدح فنعما هي فقد لقب

الصديق بعتيق ، وعمر بالفاروق ، وحمزة بأسد الله ، وخالد بن الوليد بسيف الله ، وما زالت الألقاب الحسنة في الجاهلية والإسلام .

قال الزمخشري : إلا ما أحدثه الناس في زماننا من التوسع حتى لقبوا السفلة بالألقاب العلية وهب أنّ العذر مبسوط فما أقول لمن ليس من الدين في قبيل ولا دبير بفلان الدين لعمري والله إنها الغصة التي لا تساغ . ومعنى اللقب : اسم زائد على الاسم يشعر بضعة المسمى أو رفعته والمقصود به الشهرة فما كان مكروهاً نهى عنه ، ويسنّ أن يكنى أهل الفضل الرجال والنساء وإن لم يكن لهم ولد وأمّا التكني بأبي القاسم فهو حرام .

وقيل : إنما يحرم في زمانه صلى الله عليه وسلم فقط وقيل : إنما يحرم على من اسمه محمد ولا يكنى كافر ولا فاسق ولا مبتدع لأنّ الكنية للتكرمة وليسوا من أهلها بل أمرنا بالإغلاظ عليهم إلا لخوف فتنة من ذكره باسمه أو تعريفه كما قيل به في قوله تعالى : ﴿ تبت يد أبي لهب ﴾ (المسد :)

واسمه عبد العزى ولا بأس بكنية الصغير . ويسنّ أن يكنى من له أولاد بأكبر أولاده ويسنّ لولد الشخص وتلميذه وغلامه أن لا يسميه باسمه والأدب أن لا يكني الشخص نفسه في كتاب أو غيره إلا إن كان لا يعرف بغيرها أو كانت أشهر من الاسم .

تنبيه : ذكر في الآية ثلاثة أمور مرتبة بعضها دون بعض كما علم من تقريرها ﴿ بئس الاسم ﴾ أي المذكور من السخرية واللمز والتنابز . وقوله تعالى : ﴿ الفسوق ﴾ أي : الخروج من ربقة الدين ﴿ بعد الإيمان ﴾ بدل من الاسم لإفادة أنه فسق لتكرّره عادة . وروي أنّ الآية "نزلت في صفية بنت حيي أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إنّ النساء يقلن لي يا يهودية بنت يهوديين فقال : هلا قلت إن أبي هارون وعمي موسى وزوجي محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ ومن لم يتب ﴾ أي : يرجع عما نهى الله عنه فخفف على نفسه ما كان شدّد عليها ﴿ فأولئك ﴾ أي : البعداء من الله تعالى ﴿ هم الظالمون ﴾ أي الغريقون في وضع الأشياء في غير مواضعها . وأدغم أبو عمرو والكسائي الباء في الفاء . واختلف عن خلاد والباقون بالإظهار .

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي : اعترفوا بالإيمان وإن كانوا في أوّل مراتبه ﴿ اجتنبوا ﴾ أي : كلفوا أنفسكم أن تتركوا وتبعدوا وتجعلوا في جانب بعيد عنكم ﴿ كثيراً من الظنّ ﴾ أي : في الناس وغيرهم واحتاطوا في كل ظنّ ولا تتمادوا معه حتى تجزموا بسببه .

تنبيه : أفهم ذلك أنّ من الظنّ ما لا يجتنب كما في الاجتهاد حيث لا قاطع وكما في ظنّ الخير في الله تعالى : ففي الحديث "أنا عند ظنّ عبدي بي فلا يظنّ بي إلا خيراً" بل قد يجب كما في قوله تعالى : ﴿ لولا إذ سمعتموه ظنّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ﴾ (النور :)

وقيل : نزلت في رجلين اغتابا رفيقهما . "وذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا غزا أو سافر ضمّ الرجل المحتاج إلى رجلين موسرين يخدمهما ويتقدّم لهما إلى المنزل فيهيء لهما طعامهما وشرابهما فضمّ سلمان الفارسيّ إلى رجلين في بعض أسفاره فتقدّم سلمان إلى المنزل فغلبته عيناه فلم يهيء لهما فلما قدما قالا له : ما صنعت شيئاً ، قال : لا غلبتني عينايّ ، قالا له : انطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطلب لنا منه طعاماً فجاء سلمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله طعاماً فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق إلى أسامة بن زيد وقل له : إن كان عندك فضل من طعام فليعطك وكان أسامة خازن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى رحله فأتاه فقال : ما عندي شيء فرجع سلمان إليهما فأخبرهما فقالا : كان عند أسامة ولكن بخل فبعثا سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئاً فلما رجع قالا له : لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها ثم انطلقا يتجسسان هل عند أسامة ما أمر لهما به رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما جاءا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهما : ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما قالا والله يا رسول الله ما تناولنا يومنا هذا لحماً . قال ظللتم تأكلون لحم أسامة وسلمان فأنزل

الله عز وجلّ ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ إن بعض الظنّ إثم ﴾ تعليل مستأنف للأمر قال صلى الله عليه وسلم "إياكم والظنّ فإنّ الظنّ أكذب الحديث" والإثم الذنب الذي يستحق العقوبة عليه وجعل الزمخشري همزه بدلاً من واو قال : لأنه يتم الأعمال أي يكسرها قال ابن عادل : وهذا غيره مسلم بل تلك مادّة أخرى .

(287/719)

قال سفيان الثوري : الظنّ ظنان : أحدهما : إثم وهو أن يظنّ ويتكلم به والآخر ليس بإثم وهو أن يظنّ ولا يتكلم به . وقوله تعالى ﴿ ولا تجسسوا ﴾ حذف منه إحدى التاءين أي لا تتبعوا عورات المسلمين ومعائبهم بالبحث عنها قال صلى الله عليه وسلم "لا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً" وقال عليه الصلاة والسلام : "يا معشر من آمن بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عورات المسلمين يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله" ونظر ابن عمر يوماً إلى الكعبة فقال : ما أعظمك وأعظم حرمتك والمؤمن أعظم عند الله حرمة منك . وقيل لابن مسعود : هل لك في الوليد بن عقبة تقطر لحيته خمراً

فقال : إنا نهينا عن التجسس وإن يظهر لنا شيئاً نأخذه به .

تنبيه : قرأ ولا تنابزوا ولا تجسسوا ولتعارفوا البزي في الوصل بتشديد التاء والباقون بغير تشديد

ولما كانت الغيبة أعمّ من التجسس قال : ﴿ ولا يغتب ﴾ أي : ولا يتعمد أن يذكر ﴿ بعضكم بعضاً ﴾ أي : في غيبته بما يكره .

قال القشيري : وليس تحصل الغيبة للخلق إلا من الغيبة عن الحق وقال أبو حيان : قال ابن عباس : الغيبة إدام كلاب الناس .

(288/719)

وعن أبي هريرة "أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أتدرون ما الغيبة قالوا الله ورسوله أعلم قال ذكرك أخاك بما يكره قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقوله قال إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته" وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أنهم ذكروا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً فقالوا لا نأكل حتى يطعم ولا نرحل حتى يرحل فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم "اغتبتموه فقالوا : إنما حدّثنا بما فيه قال : حسبك إذا ذكرت أخاك بما فيه" وفي هذا إشارة إلى وجوب حفظ عرض المؤمن فإنّ تمزيق عرض

الإنسان كتمزيق أديمه ولحمه كما قال تعالى : ﴿ أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ﴾ وقرأ ﴿ ميتاً ﴾ نافع بتشديد الياء والباقون بالسكون .

ولما كان الجواب قطعاً لا يحب أحد ذلك أشار إليه بما سببه من قوله تعالى :

﴿ فكرهتموه ﴾ أي : بسبب ما ذكر طبعاً فأولى أن تكرهوا الغيبة المحرّمة عقلاً لأنّ داعي العقل بصير عالم وداعي الطبع أعمى جاهل .

(289/719)

تنبيه : في هذا التشبيه إشارة إلى أنّ عرض الإنسان كدمه ولحمه لأنّ الإنسان يتألم قلبه من قرض العرض كما يتألم جسمه من قطع اللحم وهذا من باب القياس الظاهر لأنّ عرض الإنسان أشرف من لحمه ودمه ، فإذا لم يحسن من العاقل أكل لحوم الناس لم يحسن منه قرض عرضهم بالطريق الأولى ، لأنّ ذلك أشدّ ألماً وقوله تعالى لحم أخيه آكد في المنع لأنّ العدوّ يحمله الغضب على مضغ لحم العدوّ وفي قوله تعالى : ﴿ ميتاً ﴾ إشارة إلى دفع وهم وهو أن يقال : إنّ الشتم في الوجه يؤلم فيحرم وأمّا الاغتياب فلا اطلاع عليه فلا يؤلم ، فيقال لحم الأخ وهو ميت أيضاً لا يؤلم ومع هذا هو في غاية القبح كما أنه لو اطلع عليه لتألم فإنّ الميت لو أحس بأكل لحمه لآلمه وفيه معنى لطيف وهو أنّ الاغتياب أكل لحم الآدمي ميتاً ولا يحل أكله

إلا للمضطرّ بقدر الحاجة والمضطرّ إذا وجد لحم الشاة الميتة ولحم الآدمي فلا يأكل لحم الآدمي فكذلك المغتاب إذا وجد لحاجته مدفعاً غير الغيبة فلا يباح له الاغتياب . قال مجاهد : لما قيل لهم أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً قالوا : لا قيل فكرهتموه أي كما كرهتم هذا فاجتنبوا ذكره بالسوء غائباً . قال الزجاج : تأويله أنّ ذكرك من لم يحضرك بسوء بمنزلة أكل لحمه وهو ميت لا يحس بذلك .

قال الرازي : وفي ضمير فكرهتموه وجوه : أظهرها : أن يعود إلى الأكل . وثانيها : أن يعود إلى اللحم أي : فكرهتم اللحم . وثالثها : أن يعود إلى الميت في قوله تعالى ميتاً تقديره أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً متغيراً فكرهتموه فكأنه صفة لقوله ميتاً ويكون فيه زيادة مبالغة في التحذير يعني الميتة إن أكلت في الندرة تستطاب نادراً ولكن إذا أنتن وأروح وتغير لا يؤكل أصلاً . فكذلك ينبغي أن تكون الغيبة وذلك يحقق الكراهة ويوجب النفرة إلى حدّ لا يشتهي الإنسان أن يبيت في بيت فيه ميت فكيف يقربه بحيث يأكله ففيه إذاً كراهية شديدة . وكذلك حال الغيبة .

(290/719)

وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : "لما عرج بي مررت بقوم لهم أظافير من نحاس يخمشون وجوههم ولحومهم فقلت : من هؤلاء يا جبريل قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم" وقال ميمون بن سنان : بينما أنا نائم إذا أنا بجيفة زنجي وقائل يقول لي كل هذا قلت يا عبد الله ولم آكل هذا قال إنك اغتبت عبد فلان قلت والله ما ذكرت فيه خيراً ولا شرّاً قال ولكن سمعت ورضيت فكان ميمون لا يغتاب أحد ولا يدع أحداً يغتاب عنده .

وقوله تعالى : ﴿ واتقوا الله ﴾ أي : اجعلوا بينكم وبين الملك الأعظم وقاية بطاعته معطوف على ما تقدّم من الأوامر والنواهي أي اجتنبوا واتقوا الله ﴿ إن الله ﴾ أي : الملك الأعظم ﴿ توّاب ﴾ أي : مكرّر للتوبة وهي الرجوع عن المعصية إلى ما كان قبلها من معاملة التائب وإن كرّر الذنب فلا ييأس أحد وإن كثرت ذنوبه وعظمت ﴿ رحيم ﴾ يزيده على ذلك بأن يكرمه غاية الإكرام .

تنبيه : ختم سبحانه وتعالى الآيتين بذكر التوبة فقال في الأولى : ﴿ ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾ وقال ههنا ﴿ إنّ الله تواب رحيم ﴾ لكن لما كان الابتداء في الآية الأولى بالنهي في قوله تعالى : ﴿ لا يسخر قوم من قوم ﴾ ذكر النفي الذي هو قريب من النهي وفي الثانية كان الابتداء بالأمر في قوله تعالى : ﴿ اجتنبوا كثيراً ﴾ فذكر الإثبات الذي هو قريب من الأمر . وقوله تعالى:

﴿ يا أيها الناس ﴾ أي : كافة المؤمن وغيره ﴿ إنا ﴾ أي : على مالنا من العظمة

﴿ خلقناكم ﴾ أي : أوجدناكم من العدم على ما أنتم عليه من المقادير ﴿ من ذكر وأنثى ﴾ الآية مبين ومقرّر لما تقدّم ، لأنّ السخرية من الغير وغيبته إن كان ذلك بسبب غير الدين والإيمان فلا يجوز لأنّ الناس بعمومهم كافرهم ومؤمنهم يشتركون فيما يفتخر به المفتخر ، لأنّ التكبر والافتخار إن كان بسبب الغنى فالكافر قد يكون غنياً والمؤمن فقيراً وبالعكس .

(291/719)

وإن كان بسبب النسب فالكافر قد يكون نسيباً والمؤمن مولى وعبداً أسود وبالعكس ، فالناس فيما ليس من الدين والتقوى متساوون ومتقاربون ولا يؤثر شيء من ذلك مع عدم التقوى . كما قال تعالى : ﴿ إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ فقوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ أي آدم وحوّاء فأنتم متساوون في النسب فلا تفاخر لبعض على بعض لكونهم أبناء رجل واحد وامرأة واحدة .

قال ابن عباس : "نزلت في ثابت بن قيس . وقوله للرجل الذي لم يفسح له ابن فلانة فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم من الذاكر فلانة . قال ثابت : أنا يا رسول الله فقال : انظر في وجوه القوم فنظر فقال : ما رأيت يا ثابت قال : رأيت أبيض وأحمر وأسود . قال : فإنك لا تفضلهم

إلا في الدين والتقوى" فنزلت هذه الآية ونزل في الذي لم يفسح له ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس ﴾ (المجادلة :)

الآية وقال قتادة : "لما كان فتح مكة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالاً حتى علا على ظهر الكعبة فأذن فقال عتاب بن أسيد بن أبي العيص : الحمد لله الذي قبض أبي حتى لم ير هذا اليوم . وقال الحارث بن هشام : أما وجد محمد أغبر من هذا الغراب الأسود مؤذناً . وقال سهيل بن عمرو : إن يرد الله شيئاً يغيره وقال أبو سفيان : إني لا أقول شيئاً أخاف أن يخبره به رب العالمين رب السموات فأتى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما قالوه فدعاهم وسألهم عما قالوا فأقروا فأنزل الله تعالى في هذه الآية" وزجرهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال والازدراء بالفقراء .

(292/719)

تنبيه : الحكمة في اختيار النسب مع أنّ غيره من جملة أسباب التفاخر ولم يذكر الأمور التي يفتخر بها في الدنيا وإن كانت كثيرة لأنّ النسب أعلاها لأنّ المال قد يحصل للفقير فيبطل افختار الغني المفتخر به عليه والسمن والحسن وغير ذلك لا يدوم . والنسب ثابت مستمر غير مقدوراً التحصيل لمن ليس له ذلك فاختاره الله تعالى للذكر وأبطل اعتباره بالنسبة إلى

التقوى ليعلم منه بطلان غيره بطريق الأولى فإن قيل : إذا كان ورود الآية لبيان عدم جواز الافتخار بغير التقوى فما فائدة قوله تعالى : ﴿ إنا خلقناكم ﴾ أجيب : بأنّ فائدته أنّ كل شيء يترجح على غيره فأمّا أن يترجح بأمر فيه يلحقه ويرتب عليه بعد وجوده .

وأمّا أن يترجح عليه بأمر قبله فالذي بعده كالحسن والقوّة وغيرهما من الأوصاف المطلوبة من ذلك الشيء .

(293/719)

وأمّا الذي قبله فأما راجع إلى أصله الذي وجد فيه أو إلى الفاعل الذي أوجده فالأول كقولك هذا من نحاس وهذا من فضة ، والثاني كقولك هذا عمل فلان وهذا عمل فلان . فقال تعالى : لا ترجيح بالنسبة إلى فاعلكم لأنكم كلكم خلق الله تعالى فإن كان عناكم تفاوت فهو بأمور تحصل لكم بعد وجودكم وأشرفها التقوى . ولما كان تفصيلهم إلى فرق كل منها يعرف به أمراً باهراً عبر فيه بنون العظمة فقال تعالى : ﴿ وجعلناكم ﴾ أي بعظمتنا ﴿ شعوباً ﴾ جمع شعب بفتح الشين وهو أعلى طبقات الإنسان مثل ربيعة ومضر والأوس والخزرج ﴿ وقبائل ﴾ أي : تحت الشعوب وذلك أنّ طبقات النسل التي عليها العرب سبعة الشعب والقبيلة والعمارة والبطن والفخذ والفصيلة والعشيرة وكل واحد يدخل فيما قبله

فالقبائل تحت الشعوب والعمائر تحت القبائل والبطون تحت العمائر ، والأفخاذ تحت البطون ، والفصائل تحت الأفخاذ ، والعشائر تحت الفصائل خزيمة شعب وكنانة قبيلة وقريش عمارة وقصيّ بطن وعبد مناف فخذ وهاشم فصيلة والعباس عشيرة . قال البغوي : وليس بعد العشيرة حي يوصف ا . ه . وسمى الشعب شعباً لتشعب القبائل منه واجتماعهم به كتشعب أغصان الشجرة والشعب من الأضداد يقال شعب أي : جمع ومنه شعب القدح وشعب أي : فرّق والقبائل واحدها قبيلة سميت بذلك لتقابلها شبهت بقبائل الرأس وهي قطع متقابلة . وقيل الشعوب في العجم والقبائل في العرب والأسباط في بني اسرائيل وقيل : الشعب النسب الأبعد والقبيلة الأقرب والنسبة إلى الشعب شعوبية بفتح الشين وهم جيل يبغضون العرب والعمائر واحدتها : عمارة بفتح العين والبطون واحدتها : بطن . والفصائل : واحدتها فصيلة . والعشائر : واحدتها : عشيرة . وقال أبو روق الشعوب الذين لا يعتزون إلى أحد بل ينتسبون إلى المدائن والقرى والقبائل العرب الذين ينتسبون إلى آبائهم .

(294/719)

ثم ذكر تعالى علة الشعب بقوله تعالى : ﴿ لتعارفوا ﴾ أي : ليعرف الإنسان من يقاربه في النسب ليصل من رحمه ما يحق له لا لتفاخروا ﴿ إن أكرمكم ﴾ أي المتفاخرون ﴿ عند الله ﴾ أي : الملك الذي لا أمر لأحد معه ولا كريم إلا من أخبركم بكرمه ولا كمال لأحد سواه ﴿ أتقاكم ﴾ أي : أرفعكم منزلة عند الله أتقاكم . قال قتادة : في هذه الآية أكرم الكرم التقوى وألام الؤم الفجر وقال عليه الصلاة والسلام "الحسب المال والكرم التقوى" وقال ابن عباس "كرم الدنيا الغنى وكرم الآخرة التقوى" وعن ابن عمر "أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم طاف يوم الفتح على راحلته يستلم الأركان بمحجنه وهو عصا محنية الرأس فلما خرج لم يجد مناخاً فنزل على أيدي الرجال ثم قام فخطبهم فحمد الله وأثنى عليه فقال الحمد لله الذي أذهب عنكم عبية الجاهلية يعني كبرها وفخرها الناس رجل تقي كريم على الله وفاجر شقي هين على الله ثم تلا ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ ثم قال أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم" وعن أبي هريرة قال "سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أيّ الناس أكرم . قال : أكرمهم عند الله أتقاهم قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : فأكرم الناس يوسف نبيّ الله بن نبيّ الله بن نبيّ الله بن خليل الله قالوا ليس عن هذا نسألك قال فعن معادن العرب تسألوني قالوا : نعم . قال : خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا" بضم القاف على المشهور وحكى كسره ومعناه إذا تعلموا أحكام الشرع .

وقال صلى الله عليه وسلم "إنّ الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم" قال الرازي في المراد بالآية : وجهان : الأول أنّ التقوى تفيد الإكرام . الثاني : أنّ الإكرام يورث التقوى كما يقال المخلصون على خطر والأول أشهر ، والثاني أظهر فإن قيل : التقوى من الأعمال والعلم أشرف لقوله صلى الله عليه وسلم "لفقيه واحد أشدّ على الشيطان من ألف عابد" أجيب : بأنّ التقوى ثمرة العلم لقوله تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ (فاطر :)

فلا تقوى إلا للعالم فالتقي العالم أثمر علمه ، والعالم الذي لا يتقي كشجرة لا ثمر لها ، لكن الشجرة المثمرة أشرف من التي لا تثمر ، بل هي حطب . قال الحسن البصري : إنما الفقيه العامل بعلمه أي وهو المراد من قوله صلى الله عليه وسلم "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين" ومن قوله عز من قائل ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ (الزمر :) فإن قيل : خطاب الناس بقوله تعالى ﴿ أكرمكم ﴾ يقتضي اشتراك الكل في الإكرام ولا كرامة لكافر فإنه أضلّ من الأنعام أجيب بأنّ ذلك غير لازم مع أنه حاصل لدليل قوله تعالى : ﴿ ولقد كرمنا بني آدم ﴾ (الإسراء :)

لأنّ كل من خلق فقد اعترف بربه ثم من استمرّ عليه وزاد زيد في كرامته ومن رجع عنه أزيل عنه أكثر الكرامة ﴿ إن الله ﴾ أي : المحيط بكل شيء علماً وقدرة ﴿ عليم ﴾ أي : بالغ العلم بظواهركم يعلم أنسابكم ﴿ خبير ﴾ أي : محيط العلم ببواطنكم لا تخفى عليه أسراركم فجعلوا التقوى رداءكم

ولما قال تعالى : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ والتقى لا يكون إلا بعد حصول التقوى وأصله الإيمان والإتقاء من الشرك .

(296/719)

﴿ قالت الأعراب ﴾ أي : أهل البادية من بني أسد وغيرهم الذين هم معدن الغلظة والجفاء ﴿ آمنا ﴾ أي : بجميع ما جئت به فامتثلنا ما أمرنا به في هذه السورة ولنا النسب الخالص فنحن أشرف من غيرنا من أهل المدر ﴿ قل ﴾ يا أشرف الخلق تكذيباً لهم مع مراعاة الأدب في عدم التصريح بالتكذيب ﴿ لم تؤمنوا ﴾ أي : لم تصدّق قلوبكم لأنكم لو آمنتم لم تمنوا لأنّ الإيمان التصديق بجميع ما لله من الكمال الذي منه أنه لولا منه بالهداية لم يحصل الإيمان فله ولرسوله الذي كان ذلك على يديه المنّ والفضل ﴿ ولكن قولوا أسلمنا ﴾ أي : أظهرنا الانقياد في الظاهر للأحكام الظاهرة وأمنا من أن نكون حرباً للمؤمنين وعوناً

للمشركين ، فأخبر الله تعالى أنّ حقيقة الإيمان هو التصديق بالقلب وإن الإقرار باللسان وإظهار شرائعه بالأبدان لا يكون إيماناً دون التصديق بالقلب والإخلاص فالإسلام هو الدخول في السلم كما يقال أشتى إذا دخل في الشتاء وأصاف إذا دخل في الصيف وأربع إذا دخل في الربيع فمن الإسلام ما هو طاعة على الحقيقة باللسان والأبدان والجنان كقوله عز وجل لإبراهيم ﴿ أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾ (البقرة :)

ومنه ما هو انقياد باللسان دون القلب وذلك قوله تعالى : ﴿ ولكن قولوا أسلمنا ﴾ ﴿ ولما يدخل الإيمان ﴾ أي : المعرفة التامّة لم تدخل إلى هذا الوقت ﴿ في قلوبكم ﴾ فلا يعدّ إقرار اللسان إيماناً إلا لمواطأة القلب قال ابن برجان : فعموم الناس وأكثر أهل الغفلة مسلمون غير مؤمنين .

وعن سعد بن أبي وقاص "قال أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم رهطاً وأنا جالس فيهم فترك رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً منهم لم يعطه وهو أعجبهم إليّ فقمت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فساررته .

فقلت : مالك عن فلان والله إني لأراه مؤمناً . فقال صلى الله عليه وسلم أو مسلماً ذكر ذلك سعد ثلاثاً وأجابه بمثل ذلك ثم قال : إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليّ منه خشية أن يكب في النار على وجهه" .

وقال الرازي : المسلم والمؤمن واحد عند أهل السنة . فنقول الفرق بين العام والخاص : أنّ الإيمان لا يحصل إلا بالقلب والانقياد قد يحصل بالقلب وقد يحصل باللسان فالإسلام أعمّ لكن العامّ في صورة الخاص متحد مع الخاص ، ولا يكون أمراً آخر غيره . مثاله الحيوان في صورة الإنسان أمر لا ينفك عن الإنسان فلا يجوز أن يكون ذلك الحيوان حيواناً ولا يكون إنساناً فالعام والخاص مختلفان في العموم متحدان في الوجود ، وكذلك المؤمن والمسلم ، وسيأتي زيادة على ذلك في الذاريات إن شاء الله تعالى .

وقال الرازي : في الآية إشارة إلى بيان حال المؤلفة إذا أسلموا ويكون إيمانهم ضعيفاً فيقال لهم : لم تؤمنوا لأنّ الإيمان إيقان وذلك بعد لم يدخل في قلوبهم وسيدخل بإطلاعهم على محاسن الإسلام انتهى . بل الإيمان دخل في قلوبهم ولكن لم يتألفوا بأهل الإسلام ؟ .

تنبيه : التعبير بلما يفهم أنهم آمنوا بعد ذلك ويجوز أن يكون المراد بهذا النفي نفي التمكن في القلب لا نفي مطلق الدخول بدليل إنما المؤمنون دون إنما الذين آمنوا ﴿ وإن تطيعوا الله ﴾ أي : الملك الذي من خالفه لم يأمن عقوبته ﴿ ورسوله ﴾ أي : الذي طاعته من طاعته على ما أنتم عليه من الأمر الظاهر فتؤمن قلوبكم ﴿ لا يلتكم ﴾ أي : لا ينقصكم ﴿ من أعمالكم شيئاً ﴾ بل يعطيكم ما يليق به من الجزاء لأنّ من حمل إلى ملك فاكهة طيبة قدر ثمنها في السوق ردهم فأعطاه الملك درهماً انتسب الملك إلى البخل فهو يعطي ما تتوقعون

بأعمالكم وزيادة من غير نقص فلا حاجة إلى إخباركم عن إيمانكم بغير ما يدلّ عليه من الأقوال والأفعال .

(298/719)

وقرأ الدوري : عن أبي عمرو بعد الياء التحتية بهمزة ساكنة وأبدلها السوسي ألفاً والباقون بغير همز ولا ألف . ولما كان الإنسان مبنياً على النقص وإن اجتهد غاية اجتهاده قال الله تعالى : ﴿ إن الله ﴾ أي : الذي له صفات الكمال ﴿ غفور ﴾ أي : ستور للهفوات والزلات لمن تاب وصحت نيته ولغيره إن شاء فلا عتاب ولا عقاب ﴿ رحيم ﴾ أي : يزيد على الستر عظيم الإكرام ثم بين تعالى لهم حقيقة الإيمان بقوله تعالى:

﴿ إنما المؤمنون ﴾ أي العريقون في الإيمان الذي هو حياة القلوب .

قال القشيري : والقلوب لا تحيا إلا بعد ذبح النفوس والنفوس لا تموت ولكنها تعيش

﴿ الذين آمنوا ﴾ أي : صدّقوا معترفين ﴿ بالله ﴾ معتقدين بجميع ماله من صفات الكمال ﴿ ورسوله ﴾ شاهدين برسالته وهذا الإثبات هنا يدل على أن المنفي فيما قبل الكمال المطلق وإلا لقال تعالى إنما الذين آمنوا ﴿ ثم لم يرتابوا ﴾ أي : لم يشكوا في دينهم وأيقنوا بأنّ الإيمان إيقان .

تنبيه : ثم للتراخي في الحكاية كأنه يقول آمنوا ثم أقول شيئاً آخر لم يرتابوا ويحتمل أن تكون للتراخي في الفعل أي آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا فيما نقل النبيّ صلى الله عليه وسلم من الحشر والنشر ﴿ وجاهدوا ﴾ أي : أوقعوا الجهاد بكل ما ينبغي أن تجهد النفوس فيه تصديقاً لما ادعوه بألسنتهم من الإيمان ﴿ بأموالهم ﴾ وذلك هو النية وقوله تعالى : ﴿ وأنفسهم ﴾ أعمّ من النية وغيرها وذلك هو الشجاعة قدم الأموال لقلتها عند العرب ﴿ في سبيل الله ﴾ أي : طريق الملك الأعظم بقتال الكفار وغيره من سائر العبادات المحتاجة إلى المال والنفس لا الذين يتخلفون ويقولون شغلتنا أموالنا وأهلونا .

قال القشيري : جعل الله تعالى الإيمان مشروطاً بخصال ذكرها وذكر بلفظ إنما وهي للتحقيق يقتضي الطرد والعكس فمن أفرد الإيمان عن شرائطه التي جعلها له فمردود عليه قوله : ﴿ أولئك ﴾ أي : العالو الرتبة ﴿ هم الصادقون ﴾ أي : في قولهم وفعلهم أنهم مؤمنون . ولما نزل هاتان الآيتان أتت الأعراب رسول الله صلى الله عليه وسلم يحلفون بالله أنهم مؤمنون صادقون وعلم الله منهم غير ذلك قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ قل ﴾ أي : لهؤلاء الأعراب مجهلاً لهم ومبكتاً ﴿ أتعلمون الله ﴾ أي : أتخبرون أخباراً

عظيماً الملك الأعظم المحيط قدرة وعلماً ﴿ بدينكم ﴾ أي بقولكم آمنا ﴿ والله ﴾ أي : والحال أن الملك المحيط بكل شيء ﴿ يعلم ما في السموات ﴾ كلها على عظمتها وكثرة ما فيها ﴿ وما في الأرض ﴾ كذلك ﴿ والله ﴾ أي : الذي له الإحاطة الكاملة ﴿ بكل شيء ﴾ أي مما ذكر ومما لم يذكر ﴿ عليم ﴾ أي : لا تخفي عليه خافية وهو تجهيل لهم وتوبيخ

(300/719)

﴿ يمنون عليك ﴾ أي : يذكرون ذكر من اصطنع صنيعة وأسدى إليك نعمة ﴿ أن أسلموا ﴾ أي : من غير قتال بخلاف غيرهم ممن أسلم بعد قتال منهم ولما كان المنّ هو القطع من العطاء الذي لا يراد عليه جزاء قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ قل ﴾ أي : في جواب قولهم هذا ﴿ لا تمنوا عليّ إسلامكم ﴾ لو فرض أنكم كنتم متدينين بدين الإسلام الذي هو انقياد الظاهر مع اذعان الباطن أي لا تذكروا الامتنان أصلاً لأنّ الإسلام لا يطلب جزاؤه إلا من الله تعالى فلا ينبغي عدّه صنيعة على أحد فإنّ ذلك يفسده ﴿ بل الله ﴾ أي : الملك الأعظم الذي له المنة على كل موجود ولا منة عليه بوجه ﴿ يمن عليكم ﴾ أي : بذكر أنه أسدى إليكم نعمة ﴿ أن ﴾ أي : بأن ﴿ هداكم للإيمان ﴾ أي : فهو المانّ عليكم

لا أنتم عليه وعلي .

فإن قيل : كيف منّ عليهم بالهداية إلى الإيمان مع أنه تبين أنهم لم يؤمنوا . أجيب بأوجه :

أحدها : أنه تعالى لم يقل بل الله يمنّ عليكم أن رزقكم الإيمان بل قال أن هداكم للإيمان ثانيها : أنه تعالى منّ عليهم بما زعموا فكأنه تعالى قال أنتم قلتم آمنا فذلك نعمة في حقكم حيث تخلصتم من النار . فقال تعالى ﴿ هداكم ﴾ في زعمكم

ولهذا قال تعالى : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أي : في قولكم آمنا فإنه على تقدير الصدق إنما هو بتوفيق الله تعالى وهو الذي خلق لكم قدرة الطاعة فهو الفاعل في الحقيقة فله المنة عليكم .

قال القشيري : من لاحظ شيئاً من أحواله فإن رآها من نفسه كان مشركاً وإن رآها لنفسه كان مكراً فكيف يمنّ العبد بما هو شرك أو مكر والذي يجب عليه قبول المنة كيف يرى لنفسه على غيره منة هذا لعمري فضيحة والمنة تكدّر الصنيعة إذا كانت من المخلوقين وبالمنة تطيب النعمة إذا كانت من قبل الله تعالى .

(301/719)

﴿ إن الله ﴾ أي : المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ يعلم غيب السموات ﴾ أي : ما غاب فيها كلها ﴿ والأرض ﴾ كذلك ولما أريد التعميم من غير تقييد بالخافقين أظهر ولم يضمر قوله تعالى : ﴿ والله ﴾ أي الذي له الإحاطة بذلك وبغيره مما لا تعلمون ﴿ بصير ﴾ أي : عالم أتم العلم ﴿ بما تعملون ﴾ أي : من ظاهر إسلامكم في الماضي والحاضر والآتي سواء أكان ظاهراً أم باطناً سواء أكان قد حدث فصار بحيث تعلمونه أنتم أو كان مفروزاً في جبلاتكم وهو خفيّ عنكم . وقرأ ابن كثير : بالياء التحتية على الغيبة نظراً لقوله تعالى : ﴿ يمنون ﴾ وما بعده والباقون بالفوقية على الخطاب نظراً إلى قوله تعالى : ﴿ لا تمنوا عليّ إسلامكم ﴾ إلى آخره وفي هذه الآية إشارة إلى أنه يبصر أعمال جوارحكم الظاهرة والباطنة لا يخفى عليه شيء وما رواه البيضاوي تبعاً للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة الحجرات أعطي من الأجر بعدد من أطاع الله وعصاه" حديث موضوع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ السراج المنير حـ 7 صـ 116.91 ﴾

(302/719)

وقال القاسمى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الحجرات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

قال ابن جرير : أي : يا أيها الذين أقروا بوحدانية الله ، ونبوة نبي صلى الله عليه وسلم ، لا تعجلوا بقضاء أمر في حروبكم أو دينكم ، قبل أن يقضي الله لكم فيه ورسوله ، فتقضوا بخلاف أمر الله ، وأمر رسوله . محكي عن العرب : فلان يقدم بين يدي إمامه ، بمعنى يعجل الأمر والنهي دونه . انتهى .

و: ﴿ تُقَدِّمُوا ﴾ إما متعد حذف مفعوله ، لأنه أريد به العموم ، أو أنه نزل منزلة اللازم لعدم القصد إلى المفعول ، كما تقول : فلان يعطي ويمنع ، أو هو لازم ، فإن قدم ، يرد بمعنى تقدم كبيّن ، فإنه متعد ، ويكون لازماً بمعنى تبين .

وفي هذه الجملة تجوزان :

أحدهما – في بين اليدين ، فإن حقيقته ما بين العضوين ، فتجوز بهما عن الجهتين المقابلتين لليمين والشمال ، قريباً منه بإطلاق اليدين على ما يجاورهما ويحاذيهما . فهو من المجاز المرسل ، ثم استعيرت الجملة استعارة تمثيلية للقطع بالحكم بلا اقتداء ، ومتابعة لمن يلزم متابعته ، تصويراً لهجنته وشناعته ، بصورة المحسوس ، كتقدم الخادم بين يدي سيده في

مسيره ، فنقلت العبارة الأولى ، بما فيها من المجاز ، إلى ما ذكر ، على ما عرف أمثاله – هذا محصل ما في " الكشاف " و " شروحه " .

(303/719)

قال ابن كثير : معنى الآية : لا تسرعوا في الأشياء قبله ، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور ، حتى يدخل في عموم هذا الأدب حديث معاذ رضي الله عنه . قال له النبي صلى الله عليه وسلم حين بعثه إلى اليمن : < بم تحكم ؟ > قال : بكتاب الله تعالى . قال صلى الله عليه وسلم : < فإن لم تجد ؟ > قال : بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال صلى الله عليه وسلم : < فإن لم تجد ؟ > قال رضي الله عنه : أجتهد رأيي ! فضرب في صدره وقال : < الحمد لله الذي وفق رسولَ رسول الله لما يرضي رسول الله > . وقد رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه . والغرض منه أنه أخر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة ، ولو قدمه قبل البحث عنهما ، لكان من باب التقديم بين يدي الله ورسوله . انتهى .

وقد جوز أن يكون المراد : بين يدي رسول الله ، وذكر الله ؛ لبيان قوة اختصاصه به تعالى ، ومنزلته منه ، تمهيداً وتوطئة لما بعده . وقد أيد هذا ، بأن مساق الكلام لإجلاله صلى الله

عليه وسلم .

تنبيه :

قال ابن جرير : بضم التاء من قوله : ﴿ لَا تُقَدِّمُوا ﴾ قرأ قراءة الأمصار ، وهي القراءة التي لا أستجيز القراءة بخلافها ، لإجماع الحجة من القراء عليها . وقد حكى عن العرب : قدّمت في كذا وتقدمت في كذا . فعلى هذه اللغة لو كان قيل : لا تَقدموا ، بفتح التاء ، كان جائزاً . انتهى . وبه قرأ يعقوب فيما نقل عنه .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي : في التقديم أو مخالفة الحكم . والأمر بالتقوى على أثر ما تقدم ، بمنزلة قولك للمقارف بعض الدلائل : لا تفعل هذا ، وتحفظ مما يلصق العار بك . فتنهاه أولاً عن عين ما قارفه ، ثم تعمّ وتأمره بما لو امتثل أمرك فيه ، لم يرتكب تلك الغفلة ، وكل ما يضرب في طريقها ، ويتعلق بسببها – أشار له الزمخشري – .

﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي : فحقيق أن يتقى ويراقب .

تنبيه :

في " الإكليل " : قال إلكيا الهراسي : قيل نزلت في قوم ذبحوا قبل النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمرهم أن يعيدوا الذبح . وعموم الآية النهي عن التعجيل في الأمر والنهي ، دونه . ويحتج بهذه الآية في اتباع الشرع في كل شيء . وربما احتج به نفاة القياس ، وهو باطل منهم . ويحتج به في تقديم النص على القياس . انتهى .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [2] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ أي : إذا نطق ونطقتهم ، فلتكن أصولتكم قاصرة عن الحد الذي يبلغه صوته ، ليكون عالياً لكلامكم ، لا أن تغمروا صوته بلغطكم ، وتبلغوا أصواتكم إلى أسماع الحاضرين قبل صوته ، فإن ذلك من سوء الأدب بمكان كبير : ﴿ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ أي : بل تعمدوا في مخاطبته القول اللين ، القريب من الهمس ، الذي يضادّ الجهر ، كما تكون مخاطبة المهيب المعظم . وروي عن مجاهد تفسيره بندائه باسمه ، أي : لا تنادوه كما ينادي بعضكم بعضاً : يا محمد ! يا محمد ! بل يا نبي الله ! يا رسول الله ! ونظر فيه شراح " الكشاف " بأن ذكر الجهر حينئذ لا يظهر له وجه ، إذ الظاهر أن يقال : لا تجعلوا خطابه كخطاب بعضكم لبعض ، كما مر في قوله : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾ [النور : 63] . انتهى .

ولك أن تقول : إنما أفرغ هذا المعنى المروي عن مجاهد في قالب ذاك اللفظ الكريم جرياً على سنة التنزيل في إيثار أرق الألفاظ والجمل ، وألطفها في ذلك ، فإن أسلوبه فوق كل أسلوب وقد قال : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به : ﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ ﴾ أي : مخافة أن تحبط أعمالكم ، برفع صوتكم فوق صوته ، وجهركم له بالقول كجهركم لبعضكم : ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ أي : لا تعلمون ، ولا تدرون بحبوطها .

تنبيه :

استدلت المعتزلة بالآية على أن الكبائر محبطة الأعمال ، لأن المذكور في الآية كبيرة محبطة ولا فرق بينها وبين غيرها . ولما كان عند أهل السنة ، المحبط للأعمال هو الكفر خاصة ، تأولوا الآية بأنها للتغليظ والتخويف ، إذ جعلت بمنزلة الكفر المحبط ، أو هي للتعريض بالمنافقين المقاصدين بالجهر والرفع الاستهانة ، فإن فعلهم محبط قطعاً .

وقال الناصر : المراد في الآية النهي عن رفع الصوت على الإطلاق . ومعلوم أن حكم النهي الحذر مما يتوقع في ذلك من إيذاء النبي عليه الصلاة والسلام . والقاعدة المختارة أن إيذاءه عليه الصلاة والسلام يبلغ مبلغ الكفر المحبط للعمل باتفاق . فورد النهي عما هو مظنة لأذى النبي عليه الصلاة والسلام ، سواء وجد هذا المعنى أو لا ، حماية للذريعة ، وحسماً للمادة . ثم لما كان هذا المنهي عنه – وهو رفع الصوت – منقسماً إلى ما يبلغ ذلك المبلغ أولاً ، ولا دليل يميز أحد القسمين عن الآخر ، لزم المكلف أن يكف عن ذلك مطلقاً ، وخوّف أن يقع فيما هو محبط للعمل ، وهو البالغ حد الإيذاء ، إذ لا دليل ظاهر يميزه . وإن كان ، فلا يتفق تمييزه في كثير من الأحيان ، وإلى التباس أحد القسمين بالآخر وقعت الإشارة بقوله : ﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ . وإلا فلو كان الأمر على ما تعتقده المعتزلة ، لم يكن لقوله : ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ موقع ؛ إذ الأمر بيْن أن يكون رفع الصوت مؤذياً ، فيكون كفراً محبطاً قطعاً ، وبين أن يكون غير مؤذٍ ، فيكون كبيرة محبطة على رأيهم قطعاً . فعلى كلا حاليه ، الإحباط به محقق ، إذن فلا موقع لإدغام الكلام بعدم الشعور ، مع أن الشعور ثابت مطلقاً – والله أعلم – .

ثم قال : وهذا التقرير الذي ذكرته يدور على مقدمتين ، كلتاهما صحيحة :

إحداهما – أن رفع الصوت من جنس ما يحصل به الإيذاء ، وهذا أمر يشهد به النقل والمشاهدة الآن ، حتى إن الشيخ ليتأذى برفع التلميذ صوته بين يديه . فكيف برتبة النبوة

، وما تستحقه من الإجلال والإعظام .

المقدمة الأخرى – أن إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم كفر . وهذا أمر ثابت قد نص عليه أئمتنا – يعني المالكية – وأفتوا بقتل من تعرض لذلك كفراً ، ولا تقبل توبته ، فما أتاه أعظم عند الله وأكبر ، والله الموفق . انتهى .

(307/719)

ولا يخفى أن الإنصاف هو الوقوف مع ما أوضحه النص وأبانه ، فكل موضع نص فيه على الإحباط وجب قبوله بدون تأويل ، وامتنع القياس عليه ، لأنه مقام توعد وخسران ، ولا مجال للرأي في مثل ذلك . هذا ما أعقده وأراه . والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [3] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ ﴾ أي : يبالغون في خفضها : ﴿ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ﴾ قال ابن جرير : أي : اصطفاها وأخلصها للتقوى يعني لاتقائه بأداء طاعته ، واجتناب معاصيه ، كما يمتحن الذهب بالنار ، فيخلص جيدها ، ويبطل خبثها : ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ أي : ثواب جزيل ، وهو الجنة .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [4] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ ﴾ أي : يدعونك : ﴿ مِن وَرَاءِ ﴾ أي : خارج : ﴿ الْحُجُرَاتِ ﴾ أي : عند كونك فيها ، استعجالاً لخروجك إليهم ، ولو بترك ما أنت فيه من الأشغال : ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ إذ لا يفعله محتشم ، ولا يفعل لمحتشم ، فلا يراعون حرمة أنفسهم ، ولا حرمتك ، ونسب إلى الأكثر ، لأنه قد يتبع عاقل جماعة الجهال ، موافقة لهم .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [5] .

(308/719)

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ أي : لأن خروجه باستعجالهم ربما يغضبه ، فيفوتهم فوائد رؤيته وكلامه . وإن صبروا استفادوا فوائد كثيرة ، مع اتصافهم بالصبر ، ورعاية الحرمة لنبيهم وأنفسهم : ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : لمن تاب من معصية الله ، بندائك كذلك ، وراجع أمر الله فيه ، وفي غيره .

تنبيهات :

الأول – قال ابن كثير : قد ذكر أنها نزلت في الأقرع بن حابس التميمي ، فيما أورده غير واحد .

روى الإمام أحمد عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن الأقرع بن حابس ؛ أنه نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ! يا محمد ! - وفي رواية : يا رسول الله ! - فلم يجبه . فقال : يا رسول الله ! إن حمدي لزين ، وإن ذمّي لشين ، فقال : < ذاك الله عز وجل > .

وروى ابن إسحاق ، في ذكر سنة تسع ، وهي المسماة سنة الوفود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما افتتح مكة ، وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف وبايعت ، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه ، فكان منهم وفد بني تميم . فلما دخلوا المسجد نادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء حجراته : أن أخرج إلينا يا محمد ! فآذى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم من صياحهم ، فخرج إليهم . ثم ساق ابن إسحاق نبأهم مطولاً ثم قال : وفيهم نزل من القرآن : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

الثاني - : ﴿ الْحُجُرَاتِ ﴾ بضمتين ، وبفتح الجيم ، وبسكونها . وقرئ بهن جميعاً : جمع حجرة . وهي الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوّط عليها . فعلة بمعنى مفعولة ، كالغرفة والقبضة .

(309/719)

قال الزمخشري : والمراد حجرات نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانت لكل واحدة منهن حجرة . ومناداتهم من ورائها يحتمل أنهم قد تفرقوا على الحجرات ، متطلبين له ، فناداه بعض من وراء هذه ، وبعض من وراء تلك ، وأنهم قد أتوها حجرة حجرة ، فنادوه من ورائها . وأنهم نادوه من وراء الحجرة التي كان فيها . ولكنها جمعت إجلالاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكمان حرمته . والفعل – وإن كان مسنداً إلى جميعهم – فإنه يجوز أن يتولاه بعضهم ، وكان الباقون راضين ، فكأنهم نولوه جميعاً .

الثالث – قال الزمخشري : ورود الآية على النمط الذي وردت عليه ، فيه ما لا يخفى على الناظر من بينات إكبار محل رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجلاله .

منها – مجيئها على النظم المسجل على الصائحين به ، بالسفه والجهل ، لما أقدموا عليه .

ومنها – لفظ : ﴿ الْحُجُرَاتِ ﴾ وإيقاعها ، كناية عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه .

ومنها – المرور على لفظها بالاقتصار على القدر الذي تبين به ما استنكر عليهم .

ومنها – التعريف باللام دون الإضافة .

(310/719)

ومنها – أن شفع ذمهم باستجفائهم واستركاك عقولهم ، وقلة ضبطهم لمواضع التمييز في المخاطبات ، تهويناً للخطب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتسلية له ، وإماطة لما تداخله من إيحاش تعجزهم ، وسوء أدبهم ، وهلم جرا . . . من أول السورة إلى آخر هذه الآية . فتأمل كيف ابتدئ بإيجاب أن تكون الأمور التي تنتمي إلى الله ورسوله ، متقدمة على الأمور كلها ، من غير حصر ولا تقييد . ثم أردف ذلك النهي عما هو من جنس التقديم من رفع الصوت والجهر ، كأن الأول بساط الثاني ، ووطاء لذكره . ثم ذكر ما هو ثناء على الذين تحاموا ذلك ، فغضوا أصواتهم ، دلالة على عظيم موقعه عند الله . ثم جيء على عقب ذلك بما هو أطم ، وهجنته أتم ، من الصياح برسول الله صلى الله عليه وسلم ، في حال خلوته ببعض حرماته من وراء الجدر ، كما يصاح بأهون الناس قدراً ، لينبه على فظاعة ما أجروا إليه ، وجسروا عليه ، لأن من رفع الله قدره عن أن يجهر له بالقول ، حتى خاطبه جلّة المهاجرين والأنصار بأخي السرار ، كان صنيع هؤلاء من المنكر الذي بلغ من التفاحش مبلغاً . ومن هذا وأمثاله يقتطف ثمر الألباب ، وتقتبس محاسن الآداب ، كما يحكى عن أبي عبيد – ومكانه من العلم والزهد وثقة الرواية ما لا يخفى – أنه قال : ما دققت باباً على عالم قط ، حتى يخرج في وقت خروجه . انتهى .

الرابع – قال ابن كثير : قال العلماء : يكره رفع الصوت عند قبره صلى الله عليه وسلم ، كما كان يكره في حياته ؛ لأنه محترم حياً ، وفي قبره صلى الله عليه وسلم . وقد روينا عن أمير

المؤمنين عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم قد ارتفعت أصواتهما ، فحصبهما . ثم ناداهما فقال : من أين أنتما ؟ قالا : من أهل الطائف . قال : لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً . انتهى .

(311/719)

الخامس – روى البخاري عن عبد الله بن الزبير أنه قدم ركب من بني تميم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر : أمّر القعقاع بن مَعْبَد ، وقال عمر : أمر الأقرع بن حابس . فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافي ! فقال عمر : ما أردت خلافك ! فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما . فنزل في ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ حتى انقضت الآية .

وفي رواية : فأنزل الله في ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ ﴾ الآية .

قال ابن الزبير : فما كان عمر يُسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى يستفهمه . وقد انفرد بهاتين الرايتين البخاري دون ومسلم .

قال الحافظ ابن حجر : وقد استشكل ذلك ! قال ابن عطية : الصحيح أن سبب نزول هذه الآية كلام جفاة الأعراب .

قال ابن حجر : قلت : لا يعارض ذلك هذا الحديث ، فإن الذي يتعلق بقصة الشيخين في تخالفهما في التأمير هو أول السورة : ﴿ لَا تُقَدِّمُوا ﴾ ولكن لما اتصل بها قوله : ﴿ لَا تَرْفَعُواْ ﴾ تمسك عمر منها بخفض صوته . وجفاة الأعراب الذين نزلت فيهم هم من بني تميم ، والذين يختص بهم ، وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ ﴾ انتهى .

وتقدم لنا مراراً الجواب عن أمثاله ، بأن قولهم : نزلت الآية في كذا ، قد يكون المراد به الاستشهاد على أن مثله مما تتناوله الآية ، لا أنه سبب لنزولها .

قال الإمام ابن تيمية : قولهم نزلت هذه الآية في كذا ، يراد به تارة سبب النزول ، ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية ، وإن لم يكن السبب . كما تقول : عنى بهذه الآية كذا . انتهى .

(312/719)

وبه يجاب عما يرويه كثير من تعدد سبب النزول ، فاحفظه ، فإنه من المضنون به على غير أهله . ولو وقف عليه ابن عطية لما ضعف رواية البخاري ، ولما تمحل ابن حجر لتفكيك الآيات بجعل بعضها لسبب . وبعضها الآخر ، في قصة واحدة . وبالله التوفيق . وقوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى

مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ [6] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ أي : فاستظهروا صدقه من كذبه ، بطريق آخر كراهة : ﴿ أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ ﴾ أي : قوماً براء مما قذفوا به بغية أذيتهم بجهالة لاستحقاقهم إياها ، ثم يظهر لكم عدم استحقاقهم : ﴿ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ أي : فتندموا على إصابتكم إياها بالجناية التي تصيبونهم بها ، وحق المؤمن أن يحترز مما يخاف منه الندم في العواقب .

تنبيهات :

الأول – قال ابن كثير : ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم على صدقات بني المصطلق . وقد روي ذلك من طرق . ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد في مسنده من رواية مالك عن ابن المصطلق ، وهو الحارث بن ضرار والد جويرية أم المؤمنين رضي الله عنها . قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن سابق ، حدثنا عيسى بن دينار ، حدثني أبي أنه سمع الحارث بن ضرار الخُزَاعِي رضي الله عنه يقول : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعاني إلى الإسلام ، فدخلت فيه ، وأقررت به ، ودعاني إلى الزكاة ، فأقررت بها وقلت : يا رسول الله ! أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام ، وأداء الزكاة ، فمن استجاب لي

جمعت زكاته ، وأرسل إليّ يا رسول الله رسولاً إبّان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة .

(313/719)

فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له ، وبلغ الإبّان الذي أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليه ، احتبس عليه الرسول ، فلم يأته ، وظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسوله ، فدعا بسروات قومه ، فقال لهم : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان وقّت لي وقتاً يرسل إلي رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة ، وليس من رسول الله الخلف ، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة ، فانطلقوا فنأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة . فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فَرِقَ ، فرجع حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! إن الحارث منعني الزكاة ، وأراد قتلي .

فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم البعث إلى الحارث .

فأقبل الحارث بأصحابه ، حتى إذا استقبل البعث ، وفصل من المدينة ، لقيهم الحارث ،

فقالوا : هذا الحارث ! فلما غشيهم قال لهم : إلى من بعثتم ؟ قالوا : إليك . قال : ولِمَ ؟ قالوا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بعث إليك الوليد بن عقبة ، فزعم أنك منعته الزكاة ، وأردت قتله ! قال : لا ، والذي بعث محمداً بالحق ، ما رأيته بتة ، ولا أتاني . فلما دخل الحارث على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : < منعت الزكاة ، وأردت قتل رسولي ؟ ! > قال : لا ، والذي بعثك بالحق ! ما رأيته بتة ! ولا أتاني ! وما أقبلت إلا حين احتبس علي رسولُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ! خشيت أن تكون كانت سخطة من الله تعالى ورسوله . فنزلت الحجرات : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ حَكِيمٌ ﴾ .

(314/719)

وقال مجاهد وقتادة : أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق يتصدقهم ، فتلقوه بالصدقة ، فرجع فقال : إن بني المصطلق قد جمعت لك لتقاتلك – زاد قتادة – : وإنهم قد ارتدوا عن الإسلام ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد رضي الله عنه إليهم ، وأمره أن يتثبت ولا يعجل ، فانطلق حتى أتاهم ليلاً ، فبعث عيونه ، فلما جاءوا أخبروا خالدا رضي الله عنه أنهم مستمسكون بالإسلام

، وسمعوا أذانهم وصلاتهم . فلما أصبحوا أتاهم خالد رضي الله عنه فرأى الذي يعجبه . فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . قال قتادة فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : < التثبت من الله ، والعجلة من الشيطان > . وكذا ذكر غير واحد من السلف ، منهم ابن أبي ليلى ، ويزيد بن رومان ، والضحاك ، ومقاتل ، وغيرهم في هذه الآية ، أنها نزلت في الوليد بن عقبة – والله أعلم – انتهى .

قال ابن قتيبة في " المعارف " : الوليد بن عقبة بن أبي معيط بن أبي عَمْرو بن أمية ابن عبد شمس ، وهو أخو عثمان لأمه أروى بنت كريز . أسلم يوم فتح مكة ، وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم مصدقاً إلى بني المصطلق ، فأتاه فقال : منعوني الصدقة ! وكان كاذباً . فأنزل الله هذه الآية . وولّاه عمر على صدقات بني تغلب ، وولاه عثمان الكوفة بعد سعد بن أبي وقاص ، فصلى بأهلها صلاة الفجر ، وهو سكران ، أربعاً ، وقال : أزيدكم ؟ ! فشهدوا عليه بشرب الخمر عند عثمان ، فعزله وحدّه . ولم يزل بالمدينة حتى بويع علي ، فخرج إلى الرقة فنزلها ، واعتزل علياً ومعاوية . ومات بناحية الرقة .

(315/719)

الثاني – في " الإكليل " : في الآية رد خبر الفاسق ، واشتراط العدالة في المخبر ، راوياً كان ، أو شاهداً ، أو مفتياً . ويستدل بالآية على قبول خبر الواحد العدل . قال ابن كثير : ومن هنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال ، لاحتمال فسقه في نفس الأمر ، وقبلها آخرون ، لأنا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق ، وهذا ليس بمحقق الفسق لأنه مجهول الحال .

الثالث – في قوله تعالى : ﴿ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ فائدتان :

إحداهما – تقرير التحذير وتأكيده . ووجهه هو أنه تعالى لما قال : ﴿ أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ ﴾ قال بعده : وليس ذلك مما لا يلتفت إليه ، ولا يجوز للعاقل أن يقول : هب أني أصبت قوماً ، فماذا علي ؟ بل عليكم منه الهم الدائم ، والحزن المقيم . ومثل هذا الشيء واجب الاحتراز منه .

والثانية – مدح المؤمنين : أي : لستم قال المهايمي : إذا فعلوا سيئة لا يلتفتون إليها ، بل تصبحون نادمين عليها – أفاده الرازي – .

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ [7] .

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره لأصحاب نبي الله

صلى الله عليه وسلم : واعلموا أيها المؤمنون بالله ورسوله أن فيكم رسول الله ، فاتقوا الله أن تقولوا الباطل ، وتفتروا الكذب ، فإن الله يخبره أخباركم ، ويعرفه أنباءكم ، ويقوّمه على الصواب في أموره .

(316/719)

﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ قال الطبري : أي : لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعمل في الأمور بآرائكم ، ويقبل منكم ما تقولون له ، فيطيعكم ، لنالكم عنت - يعني الشدة والمشقة - في كثير من الأمور ، بطاعته إياكم ، لو أطاعكم ، لأنه كان يخطئ في أفعاله ، كما لو قبل من الوليد بن عقبة قوله في بني المصطلق ، أنهم قد ارتدوا ومنعوا الصدقة وجمعوا الجموع لغزو المسلمين ، فغزاهم فقتل منهم ، وأصاب من دمائهم وأموالهم ، كان قد قتل وقتلتم من لا يحل له ولا لكم قتله ، وأخذتم من المال ما لا يحل له ولكم أخذه من أموال قومٍ مسلمين ، فنالكم من الله بذلك عنت . والعنت : المشقة ، أو الهلاك ، أو الإثم ، أو الفساد .

تنبيه :

(317/719)

أن بما في حيزها سادة مسدّ مفعولي : ﴿ اعْلَمُوا ﴾ باعتبار ما قيد به من الحال ، وهو قوله : ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ ﴾ الخ ، فإنه حال من الضمير المجرور في : ﴿ فِيكُمْ ﴾ المستتر فيه . والمعنى : أنه فيكم كائناً على حالة يجب تغييرها ، أو كائنين على حالة كذلك ، وهي أنكم تودّون أن يتبعكم في كثير من الحوادث ، ولو فعل ذلك لوقعتم في الجهل والهلاك . وفيه إيذان بأن بعضهم زين لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقع في بني المصطلق ، وأنه لم يطع رأيهم هذا . ويجوز أن يكون : ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ ﴾ مستأنفاً . إلا أن الزمخشري منع هذا الاحتمال ، قال : لأدائه إلى تنافر النظم ، لأنه لو اعتبر : ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ ﴾ الخ كلاماً برأسه ، لم يأخذ الكلام بحجز بعض ، لأنه لا فائدة حينئذ في قوله : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ إذا قطع عما بعده . وأجيب بجواز أن يقصد به التنبيه على جلالة محله صلى الله عليه وسلم ، وأنهم لجهلهم بمكانه مفرّطون فيما يجب له من التعظيم ، وفي أن شأنهم أن يتبعوه ، ولا يتبعوا آراءهم ، حتى كأنهم جاهلون بأنه بين أظهرهم ، فوضح جواز الاستئناف ، والوقف على : ﴿ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ .

﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أي : فما أجدركم أن تطيعوا رسول الله وتأتمّوا به ، فيقيكم الله بذلك من العنت فيما لو استتبعتم رأي رسول الله لرأيكم : ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ ﴾ أي : بالله : ﴿ وَالْفُسُوقَ ﴾ يعني الكذب : ﴿ وَالْعِصْيَانَ ﴾ أي :

مخالفة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتضييع ما أمر الله به . : ﴿ أُوْلَئِكَ ﴾ أي : المصوفون بمحبة الإيمان ، وتزينه في قلوبهم ، كراهتهم المعاصي : ﴿ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ أي : السالكون طريق الحق .

﴿ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [8] .

(318/719)

﴿ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ أي : إحساناً منه ، ونعمة أنعمها عليكم . قال القاشاني : كان فضلاً بعنايته بهم في الأزل ، المقتضية للهداية الروحانية الاستعدادية المستتبعة لهذه الكمالات في الأبد . ونعمة بتوفيقه إياهم للعمل بمقتضى تلك الهداية الأصلية ، وإعانته بإفاضة الكمالات المناسبة لاستعداداتهم ، حتى اكتسبوا ملكة العصمة الموجبة لكراهة المعصية . وهو تعليل لـ : حبّب ، وكرّه ، وما بينهما اعتراض ، أو نصب بفعل مضمر ، أي : جرى ذلك فضلاً ، أو يبتغون فضلاً ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي : ذو علم بالمحسن ، والمسيء ، وحكمة في تدبير خلقه ، وتصريفهم فيما شاء من قضائه .

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ

اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [9] .

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ﴾ أي : تقاتلوا : ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ قال ابن جرير : أي : بالدعاء إلى حكم كتاب الله ، والرضا بما فيه ، لهما وعليهما ، وذلك هو الإصلاح بينهما بالعدل .

(319/719)

﴿ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى ﴾ أي : فإن أبت إحدى هاتين الطائفتين الإجابة إلى حكم كتاب الله ، له وعليه ، وتعدت ما جعل الله عدلاً بين خلقه ، وأجابت الأخرى منهما ﴿ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي ﴾ أي : تعتدي وتأبى الإجابة إلى حكم الله : ﴿ حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أي : ترجع إلى حكم الله الذي حكم في كتابه بين خلقه : ﴿ فَإِن فَاءَتْ ﴾ أي : رجعت الباغية ، بعد قتالكم إياهم ، إلى الرضا بحكم الله في كتابه : ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ﴾ أي : بالإنصاف بينهما ، وذلك حكم الله في كتابه الذي جعله عدلاً بين خلقه : ﴿ وَأَقْسِطُوا ﴾ أي : اعدلوا في كل ما تأتون وتذرون ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ أي : فيجازيهم أحسن الجزاء .

تنبيهات :

الأول – قال القاشاني : الاقتتال لا يكون إلا للميل إلى الدنيا ، والركون إلى الهوى ، والانجذاب إلى الجهة السفلية ، والتوجه إلى المطالب الجزئية . والإصلاح إنما يكون من لزوم العدالة في النفس التي هي ظل المحبة ، التي هي ظل الوحدة . فلذلك أمر المؤمنون الموحدون بالإصلاح بينهما ، على تقدير بغيهما . والقتال مع الباغية على تقدير بغي إحداهما ، حتى ترجع . لكون الباغية مضادة للحق ، دافعة له .

وقد روي أن هذه الآية نزلت في طائفتين من الأوس والخزرج اقتتلتا في بعض ما تنازعتا فيه بالنعال والأيدي ، لا بالسيوف ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتاهم فحجز بينهم وأصلح . روي ذلك من طريق عديدة ، مما يقوي أن القتال الذي نزلت فيه كان حقيقياً .

(320/719)

ويروى عن الحسن أن الاقتتال بمعنى الخصومة ، والقتال بمعنى الدفع مجازاً . قال – فيما رواه الطبريّ عنه – : كانت تكون الخصومة بين الحيين ، فيدعوهم إلى الحكم ، فيأبون أن يجيبوا ، فأنزل الله : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي ﴾ الآية . يقول : ادفعوا إلى الحكم ، فكان قتالهم الدفع . انتهى . ولا يخفى أن المادة قد تحمل على حقيقتها

ومجازها فتتسع لهما . وقد قال اللغويون : ليس كل قتال قتلاً . وقد يفضي الخصام إلى القتل ، فلا مانع أن يراد من الآية ما هو أعم ، لتكون الفائدة أشمل – والله أعلم – .

الثاني – في " الإكليل " : في الآية وجوب الصلح بين أهل العدل والبغي ، وقتال البغاة وهو شامل لأهل مكة كغيرهم ، وأن من رجع منهم وأدبر لا يقاتل ، لقوله : ﴿ حَتَّى تَفِيءَ ﴾ . انتهى .

وقد روى سعيد عن مروان قال : صرخ صارخ لعليّ يوم الجمل : لا يقتل مدبر ، ولا يذفف على جريح ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن ألقى السلاح فهو آمن .

وقد اتفق الفقهاء على حرمة قتل مدبرهم وجريحهم ، وأنه لا يغنم لهم مال ، ولا تسبى لهم ذرية ، لأنهم لم يكفروا ببغيهم ولا قتالهم . وعصمة الأموال تابعة لدينهم ، ولذا يجب رد ذلك إليهم إن أخذ منهم . ولا يضمنوا ما أتلفوه حال الحرب من نفس أو مال . ومن قتل من أهل البغي غسل ، وكفن ، وصُلي عيه ، فإن قتل العادل كان شهيداً ، فلا يغسل ، ولا يصلى عليه ، لأنه قتل في قتال أمره الله تعالى به ، كشهيد معركة الكفار . وأن أظهر قوم رأي الخوارج . مثل تكفير من ارتكب كبيرة ، وترك الجماعة ، واستحلال دماء المسلمين وأموالهم ، ولم يجتمعوا لحرب ، لم يتعرّض لهم . وإن جنوا جناية وأتوا حداً ، أقامه عليهم . وإن اقتتلت طائفتان لعصبية ، أو طلب رئاسة ، فهما ظالمتان ؛ لأن كل واحدة منهما باغية على الأخرى ، وتضمن كل واحدة منهما ما أتلف على الأخرى .

هذه شذرة مما جاء في "الإقناع"، و"شرحه" وتفصيله ثمة .

الثالث – قال في "شرح الإقناع": في الآية فوائد: منها أنهم لم يخرجوا بالبغي عن الإيمان، وأنه أوجب قتالهم، وأنه أسقط عنهم التبعة فيما أتلفوه في قتالهم . وإجازة كل من منع حقّاً عليه . والأحاديث بذلك مشهورة: منها ما روى عُبَادَةَ بن الصامت قال: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة، في المنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمر أهله . متفق عليه . وأجمع الصحابة على قتالهم، فإن أبا بكر قاتل مانعي الزكاة، وعلياً قاتل أهل الجمل، وأهل صفّين . انتهى .

وتدل الآية أيضاً على وجوب معاونة من بغى عليه، لقوله: ﴿ فَقَاتِلُواْ ﴾، وعلى وجوب تقديم النصح، لقوله: ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾، وعلى السعي في المصالحة، وذلك ظاهر .

الرابع – وجه الجمع في: ﴿ اقْتَتَلُواْ ﴾، مع أنه قد يقال: مقتضى الظاهر: اقتتلتا، هو الحمل على المعنى دون اللفظ؛ لأن الطائفين في معنى القوم والناس . والنكتة في اعتبار المعنى أولاً . واللفظ ثانياً عكس المشهور في الاستعمال، ما قيل إنهم أولاً في حال القتال

مختلطون مجتمعون ، فلذا جمع أولاً ضميرهم ، وفي حال الإصلاح متميزون متفارقون ، فلذا ثنى الضمير ثانياً وسرّ قرْن الإصلاح الثاني بالعدل ، دون الأول ، لأن الثاني لوقوعه بعد المقاتلة مظنة للتحامل عليهم بالإساءة ، أو لإيهام أنهم لما أحوجوهم للقتال استحقوا الحيف عليهم .

الخامس – أقسط الرباعي همزته للسلب . أي : أزيلوا الجور ، واعدلوا . بخلاف قسط الثلاثي ، فمعناه جار . قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً ﴾ [الجن : 15] ، وهذا هو المشهور – خلافاً للزجاج – في جعلهما سواء – أفاده الكرخي – .

وقوله تعالى :

(322/719)

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [10] .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ استئناف مقرر لما من الأمر بالإصلاح ، فإن من لوازم الأخوة أن يصطلحوا .

قال الشهاب : وتسمية المشاركة في الإيمان أُخوة تشبيه بليغ ، أو استعارة شبه المشاركة فيه بالمشاركة في أصل التوالد ؛ لأن كلّاً منهما أصل للبقاء ، إذ التوالد منشأ الحياة ، والإيمان

منشأ البقاء الأبدي في الجنان .

﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ أي : إذا اقتتلا بأن تحملوهما على حكم الله ، وحكم رسوله

.

قال القاشاني : بيّن تعالى أن الإيمان الذي أقل مرتبته التوحيد والعمل ، يقتضي الأخوة الحقيقية بين المؤمنين ، للمناسبة الأصلية ، والقرابة الفطرية ، التي تزيد على القرابة الصورية ، والنسبة الولادية ، بما لا يقاس ، لإقضائه المحبة القلبية ، لا المحبة النفسانية ، المسببة عن التناسب في اللحمة . فلا أقل من الإصلاح الذي هو من لوازم العدالة ، وأحد خصالها ، إذ لو لم يعدوا عن الفطرة ، ولم يتكدروا بغواشي النشأة ، لم يتقاتلوا ، ولم يتخالفوا . فوجب على أهل الصفاء ، بمقتضى الرحمة ، والرأفة ، والشفقة اللازمة للأخوة الحقيقية ، الإصلاح بينهما ، وإعادتهما إلى الصفاء . انتهى .

تنبيه :

وضع الظاهر موضع المضمر مضافاً إلى المأمورين ، للمبالغة في التقرير والتخصيص .

وتخصيص الاثنين بالذكر دون الجمع ، لأن أقل من يقع بينهم الشقاق اثنان . فإذا لزمت المصالحة بين الأقل ، كانت بين الأكثر ألزم ، لأن الفساد في شقاق الجمع ، أكثر منه في شقاق الاثنين – أفاده القاضي والزمخشري – .

وفي معنى الآية أحاديث كثيرة : كحديث < المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه > .

وحديث < والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه > . وحديث < مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر > . وحديث < المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً > وشبّك بين أصابعه صلى الله عليه وسلم - وكلها في " الصحاح " - .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أي : خافوا مخالفة حكمه ، والإهمال فيه ، ليرحمكم فيفصح عن سالف آثامكم ، ويثيبك رضوانه .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاسم الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [11] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾ أي : لا يهزأ رجال من رجال ، فيروا أنفسهم خيراً من المسخور منهم : ﴿ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ ﴾ أي : الساخرات .

قال أبو السعود : فإن مناط الخيرية في الفريقين ، ليس ما يظهر للناس من الصور والأشكال والأوضاع والأطوار التي عليها يدور أمر السخرية غالباً . بل إنما هو الأمور الكامنة في

القلوب ، فلا يجترئ أحد على استحقار أحد ، فلعله أجمع منه ، لما نيط به من الخيرية عند الله تعالى ، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله تعالى ، والاستهانة بمن عظمه الله تعالى . ومن أهل التأويل من خص السخرية بما يقع من الغنيّ للفقير . وآخرون بما يعثر من أحد على زلة أو هفوة ، فيسخر به من أجلها .

(324/719)

قال الطبري : والصواب أن يقال إن الله عمّ ، بنهيه المؤمنين من أن يسخر بعضهم من بعض ، جميع معاني السخرية . فلا يحل لمؤمن أن يسخر من مؤمن ، لا لفقره ، ولا لذنب ركبه ، ولا لغير ذلك . وقد عد الغزالي في " الإحياء " السخرية من آفات اللسان ، وأوضح معناها بما لا مطلب وراءه فننقله هنا تتميماً للفائدة ، قال رحمه الله :

الآفة الحادية عشرة – السخرية والاستهزاء : وهذا محرم مهما كان مؤذياً ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾ الآية . ومعنى السخرية : الاستهانة ، والتحقير ، والتنبيه على العيوب ، والنقائص ، على وجه يُضحك منه . وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول ، وقد يكون بالإشارة والإيماء ، وإذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة ، وفيه معنى الغيبة .

وقالت عائشة رضي الله عنها : حاكيت ، فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم : < والله ما أحب أني حاكيت إنساناً ، ولي كذا وكذا > .

وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ [الكهف : 49] ، إن الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمن ، والكبيرة القهقهة بذلك .

وهذا إشارة إلى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب الكبائر . وقال معاذ بن جبل : قال النبي صلى الله عليه وسلم : < من عير أخاه بذنب قد تاب منه ، لم يمت حتى يعمله > .

(325/719)

وكل هذا يرجع إلى استحقار الغير ، والضحك عليه ، والاستهانة به ، والاستصغار له . وعليه نبه قوله تعالى : ﴿ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ ﴾ . أي : لا تستحقروه استصغاراً ، فلعله خير منك . وهذا إنما يحرم في حق من يتأذى به . فأما من جعل نفسه مسخرة ، وربما فرح من أن يسخر به ، كانت السخرية في حقه من جملة المزح . ومنه ما يذم وما يمدح . وإنما المحرم استصغار يتأذى به المستهزأ به ، لما فيه من التحقير والتهاون ، وذلك تارة بأن

يضحك على كلامه إذا تخبط فيه ولم ينتظم ، أو على أفعاله إذا كانت مشوشة ، كالضحك على حفظه وعلى صنعته أو على صورته وخلقته ، إذا كان قصيراً أو ناقصاً ، لعيب من العيوب ، فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرية المنهي عنها . انتهى .

لطيفة :

قال أبو السعود : القوم مختص بالرجال ، لأنهم القُوّام على النساء ، والأحسن المهمات ، وهو في الأصل إما جمع قائم كصوْم ، وزوْر ، في جميع صائم ، وزائر . أو مصدر نعت به فشاع في الجمع . وأما تعميمه للفريقين في مثل قوم عاد وقوم فرعون ، فإما للتغليب ، أو لأنهن توابع . واختيار الجمع لغلبة وقوع السخرية في المجامع . والتنكير إما للتعميم أو للقصد إلى نهي بعضهم عن سخرية بعض ، لما أنها مما يجري بين بعض وبعض .

﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ أي : لا يعيب بعضكم على بعض ، ولا يطعن .

(326/719)

قال الشهاب : ضمير : ﴿ تَلْمِزُوا ﴾ للجمع بتقدير مضاف فيه . و : ﴿ أَنفُسَكُمْ ﴾ عبارة عن بعض آخر من جنس المخاطبين ، وهم المؤمنون ، فجعل ما هو من جنسهم بمنزلة أنفسهم ، كما في قوله : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة : 128] ، وقوله :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [النساء : 29] ، فأطلق الأنفس على الجنس استعارة . ففي اللفظ الكريم تجوز ، وتقدير مضاف . والنهي على هذا مخصوص بالمؤمنين ، وهو مغاير لما قبله ، وإن كان مخصوصاً بالمؤمنين أيضاً بحسب المفهوم ، لتغاير الطعن والسخرية ، فلا يقال إن الأول مغن عنه ، إذ السخرية ذكره بما يكره على وجه مضحك بحضرته ، وهذا ذكره بما يكره مطلقاً . أو هو تعميم بعد التخصيص ، كما يعطف العام على الخاص ، لإفادة الشمول . وقيل : إنه من عطف العلة على المعلول ، أو اللمز مخصوص بما كان على وجه الخفية ، كالإشارة . أو هو من عطف الخاص على العام لجعل الخاص كجنس آخر مبالغة . انتهى . وقيل : معنى الآية : لا تفعلوا ما تلمزون به ، فإن من فعل ما استحق به اللمز ، فقد لمز نفسه .

قال الشهاب : فـ : ﴿ أَنفُسَكُمْ ﴾ على ظاهره ، والتجوز في قوله : ﴿ تَلْمِزُوا ﴾ . فهو مجاز ذكر فيه المسبب ، وأريد السبب . والمراد : لا ترتكبوا أمراً تعابون به ، وضعف بأنه بعيد من السياق ، وغير مناسب لقوله : ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا ﴾ ، كما في " الكشف " ، وكونه من التجوز في الإسناد ، إذ أسند فيه ما للمسبب إلى السبب ، تكلف ظاهر ، وكذا كونه كالتعليل للنهي السابق ، لا يدفع كونه مخالفاً للظاهر . وكذا كون المراد به لا تتسببوا في الطعن فيكم ، بالطعن على غيركم ، كما في الحديث < من الكبائر أن يشتم الرجل والديه > ، إذ فُسر بأنه إذا شتم والدي غيره ، شتم الغيرُ والديه أيضاً .

﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ أي : ولا تداعوا بالألقاب التي يكره النبزَ بها الملقب فقد روي أنه عنى بها قوم كانت لهم أسماء في الجاهلية ، فلما أسلموا كانوا يغضبون من الدعاء بها رواه أحمد , وأبو داود . وفسره بعض السلف بقول الرجل للرجل : يا فاسق ، يا منافق ! وبعض بتسمية الرجل بالكفر بعد الإسلام ، وبالفسوق بعد التوبة . والآية – كما قال ابن جرير – : تشمل ذلك كله قال : لأن التنابز بالألقاب هو دعاء المرء صاحبه بما يكرهه من اسم أو صفة .

﴿ بِئْسَ الاسم الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ﴾ قال الزمخشري : ﴿ الاسم ﴾ ههنا يعني الذكر . من قولهم : طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم ، كما يقال : طار ثناؤه وصيته . وحقيقته ما سماه ذكره ، وارتفع بين الناس . ألا ترى إلى قولهم : أشاد بذكره ؟ كأنه قيل بئس الذكر المرتفع للمؤمنين بسبب ارتكاب هذه الجرائر ، أن يذكروا بالفسق . وفي قوله : ﴿ بَعْدَ الْإِيمَانِ ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدهما – استقباح الجمع بين الإيمان وبين الفسق الذي يأباه الإيمان ويحظره ، كما تقول : بئس الشأن بعد الكبرة ، الصبوة .

والثاني – أنه كان في شتائمهم لمن أسلم من اليهود : يا يهودي ! يا فاسق ! فنهوا عنه ، وقيل لهم : بئس الذكر ، أن تذكروا الرجل بالفسق واليهودية بعد إيمانه . والجملة على هذا التفسير متعلقة بالنهي عن التنابز .

والثالث – أن يجعل من فسق غير مؤمن ، كما تقول للمتحول عن التجارة إلى الفلاحة : بئست الحرفة ، الفلاحة بعد التجارة . انتهى .

(328/719)

واختار ابن جرير الثالث ، لا ذهاباً لرأي المعتزلة من أن الفاسق غير مؤمن ، كما أنه غير كافر ، فهو في منزلة بين المنزلتين ، بل لأن السياق يقتضي ختم الكلام بالوعيد ، فإن التلقيب [في المطبوع : التقليب] بما يكرهه الناس أمر مذموم لا يجتمع مع الإيمان ، فإن شعار الجاهلية . وعبارته : يقول تعالى ذكره : ومن فعل ما نهينا عنه ، وتقدم على معصيتنا بعد إيمانه ، فسخر من المؤمنين ، ولمز أخاه المؤمن ، ونبزه بالألقاب ، فهو فاسق : ﴿ بِئْسَ الاسم الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ﴾ يقول : فلا تفعلوا فتستحقوا ، إن فعلتموه ، أن تسموا فساقاً ، بئس الاسم الفسوق . وترك ذكر ما وصفنا من الكلام ، اكتفاء بدلالة قوله : ﴿ بِئْسَ الاسم الْفُسُوقُ ﴾ عليه . ثم ضعف القول الثاني وقال : وغير ذلك من التأويل أولى بالكلام ،

وذلك أن الله تقدم بالنهي عما تقدم النهي عنه في أول هذه الآية, فالذي هو أولى أن يختمها بالوعيد لمن تقدم على بغيه ، أو يقبح ركوبه ما ركب مما نهي عنه ، لا أن يخبر عن قبح ما كان التائب أتاه من قبل توبته ، إذ كانت الآية لم تفتتح بالخبر عن ركوبه ما كان ركب قبل التوبة من القبيح ، فيختم آخرها بالوعيد عليه ، أو القبيح . انتهى .

﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ ﴾ أي : من نبزه أخاه بما نهى الله عن نبزه به من الألقاب ، أو لمزه إياه ، أو سخريته منه : ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي : الذين ظلموا أنفسهم فأكسبوها العقاب بركوبهم ما نهوا عنه .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [12] .

(329/719)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ ﴾ أي : كونوا على جانب منه . وذلك بأن تظنوا بالناس سوءاً ؛ فإن الظان غير محقق . وإبهام الكثير لإيجاب الاحتياط والتورع فيما يخالج الأفئدة من هواجسه ، إذ لا داعية تدعو المؤمن للمشي وراءه ، أو صرف الذهن فيه

، بل من مقتضى الإيمان ظن المؤمنين بأنفسهم الحسن . قال تعالى : ﴿ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ﴾ [النور : 12] . نعم ! من أظهر فسقه ، وهتك ستره ، فقد أباح عرضه للناس . ومنه ما روي : من ألقى جلباب الحياء ، فلا غيبة له . ولذا قال الزمخشري : والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها ، أن كل ما لم تعرف له أمارة صحيحة ، وسبب ظاهر ، كان حراماً واجب الاجتناب . وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد من الستر والصلاح ، وأونست منه الأمانة في الظاهر ، فظنّ الفساد والخيانة به محرم ، بخلاف من اشتهره الناس بتعاطي الريب ، والمجاهرة بالخبائث .

﴿ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ ﴾ وهو ظن المؤمن الشر ، لا الخير : ﴿ إِثْمٌ ﴾ أي : مكسب للعقاب ، لأن فيه ارتكاب ما نهي عنه .

(330/719)

قال حجة الإسلام الغزالي في " الإحياء " في بيان تحريم الغيبة بالقلب : اعلم أن سوء الظن حرام ، مثل سوء القول . فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك بمساوئ الغير ، فليس لك أن تحدث نفسك ، وتسيء الظن بأخيك . قال : ولست أعني به إلا عقد القلب ،

وحكمه على غيره بسوء الظن . فأما الخواطر وحديث النفس ، فهو معفو عنه ، بل الشك أيضاً معفو عنه . ولكن المنهي عنه أن يظن . والظن عبارة عما تركن إليه النفس ، ويميل إليه القلب . فقد قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ . قال : وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب ، فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءاً إلا إذا انكشفت لك بعيان لا يقبل التأويل . فعند ذلك لا يمكنك أن لا تعتقد ما علمته وشاهدته . وما لم تشاهده بعينيك ، ولم تسمعه بأذنك ، ثم وقع في قلبك ، فإنما الشيطان يلقيه إليك ، فينبغي أن تكذّبه فإن أفسق الفساق . إلى أن قال : فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال ، وهو بعين مشاهدة ، أو بينة عادلة . انتهى .

ولما كان من ثمرات سوء الظن التجسس ، فإن القلب لا يقنع بالظن ، ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس ، ذكر سبحانه النهي عنه ، إثر سوء الظن لذلك ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ قال ابن جرير : أي : لا يتبع بعضكم عورة بعض ، ولا يبحث عن سرائره ، يبتغي بذلك الظهور على عيوبه ، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم من أمره ، وبه فاحمدوا أو ذموا ، لا على ما تعلمونه من سرائره .

يقال : تجسس الأمر إذا تطلبه ، وبحث عنه ، كتلمس . قال الشهاب : الجس بالجيم كاللمس ، فيه معنى الطلب ؛ لأن من يطلب الشيء يمسه ويجسه ، فأريد به ما يلزمه ، واستعمل التفعل للمبالغة فيه .

قال الغزالي : ومعنى التجسس أن لا يترك عَبَّاد الله تحت ستر الله ، فيتوصل إلى الاطلاع ، وهتك الستر ، حتى ينكشف له ما هو كان مستوراً عنه ، كان أسلم لقلبه ودينه .

وقد روي في معنى الآية أحاديث كثيرة ، منها حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب فرفع صوته حتى أسمع العواتق في خدورهن ، فقال : < يا معشر من آمن بلسانه ، ولم يخلص الإيمان في قلبه ! لا تتبعوا عورات المسلمين ، فإن من تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه ، ولو في جوف بيته > .

وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم : < لا تجسسوا ، ولا تحسسوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عَبَّاد الله إخوانا > . وروى أبو داود أن ابن مسعود رضي الله عنه أتى برجل ، فقيل له : هذا فلان ، تقطر لحيته خمراً ! فقال : إنا قد نهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به – والرجل سماه ابن أبي حاتم في روايته : الوليد بن عقبة بن أبي معيط .

وروى أبو داود عن معاوية قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : < إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم ، أو كدت أن تفسدهم > . فقال أبو الدرداء رضي الله

عنه كلمة سمعها معاوية من رسول الله ، نفعه الله بها .

وروى الإمام أحمد عن دجين ، كاتب عقبة ، قال : لعقبة : إنا لنا جيراناً يشربون الخمر ، وأنا داع لهم الشرط ليأخذونهم ! قال : لا تفعل ، ولكن عظهم وتهددهم ! قال : ففعل فلم ينتهوا . قال : فجاءه دجين فقال : إني نهيتهم فلم ينتهوا ، وإني داع لهم الشُّرط فتأخذهم ! فقال له عقبة : لا تفعل ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : < من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيى موؤودة من قبرها > ! .

وروى أبو داود عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : < إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم > . قال الأوزاعي : ويدخل في التجسس استماع قوم وهم له كارهون .

(332/719)

﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً ﴾ أي : لا يقل بعضكم في بعض بظهر الغيب ، ما يكره المقول فيه ذلك ، أن يقال له في وجهه . يقال : غابه واغتابه ، كغاله واغتاله ، إذا ذكره بسوء في غيبته ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ ؟ أي : فلو عرض عليكم ، نفرت عنه نفوسكم ، وكرهتموه . فلذا ينبغي أن تكرهوا الغيبة . وفيه استعارة تمثيلية ،

مثل اغتياب الْإِنْسَانْ لآخر بأكل لحم الأخ ميتاً .

لطائف :

الأولى – قال الزمخشري : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ ﴾ الخ تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفظع وجه وأفحشه ، وفيه مبالغات شتى : منها – الاستفهام الذي معناه التقرير ، وهو يفيد المبالغة من حيث إنه لا يقع في كلام مسلم عند كل سامع ، حقيقة أو دعاء . ومنها – جعل ما هو الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة . ومنها – إسناد الفعل إلى أحدكم ، والإشعار بأن أحداً من الأحدين لا يحب ذلك .

ومنها – أن لم يقتصر تمثيل الاغتاب بأكل لحم الْإِنْسَانْ ، حتى جعل الْإِنْسَانْ أخاً .

ومنها – أن لم يقتصر على أكل لحم الأخ ، حتى جعل ميتاً . انتهى .

وقال ابن الأثير في " المثل السائر " في بحث الكناية : فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ ﴾ الخ فإنه كنى عن الغيبة بأكل لحم الْإِنْسَانْ لحم إنسان آخر مثله ، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله ميتاً ، ثم جعل ما هو الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة . فهذه أربع دلالات واقعة على ما قصدت له ، مطابقة للمعنى الذي وردت من أجله .

(333/719)

فأما جعل الغيبة كأكل لحم الْإِنْسَانْ لحم إنسان آخر مثله ، فشديد المناسبة جداً ، لأن الغيبة إنما هي ذكر مثالب الناس ، وتمزيق أعراضهم . وتمزيق العرض مماثل لأكل الْإِنْسَانْ لحم من يغتابه ، لأن أكل اللحم تمزيق على الحقيقة . وأما جعله كلحم الأخ فلما في الغيبة من الكراهة ، لأن العقل والشرع مجتمعان على استكراهها ، آمران بتركها ، والبعد عنها . ولما كانت كذلك جعلت بمنزلة لحم الأخ في كراهته .

ومن المعلوم أن لحم الْإِنْسَانْ مستكره عند إنسان آخر ، إلا أنه لا يكون مثل كراهة لحم أخيه . فهذا القول مبالغة في استكراه الغيبة . وأما جعله ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة ، فلما جبلت عليه النفوس من الميل إلى الغيبة ، والشهوة لها ، مع العلم بقبحها فانظر أيها المتأمل إلى هذه الكناية تجدها من أشد الكنايات شبهاً ، لأنك إذا نظرت إلى كل واحدة من تلك الدلالات الأربع التي أشرنا إليها ، وجدتها مناسبة لما قصدت له . انتهى .

الثانية – الفاء في قوله تعالى : ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ فصيحة في جواب شرط مقدّر . والمعنى : إن صح ذلك ، أو عرض عليكم هذا ، فقد كرهتموه ، فما ذكر جواب للشرط ، وهو ماض فيقدر معه قد ليصح دخول الفاء على الجواب الماضي ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ [الفرقان : 19] ، وضمير : ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ للأكل ، وقد جوز كونه للاغتياب المفهوم منه . والمعنى : فاكرهوه كراهيتهم لذلك الأكل . وعبر عنه بالماضي للمبالغة ، فإذا أول بما ذكر يكون إنشائياً غير محتاج لتقدير قد – أفاده الشهاب – .

الثالثة – قال ابن الفَرَس : يستدل بالآية على أن لا يجوز للمضطر أكل ميتة الآدمي لأنه ضرب به المثل في تحريم الغيبة ، ولم يضرب بميتة سائر الحيوان . فدل على أنه في التحريم فوقها . ومن أراد استيفاء مباحث الغيبة فعليه " بالإحياء " للغزالي ، فإنه جمع فأوعى .

(334/719)

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي : خافوا عقوبته بانتهائكم عما نهاكم عنه من ظن السوء ، والتجسس عما ستر والاغتياب وغير ذلك من المناهي ﴿ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : يقبل توبة التائبين إليه ، ويتكرم برحمته عن عقوبتهم بعد متابهم .

ثم نبه تعالى ، بعد نهيه عن الغيبة واحتقار الناس بعضهم لبعض ، على تساويهم في البشرية ، كما قال ابن كثير ، بقوله سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [13] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى ﴾ أي : من آدم وحواء ، أو من ماء ذكر من الرجال ، وماء أنثى من النساء . أي : من أب وأم ، فما منكم أحد إلا هو يدلي بمثل ما يدلي به الآخر ، سواء بسواء ، فلا وجه للتفاخر ، والتفاضل في النسب .

﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ قال ابن جرير : وجعلناكم متناسبين ، فبعضكم يناسب بعضاً نسباً بعيداً ، وبعضكم يناسب بعضاً نسباً قريباً . ليعرف بعضكم بعضاً في قرب القرابة منه وبعده ، لا لفضيلة لكم في ذلك ، وقربة تقربكم إلى الله ، بل كما قال تعالى :

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ أي : أشدكم اتقاء له ، وخشية بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ، لا أعظمكم بيتاً ، ولا أكثركم عشيرة .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ أي : بظواهركم وبواطنكم ، وبالأتقى والأكرم ، وغير ذلك ، لا تخفى عليه خافية .

تنبيهات :

(335/719)

الأول – حكى الثعالبي في " فقه اللغة " في تدريج القبيلة من الكثرة إلى القلة عن ابن الكلبي عن أبيه : أن الشَّعب بفتح الشين ، أكبر من القبيلة ، ثم القبيلة ، ثم العِمارة ، بكسر العين ، ثم البطن ، ثم الفخذ . وعن غيره : الشَّعب ، ثم القبيلة ، ثم الفصيلة ، ثم العشيْرة ، ثم الذرية ، ثم العترة ، ثم الأسرة . انتهى . وقال الشيخ ابن بري : الصحيح في هذا ما رتبه الزبير بن بكار وهو : الشَّعب ، ثم القبيلة ، ثم العِمارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة ، قال أبو

أسامة : هذه الطبقات على ترتيب خلق الْإِنْسَانْ ، فالشعب أعظمها ، مشتق من شعب الرأس ، ثم القبيلة من قبيلة الرأس لاجتماعها ، ثم العمارة وهي الصدر ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة وهي الساق . وزاد بعضهم العشيرة فقال :

~أَقْصِدُ الشَّعْبَ فَهُوَ أَكْثَرُ حَيٍّ عَدَداً فِيْ الحِوَاءِ ثُمَّ الْقَبِيْلَهْ

~ثُمَّ يَتْلُوْهَا الْعِمَارَةُ ثُمَّ الْبَطْنُ وَالْفَخْذُ بَعْدَهَا وَالْفَصِيْلَهْ

~ثُمَّ مِنْ بَعْدِهَا الْعَشِيْرَةُ لَكِنْ هِيَ فِيْ جَنْبِ مَا ذَكَرْنَا قَلِيْلَهْ

فخزيمة شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عِمارة ، وقصي بطن ، وهاشم فخذ ، والعباس فصيلة . وسميت الشعوب ؛ لأن القبائل تشعبت منها . والشعوب : جمع شعب ، بفتح الشين .

قال أبو عبيد البكري في " شرح نوادر أبي علي القالي " : كل الناس حكى الشعب في القبيلة بالفتح ، وفي الجبل بالكسر ، إلا بندار فإنه رواه عن أبي عبيدة بالعكس . نقله الزبيدي في " تاج العروس " .

الثاني – في الآية الاعتناء بالأنساب ، وأنها شرعت للتعارف ، وذم التفاخر بها ، وأن التقي غير النسيب ، يقدم على النسيب غير التقي ، فيقدم الأروع في الإمامة على النسيب [وهو علي] غيرهما .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن وهب قال : سألت مالكاً عن نكاح الموالي العربية فقال : حلال ، ثم تلا هذه الآية ، فلم يشترط في الكفاءة الحرية – نقله في " الإكليل " .

وقال ابن كثير : استدل بالآية ، من ذهب إلى أن الكفاءة في النكاح لا تشترط ، ولا يشترط سوى الدين .

الثالث – أفاد قوله تعالى : ﴿ لِتَعَارَفُواْ ﴾ حصر حكمة جعلهم شعوباً وقبائل فيه . أي : إنما جعلناكم كذلك ليعرف بعضكم بعضاً ، فتصلوا الأرحام ، وتبينوا الأنساب ، والتوارث ، لا للتفاخر بالآباء والقبائل .

قال الشهاب : الحصر مأخوذ من التخصيص بالذكر ، والسكوت في معرض البيان . وقال القاشاني : معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ لا كرامة بالنسب ، لتساوي الكل في البشرية المنتسبة إلى ذكر وأنثى . والامتياز بالشعوب والقبائل إنما يكون لأجل التعارف بالانتساب ، لا للتفاخر ، فإنه من الرذائل . والكرامة لا تكون إلا بالاجتناب عن الرذائل الذي هو أصل التقوى . ثم كلما كانت التقوى أزيد رتبة ، كان صاحبها أكرم عند الله ، وأجل قدراً . فالمتقي عن المناهي الشرعية ، التي هي الذنوب ، في عرف ظاهر الشرع ، أكرم من الفاجر ، وعن الرذائل الخلقية كالجهل ، والبخل ، والشره ، والحرص ، والجبن ، أكرم من المجتنب عن المعاصي الموصوف بها . انتهى .

الرابع – روي في معنى الآية أحاديث كثيرة ، منها ما رواه البخاري عن أبي هريرة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي : الناس أكرم ؟ قال : < أكرمهم عند الله أتقاهم > . قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : < فأكرم الناس يوسف نبي الله , ابن نبي الله , ابن نبي الله , ابن خليل الله > . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : < فعن معادن العرب تسألوني ؟ > قالوا : نعم . قال : < فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا > .

(337/719)

وروى مسلم عنه أيضاً : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم > .

وروى الإمام أحمد عن أبي ذر قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : < انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود ، إلا أن تفضله بتقوى الله > .

وروى البراز في مسنده عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم : < كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم ، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان > .

وروى عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عمر ؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في خطبته يوم فتح مكة : < أيها الناس ! إن الله تعالى قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعظمها بآبائها . فالناس رجلان : رجل برٌّ تقيّ كريم على الله تعالى ، ورجل فاجر يتقى ، هين على الله تعالى . إن الله عز وجل يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى ﴾ الآية > . وبقيت أحاديث أخر ساقها ابن كثير ، فانظرها .

وروى الطبري عن عطاء قال : قال ابن عباس : ثلاث آيات جحدهن الناس : الإذن كله وقال : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ وقال الناس : أكرمكم أعظمكم بيتاً . قال عطاء : نسيت الثالثة .

ولما كانت طليعة السورة في الحديث عن جفاة الأعراب ، والإنكار على مساوئ أخلاقهم ، ثم تأثرها من المناهي عن المنكرات التي تكثر فيه ، ما كانوا فيها هم المقصود أولاً وبالذات ، ثم غيرهم ثانياً ، وبالعرض ختمها بتعريف أن من كان على شاكلتهم في ارتكاب تلك المناهي ، فهو ممن لم يخامر فؤاده الإيمان ، ثم بيان من المؤمن حقاً ، ليفقهوا أن الأمر ليس كما يزعمون ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [14] .

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ﴾ أي : المحدث عنهم في أول السورة : ﴿ آمَنَّا ﴾ أي : بالله ورسوله ، فنحن مؤمنون ، زعماً أن التلفظ بمادة الإيمان هو عنوان كل مكرمة وإحسان ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا ﴾ أي : لستم مؤمنين ، وإن أخبرتم عنه ، لأن الإيمان قول وعمل ﴿ وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ أي : انقدنا ودخلنا في السلم خوف السباء والقتل : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أي : لأنه لو حل الإيمان في القلوب لتأثر منه البدن ، وظهر عليه مصداقه من الأعمال الصالحة ، والبعد من ركوب المناهي ، فإن لكل حق حقيقة ، ولكل دعوى شاهد

.

فإن قيل : في قوله : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ بعد قوله : ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا ﴾ شبه التكرار من غير استقلال بفائدة متجددة ؟ والجواب : إن فائدة قوله : ﴿ لَّمْ تُؤْمِنُوا ﴾ تكذيب دعواهم ، وقوله : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ توقيت لما أمروا به أن يقولوه ، كأنه قيل لهم : ولكن قولوا أسلمنا حين لم تثبت مواطأة قلوبكم لألسنتكم ؛ لأنه كلام واقع موقع الحال من الضمير في : ﴿ قُولُوا ﴾ . وما في : ﴿ لَمَّا ﴾ من معنى التوقع ، دال على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد ، فلا تكرار . هذا ما أشار له الزمخشري ، واختار كون

الجملة حالاً ، لا مستأنفة ، إخباراً منه تعالى ، فإنه غير مفيد لما ذكر .

تنبيهات :

(339/719)

الأول – قال في " الإكليل " : استدل بالآية من لم ير الإيمان والإسلام مترادفين , بل بينهما عموم وخصوص مطلق ، لأن الإسلام الانقياد للعمل ظاهراً ، والإيمان تصديق القلب كما قال : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ . انتهى .

وهذا الاستدلال في غاية الضعف ؛ لأن ترادفهما شرعاً لا يمنع من إطلاقهما بمعناهما اللغوي في بعض المواضع . وإبانة ذلك موكولة إلى القرائن ، وهي جلية ، كما هنا . وإلا فآية : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عِمْرَان : 19] ، أكبر مناد على اتحادهما . ومن اللطائف أن يقال في الإيمان والإسلام ما قالوه في الفقير والمسكين ، إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا . والإيمان والإسلام ، وأمثالهما ألفاظ شرعية محضة ، ولم يطلقها الشرع إلا على القول والعمل ، كما أوضح ذلك الإمام ابن حزم في " الفصل " فانظره .

الثاني – قال في " الإكليل " : في الآية رد على الكرامية في قولهم إن الإيمان هو الإقرار باللسان ، دون عقد القلب ، وهو ظاهر . وقد استوفى الرد عليهم كغيرهم ، الإمام ابن

حزم في " الفصل " ، فراجعه .

الثالث – قيل ، مقتضى الظاهر أن يقول : قل لا تقولوا آمنا ، ولكن قولوا أسلمنا . أو : لم تؤمنوا ولكن أسلمتم . فعدل عنه إلى هذا النظم احترازاً من النهي عن القول بالإيمان والجزم بإسلامهم ، وقد فقد شرط اعتباره شرعاً . وقيل : إنه من الاحتباك ، وأصله : لم تؤمنوا فلا تقولوا آمنا ، ولكن أسلمتم ، فقلوا أسلمنا ، فحذف من كل منهما نظير ما أثبت في الآخر . والأول أبلغ لأنهم ادعوا الإيمان فنفي عنهم ، ثم استدرك عليه فقال : دعوا ادعاء الإيمان ، وادّعوا الإسلام ، فإنه الذي ينبغي أن يصدر عنكم على ما فيه ، فنفى الإيمان ، وأثبت لهم قول الإسلام دون الاتصاف به ، وهو أبلغ مما ذكر من الاحتباك ، مع سلامته من الحذف بلا قرينة – هذا ما في القاضي وحواشيه .

(340/719)

﴿ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي : فتأمروا لأوامرهما ، وتنهوا عما نهياكم عنه .

والخطاب لهؤلاء الأعراب القائلين آمنا : ﴿ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ﴾ أي : لا يظلمكم من أجور أعمالكم شيئاً ، ولا ينقصكم من ثوابها .

قال الزمخشري : يقال : ألته السلطان حقه أشد الألت . وهي لغة غطفان ، ولغة أسد ،

وأهل الحجاز - لاته ليتاً - وحكى الأصمعي عن أم هشام السلولية أنها قالت : الحمد لله الذي لا يفات ، ولا يلات ، ولا تصمه الأصوات . وقرئ باللغتين : ﴿ لاَيِلْتُكُمْ ﴾ ولا يألتكم . ونحوه في المعنى : ﴿ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ﴾ [الأنبياء : 47] . : ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : لمن أطاعه ، وتاب إليه من سالف ذنوبه ، فأنيبوا إليه أيها الأعراب ، وتوبوا من النفاق ، واعقدوا قلوبكم على الإيمان ، والعمل بمقتضياته ، يغفر لكم ويرحمكم

.

ثم بين تعالى الإيمان ، وما به يكون المؤمن مؤمناً ، بقوله :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [15] .

(341/719)

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ أي : لم يقع في نفوسهم شك فيما آمنوا به من وحدانية الله ، ونبوة نبيه ، وألزموا نفوسهم طاعة الله ، وطاعة رسوله ، والعمل بما وجب عليهم من فرائض الله بغير شك في وجوب ذلك عليهم ﴿ وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي : جاهدوا المشركين بإنفاق أموالهم ، وبذل مهجهم في

جهادهم ، على ما أمرهم الله به من جهادهم ، وذلك سبيله ، لتكون كلمة الله العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى – قال ابن جرير : وقدّمنا مراراً أن قصر سبيل الله على غزو الكفار المعتدين ، من باب قصر العام على أهم أفراده وأعلاها ، وإلا فسبيل الله يعم العبادات والطاعات كلها ، لأنها في سبيل وجهته .

قال الشهاب : وقدم الأموال ، لحرص الْإِنْسَانْ عليها ، فإن ماله شقيق روحه . و : ﴿ جَاهَدُواْ ﴾ بمعنى : بذلوا الجهد . أو مفعوله مقدر ، أي : العدو ، أو النفس والهوى .

﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ أي : الذين صدقوا في ادعاء الإيمان ، لظهور أثر الصدق على جوارحهم ، وتصديق أفعالهم وأقوالهم . وفيه تعريضٌ بكذِب أولئك الأعراب في ادعائهم الإيمان وإفادة للحضر . أي : هم الصادقون ، لا هؤلاء ، أو إيمانهم إيمان صدق ، وجد .

تنبيهات :

الأول – قال في " الإكليل " : في الآية دليل على أن الأعمال من الإيمان . وقدمنا أن هذا ما لا خلاف فيه بين السلف ، وليرجع في ذلك ما بسطه ابن حازم رحمه الله في " الفِصل " .

(342/719)

الثاني – قال القاشاني : في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ الآية إشارة إلى الإيمان المعتبر الحقيقي ، وهو اليقين الثابت في القلب المستقر الذي لا ارتياب معه ، لا الذي يكون على سبيل الخطرات ، فالمؤمنون هم الموقنون الذين غلبت ملكة اليقين قلوبهم على نفوسهم ، ونورتها بأنوارها ، فتأصلت فيها ملكة القلوب حتى تأثرت بها الجوارح ، فلم يمكنها إلا الجري بحكمها ، والتسخر لهيأتها ، وذلك معنى قوله : ﴿ وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ بعد نفي الارتياب عنهم ، لأن بذل المال والنفس في طريق الحق هو مقتضى اليقين الراسخ ، وأثره في الظاهر . انتهى .

الثالث – قال في " الكشاف " : فإن قلت : ما معنى ثم ههنا ، وهي للترخي . وعدم الارتياب يجب أن يكون مقارناً للإيمان ، لأنه وصف فيه ، لما بينت من إفادة الإيمان معنى الثقة ، والطمأنينة التي حقيقتها التيقن ، وانتفاء الريب ؟ قلت : الجواب على طريقتين : أحدهما – أن من وجد منه الإيمان ربما اعترضه الشيطان ، أو بعض المضلين ، بعد ثلج الصدر ، فشككه وقذف في قلبه ما يثلم يقينه . أو نظر هو نظراً غير سديد يسقط به على الشك ، ثم يستمر على ذلك ، راكبا رأسه ، لا يطلب له مخرجاً . فوصف المؤمنون حقاً بالبعد عن هذه الموبقات . ونظيره قوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ .

والثاني – أن الإيقان وزوال الريب ، لما كان ملاك الإيمان ، أفرد بالذكر بعد تقدم الإيمان

تنبيهاً على مكانه . وعطف على الإيمان بكلمة التراخي ، إشعاراً باستقراره في الأزمة المتراخية المتطاولة غضاً جديداً . انتهى .

(343/719)

يعني : أنه إما لنفي الشك عنهم فيما بعد ، فدل على أنهم كما لم يرتابوا أولاً لم تحدث لهم ريبة ، فالتراخي زماني لا رتبي على ما مر في قوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَقَامُواْ ﴾ . أو عطفه عليه عطف جبريل على الملائكة ، تنبيهاً على أصالته في الإيمان ، حتى كأنه شيء آخر . فثم دلالة على استمراره قديماً وحديثاً .

﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [16] .

﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [16] .

﴿ قُلْ ﴾ أي : لهؤلاء الأعراب القائلين بأفواههم : ﴿ ءَامَنَّا ﴾ ﴿ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾ أي : أتخبرونه بقولكم : ﴿ ءَامَنَّا ﴾ ، بطاعتكم إياه لتكونوا مع المؤمنين عنده ، ولا تبالون بعلمه بما أنتم عليه ، من التعليم ، بمعنى الإعلام والإخبار ، فلذا تعدى للثاني بالباء .

وقيل : تعدى بها لتضمين معنى الإحاطة أو الشعور . وفيه تجهيل لهم وتوبيخ . أي : لأن قولهم : ﴿ ءَامَنَّا ﴾ إن كان إخباراً للخلق فلا دليل على صدقه ، وإن كان للحق تعالى فلا معنى له ، لأنهم كيف يعلّمونه ، وهو العالم بكل شيء ، كما قال : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ قال ابن جرير : هذا ما تقدم من الله إلى هؤلاء الأعراب بالنهي عن أن يكذبوا , ويقولوا غير الذي هم عليه من دينهم . يقول : الله محيط بكل شيء عالم به ، فاحذروا أن تقولوا خلاف ما يعلم من ضمائركم ، فينالكم عقوبته ، فإنه لا يخفى عليه شيء .

ثم أشار إلى نوع آخر من جفائهم ، مختوماً بتوعدهم ، بقوله تعالى :

(344/719)

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [17] .

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾ أي : انقادوا وكثّروا سواد أتباعك ﴿ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ﴾ أي : بإسلامكم ، إذ لا ثمرة منه إلي : ﴿ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾ [الإسراء : 15] ، ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي : في

قولكم : ﴿ ءَامَنَّا ﴾ لكن علم الله من قلوبكم أنكم كاذبون ، لاطلاعه على الغيوب ، كما قال :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [18] .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ قال ابن جرير يقول تعالى ذكره : إن الله أيها الأعراب لا يخفى عليه الصادق منكم من الكاذب ، ومن الداخل منكم في ملة الإسلام رغبة فيه ، ومن الداخل فيه رهبة من الرسول وجنده ، فلا تعلّمونا دينكم ، وضمائر صدوركم ، فإن الله لا يخفى عليه شيء في خبايا السماوات والأرض .

تنبيهات :

الأول – روى الحافظ أبو بكر البزار عن ابن عباس قال : جاءت بنو أسد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ! أسلمنا وقاتلتك العرب ، ولم نقاتلك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < إن فقههم قليل ، وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم > – ونزلت هذه الآية – .

وقال ابن زيد : هذه الآيات نزلت في الأعراب . ولا يبعد أن يكون المحدث عنهم في آخر السورة من جفاة الأعراب ، غير المعنيّين أولها ، وإنما ضموا إليهم لاشتراكهم معهم في غلظة القول وخشونته ، ويحتمل أن يكون النبأ لقبيلة واحدة – والله أعلم .

الثاني – في قوله تعالى : ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ ﴾ الآية ، ملاحظة المنة لله ، والفضل في الهداية ، والقيام بواجب شكرها ، والاعتراف بها ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار يوم حنين : < يا معشر الأنصار ! ألم أجدكم ضلّالاً فهداكم الله بي ، وكنتم متفرّقين فألّفكم الله بي ، وكنتم عالة فأغناكم الله بي > ؟ – كلما قال شيئاً ، قالوا : الله ورسوله أمَنّ .

وما ألطف قول أبي إسحاق الصابي في طليعة كتاب له ، بعد الثناء على الله تعالى : وبعث إليهم رسلاً منهم يهدونهم إلى الصراط المستقيم ، والفوز العظيم ، ويعدلون بهم عن المسلك الذميم ، والمورد الوخيم ، فكان آخرهم في الدنيا عصراً ، وأولهم يوم الدين ذكراً ، وأرجحهم عند الله ميزاناً ، وأوضحهم حجة وبرهاناً ، وأبعدهم في الفضل غاية ، وأبهرهم معجزة وآية ، محمد صلى الله عليه وسلم تسليماً ، الذي اتخذه صفياً وحبيباً ، وأرسله إلى عباده بشيراً ونذيراً ، على حين ذهاب منهم مع الشيطان ، وصدوف عن الرحمن ، وتقطيع للأرحام ، وسفك للدماء الحرام ، واقتراف للجرائم ، واستحلال للمآثم .

(346/719)

أنوفهم في المعاصي حمية ، ونفوسهم في غير ذلك ذات الله أبيّة ، يدعون معه الشركاء ، ويضيفون إليه الأكفاء ، ويعبدون من دونه ما لا يسمع ولا يبصر ، ولا يغني عنهم شيئاً . فلم يزل صلى الله عليه وسلم يقذف في أسماعهم فضائل الإيمان ، ويقرأ على قلوبهم قوارع القرآن ، ويدعوهم إلى عبادة الله باللطف لما كان وحيداً ، وبالعنف لما وجد أنصاراً وجنوداً . لا يرى للكفر أثراً إلا طمسه ومحاه ، ولا رسماً إلا أزاله وعفّاه ، ولا حجة مموّهة إلا كشفها ودحضها ، ولا دعامة مرفوعة إلا حطها ووضعها حتى ضرب الحق بجرانه ، وصدع ببنيانه ، وسطع بمصباحه ، ونصع بأوضاحه ، واستنبط الله هذه الأمة من حضيض النار ، وعلّاها إلى ذروة الصلحاء والأبرار ، واتصل حبلها بعد البتات ، والتأم شملها بعد الشتات ، واجتمعت بعد الفرقة ، وتواعدت بعد الفتنة ، فصلى الله عليه صلاة زاكية نامية ، رائحة غادية ، منجزة عدته ، رافعة درجته .

الثالث – قال الرازي : هذه السورة فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق . وهي إما مع الله تعالى ، أو مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو مع غيرهما من أبناء الجنس . وهم على صنفين ؛ لأنهم إما أن يكونوا على طريقة المؤمنين ، وداخلين في رتبة الطاعة ، أو خارجاً عنها ، وهو الفاسق . والداخل في طائفتهم ، السالك لطريقتهم ، إما أن يكون حاضراً عندهم ، أو غائباً عنهم ، فهذه خمسة أقسام :

أحدها – يتعلق بجانب الله .

وثانيها – بجانب الرسول .

وثالثها – بجانب الفسّاق .

ورابعها – بالمؤمن الحاضر .

وخامسها – بالمؤمن الغائب .

فذكر الله تعالى في هذه السورة خمس مرات : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ، وأرشد في كل مرة إلى مكرمة مع قسم من الأقسام الخمسة .

فقال أولاً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ، وذكر الرسول كان لبيان طاعة الله ، لأنها لا تعلم إلا بقول رسول الله .

(347/719)

وقال ثانياً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ ، لبيان وجوب احترام النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال ثالثاً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ ﴾ ، لبيان وجوب الاحتراز عن الاعتماد على أقوالهم ، فإنهم يريدون إلقاء الفتنة بينكم ، وبيّن ذلك عند تفسير قوله : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ﴾ .

وقال رابعاً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ ﴾ وقال : ﴿ وَلا تَنَابَزُوا ﴾ لبيان وجوب ترك إيذاء المؤمنين في حضورهم ، والإزراء بحالهم ومنصبهم .

وقال خامساً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ وقال : ﴿ وَلا تَجَسَّسُوا ﴾ وقال : ﴿ وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾ لبيان وجوب الاحتراز عن إهانة جانب المؤمن حال غيبته ، وذكر ما لو كان حاضراً لتأذى . وهو في غاية الحسن من الترتيب .

فإن قيل : لِمَ لم يذكر المؤمن قبل الفاسق لتكون المراتب متدرجة . الابتداء بالله ، ورسوله ، ثم بالمؤمن الحاضر ، ثم بالمؤمن الغائب ، ثم الفاسق ؟ .

نقول : قدم الله ما هو الأهم على ما دونه ، فذكر جانب الله ، ثم جانب الرسول ، ثم ذكر ما يفضي إلى الاقتتال بين طوائف المسلمين بسبب الإصغاء إلى كلام الفاسق ، والاعتماد عليه ، فإنه يذكر كل ما كان أشد نفاراً للصدور . وأما المؤمن الحاضر ، أو الغائب فلا يؤذي المؤمن إلى حدٍّ يفضي إلى القتال . ألا ترى أن الله تعالى ذكر عقيب نبأ الفاسق ، آية الاقتتال فقال : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ﴾ ؟ انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 15 صـ 452.416 ﴾

(348/719)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

تبدأ السورة بأول نداء حبيب ، وأول استجاشة للقلوب . ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ . . نداء من الله للذين آمنوا به بالغيب . واستجاشة لقلوبهم بالصفة التي تربطهم به ، وتشعرهم بأنهم له ، وأنهم يحملون شارته ، وأنهم في هذا الكوكب عبيده وجنوده ، وأنهم هنا لأمر يقدره ويريده ، وأنه حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم اختياراً لهم ومنة عليهم ، فأولى لهم أن يقفوا حيث أراد لهم أن يكونوا ، وأن يقفوا بين يدي الله موقف المنتظر لقضائه وتوجيهه في نفسه وفي غيره ، يفعل ما يؤمر ويرضى بما يقسم ، ويسلم ويستسلم :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ، واتقوا الله إن الله سميع عليم ﴾ . . يا أيها الذين آمنوا ، لا تقترحوا على الله ورسوله اقتراحاً ، لا في خاصة أنفسكم ، ولا في أمور الحياة من حولكم . ولا تقولوا في أمر قبل قول الله فيه على لسان رسوله ، ولا تقضوا في أمر لا ترجعون فيه إلى قول الله وقول رسوله .

قال قتادة : ذكر لنا أن ناساً كانوا يقولون : لو أنزل في كذا وكذا . لو صح كذا . فكره الله تعالى ذلك . وقال العوفي : نهوا أن يتكلموا بين يديه . وقال مجاهد : لا تفتاتوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء حتى يقضي الله تعالى على لسانه . وقال الضحاك : لا

تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم . وقال علي بن طلحة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - : لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة .

فهو أدب نفسي مع الله ورسوله . وهو منهج في التلقي والتنفيذ . وهو أصل من أصول التشريع والعمل في الوقت ذاته . . وهو منبثق من تقوى الله ، وراجع إليها . هذه التقوى النابعة من الشعور بأن الله سميع عليم . . وكل ذلك في آية واحدة قصيرة ، تلمس وتصور كل هذه الحقائق الأصيلة الكبيرة .

(349/719)

وكذلك تأدب المؤمنون مع ربهم ومع رسولهم ؛ فما عاد مقترح منهم يقترح على الله ورسوله ؛ وما عاد واحد منهم يدلي برأي لم يطلب منه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يدلي به ؛ وما عاد أحد منهم يقضي برأيه في أمر أو حكم ، إلا أن يرجع قبل ذلك إلى قول الله وقول الرسول . .

روى أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة - بإسناده - " عن معاذ - رضي الله عنه - حيث قال له النبي - صلى الله عليه وسلم - حين بعثه إلى اليمن : " بم تحكم ؟ " قال : بكتاب الله تعالى . قال - صلى الله عليه وسلم - : " فإن لم تجد ؟ " قال : بسنة رسول الله - صلى الله

عليه وسلم ـ قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " فإن لم تجد ؟ " قال – رضي الله عنه – : أجتهد رأيي . فضرب في صدره وقال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما يرضي رسول الله " .

وحتى لكأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسألهم عن اليوم الذي هم فيه ، والمكان الذي هم فيه ، وهم يعلمونه حق العلم ، فيتحرجون أن يجيبوا إلا بقولهم : الله ورسوله أعلم . خشية أن يكون في قولهم تقدم بين يدي الله ورسوله !

جاء في حديث أبي بكرة نفيع بن الحارث الثقفي – رضي الله عنه – " أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سأل في حجة الوداع :

" أي شهر هذا ؟ " . . قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال : " أليس ذا الحجة ؟ " قلنا : بلى ! قال : " أي بلد هذا ؟ " قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال : " أليس البلدة الحرام ؟ " قلنا بلى ! قال : " فأي يوم هذا ؟ " قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال : " أليس يوم النحر ؟ " قلنا بلى ! . . الخ " .

فهذه صورة من الأدب ، ومن التحرج ، ومن التقوى ، التي انتهى إليها المسلمون بعد سماعهم ذلك النداء ، وذلك التوجيه ، وتلك الإشارة إلى التقوى ، تقوى الله السميع العليم .

والأدب الثاني هو أدبهم مع نبيهم في الحديث والخطاب ؛ وتوقيرهم له في قلوبهم ، توقيراً ينعكس على نبراتهم وأصواتهم ؛ ويميز شخص رسول الله بينهم ، ويميز مجلسه فيهم ؛ والله يدعوهم إليه بذلك النداء الحبيب ؛ ويحذرهم من مخالفة ذلك التحذير الرهيب :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي . ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ . .

يا أيها الذين آمنوا . . ليوقروا النبي الذي دعاهم إلى الإيمان . . أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون . . ليحذروا هذا المزلق الذي قد ينتهي بهم إلى حبوط أعمالهم ، وهم غير شاعرين ولا عالمين ، ليتقوه !

ولقد عمل في نفوسهم ذلك النداء الحبيب ، وهذا التحذير المرهوب ، عمله العميق الشديد :

قال البخاري : حدثنا بسرة بن صفوان اللخمي ، حدثنا نافع بن عمر ، عن ابن أبي مليكة . قال : كاد الخيران أن يهلكا . . أبو بكر وعمر رضي الله عنهما . . رفعا أصواتهما عند النبي - صلى الله عليه وسلم - حين قدم عليه ركب بني تميم (في السنة التاسعة من الهجرة) فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس - رضي الله عنه - أخي بني مجاشع (أي ليؤمره عليهم) وأشار الآخر برجل آخر .

قال نافع : لا أحفظ اسمه (في رواية أخرى أن اسمه القعقاع بن معبد) فقال : أبو بكر لعمر – رضي الله عنهما – ما أردت إلا خلافي . قال : ما أردت خلافك . فارتفعت أصواتهما في ذلك . فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ . قال ابن الزبير – رضي الله عنه – : فما كان عمر – رضي الله عنه يسمع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد هذه الآية حتى يستفهمه ! . . وروي عن أبي بكر – رضي الله عنه – أنه قال لما نزلت هذه الآية : قلت : يا رسول الله ، والله لا أكلمك إلا كأخي السرار (يعني كالهمس !) .

(351/719)

وقال الإمام أحمد : حدثنا هاشم ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت ، عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال : " لما نزلت هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي – إلى قوله : وأنتم لا تشعرون ﴾ وكان ثابت بن قيس بن الشماس رفيع الصوت . فقال : أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنا من أهل النار . حبط عملي . وجلس في أهله حزيناً . ففقده رسول الله ـ صلى

الله عليه وسلم. فانطلق بعض القوم إليه ، فقالوا له : تفقدك رسول الله. صلى الله عليه وسلم. مالك ؟ قال أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي. صلى الله عليه وسلم. فأخبروه بما قال . قال النبي. صلى الله عليه وسلم. : لا . بل هو من أهل الجنة " قال أنس – رضي الله عنه – : فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة .

فهكذا ارتعشت قلوبهم وارتجفت تحت وقع ذلك النداء الحبيب ، وذلك التحذير الرعيب ؛ وهكذا تأدبوا في حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم خشية أن تحبط أعمالهم وهم لا يشعرون . ولو كانوا يشعرون لتداركوا أمرهم ! ولكن هذا المنزلق الخافي عليهم كان أخوف عليهم ، فخافوه واتقوه !

ونوه الله بتقواهم ، وغضهم أصواتهم عند رسول الله. صلى الله عليه وسلم. في تعبير عجيب :

﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى . لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾ . .

فالتقوى هبة عظيمة ، يختار الله لها القلوب ، بعد امتحان واختبار ، وبعد تخليص وتمحيص ، فلا يضعها في قلب إلا وقد تهيأ لها ، وقد ثبت أنه يستحقها . والذين يغضون أصواتهم عند رسول الله قد اختبر الله قلوبهم وهيأها لتلقي تلك الهبة . هبة التقوى . وقد كتب لهم معها وبها المغفرة والأجر العظيم .

إنه الترغيب العميق ، بعد التحذير المخيف .

بها يربي الله قلوب عباده المختارين ، ويعدها للأمر العظيم . الذي نهض به الصدر الأول على هدى من هذه التربية ونور .

(352/719)

وقد روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد ارتفعت أصواتهما ، فجاء فقال : أتدريان أين أنتما ؟ ثم قال : من أين أنتما ؟ قالا : من أهل الطائف . فقال : لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً !

وعرف علماء هذه الأمة وقالوا : إنه يكره رفع الصوت عند قبره ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما كان يكره في حياته – عليه الصلاة والسلام – احتراماً له في كل حال .

ثم أشار إلى حادث وقع من وفد بني تميم حين قدموا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في العام التاسع الذي سمي " عام الوفود " . . لمجيء وفود العرب من كل مكان بعد فتح مكة ، ودخولهم في الإسلام ، وكانوا أعراباً جفاة ، فنادوا من وراء حجرات أزواج النبي صلى الله عليه وسلم المطلة على المسجد النبوي الشريف : يا محمد . اخرج لنا . فكره النبي ـ

صلى الله عليه وسلم ـ هذه الجفوة وهذا الإزعاج . فنزل قوله تعالى :

﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم ، والله غفور رحيم ﴾ . .

فوصفهم الله بأن أكثرهم لا يعقلون . وكرّه إليهم النداء على هذه الصفة المنافية للأدب والتوقير اللائق بشخص النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحرمة رسول الله القائد والمربي . وبيّن لهم الأولى والأفضل وهو الصبر والانتظار حتى يخرج إليهم . وحبب إليهم التوبة والإنابة ، ورغبهم في المغفرة والرحمة .

وقد وعى المسلمون هذا الأدب الرفيع ، وتجاوزوا به شخص رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى كل أستاذ وعالم . لا يزعجونه حتى يخرج إليهم ؛ ولا يقتحمون عليه حتى يدعوهم . . يحكى عن أبي عبيد – العالم الزاهد الراوية الثقة – أنه قال : " ما دققت باباً على عالم قط حتى يخرج في وقت خروجه " . .

(353/719)

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين . واعلموا أن فيكم رسول الله ، لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ؛ ولكن الله

حبَّب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم ، وكَّره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون ، فضلاً من الله ونعمة ، والله عليم حكيم ﴾ . .

كان النداء الأول لتقرير جهة القيادة ومصدر التلقي . وكان النداء الثاني لتقرير ما ينبغي من أدب للقيادة وتوقير . وكان هذا وذلك هو الأساس لكافة التوجيهات والتشريعات في السورة . فلا بد من وضوح المصدر الذي يتلقى عنه المؤمنون ، ومن تقرير مكان القيادة وتوقيرها ، لتصبح للتوجيهات بعد ذلك قيمتها ووزنها وطاعتها .

ومن ثم جاء هذا النداء الثالث يبين للمؤمنين كيف يتلقون الأنباء وكيف يتصرفون بها ؛ ويقرر ضرورة التثبت من مصدرها :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة ، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ . .

ويخصص الفاسق لأنه مظنة الكذب . وحتى لا يشيع الشك بين الجماعة المسلمة في كل ما ينقله أفرادها من أنباء ، فيقع ما يشبه الشلل في معلوماتها . فالأصل في الجماعة المؤمنة أن يكون أفرادها موضع ثقتها ، وأن تكون أنباؤهم مصدقة مأخوذاً بها . فأما الفاسق فهو موضع الشك حتى يثبت خبره . وبذلك يستقيم أمر الجماعة وسطاً بين الأخذ والرفض لما يصل إليها من أنباء . ولا تعجل الجماعة في تصرف بناء على خبر فاسق . فتصيب قوماً

بظلم عن جهالة وتسرع . فتندم على ارتكابها ما يغضب الله ، ويجانب الحق والعدل في اندفاع .

(354/719)

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط حين بعثه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على صدقات بني المصطلق . وقال ابن كثير . قال مجاهد وقتادة : أرسل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق يتصدقهم فتلقوه بالصدقة ، فرجع فقال : إن بني المصطلق قد جمعت لك لتقاتلك (زاد قتادة وأنهم قد ارتدوا عن الإسلام) فبعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خالد بن الوليد – رضي الله عنه – إليهم ، وأمره أن يتثبت ولا يعجل ، فانطلق حتى أتاهم ليلاً ، فبعث عيونه ، فلما جاءوا أخبروا خالداً – رضي الله عنه – أنهم مستمسكون بالإسلام ، وسمعوا أذانهم وصلاتهم ، فلما أصبحوا أتاهم خالد – رضي الله عنه – فرأى الذي يعجبه ؛ فرجع إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبره الخبر ، فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة . قال قتادة : فكان الرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : " التثبت من الله والعجلة من الشيطان " . وكذا ذكر غير واحد من السلف منهم ابن أبي ليلى ، ويزيد بن

رومان ، والضحاك ، ومقاتل بن حبان . وغيرهم في هذه الآية أنها نزلت في الوليد بن عقبة . والله أعلم . . (انتهى كلام ابن كثير في التفسير) . .

ومدلول الآية عام ، وهو يتضمن مبدأ التمحيص والتثبت من خبر الفاسق ؛ فأما الصالح فيؤخذ بخبره ، لأن هذا هو الأصل في الجماعة المؤمنة ، وخبر الفاسق استثناء . والأخذ بخبر الصالح جزء من منهج التثبت لأنه أحد مصادره . أما الشك المطلق في جميع المصادر وفي جميع الأخبار ، فهو مخالف لأصل الثقة المفروض بين الجماعة المؤمنة ، ومعطل لسير الحياة وتنظيمها في الجماعة . والإسلام يدع الحياة تسير في مجراها الطبيعي ، ويضع الضمانات والحواجز فقط لصيانتها لا لتعطيلها ابتداء .

وهذا نموذج من الإطلاق والاستثناء في مصادر الأخبار .

(355/719)

ويبدو أنه كان من بعض المسلمين اندفاع عند الخبر الأول الذي نقله الوليد بن عقبة ، وإشارة على النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يعجل بعقابهم . وذلك حمية من هذا الفريق لدين الله وغضباً لمنع الزكاة . فجاءت الآية التالية تذكرهم بالحقيقة الضخمة والنعمة الكبيرة التي تعيش بينهم ليدركوا قيمتها وينتبهوا دائماً لوجودها :

﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله ﴾ . .

وهي حقيقة تتصور بسهولة لأنها وقعت ووجدت . ولكنها عند التدبر تبدو هائلة لا تكاد تتصور ! وهل من اليسير أن يتصور الإنسان أن تتصل السماء بالأرض صلة دائمة حية مشهودة ؛ فتقول السماء للأرض ؛ وتخبر أهلها عن حالهم وجهرهم وسرهم ، وتقوّم خطاهم أولا بأول ، وتشير عليهم في خاصة أنفسهم وشؤونهم . ويفعل أحدهم الفعلة ويقول أحدهم القولة ، ويسر أحدهم الخالجة ؛ فإذا السماء تطلع ، وإذا الله – جل جلاله – ينبئ رسوله بما وقع ، ويوجهه لما يفعل وما يقول في هذا الذي وقع . . إنه لأمر . وإنه لنبأ عظيم . وإنها لحقيقة هائلة . قد لا يحس بضخامتها من يجدها بين يديه . ومن ثم كان هذا التنبيه لوجودها بهذا الأسلوب : ﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله ﴾ . . اعلموا هذا وقدروه حق قدره ، فهو أمر عظيم .

ومن مقتضيات العلم بهذا الأمر العظيم أن لا يقدموا بين يدي الله ورسوله . ولكنه يزيد هذا التوجيه إيضاحاً وقوة ، وهو يخبرهم أن تدبير رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهم بوحي الله أو إلهامه فيه الخير لهم والرحمة واليسر . وأنه لو أطاعهم فيما يعن لهم أنه خير لعنتوا وشق عليهم الأمر . فالله أعرف منهم بما هو خير لهم ، ورسوله رحمة لهم فيما يدبر لهم ويختار :

﴿ لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتّم ﴾ . .

وفي هذا إيحاء لهم بأن يتركوا أمرهم لله ورسوله ، وأن يدخلوا في السلم كافة ، ويستسلموا لقدر الله وتدبيره ، ويتلقوا عنه ولا يقترحوا عليه .

(356/719)

ثم يوجههم إلى نعمة الإيمان الذي هداهم إليه ، وحرك قلوبهم لحبه ، وكشف لهم عن جماله وفضله ، وعلق أرواحهم به ؛ وكره إليكم الكفر والفسوق والمعصية ، وكان هذا كله من رحمته وفيضه :

﴿ ولكن الله حبَّب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم ؛ وكَّره إليكم الكفر والفسوق والعصيان . أولئك هم الراشدون . فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم ﴾ . .

واختيار الله لفريق من عباده ، ليشرح صدورهم للإيمان ، ويحرك قلوبهم إليه ، ويزينه لهم فتهفو إليه أرواحهم ، وتدرك ما فيه من جمال وخير . . هذا الاختيار فضل من الله ونعمة ، دونها كل فضل وكل نعمة . حتى نعمة الوجود والحياة أصلاً ، تبدوا في حقيقتها أقل من نعمة الإيمان وأدنى ! وسيأتي قوله تعالى : ﴿ بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان ﴾ فنفصل القول إن شاء الله في هذه المنة .

والذي يستوقف النظر هنا هو تذكيرهم بأن الله هو الذي أراد بهم هذا الخير ، وهو الذي

خلص قلوبهم من ذلك الشر : الكفر والفسوق والعصيان . وهو الذي جعلهم بهذا راشدين فضلاً منه ونعمة . وأن ذلك كله كان عن علم منه وحكمة . . وفي تقرير هذه الحقيقة إيحاء لهم كذلك بالاستسلام لتوجيه الله وتدبيره ، والاطمئنان إلى ما وراءه من خير عليهم وبركة ، وترك الاقتراح والاستعجال والاندفاع فيما قد يظنونه خيراً لهم ؛ قبل أن يختار لهم الله . فالله يختار لهم الخير ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيهم ، يأخذ بيدهم إلى هذا الخير . وهذا هو التوجيه المقصود في التعقيب .

(357/719)

وإن الإنسان ليعجل ، وهو لا يدري ما وراء خطوته . وإن الإنسان ليقترح لنفسه ولغيره ، وهو لا يعرف ما الخير وما الشر فيما يقترح . ﴿ ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً ﴾ ولو استسلم لله ، ودخل في السلم كافة ، ورضي اختيار الله له ، واطمأن إلى أن اختيار الله أفضل من اختياره ، وأرحم له وأعود عليه بالخير . لاستراح وسكن . ولأمضى هذه الرحلة القصيرة على هذا الكوكب في طمأنينة ورضى . . ولكن هذا كذلك منة من الله وفضل يعطيه من يشاء .

﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما . فإن بغت إحداهما على الأخرى

فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله . فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا . إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾ . .

وهذه قاعدة تشريعية عملية لصيانة المجتمع المؤمن من الخصام والتفكك ، تحت النزوات والاندفاعات . تأتي تعقيباً على تبين خبر الفاسق ، وعدم العجلة والاندفاع وراء الحمية والحماسة ، قبل التثبت والاستيقان .

وسواء كان نزول هذه الآية بسبب حادث معين كما ذكرت الروايات ، أم كان تشريعاً لتلافي مثل هذه الحالة ، فهو يمثل قاعدة عامة محكمة لصيانة الجماعة الإسلامية من التفكك والتفرق . ثم لإقرار الحق والعدل والصلاح . والارتكان في هذا كله إلى تقوى الله ورجاء رحمته بإقرار العدل والصلاح .

والقرآن قد واجه – أو هو يفترض – إمكان وقوع القتال بين طائفتين من المؤمنين . ويستبقي لكلتا الطائفتين وصف الإيمان مع اقتتالهما ، ومع احتمال أن إحداهما قد تكون باغية على الأخرى ، بل مع احتمال أن تكون كلتاهما باغية في جانب من الجوانب .

(358/719)

وهو يكلف الذين آمنوا – من غير الطائفتين المتقاتلتين طبعاً – أن يقوموا بالإصلاح بين المتقاتلين. فإن بغت إحداهما فلم تقبل الرجوع إلى الحق – ومثله أن تبغيا معاً برفض الصلح أو رفض قبول حكم الله في المسائل المتنازع عليها – فعلى المؤمنين أن يقاتلوا البغاة إذن، وأن يظلوا يقاتلونهم حتى يرجعوا إلى أمر الله. وأمر الله هو وضع الخصومة بين المؤمنين، وقبول حكم الله فيما اختلفوا فيه، وأدى إلى الخصام والقتال.

فإذا تم قبول البغاة لحكم الله، قام المؤمنون بالإصلاح القائم على العدل الدقيق طاعة لله وطلباً لرضاه.. ﴿ إن الله يحب المقسطين ﴾..

ويعقب على هذه الدعوة وهذا الحكم باستجاشة قلوب الذين آمنوا واستحياء الرابطة الوثيقة بينهم، والتي جمعتهم بعد تفرق، وألفت بينهم بعد خصام؛ وتذكيرهم بتقوى الله، والتلويح لهم برحمته التي تنال بتقواه:

﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾..

ومما يترتب على هذه الأخوة أن يكون الحب والسلام والتعاون والوحدة هي الأصل في الجماعة المسلمة، وأن يكون الخلاف أو القتال هو الإستثناء الذي يجب أن يرد إلى الأصل فور وقوعه؛ وأن يستباح في سبيل تقريره قتال المؤمنين الآخرين للبغاة من إخوانهم ليردوهم إلى الصف، وليزيلوا هذا الخروج على الأصل والقاعدة. وهو إجراء صارم وحازم كذلك.

ومن مقتضيات هذه القاعدة كذلك ألا يجهز على جريح في معارك التحكيم هذه ، وألا يقتل أسير ، وألا يتعقب مدبر ترك المعركة ، وألقى السلاح ، ولا تؤخذ أموال البغاة غنيمة . لأن الغرض من قتالهم ليس هو القضاء عليهم ، وإنما هو ردهم إلى الصف ، وضمهم إلى لواء الأخوة الإسلامية .

(359/719)

والأصل في نظام الأمة المسلمة أن يكون للمسلمين في أنحاء الأرض إمامة واحدة ، وأنه إذا بويع لإمام ، وجب قتل الثاني ، واعتباره ومن معه فئة باغية يقاتلها المؤمنون مع الإمام . وعلى هذا الأصل قام الإمام علي – رضي الله عنه – بقتال البغاة في وقعة الجمل وفي وقعة صفين ؛ وقام معه بقتالهم أجلاء الصحابة رضوان الله عليهم . وقد تخلف بعضهم عن المعركة منهم سعد ومحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد وابن عمر – رضي الله عنهم – إما لأنهم لم يتبينوا وجه الحق في الموقف في حينه فاعتبروها فتنة . وإما لأنهم كما يقول الإمام الجصاص : " ربما رأوا الإمام مكتفياً بمن معه مستغنياً عنهم بأصحابه فاستجازوا القعود عنه لذلك " . . . والاحتمال الأول أرجح ، تدل عليه بعض أقوالهم المروية . كما يدل عليه ما روي عن ابن عمر – رضي الله عنه – في ندمه فيما بعد على أنه لم يقاتل مع الإمام .

ومع قيام هذا الأصل فإن النص القرآني يمكن إعماله في جميع الحالات – بما في ذلك الحالات الاستثنائية التي يقوم فيها إمامان أو أكثر في أقطار متفرقة متباعدة بين بلاد المسلمين ، وهي حالة ضرورة واستثناء من القاعدة – فواجب المسلمين أن يحاربوا البغاة مع الإمام الواحد ، إذا خرج هؤلاء البغاة عليه . أو إذا بغت طائفة على طائفة في إمامته دون خروج عليه . وواجب المسلمين كذلك أن يقاتلوا البغاة إذا تمثلوا في إحدى الإمامات المتعددة في حالات التعدد الاستثنائية ، بتجمعهم ضد الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله . وهكذا يعمل النص القرآني في جميع الظروف والأحوال .

(360/719)

وواضح أن هذا النظام ، نظام التحكيم وقتال الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله ، نظام له السبق من حيث الزمن في كل محاولات البشرية في هذا الطريق . وله الكمال والبراءة من العيب والنقص الواضحين في كل محاولات البشرية البائسة القاصرة التي حاولتها في كل تجاربها الكسيحة ! وله بعد هذا وذاك صفة النظافة والأمانة والعدل المطلق ، لأن الاحتكام فيه إلى أمر الله الذي لا يشوبه غرض ولا هوى ، ولا يتعلق به نقص أو قصور . . ولكن البشرية البائسة تطلع وتعرج ، وتكبو وتتعثر . وأمامها الطريق الواضح الممهد

المستقيم !

﴿ يا أيها الذين آمنوا ، لا يسخر قوم من قوم ، عسى أن يكونوا خيراً منهم ؛ ولا نساء من نساء ، عسى أن يكن خيراً منهن . ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم : الفسوق بعد الإيمان . ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾ . .

إن المجتمع الفاضل الذي يقيمه الإسلام بهدى القرآن مجتمع له أدب رفيع ، ولكل فرد فيه كرامته التي لا تمس . وهي من كرامة المجموع . ولمز أي فرد هو لمز لذات النفس ، لأن الجماعة كلها وحدة ، كرامتها واحدة .

والقرآن في هذه الآية يهتف للمؤمنين بذلك النداء الحبيب : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ . وينهاهم أن يسخر قوم بقوم ، أي رجال برجال ، فلعلهم خير منهم عند الله ، أو أن يسخر نساء من نساء فلعلهن خير منهن في ميزان الله .

(361/719)

وفي التعبير إيحاء خفي بأن القيم الظاهرة التي يراها الرجال في أنفسهم ويراها النساء في أنفسهن ليست هي القيم الحقيقية ، التي يوزن بها الناس . فهناك قيم أخرى ، قد تكون خافية عليهم ، يعلمها الله ، ويزن بها العباد . وقد يسخر الرجل الغني من الرجل الفقير .

والرجل القوي من الرجل الضعيف ، والرجل السوي من الرجل المؤوف . وقد يسخر الذكي الماهر من الساذج الخام . وقد يسخر ذو الأولاد من العقيم . وذو العصبية من اليتيم . . . وقد تسخر الجميلة من القبيحة ، والشابة من العجوز ، والمعتدلة من المشوهة ، والغنية من الفقيرة . . ولكن هذه وأمثالها من قيم الأرض ليست هي المقياس ، فميزان الله يرفع ويخفض بغير هذه الموازين !

ولكن القرآن لا يكتفي بهذا الإحياء ، بل يستجيش عاطفة الأخوة الإيمانية ، ويذكر الذين آمنوا بأنهم نفس واحدة من يلمزها فقد لمزها ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ . . واللمز : العيب . ولكن للفظة جرساً وظلاً ؛ فكأنما هي وخزة حسية لا عيبة معنوية !

ومن السخرية واللمز التنابز بالألقاب التي يكرهها أصحابها ، ويحسون فيها سخرية وعيباً . ومن حق المؤمن على المؤمن ألا يناديه بلقب يكرهه ويزري به . ومن أدب المؤمن ألا يؤذي أخاه بمثل هذا . وقد غير رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أسماء وألقاباً كانت في الجاهلية لأصحابها ، أحس فيها بحسه المرهف ، وقلبه الكريم ، بما يزري بأصحابها ، أو يصفهم بوصف ذميم .

والآية بعد الإحياء بالقيم الحقيقية في ميزان الله ، وبعد استجاشة شعور الأخوة ، بل شعور الاندماج في نفس واحدة ، تستثير معنى الإيمان ، وتحذر المؤمنين من فقدان هذا الوصف الكريم ، والفسوق عنه والانحراف بالسخرية واللمز والتنابز : ﴿ بئس الاسم : الفسوق

بعد الإيمان ﴾ . فهو شيء يشبه الارتداد عن الإيمان ! وتهدد باعتبار هذا ظلماً ، والظلم أحد التعبيرات عن الشرك : ﴿ ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾ . . وبذلك تضع قواعد الأدب النفسي لذلك المجتمع الفاضل الكريم .

(362/719)

﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ، إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً ؟ فكرهتموه واتقوا الله ، إن الله تواب رحيم ﴾ . .

فأما هذه الآية فتقيم سياجاً آخر في هذا المجتمع الفاضل الكريم ، حول حرمات الأشخاص به وكراماتهم وحرياتهم ، بينما هي تعلم الناس كيف ينظفون مشاعرهم وضمائرهم ، في أسلوب مؤثر عجيب . .

وتبدأ – على نسق السورة – بذلك النداء الحبيب : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ . . ثم تأمرهم باجتناب كثير من الظن ، فلا يتركوا نفوسهم نهباً لكل ما يهجس فيها حول الآخرين من ظنون وشبهات وشكوك . وتعلل هذا الأمر : ﴿ إن بعض الظن إثم ﴾ . وما دام النهي منصباً على أكثر الظن ، والقاعدة أن بعض الظن إثم ، فإن إيحاء هذا التعبير للضمير هو

اجتناب الظن السيِّئ أصلاً ، لأنه لا يدري أي ظنونه تكون إثماً !

بهذا يطهر القرآن الضمير من داخله أن يتلوث بالظن السيِّئ ، فيقع في الإثم ؛ ويدعه نقياً بريئاً من الهواجس والشكوك ، أبيض يكن لإخوانه المودة التي يخدشها ظن السوء ؛ والبراءة التي لا تلوثها الريب والشكوك ، والطمأنينة التي لا يعكرها القلق والتوقع . وما أروح الحياة في مجتمع بريء من الظنون !

ولكن الأمر لا يقف في الإسلام عند هذا الأفق الكريم الوضيء في تربية الضمائر والقلوب . بل إن هذا النص يقيم مبدأ في التعامل ، وسياجاً حول حقوق الناس الذين يعيشون في مجتمعه النظيف ، فلا يؤخذون بظنه ، ولا يحاكمون بريبة ؛ ولا يصبح الظن أساساً لمحاكمتهم . بل لا يصلح أن يكون أساساً للتحقيق معهم ، ولا للتحقيق حولهم . والرسول صلى الله عليه وسلم – يقول : " إذا ظننت فلا تحقق " . ومعنى هذا أن يظل الناس أبرياء ، مصونة حقوقهم ، وحرياتهم ، واعتبارهم . حتى يتبين بوضوح أنهم ارتكبوا ما يؤاخذون عليه . ولا يكفي الظن بهم لتعقبهم بغية التحقق من هذا الظن الذي دار حولهم !

(363/719)

فأي مدى من صيانة كرامة الناس وحرياتهم وحقوقهم واعتبارهم ينتهي إليه هذا النص !

وأين أقصى ما تتعاجب به أحسن البلاد ديمقراطية وحرية وصيانة لحقوق الإنسان فيها من هذا المدى الذي هتف به القرآن الكريم للذين آمنوا ، وقام عليه المجتمع الإسلامي فعلاً ، وحققه في واقع الحياة ، بعد أن حققه في واقع الضمير ؟

ثم يستطرد في ضمانات المجتمع إلى مبدأ آخر يتصل باجتناب الظنون :

﴿ ولا تجسسوا ﴾ .

.

والتجسس قد يكون هو الحركة التالية للظن ؛ وقد يكون حركة ابتدائية لكشف العورات ، والاطلاع على السوءات .

والقرآن يقاوم هذا العمل الدنيء من الناحية الأخلاقية ، لتطهير القلب من مثل هذا الاتجاه اللئيم لتتبع عورات الآخرين وكشف سوآتهم . وتمشياً مع أهدافه في نظافة الأخلاق والقلوب .

ولكن الأمر أبعد من هذا أثراً . فهو مبدأ من مبادئ الإسلام الرئيسية في نظامه الاجتماعي ، وفي إجراءاته التشريعية والتنفيذية .

إن للناس حرياتهم وحرماتهم وكراماتهم التي لا يجوز أن تنتهك في صورة من الصور ، ولا أن تمس بحال من الأحوال .

ففي المجتمع الإسلامي الرفيع الكريم يعيش الناس آمنين على أنفسهم ، آمنين على بيوتهم ، آمنين على أسرارهم ، آمنين على عوراتهم . ولا يوجد مبرر – مهما يكن – لانتهاك حرمات الأنفس والبيوت والأسرار والعورات . حتى ذريعة تتبع الجريمة وتحقيقها لا تصلح في النظام الإسلامي ذريعة للتجسس على الناس . فالناس على ظواهرهم ، وليس لأحد أن يتعقب بواطنهم . وليس لأحد أن يأخذهم إلا بما يظهر منهم من مخالفات وجرائم . وليس لأحد أن يظن أو يتوقع ، أو حتى يعرف أنهم يزاولون في الخفاء مخالفة ما ، فيتجسس عليهم ليضبطهم ! وكل ما له عليهم أن يأخذهم بالجريمة عند وقوعها وانكشافها ، مع الضمانات الأخرى التي ينص عليها بالنسبة لكل جريمة .

(364/719)

قال أبو داود : حدثنا أبو بكر ابن أبي شيبة ، قال : حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن زيد بن وهب . قال : أتى ابن مسعود ، فقيل له : هذا فلان تقطر لحيته خمراً . فقال عبد الله : إنا قد نهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به .

وعن مجاهد : لا تجسسوا ، خذوا بما ظهر لكم ، ودعوا ما ستر الله .

وروى الإمام أحمد – بإسناده – عن دجين كاتب عقبة . قال : قلت لعقبة : إن لنا جيراناً

يشربون الخمر ، وأنا داع لهم الشرط ، فيأخذونهم . قال : لا تفعل ولكن عظهم وتهددهم . قال : ففعل فلم ينتهوا . قال : فجاءه دجين فقال : إني قد نهيتهم فلم ينتهوا . وإني داع لهم الشرط فتأخذهم . فقال له عقبة : ويحك ! لا تفعل ، فإني سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : " من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موءودة من قبرها "

وقال سفيان الثوري ، عن راشد بن سعد ، عن معاوية بن أبي سفيان ، قال : سمعت النبي – صلى الله عليه وسلم يقول : " إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم " فقال أبو الدرداء – رضي الله عنه – كلمة سمعها معاوية – رضي الله عنه – من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفعه الله تعالى بها .

فهكذا أخذ النص طريقه في النظام العملي للمجتمع الإسلامي ! ولم يعد مجرد تهذيب للضمير وتنظيف للقلب ، بل صار سياجاً حول حرمات الناس وحقوقهم وحرياتهم ، فلا تمس من قريب أو بعيد ، تحت أي ذريعة أو ستار .

فأين هذا المدى البعيد ؟ وأين هذا الأفق السامق ؟ وأين ما يتعاجب به أشد الأمم ديمقراطية وحرية وحفظاً لحقوق الإنسان بعد ألف وأربع مائة عام ؟

بعد ذلك يجيء النهي عن الغيبة في تعبير عجيب ، يبدعه القرآن إبداعاً :

﴿ ولا يغتب بعضكم بعضاً . أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً ؟ فكرهتموه ﴾ . .

لا يغتب بعضكم بعضاً . ثم يعرض مشهداً تتأذى له أشد النفوس كثافة وأقل الأرواح حساسية . مشهد الأخ يأكل لحم أخيه . . ميتاً . . ! ثم يبادر فيعلن عنهم أنهم كرهوا هذا الفعل المثير للاشمئزاز ، وأنهم إذن كرهوا الاغتياب !

ثم يعقب على كل ما نهاهم عنه في الآية من ظن وتجسس وغيبة باستجاشة شعور التقوى ، والتلويح لمن اقترف من هذا شيئاً أن يبادر بالتوبة تطلعاً للرحمة :

﴿ واتقوا الله إن الله تواب رحيم ﴾ . .

ويسري هذا النص في حياة الجماعة المسلمة فيتحول إلى سياج حول كرامة الناس ، وإلى أدب عميق في النفوس والقلوب . ويتشدد فيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ متمشياً مع الأسلوب القرآني العجيب في إثارة الاشمئزاز والفزع من شبح الغيبة البغيض .

وفي حديث رواه أبو داود : حدثنا القعنبي ، حدثنا عبد العزيز بن محمد ، عن العلاء ، عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : قيل : " يا رسول الله ، ما الغيبة ؟ قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " ذكرك أخاك بما يكره " . قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال – صلى الله عيه وسلم – : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته " . ورواه الترمذي وصححه .

وقال أبو داود : حدثنا مسدد ، حدثنا يحيى ، عن سفيان ، حدثني علي بن الأقمر عن

أبي حذيفة ، " عن عائشة – رضي الله عنها – قالت : قلت للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : حسبك من صفية كذا وكذا (قال عن مسدد تعني قصيرة) فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته " . قالت : وحكيت له إنساناً . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ما أحب أني حكيت إنساناً وأن لي كذا وكذا " .

وروى أبو داود بإسناده عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم . قلت : من هؤلاء يا جبرائيل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم " .

(366/719)

ولما اعترف ماعز بالزنا هو والغامدية ، ورجمهما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد إقرارهما متطوعين وإلحاحهما عليه في تطهيرهما ، سمع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجلين يقول أحدهما لصاحبه : ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب ! ثم سار النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى مر بجيفة حمار ، فقال :

" أين فلان وفلان ؟ انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار " قالا : غفر الله لك يا رسول الله ! وهل يؤكل هذا ؟ قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " فما نلتما من أخيكما آنفاً أشد أكلاً منه .

والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها " .

وبمثل هذا العلاج الثابت المطرد تطهر المجتمع الإسلامي وارتفع ، وانتهى إلى ما صار إليه : حلماً يمشي على الأرض ، ومثلاً يتحقق في واقع التاريخ .

وبعد هذه النداءات المتكررة للذين آمنوا ؛ وأخذهم إلى ذلك الأفق السامي الوضيء من الآداب النفسية والاجتماعية ؛ وإقامة تلك السياجات القوية من الضمانات حول كرامتهم وحريتهم وحرماتهم ، وضمان هذا كله بتلك الحساسية التي يثيرها في أرواحهم ، بالتطلع إلى الله وتقواه . .

بعد هذه المدارج إلى ذلك الأفق السامق ، يهتف بالإنسانية جميعها على اختلاف أجناسها وألوانها ، ليردها إلى أصل واحد ، وإلى ميزان واحد ، هو الذي تقوم به تلك الجماعة المختارة الصاعدة إلى ذلك الأفق السامق :

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبآئل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . إن الله عليم خبير ﴾ . .

يا أيها الناس . يا أيها المختلفون أجناساً وألواناً ، المتفرقون شعوباً وقبائل . إنكم من أصل واحد . فلا تختلفوا ولا تتفرقوا ولا تتخاصموا ولا تذهبوا بدداً .

يا أيها الناس . والذي يناديكم هذا النداء هو الذي خلقكم . . من ذكر وأنثى . . وهو يطلعكم على الغاية من جعلكم شعوباً وقبائل . إنها ليست التناحر والخصام . إنما هي التعارف والوئام . فأما اختلاف الألسنة والألوان ، واختلاف الطباع والأخلاق ، واختلاف المواهب والاستعدادات ، فتنوع لا يقتضي النزاع والشقاق ، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات . وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله . إنما هنالك ميزان واحد تتحدد به القيم ، ويعرف به فضل الناس : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ . . والكريم حقاً هو الكريم عند الله . وهو يزنكم عن علم وعن خبرة بالقيم والموازين : ﴿ إن الله عليم خبير ﴾ . . وهكذا تسقط جميع الفوارق ، وتسقط جميع القيم ، ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة ، وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر ، وإلى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر في الميزان .

وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض ؛ وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس . ويظهر سبب ضخم واضح للألفة والتعاون : ألوهية الله للجميع ، وخلقهم من أصل واحد . كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته : لواء التقوى في ظل الله .

وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس ، والعصبية

للأرض ، والعصبية للقبيلة ، والعصبية للبيت . وكلها من الجاهلية وإليها ، تتزيا بشتى الأزياء ، وتسمى بشتى الأسماء . وكلها جاهلية عارية من الإسلام !

وقد حارب الإسلام هذه العصبية الجاهلية في كل صورها وأشكالها ، ليقيم نظامه الإنساني العالمي في ظل راية واحدة : راية الله . . لا راية الوطنية . ولا راية القومية . ولا راية البيت . ولا راية الجنس . فكلها رايات زائفة لا يعرفها الإسلام .

(368/719)

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب . ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم ، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان " .

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن العصبية الجاهلية : " دعوها فإنها منتنة " .

وهذه هي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي . المجتمع الإنساني العالمي ، الذي تحاول البشرية في خيالها المحلق أن تحقق لوناً من ألوانه فتخفق ، لأنها لا تسلك إليه الطريق الواحد الواصل المستقيم . . الطريق إلى الله . . ولأنها لا تقف تحت الراية الواحدة الجمعة . . راية الله . .

وفي ختام السورة تأتي المناسبة لبيان حقيقة الإيمان وقيمته ، في الرد على الأعراب الذين

قالوا : " آمنا " وهم لا يدركون حقيقة الإيمان . والذين منوا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنهم أسلموا وهم لا يقدرون منة الله على عباده بالإيمان :

﴿ قالت الأعراب : آمنا . قل : لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا . ولما يدخل الإيمان في قلوبكم . وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً ، إن الله غفور رحيم . إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون . قل : أتعلمون الله بدينكم ؟ والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ، والله بكل شيء عليم . يمنون عليك أن أسلموا . قل : لا تمنوا عليَّ إسلامكم ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين . إن الله يعلم غيب السماوات والأرض ، والله بصير بما تعملون ﴾ . .

(369/719)

قيل : إنها نزلت في أعراب بني أسد . قالوا : آمنا . أول ما دخلوا في الإسلام . ومنوا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالوا : يا رسول الله أسلمنا وقاتلتك العرب ولم نقاتلك . فأراد الله أن يعلمهم حقيقة ما هو قائم في نفوسهم وهم يقولون هذا القول . وأنهم دخلوا في الإسلام استسلاماً ، ولم تصل قلوبهم بعد إلى مرتبة الإيمان . فدل بهذا على أن حقيقة

الإيمان لم تستقر في قلوبهم . ولم تشربها أرواحهم : ﴿ قل : لم تؤمنوا . ولكن قولوا : أسلمنا . ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ . .

ومع هذا فإن كرم الله اقتضى أن يجزيهم على كل عمل صالح يصدر منهم لا ينقصهم منه شيئاً . فهذا الإسلام الظاهر الذي لم يخالط القلب فيستحيل إيماناً واثقاً مطمئناً .

هذا الإسلام يكفي لتحسب لهم أعمالهم الصالحة فلا تضيع كما تضيع أعمال الكفار . ولا ينقص من أجرها شيء من عند الله ما بقوا على الطاعة والإستسلام : ﴿ وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً ﴾ . ذلك أن الله أقرب إلى المغفرة والرحمة ، فيقبل من العبد أول خطوة ، ويرضى من الطاعة والتسليم ، إلى أن يستشعر قلبه الإيمان والطمأنينة : ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ . .

ثم بين لهم حقيقة الإيمان :

﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا . وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون ﴾ .

(370/719)

فالإيمان تصديق القلب بالله وبرسوله . التصديق الذي لا يرد عليه شك ولا ارتياب . التصديق المطمئن الثابت المستيقن الذي لا يتزعزع ولا يضطرب ، ولا تهجس فيه الهواجس ، ولا يتلجلج فيه القلب والشعور . والذي ينبثق منه الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله . فالقلب متى تذوق حلاوة هذا الإيمان واطمأن إليه وثبت عليه ، لا بد مندفع لتحقيق حقيقته في خارج القلب . في واقع الحياة . في دنيا الناس . يريد أن يوحد بين ما يستشعره في باطنه من حقيقة الإيمان ، وما يحيط به في ظاهره من مجريات الأمور وواقع الحياة . ولا يطيق الصبر على المفارقة بين الصورة الإيمانية التي في حسه ، والصورة الواقعية من حوله . لأن هذه المفارقة تؤذيه وتصدمه في كل لحظة . ومن هنا هذا الانطلاق إلى الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس . فهو انطلاق ذاتي من نفس المؤمن . يريد به أن يحقق الصورة الوضيئة التي في قلبه ، ليراها ممثلة في واقع الحياة والناس . والخصومة بين المؤمن وبين الحياة الجاهلية من حوله خصومة ذاتية ناشئة من عدم استطاعته حياة مزدوجة بين تصوره الإيماني ، وواقعه العملي . وعدم استطاعته كذلك التنازل عن تصوره الإيماني الكامل الجميل المستقيم في سبيل واقعه العملي الناقص الشائن المنحرف . فلا بد من حرب بينه وبين الجاهلية من حوله ، حتى تنثني هذه الجاهلية إلى التصور الإيماني والحياة الإيمانية .

﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ . . الصادقون في عقيدتهم . الصادقون حين يقولون : إنهم

مؤمنون . فإذا لم تتحقق تلك المشاعر في القلب ، ولم تتحقق آثارها في واقع الحياة ، فالإيمان لا يتحقق . والصدق في العقيدة وفي ادعائها لا يكون .

(371/719)

ونقف قليلاً أمام هذا الاحتراس المعترض في الآية : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله – ثم لم يرتابوا – ﴾ . . إنه ليس مجرد عبارة . إنما هو لمس لتجربة شعورية واقعية . وعلاج لحالة تقوم في النفس . حتى بعد إيمانها . . ﴿ ثم لم يرتابوا ﴾ وشبيه بها الاحتراس في قوله تعالى . . ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله . . ثم استقاموا . . ﴾ فعدم الارتياب . والاستقامة على قولة : ربنا الله . تشير إلى ما قد يعتور النفس المؤمنة – تحت تأثير التجارب القاسية ، والابتلاءات الشديدة – من ارتياب ومن اضطراب .

وإن النفس المؤمنة لتصطدم في الحياة بشدائد تزلزل ، ونوازل تزعزع . والتي تثبت فلا تضطرب ، وتثق فلا ترتاب ، وتظل مستقيمة موصولة هي التي تستحق هذه الدرجة عند الله .

والتعبير على هذا النحو ينبه القلوب المؤمنة إلى مزالق الطريق ، وأخطار الرحلة ، لتعزم أمرها ، وتحتسب ، وتستقيم ، ولا ترتاب عندما يدلهم الأفق ، ويظلم الجو ، وتناوحها

العواصف والرياح !

ثم يستطرد مع الأعراب يعلمهم أن الله أعلم بقلوبهم وما فيها ؛ وأنه هو يخبرهم بما فيها ولا يتلقى منهم العلم عنها :

﴿ قل : أتُعلِّمون الله بدينكم ؟ والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ، والله بكل شيء عليم ﴾ . .

والإنسان يدعي العلم ، وهو لا يعلم نفسه ، ولا ما يستقر فيها من مشاعر ، ولا يدرك حقيقة نفسه ولا حقيقة مشاعره ؛ فالعقل نفسه لا يعرف كيف يعمل ، لأنه لا يملك مراقبة نفسه في أثناء عمله . وحين يراقب نفسه يكف عن عمله الطبيعي ، فلا يبقى هنالك ما يراقبه ! وحين يعمل عمله الطبيعي لا يملك أن يشغل في الوقت ذاته بالمراقبة ! ومن ثم فهو عاجز عن معرفة خاصة ذاته وعن معرفة طريقة عمله ! وهو هو الأداة التي يتطاول بها الإنسان !

﴿ والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ﴾ . . علماً حقيقياً . لا بظواهرها وآثارها . ولكن بحقائقها وماهياتها . وعلماً شاملاً محيطاً غير محدود ولا موقوت .

(372/719)

﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ . . بهذا الإجمال الشامل المحيط .

وبعد بيان حقيقة الإيمان التي لا يدركوها ولم يبلغوها ، يتوجه إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالخطاب عن منّهم عليه بالإسلام ؛ وهذا المن ذاته دليل على أن حقيقة الإيمان لم تكن قد استقرت بعد في تلك القلوب ، وأن حلاوة الإيمان لم تكن بعد قد تذوقتها تلك الأرواح :

﴿ يمنون عليك أن أسلموا . قل : لا تمنوا عليّ إسلامكم . بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان ، إن كنتم صادقين ﴾ . .

لقد منوا بالإسلام ، وزعموا الإيمان . فجاءهم الرد أن لا يمنوا بالإسلام ، وأن المنة لله عليهم لو صدقوا في دعوى الإيمان .

ونحن نقف أمام هذا الرد ، الذي يتضمن حقيقة ضخمة ، يغفل عنها الكثيرون ، وقد يغفل عنها بعض المؤمنين . .

إن الإيمان هو كبرى المنن التي ينعم بها الله على عبد من عباده في الأرض . إنه أكبر من منة الوجود الذي يمنحه الله ابتداء لهذا العبد ؛ وسائر ما يتعلق بالوجود من آلاء الرزق والصحة والحياة والمتاع .

إنما المنة التي تجعل للوجود الإنساني حقيقة مميزة ؛ وتجعل له في نظام الكون دوراً أصيلاً عظيماً .

وأول ما يصنعه الإيمان في الكائن البشري ، حين تستقر حقيقته في قلبه ، هو سعة تصوره لهذا الوجود ، ولارتباطاته هو به ، ولدوره هو فيه ؛ وصحة تصوره للقيم والأشياء والأشخاص والأحداث من حوله ؛ وطمأنينته في رحلته على هذا الكوكب الأرضي حتى يلقى الله ، وأنسه بكل ما في الوجود حوله ، وأنسه بالله خالقه وخالق هذا الوجود ؛ وشعوره بقيمته وكرامته ؛ وإحساسه بأنه يملك أن يقوم بدور مرموق يرضى الله عنه ، ويحقق الخير لهذا الوجود كله بكل ما فيه وكل من فيه .

فمن سعة تصوره أن يخرج من نطاق ذاته المحدودة في الزمان والمكان ، الصغيرة الكيان ، الضئيلة القوة . إلى محيط هذا الوجود كله ، بما فيه من قوى مذخورة ، وأسرار مكنونة ؛ وانطلاق لا تقف دونه حدود ولا قيود في نهاية المطاف .

(373/719)

فهو ، بالقياس إلى جنسه ، فرد من إنسانية ، ترجع إلى أصل واحد . هذا الأصل اكتسب إنسانيته ابتداء من روح الله . من النفخة العلوية التي تصل هذا الكائن الطيني بالنور الإلهي . النور الطليق الذي لا تحصره سماء ولا أرض ولا بدء ولا انتهاء . فلا حد له في المكان ، ولا حد له في الزمان . وهذا العنصر الطليق هو الذي جعل من المخلوق البشري هذا

الإنسان . . ويكفي أن يستقر هذا التصور في قلب إنسان ليرفعه في نظر نفسه ، وليكرمه في حسه ، وليشعره بالوضاءة والانطلاق ؛ وقدماه تدبان على الأرض ، وقلبه يرف بأجنحة النور إلى مصدر النور الأول الذي منحه هذا اللون من الحياة .

وهو ، بالقياس إلى الفئة التي ينتسب إليها ، فرد من الأمة المؤمنة . الأمة الواحدة ، الممتدة في شعاب الزمن ، السائرة في موكب كريم ، يقوده نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإخوانهم من النبيين ، صلوات الله عليهم أجمعين . . ويكفي أن يستقر هذا التصور في قلب إنسان ، فيشعر أنه فرع من تلك الشجرة الطيبة الباسقة المتطاولة ، العميقة الجذور ، الممتدة الفروع ، المتصلة بالسماء في عمرها المديد . . يكفي أن يشعر الإنسان هذا الشعور ليجد للحياة طعماً آخر ، وليحس بالحياة إحساساً جديداً ، وليضيف إلى حياته هذه حياة كريمة ، مستمدة من هذا النسب العريق .

(374/719)

ثم يتسع تصوره ويتسع حتى يتجاوز ذاته وأمته وجنسه الإنساني ؛ ويرى هذا الوجود كله . الوجود الصادر عن الله ، الذي عنه صدر ، ومن نفخة روحه صار إنساناً . ويعرفه إيمانه أن هذا الوجود كله كائن حي ، مؤلف من كائنات حية . وإن لكل شيء فيه روحاً ، وأن

لهذا الكون كله روحاً . . وأن أرواح الأشياء ، وروح هذا الكون الكبير ، تتوجه إلى بارئها الأعلى – كما تتوجه روحه هو – بالدعاء والتسبيح ؛ وتستجيب له بالحمد والطاعة ، وتنتهي إليه بالإذعان والاستسلام . فإذا هو كيان هذا الكون ، جزء من كل ، لا ينفصل ولا ينعزل . صادر عن بارئه ، متجه إليه بروحه ، راجع في النهاية إليه . وإذا هو أكبر من ذاته المحدودة . أكبر بقدر تصوره لضخامة هذا الوجود الهائل . وإذا هو مأنوس بكل ما حوله من أرواح . ومأنوس بعد ذلك كله بروح الله التي ترعاه . وعندئذ يشعر أنه يملك أن يتصل بهذا الوجود كله ، وأن يمتد طولاً وعرضاً فيه ؛ وأنه يملك أن يصنع أشياء كثيرة ، وأن يُنشئ أحداثاً ضخمة ، وأن يؤثر بكل شيء ويتأثر .

ثم يملك أن يستمد مباشرة من تلك القوة الكبرى التي برأته وبرأت كل ما في الوجود من قوى وطاقات . القوة الكبرى التي لا تنحسر ولا تضعف ولا تغيب .

ومن هذا التصور الواسع الرحيب يستمد موازين جديدة حقيقية للأشياء والأحداث والأشخاص والقيم والاهتمامات والغايات . ويرى دوره الحقيقي في هذا الوجود ، ومهمته الحقيقية في هذه الحياة . بوصفه قدراً من أقدار الله في الكون ، يوجهه ليحقق به ويحقق فيه ما يشاء . ويمضي في رحلته على هذا الكوكب ، ثابت الخطو ، مكشوف البصيرة ، مأنوس الضمير .

ومن هذه المعرفة لحقيقة الوجود حوله ، ولحقيقة الدور المقسوم له ، ولحقيقة الطاقة المهيأة له للقيام بهذا الدور . من هذه المعرفة يستمد الطمأنينة والسكينة والارتياح لما يجري حوله ، ولما يقع له . فهو يعرف من أين جاء ؟ ولماذا جاء ؟ وإلى أين يذهب ؟ وماذا هو واجد هناك ؟ وقد علم أنه هنا لأمر ، وأن كل ما يقع له مقدر لتمام هذا الأمر . وعلم أن الدنيا مزرعة الآخرة ، وأنه مجزي على الصغيرة والكبيرة ، وأنه لم يخلق عبثاً ، ولن يترك سدى ، ولن يمضي مفرداً . .

ومن هذه المعرفة تختفي مشاعر القلق والشك والحيرة الناشئة عن عدم معرفة المنشأ والمصير ؛ وعدم رؤية المطوي من الطريق ، وعدم الثقة بالحكمة التي تكمن وراء مجيئه وذهابه ، ووراء رحلته في ذلك الطريق .

يختفي شعور كشعور الخيام الذي يعبر عنه بما ترجمته :

لبست ثوب العمر لم أستشر . . . وحرت فيه بين شتى الفكر

وسوف أنضو الثوب عني ولم . . . أدر لماذا جئت أين المقر ؟

فالمؤمن يعرف – بقلب مطمئن ، وضمير مستريح ، وروح مستبشرة – أنه يلبس ثوب العمر بقدر الله الذي يصرف الوجود كله تصريف الحكيم الخبير . وأن اليد التي ألبسته إياه أحكم منه وأرحم به ، فلا ضرورة لاستشارته لأنه لم يكن ليشير كما يشير صاحب هذه اليد

العليم البصير . وأنه يلبسه لأداء دور معين في هذا الكون ، يتأثر بكل ما فيه . ويؤثر في كل ما فيه . وأن هذا الدور يتناسق مع جميع الأدوار التي يقوم بها كل كائن من الأشياء والأحياء منذ البدء حتى المصير .

(376/719)

وهو يعلم إذن لماذا جاء ، كما أنه يعرف أين المقر ، ولا يحار بين شتى الفكر ، بل يقطع الرحلة ويؤدي الدور في طمأنينة وثقة وفي يقين . وقد يرتقي في المعرفة الإيمانية ، فيقطع الرحلة ويؤدي الدور في فرح وانطلاق واستبشار ، شاعراً بجمال الهبة وجلال العطية . هبة العمر – أو الثوب – الممنوح له من يد الكريم المنان ، الجميل اللطيف ، الودود الرحيم . وهبة الدور الذي يؤديه – كائناً ما كان من المشقة – لينتهي به إلى ربه في اشتياق حبيب !

ويختفي شعور كالشعور الذي عشته في فترة من فترات الضياع والقلق ، قبل أن أحيا في ظلال القرآن ، وقبل أن يأخذ الله بيدي إلى ظله الكريم .

ذلك الشعور الذي خلعته روحي المتعبة على الكون كله فعبرت عنه أقول :

وقف الكون حائراً أين يمضي ؟ . . . ولماذا وكيف – لو شاء – يمضي ؟

عبث ضائع وجهد غبين . . . ومصير مقنّع ليس يُرضي

فأنا أعرف اليوم – ولله الحمد والمنة – أنه ليس هنالك جهد غبين فكل جهد مجزي . وليس هناك تعب ضائع فكل تعب مثمر . وأن المصير مرض وأنه بين يدي عادل رحيم . وأنا أشعر اليوم – ولله الحمد والمنة – أن الكون لا يقف تلك الوقفة البائسة أبداً ، فروح الكون تؤمن بربها ، وتتجه إليه ، وتسبح بحمده . والكون يمضي وفق ناموسه الذي اختاره الله له ، في طاعة وفي رضى وفي تسليم !

وهذا كسب ضخم في عالم الشعور وعالم التفكير ، كما أنه كسب ضخم في عالم الجسد والأعصاب ، فوق ما هو كسب ضخم في جمال العمل والنشاط والتأثر والتأثير .

والإيمان – بعد قوة دافعة وطاقة مجمعة . فما تكاد حقيقته تستقر في القلب حتى تتحرك لتعمل ، ولتحقق ذاتها في الواقع ، ولتوائم بين صورتها المضمرة وصورتها الظاهرة . كما أنها تستولي على مصادر الحركة في الكائن البشري كلها ، وتدفعها في الطريق . .

(377/719)

" ذلك سر قوة العقيدة في النفس ، وسر قوة النفس بالعقيدة . سر تلك الخوارق التي صنعتها العقيدة في الأرض . وما تزال في كل يوم تصنعها . الخوارق التي تغير وجه الحياة من يوم إلى يوم ، وتدفع بالفرد وتدفع بالجماعة إلى التضحية في العمر الفاني المحدود في سبيل الحياة الكبرى

التي لا تفنى ؛ وتقف بالفرد القليل الضئيل أمام قوى السلطان وقوى المال وقوى الحديد والنار ، فإذا هي كلها تنهزم أمام العقيدة الدافعة في روح فرد مؤمن . وما هو الفرد الفاني المحدود الذي هزم تلك القوى جميعاً ، ولكنها القوة الكبرى الهائلة التي استمدت منها تلك الروح ، والينبوع المتفجر الذي لا ينضب ولا ينحسر ولا يضعف " .

" تلك الخوارق التي تأتي بها العقيدة الدينية في حياة الأفراد وفي حياة الجماعات لا تقوم على خرافة غامضة ، ولا تعتمد على التهاويل والرؤى . إنها تقوم على أسباب مدركة وعلى قواعد ثابتة . إن العقيدة الدينية فكرة كلية تربط الإنسان بقوى الكون الظاهرة والخفية ، وتثبت روحه بالثقة والطمأنينة ، وتمنحه القدرة على مواجهة القوى الزائلة والأوضاع الباطلة ، بقوة اليقين في النصر ، وقوة الثقة في الله . وهي تفسر للفرد علاقاته بما حوله من الناس والأحداث والأشياء ، وتوضح له غايته واتجاهه وطريقه ، وتجمع طاقاته وقواه كلها ، وتدفعها في اتجاه . ومن هنا كذلك قوتها . قوة تجميع القوى والطاقات حول محور واحد ، وتوجيهها في اتجاه واحد ، تمضي إليه مستنيرة الهدف ، في قوة ، وفي ثقة ، وفي يقين " ويضاعف قوتها أنها تمضي مع الخط الثابت الذي يمضي فيه الكون كله ظاهره وخافيه .

(378/719)

وأن كل ما في الكون من قوى مكنونة تتجه اتجاها إيمانيا , فيلتقي بها المؤمن في طريقه , وينضم إلى زحفها الهائل لتغليب الحق على الباطل . مهما يكن للباطل من قوة ظاهرة لها في العيون بريق !

وصدق الله العظيم: (يمنون عليك أن أسلموا . قل: لا تمنوا علي إسلامكم . بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين) . فهي المنة الكبرى التي لا يملكها ولا يهبها إلا الله الكريم , لمن يعلم منه أنه يستحق هذا الفضل العظيم .

وصدق الله العظيم . فماذا فقد من وجد الأنس بتلك الحقائق والمدركات وتلك المعاني والمشاعر ؟ وعاش بها ومعها , وقطع رحلته على هذا الكوكب في ظلالها وعلى هداها ؟ وماذا وجد من فقدها ولو تقلب في أعطاف

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (18)

النعيم . وهو يتمتع ويأكل كما تأكل الأنعام . والأنعام أهدى لأنها تعرف بفطرتها الإيمان ; وتهتدي به إلى بارئها الكريم ؟

(إن الله يعلم غيب السماوات والأرض , والله بصير بما تعملون) . .

والذي يعلم غيب السماوات والأرض يعلم غيب النفوس , ومكنون الضمائر , وحقائق الشعور ويبصر ما يعمله الناس , فلا يستمد علمه بهم من كلمات تقولها ألسنتهم ; ولكن من مشاعر تجيش في قلوبهم , وأعمال تصدق ما يجيش في القلوب . .

وبعد فهذه هي السورة الجليلة , التي تكاد بآياتها الثمانية عشرة تستقل برسم معالم عالم كريم نظيف رفيع سليم . بينما هي تكشف كبريات الحقائق , وتقرر أصولها في أعماق الضمير . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3338 . 3354 ﴾

(379/719)

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

وَمِنْ سُورَةِ الْحُجُرَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَوْلُهُ - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ .

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ قَالَ : أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أَنَّ نَاسًا كَانُوا يَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ فِي كَذَا قَالَ مَعْمَرٌ : وَكَانَ الْحَسَنُ يَقُولُ هُمْ قَوْمٌ ذَبَحُوا قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَمَرَهُمْ أَنْ يُعِيدُوا الذَّبْحَ " قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَرُوِيَ عَنْ مَسْرُوقٍ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ فَأَمَرَتْ الْجَارِيَةَ أَنْ تَسْقِيَهُ فَقَالَ : إنِّي صَائِمٌ ، وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي يُشَكُّ فِيهِ ،

فَقَالَتْ : " قَدْ نُهِيَ عَنْ هَذَا " وَتَلَتْ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ فِي صِيَامٍ وَلَا غَيْرِهِ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : اعْتَبَرَتْ عُمُومَ الْآيَةِ فِي النَّهْيِ عَنْ مُخَالَفَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ .

(380/719)

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ مَعْمَرُ بْنُ الْمُثَنَّى : " لَا تُعَجِّلُوا بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ دُونَهُ " قَالَ أَبُو بَكْرٍ : يُحْتَجُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ فِي امْتِنَاعِ جَوَازِ مُخَالَفَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي تَقْدِيمِ الْفُرُوضِ عَلَى أَوْقَاتِهَا وَتَأْخِيرِهَا عَنْهَا وَفِي تَرْكِهَا ، وَقَدْ يَحْتَجُّ بِهَا مَنْ يُوجِبُ أَفْعَالَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ لِأَنَّ فِي تَرْكِ مَا فَعَلَهُ تَقَدُّمًا بَيْنَ يَدَيْهِ ، كَمَا أَنَّ فِي تَرْكِ أَمْرِهِ تَقَدُّمًا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ كَمَا ظَنُّوا ؛ لِأَنَّ التَّقَدُّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ إنَّمَا هُوَ فِيمَا أَرَادَ مِنَّا فِعْلَهُ فَفَعَلْنَا غَيْرَهُ ، فَأَمَّا مَا لَمْ يَثْبُتْ أَنَّهُ مُرَادٌ مِنْهُ فَلَيْسَ فِي تَرْكِهِ تَقْدِيمٌ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَحْتَجُّ بِهِ نُفَاةُ الْقِيَاسِ أَيْضًا وَيَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى جَهْلِ الْمُحْتَجِّ بِهِ ؛ لِأَنَّ مَا

قَامَتْ دَلَالَتُهُ فَلَيْسَ فِي فِعْلِهِ تَقَدُّمٌ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَقَدْ قَامَتْ دَلَالَةُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ عَلَى وُجُوبِ الْقَوْلِ بِالْقِيَاسِ فِي فُرُوعِ الشَّرْعِ ، فَلَيْسَ فِيهِ إذًا تَقَدُّمٌ بَيْنَ يَدَيْهِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ فِيهِ أَمْرٌ

بِتَعْظِيمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَوْقِيرِهِ ، وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى - : ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ .

(381/719)

وَرُوِيَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ كَانُوا إذَا سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ شَيْءٍ قَالُوا فِيهِ قَبْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَيْضًا لَمَّا كَانَ فِي رَفْعِ الصَّوْتِ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي كَلَامِهِ ضَرْبٌ مِنْ تَرْكِ الْمَهَابَةِ وَالْجُرْأَةِ ، نَهَى اللَّهُ عَنْهُ ؛ إذْ كُنَّا مَأْمُورِينَ بِتَعْظِيمِهِ وَتَوْقِيرِهِ وَتَهْيِيبِهِ وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ زِيَادَةٌ عَلَى رَفْعِ الصَّوْتِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ نَهَى عَنْ أَنْ تَكُونَ مُخَاطَبَتُنَا لَهُ كَمُخَاطَبَةِ بَعْضِنَا لِبَعْضٍ ، بَلْ عَلَى ضَرْبٍ مِنْ التَّعْظِيمِ تُخَالِفُ بِهِ مُخَاطَبَاتِ النَّاسِ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا . ﴾

(382/719)

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ وَرُوِيَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ أَتَوْا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَادَوْهُ مِنْ خَارِجِ الْحُجْرَةِ وَقَالُوا : اُخْرُجْ إِلَيْنَا يَا مُحَمَّدُ فَذَمَّهُمْ اللَّهُ – تَعَالَى – بِذَلِكَ وَهَذِهِ الْآيَاتُ ، وَإِنْ كَانَتْ نَازِلَةً فِي تَعْظِيمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِيجَابِ الْفَرْقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأُمَّةِ فِيهِ ، فَإِنَّهُ تَأْدِيبٌ لَنَا فِيمَنْ يَلْزَمُنَا تَعْظِيمُهُ مِنْ وَالِدٍ وَعَالِمٍ وَنَاسِكٍ وَقَائِمٍ بِأَمْرِ الدِّينِ وَذِي سِنٍّ وَصَلَاحٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ ؛ إذْ تَعْظِيمُهُ بِهَذَا الضَّرْبِ مِنْ التَّعْظِيمِ فِي تَرْكِ رَفْعِ الصَّوْتِ عَلَيْهِ وَتَرْكِ الْجَهْرِ عَلَيْهِ وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ مِمَّنْ لَيْسَ فِي مِثْلِ حَالِهِ .

وَفِي النَّهْيِ عَنْ نِدَائِهِ مِنْ وَرَاءِ الْبَابِ وَالْمُخَاطَبَةِ لَهُ بِلَفْظِ الْأَمْرِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ ذَمَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ بِنِدَائِهِمْ إيَّاهُ مِنْ وَرَاءِ الْحُجْرَةِ وَبِمُخَاطَبَتِهِ بِلَفْظِ الْأَمْرِ فِي قَوْلِهِمْ اُخْرُجْ إلَيْنَا .

(383/719)

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ الجرجاني قَالَ : أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ الزُّهْرِيِّ ، أَنَّ ثَابِتَ بْنَ قَيْسٍ قَالَ ﴿ : يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ قَدْ هَلَكْت ، لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ نَهَانَا اللَّهُ أَنْ نَرْفَعَ أَصْوَاتَنَا فَوْقَ صَوْتِك ، وَأَنَا امْرُؤٌ جَهِيرُ الصَّوْتِ ، وَنَهَى اللَّهُ الْمَرْءَ أَنْ يُحِبَّ أَنْ يُحْمَدَ بِمَا لَمْ

يَفْعَلْ وَأَجِدُنِي أُحِبُّ الْحَمْدَ وَنَهَانَا اللَّهُ عَنْ الْخُيَلَاءِ وَأَجِدُنِي أُحِبُّ الْجَمَالَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا ثَابِتُ أَمَا تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ حَمِيدًا وَتُقْتَلَ شَهِيدًا وَتَدْخُلَ الْجَنَّةَ ؟ ﴾ فَعَاشَ حَمِيدًا وَقُتِلَ شَهِيدًا يَوْمَ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ .

بَابُ حُكْمِ خَبَرِ الْفَاسِقِ قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ﴾ الْآيَةَ .

(384/719)

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الرَّبِيعِ قَالَ : أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ قَالَ : ﴿ بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ إِلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ ، فَأَتَاهُمْ الْوَلِيدُ فَخَرَجُوا يَتَلَقَّوْنَهُ فَفَرِقَ وَرَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : ارْتَدُّوا فَبَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ ، فَلَمَّا دَنَا مِنْهُمْ بَعَثَ عُيُونًا لَيْلًا فَإِذَا هُمْ يُؤَذِّنُونَ وَيُصَلُّونَ ، فَأَتَاهُمْ خَالِدٌ فَلَمْ يَرَ مِنْهُمْ إِلَّا طَاعَةً وَخَيْرًا فَرَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ ﴾ قَالَ : وَقَالَ مَعْمَرٌ : فَتَلَا قَتَادَةُ : ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنْ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ قَالَ : فَأَنْتُمْ أَسْخَفُ رَأْيًا وَأَطِيشُ أَحْلَامًا ، فَاتَّهَمَ رِجْلٌ رَأْيَهُ وَانْتَصَحَ كِتَابَ اللَّهِ وَرُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ

قَالَ : " وَاللَّهِ لَئِنْ كَانَتْ نَزَلَتْ فِي رَجُلٍ يَعْنِي قَوْلَهُ : ﴿ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ إِنَّهَا لَمُرْسَلَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا نَسَخَهَا شَيْءٌ " قَالَ أَبُو بَكْرٍ مُقْتَضَى الْآيَةِ إِيجَابُ التَّثَبُّتِ فِي خَبَرِ الْفَاسِقِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْإِقْدَامِ عَلَى قَبُولِهِ ، وَالْعَمَلِ بِهِ إِلَّا بَعْدَ التَّبَيُّنِ وَالْعِلْمِ بِصِحَّةِ مُخْبَرِهِ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ قِرَاءَةَ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى وَجْهَيْنِ : " فَتَثَبَّتُوا " مِنْ التَّثَبُّتِ وَ ، ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴾ ،

(385/719)

كِلْتَاهُمَا يَقْتَضِي النَّهْيَ عَنْ قَبُولِ خَبَرِهِ إِلَّا بَعْدَ الْعِلْمِ بِصِحَّتِهِ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ : " فَتَثَبَّتُوا " فِيهِ أَمْرٌ بِالتَّثَبُّتِ لِئَلَّا يُصِيبَ قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ، فَاقْتَضَى ذَلِكَ النَّهْيَ عَنْ الْإِقْدَامِ إِلَّا بَعْدَ الْعِلْمِ لِئَلَّا يُصِيبَ قَوْمًا بِجَهَالَةٍ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴾ فَإِنَّ التَّبَيُّنَ هُوَ الْعِلْمُ ، فَاقْتَضَى أَنْ لَا يَقْدُمَ بِخَبَرِهِ إِلَّا بَعْدَ الْعِلْمِ ، فَاقْتَضَى ذَلِكَ النَّهْيَ عَنْ قَبُولِ شَهَادَةِ الْفَاسِقِ مُطْلَقًا ؛ إِذْ كَانَ كُلُّ شَهَادَةٍ خَبَرًا ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ أَخْبَارِهِ فَلِذَلِكَ قُلْنَا شَهَادَةُ الْفَاسِقِ غَيْرُ مَقْبُولَةٍ فِي شَيْءٍ مِنْ الْحُقُوقِ ، وَكَذَلِكَ إِخْبَارُهُ فِي الرِّوَايَةِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكُلُّ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنْ إِثْبَاتِ شَرْعٍ أَوْ حُكْمٍ أَوْ إِثْبَاتِ حَقٍّ عَلَى إِنْسَانٍ ، وَاتَّفَقَ أَهْلُ الْعِلْمِ عَلَى جَوَازِ قَبُولِ خَبَرِ الْفَاسِقِ فِي أَشْيَاءَ .

فَمِنْهَا : أُمُورُ الْمُعَامَلَاتِ يُقْبَلُ فِيهَا خَبَرُ الْفَاسِقِ ، وَذَلِكَ نَحْوُ الْهَدِيَّةِ إذَا قَالَ : " إنَّ فُلَانًا أَهْدَى إلَيْك هَذَا " يَجُوزُ لَهُ قَبُولُهُ وَقَبْضُهُ ، وَنَحْوُ قَوْلِهِ : " وَكَّلَنِي فُلَانٌ بِبَيْعِ عَبْدِهِ هَذَا " فَيَجُوزُ شِرَاؤُهُ مِنْهُ ، وَنَحْوُ الْإِذْنِ فِي الدُّخُولِ إذَا قَالَ لَهُ قَائِلٌ : " ادْخُلْ " لَا تُعْتَبَرُ فِيهِ الْعَدَالَةُ ، وَكَذَلِكَ جَمِيعُ أَخْبَارِ الْمُعَامَلَاتِ وَيُقْبَلُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ خَبَرُ الصَّبِيِّ وَالْعَبْدِ وَالذِّمِّيِّ ، ﴿ وَقَبِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَبَرَ بَرِيرَةَ فِيمَا أَهْدَتْ إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ يَتَصَدَّقُ عَلَيْهَا ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هِيَ لَهَا صَدَقَةٌ وَلَنَا هَدِيَّةٌ ، ﴾ فَقَبِلَ قَوْلَهَا فِي أَنَّهُ تُصُدِّقَ بِهِ عَلَيْهَا وَأَنَّ مِلْكَ الْمُتَصَدِّقِ قَدْ زَالَ إلَيْهَا .

وَيُقْبَلُ قَوْلُ الْفَاسِقِ وَشَهَادَتُهُ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ ، وَهُوَ مَنْ كَانَ فِسْقُهُ مِنْ جِهَةِ الدِّينِ بِاعْتِقَادِ مَذْهَبٍ ، وَهُمْ أَهْلُ الْأَهْوَاءِ فُسَّاقٌ وَشَهَادَتُهُمْ مَقْبُولَةٌ ، وَعَلَى ذَلِكَ جَرَى أَمْرُ السَّلَفِ فِي قَبُولِ أَخْبَارِ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ فِي رِوَايَةِ الْأَحَادِيثِ وَشَهَادَتِهِمْ ، وَلَمْ يَكُنْ

فِسْقُهُمْ مِنْ جِهَةِ التَّدَيُّنِ مَانِعًا مِنْ قَبُولِ شَهَادَتِهِمْ ، وَتُقْبَلُ أَيْضًا شَهَادَةُ أَهْلِ الذِّمَّةِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ ، ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِيمَا سَلَفَ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ فَهَذِهِ الْوُجُوهُ الثَّلَاثَةُ يُقْبَلُ فِيهَا خَبَرُ الْفَاسِقِ ، وَهُوَ مُسْتَثْنًى مِنْ جُمْلَةِ قَوْلِهِ تَعَالَى - : ﴿ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ لِدَلَائِلَ قَدْ قَامَتْ عَلَيْهِ ، فَثَبَتَ أَنَّ مُرَادَ الْآيَةِ فِي الشَّهَادَاتِ ، وَإِلْزَامِ الْحُقُوقِ أَوْ إِثْبَاتِ أَحْكَامِ الدِّينِ وَالْفِسْقِ الَّتِي لَيْسَتْ مِنْ جِهَةِ الدِّينِ وَالِاعْتِقَادِ .

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ خَبَرَ الْوَاحِدِ لَا يُوجِبُ الْعِلْمَ ؛ إِذْ لَوْ كَانَ يُوجِبُ الْعِلْمَ بِحَالٍ لَمَا احْتِيجَ فِيهِ إِلَى التَّثَبُّتِ ، وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَحْتَجُّ بِهِ فِي جَوَازِ قَبُولِ خَبَرِ الْوَاحِدِ الْعَدْلِ وَيَجْعَلُ تَخْصِيصَهُ الْفَاسِقَ بِالتَّثَبُّتِ فِي خَبَرِهِ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ التَّثَبُّتَ فِي خَبَرِ الْعَدْلِ غَيْرُ جَائِزٍ وَهَذَا غَلَطٌ ؛ لِأَنَّ تَخْصِيصَ الشَّيْءِ بِالذِّكْرِ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَا عَدَاهُ فَحُكْمُهُ بِخِلَافِهِ .

(388/719)

بَابُ قِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الرَّبِيعِ قَالَ : أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ الْحَسَنِ : أَنَّ قَوْمًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ كَانَ بَيْنَهُمْ تَنَازُعٌ حَتَّى اضْطَرَبُوا بِالنِّعَالِ وَالْأَيْدِي ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ : ﴿ ، وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا

﴾ ، قَالَ مَعْمَرٌ : قَالَ قَتَادَةُ : وَكَانَ رَجُلَانِ بَيْنَهُمَا حَقٌّ تَدَارَآ فِيهِ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا : لَآخُذَنَّهُ عَنْوَةً ؛ لِكَثْرَةِ عَشِيرَتِهِ .

(389/719)

وَقَالَ الْآخَرُ : بَيْنِي وَبَيْنَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَنَازَعَا حَتَّى كَانَ بَيْنَهُمَا ضَرْبٌ بِالنِّعَالِ وَالْأَيْدِي وَرُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالشَّعْبِيِّ قَالَا : كَانَ قِتَالُهُمْ بِالْعِصِيِّ وَالنِّعَالِ وَقَالَ مُجَاهِدٌ هُمْ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ كَانَ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ بِالْعِصِيِّ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَدْ اقْتَضَى ظَاهِرُ الْآيَةِ الْأَمْرَ بِقِتَالِ الْفِئَةِ الْبَاغِيَةِ حَتَّى تَرْجِعَ إلَى أَمْرِ اللَّهِ وَهُوَ عُمُومٌ فِي سَائِرِ ضُرُوبِ الْقِتَالِ ، فَإِنْ فَاءَتْ إلَى الْحَقِّ بِالْقِتَالِ بِالْعِصِيِّ وَالنِّعَالِ لَمْ يُتَجَاوَزْ بِهِ إلَى غَيْرِهِ ، وَإِنْ لَمْ تَفِئْ بِذَلِكَ قُوتِلَتْ بِالسَّيْفِ عَلَى مَا تَضَمَّنَهُ ظَاهِرُ الْآيَةِ وَغَيْرُ جَائِزٍ ؛ لِأَحَدٍ الِاقْتِصَارُ عَلَى الْقِتَالِ بِالْعِصِيِّ دُونَ السِّلَاحِ مَعَ الْإِقَامَةِ عَلَى الْبَغْيِ وَتَرْكِ الرُّجُوعِ إلَى الْحَقِّ ، وَذَلِكَ أَحَدُ ضُرُوبِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَاكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ ﴾ فَأَمَرَ بِإِزَالَةِ الْمُنْكَرِ بِالْيَدِ وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ السِّلَاحِ وَمَا دُونَهُ ، فَظَاهِرُهُ يَقْتَضِي وُجُوبَ إزَالَتِهِ بِأَيِّ شَيْءٍ أَمْكَنَ .

(390/719)

وَذَهَبَ قَوْمٌ مِنْ الْحَشْوِ إلَى أَنَّ قِتَالَ أَهْلِ الْبَغْيِ إنَّمَا يَكُونُ بِالْعِصِيِّ وَالنِّعَالِ وَمَا دُونَ السِّلَاحِ وَأَنَّهُمْ لَا يُقَاتَلُونَ بِالسَّيْفِ ، وَاحْتَجُّوا بِمَا رَوَيْنَا مِنْ سَبَبِ نُزُولِ الْآيَةِ وَقِتَالِ الْقَوْمِ الَّذِينَ تَقَاتَلُوا بِالْعِصِيِّ وَالنِّعَالِ ، وَهَذَا لَا دَلَالَةَ فِيهِ عَلَى مَا ذَكَرُوا ؛ لِأَنَّ الْقَوْمَ تَقَاتَلُوا بِمَا دُونَ السِّلَاحِ ، فَأَمَرَ اللَّهُ – تَعَالَى – بِقِتَالِ الْبَاغِي مِنْهُمَا وَلَمْ يُخَصِّصْ قِتَالَنَا إيَّاهُ بِمَا دُونَ السِّلَاحِ وَكَذَلِكَ نَقُولُ مَتَى ظَهَرَ لَنَا قِتَالٌ مِنْ فِئَةٍ عَلَى وَجْهِ الْبَغْيِ قَابَلْنَاهُ بِالسِّلَاحِ وَبِمَا دُونَهُ حَتَّى تَرْجِعَ إلَى الْحَقِّ ، وَلَيْسَ فِي نُزُولِ الْآيَةِ عَلَى حَالِ قِتَالِ الْبَاغِي لَنَا بِغَيْرِ سِلَاحٍ مَا يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ بِقِتَالِنَا إيَّاهُمْ مَقْصُورًا عَلَى مَا دُونَ السِّلَاحِ مَعَ اقْتِضَاءِ عُمُومِ اللَّفْظِ لِلْقِتَالِ بِسِلَاحٍ وَغَيْرِهِ .

(391/719)

أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَوْ قَالَ : " مَنْ قَاتَلَكُمْ بِالْعِصِيِّ فَقَاتِلُوهُ بِالسِّلَاحِ " لَمْ يَتَنَاقَضْ الْقَوْلُ بِهِ ؟ فَكَذَلِكَ أَمْرُهُ إيَّانَا بِقِتَالِهِمْ ؛ إذْ كَانَ عُمُومُهُ يَقْتَضِي الْقِتَالَ بِسِلَاحٍ وَغَيْرِهِ ، وَجَبَ أَنْ يُجْرَى عَلَى عُمُومِهِ وَأَيْضًا قَاتَلَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ الْفِئَةَ الْبَاغِيَةَ بِالسَّيْفِ وَمَعَهُ مِنْ كُبَرَاءِ الصَّحَابَةِ

وَأَهْلِ بَدْرٍ مَنْ قَدْ عُلِمَ مَكَانُهُمْ ، وَكَانَ مُحِقًّا فِي قِتَالِهِ لَهُمْ لَمْ يُخَالِفْ فِيهِ أَحَدٌ إلَّا الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ الَّتِي قَابَلَتْهُ وَأَتْبَاعُهَا وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَمَّارٍ : ﴿ تَقْتُلُك الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ ﴾ وَهَذَا خَبَرٌ مَقْبُولٌ مِنْ طَرِيقِ التَّوَاتُرِ .

حَتَّى إنَّ مُعَاوِيَةَ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى جَحْدِهِ " لَمَّا قَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ، فَقَالَ : إنَّمَا قَتَلَهُ مَنْ جَاءَ بِهِ فَطَرَحَهُ بَيْنَ أَسِنَّتِنَا رَوَاهُ أَهْلُ الْكُوفَةِ وَأَهْلُ الْبَصْرَةِ وَأَهْلُ الْحِجَازِ وَأَهْلُ الشَّامِ ، وَهُوَ عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ ؛ لِأَنَّهُ

خَبَرٌ عَنْ غَيْبٍ لَا يُعْلَمُ إلَّا مِنْ جِهَةِ عَلَّامِ الْغُيُوبِ .

(392/719)

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي إيجَابِ قِتَالِ الْخَوَارِجِ وَقَتْلِهِمْ أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ مُتَوَاتِرَةٌ ، مِنْهَا حَدِيثُ أَنَسٍ وَأَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ﴿ : سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي اخْتِلَافٌ وَفُرْقَةٌ قَوْمٌ يُحْسِنُونَ الْقَوْلَ وَيُسِيئُونَ الْعَمَلَ يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ لَا يَرْجِعُونَ حَتَّى يَرْتَدَّ عَلَى فُوقِهِ هُمْ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ طُوبَى لِمَنْ قَتَلَهُمْ أَوْ قَتَلُوهُ يَدْعُونَ إلَى كِتَابِ اللَّهِ وَلَيْسُوا مِنْهُ فِي شَيْءٍ مَنْ قَتَلَهُمْ كَانَ أَوْلَى بِاللَّهِ مِنْهُمْ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا سِيمَاهُمْ ؟ قَالَ التَّحْلِيقُ ﴾ .

وَرَوَى الْأَعْمَشُ عَنْ خيثمة عَنْ سُوَيْد بْنِ غَفَلَةَ قَالَ : ﴿ سَمِعْت عَلِيًّا يَقُولُ : إذَا حَدَّثْتُكُمْ بِشَيْءٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَأَنْ أَخِرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُنِي الطَّيْرُ أَحَبُّ إلَيَّ مِنْ أَنْ أَكْذِبَ عَلَيْهِ ، وَإِذَا حَدَّثْتُكُمْ فِيمَا بَيْنَنَا فَإِنَّ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ ، وَإِنِّي سَمِعْته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : يَخْرُجُ قَوْمٌ فِي آخِرِ الزَّمَانِ أَحْدَاثُ الْأَسْنَانِ سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ لَا يُجَاوِزُ إيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ ، فَإِنْ لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ وَلَمْ يَخْتَلِفْ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وُجُوبِ قِتَالِ الْفِئَةِ الْبَاغِيَةِ بِالسَّيْفِ إذَا لَمْ يَرْدَعْهَا غَيْرُهُ .

أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ كُلَّهُمْ رَأَوْا قِتَالَ الْخَوَارِجِ وَلَوْ لَمْ يَرَوْا قِتَالَ الْخَوَارِجِ وَقَعَدُوا عَنْهُمْ لَقَتَلُوهُمْ وَسَبَوْا ذَرَارِيَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ وَاصْطَلَمُوهُمْ ؟ فَإِنْ قِيلَ : قَدْ جَلَسَ عَنْ عَلِيٍّ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُمْ سَعْدٌ وَمُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ وَأُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ وَابْنُ عُمَرَ قِيلَ لَهُ : لَمْ يَقْعُدُوا عَنْهُ ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا قِتَالَ الْفِئَةِ الْبَاغِيَةِ ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قُعُودُهُمْ عَنْهُ ؛ لِأَنَّهُمْ رَأَوْا الْإِمَامَ مُكْتَفِيًا بِمَنْ مَعَهُ مُسْتَغْنِيًا عَنْهُمْ بِأَصْحَابِهِ ، فَاسْتَجَازُوا الْقُعُودَ عَنْهُ لِذَلِكَ أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ قَدْ قَعَدُوا عَنْ قِتَالِ الْخَوَارِجِ لَا عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا قِتَالَهُمْ وَاجِبًا لَكِنَّهُ لَمَّا وَجَدُوا مَنْ كَفَاهُمْ قَتْلَ الْخَوَارِجِ اسْتَغْنَوْا عَنْ مُبَاشَرَةِ قِتَالِهِمْ ؟ فَإِنْ احْتَجُّوا بِمَا رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ سَتَكُونُ فِتْنَةٌ الْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ الْمَاشِي وَالْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ الْقَائِمِ ﴾ قِيلَ لَهُ : إنَّمَا أَرَادَ بِهِ الْفِتْنَةَ الَّتِي يَقْتَتِلُ النَّاسُ فِيهَا عَلَى طَلَبِ الدُّنْيَا وَعَلَى جِهَةِ الْعَصَبِيَّةِ وَالْحَمِيَّةِ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ مَعَ إمَامٍ تَجِبُ طَاعَتُهُ ، فَأَمَّا إذَا ثَبَتَ أَنَّ إحْدَى الْفِئَتَيْنِ بَاغِيَةٌ وَالْأُخْرَى عَادِلَةٌ مَعَ الْإِمَامِ فَإِنَّ قِتَالَ الْبَاغِيَةِ وَاجِبٌ مَعَ الْإِمَامِ وَمَعَ مَنْ قَاتَلَهُمْ مُحْتَسِبًا فِي قِتَالِهِمْ فَإِنْ قَالُوا : ﴿ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ : قَتَلْته وَهُوَ قَدْ قَالَ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ ﴾ إنَّمَا يُرَدِّدُ ذَلِكَ مِرَارًا ، فَوَجَبَ أَنْ لَا يُقَاتَلَ مَنْ قَالَ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَلَا يُقْتَلَ قِيلَ لَهُ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُقَاتِلُونَ وَهُمْ مُشْرِكُونَ حَتَّى يَقُولُوا : لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ ، كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أُمِرْت أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلَّا بِحَقِّهَا ﴾ .

فَكَانُوا إذَا أَعْطَوْا كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ أَجَابُوا إلَى مَا دُعُوا إلَيْهِ مِنْ خَلْعِ الْأَصْنَامِ وَاعْتِقَادِ التَّوْحِيدِ .

وَنَظِيرُ ذَلِكَ أَنْ يَرْجِعَ الْبُغَاةُ إلَى الْحَقِّ فَيَزُولَ عَنْهُمْ الْقِتَالُ ؛ لِأَنَّهُمْ إنَّمَا يُقَاتَلُونَ عَلَى إقَامَتِهِمْ عَلَى قِتَالِ أَهْلِ الْعَدْلِ ، فَمَتَى كَفُّوا عَنْ الْقِتَالِ تُرِكَ قِتَالُهُمْ ، كَمَا يُقَاتَلُ الْمُشْرِكُونَ عَلَى إظْهَارِ الْإِسْلَامِ فَمَتَى أَظْهَرُوهُ زَالَ عَنْهُمْ ، أَلَا تَرَى أَنَّ قُطَّاعَ الطَّرِيقِ وَالْمُحَارِبِينَ يُقَاتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ مَعَ قَوْلِهِمْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ .

بَابُ مَا يُبْدَأُ بِهِ أَهْلُ الْبَغْيِ مَا يُبْدَأُ بِهِ أَهْلُ الْبَغْيِ قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ أَمَرَ اللَّهُ عِنْدَ ظُهُورِ الْقِتَالِ مِنْهُمْ بِالْإِصْلَاحِ بَيْنَهُمَا ، وَهُوَ أَنْ يُدْعَوْا إلَى الصَّلَاحِ وَالْحَقِّ وَمَا يُوجِبُهُ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالرُّجُوعُ عَنْ الْبَغْيِ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ بَغَتْ إحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى ﴾ يَعْنِي - وَاَللَّهُ أَعْلَمُ - : إنْ رَجَعَتْ إحْدَاهُمَا إلَى الْحَقِّ وَأَرَادَتْ الصَّلَاحَ وَأَقَامَتْ الْأُخْرَى عَلَى بَغْيِهَا وَامْتَنَعَتْ مِنْ الرُّجُوعِ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إلَى أَمْرِ اللَّهِ فَأَمَرَ - تَعَالَى - بِالدُّعَاءِ إلَى الْحَقِّ قَبْلَ الْقِتَالِ ، ثُمَّ إنْ أَبَتْ الرُّجُوعَ قُوتِلَتْ .

وَكَذَا فَعَلَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ بَدَأَ بِدُعَاءِ الْفِئَةِ الْبَاغِيَةِ إلَى الْحَقِّ وَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ ، فَلَمَّا أَبَوْا الْقُبُولَ قَاتَلَهُمْ وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ اعْتِقَادَ مَذَاهِبِ أَهْلِ الْبَغْيِ لَا يُوجِبُ قِتَالَهُمْ مَا لَمْ يُقَاتِلُوا ؛ لِأَنَّهُ قَالَ : ﴿ فَإِنْ بَغَتْ إحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ ، فَإِنَّمَا أَمَرَ بِقِتَالِهِمْ إذَا بَغَوْا عَلَى غَيْرِهِمْ بِالْقِتَالِ ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ مَعَ الْخَوَارِجِ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ حِينَ اعْتَزَلُوا عَسْكَرَهُ بَعَثَ إلَيْهِمْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ فَدَعَاهُمْ ، فَلَمَّا أَبَوْا الرُّجُوعَ ذَهَبَ إلَيْهِمْ فَحَاجَّهُمْ فَرَجَعَتْ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ وَأَقَامَتْ طَائِفَةٌ عَلَى أَمْرِهَا ، فَلَمَّا دَخَلُوا الْكُوفَةَ خَطَبَ فَحَكَمَتْ الْخَوَارِجُ مِنْ نَوَاحِي الْمَسْجِدِ وَقَالَتْ : لَا حُكْمَ إلَّا لِلَّهِ فَقَالَ عَلِيٌّ : "كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ ، أَمَا إنَّ لَهُمْ ثَلَاثًا : أَنْ لَا نَمْنَعَهُمْ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يَذْكُرُوا فِيهَا اسْمَهُ ، وَأَنْ لَا نَمْنَعَهُمْ حَقَّهُمْ مِنْ الْفَيْءِ مَا دَامَتْ أَيْدِيهِمْ مَعَ أَيْدِينَا ، وَأَنْ لَا نُقَاتِلَهُمْ حَتَّى يُقَاتِلُونَا .

(397/719)

بَابُ الْأَمْرِ فِيمَا يُؤْخَذُ مِنْ أَمْوَالِ الْبُغَاةِ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ مُحَمَّدٌ فِي الْأَصْلِ : " لَا يَكُونُ غَنِيمَةً وَيُسْتَعَانُ بِكُرَاعِهِمْ وَسِلَاحِهِمْ عَلَى حَرْبِهِمْ ، فَإِذَا

وَضَعَتْ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا رُدَّ الْمَالُ عَلَيْهِمْ وَيُرَدُّ الْكُرَاعُ أَيْضًا عَلَيْهِمْ إذَا لَمْ يَبْقَ مِنْ الْبُغَاةِ أَحَدٌ ، وَمَا اُسْتُهْلِكَ فَلَا شَيْءَ فِيهِ " وَذَكَرَ إبْرَاهِيمُ بْنُ الْجَرَّاحِ عَنْ أَبِي يُوسُفَ قَالَ : " مَا وُجِدَ فِي أَيْدِي أَهْلِ الْبَغْيِ مِنْ كُرَاعٍ أَوْ سِلَاحٍ فَهُوَ فَيْءٌ يُقْسَمُ وَيُخَمَّسُ ، وَإِذَا تَابُوا لَمْ يُؤْخَذُوا بِدَمٍ وَلَا مَالٍ اسْتَهْلَكُوهُ " .

وَقَالَ مَالِكٌ : " مَا اسْتَهْلَكَهُ الْخَوَارِجُ مِنْ دَمٍ أَوْ مَالٍ ثُمَّ تَابُوا لَمْ يُؤْخَذُوا بِهِ ، وَمَا كَانَ قَائِمًا بِعَيْنِهِ رُدَّ " ، وَهُوَ قَوْلُ الْأَوْزَاعِيِّ وَالشَّافِعِيِّ .

وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ : " إذَا قُتِلَ اللُّصُوصُ الْمُحَارِبُونَ فَقُتِلُوا وَأُخِذَ مَا مَعَهُمْ فَهُوَ غَنِيمَةٌ لِمَنْ قَاتَلَهُمْ بَعْدَ إخْرَاجِ الْخُمُسِ إلَّا أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ يُعْلَمُ أَنَّهُمْ سَرَقُوهُ مِنْ النَّاسِ " .

(398/719)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَاخْتَلَفَتْ الرِّوَايَةُ عَنْ عَلِيٍّ - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ - فِي ذَلِكَ ، فَرَوَى فِطْرُ بْنُ خَلِيفَةَ عَنْ مُنْذِرِ بْنِ يَعْلَى عَنْ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ قَالَ قَسَمَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ الْجَمَلِ فَيْأَهُمْ بَيْنَ أَصْحَابِهِ مَا قُوتِلَ بِهِ مِنْ الْكُرَاعِ وَالسِّلَاحِ " فَاحْتَجَّ مَنْ جَعَلَهُ غَنِيمَةً بِهَذَا الْحَدِيثِ ، وَهَذَا لَيْسَ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ غَنِيمَةٌ ؛ لِأَنَّهُ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَسَمَ مَا حَصَلَ فِي يَدِهِ مِنْ كُرَاعٍ أَوْ سِلَاحٍ لِيُقَاتِلُوا بِهِ قَبْلَ أَنْ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا وَلَمْ يُمَلِّكْهُمْ ذَلِكَ عَلَى مَا قَالَ

مُحَمَّدٌ فِي الْأَصْلِ .

وَقَدْ رَوَى عِكْرِمَةُ بْنُ عَمَّارٍ عَنْ أَبِي زُمَيْلٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الدُّوَلِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الْخَوَارِجَ نَقَمُوا عَلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ لَمْ يَسْبِ وَلَمْ يَغْنَمْ ، فَحَاجَّهُمْ بِأَنْ قَالَ لَهُمْ : " أَفَتَسْبُونَ أُمَّكُمْ عَائِشَةَ ثُمَّ تَسْتَحِلُّونَ مِنْهَا مَا تَسْتَحِلُّونَ مِنْ غَيْرِهَا ؟ فَلَئِنْ فَعَلْتُمْ لَقَدْ كَفَرْتُمْ .

" وَرَوَى أَبُو مُعَاوِيَةَ عَنْ الصَّلْتِ بْنِ بهرام عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ : سَأَلْته أَخَمَّسَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَمْوَالَ أَهْلِ الْجَمَلِ ؟ قَالَ : لَا وَقَالَ الزُّهْرِيُّ : " وَقَعَتْ الْفِتْنَةُ وَأَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَوَافِرُونَ ، وَأَجْمَعُوا أَنَّ كُلَّ دَمٍ أُرِيقَ عَلَى وَجْهِ التَّأْوِيلِ أَوْ مَالٍ اُسْتُهْلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّأْوِيلِ فَلَا ضَمَانَ فِيهِ " .

(399/719)

وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا تُغْنَمُ أَمْوَالُهُمْ الَّتِي لَيْسَتْ مَعَهُمْ مِمَّا تَرَكُوهُ فِي دِيَارِهِمْ لَا تُغْنَمْ ، وَإِنْ قُتِلُوا ، كَذَلِكَ مَا مَعَهُمْ مِنْهَا ، أَلَا تَرَى أَنَّ أَهْلَ الْحَرْبِ لَا يُخْتَلَفُ فِيمَا يُغْنَمُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ مَا مَعَهُمْ ، وَمَا تَرَكُوهُ مِنْهَا فِي دِيَارِهِمْ أَنَّ مَا حَصَلَ فِي أَيْدِينَا مِنْهَا مَغْنُومٌ ؟ وَأَنَّهُ لَا خِلَافَ أَنَّهُ لَا تُسْبَى ذَرَارِيُّهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ وَلَا تُمْلَكُ رِقَابُهُمْ ؟ فَكَذَلِكَ لَا تُغْنَمُ أَمْوَالُهُمْ .

فَإِنْ قِيلَ : مُشْرِكُو الْعَرَبِ لَا تُمْلَكُ رِقَابُهُمْ وَتُغْنَمُ أَمْوَالُهُمْ قِيلَ لَهُ : لِأَنَّهُمْ يُقْتَلُونَ إِذَا أُسِرُوا ، وَإِنْ لَمْ يُسْلِمُوا وَتُسْبَى ذَرَارِيُّهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ ، فَلِذَلِكَ غُنِمَتْ أَمْوَالُهُمْ وَالْخَوَارِجُ إِذَا لَمْ تَبْقَ لَهُمْ مَنَعَةٌ لَا يُقْتَلُ أَسْرَاهُمْ وَلَا تُسْبَى ذَرَارِيُّهُمْ بِحَالٍ ، فَكَذَلِكَ لَا تُغْنَمُ أَمْوَالُهُمْ .

(400/719)

بَابُ الْحُكْمِ فِي أَسْرَى أَهْلِ الْبَغْيِ وَجَرْحَاهُمْ رَوَى كَوْثَرُ بْنُ حَكِيمٍ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ يَا ابْنَ أُمِّ عَبْدٍ كَيْفَ حُكْمُ اللَّهِ فِيمَنْ بَغَى مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ؟ قَالَ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : لَا يُجْهَزُ عَلَى جَرِيحِهَا وَلَا يُقْتَلُ أَسِيرُهَا وَلَا يُطْلَبُ هَارِبُهَا ﴾ وَرَوَى عَطَاءُ بْنُ السَّائِبِ عَنْ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ وَعَامِرٍ قَالَا : لَمَّا ظَهَرَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى أَهْلِ الْجَمَلِ قَالَ : " لَا تَتْبَعُوا مُدْبِرًا وَلَا تذففوا عَلَى جَرِيحٍ " ، وَرَوَى شَرِيكٌ عَنْ السُّدِّيِّ عَنْ عَبْدِ خَيْرٍ قَالَ : قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ الْجَمَلِ : " لَا تَقْتُلُوا أَسِيرًا وَلَا تُجْهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ وَمَنْ أَلْقَى السِّلَاحَ فَهُوَ آمِنٌ " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : هَذَا حُكْمُ عَلِيٍّ فِي الْبُغَاةِ ، وَلَا نَعْلَمُ لَهُ مُخَالِفًا مِنْ السَّلَفِ .

(401/719)

وَقَالَ أَصْحَابُنَا : " إذَا لَمْ تَبْقَ لِأَهْلِ الْبَغْيِ فِئَةٌ فَإِنَّهُ لَا يُجْهَزُ عَلَى جَرِيحٍ وَلَا يُقْتَلُ أَسِيرٌ وَلَا يُتْبَعُ مُدْبِرٌ ، فَإِذَا كَانَتْ لَهُمْ فِئَةٌ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ الْأَسِيرُ إنْ رَأَى ذَلِكَ الْإِمَامُ وَيُجْهَزُ عَلَى الْجَرِيحِ وَيُتْبَعُ الْمُدْبِرُ " وَقَوْلُ عَلِيٍّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – مَحْمُولٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ تَبْقَ لَهُمْ فِئَةٌ ؛ لِأَنَّ هَذَا الْقَوْلَ إنَّمَا كَانَ مِنْهُ فِي أَهْلِ الْجَمَلِ ، وَلَمْ تَبْقَ لَهُمْ فِئَةٌ بَعْدَ الْهَزِيمَةِ ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّهُ أَسَرَ ابْنَ بِشْرٍ وَالْحَرْبُ قَائِمَةٌ فَقَتَلَهُ يَوْمَ الْجَمَلِ ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مُرَادَهُ فِي الْأَخْبَارِ الْأُوَلِ إذَا لَمْ تَبْقَ لَهُمْ فِئَةٌ .

بَابٌ فِي قَضَايَا الْبُغَاةِ قَالَ أَبُو يُوسُفَ فِي الْبَرْمَكِيِّ : " لَا يَنْبَغِي لِقَاضِي الْجَمَاعَةِ أَنْ يُجِيزَ كِتَابَ قَاضِي أَهْلِ الْبَغْيِ وَلَا شَهَادَتَهُ وَلَا حُكْمَهُ " قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَكَذَلِكَ قَالَ مُحَمَّدٌ ، وَقَالَ : " لَوْ أَنَّ الْخَوَارِجَ وَلَّوْا قَاضِيًا مِنْهُمْ فَحَكَمَ ثُمَّ رُفِعَ إلَى حَاكِمِ أَهْلِ الْعَدْلِ لَمْ يُمْضِهِ إلَّا أَنْ يُوَافِقَ رَأْيَهُ فَيَسْتَأْنِفَ الْقَضَاءَ فِيهِ " قَالَ : " وَلَوْ وَلَّوْا قَاضِيًا مِنْ أَهْلِ الْعَدْلِ فَقَضَى بِقَضِيَّةٍ أَنْفَذَهَا مَنْ رُفِعَتْ إلَيْهِ كَمَا يُمْضِي قَضَاءَ أَهْلِ الْعَدْلِ " .

وَقَالَ مَالِكٌ فِيمَا حَكَمَ بِهِ أَهْلُ الْبَغْيِ : " تُكْشَفُ أَحْكَامُهُمْ فَمَا كَانَ مِنْهَا مُسْتَقِيمًا أُمْضِيَ "

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : " إذَا غَلَبَ الْخَوَارِجُ عَلَى مَدِينَةٍ فَأَخَذُوا صَدَقَاتِ أَهْلِهَا وَأَقَامُوا عَلَيْهِمْ الْحُدُودَ لَمْ تُعَدْ عَلَيْهِمْ وَلَا يُرَدُّ مِنْ قَضَاءِ قَاضِيهِمْ إلَّا مَا يُرَدُّ مِنْ قَضَاءِ قَاضِي غَيْرِهِمْ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مَأْمُونٍ بِرَأْيِهِ عَلَى اسْتِحْلَالِ دَمٍ أَوْ مَالٍ لَمْ يَنْفُذْ حُكْمُهُ وَلَمْ يُقْبَلْ كِتَابُهُ " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : إذَا قَاتَلُوا وَظَهَرَ بَغْيُهُمْ عَلَى أَهْلِ الْعَدْلِ فَقَدْ وَجَبَ قَتْلُهُمْ وَقِتَالُهُمْ ، فَغَيْرُ جَائِزٍ قَبُولُ شَهَادَةِ مَنْ هَذِهِ سَبِيلُهُ ؛ لِأَنَّ إظْهَارَ الْبَغْيِ وَقِتَالَهُمْ لِأَهْلِ الْعَدْلِ هُوَ فِسْقٌ مِنْ جِهَةِ الْفِعْلِ وَظُهُورُ الْفِسْقِ مِنْ جِهَةِ الْفِعْلِ يَمْنَعُ قَبُولَ الشَّهَادَةِ كَشَارِبِ الْخَمْرِ وَالزَّانِي وَالسَّارِقِ فَإِنْ قِيلَ : فَأَنْتَ تَقْبَلُ شَهَادَتَهُمْ فَهَلَّا أَمْضَيْتَ أَحْكَامَهُمْ ؟ قِيلَ لَهُ : قَدْ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ إنَّهُمْ إنَّمَا تُقْبَلُ شَهَادَتُهُمْ مَا لَمْ يُقَاتِلُوا ، وَلَمْ يَخْرُجُوا عَلَى أَهْلِ الْعَدْلِ فَأَمَّا إذَا قَاتَلُوا فَإِنِّي لَا أَقْبَلُ شَهَادَتَهُمْ فَقَدْ سَوَّى بَيْنَ الْقَضَاءِ وَبَيْنَ الشَّهَادَةِ وَلَمْ يَذْكُرْ فِي ذَلِكَ خِلَافًا بَيْنَ أَصْحَابِنَا ، وَهَذَا سَدِيدٌ ، وَالْعِلَّةُ فِيهِ مَا ذَكَرْنَا .

فَإِنْ قِيلَ فَقَدْ قَالُوا إنَّ الْخَوَارِجَ إذَا ظَهَرُوا

وَأَخَذُوا صَدَقَاتِ الْمَوَاشِي وَالثِّمَارِ أَنَّهُ لَا يُعَادُ عَلَى أَرْبَابِهَا ، فَجَعَلُوا أَخْذَهُمْ بِمَنْزِلَةِ أَخْذِ أَهْلِ الْعَدْلِ قِيلَ لَهُ : إنَّ الزَّكَاةَ لَا تَسْقُطُ عَنْهُمْ بِأَخْذِ هَؤُلَاءِ ؛ لِأَنَّهُمْ قَالُوا : إنَّ عَلَى أَرْبَابِ الْأَمْوَالِ إعَادَتَهَا فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ - تَعَالَى - وَإِنَّمَا أَسْقَطُوا بِهِ حَقَّ الْإِمَامِ فِي الْأَخْذِ ؛ لِأَنَّ حَقَّ الْإِمَامِ إنَّمَا يَثْبُتُ فِي الْأَخْذِ ؛ لِأَجْلِ حِمَايَتِهِ أَهْلَ الْعَدْلِ ، فَإِذَا لَمْ يَحْمِهِمْ مِنْ الْبُغَاةِ لَمْ يَثْبُتْ حَقُّهُ فِي الْأَخْذِ ، وَكَانَ مَا أَخَذَهُ الْبُغَاةُ بِمَنْزِلَةِ أَخْذِهِ فِي بَابِ سُقُوطِ حَقِّهِ فِي الْأَخْذِ . أَلَا تَرَى أَنَّ أَصْحَابَنَا قَالُوا لَوْ مَرَّ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْعَدْلِ عَلَى عَاشِرِ أَهْلِ الْبَغْيِ بِمَالٍ فَعَشَرَهُ أَنَّهُ لَا يَحْتَسِبُ لَهُ الْإِمَامُ بِذَلِكَ ، وَيَأْخُذُ مِنْهُ الْعُشْرَ إذَا مَرَّ بِهِ عَلَى عَاشِرِ أَهْلِ الْعَدْلِ ؟ فَعَلِمْت أَنَّ الْمَعْنَى فِي سُقُوطِ حَقِّ الْإِمَامِ فِي الْأَخْذِ لَا عَلَى مَعْنَى أَنَّهُمْ جَعَلُوا حُكْمَهُمْ كَأَحْكَامِ أَهْلِ الْعَدْلِ .

وَإِنَّمَا أَجَازُوا قَضَاءَ قَاضِي الْبُغَاةِ إذَا كَانَ الْقَاضِي مِنْ أَهْلِ الْعَدْلِ مِنْ قِبَلِ أَنَّ الَّذِي يُحْتَاجُ إلَيْهِ فِي صِحَّةِ نَفَاذِ الْقَضَاءِ هُوَ أَنْ يَكُونَ الْقَاضِي عَدْلًا فِي نَفْسِهِ وَيُمْكِنُهُ تَنْفِيذُ قَضَائِهِ ، وَحَمْلُ النَّاسِ عَلَيْهِ بِيَدٍ قَوِيَّةٍ سَوَاءٌ كَانَ الْمُوَلِّي لَهُ عَدْلًا أَوْ بَاغِيًا .

(404/719)

أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ بِبَلَدِ سُلْطَانٍ فَاتَّفَقَ أَهْلُهُ عَلَى أَنْ وَلَّوْا رَجُلًا مِنْهُمْ الْقَضَاءَ كَانَ جَائِزًا وَكَانَتْ أَحْكَامُهُ نَافِذَةً عَلَيْهِمْ ؟ فَكَذَلِكَ الَّذِي وَلَّاهُ الْبُغَاةُ الْقَضَاءَ إذَا كَانَ هُوَ فِي نَفْسِهِ عَدْلًا نَفَذَتْ أَحْكَامُهُ " وَيَحْتَجُّ مَنْ يُجِيزُ مُجَاوَزَةَ الْحَدِّ بِالتَّعْزِيرِ بِقَوْلِهِ - تَعَالَى - : ﴿ فَإِنْ بَغَتْ إحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ فَأَمَرَ بِقِتَالِهِمْ إلَى أَنْ يَرْجِعُوا إلَى الْحَقِّ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ

التَّعْزِيرَ يَجِبُ إلَى أَنْ يُعْلَمَ إقْلَاعُهُ عَنْهُ وَتَوْبَتُهُ ؛ إذْ كَانَ التَّعْزِيرُ لِلزَّجْرِ وَالرَّدْعِ وَلَيْسَ لَهُ مِقْدَارٌ مَعْلُومٌ فِي الْعَادَةِ .

كَمَا أَنَّ قِتَالَ الْبُغَاةِ لَمَّا كَانَ لِلرَّدْعِ وَجَبَ فِعْلُهُ أَنْ يَرْتَدِعُوا وَيَنْزَجِرُوا قَالَ أَبُو بَكْرٍ : إنَّمَا اقْتَصَرَ مَنْ لَمْ يَبْلُغْ بِالتَّعْزِيرِ الْحَدَّ عَلَى ذَلِكَ بِمَا رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " ﴿ مَنْ بَلَغَ حَدًّا فِي غَيْرِ حَدٍّ فَهُوَ مِنْ الْمُتَعَدِّينَ . ﴾

وَقَوْلُهُ تَعَالَى - : ﴿ إنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ يَعْنِي أَنَّهُمْ إخْوَةٌ فِي الدِّينِ ، كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ إطْلَاقِ لَفْظِ الْأُخُوَّةِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ جِهَةِ الدِّينِ .

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ رَجَا صَلَاحَ مَا بَيْنَ مُتَعَادِيَيْنِ مِنْ الْمُومِنِينَ أَنَّ عَلَيْهِ الْإِصْلَاحَ بَيْنَهُمَا .

وقَوْله تَعَالَى - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ ﴾ نَهَى اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَنْ عَيْبِ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعَابَ عَلَى وَجْهِ الِاحْتِقَارِ لَهُ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ مَعْنَى السُّخْرِيَةِ وَأَخْبَرَ أَنَّهُ وَإِنْ كَانَ أَرْفَعَ حَالًا مِنْهُ فِي الدُّنْيَا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ الْمَسْخُورُ مِنْهُ خَيْرًا عِنْدَ اللَّهِ .

وقَوْله تَعَالَى - ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةَ " لَا يَطْعَنُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ " قَالَ أَبُو بَكْرٍ : هُوَ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ ؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَكَأَنَّهُ بِقَتْلِهِ أَخَاهُ قَاتِلٌ نَفْسَهُ .

وكَقَوْلِهِ ﴿ فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ يَعْنِي يُسَلِّمُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ وَاللَّمْزُ الْعَيْبُ يُقَالُ : لَمَزَهُ إذَا عَابَهُ وَطَعَنَ عَلَيْهِ قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ قَالَ زِيَادٌ الْأَعْجَمُ : إذَا لَقِيتُك تُبْدِي لِي مُكَاشَرَةً ، وَإِنْ تَغَيَّبْت كُنْت الْهَامِزَ اللمزه مَا كُنْتُ أَخْشَى وَإِنْ كَانَ الزَّمَانُ بِهِ حَيْفٌ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَغْتَابَنِي عَنَزَهْ ، وَإِنَّمَا نَهَى بِذَلِكَ عَنْ عَيْبِ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ ، وَلَيْسَ بِمَعِيبٍ فَإِنَّ مَنْ كَانَ مَعِيبًا فَاجِرًا فَعَيْبُهُ بِمَا فِيهِ جَائِزٌ .

وَرُوِيَ أَنَّهُ لَمَّا مَاتَ الْحُجَّاجُ قَالَ الْحَسَنُ : " اللَّهُمَّ أَنْتَ أَمَتَّهُ فَاقْطَعْ عَنَّا سُنَّتَهُ فَإِنَّهُ أَتَانَا أَخيفش أعيمش يَمُدُّ بِيَدٍ قَصِيرَةِ الْبَنَانِ وَاللَّهِ مَا عَرِقَ فِيهَا عِنَانٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُرَجِّلُ جُمَّتَهُ وَيَخْطُرُ فِي مِشْيَتِهِ وَيَصْعَدُ الْمِنْبَرَ فَيَهْذِرُ حَتَّى تَفُوتَهُ الصَّلَاةُ لَا مِنْ اللَّهِ يَتَّقِي ، وَلَا مِنْ النَّاسِ يَسْتَحْيِي فَوْقَهُ اللَّهُ وَتَحْتَهُ مِائَةُ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ لَا يَقُولُ لَهُ قَائِلٌ الصَّلَاةَ أَيُّهَا الرَّجُلُ " ثُمَّ قَالَ الْحَسَنُ " هَيْهَاتَ وَاللَّهِ حَالَ دُونَ ذَلِكَ السَّيْفُ وَالسَّوْطُ " .

وقَوْله تَعَالَى - ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ رَوَى حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ يُونُسَ عَنْ الْحَسَنِ : ﴿ أَنَّ أَبَا ذَرٍّ كَانَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَجُلٍ مُنَازَعَةٌ فَقَالَ لَهُ أَبُو ذَرٍّ : يَا ابْنَ الْيَهُودِيَّةِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَا تَرَى مَا هَهُنَا مِنْ شَيْءٍ أَحْمَرَ وَلَا أَسْوَدَ وَمَا أَنْتَ أَفْضَلُ مِنْهُ إلَّا بِالتَّقْوَى ﴾ قَالَ : وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ .

وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْله تَعَالَى - : ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ قَالَ " لَا تَقُلْ ؛ لِأَخِيك الْمُسْلِمِ يَا فَاسِقُ يَا مُنَافِقُ " حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ قَالَ : أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ الْحَسَنِ قَالَ : " كَانَ الْيَهُودِيُّ وَالنَّصْرَانِيُّ يُسْلِمُ فَيُقَالُ لَهُ يَا يَهُودِيُّ يَا نَصْرَانِيُّ ، فَنُهُوا عَنْ ذَلِكَ " .

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ قَالَ : حَدَّثَنَا وُهَيْبٌ عَنْ دَاوُد عَنْ عَامِرٍ قَالَ : حَدَّثَنِي أَبُو جَبِيرَةَ بْنُ الضَّحَّاكِ قَالَ : فِينَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي بَنِي سَلِمَةَ : ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ﴾ قَالَ ﴿ : قَدِمَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَيْسَ مِنَّا رَجُلٌ إِلَّا وَلَهُ اسْمَانِ أَوْ ثَلَاثَةٌ ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : يَا فُلَانُ فَيَقُولُونَ : مَهْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ يَغْضَبُ مِنْ هَذَا الِاسْمِ فَأُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ ﴾ .

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّقَبَ الْمَكْرُوهَ هُوَ مَا يَكْرَهُهُ صَاحِبُهُ وَيُفِيدُ ذَمًّا لِلْمَوْصُوفِ بِهِ ؛ لِأَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ السِّبَابِ وَالشَّتِيمَةِ فَأَمَّا الْأَسْمَاءُ وَالْأَوْصَافُ الْجَارِيَةُ غَيْرَ هَذَا الْمَجْرَى فَغَيْرُ مَكْرُوهَةٍ لَمْ يَنْهَ وَلَهَا النَّهْيُ ؛ لِأَنَّهَا بِمَنْزِلَةِ أَسْمَاءِ الْأَشْخَاصِ وَالْأَسْمَاءِ الْمُشْتَقَّةِ مِنْ أَفْعَالٍ .

(408/719)

وَقَدْ رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ خُثَيْمٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ قَالَ : حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ خُثَيْمٍ الْمُحَارِبِيُّ عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ قَالَ ﴿ : كُنْتُ أَنَا وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي

طَالِب رَفِيقَيْنِ فِي غَزْوَةِ الْعَشِيرَةِ مِنْ بَطْنِ يَنْبُعَ ، فَلَمَّا نَزَلَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقَامَ بِهَا شَهْرًا وَصَالَحَ فِيهَا بَنِي مُدْلِجٍ وَحُلَفَاءَهُمْ مِنْ بَنِي ضَمْرَةَ وَوَادَعَهُمْ ، فَقَالَ لِي عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : هَلْ لَكَ أَنْ تَأْتِيَ هَؤُلَاءِ مِنْ بَنِي مُدْلِجٍ يَعْمَلُونَ فِي عِيرٍ لَهُمْ نَنْظُرُ كَيْفَ يَعْمَلُونَ فَأَتَيْنَاهُمْ فَنَظَرْنَا إِلَيْهِمْ سَاعَةً ثُمَّ غَشِيَنَا النَّوْمُ ، فَعَمَدْنَا إِلَى صُورٍ مِنْ النَّخْلِ فِي دَقْعَاءَ مِنْ الْأَرْضِ فَنِمْنَا ، فَمَا أَنْبَهَنَا إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَدَمِهِ ، فَجَلَسْنَا ، وَقَدْ تَتَرَّبْنَا مِنْ تِلْكَ الدَّقْعَاءِ ، فَيَوْمَئِذٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَلِيٍّ : يَا أَبَا تُرَابٍ لِمَا عَلَيْهِ مِنْ التُّرَابِ ، فَأَخْبَرَنَاهُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِنَا فَقَالَ : أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَشْقَى رَجُلَيْنِ ؟ قُلْنَا : مَنْ هُمَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : أُحَيْمِرُ ثَمُودَ الَّذِي عَقَرَ النَّاقَةَ وَالَّذِي يَضْرِبُكَ يَا عَلِيُّ عَلَى هَذَا وَوَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ حَتَّى تُبَلَّ مِنْهُ هَذِهِ وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى لِحْيَتِهِ ﴾ .

(409/719)

وَقَالَ سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ : " مَا كَانَ اسْمٌ أَحَبَّ إِلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يُدْعَى بِهِ مِنْ أَبِي تُرَابٍ " فَمِثْلُ هَذَا لَا يُكْرَهُ ، ؛ إِذْ لَيْسَ فِيهِ ذَمٌّ وَلَا يَكْرَهُهُ صَاحِبُهُ .

وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ قَالَ : حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مَهْدِيٍّ قَالَ : حَدَّثَنَا

شَرِيكٌ عَنْ عَاصِمٍ عَنْ أَنَسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ يَا ذَا الْأُذُنَيْنِ ﴾ ، وَقَدْ ﴿

غَيَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْمَاءَ قَوْمٍ ، فَسَمَّى الْعَاصِ عَبْدَ اللَّهِ وَسَمَّى شِهَابًا هِشَامًا وَسَمَّى حَرْبًا سِلْمًا ، ﴾ وَفِي جَمِيعِ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمَنْهِيَّ مِنْ الْأَلْقَابِ مَا ذَكَرْنَا دُونَ غَيْرِهِ ، وَقَدْ رُوِيَ ﴿ أَنَّ رَجُلًا أَرَادَ أَنْ يَتَزَوَّجَ امْرَأَةً فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : انْظُرْ إلَيْهَا فَإِنَّ فِي أَعْيُنِ الْأَنْصَارِ شَيْئًا ﴾ يَعْنِي الصِّغَرَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ غِيبَةً ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُرِدْ بِهِ ذَمَّ الْمَذْكُورِ وَلَا غِيبَتَهُ .

(410/719)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى - ﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنْ الظَّنِّ إنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إثْمٌ ﴾ اقْتَضَتْ الْآيَةُ النَّهْيَ عَنْ بَعْضِ الظَّنِّ لَا عَنْ جَمِيعِهِ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ كَثِيرًا مِنْ الظَّنِّ ﴾ يَقْتَضِي الْبَعْضَ وَعَقَّبَهُ بِقَوْلِهِ ﴿ إنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إثْمٌ ﴾ فَدَلَّ أَنَّهُ لَمْ يَنْهَ عَنْ جَمِيعِهِ وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى : ﴿ ، وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ فَالظَّنُّ عَلَى أَرْبَعَةِ أَضْرُبٍ : مَحْظُورٍ وَمَأْمُورٍ بِهِ وَمَنْدُوبٍ إلَيْهِ وَمُبَاحٍ فَأَمَّا الظَّنُّ الْمَحْظُورُ فَهُوَ سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ - تَعَالَى - حَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ : حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ الْمُثَنَّى وَمُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ

حَيَّانَ التَّمَّارُ قَالَا : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ : حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ الْأَعْمَشِ عَنْ أَبِي سُفْيَانَ عَنْ جَابِرٍ قَالَ : سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثٍ يَقُولُ : ﴿ لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاَللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴾ .

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ يَحْيَى بْنُ مَنْصُورٍ الهروي قَالَ حَدَّثَنَا سُوَيْدُ بْنُ نَصْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا ابْنُ الْمُبَارَكِ عَنْ هِشَامِ بْنِ الْغَازِي عَنْ حِبَّانَ بْنِ أَبِي النَّضْرِ قَالَ : سَمِعْت وَاثِلَةَ بْنَ الْأَسْقَعِ يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ اللَّهُ : ﴿ أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ .

(411/719)

﴿ وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إسْمَاعِيلَ قَالَ : حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ عَنْ شُتَيْرٍ يَعْنِي ابْنِ نَهَارٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ﴿ حُسْنُ الظَّنِّ مِنْ الْعِبَادَةِ ﴾ وَهُوَ مَرْفُوعٌ فِي حَدِيثِ نَصْرِ بْنِ عَلِيٍّ غَيْرُ مَرْفُوعٍ فِي حَدِيثِ مُوسَى بْنِ إسْمَاعِيلَ .

فَحُسْنُ الظَّنِّ بِاَللَّهِ فَرْضٌ

وَسُوءُ الظَّنِّ بِهِ مَحْظُورٌ مَنْهِيٌّ وَكَذَلِكَ سُوءُ الظَّنِّ بِالْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ ظَاهِرُهُمْ الْعَدَالَةُ مَحْظُورٌ

مَزْجُورٌ عَنْهُ ، وَهُوَ مِنْ الظَّنِّ الْمَحْظُورِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ .

وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمَرْوَزِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ قَالَ : أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ عَلِيِّ بْنِ حُسَيْنٍ عَنْ صَفِيَّةَ قَالَتْ : ﴿ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعْتَكِفًا فَأَتَيْته أَزُورُهُ لَيْلًا فَحَدَّثْته وَقُمْت فَانْقَلَبْت فَقَامَ مَعِي لِيَقْلِبَنِي وَكَانَ مَسْكَنُهَا فِي دَارِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ فَمَرَّ رَجُلَانِ مِنْ الْأَنْصَارِ فَلَمَّا رَأَيَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْرَعَا فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى رِسْلِكُمَا إنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ قَالَا : - سُبْحَانَ اللَّهِ - يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : إنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ الْإِنْسَانِ مُجْرِي الدَّمِ فَخَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا أَوْ قَالَ سُوءًا ﴾ .

(412/719)

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ : حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ الْمُثَنَّى قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ قَالَ : حَدَّثَنَا وُهَيْبٌ قَالَ : حَدَّثَنَا ابْنُ طَاوُس عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ ﴾ فَهَذَا مِنْ الظَّنِّ الْمَحْظُورِ ، وَهُوَ ظَنُّهُ بِالْمُسْلِمِ سُوءًا مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ يُوجِبُهُ ، وَكُلُّ ظَنٍّ فِيمَا لَهُ سَبِيلٌ إلَى مَعْرِفَتِهِ مِمَّا تُعُبِّدَ بِعِلْمِهِ فَهُوَ مَحْظُورٌ ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ مُتَعَبَّدًا تُعُبِّدَ بِعِلْمِهِ وَنُصِبَ لَهُ الدَّلِيلُ عَلَيْهِ فَلَمْ يَتَّبِعْ

الدَّلِيلَ وَحَصَلَ عَلَى الظَّنِّ كَانَ تَارِكًا لِلْمَأْمُورِ بِهِ ؛ وَأَمَّا مَا لَمْ يُنْصَبْ لَهُ عَلَيْهِ دَلِيلٌ يُوَصِّلُهُ إلَى الْعِلْمِ بِهِ ، وَقَدْ تُعُبِّدَ بِتَنْفِيذِ الْحُكْمِ فِيهِ فَالِاقْتِصَارُ عَلَى غَالِبِ الظَّنِّ ، وَإِجْرَاءُ الْحُكْمِ عَلَيْهِ وَاجِبٌ .

(413/719)

وَذَلِكَ نَحْوُ مَا تَعَبَّدَنَا بِهِ مِنْ قَبُولِ شَهَادَةِ الْعُدُولِ وَتَحَرِّي الْقِبْلَةِ وَتَقْوِيمِ الْمُسْتَهْلَكَاتِ وَأُرُوشِ الْجِنَايَاتِ الَّتِي لَمْ يَرِدْ بِمَقَادِيرِهَا تَوْقِيفٌ ، فَهَذِهِ وَمَا كَانَ مِنْ نَظَائِرِهَا قَدْ تَعَبَّدَنَا فِيهَا بِتَنْفِيذِ أَحْكَامِ غَالِبِ الظَّنِّ وَأَمَّا الظَّنُّ الْمُبَاحُ فَالشَّكَّاكُ فِي الصَّلَاةِ أَمَرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالتَّحَرِّي وَالْعَمَلِ عَلَى مَا يَغْلِبُ فِي ظَنِّهِ ، فَلَوْ غَلَبَ ظَنَّهُ كَانَ مُبَاحًا ، وَإِنْ عَدَلَ عَنْهُ إلَى الْبِنَاءِ عَلَى الْيَقِينِ كَانَ جَائِزًا ، وَنَحْوُهُ مَا رُوِيَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ أَنَّهُ قَالَ لِعَائِشَةَ : إنِّي كُنْت نَحَلْتُك جِدَادَ عِشْرِينَ وَسْقًا بِالْعَالِيَةِ ، وَإِنَّك لَمْ تَكُونِي حُزْتِيهِ وَلَا قَبَضْتِيهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ مَالُ الْوَارِثِ ، وَإِنَّمَا هُمَا أَخَوَاكِ وَأُخْتَاكِ ، قَالَ : فَقُلْت : إنَّمَا هِيَ أَسْمَاءُ فَقَالَ : أُلْقِيَ فِي رُوعِي أَنَّ ذَا بَطْنِ خَارِجَةَ جَارِيَةٌ فَاسْتَجَازَ هَذَا الظَّنَّ لِمَا وَقَعَ فِي قَلْبِهِ .

(414/719)

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ : حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ الْفَضْلِ قَالَ : حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ عَمَّارٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعِيدٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إِذَا ظَنَنْتُمْ فَلَا تُحَقِّقُوا ﴾ فَهَذَا مِنْ الظَّنِّ الَّذِي يَعْرِضُ بِقَلْبِ الْإِنْسَانِ فِي أَخِيهِ مِمَّا يُوجِبُ الرِّيبَةَ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُحَقِّقَهُ ، وَأَمَّا الظَّنُّ الْمَنْدُوبُ إلَيْهِ فَهُوَ حُسْنُ الظَّنِّ بِالْأَخِ الْمُسْلِمِ ، هُوَ مَنْدُوبٌ إلَيْهِ مُثَابٌ عَلَيْهِ .

فَإِنْ قِيلَ : إذَا كَانَ سُوءُ الظَّنِّ مَحْظُورًا فَوَاجِبٌ أَنْ يَكُونَ حُسْنُ الظَّنِّ وَاجِبًا قِيلَ لَهُ : لَا يَجِبُ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ بَيْنَهُمَا وَاسِطَةً ، وَهُوَ أَنْ لَا يُظَنَّ بِهِ شَيْئًا فَإِذَا أَحْسَنَ الظَّنَّ بِهِ فَقَدْ فَعَلَ مَنْدُوبًا إلَيْهِ .

قَوْله تَعَالَى - : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد عَنْ الْقَعْنَبِيِّ عَنْ مَالِكٍ عَنْ أَبِي الزِّنَادِ عَنْ الْأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ إيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ وَلَا تَحَسَّسُوا وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ .

وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ عَنْ الْأَعْمَشِ عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ قَالَ : أُتِيَ ابْنُ مَسْعُودٍ فَقِيلَ : هَذَا فُلَانٌ تَقْطُرُ لِحْيَتُهُ خَمْرًا فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : " إنَّا قَدْ نُهِينَا عَنْ التَّجَسُّسِ ، وَلَكِنْ إنْ يَظْهَرْ لَنَا شَيْءٌ نَأْخُذْ بِهِ " .

وَعَنْ مُجَاهِدٍ : " لَا تَجَسَّسُوا خُذُوا بِمَا ظَهَرَ لَكُمْ وَدَعُوا مَا سَتَرَ اللَّهُ " .

فَنَهَى اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ عَنْ سُوءِ الظَّنِّ بِالْمُسْلِمِ الَّذِي ظَاهِرُهُ الْعَدَالَةُ وَالسِّتْرُ ، وَدَلَّ بِهِ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ تَكْذِيبُ مَنْ قَذَفَهُ بِالظَّنِّ ؛ وَقَالَ – تَعَالَى – : ﴿ لَوْلَا ؛ إذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إفْكٌ مُبِينٌ ﴾ ؛ فَإِذَا وَجَبَ تَكْذِيبُ الْقَاذِفِ وَالْأَمْرُ بِحُسْنِ الظَّنِّ فَقَدْ اقْتَضَى ذَلِكَ النَّهْيَ عَنْ تَحْقِيقِ الْمَظْنُونِ ، وَعَنْ إظْهَارِهِ .

وَنَهَى عَنْ التَّجَسُّسِ بَلْ أَمَرَ بِالسَّتْرِ عَلَى أَهْلِ الْمَعَاصِي مَا لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُمْ إصْرَارٌ .

(416/719)

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ فَارِسٍ قَالَ : حَدَّثَنَا الفريابي عَنْ إسْرَائِيلَ عَنْ الْوَلِيدِ : قَالَ أَبُو دَاوُد : وَنَسَبَهُ لَنَا زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ عَنْ حُسَيْنِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ إسْرَائِيلَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ قَالَ الْوَلِيدُ بْنُ أَبِي هِشَامٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ زَائِدٍ

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَا يُبْلِغْنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا ، فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ

(417/719)

إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ لَكُمْ ﴾ وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ قَالَ : حَدَّثَنَا مُسْلِمُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ نَشِيطٍ عَنْ كَعْبِ بْنِ عَلْقَمَةَ عَنْ أَبِي الْهَيْثَمِ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ﴿ : مَنْ رَأَى عَوْرَةً فَسَتَرَهَا كَانَ كَمَنْ أَحْيَا مَوْءُودَةً ﴾ وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ قَالَ : حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا اللَّيْثُ عَنْ عَقِيلٍ عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ﴿ : الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ فَإِنَّ اللَّهَ فِي حَاجَتِهِ وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ وَجَمِيعُ مَا أَمَرَنَا اللَّهُ بِهِ مِنْ ذَلِكَ يُؤَدِّي إِلَى صَلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ ، وَفِي صَلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ صَلَاحُ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ ، قَالَ اللَّهُ – تَعَالَى – : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ .

(418/719)

وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلَاءِ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ عَنْ الْأَعْمَشِ عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ عَنْ سَالِمٍ عَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ ؟ قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ ، وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ الْحَالِقَةُ . ﴾

وقَوْله تَعَالَى - : ﴿ وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴾ ؛ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا الْقَعْنَبِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ الْعَلَاءِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّهُ قِيلَ ﴿ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْغِيبَةُ ؟ قَالَ : ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ ، قِيلَ : أَفَرَأَيْت إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ ؟ قَالَ : إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ ﴾ .

وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ قَالَ : حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْأَقْمَرِ عَنْ أَبِي حُذَيْفَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ ﴿ : قُلْت لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا قَالَ : غَيْرُ مُسَدَّدٍ تَعْنِي قَصِيرَةً فَقَالَ : لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ قَالَتْ : وَحَكَيْتُ لَهُ إِنْسَانًا آخَرَ فَقَالَ : مَا أُحِبُّ أَنِّي حَكَيْت إِنْسَانًا وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا .

(419/719)

﴿ وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ قَالَ : أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ الصَّامِتِ ابْنِ عَمِّ أَبِي هُرَيْرَةَ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ ﴾ : جَاءَ الْأَسْلَمِيُّ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَشَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ أَنَّهُ أَصَابَ امْرَأَةً حَرَامًا ؛ وَذَكَرَ الْحَدِيثَ إِلَى قَوْلِهِ : فَمَا تُرِيدُ بِهَذَا الْقَوْلِ ؟ قَالَ : أُرِيدُ أَنْ تُطَهِّرَنِي فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ ؛ فَسَمِعَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِهِ يَقُولُ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : انْظُرْ إِلَى هَذَا الَّذِي سَتَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَلَمْ تَدَعْهُ نَفْسُهُ حَتَّى رُجِمَ رَجْمَ الْكَلْبِ فَسَكَتَ عَنْهُمَا ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً حَتَّى مَرَّ بِجِيفَةِ حِمَارٍ شَائِلٍ

(420/719)

بِرِجْلِهِ فَقَالَ : أَيْنَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ ؟ فَقَالَا : نَحْنُ ذَانِ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : انْزِلَا فَكُلَا مِنْ جِيفَةِ هَذَا الْحِمَارِ فَقَالَا : يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَنْ يَأْكُلُ مِنْ هَذَا ؟ قَالَ : فَمَا نِلْتُمَا مِنْ عِرْضِ أَخِيكُمَا آنِفًا أَشَدُّ

مِنْ الْأَكْلِ مِنْهُ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ الْآنَ لَفِي أَنْهَارِ الْجَنَّةِ يَنْغَمِسُ فِيهَا ﴿ وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ : حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ مُرَّةَ سَنَةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ وَمِائَتَيْنِ قَالَ : حَدَّثَنَا ابْنُ عَوْنٍ أَنَّ نَاسًا أَتَوْا ابْنَ سِيرِينَ فَقَالُوا : إِنَّا نَنَالُ مِنْك فَاجْعَلْنَا فِي حِلٍّ فَقَالَ : لَا أُحِلُّ لَكُمْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ .

وَرَوَى الرَّبِيعُ بْنُ صُبَيْحٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلْحَسَنِ : يَا أَبَا سَعِيدٍ إِنِّي أَرَى أَمْرًا أَكْرَهُهُ قَالَ : وَمَا ذَاكَ يَا ابْنَ أَخِي ؟ قَالَ : أَرَى أَقْوَامًا يَحْضُرُونَ مَجْلِسَك يَحْفَظُونَ عَلَيْك سَقَطَ كَلَامِك ثُمَّ يَحْكُونَك وَيَعِيبُونَك ، فَقَالَ : يَا ابْنَ أَخِي لَا يَكْبُرَنَّ هَذَا عَلَيْك ، أُخْبِرُك بِمَا هُوَ أَعْجَبُ ؟ قَالَ : وَمَا ذَاكَ يَا عَمِّ ؟ قَالَ : " أَطْمَعْت نَفْسِي فِي جِوَارِ الرَّحْمَنِ وَحُلُولِ الْجِنَانِ وَالنَّجَاةِ مِنْ النِّيرَانِ وَمُرَافَقَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَلَمْ أُطْمِعْ نَفْسِي فِي السَّلَامَةِ مِنْ النَّاسِ ، إِنَّهُ لَوْ سَلِمَ مِنْ النَّاسِ أَحَدٌ لَسَلِمَ مِنْهُمْ خَالِقُهُمْ الَّذِي خَلَقَهُمْ ، فَإِذَا لَمْ يَسْلَمْ خَالِقُهُمْ فَالْمَخْلُوقُ أَجْدَرُ أَنْ لَا يَسْلَمَ " .

(421/719)

حَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ : أَخْبَرَنَا الْحَارِثُ بْنُ أَبِي أُسَامَةَ قَالَ : حَدَّثَنَا دَاوُد بْنُ الْمُجْبِرِ قَالَ : حَدَّثَنَا عنبسة بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ : حَدَّثَنِي خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ اليمامي عَنْ أَنَسٍ

بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ كَفَّارَةُ الِاغْتِيَابِ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لِمَنْ اغْتَبْتَه ﴾ وقَوْله تَعَالَى : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ تَأْكِيدٌ لِتَقْبِيحِ الْغِيبَةِ .

وَالزَّجْرُ عَنْهُ مِنْ وُجُوهٍ .

أَحَدُهَا : أَنَّ لَحْمَ الْإِنْسَانِ مُحَرَّمُ الْأَكْلِ ، فَكَذَلِكَ الْغِيبَةُ .

وَالثَّانِي : أَنَّ النُّفُوسَ تَعَافُ أَكْلَ لَحْمِ الْإِنْسَانِ مِنْ جِهَةِ الطَّبْعِ ، فَلْتَكُنْ الْغِيبَةُ عَنْكُمْ بِمَنْزِلَتِهِ فِي الْكَرَاهَةِ وَلُزُومِ اجْتِنَابِهِ مِنْ جِهَةِ مُوجِبِ الْعَقْلِ ؛ إذْ كَانَتْ دَوَاعِي الْعَقْلِ أَحَقَّ بِالِاتِّبَاعِ مِنْ دَوَاعِي الطَّبْعِ ، وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى ذِكْرِ الْإِنْسَانِ الْمَيِّتِ حَتَّى جَعَلَهُ أَخَاهُ ، وَهَذَا أَبْلَغُ مَا يَكُونُ فِي التَّقْبِيحِ وَالزَّجْرِ ، فَهَذَا كُلُّهُ إنَّمَا هُوَ فِي الْمُسْلِمِ الَّذِي ظَاهِرُهُ الْعَدَالَةُ ، وَلَمْ يَظْهَرْ مِنْهُ مَا يُوجِبُ تَفْسِيقَهُ كَمَا يَجِبُ عَلَيْنَا تَكْذِيبُ قَاذِفِهِ بِذَلِكَ ، فَإِنْ كَانَ الْمَقْذُوفُ بِذَلِكَ مَهْتُوكًا فَاسِقًا فَإِنَّ ذِكْرَ مَا فِيهِ مِنْ الْأَفْعَالِ الْقَبِيحَةِ غَيْرُ مَحْظُورٍ ، كَمَا لَا يَجِبُ عَلَى سَامِعِهِ النَّكِيرُ عَلَى قَائِلِهِ .

وَوَصْفُهُ بِمَا يَكْرَهُهُ عَلَى ضَرْبَيْنِ .

أَحَدُهُمَا : ذِكْرُ أَفْعَالِهِ الْقَبِيحَةِ .

وَالْآخَرُ : وَصْفُ خِلْقَتِهِ ، وَإِنْ كَانَ مُشِينًا عَلَى جِهَةِ الِاحْتِقَارِ لَهُ وَتَصْغِيرِهِ لَا عَلَى جِهَةِ ذَمِّهِ بِهَا وَلَا عَيْبِ صَانِعِهَا عَلَى نَحْوِ مَا رَوَيْنَا عَنْ الْحَسَنِ فِي وَصْفِهِ الْحَجَّاجَ بِقُبْحِ الْخِلْقَةِ ، وَقَدْ يَجُوزُ وَصْفُ قَوْمٍ فِي الْجُمْلَةِ بِبَعْضِ مَا إذَا وُصِفَ بِهِ إنْسَانٌ بِعَيْنِهِ كَانَ غِيبَةً مَحْظُورَةً ، ثُمَّ لَا يَكُونُ غِيبَةً إذَا وُصِفَ بِهِ الْجُمْلَةُ عَلَى وَجْهِ التَّعْرِيفِ .

كَمَا رَوَى أَبُو حَازِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ ﴿ : جَاءَ رَجُلٌ إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إنِّي تَزَوَّجْت امْرَأَةً قَالَ : هَلْ نَظَرْت إلَيْهَا ؟ فَإِنَّ فِي أَعْيُنِ الْأَنْصَارِ شَيْئًا ﴾ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ غِيبَةً ؛ وَجَعَلَ وَصْفَ عَائِشَةَ الرَّجُلَ بِالْقِصَرِ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي قَدَّمْنَا غِيبَةً ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ كَانَ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى وَجْهِ التَّعْرِيفِ لَا عَلَى جِهَةِ الْعَيْبِ ، وَهُوَ كَمَا

رُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا قَوْمًا عِرَاضَ الْوُجُوهِ صِغَارَ الْعُيُونِ فُطْسَ الْأُنُوفِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ ، ﴾ فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ غِيبَةً ، وَإِنَّمَا كَانَ تَعْرِيفًا لَهُمْ صِفَةَ الْقَوْمِ .

قَوْله تَعَالَى - : ﴿ إنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا .

﴾ رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ : " الشُّعُوبُ : النَّسَبُ الْأَبْعَدُ ، وَالْقَبَائِلُ الْأَقْرَبُ ، فَيُقَالُ بَنُو فُلَانٍ وَفُلَانٍ " .

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ بَدَأَ بِذِكْرِ الْخَلْقِ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَهُمَا آدَم وَحَوَّاءُ ، ثُمَّ جَعَلَهُمْ شُعُوبًا يَعْنِي مُتَشَعِّبِينَ مُتَفَرِّقِينَ فِي الْأَنْسَابِ كَالْأُمَمِ الْمُتَفَرِّقَةِ نَحْوِ الْعَرَبِ وَفَارِسَ وَالرُّومِ وَالْهِنْدِ وَنَحْوِهِمْ .

ثُمَّ جَعَلَهُمْ قَبَائِلَ وَهُمْ أَخَصُّ مِنْ الشُّعُوبِ نَحْوُ قَبَائِلِ الْعَرَبِ وَبُيُوتَاتِ الْعَجَمِ لِيَتَعَارَفُوا بِالنِّسْبَةِ ، كَمَا خَالَفَ بَيْنَ خَلْقِهِمْ وَصُوَرِهِمْ ؛ لِيَعْرِفَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَدَلَّ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ لَا فَضْلَ لِبَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْ جِهَةِ النَّسَبِ ؛ إذْ كَانُوا جَمِيعًا مِنْ أَبٍ وَأُمٍّ وَاحِدَةٍ ؛ وَلِأَنَّ الْفَضْلَ لَا يُسْتَحَقُّ بِعَمَلِ غَيْرِهِ ، فَبَيَّنَ اللَّهُ - تَعَالَى - ذَلِكَ لَنَا لِئَلَّا يَفْخَرَ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ بِالنَّسَبِ ، وَأَكَّدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ - تَعَالَى - : ﴿ إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ ، فَأَبَانَ أَنَّ الْفَضِيلَةَ وَالرِّفْعَةَ إنَّمَا تُسْتَحَقُّ بِتَقْوَى اللَّهِ وَطَاعَتِهِ ، وَرُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي خُطْبَتِهِ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ نَخْوَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعَظُّمَهَا بِالْآبَاءِ ، النَّاسُ مِنْ آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ ، أَكْرَمُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ، لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ إلَّا بِالتَّقْوَى ﴾ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَطَاءٌ " إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ لَا أَعْظَمُكُمْ بَيْتًا " .

آخِرُ سُورَةِ الْحُجُرَاتِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الْحُجُرَاتِ

[فِيهَا سَبْعُ آيَاتٍ]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : وَفِيهِ خَمْسَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّ قَوْمًا كَانُوا يَقُولُونَ لَوْ أُنْزِلَ فِي كَذَا وَكَذَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ ؛ قَالَهُ قَتَادَةُ .

الثَّانِي : نُهُوا أَنْ يَتَكَلَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ كَلَامِهِ ؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ .

الثَّالِثُ لَا تَفْتَاتُوا عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فِي أَمْرٍ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يَشَاءُ ؛ قَالَهُ مُجَاهِدٌ .

الرَّابِعُ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ ذَبَحُوا قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ فَأَمَرَهُمْ أَنْ يُعِيدُوا الذَّبْحَ ؛ قَالَهُ الْحَسَنُ .

وَفِي الصَّحِيحِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ فِي يَوْمِ الْأَضْحَى : مَنْ ذَبَحَ قَبْلَ الصَّلَاةِ فَإِنَّمَا هُوَ لَحْمٌ قَدَّمَهُ لِأَهْلِهِ ؛ فَقَامَ أَبُو بُرْدَةَ بْنُ نِيَارٍ خَالُ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هَذَا يَوْمٌ يُشْتَهَى فِيهِ اللَّحْمُ ، وَإِنِّي ذَبَحْتُ قَبْلَ أَنْ أُصَلِّيَ ، وَعِنْدِي عَنَاقُ جَذَعَةٍ خَيْرٌ مِنْ شَاتَيْ لَحْمٍ .

فَقَالَ : تُجْزِئُك ، وَلَنْ تُجْزِئَ عَنْ أَحَدٍ بَعْدَك ﴾ .

الْخَامِسُ لَا تُقَدِّمُوا أَعْمَالَ الطَّاعَةِ قَبْلَ وَقْتِهَا ؛ قَالَهُ الزَّجَّاجُ .

(425/719)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَالَ الْقَاضِي : هَذِهِ الْأَقْوَالُ كُلُّهَا صَحِيحٌ تَدْخُلُ تَحْتَ الْعُمُومِ ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ مَا كَانَ السَّبَبُ الْمُثِيرُ لِلْآيَةِ مِنْهَا ، وَلَعَلَّهَا نَزَلَتْ دُونَ سَبَبٍ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : إذَا قُلْنَا : إنَّهَا نَزَلَتْ فِي تَقْدِيمِ النَّحْرِ عَلَى الصَّلَاةِ وَذَبْحِ الْإِمَامِ سَيَأْتِي ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْكَوْثَرِ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ إذَا قُلْنَا إنَّهَا نَزَلَتْ فِي تَقْدِيمِ الطَّاعَاتِ عَلَى أَوْقَاتِهَا فَهُوَ صَحِيحٌ ؛ لِأَنَّ كُلَّ عِبَادَةٍ مُؤَقَّتَةٍ بِمِيقَاتٍ لَا يَجُوزُ تَقْدِيمُهَا عَلَيْهِ ، كَالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ وَالْحَجِّ ، وَذَلِكَ بَيِّنٌ ، إلَّا أَنَّ الْعُلَمَاءَ اخْتَلَفُوا فِي الزَّكَاةِ لَمَّا كَانَتْ عِبَادَةً مَالِيَّةً ، وَكَانَتْ مَطْلُوبَةً لِمَعْنًى مَفْهُومٍ ؛ وَهُوَ سَدُّ

خُلَّةِ الْفَقِيرِ ، ﴿ وَلِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَعْجَلَ مِنْ الْعَبَّاسِ صَدَقَةَ عَامَيْنِ ﴾ ، وَلِمَا جَاءَ مِنْ جَمْعِ صَدَقَةِ الْفِطْرِ قَبْلَ يَوْمِ الْفِطْرِ حَتَّى تُعْطَى لِمُسْتَحِقِّهَا يَوْمَ الْوُجُوبِ ، وَهُوَ يَوْمُ الْفِطْرِ ؛ فَاقْتَضَى ذَلِكَ كُلُّهُ جَوَازَ تَقْدِيمِهَا .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيُّ : يَجُوزُ تَقْدِيمُهَا لِعَامٍ وَلَا ثْنَيْنِ .

فَإِنْ جَاءَ رَأْسُ الْعَامِ وَالنِّصَابُ بِحَالِهِ وَقَعَتْ مَوْقِعَهَا ، وَإِنْ جَاءَ رَأْسُ الْحَوْلِ وَقَدْ تَغَيَّرَ النِّصَابُ تَبَيَّنَ أَنَّهَا صَدَقَةُ تَطَوُّعٍ .

(426/719)

وَقَالَ أَشْهَبُ : لَا يَجُوزُ تَقْدِيمُهَا عَلَى الْحَوْلِ لَحْظَةً ، كَالصَّلَاةِ ، وَكَأَنَّهُ طَرَدَ الْأَصْلَ فِي الْعِبَادَاتِ ، فَرَأَى أَنَّهَا إحْدَى دَعَائِمِ الْإِسْلَامِ ، فَوَفَّاهَا حَقَّهَا فِي النِّظَامِ وَحُسْنِ التَّرْتِيبِ .

وَرَأَى سَائِرُ عُلَمَائِنَا أَنَّ التَّقْدِيمَ فِيهَا جَائِزٌ ؛ لِأَنَّهُ مَعْفُوٌّ عَنْهُ فِي الشَّرْعِ ، بِخِلَافِ الْكَثِيرِ .

وَمَا قَالَهُ أَشْهَبُ أَصَحُّ ، فَإِنَّ مُفَارَقَةَ الْيَسِيرِ الْكَثِيرَ فِي أُصُولِ الشَّرِيعَةِ صَحِيحٌ ، وَلَكِنَّهُ لِمَعَانٍ تَخْتَصُّ بِالْيَسِيرِ دُونَ الْكَثِيرِ ، فَأَمَّا فِي مَسْأَلَتِنَا فَالْيَوْمُ فِيهِ كَالشَّهْرِ وَالشَّهْرُ كَالسَّنَةِ ، فَإِمَّا تَقْدِيمٌ كُلِّيٌّ كَمَا قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيُّ ، وَإِمَّا حِفْظُ الْعِبَادَةِ وَقَصْرُهَا عَلَى مِيقَاتِهَا كَمَا قَالَ أَشْهَبُ وَغَيْرُهُ ، وَذَلِكَ يَقْوَى فِي النَّظَرِ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ قَوْله تَعَالَى ﴿ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أَصْلٌ فِي تَرْكِ التَّعَرُّضِ لِأَقْوَالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِيجَابِ اتِّبَاعِهِ ، وَالِاقْتِدَاءِ بِهِ ؛ وَلِذَلِكَ ﴿ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَرَضِهِ : مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ .

فَقَالَتْ عَائِشَةُ لِحَفْصَةَ : قُولِي لَهُ : إنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ ، وَأَنَّهُ مَتَى يَقُمْ مَقَامَك لَا يُسْمِعُ النَّاسَ مِنْ الْبُكَاءِ ، فَمُرْ عَلِيًّا فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ .

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إنَّكُنَّ لَأَنْتُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ ، مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ ﴾ .

(427/719)

يَعْنِي بِقَوْلِهِ : صَوَاحِبُ يُوسُفَ الْفِتْنَةَ بِالرَّدِّ عَنْ الْجَائِزِ إلَى غَيْرِ الْجَائِزِ .

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ بَيَانًا شَافِيًا .

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : ﴿

كَادَ الْخَيِّرَانِ أَنْ يَهْلِكَا : أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ ، رَفَعَا أَصْوَاتَهُمَا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَدِمَ عَلَيْهِ رَكْبُ بَنِي تَمِيمٍ ، فَأَشَارَ أَحَدُهُمَا بِالْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ أَخِي بَنِي مُجَاشِعٍ ، وَأَشَارَ الْآخَرُ بِرَجُلٍ آخَرَ قَالَ نَافِعٌ عَنْهُ : لَا أَحْفَظُ اسْمَهُ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعُمَرَ : مَا أَرَدْتَ إِلَّا خِلَافِي .

قَالَ : مَا أَرَدْتُ ذَلِكَ ، فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا فِي ذَلِكَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ ﴿ الْآيَةَ .

قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ : فَمَا كَانَ عُمَرُ يَسْمَعُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ] حَتَّى يَسْتَفْهِمَهُ .

(428/719)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ حُرْمَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَيِّتًا كَحُرْمَتِهِ حَيًّا ، وَكَلَامُهُ الْمَأْثُورُ بَعْدَ مَوْتِهِ فِي الرِّفْعَةِ مِثْلُ كَلَامِهِ الْمَسْمُوعِ مِنْ لَفْظِهِ ؛ فَإِذَا قُرِئَ كَلَامُهُ وَجَبَ عَلَى كُلِّ حَاضِرٍ أَلَّا يَرْفَعَ صَوْتَهُ عَلَيْهِ ، وَلَا يُعْرِضَ عَنْهُ ، كَمَا كَانَ يَلْزَمُهُ ذَلِكَ فِي مَجْلِسِهِ عِنْدَ تَلَفُّظِهِ بِهِ ، وَقَدْ نَبَّهَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى دَوَامِ الْحُرْمَةِ الْمَذْكُورَةِ عَلَى مُرُورِ الْأَزْمِنَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ .

وَكَلَامُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْوَحْيِ وَلَهُ مِنْ الْحُرْمَةِ مِثْلُ مَا لِلْقُرْآنِ إلَّا مَعَانِي مُسْتَثْنَاةٌ ، بَيَانُهَا فِي كُتُبِ الْفِقْهِ ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

الْآيَةُ الثَّالِثَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ .

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : رُوِيَ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ مُصَدِّقًا إلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ ، فَلَمَّا أَبْصَرُوهُ أَقْبَلُوا نَحْوَهُ فَهَابَهُمْ وَرَجَعَ إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُمْ ارْتَدُّوا عَنْ الْإِسْلَامِ .

(429/719)

فَبَعَثَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَتَثَبَّتَ وَلَا يَعْجَلَ ، فَانْطَلَقَ خَالِدٌ حَتَّى أَتَاهُمْ لَيْلًا ، فَبَعَثَ عُيُونَهُ ، فَلَمَّا جَاءُوا أَخْبَرُوا خَالِدًا أَنَّهُمْ مُتَمَسِّكُونَ بِالْإِسْلَامِ ، وَسَمِعُوا آذَانَهُمْ وَصَلَاتَهُمْ ، فَلَمَّا أَتَاهُمْ خَالِدٌ ، وَرَأَى صِحَّةَ مَا ذَكَرُوهُ عَادَ إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴾ .

فَفِي رِوَايَةٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ ﴿ : الْعَجَلَةُ مِنْ الشَّيْطَانِ وَالتَّأَنِّي مِنْ اللَّهِ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ مَنْ ثَبَتَ فِسْقُهُ بَطَلَ قَوْلُهُ فِي الْأَخْبَارِ إجْمَاعًا ؛ لِأَنَّ الْخَبَرَ أَمَانَةٌ ، وَالْفِسْقَ قَرِينَةٌ تُبْطِلُهَا ، فَأَمَّا فِي الْإِنْسَانِ عَلَى نَفْسِهِ فَلَا يَبْطُلُ إجْمَاعًا .

وَأَمَّا فِي الْإِنْسَانِ عَلَى غَيْرِهِ فَإِنَّ الشَّافِعِيَّ قَالَ : لَا يَكُونُ وَلِيًّا فِي النِّكَاحِ .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَمَالِكٌ : يَكُونُ وَلِيًّا ؛ لِأَنَّهُ يَلِي مَالَهَا فَيَلِي بُضْعَهَا ، كَالْعَدْلِ ، وَهُوَ وَإِنْ كَانَ فَاسِقًا فِي دِينِهِ إلَّا أَنَّ غِيرَتَهُ مُوَفَّرَةٌ ، وَبِهَا يَحْمِي الْحَرِيمَ ، وَقَدْ يَبْذُلُ الْمَالَ وَيَصُونُ الْحُرْمَةَ ، فَإِذَا وُلِّيَ الْمَالَ فَالْبُضْعُ أَوْلَى .

(430/719)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ وَمِنْ الْعَجَبِ أَنْ يُجَوِّزَ الشَّافِعِيُّ وَنُظَرَاؤُهُ إمَامَةَ الْفَاسِقِ وَمَنْ لَا يُؤْتَمَنُ عَلَى حَبَّةِ مَالٍ كَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يُؤْتَمَنَ عَلَى قِنْطَارِ دِينٍ ؛ وَهَذَا إنَّمَا كَانَ أَصْلُهُ أَنَّ الْوُلَاةَ [الَّذِينَ كَانُوا يُصَلُّونَ بِالنَّاسِ] لَمَّا فَسَدَتْ أَدْيَانُهُمْ ، وَلَمْ يُمْكِنْ تَرْكُ الصَّلَاةِ وَرَاءَهُمْ ، وَلَا اسْتُطِيعَتْ إزَالَتُهُمْ صَلَّى مَعَهُمْ وَوَرَاءَهُمْ ، كَمَا قَالَ عُثْمَانُ : الصَّلَاةُ أَحْسَنُ مَا يَفْعَلُ النَّاسُ ، فَإِذَا أَحْسَنُوا فَأَحْسِنْ مَعَهُمْ ، وَإِذَا أَسَاءُوا فَاجْتَنِبْ إسَاءَتَهُمْ ؛ ثُمَّ كَانَ مِنْ النَّاسِ مَنْ إذَا صَلَّى مَعَهُمْ تَقِيَّةً أَعَادُوا الصَّلَاةَ لِلَّهِ .

وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَجْعَلُهَا صَلَاتَهُ .

وَبِوُجُوبِ الْإِعَادَةِ أَقُولُ ؛ فَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَتْرُكَ الصَّلَاةَ خَلْفَ مَنْ لَا يَرْضَى مِنْ الْأَئِمَّةِ ، وَلَكِنْ يُعِيدُ سِرًّا فِي نَفْسِهِ ، وَلَا يُؤْثِرُ ذَلِكَ عِنْدَ غَيْرِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ وَأَمَّا أَحْكَامُهُ إنْ كَانَ [حَاكِمًا] وَالِيًا فَيُنَفِّذُ مِنْهَا مَا وَافَقَ الْحَقَّ وَيَرُدُّ مَا خَالَفَهُ ، وَلَا يَنْقُضُ حُكْمَهُ الَّذِي أَمْضَاهُ بِحَالٍ ، وَلَا تَلْتَفِتُوا إلَى غَيْرِ هَذَا الْقَوْلِ مِنْ رِوَايَةٍ تُؤْثَرُ ، أَوْ قَوْلٍ يُحْكَى ؛ فَإِنَّ الْكَلَامَ كَثِيرٌ ، وَالْحَقَّ ظَاهِرٌ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ لَا خِلَافَ فِي أَنَّهُ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ رَسُولًا عَنْ غَيْرِهِ فِي قَوْلٍ يُبَلِّغُهُ ، أَوْ شَيْءٍ يُوَصِّلُهُ أَوْ إذْنٍ يُعَلِّمُهُ ، إذَا لَمْ يَخْرُجْ عَنْ حَقِّ الْمُرْسِلِ وَالْمُبَلِّغِ ؛ فَإِنْ تَعَلَّقَ بِهِ حَقٌّ لِغَيْرِهِمَا لَمْ يُقْبَلْ قَوْلُهُ .

(431/719)

فَهَذَا جَائِزٌ لِلضَّرُورَةِ الدَّاعِيَةِ إلَيْهِ فَإِنَّهُ لَوْ لَمْ يَتَصَرَّفْ بَيْنَ الْخَلْقِ فِي هَذِهِ الْمَعَانِي إلَّا الْعُدُولُ . يَحْصُلُ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِعَدَمِهِمْ فِي ذَلِكَ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

الْآيَةُ الرَّابِعَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا

بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ .

فِيهَا اثْنَتَا عَشْرَةَ مَسْأَلَةً : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : وَفِي ذَلِكَ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ رَوَى عَطَاءُ بْنُ دِينَارٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّ الْأَوْسَ وَالْخَزْرَجَ كَانَ بَيْنَهُمْ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِتَالٌ بِالسَّعَفِ وَالنِّعَالِ وَنَحْوِهِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةَ .

الثَّانِي : مَا رَوَى سَعِيدٌ ، عَنْ قَتَادَةَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ مِنْ الْأَنْصَارِ كَانَتْ بَيْنَهُمَا مُلَاحَاةٌ فِي حَقٍّ بَيْنَهُمَا ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ : لَآخُذَنَّهُ عَنْوَةً لِكَثْرَةِ عَشِيرَتِهِ ، وَإِنَّ الْآخَرَ دَعَاهُ إِلَى الْمُحَاكِمَةِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَبَى أَنْ يَتْبَعَهُ ، وَلَمْ يَزَلْ بِهِمْ الْأَمْرُ حَتَّى تَدَافَعُوا ، وَتَنَاوَلَ بَعْضُهُمْ بِالْأَيْدِي وَالنِّعَالِ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِيهِمْ .

(432/719)

الثَّالِثُ مَا رَوَاهُ أَسْبَاطُ عَنْ السُّدِّيِّ أَنَّ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ كَانَتْ لَهُ امْرَأَةٌ تُدْعَى أُمَّ زَيْدٍ ، وَأَنَّ الْمَرْأَةَ أَرَادَتْ أَنْ تَزُورَ أَهْلَهَا فَحَبَسَهَا زَوْجُهَا ، وَجَعَلَهَا فِي عِلِّيَّةٍ لَا يَدْخُلُ عَلَيْهَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهَا ، وَإِنَّ الْمَرْأَةَ بَعَثَتْ إِلَى أَهْلِهَا ، فَجَاءَ قَوْمُهَا فَأَنْزَلُوهَا لِيَنْطَلِقُوا بِهَا ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ فَاسْتَغَاثَ بِأَهْلِهِ ؛ فَجَاءَ بَنُو عَمِّهِ لِيَحُولُوا بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَبَيْنَ أَهْلِهَا ؛ فَتَدَافَعُوا وَاجْتَلَدُوا بِالنِّعَالِ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِيهِمْ .

الرَّابِعُ مَا حَكَى قَوْمٌ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي رَهْطِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ مِنْ الْخَزْرَجِ وَرَهْطِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ مِنْ الْأَوْسِ ، وَسَبَبُهُ ﴿ أَنَّ

النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَفَ عَلَى حِمَارٍ لَهُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ ، وَهُوَ فِي مَجْلِسِ قَوْمِهِ ، فَرَاثَ حِمَارُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ سَطَعَ غُبَارُهُ ، فَأَمْسَكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ أَنْفَهُ ، وَقَالَ : لَقَدْ آذَانَا نَتْنُ حِمَارِك .

فَغَضِبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ ، وَقَالَ : إنَّ حِمَارَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَطْيَبُ رِيحًا مِنْك وَمِنْ أَبِيك ؛ فَغَضِبَ قَوْمُهُ وَاقْتَتَلُوا بِالنِّعَالِ وَالْأَيْدِي ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِيهِمْ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : أَصَحُّ الرِّوَايَاتِ : الْأَخِيرَةُ ، وَالْآيَةُ تَقْتَضِي جَمِيعَ مَا رُوِيَ لِعُمُومِهَا وَمَا لَمْ يُرْوَ ، فَلَا يَصِحُّ تَخْصِيصُهَا بِبَعْضِ الْأَحْوَالِ دُونَ بَعْضٍ .

(433/719)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : الطَّائِفَةُ كَلِمَةٌ تُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ عَلَى الْوَاحِدِ مِنْ الْعَدَدِ ، وَعَلَى مَا لَا يَحْصُرُهُ عَدَدٌ ، وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي سُورَةِ بَرَاءَةَ .

(434/719)

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : هَذِهِ الْآيَةُ هِيَ الْأَصْلُ فِي قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ ، وَالْعُمْدَةُ فِي حَرْبِ الْمُتَأَوِّلِينَ ، وَعَلَيْهَا عَوَّلَ الصَّحَابَةُ ، وَإِلَيْهَا لَجَأَ الْأَعْيَانُ مِنْ أَهْلِ الْمِلَّةِ ، وَإِيَّاهَا عَنَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ : ﴿ يَقْتُلُ عَمَّارًا الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ ﴾ وَقَوْلُهُ فِي شَأْنِ الْخَوَارِجِ : ﴿ يَخْرُجُونَ عَلَى خَيْرِ فِرْقَةٍ مِنْ النَّاسِ ﴾ أَوْ عَلَى حِينِ فِرْقَةٍ ، وَالرِّوَايَةُ الْأُولَى أَصَحُّ لِقَتْلِهِمْ أَدْنَى الطَّائِفَتَيْنِ إلَى الْحَقِّ ، وَكَانَ الَّذِي قَتَلَهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ [وَمَنْ كَانَ مَعَهُ] فَتَقَرَّرَ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، وَثَبَتَ بِدَلِيلِ الدِّينِ أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ إمَامًا ، وَأَنَّ كُلَّ مَنْ خَرَجَ عَلَيْهِ بَاغٍ ، وَأَنَّ قِتَالَهُ وَاجِبٌ حَتَّى يَفِيءَ إلَى الْحَقِّ ، وَيَنْقَادَ إلَى الصُّلْحِ ؛ لِأَنَّ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قُتِلَ ، وَالصَّحَابَةُ بُرَآءُ مِنْ دَمِهِ ؛ لِأَنَّهُ مَنَعَ مِنْ قِتَالِ مَنْ ثَارَ عَلَيْهِ ، وَقَالَ : لَا أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ خَلَفَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أُمَّتِهِ بِالْقَتْلِ ؛ فَصَبَرَ عَلَى الْبَلَاءِ ، وَاسْتَسْلَمَ لِلْمِحْنَةِ ، وَفَدَى بِنَفْسِهِ الْأُمَّةَ ، ثُمَّ لَمْ يُمْكِنْ تَرْكُ النَّاسِ سُدًى ، فَعُرِضَتْ الْإِمَامَةُ عَلَى بَاقِي الصَّحَابَةِ الَّذِينَ ذَكَرَهُمْ عُمَرُ فِي الشُّورَى ، وَتَدَافَعُوهَا ، وَكَانَ عَلِيٌّ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ، فَقَبِلَهَا حَوْطَةً عَلَى الْأُمَّةِ أَنْ تُسْفَكَ دِمَاؤُهَا بِالتَّهَارُجِ وَالْبَاطِلِ ، وَيُتَخَرَّقَ أَمْرُهَا إلَى مَا لَا يَتَحَصَّلُ ، وَرُبَّمَا تَغَيَّرَ

الدِّينُ ، وَانْقَضَّ عَمُودُ الْإِسْلَامِ ؛ فَلَمَّا بُويِعَ لَهُ طَلَبَ أَهْلُ الشَّامِ فِي شَرْطِ الْبَيْعَةِ التَّمْكِينَ مِنْ قَتَلَةِ عُثْمَانَ وَأَخْذَ الْقَوَدِ مِنْهُمْ ، فَقَالَ لَهُمْ عَلِيٌّ : ادْخُلُوا فِي الْبَيْعَةِ ، وَاطْلُبُوا الْحَقَّ تَصِلُوا إِلَيْهِ فَقَالُوا : لَا نَسْتَحِقُّ بَيْعَةً وَقَتَلَةُ عُثْمَانَ مَعَك نَرَاهُمْ صَبَاحًا وَمَسَاءً ، فَكَانَ عَلِيٌّ فِي ذَلِكَ أَسَدَّ

رَأْيًا ، وَأَصْوَبَ قَوْلًا ؛ لِأَنَّ عَلِيًّا لَوْ تَعَاطَى الْقَوَدَ مِنْهُمْ لَتَعَصَّبَتْ لَهُمْ قَبَائِلُ ، وَصَارَتْ حَرْبًا ثَالِثَةً فَانْتَظَرَ بِهِمْ أَنْ يَسْتَوْثِقَ الْأَمْرُ ، وَتَنْعَقِدَ الْبَيْعَةُ الْعَامَّةُ ، وَيَقَعَ الطَّلَبُ مِنْ الْأَوْلِيَاءِ فِي مَجْلِسِ الْحُكْمِ ، فَيَجْرِي الْقَضَاءُ بِالْحَقِّ .

وَلَا خِلَافَ بَيْنَ الْأُمَّةِ أَنَّهُ يَجُوزُ لِلْإِمَامِ تَأْخِيرُ الْقِصَاصِ إذَا أَدَّى ذَلِكَ إلَى إثَارَةِ الْفِتْنَةِ أَوْ تَشْتِيتِ الْكَلِمَةِ ، وَكَذَلِكَ جَرَى لِطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ ؛ فَإِنَّهُمَا مَا خَلَعَا عَلِيًّا عَنْ وِلَايَةٍ ، وَلَا اعْتَرَضَا عَلَيْهِ فِي دِيَانَةٍ ، وَإِنَّمَا رَأَيَا أَنَّ الْبُدَاءَةَ بِقَتْلِ أَصْحَابِ عُثْمَانَ أَوْلَى ، فَبَقِيَ هُوَ عَلَى رَأْيِهِ لَمْ يُزَعْزِعْهُ عَمَّا رَأَى وَهُوَ كَانَ الصَّوَابُ كَلَامُهُمَا ، وَلَا أَنْ يُؤَثِّرَ فِيهِ قَوْلُهُمَا .

(436/719)

وَكَذَلِكَ كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا يُثْنِي عَلَى صَاحِبِهِ [وَيَذْكُرُ مَا فِيهِ] وَيَشْهَدُ لَهُ بِالْجَنَّةِ ، وَيَذْكُرُ مَنَاقِبَهُ ؛ وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى خِلَافِ هَذَا لَتَبَرَّأَ كُلُّ وَاحِدٍ [مِنْهُمَا] مِنْ صَاحِبِهِ ، فَلَمْ يَكُنْ تَقَاتُلُ الْقَوْمِ عَلَى دُنْيَا ، وَلَا بَغْيًا بَيْنَهُمْ فِي الْعَقَائِدِ ، وَإِنَّمَا كَانَ اخْتِلَافًا فِي اجْتِهَادٍ ؛ فَلِذَلِكَ كَانَ جَمِيعُهُمْ فِي الْجَنَّةِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أَمَرَ اللَّهُ بِالْقِتَالِ ، وَهُوَ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ إذَا قَامَ بِهِ الْبَعْضُ سَقَطَ عَنْ الْبَعْضِ الْبَاقِينَ ؛ وَلِذَلِكَ تَخَلَّفَ قَوْمٌ مِنْ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَنْ هَذِهِ الْمَقَامَاتِ ، كَسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ .

وَصَوَّبَ ذَلِكَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ لَهُمْ ، وَاعْتَذَرَ إلَيْهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِعُذْرٍ قَبِلَهُ مِنْهُ .

وَيُرْوَى أَنَّ مُعَاوِيَةَ لَمَّا أَفْضَى إلَيْهِ الْأَمْرُ عَاتَبَ سَعْدًا عَلَى مَا فَعَلَ ، وَقَالَ لَهُ : لَمْ تَكُنْ مِمَّنْ أَصْلَحَ بَيْنَ الْفِئَتَيْنِ حِينَ اقْتَتَلَا ، وَلَا مِمَّنْ قَاتَلَ الْفِئَةَ الْبَاغِيَةَ ؛ فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ : نَدِمْت عَلَى تَرْكِي قِتَالَ الْفِئَةِ الْبَاغِيَةِ .

فَتَبَيَّنَ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى الْكُلِّ دَرَكٌ فِيمَا فَعَلَ ، وَإِنَّمَا كَانَ تَصَرُّفًا بِحُكْمِ الِاجْتِهَادِ وَإِعْمَالًا بِمَا اقْتَضَاهُ الشَّرْعُ .

وَقَدْ بَيَّنَّا فِي الْمُقْسِطِ كَلَامَ كُلِّ وَاحِدٍ وَمُتَعَلَّقَهُ فِيمَا ذَهَبَ إلَيْهِ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : إنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَمَرَ بِالصُّلْحِ قَبْلَ الْقِتَالِ ، وَعَيَّنَ الْقِتَالَ عِنْدَ الْبَغْيِ ؛ فَعَلَ عَلِيٌّ بِمُقْتَضَى حَالِهِ فَإِنَّهُ قَاتَلَ الْبَاغِيَةَ الَّتِي أَرَادَتْ الِاسْتِبْدَادَ عَلَى الْإِمَامِ ، وَنَقْضَ مَا رَأَى مِنْ الِاجْتِهَادِ وَالتَّحَيُّزَ عَنْ دَارِ النُّبُوَّةِ وَمَقَرِّ الْخِلَافَةِ بِفِئَةٍ تَطْلُبُ مَا لَيْسَ لَهَا طَلَبُهُ إلَّا بِشَرْطِهِ ، مِنْ حُضُورِ مَجْلِسِ الْحُكْمِ وَالْقِيَامِ بِالْحُجَّةِ عَلَى الْخَصْمِ ؛ وَلَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ وَلَمْ يَقُدْ عَلَيَّ مِنْهُمْ مَا احْتَاجُوا إلَى مُجَاذَبَةٍ ؛ فَإِنَّ الْكَافَّةَ كَانَتْ تَخْلَعُهُ ، وَاَللَّهُ قَدْ حَفِظَهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَصَانَهُ .

وَعَمِلَ الْحَسَنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِمُقْتَضَى حَالِهِ ، فَإِنَّهُ صَالَحَ حِينَ اسْتَشْرَى الْأَمْرُ عَلَيْهِ ، وَكَانَ ذَلِكَ بِأَسْبَابٍ سَمَاوِيَّةٍ ، وَمَقَادِيرَ أَزَلِيَّةٍ ، وَمَوَاعِيدَ مِنْ الصَّادِقِ صَادِقَةٍ ، وَمِنْهَا مَا رَأَى مِنْ تَشَتُّتِ آرَاءِ مَنْ مَعَهُ ، وَمِنْهَا أَنَّهُ طُعِنَ حِينَ خَرَجَ إلَى مُعَاوِيَةَ فَسَقَطَ عَنْ فَرَسِهِ وَدَاوَى جُرْحَهُ حَتَّى بَرِئَ ؛ فَعَلِمَ أَنَّ عِنْدَهُ مَنْ يُنَافِقُ عَلَيْهِ وَلَا يَأْمَنُهُ عَلَى نَفْسِهِ .

وَمِنْهَا أَنَّهُ رَأَى الْخَوَارِجَ أَحَاطُوا بِأَطْرَافِهِ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ إنْ اشْتَغَلَ بِحَرْبِ مُعَاوِيَةَ اسْتَوْلَى الْخَوَارِجُ عَلَى الْبِلَادِ ، وَإِنْ اشْتَغَلَ بِالْخَوَارِجِ اسْتَوْلَى عَلَيْهَا مُعَاوِيَةُ .

وَمِنْهَا أَنَّهُ تَذَكَّرَ وَعْدَ جَدِّهِ الصَّادِقِ عِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ ابْنِي هَذَا لَسَيِّدٌ ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ، وَإِنَّهُ لَمَا سَارَ الْحَسَنُ إِلَى مُعَاوِيَةَ بِالْكِتَابِ فِي أَرْبَعِينَ أَلْفًا ، وَقَدِمَ قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ بِعَشَرَةِ آلَافٍ قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ لِمُعَاوِيَةَ : إِنِّي أَرَى كَتِيبَةً لَا تُوَلِّي أُولَاهَا حَتَّى تُدْبِرَ أُخْرَاهَا .

فَقَالَ مُعَاوِيَةُ لِعَمْرٍو : مَنْ لِي بِذَرَارِيِّ مِنْ الْمُسْلِمِينَ ، فَقَالَ : أَنَا .

فَقَالَ : عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَمُرَةَ : تَلْقَاهُ فَتَقُولُ لَهُ : الصُّلْحَ ؛ فَصَالَحَهُ ، فَنَفَذَ الْوَعْدُ الصَّادِقُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .

وَبِقَوْلِهِ : ﴿ الْخِلَافَةُ ثَلَاثُونَ سَنَةً ، ثُمَّ تَعُودُ مُلْكًا ﴾ ، فَكَانَتْ لِأَبِي بَكْرٍ ، وَعُمَرَ ، وَعُثْمَانَ ، وَعَلِيٍّ ، وَلِلْحَسَنِ [مِنْهَا] ثَمَانِيَةُ أَشْهُرٍ لَا تَزِيدُ [يَوْمًا] وَلَا تَنْقُصُ يَوْمًا ، فَسُبْحَانَ الْمُحِيطِ لَا رَبَّ غَيْرُهُ .

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ﴾ وَهَذَا صَحِيحٌ ؛ فَإِنَّ الْعَدْلَ قِوَامُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا ؛ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ ؛ وَهُمْ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ بَيْنَ النَّاسِ فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وُلُّوا ﴾ .

وَمِنْ الْعَدْلِ فِي صُلْحِهِمْ أَلَّا يُطَالِبُوا بِمَا جَرَى بَيْنَهُمْ مِنْ دَمٍ وَلَا مَالٍ فَإِنَّهُ تَلَفٌ عَلَى تَأْوِيلٍ .

وَفِي طَلَبِهِمْ لَهُ تَنْفِيرٌ لَهُمْ عَنْ الصُّلْحِ وَاسْتِشْرَاءٌ فِي الْبَغْيِ .

وَهَذَا أَصْلٌ فِي الْمَصْلَحَةِ ؛ وَقَدْ قَالَ لِسَانُ الْأُمَّةِ : إنَّ حِكْمَةَ اللَّهِ فِي قِتَالِ الصَّحَابَةِ التَّعَرُّفُ مِنْهُمْ لِأَحْكَامِ قِتَالِ أَهْلِ التَّأْوِيلِ ؛ إذْ كَانَتْ أَحْكَامُ قِتَالِ التَّنْزِيلِ قَدْ عُرِفَتْ عَلَى لِسَانِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِعْلِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ فَإِنْ بَغَتْ إحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى ﴾ بِنَاءُ (ب غ ي) فِي لِسَانِ الْعَرَبِ الطَّلَبُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ ؛ وَوَقَعَ التَّعْبِيرُ بِهَا هُنَا عَمَّنْ يَبْغِي مَا لَا يَنْبَغِي عَلَى عَادَةِ اللُّغَةِ فِي تَخْصِيصِهِ بِبَعْضِ مُتَعَلَّقَاتِهِ وَهُوَ الَّذِي يَخْرُجُ عَلَى الْإِمَامِ يَبْغِي خَلْعَهُ أَوْ يَمْنَعُ مِنْ الدُّخُولِ فِي طَاعَةٍ لَهُ ، أَوْ يَمْنَعُ حَقًّا يُوجِبُهُ عَلَيْهِ بِتَأْوِيلٍ ؛ فَإِنْ جَحَدَهُ فَهُوَ مُرْتَدٌّ .

وَقَدْ قَاتَلَ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْبُغَاةَ وَالْمُرْتَدِّينَ ؛ فَأَمَّا الْبُغَاةُ فَهُمْ الَّذِينَ مَنَعُوا الزَّكَاةَ بِتَأْوِيلٍ ، ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّهَا سَقَطَتْ بِمَوْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ وَأَمَّا الْمُرْتَدُّونَ فَهُمْ الَّذِينَ أَنْكَرُوا وُجُوبَهَا ، وَخَرَجُوا عَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ بِدَعْوَى نُبُوَّةِ غَيْرِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَالَّذِي قَاتَلَ عَلِيٌّ طَائِفَةٌ أَبَوْا الدُّخُولَ فِي بَيْعَتِهِ ، وَهُمْ أَهْلُ الشَّامِ ؛ وَطَائِفَةٌ خَلَعَتْهُ ، وَهُمْ أَهْلُ النَّهْرَوَانِ .

وَأَمَّا أَصْحَابُ الْجَمَلِ فَإِنَّمَا خَرَجُوا يَطْلُبُونَ الْإِصْلَاحَ بَيْنَ الْفِرْقَتَيْنِ .

وَكَانَ مِنْ حَقِّ الْجَمِيعِ أَنْ يَصِلُوا إلَيْهِ وَيَجْلِسُوا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَيُطَالِبُوهُ بِمَا رَأَوْا أَنَّهُ عَلَيْهِ ؛ فَلَمَّا تَرَكُوا ذَلِكَ بِأَجْمَعِهِمْ صَارُوا بُغَاةً بِجُمْلَتِهِمْ ، فَتَنَاوَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ جَمِيعَهُمْ .

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ : قَالَ عُلَمَاؤُنَا فِي رِوَايَةِ سَحْنُونٍ : إنَّمَا يُقَاتِلُ مَعَ الْإِمَامِ الْعَدْلِ سَوَاءٌ كَانَ الْأَوَّلَ أَوْ الْخَارِجَ عَلَيْهِ ؛ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا عَدْلَيْنِ فَأَمْسِكْ عَنْهُمَا إلَّا أَنْ تُرَادَ بِنَفْسِك أَوْ مَالِك أَوْ ظُلْمَ الْمُسْلِمِينَ فَادْفَعْ ذَلِكَ .

الْمَسْأَلَةُ الْعَاشِرَةُ : لَا تُقَاتِلُ إلَّا مَعَ إمَامٍ [عَادِلٍ] يُقَدِّمُهُ أَهْلُ الْحَقِّ لِأَنْفُسِهِمْ ، وَلَا يَكُونُ إلَّا قُرَشِيًّا ، وَغَيْرُهُ لَا حُكْمَ لَهُ ، إلَّا أَنْ يَدْعُوَ إلَى الْإِمَامِ الْقُرَشِيِّ ؛ قَالَهُ مَالِكٌ ؛ لِأَنَّ الْإِمَامَةَ لَا تَكُونُ إلَّا لِقُرَشِيٍّ .

وَقَدْ رَوَى ابْنُ الْقَاسِمِ ، عَنْ مَالِكٍ : إذَا خَرَجَ عَلَى الْإِمَامِ الْعَدْلِ خَارِجٌ وَجَبَ الدَّفْعُ عَنْهُ ، مِثْلُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، فَأَمَّا غَيْرُهُ فَدَعْهُ يَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْ ظَالِمٍ بِمِثْلِهِ ثُمَّ يَنْتَقِمُ مِنْ كِلَيْهِمَا .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴾ .

قَالَ مَالِكٌ : إذَا بُويِعَ لِلْإِمَامِ فَقَامَ عَلَيْهِ إخْوَانُهُ قُوتِلُوا إذَا كَانَ الْأُولُ عَدْلًا ، فَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَلَا بَيْعَةَ لَهُمْ إذَا كَانَ بُويِعَ لَهُمْ عَلَى الْخَوْفِ .

قَالَ مَالِكٌ : وَلَا بُدَّ مِنْ إمَامٍ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ .

وَقَالَ ابْنُ إسْحَاقَ فِي حَدِيثٍ يَرْوِيهِ مُعَاوِيَةُ ﴿ : إذَا كَانَ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَتَانِ فَاقْتُلُوا أَحَدَهُمَا ؛ وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : لَا تَكْرَهُوا الْفِتْنَةَ فَإِنَّهَا حَصَادُ الْمُنَافِقِينَ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ لَا يُقْتَلُ أَسِيرُهُمْ ، وَلَا يُتْبَعُ مُنْهَزِمُهُمْ ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ دَفْعُهُمْ لَا قَتْلُهُمْ .

وَأَمَّا الَّذِي يُتْلِفُونَهُ مِنْ الْأَمْوَالِ فَعِنْدَنَا أَنَّهُ لَا ضَمَانَ عَلَيْهِمْ فِي نَفْسٍ وَلَا مَالٍ .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : يَضْمَنُونَ ، وَلِلشَّافِعِيِّ قَوْلَانِ : وَجْهُ قَوْلِ أَبِي حَنِيفَةَ أَنَّهُ إتْلَافٌ بِعُدْوَانٍ ، فَلْيَلْزَمْ الضَّمَانَ .

وَالْمُعَوَّلُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ عِنْدَنَا عَلَى مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي خُرُوجِهِمْ لَمْ يَتْبَعُوا مُدْبِرًا وَلَا ذَفَّفُوا عَلَى جَرِيحٍ ، وَلَا قَتَلُوا أَسِيرًا ، وَلَا ضَمِنُوا نَفْسًا وَلَا مَالًا ؛ وَهُمْ الْقُدْوَةُ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانَ فِي خُرُوجِهِمْ مِنْ الْحِكْمَةِ فِي بَيَانِ أَحْكَامِ قِتَالِ الْبُغَاةِ بِخِلَافِ الْكَفَرَةِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ إنْ وَلَّوْا قَاضِيًا ، وَأَخَذُوا زَكَاةً ، وَأَقَامُوا حَقًّا بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ جَازَ ؛ قَالَهُ مُطَرِّفٌ وَابْنُ الْمَاجِشُونِ .

وَقَالَ ابْنُ

الْقَاسِمِ : لَا يَجُوزُ بِحَالٍ .

وَرُوِيَ عَنْ أَصْبَغَ أَنَّهُ جَائِزٌ .

وَرُوِيَ عَنْهُ أَيْضًا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ كَقَوْلِ ابْنُ الْقَاسِمِ .

وَقَالَهُ أَبُو حَنِيفَةَ ؛ لِأَنَّهُ عَمَلٌ بِغَيْرِ حَقٍّ مِمَّنْ لَا يَجُوزُ تَوْلِيَتُهُ ، فَلَمْ يَجُزْ كَمَا لَوْ كَانُوا بُغَاةً .

الْعُمْدَةُ لَنَا مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ [فِي خُرُوجِهِمْ] لَمْ يَتْبَعُوا مُدْبِرًا ، وَلَا ذَفَّفُوا عَلَى جَرِيحٍ ، وَلَا قَتَلُوا أَسِيرًا ، وَلَا ضَمِنُوا نَفْسًا وَلَا مَالًا ، وَهُمْ الْقُدْوَةُ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

وَأَنَّ الصَّحَابَةَ لَمَّا انْجَلَتْ الْفِتْنَةُ ، وَارْتَفَعَ الْخِلَافُ بِالْهُدْنَةِ وَالصُّلْحِ لَمْ يَعْرِضُوا لِأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي

حُكْمٍ .

قَالَ الْقَاضِي ابْنُ الْعَرَبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : الَّذِي عِنْدِي أَنَّ ذَلِكَ لَا يَصْلُحُ ؛ لِأَنَّ الْفِتْنَةَ لَمَّا انْجَلَتْ كَانَ الْإِمَامُ هُوَ الْبَاغِي ، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَنْ يَعْتَرِضُهُ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

(443/719)

فَإِنْ قِيلَ : فَأَهْلُ مَا وَرَاءِ النَّهْرِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ إِمَامٌ ، وَلَمْ يَعْتَرِضْ لَهُمْ حُكْمٌ ، قُلْنَا : وَلَا سَمِعْنَا أَنَّهُمْ كَانَ لَهُمْ حُكْمٌ ؛ وَإِنَّمَا كَانُوا فِتْنَةً مُجَرَّدَةً ، حَتَّى انْجَلَتْ مَعَ الْبَاغِي لَسَكَتَ عَنْهُمْ لِئَلَّا يُعَضِّدَ بِاعْتِرَاضِهِ مَنْ خَرَجُوا عَلَيْهِ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

الْآيَةُ الْخَامِسَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى النَّبْزُ هُوَ اللَّقَبُ فَقَوْلُهُ : لَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ، أَيْ لَا تَدَاعَوْا بِالْأَلْقَابِ .

وَاللَّقَبُ هُنَا اسْمٌ مَكْرُوهٌ عِنْدَ السَّامِعِ .

وَكَذَلِكَ يُرْوَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ ، وَلِكُلِّ رَجُلٍ اسْمَانِ وَثَلَاثَةٌ ؛ فَكَانَ يُدْعَى بِاسْمٍ مِنْهَا فَيَغْضَبُ ؛ فَنَزَلَتْ : ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ فِي سَبَبِ نُزُولِهَا :

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قَوْلُهُ : ﴿ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ﴾ يَعْنِي أَنَّك إذَا ذَكَرْت صَاحِبَك بِمَا يَكْرَهُ فَقَدْ آذَيْته ؛ وَإِذَايَةُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ ، وَذَلِكَ لَا يَجُوزُ .

وَقَدْ رُوِيَ ﴿ أَنَّ أَبَا ذَرٍّ كَانَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَازَعَهُ رَجُلٌ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو ذَرٍّ : يَا ابْنَ الْيَهُودِيَّةِ .

(444/719)

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَا تَرَى مِنْ هَاهُنَا مِنْ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ ، مَا أَنْتَ بِأَفْضَلَ مِنْهُ ﴾ يَعْنِي إلَّا بِالتَّقْوَى ، وَنَزَلَتْ : ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ مُسْتَثْنًى مِنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الِاسْتِعْمَالُ ، كَالْأَعْرَجِ وَالْأَحْدَبِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهِ كَسْبٌ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ مِنْهُ عَلَيْهِ ، فَجَوَّزَتْهُ الْأُمَّةُ ، فَاتَّفَقَ عَلَى قَوْلِهِ أَهْلُ الْمِلَّةِ .

وَقَدْ وَرَدَ لَعَمْرُ اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ فِي كُتُبِهِمْ مَا لَا أَرْضَاهُ ، كَقَوْلِهِمْ فِي صَالِحٍ جَزَرَةٌ ؛ لِأَنَّهُ صَحَّفَ زَجَرَهُ فَنُقِّبَ بِهَا ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ فِي مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ الْحَضْرَمِيِّ مُطَيَّنٌ ؛ لِأَنَّهُ وَقَعَ فِي طِينٍ ،

وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا غَلَبَ عَلَى الْمُتَأَخِّرِينَ .

وَلَا أَرَاهُ سَائِغًا فِي الدِّينِ ، وَقَدْ كَانَ مُوسَى بْنُ عَلِيِّ بْنُ رَبَاحٍ الْمِصْرِيُّ يَقُولُ : لَا أَجْعَلُ أَحَدًا صَغَّرَ اسْمَ أَبِي فِي حِلٍّ .

وَكَانَ الْغَالِبُ عَلَى اسْمِ أَبِيهِ التَّصْغِيرَ بِضَمِّ الْعَيْنِ .

وَالَّذِي يَضْبِطُ هَذَا كُلَّهُ مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ الْكَرَاهَةِ لِأَجْلِ الْإِذَايَةِ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

الْآيَةُ السَّادِسَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنْ الظَّنِّ إنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي حَقِيقَةِ الظَّنِّ .

(445/719)

وَقَدْ قَالَ عُلَمَاؤُنَا : إنَّ حَقِيقَةَ الظَّنِّ تَجْوِيزُ أَمْرَيْنِ فِي النَّفْسِ لِأَحَدِهِمَا تَرْجِيحٌ عَلَى الْآخَرِ .

وَالشَّكُّ عِبَارَةٌ عَنْ اسْتِوَائِهِمَا .

وَالْعِلْمُ هُوَ حَذْفُ أَحَدِهِمَا وَتَعْيِينُ الْآخَرِ .

وَقَدْ حَقَّقْنَاهُ فِي كُتُبِ الْأُصُولِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ أُنْكِرَتْ جَمَاعَةٌ مِنْ الْمُبْتَدِعَةِ تَعَبُّدَ اللَّهِ تَعَالَى بِالظَّنِّ ، وَجَوَازُ الْعَمَلِ بِهِ تَحَكُّمٌ فِي الدِّينِ ، وَدَعْوَى فِي الْعُقُولِ ؛ وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ أَصْلٌ يُعَوَّلُ عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّ الْبَارِيَ تَعَالَى لَمْ يَذُمَّ جَمِيعَهُ ، وَإِنَّمَا وَرَدَ الذَّمُّ كَمَا قَرَّرْنَاهُ آنِفًا فِي بَعْضِهِ .

وَمُتَعَلَّقُهُمْ فِي ذَلِكَ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ وَلَا تَحَسَّسُوا وَلَا تَجَسَّسُوا ، وَلَا تَقَاطَعُوا ، وَلَا تَدَابَرُوا ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا ﴾ .

وَهَذَا لَا حُجَّةَ فِيهِ ؛ لِأَنَّ الظَّنَّ فِي الشَّرِيعَةِ قِسْمَانِ : مَحْمُودٌ ، وَمَذْمُومٌ ؛ فَالْمَحْمُودُ بِدَلَالَةِ قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ .

﴿ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إذَا كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحًا أَخَاهُ لَا مَحَالَةَ فَلْيَقُلْ أَحْسَبُهُ كَذَا ، وَلَا أُزَكِّي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا ﴾ .

وَعِبَادَاتُ الشَّرْعِ وَأَحْكَامُهُ ظَنِّيَّةٌ فِي الْأَكْثَرِ حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ ، وَهِيَ مَسْأَلَةٌ تُفَرِّقُ بَيْنَ الْغَبِيِّ وَالْفَطِنِ .

الْآيَةُ السَّابِعَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَبَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعَاظُمَهَا ، فَالنَّاسُ رَجُلَانِ : بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ ؛ وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ ، وَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ ﴾ .

وَالْحَدِيثُ ضَعِيفٌ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْخَلْقَ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَلَوْ شَاءَ لَخَلَقَهُ دُونَهُمَا كَخَلْقِهِ لِآدَمَ ، أَوْ دُونَ ذَكَرٍ كَخَلْقِهِ لِعِيسَى ، أَوْ دُونَ أُنْثَى كَخَلْقِهِ لِحَوَّاءَ مِنْ إِحْدَى الْجِهَتَيْنِ .

وَهَذَا الْجَائِزُ فِي الْقُدْرَةِ لَمْ يَرِدْ بِهِ الْوُجُودُ .

وَقَدْ جَاءَ أَنَّ آدَمَ خَلَقَ اللَّهُ مِنْهُ حَوَّاءَ مِنْ ضِلْعٍ انْتَزَعَهَا مِنْ أَضْلَاعِهِ ، فَلَعَلَّهُ هَذَا الْقِسْمُ ، وَقَدْ بَيَّنَّا فِيمَا تَقَدَّمَ كَيْفِيَّةَ الْخَلْقِ مِنْ مَاءِ الذَّكَرِ وَمَاءِ الْأُنْثَى بِمَا يُغْنِي عَنْ إِعَادَتِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ بَيْنَ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى أَنْسَابًا وَأَصْهَارًا وَقَبَائِلَ وَشُعُوبًا ، وَخَلَقَ لَهُمْ مِنْهَا التَّعَارُفَ ، وَجَعَلَ لَهُمْ بِهَا التَّوَاصُلَ ، لِلْحِكْمَةِ الَّتِي قَدَّرَهَا ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِهَا ؛ فَصَارَ كُلُّ أَحَدٍ يَجُوزُ نِسْبَةً ، فَإِذَا نَفَاهُ عَنْهُ [أَحَدٌ] اسْتَوْجَبَ الْحَدَّ يَقْذِفُهُ لَهُ ، مِثْلُ أَنْ يَنْفِيَهُ عَنْ رَهْطِهِ وَجِنْسِهِ ، كَقَوْلِهِ لِلْعَرَبِيِّ : يَا عَجَمِيِّ : يَا عَرَبِيِّ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَقَعُ بِهِ النَّفْيُ حَقِيقَةً ، وَقَدْ اسْتَوْفَيْنَاهُ فِي كُتُبِ الْمَسَائِلِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ قَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ : قَدْ بَيَّنَّا الْكَرَمَ ، وَأَوْضَحْنَا حَقِيقَتَهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ صَحِيحِ الْحَدِيثِ .

وَفِي صَحِيحِهِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ الْحَسَبُ الْمَالُ ، وَالْكَرَمُ التَّقْوَى ﴾ .

ذَلِكَ يَرْجِعُ إلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ .

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ .

وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَعْلَمَكُمْ بِمَا أَتَّقِي ﴾ .

وَلِذَلِكَ كَانَ أَكْرَمَ الْبَشَرِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى .

وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الَّذِي لَحَظَ مَالِكٌ فِي الْكَفَاءَةِ فِي النِّكَاحِ .

رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ مَالِكٍ يُزَوِّجُ الْمَوْلَى الْعَرَبِيَّةَ .

وَاحْتَجَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيُّ : يُرَاعَى الْحَسَبُ وَالْمَالُ .

(448/719)

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ أَبَا حُذَيْفَةَ بْنَ عُقْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَكَانَ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَبَنَّى سَالِمًا ، وَأَنْكَحَهُ هِنْدَ بِنْتَ أَخِيهِ الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ ، وَهُوَ مَوْلًى لِامْرَأَةٍ مِنْ الْأَنْصَارِ ، وَضُبَاعَةُ بِنْتُ الزُّبَيْرِ كَانَتْ تَحْتَ الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ الْكِنْدِيِّ فَدَلَّ عَلَى جَوَازِ نِكَاحِ الْمَوْلَى الْعَرَبِيَّةَ .

وَإِنَّمَا تُرَاعَى الْكَفَاءَةُ فِي الدِّينِ .

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَيْضًا مَا رَوَى سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ فِي الصَّحِيحِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ عَلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ : مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا ؟ قَالُوا : حَرِيٌّ إنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكِحَ ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ ، وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْمَعَ .

قَالَ : ثُمَّ سَكَتَ .

فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ : مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا ؟ قَالُوا : هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَلَّا يُنْكِحَ ، وَإِنْ شَفَعَ أَلَّا يُشَفَّعَ ، وَإِنْ قَالَ أَلَّا يُسْمَعَ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِثْلِ هَذَا ﴾ .

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِمَالِهَا وَجَمَالِهَا وَدِينِهَا وَفِي رِوَايَةٍ : وَحَسَبِهَا ، فَعَلَيْك بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاك ﴾ .

(449/719)

وَقَدْ خَطَبَ سَلْمَانُ إلَى أَبِي بَكْرٍ ابْنَتَهُ فَأَجَابَهُ وَخَطَبَ إلَى عُمَرَ ابْنَتَهُ فَالْتَوَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ سَأَلَهُ أَنْ يُنْكِحَهَا ، فَلَمْ يَفْعَلْ سَلْمَانُ ، ﴿ وَخَطَبَ بِلَالٌ بِنْتَ الْبُكَيْرِ فَأَبَى إخْوَتُهَا ، فَقَالَ بِلَالٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ : مَاذَا لَقِيت مِنْ بَنِي الْبُكَيْرِ ، خَطَبْت إلَيْهِمْ أُخْتَهُمْ فَمَنَعُونِي وَآذُونِي .

فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَجْلِ بِلَالٍ ؛ فَبَلَغَهُمْ الْخَبَرُ ، فَأَتَوْا أُخْتَهُمْ ، فَقَالُوا : مَاذَا لَقِينَا مِنْ سَبَبِك ، غَضِبَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَجْلِ بِلَالٍ .

فَقَالَتْ أُخْتُهُمْ أَمْرِي بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ فَزَوَّجَهَا بِلَالًا ﴾ ، وَقَالَ النَّبِيُّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَبِي هِنْدٍ حِينَ حَجَمَهُ : ﴿ أَنْكِحُوا أَبَا هِنْدٍ وَأَنْكِحُوا إِلَيْهِ وَهُوَ مَوْلَى بَنِي بَيَاضَةَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(450/719)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة الحجرات

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (1)

قوله : ﴿ لَا تُقَدِّمُوا ﴾ : العامَّةُ على ضمِّ التاءِ وفتحِ القافِ وتشديدِ الدالِ مكسورةً ، وفيها وجهان ، أحدُهما : أنَّه متعدٍّ ، وحُذِفَ مفعولُه : إمَّا اقتصاراً كقولهم : هو يعطي ويمنع ، ﴿ وكُلُوا واشربوا ﴾ [البقرة : 187] ، وإمَّا اختصاراً للدلالةِ عليه أي : لا تُقَدِّموا ما لا يَصْلُحُ . والثاني : أنه لازمٌ نحو : وَجَّه وتَوَجَّه ، ويَعْضُدُه قراءةُ ابنِ عباس والضَّحَّاك " لا تَقَدَّمُوا " بالفتح في الثلاثة ، والأصلُ : لا تَتَقَدَّمُوا فحذفَ إحدى التاءَيْن . وبعضُ المكِّيين " لا تَقَدَّمُوا " كذلك ، / إلاَّ أنَّه بتشديد التاء كتاءات البزي . والمتوصَّلُ إليه بحرفِ الجرِّ في هاتَيْن القراءتَيْن أيضاً محذوفٌ أي : لا تَتَقَدَّموا إلى أمرٍ من الأمور . وقُرِىء "

لا تُقْدِموا " بضمّ التاءِ وكسرِ الدالِ مِنْ أَقْدَمَ أي : لا تُقْدِموا على شيءٍ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (2)

قوله : ﴿ أَن تَحْبَطَ ﴾ : مفعولٌ من أجلِه . والمسألةُ من التنازعِ لأنّ كُلاًّ مِنْ قولِه : " لا تَرْفَعوا " و ﴿ لا تَجْهَرُوا لَهُ ﴾ يَطْلُبه من حيث المعنى ، فيكون معمولاً للثاني عند البصريين في اختيارِهم ، وللأولِ عند الكوفيين . والأولُ أَصَحُّ للحَذْفِ من الأولِ أي : لأَنْ تحبطَ . وقال أبو البقاء : " إنها لامُ الصيرورة " ولا حاجةَ إليه . ﴿ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ حالٌ .

(451/719)

إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (3)

قوله : ﴿ أولئك ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونَ " أولئك " مبتدأ ، و " الذين " خبرُه . والجملةُ خبر " إنَّ " ويكونُ " لهم مغفرةٌ " جملةً أخرى : إمَّا مستأنفةً وهو الظاهرُ ، وإمَّا حاليةً . ويجوزُ أَنْ يكونَ " الذين امتحنَ " صفةً لـ " أولئك " أو بدلاً منه أو بياناً ، و " لهم مغفرةٌ " جملةٌ خبريةٌ

. ويجوز أَنْ يكونَ " لهم " هو الخبرَ وحده ، و " مغفرةٌ " فاعلٌ به .

إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (4)

قوله : ﴿ مِن وَرَآءِ ﴾ : " مِنْ " لابتداءِ الغايةِ . وفي كلامِ الزمخشريِّ ما يمنعُ أنَّ " مِنْ " تكونُ لابتداءِ الغاية وانتهائِها . قال : " لأنَّ الشيءَ الواحدَ لا يكونُ مَبْدأً للفعلِ ومنتهىً له " وهذا أثبتَه بعضُ الناس ، وزعم أنَّها تَدُلُّ على ابتداءِ الفعلِ وانتهائِه في جهةٍ واحدةٍ نحو : " أَخَذْتُ الدرهمَ من الكيس " . والعامَّةُ على " الحُجُرات " بضمتين . وأبو جعفر وشَيْبَةُ بفتحها . وابنُ أبي عبلةَ بإسكانها وهي ثلاثُ لغاتٍ تقدَّم تحقيقُها في البقرة في قوله : ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ﴾ [البقرة : 17] . والحُجْرَةُ فُعْلَة بمعنى مَفْعولة كغُرْفة بمعنى مَغْروفة .

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5)

قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ ﴾ : قد تقدَّم مِثْلُه . وجعله الزمخشري فاعلاً بفعلٍ مقدرٍ أي : ولو ثَبَتَ صبرُهم ، وجعل اسمَ كان ضميراً عائداً على هذا الفاعلِ . وقد تقدَّم أنَّ مذهب سيبويهِ أنها في محلِّ رفع بالابتداءِ ، وحينئذٍ يكون اسمُ كان ضميراً عائداً على صبرِهم المفهومِ من الفعل .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (6)

قوله : ﴿ أَن تُصِيبُواْ ﴾ : مفعولٌ له ، كقوله : ﴿ أَن تَحْبَطَ ﴾ [الحجرات : 2] .

وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7)

قوله : ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ حالاً : إمَّا من الضميرِ المجرور مِنْ " فيكم " ، وإمَّا من المرفوعِ المستترِ في " فيكم " لأدائِه إلى تنافُرِ النَّظْمِ . ولا يَظْهر ما قاله بل الاستئناف واضحٌ أيضاً . وأتى بالمضارعِ بعد " لو " لدلالةً على أنه كان في إرادتِهم استمرارُ عملِه على ما يتقوَّلون .

قوله : ﴿ ولكن الله ﴾ الاستدراكُ هنا من حيث المعنى لا من حيث اللفظُ ؛ لأنَّ مَنْ حُبِّبَ إليه الإيمانُ غايَرَتْ صفتُه صفةَ مَنْ تقدَّم ذِكْرُه .

وقوله : ﴿ أولئك هُمُ ﴾ التفاتٌ من الخطاب إلى الغَيْبَةِ .

فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (8)

قوله : ﴿ فَضْلاً ﴾ : يجوز أَنْ ينتصِبَ على المفعولِ من أجله . وفيما ينصِبُه وجهان ، أحدهما : قوله : ﴿ ولكن الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ﴾ ، وعلى هذا فما بينهما اعتراضٌ مِنْ قولِه : ﴿ أولئك هُمُ الراشدون ﴾ . والثاني : أنه الراشدون . وعلى هذا فكيف جازَ مع اختلاف الفاعلِ لأنَّ فاعلَ الرُّشدِ غيرُ فاعلِ الفضل ؟ فأجاب الزمخشريُّ : بأنَّ الرُّشْدَ لَمَّا وقع عبارةً عن التحبيب والتزيين والتكريه مسندةً إلى أسمائِه صار الرُّشد كأنه فِعْلُه " .

وجَوَّزَ أيضاً أَنْ ينتصِبَ بفعلٍ مقدرٍ أي : جرى ذلك أو كان ذلك . قال الشيخ : " وليس مِنْ مواضِعِ إضمارِ "كان" ، وجَعَلَ كلامَه الأولَ اعتزالاً . وليس كذلك ؛ لأنه أراد الفعلَ المسندَ إلى فاعِله لفظاً ، وإلاَّ فالتحقيقُ أنَّ الأفعالَ كلَّها مخلوقةٌ للهِ تعالى ، وإنْ كان الزمخشريُّ غيرَ موافقٍ عليه . ويجوزُ أَنْ ينتصِبَ على المصدرِ المؤكِّد لمضمونِ الجملة السابقةِ لأنها فضلٌ أيضاً . إلاَّ أنَّ ابنَ عطيةَ جعله من المصدرِ المؤكِّد لنفسه . وجَوَّزَ الحوفيُّ أن ينتصبَ على الحالِ وليسَ بظاهرٍ ، ويكون التقديرُ : مُتَفَضِّلاً مُنَعِّماً ، أو ذا فضلٍ ونِعْمة .

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (9)

قوله : ﴿ اقتتلوا ﴾ : عائدٌ على أفراد الطائفتَيْن ، كقوله : ﴿ هذان خَصْمَانِ اختصموا

﴾ [الحج : 19] وفي " بينهما " على اللفظ . وقرأ ابن أبي عبلة " اقْتَتَلَتا " مراعِياً لِلَّفْظ . وزيد بن علي وعبيد بن عمير " اقتتلا " أيضاً ، إلاَّ أنه ذَكَّر الفعلَ باعتبار الفريقَيْن ، أو لأنه تأنيثٌ مجازيٌّ .

(454/719)

قوله : ﴿ حتى تفيء ﴾ العامَّةُ على همزِه مِنْ فاءَ يَفيء أي : رَجَعَ كجاء يجيْء . والزهري بياءٍ مفتوحةٍ كمضارعِ وَفَى ، وهذا على لغةِ مَنْ يَقْصُرُ فيقول : جا ، يَجي ، دونَ همزٍ ، وحينئذ فَتَحَ الياءَ لأنها صارَتْ حرفَ الإعراب . /

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (11)

قوله : ﴿ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ : العامَّةُ على التثنيةِ ، وزيد بن ثابت وعبد الله والحسن وحماد بن سلمة وابن سيرين " إخوانِكم " جمعاً على فِعْلان . وقد تقدَّم أنَّ " الإخوان " تَغْلِبُ في الصداقة ، والإِخْوَة في النَّسَب . وقد يُعْكس كهذه الآيةِ . ورُوي عن أبي عمرو وجماعةٍ "

إخْوَتِكم " بالتاء مِنْ فوقُ . وقد رُوي عن أبي عمرو أيضاً القراءاتُ الثلاثُ .

وتقدَّم الخلاف في " القوم " . وجَعَله الزمخشريُّ هنا جمعاً ل " قائم " قال : "كصَوْمٍ وزَوْرٍ جمع صائم وزائر " وفَعْل ليس من أبنية التكسير إلاَّ عند الأخفش نحو : رَكْب وصَحْب .

وقرأ أُبَيٌّ وعبد الله " عَسَوْا " و " عَسَيْنَ " جعلاها ناقصةً وهي لغةُ تميمٍ . وقرأ العامَّةُ لغة الحجاز . وقرأ الحسن والأعرج " ولا تَلْمُزوا " بالضمِّ . واللَّمْزُ بالقول وغيرِه ، والهَمْزُ باللسانِ فقط .

(455/719)

قوله : ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا ﴾ التنابُزُ : تفاعُلٌ من النَّبْزِ ، وهو التداعِي بالنَّبْزِ . والنَّزْبُ ، وهو مقلوبٌ منه لقلةِ هذا وكثرةِ ذاك ويُقال : تنابَزُوا وتنازَبُوا إذا دعا بعضُهم بعضاً بلقَبِ سُوْءٍ . وأصلُه من الرَّفْعِ كأنَّ النَّبْزَ يَرْفَعُ صاحبَه فيشاهَدُ ، واللَّقَبُ : ما أَشْعَرَ بضَعَةِ المُسَمَّى كقُفَّة وبَطَّة ، أو رِفْعَتِه كالصِّدِّيق وعتيق والفاروق وأسدِ الله وأسدِ رسوله ، وله مع الاسم والكنيةِ أحكامٌ ذكَرْتُها في النحو .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ

قوله : ﴿ إِثْمٌ ﴾ : جعلَ الزمخشريُّ همزه بدلاً من واوٍ . قال : " لأنه يَثِمُ الأعمال أي : يكسِرُها " وهذا غيرُ مُسَلَّمٍ بل تلك مادةٌ أخرى . ولا تَجَسَّسوا : التجسُّسُ : التتبُّع ، ومنه الجاسوسُ والجَسَّاسَةُ . وجَواسُّ الإِنسان وحواسُّه : مشاعِرُه : ، وقد قرأ هنا بالحاء الحسنُ وأبو رجاء وابن سيرين .

قوله : ﴿ مَيْتاً ﴾ نصبٌ على الحالِ من " لحم " أو " أخيه " وتقدَّم الخلافُ في " مَيْتا " .

(456/719)

قوله : ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ قال الفراء : " تقديرُه : فقد كرهتموه فلا تَفْعَلُوه " . وقال أبو البقاء : " المعطوفُ عليه محذوفٌ تقديره : عَرَضَ عليكم ذلك فكرِهْتموه ، والمعنى : يُعْرَضُ عليكم فتكرهونه . وقيل : إنْ صَحَّ ذلك عندكم فأنتم تَكْرهونه " وقيل : هو خبرٌ بمعنى الأمرِ كقولهم : " اتقى اللَّهَ امرؤٌ فَعَلَ خيراً يُثَبْ عليه " . وقرأ أبو حيوةَ والجحدري " فَكُرِّهْتُموه " بضمِّ الكاف وتشديدِ الراءِ عُدِّيَ بالتضعيفِ إلى ثانٍ ، بخلافِ قولِه أولاً : ﴿ وكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكفر ﴾ [الآية : 7] ، فإنه وإنْ كان مُضَعَّفاً لم يَتَعَدَّ إلاَّ لواحدٍ لتضمُّنِه معنى بَغَّض .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)

قوله : ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ ﴾ : الشُّعوب : جمع شَعْب وهو أعلى طبقاتِ الأنسابِ ، وذلك أن طبقاتِ النَّسَبِ التي عليها العربُ ستٌّ : الشَّعْبُ والقبيلة والعِمارة والبَطْنُ والفَخِذُ والفَصيلةُ ، وكلُّ واحدٍ يَدْخُل فيما قبله ، فالفصيلةُ تَدْخُلُ في الفَخِذ ، والفَخِذُ في البطن . وزاد بعضُ الناسِ بعد الفَخِذ العشيرة ، فجعلها سبعاً وسُمِّيَ الشَّعبُ شعباً لتشَعُّبِ القبائلِ منه ، والقبائل سُمِّيَتْ بذلك لتقابُلها ، شُبِّهَتْ بقبائلِ الرأسِ وهي قطعٌ متقابلةٌ . وقيل : الشُّعوب في العجم ، والقبائل في العرب ، والأسباطُ في بني إسرائيل .

وقيل : الشعبُ النَسبُ الأبعدُ ، والقبيلةُ الأقربُ . وأنشد :

4086 قبائلُ مِنْ شُعوبٍ ليس فيهِمْ . . . كريمٌ قد يُعَدُّ ولا نَجيبُ

والنسَبُ إلى الشَّعْب " شَعوبيَّة " بفتح الشين ، وهم جيلٌ يَبْغَضون العربَ .

(457/719)

قوله : ﴿ لتعارفوا ﴾ العامَّةُ على تخفيفِ التاء ، والأصلُ : لتتعارفوا فحذفَ إحدى التاءَيْن . والبزيُّ بتشديدِها . وقد تقدَّم ذلك في البقرة . واللام متعلقةٌ بجَعَلْناكم . وقرأ

الأعمش بتاءَيْن وهو الأصلُ الذي أدغمه البزيُّ وحَذَفَ منه الجمهورُ . وابن عباس : " لِتَعْرِفُوا " مضارعَ عَرَفَ . والعامَّةُ على كسرِ " إنَّ أكْرَمَكم " . وابن عباس على فتحها : فإنْ جَعَلْتَ اللامَ لامَ الأمرِ وفيه بُعْدٌ اتَّضَحَ أَن يكونَ قولُه : " أنَّ أَكْرَمَكم " بالفتح مفعولَ العِرْفان ، أَمَرَهم أَنْ يَعْرِفوا ذلك ، وإنْ جَعَلْتَها للعلة لم يظهرْ أَنْ يكونَ مفعولاً ؛ لأنه لم يَجْعَلْهم شعوباً وقبائلَ ليعرِفوا ذلك ، فينبغي أن يُجْعَلَ المفعولُ محذوفاً واللامُ للعلة أي : لِتَعْرِفوا الحقَّ ؛ لأنَّ أكرمَكم .

قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (14)

قوله : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ ﴾ : هذه الجملةُ مستأنفةٌ أخبر تعالى بذلك . وجعلها الزمخشريُّ حالاً من الضميرِ في " قولوا " . وقد تقدَّم الكلامُ في " لَمَّا " وما تدلُّ عليه والفرقُ بينها وبينَ " لم " . وقال الزمخشري : " فإنْ قلت : هو بعدَ قولِه : " لم تؤمنوا " يُشْبِهُ التكريرَ من غير استقلالٍ بفائدةٍ مُتَجدِّدة . قلت : ليس كذلك فإنَّ فائدةَ قولِه : " لم تؤمنوا " هو تكذيبُ دَعْواهم . و " لَمَّا يَدْخُل " توقيتٌ لِما أُمِروا به أَنْ يقولوه " ثم قال : " وما في " لَمَّا " مِنْ معنى التوقع دليلٌ على أنَّ هؤلاء قد آمنوا فيما بعدُ " . قال الشيخ : " ولا أدري مِنْ أيِّ وجه يكونُ المنفيُّ ب " لَمَّا " يقعُ بعدُ " ؟ قلت : لأنَّها لنفيِ قد فَعَلَ ، و " قد " للتوقع .

قوله : ﴿ لاَ يَلِتْكُمْ ﴾ قرأ أبو عمرو و "لا يَأْلِتْكُمْ" بالهمز مِنْ أَلَتَه يَأْلُتُه بالفتح في الماضي ، والكسرِ والضم في المضارع ، والسوسيُّ يُبْدل الهمزةَ ألفاً على أصلِه . والباقون "يَلِتْكم" مِنْ لاته يَليتُه كباعه يَبيعه ، وهي لغةُ الحجازِ ، والأولى لغة غطفانَ وأَسَدٍ . وقيل : هي مِنْ وَلَتَه يَلِتُه كوَعَده يَعِدُه ، فالمحذوفُ على القولِ الأول عينُ الكلمةِ ووزنُها يَفِلْكم ، وعلى الثاني فاؤُها ووزنها يَعِلْكم . ويقال أيضاً : ألاته يُليته/ كأَباعه يُبيعه ، وآلَتَه يُؤْلِتُه كآمَنَ يُؤْمِنُ . وكلُّها لغاتٌ في معنى : نَقَصَه حَقَّه . قال الحطيئة :

4087 أَبْلِغْ سَراةَ بني سعدٍ مُغَلْغَلَةً . . . جَهْدَ الرسالةِ لا أُلْتاً ولا كَذِباً

وقال رؤبة :

4088 وليلةٍ ذاتِ ندىً سَرَيْتُ . . . ولم يَلِتْني عن سُراها ليتُ

أي : لم يَمْنَعْني ويَحْبِسْني .

قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (16)

قوله : ﴿ أَتُعَلِّمُونَ ﴾ : هذه منقولةٌ بالتضعيفِ مِنْ عَلِمْتُ به بمعنى شَعَرْتُ به ، فلذلك تَعَدَّتْ لواحدٍ بنفسِها ولآخرَ بالباء .

يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (17)

(459/719)

قوله : ﴿ أَنْ أَسْلَمُواْ ﴾ : يجوز فيه وجهان ، أحدهما : أنَّه مفعولٌ به ؛ لأنه ضُمِّن "يَمُنُّون" معنى يَعْتَدُّون " ، كأنه قيل : يَعْتَدُّون عليك إسلامَهم مانِّيْنَ به عليك ؛ ولهذا صَرَّح بالمفعول به في قولِه : ﴿ لاَّ تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ ﴾ أي : "لا تَعْتَدُّوا عليَّ إسلامَكم "كذا استدلَّ الشيخُ بهذا . وفيه نظرٌ ؛ إذ لقائلٍ أَنْ يقول : لا نُسَلِّمُ انتصابَ "إسلامَكم" على المفعول به ، بل يجوزُ فيه المفعولُ مِنْ أجلِه ، كما يجوزُ في محلِّ "أَنْ أَسْلَموا" وهو الوجهُ الثاني فيه ، أي : يمنُّون عليك لأجلِ أَنْ أَسْلَمُوا ، فكذلك في قولِه : ﴿ لاَّ تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ ﴾ وشروطُ النصبِ موجودةٌ ، والمفعولُ له متى كان مضافاً استوى جَرُّه بالحرفِ ونصبُه .

وقوله : ﴿ أَنْ هَدَاكُمْ ﴾ كقولِه : "أن أَسْلَموا" . وقرأ زيد بن علي "إذ هَداكم" ب "إذ" مكانَ "أَنْ" وهي تفيد التعليلَ . وجوابُ الشرطِ مقدرٌ أي : فهو المانُّ عليكم لا أنتم عليه وعليَّ .

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (18)

قوله : ﴿ واللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ : ابن كثير الغَيْبة نظراً لقوله : "يَمُنُّون" وما بعده ، والباقون بالخطابِ نظراً إلى قوله : ﴿ لاَّ تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ ﴾ إلى آخره . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ الدر المصون حـ 10 صـ 15.5 ﴾

(460/719)

لطيفة فى منَّ ومِنْ ومَنْ

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى منّ)

مَنَّ عليه مَنًّا ومِنَّة ومِنّينَى : امتنَ .

قال تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لاَّ تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ ﴾ ، فالمِنَّة منهم بالقول ، ومنَّة الله عليهم بالفعل وهو هدايته إيَّاهم ، وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ ﴾ أى أثقلهم بالنعمة الثقيلة .

وذلك بالحقيقة لا يكون إلا الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ المنُّ إشارة إلى الإطلاق بغير عِوَض .

وقوله : ﴿ فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ ﴾ ، أى أنفق .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ فقد قيل : هو المِنَّة بالقول ، وذلك أَن يَمْتَنَّ به ويَستكثره ، وقيل : معناه : لا تعط مبتغياً أَكثر منه .

ومنه قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أَى غير مقطوع ، من قولهم مَنَّ الحبل : قطعه ، وقيل : غير محسوب ولا معتدّ به / من قولك : مَنَّ عليه إذا امتَنَّ ، وقيل : غير منقوص ، ومنه قيل للمَنِيَّة : المَنُون ، لأَنَّها تَنقص العدد ، وتقطع المَدَد .

وقيل : إن المنَّة تكون بالقول ، وهى من هذا لأَنها تقطع النعمة ، وتقتضى قطع الشكر

وأَمَّا المَنُّ فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ﴾ فهو طَلٌّ ينزل من السّماء حُلْو ، ينزل على أَصناف من الشجر ؛ كالصفصاف ونحوه .

وقيل : المنُّ والسّلوى كلاهما إشارة إلى ما أَنعم الله به عليهم ، وهما بالذات شىء واحد ، ولكن سمَّاه مَنًّا من حيث إنه امتَنَّ به عليهم ، وسمَّاه سَلْوَى من حيث إنَّه كان لهم به التسلىّ .

والمَنِين : الرجل الضعيف ، والرجل القوىّ من الأَضداد .

والمَنَّان من أَسماءِ الله تعالى ، ومعناه : المعطِى ابتداء .

والمُمِنَّانِ : المَلَوانِ .

(بصيرة فى من)

وهى على خمسة أَوجه :

1- شرطيَّة ، نحو ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ .

2- واستفهاميَّة نحو : ﴿ مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ ، ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ .

وإذا قيل : مَن يفعلُ هذا إلاَّ زيد ؟ فهى مَن الاستفهاميّة ، أُشْرِبَتْ معنى النَّفى .

ومنه : ﴿ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ .

ولا يتقيد جواز ذلك بأَن تقدّمها الواو ، خلافاً لبعضهم بدليل قوله تعالى : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ .

3- وموصولة ، نحو : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ ﴾ أَى الذى فى السَّماوات والذى فى الأَرض .

4- وموصوفة نكرة ، ولهذا دخلت عليها رُبّ فى نحو قوله :

*رُبّ مَن أَنضجتُ غيظاً قلبَه * قد تَمنَّى لِىَ موتا لم يُطَع*

ووُصف بالنكرة فى نحو قول كعب بن مالك [وقيل] لحسَّان :

*فكَفَى بنا فضلا على مَنْ غيرِنا * حُبُّ النبىّ محمدٍ إِيّانا *

فى رواية الجرّ .

وقوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا ﴾ جزم جماعة أنَّها موصوفة ، وآخرون بأنها موصولة .

5- وزائدة كقول عنترة :

*ياشاة مَن قَنصٍ لمن حلَّت له * حَرُمت عليّ وليتها لم تحرم*

المراد بالشَّاة المرأة .

(بصيرة فى من)

وهى تأتى على خمسة عشر وجهاً :

لابتداء الغاية ، وهو الغالب ؛ حتى قيل : إن سائر معانيها راجعة إليه .

ويقع لذلك فى غير الزَّمان ، نحو : ﴿ مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ ، ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ ﴾

قيل فى الزمان أيضاً نحو قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ ، وفى الحديث : "فمُطِرنا من الجُمُعة إلى الجمعة" .

الثَّانى : التبغيض نحو : ﴿ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ﴾ وعلامتها إمكان سدّ (بعضٍ) مسدّها ؛ كقراءة ابن مسعود ﴿ حَتَّى تُنْفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ .

الثالث ، بيان الجنس .

وكثيرًا ما تقع بعد ما ومهما .

وهما بها أَولى ؛ لإفراط إيهامها نحو : ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا ﴾ ، ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ ، ﴿ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ ﴾ .

ومن وقوعها بعد غيرهما ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ ، ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ ، ونحو : ﴿ فَاجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ ﴾ .

وأنكر مجئ (مِنْ) لبيان الجنس قوم ، وقالوا : هى فى ﴿ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ و ﴿ مِنْ سُنْدُسٍ ﴾ للتبعيض ، وفى ﴿ مِنَ الأَوْثَانِ ﴾ ، والمعنى : فاجتنبوا من الأوثان الرّجس ، وهو عبادتها .

وهذا تكلّف .

وقوله : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً ﴾ للتبيين ، لا للتبعيض كما زعم بعض الزنادقة الطاعنين فى بعض الصّحابة .

والمعنى : الذين آمنوا هم هؤلاءِ .

ومثل قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ / أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ ، وكلُّهم محسن مُتَّق ، ﴿ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، والمقول فيهم ذلك كلّهم كفّار .

الرابع : التعليل ، نحو : ﴿ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُواْ ﴾ .

* وذلك من نبإٍ جاءَنى *

الخامس : البدل : ﴿ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ ﴾ ، ﴿ لَجَعَلْنَا مِنكُمْ مَّلاَئِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾ لأَن الملائكة لا تكون من الإِنْسِ ، ﴿ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً ﴾ أَى بدل طاعة الله ، أَو بَدَل رحمة الله ؛ "ولا ينفع ذا الجَدّ مِنْكَ الجَدّ" .

السّادس : مرادفة عن : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ﴿ يا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هذا ﴾ .

(463/719)

السابع : مرادفة الباء : ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ .

الثامن : مرادفة فى ، نحو : ﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأَرْضِ ﴾ ، ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾ .

التاسع : موافقة عِنْد : ﴿ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً ﴾ قاله أَبو عبيدة .

وقد قدّمنا أَنها للبدل .

العاشر : مرادفة على ، نحو : ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ ﴾ ، وقيل على التضمين ، أَى معناه منهم

بالنصر .

الحادى : عشر الفصل ، وهى الدّاخلة على ثانى المتضادّين : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴾ ، ﴿ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ .

الثانى عشر : الغايةِ ، تقول : رأَيته من ذلك الموضع ؛ فجعلته غاية لرؤْيتك أَى محلاًّ للابتداءِ والانتهاءِ .

الثالث عشر : التنصيص على العموم ، وهى الزائدة (فى) نحو : ما جاءَنى من رجل .

الرابع عشر : توكيد العموم ، وهى الزائدة [فى] نحو : ما جاءَنى من أَحد .

وشرط زيادتها فى النَّوعين ثلاثة أُمور .

أَحدها : تقدّم نفى أَو نهى ، أَو استفهام بهل ، أَو شرط ، نحو : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا ﴾ ، ﴿ مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ﴾ ، وقول الشاعر :

*ومهما يكن عند امرئٍ من خليقة * وإِن خالها تخفى على النَّاس تُعْلَم*

الثانى : تنكير مجرورها .

الثالث : كونه فاعلاً أَو مفعولاً أَو مبتدأ .

وقيل فى قوله تعالى : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ﴾ : إِنَّ (من) زائدة .

وقال أَبو البقاءِ فى قوله تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ : إِن (مِن) زائدة و (شىءٍ) فى موضع المصدر أَى تفريطاً .

(464/719)

وَعدَّ أَيضاً من ذلك قوله تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ فقال : يجوز كون (آية) حالاً و (من) زائدة ، واستدلَّ بنحو : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ، ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ ، ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ ، ﴿ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ .

وخرّج الكسائى على زيادتها قوله صلَّى الله عليه وسلَّم : "إِن مِن أَشدّ الناس عذاباً يوم القيامة عند الله المصوّرون" ، وكذا ابن جنّى قراءَة بعضهم : ﴿ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ﴾ بتشديد (لَمَّا) ، والفارسىُّ فى قوله تعالى : ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ ﴾ .

ويجوّز كون من ومن الأَخيرتين زائدة ، وقال به بعضهم فى : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

وأَمّا قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ ﴾ فمِن الأَولى للابتداءِ ، والثانية للتعليل .

وقوله : ﴿ مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا ﴾ ، مِن الأُولى للابتداءِ ، والثانية إمّا كذلك فالمجرور بدل بعض وأَعيد الجار ، وإمّا لبيان الجنس ، فالظرف حال ، والمنبَت محذوف ، أَي مما تُنبته كائناً / من هذا الجنس .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ ، (مِن الأُولى مثلها فى زيد أَفضل من عمرو ، و (من) الثانية للابتداءِ .

وقوله : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَآءِ ﴾ من للابتداءِ ، والظرف صفة لشهوة أَى شهوة مبتدأَة من دونهنّ .

وقوله : ﴿ مَّا

يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ الآية فيها (مِنْ) ثلاث مرات : الأُولى للبيان ؛ لأَن الكافرين نوعان كتابيّون ومشركون ، والثانية زائدة ، والثالثة لابتداءِ الغاية .

(465/719)

وقوله : ﴿ لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴾ ، ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِّمَّن يُكَذِّبُ ﴾ الأُولى فيهما للابتداءِ ، والثانية للتبيين .

وقوله تعالى : ﴿ نُودِيَ مِن شَاطِىءِ الْوَادِي الأَيمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ ، من

فيهما للابتداءِ ، ومجرور الثانية بدل من مجرور الأُولى بدل اشتمال ؛ لأَنَّ الشجرة كانت ثابتة بالشاطىءِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 527. 535 ﴾

(466/719)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة الحجرات

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " اسم كريم من تنصل إليه من زلاته تفضل عليه بنجاته ، ومن توسل إليه بطاعاته تطول عليه درجاته .

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ واتَّقُوا اللَّهَ إن الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ : شهادةٌ للمنادَى بالشَّرف .

﴿ لاَ تُقَدِّمُواْ ﴾ أَمْرٌ بتحمُّل الكُلَف . قدَّمَ الإكرام بالشرف على الإلزام بالكُلَف أي لا تقدموا بحكمكم ﴿ بَيْنَ يَدَىِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ : أي لا تقضوا أمراً من دون الله ورسوله أي

لا تعملوا من ذات أنفسِكم شيئاً .

ويقال : فقوا حيثما وُقِفْتم ، وافعلوا ما به أُمِرْتُم ، وكنوا أصحابَ الاقتداءِ والاتّباع . . لا أربابَ الابتداءِ والابتداع .

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَرْفَعُواْ أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِى وَلاَ تَجْهَرُواْ لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ .

أَمرَهم بحفضِ حرمته ومراعاةِ الأدب في خدمته وصحبته ، وألَّا ينظروا إليه بالعين التي ينظرون بها إلى أمثالهم . وأنه إذا كان بخُلُقِهِ يُلاينُهم فينبغي ألا يتبسَّطوا معه مجاسرين ، ولا يكونوا مع ما يعاشرهم به مِنْ تَخَلُّقِه عن حدودِهم زائدين .

ويقال : لا تبدأوه بحديثٍ حتى يُفَاتِحَكم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

(467/719)

هم الذين تقع السكينةُ عليهم من هيبة حضرته ، أولئك هم الذين امتحن اللَّهُ قلوبَهم للتقوى بانتزاع حُبِّ الشهوات منها ، فاتقوا سوءَ الأخلاقِ ، وراعوا الأدبَ .

ويقال : هم الذين انسلخوا من عادات البشرية .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

أي لو عرفوا قَدْرَكَ لَمَا تركوا حُرْمَتَك ، والتزموا هَيبَتَك .

ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم ولم يستعجلوا ، ولم يوقظوك وقت القيلولة بمناداتهم لكان خيراً لهم .

أمَّا أصحابه – صلواتُ الله عليه وسلامه – الذين يعرفون قدْره فإنَّ احدهم – كما في الخبر : "كانه يَقْرَعُ بابَه بالأظافر "

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُواْ قَوْمَاً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ .

دلَّت الآية على تَرْكِ السكون إلى خَبَرِ الفاسق إلى أن يظهر صِدْقُه .

وفي الآية إشارة إلى تَركِ الاستماعِ إلى كلام الساعي والنَّمامِ والمغتابِ للناس .

والآيةُ تَدُلُّ على قبول خبرِ والواحدِ إذا كان عَدْلاً .

والفاسقُ هو الخارجُ عن الطاعة . ويقال هو الخارج عن حدِّ المروءة .

ويقال : هو الذي ألقى جلبابَ الحياء .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَ

اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ .

(468/719)

أي لو وافقكم محمدٌ رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم في كثير مما تطلبون من لوقعتم في العَنَتِ- وهو الفساد . ولو قَبِلَ قولَ واحدٍ (قَبْلَ وضوحِ الأمر) لأَصابتكم من ذلك شدة . والرسول صلوات الله عليه لا يطيعكم في أكثر الأمور إذا لم يَرَ في ذلك مصلحة لكم وللدين .

﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ ﴾ : الإسلام والطاعة والتوحد ، وزيَّنَها في قلوبكم .

﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ : هذا من تلوين الخطاب .

وفي الآية دليلٌ على صحة قول أهل الحقّ في القَدَر ، وتخصيص المؤمنين بألطافٍ لا يشترك فيها الكفارُ . ولولا أنَّه يوفّر الدواعي للطاعات لَحَصَلَ التفريط والتقصير في العبادات .

﴿ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ : أي فَعَلَ هذا بكم فضلاً منه ورحمةً ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالعَدْلِ

وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ .

تدل الآية على أن المؤمن بفسقه – والفسق دون الكفر – لا يخرج عن الإيمان لأن إحدى الطائفتين – لا محالة – فاسقة إذا اقتتلا .

وتدل الآية على وجوب نصرة المظلوم ؛ حيث قال : ﴿ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى ﴾ .

الإشارة فيه : أن النفس إذا ظَلَمتْ القلب بدعائه إلى شهواتها ، واشتغالها في فسادها فيجب أن يقاتلها حتى تثخن بالجراحة بسيوف المجاهدة ، فإن استجابت إلى الطاعة يُعْفَى عنها لأنها هي المطيَّةُ إلى باب الله .

(469/719)

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ إيقاعُ الصلح بين المتخاصمين مِنْ أوكَد عزائم الدّين .

وإذا كان ذلك واجباً فإنه يدل على عِظَمِ وِزْرِ الواشي والنَّمام ؛ والمصْدَرِ في إفساد ذات البَيْن .

(ويقال إنما يتم ذلك بتسوية القلب مع الله فإن الله إذا علم صِدْق هِمةِ عبدٍ في إصلاح ذات

البيْن) فإنه يرفع عنهم تلك العصبيَّة .

فأما شرط الأخوة : فمِنْ حقّ الأُخُوةِ في الدّين إلا تُحُوجَ أخاك إلى الاستعانة بك أو التماس النصرة عنك ، وألا تُقصّرِ في تَفَقُّدِ أحواله بحيث يشكل عليك موضع حاجته فيحتاج إلى مساءلتك .

ومن حقّه ألا تُلْجِئَه إلى الاعتذار لك بل تبسط عُذْرَه ؛ فإنْ أُشْكِل عليكَ وَجْهُه عُدْت باللائمة على نفسك في خفاء عُذْرِه عليك ومن حقه أنْ تتوبَ عنه إذا أذْنَبَ ، وتَعودَه إذا مرض . وإذا أشار عليك بشيءٍ فلا تُطَالِبْه بالدليل عليه وإبراز الحُجَّة – كما قالوا :

إذا اسْتَنْجدُوا لم يسألوا مَنْ دعاهم . . . لأيَّةِ حَرْبٍ أم لأي مكان

ومِنْ حقّه أَنْ تَحفَظَ عَهْدَه القديم ، وأَنْ تُراعِيَ حقَّه في أهله المتصلين به في المشهد المغيب ، وفي حال الحياة وبعد الممات – كما قيل :

وخليل إن لم يكن . . . منصفاً كُنْتَ منصفا

تتحسَّى له الأمَرَّ . . . يْن وكُنْ ملاطفا

إنْ يَقُل لكَ استوِ احترفْ . . . ت رضًى لا تكلُّفا

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَآءٌ مِنْ نِسَآءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الإِسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

نهى اللَّهُ – سبحانه تعالى – عن ازدراءِ الناس ، وعن الغَيْبَةِ ، وعن الاستهانةِ بالحقوق ، وعن تَرْكِ الاحترام .

﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ : أي لا يَعِيبَنَّ بعضُكم بعضاً ، كقوله : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [النساء : 29] .

ويقال : ما استصغر أحدٌ أحداً إلا سُلِّطَ عليه . ولا ينبغي أن يُعْتَبَر بظاهر أحوال الناس فإنَّ في الزوايا خبايا . والحقُّ يستر أولياءَه في حجابِ الضّعَة ؛ وقد جاء في الخبر :

" رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين لا يُؤْبَهُ له لو أقسم على الله لأَبَرَّه "

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

النَّفْسُ لا تَصْدُقُ ، والقلبُ لا يَكْذِبُ . والتمييز بين النفس والقلب مُشْكِلٌ ومَنْ بَقِيَتْ عليه من حظوظه بقيَّةٌ – وإنْ قَلَّتْ – فليس له أن يَدعَّى بيانَ القلب بل هو بنفسه ما دام عليه شيءٌ من نَفْسِه ، ويجب أن يَتَّهِمَ نَفْسَهُ في كل ما يقع له من نقصان غيره . . هذا أمير المؤمنين

عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال وهو يخطب . "كلُّ الناس أفقهُ من عمر . . . أمرأةٌ أفقهُ من عمر" .

﴿ وَلاَ تَجَسَّسُواْ ﴾ والعارف لا يتفرغ من شهود الحقّ إلى شهود الخَلْق . . فكيف يتفرغ إلى تجَسُّسِ أحوالهم ؟ وهو لا يتفرغ إلى نَفْسِه فكيف إلى غيره ؟ ﴿ وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾ : لا تحصل الغيبة للخَلق إلاَّ من الغيبةِ عن الحقّ .

(471/719)

﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً ﴾ جاء في التفسير أن المقصود بذلك الغيبة ، وعلى ذلك يدل ظاهر الآية . وأَخَسُّ الكفّار وأَقَلُّهم قَدْراً مَنْ يأكل الميتةَ . . وعزيزٌ رؤيةُ مَنْ لا يغتاب أحداً بين يديك .

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

إنَّا خلقناكم أجمعكم من آدمَ وحواء ، ثم جعناكم شعوباً وقبائلَ لتعارفوا لا لتُكَاثروا ولا لتنافسوا . فإذا كانت الأصولُ تربةً ونطفةً وعَلَقَةً . . فالتفاخر بماذا ؟ أبا لحماً المسنون ؟ أم بالنطفة في قرار مكين ؟ أم بما ينطوي عليه ظاهرك مما تعرفه ؟ ! وقد قيل :

إنَّ آثارَنا تَدُل علينا . . . فانْظُروا بَعْدَنا إلى الآثارِ

أم بأفعالك التي هي بالرياء مَشُوبة ؟ أم بأحوالك التي هي بالإعجاب مصحوبة ؟ أم بمعاملاتك التي هي ملأى بالخيانة ؟

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِند اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ ؟ أتقاكم أي أَبْعَدكم عن نَفْسِه ، فالتقوى هي التحرُّر من النفس وأطماعها وحظوظها . فأكرمُ العبادِ عند اللَّهِ مَنْ كان أَبْعد عن نَفْسِه وأَقرَبَ إلى الله تعالى .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَكِن قُولُواْ أَسْلَمْنَا ﴾ .

الإيمانُ هو حياة القلب ، والقلب لا يحيا إلا بعد ذَبْح النَّفس ، والنفوسُ لا تموت ولكنها تغيب ، ومع حضورها لا يَتمُّ خيرٌ ، والاستسلامُ في الظاهر إسلام . وليس كلُّ مَنْ استسلَمَ ظاهراً مخلصٌ في سِرّه .

﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ .

في هذا دليلٌ على أن محلَّ الإيمانِ القلبُ . كما أنه في وصف المنافقين قال تعالى : ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [البقرة : 10] ومَرَضُ القلبِ والإيمانُ ضدان .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ .

جَعَلَ اللَّهُ الإيمانَ مشروطاً بخصالٍ ذَكَرَها ، ونَصَّ عليها بلفظ ﴿ إِنَّمَا ﴾ وهي للتحقيق الذي يقتضي طَرْدَ العِكْسِ ؛ فمَنْ خَرَجَ عن هذه الشرائط التي جَعَلَها للإيمان فمردودٌ عليه قَوْلُه .

والإيمانُ يوجِبُ للعبد الأَمان ، فما لم يكن الإيمان موجباً للأَمانِ فصاحبُه بغيره أَوْلَى .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَاللّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

تدل الآية على أَنَ الوقوف في المسائل الدينية يُعْتَبَرُ واجباً ؛ فالأسامي منه تُؤْخَذ ، والأحكامُ منه تُطْلَب ، وأوامره مُتَّبعة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لاَّ تَمُنُّواْ عَلَى إِسْلاَمَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

مَنْ لاحظ شيئاً من أعماله وأحواله فإنْ رآها مِنْ نَفْسه كان شِرْكاً ، وإنْ رآها لنفسه كان مكراً فكيف يمن العبد بما هو شِرْكٌ أو بما هو مكر ؟ !

والذي يجب عليه قبول المِنَّة . . كيف يرى لنفسه على غيره مِنَّة ؟ ! هذا لعمري فضيحةٌ ! بل المِنَّةُ لله ؛ فهو وليُّ النعمة . ولا تكون المةُ منةً إلا إذا كان العبدُ صادقاً في حله ، فأمَّا إذا

كان معلولاً في صفة من صفاته فهي محنةٌ لصاحبها لا مِنَّة .

والمِنَّة تُكَدِّرُ الصنيعَ إذا كانت من المخلوقين ، ولكن بالمِنَّةِ تطيب النعمة إذا كانت من قبل الله .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

(473/719)

ومَنْ وُقِف ها هنا تكدَّرَ عليه عِيْشُه ؛ إذ ليس يدري ما غيبه فيه ، وفي معنى هذا قول القائل :

أبكي . . . وهل تدرين ما يبكيني ؟ . . . أبكي حذاراً أن تفارقيني . . . وتقطعي وَصْلي وتهجريني . . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 437.446 ﴾

(474/719)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الحجرات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (1)

الإعراب :

(أيّها) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب (الذين) موصول بدل من أيّ – أو عطف بيان عليه – في محلّ نصب (لا) ناهية جازمة (بين) ظرف منصوب متعلّق بـ (تقدّموا) . .

جملة : "يأيّها الذين آمنوا . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : "آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : "لا تقدّموا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : "اتّقوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

وجملة : "إنّ اللّه سميع . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

البلاغة

1 – استعارة تمثيلية : في قوله تعالى "لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ" .

استعارة تمثيلية ، للقطع بالحكم بلا اقتداء ومتابعة لمن يلزم متابعته ، تصويرا لهجنته وشناعته بصورة المحسوس فيما نهوا عنه ، كتقدم الخادم بين يدي سيده في سيره ، حيث لا

مصلحة فالمراد : لا تقطعوا أمرا وتجزموا به وتجترئوا على ارتكابه قبل أن يحكم اللّه تعالى ورسوله (صلى اللّه عليه وسلم) به ويأذنا فيه .

2 - الحذف : في قوله تعالى " لا تُقَدِّمُوا " .

حيث حذف مفعول تقدّموا ، وذلك لأمرين : أحدهما : أن يحذف ليتناول كلّ ما يقع في النفس مما يقدم . والثاني : أن لا يقصد قصد مفعول ولا حذفه ، ويتوجه بالنهي إلى نفس التقدمة ، كأنه قيل : لا تقدموا على التلبس بهذا الفعل ، ولا تجعلوه منكم بسبيل ، كقوله تعالى " هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ " .

[سورة الحجرات (49) : الآيات 2 إلى 3]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (2) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (3)

الإعراب :

(لا) ناهية جازمة (فوق) ظرف منصوب متعلّق بـ (ترفعوا) ، (الواو) عاطفة (لا) مثل

الأولى (له) متعلّق بحال من فاعل تجهروا (بالقول) متعلّق بـ (تجهروا) ، (كجهر) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق " 1 " ، (لبعض) متعلّق بـ (جهر) (أن) حرف مصدريّ ونصب (الواو) حاليّة (لا) نافية .

جملة : " يأيها الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لا ترفعوا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

---

(1) أو بمحذوف حال .

وجملة : " لا تجهروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

وجملة : " تحبط أعمالكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

والمصدر المؤوّل (أن تحبط) في محلّ نصب مفعول لأجله بحذف مضاف أي خشية أن تحبط أعمالكم .

وجملة : " أنتم لا تشعرون " في محلّ نصب حال .

وجملة : " لا تشعرون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنتم) .

3 – (عند) ظرف منصوب متعلّق بـ (يغضّون) ، (أولئك) مبتدأ خبره (الذين) " 1 " (للتقوى) متعلّق بـ (امتحن) بحذف مضاف أي لظهور التقوى (لهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (مغفرة) . .

وجملة : " إنّ الذين يغضّون . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " يغضّون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " أولئك الذين . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " امتحن اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : " لهم مغفرة . . . " لا محلّ لها استئناف بياني " 2 " .

البلاغة

التكرير : في قوله تعالى " يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا " .

إعادة النداء عليهم : استدعاء منهم لتجديد الاستبصار عند كلّ خطاب وارد ، وتطرية الإنصات لكلّ حكم نازل ، وتحريك لئلا يفتروا ويغفلوا عن تأملهم وما أخذوا به عند حضور مجلس رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) من الأدب الذي تعود المحافظة عليه بعظيم الجدوى في دينهم .

---

(1) يجوز أن يكون (الذين) نعتا للإشارة – أو بدلا – وجملة : لهم مغفرة خبر .

(2) أو في محلّ رفع خبر ثان لـ (إنّ) . [. . . . .]

(477/719)

الفوائد :

- الأدب مع الكبير . .

أمر اللّه المؤمنين في هذه الآية ألا يرفعوا صوتهم فوق صوت النبي (صلى اللّه عليه وسلم) ، وأن يغضوا من أصواتهم عنده ، لأن رفع الصوت مناف للحشمة والوقار والاحترام . و

(478/719)

عند ما نزلت هذه الآية جلس ثابت بن قيس في بيته وقال : أنا من أهل النار . واحتبس عن النبي (صلى اللّه عليه وسلم) فسأل رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) سعد بن معاذ فقال : يا أبا عمرو ما شأن ثابت فقال : إنه لجاري ، وما علمت له شكوى . قال : فأتاه سعد ، فذكر له قول رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) . فقال ثابت : أنزلت هذه الآية ، ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتا على رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) ، فأنا من أهل النار ، فذكر ذلك سعد للنبي (صلى اللّه عليه وسلم) فقال رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) :

هو من أهل الجنّة . وزاد في رواية : أما ترضى أن تعيش حميدا ، وتقتل شهيدا ، وتدخل الجنّة ؟ فقال : رضيت ببشرى اللّه ورسوله ، لا أرفع صوتي على رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) أبدا ، فأنزل اللّه إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ فكنا ننظر إلى رجل من أهل الجنّة يمشي بين أيدينا ، فلما كان يوم اليمامة ، في حرب مسيلمة ، مات شهيدا رضي اللّه عنه .

[سورة الحجرات (49) : الآيات 4 إلى 5]

إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (4) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5)

الإعراب :

(من وراء) متعلّق بـ (ينادونك) ، (لا) نافية (الواو) عاطفة (لو) حرف شرط غير جازم (حتّى) حرف غاية وجر (تخرج) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتّى (إليهم) متعلّق بـ (تخرج) ، (اللام) واقعة في جواب لو ، واسم (كان) ضمير مستتر يعود على الصبر المفهوم من السياق (الواو) استئنافيّة . .

والمصدر المؤوّل (أنّهم صبروا . .) في محلّ رفع فاعل لفعل محذوف تقديره ثبت . .

والمصدر المؤوّل (أن تخرج . .) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (صبروا) .

جملة : " إنّ الذين ينادونك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ينادونك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " أكثرهم لا يعقلون . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " لا يعقلون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أكثرهم) .

وجملة : " لو (ثبت) صبرهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " صبروا . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " تخرج . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " كان خيرا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " اللّه غفور . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(الحجرات) ، جمع حجرة ، اسم للبيت الذي يحجر عليه بحائط أو غيره ، وزنه فعلة بضمّ فسكون بمعنى مفعولة . . ووزن حجرات فعلات بضمّتين .

البلاغة

الكناية : في قوله تعالى " مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ " .

ففي ذكر الحجرات كناية عن خلوته عليه الصلاة والسلام بنسائه ، لأنها معدة لها .

ولم يقل : حجرات نسائك ، ولا حجراتك ، توقيرا له (صلى اللّه عليه وسلم) وتحاشيا عما يوحشه عليه الصلاة والسلام .

[سورة الحجرات (49) : الآيات 6 إلى 8]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ (6) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيانَ أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7) فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (8)

الإعراب :

(جاءكم) ماض في محلّ جزم فعل الشرط (بنبإ) متعلّق بحال من فاعل جاءكم (الفاء) رابطة لجواب الشرط (أن) حرف مصدريّ ونصب (بجهالة) متعلّق بحال من فاعل تصيبوا ، و(الباء) للملابسة (تصبحوا) مضارع ناقص منصوب معطوف على (تصيبوا) بالفاء ، (على ما) متعلّق بالخبر (نادمين) .

والمصدر المؤوّل (أن تصيبوا . . .) في محلّ نصب مفعول لأجله بحذف مضاف أي خشية

أن تصيبوا .

وجملة : " النداء . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " جاءكم . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " تبيّنوا . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " تصيبوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " تصبحوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تصيبوا .

وجملة : " فعلتم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الاسميّ أو الحرفيّ .

7 - (الواو) عاطفة (أنّ) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - (فيكم) متعلّق بخبر أنّ (لو) حرف شرط غير جازم (في كثير) متعلّق بـ (يطيع) ، (اللام) رابطة لجواب لو (الواو) عاطفة في المواضع الخمسة (لكنّ) حرف استدراك ونصب (إليكم) متعلّق بـ (حبّب) (في قلوبكم) متعلّق بـ (زيّنه) ، (إليكم) الثاني متعلّق بـ (كرّه) ، (هم) ضمير فصل " 1 " . .

والمصدر المؤوّل (أنّ فيكم رسول . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي اعلموا . .

وجملة : " اعلموا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " يطيعكم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " عنتّم . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " لكنّ اللّه حبّب . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يطيعكم .

وجملة : " حبّب إليكم . . . " في محلّ رفع خبر لكنّ .

وجملة : " زيّنه . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة حبّب .

وجملة : " كرّه إليكم . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة حبّب .

وجملة : " أولئك هم الراشدون " لا محلّ لها اعتراضيّة - أو استئناف بيانيّ 8 - (فضلا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو اسم مصدر أي تفضّل فضلا " 2 " ، (من اللّه) متعلّق بـ (فضلا) . .

وجملة : " (تفضّل) فضلا . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " اللّه عليم . . . " لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة - أو استئنافيّة

---

(1) أو هو ضمير منفصل مبتدأ خبره الراشدون ، والجملة خبر أولئك . . .

(2) يجوز أن يكون مفعولا لأجله عامله حبّب . . أو عامله اسم الفاعل (الراشدون) .

الصرف :

(7) العصيان : الاسم من (عصى ، يعصي) باب ضرب ، وزنه فعلان بكسر الفاء

وسكون العين وهو ترك الطاعة . . أو هو مصدر الفعل .

البلاغة

1 – التنكير : في قوله تعالى " إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ " .

ففي تنكير الفاسق والنبأ : شياع في الفساق والأنباء ، كأنه قال : أيّ فاسق جاءكم بأيّ نبأ ، فتوقفوا فيه ، وتطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة ، ولا تعتمدوا قول الناس لأنّ من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذب الذي هو نوع فيه . وطبعا هذا الشياع والشمول لأن النكرة إذا وقعت في سياق الشرط تعم ، كما إذا وقعت في سياق النفي .

2 – التقديم : في قوله تعالى " أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ " .

حيث قدّم خبر أن على اسمها ، وفائدة ذلك هو القصد إلى توبيخ بعض المؤمنين على ما استهجنه اللّه منهم من استتباع رأي رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) لآرائهم ، فوجب تقديمه لانصباب الغرض إليه .

3 – التعبير بالمضارع : في قوله تعالى " لَوْ يُطِيعُكُمْ " .

حيث عبّر بالمضارع دون الماضي ، فقال : يطيعكم . ولم يقل : أطاعكم . وذلك للدلالة على أنّه كان في إرادتهم استمرار عمله على ما يستصوبونه . وأنّه كلما عنّ لهم رأي في أمر كان معمولا عليه ، بدليل قوله " في كثير من الأمر " كقولك :

فلان يقري الضيف ويحمي الحريم ، تريد : أنه مما اعتاده ووجد منه مستمرّا .

4 - الطباق : في قوله تعالى " حبّب " و "كرّه " .

هذا ضرب من الطباق ، وقد ورد كثير منه في كتاب اللّه عز وجل .

الفوائد . .

لا تتسرع وكن على بينة من الأمر . تدعونا هذه الآية إلى أن نتثبت من الأخبار ، قبل أن نبني عليها أيّ تصرف ، لأن التسرع كثيرا ما يؤدي إلى الندامة والخسران . نزلت هذه الآية في الوليد بن عقبة ، بعثه رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) إلى بني المصطلق ، بعد غزوهم ليأتي بالصدقات ، وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية ، فلما سمع به القوم تلقّوه تعظيما لأمر رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) ، فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله ، فهابهم ورجع ، وذكر للنبي (صلى اللّه عليه وسلم) أن بني المصطلق قد ارتدوا وخرجوا لقتاله ، فبعث النبي (صلى اللّه عليه وسلم) خالد بن الوليد ، فوصل إليهم خالد ، وكمن فسمع أذان المغرب والعشاء ، ورآهم أهل طاعة وبرّ ، فجمع منهم الزكاة ، وسألهم عن أمر خروجهم للوليد فقالوا : خرجنا لاستقباله ، فأنزل اللّه عز وجل هذه الآية .

[سورة الحجرات (49) : الآيات 9 إلى 10]

وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى فَقاتِلُوا

الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (9) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10)

الإعراب :

(483/719)

(الواو) استئنافيّة (طائفتان) فاعل لفعل محذوف يفسّره ما بعده أي اقتتلت طائفتان . . (من المؤمنين) متعلّق بنعت لـ (طائفتان) ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (بينهما) ظرف منصوب متعلّق بـ (أصلحوا) ، (الفاء) عاطفة (بغت) ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين في محلّ جزم فعل الشرط (على الأخرى) متعلّق بـ (بغت) ، (الفاء)

رابطة لجواب الشرط (التي) موصول في محلّ نصب مفعول به ، وهو نعت لمنعوت مقدّر أي الفئة التي . . (حتّى) حرف غاية وجرّ (تفيء) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتّى (إلى أمر) متعلّق بـ (تفيء) . .

والمصدر المؤوّل (أن تفيء . .) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (قاتلوا) .

(الفاء) عاطفة (إن فاءت) مثل إن بغت (فأصلحوا بينهما) مثل الأولى (بالعدل) حال من فاعل أصلحوا .

جملة : " (اقتتلت) طائفتان . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اقتتلوا . . . " لا محلّ لها تفسيريّة .

وجملة : " أصلحوا . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " بغت إحداهما . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " قاتلوا . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " تبغي . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

وجملة : " تفيء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " فاءت . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة بغت . . .

وجملة : " أصلحوا (الثانية) . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " أقسطوا . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة أصلحوا .

وجملة : " إنّ الله يحبّ . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " يحبّ . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

10 - (إنّما) كافّة ومكفوفة (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (أصلحوا بين . .) مثل الأولى ، و(الواو) في (ترحمون) نائب الفاعل .

وجملة : " المؤمنون إخوة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أصلحوا (الثالثة) . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن اقتتلوا فأصلحوا . . .

وجملة : " اتّقوا . . . " معطوفة على جملة أصلحوا الأخيرة .

وجملة : " لعلّكم ترحمون " لا محلّ لها استئناف بيانيّ – أو تعليليّة – وجملة : " ترحمون " في محلّ رفع خبر لعلّ .

الصرف :

(بغت) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة التقاء الساكنين لام الكلمة وتاء التأنيث .

البلاغة

1 – التشبيه البليغ : في قوله تعالى " إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ " حيث شبهوا بالأخوة من حيث انتسابهم إلى أصل واحد ، وهو الإيمان الموجب للحياة الأبدية ، ويجوز أن يكون هناك استعارة وتشبيه المشاركة في الإيمان ، بالمشاركة في أصل التوالد ، لأن كلا منهما أصل للبقاء ، إذ التوالد منشأ الحياة ، والإيمان منشأ البقاء الأبدي في الجنان .

2 – التخصيص : في قوله تعالى " فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ " .

حيث خص الاثنان بالذكر دون الجمع ، لأن أقل من يقع بينهم الشقاق اثنان ، فإذا لزمت المصالحة بين الأقل كانت بين الأكثر ألزم ، لأن الفساد في شقاق الجمع أكثر منه في شقاق الاثنين .

3 – وضع الظاهر موضع المضمر : في قوله تعالى " فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ " .

حيث وضع الظاهر موضع الضمير مضافا للمأمورين ، للمبالغة في تأكيد وجوب الإصلاح والتخصيص عليه .

الفوائد

– حكم قتال البغاة . .

قال العلماء : في هاتين الآيتين دليل على أن البغي لا يزيل اسم الإيمان ، لأن اللّه

تعالى سماهم إخوة مؤمنين ، مع كونهم باغين . ويدل عليه ما روي عن علي رضي اللّه عنه ، وهو القدوة في قتال أهل البغي ، وقد سئل عن أهل الجمل ، أ مشركون هم ؟ فقال لا إنهم من الشرك فرّوا . فقيل : أ منافقون هم ؟ فقال : لا إن المنافقين لا يذكرون اللّه إلا قليلا . قيل

: فما حالهم ؟ قال : إخوتنا بغوا علينا ، والباغي في الشرع هو الخارج على الإمام العدل فإذا اجتمعت طائفة لهم قوة ومنعة ، فامتنعوا عن طاعة الإمام العدل ، ونصبوا لهم إماما ، فالحكم فيهم ، أن يبعث لهم الإمام ، ويدعوهم إلى طاعته ، فإن أظهروا مظلمة أزالها عنهم ، وإن لم يذكروا مظلمة وأصروا على البغي ، قاتلهم الإمام حتّى يفيئوا إلى طاعته . ثم الحكم في قتالهم : أن " لا يتبع مدبرهم ، ولا يقتل أسيرهم ، ولا يذفف (أي يجهز) على جريحهم " كما نادى بذلك منادي عليّ يوم الجمل . وما أتلفت إحدى الطائفتين على الأخرى ، في حال القتال ، من نفس ومال ، فلا ضمان عليها . أما من لم تجتمع له هذه الشروط الثلاثة ، بأن كانوا جماعة قليلين لا منعة لهم ، أو لم يكن لهم تأويل ، أو لم ينصبوا إماما ، فلا يتعرض لهم إذا لم ينصبوا قتالا ولم يتعرضوا للمسلمين ، فإن فعلوا ذلك (أي نصبوا قتالا وتعرضوا للمسلمين) فهم كقطاع الطريق في الحكم .

[سورة الحجرات (49) : آية 11]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (11)

الإعراب :

(لا) ناهية جازمة (من قوم) متعلّق بـ (يسخر) ، (عسى) فعل ماض تامّ (أن) حرف مصدريّ ونصب (منهم) متعلّق بـ (خيرا) .

(486/719)

و المصدر المؤوّل (أن يكونوا . .) في محلّ رفع فاعل عسى (الواو) عاطفة (لا) مثل الأولى (نساء) فاعل لفعل محذوف يفسره ما قبله أي : لا يسخر نساء . . (من نساء) متعلّق بالفعل المقدّر ، (عسى أن يكنّ خيرا منهنّ) مثل عسى أن يكونوا خيرا منهم ، و(يكنّ) مضارع ناقص مبنيّ على السكون في محلّ نصب . .

والمصدر المؤوّل (أن يكنّ . .) في محلّ رفع فاعل عسى الثاني .

(الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (لا) ناهية جازمة في الموضعين (بالألقاب) متعلّق بـ (تنابزوا) ، (الفسوق) خبر لمبتدأ محذوف وجوبا تقديره هو – وهو المخصوص بالذمّ " 1 " – ، (بعد) ظرف منصوب متعلّق بـ (الفسوق) ، (من) اسم شرط جازم مبتدأ (لم) للنفي فقط (يتب) مجزوم فعل الشرط (الفاء) رابطة لجواب الشرط (هم) ضمير فصل " 2 " .

جملة : " النداء . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لا يسخر قوم . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " عسى أن يكونوا . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " يكونوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " (لا يسخر) نساء . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " عسى أن يكنّ . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

---

(1) أو مبتدأ مؤخّر خبره جملة الذمّ المتقدّمة . . . وأجاز المحلّي أن يكون بدلا من الاسم ، والمخصوص بالذمّ محذوف .

(2) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره الظالمون ، والجملة خبر المبتدأ (أولئك) .

وجملة : " يكنّ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " لا تلمزوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " لا تنابزوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " بئس الاسم . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " (هو) الفسوق . . . " في محلّ نصب حال من الاسم .

وجملة : " من لم يتب . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " لم يتب . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " .

وجملة : " أولئك هم الظالمون " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

الصرف :

(يكنّ) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء على السكون بدخول نون النسوة ، أصله يكونن – بنون ساكنة بعدها نون مفتوحة – اجتمع ساكنان فحذفت الواو فأصبح يكنّ – بعد إدغام النونين – وزنه يفلن .

(تنابزوا) ، حذف منه إحدى التاءين أصله تتنابزوا .

(الألقاب) ، جمع لقب ، اسم لما يسمّى به المرء – غير اسمه الأول – مشعرا برفعة أو ضعة ، وزنه فعل بفتحتين ووزن ألقاب أفعال .

البلاغة

سر الجمع : في قوله تعالى " لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ " حيث لم يقل : رجل من رجل : ولا امرأة من امرأة ، على التوحيد ، إعلاما بإقدام غير واحد من رجالهم ، وغير واحدة من نسائهم ، على السخرية ، واستفظاعا للشأن الذي كانوا عليه ، لأن مشهد الساخر لا يكاد يخلو ممن يتلهي ويستضحك على قوله ، ولا يأتي ما عليه من النهي والإنكار ، فيكون شريك الساخر وتلوه في تحمل الوزر ، وكذلك كلّ

من يطرق سمعه

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(488/719)

فيستطيبه ويضحك به ، فيؤدي ذلك – وإن أوجده واحد – إلى تكثر السخرة وانقلاب الواحد جماعة وقوما .

التنكير : في قوله تعالى " لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ . . . وَلا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ " .

حيث نكّر القوم والنساء ، لأن كلّ جماعة منهية ، على التفصيل في الجماعات ، والتعرض بالنهي لكلّ جماعة على الخصوص ، ومع التعريف تحصيل النهي ، لكن لا على التفصيل بل على الشمول ، والنهي على التفصيل أبلغ وأوقع .

الفوائد :

– مكارم الأخلاق . .

هذه الآية نزلت في ثلاثة أسباب . .

(489/719)

1 – قوله تعالى : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ قال ابن عباس : نزلت في ثابت بن قيس بن شماس ، ذلك أنه كان في أذنه وقر ، فكان إذا أتى رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) وقد سبقوه بالمجلس ، أو سعوا له حتّى يجلس إلى جنبه فيسمع ما يقول ، فأقبل ذات يوم ، وقد فاتته ركعة من صلاة الفجر ، فلما انصرف النبي (صلى اللّه عليه وسلم) فلم يجد مجلسا ، قام قائما كما هو ، فلما فرغ ثابت من الصلاة أقبل نحو رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) يتخطى رقاب الناس ، ثم يقول : تفسحوا ، فجعلوا يتفسحون له ، حتى انتهى إلى رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) ، وبينه وبينه رجل ، فقال : تفسح فقال له الرجل : أصبت مجلسا فاجلس ، فجلس ثابت خلفه مغضبا ، فلما انجلت الظلمة غمز ثابت الرجل فقال : من هذا . قال : أنا فلان ، قال له ثابت : ابن فلانة ، وذكر أما له كان يعير بها في الجاهلية ، فنكس الرجل رأسه واستحيا ، فأنزل اللّه هذه الآية .

وقال الضحاك : نزلت في وفد بني تميم ، كانوا يستهزئون بأصحاب رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) من الفقراء .

2 – السبب الثاني قوله تعالى : وَلا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ روي عن أنس أنها نزلت في نساء رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) عيرن أم سلمة بالقصر . وعن ابن عباس أنها نزلت في صفية بنت حيي ، قال لها بعض نساء النبي (صلى اللّه عليه وسلم) :

يهودية بنت يهوديين .

3 - والسبب الثالث قوله تعالى وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ

(490/719)

عن أبي جبيرة بن الضحاك هو أخو ثابت بن الضحاك الأنصاري قال : فينا نزلت هذه الآية ، في بني سلمة ، قدم علينا رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) وليس منا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة ، فجعل رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) يقول يا فلان فيقولون : مه يا رسول اللّه يغضب من هذا الاسم ، فأنزل اللّه هذه الآية

، وقال بعض العلماء : المراد بهذه الألقاب ما يكرهه المنادي ، أو يفيد ذما له ، فأما الألقاب التي صارت كالأعلام لأصحابها ، كالأعمش والأعرج وما أشبه ذلك ، فلا بأس بها إذا لم يكرهها المدعو بها ، وأما الألقاب التي تكسب حمدا ومدحا ، وتكون حقا وصدقا ، فلا تكره . فمدار الأمر ذم المرء والنيل منه ، فإن كان اللقب يفيد ذلك فهو حرام ، وإلا فلا .

[سورة الحجرات (49) : آية 12]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ

(12)

الإعراب :

(يأيها الذين آمنوا) مرّ إعرابها مفردات وجملا " 1 " ، (من الظنّ) متعلّق بنعت لـ (كثيرا) ، (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة في الموضعين (تجسّسوا) مضارع مجزوم محذوف منه إحدى التاءين (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (أن) حرف مصدريّ ونصب (ميتا) حال من أخيه منصوب (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر ، و(الواو) في (كرهتموه) زائدة إشباع حركة الميم . .

---

(1) في الآية (1) من هذه السورة .

جملة : " اجتنبوا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " إنّ بعض الظنّ إثم . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " لا تجسّسوا " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " لا يغتب بعضكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " يحبّ أحدكم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يأكل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

والمصدر المؤوّل (أن يأكل . .) في محلّ نصب مفعول به .

وجملة : "كرهتموه . . . " في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذا . .

والجملة الاسميّة جواب شرط مقدّر أي إن لم تحبّوا ذلك فهذا كرهتموه .

وجملة : " اتّقوا اللّه . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي فاكرهوا الظنّ والتجسّس والغيبة واتّقوا اللّه .

وجملة : " إنّ اللّه توّاب . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

البلاغة

1 – التنكير : في قوله تعالى "كَثِيراً " .

حيث أن مجيئه نكره يفيد معنى البعضية ، وإن في الظنون ما يجب أن يجتنب من تبيين لذلك ولا تعيين ، لئلا يجترئ أحد على ظنّ إلا بعد نظر وتأمّل ، وتمييز بين حقه وباطله ، بأمارة بينة ، مع استشعار للتقوى والحذر ولو عرّف لكان الأمر باجتناب الظنّ منوطا بما يكثر منه دون ما يقل . ووجب أن يكون كل ظنّ متصف بالكثرة مجتنبا ، وما اتصف منه بالقلة مرخصا في تظننه .

2 – الاستعارة التمثيلية : في قوله تعالى " أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ " .

في هذه الآية الكريمة تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفظع وجه وأفحشه .

وفيه مبالغات شتى ، منها الاستفهام الذي معناه التقرير ، ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة ، ومنها إسناد الفعل إلى أحدكم والإشعار بأن أحدا من الأحدين لا يحب ذلك ، ومنها أنه لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان ، حتى جعل الإنسان أخا ، ومنها أنه لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعل ميتا .

الفوائد :

- تحريم الغيبة . .

دلت هذه الآية على تحريم الغيبة ،

(492/719)

فقد ورد عن أبي هريرة رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) : أ تدرون ما الغيبة . قلت : اللّه ورسوله أعلم . قال :

ذكرك أخاك بما يكره . قلت : وإن كان في أخي ما أقول . قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته .

عن عائشة رضي اللّه عنها قالت : قلت للنبي (صلى اللّه عليه وسلم) حسبك من صفية كذا وكذا ، قال بعض الرواة : تعني قصيرة ، فقال : لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته . عن أنس رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) : لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس ، يخمشون وجوههم ولحومهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم .

و

قد نزلت هذه الآية في رجلين اغتابا رفيقهما ، وذلك أن رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) كان إذا غزا أو سافر ضم الرجل المحتاج إلى رجلين موسرين ، يخدمهما ويأكل معهما . فكان سلمان مع رجلين يخدمهما ، فغلبته عيناه ، فلم يهيئ لهما طعاما ، قالا : انطلق إلى رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) فاطلب لنا منه طعاما ، فجاء سلمان ، فسأل رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) فأمر أسامة أن يلتمس له طعاما ، فلم يجد ، فرجع إليهما ، فقالا : بخل أسامة ، فبعثاه إلى طائفة من الصحابة ، فلم يجد شيئا ، فلما رجع قالا : لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها . ثم انطلقا يتجسسان هل عند أسامة طعام أم لا ، فلما جاء إلى رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) قال لهما : مالي أرى خضرة اللحم في أفواهكما ؟ قالا : يا رسول اللّه ما تناولنا يومنا هذا لحما ، قال : ظللتما تأكلان من لحم

سلمان وأسامة ، فنزلت هذه الآية .

[سورة الحجرات (49) : آية 13]

(493/719)

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)

الإعراب :

(يأيها الناس) مثل يأيها الذين . . " 1 " ، والمتابعة هنا لفظيّة (من ذكر) متعلّق بـ (خلقناكم) ، (شعوبا) مفعول به ثان منصوب (اللام) للتعليل - أو لام العاقبة - (تعارفوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، وحذف منه إحدى التاءين . .

والمصدر المؤوّل (أن تعارفوا . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (جعلناكم) .

(عند) ظرف منصوب متعلّق بـ (أكرمكم) . .

جملة : " النداء . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّا خلقناكم . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " خلقناكم . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " جعلناكم . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة خلقناكم .

وجملة : " تعارفوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

---

(1) في الآية (1) من هذه السورة .

وجملة : " إنّ أكرمكم . . . أتقاكم " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّ اللّه عليم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(شعوبا) ، جمع شعب ، اسم جمع لمجموع الناس ، قيل سمّي بذلك لتشعّب القبائل منه ، وزنه فعل بفتح فسكون ، ووزن شعوب فعول بضمّ الفاء .

(قبائل) ، جمع قبيلة زنة فعيلة ، اسم جمع لا مفرد له من لفظه ، وهم بنو أب واحد .

(أكرمكم) ، اسم تفضيل من الثلاثيّ كرم ، وزنه أفعل .

(أتقاكم) ، اسم تفضيل من الثلاثيّ وقى ، وزنه أفعل وفيه إبدال الواو تاء جريا على الإبدال في الخماسيّ . . ثمّ بقي القلب ، والأصل أوقى . أو هو من الثلاثيّ تقى يتقي باب ضرب تقى – بضمّ التاء – وتقاء – بكسرها – وتقية . . بمعنى اتّقى ، فالإبدال حاصل من

الأصل بدءا من الثلاثيّ أو لا إبدال أصلا ، انظر مزيد شرح وتفصيل في الآية (13) من سورة مريم في كلمة (تقيّ) .

[سورة الحجرات (49) : الآيات 14 إلى 15]

قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (15)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (لكن) للاستدراك لا عمل له (الواو) حاليّة (يدخل) مضارع مجزوم بـ (لمّا) ، وحرّك بالكسر لالتقاء الساكنين (في قلوبكم) متعلّق بـ (يدخل) ، (الواو) عاطفة - أو استئنافيّة - (لا) نافية (يلتكم) مضارع مجزوم جواب الشرط (من أعمالكم) متعلّق بـ (يلتكم) ، (شيئا) مفعول به ثان منصوب . .

جملة : " قالت الأعراب . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لم تؤمنوا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قولوا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة لم تؤمنو " 1 " .

وجملة : " أسلمنا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لمّا يدخل الإيمان . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " تطيعوا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة لم تؤمنوا " 2 " .

وجملة : " لا يلتكم . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " إنّ اللّه غفور . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

15 - (إنّما) كافّة ومكفوفة (الذين) موصول في محلّ رفع خبر المبتدأ (المؤمنون) ، (باللّه) متعلّق بـ (آمنوا) ، (بأموالهم) متعلّق بـ (جاهدوا) ، (في سبيل) متعلّق بـ (جاهدوا) ، (هم) ضمير فصل " 3 " .

---

(1) في الكلام حذف ، والأصل : لم تؤمنوا فلا تقولوا آمنا ولكن أسلمتم فقولوا أسلمنا . . .

وهذا يسمّي في علم البديع الاحتباك .

(2) وإذا لم تكن الجملة من الكلام الملقّن للنبيّ عليه السلام فهي استئنافيّة .

(3) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره الصادقون ، والجملة الاسميّة خبر المبتدأ (أولئك) .

وجملة : " المؤمنون الذين . . . " لا محلّ لها استئناف بياني .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لم يرتابوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " جاهدوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " أولئك . . . الصادقون " لا محلّ لها استئناف مقرّر لمضمون ما سبق .

الصرف :

(يلتكم) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم ، فهو مضارع المعتلّ المثال ، ولته بمعنى نقصه ، وزنه يعلكم بفتح فكسر فسكون .

البلاغة

فن الاستدراك : في قوله تعالى " قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا " حيث استغنى بالجملة التي هي لم " تؤمنوا " عن أن يقال : لا تقولوا آمنا ، لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مؤدّاه النهي عن القول بالإيمان ، ثم وصلت بها الجملة المصدّرة بكلمة الاستدراك محمولة على المعنى ، ولم يقل : ولكن أسلمتم ، ليكون خارجا مخرج الزعم والدعوى ، كما كان قولهم " آمنا " كذلك ، ولو قيل : ولكن أسلمتم ، لكان خروجه في معرض التسليم لهم والاعتداد بقولهم وهو غير معتدّ به .

الفوائد :

- (لما) النافية الجازمة . .

(496/719)

وهي تختص بالمضارع ، فتجزمه وتنفيه وتقلبه ماضيا ، كلم ، إلا أنها تفارقها في خمسة أمور :

1 - أنها لا تقترن بأداة شرط فلا يقال : إن لما تقم ، وفي التنزيل (وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ) (وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا) .

2 - إن منفيّها مستمر النفي إلى الحال كقول الممزق العبدي :

فإن كنت مأكولا فكن خير آكل وإلا فأدركني ولما أمزّق

ومنفي لم يحتمل الاتصال نحو قوله وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا . ولهذا جاز أن تقول : لم يكن ثم كان ، ولم يجز لما يكن ثم كان ، بل تقول : لما يكن وقد يكون .

3 - أن منفي لما لا يكون إلا قريبا من الحال ، ولا يشترط ذلك في منفي لم .

تقول : لم يكن زيد في العام الماضي مقيما .

4 - أن منفي لما متوقع ثبوته ، بخلاف منفي لم ، ألا ترى أن معنى (بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ)

أنهم لم يذوقوه إلى الآن ، وأن ذوقهم له متوقع قال الزمخشري ، في قوله تعالى وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ : لما كان في معنى (لما) التوقع دلّ على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد ، ولهذا أجازوا " لم يقض ما لا يكون " ومنعوه في (لما) وهذا الفرق بالنسبة إلى المستقبل ، فأما بالنسبة إلى الماضي فهما سيان في نفي المتوقع وغيره ، ومثال المتوقع أن تقول : مالي قمت ولم تقم ، أو ولما تقم . ومثال غير المتوقع أن تقول ابتداء : لم تقم ، أو لما تقم .

5 - أن منفي (لما) جائز الحذف كقول ذي الرمة :

فجئت قبورهم بدءا ولما فناديت القبور فلم يجبنه

أي ولما أكن بدءا قبل ذلك ، أي سيدا . ولا يجوز " وصلت إلى بغداد ولم تريد ولم أدخلها .

وعلة هذه الأحكام كلها أن لم لنفي (فعل) ولما لنفي قد فعل .

[سورة الحجرات (49) : آية 16]

قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (16)

الإعراب

(الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (بدينكم) متعلّق

ب (تعلّمون) " 1 " ، (الواو) حاليّة (في السموات) متعلّق بمحذوف صلة ما ، وكذلك (في الأرض) للموصول الثاني (بكلّ) متعلّق بالخبر (عليم) .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تعلّمون . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " اللّه يعلم . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " يعلم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

وجملة : " اللّه . . . عليم " في محلّ نصب معطوفة على جملة الحال " 2 " .

[سورة الحجرات (49) : آية 17]

يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (17)

الإعراب :

(عليك) متعلّق بـ (يمنّون) ، (أن) حرف مصدريّ " 3 " .

والمصدر المؤوّل (أن أسلموا) في محلّ نصب مفعول به عامله يمنّون " 4 " .

(لا) ناهية جازمة (عليّ) متعلّق بـ (تمنّوا) ، (بل) للإضراب الانتقاليّ (عليكم) متعلّق بـ (يمنّ) ، (أن) مثل الأول ، (للإيمان) متعلّق بـ (هداكم) ، (كنتم) ماض في محلّ جزم فعل

الشرط . .

والمصدر المؤوّل (أن هداكم . .) في محلّ نصب مفعول به عامله يمنّ " 5 "

---

(1) بمعنى عرّف أو أشعر .

(2) أو هي استئنافيّة لا محلّ لها .

(3) أو مخفّفة من الثقيلة ، واسمه ضمير محذوف ، والجملة بعده خبر .

(4 ، 5) يجوز أن يكون في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف هو الباء متعلّق بالفعل المتقدّم . . .

[. . . . .]

(498/719)

جملة : " يمنّون " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أسلموا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئناف بياني .

وجملة : " لا تمنّوا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " اللّه يمنّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يمنّ عليكم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

وجملة : " هداكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) الثاني .

وجملة : "كنتم صادقين " لا محلّ لها استئنافيّة . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي فاللّه يمنّ عليكم . . أو فاللّه المانّ عليكم .

[سورة الحجرات (49) : آية 18]

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (18)

الإعراب :

(الواو) عاطفة في الموضعين (ما) حرف مصدريّ " 1 " . .

والمصدر المؤوّل (ما تعملون) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بالخبر (بصير) .

جملة : " إنّ اللّه يعلم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يعلم . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " اللّه بصير . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " تعملون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) . انتهى انتهى . ا هـ

﴿الجدول حـ 26 صـ 274. 298﴾

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ ، والعائد محذوف ، والجملة صلته .

(500/719)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(49) سورة الحجرات

مدنية وآياتها ثماني عشرة

[سورة الحجرات (49) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (1) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (2) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (3) إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (4)

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5)

اللغة :

(تَحْبَطَ) في المختار : " حبط عمله بطل ثوابه وبابه فهم وحبوطا أيضا " . وقال الزمخشري : " والحبوط من حبطت الإبل إذا أكلت الخضر فنفخ بطونها وربما هلكت ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : وإن مما ينبت الربيع لما يقتل حبطا " وفي القاموس : " الحبط محركة آثار الجرح

أو السياط بالبدن بعد البرء أو الآثار الوارمة التي لم تشقّق فإن تقطعت ودميت فعلوب ووجع ببطن البعير من كلأ يستوبله أو من كلأ يكثر منه فينتفخ منه " إلى أن يقول : " وحبط عمله كسمع وضرب حبطا وحبوطا بطل ودم القتل هدرا " .

(امْتَحَنَ) في القاموس " محنه كمنعه اختبره كامتحنه والاسم المحنة بالكسر " وفي الكشاف : والامتحان افتعال من محنه وهو اختبار بليغ أو بلاء جهيد قال أبو عمرو : كل شيء جهدته فقد محنته وأنشد :

أتت رذايا باديا كلالها قد محنت واضطربت آطالها

(501/719)

نقول : والرذايا : جمع رذية وهي الناقة المهزولة والآطال جمع أطل وهو الخاصرة كأسباب وسبب ، يقول الشاعر :

أتت المطايا مهازيل ظاهرا ملالها وتعبها من السير قد أجهدت

تلك النون بالمسير أو قد تدلت واضطربت خواصرها من شدة الجوع وفي الصحاح "

الأيطل الخاصرة وجمعه أياطل وكذلك الأطل وجمعه آطال " .

(الْحُجُراتِ) جمع حجرة وهي فعلة بمعنى مفعولة كالغرفة وجمعها الحجرات بضمتين والحجرات بفتح الجيم والحجرات بتسكينها وقرئ بهنّ جميعا والحجرة القطعة من الأرض المحجورة بحائط أو نحوه .

الإعراب :

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) يا حرف نداء للمتوسط وأيها منادى نكرة مقصودة مبني على الضم في محل نصب والهاء للتنبيه والذين بدل من أيها وجملة آمنوا صلة الموصول ولا ناهية

وتقدموا فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل وفيه وجهان أحدهما أنه متعدّ حذف مفعوله لقصد التعميم أو ترك المفعول للقصد إلى نفس الفعل كقولهم : هو يعطي ويمنع والثاني أنه لازم نحو وجه وتوجه ويؤيده قراءة ابن عباس والضحاك ويعقوب :

تقدموا بفتح التاء والقاف والدال . وبين مفعول فيه ظرف مكان متعلق بتقدموا ويدي اللّه مضاف إليه وعلامة جرّه الياء نيابة عن الكسرة لأنه مثنى ولفظ الجلالة مضاف إليه ورسوله عطف على لفظ الجلالة (وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) الواو حرف عطف واتقوا فعل أمر وفاعل ولفظ الجلالة مفعول به وإن واسمها وخبراها والجملة تعليلية لا محل لها من الإعراب (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ) لا ناهية وترفعوا فعل مضارع مجزوم بلا والواو فاعل وأصواتكم مفعول به وفوق ظرف متعلق بترفعوا وصوت النبي مضاف إليه (وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ) الواو عاطفة ولا ناهية وتجهروا فعل مضارع مجزوم بلا وله متعلقان بتجهروا وبالقول متعلقان بتجهروا أيضا والكاف في محل نصب صفة لمصدر محذوف أي لا تجهروا له جهرا مثل جهر بعضكم لبعض ، ولبعض متعلقان بجهر لأنه مصدر وأن وما في حيزها في موضع نصب على أنه مفعول لأجله على حذف مضاف أي خشية الحبوط والخشية منهم وقد تنازعه لا ترفعوا ولا تجهروا وعبارة أبي السعود : " وقوله أن تحبط أعمالكم إما علّة للنهي أي لا تجهروا خشية أن تحبط أو كراهة أن تحبط كما في قوله تعالى : يبيّن اللّه لكم أن

تضلّوا وإما علّة للمنهي أي لا تجهروا لأجل الحبوط فإن الجهر حيث كان بصدد الأداء إلى الحبوط فكأنه فعل لأجله على طريقة التمثيل كقوله تعالى : ليكون لهم عدوا وحزنا " وقد فرّق الزمخشري بين الوجهين تفريقا تراه في باب الفوائد .

وأعمالكم فاعل تحبط والواو حالية وأنتم مبتدأ وجملة لا تشعرون خبر

(503/719)

أنتم والجملة في موضع نصب على الحال (إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى) إن واسمها وجملة يغضون صلة الذين وأصواتهم مفعول يغضون وعند رسول اللّه الظرف متعلق بيغضون وأولئك مبتدأ والذين خبره والجملة خبر إن .

وامتحن اللّه قلوبهم فعل وفاعل ومفعول به وللتقوى متعلقان بامتحن على أنها علّة الامتحان لأن الاختبار بالمحن سبب لظهور التقوى لا سبب للتقوى نفسها فهو من إطلاق السبب على المسبّب وسيأتي مزيد من هذا البحث في باب البلاغة ، وقال الواحدي : " تقدير الكلام امتحن اللّه قلوبهم فأخلصها للتقوى فحذف الإخلاص لدلالة الامتحان عليه ولهذا قال قتادة أخلص اللّه قلوبهم " . وعبارة الزمخشري " والمعنى أنهم صبر على التقوى

أقوياء على احتمال مشاقها أو وضع الامتحان موضع المعرفة لأن تحقيق الشيء باختباره كما يوضع الخبر موضعها فكأنه قيل عرف اللّه قلوبهم للتقوى وتكون اللام متعلقة بمحذوف واللام هي التي في قولك أنت لهذا الأمر أي كائن له ومختص به وهي ومعمولها منصوبة على الحال أو ضرب اللّه قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الصعبة لأجل بالتقوى أي لتثبت وتظهر تقواها ويعلم أنهم متقون لأن حقيقة التقوى لا تعلم إلا عند المحن والشدائد والاصطبار عليها وقيل أخلصها للتقوى من قولهم امتحن الذهب وفتله إذا أذابه فخلص إبريزه من خبثه ونقاه " .

(504/719)

و هذا يجوز أن يكون الذين امتحن بدلا من أولئك أو صفة له كما سيأتي (لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ) لهم خبر مقدم ومغفرة مبتدأ مؤخرا وجر عظيم عطف على مغفرة الجملة مستأنفة على الوجه الأول وخبر أولئك على الوجه الثاني (إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ) إن واسمها وجملة ينادونك صلة الموصول ومن وراء الحجرات متعلقان بينادونك أي من خارجها خلفها أو قدّامها لأن وراء من الأضداد كما تقدم وأكثرهم مبتدأ وجملة لا يعقلون خبر أكثرهم والجملة الاسمية خبر

إن (وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) الواو عاطفة وأن واسمها وجملة صبروا خبرها وأن وما في خيرها في تأويل مصدر فاعل لفعل محذوف تقديره ثبت على رأي المبرد والزجّاج والكوفيين أو مبتدأ لا يحتاج إلى خبر لأن الخبر يحذف وجوبا بعد لو ولولا على رأي سيبويه وجمهرة البصريين ، وحتى حرف غاية وجر وتخرج فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى وإليهم متعلقان بتخرج واللام واقعة في جواب لو وكان فعل ماض ناقص واسمها ضمير يعود على المصدر المفهوم من صبروا أي لكان صبرهم وخيرا خبرها ولهم متعلقان بخير والله مبتدأ وغفور خبر أول ورحيم خبر ثان .

البلاغة :

(505/719)

---

1 - في قوله تعالى " بين يدي الله ورسوله " استعارة تمثيلية ، شبّه تعجّل الصحابة في إقدامهم على البتّ في الحكم على أمر من أمور الدين بحالة من تقدم بين يدي متبوعه أثناء سيره في الطريق ثم استعمل في جانب الهجنة للمبالغة في تجسيد الهجنة وتقبيح الأمر ، وقال الزمخشري وأبداع : " حقيقة قولهم جلست بين يدي فلان أن يجلس بين الجهتين المسامتتين ليمينه وشماله قريبا منه فسمّيت الجهتان يدين لكونهما على سمت اليدين مع

القرب منهما توسعا كما يسمى الشيء باسم غيره إذا جاوره وداناه في غير موضع وقد جرت هذه العبارة هاهنا على سنن ضرب من المجاز وهو الذي يسمّيه أهل البيان تمثيلا ، ولجريها هكذا فائدة جليلة ليست في الكلام العريان وهي تصوير الهجنة والشناعة فيما نهوا عنه من الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنّة والمعنى أن لا تقطعوا أمرا إلا بعد ما يحكمان به ويأذنان فيه " .

وعبارة الشهاب الخفاجي في حاشيته على البيضاوي : " في هذا الكلام تجوز أن أحدهما في بين اليدين فإن حقيقته ما بين العضوين فتجوز بهما من الجهتين المقابلتين لليمين والشمال القريبتين منه بإطلاق اليدين على ما يجاورهما ويحاذيهما " فهو من المجاز المرسل ثم استعيرت الجملة وهي التقدّم بين اليدين استعارة تمثيلية للقطع بالحكم بلا اقتداء ومتابعة لمن تلزمه متابعته تصويرا لهجنته وشناعته بصورة المحسوس كتقدم الخادم بين يدي سيده في مسيره .

2- الحذف : وحذف مفعول تقدموا كقوله يحيي ويميت وقولهم هو يعطى ويمنع وفي الحذف من البلاغة ما ليس في الذكر لأن الخيال يذهب فيه كلّ مذهب .

3- التكرير : في تكرير قوله " يا أيها الذين آمنوا " فائدة بلاغية لطيفة وهي إظهار الشفقة على المسترشد وإبداء المناصحة له على آكد وجه ليقبل على استماع الكلام ويعيره باله ، ولتحديد المخاطبين بالذات ، وأنهم هم المعنيون بالمناصحة ، وفيه أيضا استدعاء لتجديد الاستبصار والتيقظ والتنبّه عند كل خطاب .

4- الكناية : في قوله " من وراء الحجرات " كناية عن موضع خلوته صلى اللّه عليه وسلم ومقيله مع بعض نسائه وقد ازدادت الكناية بإيقاع الحجرات معرفة بالألف واللام دون الإضافة إليه وفي ذلك من حسن الأدب ما لا يخفى .

الفوائد :

قال الزمخشري : " فإن قلت لخّص الفرق بين الوجهين قلت تلخيصه أن يقدّر الفعل في الثاني مضموما إليه المفعول له كأنهما شيء

واحد ثم يصب النهي عليهما جميعا صبّا وفي الأول يقدّر النهي موجها على الفعل على حياله ثم يعلّل له منهيا عنه فإن قلت بأيّ النهيين تعلق المفعول له ؟ قلت : بالثاني عند البصريين مقدّرا إضماره عند الأول كقوله تعالى : آتوني أفرغ عليه قطرا ، وبالعكس عند الكوفيين وأيهما كان فمرجع المعنى إلى أن الرفع والجهر كلاهما منصوص أداؤه إلى حبوط العمل .

[سورة الحجرات (49) : الآيات 6 إلى 8]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ (6) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيانَ أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7) فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (8)

الإعراب :

)

(507/719)

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ) يا أيها الذين آمنوا : تقدم إعرابها وإن شرطية وجاءكم فعل ماض في محل جزم فعل الشرط والكاف مفعول به مقدّم وفاسق فاعل مؤخر وبنبإ متعلقان بجاءكم والفاء رابطة لجواب الشرط لأن الجملة طلبية وتبينوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل وأن تصيبوا أن وما في حيزها في محل نصب مفعول من أجله على حذف مضاف أي خشية إصابتكم أو كراهة إصابتكم وقوما

(508/719)

مفعول به وبجهالة في محل نصب حال من الفاعل أي جاهلين ، فتصبحوا الفاء عاطفة وتصبحوا معطوف على تصيبوا والواو اسم تصبحوا وعلى ما فعلتم متعلقان بنادمين ونادمين خبر تصبحوا (وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ) الواو حرف عطف واعلموا فعل أمر والواو فاعل وأن وما في حيزها سدّت مسدّ مفعولي اعلموا وفيكم خبر أن المقدم ورسول اللّه اسم إن المؤخر ولو شرطية وجملة يطيعكم حال من الضمير المجرور في قوله فيكم وفي كثير متعلقان بيطيعكم ومن الأمر صفة لكثير واللام واقعة في جواب لو وعنتّم فعل وفاعل والجملة لا محل لها من الإعراب لأنها جواب لو والمعنى لوقعتم في العنت أي الهلاك (وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيانَ) الواو عاطفة ولكن واسمها وجملة حبب خبرها وإليكم متعلقان بحبب والإيمان مفعول به وزيّنه عطف على حبّب وفي قلوبكم متعلقان بزينه وكره إليكم الكفر عطف على ما تقدم (أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ) أولئك مبتدأ وهم ضمير فصل والراشدون خبر أولئك ويجوز أن تعرب هم مبتدأ ثانيا والراشدون خبره والجملة خبر أولئك وجملة أولئك هم الراشدون في محل نصب على الحال أو اعتراضية لا محل لها (فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) فضلا مفعول من أجله أو مصدر من غير فعله واختلف في ناصبه على الأول فقيل هو حبب إليكم فيتعين كون جملة أولئك هم الراشدون اعتراضية ،

وقيل النصب بتقدير فعل أي تبتغون فضلا ونعمة وقيل هو الراشدون على خلاف بين أهل السنة والمعتزلة سنورده في باب الفوائد والله مبتدأ وعلم خبر أول وحكيم خبر ثان .

البلاغة :

اشتملت هذه الآيات على أفانين متنوعة من البلاغة نوردها موجزة

فيما يلي :

1- التنكير : في قوله " إن جاءكم فاسق " والفائدة منه الشياع والشمول لأن النكرة إذا وقعت في سياق الشرط عمّت كما تعمّ إذا وقعت في سياق النفي وقد تقدمت الإشارة إلى هذه القاعدة في غير مكان من هذا الكتاب ، وفي هذا التنكير ردّ على من زعم أنها نزلت في الوليد بن عقبة وهو من كبار الصحابة لأن إطلاق الفسوق عليه بعيد ذلك أن الفسوق هو الخروج من الشيء والانسلاخ منه والوليد كما يذكرون ظن فأخطأ والمخطئ- كما يقول الرازي- لا يسمى فاسقا فالعموم هو المراد كأنه قال : أي فاسق جاءكم بأيّ نبأ فمحّصوه وأعرضوه على محك التصويب والتخطئة قبل البتّ في الحكم ولا تستعجلوا الأمور .

2- التقديم : في قوله " واعلموا أن فيكم رسول الله " فقد قدّم خبر إن على اسمها والقصد

من ذلك التشدّد على بعض المؤمنين لتحاشي ما استهجنه اللّه من محاولتهم اتباع رأي رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لآرائهم .

3- التعبير : بالمضارع دون الماضي في قوله : " لو يطيعكم " ولم يقل أطاعكم وذلك لإفادة الديمومة والاستمرار على أن يعمل ما يرونه صوابا وإن عليه كلما عنّ لهم رأي أو بدأت لهم في الأمور بداءة أن يخلد إليهم ويفعل ما يعتقدونه حقا .

4- الطباق : وذلك في قوله تعالى " حبّب " و "كرّه " وفي التحبيب والتكريه خلاف بين أهل السنّة والمعتزلة لا يتّسع له صدر هذا الكتاب فليرجع إلى المطولات .

الفوائد :

(510/719)

أورد الزمخشري إشكالا على إعراب فضلا فقال : " فإن قلت من أين جاز وقوعه مفعولا له والرشد فعل القوم والفضل فعل اللّه والشرط أن يتحد الفاعل ؟ قلت لما وقع الرشد عبارة عن التحبيب والتزيين والتكريه مسندة إلى اسمه تقدست أسماؤه صار الرشد كأنه فعله فجاز أن ينتصب عنه أو لا ينتصب عن الراشدون ولكن عن الفعل المسند إلى اسم اللّه تعالى والجملة التي هي أولئك هم الراشدون اعتراض أو عن فعل مقدّر كأنه قيل جرى ذلك

أو كان ذلك فضلا من اللّه وأما كونه مصدرا من غير فعله فأن يوضع موضع رشدا لأن رشدهم فضل من اللّه لكونهم موفقين فيه والفضل والنعمة بمعنى الأفضال " نقول ، وهذا الإشكال الذي أورده الزمخشري بناء على اعتقاد المعتزلة بأن الرشد ليس من أفعال اللّه تعالى وإنما هو فعلهم حقيقة ، والواقع أن الرشد من أفعال اللّه ومخلوقاته فقد وجد شرط انتصاب المفعول له وهو اتحاد فاعل الفعلين على أن الإشكال وارد نصا على تقريرنا على غير الحدّ الذي أورده عليه الزمخشري بل من جهة أن اللّه تعالى خاطب خلقه بلغتهم المعهودة عندهم ومما يعهدونه أن الفاعل من نسب إليه الفعل وسواء كان حقيقة أو مجازا حتى يكون زيد فاعلا وانقض الحائط وأشباهه كذلك وقد نسب إليهم الرشد على طريقة أنهم الفاعلون وإن كانت النسبة مجازية باعتبار المعتقد وإذا تقرر وروده على هذا الوجه فلك في الجواب عنه طريقان إما جواب الزمخشري وإما أمكن منه وأبين وهو أن الرشد هنا يستلزم كونه راشدا إذ هو مطاوعه لأن اللّه تعالى أرشدهم فرشدوا وحينئذ يتحد الفاعل على طريقة الصناعة اللفظية المطابقة للحقيقة وهو عكس قوله يريكم البرق خوفا وطمعا فإن الإشكال بعينه وارد فيها إذ الخوف والطمع فعلهم أي منسوب إليهم على طريقة أنهم الخائفون الطامعون والفعل

الأول للّه تعالى والجواب عنه أنهم مفعولون في معنى الفاعلين بواسطة استلزام المطاوعة لأنه إذا أرادهم فقد رأوا وقد سلف هذا الجواب مكانه وعكسه آية الحجرات إذ تصحيح الكلام بتقدير الفاعل مفعولا وهذا من دقائق العربية .

[سورة الحجرات (49) : الآيات 9 إلى 11]

وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (9) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (11)

اللغة :

(طائِفَتانِ) الطائفة : الجماعة من الناس والقطعة من الشيء ، والذين يجمعهم رأي أو مذهب يمتازون به عن سواهم ومؤنث الطائف والجمع طائفات وطوائف وفي القاموس " والطائفة من الشيء القطعة منه أو

الواحد فصاعدا أو إلى الألف أو أقلها رجلان أو رجل فيكون بمعنى النفس " وقال شارح

القاموس في التاج : " قوله فيكون بمعنى النفس هذا توجيه لكون تائه للتأنيث حينئذ أي النفس الطائفة قال الراغب : إذا أريد بالطائفة الجمع فجمع طائف وإذا أريد به الواحد فيصحّ أن يكون جمعا وكنّى به عن الواحد وأن يكون كراوية وعلامة ونحو ذلك .

(تَفِيءَ) مضارع فاء أي رجع .

)

(512/719)

أَقْسِطُوا) أعدلوا من أقسط الرباعي بخلاف قسط الثلاثي الذي معناه الجور يقال قسط الرجل إذا جار وأقسط إذا عدل قال تعالى : " وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا " وقال في التاج : " ففي العدل لغتان قسط وأقسط وفي الجور لغة واحدة قسط بغير ألف " .

(قَوْمٌ) القوم : الرجال خاصة لأنهم القوام بأمور النساء قال اللّه تعالى : الرجال قوّامون على النساء وقال عليه الصلاة والسلام : النساء لحم على وضم إلا ما ذبّ عنه الذابّون والذابّون هم الرجال ، وهو في الأصل جمع قائم كصوّم وزوّر في جمع صائم وزائر أو تسميته بالمصدر ، عن بعض العرب إذا أكلت طعاما أحببت نوما وأبغضت قوما أي قياما ، واختصاص القوم بالرجال صريح في الآية وفي قول زهير :

وما أدري وسوف أخال أدري أقوم آل حصن أم نساء

وأما قولهم في قوم فرعون وقوم عاد أنهم الذكور فليس لفظ القوم بمتعاط للفريقين ولكن قصد ذكر الذكور وترك ذكر الإناث لأنهنّ توابع لرجالهنّ ، هذا ما ذكره في الكشاف فهو اسم جمع بمعنى الرجال خاصة وأحده في المعنى رجل وقيل جمع لا واحد له من لفظه وقال بعضهم : القوم الجماعة من الناس والجمع أقوام وأقاوم وأقائم وأقاويم ، وقوم الرجل أقرباؤه الذين يجتمعون معه في جدّ واحد .

(تَلْمِزُوا) اللمز الطعن والضرب باللسان وفي المصباح : " لمزه لمزا من باب ضرب عابه وقرأ بها السبعة ومن باب قتل لغة وأصله الإشارة بالعين ونحوها " .

(تَنَابَزُوا) التنابز : تفاعل من النبز وهو التداعي باللقب والنزب منه لقب السوء ، ويقال تنابزوا وتنابزوا إذا دعا بعضهم بعضا بلقب سوء .

الإعراب :

)

وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما) الواو عاطفة وإن شرطية وطائفتان فاعل لفعل محذوف يفسّره ما بعده ومن المؤمنين نعت طائفتان واقتتلوا فعل ماض مبني على الضم وسيأتي سرّ اتصاله بواو الجماعة في باب البلاغة والفاء رابطة لجواب الشرط وأصلحوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل وبينهما ظرف متعلق بأصلحوا (فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ) الفاء عاطفة وإن شرطية وبغت فعل ماض مبني على الفتح المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين والتاء للتأنيث وإحداهما فاعل بغت وعلى الأخرى متعلقان ببغت والفاء رابطة وقاتلوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والتي مفعول به وجملة تبغي صلة التي وحتى حرف غاية وجر وتفيء فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى والفاعل مستتر تقديره هي وإلى اللّه متعلقان بتفيء (فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) الفاء عاطفة وما بعد الفاء تقدم إعرابه وبالعدل حال أي عادلين وإن واسمها وجملة يحب المقسطين خبرها وجملة إن وما بعدها تعليل للأمر لا محل لها (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ) إنما كافّة ومكفوفة والمؤمنون مبتدأ وإخوة خبر ، فأصلحوا الفاء الفصيحة وأصلحوا فعل أمر مبني على

حذف النون والواو فاعل وبين أخويكم ظرف متعلق بأصلحوا (وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) عطف على ما تقدم ولعلّ واسمها وجملة ترحمون خبرها (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ) يا أيها الذين آمنوا تقدم إعرابها ولا ناهية ويسخر فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وقوم فاعل ومن قوم متعلقان بيسخر وعسى فعل ماض من أفعال الرجاء وهي هنا تامة ، وسيأتي حكمها في باب الفوائد ، وأن وما في حيزها فاعلها وخيرا خبر يكونوا ومنهم متعلقان بخير ولا نساء من نساء عطف على قوم من قوم وعسى أن يكن خيرا منهنّ تقدم إعرابها وجملة عسى أن يكونوا مستأنفة ورد مورد جواب المستخبر عن العلة الموجبة لما جاء النهي عنه (وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ) عطف على ما تقدم إعرابه واضح (بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ) بئس فعل ماض جامد لإنشاء الذم والاسم فاعله والفسوق هو المخصوص بالذم وهو مبتدأ خبره الجملة قبله ولك أن تعربه خبرا لمبتدأ محذوف وبعد الإيمان الظرف متعلق بمحذوف حال (وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) الواو عاطفة ومن اسم شرط جازم ولم حرف نفي وقلب وجزم ويتب فعل مضارع مجزوم بلم وهو فعل الشرط والفاء رابطة للجواب لأنه جملة اسمية وأولئك مبتدأ وهم ضمير فصل لا محل له أو مبتدأ ثان والظالمون خبر من أو خبرهم والجملة خبر أولئك وجملة فأولئك في محل جزم جواب الشرط .

البلاغة :

1- الحمل على المعنى : قال اقتتلوا والقياس اقتتلتا حملا على المعنى لأن الطائفتين في معنى القوم والناس ثم حمل على اللفظ فقال (بَيْنَهُما) .

(515/719)

2- التخصيص : خصّ الاثنين بالذكر بقوله فأصلحوا بين أخويكم دون الجمع لأن أقل من يقع منهم الشقاق اثنان فإذا التزمت المصالحة بين الأقل كانت بين الأكثر ألزم لأن الفساد والشر المترتبين على شقاق الجمع أكثر منهما في شقاق الاثنين .

3- وضع الظاهر موضع المضمر : وفيه أيضا وضع الظاهر موضع المضمر مضافا إلى المأمورين بالإصلاح للمبالغة في التقرير والتحضيض وقد مرّت الإشارة إلى هذا الفن .

4- سرّ الجمع : لم يقل رجل من رجل ولا امرأة من امرأة إيذانا بإقدام غير واحد من رجالهم وغير واحدة من نسائهم على السخرية واستفظاعا للشأن الذي كانوا عليه ولأن مشهد الساخر لا يكاد يخلو ممّن يتلهّى ويستضحك على قوله ولا يأتي ما عليه من النهي والإنكار فيكون شريك الساخر وتلوه في تحمّل الوزر وكذلك كل من يستطيبه ويضحك منه فيؤدى ذلك وإن أوجده واحد إلى تكثير السخرة وانقلاب الواحد جماعة وقوما .

الفوائد :

1- اختصّت عسى واخلولق وأوشك من بين أفعال المقاربة بجواز إسنادهنّ إلى " أن يفعل " حال كونه مستغنى به عن الخبر فتكون تامة قال ابن مالك في الخلاصة :

بعد عسى اخلولق أوشك قد يرد غنى بأن يفعل عن ثان فقد

نحو وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبّوا شيئا وهو شرّ لكم ، وينبني على هذا الأصل فرعان أحدهما أنه إذا تقدم على إحداهنّ اسم هو المسند إليه في المعنى وتأخر عنها أن والفعل نحو زيد

عسى أن يقوم جاز تقديرها خالية من ضمير ذلك الاسم فتكون عسى مسندة إلى أن والفعل مستغنى بهما عن الخبر فتكون تامة وهذه لغة أهل الحجاز وجاز تقديرها مسندة إلى الضمير العائد إلى الاسم المتقدم عليها فيكون الضمير اسمها وتكون أن والفعل في موضع نصب على الخبر فتكون ناقصة وهذه لغة بني تميم وإلى ذلك أشار ابن مالك بقوله :

وجرّدن عسى أو ارفع مضمرا بها إذا اسم قبلها قد ذكرا

(516/719)

وقد جاء التنزيل كما في الآية التي نحن بصددها بلغة أهل الحجاز ، والفرع الثاني أنه إذا ولى إحداهنّ أن والفعل وتأخر عنها اسم هو المسند إليه في المعنى نحو عسى أن يقوم زيد جاز الوجهان السابقان فيما إذا تقدم المسند إليه في المعنى وعلى هذا يكون مبتدأ مؤخرا لا غير ، وجاز أيضا وجهان آخران أحدهما أنه يجوز في ذلك الفعل المقرون أن يقدّر خاليا من الضمير العائد إلى الاسم المتأخر فيكون الفعل مسندا إلى ذلك الاسم المتأخر وتكون عسى مسندة إلى أن والفعل مستغنى بها عن الخبر فتكون تامة والثاني أن يقدّر ذلك الفعل محتملا لضمير ذلك الاسم المتأخر فيكون الاسم المتأخر مرفوعا بعسى وتكون أن والفعل في موضع نصب على الخبرية بعسى مقدّما على اسمها فتكون ناقصة .

2- المشاقّة في الإسلام : ننقل فيما يلى خلاصة عن الفصل الممتع الذي عقده الزمخشري بصدد المشاقة في الإسلام وواجب المسلمين حيالها إذا استشرت واستحكمت قال : " هذا تقرير لما ألزمه من تولّى الإصلاح بين من وقعت بينهم المشاقّة من المؤمنين وبيان أن الإيمان قد عقد بين أهله من السبب القريب والنسب اللاصق ما إن لم يفضل الإخوة ولم يبرز عليها لم ينقص عنها ولم يتقاصر عن غاياتها ، ثم قد جرت عادة الناس على أنه إذا نشب مثل ذلك بين اثنين من إخوة الولاد لزم السائر أن يتناهضوا في رفعه وإزاحته ويركبوا الصعب والذلول مشيا بالصلح وبثّا للسفراء بينهما إلى أن يصادف ما وهى من الوفاق من يرقعه وما استشنّ من الوصال من يبله ، فالأخوة في الدين أحقّ بذلك

وبأشدّ منه وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يعيبه ولا يتطاول عليه في البنيان فيستر عنه الريح إلا بإذنه ولا يؤذيه بقتار قدره ثم قال احفظوا ولا يحفظ منكم إلا قليل " .

[سورة الحجرات (49) : الآيات 12 إلى 13]

(517/719)

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (12) يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)

اللغة :

(تَجَسَّسُوا) يقال تجسّس الأمر إذا تطلبه وبحث عنه وقرئ ولا تحسسوا بالحاء ، والمعنيان متقاربان ، وقال الأخفش ليست تبعد إحداهما عن الأخرى لأن التجسس البحث عمّا يكتم عنك والتحسّس

بالحاء طلب الأخبار والبحث عنها ، وقيل إن التجسس بالجيم هو البحث ومنه قيل :

رجل جاسوس إذا كان يبحث عن الأمور وبالحاء ما أدركه الإنسان ببعض حواسّه ، وفي القاموس : " ولا تجسسوا أي خذوا ما ظهر ودعوا ما ستر اللّه عزّ وجلّ أو لا تفحصوا عن بواطن الأمور أو لا تبحثوا عن العورات " وجاء فيه أيضا : " والتحسّس الاستماع لحديث القوم وطلب خبرهم في الخير " وقال في الأساس : " ومن أين حسست هذا الخبر وأخرج فتحسّس لنا وضرب فما قال حس وجيء به من حسّك وبسّك ، وأنشد يصف امرأة ويشكوها :

تركت بيتي من الأشياء قفرا مثل أمس

كل شيء كنت قد جمّعت من حسّى وبسّى

)

(518/719)

شُعُوباً) جمع شعب بفتح الشين وهو أعلى طبقات النسب وقال أبو حيان : " الشعب الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب وهي الشعب والقبيلة والعمارة والبطن والفخذ والفصيلة فالشعب يجمع القبائل والقبيلة تحمي العمائر والعمارة تجمع البطون والبطن يجمع الأفخاذ والفخذ يجمع الفصائل خزيمة شعب وكنانة قبيلة وقريش عمارة

وقصي بطن وهاشم فخذ والعباس فصيلة وسمّيت الشعوب لأن القبائل تشعبت منها ومنه اشتقّت الشعوبية بضم الشين وهم قوم يصغّرون شأن العرب سمّوا بذلك لتعلقهم بظاهر قوله تعالى :

" وجعلناكم شعوبا وقبائل " وقال ابن هبيرة في المحكم : غلبت الشعوبية بلفظ الجمع على جيل من العجم حتى قيل لمحتقر أمر العرب شعوبى وإن لم يكن منهم وأضافوا إلى الجمع لغلبته على الجيل الواحد كقولهم أنصاري .

الإعراب :

(519/719)

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ) اجتنبوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل وكثيرا مفعول به ومن الظن صفة لكثيرا وإن واسمها وخبرها إن وما في حيزها تعليل للنهي فالجملة لا محل لها (وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً) الواو حرف عطف ولا ناهية وتجسسوا فعل مضارع مجزوم بلا ولا يغتب عطف على ولا تجسسوا وبعضكم فاعل وبعضا مفعول به (أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ) الهمزة للاستفهام التقريري ويحب فعل مضارع مرفوع وأحدكم فاعل وأن وما في

حيزها مفعول يحب وميتا حال من لحم أخيه ومن من الأخ والفاء الفصيحة أي إن صحّ هذا فكرهتموه وكرهتموه فعل وفاعل ومفعول به والواو لإشباع ضمة الميم وسيرد في باب البلاغة مزيد من بحثه (وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ) الواو استئنافية واتقوا اللّه فعل أمر وفاعل ومفعول به وإن واسمها وخبراها (يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى) إن واسمها وجملة خلقناكم خبرها ومن ذكر متعلقان بخلقناكم وأنثى عطف على ذكر (وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا) الواو حرف عطف وجعلناكم فعل وفاعل ومفعول به أول وشعوبا مفعول به ثان واللام للتعليل وتعارفوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) إن واسمها وعند اللّه ظرف متعلق بمحذوف حال وأتقاكم خبرها وإن واسمها وخبراها والجملتان المصدّرتان بإن مستأنفتان.

البلاغة:

في هاتين الآيتين أفانين متنوعة من البلاغة ندرجها فيما يلي:

1- التنكير في قوله "كثيرا من الظن" والسر فيه إفادة معنى

البعضية للإيذان بأن في الظنون ما يجب أن يجتنب من غير تبيين لذلك ولا تعيين لئلا يجترئ أحد على ظن إلا بعد تأمّل وبعد نظر وتمحيص واستشعار للتقوى والحذر من أن يكون الظن طائش السهم ، بعيدا عن الإصابة ، وما أكثر الذين تسوّل لهم ظنونهم ما ليس واقعا ولا يستند إلى شيء من اليقين .

2- الاستعارة التمثيلية الرائعة في قوله تعالى " أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه " فقد شبّه من يغتاب غيره بمن يأكل لحم أخيه ميتا وفيها مبالغات أولها الاستفهام الذي معناه التقرير كأنه أمر مفروغ منه مبتوت فيه ، وثانيها جعل ما هو الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة ، وثالثها إسناد الفعل إلى كل أحد للإشعار بأن أحدا من الأحدين لا يحبّ ذلك ، ورابعها أنه لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان وهو أكره اللحوم وأبعثها على التقزّز حتى جعل الإنسان أخا ، وخامسها أنه لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعله ميتا ومن ثم فصحت هذه الآية وأكبرها أصحاب البيان وقال النبي صلى اللّه عليه وسلم " ما صام من ظل يأكل لحوم الناس " وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : اللّه ورسوله أعلم قال ذكرك أخاك بما يكره قال : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول فقال إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته .

وعن ابن عباس أن سلمان كان يخدم رجلين من الصحابة ويسوّي لهما طعامهما فينام عن

شأنه يوما فبعثاه إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يبغي لهما أداما وكان أسامة على طعام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال : ما عندي شيء فأخبرهما سلمان بذلك فعند ذلك قالا لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها فلما راحا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال لهما ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما ، فقالا : ما تناولنا لحما فقال : إنكما قد اغتبتما فنزلت . . .

(521/719)

ثم إن الغيبة على ثلاثة أضرب :

1- أن تغتاب وتقول لست أغتاب لأني أذكر ما فيه فهذا كفر ، ذكره الفقيه أبو الليث في التنبيه لأنه استحلال للحرام القطعي .

2- أن تغتاب وتبلغ غيبة المغتاب فهذه معصية لا تتم التوبة عنها إلا بالاستحلال لأنه أذاه فكان فيه حق العبد أيضا وهذا محمل قوله عليه الصلاة والسلام : الغيبة أشدّ من الزنا قيل : وكيف ؟ قال الرجل يزنى ثم يتوب عنه فيتوب اللّه عليه وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه .

3- إن لم تبلغ الغيبة فيكفيه التوبة والاستغفار له ولمن اغتابه ، فقد أخرج ابن أبى الدنيا عن

أنس رضي اللّه عنه أنه قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : كفّارة من اغتبته أن تستغفر له .

[سورة الحجرات (49) : الآيات 14 إلى 18]

قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (15) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (16) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (17) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (18)

اللغة :

)

يَلِتْكُمْ) ينقصكم ويظلمكم ، يقال ألته السلطان حقه أشدّ الألتة وهي لغة غطفان وأسد ولغة أهل الحجاز لاته ليتا وقرئ باللغتين لا يلتكم ولا يألتكم وفي السمين " قراءة أبي عمرو بالهمز من ألته يألته بالفتح في الماضي وبالكسر والضم في المضارع وقراءة الآخرين بترك الهمز من لاته يليته كباعه يبيعه وقيل هو من ولته يلته كوعده يعده " .

الإعراب :

(قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ) قالت الأعراب فعل ماض وفاعل وجملة آمنا في محل نصب مقول القول وجملة لم تؤمنوا في محل نصب مقول القول أيضا والواو حرف عطف ولكن حرف استدراك مهمل وقولوا فعل أمر وفاعل وجملة أسلمنا مقول القول والواو للحال ولما حرف نفي وجزم ويدخل فعل مضارع مجزوم بلما وما في لما من معنى التوقع دال على أنهم قد آمنوا فيما بعد والإيمان فاعل وفي قلوبكم متعلقان بيدخل (وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) الواو عاطفة وإن شرطية وتطيعوا فعل الشرط وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل ولفظ الجلالة مفعول به ورسوله عطف على اللّه ولا نافية

ويلتكم فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط ومن أعمالكم حال لأنه كان صفة لشيئا وشيئا مفعول به ثان أو مفعول مطلق وإن واسمها وخبراها (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا) إنما كافّة ومكفوفة والمؤمنون مبتدأ والذين خبر وجملة آمنوا صلة وثم حرف عطف للتراخي والفائدة منه الإشارة إلى أن نفي الريب عنهم ليس في وقت حصول الإيمان فيهم فقط بل هو مستمر بعد ذلك فيما يتطاول من أزمنة وآماد ولم حرف نفي وقلب وجزم ويرتابوا فعل مضارع مجزوم بلم (وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) وجاهدوا عطف على آمنوا وبأموالهم متعلقان بجاهدوا وكذلك قوله في سبيل اللّه وأولئك مبتدأ وهم ضمير فصل أو مبتدأ ثان والصادقون خبر أولئك أو خبر هم والجملة خبر أولئك (قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) الهمزة للاستفهام الإنكاري وتعلمون فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون والواو فاعل ولفظ الجلالة مفعوله وبدينكم متعلقان بتعلمون لأنه بمعنى التعريف والواو للحال واللّه مبتدأ وجملة يعلم خبر وما مفعول به وفي السموات صلة واللّه مبتدأ وبكل شيء متعلقان بعليم وعليم خبر (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ) يمنّون فعل مضارع مرفوع والواو فاعل وعليك متعلقان بيمنّون وأن وما في حيزها نصب بنزع الخافض وقل فعل أمر وجملة لا تمنّوا مقول القول وعليّ متعلقان بتمنّوا وإسلامكم نصب بنزع الخافض أيضا (بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ

صادِقِينَ) بل حرف إضراب وعطف واللّه مبتدأ وجملة يمنّ عليكم خبر وأن وما في حيزها نصب بنزع

(524/719)

الخافض أيضا وللإيمان متعلقان بهداكم وإن شرطية وكنتم صادقين في موضع جزم فعل الشرط وجوابه محذوف يدلّ عليه ما قبله أي فهو المانّ عليكم (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ)

إن واسمها وجملة يعلم خبرها واللّه مبتدأ وبصير خبر وبما تعملون متعلقان ببصير .

البلاغة :

في قوله تعالى " قالت الأعراب آمنّا " إلخ الآية فن سمّاه صاحب الصناعتين وغيره الاستدراك ، وغيره يسمّيه الاستثناء ، وهو يتضمن ضربا من المحاسن زائدا على ما يدل عليه المدلول اللغوي كقوله الآنف الذكر فإن الكلام لو اقتصر فيه على ما دون الاستدراك لكان منفرا لهم لأنهم ظنوا الإقرار بالشهادتين من غير اعتقادهما إيمانا ، فأوجبت البلاغة تبيين الإيمان فاستدرك ما استدركه من الكلام ليعلم أن الإيمان موافقة القلب للسان ولأن انفرد اللسان بذلك يسمى إسلاما لا إيمانا وزاده إيضاحا بقوله " ولما يدخل الإيمان في

قلوبكم " وبعضهم يدخل هذا النوع في نطاق فن يقال له جمع المختلفة والمؤتلفة فإنهم ظنوا أن الإيمان العمل باللسان دون العمل بالجنان فجاء قوله تعالى " ولكن قولوا أسلمنا " مؤتلفا لقولهم آمنّا وهم يعتقدون أن الإيمان مجرد الإقرار باللسان وخالف ذلك قوله تعالى " قل لم تؤمنوا " وائتلف به قوله مبينا حقيقة الإيمان وأنه خلاف ما ظنوا بقوله سبحانه " ولما يدخل الإيمان في قلوبكم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 9 صـ 256 . 279﴾

(525/719)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء العشرون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/720)

الجزء العشرون بعد السبعمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة ق)

(4/720)

(سورة ق)

(5/720)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

(سورة ق)

ومقصودها تصديق النبي (صلى الله عليه وسلم) في الرسالة التي معظمها الإنذار وأعظمه الإعلام بيوم الخروج بالدلالة على ذلك بعد الآيات المسموعة العنية بإعجازها عن تأييد بالآيات المرئية الدالة قطعا على الإحاطة بجميع صفات الكمال ، وأحسن من هذا أن يقال : مقصودها الدلالة على إحاطة القدرة التي هي نتيجة ما ختمت به الحجرات من إحاطة العلم لبيان أنه لا بد من البعث ليوم الوعيد ، فتكتنف هذه الإحاطة بما يحصل من الفضل بين العباد بالعدل لأن ذلك هو سر الوجود وذلك هو نتيجة مقصود البقرة ، والذي تكفل بالدلالة على هذا كله ما شوهد من إحاطة مجد القرآن بإعجازه في بلوغه في كل من جميع المعاني وعلو التراكب وجلالة المفردات وتلازم الحروف وتناسب النظم ورشاقة الجمع وحلاوة التفضيل إلى حد لا تطيقه القوى ، ومن إحاطة القدرة بما هدى إليه القرآن من آآيات الإيجاد والإعدام ، وعلى كل من الاحتمالين دل اسمها " ق " لما في آياته من إثبات المجد بهذا الكتاب ، والمجد هو الشرف والكرم زالرفعة والعلو ، وذلك لا يكون إلا والآتي به كذلك ، وهو ملازم لصدقه في جميع ما أتى به ، وللقاف وحدها أتم دلالة على ذلك ، أولا

بمخرجها فإنه من أصل اللسان مما يلي الحلق ويحاذيه من الحنك الأعلى ، فإن ذلك إشارة إلى أن مقصود السورة الأصل و العلو ، وكل منها دال على الصدق دلالة قوية ، فإن الأصل في وضع الخبر الصدق ، ودلالته على الكذب وضعية لا عقلية ، وهي أيضا محيطة باسمها أو مسماها بالمخارج الثلاث ، والإحاطة بالحق لا تكون إلا مع العلو ، وهو لا يكون إلا مع الصدق ، ولإحاطتها سمي بها الجبل المحيط بالأرض ، هذا بمخرجها ، وأما صفتها فإنها عظيمة في ذلك فإن لها الجهر والشدة والانفتاح والاستعلاء والقلقة ، وكل منها ظاهر الدلالة على ذلك جدا ، وأدل ما فيها من المخلوقات على هذا المقصد النخل ،

(6/720)

لما انفردت به عما شاركها من النبلات بالإحاطة بالطول وكثرة المنافع ، فإنها جامعة للفكه بالقلب ثم الطلع ثم البسر ثم الرطب وبالاقتيات بالتمر وبالخشب والحطب والقطا والخوص النافع للافتراش والليف النافع للحبال ، ودون ذلك وأعلاه من الخلال ، هذا مع كثرة ملابسة العرب الذين هم أول مدعو بهذا الكتاب الذكر لها ومعرفتهم بخواصها ، وأدل ما فيها الطول مع أنه ليس لعروقها من الامتداد في الأرض والتمكن ما لغيرها ، ومثل ذلك غير كاف في العادة في الإمساك عن السقوط وكثرة الحمل وعظم الإفناء وتناضد الثمر ، ولذلك

سميت سورة الباسقات لا النخل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 243 .

244 ﴾

(7/720)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . ق والقرآن المجيد)

السّورة مكِّيَّة بالاتِّفاق .

وآياتها خمس وأَربعون .

وكلماتها ثلاثمائة وخمس وسبعون .

وحروفها أَلف وأَربعمائة وأَربع وسبعون .

مجموع فواصل آياتها (صر جد ظب) سمّيت بقاف ، لافتتاحها بها .

مقصود السّورة : إِثبات النبوّة للرّسول – صلَّى الله عليه وسلَّم – وبيان حُجّة التَّوحيد ، والإِخبار عن إِهلاك القرون الماضية ، وعلم الحقّ تعالى بضمائر الخَلْق وسرائرهم ، وذكر الملائكة الموكَّلين على الخَلْق ، المشرفين على أَقوالهم ، وذكر بَعْث القِيامة ، وذُلّ العاصين

يومئذ ، ومناظرة المنكرين بعضهم بعضاً فى ذلك اليوم ، وتَغَيُّظ الجحيم على أَهله ، وتشرّف الجنَّة بأَهلها ، والخبر عن تخليق السّماءِ والأَرض ، وذكر نداءِ إسرافيل بنفخة الصُّور ، ووعظ الرّسول صلَّى الله عليه وسلَّم الخَلْق بالقرآن المجيد فى قوله : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ .

الناسخ والمنسوخ :

فيها من المنسوخ آيتان ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ م آية السّيف ن .

المتشابهات :

قوله : ﴿ فَقَالَ الكَافِرُوْنَ ﴾ بالفاءِ سبق .

قوله : ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ ﴾ وبعده : ﴿ قَالَ قَرِينُهُ ﴾ لأَن الأَوّل (خطاب الإِنسان) من قرينه ومتّصل بكلامه ، والثان استئناف خطاب الله سبحانه من غير اتّصاله بالمخاطب الأَوّل وهو قوله : ﴿ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ ، وكذلك الجواب بغير واو ، وهو قوله : ﴿ لا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ ﴾ وكذلك ﴿ مَا يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ ﴾ فجاءَ الكُلّ على نَسَق واحد .

قوله : ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ وفى طه (﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ لأَنَّ فى هذه السورة راعى الفواصل ، وفى طه) راعى القياس ، لأَنَّ الغروب للشَّمس ، كما أَنَّ الطُّلوع

لها .

فضل السّورة

(8/720)

فيه الحديث الضعيف : من قرأَ سورة ق هوّن الله عليه تارات الموت وسكراته ، وحديث عليّ : يا عليّ مَنْ قرأَها بشّره مَلَك الموت بالجنّة وجعل الله منكراً ونكيراً عليه رحيماً ، ورفع الله له بكلّ آية قرأَها درجة فى الجنّة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 437.438 ﴾

(9/720)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة ق

416 - مسألة :

قوله تعالى : (وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) أين المقسم عليه ؟

جوابه :

قيل : محذوف ، تقديره : لتبعثن وقيل : المقسم عليه : (ق)

مقدما على القسم لدلالته على الإعجاز . وقيل : (قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ) ، وحذفت اللام

للبعد بينهما . وقيل :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى) . وقيل : غير ذلك .

174 - مسألة :

قوله تعالى : (وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ)

ثم قال : (قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ) بغير واو

جوابه :

قيل الأول : هو الملك من الحفظة ، يقول للإنسان : أي ما لدى من أعمالك .

والثاني : قرينه من الشياطين مخاطبا لربه تعالى . فانقطع الكلام عن الأول ، فجاء مستقبلا

بغير واو . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 342. 343﴾

(10/720)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة ق

سميت في عصر الصحابة سورة ق ينطق بحروف : قاف ، بقاف ، وألف ، وفاء .

فقد روى مسلم عن قطبة بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ في صلاة الصبح سورة ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ [قّ : 1] وربما قال : ﴿ ق ﴾ ويعني في الركعة الأولى .

وروى مسلم عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان ما أخذت ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ إلا عن لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها كل يوم على المنبر إذ خطب الناس .

وروى مسلم عن جابر بن سمرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في الفجر ب ﴿ قاف وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ هكذا رسم قاف ثلاث أحرف ، وقوله في الفجر يعني به صلاة الصبح لأنها التي يصليها في المسجد في الجماعة فأما نافلة الفجر فكان يصليها في بيته .

وفي الموطأ ومسلم أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي : ما كان يقرأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأضحى والفطر ؟ فقال : كان يقرأ فيهما ب ﴿ قاف ﴾ هكذا رسم قاف ثلاثة أحرف مثل ما رسم حديث جابر بن سمرة و ﴿ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ و ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر : 1]

وهي من السور التي سميت بأسماء الحروف الواقعة في ابتدائها مثل طه وص .

وق .

ويس لانفراد كل سورة منها بعدد الحروف الواقعة في أوائلها بحيث إذا دعيت بها لا تلتبس بسورة أخرى .

وفي الإتقان أنها تسمى سورة الباسقات .

هكذا بلام التعريف ، ولم يعزه لقائل والوجه أن تكون تسميتها هذه على اعتبار وصف لموصوف محذوف ، أي سورة النخل الباسقات إشارة إلى قوله ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾ [ق : 10] .

وهذه السورة مكية كلها قال ابن عطية : بإجماع من المتأولين .

(11/720)

وفي تفسير القرطبي والإتقان عن ابن عباس وقتادة والضحاك : استثناء آية ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ [ق : 38] أنها نزلت

(12/720)

في اليهود ، يعني في الرد عليهم إذ قالوا : إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع وهو يوم السبت ، يعني أم مقالة اليهود سمعت بالمدينة ، يعني : وألحقت بهذه السورة لمناسبة موقعها .

وهذا المعنى وان كان معنى دقيقا في الآية فليس بالذي يقتضي أن يكون نزول الآية في المدينة فإن الله علم ذلك فأوحى به الى رسوله صلى الله عليه وسلم على أن بعض آراء اليهود كان مما يتحدث به أهل مكة قبل الإسلام يتلقونه تلقي القصص والأخبار .

وكانوا بعد البعثة يسألون اليهود عن أمر النبوة والأنبياء ، على أن إرادة الله إبطال أوهام اليهود لا تقتضي أن يؤخر إبطالها الى سماعها بل قد يجيء ما يبطلها قبل فشوها في الناس كما في قوله تعالى ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر : من الآية67] فإنها نزلت بمكة .

وورد أن النبي صلى الله عليه وسلم أتاه بعض أحبار اليهود فقال : إن الله يضع السماوات على أصبع والأرضين على إصبع والبحار على أصبع والجبال على إصبع ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض فتلا النبي صلى الله عليه وسلم الآية .

والمقصود من تلاوتها هو قوله ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ والإيماء إلى سوء فهم اليهود صفات الله .

وهي السورة الرابعة والثلاثون في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد نزلت بعد سورة المرسلات وقبل سورة ﴿ لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ [البلد : 1] .

وقد أجمع العادون على عد آيها خمسا وأربعين .

أغراض هاته السورة

أولها : التنويه بشأن القرآن .

ثانيها : أنهم كذبوا الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه من البشر ،

وثالثها : الاستدلال على إثبات البعث وأنه ليس بأعظم من ابتداء خلق السماوات وما فيها وخلق الأرض وما عليها ، ونشأة النبات والثمار من ماء السماء وأن ذلك مثل للإحياء بعد الموت .

(13/720)

الرابع : تنظير المشركين في تكذيبهم بالرسالة والبعث ببعض الأمم الخالية المعلومة لديهم ، ووعيد هؤلاء أن يحل بهم ما حل بأولئك .

الخامس : الوعيد بعذاب الآخرة ابتداء من وقت احتضار الواحد ، وذكر هول يوم

(14/720)

الحساب .

السادس : وعد المؤمنين بنعيم الآخرة .

السابع : تسلية النبي صلى الله عليه وسلم على تكذيبهم إياه وأمره بالإقبال على طاعة ربه وإرجاء أمر المكذبين إلى يوم القيامة وأن الله لو شاء لأخذهم من الآن ولكن حكمة الله قضت بإرجائهم وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكلف بأن يكرههم على الإسلام وإنما أمر بالتذكير بالقرآن .

الثامن : الثناء على المؤمنين بالبعث بأنهم الذين يتذكرون بالقرآن .

التاسع : إحاطة علم الله تعالى بخفيات الأشياء وخواطر النفوس . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ 227 . 229 ﴾

(15/720)

وقال الشيخ سيد قطب :

مقدمة لسورة ق

كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يخطب بهذه السورة في العيد والجمعة ; فيجعلها

هي موضوع خطبته ومادتها , في الجماعات الحافلة . . وإن لها لشأنا . .

إنها سورة رهيبة , شديدة الوقع بحقائقها , شديدة الإيقاع ببنائها التعبيري , وصورها وظلالها وجرس فواصلها . تأخذ على النفس أقطارها , وتلاحقها في خطراتها وحركاتها , وتتعقبها في سرها وجهرها , وفي باطنها وظاهرها . تتعقبها برقابة الله , التي لا تدعها لحظة واحدة من المولد , إلى الممات , إلى البعث , إلى الحشر , إلى الحساب .

وهي رقابة شديدة دقيقة رهيبة . تطبق على هذا المخلوق الإنساني الضعيف إطباقا كاملا شاملا . فهو في القبضة التي لا تغفل عنه أبدا , ولا تغفل من أمره دقيقا ولا جليلا , ولا تفارقه كثيرا ولا قليلا . كل نفس معدود . وكل هاجسة معلومة . وكل لفظ مكتوب . وكل حركة محسوبة . والرقابة الكاملة الرهيبة مضروبة على وساوس القلب , كما هي مضروبة على حركة الجوارح . ولا حجاب ولا ستار دون هذه الرقابة النافذة , المطلعة على السر والنجوى اطلاعها على العمل والحركة , في كل وقت وفي كل حال .

وكل هذه حقائق معلومة . ولكنها تعرض في الأسلوب الذي يبديها وكأنها جديدة , تروع الحس روعة المفاجأة ;وتهز النفس هزا , وترجها رجا , وتثير فيها رعشة الخوف , وروعة الإعجاب , ورجفة الصحو من الغفلة على الأمر المهول الرهيب !

وذلك كله إلى صور الحياة , وصور الموت , وصور البلى , وصور البعث , وصور الحشر .

وإلى إرهاص الساعة في النفس وتوقعها في الحس . وإلى الحقائق الكونية المتجلية في السماء والأرض , وفي الماء والنبت , وفي الثمر والطلع . . (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) . .

(16/720)

وإنه ليصعب في مثل هذه السورة التلخيص والتعريف , وحكاية الحقائق والمعاني والصور والظلال , في غير أسلوبها القرآني الذي وردت فيه ; وفي غير عبارتها القرآنية التي تشع بذاتها تلك الحقائق والمعاني والصور والظلال , إشعاعا مباشرا للحس والضمير .

فلنأخذ في استعراض السورة بذاتها . . والله المستعان . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3356 . 3357 ﴾

(17/720)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة ق

مكية وآياتها خمس وأربعون آية

بين يدي السورة

* هذه السورة مكية وهي تعالج أصول العقيدة الإسلامية (الوحدانية ، الرسالة ، البعث) ولكن المحور الذي تدور حوله هو موضوع (البعث والنشور) حتى ليكاد يكون هو الطابع الخاص للسورة الكريمة ، وقد عالجه القرآن بالبرهان الناصع ، والحجة الدامغة . وهذه السورة رهيبة ، شديدة الوقع على الحس ، تهز القلب هزا ، وترج النفس رجا ، وتثير فيها روعة الإعجاب ، ورعشة الخوف ، بما فيها من الترغيب والترهيب .

* ابتدأت السورة بالقضية الأساسية التي أنكرها كفار قريش ، وتعجبوا منها غاية العجب ، وهي قضية الحياة بعد الموت ، والبعث بعد الفناء [ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد . .] الآيات .

* ثم لفتت السورة أنظار المشركين – المنكرين للبعث – إلى قدرة الله العظيمة ، المتجلية في صفحات هذا الكون المنظور ، في السماء والأرض ، والماء والنبت ، والثمر والطلع ، والنخيل والزرع ، وكلها براهين قاطعة على قدرة العلي الكبير [أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها . .] الآيات .

* وانتقلت السورة الكريمة للحديث عن المكذبين من الأمم السالفة ، وما حل بهم من الكوارث وأنواع العذاب ، تحذيرا لكفار مكة أن يحل بهم ما حل بالسابقين [كذبت قبلهم

قوم نوح وأصحاب الرس وثمود . .] الآيات .

* ثم انتقلت السورة للحديث عن سكرة الموت ، ووهلة الحشر ، وهول الحساب ، وما يلقاه المجرم في ذلك اليوم العصيب ، من أهوال وشدائد تنتهي بإلقائه في الجحيم [ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد . .] الآيات .

(18/720)

---

* وختمت السورة الكريمة بالحديث عن " صيحة الحق " وهي الصيحة التي يخرج الناس بها من القبور ، كأنهم جراد منتشر ، ويساقون للحساب والجزاء ، لا يخفى على الله منهم أحد ، وفيه إثبات للبعث والنشور ، الذي كذب به المشركون [واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج . .] الآيات . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 240 . 241 ﴾

(19/720)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة ق

المجيد من المجد ، وهو كما قال الراغب : السعة فى الكرم من قولهم : مجدت الإبل إذا وقعت فى مرعى كثير واسع ، وصف به القرآن لكثرة ما تضمنه من المكارم الدنيوية والأخروية ، رجع بعيد : أي بعث بعد الموت بعيد عن الأوهام ، ما تنقص الأرض : أي ما تأكل من لحوم موتاهم وعظامهم ، حفيظ : أي حافظ لتفاصيل الأشياء كلها ، بالحق : أي بالنبوة الثابتة بالمعجزات ، مريج : أي مضطرب من قولهم : مرج الخاتم فى إصبعه إذا قلق من الهزال

بنيناها : أي أحكمنا بناءها ، فجعلناها بغير عمد ، وزيناها : أي بالكواكب ، فروج : أي شقوق ، مددناها : أي بسطناها ، رواسى : أي جبالا ثوابت تمنعها من الميد والاضطراب ، زوج : أي صنف ، بهيج : أي ذى بهجة وحسن ، تبصرة وذكرى :

أي تبصيرا وتذكيرا ، منيب : من أناب إذا رجع وخضع ، حب الحصيد : أي حب الزرع الذي من شأنه أن يحصد كالبرّ والشعير ، باسقات : أي طويلات ، والطلع ما ينمو ويصير بلحا ثم رطبا ثم تمرا ، ونضيد : أي منضود بعضه فوق بعض ، الخروج : أي من القبور .

الرس : البئر التي لم تطو أي لم تبن ، وأصحابه هم من بعث إليهم شعيب عليه الصلاة والسلام ، والأيكة : الغيضة الملتفة الشجر ، تبّع : هو تبع الحميرى ، والعي عن الأمر . العجز عنه : قال الكسائي تقول أعييت من التعب ، وعييت من العجز عن الأمر وانقطاع الحيلة ، ولبس : أي شك شديد وحيرة واختلاط .

الوسوسة : الصوت الخفىّ ومنه وسواس الحلي والمراد بها هنا حديث النفس وما يخطر بالبال من شتى الشئون ، وحبل الوريد : عرق كبير فى العنق ، وللانسان وريدان مكتنفان بصفحتى العنق فى مقدمهما متصلان بالوتين يردان من الرأس إليه ، وقعيد :

(20/720)

بمعنى مقاعد كالجليس بمعنى المجالس ، والرقيب : ملك يرقب قوله ويكتبه ، فإن كان خيرا فهو صاحب اليمين ، وإن كان شرا فهو صاحب الشمال ، عتيد : أي مهيأ لكتابة ما يؤمر به من الخير والشر ، سكرة الموت : شدته ، بالحق : أي بحقيقة الحال ، تحيد : أي تميل وتعدل ، يوم الوعيد : أي يوم إنجاز الوعيد ، السائق والشهيد : ملكان أحدهما يسوق النفس إلى أمر اللّه ، والآخر : يشهد عليها بعملها ، والغطاء : الحجاب المغطى لأمور المعاد ، وهو الغفلة والانهماك فى اللذات وقصر النظر عليها ، حديد : أي نافذ ، لزوال

المانع للإبصار .

القرين : هو الملك الموكّل بالمرء ، عتيد : أي معدّ محضر ، عنيد : أي مبالغ فى العناد وترك الانقياد للحق ، مناع للخير : أي كثير المنع للمال فى الحقوق المفروضة عليه ، معتد : أي متجاوز للحق ظالم ، مريب : أي شاكّ فى اللّه وفى دينه ، القرين هنا :

الشيطان المقيّض له ، بعيد : أي من الحق ، لا تختصموا لدىّ : أي لا يجادل بعضكم بعضا عندى ، بالوعيد : أي على الطغيان فى دار الدنيا فى كتبى وعلى ألسنة رسلى ، ما يبدل القول لدى : أي لا يقع فيه الخلف والتغيير فلا تطمعوا أن أبدل وعيدي ، مزيد : زيادة أزلفت : أي أدنيت وقرّبت ، غير بعيد : أي فى مكان غير بعيد منهم بل هو بمرأى منهم ، هذا ما توعدون : أي هذا هو الثواب الذي وعدتم به على ألسنة الرسل ، أوّاب : أي رجاع عن المعصية إلى الطاعة ، حفيظ : أي حافظ لحدود اللّه وشرائعه ، خشى الرحمن بالغيب : أي خاف عقاب ربه وهو غائب عن الأعين حين لا يراه أحد ، منيب : أي مخلص مقبل على طاعة اللّه ، بسلام : أي سالمين من العذاب وزوال النعم ، الخلود : أي فى الجنة إذ لا موت فيها ، مزيد : أي مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

محيص : أي مهرب ، لذكرى : أي لعبرة ، قلب : أي لبّ يعى به ، أو ألقى السمع :

أي أصغى إلى ما يتلى عليه من الوحى ، شهيد : أي حاضر فهو من الشهود بمعنى الحضور ، والمراد به الفطن ، إذ غيره كأنه غائب ، لغوب : أي تعب ، سبح بحمد ربك : أي نزهه عن كل نقص ، أدبار السجود : أي أعقاب الصلوات ، واحدها دبر (بضم فسكون وبضمتين) واستمع أي لما أخبرك به من أهوال يوم القيامة ، يوم ينادى المنادى :

أي يخرجون من القبور يوم ينادى المنادى ، من مكان قريب : أي بحيث لا يخفى الصوت على أحد ،

والمنادى هو جبريل عليه السلام ، على ما ورد فى الآثار ، يقول : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، واللحوم المتمزّقة ، والشعور المتفرقة ، إن اللّه يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء .

والصيحة : النفخة الثانية . بالحق : أي بالبعث والجزاء ، يوم الخروج : أي من القبور ، تشقق : أي تتصدع ، بجبار : أي بمسيطر ومسلط ، إنما أنت داع ومنذر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 26 صـ 151 . 168 ﴾ . باختصار .

(22/720)

وقال الفراء :

سورة (ق)

﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾

قوله عز وجل: ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ . . . ﴾ .

قاف: فيها المعنى الذى أقسم به [/ب] ذكر أنه قُضى والله كما قيل فى حُمَّ: قُضى والله ، وحُمَّ والله: أى قضى .

ويقال: إن (قاف) جبل محيط بالأرض ، فإن يكن كذلك فكأنه فى موضع رفع ، أى هو (قافٌ والله) ، وكان [ينبغى] لرفعه أن يظهر لأنه اسم وليس بهجاء ، فلعل القاف وحدها ذكرت من اسمه كما قال الشاعر:

قلنا لها : قفى ، فقالت: قافْ .

ذكرت القاف أرادت القاف من الوقوف ، أى: إنى واقفة .

﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾

وقوله: ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً . . . ﴾ .

كلام لم يظهر قبله ما يكون هذا جواباً له ، ولكن معناه مضمر ، إنما كان ـ والله ـ أعلم: ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ لتبعثن . بعد الموت ، فقالوا: أنبعث إذا كنا تراباً ؟ فجحدوا البعث ثم قالوا: ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ . . . ﴾ . جحدوه أصلا [و] قوله: (بعيد) كما تقول للرجل

يخطىء فى المسألة: لقد ذهبت مذهباً بعيداً من الصواب: أى أخطأت.

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ * بَلْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ * أَفَلَمْ يَنظُرُواْ إِلَى السَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾

وقوله: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ . . . ﴾ ما تأكل منهم.

وقوله: ﴿ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ . . . ﴾.

فى ضلال.

وقوله: ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ . . . ﴾.

ليس فيها خلل ولا صدع.

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾

وقوله: ﴿ وَحَبَّ الْحَصِيدِ . . . ﴾.

(23/720)

والحب هو الحصيد، وهو مما أضيف إلى نفسه مثل قوله: ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾، ومثله: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ . . . ﴾.

والحبل هو الوريد بعينه أضيف إلى نفسه لاختلاف لفظ اسميه ، والوريد : عرق بين الحلقوم والعلباوين .

﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾

وقوله: ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ . . . ﴾ .

طوال ، يقال: قد بسق طولا ، فهن طوال النخل .

وقوله: ﴿ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ . . . ﴾ .

يعنى: الكفُرَّى ما كان فى أكمامه وهو نضيد ، أى منضود بعضه ، فوق بعض ، فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد .

﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾

وقوله: ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ . . . ﴾ .

يقول: كيف نعيا عندهم بالبعث ولم نعى بخلقهم أولا ؟ ثم قال: ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ، أى هم فى ضلال وشك .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ . . . ﴾ .

الهاء لما ، وقد يكون ما توسوس أن تجعل الهاء للرجل الذى توسوس به - تريد - توسوس إليه وتحدثه .

﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾

وقوله: ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ . . . ﴾ .

يقال: قعيد ، ولم يقل: قعيدان . حدثنا الفراء قال: وحدثنى حبان بن على عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: قعيد عن اليمين وعن الشمال يريد ـ قُعود ، فجعل القعيد جمعا ، كما تجعل الرسول للقوم والاثنين . قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ لموسى وأخيه ، وقال الشاعر:

أِلكْنى إليها ، وخيرُ الرسو * لِ أعلَمُهم بنواحِى الْخَبَرْ

(24/720)

فجعل الرسول للجمع ، فهذا وجه ، وإن شئت جعلت القعيد واحداً اكتفى به من صاحبه ، كما قال الشاعر:

نَحْنُ بما عِندنا ، وأنت بما * عندك راضٍ ، والرأىُ مختلِفُ

ومثله قول الفرزدق:

إنّى ضَمِنت لمن أتانى ما جَنَى * وأَبى ، وكان وكنت غير غَدُورِ

ولَم يقل: غدورين .

﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾

وقوله: ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ . . . ﴾ وفى قراءة عبد الله: سكرة الحق بالموت ، فإن شئت أردت (بالحق) أنه الله عز وجل ، وإن شئت جعلت السكرة هى الموت ، أضفتها إلى نفسها كأنك قلت: جاءت السكرة الحقُّ بالموت ، وقوله: ﴿ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ يقول: بالحق الذى قد كان غير متبين لهم من أمر الآخرة ، ويكون الحق هو الموت ، أى جاءت سكرة الموت بحقيقة الموت .

﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَاذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾

وقوله: ﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ . . . ﴾ .

يقول: قد كنت تُكذب ، فأنت اليوم عالم نافذ البصر ، والبصر ها هنا : هو العلم ليس بالعين .

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَاذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾

وقوله: ﴿ هَاذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ . . . ﴾ .

رفعتَ العتيد على أن جعلته خبرا صلته لما ، وإن شئت جعلته مستأنفا على مثل قوله: ﴿ هَذَا بَعْلِى شَيْخٌ ﴾ . ولو كان نصبا كان صوابا ؛ لأن (هذا ، وما) ـ معرفتان ، فيقطع العتيد منهما .

﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾

[/١] وقوله: ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ . . . ﴾ .

العرب تأمر الواحد والقوم بما يؤمر به الاثنان ، فيقولون للرجل: قوما عنا ، وسمعت بعضهم: ويحك ! ارحلاها وازجرها ، وأنشدنى بعضهم:

فقلت لصاحبى لا تحبسانا * بنزع أصوله ، واجتزّ شيحا

قال: ويروى: واجدزّ يريد : واجتز ، قال: وأنشدنى أبو ثروان:

وإن تزجرانى يا ابن عفان أنزجر * وإن تدعانى أَحْمِ عرضاً ممنَّعاً

(25/720)

ونرى أن ذلك منهم أن الرجل أدنى أعوانه فى إبله وغنمه اثنان ، وكذلك الرَّفقة ، أدنى ما يكونون ثلاثة ، فجرى كلام الواحد على صاحبيه ، ألا ترى الشعراء أكثر شىء ، قيلا: يا صاحبىّ ، يا خليلى ، فقال امرؤ القيس:

خليلىّ ، مرّا بِى على أم جندب * نُقضِّى لُبانات الفؤاد المعذب

ثم قال:

أَلَمْ تَرَ أنى كلما جئت طارقا * وجدت بها طيبا وإن لم تطيب

فقال: ألم تر ، فرجع إلى الواحد ، وأول كلامه اثنان ، قال: وأنشدنى آخر:

خليلىّ قوما فى عَطالة فانظرا * أناراً ترى من نحو بابَيْن أو برقا

وبعضهم: أنارا نرى.

وقوله: ﴿ مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ يقوله الملَك الذى كان يكتب السيئات للكافر، وذلك أن الكافر قال: كان يعجلنى عن التوبة، فقال: ما أطغيته يارب، ولكن كان ضالا.

﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ . . . ﴾. أى: ما يُكْذَب عندى لعلمه عز وجل بغيب ذلك.

﴿ هَاذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَانَ بِالْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾

وقوله: ﴿ هَاذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ . . . ﴾ ﴿ مَّنْ خَشِيَ . . . ﴾.

إن شئت جعلت (مَن) خفضا تابعة لقوله: (لكلّ)، وإن شئت استأنفتها فكانت رفعا يراد بها الجزاء. من خشى الرحمن بالغيب قيل له: ادخل الجنة، و (ادْخُلوها) جواب للجزاء أضمرتَ قبله القول وجعلته فعلاً للجميع؛ لأن مَن تكون فى مذهب الجميع.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾

وقوله: ﴿ فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ . . . ﴾.

قراءة القراء يقول: خرّقوا البلاد فساروا فيها ، فهل كان لهم من الموت من محيص ؟ أضمرت كان ههنا كما قال: ﴿ وَكَأَيِّنْ مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ ، والمعنى: فلم يكن لهم ناصر عند إهلاكهم . ومن قرأ: (فَنَقِّبوا) فى البلاد ، فكسر القاف فإنه كالوعيد . أى: اذهبوا فى البلاد فجيئوا واذهبوا .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾

وقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ . . . ﴾ .

يقول: لمن كان له عقل ، وهذا جائز فى العربية أن تقول: مالك قلب وما قلبك معك ، وأين ذهب قلبك ؟ تريد العقل لكل ذلك .

وقوله: ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ . . . ﴾ .

يقول: أو ألقى سمعه إلى كتاب الله وهو شهيد ، أى شاهد ليس بغائب .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾

وقوله: ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ . . . ﴾ .

يقول: من إعياء ، وذلك أن يهود أهل المدينة قالوا: ابتدأ خلق السماوات والأرض يوم لأحد ، وفرغ يوم الجمعة ، فاستراح يوم السبت ، فأنزل الله: ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ إكذابا لقولهم ، وقرأها أبو عبد الرحمن السلمى: من لَغوب بفتح اللام وهى شاذة .

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾

وقوله: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ . . . ﴾ .

وإِدبارَ . من قرأ: وأدبار جمعه على دُبُر وأدبار ، وهما الركعتان بعد المغرب ، جاء ذلك عن علي ابن أبي طالب أنه قال ، [/ب] وأدبار السجود: الركعتان بعد المغرب ، ﴿ وإِدْبارَ النُّجومِ ﴾ . الركعتان (قبل الفجر) وكان عاصم يفتح هذه التى فى قاف ، ويكسر التى فى الطور ، وتكسران جميعاً ، وتنصبان جميعاً جائزان .

﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾

(27/720)

وقوله: ﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ . . . ﴾ .

يقال: إن جبريل عليه السلام يأتى بيت المقدس فينادى بالحشر ، فذلك قوله: ﴿ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ .

﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾

وقوله: ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً . . . ﴾ .

إلى المحشر وتُشَقق ، والمعنى واحد مثل: مات الرجل وأميت .

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾

وقوله: ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ . . . ﴾ .

يقول: لست عليهم بمسلَّط ، جعل الجبار فى موضع السلطان من الجَبْرّية ، قال أنشدنى المفضل:

ويوم الحَزن إذ حشَدَت مَعدٌّ * وكان الناسُ إلا نحن دينا

عصينا عزمةَ الجبار حتى * صبحنا الجوفَ ألفا مُعْلمينا

أراد بالجبار: المنذر لولايته .

وقال الكلبى بإسناده: لستَ عَلَيْهِمْ بجَبّار يقول: لم تبعث لتجبُرَهم على الإسلام والهدى ؛ إنما بعثت مذكَّرا فذكّر ، وذلك قبل أن يؤمر بقتالهم .

والعرب لا تقول: فعّال من أفعلت ، لا يقولون: هذا خَرّاج ولا دَخّال ، يريدون مُدْخِل ولا مُخرِج من أدخلت وأخرجت ، إنما يقولون: دخال من دخلت ، وفعّال من فعلت: وقد قالت العرب: درّاك من أدركت ، وهو شاذ ، فإن حملت الجبار على هذا المعنى فهو وجه .

وقد سمعت بعض العرب يقول: جبره على الأمر يريد : أجبره ، فالجبار من هذه اللغة صحيح يراد به: يقهرهم ويجبرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 82.75 ﴾

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة ق

(والقرآن المجيد) [1] جوابه محذوف . و[تقديره] قيل: ليبعثن ، بدليل قوله: (أءذا متنا) . وقيل: إنك رسول الله ، بدليل قوله: (بل عجبوا أن جاءهم منذر) . (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) [4] أي: من يموت منهم . وقيل: علمنا الأجزاء التي تأكل الأرض منهم . قال أرطاة بن [سهية]: 1112- رأيت المرء تأكله الليالي كأكل الأرض ساقطة الحديد

1113- وما [تجد] المنية حين [تأتي] على نفس ابن آدم من مزيد . (مريج) [5] مختلف مختلط . (وما لها من فروج) [6] [شقوق وفتوق] . (وحب الحصيد) [9] كل ما يحصد من الحبوب ، ومثل هذه الإضافة قول ذي الرمة:

1114- والقرط في حرة الذفرى معلقة تباعد الحبل منه فهو يضطرب . أي: في أذن حرة الذفرى . (باسقات) [10] طوال . (لها طلع) كل ما يطلع من ثمر النخل . والنضيد : المنضود ، المتراكب بعضه فوق بعض . وقال الحسن: هو الطبيع في كفراه . والطبيع: أم الطلع ، وكفراه: وعاؤه . (كذلك الخروج) [11] أي: من القبور .

وقيل: من بطون الأمهات. (أفعيينا) [15] عجزنا عن إهلاك الخلق، من تقدم ذكره ها هنا. (من حبل الوريد) [16] هو [حبل العاتق]، وهو الوتين، ينشأ من القلب، فينبث في البدم، والله أقرب/منه، وعلمه أقرب إليه من علم القلب. (المتلقيان) [17] ملكان يتلقيان عمل العبد. (قعيد) رصد. (رقيب) [18] وهو خبر واحد عن اثنين، كأنه عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، أو كل واحد منهما قعيد، كما قال البرجمي:

(29/720)

1115- من يك أمسى بالمدينة رحله فإني وقيار بها لغريب. (وجاءت سكرة الموت بالحق) [19] لهذه الباء تقديران: إن شئت [علقتها] بنفس (جاءت)، كقولك: "جئت بزيد" أي: أحضرته وأجأته. وإن شئت علقتها بمحذوف وجعلتها حالاً، أي: جاء[ت] سكرة الموت ومعها [الحق]، كقولك: "خرج بثيابه"، أي: خرج وثيابه معه أو عليه.

وقراءة أبي بكر رضي الله عنه": "وجاءت سكرة الحق بالموت"، لاتحادهما في الحال، ولا ينفصل أحدهما من صاحبه. وروي أن عائشة كانت عند أبي بكر وهو يقضي فأنشدت:

1116- أماوي ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق [بها] الصدر. فقال أبو بكر: بل قول الله: "وجاءت سكرة الحق بالموت". (ذلك ما كنت منه تحيد) تحيد:

[تميل] ، قال طرفة: 1117 - أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشر أهون من بعض .

(معها سائق وشهيد) [21] سائق من الملائكة ، وشهيد من أنفسهم . (فبصرك اليوم حديد) [22] علمك نافذ . (وقال قرينه) [23] أي: الملك [الـ]ـشهيد عليه ، عن الحسن .

وعن مجاهد : قرينه الذي قيض له من الشياطين . (هذا ما لدي عتيد) هذا عمله محصي عندي . وعلى قول مجاهد : المراد به العذاب . وقال الزجاج: "ما" في موضع رفع بقوله: (هذا) ، و(عتيد) صفة "ما" ، على قولهم: هذا حلو حامض ، فيكون صفة بعد صفة ، أو يجعل "ما" نكرة والمعنى: هذا شيء لدي/عتيد . (ألقيا) [24]

خطاب للملكين على قول من يقول: إن السائق والشهيد كلاهما [من] الملائكة . وقيل: [ألقين] بالنون الخفيفة ، فأجرى الوصل فيه مجرى الوقف ، كقول الحجاج: يا حرسي اضربا عنقه . وقيل: هو خطاب [لمالك] على مذهب العرب في تثنية خطاب الواحد ، وقد مر شاهده . (مريب) [25]

(30/720)

شاك متهم ، قال جميل: 1118- بثينة قالت يا جميل أربتنا فقلت كلانا يا بثين مريب

1119- وأريبنا من لا يؤدي أمانة ولا يحفظ الأسرار حين يغيب . (قال قرينه ربنا ما أطغيته) [27] على قول مجاهد : يقول شيطانه: ما أغويته . وعلى قول الحسن: يقول الكافر: رب إن الملك قد زاد علي في الكتابة . يقول الملك: ربنا ما أطغيته ، أي: ما زدت عليه . فيقول الله: (لا تختصموا لدي) [28]

(ما يبدل القول لدي) [29] ما يكتب غير الحق ، ولا يكذب عندي . (ادخلوها بسلام) [34] أي: مع سلامة من الزوال . (فنقبوا في البلاد) [36] ساروا في طرقها ، [وطوفوا] في مسالكها . والنقب: الطريق في الجبل . وقيل: [أظهروا] آثارهم فيها من نقب الخف والحافر ، إذا ظهر الحفار فيهما ، قال: 1120- ذريني أصطبح يا هند إني رأيت الموت نقب عن هشام

1121- وعن عمر[و] وعمرو كان قدماً يؤمل للملمات العظام . (أو ألقى السمع وهو شهيد) [37] أي: ألقى سمعه نحو كتاب الله ، كما تقول: ألق سمعك إلي . "وهو شهيد": حاضر قلبه معه . (وأدبار السجود) [40] بفتح الألف جمع دبر ، مثل: قفل وأقفال ، أو جمع دبر ، كطنب وأطناب ، وبالكسر على [المصدر] ، وفيه معنى/الظرف ، (فسبحه) في وقت (إدبار السجود) ، وهو ركعتان بعد المغرب .

(وإدبار النجوم) : ركعتان قبل الفجر . (من مكان قريب) [41] عن قتادة: ينادى من

صخرة بيت المقدس ، فتأتيها العظام البالية . (وما أنت [عليهم] بجبار) [45] يجبرهم على الإيمان ، ولا يأتي "فعال" من باب الإفعال إلا الجبار والدراك .

[تمت سورة ق] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ باهر البرهان صـ 1351.1363 ﴾

(31/720)

وقال الأخفش :

سورة (ق)

﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾

قال ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ قسم على ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ [4] .

﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾

وقال ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ لم يذكر "انه رجع" وذلك – والله أعلم – لأنه كان على جواب كأنه قيل لهم: إِنَّكُمْ تَرْجِعُونَ . فقالوا "أَإِذَا كُنَّا تُراباً ذلك رَجْعٌ بعيد" .

﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾

وقال ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ ﴾ لأنك تقول: لَبَسْتُ عليه لَبْساً .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾

وقال ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ يقول: أَمْلَكُ بِهِ وأَقْرَبُ إِلَيْهِ في المقدرة عليه .

﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾

وقال ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ ولم يقل "عَنِ اليَمِينِ قَعيدٌ وعَنِ الشِّمالِ قَعِيد" .

ذكر احدهما واستغنى كما قال ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ فاستغنى بالواحد عن الجمع كما

قال ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن /

للأخفش حـ 2 صـ 522. 523 ﴾

(32/720)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة ق

«1»

3 - ذِلكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ يريدون : البعث بعد الموت ، أي لا يكون .

4 - قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ، أي تأكل من لحومهم إذا ماتوا .

5 - فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ، أي مختلط . يقال : مرج امر الناس ، ومرج الدين .

وأصل «المرج» : ان يقلق الشيء ، فلا يستقر . يقال : مرج الخاتم في يدي مرجا ، إذا قلق

من الهزال.

6 - وَما لَها مِنْ فُرُوجٍ أي صدوع. وكذلك قوله: هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ؟! [سورة الملك آية: 3].

7 - مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ أي من كل جنس حسن يبتهج به.

9 - وَحَبَّ الْحَصِيدِ أراد: والحب الحصيد، فأضاف الحب إلى الحصيد. كما يقال: صلاة الأولى، يراد: الصلاة الأولى. ويقال: مسجد الجامع، يراد: المسجد الجامع.

---

(1) عن عطاء والحسن وعكرمة وجابر أنها مكية، وروي عن ابن عباس وقتادة أنها مكية باستثناء الآية: 38 فمدنية.

---

10 - وَالنَّخْلَ باسِقاتٍ أي طوالا. يقال: بسق الشيء يبسق بسوقا، إذا طال.

لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ أي منضود: بعضه فوق بعض. وذلك قبل أن يتفتح. فإذا انشق جف الطلعة وتفرق: فليس بنضيد.

ونحوه قوله: وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ [سورة الواقعة آية: 29]. وقد قرأ بعض السلف: وطلع منضود، كأنه اعتبره بقول في ق: لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ.

15 - أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ! ؟ أي افعيينا بإبداء الخلق ، فنعيا بالبعث ، وهو : الخلق الثاني ؟ ! .

بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ أي في شك مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ أي من البعث .

16 - وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ . و«الوريدان» : عرقان بين الحلقوم والعلباوين .

والحبل هو : الوريد ، فأضيف إلى نفسه : لأختلاف لفظي اسميه .

17 - إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ أي يتلقيان القول ويكتبانه ، يعني :

الملكين . عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ أراد : قعيدا من كل جانب . فأكتفي بذكر واحد : إذ كان دليلا على الآخر .

و«قعيد» بمعنى قاعد ، كما يقال : «قدير» بمعنى قادر .

ويكون بمنزلة «أكيل وشريب ، [ونديم]» ، أي مؤاكل ومشارب [ومنادم] . كذلك :

«قعيد» أي مقاعد .

22 - فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ أي حاد ، كما يقال : حافظ وحفيظ .

27 - قالَ قَرِينُهُ : رَبَّنا ! ما أَطْغَيْتُهُ . مفسر في كتاب «تأويل المشكل» .

(34/720)

31 - وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ أي أدنيت .

36 - فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ أي طافوا وتباعدوا .

هَلْ مِنْ مَحِيصٍ أي هل يجدون من الموت محيصا ؟ ! فلم يجدوا ذلك .

37 - إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أي فهم وعقل ، أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ .

يقول : استمع كتاب اللّه : وهو شاهد القلب والفهم ، ليس بغافل ولا ساه .

41 - وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ يقال : صخرة بيت المقدس .

42 - ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ : يوم البعث من القبور .

ويقال ليوم العيد : يوم الخروج ، لخروج الناس فيه .

45 - وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ أي بمسلط .

وليس هو من «أجبرت الرجل على الأمر» : إذا قهرته عليه . لأنه لا يقال من ذلك : «فعال» .

و«الجبار» : الملك ، يسمى بذلك : لتجبره . يقول : فلست عليهم بملك مسلط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 360 . 362 ﴾

(35/720)

وقال الغزنوى :

ومن سورة ق

4 عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ : علمنا الأجزاء التي تأكل الأرض منهم .

5 مَرِيجٍ : مختلط مختلف «1» ، مرّة يقولون : ساحر ، ومرّة : شاعر ومعلّم ومجنون .

6 مِنْ فُرُوجٍ : شقوق وفتوق يمكن فيها السلوك .

9 حَبَّ الْحَصِيدِ : كل ما يحصد من الحبوب .

---

(1) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 222 ، وتفسير غريب القرآن : 417 ، والمفردات للراغب :

465 .

(36/720)

---

10 باسِقاتٍ : طوال «1» .

نَضِيدٌ : منضود متراكب «2» .

11 كَذلِكَ الْخُرُوجُ : أي : من القبور «3» ، أو من بطون الأمّهات «4» .

15 أَفَعَيِينا : عجزنا عن إهلاك الخلق الأول ، ألف تقرير»

، لأنّهم اعترفوا بأنه الخالق وأنكروا البعث .

عييّ بالأمر : لم يعرف وجهه ، وأعيى : تعب «6» .

16 حَبْلِ الْوَرِيدِ : حبل العاتق «7» ، وهو الوتين ينشأ من القلب فينبثّ في البدن .

17 الْمُتَلَقِّيانِ : ملكان يتلقيان عمل العبد وهما الكاتبان .

قَعِيدٌ : رصد «8» .

18 رَقِيبٌ : خبر واحد عن اثنين كأنه عن اليمين قعيد ، وعن الشّمال

---

(1) معاني القرآن للفراء : 3/ 76 ، وتفسير الطبري : 26/ 152 ، والمفردات : 46 . [. . . . .]

(2) ينظر معاني الفراء : 3/ 76 ، ومجاز القرآن : 2/ 223 ، وتفسير غريب القرآن : 418 .

(3) هذا قول جمهور العلماء كما في تفسير الطبري : 26/ 154 ، وتفسير البغوي : 4/ 221 ، وزاد المسير : 8/ 8 ، وتفسير الفخر الرازي : 28/ 160 ، وتفسير القرطبي : 17/ 7 .

(4) لم أقف على هذا القول .

(5) ذكره النحاس في إعراب القرآن : 4/ 223 وقال : «وهكذا الاستفهام الذي فيه معنى التقرير والتوبيخ يدخله معنى النفي ، أي : لم يعي بالخلق الأول» .

وانظر معاني القرآن للزجاج: 5/ 43، والمفردات للراغب: 356، وتفسير البغوي: 4/ 222.

(6) معاني القرآن للزجاج: 5/ 43، واللسان: 15/ 113 (عيا).

(7) قال الطبري في تفسيره: 26/ 157: «والحبل هو الوريد، فأضيف إلى نفسه لاختلاف لفظ اسمه».

وقال القرطبي في تفسيره: 17/ 9: «وهذا تمثيل للقرب، أي: نحن أقرب إليه من حبل وريده الذي هو منه وليس على وجه قرب المسافة».

(8) ينظر تفسير الطبري: 26/ 158، وتفسير الماوردي: 4/ 85، والمفردات: 409.

(37/720)

قعيد «1»، أو كلاهما قعيد.

19 وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ: الباء متعلقة ب جاءَتْ، كقولك: جئت بزيد، أي: أحضرته وأجأته «2».

21 مَعَها سائِقٌ وَشَهِيدٌ: سائِقٌ: من الملائكة يسوقها إلى المحشر.

وَشَهِيدٌ : من أنفسهم عليها بعملها «3» . وقيل «4» : هو العمل نفسه .

وعن سعيد «5» بن جبير : «السائق» «6» الذي يقبض نفسه ، و«الشّهيد» الذي يحفظ عمله .

22 فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ : علمك نافذ «7» .

23 وَقالَ قَرِينُهُ : الملك الكاتب الشّهيد عليه «8» . وقيل «9» : قرينه الذي قيّض له من الشّياطين .

---

(1) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 418 ، وتفسير الطبري : 26/ 158 ، ومعاني الزجاج :

5/ 44 ، وإعراب القرآن للنحاس : 4/ 224 ، وتفسير القرطبي : 17/ 10 .

(2) ينظر معاني القرآن للزجاج : 5/ 45 ، وإعراب القرآن للنحاس : 4/ 225 .

(3) ورد هذا القول في أثر أخرجه الطبري في تفسيره : (26/ 161 ، 162) عن ابن عباس رضي اللّه عنهما ، وعن الضحاك .

(4) نص هذا القول في معاني القرآن للزجاج : 5/ 45 ، ونقله الماوردي في تفسيره : 4/ 87 عن أبي هريرة رضي اللّه عنه .

(5) لم أقف على هذا القول المنسوب إلى سعيد بن جبير رضي اللّه عنه .

(6) في «ج» : السائق من الملائكة . . .

(7) قال الزجاج في معانيه : 5/ 45 : «أي فعلمك بما أنت فيه نافذ ، ليس يراد بهذا البصر – من بصر العين – كما تقول : فلان بصير بالنحو والفقه ، تريد عالما بهما ، ولم ترد بصر العين» . [. . . . .]

(8) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 26/ 164 عن قتادة .

ونقله الماوردي في تفسيره : 4/ 88 عن قتادة ، والحسن .

وأورده القرطبي في تفسيره : 17/ 16 ، وزاد نسبته إلى الضحاك .

(9) نص هذا القول في تفسير الماوردي : 4/ 88 عن مجاهد ، وعزاه القرطبي في تفسيره : 17/ 16 إلى مجاهد أيضا .

(38/720)

هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ : عمله محصى عندي ، وعلى القول الآخر المراد [90/ ب] به العذاب ، و«ما» في مذهب النكرة ، أي : هذا شيء لديّ عتيد / «1» .

24 أَلْقِيا : خطاب [لمالك] «2» على مذهب العرب في تثنية خطاب الواحد «3» .

أو هو «القين» بالنون الخفيفة ، فأجرى الوصل فيه مجرى الوقف «4» .

27 قال قَرِينُهُ رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ : يقول شيطانه : ما أغويته «5» ، وعلى الأول يقول الكافر :

إن الملك زاد عليّ فيما كتب «6» .

29 ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ : ما يكتب غير الحق ولا يكذب عندي .

30 هَلِ امْتَلَأْتِ : سؤال توبيخ لمن فيها «7» .

وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ : هل بقي فيّ موضع لم يملأ «8» ؟ . . . . .

---

(1) عن معاني القرآن للزجاج : 5/ 45 .

(2) في الأصل : «للمالك» ، والمثبت في النص عن «ك» و«ج» .

(3) ينظر معاني القرآن للفراء : 3/ 78 ، وتفسير الطبري : 26/ 165 ، ومعاني الزجاج :

(5/ 45 ، 46) ، ومشكل إعراب القرآن لمكي : 2/ 684 .

(4) هذه قراءة تنسب إلى الحسن رحمه اللّه تعالى ، كما في المحتسب لابن جني : 2/ 284 ، والكشاف : 4/ 8 ، وتفسير القرطبي : 17/ 16 ، والبحر المحيط : 8/ 126 .

وقال أبو حيان : «وهي شاذة مخالفة لنقل التواتر بالألف» .

وانظر التبيان للعكبري : 3/ 1175 .

(5) ورد نحوه في أثر أخرجه الطبري في تفسيره : 26/ 167 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

وأخرجه - أيضا - عن مجاهد ، وقتادة ، والضحاك .

ونسبه ابن الجوزي في زاد المسير : 8/ 17 إلى الجمهور .

(6) ينظر تفسير البغوي : 4/ 224 ، وزاد المسير : 8/ 18 ، وتفسير القرطبي : 17/ 17 .

(7) هذا قول الزجاج في معانيه : 5/ 47 .

(8) نص هذا القول في معاني القرآن للزجاج : 5/ 47 ، وجاء بعده عند الزجاج : «أي قد امتلأت» .

ومعنى هذا القول أنه لا مزيد مكان في جهنم ، وقيل في معنى هذه الآية أن قول جهنم هذا بمعنى الاستزادة أي : هل من شيء أزداده ؟ .

ورجحه الطبري في تفسيره : (26/ 170 ، 171) للحديث الذي أخرجه عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : «اختصمت الجنة والنار . . وأما النار فيلقون فيها وتقول : هل من مزيد ؟

ويلقون فيها وتقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع فيها قدمه ، فهناك تملأ ، ويزوى بعضها إلى بعض وتقول : قط قط» .

الحديث أخرجه الإمام البخاري : 6/ 47 ، كتاب التفسير ، تفسير سورة «ق» عن أبي هريرة رضي اللّه عنه مرفوعا .

كقوله – عليه السلام «1» – : «وهل ترك لنا عقيل من دار» .

32 حَفِيظٍ : في الخلوات ، أو على الصّلوات .

34 ادْخُلُوها بِسَلامٍ : سلامة من الزوال .

35 وَلَدَيْنا مَزِيدٌ : مما لم يخطر ببالهم ، أو على مقدار استحقاقهم «2» .

36 فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ : ساروا في طرقها وطوّفوا «3» .

والنّقب : الطريق في الجبل «4» .

37 أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ : ألقى سمعه نحو كتاب اللّه .

وَهُوَ شَهِيدٌ : حاضر قلبه .

39 قَبْلَ الْغُرُوبِ : صلاة الظهر والعصر «5» .

40 وَمِنَ اللَّيْلِ : العشاء والمغرب «6» .

---

(1) أخرج – نحوه – الإمام البخاري في صحيحه : 5/ 92 ، كتاب المغازي ، باب «أين ركز النبي صلى اللّه عليه وسلم الراية يوم الفتح» . والإمام مسلم في صحيحه : 2/ 984 ، كتاب الحج ، باب «النزول بمكة للحاج وتوريث دورها» عن أسامة بن زيد رضي اللّه

عنهما .

(2) ينظر معاني القرآن للزجاج : 5/ 47 ، وتفسير البغوي : 4/ 226 ، وزاد المسير : 8/ 21 .

(3) معاني القرآن للفراء : 3/ 79 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 224 ، وتفسير الطبري :

26/ 176 ، ومعاني الزجاج : 5/ 48 .

(4) المفردات للراغب : 503 ، واللسان : 1/ 767 (نقب) . [. . . . .]

(5) نقل ابن الجوزي هذا القول في زاد المسير : 8/ 23 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما ، وأورده البغوي في تفسيره : 4/ 226 ، وقال : «روى عن ابن عباس» .

(6) ذكره البغوي في تفسيره : 4/ 227 ، ونقله ابن الجوزي في زاد المسير : 8/ 23 عن مقاتل .

وأخرج الطبري في تفسيره : 26/ 180 عن مجاهد قال : «من الليل كله» ، ورجح الطبري قول مجاهد فقال : «و القول الذي قاله مجاهد في ذلك أقرب إلى الصواب ، وذلك أن اللّه جل ثناؤه قال : وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ فلم يحد وقتا من الليل دون وقت . وإذا كان ذلك كذلك كان على جميع ساعات الليل . . . » .

وَأَدْبارَ السُّجُودِ : جمع «دبر» «1» ، وبالكسر «2» على المصدر ، وفيه معنى الظرف والوقت ، وهو ركعتان بعد المغرب «3» . و«إدبار النّجوم» «4» :

ركعتان قبل الفجر «5» .

41 مَكانٍ قَرِيبٍ : صخرة بيت المقدس «6» .

وقيل «1» : من تحت أقدامهم .

جبّار «2» : مسلّط تجبرهم على الإيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 757. 763 ﴾

---

(1) ينظر معاني القرآن للفراء : 3/ 80 ، ومعاني الزجاج : 5/ 49 ، وتفسير القرطبي : 17/ 26 ، والبحر المحيط : 8/ 130 .

(2) بكسر الهمزة قراءة نافع ، وابن كثير ، وحمزة كما في السبعة لابن مجاهد : 607 ، والتبصرة لمكي : 334 .

وانظر توجيه هذه القراءة في الكشف لمكي : 2/ 285 ، وتفسير القرطبي : 17/ 26 ، والبحر المحيط : 8/ 130 .

(3) هذا قول أكثر المفسرين كما في تفسير البغوي : 4/ 227 .

وأخرج الترمذي في سننه : 5/ 393 ، كتاب التفسير ، باب «ومن سورة الطور» عن ابن عباس رضي اللّه تعالى عنهما عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : «إدبار النجوم : الركعتان قبل الفجر ، وإدبار السجود : الركعتان بعد المغرب» .

أخرجه الترمذي عن أبي هشام الرفاعي ، عن محمد بن فضيل ، به ، وقال : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . اه - .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 610 ، وزاد نسبته إلى ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والحاكم عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

كما أخرج الطبري هذا القول - الذي ذكره المؤلف - عن علي بن أبي طالب ، وأبي هريرة ، والحسن ، ومجاهد ، والشعبي ، رضي اللّه تعالى عنهم .

ورجح الطبري - رحمه اللّه - هذا القول : «لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك» .

ينظر تفسيره : (26/ 180 - 182) .

(4) من الآية : 49 ، من سورة الطور .

(5) ينظر هذا القول في تفسير الطبري : 27/ 39 ، وتفسير القرطبي : 17/ 25 ، وتفسير ابن كثير : 7/ 416 ، والدر المنثور 7/ 638 .

(6) ذكره الفراء في معانيه : 3/ 81 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 419 .

وأخرجه الطبري في تفسيره : 26/ 183 عن كعب ، وقتادة .

وقال ملا حويش :

تفسير سورة ق

عدد 34 - 50

نزلت بمكة بعد المرسلات وهي خمس وأربعون آية ، عدا الآية 38 فإنها نزلت بالمدينة وثلاثماية وسبع وخمسون كلمة ، وألف وأربعمائة وتسعون حرفا ، لا يوجد سورة مبدوءة أو مختومة بما بدئت وختمت به .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "ق" مفتاح اسمه القادر والقاهر والقريب والقدوس والقيوم والقدير وهي اسم للسورة أيضا والأحسن في معاني هذه الحروف أن يكل أمرها إلى منزلها وتقول اللّه أعلم بمراده بها وقد ذكرنا في تفسير نون أنها رمز بين المحب والمحبوب لا يعرفه غيرهما وسنذكر أوائل السور المبدوءة بالحروف معاني متفرقة أولا بأول فراجعها ففي كل منها ما ليس في الأخرى ، راجع بحث الفرق بين الوحي والإلهام في المقدمة ، هذا وقد افتتح جل

شأنه سورا من كتابه ببعض حروف الهجاء على سبيل التحدي والتنبيه لكونه معجزا لا يضاهى ، ودلالة على عظمته ، أتبعه بالقسم فقال "وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ" العالي الشرف وجواب القسم هذا محذوف تقديره انه لبالغ الإعجاز وإنه جدير أن يؤمن به من يسمعه وأنه لحقيق أن يعذب جاحده ، قال ابن عباس رضي اللّه عنهما ق جبل محيط في هذه الدنيا ، وقال غيره معناه قضي الأمر بما هو كائن إلى يوم القيامة "بَلْ" إضراب عما تقدم من معنى القسم إلى ما هم عليه من الجهل فقال "عَجِبُوا" أولئك الكفار قوم محمد "أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ" رسول ينذرهم ويخوفهم عاقبة أمرهم إن أصروا على كفرهم وذلك المنذر "مِنْهُمْ" في أنفسهم عرفوا صدقه وأمانته ونسبه ومكانته وآيته في القرآن البليغ الذي هو في لغتهم ومع ذلك أعرضوا "فَقالَ الْكافِرُونَ هذا" الذي جاء به محمد من عند ربه "شَيْءٌ عَجِيبٌ 2" غريب في بابه ونوعه إذ يقول فيه "أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً" فإنا نحيا مرة ثانية ونسأل عما فعلناه "ذلِكَ" القول الذي يخبرنا به في رجوعنا بعد الموت إلى حالتنا الأولى بعد تفتتها وفنائها "رَجْعٌ بَعِيدٌ" عن العقل لا يوافقه عليه أحد ولا يكاد يصدقه إذ لم يخبرنا به آباؤنا فلا يكون ذلك أبدا وكلامك هذا يا محمد مرجوع عليك لبعد إمكانه قال تعالى ردّا لاستبعادهم ذلك "قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ" من الموتى وما تأكله الأرض من لحومهم وتشربه من دمائهم وترمه من عظامهم بحيث لا يشتبه عليه جزء أحد من الآخر ولا يعزب عن علمه ما

تداخل منها في تخوم الأرض وما دخل في بطون الوحوش "وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ 4" بعددهم وأسمائهم وما ينقص منهم وما يبقى في كل لحظة .

(43/720)

وفي هذا رد لاستبعادهم النشأة الأخرى ، أي فالذي هو كذلك أيها الناس وقد خلقكم من العدم ألا يقدر على إعادتكم ؟ بلى قال تعالى (كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) الآية 28 من الأعراف الآتية ، ثم اتبع الأضراب عن معنى القرآن باضراب آخر عن مغزى الإعادة فقال "بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ" الحياة بعد الموت الثانية بالبراهين المتلوة عليهم من الأنبياء من لدن آدم بادي الرأي ولأول وهلة دون تفكر وتدبر كما أنكروا الإله والنبوة والقرآن ت (17)

(44/720)

و الآيات الدالة على صدقها "فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ 5" مضطرب مختلط فكل تكذيب منهم يكون أفظع من الذي قبله ، فتارة يكذبون نفس الرسول وأخرى يتهمونه بالسحر والكهانة والجنة والشعر ، وطورا يقولون أن ما جاءنا به من أساطير الأولين وخرافاتهم وانه يتعلمه من

أهل الكتاب وأنه يتقوله من تلقاء نفسه ومرة يدّعون ألوهية الملائكة والنجوم والأصنام والأوثان فتراهم لا يثبتون على شيء وتقلبهم هذا دليل على كذبهم ، قال تعالى موبخا فعلهم ومذكرا لهم بصنعه ببعض حلقه "أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا" بلا عمد يرونها أو بلا عمد أصلا ، راجع تفسير الآية 2 من سورة الرعد في ج 3 والآية 10 من سورة لقمان في ج 2 "وَزَيَّنَّاهَا" بأنواع الكواكب والشمس والقمر "وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ 6" شقوق أو صدوع ، فاعجبوا من هذا فإنه أعظم من الإعادة بعد الموت ، راجع الآية 57 من سورة غافر "وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا" على الخلاء لا شيء يمسكها ولا يقلها بشيء "وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ" جبالا عظاما لئلا تتحرك بكم فتزعجكم وهذا دليل على كونها قائمة بالهواء وإلا لما قال ذلك "وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ" صنف ونوع من مأكول وغيره "بَهِيجٍ 7" نظارة وحسنا ولطافة فكل من يراه يبتهج ويسر ، أي اغفلوا عن هذا الذي جعلناه "تَبْصِرَةً" للعاقل يتفكر به "وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ 8" إلى ربه تبصر في بدايع صنعه "وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا" فيه حياة كل شيء "فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ" بساتين يستدلون بها على جنات الآخرة "وَحَبَّ الْحَصِيدِ 9" البر والشعير و

الذرة والسمسم والدّخن والعدس والرز وكل ما يقطف ويحصد من مأكول الإنسان والحيوان فهل يجهل أحد صنعنا لهذا "وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ" مرتفعات في السماء طوالا مستويات "لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ 10" ثمر متراكب بعضه فوق بعض وهو في أكمامه فإذا خرج من الكم بأن انشق عنه فيكون منضودا ولهذا قال تعالى في حق الموز (وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ) الآية 29 من الواقعة الآتية لأنه يطلع بعضه فوق بعض ولم يخلق في الكم أولا ثم يخرج منه ، ولهذا فان ثمر النخيل قبل أن ينشق

عنه الكم يسمى طلعا ، وقد جعلنا هذا كله

(46/720)

"رِزْقًا لِلْعِبَادِ" فضلا من لدنا ورحمة بهم "وَأَحْيَيْنَا بِهِ" أي الماء المبارك "بَلْدَةً مَيْتًا" جف نباتها واسودت أرضها "كَذَلِكَ" أي كما نحيي الأرض الميتة بانزال الماء وإخراج النبات يكون "الْخُرُوجُ 11" من المقابر وإحياء الخلق راجع الآية 56 من الأعراف الآتية واعلم يا أكمل الرسل أن قومك ليسوا بأول من كذب الرسل بما جاء وهم من عندنا فقد "كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ" نوحا "وَأَصْحَابُ الرَّسِّ" شعيبا بعد إرساله إلى أصحاب الأيكة كما سيأتي في الآية 85 من الأعراف الآتية ، والرس البئر المطوية كانت لبقية من ثمود كذبوا نبيهم

ورسوه في بئر لهم في اليمن قاتلهم اللّه ، وقيل هم قوم باليمامة وأن صاحبهم الذي كذبوه قسطلة بن صفوان وقيل هم أصحاب الأخدود وصاحبهم الغلام الذي مر ذكره في الآية 4 من سورة البروج المارة "وَثَمُودُ 12 "كذبت صالحا "وَعادٌ" كذبت هودا "وَفِرْعَوْنُ" كذب موسى وهارون "وَإِخْوانُ لُوطٍ 13 "كذبوا لوطا وسماهم إخوانا لأن بينه وبينهم نسبا قريبا لأنهم طائفة من قوم إبراهيم عليه السلام ومعارفه وهو ابن أخت ابراهيم "وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ" الأشجار الملتفة كذبوا شعيبا أيضا "وَقَوْمُ تُبَّعٍ" أي كرب الحميري حيث آمن وكذبه قومه لذلك خصه اللّه بالذكر كما خص فرعون نفسه لأنه هو المكذب راجع الآية 37 من سورة الدخان في ج 2 فكان "كُلٌّ" من هؤلاء الأمم "كَذَّبَ الرُّسُلَ" المرسلين إليهم فلا تحزن يا حبيبي على قومك "فَحَقَّ" على المصرين منهم على الكفر إنقاذ "وَعِيدِ 14 "فيهم ووعد الرسل بالنصر عليهم ، فقل يا سيد الرسل لهؤلاء المنكرين اعادتهم بعد موتهم "أَفَعَيِينا" أعجزنا أم تعبنا "بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ" لهم حتى نتعب باعادتهم ثانيا ، كلا وعظمتنا إنما هو بين الكاف والنون ، وقل لهم يا أكمل الرسل كيف تعترفون ببداية الخلق وتنكرون الإعادة وليس بشيء أهون علينا منها .

(47/720)

وهذا جواب لقولهم (ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ) "بَلْ هُمْ" هؤلاء الجاحدون "فِي لَبْسٍ" شك وخلط وشبه ألقاها الشيطان في قلوبهم وأوقع الحيرة منه فيها بتسويله لهم بأن إحياء الموتى محال وأنساهم

التفكر بأن من قدر على الإنشاء لا تعبيه الإعادة بل هو على الإعادة أقدر "مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ 15" بعد الموت ، وقيل إن هذه الآية عامة في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فهي أن اللّه تعالى يعدم كل موجود في كل لحظة ويحييه وهذا معنى التجدد ، وأما في الآخرة فإنه يحيي من أماته إلى الحساب والجزاء ولا يعظم هذا على اللّه ، كيف وهو يقول "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ" من الخطرات والهواجس الحادثة الآن والتي ستحدث بعد في قلبه ، لا يخفى علينا شيء من ضمائره ، وكيف تخفى علينا "وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ 16" العرق الذي يجري فيه الدم المتصل بكل جزء من أجزاء الإنسان ، وهو بين الحلقوم والمري ، ولذلك سمي وريدا ، واذكر لهم يا محمد "إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ" الملكان الموكلان بكل نفس يكتبان ما تعمل من الخير والشر ويحفظانه إلى يوم الحساب أحدهما "عَنِ الْيَمِينِ" يكتب الحسنات "وَعَنِ الشِّمالِ" الآخر يكتب السيئات "قَعِيدٌ 17" كل منهما بمحله لا يفارقه طرفة عين ، وقد اكتفى بذكر أحدهما عن الآخر كقوله :

رماني بأمر كنت منه ووالدي بريئا ومن أجل الهوان رماني

أي وكان والدي بربًا .

وقوله :

(48/720)

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأي مختلف أي نحن راضون ، وهنا يكون عن اليمين قعيد أيضا إذ الحذف من الأول لدلالة الثاني عليه وبالعكس من أبواب البلاغه وسمي احتباكا وهو فضلا عن أنه لا يخل بالمعنى فلا يخفى على بصير ، ولفظ قعيد يدل على الملازمة فهو أبلغ من قاعد ولهذا قال تعالى "ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ" يقوله الإنسان "إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ" يراقبه لا يبرح عنه "عَتِيدٌ 18" تهيأ لتدوين ما يخرج من فيه ، وهذان الملكان لا يفارقان الإنسان إلا عند الغائط والجماع ، ولذلك يكره الكلام في هاتين الحالتين لئلا يؤذيهما في كتابة ما يقع منه فيهما لأنهما لا يهملان شيئا حتى أنينه في المرض ليثيبه اللّه عليه .

روى البغوي بإسناد الثعلبي عن أبي أمامه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : كاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين حالا ، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبّح أو يستغفر ، وهذان غير المعقّبات الآتي ذكرهم في قوله تعالى (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ) الآية 11 من سورة

الرعد في ج 3 لأن اللّه وكل في بني آدم ملائكة كثيرين من حين يكون في بطن أمه إلى أن يدفن في قبره ، ومن لطفه على عباده أنه يكتب للمريض والمسافر مثل ما كانا يعملان في الصحة والإقامة من الحسنات فقط أما السيئات فلا ، لأن العقاب فيها متوقف على الفعل فلو نوى ولم يعمل لا يكتب عليه شيء بل تكتب له حسنة كما سيأتي في تفسير الآية 84 من سورة القصص الآتية .

أخرج بن أبي شيبة والدارقطني في الافراد والطبراني والبيهقي في الشعب عن عبد اللّه بن عمر قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : ما من أحد من المسلمين يبتلى ببلاء في جسده إلا أمر اللّه تعالى الحفظة فقال اكتبوا لعبدي ما كان يعمل وهو صحيح ما دام مشدودا في وثاقي .

(49/720)

واخرج ابن أبي شيبة عن أبي موسى قال : قال صلّى اللّه عليه وسلم : من مرض أو سافر كتب اللّه تعالى له ما كان يعمل صحيحا مقيما قال تعالى "وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ" أي شدته المذهبة لعقلة وغمرته التي تغشى المحتضر حالة نزعه إذ تحول بينة وبين عقله فتصيّره كالسكران "بِالْحَقِّ" عند بلوغ الأجل اليوم الذي يتبين به الإنسان من أمري الدنيا والآخرة

ويعلم فيه ما يوصل إليه حاله من السعادة والشقاوة ويراه عيانا .

واعلم أن الإنسان خلق لشيئين : لعبادة ربه مادام حيا قال تعالى (وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) الآية 56 من الذاريات في ج 2 ، وللموت عند انقضاء أجله قال تعالى : (كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ) الآية 185 من آل عمران ج 3 ، وهي مكررة في الأنبياء والعنكبوت 35 و 57 الآتيتين ج 2 وهو لا ينجو منه أحد ، قال : مناديه ينادي كل يوم : لدوا للموت وابنوا للخراب ويقال له "ذِلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ" تميل تعدل عن الموت الذي تنفر عنه ولا تريده بحالة من الأحوال ، فها هو قد جاءك .

أخرج البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه عن عائشة وصححه الحاكم قالت : لقد رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وهو

بالموت وعنده قدح فيه ماء وهو يدخل يده في القدح ثم يمسح وجهه بالماء ثم يقول اللهم أعني على سكرات الموت .

وجاء في بعض الآثار ما أخرجه ابن سعد عن عروة قال : لما مات الوليد بكت أم سلمة فقالت :

يا عين فابكي للوليد بن الوليد بن المغيرة كان الوليد أبو الوليد فتى العشيرة

فقال صلّى اللّه عليه وسلم لا تقولي هكذا يا أم سلمة ولكن قولي (وجاءت سكرة الموت بالحق) وأخرج أحمد وابن جرير عن عبد اللّه مولى الزبير بن العوام قال : لما حضر أبو بكر

الوفاة تمثلت عائشة بهذا البيت :

أعاذل ما يغني الحذار عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

(50/720)

فقال أبو بكر ، ليس كذلك يا بنية ولكن قولي : (وجاءت سكرة الموت بالحق) وفي رواية لابن المنذر وأبي عبيد أنها قالت :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فقال رضي اللّه عنه : بل قولي (وجاءت سكرة الموت) إلخ .

ولما بين جل شأنه بعضا من حالة الإنسان في حياته ومماته طفق يبين شيئا من أحوال القيامة التي لا بد له منها فقال "وَنُفِخَ فِي الصُّورِ" النفخة الثانية للبعث بدليل قوله "ذَلِكَ" أي وقت هذه النفخة هو "يَوْمُ الْوَعِيدِ 20" للحساب والجزاء الذي وعدكم اللّه به في الدنيا على لسان رسله وحذركم من هوله لأن النفخة الأولى تكون لإماتة من بقي في الدنيا وبينهما كما قيل أربعون سنة ، وفي النفخة الثانية يقوم الخلق من كفاتهم

قال تعالى "وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ" برة كانت أو فاجرة "مَعَهَا سَائِقٌ" ملك يسوقها إلى الحشر الذي يقف الناس فيه للحساب "وَشَهِيدٌ 21" ملك آخر يشهد عليها بما عملت في الدنيا

ويقال له "لَقَدْ كُنْتَ" أيها الإنسان في دنياك وبرزخك مدة طويلة "فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا" اليوم العظيم وقد كنت تنكره وتجحده وتكذب رسلنا الذين أنذروكه "فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ" الذي كان على بصرك والرين الذي كان على بصيرتك ، وأزحناه عنك الآن لتنظره عيانا ، وأمطنا ما كان على سمعك من الثقل لتسمعه جهرا حقيقة وأجلينا الصدأ الذي على قلبك لتعيه يقينا

(51/720)

"فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ 22" قوي جدا يرى ما كان محجوبا عنه في الدنيا بسبب غفلتك عن النظر إلى قدرتنا والسماع لأوامرنا والتفكر في مصيرك ومصنوعاتنا "وَقالَ قَرِينُهُ" الملك الموكل به الشهيد عليه الكاتب لأعماله "هذا ما" أي الديوان الذي "لَدَيَّ" عن سجل أعمالك "عَتِيدٌ" مهيأ ظاهر حاضر فينظر فيه فإذا هو والعياذ بالله جامع لكل شيء ، وهو الكتاب المنوه به في الآية 14 من الإسراء الآتية ، فيقول الله حينذاك ، وهو أعلم بما فيه قبل إظهاره لأنه مدون في لوحه للسائل وللمشاهد اللذين جاءا به "أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ 24 مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ" في الدنيا "مُعْتَدٍ" على نفسه وعلى غيره ، يمنع خيره ، ويوقع شره وضره "مُرِيبٍ 25" شاك في التوحيد وفي هذا اليوم وهو "الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً

آخَرَ" من أصنام وغيرها "فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ 26" الكائن في الطبقة السفلى من طبقات النار أعاذنا اللّه منها "قَالَ قَرِينُهُ" شيطانه الذي قيض له السوء المنوه به في الآية 30 من سورة الزخرف في ج 2 والوارد ذكره في قوله صلّى اللّه عليه وسلم ما من أحد الا وقد وكل به قرينه من الجن قالوا ولا أنت يا رسول اللّه ؟ قال ولا أنا ، إلا أن اللّه أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني الا بخير هذا وإن بعض المفسرين فسر القرين الأول بالشيطان ، وبما أن الجمهور على خلافهم فسرناه بالملك لأن سياق الآية يدل عليه ، ويأبى الآخر ، فانظر ماذا ترى .

(52/720)

ولفظ القرين من النوع المبهم أحد أقسام البديع في الكلام ، ولهذا فإنه يفسر بنسبة المقام كما جرينا عليه "رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ" أي ما أجبرته على الطغيان ولا أوقعته فيه ، وهذا بعد أن سئل وقال أطغاني الشيطان ، فيدافع الشيطان عن نفسه معتذرا ثم يقول "وَلَكِنْ كَانَ" هو يا رب غارقا "فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ 27" عن الحق وسبله ، إذ اختار بطوعه ورضاه الضلال على الهدى وأكب على الردى ، فيقول الكافر يا رب كذب هو الذي سوّل لي الشر وحسّن لي القبيح فأراد الشيطان أن يكذبه ثانيا فقطع اللّه .

عليه كلامه "قالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ" الآن اسكتوا لأني أرسلت إليكم رسلا "وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ 28" على ألسنتهم وبالكتب

التي أنزلتها عليهم ، وقد أنذروكم وحذّروكم هول هذا اليوم وبينوا لكم منافع الإيمان ومضار الكفر فلم تفعلوا فلا فائدة من خصامكم الآن وقد قضي الأمر عليكم بالعذاب "ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ" فلا تطمعوا أن أغيره لأنه حق عليكم "وَما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ 29" لأني لا أعذب أحدا بغير ذنب ، وأنا العلام بما وقع منكم قبلا راجع تفسير الآية 22 من سورة ابراهيم في ج 2 والآية 30 من سورة المرسلات المارة تقف على مواقف القيامة ، واذكر يا محمد لقومك "يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ" إيفاء بوعده لها في سابق علمه وانجازا لقوله : "لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ" الآية 119 من سورة هود في ج 2 قال ابن عباس فلما سيق أعداء اللّه إليها لا يلقى فيها فوج إلا ذهب فيها ولا يملأها شيء فتقول مخاطبة ربها عز علاه ، ألست قد أقسمت لتملأني ؟ قال فيضع قدمه عليها فيقول هل امتلأت ، فتقول قط قط أي حسبي حسبي قد اكتفيت .

(53/720)

وفيها ثلاث لغات بإسكان الطاء وكسرها وتنوينها ، أي قد امتلأت وليس في مزيد وكانت تقول قبل هذا زدني فيزيدها "وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ 30" ولا يقال أن النار معنى وان كانت جسما فلا يأتي منها النطق ، ولانها ليست صالحة للخطاب لأن اللّه الذي أنطق كل شيء في الدنيا وأنطق جوارح الإنسان بما صنعت ، والحيوان بما اعتدى ، والجماد بما وقع منه وعليه ، قادر على إنطاق النار وجعلها صالحة للخطاب بإبداع سر من أسراره فيها ، وقد خاطبها اللّه في غير هذا الموضع في الآية 79 من سورة

الأنبياء وخاطب الجبال في الآية 10 من سورة سبأ وخاطب النحل في الآية 69 من سورة النحل وخاطب السماء والأرض في الآية 11 من سورة السجدة في ج 2 وأمثاله كثير في القرآن العظيم كما نبين كلا في محله ان شاء اللّه .

مطلب في آيات الصفات وما يجب فيها :

ولنورد ما يتعلق في هذه الآيات من الأحاديث : روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع ربّ العرش ، وفي رواية رب العزة ، فيها قدمه فينزوي بعضها إلى

بعض وتقول قط قط بعزتك ولا يزال في الجنة فضل ، حتى ينشيء اللّه لها خلقا فيسكنهم فيها ، فتقول الجنة قط قط .

ولأبي هريرة بزيادة : ولا يظلم اللّه من خلقه أحدا .

وهذا من أحاديث الصفات التي سبق البحث عنها في الآية 21 من سورة الفجر المارة ، وذكرنا أن جمهور المتكلمين وطائفة من العلماء يصرفونها عن ظاهرها بالتأويل ، فيضعون بدل القدم المقدم أي حتى يضع اللّه من قدم من أهل النار لقيام الدليل على استحالة الجارحية على اللّه تعالى ، وجمهور من السلف وطائفة من المتكلمين يجرونها على ظاهرها ويؤمنون بها من غير تأويل وهو الأقرب وعليه فيكون معنى الرجل الجماعة كما تقول رجل من جراد أي جماعة منه أي يضع فيها جماعة أو قوما مسميين بلفظ الرجل القدم والإضافة هنا اختصاصية راجع تفسير هذا الحديث في شرحي البخاري ومسلم .

وقال البغوي القدم والرجل في هذا الحديث من صفات اللّه المنزه عن الكيفية والتشبيه ، والإيمان بها فرض ، والامتناع عن الخوض فيها واجب ، فالمهتدي من سلك فيها طريق التسليم ، والخائض فيها زائغ والمنكر معطل ، والمكيف مشبّه ، وهو ليس كمثله شيء هذا واللّه أعلم

قال تعالى "وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ" قربت وهيئت للمتقين المساعدين عما نهوا عنه الفاعلين ما

أمروا به "غَيْرَ بَعِيدٍ 31" مكان قريب منهم كي يروها وتقر أعينهم بها ويقال لهم "هذا ما تُوعَدُونَ" في الدنيا على لسان رسلكم وهي لكم و"لِكُلِّ أَوَّابٍ" رجاع توأب من الذنوب .

(55/720)

"حَفِيظٍ" على حدود اللّه مبالغ في طاعته وهو "مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ" خافه وأطاعه وصدق رسله "بِالْغَيْبِ" وآمن به من غير أن يراه "وَجاءَ" يوم القيامة إلى ربه "بِقَلْبٍ مُنِيبٍ 33" اليه خاضع له خاشع لهيبته مخلص لعبادته مقبل اليه بكليته فهذا وأمثاله يقال لهم "ادْخُلُوها" أي الجنة التي قرّبت إليكم "بِسَلامٍ" وأمن من زوالها وسلام من اللّه وملائكته عليكم "ذلِكَ" يوم يدخل أهل الجنة الجنّة ، وأهل النار النّار ، هو "يَوْمُ الْخُلُودِ 34" لا موت ولا خروج بعده أبدا "لَهُمْ" لأهل الجنة "ما يَشاؤُنَ فِيها وَلَدَيْنا مَزِيدٌ 35" لهم مما لم يخطر على بالهم وهو رؤية

اللّه عز وجل إذ لا مزيد عليه لأهل الجنة بعدها ، ولهذا فان جمهور المفسرين فسروا المزيد بالجنة كما فسروا الزيادة الواردة بالآية 26 من سورة يونس في ج 2 بها وبين مزيد وزيادة مناسبة باللفظ وبالآيتين بالمعنى ، والقرآن يفسر بعضه ، وبعد أن بين تعالى حال أهل النار وحال أهل الجنة للذكرى والاعتبار قال مهددا أهل مكة بما فعله من قبلهم بقوله "وَكَمْ

أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ" يا محمد من الأمم الماضية الذين لم تنفعهم الذكرى ولم يعتبروا بما وقع عليهم "مِنْ قَرْنٍ" أي قرون كثيرة ممن لم يتعظ بنذرنا "هُمْ" أي المهلكون "أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً" من قومك الذين يزعمون أنهم أشداء كثيرون ، وأكثر عددا وعددا ، وأعظم سطوة وجولة "فَنَقَّبُوا" طافوا وتقلبوا "فِي الْبِلادِ" شرقا وغربا جنوبا وشمالا ليروا ما يعصمهم من عذاب في الدنيا فلم يجدوا ما يقيهم منه فلينظر قومك "هَلْ مِنْ مَحِيصٍ 36" مخلص أو مهرب لهم أو مأمن أو ملجأ من عذابي فلم يجدوا وهل وجد أحد من العصور الخالية وزرا مني ؟ كلا بل لا بد من الموت والرجوع إلي ، قال الحارث بن كلدة :

نقبوا في البلاد من حذر الموت وجالوا في الأرض كل مجال

وقال امرئ القيس :

(56/720)

وقد نقّبت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

"إِنَّ فِي ذلِكَ" الذي قصصناه عليكم يا أمة محمد بشير إلى أنكم ومن قبلكم ومن بعدكم صائرون إلينا وإن هو "لَذِكْرى" عظيمة وعبرة باهرة وعظة بالغة "لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ" واع وعقل ثابت وفكر ثاقب "أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ" لما يتلى عليه من القرآن ، وسمعه سماع قبول لا

يحدث نفسه بخلافه مصغيا لإرشاده "وَهُوَ شَهِيدٌ 37" فطن لا غافل ولا نسيان ، لأن من لا يحصر ذهنه ولبه وسمعه وبصره لآيات اللّه لا يدخل في هذه الآية بل يكون في عداد الذين ذكرهم اللّه في الآية 187 من الأعراف ، الآتية أعاذنا اللّه من ذلك .

مطلب الآية المدنية في هذه السورة وخلق السموات والأرض والتسبيح :

وهذه الآية المدنية قال تعالى "وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما" من الجن والإنس والملائكة والطير والوحش والمياه وغيرها "فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَما مَسَّنا" لحقنا ولا أصابنا "مِنْ لُغُوبٍ 38" إعياء أو تعب فكيف تستعظمون علينا إعادتكم أيها الناس وهي لا شيء بالنسبة لهذا الذي لا تفي به القوى لأنه أعظم من الخلق كله راجع الآية 57 من سورة غافر من ج 2 ، وهذه الآية أيضا كالمستطردة بالنسبة لما قبلها وبعدها كسائر الآيات المدنيات في المكيات ، وسبب نزولها أن اليهود قالوا أن اللّه خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام أولها الأحد وآخرها الجمعة ثم استراح يوم السبت واستلقى على العرش فلذلك تركوا العمل فيه كما هو موجود في التوراة الموجودة الآن راجع الاصحاح الأول والثاني من التكوين في التوراة ، فكذّبهم اللّه عز وجل في هذه الآية ، نافيا عن ذاته المقدسة التعب والاعياء المستلزمين للراحة .

ومما يدل على كذبهم أن الأيام أزمنة مستمرة بعضها بعد بعض فلو كان بدأ خلقها بالأحد كما يزعمون لكان الزمان مخلوقا قبل الأيام مع أن الزمان لا ينفك عن الأجسام فيكون قبل خلق الأجسام لأن اليوم عبارة عن سير الشمس من طلوعها إلى غروبها وقبل خلق السموات والأرض ما كان شمس ولا قمر لأن اليوم يطلق ويراد به الوقت والحين وقد يعبر به عن مدة من الزمن أيّ مدة كانت فبطل قول اليهود وثبت التحريف في التوراة الموجودة الآن بين أيديهم وأن ما ينسبونه إلى اللّه من الاستراحة والاستلقاء محض زور وبهتان تعالى اللّه عنهما علوا كبيرا .

انتهت الآية المدنية .

قال تعالى "فَاصْبِرْ" يا حبيبي "عَلى ما يَقُولُونَ" فيك من التكذيب والبهتان فإني بالمرصاد لهم ، يعلمون أنهم يجحدون آياتي بتكذيبك راجع الآية 32 من الأنعام في ج 2 وإنما أمره ربه بالصبر مع تطاولهم عليه الذي كاد أن يمحق صبره لأنه لم يؤمر بقتالهم بعد "وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ" إنما أمره بالتسبيح فيه لأنه سيفرض عليه وعلى أمته فيه صلاة الصبح كما في أزله وكذلك الأمر في قوله "وَقَبْلَ الْغُرُوبِ 39" لأنه ستفرض فيه صلاة المغرب وقبله صلاتا الظهر والعصر "وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ" أيضا حيث يفرض فيه صلاة العشاءين وتسمى فيه النافلة والتهجد "وَأَدْبارَ السُّجُودِ 40"

سبحه بعده أيضا والسجود كان يفعله صلّى اللّه عليه وسلم قبل فرض الصلاة إذ أنه سجد في آخر اقرأ والنجم وغيرها ، والمراد من هذه الآية مطلق التسبيح لأن الصلاة التي فيها التسبيح لم تفرض بعد وقال علي وعمر رضي اللّه عنهما : المراد بأدبار السجود الركعتان بعد المغرب (وَإِدْبارَ النُّجُومِ) الآية الأخيرة من سورة الطور في ج 2 الركعتان قبل الصبح إلا أن هذه بكسر الهمزة إذ يراد بها ذهابها لجهة سيرها الذي تغيب فيه عن يمين الرائي وهناك بفتح الهمزة حيث يراد بالإدبار البعدية المطلقة ، أي سبحه بعد كل سجود حين الهدى اليه ، لأن التسبيح يكون فيه وهو المراد هنا وإن كان مطلوبا في غيره وفي كل حال ، إذ ينبغي للانسان أن لا يغفل عن ذكر اللّه كما جاء في الآية 191 من آل عمران في ج 3 وبعض المفسرين يجوزه في هذا أيضا ويقولون ان المراد بآية الطور الركعتان قبل الصبح .

روى مسلم عن عائشة رضي اللّه عنها وعن أبيها أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال :

ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها .

يعني سنة الفجر .

وروى البخاري عن ابن عباس قال : أمر رسول اللّه أن يسبح في أدبار الصلوات كلها .

وهذا كله كان بعد فرض الصلاة ، ولا يخفى أن عائشة وابن عباس كانا صغيرين دون سن التمييز ، حيث كان سن عائشة عند الهجرة سبع سنين ، وابن عباس أربع سنين ، بما يدل على أن ليس المراد بها السجود في الصلاة ولذلك قال بعضهم المراد بالتسبيح هنا التسبيح بعد الصلاة مستدلا بما رواه مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه من سبح اللّه في دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين وحمد اللّه ثلاثا وثلاثين وكبر اللّه ثلاثا وثلاثين فذلك تسعة وتسعون ثم قال تمام المائة لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، غفرت ذنوبه وان كانت مثل زبد البحر .

وفي حديث ابن عباس المتقدم أن هذا

جاء بمعرض الثواب لمن لا يقدر على تحصيله من جهة أخرى .

(59/720)

يدل على هذا ما رواه البخاري عن أبي هريرة أن نفرا من المسلمين أتوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فقالوا يا رسول اللّه ذهب أهل الوتور بالأجور وفي رواية بالدرجات والنعيم المقيم فقال وما ذاك ؟ قالوا صلوا كما صلينا ، وجاهدوا كما جاهدنا ، وأنفقوا من فضول أموالهم وليست لنا أموال ، قال :

أفلا أخبركم بأمر تدركون به من كان قبلكم .

وتسبقون من جاء بعدكم ولا يأتي أحد بمثل ما جئتم به إلا من جاء بمثله ؟ تسبحون في دبر كل صلاة عشرا وتحمدون عشرا .

وتكبرون عشرا .

وفي رواية أبي ذر الغفاري : ان لكم بكل تسبيحة صدقة وبكل تكبيرة صدقة وبكل تحميدة صدقة وفي بضع أحدكم صدقة إلخ قالوا يا رسول اللّه أيأتي أحدنا شهوته ويكون له بها أجر ؟ قال أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر ، فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر ،

(60/720)

قال تعالى "وَاسْتَمِعْ" يا سيد الرسل لما أخبرك به من حال يوم القيامة الذي قصصناه عليك كيف يكون "يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ" أهلها بالنفخة الثانية "مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ 41" قربا نسبيا من السماء إذ يقف على صخرة بيت المقدس ، وهي على ما قيل بمكان أقرب إلى السماء من الأرض بثمانية عشر أو اثني عشر ميلا وانها وسط الأرض ، فيقول بصوت يسمع فيه أقطار الأرض كلها ولجج البحار وبطون الأودية ورؤس الجبال بدلالة قوله تعالى "يَوْمَ يَسْمَعُونَ

الصَّيْحَةَ" وكيفيّتها أيتها العظام النخرة البالية والأوصال المنقطعة واللحوم الممزقة والشعور المتفرقة إن اللّه يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء "بِالْحَقِّ" يوم البعث والجزاء والحشر ، ويقال هلموا لهذا فتستجيب تلك الذرات لأمر الرب وتلتئم كلها على بعضها ، لا يعزب منها ذرة حتى تكون جسدا كما كانت في الدنيا ، وتدبّ فيها الحياة بأمر محيي الموتى ، فيا أيها الناس "ذَلِكَ" يوم النداء هذا هو "يَوْمُ الْخُرُوجِ 42" أي خروج الأموات من مدافنها والذرات من أماكنها وهو يوم التئامها وتكوينها في بعضها كما كانت في الدنيا ، ليعلم هؤلاء المنكرون حقيقته عيانا "إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي" الخلق في الدنيا "وَنُمِيتُ" من نخلقه فيها بعد انقضاء أجله "وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ 43" اي الحياة الأخرى في الآخرة "يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ" بالبناء للفاعل وقرىء المفعول وقرىء بتشديد الشين للتكثير وقرىء بتاءين ، وهذه كلها جائزة ، راجع بحث القراءات في المقدمة .

فيخرجون "سِرَاعاً" إلى أرض الحشر بدليل قوله "ذَلِكَ" أي يصير هذا الأمر العظيم "حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ 44" جدا هين بالنسبة لقدرتنا إذ

لا يشغلنا شأن عن شأن ، فاترك يا أكمل الرسل كفار قومك ولا تجادلهم "نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ" من جحد البعث وانكار الآيات ولا يضرك تكذيبهم لك لأنك لم تؤمر بقتالهم "وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ" الآن "بِجَبَّارٍ" لأنك لم تسلط عليهم بعد وما أنت الآن إلا منذر ومبلغ "فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ 45" لأن الذي لا يخشاه لا تنفعه الذكرى ولا تؤثر فيه الموعظة .

قال ابن عباس قالوا لو خوفتنا يا رسول اللّه ، فنزلت هذه الآية مما يدل على أن هذه السورة لم تنزل دفعة واحدة فضلا عن الآية المدنية فيها .

هذا ، وقد ذكرنا آنفا أن قرب المنادى قربا نسبيا على أنه يمكن ان يكون حقيقيا لأنه إذا كان المذياع يسمع كافة أطراف الأرض وما فيها بآن واحد بلا فرق بين البعيد والقريب منها ، وهو من مصنوعات العبيد فلأن يسمع أهل البرزخ كلهم بوق اسرافيل كسماع رجل واحد من باب أولى ، ولا تحديد لقدرة اللّه .

هذا ، واللّه أعلم ، وأستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلّى اللّه وسلم على سيدنا محمد وآله وأصحابه وأتباعه ومن تبعهم بإحسان صلاة وسلاما دائمين متلازمين إلى يوم الدين ، والحمد للّه رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 1 صـ 256. 270 ﴾

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة ق

مكية إلا قوله ولقد خلقنا السموات الآية فمدني

وقد علم حكم ق والقرآن المجيد حسن إن جعل جواب القسم ق أو محذوفا أي لتبعثن

وليس بوقف إن جعل جواب القسم بل عجبوا سواء جعل القسم والقرآن وحده أم مع ق

وكنا ترابا كاف بعيد تام حفيظ كاف وكذا مريج ومن فروج ومنيب ورزقا للعباد وبلدة

ميتا كذلك الخروج تام وقوم تبع فحق وعيد والخلق الأول من خلق جديد تام من حبل

الوريد صالح قعيد حسن وكذا عتيد تحيد كاف الوعيد حسن وشهيد كاف حديد

حسن لدى عتيد كاف كفار جائز في العذاب الشديد تام وكذا بعيد بالوعيد حسن للعبيد

تام وكذا من مزيد غير بعيد كاف حفيظ تام إن جعل من خشى مبتدأ خبره ادخلوها

وليس بوقف إن جعل من خشى بدلا مم قبله ادخلوها بسلام تام الخلود حسن ما يشاؤن

فيها كاف ولدينا مزيد تام وكذا من محيص وشهيد من لغوب كاف السجود تام وكذا يوم

الخروج المصير كاف سراعا صالح يسير تام بما يقولون كاف بجبار تام وكذا آخر السورة .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ المقصد صـ ﴾

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة ﴿ ق ﴾

مكية إلا قوله ولقد خلقنا السموات والأرض الآية فمدني آيها خمس وأربعون آية اتفاقاً

وكلمها ثلاثمائة وثلاث وسبعون كلمة وحروفها ألف وأربعمائة وسبعون حرفاً

والقرآن المجيد (حسن) إن جعل جواب القسم ق أو محذوفاً أي والله لتبعثن وليس بوقف

إن جعل ق قسماً والقرآن قسماً آخر وفي جوابهما خلاف فقيل قد علمنا أو هو ما يبدل أو

هو ما يلفظ أو هو إن في ذلك لذكرى أو هو بل عجبوا بمعنى لقد عجبوا سواء جعل القسم

والقرآن وحده أو مع ق

عجيب (جائز) إن لم يجعل ما بعده جواب القسم وكذا يقال في كل وقف فلا يوقف بين

القسم وجوابه

وكنا تراباً (حسن) إن لم يجعل جواب القسم بعده

بعيد (تام)

حفيظ (كاف)

مريح (تام) على أن جواب القسم فيما قبله

وزيناها (حسن)

من فروج (تام) على أن جواب القسم فيما تقدم وأنَّ نصب والأرض بفعل مقدر أي ومددنا الأرض مددناها

رواسي (حسن) ومثله بهيج إن نصب تبصرة بفعل مضمر أي فعلنا ذلك تبصرة وليس بوقف إن نصب على الحال أو على أنها مفعول

منيب (تام) ولا وقف من قوله ونزلنا من السماء ماءً إلى رزقاً للعباد لاتصال الكلام بعضه ببعض فلا يوقف على مباركاً ولا على الحصيد للعطف فيهما

باسقات (جائز) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل ما بعده متعلقاً بما قبله ولا يوقف على نضيد على أن رزقاً مفعول له

رزقاً للعباد (حسن) ومثله ميتاً

كذلك الخروج (تام) عند أبي حاتم والكاف في محل رفع مبتدأ أي كذلك الخروج من الأرض أحياء بعد الموت ولا وقف من قوله كذبت إلى قوم تبع

وتبع (كاف)

فحق وعيد (تام)

بالخلق الأول (كاف)

من خلق جديد (تام)

نفسه (حسن)

من حبل الوريد (جائز) لأنَّ إذ معها فعل مضمر قد عمل فيها وليس بوقف إن جعل العامل في إذا أقرب أي ونحن أقرب إليه بعلمنا مما يوسوس به نفسه من حبل الوريد والوريد عرق كبير في العنق يقال إنهما وريدان يلتقيان بصفحتي العنق

(64/720)

قعيد (كاف) قال الكسائي المعنى عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد ثم حذف الأول لدلالة الثاني عليه وقال قعيد يؤدي عن الإثنين والجمع قال أبو أمامة قال النبي صلى الله عليه وسلم كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيآت على يسار الرجل وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيآت فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشراً وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر قال مجاهد يكتبان عليه كل شيء حتى أنينه في مرضه وقال عكرمة لا يكتبان عليه إلا ما يوزر أو يؤجر

عتيد (تام)

بالحق (حسن)

تحيد (كاف)

في الصور (جائز)

الوعيد (كاف) ومثله شهيد وكذا حديد الهامة على فتح التاء في كنت والكاف فيه وفي غطاءك وبصرك حملاً على لفظ كل من التذكير والجحدري كنت بكسر مخاطبة للنفس وهو وطلحة عنك غطاءك فبصرك بالكسر مراعاة للنفس أيضاً وقال صالح بن كيسان مخاطبة للكفار وقيل مخاطبة للبر والفاجر وعليه فالوقف على حديد تام

ما لديّ عتيد (حسن)

عنيد (جائز) لكونه رأس آية

مناع للخير ليس بوقف لأنَّ ما بعده صفته فلا يقطع عنها . مريب في محل الذي الحركات الثلاث الرفع والنصب والجر فتام إن جعل مبتدأ وقوله فألقياه الخبر وكذلك إن جعل خبر مبتدأ محذوف أي هو الذي وكاف إن نصب بفعل مقدر وليس بوقف إن جرَّ بدلاً من كفار

في العذاب الشديد (كاف)

ما أطغيته الأولى وصله

في ضلال بعيد (تام)

بالوعيد (حسن)

لديّ (حسن) للابتداء بالنفي

للعبيد (تام) إن جعل العامل في يوم مضمراً وليس بوقف إن جعل العامل فيه ظلام كأَّنه قال

وما أَنَّا بظلام للعبيد يوم نقول لجهنم أو نفخ كأنه قال ونفخ في الصور يوم نقول واستبعد للفصل

بين العامل والمعمول بجمل كثيرة وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية حفص وحمزة

والكسائي وابن عامر نقول بالنون وقرأ نافع وأبو بكر عن عاصم يوم يقول بالياء التحتية

والوقف فيهما واحد

هل امتلأت (حسن)

من مزيد (كاف) ومثله غير بعيد

(65/720)

حفيظ (تام) إن جعلت من مبتدأ خبرها قول مضمر ناصب لقوله ادخلوها أي من خشي

الرحمن يقال لهم ادخلوها وحذف القول جائز وكذا إن جعل من خشي منادى حذف منه

حرف النداء أي يا من خشي الرحمن ادخلوها أو جعلت من شرطية وجوابها محذوف أي

فيقال لهم وحمل أولاً على اللفظ فافرد وفي الثاني على المعنى فجمع وإن دخلت من في

موضع رفع خبر مبتدأ محذوف أو نصب بفعل مقدر كان كافياً وليس بوقف إن جعلت من

خشي نعتاً أو بدلاً

بالغبب ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله

منيب (حسن)

ادخلوها بسلام (كاف)

الخلود (تام)

فيها (كاف)

مزيد (تام)

من قرن (جائز)

بطشاً (حسن) لمن قرأ فنقبوا بتخفيف القاف أي دخلوا البلاد من أنقابها وبحثوا ومثله في الحسن قراءة ابن عباس وغيره فنقبوا بكسر القاف المشددة على الأمر خطاباً لأهل مكة فسيحوا في البلاد وابحثوا وليس بوقف لمن قرأ بتشديد القاف المفتوحة وهي قراءة الأمصار

في البلاد (حسن) للابتداء بالاستفهام

من محيص (كاف)

شهيد (تام)

في ستة أيام (حسن)

من لغوب (كاف) أي إعياء

على ما يقولون (حسن)

الغروب (كاف)

(66/720)

وأدبار السجود (تام) على القراءتين قرأ الحرميان وحمزة بكسر الهمزة مصدراً والباقون بفتحها جمع دبر أي وقت إدبارها أو المراد بإدبار السجود الركعتان بعد المغرب وإدبار النجوم ركعتا الفجر وقف ابن كثير على المنادى بالياء التحتية والباقون بحذفها اتباعاً للرسم العثماني ونافع وأبو عمرو يصلان بالياء والباقون يقفون ويصلون بغير ياء وباقي السبعة بحذفها وصلاً ووقفاً والمنادي هو إسرافيل عليه السلام على صخرة بيت المقدس وهو المكان القريب وهي وسط الأرض وأقرب إلى السماء بثمانية عشر ميلاً وقيل باثني عشر ميلاً وفي الحديث إنَّ ملكاً ينادي في السماء أيتها الأجساد الهامدة والعظام البالية والرمم الذاهبة هلمي إلى الحشر للوقوف بين يدي الله تعالى وقرأ نافع وابن كثير وحمزة وإدبار بكسر الهمزة والباقون بفتحها جمع دبر ودبر وأدبر تولى ومضى ومنه صاروا كأمس الدابر وهو آخر النهار ووقف بعضهم على واستمع قيب يسمعون من تحت أقدامهم وقيل

من تحت شعورهم

من مكان قريب (حسن) إن نصب يوم بفعل مضمر وليس بوقف إن تعلق يوم الثاني بالظرف قبله

بالحق (حسن)

الخروج (كاف) ومثله ونميت وكذا المصير ان علق الظرف بمضمر وليس بوقف إن جعل العامل فيه ما قبله بل الوقف على سراعاً

يسير (تام)

نحن أعلم بما يقولون (كاف)

بجبار (تام) ومثله آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(67/720)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة ق :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ الثقفي : "قَافَ"[1] ، بفتح الفاء .

وقرأ : "قافِ" – بالكسر – الحسن وابن أبي إسحاق .

قال أبو الفتح : يحتمل "قاف" ، بالفتح أمرين :

أحدهما أن تكون حركته لالتقاء الساكنين ، كما أن من يقرأ : "قاف" بالكسر كذلك ، غير أن من فتح أتبع الفتحة صوت الألف ؛ لأنها منها ، ومن كسر فعلى أصل التقاء الساكنين .

والآخر أن يكون "قاف" منصوبة الموضع بفعل مضمر ، غير أنه لم يصرفها لاجتماع التعريف والتأنيث "في"[2] معنى السورة .

وأما قراءة الحسن "صاد[3]" بالكسر فقد تقدم أنه يريد بها مثال الأمر من صاديت ، أي : عارض عملك بالقرآن ، فلا وجه لإعادته .

وقيل : "قاف" جبل محيط بالأرض ، فكان قياسه الرفع ، أي : هو "قاف" وقد تمحل الفراء في هذا ، فقال : جاء ببعض الاسم كقوله :

قلنا لها قفي لنا قالت قاف[4]

وفي هذا ضعفت ، ألا ترى إلى الفتح والكسر فيه ؟

ومن ذلك قراءة يحيى والأعرج وشيبة وأبي جعفر وصفوان بن عمرو : "إِذَا مِتْنَا[5]" ، بغير استفهام .

---

1 سورة ق : . 1

2 زيادة يقتضيها نظم الأسلوب .

3 انظر الصفحة : 230 من هذا الجزء .

4 انظر الصفحة 204 من هذا الجزء .

5 سورة ق : 3 .

قال أبو الفتح : يحتمل هذا أمرين :

أحدهما حذف همزة الاستفهام على القراءة العامة ، فحذفها تخفيفا ، وقد مضى نحو هذا ، وذكرنا ضعفه1 .

والآخر أن يكون غير مريد للهمزة ، فكأنه قال : إذا متنا وكنا ترابا بعد رجعنا ونشورنا ودل قوله : ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيد ﴾ على هذا الفعل الذي هو "بعد" ، كما أن قولك : إذا زرتني فلك درهم ناب قوله : فلك درهم عن الفعل الذي استحققت "عليه"2 ردهما ، وإن كان قوله : فلك درهم جوابا ، وقوله : ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيد ﴾ أي بعيد في التقدير والظن ، لا في الزمان ؛ لأنهم لم يكونوا يعترفون البعث ، لا قريبا ولا بعيدا .

ومن ذلك قراءة الجحدري : "لَمَّا جَاءَهُم3" ، بكسر اللام .

وقراءة الجماعة : " لَمَّا جَاءَهُم" .

قال أبو الفتح : معنى "لَمَّا جَاءَهُم" ، أي : عند مجيئه إياهم ، كقولك أعطيته ما سأل لطلبه ، أي : عند طلبه ومع طلبه ، وفعلت هذا لأول وقت ، أي : عند ومعه ، وكقولك في التاريخ : لخمس خلوان ، أي : عند خمس خلوان ، أو مع خمس خلوان . فرجع ذلك المعنى إلى معنى القراءة العامة : ﴿ لَمَّا جَاءَهُم ﴾ ، أي : وقت مجيئة إياهم قال :

شنئت العقر عقر بني شليل إذا هبت لقاربها الرياح[4]

أي : عند وقتها [150ظ] وقال تعالى : ﴿ لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ[5] ﴾ أي : عند وقتها .

ومن ذلك ما يروى عن النبي – صلى الله عليه وسلم – : "وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ[6]"

و"بَاصِقَاتٍ" .

---

1 انظر الصفحة : 50 من الجزء الأول والصفحة : 205 من هذا الجزء .

2 زيادة يقتضيها نظم الأسلوب .

3 سورة ق : 5 .

4 العقر : موضع . وقاربها : متتبعها . وانظر اللسان "عقر" .

5 سورة الأعراف : 187 .

6 سورة ق : 10 .

قال أبو الفتح : الأصل السين ، وإنما الصاد بدل منها ؛ لاستعلاء القاف ؛ فأبدلت السين صادا لتقرب من القاف ؛ لما في الصاد من الاستعلاء ، ونحوه قولهم في سقر : صقر ، وفي السقر الصقر ؟

وروينا عن الأصمعي قال : اختلف رجلان من العرب في السقر ، فقال أحدهما : بالصاد وقال الآخر : بالسين ؛ فتراضيا بأول من يقدم عليهما ، فإذا راكب فأخبراه ورجعا إليه ، فقال : ليس كما قلت ، ولا كما قلت : إنما هو الزفر . وهذا أيضا تقريب الحرف من الحرف ، وذلك أن السين مهموسة ، والقاف مجهورة ، فأبدل السين زايا ، وهي مجهورة ، والزاي أخت السين ، كما أن الصاد أختها . وهذا التقريب للحرف من الحرف باب طويل منقاد ، وهو في فصل الإدغام ، وما أصنعه وألطفه وأظرفه !

ومن ذلك ما روى عن أبي بكر "رضي الله عنه" عند خروج نفسه : "وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ1" ، وقرأ بها سعيد بن جبير وطلحة .

قال أبو الفتح : لك في هذه الباء ضربان من التقدير :

إن شئت عاقتها بنفس "جاءت" ، كقولك : جئت بزيد ، أي : أحضرته2 وأجأته3 وإن

شئت علقتها بمحذوف ، وجعلتها حالا ، أي : وجاءت سكرة الحق ومعها الموت ، كقولنا : خرج بثيابه : أي : وثيابه عليه . ومثله قول الله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ4 ﴾ ، أي : وزينته عليه ، ومثله قول الهذلي :

يعثرن في حد الظبات كأنها كسيت برود بني يزيد الأذرع5

أي : يعثرن وهن في حد الظبات ، وكقوله - أنشده الأصمعي :

ومتنة كاستنان الخروف قد قطع الحبل بالمرود5

---

1 سورة ق : 19 .

2 في ك : أحصرته ، بالصاد . وهو تحريف .

3 أجأته : جئت به .

4 سورة القصص : 79 .

5 انظر الصفحة 88 من هذ الجزء .

أي قطعه : وفيه مردوده ، وكذلك القراءة العامة : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ : إن شئت علقت الباء بنفس "جاءت" على ما مضى .

وإن شئت علقتها بمحذوف وجعلتها حالان فكأنه قال : وجاءت سكرة الموت ومعها الحق .

فإن قلت : فكيف يجوز أن تقول : جاءت سكرة الحق بالموت ، وأنت تريد به : وجاءت سكرة الموت بالحق ، فياليت شعري أيتهما الجاثية بصاحبتها ؟

قيل : لاشتراكهما في الحال ، وقرب إحداهما من صاحبته صار كأن كل واحدة منهما جاثية بالأخرى ؛ لأنهما ازدحمنا في الحال ، واشتبكتا حتى صارت كل واحدة منهما جاثية بصاحبتها ؛ كما يقول ، الرجلان المتوافيان في الوقت الواحد إلى المكان – كل واحد منهما لصاحبه – : لا أرى أأنا سبقتك ، أم أنت سبقتني ؟ .

ومن ذلك قراءة الحسن : "أَلْقِيَا فِي جَهَنَّم1" ، بالنون الخفيفة .

قال أبو الفتح : هذا يؤكد قول أصحابنا في "ألقيا" : إنه أراد "ألقيا" ، وأجرى الوصل فيه مجرى الوقف ، كقوله : يا حرسي2 اضربا عنقه .

ومن ذلك قراءة ابن مسعود والحسن والأعمش : "يَوْمَ يقالِ لِجَهَنَّمَ3" .

قال أبو الفتح : هذا يدل على أن [151و] قولنا : ضرب زيد ونحوه لم يترك ذكر الفاعل للجهل به ، بل لأن الغناية انصرفت إلى ذكر وقوع الفعل بزيد ، عرف الفاعل بهن أو جهل ؛ لقراءة الجماعة : ﴿يَوْمَ نَقُولُ﴾ ، وهذا يؤكد عندك قوة العناية بالمفعول به .

وفيه شاهد وتفسير لقول سيبويه في الفاعل والمفعول : وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم

ومن شدة قوة العناية بالمفعول أن جاءوا بأفعال مسندة إلى المفعولن ولم يذكروا الفاعل معها أصلا ، وهي نحو قولهم : امتقع لون الرجل ، وانقطع به ، وجن زيد , ولم يقولوا : امتقعه ولا انقطعه ، ولا جنه . ولهذا نظائر ، فهذا4 كإسنادهم الفعل إلى الفاعل البتة فيما لا يتعدى ، نحو قام زيد ، وقعد جعفر .

---

1 سورة ق : 24 .

2 الحرسي : واحد حرس الملك ، وهم أعوانه .

3 سورة ق : 30 .

4 في ك : فكذاك إسنادهم .

(71/720)

ومن ذلك قراءة ابن عباس وأبي العالية ويحيى بن يعمر ونصر بن سيار : "فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ1" ، بكسر القاف مشددا .

قال أبو الفتح : هذا أمر للحاضرين ، ثم لمن بعدهم . فهو كقولك : قد أجلتك2 فانظر هل لك من منجي أو من وزر ؟ وهو فعلوا من النقب ، أي : ادخلوا وغوروا في الأرض ، فإنكم لا تجدون لكم محيصا .

ومن ذلك قراءة السدي : "أَوْ أُلْقَى السَّمْعَ3" .

قال أبو الفتح : أي : ألقي منه ، وهذا كأنه أندى معنى إلى النفس من القراءة العامة ، وذلك أن قوله تعالى : ﴿ أَوْ أُلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ معناه : ألقي سمعه نحو كتاب الله تعالى وهو شهيد ، أي : قلبه حاضر معه ، ليس غرضه أن يصغى كما أمر بالإصغاء نحو القرآن ولا يجعل قلبه إليه ، إلا ظاهر الأمر وأكثره أن إذا ألقي سمعه أيض فقلبه أيضا نحوه ومعه .

وهذه القراءة المنفردة كأنها أشد تشابه لفظ : لأن ظاهرها أن قلبه ألقي إليه ، وليس في اللفظ أنه هو ألقاه ، فاتصل بعض ببعض ، فكأنه ألقي سمعه إليه وقلبه ، حتى كأن ملقيا غيره ألقي سمعه إلى القرآن . وليس عجيبا أن يقال : إن قلبه عند ذلك معه ، لأنه إذا كان هو الذي ألقه نحوه فالعرف أن يكون قلبه معه ، وهو شاهد لا غائب .

ومن ذلك قراءة أبي عبد الرحمن السلمي وطلحة : "وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوب4" ، بفتح اللام .

قال أبو الفتح : قد تقدم القول على ذلك5 ، وذكرنا رأي أبي بكر ونحوه من المصادر التي جاءت على فعول بفتح الفاء ، كالوضوء ، والولوع ، والطهور ، والوزوع6 ، والقبول ، وأنها صفات مصادر محذوفة ، أي : توضأت وضوءا وضوءا ، أي وضوءا حسنا . وكذلك هذا أي : ما مسنا من لغوب لغوب ، فيصف اللغوب بأنه لغوب ، أي لغب ملغب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحتسب حـ 2 صـ 280 . 284 ﴾

---

1 سورة ق : 36 .

2 هذه الكلمة غير واضحة في الأصل ، وسيأتي الكلام يؤذن أنها "أجلتك" كما أثبتناها .

3 سورة ق : 37 .

4 سورة ق : 38 .

5 انظر الصفحة 201 من هذا الجزء .

6 الوزوع : الإغراء .

(72/720)

وقال العلامة الدمياطى :

سورة ق

مكية وآيها خمس وأربعون مشبه الفاصلة ثلاثة ق للعباد عليهم بجبار وعكسه موضفان وثمود وإخوان لوط القراآت عن الحسن (قاف) بكسر الفاء بلا تنوين على الجر بحرف قسم مقدر

وقرأ أئذا بتسهيل الثانية كالياء مع الفصل قالون وأبو عمرو وأبو جعفر وبلا فصل ورش وابن كثير ورويس ولهشام وجهان أحدهما التحقيق مع الفصل والثاني التحقيق مع القصر وبه قرأ الباقون وعن الأعمش بهمزة واحدة وكسر ميم متنا نافع وحفص وحمزة والكسائي

وخلف

وقرأ (ميتا) الآية 11 بالتشديد أبو جعفر ومر بالبقرة وأثبت الياء في وعيد وصلا ورش وفي الحالين يعقوب ولا خلاف في الأيكة هنا أنها بأل إنما الخلاف في الشعراء وص كما مر وأدغم تاء وجاءت سكرة أبو عمرو وهشام من طريق الداجوني وابن عبدان عن الحلواني وحمزة والكسائي وخلف وعن الحسن الصور بفتح الواو وعنه الفاء بهمزة مكسورة وبألف ممدودة بعد القاف وهمزة منصوبة منونة مصدر ألقى واختلف في نقول فنافع وابو بكر بالياء من تحت والضمير لله تعالى وعن الحسن يقال بياء مضمومة وبألف بعد القاف مبنيا للمفعول والباقون بنون العظمة

وقرأ ﴿ ما يوعدون ﴾ الآية 32 بالياء من تحت ابن كثير ومر بص وكسر تنوين من منيب ادخلوها أبو عمرو وقنبل وابن ذكوان بخلفهما المفصل في البقرة وعاصم وحمزة ويعقوب وعن الحسن فنقبوا بكسر القاف أمرا لأهل مكة بذلك

واختلف في ﴿ وإدبار السجود ﴾ الآية 41 فنافع وابن كثير وحمزة وأبو جعفر وخلف بكسر الهمزة على أنه مصدر أدبر مضى ونصب على الظرفية بتقدير زمان أي وقت انقضاء السجود وافقهم ابن محيصن والأعمش والباقون بفتحها جمع دبر وهو آخر الصلاة وعقبها وجمع باعتبار تعدد السجود وحرج بقيد السجود الطور المتفق على كسره إلا ما يأتي عن المطوعي إن شاء الله تعالى ووقف على يناد بثبوت الياء

(73/720)

ابن كثير بخلفه ويعقوب على الأصل ووقف الباقون بحذفها للرسم وتقدم في الوقف على المرسوم وأثبت الياء في المنادي وصلا نافع وأبو عمرو وأبو جعفر وفي الحالين ابن كثير ويعقوب

وقرأ ( ) يوم تشقق (الآية 44 بتخفيف الشين أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي وخلف ومر بالفرقان وأثبت الياء في وعيد وصلا ورش وفي الحالين يعقوب زوائدها ثلاث (وعيد) الآية 45 معا (المناد) الآية 41 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(74/720)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة ق "

" ق " سكت عليه أبو جعفر من غير تنفس .

" والقرآن " تبصرة ، إليه ، لديه ، جلي .

" أئذا " سهل الهمزة الثانية مع الإدخال قالون والبصري وأبو جعفر ، وسهلها من غير إدخال ورش والمكي ورويس وحققها الباقون من غير إدخال إلا هشاما فله الإدخال وعدمه .

" متنا " كسر الميم نافع وحفص والأخوان وخلف وضمها غيرهم .

" ميتا " شدد الياء أبو جعفر وخففها غيره .

" الأيكة " اتفقوا على قراءته بأل .

" وعيد " أثبت الياء وصلا ورش ، وفي الحالين يعقوب ، وحذفها الباقون مطلقا .

" الشديد " آخر الربع .

الممال

هداكم ، ويتلقى لدى الوقف عليه بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه ، جاءهم معا وجاءت معا لابن ذكوان وخلف وحمزة ؛ ذكرى بالإمالة للبصري والأصحاب والتقليل لورش ؛ كفار بالإمالة للبصري والدوري ، والتقليل لورش .

المدغم

" الصغير " وجاءت سكرة للبصري والأخوين وخلف .

" الكبير " يعلم ما ، ونعلم ما ، قرينه هذا .

" بظلام " غير ، من خشي ، وهو ، فسبحه ، عليهم ، كله جلي .

" نقول " قرأ نافع وشعبة بالياء ، والباقون بالنون .

" توعدون " قرأ المكي بالياء التحتية وغيره بالتاء الفوقة .

" منيب ادخلوها " كسر التنوين وصلا البصريان وعاصم وحمزة وابن ذكوان وضمه الباقون كذلك .

" وأدبار " كسر الهمزة المدنيان والمكي وحمزة وخلف ، وفتحها غيرهم .

" يناد " لا خلاف بين العشرة في حذف الياء وصلا ، وأما في الوقف فأثبتها يعقوب وابن كثير بخلف عنه ، وحذفها الباقون ، وهو الوجه الثاني لابن كثير .

" المناد " أثبت الياء وصلا المدنيان والبصري ، وفي الحالين المكي ويعقوب وحذفها الباقون مطلقا .

" تشقق " شدد الشين المدنيان والمكي والشامي ويعقوب ، وخففها غيرهم .

" وعيد " مثل الأول في الحكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 308.310 ﴾

(75/720)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة ق

قوله تعالى ﴿ يوم نقول لجهنم ﴾ يقرأ بالياء اخبار من الرسول عن الله عز وجل وبالنون اخبار من الله تعالى عن نفسه عز وجل

ونصب يوم يتوجه على وجهين احدهما بقوله ﴿ ما يبدل القول لدي ﴾ يوم نقول أي في يوم قولنا والثاني بإضمار فعل معناه ﴿ واذكر ﴾ يوم نقول

فأما قول جهنم فعند اهل السنة بآلة وعقل يركبه الله فيها على الحقيقة وعند غيرهم على طريق المجاز وانها لو نطقت لقالت ذلك

قوله تعالى ﴿ وأدبار السجود ﴾ يقرأ بفتح الهمزة على الجمع وبكسرها على المصدر

قوله تعالى ﴿ المناد ﴾ يقرأ بالياء وحذفها على ما تقدم من القوم في نظائره والمنادى ها هنا إسرافيل والمكان القريب بيت المقدس

قوله تعالى ﴿ يوم تشقق الأرض ﴾ يقرأ بالتشديد والتخفيف فالحجة لمن شدد أنه أراد تشقق فأسكن التاء الثانية وادغمها في الشين فشدد لذلك والحجة لمن خفف انه اراد ايضا تشقق فحذف احدى التائين تخفيفا

قوله تعالى ﴿ فنقبوا في البلاد ﴾ يقرأ بالتشديد والتخفيف فالحجة لمن شدد انه دل بذلك على مداومة الفعل وتكراره والحجة لمن خفف انه اراد المرة الواحدة واصله التطواف في البلاد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 331 ﴾

وقال ابن زنجلة :

50 – سورة ق

يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد 30

قرأ نافع وأبو بكر يوم يقول لجهنم بالياء أي يوم يقول الله وقرأ الباقون يوم نقول بالنون أي نحن نقول وحجتهم قوله قبلها وما أنا بظلام للعبيد 29 فقال أنا فأخبر عن نفسه

هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ 32

قرأ ابن كثير هذا ما يوعدون بالياء وحجته قوله قبلها وأزلفت الجنة للمتقين ثم قال هذا ما يوعدون أي يعني المتقين

وقرأ الباقون هذا ما توعدون بالتاء أي يقال لهم هذا ما توعدون

ومن الليل فسبحه وأدبر السجود 40

قرأ نافع وابن كثير وحمزة وإدبار السجود بكسر الألف مصدر أدبر يدبر إدبارا

وقرأ الباقون وأدبار بفتح الألف جمع دبر مثل قفل وأقفال

واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب 41

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو يوم ينادي المنادي بالياء في الوصل على الأصل وحذفوهما في الوقف للكتاب

وقرأ الباقون بحذف الياء في الوصل والوقف اتباعا للمصحف

يوم تشقق الأرض عنهم سراعا 44

قرأ نافع وابن كثير وابن عامر تشقق بتشديد الشين الأصل تتشقق فأدغموا التاء في الشين

وقرأ الباقون يوم تشقق بتخفيف الشين حذفوا التاء اختصارا مثل تذكرون وتذكرون .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 677. 679 ﴾

(77/720)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة ق 50

مكية وقد ذكر نظيرتها في غير المدني الأخير والشامي ونظيرتها فيهما والنازعات

وكلمها ثلاث مئة وخمس وسبعون كلمة

وحروفها ألف وأربع مئة وأربعة وسبعون حرفا

وهي أربعون وخمس آيات في جميع العدد ليس فيها اختلاف ولا مما يشبه الفواصل شيء

وكلهم لم يعد (﴿ ق ﴾) ورؤوس الآي

المجيد

1 عجيب

2 بعيد

3 حفيظ

4 مريج

5 فروج

6 بهيج

7 منيب

8 الحصيد

9 نضيد

10 الخروج

11 وثمود

12 لوط

13 وعيد

14 حديد

15 الوريد

16 قعيد

17 عتيد

18 تحيد

19 الوعيد

20 وشهيد

21 حديد

22 عتيد

23 عنيد

24 مريب

25 الشديد

26 بعيد

27 بالوعيد

28 للعبيد

29 مزيد

30 بعيد

31 حفيظ

32 منيب

33 الخلود

34 مزيد

35 محيص

36 شهيد

37 لغوب

38 الغروب

39 السجود

40 قريب

41 الخروج

42 المصير

43 يسير

44 وعيد

45 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 231﴾

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة ق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

من قال (ق) جعل قسم الواو في (والقرآن) عاطفة ، ومن قال غير ذلك كانت واو القسم وجواب القسم محذوف ، قيل هو قوله (قد علمنا) أي لقد وحذفت اللام لطول الكلام ، وقيل هو محذوف تقديره: لتبعثن أو لترجعن أو على ما دل عليه سياق الآيات ، و (بل) للخروج من قصة إلى قصة ، وإذا منصوبة بما دل عليه الجواب: أي يرجع .

قوله تعالى (فوقهم) هو حال من السماء أو ظرف لينظروا (والأرض) معطوف على موضع السماء : أي ويروا الأرض ف (مددناها) على هذا حال ، ويجوز أن ينتصب على تقدير: ومددنا الأرض ، و (تبصرة مفعول له أو حال من المفعول: أي ذات تبصير أو مصدر: أي بصرناهم تبصرة وذكرى) كذلك .

قوله تعالى (وحب الحصيد) أي وحب النبت المحصود ، وحذف الموصوف .

وقال الفراء : هو في تقدير صفة الأول: أي والحب الحصيد ، وهذا بعيد مما فيه من إضافة الشئ إلى نفسه ، ومثله حبل الوريد : أي حبل العرق الوريد وهو فعيل بمعنى فاعل: أي

وارد ، أو بمعنى مورود فيه (والنخل) معطوف على الحب ، و (باسقات) حال (ولها طلع) حال أيضا و (نضيد) بمعنى منضود ، و (رزقا) مفعول له ، أو واقع موقع المصدر ، و (به) أي بالماء .

قوله تعالى (ونعلم) أي ونحن نعلم ، فالجملة حال مقدرة ، ويجوز أن يكون مستأنفا .

قوله تعالى (إذ يتلقى) يجوز أن يكون ظرفا لأقرب ، وأن يكون التقدير : اذكر ، و (قعيد) مبتدأ ، وعن الشمال خبره ، ودل قعيد هذا على قعيد الأول : أي عن اليمين قعيد ، وقيل قعيد المذكور الأول والثاني محذوف ، وقيل لاحذف ، وقعيد بمعنى قعيدان ، وأغنى الواحد عن الاثنين ، وقد سبقت له نظائر ، و (رقيب عتيد) واحد في اللفظ ، والمعنى رقيبان عتيدان .

قوله تعالى (بالحق) هو حال أو مفعول به .

قوله تعالى (معها سائق) الجملة صفة لنفس أو كل أو حال من كل ، وجاز لما فيه من العموم ، والتقدير : يقال له لقد كنت ، وذكر على المعنى .

قوله تعالى (هذا) مبتدأ ، وفي (ما) وجهان: أحدهما هي نكرة ، و (عتيد) صفتها ولدى معمول عتيد ، ويجوز أن يكون لدى صفة أيضا فيتعلق بمحذوف ، و " ما " وصفتها خبر هذا .

والوجه الثاني أن تكون " ما " بمعنى الذى ، فعلى هذا تكون " ما " مبتدأ ، ولدى صلة ، وعتيد خبر " ما " ، والجملة خبر هذا ، ويجوز أن تكون " ما " بدلا من هذا ، ويجوز أن يكون عتيد خبر مبتدأ محذوف ، ويكون " مالدى " خبرا عن هذا : أي هو عتيد ، ولو جاء ذلك في غير القرآن لجاز نصبه على الحال .

قوله تعالى (ألقيا) أي يقال ذلك ، وفي لفظ التثنية هنا أوجه: أحدها أنه خطاب الملكين .

والثانى هو لواحد ، والألف عوض من تكرير الفعل: أي ألق أتق .

والثالث هو لواحد ، ولكن خرج على لفظ التثنية على عادتهم كقولهم: خليلي عوجا ، و: خليلي مرا بى ، وذلك أن الغالب من حال الواحد منهم أن يصحبه في السفر اثنان .

والرابع أن من العرب من يخاطب الواحد بخطاب الاثنين كقول الشاعر: فإن تزجراني يا بن عفان أنزجر * وأن تدعانى أحم عرضا ممنعا والخامس أن الألف بدل من النون الخفيفة ، وأجرى الوصل مجرى الوقف .

قوله تعالى (مريب الذى) الجمهور على كسر التنوين ، وقرئ بفتحها فرارا من الكسرات والياء (غير بعيد) أي مكانا غير بعيد ، ويجوز أن يكون حالا من الجنة ، ولم يؤنث لأن الجنة

والبستان والمنزل متقاربات ، والتقدير : يقال لهم (هذا) والياء على الغيبة ، والتاء على الرجوع إلى الخطاب .

قوله تعالى (من خشى) في موضع رفع : أي هم من خشى ، أو في موضع جر بدلا من المتقين ، أو من كل أواب ، أو في موضع نصب : أي أعنى من خشى ، وقيل " من " مبتدأ ، والخبر محذوف تقديره : يقال لهم ادخلوها ، و (بسلام) حال .

(80/720)

قوله تعالى (ذلك) أي زمن ذلك (يوم الخلود) قوله تعالى (فيها) يجوز أن يتعلق بيشاءون ، وأن يكون حالا من " ما " أو من العائد المحذوف ، و (كم) نصب ب (أهلكنا) ، و (هم أشد) يجوز أن يكون جر صفة لقرن ، ونصبا صفة لكم ، ودخلت الفاء في (فنقبوا) عطفا على المعنى أي بطشوا فنقبوا ، وفيها قراءات ظاهرة المعنى ، والمعنى هل لهم ، أو هل لمن سلك طريقهم (من محيص) أي مهرب فحذف الخبر .

قوله تعالى (وأدبار السجود) بفتح الهمزة جمع دبر ، وبكسرها مصدر أدبر ، والتقدير : وقت إدبار السجود ، و (يوم يسمعون) بدل من يوم ينادى ، و (يوم تشقق) ظرف للمصير ،

أو بدل من يوم الأول ، و (سراعا) حال ، أي يخرجون سراعا : ويجوز أن يكون يوم تشقق ظرفا لهذا المقدر ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(81/720)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة ق

[سورة ق (50) : الآيات 1 الى 7]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ (2) أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (3) قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ (4)

بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (5) أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَزَيَّنَّاها وَما لَها مِنْ فُرُوجٍ (6) وَالْأَرْضَ مَدَدْناها وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7)

(82/720)

"ق" حرف لا محل له من الإعراب "وَالْقُرْآنِ" الواو حرف وقسم والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف "الْمَجِيدِ" صفة وجواب القسم محذوف "بَلْ" حرف عطف وإضراب "عَجِبُوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "أَنْ" حرف مصدري ونصب "جاءَهُمْ" ماض ومفعوله "مُنْذِرٌ" فاعل مؤخر "مِنْهُمْ" متعلقان بمنذر والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل نصب بنزع الخافض "فَقالَ" الفاء حرف عطف وماض "الْكافِرُونَ" فاعله "هذا" مبتدأ "شَيْءٌ" خبره "عَجِيبٌ" صفة والجملة الاسمية مقول القول "أَإِذا" الهمزة حرف استفهام إنكاري وإذا ظرفية شرطية غير جازمة "مِتْنا" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "وَكُنَّا تُرابًا" الواو حرف عطف وكان واسمها وخبرها والجملة معطوفة على ما قبلها "ذلِكَ رَجْعٌ" مبتدأ وخبره "بَعِيدٌ" صفة "قَدْ" حرف تحقيق "عَلِمْنا" ماض وفاعله "ما" مفعوله والجملة مستأنفة "تَنْقُصُ الْأَرْضُ" مضارع وفاعله والجملة صلة "مِنْهُمْ" متعلقان بالفعل "وَعِنْدَنا" الواو حالية وظرف مكان متعلق بمحذوف خبر مقدم "كِتابٌ" مبتدأ مؤخر "حَفِيظٌ" صفة والجملة حال "بَلْ" حرف إضراب وانتقال "كَذَّبُوا" ماض وفاعله "بِالْحَقِّ" متعلقان بالفعل والجملة مستأنفة "لَمَّا" ظرفية حينية "جاءَهُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "فَهُمْ" الفاء حرف عطف وهم مبتدأ "فِي أَمْرٍ" متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ "مَرِيجٍ" صفة والجملة معطوفة

على ما قبلها "أَفَلَمْ" الهمزة حرف استفهام إنكاري والفاء حرف استئناف ولم حرف جازم "يَنْظُرُوا" مضارع مجزوم بلم والواو فاعله "إِلَى السَّماءِ" متعلقان بالفعل والجملة مستأنفة "فَوْقَهُمْ" ظرف مكان "كَيْفَ" اسم استفهام حال "بَنَيْناها" ماض وفاعله ومفعوله والجملة بدل من السماء "وَزَيَّنَّاها" معطوف على بنيناها "وَما" الواو حالية وما نافية "لَها" خبر مقدم "مِنْ" حرف جر زائد "فُرُوجٍ"

(83/720)

مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ مؤخر والجملة حال "وَالْأَرْضَ" الواو حرف عطف والأرض منصوب بفعل محذوف تقديره مددنا الأرض "مَدَدْناها" ماض وفاعله ومفعوله والجملة تفسيرية لا محل لها "وَأَلْقَيْنا" معطوف على مددنا "فِيها" متعلقان بالفعل "رَواسِيَ" مفعول به "وَأَنْبَتْنا" معطوف على ألقينا "فِيها" متعلقان بالفعل "مِنْ كُلِّ" متعلقان بالفعل أيضا "زَوْجٍ" مضاف إليه "بَهِيجٍ" صفة زوج.

[سورة ق (50) : الآيات 8 الى 15]

تَبْصِرَةً وَذِكْرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (8) وَنَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُباركًا فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (9) وَالنَّخْلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ (10) رِزْقًا لِلْعِبادِ وَأَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا

كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (11) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (12)
وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (13) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ
وَعِيدِ (14) أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (15)

(84/720)

"تَبْصِرَةً" مفعول لأجله "وَذِكْرَى" معطوف على تبصرة "لِكُلِّ" متعلقان بتبصرة "عَبْدٍ" مضاف إليه "مُنِيبٍ" صفة عبد "وَنَزَّلْنَا" الواو حرف عطف وماض وفاعله "مِنَ السَّمَاءِ" متعلقان بالفعل "مَاءً" مفعول به "مُبَارَكًا" صفة والجملة معطوفة على ما قبلها "فَأَنْبَتْنَا" ماض وفاعله "بِهِ" متعلقان بالفعل "جَنَّاتٍ" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها "وَحَبَّ" معطوف على جنات "الْحَصِيدِ" مضاف إليه "وَالنَّخْلَ" معطوف على جنات "باسِقاتٍ" حال منصوبة بالكسرة "لَها" جار ومجرور خبر مقدم "طَلْعٌ" مبتدأ مؤخر "نَضِيدٌ" صفة طلع والجملة الاسمية حال "رِزْقاً" مفعول لأجله منصوب "لِلْعِبادِ" متعلقان به "وَأَحْيَيْنا" ماض وفاعله "بِهِ" متعلقان بالفعل "بَلْدَةً" مفعول به "مَيْتاً" صفة والجملة معطوفة على ما قبلها "كَذلِكَ" خبر مقدم "الْخُرُوجُ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسض "قَبْلَهُمْ" ظرف "قَوْمُ" فاعل "نُوحٍ" مضاف إليه والجملة مستأنفة "وَأَصْحابُ" معطوف على قوم "الرَّسِّ"

مضاف إليه "وَثَمُودُ" معطوف أيضا "وَعادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوانُ لُوطٍ" معطوف على ما قبله "وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ" معطوف أيضا "كُلٌّ" مبتدأ "كَذَّبَ" ماض فاعله مستتر "الرُّسُلَ" مفعول به والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة "فَحَقَّ" الفاء حرف عطف وماض "وَعِيدِ" فاعله والياء المحذوفة مضاف إليه "أَفَعَيِينا" الهمزة حرف استفهام والفاء حرف استئناف وماض وفاعله "بِالْخَلْقِ" متعلقان بالفعل "الْأَوَّلِ" صفة والجملة مستأنفة "بَلْ" حرف عطف وإضراب "هُمْ" مبتدأ "فِي لَبْسٍ" خبره والجملة مستأنفة "مِنْ خَلْقٍ" متعلقان بلبس "جَدِيدٍ" صفة خلق.

[سورة ق (50) : الآيات 16 الى 21]

(85/720)

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ (17) ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18) وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (20)

وَجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَشَهِيدٌ (21)

"وَلَقَدْ" الواو حرف قسم وجر واللام واقعة في جواب القسم وقد حرف تحقيق "خَلَقْنَا" ماض وفاعله "الْإِنْسانَ" مفعوله والجملة جواب قسم لا محل لها "وَنَعْلَمُ" الواو حالية ومضارع فاعله مستتر والجملة

(86/720)

خبر لمبتدأ محذوف تقديره نحن والجملة الاسمية حالية "ما" مفعول به "تُوَسْوِسُ" مضارع "بِهِ" متعلقان بالفعل "نَفْسُهُ" فاعل والجملة صلة ما "وَنَحْنُ أَقْرَبُ" الواو حالية ومبتدأ وخبره والجملة حال "إِلَيْهِ" متعلقان بأقرب "مِنْ حَبْلِ" متعلقان بأقرب أيضا "الْوَرِيدِ" مضاف إليه "إِذْ" ظرف زمان "يَتَلَقَّى" مضارع "الْمُتَلَقِّيانِ" فاعله والجملة في محل جر بالإضافة "عَنِ الْيَمِينِ" خبر مقدم "وَعَنِ الشِّمالِ" معطوفان على ما قبلهما "قَعِيدٌ" مبتدأ مؤخر والجملة حال "ما" نافية "يَلْفِظُ" مضارع فاعله مستتر وجملة ما يلفظ مستأنفة "مِنْ قَوْلٍ" حرف جر زائد ومجرور لفظا منصوب محلا مفعول به "إِلَّا" حرف حصر "لَدَيْهِ" ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر مقدم "رَقِيبٌ" مبتدأ مؤخر "عَتِيدٌ" بدل والجملة حال "وَجاءَتْ" الواو حرف استئناف وماض "سَكْرَةُ" فاعل "الْمَوْتِ" مضاف إليه "بِالْحَقِّ" متعلقان بالفعل والجملة مستأنفة "ذلِكَ ما" مبتدأ وخبره والجملة الاسمية مستأنفة "كُنْتَ"

كان واسمها "مِنْهُ" متعلقان بتحيد "تَحِيدُ" مضارع فاعله مستتر والجملة الفعلية خبر كنت وجملة كنت صلة ما لا محل لها "وَنُفِخَ" الواو حرف عطف وماض مبني للمجهول "فِي الصُّورِ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها "ذِلكَ يَوْمُ" مبتدأ وخبره "الْوَعِيدِ" مضاف إليه والجملة الاسمية مستأنفة "وَجاءَتْ" الواو حرف عطف وماض "كُلُّ" فاعل "نَفْسٍ" مضاف إليه والجملة معطوفة على ما قبلها "مَعَها" خبر مقدم "سائِقٌ" مبتدأ مؤخر "وَشَهِيدٌ" معطوف على سائق والجملة الاسمية صفة كل.

[سورة ق (50) : الآيات 22 الى 28]

(87/720)

لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22) وَقالَ قَرِينُهُ هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ (23) أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (24) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (25) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَأَلْقِياهُ فِي الْعَذابِ الشَّدِيدِ (26)

قالَ قَرِينُهُ رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ وَلكِنْ كانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (27) قالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (28)

"لَقَدْ" اللام واقعة في جواب القسم المحذوف وقد حرف تحقيق "كُنْتَ" كان واسمها "فِي

غَفْلَةٍ" خبرها والجملة جواب القسم لا محل لها "مِنْ هذا" متعلقان بغفلة "فَكَشَفْنا" ماض وفاعله "عَنْكَ" متعلقان بالفعل "غِطاءَكَ" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها "فَبَصَرُكَ" مبتدأ "الْيَوْمَ" ظرف زمان "حَدِيدٌ" خبر والجملة معطوفة على ما قبلها أيضا "وَقالَ قَرِينُهُ" الواو حرف عطف وماض وفاعله "هذا ما" مبتدأ وخبره والجملة الاسمية مقول القول "لَدَيَّ" ظرف مكان "عَتِيدٌ" صفة ما "أَلْقِيا" أمر مبني على حذف النون والألف فاعله "فِي جَهَنَّمَ" متعلقان بالفعل "كُلَّ" مفعول به "كَفَّارٍ" مضاف إليه "عَنِيدٍ" صفة كفار والجملة الفعلية مقول القول "مَنَّاعٍ" صفة ثانية لكفار "لِلْخَيْرِ" متعلقان بمناع "مُعْتَدٍ مُرِيبٍ" صفتان أيضا لكفار "الَّذِي" بدل من كل "جَعَلَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة "مَعَ" ظرف مكان "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "إِلهاً" مفعول به "آخَرَ" صفة "فَأَلْقِياهُ" الفاء الفصيحة وأمر مبني

(88/720)

على حذف النون والألف فاعله والهاء مفعوله والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "فِي الْعَذابِ" متعلقان بالفعل "الشَّدِيدِ" صفة "قالَ قَرِينُهُ" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "رَبَّنا" منادى مضاف "ما" نافية "أَطْغَيْتُهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة مقول القول

"وَلَكِنْ" الواو حرف عطف ولكن حرف استدراك "كانَ" ماض ناقص اسمها مستتر "فِي ضَلالٍ" خبر كان "بَعِيدٍ" صفة والجملة معطوفة على ما قبلها "قالَ" ماض فاعله مستتر "لا تَخْتَصِمُوا" مضارع مجزوم بلا الناهية والواو فاعله والجملة مقول القول وجملة قال مستأنفة "لَدَيَّ" ظرف مكان "وَقَدْ" الواو حالية وحرف تحقيق "قَدَّمْتُ" ماض وفاعله "إِلَيْكُمْ" متعلقان بالفعل "بِالْوَعِيدِ" متعلقان بالفعل أيضا والجملة حالية.

[سورة ق (50) : الآيات 29 الى 35]

ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَما أَنَا بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (29) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (30) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (31) هذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (32) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (33)

ادْخُلُوها بِسَلامٍ ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (34) لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَلَدَيْنا مَزِيدٌ (35)

(89/720)

"ما" نافية "يُبَدَّلُ" مضارع مبني للمجهول "الْقَوْلُ" نائب فاعل "لَدَيَّ" ظرف مكان "وَما" الواو حالية وما نافية تعمل عمل ليس "أَنَا" اسمها "بِظَلَّامٍ" مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما "لِلْعَبِيدِ" متعلقان بظلام وجملة ما حالية "يَوْمَ" ظرف زمان متعلق بظلام "نَقُولُ" مضارع

فاعله مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "لِجَهَنَّمَ" متعلقان بالفعل "هَلِ" حرف استفهام "امْتَلَأْتِ" ماض وفاعله والجملة مقول القول "وَتَقُولُ" الواو حرف عطف ومضارع فاعله مستتر "هَلِ" حرف استفهام "مِنْ مَزِيدٍ" من حرف جر زائد ومزيد مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ وخبره محذوف والجملة مقول القول "وَأُزْلِفَتِ" الواو حرف عطف وماض مبني للمجهول "الْجَنَّةُ" نائب فاعل "لِلْمُتَّقِينَ" متعلقان بالفعل "غَيْرَ" ظرف مكان "بَعِيدٍ" مضاف إليه "هذا ما" مبتدأ وخبره والجملة اعتراضية لا محل لها "تُوعَدُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة صلة لا محل لها "لِكُلِّ" بدل من قوله للمتقين "أَوَّابٍ" مضاف إليه "حَفِيظٍ" صفة "مَنْ" بدل من كل "خَشِيَ" ماض "الرَّحْمنَ" مفعوله والفاعل مستتر والجملة صلة "بِالْغَيْبِ" متعلقان بمحذوف حال "وَجاءَ" الواو حرف عطف وماض فاعله مستتر "بِقَلْبٍ" متعلقان بالفعل "مُنِيبٍ" صفة "ادْخُلُوها" أمر مبني على حذف النون والواو فاعله وها مفعوله والجملة مقول قول محذوف "بِسَلامٍ" حال "ذلِكَ يَوْمُ" مبتدأ وخبره "الْخُلُودِ" مضاف إليه والجملة مستأنفة "لَهُمْ" خبر مقدم "ما" مبتدأ والجملة مستأنفة "يَشاؤُنَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "فِيها" متعلقان بالفعل والجملة صلة ما "وَلَدَيْنا" خبر مقدم "مَزِيدٌ" مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة ق (50) : الآيات 36 الى 39]

وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (36) إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (37) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ (38) فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (39)

(91/720)

"وَكَمْ" الواو حرف استئناف وكم خبرية مفعول به مقدم "أَهْلَكْنا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "قَبْلَهُمْ" ظرف زمان "مِنْ قَرْنٍ" من حرف جر زائد وقرن مجرور لفظا منصوب محلا تمييز "هُمْ أَشَدُّ" مبتدأ وخبره والجملة الاسمية صفة قرن "مِنْهُمْ" متعلقان بأشد "بَطْشاً" تمييز "فَنَقَّبُوا" الفاء حرف عطف وماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "فِي الْبِلادِ" متعلقان بالفعل "هَلْ" حرف استفهام "مِنْ مَحِيصٍ" حرف زائد ومحيص مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ خبره محذوف والجملة مستأنفة "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "فِي ذلِكَ" خبر مقدم "لَذِكْرى" اللام لام الابتداء وذكرى اسم إن والجملة الاسمية مستأنفة "لِمَنْ" متعلقان بمحذوف صفة ذكرى "كانَ لَهُ" كان وخبرها المقدم "قَلْبٌ" اسمها المؤخر

والجملة الفعلية صلة من "أَوْ" حرف عطف "أَلْقَى" ماض "السَّمْعَ" مفعول به والفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "وَهُوَ شَهِيدٌ" الواو حالية ومبتدأ وخبره والجملة حالية "وَلَقَدْ" الواو حرف قسم وجر واللام واقعة في جواب القسم وقد حرف تحقيق "خَلَقْنَا" ماض وفاعله "السَّماواتِ" مفعوله "وَالْأَرْضَ" معطوف على ما سبق والجملة جواب القسم لا محل لها "وَما" الواو حرف عطف وما معطوفة على ما قبلها "بَيْنَهُما" ظرف مكان "فِي سِتَّةِ" متعلقان بخلقنا "أَيَّامٍ" مضاف إليه "وَما" الواو حالية وما نافية "مَسَّنا" ماض ومفعوله "مِنْ لُغُوبٍ" من حرف جر زائد ومجرور لفظا مرفوع محلا فاعل مسنا والجملة حالية "فَاصْبِرْ" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر "عَلى ما" متعلقان بالفعل والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "يَقُولُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة لا محل لها "وَسَبِّحْ" معطوف على اصبر "بِحَمْدِ" متعلقان بمحذوف حال "رَبِّكَ" مضاف إليه "قَبْلَ" ظرف زمان "طُلُوعِ" مضاف إليه "الشَّمْسِ" مضاف إليه "وَقَبْلَ الْغُرُوبِ" معطوف على ما قبله.

(92/720)

[سورة ق (50) : الآيات 40 الى 45]

وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبارَ السُّجُودِ (40) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ (41)
يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (42) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ
(43) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِراعاً ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ (44)
نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ (45)

"وَمِنَ اللَّيْلِ" الواو حرف عطف وجار ومجرور متعلقان بسبح "فَسَبِّحْهُ" الفاء حرف عطف وأمر ومفعوله والفاعل مستتر "وَأَدْبارَ" ظرف زمان "السُّجُودِ" مضاف إليه "وَاسْتَمِعْ" الواو حرف عطف

وأمر فاعله مستتر "يَوْمَ" ظرف زمان "يُنادِ" مضارع "الْمُنادِ" فاعل والجملة في محل جر بالإضافة "مِنْ مَكانٍ" متعلقان بالفعل "قَرِيبٍ" صفة "يَوْمَ" بدل من يوم "يَسْمَعُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "الصَّيْحَةَ" مفعول به والجملة في محل جر بالإضافة "بِالْحَقِّ" حال "ذلِكَ يَوْمُ" مبتدأ وخبره "الْخُرُوجِ" مضاف إليه والجملة الاسمية مستأنفة "إِنَّا" إن واسمها "نَحْنُ" ضمير فصل "نُحْيِي" مضارع والفاعل مستتر والجملة خبر إن "وَنُمِيتُ" معطوف على

نحيي "وَإِلَيْنَا" الواو حرف عطف وإلينا خبر مقدم "الْمَصِيرُ" مبتدأ مؤخر "يَوْمَ" بدل من يوم يسمعون "تَشَقَّقُ" مضارع "الْأَرْضُ" فاعله والجملة في محل جر بالإضافة "عَنْهُمْ" متعلقان بالفعل "سِرَاعاً" حال "ذَلِكَ حَشْرٌ" مبتدأ وخبره "عَلَيْنَا" متعلقان بما بعدهما "يَسِيرٌ" صفة حشر والجملة الاسمية مستأنفة "نَحْنُ أَعْلَمُ" مبتدأ وخبره والجملة مستأنفة لا محل لها "بِمَا" متعلقان بأعلم "يَقُولُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة ما "وَمَا" الواو حالية وما نافية عاملة عمل ليس "أَنْتَ" اسمها "عَلَيْهِمْ" متعلقان بما بعدهما "بِجَبَّارٍ" الباء حرف جر زائد وجبار مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما والجملة حالية "فَذَكِّرْ" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر "بِالْقُرْآنِ" متعلقان بالفعل "مَنْ" مفعول به "يَخَافُ" مضارع فاعله مستتر "وَعِيدِ" مفعول به وياء المتكلم المحذوفة مضاف إليه والجملة صلة من وجملة ذكر جواب شرط مقدر لا محل لها . انتهى انتهى . اهـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس جـ 3 صـ 256. 261﴾

(94/720)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة ق

ذكر فِيهَا سِتَّة أَحَادِيث

1249 - الحَدِيث الأول

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ (كل ابْن آدم يبْلَى إِلَّا عجب الذَّنب)

قلت رَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسلم من حَدِيث أبي صَالح عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (كل ابْن آدم يبْلَى إِلَّا عجب الذَّنب) رَوَاهُ مُسلم فِي آخر الْفِتَن وَزَاد فِي لفظ مِنْهُ خلق وَفِيه يركب انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي كتاب الْأَهْوَال من حَدِيث دراج عَن أبي الْهَيْثَم عَن أبي سعيد الْخُدْرِيّ أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (يَأْكُل التُّرَاب كل شَيْء من الْإِنْسَان إِلَّا عجب ذَنبه) قَالُوا وَمَا هُوَ يَا رَسُول الله قَالَ (هُوَ مثل حَبَّة الْخَرْدَل مِنْهُ يَنْبُتُونَ) انْتَهَى

وَقَالَ حَدِيث صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

فَإِن أَرَادَ بِهَذَا الْإِسْنَاد فَغَرِيب وَإِن أَرَادَ أَصله فَوَهم وَالظَّاهِر أَنه مَقْصُوده عَلَى عَادَة أَوْهَامه فِي ذَلِك وَالله أعلم

وَعجب الذَّنب بِفَتْح الْعين الْمُهْملَة وَسُكُون الْجِيم بعْدهَا بَاء مُوَحدَة ويروَى بِالْمِيم وَهُوَ الْعظم أَسْفَل الصلب وَهُوَ مَكَان الدبث من الْحَيَوَان وَذَوَات الْأَرْبَع

1250 - الحَدِيث الثَّانِي

وَعَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ (إِن مقْعد مَلَكَيْك عَلَى ثَنِيَّتك وَلِسَانك قَلَمهمَا وَرِيقك مِدَادهمَا وَأَنت تجْرِي فِيمَا لَا يَعْنِيك لَا تَسْتَحي من الله وَلَا مِنْهُمَا)

(95/720)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ أَخْبرنِي الْحسن بن مُحَمَّد بن الْحُسَيْن الدينَوَرِي ثَنَا أَحْمد بن جَعْفَر بن سُلَيْمَان الْخُتلِي ثَنَا أَحْمد بن أَيُّوب الْمرْجَانِي ثَنَا جميل بن الْحسن ثَنَا أَرْطَاة بن الْأَشْعَث الْعَدوي عَن جَعْفَر بن مُحَمَّد عَن أَبِيه عَن عَلّي بن أبي طَالب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (مقْعد مَلَكَيْك) إِلَى آخِره

1251 - الْحَدِيث الثَّالِث عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ (كَاتب الْحَسَنَات عَلَى يَمِين الرجل وَكَاتب السَّيِّئَات عَلَى يسَاره وَكَاتب الْحَسَنَات أَمِين عَلَى كَاتب السَّيِّئَات فَإِذا عمل حَسَنَة كتبهَا ملك الْيَمين عشرا وَإِذا عمل سَيِّئَة قَالَ صَاحب الْيَمين صَاحب الشمَال دَعه سبع سَاعَات لَعَلَّه يسبح أَو يسْتَغْفر)

قلت رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب السَّابِع وَالْأَرْبَعِينَ كِلَاهُمَا من حَدِيث جَعْفَر بن الزُّبَيْر عَن الْقَاسِم عَن أبي أُمَامَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (صَاحب الْيَمين أَمِين عَلَى صَاحب الشمَال فَإِذا عمل الْعَبْد حَسَنَة كتبهَا

بعشر أَمْثَالهَا وَإِذا عمل سَيِّئَة قَال لَهُ صَاحب الْيَمين امْكُث سِتّ سَاعَات فَإِن أسْتَغْفر لم يكْتب عَلَيْهِ وَإِلَّا أَثْبَتت عَلَيْهِ السَّيِّئَة) انْتَهَى

وَبِهَذَا السَّنَد رَوَاهُ الثَّعْلبِيّ وَمن طَرِيقه رَوَاهُ الْبَغَوِيّ

وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ أَيْضا وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مُسْنده والواحدي فِي الْوَسِيط من حَدِيث بشر بن نمير عَن الْقَاسِم بن مُحَمَّد عَن أبي أُمَامَة مَرْفُوعا . . . فَذَكَرَاهُ وَفِيه فَيَقُول لَهُ أمسك فَيمسك سبع سَاعَات فَإِن اسْتغْفر لم تكْتب عَلَيْهِ وَإِن لم يسْتَغْفر كتبت سَيِّئَة انْتَهَى

(96/720)

وَرَوَى الطَّبَرَانِيّ أَيْضا عَن ثَوْر بن يزِيد عَن الْقَاسِم عَن أبي أُمَامَة مَرْفُوعا نَحوه

وَرَوَى الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره فِي سُورَة الرَّعْد عِنْد قَوْله تَعَالَى (لَهُ مُعَقِّبَات من بَين يَدَيْهِ وَمن خَلفه يَحْفَظُونَهُ من أَمر الله) حَدثنِي الْمثنى ثَنَا إِبْرَاهِيم بن

عبد السَّلَام بن صَالح الْقشيرِي ثَنَا عَلّي بن جرير عَن حَمَّاد بن سَلمَة عَن عبد الحميد بن جَعْفَر عَن كنَانَة قَال دخل عُثْمَان بن عَفَّان عَلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَال يَا رَسُول الله أَخْبرنِي عَن العَبْد كم مَعَه ملك قَال (عَلَى يَمِينك ملك وَهُوَ عَلَى حَسَنَاتك وَهُوَ أَمِين عَلَى الْملك الَّذِي عَلَى الشمَال إِذا عملت حَسَنَة كتبت عشرا وَإِذا عملت سَيِّئَة قَال

الَّذِي عَلَى الشمَال للَّذي عَلَى الْيَمين اكْتُبْ فَيَقُول لَهُ لَا لَعَلَّه يسْتَغْفر الله ويَتُوب) مُخْتَصر وَاخْتَصَرَهُ أَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة عُرْوَة فَرَوَاهُ من حَدِيث إِسْمَاعِيل بن عَيَّاش ثَنَا عَاصِم بن رَجَاء بن حَيْوَة عَن عُرْوَة بن رُوَيْم عَن الْقَاسِم عَن أبي أُمَامَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ إِن صَاحب الشمَال ليرْفَع الْقَلَم سِتّ سَاعَات عَن العَبْد الْمُسلم الْمُخطئ فَإِن نَدم واستغفر الله مِنْهَا أَلْقَاهَا عَنهُ وَإِلَّا كتبهَا وَاحِدَة انْتَهَى

وَقَالَ غَرِيب من حَدِيث عَاصِم وَعُرْوَة لم نَكْتُبهُ إِلَّا من حَدِيث إِسْمَاعِيل ابْن عَيَّاش انْتَهَى

وَبِهَذَا السَّنَد والمتن رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره

1252 - الحَدِيث الرَّابِع

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ (من صَلَّى رَكْعَتَيْنِ بعد الْمغرب قبل أَن يتَكَلَّم كتبت صلَاته فِي عليين)

قلت رُوِيَ مُرْسلا وَمُسْندًا

(97/720)

فَالْمُسْنَدُ رُوِيَ من حَدِيث أنس وَمن حَدِيث عَائِشَة

فَحَدِيث أنس رَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيّ فِي كِتَابه غرائب مَالك من حَدِيث الْحسن بن اللَّيْث بن

حَاجِب ثني أَحْمد بن سُلَيْمَان الْأَسدي قَالَ قَرَأت عَلَى مَالك بن أنس عَن ابْن شهَاب الزُّهْرِيّ عَن أنس بن مَالك قَالَ سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول (من صَلَّى الْمغرب ثمَّ صَلَّى بعْدهَا رَكْعَتَيْن قبل أَن يتَكَلَّم بشَيْء كتبَا فِي عليين

فَإِن صَلَّى أَرْبعا كَانَ كَالْمُعقب غَزْوَة بعد غَزْوَة فَإِن صَلَّى ثنْتَيْ عشرَة رَكْعَة بنى لَهُ فِي الْجنَّة قصر من ياقوت فِيهِ من الشّجر وَنور الثَّمر مَالا يُحْصِيه إِلَّا رب وَالْعَالمِينَ) انْتَهَى قَالَ الدَّارَقُطْنِيّ هَذَا حَدِيث مَوْضُوع عَلَى مَالك وَمن دونه فِي الْإِسْنَاد ضعفاء انْتَهَى

وَحَدِيث عَائِشَة رَوَاهُ أَبُو حَفْص عمر بن أَحْمد بن عُثْمَان الْمَعْرُوف بِابْن شاهين فِي كتَاب التَّرْغِيب فَقَالَ ثَنَا عمر بن عبد الله بن عَمْرو بن عُثْمَان الزيَادي ثَنَا إِسْحَاق بن عبد الحميد الوَاسِطِيّ الْعَطَّار ثَنَا مُحَمَّد بن عون بن عمَارَة عَن حَفْص بن جَمِيع عَن هِشَام بن عُرْوَة عَن عُرْوَة عَن عَائِشَة قَالَت قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (مَا من صَلَاة أحب إِلَى الله عَزَّ وَجَلَّ من صَلَاة الْمغرب بهَا يفتح العَبْد لَيْلَة وَيخْتم نَهَاره لم يحطهَا عَن مُسَافر من صلاهَا وَصَلى بعْدهَا رَكْعَتَيْن قبل أَن يكلم جَلِيسا كتبت صلَاته فِي عليين أَو رفعت) شكّ ابْن عون فَإِن صَلَّى بعْدهَا أَربع رَكْعَات قبل أَن يكلم جَلِيسا بنى الله لَهُ قَصْرَيْن من ياقوت بَينهمَا من الْجنان مَالا يُعلمهُ إِلَّا الله وَإِن صَلَّى بعْدهَا سِتا قبل أَن يكلم جَلِيسا غفر لَهُ ذنُوب أَرْبَعِينَ عَاما) انْتَهَى

وَأما الْمُرْسل فَرَوَاهُ ابْن أبي شيبَة وَعبد الرَّزَّاق فِي مصنفيهما فِي كتاب الصَّلَاة قَالَا حَدثنَا سُفْيَان الثَّوْريّ عَن عبد الْعَزِيز بن عمر قَالَ سَمِعت مَكْحُولًا يَقُول بَلغنِي أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (من صَلَّى رَكْعَتَيْنِ بعد الْمغرب قبل أَن يتَكَلَّم كتبتَا) أَو قَالَ رُفِعتَا فِي عليين انْتَهَى

1253 - الحَدِيث الْخَامِس

رُوِيَ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ لِمعَاذ بن جبل (يَا معَاذ اسْمَع مَا أَقُول لَك) ثمَّ حَدثهُ بعد ذَلِك

1254 - الحَدِيث السَّادِس

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ (من قَرَأَ سُورَة ق هون الله عَلَيْهِ ثَارَاتِ الْمَوْت وَسَكَرَاته)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ أَنا أَبُو الْخَيْر مُحَمَّد بن الْقَاسِم بن أَحْمد الْمَاوَرْدِيّ ثَنَا أَبُو الْحُسَيْن مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن شَادَّة الْكَرَابِيسِي ثَنَا أَحْمد بن مُحَمَّد بن الْحسن ثَنَا مُحَمَّد بن يَحْيَى ثَنَا سَلمَة بن قُتَيْبَة عَن شُعْبَة عَن عَاصِم بن بهدله عَن زر بن حُبَيْش عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (من قَرَأَ سُورَة ق هون الله عَلَيْهِ) إِلَى آخِره سَوَاء وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط بِسَنَدِهِ الْمَذْكُور فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 3 صـ 357 . 361 ﴾

(99/720)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة ق

قوله تعالى : (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ) ، الآية/ 39 .

اختلف في معناها ، فقال قائلون : عنى به صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، وروي ذلك عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أنه قال :

فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ، ثم قرأ : (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ) «1» .

وقال ابن عباس وقتادة : المراد به صلاة العصر .

قوله تعالى : (وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبارَ السُّجُودِ) ، الآية/ 40 .

قال مجاهد : هي صلاة الليل ، ويجوز أن يراد به صلاة المغرب والعتمة .

وأدبار السجود على قول أكثر المفسرين : ركعتان بعد المغرب ، وأدبار النجوم ركعتان قبل الفجر .

وعن ابن عباس مثله .

وعن مجاهد عن ابن عباس : وأدبار السجود : إذا وضعت جبهتك على الأرض فسبح ثلاثا «2» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 387 ﴾

---

(1) أخرجه الترمذي ، والبيهقي في الشعب ، والامام أحمد في مسنده .

(2) انظر تفسير الدر المنثور للسيوطي .

(100/720)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة ق» (50)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله عزّت قدرته : «ق» (1) مجازها مجاز أوائل السور . .

«ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ» ردّ «1» بعيد . .

«فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ» (5) مختلط ، يقال : قد مريج أمر الناس اختلط وأهمل قال أبو ذؤيب :

فخرّ كأنه حوط مريج

«2» [859] أي سهم . قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم «3» : «كيف بك إذا

بقيت فى حثالة من الناس مرجت عهودهم وأماناتهم» أي اختلطت . .

«ما لَها مِنْ فُرُوجٍ» (6) أي فتوق واحدها فرج «4» وفتق .

---

(1) . - 4 «رجع . . . رد» : أخذه البخاري وأشار إليه ابن حجر بقوله هو قول أبى عبيدة بلفظه (فتح الباري) 8/ 455 .

(2) . - 859 : البيت لا يوجد فى ديوان أبى ذؤيب ولكنه من قصيدة لعمرو بن الداخل الهذلي (ديوان الهذليين 3/ 98) وهو فى الطبري 26/ 776 واللسان (مرج) والقرطبي 17/ 5 .

(3) . - 8 «قال رسول اللّه . الحديث» : أخرجه البخاري فى الصلاة رقم 88 وأبو داود فى الملاحم رقم 17 وابن ماجه فى الفتن رقم 10 ورقاق 11 وابن حنبل 2/ 162 ، 220 ، 221 ، 4/ 193 وفى اللسان وبعضه فى النهاية (مرج) والقرطبي 17/ 5 .

(4) . - 10 «فروج . . . فرج» : أخذه البخاري وأشار إليه ابن حجر بقوله : هو قول ابى عبيدة (فتح الباري 8/ 455)

(101/720)

«مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ»

(7) أي حسن . .

«تَبْصِرَةً وَذِكْرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ» (8) نصبها كنصب المصادر . .

«وَالنَّخْلَ باسِقاتٍ» (10) طوال ويقال : جبل باسق وحسب باسق قال ابن نوفل لابن هبيرة :

يا بن الذين بفضلهم بسقت على قيس فزاره

«1» [860].

«طَلْعٌ نَضِيدٌ» (10) منضود «2» . .

«كَذلِكَ الْخُرُوجُ» (11) يوم القيامة قال العجّاج :

أليس يوم سمّى الخروجا أعظم يوم رجّة رجوجا

«3» [861].

«وَأَصْحابُ الرَّسِّ» (12) المعدن وكل ركيّة لم تطو قال الجعدي :

سبقت إلى فرط ناهل تنابلة يحفرون الرّساسا

«4» [616] .

«أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» (16) وريداه فى حلقه والحبل حبل العاتق «5» قال الشاعر :

كأن وريديه رشاء خلب

«6» [862]

---

(1) . - 860 : فى الطبري 26/ 87 واللسان (بسق) .

(2) . - 6 «تضيد منضود» : وانظر فتح الباري 8/ . 456

(3) . - 861 : ديوانه ص . 11

(4) . - 616 : قد مر البيت وهو فى ديوان الجعدي ص 75 وهو فى الجمهرة أيضا 1/ 81 .

(5) . - 11 «من حبل . . . العاتق» : أخذه البخاري وأشار إليه ابن حجر بقوله : وهو قول أبى عبيدة بلفظه وزادة فأضافه . . . العاتق (فتح الباري 8/ 455) .

(6) . - 862 : هو فى ملحق ديوان رؤبة ص 169 والكتاب 1/ 429 والشنتمرى 1/ 480 والعيني 2/ 299 والخزانة 4/ 356 وشواهد الكشاف ص 42 .

فأضافه إلى الوريد كما يضاف الحبل إلى العاتق . .

«وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ» (31) قرّبت . .

«فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ» (36) طافوا وتباعدوا قال امرؤ القيس :

لقد نقّبت فى الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب «1»

«2» [863].

«مِنْ مَحِيصٍ» (36) من معدل . .

«أَلْقَى السَّمْعَ» (37) استمع يقول الرجل للرجل : ألق إلىّ سمعك أي استمع منى . .

«ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ» (42) يوم القيامة. انتهى انتهى. اهـ ﴿مجاز القرآن حـ 2 صـ 222 - 224﴾.

---

(1) . - 3 - 4 «فنقبوا . . . بالإياب» : رواه ابن حجر عن ابى عبيدة (فتح الباري 8 - 454).

(2) . - 863 : ديوانه من الستة ص 120 والطبري 26/ 96 والقرطبي 17/ 22.

[. . . . .]

وقفات مع سورة ق

للشيخ صالح بن عواد المغامسي

الحمد لله الذي تقدست عن الأشباه ذاته ، ودلت على وجوده آياته ومخلوقاته ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له خالق الخلق بما فيه ، وجامع الناس ليوم لا ريب فيه ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدا عبده ورسوله , نبي شرح الله له صدره ، ورفع الله له ذكره ، ووضع الله عنه وزره ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وعلى سائر من اقتفى أثره واتبع منهجه بإحسان إلى يوم الدين . أما بعد .

عباد الله :

فإن سورة (ق) سوره مكية النزول طالما قرأها وتلاها وبين أسرارها رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبة جمعته على منبره حتى حفظ بعض الصحابة هذه السورة من فيه الرطب صلوات الله وسلامه عليه . ولما كان لا هدي أكمل من هديه ولا طريق أقوم من طريقه فإنه حري بكل من رغب في إتباع السنة والتماس الهدي النبوي أن يشرع بين الحين والآخر في ذكر ما في هذه السورة من عظيم الآيات ، وجلائل العظات ، وبالغ التخويف من

رب العالمين جل جلاله لعباده .

أيها المؤمنون :

لا أحد أعلم بالله من الله تبارك وتعالى , ولا أحد أدل على الطريق الموصل إلى جنانه والمبعد عن نيرانه منه تبارك وتعالى ولهذا أقسم الله جل وعلا في صدر هذه السورة بالقرآن وختم هذه السورة بقوله جل شأنه : ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ [ق45] .

وإن المؤمن إذا كان على الفطرة قويما مستقيما على منهاج محمد صلى الله عليه وسلم كان لا يتأثر بشيء أعظم من تأثره بالقرآن . بالقرآن يجاهد المؤمن قال الله جل وعلا : ﴿ وجاهدهم به جهادا كبيرا ﴾ [الفرقان52] . وبالقرآن يقوم المؤمن بين يدي ربه ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾ [الإسراء79] . وبالقرآن يخوف من عصى الله ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ .

(104/720)

جعله الله جل وعلا شرفا لهذه الأمة في الدنيا والآخرة ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ﴾ [الزخرف44] والذكر هنا بمعنى الشرف العالي والمقام العظيم الذي أتاه الله نبيه صلى الله عليه وسلم بما أوحى إليه من هذا القرآن العظيم .

ثم أخبر تبارك وتعالى أن أعظم العجب الذي انتاب كفار قريش أنهم استكبروا أن يبعث رسول من بين أظهرهم يعرفهم ويعرفونه فقالوا مستكبرين كما قال الله جل وعلا : ﴿ بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ﴾ [ق2] وهذه العلة في الرد هي العلة التي امتطتها الأمم من قبل فأكثر الأمم التي بعث إليها الرسل كان أكبر حجتهم في الرد على رسولهم أنهم اعترضوا أن يبعث الله جل وعلا بشرا رسولا فأخبر الله تبارك وتعالى أنه لو قدر أن ينزل الله جل وعلا ملكا لكان هذا الملك بشرا رسولا يحمل أوصافهم ولبقي الأمر ملتبسا عليهم كما بقي في الأول ورسولنا صلى الله عليه وسلم كانت قريش تعرفه قبل أن يبعث تعرفه بأمانته وعفافه وطهره صلوات الله وسلامه عليه تعرف منشأه ومدخله و مخرجه فليس لهم حجة في اعتراضهم عليه صلوات الله وسلامه عليه .

بل الأمر رحمة من الله محضة يضعها الله حيث يشاء قال جل ذكره : ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف31] فقال تبارك وتعالى مجيب لهم : ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ [الزخرف32] فاقتضت رحمة الله جل وعلا وحكمته و مشيئته أن يكون محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء وسيد الأولياء وأفضل الخلق أجمعين ولله جل وعلا الحكمة البالغة و المشيئة النافذة ﴿ بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب ﴾ [ق2] .

وكما اعترضوا على الرسول اعترضوا على الرسالة وأعظم ما اعترضوا عليه إنكارهم للبعث والنشور وأن العظام إذا بليت والأجساد إذا تقطعت سيكون لها بعد ذلك مبعث ونشور كما أخبر الله تبارك وتعالى عنهم فقالوا : ﴿ أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد ﴾ [ق3] فقال الحق جل جلاله وعظم سلطانه : ﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ﴾ [ق4] .

قال صلوات الله وسلامة عليه : (إن بني آدم خلق من عجب الذنب منه خلق وفيه يركب فكل جسد بني آدم يبلى في قبره إلا عجب الذنب) . أجساد الشهداء أجساد حفاظ القرآن أجساد الصالحين أجساد غيرهم من الخلق أجمعين كلها تبلى إلا أجساد الأنبياء قال صلى الله عليه وسلم : (إذا كانت ليلة الجمعة أو يومها فأكثروا من الصلاة علي قالوا : يا رسول الله كيف نصلي عليك وقد أرمت فقال : " إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء ") فخرجت أجساد الأنبياء بهذا الحديث الصحيح وبقي ما غيرها من الأجساد عرضه للبلاء والذهاب كما أخبر الله تبارك وتعالى ظاهرا في كتابه وكما بينته السنة الصحيحة الصريحة عن الرسول الهدى صلوات الله وسلامة عليه .

﴿

قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ﴾ ذلكم هو اللوح المحفوظ .

﴿ حفيظ ﴾ أي محفوظ لا يتغير ولا يتبدل , حفيظ لا يشذ عنه شيء , حفيظ كتبته الملائكة بأمر من الرب تبارك وتعالى فما فيه لا يتغير ولا يتبدل إلى أن يقوم الخلق ويحضر الأشهاد بين يدي رب العباد تبارك وتعالى .

(106/720)

ثم ذكر جل شأنه بعض من عظيم خلقه وجلائل صنائعه فذكر السماء والأرض وإنزال المطر وإنبات الزرع وأن ذلك كله لا يخلقه إلا الله تبارك وتعالى ومن تأمل في عظيم المخلوقات دلته بصيرته وبصره إلى رب البريات جل جلاله فما أجمل أن تكون الأشياء من حولنا تدلنا على ربنا تبارك وتعالى قال الله جل وعلا عن القانتين من خلقه والمتقين من عباده : ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب * الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ [آل عمران 191]فما عظمة المخلوق إلا دلالة على عظمة الخالق . وما جلالة المصنوع إلا دلالة على جلالة البارئ جل شأنه .

والله تبارك وتعالى ما من مخلوق إلا والله جل وعلا خالقه ومدبره فقير كل الفقر ذلك

المخلوق إلى الله والله جل وعلا غني كل الغنى عن كل مخلوق خلق العرش وهو مستغني عن العرش خلق حملة العرش وهو جل وعلا مستغني عن حملة العرش خلق جبريل و ميكائيل و إسرافيل وملك الموت وغيرهم من الملائكة وهو جل وعلا مستغنى كل الغنى عنهم وهم أجمعون فقراء كل الفقر إلى ربهم تبارك وتعالى .

﴿

الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ [البقرة255] فحياته جل شأنه حياة لم يسبقها عدم ولا يلحقها زوال وقوله جل وعلا ﴿ القيوم ﴾ أي قيوم السموات والأرض احتاج كل أحد إليه واستغنى جل وعلا عن كل أحد سواه لا إله إلا هو رب العرش العظيم .

ثم ذكر جل وعلا بعد ذلك الخصومة التي بين نبيه صلى الله عليه وسلم وبين كفار قريش اعترفوا أول الأمر أن الله هو خالقهم ثم قالوا إن الله غير قادر على أن يبعثنا فقال الله جل وعلا : ﴿ أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد ﴾ [ق15] .

(107/720)

فهم متفقون على أننا قد خلقناهم أول مرة لكن اللبس الذي في قلوبهم والشكك الذي في صدورهم إنما هو ناجم عن إعادة البعث والنشور قال الله جل وعلا مجيبا العاص ابن وائل

لما أخذ عظاما بالية ووضعها في كفة ثم نفثها في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : " أتزعم يا محمد أن ربك يعيد هذا بعد خلقه " ، قال الله مجيبا له : ﴿ وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون * أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ [يس 81] آمنا بالله الذي لا إله إلا هو قال الله : ﴿ أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد ﴾ ثم قال جل وعلا : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ [ق16] وهذا قرب الله جل وعلا من عباده بملائكة بذلكم الرقيبين الذين يحصيان الكلمات ويعدان الأفعال . الذي عن اليمين يكتب الحسنات ويشهد على الآخر والذي عن الشمال يكتب السيئات ويشهد على الآخر ثم يلتقيان مع صاحبهما بين يدي الله بين يدي من لا تخفى عليه خافية فطوبى لعبد كانت سريرته خيرا له من علانيته .

قال الله جل وعلا : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد * إذ يتلقى المتلقيان ﴾ وهذا بيان للأول أي : ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ حين يتلقى المتلقيان ﴿ إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ تمضي على ذلك أيامه وأعوامه وما كتب الله له من

الحياة حتى يواجه سكرت الموت وكلما تلفظ به أمر مسطور مكتوب لا يغيب قال الله سبحانه : ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ [ق19] أي تفر فلا يوجد أحد يلقي بنفسه إلى المهالك قال الله : ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ﴾ .

(108/720)

وقف الصديق رضي الله عنه يواجه سكرة الموت وهو مضطجع في بيته فقالت الصديقة رضي الله عنها ابنته عائشة لما رأت أباها يواجه سكرت الموت تردد قولا قديما لحاتم طي :

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى ***إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فكشف الصديق وهو في سكرة الموت عن غطاءه وقال : " يا بنيه لا تقولي هذا ولكن قولي كما قال الله : ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ " .

وسكرة الموت غرغرة الروح قبل أن تخرج من الجسد فإذا خرجت سميت روحا وإذا بقيت ما زالت نفسا وهي لحظات يواجهها كل أحد ولو بدا لك بين عينيك أن الميت لا يواجه شيئًا من هذا فكم من أمر مخفي لا يعلمه إلا الله ويشتد الموت على الأنبياء لأن الموت مصيبة والمصيبة أعظم ما تكون على الصالحين وأولياء الله المتقين وإن لم يبدو ذلك ظاهر للعيان لمن كان محيطا بالميت لكن الميت حال نزع الروح يواجه من الأمور العظام ما الله بها

عليم , ثم يخففه الله جل وعلا فتنزع روحه آخر الأمر نزعا رفيقا خفيفا لعناية الرب تبارك وتعالى بأوليائه بعد أن تثبتهم الملائكة كما قال الله جل وعلا في فصلت : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ﴾ [فصلت30] .

﴿

(109/720)

وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد * ونفخ في الصور ﴾ [ق19] أي مرت على الناس أهلة وأهلة وهم في قبورهم ثم انتهى الأمر إلى الفناء العام فنفخ في الصور النفخة الأخرى فقام الناس بين يدي ربهم ﴿ ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد * وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد * لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ [ق22] فليست حياة البرزخ ولا حياة الآخرة كحياة الدنيا فإن في الدنيا من الغيبيات ما الله به عليم وفي حياة البرزخ ينكشف الكثير من تلك الغيبيات وفي حياة الآخرة يصبح الأمر كله عين اليقين يرى الإنسان ما كان يسمعه ويقرأه و يتلوه من كلام لله عز وجل وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم وما أخبر به من الغيبيات يراه ماثلا بين عينيه قال

الحق جل شأنه : ﴿ فبصرك اليوم حديد ﴾ وهنا يقول قرينه ذلك الشيطان الذي أوكل إليه " والواو واو عطف " ﴿ وقال قرينه هذا ما لدي عتيد ﴾ [ق23] .

فيكون الخطاب الرباني : ﴿ ألقيا في جهنم كل كفار عنيد * مناع للخير معتد مريب * * الذي جعل مع الله إلها آخر فألقياه في العذاب الشديد ﴾ [ق26] .

أيها المؤمنون :

لا ذنب يلقى الله جل وعلا به أعظم من الشرك وهذا لا يغفره الله أبدا أما المؤمنون فإن أول ما ينظر فيما فعلوه ما بينهم وبين الله هو الصلاة فمن حافظ عليها فقد حفظ دينه ومن ضيعها فهو إلى ما سواها أضيع .

وأول ما ينظر إليه بين الناس والآخرين مسألة الدماء فأول ما يقضي به بين الخلائق الدماء . في الدماء أول ما يقضي به بين العباد لما يتعلق بحال بعضهم ببعض والصلاة أول ما ينظر فيه ما بين العبد وبين ربه , والشرك ذنب لا يغفره الله حرم الله جل وعلا على أهله الجنة .

(110/720)

ثم قال الله جل وعلا : ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد * هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ ﴾ [ق32] المؤمن في طريقه إلى الله جل وعلا يقول الله عنه : ﴿ لقد خلقنا

الإنسان في كبد ﴾ [البلد 4] ينتابه الحزن والسرور والصحة والمرض والشباب والشيخوخة والصغر من قبل تنتابه أمور كثيرة و مطالب عظام يزدلف حينا إلى طاعات يقع أحيانا في المعاصي يستغفر ما بين هذا وذاك يفقد أمواله يفقد أولاده يخاف يحزن إلى غير ذلك مما يشترك فيه أكثر الناس فيبقى الحزن في قلبه حتى يقف بين يدي الله جل وعلا ويمن كتابه ويرى الجنة قد قربت وأزلفت فإذا دخلها نسي كل بؤس وحزن قد مر عليه قبل ذلك جعلني الله وإياكم من أهل ذلك النعيم .

قال الله جل وعلا : ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد ﴾ . ﴿ هذا ﴾ أي الذي ترونه ﴿ ما توعدون ﴾ أي ما كنتم توعدونه في الدنيا ﴿ هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ ﴾ . ﴿ أواب ﴾ دائم التوبة والإنابة و الاستغفار لله جل وعلا حفيظ لجوارحه أن تقع في الفواحش مما حرم الله مما ظهر منها أو بطن ﴿ هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ ﴾ .

ذكر الله جل وعلا النار قبلها وأنها يلقى فيها حتى تقول قط قط أي يكفي يكفي قال الله جل وعلا قبل ذلك : ﴿ يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد * وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد * هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ * من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ﴾ [ق33] .

ما القول الذي يقال لهم يقول لهم العلي الأعلى : ﴿ ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود ﴾ [ق34] والموت أعظم ما يخوف به الناس في الدنيا ولأجل ذلك يلقى ويذهب عنهم يوم

القيامة قال الله جل وعلا : ﴿ ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود * لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد ﴾ [ق35] وأعظم ما فسر به المزيد رؤية وجه الله تبارك وتعالى .

(111/720)

اللهم إنا نسألك في مقامنا هذا لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقاءك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضله أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم ولسائر المسلمين فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم . .

***

الحمد الله وكفى والسلام على عباده الذين اصطفى ، ثم قال جل ذكره : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا في البلاد هل من محيص * إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ [ق37] .

وإن من دلائل العقل والاتعاظ والإيمان أن ينظر الإنسان في الأمم الغابرة والأيام الخالية فينظر إلى صنيع الله جل وعلا فيمن عصاه ورحمته تبارك وتعالى فيمن أطاعه واتبع هداه .

ثم ذكر جل وعلا ردا على اليهود التي زعمت أن الله بدأ الخلق يوم الأحد وانتهى يوم الجمعة واستراح يوم السبت تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا فقال جل ذكره ممجدا نفسه

ومادحا ذاته العلية : ﴿ ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾ [ق38] .

ثم أمر نبيه بالصبر على ما يقوله أعدائه ﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ ولابد للصبر من مطيه ألا وأعظم المطايا ذكر الله تبارك وتعالى والوقوف بين يديه مناجاة ودعاء قال الله جل وعلا : ﴿ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ﴾ [ق39] .

ثم قال جل شأنه بعد أن دعا نبيه إلى كثرة الصلاة والذكر على القول بأن التسبيح هنا الصلاة وعلى القول بأنه الذكر المطلق والمقيد وهو أظهر والعلم عند الله ﴿ واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب ﴾ [ق41] .

﴿ واستمع ﴾ هذا نداء لكل من يقرأ القرآن والمنادي هو إسرافيل عليه السلام والمكان القريب بيت المقدس سمي قريبا لأنه قريب من مكة وهذه السورة نزلت في مكة وليست بيت المقدس عن مكة ببعيد .

(112/720)

﴿ واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب * يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج ﴾ [ق42] . ينادي أيتها العظام البالية أيتها الأوصال المتقطعة إن الله يدعكن لفصل القضاء فتجتمع الأجساد وتدب فيها الأرواح بعد أن تخرج من مستقرها ويخرج الناس لرب العالمين قال جل ذكره : ﴿ يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير * يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير * نحن أعلم بما يقولون ﴾ [ق45] . سواء جهروا به أو لم يجهروا فالقلوب له مفضية والسر عنده علانية وليس عليك أيها النبي إلا البلاغ فقال الله جل وعلا له : ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ [ق45] . عودا على بدء كما أقسم الله بقرآنه العظيم ختم السورة به كما بيناه في أول خطبتنا وذلك أن القرآن جعله الله جل وعلا هدى ونورا لهذه الأمة :

جاء النبيون بالآيات فانصرمت ***وجئتنا بحكيم غير منصرم

آياته كلما طال المدى جدد *** يزينهن جلال العتق والقدم

(113/720)

فصلوا وسلموا على من أنزل إليه هذا القرآن ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾ [الأحزاب56] . اللهم صلي على محمد

وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد . وارض اللهم عن أصحاب نبيك أجمعين بلا استثناء وخص اللهم منهم الأربعة الخلفاء الأئمة الحنفاء وارحمنا اللهم برحمتك معهم يا ذا الجلال و الإكرام واغفر اللهم لنا في جمعتنا هذه أجمعين اللهم ووفق ولي أمرنا بتوفيقك وأيده بتأييدك اللهم وفقه لهداك وجعل عمله في رضاك . اللهم وأصلح أحوال أمة محمد صلى الله عليه وسلم في كل مكان اللهم إنا نسألك الإيمان والعفو عما مضى وسلف وكان من الذنوب والآثام والعصيان اللهم من روع أهل مدينة رسولك صلى الله عليه وسلم فمكن منه وأخذله يا رب العالمين . اللهم استر عوراتنا و آمن روعاتنا . اللهم أستر عوراتنا و آمن روعاتنا . اللهم أستر عوراتنا و آمن روعاتنا ، اللهم إنا نسألك الهدى والتقوى والعفاف و الغنى والفوز بالجنة والنجاة من النار . اللهم إنا نسألك الفردوس الأعلى من الجنة . اللهم إنا نسألك الفردوس الأعلى من الجنة . اللهم إنا نسألك الفردوس الأعلى من الجنة .

عباد الله:

إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون فاذكروا الله العظيم الجليل يذكركم واشكروه على نعمه يزدكم

ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ وقفات مع سورة ق للشيخ صالح بن عواد المغامسي ﴾

(114/720)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى:

ومن السورة التي يذكر فيها «ق»

[سورة ق (50): آية 16]

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16)

[وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ] [16]

. . . . وأراد سبحانه أنه يعلم غيب الإنسان ووساوس إضماره، ونجىّ أسراره. فكأنه باستبطانه ذلك منه أقرب إليه من وريده. لأن العالم بخفايا قلبه، أقرب إليه من عروقه وعصبه.

وليس القرب هاهنا من جهة المسافة والمساحة، ولكن من جهة العلم والإحاطة.

[سورة ق (50): آية 19]

وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19)

وقوله تعالى: وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ، ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ [19] وهذه استعارة. والمراد بسكرة الموت هاهنا: الكرب الذي يتغشى المحتضر عند الموت، فيفقد له تمييزه، ويفارق معه معقوله. فشبّه تعالى ذلك بالسّكرة من الشراب، إلا أن تلك السّكرة منعمة، وهذه السّكرة مؤلمة.

وقوله تعالى: بِالْحَقِّ يحتمل معنيين: أحدهما أن يكون جاءت بالحق من أمر الآخرة، حتى عرفه الإنسان اضطرارا، ورآه جهارا. والآخر أن يكون المراد بِالْحَقِّ هاهنا أي بالموت الذي هو الحق.

[سورة ق (50): آية 22]

لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22)

وقوله سبحانه: لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ [22]. وهذه استعارة والمراد بها ما يراه الإنسان عند زوال التكليف عنه من أعلام السّاعة، وأشراط القيامة، فتزول عنه اعتراضات الشكوك، ومشتبهات الأمور، يصدّق بما كذّب، ويقرّ بما جحد، ويكون كأنه قد نفذ «1» بصره بعد وقوف،

---

(1) فى الأصل «نفد» بالدال المهملة وهو تحريف فاحش من النساخ لأنه ليس القصد نفاد البصر وضياعه، بل القصد نفوذه وحدته.

وأحدّ بعد كلال ونبوّ. فهذا معنى قوله سبحانه: فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ.

[سورة ق (50): آية 30]

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (30)

وقوله تعالى: يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ

[30].

وهذه استعارة. لأن الخطاب للنار والجواب منها فى الحقيقة لا يصحان. وإنما المراد- والله أعلم- أنها فيما ظهر من امتلائها، وبان من اغتصاصها بأهلها، بمنزلة الناطقة بأنه لا مزيد فيها، ولا سعة عندها. وذلك كقول الشاعر: «1»

امتلأ الحوض وقال قطنى مهلا رويدا قد ملأت بطني

ولم يكن هناك قول من الحوض على الحقيقة، ولكن المعنى أن ما ظهر من امتلائه فى تلك الحال جار مجرى القول منه، فأقام تعالى الأمر المدرك بالعين، مقام القول المسموع بالأذن.

وقيل: المعنى أنا نقول لخزنة جهنم هذا القول، ويكون الجواب منهم على حدّ الخطاب.

ويكون ذلك من قبيل: وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ «2» فى إسقاط المضاف وإقامة المضاف إليه

مقامه . وذلك كقولهم : يا خيل اللّه اركبي . والمراد يا رجال اللّه اركبي .

وعلى القول الأول يكون مخرج هذا القول لجهنم على طريق التقرير لاستخراج الجواب بظاهر الحال ، لا على طريق الاستفهام والاستعلام . إذ كان اللّه سبحانه قد علم امتلاءها قبل أن يظهر ذلك فيها . وإنما قال سبحانه هذا الكلام ليعلم الخلائق صحة وعده ، إذ يقول تعالى : لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ «3» . والوجه

---

(1) لم أهتد إلى اسم قائل هذا الرجز . وفى «الجامع لأحكام القرآن» ج 17 ص 18 لم ينسبه لقائله . بل قال : إنه لشاعر .

(2) سورة يوسف : الآية رقم 82 .

(3) سورة هود . الآية رقم 119 .

[فى قوله «1»] تعالى فى الحكاية عن جهنم : هَلْ مِنْ مَزِيدٍ بمعنى لا من مزيد فىّ .

وليس ذلك على طريق طلب الزيادة ، وهذا معروف فى الكلام . ومثله قوله عليه السلام : (وهل ترك «2» عقيل لنا من دار ؟) أي ما ترك لنا دارا .

[سورة ق (50) : آية 37]

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (37)

وقوله سبحانه وتعالى : إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ [37] وهذه استعارة . وقد مضى نظير لها فيما تقدم . والمعنى أنه بالغ فى الإصغاء إلى الذكرى ، وأشهدها قلبه ، فكان كالملقى إليها سمعه ، دنوّا من سماعها ، وميلا إلى قائلها . والمراد بقوله تعالى : إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ [37] أي عقل ولبّ . [و] «3» يعبّر عنهما بالقلب ، لأنهما يكونان بالقلب . أو يكون المعنى : لمن كان به قلب ينتفع به . لأن من القلوب ما لا ينتفع به ، إذا كان مائلا إلى الغىّ ، ومنصرفا عن الرّشد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تلخيص البيان صـ 310.312 ﴾

---

(1) مطموسة فى الأصل .

(2) قاله عليه السلام حين فتح مكة . فقد مضى الزبير بن العوام برايته حتى ركزها عند قبة رسول اللّه ، وكان معه أم سلمة وميمونة رضى اللّه عنهما ، وقيل : يا رسول اللّه ! ألا تنزل منزلك من الشعب ؟

فقال : وهل ترك لنا عقيل منزلا ؟ وكان عقيل بن أبى طالب قد باع منزل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ومنزل إخوته . والرجال والنساء بمكة . فقيل : يا رسول اللّه ! فانزل فى بعض بيوت مكة فى غير منازلك ، فقال ! : لا أدخل البيوت ! فلم يزل مضطربا بالحجون لم يدخل بيتا ، وكان يأتى المسجد من الحجون لكل صلاة . انظر الخبر فى «إمتاع الأسماع»

للمقريزى المؤرخ، ج 1 ص 381 .

(3) ليست بالأصل ، والسياق يقتضيها .

(117/720)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة ق

فى سورة (قَ) حديث عن البعث والجزاء سبقته الأدلة العقلية التى تشير إلى عظمة القدرة وسعة العلم وإمكان النشأة الآخرة ! وقد تدبرت هذه الأدلة وأنا أرقب الطعام الذى أتناوله . إن بعضا منه يتحول إلى طاقة ترفع حرارة الجسم ، كيف ؟ لا أدرى ! وبعض آخر يتحول إلى خلايا تسرى فيها الحياة ، ويتكون منها العظم واللحم ، وتزدحم فيها خصائص الأجداد والأحفاد . كيف ؟ لا أدرى . ويصف علماء الحياة الخلية بأنها كائن يشبه مدينة بها ميادين وحارات وبها أسلاك كهرباء ومواسير مياه ! ! مع أن الخلية لا ترى بالبصر المجرد ! والجزء الباقى من الطعام يعود " بالصرف الصحى " إلى الأرض ، ليخرج منها مرة أخرى كيزان أذرة أو سنابل قمح أو شماريخ بلح يأكلها الإنسان ويجدد القصة التى

شرحناها آنفا ! فى كل جسد موت ونشور يتكرران فى كل ساعة من ليل أو نهار ! فهل أستغرب إذا قال الله " ق والقرآن المجيد " ـ لتبعثن ـ " بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب * أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد * قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ " . لماذا تكون إعادة الخلق عجيبة ؟ أليس هو الخالق الأول ؟ ألا نرى التفاعل المستمر بين أجسادنا والتربة التى نعيش فوقها ؟ إن فى كل لحظة بعثا ولكن الكافر بليد ذاهل ! لقد بنى القرآن الإيمان على حركة العقل الباحث اليقظ ، ثم صاغه فى قالب من البيان المعجز . قال الرواة إن إحدى الصحابيات حفظت سورة " ق . . " من فم الرسول وهو يخطب بها يوم الجمعة ، لقد أنتقشت الكلمات فى ذهنها ، وثبتت على التكرار ، ثم تحولت فى سلوكها إلى خلق وعبادة ومنهج حياة .

(118/720)

والبعث عندنا ليس فكرة نظرية ، إنه شعور حى يستولى على الإنسان وهو يفعل أو يترك . " ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد * إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد " . إن الفارق بعيد بين حياة الإيمان والحياة التى تقدمها الحضارة المعاصرة ، إنها حضارة قلما

تذكر الله أو تستعد للقائه أو تشعر بإشرافه ! وقد فشلت الأديان السائدة فى إنعاش الضمير الدينى وتعويده رقابة الله . . والموت عند أغلب الأوروبيين والأمريكيين نهاية الوجود ، وسيكون ما بعده مفاجأة لم يحسب لها حساب " لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد " . ومن العرب المسلمين (!) من جرفهم هذا التيار ، ومن رفض ضبط الدنيا لحساب الآخرة فهو يقول مع " الزهاوى" : ولا أبدِّل موهوما بمحسوس ! الآخرة عنده وهم كما هى عند سادته ! وستنتهى الدنيا حتما ويحصد الناس ما قدموا فيها . وفى سورة ق نجد مشهدين : الأول للملك الذى يحصى على الكافر ما صنع " وقال قرينه هذا ما لدي عتيد * ألقيا في جهنم كل كفار عنيد * مناع للخير معتد مريب " . وهنا يقول القرين من الشياطين الذى كان يقوم بوظيفة الإغواء وتزيين الشر "قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد " يعنى أنه كان فاسدا قبل أن أفسده ! " قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد * ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد " . وحديث القرين هنا عن صاحبه المجرم قريب مما ورد فى سورة الأنعام "يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها . . . " . أما المشهد الثانى فعن مصير الأتقياء الأخيار " وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد * هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ

* من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب * ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود" .

ومع أن الدنيا دار ابتلاء وليست

(119/720)

دار جزاء ، فإن الله قد يعجل بعض العقوبات للمجرمين

لتكون نكالا وعبرة ؟ فهل ارعوى الطغاة وتابوا ؟ كلا " وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا في البلاد هل من محيص" ؟ وعادت سورة ق كما بدأت تتحدث عن العالم وخلقه ، فذكرت أن الله أوجد الكون بقدرته ، ولم يشعر بإعياء فى هذا الإيجاد ! وكيف يشعر بتعب ، وأمره بين الكاف والنون ؟ ولو شعر بتعب بعد الخلق ، فكيف سيدير السموات والأرض ويوفر الطعام لأعداد هائلة من الإنسان والحيوان على امتداد العصور ؟ وكيف يسخر النجوم فى مداراتها الرحبة ؟ إنه إذا تعب أولا فسيتعب ثانية وثالثة ! ! ويفلت من يده نظام العالم ! ولذلك قال " ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب " . والحق أن نسبة التعب إلى الله حماقة وقع فيها ناس تائهون ، ولكن القرآن الكريم نزه رب العالمين عن هذا اللغو وأثبت له ما يستحق من أمجاد ومحامد . . والقرآن فى بنائه للإيمان يعتمد على العقل الإنسانى ، ورفضه للترهات ،

ولذلك ختمت السورة بأن محمدا ليس حاكما عسكريا يغير العقائد بالقوة كما يغير الأوضاع المدنية أو الاقتصادية . إنه مذكر صادق وناصح مخلص . " نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد " إن هذا التذكير هو عمل الأنبياء والدعاة إلى آخر رمق . وقد ذكر بعض المفسرين أن ذلك قبل نزول آيات القتال ! . وهذا ذهول معيب ، فإن القتال لحماية الدعوة وصون الحقوق ، وليس للإكراه على الإيمان ! ولم يكن محمد جبارا يوما ما ، ولا أكره أحدا على الدخول فى دينه قط . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 407 . 409 ﴾

(120/720)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والعشرون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/721)

الجزء الحادى والعشرون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة (ق)

وحتى الآية ﴿ 22 ﴾ من السورة

(4/721)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(5/721)

قوله تعالى ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (2) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (3) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (4) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (5) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

(بسم الله) الذي من إحاطة حمده بيانه ما لنبيه (صلى الله عليه وسلم) من إحاطة الحمد ، ولقدرته سبحانه من الإحاطة التي ليس لها حد (الرحمن) الذي عم خلقه برحمته حين أرسل إليهم محمدا (صلى الله عليه وسلم) بشرائعه ، فهو أصدق العباد ، وأظهر بعظيم معجزاته أن قدرته ما لها من نفاذ) الرحين (الذي خص بالفوز في دار القرار أهل الرغاد .

لما ختم سبحانه الحجرات بإحاطة العلم قال أول هذه : ﴿ ق ﴾ إشارة إلى أنه هو سبحانه وحده المحيط علماً وقدرة بما له من العلو والشدة والقوة القيومية والقهر ونافذ القضاء والفتح لما أراد من المغلقات ، بما أشارت إليه القاف بصفاتها وأظهرته بمخرجها المحيط بما جمعه مسماها من المخارج الثلاث : الحلق واللسان والشفاه .

وقد قال الأستاذ أبو الحسن الحرالي في سر افتتاح المفصل بهذا الحرف فقال في آخر كتابه في هذا الحرف : اعلم أن القرآن منزل مثاني ، ضمن ما عدا المفصل منه الذي هو من قاف إلى آخر الكتاب العزيز وفاتحة ما يختص بأولي العلم والفقه من مبسوطات الحكم ومحكمات الأحكام ومطولات الأقاصيص ، ومتشابه الآيات ، والسورة المفتتحة بالحروف الكلية للإحاطة لغيبية المتهجى المسندة إلى آحاد الأعداد ، فلعلو رتبة إيراده وطوله ثنى الحق سبحانه الخطاب وانتظمه في سور كثيرة العدد يسيرة عدد الآي قصيرة مقدارها ، ذكر فيها من أطراف القصص والمواعظ والأحكام والثناء وأمر الجزاء ما يليق بسماع العامة ليسهل عليهم سماعه وليأخذوا بحظ مما أخذه الخاصة وليكرر على أسماعهم في قراءة الأئمة له في الصلوات المفروضة التي لا مندوحة لهم عنها ما يكون لهم خلفاً مما يعولهم من مضمون سائر السور المطولات ، فكان أحق ما افتتح به مفصلهم حرف ق الذي هو وتر الآحاد ، والظاهر منها مضمون ما يحتوي عليه مما افتتح بألف لام ميم ، وكذلك كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكثر أن يقرأ في خطبة يوم الجمعة إليهم لأنها صلاة جامعة الظاهر بفاتحة المفصل الخاص بهم ، وفي مضمونها من معنى القدرة والقهر المحتاج إليه في إقامة أمر العامة ما فيه

كفاية ، وشفعت بسورة المطهرة فخصوا بما فيه القهر والإنابة ، واختصرت سورة نون من مقتضى العلم بما هو محيط بأمر العامة المنتهي إلى غاية الذكر الشامل للعالمين .

(7/721)

ولما كان جميع السور المفتتحة بالحروف المتضمنة للمراتب التسع ، العاشر الجامع قواماً وإحاطة في جميع القرآن ، ولذلك كانت سورة قاف وسورة ن قواماً خاصاً وإحاطة خاصة بما يخص العامة من القرآن الذين يجمعهم الأرض بما أحاط بظاهرها من صورة جبل قاف ، وما أحاط بباطنها من صورة حيوان " نون " الذي تمام أمرهم بما بين مددي إقامتها ولهذا السورة المفتتحة بالحرف ظهر اختصاص القرآن وتميزه عن سائر الكتب لتضمنها الإحاطة التي لا تكون إلا بما للخاتم الجامع ، واقترن بها من التفضيل في سورها ما يليق بإحاطتها ، ولإحاطة معانيها وإتمامها كان كل ما فسرت به من معنى يرجع إلى مقتضاها ، فهو صحيح في إحاطتها ومنزلها من أسماء الله وترتبها في جميع العوالم ، فلا يخطىء فيها مفسر لذلك لأنه كلما قصد وجهاً من التفسير لم يخرج عن إحاطة ما تقتضيه ، ومهما فسرت به من أنها من أسماء الله تعالى أو من أسماء الملائكة أو من أسماء الأنبياء أو من مثل الأشياء ، وصور الموجودات أو من أنها أقسام أقسم بها ، أو فواتح عرفت بها السور ، أو

أعداد تدل على حوادث وحظوظ من ظاهر الأمر أو باطنه على اختلاف رتب وأحوال مما أعطيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مقدار أمد الخلافة والملك والسلطنة وما ينتهي إليه أمره من ظهور الهداية ونحو ذلك مما يحيط بأمد يومه إلى غير ذلك ، وكل داخل في إحاطتها ، ولذلك أيضاً لا تختص بمحل مخصوص تلزمه علامة إعراب مخصوصة فمهما قدر في مواقعها من هذه السورة جراً أو نصباً أو رفعاً ، فتداخل في إحاطة رتبتها ولم يلزمها معنى خاص ولا إعراب خاص لما لم يكن لها انتظام ، لأنها مستقلات محيطات ، وإنما ينتظم ما يتم معنى – كل واحد من المنتظمين بحصول الانتظام ، وذلك يختص من الكلم بما يقصر عن إحاطة مضمون الحروف حتى أنه متى وقع استقلال وإحاطة في كلمة لم يقع فيها انتظام .

(8/721)

ولما أشار سبحانه إلى هذه الإحاطة بالقاف ، أقسم على ذلك قسماً هو في نفسه دال عليه فقال : ﴿ والقرآن ﴾ أي الكتاب الجامع الفارق ﴿ المجيد ﴾ الذي له العلو والشرف والكرم والعظمة على كل كلام ، والجواب أنهم ليعلمون ما أشارت إليه القاف من قوتي وعظمتي وإحاطة علمي وقدرتي ، وما اشتمل عليه القرآن من المجد بإعجازه واشتماله

على جميع العظمة ، ولم ينكروا شيئاً من ذلك بقلوبهم ، ومجيد القرآن كما تقدم في أثناء الفاتحة ما جربت أحكامه من بين عاجل ما شهد وآجل ما علم بعلم ما شهد ، وكان معلوماً بالتجربة المتيقنة بما تواتر من القصص الماضي ، وما شهد من الأثر الحاضر وما يتجدد مع الأوقات من أمثاله وأشباهه ، وإذا تأملت السورة وجدت آيها المنزلة على جميع ذلك ، فإنه سبحانه ذكرهم فيها ما يعلمون من خلق السماوات والأرض وما فيهما ومن مصارع الأولين وكذا السورة الماضية ولا سيما آخرها المشير إلى أنه أدخل على الناس الإيمان برجل واحد غلبهم بمجده وإعجازه لمجد منزله بقدرته وإحاطة علمه – والله الهادي ، ومن أحاط علماً بمعانيه وعمل ما فيه مجد عند الله وعند الناس .

(9/721)

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما كانت سورة الفتح قد انطوت على جملة من الألطاف التي خص الله بها عباده المؤمنين كذكره تعالى أخوتهم وأمرهم بالتثبت عند غائلة معتد فاسق ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ ﴾ الآية ، وأمرهم بغض الأصوات عند نبيهم وأن لا يقدموا بين يديه ولا يعاملوه في الجهر بالقول كمعاملة بعضهم بعضاً ، وأمرهم باجتناب كثير من الظن ونهيهم عن التجسس والغيبة ، وأمرهم بالتواضع في قوله ﴿ يا أيها الناس إنا

خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ وأخبرهم تعالى أن استجابتهم وامتثالهم هذه الأوامر ليست بحولهم ، ولكن بفضله وإنعامه ، فقال : ﴿ ولكن الله حبب إليك الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ﴾ الآيتين ، ثم أعقب ذلك بقوله ﴿ يمنون عليك أن أسلموا ﴾ الآية ، ليبين أن ذلك كله بيده ومن عنده ، أراهم سبحانه حال من قضى عليه الكفر ولم يحبب إليه الإيمان ولا زينه في قلبه ، بل جعله في طرف من حال من أمر ونهى في سورة الفتح مع المساواة في الخلق وتماثل الأدوات فقال تعالى : ﴿ والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ﴾ الآيات ، ثم ذكر سبحانه وتعالى وضوح الأدلة ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم ﴾ الآيات ، ثم ذكر حال غيرهم ممن كان على رأيهم ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح ﴾ ليتذكر بمجموع هذا من قدم ذكره بحاله وأمره ونهيه في سورة الفتح ، ويتأدب المؤمن بآداب الله ويعلم أن ما أصابه من الخير فإنما هو من فضل ربه وإحسانه ، ثم التحمت الآي إلى قوله خاتمة السورة ﴿ نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم ﴾ الآيات – انتهى .

(10/721)

ولما كان هذا ظاهراً على ما هدى إليه السياق ، بنى عليه قوله دلالة أخرى على شمول علمه : ﴿ بل ﴾ أي أن تكذيبهم ليس لإنكار شيء من مجده ولا لإنكار صدقك الذي هو

من مجده بل لأنهم ﴿ عجبوا ﴾ أي الكفار ، وأضمرهم قبل الذكر إشارة إلى أنه إذا ذكر شيئاً خارجاً عن سنن الاستقامة انصرف إليهم ، والعجب من تغير النفس لأمر خارج عن العادة .

(11/721)

ولما كان المقام لتخويف من قدم بين يدي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو منّ عليه بالإسلام أو غيره ، أو لتخويف من أنكر البعث ، اقتصر على النذارة فقال : ﴿ أن جاءهم منذر ﴾ أنذرهم حق الإنذار من عذاب الله عند البعث الذي هو محط الحكمة ، وعجب منهم هذا العجب بقوله : ﴿ منهم ﴾ لأن العادة عندهم وعند جميع الناس أنه إذا كان النذير منهم لم يداخلهم في إنذاره شك بوجه من الوجوه ، وهؤلاء خالفوا عادة الناس في تعجبهم من كون النذير – وهو أحدهم – خص بالرسالة دونهم ، ولم يدركوا وجه الخصوصية لكونه مثلهم ، فكذلك أنكروا رسالته وفضل كتابه بألسنتهم نفاسة وحسداً لأنهم كانوا معترفين بخصائصه التي رفعه الله تعالى عليهم بها قبل الرسالة فحطهم عجبهم ذلك إلى الحضيض من دركات السفه وخفة الأحلام ، لأنهم عجبوا أن كان الرسول بشراً وأوجبوا أن يكون الإله حجراً ، وعبجوا من أن يعادوا من تراب ، وتثبت له الحياة ، ولم

يعجبوا أن يبتدؤوا من تراب ولم يكن له أصل في الحياة ، ولذلك سبب عنه قوله :

﴿ فقال ﴾ أي بسبب إنذاره بالبعث وعقبه ﴿ الكافرون ﴾ فأظهر في موضع الإنذار إيذاناً بأنهم لم يخف عليهم شيء من أمره ، ولكنهم ستروا تعدياً بمرأى عقولهم الدالة على جميع أمره دلالة ظاهرة ، وعبر بما دل على النذارة لأنها المقصود الأعظم من هذه السورة ، وجميع سياق الحجرات ظاهر فيها : ﴿ هذا ﴾ أن يكون النذير منا خصص بالرسالة من دوننا ، وكون ما أنذر به هو البعث بعد الموت ﴿ شيء عجيب ﴾ أي بليغ في الخروج عن عادة أشكاله ، وقد كذبوا في ذلك ، أما من جهة النذير فإن أكثر الرسل من الطوائف الذين أرسلوا إليهم ، وقليل منهم من كان غريباً ممن أرسل إليه ، وأما من جهة البعث فإن أكثر ما في الكون مثل ذلك من إعادة كل من الملوين بعد ذهابه وإحياء الأرض من بعد موتها وابتداء الإحياء لجميع موات الحيوان وإخراج النبات والأشجار والثمار وغير ذلك مما هو ظاهر جداً .

(12/721)

ولما كان المتعجب منه مجملاً ، أوضحه بقوله حكاية عنهم مبالغين في الإنكار ، بافتتاح إنكارهم باستفهام إنكاري : ﴿ إذا متنا ﴾ ففارقت أرواحنا أشباحنا ﴿ وكنا تراباً ﴾

لا فرق بينه وبين تراب الأرض .

ولما كان العامل في الظرف ما تقديره : نرجع ؟ دل عليه بقوله والإشارة بأداة البعد إلى عظيم استبعادهم : ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر الذي هو في تمييز ترابنا من بقية التراب في غاية البعد ، وهو مضمون الخبر برجوعنا ﴿ رجع ﴾ أي رد إلى ما كنا عليه ﴿ بعيد ﴾ جداً لأنه لا يمكن تمييز ترابنا من بقية التراب .

ولما كان السياق لإحاطة العلم بما نعلم وما لا نعلم ، توقع السامع الجواب عن هذا الجهل ، فقال مزيلاً لسببه ، مفتتحاً بحرف التوقع : ﴿ قد ﴾ أي بل نحن على ذلك في غاية القدرة لأنا قد ﴿ علمنا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ ما تنقص الأرض منهم ﴾ أي من أجزائهم المتخللة من أبدانهم بعد الموت وقبله ، فإنه لو زاد الإنسان بكل طعام يأكله ولم ينقص صار كالجبل بل نحن دائماً في إيجاد وإعدام تلك الأجزاء ، وذلك فرع العلم بها كل جزء في وقته الذي كان نقصه فيه قل ذلك الجزء أو جل ، ولم يكن شيء من ذلك إلا بأعيننا بما لنا من القيومية والخبرة النافذة في البواطن فضلاً عن الظواهر والحفظ ، الذي لا يصوب إلى جنابه عي ولا غفلة ولا غير ، ولكنه عبر بمن لأن الأرض لا تأكل عجب الذنب ، فإنه كالبزر لأجسام بني آدم .

ولما كانت العادة جارية عند جميع الناس بأن ما كتب حفظ ، أجرى الأمر على ما جرت به عوائدهم فقال مشيراً بنون العظمة إلى غناه عن الكتاب : ﴿ وعندنا ﴾ أي على ما لنا

من الجلال الغني عن كل شيء ﴿كتاب﴾ أي جامع لكل شيء ﴿حفيظ﴾ أي بالغ في الحفظ لا يشذ عنه شيء من الأشياء دق أو جل ، فكيف يستبعدون على عظمتنا أن لا نقدر على تمييز ترابهم من تراب الأرض ولم يختلط في علمنا شيء من جزء منه بشيء من جزء آخر فضلاً عن أن يختلط شيء منه بشيء آخر من تراب الأرض أو غيرها .

(13/721)

ولما كان التقدير : وهم لا ينكرون ذلك من عظمتنا لأنهم معترفون بأنا خلقنا السماوات والأرض وخلقناهم من تراب وإنا نحن ننزل الماء فينبت النبات ، أضرب عنه بقوله : ﴿بل الذين كذبوا بالحق﴾ أي الأمر الثابت الذي لا أثبت منه ﴿لما﴾ أي حين ﴿جاءهم﴾ لما ثار عندهم من أجل تعجبهم من إرسال رسولهم من حظوظ النفوس وغلبهم من الهوى ، حسداً منهم من غير تأمل لما قالوه ولا تدبر ، ولا نظر فيه ولا تفكر ، فلذلك قالوا ما لا يعقل من أن من قدر على إيجاد شيء من العدم وإبدائه لا يقدر على إعادته بعد إعدامه وإفنائه .

ولما تسبب عن انتسابهم في هذا القول الواهي وارتهانهم في عهدته اضطرابهم في الرأي : هل يرجعون فينسبوا إلى الجهل والطيش والسفة والرعونة أم يدومون عليه فيؤدي ذلك مع

كفرهم بالذي خلقهم إلى أعظم من ذلك من القتال والقتل ، والنسبة إلى الطيش والجهل ، قال معبراً عن هذا المعنى : ﴿ فهم ﴾ أي لأجل مبادرتهم إلى هذا القول السفساف ﴿ في أمر مريج ﴾ أي مضطرب جداً مختلط ، من المرج وهو اختلاط النبت بالأنواع المختلفة ، فهم تارة يقولون : سحر ، وتارة كهانة ، وتارة شعر ، وتارة كذب ، وتارة غير ذلك ، والاضطراب موجب للاختلاف ، وذلك أدل دليل على الإبطال كما أن الثبات والخلوص موجب للاتفاق ، وذلك أدل دليل على الحقية ، قال الحسن : ما ترك قوم الحق إلا مرج أمرهم - وكذا قال قتادة ، وزاد : والتبس عليهم دينهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 244.249 ﴾

(14/721)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ ميتاً ﴾ بالتشديد : يزيد ﴿ وعيدي ﴾ وما بعده مثل التي في " إبراهيم " ﴿ يوم يقول ﴾ بالياء : نافع وأبو بكر وحماد ﴿ امتلات ﴾ بإبدال الهمزة ألفاً : أبو عمرو ويزيد والأعشى والأصفهاني عن ورش وحمزة في الوقف ﴿ يوعدون ﴾ على الغيبة : ابن

كثير ﴿ وإدبار ﴾ بكسر الهمزة : أبو جعفر ونافع وابن كثير وحمزة وخلف وجبلة ﴿ المنادي ﴾ بالياء في الحالين : ابن كثير وسهل ويعقوب وافق أبو جعفر ونافع وأبو عمرو وفي الوصل .

(15/721)

الوقوف : ﴿ ق ﴾ ط كوفي ولو جعل قسماً فلا يوقف للعطف ﴿ المجيد ﴾ ه ج لأن " بل " قد يجعل جواب القسم تشبيهاً بأن في التحقيق وفي توكيد ما بعده ، وقد يجعل جوابه محذوفاً أي لتبعثن ﴿ تراباً ﴾ ج لأن ذلك مبتدأ إلا أن المقوم واحد ﴿ بعيد ﴾ ه ﴿ منهم ﴾ ج لاحتمال ما بعده الحال والاستئناف ﴿ حفيظ ﴾ ه ﴿ مريج ﴾ ه ﴿ فروج ﴾ ه ﴿ بهيج ﴾ ه لا لأن ﴿ تبصرة ﴾ مفعول لأجله ﴿ منيب ﴾ ه ﴿ الحصيد ﴾ ه لا لأن النخل معطوف على الجنات والحب ﴿ نضيد ﴾ ه لا لأن المراد أنبتناها لأجل الرزق ﴿ للعباد ﴾ ط للعطف ﴿ ميتاً ﴾ ط ﴿ الخروج ﴾ ه ﴿ وثمود ﴾ ه ﴿ لوط ﴾ ه لا ﴿ تبع ﴾ ط ﴿ وعيد ﴾ ه ﴿ الأول ﴾ ط ﴿ جديد ﴾ ه ﴿ نفسه ﴾ ج وجعل ما بعدها حالاً أولى من الاستئناف فيوقف على الوريد و " إذا " يتعلق بمحذوف وهو " أذكر " أبو بقوله ﴿ ما يلفظ ﴾ فلا يوقف على ﴿ قعيد ﴾ . ﴿ عتيد ﴾ ه ﴿

بالحق ﴾ ط ﴿ تحيد ﴾ ه ﴿ الصور ﴾ ط ﴿ الوعيد ﴾ ه ﴿ وشهيد ﴾ ه ﴿ حديد ﴾ ه ﴿ عتيد ﴾ ه لتقدير القول ﴿ عنيد ﴾ ه لا ﴿ مريب ﴾ ه لا بناء على أن ما بعده صفة أخرى ولو جعل مبتدأ لتضمنها معنى الشرط أو نصباً على المدح فالوقف ﴿ الشديد ﴾ ه ﴿ بعيد ﴾ ه ﴿ بالوعيد ﴾ ه ﴿ للعبيد ﴾ ه ﴿ مزيد ﴾ ه ﴿ بعيد ﴾ ه ﴿ حفيظ ﴾ ه ج لاحتمال أن تكون "من" شرطية جوابها القول المقدر قبل أدخلوها أو موصولة بدلاً من لكل ﴿ منيب ﴾ ه ﴿ بسلام ﴾ ط ﴿ الخلود ﴾ ه ط ﴿ مزيد ﴾ ه ﴿ البلاد ﴾ ط للاستفهام. قال السجاوندي: وعندي أن عدم الوقف أولى لأن النقب وهو البحث والتفتيش وأقع على جملة الاستفهام. ﴿ محيص ﴾ ه ﴿ شهيد ﴾ ه ﴿ لغوب ﴾ ه ﴿ الغروب ﴾ ج لاحتمال تعلق الجار بما قبله وبما بعده ﴿ السجود ﴾ ه ﴿ قريب ﴾ ه لا لأن ما بعده بدل ﴿ بالحق ﴾ ط ﴿ الخروج ﴾ ه ﴿ المصير ﴾ ه لا لتعلق الظرف ﴿ سراعاً ﴾ ط ﴿ يسير ﴾ ه ﴿ وعيد ﴾ ه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 172. 173 ﴾

(16/721)

فصل

قال الدكتور محمد أبو شهبة :

فى الإسرائيليات والموضوعات فى جبل قاف المزعوم وحدوث الزلازل :

ومن ذلك : ما ذكره بعضهم في تفسير قوله تعالى : ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيد ﴾ : فقد ذكر صاحب "الدر المنثور" وغيره ، روايات كثيرة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : "خلق الله من وراء هذه الأرض بحرا محيطا بها ، ثم خلق من وراء ذلك البحر جبلا يقال له : "قاف" ، سماء الدنيا مرفوعة عليه ، ثم خلق الله تعالى من وراء ذلك الجبل أيضا مثل تلك الأرض سبع مرات ، واستمر على هذا حتى عد سبع أرضين ، وسبعة أبحر ، وسبعة أجبل ، وسبع سماوات" .

وهذا الأثر لا يصح سنده عن ابن عباس ، وفيه انقطاع ، ولعل البلاء فيه من المحذوف ، ولو سلمنا صحته ، فقد أخذه من الإسرائيليات .

وأخرج ابن أبي الدنيا ، وأبو الشيخ عنه أيضا قال : خلق الله تعالى جبلا يقال له : قاف ، محيط بالعالم ، وعروقه إلى الصخرة التي عليها الأرض ، فإذا أراد الله تعالى أن يزلزل قرية أمر ذلك الجبل فيحرك العرق الذي يلي تلك القرية ، فيزلزلها ، ويحركها ، ثم تحرك القرية دون القرية .

وكل ذلك كما قال القرافي لا وجود له ، ولا يجوز اعتماد ما لا دليل عليه ، وهو من خرافات

بني إسرائيل الذين يقع في كلامهم الكذب ، والتغيير ، والتبديل ، دست على هؤلاء الأئمة ، أو تقبلوها بحسن نية ، ورووها لغرابتها ، لا اعتقادا بصحتها ، ونحمد الله أن وجد في علماء الأمة من رد هذا الباطل ، وتنبه له قبل أن تتقدم العلوم الكونية كما هي عليه اليوم ، ومن العجيب أن يتعقب كلام القرافي ابن حجر الهيتمي فقال : ما جاء عن ابن عباس مروي من طرق خرجها الحفاظ وجماعة ممن التزموا تخريج الصحيح ، وقول .

(17/721)

الصحابي فيما لا مجال للرأي فيه : حكمه حكم المرفوع إلى النبي .

وأنا أقول للشيخ الهيتمي : إن تخريج من التزم الصحة ليس بحجة ، وكم من ملتزم شيئًا لم يفِ به ، والشخص قد يسهو ويغلط مع عدالته ، وأنظار العلماء تختلف ، والحاكم –على جلالته– صحَّح أحاديث حكم عليها الإمام الذهبي وغيره بالوضع ، وكذلك ابن جرير على جلالته ، أخرج روايات في تفسيره ، حكم عليها الحفاظ بالوضع ، والكذب ، ولو سلمنا صحتها عن ابن عباس : فلا ينافي ذلك أن تكون من الإسرائيليات الباطلة ، كما قلت غير مرة .

وأما أنَّ لها حكم الرفع فغير مسلم ؛ لأن المحققين من أئمة الحديث على أن ما لا مجال للرأي

فيه له حكم الرفع ، إذا لم يكن الصحابي ممن عرف بأنه يأخذ عن مسلمة أهل الكتاب ، وابن عباس ممن أخذ عنهم .

ثم إني أقول للهيتمي ومن يرى رأيه : أي فائدة نجنيها من وراء هذه المرويات التي لا تتقبلها عقول تلاميذ المدارس فضلا عن العلماء ؟ ! ! اللهم إلا أننا نفتح بالانتصار لها بابا للطعن في عصمة النبي صلى الله عليه وسلم وإذا جاز هذا في عصور الجهل والخرافات فلا يجوز اليوم ، وقد أصبح رواد الفضاء يطوفون حول الأرض ، ويرونها معلقة في الفضاء بلا عمد ، ولا جبال ، ولا بحار ، ولا صخرة استقرت عليها الأرض ، فهذه الإسرائيليات مخالفة للحس والمشاهدة قطعا ، فكيف نتعلق بها ؟ ! .

ورحم الله الإمام الآلوسي حيث قال : والذي أذهب إليه ما ذهب إليه القرافي ، من أنه لا وجود لهذا الجبل بشهادة الحس ، فقد قطعوا هذه الأرض ؛ برها وبحرها على مدار السرطان مرات ، فلم يشاهدوا ذلك ، والطعن في صحة الأخبار ، وإن كان جماعة من رواتها ممن التزم تخريج الصحيح أهون من تكذيب الحس ، وأمر الزلازل لا يتوقف أمرها على ذلك الجبل ، بل هي من الأبخرة ، يعنى المتولدة من شدة حرارة جوف الأرض وطلبها الخروج مع صلابة الأرض يعني ، فيحصل هذا الاهتزاز وإنكار ذلك مكابرة عند من له عرق من الإنصاف 1 ، ولا أدري لو أن الإمام الجليل الآلوسي عاش .

---

1 روح المعاني للآلوسي ج 26-120 .

في عصرنا هذا ، ووقف على ما وقفنا عليه من عجائب الرحلات الفضائية ، ماذا كان يقول ؟ إن كل مسلم ينبغي أن يكون له من العقل الواعي المتفتح ، والنظر الثاقب البعيد ما لهذا الإمام الكبير .

وإليك ما قاله عالم حافظ ناقد ، سبق الإمام الآلوسي بنحو خمسة قرون 1 : فقد قال في تفسيره عند هذه الآية : وقد روي عن السلف أنهم قالوا : "ق" : جبل محيط بجمع الأرض يقال له : جبل قاف ، وكأن هذا –والله أعلم– من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس ، لما رأى من جواز الرواية عنهم ، مما لا يصدق ، ولا يكذب ، وعندي : أن هذا ، وأمثاله ، وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم يلبسون به على الناس أمر دينهم ، كما افترى في هذه الأمة ، مع جلالة قدر علمائها ، وحفاظها ، وأئمتها أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وما بالعهد من قدم ، فكيف بأمر بني إسرائيل مع طول المدى ، وقلة الحفاظ النقاد فيهم ، وشربهم الخمور ، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه ، وتبديل كتب الله وآياته ، وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله : "حدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج" ، فيما قد يجوزه العقل ، فأما فيما تحيله العقول ، ويحكم فيه بالبطلان ، ويغلب على الظنون

كذبه ، فليس من هذا القبيل . والله أعلم2 .

قال : وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين ، وكذا طائفة كثيرة من الخلف ، من الحكاية عن كتب أهل الكتاب ، في تفسير القرآن المجيد ، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم ، ولله الحمد والمنة ، حتى أن الإمام أبا محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي رحمة الله عليه أورد هنا أثرًا غريبًا ، لا يصح سنده عن ابن عباس ، ثم ساق السند ، والمتن الذي ذكرناه آنفا .

ثم قال : فإسناد هذا الأثر فيه انقطاع ؛ أي : راوٍ سقط من رواته ، والذي رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل : "ق" : هو اسم من أسماء الله عز وجل والذي ثبت عن مجاهد وهو من تلاميذ ابن عباس الملازمين .

---

1 الإمام ابن كثير توفي سنة 774هـ ، والإمام الآلوسي توفي سنة 1270هـ .

2 تفسير ابن كثير . والبغوي ج8 ص 37 .

له ، الناشرين لعلمه أنه حرف من حروف الهجاء ، كقوله تعالى : "ص ، ن ، حم ، طس ، آلم" ، فهذه تبعد ما تقدم عن ابن عباس رضي الله عنهما 1 . انتهى انتهى . اهـ ﴾

الإسرائيليات والموضوعات صـ 302. 305 ﴾

---

1 المرجع السابق .

(20/721)

فصل

قال الفخر :

﴿ ق والقرءان المجيد ﴾

وقبل التفسير نقول ما يتعلق بالسورة وهي أمور :

الأول : أن هذه السورة تقرأ في صلاة العيد ، لقوله تعالى فيها ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الخروج ﴾ [ق : 42] وقوله تعالى : ﴿ كذلك الخروج ﴾ [ق : 11] وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ [ق : 44] فإن العيد يوم الزينة ، فينبغي أن لا ينسى الإنسان خروجه إلى عرصات الحساب ، ولا يكون في ذلك اليوم فرحاً فخوراً ، ولا يرتكب فسقاً ولا فجوراً ، ولما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتذكير بقوله في آخر السورة ﴿ فَذَكِّرْ بالقرءان مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق : 45] ذكرهم بما يناسب حالهم في يومهم بقوله ﴿ ق والقرءان ﴾ .

الثاني : هذه السورة ، وسورة ﴿ ص ﴾ تشتركان في افتتاح أولهما بالحروف المعجم (1) والقسم بالقرآن وقوله ﴿ بَلِ ﴾ والتعجب ، ويشتركان في شيء آخر ، وهو أن أول السورتين وآخرهما متناسبان ، وذلك لأن في ﴿ ص ﴾ قال في أولها ﴿ ص والقرءان ذِى الذِكْر ﴾ [ص : 1] وقال في آخرها ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ للعالمين ﴾ [ص : 87] وفي ﴿ ق ﴾ قال في أولها ﴿ ق والقرءان ﴾ وقال في آخرها ﴿ فَذَكِّرْ بالقرءان مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق : 45] فافتتح بما اختتم به .

والثالث : وهو أن في تلك السورة صرف العناية إلى تقرير الأصل الأول وهو التوحيد ، بقوله تعالى : ﴿ أَجَعَلَ الآلهة إلها واحدا ﴾ [ص : 5] وقوله تعالى : ﴿ أَنِ امشوا واصبروا على آلهتكم ﴾ [ص : 6] وفي هذه السورة إلى تقرير الأصل الآخر وهو الحشر ، بقوله تعالى : ﴿ أَءذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ [ق : 3] ولما كان افتتاح السورة في ﴿ ص ﴾ في تقرير المبدأ ، قال في آخرها ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ للملائكة إِنِّى خالق بَشَراً مِّن طِينٍ ﴾ [ص : 71] وختمه بحكاية بدء (خلق) آدم ، لأنه دليل الوحدانية .

---

(1) يريد بالمعجم المعنى الأعم وإلا فإن ق حرف معجم أي منقوط وأما ص فهو حرف مهمل أي غير منقوط ، والإعجام إذا أطلق صرف إلى النقط .

ولما كان افتتاح هذه لبيان الحشر ، قال في آخرها ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرض عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ [ق : 44] وأما التفسير ، ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قيل ﴿ ق ﴾ اسم جبل محيط بالعالم ، وقيل معناه حكمة ، هي قولنا : قضى الأمر .

وفي ص : صدق الله ، وقد ذكرنا أن الحروف تنبيهات قدمت على القرآن ، ليبقى السامع مقبلاً على استماع ما يرد عليه ، فلا يفوته شيء من الكلام الرائق والمعنى الفائق .

وذكرنا أيضاً أن العبادة منها قلبية ، ومنها لسانية ، ومنها جارحية ظاهرة ، ووجد في الجارحية ما عقل معناه ، ووجد منها ما لم يعقل معناه ، كأعمال الحج من الرمي والسعي وغيرهما ، ووجد في القلبية ما عقل بدليل ، كعلم التوحيد ، وإمكان الحشر ، وصفات الله تعالى ، وصدق الرسل ، ووجد فيها ما يبعدها عن كونها معقولة المعنى أمور لا يمكن التصديق ، والجزم بما لولا السمع كالصراط الممدود الأحد من السيف الأرق من الشعر ، والميزان الذي يوزن به الأعمال ، فكذلك كان ينبغي أن تكون الأذكار التي هي العبادة اللسانية منها ما يعقل معناه كجميع القرآن إلا قليلاً منه ، ومنها ما لا يعقل ولا يفهم كحرف التهجي لكون التلفظ به محض الانقياد للأمر ، لا لما يكون في الكلام من طيب الحكاية والقصد إلى غرض ، كقولنا ربنا اغفر لنا وارحمنا بل يكون النطق به تعبداً محضاً ، ويؤيد

هذا وجه آخر ، وهو أن هذه الحروف مقسم بها ، وذلك لأن الله تعالى لما أقسم بالتين والزيتون كان تشريفاً لهما ، فإذا أقسم بالحروف التي هي أصل الكلام الشريف الذي هو دليل المعرفة ، وآلة التعريف كان أولى ، وإذا عرفت هذا فنقول على هذا فيه مباحث :

(22/721)

الأول : القسم من الله وقع بأمر واحد ، كما في قوله تعالى : ﴿ والعصر ﴾ وقوله تعالى : ﴿ والنجم ﴾ وبحرف واحد ، كما في قوله تعالى : ﴿ ص ﴾ و ﴿ ن ﴾ ووقع بأمرين ، كما في قوله تعالى : ﴿ والضحى والليل إذَا سجى ﴾ وفي قوله تعالى : ﴿ والسماء والطارق ﴾ وبحرفين ، كما في قوله تعالى : ﴿ طه ﴾ و ﴿ طس ﴾ و ﴿ يس ﴾ و ﴿ حم ﴾ وبثلاثة أمور ، كما في قوله تعالى : ﴿ والصافات . . .

فالزجرات . . .

فالتاليات ﴾ وبثلاثة أحرف ، كما في ﴿ الم ﴾ وفي ﴿ طسم والر ﴾ وبأربعة أمور ، كما في ﴿ والذريات ﴾ (1) وفي ﴿ والسماء ذَاتِ البروج ﴾ وفي ﴿ والتين ﴾ وبأربعة أحرف ، كما في ﴿ المص المر ﴾ وبخمسة أمور ، كما في ﴿ والطور ﴾ وفي ﴿ والمرسلات ﴾ وفي ﴿ والنازعات ﴾ وفي ﴿ والفجر ﴾ وبخمسة أحرف ، كما في ﴿ كهيعص وحمعسق ﴾

ولم يقسم بأكثر من خمسة أشياء إلا في سورة واحدة وهي ﴿ والشمس وضحاها ﴾ ولم يقسم بأكثر من خمسة أصول ، لأنه يجمع كلمة الاستثقال ، ولما استثقل حين ركب لمعنى ، كان استثقالها حين ركب من غير إحاطة العلم بالمعنى أو لا لمعنى كان أشد .

البحث الثاني : عند القسم بالأشياء المعهودة ، ذكر حرف القسم وهي الواو ، فقال : ﴿ والطور ﴾ ﴿ والنجم ﴾ ﴿ والشمس ﴾ وعند القسم بالحروف لم يذكر حرف القسم ، فلم يقل و ﴿ ق وحم ﴾ لأن القسم لما كان بنفس الحروف كان الحرف مقسماً به ، فلم يورده في موضع كونه آلة القسم تسوية بين الحروف .

البحث الثالث : أقسم الله بالأشياء : كالتين والطور ، ولم يقسم بأصولها ، وهي الجواهر الفردة والماء والتراب .

وأقسم بالحروف من غير تركيب ، لأن الأشياء عنده يركبها على أحسن حالها ، وأما الحروف إن ركبت بمعنى ، يقع الحلف بمعناه لا باللفظ ، كقولنا (والسماء والأرض) وإن ركبت لا بمعنى ، كان المفرد أشرف ، فأقسم بمفردات الحروف .

---

(1) يقصد ما عطف على الذاريات وهو قوله تعالى : فَالْحامِلاتِ وِقْراً ، فَالْجارِياتِ يُسْراً ، فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً وهكذا في وَالسَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ ، وَالتِّينِ ، وَالطُّورِ وَالْمُرْسَلاتِ ، وَالنَّازِعاتِ وَالْفَجْرِ يريد تمام الآيات .

البحث الرابع : أقسم بالحروف في أول ثمانية وعشرين سورة ، وبالأشياء التي عددها عدد الحروف ، وهي غير ﴿ والشمس ﴾ في أربع عشرة سورة ، لأن القسم بالأمور غير الحروف وقع في أوائل السور وفي أثنائها ، كقوله تعالى : ﴿ كَلاَّ والقمر * والليل إِذْ أَدْبَرَ ﴾ [المدثر : 32 ، 33] وقوله تعالى :

﴿ والليل وَمَا وَسَقَ ﴾ [الانشقاق : 17] وقوله ﴿ والليل إِذَا عَسْعَسَ ﴾ [التكوير : 17] والقسم بالحروف لم يوجد ولم يحسن إلا في أوائل السور ، لأن ذكر ما لا يفهم معناه في أثناء الكلام المنظوم المفهوم يخل بالفهم ، ولما كان القسم بالأشياء له موضعان والقسم بالحروف له موضع واحد جعل القسم بالأشياء في أوائل السور على نصف القسم بالحروف في أوائلها .

البحث الخامس : القسم بالحروف وقع في النصفين جميعاً بل في كل سبع وبالأشياء المعدودة لم يوجد إلا في النصف الأخير بل لم يوجد إلا في السبع الأخير غير والصافات ، وذلك لأنا بينا أن القسم بالحروف لم ينفك عن ذكر القرآن أو الكتاب أو التنزيل بعده إلا نادراً فقال تعالى : ﴿ يس * والقرءان الحكيم ﴾ [يس : 1 ، 2] ﴿ حم * تَنزِيلُ الكتاب ﴾ [غافر : 1 ، 2] ﴿ الم * ذلك الكتاب ﴾ [البقرة : 1 ، 2] ولما كان جميع القرآن معجزة مؤداة بالحروف وجد ذلك عاماً في جميع المواضع ولا كذلك القسم بالأشياء المعدودة ، وقد ذكرنا شيئاً من ذلك في سورة العنكبوت ، ولنذكر ما يختص بقاف قيل إنه اسم جبل محيط بالأرض عليه أطراف السماء وهو ضعيف لوجوه : أحدها : أن القراءة الكثيرة الوقف ، ولو كان اسم جبل لما جاز الوقف في الإدراج ، لأن من قال ذلك قال بأن الله تعالى أقسم به وثانيها : أنه لو كان كذلك لذكر بحرف القسم كما في قوله تعالى : ﴿ والطور ﴾ وذلك لأن حرف القسم يحذف حيث يكون المقسم به مستحقاً لأن يقسم به ، كقولنا الله لأفعلن كذا ، واستحقاقه لهذا غني عن الدلالة عليه باللفظ ولا يحسن أن يقال زيد لأفعلن ثالثها : هو أنه لو كان كما ذكر لكان يكتب قاف مع الألف والفاء كما يكتب ﴿ عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ [الغاشية : 12] ويكتب ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر : 36] وفي جميع المصاحف يكتب حرف ﴿ ق ﴾ ، رابعها : هو أن الظاهر أن الأمر فيه كالأمر في ﴿ ص ، ن ، حم ﴾ وهي حروف لا كلمات وكذلك في ﴿ ق ﴾ فإن قيل هو منقول عن

ابن عباس ، نقول المنقول عنه أن قاف اسم جبل ، وأما أن المراد في هذا الموضع به ذلك فلا ، وقيل إن معناه قضى الأمر ، وفي ﴿ ص ﴾ صدق الله ، وقيل هو اسم الفاعل من قفا يقفو وص من صاد من المصاداة ، وهي المعارضة ، معناه هذا قاف جميع الأشياء بالكشف ، ومعناه حينئذ هو قوله تعالى : ﴿ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : 59]

(25/721)

إذا قلنا إن الكتاب هناك القرآن .

هذا ما قيل في ﴿ ق ﴾ وأما القراءة فيه فكثيرة وحصرها بيان معناها ، فنقول إن قلنا هي مبنية على ما بينا فحقها الوقف إذ لا عامل فيها فيشبه بناء الأصوات ويجوز الكسر حذراً من التقاء الساكنين ، ويجوز الفتح اختياراً للأخف ، فإن قيل كيف جاز اختيار الفتح ههنا ، ولم يجز عند التقاء الساكنين إذا كان أحدهما آخر كلمة والآخر أول أخرى كما في قوله تعالى :

(26/721)

﴿ لَمْ يَكُنِ الذين كَفَرُواْ ﴾ [البينة : 1] ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الذين ﴾ [الأنعام : 52] ؟ نقول لأن هناك إنما وجب التحريك وعين الكسر في الفعل للشبهة تحرك الإعراب ، لأن الفعل محل يرد عليه الرفع والنصب ولا يوجد فيه الجر فاختيرت الكسرة التي لا يخفى على أحد أنها ليست بجر ، لأن الفعل لا يجوز فيه الجر ولو فتح لاشتبه بالنصب ، وأما في أواخر الأسماء فلا اشتباه ، لأن الأسماء محل ترد عليه الحركات الثلاث فلم يكن يمكن الاحتراز فاختاروا الأخف ، وأما إن قلنا إنها حرف مقسم به فحقها الجر ويجوز النصب بجعله مفعولاً باقسم على وجه الاتصال ، وتقدير الباء كأن لم يوجد ، وإن قلنا هي اسم السورة ، فإن قلنا مقسم بها مع ذلك فحقها الفتح لأنها لا تنصرف حينئذ ففتح في موضع الجر كما تقول وإبراهيم وأحمد في القسم بهما ، وإن قلنا إنه ليس مقسماً بها وقلنا اسم السورة ، فحقها الرفع إن جعلناها خبراً تقديره : هذه (ق) ، وإن قلنا هو من قفا يقفو فحقه التنوين كقولنا هذا داع وراع ، وإن قلنا اسم جبل فالجر والتنوين وإن كان قسماً ، ولنعد إلى التفسير فنقول الوصف قد يكون للتمييز وهو الأكثر كقولنا الكلام القديم ليتميز عن الحادث والرجل الكريم ليمتاز عن اللئيم ، وقد يكون لمجرد المدح كقولنا الله الكريم إذ ليس في الوجود إله آخر حتى نميزه عنه بالكريم ، وفي هذا الموضع يحتمل الوجهين ، والظاهر أنه لمجرد المدح ، وأما التمييز فبأن نجعل القرآن اسماً للمقروء ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الجبال ﴾ [

الرعد : 31] والمجيد العظيم ، وقيل المجيد هو كثير الكرم وعلى الوجهين القرآن مجيد ، أما على قولنا المجيد هو العظيم ، فلأن القرآن عظيم الفائدة ، ولأنه ذكر الله العظيم ، وذكر العظيم عظيم ، ولأنه لم يقدر عليه أحد من الخلق ، وهو آية العظمة يقال ملك عظيم إذا لم يكن يغلب ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءاتيناك سَبْعًا

(27/721)

مّنَ المثاني والقرءان العظيم ﴾ [الحجر : 87] أي الذي لا يقدر على مثله أحد ليكون معجزة دالة على نبوتك وقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج : 21 ، 22] أي محفوظ من أن يطلع عليه أحد إلا باطلاعه تعالى فلا يبدل ولا يغير و ﴿ لاَّ يَأْتِيهِ الباطل مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ﴾ [فصلت : 42] فهو غير مقدور عليه فهو عظيم ، وأما على قولنا المجيد هو كثير الكرم فالقرآن كريم كل من طلب منه مقصوده وجده ، وإنه مغن كل من لاذ به ، وإغناء المحتاج غاية الكرم ويدل عليه هو أن المجيد مقرون بالحميد في قولنا إنك حميد مجيد ، فالحميد هو المشكور والشكر على الإنعام والمنعم كريم فالمجيد هو الكريم البالغ في الكرم ، وفيه مباحث :

الأول : القرآن مقسم به فالمقسم عليه ماذا ؟ نقول فيه وجوه وضبطها بأن نقول ، ذلك إما

أن يفهم بقرينة حالية أو قرينة مقالية ، والمقالية إما أن تكون متقدمة على المقسم به أو متأخرة ، فإن قلنا بأنه مفهوم من قرينة مقالية متقدمة فلا متقدم هناك لفظاً إلا ﴿ ق ﴾ فيكون التقدير : هذا ﴿ ق والقرءان المجيد ﴾ أو ﴿ ق ﴾ أنزلها الله تعالى : ﴿ والقرءان ﴾ كما يقول هذا حاتم والله أي هو المشهور /بالسخاء ويقول الهلال رأيته والله ، وإن قلنا بأنه مفهوم من قرينة مقالية متأخرة ، فنقول ذلك أمران : أحدهما : المنذر والثاني : الرجع ، فيكون التقدير : والقرآن المجيد إنك المنذر ، أو : والقرآن المجيد إن الرجع لكائن ، لأن الأمرين ورد القسم عليهما ظاهراً ، أما الأول : فيدل عليه قوله تعالى : ﴿ يس * والقرءان الحكيم * إِنَّكَ لَمِنَ المرسلين ﴾ إلى أن قال : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ ءابَاؤُهُمْ ﴾ [ياس : 61] .

(28/721)

وأما الثاني : فدل عليه قوله تعالى : ﴿ والطور * وكتاب مُّسْطُورٍ ﴾ إلى أن قال : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ [الطور : 71] وهذا الوجه يظهر عليه غاية الظهور على قول من قال ﴿ ق ﴾ اسم جبل فإن القسم يكون بالجبل والقرآن ، وهناك القسم بالطور والكتاب المسطور وهو الجبل والقرآن ، فإن قيل أي الوجهين منهما أظهر عندك ؟ قلت الأول : لأن

المنذر أقرب من الرجع ، ولأن الحروف رأيناها مع القرآن والمقسم كونه مرسلاً ومنذراً ، وما رأينا الحروف ذكرت وبعدها الحشر ، واعتبر ذلك في سور منها قوله تعالى : ﴿ الم * تَنزِيلُ الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِ العالمين أَمْ يَقُولُونَ افتراه بَلْ هُوَ الحق مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ ﴾ [السجدة : 1 3] ولأن القرآن معجزة دالة على كون محمد رسول الله ، فالقسم به عليه يكون إشارة إلى الدليل على طريقة القسم ، وليس هو بنفسه دليلاً على الحشر ، بل فيه أمارات مفيدة للجزم بالحشر بعد معرفة صدق الرسول ، وأما إن قلنا هو مفهوم بقرينة حالية ، فهو كون محمد صلى الله عليه وسلم على الحق ولكلامه صفة الصدق ، فإن الكفار كانوا ينكرون ذلك والمختار ما ذكرناه والثاني : ﴿ بَلْ عَجِبُواْ ﴾ [ق : 2] يقتضي أن يكون هناك أمر مضرب عنه فما ذلك ؟ نقول قال الواحدي ووافقه الزمخشري إنه تقدير قوله ما الأمر كما يقولون ونزيده وضوحاً ، فنقول على ما اخترناه : فإن التقدير ، والله أعلم ق والقرآن المجيد إنك لتنذر ، فكأنه قال بعده وإنهم شكوا فيه فأضرب عنه .

بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (2)

يعني لم يقتنعوا بالشك في صدق الأمر وطرحه بالترك وبعد الإمكان ، بل جزموا بخلافه حتى جعلوا ذلك من الأمور العجيبة ، فإن قيل فما الحكمة في هذا الاختصار العظيم في موضع واحد حذف المقسم عليه والمضرب عنه ، وأتى بأمر لا يفهم إلا بعد الفكر العظيم ولا يفهم مع الفكر إلا بالتوفيق العزيز ؟ فنقول إنما حذف المقسم عليه لأن الترك في بعض المواضع يفهم منه ظهور لا يفهم من الذكر ، وذلك لأن من ذكر الملك العظيم في مجلس وأثنى عليه يكون قد عظمه ، فإذا قال له غيره هو لا يذكر في هذا المجلس يكون بالإرشاد إلى ترك الذكر دالاً على عظمته فوق ما يستفيد صاحبه بذكره فالله تعالى يقول لبيان رسالتك أظهر من أن يذكر ، وأما حذف المضرب عنه ، فلأن المضرب عنه إذا ذكر وأضرب عنه بأمر آخر إنما يحسن إذا كان بين المذكورين تفاوت ما ، فإذا عظم التفاوت لا يحسن ذكرهما مع الإضراب ، مثاله يحسن أن يقال الوزير يعظم فلاناً بل الملك يعظمه ، ولا يحسن أن يقال البواب يعظم فلاناً بل الملك يعظمه لكون البون بينهما بعيداً ، إذ الإضراب للتدرج ، فإذا ترك المتكلم المضرب عنه صريحاً وأتى بحرف الإضراب استفيد منه أمران أحدهما : أنه يشير إلى أمر آخر قبله وثانيهما : أنه يجعل الثاني تفاوتاً عظيماً مثل ما يكون ومما لا يذكر ، وههنا كذلك لأن الشك بعد قيام البرهان بعيد لكن القطع بخلافه في غاية ما يكون من البعد .

(30/721)

المبحث الثالث : أن مع الفعل يكون بمثابة ذكر المصدر ، تقول أمرت بأن أقوم وأمرت بالقيام ، وتقول ما كان جوابه إلا أن قال وما كان جوابه إلا قوله كذا وكذا ، وإذا كان كذلك فلم ينزل عن الإتيان بالمصدر حيث جاز أن يقال أمرت أن أقوم من غير حرف الإلصاق ، ولا يجوز أن يقال أمرت القيام بل لا بد من الباء ، ولذلك قالوا أي عجبوا من مجيئه ، نقول ﴿ أَن جَاءهُمْ ﴾ وإن كان في المعنى قائماً مقام المصدر لكنه في الصورة فعل وحرف ، وحروف التعدية كلها حروف جارة والجار لا يدخل على الفعل ، فكان الواجب أن لا يدخل فلا أقل من أن يجوز عدم الدخول ، فجاز أن يقال ﴿ عَجِبُواْ أَن جَاءهُمْ ﴾ ولا يجوز عجبوا مجيئهم لعدم المانع من إدخال الحروف عليه .

(31/721)

وقوله تعالى : ﴿ مِنْهُمْ ﴾ يصلح أن يكون مذكوراً كالمقرر لتعجبهم ، ويصلح أن يكون مذكوراً لإبطال تعجبهم ، أما التقرير فلأنهم كانوا يقولون ﴿ أَبَشَراً مِّنَّا واحدا نَّتَّبِعُهُ ﴾ [القمر : 24] و ﴿ قَالُواْ مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [ياس : 15] إشارة إلى أنه كيف يجوز اختصاصكم بهذه المنزلة الرفيعة مع اشتراكنا في الحقيقة واللوازم وأما الإبطال فلأنه إذا

كان واحداً منهم ويرى بين أظهرهم ، وظهر عليه ما عجز عنه كلهم ومن بعدهم كان يجب عليهم أن يقولوا هذا ليس من عنده ولا من عند أحد من جنسنا ، فهو من عند الله بخلاف ما لو جاءهم واحد من خلاف جنسهم وأتى بما يعجزون عنه ، فإنهم كانوا يقولون نحن لا نقدر لأن لكل نوع خاصية ، فإن خاصية النعامة بلع النار ، والطيور الطير في الهواء ، وابن آدم لا يقدر عليه فإن قيل الإبطال جائز لأن قولهم كان باطلاً ، ولكن تقرير الباطل كيف يجوز ، نقول المبين لبطلان الكلام يجب أن يورده على أبلغ ما يمكن ويذكر فيه كل ما يتوهم أنه دليل عليه ثم يبطله ، فلذلك قال عجبتم بسبب أنه منكم ، وهو في الحقيقة سبب لهذا التعجب ، فإن قيل النبي صلى الله عليه وسلم كان بشيراً ونذيراً والله تعالى في جميع المواضع قدم كونه بشيراً على كونه نذيراً ، فلم لم يذكر : عجبوا أن جاءهم بشير منهم ؟ نقول هو لما لم يتعين للبشارة موضعاً كان في حقهم منذراً لا غير .

ثم قال تعالى : ﴿ فَقَالَ الكافرون هذا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ .

(32/721)

قال الزمخشري هذا تعجب آخر من أمر آخر وهو الحشر الذي أشار إليه بقوله ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ [ق : 3] فعجبوا من كونه منذراً من وقوع الحشر ، ويدل

عليه النظر في أول سورة ص حيث قال فيه ﴿ وَعَجِبُواْ أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ ﴾ [ص : 4] وقال : ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص : 5] ذكر تعجبهم من أمرين والظاهر أن قولهم ﴿ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ إشارة إلى مجيء المنذر لا إلى الحشر ويدل عليه وجوه الأول : هو أن هناك ذكر ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ بعد الاستفهام الإنكاري فقال : ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ وقال ههنا ﴿ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ ولم يكن ما يقع الإشارة إليه إلا مجيء المنذر .

ثم قالوا : ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ الثاني : ههنا وجد بعد الاستبعاد بالاستفهام أمر يؤدي معنى التعجب وهو قولهم ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ فإنه استبعاد وهو كالتعجب فلو كان التعجب أيضاً عائداً إليه لكان كالتكرار ، فإن قيل التكرار الصريح يلزم من جعل قولك ﴿ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ عائداً إلى مجيء المنذر ، فإن تعجبهم منه علم من قوله ﴿ عَجِبُواْ أَن جَاءهُمْ ﴾ فقوله ﴿ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ يكون تكراراً ، نقول ذلك ليس بتكرار بل هو تقرير ، وذلك لأنه لما قال : ﴿ بَلْ عَجِبُواْ ﴾ بصيغة الفعل وجاز أن يتعجب الإنسان مما لا يكون عجيباً كما قال تعالى : ﴿ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ ﴾ [هود : 73] ويقال في العرف لا وجه لتعجبك مما ليس بعجب فكأنهم لما عجبوا قيل لهم لا معنى لفعلكم وعجبكم فقالوا ﴿ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ فكيف لا نعجب منه ، ويدل عليه أنه تعالى قال ههنا ﴿ فَقَالَ الكافرون ﴾ بحرف الفاء ، وقال في ص

﴿ وَقَالَ الكافرون هذا ساحر كَذَّابٌ ﴾ [ص : 4] لأن قولهم ﴿ ساحر كَذَّابٌ ﴾ كان تعنتاً غير مرتب على ما تقدم ، و ﴿ هذا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ أمر مرتب على ما تقدم أي عجبوا وأنكروا عليه ذلك ، فقالوا ﴿ هذا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ فكيف لا نعجب منه ، ويدل عليه أيضاً قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ [ق : 3] بلفظ الإشارة إلى البعد ، وقوله هذا إشارة إلى الحاضر القريب ، فينبغي أن يكون المشار إليه بذلك غير المشار إليه بهذا ، وذلك لا يصح إلا على قولنا .

أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (3)

فإنهم لما أظهروا العجب من رسالته أظهروا استبعاد كلامه ، وهذا كما قال تعالى عنهم ﴿ قَالُواْ مَا هذا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءابَاؤُكُمْ ﴾ [سبأ : 43] ، ﴿ وَقَالُواْ مَا هذا إِلاَّ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ﴾ [سبأ : 43] وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

فقوله ﴿ أَءذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ﴾ إنكار منهم بقول أو بمفهوم دل عليه قوله تعالى : ﴿ جَاءهُمْ مُّنذِرٌ ﴾ [ق : 2] لأن الإنذار لما لم يكن إلا بالعذاب المقيم والعقاب الأليم ، كان فيه

الإشارة للحشر ، فقالوا ﴿ أَءذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ﴾ .

المسألة الثانية :

ذلك إشارة إلى ما قاله وهو الإنذار ، وقوله ﴿ هذا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [ق : 2] إشارة إلى المجيء على ما قلنا ، فلما اختلفت الصفتان نقول المجيء والجائي كل واحد حاضر .

(34/721)

وأما الإنذار وإن كان حاضراً لكن لكون المنذر به لما كان غير حاضر قالوا فيه ذلك ، والرجع مصدر رجع يرجع إذا كان متعدياً ، والرجوع مصدره إذا كان لازماً ، وكذلك الرجعي مصدر عند لزومه ، والرجع أيضاً يصح مصدراً للازم ، فيحتمل أن يكون المراد بقوله ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ أي رجوع بعيد ، ويحتمل أن يكون المراد الرجع المتعدي ، ويدل على الأول قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرجعى ﴾ [العلق : 8] وعلى الثاني قوله تعالى : ﴿ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ ﴾ [النازعات : 10] أي مرجعون فإنه من الرجع المتعدي ، فإن قلنا هو من المتعدي ، فقد أنكروا كونه مقدوراً في نفسه .

قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (4)

(35/721)

إشارة إلى دليل جواز البعث وقدرته تعالى عليه ، وذلك لأن الله تعالى بجميع أجزاء كل واحد من الموتى لا يشتبه عليه جزء أحد على الآخر ، وقادر على الجمع والتأليف ، فليس الرجوع منه ببعد ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الخلاق العليم ﴾ [ياس : 81] حيث جعل للعلم مدخلاً في الإعادة ، وقوله ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأرض ﴾ يعني لا تخفى علينا أجزاؤهم بسبب تشتتها في تخوم الأرضين ، وهذا جواب لما كانوا يقولون ﴿ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى الأرض ﴾ [السجدة : 10] يعني أن ذلك إشارة إلى أنه تعالى كما يعلم أجزاؤهم يعلم أعمالهم من ظلمهم ، وتعديهم بما كانوا يقولون وبما كانوا يعملون ، ويحتمل أن يقال معنى قوله تعالى : ﴿ وَعِندَنَا كتاب حَفِيظٌ ﴾ هو أنه عالم بتفاصيل الأشياء ، وذلك لأن العلم إجمالي وتفصيلي ، فالإجمالي كما يكون عند الإنسان الذي يحفظ كتاباً ويفهمه ، ويعلم أنه إذا سئل عن أية مسألة تكون في الكتاب يحضر عنده الجواب ، ولكن ذلك لا يكون نصب عينيه حرفاً بحرف ، ولا يخطر بباله في حالة باباً باباً ، أو فصلاً فصلاً ، ولكن عند العرض على الذهن لا يحتاج إلى تجديد فكر وتجديد نظر ، والتفصيلي مثل الذي يعبر عن الأشياء ، والكتاب الذي كتب فيه تلك المسائل ، وهذا لا يوجد عند الإنسان إلا في مسألة أو مسألتين .

(36/721)

أما بالنسبة إلى كتاب فلا يقال : ﴿ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ يعني العلم عندي كما يكون في الكتاب أعلم جزءاً جزءاً وشيئاً شيئاً ، والحفيظ يحتمل أن يكون بمعنى المحفوظ ، أي محفوظ من التغيير والتبديل ، ويحتمل أن يكون بمعنى الحافظ ، أي حافظ أجزاءهم وأعمالهم بحيث لا ينسى شيئاً منها ، والثاني هو الأصح لوجهين أحدهما : أن الحفيظ بمعنى الحافظ وارد في القرآن ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ [الأنعام : 104] وقال تعالى : ﴿ واللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ [الشورى : 6] ولأن الكتاب على ما ذكرنا للتمثيل فهو يحفظ الأشياء ، وهو مستغن عن أن يحفظ .

وقوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بالحق ﴾ .

(37/721)

رد عليهم ، فإن قيل ما المضروب عنه ، نقول فيه وجهان أحدهما : تقديره لم يكذب المنذر ، بل كذبوا هم ، وتقديره هو أنه تعالى لما قال عنهم إنهم قالوا ﴿ هذا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [ق

: 2] كان في معنى قولهم : إن المنذر كاذب ، فقال تعالى : لم يكذب المنذر ، بل هم كذبوا ، فإن قيل : ما الحق ؟ نقول يحتمل وجوهاً الأول : البرهان القائم على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم الثاني : الفرقان المنزل وهو قريب من الأول ، لأنه برهان الثالث : النبوة الثابتة بالمعجزة القاهرة فإنها حق الرابع : الحشر الذي لا بد من وقوعه فهو حق ، فإن قيل بين لنا معنى الباء في قوله تعالى : ﴿ بالحق ﴾ وأية حاجة إليها ، يعني أن التكذيب متعد بنفسه ، فهل هي للتعدية إلى مفعول ثان أو هي زائدة ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّكُمُ المفتون ﴾ [القلم : 5 ، 6] نقول فيه بحث وتحقيق ، وهي في هذا الموضع لإظهار معنى التعدية ، وذلك لأن التكذيب هو النسبة إلى الكذب ، لكن النسبة تارة توجد في القائل ، وأخرى في القول ، تقول : كذبني فلان وكنت صادقاً ، وتقول : كذب فلان قول فلان ، ويقال كذبه ، أي جعله كاذباً ، وتقول : قلت لفلان زيد يجيء غداً ، فتأخر عمداً حتى كذبني وكذب قولي ، والتكذيب في القائل يستعمل بالباء وبدونها ، قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ المرسلين ﴾ [الشعراء : 141] وقال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بالنذر ﴾ [القمر : 23] وفي القول كذلك غير أن الاستعمال في القائل بدون الباء أكثر ، قال تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ [الأعراف : 64] وقال : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ [فاطر : 4] إلى غير ذلك ، وفي القول الاستعمال بالباء أكثر

، قال الله تعالى : ﴿ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا كُلِّهَا ﴾ [القمر : 42] وقال : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِالحق ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ بِالصدق إِذْ جَاءهُ ﴾ [الزمر : 32] والتحقيق فيه هو أن

(38/721)

المفعول المطلق هو المصدر ، لأنه هو الذي يصدر من الفاعل ، فإن من ضرب لم يصدر منه غير الضرب ، غير أن له محلاً يقع فيه فيسمى مضروباً ، ثم إذا كان ظاهراً لكونه محلاً للفعل يستغني بظهوره عن الحرف فيعدى من غير حرف ، يقال ضربت عمراً ، وشربت خمراً ، للعلم بأن الضرب لا بد له من محل يقوم به ، والشرب لا يستغني عن مشروب يتحقق فيه ، وإذا قلت مررت يحتاج إلى الحرف ، ليظهر معنى التعدية لعدم ظهوره في نفسه ، لأن من قال : مر السحاب يفهم منه مرور ولا يفهم منه من مر به ، ثم إن الفعل قد يكون في الظهور دون الضرب والشرب ، وفي الخفاء دون المرور ، فيجوز الإتيان فيه بدون الحرف لظهوره الذي فوق ظهور المرور ، ومع الحرف لكون الظهور دون ظهور الضرب ، ولهذا لا يجوز أن تقول : ضربت بعمرو ، إلا إذا جعلته آلة الضرب .

أما إذا ضربته بسوط أو غيره ، فلا يجوز فيه زيادة الباء ، ولا يجوز مروا به إلا مع الاشتراك ، وتقول مسحته ومسحت به وشكرته وشكرت له ، لأن المسح إمرار اليد بالشيء فصار

كالمرور ، والشكر فعل جميل غير أنه يقع بمحسن ، فالأصل في الشكر ، الفعل الجميل ، وكونه واقعاً بغيره كالبيع بخلاف الضرب ، فإنه إمساس جسم بجسم بعنف ، فالمضروب داخل في مفهوم الضرب أولاً ، والمشكور داخل في مفهوم الشكر ثانياً ، إذا عرفت هذا فالتكذيب في القائل ظاهر لأنه هو الذي يصدق أو يكذب ، وفي القول غير ظاهر فكان الاستعمال فيه بالباء أكثر والباء فيه لظهور معنى التعدية .

(39/721)

وقوله ﴿ لَمَّا جَاءهُمْ ﴾ في الجائي وجهان : أحدهما : أنه هو المكذب تقديره : كذبوا بالحق لما جاءهم الحق ، أي لم يؤخروه إلى الفكر والتدبر ثانيهما : الجائي ههنا هو الجائي في قوله تعالى : ﴿ بَلْ عَجِبُواْ أَن جَاءهُمْ مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ [ق : 2] تقديره : كذبوا بالحق لما جاءهم المنذر ، والأول لا يصح على قولنا الحق وهو الرجع ، لأنهم لا يكذبون به وقت المجيء بل يقولون ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرحمن ﴾ [ياس : 52] .

وقوله ﴿ فَهُمْ فِى أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ أي مختلف مختلط قال الزجاج وغيره : لأنهم تارة يقولون ساحر وأخرى شاعر ، وطوراً ينسبونه إلى الكهانة ، وأخرى إلى الجنون ، والأصح أن يقال : هذا بيان الاختلاف المذكور في الآيات ، وذلك لأن قوله تعالى : ﴿ بَلْ عَجِبُواْ ﴾ يدل

على أمر سابق أضرب عنه ، وقد ذكرنا أنه الشك وتقديره : والقرآن المجيد ، إنك لمنذر ، وإنهم شكوا فيك ، بل عجبوا ، بل كذبوا .

وهذه مراتب ثلاث الأولى : الشك وفوقها التعجب ، لأن الشاك يكون الأمران عنده سيين ، والمتعجب يترجح عنده اعتقاد عدم وقوع العجيب لكنه لا يقطع به والمكذب الذي يجزم بخلاف ذلك ، فكأنهم كانوا شاكين وصاروا ظانين وصاروا جازمين فقال : ﴿ فَهُمْ فِى أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ ويدل عليه الفاء في قوله ﴿ فَهُمْ ﴾ لأنه حينئذ يصير كونهم ﴿ فِى أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ مرتباً على ما تقدم وفيما ذكروه لا يكون مرتباً .

فإن قيل : المريج ، المختلط ، وهذه أمور مرتبة متميزة على مقتضى العقل ، لأن الشاك ينتهي إلى درجة الظن ، والظان ينتهي إلى درجة القطع ، وعند القطع لا يبقى الظن ، وعند الظن لا يبقى الشك ، وأما ما ذكروه ففيه يحصل الاختلاط لأنهم لم يكن لهم في ذلك ترتيب ، بل تارة كانوا يقولون كاهن وأخرى مجنون ، ثم كانوا يعودون إلى نسبته إلى الكهانة بعد نسبته إلى الجنون وكذا إلى الشعر بعد السحر وإلى السحر بعد الشعر فهذا هو المريج .

(40/721)

نقول كان الواجب أن ينتقلوا من الشك إلى الظن بصدقه لعلمهم بأمانته واجتنابه الكذب طول عمره بين أظهرهم ، ومن الظن إلى القطع بصدقه لظهور المعجزات القاهرة على يديه ولسانه ، فلما غيروا الترتيب حصل عليه المرج ووقع الدرك مع المرج ، وأما ما ذكروه فاللائق به تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ [الذاريات : 8] لأن ما كان يصدر منهم في حقه كان قولاً مختلفاً ، وأما الشك والظن والجزم فأمور مختلفة ، وفيه لطيفة وهي أن إطلاق لفظ المريج على ظنهم وقطعهم ينبىء عن عدم كون ذلك الجزم صحيحاً لأن الجزم الصحيح لا يتغير ، وكان ذلك منهم واجب التغير فكان أمرهم مضطرباً ، بخلاف المؤمن الموفق فإنه لا يقع في اعتقاده تردد ولا يوجد معتقده تعدد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 125.133 ﴾

(41/721)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ ق والقرآن المجيد ﴾

قرأ العامة "قاف" بالجزم .

وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق ونصر ابن عاصم "قافِ" بكسر الفاء ؛ لأن الكسر أخو

الجزم ، فلما سكن آخره حرّكوه بحركة الخفض .

وقرأ عيسى الثقفيّ بفتح الفاء حرّكه إلى أخف الحركات .

وقرأ هارون ومحمد بن السَّمَيْقَع "قافُ" بالضم ؛ لأنه في غالب الأمر حركة البناء نحو منذُ وقطُّ وقبلُ وبعدُ .

واختلف في معنى "قا" ما هو ؟ فقال ابن زيد وعكرمة والضحاك : هو جبل محيط بالأرض من زمردة خضراء اخضرت السماء منه ، وعليه طَرَفَا السماءِ والسماء عليه مَقْبِيَّةٌ ، وما أصاب الناسُ من زمرد كان مما تساقط من ذلك الجبل .

ورواه أبو الجوزاء عن عبد الله بن عباس .

قال الفرّاء : كان يجب على هذا أن يظهر الإعراب في "قا" ؛ لأنه اسم وليس بهجاء .

قال : ولعل القاف وحدها ذكرت من اسمه ؛ كقول القائل :

قلتُ لها قِفِي فقالتْ قافْ . . .

أي أنا واقفة .

وهذا وجه حسن وقد تقدّم أوّل "البقرة" .

وقال وهب : أشرف ذو القرنين على جبل قاف فرأى تحته جبالاً صغاراً ، فقال له : ما أنت ؟ قال : أنا قاف ؛ قال : فما هذه الجبال حولك ؟ قال : هي عروقي وما من مدينة إلا وفيها عرق من عروقي ، فإذا أراد الله أن يزلزل مدينة أمرني فحركت عرقي ذلك فتزلزت

تلك الأرض ؛ فقال لَه : يا قاف أخبرني بشيء من عظمة الله ؛ قال : إن شأن ربِّنا لعظيمٌ ، وإن ورائي أرضاً مسيرة خمسمائة عام في خمسمائة عام من جبال ثلج يحطم بعضها بعضا ، لولا هي لاحترقت من حرّ جهنم .

فهذا يدل على أن جهنم على وجه الأرض والله أعلم بموضعها ؛ وأين هي من الأرض .

(42/721)

قال : زدني ، قال : إن جبريل عليه السلام واقف بين يدي الله تُرْعَد فرائصُه ، يخلق الله من كل رِعدة مائة ألف ملك ، فأولئك الملائكة وقوف بين يدي الله تعالى منكسو رؤوسهم ، فإذا أذن الله لهم في الكلام قالوا : لا إله إلا الله ؛ وهو قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الروح والملائكة صَفّاً لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن وَقَالَ صَوَاباً ﴾ [النبأ : 38] يعني قول : لا إله إلا الله .

وقال الزجاج : قوله "قا" أي قُضِيَ الأمر ، كما قيل في "حما" أي حُمَّ الأمرُ .

وقال ابن عباس : "قا" اسم من أسماء الله تعالى أقسم به .

وعنه أيضاً : أنه اسم من أسماء القرآن .

وهو قول قتادة .

وقال القُرظيّ : افتتاح أسماء الله تعالى قدير وقاهر وقريب وقاضٍ وقابض .

وقال الشَّعبيّ : فاتحة السورة .

وقال أبو بكر الورّاق : معناه قِف عند أمرنا ونهينا ولا تَعْدُهما .

وقال محمد بن عاصم الأنطاكيّ : هو قرب الله من عباده ، بيانه ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريد ﴾ وقال ابن عطاء : أقسم الله بقوّة قلب حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث حمل الخطاب ولم يؤثر ذلك فيه لعلو حاله .

﴿ والقرآن المجيد ﴾ أي الرفيع القدر .

وقيل : الكريم ؛ قاله الحسن .

وقيل : الكثير ؛ مأخوذ من كثرة القدر والمنزلة لا من كثرة العدد ، من قولهم : كثير فلان في النفوس ؛ ومنه قول العرب في المثل السائر : (في كل شجرٍ نارْ ، واستمجد المَرْخُ والعَفَارْ) . أي استكثر هذان النوعان من النار فزادا على سائر الشجر ؛ قاله ابن بحر .

وجواب القسم قيل هو : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرض مِنْهُمْ ﴾ على إرادة اللام ؛ أي لقد علمنا .

وقيل : هو ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ وهو اختيار الترمذيّ محمد بن عليّ قال : "قا" قسم باسم هو أعظم الأسماء التي خرجت إلى العباد وهو القدرة ، وأقسم أيضاً بالقرآن المجيد ، ثم اقتص ما خرج من القدرة من خلق السموات والأرضين وأرزاق العباد ، وخلق الآدميين ، وصفة يوم القيامة والجنة والنار ، ثم قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ فوقع القسم على هذه الكلمة كأنه قال : "قا" أي بالقدرة والقرآن المجيد أقسمت أن فيما اقتصصت في هذه السورة ﴿ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ وقال ابن كيسان : جوابه ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ ﴾ .

وقال أهل الكوفة : جواب هذا القسم ﴿ بَلْ عَجِبُوا ﴾ وقال الأخفش : جوابه محذوف كأنه قال : ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ لتبعثن ؛ يدل عليه ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ "أَنْ" في موضع نصب على تقدير لأن جاءهم منذر منهم ، يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ، والضمير للكفّار .

وقيل : للمؤمنين والكفار جميعاً .

ثم ميّز بينهم بقوله تعالى : ﴿ فَقَالَ الْكَافِرُونَ ﴾ ولم يقل فقالوا ، بل قبح حالهم وفعلهم ووصفهم بالكفر ، كما تقول : جاءني فلان فأسمعني المكروه ، وقال لي الفاسق أنت كذا وكذا .

﴿ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ العجيب الأمر الذي يتعجب منه ، وكذلك العُجَاب بالضم ،

والعُجَّاب بالتشديد أكثر منه ، وكذلك الأعجوبة .

وقال قتادة : عجبهم أن دُعوا إلى إله واحد .

وقيل : من إنذارهم بالبعث والنشور .

والذي نص عليه القرآن أولى .

قوله تعالى : ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ﴾ نبعث ؛ ففيه إضمار .

﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ الرجع الردّ أي هو ردّ بعيد أي محال .

يقال : رَجَعْتُه أَرْجِعه رَجْعاً ، ورَجَع هو يَرجِعُ رُجوعاً ، وفيه إضمار آخر ؛ أي وقالوا أنبعث إذا متنا .

(44/721)

وذكر البعث وإن لم يجر ها هنا فقد جرى في مواضع ، والقرآن كالسورة الواحدة .

وأيضاً ذكر البعث منطوٍ تحت قوله : ﴿ بَلْ عجبوا أَن جَآءَهُمْ مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ لأنه إنما ينذر بالعقاب والحساب في الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرض مِنْهُمْ ﴾ أي ما تأكل من أجسادهم فلا يضل عنا شيء حتى تتعذر علينا الإعادة .

وفي التنزيل : ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ القرون الأولى قَالَ فَمَا بَالُ القرون الأولى قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى ﴾

[طه : 51 – 52] وفي الصحيح : "كل ابن آدم يأكله التراب إلا عَجْبَ الذَّنَبِ منه خُلِقَ وفيه يُرَكَّبُ" وقد تقدّم .

وثبت أن الأنبياء والأولياء والشهداء لا تأكل الأرضُ أجسادهم ؛ حرم الله على الأرض أن تأكل أجسادهم .

وقد بينا هذا في كتاب "التذكرة" وتقدّم أيضاً في هذا الكتاب .

وقال السدي : النقص هنا الموت يقول قد علمنا منهم من يموت ومن يبقى ؛ لأن من مات دُفِن فكأنّ الأرض تَنقصُ من الناس .

وعن ابن عباس : هو من يدخل في الإسلام من المشركين .

﴿ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ أي بعدّتهم وأسمائهم فهو فعيل بمعنى فاعل .

وقيل : اللوح المحفوظ أي محفوظ من الشياطين أو محفوظ فيه كل شيء .

وقيل : الكتاب عبارة عن العلم والإحصاء ؛ كما تقول : كتبت عليك هذا أي حفظته ؛ وهذا ترك الظاهر من غير ضرورة .

وقيل : أي وعندنا كتاب حفيظ لأعمال بني آدم لنحاسبهم عليها .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بالحق ﴾ أي القرآن في قول الجميع ؛ حكاه الماورديّ .

وقال الثعلبي : بالحق القرآن .

وقيل : الإسلام .

وقيل : محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ أي مختلط .

يقولون مرة ساحر ومرة شاعر ومرة كاهن ؛ قاله الضحاك وابن زيد .

وقال قتادة : مختلِف .

الحسن : ملتبِس ؛ والمعنى متقارب .

(45/721)

وقال أبو هريرة : فاسد ، ومنه مَرِجت أمانات الناس أي فسدت ؛ ومَرِجَ الدينُ والأمرُ اختلط ؛ قال أبو دؤاد :

مَرِجَ الدِّينُ فَأَعْدَدْتُ لَهُ . . .
مُشْرِفَ الْحَارِكِ مَحْبُوكَ الْكَتَدْ

وقال ابن عباس : المريج الأمر المنكر .

وقال عنه عمران بن أبي عطاء : "مريج" مختلط .

وأنشد :

فجَالتْ فالتمست به حَشَاهَا . . .

فخرّ كأنه خُوطٌ مَرِيجُ

الخُوطُ الغصن .

وقال عنه العوفيّ : في أمر ضلالة وهو قولهم ساحر شاعر مجنون كاهن .

وقيل : متغير .

وأصل المَرَج الاضطراب والقلق ؛ يقال : مَرِجَ أمرُ الناس ومَرِج أمرُ الدِّين ومرِج الخاتم في إصبعي إذا قَلِق من الهزال .

وفي الحديث : "كيف بك يا عبد الله إذا كنت في قوم قد مَرِجت عهودهم وأمانَاتهُم واختلفوا فكانوا هكذا وهكذا " وشبك بين أصابعه .

أخرجه أبو داود وقد ذكرناه في كتاب "التذكرة" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(46/721)

وقال الآلوسى :

﴿ ق والقرءان المجيد ﴾

ذي المجد والشرف من باب النسب كلابن وتامر وإلا فالمعروف وصف الذات الشريفة به ، وصنيع بعضهم ظاهر في اختيار هذا الوجه ، وأورد عليه أن ذلك غير معروف في فعيل كما قاله ابن هشام في ﴿ إن رحمت الله قريب ﴾ [الأعراف : 56] وأنت تعلم أن من حفظ حجة على من لم يحفظ ، وشرفه على هذا بالنسبة لسائر الكتب ، أما غير الإلهية فظاهر ، وأما الإلهية فلاعجازه وكونه غير منسوخ بغيره واشتماله مع إيجازع على أسرار يضيق عنها كل واحد منها ، وقال الراغب : المجد السعة في الكرم وأصله مجدت الإبل إذا وقعت في مرعى كثير واسع ، ووصف القرآن به لكثرة ما يتضمن من المكارم الدنيوية والأخروية ، ويجوز أن يكون وصفه بذلك لأنه كلام المجيد فهو وصف بصفة قائله .

فالإسناد مجازي كما في القرآن الحكيم أو لأن من علم معانيه وعمل بما فيه مجد عند الله تعالى وعند الناس ، فالكلام بتقدير مضاف حذف فارتفع الضمير المضاف إليه ، أو فعيل فيه بمعنى مفعل كبديع بمعنى مبدع لكن في مجيء فعيل وصفا من الإفعال كلام ، وأكثر أهل اللغة والعربية لم يثبته ، وأكثر ما تقدم في قوله تعالى : ﴿ ص والقرءان ذِى الذكر ﴾ [ص : 1] يجري ههنا حتى أنه قيل : يجوز أن يكون ﴿ ق ﴾ أمراً من مفاعلة قفا أثره أي تبعه ،

والمعنى اتبع القرآن واعلم بما فيه ، ولم يسمع مأثوراً ، ومثله ما قيل : إنه أمر بمعنى قف أي قف عند ما شرع لك ولا تجاوزه .

(47/721)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : خلق الله تعالى من وراء هذه الأرض بحراً محيطاً بها ومن وراء ذلك جبلاً يقال له قاف السماء الدنيا مترفرفة عليه ثم خلق من وراء ذلك الجبل أرضاً مثل تلك الأرض سبع مرات ثم خلق من وراء ذلك بحراً محيطاً بها ثم خلق وراء ذلك جبلاً يقال له قاف السماء الثانية مترفرفة عليه حتى عد سبع أرضين وسبعة أبحر وسبعة أجبل ثم قال : وذلك قوله تعالى : ﴿ والبحر يمده سبعة أبحر ﴾ [لقمان : 27] وأخرج ابن أبي الدنيا في العقوبات" وأبو الشيخ عنه أيضاً أنه قال : خلق الله تعالى جبلاً يقال له قاف محيطاً بالعالم وعروقه إلى الصخرة التي عليها الأرض فإذا أراد الله تعالى أن يزلزل قرية أمر ذلك الجبل فحرك العرق الذي يلي تلك القرية فيزلزلها ويحركها فمن ثم تحرك القرية دون القرية .

وأخرج ابن المنذر .

وأبو الشيخ في العظمة" .

والحاكم.

وابن مردويه عن عبد الله بن بريدة أنه قال في الآية : قاف جبل من زمرد محيط بالدنيا عليه كنفا السماء .

وأخرج عبد الرزاق عن مجاهد أنه أيضاً قال : هو جبل محيط بالأرض ، وذهب القرافي إلى أن جبل قاف لا وجود له وبرهن عليه بما برهن ثم قال : ولا يجوز اعتقاد ما لا دليل عليه .

(48/721)

وتعقبه ابن حجر الهيتمي فقال : يرد ذلك ما جاء عن ابن عباس من طرق خرجها الحفاظ وجماعة منهم ممن التزموا تخريج الصحيح ، وقول الصحابي ذلك ونحوه مما لا مجال للرأي فيه حكمه حكم المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن وراء أرضنا بحراً محيطاً ثم جبلاً يقال له قاف إلى آخر ما تقدم ، ثم قال : وكما يندفع بذلك قوله : لا وجود له يندفع قوله : ولا يجوز اعتقاد الخ لأنه إن أراد بالدليل مطلق الإمارة فهذه عليه أدلة أو الإمارة القطعية فهذا مما يكفي فيه الظن كما هو جلي انتهى ، والذي أذهب إليه ما ذهب إليه القرافي من أنه لا وجود لهذا الجبل بشهادة الحس فقد قطعوا هذه الأرض برها وبحرها على مدار السرطان مرات فلم يشاهدوا ذلك ، والطعن في صحة هذه الأخبار وإن كان جماعة من رواتها ممن التزم

تخريج الصحيح أهون من تكذيب الحس ، وليس ذلك من باب نفي الوجود لعدم الوجدان كما لا يخفى على ذوي العرفان ، وأمر الزلزلة لا يتوقف على ذلك الجبل بل هي من الأبخرة وطلبها الخروج مع صلابة الأرض وإنكار ذلك مكابرة عند من له أدنى عرق من الإنصاف والله تعالى أعلم .

واختلف في جواب القسم فقيل : محذوف يشعر به الكلام كأنه قيل : والقرآن المجيد إنا أنزلناه لتنذر به الناس ، وقدره أبو حيان إنك جئتهم منذراً بالبعث ونحو ما قيل : هو إنك لمنذر ؛ وقيل : ما ردوا أمرك بحجة .

وقال الأخفش : والمبرد .

والزجاج : تقديره لتبعثن ، وقيل : هو مذكور ، فعن الأخفش ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرضُ مِنْهُمْ ﴾ [ق : 4] وحذفت اللام لطول الكلام ، وعنه أيضاً وعن ابن كيسان ﴿ ما يلفظ من قول ﴾ [ق : 18] وقيل : ﴿ إن في ذلك لذكرى ﴾ [ق : 37] وهو اختيار محمد بن علي الترمذي ، وقيل : ﴿ مَا يُبَدَّلُ القول لَدَيَّ ﴾ [ق : 29] وعن نحاة الكوفة هو قوله تعالى :

﴿ بَلْ عَجِبُواْ أَن جَاءهُمْ مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾

وما ذكر أولاً هو المعول عليه ، و﴿ بَلِ ﴾ للإضراب عما ينبىء عنه جواب القسم المحذوف فكأنه قيل : إنا أنزلناه لتنذر به الناس فلم يؤمنوا به بل جعلوا كلاً من المنذر والمنذر به عرضة للتكبر والتعجب مع كونهما أوفق شيء لقضية العقول وأقربه إلى التلقي بالقبول ، وقيل : التقدير أنك جئتهم منذراً بالبعث فلم يقبلوا بل عجبوا أو فشكوا فيه بل عجبوا على معنى لم يكتفوا بالشك والرد بل جزموا بالخلاف حتى جعلوا ذلك من الأمور العجيبة ، وقيل : هو إضراب عما يفهم من وصف القرآن بالمجيد كأنه قيل : ليس سبب امتناعهم من الإيمان بالقرآن أن لا مجد له ولكن لجهلهم ، ونبه بقوله تعالى : ﴿ بَلْ عَجِبُواْ ﴾ عليه لأن التعجب من الشيء يقتضي الجهل بسببه .

قال في "الكشف" : وهو وجه حسن ، و﴿ أَن جَاءهُمْ ﴾ بتقدير لأن جاءهم ، ومعنى ﴿ مِنْهُمْ ﴾ من جنسهم أي من جنس البشر أو من العرب ، وضمير الجمع في الآية عائد على الكفار ، وقيل : عائد على الناس وليس بذاك .

وقوله تعالى : ﴿ فَقَالَ الكافرون هذا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ تفسير لتعجبهم وبيان لكونه مقارناً لغاية الإنكار مع زيادة تفصيل لمحل التعجب ، وهذا إشارة إلى كونه عليه الصلاة والسلام منذراً بالقرآن وإضمارهم أولاً للإشعار بتعينهم بما أسند إليهم ، وإظهارهم ثانياً للتسجيل عليهم بالكفر بموجبه أو عطف لتعجبهم من البعث على تعجبهم من البعثة ،

وعطفه بالفاء لوقوعه بعده وتفرعه عليه لأنه إذا أنكر المبعوث أنكر ما بعث به أيضاً ، على أن هذا إشارة إلى مبهم وهو البعث يفسره ما بعده من الجملة الإنكارية ، ودل عليه السياق أيضاً لأنه دل على أن ثم منذراً به ، ومعلوم أن إنذار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أول كل شيء بالبعث وما يتبعه .

(50/721)

ووضع المظهر موضع المضمر إما لسبق اتصافهم بما يوجب كفرهم ؛ وأما للإيذان بأن تعجبهم من البعث لدلالته على استقصارهم لقدرة الله سبحانه عنه مع معاينتهم لقدرته عز وجل على ما هو أشق منه في قياس العقل من مصنوعاته البديعة أشنع من الأول وأعرق في كونه كفراً .

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ﴾

تقرير للتعجب وتأكيد للإنكار أو بيان لموضع تعجبهم ، والعامل في ﴿ إِذَا ﴾ مضمر غني عن البيان لغاية شهرته مع دلالة ما بعده عليه أي أحين نموت ونصير تراباً نرجع كما ينطق به النذير والمنذر به مع كمال التباين بيننا وبين الحياة حينئذٍ ، وقوله سبحانه : ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى محل النزاع وهو الرجع والبعث بعد الموت أي ذلك الرجع ﴿ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ أي

عن الأوهام أو العادة أو الإمكان ، وقيل : الرجع بمعنى المرجوع أي الجواب يقال هذا رجع رسالتك ومرجوعها ومرجوعتها أي جوابها ، والإشارة عليه إلى ﴿ أَءذَا مِتْنَا ﴾ الخ ، والجملة من كلام الله تعالى ، والمعنى ذلك جواب بعيد منهم لمنذرهم ، وناصب ﴿ إِذَا ﴾ حينئذٍ ما ينبىء عنه المنذر من المنذر به وهو البعث أي أئذا متنا وكنا تراباً بعثنا ، وقد يقال : إنه لما تقرر أن ذلك جواب منهم لمنذرهم فقد علم أنه أنذرهم بالبعث ليصلح ذلك جواباً له فهو دليل أيضاً على المقدر ، فالقول بأنه إذا كان الرجع بمعنى المرجوع وهو الجواب لا يكون في الكلام دليل على ناصب ﴿ إِذَا ﴾ مندفع .

نعم هذا الوجه في نفسه بعيد بل قال أبو حيان : إنه مفهوم عجيب ينبو عن إدراكه فهم العرب .

وقرأ الأعرج .

وشيبة .

وأبو جعفر .

وابن وثاب .

والأعمش .

وابن عتبة عن ابن عارم ﴿ إِذَا ﴾ بهمزة واحدة على صورة الخبر فجاز أن يكون استفهاماً حذفت منه الهمزة وجاز أن يكون خبراً ، قال في "البحر" : واضمر جواب ﴿ إِذَا ﴾ أي إذا متنا وكنا تراباً رجعنا ، وأجاز صاحب اللوامح أن يكون الجواب ذلك رجع بعيد على تقدير حذف الفاء ، وقد أجاز ذلك بعضهم في جواب الشرط مطلقاً إذا كان جملة اسمية ، وقصره أصحابنا على الشعر في الضرورة .

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرضُ مِنْهُمْ ﴾

أي ما تأكل من لحوم موتاهم وعظامهم وأشعارهم ، وهو رد لاستبعادهم بإزاحة ما هو الأصل فيه وهو أن أجزاءهم تفرقت فلا تعلم حتى تعاد بزعمهم الفاسد ، وقيل : ما تنقص الأرض منهم من يموت فيدفن في الأرض منهم ، ووجه التعبير بما ظاهر والأول أظهر وهو المأثور عن ابن عباس .

وقتادة ، وقوله تعالى : ﴿ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ تعميم لعلمه تعالى أي وعندنا كتاب حافظ لتفاصيل الأشياء كلها ويدخل فيها أعمالهم أو محفوظ عن التغير ؛ والمراد إما تمثيل علمه تعالى بكليات الأشياء وجزئياتها بعلم من عنده كتاب حفيظ يتلقى منه كل شيء أو تأكيد لعلمه تعالى بثبوتها في اللوح المحفوظ عنده سبحانه .

هذا وفي الآية إشارة إلى رد شبهة تمسك بها من يرى استحالة إعادة المعدوم ونفي البعث

لذلك بناءً على أن أجزاء الميت تعدم ولا تتفرق فقط ، وحاصلها أن الشيء إذا عدم ولم يستمر وجوده في الزمان الثاني ثم أعيد في الزمان الثالث لزم التحكم الباطل في الحكم بأن هذا الموجود المتأخر هو بعينه الموجود السابق لا موجود آخر مثله مستأنف إذ لما فقد هوية الموجود الأول لم يبق منه شيء من الموضوع والعوارض الشخصية حتى يكون الموجود الثاني مشتملاً عليه ويكون مرجحاً للحكم المذكور ويندفع التحكم .

وحاصل الرد أن الله تعالى عليم بتفاصيل الأشياء كلها يعلم كلياتها وجزئياتها على أتم وجه وأكله .

(52/721)

فللمعدوم صورة جزئية عنده سبحانه فهو محفوظ بعوارضه الشخصية في علمه تعالى البليغ على وجه يتميز به عن المستأنف فغاب عن بصرنا ثم رأيناه ثانياً فإنا نحكم بأن هذا الشخص هو من رأيناه سابقاً وهو حكم مطابق للواقع مبني على انحفاظ وحدة الصورة الخيالية قطعاً ولا ينكره إلا مكابر ، وقال بعض الأشاعرة : إن للمعدوم صورة جزئية حاصلة بتعلق صفة البصر من الموجد وهو الله تعالى ، وليست تلك الصورة للمستأنف وجوده فإن صورته وإن كانت جزئية حقيقية أيضاً إلا أنها لم تترتب على تعلق صفة البصر

ولا شك أن المترتب على تعلق صفة البصر أكمل من غير المترتب عليه فبين الصورتين تمايز واضح ، وإذا انحفظ وحدة الموجود الخارجي بالصور الجزئية الخيالية لنا فانحفاظها بالصورة الجزئية الحاصلة له تعالى بواسطة تعلق صفة البصر بالطريق الأولى انتهى ، وهو حسن لكن لا تشير الآية إليه .

(53/721)

وأيضاً لا يتم عند القائلين بعدم رؤية الله سبحانه المعدومات مطلقاً إلا أن أولئك قائلون بثبوت هويات المعدومات متمايزة تمايزاً ذاتياً حال العدوم فلا ترد عليهم الشبهة السابقة ، وقد يقال : إن صفة البصر ترجع إلى صفة العلم وتعلقاته مختلفة فيجوز أن يكون لعلمه تعالى تعلقاً خاصاً بالموجود الذي عدم غير تعلقه بالمستأنف في حال عدمه وبذلك يحصل الامتياز ويندفع التحكم ، ويقال على مذهب الحكماء : إن صورة المعدوم السابق مرتسمة في القوى المنطبعة للأفلاك بناءً على أن صور جميع الحوادث الجسمانية منطبعة فيها عندهم فله صورة خيالية جزئية محفوظة الوحدة الشخصية بعد فنائه بخلاف المستأنف إذ ليس تلك الصورة قبل وجوده وإنما له الصور الكلية في الأذهان العالية والسافلة فإذا أوجدت تلك الصورة الجزئية كان معاداً وإذا أوجدت هذه الصورة الكلية كان مستأنفاً وربما يدعى

الإسلامي المتفلسف أن في قوله تعالى : ﴿ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ رمزاً إلى ذلك ، وللجلال الدواني كلام في هذا المقام لا يخلو عن نظر عند ذوي الأفهام ، ثم إن البعث لا يتوقف على صحة إعادة المعدوم عند الأكثرين لأنهم لا يقولون إلا بتفرق أجزاء الميت دون انعدامها بالكلية ، ولعل في قوله تعالى حكاية عن منكريه :

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ﴾ [ق : 3] إشارة إلى ذلك ، وأخرج البخاري .

ومسلم .

وأبو داود .

والنسائي عن أبي هريرة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس من الإنسان شيء لا يبلى الأعظم واحد وهو عجب الذنب منه يركب الخلق يوم القيامة " وليس نصاً في انعدام ما عدا العجب بالمرة لاحتمال أن يراد ببلا غيره من الأجزاء انحلالها إلى ما تركبت منه من العناصر وأما هو فيبقى على العظمية وهو جزء صغير في العظم الذي في أسفل الصلب ، ومن كلام الزمخشري العجب أمره عجب هو أول ما يخلق وآخر ما يخلق .

﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ ﴾

إضراب أتبع الإضراب الأول للدلالة على أنهم جاءوا بما هو أفظع من تعجبهم وهو التكذيب بالحق الذي هو النبوة الثابتة بالمعجزات في أول وهلة من غير تفكر ولا تدبر فكأنه بدل بداء من الأول فلا حاجة إلى تقدير ما أجادوا النظر بل كذبوا أو لم يكذب المنذر بل كذبوا ، وكون التكذيب المذكور أفظع قيل : من حيث إن تكذيبهم بالنبوة تكذيب بالمنبأ به أيضاً وهو البعث وغيره ، وقيل : لأن إنكار النبوة في نفسه أفظع من إنكار البعث ، وربما لا يتم عند القائلين بأن العقل مستقل بإثبات أصل الجزاء ، على أن من الجائز أن يكونوا قد سمعوا بالبعث من أصحاب ملل أخرى بخلاف نبوته عليه الصلاة والسلام خاصة ، وقيل : المراد بالحق الإخبار بالبعث ولا شك أن التكذيب أسوأ من التعجب وأفظع فهو إضراب عن تعجبهم بالمنذر والمنذر به إلى تكذيبهم ، وقيل : المراد به القرآن والمضروب عنه عليه على ما قال الطيبي قوله تعالى : ﴿ ق والقرءان المجيد ﴾ [ق : 1] وجعل كبدل البداء من الإضراب الأول على أنه إضراب عن حديث القرآن ومجده إلى التعجب من مجيء من أنذرهم بالبعث الذي تضمنه وأن هذا إضراب إلى التصريح بالتكذيب به ويتضمن ذلك إنكار جميع ما تضمنه كذا قيل فتأمل .

وقرأ الجحدري ﴿ لَّمّاً ﴾ بكسر اللام وتخفيف الميم فاللام توقيتية بمعنى عند نحوها في قولك : كتبه لخمس خلون مثلاً ، و ﴿ مَا ﴾ مصدرية أي بل كذبوا بالحق عند مجيئه إياهم ﴿ فَهُمْ فِى أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ مضطرب من مرج الخاتم في إصبعه إذا قلق من الهزال ، والإسناد مجازي كما ﴿ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 21] مبالغة بجعل المضطرب الأمر نفسه وهو في الحقيقة صاحبه ، وذلك نفيهم النبوة عن البشر بالكلية تارة وزعمهم أن اللائق بها أهل الجاه والمال كما ينبىء عنه قولهم : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] تارة أخرى وزعمهم أن النبوة سحر مرة وأنها كهانة أخرى حيث قالوا في النبي عليه الصلاة والسلام مرة ساحر ومرة كاهن أو هو اختلاف حالهم ما بين تعجب من البعث واستبعاد له وتكذيب وتردد فيه أو قولهم في القرآن هو شعر تارة وهو سحر أخرى إلى غير ذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(56/721)

وقال ابن عاشور :

﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) ﴾

القول فيه نظير القول في أمثاله من الحروف المقطعة الواقعة في أوائل السور .

فهو حرف من حروف التهجّي وقد رسموه في المصحف بصورة حرف القاف التي يُتَهجى بها في المكتب ، وأجمعوا على أن النطق بها باسم الحَرف المعروف ، أي ينْطِقون بقافٍ بعدها ألف ، بعده فاء .

وقد أجمع من يعتدّ به من القراء على النطق به ساكِنَ الآخِرِ سكون هجاء في الوصل والوقِف .

ووقع في رواية بعض القصاصين المكذوبة عن ابن عباس أن المراد بقوله : ﴿ ق ﴾ اسم جبل عظيم محيط بالأرض .

وفي رواية عنه إنه اسم لكل واحد من جبال سبعة محيطة بالأرضين السبع واحداً وراء واحد كما أن الأرضين السبع أرض وراء أرض .

أي فهو اسم جنس انحصرت أفراده في سبعة ، وأطالوا في وصف ذلك بما أملاه عليهم الخيال المشفوع بقلة التثبت فيما يروونه للإغراب ، وذلك من الأوهام المخلوطة ببعض أقوال قدماء المشرقيين وبسوء فهم البعض في علم جغرافية الأرض وتخيلهم إياها رقاعاً مسطحة ذات تقاسيم يحيط بكل قسم منها ما يفصله عن القسم الآخر من بحار وجبال ، وهذا مما ينبغي ترفع العلماء عن الاشتغال بذكره لولا أن كثيراً من المفسرين ذكروه .

ومن العجب أن تفرض هذه الأوهام في تفسير هذا الحرف من القرآن ﴿ ألم ﴾ [البقرة : 1] ، يكفهم أنه مكتوب على صورة حروف التهجّي مثل ﴿ آلم ﴾ [العنكبوت : 1] و ﴿

المص ﴾ [الأعراف : 1] و ﴿ كهيعص ﴾ [مريم : 1] ولو أريد الجبل الموهوم لكتب قاف ثلاثة حروف كما تكتب دَوَالُّ الأشياء مثل عين : اسم الجارحة ، وغينش : مصدر غان عليه ، فلا يصح أن يدل على هذه الأسماء بحروف التهجّي كما لا يخفى .

﴿ ق والقرءان المجيد * بَلْ عجبوا أَن جَآءَهُمْ مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الكافرون هذا شَىْءٌ عَجِيبٌ * أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذلك رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ .

(57/721)

قَسَم بالقرآن ، والقسم به كناية عن التنويه بشأنه لأن القسم لا يكون إلا بعظيم عند المقسِم فكان التعظيم من لوازم القسَم .

وأتبع هذا التنويه الكنائي بتنويه صريح بوصف ﴿ القرآن ﴾ بـ ﴿ المجيد ﴾ فالمجيد المتصف بقوة المجْد .

والمجدُ ويقال المجادة : الشرف الكامل وكرم النوع .

وشرف القرآن من بين أنواع الكلام أنه مشتمل على أعلى المعاني النافعة لصلاح الناس فذلك مجده .

وأما كمال مجده الذي دلت عليه صيغة المبالغة بوصف مجيد فذلك بأنه يفوق أفضل ما

أبلغَه الله للناس من أنواع الكلام الدالّ على مراد الله تعالى إذْ أوْجدَ ألفاظَه وتراكيبه وصورةَ نظمه بقدرته دون واسطة ، فإن أكثر الكلام الدال على مراد الله تعالى أوجده الرسل والأنبياء المتكلمون به يعبّرون بكلامهم عما يُلقَى إليهم من الوحي .

ويدخل في كمال مجده أنه يفوق كل كلام أوجده الله تعالى بقدرته على سبيل خرق العادة مثل الكلام الذي كلم الله به موسى عليه السلام بدون واسطة الملائكة ، ومثل ما أُوحي به إلى محمد صلى الله عليه وسلم من أقوال الله تعالى المعبر عنه في اصطلاح علمائنا بالحديث القُدُسيّ ، فإن القرآن يفوق ذلك كله لمّا جعله الله بأفصح اللغات وجعله معجزاً لبلغاء أهل تلك اللغة عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه .

ويفوق كل كلام من ذلك القبيل بوفرة معانيه وعدم انحصارها ، وأيضاً بأنه تميز على سائر الكتب الدينية بأنه لا ينسخه كتاب يجيء بعده وما يُنسخ منه إلا شيء قليل ينسخه بعضُه .

وجواب القَسم محذوف لتذهب نفس السامع في تقديره كل طريق ممكن في المقام فيدل عليه ابتداءُ السورة بحرف ﴿ ق ﴾ المشعر بالنداء على عجزهم عنْ معارضة القرآن بعد تحدّيهم بذلك ، أو يدل عليه الإضراب في قوله : ﴿ بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ﴾ . والتقدير : والقرآنِ المجيد إنك لرسول الله بالحق ، كما صرح به في قوله : ﴿ يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم ﴾ [يس : 41] .

أو يقدر الجواب : إنه لتنزيل من ربّ العالمين ، أو نحو ذلك كما صرح به في نحو ﴿ حم والكتاب المبين إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ [الأحزاب : 31] ونحو ذلك .

والإضراب الانتقالي يقتضي كلاماً منتقلاً منه والقَسم بدون جواب لا يعتبر كلاماً تاماً فتعين أن يقدّر السامع جواباً تتم به الفائدة يدل عليه الكلام .

وهذا من إيجاز الحذف وحسَّنه أن الانتقال مشعر بأهمية المنتقل إليه ، أي عدِّ عما تريد تقديره من جواب وانتقِلْ إلى بيان سبب إنكارهم الذي حدا بنا إلى القَسَم كقول القائل : دَعْ ذا ، وقول امرىء القيس:

فدع ذا وسَلِّ الهمَّ عنك بجسرة ذَمُول إذَا صَام النهارُ وهجَّرا . . .

وقول الأعشى:

فدع ذَا ولكن رُبَّ أرض مُتيهة قطعتُ بجُرْجُوج إذا الليل أظلما . . .

وتقدم بيان نظيره عند قوله تعالى : ﴿ بل الذين كفروا في عزة وشقاق ﴾ في سورة ص (2) .

وقوله : وعجبوا ﴾ خبر مستعمل في الإنكار إنكاراً لعجبهم البالغ حدّ الإحالة .

و﴿ عجبوا ﴾ حصل لهم العجَب بفتح الجيم وهو الأمر غير المألوف للشخص ﴿ قالت يا وَيْلَتَا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إنّ هذا لَشَيْء عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله ﴾ [هود : 72 ، 73] فإن الاستفهام في ﴿ أتعجبين ﴾ إنكار وإنما تنكر إحالة ذلك لا كونه موجب تعجّب .

فالمعنى هنا : أنهم نفوا جواز أن يرسل الله إليهم بشراً مثلهم ، قال تعالى : ﴿ وما منع الناسَ أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً ﴾ [الإسراء : 94] .

(59/721)

وضمير ﴿ عجبوا ﴾ عائد إلى غير مذكور ، فمعاده معلوم من السياق أعني افتتاح السورة بحرف التهجّي الذي قصد منه تعجيزهم عن الإتيان بمثل القرآن لأن عجزهم عن الإتيان بمثله في حال أنه مركب من حروف لغتهم يدلهم على أنه ليس بكلام بشر بل هو كلام أبدعته قدرة الله وأبلغه الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم على لسان المَلك فإن المتحدَّين بالإعجاز مشهورون يعلمهم المسلمون وهم أيضاً يعلمون أنهم المعنيون بالتحدّي بالإعجاز .

على أنه سيأتي ما يفسر الضمير بقوله : ﴿ فقال الكافرون ﴾ .

وضمير ﴿ منهم ﴾ عائد إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ عجبوا ﴾ والمراد : أنه من نوعهم أي من بني الإنسان .

و﴿ أن جاءهم ﴾ مجرور بـ (من) المحذوفة مع ﴿ أنْ ﴾ ، أي عجبوا من مجيء منذر منهم ، أو عجبوا من ادعاء أن جاءهُمْ منذر منهم .

وعبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم بوصف ﴿ منذر ﴾ وهو المخبِر بشَرّ سيكون للإيماء إلى أن عَجَبهم كان ناشئاً عن صفتين في الرسول صلى الله عليه وسلم إحداهما أنه مخبر بعذاب يكون بعد الموت ، أي مخبر بما لا يصدقون بوقوعه ، وإنما أنذرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بعذاب الآخرة بعد البعث كما قال تعالى : ﴿ إن هو إلا نذير لكم بين يديْ عذاب شديد ﴾ [سبأ : 46] .

والثانية كونه من نوع البشر .

وفُرِّعَ على التكذيب الحاصل في نفوسهم ذِكر مقالتهم التي تفصح عنه وعن شبهتهم الباطلة بقوله : ﴿ فقال الكافرون هذا شيء عجيب ﴾ الآية .

وخص هذا بالعناية بالذكر لأنه أدخل عندهم في الاستبْعاد وأحق بالإنكار فهو الذي غرهم فأحالوا أن يرسل الله إليهم أحد من نوعهم ولذلك وصف الرسول صلى الله عليه وسلم ابتداء بصفة ﴿ منذر ﴾ قبل وصفه بأنه ﴿ منهم ﴾ ليدل على أن ما أنذرهم به هو الباعث الأصلي لتكذيبهم إياه وأن كونه منهم إنما قوّى الاستبعاد والتعجّب .

ثم إن ذلك يُتخلص منه إلى إبطال حجتهم وإثبات البعث وهو المقصود بقوله : ﴿ قد عِلمْنا مَا تنقصُ الأرض منهم إلى قوله : كذلك الخروج ﴾ [ق : 4 11] .

فقد حصل في ضمن هاتين الفاصلتين خصوصيات كثيرة من البلاغة : منها إيجاز الحذف ، ومنها ما أفاده الإضراب من الاهتمام بأمر البعث ، ومنها الإيجاز البديع الحاصل من التعبير بـ ﴿ منذر ﴾ ، ومنها إقحام وصفه بأنه ﴿ منهم ﴾ لأن لذلك مدخلاً في تعجبهم ، ومنها الإظهار في مقام الإضمار على خلاف مقتضَى الظاهر ، ومنها الإجمال المعقب بالتفصيل في قوله : ﴿ هذا شيء عجيب أئذا متنا ﴾ الخ .

وعبُر عنهم بالاسم الظاهر في ﴿ فقال الكافرون ﴾ دون : فقالوا ، لتوسيمهم فإن هذه المقالة من آثار الكفر ، وليكون فيه تفسير للضميرين السابقين .

والإشارة بقولهم ﴿ هذا شيء عجيب ﴾ إلى ما هو جار في مقام مقالتهم تلك من دعاء النبيء صلى الله عليه وسلم إياهم للإيمان بالرَّجْع ، أي البعث وهو الذي بينتْه جملة ﴿ أئذا متنا وكنا تراباً ﴾ إلخ .

والاستفهام مستعمل في التعجيب والإبطال ، يريدون تعجيب السامعين من ذلك تعجيب

إحالة لئلا يؤمنوا به .

وجعلوا مناطَ التعجيب الزمانَ الذي أفادته (إذا) وما أضيف إليه ، أي زمنَ موتنا وكوننا تراباً .

والمستفهم عنه محذوف دل عليه ظرف ﴿ أئذا متنا وكنا تراباً ﴾ والتقدير : أنرجع إلى الحياة في حين انعدام الحياة منا بالموت وحين تفتت الجسد وصيرورته تراباً ، وذلك عندهم أقصى الاستبعاد .

ومتعلقّ (إذا) هو المستفهم عنه المحذوف المقدَّر ، أي نُرجَع أو نعود إلى الحياة وهذه الجملة مستقلة بنفسها .

وجملة ﴿ ذلك رجع بعيد ﴾ مؤكدة لجملة ﴿ أئذا متنا وكنا تراباً ﴾ بطريق الحقيقة والذِكر ، بعد أن أُفيد بطريق المجاز والحذف ، لأن شأن التأكيد أن يكون أجلى دلالة .

والرَّجع : مصدر رجَع ، أي الرجوع إلى الحياة .

ومعنى ﴿ بعيد ﴾ أنه بعيد عن تصور العقل ، أي هو أمر مستحيل .

(61/721)

قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (4)

ردٌّ لقولهم : ﴿ ذلك رجع بعيد ﴾ [ق : 3] فإن إحالتهم البعث ناشئة عن عدة شبه منها : أن تفرق أجزاء الأجساد في مناحِي الأرض ومهابّ الرياح لا تُبقي أملا في إمكان جمعها إذ لا يحيط بها محيط وأنها لو علمت مواقعها لتعذر التقاطها وجمعها ، ولو جمعت كيف تعود إلى صورها التي كانت مشكَّلة بها ، وأنها لو عادت كيف تعود إليها ، فاقتصر في إقلاع شبههم على إقلاع أصلها وهو عدم العلم بمواقع تلك الأجزاء وذرّاتها .

وفُصِلت الجملة بدون عطف لأنها ابتداء كلام لرد كلامهم ، وهذا هو الأليق بنظم الكلام .

وقيل هي جواب القسم كما علمته آنفا وأيًّا مَّا كان فهو رد لقولهم ﴿ ذلك رجع بعيد ﴾ .

والمعنى : أن جمع أجزاء الأجسام ممكن لا يعزب عن علم الله ، وإذا كان عالماً بتلك الأجزاء كما هو مقتضى عموم العلم الإلهي وكان قد أراد إحياء أصحابها كما أخبر به ، فلا يعظم على قدرته جمعها وتركيبها أجساماً كأجسام أصحابها حين فارقوا الحياة فقوله : ﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم ﴾ إيماء إلى دليل الإمكان لأن مرجعه إلى عموم العلم كما قلنا .

فأساس مبنى الرد هو عموم علم الله تعالى لأن يجمع إبطال الاحتمالات التي تنشأ عن شبههم فلو قال ، نحن قادرون على إرجاع ما تنقص الأرض منهم لخطر في وساوس نفوسهم شبهة أن الله وإن سلمنا أنه قادر فإن أجزاء الأجساد إذا تفرقت لا يعلمها الله حتى

تتسلط على جمعها قدرتُه فكان البناء على عموم العلم أقطع لاحتمالاتهم .

واعلم أن هذا الكلام بيان للإمكان رعيا لما تضمنه كلامهم من الإحالة لأن ثبوت الإمكان يَقلع اعتقاد الاستحالة من نفوسهم وهو كاف لإبطال تكذيبهم ولاستدعائهم للنظر في الدعوة ، ثم يبقى النظر في كيفية الإعادة ، وهي أمر لم نكلف بالبحث عنه وقد اختلف فيها أئمة أهل السنة فقال جمهور أهل السنة والمعتزلة تعاد الأجسام بعد عدمها .

(62/721)

ومعنى إعادتها .

إعادة أمثالها بأن يخلق الله أجساداً مثل الأولى تودع فيها الأرواح التي كانت في الدنيا حالّة في الأجساد المعدومة الآن فيصير ذلك الجسم لصاحب الروح في الدنيا وبذلك يحق أن يقال : إن هذا هو فلان الذي عرفناه في الدنيا إذ الإنسان كان إنساناً بالعقل والنطق ، وهما مَظهر الروح.

وأما الجسد فإنه يتغير بتغيرات كثيرة ابتداء من وقت كونه جنينا ، ثم من وقت الطفولة ثم ما بعدها من الأطوَار فتخلف أجزاؤُه المتجددة أجزاءَه المتقضيّة ، وبرهان ذلك مبيّن في علم الطّبيعيات ، لكن ذلك التغير لم يمنع من اعتبار الذات ذاتا واحدة لأن هُوية الذات حاصلة

من الحقيقة النوعية والمشخصات المشاهدة التي تتجدد بدون شعور مَن يشاهدها .

فلذا كانت حقيقة الشخص هي الروح وهي التي تُكتسَى عند البعث جسد صاحبها في الدنيا ، فإن الناس الذين يموتون قبل قيام الساعة بزمن قليل لا تَبلى في مثله أجسامهم تُرجَّع أرواحهم إلى أجسادهم الباقية دون تجديدِ خلقها ، ولذلك فتسمية هذا الإيجاد معاداً أو رجْعاً أو بعثاً إنما هي تسمية باعتبار حال الأرواح ، وبهذا الاعتبار أيضاً تشهد على الكفار ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون لأن الشاهد في الحقيقية هو ما به إدراك الأعمال من الروح المبثوثة في الأعضاء .

وأدلة الكتاب أكثرها ظاهر في تأييد هذا الرأي كقوله تعالى : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ [الأنبياء : 104] ، وفي معناه قوله تعالى : ﴿ كُلّما نضِجت جلودهم بدّلْنَاهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ﴾ [النساء : 56] .

وقال شذوذ : تُعاد الأجسام بجمع الأجزاء المتفرقة يجمعها الله العليم بها ويركبها كما كانت يوم الوفاة .

وهذا بعيد لأن أجزاء الجسم الإنساني إذا تفرقت دخلت في أجزاء من أجسام أخرى من مختلف الموجودات ومنها أجسام أناس آخرين .

وورد في الآثار " أن كل ابن آدم يفنى إلاّ عجْب الذنب منه خُلق ومنهُ يركب " رواه مسلم .

وعلى هذا تكون نسبة الأجساد المعادة كنسبة النخلة من النواة .

وهذا واسطة بين القول بأن الإعادة عن عدم والقول بأنها عن تفرق .

ولا قائل من العقلاء بأن المعدوم يعاد بعينه وإنما المراد ما ذكرنا وما عداه مجازفة في التعبير .

وذكر الجلال الدواني في "شرح العقيدة العضدية" أن أُبَيَّ بن خلف لما سمع ما في القرآن من الإعادة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وبيده عظم قد رمَّ ففتّه بيده وقال : يا محمد أتُرَى يحييني بعد أن أصير كهذا العظم ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم " نعم ويبعثك ويدخلك النار " .

وفيه نزل قوله تعالى : ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يُحْيي العظام وهي رميم ﴾ [يس : 78] .

وعُبر بـ ﴿ تنقص الأرض ﴾ دون التعبير بالإعدام لأن للأجساد درجات من الاضمحلال تَدخل تحت حقيقة النقص فقد يفنى بعض أجزاء الجسد ويبقى بعضه ، وقد يأتي الفناء على جميع أجزائه ، على أنه إذا صح أن عَجْب الذنب لا يفني كان فناء الأجساد نقصاً لا انعداماً .

وعطف على قوله : ﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم ﴾ قوله : ﴿ وعندنا كتاب حفيظ ﴾ عطف الأعم على الأخص ، وهو بمعنى تذييل لجملة ﴿ قد علمنا ما تنقص

الأرض منهم ﴾ أي وعندنا علمٌ بكل شيء علماً ثابتاً فتنكير ﴿ كتاب ﴾ للتعظيم ، وهو تعظيم التعميم ، أي عندنا كتاب كل شيء .

و ﴿ حفيظ ﴾ فعيل : إما بمعنى فاعل ، أي حافظ لما جعل لإحصائه من أسماء الذوات ومصائرها .

وتعيين جميع الأرواح لذواتها التي كانت مودعَة فيها بحيث لا يفوت واحد منها عن الملائكة الموكلين بالبعث وإعادة الأجساد وبث الأرواح فيها .

وإمّا بمعنى مفعول ، أي محفوظ ما فيه مما قد يعتري الكتب المألوفة من المحو والتغيير والزيادة والتشطيب ونحو ذلك .

والكتاب : المكتوب ، ويطلق على مجموع الصحائف .

(64/721)

ثم يجوز أن يكون الكتاب حقيقة بأن جعل الله كتباً وأودعها إلى ملائكة يسجّلون فيها الناس حين وفياتهم ومواضع أجسادهم ومقارّ أرواحهم وانتساب كل روح إلى جسدها المعيّن الذي كانت حالّة فيه حال الحياة الدنيا صادقاً بكتب عديدة لكل إنسان كتابُه ، وتكون مثل صحائف الأعمال الذي جاء فيه قوله تعالى : ﴿ إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين

وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ [ق : 17 ، 18] ، وقوله : ﴿ ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ [الإسراء : 13 ، 14] .

ويجوز أن يكون مجموع قوله : ﴿ وعندنا كتاب ﴾ تمثيلاً لعلم الله تعالى بحال علم من عنده كتاب حفيظ يعلم به جميع أعمال الناس .

والعندية في قوله : ﴿ وعندنا كتاب ﴾ مستعارة للحياطة والحفظ من أن يتطرق إليه ما يغيّر ما فيه أو من يبطل ما عيّن له .

بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (5)

إضراب ثان تابع للإضراب الذي في قوله : ﴿ بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ﴾ [ق : 2] على طريقة تكرير الجملة في مقام التنديد والإبطال ، أو بدل من جملة ﴿ بل عجبوا أن جاءهم منذر ﴾ لأن ذلك العجب مشتمل على التكذيب ، وكلا الاعتبارين يقتضيان فصل هذه الجملة بدون عاطف .

والمقصد من هذه الجملة : أنهم أتوا بأفظع من إحالتهم البعث وذلك هو التكذيب بالحق .

والمراد بالحق هنا القرآن لأن فعل التكذيب إذا عدي بالباء عدي إلى الخبر وإذا عدي بنفسه كان لتكذيب المخبر .

و ﴿ لمّا ﴾ حرف توقيت فهي دالة على ربط حصول جوابها بوقت حصول شرطها فهي

مؤذنة بمبادرة حصول الجواب عند حصول الشرط كقوله تعالى : ﴿ فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم ﴾ [البقرة : 17] ، وقوله ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ [البقرة : 89] وقد مضيا في سورة البقرة .

ومعنى ﴿ جاءهم ﴾ بلغهم وأعلموا به .

(65/721)

والمعنى : أنهم بادروا بالتكذيب دون تأمل ولا نظر فيما حواه من الحق بل كذبوا به من أول وهلة فكذبوا بتوحيد الله ، وهو أول حق جاء به القرآن ، ولذلك عقب بقوله : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها إلى قوله : ﴿ وأحيينا به بلدة ميتا ﴾ [ق : 6 11] .

فالتكذيب بما جاء به القرآن يعمّ التكذيب بالبعث وغيره .

وفرع على الخبر المنتقل إليه بالإضراب وصفُ حالهم الناشئة عن المبادرة بالتكذيب قبل التأمل بأنها أمر مريج أحاط بهم وتجلجلوا فيه كما دل عليه حرف الظرفية .

و﴿ أمر ﴾ اسم مبهم مثل شيء ، ولما وقع هنا بعد حرف ﴿ في ﴾ المستعمل في الظرفية المجازية تعين أن يكون المراد بالأمر الحالُ المتلبسون هم به تلبُّس المظروف بظرفه

وهو تلبس المحوط بما أحاط به فاستعمال ﴿ في ﴾ استعارة تبعية .

والمريج : المضطرب المختلط ، أي لا قرار في أنفسهم في هذا التكذيب ، اضطربت فيه أحوالهم كلها من أقوالهم في وصف القرآن فإنهم ابتدروا فنفوا عنه الصدق فلم يتبينوا بأي أنواع الكلام الباطل يلحقونه فقالوا : ﴿ سحر مبين ﴾ [المائدة : 110] ، وقالوا ﴿ أساطير الأولين ﴾ [الأنعام : 25] وقالوا ﴿ قول شاعر ﴾ [الحاقة : 41] ، وقالوا : ﴿ قول كاهن ﴾ [الحاقة : 42] وقالوا : (هذيان مجنون) .

وفي سلوكهم في طرق مقاومة دعوة النبي صلى الله عليه وسلم وما يصفونه به إذا سألهم الواردون من قبائل العرب .

ومن بهتهم في إعجاز القرآن ودلالة غيره من المعجزات وما دمغهم به من الحجج على إبطال الإشراك وإثبات الوحدانية لله .

وهذا تحميق لهم بأنهم طاشت عقولهم فلم يتقنوا التكذيب ولم يرسوا على وصف الكلام الذي كذبوا به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(66/721)

قوله تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (6) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (8) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (9) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (10) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (11) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبرهم أنهم قالوا عن غير تأمل أنكر عليهم ذلك موبخاً لهم دالاًّ على صحة ما أنكروه وفساد إنكارهم بقوله ، مسبباً عن عجلتهم إلى الباطل ، ﴿ أفلم ينظروا ﴾ أي بعين البصر والبصيرة ﴿ إلى السماء ﴾ أي المحيط بهم وبالأرض التي هم عليها .

ولما كان هذا اللفظ يطلق على كل ما علا من سقف وسحاب وغيره وإن كان ظاهراً في السقف المكوكب حققه بقوله : ﴿ فوقهم ﴾ فإن غيرهم إنما هو فوق ناس منهم لا فوق الكل .

ولما كان أمرها عجباً ، فهو أهل لأن يسأل عن كيفيته دل عليه بأداة الاستفهام فقال :

﴿ كيف بنيناها ﴾ أي أوجدناها على ما لنا من المجد والعزة مبنية كالخيمة إلا أنها من غير عمد ﴿ وزيناها ﴾ أي بما فيها من الكواكب الصغار والكبار السيارة والثابتة ﴿ وما ﴾ أي والحال أنه ما ﴿ لها ﴾ وأكد النفي بقوله : ﴿ من فروج ﴾ أي فتوق وطاقات وشقوق ، بل هي ملساء متلاصقة الأجزاء ، فإن كانت هذه الزينة من تحتها فالذي أوقع ذلك على هذا الإحكام الذي يشاهدونه بما فيه من المنافع والستر الذي لا يختل على مر الجديدين ، فهو من القدرة بحيث لا يعجزه شيء ، وإن كانت الزينة من فوقها فكذلك ، وإن كان بعضها من فوق وبعضها من تحت فالأمر عظيم ، وهذا يدل على أن السماء كرة مجوفة الوسط مقببة كالبيضة ، فإن نفي الفروج فيها على هذا الوجه المؤكد يدل على ذلك دلالة ظاهرة ، وأفرد السماء ولم يجمع لأن بناءها على ما ذكر وإن كانت واحدة يدل على كمال القدرة ، فإن البناء المجوف لا يمكن بانيه إكمال بنائه من غير أن يكون له فروج ، وإن اختل ذلك كان موضع الوصل ظاهراً للرائين ما فيه من فتور وشقوق وقصور وما يشبه ذاك ، ولم يمكنه مع ذلك الخروج منه ، إن كان داخله فلم يقدر على حفظ خارجه ، وإن كان خارجه لم يتمكن من حفظ داخله ، وهذا الكون محفوظ من ظاهره وباطنه ، فعلم أن صانعه منزه عن الاتصاف بما تحيط به العقول بكونه داخل العلم أو خارجه أو متصلاً به أو منفصلاً عنه ، أو محتاجاً في الصنعة إلى إله أو في الحفظ إلى ظهير أو معين ، وجمع الفرج للدلالة على إرادة

الجنس بالسماء بعد ما أفاده إفراد لفظها ، فيدل الجمع مع إرادة الجنس على التوزيع ، مع الإفهام إلى أن الباني لو احتاج في هذا الخلق الواسع الأطراف المتباعد الأكناف إلى فرج واحد لاحتاج إلى فروج كثيرة .

(68/721)

فإن هذا الجرم الكبير لا يكفي فيه فرج واحد لمن يحتاج إلى الحركة ، فنزل كلام العليم الخبير على مثل هذه المعاني ، ولا يظن أنه غيرت فيه صنعة من الصنع لأجل الفاصلة فقط ، فإن ذلك لا يكون إلا من محتاج ، والله متعال عن ذلك ، ويجوز - وهو أحسن - أن يراد بالفروج قابلية الإنبات لتكون - مثل الأرض - يتخللها المياه فيمتد فيها عروق الأشجار والنبات وتظهر منها ، وأن يراد بها الخلل كقوله تعالى ﴿ ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ﴾ [الملك : 3] أي خلل واختلاف وفساد ، وهو لا ينفي الأبواب والمصاعد - والله أعلم .

ولما دل سبحانه على تمام قدرته وكمال علمه وغير ذلك من صفات الكمال بآية السماء ، أتبع ذلك الدلالة على أنه لا يقال فيه داخل العالم ولا خارجه لأنه متصل به ولا منفصل عنه ، نبه على ذلك بالدلالة على آية الأرض ، وأخرها لأن السماء أدل على المجد الذي هذا

سياقه ، لأنها أعجب صنعة وأعلى علوّاً وأجل مقداراً وأعظم أثراً ، وأن الأرض لكثرة الملابسة لها والاجتناء من ثمارها يغفل الإنسان عن دلالتها ، بما له في ذلك من الصنائع والمنافع ، فقال : ﴿ والأرض ﴾ أي المحيطة بهم ﴿ مددناها ﴾ أي جعلناها لما لنا من العظمة مبسوطة لا مسنمة .

ولما كان الممدود يتكفأ ، قال : ﴿ وألقينا ﴾ بعظمتنا ﴿ فيها رواسي ﴾ أي جبالاً ثوابت كان سبباً لثباتها ، وخالفت عادة المراسي في أنها من فوق ، والمراسي تعالجونها أنتم من تحت .

ولما كان سكانها لا غنى لهم عن الرزق ، قال ممتناً عليهم : ﴿ وأنبتنا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ فيها ﴾ وعظم قدرتها بالتبعيض فقال : ﴿ من كل زوج ﴾ أي صنف من النبات تزاوجه أشكاله بأرزاقكم كلها ﴿ بهيج ﴾ أي هو في غاية الرونق والإعجاب ، فكان – مع كونه رزقاً – متنزهاً .

(69/721)

ولما ذكر هذه الصنائع الباهرة ، عللها بقوله : ﴿ تبصرة ﴾ أي جعلنا هذه الأشياء كلها ، أي لأجل أن تنظروها بأبصاركم ، ثم تتفكروا ببصائركم ، فتعبروا منها إلى صانعها ،

فتعلموا ما له من العظمة ﴿ وذكرى ﴾ أي ولتتذكروا بها تذكراً عظيماً ، بما لكم من القوى والقدر فتعلموا بعجزكم عن كل شيء من ذلك أن صانعها لا يعجزه شيء ، وأنه محيط بجميع صفات الكمال ، لو ألم بجنابه شائبة من شوائب النقص لما فاض عنه هذا الصنع الغريب البديع .

ولما كان من لا ينتفع بالشيء كأنه عادم لذلك الشيء ، قصر الأمر على المنتفع فقال : ﴿ لكل عبد ﴾ يتذكر بما له من النقص وبما دل عليه هذا الصنع من الكمال أنه عبد مربوب لصانعه .

ولما كان الإنسان لما له من النقصان لا يزال كلما أعلاه عقله أسفله طبعه ، فكان ربما ظن أنه لا يقبل إذا رجع ، رغبة في الرجوع بقوله : ﴿ منيب ﴾ أي رجاع عما حطه عنه طبعه إلى ما يعليه إليه عقله ، فيرجع من شهود هذه الأفعال إلى شهود هذه الصفات إلى علم الذات .

ولما كان إنزال الماء أبهر الآيات وأدلها على أنه أجلّ من أن يقال : إنه داخل العالم أو خارجه ، أو متصل به أو منفصل عنه ، مع أن به تكوّن النبات وحصول الأقوات وبه حياة كل شيء ، أفرده تنبيهاً على ذلك فقال : ﴿ ونزلنا ﴾ أي شيئاً فشيئاً في أوقات على سبيل التقاطر وبما يناسب عظمتنا التي لا تضاهى بغيب ، بما له من النقل والنبوع والنفوذ فنزل دفعة واحدة فأهلك ما نزل عليه فزالت المفقرة وعادت المنفعة مضرة ﴿ من السماء ﴾ أي المحل العالي الذي لا يمسك فيه الماء عن دوام التقاطر إلا بقاهر ﴿ ماء مباركاً ﴾ أي نافعاً جداً

ثابتاً لا خيالاً محيطاً بجميع منافعكم .

ولما كان الماء سبباً في تكون الأشياء ، وكان ذلك سبباً في انعقاده حتى يصير خشباً وحباً وعنباً ، وغير ذلك عجباً ، قال : ﴿ فأنبتنا ﴾ معبراً بنون العظمة ﴿ به جنات ﴾ من الثمر والشجر والزرع وغيره مما تجمعه البساتين فتجنّ - أي تستر - الداخل فيها .

(70/721)

ولما كان القصب الذي يحصد فيكون حبه قوتاً للحيوان وساقه للبهائم ، خصه بقوله : ﴿ وحب الحصيد ﴾ أي النجم الذي من شأنه أن يحصد من البر والشعير ونحوهما ، وأوماً بالتقييد إلى أن هذه الحبوب أشرف من حب اللآلىء الذي ينبته الله من المطر لأنها لقيام النبتة ؟ وتلك للزينة ، ولما كان النخل من أعجبه ما يتكون منه مع ما له من المنافع التي لا يساويه فيها شجر ، والطباق للرزع بالطول والقصر والاتساق بالاقتيات للآدميين والبهائم ، قال : ﴿ والنخل باسقات ﴾ أي عاليات طويلات على جميع الأشجار المثمرة ذوات أثمار طيبة ﴿ لها ﴾ مع يبس ساقها ﴿ طلع نضيد ﴾ أي مصفوف متراكم بعضه فوق بعض ، وهو حشو طلعه ، والطلع ذلك الخارج من أعلى النخلة كأنه فعلان مطبقان ، والحمل النضيد بينهما ، والطرف محدد ، أو الطلع ما يبدو من ثمر النخل أول ظهورها ، وذلك

القشر يسمى الكفرى لتعطيته إياه على أحكم مما يكون وأوثق ، والطلع يشبه ما للناقة المبسق من اللبا المتكون في ضرعها قبل النتاج ، ثم يصير بعد اتحاده في البياض وهو طلع إلى الافتراق حال الينوع إلى أحمر وأصفر وأخضر وغير ذلك من الألوان الغريبة ، والأوصاف العجيبة ، وهي محيطة المنافع بالتفكه على عدة أنواع والاقتيات وغير ذلك ، وطلعها مخالف لعادة أكثر الأشجار فإن ثمارها مفردة ، كل حبة منفردة عن أختها .

ولما ذكر سبحانه بعض ما له في الماء من العظمة ، ذكر له علة هي غاية في المنة على الخلق فقال : ﴿ رزقاً للعباد ﴾ أي أنبتنا به ذلك لأجل أنه بعض ما جعلناه رزقهم .

ولما كان ذلك أعظم مذكر للبصراء بالبعث ولجميع صفات الكمال ، أتبعه ما له من التذكير بالبعث بخصوصه فقال : ﴿ وأحيينا به ﴾ أي الماء بعظمتنا ﴿ بلدة ﴾ وسمها بالتاء إشارة إلى أنها في غاية الضعف والحاجة إلى الثبات والخلو عنه ، وذكر قوله : ﴿ ميتاً ﴾ للزيادة في تقرير تمكن الحاجة فيها .

(71/721)

ولما كان هذا خاصة من أوضح أدلة البعث ، قال على سبيل النتيجة : ﴿ كذلك ﴾ أي مثل هذا الإخراج العظيم ﴿ الخروج ﴾ الذي هو لعظمته كأنه مختص بهذا المعنى ، وهو

بعث الموتى من قبورهم على ما كانوا عليه في الدنيا ، لا فرق بين خروج النبات بعد ما تهشم في الأرض وصار تراباً كما كان من بين أصفره وأبيضه وأحمره وأخضره وأزرقه إلى غير ذلك ، وبين إخراج ما تفتت من الموتى كما كانوا في الدنيا ، قال أبو حيان : ذكر تعالى في السماء ثلاثة : البناء والتزيين ونفي الفروج ، وفي الأرض ثلاثة : المد وإلقاء الرواسي والإنبات ، قابل المد بالبناء لأن المد وضع والبناء رفع ، وإلقاء الرواسي بالتزيين بالكواكب لارتكاز كل واحد منها - أي على سطح ما هو فيه والإنبات المترتب على الشق بانتفاء الفروج ، فلا شق فيها ، ونبه فيما تعلق به الإنبات على ما يقطف كل سنة ويبقى أصله ، وما يزرع كل سنة أو سنتين ويقطف كل سنة ، وعلى ما اختلط من جنسين ، فبعض الثمار فاكهة لا قوت ، وأكثر الزرع قوت والثمر فاكهة وقوت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 252.249 ﴾

(72/721)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ(6) ﴾

إشارة إلى الدليل الذي يدفع قولهم ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ [ق : 3] وهذا كما في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ الذى خَلَقَ السموات والأرض بقادر على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [ياس : 81] وقوله تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السموات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ﴾ [غافر : 57] وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ الله الذى خَلَقَ السموات والأرض وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ على أَن يُحْيِيَ الموتى بلى ﴾ [الأحقاف : 33] وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(73/721)

همزة الاستفهام تارة تدخل على الكلام ولا واو فيه ، وتارة تدخل عليه وبعدها واو ، فهل بين الحالتين فرق ؟ نقول فرق أدق مما على الفرق ، وهو أن يقول القائل : أزيد في الدار بعد ، وقد طلعت الشمس ؟ يذكره للإنكار ، فإذا قال : أو زيداً في الدار بعد ، وقد طلعت الشمس ؟ يشير بالواو إشارة خفية إلى أن قبح فعله صار بمنزلة فعلين قبيحين ، كأنه يقول بعد ما سمع ممن صدر عن زيد هو في الدار ، أغفل وهو في الدار بعد ، لأن الواو تنبىء عن ضيف أمر مغاير لما بعدها وإن لم يكن هناك سابق لكنه يومىء بالواو إليه زيادة في الإنكار ، فإن قيل قال في موضع ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ ﴾ [الأعراف : 185] وقال ههنا ﴿ أَفَلَمْ

يَنظُرُواْ ﴾ بالفاء فما الفرق ؟ نقول ههنا سبق منهم إنكار الرجع فقال بحرف التعقيب بمخالفه ، فإن قيل ففي ياس سبق ذلك بقوله قال : ﴿ مَن يُحيِي العظام ﴾ [ياس : 78] نقول هناك الاستدلال بالسموات لما لم يعقب الإنكار على عقيب الإنكار استدل بدليل آخر ، وهو قوله تعالى : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الذى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [ياس : 79] ثم ذكر الدليل الآخر ، وههنا الدليل كان عقيب الإنكار فذكر بالفاء ، وأما قوله ههنا بلفظ النظر ، وفي الأحقاف بلفظ الرؤية ، ففيه لطيفة وهي أنهم ههنا لما استبعدوا أمر الرجع بقولهم ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ استبعد استبعادهم ، وقال : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُواْ إِلَى السماء ﴾ لأن النظر دون الرؤية فكأن النظر كان في حصول العلم بإنكار الرجع ولا حاجة إلى الرؤية ليقع الاستبعاد في مقابلة الاستعباد ، وهناك لم يوجد منهم بإنكار مذكور فأرشدهم إليه بالرؤية التي هي أتم من النظر ، ثم إنه تعالى كمل ذلك وجمله بقوله ﴿ إِلَى السماء ﴾ ولم يقل في السماء لأن النظر في الشيء ينبىء عن التأمل والمبالغة والنظر إلى الشيء ينبىء عنه ، لأن إلى للغاية فينتهي النظر عنده في الدخول في معنى الظرف فإذا انتهى النظر إليه ينبغي أن ينفذ فيه

حتى يصح معنى الظرفية وقوله تعالى : ﴿ فَوْقَهُمْ ﴾ تأكيد آخر أي وهو ظاهر فوق رؤوسهم غير غائب عنهم ، وقوله تعالى : ﴿ كَيْفَ بنيناها وزيناها وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ إشارة إلى وجه الدلالة وأولوية الوقوع وهي للرجع ، أما وجه الدلالة فإن الإنسان له أساس هي العظام التي هي كالدعامة وقوى وأنوار كالسمع والبصر فبناء السماء أرفع من أساس البدن ، وزينة السماء أكمل من زينة الإنسان بلحم وشحم .

وأما الأولوية فإن السماء ما لها من فروج فتأليفها أشد ، وللإنسان فروج ومسام ، ولا شك أن التأليف الأشد كالنسج الأصفق والتأليف الأضعف كالنسج الأسخف ، والأول أصعب عند الناس وأعجب ، فكيف يستبعدون الأدون مع علمهم بوجود الأعلى من الله تعالى ؟ قالت الفلاسفة الآية دالة على أن السماء لا تقبل الخرق ، وكذلك قالوا في قوله ﴿ هَلْ ترى مِن فُطُورٍ ﴾ [الملك : 3] وقوله ﴿ سَبْعاً شداداً ﴾ [النبأ : 12] وتعسفوا فيه لأن قوله تعالى : ﴿ مَّا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ صريح في عدم ذلك ، والإخبار عن عدم الشيء لا يكون إخباراً عن عدم إمكانه فإن من قال : ما لفلان قال ؟ لا يدل على نفي إمكانه ، ثم إنه تعالى بيّن خلاف قولهم بقوله ﴿ وَإِذَا السماء فُرِجَتْ ﴾ [المرسلات : 9] وقال : ﴿ إِذَا السماء انفطرت ﴾ [الانفطار : 1] وقال : ﴿ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ [الحاقة : 16] في مقابلة قوله ﴿ سَبْعاً شِدَاداً ﴾ وقال : ﴿ فَإِذَا انشقت السماء فَكَانَتْ وَرْدَةً كالدهان ﴾ [الرحمن : 37] إلى غير ذلك والكل في الرد عليهم صريح وما ذكروه في

الدلالة ليس بظاهر ، بل وليس له دلالة خفية أيضاً ، وأما دليلهم المعقول فأضعف وأسخف من تمسكهم بالمنقول .

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7)

(75/721)

إشارة إلى دليل آخر ووجه دلالة الأرض هو أنهم قالوا : الإنسان إذا مات وفارقته القوة الغاذية والنامية لا تعود إليه تلك القوة ، فنقول الأرض أشد جموداً وأكثر خموداً والله تعالى ينبت فيها أنواع النبات وينمو ويزيد ، فكذلك الإنسان تعود إليه الحياة وذكر في الأرض ثلاثة أمور كما ذكر في السماء ثلاثة أمور في الأرض المد وإلقاء الرواسي والإنبات فيها ، وفي السماء البناء والتزيين وسد الفروج ، وكل واحد في مقابلة واحد فالمد في مقابلة البناء ، لأن المد وضع والبناء رفع ، والرواسي في الأرض ثابتة والكواكب في السماء مركوزة مزينة لها والإنبات في الأرض شقها كما قال تعالى : ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الماء صَبّاً * ثُمَّ شَقَقْنَا الأرض شَقّاً ﴾ [عبس : 25 ، 26] وهو على خلاف سد الفروج وإعدامها ، وإذا علمت هذا ففي الإنسان أشياء موضوعة وأشياء مرفوعة وأشياء ثابتة كالأنف والأذن وأشياء متحركة كالمقلة واللسان ، وأشياء مسدودة الفروج كدور الرأس والأغشية المنسوجة

نسجاً ضعيفاً كالصفاق ، وأشياء لها فروج وشقوق كالمناخر والصماخ والفم وغيرها ، فالقادر على الأضداد في هذا المهاد ، في السبع الشداد ، غير عاجز عن خلق نظيرها في هذه الأجساد .

(و) تفسير الرواسي قد ذكرناه في سورة لقمان ، والبهيج الحسن .

تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (8)

(76/721)

يحتمل أن يكون الأمران عائدين إلى الأمرين المذكورين وهما السماء والأرض ، على أن خلق السماء تبصرة وخلق الأرض ذكرى ، ويدل عليه أن السماء زينتها مستمرة غير مستجدة في كل عام فهي كالشيء المرئي على مرور الزمان ، وأما الأرض فهي كل سنة تأخذ زخرفها فذكر السماء تبصرة والأرض تذكرة ، ويحتمل أن يكون كل واحد من الأمرين موجوداً في كل واحد من الأمرين ، فالسماء تبصرة والأرض كذلك ، والفرق بين التبصرة والتذكرة هو أن فيها آيات مستمرة منصوبة في مقابلة البصائر وآيات متجددة مذكرة عند التناسي ، وقوله ﴿ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ أي راجع إلى التفكر والتذكر والنظر في الدلائل .

وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (9)

إشارة إلى دليل آخر وهو ما بين السماء والأرض ، فيكون الاستدلال بالسماء والأرض وما بينهما ، وذلك إنزال (الماء من) السماء من فوق ، وإخراج النبات من تحت وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(77/721)

هذا الاستدلال قد تقدم بقوله تعالى : ﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [ق : 7] فما الفائدة في إعادته بقوله ﴿ فَأَنبَتْنَا بِهِ جنات وَحَبَّ الحصيد ﴾ ؟ نقول قوله ﴿ فَأَنبَتْنَا ﴾ استدلال بنفس النبات أي الأشجار تنمو وتزيد ، فكذلك بدن الإنسان بعد الموت ينمو ويزيد بأن يرجع الله تعالى إليه قوة النشوء والنماء كما يعيدها إلى الأشجار بواسطة ماء السماء ﴿ وَحَبَّ الحصيد ﴾ فيه حذف تقديره وحب الزرع الحصيد وهو المحصود أي أنشأنا جنات يقطف ثمارها وأصولها باقية وزرعاً يحصد كل سنة ويزرع في كل عام أو عامين ، ويحتمل أن يقال التقدير وننبت الحب الحصيد والأول هو المختار ، وقوله تعالى : ﴿ والنخل باسقات ﴾ إشارة إلى المختلط من جنسين ، لأن الجنات تقطف ثمارها وتثمر من غير زراعة كل سنة ، لكن النخل يؤبر ولولا التأبير لم يثمر ، فهو جنس مختلط من الزرع والشجر ، فكأنه تعالى خلق ما يقطف كل سنة ويزرع وخلق ما لا يزرع كل سنة ويقطف مع

بقاء أصلها وخلق المركب من جنسين في الأثمار ، لأن بعض الثمار فاكهة ولا قوت فيه ، وأكثر الزرع قوت والثمر فاكهة وقوت ، والباسقات الطوال من النخيل .

وقوله تعالى : ﴿ باسقات ﴾ يؤكد كمال القدرة والاختيار ، وذلك من حيث إن الزرع إن قيل فيه إنه يمكن أن يقطف من ثمرته لضعفه وضعف حجمه ، فكذلك يحتاج إلى إعادته كل سنة والجنات لكبرها وقوتها تبقى وتثمر سنة بعد سنة فيقال : أليس النخل الباسقات أكثر وأقوى من الكرم الضعيف والنخل محتاجة كل سنة إلى عمل عامل والكرم غير محتاج ، فالله تعالى هو الذي قدر ذلك لذلك لا للكبر والصغر والطول والقصر .

قوله تعالى : ﴿ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ أي منضود بعضها فوق بعض في أكمامها كما في سنبله الزرع وهو عجيب ، فإن الأشجار الطوال أثمارها بارزها متميز بعضها من بعض لكل واحد منها أصل يخرج منه كالجوز واللوز وغيرهما والطلع كالسنبلة الواحدة يكون على أصل واحد .

(78/721)

ثم قال تعالى : ﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾ وفيه وجهان أحدهما نصب على المصدر لأن الإنبات رزق فكأنه تعالى قال : أنبتناها إنباتاً للعباد ، والثاني نصب على كونه مفعولاً له كأنه قال :

أنبتناها لرزق العباد ، وههنا مسائل :

المسألة الأولى :

قال في خلق السماء والأرض ﴿ تَبْصِرَةً وذكرى ﴾ [ق : 8] وفي الثمار قال : ﴿ رِزْقاً ﴾ والثمار أيضاً فيها تبصرة ، وفي السماء والأرض أيضاً منفعة غير التبصرة والتذكرة ، فما الحكمة في اختيار الأمرين ؟ نقول فيه وجوه أحدها : أن نقول الاستدلال وقع لوجود أمرين أحدهما الإعادة والثاني البقاء بعد الإعادة فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخبرهم بحشر وجمع يكون بعد الثواب الدائم والعقاب الدائم ، وأنكروا ذلك ، فأما الأول فالله القادر على خلق السموات والأرض قادر على خلق الخلق بعد الفناء ، وأما الثاني فلأن البقاء في الدنيا بالرزق والقادر على إخراج الأرزاق من النجم والشجر ، قادر على أن يرزق العبد في الجنة ويبقى ، فكأن الأول تبصرة وتذكرة بالخلق ، والثاني تذكرة بالبقاء بالرزق ، ويدل على هذا الفصل بينهما بقوله ﴿ تَبْصِرَةً وذكرى ﴾ حيث ذكر ذلك بعد الآيتين ، ثم بدأ بذكر الماء وإنزاله وإنباته النبات ثانيها : أن منفعة الثمار الظاهرة هي الرزق فذكرها ومنفعة السماء الظاهرة ليست أمراً عائداً إلى انتفاع العباد لبعدها عن ذهنهم ، حتى أنهم لو توهموا عدم الزرع والثمر لظنوا أن يهلكوا ، ولو توهموا عدم السماء فوقهم لقالوا لا يضرنا ذلك مع أن الأمر بالعكس أولى ، لأن السماء سبب الأرزاق بتقدير الله ، وفيها غير ذلك من المنافع ، والثمار وإن لم تكن (ما) كان العيش ، كما أنزل الله على قوم المن والسلوى

وعلى قوم المائدة من السماء فذكر الأظهر للناس في هذا الموضع ثالثها : قوله ﴿ رِزْقاً ﴾ إشارة إلى كونه منعماً لكون تكذيبهم في غاية القبح فإنه يكون إشارة (للتكذيب) بالمنعم وهو أقبح ما يكون .

(79/721)

المسألة الثانية :

قال : ﴿ تَبْصِرَةً وذكرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق : 8] فقيد العبد بكونه منيباً وجعل خلقها تبصرة لعباده المخلصين وقال : ﴿ رِّزْقاً لِّلْعِبَادِ ﴾ مطلقاً لأن الرزق حصل لكل أحد ، غير أن المنيب يأكل ذاكراً شاكراً للإنعام ، وغيره يأكل كما تأكل الأنعام فلم يخصص الرزق بقيد .

المسألة الثالثة :

ذكر في هذه الآية أمور ثلاثة أيضاً وهي إنبات الجنات والحب والنخل كما ذكر في السماء والأرض في كل واحدة أموراً ثلاثة ، وقد ثبت أن الأمور الثلاثة في الآيتين المتقدمين متناسبة ، فهل هي كذلك في هذه الآية ؟ نقول قد بينا أن الأمور الثلاثة إشارة إلى الأجناس الثلاثة ، وهي التي يبقى أصلها سنين ، ولا تحتاج إلى عمل عامل والتي لا يبقى أصلها وتحتاج كل سنة

إلى عمل عامل ، والتي يجتمع فيها الأمران وليس شيء من الثمار والزروع خارجاً عنه أصلاً كما أن أمور الأرض منحصرة في ثلاثة : ابتداء وهو المد ، ووسط وهو النبات بالجبال الراسية ، وثالثها هو غاية الكمال وهو الإنبات والتزيين بالزخارف .

ثم قال تعالى : ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ عطفاً على ﴿ فَأَنبَتْنَا بِهِ ﴾ [ق : 9] وفيه بحثان :

الأول : إن قلنا إن الاستدلال بإنبات الزرع وإنزال الماء كان لإمكان البقاء بالرزق فقوله ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ ﴾ إشارة إلى أنه دليل على الإعادة كما أنه دليل على البقاء ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ كذلك الخروج ﴾ فإن قيل كيف يصح قولك استدلالاً ، وإنزال الماء كان لبيان البقاء مع أنه تعالى قال بعد ذلك ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ .

(80/721)

وقال : ﴿ كذلك الخروج ﴾ فيكون الاستدلال على البقاء قبل الاستدلال على الإحياء والإحياء سابق على الإبقاء ، فينبغي أن يبين أولاً أنه يحيي الموتى ، ثم يبين أنه يبقيهم ، نقول لما كان الاستدلال بالسموات والأرض على الإعادة كافياً بعد ذكر دليل الإحياء ذكر دليل الإبقاء ، ثم عاد واستدرك فقال هذا الدليل الدال على الإبقاء دال على الإحياء ، وهو

غير محتاج إليه لسبق دليلين قاطعين فبدأ ببيان البقاء وقال : ﴿ فَأَنبَتْنَا بِهِ جنات ﴾ [ق : 9] ثم ثنى بإعادة ذكر الإحياء فقال : ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ ﴾ وإن قلنا إن الاستدلال بإنزال الماء وإنبات الزرع لا لبيان إمكان الحشر فقوله ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ ﴾ ينبغي أن يكون مغايراً لقوله ﴿ فَأَنبَتْنَا بِهِ ﴾ بخلاف ما لو قلنا بالقول الأول لأن الإحياء ، وإن كان غير الإنبات لكن الاستدلال لما كان به على أمرين متغايرين جاز العطف ، تقول خرج للتجارة وخرج للزيارة ، ولا يجوز أن يقال خرج للتجارة وذهب للتجارة إلا إذا كان الذهاب غير الخروج فنقول الإحياء غير إنبات الرزق لأن بإنزال الماء من السماء يخضر وجه الأرض ويخرج منها أنواع من الأزهار ولا يتغذى به ولا يقتات ، وإنما يكون به زينة وجه الأرض وهو أعم من الزرع والشجر لأنه يوجد في كل مكان والزرع والثمر لا يوجدان في كل مكان ، فكذلك هذا الإحياء ، فإن قيل فكان ينبغي أن يقدم في الذكر لأن اخضرار وجه الأرض يكون قبل حصول الزرع والثمر ، ولأنه يوجد في كل مكان بخلاف الزرع والثمر ، نقول لما كان إنبات الزرع والثمر أكمل نعمة قدمه في الذكر .

(81/721)

الثاني : في قوله ﴿ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ نقول جاز إثبات التاء في الميت وحذفها عند وصف المؤنث بها ، لأن الميت تخفيف للميت ، والميت فيعل بمعنى فاعل فيجوز فيه إثبات التاء لأن التسوية في الفعيل بمعنى المفعول كقوله ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ [الأعراف : 56] فإن قيل لم سوى بين المذكر والمؤنث في الفعيل بمعنى المفعول ؟ قلنا لأن الحاجة إلى التمييز بين الفاعل والمفعول أشد من الحاجة إلى التمييز بين المفعول المذكر والمفعول المؤنث نظراً إلى المعنى ونظراً إلى اللفظ ، فأما المعنى فظاهر ، وأما اللفظ فلأن المخالفة بين الفاعل والمفعول في الوزن والحرف أشد من المخالفة بين المفعول والمفعول له ، إذا علم هذا فنقول في الفعيل لم يتميز الفاعل بحرف فإن فعيلاً جاء بمعنى الفاعل كالنصير والبصير وبمعنى المفعول كالكسير والأسير ، ولا يتميز بحرف عند المخالفة إلا الأقوى فلا يتميز عند المخالفة الأدنى ، والتحقيق فيه أن فعيلاً وضع لمعنى لفظي ، والمفعول وضع لمعنى حقيقي فكأن القائل قال استعملوا لفظ المفعول للمعنى الفلاني ، واستعملوا لفظ الفعيل مكان لفظ المفعول فصار فعيل كالموضوع للمفعول ، والمفعول كالموضوع للمعنى ، ولما كان تغير اللفظ تابعاً لتغير المعنى تغير المفعول لكونه بإزاء المعنى ، ولم يتغير الفعيل لكونه بإزاء اللفظ في أول الأمر ، فإن قيل فما الفرق بين هذا الموضع وبين قوله

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ الأَرض الميتة أحييناها ﴾ [ياس : 33] حيث أثبت التاء هناك ؟ نقول الأرض أراد بها الوصف فقال : ﴿ الأرض الميتة ﴾ لأن معنى الفاعلية ظاهر هناك والبلدة الأصل فيها الحياة ، لأن الأرض إذا صارت حية صارت آهلة ، وأقام بها الناس وعمروها فصارت بلدة فأسقط التاء لأن معنى الفاعلية ثبت فيها والذي بمعنى الفاعل لا يثبت فيه التاء ، وتحقيق هذا قوله ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ ﴾ [سبأ : 15] حيث أثبت التاء حيث ظهر بمعنى الفاعل ، ولم يثبت حيث لم يظهر وهذا بحث عزيز .

قوله تعالى : ﴿ كذلك الخروج ﴾ أي كالإحياء ﴿ الخروج ﴾ فإن قيل الإحياء يشبه به الإخراج لا الخروج فنقول تقديره ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ فتشققت وخرج منها النبات كذلك تشقق ويخرج منها الأموات ، وهذا يؤكد قولنا الرجع بمعنى الرجوع في قوله ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ [ق : 3] لأنه تعالى بيّن لهم ما استبعدوه فلو استبعدوا الرجع الذي هو من المتعدي لناسب أن يقول ، كذلك الإخراج ، ولما قال : ﴿ كذلك الخروج ﴾ فهم أنهم أنكروا الرجوع فقال : ﴿ كذلك الخروج ﴾ نقول فيه معنى لطيف على القول الآخر ، وذلك لأنهم استبعدوا الرجع الذي هو من المتعدي بمعنى الإخراج والله تعالى أثبت الخروج وفيهما مبالغة تنبيهاً على بلاغة القرآن مع أنها مستغنية عن البيان ، ووجهها هو أن الرجع والإخراج كالسبب للرجوع والخروج ، والسبب إذا انتفى ينتفي المسبب جزماً ، وإذا

وجد قد يتخلف عنه المسبب لمانع تقول كسرته فلم ينكسر وإن كان مجازاً والمسبب إذا وجد فقد وجد سببه وإذا انتفى لا ينتفي السبب لما تقدم ، إذا علم هذا فهم أنكروا وجود السبب ونفوه وينتفي المسبب عند انتفائه جزماً فبالغوا وأنكروا الأمر جميعاً ، لأن نفي السبب نفي المسبب ، فأثبت الله الأمرين بالخروج كما نفوا الأمرين جميعاً بنفي الإخراج. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 133.138 ﴾

(83/721)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ ينظروا إِلَى السمآء فَوْقَهُمْ ﴾

نظر اعتبار وتفكر ، وأن القادر على إيجادها قادر على الإعادة .

﴿ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا ﴾ فرفعناها بلا عمد ﴿ وزيناها ﴾ بالنجوم ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾

جمع فرج وهو الشق ؛ ومنه قول امرىء القيس :

تَسُدُّ بِهِ فَرْجَهَا مِنْ دُبُرْ . . .

وقال الكسائي : ليس فيها تفاوت ولا اختلاف ولا فتوق .

﴿ والأرض مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ تقدّم في "الرعد" بيانه .

﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ ﴾ أي من كل نوع من النبات ﴿ بَهِيجٍ ﴾ أي حسن يسر الناظرين ؛ وقد تقدّم في "الحج" بيانه .

﴿ تَبْصِرَةً ﴾ أي جعلنا ذلك تبصرة لندلَّ به على كمال قدرتنا .

وقال أبو حاتم : نصب على المصدر ؛ يعني جعلنا ذلك تبصيراً وتنبيهاً على قدرتنا ﴿ وذكرى ﴾ معطوف عليه .

﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ راجع إلى الله تعالى مفكر في قدرته .

قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السمآء ﴾ أي من السحاب ﴿ مَآءً مُّبَارَكاً ﴾ أي كثير البركة .

﴿ فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الحصيد ﴾ التقدير : وحبّ النبت الحصيد وهو كل ما يحصد .

هذا قول البصريين .

وقال الكوفيون : هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه ، كما يقال : مسجد الجامِع وربيعُ الأوّلِ وحقُّ اليقينِ وحبل الوريدِ ونحوها ؛ قاله الفرّاء .

والأصل الحبّ الحصيد فحذفت الألف واللام وأضيف المنعوت إلى النعت .

وقال الضحاك : حبّ الحصيد البُرُّ والشَّعيرُ .

وقيل : كلّ حبٍّ يُحْصد ويُدّخر ويُقْتات .

﴿ والنخل بَاسِقَاتٍ ﴾ نصب على الحال ردّاً على قوله : ﴿ وَحَبَّ الحصيد ﴾ و ﴿

بَاسِقَاتٍ ﴾ حال.

والباسقات الطوال؛ قاله مجاهد وعكرمة.

وقال قتادة وعبد الله بن شدّاد: بُسُوقها استقامتها في الطول.

وقال سعيد بن جبير: مستويات.

وقال الحسن وعكرمة أيضاً والفرّاء: مواقير حوامل؛ يقال للشاة بسَقت إذا ولدت، قال الشاعر:

(84/721)

فَلَمَّا تَرَكْنَا الدارَ ظَلَّتْ مُنِيفَةً . . .

بِقُرَّانَ فيه الباسقات المواقرُ

والأوّل في اللغة أكثر وأشهر؛ (يقال) بَسَقَ النخل بُسوقاً إذا طال.

قال:

لنا خمرٌ وليست خمر كَرْمٍ . . .

ولكنْ مِن نِتاجِ الباسِقاتِ

كِرامٌ في السماء ذَهَبْنَ طولاً . . .

وفاتَ ثِمارُها أيدي الجُنَاةِ

ويقال : بسق فلان على أصحابه أي علاهم ، وأبسقت الناقةُ إذا وقع في ضرعها اللبن قبل النِّتاج فهي مُبْسِق ونُوقٌ مَبَاسِيق .

وقال قطبة بن مالك : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ "بَاصِقَاتٍ" بالصاد ؛ ذكره الثعلبي .

قلت : الذي في صحيح مسلم عن قطبة بن مالك قال : صلّيت وصلّى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ : ﴿ ق والقرآن المجيد ﴾ حتى قرأ ﴿ والنخل بَاسِقَاتٍ ﴾ قال فجعلت أردّدها ولا أدري ما قال ، إلا أنه لا يجوز إبدال الصاد من السين لأجل القاف .

﴿ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ الطلع هو أوّلُ ما يخرج من ثمر النخل ؛ يقال : طَلَعَ الطلعُ طُلوعاً وأطلعت النخلةُ ، وطَلْعها كُفُرّاها قبل أن ينشق .

"نضِيدٌ" أي متراكب قد نُضِّد بعضُه على بعض .

وفي البخاري : "النَّضِيدُ" الكُفُرّى ما دام في أكمامه ومعناه منضود بعضه على بعض ؛ فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد .

﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾ أي رزقناهم رزقاً ، أو على معنى أنبتناها رزقاً ؛ لأن الإنبات في معنى الرزق ، أو على أنه مفعول له أي أنبتناها لرزقهم ، والرزق ما كان مهيأً للإنتفاع به .

وقد تقدم القول فيه .

﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الخروج ﴾ أي من القبور أي كما أحيا الله هذه الأرض الميتة فكذلك يخرجكم أحياء بعد موتكم ؛ فالكاف في محل رفع على الابتداء .

وقد مضى هذا المعنى في غير موضع .

وقال "مَيْتًا" لأن المقصود المكان ولو قال ميتة لجاز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(85/721)

وقال الآلوسى :

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُواْ ﴾

أي أغفلوا أو عموا فلم ينظروا حين كفروا بالبعث ﴿ إِلَى السماء فَوْقَهُمْ ﴾ بحيث يشاهدونها كل وقت ، قيل : وهذا ظاهر على ما هو المعروف بين الناس من أن المشاهد هو السماء التي هي الجرم المخصوص الذي يطوى يوم القيامة وقد وصف في الآيات والأحاديث بما وصف .

وأما على ما ذهب إليه الفلاسفة من أن المشاهد إنما هو كرة البخار أو هواء ظهر بهذا اللون ولا لون له حقيقة ودون ذلك الجرم ففيه خفاء ، وقال بعض الأفاضل في هذا المقام : إن

ظواهر الآيات والأخبار ناطقة بأن السماء مرئية ، وما ذكره الفلاسفة المتقدمون من أن الأفلاك أجرام صلبة شفافة لا ترى غير مسلم أصلاً ، وكذا كون السموات السبع هي الأفلاك السبعة غير مسلم عند المحققين ، وكذا وجود كرة البخار وأن ما بين السماء والأرض هواء مختلف الأجزاء في اللطافة فكلما علا كان ألطف حتى أنه ربما لا يصلح للتعيش ولا يمنع خروج الدم من المسام الدقيقة جداً لمن وصل إليه ، وإن رؤية الجو بهذا اللون لا ينافي رؤية السماء حقيقة وإن لم تكن في نفسها ملونة به ويكون ذلك كرؤية قعر البحر أخضر من وراء مائة ونحو ذلك مما يرى بواسطة شيء على لون وهو في نفسه على غير ذلك اللون ، بل قيل : إن رؤية السماء مع وجود كرة البخار على نحو رؤية الأجرام المضيئة كالقمر وغيره .

(86/721)

وأنت تعلم أن الأصحاب مع الظواهر حتى يظهر دليل على امتناع ما يدل عليه وحينئذٍ يؤولونها ، وأن التزام التطبيق بين ما نطقت به الشريعة وما قاله الفلاسفة مع إكذاب بعضه بعضاً أصعب من المشي على الماء أو العروج إلى السماء ، وأنا أقول : لا بأس بتأويل ظاهر تأويلاً قريباً لشيء من الفلسفة إذا تضمن مصلحة شرعية ولم يستلزم مفسدة دينية ، وأرى

الإنصاف من الدين ، ورد القول احتقاراً لقائله غير لائق بالعلماء المحققين ، هذا وحمل بعض ﴿ السماء ﴾ ههنا على جنس الأجرام العلوية وهو كما ترى ، والظاهر أنها الجرم المخصوص وأنها السماء الدنيا أي أفلم ينظروا إلى السماء الدنيا ﴿ كَيْفَ بنيناها ﴾ أحكمناها ورفعناها بغير عمد ﴿ وزيناها ﴾ للناظرين بالكواكب المرتبة على أبدع نظام ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ أي من فتوق وشقوق ، والمراد سلامتها من كل عيب وخلل فلا ينافي القول بأن لها أبواباً ، وزعم بعضهم أن المراد متلاصقة الطباق وهو ينافي ما ورد في الحديث من أن بين كل سماء وسماء مسيرة خمسمائة عام ، ولعل تأخير هذا لمراعاة الفواصل .

وقيل ههنا ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُواْ ﴾ بالفاء وفي موضع آخر ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ ﴾ [الأعراف : 185] بالواو لسبق إنكار الرجع فناسب التعقيب بما يشعر بالاستدلال عليه ، وجيء بالنظر دون الرؤية كما في الأحقاف استبعاداً لاستبعادهم فكأنه قيل : النظر كاف في حصول العلم بإمكان الرجع ولا حاجة إلى الرؤية قاله الإمام ، واحتج بقوله سبحانه : ﴿ مَّا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ للفلاسفة على امتناع الخرق ، وأنت تعلم أن نفي الشيء لا يدل على امتناعه ، على أنك قد سمعت المراد بذلك ، ولا يضر كونه ليس معنى حقيقياً لشيوعه .

﴿ والأرض مددناها ﴾

بسطناها وهو لا ينافي كريتها التامة أو الناقصة من جهة القطبين لمكان العظم ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رواسي ﴾ جبالاً ثوابت تمنعها من الميد كما يدل عليه قوله تعالى في آية أخرى : ﴿ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل : 15] وهو ظاهر في عدم حركة الأرض ، وخالف في ذلك بعض الفلاسفة المتقدمين وكل الفلاسفة الموجودين اليوم ، ووافقهم بعض المغاربة من المسلمين فزعموا أنها تتحرك بالحركة اليومية بما فيها من العناصر وأبطلوا أدلة المتقدمين العقلية على عدم حركتها ، وهل يكفر القائل بذلك الذي يغلب على الظن لا ﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ ﴾ صنف ﴿ بَهِيجٍ ﴾ حسن يبهج ويسر من نظر إليه .

تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (8)

﴿ تَبْصِرَةً وذكرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ راجع إلى ربه ، وهو مجاز عن التفكر في بدائع صنعه سبحانه بتنزيل التفكر في المصنوعات منزلة الرجوع إلى صانعها ، و ﴿ تَبْصِرَةً وذكرى ﴾ علتان للأفعال السابقة معنى وإن انتصبا بالفعل الأخير أو لفعل مقدر بطريق الاستئناف أي فعلنا ما فعلنا تبصيراً وتذكيراً ، وقال أبو حيان : منصوبان على المصدرية لفعل مقدر من لفظهما أي بصرنا وذكرنا والأول أولى .

وقرأ زيد بن علي ﴿ تَبْصِرَةٌ وذكرى ﴾ بالرفع على معنى خلقهما تبصرة وذكرى ، وقوله

تعالى :

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السماء مَاء مباركا ﴾

(88/721)

أي كثير المنافع شروع في بيان كيفية ما ذكر من إنبات كل زوج بهيج ، وهو عطف على ﴿ أَنبَتْنَا ﴾ [ق : 7] وما بينهما على الوجهين الأخيرين اعتراض مقرر لما قبله ومنبه على ما بعده ﴿ فَأَنبَتْنَا بِهِ ﴾ أي بذلك الماء ﴿ جنات ﴾ كثيرة كما يقتضيه المقام أي أشجاراً ذات ثمار ﴿ وَحَبَّ الحصيد ﴾ أي حب الزرع الذي من شأنه أن يحصد من البر والشعير وأمثالهما ، فالإضافة لما بينهما من الملابسة ، و ﴿ الحصيد ﴾ بمعنى المحصود صفة لموصوف مقدر كما أشرنا إليه فليس من قبيل مسجد الجامع ولا من مجاز الأول كما توهم ، وتخصيص إنبات حبه بالذكر لأنه المقصود بالذات .

﴿ والنخل ﴾ عطف على ﴿ جنات ﴾ [ق : 9] وهي اسم جنس تؤنث وتذكر وتجمع ، وتخصيصها بالذكر مع اندراجها في الجنات لبيان فضلها على سائر الأشجار ، وتوسيط الحب بينهما لتأكيد استقلالها وامتيازها عن البقية مع ما فيه من مراعاة الفواصل ﴿ باسقات ﴾ أي طوالاً أو حوامل من أبسقت الشاة إذا حملت فيكون على هذا من

أفعل فهو فاعل ، والقياس مفعل فهو من النوادر كالطوائح واللواقح في أخوات لها شاذة ويافع من أيفع وياقل من أبقل ، ونصبه على أنه حال مقدرة .

وروى قطبة بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ ﴿ باصقات ﴾ بالصاد وهي لغة لبني العنبر يبدلون من السين صاداً إذا وليتها أو فصل بحرف أو حرفين خاء معجمة أو عين مهملة أو طاء كذلك أو قاف ﴿ باسقات لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ منضود بعضه فوق بعض ، والمراد تراكم الطلع أو كثرة ما فيه من مادة الثمر ، والجملة حال من النخل كباسقات بطريق الترادف أو من ضميرها في ﴿ باسقات ﴾ على التداخل ، وجوز أن يكون الحال هو الجار والمجرور و ﴿ طَلْعٌ ﴾ مرتفع به على الفاعلية ، وقوله تعالى :

﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾

(89/721)

أي ليرزقهم علة لقوله تعالى : ﴿ فَأَنبَتْنَا ﴾ [ق : 9] وفي تعليله بذلك بعد تعليل ﴿ أَنبَتْنَا ﴾ [ق : 7] الأول بالتبصير والتذكير تنبيه على أن اللائق بالعبد أن يكون انتفاعه بذلك من حيث التذكر والاستبصار أقدم وأهم من تمتعه به من حيث الرزق ، وجوز أن يكون ﴿ رِزْقًا ﴾ مصدراً من معنى ﴿ أَنبَتْنَا ﴾ لأن الإنبات رزق فهو من قبيل قعدت جلوساً

، وأن يكون حالاً بمعنى مرزوقاً ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ ﴾ أي بذلك الماء ﴿ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ أرضاً جدبة لا نماء فيها بأن جعلناها بحيث ربت وأنبتت وتذكير ﴿ مَيْتاً ﴾ لأن البلدة بمعنى البلد والمكان ، وقرأ أبو جعفر .

وخالد ﴿ مَيْتاً ﴾ بالتثقيل ﴿ كذلك الخروج ﴾ جملة قدم فيها الخبر للقصد إلى القصر وذلك إشارة إلى الحياة المستفادة من الاحياء ، وما فيه من معنى البعد إشعار ببعد الرتبة أي مثل تلك الحياة البديعة حياتكم بالبعث من القبور لا كشيء مخالف لها ، وفي التعبير عن إخراج النبات من الأرض بالإحياء وعن إحياء الموتى بالخروج تفخيم لشأن الإنبات وتهوين لأمر البعث وتحقيق للماثلة بين إخراج النبات وإحياء الموتى لتوضيح منهاج القياس وتقريبه إلى إفهام الناس ، وجوز أن يكون الكاف في محل رفع على الابتداء و ﴿ الخروج ﴾ خبر ، ونقل عن الزمخشري أنه قال : ﴿ كذلك ﴾ الخبر وهو الظاهر ، ولكونه مبتدأ وجه وهو أن يقال : ذلك الخروج مبتدأ وخبر على نحو أبو يوسف أبو حنيفة ، والكاف واقع موقع مثل في قولك : مثل زيد أخوك ولا يخفى أنه تكلف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(90/721)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ(6) ﴾

تفريع على قوله : ﴿ بل عجبوا أن جاءهم منذر ﴾ [ق : 2] إلى قوله : ﴿ مريج ﴾ [ق : 5] لأن أهمّ ما ذكر من تكذيبهم أنهم كذبوا بالبعث ، وخلق السماوات والنجوم والأرض دالّ على أن إعادة الإنسان بعد العدم في حيّز الإمكان فتلك العوالم وجدت عن عدم وهذا أدلّ عليه قوله تعالى في سورة يس (81) ﴿ أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾

والاستفهام يجوز أن يكون إنكارياً .

والنظرُ نظرَ الفكر على نحو قوله تعالى : ﴿ قل انظروا ماذا في السماوات والأرض ﴾ [يونس : 101] .

ومحل الإنكار هو الحال التي دل عليها ﴿ كيفَ بنيناها ﴾ ، أي ألم يتدبروا في شواهد الخليقة فتكون الآية في معنى أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق .

ويجوز أن يكون الاستفهام تقريرياً ، والنظر المشاهدة ، ومحل التقرير هو فعل ﴿ ينظروا ﴾ ، أو يكون ﴿ كيف ﴾ مراد به الحال المشاهدة .

هذا وأن التقرير على نفي الشيء المراد الإقرار بإثباته طريقة قرآنية ذكرناها غير مرة ، وبينا

أن الغرض منه إفساح المجال للمقرَّر إن كان يروم إنكار ما قُرر عليه ، ثقة من المقرِّر بكسر الراء بأن المقرَّر بالفتح لا يُقدم على الجحود بما قرر عليه لظهوره ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ﴾ [الأعراف : 148] ، وقوله : ﴿ ألست بربكم كلاهما ﴾ في سورة الأعراف (172) .

وهذا الوجه أشدّ في النعي عليهم لاقتضائه أن دلالة المخلوقات المذكورة على إمكان البعث يكفي فيها مجرد النظر بالعين .

وفوقهم ﴾ حال من السماء .

والتقييد بالحال تنديد عليهم لإهمالهم التأمل مع المكنة منه إذ السماء قريبة فوقهم لا يكلفهم النظر فيها إلا رفعَ رؤوسهم .

(91/721)

و ﴿ كيف ﴾ اسم جامد مبْنيّ معناه : حالة ، وأكثر ما يرد في الكلام للسؤال عن الحالة فيكون خبراً قبل ما لا يستغنِي عنه مثل : كيف أنت ؟ وحالاً قبل ما يستغنى عنه نحو : كيف جاء ؟ ومفعولاً مطلقاً نحو ﴿ كيف فعل ربك ﴾ [الفجر : 6] ، ومفعولاً به نحو قوله تعالى : ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ﴾ [الإسراء : 21] .

وهي هنا بدل من ﴿ فوقَهم ﴾ فتكون حالاً في المعنى .

والتقدير : أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم هيئة بنينا إياها ، وتكون جملة ﴿ بنيناها ﴾ مبينة ل ﴿ كيف ﴾ .

وأطلق البناء على خلق العلويات بجامع الارتفاع .

والمراد بـ ﴿ السماء ﴾ هنا ما تراه العين من كرة الهواء التي تبدو كالقبة وتسمى الجوّ .

والتزيين جعل الشيء زينا ، أي حسناً أي تحسين منظرها للرائي بما يبدو فيها من الشمس نهاراً والقمر والنجوم ليلاً .

واقتصر على آية تزيين السماء دون تفصيل ما في الكواكب المزَّينة بها من الآيات لأن التزيين يشترك في إدراكه جميع الذين يشاهدونه وللجمع بين الاستدلال والامتنان بنعمة التمكين من مشاهدة المرائي الحسنة كما قال تعالى

﴿ ولكم فيها جَمال حين تريحون وحين تسرحون ﴾ [النحل : 6] في شأن خَلق الأنعام في سورة النحل .

ثم يتفاوت الناس في إدراك ما في خلق الكواكب والشمس والقمر ونظامها من دلائل على مقدار تفاوت علومهم وعقولهم .

والآية صالحة لإفهام جميع الطبقات .

وجملة ﴿ وما لها من فروج ﴾ عطف على جملتي ﴿ كيف بنيْنَاها وزيّناها ﴾ فهي

حال ثالثة في المعنى .

والفروج : جمع فرج ، وهو الخرق ، أي يشاهدونها كأنها كُرة متصلة الأجزاء ليس بين أجزائها تفاوت يبدو كالخَرْق ولا تباعد يفصل بعضها عن بعض فيكون خرقاً في قبتها .

وهذا من عجيب الصنع إذ يكون جسم عظيم كجسم كرة الهواء الجوي مصنوعاً كالمفروغ في قالب .

وهذا مشاهد لجميع طبقات الناس على تفاوت مداركهم ثم هم يتفاوتون في إدراك ما في هذا الصنع من عجائب التئام كرة الجوّ المحيط بالأرض .

(92/721)

ولو كان في أديم ما يسمى بالسماء تخالف من أجزائه لظهرت فيه فروج وانخفاض وارتفاع .

ونظير هذه الآية قوله في سورة المُلك ﴿ الذي خلق سبع سماوات طباقا إلى قوله هل ترى من فطور ﴾ [الملك : 3] .

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7)

عطف على جملة ﴿ أفلم ينظروا ﴾ [ق : 6] عطف الخبر على الاستفهام الإنكاري وهو في معنى الإخبار .

والتقدير : ومددنا الأرض .

ولما كانت أحوال الأرض نصب أعين الناس وهي أقرب إليهم من أحوال السماء لأنها تلوح للأنظار دون تكلف لم يؤت في لفت أنظارهم إلى دلالتها باستفهام إنكاريّ تنزيلاً لهم منزلة من نظر في أحوال الأرض فلم يكونوا بحاجة إلى إعادة الأخبار بأحوال الأرض تذكيراً لهم .

وانتصب ﴿ الأرض ﴾ بـ ﴿ مددناها ﴾ على طريقة الاشتغال .

والمدّ : البسط ، أي بسطنا الأرض فلم تكن مجموعَ نُتُوءات إذ لو كانت كذلك لكان المشي عليها مُرهقاً .

والمراد : بسط سَطح الأرض وليس المراد وصف حجم الأرض لأن ذلك لا تدركه المشاهدة ولم ينظر فيه المخاطبون نظر التأمل فيستدل عليهم بما لا يعلمونه فلا يعتبر في سياق الاستدلال على القدرة على خلق الأمور العظيمة ، ولا في سياق الامتنان بما في ذلك الدليل من نعمة فلا علاقة لهذه الآية بقضية كروية الأرض .

والإبقاء : تمثيل لتكوين أجسام بارزةٍ على الأرض متباعد بَعْضها عن بعض لأنّ حقيقة الإلقاء : رمي شيء من اليد إلى الأرض ، وهذا استدلال بخلقة الجبال كقوله : ﴿ وإلى الجبال كيف نُصِبَت ﴾ [الغاشية : 19] و ﴿ فيها ﴾ ظرف مستقر وصف ل ﴿ رواسي ﴾ قدم على موصوفه فصار حالاً ، ويجوز أن يكون ظرفاً لغواً متعلّقاً بـ ﴿ ألقينا ﴾ .

ورواسي : جمع راسسٍ على غير قياس مثل : فوارس وعواذل .

والرسُوُّ : الثبات والقرار .

(93/721)

وفائدة هذا الوصف زيادة التنبيه إلى بديع خلق الله إذ جعل الجبال متداخلة مع الأرض ولم تكن موضوعة عليها وضعاً كما توضع الخيمة لأنها لو كانت كذلك لتزلزلت وسقطت وأهلكت ما حواليها .

وقد قال في سورة الأنبياء (31) ﴿ وجعلنا في الأرض رواسيَ أن تميد بهم ﴾ أي دَفْعَ أن تميد هي ، أي الجبال بكم ، أي ملصقة بكم في مَيْدها .

وهنالك وجه آخر مضى في سورة الأنبياء .

والزوج : النوع من الحيوان والثمار والنبات ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ فأخرجنا به أزواجاً من نبات شَتَّى ﴾ في سورة طه (53) .

والمعنى : وأنبتنا في الأرض أصناف النبات وأنواعه .

وقوله : من كل زوج ﴾ يظهر أن حرف ﴿ مِن ﴾ فيه مزيد للتوكيد .

وزيادة ﴿ مِن ﴾ في غير النفي نادرة ، أي أقل من زيادتها في النفي ، ولكن زيادتها في

الإثبات واردة في الكلام الفصيح ، فأجاز القياس عليه نحاة الكوفة والأخفشُ وأبو علي الفارسي وابن جنيّ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وينزّل من السماء من جبالٍ فيها من بردَ ﴾ [النور : 43] إن المعنى : ينزل من السماء جبالاً فيها بَرَد ، وقد تقدم ذلك في قوله تعالى : ﴿ ومن النخل من طلعها ﴾ في سورة الأنعام (99) .

فالمقصود من التوكيد بحرف من ﴾ تنزيلهم منزلة من ينكر أن الله أنبت ما على الأرض من أنواع حين ادعوا استحاله إخراج الناس من الأرض ، ولذلك جيء بالتوكيد في هذه الآية لأن الكلام فيها على المشركين ولم يؤت بالتوكيد في آية سورة طه .

وليست ﴿ من ﴾ هنا للتبعيض إذِ ليس المعنى عليه .

فكلمة ﴿ كل ﴾ مستعملة في معنى الكثرة كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾ في سورة الأنعام (25) ، وقوله فيها ﴿ وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها ﴾ [الأنعام : 70] ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى ﴾ في سورة طه (53) .

وفائدة التكثير هنا التعريض بهم لقلة تدبيرهم إذ عمُوا عن دلائل كثيرة واضحة بين أيديهم .

(94/721)

والبهيج يجوز أن يكون صفة مشبّهة ، يقال : بَهُج بضم الهاء ، إذا حَسُن في أعين الناظرين ، فالبهيج بمعنى الفاعل كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ فأنبتنا به حدائق ذاتَ بهجة ﴾ [النمل : 60] .

ويجوز أن يكون فعيلاً بمعنى مفعول ، أي منبهَج به على الحذف والإيصال ، أي يُسرّ به الناظر ، يقال : بهَجَه من باب منَع ، إذا سرّه ، ومنه الابتهاج المسرة .

وهذا الوصف يفيد ذكره تقوية الاستدلال على دقة صنع الله تعالى .

وإدماج الامتنان عليهم بذلك ليشكروا النعمة ولا يكفروها بعبادة غيره كقوله تعالى : ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دِفْءٌ ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تُرِيحون وحين تَسْرحُون ﴾ [النحل : 5 ، 6] .

تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (8)

مفعول لأجله للأفعال السابقة من قوله : ﴿ بنيناها وزيناها ﴾ [ق : 6] وقوله : ﴿ مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها ﴾ [ق : 7] الخ ، على أنه علة لها على نحو من طريقة التنازع ، أي ليكون ما ذكر من الأفعال ومعمولاتها تبصرة وذكرى ، أي جعلناه لغرضِ أن نُبصِّر به ونُذكّر كل عبد منيب .

وحذف متعلق ﴿ تبصرة وذكرى ﴾ ليَعُم كلَّ ما يصلح أن يتبصر في شأنه بدلائل خلق الأرض وما عليها ، وأهم ذلك فيهم هو التوحيد والبعث كما هو السياق تصريحاً وتلويحاً .

وإنما كانت التبصرة والذكرى علة للأفعال المذكورة لأن التبصرة والذكرى من جملة الحِكم التي أوجد الله تلك المخلوقات لأجلها .

وليس ذلك بمقتض انحصار حكمة خلقها في التبصرة والذكرى ، لأن أفعال الله تعالى لها حِكَم كثيرة عَلِمنا .

بعضها وخفي علينا بعض .

والتبصرة : مصدر بصّره .

وأصل مصدره التَبصير ، فحذفوا الياء التحتية من أثناء الكلمة وعوضوا عنها التاء الفوقية في أول الكلمة كما قالوا : جرّب تجربة وفَسّر تفسرة ، وذلك يقلّ في المضاعف ويكثر في المهموز نحو جَزّأ تجزئة ، ووطّأ توطئة .

ويتعين في المعتل نحو : زَكّى تزكية ، وغطاه تغطية .

(95/721)

والتّبصير : جعل المرء مبصراً وهو هنا مجاز في إدراك النفس إدراكاً ظاهراً للأمر الذي كان خفياً عنها فكأنها لم تبصره ثم أبصرته .

والذكرى اسم مصدر ذَكَّر ، إذا جعله يَذكر ما نسيه .

وأطلقت هنا على مراجعة النفس ما علمته ثم غفلت عنه .

و﴿ عبد ﴾ بمعنى عبد الله ، أي مخلوق ، ولا يطلق إلاّ على الإنسان .

وجمعه : عباد دون عبيد .

والمنيب : الراجع ، والمراد هنا الراجع إلى الحق بطاعة الله فإذا انحرف أو شغله شاغل ابتدر الرجوع إلى ما كان فيه من الاستقامة والامتثال فلا يفارقه حال الطاعة وإذا فارقه قليلاً آب إليه وأناب .

وإطلاق المنيب على التائب والإنابة على التوبة من تفاريع هذا المعنى ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ وخرّ راكعاً وأناب ﴾ في سورة ص (24) .

وخُص العبد المنيب بالتبصرة والذكرى وإن كان فيما ذكر من أحوال الأرض إفادة التبصرة والذكرى لكل أحد لأن العبد المنيب هو الذي ينتفع بذلك فكأنه هو المقصود من حكمة تلك الأفعال .

وهذا تشريف للمؤمنين وتعريض بإهمال الكافرين التبصر والتذكر .

ويحمل (كل) على حقيقة معناه من الإحاطة والشموال .

فالمعنى : أن تلك الأفعال قصد منها التبصرة والذكرى لجميع العباد المتبعين للحق إذ لا يخلون من تبصرّ وتذكر بتلك الأفعال على تفاوت بينهم في ذلك .

وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (9) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (10)

(96/721)

بعد التنظر والتذكير والتبصير في صنع السماوات وصنع الأرض وما فيهما من وقت نشأتهما نُقل الكلام إلى التذكير بإيجاد آثار من آثار تلك المصنوعات تتجدد على مرور الدهر حية ثم تموت ثم تحيا دَأْبا ، وقد غير أسلوب الكلام لهذا الانتقال من أسلوب الاستفهام في قوله : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء ﴾ [ق : 6] إلى أسلوب الإخبار بقوله : ﴿ ونزلنا من السماء ماء مباركاً ﴾ إيذاناً بتبديل المراد ليكون منه تخلص إلى الدلالة على إمكان البعث في قوله : ﴿ كذلك الخروج ﴾ [ق : 11] .

فجملة ﴿ ونزلنا ﴾ عطف على جملة ﴿ والأرض مددناها ﴾ [الحجر : 19] .

وقد ذكرت آثار من آثار السماء وآثار الأرض على طريقة النشر المرتب على وفق اللف .

والمبارك : اسم مفعول للذي جعلت فيه البركة ، أي جُعل فيه خير كثير .

وأفعال هذه المادة كثيرة التصرف ومتنوعة التعليق .

والبركة : الخير النافع لما يتسبب عليه من إنبات الحبوب والأعناب والنخيل .

وتقدم معنى المبارك عند قوله تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً ﴾ في سورة آل عمران (96) .

وفي هذا استدلال بتفصيل الإنبات الذي سبق إجماله في قوله : ﴿ وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ﴾ [ق : 7] لما فيه من سوق العقول إلى التأمل في دقيق الصنع لذلك الإنبات وأن حصوله بهذا السبب وعلى ذلك التطور أعظم دلالة على حكمة الله وسعة علمه مما لو كان إنبات الأزواج بالطفرة ، إذ تكون حينئذٍ أسباب تكوينها خفيّة فإذا كان خلق السماوات وما فيها ، ومد الأرض وإلقاء الجبال فيها دلائل على عظيم القدرة الربانية لخفاء كيفيات تكوينها فإن ظهور كيفيات التكوين في إنزال المال وحصول الإنبات والإثمار دلالة على عظيم علم الله تعالى .

والجنات : جمع جَنة ، وهي ما شُجر بالكَرْم وأشجار الفواكه والنخيلِ .

(97/721)

والحب : هو ما ينبت في الزرع الذي يُخرج سنابل تحوي حبوباً مثل البُرّ والشعير والذُّرة والسُّلْت والقطاني مما تحصد أصوله ليُدَقّ فيُخرج ما فيه من الحب .

و﴿ حب الحصيد ﴾ مفعول ﴿ أنبتنا ﴾ لأن الحب مما نبت تبعاً لنبات سنبله المدلول

على إنباته بقوله : ﴿ الحصيد ﴾ إذ لا يُحصد إلا بعد أن ينبت .

والحصيد : الزرع المحصود ، أي المقطوع من جذوره لأكل حبه ، فإضافة ﴿ حب ﴾ إلى ﴿ الحصيد ﴾ على أصلها ، وليست من إضافة الموصوف إلى الصفة .

وفائدة ذكر هذا الوصف : الإشارة إلى اختلاف أحوال استحصال ما ينفع الناس من أنواع النبات فإن الجنات تُستثمر وأصولُها باقية والحبوب تستثمر بعد حصد أصولها ، على أن في ذلك الحصيد منافع للأنعام تأكله بعد أخذ حبه كما قال تعالى : ﴿ متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ [النازعات : 33] .

وخص النَخلُ بالذكر مع تناول جنات له لأنه أهم الأشجار عندهم وثمره أكثر أقواتهم ، ولإتباعه بالأوصاف له ولِطلعه مما يثير تذكر بديع قوامه ، وأنيق جماله .

والباسقات : الطويلات في ارتفاع ، أي عاليات فلا يقال : باسق للطويل الممتد على الأرض .

وعن ابن شداد : الباسقات الطويلات مع الاستقامة .

ولم أره لأحد من أئمة اللغة .

ولعلّ مراده من الاستقامة الامتداد في الارتفاع .

وهو بالسين المهملة في لغة جميع العرب عدا بني العنبر من تميم يُبدلون السين صاداً في هذه الكلمة .

قال ابن جنيّ : الأصل السين وإنما الصاد بدل منها لاستعلاء القاف .

وروى الثعلبي عن قطبة بن مالك أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم في صلاة الصبح قرأها بالصاد .

ومثله في ابن عطية وهو حديث غير معروف .

والذي في "صحيح مسلم" وغيره عن قطبة بن مالك مروية بالسين .

ومن العجيب أن الزمخشري قال : وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم باصقات .

وانتصب ﴿ باسقات ﴾ على الحال .

والمقصود من ذلك الإيماء إلى بديع خلقته وجمال طلعته استدلالاً وامتناناً .

(98/721)

والطلع : أول ما يظهر من ثمر التمر ، وهو في الكُفُرَى ، أي غلاف العنقود .

والنضيد : المنضود ، أي المصفّف بعضه فوق بعض ما دام في الكُفُرَى فإذا انشق عنه الكُفرى فليس بنضيد .

فهو معناه بمعنى مفعول قال تعالى : ﴿ وطلح منضود ﴾ [الواقعة : 29] .

وزيادة هذه الحال للازدياد من الصفات الناشئة عن بديع الصنعة ومن المنة بمحاسن منظر

ما أوتوه.

رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (11)

مفعول لأجله لقوله: ﴿ فأنبتنا به جنات ﴾ [ق: 9] إلى آخره، فهو مصدر، أي لنرزق العباد، أي نقوتهم.

والقول في التعليل به كالقول في التعليل بقوله: ﴿ تبصرة وذكرى ﴾ [ق: 8].

والعباد: الناس وهو جمع عبد بمعنى عبد الله، فأمّا العبد المملوك فجمعه العبيد.

وهذا استدلال وامتنان.

﴿ عِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً ﴾.

عطف على ﴿ رزقا للعباد ﴾ عطف الفعل على الاسم المشتق من الفعل وهو رزقه المشتق لأنه في معنى: رزقنا العباد وأحيينا به بلدة ميتا، أي لرعي الأنعام والوحش فهو استدلال وفيه امتنان.

والبلدة: القطعة من الأرض.

والمَيْت بالتخفيف: مرادف المَيِّت بالتشديد قال تعالى: ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكون ﴾ [يس: 33].

وتذكير الميت وهو وصف للبلدة، وهي مؤنث على تأويله بالبلد لأنه مرادفه، وبالمكان لأنه جنسه، شبه الجدْب بالموت في انعدام ظهور الآثار، ولذلك سمي ضده وهو إنبات

الأرض حياة .

ويقال لِخدمة الأرض اليابسة وسقِيها : إحياءُ موات .

﴿ مَّيْتاً كذلك ﴾ .

بعد ظهور الدلائل بصنع الله على إمكان البعث لأن خلق تلك المخلوقات من عدم يدل على أن إعادة بعض الموجودات الضعيفة أمكنُ وأهَونُ ، جيء بما يفيد تقريب البعث بقوله : ﴿ كذلك الخروج ﴾ .

(99/721)

فهذه الجملة فذلكة للاستدلال على إمكان البعث الذي تضمنته الجمل السابقة فوجب انفصال هذه الجملة فتكون استئنافاً أو اعتراضاً في آخر الكلام على رأي من يجيزه وهو الأصح .

والإشارة ﴿ بذلك ﴾ إلى ما ذكر آنفاً من إحياء الأرض بعد موتها ، أي كما أحيينا الأرض بعد موتها كذلك نحيي الناس بعد موتهم وبلاِهم ، مع إفادتها تعظيم شأن المشار إليه ، أي مثل البعث العظيم الإبداع .

والتعريف في ﴿ الخروج ﴾ للعهد ، أي خروج الناس من الأرض كما قال تعالى : ﴿ يوم

يخرجون من الأجداث سِراعا ﴾ [المعارج: 43].

ف ﴿ الخروج ﴾ صار كالعلَم بالغلبة على البعث، وسيأتي قوله تعالى: ﴿ ذلك يوم الخروج ﴾ [ق: 42].

وتقديم المجرور على المبتدإ للاهتمام بالخبر لما في الخبر من دفع الاستحالة وإظهار التقريب، وفيه تشويق لتلقي المسند إليه. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(100/721)

من الإعجاز العلمى فى القرآن

للدكتور زغلول النجار

بحث بعنوان:

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية

19 ـ أفلم ينظروا إلي السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج؟ !

بقلم الدكتور: زغلول النجار

ردا علي منكري البعث يعرض القرآن الكريم في مطلع سورة ق لعدد من الأدلة المنطقية

المثبتة لكمال القدرة الإلهية المبدعة , والشاهدة علي إحاطة علم الله تعالي بكل صغيرة وكبيرة في الكون , والناطقة بعظيم حكمته في خلقه وفيما أنزل من علم , والمؤكدة أن الله تعالي الذي خلق هذا الكون بكل ما فيه ومن فيه ـ علي غير مثال سابق ـ هو القادر علي إفنائه وعلي إعادة خلقه من جديد , وذلك لأن قضية البعث كانت دوما حجة الكافرين والملحدين والمتشككين . . . ! ! ! .

ومن أول هذه الأدلة إحكام بناء السماء , ورفعها بغير عمد مرئية , وتزيينها بالكواكب والنجوم والبروج وغير ذلك من أجرام السماء , وسلامتها من كل نقص يمكن أن يعيبها في شيء , ومن كل خلل يمكن أن ينتابها حتي يأتي أمر الله بتدميرها فيفنيها ويعيد إبدالها وإبدال الأرض بغيرهما من جديد . . ! ! ! .

والاستشهاد بالسماء وببنائها وزينتها وبسلامتها من كل عيب ونقص وخلل منطلق من حقيقة أن السماء هي إحدي صفحات الكون المفتوحة أمام كل ذي بصر وبصيرة , الناطقة بطلاقة القدرة الإلهية المبدعة , والصارخة في كل غافل عن الحق , وكل منكر للخلق , وكل جاحد للبعث , وكل متنكر لله الخالق أو مشرك به (تعالي الله عن ذلك علوا كبيرا) أن انظر إلي السماء وما حوت من أجرام , ومن مختلف صور المادة والطاقة , في سعة من المكان , وتقادم في الزمان , وترابط وإحكام , وحركة وانتظام , دون توقف أو

اصطدام , وارتفاعات مذهلة بغير عمد مرئية , وجمال وزينة , وتكامل واتساق , لا تشوبه شائبة , ولا يعتريه أدني قدر من

(101/721)

الخلل أو النقص الذي يعيب الكمال من مثل التصدع أو الانفراج أو التشقق , وفي ذلك يقول الحق (تبارك وتعالي) :

ق والقرآن المجيد * بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب * أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد * قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ * بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج * أفلم ينظروا إلي السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج **

(ق : 1 ـ 6)

ووصف السماء بتمام البناء , وجمال الزينة , والتكامل والاتساق الذي لا تشوبه شائبة جاء في عدد غير قليل من آيات القرآن الكريم من مثل قول الحق (تبارك وتعالي) :

الذي خلق سبع سماوات طباقا ما تري في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل تري من فطور * ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير *(الملك

(4,3:

وهنا يبرز التساؤل عن بناء السماء , وعن زينتها , وعن كمالها واتساقها وعدم وجود (فروج) فيها بمعني أدني قدر من الشقوق , أو التصدعات في بنائها , وقبل الإجابة عن ذلك لابد من التعرض لمدلول الألفاظ , بناء , وزينة , وفروج في كل من اللغة العربية والقرآن الكريم وهذا ما سوف نتناوله في السطور التالية :

المدلول اللغوي لألفاظ الآية الكريمة

أ&ب : محاكاة بالحاسب الآلي لبناء التجمعات المجرية تشير إلى وجود الأربطة الكونية بين مناطق مظلمة

ج&د : رسومات تخطيطية لأربع شرائح من سور المجرات العظيم وتبدو فيها المجرات والمناطق المظلمة العملاقة الفاصلة بينها

يقال في اللغة العربية :(بني),(يبني),(بناء) أو دارا بمعني شاد بيتا , والبناء اسم لما يبني بناء , ومن مرادفات (البناء) :(البنية) و (البنيا) و (البني) بضم الباء , و (البني) و (البنية) بكسرها , وكذلك (البنيان) وهو واحد لا جمع له , وقيل هو جمع (بنيانة) وهذا النوع من الجمع يصح تذكيره وتأنيثه .

ويقال :(بني) الرجل بعروسه بمعني زف إليها , وكل داخل بأهله (بان) وهذا من قبيل الاستعارة .

أما عن الفعل (زين) فيقال (زين) الشيء (يزينه)(تزيينا) بمعني جمله ورتبه بالقول أو بالفعل أو بهما معا , وعلي ذلك فكل من الحجام والحلاق (مزين) , كذلك يقال (زان) الشيء (يزينه)(زينة) بمعني اضفي عليه من نفسه أو فعله شيئا من الجمال , ويقال :(تزين) و (إزدان) أي تجمل (أزينت) الأرض و (ازينت)[وأصله (تزينت) فأدغم] إذا اكتست بشيء من الخضرة , و (تزيين) الله للأشياء إبداعه لها بزينة وإيجادها كذلك , و (تزيين) الناس للشيء بتزويقهم إياه بفعلهم (أي بإضافة شيء جميل إليه) أو بقولهم وهو أن يمدحوه , ويذكروه بما يرفع من قدره ويغري الناس به .

و(الزينة) ما (يتزين) به أو ما (يزين) الانسان او الشيء , أي ما يجمله ولا يشينه في شيء من احواله , و (يوم الزينة) هو يوم العيد , و (الزين) عموما هو ضد الشين .

أما عن (فروج السماء) فهي جمع (فرج) بفتح ثم سكون , و (الفرجات) جمع (فرجة) . وهو الشق بين الشيئين كفرجة الحائط وما أشبهه , ويقال في اللغة (فرج) من الغم أو من الهم (فرجة) و (فرجا) اي خرج منه , و (الفرج) هو انكشاف الهم والغم , ولذلك يقال :(فرج) الله غمه (وفرجه)(تفريجا) اي ازاله عنه , و (الانفراج) السعة المادية او

المعنوية بعد ضيق , او الاتساع بالشق او

الفتق في شيء متماسك ومتصل , وللفظة دلالات اخري عديدة تخرج عن نطاق المقصود

في الآية الكريمة التي نحن بصددها .

المدلول القرآني لألفاظ الآية الكريمة

(103/721)

جاءت مادة (بني) بمختلف مشتقاتها في القرآن الكريم في اثنين وعشرين موضعا , منها سبع مرات متعلقة ببناء السماء , وخمس عشرة مرة متعلقة بالبنيان علي الارض , وفي كل الحالات خصت السماء بالوصف (بناء) وخص تشييد الانسان علي الارض بالوصف (بنيان) , وهذا امر له دلالته العميقة في الاشارة الي الفرق بين صنع الله وصنع الانسان في القضية الواحدة .

وجاء الفعل (زين) بمختلف مشتقاته في القرآن الكريم ستا وأربعين مرة منها ست مرات متعلقة بالسماء , وأربعون مرة متعلقة بزينة الناس (افرادا وجماعات) او بمناسباتهم المبهجة من مثل الأعياد , او بزينة الأرض حينما تكسوها الخضرة , أو بتزيين الله تعالي العمل للأمم (افرادا وجماعات) او بمعني تزيين الشيطان للمعاصي واعمال السوء في انظار

بعض الناس .

وقد سبق الحديث عن كل من بناء السماء وزينتها في عدد من المقالات السابقة , ولا اري داعيا لتكرار ذلك هنا , وعليه فإن هدف هذا المقال يتركز حول اثبات تماسك السماء ونفي كل صورة من صور الخلل او الاضطراب فيها والتي عبر عنها القرآن الكريم بقول الحق (تبارك وتعالي) : و (ما لها من فروج) .

وجاء الفعل (فرج) بمشتقاته في القرآن الكريم تسع مرات , منها اثنتان متعلقتان بالسماء والباقي بمعني صون العرض , والآيتان المتعلقتان بالسماء جاء فيهما قول الحق تبارك وتعالي : أفلم ينظروا إلي السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج (ق :6)

بمعني أن مالها من شقوق أو فتوق .

ووإذا السماء فرجت (المرسلات :9) بمعني انشقت . والمعني في الحالتين يشير الي سلامة السماء في الدنيا من العيوب وانشقاقها في الآخرة .

آراء المفسرين

ذكر ابن كثير (يرحمه الله)

ان الله تعالي يقول منبها للعباد علي قدرته العظيمة التي اظهر بها ما هو اعظم مما تعجبون منه مستبعدين وقوعه :(أفلم ينظروا إلي السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها) أي بالمصابيح ,(وما لها من فروج) قال مجاهد : يعني من شقوق ; وقال غيره : فتوق ; وقال غيره : صدوع ; والمعني متقارب , لقوله تبارك وتعالي : ما تري في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل تري من فطور .

وذكر صاحبا تفسير الجلالين (يرحمهما الله) : أفلم ينظروا بعيونهم معتبرين بعقولهم حين أنكروا البعث (إلي السماء) كائنة فوقهم (كيف بنيناها) بلا عمد (وزيناها) بالكواكب ومالها من فروج شقوق تعيبها .

وذكر مخلوف (يرحمه الله) : أفلم ينظروا . . شروع في بيان بعض أدلة القدرة التامة علي البعث , ردا لاستبعادهم إياه , وهو سبعة أدلة ; أي اغفلوا أو عموا فلم ينظروا ـ حين انكروا البعث ـ الي السماء فوقهم كيف أحكمنا بناءها , ورفعناها بغير عمد , وزيناها بالكواكب ,(ومالها من فروج) شقوق وفتوق وصدوع , جمع فرج وهو الشق بين الشيئين , والمراد سلامتها من كل عيب وخلل .

ويذكر صاحب الظلال (يرحمه الله) : ان هذه السماء صفحة من كتاب الكون تنطق بالحق الذي فارقوه , أفلم ينظروا إلي ما فيها من تشامخ وثبات واستقرار ؟ وإلي ما فيها بعد ذلك من زينة وجمال , وبراءة من الخلل والاضطراب ! ! ! إن الثبات والكمال والجمال هي

صفة السماء التي تتناسق مع السياق هنا , مع الحق وما فيه من ثبات وكمال وجمال , ومن ثم تجيء صفة البناء وصفة الزينة وصفة الخلو من الثقوب والفروج .

ويقول الصابوني (امد الله في عمره) : ثم ذكر الله تعالي دلائل القدرة والوحدانية الدالة علي عظمة رب العالمين فقال : أفلم ينظروا إلي السماء فوقهم) أي أفلم ينظروا نظر تفكر واعتبار إلي السماء في ارتفاعها وإحكامها , فيعلموا أن القادر علي إيجادها قادر علي إعادة

(105/721)

الإنسان بعد موته ! ! !(كيف بنيناها وزيناها) أي كيف رفعناها بلا عمد , وزيناها بالنجوم ,(وما لها من فروج) اي ما لها من شقوق وصدوع .

وقد أجمع المفسرون الذين تعرضوا لشرح هذه الآية الكريمة علي اعتبار الحرف (ما) في قول الحق (تبارك وتعالي) ,(وما لها من فروج) انه حرف نفي أي ان السماء خالية من الفروج التي قد تنبيء بخلل ما في بنائها وذلك لأن انفراج السماء وانفطارها وانشقاقها من علامات الآخرة لقول الحق تبارك وتعالي :

.وإذا السماء فرجت (المرسلات :9) .

.يوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا (الفرقان :25) .

.فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين (الدخان :10 .

.فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان (الرحمن :37)

.يوم تمور السماء مورا (الطور :9)

.وانشقت السماء فهي يومئذ واهية (الحاقة :16)

.يوم تكون السماء كالمهل (المعارج :8)

.السماء منفطر به كان وعده مفعولا (المزمل :18)

.وفتحت السماء فكانت أبوابا

(النبأ :19)

.وإذا السماء كشطت (التكوير :11)

.إذا السماء انفطرت (الانفطار :1)

.إذا السماء انشقت (الانشقاق :1)

وهذه الآيات كلها تشير الي الآخرة , وتصور القيامة وأهوالها وشيئا من مشاهدها المرعبة , واحداثها العظام , وتؤكد سلامة سماء الدنيا من كل هذه الأوصاف .

هل يمكن للآية الكريمة أن تحمل

معني وجود فروج في السماء ؟

أجمع المفسرون كما سبق وان اشرنا علي ان الحرف (ما) في قول الحق (تبارك وتعالي) (وما لها من فروج) هو حرف نفي ينفي وجود فروج بالسماء تنبيء بضعف او خلل في بنائها , ولكن انطلاقا من وجود مناطق مظلمة إظلاما تاما في السماء الدنيا نظرا لخلوها من النجوم وتجمعاتها سماها علماء الفلك مجازا بالفراغات او الفجوات نسبة الي خلوها من الأجرام المضيئة اندفع نفر قليل من علماء المسلمين الي الاقتراح بأن (ما) في هذه الآية الكريمة

(106/721)

قد تكون اسما موصولا بمعني (الذي) وليست (ما) النافية , وذلك في محاولة لإثبات وجود فروج في السماء , وتصوروا ان هذا الاستنتاج يجعل الآية كلها تقرأ في الصيغة التعجبية الاستفهامية التي بدأت بها الآية بمعني : أفلم ينظروا الي السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ؟ وأفلم ينظروا ما للسماء من فروج ؟ .

وهذا الاستنتاج مخالف لنصوص القرآن الكريم التي تجمع علي غير ذلك , وعلي ان انفراج السماء وانفطارها وانشقاقها هو من علامات الآخرة , ولا وجود لها , في سماء الدنيا كما سبق أن أشرنا ; ليس هذا فقط بل إن الدراسات الفلكية والفيزيائية تنفي إمكانية وجود

فراغات في الجزء المدرك من الكون وذلك للأسباب التالية :

أولا : المناطق المظلمة من الكون

المدرك لا تعني وجود فراغات فيه

في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات من القرن العشرين قام عدد من الفلكيين بعملية مسح للجزء المدرك من السماء لعمل خرائط جديدة له ثلاثية الأبعاد , وفي أثناء ذلك لاحظوا وجود العديد من المناطق المظلمة التي لا تحتوي نجوما مضيئة بين المجرات , وسموها مجازا (بالفجوات) او (الفقاعات) وانطلقوا من ذلك الي الاستنتاج بأن الكون المدرك يشبه قطعة الإسفنج المليئة بالفجوات , وتمثل المجرات فيها خيوط الاسفنج المنسوجة بإحكام حول تلك الفجوات , واعتبروا تلك الفجوات خيوطا كونية عملاقة سموها باسم

ولما كانت فجوات الإسفنج ليست فراغا لامتلائها بالهواء أو بالماء , فإن المناطق المظلمة بالكون المدرك ليست فراغا لامتلائها بالدخان الكوني , وبمختلف صور الأشعة الكونية , بل قد يكون فيها من صور المادة والأجرام الخفية ما يفوق كتل المجرات المحيطة بها مجتمعة , ويعتقد عدد من الفلكيين المعاصرين أن هذه المناطق المظلمة تتكون أساسا من المواد الداكنة الباردة .

التي تمثل الكتلة المفقودة

في الكون المدرك , وقد تحتوي علي أعداد من النجوم الخانسة

(107/721)

ذات الكثافات الفائقة والمعروفة باسم الثقوب السود , وأن هذه المادة الداكنة الخفية والنجوم الخانسة التي أمكن إدراكها بطرق غير مباشرة , أمكن حساب كتلتها بمايزيد علي تسعين بالمئة من كتلة الجزء المدرك من الكون .

ففي سنة 1981 م اكتشف عدد من الفلكيين تلك المناطق المظلمة من الكون المدرك في كوكبة العواء أو كوكبة راعي الشتاء التي تقع في نصف الكرة الشمالي , وظنوها فراغات هائلة أو فقاعات عظيمة , ثم تبين لهم بعد ذلك أن أمثال تلك المناطق المظلمة منتشرة في مختلف أرجاء الكون المنظور , وحتي في داخل مجرتنا , وأنها من أساسيات النظام الكوني , ومن أسرار بنائه , وأن لها دورا مهما في تماسك ذلك البناء .

وفي سنة 1989 م تم اكتشاف مايسمي باسم الحائط العظيم وهو عبارة عن حشد هائل من تجمعات المجرات يبلغ طوله نحو مائتين وخمسين مليونا من السنين الضوئية , وعرضه نحو مائتي مليون , وسمكه نحو خمسة عشر مليونا من السنين الضوئية , وقد اكتشف الفلكيون

في داخل هذا الحائط العظيم العديد من المناطق المظلمة الشاسعة الأبعاد , التي تفصل بين كل من المجرات والتجمعات المجرية بمختلف مستوياتها , وتبدو هذه المناطق المظلمة وكأنها مناطق جذب فائقة الشدة , مرتبة ترتيبا دقيقا وبأشكال هندسية محددة , وتتوزع المجرات حولها , وكأنها خلايا عظيمة البناء متصلة بشكل هندسي بديع حول المناطق المظلمة التي يبدو أنها مشدودة إلي مراكز تلك المناطق بقوي فائقة للغاية إلي ماقد أشير إليه آنفا باسم المادة الداكنة التي يراها البعض أربطة كونية فائقة

علي هيئة جسيمات فائقة الكتلة لم يمكن اكتشافها بعد , أو علي هيئة قوة

كهرومغناطيسية ذات موجات غير معروفة تؤثر في المادة التي تنتشر حولها وقد تكون ناتجة عن الحركة الدورانية الشديدة في كل أجرام السماء .

وهذه الكتل المظلمة أو الفقاعات الدخانية الضخمة التي لاتحوي أية أجرام منظورة , قد تضم

بجوار المادة الداكنة والاجرام غير المنظورة أعدادا هائلة من الجسيمات المادية والإشعاعات الكونية , وربما بعض الغازات المتأينة المعروفة باسم البلازما ويبدو أنها من

أسرار بناء السما , ومن ضرورات قيامها واتزانها , ومن لوازم انتشار كل من المادة والطاقة في مختلف أرجائها , وأن لها دورا مهما في بناء التجمعات المجرية العظمي يفوق دور تجاذب المجرات فيما بينها ويعتقد بأن هذه الفقاعات الدخانية قد تكونت عقب عملية الانفجار العظيم بعد فترة من الزمن كافية لتجمع اللبنات الأولية للمادة الناشئة عن ذلك الانفجار علي هيئة ذرات , ويعتقد كذلك بأن المجرات قد تكونت بتكدس عدد من تلك الفقاعات الدخانية علي ذاتها بفعل الجاذبية , كما يعتقد بأن تفكك المجرات في مراحلها النهائية قد يؤدي إلي تكون مثل هذه الفقاعات الدخانية , ويمكن بذلك ان يفسر نشأة أشباه النجوم

التي تنتشر اليوم علي أطراف الجزء المدرك من الكون .

ففي يناير سنة 1988 م تم اكتشاف شبيه نجم علي مسافة تقدر بنحو (16850) سنة ضوئية منا , وفي أغسطس من نفس السنة تم اكتشاف مجرة راديوية تبعد عنا خمسة عشر بليونا من السنين الضوئية , وفي نهاية سنة 1989 م تم اكتشاف شبيه نجم يبعد عنا بمسافة (17400) مليون سنة ضوئية , ويعتبر بعده أقصي حد وصل إليه علماء الفلك في الجزء المدرك من الكون الذي يتسع باستمرار .

ثانيا : اتساع الكون ينفي وجود فراغات فيه

ثبت لنا في مطلع القرن العشرين أن كوننا دائم الاتساع وأن هذا الاتساع ناشيء عن تباعد

المجرات عنا وعن بعضها البعض , وبهذا التباعد تتخلق المادة و الطاقة من حيث لايدرك العلماء , لأن كلا من المكان والزمان والمادة والطاقة قد تم خلقه بعملية الانفجار العظيم , ويتجدد خلقه بتمدد الكون واتساعه , فلايوجد مكان بغير زمان , ولازمان بغير مكان , ولايوجد مكان وزمان بغير مادة وطاقة .

ويؤدي تباعد المجرات إلي اتساع أفق

(109/721)

الكون بالنسبة لموقعنا منه , ونحن لانستطيع أن نري من هذا الموقع ماوراء الأفق , ومن المفروض أنه باتساع الكون وتباعد الأفق الكوني عنا في كل لحظة أنه يمكن لنا أن نري أجراما سماوية جديدة علي حافة ذلك الأفق باستمرار , وأن تختفي عن رؤيتنا أجرام قديمة وتخرج عن مجال رؤيتنا ولكن أجهزتنا الفلكية الحالية لاتتيح لنا التحقق من ذلك علي الرغم من تطورها المذهل , وذلك لأن أفق الكون يبتعد عنا بتمدده بسرعات تقترب أحيانا من سرعة الضوء (نحو 92%

من سرعة الضوء) , وعلي الرغم من ذلك فإنه انطلاقا من وحدة البناء في الجزء المدرك لنا من السماء فإننا نعتقد بأن القوانين الحاكمة للكون واحدة وسارية في كل أجزائه علي الرغم

من ان النقطة التي بدأت منها عملية الانفجار العظيم لم يتم تحديد موقعها بعد , وهي بالتأكيد أبعد بكثير من الحافة المدركة للجزء المرئي من السماء , الذي يقدر قطره بنحو 23.19 بليون سنة ضوئية .

ثالثا : المادة المضادة في الكون تنفي وجود فراغات فيه

في سنة 1924 م أثبت العالم الفرنسي دي بروجلي

أن الإلكترون يتصرف أحيانا في ظروف معينة علي أنه موجة إشعاعية غير مادية

وما ينطبق علي الإلكترون ينطبق علي أي لبنة أخري من اللبنات الأولية للمادة .

وفي سنة 1925 م وضع كل من هايسنبرج

الألماني وشرودنجر

النمساوي منفردين القواعد الأساسية لميكانيكا الكم

وللميكانيكا الموجية

وكلاهما يبحث في الأسباب التي تؤدي بالكم الضوئي أو الفوتون لأن يتصرف أحيانا علي هيئة جسيم مادي وأحيانا أخري علي هيئة موجة اشعاعية .

وفي نفس السنة 1925 م أعلن باولي

مبدأ الاستبعاد الذي يؤكد أن زوجين من الإلكترونات داخل الذرة الواحدة لايمكن أن يكون لهما نفس العدد الكمي , وبالتالي لايمكن أن يكون لهما نفس المدار حول النواة ,

ونفس السرعة , وينطبق هذا القانون فقط علي الجسيمات الأساسية التي تدخل في تركيب الذرة .

وفي

سنة 1931 م أعلن ديراك

(110/721)

النظرية المتناسبة للالكترون التي أشار فيها إلي وجود الكترون بشحنة وطاقة مختلفتين تم اكتشافه بعد ذلك بسنة واحدة (1932 م) في الأشعة الكونية بواسطة كارل أندرسون وسمي باسم البوزيترون

وتسلسل بعد ذلك اكتشاف نقائض لباقي الجسيمات الأولية للمادة من مثل نقيض البروتون واعتبرت نقائض المادة

في مواجهة المادة

حقيقة من حقائق كوننا المدرك , حيث ثبت أن لكل جسيم مادي نقيضه أي جسيما يماثله تماما في الكتلة والحجم والسرعة ولكن له شحنة مضادة ويدور بطريقة معاكسة , وثبت انه إذا التقي الضدان فإنهما يفنيان فناء تاما .

وقد تساءل العلماء عن كيفية بقاء عالمنا المادي مع وجود كل من المادة وأضدادها وكلاهما يفني بلقاء الآخر وقد فسر ذلك بان كلا من المادة والمادة المضادة قد تجمع علي ذاته لتكوين تجمعات سماوية خاصة به بمعني وجود عوالم من المادة المضادة مغايرة لعالمنا المادي لانراها ولا نعلم عنها شيئا , وهذا وحده غير كاف لإثبات وجود فراغات في السماء .

رابعا : مراحل خلق الكون المدرك

تنفي وجود أية فراغات في السماء

تؤكد الدراسات الفيزيائية والفلكية انه نتيجة لواقعة الانفجار العظيم (أو فتق الرتق) تم خلق كل من المكان والزمان والمادة والطاقة في فترة تقدر بحوالي 1510 ثانية (أي ألف مليون مليون ثانية أي حوالي الثلاثين مليون سنة تقريبا بعد الانفجار العظيم) مر فيها الكون بمراحل يتصورها علماء الفيزياء الفلكية علي النحو التالي :

(1) عصر الكواركات والجليونات

وتقدر له الومضة من 10 . 43 ثانية إلي 10 . 32 ثانية وتتميز بحالات كثيفة للمادة واضدادها وان كانت نسبة الكواركات تفوق اضدادها كما تميزت بالتضخم والتوسع الانفجاريين وبانفصال كل من قوة الجاذبية والقوة النووية الشديدة كقوتين متميزتين .

(2) عصر اللبتونات

ويقدر له الومضة من 10.32 ثانية إلي 10.6 ثانية بعد

(111/721)

الانفجار العظيم وفيها تمايزت اللبتونات من الكواركات وظهرت البوزونات

bosons

وكانت فيه كل من القوة النووية الضعيفة والقوة الكهرومغناطيسية متحدتين علي هيئة القوة الكهربية الضعيفة .

3.عصر النيوكليونات وأضدادها

تقدر له الفترة بين 10 ثانية الي 225 ثانية بعد الانفجار العظيم وفيها اتحدت الكواركات لتكوين النيوكيلونات واضدادها .

وانفصلت القوي الاربع المعروفة (الجاذبية , النووية الشديدة , النووية الضعيفة والكهرومغناطيسية) .

4.عصر تخليق نووي الذرات

وتقدر له الفترة من 225 ثانية الي ألف ثانية بعد الانفجار العظيم وفيها تخلقت نوي ذرات

الايدروجين (74

) والهيليوم (25

) وبعض النوي الأثقل قليلا (1

) وفيه سادت المادة .

5.عصر الايونات

وتقدر له الفترة من 310 ثانية الي 1310 ثانية بعد الانفجار العظيم وفيه تكونت غازات من ايونات كل من الايدروجين والهيليوم واخذ الكون في الاتساع والتبرد التدريجي

.

6.عصر تخلق الذرات

وتقدر له الفترة من 1310 ثانية الي 1510 ثانية وفيه تخلقت الذرات المتعادلة وارتبطت بالجاذبية واصبح الكون شفافا لمعظم موجات الضوء .

7.عصر تخلق النجوم والمجرات

تقدر له الفترة من 10/15 ثانية الي اليوم والي ان يشاء الله , ويتميز ببدء عملية الاندماج النووي لتكوين نوي ذرات اثقل من الايدروجين .

وهذه المراحل المتتالية تؤكد ان المادة والطاقة ملأتا المكان والزمان منذ اللحظة الأولي للانفجار العظيم وظلا يملآنه مع استمرار تمدد الكون وان كان ذلك يتم بتباين واضح في

تركيز وجودهما من نقطة الي أخري في الجزء المدرك من الكون .

خامسا : المادة بين الكواكب و النجوم والمجرات :

تنفي وجود فراغات في الجزء المدرك من الكون

إلي عهد قريب كان علماء الفلك يعتقدون ان اجرام السماء تسبح في فراغ تام ولكن

البحوث المتأخرة اثبتت ان المسافات بين كل من النجوم وتجمعاتها المختلفة (

(112/721)

المجرات وتجمعاتها الي نهاية الجزء المدرك من الكون) تنتشر فيها الاشعة الكونية وما تحمله

من جسيمات اولية والدخان الكوني ومايحمله من هباءات الرماد بالاضافة الي مايعرف

باسم المادة الداكنة

والتي اقترح وجودها الفلكي السويسري فريتز زفيكي

في سنة 1933 م حين اكتشف ان الكتلة الكلية المحسوبة في كوكبة العذراء تفوق بكثير

مجموع كتل المجرات المكونة لها وفي سنة 1992 م أعلن علماء الفلك والفيزياء الفلكية

الاحتمال الكبير لوجود تلك المادة الداكنة والتي لا تري والتي يقترحون انها تتركب من

جسيمات ذرية جديدة لم تكتشف بعد وتسمي الويمبات

أو الجسيمات الثقيلة التي تمثل نوعا من الخيوط الكونية التي تربط اجرام السماء وتحمل الاوامر الكونية كما تحملها لبنات الشفرة الوراثية في اجساد الكائنات الحية وربما تفسر المادة الداكنة الكتلة المفقودة في الكون

كالتي ادركها زفيكي في الثلث الأول من القرن العشرين وكذلك يمكن ان تفسر طبيعة مناطق الجاذبية العملاقة التي تربط التجمعات المجرية العظمي مع بعضها البعض .

هذه الادلة مجتمعة تنفي وجود فراغات في الكون المدرك وسبحان الذي أنزل من قبل ألف واربعمائة سنة تأكيد هذه الحقيقة الكونية فقال (عز من قائل) :

أفلم ينظروا إلي السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج؟ ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية .

بقلم الدكتور : زغلول النجار ﴾ .

(113/721)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى البركات)

وقد وردت البركة فى القرآن فى أَربعة عشر شيئاً :

الأَوّل : فى الكعبة الَّتى هى قبلة العالمين : ﴿ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً ﴾ .

الثانى : فى المَطَر الَّذى به حياة المتنفّسين : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً مُّبَارَكاً ﴾ .

الثالث : فى السّلام الذى هو شِعَار المسلمين : ﴿ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ﴾ .

الرابع : فى أَولاد إبراهيم خليل ربّ العالمين : ﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ ﴾

﴿ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ .

السّادس : فى أَولاد نوح شيخ المرسلين : ﴿ يانُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ ﴾ .

السّابع : فى الأَرض التى هى مَقَرّ الآدميين : ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا ﴾ .

الثامن : فى البُقْعة الَّتى هى محلّ موسى [حيث ناداه] ربّ العالمين : (فى البُقْعة المُبَاركة) .

التَّاسع : (فى نار موسى ليلة طور سينين ﴿ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ ﴾ أَى فى طلب النار) .

العاشر : فى شجرة الزَّيتون ، الممثّل بنور معرفة العارفين : ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ .

الحادى عشر : فى المسجد الأَقصى الَّذى هو مَمَرّ سيّد الرّسل إلى أَعلى علّيين : ﴿ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ .

الثَّانى عشر : فى ليلة القَدْر التى هى موسم الرّحمة والغفران للعاصين والمذنبين ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ .

الثالث عشر : فى القرآن الذى هو أَعظم معجزات البَشَر : ﴿ وَهذا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ ﴾ .

الرابع : عشر فى المَنْزل الَّذى قُصِد ، لا على التعيين : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً ﴾ أَى حيث يوجد الخير الإِلهى .

والبركة معناها ثبوت الخير الإِلهى فى الشئِ .

والمادّة موضوعة للزوم والثبوت .

(114/721)

وقوله – تعالى – ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ ﴾ سمّى بذلك لثبوت الخير (فيه ثبوت الماءِ فى البِرْكة .

والمبارك ما فيه ذلك الخير) وقوله – تعالى – : ﴿ وَهذا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ ﴾ تنبيه على ما يَفِيض من الحياة الإِلهية .

ولمّا كان الخير الإِلهىّ يصدر من حيث لا يُحَسّ ، وعلى وجه لا يُحْصى ولا يُحْصَر ، قيل لكلّ ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة : هو مبارك ، وفيه بركة .

وإِلى هذه الزّيادة أشير بما روى (ولا يَنْقص مال من صدقة) لا إِلى النّقصان المحسوس ، حيث ما قال بعض الملاحدة الخاسرين حيث قيل له ذلك ، فقال له : بينى وبينك الميزان .

على أَنَّ عمّى – وكان من أَكابر الصّالحين – أَخبرنى أَنَّه كال كُدْساً من الطعام ، ثمّ أَخرج منه

الزكاة ، ثمّ إنَّه كاله ثانيةً عند النقل إلى المنزل ، فوجده لم ينقص شيئاً من الكيل الأوّل . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 208.210 ﴾

(115/721)

قوله تعالى ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (12) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (13) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (14) أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (15) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما وصل الأمر إلى حد لا خفاء معه ، فصح أنهم يعلمون ذلك ولم يحملهم على التصريح بالتكذيب به إلا المبادرة إلى ذلك بغلبة الهوى من غير تأمل لعاقبته ، فصار من باب لزوم الغلط ، وكان السياق لإنكار البعث الذي جاء به منذر من القوم المنذرين ، كان كأنه قيل : إن إنكار هؤلاء أعجب ، فهل وقع هذا لأحد قط ، فقال تعالى مسلياً لهذا النبي الكريم لأن المصيبة إذا عمت هانت ، مبيناً لمجد القرآن ولمجد آياته تحقيقاً للإنذار وتحذيراً به لا للنصيحة : ﴿ كذبت ﴾ وسم الفعل بالتاء إشارة إلى هوانهم في جنب هذا المجد ولما كان

هؤلاء الأحزاب المذكورون لقوتهم وكثرتهم كأنهم أهل المجد قاطبة قد استغرقوا زمانها ومكانها ، أسقط الجارّ فقال : ﴿ قبلهم ﴾ .

ولما لم تكن لهم شهرة يعرفون بها قال : ﴿ قوم نوح ﴾ وأشار إلى عظيم التسلية بأنهم جاءهم منذر منهم ، وكانوا في القوة في القيام فيما يحاولونه والكثرة بحيث لا يسع الأفهام جميع أوصافهم ، فآذوا رسولهم وطال أذاهم قريباً من عشرة قرون ولما كان آخر أمرهم أنه التقى عليهم الماءان : ماء السماء ، وطلع إليهم ماء الأرض فأغرقهم ، أتبعهم من طائفتهم قصتهم بأن نزل بهم الماء فأوبقهم لما بين حاليهم من الطباق دلالة على عظيم القدرة والفعل بالاختيار فقال : ﴿ وأصحاب الرس ﴾ أي البئر التي تقوضت بهم فخسفت مع ما حولها فذهبت بهم وبكل ما لهم كما ذكرت قصتهم في الفرقان .

(116/721)

ولما كانت آية قوم صالح من أعظم الدلالات على القدرة على البعث ، وكان إهلاكهم مناسباً لإهلاك من قبلهم ، أما لأصحاب الرس فكان بالرجفة التي هي على مبدأ الخسف ، وأما لقوم نوح فلأن الرجفة تأثرت عن الصيحة التي حملتها الريح التي من شأنها حمل السحاب الحامل للماء ، أتبعهم بهم ، وكانوا أصحاب بئر ولم يخسف بهم فقال :

﴿ وثمود ﴾ ولما اتفق قوم هود عليه السلام والقبط بالإهلاك بالريح التي أثرت بها صيحة ثمود ، أولئك مع الحجارة والرمل وهؤلاء بالماء الذي فرقه الله بالريح عند ضرب العصي ، وكان لكل منهما من ضخامة الملك وعز السلطان ما هو مشهور قدم أشدهما أبداناً وأوسعهما ملكاً لأن إهلاكهم كان أدل دليل على القدرة وأقرب شبهاً بهلاك ثمود فقال : ﴿ وعاد ﴾ وعطف عليه أقرب الطائفتين شبهاً بالهلاك بقوم نوح وأصحاب الرس فقال : ﴿ وفرعون ﴾ نص عليه لأنه ليس في مادة هذا الغرق كافر غيره ، والنص عليه يفهم غيره ، وما تقدم في غير هذه السورة غير مرة من وصفه بأنه ملك قاهر وأنه استخفهم فأطاعوه فيعلم كفرهم طاعة له ، وأنه ليوافق ما قبله وما بعده .

ولما كان السياق للعزة والشقاق ، فلم يدع داع إلى إثبات ذي الأوتاد .

ولما كان هلاك المؤتفكات جامعاً في الشبهة بهلاك جميع من تقدم بالخسف وغمرة الماء بعد القلب في الهواء ، أتبعهم بهم معبراً عنهم بأخصر من تسميه قبائلهم أو مدنهم لأنها عدة مدن ، وعبر بالأخوة دون القوم لأن السياق لتكذيب من هو منهم لأنه أدخل في التسلية فقال : ﴿ وإخوان لوط ﴾ أي أصهاره الذين جبروا بينهم وبينه مع المصاهرة بالمناصرة لملوكهم ورعاياهم على من ناواهم بنفسه وعمه إبراهيم عليهما السلام كما مضى بيانه في البقرة ما صار كالأخوة ، ومع ذلك عاملوه بما اشتق من لفظ هذا الجمع من الجناية له ولأنفسهم وغيرهم .

ولما كان الشجر مظنة الهواء البارد والروح ، وكان أصحابه قد عذبوا بضد ذلك قال : ﴿ وأصحاب الأيكة ﴾ لمشاركتهم لهم في العذاب بالنار ، وأولئك بحجارة الكبريت النازلة من العلو وهؤلاء بالنار النازلة من ظلمة السحاب ، وعبر عنهم بالواحدة والمراد الغيضة إشارة إلى أنها من شدة التفافها كالشجرة الواحدة .

ولما كان ﴿ تبع ﴾ مع كونه من قومه ملكاً قاهراً ، وخالفوه مع ذلك ، وكان لقومه نار في بلادهم يتحاكمون إليها فتأكل الظالم ، ختم بهم فقال : ﴿ وقوم تبع ﴾ مع كونه مالكاً ، وهو يدعوهم إلى الله ، فلا يظن أن التكذيب مخصوص بمن كان قوياً لمن كان مستضعفاً ، بل هو واقع بمن شئنا من قوي وضعيف ، لا يخرج شيء عن مرادنا .

ولما لم يكن هنا ما يقتضي التأكيد مما مر بيانه في ص قال معرياً منه : ﴿ كل ﴾ أي من هذه الفرق ﴿ كذب الرسل ﴾ أي كلهم بتكذيب رسولهم ، فإن الكل متساوون فيما يوجب الإيمان من إظهار العجز والدعاء إلى الله ﴿ فحقّ ﴾ فتسبب عن تكذيبهم لهم أنه ثبت عليهم ووجب ﴿ وعيد ﴾ أي أي الذي كانوا يكذبون به عند إنذارهم لهم إياه ، فعجلنا لهم منه في الدنيا ما حكمنا به عليهم في الأزل فأهلكناهم إهلاكاً عاماً كإهلاك نفس

واحدة على أنحاء مختلفة كما هو مشهور عند من له بأمثاله عناية وأتبعناه ما هو في البرزخ وأخرنا ما هو في القيامة إلى البعث ، بإهلاكنا لهم على تنائي ديارهم وتباعد أعصارهم وكثرة أعدادهم أن لنا الإحاطة البالغة فتسلَّ بإخوانك المرسلين وتأسَّ بهم ، ولتحذر قومك ما حل بمن كذبهم إن أصروا .

(118/721)

ولما ذكر سبحانه التسلية بتكذيب هذه الأحزاب بعد ذكر تكذيب قريش وإقامة الأدلة القاطعة على ما كذبوا به وبطلان تكذيبهم ، وختم بحقوق الوعيد الذي شوهدت أوائله بإهلاكهم ، فثبت صدق الرسل وثبتت القدرة على كل ما يريد سبحانه بهذا الخلق من الإيجاد والإعدام أنكر عليهم التكذيب ووبخهم عليه تقريراً لحقوق الوعيد ، فقال مسبباً عن تكذيبهم بعد ما ذكر أنه خلق جميع الوجود : ﴿أفعيينا بالخلق﴾ أي حصل لنا على ما لنا من العظمة الإعياء ، وهو العجز بسبب الخلق في شيء من إيجاده وإعدامه ﴿الأول﴾ أي من السماوات والأرض وما بينهما حين ابتدأناه اختراعاً من العدم ، ومن خلق الإنسان وسائر الحيوان مجدداً ، ثم في كل أوان من الأطوار المشاهدة على هذه التدريجات المعتادة بعد أن خلقنا أصله على ذلك الوجه مما ليس له أصل في الحياة ، وفي

إعدامه بعد خلقه جملة كهذه الأمم أو تدريجاً كغيرهم ليظنوا بسبب العجز بالخلق الأول الذي هو أصعب في مجاري العادات من الإعادة أن نعجز عن الإعادة ثانياً ، يقال : عيي بالأمر - إذا لم يهتد لأمره أو لوجه مراده أو عجز عنه ، ولم يطق إحكامه .

ولما كان التقدير قطعاً بما دلت عليه همزة الإنكار : لم نعي بذلك بل أوجدناه على غاية الإحكام للظرف والمظروف وهم يعلمون ذلك ولا ينكرونه ويقرون بتمام القدرة عليه ، وفي طيه الاعتراف بالبعث وهم لا يشعرون أضرب عنه لقولهم الذي يخل باعتقادهم إياه فقال : ﴿ بل هم في لبس ﴾ أي خلط شديد وشبهة موجبة للتكلم بكلام مختلط لا يعقل له معنى ، بل السكوت عنه أجمل ، قال علي - رضى الله عنه - : يا جار ، إنه لملبوس عليك ، اعرف بالحق تعرف أهله .

ولبس الشيطان عليهم تسويله لهم أن البعث خارج عن العادة فتركوا لذلك القياس الصحيح والحكم بطريقة الأولى ﴿ من ﴾ أجل ﴿ خلق جديد ﴾ أي الإعادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 252 . 255 ﴾

(119/721)

فصل

قال الفخر :

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (12) ﴾

ذكر المكذبين تذكيراً لهم بحالهم ووبالهم وأنذرهم بإهلاكهم واستئصالهم ، وتفسيره ظاهر وفيه تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتنبيه بأن حاله كحال من تقدمه من الرسل ، كذبوا وصبروا فأهلك الله مكذبيهم ونصرهم ﴿ وأصحاب الرس ﴾ فيهم وجوه من المفسرين من قال هم قوم شعيب ومنهم من قال هم الذين جاءهم من أقصى المدينة رجل يسعى وهم قوم عيسى عليه السلام ، ومنهم من قال هم أصحاب الأخدود ، والرس موضع نسبوا إليه أو فعل وهو حفر البئر يقال رس إذا حفر بئراً وقد تقدم في سورة الفرقان ذلك ، وقال ههنا ﴿ إخوان لُوطٍ ﴾ وقال : ﴿ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ لأن لوطاً كان مرسلاً إلى طائفة من قوم إبراهيم عليه السلام معارف لوط ، ونوح كان مرسلاً إلى خلق عظيم ، وقال : ﴿ فِرْعَوْنُ ﴾ ولم يقل قوم فرعون ، وقال : ﴿ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ لأن فرعون كان هو المغتر المستخف بقومه المستبد بأمره ، وتبع كان معتمداً بقومه فجعل الاعتبار لفرعون ، ولم يقل إلى قوم فرعون .

وقوله تعالى : ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ الرسل فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ .

يحتمل وجهين أحدهما : أن كل واحد كذب رسوله فهم كذبوا الرسل واللام حينئذ لتعريف

العهد وثانيهما : وهو الأصح هو أن كل واحد كذب جميع الرسل واللام حينئذ لتعريف الجنس وهو على وجهين أحدهما : أن المكذب للرسول مكذب لكل رسول وثانيهما : وهو الأصح أن المذكورين كانوا منكرين للرسالة والحشر بالكلية ، وقوله ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ أي ما وعد الله من نصرة الرسل عليهم وإهلاكهم .

أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (15)

(120/721)

وفيه وجهان أحدهما : أنه استدلال بدلائل الأنفس ، لأنا ذكرنا مراراً أن الدلائل آفاقية ونفسية كما قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءايا تنا فِى الآفاق وَفِى أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت : 53] ولما قرن الله تعالى دلائل الآفاق عطف بعضها على بعض بحرف الواو فقال : ﴿ والأرض مددناها ﴾ [الحجر : 19] وفي غير ذلك ذكر الدليل النفسي ، وعلى هذا فيه لطائف لفظية ومعنوية .

أما اللفظية فهي أنه تعالى في الدلائل الآفاقية عطف بعضها على بعض بحرف الواو فقال : ﴿ والأرض مددناها ﴾ وقال : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السماء مَاء مباركا ﴾ [ق : 9] ثم في الدليل النفسي ذكر حرف الاستفهام والفاء بعدها إشارة إلى أن تلك الدلائل من جنس ،

وهذا من جنس ، فلم يجعل هذا تبعاً لذلك ، ومثل هذا مراعى في أواخر ياس ، حيث قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإنسان أَنَّا خلقناه ﴾ [ياس : 77] ثم لم يعطف الدليل الآفاقي ههنا ؟ نقول ، والله أعلم ههنا وجد منهم الاستبعاد بقول ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ [ق : 3] فاستدل بالأكبر وهو خلق السموات ، ثم نزل كأنه قال لا حاجة إلى ذلك الاستدلال بل في أنفسهم دليل جواز ذلك ، وفي سورة ياس لم يذكر استبعادهم فبدأ بالأدنى وارتقى إلى الأعلى .

(121/721)

والوجه الثاني : يحتمل أن يكون المراد بالخلق الأول هو خلق السموات ، لأنه هو الخلق الأول وكأنه تعالى قال : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُواْ إِلَى السماء ﴾ [ق : 6] ثم قال : ﴿ أَفَعَيِينَا ﴾ بهذا الخلق ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ الله الذى خَلَقَ السموات والأرض وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ [الأحقاف : 33] ويؤيد هذا الوجه هو أن الله تعالى قال بعد هذه الآية ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ [ق : 16] فهو كالاستدلال بخلق الإنسان وهو معطوف بحرف الواو على ما تقدم من الخلق وهو بناء السماء ومد الأرض وتنزيل الماء وإنبات الجنّات ، وفي تعريف الخلق الأول وتنكير خلق جديد وجهان أحدهما

: ما عليه الأمران لأن الأول عرفه كل واحد وعلم لنفسه ، والخلق الجديد لم يعلم لنفسه ولم يعرفه كل أحد ولأن الكلام عنهم وهم لم يكونوا عالمين بالخلق الجديد والوجه الثاني : أن ذلك لبيان إنكارهم للخلق الثاني من كل وجه ، كأنهم قالوا أيكون لنا خلق ما على وجه الإنكار له بالكلية ؟ وقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ ﴾ تقديره ما عيينا بل هم في شك من خلق جديد ، يعني لا مانع من جهة الفاعل ، فيكون من جانب المفعول وهو الخلق الجديد ، لأنهم كانوا يقولون ذلك محال وامتناع وقوع المحال بالفاعل لا يوجب عجزاً فيه ، ويقال للمشكوك فيه ملتبس كما يقال لليقين إنه ظاهر وواضح ، ثم إن اللبس يسند إلى الأمر كم قلنا : إنه يقال إن هذا أمر ظاهر ، وهذا أمر ملتبس وههنا أسند الأمر إليهم حيث قال : ﴿ هُمْ فِى لَبْسٍ ﴾ وذلك لأن الشيء يكون وراء حجاب والناظر إليه بصير فيختفي الأمر من جانب الرائي فقال ههنا ﴿ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ ﴾ ومن في قوله ﴿ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ يفيد فائدة وهي ابتداء الغاية كأن اللبس كان حاصلاً لهم من ذلك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 138 . 140 ﴾

(122/721)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) ﴾

قال ابن عباس : ﴿ قٓ ﴾ اسم من أسماء القرآن . وقال أيضاً اسم من أسماء الله تعالى .

وقال قتادة والشعبي : هو اسم السورة ، وقال يزيد وعكرمة ومجاهد والضحاك : هم اسم الجبل المحيط بالدنيا ، وهو فيما يزعمون من زمردة خضراء ، منها خضرة السماء وخضرة البحر . و﴿ المجيد ﴾ الكريم في أوصافه الذي جمع كل معلوة .

و: ﴿ قٓ ﴾ على هذه الأقوال : مقسم به وب ﴿ القرآن المجيد ﴾ ، وجواب القسم منتظر . واختلف الناس فيه ، فقال ابن كيسان جوابه : ﴿ ما يلفظ من قول ﴾ [ق : 18] ، وقيل الجواب : ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب ﴾ [ق : 37] وقال الزهراوي عن سعيد الأخفش الجواب : ﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم ﴾ وضعفه النحاس ، وقال الكوفيون من النحاة الجواب : ﴿ بل عجبوا ﴾ ، والمعنى : لقد عجبوا . قال منذر بن سعيد : إن جواب القسم في قوله : ﴿ ما يبدل القول لدي ﴾ [ق : 29] ، وفي هذه الأقوال تكلف وتحكم على اللسان .

وقال الزجاج والمبرد والأخفش : الجواب مقدر تقديره : ﴿ قٓ ﴾ ، ﴿ والقرآن المجيد ﴾ لتبعثن ، وهذا قول حسن وأحسن منه : أن يكون الجواب الذي يقع عنه الإضراب ب ﴿ بل ﴾ ، كأنه قال . ﴿ قٓ والقرآن المجيد ﴾ ما ردوا أمرك بحجة ، أو ما كذبوك ببرهان ،

ونحو هذا مما لا بد لك من تقديره بعد الذي قدر الزجاج ، لأنك إذا قلت الجواب : لتبعثن فلا بد بعد ذلك أن يقدر خبر عنه يقع الإضراب ، وهذا الذي جعلناه جواباً وجاء المقدر أخصر . وقال جماعة من المفسرين في قوله : ﴿ ق ﴾ إنه حرف دال على الكلمة ، على نحو قول الشاعر [الوليد بن المغيرة] : [الرجز]

(123/721)

قلت لها قفي فقالت قاف . . . واختلفوا بعد ، فقال القرطبي : هو دال على أسماء الله تعالى هي : قادر ، وقاهر ، وقريب ، وقاض ، وقابض ، وقيل المعنى : قضي الأمر من رسالتك ونحوه ، ﴿ والقرآن المجيد ﴾ ، فجواب القسم في الكلام الذي يدل عليه قاف . وقال قوم المعنى : قف عند أمرنا . وقيل المعنى : قهر هؤلاء الكفرة ، وهذا أيضاً وقع عليه القسم ويحتمل أن يكون المعنى : قيامهم من القبور حق ، ﴿ والقرآن المجيد ﴾ ، فيكون أول السورة من المعنى الذي اطرد بعد ، وعلى هذه الأقوال فثم كلام مضمر عنه وقع الإضراب ، كأنه قال : ما كذبوك ببرهان ، ونحو هذا مما يليق مظهراً .

وقرأ جمهور من القراء ﴿ ق ﴾ بسكون الفاء . قال أبو حاتم : ولا يجوز غيرها إلا جواز سوء .

قال القاضي أبو محمد : وهذه القراءة تحسن مع أن يكون ﴿ ق ﴾ حرفاً دالاً على كلمة .

وقرأ الثقفي وعيسى : قاف بفتح الفاء ، وهذه تحسن مع القول بأنها اسم للقرآن أو لله تعالى ، وكذلك قرأ الحسن وابن أبي إسحاق بكسر الفاء ، وهي التي في رتبة التي قبلها في أن الحركة للالتقاء وفي أنها اسم للقرآن .

و﴿ المجيد ﴾ الكريم الأوصاف الكثير الخير .

واختلف الناس في الضمير في : ﴿ عجبوا ﴾ لمن هو فقال جمهور المتأولين : هو لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم لأن كل مفطور عجب من بعثة بشر رسول الله ، لكن المؤمنون نظروا واهتدوا ، والكافرون بقوا في عمايتهم وصموا وحاجوا بذلك العجب ، ولذلك قال تعالى : ﴿ فقال الكافرون هذا شيء عجيب ﴾ . وقال آخرون بل الضمير في ﴿ عجبوا ﴾ للكافرين ، وكرر الكلام تأكيداً ومبالغة . والإشارة بهذا يحتمل أن تكون إلى نفس مجيء البشر .

(124/721)

ويحتمل أن تكون إلى القول الذي يتضمنه الإنذار ، وهو الخبر بالبعث ، ويؤيد هذا القول ما يأتي بعد . وقرأ الأعرج وشيبة وأبو جعفر " إذا " على الخبر دون استفهام ، والعامل ﴿

رجع بعيد ﴾ ، قال ابن جني ويحتمل أن يكون المعنى " أإذا متنا بعد رجعنا " ، فيدل : ذلك ﴿ رجع بعيد ﴾ على هذا الفعل الذي هو بعد ويحل محل الجواب لقولهم : " إذا " . والرجع : مصدر رجعته . وقوله ﴿ بعيد ﴾ في الأوهام والفكر كونه فأخبر الله تعالى رداً على قولهم بأنه يعلم ما تأكل الأرض من ابن آدم وما تبقى منه ، وإن ذلك في الكتاب ، وكذلك يعود في الحشر معلوماً ذلك كله .

و" الحفيظ " : الجامع الذي لم يفته شيء . وقال الرماني : ﴿ حفيظ ﴾ متبع أن يذهب ببلى ودروس ، وروي في الخبر الثابت : أن الأرض تأكل ابن آدم إلا عجب الذنب ، وهو عظم كالخرجلة ، فمنه يركب ابن آدم ، وحفظ ما تنقص الأرض إنما هو ليعود بعينه يوم القيامة ، وهذا هو " الحق " . وذهب بعض الأصوليين غلى أن الأجساد المبعثرة يجوز أن تكون غير هذه ، وهذا عندي خلاف لظاهر كتاب الله ولو كانت غيرها فكيف كانت تشهد الأيدي والأرجل على الكفرة إلى غير ذلك مما يقتضي أن أجساد الدنيا هي التي تعود . وقال ابن عباس ومجاهد والجمهور ، المعنى : ما تنقص من لحومهم وأبشارهم وعظامهم . وقال السدي معنى قوله : ﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم ﴾ أي ما يحصل في بطنها من موتاهم ، وهذا قول حسن مضمنه الوعيد .

وقال ابن عباس أيضاً في ما حكى الثعلبي ، ممعناه : قد علمنا ما تنقص أرض الإيمان من الكفرة الذين يدخلون في الإيمان ، وهذا قول أجنبي من المعنى الذي قبل وبعد ، وقيل قوله : ﴿ بل كذبوا ﴾ مضمر ، عنه وقع الإضراب تقديره : ما أجادوا النظر أو نحو هذا ، والذي يقع عنه الإضراب ب ﴿ بل ﴾ ، الأغلب فيه أنه منفي تقضي ﴿ بل ﴾ بفساده ، وقد يكون أمراً موجباً تقضي ﴿ بل ﴾ بترك القول فيه لا بفساده ، وقرأ الجمهور : "لَمّا" بفتح اللام وشد الميم . وقرأ الجحدري : "لِمَا" بكسر اللام وتخفيف الميم ، قال أبو الفتح : هي كقولهم : أعطيته لما سأل ، وكما في التاريخ : لخمس خلون ، ونحو هذا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لا يجليها لوقتها ﴾ [الأعراف : 187] ومنه قول الشاعر : [الوافر]

إذا هبت لقاربها الرياح . . . و: "المريج" : معناه : المختلط ، قاله ابن زيد ، أي بعضهم يقول ساحر ، وبعضهم كاهن ، وبعضهم شاعر إلى غير ذلك من تخليطهم ، وكذلك عادت فكرة كل واحد منهم مختلطة في نفسها ، قال ابن عباس : المريج : المنكر . وقال مجاهد : الملتبس ، والمريج المضطرب أيضاً ، وهو قريب من الأول ، ومنه الحديث : مرجت عهود الناس ومنه ﴿ مرج البحرين ﴾ [الفرقان : 53 ، الرحمن : 19] وقال الشاعر [أبو دؤاد] :

مرج الدين فأعددت له . . . مشرف الحارك محبوك الكتد

ثم دل تعالى على العبرة بقوله : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء ﴾ الآية ، ﴿ وزيناها ﴾ معناه : بالنجوم . و" الفروج " الفطور والشقوق خلالها وأثناءها ، قاله مجاهد وغيره ، وحكى النقاش أن هذه الآية تعطي أن السماء مستديرة ، وليس الأمر كما حكي ، إذا تدبر اللفظ وما يقتضي . و" الرواسي " : الجبال . و" الزوج " : النوع . و" البهيج " قال ابن عباس وقتادة وابن زيد هو : الحسن المنظر ، وقوله عز وجل : ﴿ تبصرة وذكرى ﴾ منصوب على المصدر بفعل مضمر . و: " المنيب " الراجع إلى الحق عن فكرة ونظر . قال قتادة : هو المقبل بقلبه إلى الله وخص هذه الصنيفة بالذكر تشريفاً من حيث هي المنتفعة بالتبصرة والذكرى ، وإلا فهذه المخلوقات هي تبصرة وذكرى لكل بشر . وقال بعض النحويين : ﴿ تبصرة وذكرى ﴾ مفعولان من أجله ، وهذا يحتمل والأول أرجح .

وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (9)

قوله تعالى : ﴿ ماء مباركاً ﴾ قيل يعني جميع المطر ، كله يتصف بالبركة وإن ضر بعضه أحياناً ، ففيه مع ذلك الضر الخاص البركة العامة . وقال أبو هريرة : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا جاء المطر فسالت الميازيب قال : " لا محل عليكم العام " وقال بعض المفسرين :

﴿ ماء مباركاً ﴾ يريد به ماء مخصوصاً خالصاً للبركة ينزله الله كل سنة ، وليس كل المطر يتصف بذلك . ﴿ وحب الحصيد ﴾ الحنطة . و: ﴿ باسقات ﴾ معناه : طويلات ذاهبات في السماء ، ومنه قول ابن نوفل في ابن هبيرة : [مجزوء الكامل مرفّل]

يا ابن الذين لمجدهم . . . بسقت على قيس فزارهْ

(127/721)

وروى قطبة بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ : " باصقات " بالصاد ، قال أبو الفتح الأصل : السين وإنما الصاد بدل منه ، لاستعلاء القاف . و" الطلع " أول ظهور التمر في الكفرى وهو أبيض منضد كحب الرمان . فما دام ملتصقاً بعضه ببعض فهو ﴿ نضيد ﴾ ، فإذا خرج من الكفرى تفرق فليس بنضيد . و: ﴿ رزقاً ﴾ نصب على المصدر والضمير في : ﴿ به ﴾ عائد على المطر . ووصف البلدة ب " ميت " على تقدير القطر والبلد .

وقرأ الناس " ميْتاً " مخففاً ، وقرأ أبو جعفر وخالد " ميّتاً " بالتثقيل .

ثم بين تعالى موضع الشبه فقال : ﴿ كذلك الخروج ﴾ ، هذه الآيات كلها إنما هي أمثلة وأدلة على البعث . و﴿ الخروج ﴾ يريد به من القبور ، ﴿ وأصحاب الرس ﴾ قوم كان

لهم بئر عظيمة وهي ﴿ الرس ﴾ ، وكل ما لم يطو من بئر أو معدن أو نحوه فهو رسّ .

وأنشد أبو عبيدة للنابغة الجعدي :

سبقت إلى قرطبا هل . . . تنابلة يحفرون الرساسا

وجاءهم نبي يسمى حنظلة بن صفوان فيما روي فجعلوه في ﴿ الرس ﴾ وردموا عليه . فأهلكهم الله ، وقال كعب الأحبار في كتاب الزهراوي : ﴿ أصحاب الرس ﴾ هم أصحاب الأخدود وهذا ضعيف . لأن أصحاب الأخدود لم يكذبوا نبياً ، إنما هو ملك أحرق قوماً . وقال الضحاك ﴿ الرس ﴾ : بئر قتل فيها صاحب ياسين ، قال منذر وروي عن ابن عباس أنهم قوم عاد .

و﴿ الأيكة ﴾ : الشجر الملتف ، وهم قوم شعيب ، والألف واللام من ﴿ الأيكة ﴾ غير معرفة ، لأن " أيكة " اسم علم كطلحة يقال أيكة وليكة ، فهي كالألف واللام في الشمس والقمر وفي الصفات الغالبة وفي هذا نظر . وقرأ " الأيكة " بالهمز أبو جعفر ونافع وشيبة وطلحة .

(128/721)

﴿ وقوم تبع ﴾ هم حمير و﴿ تبع ﴾ – سم فيهم ، يذهب تبع ويجيء تبع ككسرى في الفرس وقيصر في الروم ، وكان أسعد أبو كرب أحد التبابعة رجلاً صالحاً صحب حبرين فتعلم منهما دين موسى عليه السلام ثم إن قومه أنكروا ذلك عليه فندبهم إلى محاجة الحبرين ، فوقعت بينهم مجادلة ، واتفقوا على أن يدخلوا جميعهم النار التي في القربان ، فمن أكلته فهو المبطل ، فدخلوها فاحترق ﴿ قوم تبع ﴾ ، وخرج الحبران تعرق جباههما ، فهلك القوم المخالفون وآمن سائر ﴿ قوم تبع ﴾ بدين الحبرين .

وفي الحديث اختلاف كثير . أثبت أصح ذلك على ما في سير ابن هشام . وذكر الطبري عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تلعنوا تبعاً ، فإنه كان قد أسلم " وحكى الثعلبي عن ابن عباس أن تبعاً كان نبياً .

وقوله تعالى : ﴿ كل كذب الرسل ﴾ قال سيبويه ، التقدير : كلهم وحذف لدلالة كل عليه إيجازاً . و" الوعيد " الذي حق : هو ما سبق به القضاء من تعذيب الكفرة وإهلاك الأمم المكذبة ، ففي هذا تخويف من كذب محمداً صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى : ﴿ أفعيينا ﴾ توقيف للكفار وتوبيخ وإقامة للحجة الواضحة عليهم ، وذلك أن جوابهم على هذا التوقيف هو لم يقع عي ، ثم هم مع ذلك في لبس من الإعادة . وهذا تناقض ، ويقال عيي يعيى إذا عجز عن الأمر ويلح به ، ويدغم هذا الفعل الماضي من هذا الفعل ولا يدغم المستقبل منه فيقال عي ، ومنه قول الشاعر [عبيد بن الأبرص] :

عيوا بأمرهم كما . . . عيت ببيضتها الحمامه

و" الخلق الأول " إنشاء الإنسان من نطفة على التدريج الملعوم ، وقال الحسن : " الخلق الأول " آدم عليه السلام ، حكاه الرماني ، واللبس : الشك والريب واختلاط النظر . والخلق الجديد : البعث في القبور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(129/721)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾

أي كما كذب هؤلاء فكذلك كذب أولئك فحل بهم العقاب ؛ ذكّرهم نبأ من كان قبلهم من المكذّبين وخوّفهم ما أخذهم .

وقد ذكرنا قصصهم في غير موضع عند ذكرهم .

﴿ كُلٌّ كَذَّبَ الرسل ﴾ من هذه الأمم المكذبة .

﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ أي فحق عليهم وعيدي وعقابي .

قوله تعالى : ﴿ أَفَعَيِينَا بالخلق الأول ﴾ أي أفعيينا به فنعيا بالبعث .

وهذا توبيخ لمنكري البعث وجواب قولهم : ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ يقال : عَيِيت بالأمر

إذا لم تعرف وجهه .

﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي في حَيْرَة من البعث منهم مصدّق ومنهم مكذّب ؛ يقال : لَبَس عليه الأمرُ يَلْبِسه لَبْساً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(130/721)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) ﴾

هذه السورة مكية ، قال ابن عطية : بإجماع من المتأولين .

وقال صاحب التحرير : قال ابن عباس ، وقتادة : مكية إلا آية ، وهي قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض ﴾ الآية .

ومناسبتها لآخر ما قبلها ، أنه تعالى أخبر أن أولئك الذين قالوا آمنا ، لم يكن إيمانهم حقاً ، وانتفاء إيمانهم دليل على إنكار نبوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فقال : ﴿ بل عجبوا أن جاءهم منذر ﴾ .

وعدم الإيمان أيضاً يدل على إنكار البعث ، فلذلك أعقبه به .

وق حرف هجاء ، وقد اختلف المفسرون في مدلوله على أحد عشر قولاً متعارضة ، لا دليل على صحة شيء منها ، فأطرحت نقلها في كتابي هذا .

﴿ والقرآن ﴾ مقسم به و﴿ المجيد ﴾ صفته ، وهو الشريف على غيره من الكتب ، والجواب محذوف يدل عليه ما بعده ، وتقديره : أنك جئتهم منذراً بالبعث ، فلم يقبلوا .

﴿ بل عجبوا ﴾ ، وقيل : ما ردوا أمرك بحجة .

وقال الأخفش ، والمبرد ، والزجاج : تقديره لتبعثن .

وقيل : الجواب مذكور ، فعن الأخفش قد علمنا ما تنقص الأرض منهم ؛ وعن ابن كيسان ، والأخفش : ما يلفظ من قول ؛ وعن نحاة الكوفة : بل عجبوا ، والمعنى : لقد عجبوا .

وقيل : إن في ذلك لذكرى ، وهو اختيار محمد بن علي الترمذي .

وقيل : ما يبدل القول لديّ ، وهذه كلها أقوال ضعيفة .

وقرأ الجمهور : قاف بسكون الفاء ، ويفتحها عيسى ، ويكسرها الحسن وابن أبي إسحاق وأبو السمال ؛ وبالضم : هارون وابن السميفع والحسن أيضاً ؛ فيما نقل ابن خالويه .

والأصل في حروف المعجم ، إذا لم تركب مع عامل ، أن تكون موقوفة .

فمن فتح قاف ، عدل إلى الحركات ؛ ومن كسر ، فعلى أصل التقاء الساكنين ؛ ومن ضم ، فكما ضم قط ومنذ وحيث .

﴿ بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ﴾ : إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب ، وهو أن ينذرهم بالخوف رجل منهم قد عرفوا صدقه وأمانته ونصحه ، فكان المناسب أن لا يعجبوا ، وهذا مع اعترافهم بقدرة الله تعالى ، فأي بعد في أن يبعث من يخوف وينذر بما يكون في المآكل من البعث والجزاء .

والضمير في ﴿ بل عجبوا ﴾ عائد على الكفار ، ويكون قوله : ﴿ فقال الكافرون ﴾ تنبيهاً على القلة الموجبة للعجب ، وهو أنهم قد جبلوا على الكفر ، فلذلك عجبوا .

وقيل : الضمير عائد على الناس ، قيل : لأن كل مفطور يعجب من بعثة بشر رسولاً من الله ، لكن من وفق نظر فاهتدى وآمن ، ومن خذل ضل وكفر ؛ وحاج بذلك العجب والإشارة بقولهم : ﴿ هذا شيء عجيب ﴾ ، الظاهر أنها إلى مجيء منذر من البشر .

وقيل : إلى ما تضمنه الإنذار ، وهو الإخبار بالبعث .

وقال الزمخشري : وهذا إشارة إلى المرجع .

انتهى ، وفيه بعد .

وقرأ الجمهور : ﴿ أئذا ﴾ بالاستفهام ، وهم على أصولهم في تحقيق الثانية وتسهيلها والفصل بينهما .

وقرأ الأعرج ، وشيبة ، وأبو جعفر ، وابن وثاب ، والأعمش ، وابن عتبة عن ابن عامر :

إذا بهمزة واحدة على صورة الخبر ، فجاز أن يكون استفهاماً حذفت منه الهمزة ، وجاز أن يكونوا عدلوا إلى الخبر وأضمر جواب إذا ، أي إذا متنا وكنا تراباً رجعنا .

وأجاز صاحب اللوامح أن يكون الجواب رجع بعيد على تقدير حذف الفاء ، وقد أجاز بعضهم في جواب الشرط ذلك إذا كان جملة اسمية ، وقصره أصحابنا على الشعر في الضرورة .

وأما في قراءة الاستفهام ، فالظرف منصوب بمضمر ، أي : أنبعث إذا متنا ؟ وإليه الإشارة بقوله ذلك ، أي البعث .

﴿ رجع بعيد ﴾ ، أي مستبعد في الأوهام والفكر .

وقال الزمخشري : وإذا منصوب بمضمر معناه : أحين نموت ونبلى نرجع ؟ انتهى .

وأخذه من قول ابن جني ، قال ابن جني : ويحتمل أن يكون المعنى : أئذا متنا بعد رجعنا ، فدل رجع بعيد على هذا الفعل ، ويحل محل الجواب لقولهم أئذا .

(132/721)

وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون الرجع بمعنى المرجوع ، وهو الجواب ، ويكون من كلام الله تعالى استبعاداً لإنكارهم ما أنذروا به من البعث ، والوقف قبله على هذا التفسير حسن .

فإن قلت : فما ناصب الظرف إذا كان الرجع بمعنى المرجوع ؟ قلت : ما دل عليه المنذر من المنذر به ، وهو البعث . انتهى .

وكون ذلك رجع بعيد بمعنى مرجوع ، وأنه من كلام الله تعالى ، لا من كلامهم ، على ما شرحه مفهوم عجيب ينبو عن إدراكه فهم العرب .

﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم ﴾ : أي من لحومهم وعظامهم وآثارهم ، قاله ابن عباس ومجاهد والجمهور ، وهذا فيه رد لاستبعادهم الرجع ، لأن من كان عالماً بذلك ، كان قادراً على رجعهم .

وقال السدي : أي ما يحصل في بطن الأرض من موتاهم ، وهذا يتضمن الوعيد .

﴿ وعندنا كتاب حفيظ ﴾ : أي حافظ لما فيه جامع ، لا يفوت منه شيء ، أو محفوظ من البلى والتغير .

وقيل : هو عبارة عن العلم والإحصاء .

وفي الخبر الثابت أن الارض تأكل ابن آدم الأعجب الذنب ، وهو عظم كالخردلة منه يركب ابن آدم .

﴿ بل كذبوا بالحق لما جاءهم ﴾ : وقدروا قبل هذا الإضراب جملة يكون مضروباً عنها ، أي ما أجادوا والنظر ، بل كذبوا .

وقيل : لم يكذبوا المنذر ، بل كذبوا ، والغالب أن الإضراب يكون بعد جملة منفية .

وقال الزمخشري : بل كذبوا : إضراب أتبع الإضراب الأول للدلالة على أنهم جاءوا بما هو أفظع من تعجبهم ، وهو التكذيب بالحق الذي هو النبوة الثابتة بالمعجزات . انتهى .

وكان هذا الإضراب الثاني بدلاً من الأول ، وكلاهما بعد ذلك الجواب الذي قدرناه جواباً للقسم ، فلا يكون قبل الثانية ما قدروه من قولهم : ما أجادوا النظر ، ﴿ بل كذبوا بالحق ﴾ ، والحق : القرآن ، أو البعث ، أو الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، أو الإسلام ، أقوال .

(133/721)

وقرأ الجمهور : ﴿ لما جاءهم ﴾ : أي لم يفكروا فيه ، بل بأول ما جاءهم كذبوا ؛

والجحدري : لما جاءهم ، بكسر اللام وتخفيف الميم ، وما مصدرية ، واللام لام الجر ، كهي في قولهم كتبته لخمس خلون أي عند مجيئهم إياه .

﴿ فهم في أمر مريج ﴾ ، قال الضحاك ، وابن زيد : مختلط : مرة ساحر ، ومرة شاعر ، ومرة كاهن .

قال قتادة : مختلف .

وقال الحسن : ملتبس .

وقال أبو هريرة : فاسد .

ومرجت أمانات الناس : فسدت ، ومرج الدين : اختلط .

قال أبو واقد :

ومرج الدين فأعددت له . . .

مسرف الحارك محبوك الكند

وقال ابن عباس : المريج : الأمر المنكر ، وعنه أيضاً مختلط ، وقال الشاعر :

فجالت والتمست لها حشاها . . .

فخر كأنه خوط مريج

والأصل فيه الاضطراب والقلق .

مرج الخاتم في أصبعي ، إذا قلق من الهزال .

ويجوز أن يكون الأمر المريج ، باعتبار انتقال أفكارهم فيما جاء به المنذر قائلاً عدم قبولهم أول إنذاره إياهم ، ثم العجب منهم ، ثم استعباد البعث الذي أنذر به ، ثم التكذيب لما جاء به .

﴿ أفلم ينظروا ﴾ حين كفروا بالبعث وبما جاء به الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى آثار قدرة الله تعالى في العالم العلوي والسفلي ، ﴿ كيف بنيناها ﴾ مرتفعة من غير عمد ، ﴿ وزيناها ﴾ بالنيرين وبالنجوم ، ﴿ وما لها من فروج ﴾ : أي من فتوق وسقوف ، بل

هي سليمة من كل خلل .

﴿ والأرض مددناها ﴾ : بسطناها ، ﴿ وألقينا فيها رواسي ﴾ ، أي جبالاً ثوابت تمنعها من التكفؤ ، ﴿ من كل زوج ﴾ : أي نوع ، ﴿ بهيج ﴾ : أي حسن المنظر بهيج ، أي يسر من نظر إليه .

وقرأ الجمهور : ﴿ تبصرة وذكرى ﴾ بالنصب ، وهما منصوبان بفعل مضمر من لفظهما ، أي بصر وذكر .

وقيل : مفعول من أجله .

وقرأ زيد بن علي : تبصرة بالرفع ، وذكر معطوف عليه ، أي ذلك الخلق على ذلك الوصف تبصرة ، والمعنى : يتبصر بذلك ويتذكر ، ﴿ كل عبد منيب ﴾ : أي راجع إلى ربه مفكر في بدائع صنعه .

(134/721)

﴿ ماء مباركاً ﴾ : أي كثير المنفعة ، ﴿ وحب الحصيد ﴾ : أي الحب الحصيد ، فهو من حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه ، كما يقوله البصريون ، والحصيد : كل ما يحصد مما له حب ، كالبر والشعير .

﴿ باسقات ﴾ : أي طوالاً في العلو ، وهو منصوب على الحال ، وهي حال مقدرة ، لأنها حالة الإنبات ، لم تكن طوالاً .

وباسقات جمع .

﴿ والنخل ﴾ اسم جنس ، فيجوز أن يذكر ، نحو قوله : ﴿ نخل منقعر ﴾ وأن يؤنث نحو قوله تعالى : ﴿ نخل خاوية ﴾ وأن يجمع باعتبار إفراده ، ومنه باسقات ، وقوله : ﴿ وينشىء السحاب الثقال ﴾ والجمهور : باسقات بالسين .

وروى قطبة بن مالك ، عن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، أنه قرأ : باصقات بالصاد ، وهي لغة لبني العنبر ، يبدلون من السين صاداً إذا وليتها ، أو فصل بحرف أو حرفين ، خاء أو عين أو قاف أو طاء .

﴿ لها طلع ﴾ : تقدم شرحه عند ﴿ من طلعها قنوان دانية ﴾ ﴿ نضيد ﴾ : أي منضود بعضه فوق بعض ، يريد كثرة الطلع وتراكمه ، أي كثرة ما فيه من الثمر .

وأول ظهور الثمر في الكفرى هو أبيض ينضد كحب الرمان ، فما دام ملتصقاً بعضه ببعض فهو نضيد ، فإذا خرج من الكفرى تفرق فليس بنضيد .

و ﴿ رزقاً ﴾ نصب على المصدر ، لأن معنى : وأنبتنا رزقنا ، أو على أنه مفعول له .

وقرأ الجمهور : ﴿ ميتاً ﴾ بالتخفيف ؛ وأبو جعفر ، وخالد : بالتثقيل ، والإشارة في ذلك إلى الإحياء ، أي الخروج من الأرض أحياء بعد موتكم ، مثل ذلك الحياة للبلدة الميت ،

وهذه كلها أمثلة وأدلة على البعث .

وذكر تعالى في السماء ثلاثة : البناء والتزين ونفي الفروج ، وفي الأرض ثلاثة : المد وإلقاء الرواسي والإنبات .

قابل المد بالبناء ، لأن المد وضع والبناء رفع .

وإلقاء الرواسي بالتزيين بالكواكب ، لارتكاز كل واحد منهما .

والإنبات المترتب على الشق بانتفاء الفروج ، فلا شق فيها .

(135/721)

ونبه فيما تعلق به الإنبات على ما يقطف كل سنة ويبقي أصله ، وما يزرع كل سنة أو سنتين ويقطف كل سنة ، وعلى ما اختلط من جنسين ، فبعض الثمار فاكهة لا قوت ، وأكثر الزرع قوت والثمر فاكهة وقوت .

ولما ذكر تعالى قوله : ﴿ بل كذبوا بالحق لما جاءهم ﴾ ، ذكر من كذب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، تسلية لرسوله (صلى الله عليه وسلم) ، وتقدم الكلام على مفردات هذه الآية هذه الآية وقصص من ذكر فيها .

وقرأ أبو جعفر ، وشيبة ، وطلحة ، ونافع : الأيكة بلام التعريف ؛ والجمهور : ليكة .

﴿ كل كذب الرسل ﴾ : أي كلهم ، أي جميعهم كذب ؛ وحمل على لفظ كل ، فأفرد الضمير في كذب .

وقال الزمخشري : يجوز أن يراد به كل واحد منهم . انتهى .

والتنوين في كل تنوين عوض من المضاف إليه المحذوف .

وأجاز محمد بن الوليد ، وهو من قدماء نحاة مصر ، أن يحذف التنوين من كل جعله غاية ، ويبنى على الضم ، كما يبنى قبل وبعد ، فأجاز كل منطلق بضم اللام دون تنوين ، ورد ذلك عليه الأخفش الصغير ، وهو علي بن سليمان .

﴿ فحق وعيد ﴾ : أي وجب تعذيب الأمم المكذبة وإهلاكهم ، وفي ذلك تسلية للرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وتهديد لقريش ومن كذب الرسول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(136/721)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ ق والقرءان المجيد ﴾

أيْ ذي المجدِ والشرفِ عَلى سائرِ الكتبِ أوْ لأَنَّه كلامُ المجيدِ أوْ لأنَّ منْ علَم معانيَهُ وعمِلَ بما

فيهِ مَجُدَ عندَ اللهِ تَعَالَى وعندَ الناسِ والكلامُ فيهِ كالذَّي فُصِّلَ في مطلعِ سورةِ ص وَقولُه تعالَى : ﴿ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ أيْ لأَنْ جاءَهُم منذرٌ منْ جنسِهم لا من جنسِ المَلَكِ أوْ مِنْ جلدِتهم ، إضرابٌ عَمَّا ينبىءُ عنْهُ جوابُ القسمِ المحذوفِ كأَنَّه قيلَ والقرآنِ المجيدِ أنزلناهُ إليكَ لتنذرَ بهِ الناسَ حسَبما وردَ في صدرِ سورةِ الأعرافِ كأَنُه قيلَ بعدَ ذلكَ لم يؤمنُوا بهِ بلْ جعلُوا كلاً منَ المنذِرِ والمنذَرِ بهِ عُرضةً للنكيرِ والتعجيبِ معَ كونِهما أوفقَ شيءٍ لقضيةِ العقولِ وأَقربَهُ إلى التلقِي بالقبولِ ، وقيلَ التقديرُ والقرآنِ المجيدِ إنكَ لمنذرٌ ثمَّ قيلَ بعدَهُ إنَّهم شكُّوا فيهِ ثمَّ أُضربَ عنْهُ وقيلَ بلْ عجبُوا أيْ لم يكتفُوا بالشكِّ والردِّ بلْ جزمُوا بالخلافِ حتَّى جعلُوا ذلكَ منَ الأمورِ العجيبةِ وقيلَ هُوَ إضرابٌ عَمَّا يفهمُ منْ وصفِ القرآنِ بالمجيدِ كأَنَّه قيلَ ليسَ سببُ امتناعِهم من الإيمانِ بالقرآنِ أَنَّه لا مجدَ لهُ ولكنْ لجهلِهم ﴿ فَقَالَ الكافرون هذا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ تفسيرٌ لتعجبِهم وبيانٌ لكونِه مقارناً لغايةِ الإنكارِ مع زيادةِ تفصيلٍ لمحلِّ التعجبِّ ، وهذا إشارةٌ إلى كونِه عليهِ الصلاةُ والسلامُ منذِراً بالقرآنِ وإضمارُهم أولاً للإشعارِ بتبعيتِهم بما أسندَ إليهِم وإظهارِهم ثانياً للتسجيلِ عليهمْ بالكفرِ بموجبِه أوْ عطفٌ لتعجبِهم من البعثِ على تعجبِهم من البعثةِ على أنَّ هذا إشارةٌ إلى مبهمٍ يفسرُهُ ما بعدَهُ من الجملةِ الإنكاريةِ ، ووضعُ المظهرِ موضعَ المضمرِ إما لسبقِ اتصافِهم بما يوجبُ كفرَهُم وإمَّا للإيذانِ بأنَّ تعجُّبَهم منَ البعثِ لدلالتِه على استقصارِهم لقدرةِ اللهِ سبحانَهُ عنْهُ معَ معاينتِهم

(137/721)

لقدرتِه تعالَى على مَا هُو أشقُّ منْهُ في قياسِ العقلِ من مصنوعاتِه البديعةِ أشنعُ من الأولِ وأعرقُ في كونِه كفراً .

﴿ أَءذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ﴾ تقريرٌ للتعجب وتأكيدٌ للإنكارِ والعاملُ في إذَا مضمرٌ غنيٌّ عن البيانِ لغايةِ شهرتِه معَ دلالةِ ما بعدَهُ عليهِ أيْ أحينَ نموتُ ونصيرُ تراباً نرجعُ كما ينطقُ به النذيرُ والمنذرُ بهِ معَ كمالِ التباينِ بينَنا وبينَ الحياةِ حينئذٍ وقُرِىءَ إذَا متنَا عَلى لفظِ الخبرِ أوْ على حذفِ أداةِ الإنكارِ ﴿ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى محلِّ النزاعِ ﴿ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ أيْ عنِ الأوهامِ أو العادةِ أو الإمكانِ وقيلَ الرجعُ بمعْنَى المرجوعِ الذي هُوَ الجوابُ فناصبُ الظرفِ حينئذٍ ما ينبىءُ عنه المنذرُ من البعثِ .

(138/721)

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرضُ مِنْهُمْ ﴾ ردٌّ لاستبعادِهم وإزاحةٌ له فإنَّ منْ عمَّ علمُهُ ولطُفَ حَتَّى انتَهى إلى حيثُ علمَ ما تنقصُ الأرضُ من أجسادِ الموتَى وتأكلُ من لحومِهم

وعظامِهم كيفَ يستبعدُ رجعُهُ إيَّاهمُ أحياءً كما كانُوا . عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم " كُلُّ ابن آدمٍ يبلَى إلا عجبَ الذنبِ " وقيلَ ما تنقصُ الأرضُ منهُمْ ما يموتُ فيدفنُ في الأرضِ منهم ﴿ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ حافظٌ لتفاصيلِ الأشياءِ كلِّها أو محفوظٌ من التغيرِ ، والمرادُ إما تمثيلُ علمِه تعالَى بكلياتِ الأشياءِ وجزئياتِها بعلم مَنْ عندَه كتابٌ محيطٌ يتلقى منْهُ كُلَّ شيءٍ أو تأكيدٌ لعلمِه تعالَى بها بثبوتِها في اللوحِ المحفوظِ عندَهُ ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ ﴾ إضرابٌ وانتقالٌ من بيانِ شناعتِهم السابقةِ إلى بيانِ ما هُو أشنعُ منْهُ وأفظعُ وهو تكذيبُهم للنبوةِ الثابتةِ بالمعجزاتِ الباهرةِ ﴿ لَمَّا جَاءهُمْ ﴾ مِنْ غيرِ تأملٍ وتفكرٍ ، وقُرِىءَ لِمَا جاءهُم بالكسرِ على أنَّ اللامَ للتوقيتِ أيْ وقتَ مجيئِه إياهُم وقيلَ الحقُّ القرآنُ أو الإخبارُ بالبعثِ ﴿ فَهُمْ فِى أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ أيْ مضطربٌ لاقرارَ لهُ ، منْ مَرَجَ الخاتمُ في أصبعِه حيثُ يقولونَ تارةً إنَّه شاعرٌ وتارةً ساحرٌ وأخرَى كاهنٌ ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُواْ ﴾ أيْ أغفلُوا أو أعمُوا فلمْ ينظرُوا ﴿ إِلَى السماء فَوْقَهُمْ ﴾ بحيثُ يشاهدونَها كلَّ وقتٍ ﴿ كَيْفَ بنيناها ﴾ أيْ رفعناهَا بغيرِ عمدٍ ﴿ وزيناها ﴾ بمَا فيهَا منَ الكواكبِ المرتبةِ على نظامٍ بديعٍ ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ منْ فتوقٍ لملاستِها وسلامتِها من كُلِّ عيبٍ وخلٍ ، ولعل تأخيرَ هَذا لمراعاةِ الفواصلِ ﴿ والأرض مددناها ﴾ أي بسطناهَا ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رواسي ﴾ جبالاً ثوابتَ مِنْ رسَا الشيءُ إذَا ثبتَ والتعبيرُ عنْهَا بهذَا الوصفِ للإيذانِ بأن إلقاءَها بإرساءِ الأرضِ

بهَا ﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ ﴾ منْ كُلِّ صنفٍ ﴿ بَهِيجٍ ﴾ حسنٍ .

﴿ تَبْصِرَةً وذكرى ﴾ علتانِ للأفعالِ المذكورةِ مَعْنى وإنِ انتصبتَا بالفعلِ الأخيرِ أو لفعلٍ مقدرٍ بطريقِ الاستئنافِ أيْ فعلنَا ما فعلنَا تبصيراً وتذكيراً ﴿ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ أيْ راجعٍ إلى ربِّه منفكرٍ في بدائعِ صنائعِه .

وقولُه تعالَى : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السماء مَاء مباركا ﴾

أيْ كثيرَ المنافعِ ، شروعٌ في بيانِ كيفيةِ إنباتِ ما ذكرَ منْ كُلِّ زوجٍ بهيجٍ وهو عطفٌ على أنبتنا وما بينهمَا على الوجهِ الأخيرِ اعتراضٌ مقررٌ لما قبلَهُ ومنبهٌ على ما بعدَهُ ﴿ فَأَنبَتْنَا بِهِ ﴾ أيْ بذلكَ الماءِ ﴿ جنات ﴾ كثيرةً أيْ أشجاراً ذواتِ ثمارٍ ﴿ وَحَبَّ الحصيد ﴾ أي حبَّ الزرعِ الذي شأنُه أنْ يُحصدَ من البُرِّ والشعيرِ وأمثالِهما ، وتخصيصُ إنباتِ حبِّه بالذكرِ لأنُه المقصودُ بالذاتِ ﴿ والنخل ﴾ عطفٌ على جناتٍ . وتخصيصُها بالذكرِ معَ اندراجِها في الجناتِ لبيانِ فضلِها على سائرِ الأشجارِ وتوسيطُ الحبِّ بينهما لتأكيدِ استقلالِها وامتيازِها عنِ البقيةِ معَ ما فيهِ منْ مُراعاةِ الفواصلِ ﴿ باسقات ﴾ أيْ طوالاً أو حواملَ منْ أبسقتِ الشاةُ إذَا حملتْ فيكونُ منْ بابِ أفعلَ فهو فاعلٌ وقرىءَ باصقاتٍ لأجلِ القافِ ﴿ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ أيْ منضودٌ بعضُه فوقَ بعضٍ ، والمرادُ تراكُمِ الطلعِ أو كثرةُ ما فيهِ منَ الثمرِ ، والجملةُ حالٌ من النخلِ كباسقاتٍ بطريقِ الترادفِ أو منْ ضميرِها في

باسقاتٍ عَلى التداخلِ ، أو : الحالُ هو الجارُّ والمجرورُ وطلعٌ مرتفعٌ بِهِ عَلى الفاعليةِ وقولُه تعالىَ :

(140/721)

﴿ رّزْقاً لّلعِبَادِ ﴾ أيْ لنرزقَهُم ، ، علةٌ لقولِه تعالَى فأنبتنا وفي تعليلِه بذلكَ بعدَ تعليلِ أنبتنَا الأولِ بالتبصرةِ والتذكيرِ تنبيهٌ على أنَّ الواجبَ على العبدِ أنْ يكونَ انتفاعُهُ بذلكَ من حيثُ التذكرُ والاستبصارُ أهمَّ وأقدمَ من تمتعِه بِهِ منْ حيثُ الرزقُ ، وقيلَ رزقاً مصدرٌ منْ مَعْنى أنبتنَا لأنَّ الإنباتَ رزقٌ ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ ﴾ أيْ بذلكَ الماءِ ﴿ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ أرضاً جدبةً لا نماءَ فيهَا أَصْلاً بأنْ جعلناهَا بحيثُ ربتْ وأنتبتْ أنواعَ النباتِ والأزهارِ فصارتْ تهتزُ بهَا بعدَ ما كانتْ جامدةً هامدةً ، وتذكيرُ ميتاً لأنَّ البلدةَ بمعنى البلدِ والمكانِ ﴿ كذلك الخروج ﴾ جملةٌ قدمَ فيهَا الخبرُ للقصدِ إلى القصرِ وذلكَ إشارةٌ إلى الحياةِ المستفادةِ من الأحياءِ وما فيهِ من مَعْنى البعدِ للإشعارِ ببعدِ رتبتِها أيْ مثلَ تلكَ الحياةِ البديعةِ حياتُكم بالبعثِ منَ القبورِ لا شيءَ مخالفٌ لَها ، وفي التعبيرِ عنْ إخراجِ النباتِ منَ الأرضِ بالإحياءِ وعنْ حياةِ المَوْتى بالخروجِ تفخيمٌ لشأنِ الإنباتِ وتهوينٌ لأمرِ البعثِ وتحقيقٌ للمماثلةِ بينَ إخراجِ النباتِ وإحياءِ المَوْتى لتوضيحِ منهاجِ القياسِ وتقريبِه إلى أفهامِ الناسِ وقولُه تعالَى :

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ إلخ استئنافٌ واردٌ لتقريرِ حقيةِ البعثِ ببيانِ اتفاقِ كافةِ الرسلِ عليهم السلامُ عليَها وتعذيبِ مُنكريْها ﴿ وأصحاب الرس ﴾ قيلَ هُم ممنْ بعثَ إليهم شعيبٌ عليهِ السلامُ وقيلَ وقيلَ ، كما مرَّ في سورةِ الفُرقانِ على التفصيلِ ﴿ وَثَمُودُ وَعَادٌ وفِرْعَوْنُ ﴾ أي هُوَ وقومُه ليلائمَ ما قبلَهُ وما بعدَهُ ﴿ وإخوان لُوطٍ ﴾ قيلَ كانُوا من أصهارِه عليهِ الصلاةُ والسلامُ .

(141/721)

﴿ وأصحاب الأيكة ﴾ هم ممنْ بعثَ إليهم شعيبٌ عليهِ السلامُ غيرَ أهلِ مدينَ ﴿ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ سبق شرحُ حالِهم في سُورةِ الدُّخانِ ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ الرسل ﴾ أي فيمَا أرسلُوا بِهِ منَ الشرائعِ التي منْ جُملتِها البعثُ الذي أجمعُوا عليه قاطبةً أيْ كُلُّ قومٍ منَ الأقوامِ المذكورينَ كذبوا رسولَهُم أو كذَّبَ جميعُهم جميعَ الرُّسلِ بالمَعْنى المذكورِ وإفرادُ الضميرِ باعتبارِ لفظِ الكُلِّ أوْ كُلُّ واحدٍ منهمْ كذبَ جميعَ الرسلِ لاتفاقهم عَلى الدعوةِ إلى التوحيدِ والإنذارِ بالبعثِ والحشرِ فتكذيبُ واحدٍ منهمْ تكذيبٌ للكلِّ وهَذا على تقديرِ رسالةِ تبَّعٍ ظاهرٌ وأما على تقديرِ عدمِها وهُو الأظهرُ فمعنى تكذيبِ قومِه الرسلَ تكذيبُهم بمنْ قبلِهم من الرسلِ المجمعينِ على التوحيدِ والبعثِ وإلى ذلكَ كانَ يدعُوهم تُبَّعٌ ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ أي

فوجبَ وحَلَّ عليهمْ وعيدِي وهي كلمةُ العذابِ وفيه تسليةٌ للرسولِ صلى الله عليه وسلم وتهديدٌ لهمْ .

﴿ أَفَعَيِينَا بالخلق الأول ﴾ استئنافٌ مقررٌ لصحةِ البعثِ الذي حكيتْ أحوالُ المنكرينَ لَهُ من الأممِ المهلكةِ ، والعيُّ بالأمرِ العجزُ عَنْهُ يقالُ عيَّ بالأمرِ وعَيِيَ بهِ إذا لم يهتدِ لوجهِ عملِه ، والهمزةُ للإنكارِ والفاءُ للعطفِ علَى مقدرٍ ينبىءُ عنْهُ العيُّ من القصدِ والمباشرةِ كأَنَّه قيلَ أقصدنَا الخلقَ الأولَ فعَجزنا عنْهُ حتَّى يُتوهَم عجزُنَا عن الإعادةِ ﴿ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ عطفٌ على مقدرٍ يدلُّ عليهِ ما قبلَهُ كأَنَّه قيلَ هم غيرُ منكرينَ لقدرتنا على الخلقِ الأولِ بلْ هُمْ في خلطٍ وشبهةٍ في خلقٍ مستأنفٍ لما فيهِ من مخالفةِ العادةِ وتنكيرُ خلقٍ لتفخيمِ شأنِه والإشعارِ بخروجِه عنْ حدودِ العاداتِ والإيذانِ بأَنَّه حقيقٌ بأنْ يبحثَ عنْهُ ويُهتمَّ بمعرفتِه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(142/721)

وقال الآلوسى :

وقوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ إلى آخره

استئناف وارد لتقرير حقية البعث ببيان اتفاق كافة الرسل عليهم الصلاة والسلام عليها

وتكذيب منكريها ، وفي ذلك أيضاً تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتهديد للكفرة ﴿ وأصحاب الرس ﴾ هو البئر التي لم تبن ، وقيل : هو واد وأصحابه قيل : هم ممن بعث إليهم شعيب عليه السلام ، وقيل : قوم حنظلة بن صفوان ﴿ وَثَمُودُ ﴾ .

﴿ وَعَادٌ وفِرْعَوْنُ ﴾ أريد هو وقومه ليلائم ما قبله وما بعده ، وهذا كما تسمى القبيلة تميماً مثلاً باسم أبيها ﴿ وإخوان لُوطٍ ﴾ قيل : كانوا من أصهاره عليه السلام فليس المراد الأخوة الحقيقية من النسب .

﴿ وأصحاب الأيكة ﴾

قيل : هم قوم بعث إليهم شعيب عليه السلام غير أهل مدين كانوا يسكنون أيكة وهي الغيطة فسموا بها ﴿ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ الحميري وكان مؤمناً وقومه كفرة ولذا لم يذم هو وذم قومه ، وقد سبق في الحجر .

والدخان .

والفرقان تمام الكلام فيما يتعلق بما في هذه الآية .

﴿ كُلٌّ كَذَّبَ ﴾ أي فيما أرسلوا به من الشرائع التي من جملتها البعث الذي أجمعوا عليه قاطبة أي كل قوم من الأقوام المذكورين كذبوا رسولهم أو كذب كل هؤلاء جميع رسلهم ، وإفراد الضمير باعتبار لفظ الكل أو كل واحد منهم كذب جميع الرسل لاتفاقهم على الدعوة إلى التوحيد والإنذار بالبعث والحشر فتكذيب واحد منهم تكذيب للكل ، والمراد

بالكلية التكثير كما في قوله تعالى : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النمل : 23] وإلا فقد آمن من آمن من قوم نوح وكذا من غيرهم ، ثم ما ذكر على تقدير رسالة تبع ظاهر ثم على تقدير عدمها وعليه الأكثر فمعنى تكذيب قومه الرسل عليهم السلام تكذيبهم بما قبل من الرسل المجتمعين على التوحيد والبعث ، وإلى ذلك كان يدعوهم تبع .

﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ أي فوجب وحل عليهم وعيدي وهي كلمة العذاب .

(143/721)

﴿ أَفَعَيِينَا بالخلق الأول ﴾ استئناف مقرر لصحة البعث الذي حكيت أحوال المنكرين له من الأمم المهلكة والعي بالأمر العجز عنه لا التعب ، وقال الكسائي : تقول أعييت من التعب وعييت من انقطاع الحيلة والعجز عن الأمر ، وهذا هو المعروف والأفصح وإن لم يفرق بينهما كثير ، والهمزة للإنكار والفاء للعطف على مقدر ينبىء عنه العي من القصد والمباشرة كأنه قيل : أقصدنا الخلق الأول وهو الإبداء فعجزنا عنه حتى يتوهم عجزنا عن الإعادة ، وجوز الإمام أن يكون المراد بالخلق الأول خلق السماء والأرض ويدل عليه قوله سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ الله الذى خَلَقَ السموات والأرض وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ [الأحقاف : 33] ويؤيده قوله تعالى بعد : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان ﴾ [ق : 16] الخ

وهو كما ترى ، وعن الحسن ﴿ الخلق الأول ﴾ آدم عليه السلام وليس بالحسن ، وقرأ ابن أبي عبلة .

والوليد بن مسلم .

والقورصي عن أبي جعفر .

والسمسار عن شيبة .

(144/721)

وأبو بحر عن نافع ﴿ أفعينا ﴾ بتشديد الياء وخرجت على لغة من أدغم الياء في الياء في الماضي فقال : عي في عي وحي في حي فلما أدغم الحقه ضمير المتكلم المعظم نفسه ولم يفك الإدغام فقال : عيناً وهي لغة لبعض بكر بن وائل في رددت ورددنا ردت وردنا فلا يكفون ، وعلى هذه اللغة تكون الياء المشددة مفتوحة ولو كانت ﴿ ن ﴾ ضمير نصب فالعرب جميعهم على الأدغام نحو ردنا زيد ﴿ الأول بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ عطف على مقدر يدل عليه ما قبله كأنه قيل : إنهم معترفون بالأول غير منكرين قدرتنا عليه فلا وجه لإنكارهم الثاني بل هم في خلط وشبهة في خلق مستأنف وإنما نكر الخلق ووصف بجديد ولم يقل : من الخلق الثاني تنبيهاً على مكان شبهتهم واستبعادهم العادي

بقوله سبحانه : ﴿ جَدِيدٍ ﴾ وأنه خلق عظيم يجب أن يهتم بشأنه فله نبأ أي نبأ ، والتعظيم ليس راجعاً إلى الخلق من حيث هو هو حتى يقال : إنه أهون من الخلق الأول بل إلى ما يتعلق بشأن المكلف وما يلاقيه بعده وهو هو وقال بعض المحققين : نكر لأنه لاستعباده عندهم كان أمراً عظيماً ، وجوز أن يكون التنكير للإبهام إشارة إلى أنه خلق على وجه لا يعرفه الناس ، وأورد الشيخ الأكبر قدس سره هذه الآية في معرض الاستدلال على تجدد الجواهر كالتجدد الذي يقوله الأشعري في الإعراض فكل منهما عند الشيخ لا يبقى زمانين ، ويفهم من كلامه قدس سره أن ذلك مبني على القول بالوحدة وأنه سبحانه كل يوم هو في شأن ، ولعمري أن الآية بمعزل عما يقول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(145/721)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ ق والقرءان المجيد ﴾

الكلام في إعراب هذا كالكلام الذي قدّمنا في قوله : ﴿ ص والقرءان ذِى الذكر ﴾ [ص : 1] وفي قوله : ﴿ حم * والكتاب المبين ﴾ [الدخان : 1 ، 2] واختلف في معنى ﴿

ق ﴾ ، فقال الواحدي : قال المفسرون : هو اسم جبل يحيط بالدنيا من زبرجد ، والسماء مقببة عليه ، وهو وراء الحجاب الذي تغيب الشمس من ورائه بمسيرة سنة .

قال الفراء : كان يجب على هذا أن يظهر الإعراب في ﴿ ق ﴾ لأنه اسم ، وليس بهجاء .

قال : ولعل القاف وحدها ذكرت من اسمه كقول القائل :

قلت لها قفي ، فقالت : قاف . . . أي : أنا واقفة .

وحكى الفراء ، والزجاج : أن قوماً قالوا : معنى : ﴿ ق ﴾ : قضي الأمر ، وقضي ما هو كائن ، كما قيل في ﴿ حم ﴾ : حمّ الأمر .

وقيل : هو اسم من أسماء الله أقسم به .

وقال قتادة : هو اسم من أسماء القرآن .

وقال الشعبي : فاتحة السورة .

وقال أبو بكر الورّاق معناه : قف عند أمرنا ونهينا ولا تعدهما ، وقيل غير ذلك مما هو أضعف منه ، والحق أنه من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه ، كما حققنا ذلك في فاتحة سورة البقرة ، ومعنى ﴿ المجيد ﴾ : أنه ذو مجد وشرف على سائر الكتب المنزلة .

وقال الحسن : الكريم ، وقيل : الرفيع القدر ، وقيل : الكبير القدر ، وجواب القسم قال الكوفيون : هو قوله : ﴿ بَلْ عَجِبُواْ ﴾ وقال الأخفش : جوابه محذوف كأنه قال : ق والقرآن المجيد لتبعثن ، يدل عليه ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ﴾ وقال ابن كيسان جوابه : ﴿

مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ ﴾ وقيل : هو ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرض مِنْهُمْ ﴾ بتقدير اللام أي : لقد علمنا ، وقيل : هو محذوف وتقديره أنزلناه إليك لتنذر ، كأنه قيل : ق والقرآن المجيد ، أنزلناه إليك لتنذر به الناس .

قرأ الجمهور قاف بالسكون .

وقرأ الحسن ، وابن أبي إسحاق ، ونصر بن عاصم بكسر الفاء .

وقرأ عيسى الثقفي بفتح الفاء .

(146/721)

وقرأ هارون ، ومحمد بن السميفع بالضم .

﴿ بَلْ عَجِبُواْ أَن جَاءهُمْ مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ " بل " للإضراب عن الجواب على اختلاف الأقوال ، و " أن " في موضع نصب على تقدير : لأن جاءهم .

والمعنى : بل عجب الكفار ؛ لأن جاءهم منذر منهم ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يكتفوا بمجرّد الشك والردّ ، بل جعلوا ذلك من الأمور العجيبة ، وقيل : هو إضراب عن وصف القرآن بكونه مجيداً ، وقد تقدم تفسير هذا في سورة ﴿ ص ﴾ .

ثم فسّر ما حكاه عنهم من كونهم عجبوا بقوله : ﴿ فَقَالَ الكافرون هذا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾

وفيه زيادة تصريح وإيضاح.

قال قتادة: عجبهم أن دعوا إلى إله واحد، وقيل: تعجبهم من البعث، فيكون لفظ ﴿ هذا ﴾ إشارة إلى مبهم يفسره ما بعده من قوله: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا ﴾ إلخ، والأوّل أولى.

قال الرازي: الظاهر أن قولهم هذا إشارة إلى مجيء المنذر.

ثم قالوا: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا ﴾ وأيضاً قد وجُد ها هنا بعد الاستبعاد بالاستفهام أمر يؤدي معنى التعجب، وهو قولهم: ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ فإنه استبعاد وهو كالتعجب، فلو كان التعجب بقولهم: ﴿ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ عائداً إلى قولهم: ﴿ أئذا ﴾ لكان كالتكرار، فإن قيل: التكرار الصريح يلزم من قولك هذا شيء عجيب أنه يعود إلى مجيء المنذر، فإن تعجبهم منه علم من قولهم: وعجبوا أن جاءهم، فقوله: ﴿ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ يكون تكراراً، فنقول ذلك ليس بتكرار بل هو تقرير؛ لأنه لما قال: ﴿ بل عجبوا ﴾ بصيغة الفعل وجاز أن يتعجب الإنسان مما لا يكون عجباً كقوله: ﴿ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [هود: 73] ويقال في العرف: لا وجه لتعجبك مما ليس بعجب، فكأنهم لما عجبوا قيل لهم: لا معنى لتعجبكم، فقالوا: ﴿ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ فكيف لا نعجب منه، ويدلّ على ذلك قوله ها هنا: ﴿ فَقَالَ الكافرون ﴾ بالفاء، فإنها تدلّ على أنه مترتب على ما تقدّم، قرأ الجمهور ﴿ أئذا متنا ﴾ بالاستفهام.

وقرأ ابن عامر في رواية عنه ، وأبو جعفر ، والأعمش ، والأعرج بهمزة واحدة ، فيحتمل الاستفهام كقراءة الجمهور ، وهمزة الاستفهام مقدّرة ، ويحتمل أن معناه الإخبار ، والعامل في الظرف مقدّر ، أي : أيبعثنا ، أو أنرجع إذا متنا لدلالة ما بعده عليه ، هذا على قراءة الجمهور ، وأما على القراءة الثانية ، فجواب " إذا " محذوف أي : رجعنا ، وقيل : ذلك رجع ، والمعنى : استنكارهم للبعث بعد موتهم ومصيرهم تراباً .

ثم جزموا باستبعادهم للبعث ، فقالوا : ﴿ ذلك ﴾ أي : البعث ﴿ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ أي : بعيد عن العقول ، أو الأفهام ، أو العادة ، أو الإمكان ، يقال : رجعته أرجعه رجعاً ، ورجع هو يرجع رجوعاً .

ثم ردّ سبحانه ما قالوه ، فقال : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأرض مِنْهُمْ ﴾ أي : ما تأكل من أجسادهم ، فلا يضلّ عنا شيء من ذلك ، ومن أحاط علمه بكل شيء حتى انتهى إلى علم ما يذهب من أجساد الموتى في القبور لا يصعب عليه البعث ، ولا يستبعد منه ، وقال السديّ : النقص هنا الموت ، يقول : قد علمنا من يموت منهم ، ومن يبقى ؛ لأن من مات دفن ، فكأن الأرض تنقص من الأموات ، وقيل المعنى : من يدخل في الإسلام من المشركين ، والأوّل أولى ﴿ وَعِندَنَا كتاب حَفِيظٌ ﴾ أي : حافظ لعدتّهم وأسمائهم ولكلّ شيء من الأشياء ، وهو اللوح المحفوظ ، وقيل : المراد بالكتاب هنا : العلم والإحصاء ، والأوّل

أولى .

وقيل : حفيظ بمعنى محفوظ ، أي : محفوظ من الشياطين ، أو محفوظ فيه كل شيء ، ثم أضرب سبحانه عن كلامهم الأول وانتقل إلى ما هو أشنع منه فقال : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بالحق ﴾ فإنه تصريح منهم بالتكذيب بعد ما تقدّم عنهم من الاستبعاد ، والمراد بالحق هنا : القرآن .

(148/721)

قال الماوردي في قول الجميع ، وقيل : هو الإسلام ، وقيل : محمد ، وقيل : النبوّة الثابتة بالمعجزات ﴿ لَمَّا جَاءهُمْ ﴾ أي : وقت مجيئه إليهم من غير تدبر ولا تفكر ولا إمعان نظر ، قرأ الجمهور بفتح اللام وتشديد الميم .

وقرأ الجحدري بكسر اللام وتخفيف الميم ﴿ فَهُمْ فِى أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ أي : مختلط مضطرب ، يقولون مرة ساحر ، ومرة شاعر ، ومرة كاهن ، قاله الزجاج ، وغيره .

وقال قتادة : مختلف .

وقال الحسن : ملتبس ، والمعنى متقارب ، وقيل : فاسد ، والمعاني متقاربة ، ومنه قولهم : مرجت أمانات الناس أي : فسدت ، ومرج الدين ، والأمر : اختلط ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُواْ إِلَى السماء فَوْقَهُمْ ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ ، أي : كيف غفلوا عن النظر إلى السماء فوقهم

﴿ كَيْفَ بنيناها ﴾ ، وجعلناها على هذه الصفة مرفوعة بغير عماد تعتمد عليه ﴿ وزيناها ﴾ بما جعلنا فيها من المصابيح ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ أي : فتوق وشقوق وصدوع ، وهو جمع فرج ، ومنه قول امرىء القيس :

ويسدّ به فرجاً من دبر . . . قال الكسائي : ليس فيها تفاوت ، ولا اختلاف ، ولا فتوق ﴿ والأرض مددناها ﴾ أي : بسطناها ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رواسي ﴾ أي : جبالاً ثوابت ، وقد تقدّم تفسير هذا في سورة الرعد .

﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ أي : من كل صنف حسن ، وقد تقدّم تفسير هذا في سورة الحج .

﴿ تَبْصِرَةً وذكرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ هما علتان لما تقدّم منتصبان بالفعل الأخير منها ، أو بمقدّر ، أي : فعلنا ما فعلنا للتبصير والتذكير ، قاله الزجاج .

وقال أبو حاتم : انتصبا على المصدرية ، أي : جعلنا ذلك تبصرة وذكرى .

والمنيب : الراجع إلى الله بالتوبة المتدبر في بديع صنعه ، وعجائب مخلوقاته .

(149/721)

وفي سياق هذه الآيات تذكير لمنكري البعث ، وإيقاظ لهم عن سنة الغفلة ، وبيان لإمكان ذلك وعدم امتناعه ، فإن القادر على مثل هذه الأمور يقدر عليه ، وهكذا قوله : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السماء مَاء مباركا ﴾ أي : نزّلنا من السحاب ماءً كثير البركة ؛ لانتفاع الناس به في غالب أمورهم ﴿ فَأَنبَتْنَا بِهِ جنات ﴾ أي : أنبتنا بذلك الماء بساتين كثيرة ﴿ وَحَبَّ الحصيد ﴾ أي : ما يقتات ويحصد من الحبوب ، والمعنى : وحبّ الزرع الحصيد ، وخصّ الحبّ لأنه المقصود ، كذا قال البصريون .

وقال الكوفيون : هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه ، كمسجد الجامع ، حكاه الفرّاء .

قال الضحاك : حبّ الحصيد : البرّ والشعير ، وقيل : كل حبّ يحصد ويدخر ويقتات ﴿ والنخل باسقات لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ هو معطوف على ﴿ جنات ﴾ أي : وأنبتنا به النخل ، وتخصيصها بالذكر مع دخولها في الجنات للدلالة على فضلها على سائر الأشجار ، وانتصاب ﴿ باسقات ﴾ على الحال ، وهي حال مقدّرة ؛ لأنها وقت الإنبات لم تكن باسقة .

قال مجاهد ، وعكرمة ، وقتادة : الباسقات : الطوال ، وقال سعيد بن جبير : مستويات .

وقال الحسن ، وعكرمة ، والفراء : مواقير حوامل ، يقال للشاة إذا بسقت : ولدت ، والأشهر في لغة العرب الأوّل ، يقال : بسقت النخلة بسوقاً : إذا طالت ، ومنه قول الشاعر :

لنا خمر وليست خمر كرم . . . ولكن من نتاج الباسقات

كرام في السماء ذهبن طولا . . . وفات ثمارها أيدي الجناة

(150/721)

وجملة : ﴿ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ في محل نصب على الحال من ﴿ النخل ﴾ ، الطلع : هو أوّل ما يخرج من ثمر النخل ، يقال : طلع الطلع طلوعاً ، والنضيد : المتراكب الذي نضد بعضه على بعض ، وذلك قبل أن ينفتح فهو نضيد في أكمامه فإذا خرج من أكمامه ، فليس بنضيد ﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾ انتصابه على المصدرية ، أي : رزقناهم رزقاً ، أو على العلة ، أي : أنبتنا هذه الأشياء للرزق ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ أي : أحيينا بذلك الماء بلدة مجدبة لا ثمار فيها ولا زرع ، وجملة ﴿ كذلك الخروج ﴾ مستأنفة لبيان أن الخروج من القبور عند البعث كمثل هذا الإحياء الذي أحيا الله به الأرض الميتة ، قرأ الجمهور : ﴿ ميتاً ﴾ على التخفيف ، وقرأ أبو جعفر ، وخالد بالتثقيل .

ثم ذكر سبحانه الأمم المكذبة ، فقال : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وأصحاب الرس ﴾ هم قوم شعيب كما تقدّم بيانه ، وقيل : هم الذين جاءهم من أقصى المدينة رجل يسعى ، وهم من قوم عيسى ، وقيل : هم أصحاب الأخدود .

والرسّ : إما موضع نسبوا إليه ، أو فعل ، وهو حفر البئر ، يقال رسّ : إذا حفر بئراً ﴿ وَثَمُودُ وَعَادٌ وفِرْعَوْنُ ﴾ أي : فرعون وقومه ﴿ وإخوان لُوطٍ ﴾ جعلهم إخوانه لأنهم كانوا أصهاره ، وقيل : هم من قوم إبراهيم ، وكانوا من معارف لوط ﴿ وأصحاب الأيكة ﴾ تقدّم الكلام على الأيكة ، واختلاف القراء فيها في سورة الشعراء مستوفى ، ونبيهم الذي بعثه الله إليهم شعيب ﴿ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ هو تبع الحميري الذي تقدّم ذكره في قوله : ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ [الدخان : 37] واسمه سعد أبو كرب ، وقيل : أسعد .

(151/721)

قال قتادة : ذمّ الله قوم تبع ، ولم يذمه ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ الرسل ﴾ التنوين عوض عن المضاف إليه ، أي : كل واحد من هؤلاء كذب رسوله الذي أرسله الله إليه ، وكذب ما جاء به من الشرع ، واللام في ﴿ الرسل ﴾ تكون للعهد ، ويجوز أن تكون للجنس ، أي : كل طائفة من هذه الطوائف كذبت جميع الرسل ، وإفراد الضمير في ﴿ كذب ﴾ باعتبار لفظ ﴿ كل ﴾ ، وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ كأنه قيل له : لا تحزن ، ولا تكثر غمك لتكذيب هؤلاء لك ، فهذا شأن من تقدّمك من الأنبياء ، فإن قومهم كذبوهم ، ولم يصدّقهم إلاّ القليل منهم ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ أي : وجب عليهم وعيدي ، وحقّت عليهم كلمة

العذاب ، وحل بهم ما قدّره الله عليهم من الخسف ، والمسخ ، والإهلاك بالأنواع التي أنزلها الله بهم من عذابه .

﴿ أَفَعَيِينَا بالخلق الأول ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ ، والجملة مستأنفة لتقرير أمر البعث الذي أنكرته الأمم ، أي : أفعجزنا بالخلق حين خلقناهم أوّلاً ولم يكونوا شيئًا ، فكيف نعجز عن بعثهم ، يقال : عييت بالأمر : إذا عجزت عنه ، ولم أعرف وجهه .

قرأ الجمهور بكسر الياء الأولى بعدها ياء ساكنة .

وقرأ ابن أبي عبلة بتشديد الياء من غير إشباع .

ثم ذكر أنهم في شكّ من البعث ، فقال : ﴿ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي : في شك وحيرة واختلاط من خلق مستأنف ، وهو بعث الأموات ، ومعنى الإضراب : أنهم غير منكرين لقدرة الله على الخلق الأوّل ﴿ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ ق ﴾ قال : هو اسم من أسماء الله .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : خلق الله من وراء هذه الأرض بحراً محيطاً ، ثم خلق وراء ذلك جبلاً يقال له : قاف السماء الدنيا مرفرفة عليه ، ثم خلق من وراء ذلك الجبل أرضاً مثل تلك الأرض سبع مرات ، ثم خلق من وراء ذلك بحراً محيطاً بها ، ثم خلق وراء ذلك جبلاً يقال له : قاف السماء الثانية مرفوعة عليه ، حتى عدّ سبع أرضين ، وسبعة أبحر ، وسبعة أجبل ، وسبع سموات ، قال : وذلك قوله : ﴿ والبحر يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾ [لقمان : 27] قال ابن كثير : لا يصح سنده عن ابن عباس .

وقال أيضاً : وفيه انقطاع .

وأخرج ابن أبي الدنيا وأبو الشيخ عنه أيضاً قال : هو جبل وعروقه إلى الصخرة التي عليها الأرض ، فإذا أراد الله أن يزلزل قرية أمر ذلك الجبل ، فحرّك ذلك العرق الذي يلي تلك القرية فيزلزلها ويحركها ، فمن ثم يحرك القرية دون القرية .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿ والقرءان المجيد ﴾ قال : الكريم ،

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : القرآن المجيد ليس شيء أحسن منه ولا أفضل .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرض مِنْهُمْ ﴾ قال : أجسادهم وما يذهب منها .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في الآية قال : ما تأكل من لحومهم وعظامهم وأشعارهم .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر عنه أيضاً قال : المريج : الشيء المتغير .

وأخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه عن قطبة قال : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ في الصبح : ﴿ ق ﴾ ، فلما أتى على هذه الآية : ﴿ والنخل باسقات ﴾ فجعلت أقول : ما بسوقها ؟ قال : " طولها " وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله : ﴿ والنخل باسقات ﴾ قال : الطول .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ قال : متراكم بعضه على بعض .

(153/721)

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ أَفَعَيِينَا بالخلق الأول ﴾ يقول : لم يعيينا الخلق الأوّل ، وفي قوله : ﴿ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ في شكّ من البعث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 70 . 73 ﴾

(154/721)

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) ﴾

المقسم عليه في الآية محذوف ، والظاهر أنه كالمقسم عليه المحذوف في سورة ص ، وقد أوضحناه في الكلام عليها .

بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (2)

قد قدمنا في سورة ص أن من المقسم عليه أن النبي صلى الله عليه وسلم صادق وأن رسالته حق ، كما دل عليه قوله في ص : ﴿ وعجبوا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ ﴾ [ص : 4] وقد دل على ذلك قوله هنا : ﴿ بَلْ عجبوا أَن جَآءَهُمْ مُّنذِرٌ مِّنْهُم ﴾ ، وقد قدمنا في ص أنه يدخل في المقسم عليه تكذيب الكفار في إنكارهم البعث ، ويدل عليه قوله هنا : ﴿ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ﴾ الآية ، والحاصل أن المقسم عليه في ص ، بقوله : ﴿ والقرآن ذِي الذكر ﴾ [ص : 1] ، وفي ق بقوله ﴿ والقرآن المجيد ﴾ محذوف وهو تكذيب الكفار في إنكارهم رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وإنكارهم البعث ، وإنكارهم كون المعبود واحداً ، وقد بينا الآيات الدالة على ذلك في سورة ص ، وذكرنا هناك أن كون المقسم عليه في سورة ق هذه المحذوف يدخل فيه إنكارهم لرسالة النبي صلى الله عليه وسلم بدليل قوله : ﴿ بَلْ عجبوا أَن جَآءَهُمْ مُّنذِرٌ مِّنْهُم ﴾ وتكذيبهم في إنكارهم للبعث بدليل قوله : ﴿ فَقَالَ الكافرون هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ وبينا وجه إيضاح

ذلك بالآيات المذكورة هناك وغيرها ، فأغنى ذلك عن إعادته هنا .

أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ(6)

الهمزة في قوله : ﴿ أَفَلَمْ ﴾ تتعلق بمحذوف ، والفاء عاطفة عليه ، كما قدمنا مرارا أنه أظهر الوجهين ، وأنه أشار إليه في الخلاصة بقوله :

(155/721)

وحذف متبوع بدا هنا استبح . . . والتقدير : أأعرضوا عن آيات الله فلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج . أي لي فيها من شقوق ولا تصدع ولا تفطر ، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تعظيم شأن كيفية بنائه تعالى للسماء وتزيينه لها وكونها لا تصدع ولا شقوق فيها جاء كله موضحاً في آيات أخر كقوله جل وعلا في بنائه للسماء : ﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السماء بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾ [النازعات : 27 - 28] ، وقوله تعالى : ﴿ والسماء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات : 47] ، وقوله تعالى : ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً ﴾ [النبأ : 12] ، وقوله تعالى : ﴿ الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا ترى فِي خَلْقِ الرحمن مِن تَفَاوُتٍ ﴾ [الملك : 3] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الخلق غَافِلِينَ ﴾ [المؤمنون : 17

] ، وقوله تعالى في أول الرعد : ﴿ الله الذي رَفَعَ السماوات بغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ [الرعد : 2] وقوله تعالى في لقمان : ﴿ خَلَقَ السماوات بغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [لقمان : 10] الآية . . إلى غير ذلك من الآيات . وكقوله تعالى في تزيينه للسماء ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السمآء الدنيا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ ﴾ [الملك : 5] ، وقوله تعالى ﴿ وَزَيَّنَّا السمآء الدنيا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ﴾ [فصلت : 12] الآية ، وقوله تعالى ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السمآء الدنيا بِزِينَةٍ الكواكب ﴾ [الصافات : 6] ، وقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السماء بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ [الحجر : 16] . وكقوله تعالى في حفظه للسماء من أن يكون فيها فروج أي شقوق : ﴿ فارجع البصر هَلْ ترى مِن فُطُورٍ ﴾ [الملك : 3] ، والفطور

(156/721)

والفروج بمعنى واحد ، وهو الشقوق ولا صدوع . وقوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا السمآء سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : 32] ، أما إذا كان يوم القيامة فإن السماء تتشقق وتتفطر ، وتكون فيها الفروج كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السمآء بالغمام ﴾ [الفرقان : 25] . وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا انشقت السمآء فَكَانَتْ وَرْدَةً ﴾ [الرحمن :

37] الآية . وقال تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الواقعة وانشقت السمآء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ [الحاقة : 15 - 16] الآية . وقال تعالى : ﴿ إِذَا السمآء انشقت وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ [الإنشقاق : 1 - 2] ، وقال تعالى : ﴿ إِذَا السمآء انفطرت ﴾ [الإنفطار : 1] ، وقال تعالى : ﴿ يَوْماً يَجْعَلُ الولدان شِيباً السَّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ [الإنفطار : 17 - 18] . وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا النجوم طُمِسَتْ وَإِذَا السمآء فُرِجَتْ ﴾ [المرسلات : 8 - 9] .

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7)

(157/721)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه مد الأرض وألقى فيها الجبال الرواسي وأنبت فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، وهذا الذي تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات كثيرة من كتاب الله ، كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي مَدَّ الأرض وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثمرات جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثنين ﴾ [الرعد : 3] إلى قوله : ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد : 3] ، وكقوله : ﴿ خَلَقَ السماوات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وألقى فِي الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً فَأَنْبَتْنَا

فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ هذا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الذين مِن دُونِهِ ﴾ [لقمان : 10 - 11] والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة ، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ أي من كل صنف حسن من أصناف النبات ، وقوله : ﴿ تَبْصِرَةً ﴾ أي قدرنا الأرض وألقينا فيها الرواس وانبتنا فيها أصناف النبات الحسنة لأجل أن نبصر عبادنا كمال قدرتنا على البعث وعلى كل شيء وعلى استحقاقنا للعبادة دون غيرنا .

قوله تعالى : ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ الخروج ﴾ .

قوله : كذلك الخروج ، معناه أن الله تبارك وتعالى : يبين أن إحياء الأرض بعد موتها بإنبات النبات فيها بعد انعدامه واضمحلاله ، دليل على بعث الناس بعد الموت بعد كونهم تراباً وعظاماً . فقوله : كذلك الخروج يعني أن خروج الناس أحياء من قبورهم بعد الموت كخروج الناس النبات من الأرض بعد عدمه ، بجامع استواء الجميع في أنه جاء بعد عدم ، وهذا أحد براهين البعث التي يكثر الاستدلال عليه بها في القرآن ، وقد قدمنا الآيات الموضحة لذلك في صدر سورة البقرة وأول النحل وأول الجاثية ، وغير ذلك من المواضع .

(158/721)

قوله تعالى : ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ الرسل فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ .

هذه الآية الكريمة تدل على أن من كذب الرسل يحق عليه العذاب ، أي يتختم وثبت في حقه ثبوتاً لا يصح معه تخلفه عنه ، وهو دليل واضح على أن ما قاله بعض أهل العلم من أن الله يصح ان يخلف وعيده ، لأنه قال : إنه لا يخلف وعده ولم يقل إنه لا يخلف وعيده ، وأن إخلاف الوعيد حسن لا قبيح ، وإنما القبيح هو إخلاف الوعد ، وأن الشاعر قال :

وإني وإن أوعدته أو وعدته . . . لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

لا يصح بحال ، لأن وعيده تعالى للكفار حق ووجب عليهم بتكذيبهم للرسل كما دل عليه قوله هنا : ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ الرسل فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ . وقد تقرر في الأصول أن الفاء من حروف العلة كقوله : سها فسجد . أي لعلة سهوه وسرق فقطعت يده أي لعله سرقته ، ومنه قوله تعالى ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة : 38] فتكذيبهم الرسل علة صحيحة لكون الوعيد بالعذاب حق ووجب عليهم ، فدعوى جواز تخلفه باطلة بلا شك ، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة موضحاً في آيات أخر ، كقوله تعالى في هذه السورة الكريمة : ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بالوعيد مَا يُبَدَّلُ القول لَدَيَّ ﴾ [ق : 28 – 29] الآية ، والتحقيق : أن المراد بالقول الذي لا يبدل لديه هو الوعيد الذي قدم به إليهم .

وقوله تعالى في سورة ص ﴿ إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرسل فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ [ص : 14] . وبهذا تعلم ان الوعيد الذي لا يمتنع إخلافه هو وعيد عصاة المسلمين بتعذيبهم على كبائر الذنوب ، لأن الله تعالى أوضح ذلك في قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : 48 و 61] وهذا في الحقيقة تجاوز من الله عن ذنوب عباده المؤمنين العاصين ، ولا إشكال في ذلك ، وقد أوضحنا هذا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى ﴿ قَالَ النار مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَآ إِلاَّ مَا شَآءَ الله ﴾ [الأنعام :] .

أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (15)

هذه الآية الكريمة من براهين البعث ، لأن من لم يعي بخلق الناس ولم يعجز عن إيجادهم الأول لا شك في قدرته على إعادتهم وخلقهم مرة أخرى ، لأن الإعادة لا يمكن أن تكون أصعب من البدء . والآيات الدالة على هذا كثيرة جداً ، كقوله تعالى ﴿ وَهُوَ الذي يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْه ﴾ [الروم : 27] . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الذي أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : 79] وقوله : ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الذي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الإسراء : 51] والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة ، وقد أوضحنا الآيات الدالة على براهين البعث التي يكثر الاستدلال عليه بها في القرآن ، كخلق الناس أولاً

، وخلق السماوات والأرض وما فيهما وإحياء الأرض بعد موتها ، وغير ذلك في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك ، في البقرة والنحل والحج والجاثية وغير ذلك ، وأحلنا على ذلك مراراً كثيرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(160/721)

وقال ابن عاشور :

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (12) ﴾

استئناف ابتدائي ناشىء عن قوله : ﴿ بل كذبوا بالحق لما جاءهم ﴾ [ق : 5] فعُقّب بأنهم ليسوا ببدع في الضلال فقد كذبت قبلهم أمم .

وذكر منهم أشهرهم في العالم وأشهرهم بين العرب ، فقوم نُوح أول قوم كذبوا رسولهم وفرعون كذب موسى وقوم لوط كذبوه وهؤلاء معروفون عند أهل الكتاب ، وأما أصحاب الرسّ وعاد وثمود وأصحاب الأيكة وقوم تُبّع فهم من العرب .

وذكروا هنا عقب قوم نوح للجامع الخيالي بين القومين وهو جامع التضادّ لأن عذابهم كان ضد عذاب قوم نوح إذ كان عذابهم بالخسف وعذاب قوم نوح بالغرق ، ثم ذكر ثمود لشبه عذابهم بعذاب أصحاب الرسّ إذ كان عذابهم برجفة الأرض وصواعق السماء ، ولأن

أصحاب الرسّ من بقايا ثمود ، ثم ذكرت عاد لأن عذابها كان بحادث في الجوّ وهو الريح ، ثم ذكر فرعون وقومه لأنهم كذبوا أشهر الرسل قبل الإسلام ، وأصحاب الأيكة هم قوم شعيب وهم من خلطاء بني إسرائيل .

وعُبّر عن قوم لوط بـ ﴿ إخوان لوط ﴾ ولم يكونوا من قبيله ، فالمراد بـ ﴿ إخوان ﴾ أنهم ملازمون وهم أهل سدوم وعمورة وقُراهما وكان لوط ساكناً في سَدوم ولم يكن من أهل نسبهم لأن أهل سدوم كنعانيون ولوطاً عبراني .

وقد تقدم قوله تعالى : ﴿ إذ قال لهم أخوهم لوط ﴾ في سورة الشعراء (161) .

وذُكر قوم تبع وهم أهل اليمن ولم يكن العرب يعدونهم عربا .

وهذه الأمم أصابها عذاب شديد في الدنيا عقاباً على تكذيبهم الرسل .

والمقصود تسلية رسول الله ، والتعريضُ بالتهديد لقومه المكذّبين أن يحل بهم ما حلّ بأولئك .

والرس : يطلق اسماً للبئر غير المطوية ويطلق مصدراً للدفن والدسّ .

واختلف المفسرون في المراد به هنا .

(161/721)

وأصحاب الرس ﴾ قوم عرفوا بالإضافة إلى الرس ، فيحتمل أن إضافتهم إلى الرسّ من إضافة الشيء إلى موطنه مثل ﴿ أصحاب الأيكة ﴾ ، و ﴿ أصحاب الحجر ﴾ [الحجر : 80] و ﴿ أصحاب القرية ﴾ [يس : 13] .

ويجوز أن تكون إضافةً إلى حدث حلّ بهم مثل ﴿ أصحاب الأخدود ﴾ [البروج : 4] .

وفي تعيين ﴿ أصحاب الرس ﴾ أقوال ثمانية أو تسعة وبعضها متداخل .

وتقدم الكلام عليهم في سورة الفرقان .

والأظهر أن إضافة ﴿ أصحاب ﴾ إلى ﴿ الرسّ ﴾ من إضافة اسم إلى حدث حدث فيه فقد قيل : إن أصحاب الرسّ عوقبوا بخسف في الأرض فوقعوا في مثل البئر .

وقيل : هو بئر ألقى أصحابه فيه حنظلة بن صفوان رسول الله إليهم حيّا فهو إذن علَم بالغلبة وقيل هو فلج من أرض اليمامة .

وتقدم الكلام على أصحاب الرس في سورة الفرقان (38) عند قوله تعالى : ﴿ وعادا وثمودا وأصحاب الرس ﴾

وأصحاب الأيكة هم من قوم شعيب وتقدم في سورة الشعراء .

وقوم تبع هم حِمير من عرب اليمن وتقدم ذكرهم في سورة الدخان .

وجملة ﴿ كل كذب الرسل ﴾ مؤكدة لجملة ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح ﴾ إلى آخرها ،

فلذلك فصلت ولم تعطف ، وليبني عليه قوله : ﴿ فحَقّ وعيد ﴾ فيكون تهديد بأن يحق عليهم الوعيد كما حق على أولئك مرتباً بالفاء على تكذيبهم الرسل فيكون في ذلك تشريف للنبيء صلى الله عليه وسلم وللرسل السابقين .

وتنوين ﴿ كل ﴾ تنوين عوض عن المضاف إليه ، أي كلّ أولئك .

و ﴿ حقّ ﴾ صدق وتحقّق .

والوعيد : الإنذار بالعقوبة واقتضى الإخبار عنه بـ ﴿ حق ﴾ أن الله توعدهم به فلم يعبأوا وكذبوا وقوعه فحق وصدق .

وحذفت ياء المتكلم التي أضيف إليها ﴿ وعيد ﴾ للرعي على الفاصلة وهو كثير .

أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (15)

(162/721)

تشير فاء التفريع إلى أن هذا الكلام مفرع على ما قبله وهو جملة ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها ﴾ [ق : 6] وقوله : ﴿ تبصرة وذكرى ﴾ [ق : 8] المعرض بأنهم لم يتبصروا به ولم يتذكروا .

وقوله : ﴿ فأنبتنا به جنات ﴾ [ق : 9] وقوله : ﴿ وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج

﴾ [ق : 11] .

ويجوز أن يجعل تفريعاً على قوله : ﴿ كذلك الخروج ﴾ .

والاستفهام المفرَّع بالفاء استفهام إنكار وتغليط لأنهم لا يسعهم إلاّ الاعتراف بأن الله لم يعي بالخلق الأول إذ لا ينكر عاقل كمال قدرة الخالق وعدم عجزه .

و﴿ عيينا ﴾ معناه عجزنا ، وفعِل (عَيَّ) إذا لم يتصل به ضمير يقال مُدغماً وهو الأكثر ويقال : عيِيَ بالفك فإذا اتصل به ضمير تعين الفك .

ومعناه : عجز عن إتقان فعل ولم يهتد لحيلته .

ويعدّى بالباء يقال : عيي بالأمر والباء فيه للمجاوزة .

وأما أعيا بالهمزة في أوله قاصراً فهو للتعب بمشي أو حمل ثقل وهو فعل قاصر لا يُعدّى بالباء .

فالمعنى : ما عجزنا عن الخلق الأول للإنسان فكيف تعجز عن إعادة خلقه .

و﴿ بل ﴾ في قوله : ﴿ بل هم في لبس من خلق جديد ﴾ للإضراب الإبطالي عن المستفهم عنه ، أي بل ما عيينا بالخلق الأول ، أي وهم يعلمون ذلك ويعلمون أن الخلق الأول للأشياء أعظم من إعادة خلق الأموات ولكنهم تمكن منهم اللبس الشديد فأغشى إدراكهم عن دلائل الإمكان فأحالوه ، فالإضراب على أصله من الإبطال .

واللبس : الخلط للأشياء المختلفة الحقائق بحيث يعسر أو يتعذر معه تمييز مختلفاتها بعضها

عن بعض .

والمراد منه اشتباه المألوف المعتاد الذي لا يعرفون غير بالواجب العقلي الذي لا يجوز انتفاؤه ، فإنهم اشتبه عليهم إحياء الموتى وهو ممكن عقلاً بالأمر المستحيل في العقل فجزموا بنفي إمكانه فنفوه ، وتركوا القياس بأن من قدر على إنشاء ما لم يكن موجوداً هو على إعادة ما كان موجوداً أقدر .

(163/721)

وجيء بالجملة الاسمية من قوله : ﴿ هم في لبس من خلق جديد ﴾ للدلالة على ثبات هذا الحكم لهم وأنه متمكن من نفوسهم لا يفارقهم البتة ، وليتأتّى اجتلاب حرف الظرفية في الخبر فيدل على انغماسهم في هذا اللبس وإحاطته بهم إحاطة الظرف بالمظروف .

و﴿ مِن ﴾ في قوله : ﴿ من خلق جديد ﴾ ابتدائيه وهي صفة ل ﴿ لبس ﴾ ، أي لبس واصل إليهم ومنجرّ عن خلق جديد ، أي من لَبْس من التصديق به .

وتنكير ﴿ لَبْس ﴾ للنوعية وتنكير ﴿ خلق جديد ﴾ كذلك ، أي ما هو إلا خلق من جملة ما يقع من خلق الله الأشياء مما وجه إحالته ولتنكيره أجريت عليه الصفة بـ ﴿ جديد ﴾ .

والجديد : الشيء الذي في أول أزمان وجوده .

وفي هذا الوصف تورّك عليهم وتحميق لهم من إحالتهم البعث ، أي اجْعَلوه خلقاً جديدا كالخلق الأول ، وأيّ فارق بينهما .

وفي تسمية إعادة الناس للبعث باسم الخلق إيماء إلى أنها إعادة بعد عدم الأجزاء لا جمع لمتفرقها ، وقد مضى القول فيه في أول السورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(164/721)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (20) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (21) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر خلق الخافقين ، أتبعه خلق ما هو جامع لجميع ما هو فيها فقال : ﴿ ولقد ﴾ أي والحال أنا قد ﴿ خلقنا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ الانسان ﴾ وهو أعجب خلقاً وأجمع من جميع ما مضى ذكره بما فيه من الأنس والطغيان ، والذكر والنسيان ، والجهل والعرفان ، والطاعة والعصيان ، وغير ذلك من عجيب الشأن ، ووكلنا به من جنودنا من يحفظه فيضبط حركاته وسكناته وجميع أحواله ﴿ ونعلم ﴾ أي والحال أننا نعلم بما لنا من الإحاطة ﴿ ما توسوس ﴾ أي تكلم على وجه الخفاء ، ﴿ به ﴾ الآن وفيما بعد ذلك مما لم ينقدح بعد من خزائن الغيب إلى سر النفس كما علمنا ما تكلم ﴿ نفسه ﴾ وهي الخواطر التي تعترض له حتى أنه هو ربما عجز عن ضبطها ، فنحن نعلم أن قلوبهم عالمة بقدرتنا على أكمل ما نريد وبصحة القرآن وإعجازه وصدق الرسول به ـ صلى الله عليه وسلم ـ وامتيازه ، وإنما حملهم الحسد والنفاسة والكبر والرئاسة على الإنكار باللسان حتى صار ذلك لهم خلقاً وتمادوا فيه حتى غطى على عقولهم ، فصاروا في لبس محيط بهم من جميع الجوانب .

(165/721)

ولما كان العالم بالشيء كلما كان قريباً منه كان علمه به أثبت وأمكن ، قال ممثلاً لعلمه ومصوراً له بما نعلم أنه موجبه : ﴿ ونحن ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ أقرب إليه ﴾ قرب علم

وشهود من غير مسافة ﴿ من حبل الوريد ﴾ لأن أبعاضه وأجزاءه تحجب بعضها بعضاً ، ولا يحجب علم الله شيء ، والمراد به الجنس ، والوريدان عرقان كالحبلين مكتنفان لصفحتي العنق في مقدمها متصلات من الرأس إلى الوتين وهو عرق القلب ، وهذا مثل في فرط القرب ، وإضافته مثل مسجد الجامع ، وقد مضى في تفسير سورة المائدة عند قوله ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ [المائدة : 67] ما ينفع هنا ، قال القشيري : وفي هذه الآية هيبة وفزع وخوف لقوم ، وروح وأنس وسكون قلب لقوم .

ولما كان سبحانه قد وكل بنا حفظة تحفظ أعمالنا وتضبط أقوالنا وأحوالنا ، فكان المعروف لنا أن سبب الاستحفاظ خوف الغفلة والنسيان ، قدم سبحانه الإخبار بكمال علمه فأمن ذلك المحذور ، علق بأقرب أو نعلم قوله تأكيداً لما علم من إحاطة علمه من عدم حاجته ، وتخويفاً بما هو أقرب إلى مألوفتنا ﴿ إذ ﴾ أي حين ﴿ يتلقى ﴾ أي بغاية الاجتهاد والمراقبة والمراعاة من كل إنسان خلقناه وأبرزناه إلى هذا الوجود ﴿ المتلقيان ﴾ وما أدراك ما هما ؟ ملكان عظيمان حال كونهما ﴿ عن اليمين ﴾ لكل إنسان قعيد منهما ﴿ وعن الشمال ﴾ كذلك ﴿ قعيد ﴾ أي رصد وحبس مقاعد لذلك الإنسان بأبلغ المقاعدة ونحن أقرب منهما وأعلم علماً ، وإنما استحفظناهما لإقامة الحجة بهما على مجاري عاداتكم وغير ذلك من الحكم .

ولما كانت الأفعال اللسانية والقلبية والبدنية ناشئة عن كلام النفس ، فكان الكلام جامعاً ، قال مبيناً لإحاطة علمه بإحاطة من أقامه لحفظ هذا الخلق الجامع في جواب من كأنه قال : ما يفعل المتلقيان : ﴿ ما يلفظ ﴾ أي يرمي ويخرج المكلف من فيه ، وعم في النفي بقوله : ﴿ من قول ﴾ أي مما تقدم النهي عنه في الحجرات من الغيبة وما قبلها وغير ذلك قل أو جل ﴿ إلا لديه ﴾ أي الإنسان أو القول على هيئة من القدرة والعظمة هي من أغرب المستغرب ﴿ رقيب ﴾ من حفظتنا شديد المراعاة له في كل من أحواله ﴿ عتيد ﴾ أي حاضر مراقب غير غافل بوجه ، روى البغوي بسنده من طريق الثعلبي عن أبي أمامة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : "كاتب الحسنات على يمين الرجل ، وكاتب السيئات على يسار الرجل ، وكاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشراً ، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر " .

(167/721)

ولما كان مثل إرسال الخافقين ثم الموت ثم النفخ بإرسال الملك في الدنيا إلى الناس لعرضهم فيصير الإنسان منهم ساعياً في التزين للملك بما يعجبه في مقصود ذلك العرض في الأجل الذي ضربه لهم ، فإذا جاء ذلك الوقت الذي هو كالموت أخذته الرسل فباءوا به كما يفعل حال الموت بالميت ومن أحضروه منهم حبسوه على باب الملك لتكامل المعروضين ، فإذا كمل جمعهم وأمر بقيامهم للعرض زعق لهم المنادي بالبوق الذي يسمى النفير وهو كالصور ، فلهذا قال تعالى مبيناً لإحاطة قدرته بجميع خلقه عاطفاً على ما تقديره : فاضطرب ذلك الإنسان الموكل به في الوقت المأمور بالتردد فيه بما يرضي الله بالقول والفعل على حسب إرادته سبحانه سواء كان موافقاً للأمر أو مخالفاً إلى أن أوان الرحيل معبراً بالماضي تنبيهاً على أن الموت مع أنه لا بد منه قريب جداً : ﴿ وجاءت ﴾ أي أتت وحضرت ﴿ سكرة الموت ﴾ أي حالته عند النزع وشدته وغمرته ، يصير الميت بها كالسكران ، لا يعي وتخرج بها أحواله وأفعاله وأقواله عن قانون الاعتدال ، ومجيئاً متلبساً ﴿ بالحق ﴾ أي الأمر الثابت الذي يطابقه الواقع فلا حيلة في الاحتراس منه من بطلان الحواس وكشف الغطاء عن أحوال البرزخ من فتنة السؤال وضيق المجال أو سعة الحال ، وقيل للميت بلسان الحال إن لم يكن بلسان القال : ﴿ ذلك ﴾ أي هذا الأمر العظيم العالي الرتبة الذي يحق لكل أحد الاعتداد له بغاية الجد ﴿ ما ﴾ أي الأمر الذي ﴿ كنت ﴾ جبلة وطبعاً .

ولما كانت نفرته منه وهربه من وقوعه بحفظ الصحة ودواء الأداء في الغاية ، كان كأنه لا

ينفر إلا منه ، فأشار إلى ذلك بتقديم الجارّ فقال : ﴿ منه تحيد ﴾ أي تميل وتنفر وتروع وتهرب .

(168/721)

ولما كان التقدير : فأخذ ذلك الإنسان بالقهر من بين الأهل والإخوان ، والعشائر والجيران ، وضم إلى عسكر الموتى وهم بالبرزخ نزول ، ولانتظار بقيتهم حلول ، ولم يزالوا كذلك حتى تكامل القادمون عليهم الواصلون إليهم ، عطف عليه قوله مبنياً لإحاطة من عامل الملكوت والعز والجبروت : ﴿ ونفخ ﴾ أي بأدنى إشارة وأيسر أمر ﴿ في الصور ﴾ وهو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام للموت العام والبعث العام عند التكامل ، وانقطاع أوان التعامل ، وهو بحيث لا يعلم قدر عظمه واتساعه إلا الله تعالى ، وهو عليه الصلاة والسلام التقم الصور من حين بعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر متى يؤمر ، فيا لها من عظمة ما أغفلنا عنها ، وأنسانا لها ، وآمننا منها ، والمراد بهذه نفخة البعث .

ولما كان ذلك الأثر عن النفس هو سر الوجود ، وأشار إلى عظمته بقوله : ﴿ ذلك ﴾ أي

الوقت الكبير العظيم الأهوال والزلازل والأوجال ﴿ يوم الوعيد ﴾ أي الذي يقع فيه ما وقع الإيعاد به .

(169/721)

ولما كان التقدير : فكان من تلك النفخة صيحة هائلة ورجة شاملة ، فقال الناس عامة من قبورهم ، وحصل ما في صدورهم ، عطف عليه قوله بياناً لإحاطة العرض : ﴿ وجاءت كل نفس ﴾ أي مكلفة كائناً ﴿ معها سائق ﴾ يسوقها إلى ما هي كارهة للغاية لعلمه بما قدمت من النقائص ﴿ وشهيد ﴾ يشهد عليها بما عملت ، والظاهر من هذا أن السائق لا تعلق له بالشهادة أصلاً ، لئلا تقول تلك النفس : إنه خصم ، والخصم لا تقبل شهادته ، ويقال حينئذ للمفرط في الأعمال في أسلوب التأكيد جرياً على ما كان يستحقه إنكاره في الدنيا ، وتنبيهاً على أنه لعظمه مما يحق تأكيده : ﴿ لقد كنت ﴾ أي كوناً كأنه جبلة لك ﴿ في غفلة ﴾ أي عظيمة محيطة بك ناشئة لك ﴿ من هذا ﴾ أي من تصور هذا اليوم على ما هو عليه من انقطاع الأسباب ، والجزاء بالثواب أو العقاب لأنه على شدة جلائه خفي على من اتبع الشهوات ﴿ فكشفنا ﴾ بعظمتنا بالموت ثم بالعبث ﴿ عنك غطاءك ﴾ الذي كان يحجبك عن رؤيته من الغفلة بالآمال في الجاه والأموال وسائر الحظوظ والشهوات

، تحقيقاً لما له سبحانه من الإحاطة بالتقدير والتعجيز ، وعن الواسطي : من كشف عنه غطاء الغفلة أبصر الأشياء كلها في أسر القدرة وانكشف له حقائق الأشياء بأسرها ، وهذا عبارة عن العلم بأحوال القيامة .

ولما تسبب عن هذا الكشف الانكشاف التام ، عبر عنه بقوله : ﴿ فبصرك اليوم ﴾ أي بعد البعث ﴿ حديد ﴾ أي في غاية الحدة والنفوذ ، فلذا تقر بما كنت تنكر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 255.258 ﴾

(170/721)

فصل

قال الفخر :

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : أن يكون ابتداء استدلال بخلق الإنسان ، وهذا على قولنا ﴿ أَفَعَيِينَا بالخلق الأول ﴾ [ق : 15] معناه خلق السموات وثانيهما : أن يكون تتميم بيان خلق الإنسان ، وعلى هذا قولنا (الخلق الأول) هو خلق الإنسان أول مرة ، ويحتمل أن يقال هو تنبيه على

أمر يوجب عودهم عن مقالهم ، وبيانه أنه تعالى لما قال : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ كان ذلك إشارة إلى أنه لا يخفى عليه خافية ويعلم ذوات صدورهم .

وقوله ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريد ﴾ .

بيان لكمال علمه ، والوريد العرق الذي هو مجرى الدم يجري فيه ويصل إلى كل جزء من أجزاء البدن والله أقرب من ذلك بعلمه ، لأن العرق تحجبه أجزاء اللحم ويخفى عنه ، وعلم الله تعالى لا يحجب عنه شيء ، ويحتمل أن يقال ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريد ﴾ بتفرد قدرتنا فيه يجري فيه أمرنا كما يجري الدم في عروقه .

إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17)

(171/721)

﴿ إِذْ ﴾ ظرف والعامل فيه ما في قوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريد ﴾ [ق : 16] وفيه إشارة إلى أن المكلف غير متروك سدى ، وذلك لأن الملك إذا أقام كتاباً على أمر اتكل عليهم ، فإن كان له غفلة عنه فيكون في ذلك الوقت يتكل عليهم ، وإذا كان عند إقامة الكتاب لا يبعد عن ذلك الأمر ولا يغفل عنه فهو عند عدم ذلك أقرب إليه وأشد إقبالاً عليه ، فنقول : الله في وقت أخذ الملكين منه فعله وقوله أقرب إليه من عرقه المخالط

له ، فعندما يخفى عليهما شيء يكون حفظنا بحاله أكمل وأتم ، ويحتمل أن يقال التلقي من الاستقبال يقال فلان يتلقى الركب وعلى هذا الوجه فيكون معناه وقت ما يتلقاه المتلقيان يكون عن يمينه وعن شماله قعيد ، فالمتلقيان على هذا الوجه هما الملكان اللذان يأخذان روحه من ملك الموت أحدهما يأخذ أرواح الصالحين وينقلها إلى السرور والحبور إلى يوم النشور والآخر يأخذ أرواح الطالحين وينقلها إلى الويل والثبور إلى يوم الحشر من القبور ، فقال تعالى وقت تلقيهما وسؤالهما إنه من أي القبيلين يكون عند الرجل قعيد عن اليمين وقعيد عن الشمال ، يعني الملكان ينزلان وعنده ملكان آخران كاتبان لأعماله يسألانهما من أي القيلين كان ، فإن كان من الصالحين يأخذ روحه ملك السرور ، ويرجع إلى الملك الآخر مسروراً حيث لم يكن مسروراً ممن يأخذها هو ، وإن كان من الطالحين يأخذها ملك العذاب ويرجع إلى الآخر محزوناً حيث لم يكن ممن يأخذها هو ، ويؤيد ما ذكرنا قوله تعالى : ﴿ سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ [ق : 21] فالشهيد هو القعيد والسائق هو المتلقي يتلقى أخذ روحه من ملك الموت فيسوقه إلى منزله وقت الإعادة .

(172/721)

وهذا أعرف الوجهين وأقربهما إلى الفهم ، وقول القائل جلست عن يمين فلان فيه إنباء عن تنح ما عنه احتراماً له واجتناباً منه ، وفيه لطيفة وهي أن الله تعالى قال : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريد ﴾ [ق : 16] المخالط لأجزائه المداخل في أعضائه والملك متنح عنه فيكون علناً به أكمل من علم الكاتب لكن من أجلس عنده أحداً ليكتب أفعاله وأقواله ويكون الكاتب ناهضاً خبيراً والملك الذي أجلس الرقيب يكون جباراً عظيماً فنفسه أقرب إليه من الكاتب بكثير ، والقعيد هو الجليس كما أن قعد بمعنى جلس .

وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19)

أي شدته التي تذهب العقول وتذهل الفطن ، وقوله ﴿ بالحق ﴾ يحتمل وجوهاً أحدها : أن يكون المراد منه الموت فإنه حق ، كأن شدة الموت تحضر الموت والباء حينئذ للتعدية ، يقال جاء فلان بكذا أي أحضره ، وثانيهما : أن يكون المراد من الحق ما أتى به من الدين لأنه حق وهو يظهر عند شدة الموت وما من أحد إلا وهو في تلك الحالة يظهر الإيمان لكنه لا يقبل إلا ممن سبق منه ذلك وآمن بالغيب ، ومعنى المجيء به هو أنه يظهره ، كما يقال الدين الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم أي أظهره ، ولما كانت شدة الموت مظهرة له قيل فيه جاء به ، والباء حينئذ يحتمل أن يكون المراد منها ملبسة يقال جئتك بأمل فسيح وقلب خاشع ، وقوله ﴿ ذلك ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى الموت ويحتمل أن يكون إشارة إلى الحق ، وحاد عن الطريق أي مال عنه ، والخطاب قيل مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو

منكر ، وقيل مع الكافرين وهو أقرب ، والأقوى أن يقال هو خطاب عام مع السامع كأنه يقول ﴿ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ أيها السامع .

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (20)

(173/721)

عطف على قوله ﴿ وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ ﴾ [ق : 19] والمراد منه إما النفخة الأولى فيكون بياناً لما يكون عند مجيء سكرة الموت أو النفخة الثانية وهو أظهر لأن قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ يَوْمَ الوعيد ﴾ بالنفخة الثانية أليق ويكون قوله ﴿ وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ ﴾ إشارة إلى الإماتة ، وقوله ﴿ وَنُفِخَ فِى الصور ﴾ إشارة إلى الإعادة والإحياء ، وقوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ ذكر الزمخشري أنه إشارة إلى المصدر الذي من قوله ﴿ وَنُفِخَ ﴾ أي وقت ذلك النفخ يوم الوعيد وهو ضعيف لأن يوم لو كان منصوباً لكان ما ذكرنا ظاهراً وأما رفع يوم فيفيد أن ذلك نفس اليوم ، والمصدر لا يكون نفس الزمان وإنما يكون في الزمان فالأولى أن يقال ذلك إشارة إلى الزمان المفهوم من قوله ﴿ وَنُفِخَ ﴾ لأن الفعل كما يدل على المصدر يدل على الزمان فكأنه تعالى قال ذلك الزمان يوم الوعيد ، والوعيد هو الذي أوعد به من الحشر والإيتاء والمجازاة .

وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (21)

قد بينا من قبل أن السائق هو الذي يسوقه إلى الموقف ومنه إلى مقعده والشهيد هو الكاتب ، والسائق لازم للبر والفاجر أما البر فيساق إلى الجنة وأما الفاجر فإلى النار ، وقال تعالى : ﴿ وَسِيقَ الذين كَفَرُواْ ﴾ [الزمر : 71] ﴿ وَسِيقَ الذين اتقوا رَبَّهُمْ ﴾ [الزمر : 73] .

(174/721)

وقوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هذا ﴾ إما على تقدير يقال له أو قيل له ﴿ لَّقَدْ كُنتَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ [الزمر : 73] وقال تعالى : ﴿ قِيلَ ادخلوا أبواب جَهَنَّمَ ﴾ [الزمر : 72] والخطاب عام أما الكافر فمعلوم الدخول في هذا الحكم وأما المؤمن فإنه يزداد علماً ويظهر له ما كان مخفياً عنه ويرى علمه يقيناً رأى المعتبر يقيناً فيكون بالنسبة إلى تلك الأحوال وشدة الأهوال كالغافل وفيه الوجهان اللذان ذكرناهما في قوله تعالى : ﴿ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق : 19] والغفلة شيء من الغطاء كاللبس وأكثر منه لأن الشاك يلتبس الأمر عليه والغافل يكون الأمر بالكلية محجوباً قلبه عنه وهو الغلف .

وقوله تعالى : ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ ﴾ أي أزلنا عنك غفلتك ﴿ فَبَصَرُكَ اليوم

حَدِيدٌ ﴾ وكان من قبل كليلا ، وقرينك حديداً ، وكان في الدنيا خليلاً ، وإليه الإشارة بقوله تعالى . ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 140.142 ﴾

(175/721)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان ﴾

يعني الناس ، وقيل آدم .

﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ أي ما يختلج في سرّه وقلبه وضميره ، وفي هذا زجر عن المعاصي التي يستخفى بها .

ومن قال : إن المراد بالإنسان آدم ؛ فالذي وسوست به نفسه هو الأكل من الشجرة ، ثم هو عام لولده .

والوسوسة حديث النفس بمنزلة الكلام الخفيّ .

قال الأعشى :

تَسْمَعُ لِلْحَلْيِ وَسْوَاساً إذا انصرفت . . .

كما استعان بريح عِشْرِقٌ زجِلُ

وقد مضى في "الأعراف" .

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريد ﴾ هو حبل العاتق وهو ممتدّ من ناحية حلقه إلى عاتقه ، وهما وريدان عن يمين وشمال .

روى معناه عن ابن عباس وغيره وهو المعروف في اللغة .

والحبل هو الوريد فأضيف إلى نفسه لاختلاف اللفظين .

وقال الحسن : الوريد الوتين وهو عِرق معلَّق بالقلب .

وهذا تمثيل للقرب ؛ أي نحن أقرب إليه من حبل وريده الذي هو منه ، وليس على وجه قرب المسافة .

وقيل أي ونحن أملك به من حبل وريده مع استيلائه عليه .

وقيل : أي ونحن أعلم بما توسوس به نفسه من حبل وريده الذي هو من نفسه ، لأنه عِرق يخالط القلب ، فعلم الربِّ أقربُ إليه من علم القلب ، روي معناه عن مقاتل قال : الوريد عرق يخالط القلب ، وهذا القرب قرب العلم والقدرة ، وأبعاض الإنسان يحجب البعضُ البعضَ ولا يحجب علم الله شيء .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى المتلقيان عَنِ اليمين وَعَنِ الشمال قَعِيدٌ ﴾ أي نحن أقرب إليه من حبل وريده حين يتلقى المتلقيان ، وهما الملكان الموكلان به ، أي نحن أعلم بأحواله فلا نحتاج

إلى ملَك يخبر ، ولكنهما وكِّلا به إلزاماً للحجة ، وتوكيداً للأمر عليه .

وقال الحسن ومجاهد وقتادة : ﴿ المتلقيان ﴾ ملَكان يتلقيان عملك : أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك ، والآخر عن شمالك يكتب سيئاتك .

(176/721)

قال الحسن : حتى إذا متّ طُويت صحيفة عملك وقيل لك يوم القيامة : ﴿ اقرأ كِتَابَكَ كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ [الإسراء : 14] عَدَلَ والله عليك من جعلك حسيبَ نفسك .

وقال مجاهد : وكَّل الله بالإنسان مع علمه بأحواله مَلَكين بالليل ومَلَكين بالنهار يحفظان عمله ، ويكتبان أثره إلزاماً للحجة : أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات ، والآخر عن شماله يكتب السيئات ، فذلك قوله تعالى : ﴿ عَنِ اليمين وَعَنِ الشمال قَعِيدٌ ﴾ وقال سفيان : بلغني أن كاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فإذا أذنب (العبد) قال لا تعجل لعلّه يستغفر الله .

وروي معناه من حديث أبي أمامة ؛ قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : "كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يساره وكاتب الحسنات أمين على كاتب

السيئات فإذا عَمِلَ حسنة كتبها صاحب اليمين عشراً وإذا عَمِل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر " .

وروي من حديث علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن مقعدَ مَلكيك على ثَنِيّتك لسانُك قلمهما ورِيقُك مِدَادُهما وأنت تجري فيما لا يعنيك فلا تستحي من الله ولا منهما " وقال الضحاك : مجلسهما تحت الثغر على الحنك .

ورواه عوف عن الحسن قال : وكان الحسن يعجبه أن ينظف عَنْفَقته .

وإنما قال : "قَعِيدٌ" ولم يقل قعيدان وهما اثنان ؛ لأن المراد عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد فحذف الأوّل لدلالة الثاني عليه .

قاله سيبويه ؛ ومنه قول الشاعر :

نَحْنُ بما عِندنا وأنتَ بما . . .

عِندَكَ راضٍ والرّأيُ مُخْتَلِفُ

وقال الفرزدق :

إنّي ضَمِنتُ لمن أَتَانِي ما جَنَى . . .

وأَبَى فكانَ وكنتُ غيرَ غَدُور

ولم يقل راضيان ولا غدورين .

ومذهب المبرّد : أن الذي في التلاوة أَوّلُ أُخِّرَ اتساعا ، وحذف الثاني لدلالة الأوّل عليه .

ومذهب الأخفش والفرّاء : أن الذي في التلاوة يؤدّي عن الاثنين والجمع ولا حذف في الكلام .

و"قَعِيدٌ" بمعنى قاعد كالسميع والعليم والقدير والشهيد .

وقيل : "قَعِيدٌ" بمعنى مقاعد مثل أكيل ونديم بمعنى مؤاكل ومنادم .

وقال الجوهري : فعيل وفعول مما يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع ؛ كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين ﴾ [الشعراء : 16] وقوله : ﴿ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم : 4] وقال الشاعر في الجمع ، أنشده الثعلبي :

أَلِكْنِي إِلَيْها وَخَيْرُ الرَّسُو . . .

لِ أَعْلَمُهُمْ بِنَوَاحِي الخَبَرْ

والمراد بالقعيد هاهنا الملازم الثابت لا ضد القائم .

قوله تعالى : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ أي ما يتكلم بشيء إلا كتب عليه ؛ مأخوذ من لفظ الطعام وهو إخراجه من الفم .

وفي الرقيب ثلاثة أوجه : أحدها أنه المتبع للأمور .

الثاني أنه الحافظ ، قاله السدّي .

الثالث أنه الشاهد ، قاله الضحاك .

وفي العتيد وجهان : أحدهما أنه الحاضر الذي لا يغيب .

الثاني أنه الحافظ الْمُعَدُّ إما للحفظ وإما للشهادة .

قال الجوهري : العتيد الشيء الحاضر المهيأ ؛ وقد عَتَّدَه تعتيداً وأَعْتَدَه إعتاداً أي أعدّه ليوم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئاً ﴾ [يوسف : 31] وفرس عَتَدٌ وعَتِدٌ بفتح التاء وكسرها المعَدُّ للجري .

قلت : وكله يرجع إلى معنى الحضور ، ومنه قول الشاعر :

لَئِن كُنتَ مِنّي في العِيَان مُغَيَّباً . . .

فذكرك عندي في الفؤادِ عَتِيدُ

قال أبو الجوزاء ومجاهد : يكتب على الإنسان كل شيء حتى الأنين في مرضه .

وقال عكرمة : لا يكتب إلا ما يؤجر به أو يؤزر عليه .

وقيل : يكتب عليه كل ما يتكلم به ، فإذا كان آخر النهار محى عنه ما كان مباحاً ، نحو انطلق اقعد كُلْ مما لا يتعلق به أجر ولا وزر ، والله أعلم .

وروي عن أبي هريرة وأنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ما من حافظين يرفعان إلى الله ما حفظا فيرى الله في أوّل الصحيفة خيراً وفي آخرها خيراً إلا قال الله تعالى لملائكته : اشهدوا أني قد غفرت لعبدي ما بين طَرَفي الصحيفة "

وقال علي رضي الله عنه : إن لله ملائكة معهم صحف بيض فأملوا في أوّلها وفي آخرها خيراً يغفر لكم ما بين ذلك .

وأخرج أبو نعيم الحافظ قال : حدّثنا أبو طاهر محمد بن الفضل بن محمد بن إسحاق ابن خزيمة قال حدّثنا جَدّي محمد بن إسحق قال حدّثنا محمد بن موسى الحَرَشيّ قال : حدّثنا سهيل ابن عبد الله قال : سمعت الأعمش يحدث عن زيد بن وهب عن ابن مسعود ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الحافظين إذا نزلا على العبد أو الأمةَ معهما كتاب مختوم فيكتبان ما يلفظ به العبدُ أو الأمة فإذا أرادا أن ينهضا قال أحدهما للآخر فُكَّ الكتاب المختوم الذي معك فيفكه له فإذا فيه ما كتب سواء فذلك قوله تعالى : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ " غريب من حديث الأعمش عن زيد ، لم يروه عنه إلا سهيل .

وروي من حديث أنس أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله وكّل بعبده مَلَكين يكتبان عمله فإذا مات قالا ربنا قد مات فلان فأذن لنا أن نصعد إلى السماء فيقول الله

تعالى إن سمواتي مملوءة من ملائكتي يسبحونني فيقولان ربنا نقيم في الأرض فيقول الله تعالى إن أرضي مملوءة من خلقي يسبحونني فيقولان يا ربّ فأين نكون فيقول الله تعالى كونا على قبر عبدي فكبراني وهللاني وسبحاني واكتبا ذلك لعبدي إلى يوم القيامة " قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ أي غمرته وشدّته ؛ فالإنسان ما دام حيًّا تكتب عليه أقواله وأفعاله ليحاسب عليها ، ثم يجيئه الموت وهو ما يراه عند المعاينة من ظهور الحق فيما كان الله تعالى وعده وأوعده .

(179/721)

وقيل : الحقُّ هو الموت سُمِّي حقًّا إما لاستحقاقه وإما لانتقاله إلى دار الحق ؛ فعلى هذا يكون في الكلام تقديم وتأخير ، وتقديره وجاءت سكرة الحق بالموت ، وكذلك في قراءة أبي بكر وابن مسعود رضي الله عنهما ؛ لأن السكرة هي الحق فأضيفت إلى نفسها لاختلاف اللفظين .

وقيل : يجوز أن يكون الحق على هذه القراءة هو الله تعالى ؛ أي جاءت سكرة أمر الله تعالى بالموت .

وقيل : الحق هو الموت والمعنى وجاءت سكرة الموت بالموت ؛ ذكره المهدوي .

وقد زعم من طعن على القرآن فقال : أخالف المصحف كما خالف أبو بكر الصديق فقرأ : وجاءت سكرة الحق بالموت .

فاحتج عليه بأن أبا بكر رويت عنه روايتان : إحداهما موافقة للمصحف فعليها العمل ، والأخرى مرفوضة تجري مجرى النسيان منه إن كان قالها ، أو الغلط من بعض من نَقَلَ الحديث .

قال أبو بكر الأنباري : حدّثنا إسماعيل بن إسحق القاضي حدّثنا علي بن عبد الله حدّثنا جرير عن منصور عن أبي وائل عن مسروق قال : لما احتضر أبو بكر أرسل إلى عائشة فلما دخلت عليه قالت : هذا كما قال الشاعر :

إذا حَشْرَجَتْ يوماً وضاقَ بها الصَّدْرُ . . .

فقال أبو بكر : هلاَّ قلتِ كما قال الله : "وَجَاءَتْ سَكرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ" وذكر الحديث .

والسَّكْرَةُ واحدة السَّكَرات .

وفي الصحيح عن عائشة : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت بين يديه رِكْوة أو عُلْبَة فيها ماء فجعل يدخل يديه في الماء ، فيمسح بها وجهه ويقول : "لا إله إلا الله إن للموت سكرات" ثم نصب يده فجعل يقول : "في الرفيق الأعلى" حتى قبض ومالت يده " خرجه البخاري .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن العبد الصالح ليعالج الموت وسكراته وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول السلام عليك تفارقني وأفارقك إلى يوم القيامة " وقال عيسى بن مريم : يا معشر الحواريين ادعوا الله أن يهوّن عليكم هذه السَّكْرة .

(180/721)

يعني سَكَرات الموت .

وروي : "إن الموت أشدّ من ضربٍ بالسيوف ونشرٍ بالمناشير وقرضٍ بالمقاريض" .

﴿ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ أي يقال لمن جاءته سكرة الموت ذلك ما كنت تفرّ منه وتميل عنه .

يقال : حادَ عن الشيء يَحِيدُ حُيوداً وحَيْدَة وحَيْدُودة مال عنه وعدل .

وأصله حَيَدودة بتحريك الياء فسكنت ؛ لأنه ليس في الكلام فَعْلُول غير صَعْفُوق .

وتقول في الأخبار عن نفسك : حِدْتُ عن الشيء أَحِيد حَيْداً ومَحِيداً إذا ملت عنه ؛ قال طَرَفَة :

أبا منذِرٍ رُمْتَ الوفاءَ فَهِبتَهُ . . .

وحِدْتَ كما حاد البعيرُ عن الدَّحْضِ

قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصور ﴾ هي النفخة الآخرة للبعث ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الوعيد ﴾ الذي وعده الله للكفار أن يعذبهم فيه .

وقد مضى الكلام في النفخ في الصور مستوفًى والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ اختلف في السائق والشهيد ؛ فقال ابن عباس : السائق من الملائكة والشهيد من أنفسهم الأيدي والأرجل ؛ رواه العوفي عن ابن عباس .

وقال أبو هريرة : السائق الملَك والشهيد العمل .

وقال الحسن وقتادة : المعنى سائق يسوقها وشاهد يشهد عليها بعملها .

وقال ابن مسلم ؛ السائق قرينها من الشياطين سمي سائقاً لأنه يتبعها وإن لم يحثّها .

وقال مجاهد : السائق والشهيد ملَكان .

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال وهو على المنبر : ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ سائق : مَلَك يسوقها إلى أمر الله ، وشهيد : يشهد عليها بعملها .

(181/721)

قلت : هذا أصح فإن في حديث جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " إن ابن آدم لفي غفلة عما خلقه الله عز وجل له إن الله لا إله غيره إذا أراد خَلْقه قال للملَك اكتب رزقه وأثره وأجله واكتبه شقيًّا أو سعيداً ثم يرتفع ذلك المَلَك ويبعث الله ملكاً آخر فيحفظه حتى يدرك ثم يبعث الله ملكين يكتبان حسناتِه وسيئاتِه فإذا جاءَه الموت ارتفع ذلك الملَكان ثم جاء ملَك الموت عليه السلام فيقبض روحه فإذا أُدْخِلَ حفرته ردّ الروح في جسده ثم يرتفع ملَك الموت ثم جاءه ملَكا القبر فامتحناه ثم يرتفعان فإذا قامت الساعة انحط عليه ملَك الحسنات وملَك السيئات فأنشطا كتاباً معقوداً في عنقه ثم حضرا معه واحد سائق والآخر شهيد ثم قال الله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هذا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ اليوم حَدِيدٌ ﴾ " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ قال : حالاً بعد حال " ثم قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن قُدَّامكم أمراً عظيماً فاستعينوا بالله العظيم " خرجه أبو نعيم الحافظ من حديث جعفر بن محمد بن علي عن جابر وقال فيه : هذا حديث غريب من حديث جعفر ، وحديث جابر تفرّد به عنه جابر الجُعْفِيّ وعنه المفضّل .

ثم في الآية قولان : أحدهما أنها عامة في المسلم والكافر وهو قول الجمهور .

الثاني أنها خاصة في الكافر ؛ قاله الضحاك .

قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هذا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ ﴾ قال ابن زيد : المراد

به النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أي لقد كنت يا محمد في غفلة من الرسالة في قريش في جاهليتهم .

وقال ابن عباس والضحاك : إن المراد به المشركون أي كانوا في غفلة من عواقب أمورهم .

وقال أكثر المفسرين : إن المراد به البر والفاجر .

وهو اختيار الطبري .

(182/721)

وقيل : أي لقد كنت أيها الإنسان في غفلة عن أن كل نفس معها سائق وشهيد ؛ لأن هذا لا يعرف إلا بالنصوص الإلهية .

﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ ﴾ أي عَمَاك ؛ وفيه أربعة أوجه : أحدها إذ كان في بطن أمه فولد ؛ قاله السدّي .

الثاني إذا كان في القبر فنشر .

وهذا معنى قول ابن عباس .

الثالث : وقت العَرْض في القيامة ؛ قاله مجاهد .

الرابع أنه نزول الوحي وتحمل الرسالة .

وهذا معنى قول ابن زيد .

﴿ فَبَصَرُكَ اليوم حَدِيدٌ ﴾ قيل : يراد به بصر القلب كما يقال هو بصير بالفقه ؛ فبصر القلب وبصيرته تبصرته شواهد الأفكار ونتائج الاعتبار ، كما تبصر العين ما قابلها من الأشخاص والأجسام .

وقيل : المراد به بصر العين وهو الظاهر أي بصر عينك اليوم حديد ؛ أي قويّ نافذ يرى ما كان محجوباً عنك .

قال مجاهد : ﴿ فَبَصَرُكَ اليوم حَدِيدٌ ﴾ يعني نظرك إلى لسان ميزانك حين توزن سيئاتك وحسناتك .

وقاله الضحاك .

وقيل : يعاين ما يصير إليه من ثواب وعقاب .

وهو معنى قول ابن عباس .

وقيل : يعني أن الكافر يحشر وبصره حديد ثم يزرقّ ويَعْمَى .

وقرىء "لَقَدْ كُنْتِ" "عَنْكِ" "فَبَصَرُكِ" بالكسر على خطاب النفس . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(183/721)

وقال الثعالبى :

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان . . . ﴾

الإنسان : اسم جنس ، و ﴿ تُوَسْوِسُ ﴾ معناه : تتحدث في فكرتها ، والوسوسة إنَّما تُسْتَعْمَلُ في غير الخير .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريد ﴾ : عبارة عن قُدْرَةِ اللَّه على العبد ، وكونُ العبد في قبضة القدرة والعلم قد أُحِيط به ، فالقرب هو بالقدرة والسُّلطان ، إذ لا يَنْحَجِبُ عن علم اللَّه لا باطنٌ ولا ظاهر ، والوريد : عرق كبير في العُنُقِ ، ويقال : إنَّهما وريدان عن يمين وشمال .

وأَمَّا قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى المتلقيان ﴾ فقال المفسرون : العامل في إذ ﴿ أَقْرَبُ ﴾ ويحتمل عندي أَنْ يكون العامل فيه فعلاً مُضْمَراً تقديره : اذكر إذ يتلقى المتلقيان ، و ﴿ المتلقيان ﴾ : المَلَكَانِ المُوَكَّلان بكل إنسان ، مَلَكُ اليمين الذي يكتب الحسناتِ ، وملك الشمال الذي يكتب السيِّئات ؛ قال الحسن : الحَفَظَةُ أربعة : اثنان بالنهار ، واثنان بالليل ، قال *ع* : ويؤيد ذلك الحديث الصحيح : « يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ ، مَلاَئِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلاَئِكَةٌ بِالنَّهَارِ » الحديث بكماله ، ويُرْوَى أَنَّ مَلَك اليمين أمير على ملك الشمال ، وأَنَّ العبد إذا

أَذنب يقول ملك اليمين للآخر : تَثَبَّتْ ؛ لَعَلَّهُ يتوبُ ؛ رواه إبراهيم التيمي ، وسفيان الثوري ، و ﴿ قَعِيدٌ ﴾ : معناه قاعد

(184/721)

وقوله سبحانه : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ . . . ﴾ الآية ، قال الحسن بن أبي الحسن وقتادة : يكتب الملكانِ جميعَ الكلام ، فيثبت اللَّه من ذلك الحسناتِ والسيئات ، ويمحو غيرَ هذا ، وهذا هو ظاهر هذه الآية ، قال أبو الجوزاء ، ومجاهد : يكتبان عليه كُلَّ شيء حتى أنينه في مرضه ، وقال عِكْرَمَةُ : يكتبان الخير والشَّرَّ فقط ؛ قال *ع* : والأوَّلُ أصوب .

(185/721)

---

* ت * : وروى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنَّه قال : "كُلُّ شَيْءٍ يَتَكَلَّمُ بِهِ ابْنُ آدَمَ ، فَإِنَّهُ مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ ، إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً ، فَأَحَبَّ أَنْ يَتُوبَ إِلَى اللَّه ، فَلْيَأْتِ ، فَلْيَمُدَّ يَدَيْهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، ثُمَّ يَقُولُ : اللَّهُمَّ ، إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ مِنْهَا ، لاَ أَرْجِعُ إِلَيْهَا أَبداً ، فَإِنَّهُ يُغْفَرُ لَهُ مَا لَمْ يَرْجِعْ فِي عَمَلِهِ ذَلِكَ " رواه الحاكم في «المستدرك» ، وقال : صحيح على شرط

الشيخين ، يعني البخاريَّ ومسلماً ، انتهى من «السّلاح» ، قال النَّوَوِيُّ رحمه اللَّه تعالى : ينبغي لكل مُكَلَّفٍ أَنْ يحفظ لسانه من جميع الكلام إلاَّ كلاماً تظهر فيه مصلحته ، ومتى استوى الكلامُ وتركه بالمصلحة فالسُّنَّةُ الإمساكُ ؛ فإنَّهُ قد ينجر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه ، وهذا هو الغالب ، والسلامة لا يعدلها شيءٌ ، وقد صَحَّ عنه صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاريُّ ومسلم أَنَّه قال : " مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، فَلْيَقُلْ خَيْراً أَوْ لِيَصْمُتْ " وهو نَصٌّ صريح فيما قلناه ، قال : ورُوِّينَا في «كتاب الترمذيّ» و«ابن ماجه» عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنَّه قال : " مِنْ حُسْنِ إِسْلاَمِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيهِ " قال الترمذيُّ : حديث حسن ، وفيه عن عُقْبَةَ بن عامر " قلت : يا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا النَّجَاةُ ؟ قَالَ : أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ ، وابك على خَطِيئَتِكَ " قال الترمذيُّ : حديث حسن ، وفيه عنه صلى الله عليه وسلم قَالَ : " مَنْ وَقَاهُ اللَّهُ شَرَّ مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَشَرَّ مَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ ، دَخَلَ الجَنَّةَ " قال الترمذيُّ : حديث حسن ، انتهى ، والرقيب : المُرَاقِبُ ، والعتيد : الحاضر .

(186/721)

وقوله: ﴿ وَجَاءَتْ ﴾ عطف، عندي، على قوله: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ﴾ فالتقدير: وإذ تجيء سكرة الموت.

* ت *: قال شيخُنَا، زينُ الدين العراقيُّ في أرجوزته: [الرجز]

وَسَكْرَةُ المَوْتِ اختلاط الْعَقْلِ . . . . . .

البيت. انتهى.

وقوله: ﴿ بالحق ﴾ معناه: بلقاء اللَّهِ، وَفَقْدُ الحياة الدنيا، وفراقُ الحياة حَقٌّ يعرفه الإنسانُ، ويحيد منه بأمله، ومعنى هذا الحيد أَنَّه يقول: أعيش كذا وكذا، فمتى فكر حاد بذهنه وأمله إلى مسافة بعيدة من الزمان، وهذا شأن الإنسان، حَتَّى يفاجئه الأجل؛ قال عَبْدُ الحَقِّ في «العاقبة»: وَلَمَّا احْتَضَرَ مالك بن أنس، ونزل به الموتُ قال لمن حضره: لَيُعَايِنَنَّ الناسُ غداً من عفو اللَّه وَسَعَةِ رحمته ما لم يخطر على قلب بشر، كُشِفَ له رضي اللَّه عنه عن سعة رحمة اللَّه وكثرة عفوه وعظيم تجاوُزِهِ ما أوجب أَنْ قال هذا، وقال أبو سليمان الدارانيُّ: دخلنا على عابد نزوره، وقد حضره الموتُ، وهو يبكي، فقلنا له: ما يبكيك رحمك اللَّه؟! فأنشأ يقول: [الطويل]

(187/721)

وَحُقَّ لِمِثْلِي البُكَا عِنْدَ مَوْتِه . . . وَمَالِيَ لاَ أَبْكِي وَمَوْتِي قَدِ اقترب

وَلِي عَمَلٌ فِي اللَّوْحِ أَحْصَاهُ خَالِقِي . . . فَإِنْ لَمْ يَجُدْ بِالْعَفْوِ صِرْتُ إِلَى الْعَطَبْ

انتهى ، و ﴿ يَوْمَ الوعيد ﴾ : هو يوم القيامة ، والسائِقُ : الحاثُّ على السير ، واختلف الناسُ في السائق والشهيد ، فقال عثمان بن عفان وغيره : هما مَلَكَانِ مُوَكَّلاَنِ بكل إنسان أحدهما يسوقه ، والآخر مِنْ حَفَظَتِهِ يشهد عليه ، وقال أبو هريرة : السائق : مَلَكٌ ، والشهيد : العمل ، وقيل : الشهيد : الجوارح ، وقال بعض النظار : سائق اسم جنس وشهيد كذلك ، فالسَّاقَةُ للناس ملائكة مُوَكَّلُون بذلك ، والشهداء : الحَفَظَةُ في الدنيا ، وكل مَنْ يشهد .

وقوله سبحانه : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ يعمُّ الصالحين وغيرهم ؛ فإنَّما معنى الآية شهيد بخيره وشَرِّه ، ويقوى في شهيد اسم الجنس ، فتشهد الملائكة ، والبقَاعُ والجوارحُ ؛ وفي الصحيح : « لاَ يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ الْمُؤَذِّنِ إِنْسٌ ، وَلاَ جِنٌّ ، وَلاَ شَيْءٌ إِلاَّ شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . وقوله سبحانه : ﴿ لَّقَدْ كُنتَ ﴾ قال ابن عباس وغيره : أَي : يقال للكافر : لقد كنتَ في غفلة من هذا ، فلمَّا كُشِفَ الغطاءُ عنك الآنَ احْتَدَّ بصرُك ، أي : بصيرتك ؛ وهذا كما تقول : فلان حديد الذِّهْنِ ونحوه ، وقال مجاهد : هو بصر العين ، أي : احْتَدَّ التفاته إلى ميزانه ، وغيرِ ذلك من أهوال القيامة .

والوجه عندي ، في هذه الآية ، ما قاله الحسن وسالم بن عبد الله : إنَّها مُخَاطَبَةٌ للإنسان

ذي النفس المذكورة من مؤمن وكافر ، وهكذا ، قال الفخر : قال : والأقوى أنْ يقال : هو خطاب عامٌّ مع السامع ، كأَنَّهُ يقول : ذلك ما كنتَ منه تحيد أيُّها السامع ، انتهى ، وينظر إلى معنى كشف الغطاء قول النبي صلى الله عليه وسلم : « النَّاسُ نِيَامٌ ، فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا » . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 4 صـ ﴾

(188/721)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾

أي ما تحدثه به وهو ما يخطر بالبال ، والوسوسة الصوت الخفي ومنه وسواس الحلي ، وضمير ﴿ بِهِ ﴾ لما وهى موصولة والباء صلة ﴿ تُوَسْوِسُ ﴾ وجوز أن تكون للملابسة أو زائدة وليس بذاك ، ويجوز أن تكون ﴿ مَا ﴾ مصدرية والضمير للإنسان والباء للتعدية على معنى أن النفس تجعل الإنسان قائماً به الوسوسة فالمحدث هو الإنسان لأن الوسوسة بمنزلة الحديث فيكون نظير حدث نفسه بكذا وهم يقولون ذلك كما يقولون حدثته نفسه بكذا قال لبيد :

واكذب النفس إذا حدثتها . . .

إن صدق النفس يزري بالأمل

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريد ﴾ أي نعلم به وبأحواله لا يخفى علينا شيء من خفياته على أنه أطلق السبب وأريد المسبب لأن القرب من الشيء في العادة سبب العلم به وبأحواله أو الكلام من باب التمثيل ؛ ولا مجال لحمله على القرب المكاني لتنزهه سبحانه عن ذلك ، وكلام أهل الوحدة مما يشق فهمه على غير ذوي الأحوال ، و﴿ حَبْلِ الوريد ﴾ مثل في فرط القرب كقولهم : مقعد القابلة ومعقد الأزار قال ذو الرمة على ما في "الكشاف" :

والموت أدنى لي من حبل الوريد . . .

والحبل معروف والمراد به هنا العرق لشبهه به وإضافته إلى الوريد وهو عرق مخصوص كما ستعرفه للبيان كشجر الإراك أو لامية كما في غيره من إضافة العام إلى الخاص فإن أبقى الحبل على حقيقته فإضافته كما في لجين الماء ، و﴿ الوريد ﴾ عرق كبير في العنق وعن الأثرم أنه نهر الجسد ويقال له في العنق الوريد وفي القلب الوتين وفي الظهر الأبهر وفي الذراع والفخر الأكحل والنساء وفي الخنصر الأسلم .

والمشهور أن في كل صفحة من العنق عرقاً يقال له وريد .

ففي الكشاف الوريد أن عرقان مكتنفان لصفحتي العنق في مقدمها متصلان بالوتين يردان بحسب المشاهدة من الرأس إليه فالوريد فعيل بمعنى فاعل ، وقيل : هو بمعنى مفعول لأن الروح الحيواني يرده ويشير إلى هذا قول الراغب : الوريد عرق متصل بالكبد والقلب وفيه مجاري الروح ، وقال في الآية : أي نحن أقرب إليه من روحه ، وحكى ذلك عن بعضهم .

﴿ إِذْ يَتَلَقَّى المتلقيان ﴾ هما الملكان الموكلان بكل إنسان يكتبان أعماله ؛ والتلقى التلقن بالحفظ والكتبة ، و﴿ إِذْ ﴾ قيل : ظرف لأقرب وأفعل التفضيل يعمل في الظروف لأنه يكفيها رائحة الفعل وإن لم يكن عاملاً في غيرها فاعلاً أو مفعولاً به أي هو سبحانه أعلم بحال الإنسان من كل قريب حين يتلقى المتلقيان الحفيظان ما يتلفظ به ، وفيه إيذان بأنه عز وجل غني عن استحفاظ الملكين فإنه تعالى شأنه أعلم منهما ومطلع على ما يخفى عليهما لكن الحكمة اقتضته ، وهو ما في كتبة الملكين وحفظهما وعرض صحائفهما يوم يقوم الاشهاد ، وعلم العبد بذلك مع عرمه بإحاطة الله تعالى بعمله من زيادة لطف في الانتهاء عن السيئات والرغبة في الحسنات ، وجوز أن تكون ﴿ إِذْ ﴾ لتعليل القرب ، وفيه أن تعليل قربه عز وجل العلمي بإطلاع الحفظة الكتبة بعيد ، واختار بعضهم كونها مفعولاً به لا ذكر مقدراً لبقاء الأقربية على إطلاقها ولأن أفعل التفضيل ضعيف في العمل وإن كان لا مانع من عمله في الظرف ؛ والكلام مسوق لتقرير قدرته عز وجل وإحاطة علمه سبحانه

وتعالى فتأمل ﴿ عَنِ اليمين وَعَنِ الشمال قَعِيدٌ ﴾ أي عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد فحذف من الأول لدلالة الثاني عليه ، ومنه قوله :

رماني بأمر كنت منه ووالدي . . .

بريئاً ومن أجل الطوى رماني

(190/721)

وقال المبرد : إن التقدير عن اليمين قعيد وعن الشمال فأخر قعيد عن موضعه ، والقعيد عليهما فعيل بمعنى مفاعل كجليس بمعنى مجالس ونديم بمعنى منادم ، وذهب الفراء إلى أن قعيداً يدل على الإثنين والجمع ، وقد أريد منه هنا الإثنان فلا حذف ولا تقديم ولا تأخير . واعترض بأن فعيلاً يستوي فيه ذلك إذا كان بمعنى مفعول وهذا بمعنى فاعل ولا يصح فيه ذلك إلا بطريق الحمل على فعيل بمعنى مفعول ، واختلف في تعيين محل قعودهما فقيل : هما على الناجذين ، فقد أخرج أبو نعيم والديلمي عن معاذ بن جبل مرفوعاً " إن الله لطف بالملكين الحافظين حتى أجلسهما على الناجذين وجعل لسانه قلمهما وريقه مدادهما " ، وقيل : على العاتقين ، وقيل : على طرفي الجنك عند العنفقة وفي البحر أنهم اختلفوا في ذلك ولا يصح فيه شيء ، وأنا أقول أيضاً : لم يصح عندي أكثر مما أخبر الله تعالى به من

أنهما عن اليمين وعن الشمال قعيدان ، وكذا لم يصح خبر قلمهما ومدادهما وأقول كما قال اللقاني بعد أن استظهر أن الكتب حقيقي : علم ذلك مفوض إلى الله عز وجل ، وأقول الظاهر أنهما في سائر أحوال الإنسان عن يمينه وعن شماله .

وأخرج ابن المنذر .

وغيره عن ابن عباس أنه قال : إن قعد فأحدهما عن يمينه والآخر عن يساره وإن مشى فأحدهما إمامه والآخر خلفه وإن رقد فأحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه .

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ ﴾ ما يرمي به من فيه خيراً كان أو شراً ، وقرأ محمد بن أبي معدان ﴿ مَّا يَلْفِظُ ﴾ بفتح الفاء ﴿ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ ﴾ ملك يرقب قوله ويكتبه فإن كان خيراً فهو صاحب اليمين وإن كان شراً فهو صاحب الشمال ﴿ عَتِيدٌ ﴾ معد مهيأ لكتابة ما أمر به من الخير أو الشر ، وتخصيص القول بالذكر لإثبات الحكم في الفعل بدلالة النص واختلف فيما يكتبانه فقال الإمام مالك .

(191/721)

وجماعة : يكتبان كل شيء حتى الأنين في المرض ، وفي "شرح الجوهرة" للقاني مما يجب اعتقاده أن لله تعالى ملائكة يكتبون أفعال العباد من خير أو شر أو غيرهما قولاً كانت أو

اعتقاداً هما كانت أو عزماً أو تقريراً اختارهم سبحانه لذلك فهم لا يعملون من شأنهم شيئاً فعلوه قصداً وتعمداً أو ذهولاً ونسياناً صدر منهم في الصحة أو في المرض كما رواه علماء النقل والرواية انتهى .

وفي بعض الآثار ما يدل على أن الكلام النفسي لا يكتب ، أخرج البيهقي في "الشعب" عن حذيفة بن اليمان أن للكلام سبعة أغلاق إذا خرج منها كتب وأن لم يخرج لم يكتب القلب واللها واللسان والحنكان والشفتان ، وذهب بعضهم إلى أن المباح لا يكتبه أحد منهما لأنه لا ثواب فيه ولا عقاب والكتابة للجزاء فيكون مستثنى حكماً من عموم الآية وروى ذلك عن عكرمة .

وأخرج ابن أبي شيبة .

وابن المنذر .

والحاكم وصححه .

وابن مردويه من طريقه عن ابن عباس أنه قال : إنما يكتب الخير والشر لا يكتب يا غلام أسرج الفرس ويا غلام اسقني الماء ، وقال بعضهم : يكتب كل ما صدر من العبد حتى المباحات فإذا عرضت أعمال يومه محى منها المباحات وكتب ثانياً ما له ثواب أو عقاب وهو معنى قوله تعالى : ﴿ يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ ﴾ [الرعد : 39] وقد أشار اليوطي إلى ذلك في بعض رسائله وجعل وجهاً لجلمع بين القولين بكتابة المباح والقول بعدمها

وقد روى نحوه عن ابن عباس .

أخرج ابن جرير .

وابن أبي حاتم عنه أنه قال في الآية : يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر حتى أنه ليكتب قوله : أكلت وشربت ذهبت جئت رأيت حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقر منه ما كان من خير أو شر وألقى سائره فذلك قوله تعالى : ﴿ يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾ ثم إن المباح على القول بكتابته يكتبه ملك الشمال على ما يشعر به ما أخرجه ابن أبي شيبة .

(192/721)

والبيهقي في "شعب الايمان" من طريق الأوزاعي عن حسان بن عطية أن رجلاً كان على حمار فعثر به فقال : تعست فقال صاحب اليمين : ما هي بحسنة فأكتبها وقال صاحب الشمال ما هي بسيئة فأكتبها فنودي صاحب الشمال إن ما تركه صاحب اليمين فاكتبه ، وجاء في بعض الأخبار أن صاحب اليمين أمين على صاحب الشمال ، وقد أخرج ذلك الطبراني .

وابن مردويه .

والبيهقي في الشعب من حديث أبي أمامة مرفوعاً ، وفيه " فإذا عمل العبد حسنة كتبت له بعشر أمثالها وإذا عمل سيئة وأراد صاحب الشمال أن يكتبها قال صاحب اليمين أمسك فيمسك ست ساعات أو سبع ساعات فإن استغفر الله تعالى منها لم يكتب عليه منها شيئاً وإن لم يستغفر الله تعالى كتبت عليه سيئة واحدة " ومثل الاستغفار كما نص عليه فعل طاعة مكفرة في حديث آخر أن صاحب اليمين يقول : دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر ، وظاهر الآية عموم الحكم للكافر فمعه أيضاً ملكان يكتبان ما له وما عليه من أعماله وقد صرح بذلك غير واحد وذكروا أن ماله الطاعات التي لا تتوقف على نية كالصدقة وصلة الرحم وما عليه كثير لا سيما على القول بتكليفه بفروع الشريعة .

وفي "شرح الجوهرة" الصحيح كتب حسنات الصبي وإن كان المجنون لا حفظة عليه لأن حاله ليست متوجهة للتكليف بخلاف الصبي وظاهر الآية شمول الحكم له وتردد الجزولي في الجن والملائكة أعليهن حفظة أم لا ثم جزم بأن على الجن حفظة وأتبعه القول بذلك في الملائكة عليهم السلام ، قال اللقاني بعد نقله : ولم أقف عليه في الجن لغيره ويفهم منه أنه وقف عليه في الملائكة لغيره ولعله ما حكى عن بعضهم أن المراد بالروح في قوله تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة والروح ﴾ [القدر : 4] الحفظة على الملائكة ، ويحتاج دعوى ذلك فيهم وفي الجن إلى نقل .

وأما اعتراض القول به في الملائكة بلزوم التسلسل فمدفوع بما لا يخفى على المتأمل ثم إن بعضهم استظهر في الملكين اللذين مع الإنسان كونهما ملكين بالشخص لا بالنوع لكل إنسان يلزمانه إلى مماته فيقومان عند قبره يسبحان الله تعالى ويحمدانه ويكبرانه ويكتبان ثواب ذلك لصاحبهما إن كان مؤمناً .

أخرج أبو الشيخ في العظمة .

والبيهقي في "شعب الايمان" عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله تعالى وكل بعبده المؤمن ملكين يكتبان عمله فإذا مات قال الملكان اللذان وكلا به : قد مات فأذن لنا أن نصعد إلى السماء فيقول الله تعالى : سمائي مملوءة من ملائكتي يسبحوني فيقولان : أنقيم في الأرض ؟ فيقول الله تعالى : أرضي مملوءة من خلقي يسبحوني فيقولان فأين ؟ فيقول : قوماً على قبر عبدي فسبحاني واحمداني وكبراني واكتبا ذلك لعبدي إلى يوم القيامة ، وجاء أنهما يلعنانه إلى يوم القيامة إن كان كافراً "

وقال الحسن : الحفظة أربعة اثنان بالنهار واثنان بالليل وهو يحتمل التبدل بأن يكون في كل يوم وليلة أربعة غير الأربعة التي في اليوم والليلة قبلهما وعدمه .

وقال بعضهم : إن ملك الحسنات يتبدل تنويهاً بشأن الطائع وملك السيئات لا يتبدل ستراً على العاصي في الجملة ، والظاهر أنهما لا يفارقان الشخص وقالوا : يفارقانه عند الجماع

ودخول الخلاء ، ولا يمنع ذلك من كتبهما ما يصدر عنه في تلك الحال ، ولهما علامة للحسنة والسيئة بدنيتين كانا أو قلبيتين ، وبعض الأخبار ظاهرة في أن ما في النفس لا يكتب ، أخرج ابن المبارك .

وابن أبي الدنيا في الإخلاص .

(194/721)

وأبو الشيخ في العظمة عن ضمرة بن حبيب قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الملائكة يصعدون بعمل العبد من عباد الله تعالى فيكثرونه ويزكونه حتى ينتهوا به حيث شاء الله تعالى من سلطانه فيوحى الله تعالى إليهم إنكم حفظة على عمل عبدي وأنا رقيب على ما في نفسه إن عبدي هذا لم يخلص لي عمله فاجعلوه في سجين قال : ويصعدون بعمل العبد من عباد الله تعالى فيستقلونه ويحتقرونه حتى ينتهوا به حيث شاء الله تعالى من سلطانه فيوحى الله تعالى إليهم إنكم حفظة على عمل عبدي وأنا رقيب على ما في نفسه فضاعفوه له واجعلوه في عليين " وجاء من حديث عبد الله بن أحمد في "زوائد الزهد" عن أبي عمران الجوني أنه ينادي الملك اكتب لفلان بن فلان كذا وكذا أي من العمل الصالح فيقول : يا ربو إنه لم يعمله فيقول : سبحانه وتعالى إنه نواه ، وقد يقال : إنهما يكتبان ما في

النفس ما عدا الرياء والطاعات المنوية جمعاً بين الأخبار ، وجاء أن يكتب للمريض والمسافر مثل ما كان يعمل في الصحة والإقامة من الحسنات .

أخرج ابن أبي شيبة .

والدارقطني في "الإفراد" .

والطبراني .

(195/721)

والبيهقي في "الشعب" عن عبد الله بن عمرو قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من أحد من المسلمين يبتلي ببلاء في جسده إلا أمر الله تعالى الحفظة فقال : اكتبوا لعبدي ما كان يعمل وهو صحيح ما دام مشدوداً في وثاقي " وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي موسى قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من مرض أو سافر كتب الله تعالى له ما كان يعمل صحيحاً مقيماً " وفي بعض الآثار ما يدل على أن بعض الطاعات يكتبها غير هذين الملكين ، ثم إن الملائكة الذين مع الإنسان ليسوا محصورين بالملكين الكاتبين ، فعن عثمان أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم كم ملك على الإنسان ؟ فذكر عشرين ملكاً قاله المهدوي في "الفيصل" ، وذكر بعضهم أن المعقبات في قوله تعالى : ﴿ لَهُ معقبات مّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ

خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ ﴾ [الرعد : 11] غير الكاتبين بلا خلاف ، وحكى اللقاني عن ابن عطية أن كل آدمي يوكل به من حين وقوعه نطفة في الرحم إلى موته أربعمائة ملك ، والله تعالى أعلم بصحة ذلك .

وروى ابن المنذر .

وأبو الشيخ في العظمة عن ابن المبارك أنه قال : وكل بالعبد خمسة أملاك ملكان بالليل وملكان بالنهار يجيئان ويذهبان وملك خامس لا يفارقه لا ليلاً ولا نهاراً ، وقوله تعالى :

﴿ وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقّ ﴾ إلى آخره كلام وارد بعد تتميم الغرض من إثبات ما أنكروه من البعث بأبين دليل وأوضحه دال على أن هذا المنكر أنتم لاقوه فخذوا حذركم ، والتعبير بالماضي هنا وفيما بعد لتحقق الوقوع ، و﴿ سَكْرَةُ الْمَوْتِ ﴾ شدته مستعارة من الحالة التي تعرض بين المرء وعقله بجامع إن كلاً منهما يصيب العقل بما يصيب ، وجوز أن يشبه الموت بالشراب على طريق الاستعارة المكنية ويجعل إثبات السكرة له تخييلاً ، وليس بذاك ، والباء إما للتعدية كما في قولك : جاء الرسول بالخبر ، والمعنى أحضرت سكرة الموت حقيقة الأمر الذي نطقت به كتب الله تعالى ورسوله عليهم الصلاة والسلام ، وقيل :

حقيقة الأمر وجلية الحال من سعادة الميت وشقاوته ، وقيل : بالحق الذي ينبغي أن يكون من الموت والجزاء فإن الإنسان خلق له ، وإما للملابسة كما في قوله تعالى : ﴿ تَنبُتُ بالدهن ﴾ [المؤمنون : 20] أي ملتبسة بالحق أي بحقيقة الأمر ، وقيل : بالحكمة والغاية الجميلة .

وقرىء ﴿ سَكْرَةُ الحق ﴾ والمعنى إنها السكرة التي كتبت على الإنسان بموجب الحكمة وإنها لشدتها توجب زهوق الروح أو تستعقبه ، وقيل : الباء بمعنى مع ، وقيل : سكرة الحق سكرة الله تعالى على أن ﴿ إِلَى الحق ﴾ من أسمائه عز وجل ، والإضافة للتهويل لأن ما يجيء من العظيم عظيم .

وقرأ ابن مسعود ﴿ يَعْقُوبَ الموت ﴾ جمعاً ، ويوافق ذلك ما أخرج البخاري .

والترمذي .

والنسائي .

(197/721)

وابن ماجه عن عائشة " إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت بين يديه ركوة أو علبة فيها ماء فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه ويقول : لا إله إلا الله إن للموت

سكرات " وجاء في حديث صححه الحاكم عن القاسم بن محمد عن عائشة أيضاً قالت : " لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالموت وعنده قدح فيه ماء وهو يدخل يده القدح ثم يمسح وجهه بالماء ثم يقول : اللهم أعني على سكرات الموت " ﴿ ذلك ﴾ أي الحق ﴿ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ أي تميل وتعدل ، فالإشارة إلى الحق والخطاب للفاجر لا للإنسان مطلقاً والإشارة إلى الموت لأن الكلام في الكفرة ، وإنما جيء بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان ﴾ [ق : 16] لإثبات العلم بجزئيات أحواله وتضمين شبه وعيد لهؤلاء إدماجاً والتخلص منه إلى بيان أحواله في الآخرة ولأن قوله سبحانه وتعالى : ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ ﴾ [ق : 22] الخ يناسب خطاب هؤلاء ، وكذلك ما يعقبه على ما لا يخفى . وأما حديث مقابليهم فقد أخذ فيه حيث قال عز وجل : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الجنة ﴾ [ق : 31] الآيات ، وقال بعض الأجلة : الإشارة إلى الموت والخطاب للإنسان الشامل للبر والفاجر والنفرة عن الموت شاملة لكل من أفراده طبعاً .

(198/721)

وقال الطيبي : إن كان قوله تعالى : ﴿ وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ ﴾ متصلاً بقوله سبحانه : ﴿ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ق : 15] وقوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ

﴿ [ق : 12] فالمناسب أن يكون المشار إليه الحق والخطاب للفاجر ، وإن كان تصلاً بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان ﴾ [ق : 16] فالمناسب أن يكون المشار إليه الموت والخطاب للجنس وفيه البر والفاجر ، والالتفات لا يفارق الوجهين ، والثاني هو الوجه لقوله تعالى بعد ذلك : ﴿ وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ [ق : 21] الخ ، وتفصيله بقوله تعالى : ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [ق : 24] ﴿ وَأُزْلِفَتِ الجنة لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ [ق : 31] وفيه ما يعلم مما قدمنا .

وحكى في الكشاف عن بعضهم أنه سأل زيد بن أسلم عنذلك فقال : الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فحكاه لصالح بن كيسان فقال .

والله ما من عالية ولا لسان فصيح ولا معرفة بكلام العرب هو للكافر ، ثم حكاهما للحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس فقال : أخالفهما جميعاً هو للبر والفاجر ، وكأن هذه المخالفة لنحو ما سمعت عن الطيبي .

وفي بعض الآثار ما يؤيد القول بالعموم أخرج ابن سعد عن عروة قال : لما مات الوليد بكت أم سلمة فقالت :

يا عين فأبكي للوليد بن الوليد بن المغيرة . . .

كان الوليد بن الوليد أبو الوليد فتى العشيرة

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقولي هكذا يا أم سلمة ولكن قولي : ﴿ وَجَاءتْ

سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ وأخرج أحمد .

وابن جرير عن عبد الله مولى الزبير بن العوام قال : لما حضر أبو بكر الوفاة تمثلت عائشة بهذا البيت :

أعاذل ما يغني الحذار عن الفتى . . .

إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

(199/721)

فقال أبو بكر : ليس كذلك يا بنية ولكن قولي : ﴿ وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ وفي رواية لابن المنذر .

وأبي عبيد أنها قالت :

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه . . .

ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فقال رضي الله تعالى عنه : بل جاءت سكرة الموت الخ إذ التمثل بالآية على تقدير العموم أوفق بالحال كما لا يخفى .

﴿ وَنُفِخَ فِى الصور ﴾ أي نفخة البعث ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى النفخ المفهوم من ﴿ نُفِخَ

﴿ والكلام على حذف مضاف أي وقت ذلك النفخ ﴿ يَوْمَ الوعيد ﴾ أي يوم انجاز الوعيد الوقاع في الدنيا أو يوم وقوع الوعيد على أنه عبارة عن العذاب الموعود ، وجوز أن تكون الإشارة إلى الزمان المفهوم من ﴿ نُفِخَ ﴾ فإن الفعل كما يدل على الحدث يدل على الزمان ، وعليه لا حاجة إلى تقدير شيء ، لكن قيل عليه : إن الإشارة إلى زمان الفعل مما لا نظير له ، وتخصيص الوعيد بالذكر على تقدير كون الخطاب للإنسان مطلقاً مع أنه يوم الوعد أيضاً بالنسبة إليه للتهويل .

﴿ وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ من النفوس البرة والفاجرة كما هو الظاهر ﴿ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ وإن اختلفت كيفية السوق والشهادة حسب اختلاف النفوس عملاً أي معها ملكان أحدهما يسوقها إلى المحشر والآخر يشهد بعملها ، وروى ذلك عن عثمان رضي الله تعالى عنه وغيره ، وفي حديث أخرجه أبو نعيم في الحلية عن جابر مرفوعاً تصريح بأن ملك الحسنات وملك السيئات أحدهما سائق والآخر شهيد ، وعن أبي هريرة السائق ملك الموت والشهيد النبي صلى الله عليه وسلم وفي رواية أخرى عنه السائق ملك والشهيد العمل وكلاهما كما ترى ، وقيل : الشهيد الكتاب الذي يلقاه منشوراً ، وعن ابن عباس .

(200/721)

والضحاك السائق ملك والشهيد جوارح الإنسان ، وتعقبه ابن عطية بقوله : وهذا بعيد عن ابن عباس لأن الجوارح إنما تشهد بالمعاصي ، وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ يعم الصالحين ، وقيل : السائق والشهيد ملك واحد والعطف لمغايرة الوصفين أي معها ملك يسوقها ويشهد عليها ، وقيل : السائق نفس الجائي والشهيد جوارحه .

وتعقب بأن المعية تأباه والتجريد بعيد ، وفيه أيضاً ما تقدم آنفاً عن ابن عطية ، وقال أبو مسلم : السائق شيطان كان في الدنيا مع الشخص وهو قول ضعيف ، وقال أبو حيان : الظاهر أن ﴿ سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ اسما جنس فالسائق ملائكة موكلون بذلك والشهيد الحفظة وكل من يشهد ، ثم ذكر أنه يشهد بالخير الملائكة والبقاع ، وفي الحديث " لا يسمع مدى صوت المؤذن إنس ولا جن ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة "

و﴿ مَّعَهَا ﴾ صفة ﴿ نَفْسٌ ﴾ أو ﴿ كُلُّ ﴾ وما بعده فاعل به لاعتماده أو ﴿ مَّعَهَا ﴾ خبر مقدم وما بعده مبتدأ .

والجملة في موضع الصفة ، واختير كونها مستأنفة استئنافاً بياناً لأن الأخبار بعد العلم بها أوصاف ومضمون هذه الجملة غير معلوم فلا تكون صفة إلا أن يدعي العلم به .

وأنت تعلم أن ما ذكر غير مسلم .

وقال الزمخشري .

محل ﴿ مَّعَهَا سَائِقٌ ﴾ النصب على الحال ﴿ مَّعَهَا سَائِقٌ ﴾ النصف على الحال من ﴿

كُلٌّ ﴾ لتعرفه بالإضافة إلى ما هو في حكم المعرفة ، فإن أصل كل أن يضاف إلى الجمع كأفعل التفضيل فكأنه قيل : كل النفوس يعني أن هذا أصله وقد عدله عنه في الاستعمال للتفرقة بين كل الأفرادي والمجموعي ، ولا يخفى أن ما ذكره تكلف لا تساعده قواعد العربية ، وقد قال عليه في "البحر" : إنه كلام ساقط لا يصدر عن مبتدء في النحو ، ثم إنه لا يحتاج إليه فإن الإضافة للنكرة تسوغ مجيء الحال منها ، وأيضاً ﴿ كُلٌّ ﴾ تفيد العموم وهو من المسوغات كما في شرح التسهيل .

(201/721)

وقرأ طلحة ﴿ محا سَائِقٌ ﴾ بالحاء مثقلة أدغم العين في الهاء فانقبلتا حاء كما قالوا : ذهب محم يريدون معهم .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدِ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هذا ﴾ محكي بإضمار قول ، والجملة استئناف مبني على سؤال نشأ مما قبله كأنه قيل : فماذا يكون بعد النفخ ومجيء كل نفس معها سائق وشهيد ؟ فقيل : يقال للكافر الغافر إذا عاين الحقائق التي لم يصدق بها في الدنيا من البعث وغيره لقد كنت في غفلة من هذا الذي تعاينه ، فالخطاب للكافر كما قال ابن عباس .

وصالح بن كيسان ، وتنكير الغفلة وجعله فيها وهي فيه يدل على أنها غفلة تامة ، وهكذا

غفلة الكفرة عن الآخرة وما فيها ، وقيل : لجملة محكية بإضمار قول هو صفة لنفس أو حال والخطاب عام أي يقال لكل نفس أو قد قيل لها : لقد كنت ، والمراد بالغفلة الذهول مطلقاً سواء كان بعد العلم أم لا ، وما من أحد إلا وله غفلة ما من الآخرة وما فيها ، وجوز الاستئناف على عموم الخطان أيضاً .

وقرأ الجحدري ﴿ لَّقَدْ كُنتَ ﴾ بكسر التاء على مخاطبة النفس وهي مؤنثة وتذكيرها في قوله :

يا نفس إنك باللذات مسرور . . .

على تأويلها بالشخص ، ولا يلزم في قراءة الجمهور لأن التعبير بالنفس في الحكاية لا يستدعي اعتباره في المحكى كما لا يخفى .

﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ ﴾ الغذاء الحجاب المغطى لأمور المعاد وهو الغفلة والانهماك في المحسوسات والألف بها وقصر النظر عليها ، وجعل ذلك غطاء مجازاً ، وهو إما غطاء الجسد كله أو العينين ، وعلى كليهما يصح قوله تعالى : ﴿ فَبَصَرُكَ اليوم حَدِيدٌ ﴾ أي نافذ لزوال المانع للابصار ، أما على الثاني فظاهر ، وأما على الأول فلأن غطاء الجسد كله غطاء للعينين أيضاً فكشفه عنه يستدعي كشفه عنهما .

وزعم بعضهم أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمعنى كنت في غفلة من هذا الذي ذكرناه من أمر النفخ والبعث ومجيء كل نفس معها سائق وشهيد وغير ذلك فكشفنا عنك غطاء الغفلة بالوحي وتعليم القرآن فبصرك اليوم حديد ترى ما لا يرون وتعلم ما لا يعلمون ، ولعمري أنه زعم ساقط لا يوافق السباق ولا السياق .

وفي "البحر" وعن زيد بن أسلم قول في هذه الآية يحرم نقله وهو في كتاب ابن عطية انتهى ، ولعله أراد به هذا لكن في دعوى حرمة النقل بحث ، وقرأ الجحدري .

وطلحة بن مصرف بكسر الكافات الثلاثة أعني كاف ﴿ عَنكَ ﴾ وما بعده على خطاب النفس ، ولم ينقل "صاحب اللوامح" الكسر في الكاف إلا عن طلحة وقال : لم أجد عنه في ﴿ لَّقَدْ كُنتَ ﴾ الكسر فإن كسر فيه أيضاً وإن فتح يكون قد حمل ذلك على لفظ ﴿ كُلٌّ ﴾ وحمل الكسر فيما بعده على معناه لإضافته إلى ﴿ نَفْسٌ ﴾ وهو مثل قوله تعالى : ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ ﴾ [البقرة : 112] وقوله سبحانه بعده ﴿ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ [البقرة : 112] انتهى . انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(203/721)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾

هذا تفصيل لبعض الخلق الأول بذكر خلق الإنسان وهو أهم في هذا المقام للتنبيه على أنه المراد من الخلق الأول وليبنَى عليه ﴿ ونعلم ما توسوس به نفس ﴾ الذي هو تتميم لإحاطة صفة العلم في قوله : ﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم ﴾ [ق : 4] ولينتقل منه الإنذار بإحصاء أعمال الناس عليها وهو ما استُرسل في وصفه من قوله : ﴿ إذ يتلقى المتلقيان ﴾ [ق : 17] الخ.

ووصف البعث وصف الجزاء من قوله : ﴿ ونفخ في الصور إلى قوله : ﴿ ولدينا مزيد ﴾ [ق : 20 35].

وتأكيد هذا الخبر باللام و (قد) مراعًى فيه المتعاطفات وهي ﴿ نعلم ما توسوس به نفسه ﴾ لأنهم وإن كانوا يعلمون أن الله خلق الناس فإنهم لا يعلمون أن الله عالم بأحوالهم.

و ﴿ الإنسان ﴾ يعم جميع الناس ولكن المقصود منهم أولاً المشركون لأنهم المسوق إليهم هذا الخبر، وهو تعريض بالإنذار كما يدل عليه قوله بعده ﴿ ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ [ق : 19] وقوله : ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا ﴾ [ق : 22] وقوله : ﴿ ذلك يوم الوعيد ﴾ [ق : 20].

والبَاء في قوله ﴿ به ﴾ زائدة لتأكيد اللصوق، والضمير عائد الصلة كأنه قيل : ما تتكلمه

نفسه على طريقة ﴿ وامسحوا برؤوسكم ﴾ [المائدة : 6] .

وفائدة الإخبار بأن الله يعلم ما توسوس به نفس كل إنسان التنبيه عل سعة علم الله تعالى بأحوالهم كلها فإذا كان يعلم حديث النفس فلا عجب أن يعلم ما تنقص الأرض منهم .

والإخبار عن فعل الخلق بصيغة المضيّ ظاهر ، وأما الإخبار عن علم ما توسوس به النفس بصيغة المضارع فللدلالة على أن تعلق علمه تعالى بالوسوسة متجدد غير منقض ولا محدود لإثبات عموم علم الله تعالى ، والكناية عن التحذير من إضمار ما لا يرضي الله .

وجملة ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ ونعلم ﴾ .

(204/721)

والمقصود منها تأكيد عاملها وتحقيق استمرار العلم بباطن الإنسان ، ومعنى ﴿ توسوس ﴾ تتكلم كلاماً خفياً همساً .

ومصدره الوسواس والوسوسة أطلقت هنا مجازاً على ما يجول في النفس من الخواطر والتقديرات والعزائم لأن الوسوسة أقرب شيء تشبه به تلك الخواطر وأحسن ما يستعار لها لأنها تجمع مختلف أحوال ما يجول في العقل من التقادير وما عداها من نحو ألفاظ التوهم والتفكر إنما يدل على بعض أحوال الخواطر دون بعض .

والحبل : هنا واحد حِبال الجسم .

وهي العروق الغليظة المعروفة في الطبّ بالشرايين ، واحدها : شَرْيان بفتح الشين المهملة وتكسر وبسكون الراء وتعرف بالعروق الضوارب ومنبتها من التجْويف الأيسر من تجويفي القلب .

وللشرايين عمل كثير في حياة الجسم لأنها التي توصل الدم من القلب إلى أهم الأعضاء الرئيسية مثل الرئة والدماغ والنخاع والكليتين والمعدة والأمعاء .

وللشرايين أسماء باعتبار مصابّها من الأعضاء الرئيسية .

والوريد : واحد من الشرايين وهو ثاني شريانين يخرجان من التجويف الأيسر من القلب .

واسمه في علم الطلب أورطِي ويتشعب إلى ثلاث شعب ثالثتهما تنقسم إلى قسمين قسم أكبر وقسم أصغر .

وهذا الأصغير يخرج منه شريانان يسميان السباتِي ويصعدان يميناً ويساراً مع الودَجين ، وكل هذه الأقسام تسمى الوريد .

وفي الجسد وَريدان وهما عرقان يكتنفان صفحتي العنق في مقدمهما متصلان بالوَتين يَرِدان من الرأس إليه .

وقد تختلف أسماء أجزائه باختلاف مواقعها من الجسد فهو في العنق يسمى الوريد ، وفي القلب يسمى الوتين ، وفي الظهر يسمى الأبهر ، وفي الذراع والفخذ يسمونه الأكحل والنَّسَا ،

وفي الخنصر يدعى الأسلم .

وإضافة ﴿ حبل ﴾ إلى ﴿ الوريد ﴾ بيانية ، أي الحبل الذي هو الوريد ، فإن إضافة الأعم إلى الأخص إذا وَقعت في الكلام كانت إضافة بيانية كقولهم : شجر الأراك .

(205/721)

والقرب هنا كناية عن إحاطة العلم بالحال لأن القرب يستلزم الإطلاع ، وليس هو قربا بالمكان بقرينة المشاهدة فآل الكلام إلى التشبيه البليغ تشبيه معقول بمحسوس ، وهذا من بناء التشبيه على الكناية بمنزلة بناء المجاز على المجاز .

ومن لطائف هذا التمثيل أن حبل الوريد مع قربه لا يشعر الإنسان بقربه لخفائه ، وكذلك قرب الله من الإنسان بِعلمه قرب لا يشعر به الإنسان فلذلك اختير تمثيل هذا القرب بقرب حبل الوريد .

وبذلك فاق هذا التشبيه لحالة القرب كلَّ تشبيه من نوعه ورد في كلام البلغاء .

مثل قولهم : هو منه مقعد القابلة ومعقد الإزار ، وقول زهير:

فهن ووادي الرس كاليد للفم . . .

وقول حنظلة بن سيار وهو حنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلي مخضرم:

كُل امرىء مصبَّح في إهِلهِ . . .

والموتُ أدنى من شراك نعلهِ

إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17)

يتعلق ﴿ إذْ ﴾ بقوله ﴿ أقرب ﴾ [ق : 16] لأن اسم التفضيل يعمل في الظرف وإن كان لا يعمل في الفاعل ولا في المفعول به واللغة تتوسع في الظروف والمجرورات ما لا تتوسع في غيرها ، وهذه قاعدة مشهورة ثابتة والكلام تخلص للموعظة والتهديد بالجزاء يوم البعث والجزاء من إحصاء الأعمال خيرها وشرها المعلومة من آيات كثيرة في القرآن .

وهذا التخلص بكلمة ﴿ إذ ﴾ الدالة على الزمان من ألطف التخلص .

وتعريف ﴿ المُتَلَقِّيان ﴾ تعريف العهد إذا كانت الآية نزلت بعد آيات ذُكر فيها الحفظة ، أو تعريفُ الجنس ، والتثنية فيها للإشارة إلى أن هذا الجنس مقسم اثنين اثنين .

والتلقّي : أخذ الشيء من يد معطيه .

استعير لتسجيل الأقوال والأعمال حين صدورها من الناس .

وحذف مفعول ﴿ يتلقى ﴾ لدلالة قوله : ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ .

والتقدير : إذ تحصى أقوالهم وأعمالهم .

فيؤخذ من الآية أن لكل إنسان ملَكيْن يحصيان أعماله وأن أحدهما يكون من جهة يمينه والآخر من جهة شماله .

وورد في السنة بأسانيد مقبولة : أن الذي يَكون عن اليمين يكتب الحسنات والذي عن الشمال يكتب السيئات وورد أنهما يلازمان الإنسان من وقت تكليفه إلى أن يموت .

وقوله : ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾ يجوز أن يكون ﴿ قعيد ﴾ بدلاً من ﴿ المتلقِّيان ﴾ بدل بعض ، و ﴿ عن اليمين ﴾ متعلق بـ ﴿ قعيد ﴾ ، وقدم على متعلَّقه للاهتمام بما دل عليه من الإحاطة بجانبيه وللرعاية على الفاصلة .

ويجوز أن يكون ﴿ عن اليمين ﴾ خبراً مقدماً ، و ﴿ قعيد ﴾ مبتدأ وتكون الجملة بياناً لجملة ﴿ يتلقى المتلقيان ﴾ .

وعطف قوله : ﴿ وعن الشمال ﴾ على جملة ﴿ يتلقى ﴾ وليس عطفاً على قوله : ﴿ عن اليمين ﴾ لأنه ليس المعنى على أن القعيد قعيد في الجهتين ، بل كل من الجهتين قعيد مستقل بها .

والتقدير : عن اليمين قعيد ، وعن الشمال قعيد آخر .

والتعريف في ﴿ اليمين ﴾ و ﴿ الشمال ﴾ تعريف العهد أو اللام عوض عن المضاف إليه ، أي عن يمين الإنسان وعن شماله .

والقعيد : المُقَاعد مثل الجَليس للمجالس ، والأَكيل للمؤاكل ، والشَّرِيب للمشارب ، والخليطِ للمخالط .

والغالب في فعيل أن يكون إما بمعنى فاعل ، وإما بمعنى مفعول ، فلمّا كان في المفاعلة معنى الفاعل والمفعول معاً ، جاز مجيء فعيل منه بأحد الاعتبارين تعويلاً على القرينة ، ولذلك قالوا لامرأة الرجل قعيدته .

والقعيد مستعار للملازم الذي لا ينفك عنه كمَا أطلقوا القعيد على الحافظ لأنه يلازم الشيء الموكل بحفظه .

وجملة ﴿ ما يلفظ من قول ﴾ الخ مبينة لجملة ﴿ يتلقى المتلقيان ﴾ فلذلك فصلت .

و﴿ ما ﴾ نافية وضمير ﴿ يلفظ ﴾ عائد للإنسان .

واللفظ : النطق بكلمةٍ دالة على معنى ولو جزء معنى ، بخلاف القول فهو الكلام المفيد معنى .

و﴿ مِن ﴾ زائدة في مفعول الفعل المنفي للتنصيص على الاستغراق .

والاستثناء في قوله : ﴿ إلاّ لديه رقيب عتيد ﴾ استثناء من أحوال عامة ، أي ما يقول قولاً في حالة إلا في حالة وجود رقيب عتيد لديه .

والأظهر أن هذا العموم مراد به الخصوص بقرينة قوله : ﴿ إلا لديه رقيب عتيد ﴾ لأن المراقبة هنا تتعلق بما في الأقوال من خير أو شرّ ليكون عليه الجزاء فلا يَكتب الحفظة إلاّ ما يتعلق به صلاح الإنسان أو فساده إذ لا حكمة في كتابة ذلك وإنما يكتب ما يترتب عليه الجزاء وكذلك قال ابن عباس وعكرمة .

وقال الحسن : يكتبان كل ما صدر من العبد ، قال مجاهد وأبو الجوزاء : حتى أنينه في مرضه .

وروي مثله عن مالك بن أنس .

وإنما خص القولُ بالذكر لأن المقصود ابتداء من هذا التحذير المشركون وإنما كانوا يؤاخذون بأقوالهم الدالة على الشرك أو على تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم أو أذاه ولا يؤاخذون على أعمالهم إذ ليسوا مكلفين بالأعمال في حال إشراكهم .

وأما الأعمال التي هي من أثر الشرك كالتطواف بالصنم ، أو من أثر أذى النبي عليه الصلاة والسلام كإلقاء سلا الجذور عليه في صلاته ، ونحو ذلك ، فهم مؤاخذون به في ضمن أقوالهم على أن تلك الأفعال لا تخلو من مصاحبة أقوال مؤاخذ عليها بمقدار ما صاحبها .

ولأن من الأقوال السيئة ما له أثر شديد في الإضلال كالدعاء إلى عبادة الأصنام ، ونهي الناس عن اتباع الحق ، وترويج الباطل بإلقاء الشُبَه ، وتغرير الأغرار ، ونحو ذلك ، وقد قال

النبي صلى الله عليه وسلم " وهل يَكُبّ الناسَ في النار على وجوههم إلا حصائدُ ألسنتهم " ، على أنه من المعلوم بدلالة الاقتضاء أن المؤاخذة على الأعمال أولى من المؤاخذة على الأقوال وتلك الدلالة كافية في تذكير المؤمنين .

وجملة ﴿ إلاّ لديه رقيب عتيد ﴾ في موضع الحال ، وضمير ﴿ لديه ﴾ عائد إلى ﴿ الإنسان ﴾ [ق : 16] ، والمعنى : لدى لفظه بقوله .

و ﴿ عتيد ﴾ فعيل من عتَد بمعنى هَيّأ ، والتاء مبدلة من الدال الأول إذ أصله عديد ، أي مُعَدّ كما في قوله تعالى : ﴿ وأعتدَتْ لهن مُتَّكأ ﴾ [يوسف : 31] .

(208/721)

وعندي أن ﴿ عتيد ﴾ هنا صفة مشبهة من قولهم (عَتُد) بضم التاء إذا جَسم وضَخم كناية عن كونه شديدا وبهذا يحصل اختلاف بينه وبين قوله الآتي ﴿ هذا ما لديّ عتيد ﴾ [ق : 23] ويحصل محسّن الجناس التام بين الكلمتين .

وقد تواطأ المفسرون على تفسير التلقّي في قوله : ﴿ المتلّقيان ﴾ بأنه تلّقي الأعمال لأجل كتبها في الصحائف لإحضارها للحساب وكان تفسيراً حائماً حول جعل المفعول المحذوف لفعل ﴿ يتلقّى ﴾ ما دل عليه قوله بعده ﴿ ما يلفِظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾

بدلالته الظاهرة أو بدلالة الاقتضاء .

فالتقدير عندهم : إذ يتلقى المتلقيان عَمل الإنسان وقوله ، فتكون هذه الجملة على تقديرهم منفصلة عن جملة ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ﴾ [ق : 19] كما سنبينه .

ولفخر الدين معنى دقيق فبعد أن أجمل تفسير الآية بما يساير تفسير الجمهور قال : "ويحتمل أن يقال التلقّي الاستقبال ، يقال : فلان تلقى الركب ، وعلى هذا الوجه يكون معناه : وقت ما يتلقاه المتلقّيان يكون عن يمينه وعن شماله قعيد ، فالمتلقيان على هذا الوجه هما الملكان اللذان يأخذان روحه من مَلَك الموت أحدهما يأخذ أرواح الصالحين وينقلها إلى السرور والآخر يأخذ أرواح الطالحين وينقلها إلى الويل والثبور إلى يوم النشور ، أي وقت تلقيهما وسؤالهما أنه من أي القبيلَيْن يكون عند الرجل قعيد عن اليمين وقعيد عن الشمال ملكان ينزلان ، وعنده ملكان آخران كاتبان لأعماله ، ويؤيد ما ذكرناه قوله تعالى:

﴿ سائق وشهيد ﴾ [ق : 21] .

فالشهيد هو القعيد والسائق هو المتلقي يتلقى روحه من ملَك الموت فيسوقه إلى منزله وقت الإعادة ، وهذا أعرف الوجهين وأقربهما إلى الفهم" أ هـ .

وكأنه ينحو به منحى قوله تعالى : ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذٍ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ﴾ [الواقعة : 83 85] .

ولا نوقف في سداد هذا التفسير إلا على ثبوت وجود ملكين يتسلمان روح الميت من يد ملَك الموت عند قبضها ويجعلانها في المقر المناسب لحالها .

والمظنون بفخر الدين أنه اطلع على ذلك ، وقد يؤيده ما ذكره القرطبي في "التذكرة" عن "مسند الطيالسي" عن البراء .

وعن كتاب "النسائي" عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا حُضر الميت المؤمن أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء يقولون : اخرجي راضية مرضيا عنك إلى رَوْح وريحان وربّ راضٍ غير غضبان ، فإذا قبضه الملَك لم يدعوها في يده طرفة فتخرج كأطيب ريح المسك فتعرج بها الملائكة حتى يأتوا به باب السماء " وساق الحديث إلا أن في الحديث ملائكة جمعاً وفي الآية ﴿ المتلقيان ﴾ تثنية .

وعلى هذا الوجه يكون مفعول ﴿ يتلقى ﴾ ما دل عليه قوله بعده ﴿ وجاءت سكرة الموت ﴾ .

والتقدير : إذ يتلقى المتلقّيان روح الإنسان .

ويكون التعريف في قوله : ﴿ عن اليمين وعن الشمال ﴾ عوضاً عن المضاف إليه أي عن يمينها وعن شمالها قعيد ، وهو على التوزيع ، أي عن يمين أحدهما وعن شمال الآخر .

ويكون ﴿ قعيد ﴾ مستعملاً في معنى : قعيدان فإن فعيلا بمعنى فاعل قد يعامل معاملة

فعيل بمعنى مفعول ، كقول الأزرق بن طرفة:

رماني بأمر كنت منه ووالدي . . .

بريئاً ومن أجل الطّويّ رماني

والاقتصار على ﴿ ما يلفظ من قول ﴾ حينئذٍ ظاهر لأن الإنسان في تلك الحالة لا تصدر منه أفعال لعجزه فلا يصدر منه في الغالب إلا أقوال من تضجّر أو أنين أو شهادة بالتوحيد ، أو ضدها ، ومن ذلك الوصايا والإقرارات .

وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19)

عطف على جملة ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ [ق : 16] لاشتراكهما في التنبيه على الجزاء على الأعمال .

فهذا تنقل في مراحل الأمور العارضة للإنسان التي تسلمه من حال إلى آخر حتى يقع في الجزاء على أعماله التي قد أحصاها الحفيظان .

(210/721)

وإنما خولف التعبير في المعطوف بصيغة الماضي دون صيغة المضارع التي صيغ بها المعطوف عليه لأنه لقربه صار بمنزلة ما حصل قصدا لإدخال الروع في نفوس المشركين كما

استفيد من قوله : ﴿ ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ نظير قوله تعالى : ﴿ قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ﴾ [الجمعة : 8] .

ويأتي على ما اختاره الفخر في تفسير ﴿ إذ يتلقى المتلقّيان ﴾ [ق : 17] الآية أن تكون جملة ﴿ وجاءت سكرة الموت ﴾ الخ في موضع الحال .

والتقدير : وقد جاءت سكرة الموت بالحق حينئذٍ .

والمجيء مجاز في الحصول والاعتراء وفي هذه الاستعارة تهويل لحالة احتضار الإنسان وشعوره بأنه مفارق الحياة التي أَلِفها وتعلق بها قلبه .

والسّكرة : اسم لما يعتري الإنسان من ألم أو اختلال في المزاج يحجب من إدراك العقل فيختل الإدراك ويعتري العقل غيبوبة .

وهي مشتق من السّكر بفتح فسكون وهو الغلق لأنه يغلق العقل ومنه جاء وصف السكران .

والباء في قوله : ﴿ بالحق ﴾ للملابسة ، وهي إما حال من ﴿ سكرة الموت ﴾ أي متصفة بأنها حق ، والحق : الذي حقّ وثبَت فلا يتخلّف ، أي السكرة التي لا طمع في امتداد الحياة بعدها ، وإما حال من ﴿ الموت ﴾ ، أي ملتبساً بأنه الحق ، أي المفروض المكتوب على الناس فهم محقوقون به ، أو الذي هو الجِدّ ضد العبث كقوله تعالى : ﴿ خلق السماوات والأرض بالحق ﴾ [التغابن : 3] مع قوله : ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض

وما بينهما باطلاً ﴾ [ص : 27] .

وقول ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى الموت بتنزيل قرب حصوله منزلة الحاصل المشاهد .

و﴿ تحيد ﴾ تفرّ وتهرب ، وهو مستعار للكراهية أو لتجنب أسباب الموت .

(211/721)

والخطاب للمقصود من الإنسان وبالمقصود الأول منه وهم المشركون لأنهم أشدّ كراهية للموت لأن حياتهم مادية مَحضة فهم يريدون طول الحياة قال تعالى : ﴿ ومِن الذين أشركوا يَودّ أحدهم لو يُعَمَّر ألف سنة ﴾ [البقرة : 96] إذ لا أمل لهم في حياة أخرى ولا أمل لهم في تحصيل نعيمها ، فأما المؤمنون فإن كراهتهم للموت المرتكزة في الجبلة بمقدار الإلف لا تبلغ بهم إلى حد الجزع منه .

وفي الحديث " من أحب لقاء الله أحبّ الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه " ، وتأويله بالمؤمن يحب لقاء الله للطمع في الثواب ، وبالكافر يكره لقاء الله .

وقد بينه النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " إن المؤمن إذا حضرته الوفاة رأى ما أعد الله له من خير فأحب لقاء الله " أي والكافر بعكسه ، وقد قال الله تعالى خطاباً لليهود ﴿ قل إن الموت الذي تَفِرُّون منه فإنه ملاقيكم ﴾ [الجمعة : 8] .

وتقديم ﴿ منه ﴾ على ﴿ تحيد ﴾ للاهتمام بما منه الحياد ، وللرعاية على الفاصلة .

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (20) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (21)

عطف على ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ﴾ [ق : 19] على تفسير الجمهور .

فأما على تفسير الفخر فالجملة مستأنفة وصيغة المضيّ في قوله : ﴿ ونُفِخ ﴾ مستعملة في معنى المضارع ، أي ينفخ في الصور فصيغ له المضي لتحقق وقوعه مثل قوله تعالى : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ [النحل : 1] ، والمشار إليه بذلك في قوله : ﴿ ذلك يوم الوعيد ﴾ إذ أن ذلك الزمان الذي نفخ في الصور عنده هو يوم الوعيد .

والنفخ في الصور تقدم القول فيه عند قوله تعالى : ﴿ وله الملك يوم ينفخ في الصور ﴾ في سورة الأنعام (73) .

وجملة ذلك يوم الوعيد ﴾ معترضة .

والإشارة في قوله : ﴿ ذلك يوم الوعيد ﴾ راجعة إلى النفع المأخوذ من فعل ﴿ ونُفِخ في الصور ﴾ .

والإخبار عن النفخ بأنه ﴿ يوم الوعيد ﴾ بتقدير مضاف ، أي ذلك حلول يوم الوعيد .

وإضافة ﴿ يوم ﴾ إلى ﴿ الوعيد ﴾ من إضافة الشيء إلى ما يقع فيه ، أي يوم حصول الوعيد الذي كانوا تُوعِدوا به ، والاقتصار على ذكر الوعيد لما علمت من أن المقصود الأول من هذه الآية هم المشركون .

وفي الكلام اكتفاء ، تقديره : ويوم الوعْد .

وعُطِفت جملة ﴿ جاءت كل نفس ﴾ على جملة ﴿ نُفخ في الصور ﴾ .

والمراد بـ ﴿ كل نفس ﴾ كل نفس من المتحدث عنهم وهم المشركون ، ويدل عليه أمور :

أحدهما : السياق .

والثاني : قوله ﴿ معها سائق ﴾ لأن السائق يناسب إزجاء أهل الجرائم ، وأما المهديون إلى الكرامة فإنما يهديهم قائد يسير أمامهم قال تعالى : ﴿ كأنما يساقون إلى الموت ﴾ [الأنفال : 6] .

والثالث : قوله بعده ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا ﴾ [ق : 22] .

والرابع : قوله بعده ﴿ وقال قرينه هذا ما لدي عتيد ﴾ [ق : 23] الآية .

وجملة ﴿ معها سائق وشهيد ﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿ جاءت كل نفس ﴾ .

و ﴿ سائق ﴾ مرفوع بالظرف الذي هو ﴿ معها ﴾ على رأي من أجازه ، أو مبتدأ خبره ﴿ معها ﴾ .

ويجوز أن يكون جملة ﴿ معها سائق وشهيد ﴾ حَالا من ﴿ كلُّ نفس ﴾ .

وعطف ﴿ وشهيد ﴾ على ﴿ سائق ﴾ يجوز أن يكون من عطف ذات على ذات فيكون المراد ملكان أحدهما يسوق النفس إلى المحشر والآخر يشهد عليها بما حوته صحائف أعمالها .

ويجوز أن يكون من عطف الصفات مثل:

إلى الملك القرم وابن الهمام . . .

فهو ملك واحد .

والسائق الذي يجعل غيره أمَامه يزجيه في السير ليكون بمرأى منه كيلا ينفلت وذلك من شأن المشي به إلى ما يسوء قال تعالى : ﴿ كأنما يساقون إلى الموت ﴾ [الأنفال : 6] وقال : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا ﴾ [الزمر : 71] ، وأما قوله : ﴿ وسيق الذين اتّقوا ربّهم إلى الجنّة زمرا ﴾ [الزمر : 73] فمشاكلة .

وضِد السوق : القَودْ .

(213/721)

لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22)

مقول قول محذوف دل عليه تعينه من الخطاب ، أي يقال هذا الكلام لكل نفس من نفوس المشركين فهو خطاب التهكم التوبيخي للنفس الكافرة لأن المؤمن لم يكن في غفلة عن الحشر والجزاء .

وجملة القول ومقوله في موضع الحال من ﴿ كل نفس ﴾ [ق : 21] أو موقع الصفة ، وعلامات الخطاب في كلمات ﴿ كُنتَ ﴾ و ﴿ عنكَ ﴾ و ﴿ غطاءكَ ﴾ و ﴿ بصركَ ﴾ مفتوحة لتأويل النفس بالشخص أو بالإنسان ثم غُلب فيه التذكير على التأنيث .

وهذا الكلام صادر من جانب الله تعالى وهو شروع في ذكر الحساب .

والغفلة : الذهول عما شأنه أن يُعلم وأطلقت هنا على الإنكار والجحد على سبيل التهكم ، ورشَّح ذلك قولُه ﴿ فكشفنا عنك غطاءك ﴾ بمعنى : بيّنا لك الدليل بالحس فهو أيضاً تهكّم .

وأوثر قوله : ﴿ في غفلة ﴾ على أن يقال غافلاً للدلالة على تمكن الغفلة منه ولذلك استتبع تمثيلَها بالغطاء .

وكشف الغطاء تمثيل لحصول اليقين بالشيء بعد إنكار وقوعه ، أي كشفنا عنك الغطاء الذي كان يحجب عنك وقوع هذا اليوم بما فيه ، وأسند الكشف إلى الله تعالى لأنه الذي أظهر لها أسباب حصول اليقين بشواهد عَيْن اليقين .

وأضيف (غطاء) إلى ضمير الإنسان المخاطب للدلالة على اختصاصه به وأنه مما يعرف به .

وحدة البصر : قوة نفاذه في المَرئي ، وحدّة كل شيء قوةُ مفعوله ، ومنه حدة الذهن ، والكلام يتضمن تشبيه حصول اليقين برؤية المرئي ببصر قوي ، وتقييده بقوله : ﴿ اليوم ﴾ تعريض بالتوبيخ ، أي ليس حالك اليوم كحالك قبل اليوم إذ كنت في الدنيا منكراً للبعث . والمعنى : فقد شاهدتَ البعث والحشر والجزاء ، فإنهم كانوا ينكرون ذلك كله ، قالوا ﴿ أإذا متنا وكنّا تراباً وعظاماً أئنا المدينون ﴾ [الصافات : 53] وقالوا : ﴿ وما نحن بمعذبين ﴾ [الصافات : 59] فقد رأى العذاب ببصره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(214/721)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثاني والعشرون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/722)

الجزء الثاني والعشرون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 23 ﴾ من سورة (ق)

وحتى الآية ﴿ 40 ﴾ من السورة

(4/722)

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (23) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (24) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (25) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (26) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (27) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (28) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (29) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (30) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبر أخبر تعالى بما تقوله له الملائكة أو من أراد من جنوده ، وكان قد أخبر أن معبوداتهم من الأصنام والشياطين وغيرها تكون عليهم يوم القيامة ضداً ، أخبر بما يقول القرين من السائق والشهيد والشيطان الذي تقدم حديثه في الزخرف ، فقال عاطفاً على القول المقدر قبل " لقد " معبراً بصيغة المضي تأكيداً لمضمونه وتحقيقاً : ﴿ وقال قرينه ﴾ أي الشيطان الذي سلط على إغوائه واستدراجه إلى ما يريد .

نقله الكرماني عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ﴿ هذا ﴾ أي الإنسان الذي قرنتني به .

(5/722)

ولما كان الأمر في كل من الطائع والعاصي في غاية العجب ، لأن الطائع ينابذ هواه فيكون ملكياً مجرداً من حظوظه ونوازع نفوسه وما بنيت عليه من النقائص والشهوات ، والعاصي طوع يدي الشيطان ، يصرفه في أغراضه كيف يشاء ، فيطيعه بغاية الشهوة مع علمه بعداوته ، وأن طاعته لا تكون إلا بمخالفة أمر الله الولي الودود ، وكان العاصي أكثر كثرة يكون الطائع فيها بالنسبة إليه كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود ، وكان ذلك منابذاً للعقل ، أشار إلى هذه المنابذة بأداة من لا يعقل وإلى جميع ما في أمره من العجب بلدي فقال : ﴿ ما لدي ﴾ أي الأمر الذي عندي من الأمر المستغرب جداً لكون المطيع عصاني ، وهو مطبوع على النقائص والحظوظ التي يرى أنها حياته ولذته وراحته ، والعاصي أطاعني وهو يعلم بعقله أني شر محض ، وترك الخير المحض وهو عالم بأن في ذلك هلاكه ﴿ عتيد ﴾ أي حاضر مهيأ لما يراد منه .

ولما كانت العادة جارية بأن من أحضر إليه شيء تبادر إلى أمهر بقوله أو فعل ، وصل بذلك ما هو نتيجته ، وبدأ بالعاصي لأن المقام له ، فقال ما يدل على أنه لا وزن له ، فلا وقفة في عذابه بحسابه ولا غيره ، مؤكداً خطاباً للمؤكد بالإلقاء أو خطاباً للسائق والشهيد ، أو السائق وحده مثنياً لضميره تثنية للأمر كأنه قال : ألق ألق – تأكيداً له وتهويلاً : ﴿ ألقيا ﴾ أي اطرحا دفعاً من غير شفقة ، وقيل : بل هو تثنية وأصل ذلك أن الرفقة أدنى ما يكون ثلاثة ، فجرى كلام الواحد على صاحبه ، ألا ترى أن الشعراء أكثر شيء قيلاً : يا صاحبيّ

يا خليليّ ، والسر فيه إذا كان المخاطب واحداً إفهامه أنه يراد منه الفعل بجد عظيم تكون قوته فيه معادلة لقوة اثنين ﴿ في جهنم ﴾ أي النار التي تلقى الملقى فيها بما كان يعامل به عباد الله من الكبر والعبوسة والتكره والتعصب .

(6/722)

ولما كان المقصود تعليل إلقائه بوصف يعم غيره ليكون لطفاً لمن أراد الله عصمته ممن سمع هذا المقال وحجة على من أراد الله إهانته : ﴿ كل كفار عنيد ﴾ أي مبالغ في ستر الحق والمعاداة لأهله من غير حجة حمية وأنفة نظراً إلى استحسان ما عنده والثبات عليه تجبراً وتكبراً على ما عند غيره ازدراء له كائناً من كان ﴿ مناع ﴾ أي كثير المنع ﴿ للخير ﴾ من ﴿ مريب ﴾ أي داخل في الريب وهو الشك والتهمة في أمر الدين ، وموقع غيره فيه ، ثم أبدل من "كل" قوله بياناً لمبالغته في الكفر الذي أوجب له كل شر ﴿ الذي جعل ﴾ كفراً مضاعفاً وعناداً ومنعاً للخير الذي يجب عليه في قلبه ولسانه وبدنه ، وتجاوزاً للحدود دخولاً في الشك وإدخالاً لغيره فيه ﴿ مع الله ﴾ أي الذي له الإحاطة بجميع صفات الكمال ، فليس أمره خفياً عن كل ذي عقل ﴿ إلهاً ﴾ .

ولما كان ربما تعنت متعنت فنزل الآية على من يدعو الله بغير هذا الاسم الأعظم ، صرح

بالمراد بقوله : ﴿ آخر ﴾ وزاد الكلام أنه مأخوذ من التأخر الناظر إلى الرداءة والسقوط عن عين الاعتبار بالكلية .

ولما كان هذا قد جحد الحق الواجب لله لذاته مع قطع النظر عن كل شيء ثم ما يجب له من جهة ربوبيته وإنعامه على كل موجود ، ثم من جهة إدامة إحسانه مع المعصية بالحلم ، وعاند في ذلك وفي إثباته للغير ما لا يصح له بوجه من الوجوه ، سبب عن وصفه قوله : ﴿ فألقياه في العذاب ﴾ أي الذي يزيل كل عذوبة ﴿ الشديد ﴾ .

(7/722)

ولما كان القرين قد قال ما تقدم مريداً به – جهلاً منه – الخلاص من العذاب بإظهار أنه ليس بأوصاف هذه النفس ، بل من كبار المؤمنين ، فأجيب مقاله بإلقاء تلك النفس معللاً للأمر بإلقائها بما شمل هذا القرين ، فتشوف السامع إلى ما يكون من حاله ، وكانت العادة جارية أن من تكلم في شخص بما فيه مثله ولا سيما إن كان هو السبب فيه أو كان قد تكلم ذلك الشخص فيه ، فكان قياس ذلك يقتضي ولا بد أن تقول تلك النفس القول فيها ، وهذا عند الأمر بإلقائها : ربنا هو أطغاني : أجاب تعالى عند هذا التشوف بقوله : ﴿ قال قرينه ﴾ منادياً بإسقاط الأداة دأب أهل القرب إيهاماً أنه منهم : ﴿ ربنا ﴾ أيها المحسن إلينا

أيتها الخلائق كلهم ﴿ ما أطغيته ﴾ أي أوقعته فيما كان فيه من الطغيان ، فإنه لا سلطان لي عليه وأنت أعلم بذلك ﴿ ولكن كان ﴾ بجبلته وطبعه ﴿ في ضلال بعيد ﴾ محيط به من جميع جوانبه لا يمكن رجوعه معه ، فلذلك كان يبادر إلى كل ما يغضب الله ، وإن حركته إليه أن فإنه لا يحتاج إلى أدنى تحريك فيثور له ثورة من هو مجبول مركوز في طباعه .

(8/722)

ولما كان كأنه قيل : بم يجاب عن هذا ؟ وهل يقبل منه ؟ قيل : لا ﴿ قال ﴾ أي الملك المحيط علماً وقدرة الذي حكم عليهم في الأزل : ﴿ لا تختصموا ﴾ أي لا توقعوا الخصومة بهذا الجد والاجتهاد ﴿ لديَّ ﴾ أي في دار الجزاء بهذه الحضرة التي هي فوق ما كنتم تدركونه من الأخبار عنها بكثير ، وأعجب بما يدرك حق الإدراك ، فقد أتم انكشاف ما كان يستغربه الخاصة بل خاصة الخاصة ، ففات بانكشافها نفع إيمان جديد ﴿ وقد ﴾ أي والحال أنه قد ﴿ قدمت ﴾ أي تقدمت ، أي أمرت وأوصيت قبل هذا الوقت موصلاً ومنهياً ﴿ إليكم ﴾ أي كل ما ينبغي تقديمه حتى لم يبق لبس ولا تركت لأحد حجة بوجه ، وجعلت ذلك رفقاً بكم ملتبساً ﴿ بالوعيد ﴾ أي التهديد وهو التخويف العظيم على جميع ما ارتكبتموه من الكفران والعدوان في الوقت الذي كانت فيه هذه الحضرة التي هي

غيب الغيب ومستورة بستائر الكبرياء والعظمة وبل كان ما دونها من الغيب مستوراً ، فكان الإيمان به نافعاً .

ولما كانت الأوقات كلها عنده سبحانه حاضرة ، عبر سبحانه في تعليل ذلك ب " ما " التي للحاضر دون " لا " التي للمستقبل فقال : ﴿ ما يبدل ﴾ أي يغير من مغير ما كان من كان بوجه من الوجوه بحيث يجعل له بدل فيكون فيه خلف ﴿ القول لدي ﴾ أي الواصل إليكم من حضرتي التي لا يحاط بأمر غرابتها بأن من أشرك بي لا أغفر له وأغفر ما دون ذلك لمن أشاء ، والعفو عن بعض المذنبين ليس تبديلاً لأن دلائل العفو تدل على تخصيص الوعيد ، وأنه مشروط بشرائط ﴿ وما أنا ﴾ وأكد النفي فقال : ﴿ بظلام ﴾ أي بذي ظلم ﴿ للعبيد ﴾ لا القرين ولا من أطغاه ولا غيرهم ، فأعذب من لا يستحق أو أعفو عمن قلت : إني لا أغفر له وأمرت جندي فعادوه فيّ ، ولو عفوت عنه كنت مع تبديل القول قد سؤتهم بإكرام من عادوه فيّ ليس إلا .

(9/722)

ولما كان هذا التقاول مما يهول أمره ويقلع القلوب ذكره ، صور وقته بصورة تزيد في ذلك الهول ، وينقطع دون وصفها القول ، ولا يطمع في الخلاص منها بقوة ولا حول ، فقال ما معناه :

يكون هذا كله ﴿ يوم ﴾ ولما كان المقصود الإعلام بأن النار كبيرة مع ضيقها ، فهي تسع من الخلائق ما لا يقع تحت حصر ، وأنها مع كراهتها لمن يصلاها وتجهمها لهم تحب تها فتهم فيها وجلبهم إليها عبر عنه على طريق الكناية بقوله : ﴿ نقول ﴾ أي على ما لنا من العظمة التي لا يسوغ لشيء أن يخفى عنها ﴿ لجهنم ﴾ دار العذاب مع الكراهة والعبوسة والتجهم إظهاراً للهول بتصوير الأمر المهدد به ، وتقريع الكفار ، وتنبيه من يسمع هذا الخبر عن هذا السؤال من الغفلة : ﴿ هل امتلأت ﴾ فصدق قولنا ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ [هود : 119] وذلك بعد أن يلقى فيها من الخلائق ما لا يحيط به الوصف ، فتقول : لا ، ﴿ وتقول ﴾ طاعة لله ومحبة في عذاب أعدائه وإخباراً بأنها لم تمتلىء لأن النار من شأنها أنها كلما زيدت حطباً زادت لهباً : ﴿ هل من مزيد ﴾ أي زيادة أو شيء من العصاة إزادة ، سواء كان كثيراً أو قليلاً ، فإني أسع ما يؤتى به إليّ ولا تزال كذلك كما ورد في الحديث " لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع الجبار فيها قدمه " أي يضربها من جبروته بسوط إهانة فينزوي بعضها إلى بعض وتقول : قط قط وعزتك ، ثم يستمرون بين دولتي الحر والزمهرير ، وقد جعل الله سبحانه لذلك آية في هذه الدار باختلاف الزمان في الحر والبرد ، فإذا أفرط الحر جاءت رحمته تعالى بالبرد وبالماء من السماء فامتزجا معاً فكان التوسط ، وإذا أفرط البرد جاءت رحمته بالحر بواسطة الشمس ، فامتزج الموجدان ، فكان له توسط ، وكل ذلك له دوائر موزونة بأقساط مقسطة

معلومة بتقدير العزيز العليم - ذكر ذلك ابن برجان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 258. 261 ﴾

(10/722)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (23) ﴾

وفي القرين وجهان أحدهما الشيطان الذي زين الكفر له والعصيان وهو الذي قال تعالى فيه ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء ﴾ [فصلت : 25] وقال تعالى : ﴿ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف : 36] وقال تعالى : ﴿ فَبِئْسَ القرين ﴾ [الزخرف : 38] فالإشارة بهذا المسوق إلى المرتكب الفجور والفسوق ، والعتيد معناه المعد للنار وجملة الآية معناها أن الشيطان يقول هذا العاصي شيء هو عندي معد لجهنم أعددته بالإغواء والإضلال ، والوجه الثاني ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ ﴾ أي القعيد الشهيد الذي سبق ذكره وهو الملك وهذا إشارة إلى كتاب أعماله ، وذلك لأن الشيطان في ذلك الوقت لا يكون له من المكانة أن يقول ذلك القول ، ولأن قوله ﴿ هذا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ فيكون عتيد صفته ، وثانيهما أن تكون

موصولة ، فيكون عتيد محتملاً الثلاثة أوجه (1)

أحدها : أن يكون خبراً بعد خبر والخبر الأول ﴿ مَا لَدَيَّ ﴾ معناه هذا الذي هو لدي وهو عتيد وثانيها : أن يكون عتيد هو الخبر لا غير ، و ﴿ مَا لَدَيَّ ﴾ يقع كالوصف المميز للعتيد عن غيره كما تقول هذا الذي عند زيد وهذا الذي يجيئني عمرو فيكون الذي عندي والذي يجيئني لتمييز المشار إليه عن غيره ثم يخبر عنه بما بعده ثم يقال للسائق أو الشهيد ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾ فيكون هو أمراً لواحد ، وفيه وجهان أحدهما أنه ثنى تكرار الأمر كما ألق ألق ، وثانيهما عادة العرب ذلك .

وقوله ﴿ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ الكفار يحتمل أن يكون من الكفران فيكون بمعنى كثير الكفران ، ويحتمل أن يكون من الكفر ، فيكون بمعنى شديد الكفر ، والتشديد في لفظة فعال يدل على شدة في المعنى ، والعنيد فعيل بمعنى فاعل من عند عنوداً ومنه العناد ، فإن كان الكفار من الكفران ، فهو أنكر نعم الله مع كثرتها .

---

(1) يلاحظ أن المفسر لم يذكر إلا وجهين ، ولعل الوجه الثالث أن يكون بدلا من اسم الإشارة وما لَدَيَّ هو الخبر .

وقوله تعالى : ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ .

فيه وجهان أحدهما : كثير المنع للمال الواجب ، وإن كان من الكفر ، فهو أنكر دلائل وحدانية الله مع قوتها وظهورها ، فكان شديد الكفر عنيداً حيث أنكر الأمر اللائح والحق الواضح ، وكان كثير الكفران لوجود الكفران منه عند كل نعمة عنيد ينكرها مع كثرتها عن المستحق الطالب ، والخير هو المال ، فيكون كقوله تعالى : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * الذين لاَ يُؤْتُونَ الزكواة ﴾ [فصلت : 6 ، 7] حيث بدأ ببيان الشرك ، وثنى بالامتناع من إيتاء الزكاة ، وعلى هذا ففيه مناسبة شديدة إذا جعلنا الكفار من الكفران ، كأنه يقول : كفر أنعم الله تعالى ، ولم يؤد منها شيئاً لشكر أنعمه ثانيهما : شديد المنع من الإيمان فهو مناع للخير وهو الإيمان الذي هو خير محض من أن يدخل في قلوب العباد ، وعلى هذا ففيه مناسبة شديدة إذا جعلنا الكفار من الكفر ، كأنه يقول : كفر بالله ، ولم يقتنع بكفره حتى منع الخير من الغير .

وقوله تعالى : ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ .

فيه وجهان أحدهما : أن يكون قوله ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ مرتباً على ﴿ مَّنَّاعٍ ﴾ بمعنى مناع الزكاة ، فيكون معناه لم يؤد الواجب ، وتعدى ذلك حتى أخذ الحرام أيضاً بالربا والسرقة ، كما كان عادة المشركين وثانيهما : أن يكون قوله ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ مرتباً على ﴿ مَّنَّاعٍ ﴾ بمعنى منع الإيمان ، كأنه يقول : منع الإيمان ولم يقنع به حتى تعداه ، وأهان من آمن وآذاه ، وأعان من

كفر وآواه .

وقوله تعالى : ﴿ مُرِيبٍ ﴾ .

(12/722)

فيه وجهان أحدهما : ذو ريب ، وهذا على قولنا : الكفار كثير الكفران ، والمناع مانع الزكاة ، كأنه يقول : لا يعطي الزكاة لأنه في ريب من الآخرة ، والثواب فيقول : لا أقرب مالاً من غير عوض وثانيهما : ﴿ مُرِيبٍ ﴾ يوقع الغير في الريب بإلقاء الشبهة ، والإرابة جاءت بالمعنيين جميعاً ، وفي الآية ترتيب آخر غير ما ذكرناه ، وهو أن يقال : هذا بيان أحوال الكفر بالنسبة إلى الله ، وإلى رسول الله ، وإلى اليوم الآخر ، فقوله ﴿ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ إشارة إلى حاله مع الله يكفر بعد ويعاند آياته ، وقوله ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ ﴾ إشارة إلى حاله مع رسول الله ، فيمنع الناس من اتباعه ، ومن الإنفاق على من عنده ، ويتعدى بالإيذاء وكثرة الهذاء ، وقوله ﴿ مُرِيبٍ ﴾ إشارة إلى حاله بالنسبة إلى اليوم الآخر يريب فيه ويرتاب ، ولا يظن أن الساعة قائمة ، فإن قيل قوله تعالى : ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ إلى غير ذلك يوجب أن يكون الإلقاء خاصاً بمن اجتمع فيه هذه الصفات بأسرها ، والكفر كاف في إيراث الإلقاء في جهنم والأمر به ، فنقول قوله تعالى : ﴿ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾

ليس المراد منه الوصف المميز ، كما يقال : أعط العالم الزاهد ، بل المراد الوصف المبين بكون الموصوف موصوفاً به إما على سبيل المدح ، أو على سبيل الذم ، كما يقال : هذا حاتم السخي ، فقوله ﴿ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ يفيد أن الكفار عنيد ومناع ، فالكفار كافر ، لأن آيات الوحدانية ظاهرة ، ونعم الله تعالى على عبده وافرة ، وعنيد ومناع للخير ، لأنه يمدح دينه ويذم دين الحق فهو يمنع ، ومريب لأنه شاك في الحشر ، فكل كافر فهو موصوف بهذه الصفات .

الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (26)

(13/722)

فيه ثلاثة أوجه أحدها : أنه بدل من قوله ﴿ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [ق : 24] ثانيها : أنه عطف على ﴿ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ ثالثها : أن يكون عطفاً على قوله ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ ﴾ كأنه قال : (ألقيا في جهنم كل كفار عنيد) أي والذي جعل مع الله إلها آخر فألقياه بعد ما ألقيتموه في جهنم في عذاب شديد من عذاب جهنم .

ثم قال تعالى :

قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (27)

وهو جواب لكلام مقدر ، كأن الكافر حينما يلقى في النار يقول : ربنا أطغاني شيطاني ، فيقول الشيطان : ربنا ما أطغيته ، يدل عليه قوله تعالى بعد هذا ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ ﴾ [ق : 28] لأن الاختصام يستدعي كلاماً من الجانبين وحينئذ هذا ، كما قال الله تعالى في هذه السورة وفي ص ﴿ قَالُواْ بَلْ أَنتُمْ لاَ مَرْحَباً بِكُمْ ﴾ [ص : 60] وقوله تعالى : ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هذا فَزِدْهُ ﴾ إلى أن قال : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النار ﴾ [ص : 61 ، 64] وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال الزمخشري : المراد بالقرين في الآية المتقدمة هو الشيطان لا الملك الذي هو شهيد وقعيد ، واستدل عليه بهذا .

(14/722)

وقال غيره ، المراد الملك لا الشيطان ، وهذا يصلح دليلاً لمن قال ذلك ، وبيانه هو أنه في الأول لو كان المراد الشيطان ، فيكون قوله ﴿ هذا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ [ق : 23] معناه هذا الشخص عندي عتيد متعد للنار اعتدته بإغوائي ، فإن الزمخشري صرّح في تفسير تلك بهذه ، وعلى هذا فيكون قوله ﴿ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ مناقضاً لقوله اعتدته وللزمخشري

أن يقول الجواب : عنه من وجهين أحدهما : أن يقول إن الشيطان يقول اعتدته بمعنى زينت له الأمر وما ألجأته فيصح القولان من الشيطان وثانيهما : أن تكون الإشارة إلى حالين : ففي الحالة الأولى إنما فعلت به ذلك إظهاراً للانتقام من بني آدم ، وتصحيحاً لما قال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : 82] ثم إذا رأى العذاب وأنه معه مشترك وله على الإغواء عذاب ، كما قال تعالى : ﴿ فالحق والحق أَقُولُ * لأَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ ﴾ [ص : 84 ، 85] فيقول ﴿ رَّبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ فيرجع عن مقالته عند ظهور العذاب .

المسألة الثانية :

قال ههنا ﴿ قَالَ قَرِينُهُ ﴾ من غير واو ، وقال في الآية الأولى ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ ﴾ [ق : 23] بالواو العاطفة ، وذلك لأن في الأول الإشارة وقعت إلى معنيين مجتمعين ، وأن كل نفس في ذلك الوقت تجيء ومعها سائق ، ويقول الشهيد ذلك القول ، وفي الثاني لم يوجد هناك معنيان مجتمعان حتى يذكر بالواو ، والفاء في قوله ﴿ فألقياه فِى العذاب ﴾ [ق : 26] لا يناسب قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَّبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ مناسبة مقتضية للعطف بالواو .

المسألة الثالثة :

القائل ههنا واحد ، وقال ﴿ رَبَّنَا ﴾ ولم يقل رب ، وفي كثير من المواضع مع كون القائل واحداً ، قال رب ، كما في قوله ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف : 143] وقول نوح ﴿ رَبِّ اغفر لِي ﴾ [نوح : 28] وقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ السجن أَحَبُّ إِلَيَّ ﴾ [يوسف : 33] وقوله ﴿ قَالَتْ رَبِّ ابن لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الجنة ﴾ [التحريم : 11] إلى غير ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنظِرْنِي إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [ص : 79] نقول في جميع تلك المواضع القائل طالب ، ولا يحسن أن يقول الطالب : يا رب عمرني واخصصني وأعطني كذا ، وإنما يقول : أعطنا لأن كونه رباً لا يناسب تخصيص الطالب ، وأما هذا الموضع فموضع الهيبة والعظمة وعرض الحال دون الطلب فقال : ﴿ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ولكن كَانَ فِي ضلال بَعِيدٍ ﴾ .

يعني أن ذلك لم يكن بإطغائه ، وإنما كان ضالاً متغلغلاً في الضلال فطغى ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

ما الوجه في اتصاف الضلال بالبعيد ؟ نقول الضال يكون أكثر ضلالاً عن الطريق ، فإذا تمادى في الضلال وبقي فيه مدة يبعد عن المقصد كثيراً ، وإذا علم الضلال قصر في الطريق من قريب فلا يبعد عن المقصد كثيراً ، فقوله ﴿ ضلال بَعِيدٍ ﴾ وصف المصدر بما يوصف به الفاعل ، كما يقال كلام صادق وعيشة راضية أي ضلال ذو بعد ، والضلال إذا بعد مداه وامتد الضال فيه يصير بيناً ويظهر الضلال ، لأن من حاد عن الطريق وأبعد عنه تتغير

عليه السمات والجهات ولا يرى عين المقصد ويتبين له أنه ضل عن الطريق ، وربما يقع في أودية ومفاوز ويظهر له أمارات الضلال بخلاف من حاد قليلاً ، فالضلال وصفه الله تعالى بالوصفين في كثير من المواضع فقال تارة في ضلال مبين وأخرى قال : ﴿ فِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ .

المسألة الثانية :

(16/722)

قوله تعالى : ﴿ ولكن كَانَ فِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ إشارة إلى قوله ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ [الحجر : 40] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سلطان ﴾ [الحجر : 42] أي لم يكونوا من العباد ، فجعلهم أهل العناد ، ولو كان لهم في سبيلك قدم صدق لما كان لي عليهم من يد ، والله أعلم .

المسألة الثالثة :

كيف قال ما أطغيته مع أنه قال : ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر : 39] قلنا الجواب عنه من ثلاثة أوجه وجهان : قد تقدما في الاعتذار عما قاله الزمخشري والثالث : هو أن يكون المراد من قوله ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ ﴾ أي لأديمنهم على الغواية كما أن الضال إذا قال له شخص أنت

على الجادة ، فلا تتركها ، يقال إنه يضله كذلك ههنا ، وقوله ﴿ مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ أي ما كان ابتداء الإطغاء مني .

ثم قال تعالى : ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ ﴾ .

قد ذكرنا أن هذا دليل على أن هناك كلاماً قبل قوله ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ [ق : 27] وهو قول الملقى في النار ربنا أطغاني وقوله ﴿ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ ﴾ يفيد مفهومه أن الاختصام كان ينبغي أن يكون قبل الحضور والوقوف بين يدي .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بالوعيد ﴾ .

(17/722)

تقرير للمنع من الاختصام وبيان لعدم فائدته ، كأنه يقول قد قلت إنكم إذا اتبعتم الشيطان تدخلون النار وقد اتبعتموه ، فإن قيل ما حكم الباء في قوله تعالى : ﴿ بالوعيد ﴾ ؟ قلنا فيها وجوه أحدها : أنها مزيدة كما في قوله تعالى ﴿ تَنبُتُ بالدهن ﴾ [المؤمنون : 20] ، على قول من قال إنها هناك زائدة ، وقوله ﴿ وكفى بالله ﴾ [النساء : 6] وثانيها : معدية فقدمت بمعنى تقدمت كما في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ الله ﴾ [الحجرات : 1] ثالثها : في الكلام إضمار تقديره ، وقد قدمت إليكم مقترناً بالوعيد

﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ﴾ [ق : 29] فيكون المقدم هو قوله ، ما يبدل القول لدي ، رابعها : هي المصاحبة يقول القائل : اشتريت الفرس بلجامه وسرجه أي معه فيكون كأنه تعالى قال : قدمت إليكم ما يجب مع الوعيد على تركه بالإنذار .

وقوله تعالى : ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ﴾ يحتمل وجهين :

(18/722)

أحدهما : أن يكون قوله ﴿ لَدَيَّ ﴾ متعلقاً بالقول أي ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ﴾ وثانيهما : أن يكون ذلك متعلقاً بقوله ﴿ مَا يُبَدَّلُ ﴾ أي لا يقع التبديل عندي ، وعلى الوجه الأول في القول الذي لديه وجوه أحدها : هو أنهم لما قالوا حتى يبدل ما قيل في حقهم ﴿ أُلْقِيَا ﴾ [ق : 24] بقول الله بعد اعتذارهم لا تلقياه فقال تعالى : ما يبدل هذا القول لدي ، وكذلك قوله ﴿ وَقِيلَ ادخلوا أبواب جَهَنَّمَ ﴾ [الزمر : 72] لا تبديل له ثانيها : هو قوله ﴿ ولكن حَقَّ القول مِنْى لأَمْلانَّ جَهَنَّمَ ﴾ [السجدة : 13] أي لا تبديل لهذا القول ثالثها : لا خلف في إيعاد الله تعالى كما لا إخلاف في ميعاد الله ، وهذا يرد على المرجئة حيث قالوا ما ورد في القرآن من الوعيد ، فهو تخويف لا يحقق الله شيئاً منه ، وقالوا الكريم إذا وعد أنجز ووفى ، وإذا أوعد أخلف وعفا رابعها : لا يبدل القول السابق أن هذا شقي ، وهذا سعيد ،

حين خلقت العباد ، قلت هذا شقي ويعمل عمل الأشقياء ، وهذا تقي ويعمل عمل الأتقياء ، وذلك القول عندي لا تبديل له بسعي ساع ولا سعادة إلا بتوفيق الله تعالى ، وأما على الوجه الثاني ففي ﴿ مَا يُبَدَّلُ ﴾ وجوه أيضاً أحدها : لا يكذب لدي ولا يفتري بين يدي ، فإني عالم علمت من طغى ومن أطغى ، ومن كان طاغياً ومن كان أطغى ، فلا يفيدكم قولكم أطغاني شيطاني ، ولا قول الشيطان ﴿ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ [ق : 27] ثانيها : إشارة إلى معنى قوله تعالى : ﴿ ارجعوا وَرَاءكُمْ فالتمسوا نُوراً ﴾ [الحديد : 13] كأنه تعالى قال لو أردتم أن لا أقول فألقياه في العذاب الشديد كنتم بدلتم هذا من قبل بتبديل الكفر بالإيمان قبل أن تقفوا بين يدي ، وأما الآن فما يبدل القول لدي كما قلنا في قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ ﴾ [ق : 28] المراد أن اختصامكم كان يجب أن يكون قبل هذا حيث قلت ﴿ إِنَّ الشيطان لَكُمْ عَدُوٌّ فاتخذوه عَدُوّاً ﴾ [فاطر

(19/722)

: 6] ثالثها : معناه لا يبدل الكفر بالإيمان لدي ، فإن الإيمان عند اليأس غير مقبول فقولكم ربنا وإلهنا لا يفيدكم فمن تكلم بكلمة الكفر لا يفيده قوله ربنا ما أشركنا وقوله ربنا آمنا وقوله تعالى : ﴿ مَا يُبَدَّلُ القول ﴾ إشارة إلى نفي الحال كأنه تعالى يقول ما يبدل اليوم لدي

القول ، لأن ما ينفي بها الحال إذا دخلت على الفعل المضارع ، يقول القائل ماذا تفعل غداً ؟ يقال ما أفعل شيئاً أي في الحال ، وإذا قال القائل ماذا يفعل غداً ، يقال لا يفعل شيئاً أو لن يفعل شيئاً إذا أُريد زيادة بيان النفي ، فإن قيل هل فيه بيان معنوي يفيد افتراق ما ولا في المعنى نقول : نعم ، وذلك لأن كلمة لا أدل على النفي لكونها موضوعة للنفي وما في معناه كالنهي خاصة لا يفيد الإثبات إلا بطريق الحذف أو الإضمار وبالجملة فبطريق المجاز كما في قوله

﴿ لَا أُقْسِمُ ﴾ [البلد : 1] وأما ما فغير متمحضة للنفي لأنها واردة لغيره من المعاني حيث تكون اسماً والنفي في الحال لا يفيد النفي المطلق لجواز أن يكون مع النفي في الحال الإثبات في الاستقبال ، كما يقال ما يفعل الآن شيئاً وسيفعل إن شاء الله ، فاختص بما لم يتمحض نفياً حيث لم تكن متمحضة للنفي لا يقال إن لا للنفي في الاستقبال والإثبات في الحال فاكتفى في استقبال بما لم يتمحض نفياً لأنا نقول ليس كذلك إذ لا يجوز أن يقال لا يفعل زيد ويفعل الآن نعم يجوز أن يقال لا يفعل غداً ويفعل الآن لكون قولك غداً يجعل الزمان مميزاً فلم يكن قولك لا يفعل للنفي في الاستقبال بل كان للنفي في بعض أزمنة الاستقبال ، وفي مثالنا قلنا ما يفعل وسيفعل وما قلنا سيفعل غداً وبعد غد ، بل ههنا نفينا في الحال وأثبتنا في الاستقبال من غير تمييز زمان من أزمة الاستقبال عن زمان ، ومثاله في العكس أن يقال لا يفعل زيد وهو يفعل من غير تعيين وتمييز ومعلوم أن ذلك غير جائز .

وقوله تعالى ﴿ وَمَا أَنَاْ بظلام للّعَبِيدِ ﴾ مناسب لما تقدم على الوجهين جميعاً ، أما إذا قلنا بأن المراد من قوله ﴿ لَدَىَّ ﴾ أن قوله ﴿ فألقياه ﴾ [ق : 26] وقول القائل في قوله : ﴿ قِيلَ ادخلوا أبواب جَهَنَّمَ ﴾ [الزمر : 72] لا تبديل له فظاهر ، لأن الله تعالى بيّن أن قوله : ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ ﴾ [ق : 24] لا يكون إلا للكافر العنيد فلا يكون هو ظلاماً للعبيد .

وأما إذا قلنا بأن المراد ﴿ مَا يُبَدَّلُ القول لَدَىَّ ﴾ بل كان الواجب التبديل قبل الوقوف بين يدي فكذلك لأنه أنذر من قبل ، وما عذب إلا بعد أن أرسل وبيّن السبل ، وفيه مباحث لفظية ومعنوية .

أما اللفظية فهي من الباء من قوله ليس ﴿ بظلام ﴾ وفي اللام من قوله ﴿ للّعَبِيدِ ﴾ أما الباء فنقول الباء تدخل في المفعول به حيث لا يكون تعلق الفعل به ظاهراً ولا يجوز إدخالها فيه حيث يكون في غاية الظهور ، ويجوز الإدخال والترك حيث لا يكون في غاية الظهور ولا في غاية الخفاء ، فلا يقال ضربت بزيد لظهور تعلق الفعل بزيد ، ولا يقال خرجت وذهبت زيداً بدل قولنا خرجت وذهبت بزيد لخفاء تعلق الفعل بزيد فيهما ، ويقال شكرته

وشكرت له للتوسط فكذلك خبر ما لما كان مشبهاً بالمفعول ، وليس في كونه فعلاً غير ظاهر غاية الظهور ، لأن إلحاق الضمائر التي تلحق بالأفعال الماضية كالتاء والنون في قولك : لست ولستم ولستن ولسنا يصحح كونها فعلاً كما في قولك كنت وكنا ، لكن في الاستقبال يبين الفرق حيث نقول يكون وتكون ، وكن ، ولا نقول ذلك في ليس وما يشبه بها فصارتا كالفعل الذي لا يظهر تعلقه بالمفعول غاية الظهور ، فجاز أن يقال ليس زيد جاهلاً وليس زيد بجاهل ، كما يقال مسحته ومسحت به وغير ذلك مما يعدى بنفسه وبالباء ، ولم يجز أن يقال كان زيد بخارج وصار عمرو بدارج لأن صار وكان فعل ظاهر غاية الظهور بخلاف ليس وما النافية ، وهذا يؤيد قول من قال : (ما هذا بشر) وهذا ظاهر .

(21/722)

البحث الثاني : لو قال قائل : كان ينبغي أن لا يجوز إخلاء خبر ما عن الباء ، كما لا يجوز إدخال الباء في خبر كان وخبر ليس يجوز فيه الأمران وتقرير هذا السؤال هو أن كان لما كان فعلاً ظاهراً جعلناه بمنزلة ضرب حيث منعنا دخول الباء في خبره كما منعناه في مفعوله ، وليس لما كان فعلاً من وجه نظراً إلى قولنا لست ولسنا ولستم ، ولم يكن فعلاً ظاهراً نظراً إلى صيغ الاستقبال والأمر جعلناه متوسطاً وجوزنا إدخال الباء في خبره وتركه ، كما قلنا

في مفعول شكرته وشكرت له ، وما لما لم يكن فعلاً بوجه كان ينبغي أن يكون بمنزلة الفعل الذي لا يتعدى إلى المفعول إلا بالحرف وكان ينبغي أن لا يجيء خبره إلا مع الباء كما لا يجيء مفعول ذهب إلا مع الباء ، ويؤيد هذا أنا فرقنا بين ما وليس وكان ، وجعلنا لكل واحدة مرتبة ليست للأخرى فجوزنا تأخير كان في اللفظ حيث جوزنا أن يقول القائل زيد خارجاً كان وما جوزنا زيد خارجاً ليس ، لأن كان فعل ظاهر وليس دونه في الظهور ، وما جوزنا تأخير ما عن أحد شطري الكلام أيضاً بخلاف ليس ، حيث لا يجوز أن يقول القائل : زيد ما بظلام ، إلا أن يعيد ما يرجع إليه فيقول زيد ما هو بظلام فصار بينهما ترتيب ما يوجه ، وليس يؤخر عن أحد الشطرين ولا يؤخر في الكلام بالكلية ، وكان يؤخر بالكلية لما ذكرنا من الظهور والخفاء ، فكذلك القول في إلحاق الباء كان ينبغي أن لا يصح إخلاء خبر ما عن الباء ، وفي ليس يجوز الأمران ، وفي كان لا يجوز الإدخال ، وهذا هو المعتمد عليه في لغة بني تميم حيث قالوا : إن ما بعد ما إذا جعل خبراً يجب إدخال الباء عليه فإن لم تدخل عليه يكون ذلك معرباً على الابتداء أو على وجه آخر ولا يكون خبراً ، والجواب عن السؤال هو أن نقول الأكثر إدخال الباء في خبر ما ولا سيما في القرآن قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِي العمى عَن ضلالتهم ﴾ [الروم : 53] ، ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ ﴾ [فاطر : 22] ، ﴿ وَمَا

هُم بخارجين ﴾ [البقرة : 167] ، ﴿ وَمَا أَنَاْ بظلام ﴾ وأما الوجوب فلا لأن ما أشبه ليس في المعنى في الحقيقة وخالفها في العوارض وهو لحوق التاء والنون ، وأما في المعنى فهما لنفي الحال فالشبه مقتض لجواز الإخلاء والمخالفة مقتضية لوجوب الإدخال ، لكن ذلك المقتضي أقوى لأنه راجع إلى الأمر الحقيقي ، وهذا راجع إلى الأمر العارضي وما بالنفس أقوى مما بالعارض ، وأما التقديم والتأخير فلا يلزم منه وجوب إدخال الباء ، وأما الكلام في اللام فنقول اللام لتحقيق معنى الإضافة يقال غلام زيد وغلام لزيد ، وهذا في الإضافات الحقيقية بإثبات التنوين فيه ، وأما في الإضافات اللفظية كقولنا : ضارب زيد وقاتل عمرو ، فإن الإضافة فيه غير معنوية فإذا خرج الضارب عن كونه مضافاً بإثبات التنوين فقد كان يجب أن يعاد الأصل وينصب ما كان مضافاً إليه الفاعل بالمفعول به ولا يؤتى باللام لأنه حينئذ لم تبق الإضافة في اللفظ ، ولم تكن الإضافة في المعنى ، غير أن اسم الفاعل منحط الدرجة عن الفعل فصار تعلقه بالمفعول أضعف من تعلق الفعل بالمفعول ، وصار من باب الأفعال الضعيفة التعلق حيث بينا جواز تعديتها إلى المفعول بحرف وغير حرف ، فلذلك جاز أن يقال : ضارب زيد أو ضارب لزيد ، كما جاز : مسحته ومسحت به وشكرته وشكرت له ، وذلك إذا تقدم المفعول كما في قوله تعالى :

﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ [يوسف : 43] للضعف ، وأما المعنوية فمباحث :

الأول : الظلام مبالغة في الظالم ويلزم من إثباته إثبات أصل الظلم إذا قال القائل هو كذاب يلزم أن يكون كاذباً كثر كذبه ، ولا يلزم من نفيه نفي أصل الكذب لجواز أن يقال فلان ليس بكذاب كثير الكذب لكنه يكذب أحياناً ففي قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنَاْ بظلام ﴾ لا يفهم منه نفي أصل الظلم والله ليس بظالم فما الوجه فيه ؟ نقول : الجواب عنه من ثلاثة أوجه :

أحدها : أن الظلام بمعنى الظالم كالتمار بمعنى التامر وحينئذ يكون اللام في قوله : ﴿ للّعَبِيدِ ﴾ لتحقيق النسبة لأن الفعال حينئذ بمعنى ذي ظلم ، وهذا وجه جيد مستفاد من الإمام زين الدين أدام الله فوائده .

والثاني : ما ذكره الزمخشري وهو أن ذلك أمر تقديري كأنه تعالى يقول : لو ظلمت عبدي الضعيف الذي هو محل الرحمة لكان ذلك غاية الظلم ، وأما أنا بذلك فيلزم من نفي كونه ظلاماً نفي كونه ظالماً ، ويحقق هذا الوجه إظهار لفظ العبيد حيث يقول : ﴿ مَا أَنَاْ بظلام للّعَبِيدِ ﴾ أي في ذلك اليوم الذي امتلأت جهنم مع سعتها حتى تصيح وتقول لم يبق لي طاقة بهم ، ولم يبق في موضع لهم فهل من مزيد استفهام استكثار ، فذلك اليوم مع أني ألقي فيها عدداً لا حصر له لا أكون بسبب كثرة التعذيب كثير الظلم وهذا مناسب ، وذلك لأنه تعالى

خصص النفي بالزمان حيث قال : ما أنا بظلام يوم نقول : أي وما أنا بظلام في جميع الأزمان أيضاً ، وخصص بالعبيد حيث قال : ﴿ وَمَا أَنَاْ بظلام للّعَبيدِ ﴾ ولم يطلق ، فكذلك خصص النفي بنوع من أنواع الظلم ولم يطلق ، فلم يلزم منه أن يكون ظالماً في غير ذلك الوقت ، وفي حق غير العبيد وإن خصص والفائدة في التخصيص أنه أقرب إلى التصديق من التعميم .

والثالث : هذا يدل على أن التخصيص بالذكر لا يدل على نفي ما عداه ، لأنه نفى كونه ظلاماً ولم يلزم منه نفي كونه ظالماً ، ونفي كونه ظلاماً للعبيد ، ولم يلزم منه نفي كونه ظلاماً لغيرهم ، كما قال في حق الآدمي :

(24/722)

﴿ فَمِنْهُمْ ظالم لّنَفْسِهِ ﴾ [فاطر : 32] .

البحث الثاني : قال ههنا : ﴿ وَمَا أَنَاْ بظلام للّعَبيدِ ﴾ من غير إضافة ، وقال : ﴿ مَا أَنتَ بِهَادِى العمى ﴾ [النمل : 81] ، ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى القبور ﴾ [فاطر : 22] على وجه الإضافة ، فما الفرق بينهما ؟ نقول الكلام قد يخرج أولاً مخرج العموم ، ثم يخصص لأمر ما لا لغرض التخصيص ، يقول القائل : فلان يعطي ويمنع ويكون غرضه

التعميم ، فإن سأل سائل : يعطي من ، ويمنع من ؟ يقول : زيداً وعمراً ، ويأتي بالمخصص لا لغرض التخصيص ، وقد يخرج أولاً مخرج الخصوص ، فيقول فلان يعطي زيداً ماله إذا علمت هذا فقوله : ﴿ وَمَا أَنَاْ بظلام ﴾ كلام لو اقتصر عليه لكان للعموم ، فأتى بلفظ العبيد لا لكون عدم الظلم مختصاً بهم ، بل لكونهم أقرب إلى كونهم محل الظلم من نفسه تعالى ، وأما النبي صلى الله عليه وسلم فكان في نفسه هادياً ، وإنما أراد نفي ذلك الخاص فقال : ﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِى العمى ﴾ وما قال : ما أنت بهاد ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ الله بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر : 36] .

(25/722)

البحث الثالث : العبيد يحتمل أن يكون المراد منه الكفار ، كما في قوله تعالى : ﴿ ياحسرة عَلَى العباد مَا يَأْتِيهِمْ مّن رَّسُولٍ ﴾ [ياس : 30] يعني أعذبهم وما أنا بظلام لهم ، ويحتمل أن يكون المراد منه المؤمنين ووجهه هو أن الله تعالى يقول : لو أبدلت القول ورحمت الكافر ، لكنت في تكليف العباد ظالماً لعبادي المؤمنين ، لأني منعتهم من الشهوات لأجل هذا اليوم ، فإن كان ينال من لم يأت بما أتى المؤمن ما يناله المؤمن ، لكان إتيانه بما أتى به من الإيمان والعبادة غير مفيد فائدة ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ لاَ يَسْتَوِى أصحاب النار وأصحاب

الجنة أصحاب الجنة هُمُ الفائزون ﴾ [الحشر : 20] ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الذين يَعْلَمُونَ والذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : 9] ، وقوله تعالى : ﴿ لاَّ يَسْتَوِي القاعدون مِنَ المؤمنين غَيْرُ أُوْلِي الضرر ﴾ [النساء : 95] ويحتمل أن يكون المراد التعميم .

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (30)

العامل في ﴿ يَوْمٍ ﴾ ماذا ؟ فيه وجوه : الأول : ما أنا بظلام مطلقاً .

(26/722)

والثاني : الوقت ، حيث قال ما أنا يوم كذا ، ولم يقل : ما أن بظلام في سائر الأزمان ، وقد تقدم بيانه ، فإن قيل فما فائدة التخصيص ؟ نقول النفي الخاص أقرب إلى التصديق من النفي العام لأن المتوهم ذلك ، فإن قاصر النظر يقول : يوم يدخل الله عبده الضعيف جهنم يكون ظالماً له ، ولا يقول : بأنه يوم خلقه يرزقه ويربيه يكون ظالماً ، ويتوهم أنه يظلم عبده بإدخاله النار ، ولا يتوهم أنه يظلم نفسه أو غير عبيده المذكورين ، ويتوهم أنه من يدخل خلقاً كثيراً لا يجوزه حد ، ولا يدركه عد النار ، ويتركهم فيها زماناً لا نهاية له كثير الظلم ، فنفى ما يتوهم دون ما لا يتوهم ، وقوله : ﴿ هَلِ امتلأت ﴾ بيان لتصديق قوله تعالى :

﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ ﴾ ، وقوله : ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ فيه وجهان : أحدهما : أنه لبيان استكثارها الداخلين ، كما أن من يضرب غيره ضرباً مبرحاً ، أو يشتمه شتماً قبيحاً فاحشاً ، ويقول المضروب : هل بقي شيء آخر ! ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ لأُمْلأَنَّ ﴾ لأن الامتلاء لا بد من أن يحصل ، فلا يبقى في جهنم موضع خال حتى تطلب المزيد .

والثاني : هو أنها تطلب الزيادة ، وحينئذ لو قال قائل فكيف يفهم مع هذا معنى قوله تعالى : ﴿ لأَمْلأَنَّ ﴾ ؟ نقول : الجواب : عنه من وجوه : أحدها : أن هذا الكلام ربما يقع قبل إدخال الكل ، وفيه لطيفة ، وهي أن جهنم تتغيظ على الكفار فتطلبهم ، ثم يبقى فيها موضع لعصاة المؤمنين ، فتطلب جهنم امتلاءها لظنها بقاء أحد من الكفار خارجاً ، فيدخل العاصي من المؤمنين ، فيبرد إيمانه حرارتها ، ويسكن إيقانه غيظها فتسكن ، وعلى هذا يحمل ما ورد في بعض الأخبار ، أن جهنم تطلب الزيادة حتى يضع الجبار قدمه ، والمؤمن جبار متكبر على ما سوى الله تعالى ذليل متواضع لله .

الثاني : أن تكون جهنم تطلب أولاً سعة في نفسها ، ثم مزيداً في الداخلين لظنها بقاء أحد من الكفار .

(27/722)

الثالث : أن الملء له درجات ، فإن الكيل إذا ملىء من غير كبس صح أن يقال : ملىء وامتلأ ، فإذا كبس يسع غيره ولا ينافي كونه ملآن أو لا ، فكذلك في جهنم ملأها الله ثم تطلب زيادة تضييقاً للمكان عليهم وزيادة في التعذيب ، والمزيد جاز أن يكون بمعنى المفعول ، أي هل بقي أحد تزيد به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 142 150. ﴾

(28/722)

وقال القرطبى :

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (23) ﴾

قوله تعالى :] ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ ﴾ يعني الملَك الموكّل به في قول الحسن وقتادة والضحاك .

﴿ هذا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ أي هذا ما عندي من كتابة عمله مُعَدّ محفوظ .

وقال مجاهد : يقول هذا الذي وكلتني به من بني آدم قد أحضرته وأحضرت ديوان عمله .

وقيل : المعنى هذا ما عندي من العذاب حاضر .

وعن مجاهد أيضاً : قرينه الذي قيّض له من الشياطين .

وقال ابن زيد في رواية ابن وهب عنه : إنه قرينه من الإنس ، فيقول الله تعالى لقرينه : ﴿

أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾ قال الخليل والأخفش : هذا كلام العرب الفصيح أن تخاطب الواحد بلفظ الإثنين فتقول : ويلك ارحلاها وازجراها ، وخذاه وأطلقاه للواحد .

قال الفرّاء : تقول للواحد قُوما عنا ، وأصل ذلك أن أدنى أعوان الرجل في إبله وغنمه ورفقته في سفره اثنان فجرى كلام الرجل على صاحبيه ، ومنه قولهم للواحد في الشعر : خليلي ، ثم يقول : يا صاح.

قال امرؤ القيس :

خَلِيلَيَّ مُرَّا بِي على أُمِّ جُنْدَبِ . . .
نُقَضِّ لُبَانَاتِ الفؤادِ المُعَذَّبِ

وقال أيضاً :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ . . .
بِسَقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

وقال آخر :

فإِنْ تَزْجُرانِي يا بنَ عَفَّانَ أَنْزَجِرْ . . .
وإِنْ تَدَعانِي أَحْمِ عِرْضاً مُمنَّعَا

وقيل : جاء كذلك لأن القرين يقع للجماعة والاثنين .

وقال المازني : : قوله : "أَلْقِيَا" يدل على أَلْقِ أَلْقِ .

وقال المبرد : هي تثنية على التوكيد ، المعنى أَلْقِ أَلْقِ فناب "أَلْقِيَا" مناب التكرار .

ويجوز أن يكون "أَلْقِيَا" تثنية على خطاب الحقيقة من قول الله تعالى يخاطب به الملَكين .

وقيل : هو مخاطبة للسائق والحافظ .

وقيل : إن الأصل أَلْقِينْ بالنون الخفيفة تقلب في الوقف ألفاً فحمل الوصل على الوقف .

(29/722)

وقرأ الحسن "أَلْقَيْنَ" بالنون الخفيفة نحو قوله : ﴿ وَلَيَكُوناً مِّن الصاغرين ﴾ [يوسف : 32] وقوله : ﴿ لَنَسْفَعاً ﴾ [العلق : 15] .

﴿ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ أي معاند ؛ قاله مجاهد وعكرمة .

وقال بعضهم : العنيد المعرض عن الحق ؛ يقال عَنَدَ يَعنِد بالكسر عُنُوداً أي خالف وردّ الحق وهو يعرفه فهو عَنِيد وعاند ، وجمع العَنِيد عُنُد مثل رغِيف ورُغُف .

﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ يعني الزكاة المفروضة وكل حقّ واجب .

﴿ مُعْتَدٍ ﴾ في منطقه وسيرته وأمره ؛ ظالم .

﴿ مُّرِيبٍ ﴾ شاكّ في التوحيد ؛ قاله الحسن وقتادة .

يقال : أراب الرجل فهو مُرِيب إذا جاء بالريبة .

وهو المشرك يدل عليه قوله تعالى : ﴿ الذي جَعَلَ مَعَ اللهِ إلها آخَرَ ﴾ .

وقيل : نزلت في الوليد بن المغيرة .

وأراد بقوله : ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ أنه كان يمنع بني أخيه من الإسلام .

﴿ فَأَلْقِيَاهُ فِي العذاب الشديد ﴾ تأكيد للأمر الأول .

﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ يعني الشيطان الذي قيض لهذا الكافر العنيد تبرأ منه وكذّبه .

﴿ ولكن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ عن الحق وكان طاغياً باختياره وإنما دعوته فاستجاب لي .

وقرينه هنا هو شيطانه بغير اختلاف .

حكاه المهدوي .

وحكى الثعلبي قال ابن عباس ومقاتل : قرينه الملك ؛ وذلك أن الوليد بن المغيرة يقول للملَك الذي كان يكتب سيئاته : ربِّ إنه أعجلني ، فيقول الملَك : ربنا ما أطغيته أي ما أعجلته .

وقال سعيد بن جبير : يقول الكافر ربّ إنه زاد عليّ في الكتابة ، فيقول الملَك : ربنا ما أطغيته أي ما زدت عليه في الكتابة ؛ فحينئذ يقول الله تعالى : ﴿ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ ﴾ يعني الكافرين وقرناءهم من الشياطين .

قال القشيري : وهذا يدل على أن القرين الشيطان .

﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بالوعيد ﴾ أي أرسلت الرسل .

وقيل : هذا خطاب لكل من اختصم .

وقيل : هو للاثنين وجاء بلفظ الجمع .

(30/722)

﴿ مَا يُبَدَّلُ القول لَدَيَّ ﴾ قيل هو قوله : ﴿ مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بالسيئة فَلاَ يجزى إِلاَّ مِثْلَهَا ﴾ [الأنعام : 160] وقيل هو قوله : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة : 13] .

وقال الفرّاء : ما يكذب عندي أي ما يزاد في القول ولا ينقص لعلمي بالغيب .

﴿ وَمَآ أَنَاْ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ أي ما أنا بمعذّب من لم يُجرم ، قاله ابن عباس .

وقد مضى القول في معناه في "الحج" وغيرها .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امتلأت وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾

قرأ نافع وأبو بكر "يَوْمَ يَقُولُ" بالياء اعتبارا بقوله : ﴿ لاَ تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ ﴾ .

الباقون بالنون على الخطاب من الله تعالى وهي نون العظمة .

وقرأ الحسن "يَوْمَ أَقُولُ" .

وعن ابن مسعود وغيره "يَوْمَ يُقَالُ" .

وانتصب "يَوْمَ" على معنى ما يبدّل القول لديّ يومَ .

وقيل : بفعل مقدر معناه : وأنذرهم ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امتلأت ﴾ لما سبق من وعده إياها أنه يملؤها .

وهذا الاْستفهام على سبيل التصديق لخبره ، والتحقيق لوعده ، والتقريع لأعدائه ، والتنبيه لجميع عباده .

"ونَقُولُ" جهنم ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ أي ما بقي فيّ موضع للزيادة .

كقوله عليه السلام : " هل تَرَكَ لنا عَقِيل من رَبْع أو منزل " أي ما ترك ؛ فمعنى الكلام الجحد .

ويحتمل أن يكون استفهاما بمعنى الاستزادة ؛ أي هل من مزيد فأزداد ؟ .

وإنما صلح هذا للوجهين ؛ لأن في الاستفهام ضرباً من الجحد .

وقيل : ليس ثَمَّ قول وإنما هو على طريق المثل ؛ أي أنها فيما يظهر من حالها بمنزلة الناطقة بذلك ؛ كما قال الشاعر :

امتلأَ الحوضُ وقال قَطْنِي . . .

مَهْلاً رُوَيْداً قَدْ مَلأْتَ بَطْنِي

وهذا تفسير مجاهد وغيره .

أي هل فيّ من مسلك قد امتلأت .

وقيل : يُنطق الله النار حتى تقول هذا كما تنطق الجوارح .

(31/722)

وهذا أصح على ما بيناه في سورة "الفُرقان" .

وفي صحيح مسلم والبخاري والترمذيّ عن أنس بن مالك : عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " لا تزال جهنم يُلْقَى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع ربُّ العزة فيها قَدَمه فيَنْزَوِي بعضها إلى بعض وتقول قَطْ قَطِ بعزتك وكرمك ولا يزال في الجنة فَضلٌ حتى يُنشىءَ الله لها خلقاً فيسكنَهم فَضْلَ الجنة " لفظ مسلم .

وفي رواية أخرى من حديث أبي هريرة : " وأما النار فلا تمتلىء حتى يضع الله عليها رِجْله يقول لها قَطْ قَطْ فهنالك تمتلىء ويَنْزَوِي بعضها إلى بعض فلا يظلم الله من خلقه أحداً وأما الجنة فإن الله ينشىء لها خلقاً " قال علماؤنا رحمهم الله : أما معنى القَدم هنا فهم قوم يُقدِّمهم الله إلى النار ، وقد سبق في علمه أنهم من أهل النار .

وكذلك الرِّجْل وهو العدد الكثير من الناس وغيرهم ؛ يقال : رأيت رِجْلاً من الناس ورِجْلاً من جَرَاد ، قال الشاعر :

فمرَّ بنا رِجْلٌ من الناس وانْزَوَى . . .

إليهم من الحيِّ اليمانينَ أَرْجُلُ

قبائلُ من لَخْمٍ وعُكْلٍ وحِمْيَرٍ . . .

على ابني نِزارٍ بالعَدَاوة أحْفَلُ

ويبين هذا المعنى ما روي عن ابن مسعود أنه قال : ما في النار بيت ولا سلسلة ولا مِقمَع ولا تابوت إلا وعليه اسم صاحبه ، فكل واحد من الخزنة ينتظر صاحبه الذي قد عرف اسمه وصفته ، فإذا استوفى (كل واحد منهم) ما أمر به وما ينتظره ولم يبق منهم أحد قال الخزنة : قَطْ قَطْ حسبُنا حسبنا أي اكتفينا اكتفينا ، وحينئذ تنزوي جهنم على من فيها وتنطبق إذ لم يبق أحد ينتظر .

فعبّر عن ذلك الجمع المنتظر بالرِّجل والقَدَم ؛ ويشهد لهذا التأويل قوله في نفس الحديث : " ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشىءَ الله لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنة " وقد زدنا هذا المعنى بياناً ومهدناه في كتاب الأسماء والصفات من الكتاب الأسنى والحمد لله .

(32/722)

وقال النضر بن شُمَيْل في معنى قوله عليه السلام : " حتى يَضعَ الجبَّار فيها قَدمَه " أي من سبق في علمه أنه من أهل النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(33/722)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾

أيْ ما تحدثُه بِهِ نفسُه وهو ما يخطرُ بالبالِ ، والوسوسةُ الصوتُ الخفيُّ ، ومنْهُ وسواسُ الحُليّ والضميرُ لِمَا إنْ جُعِلَتْ موصولةً والباءِ كما في صوّت بكذا أو للإنسانِ إنْ جُعِلَتْ مصدريةً والباءُ للتعديةِ ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريد ﴾ أيْ أعلمُ بحالِه ممنْ كانَ أقربَ إليهِ من حبلِ الوريدِ ، عبرَ عنْ قُربِ العلمِ بقُربِ الذاتِ تجوزاً لأنَّهُ موجبٌ لَهُ وحبلُ الوريدِ مثلٌ في فرطِ القربِ ، والحبلُ العِرْقُ وإضافتُه بيانيةٌ والوريدانِ عرقانِ مكتنفانِ بصفحتيْ العنقِ في مقدّمِها متصلانِ بالوتينِ يردانِ من الرأسِ إليهِ وقيلَ سمي وريداً لأنَّ الروحَ تَرِدُهُ ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى المتلقيان ﴾ منصوبٌ بما فِي أقربُ منْ مَعْنى الفعلِ والمَعْنى أنَّه لطيفٌ يتوصلُ علمُهُ إلى ما لا شيءَ أخفَى منهُ وهُوَ أقربُ منَ الإنسانِ منْ كُلِّ قريبٍ حينَ يتلقَّى ويتلقنُ الحفيظانِ مَا يتلفظُ بِهِ وفيهِ إيذانٌ بأنَّه تعالَى غنيٌّ عنِ استحفاظِهِمَا لإحاطةِ علمِهِ بما يخفَى عليهمَا وإنما ذلكَ لما

في كتبتهمَا وحفظِهمَا لأعمالِ العبدِ وعرضِ صحائِفِهما يومَ يقومُ الأشهادُ وعلمِ العبدِ بذلكَ مع علمِه بإحاطتِه تعالَى بتفاصيلِ أحوالِه خبراً من زيادةِ لطفٍ لهُ في الكفِّ عنِ السيئاتِ والرغبةِ في الحسناتِ ، وعنْهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ

(34/722)

" إنَّ مقعدَ ملكيكَ عَلى ثنيتيكَ ولسانُكَ قلمُهُمَا وريقُكَ مدادُهما وأنتَ تجري فيَما لا يعنيكَ لاَ تستحيْ منَ اللهِ ولاَ منْهُمَا " . وقَدْ جُوِّزَ أنْ يكونَ تلَقي الملكينِ بيانًا للقربِ عَلى معَنْى إنَّا أقربُ إليهِ مطلعونَ عَلى أعمالِه لأنَّ حفظتَنا وكتبتَنا موكلونَ بهِ ﴿ عَنِ اليمينِ وَعَنِ الشمالِ قَعِيدٌ ﴾ أيْ عنِ اليمينِ قعيدٌ وعنِ الشمالِ قعيدٌ أيْ مقاعدُ كالجليسِ بمعَنْى الجالسِ لفظاً ومَعْنى فحذفَ الأولُ لدلالةِ الثاني عليهِ كَما في قولِ مَن قالَ

رمَانِي بأَمْرٍ كُنْتُ مِنْهُ ووالدِي . . . بَريئاً ، ومِنْ أجْلِ الطَّوِيِّ رَمَانِي

وقيلَ : يطلقُ الفعيلِ عَلَى الواحدِ والمتعدّدِ كما في قولِه تعالَى : ﴿ وَالْمَلَئِكَةُ بَعْدَ ذلك ظَهِيرٌ ﴾

(35/722)

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ ﴾ مَا يرمي بِهِ منْ فيه منْ خيرٍ أوْ شرَ وَقُرِىءَ ما يُلْفظُ عَلى البناءِ للمفعولِ ﴿ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ ﴾ ملَكٌ يرقبُ قولَه ويكتُبه فإنْ كانَ خَيراً فهو صاحبُ اليمينِ بعينِه وإلاَّ فهُوَ صاحبُ الشمالِ ووجْهُ تغييرِ العنوانِ غنيٌّ عنِ البيانِ والإفرادُ معَ وقوفِهما معاً عَلَى ما صَدَرَ عنْهُ لمَا أنّ كلاً منهُمَا رقيبٌ لما فوضَ إليهِ لا لما فوضَ إلى صاحبِه كما ينبىءُ عنْهُ قولُه تعالَى : ﴿ عَتِيدٌ ﴾ أيْ معدٌّ مهيأٌ لكتابةِ ما أمرَ بِهِ من الخيرِ أو الشرِّ ومنْ لَم يتنبه لَه توهمَ أنَّ معناهُ رقيبانِ عتيدانِ وتخصيصُ القولِ بالذكرِ لإثباتِ الحكمِ في الفعلِ بدلالةِ النصِّ واختلفَ فيمَا يكتبانِه فقيلَ يكتبانِ كُلَّ شيءٍ حَتَّى أنينَهُ في مرضِه وقيلَ إنما يكتبانِ ما فيهِ أجرٌ أو وزرٌ وهو الأظهرُ كَما ينبىءُ عنْهُ قولُه صلى الله عليه وسلم : "كاتبُ الحسناتِ عَلى يمينِ الرجلِ وكاتبُ السيئاتِ على يسارِه وكاتبُ الحسناتِ أميرٌ عَلى كاتبِ السيئاتِ فإذا عملَ حسنةً كتبَها ملكُ اليمينِ عشراً وإذا عملَ سيئةً قالَ صاحبُ اليمينِ لصاحبِ الشمالِ دَعْهُ سبعَ ساعاتٍ لعلَّه يسبحُ أو يستغفرُ"

(36/722)

﴿ وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقّ ﴾ بعدَ ما ذُكرَ استبعادُهُم للبعثِ والجزاءِ وأزيحَ ذلكَ بتحقيقِ قدرتِه تعالَى وعلمِه وبيّنَ أنَّ جميعَ أعمالِهم محفوظةٌ مكتوبةٌ عليهمْ أتبعَ ذلك ببيانِ ما يلاقونَهُ لا محالةَ منَ الموتِ والبعثِ وما يتفرعُ عليهِ منَ الأحوالِ وَالأهوالِ وقد عبرَ عنْ وقوعِ كُلَ منَها بصيغةِ الماضِي إيذاناً بتحققِهَا وغايةِ اقترابِها ، وسكرةُ الموتِ شدتُهُ الذاهبةُ بالعقلِ والباءُ إمَّا للتعديةِ كَما في قولكَ جاءَ الرسولُ بالخبرِ والمَعْنى أحضرتْ سكرةُ الموتِ حقيقةَ الأمرِ والذَّي نطقتْ بهِ كتبُ اللهِ ورسلُه أوْ حقيقةَ الأمرِ وجليةَ الحالِ منْ سعادةِ الميتِ وشقاوتِه ، وقيلَ الحقُّ الذي لا بدَّ أنْ يكونَ لا محالةَ منَ الموتِ أو الجزاءِ فإنَّ الإنسانَ خُلِقَ لَهُ وإما للملابسةِ كالتي في قولِهِ تعالَى : ﴿ تَنبُتُ بالدهن ﴾ أيْ ملتبسةً بالحقّ أيْ بحقيقةِ الأمرِ أو بالحكمةِ والغايةِ الجميلةِ وقُرِىءَ سكرةُ الحقّ بالموتِ وَالمَعْنى أنَّها السكرةُ التي كُتبتْ عَلَى الإنْسَانِ بموجبِ الحِكْمةِ وأنَّها لشدتِها توجبُ زُهُوقَ الروحِ أوْ تستعقبُه وقيلَ الباءُ بمعَنْى مَعَ وقيلَ سكرةُ الحقّ سكرةُ اللهِ تعالَى عَلى أنَّ الإضافةَ للتهويلِ وقُرِىءَ سَكَرَاتُ الموتِ ﴿ ذلك ﴾ أي الموتُ ﴿ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ أيْ تميلُ وتنفِرُ عَنْهُ والخطابُ للإنسانِ فإنَّ النفرةَ عنْهُ شاملةٌ لكُلِّ فردٍ منْ أفرادِهِ طَبْعاً .

(37/722)

﴿ وَنُفِخَ فِى الصور ﴾ هيَ النفخةُ الثانيةُ ﴿ ذلك ﴾ أيْ وقتُ ذلكَ النفخِ عَلَى حذفِ المضافِ ﴿ يَوْمَ الوعيد ﴾ أيْ يومُ إنجازِ الوعيدِ الواقعِ في الدُّنيا أيْ يومُ وقوعِ الوعيدِ على أنَّه عبارةٌ عن العذابِ الموعودِ وقيلَ ذلكَ إشارةٌ إلى الزمانِ المفهومِ منْ نُفِخَ فإنَّ الفعلَ كَما يدلُّ عَلى الحدثِ يدلُّ عَلى الزمانِ وتخصيصُ الوعيد بالذكرِ معَ أنَّه يومُ الوعدِ أيضاً لتهويله ولذلكَ بدئَ ببيانِ حالِ الكفرةِ .

﴿ وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ منَ النفوسِ البرةِ والفاجرةِ ﴿ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ وإنِ اختلفتْ كيفيةُ السَّوقِ والشهادةِ حسبَ اختلافِ النفوسِ عملاً أيْ مَعها ملكانِ أحدُهما يسوقُها إلى المحشرِ والآخرُ يشهدُ بعملِها أو ملكٌ جامعٌ بينَ الوصفينِ كأنَّه قيلَ معَها ملكٌ يسوقُها ويشهدُ عليَها وقيلَ السائقُ كاتبُ السيئاتِ والشهيدُ كاتبُ الحسناتِ وقيلَ السائقُ نفسُه أو قرينُه والشهيدُ جوارحُه أوْ أعمالُه ومحلُّ مَعَها النصبُ عَلى الحاليّةِ منْ كُلٌّ لإضافتِه إلى ما هُوَ في حُكمِ المعرفةِ كأنَّه قيلَ كُلُّ النفوسِ أو الجرُّ عَلى أنَّه وصفٌ لنفسٍ أو الرفعُ عَلى أنَّه وصفٌ لكلّ وقولُه تعالَى :

﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هذا ﴾ محكيٌّ بإضمارِ قولٍ هُو إمّا صفةٌ أُخرى لنفسٍ أو حالٌ أخرَى منْها أو استئنافٌ منبيٌّ على سؤالٍ نشأ مما قبلَهُ كأنَّه قيلَ فماذا يفعلُ بها فقيلَ يقالُ لقدِ كنتَ في غفلةٍ إلخ ، وخطابُ الكُلِّ بذلكَ لما أنَّه ما منْ أحدٍ إلا ولَهُ غفلةٌ ما عنِ الآخرةِ ، وقيلَ الخطابُ للكافرِ وقُرِئَ كُنْتِ بكسرِ التاءِ على اعتبارِ تأنيثِ النفسِ والتذكيرُ عَلى

القراءةِ المشهورةِ بتأويلِ الشخصِ كما في قول جَبلةَ بنِ حُريث

يا نفسُ إنكَ باللذاتِ مسرور . . . فاذكرْ فهلْ ينفعَنْك اليومَ تذكيرُ

(38/722)

﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ ﴾ الغطاء : الحجابُ المُغطّي لأمورِ المعادِ وهو الغفلةُ والإنهماكُ في المحسوساتِ والأُلْفُ بها وقصرُ النظرِ عَليها ﴿ فَبَصَرُكَ اليوم حَدِيدٌ ﴾ نافذٌ لزوالِ المانعِ للإبصارِ وَقُرِىءَ بكسرِ الكافِ في المواضعِ الثلاثةِ ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ ﴾ أي الشيطانُ المُقيَّضُ لهُ مشيراً إليهِ ﴿ هذا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴾ أيْ هَذا مَا عِنْدي وَفي ملكِتي عتيدٌ لجهنَم قدْ هيأتُه لهَا بإغوائِي وإضلالِي وَقيلَ قالَ المَلكُ الموكلُ بِهِ مشيراً إلى مَا معهُ منْ كتابِ عملِهِ هذا مكتوبٌ عندِي عتيدٌ مهيأٌ للعرض ، وما إن جعلت موصوفة فعتيد صفتها وإن جعلت موصولة فهي بدل مِنْهَا أو خبرٌ بعدَ خبرٍ أو خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ ﴾ خطابٌ منَ الله تعالَى للسائقِ والشهيدِ أو للملكينِ منْ خَزَنَةِ النارِ أو لواحدٍ عَلى تنزيلِ تثنيةِ الفاعلِ منزلَة تثنيةِ الفعلِ وتكريرِه كقولِ مَنْ قالَ

فإنْ تزجُرانِي يَا ابْنَ عفانَ أنزجِر . . . وإنْ تدعانِي أحمِ عرضاً ممنّعاً

أوْ عَلى أنَّ الألفَ بدلٌ منْ نونِ التأكيدِ على إجراءِ الوصلِ مُجرَى الوقفِ ويؤيدُه أنه قُرِئَ أَلقِيَنْ بالنُّونِ الخفيفةِ ﴿ عَنِيدٍ ﴾ معاندُ للحقِّ.

(39/722)

﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ كثيرُ المنعِ للمالِ عنْ حقوقِه المفروضةِ وقيلَ: المرادُ بالخيرِ الإسلامُ فإنَّ الآيةَ نزلتْ في الوليدِ بْنِ المغيرةِ لما منعَ بَني أخيهِ منهُ ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ ظالمٌ متخطٍ للحقِّ ﴿ مُرِيبٍ ﴾ شاكٌّ في اللهِ وفي دينِه ﴿ الذى جَعَلَ مَعَ اللهِ إلها ءاخَرَ ﴾ مبتدأٌ متضمنٌ لمعنى الشرطِ خبرُهُ ﴿ فألقياه فِى العذاب الشديد ﴾ أو بدلٌ منْ كُلِّ كفار، وقولُه تعالَى: ﴿ فألقياه ﴾ تكريرٌ للتوكيدِ أو مفعولٌ لمضمرٍ يفسرُهُ فألقياهُ. ﴿ قَالَ قَرِينُهُ ﴾ أي الشيطانُ المقيضُ لَهُ وإنما استؤنفَ استئنافَ الجملِ الواقعةِ في حكايةِ المقاولةِ لما أنه جوابٌ لمحذوفٍ دلَّ عليهِ قولُه تعالَى ﴿ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ فإنُه منبىءٌ عن سابقةِ كلامٍ اعتذرَ بهِ الكافرُ كأنَّه قالَ هُو أطغانِي فأجابَ قرينُهُ بتكذيبِه، وإسنادُ الطغيانِ إليهِ بخلافِ الجملةِ الأُولى فإنَّها واجبةُ العطفِ عَلَى ما قبلَها دلالةٌ على أنَّ الجمعَ بينَ مفهوميهما في الحصولِ أعنِي مجيءَ كُلَّ نفسٍ معَ الملكينِ وقولَ قرينِه ﴿ وَلَكِن كَانَ ﴾ هُو بالذاتِ ﴿ فِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ من الحقِّ فأعنتُه عليهِ بالإغواءِ والدعوةِ إليهِ منْ غيرِ قسرٍ وإلجاءٍ كما فِي قولِه تعالَى: ﴿ وَمَا كَانَ لِى

عَلَيْكُمْ مّن سلطان إلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِى . ﴾ ﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ مما قبلَهُ كأنَّه قيلَ : فماذَا قالَ الله تعالَى فقيلَ قالَ ﴿ لاَ تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ ﴾ أيْ في موقفِ الحسابِ والجزاءِ إذْ لا فائدةَ في ذلكَ ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بالوعيد ﴾ عَلى الطغيانِ في دارِ الكسبِ في كُتبي وعَلى ألسنةِ رسلِي فلا تطمعُوا في الخلاصِ عَنْهُ بما أنتُم فيهِ من التعللِ بالمعاذيرِ الباطلةِ ، والجملةُ حالٌ فيهَا تعليلٌ للنَّهي عَلى مَعْنى لا تختصمُوا وقَدْ صحَّ عندكُم أنِّي قدمتُ إليكمْ بالوعيدِ حيثُ

(40/722)

قلتُ لإبليسَ : ﴿ لأَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فاتبعتمُوه معرضينَ عن الحقِّ فلاَ وجْهَ للاختصامِ في هَذا الوقتِ ، والباءُ مزيدةٌ أوْ متعديةٌ عَلى أنَّ قدَّمَ بمَعْنى تقدَّمَ وقَدْ جوّزَ أنْ يكونَ قدمتُ واقعاً عَلى قولِه تعالَى : ﴿ مَا يُبَدَّلُ القول لَدَىَّ ﴾ الخ ويكونُ بالوعيدِ متعلقاً بمحذوفٍ هو حالٌ منَ المفعولِ أو الفاعلِ أيْ وقَدْ قدمتُ إليكمْ هَذا القولَ ملتبساً بالوعيدِ مقترناً بهِ أو قدمتُه إليكُم مُوعداً لكُم بهِ فَلا تطمعُوا أنْ أبدلَ وعيدِي ، والعفوُ عنْ بعضِ المذنبينَ لأسبابٍ داعيةٍ إليهِ ليسَ بتبديلٍ فإنَّ دلائلَ العفوِ تدلُّ عَلى تخصيصِ الوعيدِ وقولُه تعالَى : ﴿ وَمَا أَنَاْ بظلام للّعَبِيدِ ﴾ واردٌ لتحقيقِ الحقِّ عَلى الوجهِ

الكليِّ وتبيينِ أنَّ عدمَ تبديلِ القولِ وتحقيقَ موجبِ الوعيدِ ليسَ منْ جهتِه تعالَى منْ غيرِ استحقاقٍ لهُ منهُمْ بَلْ إنما ذلكَ بما صدرَ عنْهم منَ الجناياتِ الموجبةِ لهُ حسبمَا أشيرَ إليهِ آنفاً أيْ وَمَا أنَا بمعذبٍ للعبيدِ بغيرِ ذنبٍ منْ قبلِهم والتعبيرُ عنْهُ بالظلمِ معَ أنَّ تعذيبَهُم بغيرِ ذنبٍ ليسَ بظلمٍ عَلى مَا تقررَ منْ قاعدةِ أهلِ السنَّةِ فضلاً عن كونِه ظلماً مُفرطاً لبيانِ كمالِ نزاهتِه تعالَى عنْ ذلكَ بتصويرِه بصورةِ ما يستحيلُ صدورُهُ عنْهُ سبحانَهُ منَ الظلمِ وصيغةُ المبالغةِ لتأكيدِ هَذا المَعْنى بإبرازِ ما ذكرَ من التعذيبِ بغيرِ ذنبٍ في معرضِ المبالغةِ في الظلمِ وقيلَ : هيَ لرعايةِ جمعيةِ العبيدِ من قولِهم فلانٌ ظالمٌ لعبدِه وظلاَّمٌ لعبيدِه عَلى أنها مبالغةٌ كماً لا كيفاً .

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امتلات وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾

(41/722)

سؤالٌ وجوابٌ جيءَ بهمَا عَلى منهاجِ التمثيلِ والتخييلِ لتهويلِ أمرِهَا والمَعْنى أنَّها معَ اتّساعِها وتباعدِ أقطارِها تطرحُ فيَها منَ الجنَّةِ والنَّاسِ فوجاً بعدَ فوجٍ حَتَّى تمتلىء أو أنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها بعد محل فارغ ، أو أنها لغيظِها عَلى العُصاةِ تطلبُ زيادتَهُم وقُرِىءَ يقولُ بالياءِ ، والمزيدُ إمَّا مصدرٌ كالمحيدِ والمجيدِ أو مفعولٌ كالمبيعِ ويومَ

إمَّا منصوبٌ باذكُرْ أوْ أنذِرْ أوْ ظَرفٌ لنُفِخَ فيكونُ ذلكَ حينئذٍ إشارةٌ إليهِ منْ غيرِ حاجةٍ إلى تقديرِ مضافٍ أو لمقدرٍ مؤخرٍ أيْ يكونُ منَ الأحوالِ والأهوالِ ما يقصرُ عنْهُ المقالُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(42/722)

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ ﴾

أي شيطانه المقيض له في الدنيا كما قال مجاهد ، وفي الحديث " ما من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن قالوا : ولا أنت يا رسول الله قال : ولا أنا إلا أن الله تعالى أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير " ﴿ هذا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ إشارة إلى الشخص الكافر نفسه أي هذا ما عندي وفي ملكتي عتيد لجهنم قد هيأته لها بإغوائي وإضلالي ، ولا ينافي هذا ما حكاه سبحانه عن القرين في قوله تعالى الآتي : ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ [ق : 27] لأن هذا نظير قول الشيطان : ﴿ وَلَاَضِلَّنَّهُمْ ﴾ [النساء : 119] وقوله : ﴿ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ [إبراهيم : 22] وذاك نظير قوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُمْ مِّن سلطان إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ ﴾ [إبراهيم : 22] .

وقال قتادة .

وابن زيد : قرينه الملك الموكل بسوقه يقول مشيراً إليه : هذا ما لدى حاضر ، وقال الحسن : هو كاتب سيئاته يقول مشيراً إلى ما في صحيفته أي هذا مكتوب عندي عتيد مهيأ للعرض ، وقيل : قرينه هنا عمله قلباً وجوارح وليس بشيء ، و ﴿ مَا ﴾ نكرة موصوفة بالظرف وبعتيد أوموصولة والظرف صلتها و ﴿ عَتِيدٌ ﴾ خبر بعد خبر لاسم الإشارة أو خبر لمبتدأ محذوف ، وجوز أن يكون بدلاً من ﴿ مَا ﴾ بناء على أنه يجوز إبدال النكرة من المعرفة وإن لم توصف إذا حصلت الفائدة بإبدالها ، وأما تقديره بشيء عتيد على أن البدل هو الموصوف المحذوف الذي قامت صفته مقامه أو إن ﴿ مَا ﴾ الموصولة لإبهامها أشبهت النكرة فجاز إبدالها منها فقيل عليه إنه ضعيف لما يلزم الأول من حذف البدل وقد أباه النحاة ، والثاني لا يقول به من يشترط النعت فهو صلح من غير تراضي الخصمين .

وقرأ عبد الله ﴿ عتيداً ﴾ بالنصب على الحال .

﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ ﴾

(43/722)

خطاب من الله تعالى للسائل والشهيد بناء على أنهما اثنان لا واحد جامع للوصفين أو للملكين من خزنة النار أو لواحد على أن الألف بدل من نون التوكيد على إجراء الوصل مجرى الوقف ، وأيد بقراءة الحسن ﴿ القين ﴾ بنون التوكيد الخفيفة ، وقيل : إن العرب كثيراً ما يرافق الرجل منهم اثنين فكثر على ألسنتهم أن يقولوا خليلي وصاحبي وقفاً واسعدا حتى خاطبوا الواحد خطاب الإثنين ، وما في الآية محمول على ذلك كما حكى عن الفراء أو على تنزيل تثنية الفاعل منزلة تثنية الفعل بأن يكون أصله ألق ألق ثم حذف الفعل الثاني وأبقى ضميره مع الفعل الأول فثنى الضمير للدلالة على ما ذكر كما في قوله :

فإن تزجراني يا ابن عفان أنزجر . . .

وإن تدعاني أحم عرضاً ممنعا

وحكى ذلك عن المازني .

والمبرد ولا يخفى بعده ، ولينظر هل هو حقيقة أو مجاز والأظهر أنه خطاب لإثنين وهو المروي عن مجاهد .

وجماعة ، وأياً كان فالكلام على تقدير القول كما مر ، والإلقاء طرح الشيء حيث تلقاه أي تراه ثم صار في التعارف اسماً لكل طرح أي اطرحا في جهنم كل مبالغ في الكفر للمنعم والنعمة ﴿ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ مبالغ في العناد وترك الانقياد للحق ، وقريب منه قول الحسن : جاحد متمرد ، وقال قتادة .

أي منحرف عن الطاعة يقال : عند عن الطريق عدل عنه ، وقال السدي : المشاق من العند وهو عظم يعرض في الحلق ، وقال ابن بحر : المعجب بما عنده .

﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ مبالغ في المنع للمال عن حقوقه المفروضة ، قال قتادة .

ومجاهد .

وعكرمة : يعني الزكاة ، وقيل : المراد بالخير الإسلام فإن الآية نزلت في الوليد بن المغيرة كان يقول لبني أخيه : من دخل منكم في الإسلام لم أنفعه بشيء ما عشت ، والمبالغة باعتبار كثرة بني أخره أو باعتبار تكرر منعه لهم .

(44/722)

وضعف بأنه لو كان المراد ذلك كان مقتضى الظاهر مناع عن الخير ، وفي "البحر" الأحسن عموم الخير في المال وغيره ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ ظالم متخط للحق متجاوز له ﴿ مُرِيبٍ ﴾ شاك في الله تعالى ودينه ، وقيل : في البعث .

﴿ الذى جَعَلَ مَعَ اللهِ إلها ءاخَرَ ﴾ مبتدأ متضمن لمعنى الشرط خبره ﴿ فألقياه فِى العذاب الشديد ﴾ بتأويل فيقال في حقه ألقياه أو لكونه في معنى جواب الشرط لا يحتاج للتأويل أو بدل من ﴿ كُلَّ كَفَّارٍ ﴾ [ق : 24] أو من ﴿ كَفَّارٌ ﴾ وقوله تعالى : ﴿

فألقياه ﴾ تكرير للتوكيد فهو نظير ﴿ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ ﴾ بعد قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الذين يَفْرَحُونَ ﴾ [آل عمران : 188] والفاء ههنا للإشعار بأن الالقاء للصفات المذكورة أو من باب وحقك ثم حقك ينزل التغاير بين المؤكد والمؤكد والمفسر والمفسر منزلة التغاير بين الذاتين بوجه خطابي ، ولا يدعي التغاير الحقيقي لأن التأكيد يأباه ، وقول أهل المعاني : أن بين المؤكد والمؤكد شدة اتصال تمنع من العطف ليس على إطلاقه بسديد ، والنحويون على خلافه ، فقد قال ابن مالك في "التسهيل" : فصل الجملتين في التأكيد بثم إن أمن اللبس أجود من وصلهما ، وذكر بعض النحاة الفاء ؛ والزمخشري في الجاثية الواو أيضاً ، وجعلوا ذلك من التأكيد الإصطلاحي ، ولو جعل ﴿ العذاب الشديد ﴾ نوعاً من عذاب جهنم ومن أهوله فكان من باب ﴿ ملائكته . . .

وَجِبْرِيلُ ﴾ [البقرة : 98] دون تكرير لكان كما قال "صاحب الكشف" حسناً .

وجوز أن يكون مفعولاً بمضمر يفسره ﴿ فألقياه ﴾ وقال ابن عطية : أن يكون صفة ﴿ كَفَّارٌ ﴾ وجاز وصفه بالمعرفة لتخصصه بالأوصاف المذكورة .

وتعقبه أبو حيان بأنه لا يجوز وصفه النكرة بالمعرفة ولو وصفة بأوصاف كثيرة .

﴿ قَالَ قَرِينُهُ ﴾ أي الشيطان المقيض له ، وإنما استؤنفت هذه الجملة استئناف الجمل الواقعة في حكاية المقاولة لما أنها جواب لمحذوف دل عليه قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ فإنه مبني على سابقة كلام اعتذر به الكافر كأنه قال : هو أطغاني فأجاب قرينه بتكذيبه وإسناد الطغيان إليه بخلاف الجملة الأولى فإنها واجبة العطف على ما قبلها دلالة على الجمع بين مفهوميهما في الحصول أعني مجيء كل نفس مع الملكين ، وقول قرينه : ﴿ وَلَكِن كَانَ ﴾ هو بالذات ﴿ فِى ضَلالٍ بَعِيدٍ ﴾ من الحق فاعنته عليه بالإغواء والدعوة إليه من غير قسر ولا الجاء ، فهو كما قدمنا نظير ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ ﴾ [إبراهيم : 22] الخ.

قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (28)

﴿ قَالَ ﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ مما قبله كأن قيل : فماذا قال الله تعالى ؟ فقيل : قال عز وجل : ﴿ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ ﴾ أي في موقف الحساب والجزاء إذ لا فائدة في ذلك ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بالوعيد ﴾ على الطغيان في دار الكسب في كتبي وعلى ألسنة رسلي فلا تطمعوا في الخلاص عنه بما أنتم فيه من التعلل بالمعاطير الباطلة ، والجملة حال فيها تعليل للنهي ويلاحظ معنى العلم لتحصل المقارنة التي تقتضيها الحالية أي لا تختصموا لدى عالمين أني قدمت إليكم بالوعيد حيث قلت لإبليس : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ [ص : 85] فاتبعتموه معرضين عن الحق ؛ والباء مزيدة أو معدية على أن

قدم بمعنى تقدم وهو لازم يعدي بالباء ، وجوز أن يكون ﴿ قَدَّمْتُ ﴾ واقعاً على قوله تعالى :

﴿ مَا يُبَدَّلُ القول لَدَيَّ ﴾ الخ

(46/722)

ويكون ﴿ بالوعيد ﴾ [ق : 28] متعلقاً بمحذوف هو حال من المفعول قدم عليه أو الفاعل أي وقد قدمت إليكم هذا القول ملتبساً بالوعيد مقترناً به أو قدمته إليكم موعداً لكم فلا تطمعوا أن أبدل وعيدي ، والأظهر استئناف هذه الجملة .

وفي ﴿ لَدَيَّ ﴾ على ما قال الإمام وجهان .

الأول : أن يكون متعلقاً بالقول أي ما يبدل القول الذي عندي .

الثاني : أن يكون متعلقاً بالفعل قبل أي لا يقع التبديل عندي ، قال : وعلى الأول في القول الذي لديه تعالى وجوه .

أحدها : قوله تعالى : ﴿ أَلْقِيَا ﴾ [ق : 24] أرادوا باعتذارهم أن يبدل ويقول سبحانه : لا تلقيا فرد عليهم .

ثانياً : قوله سبحانه لإبليس : ﴿ لاَمْلاَنَّ ﴾ الخ .

ثالثها : الإيعاد مطلقاً .

رابعها : القول السابق يوم خلق العباد هذا سعيد وهذا شقي .

وعلى الثاني في معنى الآية وجوه أيضاً .

أحدها : لا يكذب لدى فإني عالم علمت من طغى ومن أطغى فلا يفيد قولكم أطغاني شيطاني وقول الشيطان : ﴿ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ [ق : 27] ثانيها : لو أردتم أن لا أقول : ﴿ فألقياه ﴾ [ق : 26] كنتم أبدلتم الكفر بالايمان قبل أن تقفوا بين يدي وأما الآن فما يبدل القول لدى .

ثالثها : لا يبدل القول الكفر الإيمان لدى فإن الايمان عند اليأس غير مقبول فقولكم : ربنا وإلهنا لا يفيدكم فمن تكلم بكلمة الكفر لا يفيده قوله : ربنا ما أشركنا وقوله : ربنا آمنا .

والمشهور أن ﴿ لَدَيَّ ﴾ متعلق بالفعل على أنا المراد بالقول ما يشمل الوعد والوعيد .

واستدل به بعض من قال بعدم جواز تخلفهما مطلقاً .

(47/722)

وأجاب من قال بجواز العفو عن بعض المذنبين بأن ذلك العفو ليس بتبديل فإن دلائل العفو تدل على تخصيص الوعي ، د وقال بعض المحققين : المراد نفي أن يوقع أحد التبديل لديه

تعالى أي في علمه سبحانه أو يبدل القول الذي علمه عز وجل ، فإن ما عنده تبارك وتعالى هو ما في نفس الأمر وهو لا يقبل التبديل أصلاً ، وأكثر الوعيدات معلقة بشرط المشيئة على ما يقتضيه الكرم وإن لم يذكر على ما يقتضيه الترهيب ، فمتى حصل العفو لعدم مشيئة التعذيب لم يكن هناك تبديل ما في نفس الأمر فتدبره فإنه دقيق .

﴿ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ وارد لتحقيق الحق على أبلغ وجه ، وفيه إشارة إلى أن تعذيب من يعذب من العبيد إنما هو عن استحقاق في نفس الأمر ، وقد تقدم تمام الكلام في هذه الجملة فتذكر .

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾

أي اذكر أو أنذر يوم الخ فيوم مفعول به لمقدر ، وقيل : هو ظرف لظلام ، وقال الزمخشري : يجوز أن ينتصب ب ﴿ نفخ ﴾ [ق : 20] كأنه قيل : ونفخ في الصور يوم ، وعليه يشار ب ﴿ ذلك ﴾ [ق : 20] إلى ﴿ يَوْمَ نَقُولُ ﴾ لأن الإشارة إلى ما بعد جائزة لا سيما إذا كانت رتبته التقديم فكأنه قيل : ذلك اليوم أي يوم القول يوم الوعيد ، ولا يحتاج إلى حذف على ما مر في الوجه الذي أشير به إلى النفخ .

وهذا الوجه كما قال في "الكشف" : فيه بعد لبعده عن العامل وتخلل ما لا يصلح اعتراضاً على أن زمان النفخ ليس يوم القول إلا على سبيل فرضه ممتداً واقعاً ذلك في جزء منه وهذا في جزء وكل خلاف الظاهر فكيف إذا اجتمعت .

وقال أبو حيان : هو بعيد جداً قد فصل عليه بين العامل والمعمول بجمل كثيرة فلا يناسب فصاحة القرآن الكريم وبلاغته ، والظاهر إبقاء السؤال والجواب على حقيقتهما ، وكذا في نظير ذلك من اتكاء النار والإذن لها بنفسين وتحاج النار والجنة ، ونحن متعبدون باعتقاد الظاهر ما لم لا يمنع مانع ولا مانع ههنا ، فإن القدرة صالحة والعقل مجوز والظواهر قاضية بوقوع ماجوزه العقل ، وأمور الآخرة لا ينبغي أن تقاس على أمور الدنيا .

وقال الرماني : الكلام على حذف مضاف أي نقول لخزنة جهنم ، وليس بشي .

وقال غير واحد ؛ هو من باب التمثيل والمعنى أنها مع اتساعها وتباعد أقطارها نطرح فيها من الجنة والناس فوجاً بعد فوج حتى تمتلىء ولا تقبل الزيادة ، فالاستفهام للإنكار أي لا مزيد على امتلائها وروى هذا عن ابن عباس .

ومجاهد .

والحسن ، وجوز في نفي الزيادة أن يكون على ظاهره وأن يكون كناية أو مجازاً عن الاستكثار ، وقيل : المعنى أنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها فراغ وخلو ، فالاستفهام للتقرير أي فيها موضع للمزيد لسعتها ، وجوز أن يكون ذلك كناية عن شدة

غيظها على العصاة كأنها طالبة لزيادتهم .

واستشكل دعوى أن فيها فراغاً بأنه مناف لصريح قوله تعالى : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ ﴾ [ص : 85] الآية .

وأجيب بأنه لا منافاة لأن الامتلاء قد يراد به أنه لا يخلو طبقة منها عمن يسكنها وإن كان فيها فراغ كثير كما يقال : إن البلدة ممتلئة بأهلها ليس فيها دار خالية مع ما بينها من الأبنية والأفضية أو أن ذلك باعتبار حالين فالفراغ في أول الدخول فيها ثم يساق إليها الشياطين ونحوهم فتمتلىء ، هذا ويدل غير ما حديث أنها تطلب الزيادة حقيقة إلا أنه لا يدري حقيقة ما يوضع فيها حتى تمتلىء إذ الأحاديث في ذلك من المتشابهات التي لا يراد بها ظواهرها عند الأكثرين .

أخرج أحمد .

والبخاري .

ومسلم .

والترمذي .

والنسائي .

وغيرهم عن أنس قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط وعزتك وكرمك ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشى الله لها خلقاً آخر فيسكنهم في فضول الجنة "

وأخرج الشيخان .

وغيرهما عن أبي هريرة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تحاجت الجنة والنار فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين وقالت الجنة : ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم فقال الله تعالى للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي وقال للنار : إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها فإم النار فلا تمتلى حتى يضع رجله فتقول قط قط فهناك تمتلىء ويزوى بعضها إلى بعض ولا يظلم الله من خلقه أحداً وأما الجنة فإن الله تعالى ينشى لها خلقاً " وأول أهل التأويل ذلك ، فقال النضر بن شميل : إن القدم الكفار الذين سبق في علمه تعالى دخولهم النار والقدم تكون بمعنى المتقدم كقوله تعالى : ﴿ قَدَمَ صِدْقٍ ﴾ [يونس : 2] وظاهر الحديث عليه يستدعي دخول غير الكفار قبلهم وهو في غاية البعد ؛ ولعل في الأخبار ما ينافيه .

وقال ابن الأثير : قدمه أي الذين قدمهم لها من شرار خلقه فهم قدم الله تعالى للنار كما أن

المسلمين قدمه للجنة والقدم كل ما قدمت من خير أو شر وهو كما ترى ، ويبعده ما في حديث أحمد .

وعبد بن حميد .

وابن مردويه عن أبي سعيد مرفوعاً " فيلقى فيها أي النار أهلها فتقول : هل من مزيد ويلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يأتيها عز وجل فيضع قدمه عليها فتنزوي وتقول : قدني قدني " وأولوا الرجل بالجماعة ومنه ما جاء في أيوب عليه السلام أنه كان يغتسل عرياناً فخر عليه رجل من جراد ، والإضافة إلى ضميره تعالى تبعد ذلك ، وقيل : وضع القدم أو الرجل على الشيء مثل للردع والقمع فكأنه قيل : يا تيها أمر الله تعالى فيكفها من طلب المزيد .

(50/722)

وقريب منه ما ذهب إليه بعض الصوفية أن القدم يكنى بها عن صفة الجلال كما يكنى بها عن صفة الجمال ، وقيل : أريد بذلك تسكين فورتها كما يقال للأمر : تريد إبطاله وضعته تحت قدمي أو تحت رجلي ، وهذان القولان أولى مما تقدم والله تعالى أعلم .

والمزيد إما مصدر ميمي كالمحيد أو اسم مفعول أعل إعلال المبيع .

وقرأ الأعرج.

وشيبة.

ونافع.

وأبو بكر.

والحسن.

وأبو رجاء.

وأبو جعفر.

والأعمش ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ﴾ بياء الغيبة.

وقرأ عبد الله.

والحسن.

والأعمش أيضاً ﴿ يُقَالُ ﴾ مبنياً للمفعول. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح المعانى حـ 26 صـ

﴾

(51/722)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (23) ﴾

الواو واو الحال والجملة حال من تاء الخطاب في قوله : ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا ﴾ [ق : 22] أيْ يوبخ عند مشاهدة العذاب بكلمة ﴿ لقد كنتَ في غفلة من هذا ﴾ ، في حال قول قرينه ﴿ هذا ما لدي عتيد ﴾ .

وهاء الغائب في قوله : ﴿ قرينه ﴾ عائدة إلى ﴿ كل نفس ﴾ [ق : 21] أو إلى الإنسان .

وقرين فَعيل بمعنى مفعول ، أي مقرون إلى غيره .

وكأنَّ فعل قَرَنَ مشتق من القَرَن بالتحريك وهو الحبل وكانوا يقرنون البعير بمثله لوضع الهودج ، فاستعير القرين للملازم .

وهذا ليس بالتفات إذ ليس هو تغيير ضمير ولكنه تعيين أسلوب الكلام وأعيد عليه ضمير الغائب المفرد باعتبار معنى ﴿ نفس أي شخص ، أو غلب التذكير على التأنيث .

واسم الإشارة في قوله : هذا ما لديّ ﴾ الخ ، يفسره قوله : ﴿ ما لدي عتيد ﴾ .

و ﴿ مَا ﴾ في قوله : ﴿ مَا لدي ﴾ موصولة بدل من اسم الإشارة .

و ﴿ لدي ﴾ صلة ، و ﴿ عتيد ﴾ خبر عن اسم الإشارة .

واختلف المفسرون في المراد بالقرين في هذه الآية على ثلاثة أقوال : فقال قتادة والحسن

والضحاك وابن زيد ومجاهد في أحد قوليه هو المَلَك الموكل بالإنسان الذي يسوقه إلى المحشر أي هو السائق الشهيد .

وهذا يقتضي أن يكون القرين في قوله الآتي ﴿ قال قرينه ربنا ما أطغيته ﴾ [ق : 27] بمعنى غير معنى القرين في قوله : ﴿ وقال قرينه هذا ما لدي عتيد ﴾ .

وعن مجاهد أيضاً : أن القرين شيطان الكافر الذي كان يزين له الكفر في الدنيا أي الذي ورد في قوله تعالى : ﴿ وقيّضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ [فصلت : 25] .

وعن ابن زيد أيضاً : أن قرينه صاحبه من الإنس ، أي الذي كان قرينَه في الدنيا .

(52/722)

وعلى الاختلاف في المراد بالقرين يختلف تفسير قوله : ﴿ هذا ما لدي عتيد ﴾ فإن كان القرين المَلَكَ كانت الإشارة بقوله ﴿ هذا ﴾ إلى العذاب الموكَّل به ذلك المَلَكُ ؛ وإن كان القرين شيطاناً أو إنساناً كانت الإشارة محتمِلة لأن تعود إلى العذاب كما في الوجه الأول ، أو أن تعود إلى معاد ضمير الغيبة في قوله : ﴿ قرينه ﴾ وهو نفس الكافِر ، أي هذا الذي معي ، فيكون ﴿ لديَّ ﴾ بمعنى : معي ، إذ لا يخلو أحد من صاحبٍ يأنس بمحادثته والمراد

به قرين الشرك المماثل .

وقد ذكر الله من كان قريناً للمؤمن من المشركين واختلاف حاليهما يوم الجزاء بقوله ﴿ قال قائل منهم إني كان لي قرين يقول أئنّك لمن المصدقين ﴾ الآية في سورة الصافات (51 ، 52) .

وقول القرين هذا ما لدي عتيد ﴾ مستعمل في التلهف والتحسر والإشفاق ، لأنه لما رأى ما به العذاب علم أنه قد هُيّىء له ، أو لَمَّا رأى ما قدم إليه قرينه علم أنه لاحِق على أثره كقصة الثورين الأبيض والأحمر اللذين استعان الأسد بالأحمر منهما على أكل الثور الأبيض ثم جاء الأسد بعد يوم ليأكل الثور الأحمر فَعَلا الأحمر ربوة وصاح ألا إنما أكلت يومَ أكل الثور الأبيض .

وتقدم معنى ﴿ عَتيد ﴾ عند قوله تعالى : ﴿ إلا لديه رقيب عتيد ﴾ [ق : 18] ، وهو هنا متعيّن للمعنى الذي فسر عليه المفسرون ، أي مُعَدٌّ ومهيّأ .

أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (24) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (25)

انتقال من خطاب النفس إلى خطاب الملكين الموكلَيْن السائق والشهيد .

والكلام مقول قول محذوف .

والجملة استئناف ابتدائي انتقال من خطاب فريق إلى خطاب فريق آخر ، وصيغة المثنى في قوله : ﴿ أَلْقِيا ﴾ تجوز أن تكون مستعملة في أصلِها فيكون الخطاب للسائق والشهيد .

ويجوز أن تكون مستعملة في خطاب الواحد وهو الملك الموكّل بجهنّم وخُوطب بصيغةِ المثنّى جريًا على طريقة مستعملة في الخطاب جرت على ألسنتهم لأنهم يكثر فيهم أن يرافق السائرَ رفيقان ، وهي طريقة مشهورة ، كما قال امرؤ القيس:

قفا نبك من ذكرَى حبيب ومنزل . . .

وقولهم : يا خليلَيَّ ، ويا صاحبَيّ .

والمبرد يرى أن تثنية الفاعل نُزلت منزلة تثنية الفعل لاتحادهما كأنه قيل : أَلْقِ أَلْقِ للتأكيد .

وهذا أمر بأن يُعم الإلقاءُ في جهنم كلّ كفار عنيد ، فيعلم منه كلُّ حاضر في الحشر من هؤلاء أنه مَدفوع به إلى جهنم .

والكفَّار : القوي الكفر ، أي الشرك .

والعنيد : القوي العناد ، أي المكابرة والمدافعة للحق وهو يعلم أنه مبطل .

والمنَّاع : الكثير المنع ، أي صد الناس عن الخير ، والخير هو الإيمان ، كانوا يمنعون أبناءهم وذويهم من اتباع الإيمان ومن هؤلاء الوليدُ بن المغيرة كان يقول لبني أخيه "من دخل منكم في الإسلام لا أنفعه بشيء ما عِشت" .

ويحتمل أن يراد به أيضاً منع الفقراء من المال لأن الخير يطلق على المال وكان أهل الجاهلية يمنعون الفقراء ويعطون المال لأكابرهم تقرباً وتلطفاً .

والمعتدي : الظالم الذي يعتدي على المسلمين بالأذى وعلى الرسول صلى الله عليه وسلم بالتكذيب والقول الباطل .

والمريب الذي أراب غيره ، أي جعله مرتاباً ، أي شاكّا ، أي بما يلْقُونه إلى الناس من صنوف المغالطة ليشككوهم في صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وصحة الإيمان والتوحيد .

وبين لفظي ﴿ عتيد ﴾ [ق : 18] و ﴿ عنيد ﴾ الجناس المصحف .

الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (26)

(54/722)

يجوز أن يكون اسم الموصول بدلاً من ﴿ كَفَّار عنيد ﴾ فإن المعرفة تبدل من النكرة كقوله تعالى : ﴿ وإنك لتهْدِي إلى صراط مستقيم صراطِ الله ﴾ [الشورى : 52 ، 53] ، على أن الموصول هنا تعريفه لفظي مجرد لأن معنى الصلة غير مخصوص بمعيّن ، وأن قوله : ﴿ فألقياه ﴾ تفريع على ﴿ ألقِيا في جهنم كلّ كفار عنيد ﴾ [ق : 24] ومصبّ التفريع المتعلِّق وهو ﴿ في العذاب الشديد ﴾ ، أي في أشد عذاب جهنم تفريعاً على الأمر

بإلقائه في جهنم تفريع بيان ، وإعادة فعل ﴿ ألقيا ﴾ للتأكيد مع تفريع متعلق الفعل المؤكد .

وهذا من بديع النظم ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدَنا وقالوا مجنون وازدجر ﴾ [القمر : 9] ففرع على قوله : ﴿ كذّبت ﴾ إلخ قوله : ﴿ فكذّبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر ﴾ .

ومنه قوله تعالى : ﴿ لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبّون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنّهم بمفازة من العذاب ﴾ [آل عمران : 188] ، فالمقصود بالتفريع هو قوله : ﴿ بمفازة من العذاب ﴾ وإعادة ﴿ تحسبنهم ﴾ تفيد التأكيد ، وعليه ف ﴿ الذي جعل مع الله إلاها آخر ﴾ : الكفّار المضاف إليه ﴿ كلّ ﴾ [ق : 24] فهو صادق على جماعة الكفّارين فضمير النصب في ﴿ ألقيناه ﴾ بمنزلة ضمير جمع ، أي فألقياهم .

ويجوز أن يكون اسم الموصول مبتدأ على استئناف الكلام ويضمّن الموصول معنى الشرط فيكون في وجود الفاء في خبره لأجل ما فيه من معنى الشرط وهذا كثير .

والمقصود منه هنا تأكيد العموم الذي في قوله : ﴿ كل كفّار عنيد ﴾ .

قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (27)

حكاية قول القرين بالأسلوب المتبع في حكاية المُقاولات في القرآن وهو أسلوب الفصل دون عطف فعل القول على شيء ، وهو الأسلوب الذي ذكرناه في قوله تعالى : ﴿ قالوا أتجعلُ فيها من يُفسد فيها ﴾ الآية في سورة البقرة (30) ، تشعر بأن في المقام كلاماً مطوياً هو كلام صاحب القرين طوي للإيجاز ، ودليله ما تضمنه قول القرين من نفي أن يكون هو أطغى صاحبه إذ قال ربَّنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد ﴾ .

وقد حكي ذلك في سورة ص صريحاً بقوله : ﴿ هذا فوج مقتحم معكم لاَ مَرْحبا بهم إنهم صالوا النار قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار قالوا ربنا من قَدّم لنا هذا فزِده عذاباً ضعفاً في النار ﴾ [ص : 59 61] .

وتقدير المطوي هنا : أن الكَفَّار العَنيد لما قدم إلى النار أراد التنصل من كُفره وعناده وألقى تبعته على قرينه الذي كان يزّين له الكفر فقال : هذا القرينُ أطغاني ، فقال قرينه ﴿ ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد ﴾ .

فالقرين هذا هو القرين الذي تقدم ذكره في قوله : ﴿ وقال قرينه هذا ما لدي عتيد ﴾ [ق : 23] .

والطغيان : تجاوز الحدّ في التعاظم والظلم والكفر ، وفعله يائي وواوي ، يقال : طَغِيَ يطغَى كرضِيَ ، وطغَا يطغُو كدعا .

فمعنى ﴿ ما أطغيته ﴾ ما جعلته طاغياً ، أي ما أمرته بالطغيان ولا زينته له .

والاستدراك ناشىء عن شدة المقارنة بينه وبين قرينه لا سيما إذا كان المراد بالقرين شيطانه المقيَّض له فإنه قرن به من وقت إدراكه ، فالاستدراك لدفع توهم أن المقارنة بينهما تقتضي أن يكون ما به من الطغيان بتلقين القرين فهو ينفي ذلك عن نفسه ، ولذلك أتبع الاستدراك بجملة ﴿ كان في ضلال بعيد ﴾ فأخبَر القرين بأن صاحبه ضالٌّ من قبلُ فلم يكن اقترانه معه في التقييض أو في الصحبة بزائد إياه إضلالاً ، وهذا نظير ما حكاه الله عن الفريقين في قوله : ﴿ إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعُوا ﴾ [البقرة : 166] .

(56/722)

وفعل ﴿ كان ﴾ لإفادة أن الضلال ثابت له بالأصالة ملازم لتكوينه .

والبعيد : مستعار للبالغ في قوة النوع حدًّا لا يَبلغ إليه إدراك العاقِل بسهولة كما لا يبلغ سيرُ السائر إلى المكان البعيد إلا بمشقةٍ أو بعيد الزمان ، أي قديم أصيل فيكون تأكيدا لمفاد فعل ﴿ كان ﴾ ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً ﴾ في سورة النساء (116) .

والمعنى : أنَّ تمكُّن الضلال منه يدل على أنه ليس فيه بتابع لما يمليه غيره عليه لأن شأن التابع في شيء أن لا يكون مكيناً فيه مثل علم المقلد وعلم النظَّار .

قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (28)

هذا حكاية كلام يصدر يومئذٍ من جانب الله تعالى للفريقين الذي اتَّبعوا والذين اتُّبعوا ، فالضمير عائد على غير مذكور في الكلام يدل عليه قوله : ﴿ فكشفنا عنكَ غطاءك ﴾ [ق : 22] .

وعدم عطف فعل ﴿ قال ﴾ على ما قبله لوقوعه في معرض المقاولة ، والتعبير بصيغة الماضي لتحقق وقوعه فقد صارت المقاولة بين ثلاثةِ جوانب .

والاختصام : المخاصمة وهو مصدر بصيغة الافتعال التي الأصل فيها أنها لمطاوعة بعض الأفعال فاستعملت للتفاعل مثل : اجتوروا واعتوروا واختصموا .

والنهي عن المخاصمة بينهم يقتضي أن النفوس الكافرة ادعت أن قرناءها أطْغَوْها ، وأن القرناء تنصلوا من ذلك وأن النفوس أعادت رَمي قرنائها بذلك فصار خصاماً فلذلك قال الله تعالى : ﴿ لا تختصموا لدى ﴾ وطوي ذكره لدلالة ﴿ لا تختصموا ﴾ عليه إيثارا لحق الإيجاز في الكلام .

والنهي عن الاختصام بعد وقوعه بتأويل النهي عن الدوام عليه ، أي كفوا عن الخصام .

(57/722)

ومعنى النهي أن الخصام في ذلك لا جدوى له لأن استواء الفريقين في الكفر كافٍ في مؤاخذة كليهما على السواء كما قال تعالى : ﴿ قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ [الأعراف : 38] ، وذلك كناية عن أن حكم الله عليهم قد تقرر فلا يفيدهم التخاصم لإلقاء التبعة على أحد الفريقين .

ووجه استوائهما في العذاب أن الداعي إلى إضلاله قائم بما اشتهته نفسه من ترويج الباطل دون نظر في الدلائل الوزاعة عنه وأن متلقّي الباطل ممن دعاه إليه قائم بما اشتهته نفسه من الطاعة لأيمة الضلال فاستويا في الداعي وترتُّب أثره .

والواو في ﴿ وقد قدمت ﴾ واو الحال .

والجملة حال من ضمير ﴿ تختصموا ﴾ وهي حال معللة للنهي عن الاختصام .

والمعنى : لا تطمعوا في أنّ تدافعكم في إلقاء التَبعة ينجيكم من العقاب بعد حال إنذاركم بالوعيد من وقت حياتكم فما اكترثتم بالوعيد فلا تلوموا إلا أنفسكم لأن من أنذر فقد أعذر .

فقوله : ﴿ وقد قدمت إليكم بالوعيد ﴾ كناية عن عدم الانتفاع بالخصام كون العقاب عدلاً من الله .

والباء في ﴿ بالوعيد ﴾ مزيدة للتأكيد كقوله : ﴿ وامسحوا برؤوسكم ﴾ [المائدة : 6

].

والمعنى : وقد قدمت إليكم الوعيد قبل اليوم .

والتقديم : جَعْل الشيء قدام غيره .

والمراد به هنا : كونه سابقاً على المؤاخذة بالشرك لأن الله توعدهم بواسطة الرسول صلى الله عليه وسلم فالمعنى الأول المكنّى عنه بُيِّن بجملة ﴿ ما يبدل القول لدى ﴾ ، أي لست مبطلاً ذلك الوعيد ، وهو القول ، إذ الوعيد من نوع القول ، والتعريف للعهد ، أي فما أوعدتكم واقع لا محالة لأن الله تعهد أن لا يغفر لمن يشرك به ويموت على ذلك .

والمعنى الثاني المكنَّى عنه بُين بجملة ﴿ وما أنا بظلام للعبيد ﴾ ، أي فلذلك قدمت إليكم الوعيد .

والمبالغة التي في وصف ﴿ ظلاّم ﴾ راجعة إلى تأكيد النفي .

(58/722)

والمراد : لا أظلم شيئاً من الظلم ، وليس المعنى : ما أنا بشديد الظلم كما قد يستفاد من توجُّه النفي إلى المقيّد يفيد أن يتوجه إلى القيد لأن ذلك أغلبي .

والأكثر في نفي أمثلة المبالغة أن يقصد بالمبالغة مبالغة النفي ، قال طرفة:

ولستُ بحَلاَّل التلاع مخافة . . .

ولكن متى يسترفد القوم أرفِد

فإنه لا يريد نفي كثرة حلوله التلاع وإنما أراد كثرة النفي .

وذكر الشيخ في "دلائل الإعجاز" توجه نفي الشيْء المقيد إلى خصوص القيد كتوجّه الإثبات سواء ، ولكن كلام التفتازاني في كتاب "المقاصد في أصول الدين" في مبحث رؤية الله تعالى أشار إلى استعمالين في ذلك ، فالأكثرُ أن النفي يتوجه إلى القيد فيكون المنفي القيد ، وقد يعتبر القيد قيداً للنفي وهذا هو التحقيق .

على أني أرى أن عَدّ مثل صيغة المبالغة في عِداد القيود محل نظر فإن المعتبر من القيود هو ما كان لفظاً زائداً على اللفظ المنفي من صفة أو حال أو نحو ذلك ، ألا ترى أنه لا يحسن أن يقال : لست ظَلاّماً ، ولكن أظلم ، ويحسن أن يقال لا آتيك محارباً ولكن مسالماً .

وقد أشار في "الكشاف" إلى أن إيثار وصف ﴿ ظَلاّم ﴾ هنا إيماء إلى أن المنفي لو كان غير منفي لكان ظلماً شديداً فيفهم منه أنه لو أخذ الجاني قبل أن يَعرَّف أن عمله جناية لكانت مؤاخذته بها ظلماً شديداً .

ولعل صاحب "الكشاف" يرمي إلى مذهبه من استواء السيئات ، والتعبير بالعبيد دون التعبير بالناس ونحوه لزيادة تقرير معنى الظلم في نفوس الأمة ، أي لا أظلم ولو كان المظلوم عبدي فإذا كان الله الذي خلق العباد قد جعل مؤاخذة من لم يسبق له تشريع ظلماً فما

بالك بمؤاخذة الناس بعضهم بعضاً بالتبعات دون تقدّم إليهم بالنهي من قبل ، ولذلك يقال : لا عقوبة إلا على عمل فيه قانون سابق قبل فعله .

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (30)

ظرف متعلق بـ ﴿ قال لا تختصموا لدى ﴾ [ق : 28] .

(59/722)

والتقدير : قال لهم في ذلك القول يوم يقول قولاً آخر لجهنم ﴿ هل امتلأت ﴾ .

ومناسبته تعليقه به أن هذا القول لجهنم مقصود به ترويع المدفوعين إلى جهنم أن لا يطمعوا في أن كثرتهم يضيق بها سعة جهنم فيطمع بعضهم أن يكون ممن لا يوجد له مكان فيها ، فحكاه الله في القرآن عبرة لمن يسمعه من المشركين وتعليماً لأهل القرآن المؤمنين ولذلك استوت قراءة ﴿ يقول ﴾ بالياء ، وهي لنافع وأبي بكر عن عاصم جريا على مقتضى ظاهر ما سبقه من قوله : ﴿ قال لا تختصموا لدى ﴾ .

وقراءة الباقين بالنون على الالتفات بل هو التفات تابع لتبديل طريق الإخبار من الحديث عن غائب إلى خطاب حاضر .

والقول الأول حقيقي وهو كلام يصدر من جانب الله بمحض خلقه دون واسطة .

فلذلك أسند إلى الله كما يقال القرآن كلام الله .

والاستفهام في ﴿ هل امتلأت ﴾ مستعمل في تنبيه أهل العذاب إلى هذا السؤال على وجه التعريض .

وأما القول لجهنم فيجوز أن يكون حقيقة بأن يخلق الله في أصوات لهيبها أصواتاً ذات حروف يلتئم منها كلام ، ويجوز أن يكون مجازاً عن دلالة حالها على أنها تسع ما يلقى فيها من أهل العذاب بأن يكشف باطنها للمعروضين عليها حتى يروا سعتها كقول الراجز:

امتلا الحوض وقال : قطني . . .

والاستفهام في ﴿ هل من مزيد ﴾ مستعمل للتشويق والتمنّي .

وفيه دلالة على أن الموجودات مشوقة إلى الإيفاء بما خلقت له كما قال الشيطان ﴿ قال فبما أغويتني لأقعُدَنّ لهم صراطك المستقيم ﴾ [الأعراف : 16] .

وفيه دلالة على إظهار الامتثال لما خلقها الله لأجله ، ولأنها لا تتلكّأ ولا تتعلل في أدائه على أكمل حال في بابه .

والمزيد : مصدر ميمي ، وهو الزيادة مثل المجيد والحَمِيد .

ويجوز أن يكون اسم مفعول من زاد ، أي هل من جماعة آخرين يُلقون فيَّ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ قٓ ﴾ قال : هو اسم من أسماء الله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : خلق الله تعالى من وراء هذه الأرض بحراً محيطاً بها ثم خلق من وراء ذلك جبلاً يقال له ﴿ قٓ ﴾ السماء الدنيا مترفرفة عليه ، ثم خلق من وراء ذلك الجبل أرضاً مثل تلك الأرض سبع مرات ، ثم خلق من وراء ذلك بحراً محيطاً بها ، ثم خلق من وراء ذلك جبلاً يقال له ق السماء الثانية مترفرفة عليه حتى عد سبع أرضين وسبعة أبحر وسبعة أجبل وسبع سموات ، قال : وذلك قوله ﴿ والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ﴾ [لقمان : 27] .

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه وأبو الشيخ والحاكم عن عبد الله بن بريدة في قوله ﴿ قٓ ﴾ قال : جبل من زمرد محيط بالدنيا عليه كتفا السماء .

وأخرج ابن أبي الدنيا في العقوبات وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس قال : خلق الله جبلاً يقال له ﴿ قٓ ﴾ محيط بالعالم وعروقه إلى الصخرة التي عليها الأرض ، فإذا أراد الله أن يزلزل قرية أمر ذلك الجبل فحرك العرق الذي يلي تلك القرية فيزلزلها ويحركها ، فمن ثم

تحرك القرية دون القرية .

وأخرج عبد الرزاق عن مجاهد قال : ﴿ ق ﴾ جبل محيط بالأرض .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة ﴿ ق ﴾ إسم من أسماء القرآن .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ والقرآن المجيد ﴾ قال : الكريم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ والقرآن المجيد ﴾ ليس شيء أحسن منه ولا أفضل منه .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ ذلك رجع بعيد ﴾ قال : أنكروا البعث فقالوا : من يستطيع أن يرجعنا ويحيينا ؟ .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم ﴾ قال : من أجسادهم وما يذهب منها .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم ﴾ قال : ما تأكل الأرض من لحومهم وأشعارهم وعظامهم .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة في الآية قال : يعني الموتى تأكلهم الأرض إذا ماتوا .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك ﴿ وعندنا كتاب حفيظ ﴾ قال : لعدتهم وأسمائهم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس ﴿ في أمر مريج ﴾ يقول : مختلف .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر من طريق أبي جمرة عن ابن عباس أنه سئل عن قوله ﴿ في أمر مريج ﴾ يقول : الشيء المريج الشيء المنكر المتغير ، أما سمعت قول الشاعر ؟

فجالت والتمست به حشاها . . . فخر كأنه خوط مريج

وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس ﴿ في أمر مريج ﴾ يقول : في أمر ضلالة .

وأخرج ابن الأنباري في كتاب الوقف ، والخطيب في تالي التلخيص ، والطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله : ﴿ في أمر مريج ﴾ قال : مختلط . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت قول الشاعر :

فراغت فانتفذت به حشاها . . . فخر كأنه خوط مريج

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ في أمر مريج ﴾ قال : ملتبس وفي قوله ﴿ ما لها من فروج ﴾ قال : شقوق .

وأخرج الطستي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن

قوله تعالى ﴿ من كل زوج بهيج ﴾ قال : الزوج الواحد والبهيج الحسن . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت الأعشى وهو يقول :

وكل زوج من الديباج يلبسه . . . أبو قدامة محبوك يداه معاً

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ كل زوج بهيج ﴾ قال : حسن ﴿ تبصرة ﴾ قال : نعم تبصرة للعباد ﴿ وذكرى لكل عبد منيب ﴾ قال : المنيب المقبل قلبه إلى الله .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ تبصرة ﴾ قال : بصيرة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد وعطاء في قوله ﴿ لكل عبد منيب ﴾ قال : مخبت .

وأخرج في الأدب عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان إذا أمطرت السماء يقول : يا جارية أخرجي سرجي أخرجي ثيابي ، ويقول ﴿ وأنزلنا من السماء ماءً مباركاً ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن الضحاك في قوله ﴿ وأنزلنا من السماء ماءً مباركاً ﴾ قال

: المطر .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وحب الحصيد ﴾ قال : الحنطة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ وحب الحصيد ﴾ قال : هو البر والشعير .

وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه عن قطبة قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في الصبح فلما أتى على هذه الآية ﴿ والنخل باسقات لها طلع نضيد ﴾ قال قطبة : فجعلت أقول ما أطولها .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ والنخل باسقات ﴾ قال : الطول .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عبد الله بن عثمان بن خثيم قال : سألت عكرمة عن ﴿ النخل باسقات ﴾ فقلت : ما بسوقها ؟ قال : بسوقها طلعها ، ألم تر أنه يقال للشاة إذا حان ولادها بسقت ؟ قال : فرجعت إلى سعيد بن جبير ، فقلت له : فقال : كذب ، بسوقها طولها في كلام العرب ألم تر أن الله قال : ﴿ والنخل باسقات ﴾ ثم قال ﴿ طلع نضيد ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عبد الله بن شداد في قوله ﴿ والنخل باسقات ﴾ قال :

استقامتها .

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال : بسوقها التفافها .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ لها طلع نضيد ﴾ قال : متراكم بعضه على بعض .

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (12) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (13) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (14) أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (15)

(63/722)

أخرج ابن المنذر وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ فحق وعيد ﴾ قال : ما أهلكوا به تخويفاً لهم ، وفي قوله ﴿ أفعيينا بالخلق الأوّل ﴾ قال : أفعي علينا حين أنشأناكم ﴿ بل أنتم في لبس من خلق جديد ﴾ قال : يمترون بالبعث .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ أفعيينا بالخلق الأوّل ﴾ يقول : لم يعينا الخلق الأوّل وفي قوله ﴿ بل هم في لبس من خلق جديد ﴾ يقول في شك من البعث .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16)

أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " نزل الله من ابن آدم أرفع المنازل هو أقرب إليه من حبل الوريد ، وهو يحول بين المرء وقلبه ، وهو آخذ بناصية كل دابة ، وهو معهم أينما كانوا " .

وأخرج ابن المنذر عن جويبر رضي الله عنه قال : سألت الضحاك عن قوله ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ قال : ليس شيء أقرب إلى ابن آدم من حبل الوريد والله أقرب إليه منه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ من حبل الوريد ﴾ قال : عرق العنق .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ من حبل الوريد ﴾ قال : نياط القلب وما حمل .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ من حبل الوريد ﴾ قال : الذي في الحلق .

إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18)

أخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ إذ يتلقى المتلقيان ﴾ قال : مع كل إنسان ملكان

ملك عن يمينه وآخر عن شماله ، فأما الذي عن يمينه فيكتب الخير ، وأما الذي عن شماله فيكتب الشر .

(64/722)

وأخرج أبو نعيم والديلمي عن معاذ بن جبل مرفوعاً أن الله لطف الملكين الحافظين حتى أجلسهما على الناجذين وجعل لسانه قلمهما وريقه مدادهما .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن مجاهد قال : إسم صاحب السيئات قعيد .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في الآية قال : عن اليمين كاتب الحسنات وعن الشمال كاتب السيئات .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ما يلفظ من قول ﴾ الآية ، قال : يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر حتى إنه ليكتب قوله أكلت شربت ذهبت جئت رأيت حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر وألقى سائره ، فذلك قوله ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ [الرعد : 39] .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ قال : إنما

يكتب الخير والشر لا يكتب يا غلام أسرج الفرس ويا غلام اسقني الماء .

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال : لا يكتب إلا ما يؤجر عليه ويؤزر فيه ، لو قال رجل لامرأته تعالي حتى نفعل كذا وكذا كان يكتب عليه شيء .

وأخرج ابن أبي الدنيا في الفدية من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ما يلفظ من قول ﴾ الآية ، قال : كاتب الحسنات عن يمينه يكتب حسناته وكاتب السيئات عن يساره ، فإذا عمل حسنة كتب صاحب اليمين عشراً وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه حتى يسبح أو يستغفر ، فإذا كان يوم الخميس كتب ما يجزى به من الخير والشر ، ويلقى ما سوى ذلك ، ثم يعرض على أم الكتاب فيجده بجملته فيه .

وأخرج ابن أبي الدنيا في الصمت عن علي رضي الله عنه قال : لسان الإِنسان قلم الملك وريقه مداده .

(65/722)

وأخرج ابن أبي الدنيا وابن المنذر عن الأحنف بن قيس في قوله ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾ قال : صاحب اليمين يكتب الخير وهو أمير على صاحب الشمال ، فإن أصاب

العبد خطيئة قال أمسك فإن استغفر الله نهاه أن يكتبها ، وإن أبى إلا أن يصر كتبها .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة من طريق ابن المبارك عن ابن جريج قال : ملكان أحدهما على يمينه يكتب الحسنات وملك عن يساره يكتب السيئات ، فالذي عن يمينه يكتب بغير شهادة من صاحبه إن قعد فأحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، وإن مشى فأحدهما أمامه والآخر خلفه ، وإن رقد فأحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه .

قال ابن المبارك : وكل به خمسة أملاك ملكان بالليل وملكان بالنهار يجيئان ويذهبان وملك خامس لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً .

وأخرج الفريابي وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ رقيب عتيد ﴾ قال : رصيد .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن حجاج بن دينار قال : قلت لأبي معشر : الرجل يذكر الله في نفسه كيف تكتبه الملائكة ؟ قال : يجدون الريح .

(66/722)

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن أبي عمران الجوني قال : بلغنا أن الملائكة تصف بكتبها في السماء الدنيا كل عشية بعد العصر فينادي الملك ألقِ تلك الصحيفة وينادي الملك الآخر ألقِ تلك الصحيفة ، فيقولون ربنا قالوا خيراً وحفظنا عليهم فيقول إنهم

لم يريدوا به وجهي وإني لا أقبل إلا ما أريد به وجهي وينادي الملك الآخر أكتب لفلان بن فلان كذا وكذا فيقول : يا رب إنه لم يعمله فيقول إنه نواه ، وأخرج ابن المبارك وابن أبي الدنيا في الإِخلاص وأبو الشيخ في العظمة عن ضمرة بن حبيب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الملائكة يصعدون بعمل العبد من عباد الله فيكثرونه ويزكونه حتى ينتهوا به حيث شاء الله من سلطانه ، فيوحي الله إليهم إنكم حفظة على عمل عبدي ، وأنا رقيب على ما في نفسه ، إن عبدي هذا لم يخلص لي عمله فاجعلوه في سجين ، قال : ويصعدون بعمل العبد من عباد الله فيستقلونه ويحقرونه حتى ينتهوا حيث شاء الله من سلطانه فيوحي الله إليهم إنكم حفظة على عمل عبدي ، وأنا رقيب على ما في نفسه فضاعفوه له واجعلوه في عليين " .

وأخرج الطبراني وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال ، فإذا عمل العبد حسنة كتبت له بعشر أمثالها ، وإذا عمل سيئة فأراد صاحب الشمال أن يكتبها قال صاحب اليمين أمسك فيمسك ست ساعات أو سبع ساعات ، فإن استغفر الله منها لم يكتب عليه شيئاً ، وإن لم يستغفر الله كتب عليه سيئة واحدة " .

وأخرج أبو الشيخ في التفسير عن حسان بن عطية قال : تذاكروا مجلساً فيه مكحول وابن

أبي زكريا أن العبد إذا عمل خطيئة لم تكتب عليه ثلاث ساعات ، فإن استغفر الله وإلا تكتب عليه .

(67/722)

وأخرج ابن أبي شيبة عن عطاء بن أبي رباح أنه قال : إن من كان قبلكم كان يكره فضول الكلام ما عدا كتاب الله أن يقرأه أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر ، وأن تنطق بحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها .

أتنكرون أن عليكم حافظين كراماً كاتبين ، وأن عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ؟ أما يستحي أحدكم لو نشر صحيفته التي ملأ صدر نهاره وأكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه ؟ .

وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي في شعب الإِيمان من طريق الأوزاعي عن حسان بن عطية قال : بينما رجل راكب على حمار إذ عثر به ، فقال : تعست ، فقال صاحب اليمين : ما هي بحسنة فأكتبها ، وقال صاحب الشمال ما هي بسيئة فأكتبها ، فنودي صاحب الشمال أن ما ترك صاحب اليمين فأكتبه .

وأخرج ابن أبي شيبة عن بكر بن ماعز قال : جاءت بنت الربيع بن خيثم وعنده أصحاب

له فقال : يا أبتاه أذهب ألعب . قال : لا . قال له أصحابه : يا أبا يزيد اتركها . قال : لا يوجد في صحيفتي أني قلت لها : إذهبي فالعبي لكن إذهبي فقولي خيراً وافعلي خيراً .

وأخرج البيهقي في الشعب عن حذيفة بن اليمان أن الكلام بسبعة أغلاق إذ أخرج منها كتب ، وإذا لم يخرج لم يكتب القلب واللهاة والحنكين والشفتين .

وأخرج الخطيب في رواة مالك وابن عساكر عن مالك أنه بلغه أن كل شيء يكتب حتى أنين المريض .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال : يكتب على ابن آدم كل شيء يتكلم به حتى أنينه في مرضه .

وأخرج ابن أبي الدنيا وابن عساكر عن الفضيل بن عيسى قال : إذا احتضر الرجل قيل للملك الذي كان يكتب له كف قال : لا وما يدريني لعله يقول لا إله إلا الله فأكتبها له .

وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد قال : يكتب من المريض كل شيء حتى أنينه في مرضه .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عطاء بن يسار يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا مرض العبد قال الله للكرام الكاتبين : اكتبوا لعبدي مثل الذي كان يعمل حتى أقبضه أو أعافيه " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سلمان قال : إذا مرض العبد قال الملك يا رب إبتليت عبدك بكذا فيقول : ما دام في وثاقي فاكتبوا له مثل عمله الذي كان يعمل .

وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي في شعب الإِيمان عن معاذ قال : إذا إبتلى الله العبد بالسقم قال لصاحب الشمال إرفع ، وقال لصاحب اليمين أكتب لعبدي ما كان يعمل .

وأخرج ابن أبي شيبة عن النضر بن أنس قال : كنا نتحدث منذ خمسين سنة ، أنه ما من عبد يمرض إلا قال الله لكاتبيه أكتبا لعبدي ما كان يعمل في صحته .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي قلابة قال : إذا مرض الرجل على عمل صالح أجرى له ما كان يعمل في صحته .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عكرمة قال إذا مرض الرجل رفع له كل يوم ما كان يعمل .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ثابت بن مسلم بن يسار قال : إذا مرض العبد كتب له أحسن ما كان يعمل في صحته .

وأخرج ابن أبي شيبة والدارقطني في الأفراد والطبراني والبيهقي في شعب الإِيمان عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من أحد من المسلمين يبتلى ببلاء في جسده إلا أمر الله الحفظة فقال أكتبوا لعبدي ما كان يعمل وهو صحيح ما دام مشدوداً في وثاقي " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من مرض أو سافر كتب الله له ما كان يعمل صحيحاً مقيماً " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبيهقي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا ابتلى الله المؤمن ببلاء في جسده قال للملك : أكتب له صالح عمله الذي كان يعمل ، فإن شفاه غسله وطهره ، وإن قبضه غفر له ورحمه " .

(69/722)

وأخرج أبو الشيخ في العظمة والبيهقي في شعب الإِيمان عن أنس رضي الله عنه قال : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله وكل بعبده المؤمن ملكين يكتبان عمله ، فإذا مات قال الملكان اللذان وُكِّلاَ به : قد مات فائذن لنا أن نصعد إلى السماء ، فيقول الله : سمائي مملوءة من ملائكتي يسبحونني ، فيقولان : أنقيم في الأرض ؟ فيقول الله : أرضي مملوءة من خلقي يسبحونني ، فيقولان : فأين ؟ فيقول : قوما على قبر عبدي فسبحاني واحمداني وكبراني وأكتبا ذلك لعبدي إلى يوم القيامة " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد والحكيم الترمذي عن عمر بن ذر عن أبيه رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله عند لسان كل قائل فليتق الله

عبد ولينظر ما يقول " .

وأخرج الحكيم الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً مثله .

وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19)

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج ﴿ وجاءت سكرة الموت ﴾ قال : غمرة الموت .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري والترمذي والنسائي وابن ماجة عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت بين يديه ركوة أو علبة فيها ماء ، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه ويقول : " لا إله إلا الله إن للموت سكرات " .

وأخرج الحاكم وصححه عن القاسم بن محمد رضي الله عنه أنه تلا ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ﴾ فقال : حدثتني أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالموت وعنده قدح فيه ماء ، وهو يدخل يده في القدح ثم يمسح وجهه بالماء ثم يقول : " اللهم أعني على سكرات الموت " .

وأخرج ابن سعد عن عروة رضي الله عنه قال : " لما مات الوليد بن الوليد بكته أم سلمة فقالت : "

يا عين فأبكي للوليد . . . بن الوليد بن المغيرة

كان الوليد بن الوليد . . . أبا الوليد فتى العشيرة

" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تقولي هكذا يا أم سلمة ، ولكن قولي ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ " " .

وأخرج أبو عبيد في فضائله وابن المنذر عن عائشة قالت : لما حضرت أبا بكر الوفاة قلت :

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه . . . ثمال اليتامى عصمة للأرامل

قال أبو بكر رضي الله عنه بل ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ قدم الحق وأخر الموت .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد عن ابن أبي مليكة رضي الله عنه قال : صبحت ابن عباس من مكة إلى المدينة فكان إذا نزل منزلاً قام شطر الليل ، فسئل : كيف كانت قراءته ؟ قال : قرأ ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ فجعل يرتل ويكثر في ذلك التسبيح .

وأخرج أحمد وابن جرير عن عبد الله بن اليمني مولى الزبير بن العوّام قال : لما حضر أبو بكر تمثلت عائشة بهذا البيت .

أعاذل ما يغني الحذار عن الفتى . . . إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فقال أبو بكر رضي الله عنه : ليس كذلك يا بنية ، ولكن قولي ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ .

أما قوله تعالى : ﴿ ما كنت منه تحيد ﴾ .

أخرج الطبراني عن سمرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مثل الذي يفر من الموت كمثل الثعلب تطلبه الأرض بدين فجاء يسعى حتى إذا أعيا وانبهر دخل حجره فقالت له الأرض يا ثعلب ديني فخرج خصاص فلم يزل كذلك حتى انقطعت عنقه فمات " .

أما قوله تعالى : ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾ .

أخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم في الكنى وابن مردويه والبيهقي في البعث والنشور وابن عساكر عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قرأ ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾ قال : سائق يسوقها إلى أمر الله وشهيد يشهد عليها بما عملت .

(71/722)

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم في الكنى وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾ قال : السائق الملك والشهيد العمل .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ سائق وشهيد ﴾ قال : السائق من الملائكة ، والشهيد شاهد عليه من نفسه .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ سائق وشهيد ﴾ قال : السائق من الملائكة والشاهد من أنفسهم الأيدي والأرجل والملائكة أيضاً شهداء عليهم .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ سائق وشهيد ﴾ قال : الملكان كاتب وشهيد .

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذكر الموت وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن ابن آدم لفي غفلة عما خلق له ، إن الله إذا أراد خلقه قال للملك أكتب رزقه ، أكتب أثره ، أكتب أجله ، أكتب شقياً أم سعيداً ، ثم يرتفع ذلك الملك ويبعث الله ملكاً فيحفظه حتى يدرك ، ثم يرتفع ذلك الملك ، ثم يوكل الله به ملكين يكتبان حسناته وسيئاته ، فإذا حضره الموت ارتفع الملكان ، وجاء ملك الموت ليقبض روحه ، فإذا أدخل قبره رد الروح في جسده وجاءه ملكا القبر فامتحناه ، ثم يرتفعان ، فإذا قامت الساعة انحط عليه ملك الحسنات وملك السيئات فبسطا كتاباً معقوداً في عنقه ، ثم حضر معه واحد سائق وآخر شهيد ، ثم قال ، رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن قدامكم لأمراً عظيماً لا تقدرونه فاستعينوا بالله العظيم " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ لقد كنت في غفلة من

هذا ﴾ قال : هو الكافر .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ فكشفنا عنك غطاءك ﴾ قال : الحياة بعد الموت .

(72/722)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ قال : عاين الآخرة فنظر إلى ما وعده الله فوجده كذلك .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك في قوله ﴿ فبصرك اليوم ﴾ قال : إلى لسان الميزان حديد ، قال : حديد النظر شديد .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ وقال قرينه ﴾ قال : الشيطان .

وأخرج الفريابي عن مجاهد في قوله ﴿ وقال قرينه ﴾ قال : الشيطان الذي قيض له .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ وقال قرينه ﴾ قال : ملكه ﴿ هذا ما لديّ عتيد ﴾ قال : الذي عندي عتيد للإِنسان حفظته حتى جئت به وفي قوله ﴿ قال قرينه ربنا ما أطغيته ﴾ قال : هذا شيطانه .

وأخرج ابن المنذر عن إبراهيم في قوله ﴿ كل كفار عتيد ﴾ قال : مناكب عن الحق .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ ألقيا في جهنم كل كفار عنيد ﴾ قال : كفار بنعم الله عنيد عن طاعة الله وحقه مناع للخير ، قال : الزكاة المفروضة ﴿ معتد مريب ﴾ قال : معتد في قوله وكلامه آثم بربه ، فقال هذا المنافق الذي جعل مع الله إلها آخر ، هذا المشرك .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن منصور قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن ، قالوا : ولا أنت ، قال : ولا أنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ لا تختصموا لديّ ﴾ قال : إنهم اعتذروا بغير عذر فأبطل الله عليهم حجتهم ورد عليهم قولهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ قال لا تختصموا لديّ ﴾ قال : عندي ﴿ وقد قدمت إليكم بالوعيد ﴾ قال : على لسان الرسل أن من عصاني عذبته .

(73/722)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الربيع بن أنس قال : قلت لأبي العالية قال الله : ﴿ لا تختصموا لديّ وقد قدمت إليكم بالوعيد ﴾ وقال ﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند

ربكم تختصمون ﴾ فكيف هذا ؟ قال : نعم ، أما قوله ﴿ لا تختصموا لديّ ﴾ فهؤلاء أهل الشرك ، وقوله ﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ فهؤلاء أهل القبلة يختصمون في مظالمهم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ ما يبدل القول لديّ ﴾ قال : قد قضيت ما أنا قاض .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ ما يبدل القول لديّ ﴾ قال : ههنا القسم .

وأخرج عبد الرزاق والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة وابن المنذر وابن مردويه عن أنس قال : فرضت على النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أسريَ به الصلاة خمسين ، ثم نقصت حتى جعلت خمساً ، ثم نودي يا محمد إنه لا يبدل القول لدي وإن لك بهذه الخمس خمسين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وما أنا بظلام للعبيد ﴾ قال : ما أنا بمعذب من لم يجترم والله تعالى أعلم .

أما قوله تعالى : ﴿ يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد ﴾ قال : وهل فيَّ من مكان يزاد فيَّ .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في الآية قال : حتى تقول فهل

من مزيد ؟ .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد في الآية قال : وعدها الله ليملأنها فقال أوفيتك فقالت : وهل من مسلك ؟ .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط وعزتك وكرمك ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشىء الله لها خلقاً آخر فيسكنهم في قصور الجنة " .

(74/722)

وأخرج البخاري وابن مردويه عن أبي هريرة رفعه : " يقال لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد فيضع الرب قدمه عليها فتقول قط قط " .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة ما لي لا يدخلني إلا

ضعفاء الناس وسقطهم ؟ قال الله تبارك وتعالى للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال للنار إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ، ولكل واحدة منكما ملؤها ، فأما النار فلا تمتلىء حتى يضع رجله فتقول قط قط ، فهنالك تمتلىء ويزوي بعضها إلى بعض ، ولا يظلم الله من خلقه أحداً ، وأما الجنة فإن الله ينشىء لها خلقاً " .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " افتخرت الجنة والنار فقالت النار : يا رب يدخلني الجبابرة والمتكبرون والملوك والأشراف ، وقالت الجنة : أي رب يدخلني الضعفاء والفقراء المساكين ، فيقول الله للنار أنت عذابي أصيب بك من أشاء ، وقال للجنة : أنت رحمتي وسعت كل شيء ، ولكل واحدة منكما ملؤها فيلقى فيها أهلها ، فتقول هل من مزيد ، ويلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يأتيها عز وجل فيضع قدمه عليها فتزوي ، وتقول قدني قدني ، وأما الجنة فيلقى فيها ما شاء الله أن يلقى فينشىء لها خلقاً ما يشاء " .

(75/722)

وأخرج أبو يعلى وابن مردويه عن أُبيّ بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يعرفني الله نفسه يوم القيامة فأسجد سجدة يرضى بها عني ، ثم أمدحه مدحة يرضى بها

عني . ثم يؤذن لي في الكلام ثم تمر أمتي على الصراط مضروب بين ظهراني جهنم ، فيمرون أسرع من الطرف والسهم ، وأسرع من أجود الخيل ، حتى يخرج الرجل منها يحبو وهي الأعمال ، وجهنم تسأل المزيد حتى يضع فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط ".

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أُبيّ كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أول من يدعى يوم القيامة أنا فأقوم فألبي ، ثم يؤذن لي في السجود فأسجد له سجدة يرضى بها عني ، ثم يؤذن لي فأرفع رأسي فأدعو بدعاء يرضى به عني ، فقلنا يا رسول الله كيف تعرف أمتك يوم القيامة ؟ قال : يعرفون غراً محجّلين من أثر الطهور فيردون علي الحوض ما بين عدن إلى عمان بصرى ، أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وأبرد من الثلج وأطيب ريحاً من المسك ، فيه من الآنية عدد نجوم السماء ، من ورده فشرب منه لم يظمأ بعده أبداً ، ومن صرف عنه لم يرو بعده أبداً ، ثم يعرض الناس على الصراط ، فيمر أوائلهم كالبرق ، ثم يمرون كالريح ، ثم يمرون كالطرف ، ثم يمرون كأجاويد الخيل والركاب ، وعلى كل حال وهي الأعمال ، والملائكة جانبي الصراط يقولون رب سلم سلم ، فسالم ناج ، ومخدوش ناج ، ومرتبك في النار ، وجهنم تقول هل من مزيد حتى يضع فيها رب العالمين ما شاء الله أن يضع فتقبض وتغرغر كما تغرغر المزادة الجديدة إذا ملئت وتقول قط قط " .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ 587 . 603 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (31) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (32) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (33) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (34) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (35) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (36) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (37) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر النار وقدمها لأن المقام للإنذار ، أتبعها دار الأبرار ، فقال سارا لهم بإسقاط مؤنة السير وطيّ شقة البعد : ﴿ وأزلفت ﴾ أي قربت بأيسر أمر مع الدرجات والحياض الممتلئة ﴿ الجنة للمتقين ﴾ أي العريقين في هذا الوصف ، فإذا رأوها تسابقوا إليها وتركوا ما كانوا فيه من الموقف من منابر النور وكثبان المسك ونحو هذا ، وأما غيرهم من أهل الإيمان فقد يكون لهم على غير هذا الوصف ، فيساق إليها الذين اتقوا كما مضى في الزمر .

ولما كان القرب أمراً نسبياً أكده بقوله : ﴿ غير بعيد ﴾ أي إزلافاً لا يصح وصفه ببعد .

ولما كان التقريب قد لا يدري الناظر ما سببه ، قال سارا لهم : ﴿ هذا ﴾ أي الإزلاف والذي ترونه من كل ما يسركم ﴿ ما ﴾ أي الأمر الذي ﴿ توعدون ﴾ أي وقع الوعد لكم به في الدنيا ، وعبر بالمضارع حكاية للحال الماضية ، وعبر عن الإزلاف بالماضي تحقيقاً لأمره وتصويراً لحضوره الآن ليكون المضارع من الوعد في أحكم مواضعه ، وأبهم الأمر لأنه أكثر تشويقاً ، والتعيين بعد الإبهام ألذ ، فلذلك قال بياناً للمتقين ، معيداً للجار لما وقع بينه وبين المبدل منه من الجملة الاعتراضية جواباً لمن كأنه قال : لمن هذا الوعد ؟ فقال تعالى : ﴿ لكل أواب ﴾ أي رجاع إلى الاستقامة بتقوى القلب إن حصل في ظاهره عوج ، فنبه بذلك على أنه من فضله لم يشترط في صحة وصفه بالتقوى دوام الاستقامة ﴿ حفيظ ﴾ أي مبالغ في حفظ الحدود وسار العهود بدوام الاستقامة والرجوع بعد الزلة ، ثم أبدل من " كل " تتميماً لبيان المتقين قوله : ﴿ من خشي ﴾ ولم يعد الجارّ لأنه لا اعتراض قبله كالأول ، ونبه على كثرة خشيته بقوله : ﴿ الرحمن ﴾ لأنه إذا خاف مع استحضار الرحمة العامة للمطيع والعاصي كان خوفه مع استحضار غيرها أولى ، وقال القشيري : التعبير بذلك للإشارة إلى أنها خشية تكون مقرونة بالأنس يعني الرجاء كما هو المشروع ، قال : ولذلك لم

يقل ﴿ الجبار ﴾ أو ﴿ القهار ﴾ قال : ويقال : الخشية ألطف من الخوف ، فكأنها قريبة من الهيبة ﴿ بالغيب ﴾ أي مصاحباً له من غير أن يطلب آية أو أمراً يصير به إلى حد المكاشفة ، بل استغنى بالبراهين القاطعة التي منها أنه مربوب ، فلا بد له من رب ، وهو أيضاً بيان لبليغ خشيته .

ولما كان النافع من الطاعة الدائم إلى الموت ، قال : ﴿ وجاء ﴾ أي بعد الموت ﴿ بقلب منيب ﴾ أي راجع إلى الله تعالى بوازع العلم ، ولم يقل : بنفس ، لطفاً بالعصاة لأنهم وإن قصرت نفوسهم لم يكن لها صدق القدم فلهم الأسف بقلوبهم ، وصدق الندم .

(78/722)

ولما كان الإخبار بكونها لهم وإن كان أمراً سارا لا يقتضي دخولها في ذلك الوقت ، زاد سرورهم بالإذن بقوله معبراً بضمير الجميع بيانا لأن المراد من " من " جميع المتقين :

﴿ ادخلوها ﴾ أي يقال لهم : ادخلوا الجنة .

ولما كان المراد استقبالهم بالإلذاذ بالبشارة قال : ﴿ بسلام ﴾ أي مصاحبين للسلامة من كل يمكن أن يخاف ، فأنتج ذلك قوله إنهاء للسرور إلى غاية لا توصف : ﴿ ذلك ﴾ أي اليوم العظيم جداً ﴿ يوم ﴾ ابتداء أو تقرير ﴿ الخلود ﴾ أي الإقامة التي لا آخر لها ولا نفاذ

لشيء من لذاتها أصلاً ، ولذلك وصل به قوله جواباً لمن كأنه قال : على أي وجه خلودهم ؟ : ﴿ لهم ﴾ بظواهرهم وبواطنهم ﴿ ما يشاؤون ﴾ أي يتجدد مشيئتهم أو تمكن مشيئتهم له ﴿ فيها ﴾ أي الجنة ﴿ ولدينا ﴾ أي عندنا من الأمور التي في غاية الغرابة عندهم وإن كان كل ما عندهم مستغرباً ﴿ مزيد ﴾ أي مما لا يدخل تحت أوهامهم يشاؤه ، فإن سياق الامتنان يدل على أن تنوينه للتعظيم ، والتعبير بلدى يؤكد ذلك تأكيداً يناسبها بأن يكونوا كل لحظة في زيادة على أمانيهم عكس ما كانوا في الدنيا ، وبذلك تزداد علومهم ، فمقدورات الله لا تنحصر ، لأن معلوماته لا تنتهي .

ولما ذكر سبحانه أول السورة تكذيبهم بالقدرة على اعترافهم بما يكذبهم في ذلك التكذيب ، ثم سلى وهدد بتكذيب الأمم السابقة ، وذكر قدرته عليهم ، وأتبعه الدلالة على كمال قدرته إلى أن ختم بالإشارة إلى أن قدرته لا نهاية لها ، ولا تحصر بحدّ ولا تحصى بعدّ ، رداً على أهل العناد وبدعة الاتحاد في قولهم " ليس في الإمكان أبدع مما كان " عطف على ما قدرته بعد ﴿ فحق وعيد ﴾ من إهلاك تلك الأمم مما هو أعم منه بشموله جميع الزمان الماضي وأدل على شمول القدرة ، فقال : ﴿ وكم أهلكنا ﴾ أي بما لنا من العظمة .

ولما كان المراد تعميم الإهلاك في جميع الأزمان لجميع الأمم ، نزع الجار بياناً لإحاطة القدرة فقال : ﴿ قبلهم ﴾ وزاد في دلالة التعميم فأثبته في قوله : ﴿ من قرن ﴾ أي جيل هم في غاية القوة ، وزاد في بيان القوة فقال : ﴿ هم ﴾ أي أولئك القرون بظواهرهم وبواطنهم ﴿ أشد منهم ﴾ أي من قريش ﴿ بطشاً ﴾ أي قوة وأخذاً لما يريدونه بالعنف والسطوة والشدّة ، وحذف الجار هنا يدل على أن كل من كان قبل قريش كانوا أقوى منهم ، وإثباته في ص يدل على أن المذكورين بالإهلاك هناك مع الاتصاف بالنداء المذكور بعض المهلكين لا كلهم .

ولما أخبر سبحانه بأشديتهم سبب عنه قوله : ﴿ فنقبوا ﴾ أي أوقعوا النقب ﴿ في البلاد ﴾ بأن فتحوا فيها الأبواب الحسية والمعنوية وخرقوا في أرجائها ما لم يقدر غيرهم عليه وبالغوا في السير في النقاب ، وهي طرق الجبال والطرق الضيقة فضلاً عن الواسعة وما في السهول ، بعقولهم الواسعة وآرائهم النافذة وطبائعهم القوية ، وبحثوا مع ذلك عن الأخبار ، وأخبروا غيرهم بما لم يصل إليهم ، وكان كل منهم نقاباً في ذلك أي علامة فيه فصارت له به مناقب أو مفاخر .

ولما كان التقدير : ولم يسلموا مع كثرة تنقيبهم وشدته من إهلاكنا بغوائل الزمان ونوازل الحدثان ، توجه سؤال كل سامع على ما في ذلك من العجائب والشدة والهول والمخاوف سؤال تنبيه للذاهل الغافل ، وتقريع وتبكيت للمعاند الجاهل ، بقوله : ﴿ هل من محيص ﴾

أي معدل ومحيد ومهرب وإن دق ، من قضائنا ليكون لهؤلاء وجه ما في رد أمرنا .

ولما ذكرنا هنا من المواعظ ما أرقص الجماد ، فكيف بمن يدعي أنه من رؤوس النقاد ، أنتج قوله مؤكداً لأجل إنكار الجاحد وعناد المعاند : ﴿ إن في ذلك ﴾ أي الأمر البديع من العظات التي صرفناها هنا على ما ترون من الأساليب العجيبة والطرق الغريبة في الإهلاك وغيره ﴿ لذكرى ﴾ أي تذكيراً عظيماً جداً .

(80/722)

ولما كان المتذكر بمصارع المهلكين تارة بأن يكون حاضراً فيرى مصارعهم حال الإيقاع بهم أو يرى آثارهم بعد ذلك ، وتارة يخبر عنها ، قال بادئاً بالرائي لأنه أجدر بالتذكير : ﴿ لمن كان ﴾ أي كوناً عظيماً ﴿ له قلب ﴾ هو في غاية العظمة والنورانية إن رأى شيئاً من ذلك فهو بحيث يفهم ما يراه ويعتز به ، ومن لم يكن كذلك فلا قلب له لأن قلبه لما كان غير نافع كان عدماً .

ولما كان قد بدأ بالناظر لأنه أولى بالاعتبار وأقرب إلى الادكار ، ثنى بمن نقلت إليه الأخبار فقال : ﴿ أو ألقى ﴾ أي إلقاء عظيماً بغاية إصغائه حتى كأنه يرمي بشيء ثقيل من علو إلى سفل ﴿ السمع ﴾ أي الكامل الذي قد جرده عن الشواغل من الحظوظ وغيرها إذا سمع

ما غاب عنه ﴿ وهو ﴾ أي والحال أنه في حال إلقائه ﴿ شهيد ﴾ أي حاضر بكليته ، فهو في غاية ما يكون من تصويب الفكر وجمع الخاطر ، فلا يغيب عنه شيء مما تلي عليه وألقي إليه ، فيتذكر بما ذكرناه به عن قدرتنا من الجزئيات ما أنتجه من القدرة على كل شيء ، ورأى مجد القرآن فعلم أنه كلام الله فسمعه منه فصدق الرسول ، وقبل كل ما يخبر به ، ومن سمع شيئاً ولم يحضر له ذهنه فهو غائب ، فالأول العالم بالقوة وهو المجبول على الاستعداد الكامل فهو بحيث لا يحتاج إلى غير التدبر لما عنده من الكمال المهيأ بفهم ما يذكر به القرآن ، والثاني القاصر بما عنده من كثافة الطبع فهو بحيث يحتاج إلى التعليم فيتذكر بشرط أن يقبل بكليته ، ويزيل الموانع كلها ، فلذلك حسن جداً موقع " أو " المقسمة وعلم منه عظيم شرف القرآن في أنه مبشر للكامل والناقص ، ليس منه مانع غير الإعراض . انتهى انتهى . اهـ

﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 262 . 265 ﴾

(81/722)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (31) ﴾

بمعنى قريباً أو بمعنى قريب ، والأول أظهر وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

ما وجه التقريب ، مع أن الجنة مكان والأمكنة يقرب منها وهي لا تقرب ؟ نقول : الجواب : عنه من وجوه : الأول : أن الجنة لا تزال ولا تنقل ، ولا المؤمن يؤمر في ذلك اليوم بالانتقال إليها مع بعدها ، لكن الله تعالى يطوي المسافة التي بين المؤمن والجنة فهو التقريب .

فإن قيل : فعلى هذا ليس إزلاف الجنة من المؤمن بأولى من إزلاف المؤمن من الجنة ، فما الفائدة في قوله : أزلفت الجنة ؟ نقول إكراماً للمؤمن ، كأنه تعالى أراد بيان شرف المؤمن المتقي أنه ممن يمشي إليه ويدني منه .

الثاني : قربت من الحصول في الدخول ، لا بمعنى القرب المكاني ، يقال يطلب من الملك أمراً خطيراً ، والملك بعيد عن ذلك ، ثم إذا رأى منه مخايل إنجاز حاجته ، يقال قرب الملك وما زلت أنهي إليه حالك حتى قربته ، فكذلك الجنة كانت بعيدة الحصول ، لأنها بما فيها لا قيمة لها ، ولا قدرة للمكلف على تحصيلها لولا فضل الله تعالى ، كما قال صلى الله عليه وسلم : " ما من أحد يدخل الجنة إلا بفضل الله تعالى ، فقيل : ولا أنت يا رسول الله ، فقال : ولا أنا " وعلى هذا فقوله غير نصب على الحال ، تقديره قربت من الحصول ، ولم تكن بعيدة في المسافة حتى يقال كيف قربت .

الثالث : هو أن الله تعالى قادر على نقل الجنة من السماء إلى الأرض فيقربها للمؤمن .

وأما إن قلنا إنها قربت ، فمعناه جمعت محاسنها ، كما قال تعالى : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأنفس ﴾ [الزخرف : 71] .

المسألة الثانية :

(82/722)

على هذا الوجه وعلى قولنا قربت تقريب حصول ودخول ، فهو يحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون قوله تعالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ ﴾ أي في ذلك اليوم ولم يكن قبل ذلك ، وأما في جمع المحاسن فربما يزيد الله فيها زينة وقت الدخول ، وأما في الحصول فلأن الدخول قبل ذلك كان مستبعداً إذا لم يقدر الله دخول المؤمنين الجنة في الدنيا ووعد به في الآخرة فقربت في ذلك اليوم .

وثانيهما : أن يكون معنى قوله تعالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الجنة ﴾ أي أزلفت في الدنيا ، إما بمعنى جمع المحاسن فلأنها مخلوقة وخلق فيها كل شيء ، وإما بمعنى تقريب الحصول فلأنها تحصل بكلمة حسنة وإما على تفسير الإزلاف بالتقريب المكاني فلا يكون ذلك محمولاً إلا على ذلك الوقت أي أزلفت في ذلك اليوم للمتقين .

المسألة الثالثة :

إن حمل على القرب المكاني ، فما الفائدة في الاختصاص بالمتقين مع أن المؤمن والكافر في عرصة واحدة ؟ فنقول قد يكون شخصان في مكان واحد وهناك مكان آخر هو إلى أحدهما في غاية القرب ، وعن الآخر في غاية البعد ، مثاله مقطوع الرجلين والسليم الشديد العدو إذا اجتمعا في موضع وبحضرتهما شيء لا تصل إليه اليد بالمد فذلك بعيد عن المقطوع وهو في غاية القرب من العادي ، أو نقول : إذا اجتمع شخصان في مكان وأحدهما أحيط به سد من حديد ووضع بقربه شيء لا تناله يده بالمد والآخر لم يحط به ذلك السد يصح أن يقال هو بعيد عن المسدود وقريب من المحظوظ والمجدود ، وقوله تعالى : ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ يحتمل أن يكون نصباً على الظرف يقال اجلس غير بعيد مني أي مكاناً غير بعيد ، وعلى هذا فقوله غير بعيد يفيد التأكيد وذلك لأن القريب قد يكون بعيداً بالنسبة إلى شيء ، فإن المكان الذي هو على مسيرة يوم قريب بالنسبة إلى البلاد النائية وبعيد بالنسبة إلى متنزهات المدينة ، فإذا قال قائل أيما أقرب المسجد الأقصى أو البلد الذي هو بأقصى المغرب أو المشرق ؟ يقال له المسجد الأقصى قريب ، وإن قال أيهما أقرب هو أو البلد ؟ يقل له هو بعيد .

فقوله تعالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الجنة . . .

غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أي قربت قرباً حقيقياً لا نسبياً حيث لا يقال فيها إنها بعيدة عنه مقايسة أو مناسبة ، ويحتمل أن يكون نصباً على الحال تقديره : قربت حال كون ذلك غاية التقريب أو نقول على هذا الوجه يكون معنى أزلفت قربت وهي غير بعيد ، فيحصل المعنيان جميعاً الإقراب والاقتراب أو يكون المراد القرب والحصول لا للمكان فيحصل معنيان القرب المكاني بقوله غير بعيد والحصول بقوله : ﴿ أُزْلِفَتْ ﴾ وقوله : ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ مع قوله : ﴿ أُزْلِفَتْ ﴾ على التأنيث يحتمل وجوهاً : الأول : إذا قلنا إن ﴿ غَيْرِ ﴾ نصب على المصدر تقديره مكاناً غير .

الثاني : التذكير فيه كما في قوله تعالى :

(84/722)

﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ ﴾ [الأعراف : 56] إجراء لفعيل بمعنى فاعل مجرى فعيل بمعنى مفعول .

الثالث : أن يقال ﴿ غَيْرِ ﴾ منصوب نصباً على المصدر على أنه صفة مصدر محذوف تقديره : أزلفت الجنة إزلافاً غير بعيد ، أي عن قدرتنا فإنا قد ذكرنا أن الجنة مكان ،

والمكان لا يقرب وإنما يقرب منه ، فقال : الإزلاف غير بعيد عن قدرتنا فإنا نطوي المسافة بينهما .

هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (32)

ثم قال تعالى : ﴿ هذا مَا تُوعَدُونَ ﴾ قال الزمخشري : هي جملة معترضة بين كلامين وذلك لأن قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴾ بدل عن المتقين كأنه تعالى قال : (أزلفت الجنة للمتقين لكل أواب) كما في قوله تعالى : ﴿ لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ ﴾ [الزخرف : 33] غير أن ذلك بدل الاشتمال وهذا بدل الكل وقال : ﴿ هذا ﴾ إشارة إلى الثواب أي هذا الثواب ما توعدون أو إلى الإزلاف المدلول عليه بقوله : ﴿ أُزْلِفَتْ ﴾ [ق : 31] أي هذا الإزلاف ما وعدتم به ، ويحتمل أن يقال هو كلام مستقل ووجهه أن ذلك محمول على المعنى لا ما يوعد به يقال للموعود هذا لك وكأنه تعالى قال هذا ما قلت إنه لكم .

ثم قال تعالى : ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ بدلاً عن الضمير في ﴿ تُوعَدُونَ ﴾ ، وكذلك إن قرىء بالياء يكون تقديره هذا لكل أواب بدلاً عن الضمير ، والأواب الرجاع ، قيل هو الذي يرجع من الذنوب ويستغفر ، والحفيظ الحافظ للذي يحفظ توبته من النقض .

(85/722)

ويحتمل أن يقال الأواب هو الرجاع إلى الله بفكره ، والحفيظ الذي يحفظ الله في ذكره أي رجع إليه بالفكر فيرى كل شيء واقعاً به وموجداً منه ثم إذا انتهى إليه حفظه بحيث لا ينساه عند الرخاء والنعماء ، والأواب الحفيظ كلاهما من باب المبالغة أي يكون كثير الأوب شديد الحفظ ، وفيه وجوه أخر أدق ، وهو أن الأواب هو الذي رجع عن متابعة هواه في الإقبال على ما سواه ، والحفيظ هو الذي إذا أدركه بأشرف قواه لا يتركه فيكمل بها تقواه ويكون هذا تفسيراً للمتقي ، لأن المتقي هو الذي أتقى الشرك والتعطيل ولم ينكره ولم يعترف بغيره ، والأواب هو الذي لا يعترف بغيره ويرجع عن كل شيء غير الله تعالى ، والحفيظ هو الذي لم يرجع عنه إلى شيء مما عداه .

مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (33)

وفي ﴿ مِنْ ﴾ وجوه .

أحدها : وهو أغربها أنه منادى كأنه تعالى قال : يا من خشي الرحمن أدخلوها بسلام وحذف حرف النداء شائع .

(86/722)

وثانيها : ﴿ مِنْ ﴾ بدل عن كل في قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴾ [ق : 32] من غير إعادة حرف الجر تقديره أزلفت الجنة لمن خشي الرحمن بالغيب ، ثالثها : في قوله تعالى : ﴿ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ [ق : 32] موصوف معلوم غير مذكور كأنه يقول لكل شخص أواب أو عبد أو غير ذلك ، فقوله تعالى : ﴿ مَّنْ خَشِيَ الرحمن بالغيب ﴾ بدل عن ذلك الموصوف هذه وجوه ثلاثة ذكرها الزمخشري ، وقال لا يجوز أن يكون بدلاً عن أواب أو حفيظ لأن أواب وحفيظ قد وصف به موصوف معلوم غير مذكور كما بيناه والبدل في حكم المبدل منه ، فتكون ﴿ مِنْ ﴾ موصوفاً بها ومن لا يوصف بها لا يقال : الرجل من جاءني جالسني ، كم يقال الرجل الذي جاءني جالسني ، هذا تمام كلام الزمخشري ، فإن قال قائل إذا كان ﴿ مِنْ ﴾ والذي يشتركان في كونهما من الموصولات فلماذا لا يشتركان في جواز الوصف بهما ؟ نقول : الأمر معقول نبينه في ما ، ومنه يتبين الأمر فيه فنقول : ما اسم مبهم يقع على كل شيء فمفهومه هو شيء لكن الشيء هو أعم الأشياء فإن الجوهر شيء والعرض شيء والواجب شيء والممكن شيء والأعم قبل الأخص في الفهم لأنك إذا رأيت من البعد شبحاً تقول أولاً إنه شيء ثم إذا ظهر لك منه ما يختص بالناس تقول إنسان فإذا بان ذلك أنه ذكر قلت هو رجل فإذا وجدته ذا قوة تقول شجاع إلى غير ذلك ، فالأعم أعرف وهو قبل الأخص في الفهم فمفهوم ما قبل كل شيء فلا يجوز أن يكون صفة لأن الصفة بعد الموصوف هذا من حيث المعقول ، وأما من حيث النحو فلأن الحقائق لا يوصف بها ، فلا يقال جسم

رجل جاءني كما يقال جسم ناطق جاءني كما يقال جسم ناطق جاءني لأن الوصف يقوم بالموصوف والحقيقة تقوم بنفسها لا بغيرها وكل ما يقع وصفاً للغير يكون معناه شيء له كذا ، فقولنا عالم معناه شيء له علم أو عالمية فيدخل في مفهوم الوصف شيء مع أمر آخر وهو له كذا لكن ما لمجرد شيء فلا يوجد فيه ما يتم به الوصف وهو الأمر الآخر الذي معناه ذو كذا فلم يجز

(87/722)

أن يكون صفة وإذا بان القول فمن في العقلاء كما في غيرهم وفيهم فمن معناه إنسان أو ملك أو غيرهما من الحقائق العاقلة ، والحقائق لا تقع صفات ، وأما الذي يقع على الحقائق والأوصاف ويدخل في مفهومه تعريف أكثر مما يدخل في مجاز الوصف بما دون من .

وفي الآية لطائف معنوية .

(88/722)

الأول : الخشية والخوف معناهما واحد عند أهل اللغة ، لكن بينهما فرق وهو أن الخشية من عظمة المخشي ، وذلك لأن تركيب حرف خ ش ي في تقاليبها يلزمه معنى الهيبة يقال شيخ للسيد والرجل الكبير السن وهم جميعاً مهيبان ، والخوف خشية من ضعف الخاشي وذلك لأن تركيب خ و ف في تقاليبها يدل على الضعف تدل عليه الخيفة والخفية ولولا قرب معناهما لما ورد في القرآن ﴿ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [الأنعام : 63] و ﴿ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ [الأعراف : 205] والمخفي فيه ضعف كالخائف إذا علمت هذا تبين لك اللطيفة وهي أن الله تعالى في كثير من المواضع ذكر لفظ الخشية حيث كان الخوف من عظمة المخشي قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء ﴾ [فاطر : 28] ، وقال : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هذا القرءان على جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خاشعا مُّتَصَدّعاً مّنْ خَشْيَةِ الله ﴾ [الحشر : 21] فإن الجبل ليس فيه ضعف يكون الخوف من ضعفه وإنما الله عظيم يخشاه كل قوي ﴿ هُم مّنْ خَشْيَةِ رَبّهِمْ مُّشْفِقُونَ ﴾ [المؤمنون : 57] مع أن الملائكة أقوياء وقال تعالى : ﴿ وَتَخْشَى الناس والله أَحَقُّ أَن تخشاه ﴾ [الأحزاب : 37] أي تخافهم إعظاماً لهم إذ لا ضعف فيك بالنسبة إليهم ، وقال تعالى : ﴿ لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ ﴾ [العنكبوت : 33] أي لا تخف ضعفاً فإنهم لا عظمة لهم وقال : ﴿ يخافون يَوْماً ﴾ [الإنسان : 7] حيث كان عظمة اليوم بالنسبة إلى عظمة الله ضعيفة وقال : ﴿ أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ ﴾ [فصلت : 30] أي بسبب مكروه يلحقكم من الآخرة فإن المكروهات كلها مدفوعة عنكم ، وقال

تعالى : ﴿ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾ [القصص : 21] وقال : ﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ يَقْتُلُونَ ﴾ [القصص : 33] لوحدته وضعفه وقال هارون : ﴿ إِنِّي خَشِيتُ ﴾ [طه : 94] لعظمة موسى في عين هارون لا لضعف فيه وقال : ﴿ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طغيانا وَكُفْراً ﴾ [الكهف : 80] حيث لم

(89/722)

يكن لضعف فيه ، وحاصل الكلام أنك إذا تأملت استعمال الخشية وجدتها مستعملة لخوف بسبب عظمة المخشي ، وإذا نظرت إلى استعمال الخوف وجدته مستعملاً لخشية من ضعف الخائف ، وهذا في الأكثر وربما يتخلف المدعى عنه لكن الكثرة كافية .

الثانية : قال الله تعالى ههنا : ﴿ خَشِيَ الرحمن ﴾ مع أن وصف الرحمة غالباً يقابل الخشية إشارة إلى مدح المتقي حيث لم تمنعه الرحمة من الخوف بسبب العظمة ، وقال تعالى : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هذا القرءان على جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خاشعا مُّتَصَدّعاً مّنْ خَشْيَةِ الله ﴾ [الحشر : 21] إشارة إلى ذم الكافر حيث لم تحمله الألوهية التي تنبىء عنها لفظة الله وفيها العظمة على خوفه وقال : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ العلماء ﴾ [فاطر : 28] لأن ﴿ إِنَّمَا ﴾ للحصر فكان فيه إشارة إلى أن الجاهل لا يخشاه فذكر الله ليبين أن عدم خشيته مع قيام

المقتضى وعدم المانع وهو الرحمة ، وقد ذكرنا ذلك في سورة يس ونزيد ههنا شيئاً آخر ، وهو أن نقول لفظة : ﴿ الرحمن ﴾ إشارة إلى مقتضى لا إلى المانع ، وذلك لأن الرحمن معناه واهب الوجود بالخلق ، والرحيم واهب البقاء بالرزق وهو في الدنيا رحمان حيث أوجدنا بالرحمة ، ورحيم حيث أبقى بالرزق ، ولا يقال لغيره رحيم لأن البقاء بالرزق قد يظن أن مثل ذلك يأتي ممن يطعم المضطر ، فيقال فلان هو الذي أبقى فلاناً ، وهو في الآخرة أيضاً رحمان حيث يوجدنا ، ورحيم حيث يرزقنا ، وذكرنا ذلك في تفسير الفاتحة حيث قلنا قال : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم ﴾ إشارة إلى كونه رحماناً في الدنيا حيث خلقنا ، رحيماً في الدنيا حيث رزقنا رحمة ثم قال مرة أخرى بعد قوله : ﴿ الحمد للَّهِ رَبّ العالمين * الرحمن الرحيم ﴾ أي هو رحمن مرة أخرى في الآخرة بخلقنا ثانياً ، واستدللنا عليه بقوله بعد ذلك :

(90/722)

﴿ مالك يَوْمِ الدين ﴾ [الفاتحة : 4] أي يخلقنا ثانياً ، ورحيم يرزقنا ويكون هو المالك في ذلك اليوم ، إذا علمت هذا فمن يكون منه وجود الإنسان لا يكون خوفه خشية من غيره ، فإن القائل يقول لغيره أخاف منك أن تقطع رزقي أو تبدل حياتي ، فإذا كان الله تعالى

رحماناً منه الوجود ينبغي أن يخشى ، فإن من بيده الوجود بيده العدم ، وقال صلى الله عليه وسلم : " خشية الله رأس كل حكمة " وذلك لأن الحكيم إذا تفكر في غير الله وجده محل التغير يجوز عليه العدم في كل طرفة عين ، وربما يقدر الله عدمه قبل أن يتمكن من الإضرار ، لأن غير الله إن لم يقدر الله أن يضر لا يقدر على الضرر وإن قدر عليه بتقدير الله فسيزول الضرر بموت المعذب أو المعذب ، وأما الله تعالى فلا راد لما أراد ولا آخر لعذابه ، وقال تعالى : ﴿ بالغيب ﴾ أي كانت خشيتهم قبل ظهور الأمور حيث ترى رأي العين ، وقوله تعالى : ﴿ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ إشارة إلى صفة مدح أخرى ، وذلك لأن الخاشي قد يهرب ويترك القرب من المخشي ولا ينتفع ، وإذا علم المخشي أنه تحت حكمه تعالى علم أنه لا ينفعه الهرب ، فيأتي المخشي وهو (غير) خاش فقال : ﴿ وَجَاء ﴾ ولم يذهب كما يذهب الآبق ، وقوله تعالى : ﴿ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ الباء فيه يحتمل وجوهاً ذكرناها في قوله تعالى : ﴿ وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقّ ﴾ [ق : 19] .

أحدها : التعدية أي أحضر قلباً سليماً ، كما يقال ذهب به إذا أذهبه .

ثانيها : المصاحبة يقال : اشترى فلان الفرس بسرجه أي مع سرجه ، وجاء فلان بأهله أي مع أهله .

ثالثها : وهو أعرفها الباء للسبب يقال : ما أخذ فلان إلا بقول فلان وجاء بالرجاء له فكأنه تعالى قال : جاء وما جاء إلا بسبب إنابة في قلبه علم أنه لا مرجع إلا إلى الله فجاء بسبب قلبه المنيب ، والقلب المنيب كالقلب السليم في قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات : 84] أي سليم من الشرك ، ومن سلم من الشرك يترك غير الله ويرجع إلى الله فكان منيباً ، ومن أناب إلى الله برىء من الشرك فكان سليماً

ثم قال تعالى : ﴿ ادخلوها بِسَلامٍ ﴾ .

فالضمير عائد إلى الجنة التي في ﴿ وَأُزْلِفَتِ الجنة ﴾ [ق : 31] أي لما تكامل حسنها وقربها وقيل لهم إنها منزلكم بقوله : ﴿ هذا مَا تُوعَدُونَ ﴾ [ق : 32] أذن لهم في دخولها وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

الخطاب مع من ؟ نقول إن قرىء ﴿ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ بالتاء فهو ظاهر إذ لا يخفى أن الخطاب مع الموعودين ، وإن قرىء بالياء فالخطاب مع المتقين أي يقال للمتقين أدخلوها .

المسألة الثانية :

هذا يدل على أن ذلك يتوقف على الإذن ، وفيه من الانتظار ما لا يليق بالإكرام ، نقول ليس كذلك ، فإن من دعا مكرماً إلى بستانه يفتح له الباب ويجلس في موضعه ، ولا يقف على الباب من يرحبه ، ويقول إذا بلغت بستاني فادخله ، وإن لم يكن هناك أحد يكون قد أخل بإكرامه بخلاف من يقف على بابه قوم يقولون : أدخل باسم الله ، يدل على الإكرام قوله تعالى : ﴿ بِسَلامٍ ﴾ كما يقول المضيف : أدخل مصاحباً بالسلامة والسعادة والكرامة ، والباء للمصاحبة في معنى الحال ، أي سالمين مقرونين بالسلامة ، أو معناه أدخلوها مسلماً عليكم ، ويسلم الله وملائكته عليكم ، ويحتمل عندي وجهاً آخر ، وهو أن يكون ذلك إرشاداً للمؤمنين إلى مكارم الأخلاق في ذلك اليوم كما أرشدوا إليها في الدنيا ، حيث قال تعالى : ﴿ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حتى تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلّمُواْ على أَهْلِهَا ﴾ [النور : 27] فكأنه تعالى قال : هذه داركم ومنزلكم ، ولكن لا تتركوا حسن عادتكم ، ولا تخلوا بمكارم أخلاقكم ، فادخلوها بسلام ، ويصيحون سلاماً على من فيها ، ويسلم من فيها عليهم ، ويقولون السلام عليكم ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ قِيلاً سلاما سلاما ﴾ [الواقعة : 26] أي يسلمون على من فيها ، ويسلم من فيها عليهم ، وهذا الوجه إن كان منقولاً فنعم ، وإن لم يكن منقولاً فهو مناسب معقول أيده دليل منقول .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الخلود ﴾ .

حتى لا يدخل في قلبهم أن ذلك ربما ينقطع عنهم فتبقى في قلبهم حسرته ، فإن قيل المؤمن قد علم أنه إذا دخل الجنة خلد فيها ، فما الفائدة في التذكير ؟ والجواب : عنه من وجهين .

أحدهما : أن قوله : ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الخلود ﴾ قول قاله الله في الدنيا إعلاماً وإخباراً ، وليس ذلك قولاً يقوله عند قوله : ﴿ ادخلوها ﴾ فكأنه تعالى أخبرنا في يومنا أن ذلك اليوم يوم الخلود .

(93/722)

ثانيهما : اطمئنان القلب بالقول أكثر ، قال الزمخشري في قوله : ﴿ يَوْمُ الخلود ﴾ إضمار تقديره : ذلك يوم تقدير الخلود ، ويحتمل أن يقال اليوم يذكر ، ويراد الزمان المطلق سواء كان يوماً أو ليلاً ، نقول : يوم ولد لفلان ابن يكون السرور العظيم ، ولو ولد له بالليل لكان السرور حاصلاً ، فتريد به الزمان ، فكأنه تعالى قال : ذلك زمان الإقامة الدائمة .

ثم قال تعالى :

لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (35)

وفي الآية ترتيب في غاية الحسن ، وذلك لأنه تعالى بدأ ببيان إكرامهم حيث قال :

﴿ وَأُزْلِفَتِ الجنةِ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الشعراء : 90] ولم يقل : قرب المتقون من الجنة بياناً للإكرام

حيث جعلهم ممن تنقل إليهم الجنان بما فيها من الحسان ، ثم قال لهم هذا لكم ، بقوله :

﴿ هذا مَا تُوعَدُونَ ﴾ [ق : 32] ثم بيّن أنه أجر أعمالهم الصالحة بقوله : ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ وقوله ﴿ مَّنْ خَشِيَ الرحمن ﴾ [ق : 33] فإن تصرف المالك الذي ملك شيئاً بعوض أتم فيه من تصرف من ملك بغير عوض ، لإمكان الرجوع في التمليك بغير عوض ، ثم زاد في الإكرام بقوله : ﴿ ادخلوها ﴾ [ق : 34] كما بينا أن ذلك إكرام ، لأن من فتح بابه للناس ، ولم يقف ببابه من يرحب الداخلين ، لا يكون قد أتى بالإكرام التام ، ثم قال :

﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الخلود ﴾ [ق : 34] أي لا تخافوا ما لحقكم من قبل حيث أخرج أبويكم منها ، فهذا دخول لا خروج بعده منها .

ثم لما بيّن أنهم فيها خالدون قال : لا تخافوا انقطاع أرزاقكم وبقاءكم في حاجة ، كما كنتم في الدنيا من كان يعمر ينكس ويحتاج ، بل لكم الخلود ، ولا ينفد ما تمتعون به فلكم ما تشاءون في أي وقت تشاءون ، وإلى الله المنتهى ، وعند الوصول إليه ، والمثول بين يديه ، فلا يوصف ما لديه ، ولا يطلع أحد عليه ، وعظمة من عنده تدلك على فضيلة ما عنده ، هذا هو الترتيب ، وأما التفسير ، ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قال تعالى : ﴿ ادخلوها بِسَلامٍ ﴾ [ق : 34] على سبيل المخاطبة ، ثم قال : ﴿ لَهُمْ ﴾ ولم يقل لكم ما الحكمة فيه ؟ الجواب : عنه من وجوه .

الأول : هو أن قوله تعالى : ﴿ ادخلوها ﴾ مقدر فيه يقال لهم ، أي يقال لهم ﴿ ادخلوها ﴾ فلا يكون على هذا التفاتاً .

الثاني : هو أنه من باب الالتفات والحكمة الجمع بين الطرفين ، كأنه تعالى يقول : أكرمهم به في حضورهم ، ففي حضورهم الحبور ، وفي غيبتهم الحور والقصور .

والثالث : هو أن يقال قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ ﴾ جاز أن يكون كلاماً مع الملائكة ، يقول للملائكة : توكلوا بخدمتهم ، واعلموا أن لهم ما يشاءون فيها ، فأحضروا بين أيديهم ما يشاءون ، وأما أنا فعندي ما لا يخطر ببالهم ، ولا تقدرون أنتم عليه .

المسألة الثانية :

قد ذكرنا أن لفظ ﴿ مَّزِيدٍ ﴾ [ق : 30] يحتمل أن يكون معناه الزيادة ، فيكون كما في قوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : 26] ويحتمل أن يكون بمعنى المفعول ، أي عندنا ما نزيده على ما يرجون وما يكون مما يشتهون :

ثم قال تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً ﴾ .

لما أنذرهم بما بين أيديهم من اليوم العظيم والعذاب الأليم ، أنذرهم بما يعجل لهم من العذاب

المهلك والإهلاك المدرك ، وبين لهم حال من تقدمهم ، وقد تقدم تفسيره في مواضع ، والذي يختص بهذا الموضع أمور .

(95/722)

أحدها : إذا كان ذلك للجمع بين الإنذار بالعذاب العاجل والعقاب الآجل ، فلم توسطهما قوله تعالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الجنةِ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق : 31 35] نقول ليكون ذلك دعاء بالخوف والطمع ، فذكر حال الكفور المعاند ، وحال الشكور العابد في الآخرة ترهيباً وترغيباً ، ثم قال تعالى : إن كنتم في شك من العذاب الأبدي الدائم ، فما أنتم في ريب من العذاب العاجل المهلك الذي أهلك أمثالكم ، فإن قيل : فلم لم يجمع بين الترهيب والترغيب في العاجلة ، كما جمع بينهما في الآجلة ، ولم يذكر حال من أسلم من قبل وأنعم عليه ، كما ذكر حال من أشرك به فأهلكه نقول لأن النعمة كانت قد وصلت إليهم ، وكانوا متقلبين في النعم ، فلم يذكرهم به ، وإنما كانوا غافلين عن الهلاك فأنذرهم به ، وأما في الآخرة ، فكانوا غافلين عن الأمرين جميعاً ، فأخبرهم بهما .

الثاني : قوله تعالى : ﴿ فَنَقَّبُواْ فِى البلاد ﴾ .

في معناه وجوه .

أحدها : هو ما قاله تعالى في حق ثمود : ﴿ الذين جَابُواْ الصخر بالواد ﴾ [الفجر : 9] من قوتهم خرق الطرق ونقبوها ، وقطعوا الصخور وثقبوها .

ثانيها : نقبوا ، أي ساروا في الأسفار ولم يجدوا ملجأً ومهرباً ، وعلى هذا يحتمل أن يكون المراد أهل مكة ، أي هم ساروا في الأسفار ، ورأوا ما فيها من الآثار .

ثالثها : ﴿ فَنَقَّبُواْ فِى البلاد ﴾ أي صاروا نقباء في الأرض أراد ما أفادهم بطشهم وقوتهم ، ويدل على هذا الفاء ، لأنها تصير حينئذ مفيدة ترتب الأمر على مقتضاه ، تقول كان زيد أقوى من عمرو فغلبه ، وكان عمرو مريضاً فغلبه زيد ، كذلك ههنا قال تعالى : ﴿ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً ﴾ فصاروا نقباء في الأرض ، وقرىء : ﴿ فَنَقَّبُواْ ﴾ بالتشديد ، وهو أيضاً يدل على ما ذكرنا في الوجه الثالث ، لأن التنقيب البحث ، وهو من نقب بمعنى صار نقيباً .

الثالث : قوله تعالى : ﴿ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ .

يحتمل وجوهاً ثلاثة .

الأول : على قراءة من قرأ بالتشديد يحتمل أن يقال هو مفعول ، أي بحثوا عن المحيص ﴿ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ .

الثاني : على القراءات جميعاً استفهام بمعنى الإنكار أي لم يكن لهم محيص .

الثالث : هو كلام مستأنف كأنه تعالى يقول لقوم محمد صلى الله عليه وسلم هم أهلكوا مع قوة بطشهم فهل من محيص لكم تعتمدون عليه والمحيص كالمحيد غير أن المحيص معدل ومهرب عن الشدة ، يدلك عليه قولهم وقعوا في حيص بيص أي في شدة وضيق ، والمحيد معدل وإن كان لهم بالاختيار يقال حاد عن الطريق نظراً ، ولا يقال حاص عن الأمر نظراً .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ .

الإشارة إلى الإهلاك ويحتمل أن يقال هو إشارة إلى ما قاله من إزلاف الجنة وملء جهنم وغيرهما ، والذكرى اسم مصدر هو التذكر والتذكرة وهي في نفسها مصدر ذكره يذكره ذكراً وذكرى وقوله لمن ﴿ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ قيل : المراد قلب موصوف بالوعي ، أي لمن كان له قلب واع يقال لفلان مال أي كثير فالتنكير يدل على معنى في الكمال ، والأولى أن يقال هو لبيان وضوح الأمر بعد الذكر وأن لا خفاء فيه لمن كان له قلب ما ولو كان غير كامل ، كما يقال أعطه شيئاً ولو كان درهماً ، وتقول الجنة لمن عمل خيراً ولو حسنة ، فكأنه تعالى قال : إن في ذلك لذكرى لمن يصح أن يقال له قلب وحينئذ فمن لا يتذكر لا قلب له أصلاً كما في قوله تعالى : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ [البقرة : 18] حيث لم تكن آذانهم وألسنتهم وأعينهم

مفيدة لما يطلب منها كذلك من لا يتذكر كأنه لا قلب له ، ومنه قوله تعالى : ﴿ كالأنعام بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [الأعراف : 179] أي هم كالجماد وقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ [المنافقون : 4] أي لهم صور وليس لهم قلب للذكر ولا لسان للشكر .

(97/722)

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ أَلْقَى السمع وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أي استمع وإلقاء السمع كناية في الاستماع ، لأن من لا يسمع فكأنه حفظ سمعه وأمسكه فإذا أرسله حصل الاستماع ، فإن قيل على قول من قال التنكير في القلب للتكثير يظهر حسن ترتيب في قوله : ﴿ أَوْ أَلْقَى السمع ﴾ وذلك لأنه يصير كأنه تعالى يقول : إن في ذلك لذكرى لمن كان ذا قلب واع ذكي يستخرج الأمور بذكائه أو ألقى السمع ويستمع من المنذر فيتذكر ، وأما على قولك المراد من صح أن يقال له قلب ولو كان غير واع لا يظهر هذا الحسن ، نقول على ما ذكرنا ربما يكون الترتيب أحسن وذلك لأن التقدير يصير كأنه تعالى قال : فيه ذكرى لكل واحد كيف كان له قلب لظهور الأمر ، فإن كان لا يحصل لكل أحد فلمن يستمع حاصل ويؤيد ما ذكرنا قوله تعالى : ﴿ أَوْ أَلْقَى السمع ﴾ حيث لم يقل أو استمع لأن الاستماع ينبىء عن طلب زائد ، وأما إلقاء السمع فمعناه أن الذكرى حاصلة لمن لا يمسك سمعه بل يرسله إرسالاً ، وإن لم يقصد

السماع كالسامع في الصوت الهائل فإنه يحصل عند مجرد فتح الأذن وإن لم يقصد السماع والصوت الخفي لا يسمع إلا باستماع وتطلب ، فنقول الذكرى حاصلة لمن كان له قلب كيف كان قلبه لظهورها فإن لم تحصل فلمن له أذن غير مسدودة كيف كان حاله سواء استمع باجتهاده أو لم يجتهد في سماعه ، فإن قيل فقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ للحال وهو يدل على أن إلقاء السمع بمجرده غير كاف ، نقول هذا يصحح ما ذكرناه لأنا قلنا بأن الذكرى حاصلة لمن له قلب ما ، فإن لم تحصل له فتحصل له إذا ألقى السمع وهو حاضر بباله من القلب ، وأما على الأول فمعناه من ليسه له قلب واع ، يحصل له الذكر إذا ألقى السمع وهو حاضر بقلبه فيكون عند الحضور بقلبه يكون له قلب واع ، وقد فرض عدمه هذا إذا قلنا بأن قوله : ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ بمعنى الحال ، وإذا لم نقل به فلا يرد ما ذكر وهو يحتمل غير ذلك بيانه هو أن يقال ذلك إشارة إلى القرآن وتقريره هو أن

(98/722)

الله تعالى لما قال في أول السورة :

﴿ ق والقرءان المجيد * بَلْ عَجِبُواْ أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ [ق : 1 ، 2] وذكر ما يدفع تعجبهم وبين كونه منذراً صادقاً وكون الحشر أمراً واقعاً ورغب وأرهب بالثواب والعذاب

آجلاً وعاجلاً وأتم الكلام قال : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ أي القرآن الذي سبق ذكره ﴿ لذكرى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ أو لمن يستمع ، ثم قال : ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أي المنذر الذي تعجبتم منه شهيد كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا أرسلناك شَاهِداً ﴾ [الفتح : 8] وقال تعالى : ﴿ لِيَكُونَ الرسول شَهِيداً عَلَيْكُمْ ﴾ [الحج : 78] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 150.158 ﴾

(99/722)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾

هذه آيات فيها إقامة حجج على الكفار في إنكارهم البعث والجزاء . والخلق : إنشاء الشيء على ترتيب وتقدير حكمي . و: ﴿ الإنسان ﴾ اسم الجنس . قال بعض المفسرين ﴿ الإنسان ﴾ هنا آدم عليه السلام و ﴿ توسوس ﴾ معناه : تتحدث في فكرتها ، وسمي صوت الحلي وسواساً لخفائه ، والوسوسة إنما تستعمل في غير الخير ، وقوله تعالى : ﴿ نحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ عبارة عن قدرة الله على العبد ، وكون العبد في قبضة القدرة ، والعلم قد أحيط به ، فالقرب هو بالقدرة والسلطان ، إذ لا

ينحجب عن علم الله باطن ولا ظاهر ، وكل قريب من الأجرام فبينه وبين قلب الإنسان حجب . و: ﴿ الوريد ﴾ عرق كبير في العنق ، يقال : إنهما وريدان عن يمين وشمال . قال الفراء : هو ما بين الحلقوم والعلباوين وقال الحسن : ﴿ الوريد ﴾ الوتين .

قال الأثرم : هو نهر الجسد هو في القلب الوتين ، وفي الظهر الأبهر ، وفي الذراع والفخذ : الأكحل والنسا وفي الخنصر : إلا سليم ، " والحبل " : اسم مشترك فخصصه بالإضافة إلى ﴿ الوريد ﴾ ، وليس هذا بإضافة الشيء إلى نفسه بل هي كإضافة الجنس إلى نوعه كما تقول : لا يجوز حي الطير بلحمه .

(100/722)

وأما قوله تعالى : ﴿ إذ يتلقى المتلقيان ﴾ فقال المفسرون العامل في : ﴿ إذ ﴾ ، ﴿ أقرب ﴾ ، ويحتمل عندي أن يكون العامل فيه فعلاً مضمراً تقديره : اذكر ﴿ إذ يتلقى المتلقيان ﴾ ، ويحسن هذا المعنى ، لأنه أخبر خبراً مجرداً بالخلق والعلم بخطرات الأنفس والقرب بالقدرة والملك ، فلما تم الإخبار ، أخبر بذكر الأحوال التي تصدق هذا الخبر وتبين وروده عند السامع ، فمنها ﴿ إذ يتلقى المتلقيان ﴾ ، ومنها مجيء سكرة الموت ، ومنها النفخ في الصور ومنها مجيء كل نفس ، و﴿ المتلقيان ﴾ : الملكان الموكلان بكل إنسان :

ملك اليمين الذي يكتب الحسنات ، وملك الشمال الذي يكتب السيئات . قال الحسن : الحفظة : أربعة ، اثنان بالنهار واثنان بالليل .

قال القاضي أبو محمد : ويؤيد ذلك الحديث ، " يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار " الحديث بكامله . ويروى أن ملك اليمين أمير على ملك الشمال ، وأن العبد إذا أذنب يقول ملك اليمين للآخر تثبت لعله يتوب رواه إبراهيم التيمي وسفيان الثوري .

و﴿ قعيد ﴾ معناه : قاعد ، وقال قوم هو بمنزلة أكيل ، فهو بمعنى مقاعد وقال الكوفيون : أراد قعوداً فجعل الواحد موضع الجنس ، والأول أصوب لأن المقاعد إنما يكون مع قعود الإنسان ، وقال مجاهد : ﴿ قعيد ﴾ : رصد ومذهب سيبويه أن التقدير عن اليمين قعيد ، فاكتفى بذكر الآخر عن ذكر الأول ومثله عنده قول الشاعر [كثير عزة] : [الطويل]

وعزة ممطول معنّى غريمها . . . ومثله قول الفرزدق : [الكامل]

إني ضمنت لمن أتاني ما جنى . . . وأبى وكان وكنت غير غدور

(101/722)

وهذه الأمثلة كثيرة ، ومذهب المبرد : أن التقدير عن اليمين ﴿ قعيد ﴾ وعن الشمال فأخر ﴿ قعيد ﴾ عن مكانه ومذهب الفراء أن لفظ ﴿ قعيد ﴾ يدل على الاثنين والجمع فلا يحتاج إلى تقدير غير الظاهر وقوله تعالى : ﴿ ما يلفظ من قول ﴾ قال الحسن بن أبي الحسن وقتادة : يكتب الملكان الكلام فيثبت الله من ذلك الحسنات ، والسيئات ، ويمحو غير ذلك ، وهذا هو ظاهر الآية ، قال أبو الجوزاء ومجاهد : يكتبان عليه كل شيء حتى أنينه في مرضه ، وقال عكرمة : المعنى : ﴿ ما يلفظ من قول ﴾ خير أو شر ، وأما ما خرج من هذا فإنه لا يكتب والأول أصوب ، وروي أن رجلاً قال لجمله : حل ، فقال ملك اليمين لا أكتبها ، وقال ملك الشمال لا أكتبها ، فأوحى الله إلى ملك الشمال أن اكتب ما ترك ملك اليمين ، وروي نحوه عن هشام الحمصي وهذه اللفظة إذا اعتبرت فهي بحسب مشيه ببعيره ، فإن كان في طاعة فحل حسنة ، وإن كان في معصية فهي سيئة والمتوسط بين هذين عسير الوجود ولا بد أن يقترن بكل أحوال المرء قرائن تخلصها للخير أو لخلافه .

(102/722)

وحكى الثعلبي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن مقعد الملكين على الثنيتين ، قلمهما اللسان ، ومدادهما الريق " وقال الضحاك

والحسن : مقعدهما تحت الشعر ، وكان الحسن يحب أن ينظف غفقته لذلك قال الحسن : حتى إذا مات طويت صحيفته وقيل له يوم القيامة : ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ [الإسراء : 14] عدل والله عليه من جعله حسيب نفسه . والرقيب : المراقب . والعتيد : الحاضر وقوله : ﴿ وجاءت ﴾ عطف عندي على قوله : ﴿ إذ يتلقى ﴾ فالتقدير : وإذ تجيء سكرة الموت ، وجعل الماضي في موضع المستقبل تحقيقاً وتثبيتاً للأمر ، وهذا أحث على الاستعداد واستشعار القرب ، وهذه طريقة العرب في ذلك ، ويبين هذا في قوله : ﴿ ونفخ في الصور ﴾ ﴿ وجاءت كل نفس ﴾ فإنها ضرورة بمعنى الاستقبال . وقرأ أبو عمرو : ﴿ وجاءت سكرة ﴾ بإدغام التاء في السين . و ﴿ سكرة الموت ﴾ : ما يعتري الإنسان عند نزاعه والناس فيها مختلفة أحوالهم ، لكن لكل واحد سكرة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في نزاعه يقول : " إن للموت لسكرات " .

وقوله : ﴿ بالحق ﴾ معناه : بلقاء الله وفقد الحياة الدنيا . وفي مصحف عبد الله بن مسعود : " وجاءت سكرة الحق بالموت " . وقرأها ابن جبير وطلحة ، ويروى أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قالها كذلك لابنته عائشة وذلك أنها قعدت عند رأسه وهو ينازع فقالت : [الطويل]

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى . . . إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

ففتح أبو بكر رضي الله عنه عينه فقال : لا تقولي هكذا ، وقولي : " وجاءت سكرة الحق بالموت " ﴿ ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ . وقد روي هذا الحديث على مشهور القراءة ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ﴾ فقال أبو الفتح : إن شئت علقت الباء ب ﴿ جاءت ﴾ ، كما تقول : جئت بزيد ، وإن شئت كانت بتقدير : ومعها الموت .

(103/722)

واختلف المتأولون في معنى : " وجاءت سكرة الحق بالموت " فقال الطبري وحكاه الثعلبي : " الحق " الله تعالى ، وفي إضافة السكرة إلى اسم الله تعالى بعد وإن كان ذلك سائغاً من حيث هي خلق له ، ولكن فصاحة القرآن ورصفه لا يأتي فيه هذا . وقال بعض المتأولين المعنى : وجاءت سكرة فراق الحياة بالموت وفراق الحياة حق يعرفه الإنسان ويحيد منه بأمله . ومعنى هذا الحيد : أنه يقول : أعيش كذا وكذا ، فمتى فكر في قرب الموت حاد بذهنه وأمله إلى مسافة بعيدة من الزمن ، وأيضاً فحذر الموت وتحرزاته ونحو هذا حيد كله . وقد تقدم القول في النفخ في الصور مراراً . و: ﴿ يوم الوعيد ﴾ هو يوم القيامة وأضافه إلى الوعيد تخويفاً .

وقوله تعالى : ﴿ وجاءت كل نفس معها ﴾ وقرأ طلحة بن مصرف : " محّها " بالحاء

المثقلة . والسائق : الحاث على السير .

واختلف الناس في السائق والشهيد ، فقال عثمان بن عفان ومجاهد وغيره : ملكان موكلان بكل إنسان أحدهما يسوقه والآخر من حفظته يشهد عليه . وقال ابو هريرة : السائق ملك ، والشهيد : العمل وقال منذر بن سعيد : السائق : الملك والشهيد : النبي صلى الله عليه وسلم ، قال وقيل : الشهيد : الكتاب الذي يلقاه منشوراً . وقال بعض النظار : ﴿ سائق ﴾ ، اسم جنس ، و ﴿ شهيد ﴾ كذلك ، فالساقة للناس ملائكة يوكلون بذلك ، والشهداء : الحفظة في الدنيا وكل ما يشهد .

وقال ابن عباس والضحاك : السائق ملك ، والشهيد : جوارح الإنسان ، وهذا يبعد على ابن عباس ، لأن الجوارح إنما تشهد بالمعاصي .

(104/722)

وقوله تعالى : ﴿ كل نفس ﴾ يعم الصالحين ، فإنما معناه : وشهيد بخيره ، وشره ، ويقوى في : ﴿ شهيد ﴾ اسم الجنس ، فتشهد بالخير الملائكة والبقاع ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يسمع مدى صوت المؤذن إنس ولا جن ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة " وكذلك يشهد بالشر الملائكة والبقاع والجوارح . وقال أبو هريرة : السائق : ملك ، والشهيد

: العمل . وقال ابن مسلم : السائق : شيطان . حكاه عنه الثعلبي والقول في كتاب منذر بن سعيد وهو ضعيف .

لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22)

قرأ الجحدري : " لقد كنتِ " على مخاطبة النفس وكذلك كسر الكافات بعد .

وقال صالح بن كيسان والضحاك وابن عباس معنى قوله : ﴿ لقد كنت ﴾ أي يقال للكافر الغافل من ذوي النفس التي معها السائق والشهيد إذا حصل بين يدي الرحمن وعاين الحقائق التي كان لا يصدق بها في الدنيا ويتغافل عن النظر فيها ، ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا ﴾ ، فلما كشف الغطاء عنك الآن احتد بصرك أي بصيرتك وهذا كما تقول : فلان حديد الذهن والفؤاد ونحوه ، وقال مجاهد : هو بصر العين إذا احتد التفاته إلى ميزانه وغير ذلك من أهوال القيامة .

(105/722)

وقال زيد بن أسلم قوله تعالى : ﴿ ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ [ق : 19] وقوله تعالى : ﴿ لقد كنت ﴾ الآية ، مخاطبة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، والمعنى أنه خوطب بهذا في الدنيا ، أي لقد كنت يا محمد في غفلة من معرفة هذا القصص والغيب حتى أرسلناك

وأنعمنا عليك وعلمناك ، ﴿ فبصرك اليوم حديد ﴾ ، وهذا التأويل يضعف من وجوه ، أحدها أن الغفلة إنما تنسب أبداً إلى مقصر ، ومحمد صلى الله عليه وسلم لا تقصير له قبل بعثه ولا بعده وثان : أن قوله : بعد هذا : ﴿ وقال قرينه ﴾ يقتضي أن الضمير إنما يعود على أقرب مذكور ، وهو الذي يقال له ﴿ فبصرك اليوم حديد ﴾ وإن جعلناه عائداً على ذي النفس في الآية المتقدمة جاء هذا الاعتراض لمحمد صلى الله عليه وسلم بين الكلامين غير متمكن فتأمله . وثالث : أن معنى توقيف الكافر وتوبيخه على حاله في الدنيا يسقط ، وهو أحرى بالآية وأولى بالرصف ، والوجه عندي ما قاله الحسن وسالم بن عبد الله إنها مخاطبة للإنسان ذي النفس المذكورة من مؤمن وكافر .

و: ﴿ فكشفنا عنك غطاءك ﴾ ، قال ابن عباس : هي الحياة بعد الموت ، وينظر إلى معنى كشف الغطاء قول النبي صلى الله عليه وسلم : " الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا " .

وقوله تعالى : ﴿ وقال قرينه هذا ما لدي عتيد ﴾ ، قال جماعة من المفسرين : ﴿ قرينه ﴾ من زبانية جهنم ، أي قال هذا العذاب الذي لدي لهذا الإنسان الكافر حاضر عتيد ، ففي هذا تحريض على الكافر واستعجال به . وقال قتادة وابن زيد : ﴿ قرينه ﴾ الملك الموكل بسوقه ، فكأنه قال : هذا الكافر الذي جعل إلى سوقه ، فهو لدي حاضر . وقال الزهراوي وقيل : ﴿ قرينه ﴾ شيطانه .

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف ، وإنما أوقع فيه أن القرين في قوله : ﴿ قال قرينه ربنا ما أطغيته ﴾ هو شيطانه في الدنيا ومغويه بلا خلاف .

(106/722)

ولفظ القرين : اسم جنس ، فسائقه قرين ، وصاحبه من الزبانية قرين ، وكاتب سيئاته في الدنيا قرين وتحتمله هذه الآية ، أي هذا الذي أحصيته عليه عتيد لدي ، وهو موجب عذابه ، ومماشي الإنسان في طريقه قرين ، وقال الشاعر [عدي بن زيد العبادي] : [الطويل]

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه . . . فكل قرين بالمقارن يقتدي

والقرين الذي في هذه الآية ، غير القرين الذي في قوله : ﴿ قال قرينه ربنا ما أطغيته ﴾ إذ المقارنة تكون على أنواع ، وقال بعض العلماء : ﴿ قرينه ﴾ في هذه الآية : عمله قلباً وجارحاً ، وقوله عز وجل : ﴿ ألقيا في جهنم ﴾ معناه : يقال ﴿ ألقيا في جهنم ﴾ . واختلف الناس لم يقال ذلك ؟ فقال جماعة من المفسرين : هو قول الملكين من ملائكة العذاب . وقال عبد الرحمن بن زيد في كتاب الزهراوي : هو قول للسائق والشهيد ، وحكى الزهراوي أن المأمور بإلقاء الكافر في النار اثنان ، وعلى هذين القولين لا نظر في قوله

: ﴿ ألقيا ﴾ . وقال مجاهد وجماعة من المتأولين : هو قول للقرين : إما السائق ، وإما الذي هو من الزبانية حسبما تقدم واختلف أهل هذه المقالة في معنى قوله : ﴿ ألقيا ﴾ وهو مخاطبة لواحد ، فقال المبرد معناه : الق الق ، فإنما أراد تثنية الأمر مبالغة وتأكيداً ، فرد التثنية إلى الضمير اختصاراً كما قال [امرؤ القيس] :

(107/722)

لفتك الأمين على نابل . . . يريد ارم ارم . وقال بعض المتأولين : " ألقين " فعوض من النون ألف كما تعوض من التنوين . وقال جماعة من أهل العلم بكلام العرب : هذا جرى على عادة العرب ، وذلك أنها كان الغالب عندها أن تترافق في الأسفار ونحوها ثلاثة ، فكل واحد منهم يخاطب اثنين ، فكثر ذلك في أشعارها وكلامها حتى صار عرفاً في المخاطبة ، فاستعمل في الواحد ، ومن هذا قولهم في الأشعار : خليلي ، وصاحبي ، وقفا نبك ونحوه ، وقد جرى المحدثون على هذا الرسم ، فيقول الواحد : حدثنا ، وإن كان سمع وحده ، ونظير هذه الآية في هذا القول قول الزجاج : يا حارسي اضربا عنقه ، وهو دليل على عادة العرب ، ومنه قول الشاعر [سويد بن كراع العكلي] : [الطويل]

فإن تزجراني يا بن عفان أنزجر . . . وإن تدعاني أحم عرضاً ممنعا

وقرأ الحسن بن أبي الحسن : " ألقين " بتنوين الياء و: ﴿ كفار ﴾ مبالغة . و: ﴿ عنيد ﴾ معناه : عاند عن الحق أي منحرف عنه .

وقوله تعالى : ﴿ مناع للخير ﴾ لفظ عام للمال والكلام الحسن والمعاون على الأشياء .

وقال قتادة ومجاهد وعكرمة ، معناه : الزكاة المفروضة ، وهذا التخصيص ضعيف ، و: ﴿ معتد ﴾ معناه : بلسانه ويده . و: ﴿ مريب ﴾ معناه : متلبس بما يرتاب به ، أراب الرجل : إذا أتى بريبة ودخل فيها . قال الثعلبي قيل نزلت في الوليد بن المغيرة .

وقال الحسن : ﴿ مريب ﴾ شاك في الله تعالى ودينه .

وقوله تعالى : ﴿ الذي جعل ﴾ الآية يحتمل أن يكون ﴿ الذي ﴾ بدلاً من ﴿ كفار ﴾ ويحتمل أن يكون صفة له من حيث تخصص ﴿ كفار ﴾ بالأوصاف المذكورة فجاز وصفه بهذه المعرفة ، ويحتمل أن يكون ﴿ الذي ﴾ ابتداء وخبره قوله : ﴿ فألقياه ﴾ ودخلت الفاء في قوله : ﴿ فألقياه ﴾ للإبهام الذي في ﴿ الذي ﴾ ، فحصل الشبه بالشرط وفي هذا نظر .

قال القاضي أبو محمد : ويقوى عندي أن يكون ﴿ الذي ﴾ ابتداء ، ويتضمن القول حينئذ بني آدم والشياطين المغوين لهم في الدنيا ، ولذلك تحرك القرين الشيطان المغوي في الدنيا ، فرام أن يبرئ نفسه ويخلصها بقوله : ﴿ ربنا ما أطغيته ﴾ لأنه كذب من نفي الإطغاء عن نفس جملة ، والحقيقة أنه أطغاه بالوسوسة والتزين ، وأطغاه الله بالخلق ، والاختراع حسب سابق قضائه الذي هو عدل منه ، لا رب غيره ، وبوصف الضلال بالبعيد مبالغة ، أي لتعذر رجوعه إلى الهدى .

وقوله تعالى : ﴿ لا تختصموا لدي ﴾ معناه : قال الله ﴿ لا تختصموا لدي ﴾ بهذا النوع من المقاولة التي لا تفيد شيئاً إذ قد استوجب جميعكم النار ، وقد أخبر بأنه تقع الخصومة لديه في الظلامات ونحوها مما فيه اختصاص . واقتضاء فائدة بقوله تعالى : ﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ [الزمر : 31] ، وجمع الضمير في قوله : ﴿ لا تختصموا ﴾ يريد بذلك مخاطبة جميع القرناء ، إذ هو أمر شائع لا يقف على اثنين فقط ، وهذا كما يقول الحاكم لخصمين : لا تغلطوا علي ، يريد الخصمين ومن هو في حكمهما . وتقدمته إلى الناس بالوعيد هو ما جاءت به الرسل والكتب من تعظيم الكفرة .

مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (29)

المعنى : قدمت بالوعيد أني أعذب الكفار في ناري ، فلا يبدل قولي ولا ينقص ما أبرمه كلامي ، ثم أزال عز وجل موضع الاعتراض بقوله : ﴿ وما أنا بظلام للعبيد ﴾ أي هذا

عدل فيهم ، لأني أعذرت وأمهلت وأنعمت بالإدراكات وهديت السبيل والنجدين وبعثت الرسل وقال الفراء معنى قوله : ﴿ ما يبدل القول لدي ﴾ ما يكذب لدي ، لعلمي بجميع الأمور .

قال القاضي أبو محمد : فتكون الإشارة على هذا إلى كذب الذي قال : ﴿ ما أطغيته ﴾ [ق : 27] وقوله تعالى : ﴿ يوم يقول ﴾ يجوز أن يعمل في الظرف قوله : ﴿ بظلام ﴾ ويجوز أن يعمل فيه فعل مضمر .

(109/722)

وقرأ جمهور من القراء وحفص عن عاصم : " نقول " بالنون ، وهي قراءة الحسن وأبي رجاء وأبي جعفر والأعمش ورجحها أبو علي بما تقدم من قوله : " قدمت وما أنا " وقرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر : " يقول " على معنى يقول الله ، وهي قراءة الأعرج وشيبة وأهل المدينة ، وقرأ ابن مسعود والحسن والأعمش أيضاً : " يقال " على بناء الفعل للمفعول .

وقوله : ﴿ هل امتلأت ﴾ تقرير وتوقيف ، واختلف الناس هل وقع هذا التقرير ؟ وهي قد امتلأت أو هي لم تمتلئ فقال بكل وجه جماعة من المتأولين وبحسب ذلك تأولوا قولها :

﴿ هل من مزيد ﴾ . فمن قال إنها كانت ملأى جعل قولها : ﴿ هل من مزيد ﴾ على معنى التقرير ونفي المزيد ، أي هل عندي موضع يزاد فيه شيء ونحو هذا التأويل قول النبي صلى الله عليه وسلم : " وهل ترك لنا عقيل منزلاً " وهو تأويل الحسن وعمرو وواصل ، ومن قال : إنها كانت غير ملأى جعل قولها ﴿ هل من مزيد ﴾ على معنى السؤال والرغبة في الزيادة . قال الرماني وقيل المعنى : وتقول خزنتها ، والقول إنها القائلة أظهر .

واختلف الناس أيضاً في قول جهنم هل هو حقيقة أو مجاز ؟ أي حالها حال من لو نطق لقال كذا وكذا فيجري هذا مجرى : شكا إلي جملي طول السرى ، ومجرى قول ذي الرمة : تكلمني أحجاره وملاعبه .

والذي يترجح في قول جهنم : ﴿ هل من مزيد ﴾ أنها حقيقة وأنها قالت ذلك وهي غير ملأى وهو قول أنس بن مالك ، وبين ذلك الحديث الصحيح المتواتر قول النبي صلى الله عليه وسلم : " يقول الله لجهنم هل امتلأت ؟ وتقول : ﴿ هل من مزيد ﴾ حتى يضع الجبار فيها قدمه ، فتقول قط قط ، وينزوي بعضها إلى بعض " واضطرب الناس في معنى هذا الحديث ، وذهبت جماعة من المتكلمين ، إلى أن الجبار اسم جنس ، وأنه يريد المتجبرين من بني آدم ، وروي أن الله تعالى يعد من الجبابرة طائفة يملأ بهم جهنم آخراً . وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم :

" إن جلدة الكافر يصير في غلظها أربعون ذراعاً " ويعظم بدنه على هذه النسبة ، وهذا كله من ملء جهنم وذهب الجمهور إلى أن الجبار اسم الله تعالى ، وهذا هو الصحيح ، فإن في الحديث الصحيح : " فيضع رب العالمين فيها قدمه " وتأويل هذا : ان القدم لها من خلقه وجعلهم في علمه ساكنيها ، ومنه قول الله تعالى : ﴿ وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾ [يونس : 2] فالقدم هنا ما قدم من شيء ومنه قول الشاعر [الوضاح الخصي] : [المنسرح]

صل لربك واتخذ قدماً . . . ينجيك يوم العثار والزلل

ومنه قول العجاج : [الرمل]

وسنى الملك لملك ذي قدم . . . أي ذي شرف متقدم ، وهذا التأويل مروي عن ابن المبارك وعن النضر بن شميل ، وهو قول الأصوليين . وفي كتاب مسلم بن الحجاج : فيضع الجبار فيها رجله ، ومعناه : الجمع الذي أعد لها يقال للجمع الكثير من الناس : رجل تشبيهاً برجل الجراد ، قال الشاعر :

فمر بها رجل من الناس وانزوى . . . إليها من الحي اليمانين أرجل .

وملاك النظر في هذا الحديث : أن الجارحة والتشبيه وما جرى مجراه منتف كل ذلك فلم يبق إلا إخراج ألفاظ على هذه الوجوه السابقة في كلام العرب . و: ﴿ أزلفت ﴾ معناه :

قربت ، و: ﴿ غير بعيد ﴾ تأكيد وبيان أن هذا التقدير هو في المسافة ، لأن قربت كان يحتمل أن معناه : بالوعد والإخبار ، فرفع الاحتمال بقوله : ﴿ غير بعيد ﴾ .

(111/722)

وقوله تعالى : ﴿ هذا ما توعدون ﴾ الآية ، يحتمل أن يكون معناه : يقال لهم في الآخرة عند إزلاف الجنة هذا هو الذي كنتم توعدون في الدنيا ، ويحتمل أن يكون المعنى خطاب لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أي هذا الذي توعدون به أيها الناس ﴿ لكل أواب حفيظ ﴾ . والأواب : الرجاع إلى الطاعة وإلى مراشد نفسه . وقال ابن عباس وعطاء : الأواب : المسبح لقوله : ﴿ يا جبال أوبي معه ﴾ [سبأ : 10] . وقال الشعبي ومجاهد : هو الذي يذكر ذنوبه فيستغفر . وقال المحاسبي : هو الراجع بقلبه إلى ربه . وقال عبيد بن عمير : كنا نحدث أنه الذي إذا قام من مجلسه استغفر الله مما جرى في ذلك المجلس وكذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل . والحفيظ معناه : بأوامر الله فيمتثلها ، أو لنواهيه فيتركها . وقال ابن عباس : ﴿ حفيظ ﴾ لذنوبه حتى يرجع عنها .

وقوله تعالى : ﴿ من خشي ﴾ يحتمل أن يكون ﴿ من ﴾ نعت الأواب أو بدلاً . ويحتمل أن يكون رفعاً بالابتداء والخبر يقال لهم ﴿ ادخلوها ﴾ ، ويحتمل أن تكون شرطية

فيكون الجواب يقال لهم ادخلوها . وقوله : ﴿ بالغيب ﴾ أي غير مشاهد له إنما يصدق رسوله ويسمع كلامه وجاء معناه يوم القيامة . والمنيب الراجع إلى الخير المائل إليه . وقوله تعالى : ﴿ ادخلوها ﴾ تقديره يقال لهم على ما تقدم . و ﴿ بسلام ﴾ معناه بأمن وسلامة من جميع الآفات . وقوله تعالى : ﴿ ذلك يوم الخلود ﴾ معادل لقوله قبل في الكفار ﴿ ذلك يوم الوعيد ﴾ [ق : 20] .

(112/722)

وقوله تعالى : ﴿ لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد ﴾ خبر بأنهم يعطون آمالهم أجمع . ثم أبهم تعالى الزيادة التي عنده للمؤمنين المنعمين ، وكذلك هي مبهمة في قوله تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ [السجدة : 17] وقد فسر ذلك الحديث الصحيح قوله صلى الله عليه وسلم : " يقول الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بل ما أطلعتهم عليه " . وقد ذكر الطبري وغيره في تعيين هذا المزيد أحاديث مطولة وأشياء ضعيفة ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم ﴾ [السجدة : 17] وهم يعينونها تكلفاً وتعسفاً . وروي عن جابر بن عبد الله وأنس بن مالك أن المزيد : النظر إلى وجه الله تعالى بلا كيف .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (36)

﴿ كم ﴾ للتكثير وهي خبرية ، المعنى كثيراً ﴿ أهلكنا قبلهم ﴾ . والقرن : الأمة من الناس الذين يمر عليهم قدر من الزمن . واختلف الناس في ذلك القدر ، فقال الجمهور : مائة سنة ، وقيل غير هذا ، وقد تقدم القول فيه غير مرة . وشدة البطش : هي كثرة القوة والأموال والملك والصحة والأدهان إلى غير ذلك .

وقرأ جمهور من الناس : " فنقَّبوا " بشد القاف المفتوحة على إسناد الفعل إلى القرون الماضية ، والمعنى : ولجوا البلاد من أنقابها وفي الحديث : " أن على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال " . والمراد تطوفوا ومشوا طماعين في النجاة من الهلكة ومنه قول الشاعر [امرؤ القيس] : [الوافر]

وقد نقبت في الآفاق حتى . . . رضيت من الغنيمة بالإياب

ومنه قول الحارث بن حلزة : [الخفيف]

نقبوا في البلاد من حذر الموت . . . وجالوا في الأرض كل مجال

وقرأ ابن يعمر وابن عباس ونصر بن سيار وأبو العالية : " فنقِّبوا " بشد القاف المكسورة على الأمر لهؤلاء الحاضرين .

و : ﴿ هل من محيص ﴾ توقيف وتقرير ، أي لا محيص ، والمحيص : المعدل موضع الحيص وهو الروغان والحياد ، قال قتادة : حاص الكفرة فوجدوا أمر الله منيعاً مدركاً ، وفي صدر البخاري فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب . وقال ابن عبد شمس في وصف ناقته : [الوافر]

إذا حاص الدليل رأيت منها . . . جنوحاً للطريق على اتساق

وقرأ أبو عمرو في رواية عبيد عنه : " فنقَبوا " بفتح القاف وتخفيفها هي بمعنى التشديد ، واللفظة أيضاً قد تقال بمعنى البحث والطلب ، تقول : نقب عن كذا اي استقصى عنه ، ومنه نقيب القوم لأنه الذي يبحث عن أمورهم ويباحث عنها ، وهذا عندي تشبيه بالدخول من الأنقاب .

وقوله تعالى : ﴿ إن في ذلك ﴾ يعني إهلاك من مضى ، والذكرى : التذكرة ، والقلب : عبارة عن العقل إذ هو محله . والمعنى : ﴿ لمن كان له قلب ﴾ واع ينتفع به . وقال الشبلي معناه : قلب حاضر مع الله لا يغفل عنه طرفة عين .

وقوله تعالى : ﴿ أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ معناه : صرف سمعه إلى هذه الأنباء الواعظة وأثبته في سماعها ، فذلك إلقاء له عليها ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وألقيت عليك محبة مني ﴾ [طه : 39] أي أثبتها عليك ، وقال بعض الناس قوله تعالى : ﴿ ألقى السمع

﴾ ، وقوله : ﴿ ضربنا على آذانهم ﴾ [الكهف : 11] وقوله : ﴿ سقط في أيديهم ﴾ [الأعراف : 149] هي كلها مما قل استعمالها الآن وبعدت معانيها .

قال القاضي أبو محمد : وقول هذا القائل ضعيف ، بل هي بينة المعاني ، وقد تقدمت في موضعها .

وقوله تعالى : ﴿ وهو شهيد ﴾ قال بعض المتأولين : معناه : وهو مشاهد مقبل على الأمر غير معرض ولا منكر في غير ما يسمع . وقال قتادة : هي إشارة إلى أهل الكتاب ، فكأنه قال : إن هذه العبرة التذكرة لمن له فهم فيتدبر الأمر أو لمن سمعها من أهل الكتاب فيشهد بصحتها لعلمه بها من كتابه التوراة وسائر كتب بني إسرائيل : ف ﴿ شهيد ﴾ على التأويل الأول من المشاهدة ، وعلى التأويل الثاني من الشهادة .

(114/722)

وقرأ السدي : " ألقى السمع " قال ابن جني ألقى السمع منه حكى أبو عمرو الداني أن قراءة السدي ذكرت لعاصم فمقت السدي وقال : أليس الله يقول : ﴿ يلقون السمع ﴾ [الشعراء : 223] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(115/722)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الجنةِ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾

أي قربت منهم .

وقيل : هذا قبل الدخول في الدنيا ؛ أي قربت من قلوبهم حين قيل لهم اجتنبوا المعاصي .

وقيل : بعد الدخول قربت لهم مواضعهم فيها فلا تبعد .

"غَيْرَ بَعِيدٍ" أي منهم وهذا تأكيد .

﴿ هذا مَا تُوعَدُونَ ﴾ أي ويقال لهم هذا الجزاء الذي وعدتم في الدنيا على ألسنة الرسل .

وقراءة العامة "تُوعَدُونَ" بالتاء على الخطاب .

وقرأ ابن كثير بالياء على الخبر ؛ لأنه أتى بعد ذكر المتقين .

﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ أوّاب أي رَجّاع إلى الله عن المعاصي ، ثم يرجع ويذنب ثم يرجع ، هكذا قاله الضحاك وغيره .

وقال ابن عباس وعطاء : الأوّاب المسبّح من قوله : ﴿ يا جبال أَوِّبِي مَعَهُ ﴾ [سبأ : 10] .

وقال الحكم بن عتيبة : هو الذاكر لله تعالى في الخلوة .

وقال الشعبي ومجاهد : هو الذي يذكر ذنوبه في الخلوة فيستغفر الله منها .

وهو قول ابن مسعود .

وقال عُبيد بن عُمير : هو الذي لا يجلس مجلساً حتى يستغفر الله تعالى فيه .

وعنه قال : كنا نحدّث أن الأوّاب الحفيظ الذي إذا قام من مجلسه قال سبحان الله وبحمده ، اللهم إني أستغفرك مما أصبت في مجلسي هذا .

وفي الحديث : " من قال إذا قام من مجلسه سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك غفر الله له ما كان في ذلك المجلس " وهكذا كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول .

وقال بعض العلماء : أنا أحبّ أن أقول أستغفرك وأسألك التوبة ، ولا أحبّ أن أقول وأتوب إليك إلا على حقيقته .

قلت : هذا استحسان واتباع الحديث أولى .

وقال أبو بكر الورّاق : هو المتوكل على الله في السراء والضراء .

وقال القاسم : هو الذي لا يشتغل إلا بالله عز وجل .

"حَفِيظٍ" قال ابن عباس : هو الذي حفظ ذنوبه حتى يرجع عنها .

وقال قتادة : حفيظ لما استودعه الله من حقه ونعمته وأتمنه عليه .

وعن ابن عباس أيضاً : هو الحافظ لأمر الله .

مجاهد : هو الحافظ لحق الله تعالى بالإعتراف ولنعمه بالشكر .

قال الضحاك : هو الحافظ لوصية الله تعالى بالقبول .

وروى مكحول عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من حافظ على أربعِ ركعات من أوّل النهار كان أوّاباً حفيظاً " ذكره الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ مَّنْ خَشِيَ الرحمن بالغيب ﴾ "مَنْ" في محل خفض على البدل من قوله : ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ أو في موضع الصفة ل "أَوَّابٍ" .

ويجوز الرفع على الاستئناف ، والخبر "ادخلوها" على تقدير حذف جواب الشرط والتقدير فيقال لهم : "ادخلوها" .

والخشية بالغيب أن تخافه ولم تره .

وقال الضحاك والسُّدي : يعني في الخلوة حين لا يراه أحد .

وقال الحسن : إذا أرخى الستر وأغلق البابَ .

﴿ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ مقبل على الطاعة .

وقيل : مخلص .

وقال أبو بكر الورّاق : علامة المنيب أن يكون عارفاً لحرمته ومواليا ًله ، متواضعاً لجلاله تاركاً لهوى نفسه .

قلت : ويحتمل أن يكون القلب المنيب القلب السليم ؛ كما قال تعالى : ﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : 89] على ما تقدم ؛ والله أعلم .

﴿ ادخلوها ﴾ أي يقال لأهل هذه الصفات : ﴿ ادخلوها بِسَلاَمٍ ذَلِكَ يَوْمُ الخلود ﴾ أي بسلامة من العذاب .

وقيل : بسلام من الله وملائكته عليهم .

وقيل : بسلامة من زوال النّعم .

وقال : "ادخلوها" وفي أوّل الكلام "مَنْ خَشِيَ" ؛ لأن "مَنْ" تكون بمعنى الجمع .

قوله تعالى : ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا ﴾ يعني ما تشتهيه أنفسهم وتلذ أعينهم .

﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ من النعم مما لم يخطر على بالهم .

وقال أنس وجابر : المزيد النظر إلى وجه الله تعالى بلا كيف .

وقد ورد ذلك في أخبار مرفوعة إلى النبي : صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : 26] قال : الزيادة النظر إلى وجه الله الكريم .

وذكر ابن المبارك ويحيى بن سلام ، قالا : أخبرنا المسعوديّ عن المنهال بن عمرو عن أبي عبيدة بن عبد الله بن عتبة عن ابن مسعود قال : تسارعوا إلى الجمعة فإن الله تبارك وتعالى يبرز لأهل الجنة كل يوم جمعة في كثيب من كافور أبيض فيكونون منه في القرب .

قال ابن المبارك : على قدر تسارعهم إلى الجمعة في الدنيا .

وقال يحيى ابن سلام : لمسارعتهم إلى الجمع في الدنيا ، وزاد : "فيحدث الله لهم من الكرامة شيئاً لم يكونوا رأوه قبل ذلك" .

قال يحيى : وسمعت غير المسعودي يزيد فيه قوله تعالى : "وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ" .

قلت : قوله "في كَثِيب" يريد أهل الجنة ، أي وهم على كثب ؛ كما في مرسل الحسن ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أهل الجنة ينظرون ربهم في كل يوم جمعة على كَثِيب من كافور " الحديث .

وقد ذكرناه في كتاب "التذكرة" .

وقيل : إن المزيد ما يزوَّجون به من الحور العين : رواه أبو سعيد الخدري مرفوعاً .

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ ﴾

أي كم أهلكنا يا محمد قبل قومك من أمة هم أشدّ منهم بطشاً وقوّة .

﴿ فَنَقَّبُواْ فِي البلاد ﴾ أي ساروا فيها طلباً للمهرب .

وقيل : أثّرُوا في البلاد ؛ قاله ابن عباس .

وقال مجاهد : ضربوا وطافوا .

وقال النضر بن شميل : دَوَّروا .

.

وقال قتادة : طَوَّفوا .

وقال المؤرِّج تباعدوا ؛ ومنه قول امرىء القيس :

وقد نَقَّبْتُ في الآفاق حَتَّى . . .

رَضِيتُ من الغنيمةِ بالإيابِ

ثم قيل : طافوا في أقاصي البلاد طلباً للتجارات ، وهل وجدوا من الموت محيصاً ؟ وقيل :

طوّفوا في البلاد يلتمسون مَحيصاً من الموت .

وقال الحرث بن حِلَّزة :

نَقَّبُوا في البلادِ من حَذَرِ المو . . .

تِ وجَالُوا في الأرضِ كُلَّ مَجَالِ

وقرأ الحسن وأبو العالية "فَنَقَبُوا" بفتح القاف وتخفيفها .

والنقب هو الخرق والدخول في الشيء .

وقيل : النقب الطريق في الجبل ، وكذلك الْمَنْقَب والْمَنْقَبَة ؛ عن ابن السكيت .

ونَقَب الجدار نَقْباً ، واسم تلك النَّقْبة نَقْب أيضاً ، وجمع النَّقْب النُّقُوب ؛ أي خرقوا البلاد وساروا في نقوبها .

وقيل : أَثَّرُوا فيها كتأثير الحديد فيما ينقب .

وقرأ السُّلَمي ويحيى بن يَعْمَر "فَنَقِّبُوا" بكسر القاف والتشديد على الأمر بالتهديد والوعيد ؛ أي طَوِّفوا البلاد وسيروا فيها فانظروا ﴿ هَلْ مِن ﴾ الموت ﴿ مَّحِيصٍ ﴾ ومهرب ؛ ذكره الثعلبي .

وحكى القشيريّ "فَنَقِبُوا" بكسر القاف مع التخفيف ؛ أي أكثروا السير فيها حتى نَقِبت دوابُّهم .

الجوهري : ونَقِب البعيرُ بالكسر إذا رَقّت أخفافُه ، وأنقب الرجلُ إذا نَقِب بعيرُه ، ونَقِب الخفُّ الملبوس أي تخرّق .

والمَحِيص مصدر حاص عنه يَحِيص حَيْصاً وحُيوصاً ومَحِيصاً ومَحاصاً وحَيَصاناً ؛ أي عَدلَ وحادَ .

يقال : ما عنه مَحِيص أي مَحِيد ومَهْرَب .

والانحياص مثله ؛ يقال للأولياء : حاصوا عن العدوّ وللأعداء انهزموا .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى ﴾ أي فيما ذكرناه في هذه السورة تذكرة وموعظة ﴿ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ أي عقل يتدبر به ؛ فكنى بالقلب عن العقل لأنه موضعه ؛ قال معناه مجاهد وغيره .

وقيل : لمن كان له حياة ونفس مميزة ، فعبر عن النفس الحية بالقلب ؛ لأنه وطنها ومعدن حياتها ؛ كما قال امرؤ القيس :

أَغَرَّكِ مِنِّي أَنَّ حُبَّكِ قَاتِلِي . . .
وَأَنَّكِ مَهْمَا تَأْمُرِي الْقَلْبَ يَفْعَلِ

وفي التنزيل : ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ [يس : 70] .

وقال يحيى بن معاذ : القلب قلبان ؛ قلب محتشٍ بأشغال الدنيا حتى إذا حضر أمر من الأمور الآخرة لم يدر ما يصنع ، وقلب قد احتشى بأهوال الآخرة حتى إذا حضر أمر من أمور الدنيا لم يدر ما يصنع لذهاب قلبه في الآخرة .

﴿ أَوْ أَلْقَى السمع ﴾ أي استمع القرآن .

تقول العرب : ألق إليّ سمعك أي استمع .

وقد مضى في "طه" كيفية الاستماع وثمرته .

﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أي شاهد القلب ؛ قال الزجاج : أي قلبه حاضر فيما يسمع .

وقال سفيان : أي لا يكون حاضراً وقلبه غائب .

ثم قيل : الآية لأهل الكتاب ؛ قاله مجاهد وقتادة .

وقال الحسن : إنها في اليهود والنصارى خاصة .

وقال محمد بن كعب وأبو صالح : إنها في أهل القرآن خاصة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(120/722)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ أفعيينا بالخلق الأول ﴾ :

وهو إنشاء الإنسان من نطفة على التدريج ، وتقدم تفسير عيي في قوله تعالى : ﴿ ولم يعي بخلقهن ﴾ وقرأ الجمهور : أفعيينا ، بياء مكسورة بعدها ياء ساكنة ، ماضي عيي ، كرضي .

وقرأ ابن أبي عبلة ، والوليد بن مسلم ، والقورصبي عن أبي جعفر ، والسمسار عن شيبة ،

وأبو بحر عن نافع : بتشديد الياء من غير إشباع في الثانية ، هكذا قال أبو القاسم الهذلي في كتاب الكامل .

وقال ابن خالويه في كتاب شواذ القراءات له : أفعينا بتشديد الياء .

ابن أبي عبلة ، وفكرت في توجيه هذه القراءة ، إذ لم يذكر أحد توجيهها ، فخرجتها على لغة من أدغم الياء في الياء في الماضي ، فقال : عي في عيي ، وحي في حيي .

فلما أدغم ، ألحقه ضمير المتكلم المعظم نفسه ، ولم يفك الإدغام فقال : عيناً ، وهي لغة لبعض بكر بن وائل ، يقولون في رددت ورددنا : ردت وردنا ، فلا يفكون ، وعلى هذه اللغة تكون الياء المشدّدة مفتوحة .

فلو كان ن ضمير نصب ، لاجتمعت العرب على الإدغام ، نحو : ردّنا زيد .

وقال الحسن : الخلق الأول آدم عليه السلام ، والمعنى : أعجزنا عن الخلق الأول ، فنعجز عن الخلق الثاني ، وهذا توقيف للكفار ، وتوبيخ وإقامة الحجة الواضحة عليهم .

﴿ بل هم في لبس ﴾ : أي خلط وشبهة وحيرة ، ومنه قول علي : يا جار إنه لملبوس عليك ، اعرف الحق تعرف أهله .

﴿ من خلق جديد ﴾ : أي من البعث من القبور .

﴿ ولقد خلقنا الإنسان ﴾ : هذه آيات فيها إقامة حجج على الكفار في إنكارهم البعث ، والإنسان إسم جنس .

وقيل : آدم .

﴿ ونحن أقرب ﴾ : قرب علم به وبأحواله ، لا يخفى عليه شيء من خفياته ، فكأن ذاته قريبة منه ، كما يقال : الله في كل مكان ، أي بعلمه ، وهو منزه عن الأمكنة .

و﴿ حبل الوريد ﴾ : مثل في فرط القرب ، كقول العرب : هو مني مقعد القابلة ، ومقعد الإزار .

قال ذو الرمة :

والموت أدنى لي من الوريد . . .

(121/722)

والحبل : العرق الذي شبه بواحد الحبال ، وإضافته إلى الوريد للبيان ، كقولهم : بعير سانية .

أو يراد حبل العاتق ، فيضاف إلى الوريد ، كما يضاف إلى العاتق لاجتماعهما في عضو واحد ، والعامل في إذ أقرب .

وقيل : اذكر ، قيل : ويحسن تقدير اذكر ، لأنه أخبر خبراً مجرداً بالخلق والعلم بخطرات الأنفس ، والقرب بالقدرة والملك .

فلما تم الإخبار ، أخبر بذكر الأحوال التي تصدق هذا الخبر ، وتعين وروده عند السامع .

فمنها : ﴿ إذ يتلقى المتلقيان ﴾ ، ومنها مجيء سكرة الموت ، ومنها : النفخ في الصور ، ومنها : مجيء كل نفس معها سائق وشهيد .

والمتلقيان : الملكان الموكلان بكل إنسان ؛ ملك اليمين يكتب الحسنات ، وملك الشمال يكتب السيئآت .

وقال الحسن : الحفظة أربعة ، اثنان بالنهار واثنان بالليل .

وقعيدة : مفرد ، فاحتمل أن يكون معناه : مقاعد ، كما تقول : جليس وخليط : أي مجالس ومخالط ، وأن يكون عدل من فاعل إلى فعيل للمبالغة ، كعليم .

قال الكوفيون : مفرد أقيم مقام اثنين ، والاجود أن يكون حذف من الأول لدلالة الثاني عليه ، أي عن اليمين قعيد ، كما قال الشاعر :

رماني بأمر كنت منه ووالدي . . .

بريئاً ومن أجل الطوى رماني

على أحسن الوجهين فيه ، أي كنت منه بريا ، ووالدي بريا .

ومذهب المبرد أن التقدير عن اليمين قعيد ، وعن الشمال ، فأخر قعيد عن موضعه .

ومذهب الفراء أن لفظ قعيد يدل على الاثنين والجمع ، فلا يحتاج إلى تقدير .

وقرأ الجمهور : ﴿ ما يلفظ من قول ﴾ ، وظاهر ما يلفظ العموم .

قال مجاهد ، وأبو الحوراء : يكتب عليه كل شيء حتى أنينه في مرضه .

وقال الحسن ، وقتادة : يكتبان جميع الكلام ، فيثبت الله تعالى من ذلك الحسنات والسيئات ، ويمحو غير ذلك .

وقيل : هو مخصوص ، أي من قول خير أو شر .

وقال : معناه عكرمة ، وما خرج عن هذا لا يكتب .

واختلفوا في تعيين قعود الملكين ، ولا يصح فيه شيء .

﴿ رقيب ﴾ : ملك يرقب .

(122/722)

﴿ عتيد ﴾ : حاضر ، وإذا كان على اللفظ رقيب عتيد ، فأحرى على العمل .

وقال الحسن : فإذا مات ، طويت صحيفته .

وقيل : له يوم القيامة اقرأ كتابك .

﴿ وجاءت سكرة الموت ﴾ : هو معطوف على ﴿ إذ يتلقى ﴾ ، وسكرة الموت : ما

يعتري الإنسان عند نزاعه ، والباء في ﴿ بالحق ﴾ للتعدية ، أي جاءت سكرة الموت الحق ، وهو الأمر الذي أنطق الله به كتبه وبعث به رسله ، من سعادة الميت أو شقاوته ، أو للحال ، أي ملتبسه بالحق .

وقرأ ابن مسعود : سكران جمعاً .

﴿ ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ : أي تميل .

تقول : أعيش كذا وأعيش كذا ، فمتى فكر في قرب الموت ، حاد بذهنه عنه وأمل إلى مسافة بعيدة من الزمن .

ومن الحيد : الحذر من الموت ، وظاهر تحيد أنه خطاب للإنسان الذي جاءته سكرة الموت .

وقال الزمخشري : الخطاب للفاجر .

تحيد : تنفر وتهرب .

﴿ ذلك يوم الوعيد ﴾ ، هو على حذف : أي وقت ذلك يوم الوعيد .

والإشارة إلى مصدر نفخ ، وأضاف اليوم إلى الوعيد ، وإن كان يوم الوعد والوعيد معاً على سبيل التخويف .

وقرأ الجمهور : معها ؛ وطلحة : بالحاء مثقلة ، أدغم العين في الهاء ، فانقلبتا حاء ؛ كما قالوا : ذهب محم ، يريد معهم ، ﴿ سائق ﴾ : جاث على السير ، ﴿ وشهيد ﴾ : يشهد

عليه .

قال عثمان بن عفان ، ومجاهد وغيره : ملكان موكلان بكل إنسان ، أحدهما يسوقه ، والآخر من حفظه يشهد عليه .

وقال أبو هريرة : السائق ملك ، والشهيد النبي .

وقيل : الشهيد : الكتاب الذي يلقاه منشوراً ، والظاهر أن قوله : ﴿ سائق وشهيد ﴾ اسما جنس ، فالسائق : ملائكة موكلون بذلك ، والشهيد : الحفظة وكل من يشهد .

وقال ابن عباس ، والضحاك : السائق ملك ، والشهيد : جوارح الإنسان .

قال ابن عطية : وهذا يبعد عن ابن عباس ، لأن الجوارح إنما تشهد بالمعاصي ، وقوله : كل نفس يعم الصالحين ، فإنما معناه : وشهيد بخيره وشره .

ويقوى في شهيد اسم الجنس ، فشهد بالخير الملائكة والبقاع ، ومنه قوله (صلى الله عليه وسلم) :

(123/722)

" لا يسمع مدى صوت المؤذن إنس ولا جن ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة " وقال أبو هريرة : السائق ملك ، والشهيد العمل .

وقال أبو مسلم : السائق شيطان ، وهو قول ضعيف .

وقال الزمخشري : ملكان ، أحدهما يسوقه إلى المحشر ، والآخر يشهد عليه بعمله ؛ أو ملك واحد جامع بين الأمرين ، كأنه قيل : كأنه قيل : ملك يسوقه ويشهد عليه ويحل معها سائق النصب على الحال من كل لتعرفه بالإضافة إلى ما هو في حكم المعرفة ، هذا كلام ساقط لا يصدر عن مبتدىء في النحو ، لأنه لو نعت كل نفس ، لما نعت إلا بالنكرة ، فهو نكرة على كل حال ، فلا يمكن أن يتعرف كل ، وهو مضاف إلى نكرة .

لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22)

قرأ الجمهور : ﴿ لقد كنت في غفلة ﴾ ، بفتح التاء ، والكاف في كنت وغطاءك وبصرك ؛ والجحدري : بكسرها على مخاطبة النفس .

وقرأ الجمهور : ﴿ عنك غطاءك فبصرك ﴾ ، بفتح التاء والكاف ، حملاً على لفظ كل من التذكير ؛ والجحدري ، وطلحة بن مصرّف : عنك غطاءك فبصرك ، بالكسر مراعاة للنفس أيضاً ، ولم ينقل الكسر في الكاف صاحب اللوامح إلا عن طلحة وحده .

قال صاحب اللوامح : ولم أجد عنه في ﴿ لقد كنت ﴾ .

الكسر .

فإن كسر ، فإن الجميع شرع واحد ؛ وإن فتح ﴿ لقد كنت ﴾ ، فحمل على كل أنه مذكر .

ويجوز تأنيث كل في هذا الباب لإضافته إلى نفس ، وهو مؤنث ، وإن كان كذلك ، فإنه حمل بعضه على اللفظ وبعضه على المعنى ، مثل قوله : ﴿ فله أجره ﴾ ، ثم قال : ﴿ ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ انتهى .

قال ابن عباس ، وصالح بن كيسان ، والضحاك : يقال للكافر الغافل من ذوي النفس التي معها السائق والشهيد ، إذا حصل بين يدي الرحمن ، وعاين الحقائق التي لا يصدق بها في الدنيا ، ويتغافل عن النظر فيها : ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا ﴾ : أي من عاقبة الكفر .

(124/722)

فلما كشف الغطاء عنك ، احتدّ بصرك : أي بصيرتك ؛ وهذا كما تقول : فلان حديد الذهن .

وقال مجاهد : هو بصر العين ، أي احتدّ التفاته إلى ميزانه وغير ذلك من أهوال القيامة .

وعن زيد بن أسلم قول في هذه الآية يحرم نقله ، وهو في كتاب ابن عطية .

وكنى بالغطاء عن الغفلة ، كأنها غطت جميعه أو عينيه ، فهو لا يبصر .

فإذا كان في القيامة ، زالت عنه الغفلة ، فأبصر ما كان لم يبصره من الحق .

﴿ وقال قرينه ﴾ : أي من زبانية جهنم ، ﴿ هذا ﴾ : العذاب الذي لدي لهذا الإنسان

الكافر ، ﴿ عتيد ﴾ : حاضر ، ويحسن هذا القول إطلاق ما على ما لا يعقل .

وقال قتادة : قرينه : الملك الموكل بسوقه ، أي هذا الكافر الذي أسوقه لديّ حاضر .

وقال الزهراوي : وقيل قرينه : شيطانه ، وهذا ضعيف ، وإنما وقع فيه أن القرين في قوله : ﴿ ربنا ما أطغيته ﴾ هو شيطانه في الدنيا ومغويه بلا خلاف .

ولفظ القرين اسم جنس ، فسائقه قرين ، وصاحبه من الزبانية قرين ، ومماشي الإنسان في طريقة قرين .

وقيل : قرينه هنا : عمله قلباً وجوارحاً .

وقال الزمخشري : وقال قرينه : هو الشيطان الذي قيض له في قوله ﴿ نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ يشهد له قوله تعالى : ﴿ قال قرينه ربنا ما أطغيته ﴾ ، ﴿ هذا ما لدي عتيد ﴾ ، هذا شيء لدي ، وفي ملكتي عتيد لجهنم .

والمعنى : أن ملكاً يسوقه ، وآخر يشهد عليه ، وشيطاناً مقروناً به يقول : قد أعتدته لجهنم وهيأته لها بإغواي وإضلالي .

انتهى ، وهذا قول مجاهد .

وقال الحسن ، وقتادة أيضاً : الملك الشهيد عليه .

وقال الحسن أيضاً : هو كاتب سيئاته ، وما نكرة موصوفة بالظرف وبعتيد وموصولة ، والظرف صلتها .

وعتيد ، قال الزمخشري : بدل أو خير بعد خبر ، أو خبر مبتدأ محذوف . انتهى .

وقرأ الجمهور : عتيد بالرفع ؛ وعبد الله : بالنصب على الحال ، والأولى إذ ذاك أن تكون ما موصولة .

﴿ ألقيا في جهنم ﴾ : الخطاب من الله للملكين : السائق والشهيد .

(125/722)

وقيل : للملكين من ملائكة العذاب ، فعلى هذا الألف ضمير الاثنين .

وقال مجاهد وجماعة : هو قول إما للسائق ، وإما للذي هو من الزبانية ، وعلى أنه خطاب للواحد .

وقال المبرد معناه : ألق ألق ، فثنى .

وقال الفراء : هو من خطاب الواحد بخطاب الاثنين .

وقيل : الألف بدل من النون الخفيفة ، أجرى الوصل مجرى الوقف ، وهذه أقوال مرغوب عنها ، ولا ضرورة تدعو إلى الخروج عن ظاهر اللفظ لقول مجاهد .

وقرأ الحسن : ألقين بنون التوكيد الخفيفة ، وهي شاذة مخالفة لنقل التواتر بالألف .

﴿ كل كفار ﴾ : أي يكفر النعمة والمنعم ؛ ﴿ عنيد ﴾ ، قال قتادة : منحرف عن

الطاعة .

وقال الحسن : جاحد متمرد .

وقال السدي : المساق من العند ، وهو عظم يعرض في الحلق .

وقال ابن بحر : المعجب بما فيه .

﴿ مناع للخير ﴾ ، قال قتادة ومجاهد وعكرمة : يعني الزكاة .

وقيل : بخيل .

وقيل : مانع بني أخيه من الإيمان ، كالوليد بن المغيرة ، كان يقول لهم : من دخل منكم فيه لم أنفعه بشيء ما عشت ، والأحسن عموم الخير في المال وغيره .

﴿ مريب ﴾ ، قال الحسن : شاك في الله أو في البعث .

وقيل : متهم الذي جوزوا فيه أن يكون منصوباً بدلاً من كل كفار ، وأن يكون مجروراً بدلاً من كفار ، وأن يكون مرفوعاً بالابتداء مضمناً معنى الشرط ، ولذلك دخلت الفاء في خبره ، وهو فألقياه .

والظاهر تعلقه بما قبله على جهة البدل ، ويكون فألقياه توكيداً .

وقال ابن عطية : ويحتمل أن يكون صفة من حيث يختص كفار بالأوصاف المذكورة ، فجاز وصفه بهذه المعرفة . انتهى .

وهذا ليس بشيء لو وصفت النكرة بأوصاف كثيرة لم يجز أن توصف بالمعرفة .

﴿ قال قرينه ﴾ : لم تأت هذه الجملة بالواو ، بخلاف ﴿ وقال قرينه ﴾ قبله ، لأن هذه استؤنفت كما استؤنفت الجمل في حكاية التقاول في مقاولة موسى وفرعون ، فجرت مقاولة بين الكافر وقرينه ، فكأن الكافر قال ربي هو أطغاني ، ﴿ قال قرينه ربنا ما أطغيته ﴾ .

(126/722)

وأما ﴿ وقال قرينه ﴾ فعطف لدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها في الحصول ، أعني مجيء كل نفس مع الملكين .

وقول قرينه : ما قال له ، ومعنى ما أطغيته : تنزيه لنفسه من أنه أثر فيه ، ﴿ ولكن كان في ضلال بعيد ﴾ : أي من نفسه لا مني ، فهو الذي استحب العمى على الهدى ، كقوله : ﴿ وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ﴾ وكذب القرين ، قد أطغاه بوسوسته وتزيينه .

﴿ قال لا تختصموا لدي ﴾ : استئناف أيضاً مثل قال قرينه ، كأن قائلاً قال : ما قال الله تعالى ؟ فقيل : ﴿ لا تختصموا لدي ﴾ أي في دار الجزاء وموقف الحساب .

﴿ وقد قدّمت إليكم بالوعيد ﴾ لمن عصاني ، فلم أترك لكم حجة .

﴿ ما يبدّل القول لدي ﴾ : أي عندي ، فما أمضيته لا يمكن تبديله .

وقال الفراء : ما يكذب لدي لعلمي بجميع الأمور .

وقدمت : يجوز أن يكون بمعنى تقدمت ، أي قد تقدم قولي لكم ملتبساً بالوعيد ، أو يكون قدم المتعدية ، وبالوعيد هو المفعول ، والباء زائدة ، والتقديم كان في الدنيا ، ونهيهم عن الاختصام في الآخرة ، فاختلف الزمانان .

فلا تكون الجملة من قوله : ﴿ وقد قدّمت ﴾ حالاً إلا على تأويل ، أي وقد صح عندكم أني قدمت ، وصحة ذلك في الآخرة ، فاتفق زمان النهي عن الاختصام ، وصحة التقديم بالحال على هذا التأويل مقارنة .

﴿ وما أنا بظلام للعبيد ﴾ : تقدم شرح مثله في أواخر آل عمران ، والمعنى : لا أعذب من لا يستحق العذاب .

وقرأ يوم يقول ، بياء الغيبة الأعرج ، وشيبة ، ونافع ، وأبو بكر ، والحسن ، وأبو رجاء ، وأبو جعفر ، والأعمش ، وباقي السبعة : بالنون ؛ وعبد الله ، والحسن ، والأعمش أيضاً : يقال مبنياً للمفعول وانتصاب يوم بظلام ، أو بأذكر ، أو بأنذر كذلك .

قال الزمخشري : ويجوز أن ينتصب بنفخ ، كأنه قيل : ونفخ في الصور يوم نقول ، وعلى هذا يشار بذلك إلى يوم يقول .

انتهى ، وهذا بعيد جداً ، قد فصل على هذا القول بين العامل والمعمول بجمل كثيرة ، فلا يناسب هذا القول فصاحة القرآن وبلاغته .

و ﴿ هل امتلأت ﴾ : تقرير وتوقيف ، لا سؤال استفهام حقيقة ، لأنه تعالى عالم بأحوال جهنم .

قيل : وهذا السؤال والجواب منها حقيقة .

وقيل : هو على حذف مضاف ، أي نقول لخزنة جهنم ، قاله الرماني .

وقيل : السؤال والجواب من باب التصوير الذي يثبت المعنى ، أي حالها حال من لو نطق بالجواب لسائله لقال كذا ، وهذا القول يظهر أنها إذ ذاك لم تكن ملأى .

فقولها : ﴿ من مزيد ﴾ ، سؤال ورغبة في الزيادة والاستكثار من الداخلين فيها .

وقال الحسن ، وعمرو ، وواصل : كانت ملأى وقت السؤال ، فلا تزداد على امتلائها ، كما جاء في الحديث وهل ترك لنا عقيل من دار أي ما تركه ومزيد يحتمل أن يكون مصدر أو اسم مفعول .

﴿ غير بعيد ﴾ : مكاناً غير بعيد ، وهو تأكيد لأزلفت ، رفع مجاز القرب بالوعد والإخبار .

فانتصاب غير على الظرف صفة قامت مقام مكان ، فأعربت بإعرابه .

وأجاز الزمخشري أن ينتصب غير بعيد على الحال من الجنة .

قال : وتذكيره يعني بعيد ، لأنه على زنة المصدر ، كالزئير والصليل ، والمصادر يستوي في الوصف بها المذكر والمؤنث . انتهى .

وكونه على وزن المصدر ، لا يسوغ أن يكون المذكر صفة للمؤنث .

وقال الزمخشري أيضاً : أو على حذف الموصوف ، أي شيئاً غير بعيد . انتهى .

وكأنه يعني إزلافاً غير بعيد ، هذا إشارة للثواب .

وقرأ الجمهور : ﴿ ما توعدون ﴾ ؛ خطاب للمؤمنين ؛ وابن كثير ، وأبو عمرو : بياء الغيبة ، أي هذا القول هو الذي وقع الوعد به ، وهي جملة اعتراضية بين المبدل منه والبدل .

و ﴿ لكل أواب ﴾ : هو البدل من المتقين .

﴿ من خشي ﴾ : بدل بعد بدل تابع ﴿ لكل ﴾ ، قاله الزمخشري .

وإنما جعله تابعاً ﴿ لكل ﴾ ، لا بدلاً من ﴿ للمتقين ﴾ ، لأنه لا يتكرر الإبدال من مبدل منه واحد .

(128/722)

قال : ويجوز أن يكون بدلاً من موصوف أواب وحفيظ ، ولا يجوز أن يكون في حكم أواب وحفيظ ، لأن من لا يوصف به ، ولا يوصف من بين سائر الموصولات إلا بالذي . انتهى .

يعني بقوله : في حكم أواب : أن يجعل من صفته ، وهذا حكم صحيح .

وأما قوله : ولا يوصف من بين الموصولات إلا بالذي ، فالحصر ليس بصحيح ، قد وصفت العرب بما فيه أل ، وهو موصول ، نحو القائم والمضروب ، ووصفت بذو الطائية ، وذات في المؤنث .

ومن كلامهم : بالفضل ذو فضلكم الله به ، والكرامة ذات أكرمك الله به ، يريد بالفضل الذي فضلكم والكرامة التي أكرمكم ، ولا يريد الزمخشري خصوصية الذي ، بل فروعه من المؤنث والمثنى والمجموع على اختلاف لغات ذلك .

وجوز أن تكون من موصولة مبتدأ خبره القول المحذوف ، تقديره : يقال لهم ادخلوها ، لأن من في معنى الجمع ، وأن تكون شرطية ، والجواب الفعل المحذوف ، أي فيقال : وأن يكون منادى ، كقولهم : من لا يزال محسناً أحسن إليّ ، وحذف حرف النداء للتقريب .

وقال ابن عطية : يحتمل أن تكون من نعتاً .

انتهى ، وهذا لا يجوز ، لأن من لا ينعت بها ، وبالغيب حال من المفعول ، أي وهو غائب عنه ، وإنما أدركه بالعلم الضروري ، إذ كل مصنوع لا بد له من صانع .

ويجوز أن تكون صفة لمصدر خشي ، أي خشية خشيه ملتبسة بالغيب ، حيث خشي

عقابه وهو غائب ، أو خشيه بسبب الغيب الذي أوعده به من عذابه .

وقيل : في الخلوة حيث لا يراه أحد ، فيكون حالاً من الفاعل .

وقرن بالخشية الرحمن بناء على الخاشي ، حيث علم أنه واسع الرحمة ، وهو مع ذلك يخشاه .

﴿ ادخلوها بسلام ﴾ : أي سالمين من العذاب ، أو مسلماً عليكم من الله وملائكته .

﴿ ذلك يوم الخلود ﴾ : كقوله : ﴿ فادخلوها خالدين ﴾ أي مقدرين الخلود ، وهو معادل لقوله في الكفار : ﴿ ذلك يوم الوعيد ﴾ .

(129/722)

﴿ لهم ما يشاءون فيها ﴾ : أي ما تعلقت به مشيئاتهم من أنواع الملاذ والكرمات ، كقوله تعالى : ﴿ ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ﴾ ﴿ ولدينا مزيد ﴾ : زيادة ، أو شيء مزيد على ما تشاءون ، ونحوه : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ وكما جاء في الحديث : " أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ما اطلعتهم عليه " ، ومزيد مبهم ، فقيل : مضاعفة الحسنة بعشر أمثالها .

وقيل : أزواج من حور الجنة .

وقيل : تجلى الله تعالى لهم حتى يرونه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(130/722)

وقال الآلوسى :

﴿ وَأُزْلِفَتِ الجنةِ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

أخذ في بيان حال المؤمنين بعد بيان حال الكافرين ؛ وهو عطف على ﴿ نفخ ﴾ [ق : 20] أي قربت للمتقين عن الكفر والمعاصي ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أي في مكان غير بعيد بمرأى منهم بين يديهم وفهي مبالغة ليست في التخلية عن الظرف فغير بعيد صفة لظرف متعلق بأزلفت حذف فقام مقام وانتصب انتصابه ، ولذلك لم يقل غير بعيدة ، وجوز أن يكون منصوباً على المصدرية والأصل وأزلفت إزلافاً غير بعيد ، قال الإمام : أي عن قدرتنا وإن يكون حالاً من الجنة قصد به التوكيد كما تقول : عزيز غير ذليل لأن العزة تنافي الذل ونفي مضاد الشيء تأكيد إثباته ، وفيه دفع توهم أن ثم تجوزا أو شوبا من الضد ولم يقل : غير بعيدة عليه قيل : لتأويل الجنة بالبستان ، وقيل : لأن البعيد على زنة المصدر الذي من شأنه أن يستوي فيه المؤنث والمذكر كالزئير والصليل فعومل معاملته وأجرى مجراه ،

وقيل : لأن فعيلاً بمعنى فاعل قد يجري مجرى فعيل بمعنى مفعول فيستوي فيه الأمران ، وللإمام في تقريب الجنة أوجه .

منها طي المسافة التي بينها وبين المتقين مع بقاء كل في مكانه وعدم انتقاله عنه ولكرامة المتقين قيل : ﴿ أُزْلِفَتْ الجنةِ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ دون وأزلف المتقون للجنة ، ومنها أن المراد تقريب حصولها والدخول فيها دون التقريب المكاني ، وفيه ما فيه ، ومنها أن التقريب على ظاهره والله عز وجل قادر على نقل الجنة من السماء إلى الأرض أي إلى جهة السفل أو الأرض المعروفة بعد مدها ، وقول بعض : إن المرا إظهارها قريبة منها على نحو إظهارها للنبي صلى الله عليه وسلم في عرض حائط مسجده الشريف على ما فيه منزع صوفي .

(131/722)

﴿ هذا مَا تُوعَدُونَ ﴾ إشارة إلى الجنة ، والتذكير لما أن المشار إليه هو المسمى من غير قصد لفظ يدل عليه فضلاً عن تذكيره وتأنيثه فإنهما من أحكام اللفظ العربي كما في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشمس بَازِغَةً قَالَ هذا رَبِّى ﴾ [الأنعام : 78] وقوله سحبانه : ﴿ وَلَمَّا رَأَى المؤمنون الاحزاب قَالُواْ هذا مَا وَعَدَنَا الله وَرَسُولُهُ ﴾ [الأحزاب : 22] ؛ ويجوز أن يكون ذلك لتذكير الخبر ، وقيل : هو إشارة إلى الثواب .

وقيل : إلى مصدر ﴿ أُزْلِفَتْ ﴾ [ق : 31] والجملة بتقدير قول وقع حالاً من المتقين أو من الجنة والعامل أزلفت أي مقولاً لهم أو مقولاً في حقها هذا ما توعدون ، أو اعتراض بين المبدل منه أعني ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ والبدل أعني الجار والمجرور وفيه بعد .

وصيغة المضارع لاستحضار الصورة الماضية ، وقرأ ابن كثير .

وأبو عمرو ﴿ يُوعَدُونَ ﴾ بياء الغيبة ، والجملة على هذه القراءة قيل : اعتراض أو حال من الجنة ؛ وقال أبو حيان : هي اعتراض ، والمراد هذا القول هو الذي وقع الوعد به وهو كما ترى ، وقوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴾ أي رجاع إلى الله تعالى بدل من المتقين بإعادة الجار أو من ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ على أن يكون الجار والمجرور بدلاً من الجار والمجرور ﴿ حَفِيظٌ ﴾ حفظ ذنوبه حتى رجع عنها كما روى عن ابن عباس .

وسعيد بن سنان ، وقريب مه ما أخرج سعيد بن منصور .

وابن أبي شيبة .

وابن المنذر عن يونس بن خباب قال : قال لي مجاهد : ألا أنبئك بالأواب الحفيظ ؟ هو الرجل يذكر ذنبه إذا خلا فيستغفر الله تعالى .

وأخرج عبد بن حميد .

وابن جرير .

وابن المنذر عن قتادة قال : أي حفيظ لما استودعه الله تعالى من حقه ونعمته .

وأهرج ابن أبي شيبة .

وابن المنذر عن عبيد بن عمير كنا نعد الأواب الحفيظ الذي يكون في المجلس فإذا أراد أن يقوم قال : اللهم اغفر لي ما أصبت في مجلسي هذا .

(132/722)

وقيل : هو الحافظ لتوبته من النقض ولا ينافيه صيغة ﴿ أَوَّابٌ ﴾ كما لا يخفى .

وقوله تعالى شأنه :

﴿ مَّنْ خَشِيَ الرحمن بالغيب وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾

بدل من ﴿ كل ﴾ [ق : 32] المبدل من المتقين أو بدل ثان من ﴿ المتقين ﴾ [ق : 31] بناء على جواز تعدد البدل والمبدل منه واحد .

وقول أبي حيان : تكرر البدل والمبدل منه واحد لا يجوز في غير بدل البداء ، وسره أنه في نية الطرح فلا يبدل منه مرة أخرى غير مسلم ، وقد جوزه ابن الحاجب في أماليه ، ونقله الدماميني في أول شرحه للخزرجية وأطال فيه ، وكون المبدل منه في نية الطرح ليس على ظاهره ، أو بدل من موصوف ﴿ أَوَّابٌ ﴾ [ق : 32] أي لكل شخص أواب بناء على جواز حذف المبدل منه ، وقد جوزه ابن هشام في "المغنى" لا سيما وقد قامت صفته

مقامه حتى كأنه لم يحذف ولم يبدل من ﴿ أَوَّابٌ ﴾ نفسه لأن أواباً صفة لمحذوف كما سمعت فلو أبدل منه كان للبدل حكمه فيكون صفة مثله ، و ﴿ مِنْ ﴾ اسم موصول والأسماء الموصولة لا يقع منها صفة إلا الذي على الأصح ، وجوز بعض الوصف بمن أيضاً لكنه قول ضعيف أو مبتدأ خبره .

﴿ ادخلوها ﴾ بتأويل يقال لهم ادخلوها لمكان الإنشائية والجمع باعتبار معنى ﴿ من ﴾ [ق : 33] وقوله تعالى ﴿ بالغيب ﴾ [ق : 33] متعلق بمحذوف هو حال من فاعل ﴿ خَشِيَ ﴾ أو من مفعوله أو صفة لمصدره أي خشية ملتبسة بالغيب حيث خشي عقابه سبحانه وهو غائب عنه أو هو غائب عن الأعين لا يراه أحد ، وقيل : الباء للآلة ، والمراد بالغيب القلب لأنه مستور أي من خشي الرحمن بقلبه دون جوارحه بأن يظهر الخشية وليس في قلبه منها شيء وليس بشيء .

(133/722)

والتعرض لعنوان الرحمانية للاشعار بأنهم مع خشيتهم عقابه عز وجل راجون رحمته سبحانه أو بأن علمهم بسعة رحمته تبارك وتعالى لا يصدهم عن خشيته جل شأنه ، وقال الإمام : يجوز أن يكون لفظ ﴿ الرحمن ﴾ [ق : 33] إشارة إلى مقتضى الخشية لأن

معنى الرحمن واهب الوجود بالخلق والرحيم واهب البقاء بالرزق وهو سبحانه في الدنيا رحمن حيث أوجدنا ورحيم حيث أبقانا بالرزق فمن يكون منه الوجود ينبغي أن يكون هو المخشيء وما تقدم أولى .

والباء في قوله تعالى : ﴿ بِقَلْبٍ ﴾ [ق : 33] للمصاحبة ، وجوز أن تكون للتعدية أي أحضر قلباً منيباً ، ووصف القلب بالإنابة مع أنها يوصف بها صاحبه لما أن العبرة رجوعه إلى الله تعالى ، وأغرب الإمام فجوز كون الباء للسببية فكأنه قيل : ما جاء إلا بسبب آثار العلم في قلبه أن لا مرجع إلا الله تعالى فجاء بسبب قلبه المنيب وهو كما ترى ، وقوله تعالى : ﴿ بِسَلَامٍ ﴾ متعلق بمحذوف هو حال من فاعل ﴿ ادخلوها ﴾ والباء للملابسة ، والسلام إما من السلامة أو من التسليم أي ادخلوها ملتبسين بسلامة من العذاب وزوال النعم أو بتسليم وتحية من الله تعالى وملائكته ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى الزمان الممتد الذي وقع في بعض منه ما ذكر من الأمور ﴿ يَوْمُ الخلود ﴾ البقاء الذي لا انتهاء له إبداً أو إشارة إلى وقت الدخول بتقدير مضاف أي ذلك يوم ابتداء الخلود وتحققه أو يوم تقدير الخلود أو إشارة إلى وقت السلام بتقدير مضاف أيضاً أي ذلك يوم إعلام الخلود أي الإعلام به .

(134/722)

﴿ لَهُم مَّا يَشَاءونَ ﴾ من فنون المطالب كائناً ما كان ﴿ فِيهَا ﴾ متعلق بيشاؤن ، وقيل : بمحذوف هو حال من الموصول أو من عائدة المحذوف من صلته ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ هو ما لا يخطر ببالهم ولا يندرج تحت مشيئتهم من معالي الكرامات التي لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ومنه كما أخرجه ابن أبي حاتم عن كثير بن مرة أن تمر السحابة بهم فتقول ؛ ماذا تريدون فأمطره عليكم فلا يريدون شيئاً إلا أمطرته عليهم .

وأخرج البيهقي في الرؤية .

والديلمي عن علي كرم الله تعالى وجهه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ قال : " يتجلى لهم الرب عز وجل "

وأخرج ابن المنذر .

وجماعة عن أنس أنه قال في ذلك يضاً : يتجلى لهم الرب تبارك وتعالى في كل جمعة ، وجاء في حديث أخرجه الشافعي في الأم وغيره أن يوم الجمعة يدعى يوم المزيد ، وقلي : المزيد ازواج من الحور العين عليهن تيجان أدنى لؤلؤة منها تضيء ما بين المشرق والمغرب وعلى كل سبعون حلة وأن الناظر لينفذ بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك ، وقيل : هو مضاعفة الحسنة بعشر أمثالها .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ ﴾ أي كثيراً أهلكنا قبل قومك ﴿ مّن قَرْنٍ ﴾ قوماً مقترنين في زمن واحد ﴿ هُمْ مِنْهُم بَطْشاً ﴾ أي قوة كما قيل أو أخذاً شديداً في كل شيء كعاد وقوم

فرعون ﴿ فَنَقَّبُواْ فِى البلاد ﴾ ساروا في الأرض وطوفوا فيها حذار الموت ، فا تنقيب السير وقطع المسافة كما ذكره الراغب .

وغيره ، وأنشدوا للحرث بن حلزة :

نقبوا في البلاد من حذر المو . . .

ت وجالوا في الأرض كل مجال

ولامرىء القيس :

وقد نقبت في الآفاق حتى . . .

رضيت من الغنيمة بالإياب

(135/722)

وروى وقد طوفت ، وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن ذلك فقال : هو هربوا بلغة اليمن ، وأنشد له بيت الحرث المذكور لكنه نسبه لهدى بن زيد ، وفسر التنقيب في البلاد بالتصرف فيها بملكها ونحوه ، وشاع التنقيب في العرف بمعنى التنقير عن الشيء والبحث عن أحواله ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثنى عَشَرَ ﴾ [المائدة : 12] وأما قولهم : كلب نقيب فهو بمعنى منصوب أي نقبت غلصمته ليضعف صوته ،

والفاء على تفسير التنقيب بالسير ونحوه المروي عن ابن عباس لمجرد التعقيب ، وعلى تفسيره بالتصرف للسببية لأن تصرفهم في البلاد مسبب عن اشتداد بطشهم ، وهي على الوجهين عاطفة على معنى ما قبلها كأنه قيل : اشتد بطشهم فنقبوا وقيل : هي على ما تقدم أيضاً للسببية والعطف على ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ﴾ على أن المراد أخذنا في إعلاكهم فنقبوا في البلاد ﴿ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ على إضمار قول هو حال من واو ﴿ نقبوا ﴾ أي قائلين هل لنا مخلص من الله تعالى أو من الموت ؟ أو على إجراء التنقيب لما فيه من معنى التتبع والتفتيش مجرى القوى على ما قيل أو هو كلام مستأنف لنفي أن يكون لهم محيص أي هل لهم مخلص من الله عز وجل أو من الموت ، وقيل : ضمير ﴿ نقبوا ﴾ لأهل مكة أي ساروا في مسايرهم وأسفارهم في بلاد القرون المهلكة فهل رأوا لهم محيصاً حتى يؤملوا مثله لأنفسهم .

وأيد بقراءة ابن عباس .

وابن يعمر .

وأبي العالية .

ونصر بن سيار .

وأبي حيوة .

والأصمعي عن أبي عمرو ﴿ بَطْشاً فَنَقَّبُواْ ﴾ على صيغة الأمر لأن الأمر للحاضر وقت

النزول من الكفار وهم أهل مكة لا غير والأصل توافق القرائتين ، وفيه على هذه القراءة التفات من الغيبة إلى الخطاب .

وقرأ ابن عباس أيضاً .

وعبيد عن أبي عمرو ﴿ فَنَقَّبُواْ ﴾ بفتح القاف مخففة ، والمعنى كما في المشددة ، وقرىء بكسر القاف خفيفة من النقب محركاً ، وهو أن ينتقب خف البعير ويرق من كثرة السير ، قال الراجز :

(136/722)

اقسم بالله أبو حفص عمر . . .

ما مسها من نقب ولا دبر

والكلام بتقدير مضاف أي نقبت أقدامهم ، ونقب الأقدام كناية مشهورة عن كثرة السير فيؤل المعنى إلى أنهم أكثروا السير في البلاد أو نقبت أخفاف مراكبهم والمراد كثرة السير أيضاً ، وقد يستغني عن التقدير بجعل الإسناد مجازياً .

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أي الإهلاك أو ما ذكر في السورة ﴿ لِذِكْرَىٰ ﴾ لتذكرة وعظة ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ أي قلب واع يدرك الحقائق فإن الذي لا يعي ولا يفهم بمنزلة العدم ، وفي

"الكشف" ﴿ لِّمَن كَانَ ﴾ الخ تمثيل ﴿ أَوْ أَلْقَى السمع ﴾ أي أصغي إلى ما يتلى عليه من الوحي ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أي حاضر على أنه من الشهود بمعنى الحضور ، والمراد به المتفطن لأن غير المتفطن منزلة منزلة الغائب فهو إما استعارة أو مجاز مرسل والأول أولى ، وجوز أن يكون من الشهادة وصفاً للمؤمن للأنه شاهد على صحة المنزل وكونه وحياً من الله تعالى فيبعثه على حسن الإصغاء أو وصفاً له من قوله تعالى : ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى الناس ﴾ [البقرة : 143] كأنه قيل : وهو من جملة الشهداء أي المؤمنين من هذه الأمة فهو كناية على الوجهين ، وجوز على الأول منهما أن لا يكون كناية على أن المراد وهو شاهد شهادة عن إيقان لا كشهادة أهل الكتاب .

(137/722)

وعن قتادة المعنى لمن سمع القرآن من أهل الكتاب وهو شاهد على صدقه لما يجده في كتابه من نعته ، والأنسب بالمساق والأملأ بالفائدة الأخذ من الشهود ، والوجه جعل ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ حالاً من ضمير الملقى لا عطفاً على ﴿ ألقى ﴾ كما لا يخفى على من له قلب أو القى السمع وهو شهيد ، والمراد أن فيما فعل بسوالف الأمم أو في المذكور إماماً من الآيات لذكرى لاحدى طائفتين من له قب يفقه عن الله عز وجل ومن له سمع مصغ مع ذهن

حاضر أي لمن له استعداد القبول عن الفقيه إن لم يكن فقيهاً في نفسه ، و﴿ أَوْ ﴾ لمنع الخلو من حيث أنه يجوز أن يكون الشخص فقيهاً ومستعداً للقبول من الفقيه ، وذكر بعضهم أنها لتقسيم المتذكر إلى تال وسامع أو إلى فقيه ومتعلم أو إلى عالم كامل الاستعداد لا يحتاج لغير التأمل فيما عنده وقاصر محتاج للتعلم فيتذكر إذا أقبل بكليته وأزال الموانع بأسرها فتأمل .

وقرأ السلمي .

وطلحة .

والسدي .

وأبو البرهسم ﴿ أَوْ أُلْقَى ﴾ مبنياً للمفعول ﴿ السمع ﴾ بالرفع على النيابة عن الفاعل ؛ والفاعل المحذوف اما المعبر عنه بالموصول أولاً ، وعلى الثاني معناه لمن ألقى غيهر السمع وفتح أذنه ولم يحضر ذهنه ، وأما هو فقد ألقى وهو شاهد متفطن محضر ذهنه ، فالوصف أعني الشهود معتمد الكلام ، وإنما أخرج في الآية بهذه العبارة للمبالغة في تفطنه وحضوره ، وعلى الأول معناه لمن ألقى سمعه وهو خحاضر متفطن ، ثم لو قدر موصول آخر بعد ﴿ أَوْ ﴾ فذو القلب والملقى غير أن شخصاً ولو لم يقدر جاز أن يكونا شخصين وأن يكونا شخصاً باعتبار حالين حال تفطنه بنفسه وحال إلقائه السمع عن حضور إلى متفطن بنفسه لأن ﴿ مِنْ ﴾ عام يتناول كل واحد واحد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾

هذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر بعض القدرة الربانية ، والمراد بالإنسان : الجنس ، وقيل : آدم ، والوسوسة هي في الأصل الصوت الخفيّ ، والمراد بها هنا : ما يختلج في سرّه وقلبه وضميره ، أي : نعلم ما يخفي ، ويكنّ في نفسه ، ومن استعمال الوسوسة في الصوت الخفيّ قول الأعشى :

تسمع للحلى وسواساً إذا انصرفت . . . فاستعمل لما خفي من حديث النفس ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريد ﴾ هو حبل العاتق ، وهو ممتد من ناحية حلقه إلى عاتقه ، وهما وريدان من عن يمين وشمال .

وقال الحسن : الوريد : الوتين ، وهو عرق معلق بالقلب ، وهو تمثيل للقرب بقرب ذلك العرق من الإنسان ، أي : نحن أقرب إليه من حبل وريده ، والإضافة بيانية ، أي : حبل هو الوريد .

وقيل : الحبل هو نفس الوريد ، فهو من باب مسجد الجامع .

ثم ذكر سبحانه أنه مع علمه به وكل به ملكين يكتبان ، ويحفظان عليه عمله إلزاماً للحجة فقال : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى المتلقيان ﴾ الظرف منتصب بما في ﴿ أَقْرَبُ ﴾ من معنى الفعل ، ويجوز أن يكون منصوباً بمقدّر هو اذكر ، والمعنى : أنه أقرب إليه من حبل وريده حين يتلقى ﴿ المتلقيان ﴾ ، وهما الملكان الموكلان به ما يلفظ به ، وما يعمل به ، أي : يأخذان ذلك ويثبتانه ، والتلقي : الأخذ ، أي : نحن أعلم بأحواله غير محتاجين إلى الحفظة الموكلين به ، وإنما جعلنا ذلك إلزاماً للحجة ، وتوكيداً للأمر .

قال الحسن ، وقتادة ، ومجاهد : المتلقيان ملكان يتلقيان عملك أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك ، والآخر عن شمالك يكتب سيئاتك .

(139/722)

وقال مجاهد أيضاً : وكل الله بالإنسان ملكين بالليل ، وملكين بالنهار يحفظان عمله ، ويكتبان أثره ﴿ عَنِ اليمين وَعَنِ الشمال قَعِيدٌ ﴾ إنما قال ﴿ قعيد ﴾ ، ولم يقل قعيدان وهما اثنان ؛ لأن المراد : عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد ، فحذف الأوّل لدلالة الثاني عليه ، كذا قال سيبويه كقول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما . . . عندك راض والرأي مختلف

وقال الفرزدق :

وأتى وكان وكنت غير عذور . . . أي : وكان غير عذور ، وكنت غير عذور ، وقال الأخفش ، والفراء : إن لفظ قعيد يصلح للواحد والاثنين والجمع ولا يحتاج إلى تقدير في الأوّل .

قال الجوهري ، غيره من أئمة اللغة والنحو : فعيل وفعول مما يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع ، والقعيد المقاعد كالجليس بمعنى المجالس ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ أي : ما يتكلم من كلام ، فيلفظه ويرميه من فيه إلاّ لديه أي : لدى ذلك اللافظ رقيب أي : ملك يرقب قوله ويكتبه ، والرقيب : الحافظ المتتبع لأمور الإنسان الذي يكتب ما يقوله من خير وشر ، فكاتب الخير هو ملك اليمين ، وكاتب الشرّ ملك الشمال .

والعتيد : الحاضر المهيأ .

قال الجوهري : العتيد الحاضر المهيأ ، يقال : عتده تعتيداً وأعتده اعتداداً أي : أعده ، ومنه ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ﴾ [يوسف : 31] والمراد هنا : أنه معدّ للكتابة مهيأ لها ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ لما بيّن سبحانه أن جميع أعمالهم محفوظة مكتوبة ذكر بعده ما ينزل بهم من الموت ، والمراد بسكرة الموت : شدّته وغمرته التي تغشى الإنسان ، وتغلب على عقله ، ومعنى ﴿ بالحق ﴾ : أنه عند الموت يتضح له الحق ، ويظهر له صدق ما جاءت به الرسل من الإخبار بالبعث والوعد والوعيد ، وقيل : الحق هو الموت ،

وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ، أي : وجاءت سكرة الحق بالموت ، وكذا قرأ أبو بكر الصديق ، وابن مسعود .

(140/722)

والسكرة : هي الحق ، فأضيفت إلى نفسها لاختلاف اللفظين ، وقيل : الباء للملابسة كالتي في قوله : ﴿ تَنبُتُ بالدهن ﴾ [المؤمنون : 20] أي : ملتبسة بالحق ، أي : بحقيقة الحال ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى الموت ، والحيد : الميل ، أي : ذلك الموت الذي كنت تميل عنه ، وتفرّ منه ، يقال : حاد عن الشيء يحيد حيوداً ، وحيدة وحيدودة : مال عنه وعدل ، ومنه قول طرفة :

أبو منذر رمت الوفاء فهبته . . . وحدت كما حاد البعير عن الدحض

وقال الحسن : تحيد : تهرب ﴿ وَنُفِخَ فِى الصور ﴾ عبّر عنه بالماضي ؛ لتحقق وقوعه ، وهذه هي النفخة الآخرة للبعث ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الوعيد ﴾ أي : ذلك الوقت الذي يكون فيه النفخ في الصور يوم الوعيد الذي أوعد الله به الكفار .

قال مقاتل : يعني بالوعيد : العذاب في الآخرة ، وخصّص الوعيد مع كون اليوم هو يوم الوعد والوعيد جميعاً لتهويله .

﴿ وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ أي : جاءت كل نفس من النفوس معها من يسوقها ، ومن يشهد لها ، أو عليها .

واختلف في السائق والشهيد ، فقال الضحاك : السائق من الملائكة ، والشهيد من أنفسهم ، يعني : الأيدي والأرجل .

وقال الحسن ، وقتادة : سائق يسوقها ، وشاهد يشهد عليها بعملها ، وقال ابن مسلم : السائق : قرينها من الشياطين ، سمي سائقاً لأنه يتبعها وإن لم يحثها .

وقال مجاهد : السائق والشهيد ملكان .

وقيل : السائق : الملك ، والشهيد : العمل ، وقيل : السائق : كاتب السيئات ، والشهيد : كاتب الحسنات ، ومحل الجملة النصب على الحال ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هذا ﴾ أي : يقال له : لقد كنت في غفلة من هذا ، والجملة في محل نصب على الحال من ﴿ نفس ﴾ ، أو مستأنفة كأنه قيل : ما يقال له ، قال الضحاك : المراد بهذا : المشركون ؛ لأنهم كانوا في غفلة من عواقب أمورهم .

وقال ابن زيد : الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، أي : لقد كنت يا محمد في غفلة من الرسالة .

وقال أكثر المفسرين : المراد به جميع الخلق برّهم ، وفاجرهم ، واختار هذا ابن جرير .

قرأ الجمهور بفتح التاء من ﴿ كنت ﴾ ، وفتح الكاف في ﴿ غطاءك ﴾ ، و ﴿ بصرك ﴾ حملاً على ما في لفظ ﴿ كل ﴾ من التذكير .

وقرأ الجحدري ، وطلحة بن مصرف بالكسر في الجميع على أن المراد النفس ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ ﴾ الذي كان في الدنيا ، يعني : رفعنا الحجاب الذي كان بينك وبين أمور الآخرة ، ورفعنا ما كنت فيه من الغفلة عن ذلك ﴿ فَبَصَرُكَ اليوم حَدِيدٌ ﴾ أي : نافذ تبصر به ما كان يخفى عليك في الدنيا .

قال السديّ : المراد بالغطاء : أنه كان في بطن أمه فولد ، وقيل : إنه كان في القبر فنشر ، والأوّل أولى .

والبصر قيل : هو بصر القلب ، وقيل : بصر العين ، وقال مجاهد : بصرك إلى لسان ميزانك حين توزن حسناتك وسيئاتك ، وبه قال الضحاك .

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هذا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ أي قال الملك الموكل به : هذا ما عندي من كتاب عملك عتيد حاضر قد هيأته ، كذا قال الحسن ، وقتادة ، والضحاك .

وقال مجاهد : إن الملك يقول للربّ سبحانه : هذا الذي وكلتني به من بني آدم قد أحضرته ، وأحضرت ديوان عمله .

وروي عنه أنه قال : إن قرينه من الشياطين يقول ذلك أي : هذا ما قد هيأته لك بإغوائي وإضلالي .

وقال ابن زيد : إن المراد هنا قرينه من الإنس ، وعتيد مرفوع على أنه صفة لما إن كانت موصوفة ، وإن كانت موصولة فهو خبر بعد خبر ، أو خبر مبتدأ محذوف ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ هذا خطاب من الله عزّ وجلّ للسائق والشهيد .

قال الزجاج : هذا أمر للملكين الموكلين به وهما السائق ، والشاهد : كل كفار للنعم عنيد مجانب للإيمان ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ لا يبذل خيراً ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ ظالم لا يقرّ بتوحيد الله ﴿ مُرِيبٍ ﴾ شاكّ في الحق ، من قولهم أراب الرجل : إذا صار ذا ريب .

(142/722)

وقيل : هو خطاب للملكين من خزنة النار ، وقيل : هو خطاب لواحد على تنزيل تثنية الفاعل منزلة تثنية الفعل وتكريره .

قال الخليل ، والأخفش : هذا كلام العرب الصحيح أن يخاطب الواحد بلفظ الاثنين يقولون : ارحلاها وازجراها ، وخذاه وأطلقاه للواحد .

قال الفراء : العرب تقول للواحد : قوما عنا .

وأصل ذلك أن أدنى أعوان الرجل في إبله وغنمه ورفقته في سفره اثنان ، فجرى كلام الرجل للواحد على ذلك ، ومنه قولهم للواحد في الشعر : خليليّ كما قال امرؤ القيس :

خليلي مرّا بي على أم جندب . . . نقض لبانات الفؤاد المعذب

وقوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل . . . بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وقول الآخر :

فإن تزجراني يا بن عفان أنزجر . . . وإن تدعواني أحم عرضاً ممنعا

قال المازني : قوله : ﴿ أَلْقِيَا ﴾ يدل على ألق ألق .

قال المبرد : هي تثنية على التوكيد ، فناب ألقيا مناب ألق ألق .

قال مجاهد ، وعكرمة : العنيد : المعاند للحق ، وقيل : المعرض عن الحق ، يقال : عند يعند بالكسر عنوداً : إذا خالف الحق ﴿ الذى جَعَلَ مَعَ اللهِ إلها ءاخَرَ ﴾ يجوز أن يكون بدلاً من ﴿ كل ﴾ ، أو منصوباً على الذم ، أو بدلاً من ﴿ كفار ﴾ ، أو مرفوعاً بالابتداء ، أو الخبر ﴿ فألقياه فِى العذاب الشديد ﴾ تأكيد للأمر الأول ، أو بدل منه ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ هذه الجملة مستأنفة لبيان ما يقوله القرين ، والمراد بالقرين هنا : الشيطان الذي قيض لهذا الكافر ، أنكر أن يكون أطغاه ، ثم قال : ﴿ ولكن كَانَ فِى ضلال بَعِيدٍ ﴾ أي : عن الحق فدعوته ، فاستجاب لي ، ولو كان من عبادك المخلصين لم

أقدر عليه ، وقيل : إن قرينه الملك الذي كان يكتب سيئاته ، وإن الكافر يقول : ربّ إنه أعجلني فيجيبه بهذا ، كذا قال مقاتل ، وسعيد بن جبير ، والأوّل أولى ، وبه قال الجمهور .

(143/722)

﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ ﴾ هذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر ؛ كأنه قيل : فماذا قال الله ؟ فقيل : ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ ﴾ يعني : الكافرين وقرناءهم ، نهاهم سبحانه عن الاختصام في موقف الحساب ، وجملة : ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بالوعيد ﴾ في محل نصب على الحال ، أي : والحال أن قد قدّمت إليكم بالوعيد بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، والباء في ﴿ بالوعيد ﴾ مزيدة للتأكيد ، أو على تضمين قدّم معنى تقدّم ﴿ مَا يُبَدَّلُ القول لَدَيَّ ﴾ أي : لا خلف لوعدي ، بل هو كائن لا محالة ، وقد قضيت عليكم بالعذاب ، فلا تبديل له ، وقيل : هذا القول هو قوله : ﴿ مَن جَاء بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بالسيئة فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا ﴾ [الأنعام : 160] وقيل : هو قوله : " لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ " [السجدة : 13] وقال الفراء ، وابن قتيبة : معنى الآية : أنه ما يكذب عندي بزيادة في القول ، ولا ينقص منه لعلمي بالغيب ، وهو قول الكلبي . واختاره الواحدي ، لأنه قال : ﴿ لَدَيَّ ﴾ ولم يقل وما يبدل قولي ، والأوّل أولى .

وقيل : إن مفعول ﴿ قدّمت إليكم ﴾ هو ما ﴿ يبدّل ﴾ أي : وقد قدّمت إليكم هذا القول ملتبساً بالوعيد ، وهذا بعيد جداً ﴿ وَمَا أَنَاْ بظلام للّعَبِيدِ ﴾ أي : لا أعذبهم ظلماً بغير جرم اجترموه ، ولا ذنب أذنبوه .

ولما كان نفي الظلام لا يستلزم نفي مجرّد الظلم قيل : إنه هنا بمعنى : الظالم ، كالثمار بمعنى الثامر .

وقيل : إن صيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بإبراز ما ذكر من التعذيب بغير ذنب في معرض المبالغة في الظلم .

وقيل : صيغة المبالغة لرعاية جمعية العبيد من قولهم فلان ظالم لعبده ، وظلام لعبيده ، وقيل غير ذلك ، وقد تقدّم الكلام على هذا في سورة آل عمران ، وفي سورة الحج .

(144/722)

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امتلأت وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ قرأ الجمهور ﴿ نقول ﴾ بالنون ، وقرأ نافع وأبو بكر بالياء ، وقرأ الحسن : (أقول) .

وقرأ الأعمش : (يقال) ، والعامل في الظرف ﴿ مَا يُبَدَّلُ القول لَدَيَّ ﴾ ، أو محذوف أي : اذكر ، أو أنذرهم ، وهذا الكلام على طريقة التمثيل والتخييل ، ولا سؤال ولا جواب ، كذا

قيل ، والأولى أنه على طريقة التحقيق ، ولا يمنع من ذلك عقل ولا شرع .

قال الواحدي : قال المفسرون : أراها الله تصديق قوله : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ ﴾ [هود : 119] فلما امتلأت قال لها : ﴿ هَلِ امتلأت وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ أي : قد امتلأت ولم يبق في موضع لم يمتلىء ، وبهذا قال عطاء ، ومجاهد ، ومقاتل بن سليمان .

وقيل : إن هذا الاستفهام بمعنى الاستزادة ، أي : إنها تطلب الزيادة على من قد صار فيها .

وقيل : إن المعنى أنها طلبت أن يزاد في سعتها ؛ لتضايقها بأهلها ، والمزيد إما مصدر كالمحيد ، أو اسم مفعول كالمنيع ، فالأول بمعنى هل من زيادة ؟ والثاني بمعنى هل من شيء تزيدونيه ؟ ثم لما فرغ من بيان حال الكافرين شرع في بيان حال المؤمنين ، فقال : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الجنةِ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أي : قربت للمتقين تقريباً غير بعيد ، أو مكان غير بعيد منهم بحيث يشاهدونها في الموقف ، وينظرون ما فيها مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ويجوز أن يكون انتصاب ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ على الحال .

وقيل المعنى : أنها زينت قلوبهم في الدنيا بالترغيب والترهيب ، فصارت قريبة من قلوبهم ، والأوّل أولى .

والإشارة بقوله : ﴿ هذا مَا تُوعَدُونَ ﴾ إلى الجنة التي أزلفت لهم على معنى : هذا الذي

ترونه من فنون نعيمها ما توعدون ، والجملة بتقدير القول ، أي : ويقال لهم : هذا ما توعدون .

(145/722)

قرأ الجمهور ﴿ توعدون ﴾ بالفوقية ، وقرأ ابن كثير بالتحتية ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ هو بدل من ﴿ للمتقين ﴾ بإعادة الخافض ، أو متعلق بقول محذوف هو حال ، أي : مقولاً لهم لكل أوّاب ، والأوّاب : الرجاع إلى الله تعالى بالتوبة عن المعصية ، وقيل : هو المسبح ، وقيل : هو الذاكر لله في الخلوة .

قال الشعبي ، ومجاهد : هو الذي يذكر ذنوبه في الخلوة ، فيستغفر الله منها .

وقال عبيد بن عمير : هو الذي لا يجلس مجلساً حتى يستغفر الله فيه ، والحفيظ : هو الحافظ لذنوبه حتى يتوب منها .

وقال قتادة : هو الحافظ لما استودعه الله من حقه ونعمته ، قاله مجاهد .

وقيل : هو الحافظ لأمر الله .

وقال الضحاك : هو الحافظ لوصية الله له بالقبول .

﴿ مَّنْ خَشِيَ الرحمن بالغيب ﴾ الموصول في محل جر بدلاً ، أو بياناً ﴿ لكل أوّاب ﴾

وقيل : يجوز أن يكون بدلاً بعد بدل من المتقين ، وفيه نظر ؛ لأنه لا يتكرر البدل والمبدل منه واحد ، ويجوز أن يكون في محل رفع على الاستئناف ، والخبر ﴿ ادخلوها ﴾ بتقدير : يقال لهم : ادخلوها ، والخشية بالغيب : أن يخاف الله ولم يكن رآه .

وقال الضحاك ، والسديّ : يعني : في الخلوة حيث لا يراه أحد .

قال الحسن : إذا أرخى الستر وأغلق الباب ، و ﴿ بالغيب ﴾ متعلق بمحذوف هو حال ، أو صفة لمصدر ﴿ خشي ﴾ ﴿ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ أي : راجع إلى الله مخلص لطاعته ، وقيل : المنيب : المقبل على الطاعة ، وقيل : السليم ﴿ ادخلوها ﴾ هو بتقدير القول ، أي : يقال لهم : ادخلوها ، والجمع باعتبار معنى " من " أي : ادخلوا الجنة ﴿ بِسَلامٍ ﴾ أي : بسلامة من العذاب .

(146/722)

وقيل : بسلام من الله وملائكته ، وقيل : بسلامة من زوال النعم ، وهو متعلق بمحذوف هو حال ، أي : ملتبسين بسلام ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى زمن ذلك اليوم ، كما قال أبو البقاء ، وخبره ﴿ يَوْمُ الخلود ﴾ وسماه يوم الخلود لأنه لا انتهاء له ، بل هو دائم أبداً ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءونَ فِيهَا ﴾ أي : في الجنة ما تشتهي أنفسهم ، وتلذ أعينهم من فنون النعم وأنواع

الخير ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ من النعم التي لم تخطر لهم على بال ، ولا مرّت لهم في خيال .

وقد أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "نزل الله من ابن آدم أربع منازل : هو أقرب إليه من حبل الوريد ، وهو يحول بين المرء وقلبه ، وهو آخذ بناصية كل دابة ، وهو معهم أينما كانوا" .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ مِنْ حَبْلِ الوريد ﴾ قال : عروق العنق .

وأخرج ابن المنذر عنه قال : هو نياط القلب .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ، في قوله : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ قال : يكتب كل ما تكلم به من خير أو شرّ حتى إنه ليكتب قوله : أكلت ، شربت ، ذهبت ، جئت ، رأيت ، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقرّ منه ما كان من خير أو شرّ وألقى سائره ، فذلك قوله : ﴿ يَمْحُو الله مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ ﴾ [الرعد : 39] .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس في الآية قال : إنما يكتب الخير والشرّ ، لا يكتب يا غلام اسرج الفرس ، يا غلام اسقني الماء .

وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن الله غفر لهذه الأمة ما حدّثت به أنفسها ما لم تعمل ، أو تكلم " وأخرج ابن أبي شيبة ، وأحمد في الزهد ، والحكيم الترمذي ، وأبو نعيم ، والبيهقي في الشعب عن عمرو بن ذرّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله عند لسان كل قائل ، فليتق الله عبد ، ولينظر ما يقول " وأخرج الحكيم الترمذي عن ابن عباس مرفوعاً مثله .

وأخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وسعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم في الكنى ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث ، وابن عساكر عن عثمان بن عفان أنه قرأ ﴿ وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ قال : سائق يسوقها إلى أمر الله ، وشهيد يشهد عليها بما عملت .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم في الكنى ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث عن أبي هريرة في الآية قال : السائق : الملك ، والشهيد : العمل .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال : السائق من الملائكة ، والشهيد شاهد عليه من نفسه .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هذا ﴾ قال : هو الكافر .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ ﴾ قال : الحياة بعد الموت .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً ، و ﴿ قَالَ قَرِينُهُ ﴾ قال : شيطانه .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم في قوله : ﴿ لاَ تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ ﴾ قال : إنهم اعتذروا بغير عذر ، فأبطل الله حجتهم ، وردّ عليهم قولهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً .

في قوله : ﴿ وَمَا أَنَاْ بظلام للّعَبِيدِ ﴾ قال : ما أنا بمعذّب من لم يجترم .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً .

(148/722)

في قوله : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امتلأت وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ قال : وهل فيّ من مكان يزاد فيّ ؟ وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تزال جهنم يلقى فيها ، وتقول : هل من مزيد حتى يضع ربّ العزّة فيها قدمه ، فينزوي بعضها إلى بعض ، وتقول : قط قط ، وعزّتك وكرمك ، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشىء الله لها خلقاً آخر ، فيسكنهم في فضول الجنة " وأخرجا أيضاً من حديث أبي

هريرة نحوه ، وفي الباب أحاديث .

وأخرج ابن جرير ، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله : ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ قال : حفظ ذنوبه حتى رجع عنها .

وأخرج البزار ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث والنشور عن أنس ، في قوله : ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ قال : يتجلى لهم الربّ تبارك وتعالى في كل جمعة .

وأخرج البيهقي في الرؤية ، والديلمي عن عليّ في الآية قال : يتجلى لهم الربّ عزّ وجلّ ، وفي الباب أحاديث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 73 . 79 ﴾

(149/722)

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة هود في الكلام على قوله تعالى : ﴿ أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ [هود : 5] .

إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17)

قوله إذ : منصوب بقوله : أقرب ، أي نحن أقرب إليه من حبل الوريد في الوقت الذي يتلقى فيه الملكان جميع ما يصدر منه ، والمراد أن الذي خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه وهو أقرب إليه من حبل الوريد ، في وقت كتابة الحفظة أعماله لا حاجة له لكتب الأعمال ، لأنه عالم بها لا يخفى عليه منها شيء ، وإنما امر بكتابة الحفظة للأعمال لحكم أخرى كإقامة الحجة على العبد يوم القيامة ، كما أوضحه بقوله : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القيامة كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً اقرأ كِتَابَكَ كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ [الإسراء : 13 - 14] ، ومفعول التلقي في افعل الذي هو يتلقى ، والوصف الذي هو المتلقيان محذوف تقديره ، إذ يتلقى المتلقيان جميع ما يصدر عن الإنسان فيكتبانه عليه .

قال الزمخشري : والتلقي التلقن بالحفظ والكتبة اه . والمعنى واضح لأن الملك يتلقى عمل الإنسان عند صدوره منه فيكتبه عليه ، والمتلقيان هام الملكان اللذان يكتبان أعمال الإنسان ، وقد دلت الآية الكريمة على أن مقعد أحدهما عن يمينه ومقعد الآخر عن شماله .

(150/722)

والقعيد : قال بعضهم : معناه القاعد ، والأظهر أن معناه المقاعد ، وقد يكثر في العربية إطلاق الفعل وإرادة المفاعل ، كالجليس بمعنى المجالس ، والأكيل بمعنى المآكل ، والنديم بمعنى لمنادم ، وقال بعضهم : القعيد هنا هو الملازم ، وكل ملازم دائماً أو غالباً يقال له قعيد ، ومنه قول متمم بن نويرة التميمي :

قعيدك ألا تسمعني ملامة . . . ولا تنكئي قرح الفؤاد فيجعا

والمعنى عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد ، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه ، وهو أسلوب عرب معروف ، وأنشد له سيبويه في كتابه قول عمرو بن أحمر الباهلي :

رماني بأمر كنت منه ووالدي . . . بريئاً ومن أجل الطوى رمان

وقول قيس بن الخطيم الأنصاري :

نحن بما عندنا وأنت بما . . . عندك راض والرأي مختلف

وقول ضبائي بن الحارث البرجمي :

فمن يك أمسى بالمدينة رحله . . . فإني وقيار بها لغريب

فقال ابن أحمرك كنت منه ووالدي بريئاً أي كنت بريئاً منه وكان والدي بريئاً منه .

وقول ابن الخطيم : نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض : اي نحن راضون وأنت راض .

وقول ضابئ بن الحارث : فإني وقيار بها لغريب : يعني إني لغريب وقيار غريب ، وهذا أسلوب عربي معروف ، ودعوى أن قوله في الآية : ﴿ قَعِيدٌ ﴾ هي الأولى أخرت

وحذفت الثانية لدلالتها عليها لا دليل عليه ، ولا حاجة إليه كما ترى ، لأن المحذوف إذا صحت الدلالة عليه بالأخير فلا حاجة إلى أن هذا الأخير أصله هو الأول ، ولا دليل عليه ، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ ﴾ . أي ما ينطق بنطق ولا يتكلم بكلام إلا لديه ، أي إلا والحال أن عنده رقيباً . أي ملكاً مراقباً لأعماله حافظاً لها شاهداً عليها لا يفوته منها شيء .

(151/722)

عنيد : أي حاضر ليس بغائب يكتب عليه ما يقول من خير وشر ، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الإنسان عليه حفظة من الملائكة يكتبون أعماله ، جاء موضحاً في آيات كثيرة من كتاب الله . كقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَاماً كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الإنفطار : 10 - 12] . وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بلى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف : 80] . وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ ﴾ وترى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تدعى إلى كِتَابِهَا اليوم تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ هذا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بالحق إِنَّ كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية : 28 - 29] . وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى ﴿ كَلاَّ سَنَكْتُبُ

مَا يَقُولُ ﴾ [مريم : 79] الآية .

وفي سورة الزخرف في الكلام على قوله تعالى ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف : 19] ، وقد ذكر جماعة من أهل العلم أن القعيد الذي هو عن اليمين يكتب الحسنات ، والذي عن الشمال يكتب السيئات ، وأن صاحب الحسنات أمين على صاحب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشراً ، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : أمهله ولا تكتبها عليه لعله يتوب أو يستغفر ؟ وبعضهم يقول : يمهله سبع ساعات . والعلم عند الله تعالى .

تنبيه

اعلم أن العلماء اختلفوا في عمل العبد الجائز الذي لا ثواب ولا عقاب عليه ، هل تكتبه الحفظة عليه أو لا ؟

فقال بعضهم : يكتب عليه كل شيء حتى الأنين في المرض ، وهذا هو ظاهر قوله : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : 18] . لأن قوله : من قول نكرة في سياق النفي زيدت قبلها لفظة من ، فهي نص صريح في العموم .

(152/722)

وقال بعض العلماء : لا يكتب من الأعمال إلا ما فيه ثواب أو عقاب ، وكلهم مجمعون على أنه لا جزاء إلا فيما فيه ثواب أو عقاب فالذين يقولون : لا يكتب إلا ما فيه ثواب أو عقاب ، والذين يقولون يكتب الجميع متفقون على إسقاط ما لا ثواب فيه ولا عقاب ، إلا أن بعضهم يقولون لا يكتب أصلاً ، وبعضهم يقولون : يكتب أولاً ثم يمحى . وزعم بعضهم أن محو ذلك ، وإثبات ما فيه ثواب أو عقاب هو معنى قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾ [الكهف : 79] أي كل سفينة صحيحة لا عيب فيها بدليل قوله ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ [الكهف : 79] وقوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ القيامة ﴾ [الإسراء : 58] الآية : القرية ظالمة بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي القرى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ [القصص : 59] ، وأن من شواهده قول المرقش الأكبر :

ورب أسيلة الخدين بكر . . . مفهفة لها فرع وجيد

أي لها فرع فاحكم وجيد طويل . وقول عبيد بن الأبرص :

من قوله قول ومن فعله . . . فعل ومن نائله نائل

أي قول فصل ، وفعل جميل ، ونائل جزل .

لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النمل في الكلام على قوله : ﴿ بَلِ ادارك عِلْمُهُمْ فِي

الآخرة بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ [النمل : 66] .

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (30)

(153/722)

قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير نافع وشعبة عن عاصم ﴿ يَوْمَ نَقُولُ ﴾ بالنون الدالة على العظمة . وقرأه نافع وشعبة ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ﴾ بالياء ، وعلى قراءتهما فالفاعل ضمير يعود إلى الله ، واعلم أن الاستفهام في قوله ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ فيه للعلماء قولان معروفان . الأول : أن الاستفهام إنكاري كقوله تعالى ﴿ هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ القوم الظالمون ﴾ [الأنعام : 47] أي ما يهلك إلا القوم الظالمون ، وعلى هذا ، فمعنى ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ لا محل للزيادة لشدة امتلاء النار ، واستدل بعضهم لهذا الوجه بآيات من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ ولكن حَقَّ القول مِنّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة : 13] وقوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ [هود : 119] قال : فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ، وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة يس في الكلام على قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ حَقَّ القول على أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ ﴾ [يس : 7] الآية ، لأن إقسامه تعالى في هذه الآية المدلول عليه بلام التوطئة في لأملأن

على أنه يملأ جهنم من الجنة والناس ، دليل على أنها لا بد أن تمتلئ ، ولذا قالوا : إن معنى هل من مزيد ، لا مزيد ، لأني قد امتلأت فليس في محل للمزيد ، وأما القول الآخر ، فهو أن المراد بالاستفهام في قول النار : هل من مزيد ؟ وهو طلبها للزيادة ، وأنها لا تزال كذلك حتى يضع رب العزة فيه قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول : قط قط أي كفاني قد امتلأت ، وهذا الأخير هو الأصح ، لما ثبت في الصحيحين ، وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وسلم " أن جهنم لا تزال تقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط " ، لأن في هذا الحديث المتفق عليه التصريح بقولها قط قط ، أي كفاني قد أمتلأت ، وأن قولها قبل ذلك هل

(154/722)

من مزيد لطلب الزيادة ، وهذا الحديث الصحيح من أحاديث الصفات ، وقد قدمنا الكلام عليها مستوفى في سورة الأعراف والقتال . وأعلم أن قول النار في هذه الآية : هل من مزيد ، قول حقيقي ينطقها الله به ، فزعم بعض أهل العلم أنه كقول الحوض :

امتلأ الحوض فقال قطني . . . مهلاً رويداً قد ملأت بطني

وأن المراد بقوله ذلك هو ما فيهم من حالها خلاف التحقيق وقد أوضحنا ذلك بأدلته في

سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ﴾ [الفرقان : 12] والعلم عند الله تعالى .

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (31)

قوله : أزلفت أي قربت . وقوله غير بعيد : فيه معنى التوكيد لقوله : أزلفت سواء أعربت غير بعيد بأنها حال أو ظرف ، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من إزلاف الجنة للمتقين جاء في مواضع أخر من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الجحيم سُعِّرَتْ وَإِذَا الجنة أُزْلِفَتْ ﴾ [التكوير : 12 - 13] . وقوله تعالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الجنة لِلْمُتَّقِينَ وَبُرِّزَتِ الجحيم لِلْغَاوِينَ ﴾ [الشعراء : 90 - 91] .

قال البغوي رحمه الله في تفسير هذه الآية : غير بعيد ينظرون ليها قبل أن يدخلوها .

لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (35)

قوله : ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَ ﴾ قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآؤُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي الله المتقين ﴾ [النحل : 31] .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيد ﴾ . قال بعض العلماء : المزيد النظر إلى وجه الله الكريم ، ويستأنس لذلك بقوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : 26] ، لأن الحسنى الجنة ، والزيادة النظر ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً ﴾ .

قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الزخرف في الكلام على قوله تعالى ﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً ومضى مَثَلُ الأولين ﴾ زخرف : 8] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(156/722)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (31) ﴾

عطف ﴿ وأزلفت ﴾ على ﴿ يقول لجهنم ﴾ .

فالتقدير : يوم أزلفت الجنة للمتقين وهو رجوع إلى مقابل حالةِ الضالّين يومَ يُنفخ في الصور ، فهذه الجملة متصلة في المعنى بجملة ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾ [ق : 21] ولو اعتبرت معطوفة عليها لصح ذلك إلا أن عطفها على جملة ﴿ يوم يقول لجهنم هل امتلات ﴾ [ق : 30] غنية عن ذلك ولا سيما مع طول الكلام .

والإزلاف : التقريب مشتق من الزَلَف بالتحريك وهو القربة ، وقياس فعله أنه كفَرِح كما دل

عليه المصدر ولم يُرو في كلامهم ، أي جعلت الجنة قريباً من المتقين ، أي ادْنُوا منها .

والجنة موجودة من قبل وُرود المتَّقين إليها فإزلافها قد يكون بحشرهم للحساب بمقربة منها كرامة لهم عن كلفة المسير إليها ، وقد يكون عبارة عن تيسير وصولهم إليها بوسائل غير معروفة في عادة أهل الدنيا .

وقوله : ﴿ غير بعيد ﴾ يرجح الاحتمال الأول ، أي غير بعيد منهم وإلاّ صار تأكيداً لفظياً ل ﴿ أُزلفت ﴾ كما يقال : عاجل غير آجل ، وقوله : ﴿ وأضل فرعون قومه وما هدى ﴾ [طه : 79] والتأسيس أرجح من احتمال التأكيد .

وانتصب ﴿ غير بعيد ﴾ على الظرفية باعتبار أنه وصف لظرف مكان محذوف .

والتقدير : مكاناً غير بعيد ، أي عن المتقين .

وهذا الظرف حال من ﴿ الجنة ﴾ .

وتجريد ﴿ بعيد ﴾ من علامة التأنيث : إما على اعتبار ﴿ غير بعيد ﴾ وصفاً لمكانٍ ، وإمّا جَريٌ على الاستعمال الغالب في وصف بَعيد وقريب إذا أريد البعد والقرب بالجهة دون النسب أن يُجرَّدَا من علامة التأنيث كما قاله الفرّاء أو لأن تأنيث اسم الجنة غير حقيقي كما قال الزجاج ، وإما لأنه جاء على زنة المصدر مثل الزئير والصَّليل ، كما قال الزمخشري ، ومثله قوله تعالى : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ [الأعراف : 56] .

وجملة ﴿ هذا ما توعدون ﴾ معترضة ، فلك أن تجعلها وحدها معترضة وما بعدها متصلاً بما قبلها فتكون معترضة بين البدل والمبدل منه وهما ﴿ للمتقين ﴾ و ﴿ لكل أواب ﴾ ، وتجعل ﴿ لكل أواب ﴾ بدلاً من ﴿ للمتقين ﴾ ، وتكرير الحرف الذي جُرّ به المبدَل منه لقصد التأكيد كقوله تعالى : ﴿ قال الذين استكبروا للذين استضعفوا ﴾ [سبأ : 32] لمن آمن منهم الآية وقوله : ﴿ ولأبَوَيْه لكلّ واحد منهما السدس ﴾ [النساء : 11] .

واسم الإشارة المذكر مراعى فيه مجموع ما هو مشاهد عندهم من الخيرات .

والأوّاب : الكثير الأوب ، أي الرجوع إلى الله ، أي إلى امتثال أمره ونهيه .

والحفيظ : الكثير الحفظ لوصايا الله وحدوده .

والمعنى : أنه محافظ على الطاعة فإذا صدرت منه فلتة أعقبها بالتوبة .

و ﴿ من خشي الرحمن بالغيب ﴾ بدل من ﴿ كل أوّاب ﴾ .

والخشية : الخوف .

وأطلقت الخشية على أثرها وهو الطاعة .

والباء في ﴿ بالغيب ﴾ بمعنى (في) الظرفية لتنزيل الحال منزلة المكان ، أي الحالة الغائبة وهي حالة عدم اطِّلاع أحد عليه ، فإن الخشية في تلك الحالة تدل على صدق الطاعة لله بحيث لا يرجو ثناء أحد ولا عقاب أحد فيتعلق المجرور بالتاء بفعل ﴿ خشي ﴾ .

ولك أن تبقي الباء على بعض معانيها الغالبة وهي الملابسة ونحوها ويكون ﴿ الغيب ﴾ مصدراً والمجرور حالاً من ضمير ﴿ خشي ﴾ .

ومعنى ﴿ وجاء بقلب منيب ﴾ أنه حضر يوم الحشر مصاحباً قلبَه المنيب إلى الله ، أي مات موصوفاً بالإنابة ولم يُبطل عمله الصالح في آخر عمره ، وهذا كقوله حكاية عن إبراهيم ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ [الشعراء : 88 ، 89] .

وإيثار اسمه ﴿ الرحمن ﴾ في قوله : ﴿ من خشي الرحمن ﴾ دون اسم الجلالة للإشارة إلى أن هذا المتقي يخشى الله وهو يعلم أنه رحمان ، ولقصد التعريض بالمشركين الذين أنكروا اسمه الرحمان ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمان قالوا وما الرحمان ﴾ [الفرقان : 60] .

(158/722)

والمعنى على الذين خَشُوا : خشي صاحب هذا الاسم ، فأنتم لا حَظَّ لكم في الجنة لأنكم تنكرون أن الله رحمان بَلْهَ أن تخْشَوْه .

ووصفُ قلب بـ ﴿ مُّنِيب ﴾ على طريقة المجاز العقلي لأن القلب سبب الإنابة لأنه الباعث عليها .

وجملة ﴿ ادخلوها بسلام ﴾ من تمام مقول القول المحذوف .

وهذا الإذن من كمال إكرام الضيف أنه إن دُعِي إلى الوليمة أو جيء به فإنه إذا بلغ المنزل قيل له : ادخل بسَلام .

والباء في ﴿ بسلام ﴾ للملابسة .

والسلام : السلامة من كل أذى من تعب أو نصب ، وهو دعاء .

ويجوز أن يراد به أيضاً تسليم الملائكة عليهم حين دخولهم الجنة مثل قوله : ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ [يس : 58] .

ومحل هذه الجملة من التي قبلها الاستئناف البياني لأن ما قبلها يثير ترقب المخاطبين للإذن بإنجاز ما وعدوا به .

وجملة ﴿ ذلك يوم الخلود ﴾ يجوز أن تكون مما يقال للمتقين على حد قوله : ﴿ فادخلوها خالدين ﴾ [الزمر : 73] ، والإشارة إلى اليوم الذي هم فيه .

وكان اسم الإشارة للبعيد للتعظيم .

ويجوز أن تكون الإشارة إلى اليوم المذكور في قوله : ﴿ يوم يقول لجهنم هل امتلات ﴾ [ق : 30] فإنه بعد أن ذكر ما يلاقيه أهل جهنم وأهل الجنة أعقبه بقوله : ﴿ ذلك يوم الخلود ﴾ ترهيباً وترغيباً ، وعلى هذا الوجه الثاني تكون هذه الجملة معترضة اعتراضاً موجهاً إلى المتقين يوم القيامة أو إلى السامعين في الدنيا .

وعلى كلا الوجهين فإضافة ﴿ يوم ﴾ إلى ﴿ الخلود ﴾ باعتبار أن أول أيام الخلود هي أيام ذات مقادير غير معتادة ، أو باعتبار استعمال ﴿ يوم ﴾ بمعنى مطلق الزمان .

وبين كلمة ﴿ ادخلوها ﴾ وكلمة ﴿ الخلود ﴾ الجناس المقلوب الناقص ، ثم إن جملة ﴿ لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد ﴾ يجوز أن تكون من بقية ما يقال للمتقين ابتداء من قوله : ﴿ هذا ما توعدون لكل أوّاب حفيظ ﴾ فيكون ضمير الغيبة التفاتاً وأصله : لكم ما تشاؤون .

(159/722)

ويجوز أن تكون مما خوطب به الفريقان في الدنيا وعلى الاحتمالين فهي مستأنفة استئنافاً بيانياً .

و﴿ لدينا مزيد ﴾ ، أي زيادة على ما يشاؤون مما لم يخطرُ ببالهم ، وذلك زيادة في كرامتهم

عند الله ووردت آثار متفاوتة القوة أن من المزيد مفاجأتهم بخيرات ، وفيها دلالة على أن المفاجأة بالإنعام ضرب من التلطف والإكرام ، وأيضاً فإن الأنعام يجيئهم في صور معجبة .

والقول في ﴿ مزيد ﴾ هنا كالقول في نظيره السابق آنفاً .

وجاء ترتيب الآيات في منتهى الدقة فبدأت بذكر إكرامهم بقوله : ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين ﴾ ، ثم بذكر أن الجنة جزاؤهم الذي وعدوا به فهي حق لهم ، ثم أوْمَأت إلى أن ذلك لأجل أعمالهم بقوله : ﴿ لكل أوّاب حفيظ مَن خشي الرحمان ﴾ الخ ، ثم ذكرت المبالغة في إكرامهم بعد ذلك كله بقوله : ﴿ ادخلوها بسلام ﴾ ، ثم طمْأنهم بأن ذلك نعيم خالد ، وزِيد في إكرامهم بأن لهم ما يشاؤون ما لم يروه حين الدخول ، وبأن الله عدهم بالمزيد من لدنه .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (36)

انتقال من الاستدلال إلى التهديد وهو معطوف على ما قبله وهذا العطف انتقال إلى الموعظة بما حل بالأمم المكذبة بعد الاستدلال على إمكان البعث بقوله : ﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم ﴾ [ق : 4] وما فُرّع عليه من قوله : ﴿ أفَعَيِينَا بالخلق الأول ﴾ [ق : 15] .

وفي هذا العطف الوعيد الذي أجمل في قوله : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرّس إلى قوله : ﴿ فحقّ وعيد ﴾ [ق : 12 ، 14] .

فالوعيد الذي حقّ عليهم هو الاستئصال في الدنيا وهو مضمون قوله : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً ﴾ .

(160/722)

والخبر الذي أفاده قوله : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم ﴾ تعريض بالتهديد وتسلية للنبيء صلى الله عليه وسلم وضميرا ﴿ قبلهم ﴾ و ﴿ منهم ﴾ عائدان إلى معلوم من المقام غير مذكور في الكلام كما تقدم في قوله أول السورة من قوله : ﴿ بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ويفسره قوله بعده فقال الكافرون هذا شيء عجيب ﴾ [ق : 2] .

وجرى على ذلك السَّنَن قوله : ﴿ كَذَّبت قبلهم قوم نوح ﴾ وقوله : ﴿ بل هم في لبس من خلق جديد ﴾ [ق : 15] ، ونظائره في القرآن كثيرة .

و ﴿ كم ﴾ خبرية وجرّ تمييزها بـ ﴿ من ﴾ على الأصل .

والبطش : القوة على الغير .

والتنقيب : مشتق من النقْب بسكون القاف بمعنى الثقب ، فيكون بمعنى : خَرَقوا ، واستعير لمعنى : ذللوا وأخضعوا ، أي تصرفوا في الأرض بالحفر الغرس والبناء وتحت الجبال وإقامة السداد والحصون فيكون في معنى قوله : ﴿ وأثارُوا الأرض وعَمَرُوها ﴾

في سورة الروم (9) .

وتعريف البلاد ﴾ للجنس ، أي في الأرض كقوله تعالى : ﴿ الذين طغوا في البلاد ﴾ [الفجر : 11] .

والفاء في ﴿ فنقبوا ﴾ لتفريع عن ﴿ أشد منهم بطشاً ﴾ ، أي ببطشهم وقوتهم لقبوا في البلاد .

والجملة معترضة بين جملة ﴿ وكم أهلكنا قبلهم ﴾ إلى آخره .

وجملة ﴿ هل من محيص ﴾ كما اعترض بالتفريع في قوله تعالى : ﴿ ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار ﴾ [الأنفال : 14] .

وجملة ﴿ هل من محيص ﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿ أهلكنا ﴾ ، أي إهلاكاً لا منجى منه .

ويجوز أن تكون الجملة مستأنفة .

فالاستفهام إنكاري بمعنى النفي ، ولذلك دخلت ﴿ من ﴾ على الاسم الذي بعد الاستفهام كما يقال : ما مِن محيص ، وهذا قريب من قوله في سورة ص (3) ﴿ كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولاتَ حين مناص ﴾

والمحيص : مصدر ميمي من حَاص إذا عَدَل وجاد ، أي لم يجدوا محيصاً من الإهلاك وهو

كقوله تعالى : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد ﴾ في سورة مريم (98) .

(161/722)

وقوله : إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب ﴾ إلى آخرها يجوز أن تكون الإشارة بذلك إلى إهلاك القرون الأشدِّ بطشاً ، ويجوز أن يكون إلى جميع ما تقدم من استدلال وتهديد وتحذير من يوم الجزاء .

والذكرى : التذكرة العقلية ، أي التفكر في تدبر الأحوال التي قضت عليهم بالإهلاك ليقيسوا عليها أحوالهم فيعلموا أن سَيَنَالهُمْ ما نال أولئك ، وهذا قياس عقلي يدركه اللبيب من تلقاء نفسه دون احتياج إلى منبه .

والقلب : العقل وإدراك الأشياء على ما هي عليه .

وإلقاء السمع : مستعار لشدة الإصغاء للقرآن ومواعظ الرسول صلى الله عليه وسلم كأنَّ أسماعهم طرحت في ذلك فلا يشغلها شيء آخر تسمعه .

والشهيد : المشاهد وصيغة المبالغة فيه للدلالة على قوة المشاهدة للمذكر ، أي تحديق العين إليه للحرص على فهم مراده مما يقارن كلامه من إشارة أو سَحْنة فإن النظر يعين على

الفهم .

وقد جيء بهذه الجملة الحالية للإشارة إلى اقتران مضمونها بمضمون عاملها بحيث يكون صاحب الحال ملقيا سمعه مشاهِدا .

وهذه حالة المؤمن ففي الكلام تنويه بشأن المؤمنين وتعريض بالمشركين بأنهم بعداء عن الانتفاع بالذكريات والعبر .

وإلقاء السمع مع المشاهدة يوقظ العقل للذكرى والاعتبار إن كان للعقل غفلة .

وموقع ﴿ أو ﴾ للتقسيم لأن المتذكر إمّا أن يتذكر بما دلت عليه الدلائل العقلية من فهم أدلة القرآن ومن الاعتبار بأدلة الآثار على أصحابها كآثار الأمم مثل ديار ثمود ، قال تعالى : ﴿ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ﴾ [النمل : 52] فقوله : ﴿ ألقى السمع ﴾ استعارة عزيزة شبه توجيه السمع لتلك الأخبار دون اشتغال بغيرها بإلقاء الشيء لمن أخذه فهو من قسم من له قلب ، وإما أن يتذكر بما يبلغه من الأخبار عن الأمم كأحاديث القرون الخالية .

(162/722)

وقيل المراد بمن ألقى السمع وهو شهيد خصوص أهل الكتاب الذين ألقوا سمعهم لهذه الذكرى وشهدوا بصحتها لعلمهم بها من التوراة وسائر كتبهم فيكون ﴿ شهيد ﴾ من

الشهادة لا من المشاهدة .

وقال الفخر : تنكير ﴿ قلب ﴾ للتعظيم والكمال .

والمعنى : لمن كان له قلب ذكيّ واع يستخرج بذكائه ، أو لمن ألقى السمع إلى المنذر فيتذكر ، وإنما قال ﴿ أو ألقى السمع ﴾ ولم يقل : استمع ، لأن إلقاء السمع ، أي يرسل سمعه ولا يمسكه وإن لم يقصد السماع ، أي تحصل الذكرى لمن له سمع .

وهو تعريض بتمثيل المشركين بمن ليس له قلب وبمن لا يلقي سمعه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(163/722)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾

إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه

والق سمعك واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه اليه فانه خاطب منه لك على لسان رسوله قال تعالي ان في ذلك لذكري لمن كان له قلب أو القى السمع وهو

شهيد وذلك ان تمام التأثير لما كان موقوفا على مؤثر مقتض ومحل قابل وشرط لحصول الأثر وانتفاء المانع الذي يمنع منه تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد فقوله ان في ذلك لذكري اشار الى ما تقدم من أول السورة الى ههنا وهذا هو المؤثر وقوله لمن كان له قلب فهذا هو المحل القابل والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله كما قال تعالى إن هو الا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حيا أي حي القلب وقوله أو ألقى السمع أي وجه سمعه وأصغى حاسة سمعه الى ما يقال له وهذا شرط التأثر بالكلام وقوله وهو شهيد أي شاهد القلب حاضر غير غائب قال ابن قتيبة استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم ليس بغافل ولا ساه وهو اشارة الى المانع من حصول التأثير وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له والنظر فيه وتأمله فاذا حصل المؤثر وهو القرآن والمحل القابل وهو القلب الحي ووجد الشرط وهو الاصغاء وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه الي شيء آخر حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر فان قيل اذا كان التأثير إنما يتم بمجموع هذه فما وجه دخول أداة أو في قوله

أو القى السمع والموضع موضع واو الجمع لا موضع أو التي هي لأحد الشيئين قيل هذا سؤال جيد والجواب عنه أن يقال خرج الكلام بأو باعتبار حال المخاطب المدعو فأن من الناس من يكون حي القلب واعيه تام الفطرة فإذا فكر بقلبه وجال بفكره دله قلبه وعقله على صحة القرآن وأنه الحق وشهد قلبه بما أخبر به القرآن فكان ورود القرآن على قلبه نورا على نور الفطرة وهذا وصف الذين قيل فيهم ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل اليك من ربك هو الحق وقال في حقهم الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء فهذا نور الفطرة على نور الوحي وهذا حال صاحب القلب الحي الواعي قال ابن القيم وقد ذكرنا ما تضمنت هذه الآية من الأسرار والعبر في كتاب اجتماع الجيوش الاسلامية على غزو المعطلة والجهمية فصاحب القلب يجمع بين قلبه وبين معاني القرآن فيجدها كأنها قد كتبت فيه فهو يقرأها عن ظهر قلب ومن الناس من لا يكون تام الاستعداد واعي القلب كامل الحياة فيحتاج الى شاهد يميز له بين الحق والباطل ولم تبلغ حياة قلبه ونوره وزكاء فطرته مبلغ صاحب القلب الحي الواعي فطريق حصول هدايته ان يفرغ سمعه للكلام وقلبه لتأمله والتفكير فيه وتعقل معانيه فيعلم حينئذ انه الحق فالأول حال من رأى بعينه ما دعى اليه وأخبر به والثاني حال من علم صدق المخبر وتيقنه وقال يكفيني خبره فهو في مقام الايمان

والأول في مقام الاحسان هذا قد وصل الى علم اليقين وترقي قلبه منه الى فنزلة عين اليقين وذاك معه التصديق الجازم الذي خرج به من الكفر ودخل به في الاسلام فعين اليقين نوعان نوع في الدنيا ونوع في الآخرة فالحاصل في الدنيا نسبته الى القلب كنسبة الشاهد الى العين وما أخبرت به الرسل من الغيب يعاين في الآخرة بالأبصار وفي الدنيا بالبصائر فهو عين يقين في المرتبتين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الفوائد صـ 5.3 ﴾

(165/722)

كلام نفيس للإمام ابن القيم فى باب المشاهدة

قال عليه الرحمة :

فصل قال صاحب المنازل باب المشاهدة

قال الله تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ قلت جعل الله سبحانه كلامه ذكرى لا ينتفع بها إلا من جمع هذه الأمور الثلاثة أحدها أن يكون له قلب حي واع فإذا فقد هذا القلب لم ينتفع بالذكرى الثاني أن يصغي بسمعه فيميله كله نحو المخاطب فإن لم يفعل لم ينتفع بكلامه الثالث أن يحضر قلبه وذهنه عند المكلم له وهو الشهيد أي الحاضر غير الغائب فإن غاب قلبه وسافر في موضع آخر لم ينتفع بالخطاب وهذا

كما أن المبصر لا يدرك حقيقة المرئي إلا إذا كانت له قوة مبصرة وحدق بها نحو المرئي ولم يكن قلبه مشغولا بغير ذلك فإن فقد القوة المبصرة أو لم يحدق نحو المرئي أو حدق نحوه ولكن قلبه كله في موضع آخر لم يدركه فكثيرا ما يمر بك إنسان أو غيره وقلبك مشغول بغيره فلا تشعر بمروره فهذا الشأن يستدعي صحة القلب وحضوره وكمال الإصغاء .

فصل قال الشيخ المشاهدة سقوط الحجاب بتا أي قطعا بحيث لا يبقى منه .

شيء والمشاهدة هي المسقطة للحجاب وهي التي تكون عند سقوط الحجاب وليست هي نفس سقوط الحجاب لكن عبر عن الشيء بلازمه فإن سقوط الحجاب يلازم حصول المشاهدة قوله وهي فوق المكاشفة هذا يدلك على أن مراد الشيخ ومن وافقه من اهل الاستقامة بالمكاشفة والمشاهدة قوة اليقين ومزيد العلم وارتفاع .

(166/722)

الحجب المانعة من ذلك لا نفس معاينة الحقيقة فإن المكاشفة لو كانت هي معاينة الحقيقة لما كان فوقها مرتبة أخرى وإنما كانت المشاهدة عنده فوق المكاشفة لما ذكره من قوله لأن المكاشفة ولاية النعت وفيه شيء من بقايا الرسم والمشاهدة ولاية العين والذات يريد أن المكاشفة تتعلق بالصفات الإلهية فولايتها ولاية النعوت والأوصاف أي سلطانها وما يتعلق

به هو النعوت والصفات وسلطان المشاهدة وما يتعلق به هو نفس الذات الجامعة للنعوت والصفات فلذلك كانت فوقها وأكمل منها والفرق بين ولاية النعت وولاية العين والذات أن النعت صفة ومن شاهد الصفة فلا بد أن يشاهد متعلقاتها فإن النظر في متعلقاتها يكسبه التعظيم للمتصف بها فإن من شاهد العلم القديم الأزلي متعلقا بسائر المعلومات التي لا تتناهى من واجب وممكن ومستحيل ومن شاهد الإرادة الموجبة لسائر الإرادات على تنوعها من الأفعال والأعيان والحركات والأوصاف التي لا تتناهى وشاهد القدرة التي هي كذلك وشاهد صفة الكلام الذي لو أن البحر يمده من بعده سبعة أبحر وأشجار العالم كلها أقلام يكتب بها كلام الرب جل جلاله لفنيت البحار ونفدت الأقلام وكلام الله عز وجل لا ينفد ولا يفنى فمن شاهد الصفات كذلك وجال قلبه في عظمتها فهو مشغول بالصفات ومتفرق قلبه في متعلقاتها وتنوعها في أنفسها بخلاف من قصر نظره على نفس الذات وشاهد قدمها وبقاءها واستغرق قلبه في عظمة تلك الذات بقطع النظر عن صفاتها فهو مشاهد للعين والأول مشاهد للصفات فالأول في فرق .

(167/722)

وهذا في جمع فمن استغرق قلبه في هذا المشهد استحق اسم المشاهد ووصف المشاهدة عند القوم إذا غاب عن إدراك رسمه وكل ما فيه من علم أو عمل أو حال هذا تقرير كلامه وبعد فإن ولاية النعوت والصفات التي جعلها دون ولاية العين والذات ليس الأمر فيها كما زعم بل لا نسبة بينهما البتة فإن الله سبحانه وتعالى دعا عباده في كتبه الإلهية إلى الأول دون الثاني وبذلك نطقت كتبه ورسله فهذا القرآن من أوله إلى آخره إنما يدعو الناس إلى النظر في صفات الله وأفعاله وأسمائه دون الذات المجردة فإن الذات المجردة لا يلحظ معها وصف ولا يشهد فيها نعت ولا تدل على كمال ولا جلال ولا يحصل من شهودها إيمان فضلا عن أن يكون من أعلى مقامات العارفين ويا سبحان الله أين يقع شهود صفات الكمال وتنوعها وكثرتها وما تدل عليه من عظمة الموصوف بها وجلاله وكماله وأنه ليس كمثله شيء في كماله لكثرة أوصافه ونعوته وأسمائه وامتناع أضدادها عليه وثبوتها له على أكمل الوجوه الذي لا نقص فيه بوجه ما من شهود ذات قد غاب مشاهدها عن كل صفة ونعت واسم فبين هذين المشهدين من التفاوت ما لا يحصيه إلا الله وهذا هو مشهد من تأله وفني من الجهمية والمعطلة صرحوا بذلك وقالوا إن كمال هذا المشهد هو قصر النظر القلبي على عين الذات وتنزيهها عن الأعراض والأبعاض والأغراض والحدود والجهات ومرادهم بالأعراض الصفات التي تقوم بالحي كالسمع والبصر والقدرة والإرادة والكلام فلا سمع له ولا بصر ولا إرادة ولا حياة ولا علم ولا قدرة ومرادهم بالأبعاض أنه لا وجه له ولا يدان ولم

يخلق آدم بيده ولا يطوي سماواته بيده ولا يقبض الأرض باليد الأخرى ولا يمسك السموات على إصبع .

(168/722)

ولا الأرضين على إصبع ولا الشجر على إصبع ونحو ذلك مما أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسوله الصادق ومرادهم بالأغراض أنه لا يفعل لحكمة ولا لعلة غائية ولا سبب لفعله ولا غاية مقصودة ومرادهم بالحدود والجهات مسألة المباينة والعلو وأنه غير بائن عن خلقه ولا مستو على عرشه ولا ترفع إليه الأيدي ولا تصعد إليه الأعمال ولا ينزل من عنده شيء ولا يصعد إليه شيء وليس فوق العرش إله يعبد ولا رب يصلى له ويسجد بل ليس هناك إلا العدم المحض الذي هو لا شيء فكمال الشهود عندهم أن يشهد العبد ذاتا مجردة عن كل اسم ووصف ونعت وشيخ الإسلام عدو هذه الطائفة وهو بريء منهم براءة الرسل منهم ولكن بقيت عليه مثل هذه البقية وهي جعل مشهد العين والذات فوق مشهد الصفات على أنه لا سبيل للقوى البشرية إلى شهود الذات الإلهية البتة ولا يقع الشهود على تلك الحقيقة ولا جعل ذلك إليها وإنما إليها شهود الصفات والأفعال وأما حقيقة الذات والعين فغير معلومة للبشرية ولما سأل المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حقيقة ربه

سبحانه من أي شيء هو أنزل الله عز وجل ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ ولذلك لما سأل فرعون موسى عن حقيقة ربه بقوله ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أجابه موسى بقوله ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ إذ لا وصول للبشر إلى حقيقة ذاته فدلهم على نفسه بصفاته الثبوتية من كونه صمدا وصفاته السلبية المتضمنة للثبوت من كونه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد لم يجعل لهم سبيلا إلى معرفة الذات والكنه فما هذا الشهود العين الذاتي الذي جعلتموه للمشاهد وجعلتموه فوق .

(169/722)

المكاشفة وجعلتم ولاية المكاشفة النعت وولاية المشاهدة العين فاعلم أن مراد الشيخ وأمثاله من العارفين أهل الاستقامة أن لا يقصر نظر القلب على صفة من الصفات بحيث يستغرق فيها وحدها بل يكون التفاته وشهوده واقعا على الذات الموصوفة بصفات الكمال المنعوتة بنعوت الجلال فحينئذ يكون شهوده واقعا على الذات والصفات جميعا ولا ريب أن هذا فوق مشهد الصفة الواحدة أو الصفات ولكن يقال الشهود لا يقع على الصفة المجردة ولا يصح تجردها في الخارج ولا في الذهن بل متى شهد الصفة شهد قيامها بالموصوف ولا بد فما هذا الشهود الذاتي الذي هو فوق الشهود الوصفي والأمر يرجع إلى شيء واحد وهو

أن من كان بصفات الله أعرف ولها أثبت ومعارض الإثبات منتف عنده كان أكمل شهودا ولهذا كان أكمل الخلق شهودا من قال لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ولكمال معرفته بالأسماء والصفات استدل بما عرفه منها على أن الأمر فوق ما أحصاه وعلمه فمشهد الصفات مشهد الرسل والأنبياء وورثتهم وكل من كان بها أعرف كان بالله أعلم وكان مشهده بحسب ما عرف منها وليس للعبد في الحقيقة مشاهدة ولا مكاشفة لا للذات ولا للصفات أعني مشاهدة عيان وكشف عيان وإنما هو مزيد إيمان وإيقان ويجب التنبه والتنبيه ههنا على أمر وهو أن المشاهدة نتائج العقائد فمن كان معتقده ثابتا في أمر من الأمور فإنه إذا صفت نفسه وارتاضت وفارقت الشهوات والرذائل وصارت روحانية تجلت لها صورة معتقدها كما اعتقدته وربما قوى ذلك التجلي حتى يصير كالعيان وليس به فيقع الغلط من وجهين أحدهما ظن أن ذلك ثابت في الخارج وإنما هو في الذهن ولكن لما .

(170/722)

صفا الارتياض وانجلت عنه ظلمات الطبع وغاب بمشهوده عن شهوده واستولت عليه أحكام القلب بل أحكام الروح ظن أنه الذي ظهر له في الخارج ولا تأخذه في ذلك لومة لائم ولو جاءته كل آية في السموات والأرض وذلك عنده بمنزلة من عاين الهلال ببصره جهرة فلو

قال له أهل السموات والأرض لم تره لم يلتفت إليهم ولعمر الله إنا لا نكذبه فيما أخبر به عن رؤيته ولكن إنما نوقن أنه إنما رأى صورة معتقده في ذاته ونفسه لا الحقيقة في الخارج فهذا أحد الغلطين وسببه قوة ارتباط حاسة البصر بالقلب فالعين مرآة القلب شديدة الاتصال به وتنضم إلى ذلك قوة الاعتقاد وضعف التمييز وغلبة حكم الهوى والحال على العلم وسماعه من القوم أن العلم حجاب والغلط الثاني ظن أن الأمر كما اعتقده وأن ما في الخارج مطابق لاعتقاده فيتولد من هذين الغلطين مثل هذا الكشف والشهود ولقد أخبر صادق الملاحدة القائلين بوحدة الوجود أنهم كشف لهم أن الأمر كما قالوه وشهدوه في الخارج كذلك عيانا وهذا الكشف والشهود ثمرة اعتقادهم ونتيجته فهذه إشارة ما إلى الفرقان في هذا الموضع والله أعلم .

فصل قال وهي على ثلاث درجات الدرجة الأول مشاهدة معرفة تجري فوق .

حدود العلم في لوائح نور الوجود منيخة بفناء الجمع .

(171/722)

هذا بناء على أصول القوم وأن المعرفة فوق العلم فإن العلم عندهم هو إدراك المعلوم ولو ببعض صفاته ولوازمه والمعرفة عندهم إحاطة بعين الشيء على ما هو به كما حدها

الشيخ ولا ريب أنها بهذا الاعتبار فوق العلم لكن على هذا الحد لا يتصور أن يعرف الله أحد من خلقه البتة وسيأتي الكلام على هذا الحد في موضعه إن شاء الله تعالى وليست المعرفة عند القوم مشروطة بما ذكروا وسنذكر كلامهم إن شاء الله وقد ذكر بعضهم أن أعمال الأبرار بالعلم وأعمال المقربين بالمعرفة وهذا كلام يصح من وجه ويبطل من وجه فالأبرار والمقربون عاملون بالعلم واقفون مع أحكامه وإن كانت معرفة المقربين أكمل من معرفة الأبرار فكلاهما أهل علم ومعرفة فلا يسلب الأبرار المعرفة ولا يستغني المقربون عن العلم وقد قال النبي صلى اله عليه وسلم لمعاذ بن جبل " إنك تأتي قوما أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله فإذا هم عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة" فجعلهم عارفين بالله قبل إتيانهم بفرض الصلاة والزكاة بل جعلهم في أول أوقات دخولهم في الإسلام عارفين بالله ولا ريب أن هذه المعرفة ليست كمعرفة المهاجرين والأنصار فالناس متفاوتون في درجات المعرفة تفاوتا بعيدا قوله في لوائح نور الوجود يعني أن شواهد المعرفة بوارق تلوح من نور الوجود والوجود عند الشيخ ثلاث مراتب وجود علم ووجود عين ووجود مقام كما سيأتي شرحه في موضعه إن شاء الله تعالى وهذه اللوائح التي أشار إليها تلوح في المراتب الثلاثة وقد ذكروا عن الجنيد أنه قال علم التوحيد مباين لوجوده ووجوده مباين لعلمه ومعنى ذلك أن العبد قد يصح له العلم

بانفراد الحق في ذاته وصفاته وأفعاله علما جازما لا يشك ولا يرتاب فيه ولكن إذا اختلفت عليه الأسباب .

(172/722)

وتقاذفت به أمواجها لم يثبت قلبه في أوائل الصدمات ولم يبادر إذ ذاك إلى رؤية الأسباب كلها من الأول الذي دلت على وحدانيته وأوليته البراهين القطعية والمشاهدة الإيمانية فهذا عالم بالتوحيد غير واجد لمقامه ولا متصف بحال أكسبه إياها التوحيد فإذا وجد قلبه وقت اختلاف الأحوال وتباين الأسباب واثقا بربه مقبلا عليه مستغرقا في شهود وحدانيته في ربوبيته وإلهيته فإنه وحده هو المنفرد بتدبير عباده فقد وجد مقام التوحيد وحاله وأهل هذا المقام متفاوتون في شهوده تفاوتا عظيما من مدرك لما هو فيه متنعم متلذذ في وقت دون وقت ومن غالب عليه هذه الحال ومن مستغرق غائب عن حظه ولذته بما هو فيه من وجوده فنور الوجود قد غشي مشاهدته لحاله ولم يصل إلى مقام الجمع بل قد أناخ بفنائه والوجود عنده هو حضرة الجمع ويسمى حضرة الوجود قوله منيخة بفناء الجمع يعني قد شارفت مشاهدته لحاله منزل الجمع وأناخت به وتهيأ لدخوله وهذه استعارة فكأنه مثل المشاهد بالمسافر ومثل مشاهدته بناقته التي يسافر عليها فإنها الحاملة له وشبه

حضرة الجمع بالمنزل والدار وقد أناخ المسافر بفنائها وهذا إشارة منه إلى إشرافه عليها وأن نور الوجود لا يلوح إلا منها .

فصل قال الدرجة الثانية مشاهدة معاينة تقطع حبال الشواهد وتلبس .

نعوت القدس وتخرس ألسنة الإشارات إنما كانت هذه الدرجة أعلى مما قبلها لأن تلك الدرجة مشاهدة برق عن العلم النظري بالتوحيد وتمكنت في وجود التوحيد حتى صار صاحبها يرى الأسباب كلها عن واحد متقدم عليها لا أول لوجوده حالا وذوقا وأناخ بفناء الجمع ليتبوأه منزلا لتوحيده ولكنه بعد لم يكمل استغراقه عن شهود رسمها .

(173/722)

بالكلية فشواهد الرسوم بعد معه وصاحب هذه الدرجة قد انقطعت عنه حبال الشواهد وتمكن في مقام المشاهدة وتطهر من نعوت النفس ولبس نعوت القدس فتطهر من الالتفات إلى غير مشهوده فخرس لذلك لسانه عن الإشارة إلى ما هو فيه فهذه المشاهدة عنده فوق مشاهدة المعرفة لأن تلك من لوائح نور الوجود وهذه مشاهدة الوجود نفسه لا بوارق نوره فهي أعلى لأنها مشاهدة عيان والعيان والمعاينة أن تقع العين في العين وقد عرفت أن هذا مستحيل في الدنيا ومن جوزه فقد أخطأ أقبح الخطأ وتعدى مقام الرسل

وإنما غاية ما يصل إليه العارف مزيد إيمان ويقين بحيث يعبد الله كأنه يراه لقوة يقينه وإيمانه بوجوده وأسمائه وصفاته وأن الأنوار واللوامع والبوارق إنما هي أنوار الإيمان والطاعات من الذكر وقراءة القرآن ونحوها أوهي أنوار استغراقه في مطالعة الأسماء والصفات وإثباتها والإيمان بها بحيث يبقى كالمعاين لها فيشرق على قلبه نور المعرفة فيظنه نور الذات والصفات وتقدم بيان السبب الموقع لهم في ذلك وأنهم لا يمكن رجوعهم في ذلك إلى المحجوبين الذين غلظ في هذا الباب حجابهم وكثفت عن إدراكه أرواحهم وقصرت عنه علومهم ومعارفهم ولم يكادوا يظفرون بذائق صحيح الذوق يفصل لهم أحكام أذواقهم ومشاهدتهم وينزلها منازلها ويبين أسبابها وعللها فوجود هذا أعز شيء والقوم لهم طلب شديد وهمم عالية ومطلبهم وهممهم عندهم فوق مطالب الناس وهممهم فتشهد أرواحهم مقامات المنكر عليهم وسفولها .

(174/722)

واستغراقه في حظوظه وأحكام نفسه وطبيعته فلا تسمح نفوسهم بقبول قوله والرجوع إليه فلو وجدوا عارفا ذا قرآن وإيمان ينادي القرآن والإيمان على معرفته وتدل معرفته على مقتضى الإيمان والقرآن محكما للوحي على الذوق مستخرجا أحكام الذوق من الوحي

ليس فظا ولا غليظا ولا مدعيا ولا محجوبا بالوسائل عن الغايات إشارته دون مقامه ومقامه فوق إشارته إن أشارة أشار بالله مستشهدا بشواهد الله وإن سكت سكت بالله عاكفا بسره وقلبه على الله فلو وجدوا مثل هذا لكان الصادقون أسرع إليه من النار في يابس الحطب والوقود والله المستعان قوله وقطع حبال الشواهد شبه الشواهد بالحبال التي تجذب العبد إلى مطلوبه وهذا إنما يكون مع الغيبة عنه فإذا صار الأمر إلى العيان انقطعت حينئذ حبال الشواهد بحكم المعاينة قوله وتلبس نعوت القدس القدس هو النزاهة والطهارة ونعوت القدس هي صفاته فيلبسه الحق سبحانه من تلك النعوت ما يليق به واستعار لذلك لفظة اللبس فإن تلك الصفات خلع وخلع الحق سبحانه وتعالى يلبسها من يشاء من عباده وهذا موضع يتوارد عيه الموحدون والملحدون فالموحد يعتقد أن الذي ألبسه الله إياه هو صفات جمل اليه بها ظاهره وباطنه وهي صفات مخلوقه ألبست عبدا مخلوقا فكسى عبده حلة من حلل فضله وعطائه .

والملحد يقول كساه نفس صفاته وخلع عليه خلعة من صفات ذاته حتى صار شبيها به بل هو هو ويقولون الوصول هو التشبه بالإله على قدر الطاقة وبعضهم يلطف هذا المعنى ويقول بل يتخلق بأخلاق الرب ورووا في ذلك أثرا باطلا تخلقوا بأخلاق الله وليس ههنا غير التعبد بالصفات الجميلة والأخلاق الفاضلة التي يحبها الله ويخلقها لمن يشاء من عباده فالعبد مخلوق وخلعته مخلوقة وصفاته مخلوقة والله سبحانه وتعالى بائن بذاته وصفاته عن خلقه لا

يمازجهم ولا يمازجونه ولا يحل فيهم ولا يحلون فيه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

فصل قال الدرجة الثالثة مشاهدة جمع تجذب إلى عين الجمع مالكة لصحة .

(175/722)

الورود راكبة بحر الوجود صاحب هذه الدرجة أثبت عند الشيخ في مقام المشاهدة وأمكن في مقام الجمع الذي هو حضرة الوجود وأملك لحمل ما يرد عليه في مقامه من أنواع الكشوفات والمعارف ولذلك كانت مشاهدته مالكة لصحة الورود أي تشهد لنفسها بصحة ورودها إلى حضرة الجمع وتشهد الأشياء كلها لها بالصدق ويشهد المشهود أيضا لها بذلك فلا يبقى عندها احتمال شك ولا ريب وهذا أيضا مورد للملحد والموحد فالملحد يقول مشاهدة الجمع هي مشاهدة الوجود الواحد الجامع لجميع المعاني والصور والقوى والأفعال والأسماء وحضرة الجمع عنده هي حضرة هذا الوجود ومشاهدة هذا الجمع تجذب إلى عينه قال وصفة هذا الجذب أن يحل الحق تعالى عقد خليقته بيد حقيقته فيرجع النور الفائض على صورة خليقته إلى أصله ويرجع العبد إلى عدميته فيبقى الوجود للحق والفناء للخلق ويقيم الحق تعالى وصفا من أوصافه نائبا .

(176/722)

عنه في استجلاء ذاته فيكون الحق هو المشاهد ذاته بذاته في طور من أطوار ظهوره وهي مرتبة عبده فإذا ثبت الحق تعالى عبده بعد نفيه ومحوه وأبقاه بعد فنائه فعاد كما يعود السكران إلى صحوه وجد في ذاته أسرار ربه وطور صفاته وحقائق ذاته ومعالم وجوده ومطارح أشعة نوره ووجد خليقته أسماء مسمى ذاته وعوده إليه فيرى العبد ثبوت ذلك الاسم في حضرة سائر الأسماء المشيرة بدلالتها إلى الوجود المنزه الأصل الموهم الفرع فيؤدي استصحاب النظر إلى أصله أن الفرع لم يفارقه هو إلا بشكله والشكل على اختلاف ضروبه فمعنى عدمي لتعين إمكانه في وجوبه فانظر ما في هذا الكلام من الإلحاد والكفر الصراح وجعل عين المخلوق نفس عين الخالق وأن الرب سبحانه أقام نفس أوصافه نائبة عنه في استجلاء ذاته وأنه شاهد ذاته بذاته في مراتب الخلق وأن الإنسان إذا صحا من سكره وجد في ذاته حقائق ذات الرب ووجد خليقته أسماء مسمى ذاته فيرى ثبوت ذلك الاسم في حضرة سائر الأسماء المشيرة بدلالتها إلى الوجود المنزه الأصل يعني عن الانقسام والتكثر الموهم الفرع يعني الذي يوهم فروعه وتكثر مظاهره واختلاف أشكاله أنه متعدد وإنما هو وجود واحد والأشكال على اختلاف ضروبها أمور عدمية لأنها ممكنة وإمكانها يفنى في وجبها فلم يبق إلا وجوب واجب الوجود وهو واحد وإن اختلفت الأشكال التي ظهر فيها والأسماء التي أشارت إليه فالاتحادي يشاهد وجودا واحدا جامعا لجميع الصور

والأنواع والأجناس فاض عليها كلها فظهر فيها بحسب قوابلها واستعداداتها وذلك الشهود يجذبه إلى انحلال عزمه عن التقيد بمعبود معين أو عبادة معينة بل يبقى معبوده الوجود المطلق الساري في الموجودات بأي معنى ظهر .

وفي أي ماهية تحقق فلا فرق عنده بين السجود للصنم والشمس والقمر والنجوم وغيرها كما قال شاعر

القوم

وإن خر للأحجار في البيد عاكف . . . فلا تعد بالإنكار بالعصبية

(177/722)

وإن عبد النار المجوس وما انطفت . . . كما جاء في الأخبار مذ ألف حجة

فما عبدوا غيري وما كان قصدهم . . . سواي وإن لم يظهروا عقد نية

وما عقد الزنار حكما سوى يدي . . . وإن حل بالإقرار لي فهي بيعتي

وكما قال عارفهم واعلم أن للحق في كل معبود وجها يعرفه من عرفه ويجهله من جهله فالعارف يعرف من عبد وفي أي صورة ظهر قال الله ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ قال وما قضى الله شيئا إلا وقع وما عبد غير الله في كل معبود فهذا مشهد الملحد والموحد

يشاهد بإيمانه ويقينه ذاتا جامعة للأسماء الحسنى والصفات العلى لها كل صفة كمال وكل اسم حسن وذلك يجذبه إلى نفس اجتماع همه على الله وعلى القيام بفرائضه والطريق بمجموعها لا تخرج عن هذين السببين وإن طولوا العبارات ودققوا الإشارات فالأمر كله دائر على جمع الهمة على الله واستفراغ الوسع بغاية النصيحة في التقرب إليه بالنوافل بعد تكميل الفرائض فلا تطول ولا يطول عليك وشيخ الإسلام مراده بالجمع الجاذب إلى عين الجمع أمر آخر بين هذا وبين جمع أهل الوحدة وعين جمعهم لا هو هذا ولا هو هذا فهو دائر على الفناء لا تأخذه فيه لومة لائم وهو الجمع الذي يدندن حوله وعين الجمع عنده .

(178/722)

هو تفرد الرب سبحانه بالأزلية وبالدوام وبالخلق والفعل فكان ولا شيء ويكون بعد كل شيء وهو المكون لكل شيء فلا وجود في الحقيقة لغيره ولا فعل لغيره بل وجود غيره كالخيال والظلال وفعل غيره في الحقيقة كحركات الأشجار والنبات وهذا تحقيق الفناء في شهود الربوبية والأزلية والأبدية وطي بساط شهود الأكوان فإذا ظهر هذا الحكم انمحق وجود العبد في وجود الحق وتدبيره في تدبير الحق فصار سبحانه هو المشهود بوجود العبد متلاش مضمحل كالخيال والظلال ولا يستعد لهذا عندهم إلا من اجتمعت إرادته على

المراد وحده حالا لا تكلفا وطبعا لا تطبعا فقد تنبعث الهمة إلى أمر وتتعلق به وصاحبها معرض عن غير مطلبه متحل به ولكن إرادة السوى كامنة فيه قد توارى حكمها واستتر ولما يزل فإن القله إذا اشتغل بشيء اشتغالا تاما توارت عنه إرادته لغيره والتفاته إلى ما سواه مع كونه كامنا في نفسه مادته حاضرة عنده فإذا وجد فجوة وأدنى تخل من شاغله ظهر حكم تلك الإرادات التي كان سلطان شهوده يحول بينه وبينها فإذا الجمع وعين الجمع ثلاث مراتب أعلاها جمع لهم على الله إرادة ومحبة وإنابة وجمع القلب والروح والنفس والجوارح على استفراغ الوسع في التقرب إليه بما يحبه ويرضاه دون رسوم الناس وعوائدهم فهذا جمع خواص المقربين وساداتهم والثاني الاستغراق في الفناء في شهود الربوبية وتفرد الرب سبحانه بالأزلية والدوام وأن الوجود الحقيقي له وحده وهذا الجمع دون الجمع الأول بمراتب كثيرة والثالث جمع الملاحدة الاتحادية وعين جمعهم وهو جمع الشهود في وحدة الوجود فعليك بتمييز المراتب لتسلم من المعاطب وسيأتي ذكر مراتب الجمع .

(179/722)

والتمييز بين صحيحها وفاسدها في آخر باب التوحيد من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى والله المستعان قوله مالكة لصحة الورود أي ضامنة لصحة ورودها شاهدة بذلك مشهودا

لها به لأنها فوق مشاهدة المعرفة وفوق مشاهدة المعاينة قوله راكبة بحر الوجود يعني تلك المشاهدة راكبة بحر الوجود فهي في لجة بحره لا في أنواره ولا في بوارقه وقد تقدم الكلام على مراده بالوجود وأنه وجود علم ووجود عين ووجود مقام وسيأتي تمام الكلام عليه في بابه إن شاء الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مدارج السالكين حـ 3 صـ 231 . 245 ﴾

(180/722)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى قلب)

القَلب : الفؤاد ، وقد يعبَّر به عن العقل .

وقال الفرّاءُ فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ ، أَى عقل .

يقال : ما قَلْبك معك ، أَى ما عقلك .

وقيل : القلب أَخصُّ من الفؤاد ، ومنه الحديث : "أَتاكم أَهل اليمن أَرقَّ قلوباً وأَلْينَ أَفئدةً" ، فوصف القلوب بالرِّقة ، والأَفئدةَ باللين .

وقوله صلَّى الله عليه وسلَّم : "إِنَّ بكل شىء قلبا ، وقلب القرآن يس" ، قال الليث : هو من

قولك : جئت هذا الأَمر قَلْبا ، أَى محضا خالصاً لا يشوبه شىء ، ومن قولهم : عربىّ قَلْب ، ويستوى فيه المذكر والمؤنَّث والجمع .

وإِن شئت قلت : عربيَّة قَلْبة ، وثنَّيت وجمعت .

وذو القلبين : جميل بن معمر بن حبيب الجُمَحىّ .

وكانت قريش تقوم له : ذو القلبين ، فنزل فيه قوله تعالى : ﴿ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ ، أَى أَصبح نادما ، وتقليب الكفَّين من فعل الأَسِف النادم ، قال :

*كمغبونٍ يَعَضّ على يديه * تبيَّن غَبْنُه عند البِياع*

وقلب الشىء قلباً : حوّله عن وجهه .

وقلب رداءَه .

وقَلَبَه : كبَّه لوجهه ، وقلبه ظَهْرًا لبطن ؛ قال تعالى : ﴿ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ ، أَى الأَرواح .

وقوله : ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ﴾ أَى تثبت به شجاعتكم ويَزول خوفكم .

وعلى عكسه : ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ وقوله : ﴿ ذَالِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ أَى أَجلب للعفَّة ، وقوله : ﴿ قُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ أَى متفرقة .

وقيل : القلب ورد فى القرآن على ثلاثة معان :

الأَوّل : بمعنى العقل : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ .

الثانى : بمعنى الرأْى والتدبير : ﴿ قُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ أَى آراؤهم مختلفة .

(181/722)

الثالث : بمعنى حقيقة القلب الَّذى فى الصَّدر : ﴿ وَلَاكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ .

وهذا النَّوع من القلب على سبعة أَوجه :

1- قلب الكافر : ﴿ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ ﴾ .

2- قلب المنافق : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ .

3- قلب العاصِين : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ، ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

4- قلب خواصّ العباد ﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ .

5- قلب المحبّين : ﴿ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ .

6- قلب الخائفين : ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ، ﴿ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ

وَجِلَةٌ ﴾ .

7- قلب العارفين : ﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .

وقال بعض المفسّرين : القلوب سبعة :

1- قلب الكافر فى غِلاف وغطاءٍ : ﴿ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ ، ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ ، ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ .

2- وقلب المنافق فى حجاب الرّياءِ : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ / عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ ، ﴿ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ .

3- وقلب المبتدع فى الزَّيْغِ والهَوَى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ ، ﴿ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا ﴾ ، ﴿ فَلَمَّا زَاغُواْ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ .

4- وقلب الفاسق الغريق فى بحر العناءِ : ﴿ لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذلك حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ ، ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ ﴾ .

5- وقلب الغافل الرّاغب فى الدنيا ودار الفناءِ : ﴿ وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا ﴾ .

6- وقلب العابد المنتظر ثواب حضرة الكبرياءِ : ﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .

7- وقلب العارف المنتظر اللّقاءَ فى دار البقاءِ : ﴿ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾ ،

﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ .

وسمّى قلباً لتقلّبه كثيرًا من حال

إلى حال .

وفى الحديث : "لَقَلْبُ ابن آدمَ أَسرع تقلّباً من القِدْرِ إذا استجمعتْ غَلْيا" .

وفيه أَيضاً : "إِنَّ مِن قلب ابن آدم إلى كلّ وادٍ شُعْبة ، فمن أَتبع قلبه الشُعَبَ كلَّها لم يبال الله

فى أَىّ وادٍ أَهلكه" .

وفى الصّحيحين : "القلوب بين إِصبعين من أَصابع الرحمان يقلّبها كيف يشاءُ" وتقليب الله

القلوب صرفها من رأى إلى رأى .

والتَقلّب : التصرّف ، قال تعالى : ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ ﴾ .

وانقلب رأيه .

وانقلب فلان سوءَ مُنْقَلَبٍ ، قال تعالى : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ .

وأَنا أَتقلَّب فى نعمائة ، وقال تعالى : ﴿ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 288 . 291 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (38) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (39) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (40) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما دل على تمام علمه وشمول قدرته بخلق الإنسان إثر ما ذكره من جميع الأكوان ، ثم بإعدامه لأصناف الإنسان في كل زمان ، ذكر بخلق ما أكبر منه في المقدار والإنسان بعضه على وجه آخر ، فقال عاطفاً على ﴿ ولقد خلقنا الانسان ﴾ وأكد تنبيهاً لمنكري البعث وتبكيتاً ، وافتتحه بحرف التوقع لأن من ذكر بخلق شيء توقع الإخبار عما هو أكبر منه :

﴿ ولقد خلقنا ﴾ أي بما لنا من العظمة التي لا يقدر قدرها ولا يطاق حصرها

﴿ السماوات والأرض ﴾ على ما هما عليه من الكبر وكثرة المنافع ﴿ وما بينهما ﴾ من الأمور التي لا ينتظم الأمر على قاعدة الأسباب والمسببات بدونها ﴿ في ستة أيام ﴾ الأرض في يومين ، ومنافعها في يومين ، والسماوات في يومين ، ولو شاء لكان ذلك في أقل من

لمح البصر ، ولكنه سن لنا التأني بذلك ﴿ وما مسنا ﴾ لأجل ما لنا من العظمة ﴿ من لغوب ﴾ أي إعياء فإنه لو كان لاقتضى ضعفاً فاقتضى فساداً ، فكان من ذلك شيء على غير ما أردناه ، فكان تصرفنا فيه غير تصرفنا في الباقي ، وأنتم تشاهدون الأمر في الكل على حد سواء من نفوذ الأمر وتمام التصرف ، من اللغب وهو الإعياء ، والريش اللغاب وهو الفاسد .

ولما دل سبحانه على شمول العلم وإحاطة القدرة ، وكشف فيهما الأمر أتم كشف ، كان علم الحبيب القادر بما يفعل العدو أعظم نذارة للعدو وبشارة للولي ، سبب عن ذلك قوله : ﴿ فاصبر على ما ﴾ أي جميع الذي ﴿ يقولون ﴾ أي الكفرة وغيرهم .

(184/722)

ولما كانت أقوالهم لا تليق بالجناب الأقدس ، أمر سبحانه بما يفيد أن ذلك بإرادته وأنه موجب لتنزيهه ، وكماله ، لأنه قهر قائله على قوله ، ولو كان الأمر بإرادة ذلك القائل استقلالاً لكان ذلك في غاية البعد عنه ، لأنه موجب للهلاك ، فقال : ﴿ وسبح ﴾ أي أوقع التنزيه عن كل شائبة نقص متلبساً ﴿ بحمد ربك ﴾ أي بإثبات الإحاطة بجميع صفات الكمال للسيد المدبر المحسن إليك بجميع هذه البراهين التي خصك بها تفضيلاً لك على جميع الخلق

في جميع ما ﴿ قبل طلوع الشمس ﴾ بصلاة الصبح ، وما يليق به من التسبيح غيرها ﴿ وقبل الغروب ﴾ بصلاة العصر والظهر كذلك فالعصر أصل لذلك الوقت والظهر تبع لها .

ولما ذكر ما هو أدل على الحب في المعبود لأنه وقت الانتشار إلى الأمور الضرورية التي بها القوام والرجوع لقصد الراحة الجسدية بالأكل والشرب واللعب والاجتماع بعد الانتشار والانضمام مع ما في الوقتين من الدلالة الظاهرة على طي الخلق ثم نشرهم ، أتبعه ما يكون وقت السكون المراد به الراحة بلذيذ الاضطجاع والمنام فقال : ﴿ ومن الليل ﴾ أي في بعض أقواته ﴿ فسبحه ﴾ بصلاتي المغرب والعشاء وقيام الليل لأن الليل وقت الخلوات وهي ألذ المناجاة .

ولما ذكر الفرائض التي لا مندوحة عنها على وجه يشمل النوافل من الصلاة وغيرها ، أتبعها النوافل المقيدة بها فقال : ﴿ وأدبار السجود ﴾ أي الذي هو أكل بابه وهو صلاة الفرض بما يصلى بعدها من الرواتب والتسبيح بالقول أيضاً ، قال الرازي : واعلم أن ثواب الكلمات بقدرة صدورها عن جنان المعرفة والحكمة وأن تكون عين قلبه تدور دوران لسانه ويلاحظ حقائقها ومعانيها ، فالتسبيح تنزيه من كل ما يتصور في الوهم أو يرتسم في الخيال أو ينطبع في الحواس أو يدور في الهواجس ، والحمد يكشف عن المنة وصنع الصنائع وأنه

المتفرد بالنعم .

انتهى .

(185/722)

ومعناه أن هذا الحمد هو الحقيقة ، فإذا انطبقت في الجنان قامت باللسان ، وتصورت بالأركان ، وحمل على الصلاة لأنها أفضل العبادات ، وهي جامعة بما فيها من الأقوال والأفعال لوجهي الذكر : التنزيه والتحميد ، وهاتان الصلاتان المصدر بهما أفضل الصلوات فهما أعظم ما وقع التسبيح بالحمد ، والمعنى .

والله أعلم .

أن الاشتغال استمطار من المحمود المسبح للنصر على المكذبين ، وأن الصلاة أعظم ترياق للنصر وإزالة الهم ، ولهذا كان النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 265 . 266 ﴾

(186/722)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (38) ﴾

أعاد الدليل مرة أخرى ، وقد ذكرنا تفسير ذلك في الم السجدة ، وقلنا : إن الأجسام ثلاثة أجناس .

أحدها : السموات ، ثم حركها وخصصها بأمور ومواضع وكذلك الأرض خلقها ، ثم دحاها وكذلك ما بينهما خلق أعيانها وأصنافها ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ إشارة إلى ستة أطوار ، والذي يدل عليه ويقرره هو أن المراد من الأيام لا يمكن أن يكون هو المفهوم في وضع اللغة ، لأن اليوم عبارة في اللغة عن زمان مكث الشمس فوق الأرض من الطلوع إلى الغروب ، وقبل السموات لم يكن شمس ولا قمر لكن اليوم يطلق ويراد به الوقت يقال يوم يولد للملك ابن يكون سرور عظيم ويوم يموت فلان يكون حزن شديد ، وإن اتفقت الولادة أو الموت ليلاً ولا يتعين ذلك ويدخل في مراد العاقل لأنه أراد باليوم مجرد الحين والوقت ، إذا علمت الحال من إضافة اليوم إلى الأفعال فافهم ما عند إطلاق اليوم في قوله : ﴿ سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ وقال بعض المفسرين : المراد من الآية الرد على اليهود ، حيث قالوا : بدأ الله تعالى خلق العالم يوم الأحد وفرغ منه في ستة أيام آخرها يوم الجمعة واستراح يوم السبت واستلقى على عرشه فقال تعالى : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ رداً عليهم ، والظاهر أن المراد الرد على المشرك والاستدلال

بخلق السموات والأرض ومما بينهما وقوله تعالى : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ أي ما تعبنا بالخلق الأول حتى لا نقدر على الإعادة .

(187/722)

ثانياً : والخلق الجديد كما قال تعالى : ﴿ أَفَعَيِينَا بالخلق الأول ﴾ [ق : 15] وأما ما قاله اليهود ونقلوه من التوراة فهو إما تحريف منهم أو لم يعلموا تأويله ، وذلك لأن الأحد والاثنين أزمنة متميز بعضها عن بعض ، فلو كان خلق السموات ابتدىء يوم الأحد لكان الزمان متحققاً قبل الأجسام والزمان لا ينفك عن الأجسام فيكون قبل خلق الأجسام أجسام أُخر فيلزم القول بقدم العالم وهو مذهب الفلاسفة ، ومن العجيب أن بين الفلاسفة والمشبهة غاية الخلاف ، فإن الفلسفي لا يثبت لله تعالى صفة أصلاً ويقول بأن الله تعالى لا يقبل صفة بل هو واحد من جميع الوجوه ، فعلمه وقدرته وحياته هو حقيقته وعينه وذاته ، والمشبهي يثبت لله صفة الأجسام من الحركة والسكون والاستواء والجلوس والصعود والنزول فبينهما منافاة ، ثم إن اليهود في هذا الكلام جمعوا بين المسألتين فأخذوا بمذهب الفلاسفة في المسألة التي هي أخص المسائل بهم وهي القدم حيث أثبتوا قبل خلق الأجسام أياماً معدودة وأزمنة محدودة ، وأخذوا بمذهب المشبهة في المسألة التي هي أخص المسائل بهم

وهي الاستواء على العرش فأخطأوا (وضلوا) وأضلوا في الزمان والمكان جميعاً .

ثم قال تعالى : ﴿ فاصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾ قال من تقدم ذكرهم من المفسرين إن معناه اصبر على ما يقولون من حديث التعب بالاستلقاء ، وعلى ما قلنا معناه اصبر على ما يقولون إن هذا لشيء عجيب ، ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ وما ذكرناه أقرب لأنه مذكور ، وذكر اليهود وكلامهم لم يجر .

وقوله : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ يحتمل وجوهاً .

أحدها : أن يكون الله أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصلاة ، فيكون كقوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصلاة طَرَفَيِ النهار وَزُلَفاً مِّنَ الليل ﴾ [هود : 114] .

وقوله تعالى : ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ الغروب ﴾ إشارة إلى طرفي النهار .

(188/722)

وقوله : ﴿ وَمِنَ الليل فَسَبِّحْهُ ﴾ إشارة إلى زلفاً من الليل ، ووجه هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم له شغلان .

أحدهما : عبادة الله .

وثانيهما : هداية الخلق فإذا هداهم ولم يهتدوا ، قيل له أقبل على شغلك الآخر وهو عبادة

الحق .

ثانيها : سبح بحمد ربك ، أي نزهه عما يقولون ولا تسأم من امتناعهم بل ذكرهم بعظمة الله تعالى ونزهه عن الشرك والعجز عن الممكن الذي هو الحشر قبل الطلوع وقبل الغروب ، فإنهما وقت اجتماعهم ﴿ وَمِنَ الليل فَسَبِّحْهُ ﴾ أي أوائل الليل ، فإنه أيضاً وقت اجتماع العرب ، ووجه هذا أنه لا ينبغي أن تسأم من تكذيبهم فإن الرسل من قبلك أوذوا وكذبوا وصبروا على ما كذبوا وأوذوا ، وعلى هذا فلقوله تعالى : ﴿ وأدبار السجود ﴾ فائدة جليلة وهي الإشارة إلى ما ذكرنا أن شغل الرسول أمر أن العبادة والهداية فقوله : ﴿ وأدبار السجود ﴾ أي عقب ما سجدت وعبدت نزه ربك بالبرهان عند اجتماع القوم ليحصل لك العبادة بالسجود والهداية أدبار السجود .

(189/722)

ثالثها : أن يكون المراد قل سبحان الله ، وذلك لأن ألفاظاً معدودة جاءت بمعنى التلفظ بكلامهم ، فقولنا كبر يطلق ويراد به قول القائل الله أكبر ، وسلم يراد به قوله السلام عليكم ، وحمد يقال لمن قال الحمد لله ، ويقال هلل لمن قال لا إله إلا الله ، وسبح لمن قال سبحان الله ، ووجه هذا أن هذه أمور تتكرر من الإنسان في الكلام والحاجة تدعو إلى الإخبار عنها ،

فلو قال القائل فلان قال لا إله إلا الله أو قال الله أكبر طول الكلام ، فمست الحاجة إلى استعمال لفظة واحدة مفيدة لذلك لعدم تكرر ما في الأول ، وأما مناسبة هذا الوجه للكلام الذي هو فيه ، فهي أن تكذيبهم الرسول وتعجبهم من قوله أو استهزاءهم كان يوجب في العادة أن يشتغل النبي صلى الله عليه وسلم بلعنهم وسبهم والدعاء عليهم فقال : فاصبر على ما يقولون واجعل كلامك بدل الدعاء عليهم التسبيح لله والحمد له ولا تكن كصاحب الحوت أو كنوح عليه السلام حيث قال : ﴿ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكافرين دَيَّاراً ﴾ [نوح : 26] بل ادع إلى ربك فإذا ضجرت عن ذلك بسبب إصرارهم فاشتغل بذكر ربك في نفسك ، وفيه مباحث :

(190/722)

البحث الأول : استعمل الله التسبيح تارة مع اللام في قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ الله ﴾ [الجمعة : 1] ، و ﴿ يُسَبِّحُونَ لَهُ ﴾ [فصلت : 38] وأخرى مع الباء في قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ باسم رَّبِّكَ العظيم ﴾ [الواقعة : 74] و ﴿ سَبِّحِ بِحَمْدِ رَّبِّكَ ﴾ [طه : 130] وثالثة من غير حرف في قوله ﴿ وسبحه ﴾ [الإنسان : 26] وقوله ﴿ وسبحوه بكرة ﴾ [الأحزاب : 42] وقوله : ﴿ سَبِّحِ اسم رَّبِّكَ الأعلى ﴾ [الأعلى : 1] فما الفرق بينها ؟

نقول : أما الباء فهي الأهم وبالتقديم أولى في هذا الموضع كقوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ فنقول أما على قولنا المراد من سبح قل سبحان الله ، فالباء للمصاحبة أي مقترناً بحمد الله ، فيكون كأنه تعالى قال قل سبحان الله والحمد لله ، وعلى قولنا المراد التنزيه لذلك أي نزهه وأقرنه بحمده أي سبحه واشكره حيث وفقك الله لتسبيحه فإن السعادة الأبدية لمن سبحه ، وعلى هذا فيكون المفعول غير مذكور لحصول العلم به من غير ذكر تقديره : سبح الله بحمد ربك ، أي ملتبساً ومقترناً بحمد ربك ، وعلى قولنا صل ، نقول يحتمل أن يكون ذلك أمراً بقراءة الفاتحة في الصلاة يقال : صلّى فلان بسورة كذا أو صلّى بقل هو الله أحد ، فكأنه يقول صلّى بحمد الله أي مقروءاً فيها : الحمد لله ربّ العالمين ، وهو أبعد الوجوه ، وأما التعدية من غير حرف فنقول هو الأصل لأن التسبيح يتعدى بنفسه لأن معناه تبعيد من السوء ، وأما اللام فيحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون كما في قول القائل نصحته ونصحت له ، وشكرته وشكرت له .

وثانيهما : أن يكون لبيان الأظهر أي يسبحون الله وقلوبهم لوجه الله خالصة .

(191/722)

البحث الثاني : قال ههنا : ﴿ سَبِّحِ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وَمِنَ الليل فَسَبِّحْهُ ﴾ من غير باء فما الفرق بين الموضعين ؟ نقول الأمر في الموضعين واحد على قولنا التقدير سبح الله مقترناً بحمد ربك ، وذلك لأن سبح الله كقول القائل فسبحه غير أن المفعول لم يذكر .

أولاً : لدلالة قوله بحمد ربك عليه .

وثانياً : لدلالة ما سبق عليه لم يذكر بحمد ربك ، الجواب الثاني على قولنا سبح بمعنى صل يكون الأول أمراً بالصلاة ، والثاني أمراً بالتنزيه ، أي وصل بحمد ربك في الوقت وبالليل نزهه عما لا يليق ، وحينئذ يكون هذا إشارة إلى العمل والذكر والفكر .

فقوله : ﴿ سَبِّحِ ﴾ إشارة إلى خير الأعمال وهو الصلاة ، وقوله : ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ إشارة إلى الذكر ، وقوله : ﴿ وَمِنَ الليل فَسَبِّحْهُ ﴾ إشارة إلى خير الأعمال وهو الصلاة ، وقوله : ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ إشارة إلى الذكر ، وقوله : ﴿ وَمِنَ الليل فَسَبِّحْهُ ﴾ إشارة إلى الفكر حين هدوا الأصوات ، وصفاء الباطن أي نزهه عن كل سوء بفكرك ، واعلم أنه لا يتصف إلا بصفات الكمال ونعوت الجلال ، وقوله تعالى : ﴿ وأدبار السجود ﴾ قد تقدم بعض ما يقال في تفسيره ، ووجه آخر هو أنه إشارة إلى الأمر بإدامة التسبيح ، فقوله : ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ الغروب * وَمِنَ الليل فَسَبِّحْهُ ﴾ إشارة إلى أوقات الصلاة ، وقوله : ﴿ وأدبار السجود ﴾ يعني بعد ما فرغت من السجود وهو الصلاة فلا

تترك تسبيح الله وتنزيهه بل داوم أدبار السجود ليكون جميع أوقاتك في التسبيح فيفيد فائدة قوله تعالى : ﴿ واذكر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [الكهف : 24] وقوله : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فانصب * وإلى ربّكَ فارغب ﴾ [الشرح : 7 ، 8] وقرىء : ﴿ وَأَدْبَارَ السجود ﴾ .

(192/722)

البحث الثالث : الفاء في قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْهُ ﴾ ما وجهها ؟ نقول هي تفيد تأكيد الأمر بالتسبيح من الليل ، وذلك لأنه يتضمن الشرط كأنه يقول : وأما من الليل فسبحه ، وذلك لأن الشرط يفيد أن عند وجوده يجب وجود الجزاء ، وكأنه تعالى يقول النهار محل الاشتغال وكثرة الشواغل ، فأما الليل فمحل السكون والانقطاع فهو وقت التسبيح ، أو نقول بالعكس الليل محل النوم والثبات والغفلة ، فقال : أما الليل فلا تجعله للغفلة بل اذكر فيه ربك ونزهه .

البحث الرابع : ﴿ مِنْ ﴾ في قوله : ﴿ وَمِنَ الليل ﴾ يحتمل وجهين .

أحدهما : أن يكون لابتداء الغاية أي من أول الليل فسبحه ، وعلى هذا فلم يذكر له غاية لاختلاف ذلك بغلبة النوم وعدمها ، يقال أنا من الليل أنتظرك .

ثانيهما : أن يكون للتبعيض أي اصرف من الليل طرفاً إلى التسبيح يقال : من مالك منع ومن

الليل انتبه ، أي بعضه .

البحث الخامس : قوله : ﴿ وأدبار السجود ﴾ عطف على ماذا ؟ نقول : يحتمل أن يكون عطفاً على ما قبل الغروب كأنه تعالى قال : (وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب وأدبار السجود) وذكر بينهما قوله : ﴿ وَمِنَ الليل فَسَبِّحْهُ ﴾ وعلى هذا ففيه ما ذكرنا من الفائدة وهي الأمر بالمداومة ، كأنه قال : سبح قبل طلوع الشمس ، وإذا جاء وقت الفراغ من السجود قبل الطلوع فسبح وسبح قبل الغروب ، وبعد الفراغ من السجود قبل الغروب سبحه فيكون ذلك إشارة إلى صرف الليل إلى التسبيح ، ويحتمل أن يكون عطفاً على ﴿ وَمِنَ الليل فَسَبِّحْهُ ﴾ وعلى هذا يكون عطفاً على الجار والمجرور جميعاً ، تقديره وبعض الليل (فسبحه وأدبار السجود) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 158 . 161 ﴾

(193/722)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾

تقدّم في "الأعراف" وغيرها .

واللغوب التعب والإعياء ، تقول منه : لَغَبَ يَلْغُبُ بالضم لُغُوباً ، ولَغِبَ بالكسر يَلْغَبُ لُغُوباً لغة ضعيفة فيه .

وألغبته أنا أي أنصبته .

قال قتادة والكلبي : هذه الآية نزلت في يهود المدينة ؛ زعموا أن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام ، أوّلها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ، واستراح يوم السبت ؛ فجعلوه راحة ، فأكذبهم الله تعالى في ذلك .

﴿ فاصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ فاصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾

خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أمره بالصبر على ما يقوله المشركون ؛ أي هَوِّن أَمرَهم عليك .

ونزلت قبل الأمر بالقتال فهي منسوخة .

وقيل : هو ثابت للنبي صلى الله عليه وسلم وأمته .

وقيل معناه : فاصبر على ما يقوله اليهود من قولهم : إن الله استراح يوم السبت .

الثانية قوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ الغروب ﴾ قيل : إنه

أراد به الصلوات الخمس .

قال أبو صالح : قبل طلوع الشمس صلاة الصبح ، وقبل الغروب صلاة العصر .

ورواه جرير بن عبد الله مرفوعاً ؛ قال : كنا جلوساً عند النبيّ صلى الله عليه وسلم إذ نظر إلى القمر ليلة البدر ، فقال : " أَمَا إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تُضامون في رؤيته فإن استطعتم ألا تُغْلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها يعني العصر والفجر ثم قرأ جرير ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ " متفق عليه واللفظ لمسلم .

وقال ابن عباس : "قَبْلَ الْغُرُوبِ" الظهر والعصر .

﴿ وَمِنَ الليل فَسَبِّحْهُ ﴾ يعني صلاة العشاءين .

(194/722)

وقيل : المراد تسبيحه بالقول تنزيهاً قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ؛ قاله عطاء الخراسانيّ وأبو الأحوص .

وقال بعض العلماء في قوله : ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس ﴾ قال ركعتي الفجر ﴿ وَقَبْلَ الغروب ﴾ الركعتين قبل المغرب ؛ وقال ثُمَامة ابن عبد الله بن أنس : كان ذوو الألباب من أصحاب

محمد صلى الله عليه وسلم يُصلُّون الركعتين قبل المغرب .

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال : كنا بالمدينة فإذا أذن المؤذِّنُ لصلاة المغرب ابتدروا السَّوَارِي فركعوا ركعتين ، حتى إن الرجل الغريب ليدخل المسجد فيحسب أن الصلاة قد صُليت من كثرة من يصلّيهما .

وقال قتادة : ما أدركت أحداً يُصلِّي الركعتين إلا أَنساً وأبا بَرْزَة الأسلمي .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الليل فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السجود ﴾ فيه أربعة أقوال : الأول هو تسبيح الله تعالى في الليل ، قاله أبو الأحوص .

الثاني أنها صلاة الليل كله ، قاله مجاهد .

الثالث أنها ركعتا الفجر ، قاله ابن عباس .

الرابع أنها صلاة العشاء الآخرة ، قاله ابن زيد .

قال ابن العربي : من قال إنه التسبيح في الليل فيعضُده الصحيح : "مَنْ تَعَارّ من الليل فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم" .

وأما من قال إنها الصلاة بالليل فإن الصلاة تسمى تسبيحاً لما فيها من تسبيح الله ، ومنه سُبْحة الضحى .

وأما من قال إنها صلاة الفجر أو العشاء فلأنهما من صلاة الليل ، والعشاء أوضحه .

الرابعة قوله تعالى : ﴿ وَأَدْبَارَ السجود ﴾ قال عمر وعليّ وأبو هريرة والحسن بن عليّ والحسن البصريِّ والنّخعيّ والشعبيّ والأوزاعيّ والزهريّ : أدبار السجود الركعتان بعد المغرب ، وأدبار النجوم الركعتان قبل الفجر ، ورواه العوفي عن ابن عباس ، وقد رفعه ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ركعتان بعد المغرب أدبار السجود " ذكره الثعلبي .

ولفظ الماوردي : وروي " عن ابن عباس قال : بتُّ ليلةً عند النبيّ صلى الله عليه وسلم فصلّى ركعتين قبل الفجر ، ثم خرج إلى الصلاة فقال : " يا بن عباس ركعتان قبل الفجر أدبار النجوم وركعتان بعد المغرب أدبار السجود " " وقال أنس : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "من صلى ركعتين بعد المغرب قبل أن يتكلم كتبت صلاته في عِليين" " قال أنس فقرأ في الركعة الأولى ﴿ قُلْ يا أيها الكافرون ﴾ وفي الثانية ﴿ قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ ﴾ قال مقاتل : ووقتها ما لم يغرب الشفق الأحمر .

وعن ابن عباس أيضاً : هو الوتر .

قال ابن زيد : هو النوافل بعد الصلوات ، ركعتان بعد كل صلاة مكتوبة ، قال النحاس :

والظاهر يدل على هذا إلا أن الأولى اتباع الأكثر وهو صحيح عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه .

وقال أبو الأحوص : هو التسبيح في أدبار السجود .

قال ابن العربي وهو الأقوى في النظر .

وفي صحيح الحديث : " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يقول في دبر الصلاة المكتوبة : "لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الْجَدُّ" " وقيل : إنه منسوخ بالفرائض فلا يجب على أحد إلا خمس صلوات ، نقل ذلك الجماعة .

الخامسة قرأ نافع وابن كثير وحمزة "وَإِدْبَارَ السُّجُودِ" بكسر الهمزة على المصدر من أدبر الشيء إدباراً إذا وَلَّى .

الباقون بفتحها جمع دُبُر .

(196/722)

وهي قراءة عليّ وابن عباس ، ومثالها طُنُب وأطناب ، أو دُبْر كقُفْل وأقفال .

وقد استعملوه ظرفاً نحو جئتك في دبر الصلاة وفي أدبار الصلاة .

ولا خلاف في آخر "والطُّورِ" .

"وَإِدْبَارَ النُّجُومِ" أنه بالكسر مصدر ، وهو ذهاب ضوئها إذا طلع الفجر الثاني ، وهو البياض المنشقّ من سواد الليل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(197/722)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾

من أصناف المخلوقات ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ تقدم الكلام فيها ﴿ وَمَا مَسَّنَا ﴾ وما أصابنا بذلك مع كونه مما لا تفي به القوى والقدر ﴿ مِن لُّغُوبٍ ﴾ تعب ما فالتنوين للتحقير ، وهذا كما قال قتادة .

وغيره رد على جهلة اليهود زعموا أنه تعالى شأنه بدأ خلق العالم يوم الأحد وفرغ منه يوم الجمعة واستراح يوم السبت واستلقى على العرش سبحانه وتعالى عما يقولون علوّاً كبيراً .

وعن الضحاك أن الآية نزلت لما قالوا ذلك ، ويحكى أنهم يزعمون أنه مذكور في التوراة ، وجملة ﴿ وَمَا مَسَّنَا ﴾ الخ تحتمل أن تكون حالية وأن تكون استئنافية ، وقرأ السلمي . وطلحة .

ويعقوب ﴿ لُغُوبٌ ﴾ بفتح اللام بزنة القبول والولوع وهو مصدر غير مقيس بخلاف مضموم اللام .

﴿ فاصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾ أي ما يقول المشركون في شأن البعث من الأباطيل المبنية على الاستبعاد والإنكار فإن من قدر على خلق العالم في تلك المدة اليسيرة بلا إعياء قادر على بعثهم والانتقام منهم ، أو على ما يقول اليهود من مقالة الكفر والتشبيه .

والكلام متعلق بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ﴾ [ق : 38] الخ على الوجهين ، وفي "الكشف" أنه على الأول متعلق بأول السورة إلى هذا الموضع وأنه أنسب من تعلقه بلقد خلقنا الآية لأن الكلام مرتبط بعضه ببعض إلى ههنا على ما لا يخفى على المسترشد .

وأنت تعلم أن الأقرب تعلقه على الوجهين بما ذكرنا ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أي نزهه تعالى عن العجز عما يمكن وعن وقوع الخلف في أخباره التي من جملتها الأخبار بوقوع البعث وعن وصفه عز وجل بما يوجب التشبيه ، أو نزهه عن كل نقص ومنه ما ذكر حامداً له تعالى على ما أنعم به عليك من إصابة الحق وغيرها .

﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ الغروب ﴾ هما وقتا الفجر والعصر وفضليتهما مشهورة .

﴿ وَمِنَ الليل ﴾ مفعول لفعل محذوف يفسره ﴿ فَسَبِّحْهُ ﴾ باعتبار الاتحاد النوعي ، والعطف للتغاير الشخصي أي وسبحه بعض الليل فسبحه أو مفعول لقوله تعالى : ﴿ سبحه ﴾ على أن الفاء جزائية والتقدير مهما يكن من شيء فسبحه بعض الليل ، وقدم المفعول للاهتمام به وليكون كالعوض عن المحذوف ولتتوسط الفاء الجزائية كما هو حقها ، ولعل المراد بهذا البعض السحر فإن فضله مشهور ﴿ فَسَبِّحْهُ وأدبار السجود ﴾ وأعقاب الصلاة جمع دبر بضم فسكون أو دبر بضمتين .

وقرأ ابن عباس .

وأبو جعفر .

وشيبة .

وعيسى .

والأعمش .

وطلحة .

وشبل .

والحرميان ﴿ ادبار ﴾ بكسر الهمزة وهو مصدر تقول : أدبرت الصلاة إدباراً انقضت وتمت ، والمعنى ووقت انقضاء السجود كقولهم : آتيك خفوق النجم .

وذهب غير واحد إلى أن المراد بالتسبيح الصلاة على أنه من إطلاق الجزء أو اللازم على

الكل أو الملزوم ، وعليه فالصلاة قبل الطلوع الصبح وقبل الغروب العصر ، قاله قتادة .

وابن زيد .

والجمهور ، وأخرجه الطبراني في "الأوسط" .

وابن عساكر عن جرير بن عبد الله مرفوعا ، ومن الليل صلاة العتمة وإدبار السجود

النوافل بعد المكتوبات أخرجه ابن جرير عن ابن زيد ، وقال ابن عباس : الصلاة قبل الطلوع

الفجر وقبل الغروب الظهر والعصر ومن الليل العشاءان وإدبار السجود النوافل بعد

الفرائض ، وفي رويةأخرى عنه الوتر بعد العشاء ، وفي أخرى عنه أيضاً .

وعن عمر .

وعلي .

وابنه الحسن .

وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهم .

والشعبي .

وإبراهيم .

ومجاهد والأوزاعي ركعتان بعد المغرب ، وأخرجه مسدد في مسنده .

وابن المنذر .

وابن مردويه عن علي كرم الله تعالى وجهه مرفوعاً ، وقال مقاتل : ركعتان بعد العشاء يقرأ في الأولى ﴿ قُلْ يا أهل أَيُّهَا الكافرون ﴾ [الكافرون : 1] وفي الثانية ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 1] ، وقيل : من الليل صلاة العشاءين والتهجد ، وعن مجاهد صلاة الليل ، وفيه احتمال العموم لصلاة العشاءين والخصوص بالتهجد وهو الأظهر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(200/722)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (38) ﴾ مناسبة اتصال هذه الآية بما قبلها أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها ﴾ [ق : 6] إلى قوله : ﴿ لها طلع نضيد ﴾ [ق : 10] ، وكان ذلك قريباً مما وصف في التوراة من ترتيب المخلوقات إجمالاً ثم نزل قوله بعد ذلك ﴿ أَفَعَيِينَا بالخَلْق الأول ﴾ [ق : 15] كان بعض اليهود بمكة يقولون إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام واستراح في اليوم السابع ، وهذا مكتوب في سفر التكوين من "التوراة" .

والاستراحة تؤذن بالنَصَب والإعياء فلما فرغت الآية من تكذيب المشركين في أقوالهم عَطفت إلى تكذيب الذين كانوا يحدثونهم بحديث الاستراحة ، فهذا تأويل موقع هذه الآية في هذا المحل مع ما حكَى ابن عطية من الإجماع على أن هذه السورة كلها مكية وقد أشرنا إلى ذلك في الكلام على طليعة السورة فقول من قال نزلت في يهود المدينة تكلّف إذ لم يكن اليهود مقصورين على المدينة من بلاد العرب وكانوا يترددون إلى مكة .

فقوله : ﴿ ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ﴾ تكملة لما وَصف من خلق السماوات في قوله : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها إلى قوله : من كل زوج بهيج ﴾ [ق : 6 ، 7] ليتوصل به إلى قوله : ﴿ وما مسنا من لغوب ﴾ إبطالاً لمقالة اليهود ، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها عطفَ القصة على القصة وقعت معترضة بين الكلام السابق وبين ما فرع عنه من قوله : ﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ [طه : 130] .

(201/722)

والواو في ﴿ وما مسنا من لغوب ﴾ واو الحال لأن لمعنى الحال هنا موقعاً عظيماً من تقييد ذلك الخلق العظيم في تلك المدة القصيرة بأنه لا ينصب خالقه لأن الغرض من معظم هذه

السورة بيان إمكان البعث إذ أحالهُ المشركون بما يرجع إلى ضيق القدرة الإلهية عن إيقاعه ، فكانت هذه الآيات كلها مشتملة على إبراز معنى سعة القدرة الإلهية .

ومعنى ﴿ وما مسنا من لغوب ﴾ : ما أصابنا تعب .

وحقيقة المسِّ : اللَّمسُ ، أي وضع اليد على شيء وضعا غير شديد بخلاف الدفع واللطم .

فعبر عن نفي أقل الإصابة بنفي المسّ لنفي أضعف أحوال الإصابة كما في قوله تعالى : ﴿ من قبل أن يتماسَّا ﴾ [المجادلة : 3] فنفي قوة الإصابة وتمكنها أحرى .

واللغوب : الإعياء من الجري والعمل الشديد .

فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (39)

تفريع على ما تقدم كله من قوله : ﴿ بل عجبوا أن جاءهم منذر ﴾ [ق : 2] الآيات ، ومناسبة وقعه هذا الموقع ما تضمنه قوله : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن ﴾ [مريم : 74] الآية من التعريض بتسلية النبي صلى الله عليه وسلم أي فاصبر على ما يقول المشركون من التكذيب بما أخبرتهم من البعث وبالرسالة وقد جمع ذلك كله الموصول وهو ﴿ ما يقولون ﴾ .

وضمير ﴿ يقولون ﴾ عائد إلى المشركين الذين هم المقصود من هذه المواعظ والنذر ابتداء من قوله : ﴿ بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ﴾ .

﴿ يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ ﴾ ﴿ للها لغروب * وَمِنَ اليل فَسَبِّحْهُ وأدبار السجود ﴾ .

عطف على ﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ فهو من تمام التفريع ، أي اصبر على أقوال أذاهُمْ وسخريتهم .

(202/722)

ولعلّ وجه هذا العطف أن المشركين كانوا يستهزئون بالنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إذا قاموا إلى الصلاة مثل قصة إلقاء عقبةَ بن أبي مُعيط سلا الجزور على ظهر النبي صلى الله عليه وسلم حين سجد في المسجد الحرام في حجر الكعبة فأقبل عقبة بن أبي مُعيط فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال : ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ﴾ [غافر : 28] الآية .

وقال تعالى : ﴿ أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى إلى قوله : ﴿ كلالا تطعه واسجد واقترب ﴾ [العلق : 199] .

فالمراد بالتسبيح : الصلاة وهو من أسماء الصلاة .

قال ابن عطية : أجمع المتأولون على أن التسبيح هنا الصلاة .

قلت : ولذلك صار فعل التسبيح منزلاً منزلة اللازم لأنه في معنى : صَلّ .

والباء في ﴿ بحمد ربك ﴾ يرجح كون المراد بالتسبيح الصلاة لأن الصلاة تقرأ في كل ركعة منها الفاتحة وهي حمد لله تعالى ، فالباء للملابسة .

واختلف المفسرون في المراد بالصلاة من قوله : ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وأدبار السجود ﴾ ففي "صحيح مسلم" عن جرير بن عبد الله : "كُنَّا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ نظر إلى القمر فقال : إنكم سَتَرَوْنَ ربّكم كما ترون هذا القمر لا تُضامُون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تُغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها " يعني بذلك العصر والفجر .

ثم قرأ جرير ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ﴾ كذا .

والقراءة ﴿ الغروب ﴾ .

وعن ابن عباس : قبل الغروب : الظهر والعصر .

وعن قتادة : العصر .

وقوله : ﴿ ومن الليل فسبحه ﴾ الجمهورُ على أن التسبيح فيه هو الصلاة ، وعن أبي الأحوص أنه قول سبحان الله ، فعلى أن التسبيح الصلاة قال ابن زيد : صلاة المغرب وصلاة العشاء .

و ﴿ قبل الغروب ﴾ ظرْفٌ واسع يبتدىء من زوال الشمس عن كبد السماء لأنها حين تزول عن كبد السماء قد مالت إلى الغروب وينتهي بغروبها ، وشمل ذلك وقتَ صلاة الظهر والعصر ، وذلك معلوم للنبيء صلى الله عليه وسلم وتسبيح الليل بصلاتي المغرب والعشاء لأن غروب الشمس مبدأ الليل ، فإنهم كانوا يؤرخون بالليالي ويبتدئون الشهر بالليلة الأولى التي بعد طلوع الهلال الجديد عقب غروب الشمس .

وقيل هذه المذكورات كلها نوافل ، فالذي قبل طلوع الشمس ركعتا الفجر ، والذي قبل الغروب ركعتان قبل غروب الشمس قاله أبو برزة وأنس بن مالك ، والذي من الليل قيام الليل قاله مجاهد .

ويأتي على هذا الوجه الاختلافُ في محمل الأمر على الندب إن كانا عاماً أو على الوجوب إن كانا خاصاً بالنبي صلى الله عليه وسلم كما سيأتي في سورة المزمل .

وقريب من هذه الآية قوله تعالى : ﴿ فاصبرِ لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفورا واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ومن الليل فاسجد له وسبِّحهُ ليلاً طويلاً ﴾ في سورة الإنسان (24 26) .

وقريب منها أيضاً قوله تعالى : ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾ في سورة الطور (48 ، 49) .

وأما قوله : وإدبار السجود ﴾ فيجوز أن يكون معطوفاً على قوله : ﴿ قبل طلوع الشمس ﴾ ، ويجوز أن يكون معطوفاً على قوله : ﴿ ومن الليل فسبحه ﴾ .

والإدبار : بكسر الهمزة حقيقته : الانصراف لأن المنصرف يستدبر من كان معه ، واستعير هنا للانقضاء ، أي انقضاء السجود ، والسجود : الصلاة ، قال تعالى : ﴿ واسجد واقترب ﴾ .

وانتصابه على النيابة عن الظرف لأن المراد : وقْت إدبار السجود .

وقرأه نافع وابن كثير وأبو جعفر وحَمزة وخلف بكسر همزة ﴿ إدبار ﴾ .

وقرأه الباقون بفتح الهمزة على أنه جمع : دُبر ، بمعنى العقب والآخِر ، وعلى كلتا القراءتين هو وقت انتهاء السجود .

(204/722)

ففسر السجود بالحَمل على الجنس ، أي بعد الصلوات قاله ابن زيد ، فهو أمر بالرواتب التي بعد الصلوات .

وهو عام خصصته السنة بأوقات النوافل ، ومجمل بينت السنة مقاديره ، وبينت أن الأمر فيه أمر ندب وترغيب لا أمر إيجاب .

وعن المهدوي أنه كان فرضاً فنسخ بالفرائض .

وحمل على العهد فقال جمع من الصحابة والتابعين هو صلاة المغرب ، أي الركعتان بعدها .

وعن ابن عباس أنه الوتر .

والفاء في قوله : ﴿ فسبحه ﴾ للتفريع على قوله : ﴿ وسبح بحمد ربك ﴾ على أن يكون الوقت على قوله : ﴿ ومن الليل ﴾ تأكيداً للأمر لإفادة الوجوب فيجعل التفريع اعتراضاً بين الظروف المتعاطفة وهو كالتفريع الذي في قوله آنفاً ﴿ فنقَّبوا في البلاد ﴾ [ق : 36] وقوله تعالى : ﴿ ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار ﴾ [الأنفال : 14] . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(205/722)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والعشرون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/723)

الجزء الثالث والعشرون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 41 ﴾ من سورة (ق)

وحتى الآية ﴿ 45 ﴾ آخر السورة

(4/723)

قوله تعالى ﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (41) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (42) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (43) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (44) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (45) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما سلاه سبحانه عما يسمع منهم من التكذيب وغيره من الأذى بالإقبال على عليّ حضرته والانتظار لنصرته ، أتبعه تعزية الإشارة فيها أظهر بما صوره يوم مصيبتهم وقربه حتى أنه يسمع في وقت نزول هذه الآية ما فيه لهم من المثلات وقوارع المصيبات ، تحذيراً لهم وبشرى لأوليائه بتمام تأييده عليهم ونصره لهم في الدنيا والآخرة فقال : ﴿ واستمع ﴾ أي اسمع بتعمدك للسمع بغاية جهدك بإصغاء سمعك وإقبال قلبك بعد تسبيحك بالحمد ما يقال لهم ﴿ يوم يناد المناد ﴾ لهم في الدنيا يوم بدر أول الأيام التي أظهر الله فيها لأوليائه مجده بالانتقام من أعدائه ، وفي الآخرة يوم القيامة في صورة النفخة الثانية وما بعده .

ولما كان المراد إظهار العظمة بتصوير تمام القدرة ، وكان ذلك يتحقق بإسماع البعيد من محل المنادي كما يسمع القريب سواء ، وكان القرب ملزوماً للسماع ، قال مصوراً لذلك : ﴿ من

مكان ﴾ هو صخرة بيت المقدس ﴿ قريب ﴾ أي يسمع الصوت من بعد كما يسمعه من قرب ، يكونون في البقاع سواء لا تفاوت بينهم أصلاً .

(5/723)

ولما عظم هذا المقام بما كساه من ثوب الإجمال أبدل منه إيضاحاً وزيادة في التعظيم قوله : ﴿ يوم يسمعون ﴾ أي الذين ينادون ﴿ الصيحة ﴾ أي صيحة أصمتهم المستنفر لهم إلى بدر في الدنيا ، فكانت صيحة قاضية بصممهم عن جميع تصرفاتهم ، وصيحة النفخة الثانية في الصورة في الآخرة فهما نفختا حشر إلى القضاء بين المحق والمبطل ﴿ بالحق ﴾ أي لأمر الثابت الذي كانوا يسمونه سحراً ، ويعدونه خيالاً ، فيعلمون حينئذ أن الواقع قد يطابقه ، فكان حقاً فإنه قد طابقه الواقع ، فكان الإخبار به صدقاً .

ولما عظمه سبحانه باجمال بعد إجمال ، إشارة إلى أن ما فيه من شديد الأهوال ، يطول شرحه بالمقال ، زاده تعظيماً بما أنتجه الكلام فقال : ﴿ ذلك ﴾ أي اليوم العظيم الذي يظهر به المجد ويعلو بضعفاء المؤمنين المجد ﴿ يوم الخروج ﴾ أي الذي لا خروج أعظم منه وهو خروجهم من بيوتهم في الدنيا إلى مصارعهم ببدر ، ومن قبورهم من الأرض التي خلقوا منها إلى مقامعهم في النار .

ولما بنيت دعائم القدرة ودقت بشائر النصرة وختم بما يصدق على البعث الذي هو الإحياء الأعظم دالاً بما هو مشاهد من أفعاله ، وأكده لإنكارهم البعث ، فقال : ﴿ إنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ نحن ﴾ خاصة ﴿ نحيي ونميت ﴾ تجدد ذلك شيئاً بعد شيء سنة مستقرة وعادة مستمرة كما تشاهدونه ، فقد كان منا بالإحياء الأول البدء ﴿ وإلينا ﴾ خاصاً بالإماتة ثم الإحياء ﴿ المصير ﴾ أي الصيرورة ومكانها وزمانها بأن نحيي جميع من أمتناه يوم البعث ونحشرهم إلى محل الفصل ، فنحكم بينهم وليس المعاد بأصعب من المبدأ ، فمن أقر به وأنكر البعث كان معانداً أو مجنوناً قطعاً .

(6/723)

ولما تحقق بذلك أمر البعث غاية التحقق ، صور خروجهم فيه فقال معلقاً بما ختم به الابتداء مما قبله زيادة في تفخيمه وتعظيمه وتبجيله : ﴿ يوم تشقق الأرض ﴾ وعبر بفعل المطاوعة لاقتضاء الحال له ، وحذف تاء المطاوعة إشارة إلى سهولة الفعل وسرعته ﴿ عنهم ﴾ أي مجاوزة لهم بعد أن كانوا في بطنها فيخرجون منها أحياء كما كانوا على ظهرها أحياء ، حال كونهم ﴿ سراعاً ﴾ إلى إجابة مناديها ، وأشا إلى عظمه بقوله : ﴿ ذلك ﴾ أي الإخراج العظيم جداً ﴿ حشر ﴾ أي جمع بكره ، وزاد في بيان عظمة هذا

الأمر بدلالته على اختصاصه بتقديم الجار فقال : ﴿ علينا ﴾ أي خاصة ﴿ يسير ﴾ فكيف يتوقف عاقل فيه فضلاً عن أن ينكره ، وأما غيرنا فلا يمكنه ذلك بوجه .

انتهى .

ولما أقام سبحانه الأدلة على تمام قدرته وشمول علمه وختم بسهولته عليه واختصاصه به ، وصل تسلية للنبي - صلى الله عليه وسلم - بتهديدهم على تكذيبهم بالعلم الذي هو أعظم التهديد فقال : ﴿ نحن ﴾ أي لا غيرنا ولا هم أنفسهم ﴿ أعلم ﴾ أي من كل من يتوهم فيه العلم ﴿ بما يقولون ﴾ أي في الحال والاستقبال من التكذيب بالبعث وغيره مع إقرارهم بقدرتنا .

(7/723)

ولما كان التقدير : فنحن قادرون على ردهم عنه بما لنا من العلم المحيط وأنت لهم منذير تنذرهم وبال ذلك ، عطف عليه قوله : ﴿ وما أنت عليهم ﴾ ولما أفاد حرف الاستعلاء القهر والغلبة صرح به مؤكداً في النفي فقال : ﴿ بجبار ﴾ أي متكبر قهار عات تردهم قهراً عما تكره منهم من الأقوال والأفعال ، إنما أنت منذر ، ولما نفى عنه الجبروت ، أثبت لهم ما أفهمه واو العطف من النذارة كما قدرته قبله ، فقال مسبباً عنه معبراً بالتذكير الذي يكون

عن نسيان لأن كل ما في القرآن من وعظ إذا تأمله الإنسان وجده شاهداً في نفسه أو فيما يعرفه من الآفاق ﴿ فذكر ﴾ أي بطريق البشارة والنذارة ﴿ بالقرآن ﴾ أي الجامع بمجده لكل خير المحيط كل صلاح ﴿ من يخاف وعيد ﴾ أي يمكن خوفه ، وهو كل عاقل ، ولكنه ساقه هكذا إعلاماً بأن الذي يخاف بالفعل فيكشف الحال عن إسلامه هو المقصود بالذات ، وغيره إنما يقصد لإقامة الحجة عليه لا لدده ولا يؤسف عليه ولا يتأثر بتكذيبه بل يعتقد أنه عدم لا تضر عداوته ولا تنفع ولايته ، وما آذى إلا نفسه وكل من والاه في الدنيا والآخرة ، وهذا هو المجد للقرآن ولمن أنزله ولمن أتى به عنه بتمام قدرة من هو صفته وشمول علمه ، فقد انعطف هذا الآخر على ذلك الأول أشد انعطاف ، والتفت فروعه بأصله أتم التفاف ، فاعترفت به أولو براعة وأهل الإنصاف والاتصاف بالتقدم في كل صناعة بالسبق الذي لا يمكن لحاقه أيّ اعتراف .

والله الهادي للصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 266 . 268 ﴾

(8/723)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (41) ﴾

هذا إشارة إلى بيان غاية التسبيح ، يعني اشتغل بتنزيه الله وانتظر المنادي كقوله تعالى :

﴿ واعبد ربَّكَ حتى يَأْتِيَكَ اليقين ﴾ [الحجر : 99] وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

ما الذي يستمعه ؟ قلنا : يحتمل وجوهاً ثلاثة .

أحدها : أن يترك مفعوله رأساً ويكون المقصود كن مستمعاً ولا تكن مثل هؤلاء المعرضين الغافلين ، يقال هو رجل سميع مطيع ولا يراد مسموع بعينه كما يقال فلان وكاس ، وفلان يعطي ويمنع .

ثانيهما : استمع لما يوحي إليك .

ثالثها : استمع نداء المنادي .

المسألة الثانية :

﴿ يَوْمَ يُنَادِ المناد ﴾ منصوب بأي فعل ؟ نقول : هو مبني على المسألة الأولى ، إن قلنا استمع لا مفعول له فعامله ما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ يَوْمُ الخروج ﴾ [ق : 42] تقديره :

يخرجون يوم ينادي المنادي ، وإن قلنا مفعوله لما يوحى فتقديره (واستمع) لما يوحى (يوم ينادي) ويحتمل ما ذكرنا وجهاً آخر ، وهو ما يوحي أي ما يوحى ﴿ يَوْمَ يُنَادِ المناد ﴾ اسمعه ، فإن قيل : استمع عطف على فاصبر وسبح وهو في الدنيا ، والاستماع يكون في الدنيا ، وما يوحى ﴿ يَوْمَ يُنَادِ المناد ﴾ لا يستمع في الدنيا ، نقول ليس بلازم ذلك لجواز أن يقال صل وادخل الجنة أي صل في الدنيا وادخل الجنة في العقبى ، فكذلك ههنا ، ويحتمل أن يقال بأن استمع بمعنى انتظر فيحتمل الجمع في الدنيا ، وإن قلنا استمع الصيحة وهو نداء المنادي : يا عظام انتشري ، والسؤال الي ذكره علم الجواب منه ، وجواب آخر نقوله حينئذ وهو أن الله تعالى قال : ﴿ وَنُفِخَ فِى الصور فَصَعِقَ مَن فِى السموات وَمَن فِى الأرض إِلاَّ مَن شَاء الله ﴾ [الزمر : 68] قلنا : إن من شاء الله هم الذين علموا وقوع الصيحة ، واستيقظوا لها فلم تزعجهم كمن يرى برقاً أومض ، وعلم أن عقبيه يكون رعد قوي فينظره ويستمع له ، وآخر غافل فإذا رعد بقوة ربما يغشى على الغافل ولا يتأثر منه المستمع ، فقال : استمع ذلك كي لا تكون ممن يصعق في ذلك اليوم .

المسألة الثانية :

ما الذي ينادي المنادي ؟ فيه وجوه محتملة منقولة معقولة وحصرها بأن نقول المنادي إما أن يكون هو الله تعالى أو الملائكة أو غيرهما وهم المكلفون من الإنس والجن في الظاهر ،

وغيرهم لا ينادي ، فإن قلنا هو تعالى فيه وجوه .

أحدها : ينادي : ﴿ احشروا الذين ظَلَمُواْ وأزواجهم ﴾ [الصافات : 22] .

(10/723)

ثانيها : ينادي ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [ق : 24] مع قوله : ﴿ أدخلوها بسلام ﴾ [ق : 34] ومثله قوله تعالى : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾ [الحاقة : 30] يدل على هذا قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُنَادِ المناد مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ [ق : 41] وقال : ﴿ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ [سبأ : 51] .

ثالثها : غيرهما لقوله تعالى : ﴿ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِى ﴾ وغير ذلك ، وأما على قولنا المنادي غير الله ففيه وجوه أيضاً .

أحدها : قول إسرافيل : أيتها العظام البالية اجتمعوا للوصل واستمعوا للفصل .

ثانيها : النداء مع النفس يقال للنفس ارجعي إلى ربك لتدخلي مكانك من الجنة أو النار .

ثالثها : ينادي مناد هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار ، كما قال تعالى : ﴿ فَرِيقٌ فِى الجنة وَفَرِيقٌ فِى السعير ﴾ [الشورى : 7] وعلى قولنا المنادي هو المكلف فيحتمل أن يقال هو ما بين الله تعالى في قوله : ﴿ وَنَادَوْاْ يامالك ﴾ [الزخرف : 77] أو غير ذلك إلا أن الظاهر أن المراد

أحد الوجهين الأولين ، لأن قوله المنادي للتعريف وكون الملك في ذلك اليوم منادياً معروف عرف حاله وإن لم يجر ذكره ، فيقال : قال صلى الله عليه وسلم وإن لم يكن قد سبق ذكره ، وأما أن الله تعالى مناد فقد سبق في هذه السورة في قوله : ﴿ أَلْقِيَا ﴾ [ق : 24] وهذا نداء ، وقوله : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ ﴾ [ق : 30] وهو نداء ، وأما المكلف ليس كذلك ، وقوله تعالى : ﴿ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ إشارة إلى أن الصوت لا يخفى على أحد بل يستوي في استماعه كل أحد وعلى هذا فلا يبعد حمل المنادي على الله تعالى إذ ليس المراد من المكان القريب نفس المكان بل ظهور النداء وهو من الله تعالى أقرب ، وهذا كما قال في هذه السورة : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريد ﴾ [ق : 16] وليس ذلك بالمكان .

ثم قال تعالى :

(11/723)

يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (42)

هذا تحقيق ما بينا من الفائدة في قوله : ﴿ واستمع ﴾ [ق : 41] أي لا تكن من الغافلين حتى لا تصعق يوم الصيحة ، وبيانه هو أنه قال استمع أي كن قبل أن تستمع مستيقظاً لوقوعه ، فإن السمع لا بد منه أنت وهم فيه سواء فهم يسمعون لكن من غير استماع

فيصعقون وأنت تسمع بعد الاستماع فلا يؤثر فيك إلا ما لا بد منه و ﴿ يَوْمٍ ﴾ يحتمل وجوهاً .

أحدها : ما قاله الزمخشري أنه بدل من يوم في قوله : ﴿ واستمع يَوْمَ يُنَادِ المناد ﴾ والعامل فيهما الفعل الذي يدل عليه قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الخروج ﴾ [ق : 42] أي يخرجون يوم يسمعون .

ثانيها : أن ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ﴾ العامل فيه مما في قوله ذلك ﴿ يَوْمَ يُنَادِ المناد ﴾ العامل فيه ما ذكرنا .

(12/723)

ثالثها : أن يقال استمع عامل في يوم ينادي كما ذكرنا وينادي عامل في يسمعون ، وذلك لأن يوم ينادي وإن لم يجز أن يكون منصوباً بالمضاف إليه وهو ينادي لكن غيره يجوز أن يكون منصوباً به ، يقال : اذكر حال زيد ومذلته يوم ضربه عمرو ، ويوم كان عمرو والياً ، إذا كان القائل يريد بيان مذلة زيد عندما صار زيد يكرم بسبب من الأسباب ، فلا يكون يوم كان عمرو والياً منصوباً بقوله اذكر لأن غرض القائل التذكير بحال زيد ومذلته وذلك يوم الضرب ، لكن يوم كان عمرو منصوب بقوله ضربه عمرو يوم كان والياً ، فكذلك ههنا قال :

﴿ واستمع يَوْمَ يُنَادِ المناد ﴾ لئلا تكون ممن يفزع ويصعق ، ثم بين هذا النداء بقوله : ﴿ يُنَادِ المناد ﴾ يوم يسمعون أي لا يكون نداءً خفياً بحيث لا يسمعه بعض الناس بل يكون نداؤه بحيث تكون نسبته إلى من في أقصى المغرب كنسبته إلى من في المشرق ، وكلكم تسمعون ، ولا شك أن مثل هذا الصوت يجب أن يكون الإنسان متهيئاً لاستماعه ، وذلك يشغل النفس بعبادة الله تعالى وذكره والتفكير فيه فظهر فائدة جليلة من قوله : ﴿ فاصبر ، وَسَبِّحْ ، واستمع يَوْمَ يُنَادِ المناد ، وَيَوْمَ يَسْمَعُونَ ﴾ واللام في الصيحة للتعريف ، وقد عرف حالها وذكرها الله مراراً كما في قوله تعالى : ﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحدة ﴾ [ياس : 29] وقوله ﴿ فإنما هي زجرة واحدة ﴾ [الصافات : 19] وقوله : ﴿ نَفْخَةٌ واحدة ﴾ [الحاقة : 13] وقوله : ﴿ بالحق ﴾ جاز أن يكون متعلقاً بالصيحة أي الصحة بالحق يسمعونها ، وعلى هذا ففيه وجوه :

الأول : الحق الحشر أي الصيحة بالحشر وهو حق يسمعونها يقال صاح زيد بيا قوم اجتمعوا على حد استعمال تكلم بهذا الكلام وتقديره حينئذ يسمعون الصيحة بيا عظام اجتمعي وهو المراد بالحق .

(13/723)

الثاني : الصيحة بالحق أي باليقين والحق هو اليقين ، يقل صاح فلان بيقين لا بظن وتخمين أي وجد منه الصياح يقيناً لا كالصدى وغيره وهو يجري مجرى الصفة للصيحة ، يقال استمع سماعاً بطلب ، وصاح صيحة بقوة أي قوية فكأنه قال الصيحة المحققة .

الثالث : أن يكون معناه الصيحة المقترنة بالحق وهو الوجود ، يقال كن فيتحقق ويكون ، ويقال اذهب بالسلام وارجع بالسعادة أي مقروناً ومصحوباً ، فإن قيل زد بياناً فإن الباء في الحقيقة للإلصاق فكيف يفهم معنى الإلصاق في هذه المواضع ؟ نقول التعدية قد تتحقق بالباء يقال ذهب بزيد على معنى ألصق الذهاب بزيد فوجد قائماً به فصار مفعولاً ، فعلى قولنا المراد يسمعون صيحة من صاح بيا عظام اجتمعي هو تعدية المصدر بالباء يقال أعجبني ذهاب زيد بعمرو ، وكذلك قوله : ﴿ الصيحة بالحق ﴾ أي ارفع الصوت على الحق وهو الحشر ، وله موعد نبينه في موضع آخر إن شاء الله تعالى .

الوجه الثاني : أن يكون الحق متعلقاً بقوله : ﴿ يَسْمَعُونَ ﴾ أي يسمعون الصيحة بالحق وفيه وجهان .

الأول : هو قول القائل سمعته بيقين .

الثاني : الباء في يسمعون بالحق قسم أي يسمعون الصيحة بالله الحق وهو ضعيف وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ ﴾ فيه وجهان .

أحدهما : ذلك إشارة إلى يوم أي ذلك اليوم يوم الخروج .

ثانيهما : ذلك إشارة إلى نداء المنادي .

ثم قال تعالى :

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (43)

قد ذكرنا في سورة ياس ما يتعلق بقوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴾ ، وأما قوله : ﴿ نحيي ونميت ﴾ فالمراد من الإحياء الإحياء أولاً ﴿ وَنُمِيتُ ﴾ إشارة إلى الموتة الأولى وقوله : ﴿ وَإِلَيْنَا ﴾ بيان للحشر فقدم ﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴾ لتعريف عظمته يقول القائل أنا أنا أي مشهور و ﴿ نحيي ونميت ﴾ أمور مؤكدة معنى العظمة ﴿ وَإِلَيْنَا المصير ﴾ بيان للمقصود .

(14/723)

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأرض عَنْهُمْ سِرَاعاً ﴾ العامل فيه هو ما في قوله ﴿ يَوْمُ الخروج ﴾ [ق : 42] من الفعل أي يخرجون يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً وقوله : ﴿ سِرَاعاً ﴾ حال للخارجين لأن قوله تعالى : ﴿ عَنْهُمْ ﴾ يفيد كونهم مفعولين بالتشقق فكان التشقق عند الخروج من القبر كما يقال كشف عنه فهو مكشوف عنه فيصير سراعاً هيئة المفعول كأنه قال مسرعين والسراع جمع سريع كالكرام جمع كريم .

قوله : ﴿ ذَلِكَ حَشْرٌ ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى التشقق عنهم ، ويحتمل أن يكون إشارة

إلى الإخراج المدلول عليه بقوله سراعاً ، ويحتمل أن يكون معناه ذلك الحشر حشر يسير ، لأن الحشر علم مما تقدم من الألفاظ .

وقوله تعالى : ﴿ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ بتقديم الظرف يدل على الاختصاص ، أي هو علينا هين لا على غيرنا وهو إعادة جواب قولهم : ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ [ق : 3] والحشر الجمع ويوم القيامة جمع الأجزاء بعضها إلى بعض وجمع الأرواح مع الأشباح أي يجمع بين كل روح وجسدها وجمع الأمم المتفرقة والرمم المتمزقة والكل واحد في الجمع .

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (45)

فيه وجوه .

أحدها : تسلية لقلب النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وتحريض لهم على ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم من الصبر والتسبيح ، أي اشتغل بما قلناه ولا يشغلك الشكوى إلينا فإنا نعلم أقوالهم ونرى أعمالهم ، وعلى هذا فقوله : ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ مناسب له أي لا تقل بأني أرسلت إليهم لأهديهم ، فكيف أشتغل بما يشغلني عن الهداية وهو الصلاة والتسبيح ، فإنك ما بعثت مسلطاً على دواعيهم وقدرهم ، وإنما أمرت بالتبليغ ، وقد بلغت فاصبر وسبح وانتظر اليوم الذي يفصل فيه بينكم .

ثانيها : هي كلمة تهديد وتخويف لأن قوله : ﴿ وَإِلَيْنَا المصير ﴾ [ق : 43] ظاهر في التهديد بالعلم بعملكم لأن من يعلم أن مرجعه إلى الملك ولكنه يعتقد أن الملك لا يعلم ما يفعله لا يمتنع من القبائح ، أما إذا علم أنه يعلمه وعنده غيبه وإليه عوده يمتنع فقال تعالى : ﴿ وَإِلَيْنَا المصير ﴾ و ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ ﴾ وهو ظاهر في التهديد ، وهذا حينئذ كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ [الزمر : 7] .

ثالثها تقرير الحشر وذلك لأنه لما بيّن أن الحشر عليه يسير لكمال قدرته ونفوذ إرادته ولكن تمام ذلك بالعلم الشامل حتى يميز بين جزء بدنين جزء بدن زيد وجزء بدن عمرو فقال : ﴿ ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ لكمال قدرتنا ، ولا يخفى علينا الأجزاء لمكان علمنا ، وعلى هذا فقوله : ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ معناه نحن نعلم عين ما يقولون في قولهم ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ﴾ [المؤمنون : 82] ﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأرض ﴾ [السجدة : 10] فيقول : نحن نعلم الأجزاء التي يقولون فيها إنها ضالة وخفية ولا يكون المراد نحن نعلم وقولهم في الأول جاز أن تكون ما مصدرية فيكون المراد من قوله : ﴿ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ أي قولهم ، وفي الوجه الآخر تكون خبرية ، وعلى هذا الدليل فلا يصح قوله : ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ ﴾ إذ لا عالم بتلك الأجزاء سواه حتى يقول : ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ ﴾ نقول قد علم الجواب عنه مراراً

من وجوه :

أحدها : أن أفعل لا يقتضي الاشتراك في أصل الفعل كما في قوله تعالى : ﴿ والله أَحَقُّ أَن تخشاه ﴾ [الأحزاب : 37] وفي قوله تعالى : ﴿ أَحْسَنُ نَدِيّاً ﴾ [مريم : 77] ، وفي قوله : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : 27] .

(16/723)

ثانيها : معناه نحن أعلم بما يقولون من كل عالم بما يعلمه ، والأول أصح وأظهر وأوضح وأشهر وقوله : ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ فيه وجوه : أحدها : أن للتسلية أيضاً ، وذلك لأنه لما من عليه بالإقبال على الشغل الأخروي وهو العبادة أخبر بأنه لم يصرف عن الشغل الآخر وهو البعث ، كما أن الملك إذا أمر بعض عبيده بشغلين فظهر عجزه في أحدهما : يقول له أقبل على الشغل الآخر ومنهما ونحن نبعث من يقدر على الذي عجزت عن منهما ، فقال :

﴿ اصبر .

وسبح ، وما أنت .

.

بجبار ﴾ أي فما كان امتناعهم بسبب تجبر منك أو تكبر فاشمأزوا من سوء خلقك ، بل

كنت بهم رؤوفاً وعليهم عطوفاً وبالغت وبلغت وامتنعوا فأقبل على الصبر والتسبيح غير مصروف عن الشغل الأول بسبب جبروتك ، وهذا في معنى قوله تعالى : ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ إلى أن قال :

﴿ وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : 42] ، ثانيها : هو بيان أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بما عليه من الهداية ، وذلك لأنه أرسله منذراً وهادياً لا ملجأ ومجبراً ، وهذا كما في قوله تعالى : ﴿ فَمَا أرسلناك عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ﴾ [الشورى : 18] أي تحفظهم من الكفر والنار ، وقوله : ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ ﴾ في معنى قول القائل : اليوم فلان علينا ، في جواب من يقول : من عليكم اليوم ؟ أي من الوالي عليكم .

ثالثها : هو بيان لعدم وقت نزول العذاب بعد ، وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما أنذر وأعذر وأظهر لم يؤمنوا كان يقول إن هذا وقت العذاب ، فقال : نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بمسلط فذكر بعذابي إن لم يؤمنوا من بقي منهم ممن تعلم أنه يؤمن ثم تسلط ، ويؤيد هذا قول المفسرين أن الآية نزلت قبل نزول آية القتال ، وعلى هذا فقوله : ﴿ فَذَكِّرْ بالقرءان مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ أي من بقي منهم ممن يخاف يوم الوعيد ، وفيه وجوه أُخر .

(17/723)

أحدها : أنا بينا في أحد الوجوه أن قوله تعالى : ﴿ فاصبر على مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ ﴾ [ق : 39] معناه أقبل على العبادة ، ثم قال : ولا تترك الهداية بالكلية بل وذكر المؤمنين ﴿ فَإِنَّ الذكرى تَنفَعُ المؤمنين ﴾ [الذاريات : 55] ﴿ وَأَعْرِض عَنِ الجاهلين ﴾ [الأعراف : 199] وقوله : ﴿ بالقرءان ﴾ فيه وجوه .

الأول : فذكر بما في القرآن واتل عليهم القرآن يحصل لهم بسبب ما فيه المنفعة .

الثاني : ﴿ فَذَكِّرْ بالقرءان ﴾ أي بيّن به أنك رسول لكونه معجزاً ، وإذا ثبت كونك رسولاً لزمهم قبول قولك في جميع ما تقول به .

الثالث : المراد فذكر بمقتضى ما في القرآن من الأوامر الواردة بالتبليغ والتذكير ، وحينئذ يكون ذكر القرآن لانتفاع النبي صلى الله عليه وسلم به أي اجعل القرآن إمامك ، وذكرهم بما أخبرت فيه بأن تذكرهم ، وعلى الأول معناه اتل عليهم القرآن ليتذكروا بسببه ، وقوله تعالى : ﴿ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ من جملة ما يبين كون الخشية دالة على عظمة المخشي أكثر مما يدل عليه الخوف ، حيث قال : ﴿ يَخَافُ ﴾ عندما جعل المخوف عذاب ووعيده ، وقال : ﴿ اخشوني ﴾ [البقرة : 150] عندما جعل المخوف نفسه العظيم ، وفي هذه الآية إشارة إلى الأصول الثلاثة ، وقوله : ﴿ وَذَكَّرَ ﴾ إشارة إلى أنه مرسل مأمور بالتذكير منزل عليه القرآن حيث قال : ﴿ بالقرءان ﴾ وقوله : ﴿ وَعِيدِ ﴾ إشارة إلى اليوم الآخر وضمير المتكلم في قوله : ﴿ وَعِيدِ ﴾ يدل على الوحدانية ، فإنه لو قال من يخاف وعيد

الله كان يذهب وهم الله إلى كل صوب فلذا قال : ﴿ وَعِيدِ ﴾ والمتكلم أعرف المعارف وأبعد عن الإشراك به وقبول الاشتراك فيه ، وقد بينا في أول السورة أن أول السورة وآخرها متقاربان في المعنى حيث قال في الأول : ﴿ ق والقرءان المجيد ﴾ [ق : 1] وقال في آخرها : ﴿ فَذَكِّرْ بالقرءان ﴾ .

(18/723)

وهذا آخر تفسير هذه السورة والحمد لله ربّ العالمين ، وصلاته على خاتم النبيّين وسيد المرسلين محمد النبي وآله وصحبه وأزواجه وذريته أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 161.165 ﴾

(19/723)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

وقوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا السماوات والأرض ﴾ الآية خبر مضمنه الرد على اليهود الذين قالوا إن الله خلق الأشياء كلها في ستة أيام ثم استراح يوم السبت فنزلت : ﴿ وما

مسنا من لغوب ﴾ واللغوب : الإعياء والنصب والسأم ، يقال لغب الرجل يلغب إذا أعيى .

وقرأ السلمي وطلحة : " لَغوب " بفتح اللام . وتظاهرت الأحاديث بأن خلق الأشياء كان يوم الأحد وفي كتاب مسلم وفي الدلائل لثابت حديث مضمنه : أن ذلك كان يوم السبت وعلى كل قول فأجمعوا على أن آدم خلق يوم الجمعة . فمن قال إن البداءة يوم السبت جعل خلق آدم كخلق بنيه لا يعد مع الجملة الأولى وجعل اليوم الذي كملت المخلوقات عنده يوم الجمعة .

وقوله تعالى : ﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ قال بعض المفسرين : أراد أهل الكتاب لقولهم ، ثم استراح يوم السبت .

قال القاضي أبو محمد : وهذه المقالات من أهل الكتاب كانت بمكة قبل الهجرة .

وقال النظار من المفسرين قوله تعالى : ﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ يراد به أهل الكتاب وغيرهم من الكفرة ، وعم بذلك جميع الأقوال الزائغة من قريش وغيرهم ، وعلى هذا التأويل يجيء قول من قال : الآية منسوخة بآية السيف . ﴿ وسبح ﴾ معناه : صل بإجماع من المتأولين وقوله : ﴿ بحمد ربك ﴾ الباء للاقتران أي سبح سبحة يكون معها حمد ومثله " تنبت بالدهن " على بعض الأقوال فيها و : ﴿ قبل طلوع الشمس ﴾ هي الصبح ﴿ وقبل الغروب ﴾ هي العصر قاله قتادة وابن زيد والناس ، وقال ابن عباس : ﴿ قبل

الغروب ﴾ هي العصر والظهر ﴿ ومن الليل ﴾ هي صلاة العشاءين وقال ابن زيد هي العشاء فقط .

(20/723)

وقال مجاهد : هي صلاة الليل وقوله : ﴿ وإدبار السجود ﴾ قال عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما وأبو هريرة والحسن والشعبي وإبراهيم ، ومجاهد والأوزاعي : هي الركعتان بعد المغرب وأسنده الطبري عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم كأنه روعي إدبار صلاة النهار كما روعي إدبار النجوم في صلاة الليل ، فقيل هي الركعتان مع الفجر . وروي عن ابن عباس أن ﴿ إدبار السجود ﴾ : الوتر ، حكاه الثعلبي وقال ابن زيد وابن عباس ايضاً ومجاهد : هي النوافل إثر الصلوات وهذا جار مع لفظ الآية ، وقال بعض العلماء العارفين : هي صلاة الليل ، قال الثعلب : وقال بعض العلماء في قوله : ﴿ قبل طلوع الشمس ﴾ هي ركعتا الفجر ﴿ وقبل الغروب ﴾ الركعتان قبل المغرب وقال بعض التابعين : رأيت أصحاب محمد يهبون إليها كما يهبون إلى المكتوبة ، وقال قتادة : ما أدركت أحداً يصلي الركعتين قبل المغرب إلا أنساً وأبا برزة .

وقرأ ابن كثير ونافع وحمزة وابن عباس وأبو جعفر وشيبة وعيسى وشبل وطلحة

والأعمش " وإدبار " بكسر الألف وهي مصدر أضيف إليه وقت ، ثم حذف الوقت ، كما قالوا : جئتك مقدم الحاج وخفوق النجم ونحوه ، وقرأ الباقون والحسن والأعرج ، " وأدبار " بفتح الهمزة وهو جمع دبر كطنب وأطناب ، أي وفي " أدبار السجود " أي في أعقابه وقال أوس بن حجر : [الطويل]

على دبر الشهر الحرام بأرضنا . . . وما حولها جدب سنون تلمع

قوله تعالى : ﴿ واستمع ﴾ بمنزلة ، وانتظر ، وذلك أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بأن يستمع في يوم النداء ، لأن كل من فيه يستمع وإنما الآية في معنى الوعيد للكفار ، وقيل لمحمد تحسس وتسمع هذا اليوم وارتقبه ، وهذا كما تقول لمن تعده بورود فتح استمع كذا وكذا ، أي كن منتظراً له مستمعاً ، وعلى هذا فنصب ﴿ يوم ﴾ إنما هو على المفعول الصريح .

(21/723)

وقرأ ابن كثير : " المنادي " بالياء في الوصل والوقف على الأصل الذي هو ثبوتها ، إذ الكلام غير تام وإنما الحذف ابداً في الفواصل ، والكلام التام تشبيهاً بالفواصل . وقرأ أبو عمرو ونافع ، بالوقف بغير ياء لأن الوقف موضع تغيير ، ألا ترى أنها تبدل من التاء فيه الهاء في نحو

طلحة وحمزة ، ويبدل من التنوين الألف ويضعف فيه الحرف كقولك هذا فرج ، ويحذف فيه الحرف في القوافي ، وقرأ الباقون وطلحة والأعمش وعيسى بحذف الياء في الوصل والوقف جميعاً وذلك اتباع لخط المصحف ، وأيضاً فإن الياء تحذف مع التنوين فوجب أن تحذف مع معاقب التنوين وهي الألف واللام .

وقوله تعالى : ﴿ من مكان قريب ﴾ قيل وصفه بالقرب من حيث يسمع جميع الخلق . وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم : " أن ملكاً ينادي من السماء : أيتها الأجسام الهامدة والعظام البالية والرمم الذاهبة ، هلم إلى الحساب الوقوف بين يدي الله " . وقال كعب الأحبار وقتادة وغيرهما : المكان صخرة بيت المقدس واختلفوا في معنى صفته بالقرب فقال قوم : وصفها بذلك لقربها من النبي صلى الله عليه وسلم أي من مكة . وقال كعب الأحبار : وصفه بالقرب من السماء ، وروي أنها أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً ، وهذا الخبر إن كان بوحي ، وألا سبيل للوقوف على صحته . و: ﴿ الصيحة ﴾ هي صيحة المنادي و: ﴿ الخروج ﴾ هو من القبور ، و: " يومه " هو يوم القيامة ، و ﴿ يوم الخروج ﴾ في الدنيا هو يوم العيد قال حسان بن ثابت : [الكامل]

ولأنت أحسن إذ برزت لنا . . . يوم الخروج بساحة القصر

من درة أغلى الملوك بها . . . مما ترَبّب حائر البحر

وقوله تعالى : ﴿ يوم تشقق ﴾ العامل في ﴿ يوم ﴾ ، ﴿ المصير ﴾ . وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر : " تشّقق " بتشديد الشين . وقرأ الباقون : " تشقق " بتخفيف الشين و: ﴿ سراعاً ﴾ حال قال بعض النحويين وهي من الضمير في قوله : ﴿ عنهم ﴾ والعامل في الحال ﴿ تشقق ﴾ وقال بعضهم التقدير : ﴿ يوم تشقق الأرض عنهم ﴾ يخرجون ﴿ سراعاً ﴾ فالحال من الضمير في : " يخرجون " ، والعامل " يخرجون " .

وقوله تعالى : ﴿ ذلك حشر علينا يسير ﴾ كلام معادل لقول الكفرة : ﴿ ذلك رجع بعيد ﴾ [ق : 3] . وقوله تعالى : ﴿ نحن أعلم بما يقولون ﴾ وعيد محض للكفرة .

واختلف الناس في معنى قوله : ﴿ وما أنت عليهم بجبار ﴾ . فقال قتادة : نهى الله عن التجبر وتقدم فيه ، فمعناه : وما أنت عليهم بمتعظم من الجبروت . وقال الطبري وغيره معناه : وما أنت عليهم بمسلط تجبرهم على الإيمان ، ويقال جبرته على كذا ، أي قسرته ف " جبار " بناء مبالغة من جبر وأنشد المفضل : [الوافر]

عصينا عزمة الجبار حتى . . . صحبنا الخوف إلفاً معلمينا

قال : أراد ب " الجبار " النعمان بن المنذر لولايته ، ويحتمل أن نصب عزمة على المصدر وأراد عصينا مقدمين عزمة جبار ، فمدح نفسه وقومه بالعتو والاستعلاء أخلاق الجاهلية والحياة الدنيا ، وروى ابن عباس أن المؤمنين قالوا : يا رسول الله لو خوفتنا ، فنزلت : ﴿

فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ .

قال القاضي أبو محمد : ولو لم يكن هذا سبباً فإنه لما أعلمه أنه ليس بمسلط على جبرهم ، أمره بالاقتصار على تذكير الخائفين من الناس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(23/723)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ واستمع يَوْمَ يُنَادِ المناد مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾

مفعول الاستماع محذوف ؛ أي استمع النداء والصوت أو الصيحة وهي صيحة القيامة ، وهي النفخة الثانية ، والمنادي جبريل .

وقيل : إسرافيل .

الزمخشري : وقيل إسرافيل ينفخ وجبريل ينادي ، فينادي بالحشر ويقول : هَلُمّوا إلى الحساب فالنداء على هذا في المحشر .

وقيل : واستمع نداء الكفار بالويل والثبور من مكان قريب ، أي يسمع الجميع فلا يبعد أحد عن ذلك النداء .

قال عكرمة : ينادي منادي الرحمن فكأنما ينادي في آذانهم .

وقيل : المكان القريب صخرة بيت المقدس .

ويقال : إنها وسط الأرض وأقرب الأرض من السماء باثني عشر ميلاً .

وقال كعب : بثمانية عشر ميلاً ، ذكر الأوّلَ القشيري والزمخشري ، والثاني الماوردي .

فيقف جبريل أو إسرافيل على الصخرة فينادي بالحشر : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، ويا عظاماً نخرة ، ويا أكفاناً فانية ، ويا قلوباً خاوية ، ويا أبداناً فاسدة ، ويا عيوناً سائلة ، قوموا لعرض رب العالمين .

قال قتادة : هو إسرافيل صاحب الصّور .

﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصيحة بالحق ﴾ يعني صيحة البعث .

ومعنى "الْخُرُوجِ" الاجتماع إلى الحساب .

﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الخروج ﴾ أي يوم الخروج من القبور .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ ﴾ نميت الأحياء ونحيي الموتى ؛ أثبت هنا الحقيقة ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأرض عَنْهُمْ سِرَاعاً ﴾ إلى المنادي صاحب الصّور إلى بيت المقدس .

﴿ ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ أي هيّن سهل .

وقرأ الكوفيون "تَشَقَّقُ" بتخفيف الشين على حذف التاء الأولى .

الباقون بإدغام التاء في الشين .

وأثبت ابن محيصن وابن كثير ويعقوب ياء "المنادى" في الحالين على الأصل ، وأثبتها نافع وأبو عمرو في الوصل لا غير ، وحذف الباقون في الحالين .

(24/723)

قلت : وقد زادت السنة هذه الآية بياناً ؛ فروى الترمذي عن معاوية بن حَيْدة " عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في حديث ذكره ، قال وأشار بيده إلى الشام فقال : "من ها هنا إلى ها هنا تحشرون ركباناً ومشاة وتُجرُّون على وجوهكم يوم القيامة على أفواهكم الفِدَام تُوفُون سبعين أمة أنتم خيرهم وأكرمهم على الله وإن أول ما يعرب عن أحدكم فخذه" " في رواية أخرى " فخذه وكفّه " وخرّج عليّ بن معبد عن أبي هريرة " عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في حديث ذكره : ثم يقول يعني الله تعالى لإسرافيل : "انفخ نفخة البعث فينفخ فتخرج الأرواح كأمثال النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض فيقول الله عز وجل وعزتي وجلالي ليرجعنّ كلّ رُوح إلى جسده فتدخل الأرواح في الأرض إلى الأجساد ثم تدخل في الخياشيم فتمشي في الأجساد مشي السم في اللديغ ثم تنشق الأرض عنكم وأنا أوّل من تنشق عنه الأرض فتخرجون شباباً كلكم أبناء ثلاث وثلاثين واللسان يومئذ بالسريانية" " وذكر الحديث ، وقد ذكرنا جميع هذا وغيره في "التذكرة" مستوفى والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ أي من تكذيبك وشتمك .

﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ أي بمسلَّط تجبرهم على الإسلام ؛ فتكون الآية منسوخة بالأمر بالقتال .

والجبّار من الجبرِية والتسلّط إذ لا يقال جبّار بمعنى مُجبِر ، كما لا يقال خرّاج بمعنى مُخرِج ؛ حكاه القشيري .

النحاس : وقيل معنى جبّار لست تُجبِرهم ، وهو خطأ لأنه لا يكون فَعّال من أفعل .

وحكى الثعلبي : وقال ثعلب قد جاءت أحرف فَعّال بمعنى مُفعِل وهي شاذة ، جبّار بمعنى مُجبِر ، ودرّاك بمعنى مُدرِك ، وسَرّاع بمعنى مُسرِع ، وبَكّاء بمعنى مُبكٍ ، وعدّاء بمعنى مُعدٍ .

وقد قرىء ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرشاد ﴾ [غافر : 29] بتشديد الشين بمعنى المرشد وهو موسى .

وقيل : هو الله .

(25/723)

وكذلك قرىء ﴿ أَمَّا السفينة فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ ﴾ [الكهف : 79] يعني ممسكين .

وقال أبو حامد الخارْزَنجِيّ : تقول العرب : سيف سَقَّاط بمعنى مُسقِط .

وقيل : "بِجَبَّارٍ" بمسيطر كما في الغاشية ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية : 22] .

وقال الفرّاء : سمعت من العرب من يقول جَبَره على الأمر أي قهره ، فالجبّار من هذه اللغة بمعنى القهر صحيح .

وقيل : الجبّار من قولهم جبرته على الأمر أي أجبرته وهي لغة كنانية وهما لغتان .

الجوهري : وأجبرته على الأمر أكرهته عليه ، وأجبرته أيضاً نسبته إلى (الجبر ، كما تقول أكفرته إذا نسبته إلى الكفر) .

﴿ فَذَكِّرْ بالقرآن مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ قال ابن عباس : قالوا : يا رسول الله لو خوفتنا فنزلت : ﴿ فَذَكِّرْ بالقرآن مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ أي ما أعددته لمن عصاني من العذاب ؛ فالوعيد العذاب والوعد الثواب ، قال الشاعر :

وإنّي وإنْ أَوْعَدْتُهُ أو وَعَدْتُهُ . . .

لَمُخْلِفُ إِيعَادِي ومُنْجِزُ مَوْعِدي

وكان قتادة يقول : اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ويرجو موعدك .

وأثبت الياء في "وعِيدِي" يعقوب في الحالين ، وأثبتها ورش في الوصل دون الوقف ، وحذف

الباقون في الحالين .

والله أعلم .

تم تفسير سورة "ق" والحمد لله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(26/723)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (36) ﴾

أي كثيراً .

﴿ أهلكنا ﴾ : أي قبل قريش .

﴿ هم أشدّ منهم بطشاً ﴾ ، لكثرة قوتهم وأموالهم .

وقرأ الجمهور : ﴿ فنقبوا ﴾ ، بفتح القاف مشددة ، والظاهر أن الضمير في نقبوا عائد على كم ، أي دخلوا البلاد من أنقابها .

والمعنى : طافوا في البلاد .

وقيل : نقروا وبحثوا ، والتنقيب : التنقير والبحث .

قال امرؤ القيس في معنى التطواف :

وقد نقبت في الآفاق حتى . . .

رضيت من الغنيمة بالإياب

وروي : وقد طوفت .

وقال الحارث بن خالدة :

نقبوا في البلاد من حذر الموت . . .

وجالوا في الأرض كل مجال

_@_وفنقبوا متسبب عن شدة بطشهم ، فهي التي أقدرتهم على التنقيب وقوتهم عليه .

ويجوز أن يعود الضمير في فنقبوا على قريش ، أي فنقبوا في أسفارهم في بلاد القرون ، فهل رأوا محيصاً حتى يؤملوه لأنفسهم ؟ ويدل على عود الضمير على أهل مكة قراءة ابن عباس ، وابن يعمر ، وأبي العالية ، ونصر بن يسار ، وأبي حيوة ، والأصمعي عن أبي عمرو : بكسر القاف مشدّدة على الأمر لأهل مكة ، أي فسيحوا في البلاد وابحثوا .

وقرىء : بكسر القاف خفيفة ، أي نقبت أقدامهم وأخفاف إبلهم ، أو حفيت لكثرة تطوافهم في البلاد ، من نقب خف البعير إذا انتقب ودمى .

ويحتمل أن يكون ﴿ هل من محيص ﴾ على إضمار القول ، أي يقولون هل من محيص من الهلاك ؟ واحتمل أن لا يكون ثم قول ، أي لا محيص من الموت ، فيكون توفيقاً وتقريراً .

﴿ إن في ذلك ﴾ : أي في إهلاك تلك القرون ، ﴿ لذكرى ﴾ : لتذكرة واتعاظاً ، ﴿ لمن كان له قلب ﴾ : أي واع ، والمعنى : لمن له عقل وعبر عنه بمحله ، ومن له قلب لا يعي ، كمن لا قلب له .

وقرأ الجمهور : ﴿ أو ألقى السمع ﴾ ، مبنياً للفاعل ، والسمع نصب به ، أي أو أصغى سمعه مفكراً فيه ، و ﴿ شهيد ﴾ : من الشهادة ، وهو الحضور .

(27/723)

وقال قتادة : لمن كان له ، قيل : من أهل الكتاب ، فيعتبر ويشهد بصحتها لعلمه بذلك من التوراة ، فشهيد من الشهادة .

وقرأ السلمي ، وطلحة ، والسدي ، وأبو البرهشيم : أو ألقى مبنياً ، للمفعول ، السمع : رفع به ، أي السمع منه ، أي من الذي له قلب .

وقيل : المعنى : أو لمن ألقي غيره السمع وفتح له أذنه ولم يحضر ذهنه ، أي الملقي والفاتح والملقى له والمفتوح أذنه حاضر الذهن متفطن .

وذكر لعاصم أنها قراءة السدي ، فمقته وقال : أليس يقول يلقون السمع ؟

﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض ﴾ : نزلت في اليهود تكذيباً لهم في قولهم : إنه تعالى

استراح من خلق السموات والأرض ، ﴿ في ستة أيام ﴾ : يوم السبت ، واستلقى على العرش ، وقيل : التشبيه الذي وقع في هذه الأمة إنما أخذ من اليهود .

﴿ وما مسنا لغوب ﴾ : احتمل أن تكون جملة حالية ، واحتمل أن تكون استئنافاً ؛ واللغوب : الإعياء .

وقرأ الجمهور : بضم اللام ، وعلي ، والسلمي ، وطلحة ، ويعقوب ، بفتحها ، وهما مصدران ، الأول مقيس وهو الضم ، وأما الفتح فغير مقيس ، كالقبول والولوع ، وينبغي أن يضاف إلى تلك الخمسة التي ذكرها سيبويه ، وزاد الكسائي الوزوع فتصير سبعة .

﴿ فاصبر ﴾ ، قيل : منسوخ بآية السيف ، ﴿ على ما يقولون ﴾ : أي اليهود وغيرهم من الكفار قريش وغيرهم ، ﴿ وسبح بحمد ربك ﴾ ، أي فصلّ ، ﴿ قبل طلوع الشمس ﴾ ، هي صلاة الصبح ، ﴿ وقبل الغروب ﴾ : هي صلاة العصر ، قاله قتادة وابن زيد والجمهور .

وقال ابن عباس : قبل الغروب : الظهر والعصر .

﴿ ومن الليل ﴾ : صلاة العشاءين ، ﴿ وقبل الغروب ﴾ : ركعتان قبل المغرب .

وفي صحيح مسلم ، عن أنس ما معناه : أن الصحابة كانوا يصلونها قبل المغرب .

وقال قتادة : ما أدركت أحداً يصليها إلا أنساً وأبا برزة الأسلمي .

وقال بعض التابعين : كان الصحابة يهبون إليهما كما يهبون إلى المكتوبة .

وقال ابن زيد : هي العشاء فقط .

وقال مجاهد : هي صلاة الليل .

(28/723)

﴿ وأدبار السجود ﴾ ، قال أبو الأحوص : هو التسبيح في أدبار الصلوات .

وقال عمر ، وعليّ ، وأبو هريرة ، والحسن ، والشعبي ، وإبراهيم ، ومجاهد ، والأوزاعي : هما ركعتان بعد المغرب .

وقال ابن عباس : هو الوتر بعد العشاء .

وقال ابن عباس ، ومجاهد أيضاً ، وابن زيد : النوافل بعد الفرائض .

وقال مقاتل : ركعتان بعد العشاء ، يقرأ في الأولى : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ وفي الثانية : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وقرأ ابن عباس ، وأبو جعفر ، وشيبة ، وعيسى ، والأعمش ، وطلحة ، وشبل ، وحمزة ، والحرميان : وإدبار بكسر الهمزة ، وهو مصدر ، تقول : أدبرت الصلاة ، انقضت ونمت .

وقال الزمخشري وغيره : معناه ووقت انقضاء السجود ، كقولهم : آتيك خفوق النجم .

وقرأ الحسن والأعرج وباقي السبعة : بفتحها ، جمع دبر ، كطنب وأطناب ، أي وفي أدبار

السجود : أي أعقابه .

قال أوس بن حجر :

على دبر الشهر الحرام فأرضنا . . .

وما حولها جدب سنون تلمع

﴿ واستمع ﴾ : أمر بالاستماع ، والظاهر أنه أريد به حقيقة الاستماع ، والمستمع له محذوف تقديره : واستمع لما أخبر به من حال يوم القيامة ، وفي ذلك تهويل وتعظيم لشأن المخبر به ، كما قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لمعاذ : " يا معاذ اسمع ما أقول لك " ، ثم حدثه بعد ذلك .

وانتصب ﴿ يوم ﴾ بما دل عليه ذلك .

﴿ يوم الخروج ﴾ : أي يوم ينادي المنادي يخرجون من القبور .

وقيل : مفعول استمع محذوف تقديره : نداء المنادي .

وقيل تقديره : نداء الكافر بالويل والثبور .

وقيل : لا يحتاج إلى مفعول ، إذ حذف اقتصاراً ، والمعنى : كن مستمعاً ، ولا تكن غافلاً معرضاً .

وقيل معنى واستمع : وانتظر ، والخطاب لكل سامع .

وقيل : للرسول ، أي ارتقبه ، فإن فيه تبين صحة ما قلته ، كما تقول لمن تعده بورود فتح : استمع كذا وكذا ، أي كن منتظراً له مستمعاً ، فيوم منتصب على أنه مفعول به .

(29/723)

وقرأ ابن كثير : المنادى بالياء وصلاً ووقفاً ، ونافع ، وأبو عمرو ؛ بحذف الياء وقفاً ، وعيسى ، وطلحة ، والأعمش ، وباقي السبعة : بحذفها وصلاً ووقفاً اتباعاً لخط المصحف ، ومن أثبتها فعلى الأصل ، ومن حذفها وقفاً فلأن الوقف تغيير يبدل فيه التنوين ألفاً نصباً ، والتاء هاء ، ويشدّد المخفف ، ويحذف الحرف في القوافي .

والمنادي في الحديث : " أن ملكاً ينادي من السماء أيتها الأجسام الهامدة والعظام البالية والرمم الذاهبة هلموا إلى الحشر والوقوف بين يدي الله تعالى " ﴿ من مكان قريب ﴾ : وصفه بالقرب من حيث يسمع جميع الخلق .

قيل : والمنادي إسرافيل ، ينفخ في الصور وينادي .

وقيل : المنادي جبريل .

وقال كعب ، وقتادة وغيرهما : المكان صخرة بيت المقدس ، قال كعب : قربها من السماء بثمانية عشر ميلاً ، كذا في كتاب ابن عطية ، وفي كتاب الزمخشري : باثني عشر ميلاً ،

وهي وسط الأرض .

انتهى ، ولا يصح ذلك إلا بوحي .

﴿ يوم يسمعون ﴾ : بدل من ﴿ يوم ينادي ﴾ ، و ﴿ الصيحة ﴾ : صيحة المنادي .

قيل : يسمعون من تحت أقدامهم .

وقيل : من تحت شعورهم ، وهي النفخة الثانية ، و ﴿ بالحق ﴾ متعلق بالصيحة ، والمراد به البعث والحشر .

﴿ ذلك ﴾ : أي يوم النداء والسماع ، ﴿ يوم الخروج ﴾ من القبور ، وقيل : الإشارة بذلك إلى النداء ، واتسع في الظرف فجعل خبراً عن المصدر ، أو يكون على حذف ، أي ذلك لنداء نداء يوم الخروج ، أو وقت النداء يوم الخروج .

وقرأ نافع ، وابن عامر : تشقق بشدّ الشين ؛ وباقي السبعة : بتخفيفها .

وقرىء : تشقق بضم التاء ، مضارع شققت على البناء للمفعول ، وتنشق مضارع انشقت .

وقرأ زيد بن علي : تشقق بفك الإدغام ، ذكره أبو عليّ الأهوازي في قراءة زيد بن عليّ من تأليفه ، ويوم بدل من يوم الثاني .

وقيل : منصوب بالمصدر ، وهو الخروج .

وقيل : المصير ، وانتصب ﴿ سراعاً ﴾ على الحال من الضمير في عنهم ، والعامل تشقق .

(30/723)

وقيل : محذوف تقديره يخرجون ، فهو حال من الواو في يخرجون ، قاله الحوفي .

ويجوز أن يكون هذا المقدر عاملاً في ﴿ يوم تشقق ﴾ .

﴿ ذلك حشر علينا يسير ﴾ : فصل بين الموصوف وصفته بمعمول الصفة ، وهو علينا ، أي يسير علينا ، وحسن ذلك كون الصفة فاصلة .

وقال الزمخشري : ﴿ علينا يسير ﴾ ، تقديم الظرف يدل على الاختصاص ، يعني لا يتيسر مثل ذلك اليوم العظيم إلا على القادر الذات الذي لا يشغله شأن عن شأن ، كما قال : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ انتهى ، وهو على طريقه في أن تقديم المفعول وما أشبهه من دلالة ذلك على الاختصاص ، وقد بحثنا معه في ذلك في سورة الفاتحة في ﴿ إياك نعبد ﴾ ﴿ نحن أعلم بما يقولون ﴾ : هذا وعيد محض للكفار وتهديد لهم ، وتسلية للرسول (صلى الله عليه وسلم) .

﴿ وما أنت عليهم بجبار ﴾ : بمتسلط حتى تجبرهم على الإيمان ، قاله الطبري .

وقيل : التحلم عنهم وترك الغلظة عليهم .

﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ : لأن من لا يخاف الوعيد لكونه غير مصدّق بوقوعه لا يذكر ، إذ لا تنفع فيه الذكرى ، كما قال : ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ وختمت بقوله : ﴿ فذكر بالقرآن ﴾ ، افتتحت ب ﴿ ق والقرآن ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(31/723)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ وَأُزْلِفَتِ الجنةِ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

شروعٌ في بيانِ حالِ المؤمنينَ بعدَ النفخِ ومجيءِ النفوسِ إلى موقفِ الحسابِ ، وقدْ مرَّ سِرُّ تقديمِ بيانِ حالِ الكفرةِ عليهِ وهو عطفٌ عَلى نُفِخَ أيْ قربتْ للمتقينَ عنِ الكفرِ والمعاصِي بحيثُ يشاهدُونَها من الموقفِ ويقفونَ عَلى ما فيها من فنونِ المحاسنِ فيبتهجونَ بأنهُمْ محشورونَ إليَها فائزونَ بَها وقولُه تعالَى ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ تأكيدٌ للإزلافِ أيْ مكاناً غيرَ بعيدٍ بحيثُ يشاهدُونَها أوْ حالُ كونِها غيرَ بعيدٍ أيْ شيئاً غيرَ بعيدٍ ويجوزُ أنْ يكونَ التذكيرُ لكونِه على زنةِ المصدرِ الذي يستوِي في الوصفِ بِهِ المذكرُ والمؤنثُ أوْ لتأويلِ الجنةِ بالبستانِ .

﴿ هذا مَا تُوعَدُونَ ﴾ إشارةٌ إلى الجَنَّةِ ، والتذكيرُ لَمَا أنَّ المشارَ إليهِ هُوَ المُسمَّى منْ غيرِ أنْ يخطرَ بالبالِ لفظٌ يدلُّ عليهِ فضلاً عنْ تذكيرِه وتأنيثِه فإنَّهُمَا منْ أحكامِ اللفظِ العربيِّ كَما مرَّ في وقولِه تعالَى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشمس بَازِغَةً قَالَ هذا رَبِّى ﴾ وقولُه تعالَى : ﴿ وَلَمَّا رَأَى المؤمنون الأحزاب قَالُواْ هذا مَا وَعَدَنَا الله وَرَسُولُهُ ﴾ ويجوزُ أنْ يكونَ ذلكَ لتذكيرِ الخبرِ ، وقيلَ : هُو إشارةٌ إلى الثوابِ وقيلَ : إلى مصدرِ أزلفتْ وقُرِىءَ يُوعَدُونَ والجملةُ إمَّا اعتراضٌ بينَ البدلِ والمبدلِ مِنْهُ وإمَّا مقدرٌ بقولٍ هُوَ حالٌ منَ المتقينَ أو منَ الجنَّةِ والعاملُ أزلفتْ أيْ مقولاً لهُمْ أو مقولاً في حَقِّها هَذا ما توعدونَ ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴾ أيْ رجّاعٍ إلى الله تعالَى بدلٌ منْ المتقينَ بإعادةِ الجارِّ ﴿ حَفِيظٌ ﴾ حافظٌ لتوبتِهِ من النقضِ وقيلَ : هُوَ الذي يحفظُ ذنوبَهُ حتَّى يرجعَ عنْهَا ويستغفرَ مِنْها وقيلَ : هُو الحافظُ لأوامرِ الله تعالَى وقيلَ : لِمَا استودَعَهُ الله تعالَى مِنْ حقوقِها .

(32/723)

﴿ مَّنْ خَشِىَ الرحمن بالغيب وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ بدلٌ بعدَ بدلٍ أو بدلٌ منْ موصوفِ أوابٍ ولا يجوزُ أنْ يكونَ فِي حُكْمِهِ لأنَّ (مَنْ) لا يوصفُ بهِ ولا يوصفُ إلاَّ بالَّذي أو مبتدأٌ خبرُهُ ﴿ ادخلوها ﴾ بتأويلِ يقالُ لَهُمْ ادْخلُوهَا والجمعُ باعتبارِ مَعْنى مَنْ وقولُه تعالى

بالغيبِ متعلقٌ بمحذوفٍ هُو حالٌ منْ فاعلِ خشيَ أو مفعولِه ، أو صفةٌ لمصدرِه أي خشيةً ملتبسةً بالغيبِ حيثُ خشِيَ عقابَهُ وهو غائبٌ عنْهُ أو هُوَ غائبٌ عنِ الأعينِ لا يراهُ أحدٌ ، والتعرضُ لعنوانِ الرحمانيةِ للإشارةِ بأنَّهمْ معَ خشيتِهم عقابَهُ راجونَ رحمتَهُ أوْ بأنَّ علمَهُم بسعةِ رحمتِه تعالَى لا يصدُّهم عنْ خشيتِه تعالَى وأنَّهم عاملونَ بموجبِ قولِه تعالَى : ﴿ نَبِّىءْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الغفور الرحيم * وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ العذاب الأليم ﴾ ووصفُ القلبِ بالإنابة لما أن العبرة برجوعه إلى الله تعالى ﴿ بِسَلامٍ ﴾ متعلق بمحذوف هو حالٌ مِنْ فاعلِ ادخلوهَا أيْ ملتبسينَ بسلامةٍ منَ العذابِ وزوالِ النعمِ أو بسلامٍ من جهةِ الله تعالَى وملائكتِه ﴿ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى الزمانِ الممتدِّ الذي وقعَ فِي بعضٍ منْهُ ما ذُكِرَ منَ الأمورِ ﴿ يَوْمُ الخلود ﴾ إذْ لا انتهاءَ لهُ أبداً .

(33/723)

﴿ لَهُم مَّا يَشَاءونَ ﴾ منْ فنونِ المَطَالبِ كائناً ما كانَ ﴿ فِيهَا ﴾ متعلقٌ بيشاءونَ وقيلَ : بمحذوفٍ هُوَ حالٌ منَ الموصولِ أو مِنْ عائدِه المحذوفِ منْ صلتِه ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ هُوَ ما لا يخطُرُ ببالِهم ولا يندرجُ تحتَ مشيئتِهم مِنْ معالِي الكراماتِ التي لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطرَ عَلى قلبِ بشرٍ وقيلَ : إنَّ السحابَة تمرُّ بأهلِ الجنةِ فتمطرُهم الحُورَ فتقولُ

نحنُ المزيدُ الذي قالَ تعالَى ولدينَا مزيدٌ ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ ﴾ أي قبلَ قومِكَ ﴿ مّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً ﴾ أي قوةً كعادٍ وَأَضْرابِها ﴿ فَنَقَّبُواْ فِى البلاد ﴾ أيْ خرقُوا فيَها ودوخُوا وتصرفُوا في أقطارِها أو جالُوا في أكنافِ الأرضِ كُلَّ مجالٍ حذارَ الموتِ ، وأصلُ التنقيبِ والنقبِ التنقيرُ عنِ الأمرِ والبحثُ والطلبُ والفاءُ للدلالةِ على أنَّ شدةَ بطشِهم أقدرتْهُمْ عَلى التنقيبِ قيلَ : هيَ عاطفةٌ في المَعنى كأنَّه قيلَ : اشتدَّ بطشُهم فنقبُوا الخ وَقُرِىءَ بالتخفيفِ ﴿ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ أيْ هَلْ لهُمْ منْ مُخلِّصٍ منْ أمرِ اللهِ تعالَى والجملةُ إمَّا عَلى إضمارِ قولٍ هُو حالٌ منْ واوِ نقَّبُوا أيْ فنقَّبُوا فِي البلادِ قائلينَ هَلْ منْ محيصٍ أوْ عَلى إجراءِ التنقيبِ لما فيهِ منْ مَعْنى التتبعِ والتفتيشِ مُجرَى القولِ أوْ هُوَ كلامٌ مستأنفٌ واردٌ لنفي أنْ يكونَ لَهُم محيصٌ وقيلَ : ضميرُ نقَّبُوا لإهلِ مكةَ أيْ سارُوا في مسايرِهم وأسفارِهم في بلادِ القرونِ فَهلْ رَأَوا لهُمْ محيصاً حَتَّى يُؤمّلُوا مثْلَه لأنفسِهم ويعضدُهُ القراءةُ عَلى صيغةِ الأمرَ وقُرِىءَ ، فنقِّبُوا بكسرِ القافِ من النقَبِ وهُوَ أنْ ينتقبَ خفُّ البعيرِ أيْ أَكْثروا السيرَ حَتَّى نقِبتْ أقدامُهم أو أخفافُ إبلِهم .

(34/723)

﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ أيْ فيمَا ذكرَ من قصتِهم وقيلَ : فيَما ذكرَ في السورةِ ﴿ لِذِكْرَى ﴾ لتذكرةً وعِظةً ﴿ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ أيْ قلبٌ سليمٌ يدركُ به كُنْهَ ما يشاهدُه من الأمورِ ويتفكرُ فيها كما ينبغِي فإنَّ مَنْ كانَ له ذلكَ يعلمُ أنَّ مدارَ دمارِهم هُو الكفرُ فيرتدعُ عَنْهُ بمجردِ مشاهدةِ الآثارِ من غيرِ تذكيرٍ ﴿ أَوْ أَلْقَى السمع ﴾ أيْ إلى مَا يُتلى عليهِ من الوَحْي الناطقِ بما جرَى عليهمْ فإنَّ منْ فعلَهُ يقفُ عَلى جليةِ الأمرِ فينزجرَ عَمَّا يؤدِّي إليهِ منَ الكفرِ ، فكلمةُ أَوْ لمنعِ الخلوِّ دونَ الجمعِ فإنَّ إلقاءَ السمعِ لا يُجدِي بدونِ سلامةِ القلبِ كَما يلوحُ بِهِ قولُه تعالَى ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أيْ حاضرٌ بفطنتِهِ لأنَّ منْ لاَ يَحْضُرُ ذهنُهُ فكأَنَّه غائبٌ ، وتجريدُ القلبِ عما ذكرَ من الصفاتِ للإيذانِ بأنَّ منْ عُرِّيَ قلبُه عَنْهَا كمَنْ لاَ قلبَ لَهُ أصلاً .

(35/723)

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ منْ أصنافِ المخلوقاتِ ﴿ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا ﴾ بذلكَ معَ كونِه ممَّا لا يَفِي بِهِ القُوَى وَالقُدَرُ ﴿ مِن لُّغُوبٍ ﴾ مِنْ إعياءٍ مَا ولاَ تعبٍ في الجملةِ وهَذَا ردٌّ عَلى جَهَلةِ اليهودِ في زعمِهم أنَّه تعالَى بدأَ خلقَ العالمِ يومَ الأحدِ وفرَغَ منْهُ يومَ الجمعةِ واستراحَ يومَ السبتِ واستلقَى على العرشِ ، سبحانَهُ وتعالَى عَمَّا يقولونَ عُلوّاً كبيراً ﴿ فاصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾ أيْ ما يقولُه المشركونَ في شأنِ البعثِ منَ

الأباطيلِ المبنيةِ عَلى الإنكارِ والاستبعادِ فإنَّ مَنْ فعلَ هذهِ الأفاعيلَ بلا فتورٍ قادرٌ عَلى بعثِهم والانتقامِ منهُمْ أوْ ما يقولُه اليهودَ منْ مقالاتِ الكفرِ والتشبيهِ ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أيْ نَزِّهَهُ تعالَى عنِ العجزِ عَمَّا يمكُن وَعَنْ وقوعِ الخُلفِ في أخبارِهِ التي مِنْ جُمْلتها الإخبارُ بوقوعِ البعثِ وعنْ وصفهِ تعالَى بما يوجبُ التشبيَه حَامداً له تعالَى عَلى ما أنعمَ به عليكَ من إصابةِ الحقِّ وغيرِهَا ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ الغروب ﴾ هُمَا وقتُ الفجرِ والعصرِ وفضيلتُهما مشهورةٌ ﴿ وَمِنَ الليل فَسَبِّحْهُ ﴾ وسَبِّحْهُ بعضَ الليلِ ﴿ وأدبار السجود ﴾ وأعقابَ الصلواتِ جمعُ دُبُرٍ وقُرِىءَ بالكسرِ مِنْ أدبرتِ الصلاةُ إذَا انقضتْ وتمتْ ومعناهُ وقتُ انقضاءِ السجودِ وقيلَ : المرادُ بالتسبيحِ الصلواتُ فالمرادُ بما قبلَ الطلوعِ صلاةُ الفجرِ وبما قبلَ الغروبِ الظهرُ والعصرُ وبمَا مِنَ الليلِ العشاءانِ والتهجدُ ومَا يصلَّى بأدبارِ السجودِ النوافلُ بعدَ المكتوباتِ ﴿ واستمع ﴾ أيْ لما يُوحَى إليكَ من أحوالِ القيامةِ ، وفيهِ تهويلٌ وتفظيعٌ للمخبَرِ بهِ ﴿ يَوْمَ يُنَادِى ﴾ أيْ إسرافيلُ أوْ جبريلُ عليهَما السلامُ فيقولُ أيتُها العظامُ البالية واللحومُ المتمزقةُ والشعورُ

(36/723)

المتفرقة إنَّ الله يأمركُنَّ أنْ تجتمعنَ لفصلِ القضاءِ وقيلَ : إسرافيلُ ينفخُ وجبريلُ ينادِي بالحشرِ ﴿ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ بحيث يصلُ نداؤُه إلى الكُلِّ عَلى سواءٍ وقيلَ : من صخرةِ بيتِ المقدسِ وقيلَ : من تحتِ أقدامِهم وقيلَ من منابتِ شعورِهم يُسمَعُ منْ كُلِّ شعرةٍ ولعلَّ ذلكَ في الإعادةِ مثل كُنْ في البدءِ .

﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصيحة ﴾

بدلٌ منْ يومَ يُنادِي الخ وهي النفخةُ الثانيةُ ﴿ بالحق ﴾ متعلقٌ بالصيحةِ والعاملُ في الظرفِ ما يدلُّ عليهِ قولُه تعالَى : ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الخروج ﴾ أيْ يوم يسمعونَ الصيحةَ ملتبسةً بالحقِّ الذَّي هُوَ البعثُ يخرجونَ منَ القبورِ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ وَنُمِيتُ ﴾ في الدُّنيا منْ غيرِ أنْ يشاركَنَا في ذلكَ أحدٌ ﴿ وَإِلَيْنَا المصير ﴾ للجزاءِ في الآخرةِ لا إلى غيرِنا لا استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأرض عَنْهُمْ ﴾ بحذفِ إحْدَى التاءينِ منْ تتشققُ وقُرِىءَ بتشديدِ الشينِ وتُشقَّقُ عَلى البناءِ للمفعولِ من التفعيلِ وتنشقُ ﴿ سِرَاعاً ﴾ مسرعينَ ﴿ ذَلِكَ حَشْرٌ ﴾ بعث وجمعٌ وسوقٌ ﴿ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ أيْ هينٌ وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ لتخصيصِ اليُسْرِ بهِ تعالَى ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ مِنْ نفْيِ البعثِ وتكذيبِ الآياتِ الناطقةِ بهِ وغيرِ ذلكَ مما لا خيرَ فيهِ ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ بمتسلطٍ تقسرهُم علَى الإيمانِ أو تفعلُ بهمُ ما تريدُ وإنما أنتَ مذكرٌ ﴿ فَذَكِّرْ بالقرءان مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ وأما مَنْ عداهُم فنحنُ نفعلُ بهمُ ما توجبُهُ أقوالُهم وتستدعيهِ أعمالُهم من ألوانِ العقابِ وفنونِ العذابِ .

عنِ النبيِّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : " مَنْ قرأَ سورةَ ق هَوَّنَ اللهُ عليهِ ثاراتِ الموتِ وسكراتِه " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 8 صـ ﴾

(37/723)

وقال الآلوسى :

﴿ واستمع ﴾

أمر بالاستماع ، والظاهر أنه أريد به حقيقته ، والمستمع له محذوف تقديره واستمع لما أخبره به من أهوال يوم القيامة ، وبين ذلك بقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُنَادِ المناد ﴾ إلى آخره ، وسلك هذا لما في الإبهام ثم التفسير من التهويل والتعظيم لشأن المخبر به ، وانتصب ﴿ يَوْمٍ ﴾ بما دل عليه ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الخروج ﴾ [ق : 42] أي يوم ينادي المنادى يخرجون من القبور ، وقيل : المفعول محذوف تقديره نداء المنادى ، وقيل : تقديره نداء الكافرين بالويل والثبور و ﴿ يَوْمٍ ﴾ ظرف لذلك المحذوف ، وقيل : لا يحتاج ذلك إلى مفعول والمعنى كن مستمعاً ولا تكن غافلاً ، وقيل : معنى استمع انتظر ، والخطاب لكل سامع ، وقيل : للرسول عليه الصلاة والسلام و ﴿ وم ﴾ منتصب على أنه مفعول به لاستمع أي أنتظر يوم ينادي المنادي فإن فيه تبين صحة ما قلته كما تقول لمن تعد بورود فتح : استمع كذا وكذا .

والمنادى على ما في بعض الآثار جبريل عليه السلام بنفخ إسرافيل في الصور وينادي جبريل يا أيتها العظام النخرة والجلود المتمزقة والشعور المتقطعة إن الله يأمرك أن تجتمعي لفصل الحساب .

وأخرج ابن عساكر .

والواسطي في فضائل بيت المقدس عن يزيد بن جابر أن إسرافيل عليه السلام ينفخ في الصور فيقول : يا أيتها العظام النخرة إلى آخره فيكون المراد بالمنادى هو عليه السلام .

وفي "الحواشي الشهابية" الأول هو الأصح ﴿ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ هو صخرة بيت المقدس على ما روى عن يزيد بن جابر .

وكعب .

وابن عباس .

وبريدة .

وقتادة ، وهي على ما روى عن كعب أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً .

(38/723)

وفي "الكشاف" أنها أقرب إليها باقنين عشر ميلاً وهي وسط الأرض ، وأنت تعلم أن مثل هذا لا يقبل إلا بوحي ، ثم إن كونها وسط الأرض مما تأباه القواعد في معرفة العروض والأطوال ، ومن هنا قيل : المراد قريب ممن يناديهم فقيل : ينادي من تحت أقدامهم ، وقيل : من منابت شعورهم فيسمع من كل شعرة يا أيتها العظام النخرة الخ ، ومن الناس من قال : المراد بقربه كون النداء منه لا يخفى على أحد بل يستوي في سماعه كل أحد ، والنداء في كل ذلك على حقيقته ، وجوز أن يكون في الإعادة نظير كن في الابتداء على المشهور فهو تمثيل لإحياء الموتى بمجرد الإرادة ولا نداء ولا صوت حقيقة ، ثم إن ما ذكرناه من أن المنادي ملك وأنه ينادي بما سمعت هو المأثور ، وجوز أن يكون نداؤه بقوله للنفس : ارجعي إلى ربك لتدخلن مكانك من الجنة أو النار أو هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار ، وأن يكون المنادى هو الله تعالى ينادي ﴿ احشروا الذين ظَلَمُواْ وأزواجهم ﴾ [الصافات : 22] أو ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [ق : 24] مع قوله تعالى : ﴿ ادخلوها بِسَلامٍ ﴾ [ق : 34] أو ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾ [الحاقة : 30] أو ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِىَ ﴾ [النحل : 27] أو غير ذلك ، وأن يكون غيره تعالى وغير الملك من المكلفين ينادي ﴿ يامالك لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ [الزخرف : 77] أو ﴿ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الماء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله ﴾ [الأعراف : 50] أو غير ذلك ، والمعول عليه ما تقدم .

﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصيحة ﴾ وهي النفخة الثانية ، و﴿ يَوْمٍ ﴾ بدل من ﴿ يَوْمَ يُنَادِ ﴾ [ق : 41] الخ ، والعامل فيهما ما دل عليه ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الخروج ﴾ كما تقدم ، وجوز أن يكون ظرفاً لما دل عليه ذلك و﴿ يَوْمٍ يُنَادِى ﴾ غير معمول له بل لغيره على ما مر ، وأن يكون ظرفاً لينادي ، وقوله تعالى : ﴿ بالحق ﴾ في موضع الحال من ﴿ الصيحة ﴾ أي يسمعونها ملتبسة بالحق الذي هو البعث ، وجوز أن يكون ﴿ الحق ﴾ بمعنى اليقين والكلام نظير صاح بيقين أي وجد منه الصياح يقيناً لا كالصدى وغيره فكأنه قيل : الصيحة المحققة ، وجوز أن يكون الجار متعلقاً بيسمعون على أن المعنى يسمعون بيقين ، وأن يكون الباء للقسم و﴿ الحق ﴾ هو الله تعالى أي يسمعون الصيحة أقسم بالله وهو كما ترى ﴿ ذلك ﴾ أي اليوم ﴿ يَوْمُ الخروج ﴾ من القبور وهو من أسماء يوم القيامة .

وقيل : الإشارة إلى النداء واتسع في الظرف فجعل خبراً عن المصدر ، أو الكلام على حذف مضاف أي ذلك النداء نداء يوم الخروج أو وقت ذلك النداء يوم الخروج .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ وَنُمِيتُ ﴾ في الدنيا من غير أن يشاركنا في ذلك أحد ﴿ وَإِلَيْنَا المصير ﴾ الرجوع للجزاء في الآخرة لا إلى غيرنا لا استقلالاً ولا اشتراكاً .

﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأرض عَنْهُمْ ﴾ بدل بعد بدل ، ويحتمل أن يكون ظرفاً للمصير أي ألينا مصيرهم في ذلك اليوم أو لما دل عليه ﴿ ذَلِكَ حَشْرٌ ﴾ أي يحشرون يوم تشقق .

وقرأ نافع .

وابن عامر ﴿ تشق ﴾ بشد الشين وقرىء ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ﴾ بضم التاء مضارع شققت على البناء للمفعول و ﴿ تنشق ﴾ مضارع انشقت .

(40/723)

وقرأ زيد بن علي ﴿ تتشقق ﴾ بتاءين ، وقوله تعالى : ﴿ عَنْهُمْ سِرَاعاً ﴾ مصدر وقع حالاً من الضمير في ﴿ عَنْهُمْ ﴾ بأتويل مسرعين والعامل "تشقق" وقيل : التقدير يخرجون سراعاً فتكون حالاً من الواو والعامل يخرجج ، وحكاه أبو حيان عن الحوفي ثم قال : ويجوز أن يكون هذا المقدر عاملاً في ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ﴾ أخرج ابن المنذر عن مجاهد أنه قال في الآية : تمطر السماء عليهم حتى تنشق الأرض عنهم ، وجاء إن أول من تنشق عنه الأرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخرج الترمذي وحسنه .

والطبراني .

والحاكم واللفظ له عن ابن عمر قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أول من تنشق عنه الأرض ثم أبو بكر وعمر ثم أهل البقيع فيحشرون معى ثم أنتظر أهل مكة وتلا ابن عمر ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأرض عَنْهُمْ سِرَاعاً ﴾ " ﴿ ذَلِكَ حَشْرٌ ﴾ بعث وجمع ﴿ عَلَيْنَا

يَسِيرٌ ﴾ أي هين ، وتقديم الجار والمجرور لتخصيص اليسر به عز وجل فإنه سبحانه العالم القادر لذاته الذي لا يشغله شأن عن شأن ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ من نفي البعث وتكذيب الآيات الناطقة وغير ذلك مما لا خير فيه ، وهذا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتهديد لهم .

﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ أي ما أنت مسلط عليهم تقسرهم على الايمان أو تفعل بهم ما تريد وأنما أنت منذر ، فالباء زائدة في الخبر و﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ متعلق به .

ويفهم من كلام بعض الأجلة جواز كون ﴿ جَبَّارٍ ﴾ من جبره على الأمر قهره عليه بمعنى أجبره لا من أجبره إذ لم يجيء فعال بمعنى مفعل من أفعل إلا فيما قل كدراك وسراع ، وقال علي بن عيسى : لم يسمع ذلك إلا في دراك .

(41/723)

وقيل : جبار من جبر بمعنى أجبر لغة كنانة وإن ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ متعلق بمحذوف وقع حال أي ما أنت جبار تجبرهم على الايمان والياً عليهم ، وهو محتمل للتضمين وعدمه فلا تغفل ، وقيل : أريد التحلم عنهم وترك الغلظة عليهم ، وعليه قيل : الآية منسوخة ، وقيل : هي منسوخة على غيره أيضاً بآية السيف ﴿ فَذَكِّرْ القرءان مِن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ فإنه لا ينتفع

به غيره ، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : "قالوا يا رسول الله لوخوفتنا فنزلت فذكر بالقرآن من يخاف وعيد" وما أنسب هذا الاختتام بالافتتاح بقوله سبحانه : ﴿ ق والقرءان المجيد ﴾ [ق : 1] هذا وللشيخ الأكبر قدس سره في قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ق : 15] ولغير واحد من الصوفية في قوله سبحانه : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريد ﴾ [ق : 16] كلام أشرنا إليه فيما سبق ، ومنهم من يجعل ﴿ ق ﴾ إشارة إلى الوجود الحق المحيط بجميع الموجودات ﴿ والله من ورائهم محيط ﴾ [ق : 20] وقيل : هو إشارة إلى مقامات القرب ، وقيل : غير ذلك ، وطبق بعضهم سائر آيات السورة على ما في الأنفس وهو مما يعلم بأدنى التفات ممن له أدنى ممارسة لكلامهم والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(42/723)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (36) ﴾

خوّف سبحانه أهل مكة بما اتفق للقرون الماضية ﴿ قَبْلَهُمْ ﴾ أي : قبل قريش ومن

وافقهم ﴿ مّن قَرْنٍ ﴾ أي : من أمة ﴿ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً ﴾ أي : قوة ، كعاد وثمود ، وغيرهما ﴿ فَنَقَّبُواْ فِى البلاد ﴾ أي : ساروا وتقلبوا فيها وطافوا بقاعها وأصله من النقب ، وهو الطريق .

قال مجاهد : ضربوا وطافوا .

وقال النضر بن شميل : دوّروا ، وقال المؤرج : تباعدوا .

والأوّل أولى ، ومنه قول امرىء القيس :

وقد نقبت في الآفاق حتى . . . رضيت من الغنيمة بالإياب

ومنه قول الحارث بن حلزة :

نقبوا في البلاد من حذر المو . . . ت وجالوا في الأرض كل مجال

وقرأ ابن عباس ، والحسن ، وأبو العالية ، وأبو عمرو في رواية : (نقبوا) بفتح القاف مخففة ، والنقب هو : الخرق والطريق في الجبل ، وكذا المنقب والمنقبة ، كذا قال ابن السكيت ، وجمع النقب نقوب .

وقرأ السلمي ، ويحيى بن يعمر بكسر القاف مشدّدة على الأمر للتهديد ، أي : طوّفوا فيها وسيروا في جوانبها .

وقرأ الباقون بفتح القاف مشدّدة على الماضي ﴿ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ أي : هل لهم من مهرب يهربون إليه ، أو مخلص يتخلصون به من العذاب ؟ قال الزجاج : لم يروا محيصاً من

الموت ، والمحيص : مصدر حاص عنه يحيص حيصاً وحيوصاً ومحيصاً ومحاصاً وحيصاناً ، أي : عدل وحاد ، والجملة مستأنفة لبيان أنه لا مهرب لهم ، وفي هذا إنذار لأهل مكة أنهم مثل من قبلهم من القرون لا يجدون من الموت والعذاب مفرّاً ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ أي : فيما ذكر من قصتهم تذكرة وموعظة ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ أي : عقل .

(43/723)

قال الفراء : وهذا جائز في العربية ، تقول : ما لك قلب وما قلبك معك ، أي : ما لك عقل وما عقلك معك ، وقيل : المراد : القلب نفسه ؛ لأنه إذا كان سليماً أدرك الحقائق وتفكر كما ينبغي .

وقيل : لمن كان له حياة ونفس مميزة فعبر عن ذلك بالقلب ؛ لأنه وطنها ومعدن حياتها ، ومنه قول امرىء القيس :

أغرّك مني أن حبك قاتلي . . . وأنك مهما تأمري النفس تفعل

﴿ أَوْ أَلْقَى السمع ﴾ أي : استمع ما يقال له ، يقال : ألق سمعك إليّ ، أي : استمع مني ، والمعنى : أنه ألقى السمع إلى ما يتلى عليه من الوحي الحاكي لما جرى على تلك الأمم .

قرأ الجمهور ﴿ أَلْقَى ﴾ مبنياً للفاعل .

وقرأ السلمي ، وطلحة ، والسديّ على البناء للمفعول ، ورفع " السمع " ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أي : حاضر الفهم ، أو حاضر القلب ؛ لأن من لا يفهم في حكم الغائب وإن حضر بجسمه ، فهو لم يحضر بفهمه .

قال الزجاج : أي : وقلبه حاضر فيما يسمع .

قال سفيان : أي : لا يكون حاضراً وقلبه غائب .

قال مجاهد ، وقتادة : هذه الآية في أهل الكتاب ، وكذا قال الحسن .

وقال محمد بن كعب ، وأبو صالح : إنها في أهل القرآن خاصة .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السموات والارض وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ قد تقدّم تفسير هذه الآية في سورة الأعراف ، وغيرها .

﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ اللغوب : التعب والإعياء ، تقول : لغب يلغب بالضم لغوباً .

قال الواحدي : قال جماعة المفسرين : إن اليهود قالوا : خلق الله السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، أوّلها الأحد وآخرها الجمعة ، واستراح يوم السبت ، فأكذبهم الله تعالى بقوله : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ .

﴿ فاصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾ هذه تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأمر لهم بالصبر على ما يقوله المشركون ، أي : هوّن عليك ، ولا تحزن لقولهم ، وتلقّ ما يرد عليك منه بالصبر ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ الغروب ﴾ أي : نزّه الله عما لا يليق بجنابه العالي ملتبساً بحمده وقت الفجر ووقت العصر ، وقيل : المراد : صلاة الفجر وصلاة العصر ، وقيل : الصلوات الخمس ، وقيل : صلّ ركعتين قبل طلوع الشمس ، وركعتين قبل غروبها ، والأوّل أولى .

﴿ وَمِنَ اليل فَسَبِّحْهُ ﴾ " من " للتبعيض ، أي : سبّحه بعض الليل ، وقيل : هي صلاة الليل ، وقيل : ركعتا الفجر ، وقيل : صلاة العشاء ، والأوّل أولى ﴿ وأدبار السجود ﴾ أي : وسبّحه أعقاب الصلوات .

قرأ الجمهور أدبار بفتح الهمزة جمع دبر .

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وحمزة بكسرها على المصدر ، من أدبر الشيء إدباراً : إذا ولى ، وقال جماعة من الصحابة والتابعين : إدبار السجود : الركعتان بعد المغرب ، وإدبار النجوم : الركعتان قبل الفجر ، وقد اتفق القراء السبعة في ﴿ إدبار النجوم ﴾ [الطور : 49] أنه بكسر الهمزة ، كما سيأتي .

﴿ واستمع يَوْمَ يُنَادِ المناد مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ أي : استمع ما يوحى إليك من أحوال القيامة : يوم ينادي المناد ، وهو إسرافيل ، أو جبريل ، وقيل : استمع النداء ، أو الصوت ، أو

الصيحة ، وهي صيحة القيامة ، أعني : النفخة الثانية في الصور من إسرافيل ، وقيل : إسرافيل ينفخ ، وجبريل ينادي أهل المحشر ، ويقول : هلموا للحساب ، فالنداء على هذا في المحشر ، قال مقاتل : هو إسرافيل ينادي بالحشر فيقول : يا أيها الناس هلموا للحساب ﴿ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ بحيث يصل النداء إلى كل فرد من أفراد أهل المحشر .

قال قتادة : كنا نحدّث أنه ينادي من صخرة بيت المقدس .

(45/723)

قال الكلبي : وهي أقرب الأرض إلى السماء باثني عشر ميلاً ، وقال كعب : بثمانية عشر ميلاً ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصيحة بالحق ﴾ هو بدل من ﴿ يوم يناد ﴾ يعني : صيحة البعث ، و ﴿ بالحق ﴾ متعلق بالصيحة ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الخروج ﴾ أي : يوم الخروج من القبور .

قال الكلبي : معنى ﴿ بالحق ﴾ بالبعث .

وقال مقاتل : يعني : أنها كائنة حقاً .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ وَنُمِيتُ ﴾ أي : نحيي في الآخرة ، ونميت في الدنيا لا يشاركنا في ذلك مشارك ، والجملة مستأنفة لتقرير أمر البعث ﴿ وَإِلَيْنَا المصير ﴾ ، فنجازي كل عامل بعمله ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأرض عَنْهُمْ ﴾ قرأ الجمهور بإدغام التاء في الشين ، وقرأ الكوفيون

بتخفيف الشين على حذف إحدى التاءين تخفيفاً .

وقرأ زيد بن علي : (تتشقق) بإثبات التاءين على الأصل ، وقرىء على البناء للمفعول ، وانتصاب ﴿ سِرَاعاً ﴾ على أنه حال من الضمير في عنهم ، والعامل في الحال تشقق ، وقيل : العامل في الحال هو العامل في ﴿ يوم ﴾ أي : مسرعين إلى المنادي الذي ناداهم ﴿ ذَلِكَ حَشْرٌ ﴾ أي : بعث وجمع ﴿ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ هين .

ثم عزّى الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ يعني : من تكذيبك فيما جئت به ، ومن إنكار البعث والتوحيد ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ أي : بمسلط يجبرهم ويقهرهم على الإيمان ، والآية منسوخة بآية السيف ﴿ فَذَكِّرْ بالقرءان مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ أي : من يخاف وعيدي لعصاتي بالعذاب ، وأما من عداهم فلا تشتغل بهم ، ثم أمره الله سبحانه بعد ذلك بالقتال .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ قال : من نصب .

وأخرج الطبراني في الأوسط ، وابن عساكر عن جرير بن عبد الله ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس ﴾ : "صلاة الصبح " ﴿ وَقَبْلَ الغروب ﴾ " صلاة العصر " .

وأخرج الترمذي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : بت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصلى ركعتين خفيفتين قبل صلاة الفجر ، ثم خرج إلى الصلاة ، فقال : " يا ابن عباس ركعتان قبل صلاة الفجر إدبار النجوم ، وركعتان بعد المغرب إدبار السجود " وأخرج مسدّد في مسنده ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، عن عليّ بن أبي طالب قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن إدبار النجوم ، وإدبار السجود ، فقال : " إدبار السجود : ركعتان بعد المغرب ، وإدبار النجوم : الركعتان قبل الغداة " وأخرج محمد بن نصر في الصلاة ، وابن المنذر عن عمر بن الخطاب : إدبار السجود : ركعتان بعد المغرب ، وإدبار النجوم : ركعتان قبل الفجر .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وابن نصر ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن عليّ بن أبي طالب مثله .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن نصر ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن أبي هريرة مثله .

وأخرج البخاري ، وغيره عن مجاهد قال : قال ابن عباس : أمره أن يسبح في أدبار الصلوات كلها .

وأخرج ابن جرير عنه ﴿ واستمع يَوْمَ يُنَادِ المناد ﴾ قال : هي الصيحة .

وأخرج الواسطي عنه أيضاً ﴿ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ قال : من صخرة بيت المقدس .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن المنذر عنه أيضاً ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الخروج ﴾ قال : يوم يخرجون إلى البعث من القبور .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال : قالوا : يا رسول الله لو خوّفتنا ، فنزلت : ﴿ فَذَكِّرْ بالقرءان مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 79 . 82 ﴾

(47/723)

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (38) ﴾

قد قدمنا الكلام عليه في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذي خَلَقَ السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّام ﴾ [الأعراف : 54] وبينا هناك أن الله أوضح ذلك في فصلت في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت : 9] إلى قوله - ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت : 12] .

وأوضحنا ذلك في سورة فصلت واللغوب : التعب والإعياء من العمل .

فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (39)

ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أمره تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما يقوله الكفار والتسبيح بحمده جل وعلا أطراف النهار ، قد ذكره الله في غير هذا الموضع كقوله تعالى في أخريات طه : ﴿ فاصبر على مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَآءِ الليل فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النهار لَعَلَّكَ ترضى ﴾ [طه : 130] ، وأمره له بالتسبيح بعد أمره له بالصبر على أذى الكفار فيه دليل على أن التسبيح يعينه الله به على الصبر المأمور به ، والصلاة داخلة في التسبيح المذكور كما قدمنا إيضاح ذلك ، وذكرنا فيه حديث نعيم بن همار في آخر الحجر في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِّنَ الساجدين ﴾ [الحجر : 97 - 98] ، وبينا هناك أن الله أمر بالاستعانة بالصبر وبالصلاة كما قال تعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ [البقرة : 45] الآية .

(48/723)

يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (42)

قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة يس في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَنُفِخَ فِي الصور فَإِذَا هُم مِّنَ الأجداث إلى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [يس : 51] .

يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (44)

قرأ هذا الحرف نافع وابن كثير وابن عامر : تشقق بتشديد الشين بإدغام إحدى التاءين فيها ، وقرأ الباقون بتخفيف الشين لحذف إحدى التاءين ، وقوله تعالى : ﴿ سِرَاعاً ﴾ : جمع سريع ، وهو حال من الضمير المجرور في قوله : ﴿ عَنْهُمْ ﴾ أي تشقق الأرض عنهم في حال كونهم مسرعين إلى الداعي وهو الملك الذي ينفخ في الصور ويدعو الناس إلى الحساب والجزاء ، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الناس يوم البعث يخرجون من قبورهم مسرعين إلى المحشر قاصدين نحو الداعي ، جاء موضحاً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [المعارج : 43] وقوله : ﴿ يَنسِلُونَ ﴾ أي يسرعون ، وقوله تعالى ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ مُّهْطِعِينَ إِلَى الداع ﴾ [القمر : 7 – 8] الآية ، فقوله ﴿ مُّهْطِعِينَ ﴾ : أي مسرعين مادي أعناقهم ﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ الأجداث إلى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [يس : 51] .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بالقرآن مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يونس في الكلام على قوله تعالى : ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ الناس حتى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : 99] .

قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ بالقرآن مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه في سورة فاطر في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغيب وَأَقَامُواْ الصلاة ﴾ [فاطر : 18] الآية . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(50/723)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (41) ﴾

لا محالة أن جملة ﴿ استمع ﴾ عطف على جملة ﴿ سَبح بحمد ربك ﴾ [ق : 39] ، فالأمر بالاستماع مفرع بالفاء التي فرع بها الأمر بالصبر على ما يقولون .

فهو لاحق بتسلية النبي صلى الله عليه وسلم فلا يكون المسموع إلا من نوع ما فيه عناية به وعقوبة لمكذبيه .

وابتداء الكلام بـ ﴿ استمع ﴾ يفيد توثيقاً إلى ما يرد بعده على كل احتمال .

والأمر بالاستماع حقيقته : الأمر بالإنصات والإصْغاء .

وللمفسرين ثلاث طرق في محمل ﴿ استمع ﴾ ، فالذي نحاه الجمهور حمل الاستماع على

حقيقته وإذ كان المذكور عقب فعل السمع لا يصلح لأن يكون مسموعاً لأن اليوم ليس مما يُسمع تعين تقدير مفعول ل ﴿ استمع ﴾ يدل عليه الكلام الذي بعده فيقدر : استمع نداءَ المنادي ، أو استمع خبرهم ، أو استمع الصيحة يوم ينادي المنادي .

ولك أن تجعل فعل ﴿ استمع ﴾ منزلاً منزلة اللازم ، أي كُن سامِعاً ويتوجه على تفسيره هذا أن يكون معنى الأمر بالاستماع تخييلاً لصيحة ذلك اليوم في صورة الحاصل بحيث يؤمر المخاطب بالإصغاء إليها في الحال كقول مالك بن الرَّيب:

دَعاني الهوى من أهل ودي وجيرتي . . .

بذي الطَّبَسَيْن فالتفَتُّ وَرائيا

ونحَا ابنُ عطية حمل ﴿ استمع ﴾ على المجاز ، أي انتظر .

قال : "لأن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بأن يستمع في يوم النداء لأن كل مَن فيه يستمع وإنما الآية في معنى الوعيد للكفار فقيل لمحمد صلى الله عليه وسلم تحسس هذا اليوم وارتقبه فإن فيه تبّين صحة ما قلته" أ هـ .

ولم أر مَن سَبَقه إلى هذا المعنى ومثله في "تفسير الفخر" وفي "تفسير النسفي" .

ولعلهما اطلعا عليه لأنهما متأخران عن ابن عطية وهما وإن كانا مشرقيّين فإن الكتب تُنقل بين الأقطار .

وللزمخشري طريقة أخرى فقال "يعني : واستمع لما أخبرك به من حال يوم القيامة .

وفي ذلك تهويل وتعظيم لشأن المخبَر به كما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل " يا معاذ اسمع ما أقول لك ثم حدثه بعد ذلك " ولم أرَ من سبقه إلى هذا وهو محمل حسن دقيق .

واللائق بالجري على المحامل الثلاثة المتقدمة أن يكون ﴿ يوم يناد المنادي ﴾ مبتدأ وفتحته فتحة بناء لأنه اسم زمان أضيف إلى جملة فيجوز فيه الإعراب والبناءُ على الفتح ، ولا يناكده أن فعل الجملة مضارع لأن التحقيق أن ذلك وارد في الكلام الفصيح وهو قول نحاة الكوفة وابنِ مالك ولا ريبة في أنه الأصوب .

ومنه قوله تعالى : ﴿ قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ﴾ [المائدة : 119] في قراءة نافع بفتح ﴿ يومَ ﴾ .

وقوله : ﴿ يوم يسمعون الصيحة ﴾ بدل مطابق من ﴿ يوم يناد المنادي ﴾ وقوله : ﴿ ذلك يوم الخروج ﴾ خبر المبتدأ .

ولك أن تجعل ﴿ يوم يناد المنادي ﴾ مفعولاً فيه ل ﴿ استمع ﴾ وإعراب ما بعده ظاهر .

ولك أن تجعل ﴿ يوم يناد المنادي ﴾ ظرفاً في موقع الخبر المقدم وتجعل المبتدأ قوله : ﴿

ذلك يوم الخروج ﴾ ويكون تقدير النظم : واستمعْ ذلكَ يومُ الخروج يوم ينادي المنادي الخ ، ويكون اسمُ الإشارة لمجرد التنبيه ، أو راجعاً إلى يوم ينادي المنادي ، فإنه متقدم عليه في اللفظ وإن كان خبراً عنه في المعنى واسم الإشارة يكتفي بالتقدم اللفظي بل يكتفي بمجرد الخطور في الذهن .

وفي "تفسير النسَفِي" أن يعقوب أي الحضرمي أحد أصحاب القراءات العشر المتواترة وقف على قوله ﴿ واستمع ﴾ .

وتعريف ﴿ المنادي ﴾ تعريف الجنس ، أي يوم ينادي منادٍ ، أي من الملائكة وهو الملك الذي ينفخ النفخة الثانية فتتكوّن الأجساد وتحل فيها أرواح الناس للحشر قال تعالى : ﴿ ثم نُفِخَ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ [الزمر : 68] .

(52/723)

وتنوين ﴿ مكان قريب ﴾ للنوعية إذ لا يتعلق الغرض بتعيينه ، ووصفه بـ ﴿ قريب ﴾ للإشارة إلى سرعة حضور المنادين ، وهو الذي فسرته جملة ﴿ يوم يسمعون الصيحة بالحق ﴾ لأن المعروف أن النداء من مكان قريب لا يخفى على السامعين بخلاف النداء من كان بعيد .

و﴿ بالحق ﴾ بمعنى : بالصدق وهو هنا الحشر ، وصف ﴿ بالحق ﴾ إبطالاً لزعم المشركين أنه اختلاق .

والخروج : مغادرة الدار أو البلدِ ، وأطلق الخروج على التجمع في المحشر لأن الحَيَّ إذا نَزَحُوا عن أرضهم قيل : خرجوا ، يقال : خرجوا بقَضِّهم وقضيضهم .

واسم الإشارة جيء به لتهويل المشار إليه وهو ﴿ يوم يسمعون الصيحة بالحق ﴾ فأريد كمال العناية بتمييزه لاختصاصه بهذا الخبر العظيم .

ومقتضى الظاهر أن يقال : هو يوم الخروج .

و﴿ يوم الخروج ﴾ علم بالغلبة على يوم البعث ، أي الخروج من الأرض .

وجملة ﴿ إنا نحن نحي ونميت وإلينا المصير ﴾ تذييل ، أي هذا الإحياء بعد أن أَمَتْنَاهُم هو من شؤوننا بأنا نحييهم ونحيي غيرهم ونميتهم ونميت غيرهم .

والمقصود هو قوله : ﴿ ونميت ﴾ ، وأما قوله : ﴿ نحيي ﴾ فإنه لاستيفاء معنى تصرف الله في الخلق .

وتقديم ﴿ إلينا ﴾ في ﴿ إلينا المصير ﴾ للاهتمام .

والتعريف في ﴿ المصير ﴾ إما تعريف الجنس ، أي كل شيء صائر إلى ما قدرناه له وأكبر ذلك هو ناموس الفناء المكتوب على جميع الأحياء وإما تعريف العهد ، أي المصير المتحدث عنه ، وهو الموت لأن المصير بعد الموت إلى حكم الله .

وعندي أن هذه الآيات من قوله : ﴿ واستمع يوم يناد المنادي ﴾ إلى قوله ﴿ المصير ﴾ مكان قريب هي مع ما تفيده من تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم مبشر بطريقة التوجيه البديعي إلى تهديد المشركين بعذاب يحلّ بهم في الدنيا عقب نداء يفزعهم فيلقَون إثره حتفهم ، وهو عذاب يوم بدر فخوطب النبي صلى الله عليه وسلم بترقب يومٍ يناديهم فيه منادٍ إلى الخروج وهو نداء الصريخ الذي صَرخ بأبي جهل ومن معه بمكة بأنّ عِير قريش وفيها أبو سفيان قد لقيها المسلمون ببدر وكان المنادي ضمضم بن عمرو الغفاري إذ جاء على بعيره فصرخ ببطن الوادي : يا معشر قريش اللطيمةَ اللطيمةَ ، أموالُكم مع أبي سفيان قد عَرض لها محمد وأصحابه .

فتجهز الناس سراعاً وخرجوا إلى بدر .

فالمكان القريب هو بطن الوادي فإنه قريب من مكة .

والخروج : خروجهم لبدر ، وتعريف اليوم بالإضافة إلى الخروج لتهويل أمر ذلك الخروج الذي كان استئصالُ سادتهم عقبه .

وتكون جملة ﴿ إنا نحن نحيي ونميت ﴾ وعيدا بأن الله يميت سادتهم وأنه يبقي من قَدّر

إسلامه فيما بعدُ فهو يحييه إلى يوم أجله .

وكتب في المصحف ﴿ المناد ﴾ بدون ياء .

وقرأها نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بدون ياء في الوصل وبالياء في الوقف ، وذلك جارٍ على اعتبار أن العرب يعاملون المنقوص المعرّف باللام معاملة المنكّر وخاصة في الأسجاع والفواصل فاعتبروا عدم رسم الياء في آخر الكلمة مراعاة لحال الوقف كما هو غالب أحوال الرسم لأن الأسجاع مبنية على سكون الأعجاز .

وقرأها عاصم وحمزة والكسائي وابن عامر وخلف بحذف الياء وصلا ووقفا لأن العرب قد تعامل المنقوص المعرّف معاملة المنكر .

وقرأها ابن كثير ويعقوب بالياء وصلا ووقفا اعتباراً بأن رسم المصحف قد يخالف قياس الرسم فلا يخالَف قياسُ اللفظ لأجله .

يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (44)

(54/723)

إنّ جريتَ على أقوال المفسرين في تفسير الآية السابقة أفادت هذه الآية بياناً لجملة ﴿ ذلك يوم الخروج ﴾ [ق : 42] أو بدل اشتمال منها مع ما في المعاد منها من تأكيد لمرادفه .

وإن جَرَيْتَ على ما ارتيأتُه في محمل الآية السابقة أفادت هذه الجملة استئنافاً استدلالا على إمكان الحشر ووصف حال من أحواله وهو تشقُّق الأرض عنهم ، أي عن أجساد مثيلة لأجسادهم وعن الأجساد التي لم يلحقها الفناء .

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب ﴿ تشقق ﴾ بفتح التاء وتشديد الشين .

وأصله تتشقق بتاءين فأدغمت التاء الثانية في الشين بعد قلبها شيناً لتقارب مخرجيها .

وقرأه أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي ﴿ تشقق ﴾ بتخفيف الشين على حذف تاء التفعل لاستثقال الجمع بين تاءين .

و﴿ سراعاً ﴾ حال من ضمير ﴿ عنهم ﴾ وهو جمع سريع ، أي سراعاً في الخروج أو في المشي الذي يعقبه إلى محل الحساب .

والقول في إعراب ﴿ تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر ﴾ كالقول في إعراب قوله : ﴿ يوم يناد المناد من مكان قريب ﴾ [ق : 41] إلى ﴿ ذلك يوم الخروج ﴾ وكذلك القول في اختلاف اسم الإشارة مثله .

وتقدم المجرور في ﴿ علينا ﴾ للاختصاص ، أي هو يسير في جانب قدرتنا لا كما زعمه نفاة الحشر .

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (45)

استئناف بياني ناشىء عن قوله ﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ [ق : 39] فهو إيغال في تسلية النبي صلى الله عليه وسلم وتعريض بوعيدهم ، فالخبر مستعمل مجازاً في وعد الرسول صلى الله عليه وسلم بأن الله سيعاقب أعداءه .

وقوله : ﴿ وما أنت عليهم بجبار ﴾ تطمين للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه غير مسؤول عن عدم اهتدائهم لأنه إنما بُعث داعياً وهادياً ، وليس مبعوثاً لإرغامهم على الإيمان ، والجبّار مشتق من جبره على الأمر بمعنى أكرهه .

(55/723)

وفرع عليه أمره بالتذكير لأنه ناشىء عن نفي كونه جبّاراً عليهم وهذا كقوله تعالى : ﴿ فذكّر إنما أنت مذكّر لستَ عليهم بمسيطر ﴾ [الغاشية : 21 ، 22] ، ولكن خصّ التذكير هنا بالمؤمنين لأنه أراد التذكير الذي ينفع المذكَّر .

فالمعنى : فذكر بالقرآن فيتذكّر مَن يخاف وعيد .

وهذا كقوله : ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾ [النازعات : 45] .

وكتب في المصحف ﴿ وعيد ﴾ بدون ياء المتكلم فقرأه الجمهور بدون ياء في الوصل والوقف على أنه من حذف التخفيف .

وقرأه ورش عن نافع بإثبات الياء في الوصل .

وقرأه يعقوب بإثبات الياء في الوصل والوقف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 26 صـ ﴾

(56/723)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾

هذه الآية تدل على خصوص التذكير بالقرآن بمن يخاف وعيد وقد جاءت أخر تدل على عمومه كقوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً ﴾ والجواب أن التذكير بالقرآن عام إلا أنه لما كان المنتفع به من يخاف وعيد الله صار كأنه مختص به كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ كما تقدم نظيره مرارا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 273 ﴾

(57/723)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (31) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة ﴿ وأزلفت الجنة ﴾ قال : زينت الجنة .

وأخرج ابن جرير والبيهقي في شعب الإِيمان عن التميمي قال : سألت ابن عباس عن الأواب الحفيظ قال حفظ ذنوبه حتى رجع عنها .

وأخرج البيهقي في شعب الإِيمان عن سعيد بن سنان في قوله ﴿ لكل أواب حفيظ ﴾ قال : حفظ ذنوبه فتاب منها ذنباً ذنباً .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن سعيد بن المسيب قال : الأواب الذي يذنب ثم يتوب ، ثم يذنب ثم يتوب ، ثم يذنب ثم يتوب حتى يختم الله له بالتوبة .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن أنس بن خباب قال : قال لي مجاهد ألا أنبئك بالأواب الحفيظ ؟ هو الرجل يذكر ذنبه إذا خلا فيستغفر له .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإِيمان عن

عبيد بن عمير مثله .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن عبيد بن عمير قال : كنا نعد الأواب الحفيظ الذي يكون في المجلس ، فإذا أراد أن يقوم قال : اللهم اغفر لي ما أصبت في مجلسي هذا .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ لكل أواب ﴾ قال : مطيع لله ﴿ حفيظ ﴾ قال : لما استودعه الله من حقه ونعمه ، وفي قوله ﴿ وجاء بقلب منيب ﴾ قال : منيب إلى الله مقبل إليه ، وفي قوله ﴿ ادخلوها بسلام ﴾ قال : سلموا من عذاب الله وسلم الله عليهم ، ﴿ ذلك يوم الخلود ﴾ قال : خلدوا والله فلا يموتون .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ من خشي الرحمن بالغيب ﴾ قال : يخشى ولا يرى .

أما قوله تعالى : ﴿ لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد ﴾ .

أخرج البزار وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه واللالكائي في السنة والبيهقي في البعث والنشور عن أنس في قوله ﴿ ولدينا مزيد ﴾ قال : يتجلى لهم الرب عز وجل .

(58/723)

وأخرج الشافعي في الأم وابن أبي شيبة والبزار وأبو يعلى وابن أبي الدنيا في صفة الجنة وابن جرير وابن المنذر والطبراني في الأوسط وابن مردويه والآجري في الشريعة والبيهقي في الرؤية وأبو نصر السجزي في الإِبانة من طرق جيدة عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتاني جبريل وفي يده مرآة بيضاء فيها نكتة سوداء ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذه الجمعة فضلت بها أنت وأمتك ، فالناس لكم فيها تبع اليهود والنصارى ، ولكم فيها خير ، وفيها ساعة لا يوافقها مؤمن يدعو الله بخير إلا استجيب له ، وهو عندنا يوم المزيد ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : يا جبريل وما يوم المزيد ؟ قال : إن ربك اتخذ في الفردوس وادياً أفيح فيه كثب من مسك ، فإذا كان يوم الجمعة أنزل الله ما شاء من الملائكة وحوله منابر من نور عليها مقاعد النبيين ، وتحف تلك المنابر بكراسي من ذهب مكللة بالياقوت والزبرجد عليها الشهداء والصديقون ، ثم جاء أهل الجنة فجلسوا من ورائهم على تلك الكثب ، فيتجلى لهم تبارك وتعالى حتى ينظروا إلى وجهه ، ويقول الله : أنا ربكم قد صدقتكم وعدي فسلوني أعطكم ، فيقولون : ربنا نسألك رضوانك ، فيقول : قد رضيت عنكم فسلوني فيسألونه حتى تنتهي رغبتهم ، فيقول : لكم ما تمنيتم ﴿ ولديّ مزيد ﴾ فهم يحبون يوم الجمعة لما يعطيهم فيه ربهم من الخير ، وهو اليوم الذي استوى فيه ربكم على العرش وفيه خلق آدم وفيه تقوم الساعة " .

وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن جرير بسند حسن عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الرجل ليتكىء في الجنة سبعين سنة قبل أن يتحوّل ، ثم تأتيه امرأته فتضرب على منكبه فينظر وجهه في خدها أصفى من المرآة ، وإن أدنى لؤلؤة عليها تضيء ما بين المشرق والمغرب ، فتسلم عليه فيرد عليها السلام ، ويسألها من أنتِ ؟ فتقول : أنا من المزيد ، وإنه ليكون عليها سبعون حلة أدناها مثل الغمان من طوبى ، فينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك ، وإن عليها التيجان ، إن أدنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب " .

وأخرج ابن جرير عن أنس رضي الله عنه قال : إن الله إذا أسكن أهل الجنة الجنة وأهل النار النار هبط إلى مرج من الجنة أفيح فمد بينه وبين خلقه حجباً من لؤلؤ وحجباً من نور ، ثم وضعت منابر النور وسرر النور وكراسي النور ، ثم أذن لرجل على الله ، بين يديه أمثال الجبال من النور فيسمع دويّ تسبيح الملائكة معه وصفق أجنحتهم ، فمد أهل الجنة أعناقهم فقيل من هذا الذي قد أذن له على الله ؟ فقيل : هذا المجبول بيده والمعلم الأسماء أمرت الملائكة فسجدت له ، والذي أبيحت له الجنة : آدم ، قد أذن له على الله ، ثم يؤذن لرجل آخر بين يديه أمثال الجبال من النور يسمع دويّ تسبيح الملائكة معه وصفق أجنحتهم ، فمد أهل الجنة أعناقهم فقيل : من هذا الذي قد أذن له على الله ؟ فقيل : هذا الذي قد

اتخذه الله خليلاً ، وجعلت النار عليه برداً وسلاماً إبراهيم قد أذن له على الله ، ثم أذن لرجل آخر على الله بين يديه أمثال الجبال من النور يسمع معه دويّ تسبيح الملائكة وصفق أجنحتهم ، فمد أهل الجنة أعناقهم ، فقيل : من هذا الذي قد أذن له على الله فقيل : هذا الذي اصطفاه الله برسالته وقربه نجياً وكلمه كلاماً موسى قد أذن له على الله .

(60/723)

ثم يؤذن لرجل آخر معه مثل جميع مواكب النبيين قبله من بين يديه أمثال الجبال من النور يسمع دويّ تسبيح الملائكة معه وصفق أجنحتهم ، فمد أهل الجنة أعناقهم فقيل : من هذا الذي قد أذن له على الله ؟ فقيل : هذا أول شافع وأول مشفع ، وأكثر الناس واردة ، وسيد ولد آدم ، وأول من تنشق عن ذؤابته الأرض ، وصاحب لواء الحمد ، وقد أذن له على الله فجلس النبيون على منابر النور والصديقون على سرر النور والشهداء على كراسي النور وجلس سائر الناس على كثبان المسك الأذفر الأبيض ، ثم ناداهم الرب تعالى من وراء الحجب : مرحباً بعبادي وزواري وجيراني ووفدي يا ملائكتي إنهضوا إلى عبادي فاطعموهم ، فقربت إليهم من لحوم الطير كأنها البخت ، لا ريش لها ولا عظم ، فأكلوا ، ثم ناداهم الربّ عز وجل من وراء الحجب : مرحباً بعبادي وزواري وجيراني

ووفدي أكلوا اسقوهم . فنهض إليهم غلمان كأنهم اللؤلؤ المكنون بأباريق الذهب والفضة بأشربة مختلفة لذيذة آخرها كلذة أولها ، ﴿ لا يصدعون عنها ولا ينزفون ﴾ [الواقعة : 19] ثم ناداهم الرب عز وجل من وراء الحجب : مرحباً بعبادي وزواري وجيراني ووفدي ، أكلوا وشربوا ، فكّهوهم ، فيقرب إليهم على أطباق مكللة بالياقوت والمرجان من الرطب الذي سمى الله أشدّ بياضاً من اللبن وأشد عذوبة من العسل ، فأكلوا ، ثم ناداهم الرب من وراء الحجب : مرحباً بعبادي وزواري وجيراني ووفدي أكلوا وشربوا وفكهوا ، أكسوهم ، ففتحت لهم ثمار الجنة بحلل مصقولة بنور الرحمن فأكسوها . ثم ناداهم الرب عز وجل من وراء الحجب : مرحباً بعبادي وزواري وجيراني ووفدي أكلوا وشربوا وفكهوا وكسوا ، طيبوهم ، فهاجت عليهم ريح يقال لها المثيرة بأباريق المسك الأبيض الأذفر فنفخت على وجوههم من غير غبار ولا قتام ، ثم ناداهم الرب عز وجل من وراء الحجب : مرحباً بعبادي وزواري وجيراني ووفدي أكلوا وشربوا وفكهوا وكسوا وطيبوا ، وعزتي لأتجلين لهم حتى ينظروا إليّ ، فذلك

(61/723)

إنتهاء العطاء وفضل المزيد فتجلى لهم الرب ثم قال : السلام عليكم عبادي أنظروا إليّ ، فقد رضيت عنكم ، فتداعت قصور الجنة وشجرها سبحانك أربع مرات وخر القوم سجداً ، فناداهم الرب عبادي إرفعوا رؤوسكم فإنها ليست بدار عمل ولا دار نصب إنما هي دار جزاء وثواب ، وعزتي ما خلقتها إلا من أجلكم وما من ساعة ذكرتموني فيها في دار الدنيا إلا ذكرتكم فوق عرشي .

وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : " حدثني جبريل قال : يدخل الرجل على الحوراء فتستقبله بالمعانقة والمصافحة فبأي بنان تعاطيه لو أن بعض بنانها بدا لغلب ضوءه ضوء الشمس والقمر ، ولو أن طاقة من شعرها بدت لملأت ما بين المشرق والمغرب من طيب ريحها ، فبينما هو متكىء معها على أريكته إذ أشرق عليه نور من فوقه فيظن أن الله تعالى قد أشرف على خلقه ، فإذا حوراء تناديه يا ولي الله أما لنا فيك من دولة ، فيقول ومن أنتِ يا هذه ؟ فتقول : أنا من اللواتي قال الله ﴿ ولدينا مزيد ﴾ فيتحول إليها ، فإذا عندها من الجمال والكمال ما ليس مع الأولى ، فبينما هو متكىء على أريكته إذ أشرف عليه نور من فوقه فإذا حوراء أخرى تناديه : يا ولي الله أما لنا فيك من دولة ؟ فيقول ومن أنتِ يا هذه ؟ فتقول : أنا من اللواتي قال الله ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ [السجدة : 17] فلا يزال يتحول من زوجة إلى زوجة " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن محمد بن كعب في قوله ﴿ لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد ﴾ قال : لو أن أدنى أهل الجنة نزل به أهل الجنة كلهم لأوسعهم طعاماً وشراباً ومجالس وخدماً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن كثير بن مرة قال : من المزيد أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول ماذا تريدون فأمطره لكم ؟ فلا يدعون بشيء إلا أمطرتهم والله تعالى أعلم .

(62/723)

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (36)

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ فنقبوا في البلاد ﴾ قال : أثروا .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله ﴿ فنقبوا في البلاد ﴾ قال : هربوا بلغة اليمن . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت قول عدي بن زيد :

نقبوا في البلاد من حذر الموت . . . وجالوا في الأرض أيَّ مجال

وأخرج الفريابي وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ فنقبوا في البلاد ﴾ قال : ضربوا في الأرض .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك في قوله ﴿ هل من محيص ﴾ قال : هل من مهرب يهربون من الموت .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ فنقبوا في البلاد هل من محيص ﴾ قال : حاص أعداء الله فوجدوا أمر الله لهم مدركاً .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب ﴾ قال : كان المنافقون يجلسون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يخرجون فيقولون ماذا قال آنفاً ؟ ليس معهم قلوب .

وأخرج البخاري في الأدب والبيهقي في شعب الإيمان عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : إن العقل في القلب والرحمة في الكبد والرأفة في الطحال والنفس في الرئة .

وأخرج البيهقي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : التوفيق خير قائد ، وحسن الخلق خير قرين ، والعقل خير صاحب ، والأدب خير ميزان ، ولا وحشة أشد من العجب .

وأخرج الفريابي وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ أو ألقى السمع ﴾ قال : لا يحدث نفسه بغيره ﴿ وهو شهيد ﴾ قال : شاهد بالقلب .

وأخرج ابن المنذر عن محمد بن كعب في قوله ﴿ أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ قال : يستمع وقلبه شاهد لا يكون قلبه مكاناً آخر .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ قال : هو رجل من أهل الكتاب ألقى السمع أي استمع للقرآن وهو شهيد على ما في يديه من كتاب الله أنه يجد النبي محمداً مكتوباً .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (38)

أخرج ابن المنذر عن الضحاك قال : قالت اليهود ابتدأ الله الخلق يوم الأحد والإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة واستراح يوم السبت ، فأنزل الله ﴿ ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال : قالت اليهود : إن الله خلق الخلق في ستة أيام وفرغ من الخلق يوم الجمعة واستراح يوم السبت فأكذبهم الله في ذلك فقال ﴿ وما مسنا من لغوب ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ وما مسنا من لغوب ﴾ قال : من نصب .

وأخرج آدم بن أبي إياس والفريابي وابن جرير والبيهقي في الأسماء والصفات عن مجاهد في قوله ﴿ وما مسنا من لغوب ﴾ قال : اللغوب النصب . تقول اليهود إنه أعيا بعد ما

خلقهما .

وأخرج الخطيب في تاريخه عن العوّام بن حوشب قال : سألت أبا مجلز عن الرجل يجلس فيضع إحدى رجليه على الأخرى فقال لا بأس به ، إنما كره ذلك اليهود زعموا أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استراح يوم السبت فجلس تلك الجلسة فأنزل الله ﴿ ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسّنا من لغوب ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ الآية .

أخرج الطبراني في الأوسط وابن عساكر عن جرير بن عبد الله " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ﴾ قال : قبل طلوع الشمس صلاة الصبح ، وقبل الغروب صلاة العصر " .

أما قوله تعالى : ﴿ ومن الليل فسبحه وأدبار السجود ﴾ .

(64/723)

أخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله ﴿ ومن الليل فسبحه ﴾ قال : العتمة ﴿ وأدبار السجود ﴾ النوافل .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد ﴿ ومن الليل فسبحه ﴾ قال : الليل كله .

وأخرج الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه " عن ابن عباس قال : " بتّ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى ركعتين خفيفتين قبل صلاة الفجر ثم خرج إلى الصلاة ، فقال يا ابن عباس ركعتان قبل صلاة الفجر أدبار النجوم وركعتان بعد المغرب أدبار السجود " " .

وأخرج مسدد في مسنده وابن المنذر وابن مردويه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أدبار النجوم والسجود فقال : " أدبار السجود الركعتان بعد المغرب ، وأدبار النجوم الركعتان قبل الغداة " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر ركعات تطوّعاً منها أربع في كتاب الله ومن الليل فسبحه وأدبار السجود ، قال : الركعتين بعد المغرب .

وأخرج ابن المنذر ومحمد بن نصر في الصلاة عن عمر بن الخطاب في قوله ﴿ وأدبار السجود ﴾ قال : ركعتان بعد المغرب ﴿ وأدبار النجوم ﴾ قال : ركعتان قبل الفجر .

وأخرج ابن المنذر وابن نصر عن أبي تميم الجيشاني قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ وأدبار السجود ﴾ هما الركعتان بعد المغرب " .

وأخرج ابن جرير عن إبراهيم قال : كان يقال أدبار السجود الركعتان بعد المغرب .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال ﴿ أدبار السجود ﴾ الركعتان بعد المغرب .

وأخرج عن قتادة والشعبي والحسن مثله .

وأخرج ابن جرير عن الأوزاعي أنه سئل عن الركعتين بعد المغرب فقال هما في كتاب الله تعالى ﴿ فسبحه وأدبار السجود ﴾ .

وأخرج البخاري وابن جرير وابن أبي حاتم وابن نصر وابن مردويه من طريق مجاهد قال : قال ابن عباس رضي الله عنهما : أدبار السجود التسبيح بعد الصلاة ولفظ البخاري أمره أن يسبح في أدبار الصلوات كلها .

(65/723)

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ واستمع يوم يناد المناد ﴾ قال : هي الصيحة .

وأخرج ابن عساكر والواسطي في فضائل بيت المقدس عن يزيد بن جابر في قوله ﴿ واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب ﴾ قال : يقف إسرافيل على صخرة بيت المقدس فينفخ في الصور فيقول : يا أيتها العظام النخرة والجلود المتمزقة والأشعار المتقطعة إن الله يأمرك أن تجتمعي لفصل الحساب .

وأخرج ابن جرير عن كعب في قوله ﴿ واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب ﴾ قال :

ملك قائم على صخرة بيت القدس ينادي يا أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء .

وأخرج ابن جرير عن بريدة قال : ملك قائم على صخرة بيت المقدس واضع إصبعيه في أذنيه ينادي يقول : يا أيها الناس هلموا إلى الحساب .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والواسطي عن قتادة في قوله ﴿ يوم يناد المناد من مكان قريب ﴾ قال : كنا نحدث أنه ينادي من بيت المقدس من الصخرة ، وهي أوسط الأرض ، وحدثنا أن كعباً قال : هي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً .

وأخرج الواسطي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ يوم يناد المناد من مكان قريب ﴾ قال : من صخرة بيت المقدس .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ يوم يسمعون الصيحة بالحق ﴾ قال : يسمع النفخة القريب والبعيد .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ذلك يوم الخروج ﴾ قال : يوم يخرجون إلى البعث من القبور .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ﴾ قال : تمطر السماء عليهم حتى تشقق الأرض عنهم .

وأخرج الحاكم عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" أنا أول من تنشق عنه الأرض ثم أبو بكر ثم عمر ، ثم آتي أهل البقيع فيحشرون معي ، ثم أنتظر أهل مكة " وتلا ابن عمر ﴿ يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ﴾ الآية .

(66/723)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وما أنت عليهم بجبار ﴾ قال لا تتجبر عليهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وما أنت عليهم بجبار ﴾ قال : إن الله كره لنبيه الجبرية ، ونهى عنها ، وقدم فيها ، فقال ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ .

وأخرج الحاكم عن جرير قال : " أتي النبي صلى الله عليه وسلم برجل ترعد فرائصه ، فقال : هوّن عليك فإنما أنا ابن إمرأة من قريش كانت تأكل القديد في هذه البطحاء " ثم تلا جرير ﴿ وما أنت عليهم بجبار ﴾ .

وأخرج الحاكم وصححه عن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعود المريض ، ويتبع الجنائز ، ويجيب دعوة المملوك ، ويركب الحمار ، ولقد كان يوم خيبر ويوم قريظة على حمار خطامه حبل من ليف وتحته اكاف من ليف .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قالوا يا رسول الله لو خوّفتنا ، فنزلت ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ 613.604 ﴾

(67/723)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تبارك وتعالى : ﴿ ق ﴾

قال قتادة : هو اسم من أسماء الله تعالى ، كقوله : قادر ، وقاهر .

ويقال : هو اسم من أسماء القرآن .

وقال مجاهد : هو افتتاح السورة .

وقال بعضهم : ﴿ ق ﴾ يعني : قضي الأمر كما قال في ﴿ حم ﴾ حم الأمر ، والدليل عليه قول الشاعر

فقلت لها قفي قالت قاف .

. . يعني : وقفت فذكر القاف ، وأراد به تمام الكلام .

وقال ابن عباس : هو جبل من زمردة خضراء ، محيط بالعالم ، فخضرة السماء منها ، وهي من وراء الحجاب الذي تغيب الشمس من وراءه ، والحجاب دون ﴿ ق ﴾ بمسيرة سنة ، وما بينهما ظلمة ، وأطراف السماء ملتصقة بها .

ويقال : خضرة السماء من ذلك الجبل .

ويقال : ﴿ ق ﴾ يعني : إن الله عز وجل قائم بالقسط .

ثم قال : ﴿ ق والقرءان ﴾ يعني : الشريف .

وقال الضحاك : هو جبل محدق بالدنيا ، من زبرجدة خضراء ، وخضرة السماء منها ، ليس في الأرض بلدة من البلدان ، ولا مدينة من المدائن ، ولا قرية من القرى ، إلا وفيها عرق من عروقها ، وملك موكل عليها ، واضع كفه بها .

فإذا أراد الله عز وجل بقوم هلاكهم ، أوحى الله عز وجل إلى ذلك الملك ، فحرك منها عرقاً ، فخسف بهم ، فأقسم الله عز وجل بقاف ﴿ ق والقرءان ﴾ يعني : الشريف ، إنكم لمبعوثون يوم القيامة ، لأن أهل مكة أنكروا البعث ، فصار جواب القسم مضمراً فيه ، وهو ما ذكرناه إنكم مبعوثون .

ويجوز أن يكون جواب القسم ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ [ق : 4] فيكون معناه : ﴿ ق والقرءان المجيد ﴾ لقد علمنا ما تنقص الأرض ، فحذف اللام ، لأن ما قبلها عوض عنها كما قال ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زكاها ﴾ [الشمس : 9

] يعني : لقد أفلح .

وقال القتبي : هذا من الاختصار ، فكأنه قال : ﴿ ق والقرءان المجيد ﴾ لتبعثن .

(68/723)

قوله عز وجل : ﴿ بَلْ عَجِبُواْ أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ يعني : من أهل مكة ﴿ فَقَالَ الكافرون هذا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ يعني : أمر عجيب أن يكون محمد رسولاً ، وهو من نسبهم .

قوله تعالى : ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ﴾ بعد الموت ، نجدد بعدما متنا ، نصير خلقاً جديداً ، ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ يعني : رد طويل لا يكون أبداً .

ويقال : رجع يرجع رجعاً إذا رجعه غيره ، ورجع يرجع رجوعاً إذا رجع بنفسه ، كقوله : صد يصد صدوداً ، وصد يصد صداً ، ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ أي : ذلك صرف بعيد .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأرض مِنْهُمْ ﴾ يعني : ما تأكل الأرض من لحومهم ، وعروقهم ، وما بقي منهم ، ويقال : تأكل الأرض جميع البدن إلا العصعص ، وهو عجب الذنب ، وذلك العظم آخر ما يبقى من البدن .

فأول ما يعود ، ذلك العظم ويركب عليه سائر البدن ﴿ وَعِندَنَا كتاب حَفِيظٌ ﴾ يعني :

اللوح المحفوظ.

قوله عز وجل: ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بالحق ﴾ يعني: كذبوا بالقرآن، وبمحمد صلى الله عليه وسلم، والبعث.

﴿ لَمَّا جَاءهُمْ ﴾ أي: حين جاءهم ﴿ فَهُمْ ﴾ يعني: قريش ﴿ فِى أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ يعني: في قول مختلف، ملتبس.

المريج أن يقلق الشيء فلا يستقر.

ويقال: مرج الخاتم في يدي مرجاً إذا قلق للهزال.

وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة قال: ﴿ فَهُمْ فِى أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ أي: من ترك الحق.

يقال: من ترك الحق أمرج عليه رأيه، والتبس عليه دينه.

ثم دلهم على قدرته على بعثهم بعد الموت بعظيم خلقه، الذي يدل على وحدانيته فقال: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُواْ إِلَى السماء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بنيناها ﴾ بغير عمد ﴿ وزيناها ﴾ بالكواكب ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ يعني: شقوق، وصدوع، وخلل.

قوله تعالى: ﴿ والأرض مددناها ﴾ يعني: بسطناها مسير خمسمائة عام من تحت الكعبة، ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رواسي ﴾ يعني: الجبال الثوابت.

قوله : ﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ يعني : حسن طيب من الثمار ، والنبات .

قوله تعالى : ﴿ تَبْصِرَةً ﴾ يعني : في هذا الذي ذكره من خلقه ، ﴿ تَبْصِرَةً ﴾ لتبصروا به .

ويقال : عبرة .

﴿ وذكرى ﴾ يعني : تفكراً ، وعظة .

﴿ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ يعني : مخلص بالتوحيد .

ويقال : راجع إلى ربه .

قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السماء مَاء مباركا ﴾ يعني : المطر فيه البركة حياة لكل شيء ، ﴿ فَأَنبَتْنَا بِهِ جنات ﴾ يعني : البساتين ﴿ وَحَبَّ الحصيد ﴾ يعني : حين ما يخرج من سنبله .

ويقال : ما يحصد ، وما لا يحصد ، كل ما كان له حب .

ويقال : هي الحبوب التي تحصد .

قوله عز وجل : ﴿ والنخل باسقات ﴾ يعني : أطوال ﴿ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ يعني : الكفري نضيد .

يعني : مجتمع .

يقال : نضد بعضه على بعض .

ويقال : ثمر منضود إذا كان متراكباً بعضه على بعض .

ويقال : إنما يسمى نضيداً ما كان في الغلاف ﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾ يعني : جعلناه طعاماً للخلق .

يعني : الحبوب ، والثمر .

﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ ﴾ يعني : بالماء ﴿ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ إذا لم يكن فيها نبات ، فهذا كله صفات بركة المطر .

ثم قال : ﴿ كذلك الخروج ﴾ يعني : هكذا الخروج من القبر .

كما أحييت الأرض الميتة بالنبات ، فكذلك لما ماتوا ، وبقيت الأرض خالية ، أمطرت السماء أربعين ليلة كمني الرجل ، فدخل في الأرض ، فتنبت لحومهم ، وعروقهم ، وعظامهم من ذلك ، ثم يحييهم .

فذلك قوله : ﴿ كذلك الخروج ﴾ .

ثم عزى النبي صلى الله عليه وسلم ليصبر على إيذاء الكفار .

يعني : لا تحزن بتكذيب الكفار إياك ، لأنك لست بأول نبي ، وكل أمة كذبت رسلها ، مثل نوح ، وهود عليهم السلام وغيرهم فقال عز وجل :

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ ﴾ والرسّ : بئر دون اليمامة ، وإن عليها قوماً كذبوا رسلهم ، فأهلكهم الله تعالى ﴿ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وإخوان لُوطٍ ﴾ يعني : قومه ﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ ﴾ يعني : قوم شعيب ﴿ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ يعني : قوم حمير .

ويقال : تبع كان اسم ملك .

وروى وكيع عن عمران بن جرير ، عن أبي مجلز قال : جاء عبد الله بن عباس إلى عبد الله بن سلام ، فسأله عن تبع ، فقال : كان تبع رجلاً من العرب ، ظهر على الناس ، وسبا على فتية من الأحبار .

فكان يحدثهم ، ويحدثونه .

فقال قومه : إن تبعاً ترك دينكم ، وتابع الفتية .

فقال : تبع للفتية : ألا ترون إلى ما قال هؤلاء .

فقالوا : بيننا وبينهم النار التي تحرق الكاذب ، وينجو منها الصادق .

قال : نعم .

فقال تبع للفتية : ادخلوه ، فتقلدوا مصاحفهم .

ثم دخلوها ، فانفرجت لهم حتى قطعوها .

ثم قال لقومه : ادخلوها .

فلما دخلوا ، وجدوا حر النار كفوا .

فقال لهم : لتدخلنها ، فدخلوها .

فلما توسطوا ، أحاطت بهم النار ، فأحرقتهم ، وأسلم تبع وكان رجلاً صالحاً .

ويقال : كان اسمه سعد بن ملكي كرب ، وكنيته : أبو كرب .

﴿ كُلٌّ كَذَّبَ الرسل ﴾ يعني : جميع هؤلاء كذبوا رسلهم ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ يعني : وجب عليهم عذابي .

معناه : فاحذروا يا أهل مكة مثل عذاب الأمم الخالية ، فلا تكذبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم قال عز وجل : ﴿ أَفَعَيِينَا بالخلق الاول ﴾ قال مقاتل : يعني : أعجزنا عن الخلق الأول حين خلقناهم ، ولم يكونوا شيئاً .

فكذلك نخلقهم ، ونبعثهم .

أي : ما عيينا عن ذلك ، فكيف نعيي عن بعثهم .

ويقال : معناه أعيينا خلقهم الأول ، ولم يكونوا شيئاً ، لأن الذي قد كان ، فإعادته أيسر في رأي العين من الابتداء .

يقال : عييت بالأمر إذا لم تعرف وجهه .

وقال الزجاج: هذا تقرير تقرر، لأنهم اعترفوا في الابتداء، أن الله عز وجل خلقهم، ولم يكونوا شيئاً.

(71/723)

ثم قال: ﴿ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ يعني: في شك من البعث بعد الموت.

ويقال: بل أقاموا على شكهم.

قوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان ﴾ يعني: جنس الإنسان، وأراد به جميع الخلق ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ يعني: ما يحدث به قلبه، ويتفكر في قلبه ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريد ﴾ يعني: في القدرة عليه، وحبل الوريد عرق يخالط القلب.

ويقال: هو العرق الذي داخل العنق الذي هو عرق الروح، فأعلمه الله تعالى أنه أقرب إليه من ذلك العرق.

ويقال: الوريدان عرقان بين الحلقوم، والعلباوين.

والحبل هو الوريد.

وأضيف إلى نفسه لاختلاف لفظي اسميه.

قوله عز وجل: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى المتلقيان ﴾ يعني: يكتب الملكان عمله، ومنطقه.

يعني : يتلقيان منه ويكتبان .

وقال أهل اللغة تلقى ، وتلقف ، بمعنى واحد .

﴿ عَنِ اليمين وَعَنِ الشمال قَعِيدٌ ﴾ يعني : عن يمين ابن آدم ، وعن شماله قاعدان .

أحدهما عن يمينه ، والآخر عن شماله ، وصاحب اليمين موكل على صاحب الشمال ، اثنان بالليل ، واثنان بالنهار ، وكان في الأصل قعيدان ، ولكن اكتفى بذكر أحدهما فقال : قعيد .

ثم قال عز وجل : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ ﴾ يعني : ما يتكلم ابن آدم بقولٍ ﴿ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ يعني : عنده حافظ حاضر .

وقال الزجاج : ﴿ عَتِيدٌ ﴾ أي : ثابت ، لازم .

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقّ ﴾ يعني : جاءت غمرته بالحق أنه كائن .

ويقال : جاءت نزعات الموت بالحق .

يعني : بالسعادة ، والشقاوة .

يعني : يتبين له عند الموت .

ويقال : فيه تقديم ، ومعناه : جاءت سكرة الحق بالموت .

روي عن أبي بكر الصديق ، أنه كان يقرأ ﴿ وَجَاءتْ سَكْرَةُ الحق ﴾ ﴿ بِالْحَقّ ذَلِكَ مَا

كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ يعني : يقال له : هذا الذي كنت تخاف منه ، وتكره .

ويقال : ذلك اليوم الذي كنت تفر منه .

(72/723)

﴿ وَنُفِخَ فِى الصور ﴾ يعني : النفخة الأخيرة وهي نفخة البعث ﴿ ذَلِكَ يَوْمَ الوعيد ﴾ يعني : العذاب في الآخرة ﴿ وَجَاءتْ ﴾ أي : جاءت يوم القيامة ﴿ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ سائق يسوقها إلى المحشر ، ويسوقها إلى الجنة ، أو إلى النار .

﴿ وَشَهِيدٌ ﴾ يعني : الملك يشهد عليها .

وقال القتبي : السائق هاهنا ، قرينها من الشياطين ، يسوقها .

سمي سائقاً ، لأنه يتبعها ، والشهيد : الملك .

ويقال : الشاهد أعضاؤه .

ويقال : الليل ، والنهار ، والبقعة ، تشهد عليه .

ويقال له : ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هذا ﴾ يعني : من هذا اليوم ، فلم تؤمن به ، وقد ظهر عندك بالمعاينة ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ ﴾ يعني : غطاء الآخرة .

ويقال : أريناك ما كان مستوراً عنك في الدنيا .

ويقال : أريناك الغطاء الذي على أبصارهم ، كما قال : ﴿ غَفْلَةٍ مِّنْ هذا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ اليوم حَدِيدٌ ﴾ أي : نافذ .

ويقال : شاخص بصره لا يطرف ، يديم النظر حين يعاين في الآخرة ، ما كان مكذباً به .

ويقال : ﴿ حَدِيدٍ ﴾ أي : حاد كما يقال : ﴿ حَفِيظٌ ﴾ يعني : حافظ ، وقعيد بمعنى قاعد .

وقال الزجاج : هذا مثل .

ومعناه : إنك كنت بمنزلة من عليه غطاء ﴿ فَبَصَرُكَ اليوم حَدِيدٌ ﴾ يعني : علمك بما أنت فيه نافذ .

(73/723)

قوله عز وجل : ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ ﴾ يعني : ملكه الذي كان يكتب عمله ﴿ هذا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ يعني : هذا الذي وكلتني به قد أتيتك به ، وهو حاضر يقول الله عز وجل ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ ﴾ يعني : يقول للملكين ألقيا في جهنم ﴿ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ وقال بعضهم هذا أمر للملك الواحد بلفظ الاثنين ، وقال الفراء : يرى أصل هذا أن الرفقة أدنى ما تكون ثلاثة نفر ، فجرى كلام الواحد على صاحبيه ، ألا ترى أن الشعراء أكثر شيء : قيلاً يا صاحبي

، ويا خليلي ، قال الشاعر : فقلت لصاحبي لا تحبساني ، وأدنى ما يكون الأمر والنهي في الإعراب اثنان ، فجرى كلامهم على ذلك ومثل هذا قول امرىء القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

ويقال : أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ، على معنى تكرير الأمر ، يعني : ألق ألق ، وهو على معنى التأكيد ، وكذلك في قوله : قفا ، معناه قف قف .

وقال الزجاج : عندي أن قوله أَلْقِيَا أَمر للملكين ، وقال بعضهم : الأمر للواحد بلفظ الاثنين واقع في إطلاق العرب ، وكان الحجاج يقول : يا حرسي اضربا عنقه ﴿ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ ، يعني : كل جاحد بتوحيد الله تعالى معرض عن الإيمان ، وقال مقاتل : يعني الوليد بن المغيرة .

(74/723)

ويقال هذا في جميع الكفار الذين ذكر صفتهم في هذه الآية ، وهي قوله : ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ يعني بخيلاً لا يخرج حق الله من ماله ، ويقال : "مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ" يعني يمتنع عن الإسلام ﴿ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴾ المعتدي هو الظلوم الغشوم ، والمريب الشاك في توحيد الله تعالى قوله تعالى : ﴿ الذى جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ يعني : أشرك بالله عز وجل ﴿ فَأَلْقِيَاهُ فِى الْعَذَابِ

الشديد ﴾ يعني : في النار ﴿ قَالَ قَرِينُهُ ﴾ يعني : شيطانه ﴿ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ يعني : لم يكن لي قوة أن أضله ﴿ ولكن كَانَ فِى ضلال بَعِيدٍ ﴾ يعني : في خطأ طويل بعيد عن الحق ، يقول الله تعالى لابن آدم وشيطانه ﴿ قَالَ لاَ تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ ﴾ أي لا تختصموا عندي ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بالوعيد ﴾ يعني : أخذت عليكم الحجة ، وأخبرتكم بالكتاب والرسول ﴿ مَا يُبَدَّلُ القول لَدَىَّ ﴾ يعني : لا يغير قضائي وحكمي الذي حكمت ، ويقال : لا يكذب وعيدي ﴿ وَمَا أَنَاْ بظلام للّعَبِيدِ ﴾ يعني : لا أعذب أحداً بغير ذنب ، ويقال : مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ، يعني : لا يغير عن جهته ، ولا يحذف منه ، ولا يزاد فيه ، لأني أعلم كيف ضلوا ، وكيف أضللتموهم ، وروى سالم عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُه مِنَ الجِنِّ وَقَرِينُهُ مِنَ المَلاَئِكَةِ " قالوا : وإياك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم " ؟ قال :

(75/723)

" وَإِيَّايْ وَلَكِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ ، فَلاَ يَأْمُرُنِي إِلاَّ بِخَيرٍ " وعن الربيع ، عن أنس ، قال : سألت أبا العالية عن قوله عز وجل : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ [الزمر : 31] وهاهنا يقول : ﴿ لاَ تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ ﴾ فقال : لا تختصموا

لدي في أهل النار ، والأخرى في المؤمنين في المظالم ، فيما بينهم ، وقال مجاهد : ﴿ مَا يُبَدَّلُ القول لَدَيَّ وَمَآ أَنَاْ بظلام لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق : 29] يعني : لقد قضيت ما أنا قاض قوله عز وجل : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ ﴾ قرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر ﴿ يِقُولُ ﴾ بالياء يعني : يقول الله تعالى ، قرأ الباقون بالنون ، ومعناه كذلك يوم صار نصباً على معنى مَا يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ في ذلك اليوم ، ويقال على معنى أنذرهم يوم ، كقوله : ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحسرة إِذْ قُضِيَ الأمر وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [مريم : 39] ثم قال ﴿ هَلِ امتلات ﴾ يعني : هل أوفيتك ما وعدتك ، وهو قوله لأَملأن جَهَنَّمَ ﴿ فَتَقُولُ ﴾ النار ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ يعني : هل من زيادة وقال عطية : هل من موضع ، ويقال معناه هل امتلأت ، أي قد امتلأت ، فليس من مزيد ، ويقال : أنا طلبت الزيادة تغيظاً لمن فيها ، وروى وكيع بإسناده عن أبي هريرة قال : " لا تَزَالُ جَهَنَّمَ تَسَأَلُ الزِّيَادَةَ حتى يضع الله فيها قدمه فَتَقُولُ جَهَنَّمَ يَا رَبَّ قط قط " أي حسبي حسبي ، وقال في رواية الكلبي نحو هذا ، ويقال تضيق بأهلها حتى لا يكون فيها مدخل لرجل واحد .

قال أبو الليث : قد تكلم الناس في مثل هذا الخبر قال بعضهم : نؤمن به ولا نفسره ، وقال بعضهم : نفسره على ما جاء بظاهر لفظه ، وتأوله بعضهم وقال : معنى الخبر بكسر القاف يضع قدمه وهم أقوام سالفة فتمتلىء بذلك .

قوله عز وجل : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الجنة ﴾ يعني : قربت وأدنيت الجنة ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ الذين يتقون الشرك والكبائر ، ويقال زينت الجنة .

(77/723)

ثم قال عز وجل : ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ يعني : ينظرون إليها قبل دخولها ، ويقال غَيْرَ بَعِيدٍ ، يعني : دخولهم غير بعيد ، فيقال لهم ﴿ هذا مَا تُوعَدُونَ ﴾ في الدنيا ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ أي مقبل إلى طاعة الله ، حفيظ لأمر الله تعالى في الخلوات وغيرها ، ويقال : الأواب الحفيظ الذي إذا ذكر خطاياه استغفر منها ، وروى مجاهد عن عبيد بن عمير مثل هذا قوله عز وجل : ﴿ مَّنْ خَشِىَ الرحمن بالغيب ﴾ يعني : يخاف الله عز وجل ، فيعمل بما أمره الله ، وانتهى عما نهاه ، وهو في غيب منه ﴿ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ يعني : مقبلاً إلى طاعة الله مخلصاً ويقال لهم : ﴿ ادخلوها بِسَلامٍ ﴾ ذكر في أول الآية بلفظ الواحدان ، وهو قوله وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ، ثم ذكر بلفظ الجماعة وهو قوله : ﴿ ادخلوها ﴾ لأن لفظه من اسم جنس ، يقع على الواحد ، وعلى الجماعة ، مرة تكون عبارة عن الجماعة ، ومرة تكون عن الواحدان ﴿ ادخلوها بِسَلامٍ ﴾ يعني : بسلامة من العذاب والموت والأمراض

والآفات ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الخلود ﴾ أي لا خروج منه قوله عز وجل : ﴿ لَهُمْ مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا ﴾ يعني : يتمنون فيها ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ يعني : زيادة على ما يتمنون من التحف والكرامات ، ويقال هو الرؤية وكقوله : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أولئك أصحاب الجنة هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ [يونس : 26] ثم قال عز وجل : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مّن قَرْنٍ ﴾ يعني : قبل أهل مكة ﴿ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً ﴾ يعني : أشد من أهل مكة ﴿ فَنَقَّبُواْ فِى البلاد ﴾ يعني : طافوا وتقلبوا في أسفارهم وتجاراتهم ، ويقال : تغربوا في البلاد ﴿ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ يعني : هل من فرار ، وهل من ملجأ من عذاب الله .

(78/723)

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لذكرى ﴾ يعني : فيما صنع لقومك ﴿ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ يعني : عقل لأنه يعقل بالقلب فكني عنه ﴿ أَوْ أَلْقَى السمع ﴾ يعني : استمع إلى القرآن ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ يعني : قلبه حاضر غير غائب عنه ، وقال القتبي : وهو شهيد ، يعني : استمع كتاب الله ، وهو شاهد القلب والفهم ، ليس بغافل ، ولا ساه ، وروى معمر عن قتادة قال : لمن كان له قلب من هذه الأمة ، أو ألقى السمع .

قال رجل من أهل الكتاب : استمع إلى القرآن ، وهو شهيد على ما في يديه من كتاب الله تعالى ، وروي عن عمر أنه قرأ : ﴿ فَنَقَّبُواْ ﴾ بالتخفيف ، يعني : فتبينوا ونظروا وذكروا ، ومنه قيل للعريف نقيب القوم ، لأنه يتعرف أمرهم ، ويبحث عنهم .

وقرأ يحيى بن يعمر ﴿ فَنَقَّبُواْ ﴾ بضم النون ، وكسر القاف ، يعني : تبينوا ، وقرأ الباقون بالتشديد يعني : طوفوا ، وقوله : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً فَنَقَّبُواْ فِى البلاد هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ [ق : 36] يعني : هل من ملجأ من الموت ، قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السموات والأرض ﴾ وذلك أن اليهود قالوا : لما خلق الله السموات والأرض وفرغ منهما ، استراح في يوم السبت فنزل قوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ يعني : ما أصابنا من إعياء ، وإنما يستريح من يعيى .

(79/723)

قوله عز وجل : ﴿ فاصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾ من المنكر ، وهو قولهم : استراح ، ويقال : فاصبر على ما يقولون من التكذيب ، وقال في رواية الكلبي : نزلت في المستهزئين من قريش ، وفي أذاهم للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ

الغروب ﴾ يعني : صل لربك صلاة الفجر ، وصلاة الظهر ، وصلاة العصر ﴿ وَمِنَ الليل ﴾ يعني : المغرب والعشاء ﴿ فَسَبِّحْهُ ﴾ يعني : صل له وهو المغرب والعشاء ﴿ وأدبار السجود ﴾ يعني : ركعتي المغرب ، قرأ ابن كثير ، ونافع ، وحمزة ﴿ وأدبار ﴾ بكسر الألف ، والباقون بالنصب ، فهو جمع الدبر ، ومن قرأ بالكسر فعلى مصدر أدبر يدبر إدباراً ، قال أبو عبيدة : هكذا نقرأ يعني : بالنصب ، لأنه جمع الدبر ، وإنما الإدبار ، هو المصدر كقولك : أدبر ، يدبر ، إدباراً ، ولا إدبار للسجود ، وإنما ذلك للنجوم .

(80/723)

قوله عز وجل : ﴿ واستمع يَوْمَ يُنَادِ المناد ﴾ قرأ أبو عمرو ، ونافع ، وابن كثير : الْمُنَادِي بالياء في الوصل ، وهو الأصل في اللغة ، والباقون بغير ياء ، لأن الكسر يدل عليه فاكتفى به ، ومعنى الآية اعمل واجتهد ، واستعد ليوم القيامة ، يعني : استمع صوت إسرافيل ﴿ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ يعني : من صخرة بيت المقدس ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصيحة بالحق ﴾ يعني : نفخة إسرافيل بالحق أنها كائنة ، وقال مقاتل : في قوله : ﴿ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ قال صخرة : بيت المقدس ، وهي أقرب الأرض من السماء ، بثمانية عشر ميلاً ، وقال الكلبي : باثني عشر ميلاً ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الخروج ﴾ من قبورهم إلى المحاسبة ، ثم إلى إحدى الدارين ،

إما إلى الجنة ، وإما إلى النار ، وقال أبو عبيدة : يوم الخروج اسم من أسماء يوم القيامة ، واستشهد بقول العجاج أليس يوم سميت خروجاً أعظم يوماً سميت عروجاً ، قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ وَنُمِيتُ ﴾ يعني : نحيي في الآخرة ، ونميت في الدنيا الأحياء ، ويقال : إنا نحن نحيي الموتى ونميت الأحياء ﴿ وَإِلَيْنَا المصير ﴾ يعني : المرجع في الآخرة ، يعني : مصير الخلائق كلهم .

قوله عز وجل : ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأرض عَنْهُمْ سِرَاعاً ﴾ يعني : تصدع الأرض عنهم ، قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ﴿ تَشَقَّقُ ﴾ بتشديد الشين ، والباقون بالتخفيف ، لأنه لما حذف إحدى التاءين ترك الشين على حالها ، ثم قال : ﴿ سِرَاعاً ﴾ يعني : خروجهم من القبور سراعاً ﴿ ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ يعني : جمع الخلائق علينا هين ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ في البعث من التكذيب ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ يعني : بمسلط ، يعني : لم تبعث لتجبرهم على الإسلام ، وإنما بعثت بشيراً ونذيراً ، وهذا قبل أن يؤمر بالقتال .

(81/723)

ثم قال : ﴿ فَذَكِّرْ بالقرءان ﴾ يعني : فعظ بالقرآن بما وعد الله فيه ﴿ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ يعني : من يخاف عقوبتي وعذابي والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 323.315 ﴾

(82/723)

وقال الثعلبى :

سورة ق

﴿ ق ﴾

قال ابن عبّاس : هو اسم من أسماء الله سبحانه ، أقسم به . قتادة : اسم من أسماء القرآن ، القرظي : إفتتاح أسماء الله ، قدير ، وقادر ، وقاهر ، وقاضي ، وقابض . الشعبي : فاتحة السُّورة . بُريد ، وعكرمة ، والضحّاك : هو جبل محيط بالأرض من زمردة خضراء ، خضرة السماء منه ، وعليه كتفا السماء ، وما أصاب الناس من زمرد ، فهو ما يسقط من الجبل ، وهي رواية أبي الحوراء ، عن ابن عبّاس . قال وهب بن منبه : إنّ ذا القرنين أتى على جبل قاف ، فرأى حوله جبالاً صغاراً ، فقال له : ما أنت ؟ قال : أنا قاف ، قال : وما هذه الجبال حولك ؟ قال : هي عروقي ، وليست مدينة من المدائن إلاّ وفيها عرق منها ،

فإذا أراد الله أن يزلزل تلك الأرض أمرني ، فحرّكت عرقي ذلك ، فتزلزلت تلك الأرض ، فقال له : يا قاف ، فأخبرني بشيء من عظمة الله ، قال : إنّ شأن ربّنا لعظيم ، تقصر عنه الصفات ، وتنقضي دونه الأوهام .

قال : فأخبرني بأدنى ما يوصف منها . قال : إنّ ورائي لأرضاً مسيرة خمسمائة عام في عرض خمسمائة عام من جبال ثلج يحطم بعضه بعضاً ، لولا ذاك الثلج لاحترقت من حرّ جهنّم . قال : زدني ، قال : إنّ جبريل عليه السلام واقف بين يدي الله سبحانه ترعد فرائصه ، يخلق الله من كلّ رعدة مائة ألف ملك ، وأُولئك الملائكة صفوف بين يدي الله سبحانه ، منكّسو رؤوسهم ، فإذا أذن الله لهم في الكلام ، قالوا : لا إله إلاّ الله ، وهو قوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الروح والملائكة صَفّاً لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن وَقَالَ صَوَاباً ﴾ [النبأ : 38] يعني لا إله إلاّ الله .

وقال الفرّاء : وسمعت من يقول : (ق) : قضي ما هو كائن ، وقال أبو بكر الورّاق : معناه قف عند أمرنا ، ونهينا ، ولا تعدهما . وقيل : معناه قل يا محمّد .

(83/723)

أحمد بن عاصم الأنطاكي ، هو قرب الله سبحانه من عباده ، بيانه ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريد ﴾ [ق : 16] وقال ابن عطاء : أقسم بقوّة قلب حبيبه محمّد صلى الله عليه وسلم حيث حمل الخطاب ، ولم يؤثر ذلك فيه لعلوّ حاله . ﴿ والقرآن المجيد ﴾ الشريف ، الكريم على الله الكبير ، الخبير .

واختلف العلماء في جواب هذا القسم ، فقال أهل الكوفة : ﴿ بَلْ عجبوا ﴾ ، وقال الأخفش : جوابه محذوف مجازه ﴿ ق والقرآن المجيد ﴾ لتبعثن ، وقال ابن كيسان : جوابه قوله : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ ﴾ الآية ، وقيل : قد علمنا ، وجوابات القسم سبعة : ﴿ إِنَّ ﴾ الشديدة ، كقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لبالمرصاد ﴾ [الفجر : 14] و (ما) النفي كقوله : ﴿ والضحى . . . مَا وَدَّعَكَ ﴾ [الضحى : 1-3] و (اللام) المفتوحة ، كقوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر : 92] و (إنْ) الخفيفة كقوله سبحانه : ﴿ تالله إِن كُنَّا لَفِي ﴾ [الشعراء : 97] ، و (لا) كقوله : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ [الأنعام : 109] ، لا يبعث الله من يموت ، وقد كقوله : ﴿ والشمس وَضُحَاهَا . . قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾

[الشمس : 91] وبل كقوله : ﴿ ق والقرآن المجيد ﴾ ﴿ بَلْ عجبوا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ يعرفون حسبه ، ونسبه ، وصدقه ، وأمانته . ﴿ فَقَالَ الكافرون هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ غريب .

﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ﴾ نُبعث ، فترك ذكر البعث لدلالة الكلام عليه . ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ يقال : رجعته رجعاً ، فرجع هو رجوعاً ، قال الله سبحانه : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللهُ إِلَى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ [التوبة : 83] قال الله سبحانه : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ ما تأكله من عظامهم ، وأجسامهم ، وقيل : معناه قد علمنا ما يبلى منهم ، وما يبقى لأنّ العصعص لا تأكله الأرض كما جاء في الحديث : "كلّ ابن آدم يبلى ، إلاّ عجب الذنب ، منه خلق ومنه يركب " وأبدان الأنبياء والشهداء أيضاً لا تبلى .

وقال السدي : والموت يقول : قد علمنا من يموت منهم ، ومن يبقى . ﴿ كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ محفوظ من الشياطين ، ومن أن يدرس ، ويبعثر ، وهو اللوح المحفوظ ، المكتوب فيه جميع الأشياء المقدّرة .

﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِالحق ﴾ بالقرآن . ﴿ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ قال أبو حمزة : سُئل ابن عبّاس عن المريج ، فقال : هو الشيء المكر ، أما سمعت قول الشاعر :

فجالت فالتمست به حشاها . . . فخر كأنه خوط مريج

الوالبي عنه : أمر مختلف . العوفي عنه : أمر ضلالة . سعيد بن جبير ، ومجاهد : ملتبس ،

قال قتادة : في هذه الآية من نزل الحقّ مرج أمره عليه ، والتبس دينه عليه . ابن زيد : مختلط ، وقيل : فاسد ، وقيل : متغير . وكلّ هذه الأقاويل متقاربة ، وأصل المرج الاضطراب ، والقلق ، يقال : مرج أمر الناس ، ومرج الدّين ، ومرج الخاتم في إصبعي وخرج إذا قلق من الهزال ، قال الشاعر :

مرج الدّين فأعددت له . . . مشرف الحارك محبوك الكتد

وفي الحديث : " مرجت عهودهم ، وأمانيهم " .

(85/723)

﴿ أَفَلَمْ ينظروا إِلَى السمآء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ أي شقوق ، وفتوق ، واحدها فرج ، وقال ابن زيد : الفروج الشيء المتفرّق المتبري بعضه من بعض ، وقال الكسائي : ليس فيها تفاوت ، ولا اختلاف ﴿ والأرض مَدَدْنَاهَا ﴾ بسطناها على وجه الماء ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ ﴾ لون ﴿ بَهِيجٍ ﴾ حسن كريم يُبهج به أي يُسر . ﴿ تَبْصِرَةً ﴾ أي جعلنا ذلك تبصرة ، وقال أبو حاتم : نُصبت على المصدر . ﴿ وذكرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ يعني تبصر أو تذكّر إنابتها له ، لأنّ من قدر على خلق السماوات ، والأرض ، والنبات ، قدر على بعثهم ، ونظير التبصرة من المصادر

التكملة ، والتفضلة ، ومن المضاعف النخلة ، والبعرة .

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السمآء مَآءً مُّبَارَكاً فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الحصيد ﴾ يعني البر ، والشعير ، وسائر الحبوب التي تحصد وتدّخر وتقتات ، وأضاف الحَبّ إلى الحصيد ، وهما واحد ، لاختلاف اللفظين ، كما يقال : مسجد الجامع ، وربيع الأوّل ، وحقّ اليقين ، وحبل الوريد ، ونحوها . ﴿ والنخل بَاسِقَاتٍ ﴾ قال مجاهد ، وعكرمة ، وقتادة : طوالاً ، وقال عبد الله بن شداد بن الهاد : سوقها لاستقامتها في الطول . سعيد بن جبير : مستويات . الحسن والفرّاء : مواقير حوامل ، يقال للشاة إذا ولدت : أبسقت ، ومحلّها نصب على الحال ، والقطع .

أخبرني الحسن ، قال : حدّثنا عمر بن أحمد بن القاسم النهاوندي ، قال : حدّثنا عبيد بن محمد بن صبح الكناني . قال : حدّثنا هشام بن يونس النهشلي ، قال : حدّثنا سفيان بن عيينة ، عن زياد بن علاقة ، عن قطبة بن مالك . قال : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ : (والنّخل باصقات) بالصاد .

﴿ لَّهَا طَلْعٌ ﴾ تمر ، وحمل سمّي بذلك لأنّه يطلع . ﴿ نَّضِيدٌ ﴾ متراكب متراكم ، قد نضد بعضه على بعض . قال بن الأجدع : نخل الجنّة نضيد من أصلها إلى فرعها ، وثمرها أمثال [القلال] والدلاء ، وأنهارها تجري في [عبر] أخدود ﴿ رِّزْقاً ﴾ أي جعلناه رزقاً ﴿ لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ .

أخبرني ابن منجويه ، قال : حدّثنا ابن صقلاب . قال : حدّثنا ابن أبي الخصيب ، قال : حدّثني ابن أبي الجوادي ، قال : حدّثنا [عتيق] بن يعقوب ، عن إبراهيم بن قدامة ، عن أبي عبد الله الأغر ، عن أبي هريرة ، قال : "كان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا جاءهم المطر ، فسالت الميازيب ، قال : "لا محْل عليكم العام" أي الجدب . ﴿ كَذَلِكَ الخروج ﴾ من القبور .

(87/723)

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرس وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الأيكة وَقَوْمُ تُّبَّعٍ ﴾ وهو ملك اليمن ، ويسمّى تبّعاً لكثرة أتباعه ، وكان يعبد النار فأسلم ، ودعا قومه إلى الإسلام ، وهم من حِمْيَر ، فكذّبوه ، وكان خبره وخبر قومه ما أخبرنا عبد الله بن حامد ، قال : أخبرني أبو علي إسماعيل بن سعدان ، قال : أخبرني

علي بن أحمد ، قال : حدّثنا محمد ابن جرير ، وأخبرني عقيل أنّ أبا الفرج أخبرهم عن ابن جرير ، قال : حدّثنا ابن حميد ، قال : حدّثنا سلمة ، قال : حدّثنا محمد بن إسحاق ، قال : كان تبّع الآخر ، وهو أسعد أبو كرب بن ملكي كرب ، حين أقبل من المشرق ، جعل طريقه على المدينة ، وكان حين مر بها لم يهيج أهلها ، وخلّف بين أظهرهم ابناً له ، فقتل غيلة ، فقدمها ، وهو مجمع لإخراجها ، واستئصال أهلها ، وقطع نخيلها ، فجمع له هذا الحيّ من الأنصار ، حين سمعوا ذلك من أمره امتنعوا منه ، ورئيسهم يومئذ عمرو بن ظلم أخو بني النجار أحد بني عمرو ، فخرجوا لقتاله ، وكان تبّع نزل بهم قبل ذلك ، فقتل رجل منهم ، من بني عدي بن النجّار ، يقال له : أحمر ، رجلاً من صحابة تبّع ، وجده في عذق له بجدة فضربه بنخلة فقتله .

(88/723)

وقال : إنّما التمرة لمن أبره ، ثمّ ألقاه حين قتله في بئر من آبارهم معروفة ، يقال لها : ذات تومان ، فزاد ذلك تبعاً حنقاً عليهم ، فبينا تبّع على ذلك من حربهم يقاتلهم ويقاتلونه ، قال : فيزعم الأنصار أنّهم كانوا يقاتلونه بالنهار ، ويقرونه بالليل ، فيعجبه ذلك ، ويقول : والله إنّ قومنا هؤلاء لكرام ، إذ جاءه حبران من أحبار يهود بني قريظة ، عالمان راسخان ، وكانا

ابني عمرو ، وكانا أعلم أهل زمانهما ، فجاءا تبّعاً حين سمعا ما يريد من إهلاك المدينة ، وأهلها ، فقالا له : أيّها الملك لا تفعل ، فإنّك إن أتيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها ، ولم يأمن عليك عاجل العقوبة ، فقال لهما : ولِمَ ذاك ؟ قالا : هي مهاجر نبي يخرج من هذا الحيّ من قريش في آخر الزمان ، تكون داره وقراره ، فتناهى لقولهما عمّا كان يريد بالمدينة ، ورأى أنّ لهما علماً ، وأعجبه ما سمع منهما ، أنّهما دعواه إلى دينهما ، فليتبعهما على دينهما ، فقال تبع في ذلك :

ما بال نومك مثل نوم الأرمد . . . أرقا كأنك لا تزال تسهد

حنقاً على سبطين حلاّ يثرباً . . . أولى لهم بعقاب يوم مفسد

ولقد هبطنا يثرباً وصدورنا . . . تغلي بلابلها بقتل محصد

ولقد حلفت يمين صبر مؤلياً . . . قسماً لعمرك ليس بالتمردد

أن جئت يثرب لا أغادر وسطها . . . عذقاً ولا بسراً بيثرب يخلد

حتى أتاني من قريظة عالم . . . خبر لعمرك في اليهود مسود

قال ازدجر عن قرية محفوظة . . . لنبي مكّة من قريش مهتد

فعفوت عنهم عفو غير مثرب . . . وتركتهم لعقاب يوم سرمد

وتركتهم لله أرجو عفوه . . . يوم الحساب من الجحيم الموقد

ولقد تركت بها له من قومنا . . . نفراً أُولي حسب وبأس يحمد

نفراً يكون النصر في أعقابهم . . . أرجو بذاك ثواب ربّ محمّد

(89/723)

فلمّا [. . . . .] تبع إلى دينهما أكرمهما وانصرف عن المدينة ، وخرج بهما إلى اليمن ولمّا [دنا من] اليمن ليدخلها حالت حِمْير بينه وبين ذلك ، وقالوا : لا تدخلها علينا ، وقد فارقت ديننا ، فدعاهم إلى دينه ، وقال : إنه دين خير من دينكم .

قالوا : فحاكمنا إلى النار . وكانت باليمن نار في أسفل جبل يقال له : ندا ، يتحاكمون إليها ، فيما يختلفون فيه ، فتحكم بينهم ، تأكل الظالم ، ولا تضرّ المظلوم ، فلمّا قالوا ذلك لتبّع ، قال : أنصفتم ، فخرج قومه بأوثانهم ، وما يتقرّبون به في دينهم ، وخرج الحبران ، مصاحفهما في أعناقهما متقلّداهما ، حتّى قعدوا للنّار عند مخرجها التي تخرج منه ، فخرجت النار إليهم ، ولمّا أقبلت نحو حِمْير ، حادوا عنها ، وهابوها فدعاهم من حضرهم من الناس ، وأمروهم بالصبر لها ؛ فصبروا حتّى غشيتهم ، فأكلت الأوثان ، وما قربوا معها ، ومن حَمَلَ ذلك من رجال حمير ، وخرج الحبران ومصاحفهما في أعناقهما ، يتلون التوراة ، تعرق جباههما ، لم تضرّهما ، ونكصت النار حتّى رجعت إلى مخرجها الذي خرجت منه ،

فأطبقت حمير عند ذلك على دينهما .

فمن هناك كان أصل اليهودية باليمن .

وكان لهم بيت يعظمونه ، وينحرون عنده ، ويكلّمون منه ، إذا كانوا على شركهم ، فقال الحبران القرظيان ، وأسماهما كعب وأسد لتبّع : إنّما هو شيطان (يفنيهم ويلغيهم) ، فخلّ بيننا وبينه . قال : فشأنكما به . فاستخرجا منه كلباً أسود ، فذبحاه ، ثمّ هدما ذلك البيت ، فبقاياه اليوم باليمن كما ذكر لي .

وروى أبي دريد ، عن أبي حاتم ، عن الرياشي ، قال : كان أبو كرب أسعد الحميري من التبابعة ، آمن بالنبيّ صلى الله عليه وسلم محمّد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث بسبعمائة سنة ، وقال في ذلك شعراً :

شهدت على أحمد أنّه . . . رسول من الله باري النسم

فلو مد عمري إلى عمره . . . لكنت صهراً له وابن عمّ

(90/723)

﴿ كُلٌّ كَذَّبَ الرسل فَحَقَّ ﴾ وجب ﴿ وَعِيدِ ﴾ لهم بالعذاب يخوف كفّار مكّة ، قال قتادة : دمر الله سبحانه وتعالى قوم تبّع ، ولم يدمّره ، وكان من ملوك اليمن ، فسار بالجيوش ،

وافتتح البلاد ، وقصد مكّة ليهدم البيت ، فقيل له : إنّ لهذا البيت ربّاً يحميه ، فندم وأحرم ، ودخل مكّة ، وطاف بالبيت ، وكساه ، فهو أوّل من كسا البيت ﴿ أَفَعَيِينَا بالخلق الأول ﴾ أي عجزنا عنه ، وتعذر علينا [الأول فهم في شك الإعادة للخلق] الثاني . ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وهو البعث .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ يحدّثه قلبه ، فلا يخفى علينا أسراره ، وضمائره ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ أي أعلم به ، وأقدر عليه ﴿ مِنْ حَبْلِ الوريد ﴾ لأنّ أبعاضه ، وأجزاءه يحجب بعضها بعضاً ، ولا يحجب علم الله سبحانه عن جميع ذلك شيء ، وحبل الوريد : عرق العنق ، وهو عرق بين الحلقوم ، والعلباوين ، وجمعه أوردة ، والحبل من الوريد وأُضيف إلى نفسه لاختلاف اللفظين ، قال الشاعر :

فقرت للفجار فجاء سعياً . . . إذا ما جاش وانتفخ الوريد

﴿ إِذْ يَتَلَقَّى المتلقيان ﴾ أي يتلقّى ، ويأخذ الملكان الموكلان عليك ، وكَّل الله سبحانه بالإنسان مع علمه بأحواله ، ملكين بالليل ، وملكين بالنهار يحفظان عمله ، ويكتبان أثره ، إلزاماً للحجّة ، أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات ، والآخر عن شماله يكتب السيّئات ، فذلك قوله سبحانه : ﴿ عَنِ اليمين وَعَنِ الشمال قَعِيدٌ ﴾ ولم يقل : قعيدان . قال أهل البصرة : لأنّه أراد عن اليمين قعيد ، وعن الشمال قعيد ، فاكتفى بأحدهما عن الآخر ، كقول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك . . . راض والرأي مختلف

وقول الفرزدق :

إنّي ضمنت لمن أتاني ما جنى . . . وأبى فكان وكنت غير غدور

(91/723)

ولم يقل : غدورين ، والقعيد ، والقاعد كالسميع ، والعليم ، والقدير ، فقال أهل الكوفة : أراد قعوداً رده إلى الجنس ، فوضع الواحد موضع الجمع ، كالرسول في الاثنين يجعل للاثنين ، والجمع ، قال الله سبحانه في الاثنين : ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين ﴾ [الشعراء : 16]

وقال الشاعر :

ألكني إليها وخير الرسول . . . أعلمهم بنواحي الخبر

أخبرنا الحسين ، قال : حدّثنا أحمد بن جعفر بن سالم الختلي . قال : حدّثنا أحمد بن أيوب الرخاني . قال : حدّثنا جميل بن الحسن ، قال : حدّثنا أرطأة بن الأشعث العدوي ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن علي بن أبي طالب ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إنّ مقعد ملكيك على ثنيتيك ، ولسانك قلمهما ، وريقك مدادهما ، وأنت تجري أظنّه قال : فيما لا يعنيك لا تستحي من الله ، ولا منهما " .

وأخبرنا الحسين بن محمد بن منجويه الدينوري ، قال : حدّثنا أحمد بن جعفر بن حمدان ، قال : حدّثنا الفضل بن العبّاس بن مهران . قال : حدّثنا طالوت . قال : حدّثنا حمّاد بن سلمة . قال : أخبرنا جعفر بن الزبير ، عن القاسم بن محمد ، عن أبي أُمامة ، قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "كاتب الحسنات على يمين الرجل ، وكاتب السيّئات على يسار الرجل ، وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيّئات ، فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشراً ، وإذا عمل سيئة ، قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : دعه سبع ساعات لعلّه يسبّح أو يستغفر " .

قال الحسن : إنّ الملائكة يجتنبون الإنسان على حالين : عند غائطه ، وعند جماعه ، وقال أبو الجوزاء ، ومجاهد : يكتبان عليه كلّ شيء حتّى أنينه في مرضه ، وقال عكرمة : لا يكتبان عليه إلاّ ما يؤجر عليه أو يؤزر فيه ، وقال الضحّاك : مجلسهما تحت الشعر على الحنك .

ومثله روى عوف عن الحسن ، قال : وكان الحسن يعجبه أن ينظف عنفقته .

وقال عطية ومجاهد : القعيد الرصيد .

(92/723)

أخبرنا أبو القاسم بن حبيب في سنة ست وثمانين وثلاثمائة ، قال : حدّثنا أبو محمد البلاذري . قال : حدّثنا محمد بن أيّوب الرازي . قال : حدّثنا أبو التقى هشام بن عبد الملك . قال : حدّثنا مبشر بن إسماعيل الحلبي ، عن تمام بن نجيح ، عن الحسن ، عن أبي هريرة ، وأنس ، قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما من حافظين يرفعان إلى الله سبحانه ما حفظا فيرى الله سبحانه في أوّل الصحيفة خيراً ، وفي آخرها خيراً ، إلاّ قال لملائكته : اشهدوا أنّي قد غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة " .

وأخبرنا أبو سهل بن حبيب بقراءتي عليه ، قال : حدّثنا أبو بكر أحمد بن موسى ، قال : حدّثنا زنجويه بن محمد . قال : حدّثنا إسماعيل بن قتيبة . قال : حدّثنا يحيى بن يحيى . قال : حدّثنا عثمان بن مطر الشيباني ، عن ثابت عن أنس . أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " بأنّ الله سبحانه وكّل بعبده المؤمن ملكين يكتبان عمله ، فإذا مات ، قال الملكان اللّذان وكّلا به يكتبان عمله : قد مات فلان ، فيأذن لنا ، فنصعد إلى السماء ، فيقول الله سبحانه : سمائي مملوءة من ملائكتي يسبّحون ، فيقولان : نقيم في الأرض . فيقول الله سبحانه : أرضي مملوءة من خلقي يسبّحون . فيقولان : فأين ؟ فيقول : قوما على قبر عبدي . فكبّراني ، وهللاني ، واكتبا ذلك لعبدي ليوم القيامة " .

﴿ مَّا يَلْفِظُ ﴾ يتكلّم . ﴿ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ ﴾ عنده ﴿ رَقِيبٌ ﴾ حافظ ﴿ عَتِيدٌ ﴾ حاضر ، وهو بمعنى المعتد من قوله : ﴿ اعتدنا ﴾ والعرب تعاقب بين (التاء) و (الذال

) لقرب مخرجهما ، فيقول : اعتددت ، وأعذدت ، وهرذ ، وهرت ، وكبذ ، وكبت ، ونحوهما ، قال الشاعر :

لئن كنت مني في العيان مغيباً . . . فذكرك عندي في الفؤاد عتيد

(93/723)

﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ أي وجاءت سكرة الحقّ بالموت ؛ لأنّ السكرة هي الحقّ ، فأضيفت إلى نفسه لاختلاف الإسمين وقيل : الحقّ هو الله عزّ وجلّ ، مجازه وجاء سكرة أمر الله بالموت . أنبأني عقيل ، قال : أخبرنا المعافى ، قال : أخبرنا جوير . قال : حدّثنا ابن المثنى ، قال : حدّثنا محمد بن جعفر ، قال : حدّثنا شعبة ، عن واصل ، عن أبي وائل قال : لما كان أبو بكر يقضي ، قالت عائشة :

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى . . . إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فقال أبو بكر : يا بنية لا هو لي ، ولكنّه كما قال الله سبحانه : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ أي تكره ، عن ابن عبّاس ، وقال الحسن : تهرب . الضحّاك : تروغ . عطاء الخراساني : تميل . مقاتل بن حيان : تنكص . وأصل الحيد

الميل ، يقال : حدت عن الشيء أحيد حيداً ، ومحيداً إذا ملت عنه . قال طرفة :

أبا منذر رمت الوفاء فهبته . . . وحدت كما حاد البعير عن الدحض

(94/723)

﴿ وَنُفِخَ فِي الصور ﴾ يعني نفخة البعث . ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الوعيد ﴾ الذي وعده الله سبحانه للكفّار يلعنهم فيه . ﴿ وَجَآءَتْ ﴾ ذلك اليوم ﴿ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ ﴾ يسوقها إلى المحشر ﴿ وَشَهِيدٌ ﴾ شهد عليه بما عملت في الدّنيا من خير أو شرّ . وروي أنّ عثمان بن عفّان خطب ، وقرأ هذه الآية ، فقال : السائق يسوقها إلى الله سبحانه ، والشاهد يشهد عليه بما عملت ، وقال الضحّاك : السائق الملائكة ، والشاهد من أنفسهم الأيدي ، والأرجل . وهي رواية العوفي عن ابن عبّاس ، وقال أبو هريرة : السائق الملك ، والشهيد العمل ، وقال الباقون : هما جميعاً من الملائكة ، فيقول الله سبحانه لها : ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هذا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ ﴾ ورفعنا عنك عماك ، وخلّينا عنك سترك ، حتّى عاينته . ﴿ فَبَصَرُكَ اليوم حَدِيدٌ ﴾ قوي ، نافذ ، ثابت ، ترى ما كان محجوباً عنك . وروى عبد الوهاب ، عن مجاهد ، عن أبيه ﴿ فَبَصَرُكَ اليوم حَدِيدٌ ﴾ قال : نظرك إليّ لبيان ميزانك حين توزن حسناتك ، وسيّئاتك .

وقيل : أراد بالبصر العلم ، عِلمَ حين لم ينفعه العلم ، وأبصر حين لم ينفعه البصر . وقرأ عاصم الجحدري ﴿ لَّقَدْ كُنتَ ﴾ بكسر (التاء) ، وبكسر (الكاف) ، رد الكتابة إلى النفس . ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ ﴾ الملك الموكّل به ﴿ هذا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ معد محفوظ محضر ، قال مجاهد : هذا الذي وكّلني به من بني آدم ، قد أحضرته ، وأحضرت ديوان أعماله ، فيقول الله سبحانه لقرينه : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾ قال الخليل ، والأخفش : هذا كلام العرب الصحيح أن يخاطب الواحد بلفظ الاثنين ، وهو جيد حسن ، فيقول : ويلك أرحلاها ، وازجراها ، وخذاه واطلقاه للواحد . قال الفراء : وأصل ذلك إذا دنا أعوان الرجل في إبله ، وغنمه ، وبقره ، اثنان ، فجرى كلام الواحد على صاحبيه ، ومنه قولهم للواحد في الشعر : خليلي (ثم يقول : يا صاح) . قال امرؤ القيس :

خليلي مُرّا بي على أُمّ جندب . . . نقض لبانات الفؤاد المعذّب

وقال :

قِفا نبك عن ذكرى حبيب ومنزل . . . وقال : قفا نبك من ذكرى حبيب وعروان .

قال الآخر :

فقلت لصاحبي لا تعجلانا . . . بنزع أصوله واجتز شيحا

وأنشد أبو ثروان :

فإن تزجرني يا بن عفان أنزجر . . . وإن تدعاني أحم عرضا ممنعا

وقيل : يشبه أن يكون عني به تكرار القول فيه ، فكأنّه يقول : إلق إلق ، فناب ألقيا مناب التكرار ، ويجوز أن تكون ألقيا تثنية على الحقيقة ، ويكون الخطاب للمتلقيين معاً أو السائق والشاهد جميعاً ، وقرأ الحسن (ألقينْ) بنون التأكيد الخفيفة ، كقوله : ﴿ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّن الصاغرين ﴾ [يوسف : 32] ﴿ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ عاص معرض عن الحقّ ، قال مجاهد وعكرمة : مجانب للحقّ معاند لله .

﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ أي للزكاة المفروضة ، وكلّ حقّ واجب في ماله .

(96/723)

﴿ مُعْتَدٍ ﴾ ظالم . ﴿ مُّرِيبٍ ﴾ مشكّك ، وقال قتادة : شاك ومعناه : إنّه داخل في الريب ﴿ الذي جَعَلَ مَعَ اللهِ إلها آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي العذاب الشديد ﴾ وقيل : نزلت في الوليد بن المغيرة ، فأراد بقوله : ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ أنّه كان يمنع بني أخيه عن الإسلام ، ويقول : لئن دخل أحدكم في دين محمّد لا أنفعه بخير ما عشت .

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ ﴾ يعني الشيطان الذي قُيّض لهذا الكافر العنيد ﴿ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ ما أضللتُه ، وما أغويته .

(97/723)

وقال القرظي : ما أكرهته على الطغيان . ﴿ ولكن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ عن الحقّ فتبرأ شيطانه عنه ، وقال ابن عبّاس ، ومقاتل : قال قرينه يعني الملك ، وذلك أنّ الوليد بن المغيرة يقول للملك الذي كان يكتب السيئات : ربّ إنّه أعجلني ، فيقول الملك ربّنا ما أطغيته ، ما أعجلته ، وقال سعيد بن جبير : يقول الكافر : ربِّ إنّ الملك زاد عليَّ في الكتابة ، فيقول الملك : ربّنا ما أطغيته ، يعني ما زدت عليه ، وما كتبت إلاَّ ما قال وعمل ، فحينئذ يقول الله سبحانه : ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ ﴾ فقد قضيت ما أنا قاض . ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بالوعيد ﴾ في القرآن حذّرتكم ، وأنذرتكم ، فلا تبديل لقولي ولوعيدي . قال ابن عبّاس : إنّهم اعتذروا بغير عذر ، فأبطل الله حجّتهم ، ورد عليهم قولهم ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ﴾ وهو قوله : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ [هود : 119] ، وقال الفرّاء : معناه ما يكذب عندي لعلمي بالغيب ﴿ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ فأعاقبهم بغير جرم أو أجزي بالحسن سيّئاً . ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ ﴾ قرأ قتادة ، والأعرج ،

وشيبة ، ونافع (نقول) (بالتاء) ، ومثله روى أبو بكر عن عاصم ، اعتباراً بقوله ، قال : لا تختصموا لديّ ، وقرأ الحسن يوم (يقال) وقرأ الباقون يوم (نقول) (بالنون) (لجهنّم) ﴿ هَلِ امتلأت ﴾ لما سبق من وعده إيّاها أنّه يملأها ﴿ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ [هود : 119] وهذا السؤال منه على طريق التصديق بخبره ، والتحقيق لوعده والتقريع لأهل عذابه ، والتنبيه لجميع عباده .

(98/723)

﴿ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ يحتمل أن يكون جحداً مجازه ما من مزيد ، ويحتمل أن يكون استفهاماً ، بمعنى هل من مزيد ، فأزاده وإنّما صلح ﴿ هَلْ ﴾ للوجهين جميعاً ، لأنّ في الاستفهام ضرباً من الجحد ، وطرفاً من النفي ، قال ابن عبّاس : إنّ الله سبحانه وتعالى ، قد سبقت كلمته ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ [هود : 119 ، السجدة : 13] فلمّا بعث للنّاس ، وسبق أعداء الله إلى النار زمراً ، جعلوا يقحمون في جهنّم فوجاً فوجاً ، لا يلقى في جهنّم شيء إلاّ ذهب فيها ، ولا يملأها شيء .

فقالت : ألست قد أقمت لتملأني ؟ فوضع قدمه عليها ، ثمّ يقول لها : هل امتلأت ؟ فتقول : قط قط ، قد امتلأت ، فليس من مزيد . قال ابن عبّاس : ولم يكن يملأها شيء حتّى مس

قدم الله فتضايقت فما فيها موضع إبرة ، ودليل هذا التأويل ما أنبأني عقيل ، قال : أخبرنا المعافى ، قال : أخبرنا ابن جرير ، قال : حدّثنا بشر ، قال : حدّثنا يزيد ، قال : حدّثنا سعيد ، عن قتادة ، عن أنس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تزال جهنّم يلقى فيها ، وتقول : هل من مزيد ؟ حتّى يضع ربّ العالمين فيها قدمه ، فتتزاوي بعضها إلى بعض ، وتقول : قد قد بعزّتك ، وكرمك ، ولا يزال في الجنّة فضل ، حتّى ينشئ الله سبحانه لها خلقاً ، فيسكنهم فضل الجنّة " .

(99/723)

وأخبرنا ابن حمدون ، قال : أخبرنا ابن الشرقي ، قال : حدّثنا محمّد بن يحيى ، وعبد الرّحمن بن بشر ، وأحمد بن يوسف ، قالوا : حدّثنا عبد الرزّاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن همام ابن منبه ، قال : هذا ما حدّثنا أبو هريرة ، عن محمّد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " تحاجت الجنّة والنّار ، فقالت النّار : أُوثرت بالمتكبّرين والمتجبّرين ، وقالت الجنّة : فما لي لا يدخلني إلاّ ضعفاء الناس وسقطهم ؟ فقال الله سبحانه للجنّه : إنّما أنت رحمتي ، أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال للنّار : إنّما أنت عذابي ، أُعذّب بك من أشاء من عبادي ، ولكلّ واحدة منكما ملأها ، فأمّا النار ، فإنّهم يلقون فيها وتقول : هل من مزيد ؟

فلا تمتلئ حتّى يضع الله سبحانه وتعالى فيها رجله فتقول : قط قط ، فهناك تمتلأ وتزوي بعضها إلى بعض ، ولا يظلم الله من خلقه أحداً ، وأمّا الجنّة ، فإنّ الله عزّ وجلّ ينشئ لها خلقاً " .

قلت : هذان الحديثان في ذكر القدم ، والرجل ، صحيحان مشهوران ، ولهما طرق من حديث أبي هريرة ، وأنس ، تركتُ ذكرهما كراهة الإطالة ، ومعنى القدم المذكور في هذا الحديث المأثور قوم يقدمهم الله إلى جهنّم ، يملأها بهم ، قد سبق في عمله إنّهم صائرون إليها وخالدون فيها ، وقال النضر بن شميل : سألت الخليل بن أحمد عن معنى هذا الحديث ، فقال : هم قوم قدمهم الله للنار ، وقال عبد الرّحمن بن المبارك : هم مَن قد سبق في علمه أنّه من أهل النّار . وكلّ ما يقدم ، فهو قدم . قال الله سبحانه : إنّ لهم قدم صدق عند ربّهم ، يعني أعمال صالحة قدّموها ، وقال الشاعر يذمّ رجلا :

قعدت به قدم الفجار وغودرت . . . وعود ربّ أسبابه من فتنة من خالق

يعني ليس له ما يفتخر بهم .

(100/723)

على انّ الأوزاعي روى هذا الحديث عن حسّان بن عطية ، حتى يضع الجبّار قِدمه بكسر القاف ، وكذلك روى وهب بن منبه ، وقال : إنّ الله سبحانه كان قد خلق قوماً قبل آدم ، يقال لهم : القدم ، رؤوسهم كرؤوس الكلاب والذباب ، وسائر أعضائهم كأعضاء بني آدم ، فعصوا ربّهم ، وأهلكهم الله ، يملأ الله بهم جهنّم حين تستزيد . وأمّا الرِجل فهو العدد الكبير من الناس وغيرهم .

يقال : رأيت رِجلاً من الناس ، ومرّ بنا رجل من جياد ، وقال الأصمعي : سمعت بعض الأعراب تقول : ما هلك على رِجل نبيّ من الأنبياء ما هلك على رِجل موسى ، يعني القبط ، وقال الشاعر :

فمرّ بنا رِجل من النّاس وانزوى . . . إليهم من الحيّ اليمانين أرجل

قبائل من لخم وحمير . . . على ابني نزار بالعداوة أحفل

ويصدق هذا التأويل قوله صلى الله عليه وسلم في سياق الحديث : " ولا يظلم الله من خلقه أحداً "

، فدلَّ أنّ الموضوع الملقى في النّار خلق من خلقه ، وقال بعضهم : أراد قَدم بعض ملائكته ورِجله ، وأضاف إليه كقوله : وسئل القرية . والله أعلم . ﴿ وَأُزْلِفَتِ ﴾ وأدنيت ﴿ الجنةِ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ حتّى يروها قبل أن يدخلوها . ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ منهم وهو تأكيد ، ويقال لهم : ﴿ هذا مَا تُوعَدُونَ ﴾ في الدنيا على ألسنة الأنبياء .

﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴾ توّاب ، عن الضحّاك . وقيل : رجّاع إلى الطاعة عن ابن زيد ، وقال ابن عبّاس وعطاء : الأوّاب المسبّح من قوله سبحانه : ﴿ يا جبال أَوِّبِي ﴾ [سبأ : 10] . الحكم بن عيينة : هو الذاكر لله في الخلاء . الشعبي ومجاهد : الذي يذكر ذنوبه في الخلاء ، فيستغفر منها . قتادة : المصلّي . مقاتل بن حيان : المطيع . عبيد بن عسر : هو الذي لا يقوم من مجلسه حتى يستغفر الله تعالى . أبو بكر الورّاق : المتوكّل على الله سبحانه في السراء والضراء لا يهتدي إلى غير الله . المحاسني : هو الراجع بقلبه إلى ربّه . القاسم : هو الذي لا ينشغل إلاّ بالله .

(101/723)

﴿ حَفِيظٍ ﴾ قال ابن عبّاس : هو الذي حفظ ذنوبه حتّى يرجع عنها . قتادة : حفيظ لما استودعه الله سبحانه من حقّه ونعمته . وعن ابن عبّاس أيضاً : الحافظ لأمر الله . الضحّاك : المحافظ على نفسه المتعهّد لها . عطاء : هو الذي يذكر الله في الأرض القفر . الشعبي : هو المراقب . أبو بكر الورّاق : الحافظ لأوقاته وهماته وخطواته . سهل : المحافظ على الطاعات والأوامر . ﴿ مَّنْ خَشِيَ ﴾ في محلّ مَن وجهان من الإعراب : الخفض على نعت الأوّاب ، والرفع على الاستئناف ، وخبره في قوله ادخلوها ، ومعنى الآية

من خاف ﴿ الرحمن بالغيب ﴾ ولم يره ، وقال الضحّاك والسدّي : يعني في الخلاء حيث لا أحد ، وقال الحسن : إذا أرخى الستر وأغلق الباب .

﴿ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ مقبل إلى طاعة الله . قال أبو بكر الورّاق : علامة المنيب أن يكون عارفاً لحرمته ، موالياً له ، متواضعاً لجلاله تاركاً لهوى نفسه . ﴿ ادخلوها ﴾ أي يقال لأهل هذه الصفة : ادخلوها ﴿ بِسَلَامٍ ﴾ بسلامة من العذاب وسلام الله وملائكته عليهم ، وقيل : السلامة من زوال النعيم وحلول النقم .

﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الخلود * لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ يعني الزيادة لهم في النعم ممّا لم يخطر ببالهم ، وقال جابر وأنس : هو النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى بلا كيف .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً فَنَقَّبُواْ فِي البلاد ﴾ قال ابن عبّاس : أثروا . مجاهد : ضربوا . الضحّاك : طافوا . النضر بن شميل : دوحوا . الفرّاء : خرقوا . المؤرخ : تباعدوا . ومنه قول امرئ القيس :

لقد نقبّت في الأفاق حتّى . . . رضيت من الغنيمة بالإيابِ

وقرأ الحسن فنقّبوا بفتح القاف مخفّفة . وقرأ السلمي ويحيى بن معمر بكسر القاف مشدّداً على التهديد والوعيد أي طوّفوا في البلاد ، وسيروا في الأرض ، فانظروا ﴿ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ من الموت وأمر الله سبحانه .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي في القرى التي أهلكت والعِبر التي ذكرت ﴿ لذكرى ﴾ التذكرة ﴿ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ أي عقل ، فكنّي عن العقل بالقلب لأنّه موضعه ومتبعه . قال قتادة : لمن كان له قلب حيّ ، نظيره ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً ﴾ [يس : 70] ، وقال الشبلي : قلب حاضر مع الله لا يغفل عنه طرفة عين ، وقال يحيى بن معاذ : القلب قلبان : قلب قد احتشى بأشغال الدنيا حتى إذا حضر أمر من أمور الآخرة لم يدر ما يصنع من شغل قلبه بالدنيا . وقلب قد احتشى بأهوال الآخرة ، حتّى إذا حضر أمر من أمور الدنيا لم يدر ما يصنع لذهاب قلبه في الآخرة . وسمعت أبا القاسم الحبيبي يقول : سألت أبا الحسن علي بن عبد الرّحمن العباد عن هذه الآية ، فقال : معناها إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب مستقرّ لا يتقلّب عن الله في السراء والضراء .

﴿ أَوْ أَلْقَى السمع ﴾ أي استمع القرآن ، يقول العرب : ألقِ إليَّ سمعك أي استمعْ ، وقال الحسين بن الفضل : يعني وجه سامعه وحولها إلى الذكر كما يقال اتبعي إليه .

﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أي حاضر القلب ، وقال قتادة : وهو شاهد على ما يقرأ ويسمع في كتاب الله سبحانه من حبّ محمّد صلى الله عليه وسلم وذكره . ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ إعياء وتعب .

نزلت في اليهود حيث قالوا : يا محمد أخبرنا ما خلق الله تعالى من الخلق في هذه الأيام

السّتة ؟

فقال صلى الله عليه وسلم " خلق الله تعالى الأرض يوم الأحد والاثنين ، والجبال يوم الثلاثاء والمدائن والأنهار والأقوات يوم الأربعاء ، والسماوات والملائكة يوم الخميس ، إلى ثلاث ساعات من يوم الجمعة وخلق في أوّل الثلاث ساعات الآجال ، وفي الثانية الآفة ، وفي الثالثة آدم " .

قال : قالوا : صدقت إن أتممت . فقال : وما ذاك ؟ فقالوا : ثمّ استراح يوم السبت واستلقى على العرش فأنزل الله سبحانه هذه الآية .

(103/723)

﴿ فاصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾ فإنّ الله سبحانه لهم بالمرصاد ، ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ يعني قل : سبحان الله والحمد لله . عن عطاء الخراساني ، وقال الآخرون : وصلّ بأمر ربّك وتوفيقه ، ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس ﴾ يعني صلاة الصبح ، ﴿ وَقَبْلَ الغروب ﴾ صلاة العصر ، وروي عن ابن عباس ، ﴿ وَقَبْلَ الغروب ﴾ : يعني الظهر والعصر ، ﴿ وَمِنَ الليل فَسَبِّحْهُ ﴾ يعني صلاة العشائين ، وقال مجاهد : من الليل كلّه ، يعني : صلاة الليل ، في أي وقت صلّى ، ﴿ وَأَدْبَارَ السجود ﴾ قال عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وأبو هريرة

والحسن بن علي والحسن البصري والنخعي والشعبي والأوزاعي : أدبار السجود : الركعتان بعد المغرب ، وأدبار النجوم : الركعتان قبل الفجر ، وهي رواية العوفي عن ابن عباس ، وقد روي عنه مرفوعاً أخبرنيه عقيل قال : أخبرنا المعافى ، قال حدثنا ابن جرير ، قال : حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا ابن فضيل عن رشيد بن كريب عن أبيه عن ابن عباس قال : قال لي النبي صلى الله عليه وسلم

" يا ابن عباس ركعتان بعد المغرب أدبار السجود " .

وقال أنس بن مالك : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من صلّى بعد المغرب ركعتين قبل أن يتكلم كتبت صلاته في عليّين " ، قال أنس : يقرأ في الركعة الأولى : ﴿ قُلْ يا أيها الكافرون ﴾ [الكافرون : 1] وفي الأخرى : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ [الصمد : 1] .

قال مقاتل : وقتهما مالم يغب الشفق ، وقال مجاهد : هو التسبيح باللسان في أدبار الصلوات المكتوبات ، ورواه عن ابن عباس . وقال ابن زيد : هو النوافل أدبار المكتوبات . واختلف القرّاء في قوله : ﴿ وَأَدْبَارَ ﴾ ، فقرأ الحسن والأعرج وخارجة وأبو عمر ويعقوب وعاصم والكسائي : بفتح الألف ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، وقرأ الآخرون : بالكسر ، وهي قراءة عليّ وابن عباس .

وقال بعض العلماء في قوله سبحانه : ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس ﴾ قال : ركعتي الفجر ، ﴿ وَقَبْلَ الغروب ﴾ قال : الركعتين قبل المغرب .

روى عمارة بن زاذان عن ثمامة بن عبد الله عن أنس بن مالك قال : كان ذوو الألباب من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يصلّون الركعتين قبل المغرب .

وروى شعبة عن يزيد بن جبير عن خالد بن معدان عن رغبان مولى حبيب بن مسلمة قال : رأيت أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يهبّون إليها كما يهبّون إلى المكتوبة يعني الركعتين قبل المغرب .

وقال قتادة : ما أدركت أحداً يصلّي الركعتين قبل المغرب إلاّ أنس وأبا برزة .

﴿ واستمع ﴾ يا محمد صيحة القيامة ﴿ يَوْمَ يُنَادِ المناد ﴾ إسرافيل عليه السلام تأتيه العظام البالية والأوصال المتقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة : إن الله [يأمركن] أن تجتمعن بفصل القضاء . ﴿ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ صخرة بيت المقدس ، وهي وسط الأرض وأقرب الأرض الى السماء بثمانية عشر ميلا ، ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصيحة بالحق ﴾ وهي النفخة الأخيرة ، ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الخروج ﴾ من القبور . ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا المصير * يَوْمَ تَشَقَّقُ الأرض عَنْهُمْ سِرَاعاً ﴾ جمع سريع ، وهو نصب على الحال ، مجازه : فيخرجون سراعاً ، ﴿ ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ * نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ

عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ : بمسلط قهّار يجبرهم على الاسلام ، إنما بعثت مذكِراً مجدِداً .

قال ثعلب : قد جاءت أحرف فعّال بمعنى مفعل وهي شاذة ، جبّار بمعنى مُجْبر ، ودرّاك بمعنى مدرك ، وسرّاع بمعنى مسرع ، وبكّاء بمعنى مبك ، وعدّاء بمعنى معد ، وقد قريء : ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرشاد ﴾ [غافر : 29] بمعنى المرشد ، وسمعت أبا منصور الجمشاذي يقول : سمعت أبا حامد الجازرنجي يقول : (العون) سيفٌ سقّاط ، بمعنى مُسْقط .

(105/723)

وقال بعضهم : الجبّار من قولهم جَبَرْته على الأمر بمعنى أجبرته ، وهي لغة كنانة وهما لغتان .

وقال الفرّاء : وضع الجبّار في موضع السلطان من الجبرية . قال : وأنشدني المفضّل :

ويوم الحزن إذ حشدت مَعدٌ . . . وكان الناس إلا نحن دينا

عصتنا عزمة الجبّار حتى . . . صبحنا الجوف ألفاً معلمينا

قال : أراد بالجبّار المنذر بن النعمان لولايته .

﴿ فَذَكِّرْ ﴾ يا محمّد ﴿ بالقرآن مَن يَخَافُ وَعِيد ﴾ قال ابن عباس : قالوا يا رسول الله

لو خوّفتنا ؟ فنزلت ﴿ فَذَكِّرْ بالقرآن مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 9 صـ 92. 108 ﴾

(106/723)

وقال الزمخشرى :

سورة ق

مكية [إلا آية 38 فمدنية] وآياتها 45 [نزلت بعد المرسلات] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة ق (50) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ (2) أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (3)

الكلام في ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ بَلْ عَجِبُوا نحوه في ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا سواء بسواء ، لالتقائهما في أسلوب واحد . والمجيد : ذو المجد والشرف على غيره من الكتب ، ومن أحاط علما بمعانيه وعمل بما فيه : مجد عند اللّه وعند الناس ، وهو بسبب من اللّه المجيد ، فجاز اتصافه بصفته . قوله بل عجبوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ إنكار لتعجبهم مما

ليس بعجب ، وهو أن ينذرهم بالمخوف رجل منهم قد عرفوا وساطته فيهم وعدالته وأمانته ، ومن كان على صفته لم يكن إلا ناصحا لقومه مترفرفا «1» عليهم ، خائفا أن ينالهم سوء ويحل بهم مكروه ، وإذا علم أنّ مخوفا أظلهم ، لزمه أن

---

(1) . قوله «مترفرفا عليهم» في الصحاح : فلان يرفنا ، أى : يحوطنا ، ورفرف الطائر : إذا حرك جناحيه حول الشيء يريد أن يقع عليه . ورف لونه بالفاء رفا ورفيفا : برق وتلألأ . وثوب رفيف وشجر رفيف : إذا تدانت أوراقه . وفيه أيضا : ترقرق الشيء بالقاف : تلألأ . (ع)

(107/723)

ينذرهم ويحذرهم ، فكيف بما هو غاية المخاوف ونهاية المحاذير ، وإنكار لتعجبهم مما أنذرهم به من البعث ، مع علمهم بقدرة اللّه تعالى على خلق السماوات والأرض وما بينهما ، وعلى اختراع كل شيء وإبداعه ، وإقرارهم بالنشأة الأولى ، ومع شهادة العقل بأنه لا بدّ من الجزاء . ثم عوّل على أحد الإنكارين بقوله تعالى فَقَالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ ، أَإِذا مِتْنا دلالة على أن تعجبهم من البعث أدخل في الاستبعاد وأحق بالإنكار ، ووضع الكافرون موضع الضمير للشهادة على أنهم في قولهم هذا مقدمون على الكفر العظيم ،

وهذا إشارة إلى الرجع ، وإذا منصوب بمضمر ، معناه : أحين نموت ونبلى نرجع ؟ ذِلكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ مستبعد مستنكر ، كقولك :

هذا قول بعيد . وقد أبعد فلان في قوله . ومعناه : بعيد من الوهم والعادة . ويجوز أن يكون الرجع بمعنى المرجوع . وهو الجواب ، ويكون من كلام اللّه تعالى استبعادا لإنكارهم ما أنذروا به من البعث ، والوقف قبله على هذا التفسير حسن . وقرئ : إذا متنا ، على لفظ الخبر ، ومعناه :

إذا متنا بعد أن نرجع ، والدال عليه ذِلكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ . فإن قلت : فما ناصب الظرف إذا كان الرجع بمعنى المرجوع ؟ قلت : ما دل عليه المنذر من المنذر به ، وهو البعث

[سورة ق (50) : آية 4]

قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ (4)

قَدْ عَلِمْنا ردّ لاستبعادهم الرجع ، لأن من لطف علمه حتى تغلغل إلى ما تنقص الأرض من أجساد الموتى وتأكله من لحومهم وعظامهم ، كان قادرا على رجعهم أحياء كما كانوا . عن النبي صلى اللّه عليه وسلم «كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب» «1» وعن السدى ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ما يموت فيدفن في الأرض منهم كِتابٌ حَفِيظٌ محفوظ من الشياطين ومن التغير ، وهو اللوح المحفوظ . أو حافظ لما أودعه وكتب فيه .

[سورة ق (50) : آية 5]

بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (5)

بَلْ كَذَّبُوا إضراب أتبع الإضراب الأوّل ، للدلالة على أنهم جاءوا بما هو أفظع من تعجبهم ، وهو التكذيب بالحق الذي هو النبوّة الثابتة بالمعجزات في أوّل وهلة من غير تفكر ولا تدبر

فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ مضطرب . يقال : مرج الخاتم في أصبعه وجرج ، فيقولون تارة : شاعر ، وتارة : ساحر ، وتارة : كاهن ، لا يثبتون على شيء واحد : وقرئ : لما جاءهم ، بكسر اللام وما المصدرية ، واللام هي التي في قولهم لخمس خلون ، أى : عند مجيئه إياهم ، وقيل بِالْحَقِّ :

القرآن . وقيل : الإخبار بالبعث .

---

(1) . متفق عليه من حديث أبى صالح عن أبى هريرة وأخرجه الحاكم من حديث أبى سعيد ، وزاد «قالوا :

ما هو يا رسول اللّه ؟ قال : هو مثل حبة الخردل ، منه ينبتون» .

(108/723)

[سورة ق (50) : آية 6]

أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَزَيَّنَّاها وَما لَها مِنْ فُرُوجٍ (6)

أَفَلَمْ يَنْظُرُوا حين كفروا بالبعث إلى آثار قدرة اللّه في خلق العالم بَنَيْناها رفعناها بغير عمد مِنْ فُرُوجٍ من فتوق : يعنى أنها ملساء سليمة من العيوب لا فتق فيها ولا صدع ولا خلل ، كقوله تعالى : هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ .

[سورة ق (50) : الآيات 7 إلى 8]

وَالْأَرْضَ مَدَدْناها وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7) تَبْصِرَةً وَذِكْرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (8)

مَدَدْناها دحوناها رَواسِيَ جبالا ثوابت لولا هي لتكفأت مِنْ كُلِّ زَوْجٍ من كل صنف بَهِيجٍ يبتهج به لحسنه تَبْصِرَةً وَذِكْرى لتبصر به ونذكر كل عَبْدٍ مُنِيبٍ راجع إلى ربه ، مفكر في بدائع خلقه . وقرئ : تبصرة وذكرى بالرفع ، أى : خلقها تبصرة .

[سورة ق (50) : الآيات 9 إلى 11]

وَنَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (9) وَالنَّخْلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ (10) رِزْقاً لِلْعِبادِ وَأَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ الْخُرُوجُ (11)

ماءً مُبارَكاً كثير المنافع وَحَبَّ الْحَصِيدِ وحب الزرع الذي من شأنه أن يحصد ، وهو ما يقتات به من نحو الحنطة والشعير وغيرهما باسِقاتٍ طوالا في السماء : وفي قراءة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : باصقات ، بإبدال السين صادا لأجل القاف نَضِيدٌ منضود بعضه فوق بعض : إما أن يراد كثرة الطلع وتراكمه ، أو كثرة ما فيه من الثمر رِزْقاً على أنبتناها

رزقا ، لأنّ الإنبات في معنى الرزق . أو على أنه مفعول له ، أى : أنبتناها لنرزقهم كَذلِكَ الْخُرُوجُ كما حييت هذه البلدة الميتة ، كذلك تخرجون أحياء بعد موتكم ، والكاف في محل الرفع على الابتداء :

[سورة ق (50) : الآيات 12 إلى 14]

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (12) وَعادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوانُ لُوطٍ (13) وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (14)

أراد بفرعون قومه كقوله تعالى مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ لأنّ المعطوف عليه قوم نوح ، والمعطوفات جماعات كُلٌّ يجوز أن يراد به كل واحد منهم ، وأن يراد جميعهم ، إلا أنه وحد

(109/723)

الضمير الراجع إليه على اللفظ دون المعنى فَحَقَّ وَعِيدِ فوجب وحل وعيدى ، وهو كلمة العذاب . وفيه تسلية لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وتهديد لهم .

[سورة ق (50) : آية 15]

أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (15)

عيى بالأمر : إذا لم يهتد لوجه عمله ، والهمزة للإنكار . والمعنى : أنا لم نعجز كما علموا عن

الخلق الأول ، حتى نعجز عن الثاني ، ثم قال : هم لا ينكرون «1» قدرتنا على الخلق الأوّل ، واعترافهم بذلك في طيه الاعتراف بالقدرة على الإعادة بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ أى في خلط وشبهة .

قد لبس عليهم الشيطان وحيرهم . ومنه قول على رضى اللّه عنه : يا حار «2» إنه لملبوس عليك ، اعرف الحق تعرف أهله . ولبس الشيطان عليهم : تسويله إليهم أن إحياء الموتى أمر خارج عن العادة ، فتركوا لذلك القياس الصحيح : أن من قدر على الإنشاء كان على الإعادة أقدر . فإن قلت : لم نكر الخلق الجديد ، «3» وهلا عرّف كما عرّف الخلق الأول ؟ قلت : قصد في تنكيره إلى خلق جديد له شأن عظيم وحال شديد ، حق من سمع به أن يهتم به ويخاف ، ويبحث عنه ولا يقعد على لبس في مثله .

[سورة ق (50) : آية 16]

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16)

---

(1) . قوله «ثم قال هم لا ينكرون» يعنى كأنه قال ذلك بمعونة الاضراب . وقوله «في طيه . . . الخ» أى يلزمه ذلك وإن لم يقع منهم اللبس . (ع)

(2) . قوله «يا حار إنه لملبوس» لعله ترخيم حارث . (ع)

(3) . وقع في النسخة ما أحكيه وصورته : «فان قلت لم نكر الخلق الجديد . . . الخ» قال أحمد : هذا كلام كما تراه غير منتظم ، والظاهر أنه لفساد في النسخة ، والذي يتحرر في

الآية – وهو مقتضى تفسير الزمخشري : أن فيها أسئلة ثلاثة : لم عرف الخلق الأول ونكر اللبس والخلق الجديد ؟ فاعلم أن التعريف لا غرض منه إلا تفخيم ما قصد تعريفه وتعظيمه ، ومنه تعريف الذكور في قوله وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ ولهذا المقصد عرف الخلق الأول ، لأن الغرض جعله دليلا على إمكان الخلق الثاني بطريق الأولى أى إذا لم يعي تعالى بالخلق الأول على عظمته ، فالخلق الآخر أولى أن لا يعبأ به ، فهذا سر تعريف الخلق الأول . وأما التنكير فأمره منقسم : فمرة يقصد به تفخيم المنكر من حيث ما فيه من الإبهام ، كأنه أفخم من أن يخاطبه معرفة ، ومرة يقصد به التقليل من المنكر والوضع منه ، وعلى الأول سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ وقوله لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ وإِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ وقوله بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وهو أكثر من أن يحصى . والثاني : هو الأصل في التنكير ، فلا يحتاج إلى تمثيله ، فتنكير اللبس من التعظيم والتفخيم ، كأنه قال : في لبس أىّ لبس : وتنكير الخلق الجديد للتقليل منه والتهوين لأمره بالنسبة إلى الخلق الأول ، ويحتمل أن يكون التفخيم ، كأنه أمر أعظم من أن يرضى الإنسان بكونه ملتبسا عليه ، مع أنه أول ما تبصر فيه صحته ، ولعل إشارة الزمخشري إلى هذا والله أعلم ، فهذا كما تراه كلام مناسب لاستطراف أسئلة وأجوبة ، فان يكن هو ما أراده الزمخشري فذاك ، وإلا فالعق العسل ولا تسل .

(110/723)

الوسوسة : الصوت الخفي . ومنها : وسواس الحلي . ووسوسة النفس : ما يخطر ببال الإنسان ويهجس في ضميره من حديث النفس . والباء مثلها في قولك : صوت بكذا وهمس به . ويجوز أن تكون للتعدية والضمير للإنسان ، أى : ما تجعله موسوسا ، وما مصدرية ، لأنهم يقولون :

حدّث نفسه بكذا ، كما يقولون : حدثته به نفسه . قال :

وأكذب النّفس إذا حدّثتها «1»

وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مجاز ، والمراد : قرب علمه منه ، وأنه يتعلق بمعلومه منه ومن أحواله تعلقا لا يخفى عليه شيء من خفياته ، فكأن ذاته قريبة منه ، كما يقال : اللّه في كل مكان ، وقد جل عن الأمكنة . وحبل الوريد : مثل في فرط القرب ، كقولهم : هو منى مقعد القابلة ومعقد الإزار . وقال ذو الرمة :

والموت أدنى لي من الوريد «2»

والحبل : العرق ، شبه بواحد الحبال . ألا ترى إلى قوله :

---

(1) وأكذب النفس إذا حدثها إن صدق النفس يزرى بالأمل

غير أن لا تكذبنها في التقى واخزها بالبر للّه الأجل

للبيد بن ربيعة ، وسئل بشار : أى بيت قالته العرب أشعر ؟ فقال تفضيل بيت واحد على الشعر كله غير سديد ، ولكنه أحسن لبيد في قوله : وأكذب النفس ، يقال : كذبه وصدقه مخففا ومشددا ، بمعنى . وما هنا من الأول للوزن ، أى : لا تصدقها إذا حدثتك بأمر وحدثتها فيه ، لأنها مثبطة عن نيل الفضائل . طامحة إلى الرذائل ، وهذا معنى «إن صدق النفس» أى : تصديقها ، يزرى بالأمل . يقال : زراه ، إذا عابه . وأزرى به : إذا أوقع به العيب ، غير أنه الحال والشأن لا تكذبها في تحديثها إياك بالتقى ، والخوف من اللّه ، فان مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن . ويجوز أنه ضمير المخاطب ، ولا ناهية ، وإجراء الكلام على الاستثناء يحتاج إلى تكلف في بيان المستثنى والمستثنى منه ، ويمكن إجراؤه على الاستدراك ، لكن نصب «غير» يحتاج إلى الحمل على الاستثناء» ويحتمل أن تكون «أن» مصدرية «ولا» نافية أو زائدة ، لكن تأكيد الفعل بالنون بعد النهى كثير ، وبعد النفي قليل ، ومع الإثبات في هذا شاذ أو ضرورة ، ولا بد من إجراء الكلام بهذا الوجه على الاستثناء معنى ولفظا .

وقد قال القسطلاني في شرح صحيح البخاري باحتمال النهي والزيادة . وبعضهم باحتمال النفي في قوله صلى اللّه عليه وسلم لعائشة حين حاضت في الحج : «فأقضي ما يقضى الحاج غير أن لا تطوفي بالبيت» وخزاه يخزوه : قهره وغلبه ، أى : واقهرها بالخير للّه الأجل الأعظم ، وكأن في البر قهرا لها لمشقته عليها عادة .

(2) هل أغدون في عيشة رغيد والموت أدنى لي من الوريد

لذي الرمة . والاستفهام إنكارى ، أى : لا أكون في عيشة واسعة والحال أن الموت أقرب إلىّ من الوريد .

وروى : أوفى . والمعنى واحد . والوريدان : عرقان في مقدم صفحتي العنق ، سميا بذلك لأنهما يردان من الرأس .

ولأن الروح تردهما . وقال : عيشة رغيد ، كقوله اللّه تعالى إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ وإن كان قليلا في فعيل بمعنى فاعل .

(111/723)

كأن وريديه رشاءا خلب «1»

والوريدان : عرقان مكتنفان لصفحتى العنق في مقدمهما متصلان بالوتين ، يردان من الرأس إليه . وقيل : سمى وريدا لأنّ الروح ترده . فإن قلت : ما وجه إضافة الحبل إلى الوريد ، والشيء لا يضاف إلى نفسه ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن تكون الاضافة للبيان ، كقولهم : بعير سانية . والثاني : أن يراد حبل العاتق فيضاف إلى الوريد ، كما يضاف إلى العاتق لاجتماعهما في عضو واحد » كما لو قيل : حبل العلياء «2» مثلا .

[سورة ق (50) : الآيات 17 إلى 18]

إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ (17) ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18)

إِذْ منصوب بأقرب ، وساغ ذلك لأنّ المعاني تعمل في الظرف متقدّمة ومتأخرة :

والمعنى : أنه لطيف يتوصل علمه إلى خطرات النفس وما لا شيء أخفى منه ، وهو أقرب من الإنسان «3» من كل قريب حين يتلقى الحفيظان ما يتلفظ به ، إيذانا بأن استحفاظ الملكين أمر هو غنى عنه ، وكيف لا يستغنى عنه وهو مطلع على أخفى الخفيات ؟ وإنما ذلك لحكمة اقتضت ذلك : وهي ما في كتبة الملكين وحفظهما ، وعرض صحائف العمل يوم يقوم الأشهاد .

وعلم العبد بذلك مع علمه بإحاطة اللّه بعمله : من زيادة لطف له في الانتهاء عن السيئات والرغبة في الحسنات . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم «إنّ مقعد ملكيك على ثنيتيك ، ولسانك قلمهما ، وريقك مدادهما ، وأنت تجرى فيما لا يعنيك لا تستحي من اللّه تعالى ولا منهما» «4» ويجوز أن يكون تلقى الملكين بيانا للقرب ، يعنى : ونحن قريبون منه مطلعون على أحواله مهيمنون عليه ، إذ حفظتنا وكتبتنا موكلون به ، والتلقي : التلقن بالحفظ والكتبة . والقعيد : القاعد ،

---

(1) غضنفر تلقاء عند الغضب كأن وريديه رشاءا خلب

لرؤية . والغضنفر : الأسد . والوريدان : عرقان يردان من الرأس يكتنفان الحلقوم . وقيل : تردهما الروح.

والرشاءان : حبلان للاستقاء . والخلب – بضمتين ، وقد يسكن – : اللب والماء المخلوط بالطين . ويجوز أن يراد به هنا البئر الكدرة : شبه الشجاع بالأسد ، وشبه وريديه عند الغضب بالرشاءين ، وكأن هنا عاملة ، وهي مخففة ، وهو قليل ، والكثير إهمالها .

(2) . قوله «لو قيل حبل العلباء» هي عصب العنق ، كما في الصحاح . (ع)

(3) . قوله «و هو أقرب من الإنسان» يقال : قرب من الشيء كما يقال : قرب إليه . (ع)

(4) . أخرجه الثعلبي من رواية جميل بن الحسن عن أرطاه بن الأشعث العدوى عن جعفر بن محمد عن أبيه عن على رضى اللّه عنه عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال «مقعد ملكيك» فذكره .

(112/723)

كالجليس بمعنى الجالس ، وتقديره : عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد من المتلقيين ، فترك أحدهما لدلالة الثاني عليه ، كقوله :

. . . كنت منه ووالدي بريّا . . . . . «1» . .

رَقِيبٌ ملك يرقب عمله عَتِيدٌ حاضر ، واختلف فيما يكتب الملكان ، فقيل : يكتبان كل شيء حتى أنينه في مرضه . وقيل : لا يكتبان إلا ما يؤجر عليه أو يؤزر به . ويدل عليه قوله عليه السلام «كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يسار الرجل ، وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرا ، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر» «2» وقيل : إنّ الملائكة يجتنبون الإنسان عند غائطه وعند جماعه . وقرئ : ما يلفظ ، على البناء للمفعول .

[سورة ق (50) : الآيات 19 إلى 22]

وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (20) وَجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَشَهِيدٌ (21) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22)

لما ذكر إنكارهم البعث واحتج عليهم بوصف قدرته وعلمه ، أعلمهم أن ما أنكروه وجحدوه هم لاقوه عن قريب عند موتهم وعند قيام الساعة ، ونبه على اقتراب ذلك بأن عبر عنه بلفظ الماضي ، وهو قوله وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ونفخ في الصور ، وسكرة الموت :

شدّته الذاهبة بالعقل . والباء في بالحق للتعدية ، يعنى : وأحضرت سكرة الموت حقيقة الأمر الذي أنطق اللّه به كتبه وبعث به رسله . أو حقيقة الأمر وجلية الحال : من سعادة الميت وشقاوته . وقيل : الحق الذي خلق له الإنسان ، من أن كل نفس ذائقة الموت . ويجوز أن تكون الباء مثلها في قوله تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ أى وجاءت ملتبسة بالحق ، أى : بحقيقة الأمر . أو

---

(1) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة 52 فراجعه إن شئت اه مصححه .

[. . . . .]

(2) . أخرجه الثعلبي والبغوي من طريق جعفر عن القاسم عن أبى أمامة . ومن هذا الوجه أخرجه الطبراني .

وأخرجه البيهقي من هذا الوجه . ومن رواية بشر بن نمير عن القاسم نحوه . وأخرجه الطبراني من رواية ثور بن يزيد عن القاسم نحوه . وروى أبو نعيم في الحلية وابن مردويه من طريق إسماعيل بن عياش عن عاصم بن رجاء عن عروة بن رديم ، عن القاسم عن أبى أمامة وعند الطبري من طريق على بن جرير عن حماد بن سلمة عن عبد الحميد بن جعفر عن كنانة ، قال «دخل عثمان بن عفان على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . فقال : يا رسول اللّه ، كم مع العبد ملك ؟ - الحديث»

بالحكمة والغرض الصحيح ، كقوله تعالى خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وقرأ أبو بكر وابن مسعود رضى اللّه عنهما : سكرة الحق بالموت ، على إضافة السكرة إلى الحق والدلالة على أنها السكرة التي كتبت على الإنسان وأوجبت له ، وأنها حكمة ، والباء للتعدية ، لأنها سبب زهوق الروح لشدتها ، أو لأنّ الموت يعقبها ، فكأنها جاءت به . ويجوز أن يكون المعنى : جاءت ومعها الموت . وقيل سكرة الحق سكرة اللّه ، أضيفت إليه تفظيعا لشأنها وتهويلا . وقرئ : سكرات الموت ذِلِكَ إشارة إلى الموت ، والخطاب للإنسان في قوله وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ على طريق الالتفات . أو إلى الحق والخطاب للفاجر تَحِيدُ تنفر وتهرب . وعن بعضهم : أنه سأل زيد بن أسلم عن ذلك فقال : الخطاب لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فحكاه لصالح بن كيسان فقال : واللّه ما سنّ عالية ولا لسان فصيح ولا معرفة بكلام العرب ، هو للكافر . ثم حكاهما للحسين بن عبد اللّه بن عبيد اللّه بن عباس فقال : أخالفهما جميعا : هو للبر والفاجر ذِلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ على تقدير حذف المضاف ، أى : وقت ذلك يوم الوعيد ، والإشارة إلى مصدر نفخ سائِقٌ وَشَهِيدٌ ملكان : أحدهما يسوقه إلى المحشر ، والآخر يشهد عليه بعمله . أو ملك واحد جامع بين الأمرين ، كأنه قيل : معها

ملك يسوقها ويشهد عليها ، ومحل مَعَها سائِقٌ النصب على الحال من كل لتعرّفه بالإضافة إلى ما هو في حكم المعرفة . قرئ : لقد كنت . عنك غطاءك فبصرك ، بالكسر على خطاب النفس ، أى : يقال لها لقد كنت . جعلت الغفلة كأنها غطاء غطى به جسده كله أو غشاوة غطى بها عينيه فهو لا يبصر شيئا ، فإذا كان يوم القيامة تيقظ وزالت الغفلة عنه وغطاؤها فيبصر ما لم يبصره من الحق . ورجع بصره الكليل عن الإبصار لغفلته : حديدا لتيقظه .

[سورة ق (50) : آية 23]

وَقالَ قَرِينُهُ هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ (23)

وَقالَ قَرِينُهُ هو الشيطان الذي قيض له في قوله نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ يشهد له قوله تعالى قالَ قَرِينُهُ رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ . هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ هذا شيء لدىّ وفي ملكتي عتيد لجهنم . والمعنى : أن ملكا يسوقه وآخر يشهد عليه ، وشيطانا مقرونا به ، يقول : قد أعتدته لجهنم وهيأته لها بإغوائى وإضلالى . فإن قلت : كيف إعراب هذا الكلام ؟ قلت :

إن جعلت ما موصوفة ، فعتيد : صفة لها : وإن جعلتها موصولة ، فهو بدل ، أو خبر بعد خبر . أو خبر مبتدأ محذوف .

[سورة ق (50) : الآيات 24 إلى 26]

أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (24) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (25) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَأَلْقِياهُ فِي الْعَذابِ الشَّدِيدِ (26)

(114/723)

أَلْقِيا خطاب من اللّه تعالى للملكين السابقين : السائق والشهيد : ويجوز أن يكون خطابا للواحد على وجهين : أحدهما قول المبرد : أن تثنية الفاعل نزلت منزلة تثنية الفعل لاتحادهما ، كأنه قيل : ألق ألق : للتأكيد . والثاني : أنّ العرب أكثر ما يرافق الرجل منهم اثنان ، فكثر على ألسنتهم أن يقولوا : خليليّ وصاحبيّ ، وقفا وأسعدا ، حتى خاطبوا الواحد خطاب الاثنين عن الحجاج أنه كان يقول : يا حرسى ، اضربا عنقه . وقرأ الحسن : ألقين ، بالنون الخفيفة .

ويجوز أن تكون الألف في أَلْقِيا بدلا من النون : إجراء للوصل مجرى الوقف عَنِيدٍ معاند مجانب للحق معاد لأهله مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ كثير المنع للمال عن حقوقه ، جعل ذلك عادة له لا يبذل منه شيئا قط . أو مناع لجنس الخير أن يصل إلى أهله يحول بينه وبينهم . قيل : نزلت في الوليد بن المغيرة ، كان يمنع بنى أخيه من الإسلام ، وكان يقول : من دخل منكم فيه لم أنفعه بخير ما عشت مُعْتَدٍ ظالم متخط للحق مُرِيبٍ شاك في اللّه وفي دينه الَّذِي جَعَلَ مبتدأ

مضمن معنى الشرط ، ولذلك أجيب بالفاء . ويجوز أن يكون الَّذِي جَعَلَ منصوبا بدلا من كُلَّ كَفَّارٍ ويكون فَأَلْقِياهُ تكريرا للتوكيد .

[سورة ق (50) : آية 27]

قالَ قَرِينُهُ رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ وَلكِنْ كانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (27)

فإن قلت : لم أخليت هذه الجملة عن الواو وأدخلت على الأولى ؟ قلت : لأنها استؤنفت كما تستأنف الجمل الواقعة في حكاية التقاول كما رأيت في حكاية المقاولة بين موسى وفرعون . فإن قلت ، فأين التقاول ها هنا ؟ قلت : لما قال قرينه هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ وتبعه قوله قالَ قَرِينُهُ رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ وتلاه لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ : علم أنّ ثم مقاولة من الكافر ، لكنها طرحت لما يدل عليها ، كأنه قال : رب هو أطغانى ، فقال قرينه : ربنا ما أطغيته . وأمّا الجملة الأولى فواجب عطفها للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها في الحصول ، أعنى مجيء كل نفس مع الملكين : وقول قرينه ما قال له ما أَطْغَيْتُهُ ما جعلته طاغيا ، وما أوقعته في الطغيان ، ولكنه طغى واختار الضلالة على الهدى كقوله تعالى : وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي .

[سورة ق (50) : الآيات 28 إلى 29]

قالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (28) ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (29)

قال لَا تَخْتَصِمُوا استئناف مثل قوله قال قَرِينُهُ كأن قائلا قال : فما ذا قال اللّه ؟ فقيل : قال لا تختصموا . والمعنى : لا تختصموا في دار الجزاء وموقف الحساب ، فلا فائدة في اختصامكم ولا طائل تحته ، وقد أوعدتكم بعذابي على الطغيان في كتبي وعلى ألسنة رسلي ، فما تركت لكم

(115/723)

حجة عليّ ، ثم قال : لا تطمعوا أن أبدل قولي ووعيدى فأعفيكم عما أوعدتكم به وَما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ فأعذب من ليس بمستوجب للعذاب . والباء في بِالْوَعِيدِ مزيدة مثلها في وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ أو معدية ، على أن «قدّم» مطاوع بمعنى «تقدّم» ويجوز أن يقع الفعل على جملة قوله ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ويكون بِالْوَعِيدِ حالا ، أى : قدّمت إليكم هذا ملتبسا بالوعيد مقترنا به . أو قدّمته إليكم موعدا لكم به . فإن قلت : إنّ قوله وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ واقع موقع الحال من لا تَخْتَصِمُوا والتقديم بالوعيد في الدنيا والخصومة في الآخرة واجتماعها في زمان واحد واجب . قلت : معناه ولا تختصموا وقد صح عندكم أنى قدمت إليكم بالوعيد ، وصحة ذلك عندهم في الاخرة . فإن قلت : كيف قال بِظَلَّامٍ على لفظ المبالغة «1» ؟

قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يكون من قولك : هو ظالم لعبده ، وظلام لعبيده . والثاني :

أن يراد لو عذبت من لا يستحق العذاب لكنت ظلاما مفرط الظلم ، فنفى ذلك .

[سورة ق (50) : آية 30]

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (30)

قرئ : نقول ، بالنون والياء . وعن سعيد بن جبير : يوم يقول اللّه لجهنم . وعن ابن مسعود والحسن : يقال . وانتصاب اليوم بظلام أو بمضمر ، نحو : أذكر وأنذر . ويجوز أن ينتصب بنفخ ، كأنه قيل . ونفخ في الصور يوم نقول لجهنم . وعلى هذا يشار بذلك إلى يوم نقول ، ولا يقدّر حذف المضاف . وسؤال جهنم وجوابها من باب التخييل «2» الذي يقصد به تصوير

---

(1) . قال محمود : «إن قلت كيف جاء على لفظ المبالغة . . . الخ» قال أحمد : وذكر فيه وجهان آخران ، أحدهما أن فعالا قد ورد بمعنى فاعل ، فهذا منه . الثاني : أن المنسوب في المعتاد إلى الملوك من الظلم تحت ظلمهم : إن عظيما فعظيم ، وإن قليلا فقليل ، فلما كان ملك اللّه تعالى على كل شيء ملكه قدس ذاته عما يتوهم مخذول والعياذ باللّه أنه منسوب إليه من ظلم تحت شمول كل موجود ، ولقد بدل القدرية فتوهموا أن اللّه تعالى لم يأمر إلا بما أراده وبما هو من خلق العبد ، بناء على أنه لو كلف على خلاف ما أراد وبما ليس من

خلق العبد لكان تكليفا بما لا يطاق ، واعتقدوا أن ذلك ظلم في الشاهد ، فلو ثبت في الغائب لكان كما هو في الشاهد ظلما ، والله تعالى مبرأ من الظلم . ألا ترى هذا المعتقد كيف لزمهم عليه أن يكون الله تعالى ظلاما لعبيده ، تعالى الله عن ذلك ، لأن الحق الذي قامت بصحته البراهين : هو عين ما اعتقدوه ظلما فنفوه ، فلمثلهم وردت هذه الآية وأشباهها ، لتبين الناس ما نزل إليهم ، ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، والله الموفق للصواب .

(2) . قال محمود : «سؤال جهنم وجوابها من باب التخييل الذي يقصد به تصوير المعنى . . . الخ» قال أحمد : قد تقدم إنكاري عليه إطلاق التخييل في غير ما موضع ، والنكير هاهنا أشد عليه ، فان إطلاق التخييل قد مضى له في مثل قوله وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وفي مثل قوله بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ وإنما أراد به حمل الأيدي على نوع من المجاز ، فمعنى كلامه صحيح ، لأنا نعتقد فيهما المجاز ، وندين الله بتقديسه عن المفهوم الحقيقي ، فلا بأس عليه في معنى إطلاقه ، غير أنا مخاطبون باجتناب الألفاظ الموهمة في حق جلال الله تعالى وإن كانت معانيها صحيحة ، وأي إيهام أشد من إيهام لفظ التخييل . ألا ترى كيف استعمله الله فيما أخبر أنه سحر وباطل في قوله يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى فلا يشك في وجوب اجتنابه ، ثم يعود بنا الكلام إلى إطلاقه هاهنا فنقول : هو منكر لفظا ومعنى .

أما اللفظ فقد تقدم ، وأما المعنى فلأنا نعتقد أن سؤال جهنم وجوابها حقيقة ، وأن اللّه تعالى يخلق فيها الإدراك بذلك بشرطه ، وكيف نفرض وقد وردت الأخبار وتظاهرت على ذلك : منها هذا : ومنها : لجاج الجنة والنار .

ومنها : اشتكاؤها إلى ربها فأذن لها في نفسين . وهذه وإن لم تكن نصوصا فظواهر يجب حملها على حقائقها ، لأنا متعبدون باعتقاد الظاهر ما لم يمنع مانع ، ولا مانع هاهنا «فان القدرة صالحة . والعقل يجوز ، والظواهر قاضية بوقوع ما صوره العقل ، وقد وقع مثل هذا قطعا في الدنيا ، كتسليم الشجر وتسبيح الحصا في كف النبي صلى اللّه عليه وسلم وفي يد أصحابه ، ولو فتح باب المجاز والعدول عن الظواهر في تفاصيل المقالة لا تسع الخرق وضل كثير من الخلق عن الحق ، وليس هذا كالظواهر الواردة في الإلهيات مما لم يجوز العقل اعتقاد ظاهرها ، فان العدول فيها عن ظاهر الكلام بضرورة الانقياد إلى أدلة العقل المرشدة إلى المعتقد الحق ، فاشدد يدك بما فصل في هذا الفصل ، مما أرشدتك به إلى منهج القرب والوصل ، واللّه الموفق .

(116/723)

المعنى في القلب وتثبيته ، وفيه معنيان ، أحدهما : أنها تمتلئ مع اتساعها وتباعد أطرافها حتى لا يسعها شيء «1» ولا يزاد على امتلائها ، لقوله تعالى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ والثاني : أنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها موضع للمزيد . ويجوز أن يكون هَلْ مِنْ مَزِيدٍ استكثارا للداخلين فيها واستبداعا للزيادة «2» عليهم لفرط كثرتهم . أو طلبا للزيادة غيظا على العصاة . والمزيد :

إما مصدر كالمحيد والمميد ، وإما اسم مفعول كالمبيع .

[سورة ق (50) : الآيات 31 إلى 35]

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (31) هذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (32) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (33) ادْخُلُوها بِسَلامٍ ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (34) لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَلَدَيْنا مَزِيدٌ (35)

غَيْرَ بَعِيدٍ نصب على الظرف ، أى : مكانا غير بعيد . أو على الحال ، وتذكيره لأنه على زنة المصدر ، كالزئير والصليل ، والمصادر يستوي في الوصف بها المذكر والمؤنث . أو على حذف الموصوف ، أى : شيئا غير بعيد ، ومعناه التوكيد ، كما تقول : هو قريب غير بعيد ، وعزيز غير ذليل . وقرئ : توعدون بالتاء والياء ، وهي جملة اعتراضية . وِلكُلِّ أَوَّابٍ بدل من قوله للمتقين ، بتكرير الجارّ كقوله تعالى لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ، وهذا إشارة إلى الثواب . أو إلى مصدر أزلفت . والأوّاب : الرجاع إلى ذكر اللّه تعالى ، والحفيظ :

الحافظ لحدوده تعالى . ومَنْ خَشِيَ بدل بعد بدل تابع لكل . ويجوز أن يكون بدلا عن موصوف أوّاب وحفيظ ، ولا يجوز أن يكون في حكم أوّاب وحفيظ ، لأنّ من لا يوصف به

---

(1) . قوله «حتى لا يسعها شيء» كأن فيه قلبا . (ع)

(2) . قوله «و استيداعا للزيادة» لعله واستبعادا . (ع)

ولا يوصف من بين الموصولات إلا بالذي وحده . ويجوز أن يكون مبتدأ خبره : يقال لهم ادخلوها بسلام ، لأنّ مَنْ في معنى الجمع . ويجوز أن يكون منادى كقولهم : من لا يزال محسنا أحسن إلىّ ، وحذف حرف النداء للتقريب بِالْغَيْبِ حال من المفعول ، أى : خشيه وهو غائب لم يعرفه ، وكونه معاقبا إلا بطريق الاستدلال . أو صفة لمصدر خشي ، أى خشيه خشية ملتبسة بالغيب ، حيث خشي عقابه وهو غائب ، أو خشيه بسبب الغيب الذي أوعده به من عذابه . وقيل : في الخلوة حيث لا يراه أحد . فإن قلت : كيف قرن بالخشية اسمه الدال على سعة الرحمة ؟ «1» قلت : للثناء البليغ على الخاشى وهو خشيته ، مع علمه أنه الواسع الرحمة ، كما أثنى عليه بأنه خاش ، مع أنّ المخشى منه غائب ، ونحوه وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ فوصفهم بالوجل مع كثرة الطاعات . وصف القلب

بالإنابة وهي الرجوع إلى اللّه تعالى ، لأنّ الاعتبار بما ثبت منها في القلب . يقال لهم ادْخُلُوها بِسَلامٍ أى سالمين من العذاب وزوال النعم .

أو مسلما عليكم يسلم عليكم اللّه وملائكته ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ أى يوم تقدير الخلود ، كقوله تعالى فَادْخُلُوها خالِدِينَ أى مقدرين الخلود وَلَدَيْنا مَزِيدٌ هو ما لم يخطر ببالهم ولم تبلغه أمانيهم ، حتى يشاؤه . وقيل : إن السحاب تمرّ بأهل الجنة فتمطرهم الحور ، فتقول : نحن المزيد الذي قال اللّه عز وجل : وَلَدَيْنا مَزِيدٌ .

[سورة ق (50) : آية 36]

وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (36)

فَنَقَّبُوا وقرئ بالتخفيف : فخرقوا في البلاد ودوّخوا «2» . والتنقيب : التنقير عن الأمر والبحث والطلب . قال الحرث بن حلزة :

نقّبوا في البلاد من حذر الموت وجالوا في الأرض كلّ مجال «3»

ودخلت الفاء للتسبيب عن قوله هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً أى : شدّة بطشهم أبطرتهم وأقدرتهم على التنقيب وقوّتهم عليه . ويجوز أن يراد : فنقب أهل مكة في أسفارهم ومسايرهم في بلاد القرون ،

---

(1) . قال محمود : «إن قلت : كيف قرن الخشية باسمه الدال على سعة الرحمة . . . الخ» قال أحمد : ومن هذا الوادي بالغ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في الثناء على

صهيب بقوله : «نعم العبد صهيب لو لم يخف اللّه لم يعصه» .

(2) . قوله «و دوخوا» الذي في الصحاح : أن دوخ البلاد بمعنى قهرها واستولى على أهلها . (ع)

(3) . للحرث بن كلدة . والنقب : الطريق . ونقبوا ، أى : ساروا في طرق البلاد ونقروا وفتشوا على مهرب وملجأ ، لأجل حذرهم من الموت . وجالوا ، أى : ذهبوا في الأرض . والجول : الناحية والجانب ، أى : ساروا في نواحي الأرض وجوانبها ، كل مجال ، أى : كل طريق ، أو كل جولان ، لأن مفعل صالح للمكان والحدث .

(118/723)

فهل رأوا لهم محيصا حتى يؤملوا مثله لأنفسهم ، والدليل على صحته قراءة من قرأ فَنَقَّبُوا على الأمر ، كقوله تعالى فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ وقرئ بكسر القاف مخففة من النقب وهو أن يتنقب خف البعير . قال :

ما مسّها من نقب ولا دبر «1»

والمعنى : فنقبت أخفاف إبلهم . أو : حفيت أقدامهم ونقبت ، كما تنقب أخفاف الإبل لكثرة طوفهم في البلاد هَلْ مِنْ مَحِيصٍ من اللّه ، أو من الموت .

[سورة ق (50) : آية 37]

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (37)

لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أى قلب واع ، لأنّ من لا يعي قلبه فكأنه لا قلب له . وإلقاء السمع : الإصغاء وَهُوَ شَهِيدٌ أى حاضر بفطنته ، لأنّ من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب ، وقد ملح الإمام عبد القاهر في قوله لبعض من يأخذ عنه :

ما شئت من زهزهة والفتى بمصقلاباذ لسقى الزروع «2»

---

(1) أقسم باللّه أبو حفص عمر ما مسها من نقب ولا دبر

اغفر له اللهم إن كان فجر

لأعرابى : شكا إلى عمر رضى اللّه عنه ضعف ناقته ، فأعطاه شيئا من الدقيق ولم يعطه مطية ، فولى يقول ذلك ، فأعطاه مراده . ومن زائدة في الفاعل ، مفيدة للمبالغة في الاستغراق . والنقب - كالتعب - : ضرر خف البعير من الحفا ، ويطلق على الجرب والحكة ورقة الجلد . والدبر كالتعب أيضا : انجراح مؤخر الظهر من الحمل ونحوه ، ووقوع ألف الوصل أول المصراع سائغ ، لأنها محل ابتداء ، كما نص عليه الخليل ، والمراد بالفجور : الحنث .

(2) يجيء في فضلة وقت له مجيء من شاب الهوى بالنزوع

ثم يرى جبلة مشبوبة قد شددت أحماله بالنسوع

ما شئت من زهزهة والفتى بمصقلاباذ لسقى الزروع

ملح ولمح به الامام عبد القاهر في بعض من يأخذ عنه ولا يحضر ذهنه ، وهو أبو عامر الجرجاني ، أى : يجيء في بقية وقت له مع تعلق فكره بغير ما جاء له ، كمجيء من خلط الهوى بالنزوع ، أى الرجوع ويطلق النزوع على الشوق أيضا ، ثم يرى خلقة وطبيعة غليظة مشعلة بشهوات الشباب . والجبلة – بكسرتين فتشديد ، وبتثليث أوله وسكون ثانيه – : الخلقة والطبيعة ، ولعلها مضافة لما بعدها إضافة الموصوف لصفته . ويقال : شب يشب ويشب شبابا وشبيا : قمص ولعب . وشببت النار شبا وشبوبا : أوقدتها . وشببته : أظهرته . وأشببته : هيجته . ويروى :

ثم ترى جلسة مستوفز ، أى : مستعجل متهيأ للقيام . وهذه الرواية أوفق بالوزن والمعنى . والنسع : حزام عريض يوضع تحت صدر المطية ، وستر الهودج ، واسترخاء لحم الأسنان ، وريح الشمال ، والذهاب ، وسرعة الانبات .

وجمعه : أنساع ونسوع ونسع . أى : والحال أنه قد شددت أحماله بالنسوع ، كناية عن الرحيل . ويقول الفارسي عند استحسان الأمر : زهازه ، فأخذ منه الزهزهة ، أى : ما شئت من الاستحسان عند التعلم موجود منه كثير ، والخطاب لغير معين ، والحال أن الفتى في مصقلاباد ، وهي محلة بجرجان ، ويروى بالذال المعجمة ، أى : كائن هناك لسقى زروعه . لما كان قلبه غير متعلق إلا بذلك المكان ، كان جسمه كأنه هناك ، ولقد ترقى في

التشبيه حيث شبهه بمن خلط الهوى بغيره تشبيها بليغا . ثم بمن تهيأ للرحيل على سبيل التمثيل ، ثم بمن سافر بالفعل ووصل مقصده واشتغل بما فيه تشبيها بليغا ، فللّه دره بليغا .

(119/723)

أو : وهو مؤمن شاهد على صحته وأنه وحى من اللّه ، أو وهو بعض الشهداء في قوله تعالى لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وعن قتادة وهو شاهد على صدقه من أهل الكتاب لوجود نعته عنده وقرأ السدى وجماعة : ألقى السمع ، على البناء للمفعول . ومعناه : لمن ألقى غيره السمع وفتح له أذنه فحسب ولم يحضر ذهنه وهو حاضر الذهن متفطن . وقيل : ألقى سمعه أو السمع منه .

[سورة ق (50) : آية 38]

وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ (38)

اللغوب : الإعياء . وقرئ بالفتح بزنة القبول والولوع . قيل : نزلت في اليهود لعنت تكذيبا لقولهم : خلق اللّه السماوات والأرض في ستة أيام أوّلها الأحد وآخرها الجمعة ، واستراح يوم السبت واستلقى على العرش . وقالوا : إنّ الذي وقع من التشبيه في هذه الأمة إنما وقع من اليهود ومنهم أخذ .

[سورة ق (50) : الآيات 39 إلى 43]

فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (39) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبارَ السُّجُودِ (40) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ (41) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (42) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (43)

فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ أى اليهود ويأتون به من الكفر والتشبيه. وقيل: فاصبر على ما يقول المشركون من إنكارهم البعث، فإنّ من قدر على خلق العالم قدر على بعثهم والانتقام منهم. وقيل: هي منسوخة بآية السيف. وقيل: الصبر مأمور به في كل حال بِحَمْدِ رَبِّكَ حامدا ربك، والتسبيح محمول على ظاهره أو على الصلاة، فالصلاة قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ الفجر وَقَبْلَ الْغُرُوبِ الظهر والعصر وَمِنَ اللَّيْلِ العشا آن. وقيل التهجد وَأَدْبارَ السُّجُودِ التسبيح في آثار الصلوات، والسجود والركوع يعبر بهما عن الصلاة. وقيل النوافل بعد المكتوبات. وعن على رضى اللّه عنه: الركعتان بعد المغرب. وروى عن النبي صلى اللّه عليه وسلم «من صلى بعد المغرب قبل أن يتكلم كتبت صلاته في عليين» «1» وعن ابن عباس رضى اللّه

---

(1). أخرجه ابن أبى شيبة وعبد الرزاق من رواية عبد العزيز بن عمر: سمعت مكحولا يقول: بلغني أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال «من صلى ركعتين بعد المغرب قبل أن يتكلم

كتبتا - أو قال رفعتا - في عليين» هذا مرسل . وقد روى موصولا عن أنس عن عائشة رضى اللّه عنهما . أما حديث أنس فرواه الدارقطني في غرائب مالك ، من رواية أحمد بن سليمان الأسدى عنه عن الزهري عن أنس به وأتم منه . وقال . هذا موضوع على مالك . وأما حديث عائشة فرواه ابن شاهين في الترغيب . وفي إسناده جعفر بن جميع

(120/723)

عنهما : الوتر بعد العشاء . والأدبار : جمع دبر . وقرئ : وأدبار ، من أدبرت الصلاة إذا انقضت وتمت . ومعناه : ووقت انقضاء السجود ، كقولهم : آتيك خفوق النجم وَاسْتَمِعْ يعنى واستمع لما أخبرك به من حال يوم القيامة . وفي ذلك تهويل وتعظيم لشأن المخبر به والمحدّث عنه ، كما يروى عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال سبعة أيام لمعاذ بن جبل : «يا معاذ اسمع ما أقول لك» ، ثم حدّثه بعد ذلك « 1 » . فإن قلت : بم انتصب اليوم ؟ قلت : بما دل عليه ذِلكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ أى :

يوم ينادى المنادى يخرجون من القبور . ويوم يسمعون : بدل من يَوْمَ يُنادِ والْمُنادِ إسرافيل ينفخ في الصور وينادى : أيتها العظام البالية والأوصال المنقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرّقة إنّ اللّه يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء . وقيل : إسرافيل ينفخ وجبريل ينادى

بالحشر مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ من صخرة بيت المقدس ، وهي أقرب الأرض من السماء باثنى عشر ميلا ، وهي وسط الأرض . وقيل : من تحت أقدامهم . وقيل : من منابت شعورهم يسمع من كل شعرة : أيتها العظام البالية - والصَّيْحَةَ النفخة الثانية بِالْحَقِّ متعلق بالصيحة ، والمراد به البعث والحشر للجزاء .

[سورة ق (50) : آية 44]

يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِراعاً ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ (44)

وقرئ : تشقق ، وتشقق بإدغام التاء في الشين ، وتشقق على البناء للمفعول ، وتنشق سِراعاً حال من المجرور عَلَيْنا يَسِيرٌ تقديم الظرف يدل على الاختصاص ، يعنى : لا يتيسر مثل ذلك الأمر العظيم إلا على القادر الذات الذي لا يشغله شأن عن شأن ، كما قال تعالى ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ .

[سورة ق (50) : آية 45]

نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ (45)

نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ تهديد لهم وتسلية لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بِجَبَّارٍ كقوله تعالى بِمُصَيْطِرٍ حتى تقسرهم على الإيمان ، إنما أنت داع وباعث «2» . وقيل : أريد التحلم عنهم وترك الغلظة عليهم . ويجوز أن يكون من جبره على الأمر بمعنى أجبره عليه ، أى : ما أنت

(1) . لم أجده.

(2) . قوله «إنما أنت داع وباعث» أي: تبعث الناس على الايمان. (ع)

(121/723)

بوال عليهم تجبرهم على الإيمان. وعلى بمنزلته في قولك: هو عليهم، إذا كان واليهم ومالك أمرهم مَنْ يَخافُ وَعِيدِ كقوله تعالى إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها لأنه لا ينفع إلا فيه دون المصر على الكفر.

عن رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وسلم: «من قرأ سورة ق هوّن اللّه عليه تارات «1» الموت وسكراته» «2». انتهى انتهى. اهـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 379. 394﴾

---

(1) . قوله «هون اللّه عليه تارات الموت» في الصحاح: فعل ذلك الأمر تارة بعد تارة، أي: مرة بعد مرة. (ع) [. . . . .]

(2) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب رضي اللّه عنه.

(122/723)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ق ﴾

فيه أربعة أوجه :

أحدها : أنه اسم من أسماء الله تعالى أقسم بها ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه اسم من أسماء القرآن ، قاله قتادة .

الثالث : أن معناه قضى والله ، كما قيل في حم : حم والله ، وهذا معنى قول مجاهد .

الرابع : أنه اسم الجبل المحيط بالدنيا ، قاله الضحاك .

قال مقاتل : وعروق الجبال كلها منه .

ويحتمل خامساً : أن يكون معناه قف ؛ كما قال الشاعر :

قلت لها قفي فقالت قاف . . . . . .

أي وقفت . ويحتمل ما أريد بوقفه عليه وجهين :

أحدهما : قف على إبلاغ الرسالة لئلا تضجر بالتكذيب .

الثاني : قف على العمل بما يوحى إليك لئلا تعجل على ما لم تؤمر به .

﴿ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه الكريم ، قاله الحسن .

الثاني : أنه مأخوذ من كثرة القدرة والمنزلة ، لا من كثرة العدد من قولهم فلان كثير في النفوس

، ومنه قول العرب في المثل السائر : لها في كل الشجر نار ، واستجمد المرخ والعفار ، أي استكثر هذان النوعان من النار وزاد على سائر الشجر ، قاله ابن بحر .

الثالث : أنه العظيم ، مأخوذ من قولهم قد مجدت الإبل إذا أعظمت بطونها من كلأ الربيع .

﴿ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ﴾ قسم أقسم الله به تشريفاً له وتعظيماً لخطره لأن عادة جارية في القسم ألا يكون إلا بالمعظم . وجواب القسم محذوف ويحتمل وجهين :

أحدهما : هو أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى : ﴿ بَلْ عَجِبُوا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ .

الثاني : أنكم مبعوثون بدليل قوله : ﴿ إِئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ﴾ .

قوله عز وجل : ﴿ بَلْ عَجِبُوا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم .

﴿ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنهم عجبوا أن دعوا إلى إله واحد ، قاله قتادة .

الثاني : عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، من قبل الله تعالى .

الثالث : أنهم عجبوا من إنذارهم بالبعث والنشور .

قوله عز وجل : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : من يموت منهم ، قاله قتادة .

الثاني : يعني ما تأكله الأرض من لحومهم وتبليه من عظامهم ، قاله الضحاك .

﴿ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ يعني اللوح المحفوظ . وفي حفيظ وجهان :

أحدهما : حفيظ لأعمالهم .

الثاني : لما يأكله التراب من لحومهم وأبدانهم وهو الذي تنقصه الأرض منهم .

قوله عز وجل : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ . . . ﴾ الآية . الحق يعني القرآن في قول الجميع .

﴿ مَرِيجٍ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : أن المريج المختلط . قاله الضحاك .

الثاني : المختلف ، قاله قتادة .

الثالث : الملتبس ، قاله الحسن .

الرابع : الفاسد ، قاله أبو هريرة . ومنه قول أبي دؤاد :

مرج الدين فأعددت له . . . مشرف الحارك محبوك الكتد

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : من شقوق .

الثاني : من فتوق ، قاله ابن عيسى إلا أن الملك تفتح له أبواب السماء عند العروج .

قوله عز وجل : ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾ أي بسطناها .

﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ يعني الجبال الرواسي الثوابت ، واحدها راسية قال الشاعر :

رسا أصله تحت الثرى وسما به . . . إلى النجم فرع لا ينال طويل

﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ ﴾ أي من كل نوع .

﴿ بَهِيجٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : حسن ، مأخوذ من البهجة وهي الحسن .

الثاني : سارّ مأخوذ من قولهم قد أبهجني هذا الأمر أي سرني ، لأن السرور يحدث في الوجه من الإسفار والحمرة ما يصير به حسناً . قال الشعبي : الناس نبات الأرض فمن دخل الجنة فهو كريم ، ومن دخل النار فهو لئيم .

قوله عز وجل : ﴿ تَبْصِرَةً ﴾ فيها ثلاثة أوجه :

أحدها : يعني بصيرة للإنسان ، قاله مجاهد .

الثاني : نعماً بصر الله بها عباده ، قاله قتادة .

الثالث : يعني دلالة وبرهاناً .

﴿ وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن المنيب المخلص ، قاله السدي .

الثاني : أنه التائب إلى ربه ، قاله قتادة .

الثالث : أنه الراجع المتذكر ، قاله ابن بحر .

وقد عم الله بهذه التبصرة والذكرى وإن خص بالخطاب كل عبد منيب لانتفاعه بها واهتدائه إليها .

قوله عز وجل : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً مُّبَارَكاً ﴾ يعني المطر ، لأنه به يحيا النبات والحيوان .

﴿ فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ ﴾ فيها هنا وجهان :

أحدهما : أنها البساتين ، قاله الجمهور .

الثاني : الشجر ، قاله ابن بحر .

﴿ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ يعني البر والشعير ، وكل ما يحصد من الحبوب ، إذا تكامل واستحصد سمي حصيداً ، قال الأعشى :

لسنا كما إياد دارها . . . تكريث ينظر حبه أن يحصدا

قوله عز وجل : ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ ﴾ فيها وجهان :

أحدهما : أنها الطوال ، قاله ابن عباس ومجاهد . قاله الشاعر :

يا ابن الذين بفضلهم . . . بسقت على قيس فزاره

أي طالت عليهم .

(الثاني) أنها التي قد ثقلت من الحمل ، قاله عكرمة . وقال الشاعر :

فلما تركنا الدار ظلت منيفة . . . بقران فيه الباسقات المواقر

﴿ نَضِيدٌ ﴾ أي منضود ، فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن النضيد المتراكم المتراكب ، قاله ابن عباس في رواية عكرمة عنه .

الثاني : أنه المنظوم ، وهذا يروى عن ابن عباس أيضاً .

الثالث : أنه القائم المعتدل ، قاله ابن الهاد .

قوله عز وجل : ﴿ رِزْقاً لِلْعِبَادِ ﴾ يعني ما أنزله من السماء من ماء مبارك ، وما أخرجه من الأرض بالماء من نبات وحب الحصيد وطلع نضيد .

﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ جعل هذا كله دليلاً على البعث والنشور من وجهين :

أحدهما : أن النشأة الأولى إذا خلقها من غير أصل كانت النشأة الثانية بإعادة ما له أصل أهون .

الثاني : أنه لما شوهد من قدرته ، إعادة ما مات من زرع ونبات كان إعادة من مات من العباد أولى للتكليف الموجب للجزاء .

(125/723)

قوله عز وجل : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُم قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ ﴾ في الرس وجهان :

أحدهما : أنه كل حفرة في الأرض من بئر وقبر .

الثاني : أنها البئر التي لم تطو بحجر ولا غيره .

وأما أصحاب الرس ففيهم أربعة أقاويل :

أحدها : أنها بئر قتل فيها صاحب ياسين ورسوه ، قاله الضحاك .

الثاني : أنهم أهل بئر بأذربيجان ، قاله ابن عباس .

الثالث : أنهم قوم باليمامة كان لهم آبار ، قاله قتادة . قال الزهير :

بكرن بكوراً واستحرن بسحرة . . . فهن ووادي الرس كاليد في الفم

الرابع : أنهم أصحاب الأخدود .

﴿ وَثَمُودُ ﴾ وهم قوم صالح ، وكانوا عرباً بوادي القرى وما حولها . وثمود مأخوذ من الثمد وهو الماء القليل الكدر ، قال النابغة :

واحكم بحكم فتاة الحي إذ نظرت . . . إلى حمام سراع وارد الثمد

﴿ وَعَادٌ ﴾ وهو اسم رجل كان من العماليق كثر ولده ، فصاروا قبائل وكانوا باليمن بالأحقاف ، والأحقاف الرمال ، وهم قوم هود .

﴿ فِرْعَوْنَ ﴾ وقد اختلف في أصله فحكي عن مجاهد أنه كان فارسياً من أهل إصطخر . وقال ابن لهيعة : كان من أهل مصر وحكي عن ابن عباس أنه عاش ثلاثمائة سنة منها مائتان وعشرون سنة لا يرى ما يقذي عينه ، فدعاه موسى ثمانين سنة . وحكى غيره أنه عاش أربعمائة سنة .

واختلف في نسبه فقال بعضهم هو من لخم ، وقال آخرون هو من تبَّع .

﴿ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴾ يعني قومه وأتباعه ، قال مجاهد : كانوا أربعمائة ألف بيت ، في كل بيت عشرة مردة ، فكانوا أربعة آلاف ألف .

وقال عطاء : ما من أحد من الأنبياء إلا وقد يقوم معه قوم إلا لوط فإنه يقوم وحده .

﴿ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ ﴾ والأيكة الغيضة ذات الشجر الملتف كما قال أبو داود الإيادي :

كأن عرين أيكته تلاقى . . . بها جمعان من نبط وروم

قال قتادة : وكان عامة شجرها الدوم ، وكان رسولهم شعيباً ، وأرسل إليهم ، وإلى أهل مدين ، أرسل إلى أمتين من الناس ، وعذبتا بعذابين ، أما أهل مدين فأخذتهم الصيحة ، وأما أصحاب الأيكة فكانوا أهل شجر متكاوس .

﴿ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ وتبع كان رجلاً من ملوك العرب من حِمير ، سُمّي تبعاً لكثرة من تبعه . قال وهب : إن تبعاً أسلم وكفر قومه ، فلذلك ذكر قومه ، ولم يذكر تبع . قال قتادة وهو الذي حير الحيرة وفتح سمرقند حتى أخربها ، وكان يكتب إذا كتب : بسم الله الذي تَسمَّى وملك براً وبحراً وضحى وريحاً .

﴿ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ يعني أن كل هؤلاء كذبوا من أرسل إليهم ، فحق عليهم وعيد الله وعذابه . فذكر الله قصص هؤلاء لهذه الأمة ، ليعلم المكذبون منهم بالنبي صلى الله عليه وسلم أنهم كغيرهم من مكذبي الرسل إن أقاموا على التكذيب فلم يأمنوا ، حتى أرشد الله منهم من أرشد وتبعهم رغباً ورهباً من تبع .

قوله عز وجل : ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أما اللبس فهو اكتساب الشك ، ومنه قول الخنساء :

صدق مقالته واحذر عداوته . . . والبس عليه بشك مثل ما لبسا

والخلق الجديد هو إعادة خلق ثان بعد الخلق الأول . وفي معنى الكلام تأويلان :

أحدهما : أفعجزنا عن إهلاك الخلق الأول ، يعني من تقدم ذكره حين كذبوا رسلي مع قوتهم

، حتى تشكوا في إهلاكنا لكم مع ضعفكم إن كذبتم ، فيكون هذا خارجاً منه مخرج الوعيد .

الثاني : معناه أننا لم نعجز عن إنشاء الخلق الأول ، فكيف تشكون في إنشاء خلق جديد ، يعني بالبعث بعد الموت ، فيكون هذا خارجاً مخرج البرهان والدليل .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ الوسوسة كثرة حديث النفس بما لا يتحصل في حفاء وإسرار ، ومنه قول رؤبة :

وسوس يدعو مخلصاً رب الفلق . . . . . .

(127/723)

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيهِ مِن حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه حبل معلق به القلب ، قاله الحسن . والأصم وهو الوتين .

الثاني : أنه عرق في الحلق ، قاله أبو عبيدة .

الثالث : ما قاله ابن عباس ، عرق العنق ويسمى حبل العاتق ، وهما وريدان عن يمين وشمال ، وسمي وريداً ، لأنه العرق الذي ينصب إليه ما يرد من الرأس .

وفي قوله ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيهِ مِن حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ تأويلان :

أحدهما : ونحن أقرب إليه من حبل وريده الذي هو منه .

الثاني : ونحن أملك به من حبل وريده ، مع استيلائه عليه .

ويحتمل ثالثاً : ونحن أعلم بما توسوس به نفسه من حبل وريده ، الذي هو من نفسه ، لأنه عرق يخالط القلب ، فعلم الرب أقرب إليه من علم القلب .

قوله عز وجل : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ . . ﴾ الآية . قال الحسن ومجاهد وقتادة : المتلقيان ملكان يتلقيان عملك ، أحدهما عن يمينك ، يكتب حسناتك ، والآخر عن شمالك يكتب سيئاتك .

قال الحسن : حتى إذا مت طويت صحيفة عملك وقيل لك يوم القيامة : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ عدل والله عليك من جعلك حسيب نفسك .

وفي ﴿ قَعِيدٌ ﴾ وجهان :

أحدهما : أنه القاعدة ، قاله المفضل .

الثاني : المرصد الحافظ ، قاله مجاهد . وهو مأخوذ من القعود .

قال الحسن : الحفظة أربعة : ملكان بالنهار وملكان بالليل .

قوله عز وجل : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ ﴾ أي ما يتكلم بشيء ، مأخوذ من لفظ الطعام ، وهو إخراجه من الفم .

﴿ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه المتتبع للأمور .

الثاني : أنه الحافظ ، قاله السدي .

الثالث : أنه الشاهد ، قاله الضحاك .

وفي ﴿ عَتِيدٌ ﴾ وجهان :

أحدهما : أنه الحاضر الذي لا يغيب .

الثاني : أنه الحافظ المعد إما للحفظ وإما للشهادة .

قوله عز وجل : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ يحتمل وجهين :

(128/723)

أحدهما : ما يراه عند المعاينة من ظهور الحق فيما كان الله قد أوعده .

الثاني : أن يكون الحق هو الموت ، سمي حقاً ، إما لاسحقاقه ، وإما لانتقاله إلى دار الحق .

فعلى هذا يكون في الكلام تقديم وتأخير . وتقديره : وجاءت سكرة الحق بالموت ،

ووجدتها في قراءة ابن مسعود كذلك .

﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أنه كان يحيد من الموت ، فجاءه الموت .

الثاني : أنه يحيد من الحق ، فجاءه الحق عند المعاينة .

وفي معنى التحيد وجهان :

أحدهما : أنه الفرار ، قاله الضحاك .

(الثاني) : العدول ، قاله السدي . ومنه قول الشاعر :

ولقد قلت حين لم يك عنه . . . لي ولا للرجال عنه محيد

فروى عاصم بن أبي بهدلة ، عن أبي وائل ، أن عائشة قالت عند أبيها وهو يقضي :

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى . . . إذا حشرجت يوماً ، وضاق بها الصدر

فقال أبو بكر : " هلا قلت كما قال الله] : وَجَآءَتْ سَكْرَتُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ .

قوله عز وجل : ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ أما السائق ففيه قولان :

أحدهما : أنه ملك يسوقه إلى المحشر ، قاله أبو هريرة وابن زيد .

الثاني : أنه أمر من الله يسوقه إلى موضع الحساب ، قاله الضحاك .

وأما الشهيد ففيه أربعة أقاويل :

أحدها : أنه ملك يشهد عليه بعمله ، وهذا قول عثمان بن عفان والحسن .

الثاني : أنه الإنسان ، يشهد على نفسه بعمله ، رواه أبو صالح .

الثالث : أنها الأيدي والأرجل تشهد عليه بعمله بنفسه ، قاله أبو هريرة .

ثم في الآية قولان :

أحدهما : أنها عامة في المسلم والكافر ، وهو قول الجمهور .

الثاني : أنها خاصة في الكافر ، قاله الضحاك .

قوله عز وجل : ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّن هَذَا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما أنه الكافر ، كان في غفلة من عواقب كفره ، قاله ابن عباس .

(129/723)

الثاني : أنه النبي صلى الله عليه وسلم ، كان في غفلة عن الرسالة مع قريش في جاهليتهم ، قاله عبد الرحمن بن زيد .

ويحتمل ثالثاً : لقد كنت أيها الإنسان في غفلة عن أن كل نفس معها سائق وشهيد لأن هذا لا يعرف إلا بالنصوص الإلهية .

﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : أنه إذا كان في بطن أمه فولد ، قاله السدي .

الثاني : إذا كان في القبر فنشر ، وهذا معنى قول ابن عباس .

الثالث : أنه وقت العرض في القيامة ، قاله مجاهد .

الرابع : أنه نزول الوحي وتحمل الرسالة ، وهذا معنى قول ابن زيد .

﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ وفي المراد بالبصر هنا وجهان :

أحدهما : بصيرة القلب لأنه يبصر بها من شواهد الأفكار ، ونتائج الاعتبار ما تبصر العين ما قابلها من قبلها من الأشخاص والأجسام ، فعلى هذا في قوله : ﴿ حَدِيدٌ ﴾ تأويلان :

أحدهما : سريع كسرعة مور الحديد .

الثاني : صحيح كصحة قطع الحديد .

الوجه الثاني : أن المراد به بصر العين وهو الظاهر ، فعلى هذا في قوله : ﴿ حَدِيدٌ ﴾ تأويلان :

أحدهما : شديد ، قاله الضحاك .

الثاني : بصير ، قاله ابن عباس .

وماذا يدرك البصر ؟ فيه خمسة أوجه :

أحدها : يعاين الآخرة ، قاله قتادة .

الثاني : لسان الميزان ، قاله الضحاك .

الثالث : ما يصير إليه من ثواب أو عقاب ، وهو معنى قول ابن عباس .

الرابع : ما أمر به من طاعة وحذره من معصية ، وهو معنى قول ابن زيد .

الخامس : العمل الذي كان يعمله في الدنيا ، قاله الحسن .

قوله عز وجل : ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ أما قرينه ففيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه الملك الشهيد عليه ، قاله الحسن وقتادة .

الثاني : أنه قرينه الذي قيض له من الشياطين ، قاله مجاهد .

الثالث : أنه قرينه من الإنس ، قاله ابن زيد في رواية ابن وهب عنه .

وفي قوله : ﴿ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ وجهان :

أحدهما : هذا الذي وكلت به أحضرته ، قاله مجاهد .

(130/723)

الثاني : هذا الذي كنت أحبه ويحبني قد حضر ، قاله ابن زيد .

قوله عز وجل : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ في ألقيا ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن المأمور بألقيا كل كافر في النار ملكان .

الثاني : يجوز أن يكون واحد ويؤمر بلفظ الاثنين كقول الشاعر :

فإن تزجراني يا بن عفان أنزجر . . . وإن تدعاني أحم عرضاً ممنعاً

الثالث : أنه خارج مخرج تثنية القول على معنى قولك ألق ألق ، قف قف ، تأكيداً للأمر .

والكفار [بفتح الكاف] أشد مبالغة من الكافر .

ويحتمل وجهين : أحدهما : أنه الكافر الذي كفر بالله ولم يطعه ، وكفر بنعمه ولم يشكره .

الثاني : أنه الذي كفر بنفسه وكفر غيره بإغوائه .

وأما العنيد ففيه خمسة أوجه :

أحدها : أنه المعاند للحق ، قاله بعض المتأخرين .

الثاني : أنه المنحرف عن الطاعة ، قاله قتادة .

الثالث : أنه الجاحد المتمرد ، قاله الحسن .

الرابع : أنه المشاق ، قاله السدي .

الخامس : أنه المعجب بما عنده المقيم على العمل به ، قاله ابن بحر .

فأما العاند ففيه وجهان :

أحدهما : أنه الذي يعرف بالحق ثم يجحده .

الثاني : أنه الذي يدعى إلى الحق فيأباه .

قوله عز وجل : ﴿ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه منع الزكاة المفروضة ، قاله قتادة .

الثاني : أن الخير المال كله ، ومنعه حبسه عن النفقه في طاعة الله ، قاله بعض المتأخرين .

الثالث : محمول على عموم الخير من قول وعمل .

﴿ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ﴾ في المريب ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه الشاك في الله ، قاله السدي .

الثاني : أنه الشاك في البعث ، قاله قتادة .

الثالث : أنه المتهم . قال الشاعر :

بثينة قالت يا جميل أربتنا . . . فقلت كلانا يا بثين مريب

وأريبنا من لا يؤدي أمانة . . . ولا يحفظ الأسرار حين يغيب

قال الضحاك : هذه الآية في الوليد بن المغيرة المخزومي حين استشاره بنو أخيه في الدخول في الإسلام فمنعهم .

قوله عز وجل : ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ ﴾ فيه وجهان :

(131/723)

أحدهما : أن اختصامهم هو اعتذار كل واحد منهم فيما قدم من معاصيه ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه تخاصم كل واحد مع قرينه الذي أغواه في الكفر ، قاله أبو العالية .

فأما اختصامهم في مظالم الدنيا ، فلا يجوز أن يضاع لأنه يوم التناصف .

أحدها : أن الوعيد الرسول ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه القرآن ، قاله جعفر بن سليمان .

الثالث : أنه الأمر والنهي ، قاله ابن زيد .

ويحتمل رابعاً : أنه الوعد بالثواب والعقاب .

قوله عز وجل : ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : فيما أوجه من أمر ونهي ، وهذا معنى قول ابن زيد .

الثاني : فيما وعد به من طاعة ومعصية ، وهو محتمل .

الرابع : في أن بالحسنة عشر أمثالها وبخمس الصلوات خمسين صلاة ، قاله قتادة .

﴿ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ما أنا بمعذب من لم يجرم ، قاله ابن عباس .

الثاني : ما أزيد في عقاب مسيء ولا أنقص من ثواب محسن ، وهو محتمل .

قوله عز وجل : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : هل يزاد إلى من ألقي غيرهم ؟ فالاستخبار عمن بقي ، قاله زيد بن أسلم .

الثاني : معناه إني قد امتلأت ، ممن ألقي في ، فهل أسع غيرهم ؟ قاله مقاتل .

الثالث : معناه هل يزاد في سعتي ؟ لإلقاء غير من ألقي في ، قاله معاذ .

وفي قوله : ﴿ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ وجهان :

أحدهما : أن زبانية جهنم قالوا هذا .

الثاني : أن حالها كالمناطقة بهذا القول ، كما قال الشاعر :

امتلأ الحوض وقال قطني . . . مهلاً رويداً قد ملأت بطني

قوله عز وجل : ﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ في الأواب الحفيظ ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه الذاكر ذنبه في الخلاء ، قاله الحكم .

الثاني : أنه الذي إذا ذكر ذنباً تاب واستغفر الله منه ، قاله ابن مسعود ومجاهد والشعبي .

(132/723)

الثالث : أنه الذي لا يجلس مجلساً فيقوم حتى يستغفر الله فيه ، قاله عبيد بن عمير .

وأما الحفيظ هنا ففيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه المطيع فيما أمر ، وهو معنى قول السدي .

الثاني : الحافظ لوصية الله بالقبول ، وهو معنى قول الضحاك .

الثالث : أنه الحافظ لحق الله بالاعتراف ولنعمه بالشكر ، وهو معنى قول مجاهد . وروى مكحول عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَنْ حَافَظَ عَلَى أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ كَانَ أَوَّاباً حَفِيظاً " .

قوله عز وجل : ﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه الذي يحفظ نفسه من الذنوب في السر كما يحفظها في الجهر .

الثاني : أنه التائب في السر من ذنوبه إذا ذكرها ، كما فعلها سراً .

ويحتمل ثالثاً : أنه الذي يستتر بطاعته لئلا يداخلها في الظاهر رياء . ووجدت فيه لبعض المتكلمين .

رابعاً : أنه الذي أطاع الله بالأدلة ولم يره .

﴿ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه المنيب المخلص ، قاله السدي .

الثاني : أنه المقبل على الله ، قاله سفيان .

الثالث : أنه التائب ، قاله قتادة .

﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ ﴾ يعني ما تشتهي أنفسهم وتلذ أعينهم .

﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن المزيد من يزوج بهن من الحور العين ، رواه أبو سعيد الخدري مرفوعاً .

الثاني : أنها الزيادة التي ضاعفها الله من ثوابه بالحسنة عشر أمثالها .

وروى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أن جبريل أخبره : أن يوم الجمعة يدعى في الآخرة يوم المزيد . وفيه وجهان :

أحدهما : لزيادة ثواب العمل فيه .

الثاني : لما روي أن الله تعالى يقضي فيه بين خلقه يوم القيامة .

قوله عز وجل : ﴿ فَنَقَّبُواْ فِي الْبِلاَدِ ﴾ فيه أربعة أوجه :

احدها : أثروا في البلاد ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنهم ملكوا في البلاد ، قاله الحسن .

(133/723)

الثالث : ساروا في البلاد وطافوا ، قاله قتادة ، ومنه قول امرىء القيس :

وقد نقبت في الآفاق حتى . . . رضيت من الغنيمة بالإياب

الرابع : أنهم اتخذوا فيها طرقاً ومسالك ، قاله ابن جريج .

ويحتمل خامساً : أنه اتخاذ الحصون والقلاع .

﴿ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : هل من منجٍ من الموت ، قاله ابن زيد .

الثاني : هل من مهرب ، قال معمر عن قتادة : حاص أعداء الله فوجدوا أمر الله تعالى لهم مدركاً .

الثالث : هل من مانع ؟ قال سعيد عن قتادة : حاص الفجرة ، فوجدوا أمر الله منيعاً .

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لمن كان له عقل ، قاله مجاهد ، لأن القلب محل العقل .

الثاني : لمن كانت له حياة ونفس مميزة ، فعبر عن النفس الحية بالقلب لأنه وطنها ومعدن حياتها . كما قال امرؤ القيس :

أغرك مني أن حبك قاتلي . . . وأنك مهما تأمري القلب يفعل

﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : ألقى السمع فيما غاب عنه بالأخبار ، وهو شهيد فيما عاينه بالحضور .

الثاني : معناه سمع ما أنزل الله من الكتب وهو شهيد بصحته .

الثالث : سمع ما أنذر به من ثواب وعقاب ، وهو شهيد على نفسه بما عمل من طاعة أو معصية .

وفي الآية ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها في جميع أهل الكتب ، قاله قتادة .

الثاني : أنها في اليهود والنصارى خاصة ، قاله الحسن .

الثالث : أنها في أهل القرآن خاصة ، قاله محمد بن كعب وأبو صالح .

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ واللغوب التعب والنصب . قال الراجز :

إذا رقى الحادي المطي اللغبا . . . وانتعل الظل فصار جوربا

قال قتادة والكلبي : نزلت هذه الآية في يهود المدينة ، زعموا أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام أولها يوم الأحد ، وآخرها يوم الجمعة ، واستراح في يوم السبت ، ولذلك جعلوه يوم راحة ، فأكذبهم الله في ذلك .

(134/723)

قوله عز وجل : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، أمر فيه بالصبر على ما يقوله المشركون ، إما من تكذيب أو وعيد .

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ الآية . وهذا وإن كان خطاباً للنبي صلى الله عليه وسلم ، فهو عام له ولأمته .

وفي هذا التسبيح وجهان :

أحدهما : أنه تسبيحه بالقول تنزيهاً قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ، قاله أبو الأحوص .

الثاني : أنها الصلاة ومعناه فصلِّ بأمر ربك قبل طلوع الشمس ، يعني صلاة الصبح ، وقبل الغروب ، يعني صلاة العصر ، قاله أبو صالح ورواه جرير بن عبد الله مرفوعاً .

قوله عز وجل : ﴿ وَمِنَ اللَّيلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : أنه تسبيح الله تعالى قولاً في الليل ، قاله أبو الأحوص .

الثاني : أنها صلاة الليل ، قاله مجاهد .

الثالث : أنها ركعتا الفجر ، قاله ابن عباس .

الرابع : أنها صلاة العشاء الآخرة ، قاله ابن زيد .

ثم قال ﴿ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه التسبيح في أدبار الصلوات ، قاله أبو الأحوص .

الثاني : أنها النوافل بعد المفروضات ، قاله ابن زيد .

الثالث : أنها ركعتان بعد المغرب ، قاله علي رضي الله عنه وأبو هريرة .

وروى ابن عباس قال : بت ليلة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصلى ركعتين قبل الفجر ، ثم خرج إلى الصلاة فقال : " يا ابن عباس رَكْعَتَانِ قَبْلَ الْفَجْرِ أَدْبَارَ النُّجُومِ ، وَرَكْعَتَانِ بَعْدَ الْمِغْرِبِ أَدْبَارَ السُّجُودِ " .

قوله عز وجل : ﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ ﴾ هذه الصيحة التي ينادي بها المنادي من مكان قريب هي النفخة الثانية التي للبعث إلى أرض المحشر .

ويحتمل وجها آخر ، أنه نداؤه في المحشر للعرض والحساب .

وفي قوله : ﴿ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ وجهان :

أحدهما : أنه يسمعها كل قريب وبعيد ، قاله ابن جريج .

الثاني : أن الصيحة من مكان قريب . قال قتادة : كنا نحدث أنه ينادي من بيت المقدس من الصخرة وهي أوسط الأرض : يا أيتها العظام البالية ، قومي لفصل القضاء وما أعد من الجزاء . وحدثنا ، أن كعباً قال : هي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً .

قوله عز وجل : ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني بقول الحق .

الثاني : بالبعث الذي هو حق .

﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : الخروج من القبور .

الثاني : أن الخروج من أسماء القيامة . قال العجاج :

وليس يوم سمي الخروجا . . . أعظم يوم رجه رجوجا

قوله عز وجل : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : نحن أعلم بما يجيبونك من تصديق أو تكذيب .

الثاني : بما يسرونه من إيمان أو نفاق .

﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : يعني برب ، قاله الضحاك ، لأن الجبار هو الله تعالى سلطانه .

الثاني : متجبر عليهم متسلط ، قاله مجاهد . ولذلك قيل لكل متسلط جبار . قال الشاعر :

وكنا إذا الجبار صعر خده . . . أقمنا له من صعره فتقوما

وهو من صفات المخلوقين ذم .

الثالث : أنك لا تجبرهم على الإسلام من قولهم قد جبرته على الأمر إذا قهرته على أمر ، قاله الكلبي .

﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ الوعيد العذاب ، والوعد الثواب . قال الشاعر :

وإني وإن أوعدته أو وعدته . . . لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

قال قتادة : اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ويرجو موعدك . وروي أنه قيل : يا رسول الله لو خوفتنا فنزلت ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 5 صـ 339 . 359 ﴾

(136/723)

وقال ابن الجوزى :

سورة ق

قوله تعالى : ﴿ ق ﴾ قرأ الجمهور : بإسكان الفاء .

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو المتوكل ، وأبو رجاء ، وأبو الجوزاء ، "قافَ" بنصب الفاء .

وقرأ أبو رزين ، وقتادة ، "قافُ" برفع الفاء .

وقرأ الحسن ، وأبو عمران ، "قافِ" بكسر الفاء .

وفي "قا" خمسة أقوال .

أحدها : أنه قسم أقسم اللهُ به ، وهو من أسمائه ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : أنه جبل من زَبَرْجَدة خضراء ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

وروى عكرمة عن ابن عباس قال : خَلَقَ اللهُ جبلاً يقال له "قا" محيط بالعالم ، وعروقه إلى الصخرة التي عليها الأرض ، فإذا أراد اللهُ عز وجل أن يزلزل قرية ، أمر ذلك الجبل فحرّك العرق الذي يلي تلك القرية .

وقال مجاهد : هو جبل محيط بالأرض .

وروي عن الضحاك أنه من زمردة خضراء ، وعليه كَنَفَا السماء ، وخُضرة السماء منه .

والثالث : أنه جبل من نار في النار ، قاله الضحاك في رواية عنه عن ابن عباس .

والرابع : أنه اسم من أسماء القرآن ، قاله قتادة .

والخامس : أنه حرف من كلمة .

ثم فيه خمسة أقوال .

أحدها : أنه افتتاح اسمه "قدير" ، قاله أبو العالية .

والثاني : أنه افتتاح أسمائه : القدير ، والقاهر ، والقريب ، ونحو ذلك .

قاله القرظي .

والثالث : أنه افتتاح "قُضي الأمرُ" ، وأنشدوا :

قُلنا لها قِفِي فقالتْ قافْ . . .

معناه : أقف ، فاكتفت بالقاف من "أقف" ، حكاه جماعة منهم الزجاج .

والرابع : قف عند أمرنا ونهينا ، ولا تَعْدُهُما ، قاله أبو بكر الورّاق .

والخامس : قُلْ يا محمد ، حكاه الثعلبي .

قوله تعالى : ﴿ والقرآنِ المَجيدِ ﴾ قال ابن عباس ، وابن جبير : المَجيد : الكريم .

وفي جواب هذا القسم أربعة أقوال .

أحدها : أنه مُضمر ، تقديره : لَيُبْعَثُنَّ بَعْدَ الموت .

قاله الفراء ، وابن قتيبة ، ويدُلُّ عليه قولُ الكفار : ﴿ هذا شيءٌ عجيبٌ ﴾ .

والثاني : أنه قوله : ﴿ قد عَلِمْنا ما تَنْقُص الأرضُ منهم ﴾ ، فيكون المعنى : [قاف] والقرآنِ المجيدِ لقد عَلِمْنا ، فحُذفت اللاّمُ لأنّ ما قبْلَها عِوَضٌ منها ، كقوله : ﴿ والشّمسِ وضُحَاها . . . .

قد أفلح ﴾ [الشمس : 1-9] أي : لقد أفلح ، أجاز هذا القول الزجاج.

والثالث : أنه قوله : ﴿ ما يَلْفِظُ من قول ﴾ ، حكي عن الأخفش .

والرابع : أنه في سورة أُخرى ، حكاه أبو سليمان الدمشقي ، ولم يبيّن في أي سورة .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ عَجِبوا ﴾ مفسَّر في [ص : 4] إلى قوله : ﴿ شيءٌ عجيبٌ ﴾ أي : مُعْجِبٌ .

﴿ أئذا مِتْنا ﴾ قال الأخفش : هذا الكلام على جواب ، كأنه قيل لهم : إنكم ترجعون ، فقالوا : أئذا متنا وكنا ترابا ؟ وقال غيره : تقدير الكلام : ق والقرآنِ لَيُبْعَثُنَّ ، فقال : أئذا متنا وكنا تراباً ؛ والمعنى : أنُبْعَث إذا كنا كذلك ؟ ! وقال ابن جرير : لمّا تعجَّبوا من وعيد الله على تكذيبهم بمحمد صلى الله عليه وسلم فقالوا : هذا شيء عجيب ، كان كأنه قال لهم : ستعلمون إذا بُعثتم ما يكون حالُكم في تكذيبكم محمداً ، فقالوا : أئذا متنا وكنا ترابا ؟ !

قوله تعالى : ﴿ ذلك رَجْعٌ ﴾ أي : ردٌّ إلى الحياة ﴿ بعيدٌ ﴾ قال ابن قتيبة : أيْ : لا يكون .

﴿ قد عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الأرضُ منهم ﴾ أي : ما تأكل من لحومهم ودمائهم وأشعارهم إذا ماتوا ، يعني أن ذلك لا يَعْزُب عن عِلْمه ﴿ وعندنا ﴾ مع عِلْمنا بذلك ﴿ كتابٌ حفيظٌ ﴾ أي : حافظ لعددهم وأسمائهم ، ولِما تَنْقُص الأرضُ منهم ، وهو اللوح المحفوظ قد أُثبت فيه ما يكون .

﴿ بل كذَّبوا بالحق ﴾ وهو القرآن .

والمَرِيج : المختلِط قال ابن قتيبة : يقال : مَرِج [أمرُ] الناس ، ومَرِج الدِّينُ .

وأصل هذا أن يَقْلَق الشيء ، ولا يستقر ، يقال : مَرِج الخاتم في يدي ، إذا قلق ، للهُزَال .

(138/723)

قال المفسرون : ومعنى اختلاط أمرهم : أنهم كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم : مَرَّة : ساحر ، ومرة شاعر ، ومرة مُعَلَّمَ ، ويقولون للقرآن مرة : سحر ، ومرة : مُفْتَرى ، ومرة : رَجَز ، فكان أمرُهم ملتبساً مختلطاً عليهم .

ثم دلَّهم على قُدرته على البعث بقوله : ﴿ أفلم ينظُروا إلى السماء فوقَهم كيف بنيناها ﴾ بغير عمد ﴿ وزيَّنَّاها ﴾ بالكواكب ﴿ وما لها من فُروج ﴾ أي : من صُدوع وشُقوق .

والزَّوج : الجنس .

والبهيج : الحَسَن ، قاله أبو عبيدة ، وقال ابن قتيبة : البهيج : الذي يُبْتَهَج به .

قوله تعالى : ﴿ تَبْصِرةً وذكرى لكل عبد منيب ﴾ قال الزجاج : أي : فَعَلنا ذلك لِنُبَصِّر ونَدُلَّ على القُدرة .

والمُنيب : الذي يَرْجِع إلى الله ويفكِّر في قُدرته .

قوله تعالى : ﴿ ونزَّلْنا من السماء ماء ﴾ وهو المطر ﴿ مُباركاً ﴾ أي : كثير الخير ، فيه حياة كل شيء ﴿ فأنْبَتْنا به جَنَّاتٍ ﴾ وهي البساتين ﴿ وحَبَّ الحَصِيدِ ﴾ أراد : الحَبَّ الحَصيدَ ، فأضافه إلى نَفْسه ، كقوله : ﴿ لَهُوَ حَقُّ اليَقِينِ ﴾ [الواقعة : 95] وقوله : ﴿ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ ﴾ [ق : 16] فالحَبْلُ هو الوَريد ، وكما يقال : صلاةُ الأُولى ، يراد : الصلاةُ الأُولى ، ويقال : مسجدُ الجامع ، يراد : المسجدُ الجامعُ ، وإنما تضاف هذه الأشياء إلى أنفسها لاختلاف لفظ اسمها ، وهذا قول الفراء ، وابن قتيبة .

وقال غيرهما : أراد حَبَّ النّبتِ الحَصيدِ ﴿ والنَّخْلَ ﴾ أي : وأَنْبَتْنا النخل ﴿ باسقاتٍ ﴾ و "بُسوقها" طُولها .

قال ابن قتيبة : يقال : بَسقَ الشيءُ يَبْسُقُ بُسوقاً : إذا طال ، والنَّضيد : المنضود بعضُه فوق بعض ، وذلك قبل أن يتفتَّح ، فإذا انشقَّ جُفُّ طلْعه وتفرَّق فليس بنضيدٍ .

قوله تعالى : ﴿ رِزْقاً للعِبادِ ﴾ أي : أَنْبَتْنا هذه الأشياء للرِّزق ﴿ وأَحْيَيْنا به ﴾ أي : بالمطر ﴿ بَلْدَةً مَيْتاً كذلك الخروجُ ﴾ من القُبور .

ثم ذكر الأُمم المكذّبة بما بعد هذا .

وقد سبق بيانه إلى قوله : ﴿ فحَقَّ وَعيدِ ﴾ أي : وجب عليهم عذابي .

﴿ أفعَيينا بالخَلْقِ الأَوّلِ ﴾ هذا جواب لقولهم : ذلك رَجْعٌ بَعيدٌ .

والمعنى : أعَجَزْنا عن ابتداء الخَلْق ، وهو الخَلْق الأَوّل ، فنعيا بالبعث وهو الخلق الثاني ؟ !

وهذا تقرير لهم ، لأنهم اعترفوا أنه الخالق ، وأنكروا البعث ﴿ بل هم في لَبْسٍ ﴾ أي : في شَكٍّ ﴿ مِنْ خَلْقٍ جديدٍ ﴾ وهو البعث .

﴿ ولقد خَلَقْنا الإنسان ﴾ يعني ابن آدم ﴿ ونَعلمُ ما تُوسوِسُ به نَفْسُه ﴾ أي : ما تحدّثه به نفسه .

وقال الزجاج : نعلم ما يُكِنُّه في نَفْسه .

قوله تعالى : ﴿ ونحن أقربُ إليه ﴾ أي : بالعِلْم ﴿ من حَبْلِ الوريد ﴾ الحَبْل هو الوريد ، وإنما أضافه إلى نفسه لِما شرحناه آنفاً في قوله : ﴿ وحَبَّ الحَصيدِ ﴾ [ق : 9] قال الفراء : والوريد : عِرْقٌ بين الحُلْقوم والعِلْباوَيْن .

وعنه أيضاً قال : عرق بين اللَّبَّة والعِلْباوَيْن .

وقال الزجاج: الوريد : عِرْق في باطن العُنُق ، [وهما وريدان] ، والعِلْباوَان : العَصَبتان الصَّفراوان في مَتْن العُنُق ، واللَّبَّتان : مَجرى القُرط في العُنُق .

وقال ابن الأنباري : اللَّبَّة حيث يتذبذب القُرْط مِمّا يَقْرُبُ من شحمة الأُذن .

وحكى بعض العلماء أن الوريد : عِرْقٌ متفرّق في البدن مُخالِط لجميع الأعضاء .

فلمّا كانت أبعاض الإنسان يحجب بعضُها بعضاً ، أَعْلَمَ أن عِلْمه لا يحجُبه شيءٌ .

والمعنى : ونحن أقربُ إليه حين يَتلقَّى المُتلقّيان ، وهما الملَكان الموكَّلان بابن آدم يتلقيَّانِ عَمَلَه وقوله : ﴿ إذا يَتلقَّى المُتلقّيان ﴾ أي : يأخُذان ذلك ويُثْبِتانه ﴿ عن اليمين ﴾ كاتب الحسنات ﴿ وعن الشِّمال ﴾ كاتب السَّيِّئات .

قال الزجاج : والمعنى : عن اليمين قَعيد ، وعن الشِّمال قَعيد ، فدلَّ أحدُهما على الآخر ، فحذف المدلولُ عليه ، قال الشاعر :

(140/723)

نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وأَنْتَ بِمَا عِنْ . . .

دَكَ رَاضٍ والرَّأْيُ مُخْتَلِفُ

وقال آخر :

رَمَانِي بِأَمْرٍ كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي . . .

بَرِيئاً وَمِنْ أَجْلِ الطَّوِيِّ رَمَانِي

المعنى : كنتُ منه بريئاً .

وقال ابن قتيبة : القَعيد بمعنى قاعد ، كما يقال : "قدير" بمعنى "قادر" ، ويكون القعيد بمعنى مُقاعِد ، كالأكيل والشَّريب بمنزلة : المُؤاكِل والمُشارِب .

قوله تعالى : ﴿ ما يَلْفِظُ ﴾ يعني الانسان ، أي : ما يتكلَّم من كلام فيَلْفِظُه ، أي : يَرميه من فمه ، ﴿ إلاّ لَدَيْه رقيبٌ ﴾ أي : حافظ ، وهو الملَك الموكَّل به ، إمّا صاحب اليمين ، وإمّا صاحب الشمال ﴿ عَتيدٌ ﴾ قال الزجاج : العَتيد : الثّابِت اللاّزم .

وقال غيره : العَتيد : الحاضر معه أينما كان .

وروى أبو أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كاتِبُ الحَسَنات على يمين الرجلُ ، وكاتب السَّيِّئات على يساره ، فكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها له صاحب اليمين عشراً ، وإذا عمل سيئة ، وأراد صاحب الشمال أن يكتبها ، قال صاحب اليمين : أَمْسِكْ ، فيُمْسِك عنه سَبْعَ ساعات ، فإن استغفر منها لم يُكتَب عليه شيءٌ ، وإن لم يستغفر كُتِب عليه سيِّئة واحدة " وقال ابن عباس : جَعَل اللهُ على ابن آدم حافظين في الليل ، وحافظين في النهار .

واختلفوا هل يكتُبان جميع أفعاله وأقواله على قولين .

أحدهما : أنهما يكتُبان عليه كل شيء حتى أنينه في مرضه ، قاله مجاهد .

والثاني : أنهما لا يكتبان إلاّ ما يؤجَر [عليه] ، أو يُوزَر ، قاله عكرمة .

فأمّا مجلسهما ، فقد نطق القرآن بأنهما عن اليمين وعن الشمال ، وكذلك ذكرنا في حديث أبي أمامة .

(141/723)

وقد روى عليّ كرّم اللهُ وجهه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن مقعد ملَكَيك على ثنيَّتيك ، ولسانُك قلمهما ، وريقك مدادهما ، وأنت تجري فيما لا يعنيك " وروي عن الحسن والضحاك قالا : مجلسهما تحت الشعر على الحنك .

قوله تعالى : ﴿ وجاءت سَكرةُ المَوت ﴾ وهي غَمرتُه وشِدَّتُه ، التي تَغشى الإِنسان وتَغْلِب على عقله وتدلُّه على أنه ميت ﴿ بالحق ﴾ وفيه وجهان .

أحدهما : أن معناه : جاءت بحقيقة الموت .

والثاني : بالحق من أمر الآخرة ، فأبانت للانسان ما لم يكن بيَّنّا له من أمر الآخرة .

ذكر الوجهين الفراء ، وابن جرير .

وقرأ أبو بكر الصديق رضي الله عنه : ﴿ وجاءت سَكْرةُ الحق بالموت ﴾ ، قال ابن جرير

: ولهذه القراءة وجهان .

أحدهما : أن يكون الحق هو الله تعالى ، فيكون المعنى : وجاءت سَكْرة الله بالموت .

والثاني : أن تكون السَّكْرة هي الموت ، أضيفت إلى نفسها ، كقوله : ﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ اليقينِ ﴾ [الواقعة 95] ، فيكون المعنى : وجاءت السَّكْرة الحَقُّ بالموت ، بتقديم "الحَقّ" .

وقرأ ابن مسعود ، وأبو عمران : "وجاءت سَكَراتُ" على الجمع "الحَقِّ بالموتِ" بتقديم "الحَقّ" وقرأ أُبيُّ ابن كعب ، وسعيد بن جبير : "وجاءت سَكَراتُ الموت" على الجمع "بالحق" بتأخير "الحق" .

قوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ أي : فيقال للانسان حينئذ : "ذلك" أي : ذلك الموت ﴿ ما كنتَ منه تَحِيدُ ﴾ أي : تهرُب وتفِرّ .

وقال ابن عباس : تَكره .

قوله تعالى : ﴿ ونُفِخ في الصُّور ﴾ يعني نفخة البعث ﴿ ذلك ﴾ اليوم ﴿ يومُ الوعيد ﴾ أي : يوم وقوع الوعيد .

قوله تعالى : ﴿ معها سائق ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أن السائق : ملَك يسوقها إلى مَحْشَرها ، قاله أبو هريرة .

والثاني : أنه قرينها من الشياطين ، سمِّي سائقا ، لأنه يتبَعها وإن لم يَحثَّها .

وفي الشهيد ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه ملَك يَشهد عليها بعملها ، قاله عثمان بن عفان ، والحسن .

(142/723)

وقال مجاهد : الملَكان : سائق : وشهيد .

وقال ابن السائب : السائق : الذي كان يكتب عليه السَّيِّئات ، والشهيد : الذي كان يكتب الحسنات .

والثاني : أنه العمل يَشهد على الإنسان ، قاله أبو هريرة .

والثالث : الأيدي والأرجل تَشهد عليه بعمله ، قاله الضحاك .

وهل هذه الآيات عامّة ، أم خاصَّة ؟ فيها قولان .

أحدهما : أنها عامة ، قاله الجمهور .

والثاني : خاصة في الكافر ، قاله الضحاك ، ومقاتل .

قوله تعالى : ﴿ لقد كنتَ ﴾ أي : ويقال له : ﴿ لقد كنتَ في غفلة من هذا ﴾ اليوم وفي المخاطَب بهذه الآيات ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الكافر ، قاله ابن عباس ، وصالح بن كيسان في آخرين .

والثاني : أنه عامّ في البَرِّ والفاجر ، قاله حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس ، واختاره ابن جرير .

والثالث : أنه النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وهذا قول ابن زيد .

فعلى القول الأول يكون المعنى : لقد كنتَ في غفلة من هذا اليوم في الدنيا بكفرك به ؛ وعلى الثاني : كنتَ غافلاً عن أهوال القيامة ﴿ فكَشَفْنا عنك غِطاءك ﴾ الذي كان في الدنيا يغشى قلبك وسمعك وبصرك .

وقيل معناه : أريناك ما كان مستوراً عنك ؛ وعلى الثالث : لقد كنتَ قبل الوحي في غفلة عمّا أُوحي إليك ، فكشفنا عنك غطاءك بالوحي ﴿ فبصرُك اليومَ حديدٌ ﴾ وفي المراد بالبصر قولان .

أحدهما : البصر المعروف ، قاله الضحاك .

والثاني : العِلمْ ، قاله الزجاج .

وفي قوله : "اليومَ" قولان .

أحدهما : أنه يوم القيامة ، قاله الأكثرون .

والثاني : أنه في الدنيا ، وهذا على قول ابن زيد .

فأمّا قوله : "حديدٌ" فقال ابن قتيبة : الحديد بمعنى الحادّ .

أي : فأنت ثاقب البصر .

ثم فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : فبصرك حديدٌ إلى لسان الميزان حين تُوزَن حسناتُك وسيِّئاتُك ، قاله مجاهد .

والثاني : أنه شاخص لا يطرف لمعاينة الأخرة ، قاله مقاتل .

والثالث : أنه العِلْم النافذ ، قاله الزجاج .

(143/723)

قوله تعالى : ﴿ وقال قرينُه ﴾ قال مقاتل : هو مَلَكُه الذي كان يكتُب عملَه السيِّءَ في دار الدنيا ، يقول لربِّه : قد كتبتُ ما وكَّلْتَني به ، فهذا عندي مُعَدٌّ حاضرٌ من عمله الخبيث ، فقد أتيتُك به وبعمله .

وفي "ما" قولان .

أحدهما : أنها بمعنى "من" قاله مجاهد .

والثاني : أنها بمعنى الشيء ، فتقديره : هذا شيء لديَّ عتيدٌ ، قاله الزجاج .

وقد ذكرنا معنى العتيد في هذه السورة [ق : 18] فيقول الله تعالى ﴿ أَلْقيَا في جهنَّم ﴾

وفي معنى هذا الخطاب ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه مخاطبة للواحد بلفظ الخطاب للاثنين ، قال الفراء : والعرب تأمر الواحد

والقوم بأمر الاثنين ، فيقولون للرجُل : ويلك ارحلاها وازجُراها ، سمعتها من العرب ،

وأنشدني بعضهم :

فقُلْتُ لِصَاحِبِي لا تَحْبِسانا . . .

بِنَزْعِ أُصُولِهِ واجْتَزَّ شِيحا

وأنشدني أبو ثَرْوان :

فانْ تَزْجُرانِي يابْنَ عَفَّان أَنْزَجِرْ . . .

وإِنْ تَدَعَانِي أَحْمِ عِرْضاً مُمَنَّعا

ونرى أن ذلك منهم ، لأن أدنى أعوان الرجُل في إبله وغنمه اثنان ، وكذلك الرُّفقة أدنى ما تكون ثلاثة ، فجرى الكلام على صاحبيه ، ألا ترى الشعر أكثر شيء قِيلاً : يا صَاحِبَيَّ ويا خليليَّ .

قال امرؤ القيس :

خَلِيلَيَّ مُرَّا بِي على أُمِّ جُنْدَبِ . . .

نُقَضِّي لُبانَاتِ الْفُؤادِ المُعَذَّبِ

ثم قال :

ألم تَرَأَنِي كُلَّمَا جِئْتُ طارِقاً . . .

وَجَدْتُ بها طِيباً وإِنْ لَمْ تَطَيَّبِ

فرجع إلى الواحد ، وأول كلامه اثنان ، وإلى هذا المعنى ذهب مقاتل ، وقال : "ألقيا" خطاب للخازن ، يعني خازن النار .

والثاني : أنه فِعل ثُنِّي توكيداً ، كأنه لمّا قال : "ألقيا" ، ناب عن أَلْقِ أَلْقِ ، وكذلك : قِفا نَبْكِ ، معناه : قِفْ قِفْ ، فلمّا ناب عن فعلين ، ثُنِّي ، قاله المبرد .

والثالث : أنه أمر للملكين ، يعني السائق والشهيد ، وهذا اختيار الزجاج .

فأمّا "الكَفّارُ" فهو أشَدُّ مُبالَغةً من الكافر .

(144/723)

و"العنيد" قد فسرناه في [هود : 59] .

قوله تعالى : ﴿ مَنَّاعٍ للخير ﴾ في المراد بالخير ها هنا ثلاثة أقوال .

أحدها : الزكاة المفروضة ، قاله قتادة .

والثاني : أنه الإسلام ، يمنع الناس من الدُّخول فيه ، قاله الضحاك ، ومقاتل ، وذكر أنها نزلت في الوليد بن المغيرة ، منع بني أخيه عن الإسلام .

والثالث : أنه عامٌّ في كل خير من قول أو فعل ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ مُعتَدٍ ﴾ أي : ظالم لا يُقِرُّ بالتوحيد ﴿ مُريبٍ ﴾ أي : شاكٌّ في الحق ، من

قولهم : أرابَ الرجُلُ : إذا صار ذا ريْب .

قوله تعالى : ﴿ قال قرينُه ﴾ فيه قولان .

أحدهما : شيطانه ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والجمهور .

وفي الكلام اختصار تقديره : إن الإنسان ادّعى على قرينه من الشياطين أنه أضلَّه فقال : ﴿ ربَّنا ما أطغيتُه ﴾ أي : لم يكن لي قُوَّة على إضلاله بالإكراه ، وإنما طغى هو بضلاله .

والثاني : أنه الملَك الذي كان يكتُب السَّيِّئات .

ثم فيما يدَّعيه الكافرُ على الملَك قولان .

أحدهما : [أنه] يقول : زاد عليَّ فيما كتب ، فيقول الملَك : ما أطغيتُه ، أي : ما زدتُ عليه ، قاله سعيد بن جبير .

والثاني : أنه يقول : كان يُعْجِلني عن التَّوبة ، فيقول : ربَّنا ما أطغيتُه ، هذا قول الفراء .

قوله تعالى : ﴿ ولكن كان في ضلال بعيدٍ ﴾ أي : بعيد من الهُدى ، فيقول الله تعالى : ﴿ لا تختصموا لديَّ ﴾ .

في هذا الخصام قولان .

أحدهما : أنه اعتذارهم بغير عذر ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه خصامهم مع قرنائهم الذين أغوَوْهم ، قاله أبو العالية .

فأما اختصامهم فيما كان بينهم من المظالم في الدنيا ، فلا يجوز أن يُهمَل ، لأنه يوم التناصف .

قوله تعالى : ﴿ وقد قدَّمتُ إليكم بالوعيد ﴾ أي : قد أخبرتُكم على ألسُن الرُّسل بعذابي في الآخرة لمن كفر .

﴿ ما يُبَدَّلُ القولُ لديَّ ﴾ فيه قولان .

أحدهما : ما يبدَّل [القول] فيما وعدتُه من ثواب وعقاب ، قاله الأكثرون .

(145/723)

والثاني : ما يُكذَّب عندي ولا يغيَّر القول عن جهته ، لأِنِّي أعْلَمُ الغيب وأعْلَمُ كيف ضلُّوا وكيف أضللتموهم ، هذا قول ابن السائب واختيار الفراء وابن قتيبة ، ويدل عليه أنه قال تعالى : ﴿ ما يُبَدَّلُ القول لديَّ ﴾ ولم يقل : ما يُبَدَّل قولي ﴿ وما أنا بظلاّمٍ للعبيدِ ﴾ فأَزيدَ على إساءة المُسيء ، أو أنقص من إحسان المُحسن .

﴿ يومَ نقول لجهنم ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ؛ وحمزة ، والكسائي : "يومَ نقول" بالنون المفتوحة وضم القاف .

[وقرأ نافع ، وأبو بكر ، والمفضل عن عاصم : "يومَ يقول" بالياء المفتوحة وضم القاف] .

وقرأ أُبيُّ بن كعب ، والحسن ، وعبد الوارث عن أبي عمرو : "يومَ يُقال" بياء مضمومة وفتح القاف وإثبات ألف .

قال الزجاج: وانتصاب "يومَ" على وجهين، أحدهما: على معنى: ما يُبدَّل القولُ لديَّ في ذلك اليوم.

والثاني: على معنى: وأَنْذِرْهم يومَ نقولُ لجهنم.

فأمّا فائدة سؤاله إيّاها، وقد عَلِم هل امتلأتْ أم لا، فإنه توبيخ لمن أُدْخِلها، وزيادة في مكروهه، ودليل على تصديق قوله: ﴿ لأَملأنَّ جهنمَ ﴾ [الأعراف: 18].

وفي قولها: ﴿ هل من مزيد ﴾ قولان عند أهل اللغة.

أحدهما: أنها تقول ذلك بعد امتلائها، فالمعنى: هل بقي فيَّ موضعٌ لم يمتلىء؟ أي: قد امتلأتُ.

والثاني: أنها تقول تغيُّظاً على من عصى اللهَ تعالى، وجَعَلَ اللهُ فيها أن تميّز وتخاطِب، كما جَعَلَ في النملة أن قالت: ﴿ أُدخُلوا مساكنَكم ﴾ [النمل: 18] وفي المخلوقات أن تسبِّح بحمده.

(146/723)

قوله تعالى: ﴿ وأُزلِفَتِ الجَنَّة للمُتَّقين ﴾ اي: قُرِّبت للمُتَّقين [الشركَ] ﴿ غيرَ بَعيدٍ ﴾ أي: جُعلتْ عن يمين العرش حيث يراها أهلُ الموقف، ويقال لهم: ﴿ هذا ﴾ الذي

ترونه ﴿ ما تُوعَدونَ ﴾ وقرأ عثمان بن عفان ، وابن عمر ، ومجاهد ، وعكرمة ، وابن محيصن : "يُوعَدونَ" بالياء ﴿ لكُلِّ أوَّاب ﴾ وفيه أقوال قد ذكرناها في [بني إسرائيل : 25] وفي ﴿ حفيظٍ ﴾ قولان .

أحدهما : الحافظ لذنوبه حتى يرجع عنها ، قاله ابن عباس .

والثاني : الحافظ لأمر الله تعالى ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ من خَشِيَ الرَّحمنَ بالغيبِ ﴾ قد بيَّنَّاه في [الأنبياء : 49] ﴿ وجاء بقلبٍ مُنيبٍ ﴾ أي : راجع إلى طاعة الله عن معصيته .

﴿ أُدخلوها ﴾ أي : يقال لهم : أُدخلوا الجنة ﴿ بسلام ﴾ وذلك أنهم سَلِموا من عذاب الله ، وسلموا فيها من الغُموم والتغيُّر والزَّوال ، وسلَّم اللهُ وملائكتُه عليهم ﴿ ذلك يومُ الخُلود ﴾ في الجنة ، لأنه لا موت فيها ولا زوال .

﴿ لهم ما يشاؤون فيها ﴾ وذلك أنهم يَسألون الله حتى تنتهي مسائلُهم ، فيُعْطَوْن ما شاؤوا ، ثم يَزيدُهم ما لم يَسألوا ، فذلك قوله : ﴿ ولدينا مَزيدٌ ﴾ وللمفسرين في المراد بهذا المزيد ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه النظر إلى الله عز وجل ؛ روى عليٌّ رضي الله عنه عن النبي عليه السلام في قوله : "ولدينا مَزيدٌ" قال : يتجلَّى لهم .

وقال أنس بن مالك : في قوله "ولدينا مزيد" يتجلَّى لهم الرب تعالى في كل جمعة .

والثاني : أن السحاب يَمُرّ بأهل الجنة ، فيمطرهم الحورَ ، فتقول الحور : نحن اللواتي قال الله عزل وجل : "ولدينا مزيد" ، حكاه الزجاج .

والثالث : أن الزِّيادة على ما تمنَّوه وسألوا ممّا لم تسمع به أذن ولم يخطُر على قلب بشر ، ذكره أبو سليمان الدمشقي .

ثم خوَّف كفار مكة بما بعد هذا إلى قوله : ﴿ فنَقَّبوا في البلاد ﴾ قرأ الجمهور "فنَقَّبوا" بفتح النون والقاف مع تشديدها .

(147/723)

وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وابن عباس ، والحسن ، وابن السميفع ، ويحيى بن يعمر .

كذلك ، إلا أنهم كسروا القاف على جهة الأمر تهدُّداً .

وقرأ عمر بن الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز ، وقتادة ، وابن أبي عبلة ، وعبيد عن أبي عمر ، "فنَقَبوا" بفتح القاف وتخفيفها .

قال الفراء : ومعنى "فنقَّبوا" ساروا في البلاد ، فهل كان لهم من الموت ﴿ مِن مَحيص ﴾ فأُضمرت "كان" هاهنا ، كقوله : ﴿ أهلَكْناهم فلا ناصر لهم ﴾ [محمد : 13] أي : فلم يكن لهم ناصر .

ومن قرأ "فنَقِّبوا" بكسر القاف ، فإنه كالوعيد ؛ والمعنى : اذهبوا في البلاد وجيئوا فهل من الموت مِن مَحيص ؟ ! وقال الزجاج "نَقِّبوا" : طوِّقوا وفتِّشوا ، فلم تَرَوا مَحيصاً من الموت .

قال امرؤ القيس :

لَقَدْ نَقَّبْتُ في الآفاقِ حتَّى . . .

رَضِيتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بالإِيابِ

فأمّا المَحيص فهو المَعْدِل ؛ وقد استوفينا شرحه في [سورة النساء : 121] .

قوله تعالى : ﴿ إنَّ في ذلك ﴾ يعني الذي ذكره من إهلاك القرى ﴿ لَذِكرى ﴾ أي : تذكرة وعِظَة ﴿ لِمَن كان له قلبٌ ﴾ قال ابن عباس : أي : عقل .

قال الفراء : وهذا جائز في اللغة أن تقول : ما لَكَ قلب ، وما معك قَلْبُك ، تريد العقل .

وقال ابن قتيبة : لما كان القلب موضعاً للعقل كنى به [عنه] .

وقال الزجاج : المعنى : لمن صرف قلبه إلى التفهُّم ، ﴿ أو ألقى السَّمْع ﴾ أي : استَمَع مِنّي ﴿ وهو شهيدٌ ﴾ أي : وقَلْبُه فيما يسمع .

وقال الفراء : وهو شهيد أي : شاهد ليس بغائب .

قوله تعالى : ﴿ ولقد خَلَقْنا السموات والأرض ﴾ ذكر المفسرون أن اليهود قالت : خَلَقَ اللهُ السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، آخرها يوم الجمعة ، واستراح يوم السبت ، فلذلك لا نعمل فيه شيئاً ، فنزلت هذه الآيات ، فأكذبهم اللهُ عز وجل بقوله : ﴿ وما مَسَّنا

مِن لغوبٍ ﴾ قال الزجاج : واللُّغوب التَّعب والإعياء .

قوله تعالى : ﴿ فاصْبِر على ما يقولون ﴾ أي : من بَهتهم وكذبهم .

(148/723)

قال المفسرون : ونسخ معنى قوله : "فاصْبِر" بآية السيف ﴿ وسَبِّح بحمد ربِّك ﴾ أي : صَلِّ بالثَّناء على ربِّك والتنزيه [له] ممَّا يقول المُبْطِلون ﴿ قَبْلَ طُلوع الشمس ﴾ وهي صلاة الفجر .

﴿ وقَبْلَ الغُروب ﴾ فيها قولان .

أحدهما : صلاة الظهر والعصر ، قاله ابن عباس .

والثاني : صلاة العصر ، قاله قتادة .

وروى البخاري ومسلم في "الصحيحين" من حديث جرير بن عبد الله ، قال : "كُنَّا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة البدر ، فقال : إنَّكم سَتَرُونَ ربَّكم عِيانا كما ترون هذا القمر ، لا تُضَامُّونَ في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تُغْلَبوا على صلاةٍ قَبْلَ طُلوع الشمس وقبل الغُروب فافعلوا " .

وقرأ "فسبِّح بحمد ربِّك قبل طُلوع الشمس وقبل الغروب" .

قوله تعالى : ﴿ ومن الليل فسبِّحْه ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها صلاة الليل كلِّه ، أيَّ : وقت صلّى منه ، قاله مجاهد .

والثاني : صلاة العشاء ، قاله ابن زيد .

والثالث : صلاة المغرب والعشاء قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ وأدبارَ السُّجود ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وحمزة ، وخلف : بكسر الهمزة ؛ وقرأ الباقون بفتحها .

قال الزجاج : من فتح ألف "أدبار" فهو جمع دُبُر ، ومن كسرها فهو مصدر : أدبر يُدْبِر إدباراً .

وللمفسرين في هذا التسبيح ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الرَّكعتان بعد صلاة المغرب ، روي عن عمر ، وعليّ ، والحسن بن علي ، رضي الله عنهم ، وأبي هريرة ، والحسن ، ومجاهد ، والشعبي ، والنخعي ، وقتادة ، في آخرين ، وهو رواية العوفي عن ابن عباس .

والثاني : أنه النوافل بعد المفروضات قاله ابن زيد .

والثالث : أنه التسبيح باللسان في أدبار الصلوات المكتوبات ، رواه مجاهد عن ابن عباس .

وروي عن أبي الأحوص أنه قال في جميع التسبيح المذكور في هاتين الآيتين كذلك .

قوله تعالى : ﴿ واسْتَمِعْ يومَ يُنادي المُنادي ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، "ينادي المُنادي" بياء في الوصل .

(149/723)

ووقف ابن كثير بياءٍ ، ووقف نافع وأبو عمرو بغير ياءٍ .

ووقف الباقون ووصلوا بياءٍ .

قال أبو سليمان الدمشقي : المعنى : واستمع حديث يوم ينادي المنادي .

قال المفسرون : والمنادي إسرافيل ، يقف على صخرة بيت المقدس فينادي : يا أيها الناس هلُمُّوا إلى الحساب ، إن الله يأمركم أن تجتمعوا لفصل القضاء ؛ وهذه هي النفخة الأخيرة .

والمكان القريب صخرة بيت المقدس .

قال كعب ومقاتل : هي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً وقال ابن السائب : باثني عشر ميلاً قال الزجاج : ويقال : إن تلك الصخرة في وسط الأرض .

قوله تعالى : ﴿ يومَ يَسْمَعونَ الصَّيحة ﴾ وهي [هذه] النَّفخة الثانية ﴿ بالحَقِّ ﴾ ، أي : بالبعث الذي لا شكَّ فيه ﴿ ذلك يومُ الخُروج ﴾ من القبور .

﴿ إنا نحنُ نُحيي ونُميتُ ﴾ أي : نُميت في الدنيا ونُحيي للبعث ﴿ وإلينا المَصيرُ ﴾ بعد

البعث ، وهو قوله ﴿ يوم تَشَقَّقُ الأرضُ عنهم ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، "تَشَّقَّقُ" بتشديد الشين ؛ وقرأ الباقون بتخفيفها ﴿ سراعاً ﴾ أي : فيخرجون منها سِراعاً ، ﴿ ذلك حَشْرٌ علينا يَسيرٌ ﴾ أي هَيِّنٌ .

ثم عزَّى نبيَّه فقال : ﴿ نحنُ أعلمُ بما يقولون ﴾ في تكذيبك ، يعني كفار مكة ﴿ وما أنتَ عليهم بجَبَّارٍ ﴾ قال ابن عباس : لم تبعث لتجبرَهم على الاسلام إنما بُعثتَ مذكِّراً ، وذلك قبل أن يؤمَر بقتالهم ؛ وأنكر الفراء هذا القول فقال : العرب لا تقول "فَعَّال من أَفْعَلتُ" لا يقولون "خَرَّاج" يريدون "مُخْرِج" ولا "دخَّال" يريدون "مُدْخِل" ، إنما يقولون : "فَعَّال" من "فَعَلْتُ" ، وإنما الجَبَّار هنا في موضع السلطان من الجبرية ، وقد قالت العرب في حرف واحد : "دَرَّاك" من "أَدْرَكْتُ" ، وهو شاذ ، فإن جعل هذا على هذه الكلمة فهو وجه .

وقال ابن قتيبة : ﴿ بجبَّار ﴾ أي : بمسلَّط ، والجبَّار : المِلك ، سمِّي بذلك لِتَجَبُّره ، يقول : لستَ عليهم بمِلك مُسَلَّط .

(150/723)

قال اليزيدي : لستَ بمسلَّط فتَقْهَرهم على الإسلام ، وقال مقاتل : لِتَقْتُلَهم .

وذكر المفسرون أن قوله : ﴿ وما أنت عليهم بجبَّار ﴾ منسوخ بآية السيف .

قوله تعالى : ﴿ فذكِّر بالقرآن ﴾ أي : فَعِظْ به ﴿ مَنْ يَخافُ وَعيدِ ﴾ [وقرأ يعقوب : "وعيدي" بياءٍ في الحالين] ، أي : ما أَوعدتُ مَنْ عَصاني من العذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 8 صـ 26.3 ﴾

(151/723)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ ق ﴾

قال ابن عباس : هو قسم وقيل : هو اسم للسورة وقيل اسم من أسماء الله وقيل اسم من أسماء القرآن وقيل هو مفتاح اسمه القدير والقادر والقاهر والقريب والقابض والقدوس والقيوم .

وقيل : معناه قضى الأمر أو قضى ما هو كائن .

وقيل : هو جبل محيط بالأرض من زمردة خضراء متصلة عروقه بالصخرة التي عليها الأرض والسماء كهيئة القبة وعليه كتفاها وخضرة السماء منه والعالم داخله ولا يعلم ما وراءه إلا الله تعالى ويقال هو من وراء الحجاب الذي تغيب الشمس من ورائه بمسيرة سنة ﴿ والقرآن المجيد ﴾ أي الشريف الكريم على الله الكثير الخير والبركة واختلفوا في

وجواب القسم قيل جوابه محذوف تقديره لتبعثن وقيل جوابه بل عجبوا وقيل ما يلفظ من قول وقيل قد علمنا ومعنى ﴿ بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ﴾ إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب وهو أن يخوفهم رجل منهم قد عرفوا وساطته فيهم وعدالته وأمانته وصدقه ﴿ فقال الكافرون هذا شيء عجيب ﴾ أي معجب غريب ﴿ أئذا متنا وكنا تراباً ﴾ أي حين نموت ونبلى نبعث وترك ذكر البعث لدلالة الكلام عليه ﴿ ذلك رجع بعيد ﴾ أي يبعد أن نبعث بعد الموت قال الله تعالى : ﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم ﴾ أي ما تأكل الأرض من لحومهم ودمائهم وعظامهم لا يعزب عن علمنا شيء ﴿ وعندنا ﴾ أي مع علمنا بذلك ﴿ كتاب حفيظ ﴾ بمعنى محفوظ أي من التبديل والتغيير وقيل حفيظ بمعنى حافظ أي حافظ لعددهم وأسمائهم ولما تنقص الأرض منهم وهو اللوح المحفوظ وقد أثبت فيه ما يكون .

﴿ بل كذبوا بالحق ﴾ أي بالقرآن ﴿ لما جاءهم ﴾ قيل : معناه كذبوا به لما جاءهم .

(152/723)

وقيل : كذبوا المنذر لما جاءهم ﴿ فهم في أمر مريج ﴾ أي مختلط ملتبس قيل معنى اختلاط أمرهم قولهم للنبي (صلى الله عليه وسلم) مرة شاعر ومرة ساحر ومرة معلم

مجنون ويقولون في القرآن مرة سحر ومرة رجز ومرة مفتري فكان أمرهم مختلطاً ملتبساً عليهم وقيل في هذه الآية من ترك الحق مرج عليه أمره والتبس عليه دينه وقيل ما ترك قوم الحق إلا مرج عليهم أمرهم ؛ ثم دلهم على عظيم قدرته فقال تعالى : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها ﴾ أي : بغير عمد ﴿ وزيناها ﴾ أي بالكواكب ﴿ وما لها من فروج ﴾ أي : شقوق وصدوع ﴿ والأرض مددناها ﴾ أي بسطناها على وجه الماء ﴿ وألقينا فيها رواسي ﴾ أي : جبالاً ثوابت ﴿ وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ﴾ أي : من كل صنف حسن كريم يبتهج به أي : يسر به ﴿ تبصرة ﴾ أي جعلنا ذلك تبصرة ﴿ وذكرى ﴾ أي تذكرة ﴿ لكل عبد منيب ﴾ أي : راجع إلى الله تعالى والمعنى ليتبصر ويتذكر به من أناب ﴿ ونزلنا من السماء ماء مباركاً ﴾ أي كثير الخير والبركة فيه حياة كل شيء وهو المطر ﴿ فأنبتنا به ﴾ أي : بذلك الماء ﴿ جنات ﴾ أي بساتين ﴿ وحب الحصيد ﴾ يعني البر والشعير وسائر الحبوب التي تحصد ﴿ والنخل باسقات ﴾ أي : طوالاً وقيل مستويات ﴿ لها طلع ﴾ أي : ثمر يطلع ويظهر ويسمى طلعاً قبل أن يتشقق ﴿ نضيد ﴾ أي : متراكب بعضه على بعض في أكمامه فإذا تشقق وخرج من أكمامه فليس بنضيد ﴿ رزقاً ﴾ أي : جعلنا ذلك رزقاً ﴿ للعباد وأحيينا به ﴾ أي : بالمطر ﴿ بلدة ميتاً ﴾ فأنبتنا فيها الكلأ والعشب ﴿ كذلك الخروج ﴾ أي : من القبور أحياء بعد الموت .

﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة ﴾ قيل : كان لوط مرسلاً إلى طائفة من قوم إبراهيم ولذلك قال إخوان لوط ﴿ وقوم تبع ﴾ هو أبو كرب أسعد تبع الحميري وقد تقدم قصص جمعهم قيل ذم الله قوم تبع ولم يذمه وذم فرعون لأنه هو المكذب المستخف لقومه فلهذا خص بالذكر دونهم ﴿ كل كذب الرسل فحق وعيد ﴾ أي : كل هؤلاء المذكورين كذبوا رسلهم فحق وعيدي أي وجب لهم عذابي وقيل فحق وعيدي للرسل بالنصر ﴿ أفعيينا بالخلق الأول ﴾ هذا جواب لقولهم ذلك رجع بعيد والمعنى أعجزنا حين خلقناهم أولاً فنعيا بالإعادة ثانياً وذلك لأنهم اعترفوا بالخلق الأول وأنكروا البعث ﴿ بل هم في لبس ﴾ أي شك ﴿ من خلق جديد ﴾ وهو البعث .

قوله : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ﴾ أي ما يحدث به قلبه فلا تخفى علينا سرائره وضمائره ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ بيان لكمال علمه أي نحن أعلم به منه والوليد العرق الذي يجري فيه الدم ويصل إلى كل جزء من أجزاء البدن وهو بين الحلقوم والعلباوين ومعنى الآية أن أجزاء الإنسان وأبعاضه يحجب بعضها بعضاً ولا

يحجب عن علم الله شيء .

وقيل : يحتمل أن يكون المعنى ونحن أقرب إليه بنفوذ قدرتنا فيه ويجري فيه أمرنا كما يجري الدم في عروقه ﴿ إذ يتلقى المتلقيان ﴾ أي يتلقن الملكان الموكلان به وبعمله ومنطقه فيكتبانه ويحفظانه عليه ﴿ عن اليمين وعن الشمال ﴾ يعني أن أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله فصاحب اليمين يكتب الحسنات وصاحب الشمال يكتب السيئات ﴿ قعيد ﴾ أي قاعد وكل واحد منهما قعيد فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر .

(154/723)

وقيل : أراد بالقعيد الملازم الذي لا يبرح ﴿ ما يلفظ من قول ﴾ أي ما يتكلم من كلام يخرج من فيه ﴿ إلا لديه رقيب ﴾ أي حافظ ﴿ عتيد ﴾ أي حاضر أينما كان سوى وقت الغائط وعند جماعة فإنهما يتأخران عنه فلا يجوز للإنسان أن يتكلم في هاتين الحالتين حتى لا يؤذي الملائكة بدنوهما منه وهو على تلك الحالة حتى يكتبا ما يتكلم به أنهما يكتبان عليه كل شيء يتكلم به حتى أتيته في مرضه وقيل لا يكتبان إلا ما له أجر وثواب أو عليه وزر وعقاب .

وقيل : إن مجلسهما تحت الشعر على الحنك وكان الحسن البصري يعجبه أن ينظف عنفقته

روى البغوي بإسناد الثعلبي .

عن أبي أمامة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشراً وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر .

﴿ وجاءت سكرة الموت ﴾ أي غمرته وشدته التي تغشى الإنسان وتغلب على عقله ﴿ بالحق ﴾ أي بحقيقة الموت وقيل بالحق من أمر الآخرة حتى يتبينه الإنسان ويراه بالعيان وقيل بما يؤول إليه أمر الإنسان من السعادة والشقاوة ﴿ ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ أي يقال لمن جاءته سكرة الموت : ذلك الذي كنت عنه تميل .

وقيل : تهرب وقال ابن عباس : تكره ﴿ ونفخ في الصور ﴾ يعني نفخة البعث ﴿ ذلك يوم الوعيد ﴾ أي ذلك اليوم الذي وعد الله الكفار أن يعذبهم فيه ﴿ وجاءت ﴾ أي في ذلك اليوم ﴿ كل نفس معها سائق ﴾ أي يسوقها إلى المحشر ﴿ وشهيد ﴾ أي يشهد عليها بما عملت .

قال ابن عباس : السائق من الملائكة والشاهد من أنفسهم الأيدي والأرجل فيقول الله تعالى لصاحب تلك النفس ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا ﴾ أي من هذا اليوم في الدنيا ﴿ فكشفنا عنك غطاءك ﴾ أي الذي كان على قلبك وسمعك وبصرك في الدنيا ﴿ فبصرك اليوم حديد ﴾ أي قوي ثابت نافذ تبصر ما كنت تتكلم به في الدنيا .

وقيل : ترى ما كان محجوباً عنك وقيل نظرك إلى لسان ميزانك حين توزن حسناتك وسيئاتك ﴿ وقال قرينه ﴾ يعني الملك الموكل به ﴿ هذا ما لدي ﴾ أي عندي ﴿ عنيد ﴾ أي معد محضر .

وقيل : يقول الملك هذا الذي وكلتني به من بني آدم قد أحضرته وأحضرت ديوان عمله ﴿ ألقيا في جهنم ﴾ أي يقول الله تعالى لقرينه وقيل هذا أمر للسائق والشهيد ﴿ كل كفار ﴾ أي شديد الكفر ﴿ عنيد ﴾ أي عاص معرض عن الحق معاند لله فيما أمره به .

﴿ منّاع للخير ﴾ أي للزكاة المفروضة وكل حق وجب عليه في ماله ﴿ معتد ﴾ أي ظالم لا يقر بتوحيد الله ﴿ مريب ﴾ أي : شاكّ في التوحيد ﴿ الذي جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه في العذاب الشديد ﴾ يعني النار ﴿ قال قرينه ﴾ يعني الشيطان الذي قيض لهذا الكافر ﴿ ربنا ما أطغيته ﴾ قيل : هذا جواب لكلام مقدر وهو أن الكافر حين يلقى في النار يقول : ربنا أطغاني شيطاني فيقول الشيطان ربنا ما أطغيته أي ما أضللته وما أغويته ﴿ ولكن كان في ضلال بعيد ﴾ أي عن الحق فيتبرأ منه شيطانه وقال ابن عباس : قرينه يعني الملك يقول الكافر الكافر ربِّ إن الملك زاد عليّ في الكتابة فيقول الملك ربنا ما أطغيته

أي ما زدت عليه وما كتبت إلا ما قال وعمل ولكن كان في ضلال بعيد أي طويل لا يرجع عنه إلى الحق ﴿ قال ﴾ الله تعالى : ﴿ لا تختصموا لدي ﴾ أي لا تعتذروا عندي بغير عذر وقيل هو خصامهم مع قرنائهم ﴿ وقد قدمت إليكم بالوعيد ﴾ أي بالقرآن وأنذرتكم على ألسن الرسل وحذرتكم عذابي في الآخرة لمن كفر ﴿ ما يبدل القول لدي ﴾ أي لا تبديل لقولي وهو قوله : ﴿ لأملأن جهنم ﴾ وقضيت عليكم ما أنا قاضٍ فلا يغير قولي ولا يبدل وقيل معناه ولا يكذب عندي ولا يغير القول عن وجهه ، لأني علام الغيوب وأعلم كيف ضلوا وهذا القول هو الأولى يدل عليه أنه قال ما يبدل القول لدي ولم يقل ما يبدل قولي ﴿ وما أنا بظلام للعبيد ﴾ أي : فأعاقبهم بغير جرم .

(156/723)

وقيل : معناه فأزيد على إساءة المسيء أو أنقص من إحسان المحسن .

قوله : ﴿ يوم نقول لجهنم هل امتلأت ﴾ بيان لما سبق لها من وعد الله تعالى إياها أنه يملؤها من الجنة والناس وهذا السؤال من الله تعالى لتصديق خبره وتحقيق وعده ﴿ وتقول ﴾ يعني جهنم ﴿ هل من مزيد ﴾ يعني تقول قد امتلأت ولم يبق في موضع لم يمتلئ فهو استفهام إنكاري .

وقيل : هو بمعنى الاستزادة .

وهو رواية عن ابن عباس .

فعلى هذا يكون السؤال وهو قوله : هل امتلأت ؟ قبل دخول جميع أهلها فيها .

وروي عن ابن عباس : " إن الله تعالى سبقت كلمته لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين فلما سيق أعداء الله إليها لا يلقى فيها فوج إلا ذهب فيها ولا يملؤها شيء فتقول ألست قد أقسمت لتملأني فيضع قدمه عليها فيقول هل امتلأت ؟ فتقول قط قط قد امتلأت وليس من مزيد " (ق) عن أنس بن مالك أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العرش – وفي رواية رب العزة – فيها قدمه فيزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط بعزتك ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً فيسكنهم فضول الجنة "

﴿ وأزلفت الجنة ﴾ أي قربت وأدنيت ﴿ للمتقين ﴾ أي الذين اتقوا الشرك ﴿ غير بعيد ﴾ يعني أنها جعلت عن يمين العرش بحيث يراها أهل الموقف قبل أن يدخلوها ﴿ هذا ما توعدون ﴾ أي يقال لهم الذي وعدتم به في الدنيا على ألسنة الأنبياء ﴿ لكل أواب ﴾ أي رجاع عن المعصية إلى الطاعة .

قال سعيد بن المسيب : هو الذي يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب .

وقيل : هو الذي يذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر منها .

وقيل : هو التواب ، وقال ابن عباس : هو المسيح .

وقيل : هو المصلي ﴿ حفيظ ﴾ قال ابن عباس الحافظ لأمر الله وعنه هو الذي يحفظ ذنوبه حتى يرجع عنها ويستغفر منها وقيل : حفيظ لما استودعه الله من حقه .

وقيل : هو المحافظ على نفسه المتعهد لها المراقب لها .

(157/723)

وقيل : هو المحافظ على الطاعات والأوامر ﴿ ومن خشي الرحمن بالغيب ﴾ أي خاف الرحمن فأطاعه وإن لم يره وقيل : خافه في الخلوة بحيث لا يراه أحد إذا ألقى الستر أغلق الباب ﴿ وجاء بقلب منيب ﴾ أي مخلص مقبل على طاعة الله ﴿ ادخلوها ﴾ أي يقال لأهل هذه الصفة : ادخلوا الجنة ﴿ بسلام ﴾ أي بسلامة من العذاب والهموم .

وقيل : بسلام من الله وملائكته عليهم وقيل : بسلامة من زوال النعم ﴿ ذلك يوم الخلود ﴾ أي في الجنة لأنه لا موت فيها .

﴿ لهم ما يشاؤون فيها ﴾ وذلك أنهم يسألون الله حتى تنتهي مسألتهم فيعطون ما سألوا ثم يزيد الله عبيده ما لم يسألوا مما لم يخطر بقلب بشر وهو قوله تعالى : ﴿ ولدينا مزيد ﴾

وقيل : المزيد ، هو النظر إلى وجهه الكريم قيل : يتجلى لهم الرب تبارك وتعالى في كل جمعة

في دار كرامته فلهذا هو المزيد .

قوله تعالى : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم ﴾ أي قبل كفار مكة ﴿ من قرن هم أشد منهم بطشاً ﴾ يعني سطوة والبطش الأخذ بصولة وعنف ﴿ فنقبوا في البلاد ﴾ أي ساروا وتقلبوا في البلاد وسلكوا كل طريق ﴿ هل من محيص ﴾ أي فلم يجدوا لهم محيصاً أي مهرباً من أمر الله وقيل : لا يجدون لهم مفراً من الموت بل يموتون فيصيرون إلى عذاب الله وفيه تخويف لأهل مكة لأنهم على مثل سبيلهم ﴿ إن في ذلك لذكرى ﴾ أي إن فيما ذكر من إهلاك القرى تذكرة وموعظة ﴿ لمن كان له قلب ﴾ .

قال ابن عباس : أي عقل .

وقيل : له قلب حاضر مع الله واعٍ عن الله ﴿ أو ألقى السمع ﴾ أي استمع القرآن واستمع ما يقال له لا يحدث نفسه بغيره ﴿ وهو شهيد ﴾ أي حاضر القلب ليس بغافل ولا ساه .

(158/723)

قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾ أي إعياء وتعب قال المفسرون نزلت في اليهود حيث قالوا : خلق الله السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام أولها الأحد وآخرها الجمعة ثم استراح يوم السبت

واستلقى على العرش فلذلك تركوا العمل فيه فأنزل الله تعالى هذه الآية رداً عليهم وتكذيباً لهم في قولهم استراح يوم السبت بقوله تعالى : ﴿ وما مسنا من لغوب ﴾ .

قال الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره : والظاهر أن المراد الرد على المشركين والاستدلال بخلق السموات والأرض وما بينهما فقوله ﴿ وما مسنا من لغوب ﴾ أي ما تعبنا بالخلق الأول حتى لا نقدر على الإعادة ثانياً كما قال الله تعالى : ﴿ أفعيينا بالخلق الأول ﴾ الآية وأما ما قاله اليهود ونقلوه من التوراة فهو إما تحريف منهم أو لم يعلموا تأويله وذلك أن الأحد والاثنين أزمنة مستمرة بعضها بعد بعض فلو كان خلق السموات والأرض ابتدىء يوم الأحد لكان الزمان قبل الأجساد والزمان لا ينفك عن الأجساد فيكون قبل خلق الأجسام أجسام لأن اليوم عبارة عن زمان سير الشمس من الطلوع إلى الغروب وقبل السموات والأرض لم يكن شمس ولا قمر لكن اليوم قد يطلق ويراد به الوقت والحين وقد يعبر به عن مدة الزمان أي مدة كانت قوله : ﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ الخطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) أي : اصبر يا محمد على ما يقولون أي من كذبهم فإن الله لهم بالمرصاد وهذا قبل الأمر بقتالهم ﴿ وسبح بحمد ربك ﴾ أي صلِّ حامداً لله ﴿ قبل طلوع الشمس ﴾ أي صلاة الصبح ﴿ وقبل الغروب ﴾ يعني صلاة المغرب .

قال ابن عباس : صلاة الظهر والعصر .

﴿ ومن الليل فسبحه ﴾ يعني صلاة المغرب والعشاء .

وقيل : يعني صلاة الليل أي وقت صلى ﴿ وأدبار السجود ﴾ قال عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وغيرهما : أدبار السجود الركعتان بعد المغرب ، وأدبار النجوم الركعتان قبل صلاة الفجر .

وهي رواية عن ابن عباس .

(159/723)

ويروى مرفوعاً عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت " لم يكن النبي (صلى الله عليه وسلم) على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتي الفجر " (م) عنها أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : " ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها " يعني بذلك سنة الفجر ، عن ابن مسعود ، قال : " ما أحصى ما سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقرأ في الركعتين بعد المغرب والركعتين قبل صلاة الفجر قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد " أخرجه الترمذي وقال حديث غريب .

وقيل : في قوله وأدبار السجود : التسبيح باللسان في أدبار الصلوات المكتوبات (خ) عن ابن عباس قال : أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يسبح في أدبار الصلوات كلها يعني قوله وأدبار السجود (م) .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " من سبح الله في دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين وحمد الله ثلاثاً وثلاثين وكبر الله ثلاثاً وثلاثين فذلك تسعة وتسعون ثم قال : تمام المائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غفرت ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر " (خ) عنه " أن فقراء المسلمين أتوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالوا يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات والنعيم المقيم فقال وما ذاك ؟ قالوا صلوا كما صلينا وجاهدوا كما جاهدنا وأنفقوا من فضول أموالهم وليست لنا أموال قال أفلا أخبركم بأمر تدركون به من كان قبلكم وتسبقون من جاء بعدكم ولا يأتي أحد بمثل ما جئتم به إلا من جاء بمثله تسبحون في دبر كل صلاة عشراً وتحمدون عشراً وتكبرون عشراً " .

قوله تعالى : ﴿ واستمع يوم يناد المناد ﴾ يعني استمع يا محمد حديث يوم ينادي المنادي .

وقيل : معناه انتظر صيحة القيامة والنشور .

(160/723)

قال المفسرون : المنادي هو إسرافيل يقف على صخرة بيت المقدس فينادي بالحشر فيقول : يا أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة إن الله يأمركن

أن تجتمعن لفصل القضاء ، وهو قوله تعالى : ﴿ من مكان قريب ﴾ قيل : إن صخرة بيت المقدس أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً وقيل : هي في وسط الأرض .

﴿ يوم يسمعون الصيحة بالحق ﴾ أي الصيحة الأخيرة ﴿ ذلك يوم الخروج ﴾ أي من القبور ﴿ إنا نحن نحيي ﴾ أي في الدنيا ﴿ ونميت ﴾ يعني عند انقضاء الأجل ﴿ وإلينا المصير ﴾ أي في الآخرة وقيل : تقديره نميت في الدنيا ونحيي للبعث وإلينا المصير بعد البعث ﴿ يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ﴾ أي يخرجون سراعاً إلى المحشر وهو قوله تعالى : ﴿ ذلك حشر علينا يسير ﴾ أي هين ﴿ نحن أعلم بما يقولون ﴾ يعني كفار مكة في تكذيبك ﴿ وما أنت عليهم بجبار ﴾ أي بمسلط تجبرهم على الإسلام إنما بعثت مذكراً وذلك قبل أن يؤمر بقتالهم ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ أي ما أوعدت به من عصاني من العذاب قال ابن عباس : " قالوا يا رسول الله لو خوفتنا فنزلت : فذكر بالقرآن من يخاف وعيد " أي عظ بالقرآن من يخاف وعيدي والله أعلم بمراده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 6 صـ 233 . 241 ﴾

(161/723)

وقال النسفى :

سورة ق

الكلام في ﴿ ق والقرءان المجيد بَلْ عَجِبُوٓا ﴾

كالكلام في ﴿ ص والقرءان ذِى الذكر بَلِ الذين كَفَرُواْ ﴾ سواء بسواء لالتقائهما في أسلوب واحد .

والمجيد ذو المجد والشرف على غيره من الكتب ومن أحاط علماً بمعانيه وعمل بما فيه مجد عند الله وعند الناس .

وقوله ﴿ بَلْ عَجِبُواْ ﴾ أي كفار مكة ﴿ أَن جَآءَهُمْ مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي محمد صلى الله عليه وسلم إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب وهو أن ينذرهم بالمخوف رجل منهم قد عرفوا عدالته وأمانته ، ومن كان كذلك لم يكن إلا ناصحاً لقومه خائفاً أن ينالهم مكروه ، وإذا علم أن مخوفاً أظلهم لزمه أن ينذرهم فكيف بما هو غاية المخاوف وإنكار لتعجبهم مما أنذرهم به من البعث مع علمهم بقدرة الله تعالى على خلق السماوات والأرض وما بينهما ، وعلى اختراع كل شيء وإقرارهم بالنشأة الأولى مع شهادة العقل بأنه لا بد من الجزاء ؟ ثم عول على أحد الإنكارين بقوله ﴿ فَقَالَ الكافرون هذا شَىْءٌ عَجِيبٌ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ﴾ دلالة على أن تعجبهم من البعث أدخل في الاستبعاد وأحق بالإنكار .

وضع الكافرون موضع الضمير للشهادة على أنهم في قولهم هذا مقدمون على الكفر العظيم

، وهذا إشارة إلى الرجع .

و"إذا" منصوب بمضمر معناه أحين نموت ونبلى نرجع .

﴿ مِتْنَا ﴾ نافع وعلي وحمزة وحفص ﴿ ذلك رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ مستبعد مستنكر كقولك "هذا قول بعيد" أي بعيد من الوهم والعادة .

(162/723)

ويجوز أن يكون الرجع بمعنى المرجوع وهو الجواب ، ويكون من كلام الله تعالى استبعاداً لإنكارهم ما أنذروا به من البعث ، والوقف على ﴿ ترابا ﴾ على هذا حسن ، وناصب الظرف إذا كان الرجع بمعنى المرجوع ما دل عليه المنذر من المنذر به وهو البعث ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرض مِنْهُمْ ﴾ رد لاستبعادهم الرجع لأن من لطف علمه حتى علم ما تنقص الأرض من أجساد الموتى وتأكله من لحومهم وعظامهم كان قادراً على رجعهم أحياء كما كانوا ﴿ وَعِندَنَا كتاب حَفِيظٌ ﴾ محفوظ من الشياطين ومن التغير وهو اللوح المحفوظ ، أو حافظ لما أودعه وكتب فيه ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بالحق لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ إضراب أتبع الإضراب الأول للدلالة على أنهم جاءوا بما هو أفظع من تعجبهم وهو التكذيب بالحق الذي هو النبوة الثابتة بالمعجزات في أول وهلة من غير تفكر ولا تدبر ﴿ فَهُمْ فِى أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾

مضطرب .

يقال : مرج الخاتم في الإصبع إذا اضطرب من سعته فيقولون تارة شاعر وطوراً ساحر ومرة كاهن لا يثبتون على شيء واحد .

وقيل : الحق القرآن .

وقيل : الإخبار بالبعث .

ثم دلهم على قدرته على البعث فقال ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا ﴾ حين كفروا بالبعث ﴿ إِلَى السمآء فَوْقَهُمْ ﴾ إلى آثار قدرة الله تعالى في خلق العالم ﴿ كَيْفَ بنيناها ﴾ رفعناها بغير عمد ﴿ وزيناها ﴾ بالنيرات ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ من فتوق وشقوق أي أنها سليمة من العيوب لا فتق فيها ولا صدع ولا خلل ﴿ والأرض مددناها ﴾ دحوناها ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رواسي ﴾ جبالاً ثوابت لولا هي لمالت ﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ ﴾ صنف ﴿ بَهِيجٍ ﴾ يبتهج به لحسنه ﴿ تَبْصِرَةً وذكرى ﴾ لنبصر به ونذكر ﴿ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ راجع إلى ربه مفكر في بدائع خلقه .

(163/723)

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السمآء مَآءً مباركا ﴾ كثير المنافع ﴿ فَأَنبَتْنَا بِهِ جنات وَحَبَّ الحصيد ﴾ أي وحب الزرع الذي من شأنه أن يحصد كالحنطة والشعير وغيرهما ﴿ والنخل باسقات ﴾ طوالاً في السماء ﴿ لَّهَا طَلْعٌ ﴾ هو كل ما يطلع من ثمر النخيل ﴿ نَّضِيدٌ ﴾ منضود بعضه فوق بعض لكثرة الطلع وتراكمه أو لكثرة ما فيه من الثمر ﴿ رِّزْقاً لِّلْعِبَادِ ﴾ أي أنبتناها رزقاً للعباد لأن الإنبات في معنى الرزق فيكون ﴿ رِزْقاً ﴾ مصدراً من غير لفظه ، أو هو مفعول له أي أنبتناها لرزقهم ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ ﴾ بذلك الماء ﴿ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ قد جف نباتها ﴿ كذلك الخروج ﴾ أي كما حييت هذه البلدة الميتة كذلك تخرجون أحياء بعد موتكم لأن إحياء الموات كإحياء الأموات ، والكاف في محل الرفع على الابتداء .

(164/723)

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ ﴾ قبل قريش ﴿ قَوْمُ نُوحٍ وأصحاب الرس ﴾ هو بئر لم تطو وهم قوم باليمامة وقيل أصحاب الأخدود ﴿ وَثَمُودُ وَعَادٌ وفِرْعَوْنُ ﴾ أراد بفرعون قومه كقوله ﴿ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ ﴾ [يونس : 83] لأن المعطوف عليه قوم نوح والمعطوفات جماعات ﴿ وإخوان لُوطٍ وأصحاب الأيكة ﴾ سماهم إخوانه لأن بينهم وبينه نسباً قريباً ﴿ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ هو ملك باليمن أسلم ودعا قومه إلى الإسلام فكذبوه وسمي به لكثرة تبعه

﴿ كُلٌّ ﴾ أي كل واحد منهم ﴿ كَذَّبَ الرسل ﴾ لأن من كذب رسولاً واحداً فقد كذب جميعهم ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ فوجب وحل وعيدي وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهديد لهم ﴿ أَفَعَيِينَا ﴾ عيي بالأمر إذا لم يهتد لوجه عمله والهمزة للإنكار ﴿ بالخلق الأول ﴾ أي أنا لم نعجز عن الخلق الأول فكيف نعجز عن الثاني والاعتراف بذلك اعتراف بالإعادة ﴿ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ ﴾ في خلط وشبهة قد لبس عليهم الشيطان وحيرهم وذلك تسويله إليهم أن إحياء الموتى أمر خارج عن العادة فتركوا لذلك الاستدلال الصحيح وهو أن من قدر على الإنشاء كان على الإعادة أقدر ﴿ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ بعد الموت .

وإنما نكر الخلق الجديد ليدل على عظمة شأنه وأن حق من سمع به أن يخاف ويهتم به .

(165/723)

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ الوسوسة الصوت الخفي ووسوسة النفس ما يخطر ببال الإنسان ويهجس في ضميره من حديث النفس ، والباء مثلها في قوله "صوت بكذا" ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ المراد قرب علمه منه ﴿ مِنْ حَبْلِ الوريد ﴾ هو مثل في فرط القرب ، والوريد عرق في باطن العنق ، والحبل العرق ، والإضافة للبيان كقولهم

"بعير سانية" ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى المتلقيان ﴾ يعني الملكين الحافظين ﴿ عَنِ اليمين وَعَنِ الشمال قَعِيدٌ ﴾ التلقي التلقن بالحفظ والكتابة والقعيد والمقاعد بمعنى المجالس وتقديره عن اليمين قعيد وعن الشمال من المتلقيين فترك أحدهما لدلالة الثاني عليه كقوله

. . . :

رماني بأمر كنت منه ووالدي

بريئاً ومن أجل الطوى رماني . . .

أي رماني بأمر كنت منه بريئاً وكان والدي منه بريئاً .

و"إذ" منصوب بأقرب لما فيه من معنى يقرب ، والمعنى إنه لطيف يتوصل علمه إلى خطرات النفس ولا شيء أخفى منه وهو أقرب من الإنسان من كل قريب حين يتلقى الحفيظان ما يتلفظ به إيذاناً بأن استحفاظ الملكين أمر هو غني عنه ، وكيف لا يستغني عنه وهو مطلع على أخفى الخفيات ؟ وإنما ذلك لحكمة وهو ما في كتبة الملكين وحفظهما وعرض صحائف العمل يوم القيامة من زيادة لطف له في الانتهاء عن السيئات والرغبة في الحسنات .

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ ﴾ ما يتكلم به وما يرمي به من فيه ﴿ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ ﴾ حافظ ﴿ عَتِيدٌ ﴾ حاضر .

ثم قيل : يكتبان كل شيء حتى أنينه في مرضه .

وقيل : لا يكتبان إلا ما فيه أجر أو وزر .

وقيل : إن الملكين لا يجتنبانه إلا عند الغائط والجماع .

(166/723)

لما ذكر إنكارهم البعث واحتج عليهم بقدرته وعلمه أعلمهم أن ما أنكروه هم لاقوه عن قريب عند موتهم وعند قيام الساعة ، ونبه على اقتراب ذلك بأن عبر عنه بلفظ الماضي وهو قوله ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ ﴾ أي شدته الذاهبة بالعقل ملتبسة ﴿ بالحق ﴾ أي بحقيقة الأمر أو بالحكمة ﴿ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ ﴾ الإشارة إلى الموت والخطاب للإنسان في قوله ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان ﴾ على طريق الالتفات ﴿ تَحِيدُ ﴾ تنفر وتهرب ﴿ وَنُفِخَ فِى الصور ﴾ يعني نفخة البعث ﴿ ذَلِكَ يَوْمَ الوعيد ﴾ أي وقت ذلك يوم الوعيد على حذف المضاف والإشارة إلى مصدر نفخ ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ أي ملكان أحدهما يسوقه إلى المحشر والآخر يشهد عليه بعمله ، ومحل ﴿ مَّعَهَا سَائِقٌ ﴾ النصب على الحال من ﴿ كُلُّ ﴾ لتعرفه بالإضافة إلى ما هو في حكم المعرفة ﴿ لَّقَدْ كُنتَ ﴾ أي يقال لها لقد كنت ﴿ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هذا ﴾ النازل بك اليوم ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ ﴾ أي فأزلنا غفلتك بما تشاهده ﴿ فَبَصَرُكَ اليوم حَدِيدٌ ﴾ جعلت الغفلة كأنها

غطاء غطي به جسده كله أو غشاوة غطي بها عينيه فهو لا يبصر شيئاً ، فإذا كان يوم القيامة تيقظ وزالت عنه الغفلة وغطاؤها فيبصر ما لم يبصره من الحق ، ورجع بصره الكليل عن الإبصار لغفلته حديداً لتيقظه .

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ ﴾ الجمهور على أنه الملك الكاتب الشهيد عليه ﴿ هذا ﴾ أي ديوان عمله ، مجاهد : شيطانه الذي قيض له في قوله ﴿ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف : 36] .

هذا أي الذي وكلت به ﴿ مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ ﴿ هذا ﴾ مبتدأ و ﴿ مَا ﴾ نكرة بمعنى شيء والظرف بعده وصف له وكذلك ﴿ عَتِيدٌ ﴾ و ﴿ مَا ﴾ وصفتها خبر ﴿ هذا ﴾ والتقدير هذا شيء ثابت لديّ عتيد .

(167/723)

ثم يقول الله تعالى ﴿ أَلْقِيَا ﴾ والخطاب للسائق والشهيد أو لمالك ، وكأن الأصل ألقِ ألقِ فناب ألقيا عن ألق ألق لأن الفاعل كالجزء من الفعل فكانت تثنية الفاعل نائبة عن تكرار الفعل .

وقيل : أصله ألقين والألف بدل من النون إجراء للوصل مجرى الوقف دليله قراءة الحسن ﴿

ألقين ﴾ ﴿ فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ ﴾ بالنعم والمنعم ﴿ عَنِيدٍ ﴾ معاند مجانب للحق معاد لأهله ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ كثير المنع للمال عن حقوقه أو مناع لجنس الخير أن يصل إلى أهله ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ ظالم متخط للحق ﴿ مُرِيبٍ ﴾ شاك في الله وفي دينه ﴿ الذى جَعَلَ مَعَ اللهِ إلها ءَاخَرَ ﴾ مبتدأ متضمن معنى الشرط خبره ﴿ فألقياه فِى العذاب الشديد ﴾ أو بدل من ﴿ كُلَّ كَفَّارٍ ﴾ و ﴿ فألقياه ﴾ تكرير للتوكيد ولا يجوز أن يكون صفة ل ﴿ كَفَّار ﴾ لأن النكرة لا توصف بالموصول .

﴿ قَالَ قَرِينُهُ ﴾ أي شيطانه الذي قرن به وهو شاهد لمجاهد ، وإنما أخليت هذه الجملة عن الواو دون الأولى لأن الأولى واجب عطفها للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها في الحصول أعني مجيء كل نفس مع الملكين وقول قرينه ما قال له ، وأما هذه فهي مستأنفة كما تستأنف الجمل الواقعة في حكاية التقاول كما في مقاولة موسى وفرعون ، فكأن الكافر قال رب هو أطغاني فقال قرينه ﴿ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُ ولكن كَانَ فِى ضلال بَعِيدٍ ﴾ أي ما أوقعته في الطغيان ولكنه طغى واختار الضلالة على الهدى ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ ﴾ هو استئناف مثل قوله تعالى ﴿ قَالَ قَرِينُهُ ﴾ كأن قائلاً قال : فماذا قال الله ؟ فقيل : قال لا تختصموا ﴿ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بالوعيد ﴾ أي لا تختصموا في دار الجزاء وموقف الحساب فلا فائدة في اختصامكم ولا طائل تحته وقد أوعدتكم بعذابي على الطغيان في كتبي وعلى ألسنة رسلي فما تركت لكم حجة عليّ .

والباء في ﴿ بالوعيد ﴾ مزيدة كما في قوله ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ ﴾ [البقرة: 195] أو معدية على أن قدم مطاوع بمعنى تقدم ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ﴾ أي لا تطمعوا أن أبدل قولي ووعيدي بإدخال الكفار في النار ﴿ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ فلا أعذب عبداً بغير ذنب.

وقال ﴿ بظلام ﴾ على لفظ المبالغة لأنه من قولك هو ظالم لعبده وظلام لعبيده ﴿ يَوْمَ ﴾ نصب ب ﴿ ظلام ﴾ أو بمضمر هو اذكر وأنذر ﴿ نَقُولُ ﴾ نافع وأبو بكر أي يقول الله ﴿ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ وهو مصدر كالمجيد أي أنها تقول بعد امتلائها هل من مزيد أي هل بقي فيّ موضع لم يمتلىء يعني قد امتلأت، أو أنها تستزيد وفيها موضع للمزيد وهذا على تحقيق القول من جهنم وهو غير مستنكر كإنطاق الجوارح، والسؤال لتوبيخ الكفرة لعلمه تعالى بأنها امتلأت أم لا.

﴿ وَأُزْلِفَتِ الجنةِ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ غير نصب على الظرف أي مكاناً غير بعيد ، أو على الحال وتذكيره لأنه على زنة المصدر كالصليل والمصادر يستوي في الوصف بها المذكر والمؤنث ، أو على حذف الموصوف أي شيئاً غير بعيد ومعناه التوكيد كما تقول : هو قريب غير بعيد وعزيز غير ذليل ﴿ هذا ﴾ مبتدأ وهو إشارة إلى الثواب أو إلى مصدر أزلفت ﴿ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ صفته وبالياء : مكي ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴾ رجاع إلى ذكر الله خبره ﴿ حَفِيظٍ ﴾ حافظ لحدوده جاء في الحديث " من حافظ على أربع ركعات في أول النهار كان أواباً حفيظاً " ﴿ مَّنْ ﴾ مجرور المحل بدل من ﴿ أَوَّاب ﴾ أو رفع بالابتداء وخبره ﴿ ادخلوها ﴾ على تقدير يقال لهم ادخولها بسلام لأن "من" في معنى الجمع ﴿ خَشِيَ الرحمن ﴾ الخشية انزعاج القلب عند ذكر الخطيئة ، وقرن بالخشية اسمه الدال على سعة الرحمة للثناء البليغ على الخاشي وهو خشيته مع علمه أنه الواسع الرحمة كما أثنى عليه بأنه خاشٍ مع أن المخشي منه غائب ﴿ بالغيب ﴾ حال من المفعول أي خشيه وهو غائب ، أو صفة لمصدر خشي أي خشيه خشية ملتبسة بالغيب حيث خشي عقابه وهو غائب .

الحسن : إذا أغلق الباب وأرخى الستر ﴿ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ راجع إلى الله .

وقيل : بسريرة مرضية وعقيدة صحيحة ﴿ ادخلوها بِسَلامٍ ﴾ أي سالمين من زوال النعم وحلول النقم ﴿ ذلك يَوْمُ الخلود ﴾ أي يوم تقدير الخلود كقوله ﴿ فادخلوها خالدين ﴾ [

الزمر : 73] أي مقدرين الخلود ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ على ما يشتهون ، والجمهور على أنه رؤية الله تعالى بلا كيف .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ ﴾ قبل قومك ﴿ مِّن قَرْنٍ ﴾ من القرون الذين كذبوا رسلهم ﴿ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم ﴾ من قومك ﴿ بَطْشاً ﴾ قوة وسطوة ﴿ فَنَقَّبُواْ ﴾ فخرقوا ﴿ فِى البلاد ﴾ وطافوا .

(170/723)

والتنقيب التنقير عن الأمر والبحث والطلب ، ودخلت الفاء للتسبيب عن قوله ﴿ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً ﴾ أي شدة بطشهم أقدرتهم على التنقيب وقوّتهم عليه ، ويجوز أن يراد فنقب أهل مكة في أسفارهم ومسايرهم في بلاد القرون فهل رأوا لهم محيصاً حتى يؤملوا مثله لأنفسهم ، ويدل عليه قراءة من قرأ ﴿ فَنَقِّبُواْ ﴾ على الأمر ﴿ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ مهرب من الله أو من الموت .

﴿ إِنَّ فِى ذلك ﴾ المذكور ﴿ لِذِكْرَى ﴾ تذكرة وموعظة ﴿ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ واعٍ لأن من لا يعي قلبه فكأنه لا قلب له ﴿ أَوْ أَلْقَى السمع ﴾ أصغى إلى المواعظ ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ حاضر بفطنته لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ إعياء ، قيل : نزلت في اليهود لعنت تكذيباً لقولهم خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام أولها الأحد وآخرها الجمعة واستراح يوم السبت واستلقى على العرش وقالوا : إن الذي وقع من التشبيه في هذه الأمة إنما وقع من اليهود ومنهم أخذ .

وأنكر اليهود التربيع في الجلوس وزعموا أنه جلس تلك الجلسة يوم السبت ﴿ فاصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾ أي على ما يقول اليهود ويأتون به من الكفر والتشبيه ، أو على ما يقول المشركون في أمر البعث فإن من قدر على خلق العالم قدر على بعثهم والانتقام منه ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ حامداً ربك ، والتسبيح محمول على ظاهره أو على الصلاة فالصلاة ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس ﴾ الفجر ﴿ وَقَبْلَ الغروب ﴾ الظهر والعصر ﴿ وَمِنَ الليل فَسَبِّحْهُ ﴾ العشاءان أو التهجد ﴿ وأدبار السجود ﴾ التسبيح في آثار الصلوات والسجود والركوع يعبر بهما عن الصلاة .

(171/723)

وقيل : النوافل بعد المكتوبات أو الوتر بعد العشاء والأدبار جمع دبر ، ﴿ وإدبار ﴾ حجازي وحمزة وخلف من أدبرت الصلاة إذا انقضت وتمت ، ومعناه وقت انقضاء

السجود كقولهم "آتيك خفوق النجم" .

﴿ واستمع ﴾ لما أخبرك به من حال يوم القيامة وفي ذلك تهويل وتعظيم لشأن المخبر به وقد وقف يعقوب عليه .

وانتصب ﴿ يَوْمَ يُنَادِ المناد ﴾ بما دل عليه ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الخروج ﴾ أي يوم ينادي المنادي يخرجون من القبور .

وقيل : تقديره واستمع حديث يوم ينادي المنادي .

﴿ المنادي ﴾ بالياء في الحالين : مكي وسهل ويعقوب ، وفي الوصل : مدني وأبو عمرو ، وغيرهم بغير ياء فيهما .

والمنادي إسرافيل ينفخ في الصور وينادي : أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء .

وقيل : إسرافيل ينفخ وجبريل ينادي بالحشر ﴿ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ من صخرة بيت المقدس وهي أقرب من الأرض إلى السماء باثني عشر ميلاً وهي وسط الأرض .

﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصيحة ﴾ بدل من ﴿ يَوْمِ يُنَادِى ﴾ .

الصيحة النفخة الثانية ﴿ بالحق ﴾ متعلق ب ﴿ الصيحة ﴾ والمراد به البعث والحشر للجزاء ﴿ ذلك يَوْمُ الخروج ﴾ من القبور ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِى ﴾ الخلق ﴿ وَنُمِيتُ ﴾ أي نميتهم في الدنيا ﴿ وَإِلَيْنَا المصير ﴾ أي مصيرهم ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ﴾ بالتخفيف : كوفي وأبو

عمرو ، وغيرهم بالتشديد ﴿ الأرض عَنْهُمْ ﴾ أي تتصدع الأرض فتخرج الموتى من صدوعها ﴿ سِرَاعاً ﴾ حال من المجرور أي مسرعين ﴿ ذلك حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ هين .

(172/723)

وتقديم الظرف يدل على الاختصاص أي لا يتيسر مثل ذلك الأمر العظيم إلا على القادر الذي لا يشغله شأن عن شأن ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ فيك وفينا تهديد لهم وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ كقوله ﴿ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية : 22] أي ما أنت بمسلط عليهم إنما أنت داعٍ وباعث .

وقيل : هو من جبره على الأمر بمعنى أجبره أي ما أنت بوال عليهم تجبرهم على الإيمان ﴿ فَذَكِّرْ بالقرءان مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ كقوله : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يخشاها ﴾ [النازعات : 45] .

لأنه لا ينفع إلا فيه والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 175 .

182 ﴾

(173/723)

وقال ابن جزى :

سورة ق

تكلمنا على حروف الهجاء في أول سورة البقرة ويختص ق بأنه قيل : إنه من اسم الله القاهر ، أو القدير وقيل : هو اسم للقرآن ﴿ والقرآن المجيد ﴾ من المجد ، وهو الشرف والكرم وجواب هذا القسم محذوب تقديره : ما ردّوا أمرك بحجة وما كذبوك ببرهان وشبه ذلك ، وعبّر عن هذا المحذوف ، وقع الإضراب ببل وقيل : الجواب ما يلفظ من قول ، وقيل : إن في ذلك لذكرى ، قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وهذه الأقوال ضعيفة متكلفة .

﴿ بَلْ عجبوا أَن جَآءَهُمْ مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ الضمير في عجبوا لكفار قريش ، والمنذر هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل : الضمير لجميع الناس واختاره ابن عطية قال : ولذلك قال تعالى : ﴿ فَقَالَ الكافرون ﴾ أي الكافرون من الناس ، والصحيح أنه لقريش ، وقوله : ﴿ فَقَالَ الكافرون ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر لقصد ذمّهم بالكفر ، كما تقول : جاءني فلان فقال الفاجر كذا ، إذا قصدت ذمه وقوله : ﴿ مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ إن كان الضمير لقريش فمعنى ﴿ مِّنْهُمْ ﴾ من قبيلتهم يعرفون صدقه وأمانته وحسبه فيهم ، وإن كان الضمير لجميع الناس فمعنى ﴿ مِّنْهُمْ ﴾ إنسان مثلهم ، وتعجبهم يحتمل أن يكون من أن بعث الله بشراً أو من الأمر الذي يتضمنه الإنذار وهو الحشر ، ويؤيد هذا ما يأتي بعد

﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ﴾ العامل في إذا محذوف تقديره : أنُبعث إذا متنا ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ الرجع مصدر : رجعته والمراد به : البعث بعد الموت ، ومعنى بعيد أي : بعيد الوقوع عندهم ، وقيل : الرجع : الجواب ، أي جوابهم هذا بعيد عن الحق ، وعلى هذا يكون قوله : ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ من كلام الله تعالى ، وأما على الأول فهو حكاية كلام الكفار وهو أظهر .

(174/723)

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرضُ مِنْهُمْ ﴾ هذا رد على الكفار في إنكارهم للبعث معناه : قد علمنا ما تنقص الأرض منهم من لحومهم وعظامهم فلا يصعب علينا بعثهم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كل جسد ابن آدم تأكله الأرض ، إلا عَجْبُ الذنب منه خلق وفيه يركب " وقيل : المعنى قد علمنا ما يحصل في بطن الأرض من موتاهم ، والأول قول ابن عباس والجمهور وهو أظهر ﴿ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ يعني اللوح المحفوظ ، ومعنى حفيظ : جامع لا يشذ عنه شيء . وقيل : معناه محفوظ من التغيير والتبديل .

﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بالحق لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ هذا الإضراب أتبع به الإضراب الأول ، للدلالة على أنهم جاؤوا بما هو أقبح من تعجبهم ، وهو التكذيب بالحق الذي هو النبوة ، وما تضمنته من

الإخبار بالحشر وغير ذلك ، وقال ابن عطية : هذا الاضراب عن كلام محذوف تقديره : ما أجادوا النظر ونحو ذلك ﴿ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ أي مضطرب ، لأنهم يقولون : شاعر ، وتارة ساحر ، وغير ذلك من أقوالهم . وقيل : معناه منكر ، وقيل : ملتبس . وقيل : مختلط .

﴿ وَزَيَّنَّاهَا ﴾ يعني بالنجوم ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ أي من شقوق ، وذلك دليل على إتقان الصنعة ﴿ رَوَاسِيَ ﴾ يعني الجبال ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ أي من كل نوع جميل . ﴿ مَآءً مُّبَارَكاً ﴾ يعني المطر كله وقيل : الماء المبارك ماء مخصوص ينزله الله كل سنة ، وليس كل مطر يتصف بالمبارك ، وهذا ضعيف ﴿ وَحَبَّ الحصيد ﴾ هو القمح والشعير نحو ذلك مما يحصد ﴿ بَاسِقَاتٍ ﴾ أي طويلات ﴿ طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ الطلع أول ما يظهر من الثمر ، وهو أبيض منضد كحصب الرمان ، فما دام ملتصقاً بعضه ببعض فهو نضيد ، فإذا تفرق فليس بنضيد ﴿ كَذَلِكَ الخروج ﴾ تثميل لخروج الموتى من القبور بخروج النبات من الأرض

(175/723)

﴿ وَأَصْحَابُ الرس ﴾ قوم كانت لهم بئر عظيم وهي الرس ، بعث إليهم نبي فجعلوه في الرس وردموا عليه فأهلكهم الله .

﴿ وَأَصْحَابُ الأيكة ﴾ يعني قوم شعيب وقد ذكر ﴿ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ ذكر في [الدخان : 37] ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ أي حل بهم الهلاك ﴿ أَفَعَيِينَا بالخلق الأول ﴾ يقال : عيي بالأمر إذا لم يعرف علمه ، والخلق الأول : خلق الإنسان من نطفة ثم من علقة وقيل : يعني خلق آدم ، وقيل خلق السموات والأرض ، والأول أظهر ، ومقصود الآية الاستدلال بالخلقة الأولى على البعث والهمزة للإنكار ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي هم في شك من البعث ، وإنما نكر الخلق الجديد ؛ لأنه كان غير معروف عند الكفار المخاطبين ، وعرّف الخلق الأول لأنه معروف معهود .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان ﴾ يعني جنس الإنسان ، ومعنى ﴿ تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ : تحدثه نفسه في فكرتها . وذلك أخفى الأشياء وقيل : يعني آدم ووسوسته عند أكله من الشجرة ، والأول أظهر وأشهر ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريد ﴾ هو عرق كبير في العنق ، وهما وريدان عن يمين وشمال ، وهذا مثل في فَرْط القُرْب ، والمراد به : قربُ علم الله واطلاعه على عبده ، وإضافة الحبل إلى الوريد كقولك : مسجد الجامع أو يراد بالحبل : العاتق .

﴿ إِذْ يَتَلَقَّى المتلقيان ﴾ يعني الملكين الحافظين الكتابين للأعمال ، والتلقي هو : تلقّي الكلام بحفظه وكتابته ، والعامل في إذ نحن أقرب ، وقيل : مضمر تقديره : اذكر . واختيار ابن عطية ﴿ عَنِ اليمين وَعَنِ الشمال قَعِيدٌ ﴾ أي قاعد : وقيل : مقاعد بمعنى مجالس ، وردّه ابن عطية بأن المقاعد إنما يكون مع قعود الإنسان ، والقاعد يكون على جميع هيئة الإنسان ، وإنما أفرده وهما اثنان لأن التقدير : عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد من المتلقين ، فحذف أحدهما لدلالة الآخر عليه ، وقال الفراء : لفظ قعيد يدل على الاثنين والجماعة فلا يحتاج إلى حذف .

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ العتيد : الحاضر ، وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن مقعد الملكين على الشفتين قلمهما اللسان ومدادهما الريق ، وعموم الآية يقتضي أن الملكين يكتبان جميع أعمال العبد ، ولذلك قال الحسن وقتادة : يكتبان جميع الكلام فيثبت الله من ذلك الحسنات والسيئات ويمحو غير ذلك ، وقال عكرمة : إنما تكتب الحسنات والسيئات لا غير .

﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ أي بلقاء الله أو فراق الدنيا ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود : وجاءت سكرة الحق بالموت ، وكذلك قرأها أبو بكر الصديق ، وإنما قال : جاءت بالماضي لتحقق الأمر وقربه ، وكذلك ما بعده من الأفعال ﴿ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ

تَحِيدُ ﴾ أي تفر وتهرب ، والخطاب للإنسان .

﴿ سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ السائق ملك يسوقه ، وأما الشهيد فقيل : ملك آخر يشهد عليه وهو الأظهر ، وقيل : صحائف الأعمال ، وقيل : جوارح الإنسان .

(177/723)

﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هذا ﴾ خطاب للإنسان الذي يقتضيه قوله : كل نفس ، يريد أنه كان غافلاً عما لقي في الآخرة ، وقيل : هو خطاب لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، أي كنت في غفلة من هذا القصص ؛ وهذا في غاية الضعف لأنه خروج عن سياق الكلام ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ ﴾ قيل : كشف الغطاء معاينته أمور الآخرة ﴿ فَبَصَرُكَ اليوم حَدِيدٌ ﴾ أي يبصر ما لم يبصره قبل ، وقد ورد : الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا .

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هذا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ القرين هنا : الشيطان الذي كان يغويه ، وقيل : الملك الذي يتولى عذابه في جهنم ، والأول أرجح لأنه هو القرين المذكور بعد ، ولقوله : ﴿ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف : 36] ومعنى قوله : ﴿ هذا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ ، أي هذا الإنسان حاضر لدي أعتدته ويسرته لجهنم ، وكذلك المعنى إن قلنا : إن القرين هو الملك السائق ، وإن قلنا : إنه أحد الزبانية فمعناه هذا العذاب لديّ حاضر ، ويحتمل أن

يكون ما في قوله : ﴿ مَا لَدَيَّ ﴾ ، موصوفة أو موصولة ، فإن كانت موصوفة فعتيد وصف لها ، وإن كانت موصولة ، فعتيد بدل منها ، أو خبر بعد خبر ، أو خبر مبتدأ محذوف ، وما هي خبر المبتدأ على هذه الوجوه ، ويحتمل أن يكون ﴿ عَتِيدٌ ﴾ الخبر وتكون ﴿ مَا ﴾ بدلاً من هذا أو منصوبة بفعل مضمر .

(178/723)

﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾ الخطاب للملكين السائق والشهيد ، وقيل : نه خطاب لواحد على أن يكون بالنون المؤكدة الخفيفة ، ثم أبدل منها ألف ، أو على أن يكون معناه : ألق ألق مثنى مبالغة وتأكيداً ، أو على أن يكون على عادة العرب من مخاطبة الاثنين كقولهم : خليلي وصاحبي وهذا كله تكلف بعيد ، ومما يدل على أن الخطاب لاثنين قوله : ﴿ فَأَلْقِيَاهُ فِي العذاب الشديد ﴾ ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ قيل : مناع للزكاة المفروضة والصحيح العموم ﴿ مُّرِيبٍ ﴾ شاك في الدين فهو من الريب بمعنى الشك ﴿ الذي جَعَلَ ﴾ يحتمل أن يكون مبتدأ وخبره ﴿ فَأَلْقِيَاهُ ﴾ وأدخل فيه ألفاً لتضمنه معنى الشرط ، أو يكون بدلاً أو صفة ، ويكون فألقياه تكرار للتوكيد .

﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ القرين هنا شيطانه الذي وُكِّل به في الدنيا ، بلا خلاف

ومعنى ما أطغيته ، ما أوقعته في الطغيان ، ولكنه طغى باختياره ، وإنما حذف الواو هنا لأن هذه جملة مستأنفة بخلاف قوله : ﴿ قَالَ قَرِينُهُ ﴾ قبل هذا فإنه عطف .

(179/723)

﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ ﴾ خطاب للناس وقرنائهم من الشياطين ﴿ مَا يُبَدَّلُ القول لَدَيَّ ﴾ أي قد حكمت بتعذيب الكفار فلا تبديل لذلك ، وقيل : معناه لا يكذب أحد لدي لعلمي بجميع الأمور ، فالإشارة على هذا إلى قول القرين ما أطغيته ﴿ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ الفعل مسند إلى جهنم ، وقيل : إلى خزنتها من الملائكة ، والأول أظهر واختلف هل تتكلم جهنم حقيقة أو مجازاً بلسان الحال ؟ والأظهر أنه حقيقة ، وذلك على الله يسير ، ومعنى قوله : ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ إنما تطلب الزيادة وكانت لم تمتلئ . وقيل : لا مزيد أي ليس عندي موضع للزيادة ، فهي على هذا قد امتلأت والأول أظهر وأرجح ، لما ورد في الحديث " لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول : هل من مزيد حتى يلقى فيها الجبار قدمه " ، وفي الحديث كلام ليس هذا موضعه ، وإن كان اسم معفول فوزنه مفعول .

﴿ وَأُزْلِفَتِ الجنة ﴾ أي قرّبت ثم أكد ذلك بقوله غير بعيد ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴾ أي كثير الرجوع إلى الله ، فهو من آب يؤوب إذا رجع ، وقيل : هو المسبح لله من قوله : ﴿ يا جبال

أَوِّبِي مَعَهُ ﴾ [سبأ : 1] ﴿ حَفِيظٍ ﴾ أي حافظ لأوامر الله فيفعلها ، ولنواهيه فيتركها

.

﴿ مَّنْ خَشِيَ الرحمن بالغيب ﴾ أي اتقى الله وهو غائب عن الناس ، فالمجرور في موضع الحال ، من خشي بدل أو مبتدأ ، فإن قيل : كيف قرن بالخشية الاسم الدال على الرحمة ؟ فالجواب : أن ذلك لقصد المبالغة في الثناء على من يخشى الله ؛ لأنه يخشاه مع علمه برحمته وعفوه ، قال ذلك الزمخشري ؛ ويحتمل أن يكون الجواب عن ذلك أن الرحمن صار يستعمل استعمال الاسم الذي ليس بصفة كقولنا الله .

(180/723)

﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ قيل معناه النظر إلى وجه الله ، كقوله : ﴿ الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : 26] وقيل : يعني ما لم يخطر على قلوبهم كما ورد في الحديث مما يرويه النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه أنه قال : " أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر " .

﴿ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً ﴾ الضمير في هم للقرون المتقدمة ، وفي منهم لكفار قريش ﴿ فَنَقَّبُواْ فِي البلاد ﴾ أي طافوا فيها ، وأصله دخولها من أنقابها ، أو من التنقيب عن الأمر ،

بمعنى البحث عنه ﴿ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ أي قالوا : هل من مهرب من الله أو من العذاب .

﴿ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ أي قلب واع يعقل ويفهم ﴿ أَوْ أَلْقَى السمع وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ اي استمع وهو حاضر القلب ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ اللغوب الإعياء والتعب .

﴿ فاصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾ يعني كفار قريش وغيرهم ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ يحتمل أن يريد التسبيح باللسان ، أو يريد الصلاة وقد ذكر الزمخشري فيه الوجهين وقال ابن عطية : معناه : صلِّ بإجماع من المتأوّلين ، وهي على هذا إشارة إلى الصلوات الخمس فقبل طلوع الشمس : الصبح ، وقيل الغروب : الظهر والعصر . ومن الليل : المغرب والعشاء ، وقيل : هي النوافل ﴿ وَأَدْبَارَ السجود ﴾ قال ابن عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما : الركعتين بعد المغرب وقال ابن عباس : هي النوافل بعد الفرائض ، وقيل : الوتر .

(181/723)

﴿ واستمع ﴾ معناه انتظر . فهو عامل في يوم يناد على أنه مفعول به صريح ، وقيل : المعنى استمع لما نقصُ عليك من أهل القيامة . فعلى هذا لا يكون عاملاً في يوم يناد فيقوف على استمع والأول أظهر ﴿ يَوْمَ يُنَادِ المناد مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ المنادي هنا إسرافيل الذي

ينفخ في الصور ، وقيل : إنما وصفه بالقرب لأنه يسمعه جميع الخلق ، وقيل : المكان صخرة بيت المقدس ، وإنما وصفها بالقرب لقربها من مكة ﴿ يَوْمُ الخروج ﴾ يعني خروج الناس من القبور .

﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ﴾ العامل في هذا الظرف معنى قوله : ﴿ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ أو هو بدل مما قبله .

﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ أي بقهار تقهرهم على الإيمان كقوله : ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية : 22] وقيل إخبار بأنه صلى الله عليه وسلم رؤوف بهم غير جبار عليهم ، وهذا أظهر ﴿ فَذَكِّرْ بالقرآن مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ كقوله : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ [فاطر : 18] لأنه ينفع التذكير إلا من يخاف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 62.66 ﴾

(182/723)

وقال البيضاوى :

سورة ق

مكية وهي خمس وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ ق والقرءان المجيد ﴾

الكلام فيه كما مر في ﴿ ص والقرءان ذِى الذكر ﴾ و﴿ المجيد ﴾ ذو المجد والشرف على سائر الكتب ، أو لأنه كلام المجيد ، أو لأن من علم معانيه وامتثل أحكامه مجد .

﴿ بَلْ عَجِبُواْ أَن جَاءهُمْ مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب ، وهو أن ينذرهم أحد من جنسهم أو من أبناء جلدتهم . ﴿ فَقَالَ الكافرون هذا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ حكاية لتعجبهم ، وهذا إشارة إلى اختيار الله محمداً صلى الله عليه وسلم للرسالة ، وإضمار ذكرهم ثم إظهاره للاشعار بتعنتهم بهذا المقال ، ثم التسجيل على كفرهم بذلك أو عطف لتعجبهم من البعث على تعجبهم من البعثة ، والمبالغة فيه بوضع الظاهر موضع ضميرهم وحكاية تعجبهم مبهماً إن كانت الإِشارة إلى منهم يفسره ما بعده ، أو مجملاً إن أهون مما يشاهدون من صنعه .

﴿ أَءذَا مِتْنَا وكُنَّا تُرَاباً ﴾ أي أنرجع إذا متنا وصرنا تراباً ، ويدل على المحذوف قوله : ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ أي بعيد عن الوهم أو العادة أو الإِمكان . وقيل الرجع بمعنى المرجوع .

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرض مِنْهُمْ ﴾ ما تأكل من أجساد موتاهم ، وهو رد لاستبعادهم بإزاحة ما هو الأصل فيه ، وقيل إنه جواب القسم واللام محذوف لطول الكلام . ﴿ وَعِندَنَا كتاب حَفِيظٌ ﴾ حافظ لتفاصيل الأشياء كلها ، أو محفوظ عن التغيير ، والمراد

إما تمثيل علمه بتفاصيل الأشياء بعلم من عنده كتاب محفوظ يطالعه ، أو تأكيد لعلمه بها بثبوتها في اللوح المحفوظ عنده .

﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بالحق ﴾ يعني النبوة الثابتة بالمعجزات ، أو النبي صلى الله عليه وسلم ، أو القرآن . ﴿ لَمَّا جَاءهُمْ فَهُمْ ﴾ وقرىء "لَّمّاً" بالكسر . ﴿ فِى أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ مضطرب من مرج الخاتم في أصبعه إذا خرج ، وذلك قولهم تارة أنه ﴿ شَاعِرٌ ﴾ وتارة أنه ﴿ ساحر ﴾ وتارة أنه كاهن .

(183/723)

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُواْ ﴾ حين كفروا بالبعث . ﴿ إِلَى السماء فَوْقَهُمْ ﴾ إلى آثار قدرة الله تعالى في خلق العالم . ﴿ كَيْفَ بنيناها ﴾ رفعناها بلا عمد . ﴿ وزيناها ﴾ بالكواكب . ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ فتوق بأن خلقها ملساء متلاصقة الطباق .

﴿ والأرض مددناها ﴾ بسطناها . ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ ﴾ جبالاً ثوابت . ﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ ﴾ أي من كل صنف . ﴿ بَهِيجٍ ﴾ حسن .

﴿ تَبْصِرَةً وذكرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ راجع إلى ربه متفكر في بدائع صنعه ، وهما علتان للأفعال المذكورة معنى وإن انتصبنا عن الفعل الأخير .

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السماء مَاء مباركا ﴾ كثير المنافع ﴿ فَأَنبَتْنَا بِهِ جنات ﴾ أشجاراً وأثماراً . ﴿ وَحَبَّ الحصيد ﴾ وحب الزرع الذي من شأنه أن يحصد كالبر والشعير .

﴿ والنخل باسقات ﴾ طوالاً أو حوامل من أبسقت الشاة إذا حملت فيكون من أفعل فهو فاعل ، وإفرادها بالذكر لفرط ارتفاعها وكثرة منافعها .

وقرىء لأجل القاف . ﴿ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ منضود بعضه فوق بعض ، والمراد تراكم الطلع أو كثرة ما فيه من الثمر .

﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾ علة ل ﴿ أَنبَتْنَا ﴾ أو مصدر ، فإن الإنبات رزق . ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ ﴾ بذلك الماء . ﴿ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ أرضاً جدبة لا نماء فيها . ﴿ كذلك الخروج ﴾ كما حييت هذه البلدة يكون خروجكم أحياء بعد موتكم .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وأصحاب الرس وَثَمُودُ وَعَادٌ وفِرْعَوْنُ ﴾ أراد بفرعون إياه وقومه ليلائم ما قبله وما بعده . ﴿ وإخوان لُوطٍ ﴾ أخدانه لأنهم كانوا أصهاره .

﴿ وأصحاب الأيكة وَقَوْمُ تُّبَّعٍ ﴾ سبق في "الحجر" و"الدخان" ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ الرسل ﴾ أي كل واحد أو قوم منهم أو جميعهم ، وإفراد الضمير لإفراد لفظه . ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ فوجب وحل عليه وعيدي ، وفيه تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتهديد لهم .

﴿ أَفَعَيِينَا بالخلق الأول ﴾ أي أفعجزنا عن الإبداء حتى نعجز عن الإعادة ، من عيي بالأمر إذا لم يهتد لوجه عمله والهمزة فيه للإنكار . ﴿ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي هم لا ينكرون قدرتنا على الخلق الأول بل هم في خلط ، وشبهة في خلق مستأنف لما فيه من مخالفة العادة ، وتنكير الخلق الجديد لتعظيم شأنه والإشعار بأنه على وجه غير متعارف ولا معتاد .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ ما تحدثه به نفسه وهو ما يخطر بالبال ، والوسوسة الصوت الخفي ومنها وسواس الحلي ، والضمير لما إن جعلت موصولة والباء مثلها في صوت بكذا ، أول ﴿ الإنسان ﴾ إن جعلت مصدرية والباء للتعدية . ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريد ﴾ أي ونحن أعلم بحاله ممن كان أقرب إليه ﴿ مِنْ حَبْلِ الوريد ﴾ ، تجوز بقرب الذات لقرب العلم لأنه موجبة و ﴿ حَبْلِ الوريد ﴾ مثل في القرب قال :

والموت أدنى من الوريد . . . وال ﴿ حَبْلِ ﴾ العرق وإضافته للبيان ، والوريدان عرقان مكتنفان بصفحتي العنق في مقدمها بالوتين يردان من الرأس إليه ، وقيل سمي وريداً لأن الروح ترده .

﴿ إِذْ يَتَلَقَّى المتلقيان ﴾ مقدر باذكر أو متعلق ب ﴿ أَقْرَبُ ﴾ ، أي هو أعلم بحاله من كل

قريب حين يتلقى أي يتلقن الحفيظان ما يتلفظ به ، وفيه إيذان بأنه غني عن استحفاظ الملكين فإنه أعلم منهما ومطلع على ما يخفى عليهما ، لكنه لحكمة اقتضته وهي ما فيه من تشديد يثبط العبد عن المعصية ، وتأكيد في اعتبار الأعمال وضبطها للجزاء وإلزام للحجة يوم يقوم الاشهاد . ﴿ عَنِ اليمين وَعَنِ الشمال قَعِيدٌ ﴾ أي ﴿ عَنِ اليمين ﴾ قعيد ﴿ وَعَنِ الشمال قَعِيدٌ ﴾ ، أي مقاعد كالجليس فحذف الأول لدلالة الثاني عليه كقوله :

(185/723)

فإني وقيار بها لغريب . . . وقد يطلق الفعل للواحد والمتعدد كقوله تعالى ﴿ وَالْمَلَئِكَةُ بَعْدَ ذلك ظَهِيرٌ ﴾ ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ ﴾ ما يرمي به من فيه . ﴿ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ ﴾ ملك يرقب عمله . ﴿ عَتِيدٌ ﴾ معد حاضر ، ولعله يكتب عليه ما فيه ثواب أو عقاب وفي الحديث "كاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشراً ، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر" ﴿ وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقّ ﴾ لما ذكر استبعادهم البعث للجزاء وأزاح ذلك بتحقيق قدرته وعلمه أعلمهم بأنهم يلاقون ذلك عن قريب عند الموت وقيام

الساعة ، ونبه على اقترابه بأن عبر عنه بلفظ الماضي ، وسكرة الموت شدته الذاهبة بالعقل والباء للتعدية كما في قولك : جاء زيد بعمرو .

والمعنى وأحضرت سكرة الموت حقيقة الأمر أو الموعود الحق ، أو الحق الذي ينبغي أن يكون من الموت أو الجزاء ، فإن الإنسان خلق له أو مثل الباء في ﴿ تَنبُتُ بالدهن ﴾ وقرىء "سكرة الحق بالموت" على أنها لشدتها اقتضت الزهوق أو لاستعقابها له كأنها جاءت به ، أو على أن الباء بمعنى مع . وقيل ﴿ سَكْرَةُ الحق ﴾ سكرة الله وإضافتها إليه للتهويل . وقرىء "سكرات الموت" . ﴿ ذلك ﴾ أي الموت . ﴿ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ تميل وتنفر عنه والخطاب للإنسان .

﴿ وَنُفِخَ فِى الصور ﴾ يعني نفخة البعث . ﴿ ذَلِكَ يَوْمَ الوعيد ﴾ أي وقت ذلك يوم تحقق الوعيد وإنجازه والإشارة إلى مصدر ﴿ نُفِخَ ﴾ .

﴿ وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ ملكان أحدهما يسوقه والآخر يشهد بعمله ، أو ملك جامع للوصفين . وقيل السائق كاتب السيئات ، والشهيد كاتب الحسنات . وقيل السائق نفسه أو قرينه والشهيد جوارحه أو أعماله ، ومحل ﴿ مَّعَهَا ﴾ النصب على الحال من كل لإضافته إلى ما هو في حكم المعرفة .

﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هذا ﴾ على إضمار القول والخطاب ﴿ لِكُلِّ نَفْسٍ ﴾ إذ ما من أحد إلا وله اشتغال ما عن الآخرة أو للكافر . ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ ﴾ الغطاء الحاجب لأمور المعاد وهو الغفلة ، والانهماك في المحسوسات والإلف بها وقصور النظر عليها . ﴿ فَبَصَرُكَ اليوم حَدِيدٌ ﴾ نافذ لزوال المانع للأبصار . وقيل الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام والمعنى : كنت في غفلة من أمر الديانة فكشفنا عنك غطاء الغفلة بالوحي وتعليم القرآن ، ﴿ فَبَصَرُكَ اليوم حَدِيدٌ ﴾ ترى ما لا يرون وتعلم ما لا يعلمون . ويؤيد الأول قراءة من كسر التاء والكافات على خطاب النفس .

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ ﴾ قال الملك الموكل عليه . ﴿ هذا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴾ هذا ما هو مكتوب عندي حاضر لدي ، أو الشيطان الذي قيض له هذا ما عندي وفي ملكتي عتيد لجهنم هيأته لها باغوائي وإضلالي ، و﴿ مَا ﴾ إن جعلت موصوفة ف ﴿ عَتِيدٌ ﴾ صفتها وإن جعلت موصولة فبدلها أو خبر بعد خبر أو خبر محذوف .

﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ ﴾ خطاب من الله تعالى للسائق والشهيد ، أو الملكين من خزنة النار ، أو لواحد وتثنية الفاعل منزل منزلة تثنية الفعل وتكريره كقوله :

فَإِنْ تَزْجُرَانِي يَا ابْنَ عَفَّانَ أَنْزَجِر . . . وَإِنْ تَدَعَانِي أَحْمِ عِرْضاً مُمنعاً

أو الألف بدل من نون التأكيد على إجراء الوصل مجرى الوقف ، ويؤيده أنه قرىء "ألقين"

بالنون الخفيفة . ﴿ عَنِيدٍ ﴾ معاند للحق .

﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ كثير المنع للمال عن حقوقه المفروضة . وقيل المراد بالخير الإسلام فإن الآية نزلت في الوليد بن المغيرة لما منع بني أخيه عنه . ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ متعد . ﴿ مُرِيبٍ ﴾ شاك في الله وفي دينه .

(187/723)

﴿ الذى جَعَلَ مَعَ اللهِ إلها ءاخَرَ ﴾ مبتدأ متضمن معنى الشرط وخبره . ﴿ فألقياه فِى العذاب الشديد ﴾ أو بدل من ﴿ كُلَّ كَفَّارٍ ﴾ فيكون ﴿ فألقياه ﴾ تكريراً للتوكيد ، أو مفعول لمضمر يفسره ﴿ فألقياه ﴾ .

﴿ قَالَ قَرِينُهُ ﴾ أي الشيطان المقيض له ، وإنما استؤنفت كما تستأنف الجمل الواقعة في حكاية التقاول فإنه جواب لمحذوف دل عليه . ﴿ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ كأن الكافر قال هو أطغاني ف ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ بخلاف الأولى فإنها واجبة العطف على ما قبلها للدلالة على الجمع بين مفهوميهما في الحصول ، أعني مجيء كل نفس مع الملكين وقول قرينه : ﴿ ولكن كَانَ فِى ضلال بَعِيدٍ ﴾ فأعنته عليه فإن إغواء الشياطين إنما يؤثر فيمن كان مختل الرأي مائلاً إلى الفجور كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُمْ مِّن سلطان إِلاَّ أَن

دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِى ﴾ ﴿ قَالَ ﴾ أي الله تعالى . ﴿ لاَ تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ ﴾ أي في موقف الحساب فإنه لا فائدة فيه ، وهو استئناف مثل الأول .

﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بالوعيد ﴾ على الطغيان في كتبي وعلى ألسنة رسلي فلم يبق لكم حجة . وهو حال تعليل للنهي أي ﴿ لاَ تَخْتَصِمُواْ ﴾ عالمين بأني أوعدتكم ، والباء مزيدة أو معدية على أن قدم بمعنى تقدم ، ويجوز أن يكون ﴿ بالوعيد ﴾ حالاً والفعل واقعاً على قوله :

﴿ مَا يُبَدَّلُ القول لَدَىَّ ﴾ أي بوقوع الخلف فيه فلا تطمعوا أن أبدل وعيدي . وعفو بعض المذنبين لبعض الأسباب ليس من التبديل فإن دلائل العفو تدل على تخصيص الوعيد . ﴿ وَمَا أَنَاْ بظلام للّعَبِيدِ ﴾ فأعذب من ليس لي تعذيبه .

(188/723)

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امتلات وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ سؤال وجواب جيء بهما للتخييل والتصوير ، والمعنى أنها مع اتساعها تطرح فيها الجنة والناس فوجاً فوجاً حتى تمتلىء لقوله تعالى : ﴿ لاَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ ﴾ أو أنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها بعد فراغ ، أو أنها من شدة زفيرها وحدتها وتشبثها بالعصاة كالمستكثرة لهم والطالبة لزيادتهم . وقرأ

نافع وأبو بكر يقول بالباء وال ﴿ مَّزِيدٍ ﴾ إما مصدر كالمحيد أو مفعول كالمبيع ، و ﴿ يَوْمٍ ﴾ مقدر باذكر أو ظرف ل ﴿ نُفِخَ ﴾ فيكون ذلك إشارة إليه فلا يفتقر إلى تقدير مضاف .

﴿ وَأُزْلِفَتِ الجنةِ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ قربت لهم . ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ مكاناً غير بعيد ، ويجوز أن يكون حالاً وتذكيره لأنه صفة محذوف ، أو شيئاً غير بعيد أو على زنة المصدر أو لأن الجنة بمعنى البستان .

﴿ هذا مَا تُوعَدُونَ ﴾ على إضمار القول والإشارة إلى الثواب أو مصدر ﴿ أُزْلِفَتْ ﴾ . وقرأ ابن كثير بالياء . ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴾ رجاع إلى الله تعالى ، بدل من "المتقين" بإعادة الجار . ﴿ حَفِيظٌ ﴾ حافظ لحدوده .

﴿ مَّنْ خَشِيَ الرحمن بالغيب وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ بعد بدل أو بدل من موصوف ﴿ أَوَّابٌ ﴾ ، ولا يجوز أن يكون في حكمه لأن ﴿ مِنْ ﴾ لا يوصف به أو مبتدأ خبره .

(189/723)

﴿ ادخلوها ﴾ على تأويل يقال لهم ﴿ ادخلوها ﴾ ، فإن من بمعنى الجمع وبالغيب حال من الفاعل أو المفعول ، أو صفة لمصدر أي خشية ملتبسة بالغيب حيث خشي عقابه

وهو غائب ، أو العقاب بعد غيب أو هو غائب عن الأعين لا يراه أحد . وتخصيص ﴿ الرحمن ﴾ للإشعار بأنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه ، أو بأنهم يخشون مع علمهم بسعة رحمته ، ووصف القلب بالإنابة إذ الاعتبار برجوعه إلى الله . ﴿ بِسَلَامٍ ﴾ سالمين من العذاب وزوال النقم ، أو مسلماً عليكم من الله وملائكته . ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ الخلود ﴾ يوم تقدير الخلود كقوله تعالى : ﴿ فادخلوها خالدين ﴾ ﴿ لَهُمْ مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ وهو ما لا يخطر ببالهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ ﴾ قبل قومك . ﴿ مّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً ﴾ قوة كعاد وثمود وفرعون . ﴿ فَنَقَّبُواْ فِى البلاد ﴾ فخرقوا في البلاد وتصرفوا فيها ، أو جالوا في الأرض كل مجال حذر الموت ، فالفاء على الأول للتسبب وعلى الثاني لمجرد التعقيب ، وأصل التنقيب التنقير عن الشيء والبحث عنه . ﴿ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ أي لهم من الله أو من الموت . وقيل الضمير في ﴿ نَقَّبُوا ﴾ لأهل مكة أي ساروا في أسفارهم في بلاد القرون فهل رأوا لهم محيصاً حتى يتوقعوا مثله لأنفسهم ، ويؤيده أنه قرىء " فَنَقَّبُواْ " على الأمر ، وقرىء "فَنَقِّبُواْ " بالكسر من النقب وهو أن ينتقب خف البعير أي أكثروا السير حتى نقبت أقدامهم أو أخفاف مراكبهم .

﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ فيما ذكر في هذه السورة. ﴿ لِذِكْرِى ﴾ لتذكرة. ﴿ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ أي قلب واع يتفكر في حقائقه. ﴿ أَوْ أَلْقَى السمع ﴾ أي أصغى لاستماعه. ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ حاضر بذهنه ليفهم معانيه، أو شاهد بصدقه فيتعظ بظواهره وينزجر بزواجره، وفي تنكير ال ﴿ قَلْبٌ ﴾ وإبهامه تفخيم وإشعار بأن كل قلب لا يتفكر ولا يتدبر كلا قلب.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا * السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ مر تفسيره مراراً.

﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ من تعب وإعياء، وهو رد لما زعمت اليهود من أنه تعالى بدأ خلق العالم يوم الأحد وفرغ منه يوم الجمعة واستراح يوم السبت واستلقى على العرش.

﴿ فاصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾ ما يقول المشركون من إنكارهم البعث، فإن من قدر على خلق العالم بلا عياء قدر على بعثهم والانتقام منهم، أو ما يقول اليهود من الكفر والتشبيه.

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ ونزهه عن العجز عما يمكن والوصف بما يوجب التشبيه حامداً له على ما أنعم عليك من إصابة الحق وغيرها. ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ الغروب ﴾ يعني الفجر والعصر وقد عرفت فضيلة الوقتين.

﴿ وَمِنَ الليل فَسَبِّحْهُ ﴾ أي وسبحه بعض الليل. ﴿ وأدبار السجود ﴾ وأعقاب الصلوات جمع دبر من أدبر، وقرأ الحجازيان وحمزة وخلف بالكسر من أدبرت الصلاة إذا

انقضت . وقيل المراد بالتسبيح الصلاة ، فالصلاة قبل طلوع الصبح وقبل الغروب : الظهر ، والعصر . ومن الليل : العشاءان ، والتهجد وأدبار السجود النوافل بعد المكتوبات . وقيل الوتر بعد العشاء .

(191/723)

﴿ واستمع ﴾ لما أخبرك به من أحوال القيامة ، وفيه تهويل وتعظيم للمخبر به . ﴿ يَوْمَ يُنَادِ المناد ﴾ إسرافيل أو جبريل عليهما الصلاة والسلام فيقول : أيتها العظام البالية واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء . ﴿ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ بحيث يصل نداؤه إلى الكل على سواء ، ولعله في الإعادة نظيركن في الإبداء ، ويوم نصب بما دل عليه يوم الخروج .

﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصيحة ﴾ بدل منه و ﴿ الصيحة ﴾ النفخة الثانية . ﴿ بالحق ﴾ متعلق ب ﴿ الصيحة ﴾ والمراد به البعث للجزاء . ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الخروج ﴾ من القبور ، وهو من أسماء يوم القيامة وقد يقال للعيد .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ وَنُمِيتُ ﴾ في الدنيا . ﴿ وَإِلَيْنَا المصير ﴾ للجزاء في الآخرة .

﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ﴾ تتشقق ، وقرى "تنشق" . وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف وأبو

عمرو بتخفيف الشين. ﴿ الأرض عَنْهُمْ سِرَاعاً ﴾ مسرعين. ﴿ ذَلِكَ حَشْرٌ ﴾ بعث وجمع. ﴿ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ هين، وتقديم الظرف للاختصاص فإن ذلك لا يتيسر إلا على العالم القادر لذاته الذي لا يشغله شأن عن شأن، كما قال الله تعالى: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ واحدة ﴾ ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهديد لهم. ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ بمسلط تقسرهم على الإيمان، أو تفعل بهم ما تريد وإنما أنت داع. ﴿ فَذَكِّرْ بالقرءان مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ فإنه لا ينتفع به غيره. عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة "ق" هون الله عليه تارات الموت وسكراته " والله أعلم. (1) انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 223. 233 ﴾

---

(1) حديث موضوع.

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى:

﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) ﴾

التفسير: قيل: إن قاف اسم جبل من زبرجد أخضر محيط بالأرض وخضرة السماء منه. وقيل: قادر أو قاهر ونحو ذلك من أسماء الله مما أوله قاف. وقيل: قضي الأمر.

وقيل : قف يا محمد على أداء الرسالة . والأقوال المشتركة بين الفواتح مذكورة ، وإعراب فاتحة هذه السورة كإعراب أول " ص " ، وبينهما مناسبة أخرى من قبل وقوع الإضراب بعد القسم ووجهه ما مر .

(193/723)

ومن قبل أن أكثر مباحث تلك السورة في المبدأ والتوحيد . وفي أوّل خلق البشر ، وأكثر أبحاث هذه السورة في الحشر والخروج ولهذا سنت قراءتها في صلاة العيد لأنه يوم الاجتماع وخروج الناس إلى الفضاء . والمجيد ذو المجد حقيقة في القرآن لأنه أشرف من سائر الكتب أو مجاز باعتبار قارئه وعالمه والعامل به . ومعنى ﴿ منذر منهم ﴾ أي من جنسهم أو من بينهم فتوجه العجب إلى الإنذار بالبعث أوّلاً ثم إلى كون المنذر منهم ، ولعل الأول أدخل عندهم في استحقاق التعجب منه فلهذا أشاروا إليه بقولهم ﴿ هذا ﴾ الرجع أو البعث ﴿ شيء عجيب ﴾ أبهم الضمير أوّلاً في ﴿ عجبوا ﴾ ثم فسره ثانياً في قوله ﴿ فقال الكافرون ﴾ أو اقتصر على الضمير أوّلاً للتعليم بهم ثم وضع الظاهر موضع المضمر تسجيلاً عليهم بالكفر . ثم زادوا في التعجب والتعجيب بقولهم ﴿ أئذا متنا ﴾ والتقدير انبعث وقت الموت والصيرورة تراباً ﴿ ذلك ﴾ الرجع أي البعث ﴿ رجع بعيد ﴾ أي

يستبعد في العقول . وقيل : إنه من كلام الله عز وجل . والرجع بمعنى الجواب أي جواب هؤلاء الكفار في دعوى المنذر جواب بعيد عن حيز العقل لدلالة البراهين الساطعة على وجود الحشر والنشر منها شمول علم الله تعالى بأجزاء الميت على التفصيل ، وإلى هذا أشير بقوله ﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض ﴾ من أجساد الموتى وتأكل من لحومهم وعظامهم . عن النبي صلى الله عليه وسلم "كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب " وعن السدي : ما تنقص الأرض منهم بالموت ويدفن في الأرض منهم ﴿ وعندنا كتاب ﴾ هو اللوح المحفوظ من التغيير ومن الشياطين . ثم أتبع الإضراب الأول إضراباً آخر فقال ﴿ بل كذبوا ﴾ والمقصود أن تكذيبهم ﴿ بالحق ﴾ الذي هو محمد أو القرآن أو الأخبار بالبعث في أوّل وهلة من غير تدبر أفظع من تعجبهم . والمريج أمر دينهم المضطرب المخلوط بالشبهات والشكوك ولهذا نسبوا القرآن تارة إلى السحر وأخرى إلى الشعر أو الكهانة وقالوا في حق محمد صلى الله عليه وسلم مثل

(194/723)

ذلك . ثم استدل على حقية المبدأ والمعاد بوجوه أخر : منها بناء السماء ورفعها بلا عمد ولا فروج أي شقوق وفتوق ولكنها صحيحة الاستدارة من جميع الجوانب . وليس في الآية

دلالة على امتناع الخرق على السماء لأن الإخبار عن عدم الوقوع لا ينافي إمكانه . نعم إنه مناف لوجود نحو الأبواب فيها ظاهراً اللهم إلا أن تدعي المغايرة بين الفروج والأبواب . وفي قوله ﴿ فوقهم ﴾ مزيد توبيخ لهم ونداء عليهم بغاية الغباوة . ومنه مدّ الأرض أي دحوها . ومنها خلق الجبال الرواسخ . ومنها خلق أصناف النبات مما يبتهج به ويروق الناظر لخضرته ونضرته كل ذلك ليتبصر به ويتذكر من يرجع إلى ربه ويفكر في بدائع المخلوقات ويرتقي إلى الصانع من المصنوعات .

ومنها إنزال ماء المطر الكثير المنافع المنبت للجنات والحبات . والحصيد صفة موصوفة محذوفة أي وحب الزرع الذي من شأنه أن يحصد كالحنطة وغيرها من الأقوات ونحوها . والباسقات التي طالت في السماء ، والطلع أوّل ما يبدو من من ثمر النخيل ، والنضيد الذي نضد بعضه فوق بعض ، والمراد كثرة الطلع وتراكمه المستتبع لكثرة الثمر . ثم شبه بإحياء الأرض خروج الموتى كما قال في الروم ﴿ وكذلك تخرجون ﴾ [الآية : 19] ثم هدّدهم بأحوال الأمم السالفة وقد مر قصصهم مراراً . وأما حديث أصحاب الرس فلم يذكر إلا في " الفرقان " وحديث تبع في " الدخان " . وأراد بفرعون قومه لأن المعطوف عليه أقوام ﴿ فحق وعيد ﴾ مثل ﴿ فحق عقاب ﴾ [ص : 14] وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم . ثم دل على الحشر بضرب آخر من البيان وهو أن الذي لم يعي أي لم يعجز عن الخلق الأول بالنسبة إلى أيّ مخلوق فرض كيف يعجز عن الإعادة ؟ واللبس الخلط والشبهة ،

وتنكير اللبس والخلق الجديد للتعظيم أي لبس عظيم ، وخلق له شأن وحق عليه أن يهتم به ولا يغفل عنه .

(195/723)

ثم شرع في تقرير خلق الإنسان الدال على شمول علم الله سبحانه وعظيم قدرته على بدئه وإعادته . والوسوسة الصوت الخفي . والباء في ﴿ به ﴾ للتعدية و " ما " مصدرية أي نعلم جعل نفسه إياه موسوساً . والقرب مجاز عن العلم التام كقولهم " هو منى مقعد القابلة ومعقد الإزار " وما في الآية دل على الإفراط في القرب لأن الوريد جزء من بدن الإنسان يريد أن علمه ينفذ في بواطن الأشياء نفوذ الدم في العروق . والوريد العرق الحامل للدم سوى الشرايين ، سمي وريداً لأن الروح أو الدم يرده . والوريدان عرقان يكتنفان لصفحتي العنق في مقدمها يتشعبان من الرأس يتصلان بالوتين . والحبل العرق أيضاً شبه بواحد الحبال والإضافة للبيان كإضافة العام إلى الخاص . قال جار الله : " إذ " منصوب ب ﴿ أقرب ﴾ والمراد أنه أقرب نم الإنسان من كل قريب حين يتلقى الحفيظان ما يتلفظ به . وفيه أن كتابة الملكين لا حاجة إليها لعلام الغيوب وإنما هي لأغراض أخر كإلزام العبد واستحيائه منهما . عن النبي صلى الله عليه وسلم " إن مقعد ملكيك على – ثنييك أي عطفيك – ولسانك

قلهما وريقك مدادهما وأنت تجري فيما لا يعنيك لا تستحي من الله ولا منهما " ويجوز أن يكون تلقى الملكين بياناً للقرب فكأنه قيل : لا يخفى عليه شيء لأنه حفظته موكلون به . والتلقي التلقن بالحفظ والكتبة ، والقعيد المقاعد كالجليس بمعنى المجالس ، والتقدير عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد فاختصر المفاعلة . وإما بالنسبة إلى الملك الآخر وإما بالإضافة إلى الإنسان ، والعتيد الحاضر .

(196/723)

قال أكثر المفسيرين : إنهما يكتبان كل شيء حتى أنينه في مرضه . وقيل : لا يكتبان إلا الحسنات والسيئات . وقيل : إن الملائكة يجتنبون الإنسان عند غائطه وعند جماعه . وحين حكى إنكارهم البعث واحتج عليهم بالدلائل الباهرة أخبر عن قرب القيامتين الصغرة والكبرى بأن عبر عنهما بلفظ الماضي وهو قوله ﴿ وجاءت سكرة الموت ﴾ ونفخ في الصور وسكرات الموت حالاته الذاهبه بالعقل . والباء في ﴿ بالحق ﴾ للتعدية أي أحضرت السكرة حقيقة الأمر وجلبة الحال من تحقق وقوع الموت أو من سعادة الميت أو ضدّها كما نطق بها الكتاب والسنة ، أو المراد وجاءت ملتبسة بالغرض الصحيح الذي هو ترتب الجزاء على الأعمال ﴿ ذلك ﴾ المجيء ﴿ ما كنت منه تحيد ﴾ أي تميل

وتهرب أيها الإنسان . ولا ريب أن هذا الهرب للفاجر يكون بالحقيقة وللبر يكون بسبب نفرة الطبع إلا أنه إذا فكر في أمر نفسه وما خلق هو لأجله علم أن الموت راحة وخلاص عن عالم الآفات والبليات . قوله ﴿ ذلك يوم الوعيد ﴾ إشارة إلى النفخ والمضاف محذوف أي وقت النفخ الثاني آن زمان الوعيد . والسائق والشاهد ملكان ، أحدهما يسوقه إلى المحشر أو إلى الجنة أو النار كما قال ﴿ وسيق ﴾ والآخر يشهد عله بأعماله ويجوز أن يكون ملكاً واحداً جامعاً بين الأمرين . ويجوز أن يكون الرقيب المذكور والجملة حال من كل لأنه لعمومه كالمعرفة . ثم يقال للإنسان . ﴿ لقد كنت ﴾ في الدنيا ﴿ في غفلة من هذا ﴾ الأمر ﴿ فكشفنا عنك ﴾ بقطع العلائق الحسية ومفارقة النفس الناطقة ﴿ غطاءك ﴾ وهو الاشتغال بعالم المحسوسات ﴿ فبصرك اليوم حديد ﴾ غير كليل متيقظ غير نائم . وقال ابن زيد : الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم كقوله ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ [الشورى : 52] أي كنت قبل الوحي في غفلة من هذا العلم . ثم بين أن الشيطان الذي هو قرين كل فاجر لقوله ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطان ﴾ [الزخرف : 36] يقول لأهل المحشر أو لسائر القرناء قد

أعتدت قريني لجهنم وهيأته لها . إن جعلت " ما " موصوفة ف ﴿ عتيد ﴾ صفة لها وإن جعلتها موصولة ف ﴿ عتيد ﴾ بدل أو خبر ثان أو خبر مبتدأ محذوف . ويحتمل أن يقول الشيطان لقرينه هذا البلاء النازل بك مما أعددته لك ﴿ ألقيا ﴾ خطاب من الله للملكين السائق والشهيد أو للواحد على عادة قول العرب " خليلي " و " قفا " . وذلك أن أكثر الرفقاء يكون ثلاثة . وقال المبرد : التثنية للتأكيد كأنه قيل : ألق ألق . نزلت تثنية الفاعل منزلة تثنية الفعل لاتحادهما . وجوز أن يكون الألف بدلاً من نون التأكيد الخفيفة إجراء للوصل مجرى الوقف يؤيده قراءة الحسن ﴿ ألقين ﴾ . ﴿ عنيد ﴾ ذي عناد أو معاند ﴿ مناع للخير ﴾ كثير المنع للمال عن حقوقه أو مناع لجنس الخير أن يصل إلى أهله . وقيل : نزلت في الوليد بن المغيرة كان يمنع بني أخيه من الإسلام وكان يقول : من دخل منكم في الإسلام لم أنفعه بخير ما عشت . ﴿ معتد ﴾ ظالم ﴿ مريب ﴾ مشكك أو شاك في دين الله . قوله ﴿ قال قرينه ﴾ جاء على طريقة الاستئناف بخلاف ما تقدّم فإنه جاء على طريق العطف كأن قرينه – وهو الفاجر – قال : يا رب إنه أطغاني فأجاب القرين وهو الشيطان ﴿ ربنا ما أطغيته ﴾ ما أوقعته في الطغيان ﴿ ولكن كان ﴾ في الأزل ﴿ في ضلال بعيد ﴾ وقالت المعتزلة : ولكنه اختار الضلالة على الهدى .

ثم ذكر كلاماً آخر مستأنفاً كأن سائلاً سأل فماذا قال الله ؟ فقيل : ﴿ قال لا تختصموا ﴾ وهذا هو الذي دل على أن ثمة مقاولة من الكافر لكنها طويت لدلالة الاختصام عليها والمعنى لا تختصموا في موقف الحساب ﴿ و ﴾ الحال أني ﴿ قد قدمت إليكم ﴾ وفيه أن اختصامهم كان يجب أن يكون قبل ذلك في الدنيا كما قال ﴿ إن الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدوّاً ﴾ [فاطر : 6] والباء في ﴿ بالوعيد ﴾ إما مزيدة أو للعدية على أن قدّم بمعنى تقدّم أو هو حال والمفعول جملة . قوله ﴿ ما يبدّل ﴾ إلى آخره . أي قدّمت إليكم هذا الكلام مقروناً بالوعيد . قال في الكشاف : فإن قلت : إن قوله ﴿ وقد قدّمت ﴾ حال من ضمير ﴿ لا تختصموا ﴾ فاجتماعهما في زمان واحد واجب وليس كذلك لأن التقديم في الدنيا والاختصام في الآخرة . قلت : معناه لا تختصموا وقد صح عندكم أني قدّمت إليكم بالوعيد وصحة ذلك عندهم في الآخرة . وأقول : لا حاجة إلى هذا التكلف والسؤال ساقط بدونه لأن مضيّ الماضي ثابت في أيّ حال فرض بعده . وقوله ﴿ لدي ﴾ إما أن يتعلق بالقول أي ما يبدّل القول الذي هو لديّ يعني ألقيا في جهنم ، أو لأملأن جهنم ، أو الحكم الأزلي بالسعادة والشقاوة . وإما أن يتعلق بقوله ﴿ ما يبدّل ﴾ أي لا يقع التبديل عندي . والمعاني كما مرت . ويجوز أن يراد لا يكذب لديّ ولا يفتري بين يديّ فإني عالم بمن طغى وبمن أطغى . ويحتمل أن يراد لا تبديل للكفر بالإيمان فإن إيمان اليأس غير مقبول .

فقولكم " ربنا وإلهنا " لا يفيدكم ﴿ يوم نقول ﴾ منصوب ب ﴿ ظلام ﴾ أو ب " أذكر "

قال أهل المعاني : سؤال جهنم وجوابها من باب التخييل الذي يقصد به تقرير المعنى في النفس . وقوله ﴿ هل من مزيد ﴾ أي من زيادة ، أو هو اسم مفعول كالمبيع ليبان استكثار الداخلين كما أن من يضرب غيره ضرباً مبرحاً أو شتمه شتماً فاحشاً يقول له المضروب : هل بقي شيء آخر يدل عليه قوله سبحانه ﴿ لأملأن جهنم ﴾ فلا بدّ أن يحصل الامتلاء فكيف يبقى في

(199/723)

جهنم موضع خال حتى تطلب المزيد ؟ ويحتمل أنها تطلب الزيادة بعد امتلائها غيظاً على العصاة وتضيقاً للمكان عليهم ، أو لعل هذا الكلام يقع قبل إدخال الكل .

(200/723)

وفيه لطيفة وهي أن جهنم تغيظ على الكفار فتطلبهم ، ثم يبقى فيها موضع لعصاة المسلمين فتطلب الامتلاء من الكفار كيلا ينقص إيمان العاصي حرها ، فإذا أدخل العصاة النار

سكن غيظها وسكن غضبها وعند هذا يصح ما ورد في الأخبار ، وإن جهنم تطلب الزيادة حتى يضع الجبار فيها قدمه والمؤمن جبار يتكبر على ما سوى الله تعالى ذليل متواضع لله . وروي أنه لا يلقى فيها فوج إلا ذهب ولا يملؤها شيء فتقول : قد أقسمت لتملأني فيضع تعالى فيها قدمه أي ما قدّمه في قوله " سبقت رحمتي غضبي " أي يضع رحمته فتقول : قط قط ويزوي بعضها إلى بعض ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشىء الله خلقاً فيسكنون فضول الجنة . قلت : لا ريب أن جهنم الحرص والشهوة والغضب لا تقر ولا تسكن ولا تنتهي إلى حدّ معلوم ، بل تقول دائماً بلسان الحال هل من مزيد إلا أن يفيض الله سبحانه عليها من سجال هدايته ورحمته فيتنبه صاحبها وينتهي عن طلب الفضول ويقف في حدّ معين ويقنع بما تيسر ، وكذا الترقي في مدارج الكمالات ليس ينتهي إلى حدّ معلوم إلا إذا استغرق في بحر العرفان وكان هنالك ما كان كما قال ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين ﴾ أي قربت للمتقين يحتمل أن تكون الواو للاستئناف وأن تكون للعطف على ﴿ نقول ﴾ والمضي لتحقيق الوقوع المستدعي لمزيد البشارة ولم يكن المنذرون مذكورين في الآية المتقدّمة فلم يحتج إلى تحقيق الإنذار . وقوله ﴿ غير بعيد ﴾ نصب على الظرف أي مكاناً غير بعيد عنهم ، أو على الحال . ووجه تذكيره مع تأنيث ذي الحال كما تقرر في قوله ﴿ إن رحمة الله قريب ﴾ [الأعراف : 56] أنه على زنة المصدر كالزفير والصهيل ، أو هو على حذف الموصوف أي شيئاً غير بعيد . قال جار الله : معناه التوكيد كما تقول هو

قريب غير بعيد وعزيز غير ذليل ، وذلك أنه يجوز أن يتناول العزيز ذلّ ما من بعض الوجوه إلا أن الغالب عليه العز فإذا قيل عزيز غير ذليل أزيل ذلك الوهم ، وهكذا في كل تأكيد .

فمعنى الآية أن الجنة

(201/723)

قريب منهم بكل الوجوه وجميع المقايسات . وقال آخرون : إنه صفة مصدر محذوف أي إزلافاً غير بعيد عن قدرتنا ، وذلك إن المكان لا يقرب وإنما يقرب منه فذكر الله سبحانه إن إزلاف المكان ليس ببعيد عن قدرتنا بطيّ المسافة وغير ذلك . ويحتمل أن يقال : الإزلاف بمعنى قرب الحصول كمن يطلب من الملك أمراً خطيراً فيقول الملك بعيد عن ذلك أو قريب منه ، ولا ريب أن الجنة بعيدة الحصول للمكلف لولا فضل الله ورحمته ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : " ما من عبد يدخل الجنة إلا بفضل الله . فقيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته "

وقوله ﴿ غير بعيد ﴾ يراد به القرب المكاني كأنه تعالى ينقل الجنة من السماء إلى الأرض فيحصل فيها المؤمن . ومما سنح لهذا الضعيف وقت كتبه تفسير هذه الآية أن الشيء ربما يقرب من شخص ولكن لا يوهب منه ، وقد يملكه ولكن لا يكون قريباً منه فذكر الله

سبحانه في الآية إن الجنة تقرب لأجل المتقين غير بعيد الحصول لهم بل كما قربت دخلوها وحصلوا فيها لا كما قيل :

على أن قرب الدار ليس بنافع . . . إذا كان من تهواه ليس بذي ود

(202/723)

وفي المثل البعيد القريب خير من القريب البعيد وذلك لأنهم حصلوا استعداد دخول الجنة وهو التقوى بخلاف الفاجر فإنه لا ينفعه القرب من الجنة لأن ملكاته الذميمة تحول بينه وبينها . ولك أن تشبه حالهما بحال الكبريت الجيد والحطب الرطب إذا قربا من الجمر ، وذلك أن تعتبر هذه الحالة في الدنيا فإن أهل الصلاح وأرباب النفوس المطمئنة يقبلون بل يستقبلون كل خير يعرض عليهم ، وأهل الشقاوة وأصحاب النفوس الأمارة يكون حالهم بالعكس يفرون من الخيرات والكمالات ويألفون الشرور واللذات الزائلات . ووجه آخر وهو أن الجنة قربت لهم حال كون كل واحد منهم غير بعيد عن لقاء الله ورضاه ، وفيه أن المتقين هم أهل الله وخاصته ليسوا بمن شغلوا بالجنة عن الاستغراق في لجة العرفان بل لهم مع النعيم المقيم لقاء الرب الكريم . قوله عز من قائل ﴿ هذا ما توعدون ﴾ قال جار الله : إنه جملة معترضة . وقوله ﴿ لكل أوّاب حفيظ ﴾ بدل من قوله ﴿ للمتقين ﴾ قلت : ولو

جعل خبراً ثانياً لهذا لم يبعد . والمشار إليه الثواب أو الإزلاف . والأوّاب الرجاع إلى الله بالإعراض عما سواه ، والحفيظ الحافظ لحدود اللهأو لأوقات عمره أو لما يجده من المقامات والأحوال فلا ينكص على عقبيه فيصير حينئذ مريداً لطريقه . قوله ﴿ من خشي ﴾ قد مر وجوه إعرابه في الوقوف . وجوز أن يكون منادي كقولهم " من لا يزال محسناً أحسن إليّ " وحذف حرف النداء للتقريب والترحيب ، وقرن بالخشية اسمه الدال على وفور الرحمة للثناء على الخاشي من جهة الخشية أوّلاً ومن جهة خشيته مع علمه بسعة جوده ورحمته ومن جهة الخشية مع الغيب وقد مر مراراً ، وقد يقال : إنها الخشية في الخلوة حيث لا يراه أحد . قال أهل الاشتقاق : إن تركيب خ ش ى يلزمها الهيبة ومنه للسيد ولكبير السن وتركيب الخوف يدل على الضعف ومنه الخفاء ، وكل موضع ذكر فيه الخشية أريد بها معنى عظمة المخشي عنه ، وكل موضع ذكر فيه الخوف فإنه أريد ضعف الخائف كقوله ﴿

(203/723)

يخافون ربهم من فوقهم ﴾ [النحل : 50] أو ضعف المخوف منه كقوله ﴿ لا تخف ولا تحزن ﴾ [العنكبوت : 33] يريد أنه لا عظمة لهم وقال ﴿ إنا نخاف من ربنا يوماً ﴾

[الإنسان : 10] لأن عظمة اليوم بالنسبة إلى عظمة الله هينة . ووصف القلب بالمنيب باعتبار صاحبه أو لأن الإنابة المعتبرة هي الرجوع إلى الله بالقلب لا اللسان والجوارح ﴿ ادخلوها بسلام ﴾ أي سالمين من الآفات أو مع سلام من الله وملائكته ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى قوله ﴿ يوم نقول ﴾ أي ذلك اليوم ﴿ يوم ﴾ تقدير ﴿ الخلود ﴾ في النار أو في الجنة ويجوز أن يكون إشارة إلى وقت القول أي حين يقال لهم ادخلوها هو وقت تقدير الخلود في الجنة يؤيده قوله بعده ﴿ لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد ﴾ مما لم يخطر بالقلوب . ويجوز أن يراد به الذي ذكر في قوله ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ [يونس : 26] ويروى أن السحاب تمر بأهل الجنة فتمطر عليهم الحور فتقول الحور : نحن المزيد الذي قال الله تعالى ﴿ ولدينا مزيد ﴾ .

(204/723)

ثم عاد إلى التهديد بوجه أجمل وأشمل قائلاً ﴿ وكم أهلكنا ﴾ الآية . ومعنى الفاء في قوله ﴿ فنقبوا ﴾ للتسبيب عما قبله من الموت كقوله " هو أقوى من زيد فغلبه " أي شدّة بطشم أقدرتهم على التنقيب وأورثتهم ذلك وساروا في أقطار الأرض وسألوا ﴿ هل من محيص ﴾ أي مهرب من عذاب الله فعلموا أن لا مفر ﴿ إن في ذلك ﴾ الذي ذكر من أوّل

السورة إلى ههنا أو من حديث النار والجنة أو من إهلاك الأمم الخالية ﴿ لذكرى لمن كان له قلب ﴾ واع فإن الغافل في حكم عديم القلب وإلقاء السمع الإصغاء إلى الكلام وفي قوله ﴿ وهو شهيد ﴾ إشارة إلى أن مجرد الإصغاء لا يفيد ما لم يكن المصغي حاضراً بفطنته وذهنه . وفي الآية ترتيب حسن لأنه إن كان ذا قلب ذكيّ يستخرج المعاني بتدبره وفكره فذاك وإلا فلا بد أن يكون مستمعاً مصغياً إلى كلام المنذر ليحصل له التذكير . قال المفسرون : زعمت اليهود إن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام ، أوّلها الأحد وآخرها الجمعة واستراح يوم السبت واستلقى على العرش فردّ الله عليهم بقوله ﴿ ولقد خلقنا ﴾ إلى قوله ﴿ وما مسنا من لغوب ﴾ أي إعياء . ثم سلى رسوله فأمره بالصبر على أذى الكفار . وفيه لطيفة وهي أن الله تعالى مع كمال قدرته واستغنائه صبر على أذى الجهلة الذين نسبوه إلى اللغوب والاحتياج إلى الاستراحة ، فكيف لا يصبر رسوله على إيذاء أمته ؟ بل كيف لا يصبر أحدنا على أذى أمثالنا وخاصة إن كانوا مسلطين علينا ؟ اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا ولا تسلط علينا من لا يرحمنا وادفع عنا بقدرتك شر كل ذي شر واغوثاه واغوثاه واغوثاه . وقد سبق نظير الآية في آخر " طه " ودلالتها على الصلوات الخمس ظاهرة ﴿ وأدبار السجود ﴾ أعقاب الصلوات فإن السجود والركوع يعبر بهما عن الصلاة ، والأظهر أنه الأدعية والأذكار المشتملة على تنزيه الله تعالى وتقديسه . قيل : النوافل بعد المكتوبات .

وعن ابن عباس : هو الوتر بعد العشاء . ومن قرأ بكسر الهمزة أراد انقضاء الصلاة وإتمامها وهو مصدر وقع موقع الظرف أي وقت انقضاء السجود كقولك " آتيك خفوق النجم " . قال أهل النظم : إن النبي صلى الله عليه وسلم له شغلان : أحدهما عبادة الله ، والثاني هداية الخلق . فإذا هداهم ولم يهتدوا قيل له : اصبر واقبل على شغلك الآخر وهو العبادة . ثم بين غاية التسبيح بقوله ﴿ واستمع ﴾ يعني اشتغل بتنزيه الله وانتظر المنادي كقوله ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ [الحجر : 99] ومفعول ﴿ استمع ﴾ متروك أي كن مستمعاً لما أخبرك به من أهوال القيامة ولا تكن مثل هؤلاء المعرضين . قال جار الله : وفي ترك المفعول وتقديم الأمر بالاستماع تعظيم لشأن المخبر به والمحدّث عنه كما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال سبعة أيام لمعاذ بن جبل : يا معاذ اسمع ما أقول لك ثم حدثه بعد ذلك . وانتصب ﴿ يوم ينادي ﴾ بما دل عليه ذلك يوم الخروج أي يوم ينادي المنادي يخرجون من القبور . والمنادي قيل الله كقوله ﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائي ﴾ [القصص : 32] ﴿ أحشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ [الصافات : 22] والأظهر أنه إسرافيل صاحب الصيحة ينفخ في الصور فينادي أيتها العظام البالية والأوصال

المتقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء . وقيل : إسرافيل ينفخ وجبرائيل ينادي بالحشر . والمكان القريب صخرة بيت المقدس . يقال إنها أقرب إلى السماء باثني عشر ميلاً . وقيل : من تحت أقدامهم . وقيل : من منابت شعورهم يسمع من كل شعرة أيتها العظام البالية وهذا يؤيد القول بأن المنادي هو الله لقوله ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ والصيحة النفخة الثانية كما قال ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع ﴾ [يس : 53] وقوله ﴿ بالحق ﴾ متعلق بالصيحة والمراد به البعث للجزاء أي بسبب الحق الذي هو البعث . ويجوز أن يتعلق بالسماع أي أي يسمعونها باليقين .

(206/723)

وقيل : الباء للقسم أي بالله الحق . قوله ﴿ سراعاً ﴾ حال من المجرور أي ينكشف عنهم مسرعين ﴿ ذلك ﴾ الشق أو الحشر ﴿ حشر علينا يسير ﴾ لا على غيرنا وهو ردّ على قولهم ﴿ ذلك رجع بعيد ﴾ . ﴿ نحن أعلم بما يقولون ﴾ أي من المطاعن والإنكار وفيه تهديد لهم وتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وما أنت عليهم بجبار ﴾ أي بمسلط حتى تقسرهم على الإيمان وإنما أنت داع . ولعل في تقديم الظرف إشارة إلى أنه

كالمسلط على المؤمنين ولهذا وقع إيمانهم وهذا مما يقوّي طرف المجبرة . وقيل : أراد إنك رؤوف رحيم بهم لست فظاً غليظاً . والأول أولى بدليل قوله ﴿ فذكر ﴾ إلى آخر أي اترك هؤلاء وأقبل على دعوة من ينتفع بتذكيرك والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 173 . 181 ﴾

(207/723)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة ق

مكية إلا قوله تعالى ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض ﴾ الآية مدنية ، وهي خمس وأربعون آية وثلاثمائة وسبع وخمسون كلمة وألف وأربعمائة وأربعة وتسعون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ أي : الذي أحاط علمه بجميع خلقه العاكف منهم والبادي ﴿ الرحمن ﴾ أي الذي عمّ خلقه برحمته حين أرسل إليهم بشرائعه أصدق العباد ﴿ الرحيم ﴾ أي : الذي خص بالفوز في دار القرار أهل الرشاد واختلف في تفسير قوله عز من قائل :

﴿ ق ﴾ فقال ابن عباس : هو قسم . وقيل : هو اسم للسورة . وقيل : اسم من أسماء القرآن . وقال القرطبي : هو مفتاح اسمه قدير وقادر وقاهر وقريب وقابض . وقال عكرمة

والضحاك : هو جبل محيط بالأرض من زمردة خضراء ومنه خضرة السماء والسماء مغيبة عليه وعليه كنفاها ويقال هو وراء الحجاب الذي تغيب الشمس من ورائه بمسيرة سنة قيل : متصلة عروقه بالصخرة التي عليها الأرض والسماء كهيئة القبة وعليه كنفاها .

قال الرازي : وهذا القول ضعيف لوجوه : أحدها : أنّ أكثر القرّاء يقف عليها ولو كان اسم جبل لما جاز الوقف في الإدراج لأنّ من قال ذلك قال : إنّ الله تعالى أقسم به . ثانيها : أنه لو كان كما ذكر لكان يكتب قاف مع الألف والفاء كما يكتب عين جارية ويكتب ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ (الزمر :)

وفي جميع المصاحف تكتب حرف ق . ثالثها : أنّ الظاهر كون الأمر فيه كالأمر في ص ون وحم وهي حروف لا كلمات فكذلك في ق فإن قيل : هو منقول عن ابن عباس نقول : المنقول عنه أنّ القاف اسم جبل ، وأمّا أنّ المراد ههنا ذلك فلا ا . ه .

(208/723)

وقيل : معناه قضى الأمر وقضى ما هو كائن كما قالوا في ﴿ حم ﴾ وفي ﴿ ص ﴾ صدق الله . قال الرازي : وقد ذكرنا أنّ الحروف تنبيهات قدّمت على القرآن ليكون السامع بسببها يقبل على استماع ما يرد على الإسماع فلا يفوته شيء من الكلام الرائق والمعنى

الفائق وذكرنا أيضاً أنّ العبادة منها قلبية ومنها لسانية ومنها جارحية ظاهرة ووجد في الجارحية ما عقل معناه ووجد فيها ما لم يعقل معناه كأعمال الحج من الرمي والسعي وغيرهما ووجد في القلبية ما عقل بالدليل وعلم كالتوحيد وإمكان الحشر وصفات الله تعالى وصدق الرسل ووجد فيها ما لم يعقل ولا يمكن التصديق به لولا السمع كالصراط الممدود الأحد من السيف الأرق من الشعر . والميزان الذي توزن به الأعمال .

فكذلك ينبغي أن تكون الأذكار التي هي العبادة اللسانية فيها ما يعقل معناه كجميع القرآن إلا قليلاً منه وفيها ما لا يعقل ولا يفهم كل حروف التهجي ليكون التلفظ به لمحض الانقياد للأمر لا لما يكون في الكلام من طيب الحكاية والقصد إلى غرض كقولك : ربنا اغفر لنا وارحمنا بل يكون النطق به تعبداً محضاً .

ويؤيد هذا وجه آخر : وهو أنّ هذه الحروف مقسم بها لأنّ الله تعالى لما أقسم بالتين والزيتون كان تشريفاً لهما فإذا أقسم بالحروف التي هل أصل الكلام الشريف الذي هو دليل المعرفة وآلة التعريف كان أولى ، وإذا عرفت هذا فنقول القسم من الله تعالى وقع بأمر واحد كما في قوله تعالى : ﴿ والعصر ﴾ (العصر :)

وقوله تعالى : ﴿ والنجم ﴾ (النجم :)

بحرف واحد كما في قوله تعالى : ﴿ ص ﴾ و ﴿ ن ﴾ ووقع بأمرين كما في قوله تعالى :

﴿ والضحى ﴾ (الضحى :)

﴿ والليل ﴾ (الليل :)

وفي قوله تعالى : ﴿ والسماء والطارق ﴾ (الطارق :)

بحرفين كما قال في قوله تعالى : ﴿ طه ﴾ (طه :)

و ﴿ طس ﴾ (النمل :)

و ﴿ حم ﴾ (غافر :)

ووقع بثلاثة أمور كما في قوله تعالى : ﴿ والصافات ، فالزاجرات ، فالتاليات ﴾ (الصافات : ـ)

(209/723)

وقوله تعالى : ﴿ والسماء ذات البروج واليوم الموعود وشاهد ومشهود ﴾ (البروج : ـ)

بثلاثة أحرف كما في قوله تعالى : ﴿ ألم ﴾ (البقرة :)

و ﴿ طسم ﴾ (الشعراء :)

﴿ الر ﴾ (يونس :)

ووقع بأربعة أمور كما في قوله تعالى : ﴿ والذاريات فالحاملات فالجاريات فالمقسمات ﴾ (الذاريات :)

وفي قوله تعالى : ﴿ والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين ﴾ (التين : ـ)

وبأربعة أحرف كما في قوله تعالى : ﴿ المص ﴾ (الأعراف :)

و ﴿ المر ﴾ (الرعد :)

ووقع بخمسة أمور كما في قوله تعالى : ﴿ والطور وكتاب مسطور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور ﴾ (الطور : ـ)

وفي قوله تعالى : ﴿ والمرسلات فالعاصفات والناشرات فالفارقات فالملقيات ﴾ (المرسلات : ـ)

وفي النازعات وفي الفجر وبخمسة أحرف كما في قوله تعالى : ﴿ كهيعص ﴾ (مريم :)

و ﴿ حم عسق ﴾ (الشورى : ـ)

ولم يقسم بأكثر من خمسة أشياء إلا في سورة واحدة وهي ﴿ والشمس وضحاها ﴾ (الشمس :)

ولما أقسم بالأشياء المعهودة ذكر حرف القسم وهو الواو فقال : ﴿ والطور والنجم والشمس ﴾ وعند القسم بالحروف لم يذكر حرف القسم فلم يقل وحم وق لأن القسم لما كان بنفس الحروف كان الحرف مقسماً به فلم يورده في موضع كونه آلة القسم تسوية بين الحرف وغيره ولم يدخل القسم بالحروف في أثناء السورة لأنه يخل بالنظم .

وقوله تعالى:

﴿ والقرآن ﴾ أي : الكتاب الجامع الفارق ﴿ المجيد ﴾ أي : الذي له العلوّ والشرف والكرم والعظمة على كل كلام قسم وفي جوابه أوجه .

أحدها : قوله تعالى ﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم ﴾ ثانيها ﴿ ما يبدل القول لديّ ﴾ ثالثها : ﴿ ما يلفظ من قول ﴾ رابعها ﴿ إنّ في ذلك لذكرى ﴾ خامسها ﴿ بل عجبوا ﴾ وهو قول كوفيّ قالوا لأنّ معناه قد عجبوا . سادسها : أنه محذوف قدّره الزجاج والمبرد والأخفش لتبعثنّ وغيرهم لقد جاءكم منذر وقدره الجلال المحلي بقوله ما آمن كفار مكة بمحمد صلى الله عليه وسلم

(210/723)

تنبيه : جوابات القسم سبعة أنّ المشدّدة كقوله تعالى : ﴿ والعصر إنّ الإنسان لفي خسر ﴾ (العصر : ـ)

وما النافية كقوله تعالى : ﴿ والضحى والليل إذا سجى ما ودّعك ربك ﴾ (الضحى : ـ)

واللام المفتوحة كقوله تعالى : ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين ﴾ (الحجر :)

وإن الخفيفة كقوله تعالى ﴿ تالله إن كنا لفي ضلال مبين ﴾ (الشعراء :)

ولا النافية كقوله تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ﴾ (النحل :)

وقد كقوله تعالى ﴿ والشمس وضحاها ﴾ (الشمس :)

﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ (الشمس :)

وبل كقوله تعالى ﴿ والقرآن المجيد ﴾ بل أي أنّ تكذيبهم ليس لإنكار شيء من مجدك ولا إنكار صدقك .

(211/723)

﴿ بل ﴾ لأنهم ﴿ عجبوا ﴾ أي : الكفار وأضمرهم قبل الذكر إشارة إلى أنه إذا ذكر شيء خارج عن سنن الاستقامة انصرف إليهم العجب تغير النفس لأمر خارج عن العادة ﴿ إن جاءهم منذر منهم ﴾ أي : رسول من أنفسهم يخوّفهم بالنار بعد البعث واقتصر على الإنذار لأنّ المقام لتخويف من قدم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم أو منّ عليه بإسلام أو غيره ولتخويف من أنكر البعث والعجب منهم هو العجب لأنّ العادة عندهم وعند جميع الناس أنه إذا كان لنذير منهم لم يداخلهم في إنذاره شك بوجه من الوجوه وهؤلاء خالفوا عادة الناس في تعجبهم من كون النذير وهو أحدهم خص بالرسالة دونهم ولم يدركوا وجه الخصوصية لكونه مثلهم فلذلك أنكروا رسالته وفضل كتابه بألسنتهم تعانداً وحسداً لأنهم كانوا معترفين بخصائصه التي رفعه الله تعالى بها عليهم قبل الرسالة فحطهم

عجبهم ذلك إلى الحضيض من دركات السفه وخفة الأحلام ، لأنهم عجبوا أن كان الرسول بشراً وأوجبوا أن يكون الإله حجراً ، وعجبوا أن يعادوا من تراب لم يكن له أصل في الحياة ولذلك سبب عنه قوله تعالى : ﴿ فقال ﴾ أي : بسبب إنذاره بالبعث ﴿ الكافرون ﴾ وصرح به في موضع الإضمار إيذاناً بأنهم لم يخف عليهم شيء من أمره ولكنهم ستروا تعدّياً برأي عقولهم الدالة على جميع أمره دلالة ظاهرة وعبر بما دل على النذارة لأنها المقصود الأعظم من هذه السورة وجميع سياق الحجرات ظاهر فيها ﴿ هذا ﴾ أي كون النذير منا خصص بالرسالة من دوننا وكون ما أنذر به هو البعث بعد الموت ﴿ شيء عجيب ﴾ أي : بليغ في الخروج عن عادة أشكاله وقد كذبوا في ذلك أما من جهة النذير فإن أكثر الرسل من الطوائف الذين أرسلوا إليهم وقليل منهم من كان غريباً ممن أرسل إليه وأمّا من جهة البعث فإن أكثر ما في الكون مثل ذلك من إعادة كل من الملوين بعد ذهابه وإحياء الأرض بعد موتها وإخراج النبات والأشجار والثمار وغير ذلك مما هو ظاهر جداً . ولما كان المتعجب منه مجملاً أوضحه بقوله

تعالى

حكاية عنهم مبالغين في الإنكار بافتتاح إنكارهم باستفهام إنكاري .

﴿ أءذا متنا ﴾ ففارقت أرواحنا أبداننا ﴿ وكنا تراباً ﴾ لا فرق بينه وبين تراب الأرض ولما كان العامل في الظرف ما تقديره نرجع دل عليه بقوله تعالى دالاً بالإشارة بأداة البعد إلى عظيم استبعادهم ﴿ ذلك ﴾ أي : الأمر الذي في غاية البعد وهو مضمون الخبر برجوعنا ﴿ رجع ﴾ أي : ردّ إلى ما كنا عليه ﴿ بعيد ﴾ جدّاً لأنه لا يمكن تمييز ترابنا من بقية التراب وقرأ قالون وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية وهي المكسورة وإدخال ألف بينها وبين الهمزة الأولى المفتوحة وقرأ ورش وابن كثير بتسهيل الثانية من غير إدخال وقرأ الباقون بتحقيقهما وأدخل هشام بينهما ألفاً بخلاف عنه والباقون بغير إدخال وكسر الميم من متنا نافع وحفص وحمزة والكسائي والباقون بالضم وقوله تعالى:

﴿ قد علمنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ ما تنقص الأرض منهم ﴾ أي : تأكل من أجزائهم المتحللة من أبدانهم بعد الموت . وقبله رد لاستبعادهم لأنّ من لطف علمه حتى تغلغل إلى ما تنقص الأرض من أجزاء الموتى وتأكله من لحومهم وعظامهم كان قادراً على رجعهم أحياءً كما كانوا وعنه عليه الصلاة والسلام "كل ابن آدم يبلي إلا عجب الذنب" وعن السدّي ما تنقص الأرض منهم من يموت منهم ومن يبقى . وهذه الآية تدل على جواز البعث وقدرته تعالى عليه لأنّ الله تعالى عالم بأجزاء كل واحد من الموتى لا يشتبه عليه جزء

واحد بجزء الآخر قادر على الجمع والتأليف فليس الرجع منه ببعيد وهذا كقوله تعالى :

﴿ وهو الخلاق العليم ﴾ (يس :)

(213/723)

حيث جعل للعلم مدخلاً في الإعادة وهذا جواب ما كانوا يقولون أئذا ضللنا في الأرض أي أنه تعالى كما يعلم أجزاءهم يعلم أعمالهم فيرجعهم ويعيدهم بما كانوا يقولون وبما كانوا يعملون ﴿ وعندنا ﴾ أي : على مالنا من الغنى من كل شيء ﴿ كتاب ﴾ أي : جامع لكل شيء ﴿ حفيظ ﴾ أي بالغ في الحفظ لا يشذ عنه شيء من الأشياء جل أودق وقيل محفوظ من الشياطين ومن أن يندرس أو يغير وعلى الحالين الحفيظ هو اللوح المحفوظ . قال الرازي : والأوّل هو الأصح لأنّ الحفيظ بمعنى الحافظ وارد في القرآن قال الله تعالى : ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ (الأنعام :)

وقال تعالى ﴿ حفيظ عليهم ﴾ (الشورى :)

ولأن الكتاب للتمثيل ومعناه العلم عندي كما يكون في الكتاب فهو يحفظ الأشياء وهو مستغن عن أن يحفظ . وقوله تعالى:

﴿ بل كذبوا بالحق ﴾ أي : الأمر الثابت الذي لا أثبت منه إضراب ثان قال الزمخشري :

إضراب أتبع للإضراب الأوّل للدّلالة على أنهم جاءوا بما هو أفظع من تعجبهم وهو التكذيب بالحقّ ﴿ لما ﴾ أي : حين ﴿ جاءهم ﴾ أي : لما ثار عندهم من أجل تعجبهم من إرسال رسولهم من حظوظ النفوس حسداً منهم من غير تأمّل لما قالوه ولا تدبر ولا نظر فيه ولا تذكر فلذلك قالوا ما لا يعقل من أنّ من قدر على إيجاد شيء من العدم وابدائه لا يقدر على إعادته بعد إعدامه له ﴿ فهم ﴾ أي : لأجل مبادرتهم إلى هذا القول السفساف ﴿ في أمر مريج ﴾ أي : مضطرب جدّاً مختلط من المرج الذي هو اختلاط النبت بالأنواع المختلفة فهم تارة يقولون سحر وتارة كهانة وتارة شعر وتارة كذب وتارة غير ذلك ، لا يثبتون على شيء واحد . والاضطراب موجب للاختلاف وذلك أدل دليل على الإبطال كما أنّ الثبات والخلوص موجب للاتفاق وذلك أدل دليل على الحقية قال الحسن : ما ترك قوم الحق إلا مرج أمرهم . وكذا قال قتادة وزاد والتبس عليهم دينهم .

ثم ذكر تعالى الدليل الذي يدفع قولهم ذلك رجع بعيد بقوله تعالى:

(214/723)

﴿ أفلم ينظروا ﴾ أي : بعين البصر والبصيرة ﴿ إلى السماء ﴾ أي : المحيطة بهم ﴿ فوقهم ﴾ فإن غيرها إنما هو فوق ناس منهم لا فوق الكل ﴿ كيف بنيناها ﴾ أي :

أوجدناها على مالنا من المجد والعز مبنية كالخيمة إلا أنها من غير عمد ﴿ وزيناها ﴾ أي بما فيها من الكواكب الكبار والصغار السيارة والثابتة ﴿ وما ﴾ أي : والحال أن ما ﴿ لها ﴾ وأكد النفي بقوله تعالى : ﴿ من فروج ﴾ أي : فتوق وطاقات وشقوق بل هي ملساء متلاصقة الأجزاء . H

﴿ والأرض ﴾ أي : المحيطة بهم التي هم عليها ﴿ مددناها ﴾ أي : بسطناها بما لنا من العظمة ﴿ وألقينا ﴾ أي : بعظمتنا ﴿ فيها رواسي ﴾ أي جبالاً ثوابت كانت سبباً لثباتها وخالفت عادة المراسي في أنها من فوق والمراسي التي تعالجونها أنتم من تحت ﴿ وأنبتنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ فيها ﴾ أي الأرض وعظم قدرته بالتبعيض فقال تعالى : ﴿ من كل زوج ﴾ أي صنف من النبات تزاوجت أشكاله ﴿ بهيجٍ ﴾ أي هي في غاية الرونق والإعجاب فكان مع كونه رزقاً منتزهاً .

﴿ تبصرةً ﴾ أي : جعلنا هذه الأشياء كلها لأجل أن تنظروا بأبصاركم وتتفكروا ببصائركم فتعبروا منها إلى صانعها فتعلموا ما له من العظمة ﴿ وذكرى ﴾ أي : ولتذكروا بها تذكراً عظيماً بما لكم من القوى والقدر فتعلموا بعجزكم عن كل شيء من ذلك أنّ صانعها لا يعجزه شيء وأنه محيط بجميع صفات الكمال وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي : بالإمالة محضة . وقرأ ورش : بالإمالة بين بين والباقون بالفتح .

تنبيه : قال الرازي : يحتمل أن يكون الأمران عائدين إلى السماء والأرض أي خلق السماء

تبصرة وخلق الأرض ذكرى ويدل على ذلك أنّ السماء وزينتها غير مستجدّة في كل عام فهي كالشيء المرئي على ممر الزمان . وأمّا الأرض فهي كل سنة تأخذ زينتها وزخرفها فتذكر فالسماء تبصرة والأرض تذكرة ويحتمل أن يكون كل واحد من الأمرين موجوداً في كل واحد من الأمرين فالسماء تبصرة وتذكرة والأرض كذلك .

(215/723)

والفرق بين التذكرة والتبصرة هو أنّ فيهما آيات مستمرة منصوبة في مقابلة البصائر وآيات متجدّدة مذكرة عند التناسي ﴿ لكل عبدٍ ﴾ أي : لتبصر وتذكر كل عبد بماله من النقص وبما دل عليه هذا الصنع من الكمال أنه عبد مربوب لصانعه ﴿ منيبٍ ﴾ أي : رجاع عما خطه إليه طبعه إلى ما يغلبه عليه عقله فيرجع من شهود هذه الأفعال إلى شهود الصفات إلى علم الذات .

ثم ذكر تعالى دليلاً بقوله تعالى:

﴿ ونزلنا من السماء ﴾ أي : المحل العالي الذي لا يمسك فيه الماء عن دوام التقاطر إلا بقاهر ﴿ ماء ﴾ أي شيئاً فشيئاً في أوقات وعلى سبيل التقاطر ولولا عظمتنا التي لا تضاهي لغلب بما له من الثقل والميوع والنفوذ فنزل دفعة واحدة فأهلك ما نزل عليه فنزل

دفعة واحدة فأهلك ما نزل عليه فزالت المسرّة وعادت المنفعة مضرّة ﴿ مباركاً ﴾ أي : نافعاً جدّاً كثير لبركة وفيه حياة كل شيء ، وهو المطر فيكون الاستدلال بالسماء والأرض وما بينهما وهو إنزال الماء من فوق وإخراج النبات من تحت ﴿ فأنبتنا ﴾ أي : بما لنا من القدرة الباهرة ﴿ به جناتٍ ﴾ من الشجر والثمر والزرع والريحان وغيره مما تجمعه البساتين فتجن أي تستر الداخل فيها ﴿ وحب الحصيد ﴾ أي : النجم الذي من شأنه أنه يحصد كالبر والشعير ونحوهما وقوله تعالى:

﴿ والنخل ﴾ منصوب عطفاً على مفعول أنبتنا أي وأنبتنا النخل وقوله تعالى

﴿ باسقات ﴾ أي : طوالاً حال مقدّرة لأنها وقت الإثبات لم تكن طوالاً والبسوق الطول يقال بسق فلان على أصحابه أي طال عليهم في الفضل ومنه قول أبي نوفل في ابن هبيرة:

*يا ابن الذين بمجدهم ** بسقتهم قيس فزاره*

وهو استعارة والأصل استعماله في بسقت النخلة تبسق بسوقاً أي طالت قال الشاعر :

*لنا خمر وليست خمر كرم ** ولكن من نتاج الباسقات*

*كرام في السماء ذهبن طولا ** وفات ثمارها أيدي الجناة*

(216/723)

وبسقت الشاة ولدت ، وأبسقت الناقة وقع في ضرعها اللبن قبل النتاج . وقال سعيد بن جبير : باسقات : مستويات وأفردها بالذكر لفرط ارتفاعها ﴿ لها طلع ﴾ يجوز أن تكون الجملة حالاً من النخل أو من الضمير في باسقات ويجوز أن يكون الحال وحده لها وطلع فاعل به وقوله تعالى : ﴿ نضيد ﴾ بمعنى منضود بعضها فوق بعض في أكمامها كما في سنبلة الزرع وهو عجيب فإنّ الأشجار الطوال ثمارها بارزة بعضها على بعض لكل واحدة منها أصل يخرج منه كالجوز واللوز والطلع كالسنبلة الواحدة تكون على أصل واحد وقوله تعالى:

﴿ رزقا ﴾ يجوز أن يكون حالاً أي مرزوقاً ﴿ للعباد ﴾ ويجوز أن يكون مفعولاً له وللعباد إمّا صفة وإمّا متعلق بالمصدر ، فإن قيل : ما الحكمة في قوله تعالى عند ذكر خلق السماء والأرض تبصرة وذكرى وفي الثمار قال رزقاً والثمار أيضاً فيها تبصرة وفي السماء والأرض أيضاً منفعة غير التبصرة والتذكرة .

أجيب : بأنّ الاستدلال وقع لوجود أمرين:

أحدهما : الإعادة . والثاني : البقاء بعد الإعادة فإنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يخبرهم بحشر وجمع يكون بعده الثواب الدائم والعقاب الدائم وأنكروا ذلك فقال : أما الأوّل فالله القادر على خلق السموات والأرض قادر على خلق الخلق بعد الفناء وأما الثاني فلأنّ البقاء في الدنيا بالرزق والقادر على إخراج الأرزاق من النخل والشجر قادر على أن يرزق

بعد الحشر فكان الأولّ تبصرة وتذكرة بالخلق . والثاني : تذكرة بالبقاء والرزق ويدل على هذا الفصل بينهما بقوله تعالى ﴿ تبصرة وذكرى ﴾ حيث ذكر ذلك بين الآيتين ثم بدأ بذكر الماء وإنزاله وإثبات النبات

(217/723)

تنبيه : لم يقيد هنا العباد بالإنابة وقيده في قوله تعالى : ﴿ تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴾ لأنّ التذكرة لا تكون إلا للمنيب والرزق يعمّ كل أحد غير أنّ المنيب يأكل ذاكراً أو شاكراً للأنعام ، وغيره يأكل كما تأكل الأنعام فلم يخصص بقيد ولما كان في ذلك أعظم مذكر للبصراء بالبعث وبجميع صفات الكمال أتبعه ماله من التذكير بالبعث بخصوصية فقال تعالى ﴿ وأحيينا به ﴾ أي : الماء بعظمتنا ﴿ بلدةً ﴾ بالتأنيث إشارة إلى أنها في غاية الضعف والحاجة إلى النبات والخلوّ عنه وذكر ﴿ ميتاً ﴾ للزيادة في تقرير تمكن الحاجة فيها أو حملاً على معنى المكان فإن قيل : ما الفرق بين هذا الموضع وبين قوله تعالى : ﴿ وآية لهم الأرض الميتة ﴾ (يس :)

حيث أثبت الهاء هناك أجيب : بأنّ الأصل في الأرض الوصف فقال الميتة : لأنّ معنى الفاعلية ظاهر هناك والبلدة الأصل فيها الحياة لأنّ الأرض إذا صارت حية صارت آهلة

وأقام بها القوم وعمروها فصارت بلدة فأسقط التاء لأنّ معنى الفاعلية غير ظاهر فتثبت فيه الهاء وإذا كان معنى الفاعل لم يظهر لا تثبت فيه الهاء .

ويحقق هذا القول قوله تعالى ﴿ بلدة طيبةً ﴾ (سبأ :)

حيث أثبت الهاء حيث ظهر معنى الفاعل ولم يثبت حيث لم يظهر ﴿ كذلك ﴾ أي : مثل الإخراج العظيم ﴿ الخروج ﴾ من قبورهم على ما كانوا عليه في الدنيا إذ لا فرق بين خروج النبات بعد ما تهشم وتفتت في الأرض وصار تراباً كما كان من بين أصفره وأبيضه وأحمره وأزرقه إلى غير ذلك وبين إخراج ما تفتت من الموتى كما كانوا في الدنيا

(218/723)

تنبيه : قال أبو حيان : ذكر تعالى في السماء ثلاثة البناء والتزيين ونفي الفروج وفي الأرض ثلاثة المدّ وإلقاء الرواسي والإنبات فقابل المدّ بالبناء لأنّ المدّ وضع والبناء رفع وإلقاء الرواسي بالتزيين بالكواكب لارتكاب كل واحد منها أي على سطح ما هو فيه والإنبات المترتب على الشق بانتفاء الفروج فلا شق فيها ونبه فيما تعلق به الإنبات على ما يقطف كل سنة ويبقى أصله وما يزرع كل سنة أو سنتين ويقطف كل سنة وعلى ما اختلط من جنسين فبعض الثمار فاكهة لا قوت وأكثر الزرع قوت والثمر فاكهة وقوت وقوله تعالى:

﴿ كذبت قبلهم ﴾ الآية فيه تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتنبيه بأنّ حاله كحال من تقدّمه من الرسل كذبوا وصبروا فأهلك الله تعالى مكذبيهم ونصرهم . ولما لم يكن لهؤلاء المكذبين شهرة يعرفون بها قال تعالى : ﴿ قوم نوح ﴾ الذين كان آخر أمرهم أنه التقى عليهم الماءان نزل عليهم ماء السماء وطلع عليهم ماء الأرض فأغرقهم ووسم الفعل بالتاء إشارة إلى هو أنهم في جنب هذا المجد وأسقط الجار من قوله تعالى : ﴿ قبلهم ﴾ إشارة إلى أنّ هؤلاء الأحزاب لقوتهم وكثرتهم كأنهم أهل الأرض قد استغرقوا مكانها وزمانها ثم أتبع قوم نوح بمشابهيهم بقوله تعالى : ﴿ وأصحاب الرس ﴾ أي : البئر كانوا مقيمين عليها بمواشيهم يعبدون الأصنام ، ونبيهم قيل : حنظلة بن صفوان وقيل غيره فخسفت تلك البئر مع ما حولها فذهبت بهم وبكل ما لهم كما ذكرت قصتهم في الفرقان .

ثم أتبع أصحاب الرس بقوم صالح عليه السلام فقال ﴿ وثمود ﴾ لأنّ الرجفة التي أخذتهم مبدأ الخسف ثم أتبع ثمود بقوم هود عليه السلام فقال تعالى:

(219/723)

﴿ وعادٌ ﴾ لأنّ الريح التي أهلكتهم أثرت بها صيحة ثمود وقال تعالى : ﴿ وفرعون ﴾ ولم يقل قوم فرعون لأنه ليس في قادة هذه الفرق كافر غيره والنص عليه يفهم عظمته وأنه

استخف قومه فأطاعوه ﴿ وإخوان لوط ﴾ أي : أصهاره الذين صار بينه وبينهم مع المصاهرة المناصرة بملوكهم على من قاواهم بنفسه وعمه خليل الله إبراهيم عليهما السلام ومع ذلك عاملوه بالخيانة والتكذيب .

﴿ وأصحاب الأيكة ﴾ أي : الغيضة . وهم قوم شعيب ، والغضة الشجرة الملتف بعضه على بعض ولما كان تبع الحميري واسمه سعد وكنيته أبو كرب مع كونه في قومه ملكاً قاهراً وخالفوه مع ذلك ، وكان لقومه نار في بلادهم يتحاكمون إليها فتأكل الظالم ختم بهم فقال تعالى : ﴿ وقوم تبع ﴾ مع كونه ملكاً وهو يدعوهم إلى الله تعالى فلا يظنّ أنّ التكذيب مخصوص بمن كان قوياً لمن كان مستضعفاً بل هو واقع بمن شئنا من قوي وضعيف لا يخرج شيء عن مرادنا ﴿ كلٌّ ﴾ أي من هذه الفرق ﴿ كذب الرسل ﴾ أي كلهم بتكذيب رسولهم فإن الكل متساوون فيما يوجب الإيمان من إظهار المعجز والدعاء إلى الله تعالى ﴿ فحق ﴾ أي : فتسبب عن تكذيبهم لهم أن ثبت عليهم ووجب ﴿ وعيد ﴾ أي : الذي كانوا يكذبون به عند إنذارهم لهم إياه فجعلنا لهم منه في الدنيا ما حكمنا به عليهم في الأزل فأهلكناهم إهلاكاً عامّاً كإهلاك نفس واحدة على أنحاء مختلفة كما هو مشهور عند من له بأمثاله عناية وأتبعناه ما هو في البرزخ وأخرنا ما هو في القيامة إلى يوم البعث فثبت بإهلاكنا لهم على تنائي ديارهم وتباعد أعصارهم وكثرة أعدادهم أن لنا الإحاطة البالغة فتسلّ بإخوانك المرسلين وتأس بهم وليحذر قومك ما حل بمن كذبهم أن أصرّوا .

(220/723)

﴿ أفعيينا بالخلق ﴾ أي : أحصل لنا مع ما لنا من العظمة الإعياء وهو العجز بسبب الخلق في شيء من إيجاده أو إعدامه ﴿ الأوّل ﴾ أي : من السموات والأرض وما بينهما حين ابتدأناه اختراعاً من العدم ومن خلق الإنسان وسائر الحيوان مجدّداً في كل أوان في الأطوار المشاهدة على هذه التدريجات المعتادة بعد أن خلقنا أصله على ذلك الوجه مما ليس له أصل في الحياة ، ومن إعدامه بعد خلقه جملة كهذه الأمم أو تدريجاً كغيرهم ﴿ بل هم في لبسٍ ﴾ أي : شك شديد وشبهة موجبة للتكلم بكلام مختلط لا يعقل له معنى بل السكوت عنه أجمل ﴿ من ﴾ أي : لأجل ﴿ خلقٍ جديدٍ ﴾ أي : بالإعادة ولما ذكر الخافقين أتبعه خلق ما هو جامع لجميع ما هو فيهما . فقال تعالى:

(221/723)

﴿ ولقد ﴾ أي : والحال أنا قد ﴿ خلقنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ الإنسان ﴾ وهو أعجب خلقاً وأجمع من جميع ما مضى ذكره بما فيه من الأنس والطغيان والذكر والنسيان

والجهل والعرفان والطاعة والعصيان وغير ذلك من عجيب الشان . ووكلنا به من جنودنا من يحفظ فيضبط حركاته وسكناته وجميع أحواله ﴿ ونعلم ﴾ والحال أنا نعلم بما لنا من الإحاطة ﴿ ما توسوس ﴾ أي : تكلم على وجه الخفاء ﴿ به ﴾ أي : الآن وفيما بعد ذلك ﴿ نفسه ﴾ مما لم نقدح بعد من خزائن الغيب إلى سرّ النفس كما علمنا ما تكلم نفسه وهي الخواطر التي تعرض له حتى أنه هو ربما عجز عن ضبطها فنحن نعلم أن قلوبهم عالمة بقدرتنا على أكمل ما نريد وبصحة القرآن وإعجازه وصدق الرسول به صلى الله عليه وسلم وامتيازه وإنما حملهم الحسد والنفاسة والكبر والرياسة على الإنكار باللسان ، حتى صار لهم ذلك خلقاً وتمادوا فيه ، حتى غطى على عقولهم فصاروا في لبس محيط بهم من جميع الجوانب ونحن أي بما لنا من العظمة ﴿ أقرب إليه ﴾ أي : قرب علم وشهود من غير مسافة ﴿ من حبل الوريد ﴾ لأنّ أبعاضه وأجزاءه يحجب بعضها بعضاً ولا يحجب علم الله تعالى شيء والوريدان عرقان مكتنفان بصفحتي العنق في مقدّمها متصلان من الرأس إلى الوتين وهو عرق متصل بالقلب إذا قطع مات صاحبه . وهذا مثل في فرط القرب وإضافته مثل مسجد الجامع أي حبل العرق الوريد أو لأن الحبل أعمّ فأضيف للبيان نحو بئر ساقية أو يراد حبل العاتق وأضيف إلى الوريد كما يضاف إلى العاتق لأنهما ما في عضو واحد . وقال البغوي : حبل الوريد : عرق الفرق وهو عرق بين الحلقوم والعلباوين يتفرّق في

البدن والحبل هو الوريد فأضيف إلى نفسه لاختلاف اللفظين . قال القشيري : وفي هذه الآية هيبة وفزع وخوف لقوم وروح وأنس وسكون قلب لقوم . وقوله تعالى:

(222/723)

﴿ إذ يتلقى ﴾ ظرف لأقرب ويجوز أن يكون منصوباً باذكر أي واذكر إذ يتلقى أي بغاية الاجتهاد والمراقبة والمراعاة من كل إنسان خلقناه وأبرزناه إلى هذا الوجود ﴿ المتلقيان ﴾ أي : الملكان الموكلان بعمل الإنسان ومنطقه يحفظانه ويكتبانه حال كونهما ﴿ عن اليمين ﴾ لكل إنسان ﴿ وعن الشمال ﴾ أي : أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله فالذي عن اليمين يكتب الحسنات والذي عن الشمال يكتب السيئات وقوله تعالى : ﴿ قعيد ﴾ أي : قاعدان . مبتدأ وخبره ما قبله لأنّ فعيلاً يطلق على الواحد والمتعدّد كقوله تعالى : ﴿ بعد ذلك ظهير ﴾ (التحريم :)

قال ابن عادل : والأجود أن يدع حذف إما من الأوّل أي عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد وإما من الثاني فيكون قعيد الملفوظ به للأوّل ومثله قوله:

*رماني بأمر كنت منه ووالدي ** بريئاً ومن أجل الطويّ رماني*

وقال مجاهد : القعيد المرصد . ونحن أعلم منهما وأقرب وإنما استحفظناهما لإقامة

الحجة بهما على مجاري عاداتكم وغير ذلك من الحكم .

﴿ ما يلفظ ﴾ أي : يرمي ويخرج المكلف من فيه وعمم في النفي بقوله تعالى ﴿ من قول ﴾ جل أو قل ﴿ إلا لديه ﴾ أي : الإنسان أو القول على هيئة من القدرة والعظمة من أغرب المستغرب ﴿ رقيب ﴾ من حفظتنا شديد المراعاة في كل من أحواله ﴿ عتيد ﴾ أي : حاضر مراقب غير غافل بوجه قال الجلال المحلي : وكل منهما بمعنى المثنى أي رقيبان عتيدان . روى أبو أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يسار الرجل وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشراً وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر" .

تنبيه : اختلف فيما يكتبان فقال مجاهد : يكتبان عليه حتى أنينه في مرضه . وقال عكرمة : لا يكتبان إلا ما يؤجر أو يوزر فيه .

فائدتان : إحداهما : قال الحسن : إن الملائكة يجتنبون الإنسان عند حالتين عند غائطه وعند جماعه .

الثانية : قال الضحاك : مجلسهما تحت الشعر على الحنك ومثله عن الحسن يعجبه أن ينظف عنفقته

﴿ وجاءت ﴾ أي : أتت وحضرت ﴿ سكرة الموت ﴾ أي : حالته عند النزع وشدّته وغمرته يصير المريض بها السكران لا يعي وتخرج بها أقواله وأفعاله عن قانون الاعتدال مجيئاً ملتبساً بالحق أي الأمر الثابت الذي يطابقه الواقع فلا حيلة في الاحتراس منه . وقيل : للميت بلسان الحال إن لم يكن بلسان المقال ﴿ ذلك ﴾ أي : هذا الأمر العظيم العالي الرتبة الذي يحق لكل أحد الاعتداد له بغاية الجهد ﴿ ما ﴾ أي : الأمر الذي ﴿ كنت ﴾ أي : جبلةً وطبعاً ﴿ منه تحيد ﴾ أي : تميل وتنفر وتروغ وتهرب .

تنبيه : قيل الخطاب مع النبيّ صلى الله عليه وسلم قال الرازي : وهو منكر وقيل مع الكافر قال ابن عادل : والأقوى أن يقال هو خطاب عام مع السامع وهذا أولى وقوله تعالى:

﴿ ونفخ في الصور ﴾ عطف على قوله تعالى : ﴿ وجاءت سكرة الموت ﴾ وهو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام للموت العامّ والبعث العامّ عند التكامل وانقطاع أوان التعامل وهو بحيث لا يعلم قدر عظمه واتساعه إلا الله تعالى وهو عليه السلام قد التقم الصور من حين بعث النبي صلى الله عليه وسلم وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر متى يؤمر فيالها من عظمة ما أغفلنا وعنها أنساناً لها والمراد بهذه نفخة البعث وقوله تعالى :

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى الزمان المفهوم من قوله نفخ لأنّ الفعل كما يدل على المصدر يدل على

الزمان فكأنه تعالى قال ذلك الزمان العظيم الأهوال والأوجال ﴿ يوم الوعيد ﴾ أي : للكفار بالعذاب .

(224/723)

﴿ وجاءت ﴾ أي : فيه ﴿ كل نفس ﴾ أي مكلفة ﴿ معها سائق ﴾ أي ملك يسوقها إليه ﴿ وشهيد ﴾ يشهد عليها بعملها . قال الضحاك : السائق من الملائكة والشاهد من أنفسهم وهو الأيدي والأرجل وغيرها وهي رواية العوفي عن ابن عباس رضى الله عنهما وقيل : هما جميعاً من الملائكة ، فالسائق كما قيل لا تعلق له بالشهادة لئلا تقول تلك النفس أنه خصم والخصم لا تقبل شهادته وقيل السائق هو الذي يسوقه إلى الموقف ومنه إلى مقعده . والشهيد هو الكاتب والسائق لازم للبرّ والفاجر أما البر فيساق إلى الجنة وأما الفاجر فإلى النار قال تعالى : ﴿ وسيق الذين كفروا ﴾ (الزمر :)

وقال تعالى : ﴿ وسيق الذين اتقوا ﴾ (الزمر :)

والشهيد يشهد عليها بما عملت . تنبيه : يجوز في جملة معها سائق وشهيد أن تكون في موضع جر صفة لنفس ، وأن تكون في موضع رفع صفة لكل ، وأن تكون في موضع نصب على الحال من كل .

ويقال للكافر .

﴿ لقد كنت ﴾ أي : كوناً كأنه جبلة لك ﴿ في غفلة ﴾ أي : عظيمة محيطة بك ناشئة لك ﴿ من هذا ﴾ أي : من تصوّر هذا اليوم على ما هو عليه من انقطاع الأسباب والجزاء بالثواب أو العقاب لأنه على شدّة جلائه خفي على من اتبع الشهوات ﴿ فكشفنا ﴾ بعظمتنا بالموت ثم البعث ﴿ عنك غطاءك ﴾ الذي كان في الدنيا على قلبك وسمعك وبصرك من الغفلة بالآمال في الحال والمآل وسائر الحظوظ والشهوات ﴿ فبصرك اليوم ﴾ أي بعد البعث ﴿ حديد ﴾ أي في غاية الحدّة والنفوذ فلذا تقرّ بما كنت تنكر في الدنيا . وقال مجاهد : يعني نظرك إلى لسان ميزانك حين توزن حسناتك وسيئاتك . والمعنى : أزلنا غفلتك فبصرك اليوم جديد وكان من قبل كليلاً .

واختلف في القرين في قوله تعالى:

(225/723)

﴿ وقال قرينه ﴾ فأكثر المفسرين على أنه الملك الموكل به فيقول ﴿ هذا ما ﴾ أي : الذي ﴿ لدي عتيد ﴾ أي : حاضر ونقل الكرماني عن ابن عباس رضى الله عنهما : أنه الشيطان الذي سلط على إغوائه واستدراجه إلى ما يريد فزين له الكفر والعصيان . ويدل

لهذا قوله تعالى : ﴿ وقيضنا لهم قرناء ﴾ (فصلت :)

وقال تعالى : ﴿ نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ (الزخرف :)

وقال تعالى ﴿ فبئس القرين ﴾ فالإشارة بهذا إلى المسوق المرتكب الفجور والفسوق .

والعتيد معناه المعتدّ للنار ومعناه أن الشيطان يقول هذا العاصي هو شيء عندي معتدّ لجهنم أعددته لها بالإغواء والإضلال وقوله تعالى:

﴿ ألقيا في جهنم ﴾ أي : النار التي تلقى الملقي فيها بما كان يعامل به عباد الله تعالى من الكبر والعبوسة ﴿ كل كفار ﴾ خطاب من الله تعالى للسائق والشهيد أو للملكين من خزنة النار أو الواحد وتثنية الفاعل منزل منزلة تثنية الفعل وتكريره كأنه قيل ألقي ألقي وقيل : أراد ألقيا بالنون الخفيفة فأبدلها ألفاً إجراءً للوصل مجرى الوقف وقيل العرب : تخاطب الواحد مخاطبة الاثنين تأكيداً كقوله:

*فإن تزجراني يا ابن عفان أزدجر ** وإن تدعاني أحم عرضاً ممنعا *

قال ابن عادل وقيل المأمور مثنى وهذا هو الحق لأنّ المراد ملكان يفعلان ذلك ا . ه وهو القول المتقدّم ﴿ عنيد ﴾ وهو المبالغ في ستر الحق والمعاداة لأهله بغير حجة حمية وأنفة نظراً إلى استحسان ما عنده والثبات عليه تجبراً وتكبراً على ما عند غيره ازدراء له كائناً من كان .

﴿ مناعٍ ﴾ أي : كثير المنع ﴿ للخير ﴾ من المال وغيره من كل معروف يعلق بالمال والمقال

والفعال .

وقيل المراد الإسلام فإن الآية نزلت في الوليد بن المغيرة لما منع بني أخيه عنه ﴿ معتدٍ ﴾ أي : مجاوز للحدود ﴿ مريبٍ ﴾ أي : داخل في الريب وهو الشك والتهمة في أهل الدين .

وقوله تعالى:

(226/723)

﴿ الذي جعل مع الله ﴾ أي : الذي له الإحاطة بجميع صفات الكمال ﴿ إلهاً آخر ﴾ يجوز أن يكون منصوباً على الذمّ أو على البدل من كل وأن يكون مجروراً بدلاً من كفار أو مرفوعاً بالابتداء والخبر ﴿ فألقياه في العذاب ﴾ أي : الذي يزيل كل عذوبة ﴿ الشديد ﴾ ودخلت الفاء في الخبر لتضمن المبتدأ معنى الشرط . ويجوز أن يكون خبر مبتدأ مضمر أي هو الذي جعل ويكون فألقياه تأكيداً .

﴿ قال قرينه ﴾ منادياً بإسقاط الأداة كدأب أهل القرب إيهاماً أنه منهم ﴿ ربنا ﴾ أي : أيها المحسن إلينا أيتها الخلائق كلهم ﴿ ما أطغيته ﴾ أي : ما أوقعته فيما كان فيه من الطغيان فإني لا سلطان لي عليه وأنت أعلم بذلك ﴿ ولكن كان ﴾ أي : بجبلته وطبعه ﴿ في ضلال بعيد ﴾ أي : محيط به من جميع جوانبه لا يمكن رجوعه معه فلذلك كان يبادر

إلى كل ما يغضب الله تعالى .

تنبيه : هذا جواب لكلام مقدّر فإن الكافر حينما يلقى في النار يقول ربنا أطغاني شيطاني فيقول ربنا ما أطغيته بدليل قوله تعالى : ﴿ لا تختصموا لدي ﴾ لأنّ المخاصمة تستدعي كلاماً من الجانبين ونظيره قوله تعالى في سورة ص ﴿ قالوا بل أنتم لا مرحباً بكم ﴾ (ص :) إلى قوله تعالى ﴿ إنّ ذلك لحق تخاصم أهل النار ﴾ (ص :)

قال الزمخشري : وهذا يدل على أن المراد بالقرين في الآية المتقدّمة هو الشيطان لا الملك الذي هو شهيد وقعيد .

قال الرازي : وجاءت هذه الآية بلا واو وفي الأولى بواو عاطفة لأن الأولى إشارة وقعت إلى معنيين مجتمعين فإن كل نفس في ذلك الوقت تجيء ومعها سائق وشهيد فيقول الشهيد ذلك القول وفي الثانية لم يجد هنا معنيان مجتمعان حتى تذكر الواو فإن الفاء في قوله تعالى : ﴿ فألقياه في العذاب ﴾ لا تناسب قوله تعالى : ﴿ قال قرينه ربنا ما أطغيته ﴾ فليس هناك مناسبة مقتضية للعطف .

(227/723)

فإن قيل : كيف قال ما أطغيته مع أنه قال لأغوينهم أجمعين . أجيب : بأن المراد من قوله لأغوينهم أي لأديمنهم على الغواية كما أن الضال إذا قال له شخص أنت على الجادة فلا تتركها يقال أنه يضله كذا هنا فقوله ما أطغيته أي ما كان ابتداء الغي مني . وقوله تعالى: ﴿ قال ﴾ أي : الله تعالى المحيط علماً وقدرة الذي حكم عليهم بذلك في الأزل ﴿ لا تختصموا ﴾ أي : لا توقعوا الخصومة بهذا الجدّ والاجتهاد استئناف كان قائلاً يقول فماذا قال الله تعالى . فأجيب : يقال لا تختصموا وقوله تعالى : ﴿ لدي ﴾ أي في دار الجزاء بهذه الحضرة التي هي فوق ما كنتم تدركونه من الأخبار عنها بكثير يفيد مفهومه أن الاختصام كان ينبغي أن يكون قبل الحضور والوقوف بين يديّ . وقوله تعالى : ﴿ وقد قدّمت إليكم بالوعيد ﴾ أي : التهديد وهو التخويف العظيم على جميع ما ارتكبتموه من الكفر والعدوان جملة حالية ولا بدّ من تأويلها وذلك أن النهي في الآخرة وتقدّمه الوعيد في الدنيا . فاختلف الزمان فكيف يصح جعلها حالية وتأويلها هو أن المعنى وقد صح أني قدّمت وزمان الصحة وزمان النهي واحد وقدّمت يجوز أن يكون بمعنى تقدمت فتكون الواو للحال ولا بدّ من حذف مضاف أي : وقد تقدّم قولي لكم ملتبساً بالوعيد ويجوز أن يكون قدمت على حاله تعدياً والباء مزيدة في المفعول أي قدمت إليكم الوعيد . كقوله تعالى : ﴿ تنبت بالدهن ﴾ (المؤمنون :)

على قول من قال بزيادتها هناك وقيل الباء هنا للمصاحبة كقولك اشتريت الفرس بلجامه

أي معه فكأنه قال تعالى قدّمت إليكم ما يجب مع الوعيد على تركه والإنذار .

﴿ ما يبدّل ﴾ أي : يغير بوجه من الوجوه ﴿ القول لدّي ﴾ أي : الواصل إليكم من حضرتي التي لا يحيط بها أحد من خلقي وعبر بما التي هي للحاضر دون لا التي للمستقبل لأن الأوقات كلها عنده حاضرة ﴿ وما أنا ﴾ وأكد النفي بقوله تعالى : ﴿ بظلام للعبيد ﴾ فأعذبهم بغير ظلم .

(228/723)

فإن قيل : الظلام مبالغة في الظلم ويلزم من انتفائه إثبات أصل الظلم فإذا قال القائل هو كذاب يلزم أن يكون كثير الكذب ، ولا يلزم من نفيه نفي أصل الكذب ، لجواز أن يقال ليس بكذاب كثير الكذب لكنه يكذب أحياناً . فقوله تعالى ﴿ ما أنا بظلام ﴾ لا يفهم منه نفي أصل الظلم وأنّ الله ليس بظالم . أجيب بأربعة أجوبة:

أحدها : أنّ الظلام بمعنى الظالم كالتمار بمعنى التامر فتكون اللام في قوله تعالى ﴿ للعبيد ﴾ لتحقيق النسبة لأن الفعال حينئذ بمعنى ذي ظلم لقوله تعالى : ﴿ لا ظلم اليوم ﴾ (غافر :)

ثانيها : قال الزمخشري : إن ذلك أمر تقديري كأنه تعالى يقول لو ظلمت عبدي الضعيف الذي هو محل الرحمة لكان ذلك غاية الظلم وما أنا بذلك فيلزم من نفي كونه ظلاماً نفي كونه

ظالماً ويحقق هذا الوجه إظهار لفظ العبيد حيث قال الله تعالى : ﴿ وما أنا بظلام للعبيد ﴾ أي : في ذلك اليوم الذي أملأ فيه جهنم مع سعتها حتى تصيح وتقول لم يبق فيّ طاقة بهم ولم يبق فيّ موضع لهم فهل من مزيد استفهام استنكار .

ثالثها : أنه لمقابلة الجمع بالجمع والمعنى أنّ ذلك اليوم مع أني ألقي في جهنم عدداً لا حصر له لا أكون بسبب كثرة التعذيب كثير الظلم لأنه تعالى قال : ﴿ وما أنا بظلام للعبيد ﴾ .

﴿ يوم نقول ﴾ أي على مالنا من العظمة ﴿ لجهنم ﴾ ولم يقل ما أنا بظلام في جميع الأزمان وخصص بالعبيد ولم يطلق فلذلك خصص النفي بنوع من أنواع الظلم ولم يطلق ولم يلزم منه أن يكون ظالماً في غير ذلك الوقت لأنّ التخصيص بالذكر لا يدل على نفي ما عداه لأنه نفي كونه ظلاماً ولم يلزم منه كونه ظالماً ونفي كونه ظلاماً للعبيد ولم يلزم منه كونه ظلاماً لغيرهم .

تنبيه : يحتمل أن يكون المراد بالعبيد الكفار كقوله تعالى : ﴿ يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول ﴾ (يس :)

الآية والمعنى أعذبهم وما أنا بظلام لهم ويحتمل أن يكون المراد منه المؤمنين .

والمعنى أنّ الله تعالى يقول : لو بدّلت قولي ورحمت الكافر لكنت في تكليف العباد ظالماً لعبادي المؤمنين لأني منعتهم من الشهوات لأجل هذا اليوم فلو كان ينال من لم يأت بما أتى به المؤمن ما يناله المؤمن لكان إتيان المؤمن بما أتى به من الإيمان والعبادة غير مفيد وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة ﴾ (الحشر :)

ويحتمل أن يكون المراد التعميم وهذا أظهر . وقوله تعالى لجهنم أي التي هي دار العذاب مع الكراهة والعبوسة والتجهم ﴿ هل امتلأت ﴾ استفهام تحقيق لوعده عليها وهو قوله تعالى ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ (هود :)

﴿ وتقول ﴾ بصورة الاستفهام كالسؤال ﴿ هل من مزيد ﴾ أي : قد امتلأت ولم يبق فيّ موضع لم يمتلئ فهو استفهام إنكار . وقيل بمعنى الاستزادة رواه أبو صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما وعلى هذا يكون السؤال وهو قوله تعالى هل امتلأت قبل دخول جميع أهلها فيها .

وروي عن ابن عباس رضى الله عنهما "أنّ الله تعالى سبقت كلمته لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين فلما سيق أعداء الله إليها لا يلقى فيها فوج إلا ذهب فيها ولا يملؤها فتقول ألست قد أقسمت لتملأني فيضع قدمه عليها فيقول هل امتلأت فتقول هل من مزيد قط قط قد امتلأت وليس فيّ مزيد " وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العرش وفي

رواية رب العزة فيها قدمه فيزوى بعضها إلى بعض وتقول : قط قط بعد ذلك ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشىء الله تعالى لها خلقاً فيسكنهم فضول الجنة" ولأبي هريرة رضى الله عنه نحوه ولا يظلم الله تعالى من خلقه أحداً .

تنبيه : هذا الحديث من مشاهير أحاديث الصفات وللعلماء فيه وفي أمثاله مذهبان:

(230/723)

أحدهما : وهو مذهب جمهور السلف وطائفة من المتكلمين أنه لا يتكلم في تأويلها بل نفوّض بأنها حق على ما أراد الله ورسوله ونجريها على ظاهرها أولها معنىً يليق بها وظاهرها غير مراد .

المذهب الثاني : وهو قول جمهور المتكلمين أنها تؤوّل بحسب ما يليق بها فعلى هذا اختلفوا في تأويل الحديث فقيل المراد بالقدم التقدّم وهو شائع في اللغة والمعنى يضع الله تعالى فيها من قدمه لها من أهل العذاب . وقيل : المراد به قدم بعض المخلوقين فيعود الضمير في قدمه إلى ذلك المخلوق المعلوم . وقيل : يحتمل أن في المخلوقات من يسمى بهذه التسمية وخلقوا لها .

قال القاضي عياض أظهر التأويلات أنهم استحقوها وخلقوا لها .

قال المتكلمون : ولا بدّ من صرفه عن ظاهره لقيام الدليل العقلي القطعي على استحالة

الجارحة على الله تعالى وقولها قط قط أي حسبي حسبي قد اكتفيت وفيها ثلاث لغات إسكان الطاء وكسرها منوّنة وغير منوّنة ولما ذكر النار التي هي دار الفجار وقدّمها لأنّ المقام للإنذار اتبعها دار الأبرار .

فقال تعالى سارّاً لهم بإسقاط مؤنة المسير وطي مشقة البعد .

﴿ وأزلفت الجنة ﴾ أي : قربت بأيسر أمر مع الدرجات والحياض الممتلئة ﴿ للمتقين ﴾ أي : الغريقين في هذا الوصف فإذا رأوها تسابقوا إليها وتركوا ما كانوا فيه في الموقف من منابر النور وكثبان المسك ونحو هذا . وأما غيرهم من أهل الإيمان فقد يكون لهم غير هذا الوصف فيساق إليها الذين اتقوا كما مضى في الزمر . وقوله تعالى : ﴿ غير بعيد ﴾ يجوز أن يكون حالاً من الجنة ولم يؤنث لأنها بمعنى البستان أو لأنّ فعيلاً لا يؤنث لأنه بزنة المصادر قاله الزمخشري . ومنعه أبو حيان وتقدّم الكلام على ذلك في قوله تعالى : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ (الأعراف :)

(231/723)

ويجوز أن يكون منصوباً على الظرف المكاني أي مكاناً غير بعيد ويجوز أن يكون نعتاً لمصدر محذوف أي إزلافاً غير بعيد وظاهر عبارة الزمخشري فإنه قال أو شيئاً غير بعيد

فإن قيل : ما وجه التقريب والجنة مكان والأمكنة يقرب منها وهي لا تقرب . أجيب : من أوجه . أوّلها : أنّ الجنة لا تزال ولا يؤمر المؤمن في ذلك اليوم بالانتقام إليها مع بعدها لكن الله تعالى يطوي المسافة التي بين المؤمن والجنة فهو التقريب .

فإن قيل : فعلى هذا ليس إزلاف الجنة من المؤمن بأولى من إزلاف المؤمن من الجنة فما فائدة قوله تعالى : ﴿ أزلفت الجنة ﴾ أجيب بأن ذلك إكرام للمؤمن وبيان لشرفه وأنه ممن يمشي إليه ثانيها : قريب من الحصول في الدخول لا بمعنى القرب المكاني . ثالثها : أنّ الله تعالى قادر على نقل الجنة من السماء إلى الأرض فيقربها للمؤمن . ويحتمل أنها أزلفت بمعنى جمعت محاسنها لأنها مخلوقة وأما بمعنى قرب الحصول لها لأنها تنال بكلمة طيبة وحسنة وخص المتقين بذلك لأنهم أحق بها .

وقوله تعالى : ﴿ هذا ﴾ أي : الإزلاف والذي ترونه من كل ما يسركم ﴿ ما ﴾ أي : الأمر الذي ﴿ توعدون ﴾ أي : وقع الوعد لكم به في الدنيا يجوز فيه وجهان .

أحدهما : أن يكون معترضاً بين البدل والمبدل منه وذلك أنّ ﴿ لكل أوّاب ﴾ أي : رجاع إلى طاعة الله تعالى بدل من المتقين بإعادة العامل .

ثانيهما : أن يكون منصوباً بقول مضمر ذلك القول منصوب على الحال أي مقولاً لهم . وقرأ ابن كثير : بالياء على الغيبة . والباقون : بالتاء على الخطاب ونسب أبو حيان قراءة الياء لابن كثير ولأبي عمرو وإنما هي لابن كثير فقط . وقال سعيد بن المسيب : الأوّاب هو الذي

يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب . وقال الشعبيّ ومجاهد هو الذي يذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر منها . وقال ابن عباس رضى الله عنهما وعطاء : هو المسبح من قوله تعالى ﴿ يا جبال أوّبي معه ﴾ (سبأ :)

(232/723)

وقال قتادة : هو المصلي . وقوله تعالى ﴿ حفيظ ﴾ اختلف فيه . فقال ابن عباس رضى الله عنهما : هو الذي يحفظ ذنوبه حتى يرجع عنها ويستغفر منها . وعن ابن عباس رضى الله عنهما أيضاً : الحفيظ لأمر الله . وقال قتادة : الحفيظ لما استودعه الله تعالى من حقه . والأوّاب والحفيظ كلاهما من باب المبالغة أي يكون كثير الأوب شديد الحفظ ثم أبدل من كلٍ تنميماً لبيان المتقين قوله تعالى:

﴿ من خشي ﴾ أي : خاف ونبه على كثرة خشيته بقوله تعالى : ﴿ الرحمن ﴾ لأنه إذا خافه مع استحضار الرحمة العامة للمطيع والعاصي كان خوفه مع استحضار غيرها أولى وقال القشيري : التعبير بذلك للإشارة إلى أنها خشية تكون مقرونة بالأنس يعني الرجاء كما هو المشروع ، قال : ولذلك لم يقل الجبار أو القهار . ويقال الخشية ألطف من الخوف فكأنها قريبة من الهيبة وقوله تعالى : ﴿ بالغيب ﴾ حال أي غائباً عنه فيحتمل أن يكون

حالاً من الفاعل أو المفعول أو منهما . وقيل الباء للمصاحبة أي مصاحب له من غير أن يطلب آية أو أمراً يصير به إلى حد المكاشفة بل استغنى بالبراهين القطيعة التي منها أنه مربوب وهو أيضاً بيان لبليغ خشيته ويجوز أن يكون صفة لمصدر خشى أي خشيه خشية ملتبسة بالغيب ومعنى الآية من خاف الرحمن فأطاعه بالغيب ولم يره .

وقال الضحاك والسدي : يعني في الخلوة حيث لا يراه أحد . وقال الحسن : إذا أرخى الستور وأغلق الباب . وقوله تعالى ﴿ وجاء ﴾ أي : بعد الموت ﴿ بقلب منيب ﴾ أي : راجع إلى الله تعالى صفة مدح لأنّ شأن الخائف أن يهرب فأما المتقي فجاء ربه لعلمه أنه لا ينجي الفرار منه والباء في ﴿ بقلب ﴾ إما للتعدية وإما للمصاحبة وإما للسببية ، والقلب المنيب كالقلب السليم في قوله تعالى : ﴿ إذ جاء ربه بقلب سليم ﴾ (الصافات :) من الشرك والضمير في قوله تعالى .

(233/723)

﴿ ادخلوها ﴾ عائد إلى الجنة وقوله تعالى : ﴿ بسلام ﴾ حال من فاعل ادخلوها أي سالمين من العذاب والهموم فهي حال مقارنة أو بسلام من الله تعالى وملائكته عليهم فهي حال مقدرة كقوله تعالى ﴿ فادخلوها خالدين ﴾ (الزمر :)

كذا قيل . قال ابن عادل : وفيه نظر إذ لا مانع من مقارنة تسليم الملائكة عليهم حال الدخول بخلاف فادخلوها خالدين فإنه لا يعقل الخلود إلا بعد الدخول ﴿ ذلك ﴾ أي : اليوم الذي حصل فيه الدخول ﴿ يوم الخلود ﴾ أي : الدوام في الجنة الذي لا آخر له ولا نفاد لشيء من لذاته أصلاً ولذلك وصل به قوله تعالى جواباً لمن قال على أيّ وجه خلودهم .

﴿ لهم ﴾ بظواهرهم وبواطنهم ﴿ ما يشاؤون ﴾ أي : تتجدد مشيئتهم أو يمكن مشيئتهم له ﴿ فيها ﴾ أي : الجنة ﴿ ولدينا ﴾ أي : عندنا من الأمور التي هي في غاية الغرابة عندهم وإن كان كل ما عندهم مستغرباً ﴿ مزيد ﴾ أي : مما لا يدخل تحت أوهامهم ليشاؤوه فإن شياق الامتنان يدل على أنّ تنوينه للتعظيم والتعبير ب ﴿ لدي ﴾ يؤكد ذلك فإن قيل : ما الحكمة في أنه تعالى قال : ﴿ ادخلوها بسلام ﴾ على المخاطبة ثم قال لهم ولم يقل لكم أجيب : من وجوه أولها : أن قوله تعالى : ﴿ ادخلوها ﴾ فيه مقدر أي فيقال لهم ادخلوها فلا يكون التفاتاً .

ثانيها : أنه التفات والحكمة الجمع بين الطرفين كأنه تعالى يقول غير مخلّ بهم في غيبتهم وحضورهم ففي حضورهم الحبور في غيبتهم الحور والقصور .

ثالثها : أنه يجوز أن يكون قوله تعالى لهم كلاماً مع الملائكة يقول للملائكة توكلوا بخدمتهم واعلموا أنّ لهم ما يشاءون فيها فأحضروا بين أيديهم ما يشاؤون وأما أنا فعندي ما لا يخطر

ببالهم ولا تقدرون أنتم عليه . والمزيد يحتمل أن يكون معناه الزيادة كقوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ (يونس :)

(234/723)

ويحتمل أن يكون بمعنى المفعول أي عندنا ما نزيده على ما يرجون ويأملون . قال أنس وجابر : وهو النظر إلى وجه الله الكريم . قيل يتجلى لهم الرب تبارك وتعالى في كل ليلة جمعة في دار كرامته فهذا هو المزيد . ولما ذكر تعالى أوّل السورة تكذيب الأمم السابقة ذكر هنا إهلاك قرون ماضية . بقوله تعالى:

﴿ وكم أهلكنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ قبلهم من قرن ﴾ أي : جيل هم في غاية القوة وزاد في بيان القوّة قوله تعالى : ﴿ هم أشدّ منهم ﴾ أي : من قريش ﴿ بطشاً ﴾ أي : قوّة وأخذاً لما يريدونه بالعنف والسطوة والشدّة .

تنبيه : كم منصوب بما بعده وقدم إما لأنه استفهام وإما لأن كم الخبرية تجري مجرى كم الاستفهامية في التصدير ومن قرن تمييز هم أشد صفة إمّا لكم وإما لقرن والفاء في قوله تعالى : ﴿ فنقبوا ﴾ عاطفة على المعنى كأنه قيل اشتدّ بطشهم فنقبوا : ﴿ في البلاد ﴾ والضمير في نقبوا ما للقرن المتقدّم وهو الظاهر وإما لقريش والتنقيب التنقير والتفتيش

ومعناه التطواف في البلاد قال الحارث بن حلزة:

*نقبوا في البلاد من حذر المو** ت وجالوا في الأرض كل مجال*

وقال امرؤ القيس:

*وقد نقبت في الآفاق حتى ** رضيت من الغنيمة بالإياب*

ولما كان التقدير ولم يسلموا مع كثرة تنقيبهم توجه سؤال تنبيه للغافل الذاهل وتقريع وتبكيت للمعاند الجاهل بقوله تعالى ﴿ هل من محيص ﴾ أي : معدل ومحيد ومهرب وإن دق من قضائنا ليكون لهؤلاء وجه ما في ردّ أمرنا .

(235/723)

﴿ إن في ذلك ﴾ أي : فيما ذكر في هذه السورة من الأساليب العجيبة والطرق الغريبة ﴿ لذكري ﴾ أي : تذكيراً عظيماً جدّاً ﴿ لمن كان ﴾ أي : كوناً عظيماً ﴿ له قلب ﴾ أي عقل في غاية العظمة فهو بحيث يفهم ما يراه ويعتبر به ومن لم يكن كذلك فلا قلب له سليم بل له قلب لاه ﴿ أو ألقى السمع ﴾ أي : استمع الوعظ بغاية إصغائه حتى كأنه يرمي بشيء ثقيل من علو إلى سفل ﴿ وهو ﴾ أي : والحال أنه في حال إلقائه ﴿ شهيد ﴾ أي : حاضر بكليته فهو في غاية ما يكون من تصويب الفكر وجمع الخاطر فلا يغيب عنه شيء مما تلي

عليه وألقي إليه فيتذكر وعطف على قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ﴾ قوله تعالى: ﴿ ولقد خلقنا ﴾ أي بما لنا من العظمة التي لا يقدر قدرها ولا يطاق حصرها ﴿ السموات والأرض ﴾ أي : على ما هما عليه من الكبر وكثرة المنافع ﴿ وما بينهما ﴾ من الأمور التي لا ينتظم الأمر على قاعدة الأسباب والمسببات بدونها ﴿ في ستة أيام ﴾ الأرض في يومين . ومنافعها في يومين والسموات في يومين ولو شاء لكان ذلك في أقل من لمح البصر ولكنه تعالى سنّ لنا التأنّي بذلك ﴿ وما مسنا ﴾ لأجل مالنا من العظمة أدنى مس . وعمم في النفي فقال تعالى : ﴿ من لغوب ﴾ أي : إعياء فإنه لو كان لاقتضى ضعفاً فاقتضى فساداً فكان من ذلك شيء على غير ما أردناه فكأن تصرفنا فيه غير تصرفنا في الباقي وأنتم تشاهدون الأمر في الكل على حد سواء من نفوذ الأمر وتمام التصرّف . ﴿ فاصبر ﴾ يا أشرف الخلق ﴿ على ما يقولون ﴾ أي : اليهود وغيرهم من إنكار البعث والتشبيه وغير ذلك فإنّ من قدر على خلق العالم بلا إعياء قدر على البعث وغيره ﴿ وسبح ﴾ أي : أوقع التنزيه عن كل شائبة نقص ملتبساً ﴿ بحمد ربك ﴾ أي : بإثبات الإحاطة بجميع صفات الكمال للسيد المدبر المحسن إليك بجميع هذه البراهين التي خصك بها مفضلاً لك على جميع الخلق وقوله تعالى : ﴿ قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ﴾ إشارة إلى طرفي النهار .

وقوله تعالى : ﴿ ومن الليل فسبحه ﴾ إشارة إلى زلفى من الليل وتقريره أنه صلى الله عليه وسلم كان مشتغلاً بأمرين أحدهما عبادة الله تعالى والثاني هداية الخلق فإذا لم يهتدوا قيل له أقبل على شغلك الآخر وهو العبادة قبل الطلوع وقبل الغروب ، لأنهما وقتا اجتماعهم ويكون المراد بقوله تعالى : ومن الليل أوّله لأنه أيضاً وقت اجتماعهم وقال أكثر المفسرين قبل طلوع الشمس صلاة الصبح وقبل الغروب الظهر والعصر ومن الليل العشاءان والتهجد ﴿ وأدبار السجود ﴾ التنقل بعد المكتوبات وقيل : الوتر بعد العشاء وقال مجاهد ومن الليل : يعني صلاة الليل أيّ وقت صلى . وقرأ نافع وابن كثير وحمزة بكسر الهمزة على أنه مصدر قام مقام ظرف الزمان كقولهم آتيك خفوق النجم وخلافة الحجاج ومعنى وقت إدبار الصلاة أي انقضائها وتمامها والباقون بالفتح جمع دبر وهو آخر الليل وعقبها ومنه قول أوس:

*على دبر الشهر الحرام بأرضنا ** وما حولها جدب سنون تلمع*

ولم يختلفوا في وأدبار النجوم وقوله تعالى : وأدبار معطوف إما على قبل الغروب وإما على من الليل وقال عمر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما : إدبار السجود الركعتان بعد صلاة المغرب وإدبار النجوم الركعتان قبل صلاة الفجر وهي رواية العوفيّ عن ابن عباس رضي الله عنهما وروي عنه مرفوعاً . قال البغوي : هذا قول أكثر المفسرين عن

عائشة رضي الله عنها قالت : "ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم على شيء من النوافل أشد معاهدة منه على الركعتين أمام الصبح" وعن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها" يعني بذلك سنة الفجر وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه "ما أحصي ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في الركعتين بعد المغرب والركعتين قبل الفجر بقل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد" وعن مجاهد وأدبار السجود : هو التسبيح باللسان في أدبار الصلوات المكتوبات .

(237/723)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سبح في دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين وكبر ثلاثاً وثلاثين وحمد اللّه ثلاثاً وثلاثين فذاك تسعة وتسعون ثم قال تمام المائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر" وعنه أيضاً "أنّ فقراء المهاجرين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات والنعيم المقيم فقال صلى الله عليه وسلم وما ذاك فقالوا : صلوا كما صلينا وجاهدوا كما جاهدنا وأنفقوا من فضول أموالهم وليست لنا أموال قال أفلا أخبركم بأمر تدركون به من قبلكم وتسبقون من

جاء بعدكم ولا يأتي أحد مثل ما جئتم به إلا من جاء بمثله تسبحون في دبر كل صلاة عشراً وتحمدون عشراً وتكبرون عشراً" . وقوله تعالى:

﴿ واستمع ﴾ أي : لما أخبرك به من أحوال القيامة فيه تهويل وتعظيم للمخبر به والمحدّث عنه . كما روي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال سبعة أيام لمعاذ بن جبل "يا معاذ اسمع ما أقول ثم حدّثه بعد ذلك" وقوله تعالى ﴿ يوم ﴾ ظرف لاستمع أي استمع ذلك في يوم ﴿ ينادي المنادي ﴾ أي : إسرافيل يقف على صخرة ببيت المقدس فينادي بالحشر فيقول : أيتها العظام البالية واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة إنّ الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء .

وقيل : المنادي جبريل ﴿ من مكان قريب ﴾ بحيث يسمع الصوت من بعد كما يسمعه من قرب يكونون في السماع سواء ، لا تفاوت بينهم أصلاً . واختلف في ذلك المكان القريب . فأكثر المفسرين : أنه صخرة بيت المقدس فإنها أقرب الأرض إلى السماء باثني عشر ميلاً وهي وسط الأرض . وقيل : من تحت أقدامهم . وقيل : من منابت شعورهم يسمع من كل شعرة أيتها العظام البالية . وقوله تعالى:

﴿ يوم يسمعون الصيحة ﴾ بدل من يوم ينادي والصيحة النفخة الثانية وقوله تعالى :

﴿ بالحق ﴾ حال من الصحية أي متلبسة بالحق أو من الفاعل أي يسمعون ملتبسين بسماع حق ﴿ ذلك ﴾ أي : اليوم العظيم الذي يظهر به المجد ويعلو بضعفاء المؤمنين الجدّ ﴿ يوم الخروج ﴾ أي : الذي لا خروج أعظم منه وهو خروجهم من قبورهم من الأرض التي خلقوا منها إلى المحشر وهو من أسماء يوم القيامة .

﴿ إنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ نحن ﴾ أي : خاصة ﴿ نحيي ونميت ﴾ أي : نجدد ذلك شيئاً بعد شيء سنة مستقرّة وعادة مستمرّة كما تشاهدونه فقد كان منا بالإحياء الأوّل المبدأ ﴿ وإلينا ﴾ أي : خاصة بالإماتة ثم الأحياء ﴿ المصير ﴾ أي : في الآخرة . وقيل تقديره نميت في الدنيا ونحيي في الآخرة للبعث . وإلينا المصير بعد البعث وقوله تعالى: ﴿ يوم ﴾ يدل من يوم قبله وما بينهما اعتراض . وقرأ ﴿ تشقق الأرض ﴾ نافع وابن كثير وابن عامر بتشديد الشين والباقون بالتخفيف ﴿ عنهم ﴾ أي : مجاوزة لهم بعد أن كانوا في بطنها فيخرجون منها أحياء كما كانوا على ظهرها أحياء حال كونهم ﴿ سراعاً ﴾ أي : إجابة منادينا وهو جمع سريع وأشار إلى عظمة الأمر بقوله تعالى ﴿ ذلك ﴾ أي : الإخراج العظيم جدّاً ﴿ حشر ﴾ أي : جمع بكره وزاد في بيان عظمة هذا الأمر بدلالته على اختصاصه بتقدم الجار فقال تعالى : ﴿ علينا ﴾ أي : خاصة ﴿ يسير ﴾ فكيف يتوقف فيه عاقل فضلاً عن أن ينكره وأما غيرنا فلا يمكنه ذلك بوجه . تنبيه : علينا متعلق بيسير

ففصل بمعمول الصفة بينها وبين موصوفها ولا يضرّ ذلك . وقال الزمخشريّ : التقديم للاختصاص وهو ما أشرت إليه أي لا يتيسر ذلك إلا على الله تعالى وحده وهو إعادة جواب قولهم ذلك رجع بعيد . وقوله تعالى:

(239/723)

﴿ نحن أعلم ﴾ أي : عالمون ﴿ بما يقولون ﴾ أي : في الحال والاستقبال من التكذيب بالبعث وغيره تسلية النبي صلى الله عليه وسلم وتهديد لهم ﴿ وما أنت عليهم بجبار ﴾ أي : بمسلط تجبرهم على الإسلام إنما أنت منذر وقد فعلت ما أمرت به ونحن القادرون على ردهم بما لنا من العلم المحيط وهذا قبل الأمر بالقتال ﴿ فذكر ﴾ أي : بطريق البشارة والنذارة ﴿ بالقرآن ﴾ أي : الجامع بمجده لكل خير المحيط بكل صلاح ﴿ من يخاف وعيد ﴾ فإنه لا ينتفع به غيره وهم المؤمنون . وقرأ ورش بإثبات الياء بعد الدال وصلاً لا وقفاً وحذفها الباقون وصلا ووقفاً وما رواه البيضاوي تبعاً للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال "من قرأ سورة ق هوّن الله عليه ثأرات الموت وسكراته" حديث موضوع وثأرات الموت بمثلثة وهمزة مفتوحة أهواله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 7 صـ 141.117 ﴾

وقال القاسمي :

سورة ق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ [1]

هو حرف من حروف التهجي المفتتَح بها أوائل السور ، مثل : ﴿ ص ﴾ و ﴿ ن ﴾ ، و ﴿ الم ﴾ ، و ﴿ حم ﴾ ، ونحوها . علم على السورة ، على الصحيح من أقوال ، كما تقدم مراراً .

تنبيه :

قال ابن كثير : روي عن بعض السلف أنهم قالوا : ﴿ ق ﴾ جبل محيط بجميع الأرض يقال له : جبل قاف .

وكأن هذا – والله أعلم – من خرافات بني إِسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس ؛ لما رأى من جواز الرواية عنهم مما لا يُصَدّق ولا يكذب . وعندي أن هذا وأمثاله من اختلاق بعض زنادقتهم يلبِّسون على الناس أمر دينهم ، كما افتُرِيَ في هذه الأمة – مع جلالة قدر علمائها

وحفاظها وأئمتها – أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وما بالعهد من قدم ، فكيف بأمَّة بني إسرائيل ، مع طول المدى ، وقلة الحفّاظ والنقاد فيهم ، وشربهم الخمور ، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه ، وتبديل كتب الله وآياته ؟ ! وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله : < وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج > فيما قد يجوّزه العقل ، فأما فيما تحيله العقول ويحكم فيه البطلان ويغلب على الظنون كذبه ، فليس من هذا القبيل . وقد أكثر كثير من السلف المفسرين وكذا طائفة كثيرة من الخلف ، من الحكاية عن كتب أهل الكتاب تفسير القرآن المجيد ، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم ، ولله الحمد والمنَّة . ثم ردّ ابن كثير – رحمه الله – ما قيل من أن المراد من : قضي الأمر والله ! كقول الشاعر :

~ قلت لها قفي فقالت قاف

أي : إني واقفة ، بأن في هذا نظراً ؛ لأن الحذف في الكلام إنما يكون إذا دل دليل عليه ، ومن أين يفهم هذا من ذكر هذا الحرف ؟ . انتهى .

﴿ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ أي : ذي المجد والشرف على غيره من الكتب .

﴿ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [2]

﴿ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي : لأنْ جاءهم منذر من جنسهم ، لا من جنس الملَك ، أو من جلدتهم ، وهو كما قال أبو السعود : إضراب عما ينبئ عنه جواب القسم المحذوف ، كأنه قيل : والقرآن المجيد أنزلناه إليك ؛ لتنذر به الناس ، حسبما ورد في صدر سورة الأعراف ، كأنه قيل بعد ذلك : لم يؤمنوا به ، جعلوا كلاً من المنذر والمنذر به عُرضة للنكير والتعجب ، مع كونهما أوفق شيء لقضية العقول ، وأقربه إلى التلقي بالقبول .

وقيل : التقدير : والقرآن المجيد إنك لمنذر . ثم قيل بعده : إنهم شكوا فيه ، ثم أضرب عنه . وقيل : بل عجبوا ، أي : لم يكتفوا بالشك والرد ، بل جزموا بالخلاف ، حتى جعلوا ذلك من الأمور العجيبة . وقيل : هو إضراب عما يفهم من وصف القرآن بالمجيد ، كأنه قيل : ليس سبب اقتناعهم من الإيمان بالقرآن أنه لا مجد له ، ولكن لجهلهم .

﴿ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ تفسير لتعجبهم ، وبيان لكونه مقارناً لغاية الإنكار ، مع زيادة تفصيل لمحل التعجب . وهذا إشارة إلى كونه عليه الصلاة والسلام منذراً بالقرآن . وإضمارهم أولاً للإشعار بتعينهم بما أسند إليهم ، وإظهارهم ثانياً للتسجيل عليهم بالكفر بموجبه ، أو عطف لتعجبهم من البعث ، على تعجبهم من البعثة . على أن هذا إشارة إلى مبهم يفسره ما بعده من الجملة الإنكارية .

﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ [3] .

﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ﴾ تقرير للتعجيب وتأكيد للإنكار . والعامل في إذا مضمر غنيّ عن

البيان ؛ لغاية شهرته ، مع دلالة ما بعده عليه ، أي : أحين نموت ونصير تراباً نرجع ، كما ينطق به النذير والمنذر به . مع كمال التباين بيننا وبين الحياة, حينئذٍ .

ذلك إشارة إلى محل النزاع ﴿ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ أي : عن الأوهام أو العادة أو الإمكان .

(242/723)

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ [4]

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ أي : ما تأكل من أجسامهم بعد مماتهم . وهو ردٌّ لاستبعادهم ، وإزاحة له . فإن من عمّ علمه ولطف حتى انتهى إلى حيث علم ما تنقِص الأرض من أجساد الموتى وتأكل من لحومهم وعظامهم ، كيف يستبعد رجعه إياهم أحياء كما كانوا ! وقيل : المعنى ما يموت فيدفن في الأرض منهم .

﴿ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ قال أبو السعود : أي : حافظ لتفاصيل الأشياء كله ، أو محفوظ من التغير . والمراد : إما تمثيل علمه تعالى بكليات الأشياء وجزئياتها ، بعلم من عنده كتاب محيط يتلقى منه كل شيء . أو تأكيد لعلمه تعالى بها ، بثبوتها في اللوح المحفوظ عنده .

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ [5]

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ ﴾ وهو القرآن ﴿ لَمَّا جَاءهُمْ ﴾ أي : من غير تأمُّل وتفكُّر .

قال الزمخشري : إضراب أتبع الإضراب الأول ؛ للدلالة على أنهم جاؤوا بما هو أفظع من تعجبهم ، وهو التكذيب بالحق ، الذي هو النبوة الثابتة بالمعجزات ، في أول وهلة من غير تفكر ولا تدبر . وكونه أفظع ؛ للتصريح بالتكذيب من غير تدبر بعد التعجب منه .

﴿ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ أي : مضطرب ، يعني اختلاف مقالتهم فيه من ادعاء أنه شعر أو سحر ونحوه ؛ تعنتاً وكبراً .

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [6]

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا ﴾ أي : هؤلاء المكذبون بالبعث ، المنكرون قُدرَتنا على إحياءهم بعد فنائهم ، ﴿ إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا ﴾ أي : رفعناها بغير عمد ﴿ وَزَيَّنَّاهَا ﴾ أي : بالنجوم ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ قال ابن جرير : يعني ومالها من صُدوع وفروق ، كقوله تعالى :

﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ ﴾ ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ

﴿ [الملك 3 – 4] أي : كليل عن أن ترى عيباً أو نقصاً .

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [7]

﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾ أي : بسطناها .

﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ أي : جبالاً ثوابت ، حفظاً لها من الاضطراب ؛ لقوة الجيشان في جوفها ، ﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ ﴾ أي : صنف ﴿ بَهِيجٍ ﴾ أي : حسن المنظر ، يُبتهَج به لحُسنه .

﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [8]

﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ أي : لتبصر وتذكّر كلَّ عبد منيب راجع إلى ربّه ، مفكّر في بدائع صنعه .

و ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى ﴾ منصوبات بالفعل الأخير على أنهما مفعولان له ، وإن كانتا علتين للأفعال المذكورة معنى . أو بفعل مقدر ، أي : فعلنا ما فعلنا تبصيراً وتذكيراً .

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ [9–11]

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أي : المُزن ﴿ مَاءً مُّبَارَكًا ﴾ أي : كثير المنافع ، ﴿ فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ ﴾ أي : أشجاراً ذوات أثمار ، ﴿ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ أي : الزرع المحصود من البُر والشعير وسائر أنواع الحبوب . وتخصيص إنبات حبه بالذكر ، لأنه المقصود بالذات .

﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ ﴾ أي : وأنبتنا بالماء الذي أنزلناه من السماء النخلَ طوالاً ، أو حوامل ، من أبسقت الشاةُ ، إذا حملت ، فيكون من : أفعل فهو فاعل ، والقياس : مفعل ، فهو من النوادر كالطوائح واللواقح ، في أخوات لها شاذة ؛ وإفرادها بالذكر مع دخولها في ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ لبيان فضلها بكثرة منافعها . وتوسيط الحب بينهما لتأكيد استقلالها وامتيازها عن البقية ، مع ما فيه من مراعاة الفواصل .

﴿ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ أي : متراكم بعضه فوق بعض .

﴿ رِزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾ أي : لرزقهم ، قال أبو السعود : علة لقوله تعالى : ﴿ فَأَنبَتْنَا ﴾ وفي تعليله بذلك بعد تعليل أنبتنا الأول بالتبصرة والتذكير تنبيهٌ على أن الواجب على العبد أن يكون انتفاعه بذلك من حيث التذكر والاستبصار ، أهم من تمتعه به من حيث الرزق .

وقيل : ﴿ رِزْقاً ﴾ مصدر من معنى ﴿ أَنبَتْنَا ﴾ لأن الإنبات رزق . ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ ﴾ أي : بذلك الماء ﴿ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ أي : أرضاً جدبة ، فأنبتت أنواع النبات والأزهار ﴿ كَذَلِكَ الْخُرُوجَ ﴾ أي : خروجهم أحياء من القبور . شبه بعث الأموات ونشرهم بقدرته تعالى بإخراج النبات من الأرض بعد وقوع المطر عليها ، فـ ﴿ كَذَلِكَ ﴾ خبر ﴿

الْخُرُوجَ ﴾ ، أو مبتدأ ، فالكاف بمعنى مثل .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [12 -14] .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ ﴾ أي : قبل قريش ﴿ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ قال أبو السعود : استئناف وارد لتقرير حقيقة البعث ، ببيان اتفاق كافة الرسل عليهم السلام عليها ، وتعذيب منكريها .

﴿ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ ﴾ وهو بئر كانوا عنده . يقال : إنهم قوم شعيب عليه السلام . ويقال غير ذلك ، كما تقدم في سورة الفرقان .

﴿ وَثَمُودَ ﴾ وهم اللذين جادلوا صالحاً ، وقتلوا الناقة .

﴿ وَعَادٍ ﴾ وهم اللذين جادلوا هوداً في أصنامهم .

﴿ وَفِرْعَوْنَ ﴾ وهو الذي جادل موسى فيما أُرسل به . قال الرازي : ولم يقل : وقوم فرعون ؛ لأن فرعون كان هو المغترّ المستخف بقومه والمستبد بأمره .

﴿ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴾ وهم اللذين جادلوه في إتيان الرجال .

﴿ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ ﴾ أي : الغيضة من الشجر ، المجادلون شعيباً في الكيل والوزن .

﴿ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ قال المهايمي : المجادلون إمامهم وعلماءهم في الدِّين . ومضى الكلام على ذلك في الحِجر والدخان .

﴿ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ ﴾ أي : كل من هذه الأمم وهؤلاء القرون كذبوا رسولهم ، ومن كذب رسولاً فكأنما كذب جميع الرسل ، كقوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء : 105] وإنما جاءهم رسول واحد ، فهم في نفس الأمر ، لو جاءهم جميع الرسل كذبوهم ، أفاده ابن كثير ، وهو توجيه لجمع الرسل . وإفراد ضمير ﴿ كَذَّبَ ﴾ مراعاة للفظ ﴿ كَذَّبَ ﴾ فإنه مفرد وإن كان جمعاً معنى . ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ أي : فوجب لهم الوعيد الذي وعد به مَنْ كفر ، وهو العذاب والنقمة . قال ابن جرير :

إنما وصف تعالى في هذه الآية ما وصف من إحلاله عقوبته بهؤلاء المكذبين الرسل ؛ ترهيباً منه بذلك مشركي قريش ، وإعلاماً منه لهم أنهم إن

لم ينيبوا من تكذيبهم رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم أنه مُحِلٌّ بهم من العذاب مثل الذي أحلَّ بهم . أي : فهو تسلية للرسول صلوات الله عليه ، وتهديد لهم .

القول في تأويل لقوله تعالى :

﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [15]

﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ﴾ أي : أفعجزنا عن الإبداء حتى نعجز عن الإعادة ؟ !

فالهمزة للإنكار . قال الشهاب : العي هنا بمعنى العجز ، لا التعب . قال الكسائي : تقول : أعييت من التعب ، وعييت من انقطاع الحيلة ، والعجز عن الأمر . وهذا هو المعروف والأفصح ، وإن لم يفرق بينهما كثير .

﴿ والخلق الأول ﴾ والخلق الأول هو الإبداء على ما ذكر ، ويحتمل أن يراد به خلق السماوات والأرض ؛ لأن خلق الْإِنْسَانْ متأخر عنه ، ويدل له آية : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ [الأحقاف : 33] الآية .

وقوله ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ عطف على مقدر ، يدل عليه ما قبله ، كأنه قيل : هم معترفون بالخلق الأول ، فلا وجه لإنكارهم للثاني ، بل هم اختلط عليهم الأمر والتبس ؛ لعدم فهمهم إعادة ما مات وتفرّق أجزاؤه وإعراضهم عن سلطان القدرة الإلهية ، وسهولة ذلك في المقدورات الربانية .

لطيفة :

قال الناصر : في الآية أسئلة ثلاث : لِمَ عَرَّف الخلق الأول ، ونكَّر اللبس ، والخلق الجديد ؟

فاعلم : أن التعريف لا غرض منه إلا تفخيم ما قصد تعريفه وتعظيمه ، ومنه تعريف الذكور في قوله ﴿ وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ [الشورى : 49] ، ولهذا المقصد عرَّف الخلق

الأول ؛ لأن الغرض جعله دليلاً على إمكان الخلق الثاني بطريق الأولى ، أي : إذا لم يعيَ تعالى بالخلق الأول – على عظمته – فالخلق الآخر أولى أن لا يَعيىَ به . فهذا سر تعريف الخلق الأول .

(247/723)

وأما التنكير فأمره منقسم : فمرَّةً يقصد به تفخيم المنكّر من حيث ما فيه من الإبهام ، كأنه أفخم من أن يخاطبه معرفة . ومرةً يقصد به التقليل من المنكَّر والوضع منه ، وعلى الأول : ﴿ سَلَامٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس : 85] ، وقوله : ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة : 9] و [الحجرات : 3] ، و ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ [الطور : 17] ، وهو أكثر من أن يحصى . والثاني : هو الأصل في التنكير ، فلا يحتاج إلى تمثيله ، فتنكير اللبس من التعظيم والتفخيم ، كأنه قال : في لبس أي : ليس . وتنكير الخلق الجديد ؛ للتقليل منه والتهوين لأمره بالنسبة إلى الخلق الأول . ويحتمل أن يكون للتفخيم ، كأنه أمرٌ أعظم من أن يرضى الإنسان بكونه ملتبساً عليه ، مع أنه أول ما تبصر فيه صحته . انتهى .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [

16] .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ أي : تحدّث به نفسه ، وهوما يخطر بالبال . وقوله تعالى ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ تمثيل للقرب المعنوي بالصورة الحسية المشاهدة ، وقد جعل ذلك القرب أتم من غاية القرب الصوريّ الذي لا اتصال أشد منه في الأجسام ؛ إذ لا مسافة بين الجزء المتصل به وبينه .

(248/723)

قال الشهاب : تجوّز بقرب الذات عن قرب العلم ، لتنزّهه عن القرب المكاني ، إما تمثيلاً ، وإما إطلاق السبب وإرادة المسبب ؛ لأن القرب من الشيء سبب للعلم به وبأحواله في العادة . والمعنى : أنه تعالى أعلم بأحواله – خفيّها وظاهرها – من كل عالم . وقد ضرب المثل في القرب بحبل الوريد ؛ لأن أعضاء المرء وعروقه متصلة على طريق الجزئية ، فهي أشد من اتصال ما اتصل به من الخارج ؛ وخص هذا لأن به حياته ، وهو بحيث يشاهده كل أحد . والحبل : العرق ؛ شبه بواحد الحبال ؛ فإضافته للبيان أو لامية ، من إضافة العام للخاص . فإن أبقى الحبل على حقيقته ، فإضافته كلجَيْن الماء .

تنبيه :

تأول ابن كثير الآية على غير ما تقدم بجعل ﴿ نَحْنُ ﴾ كناية عن الملائكة ، وعبارته : يعني ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه . قال : ومن تأوله على العلم ، فإنما فرَّ لئلا يلزم حلول أو اتحاد ، وهما منفيان بالإجماع ، تعالى اللهُ وتقدس ، ولكن اللفظ لا يقتضيه ؛ فإنه يقلُّ : وأنا أقرب إليه ، وإنما قال :

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ كما قال في المحتضر : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ [الواقعة : 85] ، يعني : ملائكته . وكما قال تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : 9] ، فالملائكة نزلت بالذكر وهو القرآن ، بإذن الله عز وجل . وكذلك الملائكة أقربُ إلى الإنسان من حبل الوريد ، بإقدار الله جلَّ وعَلا لهم على ذلك . فللملَك لمَّةٌ من الإنسان كما أن للشيطان لمَّة ؛ ولذلك الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم .

ثم أيد ابن كثير رحمه الله ما ذكره بما ورد في الآية بعدها . والوجه الأول أدق وأقرب ، وفيه من الترهيب وتناهي سعة العلم ، مع التعريف بجلالة المقام الربانيّ ما لا يخفى حسنه .

وليس تأويل من تأول بالعلم للفرار من الحلول والاتحاد فقط ، بل له ولِما تقدم أولاً ، كما أن إيثار : نحن على : أنا لا يحسم ما نفاه ؛ لاحتمال إرادة التعظيم بـ : نحن ، كما هو شائع ، فلا يتم له ذلك . نعم ! اللفظ الكريم يحتمل ما ذكره بأن يكون ورد ذلك تعظيماً للملك ؛ لأنه بأمره تعالى وبإذنه ، ولكن لا ضرورة تدعو إليه ، مع ما عرف من أن الأصل الحقيقة . وقد عنى رحمه الله بمن فهم الحلول والاتحاد مَن قال في تفسير الآية – كالقاشاني – ما مثاله : وإنما كان أقرب مع عدم المسافة بين الجزء المتصل به وبينه ؛ لأن اتصال الجزء بالشيء يشهد بالبينونة والاثنينية الراجعة للاتحاد الحقيقيّ ، ومعيته وقربه من عبده ليس كذلك ، فإن هويته وحقيقته المندرجة في هويته وتحققه ليست غيره ، بل إن وجوده المخصوص المعين إنما هو بعين حقيقته التي هي الوجود ، من حيث هو وجود ، ولولاه لكان عدماً صِرفاً ولا شيئاً محضاً . انتهى كلام القاشاني ، ولا يفهم من ذلك حلول ولا اتحاد بالمعنى المتعارف ؛ لأن لهؤلاء اصطلاحاً معروفاً ، وهم أوّلُ من يتبرّأ من الحلول والاتحاد ، كما أوضحت ذلك مع برهان استحالتهما في كتاب " دلائل التوحيد " الذي طبع بحمد الله من أمد قريب ، فارجع إليه واستغفر لمصنّفه .

أقول : رأيت ابن كثير بعدُ ، مسبوقاً بما ذكره شيخه الإمام ابن تيمية ، فقد أوضح ذلك رحمه الله في كتابه " شرح حديث النزول " : ليس في القرآن وصف الرب تعالى بالقرب من كل شيء أصلاً ، بل قُربُه الذي في القرآن خاصٌّ لا عام ، كقوله تعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : 186] فهو سبحانه قريب ممن دعاه ، وكذلك ما في الصحيحين ، عن أبي موسى الأشعريّ ، أنهم كانوا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر ، فكانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير فقال : < أيها الناس ! اربَعوا على أنفسكم ؛ فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً ، وإنما تدعون سميعاً قريباً ، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدِكم من عُنقِ راحلتِه > . فقال : < إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم > لم يقل : إنه قريب إلى كل موجود . وكذلك قول صالح عليه السلام ﴿ فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود : 61] ، ومعلوم أن قوله : ﴿ قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ مقرون بالتوبة والاستغفار . أراد به قريب مجيب لاستغفار المستغفرين التائبين إليه ، كما أنه رحيم ودود . وقد قرن القريب بالمجيب ، ومعلوم أنه لا يقال : مجيب لكل موجود ، وإنما الإجابة لمن سأله ودعاه ، فكذلك قربُه سبحانه وتعالى ، وأسماء الله المطلقة – كاسمه السميع والبصير والغفور والشكور والمجيب والقريب – لا يجب أن تتعلَّق بكل موجود ، بل يتعلق كل اسم بما يناسبه ، واسمه العليم لمَّا كان كل شيء يصلح أن يكون

معلوماً تعلَّق بكل شيء .

وأما قوله تعالى :

(251/723)

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ فالمراد به قربه إليه بالملائكة ، وهذا هو المعروف عن المفسرين المتقدمين من السلف ، قالوا : ملك الموت أدنى إليه من أهله ، ولكن لا تبصرون الملائكة . وقد قال طائفة ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ بالعلم ، وقال بعضهم : بالعلم والقدرة والرؤية . وهذه الأقوال ضعيفة ، فإنه ليس في الكتاب والسنة وصفه بقرب عامٍّ من كل موجود ؛ حتى يحتاجوا أن يقولوا : بالعلم والقدرة ، ولكن بعض الناس لمَّا ظنوا أنه يوصف بالقرب من كل شيء ، تأولوا ذلك بأنه عالم بكل شيء قادر على كل شيء ، وكأنهم ظنوا أن لفظ القرب مثل لفظ المعية . وقد ثبت عن السلف أنهم قالوا في الآية ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد : 4] : هو معهم بعلمه مع علوِّه على عرشه . وقد ذكر ابن عبد البر وغيره أن هذا إجماع من الصحابة والتابعين ، لم يخالفهم فيه أحد .

ثم قال : ولم يأت في لفظ القرب مثل ذلك أنه قال : هو فوق عرشه ، وهو قريب من كل شيء ، بل قال :

﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف : 56] ، وقال :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : 186] .

وقد روى ابن أبي حاتم بسنده أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! أقريب ربُّنا فنناجيه ، أم بعيدٌ فنناديه ؟ < فسكت النبي صلى الله عليه وسلم > ، فأنزل الله تعالى ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ الآية . ولا يقال في هذا : قريب بعلمه وقدرته ، فإنه عالم بكل شيء ، قادر على كل شيء ، وهم لم يشكّوا في ذلك ولم يسألوا عنه ، وإنما عن قُربه إلى مَن يدعوه ويناجيه ، فأخبر أنه قريب مجيب .

(252/723)

وطائفة من أهل السنة تفسر القُرْب في الآية والحديث بالعلم ؛ لكونه هو المقصود ، فإنه إذا كان يعلم ويسمع دعاء الداعي حصل مقصوده ، وهذا هو الذي اقتضى أن يقول من يقول بإنه قريب من كل شيء ، بمعنى العلم والقدرة ، فإن هذا قد قاله بعض السلف وكثير من الخلف ، لكن لم يقل أحد منهم : إن نفس ذاته قريب من كل موجود ، وهذا المعنى يقرُّ به جميع المسلمين ، من يقول : إنه فوق العرش ، ومن يقول : إنه ليس فوق العرش .

ثم قال : وهؤلاء كلهم مقصودهم أنه ليس المراد أن ذات البارىء جلَّ وعلا قريبة من وريد العبد ومن الميت . ولمَّا ظنوا أن المراد قربه وحده دون الملائكة فسَّروا ذلك بالعلم والقدرة ، كما في لفظ المعية . ولا حاجة إلى هذا ، فإن المراد بقوله : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ أي : بملائكتنا ، في الآيتين ، وهذا بخلاف المعية ، فإنه لم يقل : ونحن معه ، بل جعل نفسه هو الذي مع العباد ، وأخبر أنه ينبئهم يوم القيامة بما عملوا ، وهو نفسه الذي خلق السماوات والأرض ، وهو نفسه الذي استوى على العرش ؛ فلا يجعل لفظ مثل لفظ ، مع تفريق القرآن بينهما .

ثم قال : وقوله تعالى :

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ لا يجوز أن يراد به مجرد العلم ، فإن من كان بالشيء أعلم من غيره لا يقال : إنه أقرب إليه من غيره ، بمجرد علمه به ، ولا بمجرد قدرته عليه . ثم إنه سبحانه عالم بما يُسَرُّ من القول وما يجهر به ، وعالم بأعماله ، فلا معنى لتخصيصه حبلَ الوريد بمعنى أنه أقرب إلى العبد منه ؛ فإن حبل الوريد قريب إلى القلب ، ليس قريباً إلى قوله الظاهر ، وهو يعلم ظاهر الإنسان وباطنه . قال تعالى :

﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه : 7] ، ومما يدل على أن القرب ليس المراد به العلم سياقُ الآية ، فإنه قال :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ فأخبر أنه يعلم وَسواسَ نفسه .

ثم قال :

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ فأثبت العلم ، وأثبت القرب ، وجعلهما شيئين ، فلا يجعل أحدهما هو الآخر ، وقيد القرب بقوله ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ﴾ الآية .

وأما من ظن أن المراد بذلك قرب ذاتِ الربِّ من حبل الوريد ، وأن ذاته أقرب إلى الميت من أهله ، فهذا في غاية الضعف ؛ وذلك أن الذين يقولون : إنه في كل مكان ، وإنه قريب من كل شيء بذاته ، لا يخصون بذلك شيئاً دون شيء ، ولا يمكن مسلماً أن يقول : إن الله قريب من الميت دون أهله ، ولا : إنه قريب من حبل الوريد دون سائر الأعضاء . وكيف يصح هذا الكلام على أصلهم ، وهو عندهم في جميع بدن الإنسان ، وهو في أهل الميت ، كما هو في الميت ، فكيف يكون ﴿ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ إذا كان معه ومعهم على وجه واحد ؟ وهل يكون أقرب إلى نفسه من نفسه ، وسياق الآيتين يدل على أن المراد هو الملائكة ! ، فإنه قال :

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى ﴾ [16 – 17] الآيتين . فقيَّد القرب بهذا الزمان ، وهو زمان تلقي المتلقيين ، وهما الملكان الحافظان اللذان يكتبان ، كما قال :

﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ ﴾ [ق : 18] الآية . ومعلوم أنه لو كان قرب ذاتٍ لم يخصَّ ذلك بهذا الحال ، ولم يكن لذكر القعيدين : الرقيب والعتيد معنى مناسب . وكذلك قوله في الآية الأخرى : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ [الواقعة : 83 – 85] ، فإن هذا إما يقال : إذا كان هناك من يجوّز أن يبصر في بعض الأحوال ، لكن نحن لا نبصره ، والرب تعالى في هذا الحال لا يراه الملائكةُ ولا البشر . وأيضاً فإنه قال :

(254/723)

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ فأخبر عمن هو أقرب إلى المحتضر من الناس الذين عنده في هذه الحال . وذات الرب سبحانه وتعالى إذا قيل : هي في مكان ، أو قيل : قريبة من كل موجود ، لا يختص بهذا الزمان والمكان والأحوال ، فلا يكون أقرب إلى شيء من شيء ، ولا يجوز أن يراد قرب الربّ الخاص ، كما في قوله : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ فإن ذاك إنما هو قربه إلى من دعاه أو عبَده ، وهذا المحتضر قد يكون كافراً وفاجراً ، أو مؤمناً ومقرباً ؛ ولهذا قال تعالى :

﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ

الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ [الواقعة : 88 – 94] . ومعلوم أن مثل هذا المكذب لا يخصُّه الربُّ بقُرب منه دون من حوله ، وقد يكون حوله قوم مؤمنون ، وإنما هم الملائكة الذين يحضرون عند المؤمن والكافر ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ [النساء : 97] ، وقال تعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلَآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ [الأنفال : 50] ، وقال :

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام : 93] ، وقال تعالى :

﴿ حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام : 61] ، وقال تعالى :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة : 11] .

ومما يدل على ذلك أنه ذكره بصيغة الجمع فقال :

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ وهذا كقوله سبحانه :

﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [القصص : 3] ، وقال تعالى :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ [يوسف : 3] ،

وقال :

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [القيامة : 17 - 19] ، فإن مثل هذا اللفظ إذا ذكره الله تعالى في كتابه دلَّ على أن المراد أنه سبحانه بجنوده وأعوانه من الملائكة ؛ فإن صيغة : نحن يقولها المتبوع المطاع المعظَّم الذي له جنود يتبعون أمره ، وليس لأحد جند يطيعونه كطاعة الملائكة ربهم ، وهو خالقهم وربُّهم ؛ فهو سبحانه العالم بما توسوس به نفسه ، وملائكته تعلم ؛ فكان لفظ : نحن هنا هو المناسب ، وكذلك قوله : ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ فإنه سبحانه يعلم ذلك ، وملائكته يعلمون ذلك ، كما ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : < إذا هَمَّ العبدُ بحسَنةٍ كُتبت له حسنة ، فإن عمِلها كتبت له عشرُ حسنات ، وإذا هَمَّ بسيِّئةٍ لم

تكتب عليه ، فإن عملها كتبت سيئة واحدة ، وإن تركها لله كتبت له حسنة > . فالملك يعلم ما يهم به العبد من حسنة وسيئة ، وليس ذلك من علمهم الغيب الذي اختص الله به .

(256/723)

ثم قال : وقوله : ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ ، يقتضي أنه سبحانه وجنده الموكلين بذلك يعلمون ما توسوس به للعبد نفسُه ، كما قال : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف : 80] ، فهو يسمع ، ومن يشاء من ملائكته .

وأما الكتابة فرسله يكتبون كما قال هاهنا :

﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : 18] ، وقال تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ [يس : 12] ، وأخبر بالكتابة : نحن ؛ لأن جنده يكتبون بأمره ، وفصَّل في تلك الآية بين السماع والكتابة ؛ لأنه يسمع بنفسه .

وأما كتابة الأعمال فتكون بأمره ، والملائكة يكتبون ، فقوله :

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ مثل قوله :

﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ لما كانت ملائكته متقربين إلى العبد بأمره ، كما كانوا كاتبين عمله بأمره ، فإن ذلك قربه من كل أحد بتوسط الملائكة ، كتكليمه عبده بتوسط الرسل ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ [الشورى : 51] ، فهذا تكليمه لجميع عباده بواسطة الرسل ، وذاك قربه إليهم عند الاحتضار ، وعند الأقوال الباطنة في النفس والظاهرة . انتهى كلامه رحمه الله .

وقوله تعالى :

﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ [17] .

(257/723)

﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ أي : ونحن أقرب إلى الإنسان من وريد حلقه حين يتلقى الملكان الحفيظان ما يتلفظ به . فـ : إذْ ظرف لأقرب ، وفيه إيذان بأنه غني عن استحفاظ الملكين ، فإنه أعلم منهما ومطلع على ما يخفى عليهما ، لكنه لحكمة اقتضته ، وهي إلزام الحُجَّة في الأخرى ، والتقدم إلى ما يرغبه ويرهبه في الأولى .

وقال القاشاني : بيَّن تعالى بهذه الآية أقربيَّته لينتفي القرب بمعنى الاتصال والمقارنة ، كما

قال أمير المؤمنين عليه السلام : هو مع كل شيء لا بمقارنة ؛ إذ الشيء به ذلك الشيء ، وبدونه ليس شيئاً حتى يقارنه . أي : يعلم حديث نفسه الذي توسوس به نفسه وقت تلقي المتلقيين ، مع كونه أقرب إليه منهما . وإنما تلقيهما للحجة عليه ، وإثبات الأقوال والأعمال في الصحائف النورية ، للجزاء .

(258/723)

ثم قال : والمتلقي القاعد عن اليمين ، وهو القوة العاقلة العملية المنتقشة بصور الأعمال الخيرية المرتسمة بالأقوال الحسنة الصائبة ؛ وإنما قعد عن يمينه لأن اليمين هي الجهة القوية الشريفة المباركة ، وهي جهة النفس التي تلي الحق . والمتلقي القاعد عن الشمال هو القوة المتخيلة التي تنتقش بصور الأعمال البشرية البهيمية والسبعية ، والآراء الشيطانية والوهمية ، والأقوال الخبيثة الفاسدة ؛ وإنما قعد عن الشمال لأن الشمال هي الجهة الضعيفة الخسيسة المشؤومة ، وهي التي تلي البدن ، ولأن الفطرة الإنسانية خيِّرة بالذات ، لكونها من عالم الأنوار ، مقتضية بذاتها وغريزتها الخيرات . والشرور إنما هي أمور عرضت لها من جهة البدن وآلاته وهيئاته ، يستولي صاحب اليمين على صاحب الشمال ، فكلما صدرت منه حسنة كتبها له في الحال ، وإن صدرت منه سيئة منع صاحبَ الشمال من

كتابتها في الحال انتظاراً للتسبيح ، أي : التنزيه عن الغواشي البدنية والهيئات الطبيعية ، بالرجوع إلى مقره الأصليّ وسنخه الحقيقيّ وحاله الغريزي ؛ لينمحي أثر ذلك الأمر العارضيّ بالنور الأصليّ والاستغفار ، أي : التنوُّر بالأنوار الروحية والتوجه إلى الحضرة الإلهية ، لينمحي أثر تلك الظلمة العرضية بالنور الوارد كما روي < أن كاتب الحسنات على يمين الرجل ، وكاتب السيئات على يساره ، وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشراً ، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب اليسار : دعهُ سبعَ ساعات ، لعلَّه يسبِّح أو يستغفر > . انتهى .

(259/723)

وقد كثر في كلام القاشاني رحمه الله تأويل المَلَك بالقوة الحاثة على الخير ، والشيطان بالمغوية على الشر . وسبقه إليه الحكماء ، قال بعض الحكماء : هذا الشيء الذي أودِع فينا ونسميه قوة وفكراً ، وهو في الحقيقة معنى لا يدرك كُنهه ، وروحٌ لا تُكتنه حقيقتها ، لا يبعد أن يسميه الله تعالى ملكاً ويسمي أسبابه ملائكة ، أو ما شاء من الأسماء ، فإن التسمية لا حجْر فيها على الناس ، فكيف يحجر فيها على صاحب الإرادة المطلقة ، والسلطان النافذ والعلم الواسع ؟ .

وقد سبق الغزاليُّ إلى هذا المعنى وعبَّر عنه بالسبب ، وقال : إنه يسمَّى ملَكا ، فإنه في شرح عجائب القلب من كتاب " الإحياء " بعد ما قسم الخواطر إلى محمود ومذموم ، قال : وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان : فسبب الخاطر الداعي إلى الخير يسمى ملكاً ، وسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى شيطاناً . . . إلخ . والبحث كله غُرر ، تجدر مراجعته .

لطيفة :

﴿ قَعِيدٌ ﴾ كجليس بمعنى مجالس ، لفظاً ومعنى ؛ وإنما أفرِد رعايةً للفواصل ، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه ، كقوله :

فإني وقيّارٌ بها لغريبُ

وقيل : يطلق فعيل للواحد والمتعدد ، كقوله :

﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم : 4] ، وضعف بأنه ليس على إطلاقه ، بل إذا كان فعيل بمعنى مفعول بشروطه ، وهذا بمعنى فاعل ، فلا يصح فيه ذلك إلا بطريق الحمل على فعيل بمعنى مفعول .

﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [18] .

﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ ﴾ أي : ملك يرقب عمله ، ﴿ عَتِيدٌ ﴾ أي : حاضر . ولمَّا ذكر استبعادهم للبعث وأزاح ذلك بتحقيق قدرته وعلمه ، أعلمهم بأنهم يلاقون

ذلك عن قريب ، ونبّه على اقترابه بلفظ الماضي ، فقال سبحانه :

﴿ وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [19] .

(260/723)

﴿ وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ ﴾ أي : شدّته المحيّرة الشاغلة للحواس ، المذهلة للعقل ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أي : بالموعود الحق والأمرِ المحقَّق ، وهو الموت ؛ فالباء للملابسة . أو بالموعود الحق من أمر الآخرة ، والثواب والعقاب الذي غفل عنه ، فالباء للتعدية ، أي : أحضرت سكرة الموت حقيقة الأمر ، وهي أحوالها الباطنة ، وأظهرتها عليه .

قال الشهاب : السكرة استعيرت للشدة ، ووجه الشبه بينهما أن كلاً منهما مذهِب للعقل ، فالاستعارة تصريحية تحقيقية . ويجوز أن يشبه الموت بالشراب على طريق الاستعارة المكنية . وإثبات السكرة لها تخييل .

﴿ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ أي : تَفرّ . والجملة على تقدير القول ، أي : يقال له وقت الموت : ذلك الأمر الذي رأيته هو الذي كنت منه تحيد في حياتك ، فلم ينفعك الهرب والفرار .

وهل المشار إليه بذلك ، الحق أو الموت ؟ قال الطيبي : إن اتصل قوله :

﴿ وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ ﴾ إلخ ، بقوله : ﴿ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وما معه ، فالمشار إليه بذلك الحق ، والخطاب للفاجر ، أي : جاءك أيها الفاجر الحقُّ الذي أنكرته ، وإن اتصل بقوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ ﴾ إلخ ، فالمشار إليه الموت ، والالتفات لا يفارق الوجهين ، والثاني هو المناسب ، لقوله :

﴿ وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ بعده ، وتفصيله ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [ق : 24] ، ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ [ق : 31] انتهى .

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ [20 - 21] .

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ يعني : نفخة البعث ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي : النفخ ﴿ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴾ أي : وقت تحقق الوعيد بشهود ما قدّم من الأعمال وما أخّر .

(261/723)

﴿ وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ قال ابن جرير : أي : سائق يسوقها إلى الله ، وشاهد يشهد عليها بما عملت في الدنيا من خير أو شر . وهل هما ملكان ، أو ملك جامع للوصفين ، أو الأول ملك ، والثاني الإنسان نفسه يشهد على نفسه ، أو سائق من أعمالها ،

إلى مكان جزائها ، وشهيد من أجزائها ؟ أقوال : وقال القاشاني : أي : سائق من عمله ، وشهيد من عمله ؛ لأن كل أحد ينجذب إلى محل نظره ، وما اختاره بعمله . والميل الذي يسوقه إلى ذلك الشيء إنما نشأ من شعوره بذلك الشيء وحكمه بملائمته له ، سواء كان أمراً سفلياً جسمانياً بعثه عليه هواه وأغراه عليه وهمُه وقوّاه ، أو أمراً عُلوياً روحانياً بعثه عليه عقله ومحبَّتُه الروحانية وحرَّضه عليه قلبُه وفطرته الأصلية . فالعلم الغالب عليه سائقه إلى معلومه ، وشاهده بالميل الغالب عليه ، والحبُّ الراسخ فيه

والعمل المكتوب في صحيفته يشهد عليه بظهوره على صور أعضائه وجوارحه ، وينطق عليه كتابه بالحق ، وجوارحه بهيئات أعضائه المتشكلة بأعماله . انتهى .

﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [22] .

﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ في المخاطب بهذا ، أقوالٌ ثلاثة :

أحدها : أنه النبي صلى الله عليه وسلم ، أتى بهذه الجملة معترضة في خلال النبأ الأُخروي ، تنويهاً بمِنَّة الإعلام بذلك ، والتعريف به ، ثم شدة نفوذ البصر به والوقوف على غوامضه بعد خلوِّ الذهن عنه رأساً . والمعنى : لقد كنت في غفلة من هذا القرآن قبل أن يوحى إليك ، فكشفنا عنك غطاءك بإنزاله إليك ؛ فبصرك اليوم حديدٌ نافذ قوي ، ترَى ما لا يَرون

، وتعلم مالا يعلمون . ومثله آية ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ [الشورى : 52] .

(262/723)

وثانيها : أنه الكافر ، وأن الكلام على تقدير القول ، أي : يقال له : لقد كنت في غفلة من هذا الذي عاينت اليوم من الأهوال ، فكشفنا عنك غطاءك بأن جلينا لك ذلك ، وأظهرناه لعينيك حتى رأيته وعاينته ، فزالت الغفلة عنك . ومثله عن الكفار آية : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم : 38] ، وآية : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ [السجدة : 12] .

وثالثها : أنه الإنسان مطلقاً ، لقوله : ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ ، والمقصود أنه كشف الغطاء عن البَرِّ والفاجر ، ورأى كل ما يصير إليه .

وعوّل ابن جرير في الأولوية على الثالث .

قال الزمخشري : جعلت الغفلة كأنها غطاء غطى بها جسده كله ، أو غشاوة غطى بها عينيه ، فهو لا يبصر شيئاً ، فإذا كان يوم القيامة تيقظ وزالت الغفلة عنه وغطاؤها ، فيبصر ما لم يبصره من الحق .

وقال القاشاني في تأويل الآية : ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا ﴾ لاحتجابك بالحس والمحسوسات وذهولك عنه ؛ لاشتغالك بالظاهر عن الباطن ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ ﴾ بالموت ﴿ غِطَاءكَ ﴾ المادي الجسماني الذي احتجبت به ﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ أي : إدراكك لما ذهلتَ عنه ولم تصدّق بوجوده ، قويّ تعاينه . انتهى .

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ [23]

(263/723)

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ ﴾ أي : قرين هذا الإنسان الذي جيء به يوم القيامة معه سائق وشهيد ، وهو إما الملك الموكل عليه في الدنيا لكتابة أعماله ، وهو الرقيب المتقدّم ، أو الشيطان الذي قيّض له مقارناً يغويه ، وهو الأظهر – كما اعتمده الزمخشري – لآية : ﴿ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف : 36] ، ويشهد له قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ [ق : 27] ، ﴿ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ أي : هذا شيء لدي حاضر معدٌّ محفوظ . والإشارة على الأول لما في صحفه ، وعلى الثاني للشخص نفسه ، أي : هذا ما لدي عتيد لجهنم هيّأته بإغوائي لها .

وقال القاشاني :

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ ﴾ أي : من شيطان الوهْم الذي غرَّه بالظواهر وحجبَهُ عن البواطن : ﴿ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ مهيَّأ لجهنم ، أي : ظهر تسخير الوهم إياه في التوجه إلى الجهة السفلية ، وأنه ملَكه واستعبده في طلب اللذات البدنية ، حتى هيأه لجهنم في قعر الطبيعة . انتهى .

﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [24]

﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ خطاب من الله تعالى للسائق والشهيد ، على أنهما ملكان ، لا ملك جامع للوصفين ، أو لملكين من خزنة النار ، أو لواحد ؛ وتثنية الفاعل منزل منزلة تثنية الفعل ، وتكريره على أنه أصله : ألق ، ألقِ ، ثم حذف الفعل الثاني ، وأبقى ضميره مع الفعل الأول ، فثنى الضمير للدلالة على ما ذكر ، أو الألف بدل من نون التوكيد ؛ لأنها تبدل ألفاً في الوقف ، فأجرى الوصل مجراه ، أوجه ذكروها .

وقال ابن جرير : أخرج الأمر للقرين – وهو بلفظ واحد – مَخرَجَ خطاب الاثنين . وفي ذلك وجهان من التأويل :

أحدهما : أن يكون القرين بمعنى الاثنين ، كالرسول ، والاسم الذي يكون بلفظ الواحد في الواحد والتثنية والجمع . فرد قوله : ﴿ أَلْقِيَا ﴾ إلى المعنى .

والثاني : أن يكون كما كان بعض أهل العربية يقول ، وهي : إن العرب تأمر الواحد والجماعة بما تأمر به الاثنين ، فتقول للرجل : ويلك ! ارحلاها ، وازجُراها ، كما قال :

~فقلتُ لصاحبي لا تحْبِسانا بِنَزْعِ أصولِهِ واجتَزَّ شيحا

وقال أبو ثروان :

~فإن تزجراني يا ابن عفانَ أنْزَجِرْ وإن تَدَعَاني أَحْمِ عِرضاً مُمنَّعَا

وسبب ذلك منهم أن الرجل أدنى أعوانه في إبله وغنمه اثنان ، وكذلك الرفقة أدنى ما تكون ثلاثة ؛ فجرى كلام الواحد على صاحبيه . ألا ترى الشعراء أكثر شيء قيلاً : يا صاحبَي ، ياخليليّ . انتهى .

والكَفَّار المبالِغ في جحده وحدانيةَ الله تعالى وما جاء به رسوله صلوات الله عليه .

والعنيد المعانِد للحق وسبيل الهدى ، لا يسمع دليلاً في مقابلة كفره ، وقد زاد على العناد بوصف :

﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴾ [25]

﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ أي : الكليّ ، وهو الإسلام ، أو المال . واستصوب ابن جرير أنه هنا كل حق وجب لله أو لآدمي في ماله ، لأنه لم يخصص منه شيء ؛ فدل على أنه كل خير يمكن منعه طالبه ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ أي : متجاوز الحدَّ في الاعتداء على الناس بالبَذاء والفُحش في

المنطق ، وبيده بالسطوة والبطش ظلماً ، كما قال قتادة : معتدٍ في منطقه وسيرته وأمره .

﴿ مُرِيبٍ ﴾ أي : شاكّ في الحق ، أو مُوقع صاحبه في الرَّيب مع كثرة الدلائل .

(265/723)

وقال القاشاني : الخطاب في ﴿ أَلْقِيَا ﴾ للسائق والشهيد الذيْن يُوبقانه ويُلقيانه ويهلكانه في أسفل غياهِب مَهواة الهيولي الجسمانية ، وغيَابةِ جُبِّ الطبيعة الظلمانية في نيران الحرمان . أو لمالك . والمراد بتثنية الفاعل تكرار الفعل ، كأنما قال : ألق ، ألق ، لاستيلائه عليهم في الإبعاد والإلقاء إلى الجهة السفلية . ويقوّي الأول : أنه عدد الرذائل الموبقة التي أوجبت استحقاقهم لعذاب جهنم ، ووقوعهم في نيران الجحيم ، وبيَّن أنها من باب العلم والعمل . والكفران ومنع الخير كلاهما من إفراط القوة البهيمية الشهوانية ، لانهماكها في لذاتها ، واستعمالها نِعَم الله تعالى في غير مواضعها من المعاصي والاحتجاب عن المنعم بها ، ومن حقها أن تذكّره وتبعث على شكره ، ومكالبتها عليها لفرط ولوعها بها ؛ فتمنعها عن مستحقّيها . وذكرهما على بناء المبالغة ؛ ليدل على رسوخ الرذيلتين فيه وغلبتِهما عليه ، وتعمقِه فيهما الموجب للسقوط عن رتبة الفطرة في قعر بئر الطبيعة . والعنود والاعتداء كلاهما من إفراط القوة الغضبية ، واستيلائها لفرط الشيطنة ، والخروج عن حد العدالة .

والأربعة من باب فساد العمل . والريب والشرك كلاهما من نقصان القوة النطقية ، وسقوطها عن الفطرة بتفريطها في جنب الله ، وتصورها عن حد القوة العاقلة ؛ وذلك من باب فساد العلم . انتهى .

﴿ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾ [26] .

﴿ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ أي : عبَد معه معبودا آخر من خلقه ﴿ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾ أي : عذاب جهنم .

لطيفة :

(266/723)

الموصول إما مبتدأ مضمَّن معنى الشرط ، وخبره ﴿ فَأَلْقِيَاهُ ﴾ أو مفعول لمضمر يفسره ﴿ فَأَلْقِيَاهُ ﴾ أو بدل من ﴿ كُلَّ كَفَّارٍ ﴾ فيكون ﴿ فَأَلْقِيَاهُ ﴾ تكريراً للتوكيد . قيل على الأخير : إنه مخالف لما ذكره أهل المعاني من أن بين المؤكَّد والمؤكِّد شدة اتصال تمنع من العطف . وأجيب : بأنه من باب : وحقك ثم حقك ، نزّل التغاير بين المؤكَّد والمؤكد والمفسِر والمفسَر ، منزلةَ التغاير بين الذاتين بوجه خطابي . ولو جعل ﴿ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ ﴾ نوعاً من عذاب جهنم ومن أهواله ، على أنه من باب ﴿ وَمَلَآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ ﴾

[البقرة: 98] كان حسناً .

قال الشهاب بعد نقله ما ذكر: قال ابن مالك في "التسهيل": فصلُ الجملتين في التأكيد بـ: ثم، إن أمن اللبس، أجود من وصلهما، وذكر بعض النحاة الفاء. وذكر الزمخشري في الجاثية الواوَ أيضاً، واتفق النحاة على أنه تأكيد اصطلاحيّ، وكلام أهل المعاني في إطلاق منعه غير سديد. انتهى.

﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ [27].

﴿ قَالَ قَرِينُهُ ﴾ أي: قرين هذا الإنسان الكفَّار المنَّاع للخير، وهو شيطانه الذي كان موكلاً به في الدنيا، متبرئاً منه ﴿ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ أي: بالإرابة ومنع الإسلام وجعل إله آخر معك ﴿ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ أي: في طريق جائر عن سبيل الهدى، جوراً بعيداً بنفسه.

(267/723)

قال القاشاني: وقول الشيطان: ﴿ مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ إلخ كقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ﴾ [إبراهيم: 22]، لأنه لو لم يكن في ضلال عن طريق

التوحيد ، بعيد عن الفطرة الأصلية بالتوجه إلى الجهة السفلية ، والتغشي بالغواشي المظلمة الطبيعية ، لم يقبل وسوسة الشيطان ، وقبل إلهام الملك ؛ فالذنب إنما يكون عليه بالاحتجاب من نور الفطرة ، واكتساب الجنسية مع الشيطان في الظلمة . انتهى .

وقال ابن جرير : وإنما أخبر تعالى عن قول قرين الكافر له يوم القيامة ، إعلاماً منه عباده ، تبرُّأ بعضهم من بعض يوم القيامة .

﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴾ [28]

﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴾ أي : لا تختصموا اليوم في دار الجزاء وموقف الحساب ؛ فلا فائدة في اختصامكم ، وقد قدمت إليكم في الدنيا بالوعيد لمن كفر بي وعصاني وخالف أمري ونهيي في كتبي ، وعلى ألسن رسلي .

قال القاشاني : النهي عن الاختصام ليس المراد به انتهاءه ، بل عدم فائدته, والاستماع إليه . كأنه قيل : لا اختصام مسموع عندي ، وقد ثبت وصحَّ تقديم الوعيد ، حيث أمكن انتفاعكم به ؛ لسلامة الآلات وبقاء الاستعداد ، فلم تنتفعوا به ولم ترفعوا لذلك رأساً ، حتى ترسخت الهيئات المظلمة في نفوسكم ، ورانت على قلوبكم ، وتحقق الحجاب ، وحقّ القول بالعذاب . انتهى .

وعن ابن عباس : أنهم اعتذروا بغير عذر ، فأبطل الله حجتهم وردَّ عليهم قولهم .

﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [29]

﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ﴾ قال ابن جرير : ما يغيَّر القول الذي قلته لكم في الدنيا وهو قوله : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ ، ولا قضائي الذي قضيته فيهم فيها .

﴿ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ أي : فلا أعذب أحداً بذنب غيره ، ولكن بذنبه بعد قيام الحجة عليه .

وقال القاشاني :

﴿ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ ﴾ حيث وهبت الاستعداد ، وأنبأت على الكمال المناسب له وهديتكم إلى طريق اكتسابه ، بل أنتم الظلامون أنفسكم باكتساب ما ينافيه ، وإضاعة الاستعداد بوضع النور في الظلمة ، واستبدال ما يفنى بما يبقى .

تنبيهات :

الأول : ظاهر الآيات أن هذا التقاول على حقيقته ؛ إذ لا مانع منها . وذهب بعض المفسرين إلى أنها مجاز .

قال القاشاني : هذه المقاولات كلها معنوية ، مثلت على سبيل التخييل والتصوير ، لاستحكام المعنى في القلب ، عند ارتسام مثاله في الخيال ، فادعاء الكافر الإطغاء على

الشيطان وإنكار الشيطان إياه ، عبارة عن التنازع والتجاذب الواقع بين قوتيه : الوهمية والعقلية ، بل بين كل اثنتين متضادتين من قواه : كالغضبية والشهوية مثلا ؛ ولهذا قال : ﴿ لَا تَخْتَصِمُوا ﴾ ولما كان الأمران في وجوده هما العقلية والوهمية ، كان أصل التخاصم بينهما ، وكذا يقع التخاصم بين كل متحاورين متخاوضين في أمر ، لتوقع نفع أولذة ، يتوقفان ما دام مطلوبهما حاصلاً ، فإذا حرما أوقعا بسعيهما في خسران وعذاب ، تدارءا ، أو نسب كلٌّ منهما التسبب في ذلك إلى الآخر ، لاحتجابهما عن التوحيد ، وتبرؤ كل منهما عن ذنبه لمحبَّة نفسه ؛ ولذلك قال حارثة رضي الله عنه للنبي عليه السلام : ورأيت أهل النار يتعاورون . و < صوب عليه السلام قوله > . انتهى .

(269/723)

الثاني : إن قلت : لم طرحت الواو من جملة ﴿ قَالَ قَرِينُهُ ﴾ وذكرت في الأولى ؟ قلت : لأنها استؤنفت كما تستأنف الجمل الواقعة في حكاية التقاول ، كما رأيت في حكاية المقاولة بين موسى وفرعون .

فإن قلت : أين المقاولة ؟ قلت : لما قال قرينة : ﴿ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ وتبعه قوله : ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ وتلاه : ﴿ لَا تَخْتَصِمُوا ﴾ علم أن ثَمَّ مقاولة من الكافر ،

لكنها طرحت للدلالة عليها من السياق كأنه لما قال القرين : هذا ما لدي عتيد ، قال الكافر : رب هو أطغاني ، فلما قال الكافر ذلك ، قال القرين : ما أطغيته ، فلما حكى قول القرين والكافر كأن قائلاً يقول : فماذا قال الله تعالى ؟ فقيل : ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ ﴾ وذكر الواو في الجملة الأولى لأنها أول المقاولة ، ولا بد من عطفها للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها في الحصول ، أعني مجيء كل نفس مع الملكين ، وقول قرينه ما قاله له ، هذا ملخص ما في " الكشاف " .

الثالث : جوز قوله تعالى :

﴿ بِالْوَعِيدِ ﴾ أن تكون الباء زائدة في المفعول ، وأن يكون حالاً من الفاعل أو المفعول ، والباء للملابسة ، أو المعية ، والمعنى : قدمت هذا القول موعداً لكم به ، أو حال كون القول ملتبساً بالوعيد ، أو من ﴿ لَا تَخْتَصِمُوا ﴾ على تأويل تقديم الوعيد بالعلم به ، أي : لا تختصموا عالمين به ؛ وذلك لتصح الحالية ، ويكون بينها وبين عاملها مقارنة على اصطلاحهم .

الرابع : دل قوله تعالى :

﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ﴾ على أنه لا خلف في إيعاد الله تعالى ، كما لا إخلاف في ميعاد الله . وهذا يرد على المرجئة حيث قالوا : ما ورد في القرآن من الوعيد فهو تخويف لا يحقق الله شيئاً منه ، وقالوا : الكريم إذا وعد أنجز ووفَّى ، وإذا أوعد أخلف وعفا ، أفاده الرازي .

ووجه الاستدلال أنه لو صح ما ذكروه للزم تبديل قوله تعالى ، والخلف في إخباره – تقدس عن ذلك – مع أن طبيعة الذنب تقتضي العقوبة ، إلا أن يتاب منه ، أو يشاء تعالى العفو عنه .

الخامس : ذكروا في سر المبالغة في ﴿ بِظَلَّامٍ ﴾ وجوهاً :

منها : أن فعّالاً قد ورد بمعنى فاعل ، فهذا منه .

ومنها : اعتبار كثرة الخلق .

ومنها : أن المنسوب في المعتاد إلى الملوك من الظلم تحت ظلمهم ، إن عظيماً فعظيم وإن قليلاً فقليل ، فما كان ملك الله تعالى على كل شيء ملكه ، قدس ذاته عما يتوهم مخذول ، والعياذ بالله ، أنه منسوب إليه من ظلم تحت شمول كل موجود .

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [30]

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ قال ابن جرير : فيه لأهل التأويل قولان :

الأول : أن معناه : ما من مزيد . فعن مجاهد قال : وعدها الله ليملأنها فقال : هلا وفَّيتك

؟ قالت : وهل من مسلك ؟ ! .

الثاني : معناه : زدني .

أي : فالاستفهام على الأول إنكاريّ ، معناه النفي ، وأيد بآية ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود : 119] و [السجدة : 13] ، والقرآن يفسر بعضُه بعضاً وعلى الثاني تقريريّ ، دلالة على سعتها . بحيث يدخلها من يدخلها ، وفيها فراغ وخلوّ ، كأنه يطلب الزيادة .

فإن قيل : الوجه الثاني – وهو كونها فيها فراغ – منافٍ لصريح النظم من قوله ﴿ لأملأن جهنم ﴾ الآية ، قلت : لا منافاة بينهما كما توهم ؛ لأن الامتلاء قد يراد به أنه لا يخلو طبقة منها عمن سكنها ، وإن كان فيها فراغ كبير ، كما يقال : إن البلدة ممتلئة بأهلها ، ليس فيها دار خالية ، مع ما بينها من الأبنية والأفضية . أو هذا باعتبار حالين ، فالفراغ في أول دخول أهلها فيها ، ثم يساق إليها الشياطين ونحوهم فتمتلئ .

تنبيه :

ذهب جماعة إلى أن المقاولة في الآية مجاز على طريق الاستعارة التمثيلية ، وأن جهنم لشدة توقدها وزفيرها وتهافت الكفرة والعُصاة وقذفهم فيها ، كأنها طالبة للزيادة . وآخرون إلى أن ذلك حقيقة .

قال الناصر في " الانتصاف " : إنا نعتقد أن سؤال جهنم وجوابها حقيقة ، وأن الله تعالى يخلق فيها الإدراك بذلك بشرطه . وكيف نفرض ، وقد وردت الأخبار وتظاهرت على ذلك ؟ منها هذا ، ومنها < لجاج الجنة والنار > ، ومنها < اشتكاؤها إلى ربها ، فأذن لها في نَفَسين > . وهذه وإن لم تكن نصوصاً ، فظواهر يجب حملها على حقائقها ، لأنا متعبدون باعتقاد الظاهر ، ما لم يمنع مانع ، ولا مانع هاهنا ، فإن القدرة صالحة والعقل يجوِّز ، والظواهر قاضية بوقوع ما جوَّزه العقل . وقد وقع مثل هذا قطعاً في الدنيا ، < كتسليم الشجر ، وتسبيح الحصى في كف النبي صلى الله عليه وسلم وفي يد أصحابه > . ولو فتح باب المجاز والعدول عن الظاهر في تفاصيل المقالة ، لا تسع الخرْق وضلَّ كثير من الخلق عن الحق . وليس هذا كالظواهر الواردة في الإلهيات مما لم يجوز العقل اعتقاد ظاهرها ، فإن العدول فيها عن ظاهر الكلام بضرورة الانقياد إلى أدلة العقل المرشدة إلى المعتقد الحق . انتهى .

قال الشهاب : وهو كلام حسن ، وأمور الآخرة لا ينبغي أن تقاس على أمور الدنيا . انتهى .

ولا تنس ما قلناه مراراً من أن اللغة لا تنحصر في الحقيقة ، وأن أكثر اللغة مجاز لا حقيقة ، كما أوضحه السيوطي في " المزهر " والجرجاني في " أسرار البلاغة " . وفي شواهد العرب الكثيرة ما يؤيد المجاز ، ولا محذور فيه ، عدا عن كونه أبلغ ، كما قرروه . وبالجملة فالنظم الكريم يحتملها – والله أعلم – .

و﴿ يَوْمَ ﴾ منصوب بـ : ﴿ ظَلاَّمٍ ﴾ أو بمضمر ، نحو : اذكر وأنذر . والمزيد إما مصدر كالمَحيد ، أو اسم مفعول كالمبيع .

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ [31]

(272/723)

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ ﴾ أي : قرّبت ، أودنيت ، ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أي : للذين اتقوا ربهم فخافوا عقوبته بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أي : مكاناً غير بعيد ، فهو صفة للظرف قام مقامه ، أو حال من الجنة . وتذكيره لأنه صفة مذكر ، أي : شيئاً غير بعيد ، أو تأويل الجنة بالبستان ، أو لكونها على زنة المصدر الذي من شأنه أن يستوي فيه المذكر والمؤنث ، فعومل معاملته وأجري مجراه . وعلى كلٍّ فهو للتأكيد ، ودفع التجوز ، فلا يقال بعد ذكر كونها قربت : لا يحتاج إلى كونها غير بعيدة .

﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ [32]

﴿ هَذَا ﴾ أي : الثواب أو الإزلاف ﴿ مَا تُوعَدُونَ ﴾ أيها المتقون ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴾ أي : راجع عن معصية الله إلى طاعته ، تائب من ذنوبه ﴿ حَفِيظٍ ﴾ أي : حافظ على فرائض الله وما ائتمنه عليه .

وقال القاشاني : أي : محافظ على صفاء فطرته ونوره الأصلي ، كي لا يتكدر بظلمة النفس و ﴿ لِكُلِّ ﴾ بدل من ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ بإعادة الجار .

﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ [33]

﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ أي : خاف الله في سرّه . وقال القاشاني : أي : من اتصف بالخشية وصارت الخشية مقامه . و ﴿ مَنْ ﴾ بدل بعد بدل ، أو خبر لمحذوف ، أي : هم من خشي . أو مبتدأ خبره ما بعده بتأويل : يقال لهم ادخلوها . . . . إلخ .

﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ أي : جاء ربَّه تائب من ذنوبه ، راجع مما يكرهه تعالى إلى ما يرضيه .

﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [34 - 35]

﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ﴾ أي : يقال لهم : ادخلوا هذه الجنة بأمان من الهمّ والحزن والخوف .

﴿ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا ﴾ أي : مما تشتهيه نفوسهم وتلذّه أعينهم ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ أي : ممَّا لا يخطر على بالهم ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ [36]

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم ﴾ أي : قبل هؤلاء المشركين من قريش ﴿ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً ﴾ أي : قوة ، كعاد وفرعون وثمود ﴿ فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ ﴾ أي : فضربوا فيها وساروا وطافوا أقاصيها . قال امرؤ القيس :

~لقد نقَّبتُ في الآفاق حتى رَضيتُ من الغنيمةِ بالإيابِ

﴿ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ أي : هل كان لهم – بتنقيبهم في البلاد – بطشاً عن الهلاك الذي وُعِدوا به لتكذيبهم الحق . والضمير على هذا في ﴿ نَقَّبُوا ﴾ للقرن الذين هم أشد بطشاً ، وجوز عوده لهؤلاء المشركين ، أي : ساروا في أسفارهم في بلاد القرون ، فهل رأوا لهم محيصاً حتى يتوقعوا مثله لأنفسهم ؟ .

قال ابن جرير : وقرأت القراء قوله ﴿ فَنَقَّبُوا ﴾ بالتشديد وفتح القاف ، على وجه الخبر عنهم . وذكر عن يحيى بن يعمر أنه كان يقرأ : فنقِبوا بكسر القاف ، على وجه التهديد والوعيد ، أي : طوّفوا في البلاد وترددوا فيها ، فإنكم لن تفوتونا بأنفسكم .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [37]

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي : في إهلاك القرون التي أُهلِكت من قبل قريش ﴿ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ أي : لتذكرة يتذكر بها من كان له عقل من هذه الأمة ، فينتهي عن الفعل الذي كانوا يفعلونه من كفرهم بربهم ، خوفاً من أن يحلَّ بهم مثل الذي حلَّ بهم من العذاب .

﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ﴾ أي : أصغى للأخبار – عن هذه القرون التي أهلِكت – بسمعه .

(274/723)

﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أي : حاضر القلب متفهم لما يخبر به عنهم ، غير غافل ولا ساهٍ . على أن ﴿ شَهِيدٌ ﴾ من الشهود ، وهو الحضور ، والمراد : المتفطن ؛ لأن غير المتفطن كالغائب ، فهو استعارة أو مجاز مرسل . أو ﴿ شَهِيدٌ ﴾ بمعنى شاهد ، وفيه مضاف مقدر ، أي : شاهد ذهنه . أو هو من الشهادة ، والمراد : شاهد بصدقه ، أي : مصدق له ، لأنه المؤمن الذي ينتفع به . وهو كناية عن المؤمن ، نقله الشهاب .

لطيفة :

قيل : أو ، لتقسيم المتذكر إلى تالٍ وسامع ، أو إلى فقيه ومتعلم ، أو إلى عالم كامل الاستعداد لا يحتاج لغير التأمل فيما عنده ، وقاصر محتاج للتعلم فيتذكر إذا أقبل بكلّيته ، وأزال الموانع

بأسرها . وفي تنكير القلب وإبهامه ، تفخيم وإشعار بأن كل قلب لا يتفكر ولا يتدبر ، كلا قلب .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [38]

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ أي : إعياء .

قال قتادة : كذَّب اللهُ اليهودَ وأهل الفِرى على الله ، وذلك أنهم قالوا : إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح يوم السابع ، وذلك عندهم يوم السبت وهم يسمونه يوم الراحة .

﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ [39 - 40]

(275/723)

﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ يعني : المشركين من إنكار البعث والتوحيد والنبوة ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ

﴿ أي : أعقاب الصلوات . والمراد بالتسبيح إما ظاهره ، وهو قرين التحميد . أو هو الصلاة ، من إطلاق الجزء ، أو اللازم على الكل ، أو الملزوم . فالصلاة قبل الطلوع ، الصبح . وقبل الغروب ، الظهر والعصر . ومن الليل ، العشاآن والتهجد . وأدبار السجود . النوافل بعد المكتوبات .

﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾ [41 - 42]

﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ أي : استمع ، أي : لِما أخبرك به من أهوال القيامة ، يوم ينادي مناديها من كل مكان قريب ، بحيث يصل نداؤه إلى الكل على السواء . قال القاضي : ولعله في الإعادة نظير كن في الإبداء ، أي : فهو تمثيل لإحياء الموتى بمجرد الإرادة ، وإن لم يكن نداء وصوت .

وفي ورود الأمر مطلقاً ، ثم تبيينه بما بعده ، تهويلٌ وتعظيم للمخبر به ، لِما في الإبهام ثم التفسير من التهويل والتفخيم لشأن المحدَّث عنه .

﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ ﴾ أي : صيحة البعث من القبور ، والحشر للجزاء ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ قال ابن جرير : يعني بالأمر بالإجابة لله إلى موقف الحساب .

﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾ أي : من القبور .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴾ [43]

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ ﴾ أي : في الدنيا بإفاضة نور الحياة أو قطعه ﴿ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴾ أي : مصير الجميع يوم القيامة .

﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ [44]

(276/723)

﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ﴾ أي : فيخرجون منها مسرعين ﴿ ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ أي : ذلك الإخراج لهم جمع في موقف الحساب علينا سهلٌ بلا كلفة .

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [45]

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ يعني : مشركي مكة ، من فِريتهم على الله ورسوله ، وإنكارهم قدرته تعالى على البعث . وهو تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهديدٌ لهم .

﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ أي : بمسلَّط ومسيطر تقهرهم على الإيمان ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ أي : بل إنما بعثت مذكراً ومبلغاً ، فذكر بما أنزل إليك من يخاف الوعيد الذي أوعِد به من عصى وطغى ، فإنه ينتفع به .

ومن دعاء قتادة : اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ، ويرجو موعدك ، يا بارّ يا رحيم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 15 صـ 455.483 ﴾

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) ﴾

هذا هو المقطع الأول في السورة . وهو يعالج قضية البعث ، وإنكار المشركين له ، وعجبهم من ذكره والقول به . ولكن القرآن لا يواجه إنكارهم لهذه القضية فيعالجه وحده . إنما هو يواجه قلوبهم المنحرفة ليردها أصلاً إلى الحق ، ويقوّم ما فيها من عوج ؛ ويحاول قبل كل شيء إيقاظ هذه القلوب وهزها لتتفتح على الحقائق الكبيرة في صلب هذا الوجود . ومن ثم لا يدخل معهم في جدل ذهني لإثبات البعث . وإنما يحيي قلوبهم لتتفكر هي وتتدبر ، ويلمس وجدانهم ليتأثر بالحقائق المباشرة من حوله فيستجيب . . وهو درس يحسن أن ينتفع به من يحاولون علاج القلوب !

وتبدأ السورة بالقسم . القسم بالحرف : " قاف " وبالقرآن المجيد ، المؤلف من مثل هذا الحرف . بل إنه أول حرف في لفظ " قرآن " . .

ولا يذكر المقسم عليه . فهو قسم في ابتداء الكلام ، يوحي بذاته باليقظة والاهتمام . فالأمر جلل ، والله يبدأ الحديث بالقسم ، فهو أمر إذن له خطر . ولعل هذا هو المقصود بهذا

الابتداء . إذ يضرب بعده بحرف ﴿ بل ﴾ عن المقسم عليه – بعد أن أحدث القسم أثره في الحس والقلب – ليبدأ حديثاً كأنه جديد عن عجبهم واستنكارهم لما جاءهم به رسولهم في القرآن المجيد من أمر البعث والخروج :

﴿ بل عجبوا أن جآءهم منذر منهم ، فقال الكافرون : هذا شيء عجيب . أإذا متنا وكنا تراباً ؟ ذلك رجع بعيد ﴾ .

بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم . وما في هذا من عجب . بل هو الأمر الطبيعي الذي تتقبله الفطرة السليمة ببساطة وترحيب . الأمر الطبيعي أن يختار الله من الناس واحداً منهم ، يحس بإحساسهم ، ويشعر بشعورهم ، ويتكلم بلغتهم ، ويشاركهم حياتهم ونشاطهم ، ويدرك دوافعهم وجواذبهم ، ويعرف طاقتهم واحتمالهم ، فيرسله إليهم لينذرهم ما ينتظرهم إن هم ظلوا فيما هم فيه ؛ ويعلمهم كيف يتجهون الاتجاه الصحيح ؛ ويبلغهم التكاليف التي يرفضها الاتجاه الجديد ، وهو معهم أول من يحمل هذه التكاليف .

(278/723)

ولقد عجبوا من الرسالة ذاتها ، وعجبوا – بصفة خاصة – من أمر البعث الذي حدثهم عنه هذا المنذر أول ما حدثهم . فقضية البعث قاعدة أساسية في العقيدة الإسلامية .

قاعدة تقوم عليها العقيدة ويقوم عليها التصور الكلي لمقتضيات هذه العقيدة . فالمسلم مطلوب منه أن يقوم على الحق ليدفع الباطل ، وأن ينهض بالخير ليقضي على الشر ، وأن يجعل نشاطه كله في الأرض عبادة لله ، بالتوجه في هذا النشاط كله لله . ولا بد من جزاء على العمل . وهذا الجزاء قد لا يتم في رحلة الأرض . فيؤجل للحساب الختامي بعد نهاية الرحلة كلها . فلا بد إذن من عالم آخر ، ولا بد إذن من بعث للحساب في العالم الآخر . . وحين ينهار أساس الآخرة في النفس ينهار معه كل تصور لحقيقة هذه العقيدة وتكاليفها ؛ ولا تستقيم هذه النفس على طريق الإسلام أبداً .

ولكن أولئك القوم لم ينظروا للمسألة من هذا الجانب أصلاً . إنما نظروا إليها من جانب آخر ساذج شديد السذاجة ، بعيد كل البعد عن إدراك حقيقة الحياة والموت ، وعن إدراك أي طرف من حقيقة قدرة الله . فقالوا ﴿ أإذا متنا وكنا تراباً ؟ ذلك رجع بعيد ﴾ !

والمسألة إذن في نظرهم هي مسألة استبعاد الحياة بعد الموت والبلى . وهي نظرة ساذجة كما أسلفنا ، لأن معجزة الحياة التي حدثت مرة يمكن أن تحدث مرة أخرى . كما أن هذه المعجزة تقع أمامهم في كل لحظة ، وتحيط بهم في جنبات الكون كله . وهذا هو الجانب الذي قادهم إليه القرآن في هذه السورة .

غير أننا قبل أن نمضي مع لمسات القرآن وآياته الكونية في معرض الحياة ، نقف أمام لمسة البلى والدثور . التي تتمثل في حكاية قولهم والتعليق عليه :

﴿ أإذا متنا وكنا تراباً . . . ؟ ﴾ . . وإذن فالناس يموتون . وإذن فهم يصيرون تراباً .

وكل من يقرأ حكاية قول المشركين يلتفت مباشرة إلى ذات نفسه ، وإلى غيره من الأحياء حوله . يلتفت ليتصور الموت والبلى والدثور . بل ليحس دبيب البلى في جسده وهو بعد حي فوق التراب ! وما كالموت يهز قلب الحي ، وليس كالبلى يمسه بالرجفة والارتعاش . والتعقيب يعمق هذه اللمسة ويقوي وقعها ؛ وهو يصور الأرض تأكل منهم شيئاً فشيئاً :

﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم ، وعندنا كتاب حفيظ ﴾ . .

لكأنما التعبير يجسم حركة الأرض ويحييها وهي تذيب أجسادهم المغيبة فيها ، وتأكلها رويداً رويداً . ويصور أجسادهم وهي تتآكل باطراد وتبلى . ليقول : إن الله يعلم ما تأكله الأرض من أجسادهم ، وهو مسجل في كتاب حفيظ ؛ فهم لا يذهبون ضياعاً إذا ماتوا وكانوا تراباً . أما إعادة الحياة إلى هذا التراب ، فقد حدثت من قبل ، وهي تحدث من حولهم في عمليات الإحياء المتجددة التي لا تنتهي .

وهكذا تتوالى اللمسات التي تذيب القلوب وترققها ، وتدعها حساسة متوفزة جيدة الاستقبال . وذلك قبل البدء في الهجوم على القضية ذاتها !

ثم يكشف عن حقيقة حالهم التي تنبعث منها تلك الاعتراضات الواهية . ذلك أنهم تركوا الحق الثابت ، فمادت الأرض من تحتهم ، ولم يعودوا يستقرون على شيء أبداً :

﴿ بل كذبوا بالحق لما جاءهم ، فهم في أمر مريج ﴾ .

وإنه لتعبير فريد مصور مشخص لحال من يفارقون الحق الثابت ، فلا يقر لهم من بعده قرار . .

إن الحق هو النقطة الثابتة التي يقف عليها من يؤمن بالحق فلا تتزعزع قدماه ، ولا تضطرب خطاه ، لأن الأرض ثابتة تحت قدميه لا تتزلزل ولا تخسف ولا تغوص . وكل ما حوله – عدا الحق الثابت – مضطرب مائج مزعزع مريج ، لا ثبات له ولا استقرار ، ولا صلابة له ولا احتمال . فمن تجاوز نقطة الحق الثابتة زلت قدماه في ذلك المضطرب المريج ، وفقد الثبات والاستقرار ، والطمأنينة والقرار .

(280/723)

فهو أبداً في أمر مريج لا يستقر على حال !

ومن يفارق الحق تتقاذفه الأهواء ، وتتناوحه الهواجس ، وتتخاطفه الهواتف ، وتمزقه الحيرة ، وتقلقه الشكوك . ويضطرب سعيه هنا وهناك ، وتتأرجح مواقفه إلى اليمين وإلى

الشمال . وهو لا يلوذ من حيرته بركن ركين ، ولا بملجأ أمين . . فهو في أمر مريج . .

إنه تعبير عجيب ، يجسم خلجات القلوب ، وكأنها حركة تتبعها العيون !

واستطراداً مع إيقاع الحق الثابت المستقر الراسي الشامخ – وفي الطريق إلى مناقشة اعتراضهم على حقيقة البعث – يعرض بعض مظاهر الحق في بناء الكون ؛ فيوجه أنظارهم إلى السماء وإلى الأرض وإلى الرواسي ، وإلى الماء النازل من السماء ، وإلى النخل الباسقات ، وإلى الجنات والنبات . في تعبير يتناسق مع صفة الحق الثابت الراسي . . الجميل . .

﴿ أفلم ينظروا إلى السمآء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ؟ وما لها من فروج ﴾ . .

إن هذه السماء صفحة من كتاب الكون تنطق بالحق الذي فارقوه . أفلم ينظروا إلى ما فيها من تشامخ وثبات واستقرار ؟ وإلى ما فيها بعد ذلك من زينة وجمال وبراءة من الخلل والاضطراب ! إن الثبات والكمال والجمال هي صفة السماء التي تتناسق مع السياق هنا . مع الحق وما فيه من ثبات وكمال وجمال . ومن ثم تجيء صفة البناء وصفة الزينة وصفة الخلو من الثقوب والفروج .

وكذلك الأرض صفحة من كتاب الكون القائم على الحق المستقر الأساس الجميل البهيج :

﴿ والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسي ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ﴾ . .

فالامتداد في الأرض والرواسي الثابتات والبهجة في النبات . . تمثل كذلك صفة الاستقرار

والثبات والجمال ، التي وجه النظر إليها في السماء .

وعلى مشهد السماء المبنية المتطاولة الجميلة ، والأرض الممدودة الراسية البهيجة يلمس قلوبهم ، ويوجهها إلى جانب من حكمة الخلق ، ومن عرض صفحات الكون :

﴿ تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴾ . .

(281/723)

تبصرة تكشف الحجب ، وتنير البصيرة ، وتفتح القلوب ، وتصل الأرواح بهذا الكون العجيب ، وما وراءه من إبداع وحكمة وترتيب . . تبصرة ينتفع بها كل عبد منيب ، يرجع إلى ربه من قريب .

وهذه هي الوصلة بين القلب البشري وإيقاعات هذا الكون الهائل الجميل . هذه هي الوصلة التي تجعل للنظر في كتاب الكون ، والتعرف إليه أثراً في القلب البشري ، وقيمة في الحياة البشرية . هذه هي الوصلة التي يقيمها القرآن بين المعرفة والعلم وبين الإنسان الذي يعرف ويعلم . وهي التي تهملها مناهج البحث التي يسمونها " علمية " في هذا الزمان . فتقطع ما وصل الله من وشيجة بين الناس والكون الذي يعيشون فيه . فالناس قطعة من هذا الكون لا تصح حياتهم ولا تستقيم إلا حين تنبض قلوبهم على نبض هذا الكون ؛ وإلا

حين تقوم الصلة وثيقة بين قلوبهم وإيقاعات هذا الكون الكبير . وكل معرفة بنجم من النجوم ، أو فلك من الأفلاك ، أو خاصة من خواص النبات والحيوان ، أو خواص الكون كله على وجه الإجمال وما فيه من عوالم حية وجامدة إذا كانت هنالك عوالم جامدة أو شيء واحد جامد في هذا الوجود ! – كل معرفة " علمية " يجب أن تستحيل في الحال إلى إيقاع في القلب البشري ، وإلى ألفة مؤنسة بهذا الكون ، وإلى تعارف يوثق أواصر الصداقة بين الناس والأشياء والأحياء .

وإلى شعور بالوحدة التي تنتهي إلى خالق هذا الكون وما فيه ومن فيه . . وكل معرفة أو علم أو بحث يقف دون هذه الغاية الحية الموجهة المؤثرة في حياة البشر ، هي معرفة ناقصة ، أو علم زائف ، أو بحث عقيم !

(282/723)

إن هذا الكون هو كتاب الحق المفتوح ، الذي يقرأ بكل لغة ، ويدرك بكل وسيلة ؛ ويستطيع أن يطالعه الساذج ساكن الخيمة والكوخ ، والمتحضر ساكن العمائر والقصور . كل يطالعه بقدر إدراكه واستعداده ، فيجد فيه زاداً من الحق ، حين يطالعه بشعور التطلع إلى الحق . وهو قائم مفتوح في كل آن : ﴿ تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴾ . . ولكن العلم الحديث

يطمس هذه التبصرة أو يقطع تلك الوشيجة بين القلب البشري والكون الناطق المبين . لأنه في رؤوس مطموسة رانت عليها خرافة " المنهج العلمي " . المنهج الذي يقطع ما بين الكون والخلائق التي تعيش فيه !

والمنهج الإيماني لا ينقص شيئاً من ثمار " المنهج العلمي " في إدراك الحقائق المفردة . ولكنه يزيد عليه ربط هذه الحقائق المفردة بعضها ببعض ، وردها إلى الحقائق الكبرى ، ووصل القلب البشري بها ، أي وصله بنواميس الكون وحقائق الوجود ، وتحويل هذه النواميس والحقائق إلى إيقاعات مؤثرة في مشاعر الناس وحياتهم ؛ لا معلومات جامدة جافة متحيزة في الأذهان لا تفضي لها بشيء من سرها الجميل ! والمنهج الإيماني هو الذي يجب أن تكون له الكرة في مجال البحوث والدراسات ليربط الحقائق العلمية التي يهتدي إليها بهذا الرباط الوثيق . .

وبعد هذه اللفتة يمضي في عرض صفحات الحق في كتاب الكون – في طريقه إلى قضية الإحياء والبعث :

﴿ ونزلنا من السمآء مآء مباركاً ، فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً . كذلك الخروج ﴾ . .

والماء النازل من السماء آية تحيي موات القلوب قبل أن تحيي موات الأرض . ومشهده ذو أثر خاص في القلب لا شك فيه . وليس الأطفال وحدهم هم الذين يفرحون بالمطر

ويطيرون له خفافاً . فقلوب الكبار الحساسين تستروح هذا المشهد وتصفق له كقلوب الأطفال الأبرياء ، القريبي العهد بالفطرة !

(283/723)

ويصف الماء هنا بالبركة ، ويجعله في يد الله سبباً لإنبات جنات الفاكهة وحب الحصيد – وهو النبات المحصود – ومما ينبته به النخل . ويصفها بالسموق والجمال : ﴿ والنخل باسقات لها طلع نضيد ﴾ . . وزيادة هذا الوصف للطلع مقصودة لإبراز جمال الطلع المنضد في النخل الباسق .

وذلك تمشياً مع جو الحق وظلاله . الحق السامق الجميل .

ويلمس القلوب وهو يمتن عليها بالماء والجنات والحب والنخل والطلع : ﴿ رزقاً للعباد ﴾ . . رزقاً يسوق الله سببه ، ويتولى نبته ، ويطلع ثمره ، للعباد ، وهو المولى ، وهم لا يقدرون ولا يشكرون !

وهنا ينتهي بموكب الكون كله إلى الهدف الأخير :

﴿ وأحيينا به بلدة ميتا . كذلك الخروج ﴾ . .

فهي عملية دائمة التكرار فيما حولهم ، مألوفة لهم ؛ ولكنهم لا ينتبهون إليها ولا يلحظونها

قبل الاعتراض والتعجيب . . كذلك الخروج . . على هذه الوتيرة ، وبهذه السهولة . . الآن يقولها وقد حشد لها من الإيقاعات الكونية على القلب البشري ذلك الحشد الطويل الجميل المؤثر الموحي لكل قلب منيب . . وكذلك يعالج القلوب خالق القلوب . .

ثم يعقب بعرض صفحات من كتاب التاريخ البشري بعد عرض تلك الصفحات من كتاب الكون ، تنطق بمآل المكذبين الذين ماروا كما يماري هؤلاء المشركون في قضية البعث ، وكذبوا كما يكذبون بالرسل ، فحق عليهم وعيد الله الذي لا مفر منه ولا محيد :

﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ، وعاد وفرعون وإخوان لوط ، وأصحاب الأيكة ، وقوم تُبَّع . كلٌّ كذب الرسل فحق وعيد . أفعيينا بالخلق الأول ؟ بل هم في لبس من خلق جديد ﴾ . .

والرس : البئر : المطوية غير المبنية . والأيكة : الشجر الملتف الكثيف . وأصحاب الأيكة هم – في الغالب – قوم شعيب . أما أصحاب الرس فلا بيان عنهم غير هذه الإشارة . وكذلك قوم تبع . وتبع لقب لملوك حمير باليمن . وبقية الأقوام المشار إليهم هنا معروفون لقارئ القرآن .

وواضح أن الغرض من هذه الإشارة السريعة ليس تفصيل أمر هذه الأقوام . ولكنه إيقاع على القلوب بمصارع الغابرين . حين كذبوا الرسل . والذي يلفت النظر هو النص على أن كلاً منهم كذب الرسل : ﴿ كل كذب الرسل فحق وعيد ﴾ . وهي لفتة مقصودة لتقرير وحدة العقيدة ووحدة الرسالة . فكل من كذب برسول فقد كذب بالرسل أجمعين ؛ لأنه كذب بالرسالة الواحدة التي جاء بها الرسل أجمعون . والرسل إخوة وأمة واحدة وشجرة ضاربة الجذور في أعماق الزمان ، وكل فرع من تلك الشجرة تلخيص لخصائصها ، وصورة منها . ومن يمس منها فرعاً فقد مس الأصل وسائر الفروع . . ﴿ فحق وعيد ﴾ ونالهم ما يعرف السامعون !

وفي ظل هذه المصارع يعود إلى القضية التي بها يكذبون . قضية البعث من جديد . فيسأل : ﴿ أفعيينا بالخلق الأول ؟ ﴾ . . والخلق شاهد حاضر فلا حاجة إلى جواب ! ﴿ بل هم في لبس من خلق جديد ﴾ . . غير ناظرين إلى شهادة الخلق الأول الموجود ! فماذا يستحق من يكذب وأمامه ذلك الشاهد المشهود ؟ !

﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ .

﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد . . ﴾

﴿ ونفخ في الصور ، ذلك يوم الوعيد .

وجآءت كل نفس معها سآئق وشهيد . لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطآءك فبصرك اليوم حديد . وقال قرينه : هذا ما لدي عتيد . ألقيا في جهنم كل كفار عنيد . منّاع للخير معتد مريب . الذي جعل مع الله إلها آخر فألقياه في العذاب الشديد . قال قرينه : ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد . قال : لا تختصموا لدي وقت قدمت إليكم بالوعيد . ما يبدل القول لديَّ وما أنا بظلام للعبيد . يوم نقول لجهنم : هل امتلأت ؟ وتقول هل من مزيد ؟ وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد . هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ . من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب . ادخلوها بسلام ، ذلك يوم الخلود ، لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد ﴾ . .

وهذا هو المقطع الثاني في السورة : استطراد مع قضية البعث ، التي عالجها الشوط الأول ؛ وعلاج للقلوب المكذبة بلمسات جديدة ، ولكنها رهيبة مخيفة . إنها تلك الرقابة التي تحدثنا عنها في تقديم السورة . ومشاهدها التي تمثلها وتشخصها . ثم مشهد الموت وسكراته . ثم مشهد الحساب وعرض السجلات . ثم مشهد جهنم فاغرة فاها تتلمظ كلما ألقي فيها وقودها البشري تقول : ﴿ هل من مزيد ؟ ﴾ . وإلى جواره مشهد الجنة

والنعيم والتكريم .

إنها رحلة واحدة تبدأ من الميلاد ، وتمر بالموت ، وتنتهي بالبعث والحساب . رحلة واحدة متصلة بلا توقف ؛ ترسم للقلب البشري طريقه الوحيد الذي لا فكاك عنه ولا محيد ؛ وهو من أول الطريق إلى آخره في قبضة الله لا يتملص ولا يتفلت ، وتحت رقابته التي لا تفتر ولا تغفل . وإنها لرحلة رهيبة تملأ الحس روعة ورهبة . وكيف بإنسان في قبضة الجبار ، المطلع على ذات الصدور ؟ وكيف بإنسان طالبه هو الواحد الديان ، الذي لا ينسى ولا يغفل ولا ينام !

(286/723)

إنه ليرجف ويضطرب ويفقد توازنه وتماسكه ، حين يشعر أن السلطان في الأرض يتتبعه بجواسيسه وعيونه ، ويراقبه في حركته وسكونه . وسلطان الأرض مهما تكن عيونه لا يراقب إلا الحركة الظاهرة . وهو يحتمي منه إذا آوى إلى داره ، وإذا أغلق عليه بابه ، أو إذا أغلق فمه ! أما قبضة الجبار فهي مسلطة عليه أينما حل وأينما سار . وأما رقابة الله فهي مسلطة على الضمائر والأسرار . . فكيف ؟ كيف بهذا الإنسان في هذه القبضة وتحت هذه الرقابة ؟ !

﴿ ولقد خلقنا الإنسان ، ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد . إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ . . إن ابتداء الآية : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ﴾ . . يشير إلى المقتضى الضمني للعبارة . فصانع الآلة أدرى بتركيبها وأسرارها . وهو ليس بخالقها لأنه لم ينشئ مادتها ، ولم يزد على تشكيلها وتركيبها . فكيف بالمنشئ الموجد الخالق ؟ إن الإنسان خارج من يد الله أصلاً ؛ فهو مكشوف الكنه والوصف والسر لخالقه العليم بمصدره ومنشئه وحاله ومصيره .

.

﴿ ونعلم ما توسوس به نفسه ﴾ . . وهكذا يجد الإنسان نفسه مكشوفة لا يحجبها ستر ، وكل ما فيها من وساوس خافتة وخافية معلوم لله ، تمهيداً ليوم الحساب الذي ينكره ويجحده !

(287/723)

﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ . . الوريد الذي يجري فيه دمه . وهو تعبير يمثل ويصور القبضة المالكة ، والرقابة المباشرة . وحين يتصور الإنسان هذه الحقيقة لا بد يرتعش ويحاسب . ولو استحضر القلب مدلول هذه العبارة وحدها ما جرؤ على كلمة لا

يرضى الله عنها . بل ما جرؤ على هاجسة في الضمير لا تنال القبول . وإنها وحدها لكافية ليعيش بها الإنسان في حذر دائم ويقظة لا تغفل عن المحاسبة . ولكن القرآن يستطرد في إحكام الرقابة . فإذا الإنسان يعيش ويتحرك وينام ويأكل ويشرب ويتحدث ويصمت ويقطع الرحلة كلها بين ملكين موكلين به ، عن اليمين وعن الشمال ، يتلقيان منه كل كلمة وكل حركة ويسجلانها فور وقوعها :

﴿ إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ . أي رقيب حاضر ، لا كما يتبادر إلى الأذهان أن اسمي الملكين رقيب ، وعتيد ! ونحن لا ندري كيف يسجلان . ولا داعي للتخيلات التي لا تقوم على أساس . فموقفنا بإزاء هذه الغيبيات أن نتلقاها كما هي ، ونؤمن بمدلولها دون البحث في كيفيتها ، التي لا تفيدنا معرفتها في شيء . فضلاً على أنها غير داخلة في حدود تجاربنا ولا معارفنا البشرية .

ولقد عرفنا نحن – في حدود علمنا البشري الظاهر – وسائل للتسجيل لم تكن تخطر لأجدادنا على بال . وهي تسجل الحركة والنبرة كالأشرطة الناطقة وأشرطة السينما وأشرطة التليفزيون . وهذا كله في محيطنا نحن البشر . فلا داعي من باب أولى أن نقيد الملائكة بطريقة تسجيل معينة مستمدة من تصوراتنا البشرية المحدودة ، البعيدة نهائياً عن ذلك العالم المجهول لنا ، والذي لا نعرف عنه إلا ما يخبرنا به الله . بلا زيادة !

وحسبنا أن نعيش في ظلال هذه الحقيقة المصورة ، وأن نستشعر ونحن نهم بأية حركة وبأية كلمة أن عن يميننا وعن شمالنا من يسجل علينا الكلمة والحركة ؛ لتكون في سجل حسابنا . بين يدي الله الذي لا يضيع عنده فتيل ولا قطمير .

(288/723)

حسبنا أن نعيش في ظل هذه الحقيقة الرهيبة . وهي حقيقة . ولو لم ندرك نحن كيفيتها . وهي كائنة في صورة ما من الصور ، ولا مفر من وجودها ، وقد أنبأنا الله بها لنحسب حسابها . لا لننفق الجهد عبثاً في معرفة كيفيتها !

والذين انتفعوا بهذا القرآن ، وبتوجيهات رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الخاصة بحقائق القرآن ، كان هذا سبيلهم : أن يشعروا ، وأن يعملوا وفق ما شعروا . .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة الليثي عن أبيه عن جده علقمة ، عن بلال بن الحارث المزني – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

" إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ، ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله عز وجل له بها رضوانه إلى يوم يلقاه . وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن

تبلغ ما بلغت ، يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه " . قال : فكان علقمة يقول : كم من كلام قد منعنيه حديث بلال ابن الحارث . (ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث محمد بن عمرو به وقال الترمذي : حسن صحيح) .

وحكي عن الإمام أحمد أنه كان في سكرات الموت يئن . فسمع أن الأنين يكتب . فسكت حتى فاضت روحه رضوان الله عليه .

وهكذا كان أولئك الرجال يتلقون هذه الحقيقة فيعيشون بها في يقين .

تلك صفحة الحياة ، ووراءها في كتاب الإنسان صفحة الاحتضار :

﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق . ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ . .

(289/723)

والموت أشد ما يحاول المخلوق البشري أن يروغ منه ، أو يبعد شبحه عن خاطره . ولكن أنى له ذلك : والموت طالب لا يمل الطلب ، ولا يبطئ الخطى ، ولا يخلف المعياد ؛ وذكر سكرة الموت كفيل برجفة تدب في الأوصال ! وبينما المشهد معروض يسمع الإنسان : ﴿ ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ . وإنه ليرجف لصداها وهو بعد في عالم الحياة ! فكيف به حين تقال له وهو يعاني السكرات ! وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول : " سبحان الله . إن للموت لسكرات " . يقولها وهو قد اختار الرفيق الأعلى واشتاق إلى لقاء الله . فكيف بمن عداه ؟

ويلفت النظر في التعبير ذكر كلمة الحق : ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ﴾ . . وهي توحي بأن النفس البشرية ترى الحق كاملاً وهي في سكرات الموت . تراه بلا حجاب ، وتدرك منه ما كانت تجهل وما كانت تجحد ، ولكن بعد فوات الأوان حين لا تنفع رؤية ، ولا يجدي إدراك ، ولا تقبل توبة ، ولا يحسب إيمان . وذلك الحق هو الذي كذبوا به فانتهوا إلى الأمر المريج ! . . وحين يدركونه ويصدقون به لا يجدي شيئاً ولا يفيد !

ومن سكرة الموت ، إلى وهلة الحشر ، وهول الحساب :

﴿ ونفخ في الصور ، ذلك يوم الوعيد ، وجآءت كل نفس معها سآئق وشهيد . لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطآءك ، فبصرك اليوم حديد . وقال قرينه : هذا ما لدي عتيد . ألقيا في جهنم كل كفار عنيد . منّاع للخير معتد مريب . الذي جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه في العذاب الشديد . قال قرينه : ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد . قال : لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد . ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد ﴾ .

.

وهو مشهد يكفي استحضاره في النفس لتقضي رحلتها كلها على الأرض في توجس وحذر وارتقاب . وقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : "كيف أنعم ، وصاحب القرن قد التقم القرن ، وحنى جبهته ، وانتظر أن يؤذن له ؟ " قالوا : يا رسول الله ، كيف نقول ؟ قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل " فقال القوم : حسبنا الله ونعم الوكيل . .

﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾ . . جاءت كل نفس . فالنفس هنا هي التي تحاسب ، وهي التي تتلقى الجزاء . ومعها سائق يسوقها وشاهد يشهد عليها . قد يكونان هما الكاتبان الحافظان لها في الدنيا . وقد يكونان غيرهما . والأول أرجح . وهو مشهد أشبه شيء بالسوق للمحاكمة . ولكن بين يدي الجبار .

وفي هذا الموقف العصيب يقال له : ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا . فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ . . قوي لا يحجبه حجاب ، وهذا هو الموعد الذي غفلت عنه ، وهذا هو الموقف الذي لم تحسب حسابه ، وهذه هي النهاية التي كنت لا تتوقعها . فالآن فانظر . فبصرك اليوم حديد !

هنا يتقدم قرينه . والأرجح أنه الشهيد الذي يحمل سجل حياته : ﴿ وقال قرينه هذا ما لدي عتيد ﴾ . . حاضر مهيأ معد . لا يحتاج إلى تهيئة أو إعداد !

ولا يذكر السياق شيئاً عن مراجعة هذا السجل تعجيلاً بتوقيع الحكم وتنفيذه . إنما يذكر مباشرة النطق العلوي الكريم ، للملكين الحافظين : السائق والشهيد : ﴿ ألقيا في جهنم كل كفار عنيد . مناع للخير معتد مريب . الذي جعل مع الله إلها آخر فألقياه في العذاب الشديد ﴾ . . وذكر هذه النعوت يزيد في حرج الموقف وشدته . فهو دلالة غضب الجبار القهار في الموقف العصيب الرهيب ؛ وهي نعوت قبيحة مستحقة لتشديد العقوبة : كفار . عنيد . مناع للخير . معتد . مريب . الذي جعل مع الله إلها آخر . وتنتهي بتوكيد الأمر الذي لا يحتاج إلى توكيد : ﴿ فألقياه في العذاب الشديد ﴾ بياناً لمكانه من جهنم التي بدأ الأمر بإلقائه فيها .

(291/723)

عندئذ يفزع قرينه ويرتجف ، ويبادر إلى إبعاد ظل التهمة عن نفسه ، بما أنه كان مصاحباً له وقريناً : ﴿ قال قرينه : ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد ﴾ . . وربما كان القرين هنا غير القرين الأول الذي قدم السجلات . ربما كان هو الشيطان الموكل به ليغويه . وهو يتبرأ من إطغائه ؛ ويقرر أنه وجده ضالاً من عند نفسه ، فاستمع لغوايته ! وفي القرآن مشاهد مشابهة يتبرأ فيها القرين الشيطاني من القرين الإنساني على هذا النحو . على أن

الفرض الأول غير مستبعد . فقد يكون القرين هو الملك صاحب السجل . ولكن هول الموقف يجعله يبادر إلى التبرؤ – وهو بريء – ليبين أنه مع صحبته لهذا الشقي – فإنه لم تكن له يد في أي مما كان منه . وتبرؤ البريء أدل على الهول المزلزل والكرب المخيف .

هنا يجيء القول الفصل ، فينهي كل قول : ﴿ قال : لا تختصموا لديّ وقد قدمت إليكم بالوعيد – ما يبدل القول لديّ وما أنا بظلاّم للعبيد ﴾ . . فالمقام ليس له مقام اختصام . وقد سبق الوعيد محدداً جزاء كل عمل . وكل شيء مسجل لا يبدل . ولا يجزى أحد إلا بما هو مسجل . ولا يظلم أحد ، فالمجازي هو الحكم العدل .

بهذا ينتهي مشهد الحساب الرهيب بهوله وشدته ؛ ولكن المشهد كله لا ينتهي . بل يكشف السياق عن جانب منه مخيف :

﴿ يوم نقول لجهنم : هل امتلأت : وتقول : هل من مزيد ؟ ﴾ .

إن المشهد كله مشهد حوار . فتعرض جهنم فيه في معرض الحوار وبهذا السؤال والجواب يتجلى مشهد عجيب رهيب . . هذا هو كل كفار عنيد . مناع للخير معتد مريب . . هؤلاء هم كثرة تقذف في جهنم تباعاً ، وتتكدس ركاماً . ثم تنادى جهنم : ﴿ هل امتلأت ؟ ﴾ واكتفيت ! ولكنها تتلمظ وتتحرق ، وتقول في كظة الأكول النهم : ﴿ هل من مزيد ؟ ! ﴾ . . فيا للهول الرعيب !

وعلى الضفة الأخرى من هذا الهول مشهد آخر وديع أليف ، رضيّ جميل . إنه مشهد الجنة ، تقرب من المتقين ، حتى تتراءى لهم من قريب ، مع الترحيب والتكريم :

(292/723)

﴿ وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد . هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ . من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب . ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود . لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد ﴾ .

والتكريم في كل كلمة وفي كل حركة . فالجنة تقرب وتزلف ، فلا يكلفون مشقة السير إليها ، بل هي التي تجيء : ﴿ غير بعيد ﴾ ! ونعيم الرضى يتلقاهم مع الجنة : ﴿ هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ . من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ﴾ . .

فيوصفون هذه الصفة من الملأ الأعلى ، ويعلمون أنهم في ميزان الله أوابون ، حفيظون ، يخشون الرحمن ولم يشهدوه ، منيبون إلى ربهم طائعون .

ثم يؤذن لهم بالدخول بسلام لغير ما خروج : ﴿ ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود ﴾ . .

ثم يؤذن في الملأ الأعلى ، تنويهاً بشأن القوم ، وإعلاناً بما لهم عند ربهم من نصيب غير محدود : ﴿ لهم ما يشاءون فيها ، ولدينا مزيد ﴾ . . فمهما اقترحوا فهم لا يبلغون ما أعد

لهم . فالمزيد من ربهم غير محدود . .

ثم يجيء المقطع الأخير في السورة ، كأنه الإيقاع الأخير في اللحن ، يعيد أقوى نغماته في لمس سريع . فيه لمسة التاريخ ومصارع الغابرين . وفيه لمسة الكون المفتوح وكتابه المبين . وفيه لمسة البعث والحشر في مشهد جديد . ومع هذه اللمسات التوجيه الموحي العميق للمشاعر والقلوب :

﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً ، فنقَّبوا في البلاد هل من محيص ؟ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب . فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب .

ومن الليل فسبحه وأدبار السجود . واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب . يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج . إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير . يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً . ذلك حشر علينا يسير . نحن أعلم بما يقولون ، وما أنت عليهم بجبار ، فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ . .

ومع أن هذه اللمسات كلها قد سبقت في سياق السورة ، إلا أنها حين تعرض في الختام تعرض جديدة الإيقاع جديدة الوقع . بهذا التركيز وبهذه السرعة . ويكون لها في الحس مذاق آخر غير مذاقها وهي مبسوطة مفصلة من قبل في السورة . وهذه هي خصيصة القرآن العجيبة !

قال من قبل : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ، وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع . كل كذب الرسل فحق وعيد ﴾ . .

وقال هنا : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً ، فنقبوا في البلاد . هل من محيص ﴾ ؟

الحقيقة التي يشير إليها هي هي . ولكنها في صورتها الجديدة غيرها في صورتها الأولى . ثم يضيف إليها حركة القرون وهي تتقلب في البلاد ، وتنقب عن أسباب الحياة ، وهي مأخوذة في القبضة التي لا يفلت منها أحد ، ولا مفر منها ولا فكاك : ف ﴿ هل من محيص ﴾ ؟ . .

وعقب عليها بما يزيدها جدة وحيوية :

﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ . .

وفي مصارع الغابرين ذكرى . ذكرى لمن كان له قلب . فمن لا تذكره هذه اللمسة فهو الذي مات قلبه أو لم يرزق قلباً على الإطلاق ! لا بل إنه ليكفي للذكرى والاعتبار أن يكون هناك

سمع يلقى إلى القصة بإنصات ووعي ، فتفعل القصة فعلها في النفوس . . وإنه للحق .

فالنفس البشرية شديدة الحساسية بمصارع الغابرين ، وأقل يقظة فيها وأقل تفتح كافيان لاستجاشة الذكريات والتصورات الموحية في مثل هذه المواقف المؤثرة المثيرة .

وعرض من قبل صفحات من كتاب الكون : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ﴾ . .

(294/723)

وقال هنا : ﴿ ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، وما مسنا من لغوب ﴾ . . فأضاف هذه الحقيقة الجديدة إلى جانب اللمسة الأولى . حقيقة : ﴿ وما مسنا من لغوب ﴾ . . وهي توحي بيسر الخلق والإنشاء في هذا الخلق الهائل . فكيف بإحياء الموتى وهو بالقياس إلى السماوات والأرض أمر هين صغير ؟

وعقب عليها كذلك بإيحاء جديد وظل جديد :

﴿ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . ومن الليل فسبحه وأَدبار السجود ﴾ . .

وطلوع الشمس وغروبها ومشهد الليل الذي يعقب الغروب . . كلها ظواهر مرتبطة بالسماوات والأرض . وهو يربط إليها التسبيح والحمد والسجود ويتحدث في ظلالها عن الصبر على ما يقولون من إنكار للبعث وجحود بقدرة الله على الإحياء والإعادة .

(295/723)

فإذا جو جديد يحيط بتلك اللمسة المكررة . جو الصبر والحمد والتسبيح والسجود . موصولا كل ذلك بصفحة الكون وظواهر الوجود , تثور في الحس كلما نظر إلى السماوات والأرض ; وكلما رأى مطلع الشمس , أو مقدم الليل ; وكلما سجد لله في شروق أو غروب . .

ثم . . لمسة جديدة ترتبط كذلك بالصفحة الكونية المعروضة . . اصبر وسبح واسجد . وأنت في حالة انتظار وتوقع للأمر الهائل الجلل , المتوقع في كل لحظة من لحظات الليل والنهار . لا يغفل عنه إلا الغافلون . الأمر الذي تدور عليه السورة كلها , وهو موضوعها الأصيل:

(واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب . يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج . إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير . يوم تشقق الأرض عنهم سراعا . ذلك حشر علينا

يسير) . .

وإنه لمشهد جديد مثير , لذلك اليوم العسير . ولقد عبر عنه أول مرة في صورة أخرى ومشهد آخر في قوله:(ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد . وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد . .)الخ .

فأما هنا فعبر عن النفخة بالصيحة . وصور مشهد الخروج . . ومشهد تشقق الأرض عنهم . هذه الخلائق التي غبرت في تاريخ الحياة كلها إلى نهاية الرحلة . تشقق القبور التي لا تحصى . والتي تعاقب فيها الموتى . كما يقول المعري:

رب قبر قد صار قبرا مرارا ضاحك من تزاحم الأضداد

ودفين على بقايا دفين في طويل الآجال والآماد

كلها تشقق , وتتكشف عن أجساد ورفات وعظام وذرات تائهة أو حائلة في مسارب الآرض , لا يعرف مقرها إلا الله . . وإنه لمشهد عجيب لا يأتي عليه الخيال !

وفي ظلال هذا المشهد الثائر المثير يقرر الحقيقة التي فيها يجادلون وبها يجحدون:(إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير) . . (ذلك حشر علينا يسير) . . في أنسب وقت للتقرير . .

وفي ظلال هذا المشهد كذلك يتوجه بالتثبيت للرسول (صلى الله عليه وسلم) تجاه جدلهم وتكذيبهم في هذه الحقيقة الواضحة المشهودة بعين الضمير:

(نحن أعلم بما يقولون . وما أنت عليهم بجبار . فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) . .

(نحن أعلم بما يقولون) . . وهذا حسبك . فللعلم عواقبه عليهم . . وهو تهديد مخيف ملفوف .

(وما أنت عليهم بجبار) . . فترغمهم على الإيمان والتصديق . فالأمر في هذا ليس إليك . إنما هو لنا نحن , ونحن عليهم رقباء وبهم موكلون . .

(فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) . . والقرآن يهز القلوب ويزلزلها فلا يثبت له قلب يعي ويخاف ما يواجهه به من حقائق ترجف لها القلوب . على ذلك النحو العجيب .

وحين تعرض مثل هذه السورة , فإنها لا تحتاج إلى جبار يلوي الأعناق على الإيمان . ففيها من القوة والسلطان ما لا يملكه الجبارون . وفيها من الإيقاعات على القلب البشري ما هو أشد من سياط الجبارين ! وصدق الله العظيم . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3370.3357 ﴾

(297/723)

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

وَمِنْ سُورَةِ ق قَوْله تَعَالَى - : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴾

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الرَّبِيعِ الجرجاني قَالَ : أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴾ قَالَ : " مَنْ تَرَكَ الْحَقَّ مَرَجَ عَلَيْهِ رَأْيُهُ وَالْتَبَسَ عَلَيْهِ دِينُهُ . "

وقَوْله تَعَالَى - : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّك قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوب ﴾ .

رَوَى جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ﴿ : إنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا ﴾ ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّك قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوب ﴾ .

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةَ أَنَّ الْمُرَادَ صَلَاةُ الْفَجْرِ وَصَلَاةُ الْعَصْرِ .

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : " صَلَاةُ اللَّيْلِ " قَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ صَلَاةَ الْمَغْرِبِ وَالْعَتَمَةِ .

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ ، قَالَ عَلِيٌّ وَعُمَرُ وَالْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَمُجَاهِدٌ وَالنَّخَعِيُّ وَالشَّعْبِيُّ : ﴿ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ رَكْعَتَانِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ ﴿ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ رَكْعَتَانِ قَبْلَ الْفَجْرِ وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مِثْلُهُ وَعَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ

ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ : " إذَا وَضَعْت جَبْهَتَك عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تُسَبِّحَ ثَلَاثًا ".

(298/723)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : اتَّفَقَ مَنْ ذَكَرْنَا قَوْلَهُ بَدِيًّا أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّك قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ أَرَادَ بِهِ الصَّلَاةَ .

وَكَذَلِكَ : ﴿ وَمِنْ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ هُوَ صَلَاةُ اللَّيْلِ وَهِيَ الْعَتَمَةُ وَالْمَغْرِبُ ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ : ﴿ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ هُوَ الصَّلَاةَ ؛ لِأَنَّ فِيهِ ضَمِيرَ " فَسَبِّحْهُ " ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ التَّسْبِيحُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ ﴾ ، وَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّهُ تَفْسِيرُ الْآيَةِ .

وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ عَنْ كَثِيرِ بْنِ أَفْلَحَ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ : ﴿ أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ نُسَبِّحَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَنَحْمَدَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَنُكَبِّرَ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ ، فَأَتَى رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ فِي الْمَنَامِ فَقَالَ : أَمَرَكُمْ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُسَبِّحُوا فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَتَحْمَدُوا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَتُكَبِّرُوا أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ فَلَوْ جَعَلْتُمُوهَا خَمْسًا وَعِشْرِينَ

خَمْسًا وَعِشْرِينَ فَاجْعَلُوا فِيهَا التَّهْلِيلَ ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : افْعَلُوا .

(299/723)

﴿ وَرَوَى سُمَيٌّ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالُوا : ﴿ يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ قَالَ : كَيْفَ ذَاكَ ؟ قَالُوا : صَلَّوْا كَمَا صَلَّيْنَا وَجَاهَدُوا كَمَا جَاهَدْنَا وَأَنْفَقُوا مِنْ فُضُولِ أَمْوَالِهِمْ وَلَيْسَتْ لَنَا أَمْوَالٌ ، فَقَالَ : أَنَا أُخْبِرُكُمْ بِأَمْرٍ تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ ، لَا يَأْتِي أَحَدٌ بِمِثْلِ مَا جِئْتُمْ بِهِ إِلَّا مَنْ جَاءَ بِمِثْلِهِ ، تُسَبِّحُونَ اللَّهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ عَشْرًا وَتَحْمَدُونَ اللَّهَ عَشْرًا وَتُكَبِّرُونَ عَشْرًا ﴾ .

وَرُوِيَ نَحْوُهُ عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا أَنَّهُ قَالَ : " ﴿ تُسَبِّحُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَتَحْمَدُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَتُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ ﴾ .

وَرَوَى كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَحْوَهُ ، وَقَالَ ﴿ : وَتُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ ﴾ وَرَوَى أَبُو هَارُونَ الْعَبْدِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي آخِرِ صَلَاتِهِ عِنْدَ انْصِرَافِهِ ﴾ : سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَإِنْ حُمِلَ مَعْنَى الْآيَةِ عَلَى الْوُجُوبِ كَانَ قَوْلُهُ : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴾ عَلَى صَلَاةِ الْفَجْرِ ، ﴿ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ عَلَى صَلَاةِ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ . وَكَذَلِكَ رُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ : ﴿ وَمِنْ اللَّيْلِ

(300/723)

فَسَبِّحْهُ ﴾ " صَلَاةُ الْعَتَمَةِ وَالْمَغْرِبِ " .

فَتَكُونُ الْآيَةُ مُنْتَظِمَةً لِلصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ ، وَعَبَّرَ عَنْ الصَّلَاةِ بِالتَّسْبِيحِ ؛ لِأَنَّ التَّسْبِيحَ تَنْزِيهٌ لِلَّهِ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ ، وَالصَّلَاةُ تَشْتَمِلُ عَلَى قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَأَذْكَارٍ هِيَ تَنْزِيهٌ لِلَّهِ – تَعَالَى – .

آخِرُ سُورَةِ ق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(301/723)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ ق

[فِيهَا آيَةٌ وَاحِدَةٌ]

وَهِيَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ .

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي الصَّحِيحِ عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، قَالَ : ﴿ كُنَّا جُلُوسًا لَيْلَةً مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ ، فَقَالَ : إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ ؛ فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تَغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا ؛ ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ فِيهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ هُوَ تَسْبِيحُ اللَّهِ فِي اللَّيْلِ .

الثَّانِي : أَنَّهَا صَلَاةُ اللَّيْلِ .

الثَّالِثُ : أَنَّهَا رَكْعَتَا الْفَجْرِ .

الرَّابِعُ أَنَّهَا صَلَاةُ الْعِشَاءِ الْأَخِيرَةِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قَوْلُ [مَنْ قَالَ] إِنَّهُ التَّسْبِيحُ ، يُعَضِّدُهُ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ : ﴿ مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ،

سُبْحَانَ اللَّهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ كُفِّرَ عَنْهُ وَغُفِرَ لَهُ ﴾ .

(302/723)

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إِنَّهَا صَلَاةُ اللَّيْلِ فَإِنَّ الصَّلَاةَ تُسَمَّى تَسْبِيحًا لِمَا فِيهَا مِنْ تَسْبِيحِ اللَّهِ ، وَمِنْهُ سُبْحَةُ الضُّحَى وَأَمَّا مَنْ قَالَ إِنَّهَا صَلَاةُ الْفَجْرِ وَالْعِشَاءِ فَلِأَنَّهُمَا مِنْ صَلَاةِ اللَّيْلِ ، وَالْعِشَاءُ أَوْضَحُهُ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ قَوْله تَعَالَى ﴿ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ النَّوَافِلُ .

الثَّانِي : أَنَّهُ ذِكْرُ اللَّهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ ؛ وَهُوَ الْأَقْوَى فِي النَّظَرِ .

وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ فِي دُبُرِ الْمَكْتُوبَةِ : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ ، وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْت ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْت ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْك الْجَدُّ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ فِي الصُّبْحِ ق ، فَلَمَّا انْتَهَى إلَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾ رَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ ﴾ .

وَثَبَتَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ سَأَلَ أَبَا وَاقِدٍ اللَّيْثِيَّ مَاذَا كَانَ يَقْرَأُ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ فِي الْفِطْرِ وَالْأَضْحَى ؟ فَقَالَ : ﴿ كَانَ يَقْرَأُ بِ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ وَاقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(303/723)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة ق

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1)

قوله : ﴿ والقرآن ﴾ : قَسَمٌ . وفي جوابه أوجهٌ ، أحدُها : أَنَّه قولُه : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأرض ﴾ . الثاني : ﴿ مَا يُبَدَّلُ القول ﴾ الثالث : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ ﴾ . الرابع : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لذكرى ﴾ . الخامس ﴿ بَلْ عجبوا ﴾ وهو قولٌ كوفيٌّ . قالوا : لأَنَّه بمعنى " قد عَجِبوا " السادس : أَنَّه محذوفٌ ، فقدَّره الزجَّاج والأخفشُ والمبردُ " لَتُبْعَثُنَّ " . وفَتَحَها عيسى ، وكَسَرها الحسنُ وابن أبي إسحاق ، وضمَّها هارونُ وابنُ السَّمَيْفَع . وقد مَضَى توجيهُ ذلك كلِّه . وهو أنَّ الفتحَ يحتمل البناءَ على الفتح للتخفيفِ ، أو يكونُ منصوباً بفعلٍ مقدرٍ ، ومُنِع الصرفَ ، أو مجرورٌ بحرفِ قسمٍ مقدرٌ ، وإنما مُنعَ

الصرفَ أيضاً . والضمُّ على أنه مبتدأٌ أو خبرٌ ، ومُنع الصرف أيضاً .

أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (3)

(304/723)

قوله : ﴿ أَإِذَا مِتْنَا ﴾ : قرأ العامَّةُ بالاستفهام ، وابنُ عامر في روايةٍ ، وأبو جعفر والأعمش والأعرج بهمزةٍ واحدةٍ ، فتحتملُ الاستفهامَ كالجمهورِ ، وإنما حَذَفَ الأداةَ للدلالةِ ، وتحتملُ الإخبارَ بذلك . والناصبُ للظرفِ في قراءةِ الجمهورِ مقدرٌ أي : أُنْبَعَثُ أو أُرْجَعُ إذا مِتْنا . وجوابُ "إذا" على قراءةِ الخبرِ محذوفٌ أي : رَجَعْنا . وقيل : قولُه : "ذلك رَجْعٌ" على حذفِ الفاءِ ، وهذا رأيُ بعضِهم . والجمهور لا يُجَوِّزُ ذلك إلاَّ في شعرٍ . وقال الزمخشريُّ : "ويجوز أَنْ يكونَ الرَّجْعُ بمعنى المَرْجوع هو الجوابَ ، ويكونَ مِنْ كلامِ اللَّهِ تعالى ، استبعاداً لإنكارهم ما أُنْذِروا به من البَعْثِ . والوقفُ على ما قبلَه على هذا التفسيرِ حسنٌ" . فإنْ قلت : فما ناصبُ الظرفِ إذا كان الرَّجْعُ بمعنى المَرْجوع ؟ قلت : ما دَلَّ عليه المنذِرُ من المنذَرِ به وهو البعثُ" وأَنْحَى عليه الشيخُ في فهمِه هذا الفهمَ .

بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (5)

قوله : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا ﴾ : هذا إضرابٌ ثانٍ . قال الزمخشري : "إضرابٌ أُتبع الإضرابَ

قبله للدلالةِ على أنَّهم جاؤُوا بما هو أفظعُ مِنْ تعجُّبهم ، وهو الكذيبُ بالحق " . وقال الشيخ : " وكأن هذا الإضرابَ الثاني بدلُ بداءٍ من الأول " . قلت : وإطلاقُ مثلِ هذا في كتابِ الله لا يجوزُ البتةَ . وقيل : قبل هذه الآيةِ جملةٌ مُضْرَبٌ عنها . تقديرُها : ما أجادُوا النظرَ ، بل كَذَّبوا . وما قاله الزمخشريُّ أحسنُ .

والعامَّةُ على تشديد " لَمَّا " وهي : إمَّا حرفُ وجوبٍ لوجوب ، أو ظرفٌ بمعنى حين ، كما عَرَفْتَه . وقرأ الجحدريُّ بكسرِ اللام وتخفيفِ الميمِ على أنَّها لامُ الجرِّ دَخَلَت على " ما " المصدرية ، وهي نظيرُ قولِهم : "كتبْتُه لخمسٍ خَلَوْن " أي : عندها .

(305/723)

قوله : ﴿ مَّرِيجٍ ﴾ أي : مُخْتَلِط . قال أبو واقد :

4089 مَرِجَ الدِّيْنُ فأَعْدَدْتُ له . . . مُشْرِفَ الأَقْطارِ مَحْبوكَ الكَتَدْ

وقال آخر :

4090 فجالَتْ والتمسْتُ به حَشاها . . . فَخَرَّ كأنَّه خُوْطٌ مَرِيْجُ

وأصلُه من الحركةِ والاضطراب/ ومنه : مَرَجَ الخاتمُ في إصبعِه .

أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (6)

قوله : ﴿ فَوْقَهُمْ ﴾ : حالٌ من " السماء " وهي مؤكِّدةٌ . و "كيف " منصوبةٌ بما بعجها وهي معلّقَةٌ للنظرِ قبلها .

تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (8)

قوله : ﴿ تَبْصِرَةً ﴾ : العامَّةُ على نصبِها على المفعول مِنْ أجله أي : تبصيرَ أمثالِهم وتذكيراً مِنَّا لهم . وقيل : منصوبان بفعلٍ مِنْ لفظِهما مقدرٍ أي : بَصِّرْهم تَبْصِرةً وذكِّرْهم تَذْكرةً . وقيل : حالان أي : مُبَصِّرين مُذَكِّرين . وقيل : حالٌ من المفعول أي : ذاتَ تَبْصِيرٍ وتَذْكيرٍ لمَنْ يَراها . وزيد بن علي بالرفع . وقرأ " وذِكْرٌ " أي : هي تبصرةٌ وذِكْرٌ . و " لكلِّ " : إمَّا صفةٌ ، وإمَّا متعلِّقٌ بنفسِ المصدر .

وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (9)

قوله : ﴿ وَحَبَّ الحصيد ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ مِنْ بابِ حَذْفِ الموصوفِ للعِلْم به تقديرُه : وحَبَّ الزَرْعِ الحصيدِ نحو : مسجد الجامع وبابِه . وهذا مذهبُ البصريين ؛ لئلا تَلْزَمَ إضافةُ الشيءِ إلى نفسِه . ويجوز أَنْ يكونَ من بابِ إضافةِ الموصوفِ إلى صفتِه ؛ لأنَّ الأصلَ : والحَبَّ الحصيدَ أي : المحصود .

وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (10)

قوله : ﴿ والنخل ﴾ : منصوبٌ عطفاً على مفعول " أَنْبَتْنا " أي : وأَنْبَتْنا النخلَ . و " باسِقاتٍ " حالٌ . وهي حالٌ مقدرةٌ ؛ لأَنَّها وقتَ الإِنباتِ لم تكن طِوالاً . والبُسُوْقُ : الطُّوْلُ . يُقال : بَسَقَ فلانٌ على أصحابِه أي : طالَ عليهم في الفَضْلِ . ومنه قولُ ابنِ نوفل في ابن هبيرة :

4091 يا بنَ الذين بمَجْدِهِمْ . . . بَسَقَتْ على قَيْسٍ فَزارَهْ

وهو استعارةٌ ، والأصلُ استعمالُه في : بَسَقَتِ النخلةُ تَبْسُقُ بُسُوْقاً أي : طالَتْ . قال الشاعر :

4092 لنا خَمْرٌ وليسَتْ خمرَ كَرْمٍ . . . ولكنْ مِنْ نِتاجِ الباسِقاتِ

كِرامٌ في السماءِ ذَهَبْنَ طُوْلاً . . . وفاتَ ثمارَها أيدي الجُناةِ

وبَسَقَتِ الشاةُ : وَلَدَتْ ، وأَبْسَقَت الناقةُ : وَقَع في ضَرْعِها اللِّبَأُ قبل النِّتاج ، ونوقٌ مَباسِيْقُ من ذلك . والعامَّةُ على السين . وقرأ قطبة بن مالك ويَرْوِيها عن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم " باصِقاتٍ " بالصاد ، وهي لغةٌ لبني العَنْبر ، يُبْدِلون السينَ صاداً قبل القافِ والغينِ والخاءِ والطاء إذا وَلِيَتْها ، أو فُصِلَتْ منها بحرفٍ أو حَرْفين .

قوله : ﴿ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ يجوز أَنْ تكونَ الجملةُ حالاً من النخل أو من الضمير في " باسِقاتٍ " ، ويجوز أَنْ يكونَ الحالُ وحدَه لها ، و " طَلْعٌ " فاعلٌ به ، ونَضِيْدٌ بمعنى مَنْضود .

رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (11)

قوله : ﴿ رِّزْقاً ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ حالاً أي : مرزوقاً للعباد أي : ذا رزقٍ ، وأَنْ يكونَ مصدراً مِنْ معنى أَنْبَتْنا ؛ لأنَّ إنباتَ هذا رِزْقٌ ، ويجوز أَنْ يكونَ مفعولاً له . و " للعباد " إمَّا صفةٌ ، وإمَّا متعلِّقٌ بالمصدرِ ، وإمَّا مفعولٌ للمصدرِ ، واللامُ زائدةٌ أي : رزْقاً للعباد .

(307/723)

قوله : ﴿ بِهِ ﴾ أي : بالماءِ . و " مَيْتاً " صفةٌ لـ " بَلْدة " . ولم يُؤَنَّثْ حَمْلاً على معنى المكانِ . والعامَّةُ على التخفيف . وأبو جعفر وخالد بالتثقيل .

وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (14)

قوله : ﴿ الأيكة ﴾ : قد تقدَّم الكلامُ عليها في الشعراء . وقرأ ههنا " لَيْكَة " بزِنَةِ لَيْلَة أبو جعفر وشيبةُ . وقال الشيخُ : " وقرأ أبو جعفرٍ وشيبةُ وطلحةُ ونافع " الأَيكةِ " بلام التعريفِ ، والجمهور " لَيْكَة " وهذا الذي نقلَه غفلةٌ منه ، بل الخلافُ المشهورُ إنما هو في سورة الشعراء وص كما حَقَّقْتُه ثَمَّةَ ، وأمَّا هنا فالجمهورُ على لامِ التعريفِ .

قوله : ﴿ كُلٌّ ﴾ التنوينُ عِوَضٌ من المضافِ إليه . وكان بعضُ النحاةِ يُجيز حَذْفَ تنوينِها

وبناءَها على الضم كالعامَّةِ نحو : قبل وبعد .

أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (15)

(308/723)

قوله : ﴿ أَفَعَيِينَا ﴾ : العامَّةُ على ياءٍ مكسورةٍ بعدها ياءٌ ساكنةٌ . وقد مَضَى معناه في الأحقاف . وقرأ ابنُ أبي عبلة " أَفَعَيِّنا " بتشديدِ الياءِ مِنْ غيرِ إشباعٍ . وهذه القراءةُ على إشكالِها قرأ بها الوليد بن مسلم وأبو جعفر وشيبةُ ونافعٌ في روايةٍ ، وروى ابنُ خالويه عن ابن أبي عبلة " أَفَعَيِّينا " كذلك لكنه أتى بعد الياء المشدَّدة بأخرى ساكنة . وخرَّجَها الشيخ على لغةِ مَنْ يقولُ عَيِيَ : عَيَّ ، وفي حَيِيَ : حَيَّ بالإدغام . ثم لَمَّا أَسْنَدَ هذا الفعلَ وهو مُدْغَمٌ ، واعتبر لغةَ بكر بن وائلٍ : وهو أنهم لا يَفُكُّون الإدغامَ في مثلِ هذا إذا أَسْنَدوا ذلك الفعلَ المدغَم لتاءِ المتكلم ، ولا إحدى أخَواتها التي تُسَكَّنُ لها لامُ الفعل ، فيقولون في رَدَّ : رَدْتُ ورَدْنا ، قال : " وعلى هذه اللغةِ/ تكونُ الياءُ مفتوحةً " . قلت : " ولم يَذْكُرْ توجيهَ القراءةِ الأخرى . وتوجيهُها : أنها مِنْ عَيَّا يُعَيِّي كحَلَّى يُحَلِّي .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16)

قوله : ﴿ وَنَعْلَمُ ﴾ : خبرُ مبتدأ مضمرٍ . تقديرُه : ونحن نعلمُ . والجملةُ الاسميةُ حينئذٍ

حالٌ . ولا يجوزُ أَنْ يكونَ هو حالاً بنفسه ؛ لأنه مضارعٌ مثبتٌ باشَرَتْهُ الواو . وكذلك قولُه : " ونحن أقربُ " .

(309/723)

قوله : ﴿ مِنْ حَبْلِ الوريد ﴾ هذا كقولهم : مسجد الجامع أي : حبلِ العِرْقِ الوريد ، أو لأنَّ الحبلَ أعمُّ للبيان نحو : بعير سانية ، أو يراد حَبْلُ العاتق فأضيف إلى الوريد كما يضاف إلى العاتِق ، لأنهما في عضو واحد . والوريد : إمَّا بمعنى الوارد ، وإمَّا بمعنى المورود . والوريد : عِرْقٌ كبير في العنق يقال : إنهما وريدان . قال الزمخشري : " عِرْقان مُكْتنفان لصفحتَيْ العُنُق في مُقَدَّمِهما يتصلان بالوَتين ، يَرِدان من الرأس إليه . ويسمَّى وريداً ؛ لأنَّ الروحَ تَرِدُ إليه " . وأنشد :

4093 كأنْ وَرِيْدَيْهِ رِشاءُ خُلْبِ . . . وقال الأثرم : " هو نهرُ الجسدِ : هو في القلبِ الوَتينُ ، وفي الظهر الأَبْهَرِ ، وفي الذِّراعِ والفَخِذِ الأَكْحَلُ والنَّسا ، وفي الخِنْصِرِ الأَسْلَم " .

إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17)

قوله : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ﴾ : ظرفٌ لـ " أَقْرَبُ " . ويجوزُ أَنْ يكونَ منصوباً بـ اذكُرْ .

قوله : ﴿ عَنِ اليمين وَعَنِ الشمال قَعِيدٌ ﴾ يجوز أَنْ يكونَ مفرداً على بابه ، فيكون بمعنى

مُفاعِل كخليط بمعنى مُخالِط ، أو يكونَ عَدَلَ مِنْ فاعِل إلى فعيل مبالغةً كعليم . وجوّز الكوفيون أَنْ يكونَ فعيل واقعاً مَوْقِعَ الاثنين . وقال المبرد : " والأصل : عن اليمين قعيدٌ وعن الشِّمال ، فأُخِّرَ عن موضعِه " وهذا لا يُنْجي مِنْ وقوعِ المفردِ موقعَ المثنى . والأَجْوَدُ أَنْ يُدَّعَى حَذْفٌ : إمَّا من الأول أي : عن اليمين قعيدٌ وعن الشِّمال قعيدٌ ، وإمَّا من الثاني ، فيكون قعيدٌ الملفوظُ به للأول ، ومثلُه قولُ الآخر :

4094 رَماني بأَمْرٍ كنتُ منه ووالدي . . . بَريئاً ومِنْ أجل الطَّوِيِّ رَماني

مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18)

(310/723)

قوله : ﴿ مَّا يَلْفِظُ ﴾ : العامَّةُ على كسرِ الفاء ومحمدُ بن أبي معدان على فتحِها .

ورقيبٌ عتيدٌ قيل : هو بمعنى : رقيبان عتيدان .

وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19)

قوله : ﴿ بالحق ﴾ : يجوز أَنْ تكونَ الباءُ للحال أي : ملتبسةً بالحقِّ ، ويجوز أَنْ تكونَ للتعديةِ . وقرأ عبد الله " سَكَراتُ " وتَحيد : تميلُ ، مِنْ حادَ عن الشيء يَحيد حُيُوداً وحُيُوْدَة وحَيْداً .

وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (21)

قوله: ﴿ مَّعَهَا سَآئِقٌ ﴾: جملةٌ في موضعِ جرّ صفةً لـ "نَفْسٍ" أو رفعٍ صفةً لـ "كل"، أو نصبٍ حالاً مِنْ "كلٌّ". والعامَّةُ على عدمِ الإدغامِ في "معها"، وطلحة على الإدغام "مَحَّا" بحاءٍ مشددةٍ؛ وذلكَ أنه أدغم العينَ في الهاء، ولا يمكنُ ذلك، فقَلَبَ الهاءَ حاءً، ثم أدغم فيها العينَ فقلبها حاءً. وسُمِع "ذَهَبَ مَحُّمْ" أي: معهم. قال الزمخشري: "ومحلُّ "معها سائقٌ" النصبُ على الحال من "كلٌّ" لتعرُّفه بالإضافة إلى ما هو في حكم المعرفة". وأنحى عليه الشيخ مُتَحَمّلاً على عادته، وقال: "لا يقولُ هذا مبتدِئٌ في النحو، لأنه لو نُعِتَ "كلُّ نفسٍ" ما نُعِتَ إلاَّ بالنكرة". وهذا منه غيرُ مَرْضيٍّ؛ إذ يَعْلم أنه لم يُرِدْ حقيقةً ما قاله.

لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22)

(311/723)

قوله: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ ﴾: أي: يُقال له: لقد كنتَ، والقولُ: إمَّا صفة أو حالٌ. والعامَّةُ على فتح التاءِ والكافِ في "كنتَ" و "غِطاءَكَ" و "فبصَرُكَ" حَمْلاً على لفظ "كلٌّ" من التذكير. والجحدري "كنتِ" بالكسر مخاطبةً للنفس، وهو وطلحة بن مصرف "عنكِ

" ، " غطاءَكِ " ، " فبصَرُكِ " بالكسر مراعاةً للنفس أيضاً . ولم ينقل صاحبُ " اللوامح " الكسرَ في الكاف عن الجحدريّ ، وعلى الجملة فيكونُ قد راعى اللفظَ والمعنى أخرى .

وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (23)

قوله : ﴿ هذا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ : يجوزُ أَنْ تكونَ " ما " نكرةً موصوفةً و " عتيدٌ " صفتُها و " لَدَيَّ " متعلقٌ ب " عتيدٌ " أي : هذا شيءٌ عَتيدٌ لديَّ أي : حاضرٌ عندي . ويجوزُ على هذا أَنْ يكونَ " لديَّ " وصفاً ل " ما " ، و " عتيدٌ " صفةٌ ثانيةٌ ، أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ أي : هو عتيدٌ . ويجوزُ أَنْ تكونَ موصولةً بمعنى الذي . و " لَدَيَّ " صلتُها و " عتيدٌ " خبرُ الموصولِ ، والموصولُ وصلتُها خبرُ الإشارةِ . ويجوزُ أَنْ تكون " ما " بدلاً مِنْ " هذا " موصولةً كانت أو موصوفةً ب " لَدَيَّ " و " عتيدٌ " خبرُ " هذا " . وجَوَّز الزمخشريُّ في " عَتيدٌ " أَنْ يكونَ بدلاً أو خبراً بعد خبرٍ أو خبرَ مبتدأ محذوفٍ . / والعامَّةُ على رفعِه ، وعبد الله نصبَه حالاً . والأجودُ حينئذٍ أَنْ تكونَ " ما " موصولةً ؛ لأنها معرفةٌ ، والمعرفةُ يَكْثُرُ مجيءُ الحالِ منها . قال أبو البقاء : " ولو جاء ذلك في غيرِ القرآنِ لجاز نصبُه على الحالِ " . قلت : قد جاء ما وَدَّه ولله الحمدُ ، وكأَنَّه لم يَطَّلِعْ عليها قراءةً .

أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (24)

قوله : ﴿ أَلْقِيَا ﴾ : اختلفوا : هل المأمورُ واحدٌ أم اثنان ؟ فقال بعضُهم : واحد ، وإنما أتى بضميرِ اثنين ، دلالةً على تكرير الفعل كأنه قيل : أَلْقِ أَلْقِ . وقيل : أراد أَلْقِيَنْ بالنونِ الخفيفة فأبدلها ألفاً إجراءً للوَصْلِ مُجْرى الوقفِ ، ويؤيِّده قراءةُ الحسنِ " أَلْقِيَنْ " بالنونِ . وقيل : العرب تخاطِبُ الواحدَ مخاطبةَ الاثنين تأكيداً كقولِه :

4095 فإن تَزْجُراني يا بنَ عَفَّانَ أَنْزَدِجِرْ . . . وإنْ تَدَعاني أَحْمِ عِرْضاً مُمَنَّعا

وقال آخر :

4096 فقُلْتُ لصاحبي لا تَحْبِسانا . . . . . .

. . . . . .

البيت . وقال بعضُهم : المأمور مثنى . وهذا هو الحقُّ لأنَّ المرادَ مَلَكان يفعلان ذلك .

الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (26)

قوله : ﴿ الذي جَعَلَ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ منصوباً على الذمِّ ، أو على البدلِ مِنْ "كل" ، وأَنْ يكونَ مجروراً بدلاً من "كَفَّار" ، أو مرفوعاً بالابتداء ، والخبرُ "فَأَلْقياه" . قيل : ودَخَلَتِ الفاءُ لشِبْهِه بالشرط . ويجوز أَنْ يكونَ خبرَ مبتدأ مضمرٍ أي : هو الذي جَعَلَ ، ويكونُ "فَأَلْقِياه" تأكيداً . وجَوَّز ابنُ عطية أَنْ يكونَ صفةً للكَفَّار قال : "من حيثُ يختصُّ "كَفَّار" بالأوصافِ المذكورة ، فجاز وَصْفُه بهذه المعرفة" ، وهذا مردودٌ .

وقُرِىء بفتح التنوين فِراراً مِن توالي أربعة متجانساتٍ .

قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (27)

(313/723)

قوله : ﴿ قَالَ قَرِينُهُ ﴾ : جاءَتْ هذه بلا واوٍ ؛ لأنها قُصِدَ بها الاستئنافُ ؛ كأنَّ الكافرَ قال : ربِّ هو أَطْغاني . فقال قَرينُه : ما أَطْغَيْتُه ، بخلاف التي قبلَها ، فإنها عُطِفَتْ على ما قبلَها للدلالة على الجمعِ بين معناها ومعنى ما قبلَها في الحصولِ ، أعني مجيْءَ "كلُّ نفس " مع المَلَكَيْن وقولَ قرينه ما قاله له .

قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ (28)

قوله : ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا ﴾ : استئنافٌ أيضاً ، كأن قائلاً قال : فماذا قال اللَّهُ له ؟ فأُجيب ب " قال : لا تَخْتصموا " .

قوله : ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ ﴾ جملةٌ حاليةٌ . ولا بُدَّ مِنْ تأويلِها . وذلك أنَّ النهيَ في الآخرةِ وتَقْدِمةَ الوعيدِ في الدنيا ، فاختلف الزمنان ، فكيف يَصِحُّ جَعْلُها حاليةً ؟ وتأويلها : هو أن المعنى وقد صَحَّ أني قَدَّمْتُ ، وزمانُ الصحةِ وزمانُ النهيِ واحدٌ ، و " قَدَّمْتُ " يجوزُ أَنْ يكونَ بمعنى تَقَدَّمْتُ ، فتكون التاءُ للحال ، ولا بُدَّ من حَذْفِ مضافٍ أي : وقد تقدَّم

قولي لكم مُلْتبساً بالوعيد . ويجوزُ أن يكونَ " قَدَّمْتُ " على حاله متعدّياً ، والباءُ مزيدةٌ في المفعول أي : قَدَّمْتُ إليكم الوعيدَ .

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (30)

قوله : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ ﴾ : " يوم " منصوبٌ : إمَّا بظَلاَّم ، ولا مفهومَ لهذا ؛ لأنه إذا لم يَظْلِمْ في هذا اليومِ فَنَفْيُ الظلمِ عنه في غيرِه أَحْرَى أو بقولِه : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصور ﴾ [ق : 20] والإشارة بذلك إلى " يومَ نقول " قاله الزمخشري ، واستبعده الشيخُ بكثرةِ الفواصلِ ، أو ب " اذْكُرْ " مقدَّراً أو بأُنْذِرْ ، وهو على هذَيْن الأخيرَيْن مفعولٌ به لا ظرفٌ .

(314/723)

قوله : ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ سؤالُ تقريرٍ وتوقيفٍ . وقيل : معناه النفيُ . وقيل : السؤالُ لخَزَنَتِها . والجوابُ منهم ، فلا بُدَّ مِنْ حذفِ مضافٍ أي : نقولُ لخزنةِ جهنمَ ويقولون ، ثم حَذَفَ . وقرأ نافع وأبو بكر " يقول لجهنمَ " بياء الغَيْبة ، والفاعلُ اللَّهُ تعالى لتقدُّمِ ذِكْرِه في قولِه : " مع الله " ، والباقون بنونِ المتكلِّمِ المعظِّمِ نفسَه لتقدُّمِ ذِكْرِه في قوله : " لديَّ " ، " وقد قَدَّمْتُ " . والأعمش " يُقال " مبنياً للمفعول . والمزيد يجوز أَنْ يكونَ مصدراً ، وأن يكونَ اسمَ مفعولٍ أي : مِنْ شيءٍ تَزيد ونَنيْه أَحْرقه .

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (31)

قوله : ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ : يجوزُ أَنْ تكونَ حالاً من الجنة ، ولم تُؤَنَّثْ لأنها بمعنى البستان ، أو لأنَّ فعيلاً لا يُؤَنَّثُ لأنه بزنةِ المصادرِ ، قاله الزمخشري ، ولم يُسَلِّمْه الشيخُ ، وقد تقدَّم في قولِه : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ ﴾ [الأعراف : 56] ما يُغْنِيك عن هذا . ويجوز أَنْ يكونَ منصوباً على الظرفِ المكانيِّ أي : مكاناً غيرَ بعيدٍ . ويجوز أَنْ يكونَ نعتاً لمصدرٍ محذوفٍ أي : إزْلافاً غيرَ بعيدٍ . وهو ظاهرُ عبارةِ الزمخشري فإنه قال : " أو شيئاً غيرَ بعيدٍ " .

هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (32)

قوله : ﴿ هذا مَا تُوعَدُونَ ﴾ : هذه الجملةُ يجوزُ فيها وجهان ، أحدهما : أَنْ تكونَ معترضةً بين البدلِ والمبدلِ منه ؛ ولذلك أنَّ " لكل أَوَّاب " بدلٌ من " للمتقين " بإعادةِ العامل . والثاني : أَنْ تكونَ مصنوبةً بقولٍ مضمرٍ ، ذلك القولُ منصوبٌ على الحالِ أي : مقولاً لهم . وقد تقدَّم في ص أنه قُرِىء " تُوْعَدون " بالتاء والياء . ونَسَبَ الشيخُ قراءةَ الياءِ مِنْ تحتُ هنا لابن كثيرٍ وأبي عمروٍ ، وإنما هي عن ابن كثير وحدَه .

مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (33)

قوله : ﴿ مَّنْ خَشِيَ ﴾ : يجز أن يكونَ مجرورَ المحلِّ بدلاً أو بياناً ل "كل" . وقال الزمخشري : "إنه يجوز أَنْ يكونَ بدلاً بعد بدل تابعاً لكل" انتهى . يعني أنه بدلٌ مِنْ "كل" بعد أن أُبْدِلَتْ "لكل" مِنْ "للمتقين" ولم يَجْعَلْه بدلاً آخر من نفس "للمتقين" لأَنَّه لا يتكرَّرُ البدلُ والمبدلُ منه واحدٌ/ . ويجوز أن يكونَ بدلاً عن موصوفِ أَوَّاب وحفيظ ، قاله الزمخشري ، يعني أن الأصلَ : لكل شخصٍ أوَّابٍ ، فيكون "مَنْ خَشِي" بدلاً مِنْ شخص المقدر قال : "ولا يجوز أَنْ يكونَ في حُكم أوَّاب وحفيظ لأَنَّ "مَنْ" لا يُوْصَفُ بها ، ولا يُوْصَفُ مِنْ بين الموصولاتِ إلاَّ ب "الذي" . يعني بقوله : "في حُكْمِ أوَّاب" أن يُجْعَل "مَنْ" صفةً ، وهذا كما قال لا يجوزُ . إلاَّ أنَّ الشيخَ اسْتَدْرَكَ عليه الحصرَ فقال : "بل يوصف بغير "الذي" من الموصولاتِ كوَصْفِهم بما فيه أل الموصولة نحو : الضارب والمضروب ، وكوَصْفِهم ب ذو وذات الطائيَّتين نحو قولهم : "بالفضل ذو فَضَّلكم اللَّهُ به والكرامةِ ذاتُ أكرمكم اللَّهُ بَهْ" .

(316/723)

وجوّز ابنُ عطية في " مَنْ خَشِي " أَنْ يكونَ نعتاً لِما تقدَّم ، وهو مردودٌ بما تقدَّم ، ويجوز أَنْ يكونَ يرتفع " مَنْ خَشِي " على خبر ابتداءٍ مضمرٍ ، أو يُنْصَبُ بفعلٍ مضمرٍ ، وكلاهما على القطع المُشْعِرِ بالمدح ، وأن يكونَ مبتدأ خبرُه قولٌ مضمرٌ ناصبٌ لقوله : " ادْخُلوها " أي : مَنْ خَشِي الرحمنَ يُقال لهم : ادْخُلوها . وحُمِل أولاً على اللفظِ ، وفي الثاني على المعنى ، وقيل : " مَنْ خَشي " منادى حُذِفُ منه حرفُ النداءِ أي : يا مَنْ خَشِي ادْخلُوها باعتبار الحَمْلَيْن المتقدّمَيْنِ ، وأَنْ تكونَ شرطيةً ، وجوابُها محذوفٌ وهو ذلك القولُ ، ولكن رُدَّ معه فاءٌ أي : فيقال لهم : و " بالغيب " حالٌ أي : غائباً عنه ، فيُحتمل أَنْ يكونَ حالاً من الفاعل أو المفعول أو منهما . وقيل : الباءُ للسببية أي : خَشْيةً بسببِ الغيب الذي أَوْعَدَه مِنْ عذابه . ويجوز أَنْ تكونَ صفةً لمصدرِ خشي أي : خَشيَه خَشْيَةً ملتبسةً بالغيب .

ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (34)

قوله : ﴿ بِسَلَامٍ ﴾ : حالٌ من فاعل " ادْخلوها " ، أي : سالمين من الآفات ، فهي حالٌ مقارِنةٌ أو مُسَلَّماً عليكم ، فهي حالٌ مقدرةٌ كقوله : ﴿ فادخلوها خَالِدِينَ ﴾ [الزمر : 73] كذا قيل . وفيه نظر ؛ إذ لا مانعَ من مقارنة تسليم الملائكةِ عليهم حالَ الدخول بخلافِ ﴿ فادخلوها خَالِدِينَ ﴾ [الزمر : 73] فإنه لا يُعْقَلُ الخلودُ إلاَّ بعد الدخولِ .

قوله : ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الخلود ﴾ قال أبو البقاء : " أي زمنُ ذلك يومُ الخلود " كأنه جعَلَ ذلك إشارةً إلى ما تقدَّمَ مِنْ إنعام اللَّهِ عليهم بما ذُكِرَ . ولا حاجةَ إلى ذلك ؛ بل ذلك مُشارٌ به لما

بعدَه من الزمانِ كقولك " هذا زيدٌ " .

قوله : ﴿ فِيهَا ﴾ يجوزُ أَنْ يتعلَّقَ بـ يَشاؤُون ، ويجوزُ أَنْ يكونَ حالاً من الموصول ، أو مِنْ عائِده والأول أَوْلى .

(317/723)

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (36)

قوله : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ : "كم" نُصِب بما بعده . وقُدِّم : إمَّا لأنه استفهامٌ ، وإمَّا لأنَّ الخبريَّة تَجْري مَجْرى الاستفهاميةِ في التصدير . و "مِنْ قَرْن" تمييزٌ ، و "هم أشدُّ" صفةٌ : إمَّا لـ "لكم" وإمَّا لـ "قرن" .

قوله : ﴿ فَنَقَّبُواْ ﴾ الفاءُ عاطفةٌ على المعنى كأنه قيل : اشتدَّ بَطْشُهم فنَقَّبوا . والضمير في "نَقَّبوا" : إما للقرونِ المقتدمةِ وهو الظاهرُ ، وإمَّا لقريش ، ويؤيِّده قراءةُ ابنِ عباس وابن يعمر وأبي العالية ونصر ابن سيَّار وأبي حيوةَ والأصمعيِّ عن أبي عمرو "فَنَقِّبوا" بكسر القاف أَمْراً لهم بذلك . والتنقيب : التنقير والتفتيش ، ومعناه التطوافُ في البلاد . قال الحارث بن حِلِّزة :

4097 نَقَّبوا في البلاد مِنْ حَذَرِ المو . . . تِ وجالُوا في الأرض كلَّ مَجَالِ

وقال امرؤ القيس :

4098 وقد نَقَّبْتُ في الآفاقِ حتى . . . رَضِيْتُ مِن الغنيمة بالإِيابِ

وقرأ ابن عباس وأبو عمرو أيضاً في رواية " نَقَبوا " بفتح القاف خفيفةً . ومعناها ما تقدَّم . وقُرِىء " نَقِبوا " بكسرها خفيفةً أي : تَعِبَتْ أقدامُهم وأقدامُ إبلهم ودَمِيَتْ ، فَحُذِفَ المضافُ ، وذلك لكثرةِ تَطْوافِهم .

قوله : ﴿ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ مبتدأٌ ، وخبرُه مضمرٌ تقديرُه : هل لِمَنْ سَلَكَ طريقَهم ، أو هل لهم مِنْ مَحيصٍ ، وهذه الجملةُ تحتمل أن تكون إلى إضمارِ قولٍ ، وأَنْ لا تكونَ .

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (37)

(318/723)

قوله : ﴿ أَوْ أَلْقَى ﴾ : العامَّةُ على " أَلْقى " مبنياً للفاعل . والسلمي وطلحة والسُّدّي وأبو البرهسم " أُلْقِي " مبنياً للمفعول " السَّمعُ " رُفِع به ، وذُكِرت هذه القراءةُ لعاصمٍ عن السُّدّي فمقته وقال : أليس يقول : "يُلْقُوْن السَّمْعَ" .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (38)

قوله : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ : يجوز أَنْ تكونَ حالاً ، وأن تكونَ مستأنفةً . والعامَّةُ

على ضمِّ لامِ اللُّغوب . وعلي وطلحة والسلمي ويعقوبُ بفتحِها ، وهما مصدران بمعنىً . وينبغي أَنْ يُضَمَّ هذا إلى ما حكاه سيبويه من المصادر الجائيةِ على هذا الوزنِ وهي خمسة ، وإلى ما زاده الكسائي وهو الوَزُوعُ ، فتصير سبعةً . وقد أتقَنْتُ هذا في البقرة عند قوله : ﴿ وَقُودُهَا ﴾ [الآية : 24] .

وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (40)

قوله : ﴿ وَأَدْبَارَ ﴾ : قرأ نافع وابن كثير وحمزة " إِدْبار " بكسر الهمزة ، على أنه مصدرٌ قام مَقامَ ظرفِ الزمان كقولهم : " آتيك خُفوقَ النجمِ وخلافة الحجَّاج " . والمعنى : وقتَ إدبار الصلاة أي : انقضائِها وتمامِها . والباقون بالفتح جمعَ " دُبُر " وهو آخرُ الصلاة وعَقِبُها ، ومنه قول أُوس :

4099 على دُبُرِ الشهرِ الحَرامِ فأَرْضُنا . . . وما حولَها جَدْبٌ سِنونَ تَلْمَعُ

ولم يختلفوا في ﴿ وَإِدْبَارَ النجوم ﴾ [الطور : 49] .

وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (41)

قوله : ﴿ واستمع ﴾ : هو استماعٌ على بابِه . وقيل : بمعنى الانتظارِ ، وهو بعيدٌ . فعلى الأولِ يجوزُ أَنْ يكونَ المفعولُ محذوفاً أي : استمعْ نداءَ المنادي أو نداءَ الكافر بالويلِ والثُّبور ، فعلى هذا يكون " يومَ ينادي " ظرفاً ل " استمعْ " أي : استمعْ ذلك في يوم .

وقيل : استمعْ ما أقولُ لك . فعلى هذا يكون "يومَ يُنادي" . منصوباً ب "يَخْرجون" مقدَّراً مدلولاً عليه بقوله : ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الخروج ﴾ [ق : 42] ، وعلى الثاني يكون "يومَ ينادي" مفعولاً به أي : انتظرْ ذلك اليومَ .

ووقف ابن كثير على "يُنادي" بالياء ، والباقون دونَها . ووجهُ إثباتِها أنه لا مُقْتضٍ لحذفِها ، ووجهُ حَذْفِها وَقْفاً اتِّباعُ الرسمِ ، وكان الوقفُ مَحَلَّ تخفيفٍ . وأمَّا "المنادي" فأثبتَ ابنُ كثيرٍ أيضاً ياءَه وصلاً ووقفاً ، ونافع وأبو عمرو بإثباتِها وصلاً وحَذْفِها وقفاً ، وباقي السبعةِ بحَذْفِها وَصْلاً ووقفاً . فمَنْ أثبت فلأنَّه الأصلُ ، ومَنْ حَذَفَ فلاتِّباع الرسمِ ، ومَنْ خَصَّ الوقفَ بالحذفِ فلأنَّه مَحَلُّ راحةٍ ومَحَلُّ تغييرٍ .

يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (42)

قوله : ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ﴾ : بدلٌ مِنْ "يومَ ينادي" و "بالحق" حالٌ من الصيحة أي : ملتسبةً بالحق ، أو من الفاعلِ أي : يَسْمعون مُلْتبسين بسماع حق .

قوله : ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الخروج ﴾ يجوز أَنْ يكونَ التقديرُ : ذلك الوقتُ أي : وقتُ النداءِ والسماع يومُ الخروجِ . ويجوز أَنْ يكونَ "ذلك" إشارةً إلى النداء ، ويكونُ قد اتُّسِع في الظرف فأُخْبِرَ به عن المصدر ، أو يُقَدَّرَ مضافٌ إلى ذلك النداءِ والاستماع : نداء يومِ

الخروجِ واستماعِه .

يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (44)

(320/723)

قوله : ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ﴾ : " يوم " يجوز أَنْ يكونَ بدلاً مِنْ " يوم " قبله . وقال أبو البقاء : " إنه أُبْدِل مِنْ " يوم " الأول " وفيه نظرٌ مِنْ حيث تَعَدُّدُ البدلِ والمبدلُ منه واحدٌ . وقد تقدَّم أن الزمخشريَّ منعه . ويجوز أَنْ يكونَ اليوم ظرفاً للمصير . وقيل : ظرفٌ للخروج . وقيل : منصوبٌ ب "يَخْرُجون " مُقَدَّرا . وتقدَّمَ الخلافُ في "يَشَّقَّقُ" في الفرقان . وقرأ زيد " تَتَشَقَّق " بفكِّ الإدغام .

قوله : ﴿ سِرَاعاً ﴾ حالٌ من الضمير في " عنهم " ، والعاملُ فيها " تَشَقَّقُ " . وقيل : عاملُها هو العامل في " يومَ تَشَقَّقُ " المقدر أي : يَخْرُجون سِراعاً يوم تَشَقَّقُ .

قوله : ﴿ عَلَيْنَا ﴾ متعلق ب "يَسير " ففَصَل بمعمولِ الصفة بينها وبين موصوفِها ، ولا يَضُرُّ ذلك . ويجوز أَنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنه حالٌ منه . لأنه في الأصلِ يجوز أَنْ يكونَ نعتاً . وقال الزمخشري : " التقديمُ للاختصاصِ ، أي : لا يتيسَّر ذلك إلاَّ على الله وحده " . وقد

تقدَّم الخلافُ في ياء " وعيد " إثباتاً وحَذْفاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 10 صـ 38.17 ﴾

(321/723)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة ق

" بسم الله " اسم جبر أحوال من رحمه ، متجبر بكبريائه على من أقماه فقهره وحرمه .

" بسم الله " لطيف يعلم خفايا تصنع العابدين ، غافر لجلائل ذنوب العاصين .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ﴾ .

ق مفتاح أسمائه : " قوي وقادر وقدير وقريب " . . . أقسم بهذه الأسماءِ وبالقرآن المجيد .

وجوابُ القسَم محذوف ومعناه لَتُبْعَثُنَّ في القيامة .

ويقال جوابه : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ أي لقد علينا . . وحفت اللام لمَّا تطاول الخطاب .

ويقال : جوابه قوله : ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ﴾ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ بَلْ عَجِبُواْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ .

﴿ مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ : هو محمد صلى الله عليه وسلم .

والتعجُّبُ نوعٌ من تعبير النَّفْسِ عن استبعادها لأمرٍ خارج العادة لم يقع به عِلْمٌ من قَبْل . وقد مضى القولُ في إنكارهم للبعث واستبعادهم ذلك :

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ .

أي يَبْعُدُ عندنا أَنْ نُبْعثَ بعد ما مَتْنا . فقال جل ذكره :

﴿ قَدْ عَلِمْنا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ .

في هذا تسليةٌ للعبد فإنه إذا وُسِّدَ التراب ، وانصرف عنه الأصحاب ، واضطرب لوفاته الأحباب . فَمَنْ يَتَفَقَّدُه ومَنْ يَتَعَهَّدُه . . . وهو في شفير قبره ، وليس لهم منه شيءٌ سوى ذكره ، ولا أحدَ منهم يدري ما الذي يقاسيه المسكين في حُفْرته ؟ فيقول الحقُّ – سبحانه : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا ﴾ ولعلَّه يخبر الملائكة قائلاً : عَبدي الذي أَخْرَجته من دنياه – ماذا بقي بينه مَنْ يهواه هذه أجزاؤه قد تَفرَّقَتْ ، وهذه عِظامُه بَلِيَتْ ، وهذه أعضاؤه قد تَفَتَّتَتْ !

(322/723)

﴿ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ : وهو اللَّوحُ المحفوظ ؛ أَثْبَتنا فيه تفصيل أحوالِ الخَلْقِ من غير نسيانٍ ، وبيَّنَّا فيه كلَّ ما يحتاج العبدُ إلى تَذكُّره .

قوله جلّ ذكره : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِى أَمرٍ مَّرِيجٍ ﴾ .

﴿ مَّرِيجٍ ﴾ أي مختلط ومُلتبس ؛ فهم يتردَّدون في ظُلُمات تحيُّرهم ، ويضطربون في شكِّهم .

وقوله جلّ ذكره : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُواْ إِلَى السَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ .

أَوَلَمْ يعتبروا ؟ أَوَلَمْ يَسْتَدِلُّوا بما رفعنا فوقهم من السماء ، رفعنا سَمْكَها فَسَوَّيناها ، وأثبتنا فيها الكواكبَ وبها زَيَّناها ، وأَدَرْنا فيها شَمْسَها وقمرَها ؟ أو لم يروا كيف جَنَّسْنا عَيْنَها ونَوَّعْنا أَثَرَها ؟

﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ .

والأرض مددناها ؛ فجعناها لهم مِهاداً ، وجَعَلْنا لها الجبالَ أوتاداً ، وأَنْبَتْنا فيها أشجاراً وأزهاراً وأنواراً . . . كل ذلك :

﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ .

علامةً ودلالةً لكل من أناب إلينا ، ورجع من شهودِ أفعالنا إلى رؤية صفاتنا ، ومن شهود صفاتنا إلى شهودِ حقِّنا وذاتنا .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ .

أنزلنا من السماء ماءً مباركاً كثيرَ النفعِ والزيادة ، فأنبتنا به ﴿ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾

:

أي الذي يُحْصَد – كما تقول مسجد الجامع .

الأجزاء متجانسة . . ولكنّ أوصافَها في الطعوم والروائحِ والألوانِ والهيئاتِ والمقادير مختلفة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ .

(323/723)

والنخلُ باسقاتٌ : طويلاتٌ ، لها طَلْعٌ منضود بعضُه فوق بعض لكثرة الطَّلْع أو لما فيها مِن الثمار . وكيف جعلنا بعض الثمار متفرقة كالتفاح والكمثرى وغيرهما ، وكيف جعلنا بعضها مجتمعة كالعنب والرطب وغيرهما . . كلُّ ذلك جعلناه رزقاً للعباد ولكي ينتفعوا به .

﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ .

وكما سقنا هذا الماء إلى بلدةٍ جفَّ نباتُها ، وكما فَعلْنا كُلَّ هذه الأشياء ونحن قادرون على

ذلك – كذلك نجمعكم في الحشر والنشر ، فليس بَعْثُكُم بأبعدَ من هذا .

قوله جلّ ذكره : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ .

إنا لم نَعْجزْ عن هؤلاء – الذين ذكر أسماءَهم – وفيه تهديدٌ لهم وتسلةٌ للرسول .

﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ .

أي إنَا لم نعجز عن الخَلْق الأول . . فكيف نعجز عن الخلق الثاني – وهو الإعادة ؟ لم يعتص علينا فعلُ شيءٍ ، ولم نتعب من شيء . . فكيف يشق علينا أمر البعث ؟ أي ليس كذلك .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ .

نعلم ما توسوس به نَفْسُه من شهواتٍ تطلب استنفاذها ، مثل التصنُّع مع الخَلْق ، وسوءِ الخُلُق ، والحقد . . وغير ذلك من آفات النَّفْس التي تُشَوّش على القلب والوقت .

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ فَحَبْلُ الوريد أقربُ أجزاءِ نَفْسِه إلى نَفْسِه ، والمرادُ من ذلك العلم والقدرة ، وأنه يسمع قولهم ، ولا يشكل عليه شيءٌ من امرهم .

وفي هذه الآية هَيْبَةٌ وفَزَعٌ وخوفٌ لقومٍ ، ورَوْحٌ وسكونٌ وأُنْسُ قلبٍ لقومٍ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ .

خوَّفَهم بشهود الملائكة وحضور الحَفَظَة ، وبكتابتهم عليهم أعمالَهم ، فهما قَعيدا كلِّ احدٍ : ويقال : إذا كان العبدُ قاعداً فواحدٌ عند رأسِه وواحد عند قَدَمِه ، وإذا كان ماشياً فواحدٌ قائم بين يديه وآخرُ خَلْفَه .

ويقال : هما اثنان بالليل لكلِّ واحدٍ ، واثنان بالنهار .

ويقال : بل الذي يكتب الخيراتِ اليومَ يكون غيره غداً ، وأمَّا الذي يكتب الشر والمعصية بالأمس فإنه يكون كاتباً للطاعة غداً حتى يشهد طاعتك .

ويقال : بل الذي يكتب المعصية اثنان ؛ كل يوم اثنان آخران وكل ليلةٍ اثنان آخران لئلا يُعْلَمَ من مساويك إلا القليل منها ، ويكون عِلْمُ المعاصي متفرقاً بهم .

وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19)

إذا أشرفت النَّفْسُ على الخروج من الدنيا فأحوالُهم مختلفة ؛ فمنهم مَنْ يزداد في ذلك الوقت خوفُه ولا يَتَبَيَّنُ إلا عند ذهابِ الروح حالَه . ومنهم مَنْ يُكاشَفُ قبلَ خروجه فيسكن رَوْعُه ، ويُحْفَظُ عليه عَقْلُه ، ويتم له حضورُه وتمييزُه ، فيُسْلِمَ الرُّوحَ على مَهَلٍ مِنْ غير استكراهٍ ولا عبوس . . . ومنهم ، ومنهم . . . وفي معناه يقول بعضهم :

أنا إنْ مِتُّ – والهوى حشو قلبي – . . . فبداءِ الهوى يموت الكرامُ

ثم قال جلّ ذكره : ﴿ وَنُفِخَ فِى الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ .

سائقٌ يسوقها إمّا إلى الجنة أو إلى النار ، وشهيدٌ يشهد عليها بما فعلت من الخير والشرّ .

ويقال له : ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ .

المؤمنون – اليومَ بَصَرُهم حديد ؛ يُبصرون رُشْدَهم ويحذرون شرَّهم .

(325/723)

والكافر يقال له غداً : ﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ أي : ها أنت عَلِمْتَ ما كنتَ فيه من التكذيب ؛ فاليومَ لا يُسْمَعُ منكَ خطابٌ ، ولا يُرْفَعُ عنكَ عذابٌ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴾ .

لا يَخْفَى من أحوالهم شيءٌ إلى ذُكِرَ ، إنْ كان خيراً يُجازون عليه ، وإن كان غير خيرٍ يُحاسَبونَ عليه : إمَّا برحمةٍ منه فيغفر لهم وينجون ، وإمَّا على مقدار جُرْمِهم يُعَذَّبون .

﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴾ .

منّاعٍ للزكاة المفروضة .

ويقال : يمنع فَضْلَ مائِه وفَضْلَ كَلَئِه عن المسلمين .

ويقال : يمنع الناسَ من الخيرِ والإحسان ، ويسيءُ القول فيهما حتى يُزَهّدُ الناسَ فيهما .

ويقال : المناعُ للخير هو المِعْوانُ على الشَّرّ .

ويقال : هو الذي قيل فيه : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ [الماعون : 7] .

﴿ مُرِيبٍ ﴾ : أي يُشَكِّكُ الناسَ في أمره لأنه غير مخلص ، ويُلَبِّسُ على الناس حالَه لأنه منافق .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ .

يقول المَلَكُ من الحَفَظَةِ المُوَكَّلُ له : ما أَعْجَلْتُه على الزَّلَّة .

وإنما كَتَبْتُها بعد ما فَعَلَها – وذلك حين يقول الكافر : لم أفعلْ هذا ، وإنما أعجلني بالكتابة عليّ ، فيقول المَلَكُ : ربَّنا ما أعجلته .

ويقال : هو الشيطانُ المقرونُ به ، وحين يلتقيان في جهنم يقول الشيطانُ : ما أكرهته على كفره ، ولكنه فعل – باختياره – ما وسوسْتُ به إليه .

فيقول جلّ ذكره : ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ .

لا تختصموا لديَّ اليومَ وقد أَمَرْتُكم بالرُّشْدِ ونَهَيْتُكم عن الغَيّ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ .

﴿ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ ﴾ ﴿ وَتَقُولُ ﴾ : القولُ هنا على التوسُّع ؛ لأنه لو كانت جهنم ممن يجيب لقالت ذلك بل يُحْيِيها حتى تقولَ ذلك .

﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ : على جهة التغليظ ، والاستزداة من الكفار .

ويقال : بل تقول : ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ : أي ليس فيَّ زيادة كقوله عليه السلام لمَّا قيل له : يومَ فتح مكة : هل ترجع إلى دارك ؟ فقال : " وهل ترك لنا عقيل داراً " ؟ ! أي لم يترك ، فإن الله – تعالى – يملأ جهنمَ من الكفارِ والعصاةِ ، فإذا ما أُخرِجَ العصاةُ من المؤمنين ازدادَ غيظُ الكفارِ حتى تمتلىء بهم جهنم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ .

يقال : أنَّ الجنَّةَ تُقَرَّبُ من المتقين ، كما أَنَّ النّار تُجَرُّ بالسلاسل إلى المحشر نحو المجرمين .

ويقال : بل تقرب الجنة بأن يسهل على المتقين حشرهم إليها . . . وهم خواص الخواص .

ويقل : هم ثلاثةُ أصناف : قوم يُحْشَرون إلى الجنة مشاةً وهم الذين قال فيهم : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً ﴾ [الزمر : 73] – وهم عوام المؤمنين وقوم يحشرون إلى الجنة ركبانا على طاعاتهم المصوَّرة لهم بصورة حيوان ، وهم الذين قال فيهم جَلَّ وعلا : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَانِ وَفداً ﴾ [مريم : 85] – وهؤلاء هم الخواص وأمَّا

خاص الخاص فهم الذين قال عنهم : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي تُقَرَّبُ الجنةُ منهم .

وقوله : ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ : تأكيدٌ لقوله : " وأزلفت " .

ويقال : ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ : من العاصين تطييباً لقلوبهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ .

الأوَّابُ : الراجعُ إلى الله في جميع أحواله .

(327/723)

﴿ حَفِيظٍ ﴾ : أي محافظ على أوقاته ، (ويقال محافظ على حواسه في الله حافظ لأنفاسه مع الله) .

قوله جلّ ذكره : ﴿ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ .

الخشيةُ من الرحمنِ هي الخشية من الفراق (والخشية من الرحمن تكون مقرونة) بالأُنْس ؛ ولذلك لم يقل : من خشي الجبَّار ولا من خشي القهَّار " .

ويقال الخشية من الله تقتضي العلم بأنه يفعل ما يشاء وأنه لا يسْأَلُ عمَّا يفعل .

ويقال : الخشيةُ ألطفُ من الخوف ، وأنها قريبةٌ من الهيبة . (1)

﴿ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ : لم يقل بنَفْسٍ مطيعة بل قال : بقلبٍ منيب ليكونَ للعصاةِ في

هذا أملٌ ؛ لأنهم – وإن قَصَّروا بنفوسهم وليس لهم صِدْقُ القَدَمِ – فلهم الأسفُ بقلوبهم وصدق الندَّم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ .

أي يقال لهم : ادخلوها بسلامةٍ من كل آفةٍ ، ووجودِ رضوان ولا يسخطُ عليكم الحقُّ أبداً .

ومنهم مَنْ يقول له المَلَكُ : ادخلوها بسلامٍ ، ومنهم من يقوله له : لكم ما تشاؤون فيها – قال تعالى :

﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ .

لم يقل : " لهم ما يسألون " بل قال : ﴿ لَهُمْ مَّا يَشَآءُونَ ﴾ : فكلُّ ما يخطر ببالهم فإنَّ سؤلَهم يتحقق لهم في الوَهْلة ، وإذا كانوا اليوم يقولون : ما يشاء الله فإنَّ لهم غداً منه الإحسان . . . وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟

﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ : اتفق أهل التفسير على أنه الرؤية ، والنظر إلى الله سبحانه (2) وقومٌ يقولون : المزيد على الثواب في الجنة – ولا منافاة بينهما .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً فَنَقَّبُواْ فِى الْبِلاَدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ .

أي عْتَبِروا بالذين تَقَدَّموكم ؛ انهمكوا في ضلالتهم ، وأَصَرُّوا ، ولم يُقْلِعوا . . فأهلكناهم

وما أَبْقَيْنَا منهم أحداً .

---

(1) يقول الدقاق شيخ القشيري : هي مراتب : الخوف والخشية والهيبة : فالخوف من شرط الإيمان «وَخافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» والخشية من شرط العلم : «إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ» . والهيبة من شرط المعرفة :

«وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ» . وقال أبو القاسم الحكيم : الخوف على ضربين : رهبة وخشية فصاحب الرهبة يلتجىء إلى الهرب إذا خاف وصاحب الخشية يلتجىء إلى الرب (الرسالة ص 65) .

(2) أجمعوا على أن اللّه تعالى يرى بالأبصار في الآخرة ، وأنه يراه المؤمنون دون الكافرين لأن ذلك كرامة من اللّه تعالى لقوله : «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ» . وجوزّوا الرؤية بالعقل وأوجبوها بالسمع وإنما جاز في العقل لأنه موجود ، وكل موجود تجوز رؤيته إذا وضع اللّه سبحانه فينا الرؤية له ، ولو لم تكن الرؤية جائزة عليه لكان سؤال موسى عليه السلام : «أرنى أنظر إليك» جهلا وكفرا . وجاء السمع بوجوبه في مثل : - «كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ» . و«وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ» . . وقوله «ص» . . «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته يوم القيامة» . وأجمعوا على أنه لا يرى في الدنيا بالأبصار ، ولكن بالقلوب لأن الدنيا دار فناء ولا يرى الباقي في الدار الفانية . . وهي على العموم رؤية بلا كيفية ولا إحاطة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ .

قيل : ﴿ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ : أي من كان له عقل . وقيل : قلب حاضر . ويقال قلبٌ على الإحسان مُقْبِل . ويقال : قَلْبٌ غيرُ قُلَّب .

﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ﴾ : استمع إلى ما يَنادى به ظاهرُه من الخَلْق وإلى ما يعود إلى سِرّه من الحق . ويقال : لمن كان له قلبٌ صاح لم يَسْكر من الغفلة . ويقال قلبٌ يعد أنفاسَه مع الله . ويقال : قلبٌ حيٌّ بنور الموافقة . ويقال : قلبٌ غيرُ مُعْرِضٍ عن الاعتبار والاستبصار . ويقال : " القلبُ – كما في الخبر – بين إصبعين من أصابع الرحمن " : أي بين نعمتين ؛ وهما ما يدفعه عنه من البلاء ، وما ينفعه به من النَّعماء ، فكلُّ قلب مَنَعَ الحقُّ عنه الأوصافَ الذميمَةَ وألْزَمَه النعوتَ الحميدةَ فهو الذي قال فيه : ﴿ إِنَّ فِي ذَالِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ .

وفي الخبر : " إن لله أواني ألاَ وهي القلوب ، وأقربها من الله ما رقَّ وصفا " شبَّه القلوب بالأواني ؛ فقلبُ الكافرِ منكوسٌ لا يدخل فيه شيء ، وقلبُ المنافقِ إناء مكسور ، ما يُلْقى فيه من أوّله يخرج من أسفله ، وقلبُ المؤمنِ إناءٌ صحيح غير منكوس يدخل فيه الإيمانُ

وَيَبْقَى .

ولكنَّ هذه القلوبَ مختلفةٌ ؛ فقلبٌ مُلَطَّخٌ بالانفعالات وفنون الآفات ؛ فالشرابُ الذي يُلْقَى فيه يصحبه أثر ، ويتلطخ به .

وقلبٌ صفا من الكدورات وهو أعلاها قَدْراً .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ .

وأَنّي يَمَسُّه اللُّغوبُ . وهو صَمَدٌ لا يحدث في ذاته حادث ؟ !

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ .

(329/723)

إِنْ تَأَذَّ سَمْعُكَ بما يقولون فيَّ من الأشياء التي يتقدَّس عنها نَعْتي فاصبِرْ على ما يقولون ، واستروِحْ عن ذلك بتسبيحك لنا .

﴿ وَمِنَ الَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ .

فالليلُ وقتُ الخلوة – والصفاءُ في الخلوة أَتَمُّ وأَصْفى .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾ .

النداءُ من الحق – سبحانه – واردٌ عليهم ، كما انَّ النجوى تحصل دائماً بينهم . والنداءُ الذي يَرِدُ عليهم يكون بغتةً ولا يكون للعبد في فِعْلِه اختيارٌ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَا نَحْنُ نُحْيِ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴾ .

إلينا مَرْجِعُ الكُلِّ ومصيرُهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ .

هذا يسيرٌ علينا : سواء خلقناهم جملةً أو فرادى ؛ قال تعالى : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [لقمان : 31] .

قوله جلّ ذكره : ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ .

ما انت عليهم بُمتَسَلِّطٍ تُكْرِههم .

وإنما يُؤَثِّرُ التخويفُ والإنذارُ والتذكيرُ في الخائفين ، فأمّا مَنْ لا يخاف فلا ينجحُ فيه التخويف – وطيرُ السماء على أُلاَّفها تقعُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 447 – 459 ﴾.

من فوائد شيخ الإسلام ابن تيمية فى السورة الكريمة

سُورَةُ ق

سُئِلَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - :

عَنْ قَوْلِهِ : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ مَا الْمَزِيدُ ؟

فَأَجَابَ :

قَدْ قِيلَ إنَّهَا تَقُولُ : ﴿ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ أَيْ لَيْسَ فِيَّ مُحْتَمَلٌ لِلزِّيَادَةِ . وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا تَقُولُ : ﴿ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ عَلَى سَبِيلِ الطَّلَبِ أَيْ هَلْ مِنْ زِيَادَةٍ تُزَادُ فِيَّ وَالْمَزِيدُ مَا يَزِيدُهُ اللَّهُ فِيهَا مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا وَتَقُولُ : هَلْ مِنْ مَزِيدٍ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ وَيُرْوَى عَلَيْهَا قَدَمُهُ فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إلَى بَعْضٍ وَتَقُولُ : قَطْ قَطْ ﴾ . فَإِذَا قَالَتْ حَسْبِي حَسْبِي كَانَتْ قَدْ اكْتَفَتْ بِمَا أُلْقِيَ فِيهَا وَلَمْ تَقُلْ بَعْدَ ذَلِكَ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ بَلْ تَمْتَلِئُ بِمَا فِيهَا لِانْزِوَاءِ بَعْضِهَا إلَى بَعْضٍ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يُضَيِّقُهَا عَلَى مَنْ فِيهَا لِسِعَتِهَا فَإِنَّهُ قَدْ وَعَدَهَا لَيَمْلَأَنَّهَا

(331/723)

مِنْ الْجنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ وَهِيَ وَاسِعَةٌ فَلَا تَمْتَلِئُ حَتَّى يُضَيِّقَهَا عَلَى مَنْ فِيهَا . قَالَ : " وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا فَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ . فَبَيَّنَ أَنَّ الْجَنَّةَ لَا يُضَيِّقُهَا سُبْحَانَهُ بَلْ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا فَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ لِأَنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ بَابِ الْإِحْسَانِ . وَأَمَّا الْعَذَابُ بِالنَّارِ فَلَا يَكُونُ إلَّا لِمَنْ عَصَى فَلَا يُعَذِّبُ أَحَدًا بِغَيْرِ ذَنْبٍ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجموع الفتاوى حـ 16 صـ 46 . 47 ﴾

(332/723)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة ق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1)

الإعراب :

(الواو) واو القسم (القرآن) مجرور بالواو متعلّق بفعل محذوف تقديره أقسم .

جملة : " (أقسم) بالقرآن . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة . . وجواب القسم محذوف مقدّر

بحسب سياق الكلام أي : لقد أرسلنا محمّدا ، أو ما آمن كفّار مكّة بمحمّد صلى اللّه عليه وسلم .

البلاغة

الإسناد المجازي : في قوله تعالى " وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ " .

حيث وصفه بذلك لأنه كلام المجيد ، فهو وصف بصفة قائله . فالإسناد مجازي ، كما في القرآن الحكيم ، أو لأن من علم معانيه ، وعمل بما فيه ، مجد عند اللّه تعالى وعند الناس .

[سورة ق (50) : الآيات 2 إلى 3]

بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ (2) أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (3)

الإعراب :

(بل) للإضراب (أن) حرف مصدريّ (منهم) متعلّق بنعت لـ (منذر) . .

والمصدر المؤوّل (أن جاءهم . .) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف متعلّق بـ (عجبوا) .

(الفاء) عاطفة (الهمزة) للاستفهام التعجّبيّ (إذا) ظرف في محلّ نصب متعلّق بالجواب المحذوف أي نرجع .

جملة : " عجبوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " جاءهم منذر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " قال الكافرون . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " هذا شيء . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " متنا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " كنّا ترابا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة متنا . . وجواب الشرط محذوف تقديره نرجع أو فهل نرجع ؟

وجملة : " ذلك رجع بعيد . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ في حيّز قول الكافرين .

الصرف :

(رجع) ، مصدر سماعيّ لفعل رجع الثلاثيّ باب ضرب ، وزنه فعل بفتح فسكون .

[سورة ق (50) : الآيات 4 إلى 5]

قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ (4) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (5)

الإعراب :

(قد) حرف تحقيق (ما) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به ، والعائد محذوف (منهم)

متعلّق بحال من العائد المحذوف " 1 " ، (الواو)

---

(1) أو متعلّق بـ (تنقص) .

(334/723)

عاطفة – أو حالية – (عندنا) ظرف منصوب متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (كتاب) .

جملة : " علمنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تنقص الأرض . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " عندنا كتاب . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة " 1 " .

5 – (بل) للإضراب الانتقاليّ (بالحقّ) متعلّق بـ (كذّبوا) ، (لمّا) ظرف بمعنى حين فيه معنى الشرط متعلّق بمضمون الجواب (الفاء) عاطفة (في أمر) متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ (هم) .

وجملة : " كذّبوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " جاءهم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي لمّا جاءهم الحقّ كذّبوا به .

وجملة : " هم في أمر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كذّبوا . .

الصرف :

(مريج) ، صفة مشبّهة من الثلاثيّ مرج بمعنى اضطرب ، وفي المختار : مرج الأمر والدين اختلط بابه طرب ، وأمر مريج مختلط ، وزنه فعيل .

[سورة ق (50) : الآيات 6 إلى 11]

---

(1) أو في محلّ نصب حال .

(335/723)

أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَزَيَّنَّاها وَما لَها مِنْ فُرُوجٍ (6) وَالْأَرْضَ مَدَدْناها وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7) تَبْصِرَةً وَذِكْرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (8) وَنَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (9) وَالنَّخْلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ (10)

رِزْقاً لِلْعِبادِ وَأَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ الْخُرُوجُ (11)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام التقريعيّ (الفاء) عاطفة (إلى السماء) متعلّق بـ (ينظروا) ، (فوقهم) ظرف منصوب متعلّق بحال من السماء (كيف) اسم استفهام في محلّ نصب حال من

الضمير الغائب في (بنيناها) ، (ما) نافية (لها) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (فروج) مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ مؤخّر .

جملة : " ينظروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي : أغفلوا فلم ينظروا . . .

وجملة : " بنيناها . . . " في محلّ جرّ بدل من السماء .

وجملة : " زيّناها . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة بنيناها .

وجملة : " ما لها من فروج " في محلّ جرّ معطوفة على جملة بنيناها " 1 " .

7 – 8 – (الواو) استئنافيّة (الأرض) مفعول به لفعل محذوف تقديره مددنا " 2 " ، (فيها) متعلّق بـ (ألقينا) والثاني متعلّق بـ (أنبتنا) ، (من كلّ) نعت لمفعول أنبتنا المحذوف أي أنبتنا نباتا من كلّ زوج ، أو أنواعا من كلّ زوج (تبصرة) مفعول مطلق لفعل محذوف " 3 " ، (لكلّ) متعلّق بـ (ذكرى) . .

---

(1) أو في محلّ نصب حال من ضمير المفعول في (زيّناها) .

(2) أجاز العكبريّ عطفه على محلّ (السماء) أي : ألم يروا السماء والأرض .

(3) أو مصدر في موضع الحال من مفعول أنبتنا ، أو حال بتقدير مضاف أي ذات تبصرة . . .

أو مفعول لأجله والعامل أنبتنا .

وجملة : " (مددنا) الأرض . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " مددناها . . . " لا محلّ لها تفسيريّة " 1 " .

وجملة : " ألقينا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الجملة المقدّرة (مددنا) .

وجملة : " أنبتنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الجملة المقدّرة (مددنا) .

9 - (الواو) عاطفة (من السماء) متعلّق بـ (نزّلنا) ، (الفاء) عاطفة (به) متعلّق بـ (أنبتنا) و(الباء) سببيّة . .

وجملة : " نزّلنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة مددنا الأرض المقدّرة " 2 " .

وجملة : " أنبتنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نزّلنا .

10 - (الواو) عاطفة (النخل) معطوف على جنّات - أو حبّ - (باسقات) حال من النخل " 3 " منصوبة وعلامة النصب الكسرة (لها) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ المؤخّر (طلع) . .

وجملة : " لها طلع . . . " في محلّ نصب حال ثانية من النخل .

11 - (رزقا) مصدر في موضع الحال أي مرزوقا " 4 " ، (للعباد) متعلّق بـ (رزقا) " 5 " ، (به) متعلّق بـ (أحيينا) و(الباء) سببيّة (ميتا) نعت لبلدة منصوب ، وجاء مذكرا مراعى فيه معنى المكان (كذلك) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (الخروج) .

---

(1) أو في محلّ نصب حال من الأرض إذا كان معطوفا على محلّ السماء .

(2) أو استئنافيّة ان لم يكن ثمّة جملة تعطف عليها بحسب التخريج الآخر .

(3) وهي حال مقدّرة لم تكن باسقة حال الإنبات .

(4) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه ملاقيه في المعنى لأن الإنبات هو رزق . . . أو هو حال بحذف مضاف أي ذا رزق . . . . وأجاز أبو البقاء كونه مفعولا لأجله .

(5) أو متعلّق بنعت لـ (رزقا) .

(337/723)

وجملة : " أحيينا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أنبتنا .

وجملة : " كذلك الخروج " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(6) فروج : جمع فرج بمعنى الشقّ ، وزنه فعل بفتح فسكون ، والجمع فعول بضمّتين .

(9) الحصيد : اسم بمعنى المحصود من الزرع وزنه فعيل .

(10) باسقات : جمع باسقة مؤنّث باسق ، اسم فاعل من الثلاثي بسق ، وزنه فاعل . .

(نضيد) ، صفة مشتقّة من الثلاثيّ نضد باب ضرب أي ضمّ بعضه إلى بعض ، وزنه فعيل بمعنى مفعول أو هو مبالغة اسم الفاعل .

الفوائد :

- حذف الموصوف . .

ورد في أساليب العرب حذف الموصوف وإبقاء الصفة دليلا عليه ، كما في الآية التي نحن بصددها في قوله تعالى فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ . فالحصيد صفة للنبت ، وقد نابت عنه ، والتقدير : وحب النبت الحصيد . ومنه قوله تعالى : وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أي حور قاصرات . وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ أي دروعا سابغات . فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيراً أي ضحكا قليلا وبكاء كثيرا . وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ أي ولدار الحياة الآخرة .

وقال سحيم بن وثيل :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

قيل تقديره : أنا ابن رجل جلا الأمور .

واختلف في المقدر مع الجملة في نحو " منّا ظعن ومنا أقام " فالبصريون يقدرون موصوفا أي

فريق . والكوفيون يقدرون موصولا أي الذي أومن . وما قدره البصريون أنسب مع القياس ، لأن اتصال الموصول بصلته أشد من اتصال الموصوف

بصفته لتلازمهما ، ومثله " ما منهما مات حتّى لقيته " البصريون يقدرونه بأحد والكوفيون بمن ، وقوله تعالى وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ أي إلا إنسان ، أو إلا من ، وحكى الفراء عن بعض قدمائهم أن الجملة القسمية لا تكون صلة ، ورده بقوله تعالى : وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَ

[سورة ق (50) : الآيات 12 إلى 14]

(338/723)

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (12) وَعادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوانُ لُوطٍ (13) وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (14)

الإعراب :

(قبلهم) ظرف منصوب متعلّق بـ (كذّبت) ، (كلّ) مبتدأ مرفوع " 1 " خبره جملة كذّب (الفاء) عاطفة (وعيد) فاعل (حقّ) مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل ياء المتكلّم المحذوفة لمناسبة الفاصلة ، و(الياء) مضاف إليه .

جملة: "كذّبت . . . قوم نوح . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "كلّ كذّب . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "كذّب . . . "في محلّ رفع خبر المبتدأ كلّ.

وجملة: "حقّ وعيد "لا محلّ لها معطوفة على جملة كلّ كذّب" 2" .

[سورة ق (50) : آية 15]

أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (15)

الإعراب:

(الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الفاء) عاطفة (بالخلق) متعلّق

---

(1) دلّ عليه عموم، والتنوين عوض من محذوف أي: كلّ قوم منهم.

(2) أو معطوفة على جملة الخبر بتقدير الرابط أي: حقّ وعيدي له.

ب (عيينا) ، (بل) للإضراب الانتقاليّ (في لبس) متعلّق بخبر المبتدأ (هم) (من خلق) متعلّق (بلبس) بتضمينه معنى شكّ . .

جملة : " عيينا . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي : أبدأنا الخلق الأول فعيينا به ؟

وجملة : " هم في لبس . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(عيينا) ، جاء في المصباح : عيي بالأمر وعن حجّته يعيا من باب تعب عيّا عجز عنه وقد يدغم الماضي فيقال عيّ فالرجل عيّ وعييّ على فعل – بكسر الفاء وسكون العين – وفعيل ، وعيي بالأمر لم يهتد لوجهه وأعياني بالألف أتعبني فأعييت يستعمل لازما ومتعدّيا ، وأعيا في مشيه فهو معيّ منقوص .

(340/723)

(لبس) ، مصدر سماعيّ للثلاثيّ لبس باب نصع أي اختلط عليه الأمر ، وزنه فعل بفتح فسكون .

البلاغة

فن التعريف والتنكير : في قوله تعالى " أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ " . فقد عرّف الخلق الأول ، ونكّر اللبس والخلق الجديد ، والتعريف لا غرض منه إلا

تفخيم ما قصد تعريفه وتعظيمه ، ومنه تعريف الذكور في قوله " وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ "

ولهذا المقصد عرّف الخلق الأول ، لأن الغرض جعله دليلا على إمكان الخلق الثاني بطريق الأولى ، أي إذا لم يعي تعالى بالخلق الأول على عظمته ، فالخلق الآخر أولى أن لا يعبأ به ، فهذا سر تعريف الخلق الأول .

وأما التنكير فأمر منقسم : فمرة يقصد به تفخيم المنكر ، من حيث ما فيه من الإبهام ، كأنه أفخم من أن يخاطبه معرفة ومرة يقصد به التقليل من المنكر والوضع منه . وعلى الأول (سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ) وقوله " لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ " وهو أكثر من أن يحصى .

والثاني : هو الأصل في التنكير ، فلا يحتاج إلى

تمثيله ، فتنكير اللبس من التعظيم والتفخيم ، كأنه قال : في لبس أيّ لبس ، وتنكير الخلق الجديد للتقليل منه والتهوين لأمره بالنسبة إلى الخلق الأول ، ويحتمل أن يكون للتفخيم ، كأنه أمر أعظم من أن يرضى الإنسان بكونه متلبسا عليه ، مع أنه أول ما تبصر فيه صحته .

[سورة ق (50) : الآيات 16 إلى 18]

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ (17) ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (الواو) حاليّة (ما) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به " 1 " ، (به) متعلّق بـ (توسوس) ، (الواو) عاطفة (إليه) متعلّق بـ (أقرب) (من حبل) متعلّق بـ (أقرب) .

جملة : " خلقنا . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " نعلم . . . " في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره نحن . .

والجملة الاسميّة في محلّ نصب حال " 2 " .

وجملة : " توسوس " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

---

(1) والضمير في (به) هو العائد . . . ويجوز أن يكون (ما) حرفا مصدريّا ، والضمير في (به) يعود على الإنسان أي : وسوسة نفسه إيّاه . [. . . . .]

(2) يجوز أن تكون جملة نعلم استئنافيّة لا محلّ لها .

وجملة : " نحن أقرب . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة (نحن) نعلم .

17 – (إذ) ظرف للزمن الماضي في محلّ نصب متعلّق بـ (أقرب) " 1 " ، (عن اليمين) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (قعيد) . . وقد أفرد لأنه على وزن فعيل حيث يستوي فيه الإفراد والتثنية والجمع (عن الشمال) معطوف على الجارّ الأول .

وجملة : " يتلقّى المتلقّيان . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " عن اليمين . . . قعيد " في محلّ نصب حال من (المتلقّيان) .

18 – (ما) نافية (قول) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به (إلّا) للحصر (لديه) ظرف مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ (رقيب) . .

وجملة : " ما يلفظ . . . " لا محلّ لها استئناف بياني .

وجملة : " لديه رقيب " في محلّ نصب حال من فاعل يلفظ .

الصرف :

(16) الوريد : اسم لأحد العرقين في صفحتي العنق والذي فيه الدم يجري إلى القلب للتصفية ، وهو فعيل بمعنى فاعل .

(17) المتلقّيان : مثنّى المتلقّي ، اسم فاعل من الخماسي تلقّى ، وزنه متفعّل بضمّ الميم وكسر العين وإعادة الألف إلى أصلها اليائيّ .

(1) أو اسم ظرفيّ في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر .

(قعيد) ، صفة مشبّهة من الثلاثيّ قعد ، وهو فعيل بمعنى فاعل .

(18) عتيد : صفة مشبّهة من الثلاثيّ عتد باب كرم بمعنى حضر ، وهو فعيل بمعنى فاعل .

[سورة ق (50) : آية 19]

وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (بالحقّ) متعلّق بحال من سكرة ، و(الباء) للملابسة " 1 " ، (ما) موصول في محلّ رفع خبر المبتدأ (ذلك) ، (منه) متعلّق بـ (تحيد) .

جملة : " جاءت سكرة الموت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ذلك ما . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر معطوف على الاستئناف .

وجملة : " كنت منه تحيد " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " تحيد " في محلّ نصب خبر كنت .

[سورة ق (50) : الآيات 20 إلى 23]

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (20) وَجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَشَهِيدٌ (21) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22) وَقالَ قَرِينُهُ هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ (23)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (في الصور) نائب الفاعل (يوم) خبر المبتدأ ذلك مرفوع.

جملة : " نفخ في الصور . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " ذلك يوم . . . " لا محلّ لها تعليليّة.

21 - (الواو) عاطفة (معها) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ (سائق) . .

---

(1) أو الباء للتعدية فهي متعلّقة بـ (جاءت) ، أي : أظهرت سكرة الموت الحقّ.

وجملة : " جاءت كلّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نفخ في الصور.

وجملة : " معها سائق " في محلّ رفع نعت لكلّ " 1 " .

22 – (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (في غفلة) متعلّق بخبر كنت (من هذا) متعلّق بـ (غفلة) بتضمينه معنى نجوة أو نجاة (الفاء) عاطفة في الموضعين (عنك) متعلّق بـ (كشفنا) ، (اليوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (حديد) .

وجملة : "كنت في غفلة . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . وجملة القسم المقدّرة في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر . .

وجملة : "كشفنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

وجملة : " بصرك اليوم حديد " لا محلّ لها معطوفة على جملة كشفنا .

23 – (الواو) عاطفة (ما) اسم موصول في محلّ رفع بدل من ذا " 2 " ، (لديّ) ظرف مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بمحذوف صلة ما " 3 " ، (عتيد) خبر المبتدأ هذا " 4 " .

وجملة : " قال قرينه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة القول المقدّرة .

وجملة : " هذا . . . عتيد " في محلّ نصب مقول القول .

الصرف :

(21) سائق : اسم فاعل من الثلاثي ساق ، وزنه فاعل ، وفيه إبدال عينة همزة أصله ساوق .

---

(1) أو في محلّ نصب حال من كلّ نفس . . . أو في محلّ جرّ نعت لنفس .

(2) يجوز أن يكون نكرة موصوفة خبرا للمبتدأ . . ويجوز في الموصول أن يكون مبتدأ خبره

عتيد ، والاسميّة خبر الاشارة .

(3) يجوز أن يكون الظرف متعلّقا بعتيد إذا كان (ما) نكرة موصوفة و(عتيد) نعت لها

. .

كما يجوز أن يكون الظرف نعتا للنكرة الموصوفة و(عتيد) خبرا .

(4) وأجاز الزمخشري أن يكون بدلا من (ما) أو خبرا بعد خبر أو خبرا لمبتدأ محذوف .

(345/723)

---

(22) حديد : صفة مشبّهة من (حدّت السكين) باب ضرب ، وزنه فعيل بمعنى فاعل ، واستعمل في الآية على المجاز .

البلاغة

الكناية : في قوله تعالى " فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ " .

كناية عن الغفلة كأنها غطّت جميعه أو عينيه فهو لا يبصر شيئا ، فإذا كان يوم القيامة تيقظ وزالت الغفلة عنه فيبصر ما لم يبصره من الحقّ .

[سورة ق (50) : الآيات 24 إلى 26]

أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (24) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (25) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً

آخَرَ فَأَلْقِياهُ فِي الْعَذابِ الشَّدِيدِ (26)

الإعراب :

(في جهنّم) متعلّق بـ (ألقيا) ، (الخير) مجرور لفظا بلام التقوية منصوب محلّا مفعول به لمنّاع " 1 " ، (الذي) موصول في محلّ رفع مبتدأ خبره جملة ألقياه " 2 " ، (مع) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف مفعول به ثان عامله جعل (الفاء) زائدة في خبر الموصول لشبهه بالشرط (في العذاب) متعلّق بـ (ألقياه) . .

جملة : " ألقيا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " الذي جعل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة مقررة لمضمون ما سبق .

وجملة : " جعل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " ألقياه . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذي) " 3 " .

---

(1) يجوز أن يكون الجارّ أصليّا متعلّقا بمنّاع .

(2) يجوز أن يكون بدلا من كلّ أو بدلا من كفّار .

(3) وهي جواب شرط مقدّر ان أعرب الموصول بدلا .

الصرف :

(منّاع) ، صيغة مبالغة للثلاثيّ منع ، وزنه فعّال بفتح الفاء والعين المشدّدة .

[سورة ق (50) : آية 27]

قالَ قَرِينُهُ رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ وَلكِنْ كانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (27)

الإعراب :

(ربّنا) منادى مضاف منصوب (ما) نافية (الواو) عاطفة (لكن) للاستدراك لا عمل له

(في ضلال) متعلّق بخبر كان جملة : " قال قرينه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " النداء . . . " في محلّ نصب مقول القول " 1 " .

وجملة : " ما أطغيته . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " كان في ضلال . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

[سورة ق (50) : الآيات 28 إلى 30]

قالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (28) ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَما أَنَا بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (29) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (30)

الإعراب :

(لا) ناهية جازمة (لديّ) ظرف مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بـ (تختصموا) ، (الواو) حالية

(قد) حرف تحقيق (إليكم) متعلّق بـ (قدّمت) ، (بالوعيد) متعلّق بمحذوف حال من

فاعل قدّمت أو من مفعوله المقدّر " 2 " .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا تختصموا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

---

(1) أو اعتراضيّة وجملة ما أطغيته مقول القول .

(2) (الباء) عند بعضهم زائدة في المفعول .

(347/723)

وجملة : " قدّمت . . . " في محلّ نصب حال " 1 " .

29 - (ما) نافية (لديّ) مثل الأول متعلّق بـ (يبدّل) ، (الواو) عاطفة (ما) نافية عاملة عمل ليس (ظلّام) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما (اللام) زائدة للتقوية (العبيد) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به لظلّام .

وجملة : " ما يبدّل القول . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " ما أنا بظلّام . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما يبدل . . .

30 - (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (ظلّام) (لجهنّم) متعلّق بـ (نقول) ، (هل) حرف استفهام في الموضعين (مزيد) مجرور لفظا بمن مرفوع محلّا مبتدأ خبره محذوف أي هل هناك

مزيد " 2 " .

وجملة : " نقول . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " هل امتلأت . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " تقول . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة نقول .

وجملة : " هل من مزيد " في محلّ نصب مقول القول .

الصرف :

---

(1) المعنى : لا تختصموا وقد صحّ عندكم الآن أنّي قدّمت إليكم بالوعيد .

(2) الاستفهام إمّا للتحقيق والإخبار أي لقد اكتفيت وإمّا للطلب أي زيدوني .

[. . . . .]

(مزيد) ، مصدر ميميّ من الثلاثيّ زاد زنة مفعل بفتح الميم وكسر العين – على غير القياس – ثمّ طرأ عليه الإعلال بالتسكين فنقلت حركة عينه إلى فائه وسكنت العين . ويجوز أن يكون اسم مكان من الثلاثيّ زاد .

البلاغة

التمثيل : في قوله تعالى "يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ " .

سؤال وجواب ، جيء بهما على منهاج التمثيل والتخييل ، لتهويل أمرها والمعنى أنها – مع اتساعها وتباعد أقطارها – تطرح فيها من الجنّة والناس فوجا بعد فوج حتى تمتلئ أو أنها من السعة ، بحيث يدخلها من يدخلها ، وفيها بعد محلّ فارغ ، أو أنها لغيظها على العصاة تطلب زيادتهم .

وهذا من جمال وروائع التخييل الحسيّ ، والتجسيم لجهنم ، المتغيظة والنهمة التي لا تشبع ، وقد تهافت عليها أولئك الذين كانوا يصمّون في دنياهم آذانهم عن الدعوة إلى الهدى ، ويصرون على غيّهم ولجاجهم .

الفوائد :

– الجملة الواقعة في محلّ جرّ بالإضافة . .

ورد في هذه الآية قوله تعالى يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ فجملة (نقول) في محلّ جرّ بالإضافة لوقوعها بعد الظرف ، وسنوضح فيما يلي ما يتعلق بهذه الجملة ، فلا يضاف إلى الجملة إلا ثمانية :

1 – أسماء الزمان : كقوله تعالى : وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وقوله تعالى : لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ ومن أسماء الزمان ثلاثة إضافتها إلى الجملة واجبة :

(إذ) باتفاق ، و(إذا) عند الجمهور ، و(لما) عند من قال باسميتها .

2 – حيث : وتختص بذلك عن سائر أسماء المكان ، وإضافتها إلى الجملة واجبة ، ولا يشترط لذلك كونها ظرفا ، وذلك كقوله تعالى : وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ .

3 – آية بمعنى علامة : فإنها تضاف جوازا إلى الجملة الفعلية المتصرف فعلها ، مثبتا أو منفيا بما ، كقول الشاعر :

بآية يقدمون الخيل شعثا كأنّ على سنابكها مداما

وقوله :

ألكني إلى قومي السلام رسالة بآية ما كانوا ضعافا ولا عزلا

الاك : أبلغ والبيت لعمرو بن شأس .

4 – (ذو) في قولهم : " اذهب بذي تسلم " والباء في ذلك ظرفية ، وذي صفة لزمن محذوف . ثم قال الأكثرون هي بمعنى صاحب ، فالموصوف نكرة ، أي اذهب في وقت صاحب سلامة " أي في وقت هو مظنة السلامة " .

5 – لدن ، و6 – ريث ، فإنهما يضافان جوازا إلى الجملة الفعلية التي فعلها متصرف ، ويشترط كونه مثبتا ، بخلافه مع آية .

فأما لدن ، فهي اسم لمبتدأ الغاية ، زمانية كانت أو مكانية ، ومن شواهدها قول الشاعر :

لزمنا لدن سألتمونا وفاقكم فلا يك منكم للخلاف جنوح

وأما ريث ، فهي مصدر راث إذا أبطأ ، وعوملت معاملة أسماء الزمان في الإضافة إلى الجملة ، كما عوملت المصادر معاملة أسماء الزمان في التوقيت ، كقولك " جئتك صلاة العصر " . قال الشاعر :

خليليّ رفقا ريث أقضى لبانة من العرصات المذكرات عهودا

7 و8 : (قول) و(قائل) : كقول الشاعر :

قول يا للرجال ينهض منا مسرعين الكهول والشبانا

وقول الشاعر :

وأجبت قائل كيف أنت بصالح حتى مللت وملّني عوّادي

[سورة ق (50) : الآيات 31 إلى 35]

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (31) هذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (32) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (33) ادْخُلُوها بِسَلامٍ ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (34) لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَلَدَيْنا مَزِيدٌ (35)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (للمتّقين) متعلّق بـ (أزلفت) ، (غير) ظرف مكان قام مقام الظرف المقدّر أي مكانا غير بعيد فهو صفته " 1 " .

(1) أو هو حال من الجنّة مؤكّدة لعاملها . . . ولم يؤنّث بعيد امّا لأنه فعيل الذي يستوي فيه التذكير والتأنيث ، وامّا بتضمين الجنّة معنى البستان أو قصد مكان الجنّة . .

(351/723)

جملة : " أزلفت الجنّة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

32 - 34 - (ما) موصول في محلّ رفع خبر المبتدأ (هذا) ، والعائد محذوف ، و(الواو) في (توعدون) نائب الفاعل (لكلّ) بدل من المتقين بإعادة الجارّ (من) اسم موصول في محلّ جرّ بدل من (كلّ) " 1 " ، (بالغيب) حال من الرحمن أي غائبا (بقلب) حال من فاعل جاء (بسلام) حال من فاعل ادخلوها . . (يوم) خبر المبتدأ (ذلك) ، والإشارة إلى زمان الدخول .

وجملة : " هذا ما توعدون . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " توعدون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " خشي الرحمن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " جاء . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة خشي .

وجملة : " ادخلوها . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر مستأنف .

وجملة : " ذلك يوم . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

(لهم) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ المؤخّر (ما) والعائد محذوف (فيها) متعلّق بـ (يشاءون) " 2 " (الواو) عاطفة (لدينا) ظرف مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (مزيد) .

وجملة : " لهم ما يشاءون . . . " في محلّ نصب حال من فاعل ادخلوها وفيها التفات أي لكم ما تشاؤون فيها " 3 " .

وجملة : " يشاءون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " لدينا مزيد " في محلّ نصب معطوفة على جملة لهم ما يشاءون .

---

(1) أو هو مبتدأ في محلّ رفع خبره محذوف والتقدير : يقال لهم ادخلوها بسلام .

(2) أو متعلّق بحال من العائد المحذوف .

(3) يجوز أن تكون استئنافيّة لا محلّ لها .

الصرف :

(34) الخلود : مصدر سماعيّ لفعل خلد باب نصر بمعنى دام ، وزنه فعول بضمّتين .

البلاغة

الثناء البليغ : في قوله تعالى " مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ " .

حيث قرن بالخشية اسمه الدال على سعة الرحمة ، وذلك للثناء البليغ على الخاشي ، وهو خشيته مع علمه أنه واسع الرحمة ، كما أثنى عليه بأنه خاش ، مع أن المخشي منه غائب . ونحوه " وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ " فوصفهم بالوجل مع كثرة الطاعات . وصف القلب بالإنابة وهي الرجوع إلى اللّه تعالى ، لأن الاعتبار بما ثبت منها في القلب .

[سورة ق (50) : آية 36]

وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (36)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (كم) خبريّة لفظ مبنيّ في محلّ نصب مفعول به مقدّم (من قبلهم) متعلّق بـ (أهلكنا) (من قرن) تمييز كم (منهم) متعلّق بـ (أشدّ) (بطشا) تمييز منصوب (الفاء)

عاطفة (في البلاد) متعلّق بـ (نقّبوا) ، (هل) حرف استفهام (محيص) مجرور لفظا بمن الزائدة مرفوع محلّا مبتدأ ، والخبر محذوف تقديره لهم .

جملة : " أهلكنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هم أشدّ . . . " في محلّ جرّ نعت لقرن .

وجملة : " نقّبوا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة هم أشدّ . . .

وجملة : " هل من محيص . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

---

(1) يجوز أن تكون مقول القول لقول مقدّر هو حال من فاعل نقّبوا . . . أي نقّبوا قائلين هل من محيص .

(353/723)

[سورة ق (50) : آية 37]

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (37)

الإعراب :

(في ذلك) متعلّق بمحذوف خبر إنّ (اللام) لام التوكيد (ذكرى) اسم إنّ منصوب (لمن) متعلّق بـ (ذكرى) ، (له) متعلّق بخبر كان (أو) حرف عطف (الواو) حاليّة .

جملة : " إنّ في ذلك لذكرى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كان له قلب . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " ألقى السمع . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " هو شهيد " في محلّ نصب حال .

[سورة ق (50) : الآيات 38 إلى 42]

وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ (38) فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (39) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبارَ السُّجُودِ (40) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ (41) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (42)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لقد خلقنا . . .) مرّ إعرابها " 1 " ، (الواو) عاطفة في الموضعين (ما) موصول في محلّ نصب معطوف على السموات (بينهما) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة ما (في ستّة) متعلّق بـ (خلقنا) ، (الواو) حاليّة

---

(1) في الآية (16) من السورة .

(ما) نافية (لغوب) مجرور لفظا بمن زائدة مرفوع محلّا فاعل مسّنا .

جملة : " خلقنا . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ما مسّنا من لغوب " في محلّ نصب حال .

39 - (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (ما) حرف مصدريّ " 1 " ، (الواو) عاطفة في الموضعين . .

والمصدر المؤوّل (ما يقولون . .) في محلّ جرّ بـ (على) متعلّق بـ (اصبر) .

(بحمد) متعلّق بحال من فاعل سبّح (قبل) ظرف منصوب متعلّق بـ (سبّح) في الموضعين .

وجملة : " اصبر . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن سمعت إنكار الكافرين فاصبر .

وجملة : " سبّح . . . " معطوفة على جملة اصبر .

40 - (الواو) عاطفة (من الليل) متعلّق بفعل محذوف تقديره سبّحه أو قم (الفاء) زائدة - أو عاطفة - (أدبار) معطوف على الظرف قبل " 2 " .

وجملة : " (قم أو سبّحه) من الليل " معطوفة على جملة اصبر .

وجملة : " سبّحه . . . " لا محلّ لها تفسيرية - أو معطوفة على جملة قم - 41 - (الواو)

عاطفة ، ومفعول (استمع) محذوف تقديره قولي ، أو ما أقول (يوم) ظرف منصوب متعلّق بفعل محذوف تقديره يخرجون " 3 " مدلولا عليه بقوله ذلك

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ متعلّق بـ (اصبر) والعائد محذوف .

(2) أو معطوف على محلّ (من الليل) وهو النصب .

(3) أو يعلمون عاقبة تكذيبهم .

(355/723)

يوم الخروج (يناد) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء المحذوفة مراعاة لقراءة الوصل (المناد) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء المحذوفة اتباعا للرسم أو للوقف (من مكان) متعلّق بـ (ينادي) . .

وجملة : " استمع . . . " معطوفة على جملة اصبر .

وجملة : " (يخرجون . .) المقدّرة " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ينادي المنادي " في محلّ جرّ مضاف إليه .

42 - (يوم) بدل من الأول منصوب مثله (بالحقّ) متعلّق بحال من فاعل يسمعون " 1 " ، (ذلك يوم الخروج) مرّ إعراب نظيرها " 2 " .

وجملة : " يسمعون . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " ذلك يوم الخروج " لا محلّ لها استئناف بياني .

الصرف :

(38) ستة : اسم للعدد المعروف وقد جاء مؤنّثا لأنّ معدوده مذكّر ، وزنه فعلة بكسر فسكون .

(40) السجود : مصدر سماعي لفعل سجد الثلاثيّ وزنه فعول بضمّتين .

(يناد) رسمت الكلمة بحذف الياء مراعاة لقراءة الوصول (المناد) حذفت الياء من آخره اتباعا للرسم أو الوقف .

[سورة ق (50) : الآيات 43 إلى 44]

---

(1) أو بحال من الصيحة . . . والمحلّي فسّر (الحقّ) بالبعث وعلى هذا فالجارّ متعلّق بـ (يسمعون) والباء للتعدية .

(2) في الآية (34) من هذه السورة .

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (43) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (44)

الإعراب :

(نحن) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ " 1 " ، (الواو) عاطفة في الموضعين (إلينا) متعلّق بخبر مقدّم .

جملة : " إنّا نحن نحيي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " نحن نحيي . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " نميت " في محلّ رفع معطوفة على جملة نحيي .

وجملة : " إلينا المصير " في محلّ رفع معطوفة على جملة نميت .

44 - (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (المصير) " 2 " ، (تشقّق) مضارع حذف منه إحدى التّاءين (عنهم) متعلّق بـ (تشقّق) ، (سراعا) حال منصوبة والعامل مقدّر أي يخرجون سراعا ، والإشارة في (ذلك) إلى معنى الحشر المخبر به أي الإحياء بعد الموت والجمع للعرض . . (علينا) متعلّق بالنعت (يسير) " 3 " .

وجملة : " تشقّق الأرض . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " ذلك حشر . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

الصرف :

(سراعا) ، جمع سريع ، صفة مشبّهة من (سرع) باب كرم أو باب فرح ، وزنه فعيل ، ووزن سراع فعال بكسر الفاء .

(حشر) ، مصدر سماعيّ لفعل حشر الثلاثي ، وزنه فعل بفتح فسكون .

[سورة ق (50) : آية 45]

نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ (45)

---

(1) أو ضمير استعمر لمحلّ النصب توكيدا للضمير المتّصل اسم إنّ .

(2) أو متعلّق بالخروج في الآية (42) ، وعلى هذا فجملة انّا نحن نحيي . . اعتراضيّة .

(3) فصل بين النعت والمنعوت بالجارّ لمعنى الحصر وهو جائز . [. . . . .]

الإعراب :

(ما) حرف مصدريّ " 1 " ، (الواو) عاطفة (ما) نافية عاملة عمل ليس (عليهم) متعلّق بـ (جبّار) وهو مجرور لفظا بـ (الباء) منصوب محلّا خبر ما (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (بالقرآن) متعلّق بـ (ذكّر) ، (وعيد) مفعول به لفعل الخوف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل ياء المتكلّم المحذوفة لمناسبة الفاصلة . .

جملة : " نحن أعلم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يقولون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

والمصدر المؤوّل (ما يقولون . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (أعلم) الذي ليس للتفضيل .

وجملة : " ما أنت عليهم بجبّار " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " ذكّر . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي تنبّه فذكّر .

وجملة : " يخاف " لا محلّ لها صلة الموصول (من) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 26 صـ 299.322 ﴾

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ والعائد محذوف

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(50) سورة ق

مكيّة وآياتها خمس وأربعون

[سورة ق (50) : الآيات 1 إلى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ (2) أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (3) قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ (4)

بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (5) أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَزَيَّنَّاها وَما لَها مِنْ فُرُوجٍ (6) وَالْأَرْضَ مَدَدْناها وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7) تَبْصِرَةً وَذِكْرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (8)

اللغة :

(مَرِيجٍ) مضطرب وأصله من الحركة والاضطراب ومنه مرج الخاتم في إصبعه إذا قلق من الهزال ، وفي المختار : " مرج الأمر والدين اختلط وبابه طرب وأمر مريج مختلط " والمعنى أنهم لا يثبتون على رأي واحد فتارة يقولون : شاعر وتارة ساحر وتارة كاهن .

الإعراب :

)

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) تقدم القول في فواتح السور فجدد به عهدا ، والواو حرف قسم وجر والقرآن مقسم به والمجيد صفة والجواب محذوف يدل عليه ما بعده وتقديره أنك جئتهم منذرا بالبعث فلم يقبلوا بل عجبوا وقيل هو مذكور واختلفوا في تقديره فقيل هو قد علمنا وقيل هو قوله ما يلفظ من قول والأول أولى وأرسخ عرقا في البلاغة ، وقدره أبو البقاء لتبعثنّ أو لترجعنّ على ما دلّ عليه سياق الآيات (بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ) بل حرف عطف وإضراب ، أضرب عن جواب القسم المحذوف لبيان حالتهم الزائدة في الشناعة والقبح ، وعجبوا فعل وفاعل وأن وما في حيزها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض أي من أن جاءهم ومنذر فاعل جاءهم ومنهم صفة لمنذر ، فقال الفاء عاطفة وقال الكافرون فعل وفاعل وهذا مبتدأ وشيء خبر وعجيب صفة والجملة مقول القول (أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُرابًا ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ) الهمزة للاستفهام الإنكاري وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن متضمن معنى الشرط ومتنا فعل وفاعل وجملة متنا في محل جر بإضافة الظرف إليها ، وناصب الظرف مضمر معناه أحين نموت ونبلى نرجع لأن ما بعده دلّ عليه ، وكنّا كان واسمها وترابا خبرها وذلك مبتدأ ورجع خبر وبعيد صفة أي مستبعد مستنكر من قولك هذا كلام بعيد أي بعيد من الوهم والعادة (قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ) كلام مستأنف مسوق للردّ على استبعادهم ما هو قريب من مفهوم المؤمنين الذين شرح اللّه صدورهم ، وقد حرف تحقيق وعلمنا فعل

وفاعل وما موصول مفعول به وجملة تنقص الأرض صلة ومنهم متعلق بتنقص والواو حالية

وعندنا ظرف متعلق بمحذوف خبر مقدّم وكتاب مبتدأ مؤخر وحفيظ صفة والجملة حال

(بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَهُمْ

282

فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ)

(360/723)

بل حرف إضراب وعطف إضراب انتقالي مما هو شنيع إلى ما هو أشنع وأقبح وهو تكذيب النبوّة بعد إنكار البعث ، وكذبوا فعل وفاعل وبالحق متعلقان بكذبوا ولما ظرفية حينية أو رابطة ، فهم الفاء عاطفة وهم مبتدأ وأمر خبر ومريج صفة (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَزَيَّنَّاها وَما لَها مِنْ فُرُوجٍ) الهمزة للاستفهام الإنكاري والفاء عاطفة على محذوف يطيح بكل ما قالوه افتئاتا على الحق وإنكارا له أي أغفلوا وعملوا فلم ينظروا ولم حرف نفي وقلب وجزم وإلى السماء متعلقان بينظروا وكيف اسم استفهام في محل نصب حال وبنيناها فعل وفاعل ومفعول به والجملة بدل من السماء والواو للحال وما نافية ولها خبر مقدّم ومن حرف جر زائد وفروج مجرور لفظا مبتدأ مؤخر محلا ، وفروج : فتوق

وشقوق وصدوع ، وهو جمع فرج (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاها وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ) الواو حرف عطف والأرض عطف على محل إلى السماء وهو النصب على المفعولية ، ولك أن تنصب الأرض بفعل محذوف تقديره ومددنا الأرض وعلى الأول تكون جملة مددناها حالية ، وألقينا عطف على مددنا وفيها متعلقان بألقينا ورواسي مفعول به أي جبالا راسية ثوابت (وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) وأنبتنا عطف على ما تقدم أيضا وفيها متعلقان بأنبتنا ومن كل زوج متعلقان بأنبتنا أيضا وبهيج صفة لزوج (تَبْصِرَةً وَذِكْرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ) تبصرة وذكرى مفعول من أجله وقيل نصب بفعل مقدّر من لفظهما أي على المفعولية المطلقة وقيل حالان من الفاعل أي مبصرين ومذكرين أو حال من المفعول أي ذات تبصرة وذات تذكرة ولكل متعلقان بتبصرة وبذكرى وعبد مضاف إليه ومنيب نعت لعبد .

البلاغة :

1- في قوله : " ق " إلى قوله " عجيب " فن التسجيع أو الإسجاع

(361/723)

و هو بحث طويل أُلّف فيه علماء هذا الفن الكتب المطوّلة ، وهو أن يتوخى المتكلم تسجيع جمل كلامه ، وهو على ضربين : ضرب تأتي فيه الجمل المسجعة مجملة مندمجة في الجمل

المهملة وضرب تأتي فيه الجمل المسجعة منفردة ، ومن الأول قول عبد السلام بن غياث الحمصي المعروف بديك الجن : حر الإهاب وسيمه ، بر الإياب كريمه ، محض النصاب حميمه . وسيأتي ذكر الضرب الثاني في سورة الرحمن .

2- في قوله " المجيد " مجاز بالإسناد لأنه حال المتكلم لأن من علم أحكامه ومراميه ، وامتثل لأوامره ونواهيه مجد .

[سورة ق (50) : الآيات 9 إلى 15]

وَنَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (9) وَالنَّخْلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ (10) رِزْقاً لِلْعِبادِ وَأَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ الْخُرُوجُ (11) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (12) وَعادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوانُ لُوطٍ (13) وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (14) أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (15)

اللغة :

(الْحَصِيدِ) الذي من شأنه يحصد .

(باسِقاتٍ) البسوق : الطول وفي المصباح : " بسقت النخلة بسوقا من باب فقد طالت فهي باسقة والجمع باسقات وبواسق وبسق الرجل :

مهر في عمله " قال الشاعر :

لنا خمر وليست خمر كرم ولكن من نتاج الباسقات

كرام في السماء ذهبن طولا وفات ثمارها أيدي الجناة

ومن قولهم في المعنى الثاني قول ابن نوفل في ابن هبيرة :

يا ابن الذين بمجدهم بسقت على قيس فزاره

(نَضِيدٌ) متراكب بعضه فوق بغض وقد تقدم شرح معنى الطلع في قوله تعالى " ومن طلعها قنوان " .

)

(362/723)

أَفَعَيِينا) من عيي بالأمر إذا لم يهتد لوجه علمه ، وعيي عن حجته يعيا من باب عيا عجز عنه وقد يدغم الماضي فيقال عيّ فالرجل عيّ فالرجل عي وعيي على فعل وفعيل وعيي بالأمر لم يهتد لوجهه وأعياني بالألف أتعبني ، فأعييت يستعمل متعديا ولازما وأعيا في مشيه فهو معي منقوص . وفي المختار : " العيّ ضد البيان وقد عيي في منطقه فهو عي على فعل وعيي يعيا بوزن رضي يرضى فهو عيي على فعيل ويقال أيضا عي وعيي إذا لم يهتد لوجهه والإدغام أكثر وأعياه أمره " .

(لَبْسٍ) شك وخلط وشبهة .

الإعراب :

(وَنَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ) الواو عاطفة ونزلنا فعل وفاعل ومن السماء متعلقان بنزلنا وماء مفعول به ومباركا صفة ، فأنبتنا عطف على نزلنا وبه متعلقان بأنبتنا وجنات مفعول به وحب الحصيد عطف على جنات ، أي وحب النبت المحصود ، وحذف الموصوف (وَالنَّخْلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ) والنخل عطف على جنات وحب الحصيد وباسقات حال مقدّرة لأنها في وقت الإنبات لم تكن طوالا ولها خبر مقدّم وطلع مبتدأ مؤخر ونضيد نعت لطلع والجملة

(363/723)

حال من النخل الباسقات بطريق الترادف أو من الضمير في باسقات على طريق التداخل (رِزْقاً لِلْعِبادِ وَأَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ الْخُرُوجُ) يجوز في رزقا أن يكون مفعولا من أجله أو مفعولا مطلقا على أنه مصدر من معنى أنبتنا أو حالا أي مرزوقا للعباد أو ذا رزق وللعباد صفة لرزقا ومتعلق به على أنه مصدر وأحيينا عطف على فأنبتنا وبه متعلق بأحيينا وبلدة مفعول به وميتا نعت وكذلك خبر مقدم والخروج مبتدأ مؤخر وتقديم الخبر للحصر

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ) كلام مستأنف لبيان حقيقة راهنة عن البعث واتفاق جميع الرسل عليه وقبلهم ظرف متعلق بكذبت وقوم نوح فاعل وما بعده عطف عليه (وَعادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوانُ لُوطٍ) عطف على ما تقدم أيضا (وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ) عطف أيضا وقد مرّت جميعا (كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ) كل مبتدأ والتنوين فيه عوض عن كلمة أي كل رسول من المذكورين وجملة كذب الرسل خبره والفاء عاطفة وحق فعل ماض ووعيد فاعل مضاف لياء المتكلم وأصله وعيدي فحذفت الياء وبقيت الكسرة دليلا عليها (أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ) الهمزة للاستفهام أي لم نع به فلا نعيا بإعادته والفاء عاطفة على محذوف تقديره أقصدنا الخلق فعجزنا عنه حتى يتوهم أحد عجزنا عن إعادته وعيينا فعل وفاعل وبالخلق متعلقان بعيينا فالأول صفة للخلق وبل عطف على مقدّر مستأنف مسوق لبيان شبهتهم وفضح سفسطتهم والتقدير هم غير منكرين لقدرتنا بل هم في خلط وشبهة ، وهم مبتدأ وفي لبس خبر ومن خلق نعت للبس وجديد نعت لخلق .

البلاغة :

التعريف والتنكير في تعريف الخلق الأول وتنكير اللبس والخلق الجديد لأغراض بلاغية معجزة ، فالتعريف تنويه بفخامة ما قصد تعريفه

و تعظيمه ، ومثله تعريف الذكور في قوله تعالى " ويهب لمن يشاء الذكور " والقصد منه جعله دليلا على إمكان الخلق الثاني بطريق الأولى لأنه إذا لم يع تعالى بالخلق على عظمته وانفساحه واستيعابه لما يدهش العقول ويحير الأفكار فالخلق الآخر هو مجرد إعادة أولى أن لا يعبأ به وأن لا يتجاوز مدى القدرة والإمكان فهذا سرّ تعريف الخلق الأول ، وأما التنكير فأمره منقسم ، فمرة يقصد به تفخيم المنكر من حيث ما فيه من الإبهام كأنه أفخم من أن يخاطبه معرفة ، ومرة يقصد به التقليل من المنكر والوضع منه ، ومن الأول قوله تعالى " سلام قولا من رب رحيم " وقوله " لهم مغفرة وأجر عظيم " وقوله " إن المتقين في جنات ونعيم " وهو أكثر من أن يحصى ، والثاني هو الأصل في التنكير فلا يحتاج إلى تمثيله فتنكير اللبس من التعظيم والتفخيم كأنه قال : في لبس أي وتنكير الخلق الجديد للتقليل منه والتهوين لأمره بالنسبة إلى الخلق الأول يحتمل أن يكون للتفخيم وكأنه أمر أعظم من أن يرضى الإنسان بكونه ملتبسا عليه مع أنه أول ما تبصر فيه صحته .

[سورة ق (50) : الآيات 16 إلى 20]

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ (17) ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18) وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذلِكَ

يَوْمُ الْوَعِيدِ (20)

اللغة :

(تُوَسْوِسُ) الوسوسة الصوت الخفي ومنها وسواس الحلي ،

ووسوسة النفس ما يخطر ببال الإنسان ويهجس في ضميره من حديث النفس .

)

حَبْلِ الْوَرِيدِ) قال الزمخشري : " وحبل الوريد مثل في فرط القرب كقولهم هو منّي معقد القابلة ومعقد الإزار وقال ذو الرمّة :

(365/723)

هل أغدونّ في عيشة رغيد والموت أدنى لي من الوريد

أي لا أكون في عيشة واسعة والحال أن الموت أقرب إليّ من الوريد ، والوريدان عرقان في مقدّم صفحتي العنق سمّيا بذلك لأنهما يردان من الرأس أو لأن الروح تردهما وقد تقدم بحث وجه إضافة الحبل إلى الوريد .

(عَتِيدٌ) حاضر ، وفي المصباح " عتد الشيء بالضم عتادا بالفتح حضر فهو عتد بفتحتين وعتيد أيضا ويتعدى بالهمزة والتضعيف فيقال أعتده صاحبه وعتده إذا أعدّه وهيأه ،

وفي التنزيل : وأعتدت لهنّ متكأ " .

الإعراب :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) الواو استئنافية واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وخلقنا الإنسان فعل ماض وفاعل ومفعول به والواو للحال بتقدير نحن وجملة نعلم خبر مبتدأ مقدّر والجملة الاسمية في محل نصب على الحال المقدّرة ولك أن تجعل الواو استئنافية فتكون الجملة مستأنفة وما مفعول به وجملة توسوس صلة ولك أن تجعل ما مصدرية والتقدير ونعلم وسوسة نفسه له وبه متعلقان بتوسوس ونفسه فاعل ، ونحن الواو عاطفة ونحن مبتدأ وأقرب خبر وإليه متعلقان بأقرب ومن حبل الوريد متعلقان بأقرب أيضا (إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ)

(366/723)

إذ يجوز أن يكون ظرفا لأقرب وأن يكون التقدير اذكر وجملة يتلقى في محل جر بإضافة الظرف إليه والمتلقيان فاعل وعن اليمين خبر مقدم والشمال عطف على اليمين وقعيد مبتدأ مؤخر والجملة في محل نصب على الحال من المتلقيان (ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ

عَتِيدٌ) ما نافية ويلفظ فعل مضارع وفاعله ضمير مستتر تقديره هو يعود على الإنسان ومن حرف جر زائد وقول مجرور لفظا منصوب محلا على أنه مفعول يلفظ وإلا أداة حصر ولديه ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر مقدم ورقيب عتيد مبتدأ مؤخر وهو واحد في اللفظ والمعنى رقيبان عتيدان أو ملكان موصوفان بأنهما رقيبان عتيدان وقيل لا حاجة إلى هذا التقدير بل الأولى جعل الوصفين لشيء واحد أي إلا لديه ملك موصوف بأنه رقيب عتيد أي حافظ حاضر (وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ) كلام مستأنف مسوق لبيان ما يلاقونه من الموت والبعث وما يترتب عليهما من الأهوال ، وجاءت سكرة الموت فعل وفاعل وبالحق حال أي حال كونها ملتبسة بالحق فالباء للملابسة وقيل هي للتعدية يعني وأحضرت سكرة الموت حقيقة الأمر الذي أنطق الله به كتبه وبعث به رسله ورجح الزمخشري هذا الوجه ، وذلك مبتدأ وما خبر وكان واسمها ومنه متعلقان بتحيد وجملة تحيد خبر كنت وجملة كنت صلة ما وجملة ذلك ما كنت مقول قول محذوف أي ويقال له في وقت الموت ذلك الأمر الذي رأيته لا الذي كنت منه تحيد في حياتك فلم ينفعك الهرب وما أنجاك الفرار (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ) عطف على وجاءت سكرة الموت ونفخ فعل ماض مبني للمجهول وفي الصور متعلقان بنفخ وذلك مبتدأ ويوم الوعيد خبره والإشارة إلى مصدر نفخ .

[سورة ق (50) : الآيات 21 إلى 30]

وَجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَشَهِيدٌ (21) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22) وَقالَ قَرِينُهُ هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ (23) أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (24) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (25)

الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَأَلْقِياهُ فِي الْعَذابِ الشَّدِيدِ (26) قالَ قَرِينُهُ رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ وَلكِنْ كانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (27) قالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (28) ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَما أَنَا بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (29) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (30)

الإعراب :

(وَجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَشَهِيدٌ) الواو عاطفة وجاءت كل نفس فعل وفاعل ومعها ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر مقدم وسائق مبتدأ مؤخر وشهيد عطف على سائق والجملة الاسمية في محل رفع صفة لكل أو في محل نصب صفة لها أي معها من يسوقها ويشهد عليها ولك أن تجعلها حالية (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) الجملة مقول قول محذوف أي يقال لكل نفس واللام جواب للقسم المحذوف

وقد حرف تحقيق وكان واسمها وفي غفلة خبرها ومن هذا متعلقان بغفلة والفاء حرف عطف وكشفنا فعل وفاعل وعنك متعلقان بكشفنا وغطاءك مفعول به والفاء عاطفة وبصرك مبتدأ واليوم ظرف متعلق بمحذوف حال وحديد خبر بصرك (وَقَالَ قَرِينُهُ هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ) الواو عاطفة وقال قرينه فعل وفاعل والمراد بالقرين

(368/723)

الملك الموكل به أو الشيطان الذي سوّل له الشر وهذا مبتدأ وما يجوز أن تكون نكرة موصوفة وعتيد صفتها ولدي ظرف متعلق بعتيد أي هذا شيء عتيد لدي أي حاضر عندي ويجوز على هذا أن يكون لدي وصفا لما وعتيد صفة ثانية أو خبر لمبتدأ محذوف أي هو عتيد ويجوز أن تكون ما موصولة بمعنى الذي ولدي صلتها وعتيد خبر الموصول والموصول وصلته خبر اسم الإشارة ويجوز أن تكون ما بدلا من هذا موصولة أو موصوفة بلدي وعتيد خبر هذا ، وجوّز الزمخشري في عتيد أن يكون بدلا أو خبرا بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف وفيما يلي نص إعراب الزمخشري قال : " فإن قلت : كيف إعراب هذا الكلام ؟ قلت : إن جعلت ما موصوفة فعتيد صفة لها وإن جعلتها موصولة فهو بدل أو خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف " . وقال أبو البقاء : " قوله تعالى : هذا مبتدأ وفي ما

وجهان أحدهما هي نكرة وعتيد صفتها ولدي معمول عتيد ويجوز أن يكون لدي صفة أيضا فيتعلق بمحذوف وما وصفتها خبر هذا والوجه الثاني أن تكون ما بمعنى الذي فعلى هذا تكون ما مبتدأ ولدي صلة وعتيد خبر ما والجملة خبر هذا ويجوز أن تكون ما بدلا من هذا ويجوز أن يكون عتيد خبر مبتدأ محذوف ويكون ما لدي خبرا عن هذا أي هو عتيد ولو جاء ذلك في غير القرآن لجاز نصبه على الحال " .

(أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ) الجملة مقول قول محذوف أي يقال ألقيا ، وألقيا فعل أمر مبني على حذف النون لاتصاله بألف الاثنين ، قيل خاطب الملكين السائق والشهيد وقيل هو خطاب للواحد وأخرج الكلام مخرج الخطاب مع الاثنين لأن العرب من عادتهم إجراء خطاب الاثنين على الواحد والجمع فمن ذلك قول امرئ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وقول الآخر :

فإن تزجراني يا ابن عفان أنزجر وإن ترعياني أحم عرضا ممنعا

(369/723)

خاطب الواحد خطاب الاثنين وإنما فعلت العرب ذلك لأن الرجل يكون أدنى أعوانه اثنين : راعي إبله وراعي غنمه ، وكذلك الرفقة أدنى ما تكون ثلاثة فجرى خطاب الاثنين على الواحد لمرور ألسنتهم عليه ويجوز أن يكون المراد به ألق ألق وقف قف فإلحاق الألف أمارة دالّة على أن المراد تكرير اللفظ كما قال أبو عثمان المازني في قوله تعالى :

رب ارجعون ، والمراد منه أرجعني أرجعني أرجعني فجعلت الواو علما مشعرا بأن المعنى تكرير اللفظ مرارا وقيل أراد ألقين وأراد امرؤ القيس فقن على جهة التأكيد فقلب النون ألفا في حال الوصل لأن هذه النون تقلب أيضا في حال الوقف فحمل الوصل على الوقف ، ألا ترى أنك لو وقفت على قوله تعالى " لنسفعن " قلت : لنسفعا ومنه قول الأعشى :

وصلّ على حين العشيات والضحى ولا تحمد الشيطان واللّه فاحمدا

أراد فاحمدن فقلب نون التوكيد ألفا . وفي جهنم متعلقان بألقيا وكلّ كفّار مفعول به وعنيد صفة لكفّار (مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ) صفات متتابعة (الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ) الذي يجوز أن يكون بدلا من كل فيكون في محل نصب أو بدلا من كفّار فيكون في محل جر وأن يكون منصوبا على الذم وأن يكون مبتدأ فيكون في محل رفع وجملة جعل صلة ومع اللّه ظرف متعلق بمحذوف مفعول به ثان وإلها آخر مفعول به أول والفاء رابطة لشبه الموصول بالشرط في العموم ، وألقياه فعل أمر وفاعل ومفعول به والجملة خبر الذي إذا جعلت خبرا والأول أرجح وفي العذاب متعلقان بألقياه والشديد نعت للعذاب

(قالَ قَرِينُهُ رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ وَلكِنْ كانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ) قال قرينه فعل وفاعل وربنا منادى مضاف وما نافية وأطغيته فعل وفاعل ومفعول به ولكن حرف استدراك مهمل لأنه خفّف وكان فعل ماض ناقص واسمها

(370/723)

مستتر تقديره هو وفي ضلال متعلقان بمحذوف خبر كان وبعيد صفة لضلال وجملة قال قرينه مستأنفة ولذلك جاءت بلا واو ، قال الزمخشري : " فإن قلت لم أخليت هذه الجملة عن الواو وأدخلت على الأولى قلت لأنها استؤنفت كما تستأنف الجمل الواقعة في حكاية التقاول كما رأيت في حكاية المقاولة بين موسى وفرعون فإن قلت : فأين التقاول ها هنا ؟

(371/723)

قلت : لما قال قرينه هذا ما لديّ عتيد ، وتبعه قوله : قال ربنا ما أطغيته ، وتلاه : لا تختصموا لديّ ، علم أن ثم مقاولة من الكافر لكنها طرحت لما يدل عليها كأنه قال رب هو أطغاني فقال قرينه ربنا ما أطغيته ، وأما الجملة الأولى فواجب عطفها للدلالة على الجمع

بين معناها ومعنى ما قبلها في الحصول أعني مجيء كل نفس مع الملكين وقول قرينه ما قال له "

(قالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ) لا ناهية وتختصموا فعل مضارع مجزوم

والجملة مقول القول ولدي ظرف متعلق بتختصموا والواو للحال وقد حرف تحقيق

وقدمت فعل وفاعل وإليكم متعلقان بقدمت والباء في بالوعيد مزيدة مثلها في ولا تلقوا

بأيديكم إلى التهلكة أو معدية ، على أن قدم مطاوع بمعنى تقدم ويجوز أن يقع الفعل على

جملة قوله ما يبدل القول لدي وما أنا بظلّام للعبيد ويكون بالوعيد حالا أي قدمت إليكم

هذا ملتبسا بالوعيد مقترنا به أو قدمته إليكم موعدا لكم به (ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَما أَنَا

بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) ما نافية ويبدل فعل مضارع مبني للمجهول والقول نائب فاعل ولدي ظرف

متعلق بيبدل والواو حرف عطف وما نافية حجازية وأنا اسمها والباء حرف جر زائد

وظلّام مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ما وللعبيد متعلقان بظلّام (يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ

امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ) يوم لك في ناصبه وجهان : أن تجعله منصوبا باذكر مقدّرا أو

تعلقه بظلام لأنه إذا لم يظلم في هذا اليوم فنفى الظلم عنه في غيره أولى وجملة نقول لجهنم في

محل جر بإضافة الظرف إليه وجملة هل

امتلأت مقول القول وتقول عطف على نقول وهل حرف استفهام ومن حرف جر زائد

ومزيد مجرور لفظا مرفوع على الابتداء محلا وخبره محذوف تقديره موجود .

البلاغة :

1- في قوله " فكشفنا عنك غطاءك " كناية عن الغفلة كأنها غطّت جميعه أو عينيه فهو لا يبصر ، فإذا كانت القيامة زالت عنه الغفلة فتكشفت له الحقائق وانجلى عنه الرين الذي كان مسدولا أمامه فأبصر ما لم يكن يبصره في حياته ، ويجوز أن يكون الغطاء استعارة تصريحية جعلت الغفلة كأنها غطاء غطى به جسده كله أو غشاوة غطى بها عينيه فهو لا يبصر شيئا .

2- الاستعارة المكنية : يجوز حمل قوله تعالى " يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد " على الاستعارة المكنية التخييلية ، وعلى هذا درج المعتزلة ومن قال بقولهم من أهل السنّة ، قال الزمخشري : " وسؤال جهنم وجوابها من باب التخييل الذي يقصد به تصوير المعنى في القلب وتثبيته ، وفيه معنيان أحدهما أنها تمتلئ مع اتساعها وتباعد أطرافها حتى لا يسعها شيء ولا يزاد على امتلائها لقوله تعالى : لأملأنّ جهنم ، والثاني أنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها موضع للمزيد ، ويجوز أن يكون هل من مزيد استكثارا للداخلين فيها أو طلبا للزيادة غيظا على العصاة والمزيد إما مصدر كالمحيد والمحيد وإما اسم مفعول كالمبيع " ويجوز حمله على الحقيقة ، وقد جرى جمهور أهل السنّة

على الحقيقة وأنكروا على الزمخشري وغيره إطلاق التخييل وقالوا هو منكر لفظا ومعنى .

أما لفظا فلأنه من الألفاظ الموهمة في حق جلال اللّه تعالى وإن كانت معانيها صحيحة وأيّ إيهام

أشد من إيهام لفظ التخييل ، ألا ترى كيف استعمله اللّه فيما أخبر أنه سحر وباطل في قوله يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى فلا يشك في وجوب اجتنابه ، وأما المعنى فلأن أهل السنّة يعتقدون أن سؤال جهنم وجوابها حقيقة وأن اللّه تعالى يخلق فيها الإدراك بذلك بشرطه . هذا وقد تعلق الشعراء بأهداب هذه البلاغة العالية وكان أول من رمق سماءها الفرزدق إذ قال في زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب في قصيدته التي أولها :

(373/723)

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحلّ والحرم

فقال :

يكاد يمسكه عرفان راحته ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم

وتبعه أبو تمام :

لو يعلم الركن من قد جاء يلثمه لخرّ يلثم منه موطئ القدم

وأخذه البحتري وأجاد :

فلو أن مشتاقا تكلف فوق ما في سعة لسعى إليك المنبر

ونهج المتنبي هذا النهج بقوله :

لو تعقل الشجر التي قابلتها مدّت محيّية إليك الأغصنا

أما في الجاهلية فقد ورد هذا المعنى في قول عنترة واصفا فرسه من معلقته :

فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إليّ بعبرة وتحمحم

هذا ولا يفوتنّك ما في هذه الاستعارة من جمال التخييل الحسّي والتجسيم لجهنم المتغيظة

والنهمة التي لا تشبع وقد تهافت عليها أولئك

الذين كانوا يصمّون في دنياهم آذانهم عن الدعوة إلى الهدى ، ويصرّون على غيّهم ولجاجهم

وها هم الآن يستجيبون لدعوتها مرغمين .

[سورة ق (50) : الآيات 31 إلى 37]

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (31) هذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (32) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (33) ادْخُلُوها بِسَلامٍ ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (34) لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَلَدَيْنا مَزِيدٌ (35)

وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (36) إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (37)

اللغة :

(وَأُزْلِفَتِ) وقربت تقول أزلفه : قربه وأزلف الأشياء : جمعها وأزلف الدليل القوم : حملهم على التقدم ، وأزعجهم مزلفة بعد مزلفة أي مرحلة بعد مرحلة .

)

(374/723)

مَحِيصٍ) : معدل وفي القاموس : " حاص عنه يحيص حيصا وحيصة وحيوصا ومحيصا ومحاصا وحيصانا عدل وحاد كانحاص أو يقال للأولياء حاصوا وللأعداء انهزموا والمحيص المحيد والمعدل والمميل والمهرب ودابة حيوص نفور والحيصاء الضيقة الحياء " وقال في مادة بيص " ووقع في حيص بيص وحيص بيص وحيص بيص وحيص بيص بفتح أولهما وآخرهما وبكسرهما وبفتح أولهما وكسر آخرهما وقد يجريان في الثانية وفي حاص باص أي اختلاط لا محيص عنه وجعلتم الأرض عليه حيص بيص وحيصا بيصا ضيقتم عليه حتى لا يتصرف فيها " وحيص بيص لقب الشاعر التميمي شهاب الدين ، وحيصة بيصة لفظتان رويتا عنه في وصفه زحمة الناس فتغلبتا على اسمه ولقب بهما ، له شعر في الوصف والهجاء والمديح ، لغته عربية قحة ، توفي في

بغداد سنة 1179 م.

الإعراب :

)

(375/723)

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ) الواو حرف عطف وأزلفت فعل ماض مبني للمجهول والجنة نائب فاعل وللمتقين متعلقان بأزلفت وغير بعيد منصوب على الظرفية لقيامه مقام الظرف لأنه صفته أي مكانا غير بعيد ، وأجاز الزمخشري نصبه على الحال قال : " وتذكيره لأنه على زنة المصدر كالزئير والصليل والمصادر يستوي في الوصف بها المذكر والمؤنث أو على حذف الموصوف أي شيئا غير بعيد " (هذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ) هذا مبتدأ وما خبره وجملة توعدون صلة ولكل جار ومجرور بدل من قوله للمتقين بتكرير الجار وجملة هذا ما توعدون اعتراضية فصل بها بين البدل والمبدل منه (مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ) من بدل من كل بعد كون كل بدلا من المتقين إلا أنه بدل من المتقين أيضا لأن تكرر البدل مع كون المبدل منه واحدا لا يجوز ، ويجوز أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف أي هم من خشي أو مبتدأ خبره جملة ادخلوها بسلام كما سيأتي لأن من في

معنى الجمع ، وأجاز الزمخشري أن يكون منادى كقولهم من لا يزال محسنا أحسن إليّ ، وحذف حرف النداء للتقريب وجملة خشي الرحمن صلة وبالغيب حال من المفعول به أي خشيه وهو غائب لا يعرفه (ادْخُلُوها بِسَلامٍ ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ) الجملة مقول قول محذوف كما تقدم وادخلوها فعل وفاعل

(376/723)

و مفعول به وبسلام حال من الفاعل أي سالمين من كل مخوفة فهي حال مقارنة وذلك مبتدأ ويوم الخلود خبر (لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَلَدَيْنا مَزِيدٌ) لهم خبر مقدم ما ومبتدأ مؤخر وجملة يشاءون صلة وفيها حال من الموصول أو متعلق بيشاءون ولدينا ظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم ومزيد مبتدأ مؤخر (وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ) الواو استئنافية والكلام مستأنف مسوق لذكر إهلاك قرون ماضية وكم خبرية منصوبة بما بعدها على المفعولية وأهلكنا فعل وفاعل وقبلهم ظرف متعلق بمحذوف حال ومن قرن تمييز كم الخبرية وهم مبتدأ وأشد خبر والجملة صفة لكم أو لتمييزها ومنهم متعلقان بأشد وبطشا تمييز ، فنقبوا الفاء عاطفة ونقبوا فعل وفاعل والعطف على المعنى كأنه اشتد بطشهم فنقبوا وفي البلاد متعلقان بنقبوا ، وهل حرف

استفهام ومن حرف جر زائد ومحيص مجرور لفظا مرفوع على الابتداء محلا والخبر محذوف تقديره لهم أو لغيرهم وجملة هل من محيص مقول قول محذوف وجملة القول حالية من واو نقبوا أي فنقبوا في البلاد قائلين هل من محيص (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) إن حرف مشبّه بالفعل وفي ذلك خبر إن المقدّم واللام المزحلقة للتأكيد وذكرى اسم إن ولمن متعلقان بمحذوف صفة لذكرى وجملة كان صلة وله خبر كان المقدم وقلب اسمها المؤخر وأو حرف عطف وألقى السمع فعل وفاعل مستتر ومفعول به والواو حالية وهو مبتدأ وشهيد خبر .

البلاغة :

في قوله تعالى " لمن خشي الرحمن بالغيب " إذ كيف تقترن الخشية باسم الرحمن الدّال على سعة الرحمة والجواب أن في ذلك

مبالغة في الثناء على الخاشي لأنه إذا خشيه وهو عالم بسعة رحمته فناهيك بخشيته التي ما بعدها خشية ، كما أثنى عليه بالخشية مع أن المخشي منه غائب .

(377/723)

[سورة ق (50) : الآيات 38 إلى 45]

وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ (38) فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (39) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبارَ السُّجُودِ (40) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ (41) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (42)

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (43) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِراعاً ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ (44) نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ (45)

اللغة :

(لُغُوبٍ) تعب وفي المختار " اللغوب بضمتين التعب والإعياء وبابه دخل ، ولغب بالكسر لغوبا لغة ضعيفة " وفي المصباح أنه من باب قتل وفي القاموس : أنه من باب منع وكرم أيضا .

(أَدْبارَ) بفتح الهمزة جمع دبر بضمتين وقرئ بكسر الهمزة على أنه مصدر قام مقام ظرف الزمان ، وقد قرأها نافع وابن كثير وحمزة ، وقال جماعة من الصحابة والتابعين : إدبار السجود الركعتان بعد المغرب وإدبار النجوم الركعتان قبل الفجر .

الإعراب :

(

وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ) الواو استئنافية والكلام مستأنف مسوق للردّ على اليهود الذين قالوا إن اللّه خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استراح واستلقى على العرش يوم السبت فلذلك تركوا العمل فيه . واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وخلقنا فعل وفاعل والسموات مفعول به والأرض عطف على السموات وفي ستة أيام متعلقان بخلقنا والواو عاطفة أو حالية وما نافية ومسّنا فعل ماض ونا مفعول به ومن حرف جر زائد ولغوب مجرور لفظا مرفوع محلا لأنه فاعل (فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ) الفاء الفصيحة واصبر فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وعلى ما يقولون متعلقان باصبر وسبّح فعل أمر وبحمد ربك حال من فاعل سبّح أي صلّ حامدا وقبل طلوع الشمس ظرف متعلق بسبّح وقبل الغروب عطف على الظرف (وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبارَ السُّجُودِ) الواو عاطفة ومن الليل متعلق بسبّح والفاء عاطفة وسبّحه فعل أمر وفاعل مستتر والهاء مفعول به وأدبار السجود ظرف (وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ) عطف على ما تقدم واستمع فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت ومفعوله محذوف أي

واستمع نداء المنادي والظرف متعلق باستمع وقيل تقدير المفعول ما أقول لك فعلى هذا يكون يوم منصوبا بيخرجون مقدّرا مدلولا عليه بقوله ذلك يوم الخروج وحذفت ياء ينادي اتباعا للرسم والمناد فاعل وحذفت الياء في بعض القراءات للرسم أيضا ومن مكان متعلقان بينادي وقريب نعت والمنادي هو إسرافيل وقيل هو جبريل والنافخ إسرافيل ورجحه الشهاب الخفاجي (يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذِلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ) الظرف بدل من الظرف الأول وجملة يسمعون في محل جر

(379/723)

بإضافة إذا إليها والصيحة مفعول به وبالحق حال من الواو في يسمعون أو من الصيحة وذلك مبتدأ ويوم الخروج خبر (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ) إن واسمها ونحن ضمير فصل أو مبتدأ وجملة نحيي خبر إنا أو خبر نحن والجملة خبر إن وإلينا خبر مقدم والمصير مبتدأ مؤخر (يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذِلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ) الظرف بدل مما قبله ومنعه بعضهم لتعدده وعلّقه بالمصير وجملة تشقق في محل جر بإضافة الظرف إليها وأصل تشقق تتشقق وقرئ بتشديد الشين بإدغام التاء الثانية فيها والأرض فاعل وعنهم متعلقان بتشقق وسراعا حال من الضمير في عنهم وذلك مبتدأ وحشر خبر وعلينا متعلق بيسير ويسير

خبر ذلك (نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ) نحن مبتدأ وأعلم خبر وبما متعلقان بأعلم وما موصولة أو مصدرية والواو حرف عطف وما نافية حجازية وأنت اسمها وعليهم متعلقان بجبار والباء حرف جر زائد وجبار مجرور بالباء لفظا منصوب محلا على أنه خبر ما (فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ) الفاء الفصيحة وذكر فعل أمر وبالقرآن متعلقان بذكر ومن مفعول به وجملة يخاف صلة ووعيد مفعول يخاف وحذفت ياء المتكلم اتباعا للرسم. انتهى انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 9 صـ 280. 300﴾

(380/723)

AL-HAWI FE AL-TAFSEER

Sheikh Abdul Rahman Bin Mohammed AL-QAMMASH

36